



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

العلماء



عمر
عليه السلام

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

آية الله العظمى تكاثر السيوف

تكملة الأمل

شرح مختصر في معنى الأمل

مؤلف: محمد بن عبد الله
مترجم: محمد بن عبد الله

الجزء: ١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه

كاتب:

ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٤٤	نفحات الولاية
١٤٤	اشارة
١٤٤	الجزء الأول
١٤٤	الدافع الرئيسى لتأليف هذا الكتاب
١٤٦	السيد الرضى جامع نهج البلاغة
١٤٧	اشارة
١٤٧	أساتذة السيد الرضى
١٤٨	تلامذة السيد الرضى
١٤٨	كتب ومؤلفات السيد الرضى
١٤٨	السيد الرضى والشعر
١٤٨	القابه ومناصبه
١٤٩	وفاء السيد الرضى
١٤٩	كلام بشأن نهج البلاغة وصاحبه
١٤٩	اشارة
١٥٠	١- فصاحة النهج وبلاغته
١٥٢	٢- المضامين الرصينة الشاملة لنهج البلاغة
١٥٢	اشارة
١٥٣	مصدق لقوله تعالى: «اوتوا الكتاب» «فصل الخطاب»[٢٢].
١٥٤	٣- جاذبة نهج البلاغة الخارقة
١٥٤	اشارة
١٥٥	أقوال العظماء بشأن جاذبية نهج البلاغة
١٥٦	أسناد نهج البلاغة

- ١٥٨ شروح نهج البلاغة
- ١٥٩ مقدمه السيد الشريف الرضى رحمه الله
- ١٥٩ لماذا جمعت نهج البلاغة
- ١٦١ الخطبة الاولى
- ١٦١ اشارة
- ١٦١ نظرة إلى الخطبة
- ١٦١ القسم الأول: بعد العقول عن معرفة الذات الإلهية!
- ١٦٥ القسم الثانى: توحيد الذات والصفات
- ١٦٩ القسم الثالث: ليس كمثل شىء
- ١٦٩ اشارة
- ١٧٢ تأملات
- ١٧٢ اشارة
- ١٧٢ ١- علاقة الخلق بالخالق ومسألة «وحدة الوجود»!
- ١٧٣ ٢- انحراف الجهال عن حقيقة صفات الله
- ١٧٥ ٣- نفي الحدوث الذاتى والزمانى للذات القدسية
- ١٧٦ ٤- هل يصح اطلاق لفظ «الموجود» على الله؟
- ١٧٦ القسم الرابع: تصدر الكلام بشأن خلق العالم
- ١٧٦ اشارة
- ١٧٨ الهداية الفطرية والتكوينية لكافة موجودات العالم
- ١٧٩ تأملان
- ١٧٩ ١- هل يصطلح بالعارف على الله؟
- ١٧٩ ٢- كيفية علم الله بالموجودات قبل ايجادها
- ١٨١ القسم الخامس: كيفية بداية خلقه العالم
- ١٨١ اشارة

- ١٨١ تأمل: هل العالم المادى حادث؟
- ١٨٢ القسم السادس: الماء كان أول مخلوق
- ١٨٤ القسم السابع: دور العواصف فى انبثاق الخلقه
- ١٨٤ اشارة
- ١٨٦ تأملات
- ١٨٦ ١- دراسة العبارة على ضوء الفرضيات المعاصرة
- ١٨٧ ٢- كيفية ظهور العالم
- ١٨٧ ٣- الفرضيات السائدة بشأن العالم أبان نزول القرآن
- ١٨٨ ٤- ما المراد بالسّموات السبع؟
- ١٨٩ ٥- كيفية علم الإمام عليه السلام بهذه الامور
- ١٩٠ القسم الثامن: عالم الملائكة
- ١٩٠ اشارة
- ١٩٣ تأملات
- ١٩٣ ١- ماهية الملائكة!
- ١٩٤ ٢- أصناف الملائكة
- ١٩٤ ٣- العرش وحملته
- ١٩٦ ٤- عصمة الملائكة
- ١٩٦ ٥- مقام معرفة حملة العرش
- ١٩٦ القسم التاسع: خلق آدم عليه السلام
- ١٩٦ اشارة
- ١٩٧ مراحل خلقه آدم عليه السلام من الناحية الجسمية والروحية
- ٢٠٠ تأملات
- ٢٠٠ ١- خلق آدم عليه السلام
- ٢٠١ ٢- التركيب المزدوج للجسم والروح

- ٢٠٢ ٣- الإنسان، اعجوبة عالم الكون
- ٢٠٢ القسم العاشر: بداية انحراف ابليس
- ٢٠٢ اشارة
- ٢٠٤ تأملات
- ٢٠٤ ١- عظمة مقام الإنسان
- ٢٠٤ ٢- كيف كان السجود لآدم؟
- ٢٠٥ ٣- أسئلة واستفسارات بشأن خلق الشيطان
- ٢٠٦ ٤- تبريرات جوفاء
- ٢٠٧ القسم الحادى عشر: عاقبة آدم
- ٢٠٧ اشارة
- ٢٠٩ تأملات
- ٢٠٩ ١- ما كانت جنّة آدم؟
- ٢١٠ ٢- هل اقترف آدم معصية؟
- ٢١١ ٣- ماحقيقة الشجرة المحظورة؟
- ٢١١ ٤- الكلمات التى تاب الله بها على آدم عليه السلام.
- ٢١٢ القسم الثانى عشر: بعثة الأنبياء وعظم مسؤوليتهم
- ٢١٢ اشارة
- ٢١٥ تأملات
- ٢١٥ ١- الأنبياء بمتابئة المزارعين
- ٢١٥ ٢- حوادث الاعتبار واليقظة
- ٢١٦ ٣- دور الدين فى الحياة
- ٢١٦ ٤- لا تخلو الأرض من حجة
- ٢١٧ ٥- مميزات الأنبياء
- ٢١٧ القسم الثالث عشر: بزوغ شمس الإسلام

- ٢١٨ اشارة
- ٢١٩ تأملان
- ٢١٩ ١- الأديان قبل البعثة النبوية
- ٢٢١ ٢- آفاق الأنبياء المستقبلية
- ٢٢١ القسم الرابع عشر: خصائص القرآن
- ٢٢١ اشارة
- ٢٢٤ تأملات
- ٢٢٤ ١- شمولية القرآن
- ٢٢٥ ٢- من عنده علم الكتاب؟
- ٢٢٥ ٣- معيار التمييز بين الكبائر والصغائر
- ٢٢٤ ٤- الناسخ والمنسوخ وفلسفتها
- ٢٢٤ ٥- تاريخ الامم الماضية والأمثال القرآنية
- ٢٢٧ القسم الخامس عشر: أهمية فريضة الحج
- ٢٢٧ اشارة
- ٢٢٩ تأملان
- ٢٢٩ اشارة
- ٢٢٩ ١- نبذة تاريخية عن الكعبة
- ٢٣٠ ٢- فلسفة الحج
- ٢٣١ الخطبة الثانية
- ٢٣٢ اشارة
- ٢٣٢ القسم الأول
- ٢٣٢ اشارة
- ٢٣٢ نظرة إلى الخطبة
- ٢٣٢ ظروف وملابسات الخطبة

- ٢٣٣ الركنان الأساسيان فى الإسلام
- ٢٣٦ تأملان
- ٢٣٦ ١- التوحيد ركيزة الصالحات
- ٢٣٧ ٢- التوحيد الخالص الذى طبع حياة أميرالمؤمنين عليه السلام
- ٢٣٧ القسم الثانى: العصر الجاهلى
- ٢٣٧ اشارة
- ٢٤١ صورة الحياة الميتة فى العصر الجاهلى
- ٢٤٣ القسم الثالث: المنزلة السامية لآل محمد صلى الله عليه و آله
- ٢٤٣ اشارة
- ٢٤٤ تأملان
- ٢٤٤ ١- آل النبى صلى الله عليه و آله كهف الامة الإسلامية
- ٢٤٥ ٢- من هم آل النبى صلى الله عليه و آله؟
- ٢٤٥ القسم الرابع: لا يقاس بأل محمد أحد من الناس
- ٢٤٥ اشارة
- ٢٤٨ تأملان
- ٢٤٨ ١- مكانة أهل البيت فى القرآن والرويات
- ٢٤٩ ٢- تبريرات واهية
- ٢٥٠ الخطبة الثالثة
- ٢٥٠ اشارة
- ٢٥٠ القسم الأول
- ٢٥٠ اشارة
- ٢٥٠ نظرة إلى الخطبة
- ٢٥١ مضمون الخطبة
- ٢٥٢ تحليل مهم لمسألة الخلافة

٢٥٥ تأملات

٢٥٥ ١- لم أئر الإمام عليه السلام الصبر؟

٢٥٥ ٢- لماذا التعبير بالتراث عن الخلافة؟

٢٥٦ ٣- الإمام عليه السلام جليس البيت

٢٥٦ ٤- لماذا تعرض الإمام عليه السلام لقضية الخلافة؟

٢٥٧ القسم الثاني: عصر الخليفة الثاني

٢٥٧ إشارة

٢٥٩ إجابة على إستفسار

٢٦١ تأملات

٢٦٢ ١- نماذج الفضاضة الأخلاقية على عهد الخليفة الثاني

٢٦٢ ٢- العثار والاعتذار

٢٦٣ ٣- رد على سوال

٢٦٤ القسم الثالث: عصر الخليفة الثالث

٢٦٤ إشارة

٢٦٧ تأملات

٢٦٧ ١- كيفية انتخاب خليفة الثاني والثالث

٢٦٧ ٢- الشورى وحكومة عثمان

٢٦٩ ٣- أسباب الخروج على عثمان

٢٧١ ٤- هل سار جميع الصحابة على نهج النبي صلى الله عليه و آله

٢٧٢ القسم الرابع

٢٧٢ إشارة

٢٧٤ تأملات

٢٧٤ ١- البيعة الشعبية لأمير المؤمنين عليه السلام

٢٧٥ ٢- مصدر الانحرافات الاجتماعية

- ٢٧٦ ٣- المعارك الثالث على عهد الإمام على عليه السلام
- ٢٧٨ القسم الخامس: قبول البيعة والخلافة
- ٢٧٨ اشارة
- ٢٨٠ تأملات
- ٢٨٠ ١- الرد على سؤال
- ٢٨٠ ٢- المسائل التي تضمنها الكتاب
- ٢٨١ ٣- مميزات الخطبة الشقشقية
- ٢٨٢ الخطبة الرابعة
- ٢٨٢ اشارة
- ٢٨٢ نظرة إلى الخطبة
- ٢٨٣ القسم الأول: التحلى بالوعى واليقظة
- ٢٨٣ اشارة
- ٢٨٤ ملاحظة
- ٢٨٤ الهداية فى ظل أهل البيت عليهم السلام
- ٢٨٤ القسم الثانى: كنت أتوقع غدركم، ولكن ...
- ٢٨٤ اشارة
- ٢٨٤ تأملان
- ٢٨٤ ١- البصيرة
- ٢٨٤ ٢- ستر عيوب الناس
- ٢٨٧ القسم الثالث: اليوم أكشف الحجاب
- ٢٨٧ اشارة
- ٢٨٨ الصراع بين الحق والباطل
- ٢٨٨ الخطبة الخامسة
- ٢٨٨ اشارة

- ٢٨٨ نظرة إلى الخطبة
- ٢٨٩ القسم الأول: احذروا مشيرى الفتن
- ٢٨٩ اشارة
- ٢٩١ سكوت الإمام عليه السلام بعد النبى صلى الله عليه و آله
- ٢٩١ القسم الثانى: ترى ما العمل مع المتربصين؟! ..
- ٢٩١ اشارة
- ٢٩٢ تأملات
- ٢٩٢ ١- سوابق الإمام عليه السلام
- ٢٩٣ ٢- لم أخاف الموت؟! ..
- ٢٩٣ ٣- لم السكوت؟ ..
- ٢٩٤ الخطبة السادسة
- ٢٩٤ اشارة
- ٢٩٤ نظرة إلى الخطبة
- ٢٩٤ الحيطه والحذر تجاه الأعداء
- ٢٩٥ تأمل: رساله إلى جميع المسؤولين ..
- ٢٩٦ الخطبة السابعة
- ٢٩٦ اشارة
- ٢٩٦ أتباع الشيطان ..
- ٢٩٨ تأمل: خطط الشياطين ..
- ٢٩٩ الخطبة الثامنة
- ٢٩٩ اشارة
- ٢٩٩ نظرة إلى الخطبة
- ٢٩٩ عذر أفتح من ذنب ..
- ٣٠٠ الخطبة التاسعة

- ٣٠٠ اشارة
- ٣٠٠ ضجة فارغة
- ٣٠١ تأملان
- ٣٠١ ١- رجل العمل
- ٣٠١ ٢- الفارق بين الدعاية والاعلام الفعال
- ٣٠٢ الخطبة العاشرة
- ٣٠٢ اشارة
- ٣٠٢ نظرة إلى الخطبة
- ٣٠٢ تحذير المسلمين ثانية
- ٣٠٤ تأمل: جند الشيطان
- ٣٠٥ الخطبة الحادية عشر
- ٣٠٥ اشارة
- ٣٠٥ نظرة إلى الخطبة
- ٣٠٥ كن كالجبل
- ٣٠٧ تأملان
- ٣٠٧ ١- محمد بن الحنفية ونسبه وبعض أخباره
- ٣٠٧ ٢- الشرط المهم فى النصر على الأعداء
- ٣٠٨ الخطبة الثانية عشرة
- ٣٠٨ اشارة
- ٣٠٨ نظرة إلى الخطبة
- ٣٠٩ للحممة العقائدية
- ٣٠٩ تأمل: الرابطة الحق
- ٣١٠ الخطبة الثالثة عشرة
- ٣١٠ اشارة

- ٣١٠ نظرة إلى الخطبة
- ٣١١ خصائص أهل الجمل
- ٣١٣ تأملات
- ٣١٣ ١- نبوءة النبي صلى الله عليه و آله بشأن موقعة الجمل
- ٣١٤ ٢- ذم أهل البصرة
- ٣١٤ ٣- المحيط والاخلاق
- ٣١٥ الخطبة الرابعة عشرة
- ٣١٥ اشارة
- ٣١٥ نظرة إلى الخطبة
- ٣١٥ ذم أهل البصرة ثانية
- ٣١٦ الخطبة الخامسة عشرة
- ٣١٦ اشارة
- ٣١٦ نظرة إلى الخطبة
- ٣١٧ القسم على إعادة الأموال المغصوبة
- ٣١٨ تأملات
- ٣١٨ ١- معطيات العدالة في المجتمعات البشرية
- ٣١٩ ٢- اسراف عثمان
- ٣١٩ ٣- الإجابة عن سؤال مهم
- ٣٢٠ الخطبة السادسة عشرة
- ٣٢٠ اشارة
- ٣٢٠ القسم الأول
- ٣٢٠ اشارة
- ٣٢٠ نظرة إلى الخطبة
- ٣٢١ اليقظة والوعى في الامتحان

- ٣٢٢ تأملان
- ٣٢٢ ١- التأريخ يعيد نفسه
- ٣٢٣ ٢- بيان الحقيقة أم رعاية المصلحة
- ٣٢٣ القسم الثاني: الذنوب شماس كالخيل
- ٣٢٤ القسم الثالث: سبيل النجاة
- ٣٢٤ اشارة
- ٣٢٩ تأملان
- ٣٢٩ ١- الجاهل من جهل قدر نفسه
- ٣٣٠ ٢- الاعتدال هو الصراط المستقيم
- ٣٣٠ الخطبة السابعة عشرة
- ٣٣٠ اشارة
- ٣٣١ القسم الأول
- ٣٣١ اشارة
- ٣٣١ نظرة إلى الخطبة
- ٣٣١ أبغض الخلائق
- ٣٣٣ تأملان
- ٣٣٣ ١- ما البدعة ومن المبتدع؟
- ٣٣٤ ٢- أخطر الذنوب، حمل ذنوب الآخرين
- ٣٣٥ القسم الثاني: الجاهل المتشبه بالعالم
- ٣٣٥ اشارة
- ٣٤٠ تأملات
- ٣٤٠ ١- آفات علماء السوء
- ٣٤٠ ٢- علم كخيطة العنكبوت
- ٣٤١ ٣- اطراء المتملقين

- ٣٤١ القسم الثالث
- ٣٤١ اشارة
- ٣٤٢ التفسير بالرأى وقلب الحقائق
- ٣٤٣ الخطبة الثامنة عشرة
- ٣٤٣ اشارة
- ٣٤٣ القسم الأول
- ٣٤٣ اشارة
- ٣٤٣ نظرة إلى الخطبة
- ٣٤٤ ما علة كل هذا الاختلاف؟
- ٣٤٥ تأملات
- ٣٤٥ ١- مسألة التصويب ونشأتها
- ٣٤٨ ٢- نتائج القول بالتصويب وعلق باب الاجتهاد
- ٣٤٨ ٣- الهرج والمرج الفقهي والقضائي
- ٣٤٩ القسم الثاني: الاختلافات غير المبررة
- ٣٤٩ اشارة
- ٣٥١ شمولية القرآن
- ٣٥٢ القسم الثالث: أنافة القرآن وعمقه
- ٣٥٢ اشارة
- ٣٥٣ تأملان
- ٣٥٣ ١- القرآن والمسائل المستحدثة
- ٣٥٤ ٢- لم لا تنقضى عجائب القرآن
- ٣٥٤ الخطبة التاسعة عشرة
- ٣٥٤ اشارة
- ٣٥٥ الاصطدام بمنافق طائش

- ٣٥٧ تأملان
- ٣٥٧ ١- علة هذا الاصطدام العنيف
- ٣٥٧ ٢- كيف صبر الإمام عليه السلام على هذا المنافق
- ٣٥٨ الخطبة العشرون
- ٣٥٨ اشارة
- ٣٥٨ طرح الحجب قريباً
- ٣٦٠ ملاحظة: عالم ما بعد الموت
- ٣٩٥ الجزء الثاني
- ٣٩٦ الخطبة [١] الحادى والعشرون
- ٣٩٦ اشارة
- ٣٩٦ شرح الخطبة
- ٣٩٦ تخففوا تلحقوا!
- ٣٩٧ عاقبة المثقلين!
- ٣٩٨ الخطبة الثانية و العشرون
- ٣٩٨ اشارة
- ٣٩٨ القسم الأول: أضواء على الخطبة
- ٣٩٨ اشارة
- ٣٩٩ وقعة الجمل
- ٤٠٠ حزب الله وحزب الشيطان
- ٤٠٠ القسم الثاني
- ٤٠٠ اشارة
- ٤٠١ المعدّون المفتضحون!
- ٤٠٢ القسم الثالث: تهديد على عليه السلام
- ٤٠٢ اشارة

- ٤٠٤ الرجال الأشداء
- ٤٠٤ الخطبة [٢٧] الثالثة والعشرون
- ٤٠٤ اشارة
- ٤٠٤ القسم الأول
- ٤٠٤ اشارة
- ٤٠٥ نظرة إلى الخطبة
- ٤٠٥ الرضا والتسليم أمام إرادة الله
- ٤٠٧ الرضى والتسليم إلى جانب السعى والعمل
- ٤٠٨ القسم الثاني: سبيل بلوغ مقامات الصالحين
- ٤٠٨ اشارة
- ٤٠٩ فصل في أن الاخلاص أساس العمل
- ٤١٠ القسم الثالث: السند الشعبي
- ٤١٠ اشارة
- ٤١١ فصل في حسن الثناء (لسان الصدق)
- ٤١١ القسم الرابع: الإعتضاد بالعشيرة
- ٤١١ اشارة
- ٤١٢ فصل في بركات التعاضد بالقراية
- ٤١٣ الخطبة الرابعة والعشرون
- ٤١٣ اشارة
- ٤١٣ نظرة إلى الخطبة
- ٤١٣ المساومة والمصناعة
- ٤١٥ فصل في الضعف والمساومة
- ٤١٦ الخطبة [٦٩] الخامسة و العشرون
- ٤١٦ اشارة

- ٤١٦ القسم الأول
- ٤١٦ اشارة
- ٤١٦ نظرة إلى الخطبة
- ٤١٧ التفاق والعصيان ودور الإمام
- ٤١٧ تأملان
- ٤١٧ ١- الكوفة على وجهين
- ٤١٨ ٢- أهل الكوفة والإمام عليه السلام
- ٤١٩ القسم الثاني: سرّ الانهيار
- ٤١٩ اشارة
- ٤٢٠ تأملات
- ٤٢٠ ١- بسر بن أرطاة القائد السفاح لمعاوية
- ٤٢٣ ٢- مقومات النصر وهزيمة الأمم
- ٤٢٣ القسم الثالث: السئم والملل
- ٤٢٤ اشارة
- ٤٢٥ بنو فراس بن غنم
- ٤٢٥ الخطبة السادسة والعشرون
- ٤٢٥ اشارة
- ٤٢٦ نظرة إلى الخطبة
- ٤٢٦ القسم الأول: العرب في الجاهلية
- ٤٢٦ اشارة
- ٤٢٨ تأملات
- ٤٢٨ ١- آفاق العصر الجاهلي
- ٤٢٩ ٢- شر دار أم خيرها
- ٤٢٩ القسم الثاني: الصبر المرير

- ٤٢٩ اشارة
- ٤٣٠ تأملات
- ٤٣٠ ١- الأحداث المريرة بعد رسول الله صلى الله عليه و آله
- ٤٣١ ٢- هل بايع الإمام عليه السلام الخليفة الأول؟
- ٤٣٢ القسم الثالث: المساومة السياسية المفصوحة
- ٤٣٢ اشارة
- ٤٣٣ تأملات
- ٤٣٣ ١- السياسات الدينوية لا تعترف بالأصول الأخلاقية
- ٤٣٤ ٢- باعة الدين بالدنيا!
- ٤٣٤ ٣- علاقة النصر بالثبات
- ٤٣٥ الخطبة السابعة والعشرون
- ٤٣٥ اشارة
- ٤٣٥ سند الخطبة وزمانها ومكانها
- ٤٣٥ اشارة
- ٤٣٦ نظرة إلى الخطبة
- ٤٣٧ القسم الأول: الجهاد باب من أبواب الجنة
- ٤٣٧ اشارة
- ٤٤٠ تأملان
- ٤٤٠ ١- الجهاد سر رفعة الشعوب وعزتها
- ٤٤١ ٢- هل الجهاد الإسلامي دفاعي فقط؟!
- ٤٤١ القسم الثاني: الموت كمدأ
- ٤٤١ اشارة
- ٤٤٣ تأملات
- ٤٤٣ ١- معادلات الهزيمة والانتصار

- ٢- حماية الأقليات الدينية ٤٤٤
- ٣- الغيرة الدينية ٤٤٤
- القسم الثالث: الاجتماع على الباطل والفرقة عن الحق ٤٤٥
- اشارة ٤٤٥
- تأمل: علة هذا الدم ٤٤٦
- القسم الرابع: إدماء القلب ٤٤٧
- اشارة ٤٤٧
- تأملات ٤٤٨
- ١- الاتباع الطلحاء والقادة الأكفاء ٤٤٨
- ٢- الإجابة على سؤال ٤٤٩
- ٣- سؤال آخر ٤٤٩
- ٤- الخاتمة المريرة للواقعة ٤٥٠
- الخطبة [١٧٩] الثامنة والعشرون ٤٥١
- اشارة ٤٥١
- نظرة إلى الخطبة ٤٥١
- القسم الأول: الدنيا والآخرة عند الإمام على عليه السلام ٤٥١
- اشارة ٤٥١
- تأملات ٤٥٣
- ١- الدنيا والآخرة في الأحاديث ٤٥٣
- ٢- الخسارة العظمى ٤٥٤
- القسم الثاني: الرحيل الوشيك ٤٥٤
- اشارة ٤٥٤
- تأملان ٤٥٧
- ١- خير الزاد ٤٥٧

- ٢- اتباع الهوى وطول الأمل من أعدى أعداء الإنسان ٤٥٨
- اشارة ٤٥٨
- تكملة ٤٥٩
- الخطبة [٢١٤] التاسعة والعشرون ٤٥٩
- اشارة ٤٥٩
- نظرة إلى الخطبة ٤٥٩
- القسم الأول: عوامل ضعف أهل الكوفة ٤٦٠
- القسم الثاني ٤٦٢
- اشارة ٤٦٢
- تأملان ٤٦٣
- ١- الحق يؤخذ ولا يُعطى ٤٦٣
- ٢- الدفاع عن الوطن ٤٦٤
- القسم الثالث: اليأس من القوم ٤٦٥
- اشارة ٤٦٥
- أسباب الهزيمة والفشل ٤٦٦
- الخطبة [٢٣٤] الثلاثون ٤٦٧
- اشارة ٤٦٧
- نظرة إلى الخطبة ٤٦٧
- عوامل قتل عثمان ٤٦٨
- الخطبة [٢٣٧] الحادية والثلاثون ٤٧٠
- اشارة ٤٧٠
- السعي لانقاذ الخاطئين ٤٧٠
- تأملات ٤٧٢
- ١- رد فعل الزبير تجاه رسالة الإمام عليه السلام ٤٧٢

- ٤٧٢ ٢- قطوف من سيرة طلحة والزبير
- ٤٧٤ ٣- شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٤٧٤ الخطبة [٢٥١] الثانية و الثلاثون
- ٤٧٤ اشارة
- ٤٧٤ نظرة إلى الخطبة
- ٤٧٥ القسم الأول: الدهر وضياح القيم
- ٤٧٥ اشارة
- ٤٧٦ تأملان
- ٤٧٦ ١- ما مفهوم فساد الزمان؟
- ٤٧٧ ٢- التنكر للقيم
- ٤٧٧ القسم الثاني: الناس أربعة أصناف
- ٤٧٨ اشارة
- ٤٨٠ الأصناف الأربعة في كل مجتمع
- ٤٨٠ القسم الثالث: الصنف الخامس: أولياء الله
- ٤٨٢ القسم الرابع: الاتعاظ بالماضين
- ٤٨٤ الخطبة [٢٩٥] الثلاثة و الثلاثون
- ٤٨٤ اشارة
- ٤٨٤ نظرة إلى الخطبة
- ٤٨٥ القسم الأول: دحر الباطل
- ٤٨٥ اشارة
- ٤٨٧ تأملات
- ٤٨٧ اشارة
- ٤٨٧ ١- من أخبار يوم ذي قار
- ٤٨٨ ٢- جاهلية العرب

- ٤٨٨ ٣- حديث خاصف النعل
- ٤٨٩ القسم الثاني: مالى ولقريش؟
- ٤٨٩ اشارة
- ٤٩١ الحسد مصدر الاضطراب الاجتماعى
- ٤٩١ الخطبة [٣٢٦] الرابعة والثلاثون
- ٤٩١ اشارة
- ٤٩١ مناسبة الخطبة
- ٤٩٢ نظرة إلى الخطبة
- ٤٩٢ القسم الأول: لم الخشية من الشهادة؟
- ٤٩٢ اشارة
- ٤٩٣ جدوى الذم واللوم
- ٤٩٤ القسم الثاني: يقظة العدو وسيات النصير
- ٤٩٤ اشارة
- ٤٩٥ عوامل اخرى للضعف والهزيمة
- ٤٩٦ القسم الثالث: الانفراد فى مجابهة العدو
- ٤٩٦ اشارة
- ٤٩٨ العزم النهائى للزعيم الشجاع
- ٤٩٩ القسم الرابع: حقى عليكم وحقكم على
- ٤٩٩ اشارة
- ٥٠١ تأملان
- ٥٠١ ١- الحقوق المتبادلة للإمام والامة
- ٥٠٢ ٢- تعارض الحق والمصلحة!
- ٥٠٣ الخطبة [٣٦٥] الخامسة و الثلاثون
- ٥٠٣ اشارة

- ٥٠٣ نظرة إلى الخطبة: نتيجة العصيان
- ٥٠٦ تأملان
- ٥٠٦ ١- قصة التحكيم
- ٥٠٦ ٢- الاستفادة من آراء الآخرين
- ٥٠٧ الخطبة [٣٧٩] السادسة و الثلاثون
- ٥٠٧ اشارة
- ٥٠٧ نظرة إلى الخطبة
- ٥٠٧ إتمام الحجة على الخوارج
- ٥٠٩ قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج
- ٥١٠ الخطبة [٣٨٩] السابعة و الثلاثون
- ٥١٠ اشارة
- ٥١٠ نظرة إلى الخطبة
- ٥١٠ القسم الأول: الصومود أمام العواصف
- ٥١٢ القسم الثاني: القوى عندى ضعيف
- ٥١٢ اشارة
- ٥١٣ نصرة المظلوم ومجابهة الظالم
- ٥١٤ القسم الثالث: أول من أسلم
- ٥١٤ اشارة
- ٥١٥ عهد رسول الله صلى الله عليه و آله لعلى عليه السلام
- ٥١٦ الخطبة: الثامنة و الثلاثون
- ٥١٦ اشارة
- ٥١٦ نظرة إلى الخطبة
- ٥١٦ النجاة من الشبهة
- ٥١٨ تأثير الشبهة فى تحريف الحقائق

- ٥١٨ عبثية الخوف من الموت
- ٥١٩ الخطبة [٤١٢]: التاسعة والثلاثون
- ٥١٩ اشارة
- ٥١٩ نظرة إلى الخطبة
- ٥١٩ أمر النعمان بن بشير مع علي ومالك بن كعب الأرحبي
- ٥٢٠ القسم الأول: سكوت الإمام عليه السلام
- ٥٢١ القسم الثاني: الضعف أمام العدو
- ٥٢١ اشارة
- ٥٢٢ عاقبة الضعف أمام العدو
- ٥٢٢ سؤال
- ٥٢٣ الخطبة الاربعون
- ٥٢٣ اشارة
- ٥٢٣ نظرة إلى الخطبة
- ٥٢٤ تأملان
- ٥٢٤ ١- بلاء التحريف
- ٥٢٧ ٢- ضرورة تشكيل الحكومة
- ٥٢٧ اشارة
- ٥٢٨ خطأ ابن أبي الحديد
- ٥٢٩ الخطبة [٤٣٤] الحادية و الاربعون
- ٥٢٩ اشارة
- ٥٢٩ نظرة إلى الخطبة
- ٥٣١ السياسة الإلهية والشيطانية
- ٥٣٢ الخطبة [٤٥٥] الثانية و الاربعون
- ٥٣٣ اشارة

٥٣٣ نظرة إلى الخطبة
٥٣٣ القسم الأول
٥٣٤ القسم الثاني
٥٣٤ اشارة
٥٣٥ الموت يعنى إغلاق صحيفة الأعمال
٥٣٦ الخطبة [٤٦٩] الثالثة الاربعون
٥٣٦ اشارة
٥٣٦ نظرة إلى الخطبة
٥٣٧ القسم الأول: رجل الحرب والسلام
٥٣٧ اشارة
٥٣٨ الهدف من الدعوة إلى الصلح والبيعة
٥٣٩ القسم الثاني
٥٣٩ اشارة
٥٤٠ أعمال عثمان وأسباب قتله
٥٤١ الخطبة [٤٨٣] الرابعة والاربعون
٥٤١ اشارة
٥٤١ قصة الخريت بن راشد الناجى وخروجه على على عليه السلام
٥٤٢ فرار العبيد
٥٤٣ تأملان
٥٤٣ اشارة
٥٤٣ ١- من بين الأسئلة التى تطرح بشأن هذه الخطبة
٥٤٣ ٢- فلسفة الحزم
٥٤٤ الخطبة [٤٨٩] الخامسة و الأربعون
٥٤٤ اشارة

- ٥٤٤ نظرة إلى الخطبة
- ٥٤٤ القسم الأول: الرحمة اللامتناهية
- ٥٤٥ القسم الثاني: الدنيا دار المنى
- ٥٤٥ اشارة
- ٥٤٦ الكفاف والعفاف
- ٥٤٧ الخطبة [٥١٢] السادسة و الاربعون
- ٥٤٧ اشارة
- ٥٤٧ نظرة إلى الخطبة
- ٥٤٧ الاستعاذة بالله من وعشاء السفر
- ٥٤٨ فلسفة الدعاء
- ٥٤٩ الخطبة [٥٢٩] السابعة و الاربعون
- ٥٥٠ اشارة
- ٥٥٠ نظرة إلى الخطبة
- ٥٥٠ نبوءة عن مستقبل الكوفة
- ٥٥١ رأيان في الكوفة
- ٥٥١ الخطبة [٥٣٦] الثامنة و الاربعون
- ٥٥١ اشارة
- ٥٥٢ نظرة إلى الخطبة
- ٥٥٢ القسم الأول: استحقاق الله للحمد والثناء
- ٥٥٣ القسم الثاني: تعبئة القوى لمواجهة العدو
- ٥٥٣ اشارة
- ٥٥٣ أخبار على عليه السلام في جيشه وهو في طريقه إلى صفين
- ٥٥٥ نزول على بكر بلاء
- ٥٥٥ الخطبة [٥٥٤] التاسعة و الاربعون

- ٥٥٥ اشارة
- ٥٥٥ نظرة إلى الخطبة
- ٥٥٦ المنزه عن الظن والخيال
- ٥٥٨ وجوده ظاهر وكنه ذاته خفى
- ٥٥٩ الخطبة [٥٦٥] الخمسون
- ٥٥٩ اشارة
- ٥٥٩ نظرة إلى الخطبة
- ٥٦٠ تأملات
- ٥٦٠ ١- أساس الفتن
- ٥٦١ ٢- السياسات الشيطانية
- ٥٦١ الخطبة [٥٧٣] الحادية و الخمسون
- ٥٦١ اشارة
- ٥٦٢ نظرة إلى الخطبة
- ٥٦٢ أقبروا هذه الفتنة الخبيثة
- ٥٦٤ تأملات
- ٥٦٤ ١- ضرورة العيش في ظل العزة والكرامة
- ٥٦٥ ٢- غسل أدمغة المغفلين
- ٥٦٥ ٣- المروءة والشهامة
- ٥٦٦ الخطبة [٥٨٩] الثانية و الخمسون
- ٥٦٦ اشارة
- ٥٦٦ نظرة إلى الخطبة
- ٥٦٦ القسم الأول: الدنيا الغرور
- ٥٦٨ القسم الثاني: السعى القليل وإن كثر
- ٥٦٩ القسم الثالث: عظمة وسعة النعم الإلهية

- الخطبة [٦١٣] الثالثة والخمسون ٥٧٠
- اشارة ٥٧٠
- تمام الاضحية ٥٧٠
- عليه سلامة الاضحية من النقص والعيب ٥٧١
- الخطبة [٦١٩] الرابعة و الخمسون ٥٧١
- اشارة ٥٧١
- نظرة إلى الخطبة ٥٧١
- ليس هنالك سوى القتال ٥٧٢
- تأملان ٥٧٣
- ١- البيعة الفريدة للإمام عليه السلام ٥٧٣
- ٢- الحرب والسلام، والكفر والإيمان ٥٧٣
- الخطبة [٦٢٨] الخامسة والخمسون ٥٧٤
- اشارة ٥٧٤
- نظرة إلى الخطبة ٥٧٤
- تماسك الإمام عليه السلام حيال القتال ٥٧٤
- الخطبة [٦٣٢] السادسة والخمسون ٥٧٥
- اشارة ٥٧٥
- نظرة إلى الخطبة ٥٧٦
- الوقوف المشرف إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله ٥٧٦
- تأملان ٥٧٨
- ١- ثاني فتن البصرة ٥٧٨
- ٢- خصائص المسلمين الاوائل ٥٨٠
- الخطبة [٦٤٢] السابعة والخمسون ٥٨٠
- اشارة ٥٨٠

- ٥٨٠ نظرة إلى الخطبة
- ٥٨١ إحدروا العدو
- ٥٨٣ تأملات
- ٥٨٤ ١- علة عدم ذكر الإمام عليه السلام للشخص المقصود بالخطبة
- ٥٨٤ ٢- لماذا حكم الإمام عليه السلام بهدر دم معاوية؟
- ٥٨٥ ٣- تأريخ سب الإمام على عليه السلام
- ٥٨٥ ٤- التقية وسيلة دفاعية
- ٥٨٦ الخطبة [٦٥٨] الثامنة و الخمسون
- ٥٨٦ اشارة
- ٥٨٦ نظرة إلى الخطبة
- ٥٨٧ فضاعة مظلومية الإمام عليه السلام
- ٥٨٨ الخطبة [٦٦١] التاسعة والخمسون
- ٥٨٨ اشارة
- ٥٨٨ هل من سبيل لعلم الغيب
- ٥٨٩ الخطبة [٦٦٣] الستون
- ٥٨٩ اشارة
- ٥٨٩ مصير الخوارج
- ٥٨٩ تأملات
- ٥٨٩ ١- الخوارج ظاهرة لافرة
- ٥٩١ ٢- الخوارج لصوصا سلابين
- ٦٢٠ الجزء الثالث
- ٦٢٠ الخطبة [١] الحادية والستون
- ٦٢٠ اشارة
- ٦٢٠ الفارق بين الخوارج وأهل الشام

- ٦٢١ تأملان
- ٦٢١ ١- أضل من الخوارج
- ٦٢٣ ٢- جهل اتباع الحق وعلم اتباع الباطل
- ٦٢٣ الخطبة [٥] الثانية و الستون
- ٦٢٣ اشارة
- ٦٢٣ لماذا أخشى الموت؟
- ٦٢٥ الخطبة [١٨] الثالثة والستون
- ٦٢٥ اشارة
- ٦٢٥ نظرة إلى الخطبة
- ٦٢٥ الدنيا ظل زائل
- ٦٢٧ الخطبة [٢٢] الرابعة و الستون
- ٦٢٧ اشارة
- ٦٢٧ نظرة إلى الخطبة
- ٦٢٧ القسم الأول: الموت يلقي بظلاله على الجميع
- ٦٢٩ القسم الثاني: التزود قدر المستطاع
- ٦٣١ القسم الثالث: الإنسان والغفلة
- ٦٣١ اشارة
- ٦٣٣ تأملات
- ٦٣٣ ١- فلسفة خفاء الموت
- ٦٣٣ ٢- الاغترار بالاماني
- ٦٣٣ ٣- تزيين الشيطان
- ٦٣٤ ٤- عمر الإنسان حجّة عليه
- ٦٣٤ ٥- سكر النعم
- ٦٣٥ الخطبة [٥٦] الخامسة و الستون

- ٦٣٥ اشارة
- ٦٣٥ نظرة إلى الخطبة
- ٦٣٥ القسم الأول: الحمد والثناء
- ٦٣٩ القسم الثاني: تجليات جلال الله وجماله
- ٦٣٩ اشارة
- ٦٤١ نقطة مهمة: الآثار التربوية لمعرفة الله
- ٦٤١ الخطبة [٨٠] السادسة و الستون
- ٦٤١ اشارة
- ٦٤١ نظرة إلى الخطبة
- ٦٤٢ القسم الأول: طائفة من الفنون القتالية
- ٦٤٢ اشارة
- ٦٤٣ تأمل: الفنون القتالية في الماضي والحاضر
- ٦٤٤ القسم الثاني: الثبات والمقاومة
- ٦٤٤ الخطبة [١٠١] السابعة و الستون
- ٦٤٤ اشارة
- ٦٤٤ نظرة إلى الخطبة
- ٦٤٧ الاستدلال المنطقي على الخلافة
- ٦٤٨ تأمل: الخلافة وقصة سقيفه بنى ساعدة
- ٦٤٩ أضواء على السقيفه
- ٦٥٠ الخطبة الثامنة و الستون
- ٦٥٠ اشارة
- ٦٥٠ نظرة إلى الخطبة
- ٦٥١ محمد بن أبى بكر وحكومة مصر
- ٦٥١ تأملان

- ٦٥١ ١- من هو هاشم المرقال؟
- ٦٥٢ ٢- محمد بن أبي بكر
- ٦٥٣ الخطبة [١١٧] التاسعة و الستون
- ٦٥٣ اشارة
- ٦٥٣ نظرة إلى الخطبة
- ٦٥٣ عظم الشكوى من الاصحاب الضعفاء
- ٦٥٥ الخطبة [١٣٥] السبعون
- ٦٥٥ اشارة
- ٦٥٦ رؤية رسول الله صلى الله عليه و آله
- ٦٥٧ تأملان
- ٦٥٧ ١- أصحاب على عليه السلام
- ٦٥٨ ٢- الأفراد الملعونون
- ٦٥٩ الخطبة [١٤٤] الحادية و السبعون
- ٦٥٩ اشارة
- ٦٥٩ نظرة إلى الخطبة
- ٦٦٠ الشكوى من الاتباع الجهلاء
- ٦٦٢ تأملان
- ٦٦٢ ١- على عليه السلام أول من أسلم
- ٦٦٣ ٢- إجابة عن سؤال
- ٦٦٤ الخطبة [١٦٣] الثانية و السبعون
- ٦٦٤ اشارة
- ٦٦٤ نظرة إلى الخطبة
- ٦٦٥ القسم الأول: رب السموات
- ٦٦٥ القسم الثاني: آلف التحية و السلام على النبي صل الله عليه و آله

- ٦٦٨ القسم الثالث: الحشر مع النبي صلى الله عليه و آله
- ٦٦٨ اشارة
- ٦٦٩ تأمل: معطيات الصلاة على النبي صلى الله عليه و آله
- ٦٦٩ اشارة
- ٦٧٠ الاجابة على بعض الأسئلة
- ٦٧١ ١- ما سرّ هذه الأهمية للصلوات على النبي
- ٦٧١ ٢- آثار الصلاة على النبي صلى الله عليه و آله
- ٦٧١ ٣- الفاظ الصلوات على النبي صلى الله عليه و آله
- ٦٧٢ ٤- الصلاة على النبي واجبة أم مستحبة؟
- ٦٧٢ ٥- المفهوم الحقيقي للصلاة على النبي صلى الله عليه و آله
- ٦٧٣ الخطبة [٢١٧] الثالثة و السبعون
- ٦٧٣ اشارة
- ٦٧٣ نظرة إلى الخطبة
- ٦٧٣ الغنى عن بيعة مروان
- ٦٧٥ تأمل: قصة غريبة من حياة مروان بن الحكم
- ٦٧٥ الخطبة [٢٢٢] الرابعة و السبعون
- ٦٧٦ اشارة
- ٦٧٦ نظرة إلى الخطبة
- ٦٧٦ علم الجميع باحقيتي من غيرى
- ٦٧٧ الإجابة عن بعض الأسئلة
- ٦٧٨ الخطبة [٢٢٧] الخامسة و السبعون
- ٦٧٨ اشارة
- ٦٧٨ نظرة إلى الخطبة
- ٦٧٨ العدو اللدود للمنحرفين

- ٦٨٠ الخطبة [٢٣٦] السادسة و السبعون
- ٦٨٠ اشارة
- ٦٨٠ نظرة إلى الخطبة
- ٦٨١ عشرون كلمة قيمة
- ٦٨٢ تأمل: الصبر واغتنام الفرصة
- ٦٨٣ الخطبة [٢٥٦] السابعة و السبعون
- ٦٨٣ اشارة
- ٦٨٣ نظرة إلى الخطبة
- ٦٨٣ غيظ من فيض جنابات بنى أمية
- ٦٨٣ اشارة
- ٦٨٤ تأملان
- ٦٨٤ ١- من هو سعيد بن العاص؟
- ٦٨٥ ٢- بنى أمية
- ٦٨٥ اشارة
- ٦٨٥ الف) بنى أمية فى القرآن الكريم
- ٦٨٥ ب) بنى أمية فى أحاديث العامة
- ٦٨٥ ج) بنى أمية فى نهج البلاغة
- ٦٨٦ د) مفاسد حكومة بنى أمية
- ٦٨٦ اشارة
- ٦٨٦ ١- انحراف الخلافة عن مسارها الصحيح واستبدالها بالسلطة
- ٦٨٦ ٢- مسخ وتحريف الحقائق والمعارف الإسلامية
- ٦٨٧ الخطبة [٢٨٠] الثامنة و السبعون
- ٦٨٧ اشارة
- ٦٨٧ نظرة إلى الخطبة

- ٦٨٧ من الأدعية التربوية للإمام على عليه السلام
- ٦٨٩ فصل في الدعاء ودوره في حياة الإنسان
- ٦٩٠ الخطبة [٢٩٤] التاسعة و السبعون
- ٦٩١ اشارة
- ٦٩١ نظرة إلى الخطبة
- ٦٩١ القسم الأول: خطأ المنجمين
- ٦٩٢ القسم الثاني: اجتناب نبوءات المنجمين
- ٦٩٢ اشارة
- ٦٩٣ تأملات
- ٦٩٣ ١- ما هو علم النجوم؟ وما المحذور منه؟
- ٦٩٤ ٢- الكهانة والكفر
- ٦٩٥ ٣- كيفية ظهور التكهينات النجومية
- ٦٩٦ الخطبة [٣٠٢]: الثمانون
- ٦٩٦ اشارة
- ٦٩٦ نظرة إلى الخطبة
- ٦٩٦ مكانة المرأة في المجتمعات البشرية
- ٦٩٦ اشارة
- ٦٩٩ تأملان
- ٦٩٩ ١- الفوارق والمساواة بين الجنسين
- ٧٠٠ ٢- أخبار عائشة
- ٧٠١ الخطبة [٣٢١] الحادية والثمانون
- ٧٠١ اشارة
- ٧٠٢ نظرة إلى الخطبة
- ٧٠٢ حقيقة الزهد

- ٧٠٣ تأمل: الزاهد أمير لأسير
- ٧٠٤ الخطبة [٣٣٣]: الثانية والثمانون
- ٧٠٤ اشارة
- ٧٠٤ نظرة إلى الخطبة
- ٧٠٥ الدنيا وسيلة لأهدف
- ٧٠٥ اشارة
- ٧٠٨ تأملان
- ٧٠٨ ١- كيفية الحساب فى الآخرة
- ٧٠٩ ٢- المذموم عبادة الدنيا لانيلها
- ٧٠٩ الخطبة [٣٥١] الثالثة و الثمانون
- ٧٠٩ اشارة
- ٧١٠ نظرة إلى الخطبة
- ٧١٠ القسم الأول: البعيد القريب والعالى الدانى
- ٧١١ القسم الثانى: دور التقوى فى تقرير مصير الإنسان
- ٧١١ اشارة
- ٧١٤ التقوى فى كل زمان ومكان
- ٧١٤ القسم الثالث: حقيقة الدنيا
- ٧١٤ اشارة
- ٧١٦ تقلب الدنيا
- ٧١٧ القسم الرابع: أهوال المحشر
- ٧١٧ اشارة
- ٧١٩ تأملات
- ٧١٩ ١- أضواء على المعاد الجسمانى
- ٧١٩ ٢- شبهة الأكل والمأكول المعروفة

- ٧٢٠ ٣- بعث من فى القبور
- ٧٢٠ القسم الخامس: الإنسان، من أين وإلى أين؟
- ٧٢٠ اشارة
- ٧٢١ تأمل: الدنيا دار إمتحان
- ٧٢١ القسم السادس: مواعظ شافية
- ٧٢١ اشارة
- ٧٢٣ شعب التقوى
- ٧٢٣ القسم السابع: الجميع يدين له بالفضل
- ٧٢٥ القسم الثامن: الحذر، فالنعم إلى زوال
- ٧٢٦ القسم التاسع: عاقبة الغضاضة الذبول
- ٧٢٨ القسم العاشر: مواجهة الأهويل
- ٧٢٨ اشارة
- ٧٢٩ تأملان
- ٧٢٩ ١- كيف نجتاز الصراط بسهولة؟!
- ٧٣٠ ٢- صلاة الليل شرف المؤمن
- ٧٣١ القسم الحادى عشر: المانع الآخر وساوس الشيطان
- ٧٣١ اشارة
- ٧٣٣ مكائد الشيطان
- ٧٣٣ القسم الثانى عشر: بداية حياة الإنسان ونهايتها
- ٧٣٣ اشارة
- ٧٣٥ النعم والجحود
- ٧٣٥ القسم الثالث عشر: الموت المفاجئ
- ٧٣٦ القسم الرابع عشر: حوادث ما بعد الموت
- ٧٣٦ اشارة

- ٧٣٧ تأملان
- ٧٣٧ ١- وداع الأحياء للأموات
- ٧٣٨ ٢- سؤال القبر
- ٧٣٩ القسم الخامس عشر: القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من النار
- ٧٤٠ القسم السادس عشر: مصير الجاحدين من أصحاب السطوة
- ٧٤١ القسم السابع عشر: الحذر الحذر
- ٧٤١ القسم الثامن عشر: حسن الختام
- ٧٤٣ الخطبة [٥٩١]: الرابعة و الثمانون
- ٧٤٣ اشارة
- ٧٤٣ نظرة إلى الخطبة
- ٧٤٣ ابن النابغة الكاذب
- ٧٤٣ اشارة
- ٧٤٤ تأملان
- ٧٤٤ ١- نسب عمرو بن العاص وطرف من أخباره
- ٧٤٧ ٢- المزاح في الإسلام
- ٧٤٨ الخطبة [٤٢٧]: الخامسة و الثمانون
- ٧٤٨ اشارة
- ٧٤٩ نظرة إلى الخطبة
- ٧٤٩ القسم الأول: معرفة الله
- ٧٤٩ اشارة
- ٧٥١ تأمل: كيفية معرفة الإنسان بالذات المقدسة
- ٧٥٢ القسم الثاني: الاعتاض والاعتبار
- ٧٥٣ القسم الثالث
- ٧٥٣ اشارة

- ٧٥٣ درجات الجتة
- ٧٥٥ الخطبة [٦٥٢] السادسة و الثمانون
- ٧٥٥ اشارة
- ٧٥٥ نظرة إلى الخطبة
- ٧٥٥ القسم الأول: العالم بالخفايا والاسرار
- ٧٥٦ القسم الثاني: الزاد إلى المعاد
- ٧٥٧ القسم الثالث: الكتاب الجامع
- ٧٥٧ اشارة
- ٧٥٨ جامعياً القرآن والسنة
- ٧٥٩ إجابة عن سؤال
- ٧٥٩ القسم الرابع: إغتنام الفرصة
- ٧٥٩ اشارة
- ٧٦٠ طرق نفوذ الشيطان
- ٧٦٠ القسم الخامس: من هو السعيد؟
- ٧٦٠ اشارة
- ٧٦٢ مواطن السعادة لدى الإنسان
- ٧٦٢ القسم السادس: الصفات والذميمة
- ٧٦٢ اشارة
- ٧٦٣ المواعظ البالغة
- ٧٦٤ الخطبة [٦٨٧] السابعة و الثمانون
- ٧٦٤ اشارة
- ٧٦٤ نظرة إلى الخطبة
- ٧٦٤ القسم الأول: أحب العباد إلى الله
- ٧٦٤ اشارة

- ٧٦٦ أفضل النعم
- ٧٦٧ القسم الثاني: خصائص المخلصين
- ٧٦٧ اشارة
- ٧٧٠ تأملان
- ٧٧٠ ١- فتح باب الاجتهاد
- ٧٧٠ ٢- شمولية القرآن
- ٧٧٠ القسم الثالث: العلماء المخلصون والعلماء المتشبهون
- ٧٧٠ اشارة
- ٧٧٣ تأملات
- ٧٧٣ ١- علماء الضلالة
- ٧٧٤ ٢- التفسير بالرأى، فخ الشيطان الأكبر
- ٧٧٥ ٣- البدع مادة الانحراف
- ٧٧٥ القسم الرابع: لم الضلال، والعثرة بين الاظهر؟
- ٧٧٥ اشارة
- ٧٧٧ منزلة أهل البيت عليهم السلام
- ٧٧٧ القسم الخامس: أعلام الهدى
- ٧٨٠ القسم السادس: زوال حكومة بنى أمية
- ٧٨٠ اشارة
- ٧٨١ تأملان
- ٧٨١ حكومة بنى أمية الفاشلة
- ٧٨١ اشارة
- ٧٨٢ أ) قيام الخوارج ضد بنى أمية
- ٧٨٢ ب) قيام سائر الناس ضد بنى أمية
- ٧٨٣ الخطبة [٧٧٤]: الثامنة والثمانون

- ٧٨٣ اشارة
- ٧٨٣ نظرة إلى الخطبة
- ٧٨٤ القسم الأول: هل من عين باصرة واذن سامعة؟
- ٧٨٤ اشارة
- ٧٨٥ مصير الجبابة
- ٧٨٥ القسم الثاني: الاستبداد مادة الاختلاف
- ٧٨٥ اشارة
- ٧٨٧ المستبدون الظالون
- ٧٨٧ الخطبة [٧٨٨] التاسعة والثمانون
- ٧٨٧ اشارة
- ٧٨٧ نظرة إلى الخطبة
- ٧٨٨ القسم الأول: العالم على أعتاب الدعوة
- ٧٨٨ اشارة
- ٧٩٠ الجاهلية المعاصرة
- ٧٩١ القسم الثاني: كلكم مسؤول
- ٧٩٢ الخطبة [٨١٠] التسعون
- ٧٩٢ اشارة
- ٧٩٢ نظرة إلى الخطبة
- ٧٩٣ القسم الأول: كان ولم يكن أحد سواه
- ٧٩٥ القسم الثاني: العالم بالخفايا والأسرار
- ٧٩٦ القسم الثالث: ليس كمثل شئ
- ٧٩٧ القسم الرابع: محاسبة النفس
- ٧٩٧ اشارة
- ٧٩٨ تأملان

- ١- الوزن والحساب فى المحشر ٧٩٨
- ٢- الواعظ الباطنى ٧٩٨
- الجزء الرابع ٨٣٤
- الخطبة [١] الحادية و التسعون ٨٣٤
- اشارة ٨٣٤
- نظرة إلى الخطبة ٨٣٥
- القسم الأول: جوده لا ينضب ٨٣٦
- اشارة ٨٣٦
- تأمل: شمول النعم الإلهية ٨٤٠
- القسم الثانى: معرفة الله عن الله ٨٤٠
- اشارة ٨٤٠
- تأمل: الراسخون فى العلم وتفسير المتشابهات ٨٤٢
- القسم الثالث: العالى على الخيال والقياس والظن والوهم ٨٤٤
- القسم الرابع: الحديث عن تدبيره ٨٤٥
- القسم الخامس: انت المنزه عن الشبيهة والتميل ٨٤٧
- اشارة ٨٤٧
- تأمل: من هم المجسمة؟ ٨٤٨
- القسم السادس: الممتنع على احاطة العقول ٨٥٠
- القسم السابع: كلى شىء يستند إلى ارادة الله ٨٥٠
- القسم الثامن: سر الخلق ٨٥١
- اشارة ٨٥١
- تأمل: أوضح طريق إلى معرفة الله ٨٥٣
- القسم التاسع: خلق السموات ٨٥٤
- اشارة ٨٥٤

- ٨٥٦ تأمل: خصائص السماوات
- ٨٥٧ القسم العاشر: خلق الشمس والقمر والشهب والكواكب
- ٨٥٧ اشارة
- ٨٥٨ تأملات
- ٨٥٨ ١- الكواكب الثابتة والسيارة
- ٨٥٩ ٢- خصائص الكواكب
- ٨٥٩ ٣- سعد ونحس الكواكب
- ٨٦٠ القسم الحادى عشر: خلق الملائكة
- ٨٦١ القسم الثانى عشر: وظائف الملائكة
- ٨٦١ اشارة
- ٨٦٣ تأمل: لم الملائكة واسطة الوحي؟
- ٨٦٣ القسم الثالث عشر: الانقطاع إلى الله
- ٨٦٤ القسم الرابع عشر: مدبرات الامور
- ٨٦٥ القسم الخامس عشر: خصائص الملائكة
- ٨٦٥ اشارة
- ٨٦٧ تأمل: الناس والملائكة
- ٨٦٨ القسم السادس عشر: عودة على بدء فى صفات الملائكة
- ٨٦٨ اشارة
- ٨٧٠ تأمل: الناس والملائكة ثانية
- ٨٧١ القسم السابع عشر: ظهور اليابسة و استقرار البحار
- ٨٧٣ القسم الثامن عشر: ظهور الجبال والعيون
- ٨٧٣ اشارة
- ٨٧٤ تأمل: أسرار خلق الجبال
- ٨٧٥ القسم التاسع عشر: إحياء الأرض الميتة بالسحب الممطرة

- ٨٧٥ اشارة
- ٨٧٧ تأمل: سعة قاعدة اللطف فى التكوين والتشريع
- ٨٧٧ القسم العشرون: خلق آدم وبعثه الأنبياء
- ٨٧٩ القسم الحادى والعشرون: الرزق وسيلة الامتحان
- ٨٧٩ اشارة
- ٨٨١ تأمل: هل رزق كل إنسان مقدر؟
- ٨٨٢ القسم الثانى والعشرون: العالم بكل شىء
- ٨٨٢ اشارة
- ٨٨٤ تأمل: تنوع الكائنات
- ٨٨٤ القسم الثالث والعشرون: شمولية العلم الإلهى
- ٨٨٤ اشارة
- ٨٨٦ تأملات
- ٨٨٦ ١- العلم الكامل
- ٨٨٦ ٢- علم الله بكافة الخفايا
- ٨٨٧ ٣- ابن أبى الحديد فى شرح هذه الخطبة.
- ٨٨٧ القسم الرابع والعشرون: إليك الملاذ و أنت الرجاء
- ٨٨٧ اشارة
- ٨٨٨ تأمل: فى اعجاز البيان.
- ٨٨٩ الخطبة [٣٠٧] الثانية و التسعون
- ٨٨٩ اشارة
- ٨٨٩ نظرة إلى الخطبة
- ٨٨٩ دعونى والتمسوا غيرى
- ٨٩١ تأملات
- ٨٩١ ١- لم قال دعونى؟

- ١٩٣ ٢- لم لا يتحملوا عدالة على عليه السلام؟
- ١٩٣ ٣- لم وزارته عليه السلام خير من إمارته؟
- ١٩٤ الخطبة [٣٢٤] الثالثة و التسعون
- ١٩٤ اشارة
- ١٩٤ القسم الاول: أنا فقأت عين الفتنة
- ١٩٨ القسم الثاني: فتنة بنى أمية
- ١٩٨ اشارة
- ٩٠٠ تأملات
- ٩٠٠ ١- مميزات الفتنة
- ٩٠١ ٢- حكومة بنى أمية
- ٩٠١ القسم الثالث: انتقام الله من بنى أمية
- ٩٠١ اشارة
- ٩٠٣ تأملان
- ٩٠٣ ١- ضريبة الفرار من الحق
- ٩٠٤ ٢- عاقبة بنى أمية
- ٩٠٤ الخطبة [٣٦٣] الرابعة و التسعون
- ٩٠٤ اشارة
- ٩٠٤ نظرة إلى الخطبة
- ٩٠٤ القسم الأول: عجز الفكر عن معرفته
- ٩٠٥ القسم الثاني: (ومنها فى وصف الأنبياء): المكانة الرفيعة للأنبياء
- ٩٠٦ القسم الثالث: فضائل النبي صلى الله عليه و آله
- ٩٠٦ اشارة
- ٩٠٩ تأملان
- ٩٠٩ ١- منزلة النبي صلى الله عليه و آله لدى الآخرين

- ٩١٠ ٢- اسرة النبي صلى الله عليه و آله
- ٩١٠ القسم الرابع: اعملوا ما استطعتم
- ٩١١ الخطبة [٣٨٦] الخامسة والتسعون
- ٩١١ اشارة
- ٩١٢ نظرة إلى الخطبة
- ٩١٢ النور الذي كشف الظلمة
- ٩١٣ الخطبة [٣٨٩] السادسة و التسعون
- ٩١٣ اشارة
- ٩١٣ نظرة إلى الخطبة
- ٩١٤ القسم الأول: الأول والآخر
- ٩١٤ القسم الثاني: كلامه بيان وصمته لسان
- ٩١٦ الخطبة [٣٩٧] السابعة و التسعون
- ٩١٦ اشارة
- ٩١٦ نظرة إلى الخطبة
- ٩١٦ القسم الأول: عبيد كأرباب
- ٩١٩ القسم الثاني: شهود الابدان وغياب العقول
- ٩١٩ القسم الثالث: العمل بالتكليف
- ٩١٩ اشارة
- ٩٢١ تأمل: مقارنة بين أهل العراق والشام
- ٩٢٢ القسم الرابع: صحب النبي صلى الله عليه و آله
- ٩٢٢ اشارة
- ٩٢٤ تأملات
- ٩٢٤ ١- ولاية أهل البيت وعصمتهم
- ٩٢٤ ٢- مميزات أهل الكوفة والشام

- ٩٢٥ ٣- حقيقة الصحابة
- ٩٢٦ الخطبة [٤٣٤] الثامنة والتسعون
- ٩٢٦ اشارة
- ٩٢٦ نظرة إلى الخطبة
- ٩٢٦ مظالم بنى أمية
- ٩٢٨ تأمل: بدع بنى أمية
- ٩٣٠ الخطبة [٤٤٣] التاسعة والتسعون
- ٩٣٠ اشارة
- ٩٣٠ نظرة إلى الخطبة
- ٩٣٠ القسم اول: السلامة فى الدين والبدن
- ٩٣١ القسم الثانى: سرعة زوال الدنيا
- ٩٣٢ القسم الثالث: دروس الدنيا وعبرها
- ٩٣٣ القسم الرابع: هادم اللذات
- ٩٣٣ اشارة
- ٩٣٤ تأملان
- ٩٣٤ ١- خداع الدنيا محدود
- ٩٣٤ ٢- أكيس الناس
- ٩٣٥ الخطبة [٤٦٩] مأه
- ٩٣٥ اشارة
- ٩٣٥ نظرة إلى الخطبة
- ٩٣٥ القسم الأول: راية الحق
- ٩٣٥ اشارة
- ٩٣٩ تأملان
- ٩٣٩ ١- أولياء الله

- ٩٣٩ ٢- الفشل فنطرة النجاح -
- ٩٤٠ القسم الثاني: هدى آل محمد صلى الله عليه و آله -
- ٩٤٠ اشارة -
- ٩٤١ تأملان -
- ٩٤١ ١- حديث النجوم -
- ٩٤٢ ٢- آخر مراحل تكامل النعم الإلهية -
- ٩٤٢ الخطبة [٤٩٠] المأة وواحد -
- ٩٤٢ اشارة -
- ٩٤٢ نظرة إلى الخطبة -
- ٩٤٢ القسم الأول: الشهادة المطلقة -
- ٩٤٣ القسم الثاني: الحق ما أقول -
- ٩٤٤ القسم الثالث: فتنة ضليل الشام -
- ٩٤٤ اشارة -
- ٩٤٥ تأملان -
- ٩٤٥ ١- الملاحم -
- ٩٤٦ ٢- الكوفة مركز الازمات والعواصف -
- ٩٤٦ الخطبة [٥١٠] المأة واثنان -
- ٩٤٦ اشارة -
- ٩٤٦ نظرة إلى الخطبة -
- ٩٤٦ القسم الأول: هول المحشر -
- ٩٤٨ القسم الثاني: فتنة البصرة -
- ٩٤٩ الخطبة [٥٢٧] المأة و ثلاث -
- ٩٤٩ اشارة -
- ٩٤٩ نظرة إلى الخطبة -

- ٩٥٠ القسم الأول: الدنيا الفانية
- ٩٥٠ اشارة
- ٩٥١ تأمل: الزهد فى الدنيا
- ٩٥٢ القسم الثانى: سرعة العمر
- ٩٥٢ اشارة
- ٩٥٣ تأمل: فى الاعتبار
- ٩٥٤ القسم الثالث: العلماء والمتشبهون بهم
- ٩٥٤ اشارة
- ٩٥٥ تأمل: العلماء الحقيقيون
- ٩٥٥ القسم الرابع: علامات آخر الزمان
- ٩٥٥ اشارة
- ٩٥٧ تأمل: الفساد فى آخر الزمان
- ٩٥٨ الخطبة [٥٥١] المأة واربعة
- ٩٥٨ اشارة
- ٩٥٨ نظرة إلى الخطبة
- ٩٥٨ القسم الأول: النهضة التغييرية للنبي عليه السلام
- ٩٥٨ اشارة
- ٩٥٩ تأملان
- ٩٥٩ ١- هل بعث نبي من العرب؟
- ٩٦٠ ٢- القوة فى الدين
- ٩٦٠ القسم الثانى: بقر الباطل واخراج الحق
- ٩٦١ الخطبة [٥٥٩] المأة و خمس
- ٩٦١ اشارة
- ٩٦١ نظرة إلى الخطبة

- ٩٤١ القسم الأول: صفات النبي صلى الله عليه و آله
- ٩٤٢ القسم الثاني: زوال حكومة بنى أمية
- ٩٤٤ القسم الثالث: التمسك بالإمام
- ٩٤٥ القسم الرابع: وظائف الإمام والامة
- ٩٤٧ الخطبة [٥٩٠] المائة وست
- ٩٤٧ اشارة
- ٩٤٨ نظرة إلى الخطبة
- ٩٤٨ القسم الأول: خصائص الإسلام
- ٩٤٨ اشارة
- ٩٧١ تأملان
- ٩٧١ ١- منزلة الدنيا والآخرة في النظرة الإسلامية
- ٩٧١ ٢- الشريعة السمحاء
- ٩٧٢ القسم الثاني: صفات النبي صلى الله عليه و آله ومقاماته
- ٩٧٢ اشارة
- ٩٧٤ تأمل: إعراف مهم
- ٩٧٤ القسم الثالث: تضييع النعم
- ٩٧٧ الخطبة [٦٢٦] المائة و سبع
- ٩٧٧ اشارة
- ٩٧٧ نظرة إلى الخطبة
- ٩٧٧ أتلجتكم صدرى
- ٩٧٨ الخطبة [٦٤١] المائة و ثمان
- ٩٧٨ اشارة
- ٩٧٨ نظرة إلى الخطبة
- ٩٧٩ القسم الأول: تجلى الله للعباد

- ٩٧٩ اشارة
- ٩٨٠ تأمل: فى سعة علم الله
- ٩٨٠ القسم الثانى: وصف النبى صلى الله عليه و آله
- ٩٨١ القسم الثالث: طيب سيار
- ٩٨٣ القسم الرابع: اشباح بلا ارواح
- ٩٨٣ اشارة
- ٩٨٤ تأمل: الوجود الباهت كالعدم
- ٩٨٥ القسم الخامس: طغاة بنى أمية يأتون على الأخضر و اليابس
- ٩٨٥ اشارة
- ٩٨٦ تأمل: الحكومات المستبدة
- ٩٨٦ القسم السادس: احذروا المستقبل المشؤوم
- ٩٨٨ القسم السابع: الانقلاب رأس على عقب
- ٩٨٩ اشارة
- ٩٩٠ تأمل: آثار سلطة الأوباش
- ٩٩١ الخطبة [٦٩٤] المائة و تسع
- ٩٩١ اشارة
- ٩٩١ نظرة إلى الخطبة
- ٩٩٢ القسم الأول: الصفات الكمالية لله
- ٩٩٤ القسم الثانى: عبودية الملائكة
- ٩٩٦ القسم الثالث: عالم الآخرة
- ٩٩٦ اشارة
- ٩٩٨ تأمل: العشق المقدس والهجين
- ١٠٠٠ القسم الرابع: سكرات الموت
- ١٠٠٠ اشارة

- ١٠٠٢ تأمل: سكرة الموت والاحتضار
- ١٠٠٣ القسم الخامس: قيامة الناس
- ١٠٠٤ القسم السادس: الثواب والعقاب
- ١٠٠٤ اشارة
- ١٠٠٦ تأمل: اسلوب الهداية
- ١٠٠٦ القسم السابع: زهد النبي صلى الله عليه و آله
- ١٠٠٦ اشارة
- ١٠٠٧ تأمل: الشرط الاصلى فى الزعامة
- ١٠٠٨ القسم الثامن: أهل البيت عليهم السلام
- ١٠٠٩ الخطبة [٧٦٩] المائة و عشر
- ١٠٠٩ اشارة
- ١٠٠٩ نظرة إلى الخطبة
- ١٠٠٩ القسم الأول: فرائض الإسلام
- ١٠٠٩ اشارة
- ١٠١٣ فلسفة الأحكام
- ١٠١٤ القسم الثانى: القرآن والسنة
- ١٠١٤ اشارة
- ١٠١٦ تأمل: عاقبة العالم غير العامل
- ١٠٤٨ الجزء الخامس
- ١٠٤٩ الخطبة [١] المائة وإحدى عشرة
- ١٠٤٩ اشارة
- ١٠٤٩ نظرة إلى الخطبة
- ١٠٤٩ القسم الأول: الدنيا الغرارة!
- ١٠٥١ القسم الثانى: الدنيا كل يوم بلباس

- ١٠٥٢ القسم الثالث: الدنيا سند هش حاوى!
- ١٠٥٣ القسم الرابع: تأملوا الماضى قليلاً
- ١٠٥٥ القسم الخامس: الاعتبار بالموتى
- ١٠٥٥ اشارة
- ١٠٥٨ تأملان
- ١٠٥٨ ١- سبل مواجهة التعلق بالدنيا
- ١٠٥٩ ٢- الرد على سؤال
- ١٠٦٠ الخطبة [٧٢] المائة و ائنتا عشرة
- ١٠٦٠ اشارة
- ١٠٦٠ نظرة إلى الخطبة
- ١٠٦٠ أينما تكونوا يدرككم الموت
- ١٠٦١ تأملات
- ١٠٦١ ١- ملك الموت أم ملائكة الموت
- ١٠٦٢ ٢- كيفية قبض الأرواح
- ١٠٦٢ الخطبة [٧٧] المائة ثلاثة عشرة
- ١٠٦٢ اشارة
- ١٠٦٢ نظرة إلى الخطبة
- ١٠٦٣ القسم الأول: التحذير من الدنيا
- ١٠٦٤ القسم الثانى: صفات الزهاد فى الدنيا
- ١٠٦٤ القسم الثالث: العود على ذم أصحاب الدنيا
- ١٠٦٧ الخطبة [٨٦] المائة و أربعة عشرة
- ١٠٦٧ اشارة
- ١٠٦٧ نظرة إلى الخطبة
- ١٠٦٧ القسم الأول: الثقة القيمة

- ١٠٦٧ اشارة
- ١٠٦٩ تأمل
- ١٠٦٩ اسس الموقية والنجاه
- ١٠٧٠ القسم الثاني: أعظم الفضائل
- ١٠٧١ القسم الثالث: العبر والاعتبار
- ١٠٧٣ القسم الرابع: الحرص على الدنيا
- ١٠٧٤ اشارة
- ١٠٧٧ تأملات
- ١٠٧٧ ١- غرور عن بعد ورعب من قرب
- ١٠٧٨ ٢- الدنيا وآراء الناس
- ١٠٧٨ ٣- كيف نبحت عن سعادة الآخرة في الدنيا؟
- ١٠٧٩ الخطبة [١٢٥] المائة و خمسه عشرة
- ١٠٧٩ اشارة
- ١٠٧٩ نظرة إلى الخطبة
- ١٠٧٩ القسم الاول: الأمل بالله في القحط والجفاف
- ١٠٨١ القسم الثاني: اللهم أمطرنا بوابل رحمتك
- ١٠٨١ اشارة
- ١٠٨٢ تفسير ما في هذه الخطبة من الغريب
- ١٠٨٣ تأملان
- ١٠٨٣ ١- صلاة الاستسقاء
- ١٠٨٣ ٢- الذنب وزوال البركة
- ١٠٨٤ الخطبة [١٨٢] المائة و سادسة عشرة
- ١٠٨٤ اشارة
- ١٠٨٤ نظرة إلى الخطبة

- ١٠٨٥ القسم الأول: عدم التواني في الجهاد
- ١٠٨٥ القسم الثاني: الآفات المظلمة من ورائكم
- ١٠٨٦ اشارة
- ١٠٨٧ مظلومية أمير المؤمنين على عليه السلام
- ١٠٨٧ القسم الثالث: الانتقام الإلهي
- ١٠٨٧ اشارة
- ١٠٨٩ من هو الحجاج؟
- ١٠٨٩ الخطبة [٢٠٤] المائة و سبعة عشر
- ١٠٨٩ اشارة
- ١٠٨٩ نظرة إلى الخطبة
- ١٠٩٠ الفكر والاعتبار
- ١٠٩١ الخطبة [٢٠٧] المائة و ثامنة عشر
- ١٠٩١ اشارة
- ١٠٩١ نظرة إلى الخطبة
- ١٠٩١ الأصحاب الأوفياء
- ١٠٩٢ الثناء على الأصحاب
- ١٠٩٣ الخطبة [٢١١] المائة و تاسعه عشر
- ١٠٩٣ اشارة
- ١٠٩٣ نظرة إلى الخطبة
- ١٠٩٣ القسم الأول: المخلفون الضعفاء والجهال
- ١٠٩٥ القسم الثاني: لولا رجاء الشهادة
- ١٠٩٥ اشارة
- ١٠٩٧ القلوب الواعية
- ١٠٩٧ الخطبة [٢٢٦] المائة و عشرون

- ١٠٩٧ اشارة
- ١٠٩٧ نظرة إلى الخطبة
- ١٠٩٨ المواعظ القيمة
- ١١٠٠ الخطبة [٢٤٠] المائة والحادي العشرون
- ١١٠٠ اشارة
- ١١٠١ نظرة إلى الخطبة
- ١١٠١ القسم الأول: الداء وليس الدواء
- ١١٠٣ القسم الثاني: إخوتى فى الجهاد
- ١١٠٤ القسم الثالث: الحذار من وساوس الشيطان
- ١١٠٥ الخطبة [٢٤٧] والثانية والعشرون
- ١١٠٥ اشارة
- ١١٠٥ نظرة إلى الخطبة
- ١١٠٥ القسم الأول: كيف وقعتم فى فخ العدو
- ١١٠٥ اشارة
- ١١٠٨ نبذة عن شخصية معاوية
- ١١٠٩ القسم الثاني: بذلنا ما فى الوسع من أجل الوحدة
- ١١١٠ الخطبة [٢٧٨] المائة والثلاثة والعشرون
- ١١١٠ اشارة
- ١١١٠ نظرة إلى الخطبة
- ١١١٠ القسم اول: شكر القدرة
- ١١١٠ اشارة
- ١١١١ الشهادة عرس الأبطال
- ١١١٢ القسم الثاني: عاقبة السوء
- ١١١٣ الخطبة [٢٨٨] المائة و الرابعه والعشرون

- ١١١٣ اشارة
- ١١١٣ نظرة إلى الخطبة
- ١١١٣ القسم الأول: سبع وصايا في فنون القتال
- ١١١٦ القسم الثاني: الجنّة تحت ظلال السيوف
- ١١١٧ القسم الثالث: القضاء على آخر معاقل العدو
- ١١١٨ الخطبة [٣٣٠] المائة والخامسة والعشرون
- ١١١٨ اشارة
- ١١١٩ نظرة إلى الخطبة
- ١١١٩ القسم الأول: الردّ على الخوارج
- ١١١٩ اشارة
- ١١٢٠ قضية التحكيم
- ١١٢١ القسم الثاني: لستم من أهل الجهاد
- ١١٢٢ اشارة
- ١١٢٤ تأملان
- ١١٢٤ ١- عهد صفين
- ١١٢٤ ٢- حوار الإمام عليه السلام مع الخوارج
- ١١٢٥ الخطبة [٣٥٩] المائة والسادسة والعشرون
- ١١٢٥ اشارة
- ١١٢٥ نظرة إلى الخطبة
- ١١٢٦ المنصب والعدالة
- ١١٢٧ بحث في اسلوب تقسيم العطاء
- ١١٢٩ الخطبة [٣٦٩] المائة والسابعة والعشرون
- ١١٢٩ اشارة
- ١١٢٩ نظرة إلى الخطبة

- ١١٢٩ القسم الأول: العنف الهمجى للخوارج
- ١١٢٩ اشارة
- ١١٣١ تأملات
- ١١٣١ ١- الخوارج وتكفير أهل الذنوب
- ١١٣١ ٢- جانب من جنايات الخوارج
- ١١٣٢ ٣- الردّ على سؤال
- ١١٣٢ القسم الثانى: شر الناس
- ١١٣٣ اشارة
- ١١٣٤ تأملات
- ١١٣٤ ١- الحذر من الإفراط والتفريط
- ١١٣٥ ٢- يد الله مع الجماعة
- ١١٣٥ ٣- شرار الخلق
- ١١٣٦ القسم الثالث: انحراف الحكمين
- ١١٣٦ اشارة
- ١١٣٨ تأمل
- ١١٣٨ دروس التحكيم
- ١١٣٨ الخطبة [٣٩٨] المأة والثامنة والعشرون
- ١١٣٨ اشارة
- ١١٣٨ نظرة إلى الخطبة
- ١١٣٩ القسم الأول: الفتنة المرعبة بالمرصاد
- ١١٣٩ اشارة
- ١١٤٠ تأمل: قيام صاحب الزنج
- ١١٤٢ القسم الثانى: نبوءة أخرى
- ١١٤٢ اشارة

- ١١٤٣ فتنة المغول
- ١١٤٤ القسم الثالث: الغيب لله ولكن ...
- ١١٤٤ اشارة
- ١١٤٥ وهنا لا بد من طرح هذه الأسئلة
- ١١٤٦ علم الغيب في الآيات والروايات
- ١١٤٧ الخطبة [٤٢٨] المائة والتاسعة والعشرون
- ١١٤٧ اشارة
- ١١٤٧ نظرة إلى الخطبة
- ١١٤٧ القسم الأول: التحذير من الفساد الاجتماعي
- ١١٤٩ القسم الثاني: أين الأخيار؟
- ١١٤٩ اشارة
- ١١٥١ شكوى أهل الزمان
- ١١٥١ الخطبة [٤٤٩] المائة والثلاثون
- ١١٥١ اشارة
- ١١٥٢ نظرة إلى الخطبة
- ١١٥٢ القسم الأول: أبو ذر رحمه الله بطل مقارعة الفساد
- ١١٥٢ اشارة
- ١١٥٣ تأملات
- ١١٥٣ ١- من هو أبو ذر رحمه الله
- ١١٥٥ ٢- أبو ذر رحمه الله والاشتراكية
- ١١٥٦ ٣- العاقبة المريرة لأبي ذر
- ١١٥٧ ٤- كلمات المودعين لأبي ذر
- ١١٥٧ الخطبة [٤٧٠] المائة والحادية والثلاثون
- ١١٥٧ اشارة

- ١١٥٧ نظرة إلى الخطبة
- ١١٥٨ القسم الأول: لستم من الأصحاب الأخيار
- ١١٥٨ اشارة
- ١١٥٩ العوامل الرئيسية للفشل
- ١١٥٩ القسم الثاني: الهدف هو إقامة الحق وبسط العدل
- ١١٦١ القسم الثالث: شرائط حكام العدل
- ١١٦١ اشارة
- ١١٦٢ آفة الحكومات
- ١١٦٣ الخطبة [٤٨٨] المأة والثانية والثلاثون
- ١١٦٣ اشارة
- ١١٦٣ نظرة إلى الخطبة
- ١١٦٣ القسم الأول: صفات الله الخاصة
- ١١٦٤ القسم الثاني: نزول الموت؟
- ١١٦٥ القسم الثالث: ممر يعرف باسم الدنيا
- ١١٦٥ اشارة
- ١١٦٦ نتيجة الخطبة
- ١١٦٧ الخطبة [٥٠٢] المأة والثالثة والثلاثون
- ١١٦٧ اشارة
- ١١٦٧ نظرة إلى الخطبة
- ١١٦٧ القسم الأول: انقياد ما فى الدنيا لله
- ١١٦٧ اشارة
- ١١٦٨ اسجام الآيات والروايات
- ١١٦٨ القسم الثاني: إعجاز القرآن
- ١١٦٨ اشارة

- ١١٦٩ القرآن الناطق
- ١١٦٩ القسم الثالث: رسالة خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله
- ١١٧٠ القسم الرابع: الدنيا غايبة بصر الأعمى
- ١١٧٠ اشارة
- ١١٧١ التعامل مع الدنيا
- ١١٧٢ القسم الخامس: أهمية القرآن و دور عبادة الدنيا فى الصراعات
- ١١٧٥ الخطبة [٥٤٦] المائة والرابعة والثلاثون
- ١١٧٥ اشارة
- ١١٧٥ نظرة إلى الخطبة
- ١١٧٦ الحضور الخطير
- ١١٧٧ تأملات
- ١١٧٧ ١- الرد على سؤال
- ١١٧٨ ٢- شبهة أخرى
- ١١٧٨ ٣- الأمانة فى الاستشارة
- ١١٧٨ ٤- إستنتاج خاطيء
- ١١٧٩ الخطبة [٥٦١] المائة والخامسة والثلاثون
- ١١٧٩ اشارة
- ١١٧٩ نظرة إلى الخطبة
- ١١٨٠ أنت عاجز
- ١١٨٠ سلوك الإمام عليه السلام تجاه الفرد العديم المنطق
- ١١٨١ الخطبة [٥٧١] المائة والسادسة والثلاثون
- ١١٨١ اشارة
- ١١٨١ نظرة إلى الخطبة
- ١١٨١ أنصف المظلوم من الظالم

- ١١٨٢ الخطبة [٥٧٧] المأة والسابعة والثلاثون
- ١١٨٢ اشارة
- ١١٨٢ نظرة إلى الخطبة
- ١١٨٣ القسم الأول: الحاقدون الظالمون
- ١١٨٤ القسم الثاني: إصراركم على البيعة
- ١١٨٥ اشارة
- ١١٨٥ القاتل يطالب بالتأر
- ١١٨٤ الخطبة [٦٠١] المأة والرابعة والثلاثون
- ١١٨٤ اشارة
- ١١٨٤ نظرة إلى الخطبة
- ١١٨٧ القسم الأول: خصائص الإمام المهدي عليه السلام
- ١١٨٨ القسم الثاني: جانب من الحوادث المرعبة آخر الزمان
- ١١٨٩ القسم الثالث: خصائص ذلك الحاكم الدموى
- ١١٩٠ الخطبة [٦٢٥] المأة والتاسعة والثلاثون
- ١١٩٠ اشارة
- ١١٩٠ نظرة إلى الخطبة
- ١١٩١ تحذير من الحوادث المستقبلية
- ١١٩٢ جذور الفساد
- ١١٩٢ الخطبة [٦٣٢] المأة والأربعون
- ١١٩٢ اشارة
- ١١٩٢ نظرة إلى الخطبة
- ١١٩٣ القسم الأول: التغابى عن عيوب الذات
- ١١٩٤ القسم الثاني: افتقاء العيوب جحد عظيم
- ١١٩٤ اشارة

- ١١٩٥ الغيبة والبحث عن العيوب آفة المجتمعات الإنسانية
- ١١٩٧ الخطبة [٦٣٩] المائة والحادية والأربعون
- ١١٩٧ اشارة
- ١١٩٧ نظرة إلى الخطبة
- ١١٩٧ المسافة بين الحق الباطل
- ١١٩٩ درس أخلاقي رفيع
- ١١٩٩ الخطبة [٦٤٤] المائة والحادية والأربعون
- ١١٩٩ اشارة
- ١١٩٩ نظرة إلى الخطبة
- ١١٩٩ القسم الأول: المعروف في موضعه
- ١٢٠٠ القسم الثاني
- ١٢٠٢ الخطبة [٦٥٦] المائة والثلاثة والاربعون
- ١٢٠٢ اشارة
- ١٢٠٢ نظرة إلى الخطبة
- ١٢٠٢ القسم الأول: درس في التوحيد والأخلاق
- ١٢٠٣ القسم الثاني: الذنب وقلّة البركة
- ١٢٠٣ اشارة
- ١٢٠٤ جانب من فلسفة البلاء
- ١٢٠٥ القسم الثالث: إلهي أمطرنا مطراً مباركاً
- ١٢٠٥ اشارة
- ١٢٠٦ سل الله كل شيء
- ١٢٠٧ الخطبة [٦٧٨] المائة والرابعة والاربعون
- ١٢٠٧ اشارة
- ١٢٠٧ نظرة إلى الخطبة

- ١٢٠٧ القسم الأول: فلسفة الإمتحان الإلهي
- ١٢٠٨ القسم الثاني: منزلة الولاية
- ١٢٠٨ اشارة
- ١٢٠٩ قبسات من علم على عليه السلام
- ١٢١٠ رواية أن الأئمة من قريش
- ١٢١١ منزلة بنى هاشم فى الإسلام
- ١٢١١ القسم الثالث: هؤلاء الجفاه يحرقون الأخضر واليابس
- ١٢١٢ القسم الرابع: دعاه الحق و أتباع الشيطان
- ١٢١٣ الخطبة [٧١١] الماء والخامسة و الأربعون
- ١٢١٣ اشارة
- ١٢١٣ نظرة إلى الخطبة
- ١٢١٣ القسم الأول: تضارب نعم الدنيا
- ١٢١٥ القسم الثاني: موت السنن بظهور البدع
- ١٢١٦ الخطبة [٧٢٢] الماء والسادسة والأربعون
- ١٢١٦ اشارة
- ١٢١٦ نظرة إلى الخطبة
- ١٢١٧ القسم الأول: الالتصاق بمركز الدولة
- ١٢١٧ اشارة
- ١٢١٩ فائدة
- ١٢١٩ القسم الثاني: الكثرة لا تسبب النصر
- ١٢١٩ اشارة
- ١٢٢٠ معركة القادسية و نهاوند
- ١٢٢١ الخطبة [٧٣٧] الماء والسابعة والأربعون
- ١٢٢١ اشارة

- ١٢٢١ نظرة إلى الخطبة
- ١٢٢١ القسم الأول: تجلى الله لعباده فى القرآن
- ١٢٢١ اشارة
- ١٢٢٣ كيفية تجلى الله فى القرآن
- ١٢٢٣ القسم الثانى: لا يبقى من القرآن سوى اسمه
- ١٢٢٣ اشارة
- ١٢٢٥ تأملان
- ١٢٢٥ ١- أبشع عصور الإسلام
- ١٢٢٦ ٢- التاريخ يعيد نفسه
- ١٢٢٦ القسم الثالث: أسباب شقاء الإنسان
- ١٢٢٧ القسم الرابع: سبيل النجاة
- ١٢٢٧ اشارة
- ١٢٢٩ تأمل: معرفة الأشياء بأضدادها
- ١٢٢٩ الخطبة [٧٦٤] المأة والثامنة والأربعون
- ١٢٢٩ اشارة
- ١٢٣٠ نظرة إلى الخطبة
- ١٢٣٠ الإتحاد الظاهرى والعداء الباطنى
- ١٢٣٢ تأمل: أصدقاء الأمس وأعداء اليوم
- ١٢٣٢ الخطبة [٧٧٣] المأة والتاسعة والأربعون
- ١٢٣٢ اشارة
- ١٢٣٢ نظرة إلى الخطبة
- ١٢٣٣ القسم الأول: إستحالة الهروب من الموت
- ١٢٣٤ القسم الثانى: وصية الإمام عليه السلام
- ١٢٣٥ القسم الثالث: معرفتى بعد موتى

- ١٢٣٧ الخطبة [٧٩٩] المائة والخمسون
- ١٢٣٧ اشارة
- ١٢٣٧ نظرة إلى الخطبة
- ١٢٣٧ القسم الأول: إنتظام كل شيء في ظل وجوده
- ١٢٣٧ اشارة
- ١٢٣٩ تأمل: قطعية قيام المهدي الموعود عليه السلام
- ١٢٣٩ القسم الثاني: خصائص أنصار النبي صلى الله عليه و آله
- ١٢٤٠ القسم الثالث: العودة إلى القيم الجاهلية
- ١٢٤٠ اشارة
- ١٢٤٢ تأمل: مصير جاحدوا الولاية
- ١٢٤٣ حسن الختام
- ١٢٧٨ الجزء السادس
- ١٢٧٨ الخطبة ١٥١
- ١٢٧٨ اشارة
- ١٢٧٨ نظرة إلى الخطبة
- ١٢٧٩ القسم الأول
- ١٢٧٩ الشرح والتفسير: الشمس التي أشرقت في الظلام
- ١٢٨٠ القسم الثاني
- ١٢٨٠ الشرح والتفسير: الحذر من الفتنة
- ١٢٨٢ تأمل: مميزات الحكام اتباع الهوى
- ١٢٨٢ القسم الثالث
- ١٢٨٢ الشرح والتفسير: خصائص هذه الفتنة الكبرى
- ١٢٨٤ القسم الرابع
- ١٢٨٥ الشرح والتفسير: التكليف حين الفتنة

- الخطبة ١٥٢ ١٢٨٦
- اشارة ١٢٨٦
- نظرة إلى الخطبة ١٢٨٦
- القسم الأول ١٢٨٦
- الشرح والتفسير: شمة من صفات الله الجمالية والجلالية ١٢٨٦
- القسم الثاني ١٢٨٩
- الشرح والتفسير: إنتظار الفرج ١٢٩٠
- الخطبة ١٥٣ ١٢٩٣
- اشارة ١٢٩٣
- نظرة إلى الخطبة [٤٥] ١٢٩٣
- القسم الأول ١٢٩٤
- الشرح والتفسير ١٢٩٤
- القسم الثاني ١٢٩٤
- الشرح والتفسير: الموعظة البالغة ١٢٩٤
- القسم الثالث ١٢٩٤
- الشرح والتفسير: الحذر الحذر ١٢٩٤
- القسم الرابع ١٢٩٧
- الشرح والتفسير: الموبقات الخمس ١٢٩٧
- الخطبة ١٥٤ ١٢٩٩
- اشارة ١٢٩٩
- نظرة إلى الخطبة ١٢٩٩
- القسم الأول ١٣٠٠
- الشرح والتفسير: أبواب علم النبي ١٣٠٠
- تأملان ١٣٠١

- ١٣٠١ ١. الفارق بين العُجب والتعريف بالذات
- ١٣٠١ ٢. الفضل ما شهدت به الاعداء
- ١٣٠٢ القسم الثاني
- ١٣٠٢ الشرح والتفسير: خصائص دعاء الحق
- ١٣٠٤ القسم الثالث
- ١٣٠٤ الشرح والتفسير: معرفة المحسن والمسيء
- ١٣٠٥ الخطبة ١٥٥
- ١٣٠٥ اشارة
- ١٣٠٦ نظرة إلى الخطبة
- ١٣٠٦ القسم الأول
- ١٣٠٦ الشرح والتفسير: درس في معرفة الله
- ١٣٠٧ القسم الثاني
- ١٣٠٧ الشرح والتفسير: الطائر العجيب
- ١٣٠٩ القسم الثالث
- ١٣٠٩ الشرح والتفسير: عجائب الخفاش
- ١٣١٠ تأمل
- ١٣١٠ خلقه الخفاش العجيبة
- ١٣١١ الخطبة ١٥٦
- ١٣١١ اشارة
- ١٣١١ نظرة إلى الخطبة
- ١٣١١ القسم الأول
- ١٣١٢ الشرح والتفسير: ظهور الاحقاد بذرائع واهية
- ١٣١٣ القسم الثاني
- ١٣١٤ الشرح والتفسير: السبيل إلى النجاة

- ١٣١٥ القسم الثالث
- ١٣١٥ الشرح والتفسير: عوامل النجاة في القيامة
- ١٣١٧ القسم الرابع
- ١٣١٨ الشرح والتفسير: الفتنة الكبرى
- ١٣١٨ تأملان
- ١٣١٨ ١. الرد على بعض الأسئلة
- ١٣١٩ ٢. الشهادة مفخرة لا مصيبة
- ١٣١٩ القسم الخامس
- ١٣١٩ الشرح والتفسير: الحيل الشرعية في استحلال المحرمات
- ١٣٢٠ تأمل: الحرام لا يحلل بالزيف
- ١٣٢١ الخطبة ١٥٧
- ١٣٢١ اشارة
- ١٣٢١ نظرة إلى الخطبة
- ١٣٢١ القسم الأول
- ١٣٢٢ الشرح والتفسير: انعطافه على المبدأ والمعاد
- ١٣٢٣ تأمل: كيف يعيد التاريخ نفسه
- ١٣٢٣ القسم الثاني
- ١٣٢٤ الشرح والتفسير: تقلب الدنيا
- ١٣٢٤ القسم الثالث
- ١٣٢٤ الشرح والتفسير: حضور المحكمة الإلهية
- ١٣٢٩ تأملان
- ١٣٢٩ ١. الشهود على الأعمال
- ١٣٢٩ ٢. ثلاث عبارات عميقة المعنى
- ١٣٣٠ الخطبة ١٥٨

- ١٣٣٠ اشارة
- ١٣٣٠ نظرة إلى الخطبة
- ١٣٣٠ القسم الأول
- ١٣٣٠ الشرح والتفسير: الكتاب الذى استوعب كل شىء
- ١٣٣٢ القسم الثانى
- ١٣٣٢ الشرح والتفسير: حكومة الظلم ودولة الطغيان
- ١٣٣٣ تأملان
- ١٣٣٣ ١. وظيفة الحاكم والرعية
- ١٣٣٤ ٢. فاجعة نهاية دولة بنى امية
- ١٣٣٤ الخطبة ١٥٩
- ١٣٣٤ اشارة
- ١٣٣٤ نظرة إلى الخطبة
- ١٣٣٥ الشرح والتفسير
- ١٣٣٥ الدعم المطلق
- ١٣٣٦ الخطبة ١٦٠
- ١٣٣٦ نظرة إلى الخطبة [٢١٨]
- ١٣٣٦ القسم الأول
- ١٣٣٧ الشرح والتفسير: عجز العقول امام عظمة الله
- ١٣٣٩ القسم الثانى
- ١٣٣٩ الشرح والتفسير
- ١٣٣٩ عبید الدنيا
- ١٣٤١ تأمل
- ١٣٤١ الخوف والرجاء
- ١٣٤٢ القسم الثالث

- ١٣٤٢ الشرح والتفسير: التأسى بالنبي صلى الله عليه و آله
- ١٣٤٣ القسم الرابع
- ١٣٤٣ الشرح والتفسير: زهد الأنبياء
- ١٣٤٥ تأملات
- ١٣٤٥ ١. مزامير داود
- ١٣٤٦ ٢. الصوت الداودي
- ١٣٤٦ ٣. زهد الأنبياء
- ١٣٤٦ القسم الخامس
- ١٣٤٦ الشرح والتفسير: سيرة النبي صلى الله عليه و آله إزاء عبدة الدنيا
- ١٣٤٧ القسم السادس
- ١٣٤٨ الشرح والتفسير
- ١٣٤٨ زهد النبي صلى الله عليه و آله
- ١٣٤٩ القسم السابع
- ١٣٤٩ الشرح والتفسير: لم التأسى بالنبي الأكرم صلى الله عليه و آله
- ١٣٥١ تأمل
- ١٣٥٢ الخطبة ١٦١
- ١٣٥٢ إشارة
- ١٣٥٢ نظرة إلى الخطبة
- ١٣٥٢ القسم الأول
- ١٣٥٢ الشرح والتفسير: صفات النبي صلى الله عليه و آله
- ١٣٥٤ تأمل
- ١٣٥٤ من قال أم ما قال؟
- ١٣٥٥ القسم الثاني
- ١٣٥٥ الشرح والتفسير: الاعتبار بالامم السابقة

١٣٥٧	الخطبة ١٦٢
١٣٥٧	اشارة
١٣٥٧	نظرة إلى الخطبة
١٣٥٧	القسم الأول
١٣٥٧	الشرح والتفسير: علة غضب الخلافة العلوية
١٣٥٩	القسم الثاني
١٣٦٠	الشرح والتفسير
١٣٦١	تأملات
١٣٦١	١. حق السؤال
١٣٦٢	٢. الهدف الاصلى من السؤال والجواب فى الخطبة
١٣٦٣	٣. بنى امية ومؤامرة القضاء على الإسلام
١٣٦٤	الخطبة ١٦٣
١٣٦٤	نظرة إلى الخطبة [٣٤١]
١٣٦٤	القسم الأول
١٣٦٤	الشرح والتفسير: حادثة مهمة
١٣٦٨	تأمل: الله حقيقة مطلقة
١٣٦٨	القسم الثاني
١٣٦٩	الشرح والتفسير: العلم الإلهى المطلق
١٣٦٩	تأمل: دور الإيمان بعلم الله على العمل
١٣٧٠	القسم الثالث
١٣٧٠	الشرح والتفسير: الأرفع من الخيال والوهم
١٣٧١	تأمل
١٣٧١	الدورة الجينية المذهلة
١٣٧٢	الخطبة ١٦٤

- ١٣٧٢ اشارة
- ١٣٧٢ نظرة إلى الخطبة
- ١٣٧٣ القسم الأول
- ١٣٧٣ الشرح والتفسير: إتمام الحجة على عثمان
- ١٣٧٤ تأمل
- ١٣٧٤ سئل نفوذ الكلام فى الآخرين
- ١٣٧٥ القسم الثانى
- ١٣٧٥ الشرح والتفسير: خصائص الحاكم العادل والظالم
- ١٣٧٨ أضواء على حادثة قتل عثمان
- ١٣٧٨ الخطبة ١٦٥
- ١٣٧٨ اشارة
- ١٣٧٩ نظرة إلى الخطبة
- ١٣٧٩ القسم الأول
- ١٣٧٩ الشرح والتفسير: خلق الطيور
- ١٣٨١ تأمل: عجائب عالم الطيور
- ١٣٨٢ القسم الثانى
- ١٣٨٢ الشرح والتفسير: أعجب طير فى العالم
- ١٣٨٤ القسم الثالث
- ١٣٨٤ الشرح والتفسير: صورة رائعة لجناح الطاووس
- ١٣٨٥ القسم الرابع
- ١٣٨٦ الشرح والتفسير: صورة دقيقة عن جمال الطاووس
- ١٣٨٦ القسم الخامس
- ١٣٨٧ الشرح والتفسير: حيرة العقول فى الوصف
- ١٣٨٧ تأمل

- ١٣٨٨ غرائب الطاووس
- ١٣٨٨ القسم السادس
- ١٣٨٨ الشرح والتفسير: الديدان والفيلة والحيتان
- ١٣٨٩ تأمل: غيض من عجائب الحيتان والفيلة
- ١٣٨٩ الحيتان
- ١٣٨٩ الفيلة
- ١٣٩٠ القسم السابع
- ١٣٩٠ الشرح والتفسير: نعم الجنة ومفاتها
- ١٣٩٢ تأمل: أيتها أجمل؟
- ١٣٩٢ الخطبة ١٦٦
- ١٣٩٢ نظرة إلى الخطبة [٥٤١]
- ١٣٩٢ القسم الأول
- ١٣٩٣ الشرح والتفسير: ثلاث وصايا أخلاقية
- ١٣٩٣ القسم الثاني
- ١٣٩٤ الشرح والتفسير: المصير الأسود لبنى أمية
- ١٣٩٥ تأمل: ثورات دامية ضد بنى أمية
- ١٣٩٦ القسم الثالث
- ١٣٩٦ الشرح والتفسير: عامل التخلف
- ١٣٩٦ تأمل: بنو اسرائيل
- ١٣٩٧ الخطبة ١٥٦
- ١٣٩٧ اشارة
- ١٣٩٧ نظرة إلى الخطبة
- ١٣٩٧ القسم الأول
- ١٣٩٧ الشرح والتفسير: معرفة سبيل الحق

- القسم الثاني ١٣٩٩
- الشرح والتفسير: المسؤولية الشاملة ١٣٩٩
- تأمل: سلامة البيئة وحماية الحيوانات في الإسلام ١٤٠٠
- الخطبة ١٦٨ ١٤٠١
- اشارة ١٤٠١
- نظرة إلى الخطبة ١٤٠١
- القسم الأول ١٤٠١
- الشرح والتفسير: أسباب تأخير عقوبة قتلة عثمان ١٤٠١
- تأملان ١٤٠٣
١. معوقات العدالة ١٤٠٣
٢. إشكال الثوار ١٤٠٣
- الخطبة ١٦٩ ١٤٠٤
- اشارة ١٤٠٤
- نظرة إلى الخطبة ١٤٠٤
- القسم الأول ١٤٠٤
- الشرح والتفسير: القيام أو زوال الحكومة الإسلامية ١٤٠٤
- القسم الثاني ١٤٠٥
- الشرح والتفسير: الصبر على الفتنة ١٤٠٥
- الخطبة ١٧٠ ١٤٠٦
- اشارة ١٤٠٦
- نظرة إلى الخطبة ١٤٠٦
- القسم الأول ١٤٠٦
- الشرح والتفسير: لماذا لا يتابع ١٤٠٧
- تأمل: عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام ١٤٠٨

- الخطبة ١٧١ ١٤٠٨
- اشارة ١٤٠٩
- نظرة إلى الخطبة ١٤٠٩
- القسم الأول ١٤٠٩
- الشرح والتفسير: الجنة أمامكم ١٤٠٩
- تأمل ١٤١١
- الخطبة ١٧٢ ١٤١١
- نظرة إلى الخطبة [٤٤٠] ١٤١١
- القسم الأول ١٤١٢
- الشرح والتفسير: قريش والخلافة ١٤١٢
- تأملان ١٤١٣
١. العيون المعصوبة ازاء الحقائق ١٤١٣
٢. هل ينبغي التنازل عن بعض الحق ١٤١٤
- القسم الثاني ١٤١٥
- الشرح والتفسير ١٤١٥
- فضيحة أصحاب الجمل ١٤١٥
- سؤال آخر: ١٤١٦
- الخطبة ١٧٣ ١٤١٧
- اشارة ١٤١٧
- نظرة إلى الخطبة ١٤١٧
- القسم الأول ١٤١٧
- الشرح والتفسير: أجدر الأفراد بزعامة الأمة ١٤١٧
- سؤال: ١٤١٨
- الجواب: ١٤١٨

- سؤال: ١٤١٩
- الجواب: ١٤١٩
- القسم الثاني ١٤١٩
- الشرح والتفسير ١٤٢٠
- تعليمات عسكرية ١٤٢٠
- تأمل: حوار مع عمار بن ياسر في صفين ١٤٢٠
- القسم الثالث ١٤٢١
- الشرح والتفسير: الدنيا ليست داركم ١٤٢١
- الخطبة ١٧٤ ١٤٢٣
- اشارة ١٤٢٣
- نظرة إلى الخطبة ١٤٢٣
- القسم الأول ١٤٢٣
- الشرح والتفسير: تناقض طلحة دليل فضيحة ١٤٢٤
- الخطبة ١٧٥ ١٤٢٥
- اشارة ١٤٢٥
- نظرة إلى الخطبة ١٤٢٥
- القسم الأول ١٤٢٥
- الشرح والتفسير: الغفلة التامة ١٤٢٦
- القسم الثاني ١٤٢٦
- الشرح والتفسير: علّمني رسول الله صلى الله عليه و آله كل شيء ١٤٢٧
- الخطبة ١٧٦ ١٤٢٨
- اشارة ١٤٢٨
- نظرة إلى الخطبة ١٤٢٨
- القسم الأول ١٤٢٨

- ١٤٢٨ الشرح والتفسير: حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات
- ١٤٢٩ تأمل: عشق الطاعة
- ١٤٣٠ القسم الثاني
- ١٤٣٠ الشرح والتفسير: نقد الذات
- ١٤٣٠ وصايا ضرورية
- ١٤٣١ القسم الثالث
- ١٤٣١ الشرح والتفسير: القرآن دواء لكل داء
- ١٤٣٢ تأمل
- ١٤٣٢ القرآن والشفاء
- ١٤٣٣ القسم الرابع
- ١٤٣٣ الشرح والتفسير: القرآن شفيع القيامة
- ١٤٣٤ القسم الخامس
- ١٤٣٤ الشرح والتفسير: الدفاع المشروط
- ١٤٣٥ القسم السادس
- ١٤٣٥ الشرح والتفسير
- ١٤٣٦ تأمل: الإستقامة في مسار الولاية
- ١٤٣٦ القسم السابع
- ١٤٣٧ الشرح والتفسير: فرق المؤمن عن المنافق في إصلاح اللسان
- ١٤٣٩ تأملان
- ١٤٣٩ ١. اللسان اعجب اعضاء البدن
- ١٤٣٩ ٢. رصيد الإنسان
- ١٤٤٠ القسم الثامن
- ١٤٤٠ الشرح والتفسير: أخطار البدع
- ١٤٤١ تأمل

- ١٤٤١ البدعة
- ١٤٤٢ القسم التاسع
- ١٤٤٢ الشرح والتفسير: القرآن ربيع القلوب وينابيع العلوم
- ١٤٤٤ القسم العاشر
- ١٤٤٤ الشرح والتفسير: إصلاح النفس
- ١٤٤٦ تأمل: العيش بصورة جماعية أم الإنزواء
- ١٤٤٧ الخطبة ١٧٧
- ١٤٤٧ اشارة
- ١٤٤٧ نظرة إلى الخطبة
- ١٤٤٧ القسم الأول
- ١٤٤٧ الشرح والتفسير: بطلان الحكم بانحراف الحكمين
- ١٤٤٩ تأمل: تولي الحكمين عن القرآن
- ١٤٤٩ الخطبة ١٧٨
- ١٤٤٩ اشارة
- ١٤٤٩ نظرة إلى الخطبة
- ١٤٥٠ القسم الأول
- ١٤٥٠ الشرح والتفسير: عظمة الله وكرامة نبيه صلى الله عليه و آله
- ١٤٥٢ تأملان
- ١٤٥٢ ١. مشكله الصفات
- ١٤٥٢ ٢. أهداف بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله
- ١٤٥٢ القسم الثاني
- ١٤٥٣ الشرح والتفسير: صدق النبي مع الله
- ١٤٥٤ الخطبة ١٧٩
- ١٤٥٤ اشارة

- ١٤٥٤ نظرة إلى الخطبة
- ١٤٥٤ القسم الأول
- ١٤٥٤ الشرح والتفسير: هل رأيت الله؟
- ١٤٥٧ الخطبة ١٨٠
- ١٤٥٧ اشارة
- ١٤٥٧ نظرة إلى الخطبة وسبب الورد
- ١٤٥٨ القسم الأول
- ١٤٥٨ الشرح والتفسير: الجهاد أو الموت والعار
- ١٤٥٩ القسم الثاني
- ١٤٥٩ الشرح والتفسير
- ١٤٦٠ تأملان
- ١٤٦١ ١. الفرق بين المعونة والعطاء
- ١٤٦١ ٢. الخدمات الثقافية الأربعة للإمام عليه السلام
- ١٤٩٥ الجزء السابع
- ١٤٩٥ الخطبة ١٨١
- ١٤٩٥ اشارة
- ١٤٩٥ نظرة إلى الخطبة
- ١٤٩٦ الشرح والتفسير: مصير المشككين الجهال
- ١٤٩٧ الخطبة ١٨٢
- ١٤٩٧ اشارة
- ١٤٩٧ نظرة إلى الخطبة
- ١٤٩٨ القسم الاول
- ١٤٩٨ اشارة
- ١٤٩٨ الشرح والتفسير: هو من يستحق الشكر

- ١٥٠٠ القسم الثاني
- ١٥٠٠ اشارة
- ١٥٠٠ الشرح والتفسير: دلالة السماء على الله
- ١٥٠١ القسم الثالث
- ١٥٠١ اشارة
- ١٥٠٢ الشرح والتفسير: احاطته العلميه بكل شىء
- ١٥٠٣ تأمل
- ١٥٠٣ ما الأنواء؟
- ١٥٠٣ القسم الرابع
- ١٥٠٤ اشارة
- ١٥٠٤ الشرح والتفسير: عجزنا عن إدراك صفاته
- ١٥٠٤ تأملان
- ١٥٠٤ ١. سرّ صعوبة معرفة صفات الله
- ١٥٠٧ ٢. العرش والكرسى
- ١٥٠٨ القسم الخامس
- ١٥٠٨ اشارة
- ١٥٠٨ الشرح والتفسير: أين الفراغ والعمالقة؟
- ١٥٠٩ تأملات
- ١٥٠٩ ١. شوكة سليمان عليه السلام وموته
- ١٥١٠ ٢. من هم العمالقة؟
- ١٥١١ ٣. فراغ مصر
- ١٥١١ ٤. أصحاب الرس
- ١٥١١ القسم السادس
- ١٥١٢ اشارة

- ١٥١٢ الشرح والتفسير: خصائص ذلك الولي
- ١٥١٣ تأمل
- ١٥١٣ إشارات لنهضة الإمام المهدي عليه السلام
- ١٥١٤ القسم السابع
- ١٥١٤ اشارة
- ١٥١٤ الشرح والتفسير: التذكير بما يلزم!
- ١٥١٥ القسم الثامن
- ١٥١٥ اشارة
- ١٥١٥ الشرح والتفسير: النفي العام للجهد
- ١٥١٦ تأمل
- ١٥١٧ صحب الإمام عليه السلام الميامين
- ١٥١٧ اشارة
- ١٥١٧ ١. عمار بن ياسر
- ١٥١٧ ٢. ابن التيهان
- ١٥١٨ ٣. ذو الشهادتين
- ١٥١٨ ٤. قيس بن سعد بن عبادة
- ١٥١٨ ٥. أبو أيوب الأنصاري
- ١٥١٩ الخطبة ١٨٣
- ١٥١٩ اشارة
- ١٥١٩ نظرة إلى الخطبة
- ١٥١٩ القسم الأول
- ١٥١٩ اشارة
- ١٥١٩ الشرح والتفسير: دور الأنبياء عليهم السلام في هداية الأمم
- ١٥٢١ القسم الثاني

- ١٥٢١ اشارة
- ١٥٢١ الشرح والتفسير: الهدى فى ظلّ القرآن
- ١٥٢٣ تأملان
- ١٥٢٣ ١. وحدة حكم الله فى الأولين والآخرين
- ١٥٢٤ ٢. القرآن ناطق أم صامت؟
- ١٥٢٥ القسم الثالث
- ١٥٢٥ اشارة
- ١٥٢٥ الشرح والتفسير: منزلة التقوى
- ١٥٢٨ القسم الرابع
- ١٥٢٨ اشارة
- ١٥٢٨ الشرح والتفسير: العذاب الشديد يوم القيامة
- ١٥٢٩ القسم الخامس
- ١٥٢٩ اشارة
- ١٥٢٩ الشرح والتفسير: الامتحان الإلهى
- ١٥٣١ القسم السادس
- ١٥٣١ اشارة
- ١٥٣٢ الشرح والتفسير: الانتقال إلى جيران الله
- ١٥٣٣ تأمل
- ١٥٣٣ طريق السير والسلوك إلى الله
- ١٥٣٣ الخطبة ١٨٤
- ١٥٣٣ اشارة
- ١٥٣٣ نظرة إلى الخطبة
- ١٥٣٤ الشرح والتفسير: صه يا أحمق
- ١٥٣٤ تأمل

- ١٥٣٤ من هو بُرج بن مُسهر؟
- ١٥٣٤ الخطبة ١٨٥
- ١٥٣٥ اشارة
- ١٥٣٥ نظرة إلى الخطبة
- ١٥٣٥ القسم الاول
- ١٥٣٥ اشارة
- ١٥٣٦ الشرح والتفسير: معرفة الله الحقيقية
- ١٥٣٩ القسم الثاني
- ١٥٣٩ اشارة
- ١٥٣٩ الشرح والتفسير: الأبعاد الوجودية للتبى الأكرم صلى الله عليه و آله
- ١٥٤١ القسم الثالث
- ١٥٤١ اشارة
- ١٥٤١ الشرح والتفسير: قدرته المطلقة في خلق الكائنات
- ١٥٤٤ تأمل
- ١٥٤٤ حياة النمل العجيبة
- ١٥٤٥ القسم الرابع
- ١٥٤٥ اشارة
- ١٥٤٥ الشرح والتفسير: نظرة إلى كائنات السموات والأرض
- ١٥٤٨ تأمل
- ١٥٤٨ قبسات من برهان النظم
- ١٥٤٩ القسم الخامس
- ١٥٤٩ اشارة
- ١٥٤٩ الشرح والتفسير: صنع الجراد
- ١٥٥٠ تأمل

- ١٥٥٠ عجائب الجراة
- ١٥٥١ القسم السادس
- ١٥٥١ اشارة
- ١٥٥١ الشرح والتفسير: الله العظيم
- ١٥٥٣ تأمل
- ١٥٥٣ دروس عظيمة بعبارات قصيرة
- ١٥٥٣ الخطبة ١٨٦
- ١٥٥٣ اشارة
- ١٥٥٤ نظرة إلى الخطبة
- ١٥٥٤ القسم الأول
- ١٥٥٤ اشارة
- ١٥٥٤ الشرح والتفسير: أضواء مهمة في صفات الله
- ١٥٥٨ تأمل
- ١٥٥٨ كيفية الجمع بين الضدين
- ١٥٥٩ القسم الثاني
- ١٥٥٩ اشارة
- ١٥٥٩ الشرح والتفسير
- ١٥٦٢ القسم الثالث
- ١٥٦٢ اشارة
- ١٥٦٢ الشرح والتفسير: جانب من صفاته المطلقة
- ١٥٦٥ القسم الرابع
- ١٥٦٥ اشارة
- ١٥٦٦ الشرح والتفسير: صفات أخرى في الجمال والجلال
- ١٥٦٨ القسم الخامس

- ١٥٦٨ اشارة
- ١٥٦٨ الشرح والتفسير: العجز عن خلق بعوضة
- ١٥٦٩ تأملان
- ١٥٦٩ ١. المعاد الجسماني واعادة المعدوم
- ١٥٧٠ ٢. الخلقة العجيبة للبعوض!
- ١٥٧٠ القسم السادس
- ١٥٧٠ اشارة
- ١٥٧١ الشرح والتفسير: الغنى عن الخلق
- ١٥٧٢ تأمل
- ١٥٧٢ هل هناك زمان دون مخلوق
- ١٥٧٣ القسم السابع
- ١٥٧٣ اشارة
- ١٥٧٣ الشرح والتفسير: دوام الخلقة والفناء
- ١٥٧٤ الخطبة ١٨٧
- ١٥٧٤ اشارة
- ١٥٧٤ نظرة إلى الخطبة
- ١٥٧٥ القسم الأول
- ١٥٧٥ اشارة
- ١٥٧٥ الشرح والتفسير: الحوادث المرعبة
- ١٥٧٧ تأمل
- ١٥٧٧ الحوادث الأليمة آخر الزمان
- ١٥٧٨ القسم الثاني
- ١٥٧٨ اشارة
- ١٥٧٨ الشرح والتفسير: وصايا للنجاة من الفتنة

- ١٥٧٩ تأمل
- ١٥٧٩ الانسحاب من الفتن
- ١٥٨٠ الخطبة ١٨٨
- ١٥٨٠ اشارة
- ١٥٨٠ نظرة إلى الخطبة
- ١٥٨٠ القسم الأول
- ١٥٨٠ اشارة
- ١٥٨٠ الشرح والتفسير: التوصية بالتقوى والحمد
- ١٥٨١ القسم الثاني
- ١٥٨١ اشارة
- ١٥٨١ الشرح والتفسير: أفضل الوعظ
- ١٥٨٢ تأمل
- ١٥٨٢ ذكر الموت
- ١٥٨٣ القسم الثالث
- ١٥٨٣ اشارة
- ١٥٨٣ الشرح والتفسير: سبيل النجاة
- ١٥٨٥ الخطبة ١٨٩
- ١٥٨٥ اشارة
- ١٥٨٥ نظرة إلى الخطبة
- ١٥٨٥ القسم الأول
- ١٥٨٥ اشارة
- ١٥٨٥ الشرح والتفسير: الإيمان الثابت والأجوف
- ١٥٨٦ تأمل
- ١٥٨٦ عناصر ثبات الإيمان

- ١٥٨٧ القسم الثاني
- ١٥٨٧ اشارة
- ١٥٨٧ الشرح والتفسير: سلونى قبل أن تفقدونى
- ١٥٨٩ تأمل
- ١٥٨٩ الهجرة فى الإسلام
- ١٥٩٠ الخطبة ١٩٠
- ١٥٩٠ اشارة
- ١٥٩٠ نظرة إلى الخطبة
- ١٥٩١ القسم الأول
- ١٥٩١ اشارة
- ١٥٩١ الشرح والتفسير: نبى الرحمة والجهاد
- ١٥٩٢ القسم الثاني
- ١٥٩٢ اشارة
- ١٥٩٣ الشرح والتفسير: الأهوال القادمة
- ١٥٩٤ القسم الثالث
- ١٥٩٤ اشارة
- ١٥٩٤ الشرح والتفسير: أهوال المحشر!
- ١٥٩٤ القسم الرابع
- ١٥٩٤ اشارة
- ١٥٩٤ الشرح والتفسير: الاستعداد للرحيل
- ١٥٩٧ القسم الخامس
- ١٥٩٧ اشارة
- ١٥٩٧ الشرح والتفسير: لكل شىء أجل ومدة
- ١٥٩٨ تأمل

- ١٥٩٨ الثورات المتعجلة
- ١٥٩٩ الخطبة ١٩١
- ١٥٩٩ اشارة
- ١٥٩٩ نظرة إلى الخطبة
- ١٥٩٩ القسم الأول
- ١٥٩٩ اشارة
- ١٥٩٩ الشرح والتفسير: بديع خلق الله
- ١٦٠١ القسم الثاني
- ١٦٠١ اشارة
- ١٦٠٢ الشرح والتفسير: التقوى كهف في الدنيا ونور في الآخرة
- ١٦٠٤ القسم الثالث
- ١٦٠٤ اشارة
- ١٦٠٤ الشرح والتفسير: سماع نداء التقوى
- ١٦٠٦ القسم الرابع
- ١٦٠٦ اشارة
- ١٦٠٦ الشرح والتفسير: عاقبة أصحاب الدنيا
- ١٦٠٩ الخطبة ١٩٢
- ١٦٠٩ اشارة
- ١٦٠٩ نظرة إلى الخطبة
- ١٦١٠ القسم الأول
- ١٦١٠ اشارة
- ١٦١١ الشرح والتفسير: الشيطان رأس العصبية
- ١٦١٢ القسم الثاني
- ١٦١٢ اشارة

- ١٦١٣ الشرح والتفسير: الاعتبار بعاقبة إبليس
- ١٦١٤ تأملات
- ١٦١٤ ١. حبط الأعمال
- ١٦١٥ ٢. هل إبليس من الملائكة؟
- ١٦١٥ ٣. كبر إبليس أساس كفره
- ١٦١٥ ٤. وحدة حكم الله في الجميع
- ١٦١٦ القسم الثالث
- ١٦١٦ اشارة
- ١٦١٦ الشرح والتفسير: أعدى أعداء الإنسان
- ١٦١٨ القسم الرابع
- ١٦١٨ اشارة
- ١٦١٩ الشرح والتفسير: التحذير من التشبه بالشیطان أو قابيل
- ١٦٢١ القسم الخامس
- ١٦٢١ اشارة
- ١٦٢١ الشرح والتفسير: اجتناب تبعية المتكبرين
- ١٦٢٥ تأمل
- ١٦٢٥ التكبر والعصبية
- ١٦٢٦ القسم السادس
- ١٦٢٦ اشارة
- ١٦٢٧ الشرح والتفسير: آفة التكبر
- ١٦٢٩ تأمل
- ١٦٢٩ تصحيح خطأ
- ١٦٣٠ القسم السابع
- ١٦٣٠ اشارة

- ١٦٣٠ الشرح والتفسير: درس وعبرة في قصة موسى عليه السلام
- ١٦٣١ القسم الثامن
- ١٦٣١ اشارة
- ١٦٣٢ الشرح والتفسير: زهد الأنبياء
- ١٦٣٢ القسم التاسع
- ١٦٣٢ اشارة
- ١٦٣٣ الشرح والتفسير: الدروس والعبر في بيت الله
- ١٦٣٥ القسم العاشر
- ١٦٣٥ اشارة
- ١٦٣٥ الشرح والتفسير: الكعبة المقدسة
- ١٦٣٧ تأمل
- ١٦٣٧ «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا!»
- ١٦٣٨ القسم الحادي عشر
- ١٦٣٨ اشارة
- ١٦٣٨ الشرح والتفسير: آفة الكبر والغرور
- ١٦٤٠ تأمل
- ١٦٤٠ فلسفه العبادات
- ١٦٤٠ القسم الثاني عشر
- ١٦٤١ اشارة
- ١٦٤١ الشرح والتفسير: العصبية الطائشة
- ١٦٤٢ القسم الثالث عشر
- ١٦٤٢ اشارة
- ١٦٤٢ الشرح والتفسير: العصبية الممدوحة
- ١٦٤٣ تأمل

- ١٦٤٣ العصبية الإيجابية والسلبية
- ١٦٤٤ القسم الرابع عشر
- ١٦٤٤ اشارة
- ١٦٤٥ الشرح والتفسير: الاعتبار بالماضين
- ١٦٤٦ القسم الخامس عشر
- ١٦٤٦ اشارة
- ١٦٤٦ الشرح والتفسير: عناصر انتصار المؤمنين الأوائل
- ١٦٤٧ القسم السادس عشر
- ١٦٤٧ اشارة
- ١٦٤٧ الشرح والتفسير: الوحدة والفرقة، والنصر والهزيمة
- ١٦٤٨ القسم السابع عشر
- ١٦٤٨ اشارة
- ١٦٤٩ الشرح والتفسير: الاعتبار بولد إسماعيل وإسحاق
- ١٦٥٠ تأمل
- ١٦٥٠ القطرة والبحر
- ١٦٥١ القسم الثامن عشر
- ١٦٥١ اشارة
- ١٦٥١ الشرح والتفسير: عزكم بالاسلام
- ١٦٥٢ القسم التاسع عشر
- ١٦٥٢ اشارة
- ١٦٥٢ الشرح والتفسير: اجتناب الفرقة
- ١٦٥٥ القسم العشرون
- ١٦٥٥ اشارة
- ١٦٥٥ الشرح والتفسير: تكليفى فى قتال المفسدين

- ١٦٥٧ تأمل
- ١٦٥٧ من هو ذو الثدية؟
- ١٦٥٨ القسم الحادى والعشرون
- ١٦٥٨ اشارة
- ١٦٥٨ الشرح والتفسير: التربية فى كنف التبي صلى الله عليه و آله
- ١٦٦١ تأملات
- ١٦٦١ ١. العلاقة الحميمة بين على عليه السلام والتبي صلى الله عليه و آله
- ١٦٦١ ٢. غار حراء
- ١٦٦٢ ٣. التبي الأكرم صلى الله عليه و آله قبل البعثة
- ١٦٦٣ القسم الثانى والعشرون
- ١٦٦٣ اشارة
- ١٦٦٣ الشرح والتفسير: معجزة حركة الشجرة
- ١٦٦٦ تأملان:
- ١٦٦٦ ١. معجزة الشجرة فى الروايات الإسلامية
- ١٦٦٦ ٢. الفارق بين السحر والمعجزة
- ١٦٦٧ القسم الثالث والعشرون
- ١٦٦٧ اشارة
- ١٦٦٧ الشرح والتفسير: أولياء الله
- ١٦٦٩ الخطبة ١٩٣
- ١٦٦٩ اشارة
- ١٦٧٠ نظرة إلى الخطبة
- ١٦٧٠ إجابة عن سؤال
- ١٦٧١ القسم الأول
- ١٦٧١ اشارة

- ١٦٧١ الشرح والتفسير: صفات المتقين
- ١٦٧٨ تأمل
- ١٦٧٨ محاور هذا الجانب من الخطبة
- ١٦٧٩ القسم الثاني
- ١٦٧٩ اشارة
- ١٦٧٩ الشرح والتفسير: ليل المتقين
- ١٦٨٠ تأمل
- ١٦٨١ القسم الثالث
- ١٦٨١ اشارة
- ١٦٨١ الشرح والتفسير: نهار المتقين
- ١٦٨٣ تأمل
- ١٦٨٣ إشفاق المتقين من أعمالهم
- ١٦٨٣ القسم الرابع
- ١٦٨٣ اشارة
- ١٦٨٤ شرح وتفسير
- ١٦٨٤ اثنتا عشرة صفة أخرى
- ١٦٨٨ القسم الخامس
- ١٦٨٨ اشارة
- ١٦٨٨ الشرح والتفسير: تسع صفات أخرى
- ١٦٨٨ اشارة
- ١٦٩٤ مصير همام بعد سماع الخطبة
- ١٦٩٤ تأمل
- ١٦٩٤ نظرة أخرى لخطبة همام
- ١٦٩٧ الخطبة ١٩٤

- ١٦٩٧ اشارة
- ١٦٩٧ نظرة إلى الخطبة
- ١٦٩٧ القسم الأول
- ١٦٩٧ اشارة
- ١٦٩٧ الشرح والتفسير: محن الرسالة
- ١٦٩٩ القسم الثاني
- ١٦٩٩ اشارة
- ١٧٠٠ الشرح والتفسير: خطر المنافقين
- ١٧٠٢ القسم الثالث
- ١٧٠٣ اشارة
- ١٧٠٣ الشرح والتفسير: التخطيط الدقيق للمنافقين
- ١٧٠٤ تأمل
- ١٧٠٤ النفاق والمنافقون طيلة التاريخ
- ١٧٠٥ الخطبة ١٩٥
- ١٧٠٦ اشارة
- ١٧٠٦ نظرة إلى الخطبة
- ١٧٠٦ القسم الأول
- ١٧٠٦ اشارة
- ١٧٠٦ الشرح والتفسير: البعث النبوية والظروف الصعبة
- ١٧٠٧ القسم الثاني
- ١٧٠٧ اشارة
- ١٧٠٨ الشرح والتفسير: الموائد الإلهية المطلقة
- ١٧١٠ القسم الثالث
- ١٧١٠ اشارة

- ١٧١٠ الشرح والتفسير: أهوال القيامة
- ١٧١٢ الخطبة ١٩٦
- ١٧١٢ نظرة إلى الخطبة [١٠٠٦]
- ١٧١٢ القسم الأول
- ١٧١٢ اشارة
- ١٧١٣ الشرح والتفسير: أهوال الدنيا
- ١٧١٤ القسم الثاني
- ١٧١٤ اشارة
- ١٧١٤ الشرح والتفسير: اغتنام الفرصة
- ١٧١٥ الخطبة ١٩٧
- ١٧١٥ اشارة
- ١٧١٥ نظرة إلى الخطبة
- ١٧١٥ القسم الأول
- ١٧١٥ اشارة
- ١٧١٥ الشرح والتفسير: طاعتي المطلقة
- ١٧١٧ القسم الثاني
- ١٧١٧ اشارة
- ١٧١٧ الشرح والتفسير: أولى الناس بالنبي صلى الله عليه و آله
- ١٧١٧ اشارة
- ١٧١٩ الحوادث الأليمة إبان وفاة النبي صلى الله عليه و آله وبعدها
- ١٧٢١ الخطبة ١٩٨
- ١٧٢١ اشارة
- ١٧٢١ نظرة إلى الخطبة
- ١٧٢٢ القسم الأول

- ١٧٢٢ اشارة
- ١٧٢٢ الشرح والتفسير: احاطة الله العلميه
- ١٧٢٣ القسم الثاني
- ١٧٢٣ اشارة
- ١٧٢٣ الشرح والتفسير: التقوى مصدر الخيرات
- ١٧٢٤ القسم الثالث
- ١٧٢٤ اشارة
- ١٧٢٧ الشرح والتفسير: فضل الإسلام
- ١٧٣١ القسم الرابع
- ١٧٣١ اشارة
- ١٧٣١ الشرح والتفسير: ربيع الإسلام
- ١٧٣١ اشارة
- ١٧٣٢ اجابة عن سؤال
- ١٧٣٣ تأمل
- ١٧٣٣ ربيع النبوة
- ١٧٣٣ القسم الخامس
- ١٧٣٣ اشارة
- ١٧٣٤ الشرح والتفسير: خصائص القرآن الكريم
- ١٧٣٨ تأملان
- ١٧٣٨ ١. عظمة القرآن لدى أمير المؤمنين عليه السلام
- ١٧٣٩ ٢. العلماء الأجانب والقرآن
- ١٧٤٠ الخطبة ١٩٩
- ١٧٤٠ اشارة
- ١٧٤٠ نظرة إلى الخطبة

١٧٤١	القسم الأول
١٧٤١	اشارة
١٧٤١	الشرح والتفسير: الأهميّة القصوى للصلاة
١٧٤١	اشارة
١٧٤٤	تأمل
١٧٤٤	دور الصلاة في تربية الإنسان
١٧٤٤	القسم الثاني
١٧٤٤	اشارة
١٧٤٤	الشرح والتفسير: بركات الزكاة
١٧٤٤	تأمل
١٧٤٤	الزكاة؛ ركن مهم في المجتمع الإسلامي
١٧٤٧	القسم الثالث
١٧٤٧	اشارة
١٧٤٧	الشرح والتفسير: أداء الأمانة
١٧٤٨	تأملان
١٧٤٨	١. نقطة مهمة
١٧٤٩	٢. أفضل علامات الإيمان
١٧٤٩	القسم الرابع
١٧٤٩	اشارة
١٧٤٩	الشرح والتفسير: عالم الغيب والشهادة
١٧٥١	الخطبة ٢٠٠
١٧٥١	اشارة
١٧٥١	نظرة إلى الخطبة
١٧٥١	الشرح والتفسير: السياسة الآئمة

- ١٧٥٢ تأمل
- ١٧٥٢ السياسة الإنسانية والسياسة الشيطانية
- ١٨٠٠ الجزء الثامن
- ١٨٠٠ الخطبة ٢٠١
- ١٨٠٠ اشارة
- ١٨٠٠ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٠١ الشرح والتفسير: سبيل النجاة
- ١٨٠٣ الخطبة ٢٠٢
- ١٨٠٣ اشارة
- ١٨٠٣ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٠٣ الشرح والتفسير: لوعة على عليه السلام عند قبر الزهراء عليها السلام
- ١٨٠٦ تأملات
- ١٨٠٦ اشارة
- ١٨٠٦ ١. فاطمة الزهراء عليها السلام على لسان رسول الله صلى الله عليه و آله
- ١٨٠٧ ٢. حرمة بيت الزهراء عليها السلام في القرآن والسنة
- ١٨٠٧ ٣. انتهاك حرمة بيت الزهراء عليها السلام
- ١٨١١ ٤. القبر الطاهر لفاطمة الزهراء عليها السلام
- ١٨١١ ٥. زمان شهادة بضعة النبي
- ١٨١٢ الخطبة ٢٠٣
- ١٨١٢ اشارة
- ١٨١٢ نظرة إلى الخطبة
- ١٨١٢ الشرح والتفسير الدنيا ممر
- ١٨١٤ تأمل: الإكثار من هذه العبارة
- ١٨١٤ الخطبة ٢٠٤

- ١٨١٤ اشارة
- ١٨١٥ نظرة إلى الخطبة
- ١٨١٥ الشرح والتفسير: الابتعاد عن طلاب الدنيا
- ١٨١٧ الخطبة ٢٠٥
- ١٨١٧ اشارة
- ١٨١٧ نظرة إلى الخطبة
- ١٨١٧ القسم الأول
- ١٨١٧ الشرح والتفسير: حجج طلحة والزبير
- ١٨١٩ القسم الثاني
- ١٨١٩ الشرح والتفسير: حكم الله
- ١٨٢٠ تأملات
- ١٨٢٠ ١. علة التسوية في العطاء
- ١٨٢٣ ٢. مكانة المشورة
- ١٨٢٤ ٣. طلحة وحلم الخلافة
- ١٨٢٤ الخطبة ٢٠٦
- ١٨٢٤ اشارة
- ١٨٢٥ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٢٥ الشرح والتفسير: الدعاء بدل السب!
- ١٨٢٦ تأمل: السب واللعن
- ١٨٢٧ الخطبة ٢٠٧
- ١٨٢٧ اشارة
- ١٨٢٧ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٢٧ الشرح والتفسير: حفظ نسل النبي صلى الله عليه و آله
- ١٨٢٨ تأمل: شبهات وردود

١٨٢٨	الخطبة ٢٠٨
١٨٢٨	اشارة
١٨٢٩	نظرة إلى الخطبة
١٨٢٩	الشرح والتفسير: رفاق السلاح الجهال
١٨٣٠	تأمل: التضحية بالفرصة الكبرى
١٨٣٠	الخطبة ٢٠٩
١٨٣٠	اشارة
١٨٣١	نظرة إلى الخطبة
١٨٣١	القسم الأول
١٨٣١	اشارة
١٨٣١	الشرح والتفسير: الدار الواسعة
١٨٣٢	تأمل: الدار الواسعة في الروايات
١٨٣٢	القسم الثاني
١٨٣٢	اشارة
١٨٣٢	الشرح والتفسير: ذم الهروب من الدنيا
١٨٣٣	تأملات
١٨٣٤	١. ذم عموم الافراط والتفريط
١٨٣٤	٢. التصوف ونتائجه
١٨٣٤	٣. الانتفاع بالطيبات
١٨٣٤	الخطبة ٢١٠
١٨٣٤	اشارة
١٨٣٧	نظرة إلى الخطبة
١٨٣٧	القسم الأول
١٨٣٧	اشارة

- ١٨٣٧ الشرح والتفسير: نقد الروايات
- ١٨٣٨ القسم الثاني
- ١٨٣٨ اشارة
- ١٨٣٩ الشرح والتفسير: وضع المنافيين للحديث
- ١٨٤٠ تأملات
- ١٨٤٠ ١. المنافقون على عهد النبي صلى الله عليه و آله
- ١٨٤٠ ٢. المنافقون بعد النبي صلى الله عليه و آله
- ١٨٤١ ٣. عدالة الصحابة
- ١٨٤٢ القسم الثالث
- ١٨٤٢ اشارة
- ١٨٤٢ الشرح والتفسير: أحاديث الناسخ والمنسوخ
- ١٨٤٣ تأمل: النسخ فى أحكام الشرع
- ١٨٤٤ القسم الرابع
- ١٨٤٤ اشارة
- ١٨٤٤ الشرح والتفسير: حفظة الحديث
- ١٨٤٥ الخطبة ٢١١
- ١٨٤٦ اشارة
- ١٨٤٦ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٤٦ القسم الأول
- ١٨٤٦ اشارة
- ١٨٤٦ الشرح والتفسير: بداية خلق الكون
- ١٨٤٧ القسم الثاني
- ١٨٤٧ اشارة
- ١٨٤٧ الشرح والتفسير: خلق الجبال

- ١٨٤٨ الخطبة ٢١٢
- ١٨٤٩ اشارة
- ١٨٤٩ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٤٩ الشرح والتفسير: جزاء المتخلفين
- ١٨٥٠ الخطبة ٢١٣
- ١٨٥٠ اشارة
- ١٨٥٠ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٥١ الشرح والتفسير: قبسات من صفات الله ورسوله
- ١٨٥٢ الخطبة ٢١٤
- ١٨٥٢ اشارة
- ١٨٥٣ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٥٣ القسم الأول
- ١٨٥٣ اشارة
- ١٨٥٣ الشرح والتفسير: النسب الطاهر للنبي صلى الله عليه و آله
- ١٨٥٤ القسم الثاني
- ١٨٥٤ اشارة
- ١٨٥٥ الشرح والتفسير: حفظه علم الله
- ١٨٥٦ القسم الثالث
- ١٨٥٦ اشارة
- ١٨٥٦ الشرح والتفسير: المهتدون
- ١٨٥٧ تأمل: الحاجة إلى المرشد في السير والسلوك
- ١٨٥٨ الخطبة ٢١٥
- ١٨٥٨ اشارة
- ١٨٥٩ نظرة إلى الخطبة

- ١٨٥٩ القسم الأول
- ١٨٥٩ اشارة
- ١٨٥٩ الشرح والتفسير: اللهم كل شيء لك
- ١٨٦٠ القسم الثاني
- ١٨٦٠ اشارة
- ١٨٦٠ الشرح والتفسير: نعم المكملة
- ١٨٦١ الخطبة ٢١٦
- ١٨٦١ اشارة
- ١٨٦١ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٦٢ القسم الأول
- ١٨٦٢ اشارة
- ١٨٦٢ الشرح والتفسير: سعة حجم الحقوق
- ١٨٦٣ تأمل: الثواب استحقاق أم تفضل؟
- ١٨٦٤ القسم الثاني
- ١٨٦٤ اشارة
- ١٨٦٤ الشرح والتفسير: حق الوالى والرعية
- ١٨٦٤ القسم الثالث
- ١٨٦٤ اشارة
- ١٨٦٤ الشرح والتفسير: ضرورة التعاون فى أداء الحقوق
- ١٨٦٨ تأمل: الحكومات الشعبية
- ١٨٦٩ القسم الرابع
- ١٨٦٩ اشارة
- ١٨٦٩ الشرح والتفسير: الشكر على الواجب
- ١٨٧٠ تأملان

- ١٨٧٠ ١. المدح والثناء
- ١٨٧١ ٢. أسنة التملق
- ١٨٧١ القسم الخامس
- ١٨٧٢ اشارة
- ١٨٧٢ الشرح والتفسير: لا تملقوا أمامي
- ١٨٧٣ الخطبة ٢١٧
- ١٨٧٣ اشارة
- ١٨٧٤ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٧٤ الشرح والتفسير: تحمل الصعاب
- ١٨٧٥ الخطبة ٢١٨
- ١٨٧٥ اشارة
- ١٨٧٦ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٧٦ الشرح والتفسير: جنايات أصحاب الجمل في البصرة
- ١٨٧٧ الخطبة ٢١٩
- ١٨٧٧ اشارة
- ١٨٧٧ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٧٧ الشرح والتفسير: المشهد المروع بعد الجمل
- ١٨٧٨ تأملان
- ١٨٧٨ ١. حبّ دنيا وعواقبه المشؤم
- ١٨٧٩ ٢. الكفاءة الشرط الاوّل لكل عمل
- ١٨٧٩ الخطبة ٢٢٠
- ١٨٧٩ اشارة
- ١٨٧٩ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٧٩ الشرح والتفسير: سالك طريق الحق

- ١٨٨١ تأمل: مقامات السير والسلوك
- ١٨٨١ الخطبة ٢٢١
- ١٨٨٢ اشارة
- ١٨٨٢ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٨٢ القسم الأول
- ١٨٨٢ اشارة
- ١٨٨٢ الشرح والتفسير: التفاخر الفارغ بدل الاعتبار!
- ١٨٨٤ القسم الثاني
- ١٨٨٥ اشارة
- ١٨٨٥ الشرح والتفسير: العالم العجيب بعد الموت
- ١٨٨٦ القسم الثالث
- ١٨٨٦ اشارة
- ١٨٨٧ الشرح والتفسير: أحوال الأموات!
- ١٨٨٨ القسم الرابع
- ١٨٨٨ اشارة
- ١٨٨٨ الشرح والتفسير: عقبات الموت لاتستوعب فى الالفاظ
- ١٨٩٠ تأمل: ممز يردده الجميع
- ١٨٩١ الخطبة ٢٢٢
- ١٨٩١ اشارة
- ١٨٩١ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٩١ القسم الأول
- ١٨٩١ اشارة
- ١٨٩٢ الشرح والتفسير: أدلة السائرين على الطريق
- ١٨٩٣ تأملان

- ١٨٩٣ ١. ما المراد من أيام الله؟
- ١٨٩٣ ٢. الإلهامات الغيبية
- ١٨٩٤ القسم الثاني
- ١٨٩٤ اشارة
- ١٨٩٤ الشرح والتفسير: أولياء الله وأهل الذكر
- ١٨٩٥ القسم الثالث
- ١٨٩٥ اشارة
- ١٨٩٦ الشرح والتفسير: مصير السائرين على الصراط
- ١٨٩٧ تأمل: ذكر الله والذاكرون
- ١٨٩٨ الخطبة ٢٢٣
- ١٨٩٨ اشارة
- ١٨٩٨ نظرة إلى الخطبة
- ١٨٩٨ القسم الأول
- ١٨٩٨ اشارة
- ١٨٩٩ الشرح والتفسير: الرحمة بالنفس؟
- ١٩٠٠ القسم الثاني
- ١٩٠٠ اشارة
- ١٩٠٠ الشرح والتفسير: رحمة الله ومعصية العبد؟
- ١٩٠١ القسم الثالث
- ١٩٠١ اشارة
- ١٩٠١ الشرح والتفسير: الدنيا أعظم واعظ
- ١٩٠٢ تأمل: الدنيا الممدوحة والمذمومة
- ١٩٠٣ القسم الرابع
- ١٩٠٣ اشارة

- ١٩٠٣----- الشرح والتفسير: الاستعداد لسفر الآخرة
- ١٩٠٤----- الخطبة ٢٢٤
- ١٩٠٤----- اشارة
- ١٩٠٤----- نظرة إلى الخطبة
- ١٩٠٥----- القسم الأول
- ١٩٠٥----- اشارة
- ١٩٠٥----- الشرح والتفسير: إرتكاب الظلم
- ١٩٠٦----- القسم الثاني
- ١٩٠٦----- اشارة
- ١٩٠٦----- الشرح والتفسير: قصة الحديد المحماة
- ١٩٠٨----- تأملان
- ١٩٠٨----- ١. نظرة إلى شخصية عقيل
- ١٩٠٨----- ٢. التسوية بين المسلمين في بيت المال
- ١٩٠٩----- القسم الثالث
- ١٩٠٩----- اشارة
- ١٩٠٩----- الشرح والتفسير: قصة المنافق الأشعث بن قيس
- ١٩١١----- تأمل: من هو الأشعث بن قيس؟
- ١٩١٢----- الخطبة ٢٢٥
- ١٩١٢----- اشارة
- ١٩١٢----- نظرة إلى الخطبة (الدعاء)
- ١٩١٢----- الشرح والتفسير: الغنى عن شرار الخلق!
- ١٩١٣----- تأمل: الآثار السيئة للفقير
- ١٩١٤----- الخطبة ٢٢٦
- ١٩١٤----- اشارة

- ١٩١٤ نظرة إلى الخطبة
- ١٩١٥ القسم الأول
- ١٩١٥ اشارة
- ١٩١٥ الشرح والتفسير: تقلب احوال الدنيا
- ١٩١٦ تأمل: دار محفوفة بالبلاء
- ١٩١٦ القسم الثاني
- ١٩١٦ اشارة
- ١٩١٧ الشرح والتفسير: جيران متباعدون
- ١٩١٨ تأمل: عاقبة الإنسان بعد الموت
- ١٩١٩ القسم الثالث
- ١٩١٩ اشارة
- ١٩١٩ الشرح والتفسير: المصير المحتوم
- ١٩١٩ الخطبة ٢٢٧
- ١٩١٩ اشارة
- ١٩٢٠ نظرة إلى الخطبة (الدعاء)
- ١٩٢٠ القسم الأول
- ١٩٢٠ اشارة
- ١٩٢٠ الشرح والتفسير: انس العباد
- ١٩٢١ القسم الثاني
- ١٩٢١ اشارة
- ١٩٢١ الشرح والتفسير: الله كهف الورى
- ١٩٢١ تأمل: أدعية المعصومين عليهم السلام المهذبة
- ١٩٢٢ الخطبة ٢٢٨
- ١٩٢٢ اشارة

- ١٩٢٢ نظرة إلى الخطبة
- ١٩٢٣ الشرح والتفسير: مالك الأشر
- ١٩٢٤ الخطبة ٢٢٩
- ١٩٢٤ اشارة
- ١٩٢٤ نظرة إلى الخطبة
- ١٩٢٥ الشرح والتفسير: الإندفاع العجيب لبيعة الإمام عليه السلام
- ١٩٢٥ تأمل: البيعة الفريدة المطلقة
- ١٩٢٦ الخطبة ٢٣٠
- ١٩٢٦ اشارة
- ١٩٢٦ نظرة إلى الخطبة
- ١٩٢٦ القسم الأول
- ١٩٢٦ اشارة
- ١٩٢٧ الشرح والتفسير: سر السعادة والفلاح
- ١٩٢٧ القسم الثاني
- ١٩٢٧ اشارة
- ١٩٢٨ الشرح والتفسير: المعبر الذي لا مفر منه
- ١٩٣٠ القسم الثالث
- ١٩٣٠ اشارة
- ١٩٣٠ الشرح والتفسير: الدنيا الغرارة!
- ١٩٣٢ القسم الرابع
- ١٩٣٢ اشارة
- ١٩٣٢ الشرح والتفسير: الزهاد الحقيقيون
- ١٩٣٣ الخطبة ٢٣١
- ١٩٣٣ اشارة

- ١٩٣٣ نظرة إلى الخطبة
- ١٩٣٣ الشرح والتفسير: التبي صلى الله عليه و آله حصد العداء من الصدور
- ١٩٣٤ الخطبة ٢٣٢
- ١٩٣٤ اشارة
- ١٩٣٤ نظرة إلى الخطبة
- ١٩٣٤ الشرح والتفسير: غنائم المقاتلين
- ١٩٣٥ الخطبة ٢٣٣
- ١٩٣٥ اشارة
- ١٩٣٥ نظرة إلى الخطبة
- ١٩٣٦ القسم الأول
- ١٩٣٦ اشارة
- ١٩٣٦ الشرح والتفسير: نحن امراء الكلام
- ١٩٣٧ تأملان
- ١٩٣٧ ١. عجائب اللسان
- ١٩٣٨ ٢. امراء الكلام
- ١٩٣٨ القسم الثاني
- ١٩٣٨ اشارة
- ١٩٣٨ الشرح والتفسير: خصائص البيئة الملوثة
- ١٩٤٠ الخطبة ٢٣٤
- ١٩٤٠ اشارة
- ١٩٤٠ نظرة إلى الخطبة
- ١٩٤٠ الشرح والتفسير: أساس الاختلاف
- ١٩٤٢ تأملان
- ١٩٤٢ ١. صلة الروح بالجسم

- ١٩٤٣ ٢. الاختيار وصله الروح بالجسد
- ١٩٤٣ الخطبة ٢٣٥
- ١٩٤٣ اشارة
- ١٩٤٣ نظرة إلى الخطبة
- ١٩٤٣ الشرح والتفسير: عظم مصيبة رحيل النبي صلى الله عليه و آله
- ١٩٤٥ تأملان
- ١٩٤٥ ١. البكاء على الأعزة
- ١٩٤٥ ٢. تجهيز النبي صلى الله عليه و آله
- ١٩٤٦ الخطبة ٢٣٦
- ١٩٤٦ اشارة
- ١٩٤٦ نظرة إلى الخطبة
- ١٩٤٦ الشرح والتفسير: ذكر الحبيب
- ١٩٤٧ تأمل: قصة الهجرة
- ١٩٤٧ الخطبة ٢٣٧
- ١٩٤٨ اشارة
- ١٩٤٨ نظرة إلى الخطبة
- ١٩٤٨ القسم الأول
- ١٩٤٨ اشارة
- ١٩٤٨ الشرح والتفسير: اغتنام الفرصة
- ١٩٤٩ القسم الثاني
- ١٩٤٩ اشارة
- ١٩٤٩ الشرح والتفسير: كيفية اغتنام الفرصة
- ١٩٥٠ الخطبة ٢٣٨
- ١٩٥٠ اشارة

١٩٥٠	نظرة إلى الخطبة
١٩٥١	القسم أول
١٩٥١	اشارة
١٩٥١	الشرح والتفسير: أتباع معاوية
١٩٥١	تأمل: جهل أهل الشام
١٩٥٢	القسم الثاني
١٩٥٢	اشارة
١٩٥٢	الشرح والتفسير: أفضل اختيار وأسوأه
١٩٥٣	الخطبة ٢٣٩
١٩٥٣	اشارة
١٩٥٣	نظرة إلى الخطبة
١٩٥٤	الشرح والتفسير: آل محمد أركان الدين
١٩٥٥	الخطبة ٢٤٠
١٩٥٥	اشارة
١٩٥٥	نظرة إلى الخطبة
١٩٥٦	الشرح والتفسير: خطأ آخر من أخطاء عثمان
١٩٥٧	الخطبة ٢٤١
١٩٥٧	اشارة
١٩٥٧	نظرة إلى الخطبة
١٩٥٧	الشرح والتفسير: شَمروا واستعدوا للجهاد
١٩٥٨	تأمل: آفات النهم والترف
١٩٥٩	خصائص هذا الشرح
١٩٩٤	الجزء التاسع
١٩٩٤	مقدمة

- الرسالة ١ ١٩٩٤
- اشارة ١٩٩٤
- نظرة إلى الرسالة ١٩٩٥
- القسم الأول ١٩٩٥
- اشارة ١٩٩٥
- الشرح والتفسير: حقيقة ما وقع في حادثة قتل عثمان ١٩٩٥
- تأملان ١٩٩٦
١. حكاية أبي موسى وتعبئة أهل الكوفة لنصرة الإمام عليه السلام ١٩٩٦
٢. عند الإمتحان يكرم المرء أو يهان ١٩٩٧
- القسم الثاني ١٩٩٨
- اشارة ١٩٩٨
- الشرح والتفسير ١٩٩٩
- تأمل: مصير الناكثين ١٩٩٩
- الرسالة ٢ ٢٠٠٠
- اشارة ٢٠٠٠
- نظرة إلى الرسالة ٢٠٠٠
- الشرح والتفسير: إظهار الإمام عليه السلام رضاه عن أهل الكوفة ٢٠٠٠
- تأمل: النص الكامل لرسالة الإمام عليه السلام لأهل الكوفة ٢٠٠١
- الرسالة ٣ ٢٠٠٢
- اشارة ٢٠٠٢
- نظرة إلى الرسالة ٢٠٠٢
- القسم الأول ٢٠٠٢
- اشارة ٢٠٠٢
- الشرح والتفسير: من أين لك هذه الدار؟! ٢٠٠٣

- ٢٠٠٤ القسم الثاني
- ٢٠٠٤ اشارة
- ٢٠٠٤ الشرح والتفسير: وثيقة عديمة النظر
- ٢٠٠٧ تأملان
- ٢٠٠٧ ١. الباعث لكتابة السند
- ٢٠٠٨ ٢. من هو شريح؟
- ٢٠٠٩ الرسالة ٤
- ٢٠٠٩ اشارة
- ٢٠٠٩ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠٠٩ الشرح والتفسير: يجب إقالة الضعفاء
- ٢٠١١ تأملان
- ٢٠١١ ١. جرائم الناكثين في معركة الجمل
- ٢٠١١ ٢. على من يمكن الاعتماد؟
- ٢٠١٢ الرسالة ٥
- ٢٠١٢ اشارة
- ٢٠١٢ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠١٢ الشرح والتفسير: المناصب الحكومية في الإسلام أمانة إلهية
- ٢٠١٤ تأملات
- ٢٠١٤ ١. دستور كامل
- ٢٠١٤ ٢. من هو الأشعث بن قيس؟
- ٢٠١٥ ٣. آذربايجان في خارطة البلاد الإسلامية سابقاً
- ٢٠١٥ الرسالة ٦
- ٢٠١٥ اشارة
- ٢٠١٦ نظرة إلى الرسالة

- ٢٠١٦ الشرح والتفسير
- ٢٠١٧ تأمل: لماذا استدلل الإمام عليه السلام بالشورى والبيعة؟
- ٢٠١٩ الرسالة ٧
- ٢٠١٩ اشارة
- ٢٠١٩ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠١٩ الشرح والتفسير: موعظة الضالين!
- ٢٠٢١ تأمل: رسالة معاوية لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام
- ٢٠٢٢ الرسالة ٨
- ٢٠٢٢ اشارة
- ٢٠٢٢ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠٢٣ الشرح والتفسير: حل المشكل بآيات الصلح
- ٢٠٢٣ تأمل: من هو جرير بن عبدالله؟
- ٢٠٢٤ الرسالة ٩
- ٢٠٢٤ اشارة
- ٢٠٢٤ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠٢٥ القسم الأول
- ٢٠٢٥ اشارة
- ٢٠٢٦ الشرح والتفسير: بنو هاشم حماة الإسلام الأوائل
- ٢٠٢٧ القسم الثاني
- ٢٠٢٧ اشارة
- ٢٠٢٨ الشرح والتفسير: حماة الإسلام الأوائل
- ٢٠٣١ القسم الثالث
- ٢٠٣١ اشارة
- ٢٠٣١ الشرح والتفسير: ما أنت وقتلة عثمان؟!

- ٢٠٣٣ تأمل: كلام عن قتله عثمان
- ٢٠٣٥ الرسالة ١٠
- ٢٠٣٥ اشارة
- ٢٠٣٥ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠٣٥ القسم الأول
- ٢٠٣٥ اشارة
- ٢٠٣٥ الشرح والتفسير: نظرة إلى الافق الغائم
- ٢٠٣٦ القسم الثاني
- ٢٠٣٧ اشارة
- ٢٠٣٧ الشرح والتفسير: حذارٍ من الغفلة
- ٢٠٣٨ القسم الثالث
- ٢٠٣٨ اشارة
- ٢٠٣٨ الشرح والتفسير: أنا أتحرّك دوماً في خطّ الحق والهداية
- ٢٠٤٠ تأملان
- ٢٠٤٠ ١. مقارنة شجاعة الإمام عليه السلام بالأعداء
- ٢٠٤٠ ٢. هل كان معاوية حاضراً في معركة بدر؟
- ٢٠٤٠ القسم الرابع
- ٢٠٤١ اشارة
- ٢٠٤١ الشرح والتفسير: المستقبل المظلم والافق المشؤوم للعدوا!
- ٢٠٤٢ تأمل: التنبؤات الواقعة
- ٢٠٤٢ الرسالة ١١
- ٢٠٤٢ اشارة
- ٢٠٤٢ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠٤٣ الشرح والتفسير: الاستعداد الصحيح للجيش

- الرسالة ١٢ ٢٠٤٥
- اشارة ٢٠٤٥
- نظرة إلى الرسالة ٢٠٤٥
- الشرح والتفسير: تعليمات ضرورية قبل التوجه إلى الميدان ٢٠٤٦
- تأمل: من هو معقل بن قيس؟ ٢٠٤٧
- الرسالة ١٣ ٢٠٤٨
- اشارة ٢٠٤٨
- نظرة إلى الرسالة ٢٠٤٨
- الشرح والتفسير: مالك الأشتر القائد الفذ ٢٠٤٨
- تأملان ٢٠٤٩
١. مالك الأشتر المدير والمدبر الشجاع ٢٠٤٩
٢. شريح بن هانيء الحارثي وزياد بن النضر ٢٠٥٠
- الرسالة ١٤ ٢٠٥٠
- اشارة ٢٠٥٠
- نظرة إلى الرسالة ٢٠٥٠
- الشرح والتفسير: فصل آخر من القيم الأخلاقية في الحرب ٢٠٥١
- تأملان ٢٠٥٣
١. مكانة المرأة في نهج البلاغة ٢٠٥٣
٢. الخلق الإسلامي في مقابل العدو ٢٠٥٤
- الرسالة ١٥ ٢٠٥٥
- اشارة ٢٠٥٥
- نظرة إلى الرسالة ٢٠٥٥
- الشرح والتفسير: دعاء جامع في ساحة القتال ٢٠٥٦
- الرسالة ١٦ ٢٠٥٧

- ٢٠٥٧ اشارة
- ٢٠٥٧ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠٥٨ الشرح والتفسير: تقوية عزائم الجند
- ٢٠٦٠ تأملان
- ٢٠٦٠ ١. شواهد حية على عقائد بني امية الواقعية
- ٢٠٦١ ٢. فضائل الامام علي عليه السلام على لسان أعدائه
- ٢٠٦٢ الرسالة ١٧
- ٢٠٦٢ اشارة
- ٢٠٦٢ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠٦٣ القسم الأول
- ٢٠٦٣ اشارة
- ٢٠٦٣ الشرح والتفسير: المدين في هيئة الدائن
- ٢٠٦٥ القسم الثاني
- ٢٠٦٥ اشارة
- ٢٠٦٥ الشرح والتفسير: النبوة افتخار كبير.
- ٢٠٦٦ تأمل: أتباع رسول الله صلى الله عليه و آله
- ٢٠٦٧ الرسالة ١٨
- ٢٠٦٨ اشارة
- ٢٠٦٨ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠٦٨ الشرح والتفسير: إطفاء نار الفتنة بماء المداراة
- ٢٠٧٠ تأمل: خصائص أهل البصرة
- ٢٠٧١ الرسالة ١٩
- ٢٠٧١ اشارة
- ٢٠٧١ نظرة إلى الرسالة

- ٢٠٧١ الشرح والتفسير: شمول الرأفة الإسلامية لجميع الناس
- ٢٠٧٣ تأمل: الإسلام وأهل الذمة
- ٢٠٧٤ الرسالة ٢٠
- ٢٠٧٤ اشارة
- ٢٠٧٤ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠٧٤ الشرح والتفسير: إنذار شديد للمتخلفين
- ٢٠٧٥ تأمل: لماذا اختار الإمام عليه السلام زياداً لهذا المنصب
- ٢٠٧٥ الرسالة ٢١
- ٢٠٧٥ اشارة
- ٢٠٧٦ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠٧٦ الشرح والتفسير: الإمام عليه السلام يحذر «زياد» مرّة أخرى
- ٢٠٧٨ تأملان
- ٢٠٧٨ ١. العلاقة بين الأعمال والجزاء
- ٢٠٧٨ ٢. زياد ابن أبيه الانتهازي
- ٢٠٧٩ الرسالة ٢٢
- ٢٠٧٩ اشارة
- ٢٠٧٩ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠٧٩ الشرح والتفسير: السرور والحزن الموهومان
- ٢٠٨٠ تأملان
- ٢٠٨٠ ١. الجواب عن سؤال
- ٢٠٨١ ٢. الإنسان فاعل مختار
- ٢٠٨١ الرسالة ٢٣
- ٢٠٨١ اشارة
- ٢٠٨١ الوصية في نظرة عامة

- ٢٠٨٢ الشرح والتفسير: وصايا مهممة
- ٢٠٨٤ تأملان
- ٢٠٨٤ ١. القصص أو العفو؟
- ٢٠٨٥ ٢. معنى «لا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ»
- ٢٠٨٥ الرسالة ٢٤
- ٢٠٨٥ اشارة
- ٢٠٨٦ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠٨٦ الشرح والتفسير: توصيات مدروسة لإدارة الموقوفات
- ٢٠٩٠ تأملان
- ٢٠٩٠ ١. الجواب عن سؤالين
- ٢٠٩١ ٢. أهمية الوقف في الإسلام
- ٢٠٩١ الرسالة ٢٥
- ٢٠٩١ اشارة
- ٢٠٩٢ نظرة إلى الرسالة
- ٢٠٩٢ القسم الأول
- ٢٠٩٢ اشارة
- ٢٠٩٣ الشرح والتفسير: الثقة بالجمهور في جمع الضرائب الإسلامية
- ٢٠٩٥ تأمل: آداب جمع الزكاة وحقوق بيت المال
- ٢٠٩٦ القسم الثاني
- ٢٠٩٦ اشارة
- ٢٠٩٦ الشرح والتفسير: غاية الاحترام لمطالب الدافعين للزكاة
- ٢٠٩٨ القسم الثالث
- ٢٠٩٨ اشارة
- ٢٠٩٨ الشرح والتفسير: الرأفة الإسلامية بالحيوانات

٢١٠٠ تأملان
٢١٠٠ ١. التأكيد على إيصال أموال الزكاة إلى المحرومين
٢١٠٠ ٢. حماية الحيوانات في الإسلام
٢١٠١ الرسالة ٢٦
٢١٠١ اشارة
٢١٠١ نظرة إلى الرسالة
٢١٠٢ القسم الأول
٢١٠٢ اشارة
٢١٠٢ الشرح والتفسير: التعامل الحسن مع دافعي الضرائب الإسلامية
٢١٠٣ القسم الثاني
٢١٠٣ اشارة
٢١٠٤ الشرح والتفسير: اعمل بحيث لا يشكوك المحرومون يوم القيامة
٢١٠٥ تأملان
٢١٠٥ ١. الأصناف الثمانية لمستحقي الزكاة
٢١٠٦ ٢. الأمانة، أصل القيم الأخلاقية في الإسلام
٢١٠٧ الرسالة ٢٧
٢١٠٧ اشارة
٢١٠٧ نظرة إلى الرسالة
٢١٠٨ القسم الأول
٢١٠٨ اشارة
٢١٠٨ الشرح والتفسير: حسن الخلق مع جميع الأفراد
٢١٠٩ القسم الثاني
٢١٠٩ اشارة
٢١٠٩ الشرح والتفسير: الدنيا والآخرة لمن يعيش البساطة والزهد

- ٢١١١ القسم الثالث
- ٢١١١ اشارة
- ٢١١١ الشرح والتفسير: تحذيرات متواليه
- ٢١١٤ تأمل: التعادل بين الخوف والرجاء
- ٢١١٥ القسم الرابع
- ٢١١٥ اشارة
- ٢١١٥ الشرح والتفسير: المهمة الثقيلة
- ٢١١٧ القسم الخامس
- ٢١١٧ اشارة
- ٢١١٧ الشرح والتفسير: الخوف على الامة من فئة معينة
- ٢١١٨ تأملان
- ٢١١٨ ١. خطر المنافقين
- ٢١١٨ ٢. رسالة غريبة من المعتضد العباسي
- ٢١٢٢ الرسالة ٢٨
- ٢١٢٢ اشارة
- ٢١٢٢ نظرة إلى الرسالة
- ٢١٢٤ القسم الأول
- ٢١٢٤ اشارة
- ٢١٢٤ الشرح والتفسير: كيف يجلس المحكوم للحكم والقضاء؟
- ٢١٢٧ القسم الثاني
- ٢١٢٧ اشارة
- ٢١٢٧ الشرح والتفسير: الامتيازات النادرة
- ٢١٢٩ تأملان: فضائل حمزه سيد الشهداء
- ٢١٢٩ المرتبة السامية لجعفر بن أبي طالب

- ٢١٣١ القسم الثالث
- ٢١٣١ اشارة
- ٢١٣١ الشرح والتفسير: نقاط مهمّة أخرى في فضائل أهل البيت عليهم السلام
- ٢١٣٤ تأملان
- ٢١٣٤ ١. قصّة السقيفة المثيرة!
- ٢١٣٤ ٢. فضائل بنى هاشم في عصر الجاهلية والإسلام
- ٢١٣٥ القسم الرابع
- ٢١٣٥ اشارة
- ٢١٣٥ الشرح والتفسير: هذه الأمور لا تخصك!
- ٢١٣٦ القسم الخامس
- ٢١٣٦ اشارة
- ٢١٣٧ الشرح والتفسير: المقصّر الأصلي في قتل عثمان
- ٢١٣٩ القسم السادس
- ٢١٣٩ اشارة
- ٢١٤٠ الشرح والتفسير: تهددني بالحرب!
- ٢١٤١ تأمل: مدين في لباس دائن!
- ٢١٤٣ الرسالة ٢٩
- ٢١٤٣ اشارة
- ٢١٤٣ نظرة إلى الرسالة
- ٢١٤٤ الشرح والتفسير: إطفاء نار الفتنة في البصرة
- ٢١٤٥ الرسالة ٣٠
- ٢١٤٥ اشارة
- ٢١٤٥ نظرة إلى الرسالة
- ٢١٤٦ الشرح والتفسير: ينبغي أن تفكّر بعاقبة أمرك!

٢١٤٨	الرسالة ٣١
٢١٤٨	اشارة
٢١٤٨	نظرة إلى الرسالة
٢١٥٠	القسم الأول
٢١٥٠	اشارة
٢١٥٠	الشرح والتفسير: هذه الوصية مّمن وإلى من؟
٢١٥٢	القسم الثاني
٢١٥٢	اشارة
٢١٥٣	الشرح والتفسير: علّة كتابة هذه الوصية
٢١٥٤	القسم الثالث
٢١٥٤	اشارة
٢١٥٤	الشرح والتفسير: أوثق وسيلة للنجاة
٢١٥٥	القسم الرابع
٢١٥٥	اشارة
٢١٥٦	الشرح والتفسير: أحي قلبك بالموعظة
٢١٥٨	تأملان
٢١٥٨	١. الحياة وإعمار القلب
٢١٥٩	٢. الوعاظ الكثيرون
٢١٦٠	القسم الخامس
٢١٦٠	اشارة
٢١٦٠	الشرح والتفسير: الاستقامة سبب تحقيق النصر والنجاح
٢١٦٣	تأملان
٢١٦٣	١. رعاية الاحتياط عند الإحساس بالخطر
٢١٦٣	٢. الطريق لنيل الفضائل الأخلاقية

- ٢١٦٤ القسم السادس
- ٢١٦٤ اشارة
- ٢١٦٤ الشرح والتفسير: لا تتساهل في هذه الوصية
- ٢١٦٤ تأمل: العلوم النافعة وغير النافعة
- ٢١٦٤ القسم السابع
- ٢١٦٤ اشارة
- ٢١٦٧ الشرح والتفسير: الباعث لكتابة هذه الوصية
- ٢١٦٨ تأمل: معطيات التربية في سن الشباب
- ٢١٦٩ القسم الثامن
- ٢١٦٩ اشارة
- ٢١٦٩ الشرح والتفسير: تجارب الآخرين وإطالة عمر اللاحقين
- ٢١٧٠ تأملان
- ٢١٧٠ ١. تشكيلة منسجمة من أسرار التاريخ
- ٢١٧١ ٢. كيف توصل الإمام عليه السلام لتاريخ الأقسام الماضية؟
- ٢١٧٢ القسم التاسع
- ٢١٧٢ اشارة
- ٢١٧٢ الشرح والتفسير
- ٢١٧٤ القسم العاشر
- ٢١٧٤ اشارة
- ٢١٧٤ الشرح والتفسير: الحذر من سلوك الطرق المشكوكة
- ٢١٧٦ القسم الحادي عشر
- ٢١٧٦ اشارة
- ٢١٧٦ الشرح والتفسير: كل شيء من الله
- ٢١٧٨ تأمل: المقارنة بين علم الإنسان وجهله

- ٢١٧٨ القسم الثاني عشر
- ٢١٧٩ اشارة
- ٢١٧٩ الشرح والتفسير: اجعل من النبي الأكرم صلى الله عليه و آله مرشداً لك
- ٢١٨٠ القسم الثالث عشر
- ٢١٨٠ اشارة
- ٢١٨٠ الشرح والتفسير: الإيمان بالواحد الأحد
- ٢١٨٢ تأملان
- ٢١٨٢ ١. العلاقة بين الأيديولوجية والرؤية الكونية
- ٢١٨٣ ٢. بداية الخلقة ودوام الفيض
- ٢١٨٣ القسم الرابع عشر
- ٢١٨٣ اشارة
- ٢١٨٤ الشرح والتفسير: السالكون طريق الآخرة
- ٢١٨٥ القسم الخامس عشر
- ٢١٨٥ اشارة
- ٢١٨٥ الشرح والتفسير: نظرة واحدة لمصلحة الفرد والجماعة
- ٢١٨٦ القسم السادس عشر
- ٢١٨٧ اشارة
- ٢١٨٧ الشرح والتفسير: لا تكن خزاناً لغيرك
- ٢١٨٨ القسم السابع عشر
- ٢١٨٨ اشارة
- ٢١٨٨ الشرح والتفسير: الآخرون يحملون متاعك إلى الآخرة!
- ٢١٩٠ القسم الثامن عشر
- ٢١٩٠ اشارة
- ٢١٩٠ الشرح والتفسير: ضع عن كتفك همّ يومك!

- ٢١٩١ القسم التاسع عشر
- ٢١٩١ اشارة
- ٢١٩٢ الشرح والتفسير: فتح أبواب التوبة والدعاء أمام الإنسان
- ٢١٩٧ تأمل: شروط استجابة الدعاء
- ٢١٩٧ القسم العشرون
- ٢١٩٧ اشارة
- ٢١٩٧ الشرح والتفسير: الغاية من الخلق
- ٢١٩٩ القسم الحادى والعشرون
- ٢١٩٩ اشارة
- ٢٢٠٠ الشرح والتفسير: الدنيا الخداعة وأهلها
- ٢٢٠٢ القسم الثانى والعشرون
- ٢٢٠٢ اشارة
- ٢٢٠٢ الشرح والتفسير: السائرون بمركب الليل والنهار
- ٢٢٠٣ تأمل: السالكون إلى العالم الآخر!
- ٢٢٠٤ القسم الثالث والعشرون
- ٢٢٠٤ اشارة
- ٢٢٠٤ الشرح والتفسير: لا تدلّ نفسك أبداً
- ٢٢٠٨ القسم الرابع والعشرون
- ٢٢٠٨ اشارة
- ٢٢٠٨ الشرح والتفسير: سبع وعشرون موعظة ثمينة
- ٢٢١٤ القسم الخامس والعشرون
- ٢٢١٤ اشارة
- ٢٢١٤ الشرح والتفسير: الإحسان فى مقابل الإساءة!
- ٢٢١٨ القسم السادس والعشرون

- ٢٢١٨ اشارة
- ٢٢١٨ الشرح والتفسير: لا تضيع حق الصديق
- ٢٢٢٠ القسم السابع والعشرون
- ٢٢٢٠ اشارة
- ٢٢٢١ الشرح والتفسير: ثمان وعشرون موعظة أخرى
- ٢٢٣٠ القسم الثامن والعشرون
- ٢٢٣١ اشارة
- ٢٢٣١ الشرح والتفسير: السلوك العادل والحكيم مع المرأة
- ٢٢٣٣ تأمل: مكانة المرأة في المجتمع
- ٢٢٣٥ القسم التاسع والعشرون
- ٢٢٣٥ اشارة
- ٢٢٣٥ الشرح والتفسير: تقسيم المسؤوليات
- ٢٢٣٦ القسم الثلاثون (القسم الأخير)
- ٢٢٣٦ اشارة
- ٢٢٣٦ الشرح والتفسير: ضع كل وديعة عند الله
- ٢٢٧٧ [الجزء العاشر]
- ٢٢٧٧ الرسالة ٣٢
- ٢٢٧٧ اشارة
- ٢٢٧٨ نظرة عامة للرسالة
- ٢٢٧٨ الشرح والتفسير: لا تهلك نفسك ولا الناس
- ٢٢٧٨ اشارة
- ٢٢٨١ تأمل
- ٢٢٨١ رسائل متواليه
- ٢٢٨١ الرسالة ٣٣

- ٢٢٨١ اشارة
- ٢٢٨٢ نظرة عامة للرسالة
- ٢٢٨٢ الشرح والتفسير: راقب أوضاع مكة بدقة
- ٢٢٨٢ اشارة
- ٢٢٨٤ تأمل
- ٢٢٨٤ من هو قثم بن العباس؟
- ٢٢٨٤ الرسالة ٣٤
- ٢٢٨٤ اشارة
- ٢٢٨٥ نظرة عامة للرسالة
- ٢٢٨٥ الشرح والتفسير: تطيب خاطر محمد بن أبي بكر
- ٢٢٨٧ تأمل
- ٢٢٨٧ من هو محمد بن أبي بكر؟
- ٢٢٨٨ الرسالة ٣٥
- ٢٢٨٨ اشارة
- ٢٢٨٨ نظرة عامة للرسالة
- ٢٢٨٨ الشرح والتفسير: شكوى من الأتباع الضعفاء
- ٢٢٩٠ تأمل
- ٢٢٩٠ روعة البلاغة في هذه الرسالة
- ٢٢٩١ الرسالة ٣٦
- ٢٢٩١ اشارة
- ٢٢٩١ نظرة عامة للرسالة
- ٢٢٩٣ القسم الأول
- ٢٢٩٣ اشارة
- ٢٢٩٣ الشرح والتفسير: قصة الضحاک بن قيس

- ٢٢٩٦ القسم الثاني
- ٢٢٩٦ اشارة
- ٢٢٩٦ الشرح والتفسير: لا أكف عن مقارعة الخائنين
- ٢٢٩٨ الرسالة ٣٧
- ٢٢٩٨ اشارة
- ٢٢٩٨ نظرة عامة للرسالة
- ٢٢٩٩ الشرح والتفسير: ما أنت والطلب بدم عثمان؟
- ٢٢٩٩ اشارة
- ٢٣٠٠ تأمل
- ٢٣٠٠ رسالة معاوية إلى ابن عباس وجوابه
- ٢٣٠١ الرسالة ٣٨
- ٢٣٠١ اشارة
- ٢٣٠١ نظرة عامة للرسالة
- ٢٣٠٢ القسم الأول
- ٢٣٠٢ اشارة
- ٢٣٠٢ الشرح والتفسير: المصريون الذين غضبوا لله
- ٢٣٠٤ القسم الثاني
- ٢٣٠٤ اشارة
- ٢٣٠٤ الشرح والتفسير: نصبت عليكم واليا مقتدراً وبصيراً بالأمر
- ٢٣٠٦ الرسالة ٣٩
- ٢٣٠٦ اشارة
- ٢٣٠٧ نظرة عامة للرسالة
- ٢٣٠٧ الشرح والتفسير: لقد بعث دينك بدنيا غيرك!
- ٢٣٠٩ تأملان

١. عمرو بن العاص فى الجاهلية والإسلام ٢٣٠٩
٢. بعض أعمال معاوية ٢٣٠٩
- الرسالة ٤٠ ٢٣١٠
- اشارة ٢٣١٠
- نظرة عامة للرسالة ٢٣١٠
- الشرح والتفسير: سخط الله وعصيان الإمام ٢٣١١
- الرسالة ٤١ ٢٣١٢
- اشارة ٢٣١٢
- نظرة عامة للرسالة ٢٣١٢
- القسم الأول ٢٣١٣
- اشارة ٢٣١٣
- الشرح والتفسير: ألا تؤمن بالمعاد؟! ٢٣١٣
- القسم الثانى ٢٣١٥
- اشارة ٢٣١٥
- الشرح والتفسير: لا أتسامح فى بيت المال حتى مع أولادى ٢٣١٥
- تأمل ٢٣١٨
- من هو ابن عباس؟ ٢٣١٨
- الرسالة ٤٢ ٢٣٢١
- اشارة ٢٣٢١
- نظرة عامة للرسالة ٢٣٢١
- الشرح والتفسير: أحسنت! لقد أذيت الأمانة ٢٣٢١
- اشارة ٢٣٢١
- تأمل ٢٣٢٢
- التعرف على عمر بن أبى سلمه المخزومى والنعمان بن عجلان؟ ٢٣٢٢

- الرسالة ٤٣ ٢٣٢٣
- اشارة ٢٣٢٣
- نظرة عامة للرسالة ٢٣٢٣
- الشرح والتفسير: جميع المسلمين سواسية في بيت المال ٢٣٢٤
- اشارة ٢٣٢٤
- تأمل ٢٣٢٤
- جواب مصقلة للإمام عليه السلام ٢٣٢٤
- الرسالة ٤٤ ٢٣٢٧
- اشارة ٢٣٢٧
- نظرة عامة للرسالة ٢٣٢٧
- الشرح والتفسير: إحذر من أغوائهم! ٢٣٢٨
- اشارة ٢٣٢٨
- تأمل ٢٣٣٠
- قصة نسب زياد المعقدة ٢٣٣٠
- الرسالة ٤٥ ٢٣٣٣
- اشارة ٢٣٣٣
- نظرة عامة للرسالة ٢٣٣٣
- القسم الأول ٢٣٣٤
- اشارة ٢٣٣٤
- الشرح والتفسير: دعوة الوالى إلى مأدبة فاخرة! ٢٣٣٤
- اشارة ٢٣٣٥
- تأمل ٢٣٣٦
- من هو عثمان بن حنيف؟ ٢٣٣٦
- القسم الثانى ٢٣٣٦

- ٢٣٣٦ اشارة
- ٢٣٣٧ الشرح والتفسير: لم أذخر من الدنيا شيئاً لنفسى
- ٢٣٣٨ القسم الثالث
- ٢٣٣٨ اشارة
- ٢٣٣٩ الشرح والتفسير: كيف أكون أميرالمؤمنين ولا اشاركهم فى مكاره الدهر؟
- ٢٣٣٩ اشارة
- ٢٣٤٢ تأمل
- ٢٣٤٣ قصة فذك المحزنة
- ٢٣٤٥ القسم الرابع
- ٢٣٤٥ اشارة
- ٢٣٤٥ الشرح والتفسير: لست كالبهيمة المربوطة!
- ٢٣٤٩ القسم الخامس
- ٢٣٤٩ اشارة
- ٢٣٤٩ الشرح والتفسير: أيتها الدنيا ابتعدى عتى!
- ٢٣٤٩ اشارة
- ٢٣٥٢ تأمل
- ٢٣٥٢ طلاق الدنيا
- ٢٣٥٣ القسم السادس
- ٢٣٥٣ اشارة
- ٢٣٥٣ الشرح والتفسير: هل الغرض الأكل والنوم فقط؟
- ٢٣٥٣ اشارة
- ٢٣٥٥ تأمل
- ٢٣٥٥ الرياضة المشروعة وغير المشروعة
- ٢٣٥٦ القسم السابع

- ٢٣٥٦ اشارة
- ٢٣٥٧ الشرح والتفسير: أيها الوالى! إحذر المشاركة فى مثل هذه الضيافة!
- ٢٣٥٧ اشارة
- ٢٣٥٨ تأملان
- ٢٣٥٨ ١. الزهد والانتفاع من المواهب الإلهية
- ٢٣٥٩ ٢. من هم حزب الله؟
- ٢٣٦٠ الرسالة ٤٦
- ٢٣٦٠ اشارة
- ٢٣٦٠ نظرة عامة للرسالة
- ٢٣٦١ الشرح والتفسير: عامل الناس بالرفق!
- ٢٣٦٣ الرسالة ٤٧
- ٢٣٦٣ اشارة
- ٢٣٦٣ نظرة عامة للرسالة
- ٢٣٦٤ القسم الأول
- ٢٣٦٤ اشارة
- ٢٣٦٤ الشرح والتفسير: كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً!
- ٢٣٦٤ القسم الثانى
- ٢٣٦٤ اشارة
- ٢٣٦٧ الشرح والتفسير: أفضل الأعمال صلاح ذات البين!
- ٢٣٦٨ القسم الثالث
- ٢٣٦٨ اشارة
- ٢٣٦٨ الشرح والتفسير: وصايا هامّة على فراش الشهادة!
- ٢٣٦٩ اشارة
- ٢٣٧٥ تأمل

- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٣٧٥
- القسم الرابع ٢٣٧٥
- اشارة ٢٣٧٥
- الشرح والتفسير: توصية الإمام عليه السلام المؤكدة حول قاتله! ٢٣٧٦
- الرسالة ٤٨ ٢٣٧٧
- اشارة ٢٣٧٧
- نظرة عامة للرسالة ٢٣٧٧
- الشرح والتفسير: نصيحة جامعة لمعاوية ٢٣٧٨
- الرسالة ٤٩ ٢٣٨٠
- اشارة ٢٣٨٠
- نظرة عامة للرسالة ٢٣٨٠
- الشرح والتفسير: الحرص على الدنيا لا يوصلك إلى شيء! ٢٣٨٠
- الرسالة ٥٠ ٢٣٨٣
- اشارة ٢٣٨٣
- نظرة عامة للرسالة ٢٣٨٣
- القسم الأول ٢٣٨٣
- اشارة ٢٣٨٣
- الشرح والتفسير: لا يبعدتكم المقام عن الناس! ٢٣٨٣
- القسم الثاني ٢٣٨٤
- اشارة ٢٣٨٤
- الشرح والتفسير: حقوق الإمام وحقوق القادة ٢٣٨٥
- الرسالة ٥١ ٢٣٨٨
- اشارة ٢٣٨٨
- نظرة عامة للرسالة ٢٣٨٨

- ٢٣٨٩ القسم الأول
- ٢٣٨٩ اشارة
- ٢٣٨٩ الشرح والتفسير: حذارٍ من ظلم الناس!
- ٢٣٨٩ اشارة
- ٢٣٩٠ تأمل
- ٢٣٩٠ ماذا يعنى الخراج؟
- ٢٣٩١ القسم الثانى
- ٢٣٩١ اشارة
- ٢٣٩١ الشرح والتفسير: رعاية إنصاف فى أخذ الخراج
- ٢٣٩٤ الرسالة ٥٢
- ٢٣٩٤ اشارة
- ٢٣٩٤ نظرة عامّة للرسالة
- ٢٣٩٤ الشرح والتفسير: آداب الصلاة وأوقاتها!
- ٢٣٩٤ اشارة
- ٢٣٩٤ تأمل
- ٢٣٩٤ أداء الصلوات الخمس فى ثلاثة أوقات
- ٢٣٩٩ الرسالة ٥٣
- ٢٣٩٩ اشارة
- ٢٣٩٩ نظرة عامّة للرسالة
- ٢٣٩٩ خمسون نكتة مهمة فى عهد واحد
- ٢٤٠٣ القسم الأول
- ٢٤٠٣ اشارة
- ٢٤٠٣ الشرح والتفسير: التوصية الاولى التقوى وجهاد النفس
- ٢٤٠٤ اشارة

- ٢٤٠٦ تأمل
- ٢٤٠٦ أخطار النفس الأمانة
- ٢٤٠٧ أهمية بلاد مصر
- ٢٤٠٨ القسم الثاني
- ٢٤٠٨ اشارة
- ٢٤٠٨ الشرح والتفسير: احترام حقوق جميع المواطنين!
- ٢٤١٢ القسم الثالث
- ٢٤١٢ اشارة
- ٢٤١٢ الشرح والتفسير: لا تكن مغروراً أبداً
- ٢٤١٥ القسم الرابع
- ٢٤١٥ اشارة
- ٢٤١٦ الشرح والتفسير: إحذر من لعنة المظلومين!
- ٢٤١٧ القسم الخامس
- ٢٤١٧ اشارة
- ٢٤١٨ الشرح والتفسير: كن مع جمهور الناس!
- ٢٤٢١ تأمل
- ٢٤٢١ أنواع الحكومات
- ٢٤٢٢ القسم السادس
- ٢٤٢٢ اشارة
- ٢٤٢٢ الشرح والتفسير: عليك بستر العيوب!
- ٢٤٢٢ اشارة
- ٢٤٢٤ تأمل
- ٢٤٢٤ موارد الاستخبارات والتستر على عيوب الناس
- ٢٤٢٥ القسم السابع

- ٢٤٢٥ اشارة
- ٢٤٢٥ الشرح والتفسير: إحذر هؤلاء المستشارين!
- ٢٤٢٥ اشارة
- ٢٤٢٦ تأمل
- ٢٤٢٦ أهتية المشورة في حياة الإنسان
- ٢٤٢٨ القسم الثامن
- ٢٤٢٨ اشارة
- ٢٤٢٨ الشرح والتفسير: الوزير الجيد والوزير السيء!
- ٢٤٣١ القسم التاسع
- ٢٤٣١ اشارة
- ٢٤٣١ الشرح والتفسير: إحيى السنن الحسنه
- ٢٤٣٤ تأمل
- ٢٤٣٤ سبب ظهور السنن
- ٢٤٣٥ القسم العاشر
- ٢٤٣٥ اشارة
- ٢٤٣٥ الشرح والتفسير: الطبقات الاجتماعيه المختلفه
- ٢٤٣٥ اشارة
- ٢٤٣٧ تأمل
- ٢٤٣٧ الشرائح الاجتماعيه
- ٢٤٣٨ القسم الحادى عشر
- ٢٤٣٨ اشارة
- ٢٤٣٨ الشرح والتفسير: الأواصر بين الطبقات الاجتماعيه
- ٢٤٤٣ القسم الثانى عشر
- ٢٤٤٣ اشارة

- ٢٤٤٣ الشرح والتفسير: شروط قادة الجيش
- ٢٤٤٤ القسم الثالث عشر
- ٢٤٤٤ اشارة
- ٢٤٤٤ الشرح والتفسير: أفضل قادة الجيش
- ٢٤٤٩ القسم الرابع عشر
- ٢٤٤٩ اشارة
- ٢٤٤٩ الشرح والتفسير: طرق حل المشكلات
- ٢٤٤٩ اشارة
- ٢٤٥١ تأمل
- ٢٤٥١ من هم اولوا الأمر؟
- ٢٤٥٢ القسم الخامس عشر
- ٢٤٥٢ اشارة
- ٢٤٥٢ الشرح والتفسير: يجب أن يتصف القضاة بهذه الصفات الاثنى عشر
- ٢٤٨٧ تعريف مركز

الإسلامية ومعيناً ثراً للمعارف الإنسانية. وهل رأينا كانهج يرغب المؤلفون بشرحه والتعرف عليه والاقْتباس منه والاستشهاد به وحفظ ولو بعض حكمه ومواعظه. إنّه كتاب المعاني الروحية، والعدالة الاجتماعية، والتربية الرسالية، والقيم الخلقية، والأدلة والكمال والنقاء، وناض بـكل مفيد وسديد ورشيد، ورافض لكل ألوان الشرور والفجور والغرور ومهما استجدت من أفكار وآراء ونظريات واكتشافات خلال هذه القرون المتطاولة فلا- تريده إلّا تسديداً وتأييداً وتخليداً، ولا- يزداد المفكرون والباحثون نحوه إلّا انسجاماً واحتراماً، لأنّه الكتاب الزاهر بالحجج البالغة والزاهرة بالموارد السائغة والجامع بين جلال البلاغة وجمال الصياغة، وبين إصالة المعاني وجزالة المباني وبين دقّة التصوير ورقة التعبير.

لقد عكفت كأغلب الأفراد الشغفين بنهج البلاغة على مطالعة بعض أجزاءه. بحسبما كانت تتطلبه الضرورة والحاجة، حتى لاحت بوادر الخامس عشر من خرداد عام ١٩٦٣ م فالقى القبض على برفقة طائفة من كبار العلماء والمفكرين فودعنا السجن. كانت ظروف السجن عصيبة جداً في الأيام الأولى حيث عمدت جلاوزة النظام الشاهنشاهي البائد إلى حظر أغلب الأشياء عن الوصول إلينا، غير أنّ الضغوط التي مارسها الرأي العام دفعت بذلك النظام

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٦

إلى التخفيف من وطأته والتنازل عن بعض المحظورات الثقافية؛ الأمر الذي جعلنا نطلب من أصدقائنا وذوينا إتياننا ببعض الكتب إلى السجن. أمّا أنا فقد ناشدتهم كتاب نهج البلاغة لأستغل تلك الفرصة المناسبة وأتفرغ فيها للتأمل في هذا الكتاب العظيم، وقد منّ الله عليّ ووفّقني للتدبر والتحقيق في دراسة القسم الثاني من هذا الكتاب والذي يشمل الرسائل والوصايا السياسية والأخلاقية، آنذاك أيقنت بأنّ نهج البلاغة لأعظم وأكبر ممّا كنّا نفكر فيه ونتصوره عنه. فقد رأيت نفسى حينها أمام بحر زاخر من العلوم والمعارف التي تعالج أهم قضايا الإنسان في كافة أبعاده المعنوية والمادية، كما يمد الإنسان بمختلف المواهب المعنوية التي تمكنها من بلوغ شاطئ الامان في هذه الدنيا المحفوفة بالمكاره.

آنذاك أدركت عمق خيبة وخسران أولئك الذين ولّوا ظهورهم لهذا الكثر الفياض والمنهل العذب وجعلوا يسيلون لعابهم لموائد الأجناب بما يعجزون عن الإتيان بمثل قطرة من بحره المتلاطم!

من عجائب هذا الكتاب الذي اقتفى آثا القرآن حتى طبع بصفاته وسماته إنّه وخلافاً للمدارس الفكرية والأخلاقية والسياسية التي يبليها الزمان فإنّه يحمل في طياته صفات العصرية والتجدد وكأنّ خطب أمير المؤمنين عليه السلام ومواعظه وتوجيهاته تفرع سمع المعاصر وتجعله يعيش أجواء مسجد الكوفة. وما أجدر عشاق الحق والحقيقة والمتعشقين لمعرفة العلوم الربانية والمتطلعين لعيش الحياة الحرة الكريمة أن يقصدوا كل يوم ضريح هذا العالم الفذ السيد الشريف الرضى (جامع نهج البلاغة) فيؤدوا له طقوس الاجلال والاكبار ويقروا الفاتحة على روحه الطاهرة بفضل الجهود المضنية التي بذلها من أجل جمع كلمات أمير المؤمنين عليه السلام فزود بها البشرية جمعاء فضلاً عن المجتمعات الإسلامية.

وماذا بوسعى أن أقول بشأن نهج البلاغة الذي حار في وصفه البلغاء وعجز عن تصويره الفصحاء وعيت عن الاحاطة بكنهه العلماء، وعليه لا أرى من جدوى في الاستغراق في هذا الموضوع، وأخوض في الغرض والدافع من هذا الكتاب. فقد أقبل العلماء والادباء على هذا الكتاب النفيس - نهج البلاغة - بين حافظ وناسخ وشارح، حيث بلغ عدد شراحه في العصر القديم والحديث ما جاوز الخمسين شارحاً الذين بذلوا ما بوسعهم لسبر أغواره واستخراج

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٧

كنوزه وجواهره حتى قدموا خدمة جليّة لطلاب المعرفة والحكمة، إلّا أنّ الانصاف هو أنّ هذا الكتاب ما يزال يعيش مظلومية كبرى وغربة عظيمة، وليس هناك من سبيل لازالتها سوى في تظافر الجهود وتعبئة الأفكار والطاقات من أجل إعادة النظر والاسهاب في تفاصيل وجزئيات هذا الكتاب الثر، ولا سيما في عصرنا الراهن الذي تشهد فيه المجتمعات الإنسانية ذروة المشاكل والمطبات التي

تعرض حياتها اليومية، إلى جانب ظهور المذاهب والمدارس الفكرية المختلفة والحملات الشعواء التي تمارسها الأجهزة الاستكبارية والدوائر النفعية الغارقة في الأهواء والشهوات وحب الدنيا والخلود إليها ضد العقائد والأخلاق والفضيلة والتقوى بغية تحقيق أهدافها المشؤومة في ضمان مصالحتها ونهب خيرات البشرية وتجريدها من هويتها الإنسانية. أجل فالعصر الحاضر يجعل نهج البلاغة يتطلب جهوداً أكثر وأنشطة أوسع وأشمل من شأنها التوصل إلى الطرق والأساليب التي تذلل الصعاب المادية والمعنوية والفردية والاجتماعية، إلى جانب التصدي إلى النزعات الفكرية الهدامة التي تستهدف الدين والأخلاق. وعلى هذا الأساس وما أن فرغنا من نشاطنا القرآني في التفسير الذي دوناه- التفسير الأمثل- وكتابنا رسالة القرآن والتي حظيت باقبال المحافل العلمية والأوساط التحقيقية حتى آلبنا على أنفسنا أن نواصل نفس هذه الجهود وبمعوثة الاخوة الفضلاء من العلماء بخصوص نهج البلاغة على غرار الجهود والأساليب التحقيقية التي إعتمدناها في التفسير القرآني- الأمثل- بل إن التجارب السابقة قد جعلت هذا الجهد المتواضع أقرب من غيره إلى الاتقان والاكمال. نعم لقد عزمنا على مباشرة هذا العمل رغم كثرة المشاكل والعراقيل وسعة حجم المسؤوليات مستلهمين العزم والامداد من البارئ سبحانه وعبد الخالص ربيب النبي صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين ويعسوب الدين وقائد الغر المحجلين على بن أبي طالب عليه السلام وبعد أن وعدنا الاخوة الذين وقفوا إلى جانبنا في التفسير القرآني بتقديم كافة أشكال الدعم والعون في هذا المجال لكي نعد شرحاً جديداً جامعاً لهذا الكتاب من شأنه تلبية حاجات العصر ووضع الحلول الوافية الشافية للمعضلات الفكرية والاجتماعية، كما استعنا في بعض المواقع بما أورده المفسرون والشارحون القدماء والمعاصرون من أجل إغناء كافة جوانب المواضيع، إلى جانب اعتماد الأفكار والاطروحات الحديثة المعاصرة.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٨

لقد باشرنا هذا العمل غرة الثالث عشر من شهر رجب المرجب لعام ١٤١٣ هـ الميلاد الميمون لأمير المؤمنين عليه السلام وسار بخطوات بطيئة هادئة حتى استغرق إعداد المجلد الأول- رغم الجهود الجماعية المشتركة- ما يقارب الثلاث سنوات (ومن الطبيعي أن لا تشوب الأعمال العجلة في بدايتها). حتى اتسقت لنا الامور فأخذنا نحث السير وننهض سريعاً بهذا العمل، رغم يقيننا بأننا مازلنا نحوم في هذا المحيط المتلاطم والبحر العميق؛ الأمر الذي لا يبد ويسيراً قط. والأفضل ألا أخوض في التفاصيل التي اعتمدت في هذا الشرح وأترك ذلك للاخوة القراء، ويسرني هنا أن أناشد كافة الاخوة الفضلاء أن يتحفونا بأرائهم بما يقرب هذا العمل من أهدافه ومقاصده، إلى جانب النظر بعين العفو والصفح إلى الخطأ والزلل.

وأخيراً أسأل الله أن يتفضل علينا باتمام هذا الجهد المتواضع بغية التزود من مائدة نهج البلاغة لنا ولكافة جياح الفكر والعقيدة، إنه نعم المولى ونعم المجيب، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قم- الحوزة العلمية

ناصر مكارم الشيرازي

٣ ربيع الثاني ١٤١٧ هـ

٢٠/ تموز/ ١٩٩٦ م

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٩

السيد الرضى جامع نهج البلاغة

إشارة

هو أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي، ولد في بغداد سنة تسع وخمسن وثلاثمائة للهجرة. أمه فاطمة بنت الحسين بن أبي محمد الحسن الاطروش بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وهي امرأة فاضلة عرفت بالورع والتقوى والبصيرة الثاقبة، فقد قال فيها السيد الرضى (ره):

لَوْ كَانَ مِثْلَكَ كُلُّ أُمَّ بَرَّةٍ غَيَّرَ الْبُنُونَ بِهَا عَنِ الْآبَاءِ

كما يتصل نسب جدّه بالإمام موسى بن جعفر الكاظم عليهما السلام وهو أبو أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن الإمام أبي إبراهيم موسى الكاظم عليه السلام. وقد كانت له منزلة عظيمة في الدولة العباسية والدولة البويهية، حتى لقبه أبو نصر بهاء الدين بالطاهر الأوحد.

أقبل السيد الرضى على العلم والفقه والأدب حتى بات أبداع أبناء زمانه، وقد خلف أبيه عام ٣٨٨ بتولى نقابة الطالبين في حياته، وعهد إليه بالنظر في المظالم والحج بالناس. إبتدأ ينظم الشعر وله من العمر عشر سنين أ وتزيد قليلاً، حكم بعض النقاد بأنه أشعر الطالبين، وإلى جانب ذلك فقد كان كاتباً بليغاً مترسلاً، أما المرحوم العلامة الاميني فقد صرّح بشأن السيد الشريف الرضى قائلاً: «وسيدنا الشريف الرضى هو مفخرة من مفاخر العترة الطاهرة، وإمام العلم والحديث والإدب، وبطل من أبطال الدين والعلم والمذهب، ومهما تشدق الكاتب فان في البيان قصوراً عن بلوغ مداه». [١]

أساتذة السيد الرضى

لقد ذكر العلامة الأميني إسم أربعة عشر من أساتذة السيد الرضى ومنهم:

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٠

١- أبو سعيد الحسن بن عبدالله بن مرزبان النحوي المعروف بالسيرافي المتوفى عام ٣٦٨ هـ فقد درس السيد الرضى عليه النحو ولما يبلغ العاشرة من عمره.

٢- النحوي المعروف أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي المتوفى عام ٣٧٧ هـ.

٣- هارون بن موسى.

٤- الخطيب المشهور أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد المعروف بابن نباتة المتوفى عام ٣٩٤ هـ.

٥- القاضي عبد الجبار، العالم الشافعي المعتزلي.

٦- الفقيه والمحدث والمتكلم الشيعي الكبير الشيخ المفيد والذي يعدّ من أعظم أساتذة السيد الرضى. وهناك قصة رائعة جديرة بالسماع بشأن كيفية تلمذه وأخيه السيد المرتضى علي يد الشيخ المفيد. فقد قال مؤلف كتاب «الدرجات الرفيعة»: رأى المفيد أبو عبد الله محمد بن النعمان الفقيه الإمام في منامه، كأن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله دخلت عليه وهو في مسجده بالكرك ومعه والداها الحسن والحسين عليهما السلام صغيرين فسلمتهما إليه، (وقالت له: علمهما الفقه). فانتبه متعجباً من ذلك، فلما تعالي النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأى فيها الرؤيا دخلت إليه المسجد فاطمة بنت الناصر، وحولها جواريتها وبين يديها ابناها محمد الرضى وعلي المرتضى صغيرين، فقام إليها وسلم عليها. فقالت له: أيها الشيخ هذان ولدائي، قد أحضرتهما لتعلمهما الفقه.

فبكى أبو عبد الله - الشيخ المفيد - وقصّ عليها المنام وتولى تعليمهما الفقه، وأنعم الله عليهما، وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما في آفاق الدنيا؛ وهو باق ما بقى الدهر «وردت هذه القصة في شرح ابن أبي الحديد، ج ١ / ٤١».

تلامذة السيد الرضى

روى كبار علماء الفريقين أنّ العلامة الأمينى ذكر تسعة من تلامذة السيد الرضى، ويمكن الإشارة هنا إلى أبرز من روى عنه ومنهم شقيقه السيد المرتضى وشيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى كانت للسيد الرضى همّة كبيرة جعلته يؤسس مدرسة لطلاب العلوم

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١١

الدينية أسماها «دار العلم» ولعلها أول مدرسة يتلقى فيها الطلاب الدروس صباحاً بينما يخلدون إلى الراحة والسكن مساءً فى نفس المدرسة، وهى على غرار مدرسة أخيه السيد المرتضى، وقد كان الشيخ الطوسى والقاضى عبد العزيز بن براج من تلاميذها وسبقت مدرسته «المدرسة النظامية» ببغداد بحوالى ٨٠ سنة وربما كانت تقليداً لها [٢].

كتب ومؤلفات السيد الرضى

ذكر العلامة الأمينى أنّ السيد الرضى خلف أكثر من تسعة عشر كتاباً، أهمها أثره الخالد نهج البلاغة الذى يضم خطب ورسائل وكلمات الإمام على عليه السلام. ثم يورد الشيخ الأمينى أسماء واحد وثمانين كتاباً زمان السيد تعرضت لشرح نهج البلاغة أو ترجمته. ومن أهم الكتب التى ألفها السيد الرضى:

١- خصائص الأئمة، والذى أشار إليه المؤلف فى مقدمته نهج البلاغة.

٢- مجازات الآثار النبوية، والذى طبع عام ١٣٢٨ هـ فى بغداد.

٣- الرسائل العلمية فى ثلاثة مجلدات.

٤- معانى القرآن.

٥- حقائق التأويل فى متشابه التنزيل والذى عبّر عنه الكشى بحقائق التنزيل.

السيد الرضى والشعر

كان السيد الرضى نابغاً فى الشعر، علماً أنّ الشعر لم يصف شيئاً لشخصيته العظيمة، ورغم ذلك فقد جادت قريحته الشعرية بمختلف الفنون والآداب والصنوف الشعرية التى تكشف عن مدى قدرته فى نظم الشعر. يذكر أنّ السيد الرضى قد أنشد قصيدة غزاء كشف فيها النقاب عن علو نسبه ولما يبلغ العاشرة من عمره ولذلك عدّه بعض الادباء أشعر شعراء قريش، وربما رجّح شعره على المتنبى، وهناك رسائل ومبادلات بينه وبين الصحاب بن عباد وأبى اسحاق

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٢

الصابى، وذكر الخطيب البغدادي فى تاريخه قائلاً: سمعت محمد بن عبد الله الكاتب أنّه قال عند أبى الحسين بن محفوظ قال: سمعت من فريق من الادباء أنّهم قالوا: السيد الرضى أشعر شعراء قريش. فردّ ابن محفوظ قائلاً: نعم، هذا كلام صحيح، ثم أضاف: كان هناك بعض الأفراد الذين يحسنون الشعر فى قريش إلّا أنّهم قليلوا النظم للشعر، ولم يكن سوى السيد الرضى يكثر إنشاد الشعر إلى جانب إتصافه بالعدوبة والجمال.

لقابه ومناصبه

لقبه بهاء الدولة سنة ٣٨٨ بالشريف الأجل، وفى سنة ٣٩٢ بذى المنقبتين، وفى سنة ٣٨٩ بالرضى ذى الحسين، وفى سنة ٤٠١ أمر أن

تكون مخاطباته ومكاتباته بعنوان الشريف الرضى أن المناصب والولايات كانت منكرثة على عهد سيدنا الشريف من الوزارة التنفيذية والتفويضية والامارة على البلاد بقسميها العامة والخاصة، تولى الشريف نقابة الطالبين وامارة الحاج والنظر في المظالم سنة ٣٨٠ وهو ابن ٢١ عاما على عهد الطائع، ثم عهد إليه في ١٦ محرم سنة ٤٠٣ بولاية أمور الطالبين في جميع البلاد فدعى «نقيب النقباء».[٣] نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٣

وفاء السيد الرضى

توفى السيد الرضى رحمه الله في السادس من شهر محرم الحرام من سنة ست وأربعمائة- وله من العمر ما يناهز السابعة والأربعين-، وحضر جنازته الوزير فخر الملك، وجميع الأعيان والأشراف والقضاة والصلاة عليه، وقد أقيمت مراسم العزاء في داره في الكرخ. روى أغلب المؤرخين أن جسده الطاهر قد حمل إلى كربلاء فدفن إلى جوار قبر جدّه، والذي يفهم من بعض النقول التاريخية أن قبره في مقدمة الحائر الحسيني. ومضى أخوه المرتضى من جزعه عليه إلى مشهد موسى بن جعفر عليه السلام؛ لأنه لم يستطع أن ينظر إلى تابوته ودفنه وصلى عليه فخر الملك أبو غالب، ومضى بنفسه آخر النهار إلى أخيه المرتضى بالمشهد الشريف الكاظمي، فألزمه بالعود إلى داره.[٤]

رثاه الكثير من الأدباء والشعراء وفي مقدمتهم أخيه السيد المرتضى الذي أنشده قائلاً:

يا للرجال لفجعة جذمت يدي وددت لو ذهبت على براسي

لله عمرك من قصير طاهر ولرب عمر طال بالأدناس

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٥

كلام بشأن نهج البلاغة وصاحبه

إشارة

يعد الحديث عن علي عليه السلام أو نهج البلاغة عملاً سهلاً وفي نفس الوقت وليس سهلاً! فهو ليس سهلاً بالنسبة لمن يروم الغوص في أعماق علي عليه السلام والوقوف على كنهه وحقيقته والاحاطة بكافة جوانبه الفكرية وسعة إيمانه وقوة صبره وعظم فضائله وملكاته، أو أن يتعرف على نهج البلاغة كما هو في حقيقته. ولكن من السهل الوقوف على بعض قبسات هذين النبراسين العظيمين والقمرين الزاهرين. لا- تخفى شخصية علي عليه السلام على مسلم، فكل من له أدنى معرفة بعلي عليه السلام وتاريخه وسيرة حياته سيوقن بأنه الإنسان الكامل- بعد رسول الله صلى الله عليه وآله- وأنه آية من آيات الحق جل وعلا وان كتابه نهج البلاغة ليس إلا شعاعاً من شمس المنيرة.

فنهج البلاغة بحر من العلم ومحيط من الحكمة وكثر لا ينضب وحديقة غناء بالزهور وسماء مزينة بالنجوم ومصدر لسعادة الإنسان في مسيرته الدنيوية.

ومما لاشك فيه أن من يروم إقتحام هذا الميدان عليه أن يعدّ الكتب والمجلدات علّه يحصى بعض حقائق الامور، بينما لا نهدف- في هذه المقدمة- إلّا إلى التطرق إلى بعض الإشارات المقتضبة من أجل التمهيد للخوض في شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام والتي نراها أفضل طريقة للتعريف به، وهل الجو المشمس لإدليل على وجود الشمس.

وهنا أود أن ألفت إنتباه الاخوة القراء إلى أن عدداً كبيراً من العلماء والأدباء والزعماء- ولا سيما من غير المسلمين- قد تناولوا بالبحث

والدرس كتاب نهج البلاغة فأروا أعظم ممّا ظنوا وتصوروا فأطلقوا عباراتهم المعروفة بشأن نهج البلاغة بما يكشف عن مدى تأثيرهم والذهول الذي أصابهم فلم يتمالكوا أنفسهم ويعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم وعواطفهم.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٦

ويبدو أن كل واحد من هؤلاء قد تأثر بجانب معين من نهج البلاغة، وربما أمكننا إيجاز هذه الجوانب في المحاور الرئيسية الثلاث الآتية:

١- فصاحة وبلاغة نهج البلاغة.

٢- المضامين العميقة لنهج البلاغة.

٣- الجاذبية الخارقة لنهج البلاغة.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٧

١- فصاحة النهج وبلاغته

لابد في هذا الأمر من الاستشهاد بأقوال البلغاء والفصحاء والأدباء والشراح والكتّاب الذين سيروا- حسب قدرتهم- أغوار نهج البلاغة فتأثروا بما لمسوه من حلاوة وطلاوة في فصاحته وبلاغته وسحر بيانه بما لم يعهدوه، فأطلقوا عباراتهم بشأنه ومنهم:

١- وما أحرانا أن نتجه بادئ ذي بدء صوب جامع نهج البلاغة والذي يعتبر من جهاذة الفصاحة والبلاغة الذي احتل الصدارة من بين فصحاء العرب وبلغائها وقد أفنى عمره في جمع خطب نهج البلاغة، ألا وهو السيد الرضى الذى وصفه الكاتب المصرى المعروف الدكتور «زكى مبارك» فى كتابه «عبقريه الشريف الرضى» قائلاً: «هو اليوم أبداع أبناء الزمان، وأنجب سادة العراق، يتحلى بأدب ظاهر، وفضل باهر، وحظ من جميع المحاسن وافر، ثم هو أشعر الطالبين، ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعده عن الصدق».

يقول الشريف الرضى فى مقدمته الرائعة لنهج البلاغة:

«كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَشْرِعَ الْفَصَاحَةِ وَمَوْرِدَهَا وَمَنْشَأَ الْبَلَاغَةِ وَمَوْلِدَهَا وَمِنْهُ ظَهَرَ مَكْنُونُهَا وَعَنْهُ أَخَذَتْ قَوَائِمُهَا وَعَلَى أُمَّتِهِ حَذَا كُلِّ قَائِلٍ خَطِيبٍ وَبِكَلَامِهِ اسْتَعَانَ كُلُّ وَاعِظٍ بَلِغٍ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ سَبَقَ وَقَصَّرُوا وَقَدْ تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرُوا»

، ثم يفسر هذا الكلام فيقول: «لأن كلامه عليه السلام الكلام الذى عليه مسحة من العلم الإلهى وفيه عبقة من الكلام النبوى».

٢- الشارح المعروف الذى أفنى عمراً فى شرح وتفسير نهج البلاغة وتحدث بشغف وإعجاب عن على عليه السلام وهو عز الدين عبد الحميد ابن أبى الحديد المعتزلى الذى يعدّ من أشهر علماء العامة للقرن السابع الهجرى [٥].

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٨

فقد تحدث مراراً وكراراً بهذا الشأن فى شرحه وأذعن لعظمه فصاحة وبلاغة النهج. فقد قال على سبيل المثال بشأن الخطبة ٢٢١ التى أوردتها على عليه السلام- بشأن البرزخ- «وينبغى لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة فى مجلس وتلى عليهم، أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدى ابن الرقاع: قلم أصاب من الدواة مداها ... فلم قيل لهم فى ذلك قالوا إنا نعرف مواضع السجود فى الشعر كما تعرفون مواضع السجود فى القرآن» [٦].

ثم قال فى موضع آخر حين عرض للمقارنة بين كلام أمير المؤمنين على عليه السلام وكلام «ابن نباتة» [٧] الخطيب المعروف الذى عاش فى القرن الهجرى الرابع: «فليتأمل أهل المعرفة بعلم الفصاحة والبيان هذا الكلام بعين الانصاف ليعلموا أن سطرراً واحداً من كلام نهج البلاغة يساوى ألف سطر منه بل يزيد ويربى على ذلك» [٨]. وينقل أيضاً إحدى خطب ابن نباتة فى الجهاد التى تمثل قمة الفصاحة وقد ضمنها عبارات أمير المؤمنين عليه السلام الواردة فى الجهاد «ما غزى قوم فى عقر دارهم إلّا ذلّوا» فيقول: «فانظر إلى هذه

العبارة كيف تصيح من بين الخطبة صياحاً وتنادى على نفسها نداءً فصيحاً، وتعلم سامعها أنّها ليست من المعدن الذي خرج باقى الكلام منه، ولا من خاطر الذي صدر ذلك السجج عنه، ولعمر الله، لقد جمّلت الخطبة وحسنتها وزانتها وما مثلها فيها إلا كآية من الكتاب العزيز يتمثل بها فى رسالة أو خطبة، فإنّها تكون كاللؤلؤة المضيئة تزهو وتثير، وتقوم بنفسها، وتكتسى الرسالة بها رونقاً، وتكتسب بها ديباجة» [٩].

وأخيراً نختم كلامه بما أورده فى مقدمة شرحه للنهج حيث قال: «وأما الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيد البلغاء وفى كلامه قيل: دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة» [١٠].

٣- «جورج جرداق» الكاتب المسيحي اللبناني المعروف الذى ألف كتابه المشهور

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٩

«الإمام على صوت العدالة الإنسانية» حيث أفرد فصلاً من كتابه لبيان خصائص الإمام على عليه السلام فقال بخصوص نهج البلاغة: «أما فى البلاغة، فهو فوق البلاغات، كلام ضم جميع جمالات اللغة العربية فى الماضى والمستقبل، حتى قيل عنه: كلام دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين» [١١].

٤- «الجاحظ» الذى عاش مطلع القرن الهجرى الثالث وبعده من أبرز أدباء العرب ونوابغهم، حيث أورد بعض كلمات أمير المؤمنين عليه السلام فى كتابه المعروف «البيان والتبيين» فجعل يشئ عليه. ومن ذلك قال فى المجلد الأول من كتابه المذكور حين طالعه كلمته عليه السلام: «قيمة كل امرء ما يحسنه» [١٢]؛ لو لم تكن فى كل هذا الكتاب إلا هذه الجملة لكفت، بل وزادت، فأفضل الحديث ما كان قليلاً ومفهوماً ظاهر جلى ويغنيك عن الكثير، وكأنّ الله كساه ثوباً من الجلال والعظمة وحجاباً من نور الحكمة بما يتناسب وطهر قائله وعلو فكره وشدة تقواه.

٥- «أمير يحيى العلوى» مؤلف كتاب «الطراز» حيث أورد فى كتابه عبارة عن الجاحظ أنّه قال: «إنّ الرجل الذى لا يجارى فى الفصاحة ولا يبارى فى البلاغة، وفى كلامه قيل دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين، ولم يطرق سمعى كلام بعد كلام الله ورسوله سوى كلمات أمير المؤمنين كرم الله وجهه من قبيل قصار كلماته «ما هلك امرء عرف قدره» و «من عرف نفسه عرف ربه» و «المرء عدو ما جهل» و «استغن عن شئت تكن نظيره واحسن إلى من شئت تكن أميره واحتج إلى من شئت تكن أسيره». وعليه فليس من العبث أن يعرب هذا الأديب الزيدى «صاحب كتاب الطراز» عن دهشته لاستناد كبار علماء المعانى والبيان بدواوين شعراء العرب وأدبائهم بغية السبيل إلى الفصاحة والبلاغة بعد كلام الله وكلام النبى صلى الله عليه وآله ولولا ظهورهم لكلمات الإمام على عليه السلام، بينما كانوا يعلمون أنّه يمثل قمة الفصاحة والبلاغة وفى كتاب نهج البلاغة كل ما يريدون من فنون أدبية من قبيل الاستعارة والتمثيل والكناية والمجاز والمعانى و...» [١٣].

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٠

٦- الكاتب المشهور «محمد الغزالي» الذى نقل فى كتابه «نظرات فى القرآن» عن اليازجى أنه أوصى ولده قائلاً: «إذا شئت أن تفوق أقرانك فى العلم والأدب وصناعة الانشاء فعليك بحفظ القرآن ونهج البلاغة». [١٤]

٧- المفسر المعروف «شهاب الدين الآكوسى» الذى قال- حين بلغ اسم نهج البلاغة:-

«إنّ انتخاب هذا الاسم لهذا الكتاب نابع من كونه يشتمل على كلام فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق المتعال، وهو كلام يقترب من الاعجاز يضم البدائع فى الحقيقة والمجاز» [١٥]

٨- الاستاذ «محمد محيى الدين عبد الحميد» الذى قال فى وصفه لنهج البلاغة: «كلّ هذه المزايا مجتمعة، وتلك الصفات متأزرة متناصرة؛ وما صاحبها من نفع إلهى وإفهام قدسى، مكنت للإمام على من وجوه البيان، وملكته أعنة الكلام، وألهمته أسمى المعانى وأكرمها، وهيات له أشرف المواقف وأعزها، فجرت على لسانه الخطب الرائعة والرسائل الجامعة والوصايا النافعة». [١٦]

٩- أحد شراح نهج البلاغة «الشيخ محمد عبده» إمام العامة والكاتب العربي المعروف، الذي قال بشأن النهج في مقدمته عليه- بعد أن اعترف بأنه تعرف مصادفةً على هذا الكتاب الشريف- ويبدو أن هذه قضيةٌ جديرةٌ بالتأمل:- «حين تصفحت نهج البلاغة وتأملت موضوعاته بدا لي وكأنّ هذا الكتاب عبارة عن معارك عظيمة، الحكومة فيها للبلاغة والقوة للفصاحة وقد حملت من كل حذب وصب على جنود الظنون الباطلة وسلاحها الأدلة القويّة والبراهين الساطعة».

١٠- «السبط بن الجوزي» أحد أبرز الخطباء والمؤرخين والمفسرين المعروفين العامة، الذي صرح في «تذكرة الخواص» قائلاً: «وقد جمع الله له بين الحلاوة والملاحة والطلاوة والفصاحة لم يسقط منه كلمة ولا بادت له حجة، أعجز الناطقين وحاز قصب السبق في السابقين الفاظ يشرق عليها نور النبوة ويحير الأفهام والألباب». [١٧]

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢١

١١ و ١٢- ونختتم هذا الفصل بقولين لأديب مسيحي معروف وهو الكاتب والمفكر العربي المشهور «ميخائيل نعيمة» الذي قال: لو كان علي مقتصراً على الإسلام لم يتعرض شخص مسيحي (يشير إلى الكاتب والمفكر المسيحي اللبناني جورج جرداق صاحب كتاب الإمام على صوت العدالة الإنسانية) لسيرته وحياته ويتابع الأحداث التي واجهته فيترنم بشجاعته التي أصابته بالدهشة والذهول؛ ولم تقتصر شجاعته الإمام وبسالته على ميدان الحرب، فقد كان رائداً في البلاغة وسحر البيان والاخلاق الفاضلة وعلو الهمة وعمق الإيمان ونصرة المظلومين واتباع الحق وبسط العدل. ثم قال في موضع آخر بأن ما قاله وفعله هذا النابغة ما لم تره عين وتسمعه أذن، وأنه لأعظم من أن يسع المؤرخ بيانه بقلمه ولسانه. وأخيراً فقد قال فيه ابن أبي الحديد: وأما الشجاعة فانه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحا اسم من يأتي بعده، ومقاماته في الحرب مشهورة يضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة؛ وهو الشجاع الذي ما فرّ قط، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحداً إلّا قتله، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الأولى إلى ثانية، وأما السخاء والجود ففيه يضرب المثل فيهما، فكان يصوم ويطوى ويؤثر بزاده، وقال الشعبي: كان أسخى الناس؛ كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، ما قال (لا) لسائل قط. وأمّا الحلم والصفح: فكان أحلم الناس عن ذنب، وأصفحهم عن مسيء؛ وقد ظهر صحته ما قلناه يوم الجمل حيث ظفر بمروان بن الحكم- وكان أعدى الناس له وأشدّهم بغضاً- فصفح عنه، وأما الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيد البلغاء، ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة، ولما قال محض بن أبي محض لمعاوية: جئتك من عند أعيان الناس، قال له: ويحك! كيف يكون أعيان الناس! فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٣

٢- المضامين الرصينة الشاملة لنهج البلاغة

إشارة

من المميزات التي يتصف بها نهج البلاغة التي تلفت انتباه القارئ إذا ما أقبل عليه إنّما تكمن في شموليته وتنوع مضامينه الرصينة، بحيث «تجعله يصدق أنّ هذه الأقوال المتقنة الدقيقة التي تعالج أمور شتى تصل إلى حدّ التضارب إنّما تصدر من عين واحدة، ومن المسلم به أنّ هذا الأمر لا يصدر إلّا من أمير المؤمنين على عليه السلام الذي أودع قلباً حافظاً وروحاً سامية تفيض علوماً ومعارفاً إلهية حقة وأسراراً جمّة لا يسعها سوى ذلك القلب. ويسرنا هنا أن نستشهد بالأقوال التي ساقها كبار العلماء والمفكرين بهذا الخصوص».

١- ونستهل ذلك بما أروده العالم المعروف «محمد عبده» إمام العامة، فقد رسم صورة رائعة عن حاله وهو يطالع لأول مرة نهج البلاغة وما اشتمل عليه من خطب ورسائل وكلمات قصار عجزت العقول أن تجود بمثالها فصاحة وصياغة وبلاغة، فقال: «وكان لطيف

الجس، نقي الجوهر، وضاء النفس؛ سليم الذوق، مستقيم الرأي، حسن الطريقة سريع البديهة، حاضر الخاطر؛ حوّل قلباً؛ عارفاً بمهمات الامور إصداراً وإيراداً.»

٣- نقل «الشيخ البهائي» في «كشكوله» عن كتاب «الجواهر» ان «أبو عبيدة» قال: قال علي عليه السلام تسع جمل عجزت بلغاء العرب عن الإتيان بواحدة منها؛ ثلاث في المناجاة، وثلاث في العلوم، وثلاث في الادب. [١٨] ثم خاض في شرح هذه العبارات التي وردت ضمن كلماته في نهج البلاغة وسائر أحاديثه.

٤- الدكتور «زكي مبارك» الذي صرّح في كتابه «عقريه الشريف الرضى» قائلاً: «أعتقد أنّ دراسة نهج البلاغة تمنح الإنسان المروءة والشهامة وسمو الروح، ولا عجب فهو ينبع من نفس عظيمة واجهت الوقائع والحوادث بشجاعة الأسود» [١٩].
نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٤

فالكلام هنا لا يتناول سعة المعلومات وكسب المعارف والعلوم، بل قصره على استشعار الهمة والمروءة وسمو النفس في ظل التمعن بالنهج.

٥- «ابن أبي الحديد» هو الآخر أعطى الكلام حقّه فقال: ولم تحصل العدالة الكاملة لأحد من البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلهذا الرجل، ومن أنصف علم صحه ذلك، فان شجاعته وجوده وعفته وقناعته وزهده يضرب بها الأمثال. وأما الحكمة والبحث في الامور الإلهية، فلم يكن من فن أحد من العرب، وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفر دون به، وأول من خاض فيه من العرب على عليه السلام ولهذا تجد المباحث الدقيقة في العدل والتوحيد مبثوثة عنه في فرش كلامه وخطبه، ولا تجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك. [٢٠]

٦- أورد «المرحوم السيد الرضى» بعض العبارات المقتضبة العميقة المعنى في كتابه الشريف بشأن مضامين نهج البلاغة، وهي جديرة بالتأمل والاهتمام، من ذلك ما ذكره ذيل الخطبة «٢١» حيث قال:
«إنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله بكل كلام لمال به راجحاً وبرز عليه سابقاً». أما الخطبة «٢١» فهي:

«فإنّ الغاية أمامكم وإنّ وراءكم الساعة تحذوكم، تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بأولكم آخركم».

كما أورد مثل هذا المعنى ذيل الحكمة «٨١» من كلماته القصار فقال:

«وهي الكلمة التي لا تصاب لها قيمة ولا توزن بها حكمه، ولا تقرن إليها كلمة».

٧- ونطلق الحديث هنا للكاتب المصرى المعروف «عباس محمود العقاد» الذى يعدّ من كبار الأدباء المعاصرين لنرى مدى اعجابه بنهج البلاغة، فقد أورد بعض العبارات الجزيلة فى مواضع من كتاب «عقريه الإمام على عليه السلام» والتي تبين عمق معرفته بشخصية الإمام ومدى تأثيره بكلماته، فقد قال: «إن نهج البلاغة عين متدفقة بآيات التوحيد والحكمة الإلهية التي توسع معارف الباحثين فى العقائد والتوحيد والمعارف الإلهية» [٢١].

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٥

وقال فى موضع آخر: «إنّ كل نموذج من كلماته شهادة؟

على قدرته الإلهية بيان الحقائق، أنّه لا شك من أبناء آدم الذى علم الأسماء، فهو

مصدق لقوله تعالى: «وتوا الكتاب» «فصل الخطاب» [٢٢].

وقال أيضاً: «إنّ كلماته عليه السلام تمثل قمة الحكمة والفصاحة والبلاغة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل»

. فهذا الحديث يصدق على علي عليه السلام قبل غيره، فكللماته الحكيمه في مصاف كلمات الأنبياء عليهم السلام [٢٣].

٨- وقال الكاتب والأديب المعاصر «محمد أمين النوى» يصف نهج البلاغه: «إنه الكتاب الذى جعله الله حجة واضحة وقد ضمنه على عليه السلام الأمثال القرآنية والحكم الربانية بفصاحة وبلاغه قل نظيرها». [٢٤]

٩- وهذا الأديب المصرى المعروف «طه حسين» الذى يعتبر عميد الأدب العربى، فقد قال بعد أن تعرض لردّ على عليه السلام على السائل الذى كان شاكاً فى حرب الجمل: «إنى لم أر ولم أعرف جواباً بعد الوحي وكلام الله أعظم وأروع من هذا الجواب». [٢٥]

١٠- المرحوم «ثقة الإسلام الكلينى» الذى نقل فى الجلد الأول من كتابه الكافى إحدى خطبه عليه السلام فى التوحيد، فقال: «هذه من خطبه المعروفة ولو اجتمعت الانس والجن لبيان حقائق التوحيد لعجزت عمّا بينه على عليه السلام ولولاه لما عرف الناس سبيل الوحداية». [٢٦]

١١- ونختتم البحث بما أورده العلّامة الفقيه آية الله الخوئى، إذ قال: «حين يرد الإمام عليه السلام بحثاً فى خطبه من نهج البلاغه فانه لا يترك مجالاً بعده للحديث حتى يخيل لأولئك الذين لا- علم لهم بسيرة أمير المؤمنين عليه السلام أنه قضى عمره فى ذلك الموضوع» [٢٧].

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٧

٣- جاذبة نهج البلاغه الخارقة

إشارة

لقد شعر جميع من تعامل مع نهج البلاغه- من قبل أشياع على عليه السلام أو سائر العلماء والادباء المسلمين ومن سائر الأديان- دون استثناء بوجود قوة كامنة تشدهم إليه وتجعلهم يتأثرون به ويتكهربون بأجوائه.

والحق إن مثل هذه الجاذبة التى اتسمت بها كافة خطبه ورسائله وكلماته هى التى دفعت بفريق من العلماء لتناول هذا الكتاب النفيس بالشرح والتفسير وتدوين المقالات والأبحاث والاستغراق فى مختلف جوانب شخصية الإمام على عليه السلام. بدورنا نرى أن هذه الجاذبة تختزن عدّة دوافع، يمكن إيجاز أهمها فى ما يلى:

١- لقد شحن نهج البلاغه بالأقوال التى تصرح بمواساة الطبقات المحرومة والمستضعفة، إلى جانب الحديث عن مجابهة الظلم والطغيان ومقارعة حكام الجور والطواغيت. فقد تعرض فى عهده الذى عهدته إلى مالك الأشر حين ولاه مصر إلى الخطط والبرامج التى ينبغى اعتمادها فى كيفية إدارة شؤون البلاد. يتحدث على السلام فى هذا العهد عن حقوق ووظائف الطبقات الاجتماعية السبع، حتى إذا بلغ الطبقة المحرومة من الناس أفصح عن مكنوبات نفسه وسيرته فى التعامل معها فيوصى عاملاً قائلاً له: «اللّٰه الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى...»، ثم يؤكد عليه: «فلا يشغلنك عنهم بظر فأنك لا تعذر بتضييعك التافه لاحكامه الكثير المهم. فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم، وتفقد امور من لا يصل إليك منهم ممن تفتحهم العيون، وتحقره الرجال» ولم تقتصر وصاياها عليه السلام بهذا المجال فى هذا العهد فحسب، بل لم ينفك يؤكد ذلك فى كل خطبة من خطبه وموعظة من مواظمه لعماله وولاته.

٢- لقد سلك نهج البلاغه سبيل تحرير الإنسان من أسر الهوى والشهوات التى تؤدى به

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٨

إلى البؤس والشقاء، وكذلك تحريره من قيود الطواغيت والظلمة، فهو يستفيد من كل فرصة لتحقيق هذا الهدف المقدس، إلى جانب

تأكيده على أنه ما جاع فقير إلّابما متع به غنى، وأن تراكم الثروة يفيد تضييع الحقوق وعدم العمل بالأحكام الشرعية. [٢٨] ويصرح الإمام عليه السلام:

«أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألقيتم دنياكم هذه أزهده عندى من عطفة عز!» فهو يؤكد على شدة تمره في إعادة روح الحرية والعدالة والمساواة التي لا يعرف المهادنة فيها، بل أبعد من ذلك في أنه لا يرى الامرة والحكومة سوى وسيلة ووظيفة لتحقيق هذه الاهداف [٢٩]. ويخطيء كل من يظن أن علياً عليه السلام يمكنه أن يتهاون في هذا الأمر، ولم يعرف عمق شخصية علي؛ الأمر الذي أكدته في رسالته إلى عثمان بن حنيف [٣٠].

٣- النفحات العرفانية التي ينبض بها نهج البلاغة إنما تناغم الأرواح المتعطشة للحكمة فتسقيها الشراب الطهور الذي يسكرها بالعلم والمعرفة!

فلا- يرى القارئ لخطبه في الله وصفاته الجمالية والجلالية سوى أنه يخلق مع الملائكة ليخترق حجب المعرفة والكمال [٣١] أما إذا تحدث عن أهوال القيامة وسكرات الموت والعاقبة التي تنتظر الإنسان فلا تراه إلّا وكأنه أمسك بقبضة الغافلين وأخذ يسوقهم نحو المصير الذي منه يهربون والعاقبة التي عنها لاهون. [٣٢]

٤- قوة الجاذبية الأخرى التي يختزنها نهج البلاغة والتي أشرنا إليها سابقاً أنه عليه السلام أمير الكلام في كل موضوع يطرقه بما يجعلك تتصور أنه بارع في هذا الموضوع وقد أفنى عمره في بيان عناصره ومقوماته وسائر جوانبه، ولا يحسن شيئاً آخر سواه وسرعان ما يتبدد هذا التصور حين تطالعه وقد تحدث في موضوع آخر- فاذا تناول- على سبيل المثال- قضية

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٩

التوحيد وشرح أسماء الله وصفات الجلال، خيل إليك أنه فيلسوف رباني سبر أغوار التوحيد وانهمك فيه لسنوات متمادية وليس له مثل هذا العمق فيما سواه؛ فليس للتجسم من سبيل إلى حديثه، ولا من سبيل إلى سلبه الصفات، بل يقدم صورة عن التوحيد تجعل الإنسان يرى ربه ببصيرته في كافة السموات والأرضين حاضر فيها وفي نفسه فيمتلئ قلبه حباً لله ومعرفة به.

بينما لا تكاد العين تقع على خطبته في الجهاد، حتى لا تغيب عنها صورته كآمر شجاع ومقاتل باسل مغوار قد ارتدى بزته العسكرية وأخذ يستعرض أساليب الحرب وفنون القتال وسترراتيجية الدفاع والهجوم، وكأنه أفنى عمره في ميادين الوغى وساحات القتال ولم تدعه يفكر في ما سواها.

فاذا تصفحنا نهج البلاغة وطالعنا خطبه ووصاياها لعماله وولاته حين أخذ بزمام الامور وتزعم قيادة الامية، رأينا يكشف النقاب عن عناصر تألق الحضارات وازدهارها وأسباب سقوطها وانهارها، إلى جانب استعراض مصير الأقوام الظالمة والامم المستبدة بالاضافة إلى الاسس والمبادئ التي من شأنها ضمان سلامة الأنظمة الاجتماعية والسياسية الحاكمة، بما يجعلك تظن بأنه عكف عمراً على هذه الامور ويختص بها دون الاهتمام بسائر ميادين الحياة ونواحيها. ثم نقل صفحات النهج لنراه زعيماً أخلاقياً هادياً بشرياً نحو تهذيب النفس ومكارم الأخلاق. يلتقيه أحد الأصفياء من أصحابه ويدعى «همام» الذي يسأله أن يصف له المتقين. فيعدد له عليه السلام ما يقارب المئة من صفاتهم بعبارات أحكم صياغتها وبلاغتها كأنه جلس عمراً لدروس الأخلاق والتهذيب وتربية النفوس حتى يصعق همام صعقة كانت نفسه فيها.

حقاً إن هذه الأبحاث العميقة الفريدة المتنوعة التي شحنت بها نهج البلاغة تعدّ من الخصائص والمميزات التي اتصف بها هذا الكتاب العجيب.

الأقوال التي ساقها كبار جهابذة العلماء بخصوص الجاذبية الكامنة في نهج البلاغة تعتبر من الشواهد التي تعزز ما أوردناه سابقاً بهذا الشأن:

فالسيد الرضى جامع نهج البلاغة الرائد الذي يعدّ من مشاهير الادباء العرب يصرح

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٠

أحياناً حين نقله لبعض الخطب ببعض العبارات التي تكشف عن عمق افتتانه بما يورد وعدم تمالكه لنفسه تجاه قوة سبك عبارات صاحب النهج. ومن ذلك أنه قال إثر نقله للخطبة رقم «٨٣» من نهج البلاغة

«وفي الخبر أنه لما خطب بهذه الخطبة اقشعرت له الجلود وبكت العيون ورجفت القلوب»

ونقرأ في خطبة المتقين - حين سأله ذلك العارف «همام» عن صفات المتقين - أنه حين بلغ ذلك الموضع من الخطبة، صعق همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أما والله لقد خفتها عليه، هكذا تفعل المواعظ البالغة في أهلها».

كما علق السيد الرضى على الخطبة رقم «٢٨» ليعرب عن عمق أثرها في روحه وعقله فقال: «إنه لو كان كلام يأخذ بالاعتناق إلى الزهد في الدنيا، ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال، وقادحاً زناد الاعتاظ والازدجار...» وأضاف:

«ومن أعجبه قوله عليه السلام:

«ألا إن اليوم المضممار وغدا السباق، والسبقة الجنّة والغاية النار»

فان فيه مع فخامة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل وواقع التشبيه سرّاً عجيباً ومعنى لطيفاً... فتأمل ذلك فان باطن كلامه عجيب، وغوره بعيد لطيف، وكذلك أكثر كلامه عليه السلام».

وقال ذيل الخطبة «١٦»:

«إن في هذا الكلام الأدنى من مواقع الاحسان مالا تبلغه مواقع الاستحسان، وان حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به».

وفيه - مع الحال التي وصفنا - زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلّا من ضرب في هذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق

«وما يعقلها إلّا العالمون».

وهكذا نقل ما أورده المفسر والمحدث المعروف «ابن عباس» حين ألقى الإمام خطبته الشقشقية حين قام إليه رجل من أهل السواد فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه، فقال له: يا أمير المؤمنين، لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت. فقال:

«هيهات يا ابن عباس! تلك شقشقة هدرت ثم قرت»

. قال ابن عباس:

«فو الله ما أسفت على كلام قط كأسفى على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد».

فقد قال ابن أبي الحديد:

«هو سيد المجاهدين وأبلغ الواعظين ورئيس الفقهاء والمفسرين وإمام أهل العدل والموحدين». [٣٣]

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣١

أسناد نهج البلاغة

مامن شك في أنّ خطب ورسائل نهج البلاغة وكلماته القصار وردت (على ضوء جمعها من قبل المرحوم السيد الرضى) على نحو

الروايات المرسله؛ أى لم تذكر أسانيدها بما يجعلها متصله بالمعصومين، وقد أدى هذه بدوره إلى تشكيك البعض أحياناً، ولا سيما بالنسبة لأولئك الذين ظنوا بأن نهج البلاغه وبفضل مضامينه العظيمة قد يكون سنداً لا ثبات حقانية مذهب الشيعة وأفضلية على عليه السلام على جميع الصحابه؛ فاتخذوا ذلك ذريعة لفرض طوق من العزلة على هذا الكتاب فى أوساط الرأى العام الإسلامى. وإن كانت هذه الزوبعة- ولحسن الحظ- لم يكن لها أدنى تأثير فى أفكار علماء وأدباء الفريقين الذين كسروا حاجز الصمت وكالوا له المديح والثناء وخاضوا فى شرحه وتفسيره، وقد مرت علينا نماذج من ذلك، مع ذلك نرى من الضرورى الخوض فى قضية أسناد النهج بغية إزالة الشك وإماطة اللثام عن حقيقة هذا الكتاب وهنا لا بد من الالتفات إلى أمرين:

١- أن أغلب خطب نهج البلاغه ورسائله وكلماته القصار- إذا لم نقل جميعها سوى معشاره- إنما هى من قبيل المطالب المستدلة المبرهنه أو ذات الاستدلال المنطقى، بعبارة اخرى من قبيل «القضايا التى قياساتها معها». وعليه فهى ليست بحاجة إلى سلسلة السند بصفتها مباحث تعبدية، فالأعم الأغلب من المضامين وردت بشأن المعارف العقائدية من قبيل: المبدأ والمعاد والصفات وأدلة عظمة القرآن ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله وما شاكل ذلك. كما وردت بعض المضامين كمواظب ونصائح ودروس وعبر بشأن حياة الامم السابقة ونظم إدارة شؤون البلاد والحياة الاجتماعية والآداب ومسائل الجهاد وما إلى ذلك من المباحث المنطقية الاستدلالية الخاضعة للدليل والبرهان.

ولما كانت نتاجات كبار الفلاسفة وعلماء العلوم المختلفة وحتى النتاجات الأدبية الشعرية

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٢

لفطاحل الشعراء تؤخذ دون الحاجة إلى سلسلة الأسانيد، فان هذا الأمر يجرى على مضامين نهج البلاغه بما يجعله غنياً عن تلك السلسلة، وحقيقة الأمر أنها تحمل أدلتها معها «قضايا قياساتها معها». نعم هناك محور صغير فى النهج قد عنى ببعض الأحكام الفرعية التعبدية، فان كان من حديث عن السند، أمكن إقتصاره على هذا المحور والذى لا يشكل قطعاً عشر كتاب نهج البلاغه. ونخلص من هذا إلى عدم جدوى هذه الضجة المفتعلة بشأن أسانيد النهج، وهى زوبعة جوفاء عديمة الأثر.

٢- بغض النظر عما سبق، فاننا لا نرى من عقبه فى هذا الأمر حتى وإن اعتمدنا المعايير المتعارفة لحجية السند بالنسبة لنهج البلاغه؛ وذلك لأن المعيار الأصلى لقبول الحديث والرواية- على ضوء ما فرغ منه فى علم الاصول وبرهن فى محله- إنما يتأتى الوثوق بها من طرق مختلفة؛ فأحياناً يحصل الوثوق بالرواية من خلال سلسلة السند وثقة الرواة، كما يحصل أحياناً اخرى مثل هذا الوثوق بواسطة كثرة الرواة- وفى الكتب المشهورة والمعتبرة-، وأخيراً قد يكون مضمون الرواية على درجة من العمق والرصانة على أنه إنما صدر من النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام المعصوم؛ الأمر الذى يجعلنا نتق بهذه الرواية وهذا ما ذكره بالنسبة لزبور آل محمد صلى الله عليه وآله الصحيفة السجادية (إلى جانب الاسناد المعتبرة التى أوردها بهذا الشأن)، بفضلها ضمت أدعية رفيعة سامية ذات مضامين عميقة صدرت عن الإمام السجاد على بن الحسين زين العابدين عليه السلام. ولا شبهة ولا ريب أن من يتمعن فى خطب نهج البلاغه ويتدبر مضامينها ويتأمل أسرارها، فإنه لا يملك سوى الاذعان بأن مثل هذه الكلمات محالة الصدور عن الإنسان العادى وأنها لم تصدر سوى عن النبي صلى الله عليه وآله أو امتداده الإمام المعصوم عليه السلام.

وعلى حد تعبير كبار علماء الفريقين: «إن كلامه فوق كلام المخلوقين ودون كلام الخالق».

وبناءً على هذا وعلى ضوء بزوغ الشمس دليل على وجودها، فان مضمون نهج البلاغه دليل على اعتبار سنده وصدوره عن المعصوم عليه السلام، واننا لنوقن بذلك على أنه لم ينسب لمعصوم سوى لعلى عليه السلام. فمن ذا الذى يحتمل أنه صدر من فرد عادى ثم نسبه لعلى عليه السلام؟! إذا كان مثل هذا الابداع أو حتى عشر من أعشاره فلم لا ينسبه لنفسه ويفوز بهذا الشرف؟ وناهيك عما تقدم وعلى ضوء ما نعرفه عن شخصية «السيد الرضى» ووثاقته وعلو مقامه، فاننا نقطع بأنه لم

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٣

ينسب إلى علي عليه السلام ما لم يكن قد رأى مصادره المعتمدة، فهو لا يقول روى عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال كذا، بل اعتاد القول «ومن خطبة عليه السلام ومن رسائله ومن كلماته القصار». فكيف وأنى لهذا العملاق أن يتحدث بهذه الثقة والقطع وينسب الكلمات لإمامه المعصوم دون أن يستند إلى أسناد معتبرة وردت بهذا الشأن؟! أضف إلى ذلك فقد دوت عدّة مصنفات قبل «السيد الرضى» ضمت أغلب خطب ورسائل نهج البلاغة والكلمات القصار؛ الأمر الذى يثبت أن هذه الكلمات كانت متداولة أيضاً- قبل السيد الرضى- ومعروفة بين العلماء والمحدثين والرواة وأحياناً بين عوام الناس.

ومن شأن هذه الشهرة أن تغنيها عن الاسناد. بل ذهب بعض كبار المؤرخين أن الخطب التى اشتهرت بين الناس كانت أكثر بكثير من هذا المقدار الذى جمعه «السيد الرضى» فى نهج البلاغة، والواقع هو أن النهج عبقات من تلك الخطب. ومنهم المؤرخ المعروف «المسعودى» الذى عاش لقرن قبل «السيد الرضى»، الذى صرح فى كتابه «مروج الذهب» بشأن خطب الإمام علي عليه السلام قائلاً: «والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربع مائة ونيّف وثمانون خطبة» [٣٤]، والحال لا يضم النهج أكثر من مئتين وأربعين خطبة. ونقل العالم المعروف «السبط بن الجوزى» فى كتابه «تذكرة الخواص» عن «السيد المرتضى» أنه قال: «بلغتني أربعمئة خطبة من خطب الإمام علي» [٣٥]. وقال صاحب «البيان والتبيين» العالم المعروف: «كانت خطب الإمام علي عليه السلام مدونه ومحفوظة ومشهورة» [٣٦]. وقال «ابن واضح» فى كتابه «مشاكله الناس لزمانهم»: «لقد حفظ الناس الكثير من خطب الإمام علي عليه السلام، فقد ألقى أربعمئة خطبة حفظها الناس، وهى هذه الخطب المتداولة بيننا» [٣٧].

وهنا لابد من القول بأن جمعاً من العلماء المعاصرين والفضلاء ألقوا كتباً كمصادر وأسناد لنهج البلاغة، حيث استخرجوا أسانيد الخطب من الكتب التى صنف قبل «السيد الرضى» وصرحوا بها فى كتبهم، من قبيل كتاب «مصادر نهج البلاغة وأسانيده» تأليف العالم المحقق

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٤

«السيد عبد الزهراء الحسينى الخطيب» الذى يجعل الباحث يقف على هذه الحقيقة، وهى أن السيد الرضى لم ينفرد قط بنقله لهذه الخطب.

يذكر أن هذا الكتاب يفيد بأن نهج البلاغة قد جمع من مئة وأربعة عشر كتاباً، وأن أكثر من عشرين منها قد دوت من قبل علماء كانوا يعيشون قبل السيد الرضى. ومن أراد المزيد فليراجع الكتاب المذكور حيث لا نرى المقام يسع للاستغراق أكثر من هذه العجالة. والذى تجدر الإشارة إليه هنا أن السيد الرضى قد استفاد من خمسة عشر كتاباً- ذكرها خلال بعض تعليقاته على كلمات نهج البلاغة- فى جمعه لنهج البلاغة. [٣٨]

ونستنتج ممّا مرّ معنا خواء الشكوك التى نشأت من عدم وجود الأسانيد.

شروح نهج البلاغة

حديثنا الأخير فى هذه المقدمة، كلام مختصر بشأن الشروح والتراجم التى أوردها علماء المسلمين بخصوص هذا الكتاب منذ عصر السيد الرضى حتى عصرنا الحاضر، ويبدو أن هذه الشروح إنما تتضاعف وتزداد كلما ابتعدنا أكثر عن عصر السيد الرضى، والسبب فى ذلك يعود إلى تنامي المعرفة بهذا الكثر النفيس كل يوم، وما هذه المؤتمرات والندوات التى أقيمت وما

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٥

زالت تقام بخصوص نهج البلاغة إلاّ لشهادة حية اخرى على صحته ما أوردها. فقد أشار المرحوم العلامة الأمينى فى المجلد الرابع من كتابه الغدير فى ترجمته لحياة المرحوم السيد الرضى إلى هذه المسألة وقال: «لقد كتب أكثر من خمسين شرحاً على نهج البلاغة منذ عصر المرحوم السيد الرضى لحد الآن...» ثم خاض فى ذكر هذه الشروح، إلى جانب ذكر مؤلفيها وتاريخ وفاتهم، وبإضافة التراجم

التي ظهرت في هذه الأواخر، فقد أحصى ما يقارب الحادى والثمانين ترجمه وشرحاً [٣٩] وبالطبع فان كل شرح من هذه الشروح (كتفاسير القرآن) قد سلط الضوء على جانب من جوانب نهج البلاغه، فقد خاض البعض في جانبه الأدبى بينما تناول البعض الآخر أبعاده التاريخية أو الفلسفية أو القضايا التربوية والاجتماعية وما إلى ذلك.

هذا وقد ذكر مؤلف كتاب «مصادر نهج البلاغه» أكثر من مئة وعشرة شروح وتفسير لنهج البلاغه، بينما ذكر بعض الفضلاء في كتبهم أسماء ثلاثمائة وسبعين كتاباً ألفت في شرح نهج البلاغه وترجمته وتفسيره [٤٠]. وبالرغم من ذلك لا بد من الاعتراف بأن هذا الكتاب ما زال لم يظفر ببغيته من سبر أغواره والغوص في أعماقه من أجل استخراج كنهه معانيه لتعالج متطلبات العصر والزمان وأنين البشرية، كيف لا- وأبعاده كأبعاد شخصية على عليه السلام التي لا- يحيطها الكلام ولا يلم بتفاصيلها القلم والبيان. وهنا لا بد من القول بأن الشروح والتراجم المذكورة ليست واسعة كاملة، وأن بعضها قد اكتفى بمحور من محاور نهج البلاغه، ولم يشذ منها سوى النزر القليل من الشروح التي تعاملت بشمولية مع النهج ومنها:

١- «أعلام نهج البلاغه» والذي اعتبره العلامة الامينى من أقدم شروح نهج البلاغه، ومؤلفه «على بن الناصر» من معاصرى المرحوم السيد الرضى.

٢- «منهاج البراعة» لمؤلفه سعيد الدين هبة الله القطب الراوندى، وهو من أعلام القرن الهجرى السادس.

٣- شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد المعتزلى- من أعلام القرن السابع الهجرى- وهو

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٦

من الشروح المشهورة ويقع فى عشرين مجلداً.

٤- شرح ابن ميثم البحرانى- من علماء القرن السابع- وهو من الشروح الواسعة الرائعة.

٥- منهاج البراعة للمرحوم الحاج الميرزا حبيب الله الموسوى الخوئى، والمعروف بشرح الخوئى، وهو من علماء القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجرى.

٦- شرح «الشيخ محمد عبده» من مشاهير علماء العامة الذى عاش فى القرن الثالث عشر الهجرى.

وأخيراً لا يسعنا المقال لأن نذكر أسماء طائفة من الفضلاء المعاصرين الذين صنّفوا شروحاً عظيمة لهذا الكتاب النفيس. وما يجدر ذكره هو أنّ صاحب كتاب «الذريعة» الفاضل المرحوم المحدث الطهرانى قد ذكر مئة وأربعين شرحاً للنهج أوردتها علماء الشيعة، بينما أحصى ستة عشر شرحاً لعلماء العامة، يعدّ أقدمها شرح الفخر الرازى المتوفى عام ٦٠٦هـ [٤١].

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٧

مقدمة السيد الشريف الرضى رحمه الله

لماذا جمعت نهج البلاغه

أما بعد حمد الله الذى جعل الحمد ثمناً لنعمائه، ومعاداً من بلائه، وسبيلاً إلى جنانه، وسبباً لزيادة إحسانه، والصلاة على رسوله نبى الرحمة، وإمام الأئمة، وسراج الأمة، المنتخب من طينته الكرم، وسلالة المجد الأقدم، ومغرس الفخار المعرق، وفرع العلاء المثمر المورق. وعلى أهل بيته مصابيح الظلم، وعصم الامم، ومنار الدين الواضحة، ومثاقيل الفضل الراجحة صلى الله عليهم أجمعين، صلاة تكون إزاء لفضلهم، ومكافأة لعملهم، وكفاء لطيب قرعهم وأصلهم، ما أنار فجر ساطع، وخوى نجم طالع، فانى كنت فى عنفوان السن، وغضاضة الغصن، ابتدأت بتأليف كتاب فى خصائص الأئمة عليهم السلام: يشتمل على محاسن أخبارهم وجواهر كلامهم، حدانى

عليه غرض ذكرته في صدر الكتاب، وجعلته أمام الكلام، وفرغت من الخصائص التي تخص أمير المؤمنين علياً عليه السلام، وعافت عن إتمام بقية الكتاب محاجزات الأيام، ومماطلات الزمان.

وكنت قد بويت ما خرج من ذلك أوبياً، وفصّيته فصولاً، فجاء في آخرها فصل يتضمن محاسن ما نقل عنه عليه السلام من الكلام القصير في المواعظ والحكم والأمثال والآداب؛ دون الخطب الطويلة، والكتب المبسوطة. فاستحسن جماعة من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصل المقدم ذكره معجيين ببدائعه، ومتعجيين من نواصحه، وسألوني عند ذلك أن أبتدىء بتأليف كتاب يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه، ومتشعبات غصونه: من خطب، وكتب، ومواعظ، وأدب. علماً أن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العريية، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية، ما لا يوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموع الأطراف في كتاب؛ إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٨

وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها؛ ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها؛ وعلى أمثلته هذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وقصروا وقد تقدم وتأخروا، لأن كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي، فأجبتهم إلى الابتداء بذلك عالماً بما فيه من عظيم النفع، ومنشور الذكر، ومدخور الأجر. اعتمدت به أن أبين عن عظيم قدر أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفضيلة، مضافاً إلى المحاسن الدثرة، والفضائل الجمّة. وأنه عليه السلام انفراد ببلوغ غايتها عن جميع السلف الأولين الذين إنما يؤثر عنهم منها القليل النادر، والشاذ الشارد فأما كلامه فهو البحر الذي لا يُساجل والجم الذي لا يحافل وأردت أن يسوغ لي التمثل في الافتخار به عليه السلام بقول الفرزدق:

أولئك آبائي فجنني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة: أولها: الخطب والأوامر، وثانيها:

الكتب والرسائل، وثالثها: الحكم والمواعظ؛ فأجمعت بتوفيق الله تعالى على الابتداء باختبار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب، ثم محاسن الحكم والأدب. مفرداً لكل صنف من ذلك باباً، ومفصلاً فيه أوراها، لتكون مقدمة لاستدراك ما عساه يشذ عن عاها، ويقع إلى آجلاً. وإذا جاء شيء من كلامه عليه السلام الخارج في أثناء حوار، أو جواب سؤال، أو غرض آخر من الأغراض به، وأشدّها ملامحة لغرضه. وربما جاء فيما أختاره من ذلك فصول غير متسقة، ومحاسن كلم غير منتظمة؛ لأنني أورد النكت واللمع، ولا أقصد التتالي والنسق.

ومن عجائبه، عليه السلام، التي انفراد بها، وأمن المشاركة فيها، أن كلامه الوارد في الزهد والمواعظ، والتذكير والزواج، إذا تأمله المتأمل، وفكر فيه المتفكر، وخلع من قلبه أنه كلام مثله ممن عظم قدره، ونفذ أمره، وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشك في أنه كلام من لاحظ له في غير الزهادة، ولا شغل له بغير العبادة، قد قبع في كسر بيت. أو انقطع إلى سفح جبل، لا يسمع إلّا حسه، ولا يرى إلّا نفسه، ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس في الحرب مصلاً سيفه، فيقطّ الرقاب، ويجدل الأبطال، ويعود به ينظف دماً، ويقطر مهجاً. وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد، وبدل الأبدال وهذه من فضائله العجيبة، وخصائصه اللطيفة، التي جمع بها

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٩

بين الأضداد، وألف بين الأشتات، وكثيراً ما أذاكر الإخوان بها، وأستخرج عجبهم منها، وهي موضع للعبرة بها، والفكرة بها. وربما جاء في أثناء هذا الاختيار اللفظ المردد، والمعنى المكرر؛ والعذر في ذلك أن روايات كلامه تختلف اختلافاً شديداً: فربما اتفق الكلام المختار في رواية فنقل على وجه، ثم وجد بعد ذلك في رواية أخرى موضوعاً غير موضعه الأول: إما زيادة مختارة، أو لفظ أحسن عبارة فتقضى الحال أن يعاد، استظهاراً للاختيار، وغيره على عقائل الكلام. وربما بعد العهد أيضاً بما اختير أولاً فأعيد بعضه سهواً أو نسياناً، لا قصداً واعتماداً. ورأيت من بعد تسمية هذا الكتاب ب «نهج البلاغة» إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرب عليه

طلابها، فيه حاجة العالم والمتعلم، وبغية البلوغ والزاهد، ويمضى فى أثنائه من عجيب الكلام فى التوحيد والعدل، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شبه الخلق، ما هو بلال كل غلّة، وشفاء كل علة، وجلاء كل شبهة.

ومن الله سبحانه أستمد التوفيق والعصمة، وأتنجز التسديد والمعونة، وأستعيذه من خطأ الجنان، قبل خطأ اللسان، ومن زلة الكلم، قبل زلة القدم؛ وهو حسبي ونعم الوكيل.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٤١

الخطبة الاولى

إشارة

[٤٢] ومن خطبة له عليه السلام

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هذه الخطبة من أهم خطب نهج البلاغة، وما تصدرها النهج إلدلالة واضحة على براءة السيد الرضى فى الاختيار. فالخطبة تتضمن الرؤية الإسلامية للصفات الكمالية والجمالية، ثم تشير إلى قضية خلق العالم بصورة عامة ومن ثم خلق السموات والأرض والملائكة، كما تخوض فى خلق آدم عليه السلام وتعرض لقصة سجود الملائكة وإعتراض إبليس وهبوط آدم عليه السلام إلى الأرض. ثم يتطرق عليه السلام إلى فلسفة بعثة الأنبياء ولا سيما خاتمهم نبي الإسلام صلى الله عليه وآله إلى جانب التحدث عن عظمة القرآن الكريم وأهميته سنة النبي صلى الله عليه وآله، كما يتوقف عند مسألة الحج من بين الأحكام الإسلامية كفرع من فروع الدين بصفته فريضة إلهية كبرى تختزن بعض الأسرار واللطائف، بالشكل الذى يمد المتتبع لهذه الخطبة برؤية شمولية لأهم القضايا الإسلامية، من شأنها تقديم الحلول لكافة المصاعب التى تنطوى عليها والتى تعترض سبيلها.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٤٢

وأخيراً فالخطبة من وجهة نظر بمثابة فاتحة الكتاب، حيث تقدم صورة كلية عن المسائل التى درج عليها نهج البلاغة والتى وردت فى المحاور الرئيسية لخطبه ورسائله وكلماته القصار.

وقد قسمنا هذه الخطبة إلى خمسة عشر قسماً تناولنا كل قسم منه بالبحث بصورة مستقلة لنخلص إلى النتائج الكلية التى يمكن التوصل إليها من الخطبة كوحدة كاملة.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٤٣

القسم الأول: بعد العقول عن معرفة الذات الإلهية!

ومن خطبة له عليه السلام

يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم وفيها ذكر الحج وتحتوى على حمد الله وخلق العالم وخلق الملائكة واختيار الأنبياء ومبعث النبي والقرآن والأحكام الشرعية:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مَدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ وَلَا يُحِصِي نِعْمَاءَهُ الْعَادُونَ وَلَا يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهَمِّ وَلَا يَنَالُهُ عَوْصُ الْفِطَنِ، الَّذِي لَيْسَ لِصَفَتِهِ حِدٌّ مَحْدُودٌ وَلَا نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلَا وَقْتُ مَعْدُودٌ، وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ، فَطَرَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ وَتَشَدَّرَ الرِّيَّاحَ

بِرَحْمَتِهِ وَوَتَدَّ بِالصُّخُورِ مَيْدَانَ أَرْضِهِ».

الشرح والتفسير إن نظرة عابرة إلى مضامين هذه الخطبة تفيد إشارة الإمام على عليه السلام إلى إثنى عشرة صفة من الصفات الإلهية بتصوير فني رائع ونظم شاق:

ففي المرحلة الأولى يشير إلى كيفية عجز العباد عن إظهار المدح والثناء وأداء حق الشكر الإلهي (أشير في هذه المرحلة إلى ثلاثة أوصاف) ويبين في المرحلة الثانية عجز البشري من الناحية الفكرية عن إدراك عظمة الله وكنه ذاته المقدسة (إشارة إلى وصفين في هذه المرحلة) وفي المرحلة الثالثة يورد الدليل على ما أشار إليه سابقاً والذي يكمن في خروج هذه الذات

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤٤

عن الحدود وعدم تناهي نعمه وآلائه؛ الأمر الذي يستبطن ويعلل عجزنا عن إدراك ذاته القدسية واستحالة أداء حقه في الشكر والحمد (وهو يشير في هذه المرحلة إلى أربعة أوصاف) وأخيراً يشير عليه السلام في المرحلة الرابعة إلى خلق العالم والكائنات، وكأنه أراد أن يكشف النقاب عن هذه الحقيقة وهي أن معرفة الذات الإلهية إنما تقتصر على هذا السبيل، والذي يمثل منتهى قدرتنا واستطاعتنا (ويشير في هذه المرحلة إلى ثلاث من صفاته الفعلية).

ويفيد هذا الأمر أن الدقة والنظام هي الأسس التي استندت إليها هذه العبارات الرفيعة التي تضمنتها الخطبة التي أوردتها هذا المعلم الرباني.

الآن وبعد هذه النظرة العامة نعود إلى بحث وتفسير هذه الأوصاف الاثني عشر التي اشتملت عليها الخطبة:

فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه مع التصريح بالعجز عن أداء حق الحمد، فقال عليه السلام: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مَدْحَهُ الْقَائِلُونَ».[٤٣]

وذلك لأن أوصافه «الكمالية» و «الجمالية» لا تعرف الحدود، فما يؤديه الملائكة والناس من حمد ومدح إنما يتوقف على مقدار معرفتهم بالذات المطلقة لا بمقدار كمالاته جل وعلا. وأنى لسائر الأفراد بزعم المعرفة وهذا النبي الكريم الذي يمثل أعظم أنبياء الله يظهر عجزه عن معرفة الخالق المتعال فيصرح قائلاً:

«ما عرفناك حق معرفتك»[٤٤]

. فاذا عجز الإنسان عن معرفته فكيف يسعه حمده ومدحه؟ وعليه فإن ذروة حمدنا، ما أورده الإمام عليه السلام؛ أي إظهار العجز عن حمده وثنائه والاعتراف باستحالة بلوغ هذه الدرجة على جميع مخلوقاته سبحانه.

فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن الله أوحى إلى نبيه موسى عليه السلام أن اشكرني

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤٥

حق شكرى. قال عليه السلام: إلهي! كيف أؤدي حق شكرك، وشكرك نعمة تحتاج إلى شكر (وهكذا يكون التوفيق إلى الشكر نعمة أخرى تستحق الشكر). فقال: «يا موسى الآن شكرتني حين علمت أن ذلك مني»[٤٥].

وهنا لابد من القول بأن الإنسان إذا ما قال: الحمد لله، فانه أتى به كاملاً دون نقيصة، إلا أن يكون في حق الله، ولذلك جاء في الخبر أن الإمام الصادق عليه السلام خرج من المسجد ولم يظفر بدابته، فقال عليه السلام، إن أعادها لي الله شكرته حق شكره، فلم تمض مدة حتى أتى بها إليه فقال عليه السلام:

الحمد لله. فقيل له: جعلت فداك ألم تقل أشكره حق شكره؟ فقال عليه السلام: ألم تسمع قولي الحمد لله.[٤٦]

أما في الوصف الثاني فقد قال:

«ولا يحصى نعمائه العادون»

. وذلك لأن نعمه المادية والمعنوية والظاهرية والباطنية والفردية والجماعية لأكثر وأعظم من أن تعدّ وتحصى. فبدن الإنسان - على

سبيل المثال- مؤلف ممّا لا يحصى من الخلايا والأنسجة (يبلغ متوسطها عشرة مليارات) التي تشكل كل وحدة منها كائناً حياً ومركباً معقداً ونعمةً من نعمه سبحانه والتي يتعذر إحصاء عددها في عشرات الألوف من السنين، فإذا عجز الإنسان عن إحصاء نعم الله في هذا الجانب اليسير فقط، فكيف يسعه أن يحصى جميع هذه النعم والآلاء على المستويات المادية أو المعنوية؟ في الواقع ليس لدينا من علم بكافه نعمه ليتسنى لنا عدّها أو إحصائها.

فأغلب نعمه قد أغرقت كيانتنا وأحاطت بوجودنا، وحيث لم نسلبها قط فقد غفلنا عنها ولم نحط بها (فلا يشعر بالنعمة إلا بعد فقدانها)، أضف إلى ذلك فإن ظفر الإنسان بالنعم والآلاء إنما يتناسب طردياً واتساع مدى علمه ومعرفته؛ الأمر الذي يؤدي إلى الازدغان- وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام- بهذه الحقيقة

«ولا يحصى نعمائه العادون».

ويمكن لهذه العبارة أن تكون علة للعبارة السابقة

«لا يبلغ مدحته القائلون»

إذ كيف يمكن حمد الله والثناء عليه في ظل العجز عن إحصاء نعمه! ويبدون أنّ هذه النعم ما زالت لا تعرف الحدود رغم الحالة المؤسفة في قيام بعض الظلمة والفئات النفعية باحتكار أغلب النعم أو تضييعها من خلال البذخ

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤٦

والاسراف والتبذير، وتعريض طبقات المجتمع للتعب والارهاق. ويقول عليه السلام في الوصف الثالث:

«ولا يؤدي حقّه المجتهدون»

. وهذه الجملة في الحقيقة استنتاج ترتب على العبارة السابقة، فإذا تعذر إحصاء النعم فكيف يمكن أداء حقها؟ بعبارة أخرى فإن حقّه بقدر عظمته ذاته القدسية، في حين شكرنا وحمدنا بقدر قدرتنا الزهيدة، فأين هذا الحمد من ذلك الحق! ولا يقتصر هذا المدح والثناء وأداء الحق على العجز في الجانب العملي فحسب بل هو قائم حتى من الناحية الفكرية.

ولذلك أردف عليه السلام- وفي إطار بيانه لوصفين آخرين- قائلاً:

«الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن [٤٧]»

. وكانّ التعبير بعبارة الهمم وغوص الفطن إشارة إلى حقيقة مؤداها أنّ الأفكار الخارقة مهما انطلقت في قوس الصعود والظن المتوهجة في قوس النزول فأنها تبقى عاجزة عن إدراك كنه ذاته المقدسة. ولا يترك الإمام الاقرار بهذا العجز دون تقديم الدليل، فيقول:

«الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت [٤٨] موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود».

أى أنّي لنا الاحاطة بكنه ذاته، والحال أن فكرنا بل جميع كيانتنا محدوداً لا يحسن سوى إدراك الأشياء المحدودة، بينما لا تعرف الذات الإلهية من حدود من جميع النواحي، فليس هنالك من حد أو وصف قابل للإدراك لصفاته المطلقة من الازل إلى الأبد والتي تأتي الاولية والاخروية والبداية والنهاية. ولا يقتصر هذا الأمر على الذات، فصفاته هي الاخرى ليس لها من حدود، فعلمه لا يعرف الحدود، وقدرته لا متناهية، ولا غرو فصفاته عين ذاته التي ليس لها حد محدود.

بعبارة أخرى فإنّ الله وجود مطلق ليس له أي قيد وشرط، ولو كان لقيد أو شرط وحد من الحدود من سبيل إلى ذاته لأصبح مركباً، في حين نعلم بأن المركب- كما يقول الفلاسفة-

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤٧

ممكن الوجود لا واجب الوجود- وعليه فواجب الوجود ذات مطلقة غير محدودة في كافة أبعادها، ولذلك كان سبحانه وتراً واحداً ليس له كفؤاً ولا شبيهاً، لاستحالة قيام وجودين مطلقين من جميع الجهات، وذلك لأنّ هذا التناقض إنّما يؤدي إلى محدودية الطرفين،

فهذا فاقد لوجود ذلك، وذاك أيضاً فاقد لوجود هذا (تأمل هذا الموضوع).

وبعد أن تعرض الإمام عليه السلام لصفات الجمال والجلال (الصفات الثبوتية والسلبية)، أشار عليه السلام إلى جانب من صفاته الفعلية سبحانه، فقال:

«فطر [٤٩] الخلائق بقدرته، ونشر الرياح

برحمته، ووتد [٥٠] بالصخور [٥١] ميدان [٥٢] أرضه».

لقد استوحيت هذه التعبيرات من بعض الآيات القرآنية، فالعبارة

«فطر الخلائق بقدرته»

مستوحاة من الآية الشريفة

«فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»

التي وردت في عدة سور قرآنية من قبيل: سورة يوسف / ١٠١ وسورة إبراهيم / ١٠٠ وسورة فاطر / ٣٥ وسائر السور المباركة.

والعبارة

«نشر الرياح برحمته»

من الآية الشريفة

«وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ». [٥٣]

والعبارة

«ووتد بالصخور ميدان أرضه»

من الآية ١٥ من سورة النمل

«وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ». [٥٤]

وبالالتفات إلى ما ذكرنا من معنى «فطر» فانه شبه الخلق بشق الحجاب الظلماني للعدم؛ الحجاب المتسق والمنسجم الذي لا شق فيه، غير أن قدرته المطلقة تشقه وتخرج منه المخلوقات، وليس من شأن أية قدرة سوى قدرته أن تفعل هذا. فقد اتفقت كلمة الفلاسفة والمفكرين على استحالة استحداثنا لشيء من العدم، أو تحويلنا من وجود إلى عدم، وكل

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤٨

مامن شأن قدرتنا فعله هو تغيير شكل الموجودات من شكل إلى آخر ولا غير!

أما التعبير بالرحمة عن حركة الرياح فهو تعبير عذب رائع ينسجم ولطافة النسيم وهبوب الرياح وآثاره المختلفة من قبيل حركة السحب والغيوم نحو الأراضي القفار وتلقيح الأزهار ونمو النباتات واعتدال الجو وحركة السفن والفلك في البحر وانخفاض درجات الحرارة وسائر الخيرات والبركات المكونة في هذه الحركة. أما عن كيفية توتيد الأرض بهذه الجبال والصخور، فالحق لا يمكن الآن قبول النظريات والاطروحات التي أوردها قدماء العلماء بهذا الشأن إثر قولهم بسكون الأرض وعدم حركتها، حتى جاءت النظريات الحديثة التي تنسجم مع الحقائق العلمية من جهة وتتفق والآيات القرآنية والروايات الواردة بهذا الخصوص من جهة أخرى، وذلك لأنه:

١- أن وجود الجبال على سطح الكرة الأرضية يؤدي إلى الحد من آثار ظاهرة المد والجزر التي تشهدها اليابسة بفعل جاذبية الشمس والقمر. فلو اجتاحت الأراضي الرخوة سطح الأرض لأصبح المد والجزر كالبهار والأنهار بما يجعل من المتعذر العيش على هذه الأرض.

٢- أن جذور الجبال متصله مع بعضها تحت القشرة الأرضية وكأنها درع قد أحاط بالأرض، ولولاها لماجت الأرض وعاشت الحركة باستمرار وفقدت استقرارها بفعل الضغط الداخلي الذي تفرزه الغازات الداخلية والمواد المذابة. وما الزلازل التي تقع إلأنتيجة طبيعية

لمثل هذا الضغط الذى يتجاوز الحدود المعينة، ولولا هذه الجبال لتواصلت هذه الزلزلة دون انقطاع. وبناءً على ما تقدم فان هذه الصخور (الجبال) إنما توتد الأرض وتحول دون فقدانها لاستقرارها، وناهيك عما تقدم فإن الجبال تعدّ من أهم مصادر الحياة الجوفية للإنسان، وأن كافة العيون والأنهار إنما تنبع من مصادر الجبال الجوفية وتلك التى على سطح الأرض. ويتضح مما ذكرنا سابقاً بشأن الدور الحيوى الذى تلعبه الرياح والجبال فى حياة الإنسان وسائر الكائنات الحية، عله تأكيد الإمام على عليه السلام هذين الأمرين بعيد الإشارة إلى مسألة الخلق والخليقة.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤٩

القسم الثانى: توحيد الذات والصفات

«أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّضْيِيدِيُّ بِهِ وَكَمَالُ التَّضْيِيدِيِّ بِهِ تَوْحِيدُهُ وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلَاصُ لَهُ وَكَمَالُ الإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِمَمَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمُؤْصُوفِ وَشَهَادَةِ كُلِّ مُؤْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَاهُ وَمَنْ ثَنَاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهَلَهُ وَمَنْ جَهَلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ عَدَّهُ».

الشرح والتفسير

تمثل هذه العبارات دورة تربية تامة فى المعرفة الإلهية. فقد اعتمد أمير المؤمنين عليه السلام عبارات مقتضبة عميقة المعنى بحيث قدم صورة عن الحق تبارك وتعالى لا يمكن الإتيان بأحسن منها حتى ولو جمعنا كافة دروس التوحيد والمعارف إليها وجعلنا بعضها إلى جانب البعض الآخر، فإنها تعجز عن رسم مثل تلك الصورة.

فقد ذكر عليه السلام فى هذا الجانب من خطبته خمسة مراحل لمعرفة الله يمكن ايجازها فى مايلى:

١- المعرفة الإجمالية والناقصة

٢- المعرفة التفصيلية

٣- توحيد الذات والصفات

٤- الإخلاص

٥- نفى التشبيه

فقد قال عليه السلام مبتدأ

«أول الدين معرفته»

. لا شك أن الدين هنا يعنى مجموعة العقائد

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٥٠

والواجبات والوظائف والأخلاق، ومن المعلوم أن دعامتها الأساسية هى «معرفة الله»، وعليه فمعرفة الله تمثل الخطوة الأولى على الطريق من جانب والمحور الرئيسى لكافة أصول الدين وفروعه، وليس لهذا الدين من حيوية دون هذه المعرفة- أمّا أولئك الذين يعتقدون بأن هناك شيئاً آخر قبل معرفة الله، إلّا وهو النظر فى طريق معرفة الله والتحقيق بشأن الدين ووجوب المطالعة، فهم على خطأ كبير. وذلك لأنّ وجوب التحقيق يمثل أول الواجبات، بينما تمثل معرفة الله أول دعامة للدين، أو بعبارة أخرى فان التحقيق مقدمة ومعرفة الله أولى مراحل ذى المقدمة. [٥٥]

والنقطة الأخرى المفروغ منها هى أن المعرفة الإجمالية قد أودعت فطرة الإنسان ولا تتطلب أدنى تبليغ بهذا الشأن، وإنما بعث الأنبياء لاستبدال هذه المعرفة الإجمالية بتلك المعرفة التفصيلية الكاملة المتقنة وإغناء جوانبها وتطهير الفكر البشرى من أدران الشرك

وأرجاسه.

ثم قال عليه السلام:

«وكمال معرفته التصديق به».

هنالك عدّة تفاسير للفارق بين التصديق والمعرفة. بادئ ذي بدء المراد هنا بالمعرفة هي المعرفة الفطرية، والمقصود بالتصديق المعرفة العلمية والاستدلالية. أو أنّ المراد بالمعرفة هنا المعرفة الإجمالية، والمقصود بالتصديق المعرفة التفصيلية. أو أنّ المعرفة تشير إلى العلم بالله، والتصديق يشير إلى الإيمان، لأنّ العلم لا يفارق الإيمان، فالإنسان قد يوقن بشيء إلّا أنّه لا يؤمن به قلبياً - بمعنى التسليم له والاذعان به قلبياً، أو بتعبير آخر الاعتقاد به-. وأحياناً يضرب الفضلاء مثلاً لانفصال هذين الأمرين عن بعضهما، فيقولون: إنّ أغلب الأفراد يشعرون بالهلع ولا سيما في الليلة المظلمة حين البقاء إلى جانب ميت في غرفة خالية، رغم علمهم بأنه ميت، لكن كأن العلم لم ينفذ إلى أعماقهم ويتسلل إلى قلوبهم، فلم يحصل ذلك الإيمان المطلوب وبالتالي فقد تمخض عن هذا الهلع والخشية.

وبعبارة أخرى فإنّ العلم هو تلك المعرفة القطعية بالشيء، إلّا أنّها قد تكتسب صبغة

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٥١

سطحية فلا تنفذ إلى أعماق وجود الإنسان وروحه، فاذا نفذت إلى أعماقه وبلغت مرحلة اليقين بحيث أذعن الإنسان بذلك قلبياً، فإن ذلك العلم يكتسب صفة الإيمان. ثم قال عليه السلام في المرحلة الثالثة

«وكمال التصديق به توحيد»

. فمما لا شك فيه أنّ الإنسان لم يبلغ مرحلة التوحيد الكامل على أساس معرفته التفصيلية لله أو بتعبير آخر بالمعرفة القائمة على أساس الدليل والبرهان. فالتوحيد التام في أن ينزه الذات الإلهية عن كل شبه ومثيل ونظير. وذلك لأنّ من جعل له شبيهه وصنو لم يعرفه، فالله وجود مطلق غني بالذات عمّا سواه وليس كمثل شيء، ومن طبيعة الأشياء التي لها أشباه وأمثال أن تكون محدودة، لأنّ أي من الشبهين منفصل عن الآخر وفاقد لكاملاته.

إذن فالإنسان لا يبلغ مرحلة الكمال إلّا بالتصديق بذاته المنزهة في أنه واحد؛ واحد لا عن عدد، بل واحد بمعنى خلوه من الشبيه والمثيل.

ثم ينتقل الإمام عليه السلام إلى المرحلة الرابعة وهي مرحلة الاخلاص فيقول:

«وكمال توحيد الاخلاص له».

والاخلاص من مادة الخلوص بمعنى تصفيه الشيء عن الغير، بمعنى التصفية والتنزه. وهناك خلاف بين مفسري نهج البلاغة بشأن هذا الاخلاص، وهل المراد به الاخلاص العملي أم القلبي أم العقائدي. والمراد بالاخلاص العملي هو أن يعيش الفرد ذروة التوحيد الإلهي فلا يسأل سواه ولا يرى غيره فيما يقوم به من أفعال وأعمال. وهو الأمر الذي تناوله الفقهاء في بحث الاخلاص في العبادة، وقد أورد «الشارح الخوئي» (ره) هذا التفسير بصفته أحد الأقوال دون أن يذكر من قال به. [٥٦]

أمّا الاخلاص القلبي والذي عبر عنه «الشارح البحراني ابن ميثم» بالزهد الحقيقي فهو يعني توجه القلب إلى الله وعدم التفكير بما سواه، والانشغال بغيره [٥٧]. إلّا أنّنا نرى أنّ الاخلاص

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٥٢

مفهوم عظيم وسامي لا ينسجم وما أورده الشرح في هذه العبارات، ومن المستبعد أن يكون هذا هو المراد به. أمّا المفهوم الوحيد الذي يناسبه هو تنزيه الاعتقاد بالله تبارك وتعالى؛ أي تنزيهه في وحدته عن كل شبيه ومثيل، إلى جانب تقديسه عن التركيب من الأجزاء.

وقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذا المعنى في المرحلة الخامسة حين قال:

«وكمال الاخلاص له نفى الصفات عنه»

. وبعبارة اخرى فان الحديث في المرحلة السابقة قد تناول الاخلاص على نحو الإجمال، فلما بلغ الاخلاص هنا مرحلة الكمال غاص في التفاصيل، ليتضح من ذلك أن الاخلاص في التوحيد يتطلب تنزيهه عن كافة الصفات التي يتصف بها المخلوق، سواء كانت هذه الصفات بمعنى التركيب من الأجزاء أم غيرها، وذلك لأننا نعلم بأن جميع الممكنات بما فيها العقول والنفوس المجردة هي في الواقع مركبة (على الأقل مركبة من الوجود والماهية) وحتى المجردات؛ أي الموجودات الخارجة عن المادة هي الاخرى ليست مستثناء من هذا التركيب، أما الموجودات المادية فكلها متربة من الأجزاء الخارجية، لكن الذات الإلهية المقدسة لا تشمل على الأجزاء الخارجية ولا الأجزاء العقلية، لا يمكن تجزأته في الخارج ولا في إدراكنا وفهمنا. وكل من غفل عن هذه الحقيقة لم يظفر بالتوحيد الخالص، ومن هنا يتضح بأن مراده عليه السلام بقوله

«كمال توحيده نفى الصفات عنه»

ليس الصفات الكمالية؛ لأن كفاءة الصفات الكمالية من قبيل العلم والقدرة والحياة وما إلى ذلك من الصفات ثابتة له، بل المراد الصفات التي ألفتها وتعرفنا عليها وهي صفات المخلوقين المشوبة بالنقص. فالمخلوقات لها حظ من علم وقدرة، غير أن علمها وقدرتها محدودة ناقصة مشوبة بالجهل والضعف والعجز، بينما الذات الإلهية منزهة عن مثل هذا العلم والقدرة وأفضل دليل على ذلك ما أورده الإمام عليه السلام في ذيل هذه الخطبة بشأن الملائكة فوصفهم بقوله:

«لا يتوهمون ربهم بالتصوير ولا يجرون عليه صفات المصنوعين»

. أضف إلى ذلك فان صفات المخلوقات منفصلة دائماً عن ذواتها، أو بعبارة اخرى فان صفاتها زائدة على ذواتها. فالإنسان شيء وعلمه وقدرته آخر، وبناءً على هذا فوجوده مركب من هذين الشئيين، والحال أن صفات الله عين ذاته وليس هنالك من سبيل لهذا التركيب. والواقع أن أعظم عقبة تعترض مسيرة التوحيد إنما تكمن في قضية

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٥٣

«القياس»؛ أي قياس صفات الله بصفات المخلوقات المفعمة بأنواع النقص والعيب، أو الاعتقاد بالصفات الزائدة على الذات؛ الورطة التي وقعت فيها الأشاعرة «فرقة من المسلمين». [٥٨]

ولذلك أردف الإمام عليه السلام قائلاً:

«لشهادة كل صفة- من الممكنات- أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف- من الممكنات- أنه غير الصفة».

فكلامه عليه السلام دليل واضح وجلي في أن الصفات الزائدة على الذات تشهد بلسان حالها أنها غير الموصوف، وكل موصوف يشهد بأنه ليس من الصفات، اللهم إلا أن نقول بأن صفاته عين ذاته، ونؤمن بأن الله ذات جميعها علم وجميعها قدرة وجميعها حياة وأزلية وأبدية، وإن كان إدراك مثل هذا الاعتقاد متعذر علينا نحن المخلوقات الذين أنسنا بصفات المخلوق فقط ونرى أن الإنسان شيء وعلمه وقدرته شيئاً مضافاً للذات زائداً عليها، لأننا نلد من أمهاتنا وليس لنا من علم وقدرة ثم نحصل عليها لاحقاً.

ثم يواصل الإمام عليه السلام خطبته ويرددها بعبارة قصيرة إلا أنها عميقة المعنى فيقول:

«فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله».

فالواقع أن كلام الإمام عليه السلام يفيد أن اثبات الصفات التي تتصف بها المخلوقات لله يستلزم التركيب في وجوده سبحانه؛ أي كما أن المخلوق- الإنسان- مركب من الذات والصفات فان الله مركب كذلك؛ بينما لا ينسجم هذا المعنى وواجب الوجود، لأن كل مركب يحتاج إلى أجزائه والحاجة تتناقض والغنى المطلق لواجب الوجود.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٥٤

وهناك تفسيران آخران ذكرا لهذه العبارة:

الأول: أننا إذا اعتبرنا صفاته سبحانه غير ذاته، فإن ذاته ستكون مركبة، لأن الذات والصفات على فرض التناقض ستشتملان على جهات مشتركة و متميزة والذي يعبر عنه «ما به الاشتراك» و «ما به الامتياز». لأن كليهما مشترك في الوجود وفي نفس الوقت متميزان عن بعضهما، وفي هذه الحالة لا بد أن نعتبر ذاته مركبة من جهتين مختلفتين أيضاً.

الثاني: أن تؤمن بوحدة الذات الإلهية، ولا نعني بها الوحدة العددية، بل يعنى مفهوم الوحدة بالنسبة للذات الإلهية أنها منزّهة عن الشبيه والمثيل والنظير. وبشكل عام فإن الوجود المطلق من كل الجهات يأبى أن يكون له شبيه ومثيل، فان قلنا بأن صفات الله كذاته أزيله وأبديه ومطلقه، نكون قد حددناه سبحانه من جانب وقلنا بشبيه له من جانب آخر (لا بد من التأمل في هذا الكلام) وهذا هو المعنى الذي كشف عنه الإمام عليه السلام في إطار توضيحه للاخلاص، فقال «فمن وصف الله سبحانه» أى وصفه بصفات المخلوقين «فقد قرنه» بالأشياء الأخرى

«ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزاه ومن جزاه فقد جهله»

لأنه حين جزاه بمعنى جعل ذاته متركبة من أجزاء وحقاً لم يعرف الله من اعتقد بتركب ذاته؛ وذلك لأنه تصور كائناً على شاكلته - من حيث التركيب والمحدودية - وأسماء الله.

ثم يقول عليه السلام:

«ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده»

. ويوجد احتمالان بشأن قوله عليه السلام:

«ومن أشار إليه» الأول

أن يكون المراد بها الإشارة العقلية، والثاني أن يكون المراد بها الإشارة العقلية والحسية. وتوضيح ذلك أن الإنسان إذا لم يعرف الله بتلك الحقيقة المطلقة اللامتناهية فإنه سيمتلك في ذهنه مفهوماً محدوداً وخصاً عنه سبحانه، أو بتعبير آخر فإنه سيشير إليه بالإشارة العقلية، وبالطبع سيكون محدوداً في هذه الحالة تصوراً، وذلك لتعذر إدراك وتصور اللامحدود واللامتناهى على الإنسان المحدود والمتناهى.

فالإنسان إنما يدرك ما يحيط به من أشياء يسعه تجسيمها في فكره المحدود، وبالطبع فان مثل هذه الموجودات محدودة. وعلى هذا الضوء فان الله سيكون في مصاف المعدودات والأشياء القابلة للعدد، لأن من لوازم المحدود هو إمكان تصور موجود آخر في موضع آخر مثله.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٥٥

والأول الوحيد الذي ليس له ثان من كان غير محدود من جميع الجهات ولا يسعه العدد. وعلى هذا الأساس فان مولى الموحدين - على بن أبى طالب عليه السلام - قد عكس حقيقة التوحيد في هذه العبارة القصيرة ذات المعنى العميق، فوصف البارئ سبحانه بما يفوق الخيال والقياس والظن والوهم. وهى ذات الحقيقة التى كشف النقاب عنها الإمام الباقر عليه السلام حين قال:

«كل ما ميزتموه باوهمكم فى أدق معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم» [٥٩].

والاحتمال الآخر مازال قائماً بأن يكون المراد «بالإشارة» الإشارة العقلية والإشارة الحسية أيضاً؛ وذلك لأن الله ليس بجسم ولا عرض والاعتقاد بجسمية الله جهل محض، ونتيجة ذلك كون الذات الإلهية محدودة لأن كل مشار إليه فهو محدود، فالمشار إليه لا بد أن يكون فى جهة مخصوصة، وكل ما هو فى جهة فله حد وحدود.

سؤال

هنا يبرز سؤال يطرح نفسه: إذا تعدرت حتى الإشارة العقلانية لله، فإن معنى ذلك تعطيل معرفة الله وإغلاق أبواب المعرفة بوجه الإنسان وبالتالي سوف لن يكون هناك من مفهوم لمعرفة الله. وذلك لأننا كلما حاولنا التوجه إلى تلك الذات المقدسة ارتطمنا

بمخلوق من نسج أفكارنا، كلما أردنا الاقتراب منه لم نزدد إلا بعداً عنه، فما أحرانا والحالة هذه الا نقتحم ميدان المعرفة بغية عدم الابتلاء بالشرك.

الجواب

إنّ الجواب على هذا السؤال يتضح من خلال الإلتفات إلى نقطة مهمّة- من شأنها أن تحل المشكلة هنا وفي سائر الموارد- وهي أنّ المعرفة على نوعين: معرفة إجمالية ومعرفة تفصيلية، أو بتعبير آخر معرفة كنه الذات ومعرفة مبدأ الأفعال. فاننا حين نتأمل عالم الوجود بما يضم من العجائب والغرائب والكائنات بتلك الروعة والجمال والعظمة، بما في ذلك وجودنا نحن الأفراد لنشعر بأنّ هنالك خالقاً ومدبراً لهذا الكون وهذا هو العلم الإجمالي الذي يمثل ذروة معرفة الإنسان بالله (غاية ما في الأمر أننا كلما تعرفنا أكثر على أسرار الوجود وقفنا بصورة

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٥٦

أعمق على عظمته وتعزّزت به معرفتنا الإجمالية أكثر فأكثر) إلّا أننا حين نعود بالسؤال لأنفسنا عن ماهيته وكيفيته ونحاول الاقتراب من حقيقة ذاته المقدسة لا نحظى سوى بالحيرة والغموض؛ الأمر الذي يجعلنا نقول بأنّ السبيل إليه مفتوح على مصراعيه وفي نفس الوقت مؤصد ومغلق تماماً.

وهنا يمكننا إيضاح هذه المسألة بمثال بسيط. فالكل يعلم بوجود قوة الجاذبية؛ لأنّ كل جسم يترك في الهواء يسقط إلى الأرض بفعل جاذبيتها، ولولا- هذه الجاذبية لانعدم استقرار الأجسام على سطح الكرة الأرضية. ولا تقتصر معرفة الجاذبية والعلم بوجودها على العلماء، بل يدركها حتى الصبية والأطفال؛ ولكن ماهي حقيقة الجاذبية، هل هي أمواج لا مرئية أم ذرات مجهولة أم قوة أخرى؟ والعجيب أنّ قوة الجاذبية وخلافاً لكل ما نعرفه من قوانين عالم المادة، يبدو أنّها لا تحتاج من زمان للانتقال من نقطة إلى أخرى، بل على خلاف الضوء الذي يمثل أسرع حركة في عالم المادة، في حين قد يحتاج إلى مدّة زمنية تصل إلى ملايين السنين الضوئية للانتقال في الفضاء من نقطة معينة إلى نقطة أخرى. إمّا قوة الجذب تنتقل في لحظة من أية نقطة في العالم إلى أخرى، أو أنّها تمتلك حد أقل من السرعة يفوق ما سمعناه لحد الآن.

فما هذه القوة التي تمتلك مثل هذه الآثار؟ وما حقيقة كنه هذه القوة؟ ليس هنالك من يسعه تقديم جواب شاف لهذه الاسئلة. فاذا كان علمنا ومعرفتنا بشأن القوة الجاذبة- التي تعتبر أحد المخلوقات- تقتصر على المعرفة الإجمالية دون المعرفة التفصيلية، فأنى لنا توقع المعرفة بكنه الذات المقدسة لخالق عالم المادة وما ورائها من وجودات لا متناهية؟! لكن مع ذلك فاننا نراه حاضراً وناظراً في كل مكان ومقارناً لكل وجود في العالم. أمّا العبارة

«ومن حده فقد عده»

فهى إشارة إلى أمر مهم يتضح من الكلام السابق وهو أنّ من حد الله وجب عليه أن يراه معدوداً، وبعبارة أخرى فانه يعتقد بإمكانية وجود الشريك له. لأنّ المطلق من جميع الجهات فقط هو الذي يأبى الشبيه والمثيل والشريك؛ بينما إن كان محدوداً (مهتما كانت عظمته وقدرته) كان له شبيهاً ومثيلاً خارج ذاته، وبتعبير آخر فليس هناك من ضير في تصور موجودين محدودين أو أكثر (مهتما بلغ كبرهما)، بينما يستحيل تصور وجود ثان للمطلق من كل الجهات؛ وذلك لأنّ كل ما يتصور إنّما يعود إلى ذاته.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٥٧

القسم الثالث: ليس كمثلته شيء

إشارة

«وَمَنْ قَالَ «فِيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ «عَلَامٌ»؟ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ. كَائِنٌ لَا عَنْ حَدِيثٍ، مُؤْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ، وَعَظِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْأَلَّةِ، بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَا سَيِّكَنَ يَشْتَتَأُنِسُ بِهِ وَلَا يَسْتَتَوَحِّشُ لِفَقْدِهِ».

الشرح والتفسير لقد تعرض الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة إلى عدّة نقاط حساسة ودقيقة بشأن مباحث التوحيد بكلمات قليلة ومعان عميقة يمكن إيجازها في خمس:

١- كون الذات الإلهية المطلقة منزّهة عن المكان، فقد قال عليه السلام:

«ومن قال فيم؟ فقد ضمنه»

. فالكلمة (في) إنّما تستعمل بشأن المكان الذي يحوى الشىء ويحيط به، من قبيل قولنا فلان في الدار، والورد في البستان وما إلى ذلك، ونتيجة ما تقدم هو محدودية ذاته سبحانه، بينما أشرنا سابقاً إلى أنّ كآفة أدلّة التوحيد تفيد كون الذات المقدسة مطلقه من جميع الجهات.

وهكذا من سأل «علام» بشأن الله؟ (على العرش، على الكرسي، على السموات) فقد حده لأنه أخلى منه سائر المواضع «ومن قال علام؟ فقد أخلى منه». فمثل هذه الأسئلة تستلزم كون الذات القدسية محدودة، وهذا مالا ينسجم وكونه واجب الوجود. وبناءً على هذا فكل من تصوّره على العرش أو على السموات أو أى مكان آخر فقد جرد نفسه من التوحيد الخالص، وفي الواقع فأنه يعبد مخلوقاً من نسج خياله الفكرى ويسميه الله. فقد ذهب بعض الجهال إلى

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٥٨

أن الشريفة

«الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [٦٠]

دليل على جسمية الله وأنه على العرش، بينما تفيد كلمة «استوى» معنى السيطرة على الشىء ولا تقتصر على معنى التربع على الشىء أو الاستقرار عليه، بل هناك تعبير كئائى معروف ومتداول بشأن تزعم الامور والأخذ بزمامها فى مقابل اعتزال السلطة وانفلات القدرة، فيقال

«اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ»

فى مقابل «ثل عرشه» ولا يراد كسر عرش السلطة أو التربع عليه. وعليه فالذى تفيد الآيه الكريمة

«اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ»

هو استقرار حكومته وسلطته سبحانه على العرش. على كل حال يبدو من السذاجة والسخرية الاستدلال بهذه الآيه على جسميته سبحانه.

٢- يشرح الإمام عليه السلام فى هذه العبارة «كائن لا عن حدث» أزلته سبحانه وكون ذاته غنية عن الحدود من ناحية الزمان، ثم يقول عليه السلام:

«موجود لا عن عدم»

وهذا هو الفارق بينه وبين جميع المخلوقات المسبوقة بالعدم والحدث، بينما لم تسبق الذات الإلهية بمثل ذلك العدم والحدث. بل لا يمكن وصفه بصفتي «الكائن» و «الموجود» دون تنقية مفهومها من صفات المخلوقات المسبوقة بالعدم. [٦١]

٣- العبارة الاخرى تضمنت إشارة رائعة إلى كيفية الرابطة السائدة بين المخلوقات والخالق والممكنات بواجب الوجود، حيث قال عليه السلام:

«مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة»

. لقد ذهب أغلب الناس وحتى أغلب الفلاسفة والعلماء إلى أن الرابطة التي

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٥٩

تسود المخلوقات بالله، هي رابطة بين وجودين مستقلين في أن أحدهما مخلوق للآخر، كوجود الشعلة العظيمة والشعلة الصغيرة التي نوقدها من تلك الشعلة، في حين الحقيقة شيء آخر تماماً. فالفارق بين المخلوق والخالق هو ليس من قبيل الفارق بين وجود ضعيف وقوى قط، بل الفارق هو فارق بين وجود مستقل من جميع الجهات ووجود تابع. فعالم الوجود برتمه تابع له ويتغذى في كل آن من نور وجوده عليه. فالله سبحانه ليس منفصلاً عن عالم الوجود كما أنه ليس عين الموجودات (كما ذهب إلى ذلك الصوفية التي تقول بوحدة الوجود والموجود)، وأن التوحيد الواقعي إنما يتوقف على إدراك هذه الحقيقة. ويمكن إيضاح هذه الحقيقة بهذا المثال (رغم النقص الذي يشوب مثل هذه الأمثلة). فشعاع الشمس رغم وجوده وكونه غير قرص الشمس، إلا أنه متصل بها تابع لها، هو غيرها لكن لا على نحو المغايرة وبمعنى الانفصال والاستقلال، ومعها ولكن ليس بمعنى الالتحام والاتحاد. وهما لا شك فيه أن ارتباط موجودات هذا العالم بالذات الإلهية المقدسة أكثر قرباً وتبعية مما صدره هذا المثال، والحق لا يمكن العثور على مثال دقيق في هذا العالم لتصوير عمق هذه التبعية والوحدة وفي نفس الوقت الثنائية (أى الوحدة في الكثرة). رغم أن الأمثلة ومنها المثال المذكور- أو كالتصورات الذهنية للإنسان التابعة من روحه وغير المنفصلة عنها وفي نفس الوقت تابعة لها وليس لها من مفهوم دونها- يمكنها أن توضح إلى حد ما هذا الموضوع.

٤- تناول الإمام عليه السلام صفة أخرى من صفات الذات الإلهية المقدسة، فقد قال عليه السلام:

«فاعل لا بمعنى الحركات والآلة».

لقد جرت المحاورات اليومية عادة على الاصطلاح بالفاعل على الفرد الذي يقوم ببعض الأعمال من خلال حركات اليد والرجل أو الرأس والرقبة وسائر الأعضاء، ولما كانت قدرة الإنسان وسائر الكائنات محدودة وتعذر الإتيان بكافة الأفعال والأعمال على هذه الأعضاء، فإنه يستعين ببعض الوسائل والأدوات ليسد بها ذلك النقص الذي يشوب قدرته، فهو يستعين بالمطرقة لدق المسمار، وبالمنشار لنشر الخشب وبالمكائن والآلات الضخمة لنقل الأحمال الثقيلة من مكان إلى آخر، وكل هذه الأمور هي من آثار الأجسام والجسمانيات.

ولما كان الله منزهاً عن الجسمية، وقدرته غنية مطلقه خارجة عن الحد والحدود فان فاعليته لا تعنى القيام بالحركات أبداً، كما أن قدرته المطلقة أغنته عن الاستعانة بالأدوات والآلات. فالله سبحانه فاعل قبل أن تخلق الآلة ولو كان محتاجاً للآلة لعجز عن خلقه لاولى

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٦٠

الأشياء، وبعبارة أخرى فان فعله إبداع. نعم فهو قادر على خلق عالم الوجود أو اعدامه في طرفه عين أو أقرب بإرادته وقوله (كن)، كما له خلقه تدريجياً أو في أية مدة نبتغيها إرادته.

والذي يجدر الالتفات إليه هنا هو أننا حين نصفه سبحانه بأنه فاعل فلا ينبغي أن نقارن فاعليته بذواتنا وأنها تستعين بالادوات والآلات. وبالطبع فإن هذا الكلام لا يعنى أن ليس لله من ملائكة تتولى تدبير الأمر والتي وصفها القرآن

«... فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا».

فقد جرت عادته على ايجاد الحوادث عن طريق الأسباب، لان إرادته شاءت ذلك لامحتاج لها.

٥- ثم قال الإمام عليه السلام:

«بصير إذ لا منظور إليه من خلقه».

صحيح أن مفردة بصير مشتقة من مادة البصر، إلا أنها تطلق بالمعنى المجازي على الله سبحانه لا الحقيقي. فكونه بصيراً يعنى عليمًا

بجميع الأشياء القابلة للرؤية وحتى الأشياء التي ترى ولم تخلق بعد. وبناءً على هذا فان بصيرته تعود إلى علمه اللامتناهي، حيث نعلم جميعاً بأن علمه أزلّى. وأخيراً فقد تحدث الإمام عليه السلام عن وحدانيته سبحانه في غناه عن الأنيس فقال:

«متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده» [٦٢]

وتوضيح ذلك هو أن الناس وسائر الكائنات الحيّة وبحكم كون قدرتها محدودة في نيل المنافع ودفع الاضرار فإنها مضطرة للاستعانة بنبي جنسها ومن غيرها لتشعر بالأمن تجاه بعض الأخطار التي تهددها. وهنا يتفاهم شعور الإنسان بالاستيحاش لوحده، بينما يأنس بوجود سائر الأفراد إلى جانبه ولاسيما أثناء تعرضه للأخطار والآفات والبلايا والأمراض والأوبئة. وأحياناً يندفع الإنسان الضيق النظر ليقارن الله بنفسه فيشعر بالدهشة والذهول كيف يكون الله وحيداً قبل ايجاده لهذه المخلوقات، وكيف لا يكون له من أنيس يسكن إليه، وأخيراً كيف يشعر بالاستئناس بهذه الوحدة؟! غافلاً عن أنه وجود مطلق لا يحتاج الاستعانة

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٦١

بأحد، وليس له من خشية لعدو ليستعين عليه بظهير، كما ليس له من صنو يستأنس به.

ولذلك كان وسيكون متوحداً.

ويتضح مما ذكرنا سابقاً أن لمفردة «المتوحد» مفهوم يختلف عن مفهوم «الواحد» و «الأحد».

تأملات

إشارة

لقد تضمنت هذه العبارات العميقة المعاني والعظيمة المضامين عدّة معطيات ودروس قيمة من شأنها حل أغلب المشاكل العقائدية على مستوى «معرفة الله وأسمائه وصفاته» ومنها:

١- علاقة الخلق بالخالق ومسألة «وحدة الوجود»!

لقد كثر الكلام في أوساط الفلاسفة والعلماء بشأن كيفية الرابطة بين الخالق والمخلوق، فقد أفرط البعض منهم حتى اعتقد بأن الخالق هو عين المخلوق إثر رؤيتهم القائمة على أساس وحدة الوجود والموجود. فهم يقولون ليس هنالك أثر من وجود شخصي واحد في عالم الوجود وكل ما سواه ترشحات من ذاته، أو بتعبير آخر: هناك شيء واحد فقط أمّا الكثرة والتعدد فهي خيالات وظنون وسراب يحسبه الظمان ماء. أحياناً يستعوضون عن الوحدة والاتحاد بقولهم بالحلول على أنه ذات حلت في كافة الأشياء وتتخذ لها شكلاً في كل وقت بينما يشعر الجهال بالازدواج والحال ليس الكل إلّاشيء واحد لا غير. [٦٣] وزبدة القول أنهم يرون عالم الوجود بمثابة بحر وقطراته سائر الموجودات. وبعبارة أخرى فان أي ازدواجية في هذا العالم ليست سوى ضرباً من الخيال والوهم. بل يعتقد البعض منهم أن الفرد لا يعدّ صوفياً

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٦٢

حقيقياً مالم يؤمن بوحدة الوجود والموجود، وذلك لأنّ وحدة الوجود تشكل الركيزة الأصلية لقضية التصوف!

وبالطبع فإنّ بعض كلماتهم يمكن حملها على المعاني الصحيحة والصائبة من قبيل أن الوجود الحقيقي القائم بالذات في العالم واحد

وكل ما سواه تابع له مستمد وجوده منه (كما أوردنا ذلك سابقاً في التشبيه بالمعاني الأسمية والحرفية) أو كل ما عدا الذات الإلهية المقدسة- الوجود المطلق من جميع الجهات- يمثل موجودات صغيرة ضئيلة ليس لها شأنًا يذكر ولكن لا يعنى ذلك أنها لا تمتلك وجوداً واقعياً حقيقياً. ولكن الذى لا- شك فيه هو أن بعض أقوالهم وعقائدهم لا- يمكن تبريرها والتماس التفسير الصائب لها، فهم يصرحون بأن ليس فى عالم الوجود أكثر من وجود واحد وكل ما سواه سراب وخيال، وأبعد من ذلك تصريحهم بأن الوثنية وعبادة الأصنام لو خرجت عن شكلها المحدود فهى عين عبادة الله، لأنّ كل العالم هو، وهو كل العالم. فهذا الكلام يستتبع لوازم فاسدة ليست بخافية على أحد على ضوء العقائد والتعاليم الإسلامية، ناهيك عن تعارضها والوجدان بل البديهيات وانكارها للعلّة والمعلول والخالق والمخلوق والعابد والمعبود، وذلك لأنّه لم يعدّ هناك من مفهوم للفارق بين المعبود والعبد والشارع والمكلف، بل حتى الجنّة والنار وأهلها، فكلها واحدة وكلها عين ذاته وما هذه الكثرة والتعدد الا وهم وخيال ولو أزيلت هذه الغشاوة عن أبصارنا فسوف لا نرى إلّا وجوده سبحانه! إلى جانب ذلك فان من لوازم ذلك القول بجسمية الله والحلول وما إلى ذلك.

وعليه فعقائدهم لا تتسجم مع الوجدانيات والأدلة العقلية ولا تتفق مع العقائد الإسلامية وتعاليم القرآن الكريم، ومن هنا انبرى المرحوم المحقق اليزدى (ره)- الفقيه المعروف- ليكتب فى عروته الوثقى فى مبحث الكفار:

«لا إشكال فى نجاسة الغلاة» [٦٤] والخوارج والنواصب

وأما المجسّم والمجبرّة والقائلين بوحدة الوجود من الصوفية إذا التزموا بأحكام الإسلام فالأقوى عدم نجاستهم إلّا مع العلم بالتزامهم بلوازم مذهبهم من المفساد» [٦٥].

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٦٣

وتتضمن المسألة أمرين مهمين يجدر الالتفات إليهما: أحدهما عطف أصحاب عقيدة وحدة الوجود على المجبرّة والمجسّم وجعل الجميع بمنزلة واحدة، والآخر بان عقائدهم تنطوى على مفساد دينية إذا التزموا بها خرجوا من ربة الإسلام وإن لم يلتزموا بها فهم مسلمون. فالكلام يفيد بما لا- يقبل الشك أنّ مذهب هؤلاء يتصف ببعض المفساد التى يؤدى الالتزام بها إلى الخروج عن صف المسلمين. أمّا الجدير بالذكر هو أنّ كافة العلماء الذين كتبوا حاشية على العروة الوثقى- حيث جرت عادة العلماء الكشاف عن اجتهادهم وقدره استنباطهم للأحكام الشرعية من مصادرها المقررة على كتابه تعليقه على العروة الوثقى- قد أقرّوا بما أورده صاحب العروة أو أضافوا لما ذكره بعض القيود (من قبيل قولهم بما لا يوجب إنكار التوحيد والرسالة) [٦٦].

وللوقوف على عمق المفساد التى انطوت عليها هذه المسألة، نرى من الضرورى هنا الإشارة إلى نموذج ورد فى الدفتر الرابع للشاعر المثنوى حين نقل قصة طويله بشأن قول «بايزيد» سبحانه ما أعظم شأنى، فقد واجه اعتراضاً من صحبه، فقال لهم: «لا إله إلّا أنا فاعبدون» فقالوا له ما تقول؟! قال: سأقول ذلك ثانية فاحملوا السكاكين واطعنونى بها. فشهّر صحبه سكاكينهم وجعلوا يطعنونه، إلّا أنّهم شعروا بأن كل طعنة كانت تمزق أجسادهم لا جسده. فهذه الاسطورة الخرافية من شأنها الإشارة إلى مدى الاندفاع والته الذى بلغه أصحاب هذا المسلك.

وأخيراً نختم هذا الموضوع بما أورده أحد المعاصرين من شراح نهج البلاغة إذ قال بهذا الخصوص: انّ هذا المذهب (القائل بوحدة الوجود بمعنى وحدة الموجود) إنّما يتنكر لكافة القوانين العقلية والاسس الوجدانية وروح الأديان الإلهية، ويرفع من شأن عالم الوجود ليلعب به المرتبة الوجودية الإلهية أو ينزل بالوجود الإلهي إلى الحضيض فيسويه بسائر مخلوقاته، ويبدو أن مثل هذا المذهب إلى الأذهان والأذواق والهروب من الإشكالات أقرب منه إلى التعقل والالمام بالواقعات. [٦٧]

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٦٤

لو تأملنا بدقّة وأجلنا الفكر في كلماته عليه السلام لاكتشفنا مدى قطعه الطريق أمام أى انحراف عن مبدأ التوحيد وحقيقته صفات الله، واتضح لدينا المفهوم الحقيقى لقوله سبحانه وتعالى

«وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» [٦٨]

و

«وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ» [٦٩]

و

«وَمَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى

ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ» [٧٠]

و

«اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» [٧١]

و

«وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ

الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» [٧٢]

وما إلى ذلك من المضامين القرآنية الشريفة.

فهذه المسألة وإضافة لآمالها الأبحاث المتعلقة بوحدة الوجود- بمعناها الصحيح- من شأنها أن تقف حائلاً أمام أى انحراف فى فهم الصفات الإلهية. إلّا أنّ أصحاب الضلالة قد وطأوا وادياً لا يجر عليهم سوى الخجل والخيبة، ومنهم طائفة «المجسمة» التى أضفت صفات الممكنات على الله تبارك وتعالى فصوروه كجسم من الأجسام وقد انطوى على بعض الأعضاء من قبيل الجسم واليد والرجل والشعر المجعد ومن باب أولى أن يحدوه بالمكان والزمان فذهب البعض إلى إمكانية رؤيته سبحانه فى الدنيا، بينما اقتصر بها البعض الآخر على الآخرة.

فقد قال المحقق الدوانى- من مشاهير الفلاسفة- طبق نقل بحار الأنوار- أن: «المشبهة منهم من قال: إنّه جسم حقيقه، ثم افترقوا فقال بعضهم: إنّه مركب من لحم ودم وقال بعضهم:

هو نور متألّىء كالسبيكة البيضاء، طوله سبعة أشبار بشبر نفسه، ومنهم من قال: إنّه على صورة إنسان، فمنهم من يقول: إنّه شاب أمرد جعد ققط، ومنهم من قال: إنّه شيخ أشمط الرأس». [٧٣]

والأدهى من ذلك أنّهم قالوا ببعض الصفات الجسمية لله سبحانه من خلال ما نقلوه من

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٦٥

روايات عن النبى صلى الله عليه وآله- وهى روايات موضوعه بالطبع- وصحيحه. ومن ذلك أنّه سئل ابن عباس: هل رأى محمد صلى الله عليه وآله ربّه؟ قال: بلى، فسئل: كيف رآه؟ قال: رآه على كرسى ذهبى مفروش بالذهب ويحمله أربعة من الملائكة فى حديقة خضراء [٧٤].

وبغض النظر عمّا سبق فقد شحن «صحيح البخارى» و «سنن ابن ماجه» وغيرها بالروايات التى صرّحت بأنّ الله سيرى فى يوم القيامة [٧٥]، حتى أنّ بعض الروايات صرّحت بأنّ أهل الجنّة سيرونه كما يرى القمر بدرأ [٧٦] والحق أنّ مثل هذه الروايات دفعت بالكثير من علماء العامة للاعتقاد برؤية الله يوم القيامة والاستماتة فى الدفاع عن هذه العقيدة. بينما هذا القرآن يهتف آناء الليل والنهار

«لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ» [٧٧]

وقد خاطب سبحانه كلمه موسى عليه السلام قائلاً

«لَنْ تَرَانِي» [٧٨]

ونعلم بأن «لن» نافيه أبدية. وقد تصدى الإمام على عليه السلام لبيان هذه المسألة في خطبة الأشباح، فقال عليه السلام:

«والرابع أناسى الأبصار عن أن تناله أو تدركه أو تبصره» [٧٩]

. كما قال عليه السلام في خطبة اخرى ببلاغته وفصاحته الجلية:

«الحمد لله الذى لا تدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد ولا تراه النواظر ولا تحجبه السواتر» [٨٠]

. وناهيك عما تقدم فان هذه العقائد تمثل مخالفة صريحة لما يحكم به العقل؛ وذلك لأن الرؤية لو كانت جائزة على الله لكان جسماً

له مكان وجهة، الأمر الذى يعنى محدوديته وتغيره وبالتالى سلبه وجوب الوجود وجعله من ممكناته. وهنا يأتى دور عبارات أمير

المؤمنين الإمام على عليه السلام ومنها العبارة السابقة لتكون كالشمس فى رابعة النهار فتميط اللثام عن الحقائق وتسحق العقائد الباطلة

والخرافية وتستعرض الدروس القيمة فى التوحيد ومعرفة الصفات الإلهية. ولما جرت العادة أن يقابل

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٦٦

كل إفراط بتفريط فقد انبرت طائفة بوجه المجسمة التى نزلت بالله سبحانه إلى مرتبة الجسم فاعتمدت عقيدة التعطيل لتقول باستحالة

معرفة الله لا على مستوى كنه ذاته ولا أوصافه، ولا تحسن سوى المفاهيم السلبية من صفات الله، فكل ما نفهمه من قولنا أنه عالم هو

أنه ليس بجاهل، أما عالميته المطلقة فهى خافية علينا تماماً، وعليه فمن مواضع فخر الإنسان أن يودع مسألة معرفة الله بوتقة النسيان ولا

يقترّب من هذا الوادى الذى ينطوى على ظلمات دامسة ويتناقض والتعاليم القرآنية المسلمة التى تقودنا إلى معرفة الله.

نفحات الولاية؛ ج ١؛ ص ٦٦

ختتم بحثنا بعبارات اخرى أوردتها الإمام عليه السلام فى نهج البلاغة بهذا الخصوص فقال:

«لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته فهو الذى تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذى الجحود تعالى

الله عما يقول المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً» [٨١].

فالحق أن هذا التعبير هو الخط المعتدل الفاصل بين الإفراط والتفريط (المشبهة والمعطلة) فى معرفة الله. هذا وقد شحن نهج البلاغة

بالكلمات البليغة الرائعة التى تضمنتها خطبه عليه السلام بشأن صفات الله والسبيل الصحيح لتوحيده سبحانه، وستعرض فى أبحاثنا

القادمة لخطبه عليه السلام بهذا الخصوص.

٣- نفى الحدوث الذاتى والزمانى للذات القدسية

تفيد عباراته عليه السلام بهذا الشأن أن الذات الإلهية منزّهة عن الحدوث الذاتى والحدوث الزمانى. والمراد بالحدوث الزمانى هو

وجود الشىء فى الزمان، أو بتعبير آخر مرور المدّة الزمانية على شىء لم يكن موجوداً ثم يوجد. وهذا هو المعنى المتصور بعد خلقه

عالم المادة؛ لأنّ الزمان انبثق من خلال خلقه العالم المادى بحيث أصبح هناك مفهوم للحدوث والعدم الزمانى.

أما الحدوث الذاتى فالمراد به الشىء الحادث فى ذاته بغض النظر عن ظهوره عالم المادة، أو

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٦٧

بتعبير آخر لا- يترشح وجوده من باطن ذاته، بل يكون تابعاً ومعلولاً لوجود آخر، ومن المسلم به أن ليس من سبيل لهذين الحدوثين

إلى الذات المقدسة الواجبة الوجود فى الماضى والمستقبل، بل وجوده هو الوجود الاصلى (عليك بالدقة والتأمل).

٤- هل يصح اطلاق لفظ «الموجود» على الله؟

هل يمكن اطلاق لفظ «الموجود» على الله؟ يبدو من تعبيره عليه السلام:

«موجود لا عن عدم»

إمكانية اطلاق هذا اللفظ على الذات الإلهية المقدسة، ولكن من المسلم به أن المفهوم الأصلي لهذا اللفظ الذي ورد بصيغته اسم المفعول والذي يعنى أن الآخر هو الذى منحه الوجود، لا- يصدق على ذاته المقدسة، فالوجود هنا يشتمل على مفهوم آخر وهو يتضمن معنى ذى الوجود؛ وهو المعنى الذى صرح به فى بعض شروح نهج البلاغة، بحيث يطلق الموجود تارة على الماهيات الممكنة التى اتصفت بالوجود، كما يطلق تارة اخرى ويراد به أصل الوجود [٨٢]. وقد ورد هذا التعبير (الموجود) فى بعض روايات أصول الكافى أيضاً. [٨٣]

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٦٩

القسم الرابع: تصدر الكلام بشأن خلق العالم

إشارة

«أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِِنْشَاءً وَابْتِدَاءً بِلا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا وَلَا تَجْرِيَّةٍ اسْتِفَادَهَا وَلَا حَرَكَهَ أَحَدَهَا وَلَا هَمَامَةَ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا أَحَالَ الْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا وَلَا مَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا وَعَزَزَ عَرَائِزَهَا وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا عَالِمًا بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا مُحِيطًا بِحُدُودِهَا وَأَنْتَهَا عَارِفًا بِقَرَائِنِهَا وَأَخْنَانَهَا».

الشرح والتفسير لقد تضمنت بداية هذه الخطبة المهمة إشارات دقيقة عميقة المعانى إلى معرفة الله وصفاته التى تمثل أولى مراحل المعرفة الإنسانية، ثم طرق عليه السلام بعد ذلك إلى خلق العالم وكيفيه ابتداء الخلق والعجائب التى انطوت عليها السماء والأرض، وإن كانت مكمله للأبحاث السابقة بشأن صفات الله. فقد قال عليه السلام:

«أَنْشَأَ [٨٤] الْخَلْقَ إِِنْشَاءً وَابْتِدَاءً بِلا رَوِيَّةٍ [٨٥] أَجَالَهَا [٨٦] وَلَا تَجْرِيَّةً

اسْتِفَادَهَا وَلَا حَرَكَهَ أَحَدُهُ وَلَا هَمَامَةَ [٨٧] نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٧٠

فالإمام عليه السلام يبين البون الشاسع بين الخلق الإلهى والأعمال والأفعال التى تصدر عن المخلوقات. فالإنسان مثلاً إذا أراد أن يقوم بعمل ولم يكن لهذا العمل من سابقه وظن فكره وتأمله لينطلق إليه، وإن كان له سابقه احتذى بتجربته وتجارب الآخرين كما يعمد إلى خزينه الذهنى والفكرى بشأن ترتيب مقدمات العمل بغية التوصل إلى نتائجه وكيفيه أدائه، وأحياناً يتيه فى تردده وحيرته بحيث يحكم رأيه ويقوم بالعمل على أساسه. وليس هنالك من سبيل لأى من هذه الحالات والاحتمالات للذات الإلهية المقدسة، فما من حاجة إلى الفكر والتأمل ولا إلى التجارب السابقة ولا الحركة الفكرية استناداً إلى ترتيب المقدمات والحصول على النتائج ولا التردد والاضطراب فى الأعمال والقرارات. فليس وجود الشيء إلأ بإرادته

«إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [٨٨]

. بعبارة اخرى فان هذه الاحتمالات الأربع إنما تتعلق بحصيله أعمال الأفراد الذين له حظ محدود من العلم والقدرة، ولازمة ذلك الحاجة وأفكار الآخرين وتجاربهم والشعور بالاضطراب والقلق. ولا سبيل لهذه الحالات إلى من خرج علمه وقدرته عن الحدود حين الخلق.

ويتضح بجلاء مما قيل أن المراد بالحركة في العبارة المذكورة إنما هي حركة الفكر في باطن النفس. ولكن هناك معنى آخر ساقه بعض المفسرون للحركة على أن المراد بها الحركة الجسمية الخارجية التي تعدّ من لوازم الأجسام والله أعظم وأجل وأسمى من الجسم والجسمانيات. ويبدو أن المعنى الأول أنسب من الثاني؛ لأنّ الحالات الثلاث الأخرى التي وردت قبل وبعد العبارة المذكورة كلها مرتبطة باتخاذ القرار والتفكير والتأمل قبل الإتيان بالعمل.

وزبدة الكلام أن أفعال الله ليست من جنس أفعال العباد وتختلف عنها تماماً، وذلك لأنّ

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٧١

أفعاله سبحانه تستند إلى علمه المطلق بمصالح الأشياء ومفاسدها ومعرفته الكاملة بالنظام الأحسن للخلق والقدرة التامة على جميع الأشياء، وإرادته قاطعة تامة لا لبس فيها ولا ترديد ولا تأمل وتفكير في إفاضة الوجود على الموجودات، وإرادته كانت وما زالت نافذة في الخلق.

ثم أشار عليه السلام إلى كيفية خلق الموجودات والتدبير الإلهي في ظهور الأشياء طبق الخطط والبرامج المنظمة فقال عليه السلام:

«أحال الأشياء لأوقاتها»

أى أن الله جعل لخلق كل موجود وقتاً معيناً (وذلك لأنّ خلقه قائم على أساس التدريج والتخطيط الزماني بغيه إيضاح عظمته تديره وقدرته الفريدة الفائقة). فلما فرغ من الإشارة إلى التصنيف الزماني لخلق الموجودات، تطرق عليه السلام إلى نظامها الخاص الداخلى

والتركيبي فقال عليه السلام:

«ولام ٨٩] بين مختلفاتها».

وهذا من عجائب عالم الخلق، فقد ألف الله سبحانه بين مختلف الموجودات لتبدو متنسقة وكأنّها شيء واحد، فقد لائم بين البارد والحر والظلمة والنور والموت والحياة والماء والنار. لقد خلق النار من الشجر الأخضر وخلق الإنسان والحيوان والنبات مركباً من مواد تامة الاختلاف ذات طبائع متنوعة.

وأبعد من ذلك فقد أوجد رابطة عميقة محكمة بين الروح والجسم وهما ينتميان إلى عالمين مختلفين تماماً؛ أحدهما مجرد ونوراني وشفاف للغاية والآخر مادي وظلماني وخشن للغاية. ثم قال عليه السلام:

«وغرز [٩٠] غرائرها».

فقد أودعها الله سبحانه طبائعها ثم جعل لكل موجود طبيعته والهمه غريزته. وهذا في الحقيقة من الحكمة الإلهية البالغة التي أودعت كل موجود صورته الطبيعية المنبعثة منه دون الحاجة إلى محرك خارجي، ولولا الدوافع الذاتية لهذه الموجودات لانقطعت استمرارية

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٧٢

الأشياء ولسادها الاضطراب والفوضى. وهناك اليوم تعبيران مختلفان بشأن هذه الدوافع الذاتية في الإنسان أو سائر الموجودات، فأحياناً يطلق عليها اسم الفطرة وأن معرفة الله مودعة في الفطرة الإنسانية.. وأحياناً أخرى يعبر عنها بالغريزة. فمثلاً يقولون أن للإنسان غريزة جنسية، أو يقولون بأن لحركات الحيوانات عموماً صبغة غريزية. وهذا في الواقع اصطلاح استعمله العلماء بهذا الشأن. أحدهما بشأن الدوافع التي تتسم بالبعد الفكري (الفطرة) والآخر بخصوص تلك التي ليس لها بعداً فكرياً أو لها بعد عاطفي (الغريزة). إلّا أنّ كليهما يعنى الخلق على أساس المعنى اللغوي.

ثم قال عليه السلام:

«والزمها [٩١] أشباحها».

وقد تضاربت أقوال المفسرين - لهج البلاغة - بشأن هذه العبارة، فذهب البعض ومنهم ابن أبي الحديد الذي قال ان الضمير المنصوب في «الزمها» عائد إلى الغرائز؛ أي ألزم الغرائز أشباحها، أي أشخاصها لأنّ كلا مطبوع على غريزة لازمة، وبالنتيجة فإن العبارة تأكيد على

ثبوت غرائز الموجودات. بينما ذهب البعض الآخر إلى أن المراد بالعبارة وجود الشخصيات الخاصة لكل موجود، أي أن الله سبحانه قد وهب كل موجود بعض الخصائص والمميزات، وبعد أن كان لها بعداً كلياً في علم الله فقد تبلورت في الخارج على هيئة جزئيات وأشخاص وعلى ضوء هذا التفسير فإن الضمير في ألزمها يعود إلى (الإشياء) كما ذكر البعض كلا التفسيرين على نحو الاحتمال. ولكن لما كان التفسير الأول لا يتضمن انسجام الضمير وما ذهب إليه، إضافة إلى كون العبارة تتخذ طابع التأكيد لا بيان موضوع جديد، فإن الذي يبدو أن التفسير الثاني أصح وأصوب من التفسير الأول. وتوضيح ذلك أن الله تبارك وتعالى قد وهب كل موجود نوعين من الخصائص. الخصائص التي أودعت باطن ذاتها والتي عبر عنها الإمام عليه السلام بالغرائز، والخصائص في الجوانب الظاهرية من قبيل الزمان والمكان وسائر الجزئيات والتي عبر عنها الإمام عليه السلام بقوله

«ألزمها أشباحها»

وعلى هذا

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٧٣

الأساس يكون الحق واستناداً لحكمته البالغة في افاضته للخصائص الباطنية والظاهرية لكل موجود ليقوم بوظائفه الخاصة به على ما يرام ويتميز عن سائر الموجودات.

تنبيه

الهداية الفطرية والتكوينية لكافة موجودات العالم

لقد تضمنت عبارته عليه السلام إشارة لنقطة مهمّة طالما ورد التأكيد عليها كراراً في القرآن: وهي أن لكافة موجودات عالم الخلق والمادة تصنيف زمني خاص وفي نفس الوقت الذي يحكمها التضاد والاختلاف إلا أنها منسجمة مع بعضها البعض ومكملة لها وأنها مهدية على الدوام طبق نظمها الذاتى الباطنى والظاهرى وأنها تنطلق كقافلة منتظمة ومنسجمة نحو هدفها النهائى دون أى تعثر وانحراف، بل تسير إليه على نحو الدقة دون أن تخطأه. فتفتح الزهور وتحمل أوراق الأشجار للفاكهة والثمار فى فصلى الربيع، ذبولها وجفافها وتساقطها فى فصلى الخريف والشتاء، حركة الشمس فى الابراج الاثنى عشر، تعاقب الليل والنهار، دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وما اودع الإنسان من قوى باطنية وظاهرية كلها شواهد على الهداية التكوينية الإلهية، والتي صرح بها القرآن على لسان موسى عليه السلام:

«رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى [٩٢]

وقال:

«فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» [٩٣]

و

«وَإِنْ

مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ». [٩٤]

وهذا فى الحقيقة يمثل آية من آياته سبحانه فى عالم الوجود التى تجعل الإنسان أكثر معرفة بالهداية التكوينية والنظم والتصنيف الزمانى والتأليف بين الاضداد والمختلفات كلما تعمق فى التفكير بهذا العالم.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٧٤

ثم قال عليه السلام:

«عالمًا بها قبل ابتدائها محيطاً بحدودها وانتهائها عارفاً بقرائنها» [٩٥]

وأحائها[٩٦]»[٩٧].

والواقع أن هذه العبارات الثلاث قد جاءت بمثابة دليل أو إيضاح للعبارات السابقة، وذلك لأن من أراد أن يخلق موجوداً في وقته المناسب ويلائم بين الأشياء المختلفة ويودعها غرائزها الباطنية ولوازمها الظاهرية فانه يحتاج إلى علم جامع كامل من جانب وإلى إحاطة وقدرة تامة وشاملة من جانب آخر. ولذلك قال عليه السلام:

«عالمًا بها قبل ابتدائها...»

ولا يقتصر علمه على ابتدائها وانتهائها فحسب، بل هو عالم محيط بلوازمها وعللها وآثارها أيضاً. ومن المفروغ منه أن من كان عالمًا بهذه الامور قادراً على الإتيان بها، فان له أن يضع كل شيء في موضعه ومكانه ويفيض على كل منها لوازمه ويسوقه في مسيرته الوجودية إلى كماله المنشود.

تأملان

١- هل يصطلح بالعارف على الله؟

لقد تحفظ بعض مفسري نهج البلاغة على وصف الله سبحانه بالعارف. ويبدو أن هذا التردد ينبع من أمرين: الأول ما أورده «الراغب» في «المفردات» من أن المعرفة والعرفان تعني إدراك الشيء من خلال التفكير والتأمل والتدبر في آثاره، أو بتعبير آخر إنما يطلق اسم المعرفة على العلم المحدود الذي يتأتى عن طريق التفكير، ومن المسلم به أن العلم الإلهي ليس كذلك. والثاني الحديث الذي روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أن له (تعالى) تسعة وتسعين

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٧٥

اسماً من أحصاها دخل الجنة»

حيث يجمع العلماء على أن اسم العارف لم تكن وارده ضمن هذه التسعة والتسعين إسمًا[٩٨] إلا أن الدراسة الإجمالية تفيد أن هذا الوصف قد اطلق كراراً على الله في الروايات الإسلامية، وبالإضافة إلى نهج البلاغة الذي تعرض هنا لهذا الأمر بصورة وصفية وفي موضع آخر بصورة فعلية، فقد ورد هذا الوصف كثيراً في الروايات التي نقلها أصول الكافي[٩٩].

ويشير هذا الأمر إلى أن مفردة المعرفة وان كانت في الأصل تعني المحدودية أو الحاجة إلى التفكير والتدبر، غير أنها اتسعت أثر كثرة الاستعمال حتى صارت تطلق على كل نوع من العلم والمعرفة، وإن لم تكن وليدة الفكر والتدبر.

أما بشأن الروايات المرتبطة بالتسع وتسعين اسماً لله، فينبغي القول أن هذه الرواية لا تقصر الأسماء على تسعة وتسعين أبداً، بل هي تشير في الحقيقة إلى صفات الله وأسمائه الحسنى، ولذلك صرحت بعض الروايات بألف اسم للبارئ سبحانه، وأخيراً أي دليل أعظم من أن يستفيد الإمام على عليه السلام في نهج البلاغة من هذا الاسم أو مشتقاته بالنسبة لله وهو الأعراف والأعلم أكثر من غيره بخصوص أسماء الله وصفاته.

٢- كيفية علم الله بالموجودات قبل ايجادها

إن أحد أعقد المباحث الفلسفية والعقائدية هو بحث «علم الله بالموجودات قبل ايجادها».

فاننا نعلم بأنَّ الله سبحانه عالم بالحوادث التي ستقع، وهذا ما ورد التأكيد عليه في الآيات القرآنية الشريفة، وهو ما ورد في العبارة المذكورة، ومن جانب آخر فان علم الله ليس من قبيل «العلم الحصولي»؛ أي ليس هنالك من انعكاس للصورة الذهنية للأشياء في ذاته؛ وذلك لأنه ليس له من «ذهن» كالمخلوقات، فعلمه لا يتأتى من خلال انعكاس صور الموجودات، بل

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٧٦

علمه «علم حضوري»؛ أي أنّ المخلوقات حاضرة عنده، ونعلم أن ليس هناك من معنى للعلم الحضوري بشأن الأشياء التي لم تظهر للوجود؛ بل هذا الإشكال وارد حتى بخصوص الموجودات التي زالت وانعدمت في الماضي؛ فان كان لنا من علم بها بفضل صورها الذهنية التي تبلورت في أعماقنا وأفكارنا. ولكن كيف لمن ليس له ذهن وصور باطنية وليس من سبيل للحوادث إلى ذاته المقدسة أن يحيط بها؟! على سبيل المثال: لقد زالت صورة فرعون ورهطه وانقطع تأريخهم، وليس لنا سوى استحضار صورتهم في أذهاننا، ولكن ما كيفية علم الله به وهو ليس من قبيل علمنا؟ فهل يمكن القول بأنه ليس عالمًا بالماضي؟ أم ليس له من علم بالمستقبل؟ أبدأً لا يمكن ذلك! إذن إن كان عليمًا فما كيفية هذا العلم؟

لقد أثارت هذه المسألة الجدل في أوساط الفلاسفة والعلماء فقدموا عدّة أجوبة بهذا الشأن، سنقتصر هنا على الإشارة إلى بعضها:

١- إنَّ الله كان ومازال عالمًا بكافة الأشياء بذاته التي تعتبر علّة لجمعها، وبعبارة أخرى فإنَّ لذاته أعظم الحضور لدى لذاته، وهذا العلم بذاته هو علم إجمالي بكافة حوادث العالم وموجوداته قبل اليجاد وبعده. وتوضيح ذلك أننا لو علمنا على نحو الدقة بعلة الأشياء فان مثل هذا العلم سيقود بالنتيجة إلى العلم بنتائجها ومعلولاتها؛ وذلك لأنَّ كل علّة تشتمل على كافة كمالات المعلول وزيادة، ولما كان الله علّة جميع الأشياء ويعلمها بذاته ويحيط بها، وفي الواقع فان هذا نوع من الكشف التفصيلي تجاه جميع الأشياء من خلال العلم الاجمالي. ويمكن توضيح هذا الكلام بالقول: إنَّ الحوادث الماضية لم تنعدم بالمرّة أبدأً وإنما لها وجود وحضور في عمق حادث الحاضر. كما أنّ الحوادث المستقبلية ليست معزولة عن الحوادث الحاضرة فهي مرتبطة بها ونابعة منها. وعلى هذا الأساس فإنَّ الماضي والحاضر والمستقبل إنّما يوجد سلسلته من العلل والمعاليل بحيث أنّ العلم باحدى حلقاتها إنّما يعنى العلم بما قبلها وما بعدها من حلقات. على سبيل المثال لو علمنا بدقّة الأوضاع الجوية للكرة الأرضية والعوامل المؤدية لظهور الأجواء الفعلية وأحطنا بكافة جزئيات وروابط عللها ومعاليلها، فاننا سنستطيع التعرف بدقّة على أوضاع الأجواء لما قبل أو بعد آلاف السنين؛ وذلك لأنَّ ملف حوادث الماضي والمستقبل موجودة في الحاضر. فالיום يحمل انعكاساً دقيقاً عن الأمس،

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٧٧

والغد عن اليوم والعلم التام بجزئيات اليوم بمعنى العلم التام بالحوادث الماضية والمستقبلية.

فاذا التفتنا إلى هذه الحقيقة وهو أنّ الله سبحانه المصدر الأصلي لجميع حوادث الأمس واليوم والغد وأنَّ له العلم بذاته المقدسة، فان علينا أن نقر بأنَّه عالم أيضاً بحوادث المستقبل والحاضر والماضي. وبالطبع فإنَّ آثار كل موجود مهما كان إنّما تتبع إرادة الله وأمره، إلّا أنّ سنته جرت في منح الموجودات القدرة على القيام بفعاليتها، فاذا شاء جردها منها. [١٠٠]

٢- الإجابة الثانية التي يمكن إيرادها في هذا المجال أنّه يمكن لعلمنا تصور الأمس واليوم والغد، وذلك لأننا موجودات محدودة. أمّا بالنسبة لله الذي لا حدد لذاته فليس هنالك من مفهوم للأمس واليوم والغد لديه، بل إنّ كافة الأشياء والحوادث حاضرة عنده بجميع جزئياتها وخصوصياتها.

ويمكننا الاستشهاد بمثال على هذا الكلام:

افرض أنّ هناك فرداً في زنزانة مظلمة ليس لها سوى نافذة صغيرة على الخارج. فاذا مرت قافلة من الجمال من هذه النافذة فانه سيشاهد في بداية الأمر رأس وعنق جمل واحد ثم يرى رجله وذنبه ومن ثم سائر الجمال في هذه القافلة. فصغر النافذة هو الذي يشكل السبب الذي يجعله يعيش حالة من الماضي والحاضر والمستقبل، بينما يختلف هذا الموضوع تماماً بالنسبة لذلك الفرد الواقف

على سطح في محيط مكشوف خارج تلك الزلزلة وينظر إلى الصحراء، فهو يرى قافلة الجمال معاً خلال حركتها.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٧٩

القسم الخامس: كيفية بداية خلق العالم

إشارة

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتَقَّ الْأَجْوَاءَ وَشَقَّ الْأَرْجَاءَ وَسَكَّاتِكَ الْهَوَاءِ».

الشرح والتفسير لقد تناول الإمام عليه السلام بداية انبثاق الخلق فقال عليه السلام:

«ثم أنشأ سبحانه فتق [١٠١] الأجواء [١٠٢]»

وهو يشير إلى شق الطبقات الجوية، ثم فتح جوانبها وأطرافها

«وشق [١٠٣] الأرجاء [١٠٤]»

وأوجد الفضاء والهواء

«وسكائك [١٠٥] الهواء [١٠٦]»

. فقد أشير إلى فتق الأجواء ثم إيجاد أطرافها وجوانبها

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٨٠

ومن ثم طبقاتها. وتشير العبارة بأجمعها إلى أن الخلق الأول في عالم المادة كان خلق فضاء العالم، الفضاء الذي يسعه استيعاب الكرات السماوية والمنظومات وما إلى ذلك، بالضبط كالصفحة الورقية التي يعدها الرسام الماهر مسبقاً لرسم ما يشاء. ومن هنا يتضح أن كلمة «ثم» في العبارة لا تفيد معنى الترتيب التكويني، بل تفيد الترتيب والتأخير البياني؛ لأنه قد أشير في العبارات السابقة إلى خلق أنواع الموجودات والكائنات، ومن المتيقن ألا تكون قد أعقبت بخلق الفضاء ثم كريات السماء والأرض. وفي الواقع فقد تضمنت العبارات السابقة أبحاثاً بشأن خلق الموجودات بينما تكفلت هذه العبارة شرح تلك الأبحاث وتفصيلها. على كل حال فإن ظاهر هذه العبارة تفيد أن الفضاء أول مخلوق في عالم المادة، غير أن هناك ترديد لدى بعض الفلاسفة والمتكلمين بشأن الفضاء في أنه أمر وجودي أم عدمي؟ فهناك من يعتقد كما أن الزمان قد ظهر بعد انبثاق الموجودات وحركتها (لأن الزمان هو وحدة الحركة) فإن المكان هو الآخر قد حصل بعد ظهور الأجسام المختلفة ومقارنتها مع بعضها. والحال يتعذر علينا تصور عدم وجود مكان مطلق إثر ظهور أول جسم إلى الوجود. فلو أردنا أن نبني عمارة ذات عدة طبقات فاننا نحتاج إلى فضاء تشغله تلك العمارة كحاجتنا إلى مكان على الأرض نبنينا عليه، وإذا أردنا أن نبني عمارة أكبر فانها ستحتاج إلى فضاء أوسع. والخلاصة فاننا نؤمن بما أورده الإمام عليه السلام بقوله

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتَقَّ الْأَجْوَاءَ وَشَقَّ الْأَرْجَاءَ وَسَكَّاتِكَ الْهَوَاءِ»

ونوكل الاستغراق في هذا البحث إلى محله.

تأمل: هل العالم المادى حادث؟

هناك كلام كثير يدور بين الفلاسفة والعلماء بشأن العالم فهل العالم المادى حادث أم قديم أزلي؟ فالبعض يرى أنه قديم وأزلي بينما يعتقد الأعم الأغلب أنه حادث. أما دليل القائلين بالأزلية والقدم فانما يستند إلى الذات الإلهية المقدسة القديمة وكل ما سواها فهو

حادث ومخلوق وتابع لذاته المقدسة. وأما أنصار عقيدة حدوث العالم فأحياناً يستدلون بالأدلة الفلسفية على مدعاهم وأحياناً أخرى بالأدلة العلمية. فبرهان الحركة والسكون من الأدلة

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٨١

الفلسفية المعروفة التي تقول بأن عالم المادة دائماً في حالة حركة وسكون، والحركة والسكون من «الأمور الحادثة» وما كان معروضاً للحركة والسكون فهو حادث أيضاً. ويمكن إيراد هذا الدليل بتعبير أوسع وأشمل وهو أن عالم المادة دائماً في حالة تغيير، والتغيير والتبدل علامة على الحدوث، لأنه لو كان أزلياً وهو مسرح على الدوام للتغيير والتبدل فإن ذلك سيكون جمع بين الحدوث والقدم، أي لا بد أن نرى التغييرات وهي من الأمور الحادثة أزلية، وهذا تناقض صريح. ويتضح هنا أكثر فأكثر إقرار هذا الدليل للحركة الجوهرية التي تقول بأن الحركة كامنة في ذات الأشياء، بل هي عين ذاتها؛ لأن وجود الحركة هذا الأمر الحادث في الأزل لا معنى له. ونترك دراسة وتحليل هذا الدليل إلى الأبحاث الفلسفية الواردة بهذا الشأن. الدليل العلمي فهو الدليل الذي يقول بأن العالم في حالة تآكل دائمية وقد قامت الأدلة والبراهين العلمية التي تثبت ذلك، ويصدق هذا الأمر على التيارات والثوابت والأرض وما كان على سطحها. فالتآكل المستمر دليل على أن هناك نهاية وخاتمة لعالم المادة. لأن التآكل لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، فإذا قبلنا أن للعالم المادي نهاية، يجب أن ندع عن أن له بداية. لأن الشيء لا يكون أزلياً مالم يكن أبدياً. فالأبدي تعني اللانهاية، والشيء اللانهاية ليس بمحدود، وإذا كان ليس بمحدود فلا بداية له، وعليه فالشيء إذا لم يكن أبدياً سوف لن يكون أزلياً. ويمكن إيراد هذه الكلمة بصيغة أخرى وهي أن العالم لو كان أزلياً وفي حالة تآكل، فلا بد أن يكون هذا التآكل قد أنهى عمر العالم لأن تناهي التآكل يساوي العدم. وبتعبير آخر على ضوء آخر النظريات العلمية أن العالم المادي يسير نحو الروتينية. فالذرات تتلاشى تدريجياً وتتحول إلى طاقة، والطاقة تسير نحو الروتينية (بالضبط كشمعة النار التي توقدها في غرفة فتتحول مادة النار إلى حرارة فتنشر هذه الحرارة تدريجياً في وسط الغرفة حتى تكون بالتالي شيئاً روتينياً لا أثر له). وكلما مرت لا نهاية الزمان على العالم ستحصل هذه الحالة؛ أي تحول كافة المواد إلى طاقة وبالتالي تتحول هذه الطاقة الفعالة إلى طاقة روتينية وباهتة.

لكن لا- يعني هذا الكلام أن زماناً قد مرّ ولم يكن لله من خلق وأن ذاته الفياضة قد توقفت عن هذا الفيض، بل بالعكس فإن عملية الخلق مستمرة، إلا أن المخلوقات كانت دائماً تشهد حالة التغيير والتبدل وأن جميع هذه المخلوقات تابعة لذاته المقدسة، أو بتعبير آخر كان له

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٨٢

حدوثاً ذاتياً لا زمانياً. وذلك لعدم إمكانية تصور الحدوث الزماني للجميع. وما ورد في الرواية التي قالت:

«كان الله ولا شيء معه» [١٠٧]

إنما يراد بها أنه لم يكن شيء مصاحباً لذاته بل مخلوقاً لها (لابد من التأمل).

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٨٣

القسم السادس: الماء كان أول مخلوق

«فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلَاظِمًا تَيَّارُهُ مُتْرَاكِمًا زَخَّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَثْنِ الرِّيحِ الْعَاصِ فَهَ وَالزَّرْعِ الْقَاصِ فَهَ فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، وَسَلَطَهَا عَلَى شَدِّهِ، وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ، الْهَوَاءَ مِنْ تَحْتِهَا فَيَتَّقُ وَالْمَاءَ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ».

الشرح والتفسير ما يستفاد من كلمات أمير المؤمنين على عليه السلام ولا سيما في هذه العبارات وما سيتبعها في توضيح كيفية خلق العالم هو أن الله سبحانه قد خلق ابتداءً الماء- أو بتعبير آخر- مائعاً يشبه الماء ثم حملة على ريح عاتية شديدة، وقد أمرت هذه الريح

أن تحفظ هذا المائع وتحول دون تشتته وتفرقه. ثم هبت ريح شديدة أخرى بهدف إيجاد أمواج فى ذلك المائع العظيم والواسع فجعلت الريح تلك الأمواج أعظم وأشد ثم دكتها على بعضها، ثم تموج ذلك المائع تمويجاً شديداً حتى ارتفع فى الفضاء، فخلق منه السموات السبع. جدير بالذكر أن الماء والريح والعاصفة وما شابه ذلك- فى ذلك الوقت الذى لم يكن فيه ماء ولا ريح ولا عاصفة- كناية عن موجودات شبيهة بما نراه اليوم من ماء وريح وهواء، وذلك لأنّ واضعى المفردات قد جعلوا هذه الكلمات لمثل هذه الامور، فلم يضعوا أية مفردة لما حدث أوائل خلقه العالم. وان أدنى تأمل يجعل من الممكن تفسير ما ورد من عباراته عليه السلام على ضوء آخر الفرضيات والنظريات التى طرحها العلماء المعاصرون بهذا الشأن، ولا نقول إنّ هذا هو مراد الإمام عليه السلام على سبيل القطع، بل نحتمل أن يكون تفسيره كذلك.

فآخر الفرضيات التى توصل إليها العلماء بشأن بداية ظهور العالم، هو أن العالم برمته فى

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٨٤

البداية كان بهيئة كتلة غازية عظيمة شبيهة بالمائع، كما يمكن الاصطلاح عليها باسم «الدخان»، أو بتعبير آخر كانت الطبقات العليا من العالم دخاناً، وكان هذا الدخان يتخذ شكل المائع بفعل حالة الضغط كلما إقترب من مركز العالم. أمّا الشئ الذى تكفل بحفظ تلك الكتلة العظيمة للغاية إنّما تمثل بالجاذبية التى تحكم جميع ذرات العالم، وقد سلطت هذه الجاذبية على ذلك الغاز المائع فشده وحالت دون خروجه من حدوده. ثم ابتدأت هذه الكتلة العظيمة بالدوران حول نفسها (أو أنّها كانت تدور حول نفسها منذ البداية) وهنا ظهرت قوة الطرد المركزية [١٠٨] وقد أدت قوة الطرد المركزية هذه بتلك الكتلة العظيمة من ذلك الغاز المضغوط أن تقذف فى الفضاء الخالى، وعلى حد تعبير نهج البلاغة كما سيأتى فى العبارات التالية من هذه الخطبة «فأمرها بتصفيق الماء الزخار وإثارة موج البحار فمخضته مخض السقاء وعصفت به عصفها بالفضاء»

ثم ظهرت منها المنظومات والكواكب والكرات الصغيرة والكبيرة للعالم؛ الأمر الذى نعته القرآن ونهج البلاغة بالسموات السبع. طبعاً كل ما نريد أن نقوله- دون الاصرار على هذا الموضوع- هو الانسجام القائم بين عبارته عليه السلام والفرضيات والنظريات العلمية الواردة بذات الشأن، حيث يمكن استيعاب كلام الإمام على عليه السلام على ضوء النظريات والاطروحات العلمية المعاصرة بخصوص ظهور السموات والارضين والكواكب والاجرام السماوية وسائر الكرات. ونتقل الآن إلى أصل عبارته، فقد قال الإمام عليه السلام:

«فاجرى فيها ماء متلاطماً [١٠٩] تياره [١١٠]».

«التلاطم» بمعنى اصدام الأمواج ببعضها، والتيار يعنى الموج، ولا سيما الأمواج التى يقذفها الماء خارجاً، أفليس هذا الماء المتلاطم والمتدفق هو تلك الغازات الأولية المضغوطة التى تمثل المادة الأولية للعالم على ضوء نظريات العلماء واطروحاتهم؟ ثم أكد الإمام على عليه السلام على شدة

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٨٥

تدفق ذلك الماء وعظم تلاطمه فقال:

«متراكم [١١١] زخاره [١١٢]».

ثم أضاف عليه السلام:

«حمله على متن الريح العاصفة [١١٣] والزعرعة [١١٤] القاصفة [١١٥]».

فالعاصف بمعنى الضاربة والكاسرة والزعرع بمعنى الضربة والشديدة الهبوب وكذلك القاصفة التى تهلك الناس بشدة هبوبها، وكأنّ كل هذه المفردات تأكيدات متتالية لبيان قوة تلك الريح وسعتها وشموليتها. ثم امرت هذه العاصفة العظيمة المرعبة بحفظ أجزاء الماء مع بعضها البعض ضمن حدودها

«فأمرها برده، وسلطها على شدة [١١٦]، وقرنا إلى حده».

أو ليست هذه العاصفة العظيمة والشديدة إشارة إلى أمواج الجاذبية التي سلطها الله على جميع ذرات عالم المادة والتي كانت سبباً لتماسك أجزائها وعدم تشتتها وتناثرها، وتقييدها بالحركة في إطار حدودها؟ فهل هناك من تعبير أروع وأدق من الريح العاصفة القاصفة لتبيين الأمواج العظيمة للجاذبية في ظل تلك الأجواء.

وقد حصلت كل هذه الامور و

«الهواء من تحتها فتيق ١١٧] والماء من فوقها دفيق ١١٨]»

والفتيق من مادة فتق بمعنى المفتوق؛ المفتوح، ودفيق من مادة دفق بمعنى الحركة السريعة.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٨٦

نعم إن هذه الأمواج المتدفقة إنما تحدد بواسطة تلك الريح العاصفة، فتحول دنها ودون تجاوزها لحدودها- وهنا يبرز هذا السؤال: كيف تظهر تلك الأمواج المتدفقة على سطح الماء رغم وجود تلك الريح العاصفة الحائلة والمانعة، فالمعروف أن تلك الأمواج عادة ما تظهر بفعل حركة الرياح والعواصف، رغم أن الرياح هنا تلعب دور المانع والحائل لتلك الأمواج، إذن ما العامل الذي يقف وراء حركة الأمواج.

يبدو أن العامل الذي يقف وراء ظهور هذه الأمواج هو شيء كامن في باطنها بحيث يجعله يتلاطم على الدوام. ولكن ليست لدينا رؤية واضحة لماهية هذا العامل، إلا أنه ينسجم تماماً والنظريات التي أوردها العلماء المعاصرون بهذا الشأن، فهم يقولون أن انفجارات نووية متواصلة وقعت في جوف الغازات الاولى ذات الطبيعة المائعية، وهي هذه الانفجارات التي تحدث اليوم في الشمس. فهذه الانفجارات العظيمة قضت على سكون واستقرار هذه الغازات المائعية وأوجدت تلك التلاطمات في أمواجها المتدفقة.

ولابد لنا من متابعة المقطع الآخر لاكمال هذا القسم فنقف على الصورة الدقيقة التي رسمها الإمام عليه السلام لإنبثاق الخليقة.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٨٧

القسم السابع: دور العواصف في انبثاق الخليقة

إشارة

«ثُمَّ أَنْشَأَ سَبْحَانَهُ رِيحًا اعْتَمَمَ مَهَبُهَا وَأَدَامَ مَرْبَهَا وَأَعَصَفَ مَجْرَاهَا وَأَبْعَدَ مَنْشَأَهَا فَأَمَرَهَا بِتَضْيِيقِ الْمَاءِ الرَّخَّارِ وَإِنَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السَّقَاءِ وَعَصِفَتْ بِهِ عَصِفَهَا بِالْفَضَاءِ. تَرُدُّ أَوْلَاهُ إِلَى آخِرِهِ وَسَاجِيَهُ إِلَى مَائِرِهِ حَتَّى عَبَّ عِبَابُهُ وَرَمَى بِالزَّيْدِ رُكَامَهُ فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِحٍ وَجَوٍّ مُنْفَتِحٍ فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ جَعَلَ سِفْلَاهُنَّ مَوْجًا مَكْفُوفًا وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَسَمَكًا مَرْفُوعًا بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعُمُهَا وَلَا دِسَارٍ يَنْظُمُهَا ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَضِيَاءِ الثَّوَابِقِ وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجًا مُسْتَطِيرًا وَقَمَرًا مُنِيرًا فِي فَلَكٍ دَائِرٍ وَسَقْفٍ سَائِرٍ وَرَقِيمٍ مَائِرٍ».

الشرح والتفسير كما أوردنا فإن هذه الكلمات امتداد لعبارته السابقة ونتجه بادئ ذي بدء إلى فهم التعبيرات الدقيقة والعميقة في كلام الإمام عليه السلام دون اصدار حكم بشأنها، ثم نتحدث بعد ذلك عن مدى انسجامها مع آراء ونظريات العلماء المعاصرين بخصوص مسألة خلق العالم.

فالإمام يشير في كلامه إلى عدّة مراحل. فقال عليه السلام:

«ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم ١١٩] مهبها [١٢٠]».

فالريح العقيم هي الريح الخالية من السحب التي تؤدي إلى نزول المطر، وبالتالي فهي لا

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٨٨

تلقيح سحاباً ولا شجراً. ثم وصفها عليه السلام بملازمتها للماء وعدم انفصالها عنه فقال:

«وأدام مربّها» [١٢١]

خلافاً للرياح العادية التي تهب أحياناً وتسكن أحياناً أخرى ریح شديدة عاتية (تختلف كلياً عن الرياح والعواصف الاعتيادية) فقال عليه السلام:

«وأعصف [١٢٢] مجريها».

وهي ریح تهب من مكان سحيق وليست على غرار الرياح الاعتيادية التي تنطلق من أماكن قريبة (وأبعد منهاها).

ثم أشار في المرحلة الثانية إلى مهمّة هذه الرياح

«فامرّها بتصفيق [١٢٣] الماء الزخار، واثارة

موج البحار»

فقامت هذه الرياح العاتية العظيمة بمخض الماء كقرباب السقاء

«فمخضته [١٢٤]

مخض السقاء». «وعصفت به عصفتها بالفضاء»

ثم قال عليه السلام:

«ترد أوله إلى آخره وساجيه [١٢٥] إلى مائره [١٢٦]».

وقال عليه السلام في المرحلة الثالثة بشأن تراكم المياه وارتفاعها

«حتى عب عبا [١٢٧]»

بمعنى ارتفع أعلاه

«ورمى بالزبد ركاه [١٢٨]».

ثم قال عليه السلام في المرحلة الرابعة:

«فرفعه في هواء منفتق وجو

منفهب [١٢٩]»

فخلق منها تبارك وتعالى السموات السبع

«فسوى منه سبع سموات»

حيث جعل الأقسام السفلى، كالأمواف المكفوفة الممسوكة والطبقات العليا كالسقف المحفوظ

«جعل

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٨٩

سفلاهن موجاً مكفوفاً [١٣٠] وعليهن سقفا محفوظاً وسمكاً [١٣١] مرفوعاً».

ثم أشار عليه السلام إلى عدم وجود الأعمدة التي تحملها ولا المسامير التي تحكم وثاقها فقال:

«بغير عمد [١٣٢] يدعمها [١٣٣] ولا دسار ينظمها [١٣٤]»

وأخيراً تأتي المرحلة الأخيرة - الخامسة -

«ثم

زينها بزينة الكواكب وضياء الثواقب [١٣٥]»

. ثم أشار عليه السلام إلى القمر والشمس وتحرك كل منهما ضمن مداره

«واجرى فيها سراجاً مستطيراً [١٣٦] وقمرًا منيراً في فلكك دائر وسقف سائر ورقيم [١٣٧] مائر».

تأملات

١- دراسة العبارة على ضوء الفرضيات المعاصرة

للعلماء المعاصرين نظريات متعددة لا تتجاوز حدود الفرضيات بشأن خلق العالم؛ حيث لم يكن هناك مخلوق قبل مليارات السنين ليشهد كيفية ظهور العالم، مع ذلك هناك بعض الشواهد والقرائن التي تؤيد صحة بعض هذه الفرضيات. أما العبارات التي ساقها الإمام عليه السلام فهي تنطبق تماماً على بعض الفرضيات المعروفة، سنتعرض لها الآن دون الاصرار على أن الإمام عليه السلام إنما أراد هذه الفرضيات. فكما أسلفنا في الأبحاث السابقة أن العالم كان في البداية كتلة ضخمة من الغازات المتراكمة الكثيرة الشبه بالمائعات بحيث يصح نعتها بالماء، كما يصح

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٩٠

الاصطلاح عليها بالدخان على ضوء التصريحات القرآنية. وقد سلط خالق العالم عليه قوتين عظيمتين، حيث عبر عنهما في العبارة المذكورة بالريح:

قوة الجاذبية التي حفظته متماسكاً وحالة دون تشتته وزواله، والقوة الدافعة التي تدفعه إلى الخارج إثر الحركة الدورانية حول نفسه وبفعل قوة الطرد المركزية، وهذه هي الريح والعاصفة الثانية. فاذا أقرنا بالحركة الدورانية للعالم الأول على أنها كانت متذبذبة تشد أحياناً وتنخفص أحياناً أخرى فمن الطبيعي أن تكون قد ظهرت تلك الأمواج العظيمة في تلك الكتلة الغازية العظيمة الشبيهة بالمائع بحث تراكمت تلك الأمواج على الدوام ثم أخذت بالتساقط.

وفي الختام فان الطبقات الأكثر خفة والأقل وزناً- والتي ورد التعبير عنها بالزبد من قبل الإمام عليه السلام- قد قذف بها نحو الفضاء الخارجي (أن مفردة «الزبد» تطلق على ما يطفو من الماء، وكذلك على الزبدة التي تطفو لخفتها على سطح محتويات القربة).

وبهذا فقد اشتدت الحركة الدورانية، فانفصلت أجزاء كبيرة من هذه الكتلة العظيمة وانطلقت إلى الفضاء، فما كان منها أكثر شدة بلغ نقاطاً مرتفعة وأما ما كان منها أقل شدة فقد بلغ نقاطاً أوطى. لكن الأجزاء التي بلغت نقاطاً مرتفعة أصبحت على هيئة سقف محفوظ وذلك بفعل قوة الجاذبية التي لم تدعها تفلت تماماً، بينما أصبحت الأجزاء السفلى الأقل ضغطاً موجاً مكفوفاً حسب تعبير الإمام عليه السلام.

ثم ظهرت في ذلك الفضاء المترامي السموات السبع (التي سنتناولها بالحديث لاحقاً) دون أن تكون هناك عمد ترفعها ومسامير تنظمها وتحكم وثاقها، ولم تستقر في مواقعها وتترن في حركتها ضمن مداراتها سوى من خلال تعادل القوتين الجاذبة والدافعة. كان الفضاء آنذاك مملوءاً بالكرات الصغيرة والكبيرة، فانطلقت قطع متناثرة من هذه الأمواج إلى الخارج، وقد انجذبت القطع الصغيرة تدريجياً نحو الكرات الكبيرة بحكم الجاذبية فأصبح الفضاء وأضاءت النجوم وزينت بالكواكب وأشرقت الشمس واضىء القمر وأخذت الأجرام تتحرك ضمن أغلفتها ومداراتها.

لقد ورد في بعض الفرضيات بشأن ظهور العالم أن العامل الذي أدى إلى انفصال المنظومات والكرات السماوية عن الكتلة الأولى إنما يعزى إلى الانفجار الداخلي العظيم والذي

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٩١

ظل سببه مجهولاً غامضاً لحد الآن. فالقى الانفجار المذكور بأجزاء عظيمة من الكتلة الغازية الاولى الشبيهة بالمائع إلى الفضاء وكون الكرات والمنظومات ولعل قوله عليه السلام:

«ثم انشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبتها وأدام مربها وأعصف مجراها وأبعد منشأها فامرها بتصفيق الماء الزخار...»

إشارة إلى هذا الانفجار العظيم الذى انطلق من أعماق المادة الاولى. لكن وكما قلنا سابقاً فإن الهدف من هذا الكلام هو ايضاح مدى انسجام عبارات الخطبة مع الفرضيات الواردة بشأن ظهور العالم ولا يمثل إصدار حكم بهذا الشأن أبداً.

٢- كيفية ظهور العالم

تعد مسألة كيفية ظهور العالم من أعقد المسائل التى واجهها العلماء والمفكرون. فالمسألة المذكورة تعود إلى ما قبل مليارات السنوات، ولعلها القضية التى لم تطرق فكر أحد؛ الأمر الذى حير كبار العلماء والمفكرين رغم الجهود المفنية والتحقيقات والفرضيات الضخمة التى توصلوا إليها فى هذا المجال وبالتالى لم يكن أمامهم سوى الاعتراف بالعجز عن سير تحور هذه المسألة. إلا أن روح حب الاستطلاع والتعرف على المجهول التى تسود الفكر البشرى لم تدعه يقف مكتوف الايدى حيال هذه القضية والصمت إزائها. فالواقع أن لسان حال العلماء هو إننا وإن عجزنا عن بلوغ كنه هذا الموضوع، غير أننا نرغب برسم صورة فى أذهاننا من شأنها إشباع حب تطلعنا واقتحامنا لهذا الأمر. وبالطبع فإن الآيات القرآنية والروايات الإسلامية قد اكتفت بإشارات مقتضية بالنسبة لهذا الموضوع؛ الأمر الذى لا- يؤدى إلّا إلى رسم صورة باهتة فى الذهن لا- ترقى إلى إماطة اللثام عن طبيعتها وكنه حقيقتها. على كل حال فإن العبارات الواردة فى هذه الخطبة أمّا تتناغم وما ورد فى خطبته رقم ٢١١ التى قال فيها عليه السلام:

«وكان من اقتدار جبروته وبديع لطائف صنعته أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبساً جامداً ثم فطر منه اطباقاً ففتقها سبع سموات، بعد ارتفاقها».

من جانب آخر فقد شحنت الروايات الإسلامية بعدة أبحاث بهذا الشأن، والواضح أن أغلب هذه الروايات تنسجم وخطب نهج البلاغة الواردة بهذا الخصوص مع فارق جاء فى

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٩٢

أغلبها وهو تصريحها بأن الزبد أول شىء ظهر على الماء ثم انبعث منه البخار أو الدخان الذى كوّن السموات.[١٣٨] ولكن وكما أوردنا آنفاً فإنه ليس هنالك من تضارب بين هذه العبارات، لأنّ المادة الاولى على الأقوى كانت عبارة عن غازات مائعية مضغوطة يصدق عليها وصف الماء والبخار والدخان بالنظر لمراحلها المختلفة. والجدير بالكدر هنا هو أنه ليس هناك من تضاد بين الروايات التى صرّحت بأن أول ما خلق الله الماء، أو الشىء الأول الذى خلقه الله كان نور النبى صلى الله عليه وآله أو العقل؛ وذلك لأنّ بعض الروايات تحدثت عن خلق عالم المادة بينما تحدث البعض الآخر عن خلق عالم المجردات والأرواح. كما يتبين عدم وجود التناقض بين ما أوردناه من مضامين الروايات وما صرّحت به الآية ١١ من سورة فصلت التى قالت:

«ثم استوى إلى السماء وهى دخان».

٣- الفرضيات السائدة بشأن العالم أبان نزول القرآن

الطريف أنه كانت هناك نظريتين بشأن ظهور العالم فى الوسط الذى نزل فيه القرآن- أو بعبارة أدق فى العصر الذى نزل فيه القرآن:-
الاولى نظرية «بظلموس» التى سادت المحافل العلمية لخمسة عشر قرناً واستمرت حتى أواخر القرون الوسطى. وعلى ضوء هذه النظرية

فإنّ الأرض كانت مركز العالم وتدور حولها تسعة أفلاك؛ وهي أفلاك تشبه الأغطية البصليّة وشفافه وبلورية ومتراكمة بعضها، وكان كل كوكب سيار (عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري وزحل) في فلك، كما كان لكل من الشمس والقمر فلكهما. وإضافة إلى هذه الأفلاك السبع، هناك فلك يرتبط بالكواكب الثابتة (المراد بالكواكب الثابتة هي تلك الكواكب التي تطلع معاً وتغرب معاً دون أن تغير مواقعها في السماء بخلاف الكواكب الخمس التي ذكرناها). وبعد الفلك الثامن؛ أي فلك الثوابت هناك فلك الاطلس الذي ليس له أي كوكب، أما مهمته فهي

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٩٣

سوق العالم العلوي للدوران حول الأرض، وهو الفلك الذي يسمى أيضاً بفلك الأفلاك.

أما الفرضية الأخرى فهي الفرضية التي تستمد قوتها من فرضية بطليموس بشأن العالم وتفسره على أساس العقول العشرة. وعلى ضوء هذه النظرية التي طرحها جمع من الفلاسفة اليونانيين فإن الله لم يخلق بادئ ذي بدء سوى شيء واحد هو العقل (الملك أو الروح العظيمة والمجردة التي اصطلح عليها بالعقل).

وقد خلق هذا العقل شيئين هما العقل الثاني والفلك التاسع، ثم خلق العقل الثاني العقل الثالث والفلك الثامن، وهكذا خلق عشرة عقول وتسعة أفلاك، ثم قام العقل العاشر بخلق موجودات هذا العالم. والواقع ليس هنالك من دليل على هذه السلسلة من الفرضيات، وهكذا هو الحال بالنسبة لفرضية بطليموس رغم ذلك فقد كانت هذه الفرضيات هي السائدة لقرون.

أما القرآن والروايات الإسلامية فقد رفضت الفرضية الأولى - فرضية بطليموس - كما رفضت الفرضية الثانية - فرضية العقول العشرة؛ وذلك لأننا لم نر أثر لهما في الآيات والروايات المعروفة - ولا سيما في نهج البلاغة - وهذا بدوره يمثل أحد الأدلة والشواهد على استقلالية القرآن وعظمه الأخبار الإسلامية واستنادها إلى الوحي لا إلى الأفكار البشرية، وإلا لاصطغت بصبغتها. [١٣٩]

وقد رأينا الانسجام التام بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام وسائر الروايات الإسلامية بشأن ظهور العالم. فالمحور الأصلي في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية إنما كان الحديث عن السموات السبع لا الأفلاك التسع ولا العقول العشرة، وستتناول لاحقاً تفسير السموات السبع.

لكن من المؤسف أنّ قدماء شراح نهج البلاغة - ممن تأثروا بفرضية العقول العشرة ونظرية بطليموس بشأن ظهور العالم - قد سحّبوا هذه الفرضيات على شرح نهج البلاغة

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٩٤

فسعوا جاهدين لحمل الخطبة المذكورة عليها دونما أية ضرورة أو حاجة إلى ذلك؛ فهي لم تكن سوى فرضيات وقد ثبت بطلانها اليوم.

فقد أثبتت التحقيقات والمشاهدات العلمية وتجارب علماء الفلك عدم وجود فلك بالمعنى الذي ذهب إليه بطليموس، وأنّ الكواكب الثابتة والسيارة والتي يفوق عددها بكثير ممّا ظنه القدماء وأنّها تدور في فضاء خال (و أنّ السيارات إنّما تدور حول الشمس لا حول الأرض والثوابت على المحاور الأخرى) وأنّ الأرض لیت مركزاً للعالم فحسب، بل هي سيارة صغيرة من سيارات المنظومة الشمسية وهذه الأخرى منظومة صغيرة من بين ملايين بل مليارات منظومات العالم العلوي. أمّا أنصار فرضية العقول العشرة ورغم تأثرها بفرضية بطليموس - التي سلم اليوم ببطلانها - إلا أنّهم يستندون إلى قاعدة من القواعد العقلية «والتي تصرّح بان الواحد لا يصدر منه إلا واحد» لإثبات صحة فرضيتهم ولا نرى هنا من ضرورة للاستغراق في شرح هذه القاعدة.

ولما كانت هذه القاعدة تفتقر إلى الدليل من وجهة نظر أغلب العلماء، فإنّ أسسها تعتبر جوفاء لا قيمة لها. [١٤٠]

لم يقتصر الحديث عن السموات السبع على نهج البلاغة- في هذه الخطبة والخطبة ٢١١- فحسب بل سبقه القرآن الكريم للحديث عن هذا الموضوع [١٤١].

وهناك عدّة تفاسير أوردها العلماء القدماء بشأن السموات السبع، ولا نروح الخوض فيها

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٩٥

جميعاً؛ الا ان التفسير الوحيد الذى يبدو صحيحاً من بينها هو ذلك الذى قال بأن المراد بالسموات السبع هو المعنى الواقعى لهذه الكلمة؛ فالسماء هى مجموعة من الكواكب والنجوم فى العالم العلوى، والسبع هو العدد سبعة المعروف ولا يراد به الكثرة، غاية ما فى الأمر أن الذى نفهمه من الآيات القرآنية هو أن ما نشاهده من كواكب وسيارات ثابتة ومتحركة كلها مرتبطة بالسماء الاولى. وبناءً على هذا فان وراء هذه السماء العظيمة ستة سموات عظيمة آخر لم يتسنى لحد الآن للعلم البشرى التوصل إلى معرفتها.

والآية السادسة من سورة الصافات تؤيد هذا المعنى: «إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوكَبِ»، كما ورد هذا المعنى فى الآية ١٢ من سورة فصلت «وَزَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ»، وجاء فى الآية الخامسة من سورة الملك «وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ». والطريف فى الأمر أن المرحوم العلامة المجلسى قد ذكر هذا التفسير- فى بحار الانوار- على أنه احتمال اقتدح فى ذهنه، أو استتاجه من الآيات والروايات كما يعبر عن ذلك اليوم. [١٤٢]

وهنا لابد من القول بأن الأجهزة العلمية لم تتمكن حتى اليوم من إماطة اللثام عن هذه العوالم الست، إلّا أن الدليل لم يقم على نفيها علمياً، ولعل العلم يكشف أسرار هذا الموضوع مستقبلاً، بل أفادت كشوف العلماء الفلكيين أن هناك أشباحاً ترى من بعيد تفيد وجود عوالم اخرى، على سبيل أو ردت بعض المجالات الفضائية نقلًا عن المراصد الجوية المعروفة «بالومار» قولها: لقد تمكن ناظر مرصد بالومار من كشف ملايين المجرات التى يبعد بعضها عنا ألف مليون سنة ضوئية. لكن هناك فضاء عظيم ومهيب مظلم بعد تلك المسافة البالغة ألف مليون سنة ضوئية، غير أنه يتعذر رؤيته ما فيه من أشياء. ومما لاشك فيه أن ذلك الفضاء المهيب والمظلم يضم مئات الملايين من المجرات بحيث تكفلت جاذبيتها بحفظ البسيطة التى نعيش على وجهها. وما هذه الدنيا العظيمة التى تغص بمئات آلاف الملايين من المجرات إلّا ذرة تافهة لا قيمة لها مقارنةً بدنيا أعظم وأوسع ولسنا متأكدين لحد الآن من وجود دنيا اخرى

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٩٦

عظيمة فيما وراء هذه الدنيا. [١٤٣] ونخلص ممّا سبق إلى أن العوالم التى تمّ كشفها من قبل البشرية ورغم عظمتها وما تنطوى عليه من أسرار وأعاجيب ليست إلّا جزءاً ضئيلاً من عالم ضخم عملاق، ولعل المستقبل سيكشف النقاب عن العوالم الست الاخرى.

٥- كيفية علم الإمام عليه السلام بهذه الامور

ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن عبارات الإمام عليه السلام بشأن ظهور العالم لم ترد بصيغة فرضية واحتمال أبداً، بل صورها عليه السلام وكأنه يشهد ذلك الظهور، وهذا دليل على استناد علمه إلى خزائنه علم الغيب الإلهي أو تعليمات النبي صلى الله عليه وآله- التى تستند إلى الوحي حتى تحدث ابن أبى الحديد بهذا الشأن فقال:

«إن أمير المؤمنين على عليه السلام كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين، ويعلم العلوم كلها وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام [١٤٤].»

وكيف لا يكون الإمام عليه السلام كذلك وهو القائل:

«أنا بطرق السماء أعلم منى بطرق الأرض». [١٤٥]

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٩٧

القسم الثامن: عالم الملائكة

إشارة

«ثُمَّ فَتَقَى مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَا-فَمَلَأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلَائِكَتِهِ، مِنْهُمْ سَجُودٌ لَّا- يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لَّا- يَنْتَصِبُونَ، وَصَافُونَ لَّا- يَتَزَايِلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لَّا- يَسْأَمُونَ، لَا يَعْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ، وَلَا سَهْوُ الْعُقُولِ وَلَا فِتْرَةُ الْأَبْدَانِ وَلَا غَفْلَةُ النَّسِيَانِ وَمِنْهُمْ أُمْنَاءٌ عَلَى وَحْيِهِ، وَالسَّيِّئَةُ إِلَى رُسُلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ، وَمِنْهُمْ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جَنَانِهِ، وَمِنْهُمْ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ، وَالْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ وَالْخَارِجِيَّةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، وَالْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ مُتَلَفَعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ وَأَسْتَارُ الْقُدْرَةِ، لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ وَلَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ الْمَصْنُوعِينَ وَلَا يَحْدُونَهُ بِالْأَمَاكِنِ وَلَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ».

الشرح والتفسير يواصل الإمام عليه السلام خطبته التي تطرق فيها إلى خلق السموات وكيفيه ظهور العالم، فيتحدث عن خلق الموجودات السماوية وملائكة العالم العلوي فيشير بعبارات قصيرة بليغة إلى أصناف الملائكة وصفاتهم وخصائصهم وطبيعتهم وأنشطتهم ومهامهم وعظم خلقتهم ومدى علو معرفتهم، فالواقع هو أن هذا القسم من الخطبة يختص بالتعريف بالملائكة. فاستهل كلامه

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٩٨

قائلاً:

«ثم فتق ما بين السموات العلاء» [١٤٦]

فالذي يستفاد من هذا التعبير أنه كانت هناك فواصل بين السموات وقد التحمت في البداية ثم ما لبثت أن انفصلت، وهذا بالضبط على الخلاف مما تضمنته نظرية بطليموس في أن السموات كأغشية البصل متراكمة على بعضها دون وجود أية فجوة. ثم قال الإمام عليه السلام:

«فملاهن أطواراً» [١٤٧] من ملائكته [١٤٨].

وقد ورد نظير هذه العبارة في الخطبة رقم ٩١ المعروفة بخطبة الأشباح حيث قال:

«وملا بهم فروج فجاجها وحشا بهم فتوق أجوائها»

كما ورد في موضع آخر من هذه الخطبة قوله:

«وليس في أطباق السماء موضع اهاب إلا وعليه ملك ساجد أو ساع حافد».

ثم يتطرق عليه السلام إلى أصناف، أو عبارة أدق أطوار الملائكة فيقسمهم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: أرباب العبادة، ثم يقسم هؤلاء إلى أقسام، فمنهم من هو ساجد أبداً لم يرق من سجوده ليركع «منهم سجود» [١٤٩] لا يركعون، ومنهم من هو راكع أبداً لم ينتصب قط «وركوع لَّا- ينتصبون» ومنهم الصافون في الصلاة بين يدي خالقهم لَّا- يتزايلون «وصافون [١٥٠] لَّا- يتزايلون». ذهب البعض إلى أن «صافون» هنا بمعنى الصف في العبادة، بينما ذهب البعض الآخر إلى أن معناها فتح أجنتهم في السماء بدليل الآية القرآنية القائلة: «أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ» [١٥١]. وهناك احتمال آخر أن يكون المراد بها الوقوف في صفوف منظمة والاستعداد لطاعة أوامر الله وامتنالها.

إلما أن الاحتمال الأول أكثر انسجاماً مع الجمل السابقة واللاحقة، والواقع أنهم يمارسون الحالات الثلاث لعبادتنا في القيام والركوع

والسجود. فالتعبير بصافين إما أنه إشارة للصفوف

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٩٩

المنظمة للملائكة، أو القيام المنظم لكل منها. وهذا عين ما ورد في خطبته عليه السلام في وصف المتقين لهمام

«أما الليل فصافون أقدامهم تالين لاجزاء القرآن» [١٥٢]

. وأخيراً المسبحون الذين لا يملون التسييح والتحميد له سبحانه

«ومسبحون لا يسأمون»

. فظاهر هذه الجملة يفيد أن هؤلاء طائفة اخرى غير الطوائف الثلاث القائمة والراكعة والساجدة (و ان ذهب بعض شراح نهج البلاغة

إلى أن المسبحين هم الطوائف المذكورة سابقاً، حيث يمكن الاستشهاد ببعض الروايات التي تؤيد مذهبوا إليه. فقد روى أنه سئل

النبي صلى الله عليه وآله: كيف صلاة الملائكة؟ فأطرق رسول الله صلى الله عليه وآله حتى نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال له:

«أن أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة يقولون سبحان ذى الملك والملكوت وأهل السماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة يقولون

سبحانه ذى العزة وأهل الجبروت وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة يقولون سبحان الحى الذى لا يموت» [١٥٣].

لكن هل المراد بهذا السجود والركوع والقيام ذات أعمالنا فى السجود والركوع والقيام أم إشارة إلى درجات خضوع الملائكة

وعبادتهم حسب مراتبهم ومقاماتهم، المسألة محل بحث ونقاش. فاذا اعتبرنا الملائكة أجساماً لطيفة ولهم أيدى وأرجل ووجوه

وجبهات فان المعنى الأول أنسب، وإن نفينا عنهم الأجسام، أو أقررنا بأن لهم جسم غير أنه ليس على غرار أجسامنا فان المعنى الثانى

هو الأنسب (وستحدث فى الأبحاث القادمة عن هذا الأمر).

على كل حال فإن هذه المجموعة من الملائكة منهمكة فى عبادة الله وتسيحه وتقديسه وكأن مهمتهم مقتصرة على العبادة فقط.

والواقع هو أن هذه آية بينة من آياته سبحانه وعظمته مقامه وعلو شأنه وعدم حاجته إلى عبادة العباد، وبعبارة اخرى فإن المحتمل أن

فلسفة خلقه هؤلاء الملائكة هو عدم اغترار العباد من الناس بعبادتهم وليعلموا على فرض المحال أنه لو كان بحاجة إلى العبادة فإن

هناك الملائكة المنهمكين بالعبادة فلا ينبغى أن يتصور عباد الله فى الأرض ان عبادتهم أو عدمها ليست لها أدنى تأثير على كبرياء

الله وعظمته، ولو كفروا جميعاً لما ضره ذلك ذرة «إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ» [١٥٤]. ثم أشار عليه السلام إلى صفات هؤلاء

الملائكة

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٠٠

فقال عليه السلام:

«لا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول ولا فترة الأبدان ولا غفلة النسيان»

. على العكس من الناس الذين يشعرون تدريجياً بالفتور من جراء تكرار العبادة فيخالطهم النعاس فيصاب الجسم بالوهن والضعف

ويعرض لهم السهو والنسيان.

إلا أن الملائكة بعيدون كل البعد عن هذه الحالات والحوارض. فهم على درجة من العشق للعبادة والاستغراق فى المناجاة والتسييح

بحيث لا يعرض عليهم النوم والغفلة والفتور قط.

وبعبارة اخرى فان الفتور فى إداء الوظائف إنما يستند إلى امور ليست لها من سبيل إلى الملائكة أبداً. فأحياناً تمثل تلك الامور

بالتعب وغفو العين وسهو العقول وضعف البدن وأحياناً اخرى بالغفلة والنسيان ولما كانت أى من هذه الامور ليست لها من سبيل إلى

الملائكة، فإنهم لا يفترؤ فى عبادتهم قط.

ثم يعرض عليه السلام إلى القسم الثانى من الملائكة وهم السفراء بينه تعالى وبين المكلفين من البشر بتحمل الوحي الإلهي إلى الرسل

«ومنهم امناء على وحيه والسنة إلى رسله ومختلفون بقضائه وأمره»

فهم في الواقع الوساطة بين الله والأنبياء. ونفهم من هذه العبارة أن السفارة الإلهي لا تقتصر على جبرئيل عليه السلام، بل هو في الحقيقة زعيم سفراء الله، القرآن بدوره أشار إلى هذا الصنف من الملائكة: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ» [١٥٥]، وقال في آية أخرى: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ» [١٥٦]، كما أشار أحياناً إلى الملائكة من حملة الوحي فقال: «يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» [١٥٧].

كما أشارت بعض الروايات الإسلامية وسائر خطب نهج البلاغة إلى هذا المعنى أيضاً.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن المراد بالقضاء والأمر الإلهي الوارد في العبارة التي نخوض فيها هو الأحكام والأوامر الدينية الشرعية، لا القضاء والأوامر التكوينية التي احتملها البعض

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٠١

من شارحي نهج البلاغة؛ وذلك لعدم انسجام هذا الاحتمال والعبارات السابقة- التي طرحت مسألة امناء الوحي-، أما مختلفون هنا فقد جاءت من مادة الاختلاف بمعنى الذهاب والاياب والتردد على الأماكن.

ثم أشار عليه السلام إلى القسم الثالث من الملائكة

«ومنهم الحفظة لعباده والسدنة» [١٥٨] لأبواب جنانه»

. «حفظة» جمع حافظ بمعنى الحارس، ويمكن أن يكون لها هنا معنيان: أحدهما حفظهما للعباد بمراقبة أعمالهم واحصائها وتسجيلها، كما أشارت إلى ذلك الآية الرابعة من سورة الطارق القائلة «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ» وضرب آخر من هؤلاء الملائكة الذين يحفظون البشر من المهالك والورطات والبلاء، ولولا ذلك لكان الإنسان مسرّحاً للفناء والزوال والاعطاب، وهذا ما صرّحت به الآية الحادية عشرة من سورة الرعد: «لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ يَتِينَ يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ».

ولكن يبدو أن المعنى الأول أنسب بالالتفات إلى العبارات السابقة التي تحدثت عن الوحي والتكاليف الشرعية، والعبارة اللاحقة التي أشارت إلى الجنة وجزاء الأعمال، وإن لم يستبعد الجمع بين المعنيين عن مفهوم العبارة.

أما مفردة سدنة فهي جمع سادن بمعنى البواب، وحنان على وزن كتاب واحداها جنه، والذي يستفاد من هذه العبارة إن لله عدّه حنان، ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنها ثمانية كما وصفها القرآن وهي «جنة النعيم، جنة الفردوس، جنة الخلد، جنة المأوى جنة عدن، دار السلام، دار القرار وجنة عرضها السموات والأرض» [١٥٩].

أمّا فائدة وجود الملائكة الذين يحفظون أعمال العباد، فقد قيل بأن الإنسان يشعر بالمسؤولية أكثر لوجودهم ويكون أعظم مراقبة لنفسه وأحرص في سلوكه وتعامله، وذلك لأنّ الهدف الأسمى هو تربية الإنسان وتهذيبه وإبعاده عن الرذيلة والانحراف.

وأما القسم الرابع من الملائكة فهم حملة العرش، الذين وصفهم عليه السلام بقوله «ومنهم الثابتة

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٠٢

في الأرضين السفلى أقدامهم والمارقة من السماء العيا أعناقهم والخارجة من الأقطار أركانهم والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم ناكسة» [١٦٠] دونه أبصارهم متلفعون [١٦١] تحته بأجنحتهم مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزة وأستار القدرة» ثم يستغرق عليه السلام أكثر في التعرض لصفاتهم فيقول: «لا يتوهمون ربهم بالتصوير ولا يجرون عليه صفات المصنوعين ولا يحدونه بالأماكن ولا يشيرون إليه بالنظر» [١٦٢]. أجل فقدرتهم ليست قدرة جسمانية، بل يتمتعون بقدرة روحانية خارقة متعذرة على الإنسان، ومن هنا أوكلت لهم مهية حمل العرش. والواقع أنهم بلغوا أعظم مقامات التوحيد بحيث أصبحوا قدوة في التوحيد لكافة عباد الله ولا سيما أولياء الله البارزين من الناس. فهم لا يرون من مثل وشبيه ونظير لله قط، كما لا يرون من حدود لذاته وصفاته سبحانه، حتى أنهم يرونه أعظم من الخيال والقياس والظن والوهم؛ وذلك لأنّ كل ما يتصوره الإنسان أو الملك إنّما هو مخلوق لله والله أعظم من أن يكون مخلوقاً. أما المراد بالعرش وحملة العرش وماهية وظائفهم والمفاهيم التي وردت في هذه العبارات، فهذا ما سنتناوله في هذه

الأبحاث.

تأملات

١- ماهية الملائكة!

هنالك عدّة أبحاث تضمنتها الآيات القرآنية بشأن الملائكة وصفاتهم وخصائصهم وأفعالهم والمهام المختلفة الموكلة إليهم. كما شحنت الروايات الإسلامية بالأخبار التي تتحدث عن الملائكة ومقاماتهم وصفاتهم وأعمالهم، غير أنه لم يرد البحث في التحدث عن ماهيتهم، ومن هنا كثر الكلام بين العلماء والمتكلمين بهذا الشأن. فيرى علماء الكلام، بل أغلب علماء الإسلام أنّ الملائكة موجودات ذات أجسام لطيفة.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٠٣

كما وردت بعض العبارات التي أشارت إلى النور على أنّه المادة الأصلية لخلق الملائكة، فقد وردت العبارة المعروفة بشأنهم في أغلب المصادر الإسلامية التي وصفتهم قائلة:

«الملك جسم نوري...»

. أمّا المرحوم العلامة المجلسي فقد قال:

«تري الإمامية بل جميع المسلمين سوى طائفة قليلة من الفلاسفة أنّ الملائكة هم أجسام لطيفة نورانية ولها أن تأتي بأشكال مختلفة...»

وانّ الأنبياء والأوصياء العصومين كانوا يرونهم» [١٦٣]

. وبعبارة أخرى فإنّ الملائكة أجسام نورية والجن أجسام نارية والانس أجسام كثيفة. أمّا ما عليه جمع من الفلاسفة فهو أنّ الملائكة مجردون من الجسم والجسمانيات وأنّ لهم أوصاف لا يستوعبها الجسم. وقد نقل المرحوم «الشارح الخوئي» في «منهاج البراعة» عدّة أقوال بهذا الخصوص بلغت ستة أقوال، إلّا أنّ أصحاب هذه الأقوال هم قلة قليلة جداً.

لاشك أنّ وجود الملائكة - ولا سيما بالالتفات إلى تلك الصفات والمقامات والأعمال التي ذكرها القرآن - لمن الأمور الغيبية التي لا يمكن إثباتها وبتلك الخصائص والصفات إلّا من خلال الأدلة النقلية.

فالقراّن يصف خصائصهم على أنّهم:

١- موجودات عاقلة ذات شعور.

٢- لا يعصون الله وهم بأمره يعملون.

٣- إنّ الله قد أوكل لهم عدّة وظائف ومهام. فمنهم حملة العرش، ومدبرات الأمر، والمأمورة بقبض الأرواح، حفظة أعمال البشر، حفظة الإنسان من المهالك والأخطار، المدد الإلهي لنصرة المؤمنين في المعارك، عذاب الأتوام الظالمة والطاغية ومبلغى الوحي إلى الأنبياء.

٤- اختلاف مقامات الملائكة وتفاوتهم في الدرجات.

٥- المداومة على تسبيح الله وتقديسه وتمجيده.

٦- تمثلهم أحياناً بهيئة البشر وما شاكل ذلك للأنبياء وبعض العباد الصالحين كمریم عليها السلام.

وما إلى ذلك من أوصاف يتعذر إحصائها في هذا البحث. وبحث ماهية الملائكة في أنّها

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٠٤

مجردة عن الجسم أو غير مجردة ليس من ورائه طائل، إلماً أنّ ظاهر الآيات والروايات - إذا لم نطرح لها توجيهاً وتفسيراً خاصاً - هو أنّ الملائكة ليس من قبيل المواد الكثيفة والعناصر الخشنة، مع ذلك فهم ليسوا مجردات مطلقاً، لتضافر الروايات والآيات التي صرّحت بعروض الزمان والمكان والأوصاف الأخرى الملازمة للأجسام عليهم. وهذا ما تؤكد عبارات الإمام عليه السلام في هذا القسم من خطبته وكذلك ما ورد في خطبته المعروفة بالأشباح. ولكن على كل حال فإنّ الإيمان بالملائكة على نحو الإجمال لمن الأمور التي أكد عليها القرآن الكريم، فقد ورد في الآية ٢٨٥ من سورة البقرة قوله تعالى:

«أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ». [١٦٤]

الجدير بالذكر هنا هو أنّ بعض المغفلين وارضاء لأولئك الذين ينكرون عوالم الغيب فقد عمدوا إلى تفسير الملائكة بالقوى والطاقات التي تختزنها الطبيعة الإنسانية وسائر الموجودات والكائنات، والحال أنّ أدنى تأمل ونظرة إجمالية للآيات القرآنية تفيد رفض هذه الفكرة تماماً؛ كيف لا وقد ثبتت بعض الصفات للملائكة من قبيل العقل والشعور والإيمان والاخلاص والعصمة.

٢- أصناف الملائكة

الملائكة على أصناف وأقسام عديدة على ضوء ما أشارت الآيات والروايات، وقد وردت في هذه الخطبة الأصناف الأربعة الرئيسية منهم «أرباب العباد والسفراء وحفظة العباد كالكرام الكاتبين ومنهم سدنة الجنان وحملة العرش». ولكن وكما ذكرنا سابقاً فإنّ الآيات القرآنية قد أشارت إلى الأصناف الأخرى من الملائكة، ومنهم الموكلون بعذاب الامم الطاغية الظالمة، والموكلون بالامدادات الغيبية ونصرة المؤمنين ومدبرات الأمر وقبضة الأرواح، غير أنّه يمكن اختصار جميع هذه الطوائف في مدبرات الأمر التي تتولى إدارة شؤون نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٠٥

العالم. فقد اقتضت السنة الإلهية وجرت بغيه اظهار قدرته وعظمته وتحقيق أهدافه وأغراضه أن تسند إدارة شؤون العالم إلى الملائكة المأتمرين بأوامر الله والبعيدين كل البعد عن الوهن والضعف والفتور والسهو والنسيان والتباطؤ في الطاعة ولكل صنف من أصناف الملائكة وظيفته المختصة به.

والحق أنّ الإنسان إذا تأمل أقسام وأصناف الملائكة وسعة وعظمة الوظائف الموكلة إليها يشعر بالتصاغر والحقارة ويتساءل من أكون في خضم هذا العالم الواسع المليء بعمال الله وجنوده الذين لا يفترون عن عبادته وطاعته وامثال أوامره؟ واين تكون عبادتي وطاعتي من هذه العباد والطاعة التي تؤديها الملائكة؟ وما قيمة قوتي وقدرتي مقارنة بقوة الملائكة وقدرتها؟ والخلاصة فانه يقف على عظمة هذا العالم والأعظم منه خالقه من جانب وحقارته ودنو موضعه من جانب آخر، وهذه إحدى حكم وفلسفه وجود الملائكة.

٣- العرش وحملته

لقد أشارت الآيات القرآنية عشرين مرة إلى العرش الإلهي، كما كثرت الأبحاث التي تضمنتها الروايات الإسلامية الواردة بهذا الشأن، وعلى ضوء بعض هذه الروايات فإنّ عظمة العرش متعذرة على التصور البشري، حتى قيل بهذا الخصوص: ما السموات والأرضين وما فيها مقابل العرش إلّاحلقة في صحراء عظيمة.

كما صرّحت بعض الروايات بأنّ أعظم ملائكة الله يعجزون عن بلوغ ساق العرش وإنّ أسرعهم في تحليقهم إلى يوم القيامة. كما جاء في الخبر أنّ الله خلق للعرش ألف لسان وضمنه صورة جميع مخلوقاته في الصحارى والبحار.

كما روى أنّ الله حين خلق العرش، أمر الملائكة بحمله، فما استطاعوا أن يحملوه، فخلق ملائكة، فعجزوا عن حمله، فحمله الله

بقدرته، ثم أمر سبحانه ثمان من الملائكة المأمورين بحمل العرش أن احملوه.
فقالوا: وهل يسعنا حمله وقد عجزت الملائكة. فأمروا بذكر الله والقول
«لا حول ولا قوة»

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٠٦

إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»

والصلوات على محمد وآله، فلما فعلوا سهل عليهم حمله. [١٦٥]

وتشير كل هذه الكنايات إلى عظمة عرشه سبحانه، أمّا ماهية العرش، فهي من الامور التي كثر البحث فيها بين العلماء، ونرى ان الاستغراق في شرح هذا الأمر إنّما يبعدنا عن الهدف الأصلي، ولذلك نكتفي بإشارة مختصرة إلى هذا الموضوع:
فقد كان للملوك والسلاطين عرشان، أحدهما منخفض يعتلونه في الأيام الاعتيادية ويسيرون شؤون الحكم ودفء امور البلاد، وآخر مرتفع يرتقونه في الأيام الخاصة والمرام المهمة والكبيرة. وقد اصطلحت الآداب العربية على الأول بالكرسى والثاني بالعرش، وقد درجت هذه الآداب على التعبير بالعرش كناية عن القدرة والسلطة وإن افتقر العرش للدعامات المرتفعة، كما هناك المعنى الكنائى الآخر الذى يشير إلى فقدان السلطة والذى جسده العبارة المشهورة «ثل عرشه». ولله هذان العرشان فى الامرة والحكومة كونه سلطان عالم الوجود (وبالطبع لما كان الله ليس بجسم ولا فى زمرة الجسمانيات فالمفهوم الكنائى هو المراد هنا من العرش والكرسى).
على كل حال يبرز هذا السؤال: ما كنه هذا العرش الإلهى؟ ومن التفاسير التى يمكن ايرادها بهذا الشأن هو أنّ عالم المادة والسموات والأرضين والمنظومات والمجرات كلها بمثابة الكرسى وعرشه المنخفض كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله:
«وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ»

، والمراد بالعرش هو العالم الكامن وراء عالم المادة (المادة الكثيفة والغليظة)، التى لا تحيط بعالم المادة فحسب، بل ليس عالم المادة أمامه سوى مقدار تافه لا- أهميه له. أمّا حمله العرش فمما لا شك فيه أنهم ليسوا ملائكة غلاظ الهيكل وأقوياء الجسم والبنية بحيث يحملون على أكتافهم دعائم العرش الذى استوى عليه الرحمن؛ لأنّ للعرش- كما أشرنا سابقاً- معنى كنائى والقرائن العقلية التى تفيد تنزه الله عن الجسم والجسمانية إنّما تؤيد صحة هذا المعنى، وعليه فحمله العرش ملائكة عظام ذوى مقامات رفيعة وليس لهم من شبيه أو نظير ولهم تدبير عالم ما وراء الطبيعة وتنفيذ أوامره سبحانه فى كل مكان، أمّا التعبيرات

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٠٧

التي ساقها الإمام فى أوصافهم بقوله

«الثابتة فى الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم»

فكل هذه تفيد مدى قدرتهم فى تدبير شؤون العالم. طبعاً يجب علينا أن نحمل الألفاظ أينما وردت على معانيها الحقيقية، إلّا أنه يتعذر علينا ذلك الحمل ولا يبقى أمامنا سوى المعنى الكنائى كالذى أوردناه بشأن الآية القرآنية المباركة
«يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»

إذا كانت هناك القرائن العقلية المسلمة. نعم لقد نهض هؤلاء الملائكة بالقيام بهذه الامور بالاستناد إلى قوتهم وقدرتهم، بل بحول الله وقوته، كما ينهكون بالتسييح والتقديس وعدم الفتور عن ذكر الله، وهذا ما صورته الآية السابعة من سورة المؤمن التى أكدت إلى جانب ذلك على دعائهم واستغفارهم للمؤمنين

«الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا».

٤ - عصمة الملائكة

يتمتع الملائكة بصفات جيّة وقد تكفلت عباراته المذكورة (الواردة بشأن الطائفة من الملائكة المشغولة بالعبادة) ببيان بعض هذه الصفات:

«لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان»

. كما أشار القرآن إلى تنزههم عن الذنوب والمعاصي

«بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ* لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» [١٦٦]

، ووصف الموكلين بالعذاب منهم

«لا

يَعُصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ» [١٦٧].

طبعاً يتصور البعض أنه ليس هنالك من مفهوم لعصمة الملائكة من عدمها، إلّا أنّ هذا التصور لا يبدو صحيحاً؛ صحيح أنّ الملائكة لا تنطوي على دوافع الذنب والمعصية من قبيل الشهوة والغضب (أو أنها ضعيفة جداً فيهم)، ولكن لا- ينبغي الغفلة عن أنّهم فاعلون ومختارون ولهم القدرة على ارتكاب المخالفة، بل إنّ الآيات القرآنية تصرح بمدى خشيتهم من

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٠٨

العقاب الإلهي

«وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ» [١٦٨]

، فالآية الشريفة تكشف عن عصمتهم وطهارتهم من المعاصي في ذات الوقت الذي يسعهم ارتكابها. ومن هنا تتضح مغازي بعض الروايات التي صرّحت بتباطؤ بعض الملائكة في امتثال أوامر الحق وعقابهم على هذا التباطؤ بصفته يمثل ترك الأولى الذي يصدق على الأنبياء، ونعلم جميعاً بأنّ ترك الأولى لا يعدّ ذنباً قط، بل قد يكون عملاً مستحباً، إلّا أنّه يعتبر ترك الأولى مقارنةً بعمل يفوقه، ونوكل الخوض في تفاصيل هذا الموضوع إلى أبحاثه المختصة به.

٥ - مقام معرفة حملة العرش

يفهم من العبارات الواردة بهذا الشأن أنّ العامل الذي جعل حملة العرش مؤهلين للقيام بهذه المسؤولية الخطيرة لا يقتصر على قوتهم وقدرتهم، بل يمتد ذلك إلى سعة وسمو مستوى معرفتهم بالله تبارك وتعالى. فقد بلغوا أعظم مقامات التوحيد ونفى كافة أشكال الشرك والشبيه والمثيل للحق تعالى، ومن هنا استحقوا أهلية تحمل تلك المهمة العظيمة؛ الأمر الذي يعتبر درساً لا بدّ أن يتعلمه العباد وذوى المعرفة بالله.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٠٩

القسم التاسع: خلق آدم عليه السلام

إشارة

«ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزَنِ الْأَرْضِ وَسَيْهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا، تَرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلَاطَهَا بِالْبَلْبَةِ حَتَّى لَزِبَتْ فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ وَوُضُوءٍ، وَأَعْضَاءٍ وَفُضُولٍ، أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلَّصَتْ لَوْقَتٍ مَعْدُودٍ، وَأَمَدٍ مَعْلُومٍ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ، فَمَثَلَتْ إِنْسَانًا ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَفِكْرٍ يَتَصَيَّرُ بِهَا، وَخِوَارِحٍ يَخْتَدِمُهَا وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْأَذْوَاقِ وَالْمَشَامِ وَالْأَلْوَانِ وَالْأَجْنَاسِ، مَعْجُونًا بِطَبِئَةِ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلَفَةِ، وَالْأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ وَالْأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَالْأَخْلَاطِ الْمُتَبَايِنَةِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبُرْدِ وَالْبَلْبَةِ وَالْجُمُودِ».

الشرح والتفسير بعد الإشارات البليغة التي وردت في الأقسام السابقة من هذه الخطبة العميقة المضامين بشأن خلق العالم والسموات والأرض تناولت خطبة الإمام عليه السلام هنا خلق العالم والسموات ثم عرجت هنا إلى سائر مخلوقات هذا العالم ومن بينها خلق الإنسان ومراحله المختلفة والتي قسمها عليه السلام إلى خمس مراحل تكتنف تمام مسيرة حياته وهي:

- ١- خلقه آدم من ناحية الجسم والروح (يعنى فى مرحلتين).
- ٢- سجود الملائكة لآدم وتمرد ابليس.
- ٣- إسكان آدم الجنة ثم بيان ترك الاولى الذى صدر من آدم عليه السلام وندمه وتوبته وأخيراً قبول توبته واخراجه من الجنة والهبوط إلى الأرض.
- نقحات الولاية، ج ١، ص: ١١٠
- ٤- لقد أصبح لآدم ذرية ثم تكاثرت هذه الذرية فكونت المجتمعات البشرية ثم بعث الله أنبيائه عليهم السلام بكتبه السماوية المقدسة من أجل هداية الناس وتنظيم شؤون المجتمعات البشرية والأخذ بأيديها إلى حيث السمو الروحي والرفعة والكمال.
- ٥- المجتمعات البشرية من جانبها خبط خطوات عريضة نحو التكامل حتى تأهلت لتقبل الدين الخاتم حيث اصطفى الله رسوله محمد صلى الله عليه و آله فبعثه بالقرآن الكريم لهداية الإنسانية وانقاذها من خلال اطروحاته التى تتضمن السعادة والفلاح، ثم تحدث الإمام عليه السلام عن القرآن.

مراحل خلقه آدم عليه السلام من الناحية الجسمية والروحية

قال الإمام عليه السلام بشأن خلق جسم آدم عليه السلام:

«ثم جمع سبحانه من حزن [١٦٩] الأرض وسهلها وعذبها [١٧٠] وسبخها [١٧١] تربة».

فالعبارة تشير إلى خلق الإنسان من التراب من جهة، كما تشير من جهة أخرى أن ذلك التراب مركب من جميع المواد المختلفة على وجه الأرض لتتنوع على مختلف الاستعدادات وتشمل التنوعات والتقلبات التى تحتاجها المجتمعات البشرية فى مختلف مجالات حياتها، ثم أشارت إلى مادة أخرى هى الماء التى اختلطت بالتراب فقال عليه السلام بهذا الشأن «سناها [١٧٢] بالماء حتى خلصت ولاطها [١٧٣] بالبلبة حتى لزبت [١٧٤]».

فالواقع أن دور الماء هو خلط تلك الأجزاء المختلفة مع بعضها وتخليصها من شوائبها وارساء الوشيجة والرابطة بين هذه الأجزاء. ثم أشار عليه السلام إلى مسألة تبلور خلقه الإنسان من ذلك التراب والطين فقال عليه السلام:

«فجبل منها صورة ذات أحناء [١٧٥] ووصول وأعضاء وفصول»

. فى الواقع «أحناء» جمع «حنو» إشارة إلى انحناءات البدن من قبيل انحناء الأضلاع

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١١١

والفك العلوى والسفلى وراحة القدم بحيث يتكيف البدن للقيام بمختلف الأعمال والفعاليات، وذلك لتعذر قيامه بهذه الأفعال التى يمارسها اليوم لو كان البدن على هيئة جسم هندسى مكعب أو ما شابه ذلك. أمّا العبارة «وأعضاء وفصول»

فهى تشير إلى الأعضاء المختلفة التى ترتبط مع بعضها من خلال المفاصل؛ الأمر الذى أكسب البدن القدرة العملية على ممارسة مختلف الأنشطة فلو كانت يد الإنسان على سبيل المثال مستوية ذات عضو واحد وعظم واحد لا تقوى على أداء الفعاليات التى تؤديها الآن، بينما نعلم أنّ الباري سبحانه جعلها عدّة عظام وغضاريف وعدّة أعضاء متصلة مع بعضها البعض الآخر؛ الأمر الذى جعل كل اصبع بل كل سلامية من أصابعه واطرافه ليد تتمتع بعملية خاصة وهذه بدورها تعدّ آية من آيات حكمته وعظمته سبحانه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مرحلة لاحقة فقال:

«اجمدها حتى استمسكت واصلدها [١٧٦] حتى صلصلت [١٧٧]»

وبذلك فقد أعد الإنسان إعداداً تاماً من الناحة البدنية بحيث يسير إلى الغاية المعينة المرسومة له «لوقت معدود وأجل معلوم [١٧٨]»

. فقد روى فى بعض الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام أن هذه الحالة دامت أربعين سنة، فكان جسد آدم ملقى فى موضع والملائكة تمر به وتقول لأى أمر خلقت؟ [١٧٩]

ولعل هذه المدّة الزمانية - كما صرح بذلك بعض المحققين - كانت اختباراً للملائكة أو إرشاداً وتعليماً للناس بالتأنى فى الامور وعدم الاستعجال فيها. وهنا جاءت المرحلة الثانية؛ مرحلة نفخ الروح فى الجسد ليتحول إلى هذه الطبيعة الإنسانية التى زود فيها الإنسان بقوى العقل والإدراك التى تسوقه لممارسة الأعمال:

«ثم نفخ فيها من روحه فمثلت [١٨٠] إنساناً ذا

أذهان يجيلها» [١٨١]

. العبارة

«ذا أذهان يجيلها»

إشارة إلى مختلف القوى العقلية والذهنية التى

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١١٢

زود بها الإنسان ويوظف كلها منها فى مجال من مجالات حياته بحيث يلائم بينها جميعاً فى مسيرته نحو الهدف المنشود (والقوى المذكورة عبارة عن قوة الإدراك وقوة الحفظ وقوة الخيال و...). وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ الذهن فى الأصل يعنى القوة، ثم استعمل بمعنى العقل والفهم والدراية وسائر القوى العقلانية، فالعبارة تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام قد عنى مختلف هذه القوى معتبراً كل واحدة منها نعمة وعناية من العناية الإلهية ثم قال عليه السلام:

«وفكر يتصرف بها»

. قد يتصور أحياناً أنّ هذا التعبير من قبيل العطف التفسيري والتعبير الآخر لمفهوم العبارة السابقة، غير أنّ الظاهر هو أنّ كل عبارة من العبارتين تشير إلى حقيقة:

فالعبرة

«ذا أذهان يجيلها»

إشارة إلى مراحل المعرفة والتصور والتصديق وفهم وإدراك الحقائق، وأمّا العبارة

«وفكر يتصرف بها»

فهى إشارة إلى الأفكار التى تخضع لمرحلة التطبيق ويتصرف الإنسان بواسطتها فى مختلف الأشياء (لابد من الالتفات هنا إلى أن الفكر فى الأصل يعنى الحركة الفكرية وتوظيف الذهن). على كل حال فقد جاءت مفردة «فكر» بصيغة الجمع (كالأذهان بصيغة الجمع) لتفديدان القوى العقلية والأفكار الإنسانية كثيرة للغاية ومتنوعة، وهذه نقطة مهمة أكدها كبار الفلاسفة والمفكرين وعلماء النفس، وإليها تعزى الفوارق فى الاستعدادات الفكرية لأفراد البشرية. فربما كان هناك الأفراد الأقوى فى قسم منها وأضعف فى القسم الآخر بينما هنالك العكس، فالمسألة تنطوى على أسرار ورموز عجيبة للغاية، وكلما غاص الإنسان فى كنهها تعرف أكثر على عظمة الحق خالق هذه القوى الذهنية والفكرية. ثم يتطرق عليه السلام بعد ذلك إلى شيئين يسهمان فى إيصال الإنسان إلى هدفه المطلوب وهما الجوارح والأدوات التى زوده بها الله سبحانه لتسه له تحقيق ما يصبو إليه

«وجوارح يستخدمها» [١٨٢] وأدوات

يقلبها»

. فالواقع هو أنه يجتاز أربع مراحل لبلوغ الهدف: تمثلت المرحلة الأولى بالمعرفة والإدراك والتصور والتصديق ومرحلة الفكر ومن ثم ائتمار الأعضاء والجوارح، وأخيراً الاستعانة بالأدوات المختلفة التى خلقها الله فى هذا العالم حين لا تجدى الأعضاء والجوارح بمفردها نفعاً، كما أن كل مرحلة من هذه المراحل الأربع متنوعة تتفرع منها عدّة فروع. ولما

نفعات الولاية، ج ١، ص: ١١٣

كان بلوغ الأهداف المرسومة يتطلب تشخيصاً وتمييزاً للحق من الباطل والصواب من عدمه وكافة المحسوسات المختلفة، فإنه يتحدث عن إحدى قوى النفس المهمة التى تعتبر فى الواقع المرحلة الخامسة، ألا وهى قوة التمييز ولا يراد بها سوى المعرفة «ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل»

. كما يتمكن بواسطة هذه القوة من تمييز المحسوسات من قبيل الأطعمة والأذواق و ...

«والأذواق والمشام والألوان والأجناس» [١٨٣]

. والواقع ان قدرة التمييز والتشخيص والمعرفة لمن أهم قوى الإنسان العقلية التى تشمل الامور المعنوية كالحق والباطل كما تشمل الامور المادية المحسوسة كالألوان والمشام والأذواق. فهل قوة التمييز هذه هى قوة مستقلة، أم داخله فى مفهوم الذهن والفكر فى العبارة السابقة؟ يبدو من كلامه عليه السلام أنها قوة مستقلة، جدير بالذكر أن الحديث تطرق لأربعة أصناف من الامور المادية والمحسوسة وهى: الأذواق، المشام، الألوان والأجناس التى تشير هنا إلى مختلف أنواع الموجودات [١٨٤]. من قبيل مختلف أنواع النباتات، الطيور والحيوانات وما إلى ذلك، أما عدم الإشارة إلى المسموعات (الأصوات) والملموسات فلأن بيان الأقسام الثلاث كان على نحو المثال، فذهن كل مستمع سينتقل إلى بقية ذلك من خلال الأقسام الثلاث المذكورة. ثم ينتقل الإمام على عليه السلام ليشير إلى أهم خصائص الإنسان التى تشكل المصدر الرئيسى لأغلب ظواهر حياته فيقول:

«معجوناً» [١٨٥] بطينه الألوان المختلفة»

. ولعل هذه العبارة إشارة إلى اختلاف ألوان الناس وأعراقهم المتفاوتة، أو اختلاف لون أجزاء البدن حيث إن بعضها تام البياض (كبياض العين والعظام) والآخر تام السواد (كالشعر) وسائر الألوان التى يكسبه خلطها جمالاً خاصاً، كما يمكن أن يكون المراد بها معنى أوسع بحيث يشمل سائر الاستعدادات والغرائز المختلفة. ثم أضاف الإمام عليه السلام قائلاً:

«والأشياء المؤتلفة»

من قبيل الأوردة والشرابين والأعصاب

نفعات الولاية، ج ١، ص: ١١٤

والعظام التى تشبه إلى حد بعيد بعضها البعض الآخر، وفى نفس الوقت تقوم بعدة وظائف ومهام. وأخيراً قال عليه السلام:

«والاضداد المتعادية والأخلاق المتباينة من الحر والبرد والبله والجمود» [١٨٦]

. والعبارة إشارة إلى الطبائع الرباعية المعروفة في الطب التقليدي، والأطباء المعاصرون وأن تنكروا لهذه الطبائع لفظاً، غير أنهم اوردوها بتعابير اخرى من قبيل الاستعاضة عن الحرارة والبرودة بارتفاع ضغط الدم وانخفاضه، كما يصطلحون بزيادة ماء الجسم وقتله بدلاً من البله والجمود.

على كل حال فان عبارات الإمام عليه السلام آنفة الذكر إنما تشير إلى قضية مهمّة في أنّ الله سبحانه قد خلق جسم الإنسان (بل جسمه وروحه) مركباً من مواد مختلفة وكيفيات متنوعة واستعدادات وغرائز متباينة، وأنّ هذه الفوارق والتباينات شكلت أساس التفاوت في أساليب التفكير لدى أفراد الجنس البشري؛ الأمر الذي أدى في خاتمة المطاف إلى تلبية مختلف حاجات الجماعات البشرية واشغال المناصب الاجتماعية على ضوء تلك الاستعدادات بحيث تنتظم الامور ويوضع كل شيء في موضعه فيتسق النظام العام، ولا يسع المقام الخوض أكثر في تفاصيل هذا الموضوع.

تأملات

١- خلق آدم عليه السلام

نفهم من العبارات التي تضمنتها خطبة الإمام عليه السلام أنّ خلق آدم عليه السلام قد تمّ بصورة مستقلة متكاملة على هذه الصورة التي نحن عليها اليوم دون أن يطوى مراحل النشوء والارتقاء من الكائنات الحية المتسافلة؛ الأمر الذي أكدّه القرآن كراراً على لسان آياته الشريفة. طبعاً كلنا نعلم بأنّ «القرآن الكريم» وكذلك «نهج البلاغة» ليسا من قبيل كتب العلوم الطبيعية، بل هما كتابان تكفلا بهداية الإنسان وتهذيبه بالدرجة الأساس إلى جانب الإشارة حسب المقام وما

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١١٥

يتناسب وأبحاثه العقائدية والتربوية إلى بعض مسائل العلوم الطبيعية. أما النظرية السائدة اليوم في الأوساط العلمية بشأن خلق الإنسان فهي نظرية «تكامّل الأنواع». ويرى أنصار هذه النظرية أنّ كافة أنواع الكائنات الحية لم تكن سابقاً كما هي عليه اليوم، بل كانت موجودات بسيطة أحادية الخلية ثم تكاملت بعد أن سبحت في مياه المحيطات وغاصت في أعماق البحار لتتكامل تدريجياً فتغيرت من نوع إلى آخر من خلال تغييرها لأشكالها فانقلت من البحار إلى الصحارى. والإنسان هو أحد هذه الكائنات الذي قطع مسيرته التكاملية بعد أن اجتاز تلك المرحلة التي كان فيها قرداً بشكل إنسان، وعليه فقد انحدر الإنسان من تلك الكائنات المتسافلة. وبالطبع فان أنصار هذه الفرضية قد انقسموا إلى عدّة طوائف، فمنها اتباع «لامارك» و «داروين» و «الداروينية الحديثة» وطائفة «موتاسيون» (نظرية الطفرة) وما إلى ذلك من الطوائف التي تقدم كل منها أدلتها على صحة نظريتها بهذا الشأن.

ويقف مقابل هؤلاء، أتباع ثبوت الأنواع حيث يقولون بأنّ أنواع الكائنات الحية قد ظهر كل منها بصورة منفصلة منذ البداية بهذه الهيئة الحاضرة، كما أقاموا أدلتهم وبراهينهم التي تعرض بالنقد للأدلة التي اعتمدها نظرية التطور والتكامل، ولا يسعنا الخوض في تفاصيل هذه النظرية. ونكتفي هنا بالإشارة بصورة مقتضبة للمواضيع التالية:

١- يستفاد من القرآن الكريم وكذلك خطب نهج البلاغة مسألة ثبوت الأنواع على الأقل بالنسبة للإنسان، بينما لم ترد مثل هذه التصريحات بشأن سائر أنواع الكائنات- رغم أنّ بعض أنصار فرضية التطور والتكامل التي تشمل الإنسان بشكل عام يصرون على توجيه الآيات القرآنية وعبارات خطب نهج البلاغة بحيث تنسجم ونظرية النشوء والارتقاء، حتى ذهبوا إلى أنّ هذه الآيات والخطب أدلة على مزاعمهم. إلّا أنّ المتتبع المحايد يدعّن بأنّ هذه المزاعم تنطوي على تكلفات وحرص لا يمكن قبولها إلّا من خلاله.

٢- إن قضية التكامل والارتقاء أو ثبوت الأنواع ليست من قبيل القضايا التي يمكن إثباتها من خلال التجربة والأدلة الحسية والعقلية، وذلك لأن جذورها قد امتدت لملايين السنين السابقة، وعليه فإن كل ما يورده أنصارها أو مخالفوها إنما هي فرضيات وأدلتها ليست سوى

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١١٦

أدلة ظنية، وبناءً على ماتقوم فانه يتعذر القول بنفي آيات خلقه الإنسان وعبارات نهج البلاغة وفقاً لأقوال هؤلاء. وبعبارة أخرى: ان العلوم تجد سبيلها وتعتمد معاييرها في مثل هذه الفرضيات دون أن تقدح في التعاليم الدينية، ومن هنا كانت الفرضيات العلمية تشهد التغيير والتحول على الدوام، فلعل الغد يفرز قرائن جديدة بحيث تحظى فرضية ثبوت الأنواع بأنصار أكثر.

على سبيل المثال فقد طالعنا الصحافة في هذه الأواخر بخبر يفيد العثور على جماجم بشرية تعود لما قبل مليوني سنة وهي لا تفرق كثيراً مع الإنسان المعاصر؛ الأمر الذي زرع مرتكزات فرضية التكامل، وذلك لأن أصحاب هذه الفرضية يزعمون أن الإنسان الذي كان يعيش قبل مئات الآلاف من السنين لم يكن بهذه الصورة التي عليها الإنسان اليوم أبداً.

فالنتيجة التي يمكن أن نخلص إليها مما سبق أن هذه الفرضيات ليس لها من صمود واستقرار وغالباً ما تتزلزل أسسها ودعائمها بفعل الاكتشافات والاختراعات الحديثة، ولكن حيث ليس من سبيل سوى هذا في العلوم الطبيعية بصفته دعامة يعتمد عليها حتى تأتي فرضية أخرى فطردها سابقها وتقتحم الميدان. والخلاصة فإن التعامل مع الفرضيات يختلف عنه تماماً مع المسائل العلمية القطعية؛ فالمسائل العلمية القطعية من قبيل تركيب الماء من ذرتين أو كسجين وذرة هيدروجين هي من أمور الحس والتجربة والتي يمكن البرهنة عليها من خلال الأدلة القطعية، أما الفرضيات فهي حدسيات تبرهن بسلسلة من القرائن الظنية، وهي تحظى بالقبول والتأييد ما لم تقم القرائن العلمية المخالفة لها، دون أن يدعى أحد قطعيتها [١٨٧].

٢- التركيب المزدوج للجسم والروح

يستفاد مما مرّ معنا في هذه الخطبة المسنّجة والآيات القرآنية أن الإنسان خلق من عنصرين: العنصر المادي المركب من الماء والتراب (أبسط مواد العالم) والعنصر الآخر هو الروح الإلهية السامية، وهذا هو سر التضاد الباطني للإنسان حيث تتنازع الدوافع التي

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١١٧

تسوقه إلى العالم المادي وتلك التي تدفعه إلى العالم الملائكي. فهو يتصف بالخلق والطبيعة الحيوانية من جانب ويتحلى بالطبيعة الملكوتية والروحانية من جانب آخر. ولهذا أيضاً فهو يتمتع بقوس صعودي ونزولي تكاملي غاية في العظمة بحيث زود بالملكات والاستعدادات التي تبلغ به في قوس الصعود درجة «أعلى عليين» بينما يهبط في النزول والانحطاط إلى «أسفل السافلين» وليت هناك مثل هذه الميزة في الكائنات سوى للإنسان ولا تمنح سوى للمطهرين من الأفراد فتكسبهم قيمة ومنزلة رفيعة، ولا غرو فقد تماسك وحفظ نفسه مقابل جميع عوامل الانحطاط وعناصر التسافل والانسياق نحو المادة والمادية وقد اجتاز كافة العقبات والمطبات. ولعل الملائكة عجزت عن إدراك ذلك الأمر قبل خلق آدم فظنت التكرار في هذا الخلق دون حصول جديد، فحسبوا أن هذه الخلقه تحصيل حاصل من خلال تسييحهم وتقديسهم. والمهم في الأمر هو أن الله سبحانه قد نسب الروح التي نفخها في آدم إليه سبحانه فقال:

«وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» [١٨٨]

. ونعرف على نحو البداهة أن ليس لله من جسم ولا-روح، وأنه يهدف إلى بيان عظمة الأشياء التي يضيفها إلى نفسه من قبيل «بيت

الله» و «شهر الله» فالهدف هو أن هذه الروح الآدمية تتمتع بآثار من صفات الله كالعلم والقدرة والخلافة والابداع. والواقع هو أن الله قد نفخ في آدم أشرف وأفضل روح، ولذلك نعت نفسه سبحانه بأحسن الخالقين فقال:

«تُمْ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» [١٨٩]

ويالها من مصيبة أليمة ومفجعة أن يحث الإنسان الخطي نحو السقوط بحيث يتحول إلى ما يجعله أسوأ من الانعام «أولئك كالأنعام بل هم أضل» [١٩٠]

في حين يمتلكك مثل هذه الاستعدادات والقدرات والإمكانات التي تبلغ به الكمال والمقام الذي ينتظره ويؤمله لأن يتميز على كافة المخلوقات فيرتدى التاج العظيم الذي يكرمه على من سواه «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا...».

٣- الإنسان، اعجوبة عالم الكون

يعتبر الإنسان- في الحقيقة- من أعجب ظواهر عالم الوجود، وقد تضمن كلام الإمام عليه السلام

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١١٨

إشارة إلى غيظ من فيض أسرار الوجود: الاشتغال على الجوارح والأعضاء المتنوعة والقوى المختلفة والقدرات المتفاوتة، والتركيب من العناصر المتضادة والتشكل من عدة عوامل عجبت بصورة بالغة التعقيد بحيث جمع فيه كل شيء، حتى أصبح في الواقع نموذج مصغر لجميع عالم الوجود، وعالم صغير يضاهي العالم الكبير.

أترعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فهذه الميزة التي يتحلى بها الإنسان تجعلنا نتعرف بصورة أعمق على أهميته خلقه من جانب، كما تلفت انتباهنا إلى مدى عظمته خالقه من جانب آخر، فمراد الإمام عليه السلام من هذه الميزة الفريدة للإنسان إنما يكمن في الإشارة إلى عظمته الخالق وعظمته المخلوق.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١١٩

القسم العاشر: بداية انحراف إبليس

إشارة

«وَأَسْتَأْذِي اللَّهَ سُبْحَانَهُ الْمَلَائِكَةَ وَدِيْعَتَهُ لَدَيْهِمْ وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ فِي الْأَذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ اغْتَرَّتْهُ الْحَمِيَّةُ وَعَلَبَتْ عَلَيْهِ الشَّقْوَةَ وَتَعَزَّزَ بِخَلْقِهِ النَّارِ وَأَسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ فَأَعْطَاهُ اللَّهُ النَّظْرَةَ اسْتِحْقَاقًا لِلْسُّخْطَةِ وَأَسْتَشْمَامًا لِلْبَيْئَةِ وَإِنْجَازًا لِلْعِدَةِ فَقَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

الشرح والتفسير ما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيانه لقضية خلق آدم حتى تطرق إلى موضوع آخر ذا صلة وثيقة به مستخلصاً منه الدروس والعبر التي يمكن أن تحتذيها البشرية جمعاء في مسيرتها إلى الله، فقال عليه السلام:

«واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهد وصيته إليهم في الأذعان بالسجود له والخنوع [١٩١] لتكريمته فقال سبحانه اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس»

فالذي تفيده العبارة أن الله قد أخذ عهد الملائكة مسبقاً بالسجود لآدم حين خلقه؛ الأمر الذي وردت الإشارات إليه في القرآن الكريم

ومنها الآية ٧٠ و ٧١ من سورة ص: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ * فَاذْأَسَوِّئْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» [١٩٢] فقد كانت الملائكة تدرك أن الوفاء بذلك العهد إنما يحصل حين خلق آدم وتكامله بهذه نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٢٠

الصورة الإنسانية، ولذلك أمرهم الله سبحانه لما أتم خلقه بالسجود «اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ» [١٩٣].

نفحات الولاية؛ ج ١؛ ص ١٢٠

ب بعض شراح نهج البلاغة أن هذا الأمر قد يكون مستغرباً لدى الملائكة ويشير اندهاشهم ولعلمهم يتساهلون في امتثاله لولا تلك المقدمة بذلك العهد الذي أخذ عليهم، ولذلك أعدمهم الله سبحانه لهذا الأمر مسبقاً ليعلم أن مثل هذه المقدمات ضرورية في الأوامر المهمة. ثم يتطرق عليه السلام إلى الدوافع التي وقفت وراء تمرد ابليس فقال عليه السلام: «اعترته الحمية» [١٩٤] وغلبت عليه الشقوة وتعزز بخلقه النار واستوهن خلق الصلصال.

فالواقع أن العامل الأصلي لتمرده إنما كان تلوثه الباطني والذي عبر عنه بالشقوة إلى جانب الكبر والغرور والحمية والأنانية التي تفرزها طبيعة ذلك الدنس الباطني والذي غلب على فكره وأعمى بصيرته ليصده عن رؤيته الواقعية فيغتر بخلقه النار ويراهما أعظم شأناً من خلقه الطين والتراب؛ التراب الذي يعتبر مصدر جميع الخيرات والبركات والمنافع والفوائد، بالتالي حسب أن علمه ومعرفته إنما تفوق حكمه الله - طبعاً لا يبدو هذا الحكم غريباً من الأفراد الذين يغرقون في مثل هذا الحجب؛ فالإنسان الأناني المضروب عليه بحجاب الغرور قد يرى القبة حبة والحبة قبة أحياناً، فعبارة الفكر وجهابذة العلم إذا ما ابتلوا بالغرور والأنانية وحب الذات ربما يرتكبون أوضاع الأخطاء والزلات. فالمراد بالشقاوة هنا تلك الموانع الباطنية والصفات الرذيلة التي كانت لدى الشيطان، وهي الموانع والصفات الاختيارية النابعة من أفعاله السابقة وهي ليست شقوة ذاتية وغير اختيارية؛ لأن الشقاوة تقابل السعادة. وتعني السعادة توفير الإمكانيات وتمهيد السبيل من أجل الحركة نحو الصلاح والشقاوة تعني المطبات والصعوبات التي تعترض هذا السبيل؛ والمهم أن كل هذه الامور إنما تنبع من ذات أفعال الإنسان وسائر الموجودات المختارة لا- أنها تستند إلى العوامل الجبرية والقهرية. على كل حال فان ابليس قد ارتكب هذه المعصية الكبرى والخطأ الجسيم ليسقط

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٢١

بالمرءة فيطرد من حظيرة القرب الإلهي حتى أصبح من ألعن خلق الله وأبعدهم عن رحمته بفعل تلك المعصية الخطيرة؛ غير أن هذه اللعنة والطرده من الرحمة لم تكن لتوظفه فتمادى في غيه وغروره واستناداً لسيرة المغرورين والمتعصبين من ذوى الأنفة والحمية فقد باشر عملاً قبيحاً آخر تمثل بتوعد باغواء آدم وذريته، ثم سأل الله ويدافع اشباع غريزة غضبه وحسده النظرة إلى يوم القيامة ليرتكب معصية اخرى أفدح من سابقتها «قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» [١٩٥]. فاستجاب الله له لثلاث؛ استحقاقاً للغضب، وإكمالاً لابتناء العباد وتمحيصهم وأخيراً انجاز ما وعده به «فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسخطه واستتماماً للبلية وانجازاً للعدة»، ولكن ليس على ضوء ما سأل، بل جعل لذلك أجلاً معيناً «فقال أنك من المنظرين إلى يوم المعلوم» [١٩٦]. أمّا ما المراد بيوم المعلوم فهناك كلام واختلاف بين مفسرى القرآن ونهج البلاغة.

فذهب البعض إلى أن المراد بذلك انتهاء العالم وانقطاع مدة التكليف (وعلى ضوء هذا المعنى فقد كانت الموافقة على بعض سؤال ابليس، لأنه سأل النظرة إلى يوم القيامة بينما أوجب بالنظرة إلى ختام الدنيا). بينما ذهب البعض الآخر أن المراد بذلك زمان معين وهو انقطاع عمر ابليس؛ الأمر الذي لا يعلمه إلا الله؛ وإلا لو أعلنه آنذاك لكان إغراء لابليس بالتمرد وارتكاب المعاصي. وأخيراً فقد احتمل البعض أن المراد يوم القيامة؛ لأن الآية الخمسين من سورة الواقعة عبرت باليوم المعلوم عن يوم القيامة «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ». إلا أن هذا الاحتمال يبدو مستبعداً، لأنه وعلى ضوء هذا التفسير قد استجيب لجميع طلباته، في حين

يفيد ظاهر الآيات القرآنية أنه لم يستجب إلبعض طلباته، أضف إلى ذلك فإن الآية التي وردت في البحث قالت «يوم الوقت المعلوم» بينما قالت الآية الواردة في سورة الواقعة «يَوْمَ مَعْلُومٍ» فالآيتان متفاوتتان، وعليه فالتفسير الصحيح هو التفسير الأول أو الثاني. من جانب آخر فقد جاء في الحديث أن المراد بيوم الوقت المعلوم هو زمان ظهور إمام العصر والزمان المهدي (عج) والذي ينهي بدوره عمر ابلبس ١٩٧]. وبالطبع

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٢٢

فان هذا لن يؤدي إلى اجتثاث جذور الذنب والمعصية عن العالم بالمرّة وتنتفى قضية الطاعة والامتحان الإلهي؛ لأن العامل الأصلي إنما يكمن في هوى النفس الذي يبقى سائداً في الإنسان، بل حتى عامل انحراف الشيطان إنما يعزى إلى هوى نفسه. [١٩٨]

تأملات

١- عظمة مقام الإنسان

إن الآيات القرآنية التي تناولت قضية سجود الملائكة للإنسان في عدّة سور لتشكل أحد الأدلة المهمّة على أن الإنسان يمثل أفضل موجود في عالم الخلق وأشرف مخلوقات الله سبحانه ١٩٩]، كما تشير هذه الآيات إلى سجود جميع الملائكة دون استثناء وخضوعها لآدم عليه السلام، وهذا بدوره دليل واضح على أفضليته عليه السلام حتى على الملائكة، ويبدو أن الهدف من هذه التأكيدات القرآنية المستمرة الفات انتباه الإنسان إلى عظم شخصيته الإلهية والمعنوية؛ الأمر الذي يلعب دوراً مهماً في تربية النفس البشرية وتهذيبها وهدايتها.

٢- كيف كان السجود لآدم؟

هناك عدّة أبحاث لدى المفسرين بشأن كيفية السجود، وهل يجوز السجود لغير الله تعالى. يرى البعض أن ذلك السجود لم يكن إلّالله تعالى، غير أنه حصل أمام آدم بينما كان معلولاً لخلق هذا الكائن العجيب؛ في حين ذهب البعض الآخر إلى أن السجود كان لآدم، إلّا أنه لم يكن سجود العبادة المختص بالله تبارك وتعالى، بل كان سجود خضوع واکرام واحترام. وجاء في كتاب عيون الأخبار عن كتاب الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال:

«كان سجودهم لله تعالى عبوديةً ولآدم إكراماً وطاعةً لكوننا في صلبه» [٢٠٠]

. فالذي يستفاد من هذا الحديث أن

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٢٣

السجدة كانت تنطوي على بعدين؛ أحدهما عباءة الله والآخر تكريم آدم عليه السلام. وشبهه ما ذكر سابقاً هو ماورد في الآية ١٠٠ من سورة يوسف «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا». فقد جاء في الحديث الذي روى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام بشأن الآية السابقة أنه قال:

«أما سجود يعقوب وولده فإنه لم يكن ليوسف وإنما كان من يعقوب وولده طاعةً لله وتحيّةً ليوسف كما كان السجود من الملائكة لآدم».

٣- أسئلة واستفسارات بشأن خلق الشيطان

هنالك عدّة أسئلة واستفسارات بشأن خلق الشيطان وسوابقه وتمرده على الأوامر الإلهية ومن ثم امهاله حتى الزمان المعلوم، وبالطبع فإنّ المقام لا يسع الاسهاب والوقوف على التفاصيل، ولذلك سنقتصر على التعرض بأطنا ب لهذه المواضيع.

سؤال:

مهل ابليس من الملائكة؟ إن كان الجواب بالإيجاب فلم ارتكب تلك المعصية الخطيرة مع أن الملائكة معصومون، وإن كان الجواب بالنفي في أنه لم يكن من الملائكة، فما علة ذكره في عداد الملائكة على لسان الآيات القرآنية؟

جواب:

يقيناً لم يكن من الملائكة، فقد صرح القرآن قائلاً: «كَانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» [٢٠١]، إلّا أنه قد اصطف مع الملائكة أثر جهوده في الطاعة والعبودية ولذلك عد واحد منهم، ولهذا السبب أيضاً وردت بعض خطب نهج البلاغة بما فيها الخطبة رقم ١٩٢ المسماة بالقاصعة التي عبرت بالملك عن ابليس؛ وناهيك عن ذلك فقد صرح نفسه قائلاً: «خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ» [٢٠٢] ونعلم جميعاً بأنّ الجن قد خلقوا من النار لا الملائكة، وهذا ما صرحت به الآية الخامسة عشرة من سورة الرحمن «وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ نَارٍ»، وقد أشارت بعض روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا المعنى أيضاً [٢٠٣]. أضف إلى ذلك فقد أشار القرآن إلى ذرية ابليس وولده

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٢٤

«أَفْتَنَّا ذُرِّيَّتَهُ أَزْوَاجًا مِنْ دُونِهَا وَأَوْصَيْنَاهُ الْإِنْسَانَ بَيْنَ بَنِي آدَمَ بَيْنَ ذُرِّيَّتِهِمْ فَأَتَى أَهْلَهُ الْمَهْلَكَةَ» [٢٠٤] بينما ليست للملائكة من ذرية.

سؤال:

كيف جاز على الله سبحانه أن يسلط ابليس على الناس حتى أنهم سلبوا قدرة الدفاع؟ أضف إلى ذلك فما الضرورة في الاغواء والضلال؟ ومنحه تلك المدّة الطويلة من العمر والمهلة ليسعى سعيه في اغواء بني آدم وتوظيف كافة إمكاناته في سبيل تحقيق هذا الهدف؟

جواب:

أولاً: أنّ الشيطان قد خلق طاهراً عفيفاً وقد جدّ لسنوات من أجل صون قدسيته وطهره حتى قادته طاعته وعبوديته لأن يكون في مصاف الملائكة، إلّا أنه في نهاية الأمر وأثر حبه لذاته وكبره وغروره واستغلاله لحرته قد سلك سبيل الضلال فسقط إلى الحضيض. ثانياً: من الضروري الالتفات إلى نقطة مهمّة وهي أنّ نفوذ الوسواس الشيطانية إلى باطن الإنسان ليس نفوذاً عبثياً وإجبارياً؛ بل إنّ الإنسان هو الذي يفسح المجال بإرادته واختياره لهذا النفوذ سيجعله يستحوذ على نفسه، حيث يمنح الشيطان تأشيرة الدخول إلى حدود قلبه وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ» [٢٠٥].

وقال في موضع آخر «إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ» [٢٠٦]

ثالثاً: لقد تضمنت عبارات الإمام على عليه السلام رداً لطيفاً رائعاً على السؤال المذكور حيث قال:

«فأعطاه الله النظرة استحقاقاً لسخطه واستتماماً للبلية وانجازاً للعدة»

؛ أي أنّ الله قد أجزل عقابه بمنحه هذه المهلة من جانب؛ لأنّ الآيات القرآنية تفيد التحذير الإلهي الشديد والمتكرر لأولئك الذين يسيرون باتجاه الذنوب والمعاصي؛ فاذا فاد التحذير وأثر بهم ورجعوا عن غيهم كان ذلك خيراً وإلّا أمهلهم ووكلمهم إلى أنفسهم ليكون عذابهم أشد: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّهُمْ لُمْلِي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٢٥

«مُهِينٌ» [٢٠٧]، ومن جانب آخر فإنّ وجود الشيطان يشكل اختباراً وامتحاناً ضخماً للناس، وبعبارة اخرى فإنه يمثل جسر الأفراد المؤمنين

نحو السمو والتكامل - لأن وجود هذا العدو المقتدر بالنسبة للمؤمنين الذين يرومون انتهاج سبيل الحق ليس فقط لا يستبطن أى ضرر فحسب، بل سيكون وسيلة للتسامي والتكامل؛ حيث إننا نعلم بأن السمو والتكامل إنما يتم عادة في ظل التضاد وإذا ما رأى الإنسان نفسه أمام عدو شرس فانه سيوظف كافة طاقاته وقدراته ونبوغاته، وبعبارة أخرى فان وجود هذا العدو القوي سيؤدي بالإنسان إلى ممارسة مزيد من الحركة والجهد؛ الأمر الذي يقوده بالتالي إلى السمو والرقى والتكامل. بينما لا يزيد هذا الأمر مرضى القلوب والآثمين المنحرفين سوى انحرافاً وبؤساً وشقاءً، والحق أنهم استحقوا ذلك بما كسبت أيديهم: «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» فالهدف هو أن الله يختبر أولئك القاسية قلوبهم وفيها مرض بالقاءات الشيطان، «وَلِيُعَلِّمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ» [٢٠٨].

سؤال:

كيف كانت شبهة ابليس بالتعزز بخلقه النار فيرى نفسه أفضل من آدم وبالتالي يعترض على حكمه الله؟ ونقول في الجواب أن حب الذات والغرور تعدد من أضخم الحجب التي تحول دون رؤية الحقائق والواقعات؛ وهذا ما حصل لابليس، فلم يدفعه ذلك إلى التمرد والعصيان فحسب، بل اعترض على الحكمة الإلهية ليجعل ذلك حجة احتجاج بها في شرف عنصره على عنصر آدم، فكيف أسجد لهذا الموجود الذي خلقته من طين بينما خلقتني من النار، فقد ذهبت به الظنون إلى أفضلية النار على التراب، بينما لا يخفى أن التراب ينبوع مختلف الخيرات والبركات ومصدر جميع المواد الحيوية والمهمة والوسيلة الرئيسية لمواصلة الحياة، كما يضم في طياته أنواع المعادن والفلزات والجواهر وليس النار كذلك. صحيح أن النار والحرارة تعتبر من سائر الوسائل

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٢٦

الحياتية الضرورية، لكن مما لا شك فيه أن الدور الأساسي إنما تقوم به المواد الموجودة في التراب والنار ليست سوى وسيلة من أجل تكامل هذه المواد.

لقد صرحت بعض الروايات [٢٠٩] أن وحدة من أكاذيب ابليس هو زعمه بأن النار أفضل من التراب، والحال إننا نعلم بأن النار عادة ما تتولد من احتكاك الأشجار أو من المواد الدهنية وأن أصل الأشجار هو التراب، كما أن الدهون النباتية والحيوانية إنما تستخرج بواسطة من الأرض. أضف إلى ذلك أن امتياز آدم لم يقتصر على أفضلية عنصر التراب؛ بل تكرمته إنما استندت إلى عامل أصلي تمثل بتلك الروح العظيمة التي نفخت فيه «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي». ولنفترض جدلاً أن المادة الأولى في خلقه الشيطان كانت أفضل من مثلتها لدى آدم، فان هذا الأمر هو الآخر لا يقوى دليلاً على تمرده وعدم امتثاله لأمر الله بالسجود لآدم بفضل تلك الروح الإلهية التي حلت فيه واكسبته ذلك المقام العظيم، ولعل الشيطان كان يعلم بكل هذه الامور إلا أن الكبر والغرور والعجب وحب الذات أعمى بصره وبصيرته عن الاذعان للحق.

٤- تبريرات جوفاء

لقد حاول بعض الفلاسفة - كما نقل ذلك ابن ميثم البحراني رحمه الله في شرحه لنهج البلاغة - أن يبرروا ويأولوا كافة تفاصيل قصة خلق آدم وسجود الملائكة وتمرد ابليس وعدم امتثاله لأمر الله ليحملوها على مفاهيم لا تتسجم وظواهر تلك القصة. ومن ذلك أنهم قالوا أن المراد بالملائكة الذين امروا بالسجود لآدم هو القوى البدنية المأمورة بالخضوع أمام النفس العاقلة (الروح البشرية)، والمراد بابليس القوة الوهمية وجنود ابليس هي القوى النابعة من الوهم وهوى النفس والتي تتعارض والقوى العقلية، أما المقصود بالجنة التي طرد منها آدم فأنما يراد بها المعارف الحقة وأنوار الكبرياء الإلهية! وما إلى ذلك من التأويلات الجوفاء التي لا أساس لها من الصحة. [٢١٠]

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٢٧

هذا نموذج من التفسير بالرأى الذى ورد النهى عنه فى الأحاديث والروايات على أنه سبب السقوط والابتعاد عن الله سبحانه. فكلنا نعلم بأن التفسير بالرأى وتحميل الأحكام الذهنية المسبقة على الآيات والروايات يعدّ على الدوام من أهم الوسائل التى تمسك بها المحرفون والمتصنعون المتلبسون بالدين الذين لا يألون جهداً فى توجيه الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بما ينسجم ورغباتهم ونزعاتهم، كما نعلم بأن الباب لو فتح أمام تفسير الآيات والروايات بالرأى فسوف لن يبقى هناك من أصول مسلمة ومباني وأحكام قانونية ثابتة وسيصبح كل شىء تابع للأفكار الخاطئة والأهواء الضالة لهذا وذاك، بل سيهجر الكتاب والسنة ويصبحان طينه بيد المنحرفين والمغرضين يصنعون منها ما شاءت أهوائهم ورغباتهم. ومن هنا طالعنا إصرار كبار محققى الإسلام والباحثين بضرورة استخدام القواعد المسلمة لباب الألفاظ فى فهم معانى الكتاب والسنة. فالألفاظ لا بدّ أن تحمل على معانيها الحقيقية، اللهم إلا أن تكون هناك قرائن جلية تدعو لحملها على المعانى المجازية؛ ويراد بها القرائن المقبولة لدى العرف والعقلاء الذين يستندون إليها فى إقامة أدلتهم وبراهينهم [٢١١].

وأخيراً فإن ذكر قصة ابليس وعاقبته كما وردت فى عبارات الإمام على عليه السلام لتنطوى على الدروس والعبر التى ينبغى أن تحتذيها البشرية فى مسيرتها فينظروا بعين الاعتبار إلى نتائج الكبر والغرور وحب الذات والحمية والعاقبة المشؤومة لابليس وطرده من مقام القرب لتلاحقه اللعنات والشقاء الأبدى، فتكون على حذر من سلوك هذا الطريق الخطير. ونختتم الحديث بما أورده العالم الجليل المرحوم مغنية فى شرحه لنهج البلاغة فقد خلص إلى عدّة دروس من قصة ابليس منها:

١- من حسد صاحب فضيلة أو عادى إنساناً لرياسته وعمله فأنه على دين ابليس ومن رهطه يوم القيامة.

٢- ليس هنالك من سبيل لمعرفة الدين والأخلاق الحميدة سوى سبيل واحد وهو

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٢٨

التسليم للحق والثبات عليه مهما كانت النتيجة.

٣- أن أغلب الناس يصرون على الباطل لا- على أساس عدم معرفتهم به، بل بسبب العناد واللجاجة ضد مخالفيهم، وهذا الاصرار الخاطئ إنما ينتهى بهم إلى أسوأ العواقب. فلو تاب ابليس ورجع عن خطئه لقبول الله توبته وقد كان له مثل هذا الاستعداد، إلا أنه كان يعتقد بشرط وهو ألا يأمره الله بالسجود لآدم ثانية بينما اشترط الله قبول توبته بذلك الشرط. [٢١٢]

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٢٩

القسم الحادى عشر: عاقبة آدم

إشارة

«ثُمَّ أَشْرَكْنَا سُبْحَانَ آدَمَ دَارًا أَرْغَدَ فِيهَا عَيْشُهُ وَأَمَّنَ فِيهَا مَحَلَّتُهُ وَحَدَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعِيدَاوَتَهُ فَأَعْتَرَهُ عِدْوَةٌ نَفَاسِيَّةٌ عَلَيْهِ بِدَارِ الْمَقَامِ وَمُرَافَقَةِ الْمَأْتَرِ قَبَاعِ الْيَقِينِ بِسُدِّهِ وَالْعَزِيمَةِ بِوَهْنِهِ وَاسْتِبْدَالِ بِالْحَيْدَلِ وَجَلًّا وَبِالْإِعْتِرَارِ نَدَمًا ثُمَّ بَسَطَ اللَّهُ سُبْحَانَ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ وَلَقَاءِ كَلِمَةِ رَحْمَتِهِ وَوَعْدَةِ الْمَرَدِّ إِلَى جَنَّتِهِ وَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ وَتَنَاسَلَ الدُّرِّيَّةُ».

الشرح والتفسير كان الحديث فى ماضى عن اختبار الملائكة وتمرد ابليس، بينما تطرق الحديث هنا عن امتحان آدم والنتيجة التى تمخض عنها هذا الامتحان. ونقول هنا ما تفيده بعض الآيات القرآنية هو أن آدم قد خلق للعيش فى الأرض. فقد قال سبحانه وتعالى فى الآية ٣٠ من سورة البقرة «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»، كما أشارت الآية ٣٦ من نفس السورة إلى المراد بالأرض موضع غير

الجنة (الجنة بأى معنى كانت): «وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ».

على كل حال كان لابد لآدم من دورة تدريبيه وامتحان إلهي يمدده بتجربه ليتعرف على المفاهيم من قبيل الأمر والنهي والتكليف والطاعة والمعصية والندم والتوبة ويتعرف عن قرب على عدوه، ومن هنا أسكنه الله الجنة وأباح له التمتع بنعيمها ولم يحظر عليه سوى الاقتراب من تلك الشجرة، إلّا أنّ وساوس الشيطان ومكره وحيله قد أثرت في آدم ودفعته إلى ترك الاولى، فتناول من تلك الشجرة ويهبط من الجنة؛ الأمر الذي أدى بالتالى إلى يقظته وعودته

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٣٠

إلى الله فى التوبة والإنابة، فاحفه الله بلطفه وعنايته فالهمه كيفية التوبة، فتاب الله عليه ووعد بالعودة إلى الجنة، فكان من الآثار الوضعية لفعل آدم أن يحرم من تلك النعم والدعة فى الجنة لأن يهبط إلى الأرض فيمارس الحياة المليئة بالتعب والمشقة. ما مر معنا لحد الآن نظرة كلية عامة إلى خطبة الإمام بشأن قصة آدم عليه السلام، ونخوض الآن فى شرح تفاصيل الخطبة.

قال عليه السلام:

«ثم اسكن سبحانه آدم داراً أرغد [٢١٣] فيها عيشه»

ثم قال عليه السلام:

«وآمن فيها محلته»

فى إشارة واضحة إلى أن البارئ سبحانه قد أفاض عليه ركنين رئيسيين من الأركان المهمة للحياة وهما: الأمن ووفور النعمة. والواقع هو أن الإمام عليه السلام قد استوحى ذلك المعنى من الآية ٣٥ من سورة البقرة: «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا». كما حذر الله سبحانه آدم عليه السلام من عدوه ابليس

«وحذره ابليس عداوته»

وبذلك فقد أرشده إلى سبيل السعادة والصلاح، كما أتم عليه الحجج بابانته لطرق البؤس والشقاء. وهذا ما صرحت به الآية ١٧ من سورة طه إذ قالت: «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ وَأَتَمَامًا لِلْحِجَّةِ أَكْثَرَ فَقَدْ دَلَّ عَلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي إِلَيْهِ الْاقْتِرَابُ مِنْهَا، بَيْنَمَا أَبَاحَ لَهُ التَّمَتُّعُ بِثَمَارِ كَافَةِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، غَيْرَ أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِسَبَبِ عَدَمِ امْتِلَاكِهِ التَّجْرِبَةَ الْكَافِيَةَ بِشَأْنِ مَكَائِدِ الشَّيْطَانِ وَحَبَائِلِهِ قَدْ آلَ أَمْرُهُ إِلَى الْوُقُوعِ فِي مَصِيدَةِ الشَّيْطَانِ، فَأَشَارَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِقَوْلِهِ:

«فاغتره عدوه نفاساً [٢١٤] عليه بدار المقام ومرافقاً

الأبرار»

. ويبدو أن هذه هى الوظيفة التى نهض بها الشيطان، حيث يسعى للاقتراب من الصالحين والخيرين ليوسوس لهم ويسلبهم النعم والإلهية ويقودهم نحو البؤس والشقاء. ثم أشار عليه السلام إلى الأمر الرئيسى فى خطأ آدم عليه السلام:

«فباع اليقين بشكه»

كما ضعف تجاه الوسوس

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٣١

الشيطنانية التى كان ينبغى له مجابتهها بعزمه الراسخ «والعزيمة بوهنه» [٢١٥] والعبارة إشارة للآية ١١٥ من سورة طه «وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا». [٢١٦] نعم صحيح أن الشيطان أقسم لهما بأنه لا يريد بهما إلا النصيحة والخير «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ» [٢١٧] ولكن هل كان على آدم أن يثق بوعد الله القائم على اليقين أم يصغى إلى كلام الشيطان القائم على أساس الشك والوهم؟ لاشك إن نسيان هذه الحقيقة وإغفالها جعلت آدم يقدم على تلك المعاملة التى لا تنطوى سوى على الغبن والضرر فضعف عزمته فى طاعة الله.

وهذا بحد ذاته درس وعبرة لكافة بنى آدم فى ضرورة الاستناد إلى عوامل اليقين فى جميع معاملاتهم واجتناب طرق الشك والغموض والابهام فى مراعاة الاحتياط وعدم اقتحام أى ميدان دون دراسة ظروفه وملابساته، وذلك لأن الشياطين درجت على تنميق سبلها المفسدة بما يكسبها ظاهراً أنيقاً فى حين لا تستبطن سوى النار المستعرة التى أوقدها لبنى آدم. أجل هنالك الدروس والعبر القيمة فى قصة آدم والتى لا بد للبشرية من وضعها نصب عينها فى حياتها حتى قيام الساعة.

ثم تطرق عليه السلام إلى النتائج المريعة التى أفرزتها تلك المعاملة فقال: «واستبدل بالجدل» [٢١٨] و«جلا» [٢١٩] وبالاعتزاز ندماً، وهنا نسأل ماهى الحوادث التى دفعت بآدم للالتفات إلى خطأه وبالتالي حسرته وندمه

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٣٢

على ما فرط منه؟ يبدو أن الإمام عليه السلام أجمل عبارته بهذا الشأن، بينما تصدى القرآن الكريم فى أكثر من آية لشرح التفاصيل: فحين استسلم آدم لوساوس الشيطان وأكل من تلك الشجرة المحظورة، لم تمر عليه مدة حتى نزع عنه لباس الجنة وبدت سواته التى قدر لها أن تخفى، فشعر بالخلج من الملائكة وطفق يخصف عليها من ورق الجنة، ثم أعقب ذلك ما تلقاه من أمر بالهبوط من الجنة على أنه يمثل جزاء كل من يولى ظهره لأوامر الله ويستجيب لوساوس الشيطان. إلبان آدم عليه السلام وخلافاً لسلوك الشيطان وتجربته الخاطئة، لم يصر على خطأه ويركب رأسه ويواصل معصيته، فأقبل فوراً على الله سائله بلطفه ورحمته أن يتوب عليه، فعلمه كيفية التوبة ثم وعده العودة ثانية إلى الجنة «ثم بسط الله سبحانه له فى توبته ولقاه كلمة رحمته ووعدته المرد إلى جنته» [٢٢٠]. على كل حال فإن قبول التوبة لم يبق على آدم فى الجنة، حيث لم يعد هنالك من مبرر لمواصلته حياته فيها، فقد تعلم ما كان ينبغى عليه تعلمه وجرب ما كان لا بد له من تجربته.

ولذلك أهبطه الله إلى دار الدنيا- الامتحان؛ دار التزواج والذرية «وأهبطه إلى دار البلية وتنازل الذرية». فالذى يستشف بوضوح من هذه العبارة أن الدنيا دار البلاء والامتحان، وما مر فى الجنة كان تحضيراً لخوض هذا الامتحان، كما لا مكان فى الجنة للتزواج والتنازل، بل ذلك من مختصات الدنيا.

تأملات

١- ما كانت جنة آدم؟

ذهب جماعة إلى أن الجنة التى سكنها آدم عليه السلام كانت جنة الخلد التى وعد الله عباده

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٣٣

الصالحين، بينما ذهبت جماعة اخرى إلى أنها كانت جنة دنيوية غنية بحدائقها وبساتينها، وقد استدلت هذه الجماعة ببعض الأدلة فيما اعتقدت:

بادئ ذى بدء أن الجنة الموعودة بعد القيامة هى جنة خالدة لا يعتريها الخروج. وقد يقال فاذا كانت كذلك فأنى لا بليس الذى يفيض كفراً وعناداً وطغياناً أن يدخل هذه الروضة المقدسة؟

فاذا قيل بأن إبليس لم يوسوس لآدم فى الجنة قط، بل وسوس له وقد وقف خارجاً على بابها، قلنا بأن ذلك لا ينسجم وما صرحت به الآية ٣٦ من سورة البقرة التى قالت: «وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» التى تشمل آدم وحواء وإبليس معاً.

أضف إلى ذلك فقد صرحت الروايات الكثيرة الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن تلك الجنة كانت من جنان الدنيا.

فقد جاء عن حسين بن بشار أنه قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن جنة آدم، فقال عليه السلام:

«جَنَّةٌ من جنان الدنيا يطلع عليها الشمس والقمر ولو كانت من جنان الخلد ما خرج منها أبداً» [٢٢١].

كما أورد المرحوم الكليني في الكافي عن حسين بن ميسر مثل هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام [٢٢٢]- أما الإشكال الوحيد الذي يرد على هذا الكلام فانما يكمن في العبارة السابقة من هذه الخطبة «نفاسة عليه بدار المقام»

، لكن من الممكن أن يكون معنى هذه العبارة هو أنه لو لم يرتكب هذه المخالفة لبقى مدّة طويلة في هذه الجنّة ثم يهبط إلى الأرض، إلّا أنه تركه للاولى أسرع في إخراجهم من الجنّة وهبوطه إلى الأرض، أو أن يقال أنه أراد سبحانه أن يحرم آدم من جنّة الخلد، فلو كان آدم مطيعاً لأوامر الله لالتمس طريقه إلى تلك الجنّة.

٢- هل اقترف آدم معصية؟

يرى أولئك الذين يجوزون ارتكاب الذنب على الأنبياء- ولاسيما في مثل هذه الامور- أن

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٣٤

آدم عليه السلام قد ارتكب المعصية، بينما لا يرى أتباع مدرسه أهل البيت عليهم السلام الذين يؤمنون بعصمة الأنبياء عن كل خطأ وزلل - سواء في باب العقائد وتبليغ الأحكام الشرعية أو في باب الأعمال والأفعال اليومية قبل النبوة وبعدها- [٢٢٣].

أنّ آدم عليه السلام قد قارف أيّة معصية وأنّ نهى الله لآدم عليه السلام عن تلك الشجرة المحظورة لم يكن نهياً تحريمياً، بل كان فعلاً مكروهاً، ولما كان مقام الأنبياء ولاسيما آدم عليه السلام الذي سجدت له الملائكة لمن العلو والرفعة بحيث لا يتوقع ارتكابهم للمكروه، فان فعلوا ذلك أخذهم الحق سبحانه فحسنت الأبرار سيئات المقربين- وبعبارة اخرى الذنوب على قسمين: ذنوب مطلقة وذنوب نسبية. الذنوب المطلقة هي الذنوب لدى الجميع من قبيل الكذب والسرقة وشرب الخمر، أما الذنوب النسبية فهي ليست بذنوب لدى عامة الناس، بل قد تكون مستحبة لدى البعض من الناس، بينما نفس هذه الأعمال المستحبة والمباحة قد يطلق عليها اسم المعصية فيما إذا صدرت من المقربين الذين يستبعد أن يقوموا بمثل هذه الأفعال، إلّا أنها ليست من قبيل الذنوب المطلقة بل الذنوب النسبية والمراد بها هنا «ترك الاولى». كما ذهبت جماعة إلى النهي عن تلك الشجرة المحظورة على آدم عليه السلام كان نهياً إرشادياً لا نهياً مولوياً، على غرار نصائح الطبيب وإرشاداته حين ينصح مريضه بعدم تناول الطعام الفلاني خشية من استفحال المرض وازدياد مدته. فمن البديهي أنّ مخالفة نصائح الطبيب لا تعتبر اهانة له ولا تعدّ معصية لأوامره، بل ستجر تلك المخالفة على صاحبها مزيداً من الألم والمعاناة.

وهذا هو المعنى الذي أشارت إليه بعض الآيات القرآنية بشأن قصة آدم عليه السلام: «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى» [٢٢٤].

وقد ورد في بعض الروايات أنّ آدم عليه السلام لم يتناول من تلك الشجرة المحظورة، بل أكل من شجرة مشابهة لها، ولذلك قال لهما الشيطان في ضمن وساوسه إنّ الله لم ينهكما عن هذه الشجرة

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٣٥

«وَقَالَ مَا نَهَيْكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ» [٢٢٥]. أضف إلى ذلك فهناك نقطة مهمّة لابدّ من الالتفات لها والتي تكمن في قسم الشيطان لا ثبات حسن نيته في دعوتهما للأكل من تلك الشجرة «وَوَاقَسَ مَهُمَا إِنِّي لَكُما لِمَنّ النَّاصِحِينَ» [٢٢٦] ولم يكن آدم وحواء آنذاك سمعا من يقسم كاذباً؛ الأمر الذي جعلهما يصغيان إلى وساوس الشيطان.

بالطبع لو تأملا قليلاً لاكتشفا كذب الشيطان؛ لأنّ الله سبحانه قد حذرهما سابقاً مكائده وأنّه عدو لهما، ومن الواضح أنّه لا يمكن

الوثوق بكلام العدو وإن عززه بالإيمان المغلظة.

٣- ما حقيقة الشجرة المحظورة؟

اختلفت أقوال المفسرين بشأن الشجرة المحظورة على آدم عليه السلام هل كانت شجرة خارجية اعتيادية أم مسألة معنوية أخلاقية، وإن كانت مادية أو معنوية فما هي هذه الشجرة؟

نتناول هذه القضية بالبحث المقتضب رغم أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يتعرض في خطبته لتلك الشجرة حيث وردت الإشارات فيها إلى قصة إبليس ووساوسه لآدم عليه السلام.

فقد أشار القرآن الكريم في ستة مواضع إلى تلك الشجرة المحظورة دون الخوض في ماهية تلك الشجرة، غير أن الأخبار والروايات الإسلامية وكلمات المفسرين قد تضمنت أبحاثاً مسهبة بهذا الخصوص - حيث فسرها البعض بشجرة الحنطة (وهنا لا بد من الالتفات إلى أن الشجرة تطلق على النبات أيضاً، وهذا ما صرحت به الآية ١٤٦ من سورة يونس: «وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ». في حين فسرها البعض الآخر بشجرة العنب والنخيل والكافور أيضاً. [٢٢٧]

وأخيراً فسرها البعض معنوياً على أن تلك الشجرة كانت علم آل محمد صلى الله عليه وآله وقيل بل العلم بصورة مطلقة كما قيل كانت الحسد. وقد ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام حين سئل عن علّة اختلاف الروايات بهذا الشأن أنه قال:

«كله صحيح، لأن أشجار الجنان ليست من

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٣٦

قبيل أشجار الدنيا. فشجرة الجنة تحمل أنواع الثمار. ولما كرم الله آدم عليه السلام واسجد له الملائكة واسكنه الجنة حدث نفسه: هل خلق الله خلقاً أكرم مني؟ فأراه الله مقام محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله فتمنى أن يبلغ مقامهم» [٢٢٨]. جدير بالذكر أن التوراة صرحت بأن الشجرة المحظورة كانت شجرة العلم والمعرفة (معرفة الحسن من القبيح) وشجرة الحياة الخالدة وقد نهى الله آدم وحواء من تناول من تلك الشجرة فيحصل على المعرفة ويصبحا خالدين كالله. [٢٢٩]

وتكفي هذه العبارة لوحدها في إثبات تحريف التوراة الفعلية عن التوراة الحقيقية، حيث تثبت أنها من وضع الأفراد والجهال الذين يرون العلم والمعرفة مثلبه على آدم وأنه استحق الطرد من الجنة بسبب هذا الذنب. وكأن الجنة لا تسع ذوى العلم والمعرفة، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن بعض الروايات التي ذهبت إلى أن الشجرة المحظورة كانت شجرة العلم والمعرفة إنما هي روايات موضوعة أخذت عن التوراة المحرفة.

٤- الكلمات التي تاب الله بها على آدم عليه السلام.

لقد تحدث الإمام عليه السلام في الخطبة عن تلقي آدم عليه السلام لكلمة الرحمة من الله سبحانه دون الدخول في تفاصيل هذه الكلمة. القرآن من جانبه أيضاً أشار من بعيد إلى هذه المسألة دون الحديث عن ماهيتها وكنهها. إلا أن الذي يفهم من هذه التعابير أن تلك الكلمات كانت تتضمن مسائل مهمة، فقد صرح البعض بأن المراد بالكلمات هو الاعتراف بالخطأ، وهذا ما أشارت إليه الآية ٢٣ من سورة الأعراف: «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ». كما استدلل البعض الآخر على هذا الاعتراف بالتقصير وطلب المغفرة بالعبارة: «لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي أنك خير الغافرين» [٢٣٠]

وقد ورد مثل هذا المعنى في بعض الروايات عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام. [٢٣١]

بينما صرحت أغلب الروايات بأن تلك الكلمات كانت أسماء محمد وعلى وفاطمة والحسن

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٣٧

والحسين عليهم السلام. فقد جاء في كتاب الخصال أن ابن عباس قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فقال صلى الله عليه وآله:

«سأله بحق محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين إلتابت عليه فتاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم» [٢٣٢].

جدير ذكره أن هذا المعنى مع فارق طفيف قد ورد في «الدر المنثور» التفسير الروائي المشهور لدى العامة. [٢٣٣] كما جاء في رواية اخرى عن تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام أن آدم عليه السلام حين ارتكب الخطيئة وطلب المغفرة من الله، سأله أن يقبل توبته بعد أن اعترف بذنبه.

فقال له الحق سبحانه ألم أعلمك أن تدعوني بمحمد وآل محمد لكل شدة نزلت بك؟ فقال آدم عليه السلام: اللهم بلى. فقال الله:

ادعني بهؤلاء محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام لأقبل عذرك وأعطيك ما تريد. [٢٣٤]

وفي حديث آخر عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله أن الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام هي: «اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتي فاقبل معذرتي وتعلم حاجتي فاعطني سؤلي وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنبي اللهم أنى أسألك إيماناً يباشر قلبي ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لا يصيبني إلأما كتبت لي وارضى بما قسمت لي» [٢٣٥]

ونرى هنا أن ليس هناك من تضارب في هذه الروايات، فلعل آدم عليه السلام قد تضرع بهذا الدعاء إلى جانب توسله بالنبي وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وأخيراً فقد فسرها البعض بالحالة المعنوية لآدم عليه السلام ومدى انشداؤه لله سبحانه؛ الأمر الذي رافق توسله بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

وبالطبع فليس هنالك من منافاة بين عدم علم آدم عليه السلام بهذه الكلمات قبل التعليم الإلهي مع علمه بالأسماء، لأن الاحتمال القوي هو أن العلم بالأسماء يعنى العلم والالمام بأسرار الخليقة وهذا غير المقولة الاخرى التي تتناول سبل تركية النفس وتهذيبها وتدارك التقصير والسير إلى الله تبارك وتعالى.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٣٩

القسم الثاني عشر: بعنة الأنبياء وعظم مسؤوليتهم

إشارة

«وَأَصِطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرَ خَلْقِهِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَجَهِلُوا حَقَّهُ وَاتَّخَذُوا الْأُنْدَادَ مَعَهُ وَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَافْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ لِيَسْتَأْذِنُوا مِنْهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسَبِي نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَيُشِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ وَيُرَوِّهُمُ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ: مِنْ سَمْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ وَمَعَايِشٍ تُحْيِيهِمْ وَأَجَالٍ تُفْنِيهِمْ وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ وَأَحْيَادٍ تَتَابِعُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُخْلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ. رُسُلٌ لَا تُقْصَرُ بِهِمْ قَلَّةُ عَدَدِهِمْ وَلَا كَثْرَةُ الْمُكَدِّبِينَ لَهُمْ مِنْ سَابِقِ سِمِّي لَهُ مَنْ بَعْدَهُ أَوْ غَابِرٍ عَرَفَهُ مَنْ قَبْلَهُ. عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ وَمَضَتِ الدُّهُورُ وَسَلَفَتِ الْأَبَاءُ وَخَلَفَتِ الْأَبْنَاءُ».

الشرح والتفسير لقد تحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من خطبته عن قضية بعث الأنبياء. وهي المرحلة التي أعقبت مرحلة خلق

آدم وممارسة للحياة على الأرض، وقد تطرق الإمام عليه السلام بادي ذي بدء إلى علّة بعث الأنبياء وارسال الرسل، ثم أشار إلى ماهية مضمون دعوات الأنبياء ورسالاتهم، إلى جانب استعراض الخطوط الرئيسية لتعاليمهم وإرشاداتهم، وأخيراً خصائص الأنبياء وصمودهم أمام الصعاب والمشاكل والأطوار العام الذي كان يحكم علاقاتهم فيما بينهم وكيفية

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٤٠

إرتباط بعضهم مع البعض الآخر. فقد استهل كلامه عليه السلام بهذا الشأن قائلاً:

«واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم [٢٣٦] وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم».

وعلى هذا الأساس فإنّ الأنبياء قد عاهدوا الله منذ بداية الوحي برعايته وإيصاله إلى الناس على أنّه أمانة وعهد في أعناقهم.

نعم لقد تقبل الأنبياء عليهم السلام هذه المسؤولية العظيمة فجذبوا واجتهدوا في حملها وإيصالها إلى الناس كأمانة ووديعه الهية. أما الحديث بشأن بعض الامور من قبيل: كيف اختار الله هذه الصفوة من الأنبياء، وما حقيقة الوحي، وكيف يوحى للبعض بينما لا يوحى للبعض الآخر منهم، فنوكله إلى موضعه [٢٣٧].

والواقع هو أنّ العبارة المذكورة إشارة للآية: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا» [٢٣٨].

ثم أشار عليه السلام إلى السبب الرئيسي لبعثه الأنبياء فقال:

«لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقّه واتخذوا الأنداد [٢٣٩] معه واجتالتهم [٢٤٠] الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته». فالواقع لقد كانت إنعدام معرفة هؤلاء بالله سبحانه سبباً لأنّ يهوا في أودية الشرك الرهيبة ومن ثم تتلقفهم الشياطين فتصدّمهم عن طاعة الله وعبادته. أما بشأن المراد بهذه العدة وماهية العهد الإلهي، فقد أشار أغلب المفسرين وشراح نهج البلاغة إلى أنّ المراد به ميثاق عالم الذر، ويمكن اعتبار ذلك إشارة إلى الفطرة [٢٤١] التي تطرق لها الإمام عليه السلام في عباراته اللاحقة.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٤١

وبعبارة أخرى فإن الله قد خلق الإنسان على هذه الفطرة الطاهرة التي تجعله يتعرف على حقيقة التوحيد في باطنه ويتطلع إلى الخير وينبذ الشر. ولو بقيت هذه الفطرة السليمة على حالها لحفت العناية الإلهية الإنسانية جمعاء ولهدتها إلى السمو والكمال ولسهل لهم الأنبياء السبل إلى ذلك الكمال ولقل حجم المسؤولية التي نهض بعبئها هؤلاء العظام، غير أنّ الانحراف عن الفطرة سواء على مستوى المعارف التوحيدية ليتهاي بالزور نحو الشرك والوثنية وعلى المستوى العملي ليقود الاستسلام إلى الأهواء والشياطين، قد أدى إلى مواترة بعث الله للأنبياء وتحملهم لتلك المسؤوليات الخطيرة بغية إعادة البشرية إلى فطرتها الأصلية، وهذا ما تطرق له الإمام عليه السلام في العبارات اللاحقة من الخطبة والتي أشار فيها إلى عظم مسؤوليات الأنبياء وما اتصفوا به من خصال عملية ومكارم أخلاقية.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى فلسفة بعثه الأنبياء فقال:

«فبعث فيهم رسله وواتر [٢٤٢] إليهم أنبيائه ليستادوهم ميثاق

فطرته ويزكروهم منسى نعمته ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويشيروا لهم دفائن العقول».

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى أربعة أهداف رئيسية تقف وراء بعث الأنبياء. أولها:

طلب أداء ميثاق الفطرة فقد ذكرنا أنّ الله سبحانه قد أودع المعارف التوحيدية فطرة الإنسان التي تقوده بصورة طبيعية - مالم تدنس وتلوث وتتعرف على الانحراف ودون نشأة صاحبها وولادته على الشرك بفعل انحداره من والدين مشركين - إلى عبادة الواحد الأحد وسوف يتطلع إلى الصالحات ويعشق الحق والعدل في ظل هذه الفطرة السليمة الموحدة، فقد جاء الأنبياء ليعيدوا الأفراد المنحرفين إلى هذه الفطرة التوحيدية المودعة لديهم.

الهدف الثاني: لتذكير الناس بنعم الله التي اعترتها الغفلة والنسيان، فالإنسان ينطوى على نعم مادية ومعنوية جمّة ولو استغلها كما ينبغي

فأنه سيشيد صروح سعادته وفلاحه في حين سيفقد مثل هذه السعادة إذا ما نساها وتجاهل استعمالها واستغلالها. ومثله كمثل الفلاح

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٤٢

الذي لا يستفيد من المياه لسقى أشجار حديقته ولا يقطف ثمار أشجاره حين الحصاد. فإذا ما جاء أحدهم وذكره بهذه النعم المنسية فانه يكون قد أسدى له أعظم خدمه، وهذا ما ينهض به الأنبياء.

الهدف الثالث: اتمام الحجّة على الناس من خلال الأدلة العقلية- إلى جانب المسائل الفطرية- وإرشادهم إلى الكمال في ظل التعاليم السماوية والأوامر والأحكام الشرعية.

الهدف الرابع: «يثيروا لهم دلائل العقول» ليكشفوا للناس كنوز العلوم والمعارف الكامنة في عقولهم، فقد أودع الله هذه العقول كنوزاً عظيمة قيمة لو ظهرت واستغلت لشهدت العلوم والمعارف نهضة عظيمة وجبارة، غير أن هذه الكنوز اختفت واستترت اثر هذه الغفلة والتعاليم الفاسدة والذنوب والمعاصي والتلوث الأخلاقي، ومن هنا فان إحدى وظائف الأنبياء تكمن في إزالة هذه الحجب وإثارة تلك الكنوز المفعملة بالعلوم والمعارف.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الهدف الخامس في استعراض الآيات الإلهية للناس في عالم الخلق فقال عليه السلام: «ويروهم آيات المقدره»

ثم يشير عليه السلام إلى هذه الآيات فيقول:

«من سقف فوقهم مرفوع ومهاد تحتهم موضوع ومعايش تحييمهم وآجال تفنيهم وأوصاب [٢٤٣] تهرمهم [٢٤٤] وأحداث تتابع عليهم». والواقع هي أن هذه الامور تمثل سلسلة من أسرار الخلق في السماء والأرض وعوامل الحياة وأسباب الفناء والألم والعناء والتي تذكر كل واحدة منها الإنسان بالله سبحانه وتعالى إضافة إلى الحوادث والوقائع التي تدعو الإنسان إلى اليقظة والاعتبار، وعليه فان الأنبياء يحملون إلى الناس تعاليم سامية ومفاهيم نبيلة من شأن كل منها رفع المستوى العلمي والمعرفي لدى الإنسان أو إيقاظه من غفلته وجعله يتحلى بالفطنة والذكاء. ثم قال عليه السلام:

«ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجة قائمة»
فالعبارة

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٤٣

تشير إلى أربعة مواضيع لا يعدم الوجود بعضها طرفه عين أبدا؛ الأمر الذي يتم الحجّة على الناس.

- ١- وجود الأنبياء- سواء من كان له كتاب سماوي أم لم يكن- الذي يتضمن هداية البشرية وانتشالها من غفلتها واطمات الحجّة عليها.
- ٢- الكتب السماوية المتداولة بين الأمم رغم وفاة الأنبياء الذين أتوا بها.
- ٣- الأوصياء وأئمة العصمة والذين عبر عنهم الإمام عليه السلام بقوله «حجة لازمة». وهناك من احتمال أن المراد بالحجة اللازمة دليل العقل، لكن يبدو هذا الاحتمال مستبعداً لأنه لا يكفي في هداية الناس، ولا مانع من الجمع بينهما في هذه العبارة.
- ٤- سنة الأنبياء والأوصياء والأئمة والتي عبر عنها بالمحجة القائمة، حيث عنوا المحجة بالطريق الواضح والمستقيم- سواء الظاهري أو الباطني- الذي يوصل الإنسان إلى هدفه المنشود [٢٤٥] وبهذا فان الحق سبحانه قد أتم حجته على كافة الامم والمجتمعات البشرية في جميع الأعصار والأمصا وأمدتهم بأسباب الهداية، ثم تطرق عليه السلام لخصائص هؤلاء الأنبياء فقال:

«رسل لا تقصر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم»

. أجل كانوا مثلاً في الرجولة والأقدام والشجاعة بحيث كان أحدهم يصمد بوجه الآلاف من خصوم الدعوة فيلقى بالنار فتشمله عناية الله ورحمته ليخرج منها سالماً مرفوع الرأس، ويحطم الآخر الاصنام ثم يحتج بالأدلة القاطعة التي تفند عقائدهم الباطلة وتثبت صحته دعواه. كما كان البعض يحاصر من قبل جموع الكفر والشرك بيد عزلاء وقد شهر خصومهم سيوفهم فلم يضعفوا ويهنوا ووقفوا بكل

صمود وشموخ. والجدير بالذكر في خصائص الأنبياء التأكيد هنا على صمودهم وشهامتهم. ثم يواصل عليه السلام حديثه عن الأنبياء وكيفية ارتباط بعضهم البعض الآخر ووحدة رسالتهم وهدفهم فقال:

«من سابق سمى له من بعده أو غابر [٢٤٦] عرفه من قبله»

. فقد حدد عليه السلام في هذه العبارة اسلوب من أساليب التعرف على الأنبياء في أن يقوم نبي بشارة قومه

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٤٤

بالنبي الذي يأتي من بعده وبهذا يعرف النبي من خلال البشارة به. [٢٤٧]

ثم يشير عليه السلام إلى ثبوت هذه السنة قائلاً:

«على ذلك نسلت [٢٤٨] القرون ومضت الدهور

وسلفت الآباء وخلقت الأبناء».

تأملات

١- الأنبياء بمنابة المزارعين

ما تفيده عبارة أمير المؤمنين عليه السلام أن القدرة الإلهية المطلقة قد أودعت الذات الإنسانية قابلية كافة أسباب الخير والصلاح والفلاح، وقد نشرت كافة البذور والرياحين العطرة ساحة قلب الإنسانية الخصب. والأنبياء من جانبهم يقومون برى هذه البذور لتنبت أشجاراً محملة بالثمار والفاكهة فيستثيروا هذه الكنوز الكامنة في النفس البشرية «ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسى نعمته ... ويشيروا لهم دفائن العقول» واستناداً لهذا فان الأنبياء لا يمنحون الإنسان شيئاً خارجاً عن وجوده، بل ينمون ما لديه ويظهروا له مكنونه، حتى ذهب البعض إلى أن التعاليم والمفاهيم التي تلقى على الإنسان إنما تمثل تذكيراً له، فالعلوم والمعارف قد اودعت النفس البشرية وما وظيفة المعلمين- سواء الأنبياء أو امتداداتهم- سوى إثارة هذه المعارف من خلال تعاليمهم، وكأن هذه المعارف مصادر مياه جوفية تشق طريقها إلى سطح الأرض بعد الحفر والتنقيب ولعل التعبير بالتذكير الذي ورد على لسان الآيات القرآنية «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» و «وَذَكَّرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ»

شاهداً على صحة المعنى الذي أوردناه. والواقع أن هذا البحث متشعب وشامل لا يسعنا استيعابه في هذه العجالة.

٢- حوادث الاعتبار واليقظة

لقد تضمنت العبارة المذكورة إشارة إلى حقيقة وهي أن الأنبياء وإلى جانب تعليمهم

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٤٥

الناس المعارف الإلهية الحقّة وبيان آيات القدرة وعظمة خالق الوجود، فانهم يلفتون انتباه الناس إلى الحوادث ذات الدروس والعبر من قبيل حلول الأجل وانتهاء العمر وآجال النعم المادية واستعراض المحن والخطوب والوقائع الشديدة. فالعبارات الواردة في الخطبة إشارة أخرى لفلسفة الأحداث الخطيرة التي تتطوى عليها الحياة البشرية، بحيث لولا هذه الأحداث لغطت البشرية في سبات عميق وحجاب من الغفلة يتعذر معه صحتها وافاقتها من سيادتها. [٢٤٩]

٣- دور الدين في الحياة

الدرس الآخر الذي تعرضت له الخطبة هو دور الدين في حياة الإنسان ولولا الأنبياء لتاهت البشرية في غياهب الشرك والوثنية وعبادة الأصنام ولاستحوذت عليها الشياطين وحالت دون عبوديتها ومعرفتها بالله، وذلك لأنّ العقل بمفرده لا يسعه الأخذ بيد الإنسان إلى السعادة بعد تجاوز موانع الطريق ومعوقاته.

صحيح أنّ العقل نور خالد إلّا أنّ شعاعه باهت خافت مالم يستند إلى ضياء الوحي الذي يخترق المكان ولا يقف عند حدود فيهديه في اجتياز ظلمات الطريق. ومن هنا تتضح جسامه الخطأ الذي أصاب البراهمة الذين تنكروا لبعثه الأنبياء وارسال الرسل. ولو كان العقل يدرك كافة أسرار الإنسان الباطنية والظاهرية ويحيط بالعلاقة التي تحكم الماضي والحاضر والمستقبل ولا يخطئ في تشخيصه للأحداث لأمكن القول بالاكتماء بإدراكه وفهمه لكافة وقائع الحياة في هذا العالم والعالم الآخر، غير أنّ محدودية هذا الفهم والإدراك وضالة المعاليم مقارنة بالمجاهيل (وهي المعاليم التي تتسم بالسعة والشمولية) لا تجعل من الصواب الاستناد إليها بمفردها. طبعاً لا ننكر أنّ العقل هو حجة الله؛ الأمر الذي أكدّه الإمام عليه السلام في هذه الخطبة، بل تواترت الروايات التي صرّحت بأنّه «الرسول الباطني» حيث ورد في الحديث المروي عن الإمام

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٤٦

الكاظم عليه السلام أنّه قال:

«إنّ لله على الناس حجتيين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الحجة الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام وأما الباطنة فالعقول» [٢٥٠]

. مع ذلك فرسالة هذا الرسول الباطن محدودة، بينما ليست كذلك رسالة الرسول الظاهر الذي يستند إلى الوحي والعلم الإلهي المطلق. وبناءً على ما تقدم فقد اتضح الرد على البراهمة السوفسطائيين الذين يقولون: ما يأتي به الأنبياء لا يخرج عن حالتين: إما أن يدرك العقول ما يقوله أو لا يدرك، فإن أدركه العقل فلا حاجة للأنبياء، وإن لم يدركه فليس بمعقول ولا يمكن قبوله لأن الإنسان لا يقبل قبط ما لا يعقل. والإشكال الذي يرد على هذا الاستدلال هو أن هؤلاء لم يفرقوا بين اللامعقول والمجهول، وكأنّهم تصوروا أنّ العقل يدرك جميع الأشياء، والحال لدينا تصنيف ثلاثي بشأن المواضيع المطروحة. فالمواضيع التي تعرض علينا إما أن تكن موافقة لحكم العقل أو مخالفة له أو مجهولة. ولا يسعنا هنا إلّا أن نقول بكل تأكيد أن أغلب الموضوعات من قبيل القسم الثالث؛ أي هي من قبيل المجاهيل التي كرس رسالة الأنبياء وظيفتها في هذا المجال.

أضف إلى ذلك فغالبا ما يعترينا هاجس الخطأ والزلل في إدراكاتنا العقلية؛ ومن هنا برزت حاجتنا الملحة للأنبياء، وبعبارة أخرى إلى تأييد العقل بالنقل الذي يسعه منحنا السكينة والاطمئنان في إدراكاتنا العقلية ويزيل الوسوس والهواجس ويأخذ بأيدينا إلى السبيل القويم.

٤- لا تخلو الأرض من حجة

لقد أكد الإمام على عليه السلام على حقيقة أخرى وهي عدم خلو الأرض من الحجة الإلهية الظاهرية أو الباطنية «ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجة قائمة»

والطريف في كلام الإمام عليه السلام أنّه قرن الكتب السماوية بالأنبياء والحجج الإلهية والسيرة المعترية. نعم وراء كل كتاب سماوي نبي من أنبياء الله يكشف أسراره ويوضح معالمه ويبيّن أحكامه إلى جانب إجراء وتنفيذ مفاهيمه، كما يواصل نهجه بواسطة سنته

نفعات الولاية، ج ١، ص: ١٤٧

واستخلافه للوصى والإمام من بعده ليحفظ رسالته ويواصل نهجه. وهذه من أهم عقائدنا في هذا المجال، حيث ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام أنه قال:

«لو لم يبق في الأرض إلّا اثنان لكان أحدهما الحجّة» [٢٥١]

. وهو الأمر الذى أكده أمير المؤمنين عليه السلام فى قصار كلماته:

«اللهم بلى لا تخلو

الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً وإما خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته» [٢٥٢].

٥- مميزات الأنبياء

إنّ الأنبياء الذين يعثهم الله من أجل هداية الخلق ليسوا من قبيل الأفراد العاديين، بل يتصفون بجميع الخصال والمميزات اللازمة لقيامهم بوظيفتهم الرسالية الخطيرة ومنها البسالة والشجاعة الفائقة فى ابلاغ الرسالة والصمود بوجه خصوم الدعوة من الأقوام الجاهلة والمعاندة والذود عن هذه الرسالة إلى حد الاستماتة والشهادة فى سبيل تحقيق أهداف الرسالة.

وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى تصدى الأنبياء لخصومهم والمكذبين والمستهزئين من أعدائهم؛ الأمر الذى يشاهد بوضوح فى تاريخ الأنبياء ولا سيما خاتمهم المصطفى صلى الله عليه وآله:

«رسل لا تقصر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم»

. كما أكد القرآن الكريم على تحلى الأنبياء بصفاتهم مبلغى الرسالات بهذه الصفة: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ» [٢٥٣].

والذى يفهم من عبارة الإمام عليه السلام- كما صرح بذلك صاحب منهاج البراعة- أن التقيّة لاتجوز على الأنبياء، ومن هنا يتضح بطلان ما نسبته الفخر الرازى للشيعة الإمامية من أنّها لا تجوز على الأنبياء حتى إظهار الكفر تقيّة. [٢٥٤] بل الأمر أبعد من ذلك لأنّ التقيّة حرام على الأئمة بل وحتى الأفراد العاديين فى الحالات التى يتعرض فيها الدين للخطر، بعبارة اخرى قد تكون التقيّة واجباً وقد تكون حراماً. فاذا كان تركها يؤدى إلى سفك الدماء دون حلها فهى واجبة،

نفعات الولاية، ج ١، ص: ١٤٨

كأن تقع جماعة من المسلمين فى يد الأعداء بحيث يراق دمهم إذا أظهروا إسلامهم، فهنا يجب عليهم اخفاء دينهم كى لا يمكنوا العدو من قتلهم، فى حين قد يؤدى اخفاء الدين والافصاح عن العقيدة أحياناً إلى ضعف المسلمين وذلتهم، ففى هذه الحالة يحرم على الأفراد كتم دينهم وعليهم أن يكشفوا عنها بكل شجاعة مهما كلف الأمر (وما واقعه كربلاء عنك بعيد التى جسدها فيها الإمام الحسين وصحبه الكرام حرمة التقيّة حفظاً للدين).

ولما كان كتم الأنبياء لمعتقداتهم يهدد أصل رسالتهم كانت وظيفتهم ترك التقيّة. جدير ذكره أنّ التقيّة ليست من المفاهيم التى تقتصر على الشيعة أو المسلمين فحسب، بل مفهوم من المفاهيم العقلانية الذى يدعو الإنسان إلى حفظ نفسه وعدم هدر دمه إذا لم يكن هناك من جدوى لابتداء عقيدته. [٢٥٥]

نفعات الولاية، ج ١، ص: ١٤٩

إشارة

«إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ وَإِتْمَامِ نُبُوتِهِ مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُ مَشْهُورَةً سَمَاتُهُ، كَرِيمًا مِيلَادُهُ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلُّلٌ مُتَفَرِّقَةٌ وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ وَطَرَائِقُ مُشْتَتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهِهِ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِقَاءَهُ وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، وَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقَامِ الْبُلُوَى فَقَبِضَهُ إِلَيْهِ كَرِيمًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَلَفَ فِيكُمْ مَا خَلَفَتِ الْأَنْبِيَاءُ فِي أُمَّهَا إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلًا بَغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ وَلَا عِلْمٍ قَائِمٍ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة إلى أربعة أمور:

- ١- قضية بعثه نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وبعض خصائصه وصفاته وفضائله وعلائم نبوته.
- ٢- الوضع الذي كانت تعيشه الأمة أبان انبثاق الدعوة الإسلامية من حيث الانحرافات الدينية والعقائدية وانقاذها من تلك الظلمات بنور رسالة النبي صلى الله عليه وآله.
- ٣- رحيل النبي صلى الله عليه وآله من الدنيا.
- ٤- الارث الذي خلفه النبي صلى الله عليه وآله للأمة (القرآن الكريم).

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٥٠

فقد قال عليه السلام:

«إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِإِنْجَازِ [٢٥٦] عِدَّتِهِ وَاتِمَامِ نُبُوتِهِ [٢٥٧]».

ثم أشار إلى شمة من فضائله والميثاق الذي أخذ من النبيين من قبله بالبشارة به

«مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُ مَشْهُورَةً سَمَاتِهِ [٢٥٨]، كَرِيمًا مِيلَادُهُ»

ولعل العبارة الأخيرة إشارة إلى كرامته آبائه وأجداده، أو بركات ولادته التي عمت أرجاء العالم، فقد صرحت بعض السير التاريخية بتهاوى أوثان الكعبة وانطفاء نار المجوس وجفاف بحيرة ساوة التي كانت تحظى بعبادة بعض الناس وتهدم قصور بعض الجبابرة تزامناً مع الولادة الميمونة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكل هذه الأحداث دلالة واضحة على بداية عصر جديد بانطلاقة شرارة التوحيد والوقوف بوجه كافة مظاهر الشرك والالحاد. ثم قال عليه السلام:

«وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلُّلٌ مُتَفَرِّقَةٌ وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ وَطَرَائِفُ مُشْتَتَةٌ بَيْنَ مُشَبِّهِهِ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ».

«ملحد» من مادة «لحد» على وزن مهد بمعنى الحفرة الواقعة على جانب ومن هنا اطلق على مثل هذه الحفرة اسم اللحد، كما اطلق الالحاد على كل عمل يخرج عن حالة الاعتدال ويجنح نحو الإفراط والتفريط، ومن هنا نعت الوثنية والشرك بالالحاد. وعليه فالمراد بقوله عليه السلام:

«ملحد في اسمه»

هو ما أشرنا إليه سابقاً من نعت الأصنام بأسماء الله، على سبيل المثال كانوا يسمون أحد الأصنام باللات والآخر بالعزى والثالث بمناء، وهى الأسماء التى اشتقت على التوالى من أسماء الله والعزى والمنان، أو أن يكون المراد منها اضافة صفات الله على المخلوقين، ولا مانع من الجمع بين التفسيرين. ثم قال عليه السلام:

«فهداهم به من الضلالة وانقذهم بمكانه من الجهالة، ثم اختار سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله لقاءه، ورضى له ما عنده، وأكرمه

عن دار الدنيا ورغب به عن مقام البلوى» [٢٥٩].

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٥١

أجل فقد قبضه إليه قبض اختيار وكرامة

«فقبضه إليه كريماً صلى الله عليه وآله»

وقد ورث أمته ما ورثت الأنبياء من قبله اممها

«وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في اممها»

– فالأنبياء لم يتركوا اممهم من بعدهم سدى، بل أضاءوا له معالم الطريق ونصبوا عليهم الحجج

«إذ لم يتركوهم هملاً» [٢٦٠] بغير طريق واضح ولا علم قائم»

. من البدايه أن يكون مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة ما ورد في حديث الثقلين الذي تواترت الروايات بشأنه حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً وقد نبأني اللطيف الخبير إنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض». [٢٦١]

وبالطبع فإن الإمام عليه السلام واصل حديثه في بحث جامع عن كتاب الله (القرآن الكريم) إلا أنه لم يتطرق إلى العترة، حيث تعرض بصورة مفصلة – كما سنشير لاحقاً – إلى العترة في عده خطب من نهج البلاغة. ولعل عبارته عليه السلام:

«علم قائم»

في آخر كلامه إشارة إلى الأوصياء. على كل حال فإن حرص الأنبياء على اممهم لم يقتصر على حياتهم، بل كانوا قلقين على مستقبلهم إلى حد يفوق قلق الوالد الشفيق حال احتضاره على ولده الصغير؛ ومن هنا يتعذر تصور ترك الأنبياء لاممهم دون استخلافهم لأوصياءهم عليهم لكي لا تذهب مساعيهم في إرشاد الأمة وهدايتها أدراج الرياح.

تأملان

١- الأديان قبل البعثة النبوية

لقد تضمنت عبارته عليه السلام إشارات مقتضبة عميقة المعنى بشأن أديان العرب وغير العرب في العصر الجاهلي وقبل البعثة النبوية. بحيث صرح المؤرخون والمحققون بأن العرب وعلى غرار سائر الأقوام كانت تعيش عده أديان ومذاهب لا يحصى عددها إلى جانب الانحرافات والخرافات الجمّة. وقد قال ابن أبي الحديد – الشارح المعروف لنهج البلاغة – بشأن أديان

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٥٢

العرب في الجاهلية: فأما الامّة التي بعث النبي محمد صلى الله عليه وآله فيها فهم العرب، وكانوا أصنافاً شتى، فمنهم معطلة ومنهم غير معطلة، فأما المعطلة منهم، فبعضهم أنكر الخالق والبعث والاعادة، وقالوا ما قال القرآن العزيز عنهم: «ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر» [٢٦٢] فجعلوا الجامع لهم الطبع، والمهلك لهم الدهر. وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعث. وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله: «قال من يحيى العظام وهى رميم» [٢٦٣].

ومنهم من لا يطلق عليها لفظ الشريك، ويجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه، وهم الذين قالوا: «ما نعبدُهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» [٢٦٤]. وكان في العرب مشبهة ومجسمه، منهم أمية بن الصلت، وهو القائل:

من فوق عرش جالس قد حط رجله إلى كرسية منصوب وذهب بعض متكلمي المجسمه إلى أن البارئ تعالى مركب من أعضاء على حروف المعجم. وقال بعضهم: إنه ينزل على حمار في صورة غلام أمرد، في رجله نعلان من ذهب، وعلى وجهه فراش من ذهب يتطاير. وقال بعضهم: إنه في صورة غلام أمرد صبيح الوجه، عليه كساء أسود، ملتحف به. [٢٦٥]

وأما الذين ليسوا بمعطله من العرب؛ فالقليل منهم، وهم المتألهون أصحاب الورع والتحرج عن القبائح كعبد الله، وعبد المطلب وابنه أبي طالب، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة الابدأى، وعامر بن الظرب العدوانى وجماعة غير هؤلاء. [٢٦٦] أما البعض الآخر من شراح نهج البلاغة فقد صنّفوا علماء العرب إلى عدّة طوائف منهم العارفين بالانساب، ومفسرى الأحلام ومتخصصين فى علم الأنواء (نوع من التنجيم المشوب بالخرافات) والكهنة الذين يوحون إلى الناس بأنهم يخبرون عن مغيبات المستقبل. أما من غير العرب كان البراهمة الذين عاشوا فى الهند ينكرون كافة الأديان ولا يؤمنون سوى بالأحكام العقلية. وطائفة اخرى من عبدة الكواكب والشمس والقمر التى تمثل أنواعاً من الوثنية [٢٦٧].

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٥٣

وإلى جانب هذه الطائفة هناك اليهود والنصارى والمجوس. وقد شهدت كل طائفة منهم انحرافاً عقائدياً، فالمجوس قالت باله الخير والشر. وقد انطوت المجوسية- التى قد تكون فى بدايتها منسوبة لبعض الأنبياء- على خرافات جمّة حتى ذهب بعض المحققين إلى أنّهم يعتقدون باله الخير واله الشر الذين تقاطلا حتى تدخلت الملائكة فأصلحت ذات بينهما بشرط تفويض العالم السفلى لاله الشر مدة سبعة آلاف سنة (ويفوض العالم العلوى لاله الخير). [٢٦٨]

بينما ابتليت النصرانية بالتثليث (الأقانيم الثلاث) كما حرفت اليهود كتاب التوراة وشحنته بالانحرافات والخرافات التى لا يسعنا الخوض فيها فى هذه الابحاث. فقد أوجز الإمام جميع هذه الطوائف فى ثلاث: الاولى: المشبهة التى جعلت لله شريكاً، كالمجوس والنصارى أو أولئك الذين يجعلون لله صفات المخلوقين كاليهود. الثانية: أولئك الذين عدلوا باسمه إلى غيره كأغلب الوثنيين الذين أسموا أوثانهم بأسماء الله سبحانه فجعلوهم شفعاثهم عند الله. الثالثة: أولئك الذين عبدوا غير الله كالدهرية التى تعتقد بأن الطبيعة هى خالقة الوجود، أو عبدة الأصنام والكواكب والشمس والقمر التى ترى الاصاله للكواكب والأصنام؛ أى تراها هى الله.

أجل لقد بعث رسول الله صلى الله عليه وآله فى ظل هذه الأوضاع ليحمل مشعل الهداية ويضىء الظلمات بنور القرآن. لقد أتى رسول الله صلى الله عليه وآله تلك الامم بأسمى مفاهيم التوحيد وأعظم المعارف والعلوم وأرصن الصفات الإلهية، حيث جاءهم بالحنيفية السمحاء الخالية من الأساطير والخرافات والانحرافات التى سادت سائر الأديان، ولم تهدف قوانينه وتعاليمه سوى إلى حماية المحرومين والمستضعفين وبسط العدل والقسط وحتى أوجز القرآن الكريم وظيفته فى انقاذ الامّة من الضلال المبين وتعليمها الحكمة وتهذيب نفوس أبناءها: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» [٢٦٩].

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٥٤

نعم لقد ظهرت معالم الدين الحق بظهور هذا النبى الكريم وانهارت الأساطير والخرافات لتشهد البشرية عصرها الجديد؛ الحقيقة التى أذعن لها الأعداء فضلاً عن الأصدقاء والفضل ما شهدت به الأعداء. فقد تناول الكاتب الانجليزى المعروف «برناردشو» هذا الأمر ليصف دين محمد بأنه الدين الوحيد الذى يصلح لقيادة البشرية ويتكيف مع حياتها على مدى التاريخ بحيث يسعه استقطاب جميع الشعوب والأقوام، كما ذهب إلى القول بأن محمد منقذ البشرية جمعاء ولو قدر لزعيم على غراره أن ينهض بقيادة العالم اليوم لتغلب على كافة المشاكل التى تعانى منها الإنسانية ولقادها إلى السعادة والسلام، فمحمد أكمل إنسان عرفه الماضى والحاضر ولا يتصور أن يوجد الزمان بمثله فى المستقبل. [٢٧٠]

٢- آفاق الأنبياء المستقبلية

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام في هذه الخطبة أن تفكير الأنبياء والرسل لا يقتصر على عصرهم، بل يفكرون بمستقبل الأمة ومصيرها بعد وفاتهم، ومن هنا جهدوا في تبين كل مامن شأنه هدايتهم في المستقبل، فلم يألوا جهداً في إضاءة معالم الطريق وبيان سبل النجاة.

ولا شك أن نبي الإسلام لم يكن بدعا من الرسل في هذا الشأن. أو يمكن تصور تركه للأمة بعد رحيلها عنها؟ أفكان يسعه وداع الأمة وايكالها إلى نفسها دون دليل على الطريق؟ أو ليس حديث الثقلين المتواتر لدى الشيعة والسنة والذي قال فيه:

«إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»

نموذج من نماذج إضاءة الطريق للأمة من بعده و صونها من اللبس والانحراف؟
نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٥٥

القسم الرابع عشر: خصائص القرآن

إشارة

«كِتَابِ رَبِّكُمْ فِيكُمْ: مُبَيَّنًّا حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ وَفَرَائِضَهُ وَفَضَائِلَهُ وَنَاسِيحَهُ وَمَنْسُوحَهُ وَرُخَصَهُ وَعَزَائِمَهُ وَخَاصَّهُ وَعَامَّهُ وَعَبْرَهُ وَأَمْثَالَهُ وَمُؤَسِّلَهُ وَمَحْدُودَهُ وَمُحَكَّمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ، مُفَسَّرًا مُجْمَلًا وَمُبَيَّنًّا غَوَامِضَهُ، بَيْنَ مَا أُخِذَ مِيثَاقُ عِلْمِهِ وَمُوسَّعَ عَلَى الْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ وَبَيْنَ مُثَبَّتٍ فِي الْكِتَابِ فَرْضُهُ وَمَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسِيحُهُ وَوَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ وَمُرَخَّصٍ فِي الْكِتَابِ تَرْكُهُ وَبَيْنَ وَاجِبٍ بِعَوَاقِبِهِ وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ وَمُبَايِنٍ بَيْنَ مَحَارِمِهِ مِنْ كَبِيرٍ أَوْ عَدَ عَلَيْهِ نِيرَانُهُ أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ مُوسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ».

الشرح والتفسير لقد بحثت أهمية القرآن الكريم وعظمته كراراً ومراراً في خطب نهج البلاغة بحيث تناولت كل خطبة جانباً من الجوانب القرآنية.

وقد أشار الإمام عليه السلام بشكل جامع إلى شمولية القرآن وخطوطه العريضة في هذه العبارات، فقد هدف الإمام عليه السلام لبيان حقيقة مهمّة وهي أن رسول الله صلى الله عليه وآله رحل عن الأمة بعد أن ورثها كتاب الله الذي نظم جميع شؤون حياة الأمة المادية والمعنوية؛ الفردية والاجتماعية في كافة الميادين والمجالات؛ فقد قال عليه السلام:

«كتاب ربكم فيكم» [٢٧١]

ثم أشار عليه السلام إلى أربعة عشر نقطة بشأن شمولية القرآن وخصائصه:

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٥٦

١- اتضاح الحلال والحرام والواجب والمستحب

«مبيّنًا حلاله وحرامه وفرائضه وفضائله»

. والعبارة إشارة إلى الأحكام الإسلامية الخمس المعروفة، فالفرائض إلى تشير الواجبات، والفضائل إلى المستحبات، والحرام إلى

المحرمات وأخيراً الحلال الذي يشمل المباحة والمكروهات. [٢٧٢]

٢- بيان الناسخ والمنسوخ

«وناسخه ومنسوخه».

المراد بالناسخ والمنسوخ الأحكام الجديدة التي تزيل الأحكام القديمة والتي تقتصر على عصر الرسالة حين نزول الوحي الذي كان يعنى إمكانية تغيير الأحكام. فبعض الأحكام وإن كانت مطلقة في ظاهرها، غير أنها مقيدة باطنياً ومختصة بزمان معين، فإذا انتهى ذلك الزمان نفذ حكمها بحكم جديد آخر يطلق عليه اسم الناسخ من قبيل التصديق قبل مناجاة النبي صلى الله عليه وآله:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجِئْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ» [٢٧٣]. فقد كان هذا الأمر امتحاناً للمسلمين لم يعمل به سوى أمير المؤمنين عليه السلام حتى نسخ بقوله تعالى: «أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صِدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» [٢٧٤].

-٣-

«ورخصه وعزائمه»

. ففعل هذه العبارة إشارة إلى ما تعارف اليوم في علم الفقه والأصول بأن حكم الواجب أو الحرام إذا رفع قد يستبدل بحكم الإباحة كقوله: «وَ إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا» [٢٧٥]. فمن المسلم به أن الصيد ليس واجباً بعد الخروج من الاحرام، بل مباح، وأحياناً يستبدل بحكم ضده، كقوله: «وَ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ» [٢٧٦] ومعلوم أن صلاة القصر في السفر واجبة ليست مباحة، فيقال للاولى

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٥٧

رخصة وذلك لجواز طرفي العمل ويقال للثانية عزيمة حيث يجب على المكلف جزم عزمه بالعمل. وهنالك احتمال آخر في تفسير هاتين المفردتين، كأن يكون المراد بالرخص الأحكام الواجبة أو المحرمة التي استثنت في بعض الموارد من قبيل قوله: «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» [٢٧٧]. أمّا العزائم فهي الأحكام التي لا- سبيل إلى الاستثناء إليها، كقوله: «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» [٢٧٨].

-٤-

«وخاصه وعامه»

، فالخاص هو الحكم الذي لا يشمل كافة المسلمين كحكم الحج الذي يختص بمن له الاستطاعة «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» [٢٧٩] والعام هو الحكم الذي يشمل جميع المسلمين كاقامة الصلاة «وأقيموا الصلاة». وقيل أيضاً بالمراد بالخاص الآيات التي لها ظاهر عام غير أن المراد بها حالة خاصة كآية الولاية: «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» [٢٨٠]. حيث نعلم بوجود مصداق واحد لهذه الآية فقط وهو أمير المؤمنين على عليه السلام.

أمّا العام فيراد به الآيات ذات العموم والتي تشمل الجميع كقوله عز وجل: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا» [٢٨١].

-٥-

«وعبره وأمثاله»

، عبر من مادة عبرة وقد اشتقت من العبور، ولذلك يصطلح بالعبرة على الحادثة التي تعرض للإنسان ويتخطاها، والقرآن الكريم مليء بالدروس والعبر بشأن تواريخ الأنبياء والأمم السالفة حيث تتضمن كل حادثة من تلك الحوادث المعاني والدروس للقيمة التي تستفيدها البشرية في مسيرتها الحياتية.

أمّا الأمثال فقد تكون إشارة إلى الأمثال التي وردت في القرآن الكريم بتلك الكثرة من قبيل: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ» [٢٨٢]، كما يمكن أن تكون إشارة إلى بعض

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٥٨

الأفراد الذين أصبحت سيرتهم وحياتهم مثلاً يحتذى به كقوله عز من قائل: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فَرَعَوْنَ إِذِ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ

لِي عِنْدَكَ يَبْتَئَا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» [٢٨٣].

٦- كما بين القرآن أحكام المطلق والمقيد

«ومرسله ومحدوده»

فالمطلق الأحكام التي بينت دون قيد أو شرط كقوله سبحانه: «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ» [٢٨٤] وأما المقيد فهو الحكم الذي وضعت له بعض القيود والحدود كقوله: «تِجَارَةٌ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ» [٢٨٥].

ومن الواضح أن الجمع بين المطلق والمقيد يتطلب منا تقييد المطلق بواسطة المقيد، ففي المثال المذكور لا تصح المعاملة إلا بتراضي الطرفين. ويمكن أن يكون المراد بالمطلق الأحكام الخالية من القيود والشروط، في حين الأحكام المقيدة هي الأحكام المحددة بالقيود والشروط من قبيل كفارة القسم التي جاء فيها «أَوْ تَخْرِيرُ رَقَبَةٍ» [٢٨٦]، بينما جاء في كفارة القتل الخطأ «فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ» [٢٨٧].

٧-

«ومحكمه ومتشابهه»

. فالمراد بالمحكم الآيات الواضحة الدلالة التي لا تحتل سوى وجه واحد كقوله سبحانه:

«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»

بينما تحتل الآيات المتشابهة عدّة وجوه، وإن أمكن بيانها من خلال سائر الآيات القرآنية كقوله:

«إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» [٢٨٨]

حيث يزال ابهام هذه الآية وغموضها من خلال الآيات التي نزهت الله عن المكان والزمان والجهة والجسم والرؤية وما إلى ذلك كقوله: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» [٢٨٩].

٨- من الخصائص الأخرى هي بيان لمجمل القرآن وغوامضه من خلال السنّة النبوية «مفسراً مجمله ومبيناً غوامضه». فالمجمل الآيات التي تأمر بأقامة الصلاة ولم تشر إلى أركانها وعدد ركعاتها فيقوم النبي صلى الله عليه وآله بشرحها، أما المراد بالغوامض الحروف القرآنية المقطعة

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٥٩

والتي بينت بواسطة الأحاديث النبوية. ولعل الفارق بين الغوامض والمتشابهات تنطوي على معان ومفاهيم للوهلة الأولى بينما يكتنف الأولى الابهام كالمثال السابق.

٩- هناك بعض الحقائق القرآنية التي أخذ الميثاق على معرفتها ولا يعذر أحد بجهلها في حين يعذر في بعضها الآخر:

«بين مأخوذ ميثاق علمه وموسع على العباد في جهله»

فالحقائق التي لا يعذر أحد بجهلها من قبيل آيات التوحيد والصفات الإلهية التي تجب معرفتها على جميع المؤمنين، والثانية من قبيل الذات الإلهية التي ليس لأحد من سبيل إلى معرفتها وكذلك مسألة المعاد والقيامة التي ينبغى الإيمان بها، في حين ليست هنالك من ضرورة للإلمام بالتفاصيل المتعلقة بالجنّة والنار.

١٠- وهناك بعض الأحكام القرآنية المختصة بزمان معين والتي نسختها السنّة النبوية «وبين مثبت في الكتاب فرضه ومعلوم في السنّة نسخه» من قبيل عقاب المرأة المحصنة بالحبس المؤبد إذا ارتكبت فاحشة الزنا «وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا» [٢٩٠] ثم نسخت السنّة النبوية هذا الحكم بالأحاديث التي وردت في باب رجم المحصنة.

١١- الآيات الناسخة للسنّة بشأن بعض الأحكام التي صرّحت السنّة بالعمل بها بينما أجازت الآيات القرآنية تركها «وواجب في السنّة

أخذه ومرخص في الكتاب تركه» من قبيل حكم الصوم في بداية التشريع حيث لم يكن يسع الصائم الافطار سوى أوائل الليل، فإذا نام وأفاق لم يجز له تناول شيء من المفطرات، غير أن هذه السنة النبوية نسخت فيما بعد بالآية القرآنية الشريفة: «... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ» [٢٩١].

١٢- الأحكام الواجبة لبعض الأوقات

«وبين واجب بوقته وزائل في مستقبله»

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٦٠

فالعبرة تشير إلى الواجب المؤقت وغير المؤقت؛ الواجب المؤقت من قبيل صوم شهر رمضان وارتفاعه في غير هذا الشهر، خلافاً للتكاليف الدائمة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحق والعدل الواجبة على الدوام [٢٩٢]. وذهب البعض إلى أن العبارة تشير إلى بعض الواجبات كالحج الذي يجب على المكلف لمرّة واحدة في العمر ثم يزول، واستدلوا على ذلك بالهجرة التي وجبت على المسلمين في بداية انبثاق الدعوة الإسلامية- حيث كان المسلمون يعيشون حالة من المحذودية- ثم زال هذا الوجوب بعد فتح مكة، وإن كانت الهجرة على حالها إلى يومنا هذا في المناطق التي تشهد الحالة المكية قبل الهجرة.

١٣- فرز أنواع المحرمات عن بعضها وبيان كل واحدة منها في إشارة إلى الكبائر التي توعدها الله مرتكبيها والصغائر التي وعد بمغفرتها «ومباين [٢٩٣] بين محارمه من كبير أوعد عليه نيرانه

أو صغير أُرصد له غفرانه»

فالكبائر من قبيل الشرك وقتل النفس التي صرّحت الآيات القرآنية بتوعدها مرتكبيها بالعذاب، فقد ورد في الآية ٧٢ من سورة المائدة بخصوص الشرك «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ» وفي الآية ٩٣ من سورة النساء بشأن قتل النفس «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا» وأمّا الصغائر فمن قبيل اللطم الواردة في الآية ٣٢ من سورة النجم «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ» حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد باللمم انعقاد النية على المعصية دون الإتيان بها أو المعاصي عديمة الأهمية.

١٤- الأعمال التي يقبل القليل منها وورد الحث على كثيرها «وبين مقبول في أدناه، موسع في أقصاه». فالعبرة تشير إلى الأعمال التي ورد التأكيد على الإتيان بقليلها وللأمانة الإتيان بالمزيد.

وقد استدلل بعض شراح نهج البلاغة على ذلك بتلاوة القرآن «فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ» [٢٩٤]. فقراءة اليسير من القرآن مؤكدة وترك للناس قراءة الكثير (وهذا ما نلمسه

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٦١

بوضوح في أواخر سورة المزمل). وبالمقابل هنالك الأحكام الإلزامية التي لا يسير ولا كثير فيها من قبيل صوم شهر رمضان، حيث يلزم المكلف بصوم شهر معين دون زيادة أو نقيصة (الآيات ١٨٣ إلى ١٨٥ من سورة البقرة).

تأملات

١- شمولية القرآن

المسألة الأولى التي تطالعنا في كلام الإمام عليه السلام شمولية القرآن الكريم، أو بعبارة أخرى اعجاز القرآن من حيث المضمون؛ لأن خاض من خلال النقاط الأربعة عشر بشأن القرآن في تفاصيله الدقيقة وتنوع مضامينه على جميع المستويات في إطار تلبية لمتطلبات

الإنسان و احتياجاته من حيث الامور العقائدية والقضايا العلمية والأخلاقية والأحكام الواجبة والمحرمة والعلاقة القائمة بين القرآن والسنة والأحكام الثابتة والمؤقتة والعام والخاص والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ، حيث يفيد تأمل هذه الامور مدى حساسية المضامين القرآنية المدروسة والتي تنسجم ومتطلبات الإنسانية. فالمضامين الرصينة الدقيقة والعميقة المتنوعة والشاملة- كما أشرنا إلى ذلك في بحث اعجاز القرآن- تمثل أحد أبعاد اعجاز القرآن فأدنى لإنسان امي تربي في وسط الجهل والظلام أن يأتي بمثل هذا الكتاب مكتفياً بما يمليه عليه فكره دون الاستناد إلى فيوضات الغيب والوحي؛ الكتاب الذي غص بالدروس والعبر والأمثال الرائعة البليغة والأحكام الجامعة والمعارف الجمّة العميقة. والطريف في الأمر أن الإمام عليه السلام بهذا البيان القصير قد استعرض دورة جامعة في الاصول الفقهية وأشار إلى موضوعات واسعة لم تتكامل في علم الاصول إلا بعد قرون طويلة، ثم فصل الأحكام عن بعضها البعض ليميط اللثام عن القواعد المتعلقة بالحلال والحرام والناسخ والمنسوخ والرخصة والعزيمة والخاص والعام والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه والمجمل والمبين والمؤقت وغير المؤقت والواجب والمستحب المؤكد والمستحب غير المؤكد.

٢- من عنده علم الكتاب؟

يفهم من عباراته عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله موظف بتبيين بعض مجملات القرآن الكريم وإزالته

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٦٢

غوامضه بما لا يدع لأحد من مجال للشك، ولهذا قال القرآن المجيد: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ» [٢٩٥]. قد يقتدح في الأذهان سؤالاً: كيف يحتاج القرآن إلى تفسير مجمله وإزالته غوامضه وتبيين مبهمه وقد نزل هداية للناس ولا بد للعامّة من فهمه وإدراكه؟ وللإجابة على هذا السؤال لابد من الالتفات إلى أمرين:

الأول: إن القرآن بفضلته يتضمن سلسلة من القوانين والأحكام الإسلامية لا يسعه أن يخوض في التفاصيل، فهو يشير إلى هذه القوانين على نحو العموم بينما يفوض شرحها والخوض في تفاصيلها إلى النبي صلى الله عليه وآله. على سبيل المثال فقد وردت أحكام الصلاة والحج والصوم وبعض كلياتها في القرآن الكريم، ونعلم جميعاً أن هذه العبادات تشتمل على شرائط وركان وفروع كثيرة يحتاج شرح كل ركن منها إلى كتاب مستقل، بل هناك الامور التي تتطلب عدّة مجلدات من قبيل الامور المرتبطة بالمعاملات والقضاء والحدود والشهادات والسياسات الإسلامية بصورة عامة.

الثاني: أن حاجة الأمة للنبي صلى الله عليه وآله في تبيين المبهمات وتفسير المجملات تؤدي إلى تعزيز ارتباطها بالسنة النبوية؛ الارتباط الذي يهديها وينير معالم طريقها في جميع الميادين، وبعبارة اخرى فان القرآن ليس بدعاً من الكتب التي يتطلب فهم بعض مواضعها من قبل الطلاب وجود المعلم، الذي يسعه ايضاح الحقائق لتلامذته من خلال الرابطة السائدة بينهما. وهنا يبدو هذا السؤال: هل يوجد مثل هذا المعلم الإلهي في الوسط الإسلامي بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله أم لا؟ لا شك. لابد أن يستمر وجود مثل هذا المعلم وإلا بقيت المشاكل على حالها دون حل وبيان. ومن هنا اعتقدت الشيعة بوجود الإمام المعصوم في كل عصر والذي لديه علم الكتاب، وهذا ما يراد بالعترة الواردة في حديث الثقلين المتواتر المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله، والتي أشار إلى امتناع مفارقتها للكتاب إلى يوم القيامة، فقال صلى الله عليه وآله:

«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ما إن تمسكتن بهما لن تضلوا أبداً وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» [٢٩٦].

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٦٣

٣- معيار التمييز بين الكبار والصغار

هناك اختلاف بين العلماء بشأن الكبائر والصغائر. فقد اعتبرهما البعض من قبيل الامور النسيئة التي تخضع للمقارنة في أهميتها، فما كانت أهميتها كبيرة فهي من الكبائر وما كانت أهميتها صغيرة فهي من الصغائر (وقد نسب المرحوم الطبرسي في مجمع البيان هذا القول إلى الشيعة، ويبدو أنه أراد بعض علماء الشيعة، لأن أغلبهم يرى غير ذلك كما سنشير لاحقاً).

وقال البعض الآخر أن الكبيرة كما يتضح من اسمها هي المعصية الكبيرة حقاً والتي تحظى بأهمية لدى الشرع والعقل كقتل النفس وغصب حقوق الآخرين والربا والزنا- ولعل هذا هو الدليل الذي جعل الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تصرح بأن المعيار في الكبائر هو الوعيد بالعذاب الإلهي على ارتكابها، فقد جاء في الحديث المعروف الذي روى عن الإمام الباقر والإمام الصادق والإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«الكبائر التي أوجب الله عز وجل عليها النار» [٢٩٧]

ويتضح ممّا مر معنا أن الصغائر ما ليست لها مثل هذه الأهمية. وقد وردت بعض الأحاديث التي أشارت إلى أن الكبائر سبع وقيل عشرون.

٤- الناسخ والمنسوخ وفلسفتهما

لعل هذين الحكمين يثيران الجدل والذهول لدى أغلب الناس وتعجبهم من كيفية اشتمال القرآن على الآيات الناسخة والمنسوخة (فالمراد باناسخ والمنسوخ هو الحكم الذي يلغى حكماً آخر من قبيل استقبال الكعبة في الصلاة التي نسخت حكم استقبال بيت المقدس في الصلاة). وقد تزول هذه الدهشة والذهول بالنسبة للناسخ والمنسوخ في القوانين الوضعية التي يشرعها أفراد البشر؛ لأهم قد يسنون اليوم قانوناً ويكتشفون غداً بعض أخطائه فيعمدون إلى نسخه، ولكن ما بال القوانين التي يشرعها الحكيم سبحانه؟ يمكن خلاصة الإجابة على السؤال المذكور في جملة واحدة وهي أن علم الله المطلق لا يعتره التغيير قط، غير أن بعض الموضوعات تتغير بمرور الزمان. على سبيل المثال قد يكون

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٦٤

هناك دواء هو شفاء لمرض اليوم، إلّا أنه قد يصبح خطراً ومضاعفاً لذلك المرض بعيد مدّة من الزمان. فالطبيب ينصح المريض باستعمال ذلك الدواء إلّا أنه ينسخه فيما بعد ويحظر استعماله على المريض. ويصدق هذا الكلام في الامور الدينية على القبلة مثلاً. فقد تنطوى الصلاة إلى بيت المقدس يوماً على منافع ومصالح معينة إذا كانت الكعبة بؤرة للأصنام والأوثان واتخذت لنفسها بعداً قومياً بحيث يدعو استقبالها في الصلاة أبان انبثاق الدعوة الإسلامية إلى بعض المشاكل، في حين تنتفي هذه المشاكل بالصلاة ثلاث عشرة سنة إلى بيت المقدس. بينما تتحول الكعبة إلى مركز للتوحيد بعيد الهجرة إلى المدينة فتتنطوى الصلاة إلى جانبها على مصالح جمّة وتنعدم الأضرار.

فالواقع هو أن أغلب أحكام النسخ من هذا القبيل؛ وبالطبع فإنّ مباحث النسخ واسعة جداً لا يسعها المقام ولذلك نكتفي بهذه الإشارة العابرة إلى فلسفة النسخ. [٢٩٨]

٥- تاريخ الامم الماضية والأمثال القرآنية

يشغل تاريخ الامم السابقة ولا سيما أنبياء الله حيزاً مهماً من القرآن الكريم المفعم بالدروس والعبر والتجارب القيّمة التي تحتذيها

البشرية في كل عصر ومصر؛ الأمر الذي جعل القرآن يتابع حركة الأنبياء في مختلف السور ويسلط الضوء على تأريخ أحدهم أحياناً (كسردة لوقائع النبي إبراهيم ونوح وموسى وعيسى عليهم السلام) ويكرر قصته في أكثر من سورة، وبالطبع لا نرى كلمة التكرار مناسبة هنا حيث إن القرآن يعرض لزوايه من زوايا هذه القصص في كل مرة، فقد قال عز من قائل: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ» [٢٩٩]. وأحياناً أبعد من ذلك وإضافة إلى التأريخ يدعو البشرية لتأمل آثار الأقسام السابقة والذي يعتبر بحد ذاته نوعاً من أنواع التأريخ التكويني والحي «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ» [٣٠٠].

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٦٥

وإلى جانب القصص والتأريخ فقد درج القرآن على استعمال الأمثال بغيه هداية الناس؛ وقد تكون هذه الأمثال نماذج حية واقعية مستقاة من حياة بعض الأفراد تارة، وتارة أخرى تشبيهات بالأمور الطبيعية في عالم النبات والحيوان وما شاكل ذلك. وقد انطوت هذه الأمثال على جمالية وروعة في الدقة والتصوير بحيث غدت من معجز القرآن التي يقود التأمل فيها والتدبر إلى العودة إلى العقل والرشد «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» [٣٠١].

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى شمولية القرآن الكريم مؤكداً على تدبر قصصه وأمثاله.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٦٧

القسم الخامس عشر: أهمية فريضة الحج

إشارة

«وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنَامِ يَرُدُّونَهُ وُجُوهَ الْأَنْعَامِ وَيَأْلَهُونَ إِلَيْهِ وُلُوهَ الْحِمَامِ وَجَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلَامَةً لِّتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ وَتَشَبَّهُوا بِمَلَائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ يُحْرِزُونَ الْأَرْبَابَ فِي مَتَجَرِّ عِبَادَتِهِ وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْبَاسِلَامِ عِلْمًا وَلِلْعَائِدِينَ حَرَمًا فَرَضَ حَقَّهُ وَأَوْحَى حَجَّهُ وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وَفَادَتَهُ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ».

الشرح والتفسير

لا يعلم أى الأحكام الدينية أشار إليها الإمام عليه السلام بعد بيانه لخصائص القرآن، لأننا نعلم بأن السيد الرضى - جامع نهج البلاغة - لم يروم ذكر خطبه عليه السلام بصورة كاملة بقدر ما كان يختار منها بعض القطوف، مع ذلك فإن التأكيد على فريضة الحج من بين سائر الفرائض الإسلامية المختلفة والفردية وفي خطبة تكفلت بالحديث عن بداية نشوء الخليقة والمراحل المختلفة لسير الإنسان منذ انطلاقة حتى انبثاق الدعوة الإسلامية بظهور خاتم الأنبياء محمد المصطفى صلى الله عليه وآله إنما يتضمن معناً ومفهوماً خاصاً، كما يفيد أن حج بيت الله الحرام يمثل عصارة الفكر الإسلامى وشموليته للمسائل المهمة الفردية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية والسياسية، وهذا ما سنتطرق إليه في آخر البحث. ونخوض الآن في تفسير هذا القسم من الخطبة:

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٦٨

فقد أشار الإمام عليه السلام فى البداية إلى مسألة وجوب الحج، حيث اعتمد عبارات فى غاية الروعة واللفافة بغيه حث المسلمين على أداء هذه الفريضة الإلهية العظيمة، فقال عليه السلام:

«وفرض عليكم حج بيته الحرام»

ثم كشف عن صفة هذا البيت بقوله

«الذي جعله قبله للأنام» [٣٠٢]

فهى القبلة التى يتجه إليها المسلمون فى صلواتهم اليومية على أنها رمز وحدة جميع المسلمين الذين ينظمون صفوفهم فى الاتجاه إليها. ثم يتطرق عليه السلام إلى وصف الشعائر والمراسم التى يؤديها عشاق الحق فيشبههم عليه السلام بالعطاش الذين يردون على الماء العذب والطيور التى تبحث عن الملاذ

«يردونه [٣٠٣] وورود الانعام ويألّهون [٣٠٤] إليه ولوه الحمام [٣٠٥]».

حقاً أنّ من أدرك معنى الحج فأنه يرد البيت على هذه الشاكلة فتكاد روحه وقلبه تسبقه إلى البيت فيعيش الوفادة عليه بكل كيانه ويستعيد به من شر الشياطين وأهواء النفس وتبعات الذنوب فيلبي دعوة الحبيب ويسعى بين الصفا والمروة ويحلق فى أجواء الكعبة التى تفيض بالمعنويات. أما التشبيه بالانعام فلعله إشارة إلى التواضع المطلق الذى يستشعره الحجاج تجاه بيت الله أو حالة الاضطراب حين الاقبال على الكعبة والطواف، أما التعبير بالحمام فذلك لأنه يرمز إلى الحب والسلام والوئام.

جدير بالذكر أنّ مراسم الحج تستهل بالاحرام والتلبية التى تفيد اجابة الدعوة الإلهية، فالله سبحانه قد دعى زوار بيته الحرام للضيافة وقد تقاطر عليه الضيوف بقلوب مفعمة بالعشق لتعيش القرب الإلهي وهم يلمسون معانى الورع والتقوى والانس بالمحسوب. ثم

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٦٩

خاض عليه السلام فى جانب من الجوانب الفلسفية لشعيرة الحج فقال:

«وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته واذعانهم لعزته»

. فأعمال الحج من مناسك ومراسم إنّما تشتمل على أفعال غاية فى التواضع لعظمة الله قلما نجد نظيرها فى سائر الشعائر العبادية. وهذا ما يتجسد بوضوح فى الاحرام والتخلى عن اللباس الفاخر والاكتفاء بثياب الاحرام البيضاء غير الموصولة والطواف فى الكعبة والسعى بين الصفا والمروة والوقوف على جبل عرفه والتوقف فى منى والمشعر الحرام ورمى الجمرات والتقصير ما إلى ذلك من الأعمال التى تحطم ما تعيشه النفس البشرية من غرور وكبر. ثم يشير عليه السلام إلى أنّ الوقوف فى تلك المشاهد المشرفة والوفادة على البيت لمن المفاخر الكبرى والنعم الجزيلة التى يمن الله بها على بعض عباده فيقول عليه السلام:

«واختار من خلقه سماعاً [٣٠٦] أجابوا إليه [٣٠٧] دعوته وصدقوا كلمته».

فقد ورد فى بعض الأحاديث الإسلامية أنّ الله أمر خليله إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة بدعوة الناس إلى الحج.

فقال عليه السلام: إنّ صوتى لا يبلغهم. فجاءه الخطاب: إنّما عليك دعوتهم وعلينا الابلاغ. فارتقى الخليل عليه السلام المقام الذى كان ملاصقاً للكعبة آنذاك فجعل اصبعيه فى أذنيه وقد استقبل الشرق والغرب فنادى بأعلى صوته:

«أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم»

فناداه من خلف البحار السبع مابين المشرق والمغرب بل حتى النطف فى قرارات النساء وأصلاب الرجال ممن سمع صوته

«ولبيك اللهم لبيك» [٣٠٨]

. كما ورد فى الروايات أنّ من لبي حج بعدد تلبيته ومن لم يلب لم يحج [٣٠٩] ثم يواصل الإمام عليه السلام حديثه عن فلسفة الحج وآثاره وبركاته فيقول:

«ووقفوا مواقف أنبيائه وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه».

ولعل التعبير بمواقف الأنبياء يشير إلى كثرة الأنبياء من بعد إبراهيم بل حتى قبله طبقاً لبعض الروايات ممن حجوا البيت [٣١٠] أما العبارة التى صرّحت بتشبههم بالملائكة المطيفين

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٧٠

بعرشه، فقد جاء في الخبر الصحيح أن في السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت. [٣١١] ثم قال عليه السلام:

«يحرزون [٣١٢] الأرباح في متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرتة»

ويالها من تجارة عظيمة مربحة تلك التي يتطهر فيها الإنسان من جميع ذنوبه إذا أتى بالعمل على وجه الصحة؛ بل ورد أنه يعود كيوم ولدته أمه ولا ذنب عليه كما صرحت بذلك بعض الأحاديث الإسلامية.

ثم قال عليه السلام:

«جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً وللعائدين حرماً».

فالواقع هو أن الكعبة تمثل الراهة الإسلامية الخفاقة على الدوام؛ الراهة التي يتمحور حولها المسلمون من أجل تحقيق استقلالهم ومجدهم وعزتهم. وكل عام تنفخ روح جديدة بمشاهدتها في جسد المسلمين ويجرى دم جديد في عروقهم. وما إن يفرغ الإمام عليه السلام من ذكر هذه الفضائل حتى يشير إلى وجوب حج البيت فيقول:

«فرض حقه وأوجب حجه وكتب عليكم وفادته [٣١٣]

فقال سبحانه: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ».

تأملان

إشارة

هنالك عدة مسائل ومباحث متعلقة بالحج لا يمكن استيعابها في هذا البحث، وعليه سنكتفي بالإشارة إلى بعض الامور التي تتمتع بأهمية كبيرة:

١- نبذة تاريخية عن الكعبة

للکعبة- التي يطلق عليها اسم بيت الله الحرام أيضاً- تأريخ عريق يعود إلى زمان آدم عليه السلام

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٧١

حسب ما أشارت الروايات [٣١٤] فأدم عليه السلام هو أول من بناها وطاف حولها، ثم اندرست في الطوفان الذي عم الأرض زمان نبي الله نوح عليه السلام، ثم أعاد بنائها إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل - على ضوء صريح الآيات القرآنية كقوله سبحانه: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ..» [٣١٥]- فأديا مراسم الحج حيث أصبحت الكعبة أول مركز للتوحيد للإنسانية: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِنَاءَ مَبَارَكًا» [٣١٦]. وكما أشرنا سابقاً وعلى ضوء بعض الروايات الصحيحة أن في السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت، وأن البيت أول من عتق من الماء [٣١٧] كما ورد هذا المعنى في قصة دحو الأرض. وقد تظافت الروايات- في نهج البلاغة وغيره من المصادر الإسلامية- التي كشفت عن عظمة الكعبة ومدى أهميتها، ومنها ما روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«ما خلق الله عز وجل بقعة في الأرض أحب إليه منها

- ثم أوماً بيده نحو الكعبة-

ولا أكرم على الله عز وجل منها»

بل ورد في مقدمته هذا الحديث أن النظر إليها عبادة [٣١٨] فالكعبة هي رمز الوحدة الإسلامية التي تتطلع إليها الجماعة الإسلامية في العالم أجمع. جدير ذكره بشأن أهمية البيت أن زرارة- من كبار صحابة الإمام الباقر والصادق عليهما السلام- دخل على الإمام الصادق عليه السلام فقال: (جعلني الله فداك أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتيني). فرد الإمام قائلاً:

«يا زرارة بيت يحج إليه قبل آدم بألفى عام تريد أن تفتي مسأله في أربعين عاماً» [٣١٩]

. فالذي يستفاد من هذا الحديث أن الملائكة والمخلوقات التي عاشت على الأرض قبل آدم عليه السلام كانت تحج البيت. ففي الحديث أن آدم لما قضى مناسكه وطاف بالبيت لقيته الملائكة، فقالت: يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام.
نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٧٢

٢- فلسفة الحج

لقد تضمنت عبارات الإمام عليه السلام إشارات عميقة لفلسفة الحج وما ينطوي عليه من أسرار. إلى جانب ذلك فقد وردت الروايات التي صرحت بمثل هذا المعنى، والذي يخلص إليه من مجموعها أن هذه المناسك العظيمة تشمل على أربعة جوانب هي:

الجانب الأخلاقي والعبادي، الجانب السياسي والاجتماعي، الجانب الثقافي والجانب الاقتصادي.

أما الجانب الأخلاقي والعبادي الذي يمثل أهم جوانب فلسفة الحج بفضل تنبيهه لتربية النفس وتهذب الأخلاق والتحلي بالورع والتقوى والاخلاص. حيث صرحت الروايات الإسلامية بشأن من يحج البيت

«يخرج من ذنوبه كهيئته يوم ولدته أمه» [٣٢٠]

. والرواية بدورها دليل واضح على مدى التأثير الذي يلعبه الحج في النفس الإنسانية وتنقيتها من الذنوب والمعاصي التي دنست عفتها طيلة العمر وهذه أعظم فائدة يصيبها الوافد على بيت الله. ولو التفت الحاج إلى أسرار المناسك التي يؤديها والشعائر التي يؤتى بها فان كل خطوة ستجعله أكثر قرباً من الله ليرى مولاه حاضراً في كل مكان فهو معبوده الحق الذي لا يفارقه طرفه عين. أجل سيعود إلى الحياة من جديد كيوم ولدته أمه.

ولا غرو فمن أدرك الحج بمعناه الحقيقي سيشعر بآثاره الروحية والمعنوية إلى آخر عمره، ولعل هذا هو السبب في وجوب الحج مرة واحدة طيلة العمر.

وأما على صعيد الجانب السياسي والاجتماعي فإن الإتيان بمراسم الحج على ضوء التعاليم الإسلامية والحج الإبراهيمي الذي دعى الناس لامتناله إنما يؤدي إلى عزة المسلمين وتحكيم دعائم الدين وارساء أسس الأخاء والوحدة وتنامي شوكة الدين وصلابته والوقوف بوجه الأعداء والمستكبرين وعلان البراءة من المشركين والملحدون. كما يمنح هذا المؤتمر الإلهي العظيم الذي يعقد كل عام في البيت العتيق المسلمين الفرصة الذهبية في إعادة بناء أنفسهم وتقوية أواصر الاخوة فيما بينهم وحرص صفوفهم بما يحبط مؤامرات أعداء الدين وافشال

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٧٣

خطط الشياطين، وما يؤسف له أن المسلمين لم يقفوا لحد الآن على عظمة الحج ويدركوا كنهه وإلا لتمكنوا- في ظل هذه الشعيرة- من إسداء أعظم الخدمات للإسلام وتسديد أوجع الضربات إلى ركائز الشرك والكفر؛ الأمر الذي نلمسه بوضوح في الروايات الإسلامية ولاسيما تلك التي وصفته:

«لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة» [٣٢١]

. وكان أعداء الإسلام أدركوا الدور العظيم الذى يلعبه الحج على صعيد المسائل السياسية فمارسوا أقصى ردود الفعل تجاهه بغية الحؤول دون تحقيق أهدافه. فهذا «غلاستون»- رئيس وزراء بريطانيا- يخاطب مجلس العموم بأن المسيحية مهددة بالخطر وسنعجز عن إصلاح العالم (طبعاً ليس الإصلاح من وجهة نظرهم سوى الاستعمار) مادام اسم محمد يذكر صباح مساء من على المآذن والقرآن هو دستور حياة المسلمين، الذين يقيمون مراسم الحج كل عام بهذا الشكل [٣٢٢]. بل قيل أن غلاستون اختتم خطابه لمجلس العموم بقوله: يجب عليكم يا ساسة المسيحية أن تزيلوا اسم محمد من آذان المسلمين فتنسونهم ذكره وتحرقون القرآن وتخربون الكعبة. وهناك جملة اخرى معروفة أطلقها أحد زعماء النصرانية في الغرب قائلاً:

«الويل للمسلمين إن غفلوا عن معنى الحج، الويل لمن سواهم إن فهموا معناه»

. وبالبداهة أنهم لا ينوون من هذا الاحراق ظاهر القرآن، كما أنهم لن ينجحوا في تخريب الكعبة، غير أنهم يستطيعون وفي ظل غفلة المسلمين من تحقيق مآربهم بالقضاء على أحكام الدين وافراغ الحج من محتواه الأصيل.

وأما بالنسبة للجانب الثقافى وعلى ضوء الأخبار الإسلامية فان هذه المراسم سوف تؤدي إلى التعريف بالثراء الجم لرسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام وستكون الفرصة مؤاتية بفضل حضور علماء المسلمين ومفكرهم ومن كافة الاصقاع- بما فيهم كبار علماء الدين وكبار الأدباء والفنانين والمثقفين والكتاب الذين يتوافدون على البيت كل عام- لتبادل الأفكار والثقافات والانفتاح على تجارب الآخرين بما يسهم فى إحياء مفاهيم الدين ونشر تعاليم الرسول الكريم صلى الله عليه وآله والهداء الميامين من آله الطيبين الطاهرين.

وأخيراً الجانب الرابع الذى يشير إلى الفلسفة الاقتصادية للحج. فقد وردت الروايات

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٧٤

والأخبار التى تفيد أن من معطيات الحج تفعيل القدرة الاقتصادية للمسلمين وانقاذهم من الأزمات المالية التى تعصف بحياتهم وحياء مجتمعاتهم. ولعل البعض لا يرى من رابطة من قريب أو بعيد بالجانب الاقتصادى، إلا أن أدنى تأمل لهذه القضية سيكشف بوضوح بأن الخطر العظيم الذى يهدد كيان المسلمين إنما يتمثل اليوم بالتبعية الاقتصادية للأجانب، فما الضرير فى اقامة المؤتمرات والندوات الاقتصادية من قبل المعنيين والمتخصصين فى تلك الديار المقدسة بصفتها مراسم عبادية تهدف إلى انتشار المسلمين من مخالب الفقر والتبعية وطرح المشاريع والبرامج الاقتصادية التى من شأنها معالجة الأوضاع المزرية؟ ولا نرى لهذه القضية من طابع فردى لتعالى الأصوات بالانشغال بزخارف الدنيا وحطامها الزائل، بل الهدف أنبل وأسمى حيث يكمن فى خدمة الإسلام والمسلمين فى هذا الجانب الحيوى. [٣٢٣] ويتضح من قوله عليه السلام:

«ووقفوا مواقف أنبيائه وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح فى متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرتة»

مدى الأهمية التى أولاها الإمام عليه السلام لحج بيت الله الحرام؛ ولا عجب فهى عبادة اجتماعية عامة تقسم فى طياتها الدنيا والآخرة والأخلاق والمعنويات وعزة المسلمين وتنامى شوكتهم.

طبعاً واسع وشامل البحث المتعلق بالحج وأبعد مما ذكرنا إلا أننا سنستغرق أكثر فى هذا الموضوع حين شرحنا لسائر خطب الإمام عليه السلام الواردة بهذا الشأن، ونكتفى هنا بهذا المقدار المتواضع.

نفحات الولاية؛ ج ١؛ ص ١٧٥

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٧٥

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام بعد انصرافه من صفين وفيها حال الناس قبل البعثة وصفه آل النبي صلى الله عليه وآله ثم صفه قوم آخرين.

القسم الأول

إشارة

«أَحْمَدُهُ اسْتِثْمَامًا لِنِعْمَتِهِ وَاسْتِشْلَامًا لِعِزَّتِهِ وَاسْتِعْصَامًا مِنْ مَعْصِيَتِهِ.

وَاسْتَعِينُهُ فَاقَةً إِلَى كِفَايَتِهِ إِنَّهُ لَا يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ وَلَا يَنْتَلِ مَنْ عَادَاهُ وَلَا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وَزَنَ وَأَفْضَلُ مَا خُزِنَ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةٌ مُمْتَحِنًا إِخْلَاصِيهَا مُعْتَقِدًا مُصَاصِيهَا تَنَمَّسَّكَ بِهَا أَبَدًا مَا أَبْقَانَا، وَنَدَّخِرُهَا لِأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الْإِيْمَانِ وَفَاتِحَةُ الْإِحْسَانِ، وَمَرْضَاةُ الرَّحْمَنِ، وَمَذْحَرَةُ الشَّيْطَانِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالذِّينِ الْمَشْهُورِ وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ وَالْكِتَابِ الْمَسِيَّطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ، وَالْمَأْمَرِ الصَّادِعِ، إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ وَاحْتِجَاجًا بِالْبَيِّنَاتِ وَتَحْذِيرًا بِالْآيَاتِ وَتَخْوِيفًا بِالْمَثَلَاتِ».

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٧٦

نظرة إلى الخطبة

تشتمل هذه الخطبة على خمسة مضامين (تبحث في أربعة أقسام):

المضمون الأول في حمد الله والثناء عليه والملاذ بفضلله وكرمه ورحمته، والثاني في الشهادة لله بالوحدانية ومعطيات الإيمان بالتوحيد، والثالث في الشهادة بالنبوة والعبودية إلى جانب التذكير بفضائل النبي صلى الله عليه وآله وواضع العصر الجاهلي والملمات والخطوب التي شهدها المجتمع الإسلامي آنذاك والجهود التي بذلها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله من أجل مجابهة تلك الخطوب وتحمل المصاعب والويلات بهذا الشأن، والرابع في منزلة أهل البيت وعلو مقامهم وسمو مكانتهم واللجوء إليهم في امور الدين، والمضمون الأخير يواصل فيه المعنى المذكور بصيغة اخرى محذراً الأمة من مقارنته أنفسهم بهم، متطرقاً إلى عدم إمكانية تشبه أى من الأفراد بهم ومستعرضاً لفضائلهم والاعراب عن الارتياح لعودة الحق السليب لأهله.

ظروف وملابسات الخطبة

كما مر علينا سابقاً فقد صرّح المرحوم السيد الشريف الرضى أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد انصرافه من صفين. ومضامين الخطبة ومعانيها تبدو منسجمة والمعنى المذكور؛ الحقيقة التي تجسدت في استعراض حياة الأمة في العصر الجاهلي حيث يحذرها من مغبة تكرار الجاهلية الاولى والحؤول دون تمكن من تبقى من رواد تلك الجاهلية الذين كانوا يشكلون غالبية معسكر الشام في صفين من تحقيق أطماعهم ومآربهم. كما يؤكد عليه السلام على ضرورة تمسك الأمة بأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله بغية التحصن من الأخطار التي كانت تهدد الإسلام آنذاك، فهم الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إِنِّي مَخْلَفٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِترَتِي أَهْلَ بَيْتِي مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي أَبَدًا وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرْدَا عَلَى

الحوض»

فالنجاه بالتمسك بالكتاب والعترة معاً.

ومن هنا يتضح بطلان ماذهب إليه ابن أبي الحديد بشأن صدور الخطبة حيث قال: واعلم أن هذه الكلمات وهي قوله عليه السلام:

«الآن إذا رجع الحق إلى أهله»

إلى آخرها يبعد عندى أن

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٧٧

تكون مقولة عقيب انصرافه عليه السلام من صفين، لأنه انصرف عنها وقتئذ مضطرب الأمر، منتشر الحبل، بواقعة التحكيم، ومكيدة ابن العاص، وما تم لمعاوية عليه من الاستظهار، وما شاهد في عسكره من الخذلان، وهذه الكلمات لا تقال في مثل هذه الحال، وأخلق بها أن تكون قيلت في ابتداء بيعته، قبل أن يخرج من المدينة إلى البصرة، وأن الرضى رحمه الله تعالى نقل ما وجد، وحكى ماسمع والغلط من غيره، والوهم سابق له، وما ذكرناه واضح. [٣٢٤]

وقد صرح بعض العلماء بأن هذا الكلام ينبغي ألا يقال بشأن فرد يعتبر علماً في العلم وبحراً من الوقار واسطورة في الجهاد والمقاومة. فإن فرداً مثل على عليه السلام لاتهزه هذه الحادثة وأنى للاضطراب والقلق من سبيل إلى هذه الروح الملحمية والأفكار الربانية التي كان يتحلى بها على عليه السلام. بل بالعكس وكما أوردنا سابقاً فإن الإمام عليه السلام يحذر- في هذه الخطبة- الأمة من الاستسلام إلى الدعايات السامة والمشاريع الشيطانية التي كان يمارسها ولاء الشام ومن مغبة العودة القهقري إلى العصر الجاهلي والصمود في الذود عن الحق بعد أن عاد إلى أهله. وعليه فلا يبدو رأى ابن أبي الحديد صائباً في أن معاوية هو الذى انتصر في الميدان ولا سيما قول الإمام عليه السلام:

«الآن إذا راجع الحق إلى أهله»

وذلك للأسباب التالية:

أولاً: أن معاوية لم يكسب تلك المعركة قط، غاية ما فى الأمر أنه نجى من هزيمة منكرة بفعل خدعة عمرو بن العاص فما زال الإمام عليه السلام يرى الحق (هو وأهل بيته) ويحذر الأمة من التغايب عنه إلى جانب الذود عنه وعدم زحزحته عن أهله.

ثانياً: إن التحكيم الغادر لعمرو بن العاص- وخلافاً لما يراه الكثيرون- لم يحصل فى صفين بحضور الإمام عليه السلام بل وقع بعيد بضعة أشهر، والطريف أن ابن أبي الحديد قد صرح بهذا المعنى فى موضع آخر من شرحه. ونخلص مما سبق إلى أن الدليل الذى حاول أن يتمسك به ابن أبي الحديد والذى تمثل بالجملة الأخيرة فى الخطبة لإثبات صحة مدعاه فى أن الخطبة صدرت بعد موقعة صفين، هو دليل باطل وشاهد عارى من الصحة.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٧٨

الشرح والتفسير

الركن الأساسيان فى الإسلام

استهل الإمام عليه السلام الخطبة- كسائر خطبه- بحمد الله والثناء عليه، إلّا أنه يكشف عن الدوافع الثلاث لهذا الحمد والثناء: الأول الاستزادة من النعم الإلهية، واطهار الاستسلام والخضوع للغة الإلهية والقدرة المطلقة، وأخيراً الاعتصام بالطافه من المعاصى. فقد قال عليه السلام:

«أحمده استتماماً [٣٢٥] لنعمته

واستسلاماً [٣٢٦] لعزته واستعصاماً [٣٢٧] من معصيته»

. لا بدّ من الالتفات هنا إلى أنّ مفهوم الحمد أشمل من الشكر، وبعبارة أخرى فإنّ الشكر ممزوج بالمدح وهذا يدعو من جانب لاستزادة النعم الإلهية كما قال سبحانه:

«لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» [٣٢٨]

ويشكل القيام بوظيفة العبودية من جانب آخر وهذا هو التسليم مقابل عزة الله وأخيراً يوجب عنايات الله وأطافه الغيبية في حفظ الإنسان وعصمته من الذنوب والمعاصي. ثم يستعين عليه السلام بالله بعد حمده والثناء عليه موعزاً ذلك إلى حاجته إليه سبحانه وعدم غناه عنه

«واستعينه فاقه إلى كفايته»

. أجل إذا رأى العبد نفسه محتاجاً لتلك الذات الغنية وصاحب الكمال المطلق فانه يلجأ إلى الحق سبحانه ليشمله بفضله ورحمته ويعينه في كافة شؤون حياته. آنذاك يشير إلى دليل آخر لهذه الاستعانة فيقول:

«أنه لا يضل من هداه ولا يئل [٣٢٩] من عاداه ولا يفتقر من كفاه»

. نعم فقد رتبه على درجة من القوة والعظمة بحيث لا يسع أحد الوقوف أمامها، وإن علمه ثاقب ليس للخطأ من سبيل إليه. وهناك احتمال أيضاً أنّ الدوافع الثلاث دليل آخر على الحمد والثناء ودليل على الاستعانة أيضاً.

ثم يشير في آخر العبارة إلى دليل آخر يوجب الحمد لله والثناء عليه

«فانه أرجح ما وزن

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٧٩

وأفضل ما خزن»

. والواقع هو أنّ الفوائد والآثار التي وردت في العبارات السابقة إنّما تتعلق بهذا العالم، بينما ترتبط الفوائد الواردة في العبارتين الأخيرتين بالعالم الآخر وزاد المعاد يوم القيامة، وهكذا يكون حمد الله والثناء عليه سبب النجاة في الدنيا والآخرة، وما أروع عبارات الإمام عليه السلام المقتضية التي تضمنت تلك المعاني العميقة. فلا يبدو من العبث أن يصرح ابن أبي الحديد حين يتناول بالشرح هذه الخطبة فيذهل للكنايات والبديع وعدوبة التعبير الذي تضمنته عبارات الإمام عليه السلام قائلاً:

«فسبحان من خصه بالفضائل التي لا تنتهي السنة الفقهاء إلى وصفها وجعله إمام كل ذي علم وقدوة كل صاحب خصية».

ثم يتطرق عليه السلام إلى الشهادة بالوحدانية بصفاتها تشكل مصدر جميع الفضائل والكمالات:

«واشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له»

وتمسك الإمام عليه السلام بالتوحيد على أنه دعامة كافة العقائد والأفكار الطاهرة والأعمال الصالحة من جانب، ومن جانب آخر ليلتفت من يرى الوهيته عليه السلام إلى خطأ اعتقاده. ثم يضيف الإمام عليه السلام بأنّ شهادته هذه شهادة حقيقية تستند إلى الاخلاص والتقوى وليست لقلقة لسان

«شهادة ممتحناً [٣٣٠] اخلاصها معتقداً مصاصها [٣٣١]».

فهى شهادة حقّة دائمة مادامت الحياة مدخرة حيث الأحوال والخطوب

«نتمسك بها أبداً ما أبقانا وندخرها لاهاويل [٣٣٢] ما يلقانا».

فالإمام عليه السلام يعلن عن عمق إيمانه وإذعانه بحقيقة التوحيد في كافة شؤون الحياة وعلى جميع المستويات؛ الحقيقة التي تجسدت في سيرته عليه السلام والمشهود في كافة جوانب حياته حتى لم يتطرق الشرك إليه طرفة عين، فلم يسجد لصنم قط وكانت سكناته وحرركاته في ظل التوحيد البعيد عن أدنى شرك خفى. ثم يذكر عليه السلام أربعة دعائم لهذا الركن الركين في الإسلام

«فانها عزيمة الإيمان وفاتحة الاحسان ومرضاة الرحمن ومدخرة [٣٣٣] الشيطان».

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٨٠

سنرى في الأبحاث القادمة أن الإيمان بأى من أصول الدين إنما هو إيمان أجوف مالم يستند إلى التوحيد، كما أن الصالحات بأجمعها إنما تستقى من حقيقة التوحيد، ومن هنا كان مرضاة لله ومدحرة للشيطان، لأن الوسيلة المهمة الهدامة للشيطان إنما تتمثل بالشرك سواء كان جلياً واضحاً أم مخفياً مستتراً.

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بفاتحة الاحسان هو الأجر والثواب الإلهي الذي التوحيد مفتاحه، غير أن التفسير الذي ذكرناه يبدو أكثر صحة من هذا. وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من هذه الشهادة الخالصة الحقّة حتى يردفها بتمتمتها التي تتمثل بالشهادة بالنبوة:

«وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»

. نعم فهو عبد الله قبل أن يكون رسوله، فليس من مجال لبلوغ مقام النبوة دون العبودية، وفي هذا رد على أولئك الذين قد يبالغون في مقام الرسول ليلغوا درجة الإلهية. آنذاك يصف رسالته ووظيفته النبي فيقول:

«أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور» [٣٣٤] والكتاب المسطور والنور الساطع [٣٣٥]

والضياء اللامع والأمر الصادع [٣٣٦]

. والواقع هنالك عدّة تفاسير بشأن هذه العبارات الست العميقة المعاني والامور التي تشير إليها. منها أن المراد بالدين المشهور هو الإسلام الحنيف والعلم المأثور المعجزات والكتاب المسطور القرآن الكريم والنور الساطع علوم النبي صلى الله عليه وآله والضياء اللامع سنته صلى الله عليه وآله والأمر الصادع - بقرينه الآية الشريفة ٩٤ من سورة الحجر

«فَأُصِدِّعُ بِمَا تُؤْمَرُ» [٣٣٧]

- ترك التقية و اظهار التوحيد في مقابل المشركين والكافرين. كما يحتمل أن يكون المراد بالضياء اللامع والنور الساطع تبين القرآن الكريم، فالقرآن مصدر اشعاع أفكار المجتمعات الإنسانية. ثم يخوض الإمام عليه السلام في الهدف النهائي لرسالة النبي صلى الله عليه وآله والقرآن والمعجزات والقوانين والأحكام الشرعية، فيوضح أهداف النبي صلى الله عليه وآله في ثلاث محاور: ازالة

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٨١

الشبهات بالأدلة والبراهين واستقطاب الخصوم من خلال إرشادها بالآيات البينات وتحذيرهم من العقاب الأليم ان هم تمادوا في غيهم وعصيانهم

«إزاحة» [٣٣٨] للشبهات واحتجاجاً

بالبيّنات وتحذيراً بالآيات وتخويفاً بالمثلثات [٣٣٩].

يمكن أن يكون المراد من قوله

«إزاحة الشبهات»

الحقائق التي تعززها البراهين والأدلة الربانية والتي لا تدع مجالاً لشك أو شبهة،

«واحتجاجاً بالبيّنات»

المعجزات الحسية بالنسبة لأولئك الذين لا يسلمون سوى للاستدلالات العقلية والتي من شأنها سوقهم نحو الإيمان واليقين،

«تحذيراً بالآيات»

الوعيد بالعذاب الاخرى

«تخويف بالمثلثات»

الوعيد بالعذاب الدنيوي كما ورد ذلك في بعض الآيات القرآنية كقوله سبحانه وتعالى: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ

مِنْ قَلْبِهِمُ الْمَثَلَاتُ» [٣٤٠]

تأملان

١- التوحيد ركيزة المالحات

تعتبر الشهادة لله بالوحدانية من الاصول العقائدية المسلمة بالنسبة لسائر الاصول؛ إلا أن هذا استنتاج ساذج لهذا الأصل الإسلامى المهم. فالتمعن فى المصادر الإسلاميه والتحليلات العقلية يدل على أن التوحيد أصل جار على سائر الاصول والفروع، بعبارة اخرى فان كافة أصول الإسلام وفروعه تشكل بلورة لمفهوم التوحيد؛ ولا- يقتصر هذا الأمر على المباحث العقائدية والعبادية فى المسائل الاجتماعية والسياسية والأخلاقية بل تسرى روح التوحيد لتحكم جميع المجالات.

فالتوحيد على مستوى الذات والصفات والافعال والعبودية لمن الامور المسلمة الواضحة ولا تقتصر به على نبينا دون سائر الأنبياء بحكم الآية الشريفة «لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» [٣٤١]

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٨٢

وعليه فاننا نؤمن بأن جميع الأنبياء والمرسلين إنما يتفقون فى أهدافهم ووحدة رسالتهم وبرامجهم رغم أن بعض الأحكام والمشاريع والبرامج التى تلبس حلا جديدة وتتخذ طابعا حديثا بفعل تطور المجتمعات البشرية وتقدم مسيرتها.

أما بالنسبة للمعاد وعلى ضوء الآية الشريفة «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا» [٣٤٢] فإن الجميع سيقف بمفرده يوماً فى محكمة العدل الإلهي لينالوا جزائهم من ثواب أو عقاب يتناسب مع طبيعة أعمالهم وفقاً لمعايير إلهية واحدة.

فالمجتمعات البشرية تنتمى إلى جذور واحدة تحكمها أصول ثابتة ومعينة، بل تحكم جميع عالم الوجود. والواقع صحيح أن هنالك تفاوتاً فى القوانين الإلهية فى الأديان السماوية من حيث آلياتها وتفرعاتها، إلا أن مستقاهما واحد، ومن هنا فاننا نؤمن بوحدة دعوة الأنبياء للمجتمع العالمى الموحد، وأن العالم برمته سيشهد فى خاتمة المطاف حكومة العدل الإلهي.

أما على صعيد المسائل الأخلاقية فليس هنالك من يتردد فى أن الفضائل الأخلاقية إنما تنبع من التوحيد بينما تنبع الرذائل من الشرك. وعادة ما يتورط بالشرك الأفراد المرائين وأولئك الذين يصابون بأمراض الحسد والبخل والحرص والتكبر، وإلا فالفرد الذى يعيش توحيد الأفعال بكل كيانه وفى أعماقه ويؤمن بأن العزة والذلة والرزق والحياة والممات والنصر والغلبة لله بيده وحده لا يرى من مسوغ لان يستشعر قلبه معانى الرياء والحرص والبخل والحسد.

وزبدة الكلام فإن التوحيد ليس بمثابة حبة مسبحة بالنسبة لسائر الحبات، بل هو بمثابة الخيط الذى يشد الحبات إلى بعضها البعض الآخر.

ومن هنا يتضح عمق كلمات الإمام عليه السلام بالنسبة لمفهوم التوحيد- فى الخطبة-، فالتوحيد هو الدعامة الرئيسية للإيمان وانطلاقاً الأعمال الصالحة ويستبطن رضى الرحمن وطرد

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٨٣

الشیطان، وإذا ما أشرقت شمس التوحيد على جسم المجتمع البشرى وروحه فإنه سيتخذ طابعا متبلورا فى ظل أشعته الزاهرة. وإذا رأينا أمير المؤمنين ومولى المتقين على عليه السلام الذى يمثل بدوره روح التوحيد لاينفك عن تكرار التعرض للتوحيد- فى خطب نهج البلاغة- وتعليم أتباع مدرسه أهل البيت الاخلاص فى التوحيد فإنما يعزى ذلك إلى ضرورة الابقاء على جذوة هذه الشعلة الخالدة متقدة فى القلوب ورى أرض الحياة بهذه المياه العذبة لتورق ثمار أشجارها وتنضج فى ظل صبغة التوحيد الإلهية.

و مما لا شك فيه أن الشهادة بالنبوة والالتفات إلى وظائفها ومسئولياتها وكتبتها السماوية إنما يعدّ أفضل أرضية خصبة لبلورة حقيقة التوحيد في أعماق كيان الإنسانية.

٢- التوحيد الخالص الذي طبع حياة أمير المؤمنين عليه السلام

كان على عليه السلام مجسمه التوحيد ومظهره التام قبل أن يدعو الآخرين لهذه الحقيقة الخالصة. لم يسجد لصنم طرفه عين طيلة حياته قط ليلوث صفو روحه غبار الشرك. كان لا يفعل شيئاً إلا ويرى الله فيه وقبله ومعه لا يروم سوى رضاه.

كما وقف كالطود الشامخ يشد أزره ويذود عنه بغيه استتباب التوحيد والعبودية. ولا يخفى على أحد موقفه في الخندق ومبارزته لعمر بن العاص، فقد صرعه الإمام عليه السلام وأوشك أن يقتله؛ وقد أصيب جيش الإسلام بالذهول حين رأى الإمام عليه السلام قد انصرف عن قتله (و لعله نهض من عنده وتركه لمدّة بعد أن تجول في الميدان) ثم عاد إليه وقتله. فلما سئل عن علّة ذلك قال عليه السلام:

«قد كان شتم أمي وتفل في وجهي فخشيت أن أضربه لحظ نفسي فتركته حتى سكن ما بي ثم قتله في الله» [٣٤٣]

وقد وقف بكل قوة تجاه بعض أصحابه الذين اعترضوا عليه بالتسوية في العطاء من بيت المال قال:

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه! والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أم نجم في السماء نجماً! لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله» [٣٤٤]

ولما كان يقف للصلاة كان يستغرق في صفات الله وجلاله وجماله بحيث لم يكن يرى سوى الله ولا يفكر في سواه، حتى ورد في الأخبار أن سهماً أصاب رجله في موقعه أحد وكان يصعب سله من رجله فأمر

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٨٤

رسول الله صلى الله عليه وآله سسله حين يقف للصلاة. فلما فرغ عليه السلام من صلاته قال لم أشعر بالسهم حين الصلاة. [٣٤٥] وما أكثر هذه التماذج التوحيدية في حياة الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٨٥

القسم الثاني: العصر الجاهلي

إشارة

«وَالنَّاسُ فِي فِتْنٍ انْجَدَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعَزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ وَتَشَّتْ الْأُمُرُ وَصَاقَ الْمَخْرُجُ وَعَمِيَ الْمَصْدَرُ فَالْهَدَى حَامِلٌ وَالْعَمَى شَامِلٌ عَصَى الرَّحْمَنُ وَنَصَرَ الشَّيْطَانُ وَخَدَلَ الْإِيمَانَ فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ وَعَفَتْ شُرُكُهُ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ، وَقَامَ لَوَاؤُهُ، فِي فِتْنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا وَوَطَّئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا، وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا، فَهَمَّ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فِي خَيْرِ دَارٍ وَشَرِّ جِرَانٍ نَوْمُهُمْ سُهْوٌ، وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ بِأَرْضٍ عَالِمِهَا مُلْجَمٌ وَجَاهِلِهَا مُكْرَمٌ».

الشرح والتفسير

يصور الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصيرة والبلغية أوضاع العصر الجاهلي وكان السامع يشهد عن قرب تلك الأوضاع ويرى نفسه في خضم ذلك العصر ليلمس الفوضى والبؤس والشقاء الذي كان عليه الناس. ولا نرى أنفسنا نبالغ إذا ما قلنا بأن الإمام عليه السلام قد إختصر كتابا ضخما بهذه العبارات الموجزة؛ الأمر الذي يعدّ دلالة أخرى على مدى رصانه بيبانه وعمق الفصاحة والبلاغة والروعة في التصوير والدقة في التعبير التي تشتمل عليها كلماته وخطبه عليه السلام. [٣٤٦]

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٨٦

ومن البديهي إلتضح عظمة رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسمو الخدمات التي أسداها إلى البشرية وحلاوة الإيمان التي حملها الدين الحنيف ما لم تكن هناك صورة واضحة عن الأوضاع السائدة لدى الأقوام السابقة التي سبقت عصر الرسالة وانبثاق الدعوة الإسلامية.

فمن شأن هذه المقارنة أن تميز عظمة مشاريع الأنبياء وبرامج الأولياء والعباقرة على مدى التاريخ. فقد أشار عليه السلام إلى الفتن التي كانت تعصف بالامة آنذاك بحيث تصدعت عرى الدين وترزعزت أعمدة الإيمان وتلوثت الفطرة وتغيرت القيم وسادت الفرقة بين الناس، فغدوا حيارى قد ضلوا المخرج

«والناس في فتن إنجذم [٣٤٧] فيها جبل الدين وترزعزت [٣٤٨] سواي [٣٤٩]

اليقين واختلف النجر [٣٥٠] وتشتت الأمر وضاق المخرج وعمى المصدر».

فقد تقطعت حبال الدين وغيبت المعارف الدينية الحقة إثر فتن الشياطين ووساوس عبدة الأهواء من جانب، ومن جانب آخر فان الفوضى عمت الامة وتصاعدت بين أوساطها حدة الفرقة والاختلاف؛ والانكى من ذلك وفي ظل هذه الظروف لم يكن هناك من سبيل للخروج من المأزق ولا من كهف يؤى إليه؛ الأمر الذي اضطر الناس للبقاء على الانحراف والدنس الذي ساد ذلك المحيط والعموم في مستنقع العفن. والعبارة «جبل الدين»- التي وردت بصيغة المفرد- إشارة إلى وحدة الدين الحق ووحدة المصدر الذي تستقى منه كافة أصول وتعاليم الأنبياء وإن شهدت هذه الاصول والتعاليم بعض الفوارق التي تفرزها طبيعة تقادم الزمان، وهذا ما يجوزه القرآن الكريم على لسان المؤمنين الصادقين بقوله: «لَا نَفَرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» [٣٥١] وقوله عليه السلام «إختلف النجر»

لا يشير إلى الاختلافات التي شهدها العصر

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٨٧

الجاهلي على أنها إختلافات صورية في تفرعاتها واطرافها فحسب، بل كانت إختلافات أصولية وأساسية جذرية. بل يمكن القول إن العبارة إشارة إلى معنى يتضمن تزلزل حتى أركان الفطرة الإنسانية والاصول الفطرية التي جبل عليها الإنسان من قبيل التوحيد وعشق الأعمال الصالحة والخيرة؛ أو تغير قيم المجتمع الإنساني وتكرها حتى عاد لكل معايير الخاصة للتعامل مع القضايا؛ الأمر الذي أدى إلى تلك الحالة من الفرقة والتشتت و «تشتت الأمر»

يمكن أن تكون إشارة إلى شدة الخلافات الدينية القصوى آنذاك (على أساس أن المراد بهذا الأمر هو أمر الدين) أو إشارة إلى الفرقة والشقاق في كافة الامور الاجتماعية، سواء الامور الدينية والدينية والمسائل المرتبطة بالمجتمع والاسرة أو القضايا الاقتصادية أو الأخلاقية.

ويبدو أن المعنى الثاني أكثر إنسجاما والعصر الجاهلي؛ وهنا تكمن الطامة الكبرى حيث يغط الإنسان في هالة من الشك والترديد وإنعدام الإيمان وأنواع الاختلافات والشقاكات والفساد والانحراف وليس هنالك من سبيل أمامه للخروج من هذا المأزق حتى يعيش اليأس والقنوط من رأسه إلى أخمص قدمه. وهذه هي الصورة الحقيقية التي رسمها الإمام عليه السلام لذلك العصر.

ثم يتطرق عليه السلام إلى المعطيات السلبية التي أفرزتها تلك الأوضاع المزريّة آنذاك فوصفها عليه السلام قائلاً:
«فالهدى حامل ٣٥٢» والعمى شامل، عصى الرحمن ونصر الشيطان وخذل الإيمان».

من الطبيعي أن يتطلب سبيل طاعة الله نور الهداية من جانب والبصيرة التي تهتدى إلى ذلك النور من جانب آخر؛ فالأمة تتحول إلى رعييل شيطاني تتكالب على الفواحش والردائل شاءت أم أبت إذا إنعدم في وسطها ذلك النور وفقدت تلك البصيرة.
والجدير بالذكر في العبارة

«عصى الرحمن»

أن الإمام عليه السلام قد إختار هنا اسم الرحمن من بين أسماء الله الحسنى في إشارة إلى أنه ورغم الرحمة الإلهية التي عمت الجميع دون إستثناء وإن طاعته أمر فطري وبديهي جبلت عليه النفس البشرية إلّا أنّ هؤلاء العمى البصائر في العصر
نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٨٨

الجاهلي قد صموا أبصارهم حتى عن رؤية هذه الحقيقة القائمة. ثم يؤكد هذه النتائج المرة التي أصيبوا بها آنذاك فيلخصها عليه
السلام قائلاً:

«فانهارت ٣٥٣» دعائمه وتنكرت معالمه ودرست ٣٥٤» سبله

و عفت شركه ٣٥٥» و

لعل التعبير بالدعائم إشارة إلى أولياء الله ورواد سبيل الحق أو التعليمات الاصولية للأنبياء.

وقوله إنهارت تعود إلى القضاء على هذه الدعائم أو التعليمات؛ والمعالم ممكن أن تكون إشارة إلى الكتب السماوية السابقة أو
التعاليم النبوية، كما أن المراد بالسبل والشرك طرق المعرفة سواء الطرق العقلانية والفطرية أو طريق الوحي والتعاليم السماوية.
النقطة الجديرة بالذكر هنا هي أن «الشرك» كما أشرنا سابقاً بمعنى الطريق الرئيسي.

فالطرق الصغيرة قد تكون عرضة للاهمال والنسيان في حين ليس الطريق الرئيسي كذلك، مع ذلك ففي مثل هذا المجتمع وحتى
الطرق الرئيسية قد فقدت وزالت غايتها في إرشاد المارة.

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى أن الأمة وفي ظل هذه الشرائط والأوضاع قد وقعت في حبال الشيطان واسلست له قيادها
«أطاعوا الشيطان فسلوكوا مسالكه ووردوا مناهله ٣٥٦».

ولم تكن نتيجة ذلك سوى ما قاله الإمام عليه السلام:

«بهم سارت ٣٥٧» اعلامه، وقام لواؤه»

. ثم قال عليه السلام:

«في فتن داستهم ٣٥٨» باخفاقها ٣٥٩» ووطئتهم باظلافها ٣٦٠» وقامت على سناكبها ٣٦١».[٣٦٢]

و السؤال المطروح هنا: هل هذه الفتن هي تلك التي أشير لها سابقاً أم هي فتن اخرى؛ يبدو أنّها الفتن المذكورة آنفاً، غير أن الإمام
عليه السلام أشار إلى تفاصيلها الاخرى، حيث يشبه الإمام عليه السلام

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٨٩

فتن الجاهلية بالحيوان الوحشي الذي يركل صاحبه بحافره. والذي يقف على رجليه ليدوس بها أدنى حركة تبدو أمامه.

أمّا تعبيره عليه السلام بالسناكب التي تعني طرف الحافر فهي إشارة لطيفة إلى حقيقة مفادها أن هذه الفتن لا تعرف الانكسار وهي
باقية في إلقاء ضلالها الوخيمة على الناس (لأن مثل هذه الحيوانات حين تقف على أطراف حوافرها إنّما تعلن عن تأهبها لابتداء ردود
الفعل العنيفة تجاه كل من يقف أمامها).

و عليه فقد كانت الأوضاع في ذلك الزمان على درجة من التعقيد والوخامة بحيث لم يعد هنالك من أمل في التغلب عليها. وهذا

بالذات ما جعل الإمام عليه السلام يخلص إلى هذه النتيجة بالنسبة لما عليه الناس في ظل تلك الفتن (فهم فيها تائهون [٣٦٣] حائرون جاهلون مفتونون).

تائهون إشارة إلى أنهم قد ضلوا سبيل الحق بالمرّة حتى نسوا أنفسهم وخسروا ذاتهم.

حائرون إشارة إلى الحيرة التي سيطرت عليهم فسلبتهم حتى القدرة على اتخاذ القرار الذي من شأنه إنقاذهم من تلك الفتنة. جاهلون أي أنهم وعلى فرض عزمهم على اتخاذ القرار لنجاتهم فإنّ الجهل والتخبط سوف لن يدعهم يبلغون السبيل السليم.

مفتونون إشارة إلى الأوهام والخيالات وإلا لا عيب والحيل التي استهوتهم فجعلتهم يرون السراب ماءً والمجاز حقيقة. وقد حصل كل هذا حين كان الناس في خير أرض (في جوار بيت الله الحرام وديار الأنبياء العظام) واسوأ جيران «في خير دار وشر جيران» [٣٦٤]

وأثر ذلك فقد أصبح

«نومهم سهود» [٣٦٥] وكحلهم دموع»

. والأدهى من ذلك أنهم يعيشون في مجتمع لا يقيم زنا للعالم بما جعله يفقد قدرته على هدايتهم وإرشادهم بينما يخطئ الجاهل في ذلك المجتمع بمكانة لا يحلم بها

«بارض عالمها ملجم وجاهلها مكرم»

هنالك أربعة تفاسير أوردتها شراح نهج البلاغة بشأنه قوله عليه السلام «في خير دار» فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بها مكة (بيت الله نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٩٠)

الحرام) (و على هذا الضوء فان العبارات المذكورة وصف لعصر الجاهلية) بينما قال البعض الآخر أريد بها الشام حيث كانت من الأراضي المقدسة ومهبط الأنبياء وأهلها شر جيران؛ أي أصحاب معاوية (إذا اعتبرنا عبارات الإمام عليه السلام واردة بشأن عصره). الاحتمال الثالث أن يراد بقوله خير دار الكوفة التي كان يقيم فيها الإمام عليه السلام بينما كان أهلها ومن يحيط بها من شر الجيران من قبيل المنافقين والناكثين الذين لا يلتزمون بالعهود. وأخيراً الاحتمال الرابع أن يكون المراد بها دار الدنيا التي يسكنها أغلب الطالحين والاثمين ويبدو التفسير الأول هو الأنسب والأصوب حيث ينسجم والعبارات المذكورة سابقاً.

و على ضوء هذا التفسير فان قوله عليه السلام «نومهم سهود» إشارة إلى الفوضى والاضطراب وإنعدام الأمن والمصائب التي عمت عصر الجاهلية، والعلماء أولئك الصلحاء الذين تمحوروا حول رسول الله صلى الله عليه وآله والجهال أولئك المفسدون من قريش ومن لف لفهم؛ أما على ضوء سائر التفاسير فان المراد الفوضى وإنعدام الأمن في زمان معاوية والمشاكل التي برزت بين العراق والشام آنذاك، وقد ألمحنا سابقاً إلى عدم انسجام هذه التفاسير وروح الخطبة.

والشاهد على ذلك إضافة لما ذكر، ما أورده ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة حيث قال: أنه عليه السلام لم يخرج من صفة أهل الجاهلية وقوله «في خير دار» يعني مكة و «شر جيران» يعني قريشا، وهذا لفظ النبي صلى الله عليه وآله حين حكى بالمدينة حالة كانت في مبدأ البعثة فقال

«كنت في خير دار وشر جيران» [٣٦٦].

أما قوله عليه السلام

«نومهم سهود وكحلهم دموع»

فهو إشارة لطيفة إلى تفاقم الفوضى والاضطراب ومصائب ذلك الزمان بحيث إذا خلدوا ليلاً إلى النوم كان نومهم مضطرباً مشوباً بالخوف والرعب والسهاد، وقد إتسعت هوة الفتن بحيث إكتحلت عيونهم بالدموع التي تحرق أجفانها بدلاً من تزيينها بالكحل.

و من الطبيعي وفي ظل هذه الاجواء وفي تلك الديار والمجتمعات أن يغيب دور العلماء وتهمل مكاتبتهم وبالمقابل يبرز الجهال الذين

كانوا يمثلون زعماء قريش وكبرائها ليحظوا

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٩١

باحترام الآخرين وتقديرهم بعد أن قلبت الموازين وضاعت القيم.

و أخيراً فهناك احتمال آخر أن يكون المراد بالعلماء هم ذلك النفر القليل من الموحدين قبل بعثه النبي محمد صلى الله عليه وآله من قبيل عبدالمطلب وأبوطالب وقس بن ساعدة وليبد بن ربيعة وأمثالهم.

صورة الحياة الميتة في العصر الجاهلي

لقد قدم الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصيرة والعميقة المضامين صورة دقيقة حية عن الأوضاع التي عاشها العرب في العصر الجاهلي بحيث يجد كل من تأملها نفسه في خضم ذلك العصر ليرى بأم عينه كل تلك الفوضى والقبايح والردائل. فقد عكس الإمام عليه السلام عظمة مقام النبي صلى الله عليه وآله وسمو منزلته من جانب حيث تتضح شدة النور وعمق خطفه للابصار كلما كان الظلام دامسا والعتمة شديدة، الأمر الذي يكشف عن عظمة خدمات نبي الإسلام صلى الله عليه وآله ونجاعة دينه في خلق المجتمع. ولا- غرو فان استبدال ذلك المجتمع- بالمواصفات المذكورة- إلى ذلك المجتمع الذي إنتف حول الرسول لم يكن يبدو أمراً ممكناً، وليس ذلك سوى للاعجاز والوحي وعظمة التعاليم الإسلامية التي تمكنت من انتشار ذلك المجتمع وطبعه بهذه الصفات العالية.

من جانب آخر فهي إشارة إلى تجديد الأفكار والأدب والسنن الجاهلية في عصر النبي صلى الله عليه وآله والتي ظهرت في عصر الخلافة الراشدة إثر انحراف الأمة عن تعاليم النبي صلى الله عليه وآله.

فالإمام عليه السلام يحذر الأمة في زمانه من الأخطار التي تتهددها من جراء إحياء سنن الجاهلية والعادات والتقاليد البالية التي تفتك بالمجتمع. الجدير بالذكر هنا هو أن الإمام عليه السلام قد أورد هذه الخطبة بعد إنصرافه من صفين حيث أراد الفات نظر أصحابه إلى العناصر التي أدت إلى تلك النتيجة بأسلوب بليغ يعرف ب «إياك أعنى واسمعي باجارة».

لاشك أن عبارات الإمام عليه السلام تستبطن الدروس والعبر التي ينبغي أن نحتذيها نحن المسلمون في العصر الحاضر الذي يتصف بالمدينة والتطور والتقدم، فهي تحذير جدي لنا؛ فعباراته تنطبق تماما على الأوضاع التي يشهدها عصرنا الراهن حيث غاصت الأمة اليوم في هالة من الفتن وتزعزعت عرى الإيمان واليقين واندرست سبل معرفة الحق بفعل تفاقم سعة

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٩٢

حجم الدعايات المسمومة وانتشار الرذيلة والفساد وتفرق الناس أيادي سبأ وكثرت الأهواء وتعذرت طرق النجاة وقد استفحل الضلال وإنعدام الهدى واستشرت الذنوب والمعاصي وخلي الميدان للشياطين والمستكرين.

نعم لقد شهد عصر الإمام عليه السلام تلك الغفلة فعادت الأمة وأقبلت على سنن الجاهلية، والعجيب أن الأمة آنذاك قد خلدت إلى السبات والكسل بحيث لم يعد يؤثر فيها صراخ حتى هذا الولي الرباني وأخذوا يتهافتون على إحياء سنن الجاهلية حتى آل الأمر إلى تحول الحكومة الإسلامية إلى حكومة وراثية تلاقها بنو امية وبنو العباس، فلم تتعثر المسيرة الإسلامية آنذاك فحسيت، بل وجهت إليها ضربات موجعة جعلتها تعلق جراحها لحد الآن! ونرى هنا ضرورة تسليط الضوء على أوضاع الناس في العصر الجاهلي من مختلف الجوانب ودراسة ما أورده الإمام عليه السلام بهذا الشأن لنقف بوضوح على تفاصيل هذا الموضوع.

فجاهلية العرب- وهكذا الجاهلية التي كانت تعيشها سائر الأقوام- إنما تشير إلى سلسلة من العقائد الباطلة والخرافات والأساطير والسنن الخاطئة والقييحة المنجولة إلى أحيانا، جانب الأفعال العبيثة والسلوكية العنيفة القائمة على الظلم والاضطهاد والانحرافات الفكرية من قبيل نحت الأوثان من الخشب والحجر والاعتكاف على عبادتها واللجوء إليها عند حدوث الخطوب والمصائب حيث جعلوها شفعاثهم

إلى الله بعد أن اعتقدوا بقدرتها المطلقة وأن الخير والشر بيدها.

ولم تقتصر أفعالهم الطائشة على وأد البنات كدفاع عن العرض والشرف أو أنهن يجلبن عليهم الخزي والعار فحسب، بل كانوا يعمدون لقتل أولادهم تحت ذرائع شتى منها تقديمهم إياهم كقرايين إلى آلهتهم أو بدافع الفقر «وَكَذَلِكَ لِكَيْ لَا يَكْفُرَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ» [٣٦٧] و «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ» [٣٦٨] و «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ» [٣٦٩].

نفعات الولاية، ج ١، ص: ١٩٣

ولم يعيشوا أى هاجس من قلق لفظاعة هذه الجرائم، بل أبعد من ذلك كانوا يتفاخرون بها على أنها من العناصر المشرفة فى حياة الاسرة التى كانت تعمد لارتكاب مثل تلك الجنايات الموهولة.

أما المراسم العبادية فى البيت فلم تكن سوى المكاء والتصدية والعري التى كانت عليه النساء حين العبادة وهن يظفن حول الكعبة «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً» [٣٧٠] كانوا يتفاخرون بالحروب وسفك الدماء والسلب والنهب، كما لم يكونوا يقيموا أدنى وزن للمرأة فهى ليست سوى سلعة رخيصة فلا تتمتع بأدنى حقوق بل كانوا أحيانا يقامرون بها.

كانوا يرون الملائكة بنات الله- وكما أشرنا سابقاً فإنهم كانوا يرون فى البنت العار والفضيحة- «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ» [٣٧١] و «أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ» [٣٧٢] أميا على مستوى الخرافات والاساطير التى كانت سائدة لديهم فقد كانت عجيبة مذهلة ومنها ما وصفه القرآن الكريم «وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِنْتَهُ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ» [٣٧٣].

إذا غضب أحدهم على امرأته وأراد أن يوبخها كفاه وأن يخاطبها «أنت على كظهر أمى» فهم يعتقدون أن هذا القول يكفى أن تحرم عليه لأنها عادت كامه دون إجراء حكم الطلاق عليها، الأمر الذى شجبه القرآن ولم يقره: «وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ» [٣٧٤]، «إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا» [٣٧٥] أما الطابع السائد الذى كان يميز العصر الجاهلى فانما يكمن فى شن الحروب والغارات التى

نفعات الولاية، ج ١، ص: ١٩٤

تستبطن سفك الدماء وتأجيج الأحقاد والأضغان التى توارثتها الأقوام أبا عن جد، الأمر الذى شبهه القرآن بشفا حفرة من النار، فقال «وَادْكُرُوا لِعَدَّتِهِمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمُ» [٣٧٦].

الخرافة الاخرى التى كانت تسود فى الأذهان هو الاعتقاد بالرابطه القائمة بين نزول المطر ويزوغ واختفاء بعض الكواكب، والتفؤل بالطيور والإيمان بالغول الصحراوى والعمارة وما شابه ذلك؛ الأمر الذى عبر عنه القرآن الكريم فى أكثر من آية بالضلال المبين. «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفَى ضَلَالٍ مُّبِينٍ» [٣٧٧].

نعم هذه صورة مقتضبة من الحالة التى كانت عليها العرب فى الجاهلية- بل هذه مميزات سائر الأقوام فى الجاهلية التى تعددت أشكالها واتفقت مضامينها.

ومن هنا يمكن الوقوف على عظمة الإسلام والقرآن وحامل رسالتها النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، الأمر الذى توصل إليه أحد أعلام الغرب ويدعى توماس كارل فى أن الله هدى العرب من الظلمات إلى النور بالإسلام ومن أمية راكده متعاسه لاصوت فيها ولاحركة إلى أمية ذات شهرة ومن الضعف والوهن إلى اليقظة والقوة، ومن الضعة إلى العزة ومن العجز إلى القدرة. فقد شع نور الإسلام على العالم من جهاته الأربع ولم يمضى عليه أكثر من قرن فبلغ المسلمون الهند الأندلس، بل استطاع الإسلام أن يسط نوره على تصف المعمورة بهذه المدّة القصيرة. [٣٧٨]

نفعات الولاية، ج ١، ص: ١٩٥

القسم الثالث: المنزلة السامية لآل محمد صلى الله عليه وآله

إشارة

و منها يعنى آل النبي عليه الصلاة والسلام
 «هُم مَوْضِعُ سِرِّهِ وَلَجَأُ أَمْرِهِ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ، وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجِبَالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ، وَأَذْهَبَ اِرْتِعَادَ فَرَائِصِهِ».
 الشرح والتفسير

يصف الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الأئمة من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله بعبارات قصيرة عميقة المعاني، حيث يتطرق إلى مكانتهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله على ضوء ماورد في الأحاديث النبوية الشريفة من قبيل حديث الثقلين وسفينه نوح والنجوم.[٣٧٩]
 فقد وصفهم في عباراته الست الأولى بقوله عليه السلام:

«هم موضع سره، ولجأ [٣٨٠] أمره، وعيبة [٣٨١] علمه، وموئل [٣٨٢] حكمه، وكهوف [٣٨٣] كتبه وجبال دينه»[٣٨٤]
 أن كل عبارة من هذه العبارات تشير
 نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٩٦

إلى أمر معين رغم ما ذهب إليه بعض العلماء والشراح من ترادف العبارات وأنها شبيهة لبعضها البعض الآخر.
 فقد أشارت العبارة الأولى إلى حقيقة مؤداها أن الاسرار الإلهية مودعة لديهم. وبالبداهة أن يلم بجميع الأسرار من ينهض بمسؤولية زعامة الدين؛ حيث لا- ينظم أمرهم في هداية الناس وتدير شؤون حياتهم دون الانطواء على ذلك العلم، ولا سيما أن زعامتهم لا تختص بزمان دون آخر بل تتعلق بجميع البشرية على مدى العصور والدهور (وقد ذكرنا في مبحث علم غيب الأنبياء والأوصياء المعصومين أن إحدى مقومات زعامتهم تستند إلى علمهم بالغيب وإلا لانطوت زعامتهم على العيب والنقص).
 ثم أشار في العبارة الثانية إلى أنهم ملجأ أمر الله. والسؤال الذي يبرز هنا هل يقتصر هذا الأمر على الأوامر التشريعية أم يشمل الأوامر التكوينية أيضاً؟ يبدو من ظاهر العبارات السابقة واللاحقة أن الأوامر تقتصر على التشريعية منها حيث يجب على الأمة أن ترجع إلى أئمة العصمة في تلقي أوامرهم وإمتثال تعاليمهم.

أمّا العبارة الثالثة فقد اعتبرتهم عليه السلام عيبة علوم الله سبحانه، ولا يقتصر ذلك على الأسرار والأوامر، بل يشمل جميع العلوم اللازمة لهداية الناس أو ذات الصلة بهذه الهداية فهي مودعة لديهم مخزونة عندهم. وفي العبارة الرابعة يتضح أنهم المرجع في الأحكام الإلهية التي يجب على الأمة الرجوع إليهم في الاختلافات على المستوى الفكري أو القضائي ليزيلوا عنهم الفرقة والاختلاف ويهدوهم سواء الصراط.

وإذا اعتبرنا «موئل حكمه» على وزن إرم جمع حكمة فإن فارق هذه العبارة مع العبارات السابقة سيتضح تماماً، لأن الكلام هنا سيكون في فلسفة وحكمة الأحكام الإلهية التي تؤلف جزءاً من علوم الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام.

أمّا قوله عليه السلام «و كهوف كتبه» فيكشف اللثام عن هذه الحقيقة وهي أن مضامين جميع الكتب السماوية موجودة عندهم. وهذا يشبه إلى حد بعيد ما قاله على عليه السلام:

«أما والله لو نثيت

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٩٧

لى الوسادة فجلست عليها لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم ... وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم ...».[٣٨٥]

و أخيراً فقد وصفهم عليه السلام بأنهم جبال دينه، ولعل العبارة إشارة واضحة إلى ما أورده القرآن الكريم في عدد من آياته الشريفة بشأن خصائص الجبال ودورها في حفظ إستقرار ونزول البركات والخيرات فقد صرحت الآية ١٥ من سورة النحل قائلة «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»

فالواقع أن الجبال - كما ورد في تفسير هذه الآية وسائر الآيات المشابهة - تقوم من جانب باحتواء الضغوط المسلطة على الأرض من باطنها وظاهرها، ومن جانب آخر فهي مصادر عظيمة للأبهار والعيون الماء.

و بالتالي فهي معين لا ينضب من المعادن النفيسة القيمة. ووجه الشبه هو أن أئمة العصمة عليه السلام مصدر لسكينه الأفكار وري القلوب واغناء الامة بما يخترنونه من معادن نفيسة. [٣٨٦] ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه إثر ذكره لهذه الصفات فيقول «بهم أقام انحناء ظهره وأذهب إرتعاد [٣٨٧] فرائضه [٣٨٨]».

أما انحناء الظهر فهي كناية رائعة لشدة العضلات التي طالت الدين من من قبل الأعداء العلماء والأصدقاء الجهلاء فانبرى لها هؤلاء الكرام ليقبوا على الدين شامخاً لا يناله تحريف المحرفين ولا فتن المبطلين. والتعبير «ارتعاد الفرائض» ارتعاد اللحمه التي تغطي القلب بين الجنب والكتف وهي كناية لطيفة عن الاضطراب والاختلال الذي يطيل الدين من قبل المدارس الالحادية والانحرافات الدينية والتي يقف بوجهها أئمة الهدى فيقضوا عليها فيعيدوا للدين صبغته الحقيقة الناصعة.

نقمة الولاية، ج ١، ص: ١٩٨

تأملان

١- آل النبي صلى الله عليه وآله كهف الامة الإسلامية

ما ورد في عباراته عليه السلام يمثل الحقائق البعيدة عن أية مبالغه والتي تشهد عليها سيرة أئمة العصمة عليه السلام ولا سيما عصر أمير المؤمنين والإمام الباقر والصادق والرضا عليه السلام وكيف وقف هؤلاء العظام بوجه المدارس المنحرفة التي ظهرت إثر إتساع رقعة الإسلام وورود الأفكار المنحرفة للمناطق الإسلامية إلى جانب الخرافات والأساطير والعقائد الفاسدة والتفاسير الخاطئة المشوهة التي أوردها الغلاة والقلادة للنيل من الإسلام المحمدي الأصيل.

فقد أفاد التاريخ أنهم لم يعجزوا عن جواب أي سؤال، بل كانوا يجيبون بما يثلج صدر الصديق ويغيب العدو. من جانب آخر فقد شهد رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله العواصف الهوجاء التي تكاد تغرق السفينة الإسلامية لولا هذه الصفوة الطاهرة، وقد تنوعت أدوارهم واتحدت أهدافهم فتارة يذود عن الدين بما يظهر من علمه ومعرفته وتبينه لحقائق الإسلام، واخرى بدمه الشريف إن تطلب حفظ الدين ذلك وهذا ما تمثل بحركة الإمام الحسين عليه السلام وصحبه الميامين الذين زادوا بمهجم دون حياض الدين وبيضة الإسلام.

و لو تأملنا الانحرافات العقائدية والأفكار العجيبة التي سطرها كتب الملل والنحل وقارناها مع المعارف والعقائد التي حمل رايها أئمة أهل البيت عليه السلام - ونموذج ذلك نهج البلاغة والصحيفة السجادية «زبور آل محمد» - والروايات الواردة عنهم عليه السلام في الكتب من قبيل توحيد الصدوق والمصادر المشابهة لاتضح لنا الحقيقة التي ذكرت سابقاً في صفاتهم عليه السلام.

و أخيراً هؤلاء هم الذين وصفهم الإمام عليه السلام في موضع آخر من نهج البلاغه لكميل بن زياد فقال: «اللهم بلى لا- تخلو الأرض من قائم لله بحجة أما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيئاته ... يحفظ الله بهم حججه وبيئاته حتى يودعوها نظرائهم يزرعوها في قلوب أشباههم». [٣٨٩]

وهم الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل

نقحات الولاية، ج ١، ص: ١٩٩

بيتي وأنتهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما». [٣٩٠]

٢- من هم آل النبي صلى الله عليه وآله؟

ما يفهم ممّا مر معنا سابقاً أنّ المراد بأهل البيت الأئمة المعصومين عليهم السلام؛ لا ما ذهب إليه بعض المفسرين لنهج البلاغة من أنّ المراد بأهل البيت أولئك الذين حفظوا الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مثل حمزة والعباس وجعفر. طبعاً لا يخفى الدور الذي لعبه هؤلاء في الذود عن بيضة الإسلام، غير أنّ مضمون العبارات السابقة يبدو أبعد من ذلك ولا يراد بهؤلاء سوى أئمة العصمة عليه السلام.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٠١

القسم الرابع: لا يقاس بآل محمد أحد من الناس

إشارة

«زَرَعُوا الْفُجُورَ، وَسَيَقَوْهُ الْغُرُورَ، وَحَصَدُوا الثُّبُورَ، لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَيْدَاءً. هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمَادُ الْيَقِينِ إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْعَالِي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوَرَاثَةُ: الْآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ وَنُقِلَ إِلَى مُتَّقِلِهِ!».

الشرح والتفسير

يبدو أنّ الضمائر في العبارات الثلاث الأولى بالاستناد إلى أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة حين إنصرافه من صفين - تعود إلى القاسطين (أصحاب معاوية) والخوارج المارقين؛ كما ذهب البعض إلى أنّها تعود إلى المنافقين، أو جميع أولئك الذين خالفوا الإمام عليه السلام وهبوا لقتاله.

على كل حال فقد شبههم عليه السلام تشبيه دقيق فقال عليه السلام:

«زرعوا الفجور [٣٩١] وسقوه الغرور [٣٩٢] وحصدوا الثبور [٣٩٣].».

ثم يعود عليه السلام لبيان أوصاف آل محمد صلى الله عليه وآله بعبارات أكثر صراحة ووضوح ضمن إشارته - كعادته في قلة الألفاظ وسعة المعاني - إلى منزلتهم الرفيعة وحقوقهم السليبة فيقول:

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٠٢

«لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد»

ودليل ذلك لا نقاش فيه، لأنهم وعلى ضوء صريح الحديث النبوي الشريف حديث الثقلين الذي نقلته جميع مصادر الفريقين عدل القرآن الكريم، ونعلم جميعاً أنّ ليس هنالك من الامية أحد من قرن بالقرآن، أضف إلى ذلك فهناك الآيات القرآنية التي تؤيد هذا المعنى من قبيل آية التطهير التي تصرح بعصمتهم وآية المباهلة التي عدت البعض منهم كنفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسائر

الآيات والروايات.

و بغض النظر عما تقدم فان علومهم ومعارفهم التي رويت عنهم هي الاخرى لا يمكن مقارنتها بعلوم الناس ومعارفهم. فهل روى الاخرون عشر معشار ما ورد في نهج البلاغه؟ وهل هناك من يقوى على الإتيان بدعاء من أدعية الصحيفة السجادية. وما بالك في الأحكام الشاملة الواسعة التي رويت عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام بشأن جزئيات المسائل الدينية، والمناظرات التي عقدها الإمام الرضا عليه السلام مع سائر زعماء الأديان حول مختلف المسائل العقائدية والأبواب الفقهية؟ آنذاك يتحدث عن دليل العبارة السابقة:

«و لا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا» و

أى نعمة أعظم من تلك النعمة!

فلو لا تضحيات على عليه السلام لما ذاق الاخرون طعم الإسلام. فسيرة على عليه السلام منذ ليلة المبيت ومرورا بموقعة بدر وأحد والخندق وخيبر وغزوات الإسلام كلها شواهد على المعنى المذكور وقد بلغت منزلته من السمو والرفعة بحيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله

«ضربته على يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»

وفى عبارة اخرى

«لمبارزة على عليه السلام لعمر بن عبدود أفضل من أعمال امتي إلى يوم القيامة» [٣٩٤].

لقد فدى رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه حين بات على فراشه، وهو الذى قلع باب خيبر ودك حصونها حين عجز من سواه. وهو الذى وقف صامدا فى المواقف التى تنكص فيها الابطال وفى مقدمتها موقعة أحد حين إنفرج المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يبق معه إلا على بن أبى طالب عليه السلام حيث كان رسول الله صلى الله عليه وآله حمل عليه العدو ناداه ردها يا بن أبى طالب.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٠٣

أضف إلى ذلك سائر مواقفه المشهورة فى تاريخ الإسلام سواء فى عصر النبى صلى الله عليه وآله أو ما تلاه من العصور ودافع فيها بعلمه وعمله عن الإسلام. أمّا فى عصر الخلافة الراشدة والعصر المظلم لبنى أمية وبنى العباس لم يكن سوى هولاء الأبطال من أهل البيت عليهم السلام الذين أضاءوا تلك الظلمات بنور علمهم ومعرفتهم حتى أنقذوا المسلمين من تلك الحملات الثقافية المسعورة التى تبنت إحياء سنن الجاهلية وإطفاء السنن الإلهية ولا نرى هذا الدور خافيا على أحد رغم الجهود المضنية التى، بذلها أعدائهم لاطفاء نورهم وطمس فضائلهم.

والطريف فى الأمر أن الإمام عليه السلام يتحدث عن نعمة وجود أهل البيت بشكل دائمى مستمر و خالد دون اقتصارهم على عصر دون آخر، ولا- غرو فثمار الشجرة الإسلامية المباركة التى نقطضها إنما زرعها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام: «لا- يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا». ثم يتعرض عليه السلام إلى أمرين آخرين ينبعان من الأمر السابق فيقول:

«هم أساس الدين وعماد اليقين»

. نعم فقد نزل الوحي فى بيتهم وتربوا فى أحضانه وما عندهم من علوم ومعارف إنما أخذوها عن رسول الله صلى الله عليه وآله ولما كانت العلوم والأسرار الإلهية مودعة لديهم فهم أئمة الإيمان ودعاة اليقين. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«إليهم يفىء الغالى، وبهم يلحق التالى»

وكيف لا- يكونوا كذلك و هم الصراط المستقيم [٣٩٥] والأمة الوسطى [٣٩٦] وعندهم المعارف الإلهية الحقة والعقائد الإسلامية

الأصيلة البعيدة عن كل إفراط وتفريط.

و لو تصفحنا تاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية البعيدة عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام لرأينا الانحراف العقائدي الخطير من قبيل السقوط في حبال الجبر والتفويض والتشبيه والالحاد في أسماء الله وصفاته، بل غالى البعض في أسماء الله وصفاته حتى قالوا بتعطيل الصفات الإلهية أن ليس هناك من سبيل لمعرفة سبحانه (سواء المعرفة الإجمالية أو المعرفة التفصيلية)، وبالمقابل هناك الفرق التي هبطت بالذات الإلهية المقدسة إلى الحضيض فوصفته سبحانه بأنه رجل أمرد صبيح الوجه عليه كساء أسود ملتحف به.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٠٤

أما بشأن مسألة الجبر والتفويض، فقد ذهب الجبرية - فرقة من الفرق الضالة - إلى أن الإنسان كائن مسلوب الإرادة والاختيار وأنه مجبر على أفعاله المقدرة عليه على ضوء القضاء والقدر الإلهي فإن قدر له الكفر كفر وإن قدر له الإيمان آمن. بينما وقفت المفوضة التي رأت للإنسان استقلالاً تاماً إزاء الذات الإلهية المقدسة، فاعتقدت بأن جميع الأفعال مفوضة للإنسان، وهكذا هوت في وادي الشرك.

بينما تبنت مدرسة أهل البيت عليهم السلام إطروحة «الأمر بين الأمرين» لتنفى مسألة الجبر والتفويض وتحذر المسلمين من الإفراط والتفريط الذي يقود إلى الكفر والشرك، ومن هنا يتضح معنى كلام الإمام عليه السلام:

«إليهم يفيئ الغالي، وبهم يلحق التالي»

فالعبرة تشبيه لطيف كأن هنالك قافلة يقودها عدد من الرواد الماهرين، تقسم بعض الأفراد الذين يندفعون أكثر من غيرهم قدما فيفضلون في الصحراء، بينما يهن الآخرون ويتخلفون عن الركب فيصبحوا طعمة لذئاب الصحراء.

ثم يقول عليه السلام:

«و لهم خصائص الولاية»

. وتصدر الجملة بلهم تفيد إقتصار هذه المزية عليهم عليه السلام. وكيف لا يكونوا أصلح من الجميع وهم دعائم الدين واران اليقين الذين يمثلون الإسلام الأصل الذي لا يعرف الإفراط والتفريط، وهم النعمة الجارية على أفراد الأمة إلى يوم القيامة. ولذلك قال عليه السلام:

«و فيهم الوصية والوراثة».

نستنتج ممّا سبق أنّ وصية النبي صلى الله عليه وآله بهم واستخلافهم من بعده إنّما تستند لمامر معاً سابقاً، لا على أساس القرابة والنسب. ولا يخفى أنّ المراد بالوصية والوراثة هنا الخلافة والنبوة، بل حتى لو افترضنا أنّ الوراثة هنا هي وراثة علوم النبي صلى الله عليه وآله - كما ذهب إلى ذلك البعض - فإنّ الأمر سيقود بالتالي إلى جدارتهم باحراز هذا المقام؛ لأنّ خليفة النبي وإمام الخلق لا بدّ أن يكون وارثاً لعلوم النبي صلى الله عليه وآله، وأنّ خليفته هو وصيه؛ فوراثه الأموال - كما نعلم - ليست بذات قيمة والوصية في الامور الشخصية والاعتيادية لا تحظى بأية أهمية، ولا شك أنّ أولئك الذين سعوا جاهدين لتفسير الوصية والوراثة بمثل هذه المعاني إنّما يكشفون عن مدى تعصبهم استنادهم إلى العناد والأفكار المسبقة.

فليس هنالك من مسألة مهمّة تنسجم وقوله عليه السلام:

«أساس الدين وعماد اليقين

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٠٥

وخصائص حق الولاية»

سوى مسألة خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله. وأخيراً يخاطب عليه السلام الأمة في زمانه وكأنهم قد تنكروا لبعض النعم ولا يسما عودة الحق السليب

«الآن إذا رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منقله». [٣٩٧]

يتضح ممّا قيل بشأن الوصية والوارثه أنّ المراد بالحق هنا هو الولاية والخلافة التي لا تليق سوى بأهل البيت عليهم السلام وأنّ محلهم من الخلافة محل القطب من الرحي

تأملان

١- مكانة أهل البيت في القرآن والروايات

لقد صرّحت أغلب الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بفضل أهل البيت عليهم السلام بما لا يبقى معه مجال للشك في سمو مكانتهم وعلو منزلتهم. فآية التطهير واضحة في طهارة أهل البيت عليهم السلام من كل رين وعصمتهم من كل رجس «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً». [٣٩٨]

وآية المباهلة التي وصفت نفس علي عليه السلام بأنها نفس النبي صلى الله عليه وآله وأنّ أقرب المقربين لله ورسوله صلى الله عليه وآله والمجاين الدعوة لديه هم الزهراء والحسن والحسين عليه السلام: «قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ...» [٣٩٩].

وآية التبليغ التي اعتبرت وظيفة النبي صلى الله عليه وآله في إبلاغ ولاية علي عليه السلام من أخطر الوظائف وأنّ عدم الإبلاغ بمثابة عدم إبلاغ الرسالة: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...» [٤٠٠]. إلى جانب ما لا يحصى من الآيات التي لا يسعنا الخوض فيها في هذه العجالة، ويضاف إلى ذلك مصادر الفريقين والتي صرّحت بتواتر وصحة الأخبار الواردة في فضائل أهل البيت عليهم السلام. [٤٠١]

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٠٦

أمّا الروايات الإسلامية الواردة في الصحاح الستة فقد نقلت من فضائل أهل البيت ومناقبهم بما لا يمكن تصوّره، بل أوجز بعض علماء العامة تلك الفضائل في عدّة مجلدات [٤٠٢]، بينما ألفت عشرات المجلدات من علماء العامة في جمع الروايات والأخبار الواردة بشأن فضائل أهل البيت. [٤٠٣]

غير أنّ الموسف ما قامت به الأيدي الآثيمة إبان الحكومات الظالمة بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله والتي جهدت على طمس فضائلهم ومناقبهم لينأوا بالآثمة بعيداً عن الخط الرسالي الأصيل المتمثل بأهل البيت عليهم السلام امناء الوحي وحماة العقيدة. فوئلك الذين صدوا أهل البيت عليهم السلام عن حقهم بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله هم الذين سعوا جاهدين لطمس فضائلهم، وأدهى من ذلك ما مارسه خلفاء بني امية والعباس الذين كموا الأفواه عن التحدث بفضائلهم حتى عد ذلك جرماً يعاقب عليه بالسجن أو الأعدام.

و لولا- لطف الله وعنايته لما بقيت من آثارهم شيئاً ولا ختفت فضائلهم ومناقبهم ولا يسعنا هنا إلّا أن نورد ما ذكره شارح نهج البلاغة ابن أبي الحديد المعتزلي بهذا الشأن فقد قال:

فأمّا فضائله عليه السلام؛ فإنها قد بلغت من العظم والجلالة والانتشار والاشتهار مبلغاً يسمح معه التعرض لذكرها، والتصدي لتفصيلها؛ فصارت كما قال أبو العيناء لعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل: رأيتني فيما أتعاط من وصف فضلك، كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، الذي لا- يخفى على الناظر، فأيقنت أنّي حيث إنتهى بي القول منسوب إلى الدعاء لك، ووكلت الأخبار عنك إلى علم الناس بك. وما أقول في رجل أقر له أعداؤه وخصومه بالفضل، ولم يمكنهم جحد مناقبه، ولا كتمان فضائله، فقد

علمت أنه استولى بنو امية على سلطان الإسلام في شرق الأرض وغربها، وإجتهدوا بكل حيلة في اطفاء نوره، والتحريض عليه، ووضع المعاييب والمثالب له، ولعنوه على جميع المنابر، وتوعدوا ماد حيه، بل حبسوهم قتلوههم، ومنعوا من رواية حديث يتضمن له فضيلة، أو يرفع له ذكراً، حتى حظروا

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٠٧

أن يسمى أحد باسمه؛ فما زاده ذلك إلّارفعه وسموا؛ وكان كالمسك كلما ستر إنتشر عرفه، وكما كنتم تضوع نشره؛ وكالشمس لا تستر بالراح، وكضوء النهار إن حجبت عنه عين واحدة، أدركته عيون كثيرة. [٤٠٤]

وقد نقل مثل هذا المعنى في بعض المصادر، حيث صرح الشافعي: عجباً لرجل أخفى أعداؤه فضائله حسداً وأولياؤه خوفاً فظهر بين هذا وذلك ما ملئ الخافقين. [٤٠٥]

وقد روى مثل هذا المضمون أيضاً عن عامر بن عبدالله بن الزبير [٤٠٦].

٢- تبريرات واهية

جدير ذكره أن ابن أبي الحديد حين يصل عبارة الإمام عليه السلام «الآن إذا رجع الحق إلى أهله...» في شرحه لنهج البلاغة يقول: لقد ذكر الإمام عليه السلام أن الحق رجع الآن إلى أهله؛ وهذا يقتضى أن يكون فيما قبل في غير أهله، ونحن نتأول ذلك على غير ما تذكره الامامية، ونقول:

انه عليه السلام كان أولى بالأمر وأحق، لا على وجه النص، بل على وجه الأفضلية، فإنه أفضل البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأحق بالخلافة من جميع المسلمين، لكنه ترك حقه لما علمه من المصلحة، وما تفرس فيه هو والمسلمون من اضطراب الإسلام، وانتشار الكلمة، لحسد العرب له وضغنهم عليه وجائر لمن كان أولى بشئ فتركه ثم استرجعه أن يقول: قد رجع الأمر إلى أهله [٤٠٧].

حقاً أن الأحكام المسبقة هي التي تحول دون الاقرار بمفهوم هذه العبارة الواضحة، فلو أراد الإمام عليه السلام أن يقول: لم يودع الحق أهله قبل هذا والآن رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله فله أن يذهب إلى ما ذهب إليه، هذا من جانب ومن جانب آخر فاننا نعلم بأن القول: ان العرب تحسده وتكن له البغض والعداء إنما هو قول أجوف لا أساس له. نعم كانت هذه الحالة تسود فئة قليلة ممن تبقى من أعقاب المشركين والكافرين، وبعبارة اخرى فإنّ العداء كان يعيش في

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٠٨

قلوب زعماء قريش وأحبار اليهود وكبار المنافقين الذين تلقوا من الإمام عليه السلام الضربات المهلكة والموجعة في المعارك من قبيل بدر وخيبر وحنين، بينما كانت الامة بابنائها تحب علياً عليه السلام ولذلك ورد في الحديث النبوي المعروف الذي نقلته المصادر الإسلامية المعتبرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام:

«لا يبغضك إلّا منافق» [٤٠٨].

وجاء في صحيح الترمذي - أحد الصحاح الستة المعتمدة لدى أبناء العامة - عن أبي سعيد الخدري قال:

«إنا كنا لنعرف المنافقين ببغضهم على بن أبي طالب» [٤٠٩].

فهل يرضى ابن أبي الحديد أن تكون الأكثرية الساحقة من المسلمين آنذاك منافقة؟ ومن هنا نرى مدى الفرح والسرور الذي عم أوساط المسلمين حين توليه الخلافة بما لا يمكن مقارنته وسائر الخلفاء، والحال أن أغلب معاصريه وممن مد له يد البيعة هم من صحابة النبي صلى الله عليه وآله أو أبنائهم.

و عليه فتبريره واهي لا- يصمد إمام الحقائق والواقعات. وأمّا قوله: إنه كان أولى بالأمر وأحق لا-على وجه النص، فهو الآخر كلام

أجوف بجانب الحق وسنثت بطلانه في محله. [٤١٠]

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٠٩

الخطبة الثالثة

إشارة

و من خطبة له عليه السلام وهي المعروفة بالشقشقية وتشتمل على الشكوى من أمر الخلافة ثم ترجيح صبره عنها ثم مبايعة الناس له.

القسم الأول

إشارة

«أما والله لقد تَمَمَّصِيهَا فَلَانٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى. يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ فَسَيَدَلْتُ دُونَهَا تَوْبًا، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا. وَطَفِئْتُ أَرْثِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِبَيْدِ حَيْدَاءٍ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَحْيِيهِ عَمِيَاءٍ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشْتَيْبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدُحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ! فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحَجِّي، فَصَبْرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَدِّي، وَفِي الْحَلْقِ شَجَا، أَرَى تُرَائِي نَهْبًا».

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هذه الخطبة من أهم خطب نهج البلاغة حيث تتكفل بشرح مسألة الخلافة بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله. وهناك بعض الامور التي تضمنتها هذه الخطبة بما لم يرد شبيهها في سائر خطب نهج البلاغة، ورغم قلة عباراتها، إلا أنها أوجزت عصر الخلافة الراشدة التي

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢١٠

نهضت بالأمر بعيد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله. إلى جانب ذلك هناك التحليلات الدقيقة والرائعة التي تلفت إليها إنتباه المحققين والباحثين. ونرى هنا أن نشير إلى بعض الامور قبل أن نخوض في شرح وتفسير هذه الخطبة:

١- اسم الخطبة: لقد اقتبس اسم الخطبة من عبارتها الأخيرة التي أطلقها الإمام عليه السلام حين قاطع أحدهم الإمام عليه السلام فتوقف، فناشده ابن عباس مواصلة الخطبة فقال له عليه السلام: «تلك شقشقة هدرت ثم قرت» وهكذا رفض عليه السلام طلب ابن عباس، حيث تغير الجو الذي كان سائداً لاطلاق الإمام عليه السلام تلك العبارات الحماسية الخطيرة، فقد قام أحد الأفراد من بين الناس وسلم الإمام عليه السلام كتابا (قيل ان فيه مسائل كان يريد الاجابة عنها) فانصرف ذهن الإمام عليه السلام إلى امور اخرى

٢- زمان صدور الخطبة: هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغة بشأن زمان صدور هذه الخطبة. فيعتقد البعض - كالمحقق الخوئي - أن الإمام عليه السلام وبالاستناد إلى مضامين الخطبة وطرق أسنادها وروايتها أنه أوردتها أواخر عمره الشريف بعيد موقعه الجمل وصفين والنهروان حين قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين [٤١١]. والحق أن مضمون الخطبة يؤيد هذا الرأي.

٣- مكان الخطبة: لقد سكت جمع من شراح نهج البلاغة عن مكان صدور الخطبة، بينما يعتقد البعض أن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة حين ارتقى المنبر في مسجد الكوفة، وقال ابن عباس:

لقد ألقى الإمام عليه السلام هذه الخطبة في الرحبة [٤١٢] حين وقع الكلام عن الخلافة.

٤- سند الخطبة: هناك بحث في سند الخطبة أيضا. قال البعض: هذه الخطبة من الخطب المتواترة بينما صرح البعض الآخر بعكس ذلك ولم ينسب هذه الخطبة لعلي عليه السلام وإنه لم يشكو قط من الخلافة وإنما ذلك من وضع الشريف الرضى. أما الشارح المعروف ابن ميثم البحراني فقد قال: الادعاء أن المذكوران باطلان وفيهما إفراط وتفريط. فسند الخطبة لم يبلغ حد نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢١١

التواتر، ولا أساس للزعم القائل أنها من وضع الشريف الرضى، والحق أنها صدرت من الإمام عليه السلام [٤١٣].
و يبدو أن الإشكالات الواردة على الخطبة لم تتأتى من ضعفها أو ركاكتها أو تفاوتها من حيث الاعتبار مع سائر خطب نهج البلاغة، بل بالعكس وكما سيأتي خلال البحث أن الخطبة تشتمل على عدّة أسناد يتعذر وجود مثلها في سائر بعض خطب نهج البلاغة.
أما السبب الوحيد الذي يمكن إسناد الإشكال إليه إنما يكمن في عدم إنسجام مضامين الخطبة والذهنية السائدة لبعض الأفراد الذين ينتمون إلى عدد من الفرق والمذاهب. فهؤلاء وبدلاً من اتهام ذهنيهم وبلورتها على أساس مضمون الخطبة جاهدوا في القدح باسنادها بغية الإبقاء على ما يسود أذهانهم من أفكار منحرفة وعقائد باطلة. أما الاسناد التي ذكرت للخطبة من غير نهج البلاغة فهي كالاتي:
أ- قال ابن الجوزي في تذكرة الخواص: لقد أورد الإمام علي عليه السلام هذه الخطبة حين صعد المنبر جواباً لمن سأله: «ما الذي أبطأك إلى الآن» [٤١٤]. وهذا يدل على أن ابن الجوزي كان يملك سندا آخر لهذه الخطبة؛ لأن هذا السؤال لم يرد في نهج البلاغة، وعليه فقد كان له طريقاً آخر.

ب- قال الشارح المعروف ابن ميثم البحراني: لقد عثرت على هذه الخطبة في كتابين الفاقيل ولادة الشريف الرضى:
الأول كتاب الانصاف لأبي جعفر ابن قبة تلميذ الكعبي أحد كبار المعتزلة الذي توفي قبل ولادة الشريف الرضى. والثاني النسخة التي كتب عليها بخط أبو الحسن علي بن محمد بن فرات وزير المقتدر بالله، وقد توفي لستين سنة ونيّف قبل ولادة الشريف الرضى، ثم يضيف:

يقوى ظني أن تلك النسخة كتبت منذ مدة قبل ولادة ابن فرات [٤١٥].

وقال ابن أبي الحديد: قال مصدق: وكان ابن الخشاب صاحب دعاية وهزل، قال: فقلت له: أتقول أنها منحولة! فقال: لا والله، وإني لأعلم أنها كلامه، كما أعلم أنك مصدق.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢١٢

قال: فقلت له: إن كثيراً من الناس يقولون أنها من كلام الرضى رحمه الله تعالى. فقال: أنى للرضى ولغير الرضى هذا النفس وهذا الاسلوب! قد وقفنا على رسائل الرضى، وعرفنا طريقته وفنه في الكلام المنثور، وما يقع مع هذا الكلام في خل ولاخمر: ثم قال: والله لقد وقفت على هذه الخطبة في كتب صنفت قبل أن يخلق الرضى بمائتي سنة، ولقد وجدت مسطورة.
بخطوط أعرفها، وأعرف خطوط من هو من العلماء وأهل الادب قبل أن يخلق النقيب أبو أحمد والد الرضى. قلت: وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البلخي إمام البغداديين من المعتزلة، وكان في دولة المقتدر قبل أن يخلق الرضى بمدة طويلة.

ووجدت كثيراً منها في كتاب أبي جعفر بن قبة أحد متكلمي الإمامية وهو الكتاب المشهور والمعروف بكتاب «الانصاف» وكان أبو جعفر هذا من تلامذة الشيخ أبي القاسم البخلي رحمه الله تعالى ومات في ذلك العصر قبل أن يكون الرضى رحمه الله تعالى موجوداً [٤١٦].

أما العلّامة الأميني فقد نقل هذه الخطبة في المجلد السابع من كتابه الغدير على أنها نقلت في ثمانية وعشرين كتاباً.

ذكرنا سابقاً أن الخطبة تتعرض بجميع نصوصها إلى مسألة الخلافة بعد رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والمشاكل التي أفرزها عصر الخلفاء ممن سبقوه ثم يتطرق صراحة إلى أحقيته بالخلافة من الجميع معرباً عن أسفه وابتئاسه لخروج الخلافة عن محورها الأصلي الذي خطط له الإسلام والنبى. وأخيراً يتحدث عن قضية مبايعة الامية والأهداف الكامنة وراء قبول البيعة بعبارات قصيرة غاية الروعة والبيان.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢١٣

الشرح والتفسير

تحليل مهم لمسألة الخلافة

تشير الخطبة - كما ذكرنا سابقاً - إلى العواصف العنيفة والخطيرة التي هزت الامة الإسلامية وحرفت خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله بعيد وفاته عن مسارها السليم، كما تتعرض لأصالح الأفراد وأجدرهم بالأخذ بزمام شؤون الامة وزعامتها على ضوء المنطق والدليل والبرهان، كما تعرج الخطبة على وخامة المعضلات التي أفرزها تقاعس المسلمين عن الالتزام بنصوص النبى صلى الله عليه وآله الواردة بشأن زعامة المسلمين.

فقد إستهل الإمام عليه السلام الخطبة بشكواه مما آلت إليه الخلافة فقال:

«أما والله لقد تقمصها [٤١٧]

فإن وإنه ليعلم أن محلى منها محل القطب من الرحا [٤١٨].»

لا شك ولا إشكال في أن الضمير في «تقمصها» يعود إلى الخلافة، ولعل التعبير بالقميص إشارة إلى أمر وهو أن فلاناً قد استغل مسألة الخلافة كقميص يزين به نفسه، والحال أن هذه الرحا تتطلب محوراً قوياً يحفظ نظامها في الحركة ويحول دون إنحراف مسارها وتعثر بفعل المطبات التي تواجهها وتسيرها بما يضمن مصالح الإسلام والمسلمين. أجل فالخلافة ليست قميصاً، بل هي رحي الجامعة، وليس للخلافة من غنى عن المحور.

هي ليست ثوباً يرتدى. ثم يستدل عليه السلام بدليل واضح على المعنى المذكور ليكشف عن مدى علمه وسمو مقامه

«ينحدر [٤١٩] عنى السيل ولا يرقى الى الطير».

فقوله عليه السلام

«ينحدر عنى

السيل»

يعنى رفعة منزلته عليه السلام كأنه فى ذروة جبل أو يقاع مشرف، ينحدر السيل عنه إلى الوهاد والغيطان، وقوله عليه السلام

«ولا يرقى إلى الطير»

هذه أعظم فى الرفعة والعلو من التى قبلها، لان السيل ينحدر عن الراية والهضبة، وأما تعذر رقى الطير فر بما يكون للقلال الشاهقة جدا، بل ما هو أعلى من قلال الجبال، كأنه يقول: إنى لعلو منزلتى كمن فى السماء التى يستحيل أن يرقى الطير إليها.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢١٤

والتشبيه المذكور ينسجم وما ورد فى القرآن الكريم بشأن دور الجبال فى إستقرار الأرض «وَأَلْقَى فى الأَرْضِ رَواسى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَاراً وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» [٤٢٠]. أجل لولا هذه السلسلة العظيمة من الجبال لسلبت السكينة والاستقرار من الناس بفعل الضغوط الجوية لباطن الأرض من جانب وتأثير جاذبية الشمس والقمر وجزر ومد القشرة الأرضية من جانب آخر وأخيراً هبوب العواصف، ولا نعدمت المياه التى تنهمر من السماء فتصب فى البحار والمحيطات وتشكل مصادر الأنهار والأبار والعيون. فوجود الإمام المعصوم

والعالم العارف يشكل معين الخير البركة والسكينه لكل امه.

إلى جانب كون تعبير الإمام عليه السلام يشير إلى تعذر سير أغوار أفكار الإمام عليه السلام والوقوف على كنه شخصيته وذروه علمه ومعرفته، ولا يتيسر ذلك إلا للمعلم الإمام نبي الإسلام محمد المصطفى صلى الله عليه وآله. حتى صحابه الإمام عليه السلام كانوا ينتهلون حسب استعدادهم من منهله العذب ويحيطوا بظاهرة على قدر معرفتهم وعلمهم [٤٢١].

النقطة الأخرى الجديرة بالذكر تكمن في الاستفادة من الأنهار في حركة الرحي وتنبع هذه الأنهار من الجبال كما أنها تفصل هذه الرحي عن الجبال. ولعل العبارة المذكورة إشارة إلى هذا المعنى، أي أنا المحور والرحي والقوة المحركة المليئة بالعلم والمعرفة. وكما أشرنا آنفاً فإن قمم الجبال تختزن بركات السماء كحبات ثلج ثم تفيض بها على الأرض الهامدة المتعطشة للماء، ويمكن أن تكون العبارة إشارة إلى قرب الإمام عليه السلام من الوحي والاعتراف من كوثر النبي صلى الله عليه وآله.

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بالسييل في العبارة هو علم الإمام عليه السلام الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله:

«أنا مدينة العلم وعلى بابها» [٤٢٢]

كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنه فسر

«ماء معين»

الواردة في الآية ٣٠ من سورة الملك «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ» بعلم الإمام عليه السلام [٤٢٣].

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢١٥

و هنا تطرح بعض الأسئلة نفسها من قبيل:

الأول: لم مدح الإمام عليه السلام نفسه والحال ورد الدم على ذلك كقوله

«تزكية المرء لنفسه قبيح»

. وللإجابة على هذا السؤال نقول: هنالك فارق بين مدح النفس والتعريف بها. فقد تكون الائمة أحيانا جاهلة بشخصية فرد؛ الأمر الذي لا يجعلها تستفيد منه ومن طاقاته كما ينبغي فالتعريف بالشخص هنا سواء من قبله أو من قبل الآخرين ليس فقط لا ضير فيه فحسب، بل هو عين الصواب والسييل الصحيح للنجاه وهو بالضبط من قبيل تعريف الطبيب بمجال تخصصه الذي يضعه على الوصفه الطبيه، الأمر الذي يهدف إلى إرشاد المرضى في مراجعته ولا ينطوي على أي مديح للشخص.

السؤال الثاني: قوله عليه السلام:

«ينحدر عني السيل ولا يرقى إلى الطير»

هو زعم منه عليه السلام ليس أكثر فهل قام الدليل عليه؟

يبدو أن الإجابة على هذا هي أوضح منها على السؤال الأول؟ لأن المقام العلمي الذي اختص به أمير المؤمنين على عليه السلام ليس بخاف على من له أدنى إطلاع بتاريخ الإسلام والمسلمين.

فنا هيك عن تواتر الأحاديث النبوية الجمه الوارده عن رسول الله صلى الله عليه وآله في فضل علمه وتصريحات العلماء الأعلام في أنه مصدر كافة العلوم والمعارف الإسلامية وزعيمها [٤٢٤]، إلى جانب تصديه لأعقد المسائل التي كان يعجز عنها من سبقه من الخلفاء فان أدنى مطالعة لرسائله خطبه وقصار كلماته التي جمعت في نهج البلاغه لكافية في الوقوف على هذه الحقيقة.

فلو تصفح كل إنسان منصف - مسلما كان أم غير مسلم - نهج البلاغه لخضع متواضعا لعظمة الإمام ولعاش عملياً مفهوم قوله عليه السلام:

«ينحدر عني السيل ولا يرقى إلى الطير».

السؤال الثالث: كيف يشكو عليه السلام الحوادث المرتبطة بالخلافة بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله، ألا يتنافى ذلك ومفهوم الصبر والرضا والتسليم؟

تبدو الإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة. فالصبر والرضا والتسليم موضوع، وتبيين

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢١٦

الحقائق ليدونها التاريخ ويلم بها أبناء الأمة في الحاضر والمستقبل موضوع آخر، بحيث لا يتضمن الأمر أية منافاة فحسب، بل هو من أوجب الواجبات، وما القضايا المتعلقة بالخلافة إلا نموذج حي من هذه النماذج. ففي الحقيقة والواقع أن مصالح المجتمع الإسلامي والجيال الإسلامية القادمة هي التي تحتم تبيين هذه الحقائق كي لا تودع بوثقة النسيان.

ثم قال عليه السلام:

«فسدلت [٤٢٥] دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً [٤٢٦].»

تفيد هذه العبارة بوضوح أن رد فعل الإمام عليه السلام حيال تلك الحادثة لم يكن يتضمن الاستعداد والتأهب لخوض الصراع والاشتباك مع الآخرين، بل تجاهل بكل بسالة وزهد ذلك الأمر لأسباب ستطرق إلى ذكرها.

ولكن من جانب آخر فإن بعض الأفكار كانت تمارس ضغطها عليه لتجعله يتساءل: ما الذي ينبغي فعله تجاه هذا الانحراف الخطير وكيف ينهض بمسئوليته التاريخية بالنسبة لهذا الأمر؟ ومن هنا أردف قائلاً:

«وظفقت أرتى بين أن أصول بيد جذاء [٤٢٧]، أو أصبر على

طخية [٤٢٨] عمياء.»

فالإمام عليه السلام يكشف في هذه العبارة عن حقيقة وهي: أنني لم أنس طرفه عين مسئوليتي تجاه الأمة والوظيفة التي وضعها الله ورسوله صلى الله عليه وآله على عاتقي، ولكن ليت شعري ما أنا فاعل وهناك محذوران: المحذور الأول: هل أنهض بالأمر وأخوض الصراع مع الغاصبين، والحال لا أملك العدة والعدد من جانب، ومن جانب آخر فإن من شأن هذه النهضة أن تشق عصا المسلمين وتفرق صفوفهم وتثلج صدور الأعداء والمنافقين الذين يتربصون بالمسلمين مثل هذه الفرصة ليجهزوا على الإسلام.

المحذور الثاني: أن ألتزم الصبر والصمت حيال هذه الحادثة في ظل هذه الأجواء الدامسة الظلام. والتعبير بالطخية العمياء ينطوي على روعة في الدقة والبيان فالطخية تعني الظلام،

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢١٧

وأحياناً يمكن إختراق الظلمة- إذا لم تكن شديدة- لمشاهدة شبح ما خلالها، غير أن هذه الظلمة من الشدة والعتمة بحيث أطلق عليها العمياء لتعذر رؤية أى شىء من خلالها. ثم يتحدث الإمام عليه السلام عن خصائص تلك الظلمة والفتنة ليوجزها في عبارات ثلاث عميقة المعنى فيقول:

«يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح [٤٢٩] فيها مومن حتى يلقي ربه.»

و يفهم من هذه العبارة أن المعاناة ستعم الجميع. فهي تشيب الصغير وتهرم الكبير بينما ستتضاعف معاناة المؤمنين بفعل تصاعد حدة المشاكل التي سيشهدها المجتمع الإسلامي والاطار التي تهدد كيانه بما يجعلهم يعيشون هالته من الغم والحزن على مصير الإسلام. فلم تمض مدة حتى تبلورت تلك الاخطار لتشهد ولادة العصر الاموى الذي تمكن خلال مدة قياسية من القضاء على الصرح الإسلامي الذي شيده رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه بجهودهم المضية ومساعدتهم العظيمة.

ثم يواصل الإمام عليه السلام خطبته ليعلم عن موقفه تجاه القضية وعزمه على التحلى بالصبر:

«فرايت أن الصبر على هاتا [٤٣٠] أحجى [٤٣١].»

. ثم يصف عليه السلام طبيعة ذلك الصبر فيقول:

«فصبرت

وفى العين قذى [٤٣٢] وفى الحلق شجا». [٤٣٣]

فالعبرة صورة واضحة عن ذروة إستياء الإمام عليه السلام وتذمره فى تلك السنوات من المحنة والمصيبة، بحيث لم يكن يسعه أن يغمض عينه عن تلك الأحداث أو يفتحها، كما لم يكن يسعه أن يرفع صوته ويعلن عن مدى حرقة، وكيف لا يكون كذلك «أرى تراثى نهبا».

تأملات

١- لم آثر الإمام عليه السلام الصبر؟

يشهد التاريخ أن المنافقين وخصوم الدعوة كانوا يتربصون بالنبي صلى الله عليه وآله ورحيله عن دار

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢١٨

الدنيا لتفتت وحدة المسلمين ويتصدع كيانهم ليمهد أمامهم السبيل من الانقضاء على الدين وأهله وبالتالي كسر شوكتة والقضاء عليه؛ فلو نهض الإمام عليه السلام بالأمر فى ظل هذه الظروف من أجل نيل حقه أو بعبارة أخرى بغية إعادة المسلمين إلى المسار الإسلامى الصحيح لعصر النبي صلى الله عليه وآله وبالالتفات إلى القرارات التى اتخذت سلفا باقصاء الإمام عليه السلام عن الخلافة فإن قتالاً سينشب لنعم الفوضى والاضطراب فى صفوف المجتمع الإسلامى بما يمهد السبيل أمام المنافقين والمتربصين لنيل أطماعهم وما ربهم، والشاهد الحى على ذلك تمرد المرتدين عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله الذين هبوا للوقوف بوجه الحكومة الإسلاميه، ولم يكتب لهم النجاح بفعل المقاومة التى أبدتها الامة تجاههم.

فقد صرحت بعض السير التاريخية بهذا المجال:

«لما توفى رسول الله صلى الله عليه وآله إرتدت العرب واشرأبت اليهودية والنصرانية ونجم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشائبة» [٤٣٤].

هذا كله من جانب، ومن جانب آخر فان نهوض الإمام عليه السلام بالأمر قد لا تبدو فيه بارقة أمل بالنصر بفعل غياب العدة والعدد من أنصار الحق، ولعل قيام الإمام عليه السلام بالأمر لا يفسر من أغلب الجهال كانتصار للدين والعقيدة بل يعزوه إلى قضايا شخصية محضة.

غير أن الخسائر التى تكبدها المسلمون على مرور الزمان إثر انحراف مسار الخلافة عن محورها قد صورها الإمام عليه السلام بمثابة القذى فى العين والشجا فى الحلق. وهذا درس كبير لكافة المسلمين على مدى التاريخ وهو أن إحقاق الحق إذا استلزم توجيه ضربة إلى دعائم الدين وجب التحفظ عنه وعدم المبادرة إليه، لان حفظ الدين مقدم على كل ماسواه، وليس هنالك من سبيل فى مثل هذه الحالة سوى التحلى بالصبر والتحمل. وقد ورد شبيه هذا المعنى فى الخطبة رقم ٦٠ حيث قال عليه السلام:

«فظرت فاذا ليس لى معين إلا أهل بيتى ... وأغضيت على القذى وشربت على الشجى».

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢١٩

٢- لماذا التعبير بالتراث عن الخلافة؟

لقد قال الإمام عليه السلام: «أرى تراثي نهبا» وهنا يبرز هذا السؤال: لم عبر الإمام عليه السلام عن الخلافة بالارث؟! و تتضح الإجابة على هذا السؤال من خلال الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن الخلافة إرث معنوي وإلهي ينتقل من النبي صلى الله عليه وآله إلى أوصيائه المعصومين عليه السلام فهو ليس من قبيل الارث الشخصي والمادي والحكومة الظاهرية. وقد ورد شبيه هذا المعنى في الآيات القرآنية بشأن «زكريا» الذي سأل الله من يرثه ويرث آل يعقوب «فَهَبْ لِي مِّنْ لَّدُنْكَ وَلِيًّا* يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنِّي آلِ يَعْقُوبَ» [٤٣٥].

و الحق أن هذا الارث يتعلق بجميع الامة إلا أن الإمام خليفة النبي صلى الله عليه وآله هو الذي ينهض به. ونقرأ بشأن وراثته الكتاب السماوي: «ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا» [٤٣٦]. وعلى غرار ذلك ورد الحديث النبوي المشهور «العلماء ورثة الأنبياء» [٤٣٧].

وشاهدنا على مامرّ معنا سيرة الإمام عليه السلام وحياته التي أفادت عدم تعلقه من قريب أو بعيد بمال الدنيا وحطامها والخلافة- إلا أن ينهض بوظيفته في إحقاق حق أو ازهاق باطل- التي لم تكن تعدل عنده عطفة عنز أو قيمة نعليه. لكن والحال هذه كيف يصف صبره على فقدان الخلافة بالقذى في العين والشجى في الحلق؟ لقد ذهب البعض إلى أن مراده بالثراث المنهوب هو فدك التي ورثها رسول الله صلى الله عليه وآله بنته الزهراء عليه السلام، وقد اعتبر ذلك أرثه لمال الزوجة بحكم مال الزوج [٤٣٨]، غير أن هذا الاحتمال يبدو مستبعدا لأن الخطبة بجميع مضامينها تعالج قضية الخلافة.

٣- الإمام عليه السلام جليس البيت

لا أحد يسعه إنكار الخسائر الفادحة التي تكبدها العالم الإسلامي إثر إقصاء على عليه السلام نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٢٠

وجلوسه في داره، فلو قصرنا نظرنا على البعد العلمي حين تصفحنا لنهج البلاغة الذي يمثل جزءا من خطبه ورسائله وكلماته القصار التي أوردها خلال تلك المدة القصيرة من حكومته رغم ما انطوت عليه من أحداث مريرة وحروب دامية، لا كتشفنا بيسر مدى العلوم والمعارف والخيرات والبركات التي كانت ستعم العالم الإسلامي بل الدنيا برمتها لولا تلك المدة المديدة- ٢٥ سنة- التي اضطر فيها الإمام عليه السلام للجلوس في بيته. لا شك أن حرمان المجتمع من فيوض الإمام عليه السلام قد جر عليها الولايات والدمار. ولكن ما العمل يا ترى وقد سلبت الأمة هذا الفيض العظيم لتبدو خسائره واضحة على مدى التاريخ.

٤- لماذا تعرض الإمام عليه السلام لقضية الخلافة؟

يتساءل البعض: ألم يكن من الأفضل أن يسدل الإمام عليه السلام الستار على الماضي ولا يتطرق إلى مسألة الخلافة؛ الأمر الذي قد يثير الفرقة والتشتت في صفوف المسلمين ويشق وحدتهم؟

ولا عجب فاننا نرى اليوم البعض ممن يردد هذا الكلام، فما أن تطرح قضية الخلافة وأن الإمام أحق بها واولى من غيره حتى تتعالى الأصوات مطالبة بالصمت ونسيان الماضي تحت ذريعة الحفاظ على الوحدة الإسلامية وأننا نواجه اليوم أعداء الإسلام والمخاطر الكبرى ومن شأن إثارة هذه الأحاديث أن تضعف المسلمين في مجابهة أعدائهم؛ بل هل من جدوى لمثل هذه الأحاديث والحال أن أتباع كل مذهب يواصلون مسيرتهم دون الإكتراث لهذا الصوت أو ذاك، وعليه فمن المستبعد أن تلعب هذه الامور أي دور على

مستوى إخوة المسلمين ووحدهم.

وللإجابة على هذا التساؤل لابد من التذكير بأمرين:

أ- إن الوقائع الموجودة لا يمكنها إخفاء الحقائق البتة. فهذه حقيقة قائمة وهي أن النبي صلى الله عليه وآله.

قد أكد في أكثر من مناسبة على إستخلافه. فما الذى حدث لتشوه هذه الحقيقة وينصح بعدم إثارتها بعد تأكدها من قبل النبي صلى الله عليه وآله وبناءً على ما تقدم فإن علياً عليه السلام الذى يتبنى الحق حيثما كان له الحق فى التصدى للوقائع القائمة التى لا تنسجم والحقيقة، فيتعرض للحقائق المرتبطة بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ليتسنى للمحققين أن يصدروا أحكامهم بهذا الشأن ولو بعد

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٢١

قرون مديدة ليعرفوا الحق وأهله والباطل وأهله فيسلوكوا سبيل الحق على ضوء دراساتهم وتحقيقاتهم. على كل حال لا يمكن منع إنسان عن بيان الحقيقة، ولو افترضنا قدرتنا على ذلك فاننا لا نمتلك الحق فى منعه، لما يتضمنه المنع من خسائر فادحة، وذلك لأن الواقع القائم غالباً ما يختلف والحقيقة وقد يتعد عنها مسافة شاسعة. فالوضع القائم لا يعنى أبداً أن يكون هو السائد على الدوام حيث يلهنا الإسلام أن نسعى لا قفء ما ينبغى أن يكون، ومما لا شك فيه أن مسألة الخلافة والامامة بعد النبي صلى الله عليه وآله لمن المباحث الدينية الرئيسية؛ سواء كانت جزءاً من أصول الدين كما يعتقد بذلك أتباع مدرسة أهل البيت عليه السلام، أو جزءاً من فروع الدين. مهما كان فهى مسألة مصيرية من وجهة النظر الدينية ولا تنطوى على أية صيغة شخصية، خلافاً لما يزعمه البعض من الجهال والغافلين فهى ليست مبحثاً تاريخياً يتعلق بالماضى قد أكل عليه الدهر وشرب؛ بل هى قضية تنطوى على عدّة معطيات مؤثرة فى حاضر المسلمين ومستقبلهم، كما لا يخفى أثرها فى العديد من المسائل الإسلامية المرتبطة بأصول الدين وفروعه؛ وهذا هو الأمر الذى يقف وراء إثارة الإمام عليه السلام لمسألة الخلافة كراراً ومراراً.

ب- إن الأبحاث العقيمة والجدل الفارغ القائم على أساس التعصب والجمود هى التى تشكل الخطر الأساس على وحدة الأمة الإسلامية وشق صفوفها؛ أما الأبحاث العلمية والمنطقية التى يراعى فيها أطراف الحوار والبحث الحدود والموازن العلمية والمنطقية فليست بذات خطر على الوحدة الإسلامية فحسب، بل من شأنها أن تساعد فى إرسائها وتوثيق دعائمها. طبعاً هذا ليس ضرباً من الخيال الفكرى بل عشناه على مستوى الواقع والتجربة.

فقد أقيمت أخيراً ندوة فى إحدى المدن بمناسبة أسبوع الوحدة حضرها كبار العلماء والمفكرين من الفريقين نوقشت خلالها أغلب القضايا الخلافية وقد تمخضت عن عدّة نتائج طيبة حيث قربت وجهات النظر وضغطت حدة الخلافات، بما جعل الجميع يوقنون بأن مثل هذه الأبحاث والحوارات يمكنها أن تقضى على الفجوة بين المذاهب الإسلامية وتوطيد أواصر الاخوة بما يخدم وحدة المسلمين [٤٣٩].

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٢٢

بل أبعد من ذلك أننا نرى الحوار بشأن الأديان السماوية هو الآخر من شأنه أن يتمخض عن نتائج مفيدة بما يقلل من هوة الخلاف، وليعلم أولئك الذين يقفون بوجه هذه الحوارات البناءة أنهم يساهمون بشكل أو بآخر فى مضاعفة الخلافات وتعميق الفجوة بين الأديان والمذاهب.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٢٣

القسم الثانى: عصر الخليفة الثانى

حَتَّى مَضَى الْأَوَّلَ لِسَبِيلِهِ فَأَدْلَى بِهَا إِلَى فُلَانٍ بَعْدَهُ ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَعْشَى:
«شَتَانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَاوِ يَوْمُ حَيَّانٍ أَخِي جَابِرٍ»

نفحات الولاية؛ ج ١؛ ص ٢٢٣

فِيَا عَجَبًا!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِأَخْرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ- لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا- فَصَيَّرَهَا فِي حَوْرَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا، وَيَخْشُنُ مَسْهَا وَيَكْتُرُ الْعَثَارَ فِيهَا وَالْأَعْتِدَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كِرَاكِبِ الصَّعْيَةِ إِنْ أَشْتَقَ لَهَا حَرَمًا، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَفَحَّمًا، فَمَنْبَى النَّاسِ- لَعَمْرُ اللَّهِ- بِخَبِطٍ وَشِمَاسٍ، وَتَلَوْنٍ وَاعْتِرَاضٍ فَصَبَّرَتْ عَلَى طَوْلِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام على عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى عهد الخليفة الثاني فقال:

«حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان بعده».[٤٤٠]

أدلى من مادة دلو وهي تستعمل في سحب الماء من البئر بالجبل والدلو كما تستعمل بمعنى الجائزة والاجر والرشوة في الحكم، فقد قال القرآن بهذا المجال: «وَتَدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ».[٤٤١].

قال ابن أبي الحديد المعتزلي: وعمر هو الذي شد بيعه أبي بكر، ورغم المخالفين فيها فكسر سيف الزبير لما جرده، ودفع في صدر المقداد، ووطيء في السقيفة سعد بن عبادة، وقال: اقتلوا

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٢٤

سعداً، قتل الله سعداً. وحطم أنف الخباب بن المنذر الذي قال يوم السقيفة: أنا جدي لها المحك، و غديها المرجب.

و توعده من لجأ إلى دار فاطمة عليه السلام من الها شميين، وأخرجهم منها، ولولاه لما يثبت لأبي بكر أمر، ولا قامت له قائمة [٤٤٢].

و من هنا تتضح روعة تعبيره عليه السلام بأدلى ثم تمثل بقول الأعشى:

شتان ما يومى على كورهاووم حيان أخى جابر [٤٤٣]

حيث أراد الإمام عليه السلام أن يقول كنت أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله وأعظمهم منزلة وحرمة بل كنت نفس

رسول الله صلى الله عليه وآله غير أنهم أفصوني بعده وأخذوا يتلاقفون الخلافة التي لا تصلح إلالي فيرمون بها لمن يشاؤون.

وذهب البعض إلى أنه أراد أن يقارن بين خلافته- من تمثله بهذا الشعر- وخلافته من سبقوه ممن كانوا في نعمه ورخاء بينما حفل

عهده لا- بتعاده عن عصر رسول الله صلى الله عليه وآله بالويلات و المصائب «بالطبع هذا إذا كان الأعشى أراد مقارنة حاله بحال

حيان».[٤٤٤]

ثم يعبر الإمام عليه السلام عن اندهاشه وذهوله لما يحصل

«فيا عجباً!! بينا هو يستقبلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته».

الواقع هو أن هذه العبارة إشارة إلى حديث معروف نقل عن أبي بكر خاطب به الناس أوائل خلافته حيث قال:

«أفيلوني فلست بخير كم»

. ورواه البعض الآخر

«و ليتكم ولست بخير كم».[٤٤٥]

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٢٥

و كيفا كان مضمون الرواية فهي تشير إلى عدم رغبته بقبول الخلافة أو كما ذهب البعض لم يكن يكثر لها أو أنه لم يكن يرى

نفسه جديراً بالخلافة مع وجود على عليه السلام، ورغم ذلك فإنّ هذا الكلام لا ينسجم وما فعله أو آخر عمره؛ الأمر الذي أثار دهشة الإمام عليه السلام في كيفية تفويض الخلافة دون الرجوع إلى آراء الامة: ثم قال عليه السلام «لشدّ ما تشطر ضرعيها»

الضرع بمعنى الثدى وتشطرا من مادة شطر بمعنى جزء من الشيء.

فالعبارة تشبيه رائع بالنسبة للأفراد الذي يستفيدون من شيء على وجه التناوب فالمراد بتشطر ضرعيها: إنهما إقتسما فائدتها ونفعها، والضمير للخلافة، وسمى القادمين معاً ضرعاً وسمى الآخرين معاً ضرعاً لما كان لتجاورهما، ولكونها لا يحلبان إلا معاً، كشيء واحد فالعبارة بصورة عامة تشير إلى مشروع معد ومبرمج مسبقاً ولم يكن من قبيل الصدفة أبداً.

إجابة على إستفسار

لقد قال البعض بأنّ أبا بكر قال: أقيلوني فليست بخيركم، وقد ورد مثل هذا الكلام عن على عليه السلام في نهج البلاغة بعد مقتل عثمان حيث قال:

«دعوني والتمسوا غيري ... وان تركتموني فأنا كأحدكم ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً»

فما تقولون؟

لرد على ذلك نقول لابن أبي الحديد كلام بهذا الشأن ولنا كلام، فقد قال ابن أبي الحديد:

قالت الإمامية هذا غير لازم والفرق بين الموضوعين ظاهر لأنّ علياً عليه السلام لم يقل: إنّي لا أصلح، ولكنه كره الفتنة، وأبو بكر قال كلاماً معناه: إنّي لا أصلح لها، لقوله

«لست بخيركم»

، ومن نفى

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٢٦

عن نفسه صلاحيته للإمامة، لا يجوز أن يعهد بها إلى غيره- واعلم أنّ الكلام في هذا الموضع مبني على أن الأفضلية هل هي شرط في الإمامة أم لا؟ (في إشارة إلى أنه يمكن القول بعدم اشتراط الأفضلية في الإمامة؛ الكلام الذي لا يقره أي منطق وعقل ولا يدعو سوى الخجل) [٤٤٦].

إلّا أننا نرى القضية أعمق من ذلك. فلو تأملنا الخطبة رقم ٩٢ التي استدلوا بها والتفتنا إلى بعض عباراتها التي لم يستشهد بها عند الاستدلال لا تضح لنا تماماً مراد الإمام عليه السلام. فقد صرح ضمن الخطبة المذكورة قائلاً:

«فأنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول»

(إشارة إلى مدى التغييرات التي طالت الأحكام الشرعية والتعاليم النبوية، عليه فلا بدّ لي من القيام ببعض الإصلاحات الثورية والتي ستودي لاعتراض البعض منكم وبالتالي نشوب المواجهة).

ثم أضاف عليه السلام:

«و ان الافاق قد أغامت والمحنة قد تنكرت»

، ثم يشير عليه السلام إلى كبد الحقيقة فيقول:

«و اعلموا أنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب».

أمّا الشاهد على أنّ الإمام عليه السلام يرى وجوب الأفضلية كشرط في الخلافة ما أورده عليه السلام في الخطبة ١٧٣ من نهج البلاغة

إذ قال عليه السلام:

«أيها الناس إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه و أعلمهم بأمر الله فيه». [٤٤٧]

ونخلص ممّا سبق إلى أنّ المقارنة بين كلام الإمام على عليه السلام وأبي بكر هو «قياس مع الفارق» لانعدام أى تشابه بين الكلامين. ونختتم هذا الكلام بما أورده ابن أبي الحديد حين حاول تبرير حديث الخليفة الأول حيث قال: واحتج بذلك من لم يشترط الأفضلية فى الإمامة.

و من رواها إعتذر لأبى بكر فقال: إنّما قال: أقيلونى، ليثور ما فى نفوس الناس من بيعته، ويخبر ما عندهم من ولايته، فيعلم مريدهم وكارههم، ومحبهم ومبغضهم. فلما رأى النفوس إليه ساكنة، والقلوب لبيعته مدعنة، استمر على امارته، وحكم حكم الخلفاء فى رعيته، ولم

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٢٧

يكن منكراً منه أن يعهد إلى من استصلحه لخلافته [٤٤٨].

ولا يخفى على أحد خواء هذه التبريرات، لأنّ إعتراف كل فرد ينبغى أن يحمل على معناه الواقعى، وصرف اللفظ عن معناه الحقيقى إنّما يحتاج إلى قرينة ليست متوفرة هنا. بعبارة اخرى إنّ هذا الاعتراف قانونى يؤخذ به فى كل محكمة وليس من عذر لهذا الاعتراف فهو إقرار جائز عقلياً.

ثم يصف الإمام عليه السلام شخصية الخليفة الثانى وما انطوت عليه من خصائص ومميزات فقال عليه السلام:

«فصيرها فى حوزة [٤٤٩] خشتاء يغلظ كلمها [٤٥٠] ويخشن مسها ويكثر العثار [٤٥١]

فيها، الاعتذار منها»

المراد بالحوزة هنا أخلاق الخليفة الثانى وصفاته فالواقع قد ذكر له أربعة صفات، الاولى خشونته وعنفه التى عبر عنها بقوله «يغلظ كلمها»

فى إشارة إلى الجروح الروحية والجسمية التى يفرزها الاصطدام به. الصفة الثانية الشدة فى التعامل

«ويخشن مسها»

وعليه فالحوزة الخشنة قد فسرت بالعبارتين اللاحقتين التين أشارتا إلى العنف فى الكلام والعنف فى المعاملة. الصفة الثالثة هى كثرة الأخطاء والرابعة الاعتذار من تلك الأخطاء

«ويكثر العثار فيها الاعتذار منها».

أمّا بشأن كثرة أخطاء الخليفة الثانى ولا سيما أخطائه فى بيان الأحكام وقراره بتلك الأخطاء والاعتذار منها والعنف فى المعاملة فقد حفلت بها السير التاريخية بل أفرد لها علماء العامة عدداً من الكتب وسنكتفى لاحقاً بالإشارة إلى نماذج منها. ثم قال عليه السلام:

«فصاحبها كراكب الصعبة [٤٥٢] إن أشق [٤٥٣] لها خرم [٤٥٤] وإن أسلس [٤٥٥] لها تقحم [٤٥٦]».

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٢٨

فالإمام عليه السلام يشرح بهذه العبارة حاله وحال فريق من المؤمنين على عهد خلافة الخليفة الثانى، بحيث إذا أراد أحدهم أن يصطدم بالخليفة- واستناداً إلى صفاته المذكورة سابقاً- فقد يؤدى ذلك إلى بروز الاختلافات والمشاجرات بين أوساط المسلمين أو الاخطار التى سيتعرض إليها من جانب الخليفة، وان فضل الصمت برزت الاخطار التى تهدد الكيان الإسلامى والخلافة الإسلامية، فالواقع هناك خطران لا ينفصلان: خطر الاصطدام بالخليفة خطر فقدان المصالح الإسلامية ولهذا يشكو الإمام عليه السلام ما ألم به وبالمؤمنين آنذاك يعرض للمشاكل المتفاقمة التى أصابت المسلمين.

كما إحتمل بعضى شراح نهج البلاغة أن الضمير فى (صاحبها) يعود إلى مطلق الخلافة؛ أى أن طبيعته الخلافة تختزن دائماً أحد هذين الخطرين، فلو أراد الحاكم- الخليفة- أن يتعامل بخرم مع كل شىء كانت هنالك ردود الفعل الحادة والعنيفة، ولو أراد التعامل على أساس الرفق واللين برز خطر السقوط فى وادى الانحراف والخطا وزوال القيم الإسلامية. لكن تشير القرائن إلّا أنّ المعنى الأول هو المراد بالعبرة وهذا ما يتضح بجلاء من خلال التأمل فى العبارات اللاحقة [٤٥٧]. ثم قال عليه السلام:

«فمنى [٤٥٨] الناس لعمر الله بخبط [٤٥٩] وشماس [٤٦٠] وتلون [٤٦١] و

اعتراض [٤٦٢]».

فقد تضمنت العبارة إشارة إلى أربع ظواهر نفسية للامة فى عهد الخليفة الثانى كأنها تقتبس من رئيس الحكومة، لأنّ لسوك الحاكم إنعكاس واسع على نفوس أبناء الامة وقد قيل سابقاً «الناس على دين ملوكهم».

الاولى: أنّ أنشطتهم وقراراتهم الطائشة سبب ظهور الفوضى فى المجتمع.

الثانية: أنّهم خارجون على القوانين الشرعية والنظم الاجتماعية.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٢٩

الثالثة: التلون المستمر وركوب الموجهة والتخبط والانسلاخ من فئة والاتحاق باخرى وعدم امتلاك الهدف المعين فى الحياة.

الرابعة: الانحراف عن مسار الحق والسير على سبيل غير الهدى

و ممّا لا شك فيه- وكما سنتعرض إلى ذلك بالتفصيل لاحقاً- أنّ السياسة الخارجية فى عصر الخليفة الثانى والفتوحات الإسلامية والامتداد خارج الحجاز قد خلقت ذهنية للناس بشأن شكل الحكومة فى أنّها موفقة على جميع الأصعدة فيقل إهتمامهم بالمشاكل الداخلية التى يعانى منها المجتمع الإسلامى، والحال كما أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات أنّ طائفة من المسلمين قد شهدت حالة من التخبط على مستوى العقائد والعمل والقضايا الأخلاقية والابتعاد تدريجياً عن الإسلام الأصيل بفعل الأخطاء والاجتهادات فى مقابل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية؛ الأمر الذى أدى فى خاتمة المطاف إلى تلك الثورة العارمة على الخليفة الثالث وبما مهد السبيل أمام ظهور الحكومة الاستبدادية فى العصر الأموى والعباسى التى تفتقر لادنى شبه بالحكومة الإسلامية على عهد النبى صلى الله عليه وآله.

والمفروغ منه أنّ هذه الحالة العشوائية لم تكن وليدة ساعتها، بل ظهرت إثر تصاعد حدة الأخطاء المتواصلة طيلة عصر الخلافة. ثم قال الإمام عليه السلام:

«فصبرت على طول المدّة، وشدة المحنة».

فقد عانى عليه السلام من ذات الظروف والتحمل التى كانت أبان عهد الخليفة الأول، غير أنّ المحنة التى عاناها الإمام عليه السلام كانت أشد وأعظم بفعل تلك الظروف الاقهر والمدّة الأطول.

قال بعض شراح نهج البلاغة إنّ الإمام عليه السلام أشار إلى قضيتين كان لهما الأثر البالغ فى إستياء الإمام عليه السلام: الاولى ازدياد مدّة الابتعاد عن محور الخلافة، والثانية الاستياء والتذمر الذى أفرزته ظاهرة انشقاق الخلافة عن مسارها الأصلى فى عدم سيادة النظم الصحيحة بالنسبة لشؤون الناس الدينية. لكن على كل حال فقد كانت هناك المصالح المهمة التى تتطلب سكوت الإمام عليه السلام والتضحية بالامور الثانوية من أجل الأهداف الاسمى فقد استمر هذا الوضع حتى إنتهى عصر الخليفة الثانى.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٣٠

١- نماذج الفضاة الأخلاقية على عهد الخليفة الثاني

لقد الفت عدّة كتب- سواء كتب الحديث والتاريخ- من قبل علماء العامة بشأن الخليفة الثاني ولا سيما إبان خلافته التي تكشف عن مدى دقة عبارات الإمام عليه السلام في وصف خصائصه. ومما لا شك فيه أن خروقاته في هذا المجال كثيرة نكتفي ببعض نماذجها:

١- روى المرحوم العلامة الأميني في المجلد السادس من كتاب الغدير عن مصادر العامة المعروفة من قبيل سنن الدارمي وتأريخ ابن عساكر وتفسير ابن كثير واتقان السيوطي والدر المنثور وفتح الباري عدّة قصص مروعة بشأن الخليفة الثاني والرجل الذي يدعى «صبيغ العراقي». فالذي تفيده السير التاريخية أنه كان رجل بحاثه كثيرا ما يسأل عن الآيات القرآنية، غير أن عمر كان يجابهه بكل عنف بما يدعو للدهشة والعجب ومن ذلك.

فعن سلمان بن يسار إن رجلاً يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل فقال: من أنت؟ قال أنا عبدالله صبيغ: فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه وقال: أنا عبدالله عمر. فجعل له ضرباً حتى دمی رأسه فقال: يا أمير المؤمنين حسبك قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي. وعن نافع مولى عبدالله: إن صبيغ العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن في أجناد المسلمين حتى قدم مصر فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه قال: أين الرجل فقال: في الرحل، قال عمر: أبصر أن يكون ذهب فتصبيك مني العقوبة الموجهة. فأتاه به فقال عمر: تسأل محدثاً؟ فأرسل عمر إلى رطائب من جريد فضربه بها حتى ترك ظهره دبره، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ فدعا به ليعود له قال: صبيغ إن كنت تريد قتلي فقتلني قتلاً جميلاً، وإن كنت تريد أن تداويني فقد والله برئت، فأذن له إلى أرضه وكتب إلى أبي موسى الأشعري، أن لا يجالسه أحد من المسلمين، فاشتد ذلك على الرجل فكتب أبو موسى إلى عمر: أن قد حسنت توبته، فكتب عمر: أن يأذن الناس بمجالسته. وعن السائب بن يزيد قال: أتى عمر بن الخطاب فقيل: يا أمير المؤمنين! إنا لقينا رجلاً يسأل عن تأويل مشكل القرآن. فقال عمر: اللهم مكنى منه، فبينما عمر ذات يوم جالساً يغدى الناس إذ جاء

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٣١

الرجل وعليه ثياب وعمامة صفدى حتى إذا فرغ قال: يا أمير المؤمنين والذاريات ذروا فالحاملات وقرأ فقال عمر أنت هو؟ فقام إليه وحسر عن ذراعيه فلم يزل يجلدته حتى سقطت عمامته فقال: والذي نفس عمر بيده لو وجدتك مخلوقاً لضربت رأسك ألبسوه ثياباً واحملوه على قتب وأخرجوه حتى تقدموا به بلاده ثم ليقيم خطيب ثم يقول: إن صبيغاً ابتغى العلم فأخطأ فلم يزل وضيعاً في قومه حتى هلك وكان سيد قومه. [٤٦٣] وأول من ضرب عمر بالدرة أم فروة بنت أبي قحافة، مات أبو بكر فراح النساء عليه، وفيهنّ أخته أم فروة، فنهاهنّ عمر مراراً، وهنّ يعاودن، فأخرج أم فروة من بينهن، وعلاها بالدرة، فهربن وتفرقن.

كان يقال: درة عمر أهي من سيف الحجاج. وفي الصحيح أن نسوة كنّ عند رسول الله صلى الله عليه وآله قد كثر لغظهنّ، فجاء عمر فهرينّ هيبه له، فقال له: يا عديّات أنفسهن! أتتهجنّني ولا تهبنّ رسول الله! قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظ. [٤٦٤]

٢- العثار والاعتذار

قال ابن أبي الحديد: وممّ يوماً بشاب من فتيان الأنصار وهو ظمآن، فاستسقاها، فجدع له ماء بعسل فلم يشربه، وقال: إن الله تعالى يقول: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا»

فقال له الفتى: يا أمير المؤمنين، إنها ليست لك ولا لأحد من هذه القبيلة، اقرأ ما قبلها:

«وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا»

فقال عمر: كل الناس أفاقه من عمر!

وقيل: إن عمر كان يعس بالليل، فسمع صوت رجل وامرأة في بيت، فارتاب فتسور الحائط، فوجد امرأة ورجلاً، وعندهما زق خمر، فقال: يا عدو الله، أكنت ترى أن الله يترك وأنت على معصيته! قال: يا أمير المؤمنين، إن كنت أخطأت في واحدة فقط أخطأت في ثلاث، قال الله تعالى: «وَلَا تَجَسَّوْا»، وقد تجسست. وقال: «وَأُتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا»، وقد تسورت، وقال: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا»، وما سلمت! [٤٦٥]

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٣٢

وأخرج الحافظان الدراقطنى وابن عساكر: إن رجلين أتيا عمر بن الخطاب وسألاه عن طلاق الائمة فقام معهما فمش حتى أتى حلقة في المسجد فيها رجل أصلع فقال: أيها الأصلع! ما ترى في طلاق الائمة؟ فرفع إليه رأسه ثم أومىء إليه بالسبابة والوسطى فقال لهما عمر: تطليقتان، فقال أحدهما: سبحان الله جئناك وأنت أمير المؤمنين فمشيت معنا حتى وقفت على هذا الرجل فسألته فرضيت منه أن أومىء إليك، وأتى عمر بن الخطاب بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور فأمر برجمها فتلقاها على فقال: ما بال هذه؟ فقالوا: أمر عمر برجمها فردها على وقال: قد كان ذلك. قال أو ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا أحد على معترف بعد بلاء، أنه من قيد أو حبس أو تهدد فلا إقرار له، فخلا- سبيلها ثم قال: عجزت النساء أن تلدن مثل على بن أبى طالب، لولا على لهلك عمر. وأخرج ابن مبارك قال: حدثنا الأشعث عن الشعبي عن مسروق قال: بلغ عمر أن امرأة من قريش تزوجها رجل من ثقيف فى عدتها فأرسل إليهما ففرق بينهما وعاقبهما وقال: لا ينكحها أبداً وجعل الصداق فى بيت المال وفشا ذلك بين الناس فبلغ علياً كرم الله وجهه فقال: ما بال الصداق وبيت المال؟ إنهما جهلا فينبغى للإمام أن يردهما إلى السنة قيل: فما تقول أنت فيها؟ قال لها الصداق بما استحل من فرجها، ويفرق بينهما، ولا جلد عليهما، وتكمل عدتها من الأول ثم تكمل العدة من الآخر، ثم يكون خاطباً. فبلغ ذلك عمر فقال: يا أيها الناس ردوا الجهالات إلى السنة. [٤٦٦]

٣- رد على سوال

لعل الصورة التى رسمها الإمام عليه السلام فى الخطبة عن مشاكل المسلمين والفوضى التى سادتهم على عهد الخليفة الثانى تتنافى والذهنية السائدة لدى البعض فى أن عهده كان مشرقاً حافلاً بالانتصارات والمكتسبات؛ الأمر الذى يثير السؤال الآتى: كيف يمكن التوفيق بين تلك الصورة والوقائع التى عكسها التاريخ الإسلامى؟ والالتفات إلى هذه القضية من شأنه أن يقدم الجواب الشافى لهذا السؤال، فما لا شك فيه-

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٣٣

كما أشرنا سابقاً أن عهد الخليفة الثانى كان عصر الانتصارات والفتوحات على صعيد السياسة الخارجية للبلاد؛ لأن المسلمين وعلى ضوء التعاليم الإسلامى والآيات القرآنية التى تدعو إلى الجهاد قد مارسوا هذه الفريضة بشكل واسع بحيث لم تمض مدّة حتى حققوا الفتوحات الإسلامى الباهرة خارج البلاد الإسلامى فتم لهم نيل ما لا يحصى من الغنائم المادية، الأمر الذى جعل هذه الفتوحات تغطى على ضعف الجبهة الداخلية والفوضى التى كانت سائدة آنذاك، وهو المعنى الذى نلمسه اليوم بوضوح فى السياسة المتبعة فى العصر الراهن، فقد يؤدى الانتصار الذى تحرزه الدولة على صعيد السياسة الخارجية إلى التغطية على كل شىء ولا سيما المشاكل والمعضلات التى تعيشها على مستوى الداخل، ومن هنا نرى ساسة الاستكبار الذين يحاولون التغطية على مشاكلهم الداخلية باخماد فورتها من خلال اللجوء إلى عدّة أنشطة- بما فيها شن الحروب- خارجية.

وزبده الكلام فان الإمام عليه السلام إنما تحدث عن مدى العنف والاضطهاد والأخطاء الفادحة وسعة حجم المشاكل الداخلية إبان عهد الخليفة الثاني؛ الأمر الذي تم التعامل معه بمعزل عن مسألة الفتوحات.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٣٥

القسم الثالث: عصر الخليفة الثالث

إشارة

«حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ فَيَا لَللشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ لَكِنِّي أَسْتَفْقْتُ إِذْ أَسِيفُوا، وَطَرْتُ إِذْ طَارُوا: فَصَيَّرَ غَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِعْفِهِ وَمَالَ الْأَخْرُ لِيَصْهَرَهُ مَعَ هُنَّ وَهَنٍ، إِلَى أَنْ قَامَ نَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجًا حَضَنِيهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلِفِهِ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللَّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نَبْتَهُ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنْ انْتَكَّتْ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَأَجْهَرَ عَلَيْهِ عَمَلَهُ، وَكَبَّتْ بِهِ بِطُنْتُهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- في هذا القسم من خطبته- إلى انتهاء عصر الخليفة الثاني والأحداث التي مهدت السبيل أمام عثمان للاستيلاء على الخلافة بعد أن أمارت اللثام عن التفاصيل التاريخية والأسرار التي إنطوت عليها هذه القضية وبعين موقفه من ذلك، ثم عرج على المشاكل والفتن التي عاشتها الامية الإسلامية على عهد عثمان والانتفاضة الشعبية العارمة التي أدت إلى قتله بعبارات مقتضبة عميقة المعنى من خلال الكنايات والاستعارات والتشبيهات البلاغية الرائعة التي طبعت كلماته وخطبه عليه السلام.

فقد قال عليه السلام:

«حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم».

ولعل قوله عليه السلام

«زعم أني أحدهم»

تشير إلى معنيين: الأول: أنه جعلني ظاهرياً أحد أعضاء هذه الشورى بينما كان يعلم باطنياً بالنتيجة التي ستمخض عنها ومن يفوز بالأمر.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٣٦

الثاني: أنه أراد أن يجعلني ظاهرياً في مصاف هؤلاء الخمسة، والحال كان يعلم باطنياً عدم إمكانية مقارنتي بأي منهم [٤٦٧].

و العبارة تشير إلى الزمان الذي جرح فيه عمر جرحاً بليغاً من قبل ذلك الرجل الذي يدعى فيروز والمكنى بأبي لؤلؤة بعد أن رأى نفسه على فراش الموت. فقد حضره جمع من الصحابة وأشاروا عليه باستخلاف من يرضاه، فما كان منه إلا أن خطب خطبة- سنشير إلى مضامينها لاحقاً- واقترح الشورى وهم:

على عليه السلام وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص، على أن يجتمعوا لثلاثة أيام ويختاروا من بينهم الخليفة، فاجتمعوا لستمخض نتيجة الاجتماع عن إختيار عثمان.

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذه الشورى قائلاً:

«فيا لله وللشورى» [٤٦٨]

، ثم يتطرق عليه السلام إلى أولى نقاط ضعف هذه الشورى وهي أنه متى كان هناك من شك وترديد في أرحيته على الخليفة

الأول فضلا عن إقترانه بهذه النظائر

«متى اعترض الريب في مع الأول منهم حتى صرت اقرن إلى هذه النظائر»

. فالعبارة تكشف عن قمة أسي الإمام عليه السلام على هضم الحقوق الذي تعرض له، ويشير إلى حقيقة وهي أنهم ينبغي أن يختاروني لو أخذوا بنظر الاعتبار استحقاق الخلافة والجدارة والأحقية بها.

غير أن المؤسف له أنه كانت هناك أهداف أخرى أدت إلى جعل من كان بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وآله وباب مدينه علمه والعالم بالكتاب والسنة والعارف بأسرار المسائل الإسلامية وبطل التوحيد الذي تربي في حجر النبي صلى الله عليه وآله في مصاف عبدالرحمن بن عوف وسعد بن وقاص وامثالهما.

ثم أضاف عليه السلام:

«لكني اسففت إذ أسفوا وطرت إذ طاروا» [٤٦٩]

قالواقع هذه كناية بشأن

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٣٧

الطيور التي تطير عى هيئة اسراب فتعلق أحيانا وتنخضض اخرى إلى الأرض وفي الحركتين تكون معاً. ومن الواضح أن الأوضاع المزرية في زمان الخلفاء- لا سيما إذا ابعد الخليفة وأقصى- تتطلب الابتعاد عن كافة أشكال الفرقة والتشتت حذراً من إستغلالها من قبل خصوم الدعوة والتأهب للاجهاض عليها. هنالك احتمال آخر أيضاً بشأن تفسير هذه العبارة في أن مراده منها: أنى أدور حيث مدار الحق والهت خلفه لكنى طلبت الأمر وهو موسوم بالاصاغر منهم، كما طلبته أولاً وهو موسوم بأكابرههم، أى هو حقى فلا أستنكف من طلبه، إن كان المنازغ فيه جليل القدر أو صغير المنزلة ثم أشار عليه السلام إلى نتيجة تلك الشورى وأعمالها المريبة حيث تحرك أحدهم بدافع من حقه وضغينته بينما إندفع الآخر بوحى من قرابته ونسبه لينتهى الأمر إلى عثمان:

«فصغا» [٤٧٠] رجل منهم لضغنه [٤٧١] ومال الآخر لصهره، مع

هن [٤٧٢] وهن».

فقد قصد الإمام عليه السلام بالعبارة الاولى «سعد بن أبى وقاص» الذى كان ينتمى من طرف أمه إلى بنى أمية وقد قتل أخواله وأقربائه على يد على عليه السلام فى المعارك الإسلامية ضد الكفر والشرك، ولذلك لم يكن مستعداً لمبايعه على عليه السلام حتى فى خلافته.

وعمر بن سعد ذلك المجرم الجبار الذى قتل الحسين عليه السلام وصحبه فى كربلاء هو ابنه. وعليه فقد كانت ضغينته لعلى عليه السلام أشهر من نار على علم وهى التى جعلته لا يصوت لصالح الإمام عليه السلام، وهذا ما أدى إلى فوز عثمان بعد أن منحه رأيه بواسطة عبدالرحمن بن عوف. وقال البعض المراد به «طلحة» المفروغ من كراهيته للإمام عليه السلام وهو الذى أشعل إلى جانب الزبير حرب الجمل التى أدت حسب قول المؤرخين إلى قتل سبعة عشر ألف.

وقد قوى هذا الاحتمال ابن أبى الحديد، بينما يرى بعض شراح نهج البلاغة أن طلحة وإن رشح للشورى من قبل عمر إلا أنه لم يكن فى المدينة ولم يوفق لحضور جلسة الشورى [٤٧٣].

أمّا الفرد الذى مال إلى صهره فهو عبدالرحمن بن عوف زوج ام كلثوم بنت عثمان.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٣٨

وقوله عليه السلام:

«مع هن وهن» [٤٧٤]

، استنادا إلى أن المفردة «هن» كناية عن أعمال قبيحة يكره ذكرها، فالعبارة يمكن أن تكون إشارة إلى الاغراض الاخرى التى كان

يطمع بها عبدالرحمن بن عوف من خلال تصويته لصالح عثمان من قبيل مد إليه إلى بيت مال المسلمين أو التسلط على الناس أو الاستيلاء على الخلافة بعد عثمان أو جميع هذه الامور. فالذى نستفيدة من هذا الكلام أن الشورى قد عقدت في أجواء متوترة، والشئ المغيب فيها إنما كان المصالح الإسلامية، وعليه فمن الطبيعي الأتؤدى لضمان مصالح المسلمين، وقد أثبتت الحوادث التى وقعت على عهد عثمان مدى الخسائر الفادحة التى تكبدها المسلمون.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى النتيجة النهائية للشورى فقال:

«إلى أن قام ثالث القوم نافجا» [٤٧٥]

حضنيه [٤٧٦] بين نثيله [٤٧٧] ومعتلفه [٤٧٨]

. ولم يقتصر هذا الأمر على عثمان بل سار معه فى هذا النهج قرابته وبطانته

«و قام معه بنو أبيه يخضمون [٤٧٩] مال الله خضمة الأبل نبتة الربيع».

أما التعبير بنبتة الربيع للإشارة إلى أنها نبتة سائغة وطعمه سهله للحيوان فيتنا ولها بكل شره ووله. والعبارة

«يخضمون مال الله ...»

- وبالالتفات إلى المعنى اللغوى لخضم - تفيد أن بنى امية قد اقتحمت الميدان بكل ثقلها لتنهب بيت المال فتبتلع منه ما شاءت. وقال ابن أبى الحديد لقد سلط الخليفة الثالث - عثمان - بنى امية على رقاب الناس وأغدق عليهم الأموال فقد أعطى عبد الله بن خالد أربعمأة ألف درهم، وأعطى عبدالله بن أبى سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح افريقية بالمغرب، وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف من بيت المال، واعطى الحارث بن الحكم - زوج بنت، عائشة - مائة ألف من بيت المال، واعطى طلحة ثلاثمأة واثنين وعشرين ألف، والزبير خمسمأة وثمانية وتسعين ديناراً، حتى بلغ ما أغدقه من

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٣٩

بيت المال مئة وستة وعشرين مليون وسبعمأة دينار.

و الأعجب من ذلك الدنانير التى أغدقها على بنى امية فقد منح مروان بن الحكم خمسمأة الف دينار، ويعلى بن امية خمسمأة الف دينار، وعبد الرحمن بن عوف مليونين وخمسمأة وستين الف دينار والمجموع أربعة ملايين وثلاثمأة وعشرة دنانير [٤٨٠]. وهنا يتضح عمق المعنى لقوله عليه السلام:

«يخضمون مال الله خضمة الأبل نبتة الربيع»

. وبالطبع فان هذا الوضع لم يكن ليستمر لمدة طويلة حيث لا يسع المسلمون تحمل مثل هذه الظروف ولذلك لم تمض مدة حتى انطلقت تلك النهضة ضد عثمان لتطيح به فى خاتمته المطاف وتقتله بمرأى ومسمع من الأمة دون أن يهب أحد من المسلمين لنصرته وهذا بعينه ما أشار إليه الإمام عليه السلام حين قال:

«إلى أن انتكث [٤٨١] عليه فته [٤٨٢] وأجهز [٤٨٣] عليه عمله، وكبت [٤٨٤] به بطنته [٤٨٥]».

و الواقع أن الإمام عليه السلام رسم بثلاث عبارات صورة واضحة كاملة عن وضع الخليفة الثالث و انتهاء أمره وقتله. فقد صور فى العبارة الاولى إزالته لكافة مظاهر القدسية والزهد التى عرفها عنه الناس ليقفوا على مدى تكالبه على الدنيا.

كما يصور فى العبارة الثانية سوء أعماله التى وجهت له الضربة القاصمة، وأخيراً تخمته وامتلاء جوفه بالطعام بالشكل الذى لم يتمكن معه من الوقوف على قدميه حتى كب على وجهه على الأرض. فقد بين الإمام على عليه السلام بهذه العبارات الدروس والعبر التى ينبغى أن يقتدى بها ساسة البلدان ويضعوها نصب أعينهم بحيث إذا إستغلوا مكانتهم وأقبلوا يتهافتون على الدنيا فإن ذلك سيؤدى إلى زوال سوابقهم الحسنة بما يعبىء الرأى العام ضدهم وبالتالي الاطاحة بهم وبحكومتهم.

جدير بالذكر أن العوامل التى بلورة ظهور وانبثاق خلافة عثمان هى ذاتها التى أدت إلى القضاء عليه، فقد دفع حب المال والثروة بعض

الأفراد من قبيل سعد بن أبي وقاص

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٤٠

وعبدالرحمن بن عوف وطلحة (بناء اعلى كونه حاضرا في الشورى) لأن يضموا أصواتهم لعثمان واختياره للخلافة، وهكذا إتسعت هذه المسألة واستفحلت حتى فقد عثمان مكانته لدى الرأى العام والذي أدى بالتالى إلى ثورة الائمة وإطاحتها به. أما بعض شراح نهج البلاغة فقد ذهبوا إلى أن المراد بقوله «إنتكث عليه فتله» انهيار الاجراءات والتدابير التى مارسها لتوطيد حكومته، ولعل تفويضه بعض الأعمال والمناصب لبطانته وقرابته قد كانت ضمن تلك الإجراءات المتخذة، لكن نفس هذا الأمر قد أعطى نتائج معكوسة أسهمت فى تفويض حكومة عثمان.

تأملات

١- كيفية انتخاب خليفة الثانى والثالث

نعلم أن الخليفة الثانى قد نصب من قبل أبى بكر الذى عهد إليه بالخلافة فى وصيته حين نزل به الموت. فقد جاء فى بعض التواريخ أن أبابكر أحضر عثمان- وهو وجود بنفسه- فأمره أن يكتب عهدا، وقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبوبكر إلى المسلمين، ثم أمأ بعد، ثم اغمى عليه، فكتب عثمان:

«اما بعد فانى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب لم آلكم خيرا». [٤٨٦]

و أفاق أبوبكر فقال: إقرأ فقرأه، فكبر أبوبكر وسرب وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت فى غشيتى! قال عثمان: نعم، قال: جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله [٤٨٧].

يتضح بجلاء من هذا الخبر أن عثمان قد خاط هذا القميص- الخلافة- لقامه عمر، ولو افترض عدم إفاقة أبى بكر لنشرت هذه الوصية على أنها وصية أبى بكر. وعليه فلم هنالك من مجال للتعجب فى إقتراح عمر لتلك الشورى وبذلك التركيب الذى سوف لن يؤدى إلإلى استخلاف عثمان.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٤١

و هو ذات الاسلوب الذى إتبعه الخليفة الثانى فى السقيفة حين مهد السبيل أمام خلافة أبى بكر، لكى يسارع هذا الأخير فيعوضه عمأ قدمه له. ويفهم ضمنا أن الحيلولة دون إختلاف الائمة وفرقتها هى التى تقف وراء تعجيل أبى بكر وعثمان فى تعيين الخليفة. فاذا كان الأمر كذلك، فما بالك برسول الله صلى الله عليه و آله؟! ألم يكن من الواجب على النبى صلى الله عليه و آله أن يتكهن بهذا الأمر بالنسبة لأمته مع وجود تلك النزاعات والصراعات التى كشفت عن نفسها فى السقيفة؟

كيف يمكن الاعتقاد بأن النبى صلى الله عليه و آله قد فوض للامة مسألة إنتخاب الخليفة، بينما لا يرمى هذا الأمر فى خلافة الثانى والثالث، حتى أن خوف الفتنة منع من تفويض الأمر للامة؟! هذه هى الاسئلة التى ينبغى لكل محقق الرد عليها.

٢- الشورى وحكومة عثمان

وصورة هذه الواقعة أن عمر لما طعنه أبولؤلؤه، وعلم أنه ميت، استشار فيمن يوليه الأمر بعده، فأشير عليه بابنه عبد الله، فقال: لاها الله إذا! لايلها رجلان من ولد الخطاب! حسب عمر ما حُمل! حسب عمر احتقب، لاها الله! لا أتحملها حيا وميتا! ثم قال: إن رسول الله

مات وهو راض عن هذه الستة من قريش: علي، وعثمان وطلحة، والزبير، وسعد، وعبدالرحمن بن عوف؛ وقد رأيت أن أجعلها شوري بينهم ليختاروا لأنفسهم. ثم قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني يعني أبابكر وإن أترك فقد ترك من هو خير مني يعني رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال: ادعوهم لي، فدعوهم، فدخلوا عليه وهو ملقى على فراشه يوجد بنفسه. فنظر إليهم، فقال: أكلكم يطمع في الخلافة بعدى! فوجموا، فقال لهم ثانية، فأجابة الزبير وقال: وما الذي يُبعدنا منها! وليتها أنت فقمت بها، ولسنا دونك في قريش ولا في السابقة ولا في القرابة.

قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ: والله لولا علمه أن عمر يموت في مجلسه ذلك لم يقدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمة، ولا أن تنفس منه بلفظه.

فقال عمر: أفلا- أخبركم عن أنفسكم! قال: قل، فإننا لو استعفيناك لم تُعفنا. فقال: أميا أنت يا زبير فوقع لقس، مؤمن الرضا كافر الغضب، يوماً إنسان، ويوماً شيطان، ولعلها لو أفضت نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٤٢

إليك ظلت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير! أفرأيت إن أفضت إليك، فليت شعري، من يكون للناس يوم تكون شيطاناً، ومن يكون يوم تغضب! وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة، وأنت على هذه الصفة. ثم أقبل على طلحة وكان له مبغضاً منذ قال لأبي بكر يوم وفاته ما قال في عمر فقال له: أقول أم أسكت: قال: قل، فإنك لا تقول من الخير شيئاً، قال: أما إنني أعرفك منذ أصيبت إصبعك يوم أهد واثب بالذي حدث لك، ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتها يوم أنزلت آية الحجاب.

ثم أقبل على علي عليه السلام، فقال: لله أنت لولا دُعابه فيك! أما والله لئن وليتهم لتحملتهم على الحق الواضح، والمحجّة البيضاء. ثم أقبل على عثمان، فقال: هيهأ إليك! كأتى بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، فحملت بني أمية وبني أبي مُعيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفى، فسارت إليك عصابة من ذوبان العرب، فذبحوك على فراشك ذبحاً. والله لئن فعلوا لتفعلنّ فعلت ليفعلنّ، ثم أخذ بناصيته، فقال: فإذا كان ذلك فاذا كر قولى؛ فإنه كائن.

ثم قال: ادعوا إلى أبا طلحة الأنصاري، فدعوه له فقال: انظر يا أبا طلحة، إذ عدتم من حُفرتي، فكن في خمسين رجلاً من الأنصار حاملي سيوفكم، فخذ هؤلاء نفر بامضاء الأمر وتعجيله، واجمعهم في بيت، وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتفق ثلاثة وخالف ثلاثة، فانظر الثلاثة التي فيها عبدالرحمن، فارجع إلى ما قد اتفقت عليه، فإن أصرت الثلاثة الأخرى على خلافها فاضرب أعناقها، وإن مضت ثلاثة أيام ولم يتفقوا على أمر، فاضرب أعناق الستة، ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم. فلما دُفن عمر، جمَع أبو طلحة، ووقف على باب البيت بالسيف في خمسين من الأنصار، حاملي سيوفهم، ثم تكلم القوم وتنازعوا، فأول ما عمل طلحة أنه أشدهم على نفسه أنه قد وهب حقه من الشورى لعثمان، وذلك لعامة أن الناس لا يعدلون به علياً وعثمان، وأن الخلافة لا تخلص له وهذان موجودان، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعاف جانب علي عليه السلام، بهبه أمر لا انتفاع له به، ولا تمكن له منه.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٤٣

فقال الزبير في معارضته: وأنا أشهدكم على نفسي أنني قد وهبت حقي من الشورى لعلّي، وإنما فعل ذلك لأنه لما رأى علياً قد ضعف وانخزل بهيئة طلحة حقه لعثمان، دخلته حمية النسب، لأنه ابن عمه أمير المؤمنين عليه السلام، وهي صفة بنت عبدالمطلب، وأبو طالب خاله. وإنما مال طلحة إلى عثمان لانحرافه عن علي عليه السلام، باعتبار أنه تيمى وابن عم أبي بكر، وقد كان حصل في نفوس بني هاشم من بني تيم حتى شديد لأجل الخلافة، وكذلك صار في صدور تيم على بني هاشم.

فمما لا شك فيه هنالك عدّة أسئلة لا بدّ من طرحها بشأن هذه الشورى ومنها:

أولاً: لو كانت الضابطة في الخلافة تكمن في آراء الامية فلم لا يرجع إليها؟ وإن كانت الخلافة قائمة على أساس التعيين فما معنى الشورى المركبة من ستة أعضاء وما بال إهمال سائر الشخصيات المعروفة وعدم إشراكها في الشورى

ثانياً: لقد قيل أن رسول الله صلى الله عليه وآله مات وهو راض عن هذه الستة من قريش، فكيف التوفيق بين هذا وما صرح بأن رسول الله صلى الله عليه وآله مات وهو ساخط على طلحة بالثلمة التي قالها يوم انزلت آية الحجاب [٤٨٨]؟

ثالثاً: لو افترض عدم تمكنهم من القيام بوظيفتهم فكيف يؤمر بضرب أعناقهم؟

رابعاً: لو كانت الشورى حقا فما معنى الوصية بعثمان وذكره صراحة؟ ولو كان يخشى على الامة الإسلامية من خلافته للزم عدم جعله أحد أعضاء تلك الشورى ليأتي آخر غيره؟

خامساً: إذا انقسمت الشورى إلى قسمين فلم لا ترجح الكفة التي فيها على عليه السلام والذي قال له عمر: أميا والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح، والحجة البيضاء. وليس له من إشكال عليه سوى قوله «لولا دعاة فيك».

سادساً: وهل للدعاة من أثر سلبي على الخلافة وهل يرقى هذا الإشكال إلى الإشكال على عثمان بأنه إذا ولي الخلافة وسيسلط بنى امية على رقاب المسلمين فيتخذون عباد الله

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٤٤

خوفاً وماله دولاً؟

هذه هي الاسئلة والاستفسارات التي ليست لها من إجابة.

٣- أسباب الخروج على عثمان

و يجب أن نذكر في هذا الموضوع ابتداء اضطراب الأمر على عثمان إلى أن قُتل.

و أصح ما ذكر في ذلك ما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في «التاريخ» [٤٨٩].

و خلاصة ذلك أن عثمان أحدث أحداثاً مشهورة نَقَمَهَا النَّاسُ عَلَيْهِ، من تأمير بنى أمية، ولا سيما الفساق منهم وأرباب السّفه وقلة الدّين، وإخراج مال الفياء إليهم، وما جرى في أمر عَمِيَارِ وَأَبِي ذَرٍّ وَعَبْدِ اللَّهِ بن مسعود، وغير ذلك من الامور التي جرت في أواخر خلافته. ثم اتفق إن الوليد بن عُقبه لما كان عامله على الكوفة وشهد عليه بشرب الخمر، صرفه وولّى سعيد بن العاص مكانه، فقدم سعيد الكوفة، استخلص من أهلها قوماً يسمرون عنده، فقال سعيد يوماً:

إنّ السّواد بستان لقريش وبنى أمية. فقال الأشتر النخعي: وتزعم أنّ السّواد الذي أفاء الله على المسلمين بأسيافا بستان لك لقومك! فقال صاحب شرطته: أتردّ على الأمير مقالته! وأغلظ له، فقال الأشتر لمن كان حوله من النَّخَعِ وغيرهم من أشرف الكوفة: ألا تسمعون! فوثبوا عليه بحضرة سعيد فوطئوه وطأ عنيفاً، وجزّول برجله، فغلظ ذلك على سعيد، أبعد سيماره فلم يأذن بعد لهم، فجعلوا يشتمون سعيداً في مجالسهم، ثم تعدّوا ذلك إلى عثمان في أمرهم، فكتب إليه أن يسيرهم إلى الشام؛ لئلا يفسدوا أهل الكوفة، وكتب إلى معاوية وهو وإلى الشام: إنّ نَفراً من أهل الكوفة قد همّوا بإثارة الفتنة، وقد سيرتهم إليك، فانهم؛ فإن آنت منهم رشداً فأحسن إليهم، واردهم إلى بلادهم.

ثم إن سعيد بن العاص قدم على عثمان سنة إحدى عشرة من خلافته. فلما دخل المدينة اجتمع قومٌ من الصحابة، فذكروا سعيداً وأعماله، وذكروا قربات عثمان وما سوّغهم من مال المسلمين، وعابوا أفعال عثمان، فأرسلوا إليه عامر بن عبد القيس وكان متألهاً [٤٩٠]، واسم أبيه

عبدالله، وهو من تميم، ثم من بنى العنبر فدخل على عثمان، فقال له: إن ناساً من الصحابة اجتمعوا ونظروا في أعمالك، فوجدوك قد ركبت اموراً عظماً، فاتق الله وتب إليه.

فأخرجه عثمان، وأرسل إلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وإلى معاوية وسعيد ابن العاص وعمرو بن العاص وعبيدالله بن عامر وكان قد استقدم الأمراء من أعمالهم فشاورهم، وقال: إن لكل أمير وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائي ونصحاى وأهل ثقتى، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إلى أن أعزل عمالى، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم.

فقال عبدالله بن عامر: أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم عنك بالجهاد حتى يذلولوا لك، ولا تكون همّة أحدهم إلأى نفسه، وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته.

فقال عثمان: إن هذا لهو الرأى لولا ما فيه.

ثم كاتب عماله واستقدمهم، فلما قدموا عليه جمعهم، وقال: ما شكايه الناس منكم؟ إنى لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يعصب هذا الأمر إلأى. فقالوا له: والله ما صدق من رفع إليك ولا بر، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً. فقال عثمان: فأشيروا على، فقال سعيد بن العاص:

هذه امور مصنوعة تلقى فى السر فيتحدث بها الناس، ودواء ذلك السيف.

وروى محمد بن عمر الواقدى رحمه الله تعالى، قال: لما أجلب الناس على عثمان، وكثرت الفالة فيه، خرج ناس من مصر؛ منهم عبدالرحمن عديس البوى، وكنائه بن بشر اللشى، وسودان بن حمران السكونى، وقتيرة بن وهب السكسكى؛ وعليهم جميعاً أبو حرب الغافقى، وكانوا فى ألفين. وخرج ناس من الكوفة، منهم زيد بن صوحان العبدى، ومالك الأشتر النخعى، وزيد بن النضر الحارثى، وعبدالله بن الأصم الغامدى، فى ألفين. وخرج ناس من أهل البصرة. منهم حكيم بن جبله العبدى، وجماعة من أمرائهم، وعليهم حرقوص بن زهير السعدى؛ وذلك فى شوال من سنة خمس وثلاثين، وأظهروا أنهم يريدون الحج. فلما كانوا من المدينة على ثلاث، تقدم أهل البصرة، فنزلوا ذاخشب وكان هواهم فى طلحة. وتقدم أهل الكوفة، فنزلوا الأعوص وكان هواهم فى الزبير. وجاء أهل مصر فنزلوا المروة وكان هواهم فى على عليه السلام. ودخل ناس منهم إلى المدينة يخبرون ما فى قلوب الناس لعثمان، فلقوا جماعة من المهاجرين والأنصار، ولقوا أزواج النبى صلى الله عليه وآله، وقالوا: إننا نريد الحج، ونستعفى

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٤٦

من عمالنا.

وخرج عثمان يوم الجمعة، فصلى بالناس، وقام على المنبر، فقال: يا هؤلاء، الله الله؛ فوالله إن أهل المدينة يعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه، فامحوا الخطأ بالصواب.

وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه؛ فأدخل داره؛ واستقتل نفر من أهل المدينة مع عثمان؛ منهم سعد بن أبى وقاص، والحسن بن على عليه السلام، وزيد بن ثابت، وأبو هريرة؛ فأرسل إليهم عثمان: عزمت عليكم أن تنصرفوا؛ فانصرفوا.

وأقبل على وطلحة والزبير، فدخلوا على عثمان يعودنه من صرعته، ويشكون إليه ما يجدون لأجله؛ وعند عثمان نفر من بين أمية، منهم مروان بن الحكم، فقالوا لعلى عليه السلام:

أهلكنا وصنعت هذا الذى صنعت! والله إن بلغت هذا الأمر الذى تريده لتمرن عليك الدنيا؛ فقام مغضباً، وخرج الجماعة الذين حضروا معه إلى منازلهم.

وروى المدائنى، قال: كان عثمان محصوراً محاطاً به، وهو يصلى بالناس فى المسجد، وأهل مصر والكوفة والبصرة الحاضرون له يصلون خلفه، وهم أدق فى عينه من التراب.

وروى الكلبي والواقدي والمدائنى: أن محمد بن أبى بكر، ومحمد بن أبى حذيفة كانا بمصر يحرضان الناس على عثمان، فسار محمد

بن أبي بكر مع من سار إلى عثمان، وأرقام محمد بن أبي حذيفة بمصر، ثم غلب عليها لما سار عبدالله بن سعد بن أبي سرح عامل عثمان عنها إلى المدينة في أثر المصريين، ياذن عثمان له، فلما كان بأيلة، بلغه أن المصريين قد أحاطوا بعثمان وأنه مقتول، وأن محمد بن أبي حذيفة قد غلب على مصر، فعاد عبدالله إلى مصر، فمنع عنها، فأتى فلسطين، فأقام بها حتى قتل عثمان. [٤٩١]

٤- هل سار جميع الصحابة على نهج النبي صلى الله عليه وآله

المعروف بين أوساط الاخوة من أبناء العامة أن لصحابه رسول الله صلى الله عليه وآله - دون إستثناء - قدسية و عدالة وأن أحدا منهم لم يؤتى بما يخالف ما أمر به الله في الكتاب والسنة، بينما تعتقد الشيعة من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن الصحابة ليست سواسية ولها رأى بكل صحابي بما

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٤٧

ينسجم وسلوكه سواء على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أو بعد وفاته.

ولاشك أن الاعتقاد السائد لدى الاخوة السنة بشأن الصحابة قد قادهم إلى مشاكل كثيرة؛ وذلك لأن هنالك من الصحابة ممن اختلفوا فيما بينهم إلى حد الاقتتال. فيكف يمكن تبرير تلك العقيدة التي تتضمن عدالتهم وقدسيتهم. على سبيل المثال موقعة صفين التي قام فيها معاوية ضد إمام زمانه بما أدى إلى اراقة تلك الدماء، فهل هناك مورخ نزيه يمكنه توجيه ذلك العمل؟! أو الدماء التي سفكت في معركة الجمل التي قادها طلحة والزبير ضد الإمام على عليه السلام بعد أن نكثا بيعته حتى قيل أن عدد القتلى بلغ أكثر من سبعة عشر الف قتيل، فهل لهما من عدالة بعد تلك الفجائع التي ارتكبت بحق المسلمين وخروجها على الإمام عليه السلام؟! أمّا بشأن عثمان وكما مرّ معنا وعلى ضوء إجماع كافة مؤرخي الإسلام فأننا نصطدم بموضوعين مهمين: الأول اغداقه المناصب الحساسة على بنى امية وتسليطهم على رقاب المسلمين ومن أولئك الذين عرفوا بفسقهم ومجونهم حتى تعالت عليهم أصوات المسلمين من كل حدب وصوب، والآخر نهب أموال بيت المال واغداقها دون حساب على هذا وذاك بالشكل الذي آثر حفيظة الامة وأجج مشاعرها للغضب والثورة عليه.

فهل من إنسجام بين هذه الأعمال والخطوط العامة للقداسة وتنزيه الصحابة؟! فلو كان هنالك من تبرير لمثل هذه الأعمال فهل ستبقى هنالك من أعمال يمكن إدانتها؟!!

لقد ذكرني هذا الكلام بقصة عجيبة وقعت لي ولا يسعني نسيانها أبدا. فقد تشرفت احدى السنوات بزيارة مكة لاداء العمرة وقد سنحت لي الفرصة لان ألتقى بعض علماء العامة- ولا سيما أثناء الليالي في المسجد الحرام وبين صلاتي المغرب والعشاء التي كانت فرصة مناسبة- في احدى الليالي (طبعا كان البعض منهم من مشاهير علماء العامة).

وفي المسجد الحرام وسعينا لان نبقي على الأبحاث تعيش أجواء المنطق والعلم والاستدلال والبرهان وابعادها عن عناصر العداء والكراهية وجرح المشاعر. وقد جرننا الكلام إلى الحديث عن «تنزيه الصحابة وعدالتهم» فكانوا يعتقدون جميعهم بعدم إمكانية جراءة أحد على توجيه أدنى تهمة إليهم. فسألت أحدهم: «لو شهدت صفين حيث معسكر على عليه السلام معسكر معاوية، فمع من كنت تقاتل؟» فاجاب من فوره: مع معسكر على عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٤٨

فقلت: لو أعطاك علياً عليه السلام سيفاً وقال لك: «خذ هذا واقتل معاوية فهل كنت تمتثل أمره؟» هنا أجاب إجابة عجيبة لا أظنكم تتصورونها، فقد قال:

«كنت أقتله ولا أذكره بسوء»

نعم قضية تنزيه الصحابة قصة ذات شجون ولا يسعني الخوض في كافة تفاصيلها.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٤٩

القسم الرابع

إشارة

«فَمَا رَاعِنِي إِلَّا وَالنَّاسُ كَعُزْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ يَنْتَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى، وَقَسَطَ آخَرُونَ، كَانَتْهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»، بَلَى! وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلَيْتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِبْرُجُهَا».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى عصر خلافته ولا سيما أبان البيعة التي شهدت حضوراً خارقاً للأمة في مبايعته والوقوف إلى جانبه، البيعة الفريدة التي لم يعرف التاريخ الإسلامي لها من نظير، غير أن عدداً كثيراً لما جوبه بعدالة الإمام عليه السلام وتنمره في الحق قد إنفرجوا عنه وهبوا لمخالفته وبالتالي أجبوا نيران الحرب «الجميل وصفين والنهروان» وشقوا صفوف المسلمين وحالوا دون تنويع جهود الإمام عليه السلام ومسايعه في النهوض بالمجتمع الإسلامي والأخذ بيده إلى السمو والتكامل.

فقد وصف عليه السلام بادىء ذي بدء كيفية إقبال الناس عليه وهجومهم من أجل البيعة قائلاً:

«فَمَا رَاعِنِي [٤٩٢] إِلَّا وَالنَّاسُ كَعُزْفِ الضَّبُعِ [٤٩٣] إِلَيَّ يَنْتَالُونَ [٤٩٥] عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ»

فالتعبير بعرف

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٥٠

الضبع إشارة إلى الازدحام الشديد للناس واندفاعهم لمبايعة الإمام عليه السلام فهو مثل يضرب للكثرة والازدحام. أمّا قلقه من الهجوم المفاجيء للناس من أجل البيعة فلعله يعزى إلى أن مثل هذه البيعة الحماسية من شأنها أن تقلد الإمام عليه السلام مسؤولية جديدة ولا سيما أنه كان يتوقع نقض البيعة من قبل أولئك الذين يتهافون على الدنيا وحطامها، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بوضوح في الخطبة ٩٢ حيث قال:

«دَعُونِي وَالتَّمَسُّوا غَيْرِي، فَاِنَا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرَالَهُ وَجُوهَ وَأَلْوَانَ، لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وَإِنِ الْإِفَاقُ قَدْ أَغَامَتْ وَالْمَحْجَةُ قَدْ تَنَكَّرَتْ، وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنِ أَجَبْتِكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أَصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتَبِ الْعَاتِبِ، وَإِنِ تَرَكْتُمُونِي فَاِنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطُوعَكُمْ لِمَنْ وَلِيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا، خَيْرَ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا».

أضف إلى ذلك كان يشعر بالقلق من جهة أخرى وهي أن تشير إليه أصابع الاتهام من قبل المنافقين وخصوم الدعوة بقتل عثمان. ثم يخوض الإمام عليه السلام في عمق ذلك الازدحام والانهيال عليه بالبيعة فقال عليه السلام:

«حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ».

و يرى أغلب شراح نهج البلاغة أن المراد بالحسينين هما الإمام الحسن والحسين عليهما السلام. فقد كان الإمامان عليهما السلام في عنقوان شبابهما إلّا أن الهجوم الشعبي العام قد جعلهما في موقع حرج في الحفاظ على والدهما. بينما ذكر بعض الشراح احتمالين آخرين؛ الأول أن يكون المراد اصبعي الرجل البارزين - كما روى ذلك عن الشريف الرضي رحمه الله - نقلاً عن بعض اللغويين (أبي

عمر) وقد استدلو على ذلك باشعار العرب، إلّا أنّ هذا المعنى يبدو مستبعداً لأنّ وطىء اصبعى الرجل قضية عادية تحصل عند أدنى زحام ولا يمكنها أن تعكس ذلك الهجوم العظيم.

والأبعد من ذلك التفسير الثالث الذى أورده البعض على أنّ المراد بها عظمى اليد وذلك

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٥١

لتعذر وطىء إصبعى اليد عادة سواء عظمى العضد أو الساعد، ولا يوطئان إلّا حين يقع الإنسان على الأرض.

أمّا تشبيههم بريضة الغنم فهو لا يرمز إلى جهل الناس كما فسره بعض الشارحين، بل يتضمن إشارة إلى ما أورده سابقاً حيث يرمز إلى لو إذ الغنم بالراعى كلواذها بالمرعى حين تتعرض لهجوم الذئب.

فالمسلمون الذين تفرقوا هنا وهناك إثر الهجوم الذى تعرضوا له من قبل ذؤبان عصر الخليفة الثالث وتفككت عرى الوحدة بينهم قد رأوا فى الإمام عليه السلام حلقة الوصل فاندفعوا إليه بلهفة ليتجمهروا حوله ويشعروا بالسكينة والاستقرار. غير أنّ المؤسف هو أنّ الاندفاع لم يكتب له الدوام حين عرضوا للاختبار لتفشل فيه طوائف من المسلمين، وهذا ما صوره الإمام على عليه السلام إذ قال:

«فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت [٤٩٦] أخرى وقسط [٤٩٧] آخرون».

وقد أجمع أغلب شراح نهج البلاغة على أنّ المراد بهم أصحاب الجمل والنهروان وصفين فقد ذكروا أنّ أصحاب معركة الجمل (هم طلحة والزبير الذين استغلا وجود عائشة لتأليب الناس ضد أمير المؤمنين) الذين نقضوا البيعة هم «الناكثين» فقد بايعا علياً عليه السلام وهما يطمعان بالخلاصة فلما لم يتمّ لهما ذلك قدما البصرة وبثا بذور الشقاق والفرقة.

و «المارقين» هم أصحاب النهروان ويراد بهم الخوارج الذى خرجوا على الإمام عليه السلام وهبوا لقتاله بعد قضية التحكيم فى صفين. وهم من وصفوا بالمروق عن الدين كمروق السهم من الرمية. فى إشارة إلى أنّهم قد كانوا على الحق إلّا أنّ تعصبهم الأعمى وجهلهم وجبهم لذاتهم قد أمرقهم من ذلك الحق. و «القاسطين» هم أهل الشام جيش معاوية، حيث وردت مفردة

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٥٢

القسط بمعنى العدل إلى جانب ورودها بمعنى الظلم والطغيان والفسق.

و الجدير بالذكر هنا أنّ هذه التسميات لهذه الفئات الثلاث- وعلى ضوء المصادر الإسلامية- ممّا صرّحت بها الأحاديث النبوية الشريفة.

فقد روى الحاكم النيسابورى فى مستدرک الصحيحين عن أبى أيوب الأنصارى أنّه قال: «أمر رسول الله صلى الله عليه وآله على بن أبى طالب بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين» [٤٩٨].

كما ورد هذا المعنى فى تلخيص المستدرک للذهبي [٤٩٩]. ووردت هذه الرواية فى كتاب اسد الغابة فى شرح سيرة الإمام على عليه السلام [٥٠٠].

بينما وردت هذه الرواية مفصلة فى تاريخ بغداد، حيث جاء عن أبى أيوب الأنصارى أنّه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين فى ركاب على عليه السلام. أمّا الناكثين فقد قاتلناهم وهم- أصحاب الجمل- طلحة والزبير، وأمّا القاسطين فهم من عدنا الآن من عندهم؛ أى معاوية وعمرو بن العاص (لقد قال ذلك حين عاد من صفين) وأمّا المارقين فهم أصحاب النهروان، والله لا أعلم أين هم إلّا أنّى أعلم بأناسقاتلهم» [٥٠١]

و الحق أنّ هذا جواب قاطع لأولئك الجهال الذين لم تحسم لديهم الحروب التى وقعت إبان خلافة على عليه السلام.

نعم فاولئك الذين تهافتوا فى بادى الأمر على على عليه السلام من أجل البيعة لم يطبقوا تحمل عدالته وشدته فى الحق؛ ولا سيما ممارسته للعدالة التى أوشتك أن تموت بعد تلك المدّة الطويلة التى شهدت إنعدامها وقد تمثل ابسط مظاهرها فى التطاول على بيت المال وسلبه ونهبه الذى أقدم عليه الكثيرون فانى لهم بتحملها، ولذلك لم تصمد معه إلّا ثلثة معدودة التزمت بعهودها بينما انفرج عنه

الأعم الأغلب ممن بايعوه؛ الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى خطبته فقال:
«كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٥٣

فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ». [٥٠٢]

ثم أضاف عليه السلام:

«والله لقد سمعوها ووعوها [٥٠٣] ولكنهم حليت الدنيا فى أعينهم، وراقهم [٥٠٤]

زبرجها [٥٠٥]» [٥٠٦].

فالإمام عليه السلام يشبههم فى البداية بالجهال الذين دفعهم جهلهم لمخالفته، ثم ينتقل فى المرحلة اللاحقة ليصفهم بأنهم سمعوا هذه الأخبار والحقايق ووعوها وهى ليست خافية عليهم، إلّا أنّ حب الدنيا والتكالب على حطامها والاعتزاز بزبرجها - ولا سيما بعد الفتوحات الإسلامية الكبرى التى جرت عليهم ما لا يحصى من الغنائم النفيسة والتعود على الحياة الوادعة المرفهة خاصة تلك التى ظهرت أبان خلافة عثمان - جعلتهم يؤثرون الدنيا على الدين ويبعون الحقيقة بالخرافة ويضحون بالدار الآخرة ويهدون فيها. فالعبارات التى أوردتها الإمام عليه السلام هى فى الواقع عصارة التحليلات بشأن نشوب المعارك الثلاث فى عهد الإمام عليه السلام؛ الأمر الذى يعتبر درسا لجميع المسلمين على مدى التاريخ فى أنهم يعيشون الفرقة والتشتت وتمزق عرى الوحدة كلما أقبلوا على الدنيا واغترتوا بزخارفها وزبرجها، فليس لهم من سبيل سوى الورع والتقوى والزهد بغيّة الثبات على الطريق.

ونشاهد اليوم بكل وضوح أنّ الاختلافات السائدة فى أوساط المسلمين إنّما تعزى لما بينه الإمام عليه السلام وأو جزته الآية القرآنية الشريفة: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٥٤

فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين».

فالعلو فى الأرض والفساد والتكالب على الدنيا وحطامها هما أساس الفرقة والاختلاف و التشتت فى المجتمعات الإسلامية.

تأملات

١- البيعة الشعبية لأمير المؤمنين عليه السلام

إنّها البيعة التى لا يمكن مقارنتها بتلك التى حدثت مع الخلفاء الثلاث.

كانت بيعة عفوية شعبية عامة بعيدة عن البرمجة والتخطيط، بل نابعة من أعماق الأمة المستضعفة التى ذقت الظلم والاضطهاد، فهى ليست كبيعة السقيفة التى مثل إتخاذ القرار فيها بعض الأفراد لترى الأمة نفسها أمام نتيجة حسمت سابقاً، وهى ليست كبيعة عمر التى اسندت بطولتها لفرد واحد هو الخليفة الأول، وأخيراً ليست كبيعة عثمان التى استندت للشورى السداسية وعلى ضوء التركيبة التى شكلها عمر.

بل هى بيعة واقعية وحقيقية جردت ماسواها من إنتحال هذا الاسم بعد أن برمجت وخطت بهذه الكيفية.

فقد ذكر بعض شراح نهج البلاغة أنّ الثوار الذين أودوا بحياة عثمان إتجهوا صوب الإمام على عليه السلام ليبايعوه على الخلافة، فلم يجبههم فلما أصرروا عليه، خاطبهم قائلاً:

«أنا لكم وزيراً خيراً منى اميراً».

حيث كان يعلم عليه السلام بأن سبقت هؤلاء في البيعة سيثير تهمة مفادها أن عثمان قتل مع سبق الاصرار والترصد طبق خطة مدروسة. أضف إلى ذلك فلو بايعوه، لزعم البعض أن قتله عثمان فقط هم الذين بسطوا له أيديهم بالبيعة، وناهيك عما تقدم فإن الإمام عليه السلام كان يتوسم فيهم عدم القدرة على احتمال الحق؛ نعم فالحق ثقيل ويبيء، إلا أن الإمام عليه السلام فوجيء بتقاطر المهاجرين والانصار الذين اصروا عليه بقبول الخلافة.

فلم يكن له من سبيل سوى قبولها، فارتقى المنبر عليه السلام لتندفع إليه الامية زرافات ووحदानا وهي تعلن بيعتها له، ولم يشذ منها سوى النزر اليسير من قبيل سعد بن أبي وقاص وعبدالله

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٥٥

بن عمر ولم يجبر هم الإمام عليه السلام على مبايعته [٥٠٧].

إننا نعتقد وعلى ضوء المصادر الإسلامية المعتبرة أن النبي صلى الله عليه وآله قد استخلف علياً عليه السلام بأمر الله، ولم يقتصر ذلك على «غدير خم» بل أكدته النبي صلى الله عليه وآله في عدة مواضع ومناسبات، ورغم مخالفة البعض - لاسباب لايسعنا المجال إلى الخوض في تفاصيلها - بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله مع ذلك فما أن قتل عثمان حتى تدفقت الامة بشكل عجيب على الإمام عليه السلام وهي تعلن عن تضامنها ودعمها واسنادها للإمام عليه السلام؛ الدعم الذي لم تشهد النظم الديمقراطية طيلة تجاربها، بل قل نظيرها سوى بعض النماذج التي حصلت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كبيعة الشجرة.

و مما لا شك فيه أن تلك البيعة إنما كانت تنبع من معرفة الامية بمنزلة على عليه السلام وسعة علومه ومعارفه ومدى ورعه وتقواه وزهده وادارته الناجعة التي لم يكن فيها من مكان للتيارات والتحزبات، فقد كانت من العفوية والإنسيابية بحيث سلبت زمام المبادرة من الخصوم لتجعلهم يعيشون حالة الدهشة امام عمل تم ولا- سبيل إلى الرجعة منه، ولو تركوا الامية وحالها وتخلوا عن مؤامراتهم وغدرهم لنهض ذلك المجتمع نهضات ولعاش الاطروحة التي حملها له القرآن والمتمثلة بقيام مجتمع الحرية والعدالة. و سنرى لاحقا أن هذه العناصر المشبوهة العثمانية التي تناولت على بيت أموال المسلمين وردت الميدان السياسي لتعبث الناس وتتلاعب بمشاعرها الدينية وتقودها في خاتمة المطاف إلى إشعال نيران الجمل وصفين والنهروان وتسدد تلك الضربات الموجعة للإسلام والمسيرة الإسلامية.

٢- مصدر الانحرافات الاجتماعية

يعتبر الإمام عليه السلام - في هذه الخطبة - أن العامل الأصلي الذي يقف وراء الانحراف عن الحق في عصره (و في كل العصور) إنما يكمن في حب الدنيا والاعتزاز بزخرفها وزبرجها الذي أوجج نار حروب الجمل وصفين والنهروان، ثم يؤكد عليه السلام على الآية الشريفة التي تصرح بأن الآخرة

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٥٦

من نصيب اولئك الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا. فهذه العبارات القصيرة إنما تكشف عن حقائق مهمّة تلمس آثارها على مدى التاريخ.

فالاطماع هي أساس الحروب والنزاعات الدموية، والاهواء والفساد في الأرض هو العنصر الرئيسي الذي يقف وراء الفوضى والهرج والمرج ومن هنا فاذا لم تجابه هذه العادات الشيطانية بالإيمان والاعتقاد الراسخ فلا مناص من نشوب هذه الحروب الفتاكة وانعدام العدالة وسيادة الفوضى والقلق والاضطراب، بل سترز هناك العناصر التي تتلاعب بالقيم الإنسانية والمفاهيم الأخلاقية وسائر الاصول من قبيل الحرية وحقوق الإنسان لتسخرها من أجل تحقيق أهدافها وأطماعها.

والذى يجدر ذكره أنّ الإمام عليه السلام يتحدث عن أولئك الذين تتضارب عقائدهم مع أعمالهم، ويبدو أنّهم مسلمون حيث سمعوا الآيات القرآنية ومنها «تلك الدار الآخرة...».

و آمنوا بها، غير أنّ دعائم إيمانهم قد تزعزعت وتفككت بفعل دوافعهم التي شدتهم إلى الدنيا والتكالب على زخارفها والاعتزاز بزبرجها، وهذه هي النتيجة الطبيعية لكل أولئك الذين يؤثرون دنياهم على دينهم.

٣- المعارك الثلاث على عهد الإمام علي عليه السلام

لقد تضمنت خطبته عليه السلام إشارة إلى المعارك الثلاث: الجمل، وصفين والنهروان التي اشعلت من قبل الناكثين والقاسطين والمارقين. وسنشير هنا إلى هذه المعارك بصورة مختصرة:

أ- معركة الجمل

لم تمر على بيعة أمير المؤمنين عليه السلام أكثر من ثلاثة أشهر حتى ضاقت طوائف من المستكبرين ذرعا بعدالة الإمام عليه السلام ولم تطق تحمله فهبت لمخالفته. معاوية من جانبه أعلن في الشام عن عدم استعداده لمبايعة علي عليه السلام ثم تأهب للقتال. فكتب الإمام عليه السلام رسائل إلى ولايته على الكوفة البصرة ومصر ليجهزوا الجيش من أجل مقاتله معاوية... في هذه الاثناء هم طلحة والزبير بالسفر إلى مكة بذريعة أداء العمرة.

فالتقيا في مكة عائشة التي كانت متدمرة من مبايعة علي عليه السلام فانضمت إليهما واتجهوا إلى

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٥٧

البصرة لنصرة عثمان. وبالطبع فإن كافة القرائن تشير إلى أنّ هؤلاء لم يكونوا يطالبون بدم عثمان، ولم يكن لهم من تعصب للإسلام؛ قتله عثمان لم يكونوا في البصرة، أضف إلى ذلك فإن نصرة عثمان لا تسلترم مخالفة أمير المؤمنين علي عليه السلام، ناهيك عن أنّ طلحة من قادة الثورة على عثمان.

و واضح أنّ هدف هؤلاء من نقض بيعتهم لعلي عليه السلام هو عدم حصولهم على المناصب التي كانوا يحلمون بها. وأخيراً تمكن طلحة والزبير مع عائشة في شهر ربيع الثاني عام ٣٦ هـ بالمكر والخداع من الاستيلاء على البصرة ثم أخذوا لأنفسهم البيعة من الناس حيث سدوا أولى ضرباتهم لوحدة الأمة الإسلامية.

الإمام عليه السلام بدوره لما كان عالماً بهذا الأمر أنفذ جيشه الذي جهزه لقتال معاوية نحو البصرة ثم كتب رسالة لعامله على الكوفة «أبو موسى الأشعري» يطلب منه تعزيز الجيش - ورغم أنّ أبا موسى لم يرد بالايجاب على رسالة الإمام إلا أنّه انفذ جيشاً قوامه تسعة آلاف مقاتل إلى الكوفة - وفي جمادى الآخرة التحم الجيشان، وطبق نقل «تاريخ يعقوبي» فإن المعركة استغرقت أربع ساعات هزم فيها جيش طلحة والزبير، فانبرت عائشة لتعبئة أهل البصرة فركبت الجمل ومن هنا سميت هذه المعركة بمعركة الجمل؛ وقد أبدى الجيش الذي تمحور حول الجمل مقاومة عنيفة.

فنادى الإمام عليه السلام: «إعقروا الجمل» فلما عقر الجمل إنتهت المعركة حيث قتل طلحة والزبير (فقد قتل طلحة في الميدان على يد مروان، بينما فر الزبير ليقتل خارج ميدان المعركة) فسرح الإمام عليه السلام عائشة بكل إحترام على أنّها زوج النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة.

وقيل أنّ عدد القتلى في الجمل قد بلغ عشرة آلاف وقيل سبعة عشر ألفاً، وهكذا حسمت المعركة لصالح الإمام عليه السلام واخذت تلك الفتنة. [٥٠٨]

ب- معركة صفين

عاد الإمام عليه السلام إلى الكوفة بعد الجمل، فكتب لمعاوية كتاباً طالبه بالبيعة. فلم يجبه معاوية

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٥٨

وأخذ يدعو الناس للطلب بدم عثمان حتى أمر البعض بان يعلنوا على الناس أن قاتل عثمان هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

و بعد مضي مدة كتب رساله لعلي عليه السلام يعلن فيه الحرب بعد أن جيش جيوش الشام.

فجهز الإمام عليه السلام أهل الكوفة لينفذ جيشه إلى صفين وقد أجابه أغلب الناس إلّا القليل منهم.

فجعل الإمام عليه السلام جيشه طوائف وجعل لكل طائفة أمير. وصل الإمام عليه السلام صفين لثمان بقين من محرم عام ٣٧ هـ ليلتقى

جيش معاوية هناك. حاول بعض أصحاب الإمام عليه السلام البدو بالقتال، فكتب معاوية رساله للإمام عليه السلام يناشده عدم

التعجيل بالقتال.

الإمام عليه السلام من جانبه كان يسعى جاهداً للحيلولة دون نشوب القتال فكان يرسل الرسائل و الأفراد يناشده جيش معاوية الالتحاق

بصفوف المسلمين حتى مرت عدة شهور ولم يأذن الإمام عليه السلام بالقتال رغم اصرار أصحابه عليه. إلّا أن كل هذه الامور لم تكن

تجدي نفعاً، حتى نشبت المعركة في شهر ذي الحجة عام ٣٧ هـ ووقع بين الطرفين قتال شديد، ثم توقف القتال بحلول شهر محرم

الحرام، ثم أخذ الإمام عليه السلام يرسل رسائله ويبعث بأصحابه، وما ان انتهى شهر محرم حتى نشب القتال ثانية حتى زحف جيش

الإمام ومنى جيش الشام بالفشل.

و أخيراً شعر معاوية بهزيمة جيشه فعمد إلى الجيش بحمل المصاحف، فحدث انشقاق في جيش الإمام عليه السلام بعد أن تعالت

أصوات المنافقين بالكف عن القتال ثم انتهى الأمر إلى التحكيم الذي فرض على الإمام.

فاختاروا أبا موسى الأشعري المعروف بسذاجته ممثلاً عن الإمام عليه السلام وعمرو بن العاص عن معاوية بعد أن أتفقا على أن يخلع

كل صاحبه.

فقام أبو موسى الأشعري وخاطب الناس أتى خلعت علياً عليه السلام كما أخلع خاتمي، بينما خدعه عمرو بن العاص ولم يخلع معاوية.

وهكذا ضاعت أعظم فرصة كادت أن تقضى على بنى امية و تغير وجه التاريخ فندم جيش الإمام عليه السلام حيث لا ينفع الندم.

ج- معركة النهروان

يفهم من أحداث معركة صفين أن الخوارج فئة أفرزتها تلك المعركة بعد مسألة التحكيم.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٥٩

حيث أصروا على الإمام عليه السلام بقبول التحكيم فلما قاد إلى تلك النتيجة ندموا ندماً شديداً ليعتبروا التحكيم مخالفة صريحة

للقرآن وأنه الكفر بعينه، وقد بلغت بهم الوقاحة أن طالبوا الإمام عليه السلام بالتوبة وإلّا هبوا لقتاله. فلما رأى الإمام عليه السلام

الاختلاف قد دب بين جيشه (ولاحظ عناصر النفاق التي كانت تحاول إثارة الفتنة) أصدر أمره بالعودة إلى الكوفة.

فلما عاد الجيش إلى الكوفة، انشق منه اثنا عشر ألف من الأفراد المتعصبين ليلجأوا إلى الحروراء- قرية تبعد ميلين عن الكوفة- ومن

هنا اطلق عليهم إسم الخوارج الحرورية، وأخيراً استعدوا للقتال بعد أن تجمعوا في النهروان قرب الحروراء.

و الغريب في الأمر كان البعض منهم من أصحاب البرانس من الحفاظ. إلّا أنهم كانوا يعرفون بالجهل والتعصب والالتزام بظواهر الدين

دون باطنه ومن هنا استحقوا إسم «المارقين».

سعى الإمام عليه السلام بادية ذي بدء إلى نصحهم والاعذار إليهم فبعث لهم الواحد تلو الآخر، فكان من ذلك أن استجاب عدد

منهم وهم ينادون «التوبة التوبة يا أمير المؤمنين» حيث قيل إن ثمانية آلاف منهم قد رجعوا وتابوا (تفيد الروايات أن الإمام عليه السلام

قد جعل رايه في الميدان وأمر التوابين بالانضواء تحتها)، مع ذلك لم يأذن الإمام عليه السلام بمقاتلتهم أملاً بعوده من تبقى منهم.

حتى بعث لهم من يحاجهم فقتلوه ثم نشب القتال، فقاتل عليه السلام قتالاً شديداً بعد أن أخبر أصحابه بأن مصارعهم دون النطفة

ولن ينجو منهم عشرة ولن يهلك من جيشه عشرة. فكان الأمر كما أخبر عليه السلام. [٥٠٩]
وقعت هذه الحرب في اليوم التاسع من شهر صفر عام ٣٨ أو ٣٩ هجرى، ولم تدم أكثر من ساعة. [٥١٠]
نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٦١

القسم الخامس: قبول البيعة والخلافة

إشارة

«أما وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسْمَةَ، لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُوا عَلَيَّ كِظَّةً ظَالِمٍ، وَلَا سَعْبٍ مَظْلُومٍ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَيَّ غَارِبَهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوْلِيهَا، وَلَا لَفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَقْطَةِ عَنَزٍ».

الشرح والتفسير

يبين الإمام عليه السلام الأسباب التي دعت إلى قبول البيعة والأهداف التي يتوخاها من الخلافة، كما يشير إلى أن هذه الخلافة والامرة لا تعدل عنده شيء لولا تلك الأهداف الكبرى
فقال عليه السلام

«أما وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسْمَةَ، [٥١١] لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ [٥١٢]، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعَمَاءِ أَنْ لَا يُقَارُوا [٥١٣] عَلَيَّ كِظَّةً [٥١٤] ظَالِمٍ، وَلَا سَعْبٍ [٥١٥] مَظْلُومٍ، لَا لَقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَيَّ غَارِبَهَا [٥١٦]، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوْلِيهَا».

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٦٢

فقوله عليه السلام

«والذى فلق الحبة»

إشارة لما ورد في القرآن الكريم بشأن الذات الإلهية المقدسة «فائق الحب والنوى» [٥١٧] التي تتضمن أهم خلق الله سبحانه ألا وهو خلق الحياة. وقوله عليه السلام
«برء النسمة»

إشارة لخلق الإنسان والروح الذى أشار له القرآن الكريم بقوله «فتبارك الله احسن الخالقين» [٥١٨] فهو يتضمن القسم باهم أعمال خالق الوجود للدلالة على أهمية الأمر الذى يريد التحدث عنه.

وقوله عليه السلام

«لولا حضور الحاضر»

في إشارة إلى حضور الحاضرين بالبيعة له، وإن ذهب البعض إلى أن المراد بالحاضر ذات البيعة والذى لا يختلف كثيرا والمعنى الأول.

أما القول بأن المراد حضور الله أو حضور الزمان الذى تنبئ به الرسول الكريم صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام فهو مستبعد جداً، وإن أوردته بعض الفضلاء كتفسير لتلك العبارة. على كل حال فإن هذه العبارة تتحد في المعنى مع قوله عليه السلام:

«وقيام الحجة بوجود الناصر»

لتشير كلاهما لاتمام الحجة عليه عليه السلام فى أن ينهض بالأمر بعد توفر العدة من الأصحاب والبيعة أما قوله عليه السلام

«لألقيت حلها على غاربيها»

فهو كناية عن الانصراف عن الشيء، حيث جرت العادة أن يطرح زمام الناقة على ظهرها إذا لم يكن هناك من حاجة إليها في عمل.

وقوله عليه السلام:

«لسقيت آخرها بكأس أولها»

كناية عن الصبر على الأمر وتركه كما صبر عليه ازاء الخلفاء الثلاثة [٥١٩]. إلماً أن الإمام عليه السلام يرى نفسه ملزماً بالنهوض بالأمر والتصدي للخلافه لسبيين: أحدهما وجود الناصر الذي يتم الحجج عليه بالقيام من جانب، والثاني العهد الذي أخذه الله على العلماء بالقيام بالأمر إذا ما غيبت العدالة واستفحل الظلم وضيعت الحقوق

«لولا حضور الحاضر وقيام الحجج بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم».

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٦٣

فالواقع أن كلام الإمام عليه السلام تحذير لكافة علماء في ممارسته مسؤوليتهم في تشكيل الحكومة وبسط العدل والقسط في ربوع المجتمع وعدم السكوت والتخاذل في حالة توفر هذه الأسباب.

ويخطيء كل أولئك الذين يرون وظيفتهم إنما تقتصر على إقامة الشعائر العبادية كالصوم والصلاة والحج والزكاة إلى جانب الإتيان بالمستحبات. فبسط العدل والقسط والدفاع عن المظلوم والقيام بوجه الظالم تعدد من جوهر الوظائف الإسلامية لهؤلاء العلماء.

ثم يقول عليه السلام:

«ولا لفيتم [٥٢٠] ديناكم هذه أزهد عندي من عطفة [٥٢١] عنز».

وبالالتفات إلى ما ورد في صحاح اللغة من أن العطفة تعني الماء الذي يترشح من أنف الشاة (أو العنز حين العطسة) تتضح مدى تفاهة الدنيا- التي تحظى بفائق الأهمية لدى أهلها- عند علي عليه السلام، فما قيمة العنز فضلا عن ماء أنفها والحق ان مثل هذه التعبيرات قد تبدو غريبة بالنسبة لأولئك الذين لا يعرفون شخصية علي عليه السلام؛ إلا أن هذه الغرابة ربما تزول بأدنى نظرة إلى سيرته عليه السلام وحياته التي عاشها.

قال السيد الرضي (ره) في ذيل الخطبة.

«قالوا وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه هذا الموضع من خطبته فناوله كتاباً- قيل أن فيه مسائل كان يريد الإجابة عنها- فاقبل ينظر فيه (فلما فرغ من قرائته) قال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت.

فقال: «هيهات يا بن عباس تلك شقشقة هدرت ثم قرأت» قال ابن عباس فوالله ما اسفت على كلام قط كأسفى على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث يريد».

أمّا التعبير بأهل السواد فهو إشارة إلى المناطق الغنية بالزرع والأشجار التي تبدو من بعيد سوداء، لأن اللون الأخضر يتركز من بعيد ليميل إلى السواد، ولما كان هل الحجاز ألفوا الأرض اليابسة الخالية التي يصصطلح عليها بالبياض فأنهم إذا ما انطلقوا نحو العراق المخضر بفضل

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٦٤

نهريه دجلة والفرات وتلوح أشجاره وزرعه من بعيد يبدو أسوداً فيصطلحون عليه بأرض السواد كما يطلقوا على أهله اسم أهل السواد. أمّا مضمون الكتاب والمسائل التي فيه فقد تطرق إليها بعض شراح نهج البلاغة وسنعرض لها في البحث القادم.

وقد روى ابن أبي الحديد بهذا الشأن عن استاذه مصدق بن شبيب أنه قال: قرأت على الشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة، فلما إنتهيت إلى هذا الموضع، قال لي: لو سمعت ابن عباس يقول هذا لقلت له: وهل بقي في نفس ابن

عمك أمر لم يبلغه فوالله ما رجع عن الأولين ولا عن الآخرين، ولا بقي في نفسه أحد لم يذكره إلا رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال مصدق: وكان ابن الخشات صاحب دعاية وهزل، قال: فقلت له: أقول إنها منحولة.

فقال: لا والله وإنى لأعلم أنها كلامه، كما أعلم أنك مصدق. [٥٢٢]

قال الشريف الرضى رحمه الله: قوله عليه السلام

«كراكب الصعبة إن اشتق لها خرم وإن أسلس لها تقحم» يريد أنه إذا شدد عليها فى جذب الزمام وهى تنازعه رأسها خرم أنفها وإن ارخى لها شيئاً مع صعوبتها تقحمت به فلم يملكها يقال «أشنتق الناقة» إذا جذب رأسها بالزمام فرفعها و «شنتقا» أيضاً، ذكر ذلك «ابن السكيت» فى اصلاح المنطق وإتما قال «اشتق لها» ولم يقل «اشتقها» لأنه جعله فى مقابلة قوله «أسلس لها» فكانه عليه السلام قال: إن رفع رأسها بمعنى أمسكه عليها بالزمام.

تأملات

١- الرد على سؤال

قد يقال: تعتقد الإمامية واتباع مدرسته أهل البيت عليهم السلام أن الإمام ينصب من قبل الله تعالى بواسطة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، لاعلى أساس إنتخابه من قبل الائمة، بينما صرح الإمام عليه السلام فى هذه نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٦٥

الخطبة قائلاً: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر و... لالقيت جبلها على غاربها» فكيف التوفيق بينهما؟ و نقول فى الرد على هذا السؤال أن للإمامة والخلافة واقع ومقام ظهور وبروز فواقعها أنها تعين من قبل الله بواسطة نبيه صلى الله عليه وآله، أما ظهورها وبروزها والتصرف فى شؤون المسلمين والمجتمع الإسلامى إنما يتوقف على الائمة ونهوض أبنائها فى توفير الدعم والاسناد؛ الأمر الذى لا يتأتى إلّا من خلال بيعه الائمة. و من هنا أصبح الإمام عليه السلام جليس الدار إبان خلافة الخلفاء الثلاثة- طيلة خمس وعشرين سنة- ولم يتدخل فى شؤون الخلافة، والحال لم تكن هنالك من ثلمة فى إمامته المنصوص عليها من جانب الله بواسطة النبي صلى الله عليه وآله ويصدق هذا الكلام على بعض أئمة العصمة والطهارة، فقد إقترح أبو مسلم الخلافة على الإمام الصادق عليه السلام، ولعلمه عليه السلام بالمؤامرة لم يجيبه. بل كان البعض يطالب الأئمة بالقيام وتولى الخلافة. فيجيبون باننا لا نملك ما يكفى من الأنصار [٥٢٣].

٢- المسائل التى تضمنها الكتاب

روى المرحوم «الشارح البحرانى» فى كتابه عن أبى الحسن الكيدرى أن الكتاب الذى سلم إلى على عليه السلام آخر الخطبة كان يقسم عشرة أسئلة هى:

١- الذى خرج من بطن وليس له بولد؟

قال عليه السلام: يونس عليه السلام الذى خرج من بطن الحوت.

٢- ما كان قليله مباح وكثيره حرام؟

قال عليه السلام: نهر طالوت.

٣- العبادة التى يعاقب على الإتيان بها أو تركها؟

قال عليه السلام: الصلاة في السكر.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٦٦

٤- الطائر الذي ليس له أصل (أم)؟

قال عليه السلام: الطائر الذي خلقه عيسى عليه السلام باذن الله.

٥- رجل مدين الف درهم وله الف درهم وضمنه آخر وكان له الف درهم، وقد مضى عليه عام، فالزكاة على أى من المالكين؟

قال عليه السلام: إذا فعل الضامن ذلك باذن المدين فلا زكاة عليه، وإن فعله بدون إذنه وجبت عليه الزكاة.

٦- حج جماعة فنزلوا بيتاً في مكة وأغلق أحدهم باب البيت فكان فيه طيور فماتت عطشا، فعلى من تجب الكفارة؟

قال عليه السلام: على من أغلق الباب ولم يخرج الطيور ولم يسقيها.

٧- شهد أربعة على رجل بالزنا، فأمرهم الإمام برجمه (لأنه كان محصناً) فرجمه أحدهم وساعده جماعة وامتنع الثلاث. ثم رجع عن

شهادته (وأقر بكذبه) ولم يمت المتهم. ثم مات وبعد موته رجع الثلاث عن شهادتهم. على من تجب دينه؟

قال عليه السلام: على ذلك الرجل والجماعة الذين ساعدوه [٥٢٤].

٨- هل تقبل شهادة يهوديين لثالث باعتراف الإسلام؟

قال عليه السلام: لا تقبل شهادتهما؛ لأنهم يحرفون كلام الله ويجوزون الشهادة بالباطل.

٩- هل تقبل شهادة نصرانيين لنصراني أو يهودى أو مجوسى بالإسلام؟

قال عليه السلام: تقبل لقوله سبحانه: «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى [٥٢٥].

١٠- قطع شخص يد آخر، فشهد أربعة عند الإمام قطعت يده وقد زنا بمحصنة، فاراد الإمام أن يرجمه فتوفى قبل الرجم، فما حكمه؟

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٦٧

قال عليه السلام: تجب الديه على من قطع يده، لكن ان شهدوا أنه سرق بحد النصاب فلا تجب الديه على القاطع [٥٢٦]. طبعاً ما ذكر

هو مضمون رواية مرسله رويت عن الكيدري ولم تثبت صحة سند الحديث، ولذلك هناك أبحاث كثيرة من وجهه النظر الفقيهه

بشأن بعض الفروع المذكورة في هذا الحديث.

٣- مميزات الخطبة الششقيه

إن نظرة عامة إلى خطب نهج البلاغه تفيد أن الخطبة الششقيه هي من الخطب التي قل نظيرها إن لم نقل لا نظير لها في نهج البلاغه؛

الأمر الذي يثبت أن الإمام عليه السلام قد أوردتها في ظروف خاصه للحيلولة دون نسيان الحقائق المتعلقة بالخلافه بعد رسول الله صلى

الله عليه و آله لتخلد في التاريخ ومن هنا أطلق عباراته بصراحة تامه. فقد أوضح الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عدّه امور منها:

١- أحقيته وجدارته بالخلافه التي بينها بوضوح وهذه هي الحقيقه التي إتفق عليها تقريباً كافة المحققين المسلمين وغير المسلمين،

حتى إعترف معاوية أعدى أعداء الإمام عليه السلام بافضليته [٥٢٧].

٢- مظلوميته عليه السلام رغم أحقيته وكفائته.

٣- يفيد كلام الإمام عليه السلام عدم وجود مرجع واضح لانتخاب أى من الخلفاء الثلاثة، اضافه إلى المعايير المتعدده التي حكمت

ذلك الانتخاب، فقد كانت خلافه أحدهم تستند إلى رأى واحد، وآخر لنصف من شورى سداسيه وثالث لعدد من الآراء.

٤- ابتعاد الامية في عصر الخلفاء عن تعاليم النبي الأكرام صلى الله عليه و آله وتفاقم الازمات على مرور الزمان، بحيث كانت من أبلغ

الصعوبات التي واجهت الإمام عليه السلام حين تولى الخلافه تكمن في

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٤٨

إعادة الأمة إلى القيم الإسلامية التي كانت سائدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

٥- أن التهافت على الدنيا والاعتزاز بزخرفها هو العامل الذي يقف وراء الفوضى والاضطراب والحروب التي نشبت على عهد الإمام على عليه السلام.

٦- أن ما حصل للإمام على عليه السلام هو البيعة الحقيقية بعينها، غير أن عدالة على عليه السلام وشده في الحق أثارت حفيظة بعض زعماء المجتمع لينقضوا البيعة ويقسط ويمرق آخرون.

٧- لم يكن للإمام على عليه السلام أية رغبة بالخلافة ولم يراها هدفاً قط، بل هي وسيلة لأحقاق الحق وإبطال الباطل وبسط العدل والقسط.

٨- كانت الانتفاضات التي حدثت في زمان عثمان والتي أدت بالتالي إلى قتله طبيعية جداً ونتيجة لسلكه وبطانته من بني أمية الذين سلطهم على رقاب المسلمين فجعلهم عمالاً وولاءة على بعض المناطق فعبثوا ببيت المال وأسرفوا في تبذيره حتى ثارت الأمة بعد أن انطلقت شرارة الرفض من المناطق البعيدة عن مركز الخلافة كمصر والبصرة والكوفة.

٩- كانت المعارك الثلاث - الجمل وصفين والنهروان - قد فرضت على الإمام على عليه السلام من قبل الأفراد الذين لم يطبقوا عدله عليه السلام إلى جانب أولئك الذين يبحثون عن الجاه والمنصب.

١٠- عدم انسجام عقيدة تنزيه الصحابة وعدالتهم لمجرد صحبتهم مع أي من المعايير والوقائع التاريخية؛ وهو الاعتقاد الذي يقود إلى التناقض، فاصحاب فتنة الجمل هما إثنان من الصحابة وصاحب صفين من الصحابة أيضاً بينما كانت طائفة من الصحابة من مشعل نار النهروان وقد خرج جميع هؤلاء على إمام زمانهم فاختاروا سبيل البغي وشق عصا الأمة الإسلامية وبث الفرقة والاختلاف في صفوفها. فكيف والحال هذه نقول على عليه السلام.

على الحق وطلحة والزبير ومعاوية كذلك؟! أمياً الاستدلال بالاجتهاد في هذه الامور فهو توجيه يفتقر إلى المنطق ومدعاة حتى لارتكاب الكبائر.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٤٩

الخطبة الرابعة

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وهي من أفصح كلامه عليه السلام وفيها يعظ الناس ويهديهم من ضلالتهم ويقال:

«إنه خطبها بعد قتل طلحة والزبير»

نظرة إلى الخطبة

يمكن أن تكون هذه الخطبة كما يفهم من عنوانها قد وردت بعد أحداث معركة الجمل وقتل طلحة والزبير فهي تتحدث عن وقائع المعركة والدروس والعبر التي ينبغي أن يتعلمها المسلمون. حيث يمكن خلاصة الخطبة في محاور رئيسية ثلاث:

١- التصريح بهذه الحقيقة وهي هداية الأمة من الظلمات بواسطة أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله حتى بلغت ذروة تكاملها ورقبها، وعليه فعليها أن تعيرهم آذاناً صاغية وتتفاعل مع مواعظهم ونصائحهم.

٢- إن الإمام على عليه السلام كان يعلم بالخيانة ونقض العهود والتمرد، إلا أن جلباب الدين لم يدعه يكشف تلك الحقائق.

٣- يشير الإمام عليه السلام في المقطع الأخير من الخطبة إلى أن اليوم لم يعد يوم التستر على الحقائق؛ لا بد من إعلان هذه الحقائق وإلا يخشى على الأمة من الضلال وهذا بذاته ما يجعل الإمام عليه السلام يعيش هاجس القلق.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٧١

القسم الأول: التحلى بالوعى واليقظة

إشارة

«بنا اهتديتُم في الظلماء، وتسننتم ذروة العلياء، وبنا أفجرتُم عن السرارِ وقر سَمِعَ لَمْ يَفْقَهُ الواعية، وكَيْفَ يُرَاعِي النَّبَاءَ مَنْ أَصَمَّتُهُ الصَّيْحَةُ؟ رِبَطَ جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقُهُ الْخَفَقَانُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في بداية الخطبة إلى النعم الجمّة التي تمتع بها المسلمون- ولا سيما في صدر الإسلام- في ظل الإسلام، حيث وضع هذا الأمر بثلاث عبارات قصيرة ذات تشبيهات رائعة فقال عليه السلام:

«بنا إهتديتم [٥٢٨] في الظلماء [٥٢٩] وتسنتم [٥٣٠] ذروة [٥٣١] العلياء، وبنا افجرتم [٥٣٢] عن السرار [٥٣٣]»

. فالإمام عليه السلام يشير في العبارة الأولى إلى ظروف الجاهلية التي خيم فيها الظلام والجهل والفساد والجريمة على كافة الأماكن حتى تبددت هذه الظلمات بظهور النبي صلى الله عليه وآله

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٧٢

وانبثاق الدعوة الإسلامية ليتهدى الناس إلى الصراط المستقيم ويتجهون نحو الهدف المنشود.

ويشبه في العبارة الثانية حركة الرقى والتكامل والازدهار بالجمال ذى السنام (حيث اقتبست المفردة تستم من مادة سنام أعلى قمة في الجمل) فقال عليه السلام لقد بلغت هذه الذروة وقطعت مسيرة الرقى والتكامل في ظل الإسلام؛ الحقيقة التي إذعن لها جميع مؤرخي الشرق والغرب في كتبهم التي تعرضوا فيها للمدنية الإسلامية وحضارتها. ثم شبه في العبارة الثالثة أوضاع المجتمع الجاهلي لبالي الشهر الظلماء والمحاق (حيث تعنى السرار الليالي التي لا يبرز فيها القمر أبداً) فقال عليه السلام: «و بنا أفجرتم عن السرار». والواقع هو أن هذه التعبيرات إنما تتبع من القرآن الذي شبه الإسلام والإيمان والوحى بالنور، فقال: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» [٥٣٤] وقال في موضع آخر: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ» [٥٣٥] وقال: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ» [٥٣٦]- ثم يذم عليه السلام الأفراد الذين صخت آذانهم عن سماع الحق بينما يثنى على غيرهم من ذوى الاسماع فقال عليه السلام:

«وقر سمع لم يفقه الواعية»

. تستعمل مفردة «الوقر» بشأن الصمم كما تستعمل في ثقل السمع، والمراد بالواعية الأصوات المرتفعة، وهي إشارة لآيات القرآن التي تفرع الاسماع بشأن المسائل المهمّة العقائدية والعملية والأخلاقية وكذلك السنة النبوية الشريفة. أما التعبير «لم يفقه» بدلاً من «لم يسمع» تفيد عدم جدوى السمع مالم يصحبه الإدراك والفهم. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال:

«وكيف يراعى النبأ [٥٣٧] من أصمته

الصيحة» [٥٣٨]

. والمراد كيف يصغى لى ويستمتع قولى من لا يراعى أو امر الله ونبيه صلى الله عليه وآله فقد شبه

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٧٣

ذلك بمن أصمته الصيحة القوية فانه محال أن يراعى بعد ذلك الصوت الضعيف. ولما كانت هنالك الفئة الاخرى المتعصبة للحق فقد قال عليه السلام:

«ربط جنان [٥٣٩] لم يفارق الخفقان [٥٤٠].»

ملاحظة

الهداية في ظل أهل البيت عليهم السلام

ما مر معنا في هذا القسم من الخطبة هو إشارة إلى واقعة تاريخية مهمة تتضح من خلال مقارنة عصر العرب الجاهلية بعصر التطور والازدهار الذي أعقب بزوغ شمس الإسلام، كيف كان عرب الجاهلية من حيث العقائد الدينية والقضايا المتعلقة بالمبدأ والمعاد والنظام الاجتماعي ونظام الاسرة والأخلاق والتقوى والأوضاع الاقتصادية وكيف أصبحت هذه الامور أبان انبثاق الدعوة الإسلامية ونزول القرآن الكريم. والحق أن التفاوت بينهما إلى درجة من المدى والعمق بحيث لا يمكن سوى نعتة بالمعجزة الكبرى وإلا تعذر تصور ذلك التفاوت. فما صورته الإمام عليه السلام في هذه الخطبة لم يكن سوى الظلام المطلق الذي القى بظلاله على جميع المجتمع، ولم يكده ينبتق الإسلام حتى تبددت هذه الظلمة بفجر الإسلام ليأخذ بيد المجتمع إلى العلم والمعرفة والثقافة والحضارة والمدنية. ولم تكن سوى إشارة قصيرة ولا يمكن الا الامام بتفاصيلها إلبالرجوع إلى الكتب التي ألفت بشأن الحضارة الإسلامية. كما وردت بعض التفاصيل في سائر خطبه عليه السلام في نهج البلاغة.

نقحات الولاية؛ ج ١؛ ص ٢٧٣

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٧٥

القسم الثاني: كنت أتوقع غدركم، ولكن ...

إشارة

«ما زِلْتُ أَتَنْظَرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْغَدْرِ وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِّينَ، حَتَّى سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ الدِّينِ، وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النَّبِيِّ أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَيَّ سَنَنِ الْحَقِّ فِي جَوَادِّ الْمَضَلَّةِ، حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلَا دَلِيلَ، وَتَحْتَفِرُونَ وَلَا تَمِيهُونَ.»

الشرح والتفسير

لقد خاطب الإمام على عليه السلام- في هذا المقطع من الخطبة- سليلي أصحاب الجمل من تبقى منهم قائلاً:

«مازلت انتظر بكم عواقب الغدر، واتوسمكم بحلية المغترين [٥٤٢]»

. فقد روى أنه لما بويع على عليه السلام كتب إلى معاوية: أمّا بعد فإنّ الناس قتلوا عثمان عن غير مشورة منّي وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع، فإذا أتاك كتابي فبايع لي، وأوفد إليّ أشرف أهل الشام قبلك.

فلما قدم رسوله على معاوية، وقرأ كتابه، بعث رجلاً من بني عميس، وكتب معه كتاباً إلى الزبير بن العوام، وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان:

سلام عليك، أما بعد، فإنني قد بايعت لك أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا، كما يستوسق الجلب، فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنه لا شيء بعد هذين

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٧٦

المصرين، وقد بايعت لطلحة بن عبيدالله من بعدك، فأظهر الطلب بدم ثمان، وادعوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجد والتشمير، أظفر كما الله، وخذل مناوئكما! فلما وصل هذا الكتاب إلى الزبير سُرَّ به، وأعلم به طلحة وأقرأه إياه، فلم يشكاً في النصح لهما من قبل معاوية، وأجمعا عند ذلك على خلاف على عليه السلام.

جاء الزبير وطلحة إلى على عليه السلام بعد البيعة بأيام، فقالا له: يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما كنا فيه من الجفوة في ولاية عثمان كلها، وعلمت رأى عثمان كان في بني أمية، وقد ولّك الله الخلافة من بعده، فولنا بعض أعمالك، فقال لهما: ارضيا بقسم الله لكما، حتى أرى رأيي، واعلما أنني لا أشرك في أمانتي إلّا من أرضى بدينه وأمانته من أصحابي، ومن قد عرفت دخيلته، فانصرفا عنه وقد دخلهما اليأس، فاستأذناه في العمرة.

طلب طلحة والزبير من على عليه السلام أن يوليهم المصيرين: البصرة والكوفة، فقال حتى أنظر. ثم استشار المغيرة بن شعبه، فقال له: أرى أن توليهم إلى أن يستقيم لك أمر الناس. فخلا بابن عباس، وقال: ماترى؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن الكوفة والبصرة عين الخلافة، وبهما كنوز الرجال، ومكان طلحة والزبير من الإسلام ما قد علمت، ولست آمنهما إن وليتهما أن يُخديتا أمراً. فأخذ على عليه السلام برأى ابن عباس.

لما خرج الزبير وطلحة من المدينة إلى مكة لم يلقيا أحدا إلّا وقالوا له: ليس لعلي في أعناقنا بيعة، وإنما بايعناه مكرهين. فبلغ علياً عليه السلام قولهما، فقال: أبعدهما الله وأغرب دارهما، أما والله لقد علمت أنهما سيقتلان أنفسهما أحييت مقتل، ويأتيان من وردا عليه بأشأم يوم، والله ما العمرة يريدان، ولقد أتيتاني بوجهي فاجرئين، ورجعا بوجهي غادرين ناكثين، والله لا يلقيانني بعد اليوم إلّا في كتيبة خشناء، يقتلان فيها أنفسهما، فبعداً لهما وسحقاً. [٥٤٣]

ثم أضاف عليه السلام أن لباس الدين وجليابه هو الذي يجعلني أغض الطرف عنكم (ولا أهلك سريرتكم):

«حتى سترني عنكم جلاب [٥٤٤] الدين، وبصرتكم صدق التية»

. والواقع هو أن عبارة الإمام عليه السلام إجابة عن سؤالين هما: أولاً: لو كان الإمام عليه السلام يتوقع نقضهم للعهد ويتوسم

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٧٧

ذلك فيهم فلم لم يعلن ذلك على المأل؟ وثانياً: من أين له هذا العلم بباطن هؤلاء؟ فقد رد الإمام عليه السلام على السؤال بقوله: «سترني عنكم جلاب الدين» ورد على السؤال الثاني بقوله «وبصرتكم صدق النية». بينما ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى تفسير العبارة الأولى بأنكم لم تعرفوني، وما ذلك إلّا سوء فهمكم للدين، أو أن تديني منعكم من معرفتي؛ إلّا أن هذا المعنى يبدو مستبعداً لما ينطوي عليه من تكلف إلى جانب عدم إنسجامه والعبارة السابقة، فالمعنى الأول هو الأنسب. ثم إختتم كلامه عليه السلام بالقول: «أقمت لكم على سنن الحق في جواد [٥٤٥]

المضلة [٥٤٦] حيث تلتقون ولادليل، وتحتقرون ولا تميّهون» [٥٤٧]

يشبه الإمام على عليه السلام الناس في عصر عثمان ولا سيما أواخر عمره بالرحالة الذين ضلوا الطريق وساروا على غير هدى فهم يتضوون عطشاً وهم يحفرون الأرض موضعاً موضعاً من أجل الوصول إلى الماء فلا يحصلون عليه؛ فيهب الإمام عليه السلام لنجدتهم فيهدهم إلى الصراط المستقيم فينتهلون من منهله العذب. ثم يلفت إنتباههم إلى عظم الفتن الدينية والديوية التي كانت ستلتهمهم في ذلك العصر المظلم لولا وجوده عليه السلام.

تأملان

١- البصيرة

لقد أشار الإمام عليه السلام إلى قضية مهمّة وهي أنّ صفاء النفس وصدق النية من العناصر التي تكمن وراء البصيرة والفراسة. فالمؤمنون الأصفياء الباطن يرون ما لا يرى غيرهم، وهي الحقيقة التي صرّح بها القرآن الكريم وأكدتها الروايات الإسلامية. فقد جاء في القرآن: «ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً» [٥٤٨]. وورد في الحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله» [٥٤٩] وقال الإمام الرضا عليه السلام:

«ما من مؤمن إلّاوله فراسة ينظر

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٧٨

بنور الله على قدر إيمانه ومبلغ إستبصاره وعلمه وقد جمع الله للائمة منّا ما فرقه في جميع المؤمنين وقال عز وجل في كتابه: إن في ذلك لآيات للمتوسمين. وإن أول المتوسمين رسول الله صلى الله عليه وآله ثم أمير المؤمنين عليه السلام وبعده الحسن والحسين عليهما السلام والائمة عليهم السلام من ولد الحسين إلى يوم القيامة» [٥٥٠]

جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام جواباً لمن سأله: كيف تعلمون بباطن الناس وتخبرون عمّا في أنفسهم. والحق ليس هنالك من حجاب مضروب على حقائق العالم، وليس ذلك سوى حجاب الهوى والهوس الشيطاني الذي يغشى بصيرتنا فيحول دون رؤيتنا للحقائق، ولو إستشعرنا قلوبنا الورع والتقوى والإيمان واليقين فان هذه الحجب سترفع ونرى كل شيء على حقيقته، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«لولا أنّ الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت» [٥٥١].

٢- ستر عيوب الناس

غالباً ما يتصف الأفراد بالعيوب الخفية التي قد يطلع عليها الإنسان من خلال الطرق العادية أو إستناداً إلى الفراسة والإيمان؛ فإذا إطلع عليها فإن الواجب يحتم عليه- ولاسيما إذا إطلع ذلك ولاه الامّة وقادة المجتمع- أن يسعى جاهداً لسترها وعدم هتك حجابها مادامت لا تشكل خطراً يتهدد المجتمع؛ وذلك لأن هتك سريرة الآخرين وكشف عيوبهم يجردهم من حرمتهم من جانب ويفسح المجال أمامهم لارتكاب المعاصي والجرأة على مقارفتها من جانب آخر؛ فالفرد يبقى محتاطاً مادام عيبه مستور، فإنّ هتك وافتضح أمره فلا يراع شيئاً، وناهيك عن كل ذلك فان هتك العيوب مدعاة لاشاعة الفاحشة في المجتمع وتلوث الآخرين بارتكاب الذنب. ومن هنا ورد التأكيد في الروايات والأحاديث على كتم السر على أنّه حق من حقوق المؤمنين على بعضهم البعض الآخر. فقد جاء في الحديث:

«واكتم سره وعيبه واطهر منه الحسن» [٥٥٢]

. وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«من ستر على مؤمن عورة يخافها ستر الله

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٧٩

عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة» [٥٥٣]

فقد أشار الإمام على عليه السلام إلى هذه الوصية الإسلامية وأعلن طاعته وامتناله لها، وبالطبع فقد قلنا إنّما يكون ذلك مالم تقود

تلك العيوب التي يراد سترها إلى بعض المشاكل الاجتماعية التي تهدد كيان المجتمع، وإلا فالوظيفة تقتضى إعلان الحقائق. ولكن لا ينبغي التذرع بهذا الاستثناء من أجل هتك عيوب الناس وأسرارهم.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٨١

القسم الثالث: اليوم أكشف الحجاب

إشارة

«الْيَوْمَ أَنْطِقُ لَكُمْ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيَانِ! عَزَبَ رَأْيُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّي! مَا شَكَّكَتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أَرَيْتُهُ! لَمْ يُوجِسْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خِيفَةً عَلَيَّ نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلْبَةِ الْجُهَالِ وَدَوَلِ الضَّلَالِ الْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَيَّ سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ».

الشرح والتفسير

لقد تضمن هذا القسم من الخطبة عدّة عبارات أشارت لعدة أمور مهمّة، ويبدو أنّ هنالك عدّة جمل تخللت هذه العبارات قد أسقطها السيد الرضى رحمه الله حين التلخيص، فقد كانت عادة السيد في إختيار مقتطفات من الخطب وحذف بعض العبارات، على كل حال فإنّ الأمر الذي أشار إليه الإمام عليه السلام هنا هو قوله:

«اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان»

. والعجماء البهيمة التي لانطق لها، إلّا أنّها تطلق أحيانا على الحوادث والقضايا الصماء التي ليست لها قابلية على النطق. ومن هنا يرى أغلب شراح نهج البلاغة أنّ المراد بالعجماء الحوادث التي تنطوي على العبر والدروس التي حدثت على عهد الإمام عليه السلام أو العهود الماضية وكل حادثة مع غموضها وخفائها فكأنّها تنطق لأولى الألباب. فالإمام عليه السلام يتعرض لبيان عبرها ودروسها التي ينبغي أن يتعظ بها المسلمون. كما ذهب البعض إلى أنّ المراد بها صفاته الكمالية عليه السلام أو الأوامر الإلهية فكأنّها هي الأخرى صامته والإمام عليه السلام يكشف عن منطقتها. ثم قال عليه السلام في العبارة الثانية:

«عزب رأى امرئ تخلف عنى، ما شككت فى الحق مذ اربته»

فى الواقع يبدو صدر وذيل هذه العبارة من قبيل العلة والمعلول أو الدليل والمدعى، وإذا أخذ بنظر الاعتبار تربية الإمام عليه السلام فى

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٨٢

حضن النبى صلى الله عليه وآله على الحق والاستقامة وبفضله كاتب الوحي وشاهد المعاجز والأعظم من ذلك كونه باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جانب علمه بالشهود إضافة لعلمه بالظاهر فإنّ كلامه عليه السلام لا يعرف معنى للاغراق والمبالغة قط. واحتمل بعض الشراح أنّ جملة «عزب رأى امرئ...» من قبيل الدعاء؛ أى بعدا وترحا لمن تخلف عن أوامرى. ويبدو المعنى الأول أنسب، أمّا العبارة الثالثة فقد أورد فيها الإمام عليه السلام رداً على سؤال قد يقتدح فى ذهن البعض بعد موقعة الجمل وهو: لم كان الإمام عليه السلام قلقاً من أحداث تلك الموقعة؟ فالإمام عليه السلام يجيب بأنّ هذا القلق ليس على نفسه قط، بل خشية من تسرب الشك والريب إلى قلوب عوام الناس بفعل إقتحام الميدان من قبل زوج النبى صلى الله عليه وآله وبعض الصحابة من قبيل طلحة والزبير وارتفاع الأصوات المطالبة بدم عثمان؛ كالقلق الذى عاشه موسى عليه السلام حين واجهه السحرة بسحرهم خشية غلبتهم واضلال الناس

«لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه بل أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال»

. وهى إشارة إلى الآيات التى وردت فى سورة طه بشأن موسى عليه السلام والسحرة «قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ

مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى [٥٥٤]. أما في العبارة الرابعة فيحذر من تبقى من مثيري فتنة الجمل في أننا وإياكم قد وقفنا على مفترق طرق نتجه فيه إلى الحق بينما تتجهون نحو الباطل «اليوم توافقنا [٥٥٥] على سبيل الحق والباطل»

. كأن الإمام عليه السلام يقول لهم، افتحوا أعينكم وانظروا إلى ما أنتم عليه فانكم إنما خرجتم على إمام زمانكم! لقد نكثتم البيعة ولم تقيموا حرمة للمواثيق! لقد شققتم عصا المسلمين وفرقتم صفوفهم! وسفكتم دماءً غزيرة! وقلدتم أنفسكم مسؤولية كبرى ستطيل وقوفكم أمام الله يوم القيامة! ارجعوا إلى رشدكم واعيدوا النظرا في أوضاعكم!. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته بقوله: «من وثق بماء لم يظلماً»

مراده عليه السلام أن من كان له واعظ وقائد موثوق لا يتسلل إليه الشك والترديد والوساوس الشيطانية والقلق والاضطراب وإنعدام الثقة؛ وذلك لأنه يرى نفسه على جرف ماء المعرفة الفرات العذب ويلوذ بامامه عند الفزع فيأتهم بأوامره

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٨٣

والاستضاءة بنور علمه. وأنتم كذلك لو عرفتم زعيمكم ووثقتم به فاعلموا أنكم سائرون على الحق وآمنون من كافة أشكال الشكوك والأهواء النفسية والوساوس الشيطانية.

الصراع بين الحق والباطل

لقد شبه الإمام عليه السلام الحق والباطل بطريقين سلك فريق أحدهما والآخر الثاني، وإذا أردنا تفسير هاتين المفردتين باختصار، فلا بد أن نقول بأن الحق هو الواقع والباطل هو الخيال والسراب الذي يحسه الظمان ماء. ومن هنا فإن الذات الإلهية المقدسة التي تعد أعظم من كل واقع اكتسبت أول اسم وهو الحق، وغيره على الحق بقدر إرتباطه به وكلما ابتعد عنه فهو على الباطل. فعالم الإمكان لانتمائه لله فهو حق، وهو باطل لامتزاجه ببعض جوانب العدم. فالعالم ميدان لصراع الحق والباطل وقد صور القرآن الكريم أبعاد هذا الصراع وعاقبته نتائجها بمثال رائع في سورة الرعد حيث قال: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ» [٥٥٦].

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٨٥

الخطبة الخامسة

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخاطبه العباس وابوسفیان بن حرب في أن يبایعاه بالخلافة (وذلك بعد أن تمت البيعة لأبي بكر في السقيفة وفيها ينهى عن الفتنة ويبين عن خلقه وعلمه) [٥٥٧].

نظرة إلى الخطبة

هذه واحدة من الخطب التي نقلت عن الإمام عليه السلام في أنها خطبها قبل خلافته. والذي يستفاد من هذه الخطبة والمقدمة التي أوردها الشريف الرضي (ره) عليها أن أباسفيان والعباس إنطلقا إلى علي عليه السلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله (و لعل

أبأسفيان دفع العباس إلى ذلك) واقترحا على الإمام عليه السلام النهوض بالأمر والبيعة له على أنه خليفة رسول الله صلى الله عليه و آله. إلا أن الإمام عليه السلام الذي كان يحرص على بيضة الإسلام واستناداً إلى علمه التام بالظروف التي كانت تهدد الدين آنذاك وضرورة قبر المؤامرات والفتن في مهدها ليس فقط لم يجبهم لتلك البيعة نحسب، بل حذرهما بكل صرامة من مغبة هذا العمل ونصحهما بالابتعاد عنه. ولما كان عليه السلام

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٨٦

عالمًا ببعض المغرضين أو الجهال الذين قد يشكلون على سكوته فقد رد عليه السلام على هذا الإشكال، ثم اختتم كلامه ببيان مدى عشقه للموت وانطوائه على العلم الذي لا يسع الآخرين سماعه فضلاً عن احتمالها. ولم يأذن له في الكشف عن أسراره.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٨٧

القسم الأول: احذروا مشيرى الفتن

إشارة

«أَيُّهَا النَّاسُ شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفْنِ النَّجَاءِ، وَعَرَّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ، وَضَعُوا تِيْجَانَ الْمُفَاخَرَةِ. أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ، أَوْ اسْتَشِيَّ لِمَ فَارَاحَ. هَذَا مَاءٌ آجِنٌ، وَلَقَمَةٌ يَغْضُ بِهَا آكِلُهَا. وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةَ لَغَيْرِ وَقْتٍ إِنِاعِيهَا كَالزَّرَاعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ».

الشرح والتفسير

إن سبب هذه الخطبة هو: لما قبض رسول الله صلى الله عليه و آله واشتغل على عليه السلام بغسله ودفنه وبويع أبو بكر في سقيفة بني ساعدة، خلا الزبير وأبوسفيان بالعباس عم النبي صلى الله عليه و آله وقال: أما والله إنى لأرى عجاجه لا يطفئها إلا الدم، يا لعبد مناف، فيم أبو بكر من أمركم، مبال هذا في أقل حى من قریش. ثم قال لعلى عليه السلام أبسط يدك أبايعك، فوالله إن شئت لأملأها على أبى فضيل - يعنى أبابكر - خيلاً ورجلاً، فامتنع على عليه السلام حيث كان يعلم الإمام عليه السلام بأنه لا ينشد سوى الفساد والفتنة ومن هنا خطب هذه الخطبة. [٥٥٨] واورد المؤرخ المعروف ابن أثير فى كتابه الكامل أن علياً عليه السلام ردّ على أبى سفيان بأنك تريد الفتنة ولا تضمر للإسلام سوى الشر فلا حاجة لنا بنصحك. [٥٥٩] ومن هنا تتضح أجواء الخطبة وسهولة تفسير ماورد فيها من عبارات. فقد أشار عليه السلام فى القسم الأول من هذه الخطبة إلى أربعة مواضع مهمّة. فقال عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفْنِ النَّجَاءِ وَعَرَّجُوا [٥٦٠] عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ [٥٦١]، وَضَعُوا تِيْجَانَ الْمُفَاخَرَةِ».

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٨٨

قوله عليه السلام أيها الناس يفيد حضور عدد كبير من الناس فضلاً عن ذانك الفردين. ويؤيد هذا المعنى بعض الروايات الواردة بهذا الشأن. والنقطة الجديدة بالذكر أن الإمام عليه السلام شبه الفتن بالأمواج العاتية الكاسحة والتي يوصى بمجابهتها من خلال الاعتصام بسفن النجاة. والمراد بسفن النجاة تلك السفن العملاقة التي تشق عباب البحر ولا تصمد أمامها الرياح العواتى فتبلغ بركابها شاطئ الأمان، ويراد بهم هنا الزعماء الربانيين ولاسيما أهل بيت النبي صلى الله عليه و آله [٥٦٢]، أى إسمعوا وأطيعوا لما نقول لا لما تريدون، وللتأكيد على هذا المعنى فقد شبه عليه السلام التفاخر القبلى والفتوى بالطريق الخطير المرعب الذى ينبغى إجتنابه (لابد من الالتفات هنا إلى أن المعنى الأصلى للمنافرة هو أن يذكر كل واحد من الرجلين مفاخره وفضائله، ثم يتحاكما إلى ثالث) - فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أراد بهذا الكلام القيم أن يركز على العامل الأصلى لآلام البشرية ومعاناتها، التى تفرزها على الدوام الحروب الدموية والاختلافات والنزاعات والافتتالات التى تستند إلى التفاخر؛ فاذا ما حطم هذا الصنم أمكن حل كافة مشاكل المجتمعات البشرية وعاد

إلى الدنيا الأمن والصلح والسلام. طبعاً صحيح أن طلاب القدرة والمنصب إنما يتقنعون بالدفاع عن حقوق المجتمع وحفظ القيم والمثل، ولكن ليس هنا لك من يشك في أنهم إنما يتظاهرون بهذه الشعارات من أجل تحقيق أغراضهم ومآربهم بغية التفاخر على الآخرين. ثم قال عليه السلام:

«أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فاراح» [٥٦٣]

. فالإمام عليه السلام أشار إلى نقطة أساسية هي أن القيام بالحق تتطلب بعض الشرائط؛ فلو توفرت هذه الشرائط لما ترددت في القيام بالأمر، أما إذا لم تتوفر فالعقل والمنطق والدين لا يحكم بأن القيام ليس بمجدٍ فحسب، بل من شأنه أن يثير الفرقة والاختلاف والاذى والمعاناة للآخرين كما يؤدي إلى القضاء على القوى الناهضة بالحق، وهذا أصل من الاصول الثابتة التي ينبغي رعايتها في كافة الأنشطة الاجتماعية ولاسيما في النهضات والثورات السياسية. أما النقطة الأخرى التي تطرق إليها الإمام عليه السلام فإنما تكمن في نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٨٩

مسألة الخلافة والأخذ بزمام أمور الأمة التي جعلها البعضى شماعه ليجزوا حتى الوسائل غير المشروعة من أجل الوصول إليها فقال عليه السلام:

«هذا ماء آجن [٥٦٤]، ولقمة يغص [٥٦٥] بها آكلها»

. فحياة الإنسان متقومة بالماء والغذاء، ولكن أى ماء وغذاء؟ طبعاً الماء النقى والغذاء الزكى، فالإمام عليه السلام شبه هنا طبيعة الحكومة بالماء المتعفن والغذاء الغصه. والحق كما صوره الإمام عليه السلام، فالإنسان كلما إقرب من حياة الحكام والساسة إكتشف مدى عظم مشاكلهم وشدة إستيائهم ووخامة أوضاعهم، فليس لهم من هدوء ولاسكينة كما ليس لهم من أمن أو إستقرار. وليس لهم سوى المظاهر الكاذبة الفارغة التي لا تنطلى سوى على بعض السذج. وبالطبع فإن أولياء الله يسارعون لاحتواء هذه المشاكل ويتحملون كافة الصعاب والمعضلات كما يضحون بهدوءهم واستقرارهم خدمة لدين الله وعباده. كما ذهب البعض إلى أن اسم الإشارة (هذا) يشير إلى نوع الحكومة التي إقترحها أبوسفیان. على كل حال صحيح أن الحكومة كالماء الذي يعدّ قوام حياة الامم، إلا أنها كانت ومازالت مطمع أهل الدنيا الذين هبوا بكل قوة لمنازعة أولياء الله على تلك الحكومة فلوثوا هذا الماء كما جعلوا طعام الحياة غصصاً؛ الأمر الذي جعل الأولياء يترفعون عنها ويعلنونها صراحة

«لولا حضور الحاضر وقيام الحجة ... لألقيت حبلها على غاربها ولألفيتم دنياكم هذه أهون عندي من عطفة عنز»

. أما في النقطة الرابعة فيشير إلى أحد أبعاد هذه المسألة وهو أن من أراد القيام بالأمر لتشكيل الحكومة الإسلامية فلا بد أن تكون المقدمات والظروف معدة لذلك أو أن يتولى هو تهيئة هذه الظروف وإلا فليست هنالك من قيمة أو أثر لهذا القيام ولا يتمخض سوى عن الهزيمة والفشل - فقد قال الإمام عليه السلام بهذا الشأن:

«و مجتنى الثمرة لغير وقت إيناعها [٥٦٦] كالزراع بغير ارضه»

. وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن الضمير في (بغير أرضه) يعود إلى الزارع ومفهوم العبارة: كمن زرع في غير أرضه ولا ينتفع بذلك الزرع بل يعود ثمره على الآخرين؛ إلا أن

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٩٠

ضعف هذا التفسير يبدو واضحاً من خلال كلام الإمام عليه السلام الذي قرن ذلك بجنى الثمار غير الناضجة. وهنا لا بد من القول بأن هذه العبارات قد تناولت الاصول الأساسية والدروس القيمة المعتمدة في تشكيل الحكومات الإلهية؛ الأمر الذي يدعو دعاه الحق وعشاق العدالة لعدم الانفعال بالعواطف والاحاسيس العابرة والاقتصار على الدراسات المحدودة من أجل ممارسة أنشطتهم وعليهم أن يتربصوا بكل اناة وتحسب للوقوف على تقرر الشروط وتأهب القوى وإن إحتاج هذا الأمر لمدّة من الزمان، على غرار المزارعين الذين لا يقصدون قطف الثمار غير الناضجة رغم حاجته القصوى لهذه الثمار من أجل توفير قوته أو تسويقها وبيعها بغية تغطية حاجاته

الأساسية، أضف إلى ذلك فأن المزارع الماهر لا يغرس بذوره في أرض ليست خصبة أبداً، بل يتأنى قبل ذلك بحرث الأرض وسقيها بالماء ثم ينثر بذره.

سكوت الإمام عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله

يتساءل الكثيرون لماذا لم ينهض الإمام على عليه السلام بالأمر بدلاً من السكوت رغم كونه الأجدد والأحق بخلافه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جانب تأكيدات النبي صلى الله عليه وآله عليه و آله على إستخلافه بما يثبت أن الخلافة من حقوقه المسلمة بل من حقوق الأمة الإسلامية؟

ويبدو أن الإجابة على هذا السؤال قد وردت في العبارات القصيرة البعيدة المعنى في هذه الخطبة، حيث ذكر بعض الأسباب التي دعت لعدم القيام والنهوض بالأمر. أولها عدم إنطواء الأفراد- كابي سفيان- على حسن النية في اقتراح النهوض بالأمر والتصدي للخلافه، أو أنهم- كالعباس- كانوا ممن دفعوا من أصحاب الاغراض السيئة؛ الأمر الذي جعل الإمام عليه السلام يتعامل مع هذه الاقتراحات كفتن وبلا بل تستهدف القضاء على المسيرة ولم يكن معه الا القليل، وهذا ما صرح به الإمام عليه السلام:

«فظرت فاذا ليس لى معين إلا أهل بيتى، فضننت بهم عن الموت، وأغضيت على القذى وشربت على الشجا، وصبرت على أخذ الكظم، وعلى أمر أمر من طعم العلقم» [٥٦٧]

وناهيك عن كل ذلك فأن الخلافة والحكومة لم تكن هدفا بالنسبة

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٩١

للإمام عليه السلام حيث كان يراها الإمام عليه السلام كالماء الآسن المتعفن والطعام المنغص؛ بل يراها وسيلة لاحقاق الحق وإبطال الباطل «قال عبدالله بن عباس: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله. فقال لى: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها! فقال عليه السلام: والله لى أحب إلى من إمرتكم، إلا أن اقيم حقا، أو أدفع باطلا» [٥٦٨]. إلا أن الإمام عليه السلام حين يرى هذا القيام لا يؤدي إلى تحقيق الهدف، بل بالعكس إنما يثير الخلاف والشقاق والفرقة فى صفوف المسلمين ولعله يتيح الفرصة للمنافقين الذين يتربصون بالاسلام الدوائر فلا يرى هناك من سبيل سوى الصمت والسكوت. وقد أورد ابن أبى الحديد أن فاطمة عليها السلام حدثت الإمام عليه السلام بالنهوض بالأمر، فلما ارتفع صوت المؤذن «أشهد أن محمداً رسول الله» إلتفت إليها قائلاً: أيسرك زوال هذا النداء من الأرض؟ قالت: لا. قال: فلا بد من الصبر والسكوت [٥٦٩]. وبغض النظر عما تقدم فإن كل عمل- ولا سيما النهضة الاجتماعية الإسلامية- يتطلب بعض المقدمات ولا بد من توفر كافة الشروط اللازمة، وإلا فليست هنالك من نتيجة سوى الهزيمة والفشل والخذلان وهدر طاقات الامية وتبديد قواها، وهذا الأمر أشبه بقطف الثمار غير الناضجة أو نثر البذور فى الأرض المالحة. ومن هنا كان الإمام عليه السلام قيامه يكمن فى السكوت والصمت.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٩٣

القسم الثانى: ترى ما العمل مع المترصين؟!

إشارة

«فإن أقل يقولوا: حرص على الملك، وإن أشكك يقولوا جزع من الموت! هيئات بعد اللئيا والئى! والله لابن أبى طالب آتس بالموت من الطفل بتدى أمه، بل أندمجت على مكنون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الأرشية فى الطوى البعيدة».

الشرح والتفسير

يتعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى الحجج والذرائع الواهية المتضاربة التي يردها الجاهل والحساد على الإمام عليه السلام. فيقول الإمام عليه السلام إن هذه القلوب العمى والبصائر الخافتة لا تنفك تعترض على في كل موقف اتخذه، فان اتحدث عن أحقيتي بالخلافه وعدم صلاحية الآخرين لها، فالبي دعوة الامية يتخرسون بأني حريص على الحكومه، وأن آثرت الصمت والسكوت صوروه خوفا من الموت: «فان أقل يقولوا: حرص على الملك وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت». نعم فهذا هو الاسلوب الرخيص الذي ينتهجه الجاهل والمتخرسين ليعترضوا على أولياء الله في كل حركة وسكنه وموقف يمارسونه، وهم لا يتحفظون حتى عن التناقض والتضارب في هذا المجال، فان قاموا أشكلوا عليهم وإن قعدوا أشكلوا كذلك. ومن هنا فان المؤمنين لا يعيرون هذه التناقضات أية آذان صاغية. ويبدو أن هذا هو الأمر الذي أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام في الحديث المروي عنه أنه قال:

«إن رضى الناس لا يملك

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٩٤

وألستهم لا تضبط» [٥٧٠]

. كما ورد شبيه هذا المعنى في الخطبة ١٧٢ من نهج البلاغة: «وقد قال قائل: إنك على هذا الأمر يابن أبى طالب حريص، فقلت: بل أنتم والله لأحرص وأبعد، أنا أخص وأقرب، وإنما حليت حقاً لى وأنتم تحولون بينى وبينه، وتضربون وجهى دونه، فلما قرعته بالحجة فى أعلا الحاضرين هب كأنه بهت لا يدري ما يجيئى به» ثم يواصل كلامه عليه السلام فى إطار ردّه على من فسّر سكوته بالخوف من الموت متعجباً من ذلك وهو الذى ثبت حين نكصت الأبطال فى بدر وأحد وحين والاحزاب وخيبر التى أثبتت مدى ولهه وشغفه بالشهادة وله الرضيع بئدى امه:

«هيهات بعد اللتيا والتى! والله لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بئدى امه»

. غير أن سكوتى يستند إلى علم بخفايا الامور لا تطيقون سماعه

«بل إندمجت [٥٧١] على مكنون علم لو بحت [٥٧٢] به لاضطربتم اضطراب الارشية [٥٧٣] فى الطوى [٥٧٤]

البعيدة».

تأملات

١- سوابق الإمام عليه السلام

يشير الإمام عليه السلام باختصار إلى الشجاعة والبسالة التى أبداها فى الغزوات والمعارك الإسلامية وفى بعض المواضع الخطيرة كميته على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وما إلى ذلك ليدكر أولئك المرضى الذين يشكلون عليه بأنه لا يخشى أية حادثة مروعة وقد خرج مرفوع الرأس من كل تلك الاختيارات والتمحيصات، وعليه فسكوتى لا يقوى دليلاً على ضعفى قط؛ وليس

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٩٥

وراء هذا السكوت سوى مصالح الإسلام والمسلمين، ثم يستشهد على ذلك بالمثل العربى المعروف فيقول «بعد اللتيا والتى». وقصة هذا المثل أن رجلاً تزوج من امرأة كانت قصيرة القامة وصغيرة وسيئة الخلق فذاق منها الأمرين حتى طلقها. ثم تزوج من امرأة طويلة القامة فأذته كسابقته حتى اضطر لطلاقها، فلما عرضى عليه الزواج قال: «بعد اللتيا والتى لا أتزوج أبداً» فصار ذلك مثلاً يضرب من أجل الحوادث الكبيرة والصغيرة، فالإمام عليه السلام يشير إلى أنه اجتاز كل تلك الحوادث والخطوب فهل من سبيل إلى الخوف

والخشية.

٢- لم أخاف الموت؟!

القضية الاخرى التي أشار إليها الإمام عليه السلام قوله:

«لابن أبي طالب أنس بالموت من الطفل بثدي امه»

. فالثدي ولبن الام أساس حياة الطفل، ومن هنا فان هذا الطفل يعيش حالة من الجزع والانبين والصراخ إذا ما جرد من هذا الثدي وكأنه سلب الدنيا برمتها، فإذا عاد إليه سكن وقر وشعر بالفرح والسرور وكأنه نال الدنيا بما فيها؛ إلا أن هذه العلاقة مهما كانت فهي تستند إلى الغريزة؛ أما علاقة الإمام عليه السلام والعرفاء بالموت ولقاء الله (ولا سيما الشهادة في سبيل الله) فهي علاقة قائمة على أساس العقل والمنطق والعشق. فهم لا يرون الموت سوى إنطلاقة الحياة الجديدة في ذلك العالم الأوسع والأشمل. يرون الموت نافذة على عالم البقاء والخلود والخلص من هذا السجن وتحطيم قيوده وأغلاله والتخليق نحو العالم العلوي ومجاورة الرحمن. فهل من عاقل يتردد في التحرر من قضبان السجن والخلص من هذه القيود والانحلال [٥٧٥]. نعم إنما يخشى الموت من يراه فاتحة لكل شيء وبداية للعذاب الذي ينتظره بفعل ما قارفه من رذائل وفواحش. فأني للإمام عليه السلام بالخوف من الموت وهو ما عليه من المعارف والعلوم والسمو والرفعة؟ ومن هنا يقسم عليه السلام بأنه أنس بالموت من الطفل بثدي امه. كما قال في موضع آخر:

«فوالله ما ابالي دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلى [٥٧٦]

. بل هذا ماجسده عمليا حين ضربه ابن ملجم بالسيف على رأسه فصرخ قائلاً:

«فرت ورب الكعبة» [٥٧٧].

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٩٦

٣- لم السكوت؟

قال الإمام عليه السلام:

«بل انطويت على مكنون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الارشيء في الطوى البعيدة»

. ومن الواضح أن الآبار كلما كانت أعمق كان اضطراب الحبال فيها أكثر. ولكن ماهو المراد بهذه الأسرار والعلم الذي إنطوى عليه الإمام عليه السلام؟ يبدو أن هنالك احتمالات كثيرة أوردتها شراح نهج البلاغة بهذا الشأن. فمنهم من فسره بوصية النبي صلى الله عليه وآله له بالسكوت وعدم النهوض بالأمر والاشتباك مع الجماعة. ومنهم من فسره بعلمه عليه السلام بعواقب الامور ومصالح ومفاسد المجتمع الإسلامي والذي دعاه لاتخاذ موقف السكوت. ومنهم من فسره بعلمه عليه السلام بعالم الآخرة؛ أي أنني لأعلم بمسائل الآخرة بما لو بحث لكم به لما وسعكم الاستقرار ولعشتم الاضطراب. وهناك من فسره بالقضاء والقدر الذي قدر لهذه الامة. ولكن لا يبدو أي من هذه التفاسير منسجم ومضامين الخطبة وماورد قبلها وبعدها من عبارات، ونرى الصحيح بأن تفسر هذه العبارة بالأحداث والتغيرات التي وقعت إبان الصحابة وادعاء الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله واولئك الذين كانت تراهم الامة على الحق وهم باطل وضلال، واولئك الذين اندفعوا بالأمس خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وشهروا سيوفهم بوجه الكفر والشرك بينما تخندقوا اليوم في صفوف المنافقين وقد باعوا دينهم بدنياهم ولو عرفهم الناس لتعجبوا وذهلوا.

«بل اندمجت على مكنون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الارشيء في الطوى البعيدة»

. فمن يصدق أنّ طلحة والزبير الذين قاتلا في ركاب رسول الله صلى الله عليه وآله سيعلنان يوماً نار حرب الجمل؟ ومن يصدق أن أحد أزواج النبي صلى الله عليه وآله وأم المؤمنين - عائشة - ستكون يوماً وسيلة بيد المنافقين فتقود معركة يروح ضحيتها أكثر من عشرة آلاف شخص؟ وعدد لا يحصى من قبيل هذه الأسئلة. فإذا كان الأمر كذلك فكيف استند إلى مثل هؤلاء الأفراد وأنهض بالأمر.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٩٧

الخطبة السادسة

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
لما أشير عليه بالآل يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لهما القتال
وفيه يبين عن صفته بأنه عليه السلام لا يخدع [٥٧٨].

نظرة إلى الخطبة

حين نكث طلحة والزبير البيعة وقصدا عائشة في البصرة واستوليا عليها، إعتقد البعض بأن الإمام عليه السلام لن يصطدم بهما وسيتركهما ريثماً يوطد دعائم خلافته فلا تمرّ مدّة حتى يعلننا إستسلامها. فالإمام عليه السلام يستهل خطبته بأن هذا الكلام خطأ محض وأنى لن أقف مكتوف الأيدي لتشتد قوة العدو فيباغتني. ثم يبين عليه السلام عزمه الراسخ على مقاتلة هؤلاء والزحف إليهم بجنده المطيع، ثم يعلن أن هذا هو الأسلوب الذي سيتبعه إلى آخر حياته. وأخيراً يختتم الخطبة بالإشارة إلى هذه الحقيقة في أن هذه المخالفة والاعتراض ليست بالشىء الجديد وأن جذورها تمتد إلى زمان رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله وما زالت مستمرة ليومنا هذا.

«والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم، حتى يصل إليها طالبها، ويختلها راصدها، ولكنى أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصي

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٩٨

المريب أبداً، حتى يأتي على يومى. فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقى، مستأثراً على، منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حتى يوم الناس هذا.» [٥٧٩]

الشرح والتفسير

الحيطة والحذر تجاه الأعداء

لقد رد الإمام عليه السلام على أولئك الذين يقترحون عدم مطاردة طلحة والزبير الذين نقضا بيعتهما، فقال عليه السلام:

«والله لا أكون كالضبع [٥٨٠] تنام على طول اللدم [٥٨١] حتى يصل إليها طالبها،

ويختلها [٥٨٢] راصدها [٥٨٣]

ويبدو أن المثل يضرب بالضبع على أنه حيوان أبله يمكن صيده بكل سهولة؛ حيث يقوم الصياد بدق قطعة من الحجر أو العصا أمام عش الضبع فإذا نام تقدم إليه الصياد ليصيده بسهولة. وقد سطرت الخرافات والأساطير بهذا الشأن ومن ذلك أن يخاطب الصياد الضبع

فيقول له: يا ضبع نم في عشك، ثم يكرر ذلك عدّة مرات، فيتجه الضبع إلى أقصى غاره وينام. فينادى الصياد: الضبع ليس في العش، الضبع نائم، ثم يدخل عليه العش فيربطه بحبل ويخرجه من عشه ومن هنا شبه الأفراد الذين يعيشون الغفلة تجاه العدو بالضبع. أما الوقائع التاريخية آنذاك فهي تشير إلى سداجة الاقتراح القاضي بعدم مطاردة طلحة والزبير؛ وذلك لأن خطتهما كانت تستهدف السيطرة على البصرة والكوفة ثم يبيعهما معاوية ويأخذ لهما البيعة من أهل الشام فتخضع أغلب المناطق الإسلامية لسيطرتهما فلا يبقى لعلّ عليه السلام سوى المدينة. أضف إلى ذلك فان هؤلاء استطاعوا أن يؤلبوا أكثر عدد ممكن من الناس من خلال نقحات الولاية، ج ١، ص: ٢٩٩

الشعار الذي يطالب بدم عثمان حتى رسخ في أذهان الناس أن قاتل عثمان هو علي عليه السلام. ومن الواضح أن تلك الخطّة كادت أن ترد الميدان عمليا لولا مبادرة الإمام عليه السلام وتسريعه بمواجهة الفتنة حتى استطاع أن يقبر تلك المؤامرة في مهدها فتمكن من إنقاذ البصرة والكوفة بل والعراق بأجمعه، ولولا المعارضة التي أبدتها الجاهل تجاه الإمام عليه السلام في إطار تعامله مع ظلمة الشام لاراح المسلمون وإلى الأبد من شرهم ولعاد العالم الإسلامي برمته وحدة واحدة؛ غير أن المؤسف له - وكما أشير إلى ذلك في ذيل الخطبة الشقشقية - تعالت أصوات الجاهل المغرضين الذين انطلت عليهم الدعايات ليوقفوا تلك المعركة التي كان النصر فيها للإمام عليه السلام قاب قوسين أو أدنى. ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه ليقول: «ولكنني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً، حتى يأتي علي يومى».

طبعي أن المجتمع لا يتبنى الحق بجميع أفراد؛ فهناك ضعاف الإيمان وعبدة الاهواء وأصحاب الجاه والمناصب الذين لا يروق لهم إمام عادل حيث يهدد منافعهم اللامشروعة فيلجأون إلى أساليب الدعاية والخداع والكذب والزيف وإثارة الشائعات؛ الأمر الذي يدعو الساسة والحكام إلى الاجهاض على هذه العناصر الفاسدة وإجتثاثها من المجتمع بصفتها غدة سرطانية يمكنها أن تلوث المجتمع، أو السعى للحد من نشاطهم وفعاليتهم ألم تكن مخاطرهم شديدة، كما ينبغي على دعاة الحق أن يكونوا على أهبة الاستعداد على الدوام للانقضاض على هذه العناصر والقضاء عليها. وأخيراً يصف الإمام عليه السلام هذه المعوقات بأنها ليست جديدة وإنما لها جذورها التي تمتد إلى زمان رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله: «فو الله ما زلت مدفوعاً عن حقي، مستأثراً عليّ، منذ قبض الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم حتى يوم الناس هذا» في إشارة إلى قضية طلحة والزبير في إنها تأتي في إطار حلقة مستمرة منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وما زالت قائمة حتى اليوم. أما تعبيره بمدفوعاً ومستأثراً فهي إشارة إلى المقاومة التي أبدتها الأعداء حيال الإمام عليه السلام لرحلته عن حقه وتقديم الآخرين عليه، لأنهم لا يطيقون عدله وشدته. أما قوله عليه السلام: «حتى يوم الناس هذا»

- بالالتفات إلى إضافة اليوم إلى الناس - يمكن أن يكون إشارة إلى ذلك اليوم الذي كنت فيه وحيداً وقد غضبوا حقي، واليوم قد ذهب البعض لمخافتى رغم وجود هذه الامة التي بايعتني. والجدير بالذكر أن المرحوم الشيخ المفيد أورد في إرشاده نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٠٠

عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «هذا طلحة والزبير ليسا من أهل النبوة ولا من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله حين رأيا أن الله قد رد علينا حقنا بعد أعصر فلم يصبرا حولاً واحداً ولا شهراً كاملاً حتى وثبا على دأب الماضين قبلهما ليذهبا بحقي ويفرقا جماعة المسلمين عنّي» [٥٨٤].

تأمل: رسالة إلى جميع المسؤولين

لقد لُقّن الإمام عليه السلام بهذه العبارات التاريخية كافة الزعماء من أهل اليقظة والإيمان وساسة البلدان الإسلامية درساً بليغاً في

التأهب لمواجهة الأعداء، ولا ينبغي التخلي عن الفرصة بكل سهولة وعدم الاستسلام للحلول والاقتراحات التي يتقدم بها من يؤثر السكون ويخلد إلى الراحة والدعة. فقد شبه الإمام عليه السلام من ينخدع بهذه الاقتراحات ويفقد زمام المبادرة في تلك اللحظات الحساسة بالضبع، ويكمن وجه الشبه في عدة أمور منها:

١- أن الضبع يشعر بوجود العدو إلا أنه ينام لسماع بعض الأصوات التي يرددتها؛ النوم الذي يؤدي به في خاتمة المطاف إلى الأسر والموت.

٢- أن الضبع يصطاد في غاره.

٣- لا يبدى الضبع أدنى مقاومة للذب عن نفسه وإنما يقع في مخالفه بكل سهولة.

فالأفراد الذين لا يتعاملون بحزم تجاه العدو ويبدون حالة من الضعف والوهن إزائه فهم كالضباع التي تنام في مخادعها وتستسلم للقتل دون مقاومة.

و أخيراً فلا يعنى هذا أن يقدم الإنسان على عمل دون التأني والتامل والاستشارة والوقوف على كافة جوانبه؛ بل لابد من إستشارة ذوى الحجى والشجاعة واتخاذ القرار قبل فوات الأوان والأقدام فى الوقت المناسب.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٠١

الخطبة السابعة

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

يذم فيها اتباع الشيطان

أتباع الشيطان

«اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مَلَكَاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً، فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ فَانظَرُوا بِأَعْيُنِهِمْ وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَّالَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطْلَ فَعَلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ وَنَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ». [٥٨٥]

الشرح والتفسير

إنَّ الخطبة رغم قصرها تصور بدقة أتباع الشيطان وكيفية نفوذهم إليهم، ومن ثم تبيّن الآثار الوخيمة والعواقب المشؤومة والطرق التي يسلكها الشيطان فى التغلغل إلى الإنسان واللقاء به فى شبابه وحبائله، فيتلاعب به كيفما يشاء. والحق أنّها تخدير جدى لاتباع الحق فى ضرورة توفى الحيطة والحذر من تسلل الشيطان والوقوف بوجهه حال الشعور بأدنى آثاره. والخطبة وإن تحدثت عن بعض الأفراد من قبيل طلحة والزبير أو معاوية وأهل الشام

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٠٢

أو أصحاب النهروان الذين سقطوا فى فخ الشيطان، إلا أنّها لا تقتصر عليهم البتة، بل هى رسالة واضحة (لكافة الأفراد من أجل مراقبة الشيطان وعدم فسح المجال أمامه.

فقد تكفّلت الخطبة بتبيين المراحل التى يعقبها تسلل الشيطان فى أتباعه، حيث شرحها الإمام عليه السلام بما عرف عنه من فصاحة وبلاغه وتشبيه رائع بحيث لا يمكن تقديم صورة فنية أروع من تلك التى رسمها الإمام عليه السلام. فقد أشار فى المرحلة الاولى إلى أنّ هذا التسلل والنفوذ إلى الإنسان إختيارى ولا يمت بصله إلى الاجبار. فالإنسان هو الذى يعطيه الضوء الأخضر ويدعه يلججه ويتصرف

بوجوده حتى يجعله ملاكاً ومعياراً لنشاطاته وفعالياته

«إتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً»

. فملاك من مادة ملك بمعنى أساس الشئ ودعامته، كأن يقال القلب ملاك البدن، أى أن أساس وقوام البدن هو القلب وهذا هو الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم بوضوح على لسان آياته «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَكَّلُونَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ» [٥٨٦]. بناءً على هذا فالعبارة المذكورة كآيات القرآنية بمثابة رد على أولئك الذين يتساءلون عن سلطة الشيطان على بنى آدم فيقولون: كيف سلط الله سبحانه هذا المخلوق الخطير على الإنسان ثم طالبه بعدم إتباعه.

فالعبارة تقول أن الشيطان لا يخترق الجدران غيلة، بل يأتى من الباب ويطرقها فان فتح له ولج وإلا عاد من حيث أتى. صحيح أنه يصير على طرق الباب دون الشعور بالكلل والملل، لكن بالمقابل هنالك الملائكة الذين يهبون لنجدة الإنسان ويحذروه من مغبة فتح الباب. ثم أشار فى المرحلة الثانية إلى الانتخاب الذى يتولاه الشيطان بعد ذلك الانتخاب حيث يصطفى هؤلاء كاعوان وشركاء «واتخذهم له اشراكاً» [٥٨٧] ثم وضع عليه السلام ذلك بقوله: «فباض وفرخ فى صدورهم» [٥٨٨]. فالإمام عليه السلام يشبه صدور تبعه الشيطان بعش إبليس الذى يبض فيه ويفرخ. ثم قال عليه السلام: «و دب ودرج فى حجورهم». صرح بعض شراح نهج البلاغة بان دب من مادة الدبيب بمعنى الحركة البطيئة الضعيفة، والدرج الحركة الأقوى منها كحركات الطفل فى حضانة

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٠٣

امه. ولعل التعبير بدرج إشارة إلى حقيقة وهى أن الأفكار والعادات الشيطانية ليست طارئة ومفاجئة على الإنسان؛ بل تتجذر فيه بصورة تدريجية؛ كما عبر عنه فى حذر المؤمنين منها حيث يتسنى له اقتياد الإنسان خطوة خطوة نحو الفساد والضلال والكفر. [٥٨٩] فقال:

«فنظر باعينهم، ونطق بالستهم»

. أى أن هذه البيوض والفراخ الشيطانية ستنمو وترعرع حتى تتبدل إلى شياطين تتحد معهم بحيث تنفذ فى جميع أعضائهم وجوارحهم حتى يعيشون الأزواج فى شخصياتهم، فهم من جانب إنسان، ومن آخر شيطان، ظاهرهم إنسانى أما باطنهم شيطانى. عيونهم وآذانهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم أدوات تأتمر بأوامر الشيطان، فمن الطبيعى أن يروا جميع الاشياء بصيغته شيطانية كما أن آذانهم تطرب لسماع الانغام الشيطانية. أما فى المرحلة الرابعة فيتناول عليه السلام النتيجة النهائية لهذه المسيرة التدريجية المنحرفة فيقول:

«فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل» [٥٩٠]

ويشبه هذا الكلام ما أورده الإمام عليه السلام فى موضع آخر من نهج البلاغة

«إلّا وأنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها» [٥٩١]

. ثم قال عليه السلام فى المرحلة الأخيرة

«فعل من قد شرکه الشيطان فى سلطانه، ونطق

بالباطل على لسانه» [٥٩٢]

. إشارة إلى أن أعمال هؤلاء تدل بوضوح على أن الشيطان استحوذ عليهم فتصرف فيهم كيف يشاء. فحديثهم حديث الشيطان ونظرهم نظر الشيطان وبالنتيجة فان بصمات الشيطان متجسمة فيهم، والواقع هو أن الإمام عليه السلام أراد فى هذه المرحلة أن يعرف هؤلاء الأفراد من خلال أعمالهم الشيطانية. ويبدو أن مراده عليه السلام بعض الأفراد كطلحة والزبير وانصارهما وأصحاب معاوية والخوارج ومن كان على شاكلتهم، رغم أن الكتب المعروفة لشرح نهج البلاغة وأسانيدنا لم تتعرض إلى الأفراد أو الطوائف المرادة بكلام الإمام عليه السلام. مع

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٠٤

ذلك فالكلام دقيق وعميق ولا يختص بطائفة معينة، بل يشمل كل من وضع رجله على مسار الشيطان وخضع لسيطرته وامتلأ بأوامره.

تأمل: خطط الشياطين

شائك وشامل هو البحث بشأن الشيطان وفلسفته خلقه وكيفيه نفوذه إلى الإنسان وطول عمره وقصته مع آدم وجنوده وأعوانه من الجن والانس وما إلى ذلك من الامور التي لايسع المجال شرحها والغوص في أعماقها. وسنكتفي ببعض الإشارات التي يمكنها أن تغني البحث بما ينسجم وما ورد في الخطبة المذكورة.

فالذي تفيدته الآيات القرآنية أنّ الشيطان لم يخلق كموجود شرير منذ بداية الخليقة، بل خلق طاهرا حتى اصطف مع الملائكة (وإن لم يكن ملكاً). غير أنّ حب الذات والكبر دفعه للتمرد على أمر الله والامتناع عن السجود لآدم عليه السلام، فلم يرتكب المعصية فحسب، بل إتهم علم الباري سبحانه وحكمته ليهوى في وادي الشرك والضلال. لقد سأل الله النظره إلى يوم القيامة فأجابه الله بالنظره إلى يوم الوقت المعلوم ليتم تمحيص العباد، أو بعبارة أخرى فكما أنّ وجود الشهوات المركبة في الإنسان البشرية ومقاومة العقل والإيمان تجاه القوى المخالفة إنّما تضاعف قدرة الإنسان في مسار الطاعة لله؛ فإنّ الوسوس الشيطانية الخارجية ومجابتها من قبل الإنسان إنّما تقوده إلى السمو والتكامل؛ وذلك لأن وجود العدو إنّما يشكل العامل الذي يقف وراء حركة الإنسان وقوته وتطوره وتكامله. إلّا أنّ هذا لايعنى أنّ للشيطان نفوذ إجباري في الإنسان، بل الإنسان هو الذي يمهّد لهذا النفوذ، فقد صرّح القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ» [٥٩٣]، وقال في موضع آخر «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» [٥٩٤] كما صرّحت إحدى الآيات القرآنية على لسان الشيطان أنّه قال: «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوْأ أَنفُسُكُمْ» [٥٩٥]

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٠٥

الجدير بالذكر أنّ الله سبحانه قد خلق جنودا للقضاء على وسوس الشيطان ومخططاته، ومنها العقل والفطرة والأنبياء والملائكة التي تتولى حفظ المؤمنين وطرده الوسوس الشيطانية عنهم. فكل من سار على درب هذه الجنود حظى بدعمها وإسنادها وأبعد عنه وسوس الشيطان، ومن سار على درب الشياطين وأقام على العناد واللجاجه رفعوا أيديهم عنه. القضية الأخرى الجديرة بالاهتمام هي أنّ الشيطان يسعى للنفوذ في أعماق النفس البشرية ليؤثر من هناك على أعماله، كما اشير لهذا في الخطبة المذكورة وكأنه باض وفرخ في الصدور فتكاملت الفروخ شياطين إتحدت معه حتى عاد نظره وسمعه وقوله ويده ورجله شيطانياً.

وقد ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام في غرر الحكم أنّه قال:

«احذروا عدوا نفذ في الصدور خفياً ونفت في الاذان نجياً»

كما ورد شبيه هذا المعنى - مع فارق طفيف - في الخطبة ٨٣ من نهج البلاغه. كما قال عليه السلام في الخطبة ١٢١ من نهج البلاغه:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْنِي لَكُمْ طَرَقَهُ وَيُرِيدُ أَنْ يَحِلَّ لَكُمْ دِينَكُمْ عَقْدَةً عَقْدَةً»

. على كل حال فان الغرض من الخطبة هو تحذير الإنسان من عدوره اللدود الشيطان الذي تعود جذور عداته منذ خلق آدم عليه السلام. وضرورة التوكل على الله والاتكاء على العقل والفطرة والوجدان والاستضاءه بارشادات الأنبياء وتعاليمهم والاستمداد من الملائكة بغية حفظ الإنسان لنفسه من وسوس الشيطان.

وأخيراً فالنقطة التي أرى ضرورة التعرض لها وعلى ضوء صريح بعض الآيات القرآنية أنّ الشياطين ليست منحصرة بابليس وجنوده

السريرين، بل هناك مجموعة من الانس التي تشملها الشياطين، فأعمالهم هي أعمال الشياطين بعينها «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» [٥٩٦].

نعم لا بد من الحذار من وساوسهم.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٠٧

الخطبة الثامنة

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

يعنى به الزبير في حال إقتضت ذلك ويدعوه في الدخول في البيعة، ثانياً.

نظرة إلى الخطبة

دخل الزبير وطلحة على علي عليه السلام، فاستأذناه في العمرة، فقال: ما العمرة تريدان، فحلفا له بالله أنهما ما يريدان غير العمرة، فقال لهما: ما العمرة تريدان، وإتما تريدان الغدرة ونكث البيعة، فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث بيعه يريدان، وما رأيهما غير العمرة. قال لهما: فأعيدا البيعة لي ثانية، فأعادها بأشد ما يكون من الإيمان والمواثيق، فأذن لهما، فلما خرجا من عنده، قال لمن كان حاضراً: والله لا ترونها إلفي فتنه يقتتلان فيها. قالوا: يا أمير المؤمنين، فمر بردهما عليك، قال: ليقضى الله أمراً كان مفعولاً. [٥٩٧] أما الزبير فقد حاول أن يتذرع بما يبرر له نكث البيعة، ويقول ليس لعلي في عنقي بيعه حيث بايعته مكرها. فالقى الإمام عليه السلام هذه الخطبة (جدير بالذكر أن البعض قد نسب هذا الكلام للإمام الحسن عليه السلام وقد القاها بأمر من أبيه في يوم الجمل بعد خطبة عبدالله بن الزبير، لكن لا يستبعد أن يكون الإمام عليه السلام قد أورده مسبقاً رداً على إدعاءات الزبير ثم استشهد بها الإمام الحسن عليه السلام في الجمل. [٥٩٨])

«يزعم أنه قد بايع بيده، ولم يبايع بقلبه، فقد أقر بالبيعة، وادعى الوليعة، فليأت عليها بأمر يعرف، وإلا فليدخل فيما خرج منه».

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٠٨

الشرح والتفسير

عذر أقبح من ذنب

كما أوردنا آنفاً فإن الإمام عليه السلام ألقى هذه الخطبة كرد على الزبير الذي حاول تبرير نكثه للبيعة بأنه بايع مكرها بيده دون قلبه؛ لأن معاوية بعث له بكتاب قال فيه: أما بعد، فأتى قد بايعت لك أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا، كما يستوسق الجلب فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب فانه لاشيء بعد هذين المصرين. [٥٩٩]

فما كان من طلحة والزبير الذين كانا يطمعان بالمناصب إلا أن نكثا بيعتهما للإمام علي عليه السلام.

أمّا الإمام عليه السلام فقد رد على زعم الزبير رداً حقوقياً يحظى بكافة التبعات المتعارفة اليوم في القوانين القضائية، فقد قال عليه السلام:

«يزعم أنه قد بايع بيده ولم يبايع بقلبه، فقد أقر بالبيعة، وادعى الوليعة» [٦٠٠]

فالواقع أن كلامه مركب من إقرار وإدعاء، فأقراره مسموع ومقبول، أما إدعاءه فيحتاج إلى إقامة دليل. ولذلك طالبه الإمام عليه السلام

باقامة الدليل (ليثبت أن بيعته قد حصلت من خلال الاكراه) وإلّا وجب عليه الالتزام بلوازم البيعة: « فليأت عليها بأمر يعرف، وإلّا فليدخل فيما خرج منه

« لقد رأى أغلب الناس الزبير وطلحة قد دخلا على الإمام عليه السلام وبايعاه طائعين؛ فقد كانا من أوائل من بايعه في المسجد، فاليبعة ملزمة، ومن ادعى خلاف ذلك عليه أن يأتي بالدليل، أضف إلى ذلك فالكل يعلم بعدم وجود الاكراه والإجبار في بيعه على عليه السلام، فقد كان هنالك من لم يبايع، ولم يضطروهم الإمام عليه السلام إلى البيعة، وعليه فليس هنالك من مبرر لنكث البيعة. وكما ذكرنا سابقاً فإن هذا من الاصول الأساسية في كافة المحافل الحقوقية والقضائية، في أنّ من أبرم عقداً رغباً بالظاهر فقد وجب عليه الالتزام به ولا يقبل منه إدعاء الاكراه الاجبار وعدم تأييد القلب لما فعله باليد، وإلّا لأمكن لكل واحد أن يقوض ما أبرمه بهذه الذريعة. فالمشترى والبائع والزوج والواقف و... إذا أبرم عقداً ولم يرى فيه من مصلحة لاحقا أمكنه أن يدعى بأنه أبرمه لساناً ولم يكن قلباً موافقاً عليه. وإذا كان الأمر

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٠٩

كذلك فقد عرضت كافة النظم والعقود والمواثيق الفردية والدولية للتصدع والانهار وهذا مالا يقره عقل أو منطق؛ والحق أنّ الزبير كان يعلم جيدا بهذا الأمر إلاّ أنه استهدف تضليل الرأي العام الذي قد يسأله لم نكث البيعة؟ جدير بالذكر أنّ كل هذا نابع من كون العرب آنذاك كانت تولى البيعة أهمية فائقة ولم تكن تتساهل في نقضها وعدم الالتزام بها، وترى ذلك خطيئة كبيرة.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣١١

الخطبة التاسعة

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

فِي صِفَتِهِ وَصِفَةِ خُصُومِهِ وَيُقَالُ إِنَّهَا فِي أَصْحَابِ الْجَمَلِ

«وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفَشْلُ وَلَسْنَا نُرْعَدُ حَتَّى نُوقِعَ وَلَا نُسِيلُ حَتَّى نُمَطِّرَ». [٦٠١]

الشرح والتفسير

ضجة فارغة

يستفاد من كلامه عليه السلام أنه أوردته بعد انتهاء معركة الجمل كإشارة للضجة الفارغة التي إفتعلها طلحة والزبير ورهطهما في بداية موقعه الجمل، غير أنه لم يجدهم نفعا حيث هزم «طلحة والزبير» شر هزيمة حتى قتلا. فقد قال عليه السلام: «وقد ارعدوا وابرقوا، ومع هذين الأمرين الفشل».

فهو تشبيه رائع بالسحب التي تتخللها ظاهرة الرعد والبرق كإشارة للناس بالأمطار التي تجلب عليهم الخير والبركة، إلاّ أنّها سرعان ما تتبدد دون أن تحمل قطرة من المطر. ثم قال عليه السلام:

«ولسنا نرعد حتى نوقع، ولانسيل حتى نمطر»

يريد عليه السلام أننا لن نرعد

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣١٢

ونزید مالم نسدد ضربات موجعة إلى العدو، ولسنا من أهل الضجيج حتى نقتحم الميدان ونقهر الخصم. فالواقع هو أن العبارتين رغم قصرهما تشيران إلى مدرستين لكل منهما أسسهما في الأنشطة الاجتماعية والعسكرية والسياسية؛ مدرسة تتبنى الكلام والضجيج حين ترد الميدان؛ إلا أنها لاتستبطن سوى الضعف والعجز والفشل حين العمل. أما المدرسة الأخرى فهي المعروفة بالسلوك والعمل، قليل كلامها كثير عملها. هي مدرسة صامتة هادئة إلا أنها بطله بأسله في الميدان وبالطبع فإن الأنبياء والأولياء وأتباع الحق ينتمون للمدرسة الثانية، بينما ينتمي أتباع الباطل وجنود الشيطان إلى المدرسة الأولى

وهنا نقطة مهمّة يجب الالتفات إليها وهي أن الرعد والبرق قبل المطر ثم يأتي السيل، غير أن هناك البعض الذي يردد ويرق دون المطر، والأسوأ من ذلك البعض الآخر الذي يتوعد بالسيول رغم إنعدام قطرة مطر، أي أنهم يتشدقون بالنصر والغلبة والنجاح حتى بعد الهزائم المنكرة التي يمنون بها، فالطائفة الأولى كاذبة في مزاعمها وإدعاءاتها، أما الثانية باطلة عديمة الحياء. فالذي تفيده بعض الروايات أن الإمام على عليه السلام بعث برسله يدعون إلى الالتزام بالبيعة وعدم شق الصف الإسلامي والعودة إلى إحضان الحكومة الإسلامية، فعادوا يحملون رسائل الحرب حيث تضمنت رسائلهم التهديد بشن الحرب، فرد الإمام عليه السلام ذلك الرد الحاسم «فإن أبوا أعطيتهم حد السيف وكفى به شافياً من الباطل، وناصروا للحق! ومن العجب بعثهم إلى أن ابرز للطعان وأن أصبر للجلاذ، هبلتهم الهبول، لقد كنت وما اهدد بالحرب، ولا ارهب بالضرب، وإنى لعلى يقين من ربّي، وغير شبهة من ديني» [٦٠٢].

تأملان

١- رجل العمل

ما تضمنه كلامه عليه السلام - كما أشرنا سابقاً - بعض الصفات البارزة لأساليب الإدارة لأولياء الله، فهم ليسوا من أهل الكلام والضجيج، بل بالعكس كلامهم العمل والتنفيذ. وقد تجسد

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣١٣

نموذج ذلك في معركة بدر حين ذهل أبو سفيان للنفر القليل الذي كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله فبعث عمير ليرى هل هناك من جند خلف الميدان، فعاد إلى أبي سفيان وقال له:

«مالهم من كمين ولا مدد ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت النافع أتمياً ترونهم خرساً لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعي، مالهم ملجأ إلا سيوفهم، ما أراهم يولون حتى يقتلوا ولا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم فار تآوا رأيكم. فقال له أبو جهل: كذبت وجبت» [٦٠٣]

بالتالي أتبتت موقعة بدر أن الحق ماذهب إليه عمير لا ما قاله أبو جهل. وبالطبع فليس هناك من منافاة بين هذا الكلام والاستفادة من الأساليب النفسية في ميدان الحرب والرجز وممارسة الحماس وامطار العدو بوابل التبليغات وزرع الرعب في صفوفه. فالمشكلة إنما تكمن في خلاصة كل شيء في الكلام والتهديد والوعيد. فالعمل هو الأساس والمحور والكلام ترجمة لذلك العمل. فنموذج الفريق الأول طلحة والزبير ورهطهما، ونموذج الفريق الثاني على عليه السلام وأتباعه. فقد وردت عبارات واضحة للإمام عليه السلام - في الخطبة ١٢٤ من نهج البلاغة - بهذا الشأن، ففي الوقت الذي يحث أتباعه وجنده على الثبات في الميدان والشدة في الضرب يوصيهم قائلاً:

«اميتوا الاصوات فانه أطرده للفشل».

٢- الفارق بين الدعاية والاعلام الفعال

لعل الفارق بين هذين الأمرين صعب التمييز على البعض، حيث ورد النهي عن القول بلاعمل واتخاذ الصمت والهدوء كمفهوم صحيح

من جانب: ومن جانب آخر فإن الأحاديث التي تستبطن الأساليب التبليغية التي تشد قوى الحق من الناحية النفسية وتضعف معنويات العدو قد عدت من الوسائل الحربية اللازمة، إلى جانب الحث على الرجز والحماس في ميدان المعركة والذي تجسد في غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله ومعارك أمير المؤمنين على عليه السلام وسائر الأئمة المعصومين عليه السلام كالرجز الذي شهدته كربلاء، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين؟

الواقع هنالك فارق واضح بين هذين الأمرين. فالنهي إنما جاء بشأن الكلام الفارغ الذي

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣١٤

ينطوى على الرعد والبرق الكاذب والذي تصطلح عليه بالبلف حيث تفيد القرائن والشواهد بعدم وجود أى عمل خلف ذلك الكلام. ولا شك أن مثل هذا البلف والكلام الفارغ إنما هو ديدن الشيطان واتباعه من الأفراد عديمى المنطق. أما الترغيب والترهيب الذى يتبع ذلك والعمل والنشاط الذى يخرج الكلام من دائرته ليزج به فى ميدان العمل الذى ينتهجه الفريق الثانى فإنه ليس فقط غير مذموم فحسب، بل إنما يأتى فى نطاق الحرب النفسىة التى تفعل فعلها فى الواقع. وبالطبع فان التذكير بهذه النقطة ضرورى وهى أن الانهماك بالرجز والخطابة أثناء المعركة إنما يشغل قسما من طاقات الإنسان ويحد من الأثر المطلوب لصولاته وحملاته، ومن هنا ورد النهى عن ذلك.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣١٥

الخطبة العاشرة

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
يريد الشيطان أو يكنى به عن قوم

نظرة إلى الخطبة

تشير هذه الخطبة إلى موقعة الجمل والحوادث الاليمه التى تخلفتها؛ حيث يصف الإمام عليه السلام اعوان طلحة والزبير بانهم جنود الشيطان، ثم يشير إلى خصائصه فى الميدان، كما يتطرق إلى تبيين خطته المستقبلية بهذا الشأن فى عبارات قصيرة وقارعة مشوبة بتوعد العدو مع تكهن بما ستؤول إليه هذه المعركة.

«أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ وَاسْتَجَلَبَ حَيْلَهُ وَرَجَلَهُ وَإِنَّ مَعِيَ لَبِصَةٌ يَرْتَى: مَا لَبَسْتُ عَلَى نَفْسِي، وَلَا لُبْسٌ عَلَيَّ. وَإِنَّمِ اللَّهُ لَأَفْرَطَنَّ لَهُمْ حَوْضًا أَنَا مَاتِحُهُ! لَا يَصُدُّرُونَ عَنْهُ وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ.» [٦٠٤]

الشرح والتفسير

تحذير المسلمين ثانية

كما ذكرنا سابقاً فإن خطبة الإمام عليه السلام تعالج القضايا المرتبطة بموقعة الجمل، واستنادا إلى

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣١٦

العلاقة الوثيقة بين هذه الخطبة والخطبة الثانية والعشرين وأبعد من ذلك إرتباطها بالخطبة ١٧٣، والواقع هو أن هذه الخطبة قد استوعبت فى تلك الخطبة وأصبحت جزءاً منها، فلا يبقى هنالك من مجال للشك والترديد فى أن الهدف من هذه الخطبة هو الإشارة

لموقعة الجمل، وكأني بولئك الذين فسروها بالإشارة إلى موقعة صفين وأهل الشام قد أهملوا تلك العلاقة. فالمحور الأول لهذه الخطبة هو تشبيه أعوان طلحة والزبير بجنود الشيطان فقال عليه السلام: «ألا وان الشيطان قد جمع حزبه، واستجلب خيله ورجله».

و كيف لا يكونوا جنود الشيطان وقد نقضوا عهدهم مع الإمام عليه السلام وقد دفعهم الحرص على المناصب لبث بذور الفرقة والنفاق بين صفوف الأمة الإسلامية واشعال فتيل الحرب الذي أودى بحياة الكثيرين حتى احترقوا بتلك النيران. أما التعبير بالحزب فهو إشارة إلى الانسجام بين أهداف هؤلاء وأهداف الشيطان، وأما التعبير بالخيل والرجل فهو إشارة لتنوع الجنود.

القرآن الكريم من جانبه أشار إلى حزب الشيطان بقوله: «

إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ» [٦٠٥]

، ويشير في موضع آخر إلى حزبه من الراجلة والخيالة الذين يختبر بهم بنى آدم «وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ» [٦٠٦]

. ولاشك أن تتابع هذه التنبهات إنما تستهدف تحلى المؤمنين باليقظة والوعى والحدار من الوقوع فى حبال الشيطان والانضمام إلى حزبه والاتحاق بجنوده، غير أن هذا المصير المشؤوم قد طال طلحة والزبير وأعانها ومن سار على نهجها قد دفعهم حب الجاه والمنصب لأن يكون لقمه سائغة للشيطان.

ثم تناول عليه السلام المحور الثانى الذى بين فيه سماته وعمق بصيرته بما لا يجعل للشبهة والشك من سبيل إليه

«وإن معى لبصيرتى ما لبست على نفسى، ولا لبس على»

. الحق أن مصدر ضلال أى فرد إنما يمكن فى أحد ثلاث: الأول ألا يمتلك البصيرة والمعرفة اللازمة بالعمل الذى يقدم عليه، فيرد الميدان جهلاً فيتصرف بما لا يرضى الله. والثانى قد يتمتع بالمعرفة إلا أن حجب هوى النفس وحب الذات إنما تحول دون رؤيته للحق وتسوقه للخطأ والزلل، وما أكثر الأفراد الذين يعلمون ببشاعة الذنب إلا أنهم يصطنعون لأنفسهم الاعذار الناشئة من

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣١٧

وساوس النفس والدوافع الشيطانية التى تسول لأنفسهم عد تلك الذنوب من الفرائض، وكما صورهم القرآن الكريم

«وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» [٦٠٧]

. والثالث أن يمنع شياطين الجن والانس الاذن بالنفوذ إلى قلبه ويشوهوا عليه الحقيقة. ولم يكن لأى من هذه المحاور الثلاث من سبيل إلى الإمام عليه السلام؛ وذلك لأنه أوصد كافة الأبواب الباطنية والظاهرية للخطأ والانحراف بوجه الوسواس والأهواء وتحلى بتقوى وورع وبصيرة جعلته يرى الحقيقة كما هى.

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد يقول عليه السلام:

«إن معى لبصيرتى»

، أن البصيرة التى كانت معى فى زمن رسول الله صلى الله عليه وآله فى كافة الأحداث المهمة التى وقعت على عهده مازالت معى ولم تتغير. والعبارة إشارة إلى الآية الشريفة

«قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» [٦٠٨]

. بينما يرى البعض الآخر أن قوله عليه السلام:

«ما لبست على نفسى، ولا

لبس على»

هو تفسير لقوله

«و إنَّ معي لبصيرتي»
إلَّا أنَّ ما ذكر سابقاً أنسب.

الجدير بالذكر أنَّ الإمام عليه السلام قال: ما لبست على نفسي، ثم قال: ولا لبس على؛ الأمر الذي يكشف عن ترتيب طبيعي ينبغي فيه ألا- يخذع الإنسان من قبل نفسه أولًا ثم يأمن مكر الآخرين وخذاعهم. ثم خاض في المحور الثالث ليكشف عمَّا ستؤول إليه نتيجة موقعه الجمل محذرا خصومه بشدة

«و آيم ٦٠٩ [الله لأفرطن ٦١٠] لهم حوضا أنا ماتحه ٦١١] لا يصدرون عنه ولا يعودون إليه»

. والواقع هو أنَّ الإمام عليه السلام شبه ميدان القتال بالحوض الذي يريد ملأه بالماء بحيث لا يبقى معه من مجال؛ أراد عليه السلام لأملأن لهم حياض الحرب التي هي دربتي وأنا مجرب لها، ثم يشير عليه السلام إلى النتيجة التي سيؤول إليها أهل الجمل وهي لن تكون سوى القتل وإزهاق

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣١٨

الأنفس، وإن كان هنالك من سبيل إلى الفرار فإنَّ الفرار لن يعود إلى الميدان ثانية.

وهنا لابدَّ من الالتفات إلى أنَّ قوله عليه السلام: «لأفرطن» لا تعني أنَّى سأفرط في هذا السبيل، بل المراد أنَّى سأبذل قصارى جهدي لسد جميع الطرق على العدو (لابدَّ من الدقة هنا). وهذا بعينه ما جعل عائشة تعتبر من تلك المعركة ولم تشارك في المعارك اللاحقة.

تأمل: جند الشيطان

ما نستفيدة من الخطبة المذكورة أنَّ الشيطان لا يمارس وظيفته في الاغواء والاضلال لوحده؛ بل له جنوده وأعوانه والذين عبر عنهم في الخطبة بالخيالة والرجالة (خيال ورجل) كماله اتباعه وانصاره الذين عبر عنهم بالحزب، وكما ذكرنا فان القرآن هو الذي أورد هذين التعبيرين (لابدَّ من الالتفات إلى الخيال تعني أحيانا الفارس وهذا هو المراد في العبارة لأنفس الفرس). وبالطبع لا يراد بحزب الشيطان ورجالته ما يتعارف اليوم في المجتمعات المعاصرة وتشكيلات الجيوش؛ إلَّا أننا نعلم بأنَّ له مساعده من بني جنسه ومن جنس بني آدم الذين ينشطون في اغواء الناس وإضلالهم، بل حتى الأحزاب القائمة اليوم والجنود الذين أصبحوا آله بيد السلطان الظالمة والمستبدة إنَّما هي جنود الشيطان وأحزابه. فما كان من الجنود أشد وأقوى فهو من خيله وما كان أضعف وأصغر فهو من رجله. بل هناك من يرى نفسه في صفوف حزب الله وهو في زمره حزب الشيطان. اما أتباع الحق فان عليهم أن يتكلموا على الله وينضوا تحت ولايته ليكونوا مصداقا لقوله:

«اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ»

ليحظوا بعناية الله ولطفه ويفوزوا بمضمون

«إلهي لا تكن لي إلى نفسي طرفه عين أبداً»

. أمَّا شرط الوصول إلى هذا المقام فهو ما ذكره الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة، أي لابدَّ من التحلي بالبصيرة والمعرفة والحذر من خداع النفس، إلى جانب الحذر من الوقوع فريسةً لحبائل خداع الآخرين ومكرهم.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣١٩

الخطبة الحادية عشر

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
 لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل
 «تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُلُّ! عَضَّ عَلَى نَاجِدِكَ. أَعْرَبَ اللَّهُ جُمُوعَتَكَ. تَدُ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ. ازْمِ بِبَصِيرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وَعُضَّ بِبَصِيرِكَ،
 وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ».

نظرة إلى الخطبة

ما تفيده الروايات هو أن أمير المؤمنين على عليه السلام كان شديد الحرص على عدم نشوب معركة الجمل بغية الحيلولة دون سفك دماء المسلمين، كما ورد أنه سلم الراية يوم الجمل ابنه محمد بن الحنفية، فاستغل الفرصة من الصباح حتى الظهر ليدعوهم إلى الصلح والصلاح والالتزام بالبيعة، ثم خاطب عائشة قائلاً: اتق الله وعود إلى بيتك فقد أمركن الله سبحانه «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ»

. ثم التفت إلى طلحة والزبير وقال لهم: صنتم نسائكم وبرزتم زوج رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم خرجتم تطالبون بدم عثمان بعد أن آلت الخلافة إلى الشورى (وقد انتخب الناس أمير المؤمنين وقد مددتما إليه يد البيعة). ثم قال للزبير أتذكر كنا نتحدث يوماً في المدينة فسألك رسول الله صلى الله عليه وآله: أتحب علي؟ فقلت: كيف لأحبه وهو قرابتي وإني لأحبه في الله. فقال لك رسول الله صلى الله عليه وآله فاعلم إنك ستقاتله وأنت له ظالم! فقلت أعوذ بالله من ذلك اليوم. ثم واصل

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٢٠

الإمام على عليه السلام نصحهم ووعظهم حتى قال اللهم إشهد أنني نصحت لهم وأمهلتهم، ثم تناول القرآن وقال من يحتاجهم بالقرآن فيقرأ عليهم الآية
 «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاضْلِحُوا بَيْنَهُمَا» [٦١٢]

وهو مقطوع يمينه وشماله ومقتول؟ فتناوله مسلم المجاشعي فاقترب من العدو وحمل القرآن بيمينه وتلى عليهم الآية، فحملوا عليه وقطعوا يمينه، فتناول القرآن بشماله فقطعوها أيضاً، فاخذ القرآن بأسنانه فقتلوه. فقال على عليه السلام: احل لي الآن قتالهم عن آخرهم.

ثم إنتفت إلى محمد بن الحنفية وخاطبه بتلك الكلمات. [٦١٣] على كل حال فان الإمام عليه السلام يسلط الضوء على الفنون القتالية المهمة والمسائل ذات الاثر من الناحية النفسية والجسدية في الجندي المسلم والتي تعده للتأهب والاستبسال في ساحة المعركة. والكلام يشتمل على سبع جمل: تضمنت الجملة الاولى الأوامر الكلية بشأن المقاومة والصمود في ميدان الحرب، بينما أشارت الجملة الخمس الاخرى إلى الجزئيات والامور التي تلعب دوراً في الصمود وتحقيق النصر. أمّا الجملة السابعة والأخيرة فهي تؤكد على الإتكال على الله وأن النصر من عنده سبحانه ليتمكن من خلال ذلك وبقوة الإيمان تحمل المشاق والصعاب والتحدى بالروحية العالية من أجل الصمود أمام العدو ومقاتلته.

الشرح والتفسير

كن كالجبل

كما اشرنا سابقاً فإنّ الخطبة تعالج مجريات موقعة الجمل حيث أعطى الإمام عليه السلام الراية ولده الشجاع محمد بن الحنفية، وقد أوصاه عدّة وصايا مهمّة بشأن القتال وتحقيق النصر منها:
أنّه قال:

«تزل الجبال ولا تزل» [٦١٤]

. فالواقع إنّ أهم مسألة في ميدان القتال هي الاستقامة والصمود التي لا يمكن تحقيق النصر بدونها، وهذا ما أكده الإمام عليه السلام في بداية الأمر. ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة لمضمون الرواية المعروفة «المؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٢١

العواصف» كما ورد عن النبي الاكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«المؤمن أشد في دينه من الجبال الراسية وذلك أنّ الجبل قد ينحت منه والمؤمن لا يقدر أحد على أن ينحت من دينه شيئاً» [٦١٥]
، ثم تناول عليه السلام ما من شأنه أن يؤثر في مسيرة المعركة فقال:
«عض على ناجذك»

. فالناجذ قد يعنى أقصى الضرس، كما فسّر بسن العقل، وقيل بل جميع الإنسان. وقيل أنّ العض على النواجذ يتضمن فائدتين: الاولى أنّه يزيل الخوف والقلق والاضطراب ومن هنا يعرض الإنسان على أسنانه في مواطن الخوف ليهدأ وتسكن فورته، والثانية أنّهم ذكروا أنّ العاض على نواجذه ينمو السيف عن دماغه، لأنّ عظام الرأس تشتد وتصلب؛ وقد جاء في كلامه عليه السلام هذا مشروحاً في موضع آخر وهو قوله عليه السلام:

«وعضوا على النواجذ، فإنّه أنبى للصوارم عن الهام» [٦١٦]

. أمّا في الجملة الثالثة فقد قال عليه السلام:

«أعر الله جمجمتك»

تعنى إستعد للتضحية والفداء والشهادة في سبيل الله فان هذا الاستعداد أساس الشجاعة والاستبسال. هذا وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغة أنّ في العبارة إشعار له أنّه لا يقتل في تلك الحرب، لأنّ العارئة مردودة، ولو قال له: بع الله جمجمتك، لكان ذلك إشعار له بالشهادة. ثم قال عليه السلام في الجملة الرابعة:
«تد في الأرض قدمك»

. في إشارة واضحة إلى الثبات في المعركة ورباطة الجأش في مقابل العدو وعدم التفكير قط بالانسحاب أو الفرار من الميدان؛ الأمر الذي أوصى به القرآن الكريم المؤمنين من قبل:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا» [٦١٧]. ولعل الفارق بين هذه العبارة والعبارة الاولى هو أنّ الجملة الاولى تحدثت عن عدم التزلزل في الفكر والمعنويات بينما أشارت العبارة الأخيرة إلى عدم التزلزل الظاهري والبدني وعدم الانسحاب والتراجع وفي الجملة الخامسة قال عليه السلام:

«ارم ببصرك أقصى القوم»

فمثل هذه النظرة تجعله يحيط بالميدان والعدو والسيطرة على حركة الجنود بحيث يتعرف على نقاط الضعف والقوة فيصيب في الدفاع والهجوم والكر والفر. ثم قال عليه السلام:

«و غض بصرك».

ليس هنالك من تناقض بين قوله «ارم ببصرك» قوله «غض بصرك» وذلك لأنه في الاولى أمره أن يفتح عينه ويرفع طرفه، ويحذر إلى أقصى القوم

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٢٢

ببصره، فعل الشجاع المقدم غير المكترث ولا المبالي، لأن الجبان تضعف نفسه ويخفق قلبه فيقصر بصره ولا يرتفع طرفه ولا يمتد عنقه، ويكون ناكس الرأس، غضيض الطرف. وفي الثانية أمره أن يغض بصره عن بريق سيوفهم ولمعان دروعهم، لئلا يبرق بصره ويدهش ويستشعر خوفاً. والشاهد على ذلك ما أورده عليه السلام في موضع آخر من نهج البلاغة بهذا الشأن إذ قال:

«و غضوا الأبصار فانه أربط للجأش واسكن للقلوب» [٦١٨]

. أمّا في الجملة السابعة والأخيرة فقد أشار عليه السلام إلى نقطة مهمّة وأساسية تنطوي على أبعاد روحية معنوية تطمئن النفوس وتحدوها بالتطلع إلى الله
«و اعلم أن النصر من عند الله سبحانه»

فالنصر لا يستند إلى الأسباب والمقدمات الظاهرية، بل المهم إرادة الله سبحانه ونصره، فتوكل على الله وثق به واسأله الغلبة فهو القادر على كل شيء وهو الرحمن الرحيم بعباده المؤمنين المجاهدين «وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [٦١٩]. والطريف في الأمر أن القرآن الكريم تحدث عن نصره الملائكة إلّا أنه حث المؤمنين بالتضرع إلى الله بنزول النصر لا الملائكة
«بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وما جعله الله إلا- بشرى لكم وتطمئن قلوبكم به وما النصر إلّا من عند الله العزيز الحكيم».

تأملان

١- محمد بن الحنفية ونسبه وبعض أخباره

هو أحد أبناء أمير المؤمنين على عليه السلام و «حنفية» لقب أمه واسمها خولة بنت أحد أشرف قبيلة «بنى حنيفة» وقد اسرت في أحد المعارك الإسلامية وأرادوا بيعها، فأعتقها عليه السلام وتزوجها. ورث محمد الشجاعة من على عليه السلام وقيل كان يشق الدرع بيده لقوته. ومن هنا سلمه عليه السلام الراية يوم الجمل، كما أسند إليه مع محمد بن أبي بكر وهاشم المرقال ميسرة جيشه في صفين. وكان شديد التواضع للحسن والحسين عليهما السلام.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٢٣

دفع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل رايته إلى محمد ابنه عليه السلام، وقد استوت الصفوف، وقال له:
احمل، فتوقّف قليلاً، فقال له: احمل، فقال يا أمير المؤمنين، أما ترى السّهام كأنّها شايبُ المطر! فدفع في صدره، فقال: أدركك عزق من أمك، ثم حمل وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصره. قيل لمحمد لِمَ يُغزّرُ بك أبوك في الحرب ولا يغزّر بالحسن والحسين عليهما السلام؟

فقال: إنّهما عيناها وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيّه بيمينه.

إتهم البعض محمد بن الحنفية بأنه إدعى الإمامة بعد الإمام الحسين عليه السلام، بل قيل إدعى المهديّة، إلا أن الشيخ المفيد أبطل ذلك وقال لم يدع الإمامة (بل نسب الآخرون ذلك إليه وهم من إدعى الإمامة والمهديّة من الكيسانية. توفي بن الحنفية عام ٨١هـ-
و اختلف في محل دفنه، فقيل توفي في الطائف ودفن فيها. وقيل في البقيع، كما قيل في الجبل الرضوى قرب المدينة.

أمّا إحد الشواهد الحية على رفعة مكانته وعلو منزلته فهو أنّ الإمام الحسين عليه السلام حين أراد الخروج من المدينة إلى مكة جعله خليفته ووصيه في المدينة ليطلعه على الأخبار، كما أودعه وصيته طبق لنقل أرباب المقاتل.

٢- الشرط المهم في النصر على الأعداء

تفيد الآيات القرآنية والروايات الإسلامية أنّ العنصر الرئيسي الذي يقف وراء النصر والغلبة إنّما يكمن في الصبر والمقاومة والثبات. فالقرآن يصف الفئة القليلة الصابرة بأنها هي المنتصرة في مقابل الفئة المعادية الكثيرة العدد والعدة: «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» [٦٢٠]. كما ورد تأكيد عليه السلام على الصبر في سائر خطبه في نهج البلاغة ومن ذلك قوله عليه السلام: «و عليكم بالصبر فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ولا خير في جسد لا رأس معه ولا في إيمان لا صبر معه» [٦٢١].

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٢٤

وهو المعنى الذي ورد التأكيد عليه كرارا في الخطبة التي نحن بصدددها، فقد قال عليه السلام كإشارة لمواطن الصبر «تزول الجبال ولا تزول» وقال: «تد في الأرض قدمك»، وهكذا سائر عباراته من قبيل العز على النواجذ واعارة الله الجمجمة والإيمان بأن النصر والغلبة من الله سبحانه، حيث من شأن كل هذه الامور أن تلهم الإنسان الصمود والثبات والمقاومة التي تستبطن النصر، وهذا بعينه ما جعل المسلمين ينتصرون على خصومهم حتى في المعارك التي لم تكن متكافئة، وهذا ما ينبغي أن يؤمن به ويستشعره جيلنا الإسلامي الجديد ليحقق الانتصارات الباهرة على الأعداء.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٢٥

الخطبة الثانية عشرة

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

لما أظفره الله بأصحاب الجمل وَقَدْ قَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: وَدِدْتُ أَنْ أَخِي فَلَانًا كَانَ شَاهِدَنَا لِيَرَى مَا نَصَرَكَ اللَّهُ بِهِ عَلَيَّ أَعْدَائِكَ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَهُ أَهْوَى أَخِيكَ مَعَنَا؟ فَقَالَ:

نَعَمْ. قَالَ فَقَدْ شَهِدْنَا، وَلَقَدْ شَهِدْنَا فِي عَسِيكِرِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، سَيَزَعُفُ بِهِمُ الزَّمَانُ وَيَقْشُرُ بِهِمُ الْإِيمَانَ». [٦٢٢]

نظرة إلى الخطبة

يتضح ممّا قاله السيد الرضى بشأن الخطبة أنّها متعلقة باحداث الجمل والنصر المبين الذي حققه الإمام عليه السلام حيث إلتفت إليه أحد أصحابه وكان شديد الحب لأخيه فقال له: ليت أخى كان معنا ليشهد ما نحن فيه من النصر والغلبة على هؤلاء البغاة. فورد الإمام عليه السلام هذه الكلمات الرائعة ليطمئنه بالحضور المعنوي لأخيه وكل من سار على نهجه عليه السلام من حماة العقيدة، فالإسلام يرى الرابطة الدينية تفوق كافة الروابط العرقية والسياسية والاقتصادية وما إلى ذلك. فقد تظافت الروايات الإسلامية التي صرحت بأن من أحبّ عمل قوم حشر فيه معهم

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٢٦

و الراضى بفعل قوم كالدخل فيه معهم. وبعبارة اخرى فان الإمام عليه السلام أشار في هذه الخطبة إلى أنّه قد شهد في عسكره وشركه في نصره كافة الأفراد الذين يقيمون اليوم في كافة أصقاع العالم والذين لم يشهدوا- لأسباب- ميادين القتال إلّا أنّهم وبسبب تعاطفهم العقائدى وكذلك الأفراد الذين مازالوا نطف في أصلاب الرجال وقرارات الفساد.

الشرح والتفسير

اللحمة العقائدية

يتضح ممّا مر معنا أنّ الإمام عليه السلام اورد هذا الكلام في إطار ردّه على أحد أصحابه الذي أعرب عن تمنيه في أن يكون أخيه قد حضر معه في تلك المعركة ويشهد النصر المؤزر الذي من الله به على جيش الإمام عليه السلام فالتفت إليه الإمام عليه السلام: «فقال له: أهوى أخيك معنا؟»

«فقال:

نعم»، فرد عليه الإمام عليه السلام:

«فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في اصلاب الرجال وارجام النساء، سيرعف بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان». [٦٢٣]

أجل من كان على عقيدتنا أينما كان فهو معنا وإن لم يكتب لهم الله الحضور الفعلي في الميدان. أمّا قوله عليه السلام سيرعف بهم الزمان فهي إشارة إلى أنّ الدم وان جرى مستتراً في عروق الإنسان إلّا أنّه يظهر في أية لحظة وينتشر بكل سهولة، فهؤلاء مستترون في باطن هذا العالم إلّا أنّهم سيظهرون تدريجياً طبق التصنيف الزماني الإلهي ومن خصائصهم «و يقوى بهم الإيمان» فهم يتحركون باتجاه الحق؛ الأمر الذي يسهم في تقوية أواصر الدين والإيمان. هذا وقد كثر الكلام بين سراح نهج البلاغة بشأن طريقة هذا الشهود والحضور للغائبين فهل هو حضور روحى؟

أى هل أرواحهم حاضرة في ذلك المكان قبل أن تخلق الأبدان، أم هو حضور بالقوة؟ أى هم حاضرون وان غابوا عن الميدان ظاهرياً؟ يبدو أنّ مراد الإمام عليه السلام بهذا الحضور هو شركتهم في الثواب والحسنات والنتائج؛ أى أنّ هؤلاء الذين قلوبهم معنا وهم على خطتنا وحركتنا (حزب الله) فهم شركاءنا في الأجر والثواب، وعليه فلهم حضورهم الروحي الفعلي في كافة ميادين صراع الحق ضد الباطل. فالواقع هو أنّ المسار واحد والحركة واحدة والجميع كتلة

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٢٧

واحدة إن تعانت عقائدهم وأهدافهم وليس للزمان أن يفصل بعضهم عن البعض الآخر.

وهذا يصدق أيضاً على خط الباطل، فالكل سائر على طريق الشيطان ويحمل نفس العقائد الفاسدة ويعيش حالة الظلم والعدوان ومقارفة الذنوب والمعاصي فالمتأخر شريك للمتقدم في الجزاء والعقاب.

تأمل: الرابطة الحق

ما ورد في الخطبة يكشف عن حقيقة معنوية ليس للمعادلات الدنيوية المادية من سبيل إلى الوقوف على كنهها والاحاطة بها. فالإمام عليه السلام يرى أنّ أهم رابطة تحكم المؤمنين هي رابطة الدين والعقيدة التي لاتضاهيها رابطة (من قبيل رابطة الدم والجنس واللون والعرق واللغة والحزب والطائفة والقبيلة وما إلى ذلك) فهي أروع وأقوى وأعظم، ومن شأن هذه الرابطة أن تشمل كافة الأزمنة والأمكنة وجميع أفراد البشر في الماضي والحاضر والمستقبل ليصهرها في بوتقة الهية واحدة. فقد قال عليه السلام «لقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وارجام النساء، سيرعف بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان» فالمعركة ليست صراع شخصي من أجل السيطرة، بل هي معركة بين الحق والباطل، وهما صفان متقابلان خالدان حتى ينفخ في الصور، وأنّ المؤمنين سيهبون لمجابهة الباطل والذود عن الحق مازالت هنالك آثار للباطل، وكل من كان على الحق فهو شريك في كل ما يترتب على هذه المجابهة من أجر وثواب. والدليل واضح على ذلك حيث الحقيقة واحدة لاينشد أتباع الحق سواها فهم يتحركون بهذا الاتجاه ويشهرون سيوفهم من أجل تحقيق هذا الهدف. وعلى أساس هذا الاصل الأساسي تكون قد حلت أكثر المسائل الواردة في القرآن

والأحاديث والتي قد تبدو مستغربة للبعض. فقد صرح القرآن الكريم بشأن قوم ثمود قائلاً: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا» [٦٢٤]. بينما صرحت التواريخ أن الذي عقر الناقة كان واحداً منهم، في حين نسب الله العقر للجميع بفعل تضامهم العقائدي معه فشمّلوا جميعاً بالعذاب. وهذا هو

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٢٨

المفهوم الذي أوضحه الإمام عليه السلام بقوله:

«أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد منهم فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا» [٦٢٥]
وقوله عليه السلام:

«الراضى بفعل قوم كالدخل فيه معهم وعلى كل راض بالاثم ذنبان؛ ذنب الرضى به وذنب العمل به».

وورد في زيارة الأربعين لجابر بن عبد الله الانصارى أنه انكب على قبر الحسين عليه السلام وجعل يزوره بهذه العبارة: «أشهد أنك أقمّت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف نهيت عن المنكر وجاهدت في الله حق جهاده حتى أتاك اليقين، والذي بعث محمداً بالحق لقد شاركنكم فيما دختم فيه» فلما سمعه صاحبه عطية تعجب من قوله قائلاً: كيف ذاك ولم نهيط وادياً وقد قاتل القوم دون الحسين عليه السلام فطاحت رؤوسهم وترملت نسائهم ويطمت أولادهم فقال جابر: سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من أحبّ قومًا حشر معهم ومن أحبّ عمل قوم اشرك في عملهم، أمّا والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالنبوة لنتنا نية الحسين عليه السلام وأصحابه» [٦٢٦] القرآن من جانبه خاطب كراراً يهود المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ووبخهم على الأعمال التي أتى به أصحابهم على عهد نبي الله موسى عليه السلام؛ بينما كانت هنالك عدّة قرون بين القومين، فجعلهم القرآن كأولئك لانتهاجهم مسيرتهم ورضاهم بأعمالهم، ومن ذلك قوله «قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ» [٦٢٧]. وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام في ذيل هذه الآية أن الله اعتبر هؤلاء - ممن عاصر النبي صلى الله عليه وآله من اليهود - قتل الأنبياء السابقين رغم عدم ارتكابهم لجريمة القتل ولكن حيث كانوا على عقيدة أولئك القتل وراضين بفعلهم فقد عدّهم قتلهم [٦٢٨]. وقد روى المحدث الكبير عدّة روايات في المجلد الحادى عشر من وسائل الشيعة بهذا المضمون في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. [٦٢٩]

ومن شأن هذا اللون من التفكير أن يفتح أمامنا آفاقاً واسعة ويجعلنا نقف على مضمون الآيات والروايات ويساعدنا في سلوك طريق الحق.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٢٩

الخطبة الثالثة عشرة

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

في ذم أهل البصرة بعد وقعة الجمل.

«كُنتُمْ جُنْدَ الْمُرَاةِ، وَأَتْبَاعَ الْبُهَيْمِيَّةِ؛ رَغَا فَأَجَبْتُمْ، وَعَقِرَ فَهَرَبْتُمْ. أَخْلَاقُكُمْ دِقَاقٌ، وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ، وَدِينُكُمْ نِفَاقٌ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ، وَالْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُزْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ، وَالشَّاحِصُ عَنْكُمْ مُتَدَارِكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ. كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجَوْجُو سَيْفِيْنِهِ قَدْ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا، وَغَرِقَ مَنْ فِي ضِمْنِهَا». [٦٣٠]

نظرة إلى الخطبة

الخطبة كبعض الخطب السابقة واللاحقة واردة بشأن موقعة الجمل، وقد ذم الإمام على عليه السلام أهل البصرة الذين أسلسلوا قيادهم لطلحة والزبير وفرقوا صفوف المسلمين، ثم توعدهم بعذاب الله سبحانه، ليعتبر من إعتبر فلا يقارف أعمالهم.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٣٠

الشرح والتفسير

خصائص أهل الجمل

لقد أشار عليه السلام في هذه الخطبة إلى الصفات الذميمة التي إتصف بها مؤججى البصرة ليجمعها في سبع صفات. فقد قال عليه السلام في البداية

«كنتم جند المرأة»

. صحيح أن مؤججى نار الجمل هما طلحة والزبير، كما تشير الشواهد التاريخية إلى الدور المشبوه الذى لعبه معاوية في هذا الشأن، ولكن الذى لاشك فيه أن حضور عائشة وكونها زوج النبي صلى الله عليه وآله كان الدافع الأعظم الذى ساق الناس لقتال الإمام عليه السلام والانخراط فى صفوف أصحاب الجمل، ولا سيما أن كنيته بأى المؤمنين كان له أبلغ الأثر فى نخوة الناس للدفاع عن امهم، ومن هنا خاطب الإمام عليه السلام أهل البصرة.

بجند المرأة. الصفة الثانية لهم:

«و اتباع البهيمة»

، ثم يوضح عليه السلام سبب استحقاقهم لهذه الصفة إثر تحزبهم واجابتهم حين كانت ترغى وهروبهم وتشتتهم حين عقرت

«رغا» [٦٣١] فاجبتهم،

وعقر [٦٣٢] فهربتم»

. فقد صرّح بعض المؤرخين أن جمل عائشة- فى معركة الجمل- كان بمثابة راية عسكر البصرة، حيث كان الجنود يلتفون حوله ويضربون دونه حتى قتلوا كما تقتل الرجال تحت راياتها. وجاء فى بعض الروايات أن سبعين ألفاخذ أخذوا بزمام الجمل وكانوا يقتلون الواحد تلو الآخر، وكان أكثر من إلتف حول الجمل والدفاع عنه من قبيلتى بنى ضبة والأزد، لقد كانت الرؤوس تندر عن الكواهل، والايدي تطيح من المعاصم وأفتاب البطن تندلق من الاجواف وهم حول الجمل كالجراد الثابتة لاتتحلحل ولا تتزلزل، حتى لقد صرخ على عليه السلام بأعلى صوته: «ويلكم أعقروا الجمل، فانه شيطان» ثم قال: إعقروه والا فنيتم العرب.

لايزال السيف قائما وراكعا حتى يهوى هذا البصير إلى الأرض، فعمدوا له حتى عقروه فسقط و له رغاء شديد، فلما برك كانت الهزيمة. كما ورد فى بعض الروايات أن أمير المؤمنين أمر بحرق الجمل وذر رماده فى الرياح وقال: لعنه الله من دابة ما أشبهه بعجل

السامرى، ثم تلى «وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَرِفَنَّهُ ثُمَّ لَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا» [٦٣٣] والطريف فى

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٣١

موقعة الجمل أن عائشة أخذت كفا من حصى فحصبت به أصحاب الإمام عليه السلام وصاحت بأعلى صوتها: شاهت الوجوه كما صنع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر. فقال لها قائل: وما رميت إذ رميت ولكن الشيطان رمى [٦٣٤] فقد كان حصب رسول الله صلى الله عليه وآله للمشركين أحد العوامل الاعجازية التى أدت إلى إنهاء عسكر الكفر، بينما انتهت معركة الجمل بهزيمة منكرة منى بها أعداء الإمام عليه السلام. أمّا الصفة الثالثة والرابعة والخامسة فهى تعالج أوضاعهم الأخلاقية حيث قال عليه السلام: «أخلاقكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق» دقاق من مادة دقت بمعنى الدنيئة هنا، يصف بها أهل البصرة من عبدة الأهواء الذين نكثوا البيعة والتحقوا بصفوف الأعداء، أمّا نفاقهم فهو ناشئ من كون ظاهرهم هو الإسلام والدفاع عن زوج النبي صلى الله عليه وآله وباطنهم

القيام ضد الحكومة الإسلامية ووصى رسول الله صلى الله عليه وآله و التخذق فى صفوف أهل الشام. ثم أشار عليه السلام إلى صفتهم السادسة «و ماؤكم زعاق». ومن المعلوم إن مثل هذا الماء وإضافة إلى ملوحته ومرارته فإنه ينطوى على كل عناصر التلوث بسبب مجاورته لشاطئ البحر؛ فهو مضر بالنسبة لسلامة البدن، وهو يا لتالى مضر بروح الإنسان وفكره بفعل الرابطة القائمة بين الروح والبدن. وعليه فإن ذم ماؤهم هو فى الواقع نوع ذم لأخلاقهم. ثم تطرق إلى صفتهم السابعة فقال:

«و المقيم بين أظهركم [٦٣٥] مرتهن بذنبه والشاخص [٦٣٦] عنكم متدارك برحمة من ربّه»

. والعبارة إشارة إلى ما ورد فى عدّة روايات، ومنها الحديث المعروف الذى نقله المرحوم الكلينى فى الكافى عن أبى الحسن الإمام الهادى عليه السلام حين قال لأحد أصحابه ويدعى جعفر:

مالى أراك تغشى عبدالرحمن بن يعقوب (و كان منحرفاً فى عقائده)، ألا تعلم أنه ينسب الله إلى صفات المخلوقين ثم نصحه عليه السلام بتركهم ومجالسة أعدائهم أو العكس، فرد جعفر على الإمام عليه السلام

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٣٢

فليقل ما يقل فى إشارة إلى أنه لا يتفق معه فى العقيدة فلا يضره. فقال عليه السلام: «أما تخاف أن تنزل به نعمة فتصيبكم جميعاً» [٦٣٧] ومن هنا وجبت الهجرة على المسلمين فى صدر الإسلام حين عم الفساد كل شىء - ولا سيما الفساد العقائدى - ولم يسعهم القضاء عليه، بل كان يخشى تأثرهم به. وقوله عليه السلام: «مرتهن بذنبه» إشارة إلى أن الذنب يأسر الإنسان وكأنه يجعله رهينة فلا يطلقه، وهو مستوحى من قول القرآن الكريم «كل نفس بما كسبت رهينة» [٦٣٨] والذى نخلص إليه من هذه العبارة هو التأثير الذى يلعبه المحيط والوسط على أخلاق الناس، فاما يغير هذا الإنسان المحيط الفاسد والملوث أو يهجره. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى العذاب الدنيوى الذى ينتظر أهل البصرة فقال: «كانى بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها، وغرق من فى ضمنها». وأما إخباره عليه السلام أن البصرة تغرق عدا المسجد الجامع بها، «فقد رأيت من يذكر أن كتب الملاحم تدل على أن البصرة تهلك بالماء الأسود ينفجر من أرضها، فتغرق ويبقى مسجدها. والصحيح أن المخبر به قد وقع، فان البصرة غرقت مرتين، مرة فى أيام القادر بالله [٦٣٩] ومرة فى أيام القائم بأمر الله [٦٤٠] غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلا مسجدها الجامع بارزاً بعضه كجؤجؤ الطائر، حسب ما أخير به أمير المؤمنين عليه السلام، جاءها الماء من بحر فارس [٦٤١] من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة الفرس، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السنام، وخربت دورها وغرق كل ما فى ضمنها، وهلك كثير من أهلها» [٦٤٢] أخبارها تين الحادتين معروفه عند أهل البصرة يتناقله خلفهم عن سلفهم.

ثم نقل السيد الرضى آخر هذه الخطبة ثلاث روايات بشأن العبارات الواردة فى آخرها:

الرواية الاولى

«و آيم الله لتغرقن بلدتكم حتى كانى انظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعمة جائمة».

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٣٣

الرواية الثانية:

«كجؤجؤ طير فى لجة بحر».

الرواية الثالثة:

«بلادكم أنتن بلاد الله تربة: أقربها من الماء، وأبعدها من السماء، وبها تسعة أعشار الشر، المحتبس فيها بذنبه، والخارج بعفو الله. كانى أنظر إلى قريتكم هذه قد طبقتها الماء، حتى ما يرى منها الا شرف المسجد، كانه جؤجؤ طير فى لجة بحر».

لابد من الالتفات إلى عدم وجود تفاوت يذكر بين ماورد فى الخطبة المذكورة والرواية الاولى فكلاهما قد استهلقت بالقسم وتحديثنا علانية عن غرق هذه المدينة، ثم اضافت تشبيه آخر لماورد سابقاً بشأن المسجد بالقول

«و ايم الله لتغرقن بلد تكم حتى كاتى انظر إلى مسجدها كجوجو سفينه أو نعامه جائمه» [٦٤٣].

أما فى الرواية الثانية فهناك تفاوت طفيف جداً حيث استبدل تشبيه جوجو السفينه بقولها «كجوجو طير فى لجة» [٦٤٤] بحر.

بينما هنالك تفاوت كبير بين الخطبة الثالثة والخطبة الأصلية. فقد أشير فى هذه الرواية إلى ثلاث امور فى ذم أهل البصرة «بلادكم أنتن بلاد الله تربة اقربها من الماء، وأبعدها من السماء»

والصفة الثانية «و بها تسعة أعشار الشر» ولعل هذا الأمر ينبع من الخصائص الأخلاقية لناس تلك المنطقة أو بسبب كونها ميناءً يكون مركزاً لتردد مختلف الأفراد وهجوم الثقافات الأجنبية والتلوث الخلقى الذى يفرض عليها من الخارج. ولذلك كانت هذه المنطقة مسرحاً للأحداث الأليمة للقرون الإسلامية الأولى أما الصفة الثالثة فهى

«المحتبس فيها بذنبه، الخارج بعفو الله». [٦٤٥]

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى شبيه ماورد فى الروايات المذكورة بقوله:

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٣٤

«كاتى انظر إلى قريتك هذه قد طبقتها الماء، حتى ما يرى منها الاشرف [٦٤٦] المسجد، كانه جوجو طير فى لجة بحر».

ويبدو أن اختلاف العبارات يستند إلى رواة الحديث الذين قد نقلوا بعضها من حيث المعنى، أو أنهم أخطأوا فى تدوين الحديث، ويبعد الاحتمال على أن الإمام عليه السلام قد كرر هذا الكلام فى أكثر من موضع وقال فيه ما يناسبه.

تأملات

١- نبوءة النبي صلى الله عليه وآله بشأن موقعة الجمل

الجدير بالذكر أن عدة روايات صرحت بإخبار النبي صلى الله عليه وآله عن يوم الجمل وخروج عائشة وتحويله لها. ومن ذلك لما عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بغيراً أيداً يحمل هودجها، فجاءهم يعلى بن أمية ببعيره المسمى عسكراً، وكان عظيم الخلق شديداً، فلما رأته أعجبها، وأنشأ الجمال يحدثها بقوته وشده، ويقول فى أثناء كلامه: «عسكر»، فلما سمعت هذه اللفظة، واسترجعت، وقالت: ردوه لا- حاجة لى فيه، وذكرت حيث سئلت أن رسول الله صلى الله عليه وآله ذكر لها هذا الاسم، ونهاها عن ركوبه، وأمرت أن يطلب لها غيره فلم يوجد لها ما يشبهه، فعير لها بجلال غير جلاله، وقيل لها: قد أصبنا لك أعظم منه خلقاً، وأشد قوة، وأتيت به فرضيت.

وأرسلت إلى حفصة تسألها الخروج والمسير معها، فبلغ ذلك عبدالله بن عمر، فأنتى أخته فعزم عليها فأقامت وحطت الرحال بعد ما همت.

كتب الأشر من المدينة إلى عائشة وهى بمكة، أما بعد: فإنك طعينة رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أمرك أن تقرى فى بيتك، فإن فعلت فهو خير لك، فإن أبيت إلا أن تأخذى منسأتك، وتلقى جلاببك، وتبدى للناس شعيراتك، قاتلتك حتى أردك إلى بيتك، والموضع الذى يرضاه لك ربك.

فكتبت إليه فى الجواب: أما بعد، فإنك أول العرب شبّ الفتنة، ودعا إلى الفرقة وخالف

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٣٥

الأئمة، وسعى فى قتل الخليفة، وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم، وقد جاءنى كتابك، وفهمت ما فيه؛ وسيكفينك الله؛ وكل من أصبح مماثلاً لك فى ضلالك وغيبك، إن شاء الله.

وقال أبو محنف: لما انتهت عائشة في مسيرها إلى الحوآب، وهو ماء لبنى عامر بن صعصعة، نبحتها الكلاب؛ حتى نفرت صعاب إبلها، فقال قائل من أصحابها: ألا ترون، ما أكثر كلاب الحوآب، وما أشد نباحها! فأمسكت زمام بعيرها، وقالت: وإنها لكلاب الحوآب! ردوني ردوني؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول ... وذكرت الخبر، فقال لها قائل: مهلاً يرحمك الله! فقد جُزنا ماء الحوآب؛ فقالت: فهل من شاهد؟ فلقوا لها خمسين أعرابياً، جعلوا لهم جُعلاً فحلفوا لها: إن هذا ليس بماء الحوآب، فسارت لوجهها. [٦٤٧]

والعجيب أن مثل هذه الروايات كانت سبباً لتردد عائشة، بينما لم تكن كل تلك الروايات الصحاح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد روت أكثرها سبباً لتردها وإنصرافها. وهذا لعمرى من العجائب. كما يفهم من هذه الحكايات أنها سرعان ما كانت تخدع وتغير رأيها.

٢- ذم أهل البصرة

ما ورد من ذم للبصرة في الخطبة المذكورة يتعلق بعضه بتأثير المناخ وموقع المدينة وأوضاعها الاجتماعية (حيث كانت ميناء وموضعا لإستقطاب أنواع الثقافات والأفكار والأخلاق الملوثة والتي كانت هناك وما زالت في مثيلاتها) إلا أن البعض الآخر يرتبط بروحية وصفات سكتتها، والذي لا يلزم أن يكون كذلك في كل عصر ومصر، بل هو إشارة لاولئك الناس في ذلك العصر والزمان والذين كانوا يستسلمون لمحظطات طلحة والزبير القبيحة فينقضوا البيعة ويريقوا تلك الدماء. وعليه فلا منع من أن يسود تلك المنطقة الأخيار في سائر العصور. ولذلك وردت بعض الأخيار التي تقيدهم هذه المنطقة، ومن ذلك ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام حين إخباره منه ... فقراؤهم أفضل القراء وزهادهم أفضل الزهاد وعيادهم

نفحات الولاية؛ ج ١؛ ص ٣٣٥

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٣٦

أفضل العباد وتجارهم أصدق التجار ... ونساؤهم خير النساء. [٦٤٨]

فلا منافاة أبداً أن يجد قوم ويجتهدوا في طريق تهذيب النفس وتركيتها فيتطهروا من الرذائل الأخلاقية وينطلقوا صوب السمو والكمال، سيما إن كانت رذائلهم الأخلاقية من قبيل معركة الجمل وما ترتب عليها من نتائج هزتهم وأعادتهم إلى رشدهم.

٣- المحيط والاخلاق

تتضح مسألتان من عبارات الإمام عليه السلام في هذه الخطبة:

الاولى الأثر الذى بلعبه المحيط الطبيعى والجغرافى فى خلق ومزاج الإنسان، حيث قال عليه السلام:

«ماؤكم زعاق ... بلادكم اتن بلاد الله تربة أقربها من الماء وابعدها من السماء». والاخرى تأثير المحيط الاجتماعى فى أخلاق الناس: «والمقيم بين أظهركم مرتين بذنبه».

ولكن من المسلم به أن هذا التأثير يقتصر على تمهيد السبيل وتوفير الأرضية ولا يرقى لأن يكون علة تامه قط؛ ولذلك هناك الأفراد الأخيار الذين يعيشون فى هذه الأوساط. بل على العكس فهنا لك الأفراد المعروفون بالفساد والانحراف والسيره الخبيثه والشريره وهم يعيشون فى المناطق التى تتمتع بالمناخ المناسب من أجل تعالى الأخلاق وبلوره المزاج.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٣٧

الخطبة الرابعة عشرة

إشارة

ومن كلام له عليه السلام فى مثل ذلك

«أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَاءِ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، خَفَّتْ عُقُولُكُمْ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ، فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ، وَأَكْلَةٌ لِكَلِّ، وَفَرِيسَةٌ لِمَصَائِلٍ». [٦٤٩]

نظرة إلى الخطبة

هذه خطبة اخرى أوردها الإمام عليه السلام بعد الجمل ولعلها تشكل مع سابقتها خطبة واحدة ثم فصلها الشريف الرضى رحمه الله. على كل حال فإن الإمام عليه السلام يعرض بالذم ثانية لأهل البصرة ويتحدث عن خوائهم الفكرى الذى جعلهم يتحولون إلى إلعوبة بيد المنافقين من اصحاب المطامع، وأخيراً يحذرهم عليه السلام من مغبة مواصلة هذا الطريق الضال. الشرح والتفسير

ذم أهل البصرة ثانية

كما أشرنا سابقاً فإن هذا الكلام هو قسم آخر من تلك الخطبة التى أوردها الإمام عليه السلام فى ذم

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٣٨

أهل البصرة بعد موقعة الجمل حيث ضمته عليه السلام سبع صفات قبيحة إتصفوا بها. فقد وصفهم فى العبارة الاولى والثانية «أرضكم قريبة من الماء، بعيدة من السماء»

. يمكن أن تكون العبارتان إشارة إلى الجوانب المادية فى أن هذه المنطقة قريبة من ماء البحر والشط وهى بعيدة عن السماء، أو إشارة إلى الجوانب المعنوية كأن يكون المراد أن أرض قلوبكم ورغم قربها من ماء الحياة بفعل وجود الإمام، إلا أنها بعيدة عن سماء رحمة الله ومغفرته. أو أن تكون هذه العبارة وارده فى المسائل المادية والعبارة الاخرى فى المسائل المعنوية هناك نقاش وبحث بين الشراح فى هذا الشأن، غير أن ظاهر العبارة - بالالتفات إلى المعنى الحقيقى للأرض والسماء - فإن المراد المعنى الأول، فليس هنالك من خلاف فى أن أرضهم قريبة من الماء ولها المشاكل التى تنطوى عليها الحياة عند ساحل البحر، ولا سيما البصرة التى يمر بها ذلك الشط الكبير ويصب فى البحر مما يجعلها عرضة لظاهرة المد والجزر؛ أما كيفية إبتعادها عن السماء، فقد ذكر بعض شراح نهج البلاغة أن أرباب علم الهيئة وصناعة التنجيم يذكرون أن أبعد موضع فى الأرض عن السماء «الابله» وذلك موافق لقوله عليه السلام - ومعنى البعد عن السماء ها هنا هو بعد تلك الأرض المخصوصة عن دائرة معدل النهار والبقاع، والبلاد تختلف فى ذلك. وقد دلت الارصاد والآلات النجومية على أن أبعد موضع فى المعمورة عن دائرة معدل النهار هو الابله والابله هى قصبه البصرة. وهذا الموضع من خصائص أمير المؤمنين عليه السلام لأنه أخبر عن أمر لاتعرفه العرب، لاتهدى إليه، وهو مخصوص بالمدققين من الحكماء، وهذا من أسراره وغرائبه البديعة.

ولكن لا يبدو هذا الكلام مقبولاً لدى العلماء المعاصرين، لأن البصرة كسائر الموانئ العالمية المساوية لسطح ماء البحر، ونعلم أن مياه بحيرات العالم متصله مع بعضها وتقع فى مستوى واحد؛ والحال هنالك عدده مناطق على سطح الكرة الأرضية وهى أوطى من سطح البحار. لكن يحتمل ألا- تكون المقارنة بالنسبة لجميع المناطق على سطح الكرة الأرضية، بل مع بعض البلدان والمناطق الإسلامية المتعارفة آنذاك.

ثم قال عليه السلام فى العبارة الثالثة والرابعة

«خفت عقولكم، وسفهت حلومكم»

والدليل الواضح على هذا ما أورده الإمام عليه السلام في الخطب السابقة من انقيادهم السهل واستسلامهم لأهواء

نفعات الولاية، ج ١، ص: ٣٣٩

طلحة والزبير وتقديمتهم التضحيات الجسماء ذودا عن جمل عائشة وبالتالي هزيمتهم وفضيحتهم المنكرة التي جرت عليهم الندم والحسرة. عقول جمع عقل وحلوم جمع حلم، ويبدو أن (الحلم والحلم) من آثار العقل بعبارة أخرى فإنّ العقل هو القوة المدركة لدى الإنسان والفكر واعلم واجالة الرأي في الأعمال من نتائجه، ولما كانت عقول أهل البصرة خفيفة فإنّ أفكارهم كانت ضعيفة تثار بسرعة إثر الدعايات السيئة التي يمارسها ذوى الأهواء والمطامع. ومن هنا قال الإمام عليه السلام في العبارة الخامسة والسادسة والسابعة: «فأنتم غرض [٦٥٠] لنا بل [٦٥١]، واكله لأكل، وفريسة [٦٥٢] لصال [٦٥٣]».

و من البد يهى أن يقع الأفراد السذج من ذوى الأفكار السطحية الهشة لقمة سائغة في شباك صيادى الدين والإيمان والمتعطين إلى الشراء والمال والجاه والمنصب؛ ومن هنا فإنّ العنصر الذى يمكنه ضمان المجتمعات الإنسانية إزاء هؤلاء المكره المخادعين، إنّما يكمن في رفع المستوى الثقافى لدى الرأى العام وابقاف الامة على مختلف القضايا الاجتماعية والسياسية؛ الأمر الذى أكدته الإسلام، وهذا هو أحد الأهداف التى تستبطنها خطب صلاة الجمعة. فلو إستدرك أهل البصرة وعادوا إلى أنفسهم وأفكارهم وألموا بشرائط الزمان والمكان لما أصبحوا العوبة بيد طلحة والزبير الذين نقضنا بيعه الإمام عليه السلام وتظاهرا عليه وألبوا الناس على قتاله فسالت تلك الدماء وحتى إنتهى الأمر إلى قتلها. والسؤال المطروح هنا: هل هناك معنى واحد للعبارة الثلاث «فأنتم غرض لنا بل» «و اكلة لآكل» «و فريسة لصال» أم لها معانى متعددة؟ لايبعد أن تكون كل عبارة إشارة إلى جانب من جوانب المسألة. فالعبارة الاولى تبين الاستهداف من بعيد فى أنّ الساسة يسعون لرميكم بسهامكم وابقاعكم فى شباكهم ولو من بعيد. والعبارة الثالثة تبين هذا الاستهداف من قريب بينما تبين العبارة الثانية النتيجة

نفعات الولاية، ج ١، ص: ٣٤٠

النهائية لهذا الاستهداف والصيد. وهنا لابد من الالتفات إلى أنّ هذا الذم إنّما يرد بشأن اولئك الذين أصبحوا آله رخيصة بيد المنافقين، وإلاّ فالبصرة أنداك وما تبعه من أزمان قد حفلت بالأفراد الأخيار الذين أثنى عليهم الإمام عليه السلام كما ورد فى شرح الخطبة السابقة.

نفعات الولاية، ج ١، ص: ٣٤١

الخطبة الخامسة عشرة

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

فيما رده على المسلمين من قطائع [٦٥٤] عثمان

«وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِ النَّسَاءِ وَمَلِكٍ بِهِ الْإِمَاءِ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً. وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فَالْجُورُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ». [٦٥٥]

نظرة إلى الخطبة

هذه من الخطب التى أوردها الإمام عليه السلام بعد أن بايعه الناس فى المدينة حيث توعد فيها كافة الأفراد الذين تطاولوا على بيت المال إبان عهد عثمان إلى جانب بطانته وقرابته ممن حذا حذوهم، ويطالبهم باعادتها إلى بيت المال وإلاّ سيقف بوجههم بكل قوة.

وهكذا يضع الإمام عليه السلام حداً لأطماع الطامعين، ثم يختتمها بعبارات قصيرة بعيدة المعنى بشأن العدالة وقيمتها في المجتمع.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٤٢

الشرح والتفسير

القسم على إعادة الأموال المغصوبة

كما يفهم من مضمون الخطبة فإنها وردت في بداية الخلافة الظاهرية لأmir المؤمنين على عليه السلام. وقال ابن أبي الحديد إن هذه الخطبة ذكرها الكلبي مروية مرفوعة إلى أبي صالح عن ابن عباس رحمه الله أن علياً عليه السلام خطبها في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة. والحق أن هذه الكلمات كانت كالماء البارد الذي سكب على ألسنة اللهب والنار المتقدة في صدور الأمة؛ فقد سادت السكينة والهدوء لقلوب أولئك الذين كانوا يأنون من إنعدام العدالة على زمن عثمان إلى جانب أولئك الذين شعروا بها جس القلق على النظام الإسلامي وقوانينه الحقّة، فاستبشروا بعودة الإسلام الأصل والحكومة الإسلامية التي كانت تتطلع لها الفطرة الإسلامية، ولولا هذه السياسة التي أعلنها الإمام عليه السلام بهذه العبارات لما هدأت المدينة ولتكررت هجمات أبناء الأمة على دار عثمان ولسفكت الدماء واهدرت الأموال. فقد إستهل الإمام عليه السلام كلامه بالقسم بارجاع كافة الأموال التي نهبت من بيت المال مهما فعل بها

«و الله لو وجدته قد تزوج به النساء، ملك به الاماء، لرددته»

. ثم أضاف عليه السلام مذكراً بأن إجراء العدالة قد يثير غضب البعض إلا أن ذلك خطأ فادح، لأن العدل أساس راحة المجتمع ومن ضاق صدره من العدل فإنه سيكون أضيق إذا ماسد الجور والظلم
«فان في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق»

. فقد بين الإمام عليه السلام في البداية عزمه الراسخ على إعادة الأموال التي اخذت ظلماً وعدواناً من بيت المال وإن تزوج بتلك الأموال أو تملك بها الاماء، فلا بد أن تعاد إلى بيت مال المسلمين، لتعلم الأمة بأن القانون الذي سادها سابقاً لم يكن قانون الإسلام فهو ليس النموذج الإسلامي الذي يحتذى به في المسيرة السياسية. ثم عزز هذا العزم بالمنطق والدليل «فان في العدل سعة». وأخيراً يعرض بالنصح لأولئك الذين مد أيديهم إلى بيت المال وظنوا بأن عزم الإمام عليه السلام هذا سيتضمن ضررهم، في أن الأمر بالعكس سيكون بنفعهم؛ لأن من ضاق عليه العدل فالظلم عليه أضيق، فالعدالة تمنحه الأموال الحلال ولا تسلبه سوى الأموال المحرمة اللامشروعة، ولكن إذا لم يستجب للعدل وعاش الظلم والجور، فإنه سيخاطر بجميع أمواله المحللة منها المحرمة. صحيح أن الظلم ممكن أن يجر نفعاً على الظالم خلال مدة قصيرة، إلا أنه

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٤٣

ليس كذلك على المدى البعيد، وقد أثبت التاريخ كيفية تحطم الظلمة بنفس هذه القوانين الظالمة التي شرعوها وفرضوها على الناس بقوة الحديد والنار؛ حتى خانهم أقرب مقربهم وطعنوهم من خلفهم. قال الكلبي: ثم أمر عليه السلام بكل سلاح وجد لعثمان في داره؛ تقوى به على المسلمين فقبض، وأمر بقبض نجائب كانت في داره من إبل الصدقة، فقبضت، وأمر بقبض سيفه ودرعه، وأمر ألا يعرض لسلاح وجد له لم يقاتل به المسلمين، وبالكف عن جميع أمواله التي وجدت في داره وفي غير داره، وأمر أن ترتجع الأموال التي أجاز بها عثمان حيث اصيبت أو أصيب أصحابها. فبلغ ذلك عمرو بن العاص، وكان بأيلة من أرض الشام، أتاه حيث وثب الناس على عثمان، فنزلها فكتب إلى معاوية: ما كنت صانع فاصنع، إذ قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصا لحاها. هذا وقد اختلفت أقوال المفسرين وشرّاح نهج البلاغة بشأن مراده بقوله «من ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق» وأحد التفاسير هو ما ذكرناه سابقاً. التفسير الآخر هو أن بسط العدالة فيه رضى الله وخلقه والانسجام مع نظام الوجود، بينما يوجب الظلم

غضب الله وخلقته ويؤدى إلى ضيق الدنيا والآخرة. وتفسير آخر هو أن سلب الإنسان شىء بالعدل قد يشق عليه، إلا أن سلبه ظلماً سيكون عليه أشق وأصعب. وأخيراً أن الوالى إذا ضاقت عليه تدبيرات اموره فى مظنة أن يمنع ويصد عن جوره. وإذا لم يطق الإنسان العدل والانصاف فأتى له بتحمل الظلم والجور. ولانرى من ضير فى جمع كل هذه التفاسير كمراد لمفهوم تلك العبارة.

تأملات

١- معطيات العدالة فى المجتمعات البشرية

لقد ورد التأكيد كراراً فى نهج البلاغة على مسألة العدل والانصاف، بل المعروف أن الإمام على عليه السلام من كبار باسطى العدل فى المجتمع الإنسانى، حتى أسماه المفكر المسيحى المشهور جورج جرداق الإمام على صوت العدالة الإنسانية. وقد تضافرت الروايات الإسلامية- وعلى غرار كلمات الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة- الواردة بهذا الشأن وبعبارات غاية فى الروعة واللطافة، منها ما ورد عن الإمام السجاد على بن الحسين عليه السلام أنه قال:

«العدل أحلى من

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٤٤

الماء يصيبه الظمان» [٦٥٦]

. وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«العدل أحلى من الشهد وألين من

الزبد وأطيب ريحاً من المسك» [٦٥٧]

. وقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«العدل أساس به قوام

العالم» [٦٥٨]

، كما قال عليه السلام:

«ما عمرت البلدان بمثل العدل» [٦٥٩]

. فالحق أن أساس العالم قد شيد على العدل، والعدل بمفهومه الجامع يعنى وضع الأشياء فى مواضعها، فالسما والارض والمجرات والمنظومات الشمسية إنما تتحرك حسب القانون والنظام والمواضع المخصصة لها، كما أن الالكترونات والبروتونات وسائر أجزاء الذرة ومداراتها إنما تتحرك هى الاخرى ضمن مواقعها المحددة لها. وإن أدنى خروج عن حالة الاعتدال والاتزان فى بنية الإنسان أو أى من أجهزته فان ذلك سيؤدى إلى مرضه أو موته، وهذا ما يصدق تماماً على عالم الحيوان والنبات، وقد أثبت العلماء أن استقرار الحياة على وجه الكرة الأرضية إنما هو نتيجة لمجموعة معقدة من الأنظمة التى تحكمها بحيث تضعف هذه الحياة وربما تضمحل وتنهار إذا ما تغيرت هذه الأنظمة، وهذا ما أشار إليه الحديث النبوى المعروف

«بالعدل قامت السموات والارض» [٦٦٠]

. وهنا نتساءل هل يسع الإنسان الذى يعد جزءاً صغيراً من هذا العالم العملاق أن يمارس حياته بعيداً عن النظام والعدالة؟ وهل يسعه أن ينشق عن هذه المسيرة ويواصل حياته بمعزل عن الآخرين؟ نعم قد يستطيع الظلم تلبية مصالح فرد أو بلد خلال مدة قصيرة، إلا أن آثاره المميته على المدى البعيد ليست بخافية على أحد.

٢- اسراف عثمان

ورد في التواريخ أنه أعاد الحكم بن أبي العاص، بعد أن كان رسول الله صلى الله عليه وآله، قد سيّره ثم لم يردّه أبوبكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم.

وأقطع مروان فدك، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها صلوات الله

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٤٥

عليه، تارةً بالميراث، وتارةً بالنحلة فدُفعت عنها.

وأعطى عبدالله بن أبي سرح جميع ما جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقيّة بالمغرب؛ وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يشرّكه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أباسفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، في المال، في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال، وقد كان زوجته ابنته أم أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح، فوضعها بين يدي عثمان وبكى فقال عثمان: أتبكي أن وصلت رحمى! وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليّة، فقسمها كلّها في بني أمية. وأنكح الحارث ابن الحكم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضا بعد صرّه زيد بن أرقم عن خزنه.

وانضم إلى هذه الامور اخرى نقمها عليه المسلمون، كتسيير أبي ذر رحمه الله تعالى إلى الرّبذة؛ وضرب عبدالله بن مسعود حتى كسر أضلاعه، وما أظهر من الحجاب والعدول عن طريقة عمر في إقامة الحدود، وردّ المظالم، وكفّ الأيدي العادية والانتصاب لسياسة الرعيّة، وختم ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين. [٦٦١]

ومن هنا يتضح أمران: الأول: علّة قيام الناس ضد عثمان، والثاني السبب الذي دفع ببعض الأفراد من قبيل طلحة والزبير ومعاوية وسائر كبار مكة والمدينة. أو لا يمكن خلاصة ذلك فيما ورد في خطبته عليه السلام من قوله:

«والله لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الاماء، لرددته، فان في العدل سعة- ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق».

٣- الإجابة عن سؤال مهم

يتساءل البعض ألم يكن من الأفضل أن يتجاوز الإمام عليه السلام الماضي - عفا الله عما سلف - ويستأنف في زمان خلافته مسيرة العدالة ليجتث جذور الحقد والبغضاء من صدور العناصر الانتهازية والنفعية؟ ويمكن العثور على جواب هذا السؤال في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، فقد

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٤٦

ورد في بعض الروايات والقسم الآخر من هذه الخطبة أنه قال عليه السلام:

«الا- أن كل قطعة أقطعها عثمان وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فان الحق القديم لا يبطله شيء ولو وجدته...» [٦٦٢].

ومن البديهي أن الناس لو رأوا ناهبي بيت المال يتقلبون في البلاد بكل حرية ويسخرون عملياً من جرحهم لمشاعر الآخرين وأن العدالة ليست بصدد الماضي فأنهم لن يطبقوا مثل هذه العدالة ولا يرونها تنسجم وأي منطق وعقل حيث ينعم لصوص الأمس بالحرية والراحة بينما لا- تطال العدالة سوى لصوص اليوم؛ فهذا الازدواج من شأنه أن يدخل اليأس في قلوب الناس من بسط العدالة. الفقه الإسلامي هو الآخر نص على وجوب عودة الأموال المغصوبة إلى أصحابها وليس هنالك من فارق بين الأمس واليوم، أما مسألة تقادم الزمان المطروحة هذا اليوم فبغض النظر عن اهمالها في الفقه الإسلامي، فإنها إنّما ترتبط بالدعاوى لا بالأموال المغصوبة.

نفعات الولاية، ج ١، ص: ٣٤٧

الخطبة السادسة عشرة

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
لما بويع في المدينة وفيها يخبر الناس بعلمه بما تؤول إليه أحوالهم وفيها يقسمهم إلى اقسام

القسم الأول

إشارة

«ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةً. وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ إِنَّ مَنْ صَيَّرَ حَتَّ لَه الْعَبْرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثَلَاتِ، حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَفْحُمِ الشُّبُهَاتِ أَلَا وَإِنَّ بَلِيَّتِكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لِيُتْلَبَنَّ بِلَبَّاهُ وَلِتُعْرَبَلَنَّ عَزْبَاهُ وَلِتَسَاطَنَّ سَوْطَ الْقَدْرِ، حَتَّى يَعُودَ أَسَدُ فُلُكُمُ أَعْلَاكُمْ وَأَعْلَاكُمْ، أَسَدُ فُلُكُمُ وَلَيْسَ يَبْقَى سَابِقُونَ كَانُوا قَصْرُوا، وَلِيَقْصُرَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا سَبَقُوا. وَاللَّهُ مَا كَتَمْتُ وَشَمَّهْتُ، وَلَا كَذَبْتُ كِذْبَهُ وَقَدْ تَبَيَّنَتْ بِهَذَا الْمَقَامِ وَهَذَا الْيَوْمِ».[٦٦٣]

نظرة إلى الخطبة

الخطبة من اولى خطبه عليه السلام بعد مقتل عثمان وتوليه عليه السلام الخلافة في المدينة، ويبدو تفسيرها

نفعات الولاية، ج ١، ص: ٣٤٨

سهلاً بالالتفات إلى موقعها وزمان صدورها، وهي تدور حول أربعة محاور:

المحور الأول: الفات انتباه الامية إلى الامتحان الذي ستمر به وتشبيه ذلك الزمان بزمان رسول الله صلى الله عليه وآله وانتهضته كنهضة النبي صلى الله عليه وآله التي طمرت بالامة من عصر الجاهلية والظلمة إلى عصر الهداية والنور، وإن كان احتمال هذه النهضة صعب ثقيل على البعض وكون الامتحان شاق. فالانحرافات التي أعقت رحيل النبي صلى الله عليه وآله والتي أدت إلى التمييز في عطاء بيت المال وسلب ونهب ثروات الامنة واغداق المناصب الحساسة على من تبقى من رجالات الجاهلية إنما تتطلب ثورة إصلاحية قام بها الإمام على عليه السلام. ثم يذكر الإمام عليه السلام الناس بضرورة العودة إلى الإسلام الأصيل والاعتبار بعاقبة ومصير الأقوام الماضية.

المحور الثاني: يقارن عليه السلام بين المعصية والذنوب والورع والتقوى ثم يبين كل منهما وكيف تصعب السيطرة على المعاصي بينما يتيسر نهج التقوى ويحذر الامنة من المخاطر التي تترصد بمصيرها.

المحور الثالث: إشارة مقتضبة عميقة المعنى لمسألة الحق والباطل محذراً الامية من عدم الاستيحاش من الحق رغم قلة سالكيه والاستئناس بالباطل لكثرة سالكيه، والعمل بالحق الذي لا يقود سوى للغلبة والنصرة الإلهية.

المحور الرابع: الذي يشمل سلسلة من النصائح والمواعظ التي تعد كل واحدة منها ركن مهم من الأركان التي ينبغي الالتفات إليها في الحياة من قبيل الوعظ بالابتعاد عن الإفراط والتفريط والتمسك بالقرآن والسنة وضرورة معرفة الذات والدعوة إلى الآخاء والاتحاد

وإصلاح ذات البين والتوبة من المعاصي والثوق بأن البركة والخير منه سبحانه.

الشرح والتفسير

اليقظة والوعي في الامتحان

تعتبر هذه الخطبة- كما أشرنا سابقاً وعلى ضوء ما صرح به بعض شراح نهج البلاغة مثل ابن أبي الحديد- من الخطب المهمة التي أوردتها عليه السلام لما تمت له البيعة بالخلافة، فحذر الامة مما ينتظرها وأبان لها المخاطر والانحرافات التي تترتب بها.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٤٩

فقد قال بادئ ذي بدء:

«ذمتي بما أقول رهينته وأنا به زعيم» [٦٦٤]

في إشارة إلى صدق القول وحقانيته ووجود الضمانات القائمة عليه، ولذلك ينبغي عليكم تلقيه دون نقاش إلى جانب الالتزام به والعمل بمقتضاه. أمّا المغزى الذي ينطوي عليه هذا التعبير فإنما يكمن في إلفات نظر السامع إلى أهمية وخطورة المضمون الذي يختزنه الكلام والتعامل مع أهدافه.

ثم خاض الإمام عليه السلام في تفاصيل هذا المضمون في أن من استشعر الورع والتقوى وخشى العواقب نأى بنفسه بعيداً عن الشبهات ومامن شأنه تعريضه لتلك العواقب

«ان من صرحت له العبر عما بين يديه من المثالات [٦٦٥] حجته [٦٦٦] التقوى عن تقحم الشبهات»

. ارجعوا إلى التاريخ وتأملوا ما أصاب الأقوام الماضية من عقوبات بفعل الانحراف عن الحق والتلوث بالمعاصي والذنوب واستفحال الهوى والشهوات وحب الذات! ارجعوا إلى زمان انبثاق الدعوة وقيام النبي صلى الله عليه وآله وتدارسوا المؤامرات التي حاكتها الأقوام الجاهلية ضده ثم انظروا كيف كانت عواقبهم ومصائرهم لتتضح لكم معالم الطريق فتجوبوا الظلمة بنور التقوى والهداية؛ الكهف الحصين الذي يأمنكم من الضربات الموجهة التي يمكن أن تسدها لكم النفس الامارة وتزينها الشياطين. ثم يكشف الإمام عليه السلام النقاب عن الواقع الخطير الذي يعيشونه ويطلعهم على صعوبة الامتحان

«ألا وإن بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيه صلى الله عليه وآله»

. اعلّموا أنّ أمامكم امتحان لا- ينحج فيه سوى من استشعر نفسه كمال التقوى والاخلاص. فالإمام عليه السلام يميظ اللثام عن هذه الحقيقة في أنّ الامة في عصر الخليفة الثالث ولا سيما أواخر عمره قد عاشت البذخ في بيت المال والمناصب التي فوضت لغير أهلها من الأفراد الصالحين والمفاسد التي اجتاحت المجتمع الإسلامي والاختلافات التي عصفت بوحدتها وكأنّها عادت القهقري إلى عهد الجاهلية وكأن يبعته كبيعه رسول الله صلى الله عليه وآله التي تطالبه بنهضة تجديده كتلك التي أسسها النبي صلى الله عليه وآله؛ تلك النهضة المعطاء التي صهرت الامة في الإسلام الأصيل.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٥٠

ومن الطبيعي أن تهب بعض الفئات التي تعرض مصالحهم اللامشروعة للخطر لابتداء ردود الفعل وازهار المقاومة؛ الأمر الذي يعقد الامتحان بما يجعل الحاكم الخبير كالإمام على عليه السلام يوقظ الامة وينبها إلى الأخطار المترتبة بها وهنا لابد من الالتفات إلى أنّ البعض فيرّ البلية بالبلاء والمشاكل، في حين نراها تعنى الامتحان والاختبار ويؤيد ذلك سائر عباراته الواردة في الخطبة. ثم خاض عليه السلام في تفاصيل هذا الامتحان الإلهي الكبير ليوضحه بمثالين، فقد ذكر أولاً

«والذي بعثه بالحق لتبليبن ببلبة [٦٦٧] ولتغربلن غربلة» [٦٦٨]

وهذه هي الطبيعة التي تسود كل نهضة ربانية في غربلة المجتمع حين تتويج مسيرتها بالنصر. فهناك إقصاء لأصحاب السطوة الخونة

واستبدلهم بالمجموعة الصالحة المستضعفة، وهذا بعينه ما مارسه رسول الله صلى الله عليه وآله بعيد انتصار ثورته المباركة. فقد نحى أبو سفيان ومن لف لفه من طغمة الفساد ليفسح المجال لصهيب والخباب وبلال. أضف إلى ذلك فقد نحيت الشخصيات المستبدة التي استندت إلى منطق القوة على عهد عثمان بعد بيعه أمير المؤمنين على عليه السلام لتخلفها القوى الشعبية المخلصه. وثانياً

«ولتساطن سوط [٦٦٩] القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم»

. نعم فطبيعة كل ثورة أن تضع في النهضات الربانية التي تنبثق في المجتمعات الفاسدة فأنها تطيح بالمفسدين وترفع المستضعفين ليمارسوا دورهم في السلطة.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بالقول:

«وليسبقن سابقون كانوا قصروا، وليقصرن سابقون كانوا سبقوا»

والعبارة الثانية إشارة إلى بعض الأفراد كطلحة والزبير الذين كانا يوماً في الصفوف الأولى بينما دفعتهم بعض العوامل للتراجع عن تلك الصفوف، بينما تشير العبارة الأولى إلى بعض الأفراد كصحب الإمام عليه السلام وأتباعه الذين أصبحوا يوماً جلساء الدار، بينما سنحت لهم الفرصة على عهد الإمام ليتقدموا ويسبقوا كما احتمل البعض أن يكون المراد المستقبل الذي سيشهد تردى الأوضاع فيتقدم بنو أمية ويتصدرون الامور ويتأخر السابقون

نقمة الولاية، ج ١، ص: ٣٥١

في الإسلام فنعود الجاهلية بأقطابها ليتسلموا زمام الامور، ولكن لما كانت هذه الخطبة قد أوردت إثر مبايعة الإمام عليه السلام مباشرة فان المعنى الأول يبدو هو الأنسب. ثم يؤكد الإمام عليه السلام هذا الأمر بقسم آخر «والله ما كتتم وشمة [٦٧٠] ولا كذبت كذبة، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم».

وما كل هذه الامور إلما ليفيق الناس ولا يستسلمون للمؤامرات كمؤامرة الجمل وصفين والنهروان ويعلموا أنهم أمام امتحان صعب فيلتفتوا إلى أنفسهم، إلا أن المؤسف له هو أنهم لم يعيروا نصح الإمام عليه السلام أية آذان صاغية ولم يتدبروا الأمر فكان من ذلك أن فشلوا في الامتحان أيما فشل.

يبدو أن مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة هو المغيبات التي أطلعه عليها رسول الله صلى الله عليه وآله، وكما ذكرنا في حينه- في مبحث علم غيب النبي صلى الله عليه وآله والإمام- أن الأئمة المعصومين هم قادة الامية على مدى العصور والدهور ولا يمكن لهذه القيادة إلا التطوى على علم الغيب والاحاطة بأسرار الماضي والمستقبل؛ وذلك لأن هناك رابطة وثيقة بين حوادث اليوم والأمس والغد، ومن هنا كانوا يطلعون أصحابهم على جانب مما ينتظرهم في المستقبل أو يعلنوا ذلك للناس ليكونوا أكثر حزمًا ووعياً في التعامل مع الأحداث وينأوا بأنفسهم بعيداً عن حبال الشيطان وشراكه. وهذا ما نلمسه بوضوح كراراً ومراراً في سيرة الإمام على عليه السلام وكيف أنه حذر الامة ولف انتباهها إلى الأخطار التي تتربص بها. ومن الطبيعي أن يتعظ البعض ويتمرد البعض الآخر.

تأملان

١- التاريخ يعيد نفسه

من المعروف أن الأحداث التاريخية سلسلة من الوقائع المتكررة التي تتخذ أشكال مختلفة، ومن هنا فان الأفراد الذين يتأملون بعمق الماضي التاريخي يتمكنون من التعامل بمعرفة أفضل مع الحوادث الراهنة والآتية، ومن هنا رأينا القرآن الكريم مشحوناً بقصص

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٥٢

الأبياء والأقوام السالفة التي تعكس بجلاء أحداث اليوم والمستقبل. الإمام عليه السلام- في هذا المقطع من الخطبة- أشار إلى هذه النقطة المهمة:

«ان من صرحت له العبر عما بين يديه من المثالات، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات»

ثم قال عليه السلام:

«الا وان بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيه صلى الله عليه وآله»

. ذات الفئات المناهضة للحق، والانحرافات والضلال والمؤامرات والفتن. فافيقوا وانطلقوا خلف إمامكم مخافة ان تضلوا- ولو أمعنا النظر وقارنا حوادث عصر الإمام عليه السلام بعصر النبي صلى الله عليه وآله لوجدنا شبيهاً كبيراً، وليس هذا إلا أن المنافقين ومن تبقى من عصر الجاهلية سعوا وبشتى الطرق للقضاء تدريجياً على تعاليم النبي صلى الله عليه وآله؛ ولا سيما أنهم سعوا لاختراق مراكز القوة لممارسته دور أكبر في تشويه الثقافة الإسلامية واستبدالها بثقافة جاهلية؛ الأمر الذي لمسننا آثاره بوضوح في العصر الأموي. فالحق أن بعض الظواهر الإسلامية كانت قائمة في عصر الخليفة الثالث، إلا أن هذه الظواهر لم يبق منها إلا قشورها في العصر الأموي. على غرار الشعائر الإسلامية كالصوم والصلاة والحج التي كانت سائدة على عهد بنى أمية ولكن أية صلاة وصوم وحج؟!!

٢- بيان الحقيقة أم رعاية المصلحة

كثير هم الذين يعتقدون بأن المصلحة تكمن في كتمان الحقائق عن الناس، حذراً من ابداء ردود الفعل الطائشة، والحال ليست مصلحة الزعماء ومصالح عموم الأمة- باستثناء بعض الحالات الخاصة- سوى اطلاع الناس على الحقائق وفسح المجال أمامهم لاقتحام الميدان عن علم ومعرفة. فالتعقيم الخبري وتغيب الأمة عن الأحداث يمثل الأسلوب الذي يعتمد الطغاة والجبابرة الذين لا يفكرون سوى في تحقيق أطماعهم وماآربهم، على العكس من الزعماء الربانيين وأئمة المسلمين الذين يكرسون جهودهم لنجاة الأمة من مشاكلها المادية والمعنوية، فهم يسعون باخلاص لكشف الحقائق والواقعات لأنهم يستنصرون الأمة ويرومون دعمها واسنادها. والطريف في الأمر أن الإمام عليه السلام لا- يكتفم الوقائع عن الأمة- كما ورد في هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة- فحسب، بل يطلعها حتى على الحوادث المستقبلية التي سمعها من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فيقول لهم لا أبخل عليكم حتى بالأخبار عن الكلمة الواحدة التي من شأنها أن تنبهكم إلى الأخطار المحدقة بكم حرصاً على عدم الاغترار بوساوس الشيطان والوقوع في شباكه.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٥٣

القسم الثاني: الذنوب شماس كالخيل

«ألا- وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَخُلِعَتْ لُجْمُهَا، فَتَفَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ، أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا دُلِّلٌ، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَأَعْطُوا أَرْمَتَهَا فَأَوْرَدَتْهُمْ الْجَنَّةَ. حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَلِكُلِّ أَهْلٍ، فَلَيْتُنْ أَمْرَ الْبَاطِلِ لَمَدِيداً فَعَلَّ، وَلَيْتُنْ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّمَا وَلَعَلَّ، وَلَقَلَّمَا أَذْبَرَ شَيْئاً فَأَقْبَلَ.»

قال السيد الشريف: وأقول: إن في هذا الكلام الأدنى من مواقع الاحسان ما لا تبلغه مواقع الاستحسان، وإن حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به. وفيه- مع الحال التي وصفنا- زوائد من الفصاحة لا- يقوم بها لسان، ولا يطلع فحجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلا من ضرب في هذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق «وما يعقلها إلا العالمون».

الشرح والتفسير

يواصل الإمام عليه السلام البحث السابق بشأن الأوضاع المتأزمة بعد بيعة الإمام عليه السلام والتي تمثل ثورة تصحيحية في العالم الإسلامي، حيث يتطرق إلى نقطة غاية في الأهمية من خلال تشبيه رائع، وهي ضرورة السيطرة على الذنب منذ بدايته حيث إذا ترك له العنان وتمادى في مقارفة شبيهه، جذبته إليه وسيطر على كيانه وسلبه زمام المبادرة وأوقعه في واد سحيق فقد وصف عليه السلام الذنوب والمعاصي بالخيل الجامحة التي يصعب السيطرة عليها

«ألا وإن الخطايا خيل شمس ٦٧١»

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٥٤

حمل عليها أهلها، وخلعت نجمها، فتقحمت بهم في النار»

ياله من تشبيه رائع، فركوب الفرس الجامح خطير، وتشتد الخطورة إذا فقد لجامها الذي يلجم عنانها، ثم تتضاعف هذه الخطورة أكثر من ذي قبل إذا كان هذا الجموح في أرض تشتتل على بعض المطيات. وهذا هو التصوير الواقعي للذنب، فارتكاب الذنب يقود الإنسان إلى ذنب آخر وهكذا، على سبيل المثال قد يرتكب الإنسان خيانة فيكتمها، وإذا استجوب حال مالا يحصى من الأكاذيب للتغطية على خيانتها كما يقسم كاذباً أو يلجأ إلى اتهام الآخرين، فإذا لم يجد ذلك نفعاً ربما لا يتورع عن سفك دم من يعلم بخيانتها، بغية عدم افتضاح أمره وهكذا يصبح أرضية خصبة لمقارفة ما شاء من الذنوب؛ ولا غرو فقد أصبح كالخيل الشموس التي خلع لجامها فهي تقذف بصاحبها إلى الهاوية.

ثم ذهب عليه السلام إلى الصورة المعاكسة التي شبه فيها التقوى بالخيل الذلول فأوصلت راكبها الموضع الذي يريد

«ألا وإن التقوى مطايا ذلل ٦٧٢» حمل عليها أهلها، وأعطوا أزمته، فأوردتهم الجنة»

نعم فالأعمال الصالحة سلسلة متعاقبة الحلقات، فالعمل الصالح يكون سبباً لآخر وهكذا الإتيان بسائر الأعمال الصالحة. على سبيل المثال إذا ربى أحدهم ولده تربية صالحة فسيعدده للإتيان بالخيرات والبركات، وسيكون له تأثيره البالغ في وسطه بما يحث رفاقه وأصحابه على القيام بمثل هذه الأعمال، وهكذا يسير المجتمع نحو السعادة والصلاح والفلاح. جدير بالذكر أن الإمام عليه السلام عبر عن الذنوب بالخيل الشمس وعن التقوى بالمطايا الذل، فالخيل من مادة خيال، فيطلق «المختال» على الفرد المغرور والمتكبر الذي يعيش الخيالات، ومن هنا اصطلاح على الفرس بالخيل لأنه عادة ما يدعو راكبه إلى الغرور والفخر.

على العكس من المطايا جمع مطية من مادة المطو على وزن العطف بمعنى الجد والنجاة في السير؛ وبناءً على هذا فإن المطية دابة هنيئة سريعة تسير قدماً نحو الإمام عليه السلام بكل هدوء دون أن تجمح بصاحبها وتقحمه في المتاهات - ومن هنا تتضح ذرورة فصاحته وبلاغته في كلماته عليه السلام

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٥٥

حتى تلك الكلمات القصيرة والعبارات الصغيرة. ثم يحذر الإمام عليه السلام من صعوبة الامتحان الإلهي في ظل حكومته وطيلة حياتهم مواصلاً البحث السابق بشأن الذنب والتقوى فقال عليه السلام:

«حق وباطل، ولكل أهل».

أجل فالحياء البشرية ومنذ بدء الخليقة كانت وما زالت مسرحاً للصراع بين هذين الاتجاهين ويختصر الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى مسألة حساسة وهي أن الباطل إذا قدر له أن يحكم فلا عجب في ذلك فهذا ما حصل منذ قديم الزمان:

«فلئن أمر الباطل لقديماً فعل»

. وإن قل الحق وأتباعه فلا داعي للقلق ولعله يزداد فيهزم الكفر في عقر داره

«ولئن قل الحق فلربما ولعل»

أن قصة الصراع بين الحق والباطل وما تخلله من وسائل وأدوات وما تمخض عنه من نتائج طيلة التاريخ الإنساني قصة ذات شجون وستتطرق إلى هذه التفاصيل في الأبحاث القادمة بما يتناسب وسائر الخطب الواردة بهذا المجال.

أمّا القضية الجديرة بالذكر والتي حظت باهتمام الإمام عليه السلام هي ضرورة عدم الاستيحاش من الحق لقلته سالكيه والاستئناس بالباطل لكثرة سالكيه؛ لأنّ التاريخ يشهد على الدوام بكثرة أتباع الباطل وقلته أتباع الحق، وكثيراً ما كانت تحسم المعارك والصراعات لصالح الحق؛ وهذا ما صرح به القرآن الكريم على لسان طالوت: «كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتْنَهُ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ» [٦٧٣]. وهو المعنى الذي أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة بالقول: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ» [٦٧٤]. كما ورد هذا المعنى في الخطبة ١-٢ من نهج البلاغة

«أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلته أهله»

. أمّا المسألة التي ينبغي الالتفات إليها هي أنّ هذه الكثرة ليست دليلاً على الأحقية ولا النصر، بل يرى المنطق القرآني والروائي بل ومنطق الربانيين أنّ الملاك إنّما يكمن في الكيفية لا الكمية، ومن هنا فان زوال حكومات الباطل يستتبع زوال كافة آثارها فلا يبقى لها سوى الخزي والعار، بينما تبقى آثار حكومات الحق باقية خالدة.

على كل حال فان الصراع بين الحق والباطل وكثرة جند الباطل إنّما هي في الواقع امتحان إلهي يهدف إلى تمحيص طلاب الحق.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٥٦

والنقطة الثانية التي يؤكد عليها الإمام عليه السلام قوله:

«ولقلما أدبر شئ فاقبل»

. طبعاً يؤمن جميع المسلمين - من سنّة وشيعه وسائر الفرق - أنّ الحق سينتصر يوماً حين ظهور المهدي الموعود (عج) وسيدحر الباطل وإلى الأبد وستسود العالم برمته حكومة العدل الإلهي.

وعلى ضوء بعض الروايات فقد نقلت ذيل هذه الخطبة عبارة عن الإمام الصادق عليه السلام عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال:

«وبنا فتح لا بكم ومنا نختم لا بكم»

. وقد صرح ابن أبي الحديد بعد ذكره لهذه العبارة قائلاً: إشارة إلى المهدي الذي يظهر في آخر الزمان، وأكثر المحدثين على أنّه من ولد فاطمة عليها السلام وأصحابنا المعتزلة لا ينكرونه» [٦٧٥].

نعم العبارة ترشد إلى عدم فقدان الفرصة والآن وقد تمهدت جميع السبل من أجل بسط العدالة وإقامة حكومة الحق في ربوع المجتمع الإسلامي فالحذار من وساوس شياطين الانس والجن ومؤامرات اولئك الذين تبذرت مصالحهم اللامشروعة وخابت ظنونهم وآمالهم، فاذا ضاعت هذه الفرصة فان عودتها لا تبدو سهلة، وهذا مادلت عليه حياة الإمام عليه السلام حيث لم تتعظ الامّة بوصاياه ومواعظه ففقدت زمام المبادرة وأضاعت الفرصة؛ فقد أوشك جيش الشام على الانهيار المطلق وأصبح القضاء على طاغية بنى أمية يكون قاب قوسين أو أدنى فعمد ابن العاص لتلك الخدعة التي انطلقت على الامية، فأبقت على تلك الحكومة الجائرة لتخلف من بعدها بنى مروان وبنى العباس والحجاج و ...

الطريف في الأمر ما أورده السيد الرضى بشأن الخطبة إذ قال: إنّ في هذا الكلام الأذني من مواقع الاحسان ما لا- تبلغه مواقع الاستحسان، وإنّ حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به.

وفيه - مع الحال التي وصفنا - زوائد من الفصاحة لا- يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلّا من ضرب في هذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق
«وما يعقلها إلّا العالمون».

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٥٧

القسم الثالث: سبيل النجاة

إشارة

«شُغِلَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَمَامَهُ! سَاعَ سَرِيعِ نَجَا، وَطَالِبِ بَطِيءِ رَجَا، وَمُقَصِّرٍ فِي النَّارِ هَوَى. الِيمِينُ وَالشَّمَالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوَسِيطِيُّ هِيَ الْجَادَّةُ، عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَابِ وَآثَارُ التُّبُوَّةِ، وَمِنْهَا مَنَعْدُ السُّنَّةِ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ هَلَكٌ. مَنِ ادَّعَى، وَخَابَ مَنِ افْتَرَى مَنِ أْبْدَى صِيْفَحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكٌ. كَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ. لَا- يَهْلِكُكَ عَلَى التَّقْوَى سِنَخٌ أَصِيلٌ، وَلَا- يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ. فَاسْتَبْرُوا فِي بُيُوتِكُمْ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ وِرَائِكُمْ، وَلَا يَحْمَدُ حَامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَلْمُ لَائِمٌ إِلَّا نَفْسَهُ».

الشرح والتفسير

لما فرغ الإمام عليه السلام من التحدث عن صعوبة الامتحان بعد بيعته وحذر الامة من وبال الذنوب والمعاصي مشيراً إلى الحق والباطل، عرج هنا بالإشارة إلى سبيل النجاة من مخالب الهوى والهوس وبلوغ السعادة ونيل الفلاح، ليكشف عن الحقائق الواردة بهذا المجال. فقد صنف الناس في مسيرتهم إلى السعادة والنجاة إلى ثلاث طوائف، فمن شغل بالجنة والنار «وآمن بهما اعتزل كل ما يصد عنه ذلك»

وانهمك بالتفكير بالعاقبة (على ثلاث)، منهم من حث السير وبلغ الهدف سريعاً فهو ناجي. ومنهم من تباطأ في السير فهو مؤمل للنجاة أيضاً.

أما الأخير من قصر في السير فهوى في النار

«شغل من الجنة والنار أمامه! ساع سريع نجا، وطالب بطيء رجا، ومقصر في النار هوى».

يرى البعض أنّ هذه الطوائف هي تلك التي أشار إليها القرآن الكريم في سورة فاطر بقوله:

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٥٨

«ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ» [٦٧٦]. وقيل بل هم من أشارت لهم الآية القرآنية الشريفة في سورة الواقعة: «وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً* فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ* وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ* مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ* وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» [٦٧٧]. على كل حال فإن هذه الطوائف الثلاث مطروحة على الدوام في المجتمع الإنساني وإذا ما اشتد الامتحان (كالذي عليه الحال إبان خلافة الإمام علي عليه السلام) تمايزت هذه الطوائف عن بعضها البعض؛ فهناك طائفة (وإن كانت غالباً قليلة) تتبع الحق دون أدنى تردد أو تراجع وهي تحت الخطى سريعة نحو الهدف. وطائفة أخرى أضعف إيماناً من سابقتها فهي تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فأحياناً تحت الخطى وتسير بوثوق نحو الهدف فتعمل الصالحات بينما تتأخر أحياناً فتتقارف الطالحات فتخلط العمل الصالح بالسيء إلا أنها تؤمل بأن يشملها لطف الله وفضله فيبلغ بها الهدف المطلوب.

وأخيراً الطائفة الثالثة التي فارقت الإيمان والتقوى وغلبت عليها الشقوة وهوى النفس فضاغوا وضيعوا أنفسهم حتى وقعوا في الهاوية. فالعبارة المذكورة تبين بوضوح أنّ الإيمان بالمعاد فقط من شأنه أن يصون الإنسان من الفساد والانحراف والذنب. وتتناسب هذه الصيانة والحصانة من الذنب طردياً ودرجة الإيمان. وقد ذهب البعض إلى أنّ العبارة:

«شغل من الجنة والنار أمامه»

جملة خيرية تفيد معنى الإنشاء؛ أي أنّ من يرى الجنة والنار أمامه عليه أن يغيث الطرف عن زخارف الدنيا وزبرجها! ولكن ليس هنالك من ضير في تفسير هذه الجملة بصورة الأخبار- على نحو الجملة الخيرية- أي أنّ مثل هؤلاء المؤمنون سيغضون طرفهم عن زخارف الدنيا. ولما فرغ الإمام عليه السلام من بيان خصائص الطوائف الثلاث، أخذ يدعو الامة إلى انتهاز السبيل القويم والابتعاد عن

سبل الانحراف مبيناً علامات كل منهما فقال:

«اليمين والشمال مضلة» [٦٧٨] والطرق الوسطى هي الجادة».

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٥٩

فالعبرة إشارة للمسألة المعروفة لدينا بأن السبل المنحرفة التي تقود الإنسان إلى الضلال.

ولعل المراد باليمين والشمال هو الإفراط والتفريط الذين لا يوصلان إلى الهدف الذي لا سبيل إليه سوى الصراط المستقيم الذي يمثل الاعتدال بين الإفراط والتفريط، ومن هنا صرح القرآن الكريم بقوله: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيْطًا» [٦٧٩]. وقد صرح كبار علماء الأخلاق بأن كافة الصفات الفضلى إنما هي الاعتدال بين الصفات الرذيلة التي تقع على طرفى الإفراط والتفريط.

وذهب بعض مفسري نهج البلاغة إلى أن المراد بالطريق الوسطى مسألة الإمامة وولاية الأئمة المعصومين التي يقود الإفراط والتفريط فيها إلى الضلال. ولا نرى من ضير في ان تختزن هذه العبارة كافة المعاني فتشمل قضية الولاية كما تشمل سائر المسائل العقائدية والعملية والأخلاقية.

أما بشأن معرفة الله فقد وقعت طائفة في مصيدة التشبيه فتشبهت الخالق بمخلوقاته، بينما ذهبت اخرى إلى تعطيل معرفته على أن ذات الخالق وصفاته متعذرة على البشر حتى المعرفة الإجمالية، وهناك الحد الوسط بين التشبيه والتعطيل والذي يعنى معرفة الله عن طريق أفعاله دون كنه الذات. وبالنسبة لأفعال العباد فليس الجبر صحيحاً ولا التفويض، والطريق الوسط هو الأمر بين الأمرين، وهكذا القول بشأن الولاية لا الغلو صحيح ولا التقصير، وهذا ما يصدق على الأخلاقيات والأعمال، فمثلاً فى الانفاق الصحيح هو الحد الوسط بين البخل والاسراف.

والطريف أن الفرق التي وقفت بوجه الإمام عليه السلام لم تخرج من تلك الحالتين، ففرقة الخوارج سلكت الافراط، بينما انتهج أهل الشام التفريط، وقد ضلت الفئتان فى معرفة الإمام عليه السلام. ثم خاض عليه السلام فى خصائص الجادة الوسطى المعتدلة «عليها باقى الكتاب وآثار النبوة، ومنها منفذ السنّة، وإليها مصير العاقبة» . هناك تفسيران لقوله عليه السلام:

«عليها باقى الكتاب»

: أحدهما المراد القرآن الكريم؛ الكتاب الخالد والذي انفرد بالمعارف والقوانين والأحكام التي

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٦٠

يتعذر العثور عليها فى ما سواه. والآخر المراد بالكتاب الخالد الإمام المعصوم الحافظ لكتاب الله، وهو عدل القرآن كما صرح بذلك حديث الثقلين المعروف، ولكن يبدو المعنى الأول أنسب، ولا سيما أن آثار النبوة التي أعقبت العبارة يمكن تفسيرها بالآثار الباقية لدى الأئمة.

كما أوردت عدّة تفاسير بهذا الشأن لا تبدو صائبة.

وقوله عليه السلام:

«منها منفذ السنّة»

فباللتفات إلى كلمة منفذ يبدو أن المراد هو أن الطريق الوسطى فقط التي يمكن من خلالها الوقوف على السنّة النبوية والتعرف على جوهر الدعوة، ومن هنا يتضح الفارق فى هذه الملل الاربعة.

فقد أشار عليه السلام إلى أن الكتاب على هذه الجادة، ثم قال عليه السلام وعليها آثار النبوة، ثم أضاف ومنها منفذ السنّة، وأخيراً قال وإليها مصير العاقبة من خلال هذه الجادة لا غير؛ كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» [٦٨٠].

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى مصير من يزعم الإمامة وولاية الناس بالباطل، حيث يصفهم فى أربع عبارات: الاولى هلاك من يدعى

الإمامة بغير حق فهو ضال مضل

«هلك من ادعى»

والثانية أن من يطلب هذا المقام كذباً وافتراءً على رسول الله صلى الله عليه وآله لم يظفر بما طلب
«وخاب [٦٨١] من افترى».

والثالثة هلاك من يقف بوجه الحق:

«من أبدى صفحته [٦٨٢] للحق هلك».

والأخيرة يكفى الإنسان جهل أنه لا يعرف قدره فيتمدد أكثر من حجمه
«وكفى بالمرء جهلاً الا يعرف قدره»

. طبعاً هناك احتمال قائم فى ألا تكون هذه العبارات الأربع تعالج مسألة الإمامة التى تعرضت لها هذه الخطبة؛ بل تشمل معنا أوسع
وهو كل ادعاء باطل سواء فى مجال الإمامة أو سائر المجالات.

فالواقع هى تحذير لأهل الباطل من مغبة التمادى فى غيهم بما لا يجلب عليهم سوى البؤس والشقاء والهلاك.

نقمة الولاية، ج ١، ص: ٣٦١

أما قوله عليه السلام:

«من أبدى صفحته للحق هلك»

فقد فسره بعض شراح نهج البلاغة أن من أبدى صفحته لنصرة الحق غلبه أهل الجهل، لأنهم العامة، وفيهم الكثرة، فهلك.

فهذا الكلام وان كان واقعياً إلا أنه لا يمكن أن يكون تفسيراً للعبارة المذكورة وذلك لأنه لا ينسجم والعبارات السابقة بشأن أدياء
الباطل، كما لا يتفق والعبارة اللاحقة بشأن الأفراد الجهال الذين لا يعرفون قدر أنفسهم. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام هذه العبارات
يعرض بالنصح والموعظة التى من شأنها تخليصهم من مخالب المنافقين وأدياء الباطل، فقد دعاهم فى البداية إلى التحلى بالورع
والتقوى التى تعدّ الركن الركين لكل حركة وعمل صالح، فقال عليه السلام:

«لا يهلك على التقوى سنخ [٦٨٣] اصل، ولا يظماً عليها زرع قوم»

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام قد شبه - بهذه العبارة العميقة المعنى - التقوى بالأرض الخصبة ذات المناخ المناسب التى لا تجف فيها
جذور الأشجار ولا يموت فيها الزرع من قلة الماء؛ أرض خصبة صالحة للزراعة ذات أنهار وآبار تمد الزرع بما يحتاج، ففى الحقيقة
أن كافة الأعمال كالبدور والحبوب التى ينبغى أن تنثر فى أرض خصبة وتسقى بالمياه؛ وليست هذه الأرض والمياه سوى التقوى، ثم
قال فى الموعظة الثانية:

«فاستتروا فى بيوتكم»

فالإمام عليه السلام وبنظره الثاقبة يعلم بأن حكومته ستضيق الخناق على اولئك الذين عملوا إبان عهد عثمان على سلب ونهب بيت
مال المسلمين ونشروا الظلم فى ربوع المجتمع الإسلامى، وعليه فهم سوف لن يسكتوا وسيسعون إلى تأليب الناس واستقطاب الجهال،
وهذا هو الوقت الذى يتطلب من الإنسان أن يلزم بيته لا حين العمل والجهاد.

وعلى حد قول بعض شراح نهج البلاغة فإن أفضل حركة فى المجتمع الذى يضره العدل والحق هى السكون والصمت والسكوت.

والموعظة الثالثة بشأن الأخاء والوحدة بين صفوف أتباع الحق ونبذ كافة مظاهر الفرقة والشقاق بهدف ملاحقة الباطل والقضاء عليه،
فقد قال عليه السلام:

«وأصلحوا ذات بينكم»

. وأخيراً

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٦٢

يعرض بالنصح لمن اتسخ قلبه بالذنوب على عهد الحكومه السابقة أن يغسلها بماء التوبه

«والتوبه من وراء كم [٦٨٤]».

ثم يقول عليه السلام:

«ولا يحمد حامد إلابه ولا يلم لائم إلابه»

إشارة إلى أن كافه النعم من عند الله وما يصيب الإنسان من توفيق وسعادة فبلطفه وفضله، وعليه فلا ينبغي الاغترار بالطاعة، كما أن مرجع الذنوب والمعاصي تقصير الإنسان فلا ينبغي أن يلوم الإنسان إلابه ولا ينسب أخطائه إلى الآخرين أو يبررها بالقضاء والقدر، بل عليه أن يسارع إلى التوبه.

تأملان

١- الجاهل من جهل قدر نفسه

إن أغلب المشاكل الاجتماعية إنما تنبع من الطموحات الطائشه، أو تجاوز الإنسان لحدوده الطبيعى والطمع بالمنصب الذى لا يستحقه أو لا يمتلك الجداره اللازمه للنهوض به؛ ولا شك أن كل هذا إنما تفرزه قضيه مهمه تكمن فى جهل الإنسان بقدره وعدم تقيمه له بصوره صحيحه، وما ذلك إلابحب الذات والمبالغه فى نقاط القوه وعدم الالتفات إلى نقاط الضعف.

ولا شك أن اضرار هذا الأمر لا تقتصر على الإنسان لوحده فحسب، بل تنسحب على المجتمع بأسره، ولربما استطاع الفرد أن يشغل منصباً فيقوم بوظيفته على أحسن وجه بما يضمن له السعادة وإلى المجتمع الرفاه والأمن، غير أنه وإثر جهله بنفسه وطمعه بما لا يستحقه يبدد طاقاته عبثاً ويكبد نفسه والمجتمع مالا- يحصى من الخسائر والأضرار. وياليت الجميع كبيرهم وصغيرهم وعالمهم وجاهلهم أعادوا النظر فى هذا الأمر الحيوى واقصوا عن أنفسهم الحجب التى تحول دون معرفتهم لذواتهم ليجدوا من أجل تحقيق أهدافهم وسعادة مجتمعاتهم. ومن هنا ورد التأكيد كراراً فى نهج البلاغه على هذه المسأله، ومن ذلك ما ورد فى الخطبه ١٠٣

«العالم من عرف قدره وكفى بالمرء جهلاً الا يعرف قدره»

. كما ورد فى الرساله ٣١ من نهج

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٦٣

البلاغه التى يعظ فيها ولده الحسن عليه السلام أنه قال:

«ومن اقتصر على قدره كان ابقى له»

وجاء فى الكلمه ١٤٩ من قصار الحكم

«هلك امرء لم يعرف قدره».

كما ورد فى الروايه أن شخصاً قال للإمام الكاظم عليه السلام مررت بالسوق فاذا هو يقول أنا من شيعه محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وهو يبيع الثياب بأكثر من ثمنها. فقال الإمام عليه السلام:

«ما جهل ولا ضاع امرء عرف قدر نفسه».[٦٨٥]

هناك احتمال آخر بالمراد من معرفه قدر النفس فى العبارة المذكوره وهو ألا ينسى الإنسان طبيعه خلقته فيقتصر بها على الجانب المادى المتعلق بالجسم دون الاهتمام بالمسائل المعنويه فيبيع نفسه ببعض الامور الماديه التى تفتقر إلى القيمه الحقيقيه. فالإنسان يتمتع

بالروح التي تنتمي إلى عالم السمو والرفعة، أنه خليفة الله في الأرض. أنه كائن ملكوتي لا موجود ترأبى وإن تقولب مدّة معينة في هذا القفص المادى من أجل نيل الكمال. وعليه فالعالم من عرف نفسه ووقف على قدرها ومنزلتها، وابتلتفت إلى تكريم الله سبحانه له على من سواه، والجاهل من جهل قدر نفسه فقذف بها في مستنقع الأهواء والشهوات. بالكن بالالتفات إلى قوله «من اقتصر على قدره كان ابقى له»

وكذلك العبارة المعروفة لدى العلماء استنباطاً من الأحاديث المشهورة

«العالم من عرف قدره ولم يتجاوز حده»

يبدو أن الأنسب هو المعنى الأول، ويؤيده مضمون الخطبة الذي يتناول قصة طلحة والزبير وآمالهم الزائفة.

٢- الاعتدال هو الصراط المستقيم

إن أدنى نظرة إلى عالم الخلق تفيده أن بقاء العالم إنما يستند إلى مسألة الاعتدال والتوازن في القوى. فالمنظومات السماوية العظيمة إنما حفظت بتوازن القوة الجاذبة مع القوة الدافعة، فلو تقدمت أحدهما على الأخرى أو ابتعدت لما بقى أثر لتلك المنظومات، ولو اقتربت وتصادمت لأديا إلى انفجار هائل يقود إلى إنعدامها. والقانون المذكور الذي يحكم ذلك العالم الكبير كما يصدق على العالم الصغير أى عالم الإنسان، حيث تكون سلامة حياته ورمز بقائها مرهونة بحالة الاتزان التي تسود مختلف قواه الروحية والجسدية، من قبيل العناصر الداخلة في

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٦٤

تركيب الدم وتوازن حركات الأعصاب السمبثاوية والباراسمبثاوية وضربات القلب ووزن الجسم وضغط الدم وتوازن أجهزة الجسم كالجهاز التنفسي والجهاز الهضمي وبالتالي فإن كافة أجهزته تمارس وظائفها بكل اعتدال واتزان بما يحفظ سلامة الإنسان ويكفل بقائه، ولو انحرفت هذه الأجهزة ذرة عن خط الاتزان وجنحت نحو الإفراط أو التفريط لانعكس ذلك سلباً على سلامة جسم الإنسان وروحه.

القرآن من جانبه أثنى على الأئمة الإسلامية بصفتها الأئمة الوسط، ومن هنا جعلها حجة على سائر الأمم. وهذه هي المسألة التي أكدها الإمام عليه السلام في أن الجادة الوسطى هي الطريق وعليها باقى الكتاب وآثار النبوة ومنها منفذ السنّة. وإليها مصير العاقبة. أمّا في المجال الاقتصادي فإن الإفراط والتفريط قد أدى إلى ظهور النزعة الرأسمالية المقيتة التي بالغت في الملكية الشخصية بينما بالغت النزعة الاشتراكية في الملكية العامة ليعيش المجتمع ذلك التمايز الطبقي الفاحش بوجود الطبقات المرفهة الثرية والأخرى المعدمة الفقيرة.

وأما على المستويات الأخرى العقائدية والسياسية والاجتماعية- فإن الإفراط والتفريط هو الذى يقف وراء كل هذا البؤس والشقاء الذى تعيشه البشرية.

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٦٥

الخطبة السابعة عشرة

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

في صفة من يتصدى للحكم بين الامة وليس لذلك بأهل وفيها:
أبغض الخلائق إلى الله صنفان:

القسم الأول

إشارة

«الصنف الأول: إِنَّ أَبْغَضَ الْخَلَائِقِ إِلَى اللَّهِ رَجُلَانِ: رَجُلٌ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، مَشْغُوفٌ بِكَلَامِ بَدْعِهِ، وَدُعَاءِ ضَلَالِهِ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنْ افْتَنَّ بِهِ، ضَالٌّ عَنْ هِدْيِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مُضِلٌّ لِمَنْ اقْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ، حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ». [٦٨٦]

نظرة إلى الخطبة

وردت الخطبة- كما يتضح من عنوانها- في صفات من يتصدى للقضاء وهو ليس له بأهل

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٦٦

فيسوق الامة إلى الضلال والهاوية.

فقد صنف الإمام عليه السلام هؤلاء الأفراد إلى صنفين:

الصنف الأول: من يشق طريق الضلال عن علم ويحكم هوى النفس ويتدع في الدين فهو ضال لنفسه مضل لغيره.

الصنف الثاني: الجاهل المتشبه بالعالم ويجهل بجهله فهو يعيش الجهل المركب؛ وليس له ذرة مما يؤهله للتصدى للقضاء، فهو فريسة للخطأ والزلل والشبهات، يخرج الحق بالباطل ويريق دماء الأبرياء بغير حلها ويهدر الأموال لغير أصحابها. ويحتمل أن يكون المراد بالصنف الأول حكام الظلم والجور والبدعة والضلالة، والصنف الثاني القضاة الجهال. وعليه فكلمة الحكم الواردة في الخطبة ذات معنى عام واسع تشمل القضاء والحكومة.

ويختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى إلى الله من هؤلاء الأفراد الذين لولا ظهورهم للقرآن وحسبوا المعروف منكراً والمنكر معروفاً. وبناءً على ما تقدم فالخطبة على ثلاثة أقسام، يختص الأول والثاني منها بوصف هذين الصنفين والثالث بالشكوى إلى الله منهم ومن كان على شاكلتهم.

الشرح والتفسير

أبغض الخلائق

استهل الإمام عليه السلام كلامه بتصنيف أبغض الخلائق إلى صنفين

«إِنَّ أَبْغَضَ الْخَلَائِقِ إِلَى اللَّهِ رَجُلَانِ»

ومن البديهي أن للحب والبغض بالنسبة لله مفهوم يختلف عما هو عليه بالنسبة للانسان؛ لأنَّ الحب والبغض من قبيل الحالات والتغيرات التي تطرأ على روح الإنسان إثر رغبته واشمئزازه تجاه بعض الأشياء؛ بينما يكتسب الحب بالنسبة لله معنى الشمول بالرحمة والبغض معنى الطرد منها. ثم يخوض الإمام عليه السلام في صفات الصنف الأول؛ أي أصحاب الأهواء من الحكام، فيشير قبل أي شيء إلى

أصل بؤسهم وشقائهم، فقال عليه السلام:

«رجل وكله الله إلى نفسه»

. فروح الإنسان حية بالتوكل على الله والثوق بما عنده؛ أي أنه يسعى سعيه ويبدل

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٤٧

قصارى جهده من أجل النهوض بعمله وتطوير حياته، مع ذلك لا بد أن يعلم بأن الذات الإلهية هي مصدر كل خير وبركة ونعمة وعطاء. إلا أن الغرور والكبر وحب الذات قد يجعل الإنسان غافلاً عن هذه الحقيقة فيرى نفسه مستقلاً في مقابل الله فتتشوه بنظره جميع الأشياء.

هذا الانقطاع عن الله هو ايكال الإنسان إلى نفسه؛ وهو أساس بؤس الإنسان وشقائه. ومن هنا ترى رسول الله صلى الله عليه وآله لا ينفك عن التضرع إلى ربه منادياً:

«اللهم ... لا تكني إلى نفسي طرفه عين أبداً» [٦٨٧]

وهو ذات المعنى الذي صرح به أمير المؤمنين على عليه السلام:

«إلهي كفى بي عزا أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً» [٦٨٨]

كما ورد ذلك عن المعصوم عليه السلام قوله:

«إنك ان وكلتني إلى نفسي تقريني من الشر

وتباعدني من الخير» [٦٨٩].

وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من بيان السبب الرئيسي لشقوة هؤلاء حتى يتطرق إلى افرازات ذلك الشقاء ليجزها في ثمانية ارتبطت مع بعضها برباط العلة والمعلول فقال عليه السلام:

«فهو حائر عن قصد السبيل»

والمراد بقصد السبيل هو الحد الوسط الفاصل بين الإفراط والتفريط والذي يوصل الإنسان إلى الله؛ الأمر الذي أشار له القرآن الكريم بالقول

«وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» [٦٩٠]

ومن البديهي أن الإنسان إنما يستطيع تمييز السبيل - الذي صورته الروايات بأنه أرفع من الشعرة وأحد من السيف - من بين آلاف السبل الانحرافية إذا شملته الألفاظ والعنايات الإلهية؛ أما إذا انفصل عن الله ووكل إلى نفسه فانه سيعيش الحيرة والقلق التي تنتهي به إلى الضلال والسقوط في الهاوية.

الافراز الثاني

«مشغوف بكلام بدعة»

ومن هنا ينطلق نحو الافراز الثالث

«ودعاء ضلالة»

. شغف من مادة شغاف على وزن كلاف بمعنى المولع بالشئ حتى بلغ حبه شغاف قلبه، وهو غلافه؛ وهو التعبير الذي أورده القرآن الكريم بشأن حب زليخا لنبى الله يوسف عليه السلام على لسان طائفة من نساء مصر

«قد شغفها حباً»

، فالعبارة إشارة إلى أن مثل هؤلاء الأفراد

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٤٨

من ذوى حَبِّ الذات يتعلقون بشدة بأحاديثهم المبتدعة؛ التعلق الذى يؤدي إلى دعوة الآخرين إلى الضلال والانحراف. القرآن أيضاً يقول: «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ» [٦٩١]، وستتطرق فى الأبحاث القادمة- تأملات- إلى حقيقة البدعة ودوافعها ونتائجها. أما الوصف الرابع

«فهو فتنه لمن افتتن به».

وفى الصفه الخامسة والسادسه

«ضال عن هدى من كان قبله، مضل لمن اقتدى به فى حياته وبعد وفاته»

. المراد بمن كان قبله الأنبياء وأوصيائهم بالحق؛ فى إشارة إلى اتضاح سبيل الهداية مسبقاً بما لا يدع من مجال لسلوك طريق الضلال؛ مع ذلك فقد ولى ظهره لسبيل الهداية والقى بنفسه فى ظلمات الضلال. والأنكى من ذلك أن اضلال هؤلاء الأفراد للآخرين لا يقتصر على حياتهم فهم مدعاة للضلاله حتى بعد وفاتهم، فهم شركاء فى هذه الضلاله، حيث ورد فى الحديث النبوى المشهور:

«من سنَّ سنَّةً حسنَةً عمل بها من بعده كان له أجره ومثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سنَّ سنَّةً سيئَةً فعمل بها بعده كان عليه وزره ومثل أوزارهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» [٦٩٢].

فالعباره تحذير حاد لأولئك الذين يحثون الخطى نحو البدع ويشيدون صروح الضلاله، فى أن شقائهم وبؤسهم سوف لن يقتصر على حياتهم بل قد يتجاوز حتى مماتهم بالآلاف السنين وعليهم أن يدفعوا كفارة تلك البدع ويستعدوا لتحمل تبعاتها. كما ورد عن الإمام على عليه السلام تحذير شديد آخر فى الخطبة ١٦٤ حيث قال:

«وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به فأما سنه مأخوذة واحيى بدعة متروكة»

وأما الوصفان الأخيران المترتان على الصفات السابقة فهما

«حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته»

فالعباره ليست كلاماً تعدياً؛ بل هى منطقيه تماماً. وذلك لأن أياً معونه ومساعدته فى ارتكاب الذنب تعدد شركة فيه؛ ولما كان أتباع هؤلاء المضلين يقارفون الذنوب بمحض إرادتهم فلا ينقص من ذنبهم شيئاً، وهذا ما أشار له القرآن الكريم صراحة فى الآية ٢٥ من سورة النحل إذ قال «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٦٩

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ». [٦٩٣] والتعبير الآخر الذى اعتمده القرآن بشأن ارتهان الإنسان بذنبه هو تعبير غايه فى الروعه والدقه «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» [٦٩٤].

فكما أن المحجوز لا يطلق من العذاب مالم يكفر عن ذنوبه؛ كما أن التعبير باكمال بالنسبة لذنوب الآخرين هو الآخر تعبير عميق، كأن الذنوب (كما يفهم من كلمه وزر) حمل عظيم بثقل صاحبها ومن أسس لها وتصدده عن القرب الإلهي وتلقى به فى قعر جهنم. ومن هنا تتضح مدى خطورة الوادى الذى يسقط فيه من وكله الله إلى نفسه، وأى مصير مشؤوم ينتظره.

تأملان

١- ما البدعة ومن المبتدع؟

لقد ورد الدم فى هذه الخطبة للبدعة والمبتدع الذى يسوق الناس إلى الضلال؛ كما تضافرت الروايات الإسلاميه- إلى جانب سائر خطب نهج البلاغه- التى تدم البدعة وأصحابها، ومن ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» [٦٩٥]

. كما ورد عنه صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أبى الله لصاحب البدعة بالتوبة قيل يا رسول الله وكيف ذاك؟ قال: إنه قد اشرب قلبه حينها» [٦٩٦].

والبدعة في اللغة بمعنى الإتيان بشيء لا سابق له، أما فقهاء الإسلام فقد عرفوها باضافة شيء إلى الدين أو نقصانه دون قيام دليل معتبر على ذلك؛ ولما كانت المعارف والأحكام الإلهية واجبة الثبوت عن طريق الوحي والأدلة المعتمدة، فإن البدعة من الكبائر، وهي أساس نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٧٠

الفساد والانحراف، ولو لم تمنع البدع لأضاف الأفراد بعقولهم القاصرة إلى الدين ما شاءوا وانقصوا منه ما أرادوا، فلا يبقى من الدين شيئاً وتمحى آثاره؛ ولا شك أن قانون تحريم البدع هو الذى صان القرآن والإسلام وحفظه من تلاعب الجهال وأصحاب الأهواء. والذى ينبغي أن نخلص إليه مما سبق وعلى ضوء التعاريف الفقهية هو أن البدعة لا تشمل الاختراعات والابداعات العلمية والفنون الطبيعية والطبية والصناعية، كما لا تشمل التجديد في الثقافة والأدب والسنن والعادات والتقاليد. فالبدعة ما أحلت حراماً أو حرمت حلالاً وأضافت دين الله أو انقصت منه مما ليس فيه دون قيام دليل معتبر على تلك الاضافة أو النقصان، أو الإتيان بدين جديد ودعوة الناس إليه دون الاستناد إلى الوحي أو الدليل، هذه هي البدعة، وهي من الكبائر التي توعدها الله عليها بالعذاب. ومن هنا نقف على خواء الوهابية التي اعترضت حتى على ركوب الدراجة على أنها مركب الشيطان أو ما قام به بعض الاتباع ممن عمد إلى خطوط الهواتف فقطعها على أنها بدعة فمما لا شك فيه أن مثل هذه الأعمال تعد ممارسات حمقاء ليس لها أدنى صلة بمفهوم البدعة كما صورها الفقهاء، ومما يؤسف له أن تأريخ هذه الحركة ملئ بمثل هذه الممارسات الشائنة. ويمثلهم أولئك الذين سلكوا سبيل الإفراط تجاه هذه الحركة ليقولوا بعدم وجود أية ثوابت في الدين؛ الأمر الذى يهدد كافة قيم الدين ومثله ويعرضها للزوال، حيث يمهدون السبيل أمام هذا وذلك للدس في الدين ما شاءوا. ونختتم بحثنا هذا بما قاله أمير المؤمنين عليه السلام - في كلماته القصار، الكلمة ١٢٣:

«طوبى لمن ذل في نفسه ... وعزل عن الناس شره ووسعته السنة ولم ينسب إلى البدعة»

. فقد ورد السنة في الإمام مقابل البدعة، فمن أطاع الله واستن بسنة رسوله صلى الله عليه وآله فارق البدعة، أما من عصى الله وفارق سنة نبيه صلى الله عليه وآله فهو على البدعة، وهو ضال لنفسه مضل لغيره.

٢- أخطر الذنوب، حمل ذنوب الآخرين

تقتصر أغلب الذنوب على المسؤولية الفردية وإن كانت من قبيل الكبائر كالأفعال المنافية للعفة وشرب الخمر وسائر المحرمات، غير أن أخطر الذنوب هي تلك التي تدعو الآخرين لمقارفتها بحيث يبوء صاحبها بوزر تلك الذنوب من دون أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، وهذا ما يصدق على أئمة الظلم والفساد من أهل البدع الآمرون بالمنكر والناهون عن المعروف. وأحياناً تطالبهم تبعه الذنوب بل وتطالب نسلهم لقرون بعد مماتهم، وعلى الأثم أن يدفع

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٧١

ثمن ذنوب هؤلاء بأجمعها (كما أن العمل الصالح كذلك قد تشمله بركاته لقرون).

وقد صور القرآن الكريم وضع هؤلاء الأئمة بقوله «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» [٦٩٧]. وأعظم خطر تختزنه هذه الذنوب في الغالب عدم صدق التوبة عليها؛ وذلك لأن من شروط التوبة إزالة آثار الذنوب؛ فأنى للإنسان بإزالة آثار مثل هذه الذنوب التي قد تتخذ أبعاداً واسعة لتشمل منطقة بأكملها، أو موت الكثير من الأفراد على هذه الذنوب التي ساقهم

لارتكابها، أو ظهور الجيل الجديد الذى يعمل بهذه الذنوب بعد وفاته؟

بالتالى لابد لهذا الإنسان من التانى فى حركته، حذراً من مقارفة مثل هذه الذنوب التى لا سبيل للتخلص من تبعاتها «حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته».

نغمات الولاية، ج ١، ص: ٣٧٣

القسم الثانى: الجاهل المتشبه بالعالم

إشارة

«الصنف الثانى: وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلًا، مُوَضِعٌ فِي جُهَالِ الْأُمَّةِ، عَادٍ فِي أَعْبَاشِ الْفِتْنَةِ عَمَّ بِمَا فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ؛ قَدْ سَيَّمَاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِمًا وَلَيْسَ بِهِ، بَكَرٌ فَاسْتَكْتَرَّ مِنْ جَمْعٍ؛ مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ، حَتَّى إِذَا ارْتَوَى مِنْ مَاءِ آجِنٍ، وَاکْتَثَرَ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ، جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِيًا ضَامِنًا لِتَحْلِيصِ مَا التَّبَسَّ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى الْمُبْهَمَاتِ هَيَّا لَهَا حَشْوًا رَنًّا مِنْ رَأْيِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ، فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسِيجِ الْعَنْكَبُوتِ: لَا يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ: فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ - جَاهِلٌ خَبَّاطٌ جَهَالَاتٍ، عَاشَ رَكَّابٌ عَشَوَاتٍ، لَمْ يَعْضْ عَلَى الْعِلْمِ بَضْرُوسٍ قَاطِعٍ، يَذْرُو الرُّوَايَاتِ ذَرْوَةَ الرِّيحِ الْهَشِيمِ. لَا مَلِيٍّ وَاللَّهِ يَاصِدَارٍ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ وَلَا أَهْلٌ لِمَا قُرْطُ بِهِ، لَا يَحْسَبُ الْعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، وَلَا يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَبًا لغيره، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ اكَتَمَ بِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ، تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدَّمَاءِ، وَتَعَجُّ مِنْهُ الْمَوَارِيثُ».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان الصنف الأول بشكل جامع، تطرق إلى صفات الصنف الثانى ليتحدث عن ذلك الشخص الذى يغطى فى هالة من الجهل والتخبط فى حين يرى نفسه عالماً دون الاستناد إلى ركن وثيق من علم أو عالم. فيبين بادئ ذى بدء خمس

صفات لمثل هؤلاء الأفراد. الاولى

«ورجل قمش جهلاً»

فاستناداً إلى ما أورده أرباب اللغة بشأن مفردة

نغمات الولاية، ج ١، ص: ٣٧٤

القمش التى تعنى جمع الأشياء المتناثرة دون تناسب وكذلك بمعنى الأشياء التى لا قيمة لها، فان الذى يفهم من كلام الإمام عليه السلام أن هؤلاء الجهال المتشبهون بالعلماء إنما يتجهون صوب خواء من العلم الذى يفتقر إلى القيمة كما يفتقر إلى النسبة المنطقية. وقد علق المرحوم العلامة الخوئى فى شرحه لهذا الكلام على أنهم يحصلون على المعلومات من فم هذا وذاك ومن الروايات الضعيفة غير المعتمدة وعن طريق القياس والاستحسان والمصادر من هذا القبيل (ذات الحجم الكبير والقيمة القليلة أو المعدومة).

الصفة الثانية أنه يهرع بسرعة فى أوساط الجهال من عوام الأمة ليجمع له بعض الأنصار:

«موضع [٦٩٨] فى جهال الأمة»

ومن الطبيعى ألا- يهب لنصرة هؤلاء ويتمحور حولهم سوى تلك الطائفة من الجهال، وليس لهؤلاء من مكان بين العقال. فههدفهم هو لفت انتباه الجهال إليهم والنفوذ فى أوساطهم لأنهم يعيشون اليأس من اقتحام دنيا العقلاء.

الصفة الثالثة

«عاد [٦٩٩] فى أعباش الفتنة»

بالالتفات إلى أن بعض أرباب اللغة [٧٠٠] قد عنى غيش من مادة أغباش بشدة الظلمة أو ظلمة آخر الليل التي تعتبر أفضل فترة للسارقين واللصوص، يتضح أن مثل هؤلاء الأفراد يفكرون دائماً في الاصطياد من ماء الفتن. فهم يهربون دائماً من النور والضياء ويلوذون بالظلمة وعمته الليل كفرصة مناسبة من أجل خداع الجهال؛ ولا غرو فلو تبددت ظلمة الفتنة وبزغت شمس العلم والمعرفة لانكشف النقاب عن صورتهم الحقيقية ولافتضحوا أمام القاصي والداني.

وأشار عليه السلام إلى الصفة الرابعة من صفات تعاسة هؤلاء الأفراد

«عم بما في عقد الهدنة» [٧٠١]

. ومن الواضح أنه ليس المراد بالهدنة هنا الصلح بين المسلمين وغير المسلمين، لأن الكلام وبشهادة العبارات اللاحقة وارد بشأن القاصي بين الناس. وبناءً على هذا فالمراد بالهدنة الصلح بين الناس وحل المنازعات بالطرق السلمية؛ وبعبارة أخرى فإن الهدنة هنا تقابل

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٧٥

الفتنة التي ذكرت في العبارة السابقة. وبصورة عامة فإن مثل هؤلاء الأفراد إنما ينشدون تعميق هوة الاختلافات وتشديدها ليتسنى لهم تحقيق أطماعهم ومآربهم الخبيثة، والحال لو علموا أن الصلح والسلام بين الناس إنما يعود بالنفع على جميع الأفراد، وليس هنالك من ينتفع بالنزاع والشقاق، لما اتجهوا إلى مثل هذه الامور. نعم ان هؤلاء الأفراد عمى عن مشاهدة الحقيقة فضلاً عن ادراكها.

وقال عليه السلام في صفتهم الخامسة

«قد سماه اشباه الناس عالماً وليس به»

يبدو أن قوة الجاذبية التي تربط ذرات هذا العالم في الأرض والسماء بحيث يميل كل موجود وينجذب إلى شبيهه، فإن هذه القوة تحكم هذه الفئات والأفراد أيضاً. وما أروع تعبيره عليه السلام عن أتباع من تشبه بالعلماء بأشباه الناس، في إشارة واضحة إلى أن أشباه الناس هم خدمة أشباه العلماء.

ومن البديهي أن شباهة هؤلاء بالناس كشباهة أئمتهم الجهال بالعلماء إنما هي شباهة صورية ليس أكثر، وغالباً ما يستعمل هذا التعبير بشأن الموارد ذات الشبه الصوري كقوله عليه السلام في الخطبة ٢٧ من نهج البلاغة

«يا أشباه الرجال ولا رجال».

وما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان صفاتهم حتى تطرق إلى جانب من أفعالهم القبيحة النابعة بصورة مباشرة من تلك الصفات ونقاط الضعف التي تحكم كياناتهم، فقال عليه السلام:

«بكر [٧٠٢] فاستكثر من جمع؛ ما قل منه خير ممّا كثر» [٧٠٣]

. يمكن ان تكون هذه العبارة إشارة إلى الإمكانيات المادية والذنبوية التي تؤدي كثرتها إلى الغفلة والتكبر والانهماك الدائم بالماديات والابتعاد عن المعنويات؛ وغلباً ما يكون قليلها أفضل من كثيرها وأن الكفاف والعفاف أقرب إلى السعادة والفلاح من التكاثر والتفاخر. أو إشارة إلى فضول الكلام والمسائل العلمية التي لا طائل من وراءها على حساب الاصول والمبادئ وذهب البعض إلى أن المراد بها الآراء الباطلة والعقائد الفاسدة، ولكن يبدو هذا الاحتمال مستبعداً؛ لأن القليل من هذه الآراء والعقائد فيه الضرر

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٧٦

أيضاً، وإن كان هذا التفسير لا ينسجم وبعض العبارات القادمة. ثم قال عليه السلام:

«حتى إذا ارتوى من ماء آجن [٧٠٤] واكثر من غير طائل [٧٠٥]، جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره».

أجل أن هذا الفرد الجاهل والضال المتشبه بالعالم الذي يتمتع برصيد علمي مشوه مفعم بالأخطاء وله روح ونفس ولعة بعالم المادة شغفة بزخارف الدنيا وزبرجها، إنما وضع نفسه في موضع لا يتصدره سوى نبي أو وصي، كما ورد ذلك في الحديث المعروف عن

الإمام على عليه السلام حين خاطب شريح القاضي قائلاً:

«يا شريح قد جلست مجلساً لا يجلسه إلا نبي أو وصى نبي أو شقي» [٧٠٦]

، والأدهى من ذلك يزعم أن هنالك حقائق، ولا غرو فهذه هي المزاعم والادعاءات الفارغة التي يتشدق بها كافة الجهال المتشبهين بالعلماء.

والآن بعد أن تصدى هذا الجاهل للقضاء فما عساه أن يفعل، قال الإمام عليه السلام بهذا الشأن:

«فان نزلت به احدى المبهمات هيا لها حشوا رثامن رأيه، ثم قطع به».

الحشو بمعنى الكلام الزائد الذي لا فائدة فيه، والرث بمعنى الخلق القديم ضد الجديد، فقوله عليه السلام: «حشوا رثامن رأيه» كأنها إشارة إلى أنه ليس من أهل الخلاقية والمبادرة، كما ليس له ذهنية متفتحة، وأخيراً لا يمكنه أن يجمع الأدلة المقيدة التي تعينه على اصدار الحكم. فليس له رصيد سوى حفنة من الأفكار الزائدة التي لا طائل من وراءها وهي رثة قديمة أكل الدهر عليها وشرب، وهذا هو اسلوبه وديدنه ويقينه في الحكم.

ومن الطبيعي أن لا- تؤدي هذه المقدمات الباطلة والفاسدة إلى أى يقين، فهو يخدع الناس متظاهراً لهم باليقين، وعلى فرض كونه وصل إلى اليقين فانه ليس معذوراً عند الله لأنه سلك الخطأ والتقصير في المقدمات. فالمشاكل القضائية كسائر المشاكل العلمية والاجتماعية والسياسية إنما تعالج دائماً عن طريق دراسة المقدمات الصحيحة والمنطقية؛ فذلك الذي ليست لديه أدنى معرفة بهذه المقدمات الصحيحة وقد تعلقت أفكاره بالمسائل الباطلة فإنه ليس

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٧٧

فقط لا- يتوصل إلى النتيجة الصائبة فحسب، بل سيغبط في هاله من الحيرة والتخبط والضلال كما سيسوق الآخرين إلى الضلال؛ والانكى من ذلك أنه كلما تقدم أكثر في هذا المجال ابتعد أكثر عن الوقائع والحقائق.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه «فهو من ليس الشبهات في مثل نسج العنكبوت [٧٠٧]». وقد اختلفت أقوال الشراح بشأن التشبيه الذي استعمله الإمام عليه السلام في هذه العبارة، فأوردوا بعض التفاسير التي لا تخلو من التكلف والتقدير والتغيير في العبارة- أما التفسير الذي يبدو مناسباً هو أن الإمام عليه السلام شبه هؤلاء الأفراد الجهال المغرورين ضعيفي الفكر بالعنكبوت حيث ينسج لنفسه خيوطاً تكون حرزاً لبيته كما تكون فخاً لصيده، أمّا بيته فهو أوهن البيوت ولا- يمكن الوثوق به أبداً، كما أن فخه لا- يطيل سوى الحشرات الضعيفة العاجزة.

نعم هذا الجاهل أيضاً ليس لفخه من دور سوى صيد أمثاله من الجهال الحمقى. وعليه فهو كالعنكبوت وأفكاره كخيوطه وهمية ضعيفة وحيدة يقتصر على المغفلين عديمي العلم والمعرفة.

«لا يدري أصاب أم أخطأ، فان أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وان أخطأ رجا أن يكون قد أصاب»

. هذا هو حال الأفراد الجهال الذين يتصدون إلى المناصب الهامة التي لا يمتلكون الجدارة لممارستها. فهم على شك وترديد دائماً، حتى أن اتجهت صوب الصواب فحيث لا- يؤمن بذلك فهو مترلزل يطلق سهمه في الظلام دائماً عله يصيب الهدف. ويتصور بعض شراح نهج البلاغة أن الجملة الأخيرة تتناقض والعبارة

«ثم قطع به»

لأن تلك العبارة تحدثت عن القطع واليقين بينما تحدثت هذه العبارة عن الشك والترديد. والحال أن العبارة

«ثم قطع به»

تعنى الحكم القاطع لا- قطع القاضي ويقينه، فالواقع أنه يحكم فقط ويتخذ لنفسه صيغة القطع، بينما يفيض باطنه بعاصفة من الشك والترديد. نعم مصيبتة الكبرى في دينه، فان أصاب الواقع مصادفة شعر بالترلزل لأنه لا يملك الإيمان واليقين، وان هذا التزلزل يؤرقه

ولا يجعله قادراً على اتخاذ القرار؛ وان أخطأ فان سبيل الرجوع مغلق بوجهه لأنه ليس واقفاً على خطأه. ثم انتقل الإمام عليه السلام إلى صفة أخرى ليصور حال هؤلاء الأفراد بتعبيرات قارعة

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٧٨

وتشبيهات غاية في البلاغة والجمال فقال عليه السلام:

«جاهل خباط [٧٠٨] جهالات»

، فهو كالأعمى في الظلمات المليئة بالمخاطر

«عاش ركاب عشوات» [٧٠٩]

فالإمام عليه السلام لا يكتفى بوصفه بالجاهل، بل يؤكد ذلك ليصفه بأنه يغط دائماً في هالة من الجهل، كما لا يكتفى الإمام عليه السلام بعشوته وعماه بل يصوره بأنه يمتطي الظلمة والعمى ويحث السير دون أن يعلم أين يسير وإلى أين سينتهي به هذا المسير. المفردة عاش من مادة عشا، فسرت بالعمى المطلق، كما فسرت يضعف الرؤية وقيل أيضاً يراد به عشوة الليل، ومهما كانت فإن المراد هو أن صاحبها لا يستطيع رؤية ما حوله من الأشياء، فاذا ما تحرك سقط في الهاوية، بل قادته حركته إلى الجحيم، وهذا هو حال من يتصدى للقضاء بين الناس دون الاستناد إلى العلم والمعرفة ويزج بنفسه في هذا الطريق الشائك المليء بالمخاطر، فكلما مر عليه يوم من حياته كثر بؤسه وشقائه لنفسه وللناس حتى ينتهي به المطاف إلى السقوط في وادي الكفر والضلال، والأنكى من كل ذلك أن مثل هذا الفرد يرى نفسه عالماً ضالماً بموازين القضاء والحق والعدل فلا يسع أحد احصاء خطاياهم وذنوبهم!

ثم ينتقل الإمام عليه السلام لبيان صفة أخرى من صفات هذا الجاهل المتخبط

«لم يعرض على العلم بضرر قاطع»

، فقد شبهه الإمام عليه السلام بمن يتناول الطعام دون المضغ بحيث لا يسع الجسم هضمه. ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بالضرر هنا سن العقل الذي يظهر في مرحلة تكامل العقل، وكأن هؤلاء الجهال ليس لهم سن عقل، فهم لا يقيمون القضايا بشكل سليم، وبالمقابل هنالك الأفراد العلماء والحلماء الذين يتحدثون بالضرر القاطع؛ أي أن حديثهم يستند إلى أسس العقل والمنطق السليم.

وقال عليه السلام في صفتهم الثالثة أنهم كالريح العاصف التي تهلك الحرث والزرع فهي تهب هوجاء دون هدف وهذا حال تعامل الجاهل مع الروايات الإسلامية

«يذرو [٧١٠] الروايات ذرو الريح الهشيم [٧١١]»

. إشارة إلى أنه يطالع ظاهرياً الموضوعات التي تصدت لبيانها الروايات

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٧٩

والسنة النبوية، ولكن ما جدوى ذلك وهو يفتقر إلى تقييمها الصحيح، فهو لا يمتلك العلم بمضمونها ولا بقوة سندها من ضعفه، كما لا يعرف الجمع بين الروايات المتعارضة ولا يميز المحكمة من المتشابهة. فهو بالضبط كالريح الهشيم التي تذرو النباتات هنا وهناك. فالنباتات الجافة (الهشيم) قد لا تكون لها أية فائدة، بينما قد تفيد إذا جمعت، أما الريح الهوجاء تزيل حتى هذه الفائدة الضئيلة من خلال ذروها وتفريقها، وهذا ما عليه الحال بالنسبة للأفراد الجهال الذين يتعاملون مع الروايات دون أن تكون لهم معرفة صحيحة بغشها من سمينها وصحيحها من سقيمها.

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى صفتهم الرابعة، ليقسم بأن هؤلاء الجهال ليسوا حريين بحل ما ترد عليهم من قضايا ولا جديرين بأدنى مدح واطراء يمارسه المتلمقون تجاههم

«الاملى - والله - باصدار [٧١٢] ما ورد عليه، ولا أهل لما قرظ [٧١٣] به».

مما لا شك فيه أن الفصل في الخصومات القضائية والذي يصطلح عليه الفقهاء برد الفروع إلى الأصول إنما يتطلب رصيذاً علمياً ثراً لا يتحلى به هؤلاء الجهال المغرورون، وهذه الضحالة العلمية تفحمهم وتجعلهم يضلون سبل التعامل مع القضايا فلا يميزوا كيفية الدخول فيها أو الخروج منها (المراد بالدخول والخروج هنا ما تعارف بشأن الموضوعات المطروحة على العلماء فيقال أن فلاناً يعلم كيف يرد هذه المسائل وكيف يخرج منها، والفرد الجاهل يفتقر بالمرّة لهذه المسألة).

أما إحدى مشاكل هؤلاء الأفراد هي إطاحتهم بثلة من المتملقين الذين يهدفون إلى تحقيق مطامعهم الدنيوية فيطرونهم بمختلف ألوان المدح والثناء ويضفون عليهم ما لا يستحقونه من الصفات، فيطرب هؤلاء الجهال لمثل هذه الأكاذيب والنعوت الفارغة رغم علمهم بكذبها وزيفها إلماً أنهم وبمرور الزمان يظنون أنهم كذلك وهذه قمة البؤس والشقاء التي يبلغونها بحيث تغلق أمامهم كافة سبل النجاة. [٧١٤]

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٨٠

وقال عليه السلام في صفتهم الخامسة

«لا يحسب العلم في شيء مما أنكره، ولا يرى أن من وراء ما بلغ مذهباً لغيره»

. والواقع أن هذا من لوازم الضحالة الفكرية وضيق العلم والمعرفة حيث يرى الإنسان نفسه هو العلم الكامل فينكر كل ما ورائه فلا يرى من حرمة لأفكار الآخرين وعلومهم، بينما لا يرى العالم الحق في العلم والمعرفة سوى الاعتراف بالجهل، فيسوقه ذلك إلى التواضع للآخرين والاستماع إلى أقوالهم «فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» [٧١٥] فهم يستمعون إلى الآخرين ويصطفون أحسن ما يرد في كلامهم، في حين يطالعك الجاهل المغرور الذي يتحدث على سبيل القطع وهو ليس على شيء.

وصفته السادسة التي ذكرها الإمام عليه السلام:

«وان أظلم عليه أمر اكنتم به لما يعلم من جهل نفسه»

هذا هو الفارق والحد الفاصل بين العالم والجاهل، فالعالم إذا عرض له أمر مبهم كرس له اهتمامه فان صعب عليه حله وإزالته ابهامه استشار من حوله واستفاد من أفكارهم وانفتح على تجاربهم، بينما يهمله الجاهل ويمر عليه مروراً عابراً، لأن يعلم بأن التعامل معه والتفكير فيه لا- تزيد سوى فضيحة. وزبدة الكلام فهو يعمل على الخلاف مما ورد في الروايات الإسلامية بعدم الحياء من قول لا أدري إذا عرض عليه ما لا يعلمه ولا ينبغي أن يستنكف عن تعلمه «ولا يستحين أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه» [٧١٦]. والواقع هو أن عدم الالتزام بمضمون هذه الرواية إنما يقود إلى اضرار فادحة تطيل الشخص والمجتمع الذي يعيش كواحد من أفراد.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى حصيلة عمل هؤلاء القضاة الجهال عديمي الورع والتقوى بقوله:

«تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعج [٧١٧] منه المواريث»

. أجل فما أكثر الدماء التي تسفك والأموال التي تهدر وهي تضح بصراخها من الأحكام المجحفة التي يصدرها هؤلاء القضاة الجهال، فيطرق هذا الصراخ ضمير السامع فيهبز أعماقه، بينما يعيش هذا الجاهل نشوة الغرور

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٨١

فلا يسمع ولا يرى ما حوله. أما تعبيره عليه السلام ب

«تصرخ»

و

«تعج»

فهو تعبير في منتهى الروعة والجمال، حيث عبر عن الدماء التي تراق من غير حلها بالصراخ وكأن لهذه الدماء علم وشعور وإدراك،

فى حين ليس لهذا الجاهل المغرور مثل هذه المعانى فهو يعيش فى جهل مطلق.
ومن هنا نعتقد بأن ما ذكره بعض الشراح من أن فى الجملة تقدير ينسبون من خلاله هذه الصراخ إلى أولياء الدم وأصحاب الأموال إنما يقضى على هذه اللطافة والروعة فى التعبير.
على كل حال فان رسالته القضاء والقضاء التى تهدف إلى حفظ دماء الناس وأموالهم إنما تضع فى ظل تصدى هؤلاء الجهال لمسند القضاء؛ الأمر الذى يقود بالتالى إلى تغييب أمن المجتمع وسيادة الفوضى.
والكلام شبيه ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى رواية «أبو ولاد» حين سمع عليه السلام اصدار بعض الأحكام القضائية الظالمة فقال:
«فى مثل هذا القضاء وشبهه تحبس السماء ماءها وتمنع الأرض بركاتهما» [٧١٨].

تأملات

١- آفات علماء السوء

لقد أشار الإمام عليه السلام فى الخطبة إلى الآفات الخطيرة للجهال المتشبهين بالعلماء وعلماء السوء الذين يشقون أنفسهم وقومهم. وقد تتسبب بعض هذه الأخطار والآفات فى سفك دماء الأبرياء وهضم حقوق المظلومين المستضعفين، فتصرخ تلك الدماء من الأحكام الظالمة كما فان الأموال المهذورة من القضاء الجائر. فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله:
«من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح» [٧١٩]
كما قال صلى الله عليه وآله:
«من أفتى الناس بغير علم وهو لا يعلم
الناسخ من المنسوخ والمحكم من المتشابه فقد هلك وأهلك» [٧٢٠].
والعجيب أن هؤلاء الأفراد كلما عملوا أكثر كان ضررهم أعظم، وهذا ما أشار إليه الإمام
نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٨٢
الصادق عليه السلام:
«العالم على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلا بعداً» [٧٢١].

٢- علم كخيطة العنكبوت

لقد شبه عليه السلام علم هؤلاء الجهال المتلبسين بزى العلماء بخيوط العنكبوت؛ وهو التشبيه الذى اقتبس فى الواقع من القرآن الكريم - سورة العنكبوت - الذى شبه أولياء المشركين ببيت العنكبوت «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ». والعنكبوت ينطوى على بعض خصائص العجائب فى الخلق. فالعنكبوت تنسج خيوطها من قطرة لزجة غاية فى الصغر فى بطنها تلصقها فى الخارج بمساعدة مخلبها؛ حيث لهذا المانع تركيب خاص يتصلب وينجم بمجرد ملامسته للهواء، ويعتقد بعض العلماء أن للعنكبوت القدرة على نسج ما يعادل خمسمئة متر من هذه الخيوط بالاستفادة من تلك المادة اللزجة الصغيرة. وهذه الخيوط هى التى تشكل بيت العنكبوت وفخه، إلا أن القرآن أشار إلى أن أوهن البيوت هو بيت

العنكبوت، فأية ريح مهما كانت خفيفة تحطم هذا البيت، كما أن قطرة الماء تخترقه، وأدنى شعله نار تخربه، بل ليس له قابلية استقطاب التراب والغبار فهي الاخرى تقضى عليه، وهذه هي الصورة الحقيقية لأولياء الشرك وعلم الجاهل. فالعلماء الذين يستندون في علمهم إلى القياس والاستحسان وما إلى ذلك إنما علمهم كبيت العنكبوت أجوف هزيل لا يصمد أمام شيء وليس من شأنه فعل شيء.

كما يفهم من هذا التشبيه بشأن هؤلاء الجاهل المتشبهين بالعلماء أن فرائسهم كفرائس العنكبوت حيث ينحصر في الأفراد الضحلين الذين لا قيمة لهم كفرائس العنكبوت من الحشرات النافهة.

٣- اطراء المتملقين

لقد تطرق الإمام عليه السلام في الخطبة إلى عدم استحقاق هؤلاء إلى المدح والثناء الذي يكيه لهم

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٨٣

التملقون من أشباه الرجال؛ وهو الأمر الذي يستبطن البلاء الذي يعود على هؤلاء الجاهل إلى الاعتقاد بالتدريج أن لديهم العلم والمعرفة والجدارة والأهلية، فيرون في أنفسهم الكفاءة في التصدي لهذا المنصب الخطير الذي يؤدي بالتالي إلى هلاكهم واهلاكهم. فضرر هؤلاء المتملقين الذين يحيطون بهؤلاء الجاهل ويسوقونهم للتصدي للقضاء لا يقل عن خطر هؤلاء الجاهل في التصدي إن لم يكن أعظم وأفدح؟ الأمر الذي ذمه القرآن الكريم إلى جانب الروايات الإسلامية. ومن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إذا مدح الفاجر اهتز العرش وغضب الرب» [٧٢٢]

وقال صلى الله عليه وآله:

«من مدح سلطاناً جائراً وتخفف وتضعف له طمعاً فيه كان قرينه إلى النار» [٧٢٣]

. ومن هنا ورد التحذير من مطلق المدح والاطراء لتنبه إلى ذلك حتى الأفراد من أهل الورع والتقوى إلى الأخطار التي ينطوى عليها هذا المديح، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«احتوا في وجوه المداحين التراب» [٧٢٤]

وهذا ما حذر منه أمير المؤمنين عليه السلام مالك الأشتر في عهده الذي عهده إليه حين ولاه مصر بعد أن دعاه إلى مجالسة أهل الورع والتقوى والصدق:

«ثم رضهم على ألا يطروك ولا يجحوك بباطل لم تفعله فان كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدنى من العزة» [٧٢٥].

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٨٥

القسم الثالث

إشارة

«إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهالاً، ويموتون ضلالاً، ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلى حق تلاوته، ولا سلعة أنفق بيعة ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حُرّف عن مواضعه ولا عندهم أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر!».

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى إلى الله بقلب كسير وأنين متواصل من مثل هؤلاء الجهال المتشبهين بالعلماء والقضاء من عبدة الأهواء والشهوات الذين مردوا على الغرور وحب الذات، فقال عليه السلام:

«إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهالاً، ويموتون ضلالاً»

. والواقع هو أن الإمام عليه السلام ينعته بصفات أخرى استمراراً لما وصفهم به في السابق، فحياتهم بأكملها جهل في جهل فلم يكن موتهم سوى ضلال في ضلال (ففي الحقيقة ان العبارة الثانية نتيجة حتمية للعبارة الاولى) فكيف لا يموت على الضلال من يفنى عمره في الجهل.

أما الصفة الأخرى لهم والتي تعدّ علامة فارقة للتعرف عليهم هي:

«ليس فيهم سلعة» [٧٢٦]

أبور [٧٢٧] من الكتاب إذا تلى حق تلاوته، ولا سلعة أنفق [٧٢٨] بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٨٦

صرف عن مواضعه»

. إنهم يريدون قرآناً ينسجم مع أهوائهم وأغراضهم الفاسدة ونياتهم السيئة، ولما كان القرآن بتفسيره الحق لا ينسجم مع تطلعاتهم، فهم يبنذوه ويعمدون إلى تحريفه وتفسيره برأيهم وما تمليه عليهم خيالاتهم.

والنقطة الجديرة بالذكر هنا هي أنهم يعيشون في وسط يكن للقرآن منتهى القدسية والاجلال والاكبار على أنه وحى الله الذي أوحاه إلى نبيه صلى الله عليه وآله؛ الأمر الذي يدفع بهم ولتحقيق أغراضهم ومآربهم إلى التظاهر بالانضواء تحت رايته فيسعون جاهدين لاضفاء الصيغة القرآنية على تحريفاتهم وتفسيراتهم الخاطئة، فيعود هذا الكتاب السماوي الذي يفيض نوراً وهداية إلى وسيلة لاضلال الناس.

أما الصفة الأخيرة التي ينعته بهم الإمام عليه السلام فهي

«ولا عندهم أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر».

نفحات الولاية؛ ج ١؛ ص ٣٨٦

ملاحظة

التفسير بالرأى وقلب الحقائق

إن أعظم فارق بين المؤمنين المتقين وعديمي التقوى إنما يكمن في كون الفريق الأول يتعامل مع القرآن الكريم والأحكام الشرعية كأصل ثابت ويسعى لتكليف إرادته وشؤونه على ضوئه، فان شعروا بأنهم أخطأوا أو خرجوا من دائرة تلك الأحكام ندموا وتضرعوا إلى الله وطلبوا منه العفو والمغفرة «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ».

أما الفريق الثاني الأناي المغرور فهو يمنح هذه الأصالة لإرادته وأهوائه الطائشة التي لا تعرف القيود والحدود، فهو يسعى لتكليف الآيات القرآنية مع أهوائه ورغباته؛ ولا عجب

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٨٧

فهو يرى نفسه الأصل والقرآن الفرع، فالأحكام الإلهية محترمة لديه ما كانت منسجمة مع هواه وهوسه، فان لم تكن كذلك ضربها عرض الجدار. ومن هنا وصفه القرآن بالازدواج في التعامل مع الآيات القرآنية «تُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكَرُ بِبَعْضٍ» فهو مصداق بارز لقوله سبحانه «أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ». أما الاسلوب الآخر الذي درج عليه هذا الفريق فأنما يكمن في التحريف المعنوي للقرآن وتفسيره

برأيه، ولا- ينشد من ذلك سوى خداع الناس أحياناً أو خداع نفسه أحياناً أخرى وهذا ما ذمته بشدة الآيات القرآنية والروايات الإسلامية. فقد أشار القرآن الكريم إلى اليهود التي مارست هذا الاسلوب بالقول: «أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْتَمِعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعِيدٍ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» [٧٢٩] ومن المسلم به أن مثل هؤلاء الأفراد لا يسلمون لأية حقيقة تطرح عليهم، أنهم كخفافيش الليل التي تعادى الشمس الحقة، وفوق ذلك أنهم لم يؤمنوا بالله طرفه عين؛ ولذلك ورد في الحديث النبوي الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«قال الله جل جلاله: ما آمن بي من فسر برأيه كلامي» [٧٣٠].

كما قال صلى الله عليه وآله:

«أشد ما يتخوف على امتي ثلاث: زلة عالم، أو جدال منافق بالقرآن، أو دنيا تقطع رقابكم» [٧٣١].

أما الحديث عن التفسير بالرأى ومفهومه والأخطار المترتبة عليه فهذا ما سنعرض له في محله في الأبحاث القادمة إن شاء الله.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٨٩

الخطبة الثامنة عشرة

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

في ذم اختلاف العلماء في الفتيا وفيه يذم أهل الرأى ويكل أمر الحكم في أمور الدين للقرآن. [٧٣٢]

القسم الأول

إشارة

«تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ فَيُحْكَمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ فَيُحْكَمُ فِيهَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقَضَاءُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ فَيَصُوبُ آرَاءُهُمْ جَمِيعاً، وَإِلَهُمْ وَاحِدٌ! وَنَبِيِّهِمْ وَاحِدٌ! وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ!».

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٩٠

نظرة إلى الخطبة

يعتقد بعض المحققين - كما ذكرنا سابقاً - أن هذه الخطبة هي جزء من الخطبة السابقة وقد فككها الشريف الرضى (ره)؛ الأمر الذي يؤيده مضمون الخطبة ومحتواها؛ فالخطبة السابقة تحدثت عن القضاة والجهال المنحرفين الذين يصدر عن الأحكام الجائرة في قضائهم بما يهدد بالصميم أمن الأمة وصيانة عرضها وأموالها وأنفسها وبالتالي استشراف الفوضى والفساد في صفوف المجتمع.

كما تحدثت هذه الخطبة هي الأخرى عن القضاة الذين يستندون في أحكامهم إلى الأدلة الواهية الضعيفة من قبيل القياس والرأى والاستحسان فتوصلهم إلى نتائج خاطئة، والأنكى من ذلك يصوب رئيسهم كل هذه الأحكام المتناقضة ويرى فيها أحكام الله المطابقة للواقع. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى ابطال نظرية التصويب (النظرية التي ترى أن آراء القضاة وفتيا الفقهاء تمثل الأحكام الإلهية الواقعية رغم تضادها وتضاربها مع بعضها)، على أساس الأدلة المنطقية التي تفند مثل هذه العقيدة، ثم يكشف النقاب عن السبيل الذي

يقود إلى الحق في هذه القضايا الإسلامية التي ضل فيها الكثيرون.

والخطبة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في الحديث عن الأسلوب الذي اعتمده القضاء في تعاملهم مع القضايا والتي تستبطن الأحكام المتناقضة التي تخالف أحكام الله.

والقسم الثاني: في إبطال النظرية التي تصرح بصواب الجميع.

وأخيراً القسم الثالث الذي يتحدث في الإمام عليه السلام عن عظمة القرآن وكونه المرجع الفصل في حل جميع الاختلافات.

الشرح والتفسير

ما علة كل هذا الاختلاف؟

يستهل الإمام عليه السلام كلامه بالقول:

«ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٩١

فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله»

ثم أردفه عليه السلام بالقول

«ثم يجتمع القضاء بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً، وإلهمم واحد أو نبيهم واحد! وكتابهم واحد».

ولعل هذه المسألة تبدو عجيبة للأعم الأغلب من الناس صعبة التصديق لديهم في أن تصادق جميع الآراء المتضاربة والمتناقضة على أنها أحكام الله؛ إلا أنها واقع قائم تبلور بشكل عقيدة لدى طائفة إسلامية من أبناء العامة. ولو تأملنا العلل والدوافع التي ساقته هذه الطائفة إلى هذا الاعتقاد- والذي سنتطرق إلى تفاصيله في الأبحاث القادمة- سنكتشف أنهم جعلوا أنفسهم في زاوية ضيقة حرجة لم يبق أمامهم من سبيل للخروج من هذا المأزق سوى اللجوء إلى عقيدة التصويب.

إلا أن الإمام عليه السلام يوجه ضربة قاصمة إلى دعائم هذه العقيدة المنحرفة بقوله

«والهمم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد».

فمما لا شك فيه لا يصدر من الله الواحد في مسألة واحدة سوى حكم واحد، فهو العالم بكافة الحقائق المحيط بجميع الأشياء فيحكم فيها بحكم واحد على ضوء المصالح والمفاسد.

فلا يخطئ في هذا الحكم ولا- من سبيل للنسيان إلى ذاته المقدسة ليختلف الحكم ولا- يندم ولا- ينكشف له بمرور الزمان ما كان مجهولاً- إذن فلا يمكن تصور الاختلاف من جانب الله أبداً.

أضف إلى ذلك فإن نبيهم واحد، وهو معصوم في إصدار الأحكام، فيبين الحكم الإلهي دون زيادة أو نقصان، وعليه فليس هنالك اختلافاً من جانبه أيضاً. وأخيراً كتابهم واحد؛ الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس للتحريف من سبيل إليه، فهو يستند إلى الوحي الإلهي الذي يأبى الاختلاف والتضاد؛ فهو كتاب الله «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا» [٧٣٣].

إذن فليس هنالك اختلافاً من جانب الكتاب. فهذه العبارات في الواقع مقدمة لما سيأتي

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٩٢

من كلام في أن هذا الاختلاف إنما ينبع من أفكارهم القاصرة وعجزهم العلمي، وبعبارة أخرى فإن هذه العبارات اجابه ورد على مسألة التصويب التي تعرض لها الإمام عليه السلام بصورة مفصلة لاحقاً.

والواقع هو أن الاعتقاد بالتصويب وصحة الآراء المتناقضة إنما هو انحراف عن أصل التوحيد ونزوع نحو نوع من الشرك. فالتوحيد

الإلهي يعنى أن الله واحد، وتوحيد النبوة يرى أن نبوة أولى العزم واحدة في كل عصر، وتوحيد الشريعة في أن الكتاب السماوى واحد.

وعليه فالميل نحو تعدد الأحكام الواقعية ليس سوى الشرك الذى يتقاطع صراحة وأصل التوحيد.

تأملات

١- مسألة التصويب ونشأتها

تعتبر هذه المسألة من أهم المسائل الإسلامية ذات الصلة الحميمية بمسألة «الاجتهاد» و«الرأى» و«القياس» و«الاستحسان» وما إلى ذلك، كما ترتبط بالأحداث السياسية والتاريخية التى أعقبت وفاة النبى صلى الله عليه وآله. وإليك شرحها باختصار بعيداً عن الاطالة والخروج عن اسلوب البحث:

١- أن عصر الرسالة كان مفعماً بالأحداث المعقدة الاجتماعية والسياسية والعسكرية بحيث لم تدع للمسلمين من مجال للوقوف على كافة الأحكام، وإن بينت اصولها الاساسية فى القرآن.

٢- لقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية بعد النبى صلى الله عليه وآله بحيث كانت تظهر مسائل جديدة كل يوم فى الأحكام الفقهية الإسلامية حتى رأى المسلمون أنفسهم أمام كم هائل من المسائل المستحدثة ولم يروا أجوبتها فى الأحاديث النبوية الشريفة. أضف إلى ذلك منع بعض الخلفاء (عمر) الصحابة من تدوين السنة [٧٣٤] مخافة أن تختلط

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٩٣

بالقرآن، حتى اندثرت أغلب أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله، فأصبح هناك نقصاً حاداً فى المصادر الإسلامية، حتى رأى الفقهاء ولا سيما الخلفاء الذين كانوا يشهدون كل يوم هجوم المسائل الفقهية الجديدة أنهم يعيشون حرجاً شديداً، بحيث إذا زعموا أن الإسلام لا يمتلك الردود تجاه مختلف القضايا الحقوقية والجزائية والفردية والاجتماعية، فند زعمهم بالآية القرآنية «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» [٧٣٥].

فالدين الخاتم الذى لا يعرف معنى للمكان والزمان بل يتصف بالعالمية والخلود لا بد أن يلبى كافة الحاجات على مدى الدهور والعصور إلى نهاية الدنيا، ولكن كيف بذلك مع هذه الأحاديث القليلة التى نقلت عن رسول الله صلى الله عليه وآله. وهنا لا ينبغى أن ننسى بأن هذا المأزق الحرج إنما نشأ من تجاهل وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وحديثه المعروف بحديث الثقلين الذى قرن فيه العترة الطاهرة من أهل بيته بالقرآن الكريم وأن الأمة ان تمسكت بهما معاً فإنها لن تضل بعده أبداً [٧٣٦]. فلو عمل المسلمون بهذه الوصية وتلقوا أحاديث الأئمة المعصومين التى تمثل الامتداد الطبيعى لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله فإن مشكلة لم تكن لتحديث قط ولم يشهد المسلمون هذه المعضلة التى عصفت بالفرق الإسلامية، وهذا بعينه ما جعل أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام لا يشعرون بنقص تجاه أية مسألة من المسائل الفقهية، وقد نقلت الآلاف المؤلفات من أحاديث هذه العترة لتمكن فقهاء الإمامية من التعامل مع كافة القضايا الفقهية على ضوء النظرة الإسلامية.

٣- أخيراً وبهدف خروج فقهاء العامة من هذا المأزق والطريق المسدود لم يكن لهم من سبيل سواء اللجوء إلى القياس والاستحسان والاجتهاد بالمعنى الأخص وتشريع القوانين والأحكام من الفقهاء- فانبهروا ليقسموا المسائل إلى قسمين: مسائل منصوصة ومسائل لا نص فيها (أى المسائل التى ورد بشأنها حكم فى الكتاب والسنة والمسائل التى لم يرد فيها نص فى

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٩٤

الكتاب ولا السنّة). فافتوا في المسائل المنصوصة طبق ماورد في النص. وأما المسائل التي لم يرد فيها نص فقالوا: حل المشكله يكمن في أنه إن كان له شبيه ونظير في الأحكام الإسلامية قاسوا عليه، مثلاً إذا ورد في باب الصلاة حكم قاسوا الصوم بذلك الحكم، ان ورد حكم في الحج قاسوا عليه أحكام العمرة، وإذا لم يكن هناك من شبيه في الأحكام الإسلامية يجتمع الفقهاء ويتدارسوا مصالح ومفاسد ذلك الأمر ثم يتخذوا بشأنه حكماً وهذا ما أسموه بالاجتهاد (بالمعنى الأخص).

وبعبارة اخرى فان هناك من قال صراحة: ما لم يرد فيه النص ليس له في الإسلام قانون خاص، وهذه وظيفة الفقهاء في أن يضعوا له حكماً من خلال الظن وتخفيف ثقل المصالح والمفاسد وما يروونه أقرب إلى المصلحة. وهكذا أصبح الاجتهاد بمعنى حق الفقيه في التشريع متداولاً بينهم. [٧٣٧]

وهنا لابد من الالتفات إلى أن للاجتهاد معنيين مختلفان إذا لم يميز بينهما فان ذلك يؤدي إلى عدّة نتائج سيئة:

المعنى الأول للاجتهاد هو الاجتهاد العام والذي يعنى استنباط الأحكام من الكتاب والسنّة وسائر الأدلة الشرعية. وهذا هو الاجتهاد الذي يعتقد به كافة علماء الشيعة، وهو الاجتهاد الذي أنكره الأخباريون قولاً واعتقاداً به عملاً، لأن كبار الأخباريين يستدلون بالكتاب والسنّة لاثبات الأحكام الشرعية كما يراعون أحكام العام والخاص والمطلق والمقيد وأمثال ذلك.

المعنى الثاني للاجتهاد هو الاجتهاد الخاص وهو الاجتهاد في المسائل التي لم يرد فيها نص في الكتاب أو السنّة، فيلجأ على ضوئه إلى التشريع وسن الأحكام مع الأخذ بنظر الاعتبار المصالح والمفاسد والتشابه والتناظر. وهذا النوع من الاجتهاد يختص بجمع كثير من علماء العامة وهو ما يصطلحون عليه بالاجتهاد بالمعنى الأخص. وأما ما ذكرنا آنفاً بعدم وجود مثل هذا الاجتهاد لدى علماء الشيعة إنّما يعزى إلى الثر الهائل الذي لديهم من أحاديث الأئمّة

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٩٥

المعصومين عليهم السلام كما يرون أن الموارد التي لا نص فيها قليلة جداً ولا تتطلب الاجتهاد بالمعنى الثاني، وذلك لأنهم يلجأون في مثل هذه الحالات إلى القواعد الكلية أو ما اصطلاحوا عليه ب «الاصول اللفظية» و «العملية» التي تبيّن حكم المسألة والعجيب أن طائفة من علماء العامة تعتقد بأن الموارد التي لانص فيها أنه لا حكم لها «مالا نص فيه لا حكم فيه» وهذه وظيفة العلماء في وضع الأحكام لمثل هذه الحوادث (والالفتات إلى هذه المسألة يعدّ ضرورة لفهم الكلمات القادمة في الخطبة)؛ الأمر الذي يتنافى تماماً وإكمال الشريعة.

٤- إذا ما اعطى حق التشريع ووضع الأحكام في «مالا نص فيه» للفقهاء وبالالفتات إلى كثرة عدد الفقهاء ولكل منهم الحق في التشريع، وليس هنالك من الزام في جمعهم في شوري لتصوب حكماً واحداً فان ذلك سيؤدي إلى اختلاف الآراء وربما تناقضها في المسألة الواحدة وهنا يبرز مأزقاً آخر وهو: هل يمكن قبول جميع هذه الآراء المختلفة على أنها حكم الله، أم هناك حكم واحد حق والبقية باطل؟ ولما لم يكن هناك من تفاوت بين هذه الآراء لأنها صادرة من الفقهاء؛ وليس هنالك من حكم واقعي لله ليكون معياراً في تمييز الصحيح من السقيم فسوف لن يبقى هنالك من سبيل سوى التمسك بعقيدة التصويب، أو بعبارة أفضل فقد سقطوا في وادي التصويب وقالوا كل هذه الآراء تمثل الحكم الواقعي! ويعزز ذلك أنهم يقولون بعدالة الصحابة وأحياناً عدم خطأهم في الرأي، ومن هنا كانت هناك آراء متعددة بعدد المجتهدين في الموضوع الواحد، وكلها تعتبر الحكم الواقعي للمسألة.

فهم حين اعتقدوا بأن المرجع في تعيين الخلافة رغم خطورتها إنّما وكل إلى أهل الحل والعقد (العلماء) فما المانع في أن يوكل للعلماء الحق في سن القوانين والأحكام في المسائل الفرعية التي لم يرد نص بحقها- ومن هنا ظهرت عقيدة التصويب بكل نتائجها وأخطارها بين طائفة من المسلمين إثر عدم العمل بوصية الرسول صلى الله عليه وآله والالتزام بحديث الثقلين.

٥- غلق باب الاجتهاد: فقد أدت هذه المسألة إلى تنامي الآراء والعقائد المختلفة والمتضاربة في المجتمع الإسلامي وبين فقهاء المسلمين، لتتخذ صبغة خطيرة، كما كانت السبب في ترديد الأئمة في مسائلها الدينية واطاحة الفرصة لأعداء الإسلام بالتفوه ضد

الإسلام والمسلمين والأحكام الإسلامية وهنا انبرت طائفة من المسلمين لتوضع حداً لهذا الوضع

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٩٦

المؤسف فارتكبت عملاً قبيحاً تجسد في غلق باب الاجتهاد. فقد صرحوا بأن هذا الحد يكفي ولا يحق لأحد بعد هذا ممارسة الاجتهاد! وحيث اختلفت الامية طوائف في الأحكام الشرعية وذهبت كل طائفة لاتباع عالم. فاخاروا أربعة من هؤلاء الفقهاء ممن لهم أتباع كثيرون (وهم أبو حنيفة ومالك ومحمد بن ادریس الشافعي وأحمد بن حنبل) ثم الزموا الناس بتقليد أحد هؤلاء الأربعة وأبطلوا سائر الآراء والعقائد للحيلولة دون الاختلاف والتمزق؛ بينما لا نرى هنالك من دليل في الكتاب أو السنة على إمامة هؤلاء الفقهاء الأربعة، وليس لهم أدنى امتياز على من سواهم سوى كثرة أتباعهم، كما لم يقدّم الدليل على غلق باب الاجتهاد وحصره بهؤلاء الأربعة لكل عصر ومصر! وكما أشار الإمام عليه السلام في الخطبة رقم ١٦

«ألا وأنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها، وخلعت لجمها، فتقحمت بهم في النار»

. فإنّ هذه الهفوات العظيمة إنّما افرزتها الزلات الاولى حتى تبلورت كسلسلة ارتبطت حلقاتها لتؤدي بالتالي بأصحابها إلى النار. لقد خلق غلق باب الاجتهاد اليوم مشاكل عويصة لفقهاء العامة وعلماهم؛ وذلك لأنهم يرون أنفسهم اليوم أمام سيل جارف من المسائل المستحدثة التي ليس لها من حكم في المذاهب الأربعة؛ ومن هنا انبرت جماعة منهم علانية واخرى خفية تطالب بفتح باب الاجتهاد بوجه الفقهاء والخروج من حالة التوقوع والانطواء على المذاهب الأربعة، كما خاضوا في ضرورة الافتاء في المسائل المستحدثة وإعادة النظر في المسائل السابقة وهم يتساءلون عن عليه حصر الاجتهاد في المذاهب المذكورة، مع العلم قد ظهر العلماء الذين فاقوهم، وحتى على فرض عدم تفوقهم على أسلافهم، فمثل هذا السؤال يبقى مطروحاً، إذا اغلق باب الاجتهاد فمن يتصدى للإجابة على المسائل المطروحة اليوم؟

أمّا أتباع أهل البيت عليهم السلام فقد بقوا في أمان من هذه العاصفة الهوجاء، فهم لم يعتقدوا بغلق باب الاجتهاد (طبعاً الاجتهاد بالمعنى الأول لا الثاني) طرفه عين أبداً، وقد منحوا فقهاءهم وعلماهم حق استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها المعروفة، في ذات الوقت الذي حظروا فيه الاجتهاد بالمعنى الثاني على كائن من كان.

سؤال:

هنا سؤال يطرح نفسه: الاجتهاد بالمعنى الأول هو الآخر يقود إلى الاختلاف وعليه

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٩٧

فليس هنالك من فارق بين الاجتهاد بالمعنى الأول أو الثاني؟

جواب:

إنّ الالتفات إلى نقطة قد يوضح الجواب على السؤال المذكور، وهي أنّ الاجتهاد بالمعنى الأول يعني استنباط الأحكام من الكتاب والسنة، وعليه فالمحور الأصلي للاجتهاد هو نصوص الكتاب والسنة التي يجمع عليها الفقهاء، فهناك الوحدة التي تجمع هؤلاء الفقهاء، وإن كان هنالك بعض الاختلاف في الاستنتاجات؛ إلّا أنّ هذه الاختلافات طفيفة عادة، ومن هنا نرى وحدة آراء الفقهاء في غالبية المسائل المشهورة، ولا يوجد سوى اختلاف بسيط في بعض تفاصيل المسائل.

أمّا الاجتهاد بالمعنى الثاني فهو لا ينطوي على محور معين يجتمع حوله الفقهاء، بل المعيار لدى كل فقيه فكره ورأيه، ومن هنا كانت الخلافات لاتعد ولا تحصى، فقد تطالعتنا عدّة آراء في المسألة الواحدة؛ الأمر الذي يشوه سمعة الشريعة الإسلامية ويسىء إلى كيانها. أضف إلى ذلك فإنّ أنصار الاجتهاد بالمعنى الأول الذي يعني استنباط الحكم من القرآن والسنة يقولون:

إنّ دين الله لم ولن يكون ناقصاً، وليس هنالك من واقعة- بالأمس واليوم والغد- ألا ولله فيها حكم قد ورد في العمومات والاطلاقات أو الأدلة الخاصة للكتاب والسنة وهي واضحة لدى أئمة العصمة عليهم السلام. فمن بلغ باجتهاده ذلك الحكم فقد أصاب، ومن لم

يبلغه فقد أخطأ، فان لم يقصر في مقدمات الاجتهاد واستفرغ مافى وسعه كان معذوراً عند الله ومأجوراً. وهذا هو الاعتقاد بالتخطئة في مقابل الاعتقاد بالتصويب ولذلك يقول أصحاب هذا الاعتقاد «للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد» بينما زعم أنصار الاجتهاد بالمعنى الثانى أن «كل مجتهد مصيب» أى أن كافة الأحكام المتناقضة للمجتهدين والتي تمثل آرائهم هى أحكام إلهية واقعية حقة (لابد من الالتفات والتأمل فى هذا الأمر).

٢- نتائج القول بالتصويب وغلق باب الاجتهاد

نشير بصورة مختصرة إلى المفاسد التي ترتبت على القول بالتصويب وغلق باب الاجتهاد:

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٩٨

١- الاعتراف بنقصان الدين (والعياذ بالله) من حيث الأحكام والاعتماد على آراء الفقهاء وأفكار الأفراد غير المعصومين من الخطأ فى إكمال أحكام الشريعة وسد النقص.

٢- غلق باب الاجتهاد يعنى الاعتقاد بعدم أحقية أى فرد فى الاجتهاد بعد الفقهاء الأربعة من العامة! لأن فتح هذا الباب قد يؤدى أحياناً إلى ظهور عشرات الآراء والفتاوى المختلفة فى المسألة الواحدة؛ كما نعلم أن غلق باب الاجتهاد، يغلق الطريق على فقهاء الإسلام فى التصدى للرد على المسائل المستحدثة فيزج بمسلمى العالم بمأزق خائق لا يمكنه النجاة منه بالنسبة للأحكام الشرعية.

فالاقتصار على المذاهب بأربعة تأريخ خطير ذا شجون، كما دل على أن هذه البدعة فى الإسلام وبسلبها لاستقلالية الفقهاء قد جرت الولايات. وعلى ضوء ما أورده المقرئى فى كتاب الخطط المقرئية وكذلك ابن الفوطى وآخرين أنه لم تكن هناك من ضابطة معينة فى انتخاب هذه المذاهب الأربعة سوى أن كثرة المذاهب قد اربعت ولاه البلدان الإسلامية المختلفة وأدت إلى ظهور موجة من الفوضى والهرج والمرج من جانب، ومن جانب آخر أن العلل السياسية والاجتماعية هى التي أدت إلى انتشار هذه المذاهب فى كافة بلدان العالم الإسلامى؛ وعليه فلم يكن بالإمكان اسقاطها. ولذلك تواطى الفقهاء والحكام آنذاك بالوقوف بحزم بوجه كل من يتفوه بما لم يرد فى المذاهب الأربعة المذكورة، والعجيب أن هذه المسألة قد حدثت فى القرن السابع عشر. فقد انطلقت فى مصر عام ٦٦٥ وفى بغداد ٦٣١ بحيث قرر أساتذة المدرسة المستنصرية المعروفة فى عام ٦٤٥ عدم قبول أى طالب ينتمى إلى غير هذه المذاهب.

وهكذا فقد اغلق باب الاجتهاد بعد مرور سبعة قرون على ظهور الإسلام وبلوغ الاجتهاد ذروته، ليصبح كافة الفقهاء مقلدين لهؤلاء الأئمة الأربعة ففقدوا استقلاليتهم الفقهية.

وما هذا إلا نتيجة طبيعية لذلك الانحراف الذى وقع فى القرن الأول. فقد اقصيت العترة الطاهرة عدل القرآن الكريم وأحد الثقلين وفتح باب القياس والاستحسان والاجتهاد بالرأى وظهرت هذه الآراء المتناقضة التي جرت الفوضى، فكان كل رأى حكم الله، والمؤسف له هو

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٣٩٩

أن مدرسة أهل البيت عليهم السلام لم تتخذ مكانها حتى فى مصاف المذاهب الأربعة. [٧٣٨]

فالحق أن ذلك الانحراف الأول هو سبب ظهور هذه البدعة، البدعة التي لم يكن هنالك من سبيل سواها.

٣- الهرج والمرج الفقهى والقضائى

الذى أفرزته الآراء المتعددة والمتناقضة التي قد يصل عددها أحياناً إلى عدد المجتهدين؛ ومما لاشك فيه أن المشاكل آنذاك تفوق

مشاكل المجالس التشريعية في عصرنا الحاضر بكثير، وذلك لأن مجالس العصر تشهد على الأقل حضور الوكلاء لبلد أو منطقة من العالم في مكان واحد فيتخذ القرارات على أساس أكثرية الآراء التي تتمتع بالوحدة كحد أدنى بالنسبة لمنطقة معينة؛ أما الاجتهاد بالرأى والتصويب فهو يسمح لكل مجتهد من المجتهدين أن يشرع بمفرده، والأعجب من ذلك كل ما يتوصل إليه من حكم فهو حكم الله الواقعي، وخلافاً لمجالسنا المعاصرة التي تكون أحكامها أحكاماً وضعياً بشرية، فإن أحكام المجتهدين آنذاك تمثل الأحكام الإلهية التي يلزم الناس باتباعها.

وأخيراً لا نروم الخروج من بحثنا في الشرح والتفسير ولذلك نوكل من أراد المزيد بهذا الشأن إلى المصادر المعروفة. [٧٣٩]

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٤٠١

القسم الثاني: الاختلافات غير المبررة

إشارة

«أَفَامَرَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالْاِخْتِلَافِ فَاطَاعُوهُ! أَمْ نَهَاَهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ! أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دِينًا نَاقِصًا فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ! أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ، فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى؟ أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دِينًا تَامًا فَقَصَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: «مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» وَفِيهِ تَبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصِدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَأَنَّهُ لَا اِخْتِلَافَ فِيهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اِخْتِلَافًا كَثِيرًا».

الشرح والتفسير

يفند الإمام عليه السلام في هذا الكلام بالأدلة المحكمة مسألة الاجتهاد بالرأى وتصويب آراء المجتهدين وبالتالي حق الفقهاء في اصدار الأحكام، ثم يصنف الإمام عليه السلام ذلك إلى خمسة أسس ويغلق كافة الطرق على هؤلاء، ثم يبين بجلاء تام خطأ هذا اللون من التفكير.

فقد قال عليه السلام بعد أن تساءل على نحو الاستنكار عن السب الذي يقف وراء هذا الاختلاف في المسائل الفقهية «أفامرهم الله سبحانه بالاختلاف فاطاعوه».

حقاً لا يمكن قبول هذا الامر، فالله واحد أحد يدعو إلى الوحدة ويحذر من الاختلاف والفرق فهو القائل:

«وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» [٧٤٠]

وبناء على هذا فان

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٤٠٢

الاختلاف تابع من موضع آخر، رام الإمام عليه السلام الإشارة إليه «أم نهاهم عنه فعصوه» فالحق أن هذا الأمر يشكل أحد مصادر الاختلاف؛ غير أن القضاة الذين يوردون عدّة آراء بشأن مسألة واحدة لا يسعهم الاقرار بمثل هذا الاحتمال! و عليه فان ردّهم على هذا السؤال سيكون بالسلب. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الاحتمال الثالث فقال عليه السلام:

«ام انزل الله سبحانه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه»

. من المسلم به أنه ليس هنالك مسلم يقول بنقصان دين الله وإن الله استعان بالعباد لا كماله، بل بالعكس قد صرحت الآيات القرآنية باكمال هذا الدين من جميع الجهات

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» [٧٤١].

ثم يورد الإمام عليه السلام الاحتمال الآخر الذى يبدو بطلانه واضحا وضوح الشمس فى رابعة النهار لا أم كانوا شركاء له، قلمهم أن يقولوا، وعليه أن يرضى» فمن البداهة أن من قال يتعدد الآلهة فإنه عليه أن يؤمن بأن لكل منهم سهم فى التشريع واصدار الأحكام؛ فهل للمسلم الذى ينطلق فى عقيدته من التوحيد أن يعتقد بوجود الشركاء ويرى فى الفقهاء والقضاة شركاء لله؟ وبعبارة أخرى فان أحد فروع التوحيد (بعد توحيد الذات والصفات) هو توحيد الأفعال، أحد تفرعات توحيد الأفعال هو توحيد الحاكمية والتشريع؛ وعلى ضوء ذلك فإن الحكومة لله وحده وتنتهى إليه، فلا حكم إلا حكمه ولا أمر إلا أمره!

و لو لم يكن الأمر كذلك لاختفى الحق سبحانه بقسم من التشريع ثم يفوض القسم الآخر منه للعقول البشرية العاخرة. و هل لغيره من إحاطة قامه بمصالح الأحكام ومفاسدها! أو يجوز على الله أن يفوض زمام امور عباة لمشرعين يصدر كل منهم حكماً وقانوناً على ضوء ظنه ورأيه القاصر بحيث يعيش العباد فى هالة من الفوضى والقلق والحيرة فى ظل الآراء المتناقضة المتضاربة! ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى آخر احتمال فيقول: «أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن تبليغه وأدائه». لا شك ولا شبهة أنه ليس هنالك من ينسب

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٤٠٣

مثل هذا القول إلى النبى صلى الله عليه وآله؛ وذلك لأن حتى أولئك الذين لا يقرون بمسألة العصمة بصورة مطلقة ويظنون بعدم وجود الدليل على عصمة النبى صلى الله عليه وآله فى كافة الميادين، فإن الحد الأدنى أنهم يسلمون بعصمته فى التبليغ وأداء الوحي، حيث لا يبقى من مفهوم للنبوّة والرسالة دون الاعتقاد بالمعنى المذكور.

آنذاك يعود الإمام عليه السلام إلى أصل المسألة فيكشف النقاب عن هذه الحقيقة وهى أن الإسلام قد شرع كل ما من شأنه تلبية حاجات البشرية ومتطلباتها، وعليه فالإمام عليه السلام يصادر ما أوردوه من قولهم «ما لا نص فيه لاحكم فيه» بالاستناد إلى قوله «و الله سبحانه يقول: «ما فرطنا فى الكتاب من شىء وفيه تبيان لكل شىء» [٧٤٢] فالآيتان دليلان واضحا على أن الله لم ينزل ديناً ناقصاً عولهم يستعن باحد لا- كماله؛ بل جاء فى القرآن كل ما يحتاج إليه، بعضها فى العمومات وبعضها الآخر فى الأحكام الخاصة التى سيأتى الحديث عنها إن شاء الله فى مبحث التأمّلات ولم ينس الإمام عليه السلام أن يسلب حرباً التناقض من القضاة الذين يستشهد كل منهم بأية يتباين مفهوماً وسائر الآيات فقال عليه السلام: «و ذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنه لا إختلاف فيه» ثم يعزز الإمام عليه السلام دعوى عدم الاختيارات فى الآيات القرآنية متشهداً بالقرآن «فقال سبحانه! ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً» [٧٤٣].

فالواقع أن علم الإنسان محدود، وأن تقادم الزمان أو تغيير المكان وكشف الظواهر الجديدة إنما يدعوه إلى تغيير أفكاره باستمرار، ومن هنا فقد يورد كاتب بعض الموضوعات المتناقضة خلال حياته، وليس ذلك بعجيب، هذا من جانب، ومن جانب آخر فان رصيد الإنسان النسيان، فله يتحدث اليوم عن شىء فينساه بعد شهر أو سنة ليتحدث عن خلافه.

إلا أن هذه الامور لا تصدق على البارى سبحانه العالم بكل شىء «و ما كان وما يكون» والعالم بالمحال لو كان كيف يكون، فليس لمرور الزمان من أثر على ذاته المقدسه؛ فهو فوق الزمان والمكان، وناهيك عن هذا فليس هنالك من مفهوم للنسيان بالنسبة لله سبحانه،

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٤٠٤

فكيف الحال هذه ان يصدر عنه أدنى إختلاف أو تناقض.

وزيدة الكلام أن الإمام عليه السلام قد قد بيان واضح بليغ عقيدة التصويب والتمسك بالقياس والاستمسان والاجتهاد بالرأى، فالله سبحانه أنل ديناً كاملاً وقرآنا جامعاً يلبي كافة حاجات البشرية، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يتوانى فى تبليغ الرسالة، كما أن الله لم يقبل للامية الإسلامية أى إختلاف ودعا اللمة مرارا إلى الاخاء والوحدة. وبناءً على ما تقدم فما تفسير الاعتقاد بصحة الآراء

المتناقضة وتصويب الفتاوى المختلفة على أنها جميع حكم الله المطابق للواقع، سوى الانحراف والضلال.

شمولية القرآن

لقد تضمن القرآن الكريم الآيات الصريحة التي تبين كافة أمور المسلمين ومتطلباتهم وحاجاتهم إلى يوم القيامة. كما صرحت الروايات الإسلامية بهذا الأمر، ومن ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«ان الله تبارك وتعالى انزل في القرآن بيان كل شيء حتى والله ما ترك شيئاً تحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد يقول لو كان هذا أنزل في القرآن، إلا وقد أنزل الله فيه» [٧٤٤]

ولكن هنا يبرز هذا السؤال: إننا نرى أحكاماً مختلفة لم ترد في القرآن الكريم وهذا الأمر لا ينسجم وشمولية القرآن الكريم؛ مثلاً لم يرد في القرآن شيء بشأن عدد ركعات الصلاة والسلع التي تجب عليها الزكاة وتصاب الزكاة وبعض مناسك الحج وعدد اشواط السعي بين الصفا والمروة والطواف ومسائل أخرى في القصاص والحدود والديات وآداب القضاء وشروط المعاملات وأنواع المعاملات المستحدثة وما شاكل ذلك من الموضوعات الشرعية. وللإجابة على هذا السؤال لابد من الالتفات إلى ثلاثة أمور:

الأول: أن القرآن يشتمل على الأحكام الكلية والقواعد العامة والعمومات والاطلاقات التي يتم حل أغلب المشكلات على ضوءها. فمثلاً الآية

«أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» [٧٤٥]

في المعاملات والآية

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤٠٥

«وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» [٧٤٦]

في أبواب العبادات و

«لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا

مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ» [٧٤٧]

في حقوق الوالدين وسائر الآيات من هذا القبيل التي من شأنها الإجابة على أغلب الأسئلة والمسائل المستحدثة أضف إلى ذلك فان

القرآن الكريم صرح بأن السنة النبوية تمثل إحدى المصادر الرئيسية للأحكام الشرعية والمعارف الإسلامية

«وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» [٧٤٨]

كما وصفه في آية أخرى بأنه مبين القرآن ومفسره

«وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» [٧٤٩].

النبى صلى الله عليه وآله من جانبه وعلى ضوء حديث الثقلين فقد جعل أهل بيته وعترته عليه السلام من مصادر الأحكام الشرعية والمعارف الإسلامية، ولو التزم المسلمون بوصية القرآن والنبى الأكرام صلى الله عليه وآله بما بقى هناك سوال فى مجال الأحكام دون إجابة.

و أخيراً يستفاد من الروايات الإسلامية المختلفة أن للقرآن ظاهر وباطن، وظاهره المعانى والمفاهيم المعروفة لدى الجميع ويعملون على ضوءها، أما باطنه فهو معانى ومفاهيم أخرى ليس لاحد من سبيل إليها سوى النبى صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام، الذين يتعاملون مع الآيات وفق رؤية وإدراك آخر.

و بناءً على هذا لو إصطف الثقلان (القرآن وأهل البيت) ولم يفصلهما المسلمون عن بعضهما، لا استفادوا من هذا العدل القرآنى الذى يحل أغلب معضلاتهم.

فقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«أنا أعلم كتاب الله وفيه بدء الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة وفيه خير السماء وخير الأرض وخير الجنة وخبر النار وخبر ما كان وما هو كائن، أعلم ذلك كما أنظر إلى كفى ان الله يقول فيه تبيان كل شيء» [٧٥٠]

وجاء في نهج البلاغة

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤٠٦

«و في القرآن نبأ ما قبلكم وخير ما بعدكم وحكم ما بينكم» [٧٥١]

وقال عليه السلام في موضع آخر بشأن القرآن

«إلا أن فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ودواء دائكم ونظم ما بينكم» [٧٥٢]

ولم يقتصر نقل هذه الأحاديث على أهل البيت عليهم السلام، بل نقلت من طرق العامة أيضا، فقد روى السيوطي في الدر المنثور عن الصحابي المعروف ابن مسعود «أن فيه علم الأولين والآخرين». وروى عن الاوزاعي في تفسير الآية «و نزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء».

قال: بالسنة [٧٥٣]. وقد روى السيوطي في كتاب الاتقان هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«في

كتاب الله نبأ ما قبلكم وخبر ما يعدكم وحكم ما بينكم» [٧٥٤]

ثم قال: وقد أورده الترمذي وغيره.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤٠٧

القسم الثالث: أناقاة القرآن وعمقه

إشارة

«وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أُنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلَا تَنْقُضِي غَرَائِبُهُ، وَلَا تُكْشِفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ».

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته- في القسم الثالث- يوصف القرآن الكريم بخمس صفات تنطوي على حقائق عظيمة بشأن أهمية القرآن، مشيرا إلى ضرورة عدم غفلة القضاة والفقهاء عن هذا القرآن والاستضاءة بنور حقائقه ومعارفه، إلى جانب الشعور بأن القرآن يغنيهم عما سواه من المصادر الاخرى سوى السنة التي تستند القرآن يغنيهم عما سواه من المصادر الاخرى سوى السنة التي تستند إلى القرآن وتفسير مضامينه. فقد قال في صفته الاولى «و إن القرآن ظاهره أنيق» [٧٥٥].

فالعبارة إشارة إلى فصاحة القرآن وبلاغته، الفاظه موزونة وعباراته رصينه وآياته وقع و نعمة خاصة لا تجعل الإنسان يشعر بالكلل أو الملل مهما تلاها، والشواهد على ذلك أكثر من ان تحصى تركها لعدم الخروج من اصل البحث [٧٥٦].

وأما صفته الثانية «و باطنه عميق». غالباً ما يبتعد الإنسان عن رصانه المعنى إذا ما خاض في جمال الظاهر، والعكس صحيح أيضاً فعادة ما يتعذر على الإنسان حسن إختيار الألفاظ إذا

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤٠٨

رام الدقة في أداء المعنى، والخلاصة تبدو عملية الجمع بين المعنى واللفظ ليست بالهينة؛ الحقيقة التي يمكن مشاهدتها بوضوح في

القرآن الكريم الذي جمع العمق في المعنى إلى جانب الرصانة والسبك في اللفظ.

أما عمق القرآن فقد تلاشت على سطحه كافة الأفكار وتصاغت أمامه جهايدة العقول، و كيف لا يكون كذلك وهو كلام الله الثابت من ذاته المقدسة المطلقة، ولعل المتتبع يشعر بحقيقة هذه الكلمات ارا ما طالع أى من السور القرآنية لتتجسد أمامه بوضوح الصفتين التين أوردها الإمام عليه السلام بشأن القرآن.

وأما الصفة والرابعة للقرآن فهي «لا تفنى عجائبه، ولا تنقضى غرائب». ولعل الفارق بين هاتين العبارتين هو أن العبارة الاولى تتحدث عن خلود العجائب والحقائق القرآنية السامية، و ذلك لأننا الكثير من الكتب والمؤلفات والمصنفات التي كانت اعجوبة في زمانها، إلّا أنّ تقادم الزمان قد سلبها تلك الميزة وجردها من اعجوبتها، والقرآن ليس كذلك، فلا يزداد قارىء القرآن ومعبدته إلّا بالذة وحلاوة وطلاوة، بل إنّ قراءته قد تشكف له كل يوم ما كان غائباً عنه بالأمس؛ فتظل لألفاظه ومعانيه مواقع السحر في النفس.

وأما العبارة الثانية فهي تتحدث عن أسرار القرآن التي تتكشف يوماً بعد آخر.

أمّا الصفة الأخيرة للقرآن فهي «و لا تكشف الظلمات إلبه» ليس فقط ظلمة الجهل وظلمة الكفر وإنعدام الإيمان والتقوى، بل ليس لظلمات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية دون التعاليم القرآنية. فالיום وإن ازدهر العالم من حيث الصناعة وقطع أشواطاً في الرقى التطور، مع ذلك فهناك الظلمات الهائلة التي ألفت بظلالها المشؤومة على المجتمعات البشرية التي فأنّ من المعارك والافتال وسفك الدماء واستضحال أنواع الظلم والجور والاضطهاد والفقر والحرمان، والأنكى من كل ذلك إنعدام الا من والاستقرار وسيادة الفوضى والقلق والاضطراب، وما ذلك إلّا نتيجة مباشرة لغياب معاني الإيمان والتقوى والفقر الاخلاقي والمعنوى، وليس هنالك من سبيل للخروج من هذه المآزق سوى بالتمسك بالقرآن بل الأدهى من ذلك هجر القرآن واللجوء إلى الآراء الظنية والأفكار البشرية القاصرة على مستوى الأحكام من قبل قطاعات واسعة من المسلمين.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤٠٩

تأملان

١- القرآن والمسائل المستحدثة

هنالك سوال يقتدح في الأذهان وهو: أن المجتمع البشرى في حالة حركة وتطور مستمر بحيث تستجد يوماً عدّة مسائل على الساحة، فكيف للقرآن أن يواكب هذه الحركة في حين تتصف أحكامه بالثبات وعدم التغيير؟ وكيف يسعه الردّ على المسائل المستحدثة؟ و للإجابة على هذا السؤال نقول: هنالك نوعان من الأحكام في القرآن الكريم هما:

الأحكام الجزئية والأحكام الكلية. فالأحكام الجزئية من قبيل الأحكام التي ذكرت للصلاة ككيفية الوضوء والغسل والتيمم وسائر المسائل كالقبلة وعدد الصلوات وما شابه ذلك.

وأما الأحكام الكلية فيراد بها القواعد العامة الواردة في القرآن والتي تتصف بالسعة والشمولية، كقاعدة وجوب الوفاء بالعقود والمعاهدات «أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» [٧٥٧] وقاعدة «لا- حرج» «و ما جعل عليكم في الدين من حرج» [٧٥٨] وقاعدة «لا ضرر ولا ضرار» التي استفيدت من بعض الآيات القرآنية، وهي القواعد التي تلبى المتطلبات الإنسانية في اصفنا إلى القرآن الاصول والقواعد الكلية التي صرّح بها الائمة عليهم السلام في كلماتهم. بعبارة اخرى الموضوعات في حالة تغيير مستمر، أما الاصول الكلية فهي ثابتة لا يعتربها التغيير، وتغيير الموضوعات لا- يعنى سوى تبدل أحكامها حيث تخرج من حكم وتنضوى تحت حكم آخر، وعليه فاننا نستطيع اليوم وبلاستناد إلى القواعد الكلية أن نستنبط كافة الإجابات على المسائل المستحدثة التي لم يرد ذكرها على وجه الخصوص في الكتاب

والسنه، فجعلها في كتاب نطلق عليه اسم المسائل المستحدثة، ويقال أن أفضل دليل على إمكان الشيء وقوعه (في إشارة إلى وجود مثل هذه الكتب وبكثرة لاغلب فقهاء الشيعة والتي تصدت للإجابة على كافة المسائل المسجدة اليوم على الساحة).

و من أراد المزيد فليراجع كتب العلماء بشأن المسائل المستحدثة.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤١٠

٢- لم لا تنقضى عجائب القرآن

لقد صرح الإمام عليه السلام في عبارته الأخيرة بشأن القرآن قائلاً:

«لا تنفى عجائبه ولا تنقضى غرائبه».

فكلما تقادم الزمان واجال العلماء والمفكرون أفكارهم في أسرار القرآن، كشفوا حقائق جديدة كانت خافية عليهم، أضف إلى ذلك فإن حلاوة القرآن وطلاوته حقيقة خالدة لا تعرف معنى للزمان، وهي الحقيقة التي ثبتت لدينا بالتجربة فما أكثر ما قرأنا القرآن وتلواناه ولا نزداد تجاهه سوى حيوية دون أن نشعر بأدنى ملل أو تعب؛ ولا غرو فالقرآن كلام الله، وكلام الله كذاته مطلق لا يقيد بالحدود، فهو ليس كلام المخلوق ليكتسب صفات عقله ففكره المعروف بالحدود والزمان والمكان، أضف إلى ذلك فإن الخطاب القرآني متواصل إلى يوم القيامة، فودعه الله من الأسرار التي تتجدد على مدى الزمان.

ونختم البحث بحديث الإمام الصادق عليه السلام عن الإمام الرضا عليه السلام أن رجلاً سأل الإمام الصادق عليه السلام «ما بال القرآن لا يزيد على الدرر والنشر إلا غصاضة» فقال الإمام عليه السلام لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد عند كل يوم غض إلى يوم القيامة». [٧٥٩]

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤١١

الخطبة التاسعة عشرة

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

قال للأشعث بن قيس وهو على منبر الكوفة يخطب فمضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث فيه فقال يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك، فخفض عليه السلام إليه بصره ثم قال:

«ما يُدْرِيكَ ما عَلَيَّ ممَّا لِي، عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ! حَائِكُ ابْنِ حَائِكٍ! مُنَافِقُ ابْنِ كَافِرٍ! وَاللَّهِ لَقَدْ أَسْرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً وَالْإِسْلَامُ أُخْرَى! فَمَا فَدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالِكٌ وَلَا حَسْبُكَ! وَإِنَّ امْرَأً دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفَ، وَسَاقَ إِلَيْهِمُ الْحَتْفَ!

لَحْرِيٌّ أَنْ يَمُوتَهُ الْأَقْرَبُ، وَلَا يَأْمَنُهُ الْأَبْعَدُ». [٧٦٠]

قال السيد الشريف: يريد عليه السلام أنه اسرى الكفر مرة وفي الإسلام مرة واما قوله: دل على قومه السيف فأراد به حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة، غر فيه قومه ومكر بهم حتى أوقع بهم خالد وكان قومه بعد ذلك يسمونه «عرف النار» وهو اسم للغادر عندهم.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤١٢

الشرح والتفسير

الاصطدام بمنافق طائش

لا بد من الإشارة إلى نقطتين قبل الخوض في شرح هذه الخطبة:

١- جاء في التأريخ بشأن الأشعث أن اسمه الأشعث معدى كرب، وأبوه قيس الأشجج سمي الأشجج؛ لأنه شجج في بعض حروبهم بن معدى كرب بن معاوية. وأم الأشعث كبشة بنت يزيد بن شرحبيل بن يزيد بن امرئ القيس بن عمرو المقصور الملك. كان الأشعث أبداً أشعث الرأس، فسمي الأشعث، وغلب عليه حتى نسي اسمه.

٢- أما بشأن المناسبة التي دعت الإمام عليه السلام لمخاطبة الأشعث بهذه الكلمات فهناك إختلاف بين العلماء فقد ورد في رواية أن أمير المؤمنين عليه السلام استوى جالساً على منبر الكوفة فأخرج كتاباً فيه كلام رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«المسلمون تتكافؤ دماؤهم وهم يد على من سواهم من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والناس أجمعين» [٧٦١].

فانبرى الأشعث بن قيس المنافق قائلاً: «هذا والله عليك لا لك» فخفض الإمام عليه السلام إليه بصره فخاطبه بهذه الكلمات أمام الملاء. ولعل مراد الأشعث بن قيس إذا كانت دماء المسلمين متكافئة وهم يد على من سواهم، فما معنى قتالك لطائفه من المسلمين؟ (و الحال أن المنافقين الذين أوقدوا نار الجمل وصفين والنهروان كانوا يرون الإمام عليه السلام خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وبالإضافة إلى نص النبي صلى الله عليه وآله على خلافته فقد بايعه الناس).

نعود الآن إلى شرح الخطبة، فقد رد الإمام عليه السلام على الأشعث بن قيس حين اعترضه بقوله «يا أمير المؤمنين هذا عليك لا لك» فقال:

«ما يدريك ما على مما لي».

حيث أراد الإمام عليه السلام أنك لم تفهم كلامي وما أريد أن أقول. فمرادى هو دعوة المسلمين إلى الوحدة وانبهم إلى خطاهم في مسألة التحكيم ليرعوا عن تكرار مثل هذه الأخطاء، إلا أنك فهمت الكلام بالعكس. ثم اغلظ عليه عليه السلام فقال:

«عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين».

و يشهد تاريخ الأشعث وسيرته الخبيثة أنه كان مستحقاً لمثل هذه اللعنة وعلى حد قول ابن أبي الحديد فإن كل فساد في خلافة علي عليه السلام وكل اضطراب حدث فاصله الأشعث [٧٦٢] ثم

نقعات الولاية، ج ١، ص: ٤١٣

قال عليه السلام

«حائك بن حائك، منافق بن كافر».

إختلفت أقول الشراح بشأن المراد من «حائك» فقد حملها البعض على المعنى الظاهري على أن الحياكة كانت شغلاً للأشعث وأبيه وقد كانت مهنة تمارس من الطبقة الوضيعة في المجتمع آنذاك البعيدة عن معاني المعارف الدينية والاداب الاجتماعية والمدنية، غير أن هذا المعنى لا ينسجم وما ورد في ترجمة الأشعث وأبيه؛ لأنهما لم يكونا يعملان بهذه المهنة.

و ذهب البعض الآخر إلى أن المراد بها الإنسان المتكبر والأناني لأن أحد معاني «حائك» بمعنى الشخص الذي يتبخر في مشيه ويتكبر [٧٦٣] وأخيراً قيل بأن المراد بها المعنى الكنائى وهو حياكة الأباطيل والأكاذيب وهذا ما كانت عليه سيرة الأشعث وأبيه؛ ولا تقتصر هذه الكناية على اللغة العربية فحسب بل وردت في سائر اللغات أيضاً.

والجدير بالذكر فإن هناك رواية أشارت بوضوح إلى هذا المعنى، فقد ورد الكلام عن الحائك عند الإمام الصادق عليه السلام فقال عليه السلام: «أنه ملعون، الحائك ملعون» ثم قال عليه السلام في تفسير ذلك «إنما ذلك الذى يحوك الكذب على الله وعلى رسوله» [٧٦٤].

إما أن الإمام عليه السلام عده منافقاً فذلك مما لا نقاش فيه لأن أفعاله في زمان حكومة الإمام عليه السلام إنما تشير إلى أنه كان من

رؤوس النفاق، فقد كان يشكل أحد العوامل التي أدت إلى شهادة أمير المؤمنين على عليه السلام وفشل المسلمين في معركة صفين ونشوب معركة النهروان و بروز مسألة التحكيم، وقد كان في أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام كما كان عبد الله بن أبي بن سلول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كل واحد منهما رأس النفاق في زمانه. [٧٦٥] وزيدة الكلام فأن نفاقه أشهر من نار على علم، وأما التعبير بالكفار عن أبيه فذلك من مسلمات التاريخ حيث كان من المشركين وقد قتل في الجاهلية إثر خلافات قبلية. ثم قال عليه السلام:

«والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسابك».

فقد أورد ابن أبي الحديد: فأما الأسر الذي أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام إليه في

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٤١٤

الجاهلية فقد ذكره ابن الكلبي في «جهرة النسب» فقال: إن مُرادا لما قتلت قيساً الأشجج، خرج الأشعث طالباً بثأره، فخرجت كندة مُتساندين على ثلاثة أليوة: على أحد الأليوة كَبَس ابن هاني بن شَرَحْبِيل بن الحارث بن عدِي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين ويعرف هاني بالمطلع، لأنه كان يغزو فيقول: اطلعتُ بنى فلان، فسَمِيَ المُطَّلِع، وعلى أحدها القشعم أبو جبر بن يزيد الأرقم. وعلى أحدها الأشعث أبو جبر، وأسر الأشعث، ففدى بثلاثة آلاف بعير، لم يفد بها عربي بعده ولا قبله، وأما الأسر الثاني في الإسلام، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لما قدمت كنده حجاجاً قبل الهجرة، عرض رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه عليهم، كما كان يعرض نفسه على أحياء العرب، فدفعه بنو وليعة، من بني عمرو بن معاوية ولم يقبلوه، فلما هاجر صلى الله عليه وآله وتمهدت دعوته، وجاءته وفود العرب، جاءه وفد كنده، فيهم الأشعث وبنو وليعة فأسلموا فأطعم رسول الله صلى الله عليه وآله بنى وليعة طعمه من صدقات خضِر موت، وكان قد استعمل على خضِر موت زياد بن لبيد البياضِي الأنصاري، فدفعها زياد إليهم، فأبوا أخذها، وقالوا: لا ظهر لنا، فابعث بها إلى بلادنا على ظهر من عندك، فأبى زياد، وحدث بينهم وبين زياد شر، كاد يكون حرباً، فرجع منهم قوم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وكتب زياد إليه عليه السلام يشكوهم.

وفي هذه الواقعة كان الخبر المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لبنى وليعة: «لَتَنْتَهُنَّ يا بنى وليعة، أولاً بعثنَّ عليكم رجلاً عديل نفسي، يقتل مُقاتلتكم، وبشيء ذرايتكم». قال عمر بن الخطاب: فما تمنيت الإمارة إلا يومئذ، وجعلت أنصب له صدرى رجاء أن يقول: هو هذا، فأخذ بيد على عليه السلام، وقال: «هو هذا».

ثم كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى زياد، فوصلوا- إليه الكتاب، وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وطار الخبر بموته إلى قبائل العرب، فارتدت بنو وليعة، وغتت بغاياهم، وخضبن له أيديهن.

وقال محمد بن حبيب: كان إسلام بنى وليعة ضعيفاً، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلم ذلك منهم.

ولما حج رسول الله صلى الله عليه وآله حجة الوداع، وانتهى إلى فم الشعب دخل أسامة بن زيد ليبول، فانتظره رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان أسامة أسوة أفتس، فقال بنو وليعة: هذا الحبشي حَبَسنا! فكانت الردة في أنفسهم.

قال أبو جعفر محمد بن جرير: فأمر أبو بكر زياداً على خضِر موت، وأمره بأخذ البيعة على أهلها واستيفاء صدقاتهم، فبايعوه إلا بنى وليعة، فلما خرج ليقبض الصدقات من بنى عمرو بن معاوية، أخذ ناقه لغلام منهم يعرف بشيطان بن حُجر، وكانت صفته نفيته، اسمها شذرة، فمعه

نقحات الولاية، ج ١، ص: ٤١٥

الغلام عنها، وقال: خذ غيرها، فأبى زياد ذلك ولج، فاستغاث شيطان بأخيه العداء بن حُجر، فقال لزياد: دَعها وخذ غيرها، فأبى زياد ذلك، ولج الغلامان في أخذها ولج زياد وقال لهما: لا تكوننَّ شذرة عليكما كالبسوس، فهتف الغلامان: يا العمرو! أنضام ونُسطهد! إنَّ الدليل مَنْ أكلَ في داره. وهتفا بمسروق بن معدى كرب، فقال مسروق لزياد أطلقها.

ثم قام فأطلقها، فاجتمع إلى زياد بن لبيد أصحابه، واجتمع بنو وليعة، وأظهروا أمرهم، فبيتهم زياد وهم غارون، فقتل منهم جمعا كثير، ونهب وسبي، ولحق فلهم بالأشعث بن قيس، فاستنصروه فقال: لا- أنصركم حتى تملكونى عليكم. فملكوه فخرج إلى زياد فى جمع كثيف، وكتب أبو بكر إلى المهاجر ابن أبى أمية وهو على صنعاء، أن يسير بمن معه إلى زياد، فاستخلف على صنعاء، وسار إلى زياد، فلقوا الأشعث فهزموه وقُتل مسروق، ولجأ الأشعث والباقون إلى الحصن المعروف بالنجير. فحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً حتى ضعفوا، ونزل ليلاً إلى المهاجر وزياد، فسألها الأمان على نفسه، حتى قدما به على أبى بكر فيرى فيه رأيه؛ على أن يفتح لهم الحصن ويُسلم إليهم من فيه. فحملوا الأشعث إلى أبى بكر مؤثقا في الحديد، فعفى عنه وزوجه، أخته أم فروة بنت أبى قحافة وكانت عمياء فولدت للأشعث محمداً وإسماعيل وإسحاق.

تأملان

١- علة هذا الاصطدام العنيف

لعل هنالك من يصاب بالذهول ممن لا يعرف مدى نفاق الأشعث بن قيس لهذا الاصطدام العنيف الذى اتبعه الإمام إزائه حتى خاطبه بلعنه الله والناس أجمعين، ثم وصفه بتلك الصفات الشائنة كقوله: «حائك بن حائك، منافق بن كافر، والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام اخرى! فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك! وإن إمرأ دَلَّ على قومه السيف وساق إليهم الحتف! لحرى أن يمقته الأقرب، ولا يأمنه إلا بعد»
 إلا- أن أدنى نظرة إلى التاريخ الاسود الذى حفلت به حياة هذا المنافق لتكشف عن مدى فساده وفساده للوسط الإسلامى، بل كان منقوتا حتى فى الجاهلية، إلى جانب كونه اليد الخبيثة فى تأجيج نار الحروب حتى اشتهر بلقب «عرف النار».

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤١٦

نعم، ليس هنالك ما يثير الدهشة والعجب فى مخاطبته بهذه الكلمات من قبل الإمام عليه السلام. والواقع لم يرد فى كلام الإمام عليه السلام سوى بعض صفاته الشنيعة التى تحتم على القائد الحكيم فى ظل بعض الظروف أن يعرى بعض الأفراد المتآمرين أمام أعين الامية وانظارها لكى لا تنطلى عليها حيله والأعيه، ولا سيما طائفة الشباب من المجتمع التى قد لا تمتلك الاطلاع الكافى عن حياة وماضى اولئك الأفراد، اذن فقد كانت كلماته من قبل التعريف به للامة، لأنها انطلقت بدافع الإساءة والسب والشتم.

٢- كيف صبر الإمام عليه السلام على هذا المنافق

لعل ما ورد فى الخطبة المذكورة يثير لدى البعض هذا السؤال:

إذا كانت للأشعث بن قيس مثل هذه السابقة فى الغدر والنفاق واثارة القلاقل والمفاسد، لم صبر عليه الإمام عليه السلام ولم يأمر بقتله؟ والجواب على هذا السؤال هو أن تعامل أئمة المسلمين مع عناصر النفاق ينطوى على شىء من التعقيد؛ فقد كانت عناصر النفاق تعيش الازدواج فى تظاهرها بالاسلام وأدائها لشعائره من قبيل الصوم والصلاة وقراءة القرآن، واضمارها للكفر والتآمر والخيانة والفساد وعليه فالاصطدام بهم قد يؤدي إلى إثارة بعض التوترات وتعالى أصوات الرأى العام فى قتل المسلمين من أهل القبلة دون التورع فى سفك دمائهم، ولا سيما بالنسبة للأشعث الذى كان ينتمى إلى قوم وقبيلة؛ الأمر الذى يصعد من حدة التوتر لا محالة.

وقد شهد الرسول صلى الله عليه وآله مثل هذه المشكلة، بل كانت أعظم حدة مما هى عليه فى عهد أمير المؤمنين عليه السلام حتى ورد عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «لولا أتى أكره أن يقال ان محمداً صلى الله عليه وآله استعان بقوم حتى إذا ظفر بعدوه قتلهم

لضربت أعناق قوم كثير». [٧٦٦]

أجل فقد كانت هنالك طوائف من المنافقين التي إندست بين صفوف المسلمين، بل كانت تشهد حتى الغزوات إلى جانبهم، ولعل الاصطدام بهم كان يعنى أن الإسلام لا يقيم وزناً لدماء المسلمين، ومن هنا لم نسمع بان رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بقتل أحدهم طيلة حياته المباركة، إلا أن ذلك لم يكن ليمنع الرسول صلى الله عليه وآله بل القرآن فى التصدى لهم وتعريتهم أمام الأمة.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤١٧

الخطبة العشرون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
وفيه ينفر من الغفلة وينبه إلى الفرار لله
«فَأَنْتُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزَعْتُمْ وَوَهَلْتُمْ، وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَلَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَا قَدْ عَايَنُوا، وَقَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ الْحِجَابُ! وَلَقَدْ بَصُرْتُمْ إِنْ أَبْصِرْتُمْ، وَأَسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ، وَهَدَيْتُمْ إِنْ اهْتَدَيْتُمْ، وَبِحَقِّ أَقُولُ لَكُمْ: لَقَدْ جَاهَرْتُكُمْ الْعَبْرُ، وَزَجَرْتُكُمْ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ، وَمَا يُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّمَاءِ إِلَّا الْبَشَرُ». [٧٦٧]

الشرح والتفسير

طرح الحجب قريباً

لقد حذر الإمام عليه السلام الآمئة من الغفلة ودعاها للتحلى باليقظة وتدارك ما فاتها من خلال العبودية والطاعة خشية من الأحداث التى تنتظرها فى المستقبل القريب. فقد استهل

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤١٨

كلامه عليه السلام بالقول

«فَأَنْتُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزَعْتُمْ وَوَهَلْتُمْ [٧٦٨] وسمعتم واطعتم».

والذى يستفاد من الروايات أن الإمام عليه السلام قد القى هذه الخطبة فى الجمعة الاولى بعد البيعة، وقد حذر الآمئة - طبق رواية الكافى - من خيانة ائمتها ودعاها إلى الوحدة ورض الصفوف واجتناب الاختلاف والفرقة، ثم أورد هذه الكلمات لتأكيد المعنى المذكور. أمّا ما هى المواضيع التى سيشهدها الإنسان فى عالم ما بعد الموت بعد أن تطرح عنه الحجب فيسوده القلق والاضطراب والجزع، فهذا ممّا اختلفت فيه أقوال العلماء، لكن المسلم به أن هناك موضوعين مهمين: أحدهما أنه سيرى نتائج أعماله وما ينتظره من جزاء وعقاب عليها، والثانى مدى الحسرة والأسف الذى سيشعر به تجاه تقصيراته التى صدرت منه فى حياته الدنيا، الإمكانيات التى كان من شأن إستثمارها أن تبلغ به السعادة والفلاح والفوز بالقرب الإلهى ومجاورة الرحمن، غير أنه ضيع كل تلك الفرص، والادهى من ذلك لاسبيل إلى الرجوع إلى الحياة ثانية.

ثم قال عليه السلام: «ولكن محجوب عنكم ما قد عايينوا، وقريب ما يطرح الحجاب» نعم أن هذه الحجب هى التى جعلتكم تغطون فى هذه الغفلة وتتعلقون بالدنيا وتغترون بها، ولكن اعلموا إن هذه الحجب آيلة إلى الزوال وسترون الاشياء والحقائق كما هى حيث لا ينفع حينها القلق والجزع والفرع، كما ليس هنا لك من مجال للتوبة.

وهنا يبرز هذا السؤال: لم لا يطرح البارىء سبحانه هذه الحجب عن الإنسان فى الحياة الدنيا لينتبه إلى نفسه ولا يعيش السكر والغفلة؟

يبدو أن الآيات القرآنية قد تكفّلت بالإجابة على هذا السؤال: فلو طرحت هذه الحجب ورأى الناس الحقائق على صورتها فإن أدنى تمرد سيؤدي إلى مواجهتهم للعذاب الشديد حيث لم يعد هنالك من عذر للتقصير.

فقد صرّحت الآية الثامنة من سورة الانعام و «ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون».

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤١٩

و بغض النظر عن هذا الأمر فإن الإيمان من جراء مشاهدة الحقائق المترتبة على ما بعد الموت سوف لن يكون مدعاة للعبودية والطاعة وسيكون نوعاً من الاجبار والاضطرار، كما نشاهد ذلك في الأفراد- حتى الصبيّة منهم- حين يبدون ردود فعلهم المباشرة إذا ما إقتربت أيديهم من النار، فاجتناب المعصية على هذا الضوء سوف لن يكون بدافع من الورع والتقوى و العبودية أبداً.

أما قوله عليه السلام

«قريب ما يطرح الحجاب»

فعمر الإنسان مهما كان ليس سوى لحظات عابرة مقارنة بعمر الدنيا وزمان الآخرة. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مسألة مهمّة بهذا الشأن وهي أنّكم وإن لم تروا عالم ما بعد الموت، إلّا أنّ الأدلة عليه قائمة لديكم ومعالمه واضحة أمامكم «ولقد بصرتم ان ابصرتم، واسمعتم ان سمعتم، وهديتم إن اهتديتم».

وعليه فليس هنالك من عذر لمن ضل السبيل وأخطأ المسيرة، فالحقائق المرتبطة بعالم الآخرة وان حجبت عنكم، إلّا أنّكم على علم بها من خلال ثلاثة طرق: الأول من الاعتبار بما تشاهدونه في هذا العالم، فآثار الفراعنة وقبور الأسلاف لأدلة واضحة على العاقبة الميريّة التي تنتهي إليها مسيرة الأرواح الظالمّة والتي تشير إلى أنّ الله بالمرصاد، كما لديكم الكتب السماوية و الرسائل النبوية، أضف إلى ذلك فإنّ الأدلة العقلية ليست بالقليلة وهي تفودكم بكل بساطة إلى المعاد واليوم الآخر.

و عليه فعبارته عليه السلام إنّما تشير إلى الأدلة الحسية والنقلية والعقلية.

كما يحتمل أن تكون الجملة الاولى إشارة إلى الأدلة الحسية والعقلية (لأنّ البصيرة تطلق على الإدراك العقلي أيضاً) والجملة الثانية تلمح إلى الأدلة النقلية، بينما تشير الجملة الثالثة الهداية الناجعة من هذه الادلة. ثم قال عليه السلام:

«وبحق أقول لكم: لقد جاهرتمكم العبر»

فالعالم مليء بحوادث العبرة والاعتبار التي لا تخفى على أحد، فتلك آثار الفراعنة والأقاصرة والأكاسرة التي تنبئ عن أحوال من

كان من الامم السالفة. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» [٧٦٩]

وقال ايضاً: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعَيْونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ». وقال في موضع آخر «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» [٧٧٠].

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤٢٠

فقد شحن القرآن بهذه الآيات إلى جانب الروايات الإسلامية التي أكدت هذا المعنى.

الادباء والشعراء تعرضوا لهذه الحوادث في نتاجاتهم ممّا يثبت حقيقة قوله عليه السلام:

«لقد جاهرتمكم العبر»

. ثم قال عليه السلام:

«و زجرتم بما فيه مزدجر» [٧٧١]

. ولعل هذا الزجر يستند إلى لسان التكوين الذي ينطلق من أعماق التاريخ واخبار الماضين كما صور ذلك القرآن الكريم «وَلَقَدْ

جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ» [٧٧٢].

أو عن طريق لسان التشريع والوحي الذي ورد في الكتب السماوية. وعليه فقد تمت الحجة تكويناً وتشريعاً ولم يعد هنالك من عذر.

ثم قال عليه السلام:

«و ما يبلغ عن الله بعد رسل السماء إلّا البشر».

فما هذا الانتظار؟ أتتوقعون أن تهبط عليكم الملائكة ويتلون عليكم الآيات؟ فقد تشدق بذلك الكفار على عهد النبي صلى الله عليه و آله قائلين: «لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» [٧٧٣]. فرد عليهم القرآن بالقول: «مَا نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ» [٧٧٤] وخلاصة القول فان الله قد أتم حجته عن طريق المشاهدات الحسية لآثار الامم السابقة ومن خلال العقل وأخيراً الوحي، وليس لاحد أن يخرج عن سبيل الطاعة بحجة «لولا أنزل علينا الملائكة».

ملاحظة: عالم ما بعد الموت

صحيح أن هنالك الاغشية الغليظة التي تحول بيننا وبين ذلك العالم وأن الحجب الظلمانية لا تدعنا نرى حوادث عالم البرزخ (و ينبغي أن يكون الأمر كذلك؛ فلو طرحت الحجب لفقد الامتحان حرارته ولا نطلق الجميع في حالة شبه اضطرابية نحو الحق فلم يعد هنالك من معيار لتمييز المطيع من العاصي)، غير أن الآيات القرآنية والروايات الإسلامية الواردة عن أئمة نفحات الولاية، ج ١، ص: ٤٢١

العصمة عليه السلام قد أشارت إلى طبيعة هذا العالم المرعب، كما بينت مدى الهلع الذي يعتري الإنسان حين مشاهدته لملك الموت وحين يرى ما عمل حاضرا أمامه، فينطلق صوته «ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحا فيما تركت» [٧٧٥]

فيأتيه الجواب بالسلب، فليس هنالك من سبيل إلى الرجعة كاستحاله عودة الجنين إلى رحم أمه. وقد أشار الإمام على عليه السلام في بعض خطبه في نهج البلاغة إلى هذا الأمر، من ذلك أنه قال: «يفكر فيم أفنى عمره وفيم أذهب دهره ويتذكر أموالاً جمعها اغمض في مطالبها ... و اشرف على فراقها تبقى لمن ورائه» [٧٧٦]

أجل أن كل هذا الجزع والفرع من جراء مشاهدة ذلك العالم الخطير ورؤية ملك الموت. وقد أسمعنا أولياء الله من ائمة الدين ما ينبغي سماعه عن تلك المنازل المرعبة، إن كانت لنا آذانا صاغية.

«اللهم رزقنا عيناً بصيرة واذناً سميعة وقلباً حافظاً، لتزود لتلك الدار قبل وفاتنا وفوات الأوان، فتحلق إلى ذلك العالم بقلب مطمئن ونفس واثقة ونفوز بقرب اوليائك من الشهداء والصديقين «و حسن اولئك رفيقا».

اللهم تقبل منا هذا الجهد المتواضع ومن علينا باكماله بفضلك ورحمتك.

الختام

النصف من شهر رمضان المبارك

الولادة الميمونة للإمام المجتبي عليه السلام

سنة ١٤١٦ الموافق ٧/٣/١٩٩٥ م

- [١] (١) الغدير ٤ / ١٨١.
- [٢] (١) مذكرات العلامة الشريف الرضى / ٢٩.
- [٣] (١) النقابة: موضوعه على صيانة ذوى الأنساب الشريفه عن ولاية ولا يكافئهم فى النسب ولا يساويهم فى الشرف، ليكون عليهم أحيى وأمره فيهم أمضى وهى على ضربين: خاصة وعمامة، وأما الخاصة فهو أن يقتصر بنظره على مجرد النقابة من غير تجاوز لها إلى حكم وإقامه حد فلا يكون العلم معتبراً فى شروطها ويلزمه فى النقابة على أهله من حقوق النظر اثنا عشر حقاً:
- ١- حفظ أنسابهم من داخل فيها وليس هو منها، أ وخارج عنها.
 - ٢- تمييز بطونهم ومعرفة أنسابهم حتى لا يخفى عليه منه يتوآب.
 - ٣- معرفة من ولد منهم من ذكر أوائى فيثبته.
 - ٤- أن يأخذهم من الآداب بما يضافى شرف أنسابهم وكرم محتدهم لتكون حشمتهم فى النفوس موقورة وحرمة رسول الله صلى الله عليه وآله فيهم محصورة.
 - ٥- أن يترههم عن المكاسب الدينئة ويمنعهم من المطالب الخيئة.
 - ٦- أن يكفهم عن ارتكاب المآثم.
 - ٧- أن يمنعهم من التسلط على العامة لشرفهم.
 - ٨- أن يكون عوناً لهم فى استيفاء الحقوق.
 - ٩- أن ينوب عنهم فى المطالبة بحقوقهم العامة.
 - ١٠- أن يمنع أمائهم أن يتزوجن إلآامن الأكفاء.
 - ١١- أن يقوم ذوى الهفوات منهم فيما سوى الحدود.
 - ١٢- مراعاة وقوفهم بحفظ اصولها وتنمية فروعها.
- [٤] (١) أغلب ما أوردناه بالنسبة لحياء السيد الرضى قد اقتبسناه من كتاب الغدير ٤ / ١٨١ - ٢١١، إضافة إلى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، عبقرية الشريف الرضى، سفينة البحار ومذكرات العلامة الشريف الرضى.
- [٥] (١) يقع شرحه فى عشرين مجلداً وقد استغرق فى تأليفه أقل بقليل من خمس سنوات وهى مدّة خلافة على عليه السلام على حد تعبيره.
- [٦] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١١ / ١٥٣.
- [٧] (٢) هو أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل بن نباتة المتوفى عام ٣٧٤.
- [٨] (٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٧ / ٢١٤.
- [٩] (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٢ / ٨٤.
- [١٠] (٥) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ٢٤.
- [١١] (١) على صوت العدالة الإنسانى ١ / ٤٧.
- [١٢] (٢) نهج البلاغة، قصار الكلمات ٨١.
- [١٣] (٣) الطراز ١ / ١٦٥ - ١٦٨.
- [١٤] (١) نظرات فى القرآن / ١٥٤، طبق نهج البلاغة ١ / ٩١.

[١٥] (٢) نقلًا عن كتاب (الجريدة الغيبية) عن مصادر نهج البلاغة / ١.

[١٦] (٣) مصادر نهج البلاغة / ١ / ٩٦.

[١٧] (٤) تذكرة الخواص، الباب السادس / ١٢٨.

[١٨] (١) كشكول الشيخ البهائي / ٣ / ٣٩٧.

[١٩] (٢) عبقرية الشريف الرضى / ١ / ٣٩٦.

[٢٠] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ١٦ / ١٤٦.

[٢١] (٢) العبقریات / ٢ / ١٣٨ (طبعة دارالكتاب اللبناني).

[٢٢] (١) العبقریات / ٢ / ١٤٤.

[٢٣] (٢) العبقریات / ٢ / ١٤٥.

[٢٤] (٣) مصادر نهج البلاغة / ١ / ٩٠.

[٢٥] (٤) جولة في نهج البلاغة / ١٨ و ١٩.

[٢٦] (٥) أصول الكافي / ١ / ١٣٦.

[٢٧] (٦) البيان / ٩٠.

[٢٨] (١) الإمام على صوت العدالة الإنسانية / ٣ / ١٧٧.

[٢٩] (٢) الخطبة الشقشقية (الخطبة ٣).

[٣٠] (٣) الرسالة رقم ٤٥.

[٣١] (٤) الخطبة الاولى وخطبة الأشباح / ٩١ وسائر الخطب بهذا الشأن.

[٣٢] (٥) الخطب ١٠٩ - ١١١ - ١١٣ وما شابهها.

[٣٣] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٧ / ٢٠٢. (بتلخيص)

[٣٤] (١) مروج الذهب / ٢ / ٤١٩، طبعة دار الهجرة قم.

[٣٥] (٢) تذكرة الخواص / ١٢٨.

[٣٦] (٣) البيان والتبيين / ١ / ٨٣.

[٣٧] (٤) مشاكله الناس لزمانهم / ١٥.

[٣٨] (١)

١- البيان والتبيين للجاحظ.

٢- تاريخ الطبرى.

٣- الجمل للواقدي.

٤- المغازى لسعيد بن يحيى الاموى.

٥- المقامات لأبى جعفر الاسكافى.

٦- المقتضب للمبرد.

٧- حكاية أبى جعفر محمد بن على الباقر عليه السلام.

٨- حكاية ثعلب عن ابن الاعرابى.

٩- خبر ضرار الضبابى.

- ١٠- رواية أبي جحيفة.
- ١١- رواية كميل بن زياد النخعي.
- ١٢- رواية مسعدة بن صدقة لخطبة الاشباح عن الصادق جعفر بن محمد.
- ١٣- رواية نوف البكالي.
- ١٤- ما ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام من غريب الحديث.
- ١٥- ما وجد بخط هشام بن الكلبي.
- [٣٩] (١) الغدير ٤/ ١٨٦-١٩٣.
- [٤٠] (٢) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة/ ١٠) جدير ذكره أن عدد الشروح التي وردت في مصادر نهج البلاغة مئة وواحد لا مئة وعشرة).
- [٤١] (١) الذريعة ١٤/ ١١١-١٦٠.
- [٤٢] (١) وردت هذه الخطبة (ليست بصورة كاملة بل بعضها) في عدة كتب قبل السيد الرضى (ره) وبعده. وكان ممن رواها قبله: ١- المرحوم الصدوق في كتاب التوحيد ٢- المرحوم ابن شعبة الحرائي في كتاب تحف العقول. أما من نقلها بعده: ١- الواسطي في كتاب عيون الحكمة والمواعظ ٢- المرحوم الطبرسي في الاحتجاج ٣- ابن طلحة في كتاب مطالب السؤال ٤- القاضي القضاعي في دستور معالم الحكم ٥- الفخر الرازي في التفسير الكبير ٦- الزمخشري في ربيع الأبرار ٧- القطب الراوندي في منهاج البراعة ٨- المرحوم العلامة المجلسي في ج ٤، ١١، ١٨، ٥٧، ٧٧، ٩٢ و ٩٩ من بحار الانوار. طبعاً هناك تفاوت بين العبارات التي وردت في الكتب المذكورة مع ما ورد في نهج البلاغة.
- [٤٣] (١) كثر الكلام بين اللغويين ومفسري القرآن ونهج البلاغة بشأن معنى الحمد والمدح والشكر، غير أن المشهور بينهم أن الحمد هو كل مدح إزاء الأعمال الحسنة الاختيارية؛ بينما ينطوي المدح على مفهوم أوسع يشمل الأعمال الاختيارية وغير الاختيارية، أما الشكر فأخص من المدح ويقتصر على إيصال أحدهم نعمة إلى آخر فيشكره على تلك النعمة. (من أراد المزيد فليراجع مجمع البحرين، لسان العرب، المفردات، شرح ابن الهيثم وشرح العلامة الخوئي). بينما صرح بعض مفسري القرآن ونهج البلاغة كالزمخشري في الكشاف وابن أبي الحديد في شرحه أن «الحمد والمدح أخوان، لا فرق بينهما»، ويبدو أن التفسير الأول أصح.
- [٤٤] (٢) أورد العلامة المجلسي ضمن توضيحه لبعض الأخبار في البحار، تعليقاً على كلام المحقق الطوسي هذا الحديث «ما عبدناك حق عبادتك وما عرفناك حق معرفتك» دون ذكر سنده. بحار الانوار ٦٨/ ٢٣.
- [٤٥] (١) اصول الكافي ٢/ ٩٨، ح ٢٧.
- [٤٦] (٢) المصدر السابق/ ٩٧، ح ١٨.
- [٤٧] (١) «همم» جمع هممة تعني في الأصل الذويان والجريان والحركة ولهذا يطلق الهمم حيث بسبب ذويان الجسم الإنسان وروحه، ثم أطلق على كل أمر مهم أو ما يشغل فكر الإنسان (ورد شبه ذلك في المفردات).
- «غوص» تعني في الأصل الغمس في الماء، ثم أطلقت على الدخول في كل عمل مهم.
- «فطن» جمع فطنة على وزن فتنه الفهم و الذكاء حسب لسان العرب.
- [٤٨] (٢) «الأجل» بمعنى انتهاء الشيء كعمر الإنسان وما إلى ذلك كالعقود والعهود.
- [٤٩] (١) «فطر» من مادة «فطر» على وزن بمعنى شق الشيء من الطول ومنه الافطار في الصوم
- [٥٠] (٢) «وتد» من مادة «وند» (على وزن وقت) بمعنى إثبات الشيء ولذلك يطلق الوند على المسمار الذي يثبت في الأشياء ويمنحها الثبات أيضاً، وأحياناً يطلق «الوند» على وزن «الوقت».

[٥١] (٣) «الصخور» جمع «صخرة»، وقال صاحب لسان العرب تعنى الحجر الكبير الصلب.

[٥٢] (٤) «ميدان» من مادة «ميد» على وزن (صيد) بمعنى الحركة والاضطراب وميدان على وزن (ضربان) بهذا المعنى أيضاً و«ميدان» على وزن (حيران) وجمعه ميادين بمعنى الفضاء الواسع.

[٥٣] (٥) سورة الأعراف / ٥٧.

[٥٤] (٦) سورة النحل / ١٥.

[٥٥] (١) لقد ذهب المرحوم العلامة المعروف «محمد جواد مغنية» فى كتابه «فى ظلال نهج البلاغة» إلى أن هذه المعرفة تعنى الطاعة والانقياد لأوامر الله ونواهيه، وهذا هو المعنى الذى اختاره من قبله الشارح الخوئى - رضوان الله عليه، فان كان مرادها الطاعة بالمعنى الشامل للكلمة بما فيها الامور العقائدية صح ذلك، وإن اقتصر على الجوانب العملية فقط يرد عليهما ما أوردناه سابقاً.

[٥٦] (١) منهاج البراعة ١ / ٣٢١. وقد نقل الشارح الخوئى بأن لصدر الدين الشيرازى مثل هذا الاعتقاد فى شرح الكافى.

[٥٧] (٢) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ١ / ١٢٢.

[٥٨] (١) الأشاعرة هم أتباع «أبو الحسن الأشعري» الذين يؤمنون بالمعاني، والمراد بالمعاني هو أن مفهوم الصفات من قبيل العالمية والغالبية و... كالذات الإلهية قديمة أزلية، كما أنها فى نفس الوقت غير الذات الإلهية، وعليه فهم يعتقدون بأزلية بعض الأشياء، بعبارة اخرى يقولون بتعدد القدمات، وهى العقيدة التى تتنافى تماماً والوحدانية الخالصة، ولذلك ينفى أتباع أهل البيت عليهم السلام - على ضوء ما تلقوه عنهم من تعاليم كالذى جاء فى هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة وكلمات أئمة العصمة عليهم السلام - هذه المعانى التى تمثل الصفات الزائدة على الذات، وقد أشارت العبارة «لا شريك له ولا معانى» لهذا الأمر.

[٥٩] (١) بحار الأنوار ٦٦ / ٢٩٣.

[٦٠] (١) سورة طه / ٥.

[٦١] (٢) لقد ذهب بعض شراح النهج إلى أن العبارتين المذكورتين إنما تبيان موضوعاً واحداً، بينما اعتبر البعض الآخر - مثل ابن أبى الحديد - أن قوله عليه السلام: «كائن لا عن حدث» إشارة إلى الحدوث الزمانى فى العبارة الاولى، ولم ينف حدوثه الذاتى الا فى كلمته الثانية بغض النظر عن الزمان لأنه واجب الوجود. (شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ٧٩). فى حين ذهب آخرون إلى عكس ذلك ففسروا العبارة الاولى بنفى الحدوث الذاتى أو الذاتى والزمانى، والعبارة الثانية بنفى الحدوث الزمانى. (شرح نهج البلاغة لابن ميثم، ١ / ١٢٧). ولكن لم يقم دليل واضح على أى من هذا التفاوت، لأن مفردة الحدوث عادة ما تطلق على الحدوث الزمانى، كما يمكن حملها على الحدوث الذاتى أيضاً، وهكذا يمكن إطلاق نقطة العدم على العدم الذاتى والتى غالباً ما تطلق على العدم الزمانى. وعليه تبدو هاتان العبارتان متأكدتان فى معناهما وهو نفي الحدوث الزمانى والذاتى؛ على أنهما تنفيان أى حدوث وعدم عن الذات الإلهية سواءً بالنسبة للذات والزمان.

[٦٢] (١) هناك احتمالان بشأن «إذ» الواردة فى العبارة؛ الاحتمال الأول: هل هى ظرفية تشير إلى عدم وجود شىء خلق فى الأزل ولم تكن سوى ذاته المقدسة ليأنس بها ويستوحش لفقدها؟ أم إن «إذ» هنا بمقام التعليل، يعنى كان وما زال واحداً لأنه لم يكن هناك من وجود، حيث لا يحتاج إلى أحد؟

يبدو أن الاحتمال الثانى هو الأقوى. كما إن «لا» فى قوله «لا- يستوحش» زائدة وردت للتأكيد، بينما ذهب البعض إلى أنها جملة استثنائية.

[٦٣] (١) هذه هى عقيدة أغلب المتصوفة، وشاهد ذلك العبارة المشهورة التى يطلقها زعماء هذه الفرقة «إنى أنا الله» وأعظم من ذلك ما يرددوه من قولهم «سبحانى ما أعظم شأنى»، أما البعض الآخر فقد نظم أبياتاً من الشعر وصرح فيها بقوله «أن الصنمية والوثنية هى ذات العبودية!» كما ورد فى الأشعار الطائشة للمولوى التى تصور الله بشكل صنم عيار (وهو عبارة عن موجود مشكوك) يتلبس

- يوماً بهيئة آدم! ويوماً بهيئة نوح وآخر موسى وعيسى! وأخيراً بشكل محمد صلى الله عليه وآله كما يتلبس بهيئة علي وسيفه ذو الفقار! وبالتالي بشكل منصور الذي اعتلى أعواد المشنقة! (نقلًا بتلخيص عن العارف الصوفي وماذا يقولان/ ١١٧).
- [٦٤] (١) «الغلاة» هم المغالون في الأئمة عليهم السلام ولا سيما على عليه السلام فعدوه هو الله أو أنه اتحد به. و«الخوارج» هم أصحاب النهروان الذين أسماهم النبي صلى الله عليه وآله بالمارقين وقد قتلهم الإمام شرتلته في النهروان. وأما «النواصب» فهم أعداء أهل البيت عليهم السلام.
- [٦٥] (٢) العروة الوثقى، بحث نجاسة الكافر، المسألة ٢.
- [٦٦] (١) للوقف على المزيد راجع الكتاب مصباح الهدى ١/ ٤١٠ للمرحوم آية الله الشيخ محمد تقى الآملى (الفقيه والفيلسوف المعروف) وكذلك تقريرات المرحوم تقريرات المرحوم آية الله الخوئى ٣/ ٨١-٨٢.
- [٦٧] (٢) ترجمة و تفسير نهج البلاغة، الاستاذ الجعفرى ٢/ ٦٤.
- [٦٨] (١) سورة ق/ ١٦.
- [٦٩] (٢) سورة الحديد/ ٤.
- [٧٠] (٣) سورة المجادلة/ ٧.
- [٧١] (٤) سورة النور/ ٣٦.
- [٧٢] (٥) سورة الانفال/ ٢٤.
- [٧٣] (٦) بحار الأنوار ٣/ ٢٨٩.
- [٧٤] (١) توحيد ابن خزيمة/ ٢١٧ (طبق نقل بحوث فى الملل والنحل) ١/ ١٤٥.
- [٧٥] (٢) صحيح البخارى ٦/ ٥٦. تفسير سورة النساء؛ سنن ابن ماجه ج ١ مقدمة الباب ١٣ ح ١٧٧.
- [٧٦] (٣) للوقوف على هذه الروايات الموضوعه يقيناً وكذلك تفنيد هذه الروايات واستعراض الأدلة التى تضمنتها الآيات والروايات المعتره التى صرحت باستحالة رؤية الله فى الدنيا والآخرة، راجع من التفسير الموضوعى للقرآن نفحات القرآن ٤/ ٢٤١-٢٥١.
- [٧٧] (٤) سورة الانعام/ ١٠٣.
- [٧٨] (٥) سورة الاعراف/ ١٤٣.
- [٧٩] (٦) نهج البلاغة، الخطبة ٩١.
- [٨٠] (٧) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٥.
- [٨١] (١) نهج البلاغة، الخطبة ٤٩.
- [٨٢] (١) مفتاح السعادة فى شرح نهج البلاغة ١/ ١٣٩.
- [٨٣] (٢) أصول الكافى/ ١ باب أدنى المعرفة، ح ١؛ أيضا ١، باب النهى عن الصفة، ح ١؛ أيضا ١، باب جوامع التوحيد، ح ٤.
- [٨٤] (١) «أنشأ» من مادة «إنشاء» بمعنى اليجاد وان ذكروا لها عدده معان.
- [٨٥] (٢) «روية» بمعنى الرى من الماء كما ورد فى مقاييس اللغة، الا أنها تستعمل بمعنى التفكير المصحوب بالدقة. وكأنه يروى فكره بشأن تلك المسألة، أو رى تلك المسألة بفكره واداء حق التفكير.
- [٨٦] (٣) «أجال» من مادة جولان بمعنى الحركة والتجوال.
- [٨٧] (٤) «همامة»: لقد ذكر شراح ومفسروا نهج البلاغة لهذه المفردة عدده معان. فقد عناها البعض بالرغبة القطعية الباطنية بالشىء بحيث ينزعج لفقدانها (شرح ابن ميثم البحرانى ١/ ١٣٢). بينما ذهب البعض الآخر إلى أنها تعنى التريد فى القيام بعمل (منهاج البراعة ١/ ٥١). وقال آخرون أنها تعنى الاهتمام بالشىء (شرح مغنية ١/ ٢٧).

وقال ابن أبي الحديد في شرحه المعروف لنهج البلاغة: وقوله عليه السلام: «ولا- همامة نفس اضطرب فيها» فيه رد على المجوس والثوية القائمين بالهمامة الذين يعتقدون بأن النور الأعظم حين هم بمجاهدة الظلمة بدا عليه الشك والترديد فخرج من ذاته بشيء يسمى بالهمامة.

أما في اللغة- كما ورد في لسان العرب- فالهمامة تعني الضعف والوهن والفتور ولذلك يطلق على كل رجل أو امرأة عجوز اسم «هم» و«هممة».

ويبدو مما ذكر أن «الهمامة» الواردة في العبارة إنما تعني الضعف والعجز في العزم والإرادة بحيث يتعذر على الشخص اتخاذ القرار، أو أنه يتخذ القرار بصعوبة.

[٨٨] (١) سورة يس / ٨٢.

[٨٩] (١) «لام» و«لائم» من مادة «لام» بمعنى الجمع والإصلاح وضم شيء إلى شيء آخر والملائمة بينهما، ومن هنا اطلق على الدرع اسم «لأمة» على وزن «رحمة» لالتحام حلقاتها وتداخلها مع بعضها.

[٩٠] (٢) «غرز» من مادة «غرز» على وزن «قرص» تعني في الأصل غرس الابرة أو الجعل والادخال، ثم اطلقت فيما بعد على الطبايع التي أودعت الإنسان أو سائر الكائنات الحية، وكأن هذه الطبايع بمثابة البذور التي غرست في أرض الوجود الإنساني.

[٩١] (١) «أشباح» جمع «شبح» طبق ما أورده أغلب أرباب اللغة بمعنى الشخص في الأصل، كما وردت بمعنى ظهور الشيء واتضاحه، ومن هنا يطلق الشبح اليوم على الموجود الذي يتراءى ظله ثم يظهر فجأة.

[٩٢] (١) سورة طه / ٥٠.

[٩٣] (٢) سورة الروم / ٣٠.

[٩٤] (٣) سورة الحجر / ٢١.

[٩٥] (١) «قرائن» جمع «قرينة» بمعنى المصاحب والرفيق، ولذلك يقال لزوجة الرجل قرينته (الصاحح والقاموس وسائر الكتب اللغوية)، بينما ذهب بعض شراح نهج البلاغة كابن أبي الحديد إلى أن القرائن جمع قرونة (على وزن معونة) وهي النفس ولكن يبدو المعنى الأول أنسب بالاستناد إلى التعبيرات التي وردت في الجملة.

[٩٦] (٢) «أحناء» جمع «حنو» على وزن فعل «وحنو» على وزن حرف وتطلق على كل شيء فيه اعوجاج وانحناء- على ضوء ماورد في المقاييس ولسان العرب- كعظم الفك والاضلاع. ثم وردت بمعنى الجوانب أيضاً وذلك لأن جوانب وأطراف الأشياء غالباً ما تشتمل على انحناءات).

[٩٧] (٣) لا بد من الالتفات هنا إلى أن الضمائر التي وردت في هذه العبارات إنما تعود إلى الأشياء لا الغرائز كما صرح بذلك بعض شراح نهج البلاغة؛ وذلك لعدم وجود الانسجام بين الاحتمال الثاني ومضمون الجملة.

[٩٨] (١) لقد أورد ابن ميثم هذا الموضوع بصيغة اشكال ثم أجاب عنه بان أسماء الله أكثر من هذا العدد وقد ذكر عدّة شواهد على مدعاه (شرح نهج البلاغة، لابن ميثم / ١٣٧). جدير بالذكر ان هذا الحديث قد ورد في الدر المنثور عن صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسنند أحمد وسنن الترمذي وسائر المصادر الروائية ٣ / ١٤٧ (نقحات القرآن ٤ / ٤٦).

[٩٩] (٢) أصول الكافي ١ / ٩١، باب النسبة، ح ٢ وص ١١٣، باب حدوث الأسماء، ح ٢.

[١٠٠] (١) إن من أورد هذا الجواب لحل الإشكال المذكور قد واجه هذا السؤال: وهو أن لازمة هذا الكلام أن ليس لله من علم بكثرة الموجودات بوصف الكثرة قبل وجودها، لأنه ليس هنالك من كثره في ذاته، أو بتعبير آخر، أن علمه متفاوت بالموجودات قبل وجودها وبعده: فقد كان سابقاً على نحو العلم الإجمالي، ولاحقاً على نحو العلم التفصيلي، والعجيب أن بعضهم قد اعترف بهذا التفاوت.

[١٠١] (١) «فتق» على وزن مشق بمعنى الشق والضجوة بين شيئين وهي ضد الرتق (كما أورد ذلك الراغب في مفرداته). ويقال للصبح «فتيق»، لأنه يشق الالفق ويظهر، وقال صاحب لسان العرب أنه يطلق «فتيق اللسان» على الفرد الخطيب والفصيح اللسان، لأنه يتحلى بلسان طلق ذرب.

[١٠٢] (٢) «أجواء» جمع «جو» بمعنى - حسب قول المفردات ولسان العرب - الفضاء الحاصل بين السماء والأرض.

[١٠٣] (٣) «شق» بمعنى الفتحة في الشيء، ومن هنا اطلق الشقاق على الاختلاف الذي يحدث بين الناس ويفصلهم عن بعضهم البعض الآخر.

[١٠٤] (٤) «أرجاء» جمع «رجاء» (دون همزة) تعنى حسب «مقاييس اللغة» أطراف البئر أو أطراف أى شىء آخر، الرجاء بالهمزة فيعنى الأمل. بينما يعتقد البعض من قبيل كاتب «التحقيق» أن معناها الأصلى الشىء الذى يرجى وقوعه فى الجوانب الأطراف، ولذلك يطلق على هذه الجوانب والأطراف المرجوة «رجاء» دون همزة.

[١٠٥] (٥) «سكائك» جمع «سكائه» على وزن خلاصة، قال صاحب لسان العرب أنها تعنى الفضاء الواقع بين السماء الأرض، وقال ابن أبى الحديد هى أعلى الفضاء.

[١٠٦] (٦) «الهواء» بمعنى الخالى والساقط، ولذلك يطلق لفظ الهواء على كل شىء خالٍ، ومن ذلك الفضاء بين السماء والأرض. وأما سبب إطلاق لفظه «الهوى» على الشهوات والنزوات النفسية فهى أنها تشكل مصدر سقوط الإنسان فى الدنيا والآخرة (مقاييس اللغة، مفردات الراغب، لسان العرب). ويبدو ان اطلاق هذه المفردة على الغاز اللامرئى المركب من الاوكسجين والاوزون إنما هو من الاستعمالات الجديدة والذى يناسب أيضاً المعنى الأصلى، لأنه يبدو موضعاً خالياً (و إن ورد بهذا المعنى فى بعض الروايات أيضاً).

[١٠٧] (١) توحيد الصدوق / ٦٦، كما ورد شبيه هذا المضمون فى / ١٤٥ - ٢٢٦.

[١٠٨] (١) كل شىء يدور حول نفسه إنما يتعرض إلى قوة تحاول طرده من المركز، كالشعلة التى ندورها بايدينا فاذا تركناها فجأة قذفت إلى نقطة بعيدة، وما هذا إلا لوجود قوة الطرد المركزية، وكلما تضاعفت هذه القوة فان شدة القذف خارجاً تتناسب طردياً وازدياد تلك القوة.

[١٠٩] (٢) «متلاطم» من مادة «لطم» على وزن ختم بمعنى صفع الوجه باليد، ثم استخدمت هذه المفردة لاحقاً بمعنى اصطدام الأمواج مع بعضها.

[١١٠] (٣) «التيار» بمعنى أمواج البحر التى يقذف بها الماء، وقد أطلقها البعض (مقاييس اللغة ولسان العرب) على كل نوع من الأمواج.

[١١١] (١) «متراكم» من مادة «ركم» على وزن رزم بمعنى تراكم شىء والقاء بعضه على بعض، وتطلق على الغيوم والرمال والمياه وحتى الجموع الغفيرة من الناس التى تتجمع فى موضع (المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغة).

[١١٢] (٢) «زخار» من مادة «زخر» و«زخور» بمعنى الامتداد والارتفاع، كما يطلق على امتلاء البحر وتلاطمه.

[١١٣] (٣) «عاصفة» من مادة «عصف» على وزن عصر بمعنى الخفة والسرعة، ومن هنا يطلق العصف على قشور الحبوب التى تكسر بسرعة، كما يقال «عاصف» و«معصف» للشىء الذى يحطم سائر الأشياء وينعمها (المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغة).

[١١٤] (٤) «ززع» على وزن زمزم بمعنى الحركة والاضطراب والاهتزاز، كما تستعمل بمعنى الشديد (مقاييس اللغة ولسان العرب).

[١١٥] (٥) «قاصفة» من مادة «قصف» على وزن حذف بمعنى كسر الشىء، ومن هنا يطلق القاصف على العواصف الشديدة التى تكسر السفن فى البحار وكذلك الرعد والبرق الشديد الكاسر (المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغة).

[١١٦] (٦) «شد» على وزن مد بمعنى قوة الشىء وقدرته، ولذلك يصطلح بالشديد على الفرد القوى (ولا سيما القوى فى الحرب). كما تستعمل هذه المفردة بمعنى ربط العقدة وأحكام وثاقها) سواء كانت فى البدن أو فى القوى الباطنية والروحية أو فى المصيبة

والعذاب). (لسان العرب، المفردات ومقاييس اللغة).

[١١٧] (٧) «فتيق» من مادة «فتق» ذكرناها سابقاً.

[١١٨] (٨) «دقيق» من مادة «دقق» على وزن دقن بمعنى دفع الشيء إلى الإمام، كما تستعمل بمعنى السرعة. ولذلك يطلق «الادقق» على الناقه السريعة.

[١١٩] (١) «اعتقم» من مادة «عقم» على وزن قفل بمعنى الجفاف المانع من قبول الأثر، ويطلق العقيم على المرأة التي لا تتقبل نطفه الرجل، كما تأتي بمعنى الضيق أيضاً كما ورد في المفردات ولسان العرب ومقاييس اللغة.

[١٢٠] (٢) مهبها من الهبوب على وزن السجود الحركة بالنسبة للسيف والاضطراب ومن هنا تطلق على هبوب الرياح.

[١٢١] (١) «مرب» من مادة «رب» التي تعني في الأصل التريية، وتطلق الرب على المربي والمالك والخالق (وهو مصدر له معنى الفاعلية) ويفيد معنى الاستمرار والملازمة إذا جاء من باب الأفعال (إرباب) لأن التريية متعذرة دون الاستمرار). وبناءً على هذا فإن «مرب» مصدر ميمي بمعنى الدوام والبقاء.

[١٢٢] (٢) «أعصف» من مادة «عصف» على وزن عصر، بمعنى السرعة والحركة والشدة كما ذكرنا.

[١٢٣] (٣) «تصفيق» من مادة «صفق» على وزن سقف بمعنى قلب الشيء بعضه على بعض بحيث يصاحبه الصوت، ومن هنا اطلق التصفيق على ضرب الكفين - وهي هنا بمعنى تحريك المياه وتقليبها على بعضها (لسان العرب، مقاييس اللغة، شرح محمد عبده).

[١٢٤] (٤) «مَخَصَّص» من مادة «مخض» على وزن قرض بمعنى تحريك الموائع في ظروفها، ولذلك يستعمل هذا التعبير أثناء تحريك اللبن في القربة لفصل الزبدة عنه.

[١٢٥] (٥) «ساجي» من مادة «سجو» على وزن سهو بمعنى السكون والهدوء.

[١٢٦] (٦) «مائر» من مادة «مور» على وزن فور بمعنى الحركة السريعة، وتطلق هذه المفردة على الجادة أيضاً لأن الناس يتحركون عليها ذهاباً وإياباً.

[١٢٧] (٧) «عباب» من مادة «عب» بمعنى شرب الماء سريعاً دون تريث، ومن هنا اطلق العباب على الماء الكثير والمطر الغزير والسيل العظيم، وهي هنا بمعنى تراكم المياه على بعضها.

[١٢٨] (٨) «ركام» أشرنا إلى معناها سابقاً ما تراكم منه بعضه على بعض).

[١٢٩] (٩) «منفهبق» من مادة «فهبق» على وزن فرق بمعنى المفتوح الواسع، ولذلك يصطلح بالمنفهبق على الجزء الواسع من الوادي والوعاء المملوء بالماء.

[١٣٠] (١) «مكفوف» من مادة «كف» على وزن سد بمعنى قبض الشيء وجمعه، ولذلك اطلق على راحة اليد الكف لأنها سبب قبض اليد، كما يطلق المكفوف على الأعمى لقبض بصره.

[١٣١] (٢) «سمك» بمعنى الارتفاع ولهذا يسمى السقف بالسمك لارتفاعه.

[١٣٢] (٣) «عمد» على وزن سبد وعمد كلاهما جمع «عمود» بمعنى الدعامة.

[١٣٣] (٤) «يدعم» من مادة «دعم» على وزن فهم بمعنى دعامة الشيء ودعام ودعامه بمعنى الخشب الذي يحمل الأشياء ويشدها، وتطلق على الشيء والشخص الداعم.

[١٣٤] (٥) «دسار» بمعنى المسمار والحبل الذي يربط به الشيء.

[١٣٥] (٦) «ثواقب» من مادة «ثقب» على وزن سقف بمعنى الشيء؛ ثقب الشيء واختراقه ومن هنا اطلق الثواقب على الكواكب المضيئة المنيرة، فكأن نورها يثقب البصر وينفذ فيه، أو أن نورها يخترق السماء ليصلنا.

[١٣٦] (٧) «مستطير» من مادة «طير» بمعنى انتشار الشيء في الهواء، ثم استعمل كل شيء سريع وكذلك الطيور. ومستطير بمعنى واسع

ومنتشر. ومن هنا يقال استطار الفجر، أى انتشر ضوءه.

[١٣٧] (٨) «رقيم» من مادة «رقيم» بمعنى الخط والكتابة، كما وردت هذه المفردة بمعنى الكتاب. وهو اسم من أسماء الفلك وسمى به لأنه مرقوم بالكواكب.

[١٣٨] (١) للوقوف على هذه الروايات، انظر ٣ / ١٠ و ٥٧ من بحار الأنوار، طبعه بيروت. وردت أغلب الأحاديث فى ج ٥٧.

[١٣٩] (١) لقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى حركة الأرض من قبيل الآية ٨٨ من سورة النمل «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى اتقن كل شىء» والآية ٢٥ من سورة المرسلات «الم نجعل الأرض كفاتا». (وطبق بعض التفاسير فان الآية ٤٠ من سورة يس «لا- الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون» تدل على أن الشمس والقمر يسبحان فى الفضاء العلوى. للوقوف أكثر على التفاصيل. انظر تفسير الأمثل.

[١٤٠] (١) لقد أشار المرحوم «الخواجه نصير الدين الطوسى» فى كتابه «تجريد الاعتقاد» إلى الأدلة الخمسة لفرضية العقول العشرة فيفندها جميعاً ويقول فى عبارة قصيرة «وأدلة وجوده مدخولة». وللوقوف أكثر على هذا الموضوع راجع كلام الخواجه والعلامة الحلى بهذا الشأن.

[١٤١] (٢) الطريف أن القرآن أشار إلى السموات السبع فى سبع من آياته، وهى الآية ٢٩ من سورة البقرة، ٤٤ من سورة الاسراء، الآية ٨٦ من سورة المؤمنون، الآية ١٢ من سورة فصلت، الآية ١٢ من سورة الطلاق، الآية ٣ من سورة الملك والآية ١٥ من سورة نوح. كما وردت بعض الآيات التى أشارت بعبارات اخرى إلى هذا الأمر.

[١٤٢] (١) بحار الأنوار ٧٨ / ٥٥.

[١٤٣] (١) مجلة الفضاء ٥٦ / آذار عام ١٩٧٢ م.

[١٤٤] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٨٠ / ١.

[١٤٥] (٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩.

[١٤٦] (١) «العلاء» جمع «عليا» بمعنى الأعلى والأشرف.

[١٤٧] (٢) «أطوار» جمع «طور» على وزن قول بمعنى الصنف، كما تعنى الحد والحالة أيضاً.

[١٤٨] (٣) ان الضمير «هن» فى العبارة كما يشير ظاهرها يعود إلى السموات، إلّا أن المراد الفواصل بين السموات بدليل قوله «ثم فتق... وفاء التفريع فى «فملاًهن».

[١٤٩] (٤) «سجود» جمع «ساجد»، كالكوع جمع راع.

[١٥٠] (٥) «صافون» جمع «صاف» على وزن حاد من مادة «صف» بمعنى المساواة وقد اقتبست فى الأصل من «صفصف» بمعنى الأرض المستوية.

[١٥١] (٦) سورة الملك / ١٩.

[١٥٢] (١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

[١٥٣] (٢) بحار الأنوار ٥٩ / ١٩٨.

[١٥٤] (٣) سورة الزمر / ٧.

[١٥٥] (١) سورة النحل / ١٠٢.

[١٥٦] (٢) سورة البقرة / ٩٧.

[١٥٧] (٣) سورة النحل / ٢.

[١٥٨] (١) «سدنة» جمع «سادن» بمعنى الخادم والبواب.

- [١٥٩] (٢) شرح نهج البلاغة لابن ميشم ١/ ١٥٨ وشرح نهج البلاغة للمرحوم الميرزا حبيب الله الخوئي ٢/ ٢٦.
- [١٦٠] (١) «ناكسة» من مادة «نكس» على وزن عكس بمعنى الانقلاب رأساً على عقب ولذلك يطلق المنكوس على الوليد الذي يسقط على رجليه.
- [١٦١] (٢) «متلفعون» من مادة «لفع» على وزن نفع بمعنى الاشتغال على الشيء والالتفاف به، ومن هنا يقال للمرأة حين تلف عليها عباءها «تلفعت المرأة».
- [١٦٢] (٣) «نظائر» جمع «نظير» بمعنى المثل.
- [١٦٣] (١) بحار الأنوار ٥٦/ ٢٠٢ (باب حقيقة الملائكة).
- [١٦٤] (١) سورة بقره/ ٢٨٥.
- [١٦٥] (١) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ٢/ ٣٢-٣٥، وقد أورد المرحوم العلامة المجلسي الروايات المرتبطة بالعرش والكرسي في المجلد ٥٥ من بحار الأنوار، ومنها الروايات السابقة في ص ٥، ١٧ و ٥٥.
- [١٦٦] (١) سورة الأنبياء/ ٢٦-٢٧.
- [١٦٧] (٢) سورة التحريم/ ٦.
- [١٦٨] (١) سورة الأنبياء/ ٢٨.
- [١٦٩] (١) «حزن» على وزن «وزن» بمعنى المواضع الوعرة على الأرض، كما يطلق الحزن أو الحزن على الهم والغم، لأنه نوع وعورة في روح الإنسان.
- [١٧٠] (٢) «عذب» على وزن «جذب» بمعنى الماء الطاهر والحلو الصالح للشرب.
- [١٧١] (٣) «سبخ» وجمعها سباح بمعنى ما ملح من الأرض.
- [١٧٢] (٤) «سن» من مادة «سن» على وزن ظن بمعنى صب الماء على شيء، كما تأتي بمعنى نعوته الشيء.
- [١٧٣] (٥) «لاط» من مادة «لوط» على وزن صوت بمعنى خلط الشيء وعجنه.
- [١٧٤] (٦) «لزبت» من مادة «لزوب» على وزن سكوت بمعنى التصق وثبت واشتد.
- [١٧٥] (٧) «أحنا» جمع «حنو» على وزن حرص بمعنى الانحناء والجوانب والأطراف.
- [١٧٦] (١) «أصلد» من مادة «صلد» على وزن صبر بمعنى أحكم وجعل الشيء صلباً أصلاً.
- [١٧٧] (٢) «صلصل» من مادة «صلصلة» بمعنى اليبوسة والجفاف بحيث تخرج منها الأصوات بمجرد ملامستها لشيء، كما وردت بمعنى الجاف والمحكم.
- [١٧٨] (٣) اللام في «لوقت معدود» بمعنى إلى. ذهب البعض إلى أنها لام التعليل، بينما احتمال البعض أن المراد بهذه العبارة هو أن هذا الوضع سيستمر إلى قيام الساعة ثم تتفكك بعد ذلك أعضاء البدن تماماً، إلّا أن هذا الاحتمال يبدو مستبعداً للغاية، لأنه من المراحل المختلفة لخلق الإنسان ولم تطرح لحد الآن قضية نفخ الروح.
- [١٧٩] (٤) «فبقى أربعين سنة ملقى تمر به الملائكة فتقول لأمر ما خلقت؟». منهاج البراعة ٢/ ٤٤.
- [١٨٠] (٥) «مثلت» من مادة «مثول» على وزن حصول بمعنى استوت وقامت.
- [١٨١] (٦) «يجيل» من مادة «اجالة» (مصدر باب أفعال من جول وجولان بمعنى يدور).
- [١٨٢] (١) «يخندم» من مادة «اختدام» بمعنى الاستخدام.
- [١٨٣] (١) «أن العبارة» والأذواق والمشام والألوان والأجناس» هي عطف على عبارة الحق والباطل، بينما عدها البعض عطفاً على المعرفة. في حين يفيد التأمل في كلامه عليه السلام أن المعنى الأول هو الأنسب. وعلى ضوء المعنى الأول فإن قوة التمييز المعرفة

ستشمل كل هذه الامور، اما على أساس المعنى الثانى فان المعرفة تعد من النعم الالهية، كما أن قوة الشامة والباصرة والذائقة هي نعمة اخرى (لا بد من التأمل هنا).

[١٨٤] (٢) «الجنس» فى اللغة بمعنى الأقسام والأنواع المختلفة، وهناك القرائن الواردة فى خطب نهج البلاغة التى تدل على هذا المعنى ومنها الخطبة رقم ٩١.

[١٨٥] (٣) «معجوناً» حال للإنسان الذى ورد فى العبارة السابقة.

[١٨٦] (١) يمكن أن تكون جملة «من الحر والبرد» بياناً للاختلاط المتباينة، أو للأضداد والأخلاق معاً.

[١٨٧] (١) راجع من أجل الوقوف بصورة أعمق كتاب «الداروينية وآخر فرضيات التكامل». كما استعرضنا ذلك بصورة مقتضبة فى تفسيرنا الأمثل ١١/ الآيه ذيل الآيات ٢٦ حتى ٤٤ من سورة الحجر.

[١٨٨] (١) سورة الحجر / ٢٩.

[١٨٩] (٢) سورة المؤمنون / ١٤.

[١٩٠] (٣) سورة الأعراف / ١٧٩.

[١٩١] (١) «خنوع» بمعنى الخضوع والتواضع حسب «المقاييس» وأورد الآخرون ما يشبه هذا المعنى أيضاً.

[١٩٢] (٢) سورة ص / ٧٠ - ٧١.

[١٩٣] (١) سورة البقرة / ٣٤.

[١٩٤] (٢) «الحمية» من مادة «حمى» على وزن نهى معناها الأصلى الحرارة التى تنتج من الشمس والنار والمواد الاخرى أو من داخل جسم الإنسان، كما يعبر أحياناً بالحمية عن القوة الغضبية حيث إن حالة الإنسان تشتعل آنذاك، ويطلق الحمى على حرارة البدن حين الارتفاع.

[١٩٥] (١) سورة الحجر / ٣٦.

[١٩٦] (٢) إشارة إلى آية ٣٧ و ٣٨ من سورة الحجر «قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

[١٩٧] (٣) تفسير نور الثقلين ٣ / ١٤ ح ٤٦.

[١٩٨] (١) لقد تكفلت المناجاة الثانية من المناجاة الخمسة عشر للإمام على بن الحسين عليهما السلام ببيان كيفية تأثير هوى النفس وكذلك تأثير الشيطان فى انحراف الإنسان بصورة مفصلة.

[١٩٩] (٢) سورة البقرة / ٣٤ وسورة الاعراف / ١١ وسورة الاسراء / ٦١ وسورة الكهف / ٥٠ وسورة طه / ١١٦.

[٢٠٠] (٣) نور الثقلين ١ / ٥٨.

[٢٠١] (١) سورة الكهف / ٥٠.

[٢٠٢] (٢) سورة ص / ٧٦.

[٢٠٣] (٣) مجمع البيان ١ / ٨٢، ذيل الآيه ٣٤ من سورة البقرة.

[٢٠٤] (١) سورة الكهف / ٥٠.

[٢٠٥] (٢) سورة الحجر / ٤٢.

[٢٠٦] (٣) سورة الحجر / ١٠٠.

[٢٠٧] (١) سورة آل عمران / ١٧٨؛ سورة الروم / ٤١.

[٢٠٨] (٢) سورة الحج / ٥٣ - ٥٤.

[٢٠٩] (١) تفسير نور الثقلين ٤ / ٤٧٢ ح ٩٣.

[٢١٠] (٢) شرح نهج البلاغة لابن ميشم ١ / ١٩٠ فصاعداً.

[٢١١] (١) راجع كتاب التفسير بالرأى لآية الله مكارم الشيرازى بشأن هذا الموضوع.

[٢١٢] (١) فى ظلال نهج البلاغة ١ / ٥١.

[٢١٣] (١) «أرغد» من مادة «الرغد» بمعنى الحياة الرغيدة الوادعة، كما ترد بمعنى النعمة الوافرة بالنسبة للإنسان والحيوان أيضاً (المفردات ومقاييس اللغة).

[٢١٤] (٢) «نفاسة» من مادة «النفس» على وزن «حبس» بمعنى الروح، ولما كان التنفس مصدر الحياة فقد استخدمت هذه المفردة لذلك المعنى، ثم وردت «المنافسة» بمعنى السعى من أجل الوصول إلى مكانة مهمّة، لأنّ الإنسان يجهد نفسه فى ذلك السعى، ومن هنا استعملت «النفاسة» بمعنى الحسد والبخل (المفردات ومقاييس اللغة ولسان العرب).

[٢١٥] (١) هناك احتمالان حول رجوع الضمير فى «شكه» و«وهنه»، فقد صرح أغلب شراح نهج البلاغة بأنّ الضمير يعود إلى آدم؛ أى أن آدم عليه السلام باع يقينه بشكه وعزمه بوهنه وضعفه. بينما الاحتمال الآخر أن يكون الضمير عائداً إلى إبليس فى المفردتين وذلك لأنه هو الذى أوجد هذا الشك والوهن، ففى الواقع هو اضافة إلى السبب لا مفعول. لكن يبدو الاحتمال الأول أصوب من الثانى.

[٢١٦] (٢) سورة طه / ١١٥.

[٢١٧] (٣) سورة الاعراف / ٢١.

[٢١٨] (٤) «الجدل» على وزن الجدل بمعنى الفرح والسرور كما وردت فى صحاح اللغة، وقال صاحب المقاييس أنّ الجدل على وزن الجسم بمعنى جذر الشجرة الذى يقومها ويمنحها الاستقامة، ومن هنا كانت قامه الفرحان مستوية بينما كانت قامه المغموم منحنية، كما تطلق أحياناً على الأرض اللزجة، إلّا أنّها استعملت بمعنى الفرح.

[٢١٩] (٥) «وجل» على وزن أجل بمعنى الخوف والخشية.

[٢٢٠] (١) هناك كلام فى الضمير «جنته» هل يعود إلى الله أم إلى آدم. فلو كان عائداً إلى آدم، فإن ظاهر العبارة يفيد إرجاعه إلى الجنة التى كان فيها عليه السلام، وإن عاد الضمير إلى الله فلا لزوم أن تكون تلك الجنة التى كان فيها آدم، ويمكن أن تكون جنة آدم جنة دنيوية أو الجنة التى سيعود إليها وهى الجنة الأخرى كجنة الخلد، لكن الظاهر أن الضمير يرجع إلى لفظ الجلالة بقريته الضمير فى توبته ورحمته، رغم أنّ ظاهر كلمة (مردّ) يفيد العودة لتلك الجنة، ويمكن أن تكون مطلق الجنة، بعبارة أخرى ليس هنالك من منافاة بين نوع الجنة مع المفردة «مردّ».

[٢٢١] (١) بحار الانوار ١١ / ١٤٣، ح ١٢.

[٢٢٢] (٢) الكافي ٣ / ٢٤٧، باب جنة الدنيا، ح ٢.

[٢٢٣] (١) قال ابن أبى الحديد: تعتقد الإمامية لا يجوز على الله أن يبعث نبياً وقد ارتكب المعاصى قبل نبوته سواء الكبيرة أو الصغيرة، عمداً أو سهواً؛ وتختص هذه العقيدة بالإمامية، أمّا أصحابنا فلا يرون امتناع الكبائر على النبى قبل نبوته. وأضاف ابن أبى الحديد وهذا ما يعتقده الإمامية بالنسبة لأئمتهم الاثنى عشر حيث يرون لهم عصمة مطلقة كعصمة الأنبياء (شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٧ / ١٠).

[٢٢٤] (٢) سورة طه / ١١٧.

[٢٢٥] (١) تفسير نور الثقلين ٢ / ١١ ح ٣٤؛ سورة الاعراف / ٢٠.

[٢٢٦] (٢) سورة الاعراف / ٢١.

[٢٢٧] (٣) انظر تفسير نور الثقلين ١ / ٦٠؛ الدر المنثور ١ / ٥٢ و ٥٣ وذيل الآية ٣٥ من سورة البقرة.

- [٢٢٨] (١) نور الثقلين ١ / ٦٠ (بتلخيص).
- [٢٢٩] (٢) التوراة، سفر التكوين، الفصل الثاني، رقم ١٧.
- [٢٣٠] (٣) بحار الأنوار ١١ / ١٨١.
- [٢٣١] (٤) تفسير نور الثقلين ١ / ٦٧.
- [٢٣٢] (١) كتاب الخصال نقلًا عن تفسير الثقلين ١ / ٦٨.
- [٢٣٣] (٢) تفسير الدر المنثور ١ / ٦٠ (ذيل الآية ٣٧ من سورة البقرة).
- [٢٣٤] (٣) شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئي ٢ / ١١٨.
- [٢٣٥] (٤) تفسير الدر المنثور ١ / ٥٩.
- [٢٣٦] (١) «الميثاق» كما ورد في صحاح اللغة من مادة «الوثوق» بمعنى الاعتماد على أمانة الشخص. ومن هنا أطلق على الميثاق اسم العهد، لأنه يدعو إلى الاطمئنان والوثوق (طبعاً كان الأصل موثاق ثم بدلت الواو بالياء).
- [٢٣٧] (٢) انظر التفسير الموضوعي «نفحات القرآن» ٧ / ٣١٧.
- [٢٣٨] (٣) سورة الأحزاب / ٧.
- [٢٣٩] (٤) «أنداد» جمع «ند» على (وزن) ضد بمعنى المثل، وأراد هنا المعبودين من دونه سبحانه وتعالى، بينما قال صاحب المقاييس أنها تعني الانفصال والهروب والمخالفة. ولهذا قال اللغويون بأن الند لا يطلق على كل مثل، بل تطلق على المثل الذي يتخذ مساراً يخالف آخر في أعماله وأفعاله كالفرد الذي يماثل آخر إلا أنه يحاربه.
- [٢٤٠] (٥) «اجتال» من مادة «جولان» بمعنى العصر، إلا أنها اقترنت بالحرف (عن) في عبارة الإمام عليه السلام فعت الانصراف عن الشيء، ومعناها هنا صرفتهم عن قصدهم.
- [٢٤١] (٦) لقد ذكر هذا الاحتمال في الأبحاث المتعلقة بعالم الدر، حيث يمكن أن يكون تفسيرها بالمسائل الفطرية والاستعدادات الإلهية التي أودعها الله الذات الإنسانية. وللوقوف أكثر على هذا الموضوع، راجع تفسير الأمل ٧ / ٤.
- [٢٤٢] (١) «واتر» من مادة «وتر» بمعنى الفرد في مقابل الشفع بمعنى الزوج، وجاءت هنا بمعنى الواحد؛ أي أن الأنبياء قد أتوا الواحد تلو الآخر من أجل هداية الناس. وقال البعض معناها الموالاة مع الفاصلة، كأن يقال «واتر ما عليه من الصوم»؛ أي صام يوماً وأفطر آخر، في قبال «متدارك» الذي يعني الموالاة دون تخلل الفاصلة.
- [٢٤٣] (١) «أوصاب» من مادة «وصب» بمعنى مرض مزمن، والواصب يطلق على الشيء الموجود دائماً حسب المفردات، وجاءت هنا بمعنى المتاعب والمشاكل والمعاناة.
- [٢٤٤] (٢) «تهرمهم» من مادة «هرم» على وزن حرم بمعنى الكهولة والعجز.
- [٢٤٥] (١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة الحج.
- [٢٤٦] (٢) «غابر» من مادة «غبار» و«غبور» بمعنى الشيء المتبقي، ومن هنا يطلق على الحليب المتبقي في الثدي اسم الغبرة، كما يطلق الغبار على التراب المتبقي في الهواء، ويقال الغابر للأشخاص والأزمنة الماضية (راجع المقاييس والمفردات ولسان العرب).
- [٢٤٧] (١) لقد ورد الفعل «سمى» بصيغة المجهول في بعض نسخ نهج البلاغة وما ذكرناه سابقاً يتفق وهذه النسخة، أما إذا ذكر بصيغة المعلوم تصحيح العبارة بهذا الشكل «من سابق سمي له من بعده» إلا أن الاحتمال الأول أنسب.
- [٢٤٨] (٢) «نسلت» القرون من مادة «نسل» بمعنى تكاثر الأولاد، والعبارة كناية رائعة عن توالي القرون وكأن كل قرن قد ولد من القرن السابق.
- [٢٤٩] (١) للوقوف على تفاصيل هذا الموضوع، انظر كتاب نفحات القرآن ٤ / ٤٤٠ فصاعداً.

- [٢٥٠] (١) أصول الكافي ١/١٦.
- [٢٥١] (١) الكافي ١/١٧٩.
- [٢٥٢] (٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ١٤٧.
- [٢٥٣] (٣) سورة الأحزاب / ٣٩.
- [٢٥٤] (٤) منهاج البراعة ٢/ ١٦٠.
- [٢٥٥] (١) راجع كتاب القواعد الفقهية ١/ ٣٨٣، قاعدة التقيّة للوقوف بصورة أشمل على مفهوم التقيّة وتقسيمها إلى الأحكام الخمسة (الواجب والحرام والمستحب والمكروه والمباح) والآيات والروايات الواردة بهذا الشأن.
- [٢٥٦] (١) «انجاز» من مادة «نجز» على وزن رجز بمعنى الانتهاء وتحقيق الشيء.
- [٢٥٧] (٢) الضمير في (نبوته) يعود إلى النبي، أمّا الضمير في (عدته) ففيه احتمالان: أن يكون عائداً على الله أو عائداً على النبي، إلّا أنّ الأول أنسب، وذلك لأن بعثه النبي كانت وعداً إلهياً وعد بها نبى الله إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء، كما يحتمل أن يكون الضميران عائدين لله سبحانه.
- [٢٥٨] (٣) «سماته» جمع «سمه» بمعنى العلامة.
- [٢٥٩] (٤) إذا تعدت رغب بحرف في عنت الرغبة في الشيء والاقبال عليه، بينما تعنى العزوف عن الشيء والانصراف عنه، حيث يكون معنى العبارة أن الله لم يرد لنبيه أن يعيش صعاب الدنيا أكثر من هذا الحد، فقبضه من هذا العالم الدنى ليضمه إلى جواره في العالم العلوى.
- [٢٦٠] (١) «هملاً» من مادة «همل» على وزن حمل بمعنى ترك الشيء إلى جانب اهماله وعدم الاهتمام به.
- [٢٦١] (٢) راجع كتاب «نفحات القرآن» المجلد التاسع للوقوف على أسناد حديث الثقلين وتواتره عند علماء الفريقين.
- [٢٦٢] (١) سورة الجاثية / ٢٤.
- [٢٦٣] (٢) سورة يس / ٧٨.
- [٢٦٤] (٣) سورة الزمر / ٣.
- [٢٦٥] (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/ ٢٢٧.
- [٢٦٦] (٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ١١٧.
- [٢٦٧] (٦) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ١/ ٢٠٥.
- [٢٦٨] (١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم، ١/ ٢٠٦.
- [٢٦٩] (٢) سورة الجمعة / ٢.
- [٢٧٠] (١) فى ضلال نهج البلاغة ١/ ٦٣.
- [٢٧١] (١) كتاب منصوب بصفته عطف بيان للحرف مافى الجملة (خلف فيكم ما خلفت الأنبياء) أو أنّه مفعول لفعل تقديره (خلف) أو (أعنى).
- [٢٧٢] (١) وردت كلمة «ميناً» بصيغة اسم الفاعل وهى حال لفاعل خلق (أى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله) والضمير فى حاله وحرامه و.. يعود على القرآن بينما ذهب بعض شراح النهج إلى أن مينياً وسائر الأوصاف التى وردت لاحقاً من قبيل مفسراً هى حال لكتاب الله، والضمائر فى حاله وحرامه و... تعود إلى كتاب الله أو ربكم، إلّا أنّ القول الأول أنسب.
- [٢٧٣] (٢) سورة المجادلة / ١٢.
- [٢٧٤] (٣) سورة المجادلة / ١٣.

- [٢٧٥] (٤) سورة المائدة/ ٢.
- [٢٧٦] (٥) سورة النساء/ ١٠١.
- [٢٧٧] (١) سورة البقرة/ ١٧٣.
- [٢٧٨] (٢) سورة النساء/ ٣٦.
- [٢٧٩] (٣) سورة آل عمران/ ٩٧.
- [٢٨٠] (٤) سورة المائدة/ ٥٥.
- [٢٨١] (٥) سورة المائدة/ ٣٨.
- [٢٨٢] (٦) سورة إبراهيم/ ٢٤.
- [٢٨٣] (١) سورة التحريم/ ١١.
- [٢٨٤] (٢) سورة البقرة/ ٢٧٥.
- [٢٨٥] (٣) سورة النساء/ ٢٩.
- [٢٨٦] (٤) سورة المائدة/ ٨٩.
- [٢٨٧] (٥) سورة النساء/ ٩٢.
- [٢٨٨] (٦) سورة القيامة/ ٢٣.
- [٢٨٩] (٧) سورة الانعام/ ١٠٣.
- [٢٩٠] (١) سورة النساء/ ١٥.
- [٢٩١] (٢) سورة البقرة/ ١٧٨.
- [٢٩٢] (١) هناك محذوف في هذه العبارة، ففي الحالة الثانية يكون تقدير العبارة كالاتي: «وبين ما يكون واجباً دائماً».
- [٢٩٣] (٢) مباين خير لمبتدأ محذوف تقيير الجملة هو مباين، والضمير هو يعود إلى الكتاب، وهنالك احتمال آخر إلّا أنّ الذي أوردناه هو الأنسب.
- [٢٩٤] (٣) سورة المزمل/ ٢٠.
- [٢٩٥] (١) سورة الحشر/ ٧.
- [٢٩٦] (٢) لقد ورد هذا الحديث بعدة تعابير في مصادر الشيعة والسنة، فراجع احقاق الحق، ٩/ ٣٠٩-٣٧٥؛ بحار الانوار ٢٣/ ١١٨، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٥٥؛ رسالة الثقلين ٩.
- [٢٩٧] (١) تفسير نور الثقلين ١/ ٤٧٣.
- [٢٩٨] (١) راجع تفسير الأمثل ١/ ٣٩٠ ذيل الآية ١٠٦ من سورة البقرة.
- [٢٩٩] (٢) سورة يوسف/ ١١١.
- [٣٠٠] (٣) سورة الروم/ ٤٢.
- [٣٠١] (١) سورة الزمر/ ٢٧.
- [٣٠٢] (١) «أنام» فسرهما البعض بالناس، والبعض الآخر بالموجودات العاقلة التي تعيش على الأرض من الإنس والجن. وعلى ضوء التفسير الأول يصبح مفهوم العبارة اختصاص القبلة بالناس، بينما تكون قبلة الانس والجن حسب التفسير الثاني. وقيل هي مشتقة من مادة ونام بمعنى الصوت ثم اطلقت فيما بعد على جميع الكائنات الحية ولا سيما الانس والجن (تاج العروس، مادة أنم).
- [٣٠٣] (٢) «يردون» من مادة «ورود» بمعنى دخول الحيوانات على حياضها عند عطشها ثم اطلق على كل دخول لمكان.

[٣٠٤] (٣) «يألهون» من مادة «أله، ألوهاً» بمعنى العبادة. بناءً على هذا يألهون بمعنى يعبدون، كما قيل إن مادته تعني الحيرة؛ لأنَّ الإنسان يتحير حين يفكر في ذات الله وصفاته. وقيل أصله (وله) وقد استدلت واوه بالهمزة) ويؤيد هذا المعنى ورود كلمة الولوه في العبارة بصيغة المفعول المطلق) والوله بمعنى التضرع بلهفة.

[٣٠٥] (٤) «الحمام» بالفتح بمعنى الطيور والحمام بالكسر بمعنى الموت، وقد أريد المعنى الأول في العبارة (أى الحمام بالفتح).

[٣٠٦] (١) «سماع» على وزن طلاب جمع «سامع» كطلاب جمع طالب.

[٣٠٧] (٢) ليس هنالك من فارق يذكر بشأن الضمير في (إليه) ان كان عائداً لبيت الله أو إلى لفظ الجلالة.

[٣٠٨] (٣) نور الثقلين ٣ / ٤٨٨، ح ٧٤.

[٣٠٩] (٤) شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئي ٢ / ٢٤٩ نقلًا عن الكافي؛ بحار الأنوار ٩٦ / ١٨٧.

[٣١٠] (٥) ورد في الأحاديث أن من الأنبياء الذين حجوا البيت هم آدم ونوح وإبراهيم وموسى ويونس وعيسى وسليمان ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله (شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئي ٢ / ٢٥٢).

[٣١١] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ١٢٤.

[٣١٢] (٢) «يحرزون» من مادة «الاحراز» بمعنى الحفظ والادخار والخزن. ومن هنا يطلق الحرز على الموضع المحفوظ كالصندوق والمخزن وما شابه ذلك.

[٣١٣] (٣) «وفادة» بمعنى البروغ والطلوع، ثم أصبحت بمعنى النزول والدخول، كما يصطلح بالوفد على الهيئة والجماعة التي ترد على دولة أو زعيم أو فئة ذات مكانة.

[٣١٤] (١) بحار الأنوار ١٢ / ٨٦.

[٣١٥] (٢) سورة البقرة / ١٢٧.

[٣١٦] (٣) سورة آل عمران / ٩٦.

[٣١٧] (٤) شرح نهج البلاغة للخوئي ٢ / ٢٣٥.

[٣١٨] (٥) فروع الكافي ٤ / ٢٤٠ (باب فضل النظر إلى الكعبة).

[٣١٩] (٦) وسائل الشيعة ٨ / ٧ (باب وجوبه على كل مكلف مستطيع).

[٣٢٠] (١) بحار الأنوار ٩٩ / ٢٦.

[٣٢١] (١) فروع الكافي ٤ / ٢٧١ (باب أنه لو ترك الناس الحج لجهنم العذاب).

[٣٢٢] (٢) دليل الحرمين الشريفين ١ / ٥٤ نقلًا عن قول القمر).

[٣٢٣] (١) لقد أشارت الرواية التي نقلها هشام بن الحكم عن الإمام الصادق عليه السلام بصورة إجمالية إلى فلسفة هذه الجوانب الأربعة للحج (وسائل الشيعة ٨ / ٩) كما يمكن لمن أراد المزيد أن يراجع التفسير الأمثل / ١٤ بشأن فلسفة الحج.

[٣٢٤] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ١٤٣.

[٣٢٥] (١) «استتمام» قد تعني الاتمام أو المطالبة بالاتمام، وقد أريد بها هنا المعنى الثاني ويؤيد ذلك الجملة اللاحقة.

[٣٢٦] (٢) «استسلام» بمعنى الانقياد والتسليم، وعناها بعض اللغويين بموافقة الظاهر للباطن بالنسبة للشئ والانقياد من لوازمها.

[٣٢٧] (٣) «استعصام» بمعنى المطالبة والحفظ ودفع الامور المكروهة.

[٣٢٨] (٤) سورة إبراهيم / ٧.

[٣٢٩] (٥) «يثل» من مادة «أل» على وزن وعد بمعنى النجاة واللجوء والعودة.

[٣٣٠] (١) «ممتحن» من مادة «محن» على وزن وهن بمعنى الاختبار والامتحان، إلّا أنّ بعض أرباب اللغة قالوا أصلها استخراج التراب

حين حفر البئر.

[٣٣١] (٢) «مصاص» من مادة «مص» على وزن نص بمعنى التذوق والامتصاص ومن هنا اصطلاح بالمصاص على عصاره الشيء الممتص حين وروده بدن الإنسان.

[٣٣٢] (٣) «الأهويل» جمع أهوال «وهول» بمعنى الخشية والخوف.

[٣٣٣] (٤) «مدحرة» من مادة «دحر» بمعنى الطرد والابعاد.

[٣٣٤] (١) «المأثور» من مادة «أثر» بمعنى العلامة الباقية من الشيء ولذلك يطلق على العلوم المتبقية من الماضين «علم المأثور».

[٣٣٥] (٢) «الساطع» من مادة «سطوع» بمعنى الانتشار، فالنور الساطع هو النور الواسع المنتشر كما ورد بمعنى المرتفع.

[٣٣٦] (٣) «صادع» من مادة «صدع» بمعنى الشق في الجسم الصلب والمحكم ثم أطلق على كل شيء قاطع.

[٣٣٧] (٤) سورة حجر / ٩٤.

[٣٣٨] (١) «ازاحه» من مادة «زيح» على وزن زيد بمعنى الأبعاد والاقصاء.

[٣٣٩] (٢) «مثاليت» جمع «مثله» على وزن عضله بمعنى البلاء والمصاب الذي يحل بالإنسان فيصبح مثلاً وعبرة للآخرين (مفردات الراغب، تحقيق، الصحاح ومجمع البحرين).

[٣٤٠] (٣) سورة الرعد / ٦.

[٣٤١] (٤) سورة البقرة / ٢٨٥.

[٣٤٢] (١) سورة مريم / ٩٥.

[٣٤٣] (١) مناقب ابن شهر آشوب، ٢ / ١١٥ (مستدرک الوسائل؛ ١٨ / ٢٨ وبحار الانوار، ٤١ / ٥١).

[٣٤٤] (٢) نهج البلاغه، الخطبة ١٢٦.

[٣٤٥] (١) كتاب «المناقب المرتضوية» تأليف المولى محمد صالح الكشفي الحنفي / ٣٦٤، طبعه يومباي (مطابق نقل احقاق الحق ٨ / ٦٠٢).

[٣٤٦] (١) طبقا لما ورد آنفا فان الواو في قوله «و الناس في فتن» حاله أي أن الله سبحانه بعث النبي صلى الله عليه وآله حين كان الناس على هذه الحالة، إلّا أنّ بعض شراح نهج البلاغه احتملوا أن الواو ابتدائية والعبارات رسمت صورة عن أوضاع الناس في عصر الإمام عليه السلام، غير أنّ هذا الاحتمال لا يبدو صحيحا والحق هو الاحتمال الأول، رغم أنّ هذه العبارات يمكن أن تكون تحذيرا للامة في عصره من العودة إلى عصر الجاهلية بفعل أمراض حب الذات واطاعة الاهواء.

[٣٤٧] (١) «إنجذم» من مادة «الانجذام» بمعنى إنقطع وإنفصل ومن هنا يطلق إسم الجذام على ذلك المرض الذي يصيب الجسم فيؤدى إلى انفصال الأعضاء.

[٣٤٨] (٢) «ترعزعت» من مادة «زعزع» بمعنى تحركت واضطربت، فيقال على سبيل المثال: زعزع الريح الشجرة.

[٣٤٩] (٣) «سوارى» جمع سارية العمود و الدعامة.

[٣٥٠] (٤) «نجر» على وزن فجر يعنى الاصل، كما يعنى الاصلاح والشكل والهيئة ومنه اطلق اسم النجار. وقد وردت هذه المفردة فى العبارة بالمعنى الأول.

[٣٥١] (٥) سورة البقرة / ٢٨٥

[٣٥٢] (١) «خامل» بمعنى الشيء المنسى الذى لاقيمة له.

[٣٥٣] (١) «إنهارت» من مادة «الانهيار» بمعنى الاندساس والزوال.

[٣٥٤] (٢) «درست» من مادة «دروس» بمعنى إندثار آثار الشيء وزوالها.

- [٣٥٥] (٣) «شرك» جمع «شركة» على وزن حسنه، وقال البعض جمع أشراك بمعنى الطرق العامة.
- [٣٥٦] (٤) «مناهل» جمع «منهل» بمعنى مورد النهي.
- [٣٥٧] (٥) «سارت» من مادة «سور» بمعنى الرفع والاعلاء.
- [٣٥٨] (٦) «داست» من مادة «دوس» و«دياس» بمعنى الهضم.
- [٣٥٩] (٧) «أخفاف» جمع «خف» وهو للبعير كالقدم للإنسان.
- [٣٦٠] (٨) «اظلاف» جمع «ظلف» بالكسر للبقر والشاء وشبههما كالخف للبعير والقدم للإنسان.
- [٣٦١] (٩) «سنايك» جمع «سنيك» على وزن قنغد بمعنى طرف الحافر.
- [٣٦٢] (١٠) يمكن أن تكون جملة «في فتن داستهم» متعلقة بمحذوف تقديره لا والناس في فتن داستهم، كما إحتمل البعض أن الجار والمجرور متعلق بسارت في الجملة السابقة ويبدو الاحتمال الأول أقوى.
- [٣٦٣] (١) تائهون جمع تائه بمعنى الضائع.
- [٣٦٤] (٢) ذهب البعض إلى أن الجار والمجرور في قوله «في خير دار» يتعلق بمفتونين، والحال أن الانسب أن يكون خبر لمبتدأ محذوف تقديره «و الناس في خير دار» والجملة حال لعصر الجاهلية والواو في قوله وشر جيران هي واو المعية.
- [٣٦٥] (٣) سهود مصدر بمعنى الارق وقلة النوم (الصحاح، المفردات، لسان العرب والمقاييس).
- [٣٦٦] (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١/ ١٣٧.
- [٣٦٧] (١) سورة الانعام / ١٣٧.
- [٣٦٨] (٢) سورة الاسراء / ٣١.
- [٣٦٩] (٣) سورة التكوير / ٨.
- [٣٧٠] (١) سورة الانفال / ٣٥. اما المشهور بالنسبة لسبب نزول سورة التوبة ومن الامور التي أمر أمير المؤمنين عليه السلام بابلاغها المشركين «و لا يطوفن يا لبيت عريانا». نور اليقلين، ٢ / ١٧٩ - ١٨١ ح ١٤ و ١٧ و ١٨ و ٢٠ ومجمع البيان، ٣ / ٥.
- [٣٧١] (٢) سورة النحل / ٥٧.
- [٣٧٢] (٣) سورة الصافات / ١٥٠.
- [٣٧٣] (٤) سورة الانعام / ١٣٩.
- [٣٧٤] (٥) سورة الاحزاب / ٤.
- [٣٧٥] (٦) سورة المجادلة / ٢.
- [٣٧٦] (١) سورة آل عمران / ١٠٣.
- [٣٧٧] (٢) سورة الجمعة / ٢.
- [٣٧٨] (٣) عذر التقصير لدى محمد والقرآن، ص ٧٧ نقلا عن تفسير الامثل، ٣ / ٣١).
- [٣٧٩] (١) فقد تصدت هذه الأحاديث التي روتها مصادر الفريقين لبيان مكانة أهل البيت عليه السلام.
- فقد صرح حديث الثقلين بأن أهل البيت عليه السلام هم عدل القرآن الذين لا يفترون عنه حتى يردا على النبي صلى الله عليه وآله حوضه. أما الحديث الثاني فقد شبههم بسفينه نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق. وأخيراً حديث صلى الله عليه وآله الذي قال فيه: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل النجوم باي إقتديتم إهتديتم وإن النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأهل الأرض».
- [٣٨٠] (٢) «لجأ» و«ملجأ» بمعنى الملاذ.
- [٣٨١] (٣) «عيبه» بمعنى الوعاء والصندوق أو الشئ الذي تحفظ فيه الأشياء وقد اشتق في الواقع من العيب وقد استعمل بالمعنى

المذكور لأن العيوب عادة ما تستر.

[٣٨٢] (٤) «موتل» من مادة «وأل» على وزن سهل بمعنى المرجع والملاذ وموضع النجاة.

[٣٨٣] (٥) «كهوف» جمع «كهف» بمعنى الغار، إلماً أن البعض قال الكهف هو الغار الواسع، ولما كان الناس يلجأون إلى الغيران في أغلب الأوقات فقد احتتم أن يكون بمعنى الملاذ والموضع الذى يحفظ الأشياء.

[٣٨٤] (٦) اعلم ان هنالك اختلافا بين الشراح بشأن الضمير فى هذه العبارات الست. فقد ذهب البعض إلى أنها ترجع جميعا إلى النبى صلى الله عليه و آله بينما تفيد القرائن أن الضمير فيها يعود إلى الله سبحانه (و لا يسما بالالتفات إلى قوله وكهوف كتبه) بينما يعود الضمير فى العبارة الأخيرة إلى الدين كما سيأتى توضيح ذلك لاحقا.

[٣٨٥] (١) بحار الانوار ١٠ / ١١٨، ح ١.

[٣٨٦] (٢) راجع التفسير الامثل، ذيل آية ١٥ من سورة النحل.

[٣٨٧] (٣) «إرتعاد» من مادة «رعد» بمعنى الاهتزاز، ومن هنا يطلق الرعد على الصوت العظيم الذى تحدثه السحب والغيوم.

[٣٨٨] (٤) «فرائص» جمع «فريصة» هى اللحمه بين الجنب والكتف التى ترعد حين الخوف ولذلك كانت (ارتعاد الفرائص) كناية عن الخشيه والاضطراب، ومن هنا كانت الفرصة تطلق على المدّة الزمانية للقيام بعمل (المقاييس، المفردات ولسان العرب).

[٣٨٩] (١) نهج البلاغه، الكلمات قصار، ١٤٧.

[٣٩٠] (١) راجع الى تفسير نفحات القرآن، ج ٩.

[٣٩١] (١) «فجور» من مادة «فجر» بمعنى الشق فى الشى ومن هنا يطلق الفجر على طلوع الصبح وكأن ضياء الصبح يشق حجاب الليل المظلم، كما يصطلح على الأعمال غير المشروعة بالفجور لأنها تخترق حجب الدين.

[٣٩٢] (٢) «الغرور» بمعنى الغفلة فى اليقظة، ووردت بمعنى المكر والحيلة، والغرور بفتح الغين بمعنى الشىء الذى يخدع الإنسان ويستغفله، كما فسر بمعنى الشيطان، لانه يخدع الناس بوعوده الكاذبه.

[٣٩٣] (٣) «الثور» من مادة «ثير» على وزن صبر بمعنى الحبس والهلاك والفساد الذى يصد الإنسان عن بلوغ الهدف.

[٣٩٤] (١) انظر إحقاق الحق ٦ / ٤؛ ١٦ / ٤٠٢ واعيان الشيعة ١ / ٢٦٤.

[٣٩٥] (١) تفسير نور الثقلين ١ / ٢٠ - ٢١.

[٣٩٦] (٢) تفسير نور الثقلين ١ / ١٣٤.

[٣٩٧] (١) هنالك محذوف فى الجملة تقديره: «الآن إذا رجح الحق إلى أهله لم لا تؤدون حقه». وقد ورد تقدير ذلك فى مصادر نهج البلاغه: «الآن إذا رجح الحق إلى أهله من أهل بيت النبوة يجرى ما يجرى من الحوادث ويقع ما يقع من الاختلاف؟». (مصادر نهج البلاغه، ١ / ٣٠٢) وكلا النتجتين واحده.

[٣٩٨] (٢) سورة الاحزاب / ٣٣.

[٣٩٩] (٣) سورة آل عمران / ٦١.

[٤٠٠] (٤) سورة المائدة / ٦٧.

[٤٠١] (٥) لقد أشرنا فى ذيل كل آية وارده بهذا الشأن فى التفسير الأمثل إلى المصادر؛ ومن أراد الوقوف على ٢ التفاصيل فليراجع إحقاق الحق، ج ٣ ورسالة القرآن، ج ٩.

[٤٠٢] (١) كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة للمرحوم المحقق الفيروز آبادى.

[٤٠٣] (٢) عبقات الأنوار للسيد حامد حسين الهندى.

[٤٠٤] (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ١٧.

- [٤٠٥] (٢) على فى الكتاب والسنة ١٠ / ١.
- [٤٠٦] (٣) الغدير ١٠ / ٢٧١.
- [٤٠٧] (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١٠ / ١٤٠.
- [٤٠٨] (١) شواهد التنزيل ١ / ٣٢٩.
- [٤٠٩] (٢) صحيح الترمذى، ١٣ / ١٦٨، طبع الصاوى مصر (٥ / ٦٣٥ طبع دار احياء التراث العربى).
- [٤١٠] (٣) انظر «رسالة القرآن» / ٩.
- [٤١١] (١) منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة، ٣ / ٣٢.
- [٤١٢] (٢) «الرحبة» بمعنى المكان الواسع، ويعتقد البعض أنها اسم موضع فى الكوفة، بينما يرى البعض الآخر هى موضع يبعد ثمانية فراسخ عن الكوفة (مجمع البحرين ومراصد الاطلاع).
- [٤١٣] (١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ١ / ٢٥١.
- [٤١٤] (٢) تذكرة الخواص / ١٢٤.
- [٤١٥] (٣) شرح ابن ميثم بحراني ١ / ٢٥٢.
- [٤١٦] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ٢٠٥.
- [٤١٧] (١) «تقمص» من مادة قميص بمعنى لبسها كالقميص.
- [٤١٨] (٢) «الرحا» بمعنى الطاحونة، وقد استعملت مادتها بصورة ناقص واوى وناقص يائى.
- [٤١٩] (٣) «ينحدر» من مادة إنحدر بمعنى الانهيار والسقوط على وجه الكثرة.
- [٤٢٠] (١) سورة النحل / ١١.
- [٤٢١] (٢) للوقوف على حقيقة التعبيرات الواردة بشأن أمير المؤمنين على عليه السلام وأفضليته المطلقة على من سواه من أفراد الأمة، نكتفى بالايضاحات التى وردت فى مقدمته الكتاب بشأن فضائله ومناقبه عليه السلام.
- [٤٢٢] (٣) للوقوف على إسناد هذا الحديث المعروف فى مصادر العامة، انظر إحقاق الحق ٥ / ٤٦٨ - ٥٠١.
- [٤٢٣] (٤) تفسير نور الثقلين ٥ / ٣٨٦ وليس هنالك من منافاه بين هذا التفسير وذلك الذى فسره بالماء الجارى، ٢ ولا التفسير الذى ورد فى بعض الروايات من أن المراد بالماء المعين أصل وجود الإمام عليه السلام، وذلك لإمكانية جمع هذه المعانى فى مفهوم الآية.
- [٤٢٤] (١) لقد ذكر ابن أبى الحديد بحثاً مفصلاً بهذا الشأن فى شرحه لنهج البلاغة، ثم تطرق إلى العلوم الإسلامية وشرح كيفية إرتباطها بعلم الإمام عليه السلام من الناحية التاريخية (شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ١٧ - ٢٠).
- [٤٢٥] (١) «سدلت» من مادة «سدل» على وزن عدل بمعنى نزول الشىء من الأعلى إلى الأسفل بحيث يغطى، وعليه فان مفهوم سدلت هنا تركتها وارخيت عليها شيئاً.
- [٤٢٦] (٢) «كشح» على وزن فتح بمعنى الضلع و«طوى عنه كسحه» كناية عن عدم الاهتمام بشىء والانصراف عنه.
- [٤٢٧] (٣) «جذاء» بمعنى القطع والكسر.
- [٤٢٨] (٤) «طخية» بمعنى الظلمة وتاتى بمعنى السحب الخفيفة و«الطخياء» بمعنى الليلة الظلماء.
- [٤٢٩] (١) «يكدح» من مادة «كدح» بمعنى السعى المصحوب بالتعب.
- [٤٣٠] (٢) الهاء فى هاتا علامة تنبيه والتاء إسم إشارة مونث، إشارة إلى طخية «الظلمة» التى وردت فى العبارة السابقة. واعتبر البعض أن المشار إليه الحالة المستفاد من العبارة فيكون المعنى «فرايت أن الصبر على هذه الحالة أحجى».
- [٤٣١] (٣) «احجى» من مادة «حجا» بمعنى العقل، وعليه أحجى تعنى الاعقل.

- [٤٣٢] (٤) «قذى بمعنى التلوث.
- [٤٣٣] (٥) «الشجى» بمعنى الهم والغم والشدة والألم، وتعنى أيضا ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه.
- [٤٣٤] (١) سيرة ابن هشام ٣١٦ / ٤.
- [٤٣٥] (١) سورة مريم / ٥ - ٦.
- [٤٣٦] (٢) سورة فاطر / ٣٢.
- [٤٣٧] (٣) اصول الكافى ١ / ٣٢ - ٣٤.
- [٤٣٨] (٤) منهاج البراعة ٣ / ٤٥.
- [٤٣٩] (١) انظر مجلة رسالة الحوزة للوقوف على المباحث المهمة التى طرحت فى تلك الندوة و التقارب الذى حصل بين الأفراد.
- [٤٤٠] (١) توفى فى العام الثالث عشر من الهجرة بعد أن تولى الخلافة لمدة سنتين وثلاثة أشهر. «مروج الذهب ٢ / ٣٠٤ الطبعة الرابعة».
- [٤٤١] (٢) سورة بقره / ١٨٨.
- [٤٤٢] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ١٧٤.
- [٤٤٣] (٢) الأعمش من أبرز شعراء الجاهلية. سئل يونس النحوى: من أشعر الشعراء؟ قال: لا أعلم أشعرهم إلا أنى أقول إمرء القيس فارسا والنابعة حين الخوف وزهير عند الحب وإلا عشى عند الطرب، أدرك الإسلام ولم يسلم، لقب بالاعشى لضعف بصره وقد عمى آخر عمره واسمه ميمون بن قيس، وأراد بشعره السابق الزمان الذى كان يجالس فيه حيان أخو جابر أحد أشرف اليمامة حين كان يعيش الأعمش آنذاك فى نعمة موفورة فيقارنها مع عيشه الآن فى صحارى مكة والمدينة فيقول أين تلك الحياة من هذه!
- [٤٤٤] (٣) شرح ابن ميثم البحرانى ١ / ٢٥٧.
- [٤٤٥] (٤) لقد استفاضت مصادر الفريقين التى روت هذا الحديث، وقد أورده ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة، ١ / ١٦٩. و صرح العالم المصرى الكبير الشيخ محمد عبده فى شرحه لنهج البلاغة قائلاً: روى البعض أن أبابكر لما تمت له البيعة قال: «أقيلونى فلست بخيركم» لكن أغلب العلماء رووا الحديث أنه قال: «و ليتكم ولست بخيركم» (شرح نهج البلاغة لمحمد عبده، ص ٨٦ ذيل هذه الخطبة). وجاء فى حاشية إحقاق الحق عن ابن حسنويه المحدث الحنفى الموصلى فى كتابه «در بحر المناقب» حديثاً مفصلاً أن أبابكر قال: «أقيلونى فلست بخيركم وعلى فيكم» (إحقاق الحق ٨ / ٢٤٠). وروى الطبرى فى تاريخه لما بويج أبى بكر فى السقيفة قال: «أيها الناس فأتى قد وليت عليكم ولست بخيركم» (تاريخ الطبرى ٢ / ٤٥٠ طبع بيروت مؤسسة الأعمى). وروى ابن قتيبة الدينورى فى الإمامة والسياسة أن أبابكر خطب الناس باكياً فقال: «لا حاجة لى فى بيعتكم أقيلونى بيعتى» (الإمامة والسياسة ١ / ٢٠).
- [٤٤٦] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ١٦٩.
- [٤٤٧] (٢) نهج البلاغة، خطبة ١٧٣.
- [٤٤٨] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ١٦٩.
- [٤٤٩] (٢) «حوزة» بمعنى الناحية و الطبيعة، من مادة «حيازة» بمعنى الجمع والاحاطة.
- [٤٥٠] (٣) «الكلم» فى الأصل بمعنى الجرح، واطلق لفظ الكلام لآثره القاطع فى المقابل.
- [٤٥١] (٤) «العتار بمعنى السقوط و الكبوء».
- [٤٥٢] (٥) «الصعبة» بمعنى الانسان أو الحيوان الطائش، ما ليست بذلول و أريد بالصعبة هنا الناقة الجامعة.
- [٤٥٣] (٦) «أشقى» بمعنى سحب زمام الناقة و «شناق» على وزن كتاب يطلق على الجبل الذى تربط به القربة.
- [٤٥٤] (٧) «خرم» من مادة «خرم» بمعنى القطع.

- [٤٥٥] (٨) «أسلس من» مادة «سلس» على وزن قصص و سلاسه بمعنى السهولة و عليه فان أسلس بمعنى أرخى.
- [٤٥٦] (٩) «تقحم» من مادة «قحوم» على وزن شعور بمعنى رمى النفس فى الهلكة دون إجاله الفكر.
- [٤٥٧] (١) هنالك احتمال ثالث ذكرهنا فى أن المراد الخلافة على عهد الإمام على عليه السلام، حيث شهدت الأوضاع بروز خطرين، ويبدو هذا الاحتمال مستبعداً.
- [٤٥٨] (٢) «منى» من مادة «منو» بمعنى ابتلى واصيب.
- [٤٥٩] (٣) «خبط» بمعنى «ضرب» الناقة للأرض، و اريد بها السير على غير هدى
- [٤٦٠] (٤) «شماس» بمعنى الاباء والطيش (إباء ظهر الفرس عن الركوب).
- [٤٦١] (٥) «تلون» بمعنى تغيير الحال أو اللون.
- [٤٦٢] (٦) «إعتراض» بمعنى السير على غير خط مستقيم، كأنه يسير عرضاً فى حال سيره طولاً.
- [٤٦٣] (١) الغدير ٦ / ٢٩٠.
- [٤٦٤] (٢) شرح نهج بلاغة لابن أبى الحديد ١ / ١٨١.
- [٤٦٥] (٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ١٨٢.
- [٤٦٦] (١) الغدير ٦ / ١١٠.
- [٤٦٧] (١) ورد فى مقاييس اللغة أن «الزعم» عبارة عن الكلام الذى لا واقعية له وصاحبه ليس متأكداً منه.
- [٤٦٨] (٢) اللام فى لفظ الجلالة مفتوحة للاستغاثة واللام فى الشورى مكسورة وللمستغاث منه.
- [٤٦٩] (٣) «أسفت» من مادة «إسفاف» بمعنى إقتراب شىء من آخر ويستعمل هذا اللفظ فى الطائر إذا دنا من الأرض، كما يستعمل فى نسج الحصير لان خيوطه تقترب من بعضها البعض الآخر، كما وردت بمعنى شدة النظر (راجع مقاييس اللغة ولسان العرب).
- [٤٧٠] (١) «صغا» من مادة «صغو» بمعنى الميل.
- [٤٧١] (٢) «ضغن» على وزن ضمن بمعنى البغض والعداوة.
- [٤٧٢] (٣) «هن» سيأتى التفسير لا حقاً.
- [٤٧٣] (٤) نقل الخوئى فى شرحه عن الطبرى عدم حضور طلحة فى الشورى بل فى المدينة (شرح الخوئى، ٣ / ٧٣).
- [٤٧٤] (١) صرح علماء اللغة بان «هن» تعنى فلان وتقال حين يريد الإنسان الإشارة من بعيد إلى شىء لقباحته أو لأسباب اخرى، وعادة ما تستعمل هذه المفردة فى الصفات السيئة والقيحة ولا تستعمل فى الامور الحسنة.
- [٤٧٥] (٢) «نافجا» من مادة «نفج» على وزن رفع بمعنى رافعا.
- [٤٧٦] (٣) «الحضن» ما بين الابط والكشح ونافجاً حضنيه تقال للمتكبر ولمن إمتلأ بطنه طعاماً.
- [٤٧٧] (٤) «ثليل» من مادة «نثل» على وزن نسل بمعنى غائظ الإنسان وروث الحيوان.
- [٤٧٨] (٥) «معتلف» من مادة «علف» بمعنى موضع العلف، وقد أراد بالعبارة الشخص الذى همه جمع الأموال وملىء البطن وافراغها.
- [٤٧٩] (٦) «الخضم» أكل الشىء الرطب بتمام الفم وهى تقابل القضم التى تعنى الأكل بأطراف الأسنان، وقال البعض الخضم بمعنى أكل العلف الطرى والقضم بمعنى أكل العلف الجاف.
- [٤٨٠] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ١٩٨.
- [٤٨١] (٢) «انتكث» من مادة «نكث» على وزن عكس بمعنى النقض والكسر ومن هنا يقال لعدم الالتزام بالعهد نقضه.
- [٤٨٢] (٣) «فتل» بمعنى اللف، ومقتول وفتيلة من هذا الباب.
- [٤٨٣] (٤) «أجهز» من مادة «إجهاز»، تطلق على المجروح وتفيد التسريع فى الموت واتمام العمل.

- [٤٨٤] (٥) «كيت» من مادة «كبو» بمعنى السقوط والوقوع على الوجه، ومن هنا يقال كبا به الجواد إذ سقط لوجهه.
- [٤٨٥] (٦) «بطنته» من مادة «بطن» بمعنى التخمة (ملء الجوف الطعام أو النهم في الأكل).
- [٤٨٦] (١) «آلكم» من مادة «الا» يالو بمعنى التقصير، وعلى هذا الاساس فان «لم آلكم» يعنى لم أقصر فى حقكم. «لسان العرب».
- [٤٨٧] (٢) الكامل لابن أثير ٢/ ٤٢٥.
- [٤٨٨] (١) المراد بآية الحجاب قوله سبحانه: «فاسئلوهن من وراء حجاب» الذى نزل فى نساء النبى صلى الله عليه وآله والكلمة المذكورة أن طلحة لما أنزلت آية الحجاب قال بمحضر ممن نقل عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: ما الذى يعنيه حجابهن اليوم، وسيموت غدا فنكحهن.
- [٤٨٩] (١) فى حوادث ٣٣ ٣٥ مع تصرف واختصار فى جميع ما أورده فى هذا الفصل (٩ نهج ٢).
- [٤٩٠] (٢) المتأله: المتعبد المتسك.
- [٤٩١] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٢/ ١٤٣.
- [٤٩٢] (١) «راعى» من مادة «روح» على وزن نوع بمعنى الخوف والخشية و الفلق كما وردت بمعنى الدهشة والذهول.
- [٤٩٣] (٢) «عرف» بمعنى الكثرة والازدهام و من هنا يطلق على شعر عنق الضبع.
- [٤٩٤] (٣) «ضبع» له ثلاثه معان، الحيوان المعروف و أحدا أعضاء الانسان (العضد) والثالث أنه أحد صفات الناقه. وقد تكون كناية عن سنين القحط التى تهجم على الانسان.
- [٤٩٥] (٤) «يثالون» من مادة «ثول» على وزن قول بمعنى ازدحام زنابير العسل حين تجتمع و تروح و تجيىء ثم اطلقت على كل ازدحام يتخلله ذهاب و اياب (مقاييس اللغة و الصحاح و لسان العرب).
- [٤٩٦] (١) «مرق» من مادة «مروق» على وزن غروب بمعنى الخروج من الشىء حيث تستعمل فى خروج السهم - ويقول صاحب صحاح اللغة ولسان العرب - المراد به المرور من الهدف واصابه طرفه و من هنا سمي الخوارج ب «المارقين» لانهم كانوا جماعة مفرطة متعصبه رأت نفسها أكثر إسلامية من أمير المؤمنين على عليه السلام.
- [٤٩٧] (٢) «قسط» وردت أحيانا بمعنى الظلم والعدول عن الحق ولذلك يقال قسط على وزن فقط للأفراد الذين إعوجت أرجلهم، كما وردت بمعنى العدل. قال الراغب فى المفردات القسط بمعنى السهم والنصيب فاذا أخذ سهم شخصى قيل له قسط وهذا مصداق الظلم، واقساط تعنى دفع سهم الآخر وهذا عين العدالة. وعليه فالمعنيان يعودان الى مادة واحدة فقد صرح صاحب لسان العرب أنه جاء فى حديث على عليه السلام قال: «امرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين» و اضاف صاحب لسان العرب «و القاسطون أهل صفين».
- [٤٩٨] (١) مستدرک الصحيحين ٣/ ١٣٩ (طبعة دار المعرفة).
- [٤٩٩] (٢) لقد طبع هذا الكتاب فى ذيل المستدرک (المجلد السابق والصفحة السابقة).
- [٥٠٠] (٣) اسد الغابة ٤/ ٣٣.
- [٥٠١] (٤) تاريخ بغداد ١٣/ ١٨٧ (طبعة دار الكفر).
- [٥٠٢] (١) سورة القصص ٨٣.
- [٥٠٣] (٢) «وعوها» من مادة «وعى» على وزن نفى، قال صاحب المقاييس تغنى صنم الشىء إلى آخر، وقال صاحب المفردات تعنى حفظ الحديث وما شابه ذلك (وكلاهما بمعنى واحد).
- [٥٠٤] (٣) «راق» من مادة «روق» - حسب المقاييس - بمعنى تقدم شىء على آخر و تأتي أحيانا بمعنى الحسن والجمال و من هنا يصطلح بالرواق على مقدمة البيت أو الاضرحه المقدسه و قد جاءت هنا بمعنى الحسن والجمال.
- [٥٠٥] (٤) «زبرج» بمعنى الزينة والذهب كما تأتي بمعنى نقوش القماش.

[٥٠٦] (٥) يتضح بجلاء أن الضمائر فى هذه العبارة والعبارات السابقة إنما يعود إلى الفرق الثلاث الناكتين والمارقين والقاسطين التى اشير إليها فى العبارة السابقة، بينما يرجح المرحوم العلامة المجلسى فى البحار أن هذه الضمائر إنما تعود إلى الخلفاء الثلاث، غير أن هذا الاحتمال يبدو مستبعداً. ولعل هذا هو الذى دفع المرحوم المجلسى لان يختتم كلامه باحتمال رجوع الضمائر إلى كافة من أشارت إليهم الخطبة.

[٥٠٧] (١) فى ظلال نهج البلاغة ٩٦/١.

[٥٠٨] (١) ما ورد أعلاه، اقتبس من «الكامل فى التاريخ» لابن الأثير ج ٣ مع تلخيص.

[٥٠٩] (١) نهج البلاغة، الخطبة ٥٩.

[٥١٠] (٢) «الكامل فى التاريخ» لابن الأثير، شرح نهج البلاغة للخوئى، تاريخ الطبرى، ج ٤، نور الولاية، مروج الذهب، ج ٢ مع التلخيص والاختصار.

[٥١١] (١) «نَسَمَةٌ» فى الأصل بمعنى هبوب الرياح بشكل هادىء، وتستعمل أحياناً للإشارة إلى التنفس، ويُطلق أحياناً على الانسان، فيقال «نَسَمَةٌ»، أما المقصود بها فى بحثنا هذا فهو «الانسان» أو «الروح».

[٥١٢] (٢) «حاضر» بمعنى حضور الشخص أو الشئى، وقال أرباب اللغة أنهاأتى بمعنى القبيلة والطائفة الكبيرة، ولعلها وردت هنا بهذين المعنيين.

[٥١٣] (٣) «لايقاروا» من مادة «قرار» بمعنى السكون، وعليه فالمراد بالعبارة أن لا يسكتوا ولا يسكنوا.

[٥١٤] (٤) كظة ما يعترى الاكل من الثقل والكرب عند امتلاء البطن بالطعام، والمراد استثثار الظالم بالحقوق.

[٥١٥] (٥) «سغب» تعنى الجوع، و لذلك يقال «ذو مسغبة على القحط» و ورد فى القرآن «أو اطعام فى يوم ذى مسغبة» و جاءت فى كلام الامام عليه السلام كناية عن هضم حقوق المظلومين.

[٥١٦] (٦) «غارب»، الكاهل والكلام تمثيل للترك وارسال الأمر.

[٥١٧] (١) سورة الانعام / ٩٥.

[٥١٨] (٢) سورة المومنون / ١٤.

[٥١٩] (٣) والشاهد على ذلك الشعر الذى تمثل به عليه السلام فى قضية مخالفة طلحة والزبير والتمهيد لنشوب معركة الجمل. حيث قال:

فتن تحل بهم وهن شوارع تسقى آواخرها بكأس الأول بحار الانوار، ٣٢ / ١١٨.

[٥٢٠] (١) «ألفيتم» من مادة «الفاء»، بمعنى وجدتم ورأيتم.

[٥٢١] (٢) عطفة العنز: ما نشره من أنفها، وأكثر ما يستعمل ذلك فى النعمة وإن كان الأشهر فى الاستعمال بالنون «النقطة».

[٥٢٢] (١) شرح نهج الباغة ابن أبى الحديد ٢٠٥ / ١

[٥٢٣] (١) اصول الكافى ٢ / ٢٤٢ كتاب الإيمان والكفر، باب قلة عدد المؤمنين، ح ٤.

[٥٢٤] (١) هذا إذا أخطا الشهود فان كان عن عمد فحكمهم القصاص كما ورد فى كتاب القصاص. والنقطة الجديرة بالذكر للشهود الذين حصل الرجم لشهادتهم أن يرجعوا وما دفع يؤخذ من الأربعة بالتساوى وللوقوف أكثر راجع كتاب الجواهر، ٢٢٥ / ٤١، ولا بد من الالتفات هنا إلى وجود بعض التفاوت بين ما ورد فى هذا الحديث وما جاء فى الكتب الفقيهية.

[٥٢٥] (٢) سورة المائدة / ٨٢.

[٥٢٦] (١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانى ١ / ٢٦٩، المتسدر ك ٧ / ٥٥.

[٥٢٧] (٢) ورد هذا المعنى فى الرسالة التى كتبها معاوية وبعث بها لمحمد بن أبى بكر والتى نقلتها أغلب المصادر الإسلامية ومنها

مروج الذهب، فقد قال فيها أنى وأبيك نقر بفضل على وحقه علينا ... إلّا أنّ أبيك وفاروقه (عمر) هما أول من خالفه بعد وفاة النبي صلى الله عليه و آله. وقال اليعقوبى فى تاريخه: وكان المهاجرون والأنصار لا يشكون فى على عليه السلام. (تاريخ اليعقوبى ٢/ ١٢٤).

[٥٢٨] (١) «اهتديتم» من «الاهتداء» تستعمل - حسب قول بعض شراح نهج البلاغة وارباب اللغة- حيث يميل الإنسان بإرادته للهداية وهكذا جاءت فى العبارة.

[٥٢٩] (٢) «ظلماء» على وزن صحراء بمعنى ظلمة أول الليل أو بعبارة اخرى النور بعد الظلمة؛ خلافا للظلمة بمفهومها العام ولعل الإمام عليه السلام أراد بها عصر الجاهلية الذى يعتبر فى الواقع ظلمة بعد النور؛ أى دعوة الأنبياء أولى العزم.

[٥٣٠] (٣) «تسنتم» من مادة سنم على وزن قلم بمعنى العلو ومن هنا يطلق على ذروة الجمل إسم سنام.

[٥٣١] (٤) «ذروة» من مادة «ذرو»، لها معنيان: أحدهما إشراف شىء على آخر ومن هنا تطلق الذروة على قمة الجبل، والآخر تفتت الشىء وتفرقه.

[٥٣٢] (٥) «أفجرتم» من مادة «فجر» بمعنى الفجوة الواسعة فى الشىء ومن هنا اطلق الفجر على الصباح الذى يشق عتمة الليل، وأفجرتم بمعنى دخول الفجر.

[٥٣٣] (٦) «سرار» من مادة «سر» بمعنى الخفاء وما يقابل العن، وتطلق مفردة السرار عادة على الليالى الأخيرة للشهر حيث يكون الجو ظلاما دامساً.

[٥٣٤] (١) سورة البقرة / ٢٥٧.

[٥٣٥] (٢) سورة المائدة / ١٥-١٦.

[٥٣٦] (٣) سورة الزخرف / ٤٤.

[٥٣٧] (٤) «النبأ» من مادة «نبا» بمعنى القدوم من مكان إلى آخر ومن هنا اطلق النبأ على الخبر الذى ينتقل من مكان إلى آخر والنبأ بمعنى الصوت الخفى لأن الصوت ينتقل من مكان إلى آخر (مقاييس اللغة).

[٥٣٨] (٥) قال بعضى شراح نهج البلاغة أن قوله «أصمته الصيحة» ليس معناه أن الصيحة كانت علة لضممه، بل معناه أنّهم كانوا صمما عن سماع صوت الوحى، كقوله سبحانه «أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون» (سورة يونس / ٤٢).

[٥٣٩] (١) «جنان» بمعنى القلب لأنه فى صدر الإنسان وقد اشتقت هذه المفردة من جن (على وزن فن) بمعنى الاستتار ومن هنا يطلق جنّه على الحديد الغناء والأرض المغطاة بالأشجار، ويطلق الجنين على الطفل المستتر فى بطن امه كما تطلق مفردة الجن لأنهم استجنوا فلا يروا والمجنون تطلق على من ستر عقله.

[٥٤٠] (٢) «خفقان» بمعنى الاضطراب، ويستعمل للخوف والخشية لأنها تدعو للاضطراب والمراد بها فى العبارة خوف الله.

[٥٤١] (١) «أتوسمكم» من مادة «وسم» على وزن ولم أتفرس فيكم، الأثر والعلامة؛ أى كنت أرى فيكم علائم الغدر منذ البداية.

[٥٤٢] (٢) «مغترين» من مادة «غور» بمعنى مخدوعين.

[٥٤٣] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ٢٣٠ و ٢٣١.

[٥٤٤] (٢) «جلباب» بمعنى الثوب والستر.

[٥٤٥] (١) «جواد» جمع «جادة» بمعنى الطرق الكبيرة والواسعة.

[٥٤٦] (٢) «مضلة» من مادة «ضلال» الموضع الذى يضل سالكه وعليه فمعنى جواد المضلة طرق الضلال.

[٥٤٧] (٣) «تميهون» من مادة «موه» على وزن نوع بمعنى تجدون ماءً، ومنه أخذت مفردة الماء وأماه بمعنى بلغ الماء. عليه فمعنى لاتميهون لا تبلغون الماء (وإن أجهدتم أنفسكم فى حفر الأبار).

[٥٤٨] (٤) سورة الانفال / ٢٩.

- [٥٤٩] (٥) اصول الكافي ١/ ٢١٨.
- [٥٥٠] (١) بحار الانوار ٢٤/ ١٢٨ ح ١٣.
- [٥٥١] (٢) بحار الانوار ٦٧/ ٥٩ (باب القلب وصلاحه).
- [٥٥٢] (٣) أصول الكافي ٢/ ٢٤٩ ح ٣ (باب ان المؤمن صنفان).
- [٥٥٣] (١) اصول الكافي ٢/ ٢٠٠، ح ٥.
- [٥٥٤] (١) سورة طه/ ٦٥-٦٧.
- [٥٥٥] (٢) «توافقنا» من مادة «الوقوف» والقاف مقدمة على الفاء.
- [٥٥٦] (١) سورة الرعد/ ١٧. للوقوف على تفاصيل هذا المثل القرآني راجع تفسير الأمثل / ١٠ ذيل هذه الآية.
- [٥٥٧] (١) لقد نقلت هذه الخطية من سائر المصادر الاخرى غير نهج البلاغة. ومن بين مصادر نهج البلاغة ماروي عن كتاب المحاسن والمسائى للبيهقي، ٢/ ١٣٩، تذكرة الخواص للسبط الجوزي والاحتجاج للطبرسي ١/ ١٢٧ كما يستفاد من كلمات ابن أبي الحديد أنه نقل هذه الخطية من طرق اخرى
- [٥٥٨] (١) شرح نهج البلاغة لابن ميشم ١/ ٢٧٦.
- [٥٥٩] (٢) الكامل لابن أثير ٢/ ٣٢٦.
- [٥٦٠] (٣) «عرجوا» من مادة «تعريج» بمعنى الرغبة أو الترغيب وهي هنا بمعنى الاعتزال.
- [٥٦١] (٤) «المنافرة» حسب قول صاحب مقاييس اللغة تعني التحاكم لدى القاضي ومن لوازمها النزاع والمخاصمة.
- [٥٦٢] (١) جاء في الرواية المشهورة عن النبي صلى الله عليه وآله: «مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق». اما قول ابن أبي الحديد أن هذا الحديث صحيح الا ان أهل البيت عليه السلام لم يراودوا بهذه اللفظة فهو خاطئ. فقد أراد الإمام عليه السلام بهذه العبارة أن اسمعوا لما أمركم به واطيعوا ولا تتبعوا ما تمليه عليه إرادتكم.
- [٥٦٣] (٢) لا بدّ من الالتفات هنا ألى الفعل (أراح) قد يأتي لازماً أحياناً ومتعدياً أحياناً اخرى، ومفهومه على ضوء المعنى الأول أراح نفسه بينما معناه أراح الآخرين متعدياً.
- [٥٦٤] (١) «آجن» من مادة «أجن» على وزن ضرب واجون المتعفن المتغير اللون والطعم وقد وردت هنا كإشارة للخلافة.
- [٥٦٥] (٢) «يغص» من مادة «غصص» على وزن هوس بمعنى صعبة الابتلاع.
- [٥٦٦] (٣) «ايناع» من مادة «ينع» على وزن منع بمعنى النضج والبلوغ، وعادة ما تستعمل هذه المفردة بشأن نضج الثمار، كما تأتي بهذا المعنى أيضاً إذا جاءت من باب الافعال.
- [٥٦٧] (١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٦.
- [٥٦٨] (١) نهج البلاغة، الخطبة ٣٣.
- [٥٦٩] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١/ ١١٣.
- [٥٧٠] (١) بحار الانوار ٦٧/ ٢؛ تفسير نور الثقلين ١/ ٤٠٥.
- [٥٧١] (٢) «اندمجت» من مادة «اندماج» الانطواء وهي هنا إشارة للاسرار المودعة قلب الإمام عليه السلام.
- [٥٧٢] (٣) «بحت» من مادة «بوح» على وزن لوح بمعنى الاعلان وترك الكتمان ومن هنا يطلق «الباحه» على المحيط الواسع و«المباح» على الأعمال الجائزة.
- [٥٧٣] (٤) «أرشية» جمع «رشاء» على وزن رضاء بمعنى الجبل الطويل، ومن هنا سميت الرشوة لأنها كالجبال التي تتصل بالدلو ليسحب الماء من البئر.

[٥٧٤] (٥) «طوى» من مادة «طى» و هي البئر العميقة البعيدة.

[٥٧٥] (١) لقد تناول أحد الشعراء المعروفين هذه الحالة ليشبهها بنوعين من الأفراد، طائفة قليلة المعرفة فهي كالثمار الخام التي تلتصق بشدة في الشجرة، واخرى عارفة وهي كالثمار الناضجة التي تتساقط بيسر وسهولة من الشجرة.

[٥٧٦] (٢) نهج البلاغة، الخطبة ٥٥.

[٥٧٧] (٣) بحار الانوار ٢٣٩ / ٤٢.

[٥٧٨] (١) كثر الكلام بين الشراح والمفسرين بشأن من أشار بهذا على الإمام عليه السلام. فقد نسبة المرحوم الشيخ المفيد في كتاب الجمل إلى إسامة بن زيد، بينما نسبة بعض المؤرخين والشراح من غير الإمامية للإمام الحسن عليه السلام، ولكن لا يبدو هذا التفسير صحيحاً بالاستناد إلى الرابطة التي كانت قائمة بين الإمام الحسن عليه السلام وأبيه عليه السلام. الاحتمال الأخير فهو أن هذه الإشارة لم تكن من قبل فرد بل من قبل طائفة ضالة خلدت إلى الراحة والدعة.

[٥٧٩] (١) أشار مؤلف كتاب «مصادر نهج البلاغة» إلى المصادر الاخرى التي نقلت هذه الخطبة ومنها «تاريخ الطبري، أمالي الشيخ الطوسي، صحاح اللغة وغريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام».

[٥٨٠] (٢) «ضبع» على وزن سجع، يطلق أحيانا على القحط والجفاف لأنه يأكل كل شيء ويقضى عليه.

[٥٨١] (٣) «اللدن» حسب ما صرح به بعضى أرباب اللغة هو صوت الحجر أو العصا أو غيرهما، تضرب به الأرض ضرباً غير شديد، ومن الطبيعي أن مثل هذا الصوت إذا تكرر يمكنه أن يؤدي إلى النوم.

[٥٨٢] (٤) «يختلها» من مادة «ختل» على وزن ختم بمعنى الخداع والمخاتلة بمعنى المشى بهدوء نحو الصيد بحيث لا يهرب.

[٥٨٣] (٥) «الراصد» من مادة «الرصد» بمعنى المترقب ومن هنا يطلق على مراقبة المنجمين اسم الرصد كما يطلق على موضع الرصد اسم المرصد.

[٥٨٤] (١) إرشاد المفيد ١ / ٢٤٣، طبع دار النشر العلمية الإسلامية.

[٥٨٥] (١) جاء في «مصادر نهج البلاغة» أن هذه الخطبة وردت في ربيع الأبرار للزمخشري، ١ / ١٠٩ والنهاية لابن أثير في غريب الحديث ٢ / ٥٠.

[٥٨٦] (١) سورة النحل / ٩٩ - ١٠٠.

[٥٨٧] (٢) «اشراك» جمع «شريك» و «شرك» بمعنى افتح ويحتمل المعنيان في العبارة المذكورة، وقد اختار كل شارح من شراح نهج البلاغة أحد هذين المعنيين.

[٥٨٨] (٣) لقد استهلّت العبارة بفاء التفرّيع لبيان شرحها للعبارة السابقة.

[٥٨٩] (١) سورة البقرة / ١٦٨ و ٢٠٨؛ سورة الانعام / ١٤٢؛ سورة النور / ٢١.

[٥٩٠] (٢) هذا التفسير على أساس أن حرف الباء في بهم للتعدية، أما إذا فسرت بالاستعانة فإن مفهوم الجملة سيصبح أن الشيطان بالاستعانة بهؤلاء سيركب الخطأ والزلل؟ ولكن بالالتفات إلى العبارة «وزين لهم الخطل» وفاء التفرّيع في فركب يبدو التفسير الأول أنسب.

[٥٩١] (٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٦.

[٥٩٢] (٤) كلمة «فعل» يمكن أن تكون مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف تقديره «فعلوا ذلك فعل...» كما يمكن أن تكون مفعولاً مطلقاً لما سبق (نظر، نطق، ركب وزين) وسيصبح مفهوم الجملة أن أفعال هؤلاء أفعال من شرك الشيطان في عمله.

[٥٩٣] (١) سورة الاسراء / ٦٥.

[٥٩٤] (٢) سورة النحل / ٩٩.

- [٥٩٥] (٣) سورة إبراهيم / ٢٢.
- [٥٩٦] (١) سورة الانعام / ١١٢.
- [٥٩٧] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ١ / ٢٣٢.
- [٥٩٨] (٢) كتاب مصادر نهج البلاغة / ١ / ٣٣٤ - ٣٣٥.
- [٥٩٩] (١) شرح ابن أبي الحديد / ١ / ٢٣١.
- [٦٠٠] (٢) «وليجة» من مادة «لوج» بمعنى الدخول، كما تعنى الدخول الخفى ويقال وليجة لما يضم فى القلب ويكتم، وقد جاءت هنا بمعنى الأمر الخفى.
- [٦٠١] (١) قال صاحب «مصادر نهج البلاغة» علاوة على نقل الشريف الرضى لهذا الكلام فى نهج البلاغة، فقد رواه الواقدى ضمن إحدى خطبه عليه السلام يوم الجمل. كما نقله المرحوم الشيخ المفيد فى كتاب الجمل (ص ١٧٧) عن كتاب الجمل للواقدى. وأخيراً ذكره ابن عثم الكوفى فى كتاب الفتوحات.
- [٦٠٢] (١) بحار الانوار / ٣٢ / ٦٠ - ١٨٨.
- [٦٠٣] (١) بحار الأنوار / ١٩ / ٢٢٤.
- [٦٠٤] (١) جاء فى مصادر نهج البلاغة أن المرحوم المفيد نقل هذه الخطبة فى الإرشاد / ١٨٨.
- [٦٠٥] (١) سورة فاطر / ٦.
- [٦٠٦] (٢) سورة الاسراء / ٦٤.
- [٦٠٧] (١) سورة الكهف / ١٠٤.
- [٦٠٨] (٢) سورة يوسف / ١٠٨.
- [٦٠٩] (٣) يرى بعض أرباب اللغة أن «آيم» جمع «يمين» بمعنى القسم وقد سقطت النون وهى مبتدأ لخبر محذوف تقديره (وايمن الله قسمي).
- [٦١٠] (٤) «افرطن» من مادة «إفراط» بمعنى تجاوز الحد (ما يقابل التقریط)، كما تأتى بمعنى ملاً الشىء حتى يفيض، وقد جاءت بهذا المعنى فى العبارة.
- [٦١١] (٥) «ماتح» بمعنى امتداد الشىء ثم اطلقت على المستسقى الذى يدلى بدلوه لاستخراج الماء من البئر. وقيل إنّ الماتح لمن يستسقى الماء من أعلى البئر، بينما المايح من تحته.
- [٦١٢] (١) سورة الحجرات / ٩.
- [٦١٣] (٢) منهاج البراعة للخوئي / ٣ / ١٦٧ - ١٦٩.
- [٦١٤] (٣) قال بعض شراح نهج البلاغة أن هذه العبارة جملة شرطية من حيث المعنى، فقد يرها لوزالت الجبال لاتزل (شرح ابن ميثم / ١ / ٢٨٧).
- [٦١٥] (١) سفينة البحار، مادة أمن.
- [٦١٦] (٢) نهج البلاغة، الخطبة / ١٢٤.
- [٦١٧] (٣) سورة الانفال / ٤٥.
- [٦١٨] (١) نهج البلاغة، الخطبة / ١٢٤.
- [٦١٩] (٢) سورة آل عمران / ١٢٦.
- [٦٢٠] (١) سورة الانفال / ٦٥.

- [٦٢١] (٢) نهج البلاغة، الكلمات قصار / ٨٢.
- [٦٢٢] (١) سند هذه الخطبة هو ماورد في كلام الشريف الرضى، وقد ورد شبيه هذا الكلام في كتاب مصابيح الظلم من كتب المحاسن البرقى. أن أحد أصحاب الإمام عليه السلام قال بعد أن أظفر الله الإمام عليه السلام بالخوارج في النهروان، طوبى لنا قاتلنا بين يديك فقتلنا الخوارج، فرد الإمام عليه السلام بعبارة شبيهة بما ورد في هذه الخطبة (مصادر نهج البلاغة / ١ / ٣٣٩).
- [٦٢٣] (١) «الرعاف» خروج الدم من الأنف.
- [٦٢٤] (١) سورة الشمس / ١٤.
- [٦٢٥] (١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١.
- [٦٢٦] (٢) بحار الانوار / ٦٥ / ١٣١.
- [٦٢٧] (٣) سورة آل عمران / ١٨٣.
- [٦٢٨] (٤) بحار الانوار / ٩٧ / ٩٤.
- [٦٢٩] (٥) وسائل الشيعة / ١١، كتاب الأمر بالمعروف، الباب ٥.
- [٦٣٠] (١) قال المرحوم المحقق الخوئي أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة بعد انتهاء معركة الجمل، ورواها - مع بعض الاختلاف - المرحوم الطبرسى في الاحتجاج وعلى بن إبراهيم القمى والمحدث البحرانى، كما نقلها - حسب كتاب مصادر نهج البلاغة - عدد من العلماء من عاشوا قبل الشريف الرضى كالدينورى فى الأخبار الطوال والمسعودى فى مروج الذهب وابن قتيبة فى عيون الأخبار وابن عبد ربه فى العقد الفريد (مصادر نهج البلاغة / ١ / ٣٤٤).
- [٦٣١] (١) «رغا» من مادة «رغاء» على وزن دعاء صوت الجمل كما يطلق على صوت الضبع أيضاً.
- [٦٣٢] (٢) «عقر» من مادة «عقر» على وزن فقر بمعنى الأصل والجذر، وتعنى الجرح والقطع اذا استعملت للناقه كما تاتى بمعنى الهلاك.
- [٦٣٣] (٣) سورة طه / ٩٧.
- [٦٣٤] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد / ١ / ٢٥٢ - ٢٦٦ إلا أنه كتب حين خطأ بدلاً من بدر.
- [٦٣٥] (٢) «بين أظهركم» بمعنى بينكم، وأظهر جمع ظهر بمعنى الخلف وهو خلاف الباطن، ويستعمل هذا اللفظ للشخص الذى يعيش بين مجموعة تسانده و تحميه، و أحيانا يستعمل هذا اللفظ للعيش فى مجموعة يؤيدونه ويحمونه أو لا يحمونه. «لسان العرب، منقول عن الكامل فى التاريخ أولاً يحمونه.» لسان العرب، منقول عن الكامل فى التاريخ أولاً يحمونه.» لسان العرب، منقول عن الكامل فى التاريخ أولاً يحمونه.
- [٦٣٦] (٣) «شاخص» من مادة «شخص» بمعنى المرتفع واطلقت على قامه الإنسان حين تلوح من بعيد، ومن هنا اطلق على الشخص المسافر اسم الشاخص، وقد وردت بهذا المعنى فى العبارة المذكورة.
- [٦٣٧] (١) اصول الكافي / ٢ / ٣٧٥، باب مجالسة أهل المعاصى، وقد وردت فى هذا الباب عدّة روايات بهذا المضمون.
- [٦٣٨] (٢) سورة المدثر / ٣٨.
- [٦٣٩] (٣) الذى تولى الخلافة عام ٣٨١ هـ (الكامل فى التاريخ / ١ / ٨٠).
- [٦٤٠] (٤) «القائم بأمر الله»، من خلفاء الدولة العباسية، اصبح خليفه عام ٤٢٢ هجرى «الكامل فى التاريخ / ٩ / ٤١٧».
- [٦٤١] (٥) من النقاط التى تسترعى الانتباه إن ابن أبى الحديد كان من الذين عاشوا فى القرن السابع الهجرى وكان يُطلق على الخليج الفارسى اسم «بحر الفرس».
- [٦٤٢] (٦) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد / ١ / ٢٥٣.
- [٦٤٣] (١) «جائمه» من مادة «جثوم» بمعنى الجمع والجثم بالصدر على الأرض، وتطلق هذه المفردة على الأفراد الذين يخلدون إلى

الأرض وليس لهم من حركة سوى الكسل والنعاس.

[٦٤٤] (٢) «لجة» بمعنى الموجة والماء الواسع العميق، وتعنى فى الأصل ذهاب واياب الشىء ومن هنا يطلق لجة على البحر المائج، كما يطلق اللجوح على الأفراد الذين يصرون على شىء، كما تطلق على موج البحر.

[٦٤٥] (٣) هذا التفسير يصدق فى حال كون الباء فى «بذنبه» والباء فى «بغفوالله» باء السببية، ولكن اذا كانت الباء للالصاق فيكون مفهوم الجملة: الشخص الذى تلوث وابتلى بالذنوب، وبقي بعيداً عن الناجين، ولكن العفو الالهى يشمل هذا الشخص فيصبح من الناجين. لكن المعنى الأول هو الأرجح طبق المقاييس الأدبية.

[٦٤٦] (١) «شرف» على وزن هدف بمعنى الموضع المرتفع.

[٦٤٧] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٦ / ٢٢٥.

[٦٤٨] (١) بحار الأنوار ٣٢ / ٢٥٦ (مضمون الرواية).

[٦٤٩] (١) جاء فى مصادر نهج البلاغة أن المرحوم الشيخ المفيد نقل فى كتاب الجمل / ٢١٧ عن الواقدى أن علياً عليه السلام حين انتصر فى المعركة ووزع الغنائم على الجنود ألقى هذه الخطبة: كما وردت مع إختلاف طفيف فى كتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة (مصادر نهج البلاغة، ١ / ٣٤٨).

[٦٥٠] (١) «غرض» بمعنى الهدف وهو ما ينصب ليرمى بالسهام، ثم اطلق على كل هدف، كما ذكر له معان اخرى من قبيل الملل والشوق.

[٦٥١] (٢) «نابل» من مادة «نبل» بمعنى الضارب بالنبل.

[٦٥٢] (٣) «فريسة» من مادة «فرس» على وزن فرض بمعنى الضرب، ولما كان الحيوان الوحشى يضرب فريسة بالأرض اطلق عليه المفترس، كما اطلق اسم الفرس على الحصان لضربه الأرض برجله.

[٦٥٣] (٤) «صائل» من مادة «صول» و«صوله» بمعنى الحملة والقهر والغلبة.

[٦٥٤] (١) «القطائع» ما يقطعه الإمام بعض الرعية من أرض بيت المال ذات الخراج، ويسقط عنه خراجه، ويجعل عليه ضريبة يسيرة عوضاً عن الخراج، وقد كان عثمان أقطع كثيراً من بنى امية وغير هم من أوليائه وأصحابه قطائع من أرض الخراج على هذه الصورة، وقد كان عمر أقطع قطائع، ولكن لأرباب الغناء فى الحرب والآثار المشهورة فى الجهاد؛ عثمان أقطع القطائع صلةً لرحمه وميلاً إلى أصحابه من غير عناء فى الحرب ولا أثر.

[٦٥٥] (٢) جاء فى مصادر نهج البلاغة أن هذه الخطبة قد ذكرت فى كتاب الاوائل لأبى هلال العسكري وكذلك كتاب دعائم الإسلام للقاضى النعمان المصرى وإثبات الوصية للمسعودى مع بعض الاختلاف (مصادر نهج البلاغة ١ / ٣٥٠).

[٦٥٦] (١) بحار الأنوار ٧٢ / ٣٦.

[٦٥٧] (٢) بحار الأنوار ٧٢ / ٣٩.

[٦٥٨] (٣) بحار الأنوار ٧٥ / ٨٣.

[٦٥٩] (٤) مستدرك الوسائل ١١ / ٣٢٠.

[٦٦٠] (٥) تفسير الصافى، سورة الرحمن / ٧.

[٦٦١] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ١٩٩.

[٦٦٢] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ٢٦٩.

[٦٦٣] (١) لقد نقلت هذه الخطبة فى عدة كتب منها:

١- الشيخ الطوسى، تلخيص الشافى ٣ / ٥٣، ٢- الجاحظ، البيان والتبيين ٣ / ٤٤، ٣- العقد الفريد ٤ / ١٣٢، ٤- إرشاد المفيد، ٥- كتاب

- الجمل، ٦- عيون الأخبار، ٧- المسعودي، اثبات الوصية، ٨- كنز العمال، ٩- الكليني، روضة الكافي / ٦٧، ١٠- تاريخ يعقوبي، ج ١١- المجلسي، بحار الأنوار.
- [٦٦٤] (١) «زعيم» من مادة «زعم» بمعنى بيان الكلام الذي يحتمل فيه الخلاف، ثم أطلق الزعيم على من يكفل شخصاً ويضمنه لأنه يكون عرضة للتهمة، وقد جاءت هذه المفردة في العبارة بمعنى الضامن والكفيل، كما يطلق الزعيم على القائد الذي يتولى زمام الامور لأنه يتكفل بالأعمال المهمة.
- [٦٦٥] (٢) «مثلات» جمع «مثلة» على وزن عضلة بمعنى مقارنة شيء بآخر، ثم اطلقت على العذاب الإلهي والعقوبة التي تحذر الإنسان من ارتكاب ما يوجبها.
- [٦٦٦] (٣) «حجز» من «حجز» على وزن عجز بمعنى الحائل بين شيئين وقد وردت بهذا المعنى في العبارة، فالتقوى تحول دون الوقوع في الشبهات.
- [٦٦٧] (١) «بلبله» ذكر أرباب اللغة عدّة معان لهذه المفردة منها الاختلاط وهذا هو المعنى المناسب لها في هذه العبارة.
- [٦٦٨] (٢) «غربله» لها معنيان أحدهما فصل الخيث من الطيب بالغربال (بكسر الغين وضمها) والآخر القطع والفصل.
- [٦٦٩] (٣) «سوط» أي كما تختلط الابرار ونحوها في القدر عند غليانه فينقلب أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها، وكل ذلك حكاية عما يؤولون إليه من الاختلاف وتقطع الأرحام وفساد النظام.
- [٦٧٠] (١) «الوشمة» في الأصل بمعنى الخال الذي يوخز بالابرة ثم يطلى بمادة ملونة تحت الجلد، كما أطلقت على الأشياء الصغيرة كقطرة ماء المطر أو الحديد القصير، وقد وردت هنا بالمعنى الأخير.
- [٦٧١] (١) «شمس» من مادة «شموس» و«شماس» على وزن فتوح وكتاب بمعنى التغيير وعدم الاستقرار ومن هنا اطلق اسم الشمس، حيث تتحرك على الدوام، وشمس التي وردت في العبارة جمع شمس بمعنى الفرس الجموح الذي يمنع ظهره من الركوب.
- [٦٧٢] (١) «ذلل» جمع «ذلول» وهي المروضة الطائفة.
- [٦٧٣] (١) سورة البقرة / ٢٤٩.
- [٦٧٤] (٢) سورة المائدة / ١٠٠.
- [٦٧٥] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ١ / ٢٨١.
- [٦٧٦] (١) سورة فاطر / ٣٢.
- [٦٧٧] (٢) سورة الواقعة / ٧- ١١.
- [٦٧٨] (٣) «مضلة» على وزن «مفعلة»، قال أرباب اللغة أنها تعني كثرة وجود الشيء في المكان وعليه فمفهوم العبارة أن الانحراف إلى اليمين واليسار يدعو إلى ضلال عظيم.
- [٦٧٩] (١) سورة البقرة / ١٤٣.
- [٦٨٠] (١) سورة الأعراف / ١٢٨.
- [٦٨١] (٢) «خاب» من مادة «خبيء» بمعنى الفشل والحرمان وعدم الظفر بالشيء.
- [٦٨٢] (٣) «صفحة» بمعنى عرض الشيء وقد يراد بها الوجه ومنها المصافحة.
- [٦٨٣] (١) «سنخ» بمعنى الأصل والجذر، وكذلك محل غرس الشجر، وهو المكان الذي تثبت فيه جذور وأصل الشجرة. ويستعمل هذا اللفظ أحيانا بمعنى الرسوخ في شيء، وكل هذه المعاني مقاربة لبعضها، وفي العبارة أعلاه تشير إلى جذور العلوم والمعارف والاعمال الصالحة والتي رسخت في أرضية التقوى والتي لا يمكن أن تُجثت جذورها.
- [٦٨٤] (١) «وراء» من مادة «ورى» على وزن «وزن» وفي الأصل بمعنى الاستتار، وأحيانا يطلق على الشيء الذي حُجب عن الانظار

بواسطة حاجز فاصح غير منظور باعتباره خلف الشيء أو وراءه.

وفي العبارة أعلاه جاءت هذه الكلمة بمعنى الخلف أو وراء.

[٦٨٥] (١) بحار الأنوار ١٥٧/٦٥ «مع قليل من التخليص والإيجاز».

[٦٨٦] (١) نقل صاحب كتاب «مصادر نهج البلاغة» هذه الخطبة عن طائفة من العلماء ممن عاشوا قبل السيد الرضى ومنهم:

١- الكليني في الكافي بطريقتين ٢- ابن قتيبة في كتاب غريب الحديث ٣- أبو طالب المكي في قوت القلوب ٤- الهروي في الجمع بين الغريبتين ٥- القاضي النعمان في كتاب اصول المذهب.

كما نقلها عن طائفة اخرى من العلماء بعد السيد الرضى كالطوسي في الأمالي والطبرسي في الاحتجاج والمفيد في الإرشاد.

[٦٨٧] (١) بحار الأنوار ٨٣/١٥٣.

[٦٨٨] (٢) بحار الأنوار ٩١/٩٤.

[٦٨٩] (٣) بحار الأنوار ٨٣/١٥٢.

[٦٩٠] (٤) سورة النحل / ٩.

[٦٩١] (١) سورة رعد / ١٤.

[٦٩٢] (٢) ميزان الحكمة ٤/ ٥٦٦، كما ورد مضمون هذا الحديث في عدة روايات نقلتها أغلب الكتب.

[٦٩٣] (١) سورة نحل / ٢٥.

[٦٩٤] (٢) سورة المدثر / ٣٨.

[٦٩٥] (٣) شرح نهج البلاغة للمحقق الخوئي ٣/ ٢٥١.

[٦٩٦] (٤) اصول الكافي ١/ ٥٤، باب البدع.

[٦٩٧] (١) سورة العنكبوت / ١٣.

[٦٩٨] (١) «موضع» من مادة «ايضاع» بمعنى السرعة في الحركة (وهو يعطى معنى اللازم لا المتعدى رغم أنه من باب الافعال) وهو

هنا إشارة لحركة الجهال المتشبهين بالعلماء السريعة بين الجهال.

[٦٩٩] (٢) «عاد» من مادة «العدو» بمعنى الركض.

[٧٠٠] (٣) مقاييس اللغة، الجوهري، لسان العرب.

[٧٠١] (٤) «هدنة» بمعنى الصلح والمسالمة بين الناس.

[٧٠٢] (١) «بكر» من مادة «بكرة» بكرة على وزن لقمته بمعنى أول النهار ثم أطلقت على كل بدايته وانطلاقه، وهي هنا إشارة إلى أن الجهال

المتشبهين بالعلماء إنما يلهثون خلف الأعمال العابثة من أول النهار حتى الليل.

[٧٠٣] (٢) يمكن أن تكون الجملة (ما قل منه خير ممّا كثر) صفة لجمع مفهومه: يجمع شيئاً قليلاً خيراً من كثيره، كما قيل يمكن أن

تكون مضافة، وفي هذه الحالة تتطلب تقديراً؛ أي من جمع شيء ما قل منه خير ممّا كثر، ولكن ليس هنالك من فارق في المعنى.

[٧٠٤] (١) «آجن» بمعنى الماء العفن.

[٧٠٥] (٢) «طائل» من مادة «طول» على وزن قول بمعنى الفائدة والامتداد، ومن غير طائل تعنى دون فائدة.

[٧٠٦] (٣) الوسائل الشيعه ١٧/ ٣٧ واضح أن وصي النبي هنا تنطوي على مفهوم واسع يشمل العلماء العدول من أتباع النبي).

[٧٠٧] (١) «العنكبوت» هي الحشرة المعروفة، وهناك اختلاف في أصلها من مادة عكب أن عكب، وقيل اقتبست من مادة «عكوب»

بمعنى الغبار لأنّ خيوطه تشبه الغبار.

[٧٠٨] (١) «خباط» من مادة «خبط»، صيغة مبالغة من خبط الليل إذ سار فيه على غير هدى، ومن هنا يطلق خباط أو ضابط على الفرد

- المجنون او الذي لا يستطيع توازنه.
- [٧٠٩] (٢) «عشوات» جمع «عشوة» بمعنى الظلمة.
- [٧١٠] (٣) «يذرو» من مادة «ذرو» على وزن ضرب بمعنى يثر (وقد وردت هذه المفردة بهيئة ناقص واوى وناقص يائي).
- [٧١١] (٤) «هشيم» من مادة «هشم» بمعنى ما يبس من النبات وتهشم وتفتت.
- [٧١٢] (١) «اصدار» من مادة «صدر» ضد الدخول.
- [٧١٣] (٢) «قرظ» بمنى مدح.
- [٧١٤] (٣) ذكر بعض شراح نهج البلاغة هنا المفردة «فرط» من مادة التفريط و«فوض» من مادة التفويض بدلاد من «قرظ» من مادة «التفريط» بمعنى المدح و الثناء. و حيث آلينا على أنفسنا ألا نجرى خلف اختلاف نسخ نهج البلاغة و نكتفى بالنسخة المعروفة المتداولة اليوم، لذلك نغض الطرف عن الخوض في ما ذكره.
- [٧١٥] (١) سورة الزمر / ١٧-١٨.
- [٧١٦] (٢) نهج البلاغة، الكلمات قصار، الكلمة ٨٢.
- [٧١٧] (٣) «تعج» من مادة «عج» و«عجيج» بمعنى ارتفاع الصوت وهنا بمعنى الصراخ.
- [٧١٨] (١) وسائل الشيعة ١٣ / ٢٥٦.
- [٧١٩] (٢) اصول الكافي ١ / ٤٤.
- [٧٢٠] (٣) اصول الكافي ١ / ٤٣.
- [٧٢١] (١) اصول الكافي ١ / ٤٣.
- [٧٢٢] (١) بحار الأنوار ٧٤ / ١٥٠.
- [٧٢٣] (٢) بحار الأنوار ٧٢ / ٣٦٩.
- [٧٢٤] (٣) بحار الأنوار ٧٠ / ٢٩٤.
- [٧٢٥] (٤) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.
- [٧٢٦] (١) «سلعة» على وزن فرقة، المتاع والبضائع التجارية، وفي الأصل جاءت من مادة «سَلَع» بمعنى الفتحة أو الفرجة أو الشق، وتطلق على ثغرة الجبل أو شق الجبل، وبما أن البضائع التجارية توضع بشكل علني في منظر ومرآى العيون، لذلك سميت «سلعة».
- [٧٢٧] (٢) «أبور» من مادة «بور» على وزن غور بمعنى الهلاك والفساد، ومن هنا يطلق هذا اللفظ على الركود في السوق لانه يتسبب في أضرار لرؤوس المال.
- [٧٢٨] (٣) «أنفق» من مادة «نفاق ونفوق»، وفي الأصل بمعنى الزوال والانعدام، ومن هنا يقال للعطاء والصدق «انفاق»، والظاهر بان ذلك يطلق على الاموال التي تصرف أو تنفق، أي التي تخرج من اليد، واذا استفيد من اللفظ في موضوع الانفاق والعطاء فيكون معناها، البذل والمساعدة، حيث يقصد بها الأموال التي يتم انفاقها.
- ويطلق أيضا على رواج الأمتعة في السوق «نفاق» على وزن «طلاق» وذلك لانها تُشترى بسرعة من قبل الناس، وبذلك تخرج من السوق.
- [٧٢٩] (١) سورة البقرة / ٧٥.
- [٧٣٠] (٢) بحار الأنوار ٨٩ / ١٠٧.
- [٧٣١] (٣) بحار الأنوار ٨٩ / ١٠٨.
- [٧٣٢] (١) طبق ماورد في مصادر نهج البلاغة بشأن سند الخطبة، رواها محمد بن طلحة الشافعي في كتاب مطالب السؤال ١ / ١٤١

وصرح بأن محمد بن طلحة وان عاش بعد الشريف الرضى إلاً أن رواية هذه الخطبة مع بعض الاختلاف الطفيف دليل على وجود مصدر آخر لديه غير نهج البلاغة، ثم أضاف: يستفاد من رواية القاضى نعمان المصرى فى «دعائم الإسلام» الذى عاش قبل الشريف الرضى أن هذه الخطبة كانت معروفة عند الشيعة. والذى يستفاد من كلام محمد بن طلحة أن هذا الكلام هو جزء من الخطبة السابقة، والواقع أنهما خطبة واحدة مع سابقتها فهى مرتبطة بها تماماً، ولذلك يبرز هنا هذا السؤال: لم فصلهما الشريف الرضى عن بعضهما؟ ذهب صاحب مصادر نهج البلاغة إلى احتمالين:

الأول أن يكون الشريف الرضى نقلهما من مصدرين، والآخر أنه كتب حقاً: ومن هذا الكلام؛ أى أن هذا الكلام جزء من الخطبة السابقة، إلاً أن نساخ نهج البلاغة التبس عليهم الأمر فكتبوا «ومن كلام له عليه السلام الذى يفيد كونه كلاماً مستقلاً». (مصادر نهج البلاغة ١/ ٣٦٢ مع شىء من التوضيح).

[٧٣٣] (١) سورة النساء/ ٨٢.

[٧٣٤] (١) المرحوم العلامة الأمينى ذكر فى المجلد السادس من الغدير الأدلة على هذه المسألة من أهم مصادر العامة من قبيل سنن ابن ماجه وسنن الدارمى ومستدرك الحاكم فى تذكرة الحفاظ وكنز العمال وغيرها تحت عنوان «نهى الخليفة عن الحديث» وبين كيف ان عمر نهى عن تدوين أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وهدد بالحبس والنفى كل من رواها.

[٧٣٥] (١) سورة المائدة/ ٣.

[٧٣٦] (٢) لقد تحدثنا بالتفصيل فى كتاب نفحات القرآن ج ٩ بحث «الولاية والإمامة العامة فى السنة» عن حديث الثقلين وتواتره فى المصادر الروائية للفريقين ومصادره المعروفة فى صحيح مسلم والترمذى والدارمى ومسند أحمد وخصائص النسائى ومستدرك الصحيحين وسنن البيهقى وغيرها من المصادر.

[٧٣٧] (١) الاصول العامة للفقهاء المقارن/ ٦١٧.

[٧٣٨] (١) للوقوف على التفاصيل انظر كتاب «توضيح الرشاد فى تاريخ عصر الاجتهاد» للمحدث المحقق المرحوم الحاج الشيخ آقا بزرك الطهرانى.

[٧٣٩] (٢) أنوار الاصول ٢/ ٥١٩- ٥٤٣ و ٣/ ٦٣٢- ٦٥٨، المستصفى للغزالي ٢/ ٢٣٤، الاصول العامة للفقهاء المقارن/ ٣٠٥ و ٦١٧.

[٧٤٠] (١) سورة آل عمران/ ١٠٣.

[٧٤١] (١) سورة المائدة/ ٣.

[٧٤٢] (١) لا بد من الالتفات إلى أن قوله «ما فرطنا فى الكتاب من شىء» هو نص الآية ٣٨ من سورة الانعام، أما قوله «فيه تبيان لكل شىء» فهو مضمون الآية ٨٩ من سورة النحل لا عينها «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء».

[٧٤٣] (٢) سورة النساء/ ٨٢.

[٧٤٤] (١) تفسير نور الثقلين، ٣/ ٧٤، اصول الكافى، ١/ ٥٩) هناك احتمالان بشأن هذه الرواية: الأول أن «لو» شرطية، والآخر أنها حرف تمنى و«إلاً» احياناً للإستثناء واخرى للتنبية، راجع مرآة العقول، ١/ ٢٠٢.

[٧٤٥] (٢) سورة المائدة/ ١.

[٧٤٦] (١) سورة الحج/ ٧٨.

[٧٤٧] (٢) سورة البقرة/ ٢٣٣.

[٧٤٨] (٣) سورة الحشر/ ٧.

[٧٤٩] (٤) سورة النحل/ ٤٤.

[٧٥٠] (٥) اصول الكافى، ١/ ٦١) كما نقل المرحوم الكلينى فى هذا الباب عدّة روايات).

[٧٥١] (١) نهج البلاغة، الكلمات قصار، الحكمة ٣١٣.

[٧٥٢] (٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٨.

[٧٥٣] (٣) الدر المنثور ١٢٧ / ٤ - ١٢٨.

[٧٥٤] (٤) الاتقان، نوع ٦٥ من العلوم المستفادة من القرآن.

[٧٥٥] (١) «أنيق» من مادة «انق» على وزن رفق بمعنى الشيء الجميل.

[٧٥٦] (٢) للوقوف على المزيد راجع كتاب نفحات القرآن، ١١٤ / ٨ بحث «اعجاز القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة».

[٧٥٧] (١) سورة المائدة / ١.

[٧٥٨] (٢) سورة الحج / ٧٨.

[٧٥٩] (١) ميزان الحكمة ٧٠ / ٨؛ بحار الانوار ٩٢ / ١٥.

[٧٦٠] (١) جاء في كتاب مصادر نهج البلاغة عدم وجود الاختلاف بين العلماء في نقل هذه الخطبة، قد نقلها من عاش قبل السيد

الرضي، كأبي الفرج الاصفهاني في كتاب الاغانى، وقد توفي الاصفهاني قبل نشر نهج البلاغة ٤٤ سنة (مصادر نهج البلاغة، ١ / ٣٦٩).

[٧٦١] (١) ورد في عدّة روايات ان المراد بقوله «من أحدث حدثاً» القتل وسفك الدماء وهو المعنى الانسب لهذه العبارة، راجع

وسائل الشعية، ١٩ / ١١ - ١٩ ابواب القصاص، الباب ٤ و ٨.

[٧٦٢] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٢٧٩.

[٧٦٣] (١) «حائك»: وتأتى أحيانا من مادة «حوك» بمعنى الحياكة والنسيج، وتأتى أحيانا من «حيك» بمعنى التكبر والخيلاء أثناء

المشى.

[٧٦٤] (٢) وسائل الشعية، ١٢ / ١٠١، الباب ٢٣، من أبواب ما يكتسب به، الحديث ٢.

[٧٦٥] (٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٢٩٦.

[٧٦٦] (١) وسائل الشعية، أبواب حد المرتد / الباب ٥ ح ٣.

[٧٦٧] (١) أورد المرحوم الكليني في كتاب الكافي في باب «ما يجب من حق الإمام على الرعية» بعض هذه الخطبة في ذيل رواية (

راجع كتاب الكافي، ١ / ٤٠٥ ح ٣، باب ما يجب من حق الإمام على الرعية).

[٧٦٨] (١) «وهلتم» من مادة «هل» على وزن «وهب» بمعنى فقد صبره في مقابل الحوادث الصعبة، وتأتى بمعنى الخوف وحيانا

بمعنى التأوه والأنين.

[٧٦٩] (١) سورة الصافات / ١٣٧ - ١٣٨.

[٧٧٠] (٢) سورة الدخان / ٢٥ - ٢٩.

[٧٧١] (١) «زجرتم» و«مزدجر» من مادة «زجر» بمعنى الصدعن عمل بصوت عال، ثم اطلق على كل منع صدر كما يستعمل في التهي

عن الذنوب.

[٧٧٢] (٢) سورة القمر / ٤.

[٧٧٣] (٣) سورة الحجر / ٧.

[٧٧٤] (٤) سورة الحجر / ٨.

[٧٧٥] (١) سورة مؤمنون / ٩٩ - ١٠٠.

[٧٧٦] (٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩.

الخطبة [١] الحادى والعشرون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

«وهى كلمة جامعة للعظمة والحكمة»

«فإن الغاية أمانكم، وإن وراءكم الساعة تحذوكم. تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بأولكم آخركم».

قال السيد الشريف الرضى: أقول: إن هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله بكل كلام لمال به راجحاً، وبرز عليه سابقاً فأما قوله عليه السلام: «تخففوا تلحقوا» فما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولاً وما أبعده غورها من كلمة! وأنقع نطقها من حكمة! وقد نبهنا فى كتاب «الخصائص» على عظم قدرها وشرف جوهرها.

شرح الخطبة

تخففوا تلحقوا!

ورد هذا الكلام ضمن سياق الخطبة ١٦٧، حيث تضمنت تلك الخطبة مثل هذه العبارات مع بعض الفوارق الطفيفة.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٦

والذى يفهم من كلام المرحوم السيد الشريف الرضى أن الإمام عليه السلام قد ألقى هذه الخطبة أوائل ما آلت إليه الخلافة، بينما يفهم من كتاب «مطالب السؤل» [٢] أن هذه الخطبة هى إمتداد للخطبة السابقة وتعرض لذات المطالب.

وهناك احتمال آخر فى أن الخطب الثلاث قد صدرت معاً عن أمير المؤمنين عليه السلام فى موضع واحد، ثم صُنفت ثلاثة أقسام. على كل حال فإن هذا القسم من الخطبة - والذى لا يتجاوز بضعة عبارات - وعلى حد تعبير السيد الرضى لو وزن بعد كلام الله وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله لمال به راجحاً! والحق ان الأمر كذلك حقاً ما هذه الفصاحة والبلاغة فى كلمات قصار تتعرض لمثل هذه الحقائق السامية!

فالإمام يتبّه أبناء الأئمة بادئ الأمر إلى مفهوم المعاد ومحكمة العدل الإلهى ليلفت إنتباههم من خلال ذلك إلى عظم المسؤوليات والوظائف التى ينبغى لهم أن ينهضوا بها فى خلافته، ويحذره من كافة ألوان النفاق والتشتت والفرقة والنكوص عن إداء الواجبات. وأخيراً يذكرهم بالعاقبة التى تنتظرهم بعد العرض على الله يوم القيامة، فأما الجنة وأما النار «فإن الغاية أمانكم، وإن وراءكم الساعة تحذوكم».

والتعبير ب «الغاية» (عاقبة الأمر) بشأن القيامة والجنة والنار لأن الحياة فى الدنيا إنما هى مقدمة للحياة الأبدية فى العالم الآخر.

فقوله عليه السلام: «فإن الغاية أمانكم» يعنى عدم وجود الشك والريب فى أن مآل الامور هناك وليس لأحد الفرار عن ذلك المآب. وأما التعبير ب «الساعة» فقد صرّح بعض شارحى نهج البلاغة بأنه إشارة إلى القيامة الصغرى؛ أى الموت. فقوله عليه السلام: «وراءكم» يفيد أن عوامل الموت إنما تكمن وراء الإنسان، فهى تسوق الإنسان من الطفولة إلى الشباب ومن الشباب إلى الكهولة والشيخوخة وأخيراً من الشيخوخة إلى انقطاع الحياة. فى حين صرّح البعض الآخر بأن المراد ب «الساعة» هو ساعات

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٧

الليل والنهار وكأنها الأمر الصارم الذى كمن خلف الإنسان ويسوقه إلى حتفه. وليس هناك من فوارق تذكر بين هذين التفسيرين حيث مؤداهما واحد. وبالاستناد إلى أن كلمة «تحذوكم» المشتقة من مادة «حدو» بمعنى «السوق والدفع نحو الشيء».

فإنَّ الذى يتبادر إلى الذهن هو أن تقلب الليل والنهار والشهر والسنة رغم تقريبا الإنسان من وصول أجله وانقطاع حياته، غير أنها تشكل عوامل غفلته بفعل اختلاطها بزخارف الدنيا وزبرجها. فالواقع هو أن هذه العبارة التى تصدرت الكلام رغم قصرها قد أشارت إلى القيامة الكبرى إلى جانب إشارتها إلى القيامة الصغرى؛ الأمر الذى يعدّ المستمع للاصغاء إلى المرحلة اللاحقة.

فأورد عليه السلام هذه الجملة المقتضبة العميقة المعنى: «تخففوا تلحقوا» عادة إذا ما انطلقت قافلة من الناس إلى مكان وواجهت هذه القافلة بعض المنعطفات التى لا يمكن اجتيازها بسهولة فإنَّ أولئك الأفراد المثقلين بالأحمال غالباً ما يتخلفون عن القافلة التى لا يسعها الوقوف من أجل فرد أو بضعة أفراد فلا يكون أمامها سوى تجاوز ذلك الفرد ومواصلة السير والحركة. أمّا ذلك الفرد الذى تخلف عن القافلة فإنه سيكون لقمة سائغة لقطاع الطرق واللصوص وذئاب الصحراء، بينما يشقّ المخفون طريقهم بسرعة تجعلهم يصلون إلى هدفهم أسرع من الجميع.

وهذا هو حال بنى آدم فى هذه الدنيا، فهم مسافرون وقد شدّوا الرحال إلى الحياة الأبدية التى تعقب الموت. فمن ثقل حملة من متاع الدنيا وحطامها كان لقمة سائغة للشيطان، أما أهل الورع والزهد والتقوى فإنهم سيحثون الخطى سريعاً لينالوا سعادة الآخرة والفوز بالخلود.

وقد أكد الإمام عليه السلام هذا المعنى - فى الخطبة ٢٠٤ - حين نادى أصحابه: «تجهّزوا - رحمكم الله - فقد نودى فيكم بالرحيل وأقلّوا العرجة على الدنيا ... فإنَّ أمامكم عقبه كؤوداً ومنازل مخوفة مهولة».

وقد شبه بعض شراح النهج الإنسان بالمسافر الذى يجوب البحر وهو يواجه أمواجه العاتية حيث سيكون الغرق مصيره الحتمى إذا لم يخف مؤونة سفينته.

وقد شبهوا قلب الإنسان بهذه السفينة، التى ستواجه الغرق لا محالة إذا ما أثقل ذلك القلب بحبّ الدنيا والانغماس فى الشهوات. [٣]

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٨

وأخيراً يختتم الإمام على عليه السلام خطبته بقوله: «فانما ينتظر بأولكم آخركم». وتدل هذه العبارة بوضوح على أن عالم البشرية بحكم القافلة الواحدة التى تشتمل على المقدمة - التى سبقت بالحركة - والوسط والمؤخرة؛ وهى تواصل مسيرتها لتلتحق مؤخرتها بمقدمتها، وعبارة أخرى فإنَّ قانون الموت لا يعرف الحصر والاستثناء وهو المحطة التى سيتوقف عندها الجميع. وبناءً على ما تقدّم فإنَّ عاقبة الأولين نذير مبين للآخرين.

عاقبة المثقلين!

إنَّ أهم عامل يقف وراء خسران طائفة من الناس والذى تضمنته كلمات الإمام عليه السلام فى خطبته إنَّما يكمن فى إثقال كاهلها بالتكالب على متاع الدنيا الزائد عن حاجتها فى حياتها الدنيوية المتواضعة.

ولكى أن تفرض أن فرداً ينطلق للسفر ليوم واحد وقد حمل مقداراً من الخبز والماء والفاكهة لما يكفيه لذلك اليوم، بينما حمل الآخر عدة حقائب وقد ملأها بمختلف الأطعمة والأشربة والفاكهة وانطلق إلى سفره. فمن البداهة أن ينطلق الأول بكل هدوء وخفة وخطى واثقة وحثيئة دون أن يشعر بالكلل والتعب، فى حين سينقطع نفس الثانى ولا يسعه مواصلة السير والحركة. وهذا هو المصير الذى ينتظر أولئك الأفراد الذين جعلوا همهم فى الدنيا ومتاعها الزائل وجعلوا يفكّرون ليل نهار فى كيفية حفظ هذه الأموال، حتى أنستهم ذكر الله، ولم يكتفوا بذلك ففقدوا حتى السكينة والطمأنينة فى حياتهم الدنيا.

هذا وقد تطرق بعض شراح نهج البلاغة إلى قصة الصحابى الجليل سلمان الفارسى رضى الله عنه كشاهد حى ونموذج لقول الإمام على عليه السلام «تخففوا تلحقوا» وذلك حين نصب والياً على منطقة المدائن فركب دابته وانطلق بمفرده إليها.

فاتصل بالمدائن خبر قدومه، فاستقبله أصناف الناس على طبقاتهم، فلما رأوه قالوا: أيها الشيخ أين خلّفت أميرنا؟ قال: ومن أميركم؟

قالوا: الأمير سلمان الفارسي صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال: لا أعرف الأمير، وأنا سلمان.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٩

فترجلوا له وقادوا اليه المراكب والجنائب. فقال: إن حمارى هذا خير لى وأوفق. فلما دخل البلد أرادوا أن ينزلوه دارالامارة قال: ولست بأمير. فنزل على حانوت فى السوق وقال إدعوا إلى صاحب الحانوت فاستأجر منه. وكان معه وطاء يجلس عليه ومطهرة يتطهر بها للصلاة وعكازة يعتمد عليها فى المشى. فأتفق أن سيلا وقع فى البلد فارتفع صياح الناس بالويل والعيول يقولون: وا أهلاه وا ولداه و وا ماله، فقام سلمان ووضع وطائه فى عاتقه وأخذ مطهرته وعكازته بيده وإرتفع على صعيد وقال: هكذا ينجو المخففون يوم القيامة. [٤] والطريف فى الأمر ما ذكره السيد الرضى رضى الله عنه من أن هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله بكل كلام لمال به راجحاً. ولاسيما قوله عليه السلام: تخففوا تلحقوا.

فما أبعد غورها وأعظمها من حكمه وموعظة رغم قصرها؛ الأمر الذى دفع بالسيد الرضى رضى الله عنه إلى الإسهاب فى الخوض فى تفاصيلها فى كتابه «الخصائص».

ج ج

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١١

الخطبة الثانية والعشرون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام [٥]
حين بلغه خبر الناكثين بيعته.
وفيهما يذم عملهم ويلزمهم دم عثمان ويتهددهم بالحرب.

القسم الأول: أضواء على الخطبة

إشارة

«الآ- وإن الشيطان قد ذم حربه واستجلب جلبه ليعود الجور إلى أوطانه ويرجع الباطل إلى نصابه، والله! ما أنكروا على منكر، ولا جعلوا بينى وبينهم نصفاً».

ج ج

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٢

وردت هذه الخطبة- كما يفهم من عنوانها- بشأن طلحة والزبير بعد نقضهما البيعة وما تلاها من أحداث مريرة تمثلت إحداها بمعركة الجمل، كما تشير إلى قضية المطالبة بدم عثمان التى تمسك بها أصحاب الجمل التى استغلت فيما بعد من قبل أهل الشام. وأخيراً تتضمن مذمتهم وتقريعهم من جانب الإمام عليه السلام والرد الحاسم على تهديداتهم وتخريصاتهم. وتبدو مضامين هذه الخطبة أكثر شبيهاً بخطبه ١٠، ٢٦ و ١٧٢؛ الأمر الذى جعل من المحتمل أن تكون كل خطبة من هذه الخطب جزءاً من خطبة واحدة وقد قام السيد الرضى رضى الله عنه بتجزأتها على ضوء ما يناسب المقام.

الطريف فى الأمر أن بعض الروايات صرحت بأن عمرو بن العاص قال يوماً لعائشة:

«لوددت أنك قتلت يوم الجمل!». فردت عائشة متعجبة: «ولم؟ لا أباً لك!». فأجابها بن العاص: «كنت تموتين بأجلك وتدخلين الجنة ونجعلك أكبر التشيع على علي» [٦].

يرى بعض شراح نهج البلاغة أن هذه من الخطب المتعلقة بمعركة صفين، وقد عنت عباراتها معاوية [٧]، إلا أن الذي يستفاد من عنوان الخطبة الذي اعتمده السيد الرضى رضى الله عنه وكلام ابن أبي الحديد [٨] وسائر الشراح أن هذه الخطبة إنما تتناول ناكثي البيعة من أصحاب الجمل، وإن كانت مضامينها تتناسب وحال الطائفتين؛ الجمل وصفين.

الشرح والتفسير

وقعة الجمل

أشرنا سابقاً إلى أن الخطبة وردت بخصوص أولئك الذين أججوا نيران فتنة الجمل؛ أى طلحة والزبير ورهطهما. فقد كان كل من طلحة والزبير يطمع فى الحكومة ولما صرفها الإمام عليه السلام عنهما ولم يكن مستعداً لتقليدهما أية مسؤولية فى حكومته، ثارت ثائرتهم وقادهما

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٣

هوى أنفسهما لنقض البيعة، وأخذوا بجيشان الجيوش بما فيها عائشة - زوج النبي صلى الله عليه وآله - ويها لقتال على عليه السلام بذريعة الطلب بدم عثمان [٩]، وقد إختاروا البصرة - التى كانت ممهدة آنذاك لمثل هذه الفتنة - مركزاً لمؤامراتهم الدنيئة على الإمام عليه السلام.

فالإمام عليه السلام يتطرق فى بداية الخطبة إلى هذه المؤامرة فقال: «ألا وإن الشيطان قد ذمر [١٠] حزبه واستجلب جلبه [١١] ليعود الجور إلى أوطانه ويرجع الباطل إلى نصابه».

فهو يشير عليه السلام إلى الانحرافات والاضطرابات التى أعقبت قتل عثمان ومبايعة الأمة لعلى عليه السلام بالخلافة. والمراد بحزب الشيطان - فى الخطبة - أولئك الذين تسلطوا على بيت مال المسلمين أبان حكومة عثمان وتولوا بعض المناصب الخطيرة، كما كانوا يتطلعون للسيطرة على الخلافة، فالإمام عليه السلام يحذر الأمة من هؤلاء الشياطين الذين يتربصون بها الدوائر وإنهم يحيكون المؤامرات من أجل الاستحواذ ثانية على بيت المال وممارسة الظلم والجور بحق المسلمين والحيلولة دون قيام الإمام عليه السلام بوظيفته فى إصلاح المجتمع الإسلامى وإجتثاث جذور الفساد والانحراف التى برزت واستفحلت فى خلافة عثمان.

وأخيراً يصرح الإمام عليه السلام بعدم وجود أى دليل أو منطق يسوغ لهؤلاء الوقوف بوجه الإمام وقتاله «والله ما أنكروا على منكر ولا جعلوا بينى وبينهم نصفاً».

فهو يشير عليه السلام إلى طلحة والزبير والطائفة التى نكثت البيعة، كما يتطرق عليه السلام إلى حججهم الواهية المتمثلة بقتل عثمان. ثم يورد عليه السلام أقسى العبارات بحقهما.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٤

نعم لقد تنكرت كافة المصادر الإسلامية والكتب التاريخية لنسب قتل عثمان إلى الإمام على عليه السلام، بينما تصرح بأن الإمام سعى أكثر من غيره لإخماد نار الفتنة، فهو القائل عليه السلام «والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً» فلم يتبع الناكثون فى هذه الأحكام المتسرعة، العدل والانصاف بقدر ما تشبثوا بالكذب والتهمة والظنة. ولا يبدو من الغرابة اللجوء إلى مثل هذه الأساليب بالنسبة لأولئك الذين يسعون إلى ضمان مصالحهم وتحقيق أهدافهم. وما أكثر ما نشاهده فى عصرنا الراهن من الساسة الظلمة الذين لا يتحفظون عن أشنع الأساليب الدنيئة من أجل ضمان مصالحهم اللامشروعة.

حزب الله وحزب الشيطان

لقد تضمنت خطبة الإمام عليه السلام إشارة لطيفة إلى ما أورده القرآن الكريم في آخر سورة المجادلة، حيث صنفت الآية القرآنية المباركة الناس إلى حزينين هما: «حزب الله» و«حزب الشيطان»، كما أشارت إلى الميزة الرئيسية التي يتصف بها حزب الله وهي صفة الحب في الله والبغض في الله «الـ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [١٢].

وفي مقابل ذلك هناك حزب يهم بحفظ مصالحه ويعتمد أسلوب النفاق والخداع ولا يتورع عن موالاة أعداء الله وإظهار المودة لهم إلى جانب بث بذور الظلم والفساد بين صفوف العباد، فيصفهم القرآن قائلاً: «إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [١٣].

والحزبان المذكوران لا يختصان بزمان نزول القرآن وعصر صدر الإسلام، بل تتعدد صورهما وأشكالهما في كافة العصور والدهور. ولو ألقينا نظرة عابرة على عالما المعاصر

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٥

لشاهدنا بوضوح هذين التيارين وقد كمن أحدهما مقابل الآخر، فعادة ما يستند حزب الشيطان إلى منطلق القوة الغاشم والغطرسة والأموال والثروة والتآمر وممارسة الظلم والجور وبث بذور النفاق والفرقة وإشاعة الفساد والانحراف، بينما يستند حزب الله إلى القيم والمثل والمبادئ الحققة ولا يتوانى في التصدي لزعماء الحزب المذكور. يترصد حزب الشيطان عادة لاستغلال الفرص المناسبة ومنها الثورات والانقلابات التي تطيح بحكومة وتأتي باخرى.

وأفضل شاهد على ذلك ما شهدته حكومة الإمام على عليه السلام أوائل تشكيلها. فقد اتفقت كلمة ما تبقى من فلول الجاهلية الذين برزوا للوجود في خلافة عثمان على مواجهته ريبب الإسلام وتلميذ النبي صلى الله عليه وآله الإمام على عليه السلام، فأشعلوا نيران الفتن التي كان من المقدر للإمام إخمادها والتغلب عليها، فعاثوا في الأرض فساداً بما لم يدع للإمام من سبيل سوى الوقوف بوجههم ومقاتلتهم.

فالإمام عليه السلام يحذر الأمة ومنذ اليوم الأول لحكومته من مكايد حزب الشيطان وعدم الانخداع بأساليبه والأعيه القذرة. وأخيراً يفهم من عباراته عليه السلام أن للظلم والجور وطن وأنه يستند إلى أسس ودعائم! نعم وطن الجور والظلم هو الموضع الذي يتجحف فيه عسكر الشيطان، كما أن المبادئ التي ينتهجها حزب الشيطان لهي الأسس والدعائم التي يركز عليها الظلم والجور.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٧

القسم الثاني

إشارة

«وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكُوهُ وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ! فَلَيْتَ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَبِأَن لَّهُمْ لَنَصِيْبُهُمْ مِنْهُ وَلَيْتَ كَانُوا وَلَوْهُ دُونِي فَمَا التَّبِعَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ يَرْتَضِعُونَ أَمَّا قَدْ فَطَمْتُ وَيُحْيُونَ بِدَعَايَ قَدْ أُمِيتَتْ. يَا حَيِّبَةَ الدَّاعِي! مَنْ دَعَا! وَإِلَامٌ أُجِيبَ! وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَعِلْمِهِ فِيهِمْ».

الشرح والتفسير

المعدّرون المفتضون!

يشرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة ما أورده في بدايتها، ثم يعرض الأدلة القاطعة التي تدين ناكثي البيعة ومؤججي نار الحرب ويفضحهم أمام المسلمين. فقد أشار عليه السلام إلى الذريعة الأصلية التي تمسك بها طلحة والزبير وأعوانهما؛ أي المطالبة بدم عثمان، فقال عليه السلام:

«وإنهم ليطلبون حقاً هم تركوه ودماً هم سفكوه»- روى المؤرخ المعروف الطبري في تاريخه عن أحد أصحاب عثمان أن علياً عليه السلام كان في ماله بخير لما حصر عثمان، فقدم المدينة والناس مجتمعون على طلحة، وكان لطلحة في حصار عثمان أثر، فلما قدم على عليه السلام أتاه عثمان، وقال له: أما بعد؛ فإن لي حق الإسلام وحق الأخا والقراة والصهر، ولو لم يكن من ذلك شيء وكنا في جاهلية، لكان عاراً على بني عبد مناف أن يبتز بنو تيم أمرهم- يعنى طلحة- فقال له على عليه السلام: أنا اكفيك، فاذهب أنت. ثم خرج إلى المسجد فرأى اسامة بن زيد، فتوكل على يده حتى دخل دار طلحة وهي مملوءة من الناس، فقال له: يا طلحة، ما هذا الأمر الذي صنعت

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٨

بعثمان؟ فقال: يا أبا الحسن، أبعث أن مس الخرام الطيبين! فانصرف على عليه السلام حتى أتى بيت المال، فقال: افتحوه، فلم يجدوا المفاتيح، فكسر الباب، وفرق ما فيه على الناس؛ فانصرف الناس من عند طلحة حتى بقي وحده، وسر عثمان بذلك؛ وجاء طلحة فدخل على عثمان، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إني أردت أمراً فحال الله بيني وبينه، وقد جئتك تائباً- فقال: والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً؛ الله حسيبك يا طلحة. [١٤] ثم ذكر الطبري في موضع آخر من تأريخه أن عثمان حين قتل، خرج من عنده «سودان بن حمران» وهو يقول «أين طلحة؟ فقد قتلنا عثمان» [١٥].

فالذي يستفاد من هذه الشواهد وسائر القرائن التاريخية أن طلحة كان من المخططين الرئيسيين لقتل عثمان. أما جملة عائشة بشأن عثمان فهي معروفة مشهورة للجميع فقد كانت تنادي صراحة «اقتلوا نعثلاً! قتل الله نعثلاً» وكانت تقصد بنعث عثمان.

ابن أبي الحديد يصرح في شرحه لاحدى خطب نهج البلاغة بشأن موقعة الجمل فيقول:

يعترف جميع المؤرخين المسلمين بأن عائشة كانت من أعدى أعداء عثمان وهي التي أخرجت قميص رسول الله صلى الله عليه وآله وكانت تقول «هذا قميصه لم يبيل وقد أبلى عثمان سنته»، وقيل أن أول من دعا عثمان نعثلاً عائشة، وكانت تقول: «اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً» [١٦]. فالعجيب ورغم ذلك قد خرج هؤلاء للمطالبة بدم عثمان! ويبدو أن هذه المسائل ليست عجيبة في عالم السياسة (السياسة التي تفتقر إلى الإيمان والتقوى والورع) في أن يتآمر بعض الأفراد ثم يهون للوقوف بوجه هذه المؤامرات من باب الدفاع! ثم قال الإمام عليه السلام: «فلئن كنت شريكهم فيه فان لهم لنصيبهم منه ولئن كانوا ولوه دوني فما التبعة إلا عندهم».

فالمراد أن الجميع يعلم بأن هؤلاء شركاء في قتل عثمان، ولو افترض بأنى شريك أيضاً في هذا الدم (والحال أنى لست غير شريك فحسب، بل بذلت قصارى جهدى لاطفاء نيران هذه الفتنة) فإن التهمة ثابتة بحقهم، فان كانوا هم النواة الأصلية في هذا العمل فان عليهم أن يتحملوا مسؤولية عملهم! وإذا كان الأمر كذلك فما أوقعهم في قيامهم ومطالبتهم إياى بدم عثمان.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٩

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «وإن أعظم حجتهم لعلى أنفسهم». حيث يميظ اللثام عن الدافع الرئيسى وهو أن هؤلاء كانوا يرغبون باستمرار الأوضاع التي كانت سائدة على عهد عثمان، فتجعل لهم بعض الامتيازات في بيت المال، غير أن ذلك العهد ولى واندرس وليس هنالك من سبيل إلى عودته إلى مسرح الأحداث ثانية: «يرتضعون اما قد فطمت ويحيون بدعة قد اميتت».

كما وردت عدة تفاسير لقوله عليه السلام: «اما قد فطمت» منها أن يكون المراد تلك السنن الجاهلية والبدع والعصبية التي كانت

سائدة قبل الإسلام، حيث يتشبهون بكل الوسائل الأخلاقية من أجل الحكومة، فأمر المؤمنين يصف ذلك العهد بالام التي فطمت فلم تعد هنالك من وسيلة لتحقيق المطامع» [١٧].

ويبدو أن هذا التفسير يناسب العبارة الثانية «ويحيون بدعة قد اميتت» لا العبارة الاولى، كما أن جمع العبارتين بمعنى واحد يخالف ظاهر اللفظ. في حين ذهب البعض إلى أن المراد أنهم بمطالبتهم بدم عثمان إنما يريدون احياء أيام حكومته، رغم أن هؤلاء المطالبون بدمه هم من بين الأفراد الذين ثاروا عليه وسبوا قتله ومن هنا أرادوا أن يرتضوا أما قد فطمت.

وبالطبع فانه يمكن الجمع بين كل هذه المعاني، وإن بدأ المعنى الأول أنسب. فالنتيجة التي ستمنخض عنها حركة هؤلاء الافراء سوف لن تكون سوى الفشل الذريع؛ الأمر الذي عبر عنه الإمام عليه السلام بالقول «يا خيبة الداعي! وإلام أجيب» [١٨]. والواقع انهذه العبارة تكهن بالنتيجة التي ستؤول اليها معركة الجمل. فالإمام عليه السلام يعلن أن عاقبتهم ستكون الفشل والهزيمة؛ عاقبة الغدرة الذين خططوا لقتل عثمان ثم انبروا للمطالبة بدمه ففرقوا صفوف المسلمين فضلوا طائفة من الناس وخسروا الدنيا والآخرة. ثم قال الإمام عليه السلام: «وإني لراض بحجة الله عليهم وعلمه فيهم» ولعل مراده بحجة الله، ما ورد في الآية القرآنية بشأن البغاة «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٠

حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» [١٩]. أما قوله عليه السلام: «علمه فيهم» فقد تكون إشارة للحديث المشهور عن النبي صلى الله عليه وآله بشأن على عليه السلام «قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين». فلما سألت أم سلمة رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الفرق الثلاث قال: الناكثين أهل الجمل، والقاسطين أهل الشام والمارقين أصحاب النهروان» [٢٠].

ولما كان الإمام عليه السلام راضى برضا الله وعالم بما ستؤول إليه الأحداث من يأس العدو وهزيمته فان روحه مفعمة بالرضى والهدوء والسكينة.

ج ج

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢١

القسم الثالث: تهديد على عليه السلام

إشارة

«فَإِنْ أَيْوَأَ أَعْطَيْتُهُمْ حَيْدَ السَّيْفِ وَكَفَى بِهِ شَافِيًا مِنَ الْبَاطِلِ وَنَاصِرًا لِلْحَقِّ! وَمِنَ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرَزَ لِلطَّلْعَانِ! وَأَنْ أَضْيِرَ لِلْجَلَادِ هَبْلَتُهُمْ الْهَبُولُ! لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أَهْدُدُّ بِالْحَزْبِ وَلَا أَرْهَبُ بِالضَّرْبِ! وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي».

الشرح والتفسير

لقد تقدم الإمام عليه السلام بتحذير تلك العناصر من مغبة مواصلة الغواية وضرورة الوقوف على جسامه الأخطاء وهجر سبيل الشيطان والوفاء ببيعتهم للإمام عليه السلام والكف عن إثارة الفتن وتأجيج نار الحرب. وهنا- في القسم الأخير من الخطبة- يحذرهم من أن عدم الارعواء ومنح الأذان الصاغية للنصح سوف يضطره للتكلم معهم بلغة السيف، السيف الذي كفى به شافياً في الرد على عبدة الأهواء والشهوات من أصحاب المنطق الغاشم.

فقد قال عليه السلام: «فان أبوا أعطيتهم حد السيف» العلاج الأفضل للباطل «وكفى به شافياً من الباطل وناصراً للحق». فما يقال أن رسول الله صلى الله عليه وآله حمل القرآن الكريم بيد والسيف بأخرى إنما يكشف عن حقيقة واقعية مسلمة في الحكومات الإلهية. فالجهود التي بذلها الأنبياء من أجل إصلاح المجتمعات واجتثاث جذور الفساد والانحراف إنما تركزت بالأساليب المنطقية والعقلية

واسداء النصائح والمواعظ بغية إلفات إنتباه الخاطئين إلى أخطائهم، ولكن من المسلم به أن هناك طائفة قد جعلت عقلها وضميرها آلة طيبة بيد أهوائها وشهواتها، فهي لا تعرف سوى لغة السيف والقوة؛ الأمر الذي يضطر زعماء الأمة

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٢

الربانيين إلى شهر السيف بوجه هذه الطائفة الطائشة والاطاحة برؤوسها العفنة، وهذا هو آخر الدواء حيال تلك الأمراض المستعصية إذا ما عجزت غيره من الأدوية عن شفاء تلك الأمراض «إن آخر الدواء الكلي» [٢١] والواقع هو أن قوله عليه السلام: «شافياً من الباطل» وقوله:

«ناصراً للحق» من قبيل اللازم والمزوم؛ وذلك لأن علاج الباطل يؤدي إلى نصره الحق ونصره الحق تؤدي إلى اضمحلال الباطل. ثم يعرب الإمام عليه السلام عن فائق دهشته إلى أن هؤلاء قد أعلنوا عليه الحرب ودعوه إلى الطعان والصمود أمام سيوفهم وهو الذي تشهد له ساحات الوغى وميادين القتال في المواقع التي تنكص فيها الأبطال «ومن العجب بعنهم إلى أن أبرز للطعان [٢٢] وأن أصبر للجلاد» [٢٣].

فالعبرة تكشف بجلاء أن ناكثي البيعة هم الذين بادروا إلى نشوب المعركة، حيث هدوا الإمام عليه السلام بكل وقاحة بإعداد نفسه لمواجهة سيوفهم وحرابهم، وهذا ما نوه إليه ابن أبي الحديد عن المؤرخ المعروف أبو مخنف قوله: رجع رسل على عليه السلام من عند طلحة والزبير وعائشة يؤذنونه بالحرب. [٢٤]

على كل حال فإن هذا التهديد يكشف عن مدى تعامى مؤججي فتنه الجمل عن رؤية الحقائق والوقائع، وقد أعمى حب المناصب والمقامات بصيرتهم وبصائرهم حتى لم يعودوا يروا الحقيقة المطلقة التي تهتف بانديتهم ليل نهار، ألا وهي شجاعة وبساله على عليه السلام التي رأوها مراراً وكراراً في الغزوات الإسلامية على عهد النبي صلى الله عليه وآله. ثم عاود الإمام عليه السلام مواصلة حديثه في الاستغراب من ذلك التهديد الفارغ ليقدم الدليل القاطع على رفضه لما أوردوه فقال عليه السلام:

«هبلتهم الهول! لقد كنت وما أهدد بالحرب ولا أُرهب بالضرب! وإنى لعلى يقين من ربي وغير شبهة من ديني»، قوله عليه السلام «هبلتهم الهول» [٢٥]- بالاستناد إلى مفهوم الهبل بمعنى الثكل

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٣

بالولد- يريد به أنكم لا- تستحقون الحياة والبقاء وليس لكم سوى الموت، ثكلتكم أمهاتكم على هذه الأخطاء الشنيعة والانحراف الفكري الذي أوصلكم إلى هذه الحالة. وقد ورد شبيه هذه العبارة الذي يعطى ذات المعنى وهو قولهم «ثكلتهم الثواكل» والتي استعملها الإمام عليه السلام لهذا الغرض في سائر خطبه من نهج البلاغة.

على العموم فإن الإمام عليه السلام قد أشار في هذه العبارات إلى سابقته العريقة وتاريخه المشرق ليشير كناية، إنما يعرفني حتى مشركي العرب ولم يجرأ أحد على تهديدي بالحرب والمبارزة طيلة حياتي، وقد عثتم معي وزعمتم أنكم من المسلمين. المسألة الاخرى التي أشار إليها الإمام عليه السلام هي أن من يخشى الحرب يخشى القتل والشهادة، ومن يخشى القتل والشهادة فليس له من إيمان ويقين بالله سبحانه وأن طريقه مليء بالشكوك والشبهات؛ لأن من آمن وأيقن بسلامة طريقه ووثق بما عند الله فإنه يعلم أن قتال أعداء الحق وخصوم الدعوة لا يكتفه أي فشل أو هزيمة ولن ينطوي سوى على إحدى نتيجتين إما النصر وإما الشهادة؛ الأمر الذي صرحت به الآية الشريفة ٥٢ من سورة التوبة: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ» وأما قوله عليه السلام: «فاني لعلى يقين من ربي، وغير شبهة من ديني» فقد اعتبره بعض شراح نهج البلاغة أنه يعطى مفهوماً واحداً ويؤكد بعضه البعض، إلا أن الصحيح هو أن العبارتين من قبيل بيان العام بعد الخاص، وهي تشتمل على مفهومين. فالعبارة الاولى تشير إلى مقام اليقين لدى الإمام عليه السلام والذي ورد التعبير به عن الإمام عليه السلام قائلاً: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» [٢٦].

والعبارة الثانية تشير إلى الوظائف الدينية التي كشفت له عن كافة معالم الطريق دون الشعور بأدنى شك أو ريب، ولا سيما أنه سمع

رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قال له: «يا على ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين» (أصحاب الجمل وصفين والنهروان).

الرجال الأشداء

هنالك عدد من الأفراد أو الفئات التي تطالعا في سوح الوعى طيلة الصراع المرير بين

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٤

الحق والباطل وهم يتمتعون بالتفوق الكبير على خصومهم. على سبيل المثال فقد انتصر جند الإسلام على الجيوش الساسانية الجرارة- التي كانت تفوقهم بعشرة أضعاف من حيث العدد والعدة ومن حيث التجهيزات والوسائل الحربية التي لا يمكن مقارنتها بنظيرها لدى المسلمين- بل تميزت العسكرية الإسلامية من حيث التعبئة والقتال على قيام مجموعات المستضعفين الحافة العزل من السلاح إلّا من نور الإسلام والإيمان والمفاهيم القرآنية والتعاليم الإسلامية باقتحام الميدان وتحطيم اسطورة توازن القوى، لتحقيق الانتصارات تلو الانتصارات على أكبر الجيوش وأقواها. ولا غرو فانما ينبع ذلك من «قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ» فقد كانوا يرون أنفسهم منتصرين مهما كانت نتيجة الحرب، سواء انتهت المعركة بهزيمة الأعداء أو نيل الشهادة، فكلا النتيجتان سعادة كبرى.

وقد لمسنا هذا المعنى بوضوح في الحرب المفروضة التي شنّها النظام الصدامي ضد الجمهورية الإسلامية الفتية، حيث وقفت كافة قوى العالم من الشرق والغرب خلفه لتقدم له كافة ألوان الدعم والاسناد، غير أنّ شبابنا المؤمن من قوات التعبئة والحرس الثوري والجيوش الذين تربوا في أحضان القرآن ومدرسة أهل البيت عليهم السلام قد أركعوا هذا العدو الشرس وجرعوه مرارة الهزيمة. نعم هذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في هذه الخطبة ليعلن للأعداء من عبدة الأهواء، لست أنا الذي يهدد بالحرب! لست أخشى الضرب في سبيل الله، فقلبي قد غمر بنور الإيمان واليقين، بل أنا ربيب الإسلام والمدرسة النبوية التي ترى النصر حليفها بغض النظر عن النتيجة، وما عساها تكون سوى هزيمة العدو أو الفوز بالشهادة. وهذه هي الروح التي ينبغي أن يستشعرها المسلمون تجاه أعدائهم ولا يولون أدنى أهمية لهذا التفوق المادي الكاذب الذي قد يكون مؤثراً إلّا أنّه لن يحسم المعركة لصالح الباطل أبداً.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٥

الخطبة [٢٧] الثالثة والعشرون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
وتشتمل على تهذيب الفقراء بالزهد وتأديب الأغنياء بالشفقة

القسم الأول

إشارة

«أَمَّا بَعِيدٌ: فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ كَقَطْرَاتِ الْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قَسِمَ لَهَا، مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلِ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ فَلَا تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً! فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيُخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ وَيُغْرَى بِهَا لِئَامِ النَّاسِ كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزِهِ مِنْ قِدَاحِهِ تُوَجِّبُ لَهُ الْمَغْنَمَ، وَيُزَفِّعُ بِهَا عَنْهُ الْمَغْرَمَ. وَكَذَلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيُّ مِنَ الْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللَّهِ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ:

إِمَّا دَاعَى اللّٰهَ فَمَا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ لَّهِ، وَإِمَّا رَزَقَ اللّٰهَ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَ مَالٍ، وَمَعَ دِينُهُ وَحَسْبُهُ، وَإِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللّٰهُ تَعَالَى لِأَقْوَامٍ.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٦

نظرة إلى الخطبة

استهل الإمام عليه السلام خطبته بتقسيم رزق الإنسان وما قسم له على ضوء التقدير والتدبير الإلهي، ثم أوصى عليه السلام بأن من رأى لأخيه نعمة فلا ينبغي أن يكن له البغض أو الحسد (كما لا ينبغي أن يغتر إن جنى ثروة فيضحى بدينه وإيمانه من أجلها) آنذاك دعا عليه السلام الناس إلى الإخلاص والورع والتقوى وصفاء النية وصلاح العمل بعيداً عن الرياء والعجب والفخر. أمّا في القسم الأخير من الخطبة فقد أشار عليه السلام إلى بعض المسائل الاجتماعية الحساسة من قبيل تقوية أواصر القرابة وضرورة التعاضد والتعاون بين أفراد القبيلة والامة الإسلامية الواحدة بغية التغلب على المصاعب والمشاكل، مؤكداً على عدم فقدان الانتماء إلى العشيرة من خلال اعتماد البخل والإمساك؛ فإنّ ضرر هذا فقدان عليه سيكون أعظم وأشدّ ممّا هو عليه بالنسبة للعشيرة، فانه إنّما يمسك يده بينما بالمقابل تمسك عنه أيدي كثيرة.

الشرح والتفسير

الرضا والتسليم أمام إرادة الله

أشار الإمام عليه السلام- في هذه الخطبة- إلى مسألة مهمّة ذات أثر عظيم في تهذيب النفوس والحد من جموح الفرد والمجتمع. وهي ممّا لا شك فيه أنّ الحياة الاجتماعية البشرية تعد الأساس لبركات وثمرات عظيمة، بحيث يمكن أن نقول إنّ القسم الأعظم من النجاحات والمكتسبات الباهرة في كافة المجالات والميادين العلمية والصناعية والاجتماعية إنّما حققتها البشرية في ظل هذه الحياة الاجتماعية. وإلى جانب تلك الثمار والمعطيات والبركات كانت هنالك المشاكل الخطيرة التي تهدد بالفناء جميع الآثار الايجابية لهذه الحركة مالم تجد الحلول الشافية.

ومن ذلك، وجود الفوارق بين بنى البشر من حيث الاستعداد والقابليات الجسمية والروحية على المستوى الفردي والاجتماعي؛ الأمر الذي أدّى إلى التفاوت الفاحش في الإمكانيات المادية والمالية. ومن هنا بدت ردود الفعل السلبية للأفراد الذين تخلفوا عن هذه المسيرة، أو سعوا بتخبط للخلط بين الحلال والحرام ليزجوا بأنفسهم في هذا السباق غير المتكافئ والمجهول النهاية في مصاف من تقدّم عليهم من حيث الجوانب المادية ولم يكن أمامهم

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٧

سوى سبيلين، إمّا الشعور بالإحباط واليأس والانسحاب من ميدان العمل والنشاط والتفوق على الذات، أو اشتعال نيران الحسد والبغض في قلوبهم تجاه اولئك والهم بالانتقام منهم. من جانب آخر فإنّ البعض الذي يتمتع بالإمكانيات قد يصاب بالغرور والكبر والعجب والفخر فيندفع نحو الطغيان والفساد والانحراف.

الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بدورها ودرءاً لهذه المفاسد والحيلولة دون ظهورها قد لفتت أنظار الجميع إلى حقيقة مفادها أنّ هذه الفوارق والزيادة والنقصان ليست مسألة عبثية بقدر ما هي واقع يستند إلى الحكمة الإلهية التي تنظم شؤون العباد على أساس ما يصلحهم ويقوم حياتهم. ولعل الأسرار التي يخترنها هذا التصنيف خافية علينا نحن العباد في أغلب الامور، إلّا أنّ مجرد علمنا بأنّ الله حكيم ورحمن ورحيم هو الذي ينظم الامور وتتشعر قلوبنا الرضى والتسليم لهذا التنظيم والتخطيط؛ فإنّ القضية ستتغير وتخرج من

شكلها الظاهري، آنذاك ستسود السكينة والطمأنينة قلوبنا وأرواحنا وستزول كافة تلك العواقب السلبية التي بدت لنا لأول وهلة. ومن هنا تواتر التأكيد على الرضى والتسليم ولاسيما بالنسبة للرزق في الآيات والروايات.

نعود الآن بعد هذه المقدمة المختصرة إلى تفسير الخطبة، فقد تطرق الإمام عليه السلام في بداية خطبته عن تهذيب النفوس ووضع حد للمفاسد الاجتماعية، فقد قال عليه السلام: «أما بعد: فان الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما قسم لها، من زيادة أو نقصان» فالتشبيه بقطرات المطر تشبيه غاية في الروعة؛ لأن قطرات المطر تنزل بصورة مختلفة على الأرض وفقاً للإرادة الإلهية والحكمة الربانية، والأرزاق الإلهية تسقط على هذه الشاكلة من السماء إلى البشرية على الأرض بفضل الله ورحمته. فقد ينزل المطر بغزارة على بعض المناطق حتى تسيل أنهاراً عظيمة بينما قد تشهد مناطق أخرى زخات خفيفة من المطر طيلة السنة. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة التي ينبغي أن يستحضرها الناس: «فاذا رأى أحدكم لأخيه غفيرة [٢٨] في أهل أو مال أو نفس، فلا تكونن له فتنه».

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٨

لعل غفيرة تشير إلى أن الأموال والثروات لمن دوافع الغفلة وستر عيوب الإنسان حتى عن نفسه، وإن وردت غفيرة هنا بمعنى المال الكثير.

ما يجدر ذكره أن الفتنة هنا لا تعنى الامتحان، وإن وردت عادة بهذا المعنى في الأعم الأغلب، بل المراد بها ما يدعو إلى الفساد والخداع وردود الأفعال السلبية من قبيل الحسد والعداوة والبغضاء التي يمارسها الفقراء المعدومون حيال أصحاب الأموال والثراء. ثم قال عليه السلام:

«فان المرء المسلم مالم يغش دناءة تظهر فيخشع لها إذا ذكرت ويغرى بها لثام الناس، كان كالفالج [٢٩] الياسر [٣٠] الذي ينتظر أول فورة من قداحه [٣١] توجب له المغنم، ويرفع بها عنه المغرم». كما أن المسلمين البعيدين عن الخيانة إنما ينتظرون من الحق سبحانه أمرين: أما حلول الأجل الإلهي (وقد أفنى عمره بطيب السمعة وحسن العاقبة) فما عند الله خير له وأبقى.

وأما أن يوسع الله عليه رزقه في هذه الدنيا ويمن عليه بالصاحبة والأهل والولد في سلامته من دينه وصون لعزته وكرامته «وكذلك المرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر من الله إحدى الحسنيين: إما داعي الله فما عند الله خير له، وإما رزق الله فاذا هو ذو أهل ومال، ومعه دينه وحسبه». ولكن لا بد من الإذعان إلى الفارق الكبير بينهما فأحدهما من قبيل زرع الدنيا كالمال والولد، والآخر من زرع الآخرة وهو العمل الصالح «وإن المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة». وقد يجمع الله سبحانه نعم الدنيا والآخرة لبعض الأفراد «وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام».

والواقع هو أن الإمام عليه السلام قد كشف بهذه العبارات عن حقيقة مهمة ومصيرية في حياة الإنسان تكمن في ضرورة عدم تلوثه بالذنوب والمعاصي والإرجاس التي لا تجر عليهم سوى الخزي والعار والسقوط من أعين الناس والحد من شخصيته لديهم.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٩

وبناءً على ما تقدم فإن هناك أحد مصيرين رفيين بانتظار الفرد الذي يعيش النقاء والعفة في حياته، أن يقضى حياته معزلاً مكرماً ليحث السير نحو رحمة الله ومغفرته وأجره وثوابه. أو أن يفيض الله عليه من نعم الدنيا في هذه الحياة الدنيا ويجمع له خير الدارين.

القضية المهمة التي حظيت باهتمام شرّاح نهج البلاغة هي أن الإمام على عليه السلام شبّه المؤمن الذي يتمتع بالغلبة والسعادة والفوز بلطف الله ورحمته المقامر الماهر الذي يفوز بالتضارب بالقداح، وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: كيف يشبه الإمام عليه السلام المؤمنين الذين يعيشون الرضى والتسليم تجاه رزق الله وقسمه بهذا الفرد المقامر الأثيم المقارف لهذه الكبيرة من الكبائر؟

يتضح من التأمل في عبارات الإمام عليه السلام من قبيل «فوزة» و «قداح» و «مغنم» و «مغرم» أن الياسر ليس المراد به القمار، بل أراد به نوعاً خاصاً من الاقتراع كانت تمارسه العرب، حيث كانوا يأتون بعشرة سهام لكل واحد منها اسم، ويشترون جملاً فيذبحوه ويقسّموه

عشرة أقسام، ثم يجعلون السهام مع بعضها ليقوم من يثقون به باستخراجها واحداً واحداً، ثم يكون الفائز على أساس ترتيب السهام حسب أسمائها الأول والثاني إلى السابع والسهم الأول فيها يسمى «مُعَلَّى - والسهام الأخرى إذا خرجت باسم أحدهم فهو الذى يدفع قيمة الجمل، أما الفائزون فيعطون سهامهم للفقراء دون أن يأكلوا منها شيئاً، وكانوا يفتخرون بذلك العمل». [٣٢]

طبعاً لا يجوز هذا العمل شرعياً، إلماً أنه لا يشتمل على معائب وفواجع القمار. فالإمام عليه السلام أراد أن المؤمنين من أهل الرضى والتسليم يشبهون الأفراد الذين يفوزون بسهم المُعَلَّى فى ذلك الاقتراع، ووجه الشبه أنه يفوز بأكبر نصيب دون أدنى عناء. والتعبير بالقداح وأول فوزه والغنيمه والنجاه من الخسارة كلها تناسب هذا المعنى؛ وهذا ليس متعارفاً فى القمار حيث لا يترك المقامر المقامرة لمجرد غلبه فى الوهله الاولى، بل يواصل قماره حتى لا تعرف النتيجة التى سيؤول إليها. وبالطبع فإننا لا ننكر أن المفردة مفهوم واسع يشمل الاقتراع وألعاب الحظ، ولكن لا بد من الالتفات إلى أن القمار بمعناه الحقيقى يختلف تماماً عن ذلك النوع من الاقتراع، ولا سيما أن القرآن قد عبر بـ «الألزام» - الميسر وإن ورد الذم عليهما معاً «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ...» [٣٣]

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٠

الرضى والتسليم إلى جانب السعى والعمل

لعل هنالك من يقول بأن روح الرضى والتسليم لأمر الله فى الرزق وفى المنافع المادية بصورة عامه إنما تهدأ النفس البشرية وتحذ من جماحها وتحول دون الإنسان والارتقاء فى ميادين الحرص والطمع وجباية الأموال واللهم وراء الثروة والانغماس فى المحرمات كما تصدّه عن استشعار معنى الحسد والبغض، إلماً أن مثل هذا الشعور قد يقتل عند الإنسان روح السعى والمثابرة بحيث يتشبث كل فرد بذريعه من الذرائع من قبيل أن الأرزاق مقسمة وكل قد سمي الله له رزقه ونصيبه فيخلد إلى السكون والدعة والكف عن العمل، فما جدوى ذلك والأرزاق قد قسمت؛ الأمر الذى يؤدي بالتالى إلى تخلف الأمة فى المجال الاقتصادى والتطور المادى واجتثاث جذور الفقر والحرمان.

إلماً أن هذا الإشكال قد يزول إذا ما ألتفت إلى أمرين: الأول هو أن هذه التعاليم الإسلاميه والوصايا الأخلاقية إنما توخت الحد من تهافت الإنسان على الماديات وتناسيه لكل ما سواها، بعبارة اخرى فإن الإنسان يمتلك الدوافع التى تسوقه نحو الماديات والنهوض بحياته الاقتصادية، ولو لم تكن هنالك من كوابح لهذه الدوافع فإنه سينطلق بسرعة هوجاء نحو الحرص والتسابق فى جنى الأموال والثروة بحيث يحطم كافة الحدود والقيود الأخلاقية والقيم المعنوية. وبعد هذا هو المعنى الذى أشار له الإمام على بن الحسين عليهما السلام حين قال: «معاشر أصحابي! أوصيكم بالآخرة ولست أوصيكم بالدنيا! فإنكم بها مستوصون وعليها حريصون وبها متمسكون» [٣٤]. والأمر الثانى يكمن ضرورة جمع كافة الآيات والروايات الواردة بهذا الشأن من أجل التوصل إلى النتيجة النهائية بخصوص التعاليم الإسلاميه؛ لأن القضايا الإسلاميه المحوريه لا تبدو واضحة المعالم من خلال آية واحدة أو حديث واحد. ففى مجال تحصيل الرزق والقناعة به وضرورة السعى والحركة هنالك الآيات والروايات التى أشارت من جهة إلى مسألة الرضى والتسليم تجاه التقديرات الإلهية، وهنالك من جهة اخرى

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣١

الآيات والروايات التى وردت فى الحث على السعى والعمل، بحيث يفهم من مجموع الطائفتين من الآيات والروايات أن الضعف والوهن فى هذا المجال ليس صحيحاً كما أن الحركة الحريصة والممزوجة بالذنب والمعصية التى تفرزها طبيعه تجاهل التقدير الإلهي والتوكّل على الله هى الأخرى ليست صحيحة أيضاً. وبعبارة اخرى، صحيح أن الرزق قد قسم من جانب الله، غير أن ذلك مشروط بشرط السعى والجهد المقرون بالخلق والتقوى والورع.

ونختم البحث بما ورد في الحديث النبوي الشريف بشأن مقام الرضى والتسليم فى أن طائفة من المسلمين تطير من قبورها يوم القيامة إلى الجنة لتتعم بنعيمها دون أن تشهد الحساب فتسألهم الملائكة عن الحساب والجواز على الصراط، فتجيب أنها لم تر الحساب والصراط. وتسألهم عن جهنم، فجيوا بعدم رؤيتها. فيسألون من آية أتم أنتم؟ فتقول من أمه محمد صلى الله عليه وآله فتقسم عليهم الملائكة عن أعمالهم التي أدت بهم إلى هذه الكرامة، فيقولون: «كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا» فتقول لهم الملائكة: «حق لكم هذا» [٣٥].

ج ج

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٣

القسم الثانى: سبيل بلوغ مقامات الصالحين

إشارة

«فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه وأخشوه خشية ليست بتعذير! واعملوا فى غير رياء ولا سمعة فإنه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له. نسأل الله منازل الشهداء ومعايشة السعداء ومرافقة الأنبياء».

الشرح والتفسير

يواصل الإمام عليه السلام خطبته بعدد من الوصايا الأخلاقية فيقول عليه السلام: «فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه» ولعل العبارة إشارة إلى الآية الشريفة: «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم» [٣٦] أو إلى الآية: «ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير» [٣٧]. ثم حث عليه السلام على خشيته وتقواه بحيث لا تكون هناك من حاجة للتماس الأعذار الواهية «واخشوه خشية ليست بتعذير» [٣٨]، لأنه العالم بباطن كل فرد وأسراره وأعداره الصحيحة من السقيمة. جدير بالذكر أن العبارة السابقة تحدثت عن الحذر من الله، ثم أردفت بالحديث عن الخشية، وقد صرح اللغويين أن الخشية تتضمن الخوف المقرون بدرك العظمة، ومن هنا صرح القرآن الكريم «إنما يخشى الله من عباده العلماء» [٣٩]، أما الحذر فيقال حين يحتاط الإنسان من خطر قطعى أو محتمل. ثم أشار عليه السلام فى وصيته الثالثة إلى الإخلاص فى التية وتنقية الأعمال من الرياء والسمعة لأن من عمل لله

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٤

وشرك معه آخر وكله الله إلى ذلك الآخر وقال له خذ أجرك منه فأنك لم تعمل لى «واعملوا فى غير رياء ولا سمعة، فإنه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له».

نعم خشية الله وخشية مقارفة الذنوب والمعاصى لا تكفى لوحدها، بل لابد من الإتيان بالأعمال الصالحة البعيدة عن كافة أشكال الرياء والسمعة، والرياء يعنى مراة الآخرين ولفت أنظارهم لما يقوم به الإنسان من أعمال، والسمعة أن يقوم بالعمل لله، إلا أنه يسعى لإسماعه الآخرين، بحيث يجلب انتباههم إليه، وإلا يفعل ذلك يسر لسماح الآخرين فيثنون عليه ويطرونه.

والمعروف بين العلماء أن السمعة لا تبطل العمل، إلا أنها مذمومة خلقاً ومدعاة لانحطاط الإنسان الروحى والمعنوى، ولعلها تؤدى إلى زوال الأجر والثواب. وقد استدلل الإمام عليه السلام فى تحذيره من السمعة والرياء بأن الله سبحانه لا يقبل إلا العمل الخالص لوجهه فإن شرك العبد معه أحد آخر وكله الله إليه ليأخذ منه أجره، وبالطبع فإنه لا يملك القدرة على إعطاءه الأجر والثواب. والعبارة هى مضمون حديث قدسى معروف نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن الحق سبحانه قال: «أنا خير شريك ومن أشرك معى شريكاً فى عمله، فهو لشريكى دونى، لأنى لا أقبل إلا ما خلص لى» [٤٠].

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «نسأل الله منازل الشهداء ومعايشة السعداء ومرافقة الأنبياء». حيث يهدف الإمام عليه السلام

إلى تعريف الأمة بالقيم الإلهية الحقّة من قبيل الشهادة ومرافقة الأنبياء وهي الأمور التي لا تنال بسهولة كما لا تمنح للإنسان بالمجان «ومن يطع اللهَ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا» [٤١].

فالمراحل الثلاث - الشهادة والسعادة ورفقة الأنبياء - التي وردت في كلام الإمام عليه السلام يمكن أن تكون من قبيل العلة والمعلول، فالشهادة سبب السعادة، والسعادة سبب مرافقة الأنبياء.

كما يمكن أن يكون الكلام إشارة لطيفة إلى حوادث المستقبل وشهادة الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٥

فصل في أن الاخلاص أساس العمل

للشرك والوثنية شعب، من أهمها الرياء والسمعة. والرياء من مادة الرؤية بمعنى التظاهر وإفادات نظر الآخرين إليه من خلال التظاهر بالعبادة والأعمال الحسنة. وهذا الفرد في الواقع مشرك، لأنه يرى عزته وكرامته بيد الآخرين لا بيد الله، ولذلك يقوم بأعماله بدافع من لفت انتباه الآخرين إليه.

أمّا بشأن السمعة فهناك تفسيران: أحدهما أن السمعة هو أن يقوم الفرد بالعمل قربة إلى الله، فتخالطه الأفكار باطلاع الآخرين وإسماعهم بعمله ليحظى بمدحهم وثنائهم. وهو الأمر الذي لا يوجب بطلان العمل حسبما صرح بذلك الفقهاء، لأنه قد حصل بعد الإتيان بالعمل، إلا أنها تقلل من ثواب العمل أو تقضى عليه، والآخر أن تكون خالطته فكرة إسماع الآخرين منذ بداية العمل ليشنوا عليه ويكيلوا له المدح والثناء. وليس هنالك من فارق بين السمعة بهذا المعنى والرياء، سوى أن المرأى يقوم بالعمل ليراه الآخرون بينما يقوم الآخر بالعمل ليسمعه الآخرون، وعليه فالعملان ليسا بخالصين.

على كل حال فإنّ الرياء والسمعة من أكبر آفات الأعمال العبادية. ولما كان نفوذ الرياء والسمعة إلى الأعمال الإنسانية غاية في التعقيد والدقة فقد تواتر التحذير منه كراراً في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية. وأعظم مفسدة لهذا العمل هو أنه يقضى على روح التوحيد ويقذف بصاحبه في وادى الشرك والازدواجية في العبادة، لأنّ توحيد الأفعال يعلمنا الإيمان والإذعان بأنّ كلّ شيء بيد الله وأنّ الأجر والثواب والعزة والكرامة والرزق و... تابعة لإرادة الله مآتمة بأوامره، إلّا أنّ المرأى إنّما يلتمسون هذه الأمور من الآخرين، وهذا شرك علني.

وقد ورد في الروايات يقال يوم القيامة للمرائي: «يا كافر! يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! حبط عملك وبطل أجرك، فلا خلاص لك اليوم» [٤٢]. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ الرياء والسمعة مصدر كافة الاختلالات الاجتماعية، فالمرأى إنّما يهتم بظاهر العمل دون الإكتراث إلى باطنه، فالظاهر جميل والباطن فاسد.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٦

المؤسّسات والدوائر تتمتع بظاهر أنيق بينما تستبطن الخواء والفساد من الداخل، الأفكار سطحية ساذجة خالية من أي عمق وجذور فالهدف في المجتمعات المرائية إنّما يولى للكمية لا للكيفية. ومن البديهي أنّ مثل هذه المجتمعات إنّما تحت الخطى نحو الانحطاط والاضمحلال والانهيار. وبالطبع على العكس من ذلك فهناك اليوم البلدان التي أولت أهمية قصوى للقطاعات الصناعية والزراعية والاقتصادية وحثت الخطى من أجل خدمة المجتمع ورفاهه فقد سارت نحو الرقي والتطور والازدهار.

نكتفي بهذا المقدار بشأن الرياء والسمعة ونترك الخوض في التفاصيل أكثر إلى الأبحاث القادمة بما يتناسب والموضوع.

ج ج

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٧

القسم الثالث: السند الشعبي

إشارة

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَسْتَعْنِي الرَّجُلُ - وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ - عَنْ عِثْرَتِهِ، وَدَفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَالسَّتِّتِهِمْ وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ وَأَلْمَهُمْ لِسَعْتِهِ وَأَعْظَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَتِهِ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ وَلِسَانُ الصَّدَقِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يَرِثُهُ غَيْرُهُ».

الشرح والتفسير

لما فرغ الإمام عليه السلام من وصاياهم للفقراء والمعدمين بطاعة الله وخشيته وإلا يصددهم عن ذلك الانحراف الأخلاقي بسبب سوء الأوضاع وصعوبة العيش التي يعانون منها، وأصل خطبته ليخاطب هنا الأغنياء والمرفهين بما يحفظ التوازن في المجتمع. فقد حثم بادئ ذي بدء إلى مد يد العون والمساعدة إلى بطانتهم وأقربائهم وعشيرتهم، ويلفت نظرهم إلى غض الطرف عن الأموال والثروة التي ليس من شأنها أن تجعل الإنسان غنياً عن قرابته «أيها الناس إنه لا يستغنى الرجل - وإن كان ذا مال - عن عترته [٤٣]، ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم». فالواقع أنهم أعظم سند يوفر له الحماية والدعم ويزيل عنه المشاكل والمخاطر، وإذا ما تعرض لبعض الظروف الصعبة والحوادث الخطيرة، كانت عترته أشفق من الآخرين به وأحرصهم

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٨

عليه «وهم أعظم الناس حيطاً» [٤٤] من ورائه وألمهم [٤٥] لسعته [٤٦] وأعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به». نعم فالحياة مليئة بالمخاطر والمطبات والعواصف الهوجاء والأحداث المريرة التي لا يسع الإنسان التغلب عليها بمفرده، ومن هنا فإن العقل والحكمة تتطلب من الإنسان التفكير في مثل هذه الأحداث. وما أروع أن تكون لهذا الإنسان قرابة تهب لدعمه وحمايته في مثل هذه الظروف. ولكن، هل يمكن الحصول على دعم القرابة ومساندتها دون الإحسان إليها وتفقد أمورها وإحاطتها بالحب والرعاية وإغاثتها مالياً ومعنوياً؟ قطعاً، لا. فما أحرى كل إنسان أن يوطد أواصر مودته لقرابته من خلال بعض البذل المادي حتى لا يبقى وحده حين تعصف به الأحداث والمصائب. طبعاً الإحسان إلى الآخرين مما ورد الندب إليه ولا تخفى آثاره «الإنسان عبيد الإحسان» إلا أن الأولوية في هذا الأمر للقرابة «الأقربون أولى بالمعروف» حيث تمهد الأجواء أمام تعميق أواصر الاخاء والمحبة. وبغض النظر عما سبق فإن هذا الأمر لو طبق في المجتمع كما ينبغي فقد لا تبقى هنالك من آثار للفقر والحرمان في المجتمع، كيف لا وفي كل قبيلة عدد من الأفراد المتمكنين الذين لو مدوا يد العون إلى سائر أفراد قبيلتهم لما ظل هنالك من يعاني من الحرمان. وقد أوصى الإمام عليه السلام ولده الإمام الحسن عليه السلام بهذا الأمر مبيناً فوائد إكرام العشيرة ومعالجة مشاكلهم إذ قال عليه السلام: «وأكرم عشيرتك! فإنهم جناحك الذي به تطير وأصلك الذي إليه تصير ويدك التي بها تصول» [٤٧]. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى دليل الآخر في إطار حثه الأفراد المتمكنين على مساعدة قرابتهم فيقول: «ولسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يرثه غيره».. وقد ورد في هذا المعنى من النثر والنظم الكثير الواسع، فمن ذلك قول عمر لابنه هرم: ما الذي أعطى أبوك زهيراً؟ قالت: أعطاه مالاً يفنى، وثياباً تبلى. قال: لكن ما أعطاكم زهير لا يبليه الدهر، ولا يفنيه الزمان.

إذا أتت اعطيت الغنى ثم لم تجد بفضل الغنى ألفت مالك حامد

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٩

وقل غناء عنك مال جمعته إذا كان ميراثاً وواراك لاحد

نعم لا يحمل الإنسان شيئاً من الأموال معه في قبره، إلا أنه يحمل العمل الصالح والذكر الحسن لدى الناس، فلا يكذب ذكر اسمه حتى

يترحم عليه الناس ويسألون الله له المغفرة والعتو والرحمة.

هذا هو رأس المال المعنوي والمادى الخالد الذى يمكن نيله من خلال الإنفاق فى سبيل الله وبذل الإحسان إلى عباد الرحمن. وزبده الكلام فإن الأغنياء قد دعوا إلى مد يد العون إلى فقراء المجتمع ومساعدتهم من خلال دافعين؛ الأول بغيه الحصول على الأعوان والأنصار وتوظيفهم لصالحهم حين بروز النوائب والشدائد التى تواجههم فى حياتهم، والثانى بهدف الحصول على السمعة الحسنه والذكر الطيب بعد الموت بما يجعل الآخرين يترحمون عليهم ويسألون الله لهم العفو والمغفرة. وما أعظم هذه التجارة بهذا المتاع الدنيوى الزائل من أجل الحصول على السنين المذكورين.

فصل فى حسن الثناء (لسان الصدق)

لقد ذكر الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة أن لسان الصدق يجعله الله للمرء فى الناس خير له من المال يورثه غيره. ولسان الصدق هو أن يذكر الإنسان بالخير، ويشئى عليه به، قال سبحانه:

«وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» [٤٨] وهو دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام. كما أشار البارئ سبحانه فى إطار ثنائه على طائفة من الأنبياء «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» [٤٩]. واللسان فى الآية بمعنى ذكر الإنسان بالخير. ومما لا شك فيه أن هذه القضية ليست من قبيل القضايا الروتينية الجوفاء، بل تنطوى على عدّة معطيات على مستوى الفرد والمجتمع، فهى:

أولاً: أنها لمن دواعى الفخر والاعتزاز الخالد، بينما نرى أن الأموال والثروات المادية إنما توزع فى لحظة وقد لا يبقى لها من أثر.

ثانياً: إن حسن الثناء والذكر الحسن إنما يسوق الآخرين للدعاء لهؤلاء الأفراد وطلب

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٠

الرحمة والمغفرة لهم من الله؛ الأمر الذى لا تخفى آثاره المعنوية.

ثالثاً: إن هذا الأمر له تأثيره البالغ فى نفوس أبناء المجتمع فى الاقتداء باولئك الأفراد وإحياء القيم العليا فى المجتمع والقضاء على ما يخالفها، فقد جاء فى الرواية المعروفة «من سنّ حسنة كان له مثل أجر من عمل بها» [٥٠].

وأخيراً أن ذلك من مدعاة العزة والرفعة والكرامة لدى نسل اولئك الأفراد المحسنين، فما أكثر من نعرف من الأفراد الذين نكن لهم الحب والاحترام لانحدرهم من اولئك الأفراد. هذه طائفة من الآثار المعنوية الفردية والاجتماعية لسان الصدق وطيب الاحدوثة.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤١

القسم الرابع: الاعتضاد بالعشيرة

إشارة

ومنها:

«أَلَا لَا يَغْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا الْخِصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لَا يَزِيدُهُ إِلَّا أَمْسِيكُهُ وَلَا يَنْقُصُهُ إِلَّا أَهْلَكَهُ؛ وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنِ عَشِيرَتِهِ، فَإِنَّمَا تُقْبِضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ وَتُقْبِضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ وَمَنْ تَلَّنَ حَاشِيَتَهُ يَسْتَدِمُّ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ».

الشرح والتفسير

بعد أن قرظ الإمام عليه السلام الثناء والذكر الجميل وفضله على المال، أمر بمواساة الأهل وصله الرحم وإن قل ما يواسى به، حيث أكد هذا الأمر بثلاث عبارات فقال عليه السلام: «ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة» [٥١] أن يسدها بالذى لا يزيده إن

أمسكه ولا- ينقصه إن أهلكه». يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة لأحد معنيين؛ الأول إلى البعد المعنوي لهذا العمل في أن حرمان القرباء مما يتمتع به الإنسان من إمكانات وثروات من شأنه أن يسلب بركة مال الإنسان وحياته ويحول دون نمائه وزيادته، وعلى العكس من ذلك فإن معونة القرباء ومساعدتها تنطوي على عدة بركات من شأنها أن تدرك هذا النقص الظاهري بتفضلات الله وألطافه؛ أو أن يكون إشارة إلى بعده الظاهري والمادى، لأنّ مشاكل القرباء إنّما تنتقل بشكل أو بآخر إلى الإنسان وتورق فكره وتشغل روحه وتعرض سمعته وشخصيته للخطر وبالتالي تضاعف من مشاكله ومعاناته، وعليه فما أحراه أن يهب لمساعدتهم ومعونتهم ليظفر بثواب

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٢

الآخرة وبركات الدنيا وينال الذكر الطيب والاحدوثة الحسنه. فقد جاء في الحديث أن الإمام على عليه السلام قال: «البركة في مال من أتى الزكاة وآسى المؤمنين ووصل الأقربين» [٥٢] ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى الأضرار الفادحة التي يتكبدها الإنسان إذا أمسك يده عن قرابته ولم يقدم العون والمساعدة، ومن ذلك أنّه إنّما يقطع عنهم يده بينما يقطعون عنه أيديهم التي لا غنى له عنها «ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنّما تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه أيد كثيرة».

فالحق ليس هنالك من عاقل مستعد للتضحية بكل هذه المنافع من أجل التنازل عن بعض منافعه الشخصية الضئيلة، ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول «ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودة». يمكن أن تنطوي مفردة «حاشيته» على معنيين؛ الأول صفات الإنسان وروحياته، والآخر أن تكون إشارة إلى البطانة وبناءً على هذا، فإنّ مفهوم الجملة هو تمحور قوم الإنسان حوله إذا حسن سلوكه بطانته تجاه الناس. فقد رأينا الكثير من الأفراد الصالحين الذين انفرجوا عنهم الناس رغم صلاحهم بسبب سوء تصرف بطانتهم ومن حولهم.

فصل في بركات التعاضد بالقرباء

إنّ مسألة صلة الرحم وتوطيد أواصر المحبة بالقرباء وإن كانت وظيفة إلهية ورد التأكيد عليها في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية، إلّا أنّ ممّا لا شك فيه أنّ القيام بهذه الوظيفة الدينية والإنسانية إنّما ينطوي على بركات جمّة تعرض لها الإمام عليه السلام وأواخر هذه الخطبة والمهم أن يعزز الإنسان هذه الأصرة ولا- يمارس كلّ ما من شأنه الإساءة إليها أو قطعها. ولا بدّ من الإحسان إلى القربى حين شعور الإنسان بوفور النعمة، لتهب للوقوف إلى جانبه إذا ما واجهته بعض المحن والخطوب. وقد دلّ الواقع بما لا يقبل الشك أنّ التفوق على المشاكل لا- يتأتى من خلال الجهود الفردية، بل يتطلب مؤازرة الآخرين وتكافئ جهودهم، وما أحرى أن تكون الأولوية في هذه الرابطة للقرباء والعشيرة حيث يعرف كلّ منهما الآخر إلى جانب الإرتباط العاطفى الذى يشدّ كلّ منهما الآخر إلى جانب الإرتباط العاطفى الذى يشدّ كلّ منهما للآخر،

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٣

غير أنّ المؤسف له أنّ أغلب الأفراد إنّما يضربون هذه الامور عرض الجدار بمجرّد نيلهم بعض الثراء والنعمة فيبتعد عن قرابته ويحرم نفسه من كلّ هذه الطاقات التي يمكنها معالجة مصاعبه ومشاكله، وهذا هو المعنى الذى تناولته أغلب الروايات الواردة بهذا الشأن. فقد جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «صِلْهُ الرِّجْمَ وَحَسِّنْ الجِوَارِ، يُعَمَّرَانَ الدِيَارِ وَيَزِيدَانَ فِي الأَعْمَارِ» [٥٣]. وقال الإمام الباقر عليه السلام: «صِلْهُ الأَرْحَامَ وَحَسِّنْ الجِوَارِ، زِيَادَةٌ فِي الأَمْوَالِ» [٥٤]. كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «صِلْهُ الأَرْحَامَ تُرَكِّي الأَعْمَالَ وَتُنَجِّي الأَمْوَالَ وَتَرْفَعِ البُلُوبَ وَتُيَسِّرُ الحِسَابَ وَتُنَسِّي فِي الأَجَلِ» [٥٥]. وبالمقابل فإنّ قطع الرحم ينطوي على آثار خطيرة على حياة الإنسان في الدنيا وسوء العذاب في الآخرة. فقد جاء في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أخبرني جبرئيل إنّ ريح الجنة تُوجد من مسيرة ألف عام ما يجدها عاق ولا قاطع رجم ولا شيخ زان» [٥٦].

ولعل هنالك من يسأل: ما المراد بصلة الرحم؟ المراد هو تعميق أو اصر المحبة والنجدة في حل المشاكل وعدم الغفلة وتفقد الأحوال في كافة الظروف، وقد تحفظ هذه الصلة حتى بالسلام والإرتباط عن طريق الهاتف. فقد قال أمير المؤمنين على عليه السلام: «صَلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالتَّسْلِيمِ» [٥٧] وستتكم في الأبحاث القادمة عن صلة الرحم ومعطياتها المادية والمعنوية بما يتناسب والمواضيع الواردة في الخطب. هذا وقد قال السيد الرضى (ره) في آخر هذه الخطبة:

«الغفيرة هاهنا الزيادة والكثرة؛ من قولهم للجمع الكثير: الجم الغفير، والجماء الغفير. ويروى عفو من أهل أو مال». والعفو: الخيار من الشيء. يقال: «أكلت عفو الطعام» أى خياره. وما أحسن المعنى الذى أرادته عليه السلام بقوله: «ومن يقبض يده عن عشيرته...» إلى تمام الكلام؛ فإنَّ الممسك خير من عشيرته إنَّما يمسك نفع يد واحدة، فاذا احتاج إلى نصرتهم، واضطر إلى

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٤

مرافدتهم، قعدوا عن نصره، وتناقلوا عن صوته، فممنع ترافد الأيدي الكثيرة، وتناهض الأقدام الجمعة.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٥

الخطبة الرابعة والعشرون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وهي كلمة جامعة له، فيها تسويغ قتال المخالف والدعوة إلى طاعة الله، والترقى فيها لضمان الفوز «وَلَعْمَرِي! مَا عَلِيٌّ مِنْ قِتَالٍ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ وَخَابَطَ الْغَيَّ، مِنْ إِدْهَانٍ وَلَا إِيْهَانٍ. فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، وَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ مِنَ اللَّهِ، وَامْضُوا فِي الَّذِي نَهَجَهُ لَكُمْ، وَقَوْمُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ، فَعَلَيَّْ ضَامِنٌ لِفُلْجِكُمْ آجِلًا، إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلًا».

نظرة إلى الخطبة

يهدد الإمام عليه السلام في هذه الخطبة مخالفه بشدة ويعرب عن عزمه الراسخ في التصدي لهم وقتالهم بعد أن يقنطهم من أدنى مودعة أو مصالحة على حساب العدل والحق، ثم يوصى صحبه بمواكبته في هذا الطريق والتأهب لمواجهة أعداء الدين. ويرى البعض أن الخطبة في الواقع رد على اولئك الذين يشكلون على الإمام عليه السلام في مساومة الأعداء واضطرارهم للاستسلام من خلال استمالتهم بالرشوة و... فالإمام عليه السلام يكشف أنه ليس من أهل المساومة والخداع. [٥٨]

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٦

الشرح والتفسير

المساومة والمصانعة

استهل الإمام عليه السلام خطبته بالقول: «ولعمري [٥٩] ما علي من قتال من خالف الحق وخابط [٦٠] الغي، من إدهان [٦١] ولا إيهان [٦٢]».

يبدو أن هنالك فارق بين العبارتين «خالف الحق» و «خابط الغي» - هو أن العبارة الأولى إلى الفرد الذى يشق عن علم سبيل مخالفة الحق، بينما تشير الثانية إلى من يختار ذلك الطريق ويسبح في بحر من الضلال جهلاً وخطأ ودون أدنى تأمل ومطالعة. أما تعبيره عليه السلام بالادهان (المجاملة والمداهنة) والايهان (الضعف) فهو تحديد إلى أن الكف عن القتال والمواجهة إنما يستند إلى أحد سببين؛

إمّا المجاملة والمداهنة لأعداء الحق، أو الضعف والعجز، وحيث لم يكن لأى من هذا السببين من سبيل إلى كيان على عليه السلام فإنّ مواجهته لمخالفى الحق عنيفة لا هواده فيها.

وقد ورد تقريباً شبه هذا المعنى فى سائر كلمات الإمام عليه السلام فى إطار حديثه عن الإطار العام الذى يتحرك ضمن دائرته زعماء المسلمين وأئمتهم فقد قال عليه السلام: «لا يُقِيمُ أمرُ اللَّهِ سُبْحانَهُ إِلَّا مَنْ لا يُصانِعُ ولا يُضارِعُ ولا يُتَّبِعُ المَطامِعَ» [٦٣]. كما وصف نفسه عليه السلام فى موضع آخر فقال:

«وَأَيُّمُ اللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ ساقِئِها حَتَّى تَوَلَّيْتُ بِحِذافيرِها واستَوَسَّقتُ فى قيادِها، ما ضَعُفتُ ولا جَبُنْتُ ولا خُنْتُ ولا وَهَّنتُ» [٦٤].

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٧

ثم أبدى عليه السلام نصائحه ووصاياه وفى مقدمتها مراعاة الورع والتقوى فقال عليه السلام:

«فاتقوا الله عباد الله»

. فالتقوى- التى تعنى خشية الله فى الباطن وعدم مقارفة الذنوب والمعاصى والعمل على طاعة الله- هى أساس الأعمال الصالحة والباقيات الصالحات، ومن هنا ورد التأكيد عليها بصفتها مقدمة لسائر الوصايا الأخلاقية والدينية. ثم أوصى عليه السلام بالفرار من معصية الله إلى طاعته وغضبه وسخطه إلى رضاه وعذابه إلى رحمته ونعمته إلى نعمته «وفزوا إلى الله من الله» فالعبارة إشارة لطيفة إلى مسألة توحيد الأفعال، لأنّ أية مشكلة تواجه الإنسان فى هذا العالم إنّما تفرزها طبيعة أعماله والآثار التى أودعها الله هذه الأعمال. وعليه فمشاكله من ذاته وعقابه ممّا تفرزه أعماله، وعليه فليس أمامه من سبيل لحل مشاكله سوى الفرار إلى الله واللجوء إليه إذ لا مؤثر فى الوجود إلّا الله» وكل خير وبركة ونجاة تفاض على الإنسان من الله سبحانه- القرآن من جانبه تحدث عن طائفة من العصاة الذين استحقوا سخط الله وغضبه ولم يعد أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى الله سبحانه «وَوَظُّنُوا أَنْ لا- مَلَجَإَ مِنْ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ» [٦٥] الطريف فى الأمر أنّ الإنسان إذا شعر بخوف من أحد لاذ بآخر، إلّا أنّ ذلك ليس كذلك بالنسبة لله سبحانه، فإذا ما خافه الإنسان وخشى عذابه، لجأ إليه، وهل هناك من هو أرحم بالإنسان منه؟! هذا هو الدرس الذى ينبغى أن تتعلمه من التوحيد الأفعالى فى أنّ الله هو مصدر كل خير وحركة وبركة. فلله الأسماء والصفات التى تدعونا للجوء إلى الله على كل حال وفى كل الظروف.

فان خشينا سخطه وغضبه لذنا بعفوه ورحمته، وإن خفنا عدله لجأنا إلى فضله وكرمه.

وأخيراً يبدو أنّ هذه العبارة مقتبسة من قوله سبحانه على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وآله: «فَقِفُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» [٦٦]. ثم قال عليه السلام فى الوصية الثالثة «وامضوا فى الذى نهجه لكم» ثم أوصى عليه السلام قائلاً: «وقوموا عصبه» [٦٧] بكم».

والواقع أنّ الإمام عليه السلام قد سنّ بهذه العبارات

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٨

قانوناً جامعاً يشتمل على أربعة بنود من شأنها ضمان السعادة النجاة:

الأول: مراعاة التقوى وخشية الله.

الثانى: الحركة نحو الله من خلال الفرار منه إليه سبحانه.

الثالث: الثبات على النهج الإيمانى وسلوك السبيل الصحيح نحو الله.

الرابع: العمل بالتكاليف والوظائف الدينية التى أمر بها الشارع المقدس.

قد يقال أنّ الوصايا الأربعة استهلّت بفاء التفرّيع فما علاقتها بصدر الخطبة الذى تحدث عن العزم الراسخ فى مجابهة مخالفى الحق وقتالهم؟ والجواب على هذا السؤال واضح، لأنّ قتال هذه الطائفة المنحرفة الجائرة إنّما يتطلب جنوداً أشداء مؤمنين من ذوى العزم والإرادة، وكانّ الإمام عليه السلام أراد أن يعدّ أصحابه للوقوف بوجه أصحاب الباطل. جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام عبر عن التكليف بقوله «ما عصيه بكم» (التكاليف التى كلّفتم بها وأمركم بأدائها)، ومفهوم العبارة هو أنّ الوظائف الإلهية ليست من الامور

التي يستطيع الإنسان إهمالها وعدم الإكتراث لها، بل هي طوق في رقبتة ودين في ذمته لا بد له من أدائه.

يذكر أن هذه التعبيرات قد وردت في أغلب الآيات والروايات التي تشير إلى أن الإنسان إنما يتحرر من القيود إذا ما أدى هذه التكاليف والوظائف. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته بضمانة النصر والغلبة والعاقبة الحسنة لأصحابه في خوضهم القتال ضد تلك الطائفة الضالة عن الحق، النصر الذي سيفوزون به في الدار الآخرة لا محالة إذا تعذر في دار الدنيا «فعلت ضامن لفلجكم آجلاً إن لم تمنحوه عاجلاً». وهذا هو المنطق القوي والرصين الذي اعتمده القرآن في مخاطبته لأتباعه في تصديهم لأعداء الحق بأنهم منتصرون غالبون مهما كانت نتيجة القتال: «قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِيَّالَا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» [٦٨] ومعلوم أن الجنود الذين يرون أنفسهم منتصرين في جميع الأحوال وأن عدوهم مهزوم، إنما يقاتلون بمعنويات عالية دون أن يشعروا بأدنى خوف أو خطر مما ستفرزه أحداث القتال. فيرى أغلب العلماء والمفكرين أن الإيمان بهذا المبدأ- النصر أو الشهادة- هو العامل الرئيسي الذي يقف وراء

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٩

الانتصار الذي يشعر به المسلمون في جبهات القتال رغم عدم الموازنة في القوى والتكافؤ في العدة والعدد مع جيوش الأعداء. وهذا هو المبدأ الذي ينبغي أن يجعله العالم الإسلامي اليوم نصب عينيه في مجابهته لعالم الكفر فلا يبهز بإمكاناته وتجهيزاته الزائفة. والحق أن هذا المبدأ لا يحصل إلّا في ظل الإيمان والورع والتقوى وخوف الله.

فصل في الضعف والمساومة

إنّ من الفوارق الأساسية بين الساسة الربانيين والساسة العاديين إنّما يكمن في أنّ ساسة الدنيا لا يتورعون عن أيّة وسيلة من أجل تحقيق أطماعهم وأغراضهم الشخصية، وغالباً ما يساومون العدو على المبادئ الإنسانية ومصالح مجتمعاتهم ويتجاهلون الحق والعدالة، بغية حفظ مواقعهم السياسية والاجتماعية، في حين ليست هنالك من مساومة في قاموس الساسة الربانيين، بل غالباً ما يضحي هؤلاء بمواقعهم الحساسة حرصاً على حفظ المبادئ ورعاية للحق والعدل والقسط؛ الأمر الذي نلمسه بوضوح في سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وتلميذه أمير المؤمنين على عليه السلام. فما أكثر الأفراد الذين اعترضوا على سياسة على عليه السلام من قبيل استمالة الآخرين عن طريق التمييز في العطاء من بيت مال المسلمين: أو الإبقاء على معاوية في حكومة الشام، دون أن يحدّثوا أنفسهم بالأساليب التي يتبعها معاوية في حكومته للناس أو المبادئ التي سيعبر عليها في هذه الحكومة! أو الاقتراح الذي طرحه عليه عبد الرحمن بن عوف في الشورى بتسليمه مقاليد الأمور شريطة العمل بسياسة الشيخين، أو تفويض طلحة والزبير ولاية البصرة والكوفة. وقد اقترح من قبل، على رسول الله صلى الله عليه وآله بعض الاقتراحات من قبيل اقتضاء المصلحة لطرده الضعفاء والمستضعفين. فاولئك وإن كانوا يفيضون إيماناً بالله ورسوله، إلّا أنّ المصلحة تقتضي استقطاب الأغنياء وتعبئتهم ضدّ العدو رغم خلو قلوبهم من الإيمان! ويبدو أنّ اختلاف الرؤية (على ضوء السياسة الإلهية والسياسة الشيطانية) واختلاف المصلحة من الواقع هي التي دفعت باولئك الأفراد والفئات الدنيوية للاعتراض على السياسة النبوية والعلوية.

والإمام عليه السلام يوضح في هذه الخطبة السياسة التي سيتبعها وأنه ليس من أولئك الساسة

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٥٠

الذين يرون للمجاملة والمداهنة من مكان في سياسته وتعامله مع المارقين عن الحق والعدالة، وليس لديه من وسائل سوى التقوى وامتنال التكاليف الشرعية دون الإكتراث لهذا أو ذاك من المساومين والمعترضين، ونوكل المزيد من الكلام في هذا الموضوع إلى محلّه.

نغمات الولاية، ج ٢، ص: ٥١

الخطبة [٦٩] الخامسة والعشرون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد، وقدم عليه عاملاه على اليمن - وهما عبيد الله بن عباس وسعيد بن نمران - لَمَّا غلب عليهما بسر بن أبي أرطاة فقام عليه السلام على المنبر ضجراً بتناقل أصحابه عن الجهاد، ومخالفتهم له فى الرأى، فقال:

القسم الأول

إشارة

«ما هى إلا الكوفة أقبضها وأبسطها، إن لم تكونى إلا أنت تهب أعاصيرك، فقبحك الله وتمثل بقول الشاعر:

لَعَمْرُ أَيْبِكَ الْخَيْرِ يَا عَمْرُو إِنَّنِي عَلَى وَصْرٍ مِنْ ذَا الْإِنَاءِ قَلِيلٍ»

نظرة إلى الخطبة

يعتقد بعض شراح نهج البلاغة كابن أبى الحديد أن الخطبة بعد صفين والتحكيم والخوارج، حيث ألقاها عليه السلام أواخر عمره الشريف [٧٠]. ويفهم من مقدمة الشريف الرضى أن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة حين تواترت عليه الأخبار بشأن استيلاء أصحاب معاوية على

نغمات الولاية، ج ٢، ص: ٥٢

البلاد الإسلامية، حيث بلغه عاملاه على اليمن فأطلعاه على غلبه بسر بن ارطاة لهما على تلك المنطقة. فقد كان بعض أتباع عثمان فى صنعاء وكانوا قد بايعوا علياً عليه السلام مكرراً وخديعة. وكان عبيد الله بن عباس آنذاك عامل على عليه السلام على اليمن وقائد الجيش كان سعيد بن نمران. وقد شنت الغارات تلو الغارات من قبل أهل الشام على المناطق الإسلامية بعد قتل محمد بن أبى بكر الذى نصبه الإمام عليه السلام والياً على مصر. قام أتباع عثمان - فى اليمن - بدعوة الناس للمطالبة بدم عثمان، فتصدى لهم عبيد الله بن عباس وأمر بسجنهم. فكتبوا من السجن إلى بعض أصحابهم فى الجيش لعزل سعيد بن نمران والخروج عليه. ففعلوا والتحق بهم طائفة من اليمن ثم امتنعوا عن دفع الزكاة. فكتب عبيد الله وسعيد كتاباً للإمام عليه السلام. فكتب الإمام عليه السلام كتاباً لأهل اليمن ودعاهم للعمل بوظائفهم وحذرهم من العصيان والتمرد. فردوا عليه بالتزامهم بطاعة الإمام عليه السلام بشرط عزل هذين الشخصين. ثم كتبوا لمعاوية. فبعث معاوية بسراً إلى اليمن فى جيش كثيف وأمره أن يقتل كل من كان فى طاعة على عليه السلام، فقتل خلقاً كثيراً، وقتل فى من قتل فى مكة داود وسليمان، ابنى عبيد الله بن عباس كما قتل فى الطائف صهر عبيد الله. ثم بلغ اليمن بعد أن خرج منها عبيد الله وسعيد، واستخلف علياً عبد الله بن عمرو الثقفى، فحمل بسر عليه فقتله ثم استولى على صنعاء مركز اليمن. فلما دخل عبيد الله وسعيد على الإمام عليه السلام فى الكوفة ذمهما عليه السلام لتركهما مكانهما، ثم صعد المنبر وألقى هذه الخطبة.

على كل حال فإنَّ الخطبة قد أوردت حين اشتدت حملات أهل الشام على مختلف مناطق البلاد الإسلامية وضعف المقاومة التي أبداها أصحاب الإمام عليه السلام حيث كان الإمام عليه السلام في غاية التذمر والاستياء، فقد استهمل الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى من قلة الأفراد المطيعين، ثم تعرّض عليه السلام إلى الواقعة الأليمة لحملات بسر بن أرطاة وغلبته على اليمن، ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى لله من هؤلاء القوم الذين مردّوا على النفاق والمعصية فيدعوا عليهم ويسأل الله أبدالهم بشر منه وإبداله من هو خير منهم.

الشرح والتفسير

النفاق والعصيان ودور الإمام

تبدو عبارات الإمام عليه السلام واضحة بالالتفات إلى سبب ورود الخطبة والأجواء التي كانت

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٥٣

حاكمة آنذاك، فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أنه لم تبق لديه سوى الكوفة بعد ذلك التمرد والعصيان «ما هي [٧١] إلّا الكوفة، أقبضها وأبسطها». والسؤال المطروح هنا: ماهي العلل والعوامل التي جعلت جيش الإمام عليه السلام يعيش هذه الحالة الخطيرة في العراق وسائر المناطق الإسلامية؟ نترك الإجابة على هذا السؤال إلى البحث الذي سنخوض فيه في موضوع تأملات.

أمّا المسألة المهمة فهي أنّ رجلاً ربانياً مثل علي عليه السلام وبتلك الشجاعة والبطولة والحنكة في التدبير إنّما عاش تلك الحالة تجاه أعداء الإسلام أثر عدم وجود القوى المخلصة والشجاعة الموالية للحق والمواكبة لحركة الإمام عليه السلام. فقد أشار الإمام عليه السلام بقوله «أقبضها وأبسطها» بشأن الكوفة إلى خروج سائر المناطق عن حكمته وإن كانت خاضعة لها ظاهرياً. ثم قال عليه السلام: «ان لم تكوني إلّا أنت تهبّ أعاصيرك [٧٢] فقبحك الله» في إشارة إلى أنّ الكوفة وإن كانت مركز حكومة الإمام عليه السلام إلّا أنّها لم تكن خالية من التمرد والنفاق، بحيث لم يكن الإمام عليه السلام يحسب لأهلها ذلك الحساب. وما أعظم معاناته عليه السلام وهو بذلك العلم والحلم والحكمة والشجاعة إلّا أنّه يفتقر إلى المخلصين من الأتباع.

ثم تمثل عليه السلام بقول الشاعر:

لعمر أبيك الخير يا عمرو إنني على وضر من ذا الإناء قليل

«وضر» سواء كان بمعنى بقية الدسم في الإناء، أو بقية قطرات الماء في الإناء، أو الرائحة الباقية في إناء الطعام، فهي إشارة إلى أنّ الكوفة لم تكن سوى ذرة زهيدة آنذاك بالنسبة للعالم الإسلامي الواسع، ولا يسع أيّ زعيم بالاعتماد على أهل هذه المنطقه مهما كان من حفظ بيضة الإسلام والدفاع عن البلاد الإسلامية والوقوف بوجه هذه الذئاب الكاسرة المتعطشة للدماء.

الشرح والتفسير

تأملان

١- الكوفة على وجهين

تعتبر الكوفة من المناطق الإسلامية المشهورة في التاريخ والتي كانت مسرحاً لعدّة

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٥٤

حوادث حتى إقترن تاريخ الإسلام بتلك المنطقه ويعتقد البعض أنّ إسمها مشتق من شكلها الذي يشبه الدائرة، حيث كانت تصطلح

العرب على المنطقة الرمليّة المدورة بإسم «كوفان»، وقال البعض سمّيت بذلك الإسم لاجتماع الناس هناك؛ لأنّ أحد معاني هذه المفردة هو الاجتماع والتجمّع كما ذكروا عدّة وجوه اخرى للتسمية لايسع المقام الخوض في تفاصيلها. وقيل بنيت عام ١٧ هـ على عهد الخليفة الثاني على يد سعد بن أبي وقاص، وكانت أكبر مدن العراق التي تشد إليها الرحال. وسمّيت «قبة الإسلام». وقيل أن سعد بن أبي وقاص قد نزل المدائن بعد فتح العراق وغلبه الساسانيين فبعث رسله ليشير الخليفة الثاني بالفتوحات، فلما رأى الخليفة رسل سعد وقد شحبت وجوههم سألهم السبب، فذكروا له سوء مناخ مدن العراق، فأمر ببناء مدينة تتناسب ومزاج العسكر فاختر سعد الكوفة. ولم تمض مدة حتّى اشتعلت فيها النار فاحترقت - ثم بنيت من اللبنة. وقد خيّر سعد المسلمين بنزول المدائن أو الكوفة. فاختر فريق منهم الكوفة واستعادوا صحتهم. [٧٣]

وهناك عدّة روايات صرّحت بعضها بدم الكوفة في حين صرّح البعض الآخر بمدحها، ويبدو أنّ الروايات قد وردت بشأن مختلف عصور الكوفة والأقوام التي سكنت فيها. فقد فسّرت بعض الروايات قوله سبحانه «وَطُورِ سَيْنِينَ» [٧٤] الواردة في الآية بالكوفة. وجاء في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «الكُوفَةُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»، كما ورد في ذيل هذه الرواية أنّ فيه قبر نوح وإبراهيم وقبر سيد الأوصياء الإمام على عليه السلام وقبور ثلاثمائة وسبعين نبياً وستماً وصياً. وروى عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنّه قال: «إنّه ليس بلدٌ مِنَ الْبُلْدَانِ وَمِصْرٌ مِنَ الْأَمْصَارِ، أَكْثَرَ مُجِبًّا لَنَا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ» [٧٥]. مع ذلك فقد شهدت الكوفة عدّة عصور تسلّط عليها الأعداء ولاسيما أعداء أهل البيت عليهم السلام بحيث أصبحت من الأوكار المناهضة للإسلام وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٥٥

٢- أهل الكوفة والإمام عليه السلام

كلّنا نعلم بأنّ إحدى مشاكل حكومة الإمام على عليه السلام تكمن في أهل العراق ولاسيما أهل الكوفة الذين يتصفون بالتمرد وعدم الطاعة؛ الأمر الذي جعل الإمام عليه السلام يتعرّض له في عدّة خطب ليعرب عن إستيائه منهم وشكواه، في حين كانت روحية أهل الشام وطاعتهم تمثّل أحد عوامل تفوّق معاوية في أعماله.

وقد نظر بعض المؤرّخين إلى هذا الموضوع نظرة إيجابية فذهبوا إلى أنّ العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء وطاعة أهل الشام، أنّ أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبة، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدرح والترجيح بين الرجال، والتمييز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء، وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأى واحد، لا يرون النظر، ولا يسألون عن مغيب الأحوال ومازال العراق موصوفاً أهله بقلة الطاعة، وبالشقاق على اولى الرئاسة. [٧٦]

إلّا أنّ المرحوم مغنية يرى أنّ هذا الكلام أجوف لا أساس له. فأى عيب كان يسع أهل العراق أن يردّوه على حكومة العدل العلوية حتّى مارسوا ذلك الشقاق والنفاق (أية فطنة ثاقبة تدفع بالأفراد إلى العصيان والتمرد والذي أدّى إلى تلك الذلّة والخنوع أمام العدو؟! والحق كما ذكره المؤرّخون ومنهم طه حسين في كتابه (على وبنوه) أنّ سياسة معاوية كانت قائمة على المكر والخداع وشراء دين الناس بينما اعتمد الإمام على عليه السلام على الحق والعدل، ولعلّ الشاهد على ذلك ماورد به الإمام عليه السلام حين قال: «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟! واللّه لا- أطور به ما سمر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً» [٧٧]. ثم ردّ عليه السلام على اولئك الذين قارنوا بين سياسته وسياسة معاوية قائلاً: «واللّه ما معاوية بأدهى منى لكنّه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس» [٧٨]. وهو الأمر الذي نلمسه اليوم بوضوح في عصرنا الراهن حيث يرى بعض الأفراد وضمن تحليلاتهم الاجتماعية أنّ الساسة

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٥٦

الأفذاذ هم أولئك الذين يعتمدون أساليب التضليل والخداع والذين لا يتورعون عن التشبث بأحسن الوسائل من أجل تحقيق أهدافهم وأطماعهم، في حين لا يرون من كفاءة وجدارة أولئك الأفراد من أهل الإيمان والورع والتقوى الذين لا يسامون على القيم والمبادئ، نعم للأسف مازال هذا الخطأ الفاحش هو الذى يسود بعض العقول والأفكار، وقد أدى إلى سلسلة من المفاصد السياسية والاجتماعية، بل ما أعظم الدماء البريئة التى سفكت على مدى التاريخ بسبب هذه النظرة الخاطئة على كل حال فإنّ الواقع هو غير ما ذكر، فالعراق ولاسيما منطقة الكوفة إنّما سكنت من عدّة فئات وبمختلف الثقافات وقد تأثروا إلى حد بعيد بسياسة عثمان بما دفعهم للتكالب على الدنيا والاعتزاز بها وقد أصبحت السنن الخاطئة آنذاك من مفردات حياتهم اليومية (بما فى ذلك التمييز فى العطاء من بيت المال) حتّى كان أغلب زعماء القبائل يتوقعون المناصب والأموال الطائلة؛ الأمر الذى جعل معاوية ينجح فى إستمالتهم فكانوا يتقاطرون على معاوية، الواحد تلو الآخر.

أضف إلى ذلك فقد كانت هنالك بعض الفوارق بين روية أهل العراق والشام، منها أنّ أهل الشام كانوا يعرفون بالعمل، بينما كان العراقيون أهل كلام كما كان الشاميون يتحلون بالانضباط الاجتماعى ولم يكن مثل هذا الانضباط سائداً لدى أهل العراق. وأخيراً كان أهل الشام أوفياء، بينما يمتاز أهل العراق بالغدر ونكث العهود.

وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا ينسحب على أهل العراق فى أى عصر وزمان غير زمان الإمام على عليه السلام كعصر الإمام الحسن أو الحسين عليهما السلام. ومن هنا وردت روايات الأئمة المعصومين عليهم السلام التى تشيد بأهل العراق والكوفة. ولا غرابة أن تتصف أمة ببعض الصفات السلبية فى عصر من العصور، ثم تتسلخ عنها فتتحلى بصفات إيجابية.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٥٧

القسم الثانى: سر الانهيار

إشارة

ثم قال عليه السلام:

«أُنْبِئْتُ بِشَرِّ رَأَقٍ قَدِ اطَّلَعَ الْيَمَنَ وَإِنِّى - وَاللَّهِ - لَأَطُنُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ سَيَدُلُّونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنِ حَقِّكُمْ وَبِمَعَصَةِ بَيْتِكُمْ إِمَامِكُمْ فِي الْحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ وَبَادَائِهِمْ الْأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ وَبِصِلَاحِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ، فَلَوْ ائْتَمَنْتُمْ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ، لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلَاقَتِهِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبة- إلى قصة بسر بن ارطاة ذلك الجبار الشامى الفص وغلبته على اليمن، ثم تطرق عليه السلام إلى مصير أهل العراق والمستقبل المظلم الذى ينتظرهم مع ذكر الأسباب والعلل التى ستفضى إلى ذلك المستقبل. فقد ذكر بعض شراح نهج البلاغة أنّ معاوية وجّه بسراً إلى المدينة وأمره بقتل شيعته على عليه السلام وإرعاب أهل المدينة التى هبت لنصرة رسول الله صلى الله عليه وآله وقاتلت أبى سفيان، فدخل المدينة وشتم أهلها وهذدهم وتوعدهم، ثم دعا الناس إلى بيعه معاوية فباعوه، وأحرق دوراً كثيرة. ثم قصد اليمن فاستباح أهلها وقد قتل ولدى حاكم اليمن آنذاك عبد الله بن عباس. [٧٩] وقد ذكر ابن أثير أنّ هذين الطفلين لآذا بأعرابي من بنى كنانة، فلما أراد بسر أن يقتلها، قال له الكنانى: دعهما فلا ذنب لهما، فإن كنت قاتلها

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٥٨

فاقتلني معهما، حيث كان يعتبر ذلك الأعرابي أن قتلها يعني تقصيره في أداء الأمانة. فما كان من بسر إلبان قتلها وقتل هذا الأعرابي. [٨٠]

على كل حال إطلع أمير المؤمنين على عليه السلام على هذه الأخبار الأليمة فساءه ذلك فقال:

«أثبتت بسراً قد أطلع [٨١] اليمن وإني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون [٨٢] منكم»

، ثم تطرق عليه السلام إلى علل هذه الدولة لسلط الضوء على أربعة عناصر مهمة تقف وراء النصر، فقال عليه السلام: «باجتماعهم على باطلهم، وتفزقكم عن حقاكم»

. فالاتحاد دعامة النصر ولاسيما إذا سادت الوحدة أتباع الحق. ولكن يالها من مصيبة أن يتفرق دعاة الحق عن حقهم ويجمع دعاة الباطل ويتحدون على باطلهم! رغم أن الباطل مصدر الخلاف والتشتت وأن الحق مركز الاخاء والوحدة. نعم فإن الوفاق والاتحاد لمن دوعى النصر والنجاح في كل عمل وإن الشقاق والفرقة لمن دوعى الهزيمة والفشل.

أما العنصر الثاني فيخلص في الطاعة وإمثال الأوامر التي كانت سائدة لأصحاب الباطل وعدم طاعة أهل الحق لإمامهم: «وبمعصيتكم إمامكم في الحق، وطاعتهم إمامهم في الباطل»

. أجل فالانضباط والطاعة حيثما كانت إنما تقود إلى النصر والغلبة. وليس لجيش ولا لأمية أن تبلغ ما تريد دون رعايتها للانضباط وطاعتها لآمرها وزعيمها، ومن هنا ورد التأكيد في كافة الدوائر والمؤسسات اليوم على مسألة الانضباط والالتزام بالمقررات.

العنصر الثالث يتمثل بالأمانة والوفاء بالعهد والتي تقابلها الخيانة ونقض العهود ولاسيما حيال الرؤساء والزعماء «وبادائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم»

فأمانتهم إنما دفعت بهم لتعبئة كافة الإمكانيات والطاقات ضد أعدائهم، في حين بددت خيانتكم هذه الطاقات وذهبت بها أدراج الرياح، وهل من مصير ينتظر من ضيع طاقاته وبدد إمكانياته سوى الهزيمة

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٥٩

والفشل. لقد فسّر بعض شراح نهج البلاغة الأمانة هنا بالبيعة، غير أن التفسير الذي أوردناه سابقاً واستناداً إلى سائر عبارات الخطبة يبدو أنسب من هذا التفسير، أضف إلى ذلك فإن كانت البيعة بمعنى الطاعة فقد ذكرت سابقاً ولا داعي للتكرار.

وأخيراً «وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم» وعليه فقد أوجز الإمام عليه السلام عوامل نصرهم وفشل إتباعه في اتحادهم وانضباطهم وأمانتهم وصلاحهم في بلادهم، في حين عاش أتباعه الفرقة والاختلاف والغدر والخيانة والفساد. فأساليب الإدارة والحنكة في الحكومة وإدارة شؤون البلاد مهما كانت قوية فإنها لن تؤدي إلى نتائج مرضية في ظل هؤلاء الأفراد الذين يمثلون أذرع الحاكم وعناصره في الدولة.

أجل فالحق ضعيف مهضوم إذا ما فسد أتباعه، والباطل قوى في ظل اتحاد أتباعه.

ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«فلو اتتمنت أحدكم على قعب [٨٣] لخشيت أن يذهب بعلاقته [٨٤]».

فهل من مجال للوثوق بمثل هؤلاء الأفراد الذين لا يؤتمنون على أتفه الأشياء، فضلاً عن القيام بإدارة شؤون الحكومة الإسلامية ومسائل الصلح والقتال وبيت المال وامثال ذلك.

تأملات

فأما خبرُ بُشَيْرِ بْنِ أَرْطَاءِ الْعَامِرِيِّ؛ من بنى عامر بن لؤى بن غالب، وبعث معاوية له ليغير على أعمال أمير المؤمنين عليه السلام، وما عمله من سفك الدماء وأخذ الأموال، فقد ذكر أرباب السير أن الذي هاج معاوية على تسريح بُشَيْرِ بْنِ أَرْطَاءِ- ويقال ابن أبي أَرْطَاءِ- إلى الحجاز واليمن، أن قوما بصنعاء كانوا من شيعة عثمان، يُعْظَمُونَ قَتْلَهُ، لم يكن لهم نظام ولا رأس، فبايعوا علي عليه السلام على ما في أنفسهم؛ وعامل علي عليه السلام على صنعاء يومئذ

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٦٠

عبيد الله بن عباس؛ وعامله على الجند سعيد بن نمران.

ووجه الكتاب مع رجل من همدان، فقدم عليهم بالكتاب فلم يجيبوه إلى خير، فقال لهم:

إني تركت أمير المؤمنين يريد أن يوجه إليكم يزيد بن قيس الأزحبي، في جيش كثيف، فلم يمنعه إلا-انتظار جوابكم. فقالوا: نحن سامعون مطيعون، إن عزّل عنا هذين الرجلين: عبيد الله وسعيدا.

فرجع الهمداني من عندهم إلى علي عليه السلام فأخبره خبر القوم.

فلما قدم كتابهم، دعا بُشَيْرِ بْنِ أَبِي أَرْطَاءِ، وكان قاسي القلب فظاً سفكاً للدماء، لا رافة عنده ولا رحمة، فأمره أن يأخذ طريق الحجاز والمدينة ومكة حتى ينتهي إلى اليمن، وقال له: لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي إلا بسطت عليهم لسانك؛ حتى يروا أنهم لا نجاء لهم، وأنتك محيط بهم. ثم أكف عنهم، وادعهم إلى البيعة لي، فمن أبي فاقتله، واقتل شيعة علي حيث كانوا.

ج ج

وروى إبراهيم بن هلال الثقفي في كتاب "الغارات" عن يزيد بن جابر الأزدي، قال:

سمعت عبد الرحمن بن مسعدة الفزاري يحدث في خلافة عبد الملك، قال: لما دخلت سنة أربعين، تحدث الناس بالشام أن علياً عليه السلام يستنفر الناس بالعراق فلا ينفرون معه، وتذاكروا أن قد اختلفت أهواؤهم، ووقعت الفرقة بينهم، قال: فقامت في نفر من أهل الشام إلى الوليد بن عتبة، فقلنا له: إن الناس لا يشكون في اختلاف الناس على علي عليه السلام بالعراق، فادخل إلى صاحبك فمزه فليستر بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم، أو يصلح لصاحبهم ما قد فسد عليه من أمره. فقال: بلى، لقد قولته في ذلك وراجعتة وعاتبته، حتى لقد برم بي، واستنقل طلعتي، وإيم الله على ذلك ما أذع أن أبلغه ما مشيتم إلي فيه.

فدخل عليه فخبه بمجيئنا إليه، ومقالتنا له، فأذن لنا، فدخلنا عليه، فقال: ما هذا الخبر الذي جاءني به عنكم الوليد؟ فقلنا: هذا خبر في الناس سائر، فشمز للحرب، وناهض الأعداء، واهتبل الفرصة، واغتنم الغرة، فإنك لا تدري متى تقدّر على عدوك على مثل حالهم التي هم عليها، وأن تسير إلى عدوك أعز لك من أن يسيروا إليك. واعلم والله أنه تفرق الناس عن صاحبك لقد نهض إليك. فقال لنا: ما أستغني عن رأيكم ومشورتكم، ومتى أحتج إلي

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٦١

ذلك منكم أذعكم. إن هؤلاء الذين تذكرون تفرقهم على صاحبه، واختلاف أهوائهم، لم يبلغ ذلك عندي بهم أن أكون أطمع في استئصالهم واجتياحهم، وأن أسير إليهم خاطراً بجندي، لا أدري علي تكون الدائرة أم لي! فإياكم واستبطائي، فإني آخذ بهم في وجه هو أرفق بكم.

وبعث معاوية عند خروجنا من عنده إلى بسرين أبي أَرْطَاءِ، فبعثه في ثلاثة آلاف، وقال:

سر حتى تمر بالمدينة، فاطرد الناس، وأخف من مررت به، انهب أموال كل من أصبت له مالاً؛ ممن لم يكن دخل في طاعتنا، فإذا دخلت المدينة، فأرهم أنك تريد أنفسهم، وأخبرهم أنه لا براءة لهم عندك ولا عذر؛ حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكف عنهم، ثم سر حتى تدخل مكة، ولا تعرض فيها لأحد، وأرهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة، واجعلها شردات؛ تأتي صنعاء والجند، فإن لنا بهما شيعة، وقد جاءني كتابهم.

ج ج

أن بُسراً لما أَسَقَطَ مَنْ أَسَقَطَ مِنْ جَيْشِهِ، سَارَ بِمَنْ تَخَلَّفَ مَعَهُ، وَكَانُوا إِذَا وَرَدُوا مَاءً أَخَذُوا إِبِلَ أَهْلِ ذَلِكَ الْمَاءِ فَرَكِبُوهَا، وَقَادُوا خِيولَهُمْ حَتَّى يَرُدُّوا الْمَاءَ الْآخَرَ، فَيَرُدُّونَ تِلْكَ الْإِبِلَ، وَيُرَكِّبُونَ إِبِلَ هَؤُلَاءِ، فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ حَتَّى قَرِبَ إِلَى الْمَدِينَةِ.
قال: وقد روى أن قُضَاعَةَ اسْتَقْبَلْتَهُمْ يَنْحَرُونَ لَهُمُ الْجُزْرَ، حَتَّى دَخَلُوا الْمَدِينَةَ. قال:

فَدَخَلُوهَا، وَعَامِلَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهَا أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ، صَاحِبَ مَنْزِلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَخَرَجَ عَنْهَا هَارِباً، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى بَيْعِهِ مَعَاوِيَةَ فَبَايَعُوهُ. وَنَزَلَ فَأَحْرَقَ دَوَارَ كَثِيرَةً.

ج ج

قال إبراهيم: وقد روى عوانة عن الكلبي أن بُشيراً لما خرج من المدينة إلى مكة قتل في طريقه رجالاً، وأخذ أموالاً، وبلغ أهل مكة خبره، فتنحى عنها عامية أهلها، وتراضى الناس بشيئة بن عثمان أميراً لما خرج قثم بن العباس عنها، وخرج إلى بسر قوم من قريش، فتلقوه، فشتمهم، ثم قال: أما والله لو تركت ورأيت فيكم لترككنكم وما فيكم روح تمشي على الأرض، فقالوا: ننشدك الله في أهلك وعترتك!

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٦٢

قال إبراهيم: وروى علي بن مجاهد، عن ابن إسحاق، أن أهل مكة لما بلغهم ما صنع بشر، خافوا وهربوا، فخرج بنا عبيد الله بن العباس، وهما سليمان وداود، وأمهما جويرية ابنة خالد بن قرظ الكنانية، وتكنى أم حكيم، وهم حلفاء بني زهرة، وهما غلامان مع أهل مكة، فأضلوها عند بئر ميمون بن الحضرمي.

وخرج بسر من الطائف، فأتى نجران، ثم جمعهم وقام فيهم، وقال يا أهل نجران، يا معشر النصارى وإخوان القروء: أما والله إن بلغني عنكم ما أكره لأعودن عليكم بالتي تقطع النسل، وتهلك الحرث، وتخرّب الديار!

وتهددهم طويلاً، ثم سار حتى أرحب، فقتل أبا كرب - وكان يتشيح - ويقال إنه سيد من كان بالبادية من همدان، فقدمه فقتله.

وأتى صنعاء وقد خرج عنها عبيد الله بن العباس، وسعيد بن نمران، وقد استخلف عبيد الله عليها عمرو بن أراكه الثقفي، فمنع بشراً من دخولها وقاتله، فقتله بشر، ودخل صنعاء، فقتل منها قوماً، أتاه وفد مأرب فقتلهم، فلم ينبج منهم إلّا رجل واحد، ورجع إلى قومه، فقال لهم: «أنعى قتلانا، شيوخاً وشباناً».

فندب علي عليه السلام أصحابه لبعث سرية في إثره، فتتأقلا، وأجابوا جارية بن قدامة السعدي، فبعثه في ألفين، فشخص إلى البصرة، ثم أخذ طريق الحجاز حتى قدم اليمن، وسأل عن بسر فقبل: أخذ في بلاد بني تميم، فقال: أخذ في ديار قوم يمنعون أنفسهم. وبلغ بسراً مسير جارية، فأنحدر إلى اليمامة، أخذ جارية بن قدامة السير، ما يلتفت إلى مدينة مر بها ولا أهل حصن، ولا يعرج على شيء إلّا أن يرمل بعض أصحابه من الزاد فيأمر أصحابه بمواساته أو يسقط بعير رجل، أو تحفى دابته، فيأمر أصحابه بأن يعقبوه، حتى انتهوا إلى أرض اليمن، فهربت شيعة عثمان حتى لحقوا بالجدال، وأتبعهم شيعة علي عليه السلام، وتداعت عليهم من كل جانب، أصابوا منهم، وصمد نحو بسر، وبسر بين يديه يفز من جهة إلى جهة أخرى، حتى أخرجه من أعمال علي عليه السلام كلها.

وقال بشر: أحمد الله يا أمير المؤمنين أني سرت في هذا لاجيش أقتل عدوك ذاهباً جائياً لم يُنكب رجل منهم نكبة، فقال معاوية الله قد فعل ذلك لا أنت.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٦٣

قال: ودعا علي عليه السلام على بشر، فقال: اللهم إن بسراً باع دينه بالدنيا، وانتهك محارمك، وكانت طاعة مخلوقٍ فاجرٍ آثر عنده ممّا

عندك. اللهم فلا- تُمتّه حتى تسلبه عقله، ولا- توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار. اللهم ألن بسراً وعمراً ومعاوية، وليحلّ عليهم غضبك، ولتنزل بهم نِقْمَتَكَ وليصبهم بأشك ورجزك الذي لا تردّه عن القوم المجرمين.

فلم يلبث بُشَيْرٌ بعد ذلك إلا يسيراً حتى وسوس وذهب عقله، فكان يهذى بالسيف، ويقول: اعطوني سيفاً أقتل به، لا يزال يردد ذلك حتى أتخذ له سيف من خشب، وكانوا يدنون منه المرفقة، فلا يزال يضربها حتى يُغشى عليه، فلبث كذلك إلى أن مات.

قال المسعودي في مروج الذهب بعد نقل هذه القصة أن بسراً كان يقول للناس: انظروا كيف يطعمني هذان الغلامان ابنا عبيدالله- الذان قتلا مظلومان بيدي- وكان ربما شدت يداه إلى الورا منعا من لعبه بحزئه والناس تمنعه من ذلك. [٨٥]

٢- مقومات النصر وهزيمة الأمم

لقد شرح الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عباراتها القصيرة ذات المعاني العميقة المقومات التي تمنى بها الامم والشعوب، ولا يقتصر هذا الأمر على أهل العراق والحجاز واليمن وقضية والى من الولاة كمعاوية وقائد عسكريه بسر بن ارطاة، بل يشمل كافة العصور والدهور. فقد تحدّث الإمام عليه السلام في بادئ الأمر عن وحدة الكلمة التي تعدّ السبب الرئيسي في تضامن القوى وتعبئة طاقاتها في مواجهة الأعداء. ومما لاشك فيه أنّ أهم العوامل التي أدت إلى انتصار جنود الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله على أعدائهم الذين كانوا يفوقونهم عدّة وعدداً إنّما يكمن في وحدة الكلمة. فكم من فئة قليلة هزمت عدوّها بفضل الاتحاد والإخاء. القرآن من جانبه اعتبر وحدة كلمة المسلمين من معجزات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله «هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ» [٨٦]، كما اعتبر الوحدة الإسلامية التي سادت المسلمين أبان عصر الرسالة من النعم الإلهية الكبرى على الأمة الإسلامية

«وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٦٤

أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا» [٨٧]، في حين قرن الفرقه والشقاق بالعذاب الدنيوي والأخروي «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعاً» [٨٨]. كما أشار الإمام عليه السلام إلى مسألة الانضباط وحنكة القيادة على أنّها العامل الآخر المكمل لعنصر الاتحاد والإخاء والتضامن. والحق رأينا عدّة ثورات في عصرنا الراهن قد كتب لها النجاح بينما لم توفق غيرها لهذه النتيجة، ولعلّ العامل الرئيسي في ذلك النجاح إنّما يستند إلى وحدة القيادة، بينما تعاني غيرها من التشتت وتعدد مراكز القرار.

ثم تطرق عليه السلام إلى الأمانة بفضلها العامل الثالث من عوامل النصر. فمما لاشكّ فيه أنّ أمانة أمّة من الأمم لن تزدق طعم النصر والسعادة مالم تستثمر طاقاتها وثرواتها بالشكل الصحيح. ولا يتيسّر هذا الأمر إلّا إذا كانت الأمانة هي التي تحكم أفراد الامّة وتدفعها لصون إمكاناتها الاجتماعية.

أمّا العامل الأخير الدخيل في النصر فإنّما يكمن في صلاح أفراد المجتمع، وبعبارة أخرى فإنّ أفراد الامّة لن يتخلّوا على مشاكلهم ويتخلّصوا من مخالب الأعداء مالم يأخذوا بنظر الاعتبار مصالح المجتمع ويضحوا بمنافعهم الشخصية ويجدوا ويجتهدوا في إصلاح مجتمعهم، وليعلم اولئك الذين يهيمون بمنافعهم الشخصية ولو أدت إلى فساد المجتمع إنّهم إنّما يقضون على المجتمع وبالتالي يقضون على أنفسهم.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٦٥

إشارة

«اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُونِي وَسَيِّئْتُهُمْ وَسَيِّئُونِي [٨٩] فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرًّا مِنِّي! اللَّهُمَّ مِثْ [٩٠] قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاتُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ، أَمَا وَاللَّهِ - لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسٍ بِنِ عَنَمٍ. هُنَالِكَ لَوْ دَعَوْتُ أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسٌ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ».

ثم نزل عليه السلام من المنبر.

الشرح والتفسير

يتضرع الإمام عليه السلام في آخر الخطبة إلى الله بقلب مفعم بالهم والحزن فيدعو على اولئك الأتباع، غير أن دعائه عليهم يحمل تحذيراً جدياً لمن كان له أدنى صحوة من ضمير، حيث يسعى الإمام عليه السلام عن هذا الطريق إلى تنبيه أهل الضلالة وإعادتهم إلى الصراط المستقيم، فقال عليه السلام:

«اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُونِي وَسَيِّئْتُهُمْ وَسَيِّئُونِي»

ومن الطبيعي ألا يكون هناك من وقع لنصائح الإمام العادل والقائد الشجاع في قلوب عبدة الدنيا والأهواء من أهل الجهل والعجز والذل إذا ما تباينت أهداف القائد ومبادئه وخلقه مع أهداف الرعية

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٦٦

وأخلاقها، الأمر الذي يؤدي بالتالي إلى تعب الطرفين وسئم كل منهما الآخر. وإذا كان النبي صلى الله عليه وآله قد استطاع النهوض بزعامته الأقوام الجاهلية، فأنما ذلك لأنهم أقروا بأهدافه ومبادئه في التربية وقد كيفوا أنفسهم مع سننه وخلقه. ومن هنا فإن الأنبياء الذين لم يوفقوا في هذا الأمر ملوا أتباعهم، كما أن أقوامهم هي الأخرى لم تكن تطيق تحملهم. ولا يفوتنا هنا ضيق ذرع قوم لوط بنبيهم لطهارته وعفته «أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَهَرُونَ». [٩١]

ثم دعا عليهم قائلاً:

«فابدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً مني».

فهم ليسوا أتباعاً جديرين بهذا الإمام، ولم يعد إماماً مناسباً لهم، فالحكمة الإلهية تقتضي أن يخرجوا مسودى الوجوه من هذا الامتحان بعد أن تسلب منهم هذه النعمة الإلهية فيعيشوا أنواع الهوان والذل. وما أسرع ما استجيب دعاء الإمام عليه السلام، فقد تسلط عليهم بنو امية ليرتكبوا بحقهم ما قل نظيره أو انعدم في التاريخ والعجيب ماورد في بعض التواريخ الإسلامية من أن الحجاج قد ولد [٩٢] آنذاك، وبالطبع فإن أهل العراق والكوفة قد دفعوا ثمن جرائمهم وتخاذلهم قبل ذلك، إلا أنها بلغت ذروتها على عهد الحجاج. طبعاً ليس المراد بالعبرة «أبدلهم بي شراً مني» أتى سىء ولكن سلط عليهم من هو أسوأ مني. بل هي مقارنة تطلق على الخير المطلق والشر المطلق، فقد جاء في القرآن سورة الفرقان بعد أن أشار إلى شدة عذاب جهنم قائلاً: «قُلْ أَذْ لِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخَالِدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ».

وبعبارة أخرى لم يكن أهل العراق والكوفة آنذاك أختيار ليسأل الإمام عليه السلام الله أخير منهم، ولا الإمام عليه السلام - والعياذ بالله - كان سيئاً ليسلط الله عليهم من هو أسوأ منه، ففي مثل هذه الموارد تفقد صيغة أفعال التفضيل مفهومها العادي وترد للمقارنة بين شيئين متضادين. ويبدو أن هذا الدعاء شبيه الدعاء الذي ابتهل به نبي الله نوح عليه السلام على قومه بعد أن يئس من صلاحهم «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» [٩٣]. ثم قال عليه السلام: «اللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبِهِمْ كَمَا يُمَاتُ الْمَلْحُ

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٦٧

في الماء». لعل المراد بموت قلوبهم (بمعنى ذوبانها) هو هجوم الهموم والغموم عليها بحيث تجرح عواطفهم الإنسانية إلى درجة يقال

ذاب القلب، فقد ورد شبيه هذا المعنى في خطبة الجهاد رقم ٢٧ إذ قال عليه السلام:

«والله، يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم»

. ومن الواضح أن المراد بذوبان القلب ضياع العقل والفظنة والدراية والحكمة. فمفهوم العبارة: خذ عقولهم وحكمتهم لهذا النفاق والعصيان فيعيشوا الحيرة والاضطراب في حياتهم. وقد ورد التعبير عن القلب بمعنى العقل والحكمة أو وعاء العقل والحكمة في عدة آيات وروايات، ومن ذلك ماورد في الآية ٢٥ من سورة الانعام: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ». والواقع أن من أعظم العقوبات الإلهية- التي أوردها القرآن الكريم والروايات بالنسبة للأفراد من أهل النفاق والمعصية- هي الا يرى الإنسان الحقائق ولا يدركها كما هي، فيعيش القلق والحيرة والضلال. ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالقول:

«أما- والله- لوددت أن لى بكم ألف فارس من بنى فراس بن غنم.

ثم تمثل بقول الشاعر:

هنالك لو دعوت أتاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم

ثم نزل الإمام عليه السلام من المنبر:

قال السيد الشريف: أقول: «الارمية» جمع «رمي» وهو السحاب والحميم، هاهنا وقت الصيف. وإنما خص الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه أشد جفولاً ولا أسرع خفوفاً؛ لأنه لا ماء فيه. وإنما يكون السحاب ثقيل السير لا متلائه بالماء، وذلك لا يكون في الأكثر إلزامان الشتاء، وإنما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا، ولا إغاثة إذا استغيثوا، والدليل على ذلك قوله: هنالك لو دعوت أتاك منهم.

بنو فراس بن غنم

هم بنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة، حى مشهور بالشجاعة، منهم علقمة بن فراس وهو جذل الطعان. ومنهم ربيعة بن مكدم بن حرثان بن جذيمة بن علقمة بن فراس الشجاع المشهور، حامى الظعن حياً وميتاً، ولم يحم الحریم وهو ميت أحد غيره؛ عرض له فرسان من بنى سليم، ومعه طعائن من أهله يحميمهم وحده، فطاعتهم، فرماه نبيشة بن حبيب

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٦٨

بسهم أصاب قلبه، فنصب رمحه فى الأرض، واعتمد عليه وهو ثابت فى سرجه لم يزل ولم يمل.

وأشار إلى الطعائن بالروح، فسن حتى بلغن بيوت الحى، وابن سليم قيام إزاءه لا يقدمون عليه، ويظنونه حياً؛ حتى قال قائل منهم: إنى لا أراه إلاميتاً، ولو كان حياً لتحرك؛ إنه والله لمانل راتب على هئية واحدة، لا يرفع يده، ولا يحرك رأسه. فلم يقدم أحد منهم على الدنو منه، حتى رموا فرسه بسهم، فشب من تحته، فوقع وهو ميت، وفاتتهم الطعائن. [٩٤]

وجاء فى كتاب بلوغ الأدب أن شجاع كل فرد من أبناء هذه القبيلة بعشرة من شجعان سائر القبائل، وهم أشجع قبائل العرب. [٩٥] والطريف فى الأمر أن جيش الإمام عليه السلام فى الكوفة قد بلغ عشرات الآلاف، بل بلغ طبق رواية مئة ألف جندى [٩٦]، إلا أن الإمام عليه السلام يتمنى استبدال كل هذا الجيش بألف من فرسان بنى فراس؛ الأمر الذى يدل على مدى ضعف جيش الكوفة وعجزه، ومدى شجاعة أبناء قبيلة بنى فراس، فقد تضاعفت شجاعتهم الذاتية فى ظل الإسلام والإيمان. كما جاء فى القرآن الكريم: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ

قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ». [٩٧]

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٦٩

الخطبة السادسة والعشرون

ومن خطبة له عليه السلام وفيها يصف العرب قبل البعثة ثم يصف حاله قبل البيعة له نظرة إلى الخطبة.

نظرة إلى الخطبة

يرى بعض المحققين أنّ الدافع من هذه الخطبة (أو بتعبير آخر كتابة هذه الرسالة) أنّه سأل البعض علياً عليه السلام عن رأيه بمن سبقه من الخلفاء بعد أن استولى أصحاب معاوية على مصر وقتلوا محمد بن أبي بكر. فاستنكر عليهم الإمام عليه السلام ذلك بعد أن استولى معاوية على مصر وقتل شيعة، فكتب الإمام عليه السلام هذا الكتاب. [٩٨] ويتصور أحياناً بأنّ الخطبة اختتمت بالدعوة إلى الجهاد وهذا ما يتنافى وما ذكر، حيث يدل ذلك على أنّ الكلام صدر عن الإمام عليه السلام قبل معركة صفين، لكن يمكن أن يكون هذا الكلام إشارة إلى معركة أراد الإمام عليه السلام أن يعب الناس لها قبل شهادته، غير أنّ شهادته عليه السلام حالت دون ذلك. على كل حال فالخطبة على ثلاثة أقسام: القسم الأول في وضع العرب في الجاهلية وعلى أعتاب انبثاق الدعوة الإسلامية وبعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله التي أنقذتهم ممّا لا يمكن تصوره من البؤس والشقاء.

والقسم الثاني في الحوادث التي اعقت رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله وكيفيه غضب حق الإمام عليه السلام في الخلافة، وسكوته حفظاً للإسلام والقرآن بينما كان يعيش حالة من التدمير والاستياء.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٧٠

والقسم الثالث إشارة إلى البيعة المشروطة لعمر بن العاص على معاوية والتي أدت إلى تلك الولايات والمصائب والأضرار الفادحة في الأرواح والأموال، ثم يختتم الخطبة بحث أتباعه بالتأهب للقتال.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٧١

القسم الأول: العرب في الجاهلية

إشارة

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ - مَعْشَرَ الْعَرَبِ - عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ مُنِيحُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَاتٍ صُمِّ تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَ كُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ وَالْأَتَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ».

الشرح والتفسير

يتطرق الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة إلى أوضاع العرب في الجاهلية في رسم صورة واضحة الملامح عن حياتهم من خلال الأبعاد الفكرية والعاطفية والاقتصادية والاجتماعية، بحيث لا تتوصل لهذه الصورة التي رسمها الإمام عليه السلام ولو طالعنا كافة المؤلفات التي صنفت بشأن العرب في العصر الجاهلي. ويبدو أنّ الإمام عليه السلام استهل الخطبة بهذا الكلام ليذكرهم بالعصر الجاهلي الذي سبق الإسلام فيقارنونه بما بعد البعثة النبوية الشريفة فيقفوا على قيمة الإسلام ولا يضحوا بهذه القيمة والنعمة من خلال هذه الفرقة والاختلاف وأتباع الأهواء والشهوات، ولا غرو فقيمة النعم تبقى مجهولة ولا يعرف قدرها إلّا إذا فقدت فقد قال عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ».

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أكد على جانب الانذار في رسالة النبي صلى الله عليه وآله، بينما نعلم أنّ الانذار قد قرن

بالبشارة، كما ورد ذلك في عدة آيات قرآنية، كآية الشريفة «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» [٩٩] وسائر الآيات القرآنية. [١٠٠] غير أن الانذار بالعقاب

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٧٢

والتهديد بالعذاب غالباً ما يكون الدافع لحركة الامة نحو القيام بوظائفها والتحفظ عن تركها كان التأكيد أكثر على مسألة الانذار، ومن هنا ورد التأكيد في أغلب الآيات القرآنية على الانذار بشأن رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسائر الأنبياء، ولم تطالعا أى من الآيات التي اقتصرت على البشارة. وهذا هو الاسلوب الذي اعتمده القوانين المعاصرة، حيث ركزت على جانب العقوبة بصفقتها الضمانة الإجرائية الناجحة، ونادراً ما يعتمد الحث والتشجيع من أجل تحقيق الغرض المذكور. بصورة عامة فإن الهدف النهائي للانذار هو إثارة الشعور بالمسؤولية تجاه الوظائف والتكاليف الملقاة على عاتق الإنسان. وهنا لا ينبغي أن ننسى بأن انذار النبي صلى الله عليه وآله يشمل كافة الكائنات؛ الأمر الذي يدل على عالمية الدين الإسلامي وخلوده، لأن للعالمين مفهوم واسع يشمل كافة أفراد البشرية في كل عصر ومصر. قوله عليه السلام:

«أميناً على التنزيل»

تلويح ضمنى بعصمه رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو صائن لكتاب الله ومبلغه للعالم دون أدنى تغيير. ثم تطرق عليه السلام لأوضاع العرب زمان الجاهلية في عشرة عبارات مقتضبة المعاني تشير إلى أربعة محاور، فقال:

«وأنتم معشر العرب على شر دين»

وأى دين أسوأ من الوثنية؟ أن ينحت عاقل قطعة من الحجر أو الخشب بيده ثم يسجد لها ويعبدها ويرى مقدراته بيدها ويلوذ بها في حل المشاكل التي تواجهه في حياته، أو أن يصنع صنماً من التمر يتخذها إلهاً فاذا جاع أكله. أضف إلى ذلك الانحراف الخطير فان طقوس هؤلاء القوم مملوءة بالخرافات والعقائد السخيفة البعيدة عن المنطق والتي سطرها كتب تأريخ العرب في العصر الجاهلي، وسنعرض لجانب منها لاحقاً.

هذا على مستوى العقائد والأفكار. ثم تطرق عليه السلام إلى أوضاعهم الاقتصادية المزريّة فقال عليه السلام: «وفي شر دار

منيخون» [١٠١] بين حجارة خشن وحيات صم، تشربون الكدرو تأكلون الجشب». [١٠٢]

تعبيره عليه السلام «شر دار» بالنسبة لمحل إقامة عرب الجاهلية، رغم أن أغلبهم (ولاسيما من

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٧٣

خاطبهم الإمام عليه السلام بهذه الكلمات) كانوا يقطنون في مكة أو المدينة يفيد أن هاتين المنطقتين قد فقدتا قدسيتهما ومكانتهما المعنوية إثر تبدلها إلى مركز للأصنام والأوثان والفساد والانحراف.

وقد أحاطت بهم عواصف الرمل والرياح المحرقة في تلك الصحارى الجرداء، بحيث إذا تمكن أحدهم من العثور على بقية ماء في بعض البرك والآبار فانه كان على درجة من التلوث والتعفن بسبب هبوب الرياح أو تلويثه من قبل بعض الأفراد حتى ليشعر شاربه بالغثيان، غير أن هؤلاء كانوا مضطرين لشربه، ولم يكن طعامهم بأفضل ممّا عليه الشراب.

نقل أحد شراح نهج البلاغة أن إعرابياً سئل: «أى الحيوانات تأكلون في البادية؟» قال:

«نأكل كل ما دبّ ودرج الا أم جبين». [١٠٣]

أمّا التعبير بالحيات الصم، هو أن الحية الصماء أخطر من غيرها لأنها صماء لا تنزجر بالصوت، أو لعل سمها أخطر.

أما المحور الثالث فقد أشار فيه الإمام عليه السلام إلى أوضاعهم الاجتماعية المزريّة وإنعدام الأمن والاستقرار فقال عليه السلام:

«وتسفكون دمائكم»

والتعبير بالمضارع

«تسفكون دمائكم»

كسائر الأفعال في عبارات الخطبة يفيد استمرار هذه الأوضاع المتفاقمة. والواقع لا تحتاج قضية سفك الدماء المتعارفة بينهم إلى دليل، فسيوفهم تشهر لاتفه الأسباب ليخوضوا أعنف المعارك وأشرسها لشهور بل لسنوات- ولعل نظرة عابرة إلى معاركهم المعروفة بحرب الفجار والتي ستشير إليها لاحقاً تفيد أنّ أولئك الجهال كانوا يخوضون أشرس القتال من أجل أهون الأشياء. وأخيراً أشار عليه السلام إلى المحور الرابع المتمثل بأوضاعهم العاطفية المتردية

«وتقطعون أرحامكم»

ولعل العبارة إشارة إلى قضية وأد البنات ودفنهن أحياء، حيث كانوا يرون البنت تجر عليهم الخزي والعار، فكان أحدهم يتوارى عن الأنظار خجلاً إذا ولدت له بنت، وهذا ما أشارت إليه الآية ٥٨ و ٥٩ من سورة النحل «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» وقد لا يكتفى البعض بالاعتصار على هذا القتل على البنات فيعمد إلى قتل ولده خشية الفقر؛ الأمر الذي نهى القرآن عنه بشدة، فقد نهت عن ذلك الآية ٣١ من سورة الاسراء «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ» بل كان الوالد يقتل ولده والولد والده والأخ أخيه عبثاً، فقد عاشت الرحم فاجعة لم يشهد لها التاريخ مثيل.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٧٤

ويختتم الإمام عليه السلام كلامه بخلاصة مفاسدهم المعنوية والمادية بالقول «الأصنام فيكم منصوبة والآثام بكم معصوبة»

. وكان تعبيره (منصوبة) إلى أنهم كانوا يفتخرون بهذه الأصنام فينصبونها في كل مكان فضلاً عن عبادتها والسجود لها. ومعصوبة من مادة عصب (ما يربط العضلات بالعظام) إشارة إلى أنواع المعاصي من قبيل سفك الدماء وقتل النفس وقطع الرحم والتعرض للنواميس ونهب الأموال وشرب الخمر والقمار و... التي اجتاحت عرب الجاهلية وعليه فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى انحرافاتهم العقائدية والأخلاقية وأزماتهم الاقتصادية والعاطفية ومدى الانحطاط والسقوط الذي بلغوه على هذه المستويات.

تأملات

١- آفاق العصر الجاهلي

ضروري هو البحث حول العصر الجاهلي والمسائل المختلفة المرتبطة به من أجل التعرف على الإسلام وعظمة النبي صلى الله عليه وآله، فقد سعى المؤرخون لإحصاء المسائل المتعلقة بذلك العصر، وقد أشرنا إلى هذه المسألة في شرح الخطبة الثانية، وحيث أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة إلى ذلك الموضوع فإننا نرى ضرورة الإشارة إلى بعض الأمور:

أ الحديث طويل في عقائدهم الخرافية فالوثنية كانت هي الحاكمة والمنصوبة في جوف الكعبة فهناك أوثان القبيلة والاسرة، ولبعضها أشكال وأخرى دون شكل. من عقائدهم أن الملائكة بنات الله، في حين ينفرون أنفسهم بشدة من البنات. وينكرون القيامة ويشاورون أصنامهم في الأمور المهمة، وطريقة ذلك أنهم يكتبون على السهام «افعل» و «لا تفعل»

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٧٥

فيجعلونها مع بعضها ويخرجون واحد منها على أنه الأمر الذي أصدره الوشن. ومن خرافاتهم العقائدية الإيمان بالغيلان وطيور الشؤم والبركة وما إلى ذلك.

ب- على الصعيد الإقتصادي فقد كان يدفعهم الفقر وعلاوة على وأد البنات إلى قتل الأولاد. وأغلب دخلهم كان عن طريق السلب والنهب، وكان الأغلب وبسوء الوضع الإقتصادي يعيش حافيا شبه عريان، وإن كان لأحدهم لباس متواضع دعا، ذلك للفخر فينشد:
من يك ذابت فهذا بتي مقبض مصيف مشت!

ج- على المستوى العاطفي فكفاهم أنهم لم يرحموا أي شيء وذلك بسبب طبيعتهم الوحشية كما يقول ابن خلدون حيث يميلون إلى السلب والتهب ولذتهم بذلك وفخرهم بالقتل - روى أن أحدهم سمع قول النبي صلى الله عليه وآله في وصف الجنة ونعمها، فسأل هل فيها قتال - قيل: لا.

قال إذن لا خير فيها. قيل في بعض التواريخ أن الحروب التي نشيت بين عرب الجاهلية بلغت ١٧٠٠ حرب دام لبعضها مئة عام وتعاقبت عليها الأجيال، وما أكثر الحروب التي كانت تنشب لأتفه الأسباب.

د- أما على الصعيد الإجتماعي فقد كانت أوضاعهم مزريه بفضل إنتشار الفساد والخمر حتى كان الشراب هو المتبادر إلى الأذهان من التجارة والشجاعة تعنى القتل والغيره والعفه تعنى وأد البنات - كانوا يعشقون ثلاث: المرأة والخمر والقتال حتى قال شاعرهم:
إذا مت فادفني إلى جنب كرمه تروى عظامي بعد موتي عروقتها
ولا تدفني في الفلات فأنني أخاف إذا ما مت ألاً أذوقها

كانوا يعتقدون بوجوب نصره الصديق على الحق كان أم الباطل. كما كان القمار بارزا عندهم حتى أنهم كانوا يخسرون فيها نساءهم. كان الزنا منتشرًا بينهم حتى إشتهر عندهم الزانيات من أصحاب الرايات، وهكذا سائر المفاسد التي لا مجال لإحصائها. [١٠٤]
نعم هكذا كان العرب وقد أتقدمهم الله بالإسلام، فلم ينجو من الخرافات والوثنية
نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٧٦

والعقائد المنحطه، بل تغيرت حتى أوضاعهم الإجتماعية والإقتصادية والعاطفية وقد صنع من إنسانهم المتوحش مثال الفرد المتحضر الأسوء كمن على شاكله أبي ذر والمقداد وعمار وبلال.
وتتضح عظمة الإسلام ورسالة النبي صلى الله عليه وآله من هذه المقارنه، أما ظهور آثار الجاهلية في عصرنا باشكالها الأوسع والأقسى - بسبب الإبتعاد عن تعاليم الأنبياء سيما تعاليم نبي الإسلام صلى الله عليه وآله لهي شهادة أخرى على عظمة هذه الرسالة.

٢- شر دار أم خيرها

النقطة الجديدة بالذكر في الخطبة المذكورة وصفه لموضع سكن عرب الجاهلية بشر دار، بينما وصف ذلك العصر في الخطبة الثانية بالقول «خير دار وشر جيران» ولما كان المراد في العبارتين أرض مكة فيبدو هناك تناقضاً، إلا أن أدنى تأمل يفيد عدم وجود أي تناقض - فأرض مكة ذاتاً مركزاً لأفضل دار يعنى الشعبة، ولكن بالعرض فإن جميع هذه الأرض المقدسه حتى بيت الله فقد لوثت بالشرك والوثنية والمفاسد الأخلاقية. وعليه فهي شر دار باعتبار وخير دار باعتبار آخر.

ج ج

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٧٧

القسم الثاني: الصبر المرير

إشارة

«فَنظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَى، وَشَرِبْتُ عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ الْكَظْمِ، وَعَلَى أَمْرٍ مِنْ طَعْمِ الْعَلَقَمِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- في هذا المقطع من الخطبة- إلى الحوادث التي أعقبت رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله ولاسيما حادثة الخلافة، ويتطرق إلى السبب الذي دعاه إلى السكوت وعدم المطالبة بحقه المسلم في الخلافة، أي خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله والتي كانت في الواقع حق المسلمين- فقال عليه السلام:

«فَنظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي»

نفحات الولاية؛ ج ٢؛ ص ٧٧

من الواضح أن القيام بالأمر تجاه تلك الطائفة المتحزبة- التي تشهد التواريخ بأنها خططت للالتفاف على الخلافة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله- لا ينسجم وأى منطق؛ لأن مثل هذا القيام ليس فقط لا يتمخض عن نتيجة، بل سيؤدي ذلك القيام إلى قتل طائفة من صفوف أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، أضف إلى ذلك فإن هذه المواجهة قد تقود إلى شق صفوف المسلمين بما يعود بالنفع للمنافقين الذين كانوا يترصدون بالمسلمين مثل هذه الحوادث بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله؛ الأمر الذي جعل الإمام عليه السلام يفضل الصمت والسكوت ومن هنا واصل الإمام عليه السلام خطبته بهذا الشأن فقال:

«وَأَغْضَيْتُ [١٠٥] عَلَى

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٧٨

القذى [١٠٦] وشربت على الشجا [١٠٧]، وصبرت على أخذ الكظم [١٠٨] وعلى أمر من طعم العلقم [١٠٩].»

تأملات

١- الأحداث المبررة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله

تشبه هذه العبارات تلك التي وردت في الخطبة الثالثة المعروفة بالخطبة الشقشقية، بل هي أشد وقعاً منها، وتفيد أن الإمام عليه السلام قد قضى ساعات ولحظات غاية في المرارة إبان تلك السنين- ما يقارب خمس وعشرين سنة- التي قضاها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله و آله جليس الدار حين دفع عن حقه في الخلافة.

ولم يكن تدمير الإمام عليه السلام كونه لم يترعم الحكومة، فقد أعلن صراحة عن عدم إكترائه لهذا الأمر وأشار كراراً إلى أن هذه الخلافة لا تساوي عنده شيء إلا أن يقيم حقاً أو يدحض باطلاً، فهي مسؤولة إلهية وليست وسيلة للفخر والمباهاة، وإنما كان تدمره لأنه كان يشهد تنصل الأمة شيئاً فشيئاً عن الإسلام وابتعادها عن القيم وحياتها لسنن الجاهلية حتى حدث ما كان يخشى منه، فقد تسلم معاوية زمام أمور الدولة الإسلامية وأصبحت خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله ملكية وراثية ليرثها من بعده ولده يزيد الذي ارتكب أفظع الجرائم والجنايات بحق المسلمين وتكشف عبارات الإمام عليه السلام عن مدى الدعايات الشديدة التي مارسها القائمين على شؤون الحكومة من جهة وتهديد الأمة وارعابها من جهة أخرى في إقصاءه عن حقه المسلم في الخلافة بحيث لم يكن معه من ينهض بالأمر سوى أهل بيته، فقد نقل المؤرخون عن الإمام عليه السلام أنه قال:

«لو وجدت أربعين ذوى عزم لقاتلت» [١١٠]

والذى يستوحى من عباراته عليه السلام أنّ

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٧٩

المتحمسين لغصب الخلافة لم يكونوا يتورعون حتى عن سفك دماء أهل البيت عليهم السلام، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«فضنت بهم عن الموت»

؛ الأمر الذى يبدو عجبياً ورهيباً للغاية، وان كانت مثل هذه الامور الأخلاقية ليست عجيبة في عالم السياسة والحكومة! كما يحتمل أن يكون أولئك المتعصبين للخلافة يتربصون الدوائر بذرية الإمام عليه السلام التى كانوا يرون أنّها ستصدى للخلافة مستقبلاً، فهم يهتمون بقتلهم لكى لا تبقى لأهل البيت من باقية تنهض بمسؤولية الخلافة.

أما السؤال عن مدى لوعة الإمام عليه السلام وشدة تلك الأيام التى كانت تمر عليه وهو جليس الدار، يتطلع بذهول لتلك الأفعال التى ارتكبت باسم الحكومة الإسلامية من قبيل تحريف العقائد والانحراف فى فهم النصوص والأحكام الإسلامية وتضييع العدالة وبالتالي استبدال الحكومة الإسلامية بالملكية الوراثية كحكومة فرعون وقىصر وكسرى، فالإجابة عليه قد وردت فى الخطبة الثانية والستين من نهج البلاغة التى قال فيها الإمام عليه السلام:

«أما بعد، فإن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه و آله نذيراً للعالمين، ومهيماً على المرسلين، فلما مضى تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كن يلقى فى روعى ولا يخطر ببالى أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه و آله عن أهل بيته، ولا أنّهم منحوه عنى من بعده! فما راعنى إلاّ انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدى حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه و آله، فخشيت إن لم أنصر الإسلام، وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به على أعظم من فوت ولا يتكم التى إنّما هى متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحاب؛ فنهضت فى تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهه»

فالإمام عليه السلام كان يشهد آنذاك مشكلتين خطيرتين؛ الأولى ذهاب حقه المسلم فى الخلافة؛ الحق الذى أدى زواله إلى انحرافات عظيمة برزت على الساحة الإسلامية، والثانية تكمن فى الخطر الذى كان محدقاً بالإسلام، والفرصة التى كان ينتظرها تيار النفاق من أجل الاجهاز عليه، فما كان منه عليه السلام إلاّ أن يعمل بالقاعدة المنطقية العقلانية والشرعية فى تقديم الأهم على المهم عند التزاحم، فسكت على مضض عن حقه فى الخلافة حفاظاً على بيضة الإسلام.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٨٠

٢- هل بايع الإمام عليه السلام الخليفة الأول؟

كثر الكلام بين المؤرخين والمحدثين بشأن موقف الإمام على عليه السلام من خلافة الأول والبيعة التى تمت له فى سقيفة بنى ساعدة. وليس هنالك من اتفاق بين علماء الشيعة والسنة بهذا المجال، فقد صرح الشارح البحرانى أن أغلب علماء الشيعة يعتقدون أنّ الإمام على عليه السلام امتنع عن مبايعة الخليفة الأول، وقد انضم إليه عدد من بنى هاشم، إلاّ أنّهم اضطروا آخر الأمر لبيعته بعد أن اجبروا عليها. وقيل أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام لازم البيت ولم يخرج، فلما رأوا أنّه وحيد تركوه ولم يحملوه على البيعة. أما محدثوا العامة فقد ذهبوا إلى أنّ الإمام عليه السلام قد امتنع عن البيعة ستة أشهر حتى توفت الزهراء عليها السلام فبايع طوعاً. وللمرحوم العلامة السيد شرف الدين صاحب المراجعات تحليل رائع بهذا الشأن، خلاصته أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يؤكد حقه المسلم فى الخلافة ونص النبى صلى الله عليه و آله بالوصية عليه من جانب، ومن جانب آخر أراد أن يفوت الفرصة على المنافقين - الذين كانوا يتربصون

الدوائر بالإسلام ويرون السبيل قد تمهد أمام أطماعهم بالقضاء على الدين من خلال الاختلافات بين الأنصار والمهاجرين - فامتنع عن البيعة مدة (ليعلن عن حقه في الخلافة)، ثم بايع حفظاً للإسلام ودرءاً لخطر المنافقين والمتربصين بالدين. [١١١] وقد وردت بعض العبارات التي تشير إلى هذا المعنى في الخطبة ٦٢ من نهج البلاغة

«... فأمسكت يدي حتى رأيت راجعاً الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به على أعظم من فوت ولايتكم...». وستحدث إن شاء الله بما يناسب المقام حين شرحنا للخطب والرسائل المرتبطة بهذا البحث.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٨١

القسم الثالث: المساومة السياسية المفوضه

إشارة

ومنها:

«وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَنًا، فَلَا ظَفِرَتْ يَدُ الْبَائِعِ، وَخَزِيَتْ أَمَانَةُ الْمُبْتَاعِ، فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا، وَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا فَقَدْ شَبَّ لَهَا، وَعَلَا سَنَاها، وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى النَّصْرِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى المساومة الفاضحة التي اشترطها عمرو بن العاص على معاوية كضمن للبيعة، فقال:

«ولم يبايع حتى شرط أن يؤتية على البيعة ثمناً»

. فقد ذكر المؤرخون: لما نزل على عليه السلام الكوفة بعد فراغه من أمر البصرة، كتب إلى معاوية كتاباً يدعو به إلى البيعة، أرسل فيه جرير بن عبد الله البجلي. فقدم عليه به الشام، فقرأه واغتم بما فيه، وذهبت به أفكاره كل مذهب، وطاول جرير بالجواب عن الكتاب، حتى كلم قوماً من أهل الشام في الطلب بدم عثمان، فأجابوه ووثقوا له، وأحب الزيادة في الاستظهار، فاستشار بأخيه عتبة بن أبي سفيان، فقال له: استعن بعمر بن العاص فإنه من قد علمت في دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان في حياته، وهو لأمرك أشد اعتزالاً؛ إلماً أن يثمن له دينه فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا. فكتب إليه معاوية «أما بعد، فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في نفر من أهل البصرة، وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي، وقد حبست نفسي عليك، فأقبل أذاكرك أموراً لا تعدم صلاح مغبتها، إن شاء الله» - فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنه: عبد الله بن عمرو ومحمد بن عمرو، فقال لهما: ما تريان؟ فقال عبد الله: قر في منزلك فلست مجعولاً خليفته، ولا تزيد علي أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة. أما ولده

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٨٢

الآخر فقال: الحق بجماعة أهل الشام فلما دخل عمرو بن العاص الشام، خاطبه معاوية قائلاً:

«يا أبا عبد الله أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشق عصى المسلمين وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرق الجماعة وقطع الرحم» [١١٢]. فقال له عمرو: من هو؟ قال: علي. فقال عمرو بن العاص: «والله ما أنت وعلى بجملي بعير ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه». ووالله إن له مع ذلك لحظاً في الحرب ليس لأحد غيره، ولكني قد تعودت من الله تعالى إحساناً وبلاءً جميلاً؛ فما تجعل لي إن شايعتك على حربيه، وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر؟ قال معاوية: حكمك، فقال عمرو: مصر. فتلكأ عليه معاوية وقال: يا أبا عبد الله إنني أكره لك أن تتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا، قال عمرو: دعني عنك. فأشار عليه عتبة بأن يجيب عمرو، فأجابه وأعطاه مصر. [١١٣] جدير بالذكر إن مصر كانت في نفس عمرو بن

العاص لأنه هو الذي فتحها في سنة تسع عشرة من الهجرة في خلافة عمر، فكان لعظمها في نفسه وجلالته في صدره، وما قد عرفه من أموالها وسعة الدنيا، لا يستعظم أن يجعلها ثمناً من دينه. أضف إلى ذلك فقد ولاها أربع سنوات على عهد الخليفة الثاني، وأربع أخرى على عهد عثمان حتى عزله. ثم قال الإمام عليه السلام:

«فلا ظفرت يد المبايع، وخزيت أمانة المبتاع» [١١٤]

. فالواقع كلامه عليه السلام يتضمن الدعوة ضد المشتري والبائع. نعم صحيح أن معاوية قد وفى له بوعده وأعطاه مصر، إلا أنه لم يحكمها مدة طويلة بعد أن وافاه الأجل، إلى جانب ما نقل عنه أواخر عمره عن مدى خشيته من عاقبه ومصيره، فلم يذق طعم النصر الذي كان يحلم به. كما أن معاوية وإن وطد دعائم حكومته بهذا العمل إلا أنها آلت إلى الانهيار المخزى بعد أن انفرج عنه كافة الصحابة من المهاجرين والأنصار والأفراد المشهورين بحسن السمعة من أهل الورع والتقوى ولم يتمحور حوله سوى تلك الثلة التي ورثت العداة للإسلام وسليلى زعماء الجاهلية، فكانوا أعرانه الذين يبطش بواسطتهم الناس ويجرعونهم أشبع غصص القتل والارعاب والتهديد والوعيد. كما يحتمل ألا تكون العبارة من

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٨٣

قبيل الدعاء، بل هي جملة خبرية؛ أى أن بيع الدين بالدنيا لا يقود إلى النصر أبداً، بل ستكون الخسارة من نصيب البائع والمشتري؛ الأمر الذى أشارت إليه بعض الآيات القرآنية «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم» [١١٥] والآية «أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون» [١١٦]. وتعبير الإمام عليه السلام بالأمانة عن حكومة مصر وحقوق أهلها من المسلمين إشارة صريحة إلى أن حكومة الأئمة وإدارة شؤونها إنما هي أمانة إلهية لا بد أن ينهض بعبئها الأخيار الصالحين بغية ضمان مصالح الأمة، وأما أولئك الذين يتخذون هذه الحكومة وسيلة لتحقيق مآربهم وأغراضهم الشخصية إنما يخونون هذه الأمانة الإلهية وهذا ما سيؤدى فى آخر الأمر إلى فضيحتهم وزوال حكمهم.

ومن هنا صرح أغلب المفسرين بأن المصداق الوحيد أو المصداق البارز للأمانة الواردة فى الآية الشريفة «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا» [١١٧] إنما هي الحكومة والولاية. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بحث الأمانة على الاستعداد والتأهب لمنازلة العدو

«فخذوا للحرب اهبتها» [١١٨]، وأعدوا لها عدتها فقد شبَّ [١١٩] لظاها [١٢٠] وعلا سناها [١٢١]»

. فالعبارة تفيد أن الإمام عليه السلام قد اعتمد كافة الطرق السلمية من أجل وضع حد لذلك النفاق والعداء ولاسيما غدر أهل الشام وحكامهم إلا أن كل ذلك لم يجد نفعاً، فكان حجم التآمر والدسائس يزداد كل يوم، فما كان منه عليه السلام إلا أن أمر بالتأهب للقاء العدو؛ فقد شبت لظى نيران الأعداء وتصاعدت ألسنتها، ولا بد من مواجهتها والعمل على اطفائها. كما يشير التأريخ الإسلامى إلى أن أعداء الإمام عليه السلام كانوا يسارعون للاستعداد للقتال وقد بعثوا بكتبهم ورسائلهم إلى طلحة والزبير. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام بالإشارة إلى الصبر بفضله أحد أهم مقومات النصر فقال «واستشعروا

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٨٤

الصبر فإنه أدعى إلى النصر». واستناداً إلى مفردة الاستشعار من مادة (ش ع ر) التى تعنى الثياب الداخلية (فى مقابل الدثار بمعنى الثياب الخارجية) يتضح أن الصبر والاستقامة لا بد أن تسود باطن الإنسان وتمد الإنسان بمعانى الصمود إزاء الحوادث المريرة.

تأملات

هناك عبارة ما انفكت الألسن ترددتها حتى صارت مثلاً، وهي قولهم «الملك عقيم» التي تفيد تنكر السياسة المادية - القائمة على أساس القيم الدنيوية والأنانية والأطماع الشخصية - حتى للقرابة بما فيها الزوجة والولد والوالدين والتضحية بها من أجل تحقيق أهدافها وأغراضها؛ ولا- غرو فالساسة لا يرون من قيمة تفوق حفظ مواقعهم، وعليه فمن الطبيعي أن يضحون بالغالي والنفيس ويضربون كل قيمة عرض الحائط من أجل حفظ مصالحهم.

وقوله عليه السلام:

«فضنت بهم عن الموت»

تشير إلى أن المتعطشين للخلافة كانوا مستعدين حتى لقتل أهل البيت من بنى هاشم فيما لو استعان بهم الإمام عليه السلام ونهض بالأمر للمطالبة بحقه في الخلافة. والحديث النبوي المعروف

«حَبَّكَ للشَّىءِ يعمى ويصم» [١٢٢]

لأصدق على الرغبة بالجاء والمقام منه على سائر الامور، ونموذج ذلك ماورد في الخطبة التي نحن بصدددها. ويحفل التاريخ بسير أولئك الذين عبروا على كل شىء وسحقوه من أجل الظفر بأهدافهم في السلطة والرئاسة.

٢- باعة الدين بالدنيا!

تعرضنا إلى حد ما في البحث السابق إلى مسألة بيه الدين والقيم والمثل المعنوية بالمنافع المادية الرخيصة، ولمسنا نموذج ذلك في شخصية عمرو بن العاص الذي أشارت إليه الخطبة المذكورة، حيث صرحت بأنه ومن أجل حكومه مصر ولو لمدته قصيرة قد باع دينه وقيمه،

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٨٥

وقد أعرب آخر عمره كما أورد ذلك المؤرخون عن مدى ندمه، ولكن حيث لم ينفع الندم وقد اغلقت كافة سبل العودة. القرآن الكريم من جانبه أشار إلى هذا الأمر بصفته أحد العوامل الرئيسية المؤدية إلى الانحراف ولاسيما بالنسبة للعلماء من عبدة الدنيا. ومن ذلك ما أورده القرآن بشأن فريقاً من علماء بنى اسرائيل - الذين كانوا يبشرون بظهور النبي قبيل انبثاق دعوته على ضوء العلم الذي كان لديهم والأخبار الواردة في كتبهم (التوراة والانجيل) إلماً أنهم حرفوا الكلم حين تعرضت بعض مصالحهم المادية للخطر - فقد صرحت الآية ١٨٧ من سورة آل عمران قائلة:

«وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ».

فمن الواضح أن القرآن الكريم يذمهم من أجل أنهم حرصوا على متاع قليل، بل المراد أن المتاع المادي - وأن تضمن أرفع المقامات وأكثر الثروات - يبقى قليلاً مقارنة بالمتاع المعنوي «فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» [١٢٣].

على العموم فإن كافة الأفراد الذين يقدمون طاعة المخلوق على طاعة الخالق ويؤثرون أطماعهم ومنافعهم على الآخرة ويضربون الأحكام الشرعية عرض الحائط ولا يكثرثون للحلال والحرام من أجل تحقيق أهوائهم الشخصية إنما هم في زمرة باعة الدين بالدنيا.

ويقابلهم أولئك الأفراد الذين لا يرون في أعمالهم سوى رضى الله والتسليم لإرادته، وهؤلاء هم الذين وصفهم القرآن بحزب الله الذين لا يرون حتى في الأهل والقرابة من عائق أمام رضى الله «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...» [١٢٤].

٣- علاقة النصر بالثبات

إن كان النصر يقوم على عدة عوامل، فإن أحد أهم هذه العوامل هو الصبر، وتبدو الرابطة

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٨٦

بين النصر والصبر على درجة من الوضوح بحيث إن الأدباء ومنذ قديم الزمان قد قرنوا الظفر بالصبر «من صبر ظفراً». وقد أشار القرآن الكريم صراحةً إلى هذه الحقيقة حتى اعتبر أن النصر حليف جند الإسلام مهما كان عدد وعدة العدو إذا ما تحلوا بالصبر والاستقامة «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا» [١٢٥]. وهذا هو السبب الذي يكمن وراء انتصار المسلمين في كافة الغزوات رغم عدم الموازنة والتفاوت الفاحش بين ما عليه الأعداء من عدة وعدد ومعدات وما عليه المسلمين، حيث كانوا يتحلون بالصبر النابع من إيمانهم بالله واليوم الآخر.

وهذا ما أكده الإمام عليه السلام في خطبته اذ قال:

«واستشعروا الصبر فإنه أدعى إلى النصر»

. ولا يسعنا هنا إلا أن نكتفي بهذا المقدار ونوكل المزيد من الكلام إلى الأبحاث القادمة. أما المسألة الجديرة بالذكر فهي أن استشعار الصبر - بمعنى نفوذه إلى عمق النفس البشرية - أو دثاره - بمعنى التحلى به على مستوى الظاهر؛ الأمر الذي يدخل الرعب إلى قلوب الأعداء - إنما يقود إلى النصر وهزيمة العدو.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٨٧

الخطبة السابعة والعشرون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وقد قالها يستنهض بها الناس حين ورد خير غزو الانبار بجيش معاوية فلم ينهضوا. وفيها يذكر فضل الجهاد ويستنهض الناس ويذكر علمه بالحرب ويلقى عليهم التبعة لعدم طاعته.

سند الخطبة وزمانها ومكانها

إشارة

قال ابن أبي الحديد هذه الخطبة من مشاهير خطبه عليه السلام؛ قد ذكرها كثير من المحققين والمحدثين (غير المرحوم الشريف الرضى) ورواها أبو العباس المبرد في أول (الكامل) وأسقط من هذه الرواية ألفاظاً وزاد فيها ألفاظاً، وقال في أولها: إنه انتهى إلى على عليه السلام أن خيلاً وردت الأنبار [١٢٦] لمعاوية، فقتلوا عاملاً له يقال له: حسان بن حسان، فخرج مغضباً يجبر رداءه، حتى أتى النخيلة، وأتبعه الناس، فرقى رباوة في الأرض، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وآله ثم قال:

أما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه، ألبس الله الذل وسيم الخسف» [١٢٧].

كما أوردها المرحوم الكليني في كتابه الكافي في بحث الجهاد. [١٢٨]

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٨٨

ونقلها صاحب مصادر نهج البلاغة عن عشرة مصادر معروفة قبل المرحوم السيد الرضى ومنها: «البيان والتبيين للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة والأخبار الطوال للدينوري والغارات للثقفى والعقد الفريد لابن عبد ربه والأغانى لأبى الفرج الأصفهاني...» [١٢٩]

وعليه فإن الإمام عليه السلام قد أورد هذه الخطبة في النخيلة حين اخبر عليه السلام بهجوم سفيان بن عوف الغامدي - والذي عبر عنه الإمام عليه السلام ب (أخو غامد) - على الأنبار وقتل عامله عليها حسان بن حسان وطائفة من المسلمين وقد نهبوا أموالهم وخربوا بيوتهم دون أن يواجهوا أدنى مقاومة ثم عادوا إلى الشام سالمين. فأما أخو غامد الذي وردت خيله الأنبار فهو سفيان بن عوف بن المغفل الغامدي؛ وغامد قبيلة من اليمن، وهي من الأزدي، أزد شنوءة - واسم غامد عمر بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد - وسمى غامداً لأنه كان بين قومه شر فأصلحه وتغمدهم بذلك. قال سفيان بن عوف الغامدي، قال: دعاني معاوية، فقال: إني باعثك في جيش كثيف، ذي أداة وجلادة، فألزم جانب الفرات، حتى تمر بهيت فتقطعها، فان وجدت بها جنداً فأغر عليهم وإلاً فامض حتى تغير على الأنبار، فان لم تجد بها جنداً فامض حتى توغل في المدائن؛ ثم أقبل إلي واتق أن تقرب الكوفة. واعلم انك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة؛ إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو الينا كل من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، وأخرب كل ما مررت به من القرى، واحرب الأموال، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب. قال: فخرجت من عنده فعسكرت، وقام معاوية في الناس فخطبهم، فقال: أيها الناس، اتدبوا مع سفيان بن عوف، فإنه وجه عظيم فيه أجر، سريعه فيه أوبتكم إن شاء الله - ثم نزل. قال: فوالذي لا إله غيره ما مرت ثالثه حتى خرجت في ستة آلاف، ثم لظمت شاطئ الفرات، فأغذذت السير حتى أمر بهيت، فبلغهم أني قد غشيتهم فقطعوا الفرات، فمررت بها وما بها عريب، كأنها لم تحلل قط، فوطئتها حتى أمر بصند وداء، ففروا فلم ألق بها أحداً، فأمضى حتى أفتتح الأنبار،

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٨٩

وقد نذروا بي، فخرج صاحب المسلحة إلى، فوقف لي فلم أقدم عليه حتى أخذت غلماناً من أهل القرية. فقلت لهم: أخبروني كم بالأنبار من أصحاب علي عليه السلام؟ قالوا: عدة رجال المسلحة خمسمائة، ولكنهم قد تبددوا ورجعوا إلى الكوفة؛ ولا ندرى الذي يكون فيها، قد يكون مائتي رجل، فنزلت فكتبت أصحابي كتائب، ثم أخذت أبعثهم إليه كتيبه بعد كتيبه، فيقاتلهم والله ويصبر لهم، ويطاردهم ويطاردونه في الأزقة، فلما رأيت ذلك أنزلت إليهم نحواً من مائتين، وأتبعتهم الخيل، فملا حملت عليهم الخيل وأمامها ثلاثين رجلاً، وحملنا ما كان في الأنبار من الأموال؛ ثم انصرفت، فوالله ما غزوت غزاه كانت أسلم ولا أقر للعيون، ولا أسر للنفوس منها. وبلغني والله أنها أرعبت الناس، فلما عدت إلى معاوية، حدثته الحديث على وجهه، فقال: كنت عند ظني بك، لا تنزل في بلد من بلداني إلا قضيت فيه مثل ما يقضى فيه أميره، وإن أحببت توليته وليتك، وليس لأحد من خلق الله عليك أمر دوني، قال فوالله ما لبثنا إلا سيراً، حتى رأيت رجال أهل العراق يأتوننا على الأبل هرباً من عسكر علي عليه السلام. وكان اسم عامل علي عليه السلام على مسلحة الأنبار أشرس بن حسان البكري. قال ابراهيم بن عبد الله بن قيس كنت مع أشرس بن حسان البكري بالأنبار على مسلحتها، إذ صبحنا سفيان بن عوف في كتائب تلمع الأبصار منها، فها لونا والله، وعلما إذ رأيناهم أنه ليس لنا طاقة بهم ولا يد، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرقنا فلم يلقيهم نصفنا، وإيم الله لقد قاتلناهم فأحسننا قتالهم؛ حتى كرهونا، ثم نزل صاحبنا، وهو يتلو قوله تعالى: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا». ثم قال لنا: من كان لا يريد لقاء الله، ولا يطيب نفساً بالموت، فليخرج عن القرية مادماً نقاتلهم، فان قاتلنا إياهم شاغل لهم عن طلب هارب، ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار، ثم نزل في ثلاثين رجلاً، فهمت بالنزول معه، ثم أبت نفسي، واستقدم هو وأصحابه، فقاتلوا حتى قتلوا رحمهم الله، وانصرفنا نحن منهزمين. [١٣٠]

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٩٠

نظرة إلى الخطبة

كما ذكرنا سابقاً فان هذه الخطبة - المعروفة بخطبة الجهاد - من أشهر خطب أمير المؤمنين عليه السلام التي تدور حول محور الجهاد.

فقد استهل الخطبة بشرح أهمية الجهاد ومعطياته والعواقب الوخيمة التي تنتظر الأمة في حالة تركه. ثم عرض باللوم لأهل الكوفة بعد أن تعرض لحملة «سفيان الغامدي» على مدينة الأنبار وشهادة «حسان بن حسان» - العامل الوفى والأمين لأمير المؤمنين عليه السلام على الأنبار - والجرائم التي ارتكبتها أهل الشام في سلب الأموال وهدم البيوت - وفي القسم الثالث من الخطبة إلى ذم أهل العراق آنذاك ثانية والتعلل ببعض الأمور بهدف التفاعس عن الجهاد - وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته ببيان استعداد التام لجهاد العدو وسوابقه المشرقة بهذا الخصوص وفي الختام فهي خطبة ذات تأثير بليغ في نفوس السامعين، حتى قال الشارح المعروف ابن أبي الحديد بهذا المجال: واعلم أن التحريض على الجهاد والحض عليه قد قال فيه الناس فأكثرُوا، وكلهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام؛ فمن جيد ذلك ما قاله ابن بناتة الخطيب بشأن الجهاد

«... فإنَّ الجهاد أثبت قواعد الإيمان، وأوسع أبواب الرضوان، وأرفع درجات الجنان ..»

ثم أضاف: فانظر إليها وإلى خطبته عليه السلام بعين الانصاف، تجدها بالنسبة إليها كمخنت بالنسبة إلى فحل، أو كسيف من رصاص بالاضافة إلى سيف من حديد. [١٣١]

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٩١

القسم الأول: الجهاد باب من أبواب الجنة

إشارة

«أَمَّا بَعِيدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسِ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللَّهِ الْخَصِيئَةُ، وَجَنَّتُهُ الْوَيْثَمَةُ، فَمَنْ تَرَكَ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الدُّلِّ، وَشَجَلَهُ الْبَلَاءُ، وَدَيَّتْ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءِ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْيَاهِبِ، وَأَدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ، وَسِيَمَ الْخَسْفَ، وَمُنِعَ النَّصْفَ».

الشرح والتفسير

لقد تعرضت الخطبة إلى فلسفة الجهاد وبركاته في عبارات قصيرة ذات عدة معان، إلى جانب الآثار السيئة لترك الجهاد، فقد قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه

«أما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنة»

وبالطبع هناك عدة أسباب وردت في الأحاديث بصفتها «أبواب الجنة» التي تؤدي إلى نيل الرحمة والفوز بالرضوان والجنة يكمن أهمها في الجهاد، فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«للجنة باب يقال له «باب الجهاد» يمضون إليه فاذا هو مفتوح وهم متقلدون بسيوفهم، والجمع في الموقف، والملائكة ترحب بهم» [١٣٢]

. ونعلم أن الجهاد في الإسلام على نوعين: جهاد العدو وجهاد النفس. وقد اصطلح على الأول بالجهاد الأصغر وعلى الثاني بالجهاد الأكبر، وكل منهما باب من أبواب الجنة.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٩٢

ولا يتيسر لقاء الله دون الجهاد الأكبر كما تتعذر العزة والرفعة في الدنيا والآخرة دون الجهاد الأصغر. ثم قال عليه السلام «فتح الله لخاصة أوليائه»

. صحيح أن جهاد العدو والنفس يعد وظيفته جميع المسلمين، إلا أن أولياء الله فقط الذين يسعهم خوض غمارهما حتى النهاية على

أساس الاخلاص والنية الحسنة، بينما قد تكون نيات الآخرين مشوبة بالطمع ونيل الغنام أو الحصول على الحياة والمنصب والشهرة وبالتالي فهم لا- يواصلون المسيرة إلى آخرها. فأولياء الله فقط الذين يقتحمون الميدان ويصبرون على الأذى في حركتهم الجهادية فيركعون كافة قوى الشر والظلام.

ونخلص ممّا سبق إلى عدم ورود الإشكال على الإمام عليه السلام في أنّه خص باب الجهاد بخاصة أولياء الله بينما كتب على جميع المسلمين. كما نفهم من قوله عليه السلام أن من طوى مسيرة الجهاد الأصغر والأكبر فهو من خاصة أولياء الله سبحانه. ثم يصف عليه السلام الجهاد فيقول

«وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة»

ونعلم أنّ اللباس زينة للإنسان وجمال له من جانب، ومن جانب آخر فانه حافظ لبدنه من شدة الحرارة والبرودة التي تؤذيه فيما لو كان عرياناً، كما يشكل أساس عزة الأقسام والشعوب ودرعها من أنواع المخاطر والآفات؛ الأمر الذي أكدّه الإمام عليه السلام في عباراته اللاحقة.

وأخيراً فالجسد العارى عرضه لأنواع الأذى موصوفاً بالقبح والشناعة، وعليه فالأمة التي تولى ظهرها للجهاد هي أمة ذليلة مهددة بكافة عناصر الزوال والانهار. أمّا علّة إضافة اللباس للتقوى في العبارة فلعل ذلك يفيد تحذير حفظ أصول التقوى دون توفر الأمن، كما يتعذر الأمن دون الجهاد. كما يحتمل تفسيرها على أنها إشارة إلى الآية ٢٦ من سورة الأعراف التي عدت التقوى نعمة الهية بعد ذكر اللباس الظاهر «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ».

وبناءً على هذا فالمراد هو أن لباس التقوى الذي ورد في القرآن إنّما مصداقه الكامل هو الجهاد الذي يجعل المجتمع يعيش الأمن والأمان على كافة المستويات [١٣٣] وهو مصدر الحسن والجمال.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٩٣

ثم شبه الإمام عليه السلام الجهاد بالدرع الحصينة والجنّة الوثيقة، والوسيلتان من المعدات الدفاعية في القتال، حيث لم يكن من أمان لأولئك الذين يخوضون المعارك سابقاً ولم يتدرعوا، وهذا هو حال الأمة التي تترك الجهاد فهي ضعيفة خاوية تجاه ضربات العدو. ولعل هذه العبارة تشير إلى حقيقة وهي أنّ الجهاد لا يراد به الهجوم على الآخرين ومن أجل التوسع والسيطرة ونهب الأموال والثروات وفرض الأفكار والعقائد، لأننا نؤمن بأنّ الإسلام والقرآن إنّما يستند إلى منطق قوى يغنيه عن شهر السيف بوجه المقابل. وعليه فإنّما شرع الجهاد من أجل حفظ المجتمع الإسلامي وإزالة الموانع التي تعترض أساليب التبليغ والقضاء على الموانع التي تحول دون حرية البيان.

أمّا الحروب المعاصرة فهي وإن نحت الدروع القديمة إلّا أنّها تعتمد اليوم الوسائل التي تفوقها في الدفاع من قبيل المدرعات والمصفحات والمواضع المحصنة، كما تلجأ إلى بعض الملابس الخاصة بغية مواجهة الهجمات الكيميائية بحيث لا تتأثر من قريب أو بعيد بخطر هذه الأسلحة.

جدير بالذكر أن ما ذكر بشأن تفسير عبارة الجهاد الأصغر (العدو الخارجي) يصدق تماماً على الجهاد الأكبر (جهاد النفس)؛ حيث لا طاقة للإنسان بهجمات الشيطان دون جهاده لنفسه. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الآثار السلبية التي يتمخض عنها ترك الجهاد ليوجزها في سبع نقاط، فقال:

«فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل»

وقوله عليه السلام (رغبة عنه) إشارة إلى استثناء الأفراد من هذا الحكم ممن يمتلكون الأعذار الموجهة التي لا تجعلهم قادرين على خوض الجهاد من قبيل العجز والمرض ونحو ذلك؛ الأمر الذي أكدته بعض الآيات القرآنية. [١٣٤] الأثر السلبي الثاني لترك الجهاد «وشمله البلاء» فمثل هذا الفرد أو الأمة إنّما يعتكف في موضع أعزل يجعله عرضة لحملات الحيوانات المفترسة بحيث تدخل عليه

دون أدنى مقاومة، والجهد وحده هو الذى يشكل السد الحديدي إزاء مثل هذا البلاء فينأى بالإنسان بعيداً عن هذه الحيوانات. أما الأثر السلبي الثالث فقد أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله «وديث [١٣٥] بالصغار [١٣٦]

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٩٤

والقماءة [١٣٧]» وكيف لا يعيش الذل والهوان والضعف من ضيع هذا السند العظيم؛ أى الجهاد.

وصحيح أن العبارتين قريبتان من بعضهما بالمعنى، إلماً أن هناك فرقاً طفيفاً، حيث كان الكلام هناك عن الذل وهنا عن الحقارة والضعف. فالمفهومان مختلفان إلماً أنها من قبيل اللزوم والملزوم. وأما المصيبة الأخرى التى تطيل تارك الجهاد فهى

«وضرب على قلبه بالأسهاب» [١٣٨]

فالأفراد الضعفاء والعجزه والمهزومون إنماً يعانون من الأوهام على الدوام فلا يسعهم تقييم الحقائق كما هى. فخشيته العدو تجعلهم يعيشون فى هالة من الخيالات المرعبة، أو أنهم يلجأون إلى بعض الخرافات من أجل تحقيق النصر كأن يتخلوا عن السيف والمقاومة ويلوذوا بالسحره والكهنه.

وقد حفل التاريخ بنماذج حيية لمثل هؤلاء الأفراد، الذين لا يكشفون بذلك سوى عن ضعفهم وعجزهم، بينما يتنزه المجاهدون الشجعان عن مثل هذه السفاسف.

ثم ذكر الأثر السلبي الخامس بقوله عليه السلام

«وأديل [١٣٩] الحق منه بتضييع الجهاد»

، وذلك لأن الحق - كما ورد فى المثل المعروف - يؤخذ ولا يعطى. فالطواغيت وأصحاب المنطق الغاشم والمستبدون لا يفوضون الحق لأصحابه أبداً، ولا بد من التحلى بالقوة من أجل انتزاع الحق من براثن اولئك الطغاة؛ الأمر الذى نوه له الإمام عليه السلام فى الخطبة التاسعة والعشرين بقوله

«لا يدرك الحق الا بالجد»

وأما الأثر السلبي السادس «وسيم الخسف» وبالالتفات إلى اطلاق الخسف والخسوف على زوال نور القمر والاختفاء فى الأرض، وان «سيم» من مادة «سوم» بمعنى الحركة إثر شىء فان مفهوم الجملة سيكون: أن تاركى الجهاد فى الواقع إنماً يسيرون باتجاه الزوال والانقراض؛ الأمر الذى لاحظناه بوضوح فى الأمم والبلدان التى آلت إلى السقوط والانهيال إثر تقاعسها عن الجهاد. [١٤٠]

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٩٥

ثم قال عليه السلام فى إطار ذكره للأثر السلبي السابع

«ومنع النصف» [١٤١]

ودليل ذلك واضح؛ لأن أتباع العدالة عادة ما يشكلون الأقلية، ولو لم يكونوا كذلك كمية فهم أقلية من حيث الكيفية والقدرة. ومن هنا فان أصحاب السطوة يندفعون بكل ما اوتوا من قوة لهضم حقوق الشعوب المظلومة ويسعون لمضاعفة ثرائهم وأموالهم. وليس لهذه الشعوب من وسيلة لاستعادة حقوقها وخلصها من براثن الظلم والاضطهاد وتحقيق العدالة الاجتماعية سوى فى خوض غمار الجهاد. وهنا تكمن أهمية العبارات التى أوردها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بشأن الجهاد وفلسفته ومعطياته الايجابية والسلبية فيما لو تخلت عنه الشعوب والامم.

كما يتضح ممّا أوردنا أن الجهاد لم يندب بفعل الثواب المعنوى المترتب عليه، بل بسبب الآثار والمعطيات الكبيرة التى يفضى إليها فى هذه الحياة الدنياوية. فهل هناك من يطلب الذل والهوان ويرضى بغصب الحقوق وتضييعها وبالتالى يحث الخطى نحو الزوال والفناء؟! فان كان الجواب بالسلب، كان علينا أن نشدد حيازيمنا ونهب لخوض الجهاد والتحلى بالصبر والاستقامة من أجل درك معطياته العظيمة فى الدنيا والآخرة وتحمل كافة الآلام والمصاعب كاحتمال المريض لمرارة الدواء من أجل التماثل للعاية والشفاء.

تأملان

١- الجهاد سر رفعة الشعوب وعزتها

كثر الكلام بشأن الجهاد، ولدينا المزيد من الكلام بهذا الخصوص طالما توالى خطبه عليه السلام في نهج البلاغة في الحديث عن هذه المسألة.

أمّا الشيء المهم الذي نود التطرق إليه بصفته مبدأ حيويًا هو أنّ الجهاد قانون الحياة الذي يمنحها الدوام والبقاء وأنّ الإنسان وكل كائن ينبض بالحياة مازال مقبلاً على الجهاد وبخلافه

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٩٦

يبدأ عده العكسي في الموت والفناء. فالنبات يواجه عدة آفات يسعى للتغلب عليها من أجل البقاء حيًا، وجذور الأشجار هي الأخرى تغوص في أعماق الأرض من أجل امتصاص الماء والأملاح فإذا ما اعترضت بعض الموانع كالصخور سعت لاختراقها ومواصلة تغلغلها في أعماق التربة وإن عجزت عن ذلك فتشت عن طريق آخر واستمرت في مسيرتها. وهكذا الحال بالنسبة للحشرات والحيوانات التي تواجه الأخطار التي تهدد كيانها باستمرار فتبدي مقاومتها من أجل مواصلة حياتها. فهناك بعض الطيور التي تهجر إلى مسافات شاسعة قد تنطلق من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي مقاومة كافة الظروف المحيطة بغية مواصلة حياتها. أمّا الإنسان فيعيش حركة جهادية مبررة على مستوى أعضائه الداخليه ودورته الدموية، فالجنود التي تدافع عن البدن- والتي يصطاح عليها بكربات الدم البيض- طيلة عمر الإنسان إنّما تتصدى ببسالة لكافة الأعداء المتمثلين بالمكروبات والفايروسات التي تحاول اختراق بدن الإنسان عن طريق الماء والغذاء والهواء والشقوق التي تحدث في الجلد.

وقد ألهمت هذه الكريات سبل الصمود بوجه كافة الأسلحة الكيميائية والفيزيائية بحيث تبيدها وتبقى على البدن سالمًا صحيحًا. فإذا ضعفت هذه الجنود لأي سبب من الأسباب وتقاعست في وظيفتها هجمت جميع الأمراض على الإنسان، وما المرض الخطير الذي يطلق عليه «الايديز» إلّا نتيجة طبيعية لاختلال عمل هذه الكريات وتوقفها عن العمل، ومن هنا فإنّ المصابين بهذا المرض الخطير إنّما يكونون عرضة للإصابة بأخطر الأمراض. وزبدة الكلام فإن الجهاد رمز الحياة وسر السعادة والسبب الرئيسي للنصر والغلبة وعامل الرفعة والعزة، لكن ليس ذلك سوى الجهاد من أجل تحقيق الحق والعدل وإلّا فليس ذلك سوى الجريمة والظلم والعدوان.

ومن هنا تظافت الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بما فيها الخطبة المذكورة التي أكدت على قضية الجهاد بما لم تول مثل هذه الأهمية لغيره من المفاهيم، ولا سيما الجهاد بالمعنى الأشمل الذي يتضمن الوقوف بوجه العدو الخارجي والداخلي. فقد جاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«من ترك الجهاد ألبسه الله ذلًا في نفسه وقرأ في معيشتة

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٩٧

ومحقًا في دينه» [١٤٢]

ويستفاد من هذا الحديث أن ترك الجهاد إنّما يهدد بالخطر الحياة المعنوية للإنسان فضلًا عن حياته المادية. وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إغزوا تورثوا أبنائكم مجددًا» [١٤٣]

كما ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام في قصار حكمه في نهج البلاغة ضمن إطار بيانه لفلسفة الأحكام الشرعية فقال:

«والجهاد عزًا للإسلام» [١٤٤]

. وأخيراً فهناك عدة خطب شحن بها نهج البلاغة بشأن الجهاد سنعرض لها في الأبحاث القادمة.

٢- هل الجهاد الإسلامي دفاعي فقط؟!

منذ سنوات وقد شغل هذا السؤال أذهان الأوساط الإسلامية بما فيها العلماء، فقد ذهبت طائفة إلى أن كافة غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله كانت دفاعية حذراً من اتهام الإسلام من أنه قد انتشر بالسيف ورهبة السلاح! أو بعبارة أخرى خشية اتهام الإسلام بالروح السلطوية والفتوحات العسكرية. وبالمقابل هناك طائفة أخرى ترى أن الغزوات الإسلامية على قسمين؛ بعضها هجومية وبعضها دفاعية، وترى أن هذين القسمين حق ثابت للمسلمين اليوم، وتعتقد أن الإسلام موظف بتحرير المسلمين الذين يرزحون تحت نير السلطات الظالمة؛ الأمر الذي يدخل ضمن الجهاد الهجومي، كما ترى أن الإسلام مكلف بتمهيد السبيل أمام ممارسة الاعلام المنطقي وإزالة كافة العوائق التي تعترض هذا السبيل ولو اضطر للجوء للقوة وهذا نوع آخر من الجهاد الهجومي. كما هنالك رأى ثالث يقول أن طبيعة القتال في الإسلام هي طبيعة دفاعية، إلا أن المسائل الدفاعية قد تجعل الهجوم ضرورة. مثلاً الدفاع عن المظلومين، أو بعبارة أخرى التدخل الإنساني وإن كان يبدو ظاهرياً هجوماً إلا أنه في

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٩٨

الواقع دفاع عن قوم يرزحون تحت الظلم والاضطهاد، وعليه فالدفاع عنهم ضروري بالنسبة لكافة الأفراد من أهل الإيمان. والهجوم بالمعنى الثاني - يعنى تمهيد السبيل أمام حرية الاعلام المنطقي وممارسة التبليغات - هو الآخر دفاع تجاه بعض الموانع، فإن الإسلام يأذن بقتال العدو إذا ما خلق بعض الموانع والعراقيل.

أما العبارات التي وردت في بداية هذه الخطبة إنما هي دليل واضح على دفاعية طبيعة الجهاد؛ فقد شبه في موضع باللباس وفي آخر بالدرع وفي ثالث بالجنه، ونعلم بأن جميع هذه الامور من قبيل الوسائل الدفاعية. وأما العبارات القادمة فقد تضمنت إشارات إلى الهجوم الذي يختزن بعداً دفاعياً، ومن ذلك قوله عليه السلام:

«قلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم»

. ويمكن أن يكون هناك استثناء واحد لهذا القانون الكلي وهو الجهاد والقتال من أجل إزالة الصنمية والوثنية؛ وذلك لأن الإسلام يرى في الوثنية أكبر خطر يهدد المجتمع البشري من الناحية المعنوية والمادية، فيصرح بالجهاد من أجل القضاء على الوثنية في حالة عدم جدوى التبليغ.

لاشك أن بعض الطغاة والجبابة سيستغلون مسألة الدفاع عن المظلومين أو مواجهة الانحطاط الفكري والثقافي كوسيلة للتغطية على أهدافهم العدوانية والتوسعية، إلا أن ذلك لا يحد من قيمة هذه المفاهيم أبداً. فاستغلال هذه المفاهيم المقدسة ليس بالشىء الجديد. وللقوف على أهداف الجهاد في الإسلام يمكن مراجعة المجلد الثاني من تفسير الأمثل، الآية ١٩٣ من سورة البقرة.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٩٩

القسم الثاني: الموت كمدأ

إشارة

«ألا- وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَإِعْلَانًا وَقُلْتُ لَكُمْ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُواكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا غَزَى قَوْمٌ قَطُّ فِي عَقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا. فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَادَلْتُمْ حَتَّى شُنْتُ عَلَيْكُمْ الْغَارَاتُ وَمَلِكْتُ عَلَيْكُمْ الْأَوْطَانَ.»

وَهَذَا أَخُو غَامِدٍ وَقَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا، وَلَقَدْ بَلَّغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَالْأُخْرَى الْمُعَاهِدَةَ فَيَنْتَرِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلَانِدَهَا وَرُعْثَهَا، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ ثُمَّ انْصَبَرُفُوا وَافْرَيْنَ مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمًا، وَلَا أَرِيَقَ لَهُمْ دَمًا، فَلَوْ أَنَّ امْرَأًا مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسِيفًا مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من تلك المقدمة المقتضبة، تطرق إلى نموذج بارز من الافرازات المشؤومة لترك الجهاد فقال عليه السلام:

«ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم»

يذكر الإمام عليه السلام بأنه أشار إلى طبيعة هؤلاء الظلمة المردة الذين ينطوون على الروح العدائية التي تبرز على السطح إذا ما سنحت الفرصة فلا يتورعون عن قتل الأبرياء وسبى النساء ونهب الأموال والثروات، وعليه فان العقل والشرع يجيز الوقوف بوجه هؤلاء الطغاة وقبر مؤامراتهم في مهدها وكسر شوكتهم

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٠٠

وإخماد فتنهم قبل أن يتأهبوا للقتال والعدوان.

ثم يعرض عليه السلام الدليل على ما أورده فقال:

«فوالله ما غزى قوم في عقر [١٤٥] دارهم إلا ذلولاً»

. ومن الواضح أن من يتعرض للهجوم في عقر داره إنما يفقد معنوياته ويشعر بالهزيمة والفشل في نهاية الأمر من جانب آخر فإن المهاجم الذي يتعرض إلى قوم في عقر دارهم لا يفكر أبداً في حفظ حرمة الدار، بل يدمر كل شيء فيها، أضف إلى ذلك فان مثل هذه الدار تصبح مسرحاً للقتال؛ الأمر الذي يؤدي إلى سفك دماء من فيها بما فيهم الصبية والنساء، وعليه فان مثل هذه الامور تشكل بمجموعها العناصر التي تؤدي إلى هزيمة القوم الذين يتعرضون للهجوم في عقر دارهم. ومن هنا ورد التأكيد على المقاتلين في كافة الغزوات الإسلامية (باستثناء بعض الغزوات والمعارك التي اكتنفها بعض الظروف والملابسات كمعركة الأحزاب) بترك المدن والتصدي للأعداء خارجها. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة

«فتواكلتم [١٤٦] وتخاذلتم حتى شنت [١٤٧] عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان»

. التواكل يعني إيكال كل فرد عمله إلى آخر، بعبارة اخرى هو تخلى الفرد عن مسؤوليته والقائها على عاتق الآخرين بحيث تخلو الساحة. والتخاذل يعني عدم مد يد العون إلى الآخرين، بما يؤدي في خاتمة المطاف إلى تصدع عرى الاتحاد، بحيث لا يشعر العدو بأى رادع أو مانع يحول دون شنه لهجماته، وهذه أحد أشع الصفات التي تسود المجتمعات البشرية بحيث يتقاعس كل فرد عن مسؤوليته ويقلدها ربة الآخرين وينهمك كل في شؤونه الشخصية دون أن يوفر الدعم والإسناد لأخيه إذا ما تعرض لحملات الأعداء المسعورة، فلا يؤدي ذلك سوى إلى تلك النتيجة التي خلس إليها الإمام عليه السلام في أن العدو سيرى الميدان مفتوحاً أمامه فيشن حملاته- لتسقط المدينة تلو الأخرى دون أن يجابه بأدنى مقاومة. ثم يستشهد الإمام عليه السلام بمثال حي متطرقاً إلى واقعه الغامدي فيقول:

«وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٠١

مسالحها»

. ويبدو أن الأنبار كانت منطقة حدودية عراقية متاخمة للشام، لأن مسالح جمع مسلحة تعنى الحدود والثغور- وذلك لأن الأسلحة

تجمع هناك لتستخدم في الدفاع عن الحدود- وقوله عليه السلام:

«أزال خيلكم عن مسالحها»

تفيد اجتياز الحدود لهذه الحدود دون مقاومة وقد مرّ علينا شرح ذلك. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الجنايات التي ارتكبتها الغامدى بحق أهل الأنبار من المسلمين والمجاهدين من أهل الكتاب الذين ينبغي الدفاع عنهم من قبل الدولة الإسلامية، فقال عليه السلام:

«ولقد بلغنى أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها [١٤٨] وقلبها [١٤٩] وقلاندها [١٥٠] ورعتها [١٥١] ما تمتنع منه إلّا بالاسترجاع والاسترحام»

، فالإمام عليه السلام أشار بوضوح إلى أنّ أحداً من المسلمين لم يهب للدفاع عن هذه النسوة المسلمات أو تلك المعاهدات. أمّا الاسترجاع فقد فسره بعض شراح نهج البلاغة بالبكاء المصحوب بالعويل في حين فسره البعض الآخر بكلمة «إنا لله وإنا إليه راجعون» التي تقال عادة عند النوائب والشدائد التي يتعرض لها الإنسان. ثم قال عليه السلام

«ثم انصرفوا وافرين مانال رجلاً منهم كلم ولا أريق لهم دم»

آنذاك يخلص عليه السلام إلى هذه النتيجة

«فلو أن أمراً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً»

فقد كشف الإمام عليه السلام عن عمق اللوعة التي كانت تعتلج في صدره مستغرباً ما حدث، كيف يضعف المسلمون إلى هذه الدرجة ولا تهتر لهم قصبه تجاه هذه الحملات المروعة التي أهلكت الحرث والنسل وقد طالت الأموال والأنفس والأعراض، وقد رجع المهاجمون غانمين سالمين دون أن يتكبدوا أية خسارة! أجل لا يسع المسلم الغيور تحمل مثل هذه الحادثة المأساوية قط، بل لو مات كمدماً من جرائمها لما كانت عليه من لائمة. والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لم يفرق بين المرأة المسلمة والمعاهدة لما تعرضت له من انتهاك الحرمه والتطاول على حليها ووسائلها، كما يكشف عن مدى ضرورة التزام الدولة الإسلامية بالدفاع عن حقوق الأقليات الدينية التي تعيش ضمن المجتمع الإسلامي، مع ذلك فإن غرض الإمام عليه السلام كان يكمن في تصوير عمق

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٠٢

الفاجمة المأساوية. وبالطبع فإن هذا الكلام لا يختص بزمان دون آخر، كما لا يقتصر على هجوم جيش معاوية على الأنبار، بل يتضمن قاعدة كلية يجب أن تسود الحياة الإسلامية على الدوام. وكأني بالإمام عليه السلام قد خاطب بهذه العبارات كافة المسلمين الذين يتعرضون اليوم لأبشع هجمات الشرق والغرب التي تنوى السيطرة على أموالهم وثوراتهم ومسخ قيمهم وضرورة التصدي لهم والدفاع عن حياض بلدانهم، بحيث لو مات أحدهم غصه وكمداً لما يرتكبه العدو الطامع من جرائم وجنايات لما كان ملوماً بل كان جديراً.

تأملات

١- معادلات الهزيمة والانتصار

لقد أشار الإمام عليه السلام من خلال بصيرته الثاقبة وروحه السامية وخبرته الوافية في ميادين الحرب والقتال إلى العناصر المهمة التي تقف وراء الهزيمة والانتصار والتي ينبغي أن يجعلها المسلمون نصب أعينهم من أجل دحر الأعداء والحفاظ على بيضة الإسلام. فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى أخلاء الساحة أمام العدو ومنحه الفرصة بشن هجماته بفضلها تشكل أحد عوامل الفشل والانزهاام؛ الأمر الذي لا يختلف عليه إثنان وقد خضنا في تفاصيله سابقاً.

العامل الآخر التواكل (بمعنى وكل كل الأمر إلى صاحبه، أى لم يتوله أحد بل أحاله كل على الآخر). فلو قام كل فرد في المجتمع

بوظيفته ولم يحمل الآخرين مسؤولية أعماله لما كان هناك من مجال للفشل والهزيمة، بينما ليس هنالك من سبيل للهروب من الفشل والهزيمة المنكرة أمام العدو اذا ما تخلى كل فرد عن مسؤولياته ووظائفه وأكلها إلى الآخرين من أفراد المجتمع. العامل الثالث التخاذل بمعنى ترك الآخرين ومشاكلهم دون معونتهم ومساعدتهم، فاذا تعرضت منطقة إلى غارة أو غزوة لم تنجدها سائر المناطق. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في الخطبة ١٦٦ «أيا الناس! لو لم تتخاذلوا عن نصره الحق ولم تهنوا عن توهين الباطل لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقو من قوى عليكم».

٢- حماية الأقليات الدينية

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٠٣

لعل البعض يتصور أن قضية احترام الأقليات الدينية التي تعيش في كنف الإسلام وتكفل بحفظ أموالها وأرواحها إنما هي شعار لا يرقى إلى العمل والتطبيق، إلّا أنّ أدنى نظرة إلى الفقه الإسلامي في كيفية تعامله مع أهل الذمة وكلمات المعصومين عليهم السلام بما فيها كلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبة، تكشف بجلاء أنّ الإسلام يرى نفسه السند والدعم الحقيقي لهم ما دامهم لم ينقضوا العهود ويشهروا السلاح ضد الإسلام والمسلمين، وعليه فأموالهم وأرواحهم محترمة ومحفوظة. فقد أعرب الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن بالغ حزنه وأسفه لما تعرضت له المرأة اليهودية أو النصرانية التي تعيش كمواطنة في المجتمع الإسلامي ولم يفرق بينها وبين المرأة المسلمة قط، ثم ذم أهل العراق ووبخهم على ما أبدوه من ضعف وعجز حيال العدو وعدم الدفاع عن هذه النساء.

٣- الغيرة الدينية

المراد بالغيرة الدينية الحساسية تجاه أي خروج عن مسار الحق والعدل وتجاهل الأحكام الشرعية والتعامل بشدة وصرامة مع هذه الحالة بما يتناسب وحجمها والابتعاد عن اللامبالاة، ويفتقر لهذه الغيرة كل من تعامل ببرود مع هذه الامور ولم يبد أية حساسية تجاهها. وقد صرح القرآن الكريم بخصوص بعض المقاتلين المؤمنين الذين لا يمتلكون المعدات التي تؤهلهم للاشتراك في المعارك قائلاً «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ» [١٥٢]. فالإية تشير إلى مسألة تجعل الأفراد الذين لا يمتلكون الوسائل المطلوبة في القتال وتحول دون التحاقهم بصنوف المقاتلين يتحولون إلى دموع غزيرة؛ القضية لا يمكن تفسيرها سوى بالغيرة الدينية. وقد أشارت الخطبة إلى أحد مظاهر هذه الغيرة، حين قال عليه السلام: «فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً»

. فالغيرة تشكل أحد العوامل المهمة من أجل الدفاع عن حريم القوانين الإسلامية وإحياء الأمر بالمعروف

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٠٤

والنهى عن المنكر. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام عن بعض أصحابه قال: إن الله بعث ملكين إلى أهل المدينة ليقبأها على أهلها فلما انتهيا إلى المدينة وجدا رجلاً يدعو الله ويتضرع إليه، فقال أحدهما للآخر: أما ترى هذا الداعي فقال: قد رأيته ولكن أمضى لما أمرني به ربي فقال:

ولكني لا أحدث شيئاً حتى أرجع إلى ربي، فعاد إلى الله تبارك وتعالى فقال: يا ربّ إنني إنتهيت إلى المدينة فوجدت عبدك فلاناً يدعوك ويتضرع إليك فقال: إمض لما أمرتك فان ذلك رجل لم يتغير وجهه غضباً لي قط. [١٥٣]

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٠٥

القسم الثالث: الاجتماع على الباطل والفرقة عن الحق

إشارة

«فيا عجباً! عجباً- واللّه- يُميت القلب ويَجلبُ الهمَّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقّكم! فقبّحاً لكم وتراحاً، حين صرّتم غرضاً يرمى: يغارُ عليكم ولا تُغيرونَ وتُغزونَ، ولا تُغزونَ ويُعصى الله وتَرْضونَ فإذا أمرتكم بالسّير إليهم في أيام الحرّ قُلتُم هَذه حَمارةُ القَيْظِ؛ أمهلنا يُسبِّخُ عَنَّا الحَرَّ. وإذا أمرتكم بالسّير إليهم في الشتاء، قُلتُم: «هَذه صِبارةُ القَرِّ أمهلنا يُسبِّخُ عَنَّا البَرْدُ! كُلُّ هَذا فراراً مِن الحَرِّ والقَرِّ فإذا كُنتُم مِن الحَرِّ والقَرِّ تَفِرُّونَ؛ فَأنتُم- واللّه- مِن السَّيْفِ أَقْرًا!».

الشرح والتفسير

يتناول الإمام عليه السلام بالتحليل العوامل الاخرى لتقهقر أهل الكوفة وتراجعهم إلى جانب ذمهم ولومهم، بما يوقظ ضمائرهم ويدفع بهم باتجاه الصمود بوجه العدو والحؤول دون تسلله إلى البلاد، فقد قال عليه السلام

«فيا عجباً [١٥٤] عجباً- واللّه- يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم»

. إنّما يكون التعجب والاندعاش حيث الامور التي تخرج عن المسار الطبيعي أو تكتنفها العوامل المجهولة أو غير المألوفة؛ الأمر الذي يطالب أنصار الحق ويوازع من إيمانهم القوى بالدفاع والصمود والمقاومة، بينما يقف أتباع الباطل

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٠٦

مكتوفى الأيدي وعدم الدفاع عن الحق لافتقارهم للدوافع التي تؤدي إلى ذلك الدفاع، ومن هنا فاذا شوهده أصحاب الحق يعيشون الفرقة والاختلاف وضعف الإرادة، بينما تحكّم الوحدة والأخاء أتباع الباطل، فان ذلك مدعاة للذهول والعجب. فإمام أهل العراق هو على بن أبى طالب عليه السلام الذى نص رسول الله صلى الله عليه وآله على ولايته إلى جانب مبايعته من قبل أهل المدينة ومكة من المهاجرين والأنصار وسائر المسلمين من المناطق الإسلامية، كما كانت دلائل أحقيته من زهد وعلم وفضيلة وعدالة واضحة للجميع، بينما كان إمام الشام معاوية المعروف بطغواه وحبه للجاه والمنصب وسوابقه المشينة فى الإسلام والجاهلية والتي لم تكن خافية على أحد، أفليس من العجب أن يهب أهل الشام لنصرة باطلهم ويقفون بوجه الحق، وينفرج أهل الحق عن الإمام عليه السلام فينقضون ميثاقهم وينكثون بيعتهم؟! ومن هنا اشتد استياء الإمام عليه السلام عليهم فجعل يذمهم ويلومهم، بعد أن جعلوا أنفسهم فى هذه الحالة المزريّة

«فقبّحاً لكم وتراحاً [١٥٥] حين صرّتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون»

. فالواقع يوجز الإمام عليه السلام ما يدعوه لدمهم فى أمر واحد يكمن فى الضعف والتواكل والخذلان إلى الحد الذى يمنح الأعداء الجراءة فى شن الحملات تلو الحملات والغارات تلو الغارات فيسفكون دماء الأبرياء، وليس لهؤلاء من ردود فعل سوى الصمت والسكوت تجاه هذه المجازر المروعة!

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى دليل آخر دعاه لدم هؤلاء والذى أدى بهم إلى ذلك الضعف والذى يكمن فى التعلل بحر الجو وبرودته التى لا تلعب دوراً فى القتال، فقال عليه السلام:

«فإذا أمرتكم بالسّير إليهم فى أيام الحرّ قُلتُم هَذه حَمارةُ [١٥٦] القَيْظِ [١٥٧]؛ أمهلنا يسبّخ [١٥٨] عَنَّا الحَرَّ. وإذا أمرتكم بالسّير إليهم فى الشتاء، قُلتُم: هَذه صِبارةُ [١٥٩] القَرِّ، أمهلنا ينسلخ [١٦٠] عَنَّا البَرْدُ؛ كل

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٠٧

هذا فراراً من الحر والقر [١٦١]، فاذا كنتم من الحر تفرون، فأنتم - والله - من السيف أفر!».

وكان الميدان لا يصلح للقتال إلّا في أيام الربيع وفي ظل الأرض المخضرة والحشائش النظرة والطيور المغردة والمياه المتدفقة، فيدحر الجند أعدائهم بعضاً سحريه دون الحاجة إلى العدة والعدد.

وكان هؤلاء الجهال قد تناسوا تأريخ الإسلام رغم عدم مرور فترة عليه بحيث زحف النبي صلى الله عليه وآله بصحبه من المدينة إلى تبوك بعد أن قطعوا تلك المسافة الشاسعة خلال الصحراء الجرداء وفي ظل حرارة الشمس المحرقة على تلك الرمضاء ولم يكن لديهم ما يكفي من الماء والغذاء، وهكذا تحملوا سائر الصعاب والمعضلات في الحروب والغزوات ليقفوا كالليوث أمام الأعداء من خصوم الدعوة، ولو كانوا يأتون ما أتى جيش الكوفة ويتعللون بما تعللوا به لما نمت شجرة الإسلام ولا اخضر لها عوداً، بل لم يكتب النصر لأى جيش في العالم حين يعيش الجنود حالة من الضعف والوهن والجبن، ولم يكن نصيبهم سوى الفشل والهزيمة والذلة والهوان. والواقع أن كلام هؤلاء يشبه ما قاله الكفار والمنافقون من قبل في صدر الإسلام «لا تنفروا في الحر» فرد عليهم القرآن بالقول «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ» [١٦٢].

فأهل الكوفة كانوا يريدون بهذه الأعداء الواهية التهرب من مواجهة العدو وقتاله، حيث تسرب إليهم النفاق بفعل ضعف ايمانهم بمبادئ الإسلام وإمامهم على بن أبى طالب عليه السلام.

على كل حال فإنّ المجاهدين الحقيقيين الذين يقتحمون الميدان ويخوضون غمار الجهاد ويسطرون الانتصارات إنّما هم اولئك الذين لا يباليون بمصاعب الطقس والمناخ ولا يكثرثون إلى مشاكل الطريق وتحمل العناء في هذا المجال، وممّا لا شك فيه ان العدو اذا شعر بأنّ خصمه يتحفظ عن القتال بسبب بعض المشاكل الطبيعية من قبيل حرارة الجو وبرودته فانه سيستغل هذا الأمر كمنقطة ضعف ويوظفها لصالحه بشن الحرب أملاً بتحقيق الانتصار.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٠٨

تأمل: علة هذا الدم

إن أدنى نظرة إلى كلام أمير المؤمنين على عليه السلام في هذه الخطبة تثير السؤال التالي: لم كل هذا الدم من الإمام عليه السلام لأهل الكوفة حتى خاطبهم لاحقاً

«لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم معرفه والله جرت ندماً وأعقبت سدماً، قاتلكم الله لقد ملأتم قلبى قيحاً وشحنتم صدرى غيظاً وجر عتمونى نغب التهام أنفاساً، وأفسدتم على رأبى ...»

. ولعل أدنى نظرة إلى تأريخ الكوفة وأهلها ونقض الموثيق ونكث البيعة والنفاق والضعف والوهن الذى سادها تفسر لنا فلسفه هذا الدم القاسى والشديد. وكان الإمام عليه السلام سلك السبيل الأخير الذى من شأنه علاج مرضهم العضال حيث لم تعد لهم حساسية تجاه أى شىء، فقد لجأ الإمام عليه السلام إلى هذا الاسلوب لعله يثير ما تبقى لديهم من مشاعر وأحاسيس تجاه عدوهم، وقد أثبتت الدراسات أن هذا الاسلوب عملي جداً تجاه بعض الأفراد من الناحية النفسية. فهذه الكلمات فى الواقع تشير إلى مدى اليأس من تلك العناصر الضعيفة الهزيلة التى لم تجد معها النصائح والمواعظ أية فائدة.

بل الأعجب من ذلك أن كل هذه الكلمات اللادعة لم تتمكن من إثارة يقظة وجدانهم، بحيث لم يلتحق به إلا النفر القليل حين تجهز للقاء الأعداء، ممّا اضطره إلى دعوة أولئك الأفراد الذين كانوا يقطنون القرى والمناطق المتاخمة لأطراف الفرات ويعبئها للقاء العدو. ولعل حالة أهل الكوفة تشبه إلى حد بعيد تلك الحالة التى سادت بنى اسرائيل حين حرضهم نبيهم موسى عليه السلام على قتال عدوهم وتحرير بيت المقدس، فقد ردوا عليه بالقول: «قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبّارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإننا داخلون ... فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون» [١٦٣]

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٠٩

القسم الرابع: إدماء القلب

إشارة

«يا أشباه الرجال ولا رجال! حُلُومُ الأَطفالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الحِجَالِ! لَوِ دِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَ كُمْ وَلَمْ أَعْرِفُكُمْ مَعْرِفَةً - وَاللَّهِ - جَرَّتْ نَدَمًا، وَأَعْقَبَتْ سَدَمًا، قَاتَلَكُمْ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحًا وَشَحْنْتُمْ صَدْرِي غَيْظًا وَجَرَعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاسًا، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعَصِيانِ وَالْخِذْلَانِ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ. لِلَّهِ أَبُوهُمُ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاسًا، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَامًا مِنِّي؟ لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ العِشْرِينَ، وَهَذَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَفْتُ عَلَيَّ السُّتِينَ وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ!».

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بصب جام غضبه على أولئك الأفراد الضعاف الذين تواكلوا وتفاعسوا عن إداء وظائفهم عليه يثير حفيظتهم فيلتفتوا إلى عظم المخاطر التي كانت تترصص بهم، ولاسيما أهل الشام الذين كانوا يشنون عليهم الغارات تلو الغارات دون أن يتورعوا عن سفك دمائهم وانتهاك حرمتهم وسلب أموالهم، حيث بالغ عليه السلام هذه المرة في ذمهم فخطبهم قائلاً:

«يا أشباه الرجال ولا رجال»

يامن يعيشون آمال الأطفال فيسرع فيهم الخداع

«حلووم ١٦٤» [الأطفال]

ويا من يحملون عقول ربوات الحجال من العرائس اللائى لا يفكرون سوى برغد العيش ووسائل الزينة

«وعقول ربوات ١٦٥» [الحجال ١٦٦]

فقد وبخهم الإمام عليه السلام فى العبارة

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١١٠

الأولى بعدم امتلاكهم الشجاعة والحمية والغيرة والمروءة والرجولة التى كانوا يتمتعون بها ظاهرياً ولم يكن لهم من معانيها شيئاً على مستوى العمل. ثم اندفع فى ذمهم أكثر ليخطبهم بقوله:

«لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم معرفة - والله - جرت ندماً وأعقت سدماً»

. فالتأريخ يشهد بأن ثمره علاقة أهل الكوفة والعراق بالإمام عليه السلام طيلة فترة خلافته لم تكن سوى الهم والغم الذى تمخض عن ضعفهم ونقضهم العهود وتفرقهم عن الحق وتلبسهم بالنفاق والرياء، فكان من الطبيعى أن يتمنى الإمام عليه السلام عدم رؤيتهم والتعرف عليهم، حتى دعا عليهم

«قاتلكم الله ١٦٧» [فقد ملأتم قلبى قيحاً وشحنتم صدرى غيظاً وقد جرعتمونى الهموم غصه بعد غصه، فجعلتمونى غرضاً لسهام الأعداء، حتى ذهبت بهم المذاهب أنى رجل شجاع، بينما ليست لى من دراية بالحرب «قاتلكم الله لقد ملأتم قلبى قيحاً وشحنتم صدرى غيظاً وجرعتمونى نغب ١٦٨» [التهمام ١٦٩] أنفاساً، وأفسدتم على رأى بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب»

. عادة ما تعزى الامم والشعوب ضعفها وتخلفها وفشلها إلى قلة تدبير زعمائها، بينما قد تكون القضية بالعكس؛ أى أن الزعيم شخصية كفاءة بينما تعيش الأمية حالة من التخلف الفكرى والثقافى والاجتماعى؛ الأمر الذى يعتبر مأساة حقيقية بالنسبة للزعيم والقائد الناجح

الذى يتلى بمثل هذه الجماعة المسلوقة الإرادة، ومما يؤسف له أن مسؤولية النتائج المريرة التى تفرزها طبيعة هذه المسيرة قد يلقيها الناس على عاتق ذلك الزعيم.

ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالرد على قريش التى تخرست بعدم علم الإمام عليه السلام بفنون القتال والحرب رغم شجاعته وبسالته:

«لله [١٧٠] أبوهم وهل أحد منهم أشد لها مراساً [١٧١] وأقدم فيها مقاماً منى»

. فقد اقتحمت

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١١١

ميادين الحرب وأنا ابن العشرين وها أنا ذا أخوض غمارها وقد ناهزت الستين من عمرى (وعليه فقد مارست تجربة ضخمة فى الحروب كقائد لمدة أربعين سنة) ولكن ماذا عسانى أن أفعل وليس هنالك من يطع «لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت [١٧٢] على الستين! ولكن لا رأى لمن لا يطاع».

تأملات

١- الاتباع الطلحاء والقادة الأتقاء

لاشك أن معادلات الهزيمة والانتصار ليست عشية، وأن اولئك الذين ينسبون النصر أو الهزيمة إلى بعض الأسباب المجهولة والعوامل الغامضة من قبيل المصادفة والحظ إنما يسعون للقرار من الحقائق المريرة والابتعاد عن تحليلها والوقوف على كنهها. وعادة ما تذهب التحليلات إلى أن العامل الأسمى الذى يكمن وراء النصر والهزيمة إنما يتمثل بقدره القيادة وحكمتها فى إدارة شؤون الأمة، بينما تكون القضية معكوسة فى بعض الحالات، فقد تتحلى القيادة بالقوة والاقتدار وارتفاع المعنوية والاحاطة بفنون الإدارة والتعامل مع الاحداث؛ الأمر الذى يفيد بما لا يقبل الشك أن العنصر الذى يقف وراء الهزيمة إنما يتمثل بالاتباع الضعفاء الذين لا يتحلون بالارادة إلى جانب سذاجتهم وقلة تجربتهم بما يجعل من المتعذر عليهم مواكبة قيادتهم فى ادراك الأهداف فضلاً عن تطبيقها فى الواقع، وهنا تتلاشى قدرة الزعيم الكفو فى ظل فساد وانحراف مثل هؤلاء الأتباع؛ الأمر الذى يورق فكر القائد ويقض مضجعه. وهذا هو السر فى تلك الكلمات الشديدة التى أطلقها الإمام عليه السلام بحق أهل الكوفة، فقد بلغت الفرقة والشقاق والنفاق حداً جعل حتى أصحاب الإمام عليه السلام - فضلاً عن أعدائه - من اولئك الذين شهدوا بطولات الإمام عليه السلام وصولاته فى الغزوات الإسلامية يتهمونه بعدم العلم بفنون القتال! فما كان منه عليه السلام إلا أن ذكرهم بتاريخه المشرق ومواقفه المشهورة التى تنكفى فيها

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١١٢

الأبطال؛ لقد نهضت بأمر القتال ولم أبلغ العشرين وقد ذرفت الآن على الستين، فكيف اتهم بعدم العلم بالحرب؟ نعم قد بليت باتباع بعيدين عن الانضباط من أهل الهوى والطيش الذين يتصرفون على ضوء ما تمليه عليهم أهوائهم، وعليه فليست هنالك من نتيجة سوى الهزيمة والفشل. وأفضل شاهد على ذلك النتيجة المريرة لمعركة صفين والخدعة التى عمد إليها معاوية وعمرو بن العاص فى حمل المصاحف على أسنة الرماح، والأنكى من كل ذلك قضية التحكيم وترشيح أبى موسى الأشعري وفرضه على الإمام عليه السلام. فيكاد يجمع الجميع اليوم بما فيهم المحققون وغيرهم أن النصر أصبح قاب قوسين أو أدنى فى صفين لولا - حالة النفاق والفرقة والعصيان التى دبت فى جيش الإمام عليه السلام ولما وقعت تلك الأحداث التى سود بها الأمويون وجه التاريخ ومن هنا تعتبر موقعة صفين من أقسى الأحداث التى شهدها التاريخ الإسلامى وبالذات سيرة الإمام على عليه السلام. وليت ذلك الأمر اقتصر على زمان

على عليه السلام، بل مازال هنالك اليوم الكثير من الجهال الذين يشككون في السياسة الحربية لأمر المؤمنين عليه السلام وكيفية إدارة شؤون البلاد، وما هذا إلا دليل صارخ على عمق مظلومية الإمام عليه السلام، الإمام عليه السلام الذي جعل التاريخ يدين بالفضل لذلك العهد العظيم الذي عهده لعامله على مصر مالک الأشر في كيفية إدارة شؤون البلاد، فما زالت مبادئه وأسس قائمه فاعله رغم مرور أربعة عشر قرناً عليه، ليكون ذلك العهد مصداقاً لقوله سبحانه «كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» [١٧٣]. فقد أذعن العدو والصديق لعمق الأصول والتعاليم التي أوردها الإمام عليه السلام في نهج البلاغة والتي تمثل عمق سياسة الإمام عليه السلام، مع ذلك ينبري هذا وذاك من الحين إلى الآخر لاتهام الإمام عليه السلام. وقد أشار الإمام عليه السلام في عدة مواضع إلى هذه الحقيقة المريرة المتمثلة بالعدو والخيانة ونقض العهود والمواثيق. فقد خطبهم عليه السلام بعد حادثة الأنبار وغارت أهل الشام قائلاً:

«والله ما تكفونني أنفسكم فكيف تكفونني غيركم إن كانت الرعايا قبلي لتشكوا حيف رعاتها وانني اليوم لأشكو حيف رعيتي كأنني المقود وهم القادة أو الموزوع وهم الوزعة» [١٧٤]

. كما قال عليه السلام في موضع آخر:

«اريد أن أداوى بكم وأنتم دائي»

، ثم شكاهم عليه السلام بالقول:

«اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوى وكلت النزعة بأشطان

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١١٣

الركي! أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه وقرأوا القرآن فأحكموه وهيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها» [١٧٥].

٢- الإجابة على سؤال

لقد أثار بعض شرّاح نهج البلاغة سؤالاً وهو: هل كانت تلك السياسة التي انتهجها الإمام عليه السلام إزاء الأمة (بتلك الشدة والحدة من الدم واللوم) صائبة؟ ألم تكن تدعو تلك الكلمات الأفراد إلى النفرة والشعور بالغرابة والعزلة؟ ويبدو هذا الإشكال أعمق وأرسخ إذا أخذنا بنظر الاعتبار مدى صبر الإمام عليه السلام وحلمه وعفوه وصفحته، فكيف ارتضى الإمام عليه السلام مخاطبتهم بتلك الكلمات؟ ويتضح الجواب على هذا السؤال من خلال ما ذكرناه سابقاً من أن ذلك الأسلوب كان يمثل الوسيلة الأخيرة التي من شأنها إثارة عواطف الأمة وتفعيل حركتها ونشاطها وإخراجها من حالة الضعف والوهن التي كانت تسيطر عليها، ولعل ذلك الأسلوب يشبه ما تعارف لدى عوام الناس حين تعجز عن اصلاح أحدهم فتقول لا بد من العمل بما يثير غيرته ويوقظ ضميره. وعليه فإن تلك الكلمات تكشف بدورها عن بلاغة الإمام عليه السلام في إيراد الكلام الذي ينطبق ومقتضى الحال. وهنا لا ينبغي أن ننسى بأن الإمام عليه السلام عمد إلى ذلك الأسلوب بعد أن مارس كافة الطرق من قبيل حثهم على الجهاد وتذكيرهم بالقيم والمبادئ، واطرائهم والثناء عليهم- وعليه يبدو من المستبعد رأى بعض شرّاح نهج البلاغة [١٧٦]، من أن الإمام عليه السلام أورد ذلك الكلام على ضوء «لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة ولا تفرقهم عنى وحشة»

؛ لأنّ الكثرة المقتدرة في الحروب والمعارك مطلوبة ولا يسع أحد بمفرده أن يهب القتال جيش جرار طمعاً بتحقيق النصر.

٣- سؤال آخر

لقد قال الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة

«لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وما أنا ذا

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١١٤

قد ذرفت على الستين» فيقتدح إلى الذهن هذا السؤال: كان لعلي عليه السلام على الأقل ثلاث وعشرين عاماً حين الهجرة، واننا لنعلم بأن المعارك الإسلامية وقعت بعد الهجرة، فكيف ينسجم هذا الأمر وما ذكره الإمام عليه السلام ونقول في الجواب صحيح أن الحروب والمعارك وقعت فعلياً بعد الهجرة، إلا أن السنوات الأخيرة من الدعوة في مكة قد شهدت تصعيداً في مجابهة النبي صلى الله عليه وآله بما لا يقل شيئاً عن إعلان حالة الحرب. ونموذج ذلك محاصرة بيت النبي صلى الله عليه وآله من قبل كافة رجالات قريش حين بات الإمام عليه السلام على فراشه لينجو رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه، كما صرحت بعض التواريخ بأن المشركين كانوا قد أعدوا قبل ذلك بعض الخطط لقتل النبي صلى الله عليه وآله؛ الأمر الذي كان يثير قلق أبي طالب. حتى أورد صاحب البحار أن صبية المشركين كانوا يرمون رسول الله صلى الله عليه وآله بالحجارة حين يخرج من بيته في مكة، فكان على عليه السلام يدافع عنه وينقض عليهم فيولون هارين ١٧٧].

فالواقع تشير مثل هذه الأحداث وما شابهها أن العهد المكي كان يعيش حالة الحرب رغم عدم نشوبها بصورة فعلية حيث كان المسلمون يشهدون أذى الكفار باستمرار، الأمر الذي كان يتطلب بعض التدبير والتفكير من أجل كسب المعركة. ولعل قوله عليه السلام:

«نهضت فيها وما بلغت العشرين»

- الذي ورد في الخطبة - إشارة إلى التأهب للحرب لا لنشوب الحرب.

٤- الخاتمة المريرة للواقعة

ذكر بعض شراح نهج البلاغة أن علياً عليه السلام حين اخبر عن غارة أهل الشام وقتلهم لعامله فخطب الناس. ثم سكت عنهم رجاء أن يجيئوه أو يتكلم منهم متكلم، فلم ينس أحد منهم بكلمة، فلما رأى ضيقتهم نزل، وخرج يمشى راجلاً حتى أتى النخيلة، والناس يمشون خلفه حتى أحاط به قوم من أشرافهم، فقالوا: ارجع يا أمير المؤمنين ونحن نكفيك، فقال: ما تكفونني ولا تفون

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١١٥

أنفسكم. فلم يزلوا به حتى صرفوه إلى منزله، فرجع وهو اجم كئيب، ودعا سعيد بن قيس الهمداني، فبعثه من النخيلة في ثمانية آلاف، وذلك أنه أخبر أن القوم جاءوا في جمع كثيف.

فخرج سعيد بن قيس على شاطئ الفرات في طلب سفيان بن عوف؛ حتى إذا بلغ. عانات، سرح أمامه هاني بن الخطاب الهمداني، فاتبع آثارهم حتى دخل أداني أرض قنسرين وقد فاتوه، فانصرف.

وأتاه قوم يعتذرون، فقام حُجْر بن عدى الكندي وسعيد بن قيس الهمداني، فقالا: لا يسوءك الله يا أمير المؤمنين، مُرْنَا بأمرك نتبعه، فوالله ما نعظم جزاً على أموالنا إن نفدت، ولا على عشائرننا إن قُتلت في طاعتك. فقال: تجهزوا للمسير إلى عدونا.

فلما دخل منزله ودخل عليه وجوه أصحابه، قال لهم: أشيروا عليّ برجل صليب ناصح، يحشر الناس من السواد. فقال له: سعيد بن قيس: يا أمير المؤمنين، أشير عليك بالناصح الأريب الشجاع الصليب، معقل بن قيس التميمي، قال: نعم.

ثم دعاه فوجهه، فسار فلم يقدم حتى أصيب أمير المؤمنين عليه السلام ١٧٨].

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١١٧

الخطبة [١٧٩] الثامنة والعشرون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام وهو فصل من الخطبة التي «الحمد لله غير مقنوط من رحمة» وفيه احد عشر تنبيها

نظرة إلى الخطبة

هذه من الخطب المعروفة لأئمة المؤمنين على عليه السلام، وهي كما ذهب الشيخ المفيد في الإرشاد من خطبه الخالدة التي حفظها أرباب الفهم والعقل، أو كما قال السيد الرضى: إنه لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة، لكان هذا الكلام وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال وقادحاً زناد الاتعاض والازدجار. فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة القصيرة - والتي يراها بعض المحققين جزءاً من الخطبة الخامسة والعشرين - إلى عشرة جوانب مهمة بشأن الآخرة والزهد في الدنيا وعدم الاغترار بنعم الدنيا وزبرجها والاستعداد والتأهب للدار الآخرة، والتحذير من الأخطار التي تهدد سعادة الإنسان - فالحق أن الخطبة من الخطب العظيمة التي تسوق الإنسان إلى الزهد في الدنيا وعدم الإكتران لزخرفها والانتباه إلى الآخرة، وقد انطوت على عبارات واضحة صريحة توظف الإنسان من غفلته ورقدته.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١١٩

القسم الأول: الدنيا والآخرة عند الإمام على عليه السلام

إشارة

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا أَدْبَرَتْ، وَأَذَنْتُ بِوَدَاعٍ وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَأَشْرَفْتُ بِاطِّلَاعٍ، أَلَا وَإِنَّ اليَوْمَ المِضْمَارَ وَغَدًا السَّبَاقَ وَالسَّبَقَةُ الجَنَّةُ وَالغَايَةُ النَّارُ؛ أَلَا- تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَمِيتِهِ أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ! أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامٍ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ، فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامٍ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ. فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ وَلَمْ يَضُرَّهُ أَجَلُهُ. وَمَنْ قَصَرَ فِي أَيَّامٍ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ وَضُرَّهُ أَجَلُهُ».

الشرح والتفسير

أشرنا سابقاً إلى أن الإمام عليه السلام تطرق إلى عشرة أمور مهمة في هذه الخطبة الغراء لدفع الناس باتجاه الزهد وعدم الاغترار بزخارف الدنيا؛ فقد ورد في الأخبار - كما أثبت ذلك التجربة طيلة التاريخ - أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وعليه فإن عدم الإكتران لهذه الدنيا والزهد فيها يمثل الخطوة الأولى المهمة لإصلاح النفوس ومواجهة الفساد الفردي والاجتماعي.

فقد استهل الإمام عليه السلام كلامه بتصدر الدنيا ووداعها لأهلها

«أما بعد فان الدنيا قد أدبرت، وأذنت [١٨٠] بوداع»

. وهنا يطرح هذا السؤال: كيف آذنت الدنيا بالأدبار والوداع؟ هناك الشواهد والأدلة الحية على هذا الأمر ومن ذلك قبور الماضين

التي تضم بقايا رفات وعظام الملوك والسلاطين والحكام والأمراء والكهول والفتيان والصبيان، والأظهر المحذوبة للكهول

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٢٠

واشتعال الرأس شيئاً والأمراض الفتاكه التي تودي بحياة الأفراد، حقاً لقد أصيبت الدنيا بالصمت والسكوت، إلا أنه ما زالت تتحدث بلسان العبرة! وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في احدى خطبه

«فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم، حملوا إلى قبورهم غير راكبين وانزلوا فيها غير نازلين، فكأنهم لم يكونوا للدنيا عمارة وكان الآخرة لم تزل لهم داراً». [١٨١]

ثم أشار عليه السلام في النقطة الثانية إلى موضوع إقبال الآخرة

«وإن الآخرة قد أقبلت، وأشرفت باطلاع» [١٨٢]

. إن الموت يعد المنزل الأول من منازل الآخرة والذي يتطلع أبناء الدنيا، وهذا بدوره من علامات إقبال الآخرة. ومن هنا فقد أوصى الإمام عليه السلام الجميع بالاستعداد إلى الآخرة ومغادرة الدنيا والتزود لتلك الدار المحفوفة بالخطر قبل فوات الأوان. وذكر عليه السلام في النقطة الثالثة بالرابطة القائمة بين داري الدنيا والآخرة فقال

«ألا وإن اليوم المضمار [١٨٣] وغدا السباق [١٨٤] والسبقه الجنة والغاية النار»

فقد شبه عليه السلام بهذه العبارة الرائعة الإنسان بالخيال الذي يخوض السباق، فمن الواضح أن مثل هذا الإنسان وعلى غرار الخيال يحتاج إلى التمارين والتدريبات المسبقة، حيث تصطح العرب بالمضمار على الموضوع أو الزمان الذي يضم فيه الحيوان، بل يطلق على الحيوان الذي ينحف إثر التمارين لا على كل حيوان كما صرح الراغب في المفردات. آنذاك يبدأ السباق الذي يتضمن الفوز والخسارة وتسلم الجوائز من قبل الفائزين. فالإمام عليه السلام يرى الدنيا ميدان التأهب والاستعداد والآخرة ميدان السباق والجوائز، وسوف تكون جائزة الفائزين الجنة ونصيب الخاسرين النار. ومن البديهي أن أحداً لا يسعه التمرين في ميدان السباق، بل عليه أن يتمرن ويعد نفسه قبل السباق؛ وهكذا الحال في المحشر،

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٢١

فليس هنالك من مجال للحسنات والتوبة من السيئات وتهذيب النفوس وتطهيرها، ولا بد من إعداد هذه الامور في الحياة الدنيا. وعليه فلا ينبغي أن ينسى الأفراد هذه الحقيقة وهي إن عدم التزود في الدار الدنيا والتأهب الروحي والمعنوي فإن النتيجة النهائية للسباق في الآخرة لن تكون سوى الفشل والخيبة والخسران التي تعني هناك نار جهنم. والجدير بالذكر هنا أن الفائزين هناك يتفاوتون في الدرجات، فهناك الفائز الأول والثاني والثالث وهكذا؛ الأمر الذي يتجسد بوضوح في عالم الآخرة ودرجاتها. فيتضح مما تقدم أن السباق بمعنى المسابقة والسبقه بمعنى الهدف والغاية التي ينبغي للمسابق أن يصل إليها، والسبقه على وزن لقمه بمعنى الجائزة وقد علق المرحوم السيد الرضى (ره) - في ذيل هذه الخطبة كما سيأتي - على تعبير الإمام عليه السلام:

«والسبقه الجنة والغاية النار»

فقال: لم يقل عليه السلام السبقه النار كما قال السبقه الجنة؛ لأن الاستباق إنما يكون إلى أمر محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنة وليس هذا العنى موجوداً في النار، فخالف الإمام عليه السلام بين اللفظين لاختلاف المعنيين. ولا يبدو هنالك من تعارض بين كلامه عليه السلام والآية الشريفة «سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض» [١٨٥]؛ لأن «سابقوا» لا تعني السباق في هذا العالم، بل تعني التأهب من أجل سباق الآخرة، والدليل على ذلك أنها جعلت الجنة هي الهدف النهائي لهذه المسابقة، بعبارة اخرى فان السباق هنا نحو الخيرات والصالحات، أما السباق هناك نحو الجنة التي تمثل حصيلة الأعمال. ثم أشار عليه السلام في النقطة الرابعة إلى واحدة من أهم أمتع السفر الأخرى الخطير وهي التوبة فقال:

«أفلا تائب من خطيئته قبل ممته [١٨٦]، ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه»

فهذه التعبيرات - التي تهدف إلى إثارة العارفين والعمل على تشجيعهم إلى جانب تنبيه الغافلين وإيقاظهم - هي في الواقع تمثل النتيجة المنطقية للعبارة السابقة، وذلك إذا كانت الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وإن اليوم المضمار

وغداً السباق والسبقة الجنّة والغاية النار فلم لا يتوب أهل الحجى والعقل وينيبوا إلى

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٢٢

اللّه ويغتنموا الفرصة بالأعمال الصالحة ويستعدوا لسفر الآخرة؟ ولعل هذا هو الذى أشار له الإمام عليه السلام فى خطبة اخرى «فاعملوا وأتمم فى نفس البقاء، والصحف منشورة والتوبة مبسوطه» [١٨٧].

أما تعبيره عليه السلام عن يوم القيامة بيوم البؤس فلما يكتنفه من أحداث مهولة وعذاب شديد وهلع وخوف عظيم. وقد أشارت أغب الآيات القرآنية لذلك العذاب لتحذر الإنسان وتحثه على اغتنام الفرصة والتزود لذلك اليوم العصيب الملىء بالمخاطر التى لا ينجى منها سوى العمل الصالح. أما فى النقطة الخامسة فقد أشار عليه السلام إلى الفرص التى تمر مرّ السحاب والتى يقود عدم اغتنامها إلى الندم

«ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل، فمن عمل فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ولم يضره أجله»

ويخسر بالمقابل من يقصر فى العمل، كما أنّ أجله يصبح عليه وبال

«ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أجله»

. وتعبيره عن الحياة الدنيا بأيام الأمل لهو تعبير لطيف يشير إلى قصر وإيجابيه عالم الدنيا؛ لأنّ دقائق عمر الإنسان تمثل أعظم فرصة من أجل بلوغ السعادة والفوز بالفلاح الاخرى الخالد.

فعل التوبة فى لحظة من اللحظات تطفئ بحاراً من نيران جهنم كانت تتربص بهذا الإنسان، ولعل العمل الصالح الخالص فى ساعة من عمره ينتهى به إلى جنان الخلود والرضوان.

تأملات

١- الدنيا والآخرة فى الأحاديث

يرى الدين الإسلامى الحنيف وجميع الأديان السماوية أنّ الدنيا دار طارئه متبدلة جعلت ليتزود منها الإنسان ويكسب فيها السمو والكمال والمعرفة التى تحلق بها إلى عالم الخلود، ومن هنا فإنّ اللّه يتلى العباد فيها بأنواع البلاء والامتحان من خلال العبادات والطاعات وترك الشهوات وتحمل المصائب والمشكلات التى من شأنها تربية الإنسان وصقل شخصيته

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٢٣

وتهيته لعالم الآخرة المفعم بالخير والبركة. وقد تظافت الروايات التى تعرضت لبيان حقيقة الدنيا بعدة تعبيرات مختلفة رائعة، ومن ذلك الخطبة التى نحن بصدددها والتى شبه فيها الإمام عليه السلام الدنيا بالدورة التدريبية التى يستعد فيها الإنسان لسباق الآخرة، الذى يحصل فيه الغالب على الجنّة والخاسر النار. وقد جاء فى الحديث أن

«الدنيا مزرعة الآخرة» [١٨٨]

ومن الواضح أنّ المزرعة ليست مكاناً للحياة والاستقرار بل هى مكان للتزود من أجل مكان آخر، وقد عبّر عنها بالمتجر ودار الموعظة والمصلى، كما أورد ذلك الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة فقال

«إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها... ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباء اللّه ومصلى ملائكة اللّه ومهبط وحى اللّه ومتجر أولياء اللّه» [١٨٩]

. وروى عن الإمام السجاد عليه السلام أنّ المسيح عليه السلام قال للحواريين:

«إنما الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها» [١٩٠]

. كما عبر عنها الإمام على عليه السلام بأنها

«دار ممر» [١٩١] و «دار مجاز» [١٩٢]

. وأخيراً فقد وصفها الإمام الهادي عليه السلام بالسوق الذي يتضمن الربح والخسارة

«الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون» [١٩٣]

. والخلاصة فإن كل هذه العبارة ترشد إلى عدم النظر إلى الدنيا على أنها هي الهدف النهائي، بل هي وسيلة لادخار العمل الصالح وكسب المعارف من أجل الظفر بالدار الآخرة. ولعل البعض يرى أن هذا الموضوع ساذج، إلا أن الواقع هو أن أهم مسألة مصيرية في حياة الإنسان في أنه كيف يتعامل مع الإمكانيات المادية التي زود بها في هذه الحياة وكيف ينظر إلى هذه الدار، هل يراها وسيلة وأداة من أجل الوصول إلى هدف معين، أم يراها هي الهدف النهائي وليس وراءها شيء. والواقع أن تأكيد الإمام عليه السلام في بداية الخطبة على أن الدنيا ميدان الاستعداد لسباق الآخرة إنما يشكل الدعامة الأساسية الراسخة لسائر المواعظ المهمة التي وردت في هذه الخطبة.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٢٤

٢- الخسارة العظمى

النقطة التي تعرضت لها الخطبة والتي ينبغي الالتفات إليها، إنما تكمن في عدم إمكانية تدارك الخسران الذي يطيل الإنسان في هذه الحياة وفقدانه للفرص التي كان من شأنها أن تجعله يفوز بالدار الآخرة، والواقع إن السباق الذي ينتظر الإنسان إنما يقام لمرة واحدة فقط، فهناك ميدان للتمرين وآخر للسباق ليس للتكرار إليه من سبيل، ومن خسر فليس أمامه من فرصة لتدارك خسارته، ومن هنا قال الإمام عليه السلام:

«ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أجله»

. أمّا الندم فلا يداوى جرحاً ولا يصلح فاسداً هناك فليصرخ الصارخون: «رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ» [١٩٤] فيأتي الجواب «كلاً».

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٢٥

القسم الثاني: الرحيل الوشيك

إشارة

«أَلَا فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ! أَلَا وَإِنِّي لَمَ أَرَّ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَائِبُهَا، وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَشِي تَقْيِيمٌ بِهِ الْهُدَى، يَجْرُ بِهِ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى. أَلَا- وَإِنَّكُمْ قَدْ أَمِرْتُمْ بِالظَّنِّ وَدَلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ وَإِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الْأَمَلِ، فَتَرَوُّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْزُرُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَدًا».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى مسألة مهمة ربما غفل عنها أغلب الناس:

«ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة»

فعبادة الله وطاعته لا تعنى الفرع إليه فى الشدة والبلاء والتولى عنه فى اليسر والرخاء؛ ولو كان الأمر كذلك لكان مشركوا الجاهلية من خلص العباد، فقد وصفهم القرآن الكريم بالقول: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ» [١٩٥] ثم خاطبهم فى آية أخرى «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُكُمْ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا» [١٩٦]. والواقع أن العبرة ليست فى الاقبال على الله عند الفرع، بل العبرة أن يقبل العبد عليه حين الرخاء والرفاه والشعور بالقوة والاقترار، فما كان مع الله فى هذه الظروف كان الله معه فى الظروف العصبية.

فعلامه الإيمان الخالص أن يتوجه العبد إلى الله ويذكره على كل حال فى العافية والسقم والفتوة

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٢٦

والكهولة والفقر والغنى والهزيمة والانتصار والحرية والسجن وما إلى ذلك. ومن هنا نرى الأنبياء والأوصياء والأولياء لا ينفكون فى حال من الأحوال عن التضرع إلى الله والتوجه إليه. فالمتبع لسيرة الإمام على عليه السلام لا يرى فى عبادته من تفاوت بين جلوسه فى البيت حين زححت عنه الخلافة ونهوضه بالأمر وإدارته لشؤون البلاد الإسلامية، فالزهد والتهجد وإعانة الضعفاء والفقراء وطلاق الدنيا إلى غير رجعة كان من المعانى الواضحة فى عبادة الإمام عليه السلام: ثم قال عليه السلام:

«ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها»

. لقد رأينا عدّة أفراد من الذين يعيشون الأرق لىالى حين يهمون ببعض الأسفار القريبة التى تدر عليهم بعض الأرباح والفوائد، فكيف ينام طالب الجنة الباقية- النعمة التى لا تفوقها نعمة أو الخائف من نار جهنم التى لا يتصور عذابها وأن رؤيته غير سماعه- ولا يكثر لهذه الامور؟! ولعل ذلك يعزى إلى ضعف ايمان الفرد بالعالم الآخر، أو إلى سكر النعم والمنافع التى يتمتع بها فى حياته، ومهما كان السبب فإن الغفلة عن الآخرة لمن الظواهر المأساوية الاليمة التى ينبغى للإنسان التوقف عندها ومعالجتها. ولاشك أن من وظائف أئمة الدين وزعماء المسلمين ايقاظ الناس من غفلتهم وترسيخ دعائم ايمانهم ولفت أنظارهم إلى الدار الآخرة وتحذيرهم من الاغترار بالدنيا والذوبان فيها. وفى النقطة الثامنة يشير الإمام عليه السلام إلى مسألة ذات صلة بهذا الموضوع فيقول:

«ألا وإنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجر به الضلال إلى الردى»

. طبعاً لا- يتضح عمق هذا الكلام مالم نقف على التعريف الصحيح للحق والباطل. فالحق عبارة عن الواقعات، سواء كان هذا الحق تكوينياً أم تشريعياً. ويراد بالحق التكويني واقعات عالم الوجود، ويقابل ذلك الباطل المتمثل بالخيال والسراب الذى لا واقع له ولا وجود سوى فى عالم التصور والوهم. أما الحق التشريعى فيتمثل بالقوانين والتعاليم الإلهية التى شرعت من أجل الفرد أو مجموعة الأفراد على ضوء المصالح والكفاءات الذاتية أو الاكتسابية، ويقابله الباطل الذى يتجسد بعرقلة القوانين والتمرد عليها باسم القانون وتضييع العدالة وسلب الحريات وذبحها بمرأى ومسمع من الناس. ومن البديهي أن من يولى ظهره للحق سواء على مستوى التشريع أو التكوين فإنه يقع فى حبال الباطل من قبل الوهم والخيال والسراب الذى يحسه الظمان ماء؛ الأمر الذى لا يرتقى بالإنسان إلى الشىء،

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٢٧

والواقعات هى التى تبلغ بالإنسان الهدف لا الوهم والخيال الذى لا يجر على الإنسان سوى الخذلان والخسران. ولعل الإنسان يستطيع عن طريق الباطل اغفال الآخرين مدّة من الزمان، إلّا أن مصيره المحتوم إنّما يؤول إلى البؤس والشقاء لا محالة فى خاتمة المطاف وعليه فان قوله عليه السلام:

«ألا وإنه من لا ينفعه الحق، يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجر به الضلال إلى الردى»

إنما يمثل حقيقة واقعية واضحة. طبعاً صحيح أن الاقرار بالحق واقفاء آثاره إنّما يقترن غالباً بتحمل الشدائد المريرة، إلّا أن هذه المرارة تبدو كمرارة الدواء التى تجعل السقيم يتمثل للشفاء، ولا يجنى من تلك المرارة سوى السلامة والصحة والعافية من المرض الذى ربّما يؤدى بصاحبه إلى الموت. ويتضح ممّا تقدم أن الحق والباطل ليسا من قبيل الوجودات الاصطناعية والامور الاعتبارية؛ فالحق فى

عالم التكوين هو ذلك الوجود العيني وفي عالم التشريع هو عبارة عن الواجبات والمحظورات التي تستند إلى المصالح والمفاسد والتي تمثل بدورها واقعيات عينية، وستتناول هذا الموضوع بالشرح في الأبحاث القادمة.

على كل حال فإن الإمام عليه السلام هدف بهذه العبارة إلى إفهام الآخرين - علاوة على تنبيههم إلى أصل كلي له بالغ الأثر في مصير الناس - بأنهم إذا لم يلتزموا بوصايا المنسجمة والحق والعدل فإنهم سيقعون في مخالف الظلم والجور والاضطهاد وإن أضرار الباطل ستجتاح حياتهم؛ الأمر الذي شهدوه في حياتهم ومسيرتهم. ثم تعرض الإمام عليه السلام - في النقطة التاسعة - إلى موضوع مهم يحكم حياة البشرية شاءت أم أبت

«ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن [١٩٧] ودلتم على الزاد»

. والأمر بالظعن هو قانون الموت الذي يحكم حياة الناس، فالأطفال يسرون نحو الشباب، والشباب يتجهون نحو الكهولة وهذه الأخيرة إنما تنتهي بالموت. فهو قانون شامل جارٍ لا - يعرف الاستثناء والشواذ، كما أنه قانون لا يقوى أحد على تجاوزه مهما كانت قوته وقدرته وعلمه ومعرفته فهو القانون الذي شرعته يد القدرة الإلهية لسمو الإنسانية وتكاملها وقد تعرضت أغلب آيات كتاب التشريع.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٢٨

لهذا الأمر التكويني كالأية: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» [١٩٨] والآية: «أَيُّمَّا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ» [١٩٩]. وقد خوطب بهذا الأمر رسول الله صلى الله عليه وآله الذي يمثل أشرف كائنات عالم الخلق «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» [٢٠٠] والآية: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» [٢٠١].

كما يحتمل أن يكون المراد بقوله عليه السلام «أمرتم بالظعن»

الأمر بالاستعداد للرحيل من الدنيا، كما ورد ذلك في الخطبة ٢٠٤

«تجهزوا رحمكم الله فقد نودي فيكم بالرحيل» [٢٠٢]

. وأمّا الأمر بالتجهز والتزود فإنه يمثل رسالة جميع الأنبياء إلى البشرية وتبنيها إلى الطريق الخطير الذي ينتظرها؛ وهو طريق طويل يشمل الفاصلة بين الدنيا والآخرة ولا - يمكن السير عليه دون حمل الزاد، ولا - معنى للزاد هنا سوى الإيمان والتقوى والورع والعمل الصالح «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» [٢٠٣] ولا - ينفع في الآخرة سوى القلب السليم المفعم بالإيمان وحب الله «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ» * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» [٢٠٤].

وعليه فلا ينبغي أن يلتفت سالكو هذا الطريق إلى الدنيا وما فيها وينخدعوا بزخارفها، بل عليهم الهم بالعمل الصالح الذي لا يبلغ بهم الهدف المنشود سواه «المالُ والبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا» [٢٠٥].

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٢٩

وأخيراً بعد أن لفت انتباه الأمة إلى الآخرة وزهداها في الدنيا وأوصاها بالتزود لتلك الدار وحذرنا من ذلك الطريق الخطير الذي ينتهي سالكه إلى السعادة والقرب الإلهي إذا سار عليه بعمله الصالح وورعه وتقواه، عاد عليه السلام ليحذر من عقبتين خطيرتين تصدان الإنسان عن السعادة والفلاح

«وإن أخوف ما أخاف عليكم إثنان: إتياع الهوى، وطول الأمل»

وهو المعنى الذي ورد في الخطبة ٤٢ بعد أن تناوله الإمام عليه السلام بشيء من التوضيح فقال:

«أيها الناس وإن أخوف ما أخاف عليكم إثنان: إتياع الهوى وطول الأمل، فأما إتياع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسى الآخرة»

. وتفيد الإحاديث النبوية والأخبار والروايات أن هذه التعاليم قد احتذاها أمير المؤمنين عليه السلام من معلمه الأول الأكرم صلى الله

عليه وآله؛ فقد وردت هذه المعانى فى بحار الأنوار نقلًا عن النبى صلى الله عليه وآله [٢٠٦].

والواقع هو أن هذين المرضين يعدان من أعظم عوامل الذنوب والمعاصى، لأن اتباع الهوى لا يعرف معنى للحدود والقيود، فاذا سيطر على الإنسان أعمى بصره وبصيرته وأصم سمعه بحيث لا يطيق سماع الحق من النبى صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام ولا تعد لديه القدرة على رؤية الحقائق التى تحيط به، وعليه فهو يعيش حياته الدنيا كالصم البكم العمى الذين لا يفقهون؛ الأمر الذى يجعله عرضة للسقوط فى الهاوية. أما طول الأمل فإنه يزين الدنيا بما ينسى الآخرة ويقتصر بهمة الإنسان على الدنيا التى يرى فيها مقامه الأخير وهدفه النهائى. ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بقوله

«تروودوا فى الدنيا من الدنيا ما تحرزون [٢٠٧] به أنفسكم غداً»

نعم فهناك سفر طويل على الأبواب، سفر يتطلب المتاع والزاد الكثير، وعليه فينبغى للعاقل أن يلتفت إلى نفسه ويجهزها بما يجعلها تجتاز ذلك السفر الطويل قبل فوات الأوان، ويتبعد عن الأخطار والمطبات التى يمكنها عرقله هذه السفر، فيطويه بكل إيمان وثبات ليصل إلى هدفه المنشود.

تأملان

١- خير الزاد

لا نرانا نبالغ إذا شبهنا الناس بالمسافرين الذين يغادرون منطقة صغيرة ملوثة نحو عالم

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٣٠

كبير مفعم بالطهر والخير والعطاء، بل هذا هو السفر الواقعى والحقيقى الذى ينقل الإنسان من هذا العالم السفلى والتمهات للدنيا إلى عالم الآخرة العلوى والسامى الخالد، كما أن لوازم السفر التى يهيئها المسافر، هى الأخرى لابد أن توفر فى هذا السفر الشاق من قبيل الزاد والمتاع والمركب ومعرفة نقطة الانطلاق والغاية ومطبات الطريق والمخاطر التى تعترض السبيل والتى ينبغى دراسة كل واحد منها بصورة مستقلة- فقد صرح القرآن الكريم بأن زاد هذا السفر إنما يكمن فى الورع والتقوى فى اجتناب المعاصى وطاعة أوامر الله والإتيان بالأعمال الصالحة.

وهو المعنى الذى أكده أمير المؤمنين على عليه السلام كراراً فى نهج البلاغة، ومن ذلك ماورد فى الخطبة ١٨٣ حيث قال عليه السلام:

«وأنتم بنو سبيل على سفر من دار ليست بداركم وقد أودتتم منها بالارتحال وامرتم فيها بالزاد»

وهن يبرز هذا السؤال: إنما يستفاد من الزاد والمتاع طيلة السفر لا فى المقصد والغاية، والحال إن الورع والتقوى تستفاد فى الآخرة وتشكل مفتاح أبواب الجنان، فكيف اعتبرت التقوى هى الزاد والمتاع؟ وللإجابة على هذا السؤال لابد من القول بأن مبدأ هذا السفر طويل يبتدأ من لحظة الموت وسكراته ويستمر حتى عالم البرزخ وما يتخلله من مواقف القيامة ومنازل السؤال والحساب والصراط- والتى تتسم بتعدها وهول مطلعها- حتى تنتهى بالجنان. ومما لاشك فيه أن التقوى هى زاد فى عالم البرزخ كما أنها الزاد والمتاع فى مواقف القيامة ومنازلها قبل الدخول إلى الجنة- نعم فإن زاد التقوى هو الذى يجعل الإنسان يجتاز هذه المنازل الخطيرة بسلام ويقوده إلى منزله الأخير المتمثل بالجنة.

جدير بالذكر أن الآية الشريفة «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» جعلت التقوى هى المعيار الرئيسى لكرامة الإنسان وقيمته؛ الأمر الذى يؤكد المعنى المذكور فى أن السبيل الوحيد للنجاة غداً إنما يكمن فى التقوى والتى عبّر عنه أحياناً بالزاد وأحياناً أخرى بصفحتها تمثل

ملاك الكرامة الإنسانية. وهذا ما وضحته بعض العبارات الواردة في الخطبة ٢٠٤ من نهج البلاغة «وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد فإن أمامكم عقبة كؤودا ومنازل مخوفة مهولة لا بد من الورد عليها والوقوف عندها» . نسأل الله سبحانه أن يوفقنا لتوفير هذا الزاد القيم قبل فوات الأوان، فلا نرد ذلك السفر بأيدي خالية، والحق أنها خالية مقارنة بما عليه تلك الدار.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٣١

٢- اتباع الهوى وطول الأمل من أعدى أعداء الإنسان

إشارة

لا بد من التعامل بصورة جادة مع التحذير الذي اختتمت به الخطبة بشأن الأخطار الكبرى التي يفرزها اتباع الهوى وطول الأمل؛ فهما مكن الخطر والمأساة التي تصيب الإنسان. فاتباع الهوى يعد أعظم عقبة تعترض سبيل سعادة الإنسان. فالاستسلام المطلق للشهوات والأهواء النفسية يعد العدو اللدود لسعادة البشرية. القرآن الكريم من جانبه حذر حتى الأنبياء من هذا العدو الفتاك، ومنهم نبي الله داود عليه السلام الذي قال بشأنه «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» [٢٠٨] كما صور هوى النفس في موضع آخر بالصنم الذي يعبد من دون الله «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» [٢٠٩]. والحق أن اتباع الهوى ليعمى البصيرة ويصم السمع ويختم على العقل والفكر ويحول دون الإنسان وتمييز بديهيات الحياة، فهل هنالك من خطر أعظم وأفدح منه؟! ومن هنا اقتصر القرآن بوعد الجنة لأولئك الذين يخشون الله ويسيطرون على أهوائهم «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَيُؤْتِنَا الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى [٢١٠].

طول الأمل هو الآخر من أسوأ وأخطر العقبات التي تعترض سبيل السعادة الإنسانية؛ فقد دلت التجارب على مدى التأريخ أن آمال الإنسان الخيالية لا تقف عند حدود، فلا يزداد نحوها إلا تعطشا. ومن الطبيعي أن مثل هذه الآمال تشل حركة الإنسان وتسلبه جميع طاقاته الفكرية والبدنية ولا تبقى له شيئا يشده نحو الآخرة. فاننا نعرف بعض الأفراد الذين عاشوا هذه الآمال الكاذبة حتى اللحظات الأخيرة من حياتهم دون أن يلتفتوا حتى لتربية فلذات أكبادهم. ومن عجائب هذه الآمال، أن الإنسان كلما تقدم أكثر كانت هذه الآمال أكذب بحيث تضاعف غرور الإنسان وتصدده عن الواقع. وهذا هو الوضع السائد لدى الكفار والذي أشار إليه القرآن في خطابه

لرسول الله صلى الله عليه وآله

«ذُرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٣٢

يَعْلَمُونَ» [٢١١]، المعنى الذي أشار إليه الإمام عليه السلام في قصار كلماته في نهج البلاغة

«من أطال الأمل أساء العمل» [٢١٢].

ويبدو أن تلك الآمال متعذرة النيل من خلال الأسباب المشروعة، وهي لا تيسر إلا من خلال خلط الحلال بالحرام وهضم حقوق الآخرين ونسيان الله والآخرة. ومن هنا حذر الإمام عليه السلام في الخطبة ٨٦ من نهج البلاغة أولئك الذين ينشدون السعادة بالقول «واعلموا أن الأمل يسهى العقل وينسى الذكر فأكذبوا الأمل فانه غرور وصاحبه مغرور»

ويبدو قصر الأمل على درجة من الأهمية بحيث اعتبره الإمام عليه السلام الركن الأصلي للزهد، وهذا ما أورده في الخطبة ٨١ من نهج البلاغة

«أيها الناس، الزهادة قصر الأمل والشكر عند المنعم والتورع عند المحارم»

. وآمال الإنسان كانت ومازالت أبعد وأطول من عمر الإنسان وإمكاناته وقدراته؛ الأمر الذى لا يجعل أهل الهوى وطلاب الدنيا يحققون تلك الآمال ويظفروا بها أبداً، وغالباً ما يودعون الدنيا بمنتهى الانزجار والاستياء فى لحظات نزع أرواحهم. وبالطبع لا ينبغى الغفلة عن الأمل بشكل الدافع الأساس لسعى الإنسان وجهده وانطلاقته فى هذه الحياة، وعليه فالأمل حسن وليس بقبیح ولا يمكن مواصلة الحياة من دونه، إلّا أنّ المذموم إساءته وطوله وبعده عن الواقع واستناده إلى الوهم والخيال. ومن هنا ورد فى الحديث «الأمل رحمة لامتى ولولا الأمل ما رضعت والدّة ولدها ولا غرس غارس شجراً» [٢١٣].

وبناءً على ما تقدم فإن وظيفة أساتذة الأخلاق خطيرة ثقيلة؛ وذلك لأنهم لا بدّ أن يضيئوا نور الأمل فى قلوب الناس من جهة ومن جهة أخرى ينبغى أن يبقوا عليه متوازنًا بعيداً عن الإفراط. والآمال المنطقية هى تلك التى تنسجم ومتطلبات الإنسان وقدراته الواقعية بحيث لا تبعده عن هدفه المنشود. وبالطبع فإنّ الإسلام لا يعارض التخطيط والبرمجة من أجل المستقبل والتطلع إلى الغد ولا سيما بالنسبة للأنشطة الاجتماعية التى تعود بالنفع على المجتمع الإسلامى وتضع حداً للتبعية لأعداء الإسلام، فإنّ مثل هذه الأنشطة ليست مذمومة فحسب،

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٣٣

بل تعتبر عبادة والمذموم فى الإسلام أنّ الإنسان يغرق فى هالة من الآمال الفارغة التى تنسى الآخرة، وبالتالي لا يظفر الإنسان بها مهما جند طاقته وإمكاناته.

وفى الحياة الفردية مطلوب هو التفكير فى العاقبة والذى إصطلحت عليه الروايات بالحزم.

والمذموم فى الإسلام أن يغرق الإنسان فى الأمل حتى ينسى الآخرة، ويفنى كل طاقته وقواه فى ذلك الأمل الذى لن يبلغه قط.

تكملة

قال السيد الشرف (رض) وأقول: إنه لو كان كلام يأخذ بالاعتناق إلى الزهد فى الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة، لكان هذا الكلام وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال وقادحاً زناد الاعتاض والازدجار ومن أعجبه قوله عليه السلام: «ألا وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق، والسبقة الجنة والغاية النار»، فإن فيه - مع فخامة اللفظ وعظم قدر المعنى وصادق التمثيل، وواقع التشبيه - سرّاً عجبياً ومعنى لطيفاً، وهو قوله عليه السلام: «والسبقة الجنة، والغاية النار» فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين ولم يقل: «السبقة النار». كما قال، «السبقة الجنة»؛ لأن الاستباق إنما يكون إلى امر محبوبٍ وغرضٍ مطلوبٍ وهذه صفة الجنة وليس هذا المعنى موجوداً فى النار، نعوذ بالله منها ...!

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٣٥

الخطبة [٢١٤] التاسعة والعشرون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

بعد غارة الضحّاك بين قيس - صاحب معاوية - على الحاج بعد قصة الحكمين، وفيها يستنهض أصحابه لما حدث فى الأطراف.

نظرة إلى الخطبة

كما ورد فى أسناد الخطبة فإن بعض المحققين يرون أن هذه الخطبة جزء من الخطبة السابعة والعشرين؛ ويبدو أنّها كذلك، لأنّ مضامينها واحدة تفيد مدى ضعف أهل الكوفة والعراق تجاه حملات معاوية وأهل الشام، وكأنّهم لم يشعروا بما كان يدور حولهم

والجرائم البشعة التي كان يرتكبها الشاميون. فقد جعل الإمام عليه السلام يمطرهم بوابل الدم والتشنيع لعلهم يفيقون إلى أنفسهم ويتنبهوا إلى الأخطار التي كانت محدقة بهم. فقد قال ابن أبي الحديد:

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٣٦

كانت غارة الضحّاك بن قيس بعد الحكمين، قبل قتال النهروان، وذلك أن معاوية لما بلغه أن علياً عليه السلام بعد واقعة الحكمين تحمّل إليه مُقبلاً، هاله ذلك، فخرج من دمشق معسكراً، وبعث إلى كور الشام، فصاح بها: إن علياً قد سار إليكم. وكتب إليهم نسخة واحدة، فقرأت على الناس:

ج ج

فعند ذلك دعا معاوية الضحّاك بن قيس الفهري، وقال له: سرّ حتى تمرّ بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت، فمن وجدته من الأعراب في طاعة عليّ عليه السلام فأغزو عليه، وإن وجدت له مشيخة أو خيلاً فأغزو عليها، وإذا أصبحت في بلدة فأؤس في أخرى، ولا تُقيم لخيّل بلغك أنّها فقد سرّحت إليك لتلقاها فتقاتلها. فسرحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف.

فأقبل الضحّاك، فنهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب، حتى مرّ بالثعلبية فأغار على الحاج، فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل فلقي عمرو بن عُميس بن مسعود الدهلي، وهو ابن أخ عبد الله بن مسعود، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقتله في طريق الحاج عند القُطْقُطَانَة.

وقتل معه ناساً من أصحابه.

استصرخ أمير المؤمنين عليه السلام الناس عُقيب غارة الضحّاك بن قيس الفهري على أطراف أعماله، فتقاعدوا عنه، فخطبهم. [٢١٥]

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٣٧

القسم الأول: عوامل ضعف أهل الكوفة

«أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبِيدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ! كَلَامُكُمْ يُوهِى الصَّمَّ الصَّلَابَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمَعُ فِيكُمْ الْأَعْدَاءُ! تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ: حَيْدِي حَيَادٍ! مَا عَزَّتْ دَعْوَةٌ مِنْ دَعَاكُمْ، وَلَا اسْتَرَاخَ قَلْبٌ مِنْ قَاسَاكُمْ، أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلٍ وَسَأَلْتُمُونِي التَّطْوِيلَ، دِفَاعَ ذِي الدِّينِ الْمَطْوِيلِ».

الشرح والتفسير

ذكرنا سابقاً أن الخطبة القيت في ظروف عصيبة جداً، حيث شنت الغارات تلو الغارات على أهل العراق، جعلت الإمام عليه السلام يسعى جاهداً لاعداد الناس، إلّا أنّ الضعف والوهن كان قد بلغ مبلغه منهم بحيث لم تعد لهم من قوة تذكر، فلم يكن أمام الإمام عليه السلام من سبيل سوى اللجوء إلى آخر حربة من أجل تعبئتهم واستنفار طاقاتهم وهي توبيخهم ودمهم عليهم يلتفتون إلى أنفسهم ويبصروا الأخطار التي كانت تترصد بهم.

فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بالتعرض إلى العامل الرئيسي الذي يقف وراء ذلك الضعف والذلة والوهن والذي يعزى إلى عدم الانسجام بين الأقوال والأفعال الذي يستند إلى ضعف الاعتقاد الباطني بالأهداف المقدسة النبيلة فقال عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبِيدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ»

، أمّا كلامهم فقد كان شديد يخترق الصخور، أمّا أعمالهم فقد كانت هزيلة لا تنسجم وذلك الكلام

«كلامكم يوهي [٢١٦] الصم [٢١٧] الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء»

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٣٨

أجل إن ذلكم وهوانكم إنّما أفرزه شقاقكم وفرقتكم. إنكم متحدون ظاهراً، مختلفون باطناً، وهذا ما أدى بكم إلى الاكتفاء بالأقوال

الطنانة الرنانة بدلاً من الأفعال والأعمال؛ الأمر الذي يؤدي إلى تآكل المجتمعات وانهارها إذا ما عاشت هذه الحالة «تقولون في المجالس: كيت وكيت [٢١٨]، فإذا جاء القتال قلتم: حيدى حيدى [٢١٩]».

فالواقع هذه بعض الصفات البارزة للمنافقين والأفراد الضعاف النفس المسلوبى الإرادة الذين يكثرون الحديث في المجالس الخاصة والعامه ويستعرضون معانى الشجاعة والبسالة والعزم والإرادة الراسخة، وكأن قدرة هؤلاء لا تتجاوز هذه الأحاديث، فإذا وردوا ميدان القتال استحوذ عليهم الخوف والهلع وكأنهم يصرخون، إليك عنا أيها القتال فارقنا وابتعد، بل هم مرعبون من ميدان الحرب والقتال ويختلقون مختلف الأعذار للفرار من الميدان. والعبارة «حيدى حيدى» من مادة حيد بمعنى الميل والانحراف عن الشيء وتقابلها العبارة «فيحى فياح» بمعنى الرغبة في الشيء. ولعل المخاطب بالعبارة «حيدى حيدى» الجنود والمقاتلون الذين تدعوهم عناصر النفاق والانهاز إلى اعتزال الميدان، وعلى العكس من ذلك دعوة عناصر القوة والاعتدال إلى القتال بقولها «فيحى فياح». كما يحتمل أن يكون المراد قولهم للمعركة ابتعدى عنا؛ الأمر الذى يكشف عمق خوفهم من قتال العدو، كما يمكن أن يكون المراد أنهم كانوا يخاطبون أنفسهم بهذه العبارة بغية الإسراع فى الابتعاد والاعتزال. وما أشبه هذه الطائفة المنافقة بمنافقى عصر الرسالة الذين صورتهم سورة الأحزاب: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٣٩

أَعْمَالُهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» [٢٢٠]. لقد كانت هناك عدّة معدودة على هذه الشاكلة على عهد النبي صلى الله عليه وآله، غير أنه من المؤسف أن الأكتريه الساحقه لأهل الكوفة- التى كانت تمثل جيش الإمام عليه السلام- كانت كذلك. ثم قال عليه السلام:

نفحات الولاية؛ ج ٢؛ ص ١٣٩

«ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم»

يبدون أن هذه العبارة تشكل رداً على أولئك الذين يشكلون على مثل هذه الخطب فى أن الإمام عليه السلام لم يكتف بالموعظة ولا يمارس الضغوط من أجل حشدهم للجهاد؛ الأمر المتعارف لدى الحكام فى كافة أرجاء المعمورة؟ فالإمام عليه السلام يقول: لو تركتكم وحالكم أحراراً ودعوتكم للجهاد لم تلبوا دعوتى، ولو شددت عليكم فى هذه الدعوة فأنتم كذلك، وما ذلك منكم بعجيب فأنتم أفراد ضعاف النفس والإرادة ولستم إلا إلباً لأعدائكم على أوليائكم. وقد أثبت التاريخ أن هؤلاء الأفراد أصبحوا جنوداً مجندة لبنى أمية ومن كان على شاكلة ابن زياد والحجاج إثر خشيتهم من التهديدات التى تطيل أموالهم وأعراضهم، ولكن ليس لحكام العدل ولا سيما على عليه السلام من اتباع هذا الاسلوب فى تعبئة الأفراد. ثم قال عليه السلام

«أعاليل بأضاليل [٢٢١]»

كل ذلك قعوداً عن الجهاد ودفعاً بى إلى تأخيره، كالمدين الذى يناشد الدائن تمديد الأجل

«وسألتمنى التطويل دفاع ذى الدين المطول»

نعم هذا هو حال الأفراد الضعاف من أهل المزاعم والإدعاءات دون الأفعال، ليس لهم من هم سوى خلق الأعذار والتشبث بالذرائع من أجل التهرب من المسؤولية، القرآن من جانبه صور حالة المنافقين على عهد النبي صلى الله عليه وآله الذين كانوا يحاولون بشتى الطرق التملص من حوض القتال فعزى ذلك إلى حبههم للدنيا وإيثارها على الآخرة «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُمْنَ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ». [٢٢٢]

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٤٠

هنالك سؤال يطرح نفسه وهو: لم كل هذا الضعف الذي ساد أهل الكوفة مع وجود ذلك الإمام العادل والحكيم المعروف والمجرب في ساحات الوغى، في حين كان أهل الشام أكثر قوة وفاعلية منهم والحال كان حاكمهم معاوية؟ ويبدو أن الجواب على هذا السؤال كما أشرنا سابقاً يكمن في الآلية الاجتماعية التي كانت عليها الناس آنذاك. فالكوفة لم تكن تتمتع بسابقة تاريخية تذكر، بل كانت منطقته حديثه ضمت أقواماً مختلفه ذات ثقافات متنوعه، عاشت حالة من التنافس الظاهري والباطني، خلافاً لأهل الشام الذين كانوا يتمتعون بالوحدة واللحمه. أضف إلى ذلك فإن أغلب خصوم الدعوة من منافقي المدينة وسائر المناطق كانوا قد اتجهوا صوب الكوفة وأخذوا يمارسون دعاياتهم المغرضه التي تهدف إلى شق الصفوف وزرع بذور الفرقة والاختلاف في صفوف أهل الكوفة، إلى جانب العمل على إضعافهم في مجابهة العدو. من جانب آخر فإن الفتوحات الإسلامية آنذاك قد جرت ثروات طائلة، ولا يخفى أن طبيعة الثروة إنما تختزن الدعة والرفاه والعافية؛ الطبيعة التي لا تنسجم وروح القتال والجهاد.

ومن هنا كان أهل الكوفة يقتنصون الأعذار التي تمكنهم من أداء وظيفتهم الجهادية حتى في أحلك الظروف التي شنت عليهم الغارات وجرعوا فيها غصص الذل والهوان من قبل بنى أمية وجيوش الشام. نعم إن الأمية كانت تلهث وراء الحكام الذين عبثوا بيت المال وأغدقوا مافيه على الرعية، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام مستعداً للتفريط بصاع من بيت مال المسلمين لأقرب المقربين كائناً من كان. وهذه هي العلة الأخرى التي ساقها أمير المؤمنين في كشفه النقاب عن روحية الأمة «وإني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم ولكني لا أرى صلاحكم بافساد نفسي» [٢٢٣].

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٤١

القسم الثاني

إشارة

«لا يَمْنَعُ الضَّيْمَ الدَّلِيلُ وَلَا يُدْرِكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ! أَيُّ دَارٍ بَعِيدٍ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ؟ الْمَغْرُورُ - وَاللَّهِ - مَنْ غَزَرَ تَمُوءُهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ، فَقَدْ فَازَ - وَاللَّهِ - بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقٍ نَاصِلٍ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى ركن مهم في الحياة الإنسانية فقال

«لا يمنع الضيم الدليل، ولا يدرك الحق إلا بالجد»

ما أجدد أن تكتب هذه العبارة بماء الذهب وتتلى صباح مساء في أفنية مستضعفى العالم حتى تصبح جزءاً من ثقافتهم وترسخ في أعماقهم. نعم إن الطغاة جرعوا الأذلاء والعجزة صنوف العذاب والظلم والاضطهاد ولم ينصفوهم ويمنحوهم حقوقهم، فالحق يؤخذ بالقوة إستناداً لمعانى العمل والسعى الدؤوب والاثرة وحمل السلاح وخوض غمار القتال، فالطغاة الجبابرة لا يفهمون سوى لغة الحديد والنار ولا بد من مجابتههم بالقوة. ويبدو أن طبيعة العالم كذلك في أن سبيل بلوغ الأهداف العليا المادية والمعنوية إنما عبد بالمطبات والعقبات الكؤود، ولا يظفر بهذه الأهداف من لم يقاوم هذه العقبات. ثم يقطع الإمام عليه السلام كافة الأعذار على هؤلاء فيخاطبهم ماذا تنتظرون، وعن أى دار تدافعون، ومع من تقاتلون وأنا بين أظهركم «أى دار بعد داركم تمنعون ومع أى إمام بعدى تقاتلون؟»

. نعم لن يسعكم الدفاع عن أى دار طالما تخاذلت في الدفاع عن داركم بصفتها دار الإسلام، وإذا لم تلتحقوا بى في القتال

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٤٢

فلن يسعكم القتال مع أى أحد بعدى. وعليه فليس أمامكم سوى الأسر والعبودية للعدو فيسلبوكم الإرادة والاختيار - فالواقع هو أن

الإمام عليه السلام أراد حثهم على القتال من خلال بعض المعانى التى تثير فى نفوسهم الحمية والغيرة، فالوطن لا يسلم دون الدفاع عنه، وإن كانت لهم أدنى رابطة بإمامهم فهم مطالبون بالقتال فما عسى أن يكون الإمام من بعده والذى يسعهم القتال معه. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى عدم إمكانية خوض القتال بمثل هذه العناصر الضعيفة الهزيلة التى فقدت مقومات المقاومة والثبات «المغرور- واللّه- من غررتموه» [٢٢٥].

فالمحتال الخادع قد يتلاعب ببعض ممتلكات الناس ويمدّ يده إلى بعض حاجاتهم، أما أنتم فقد سلبتمونى كل شىء وقد وليتم ظهوركم للعدل والطهر والتقوى والعزة والرفعة فضيغتم حقوق المسلمين ولاسيما المستضعفين والمحرومين. ثم قال عليه السلام: «ومن فاز بكم، فقد فاز- واللّه- بالسهم الأخبى» [٢٢٦]

. إشارة إلى أن مساعدتكم ونصرتكم ليست بشىء، ومن يعتمد عليكم كمن يشترك فى اقتراح لا تنطوى نتيجه سوى على الخسران. فالإمام عليه السلام يرى فى نصرته أهل الكوفة الهزيمة الفشل وقد شبهها تشبيه رائع فى أن الفوز بهم كالفوز بالسهم الأخبى الخاسر. ثم أورد شبهاً آخر فقال عليه السلام:

«ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل»

فى إشارة إلى أن أهل الكوفة فاقدون لكافة مقومات الهجوم على العدو من قبيل قوة الإيمان التقوى والشجاعة، وقد فقدوا كافة القيم إثر تعلقهم بالحياة الدنيا والاعتزاز بزخارفها وزبرجها.

تأملان

١- الحق يؤخذ ولا يعطى

ما نفهمه من قوله عليه السلام

«لا يدرك الحق إلّ بالجد»

أن الحق يؤخذ ولا يعطى؛ أى لا يمكن التطلع إلى الحصول على الحق فى ظل الحكومات الغاشمة التى تعتمد أسلوب القوة وتمارس الظلم والاضطهاد بحق الطبقات المحرومة والمستضعفة؛ ولا غرو فأساس قوتهم وقدرتهم إنّما

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٤٣

تكمن فى غضبهم لحقوق الآخرين، وعليه فلا تعنى إعادة هذه الحقوق المغتصبة سوى تجريدهم من هذه القوة؛ الأمر الذى لن يحدث قط. وهنا يحث الإمام عليه السلام كافة المحرومين والمستضعفين على الوحدة وحرص الصفوف لاستعادة حقوقهم السليبة من الظلمة والطواغيت وأنهم غالبون لا- محالة، فالطغاة ليسوا مستعدين للتضحية، بينما يضحى المستضعفون بالغالى والنفيس من أجل إحقاق حقوقهم. طبعاً ملئت الدنيا اليوم بالشعارات التى تتبنى حقوق الإنسان وتطالب بإعادة حقوق المحرومين، غير أن التجربة أثبتت بالأدلة القاطعة أن هذه الشعارات لاتعد كونها مصائد تهدف اغفال الطبقات المسحوقة والمعدمة والاستسلام إلى ارادة الأقوياء؛ الأمر الذى يثبت أن الحق يؤخذ ولا يعطى. فالمؤمنون لا يسعهم الوقوف مكتوفى الأيدى حيال الظالمين الذين يتلاعبون بمقدراتهم. وعليهم أن يتعلموا الدروس والعبر التى لفتها الإمام الحسين عليه السلام البشرية جمعاء فى الصبر والتضحية والفداء، فما زالت صرخاته تدوى فى الاسماع

«ألا- وإنّ الدعى ابن الدعى قد تركنى بين السلة والذلة! وهيهات له ذلك! هيهات منى الذلة! أبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون و حدود طهرت وحجور طابت، أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام» [٢٢٧]

. كما أكد القرآن الكريم على جانب الصبر والصمود والمقاومة لدى المؤمنين، ومن ذلك الآية ٢١٤ من سورة البقرة «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصِيرَ اللَّهِ قَرِيبٌ». وهي الحقيقة التي نلمسها بوضوح في كافة الغزوات الإسلامية من قبيل بدر وأحد والأحزاب وتبوك وحين، التي كان ينتصر فيها المسلمون بسلاح الإيمان والصبر، صحيح أن النصر من عند الله، إلا أن الامداد الغيبي والعناية الإلهية كانت مكملته للأسباب الظاهرية والعدة والعدد التي كان عليها المسلمون. فهذا أحد القوانين التاريخية الثابتة، فلا يقتصر على صحب النبي صلى الله عليه وآله والإمام الحسين عليه السلام، كما لا يرتبط بالأمس واليوم، بل يشمل المستقبل كالماضى على حد سواء.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٤٤

٢- الدفاع عن الوطن

لقد لجأ الإمام على عليه السلام إلى مختلف الأساليب من أجل إثارة مشاعر أهل الكوفة وتعبئتهم لقتال العدو، ومن ذلك تأكيد على مسألة الدفاع عن الوطن «أى دار بعد داركم تمنعون»

؟ فى إشارة واضحة إلى علاقة كل فرد بوطنه وأنه يهب للدفاع عن هذا الوطن إذا تعرض للخطر مهما كانت المدرسة والفكرة التي يؤمن بها وينتمى إليها، إلّا أن المؤسف له أن هذه الروح هي الأخرى قد ماتت فيهم. وهنا يبرز هذا السؤال: هل حرمة الوطن في الإسلام بصفته يمثل دار الإسلام أم هناك شيء آخر؟ أى البلد الإسلامى يكتسب حرمة كونه بلداً إسلامياً، أم هناك حرمة ذاتية لكل بلد بحيث تتضاعف هذه الحرمة لو أصبح جزءاً من دار الإسلام؟ يمكن العثور على أجوبة هذه الاسئلة فى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية؛ الأمر الذى يؤكد العقل أيضاً. فقد توالى الآيات التي ذهبت إلى أن الإخراج من الوطن إنما يضاد القيم الإنسانية؛ الأمر الذى يعنى حرمة الوطن الذاتية، وهذا ما نلمسه بوضوح فى الآيات القرآنية الثامنة والتاسعة من سورة الممتحنة «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» فقد اعتبرت الآيتين الكريمتين الإخراج من الوطن بمثابة المقاتلة فى الدين، الأمر الذى يؤكد قيمة الوطن كما صرحت بذلك الآية ٢٤٦ من سورة البقرة على لسان بنى إسرائيل «قَالُوا وَمَا لَنَا أَلْتَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا» فهى تدل على أن دافعهم الجهادى إلى جانب حفظ الدين ينطوى على انقاذ الوطن، وقد أقر نبيهم هذا الدافع دون أن يعترض عليه، ونوكل الحديث فى الآيات الأخرى الواردة بهذا المجال إلى محلها.

رسول الله صلى الله عليه وآله كان شديد التأثر اثر هجرته من مكة، طبعاً صحيح أن مكة كانت تمثل قيمة دينية كبيرة، إلّا أنها كانت تعنى إلى جانب ذلك بالنسبة للنبي صلى الله عليه وآله و آله ووطنه ومسقط رأسه، ومن هنا خفف عنه القرآن بقوله «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ» [٢٢٨].

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٤٥

وورد فى الحديث عن على عليه السلام:

«عمرت البلدان بحب الاوطان» [٢٢٩]

وقال أيضاً

«من كرم المرء بكائه على ما مضى من زمانه وحينه إلى أوطانه» [٢٣٠].

وجاء في الحديث المعروف

«حبّ الوطن من الإيمان» [٢٣١].

فالذي نخلص إليه أنّ حبّ الوطن والتعلق به يستند إلى جذور قرآنية ونبوية إلى جانب تأييد العقل والمنطق. الا ان هذا لا يعنى تعلق الفرد بوطنه بصورة مطلقة بحيث لا يتركه طلب العلم والتكامل ونيل المنافع المعنوية والقيم الإلهية ومن هنا ورد الحديث عن على عليه السلام:

«ليس بلد بأحق بك من بلد، خير البلاد ما حملك» [٢٣٢]

. وأخيراً فان الوطن يكتسب قيمة مضاعفة إذا ما انضمت إليه الجوانب المعنوية علاوة على الجوانب المادية، فيصبح دار الإسلام، فيهب الفرد بكل ما أوتي من قوة للدفاع عنه والذود عن كيانه.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٤٧

القسم الثالث: اليأس من القوم

إشارة

«أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ لَا أَصِدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلَا أُوْعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ. مَا بِالْكُمْ؟ مَا دَوَاؤُكُمْ؟ مَا طِبُّكُمْ؟ الْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ أَقْوَالًا بَغَيْرِ عِلْمٍ؟

وَعَقْلُهُ مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ؟! وَطَمَعًا فِي غَيْرِ حَقِّ؟»

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام هذه الخطبة- التي تعدّ من الخطب الأليمة للإمام عليه السلام بمعاودة ذم أولئك القوم الذين ماتت أرواحهم عليهم فيقولون قليلاً فيعبثوا أنفسهم ويستغلوا إمكاناتهم ويهبوا للقاء عدوهم فيريحوا الأئمة الإسلامية من شر أهل الشام الذين يمثلون حثالات زمان الجاهلية، فقد قال عليه السلام:

«اصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع في نصركم، ولا أوعد العدو بكم».

نعم إنّ الإدارة الناجعة تتطلب ثقة متبادلة بين الأئمة والقائد، وإنّ ثقة القائد بالأئمة والعمل على تشجيعها وغيض الطرف عن أخطائها وتذكيرها بنقاط قوتها من شأنه أن امل القائد وأحلامه قد تتبدد من جراد الأئمة التي تعيش الخواء الروحي والضعف والتشتت والتمزق والجهل بحيث لا يعد للتشجيع والثقة من دور في إثاوتها وحشد طاقاتها، بحيث يستفعل مرضها بما يجعل من الصعقة الاسلوب الامثل للشقاء.

- فالعبارة وإن كانت تصور الأوضاع المزريّة لأهل الكوفة، إلّا أنّها تشير إلى مدى عمق المشاكل التي إستنزفت أمير المؤمنين على عليه السلام في ذلك الزمان، فقد كان محقاً في اعلانه عدم الوثوق بهم، فقد خالفوا كراراً وعودهم ونقضوا محارم عهودهم ونكثوا بيعتهم.

لم يكونوا يحسنون سوى الكلام في المجالس وإطلاق الشعارات الرنانة والكلمات

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٤٨

الحساسة، فاذا دقت ساعة القتال ولوا زحفاً إلى مخادعهم وهربروا هرب الشاة من الذئب.

ثم قال عليه السلام:

«ما بالكم؟ مادواؤكم؟ ما طبكم؟ القوم رجال أمثالكم».

أو تعتقدون أنّ أهل الشام خلقوا من غير طينتكم، أم لهم بقية جسمية وروحية تختلف عنكم؟ كلا.

اللهم الافارق واحد بينكما هو الاخلاق والمعنويات.

فهم يعملون ماذا يلزمهم من أجل القتال، إلّا أنكم لستم كذلك رعتم النعمة العظيمة التي من الله بها عليكم بان جعل لكم إماماً عادلاً مقتدرًا ... لقد أربعتكم إمكاناتهم حتى انتهى بكم ذلك إلى الذل والهوان.

يا للاسف أن يتلى زعيم مثلى برعية مثلكم.

نعم دواؤهم كان فيهم كما ورد ذلك في الشعر الذي يتسبب إلى الإمام عليه السلام:

دواؤك فيك وما تبصرو دواؤك منك وما تشعر

ثم يختم عليه السلام خطبته بالقول

«أقولاً بغير علم؟ وغفلة من غير ورع؟ وطمعا في غير حق؟».

أجل هذه هي العناصر التي تقف وراء بؤسكم وتعاستكم، فأنتم ترسلون الكلام على عوايته دون أن تستندوا إلى علم أو معرفته، ثم وليتم ظهوركم للورع والتقوى وانهمكتم في الدنيا وغفلتم عن الآخرة، وأخيرا فأنكم تحلمون بالنصر دون أن تعدوا له عدته.

هذه هي العوامل الثلاث (القول دون العمل والجهل المشوب بعدم التقوى والأمل بالنصر دون إعداد مقدماته) التي تهدد بالفشل والهزيمة كل أمة وقوم.

أسباب الهزيمة والفشل

لاشك أن جيش الإمام عليه السلام وبفضل زعيمه الرباني المعروف بالجهاد والشجاعة في ميدان الحرب كان يمتلك كافة أسباب الانتصار على العدو من جميع النواحي، إلّا أنه وللأسف قد شهد حالة من الضعف سلبته زمام المبادرة وزعزعت عوامل النصر، والمفروغ منه ان ذلك الضعف والوهن إذا دبّ في أمة فأنها لن تنتظر مصيراً أحسن من ذلك المصير الذي ساد جيش الكوفة.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٤٩

وقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة التي نحن بصدرها إلى عناصر هذا الضعف والتي كان في مقدمتها تركهم للعمل وتمسكهم بالقول.

فقد كانت مجالسهم عامرة بالكلام ولا سيما عن القتال والحرب دون أن يعدوا العدة اللازمة و يأخذوا للحرب اهبتها، يكثر من الكلام خلف الجبهات دون أن يجرأ أحدهم على الاقتراب من الخطوط الأمامية.

وكأن قدرة الأفراد الضعاف العجزة تتركز عادة في الأقوال والمزاعم، ولعل الإمام عليه السلام أشار إلى هذا المعنى بقوله:

«أقولاً بغير علم؟»

سواء كان هذا العلم يعنى المعرفة أو الاعتقاد أو العمل، فالنتيجة واحدة لكل من هذه التفاسير الثلاثة، لأن المعرفة بالشىء والاعتقاد به تدعو إلى العمل، أما ضعف العمل فانما يستند إلى عدم المعرفة والاعتقاد، الأمر الذي صرح به الإمام عليه السلام بقوله

«العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل» [٢٣٣]

العامل الآخر هو الغفلة وفقدان الورع، وبعبارة اخرى فإن عدم الالتفات إلى الحقائق والواقعات - الذي تفرزه حالة عدم التقوى.

إنما يؤدي إلى إختراق الصفوف من قبل العدو، في حين لا تصيب سهام هذا العدو اذا ما تحلت الامية بالفطنة والذكاء المشوب بالتقوى بدلاً من الغفلة والتحلل من الورع والتقوى.

والعامل الاخير هو الطمع في ما لا يستحقون، أو بعبارة اخرى الطمع في الشىء دون توفير أسبابه.

فاننا نعلم بأن هنالك الأسباب التي ينبغي توفرها لتحقيق بعض الأهداف.

فقانون العلة والمعلول إلى جانب الإرادة الإلهية هي التي تحكم الوجود برمته، وإن ظن بعض الجهال ببعض الاوهام والخيالات

والمعادلات الساذجة كمقدمة لتحقيق الاهداف.

وقوله عليه السلام

«طمعاً في غير حق»

يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى، فأنهم كانوا يطمعون في شئ لا يستحقونه، إلّا أنّ بعض شراح نهج البلاغة ذهبوا إلى أنّ المراد بهذه العبارة أنهم كانوا يطمعون بالمزيد من عطائهم في بيت المال، ويتمنون على الإمام عليه السلام أن يعطيهم من بيت

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٥٠

المال أكثر من إستحقاقهم، فلما لم يلب الإمام عليه السلام طلبهم غير المشروع صابهم الضعف والوهن في القتال.

ومن الطبيعي أن يكون هذا التفكير المادي أينما كان عاملاً من عوامل الفشل والهزيمة، كما فشل الجيش الإسلامي في معركة احد إثر انهماك الجنود في جمع الغنائم واهتمامهم بالجوانب المادية في ذلك الميدان الجهادي العظيم.

على كل حال فإنّ هذه العوامل التي تؤدي إلى الهزيمة والفشل لا تقتصر على جيش الكوفة فحسب، بل تهدد بالفشل كافة الجيوش على مدى الدهور والعصور وأخيراً فالخطبة تصور مدى لوعة الإمام عليه السلام.

وذروة إستيائه، وهي كافية في توضيح عمق الظروف العصيبة التي عاشها الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٥١

الخطبة [٢٣٤] الثلاثون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

في معنى قتل عثمان وهو حكم له على عثمان وعليه وعلى الناس بما فعلوا وبراءة له من دمه.

نظرة إلى الخطبة

نعلم بأنّ الآراء قد اختلفت في قتل عثمان، فهناك من ذهب إلى تقصير عثمان وأنه كان مستحقاً للقتل؛ فقد سلط بطانته على بيت المال وأغدق عليهم المناصب الحساسة في الحكومة، حتى قام الناس ضده دون أن يهب أحد من المسلمين لنجدته فكان الجميع راضياً بقتله.

بينما هناك من يعتقد بعدم صوابية قتله وكان ينبغي أن يمنح فرصة التوبة ليتدارك بعدها ما فرط منه، وإن كان ولا بدّ يخلعونه من الخلافة، أمّا قتله بتلك الصورة العلنية إنّما هو بدعة، أضف إلى ذلك فإنّ قتله أصبح ذريعة للمنافقين من أجل بث الفرقة والشقاق في صفوف المسلمين.

و أخيراً هناك طائفة ضيقة النظر ممن لا تكلف نفسها عناء التحقيق والتفكير في سيرة

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٥٢

الخليفة الثالث تراه الخليفة المظلوم الذي قتل شهيداً، كما تنزه ساحته من كل نقص وعيب.

الإمام عليه السلام من جانبه وفي خضم هذه الآراء المتضاربة يكشف النقاب عن الحقيقة ويعرض بالتحليل للمسائل المرتبطة بقتل عثمان.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٥٣

«لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلًا أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، لَكُنْتُ نَاصِرًا، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصِرَهُ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: «خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» وَمَنْ خَذَلَهُ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ:

«نَصِرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي» وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، اسْتَأْتَرَ فَاسَاءَ الْأَثَرَةَ، وَجَزِعْتُمْ فَاسَأْتُمْ الْجَزَعَ وَلِلَّهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي الْمُسْتَأْتَرِ وَالْجَزَاعِ».

الشرح والتفسير

عوامل قتل عثمان

كما ذكر في بداية الخطبة فأنها تعالج قضية قتل عثمان والتعرض إلى العوامل التي دفعت إلى هذا القتل. فكلنا نعلم بان لقتل عثمان جذور معلومة نابعة من طبيعة أعماله وأفعاله، فقد أجمع المحققون على أن سوء تدبير عثمان في ادارة دفة الحكم وتبديل الحكومة بموروث قبلي والتطاول على بيت المال والظلم والاضطهاد الذي مارسه أقربائه وبطانته بحق الناس قد أدى إلى غضب عام حتى انبرت طائفة مؤلفة من بضعة مئات لتحصره في داره وتهجم عليه وتقتله، وقد وقف ذلك الجيش الجرار الذي فتح مصر وبلاد الروم متفرجاً دون أن يحرك ساكناً؛ فقد كان ذلك الجيش ساخطاً عليه ويرى ضرورة قتله، غير أن الناس إنقسموا طائفتين بعد قتله:

طائفة - لعلها كانت تشكل الاكثرية - كانت راضية بهذا القتل أو على الأقل غير مكترثة له بينما ترى الطائفة الثانية أنه قتل مظلوماً. وفي ظل هذه الظروف إنتهز المنافقون الفرصة لبث بذور الفرقة في صفوف المسلمين وحرف مسير الخلافة عن محورها الأصيل أمير المؤمنين على عليه السلام - والذي كان يخطى بتأييد كافة أفراد الامة - واستغلوا قضية قتل عثمان كذريعة لتحقيق أطماعهم ومآربهم، وعبارة اخرى فإنهم أحالوا قميص عثمان إلى مناورة سياسية هدفها إغفال الامة وصدها عن الحق.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٥٤

وبالطبع فإن أفراد من كلا الطائفتين كانوا من ضمن صحب الإمام عليه السلام واتباعه، وإن كانت الطائفة الثانية وعلى ضوء تصريحات بعضى المؤرخين تشكل الأقلية، وعليه فمن الطبيعي أن تكثر هذه الطائفة من سوالها لعلى عليه السلام عن قتل عثمان، فلم يكن أمام الإمام عليه السلام من بد سوى الاجابة التي تتضمن عكس الحقائق التاريخية من جانبه وعدم منح هذا وذاك الفرصة بغية إستغلالها ضد الدين.

فالخطية رد على مثل هذه الاسئلة الذي يتطرق فيه الإمام عليه السلام إلى بيان الحقائق التاريخية دون منح العناصر الفاسدة الحجج والذرائع فقد قال عليه السلام:

«لو أمرت به، لكنت قاتلاً، أو نهيت عنه، لكنت ناصراً».

فمفهوم هذه العبارة هي أنى كنت محايداً فلم أطلع يدي بدمه ولم أدافع عن زلاته، فالأمران ينطويان على محاذير.

وهنا يبرز هذا السؤال: كيف يمكن التوفيق بين مضمون هذه العبارة والوقائع التاريخية؟

لأننا نعلم جميعاً (وقد ذكر ذلك أغلب المؤرخين) أن الإمام عليه السلام نهى الناس عن قتل عثمان وقد بعث بالحسن والحسين عليه السلام إلى دار عثمان ليحولوا دون زحف المعترضين، بل دخل عليه الإمام عليه السلام بالماء حين منعه منه. وقد أورد الشراح جوابين على السؤال المذكور:

فقال البعض المراد من عدم النهي هو النهي العملي؛ أى أننى لم أشهر السيف عملياً ولم أقتحم الميدان دفاعاً عنه، وهذا لا يتنافى ونهيه اللفظى عليه السلام وبعثه بالحسين عليه السلام هناك.

بينما يرى البعض لآخر أن هذا الكلام يفيد أن الإمام عليه السلام لم يأمر قط بقتل عثمان، وإن كان يراه مستحقاً للعقاب على أعماله، وعليه وبغية عدم تردى الاوضاع لأسوأ مما كانت عليه فقد دعا الناس إلى ضبط النفس والتخلى عن العنف، إلا أنه لم يفعل ما من شأنه توفير الدعم الصريح لعثمان وأعماله وما يدر منه؛ وذلك لأنه كما أن سفك دم يخلق بعض المشاكل فى المجتمع الإسلامى، فإن

توفير الدعم له والدفاع عن أعماله هو الآخر يسبب مشاكل لا تقل عن سابقتها، وعليه فإن الإمام عليه السلام لم ير في أي من الأمرين (الأمر بالقتل والنهي عنه) ممّا تمليه عليه وظيفته الإسلامية.

وقد أراد الإمام عليه السلام أن يعلن موقفه الصريح ويحول دون تفاقم الخلافات بشأن قتل عثمان من قبل الطائفتين التي تذهب إحداهما لضرورة قتله وتلك التي لا تراها مستحقاً للقتل.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٥٥

ثم قال عليه السلام:

«غير أن من نصره، لا يستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه، ومن خذله لا يستطيع أن يقول نصره من هو خير مني»،

فالعبارتان تبيينان موضوعاً واحداً وهو إتفاق الجميع على أن حماة عثمان آنذاك كانوا من طلحاء الامية، بينما كان الأفراد الذين لم يمدوا له يد العون من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار.

فالشواهد التاريخية تفيد تواجد كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله من المهاجرين والأنصار حين هجم الناس على بيت عثمان، ولو كانوا يرتضون عثمان وأعماله لخالوا دون وصول الناس إليه، الأمر الذي يدل على تخليهم عنه وعدم تقديم أي دعم أو إسناد له.

أمّا الأفراد الذين هبوا للدفاع عن عثمان آنذاك فقد كانوا يمثلون أراذل المجتمع الإسلامي، وما ذلك الدفاع إلا بالمنافعهم اللامشروعة التي كانوا يحظون بها آنذاك.

وعليه فقد كانت هذه المسألة واضحة في أنّ حماة عثمان من أمثال مروان لم يجرأوا على الزعم أنّهم خير من المهاجرين والأنصار الذين لم يدعموا عثمان.

ومن المسلم به أن أولئك الذين تخلوا عن دعم عثمان لم يكونوا يرووا أن حاشية عثمان وبطانته أفضل منهم، ومن هنا فقد إتفقت الآراء على أن حماة عثمان لم يكونوا من أختيار الامية.

فالعبرة غاية في الروعة وقد أماطت اللثام عن أعمال عثمان بالشكل الذي أثار حفيظة كافة المسلمين.

ومن ذلك توزيعه أموال بيت المال على قرابته وبطانته وتسليطهم على رقاب الناس إلى جانب الظلم والجور والاضطهاد وتضييع العدل والقسط.

وقد صرح بعض شراح نهج البلاغة [٢٣٥] بان الكلام هو رد الإمام عليه السلام على من قال بحضرته أنّ الفتنة من أولئك الذين لم ينصروا عثمان، فلو نصره كبار الصحابة لما إجتراً جهال الامية على سفك دمه، ولو رأى كبار الصحابة وجوب قتله لكان عليهم إعلان ذلك وإزالة الشبهات عن أذهان الامية.

فعلم الإمام عليه السلام أنه المقصور بذلك الكلام، فأورد هذه الكلمات.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٥٦

على كل حال فإنّ الخطبة تبين أنّ الإمام عليه السلام إذا لم ينصر عثمان فانه لم يكن وحيداً في هذا الأمر، بل كان هذا موقف كبار الصحابة، فلم الإشكال على الإمام عليه السلام؟ ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بتحليل دقيق عن قتل عثمان، فقال عليه السلام:

«و أنا جامع لكم أمره، استأثر [٢٣٦] فأساء الاثرة، و جزعتم فأستأم الجزع، والله حكم واقع في المستأثر والجازع».

لقد صرح أحد الادباء العرب المشهورين بأن عبارات الإمام عليه السلام إتصفت بقلّة الألفاظ وسعة المعاني، فالعبرة على قلّة لفظها جامعة شاملة حيث أوضح الإمام عليه السلام فيها أنّ عثمان إرتكب خطأ جسيماً وأنتم كذلك.

فقد انتهج اسلوب الاستبداد والحكم الفردي وسلط بنى امية على رقاب الناس وأغدق عليهم بيت المال فلما تعالت أصوات المعارضة وقام المسلمون لم يعرهم آذانا صاغية، فحاصروه وهجموا عليه فتركه كبار الصحابة من الأنصار والمهاجرون، من جانب آخر فإنّ الناس لم يكتفوا بهذا الحد، وبدلاً من خلعه من الخلافة وطرد أزالاه من مواقع الحكومة عمدوا إلى اراقه دمه فخلقوا فتنة إمتدت

لسنوات في التاريخ الإسلامي، إلى جانب استغلالها من جانب المنافقين الذين تذرعوها بالمطالبة بدم عثمان ليسفكوا كثيرا من الدماء. وبناءً على ما تقدم فإن الفريقين قد سلخوا الافراط، وعليه فإن الله جازى كل منها بأعماله. لقد كثر الكلام بشأن خلافة عثمان وآثارها: إلا أن كلام الإمام عليه السلام ورغم قصر عباراته إلا أنه أوجز كبد الحقيقة إلى جانب اصداره الحكم العادل بشأنه وشأن الجماهير التي قتلتها. كما يستفاد من العبارة أن الاستبداد- رغم إنه سيئ مهما كان- على أنواع بعضها أسوأ من البعض الآخر، واستبداد عثمان كان من النوع الاخير.

كما أن التعبير بالجزع عن الناس يشير إلى مدى الغضب والاستياء الذي سيطر على الناس إثر الأعمال الشائنة لعثمان وبطانته.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٥٧

الخطبة [٢٣٧] الحادية والثلاثون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
لما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير يستفيئه إلى طاعته قبل حرب الجمل.
«لَا تَلْقَيْنِ طَلْحَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلَقَّه تَجِدَهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصًا قَرْنَهُ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ «هُوَ الدَّلُولُ» وَلَكِنَّ الْقَاضِيَّ فَإِنَّهُ أَلْتَيْنُ عَرِيكَهَ فَقُلْ لَهُ: «يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ: عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَأَ»».
الشرح والتفسير

السعي لانتقاد الخاطين

نعلم أن المعركة الاولى التي فرضت على أمير المؤمنين عليه السلام كانت معركة الجمل، حيث إتحد أنصار عثمان ومعارضيه بعد أن إصطحبوا معهم زوج رسول الله صلى الله عليه وآله عائشة فنقضوا البيعة واشعلوا فتيل واقعة الجمل طمعاً في الخلافة. ثم انتهت المعركة بهزيمتهم وقتل مؤججى تلك النار طلحة والزبير. وتفيد كافة الشواهد التاريخية أن الإمام عليه السلام كان حريصاً على عدم وقوع القتال ليس في نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٥٨

الجمل فحسب، بل في صفين والنهروان، وكان يسعى جاهدا لاطفاء نار الحرب. والخطبة التي نحن بصددتها تعد أحد تلك الشواهد، فقد بعث الإمام عليه السلام قبل نشوب القتال برسوله عبد الله بن عباس إلى الزبير بهذه الكلمات، فأثرت عليه وانسحب من المعركة، حتى أدركه ابن جرموز في صحراء البصرة فقتله. فقد خاطب الإمام عليه السلام ابن عباس قائلاً:

«لَا تَلْقَيْنِ طَلْحَةَ فَإِنَّكَ إِنْ تَلَقَّه تَجِدَهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصًا [٢٣٨] قَرْنَهُ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ: هُوَ الدَّلُولُ».

تشبيهه لطلحة بالثور الذي يعقص قرنه إما أن يكون أراد به طغيانه وسوء خلقه، أو عدم سماعه للحق بفعل طاعته لهوى نفسه. فالواقع أن العبارة تفيد تحليله لنفسية طلحة ويأسه من تأثير الكلام فيه بشأن الكف عن القتال وإلا فانسحاب من المعركة، إلا أنه لم يقطع أمله من الزبير (وقد دلت الحوادث اللاحقة أن الإمام عليه السلام كان محققاً في أمله) فأضاف عليه السلام قائلاً:

«ولكن الق الزبير فأنه ألين عريكة». [٢٣٩]

فالعبرة: «ألين عريكة» واستنادا إلى «عريكة» التي تعنى الطبيعة، تفيد تسليم الزبير للحق إذا سمعه، ولا سيما إذا كان قد صدر من رسول الله صلى الله عليه وآله، على العكس من طلحة الذي كان يتصف بالأنانية واللجاجة والطغوى وحبّ الجاه والمقام الذي أعمى بصره وبصيرته وأصم سمعه عن سماع الحق.

ومن هنا ذكر المؤرخون أنّ الزبير أخذته رعدة شديدة حين دخل البصرة وعلم أنّ عمار في جيش الإمام عليه السلام حيث تذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وآله لعمار:

«ويحك يا بن سمية تقتلك الفئة الباغية».

فخشى أن يقتل عمار في المعركة، فيكون هو جزءاً من الفئة الباغية.

على كل حال قال الإمام عليه السلام لابن عباس:

«فقل له يقول لك ابن خالك: عرفنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق؟ فما عدا ممّا بدأ؟».

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٥٩

فالعبرة إشارة إلى التأريخ الجهادى العظيم للإمام على عليه السلام على عهد النبي صلى الله عليه وآله والذي لم يكن خافياً على أحد بما فيهم الزبير الذي كان يقاتل إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقد ورد في الاخبار أنّ علياً عليه السلام برز بين الصفيين حاسراً، وقال: ليرز الّى الزبير، فبرز إليه مدججاً، فقيل لعائشة: قد برز الزبير إلى على عليه السلام، فصاحت: وزيراها!

فقيل لها: لا بأس عليه منه، إنّ حاسر والزبير دارع.

فقال له عليه السلام: ما حملك يا أبا عبد الله على ما صنعت؟ قال: أطلب بدم عثمان، قال: أنت وطلحة وليتماه، وإنّما نوبتك من ذلك أن تقيد به نفسك وتسلمها إلى ورثته، ثم قال له: نشدتك الله أتذكر يوم مرت بي ورسول الله صلى الله عليه وآله متكى على يدك، وهو جاء من بنى عمرو بن عوف، فسلم علىّ وضحك في وجهي، فضحكت إليه، لم أزد على ذلك، فقلت: لا يترك ابن أبى طالب يا رسول الله زهوه!

فقال لك

«مه إنه ليس بذى زهو، أما إنّك ستقاتله وأنت له ظالم»

فقال الزبير: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد كان كذلك، ولكن الدهر أنسانيه، ولانصرفن عنك. فانصرف من المعركة [٢٤٠].

فالعبرة السابقة قد تكون إشارة إلى هذا الأمر. جدير بالذكر أن الزبير كان من محبى على عليه السلام وقد هب للدفاع عنه حتى فى حادثة السقيفة وشهر سيفه، فقام له القوم وكسروا سيفه، إلى جانب ذلك فقد منح رأيه لعلى عليه السلام فى الشورى التى شكلها عمر لانتخاب الخليفة من بعده.

على كل حال فان هذه العبارة أثرت فى الزبير وكان شكه يتزايد يوماً بعد آخر.

بمشروعية الطريق الذى سلكه حتى إتخذ قراره باعتزال القتال فاتجه الصحراء ليكمن له أحد الظلمة- ابن جرموز- فارداه قتيلاً ولم يسعه تدارك ما فرط منه.

أمّا قوله عليه السلام: «ابن خالك» فهو تعبير لطيف جداً، وهو من باب الاستمالة والاذكار بالنسب والرحم، فقد كان الزبير ابن صفيّة أخت أبى طالب، وعليه فالزبير ابن عمه على عليه السلام وعلى عليه السلام ابن خاله.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٦٠

والعبارة تهدف إلى بيان كافة الامور التى سمعها الزبير من رسول الله صلى الله عليه وآله بشأن على عليه السلام ومن هنا فقد كان

شديد الحب لعلی، إلا أن حب الجاه- الذي كان الدافع الرئيسي لحرب الجمل- كالحجاب الذي حال دون رويته لتلك الحقائق، فكان لهذه العبارة فعلها في نفسه حيث أزالته عنه ذلك الحجاب وجعلته يعود إلى الحق.

قال المرحوم السيد الرضى في ذيل هذه الخطبة:

«وهو عليه السلام أول من سمعت منه هذه الثلمة؛ أعنى فما عدا مما بدا».

وهي عبارة بعيدة المعنى، تشير إلى مسألة وهي: ما الذي صرفك عن الحق بعد أن اتضح لديك إلى الباطل [٢٤١]. والعبارة من الروعة واللطافة بحيث أصبحت مثلاً في الأدب العربي.

تأملات

١- رد فعل الزبير تجاه رسالة الإمام عليه السلام

ورد في بعض الروايات أن ابن عباس قال: حين أبلغت الزبير رسالة الإمام عليه السلام أجابني:

قل لعلی عليه السلام إنی ارید ما ترید. [٢٤٢]

أى إنك تبتغي الحكومة، فلم لا أطلبها أنا. فقد بلغ به الطمع وحب الجاه درجة جعلته يعتقد بأن علياً عليه السلام إنما نهض بالأمر طلباً للحكومة- ولكن وكما أوردنا سابقاً فإن الزبير لم يستطع الوقوف بوجه الحق، فما كان منه إلا أن إعتزل القتال وانصرف وإن كانت خطوته متأخرة.

٢- قطوف من سيرة طلحة والزبير

طلحة من قريش وأبوه عبدالله بن عثمان من السابقين في الإسلام وقد شهد غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يشهد يدرا حيث وجهه رسول الله صلى الله عليه وآله حينها إلى الشام فلما عاد طالب بسهمه من الغنائم.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٦١

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: لك سهمك وأجرک. وقيل آخى رسول الله صلى الله عليه وآله في مكة بين طلحة والزبير، وآخى بين طلحة وأبي أيوب في المدينة. وروى عن طلحة أن النبي صلى الله عليه وآله أسماه يوم أحد طلحة الخير. أمياً قتاله مع رسول الله صلى الله عليه وآله في حروبه فمما لا شك فيه مع ذلك فقد كان محباً للجاه والمقام حتى تغيير نهجه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، كما كانت تسمع منه بعض الكلمات ومن ذلك قوله أن رسول الله صلى الله عليه وآله يأمر بنات أعمامنا بالاحتجاب منا، ويتزوج بنسائنا بعد انفصالهن عنا: فما الذى يغنيه حجابهن اليوم وسيموت غدا فنكحهن، وهنا نزلت آية التحريم بالزواج من نساء النبي صلى الله عليه وآله [٢٤٣] فقد ذكر الفخر الرازى في سبب نزول الآية أن طلحة قال:

«سأترزوج من عائشة إذا مات رسول الله صلى الله عليه وآله»

. فنزلت آية تحريم الزواج من نساء النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته. [٢٤٤]

وورد في قصة الشورى التي شكلها عمر أنه أقبل على طلحة وقال: أقول أم أسكت؟ فقال طلحة: قل، فأنك لا تقول من الخير شيئاً.

فقال عمر: لقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله و آله ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتها يوم انزلت آية الحجاب. [٢٤٥]

على كل حال كان من أشد الناقمين على عثمان، ومن هنا كان يراه مروان من قتله عثمان، وقد رماه بسهم في الجمل فقتله، وقال: الآن أدركت دم عثمان من طلحة. وقد دفعه حب الجاه لاشعال فتيل الجمل وسفك دماء المسلمين ولم يظفر بالخلافه حتى قتل في معركة الجمل. وذكر البعض أن الإمام عليه السلام حدثه ببعض الكلمات عى غرار الزبير فندم وانصرف من المعركة فرماه مروان بسهم فقتله.

إلّا أنّ الخطبة تفند هذا الكلام، فهي تفيد بأس الإمام عليه السلام من هدايته وعودته إلى الحق. وفي رواية أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مر يقتلى الجمل فقال بشأن طلحة هذا من نكت يبعثي وأشعل نار الفتنة وألب الناس على قتلى وأهل بيتي» ثم خاطبه عليه السلام: يا طلحة إني وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدت ما وعد ربك حقاً، ثم انصرف. فقال له بعض أصحابه: أتكلّمه بعد الموت يا أمير المؤمنين. فقال عليه السلام والله لقد سمعني كما سمع الكفار كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وهم قتلى في قلب يدر [٢٤٦].

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٦٢

وهنا يبرز هذا السؤال وهو أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يثنى أحياناً على طلحة، حتى ذهب البعض إلى أنّه من العشرة المبشرة بالجنة، فكيف يصح هذا الثناء؟ ونقول في الجواب على فرض أنّ هذا الكلام صحيح، فإنّ الإنسان يعيش بعض المراحل المتألّقة في سنى حياته بحيث يكون يوماً إلى جانب الحق ويستحق الجنة، ويوماً يخرج من هذا الحق ويلتحق في صفوف الباطل فيستحق غضب الله وسخطه. فالتاريخ الإسلامي حافل بالأفراد الذين كانوا على الحق وهجروه إلى الباطل أو بالعكس، وإلّا فمن يسعه القول بأحقية من أوج نار الحرب ضد إمام زمانه وسفك كل هذه الدماء؟ فهل من انسجام بين هذا الكلام والمنطق؟ والشاهد على ما قلنا ما صرح به القرآن الكريم بشأن السابقين في الإسلام من المهاجرين والأنصار والتابعين، الذين وعدهم بالجنة «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدًا ذَلِكِ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» [٢٤٧].

فالآية تشمل جميع المهاجرين والأنصار، بينما نعلم هنالك من انحرف منهم عن الحق كعبد الله بن أبي سرح [٢٤٨] وثعلبة ابن حاطب الأنصاري [٢٤٩] فاستحقوا غضب الله وسخطه، وقد كانوا من المهاجرين والأنصار الذين وقفوا إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله من تقسيم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله على ضوء أعمالهم حتى آخر أعمارهم، وإلّا شهدنا حالة من التناقض لا يمكن الخروج منها بتبرير وأما الزبير فهو الزبير بن العوام وامة صفيه عمه رسول الله صلى الله عليه وآله اسلم في الخامسة عشرة من عمره وهو رابع أو خامس من أسلم، هاجر إلى الحبشة ثم قدم

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٦٣

المدينة، وقد أخى رسول الله صلى الله عليه وآله بينه وبين عبدالله بن مسعود. شهد غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله في بدر وأحد والخندق وحنين وقد ابلى فيها بلاءً حسناً حتى أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله. وكان أحد أعضاء الشورى الذي بايع علياً عليه السلام ولم يبايعه طلحة. وللأسف فإنّ حب الجاه وتأثير طلحة قد دفعه للانحراف عن الحق فاشترك مع طلحة في تأجيج نار الجمل التي فرقت صفوف المسلمين وأراقت دمائهم بعد أن نقض البيعة. وقد ذكر المؤرخون انه إستمع لمواعظ على عليه السلام قبل بدء المعركة فعاد إلى الحق وانسحب من الميدان فاتجه صوب صحراء تعرف باسم «وادي السباع» فلما وقف للصلاة تقدم نحوه ابن جرموز فقتله حين الصلاة وانتزع خاتمه وسيفه فأتى بها إلى الإمام عليه السلام.

فاستاء الإمام عليه السلام وقال:

«هذا السيف طالما فرج الكرب عن وجه رسول الله»

وقيل إنّ الإمام عليه السلام لم يأذن لابن جرموز بالدخول عليه وقال:

«بشر قاتل ابن صفيه بالنار»

وقال البعض أنّ ابن جرموز غضب غضباً شديداً فقتل نفسه. وقد صرحت بعض المصادر التاريخية أنّ معاوية هو الذي شجع طلحة والزبير على نقض البيعة والقيام ضد على عليه السلام [٢٥٠].

لا شك إنّ قضية طلحة والزبير ينبغي أن تكون لنا درساً وعبرة فلا نغتر بأعمالنا، وكيف أنّ الإنسان يعيش مع الحق ويجاهد في سبيله

ثم يستل حب الدنيا والحياء إلى قلبه فيقوده إلى الباطل اللهم إجعل عاقبة أمرنا خيراً.

٣- شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد تضمنت رسالة الإمام عليه السلام الإشارة إلى أحد الشروط المهمة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ألا وهو احتمال التأثير. فقد قال عليه السلام:

«لا تلقين طلحة فانك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه، ولكن إلق الزبير فانه ألين عريكه»

فمن الطبيعي أن طاقة الإنسان وقدرته محدودة ولا بد له من استهلاكها في محلها الذي يتوقع فيه التأثير.

فاذا أحتمل عدم التأثير فلا ينبغي له أن يصرف جهده عبثاً، وبالطبع فقد قلنا احتمال التأثير وليس اليقين فيتعلل بعدم الأمر لعدم وجود اليقين في التأثير! كلا إلى جانب ذلك

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٦٤

ينبغي معرفة المعروف والمنكر وعدم وجود الخطر آنذاك تبرز وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويفهم من رسالة الإمام عليه السلام أن لبعض الناس طباع كطباع الحيوانات فالبعض كالثعلب أو الذئب وبعضهم شجاع كالأسد وآخر من أهل الشهوات كالخنزير وبعضهم جاهل كالبقرة و ...

وقد شبه الإمام عليه السلام طلحة بالبقرة العاقص القرن حيث يستكبر في التسليم إلى الحق ويخطى في إدراك الواقع وتمييزه، وإذا اتجه صوب الأعمال العصية ظنها سهلة حتى تؤدي به إلى الفشل.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٦٥

الخطبة [٢٥١] الثانية والثلاثون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يصف زمانه بالجور، ويقسم الناس فيه خمسة أصناف، ثم يزهده في الدنيا.

نظرة إلى الخطبة

تتألف الخطبة من أربعة أقسام:

القسم الأول يتحدث عن الوضع المأساوي للمجتمع على عهد الإمام عليه السلام والمشاكل التي كانت تعترض سبيل الصلحاء والأتقياء. ويصنف الإمام عليه السلام الناس في القسم الثاني آنذاك (ولعله في كل عصر ومصر) إلى أربعة أصناف:

أ- الصنف الأول من يقعد به عن طلب الإمرة قلّه ماله، وحقارته في نفسه. فهو مغتم في الواقع لعدم إمتلاكه الامكانات.

ب- الصنف الثاني من يشمر ويطلب الامارة ويفسد في الأرض ويكاشف

ج- الصنف الثالث من يتظاهر بالدين ويطلب به الدنيا لا الآخرة

د- الصنف الرابع من لامال له أصلاً، ولا يكاشف، ويطلب الملك ولا يطلب الدنيا بالرياء والناموس، بل تنقطع أسبابه كلها فيخلد إلى

القناعة، ويتحلى بحلية الزهادة في اللذات الدنيوية، لاطلباً للدنيا، بل عجزاً عن الحركة فيها، وليس بزاهد على الحقيقة.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٦٦

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى بيان خصائص كل صنف من هذه الأصناف الأربعة- التي تعيش في كل مجتمع، ويتحدث القسم الثالث عن صنف آخر ذكره الإمام عليه السلام بصورة مستقلة وهم الأبرار الأتقياء الذين أراق دموعهم خوف الآخرة. ثم يقسمهم الإمام عليه السلام إلى عدّة أقسام ويذكر صفات كل قسم منهم، أما القسم الرابع والأخير من الخطبة فيدعو فيه الإمام عليه السلام الناس إلى الزهد وعدم الاعتزاز بالدنيا الذي يقود إلى الذنوب والمعاصي. وقد بين حق الكلام بعبارات قصيرة.

ج ج

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٦٧

القسم الأول: الدهر وضياح القيم

إشارة

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ، وَزَمَنٍ كَنُودٍ، يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئًا وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُنُودًا. لَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلَّمْنَا، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا وَلَا نَتَّخِذُ قَارِعَهُ حَتَّى تَحُلَّ بِنَا».

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام الكلام بخطاب عامة الناس ثم أشار الإمام عليه السلام في الخطبة إلى الزمن الذي كان عليه الناس فقال: «أيها الناس أنا قد أصبحنا في دهر عنود، وزمن كنود».

طبعاً ليس المراد بالزمن الأيام واليالي والشهور والسنين بحيث توصف بالقبح والحسن والبغض والتنكر، بل أهل العصر والزمان الذين يتصفون بهذه الصفات، فاذا ما ذكر الزمان بالحسن والقبح فالمراد الناس، وإلا فليس هنالك من تغيير في شروق الشمس أو القمر ولا في حركة القمر حول نفسه أو حول الشمس.

فالشمس تشرق والمطر ينزل والأرض تخرج بركاتهما للبشر ولا من تغيير، إلا أن الناس هم الذين يوصفون بسوء الأعمال وحسنتها. فقد عاش الإمام عليه السلام في عصر لم يسع أغلب أفراده- سوى النزر اليسير- إدراك عظمه روحه وسعة فكره والاحاطة بفضائله ومناقبه، وقد أدت بهم الثروات العظيمة التي أفرزتها الفتوحات الإسلامية واتساع رقعة البلاد إلى التكالب على الدنيا والتهافت على زينتها والحرص على جمع الأموال وحب الجاه والمقام وتناسي القيم والمبادئ.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٦٨

ثم تناول الإمام عليه السلام بعض خصائص الزمان آنذاك والذي يتصف بعناد الناس وجحودهم ليصفه في خمس عبارات فقال:

«يعد فيه المحسن مسيئاً ويزداد الظالم فيه عتواً»

أو يمكن أن يتهم المحسن بالاثم ويشن على الظالم؟ بلى إذا تغيرت قيم المجتمع عد المحسن مسيئاً والمسيء محسناً. فإذا كان المال والثراء والقوة هي القيم ومعايير الشخصية، فستكون الصدارة في ذلك المجتمع للظلمة والطغاة والجبابرة، بينما تميح في هذا المجتمع شخصية المحسنين الذين يمدون يد العون إلى الفقراء والضعفاء وينفقون عليهم الأموال وينعتونهم بالحمافة والبلاهة. وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض نماذج الفساد الذي طال المجتمعات البشرية بفعل فساد التعامل مع القيم والتنكر لها ومن ذلك ما أورده بشأن قوم لوط الذين عزموا على إخراج نبيهم ومن معه من المؤمنين الصالحين ولا- ذنب لهم سوى الطهر والعفاف «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» [٢٥٢].

كما اعتبر الظلمة من قوم نوح تلك الثلثة الخيرة التي آمنت بالله والنبي بأنها من أراذل القوم والسذج الذين ليس لهم من مزية على من سواهم «مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّاْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ يَلِيلَ نُنظَنُكُمْ

كاذبين» [٢٥٣]

نعم إذا فسد الناس وازداد حجم الظلم والاضطهاد تغير وجه المجتمع وغيبت فيه القيم، وازداد الظالم طغياناً وتجبوا وعدّ المحسن مجرماً فيقصي من ذلك المجتمع.

وليس هنالك من نتيجة سوى ما أشار إليها الإمام عليه السلام:

«لانتفع بما علمنا، ولا نسأل عمّا جهلنا».

والواقع أنّ هذه أسوأ حالة يعيشها الفرد أو المجتمع، أي أنّه لا يستثمر علومه ومعارفه في حل مشاكله ولا يهتم بالقضاء على الجهل و الاقبال على العلم، وليس هنالك من نتيجة لهذين الأمرين سوى العوم في بحر الجهل والجريمة، وهذا هو حال كافة الأفراد الذين يغضون الطرف عن مفاصد المجتمع ولا يرون لأنفسهم من مسؤولية في ردعها سواء من خلال اليأس من

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٦٩

الإصلاح أو التعود على هذا الفساد والتكيف معه.

ثم قال:

«ولا نتخوف قارعه حتى تحل بنا».

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أورد العبارات الأخيرة بصيغة التكلم مع الغير وينسبها إلى نفسه ومن حوله؛ مع القطع بأنه مبرأ من ذلك بفضل عصمته وورعه وتقواه، ولعل العبارة تهدف عدم جرح مشاعرهم وإثارة حفيظتهم فيجعل نفسه كأحدهم في مثل هذه الامور.

تأملان

١- ما مفهوم فساد الزمان؟

ذكرنا آنفاً أنّ الزمان لا يراد به هنا المدة الزمنية لحركة الشمس والقمر (أو دوران الأرض حول نفسها والشمس) فالأزمنة متشابهة ذاتاً، والأشخاص هم الذين يتغيرون والحوادث والوقائع التي تجعل العصر والحياة حلوة أو مرّة. و عليه فاذا قيل بفساد الزمان فالمراد فساد الناس.

ويصدق هذا الأمر على المكان أيضاً، فاذا قيل أنّ المنطقة الفلانية أو البلد الفلاني فاسد فالمقصود فساد أهل تلك المنطقة أو ذلك البلد.

وبالطبع فان هنالك من يحاول استغلال هذه العبارات ليجعل من فساد الزمان أو المكان ذريعة لفساده وانحطاطه.

فاذا سئل عن سبب فساد وانحرافه، إنبرى للجواب: وماذا أفعل فقد فسد العصر أو البيئه التي أعيش فيها، والحال هو ومن حوله مصدر الفساد. ولعلنا نلمس هذا المعنى في الاشعار التي تنسب إلى عبدالمطلب جد النبي صلى الله عليه وآله حيث أنشد قائلاً:

و يعيب الناس كلهم زمانا وما لزماننا عيب سوانا

نعيب زماننا والعيب فيناولو نطق الزمان بنا هجانا

وان الذئب يترك لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضا عيانا [٢٥٤]

و من البديهي أنّ زوال فساد الزمان مرهون بتغيير الناس فيشملوا بلطف الله وعنايته «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» [٢٥٥]. وبذلك فالإنسان هو المقصر الأصلي على كل حال.

٢- التنكر للقيم

المسألة التي تلعب دوراً مهماً في مصير المجتمعات البشرية والتي قد يغفل عنها الأعم الأغلب من الناس إنما تتمثل بنظام القيم والمبادئ التي تسود المجتمع. فالمجتمع إنما ينطلق في مسيرته نحو المثل والقيم التي يلهمها لأفراده والمقررة من قبلهم، وعليه فالمجتمع يتجه نحو التآكل والزوال إذا ما شهد تغييب القيم والمبادئ. ونقصد بالمجتمع حركة جميع أفراده ولا يقتصر ذلك على بعض الأفراد الذين يتحلون بالايمن والتقوى فيقفون دائماً ضد حالات الفساد والانحراف. وبناءً على ما تقدم فإن القيم المقررة في المجتمع إذا كانت تتجسد في المال والثروة فإن كافة الأفراد سيتجهون نحو الثراء كهدف دون الإكتراث لمسائل الحلال والحرام. والإنسان يتجه بوحى من طبعه إلى صنع الشخصية ولا يأل جهداً في السعى لتحقيق هذا الأمر، فإذا كانت القيم السائدة تتمثل بالشخصية الكاذبة فإن الأفراد سيتحركون لامحالة لمثل هذه الشخصية. والشباب عادةً يلهثون خلف السمعة والشهرة ويعشقون الأبطال، و عليه فلا يبدو غريباً تقليد الشباب لهؤلاء الأبطال حتى في الثياب واسلوب المشى، ولو كان هؤلاء الأبطال هم العلماء والمفكرين فمن الطبيعي أن ينطلق الشباب نحو العلم والمعرفة. بالمناسبة هنالك قصة طريفة مشهورة بشأن العلامة الكبير الشيخ البهائي، حيث قرر الشاه عباس الصفوى مكافئته جهوده العلمية وخدماته العمرانية بتقديم هدية تليق بشأنه، فطلب الشيخ أن يستقل مركبه الخاص ويمشى الشاه خلفه لمسافة معينة في الشوارع والازمة-

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٧١

فالواقع أراد الشيخ بهذا العمل أن يثبت بأن القيم والمثل التي تسود المجتمع ينبغي أن تتمحور حول العلم والمعرفة. وقد قيل أن إقبالاً منقطع النظر قد حدث للعلم بما لم يشهده أبداً في السابق. جدير بالذكر أن القيم والمثل التي كانت تحكم المجتمع الجاهلي قبل الإسلام مصداقاً لقوله عليه السلام:

«بأرض عالمها ملجم وجاهلها مكرم» [٢٥٦]

حيث أبطالها هم أبوسفيان وأبو جهل وأمثالهما، حتى انبثق الإسلام ليرفع شعار التقوى «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» فيقضى على اولئك الأبطال الكاذبين ويستبدلها بالأبطال من قبل أبي ذر وأمثاله. ومما يؤسف له أن هناك بعض الأعمال الخاطئة التي وقعت في عصر الخلافة الراشدة فادت إلى تغييب تلك القيم الإسلامية المثلى لتعود النعرة الجاهلية من جديد فتصدر المجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري بدلاً من مالك الأشتر وأبي ذر وعمار بن ياسر؛ الأمر الذي كان يدمى قلب الإمام عليه السلام، وأدنى ذلك ما أورده عليه السلام بقوله «يعد فيه المحسن، مسيئاً ويزداد الظالم فيه عتواً».

ومن هنا كان هدف الإمام عليه السلام في أغلب خطبه في نهج البلاغة يكمن في إحياء القيم والمثل التي كانت سائدة في صدر الإسلام.

ج ج

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٧٣

القسم الثاني: الناس أربعة أصناف

إشارة

«فَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْنَعُهُ الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَهَانَةً نَفْسِهِ، وَكَلَالَةً حَدِّهِ، وَنَضِيضٌ وَفِرِهِ. وَمِنْهُمْ الْمُضِلُّ لِسَيْفِهِ، وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ، وَالْمُجَلِّبُ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ. وَلِبَسِ الْمَشْجُرِ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَنًا، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عَوْضًا!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَلَا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ وَشَمَّرَ مِنْ تَوْبِهِ، وَزَخَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلْأَمَانَةِ، وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللَّهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنِ طَلَبِ الْمُلْكِ ضَمُّوْلُهُ نَفْسِهِ، وَانْقِطَاعُ سَبِيهِ فَقَصِيْرَتُهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ، فَتَحَلَّى بِأَسْمِ الْقِنَاعِيَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَغْدَى».

الشرح والتفسير

يعرض الإمام عليه السلام- في هذا القسم من الخطبة- بالتحليل لطلاب الدنيا الذين يصنفهم في أربعة أصناف وبالطبع فإن هذه الأصناف لا تختص بمجتمع دون آخر ولا زمان دون آخر بل هي عامة شاملة فقال عليه السلام:

«فالناس على أربعة أصناف، منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه،

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٧٤

وكلاله [٢٥٧] حده ونضيض [٢٥٨] وفره».

فالمشكلة في عدم وجود الماء والافهم سباحون ماهرون، فباطنهم مفعم بالشر والفساد الا أنهم يفتقرون للالة التي يمارسون بها الظلم والفساد، ومن الطبيعي أن مثل هؤلاء الأفراد إنما يتربصون بظاهريهم الوديع الذي لا يشوبه أذى.

كما يتوجب على قادة المجتمع إذا ما تعرفوا على هؤلاء الأفراد الحذار من تزويدهم بالا مكانات فيعيشوا في الأرض فسادا، وقد أشار القرآن إلى ذلك «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ* وَإِذَا تَوَلَّى سَوَّى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ».[٢٥٩]

ثم تطرق عليه السلام إلى الصنف الثاني

«و منهم المصلت [٢٦٠] لسيفه والمعلن بشره والمجلب بخيله ورجله»

فقد أعد هذا الصنف من الناس باطنه للظلم والفساد ومحق دينه

«قد أشراط [٢٦١] نفسه وأوبق [٢٦٢] دينه».

ولكن ما هدف هؤلاء؟ لا- شك أن هدفهم ما أشار إليه الإمام عليه السلام وليس ذاك سوى الحصول على شى من متاع الدنيا أو الأثرة على بعض الأفراد أو إرتقاء المنبر ليظهر نفسه للناس بمظهر الخطيب الواعظ

«لحطام [٢٦٣] ينتهزه [٢٦٤]، أو مقتب [٢٦٥] يقوده، أو منبر يفرعه [٢٦٦]».

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٧٥

فالعبارة رغم قصرها فقد أشارت إلى أعمالهم الظاهرية إلى جانب فسادهم الباطني واهدافهم الرخيصة، فهؤلاء الأفراد يستفرغون ما في وسعهم ليصبحوا على غرار فرعون أو قارون أو السامري. وما اولئك الذين أججوا نيران الجمل وصفين لإمصاديق بارزة لذلك

الصنف من الأفراد، فالبفض اندفع من أجل المال وآخر من أجل المقام والمنصب والآخر من أجل الخلافة. ثم تطرق عليه السلام إلى نتيجة أعمال هؤلاء فقال

«و لبس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا، وممالكك عند الله عوضا»

، ومن الطبيعي أن هذا الصنف من الناس الفاسد والشريـر- الذى يخطب خطبا عشواء من أجل الظفر بالمال والمقام- لا يقيم لأحكام الله وزنا ولا يصغى لصوت الضمير والوجدان ولا ينقاد لدليل العقل، فقد باع هذا الخزين الثمين بذلك الثمن البخس، باع الدين بالدنيا «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» [٢٦٧].

بينما تضافرت الروايات التى تؤكد على قيمة الإنسان وأنه لا ينبغي له بيع نفسه إلابثمنها وثمرتها الجنة. كما صرحت الآية القرآنية بأن بيع النفس بغير الجنة ورضى الله لا- يستبطن سوى الخسران المبين «وَمَنْ النَّاسِ مَنِ يَشْرِىٰ نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ» [٢٦٨].

فالآية تفيد أن بعض الناس (كعلى عليه السلام الذى نام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة الهجرة) يبيعون أنفسهم من أجل رضى الله سبحانه. وقد ورد عن الإمام على عليه السلام أنه قال:

«إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تتبعوها إلابها» [٢٦٩].

ثم تعرض عليه السلام للصنف الثالث الذى يتصف بالتزوير- وأوضح صفاته «و منهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا».

فهدف هذا الصنف هو ذات الهدف الذى ينشده الصنف الثانى المذكور مع فارق بسيط هو أن اولئك يجنون حطام الدنيا من خلال المنطق الغاشم والظالم والجور، بينما يعتمد هؤلاء على التزوير والخداع والغرور.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٧٦

فالصنفان وإن كانا ضالين ظالمين وخاطئين، إلا أن حال هذا الصنف أسوأ من الصنف الذى سبقه؛ وذلك لأنه جعل دين الله جسراً لدنياه، وعليه فقد أهلكوا دنيا الآخرين إلى جانب إهلاك دينهم.

آنذاك خاض الإمام عليه السلام فى صفات هذا الصنف

«قد طامن [٢٧٠] من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر [٢٧١] من ثوبه، وزخرف من نفسه للامانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية.»
فالعبارة تشير إلى ظاهر متواضع وسكين ووقار وعدم إلتفات إلى الدنيا وحطامها والتزين بشعار الصالحين واستغلال ستر الله سبحانه للعيوب فى حين هنالك حركة نحو الذنب والمعصية.

وقد يؤمن هذا الصنف بالله واليوم الآخر على مستوى الظاهر، إلا أن هذا الإيمان يقتصر على الظاهر ولم يخترق قلوبهم أبداً، وإلا فكيف إرتضوا لأنفسهم هذه المعاملة المجحفة بحيث باعوا آخرتهم بدنياهم ومن هنا وردت الروايات التى تصرح بأن هؤلاء الخاسرين يوم القيامة- حين تطرح الحجب وتتضح حقيقة كل فرد كما هى- ينادون يا كافر!

يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! وينادون

«حبط عملك وبطل أجرك فلا خلاص لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له» [٢٧٢].

ومما لاشك فيه أن هذا الصنف- كسائر الأصناف الأربعة- لا يقتصر فى وجوده على عصر الإمام عليه السلام، بل هو موجود فى كل عصر و مصر وأنه لأعظم خطراً من سائر الأصناف على دين المجتمع ودنياه.

وعليه فلا بد لاتباع الحق من مراقبه هؤلاء والحذار من الوقوع فى فخهم ولحسن الحظ فإن أغلب هؤلاء الأفراد يفتضحون عملياً فاذا بلغوا مفترق طرق بين الدين والدنيا ولوا ظهورهم للدين وتهافتوا على الدنيا وآثروا سخط الله على رضى خلقه طمعاً فى الدنيا

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٧٧

وحطامها، فأفكارهم منحطة وهمتهم ضيعة وروحهم ملوثة وباطنهم قبيح والازدواج هو الغالب على شخصيتهم.

وأخيراً يتعرض الإمام عليه السلام للصنف الرابع- أهل التقى الكاذب والزهد الفارغ- فيقول

«ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة [٢٧٣] نفسه، وإنقطع سببه فقصرته الحال على حاله، فتحلى باسم القناعة، وتزين بلباس أهل

الزهادة وليس من ذلك في مراح [٢٧٤] ولا مغدى». [٢٧٥]

فهم أفراد ضعفاء عجزه لا كفاءة لهم يحاولون التستر بالزهد للتغطية على عجزهم وانعدام جدارتهم والنظائر بالقوة لاختفاء ضعفهم، والحال ليس لديهم شمة من الزهد والقناعة باطنهم وهم على قسمين: فمنهم من يتستر لخداع النفس ومنهم يخدع نفسه محاولاً إقناع نفسه بأنه من أهل الزهد والتقوى لا الضعف والعجز يدفعه للنظائر بذلك. أما المراح والمغدى فقد ذهب أغلب أرباب اللغة وشراح نهج البلاغة إلى أنها اسم مكان لاستقرار الماشية في الصباح والمساء بينما ذهب البعض الآخر إلى أنها اسم زمان بمعنى الذهاب والاياب ليل نهار.

كيفما كان فان المفردتين تعبران عن حماقة هؤلاء الأفراد وبلاهمم التي تجعلهم بهيئة الزهد والقناعة. هناك كلام كثير بين المفسرين بشأن فارق الصنف الرابع والأول من جهة والصنف الرابع والثالث من جهة اخرى.

ويبدو أن الصنف الأول الذى ينشد الدنيا قد قبع فى زاوية إثر ضعفه وعجزه ولم ينطلق نحو المال والحياء والمقام، وهو لا يصبر على ابراز ضعفه وعجزه على أنه قوة وإقتدار، فى حين يحاول الصنف الرابع أستغلال ضعفه وعجزه بغية الظفر بمكانته فى المجتمع على أن ذلك الضعف زهد وقناعة. أما فارق الصنف الرابع مع الصنف الثالث هو أن الصنف الثالث يعتمد النفاق والتزوير لتحقيق أطماعه ومآربه، بعبارة اخرى ما يجنيه الظلمة من حطام الدنيا بواسطة الظلم والجور يحصل عليه هؤلاء من خلال الرياء وخداع الناس.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٧٨

فهم يبيعون دينهم بدنياهم ويحصلون على الدنيا ومتاعها من خلال الدين، أما الصنف الرابع فهو لا يحصل على جاه ومقام، ويكتفى بأن المجتمع ينظر إليه كزاهد قانع.

وأخيراً يشترك الصنف الأول والرابع فى أنه ليس أقل تكالفاً من الصنفين الآخرين إذا ما توفرت الأرضية الخصبة أمامهما للظلم والفساد.

الأصناف الأربعة فى كل مجتمع.

لقد أماط اللثام عن حقيقة هذه الأصناف الأربعة ولفت إنتباه المجتمع إلى الأخطار التى تفرزها حركتها فى المجتمع بفعل فسادها وظلمها وريائها وزهداها الكاذب، ثم خاض عليه السلام فى صفات كل صنف ليتعرف عليه أفراد المجتمع فلا يقعوا فى شباكهم.

وتشترك هذه الأصناف جميعاً فى الفساد العقائدى والتعلق بالدنيا والجاه والمقام، إلا أنها تختلف فى إعداد الأسباب والمقدمات التى تمكنها من الوصول إلى أهدافها، وعبارة اخرى فإن الأصناف الأربعة يمكن تقسيمها إلى طائفتين:

طائفة تحقق أهدافها الرخيصة عن طريق الرياء والتزوير: وطائفة لا تحقق أهدافها إلا أنها تخفى هذا الفشل فى الزهد والقناعة، ولو تأملنا التاريخ لرأينا هذه الأصناف فى كل عصر ومصر.

ومما يؤسف له اليوم أن المجتمعات الإسلامية هى الاخرى تشهد تغلغل هذه الأصناف؛ الأمر الذى جر عليها الولايات والمصائب. والحق ليس هنالك من وسيلة للحد من أخطار هذه النماذج سوى فى اتباع كلام الإمام عليه السلام وتشخيص هؤلاء الأفراد وفضح مخططاتهم وموامرتهم وتحذير الامة من الوقوع فى شباكهم أو الاغترار بزهدهم الكاذب.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٧٩

القسم الثالث: الصنف الخامس: أولياء الله

«وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارُهُمْ ذِكْرَ الْمَرْجِعِ وَأَرَاقَ دُمُوعِهِمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ وَدَاعٍ مُخْلِصٍ وَتُكْلَانٍ مُوجِعٍ قَدْ أَحْمَلْتَهُمُ التَّيِّبَةَ وَشَجَلْتَهُمُ الدَّلَّةَ فَهُمْ فِي بَحْرِ أَجَاجٍ أَفْوَاهُهُمْ ضَامِرَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ، قَدْ وَعْظُوا حَتَّى مَلُوا

وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا، وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من ذكر الأصناف الأربعة، تطرق إلى الصنف الخامس، وهم أولياء الله وجنود الحق وأخيار الأمة الذين اقتصوا عن المجتمع وعادوا غرباء فيه بفعل تسلّم زمام الامور من قبل الأصناف الأربعة المذكورة. وقد لفت الانتباه إلى عظمتهم بالتعبير عنهم بالرجال، بينما عبر عن الأصناف الأربعة بالناس. والحق أن الإمام عليه السلام يرى الصنف الخامس هو محور المجتمع ويحث أتباعه لأن يكونوا ضمن هذا الصنف. فقد قال عليه السلام:

«وبقى رجال غض أبصارهم ذكر المرجع وأراق دموعهم خوف المحشر».

وقوله:

«غض أبصارهم»

لا يراد به إغماض العين، بل النظرة الشمولية والشعور بمسؤوليتهم تجاه الله سبحانه ويوم القيامة، الشعور الذي إرعى قلوبهم وأراق دموعهم.

فليس هنالك أكثر خشية من ذلك اليوم لمن آمن بالله واليوم الآخر ومحكمة العدل الإلهي،

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٨٠

كيف لا- وهو اليوم الذي تطرح فيه الحجب وتبلى فيه السرائر وتمثل الأعمال التي صدرت من الإنسان طيلة عمره فتنتظر الحساب والجزاء.

ويرى بعض شراح نهج البلاغة [٢٧٦] أن المرجع في العبارة المذكورة بمعنى القبر والمحشر القيامة، ولكن بالاستناد إلى التعبيرات القرآنية فإن المفردتين وردتا بمعنى واحد، وعليه فيبدو الفارق في عدم تكرار اللفظ لا المعنى.

والواقع أن هذه التعبيرات قد اقتبست من الآية القرآنية الشريفة «رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ». [٢٧٧]

ثم تطرق عليه السلام إلى مصير هذا الصنف في المجتمعات التي تسودها الأصناف الأربعة، بحيث لا ينجو كل فرد فيه من خمس: النزوح من البلد والتشريد والتغريب، الخوف واللواذ في زاوية، السكوت والصمت، الاشتباك بفعل عدم إعارتهم الأذان الصاغية وسماع كلماتهم الحق أو الدعوة إلى الله باخلاص بعيون باكية وقلوب حري أملًا في التأثير

«فهم بين شريد» [٢٧٨] ناد [٢٧٩] وخائف مقموع [٢٨٠] وساك مكموم [٢٨١] وداع مخلص وثكلان [٢٨٢] موجع».

وبالالتفات إلى «شريد» وناد من مادة فد بمعنى المنفرد الهارب من الجماعة إلى الوحدة [٢٨٣] فإن العبارات المذكورة إشارة إلى أن هؤلاء الأفراد ليسوا مع بعضهم حتى في المنفى، وكل واحد منهم قد قذف في بقعة؛ فالطغاة يخشون حتى اجتماعهم في المهجر والعبارة «خائف مقموع» إشارة إلى أن الطغاة لا يكتفون بتهديد هؤلاء الأفراد وإرعابهم، بل لا يتورعون عن التضيق

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٨١

عليهم واستئصال شأفتهم واجتثاث جذورهم.

والعبارة «ساک مكموم» أن الظلمة لا يقتنعون بصمت هؤلاء الأفراد وسكوتهم، بل يسعون دائما لكم أفواههم دون أن ينسوا بينت شفة.

والعبارة «داع مخلص» لا تفيد دعوة الناس من أجل نيل المقام والثروة أو ليست هي دعوة دنيوية، بل الدافع من هذه الدعوة هو رضى الله وقيل بل المراد بالعبارة والداعي المخلص من يدعو الناس إلى الله والارتقاء بالمجتمع.

وأخيراً تشير العبارة «ثكلان موجع» إلى أن الحزن والآسى يخترق ظاهرهم ليعيشوه في قلوبهم وأرواحهم. ثم عرض عليه السلام إلى سائر صفاتهم بعبارات قصيرة بعيدة المعاني يتخللها الآسى والأسف فقال عليه السلام:

«قد أحملتهم [٢٨٤] التقيّة».

فهؤلاء وإن كانوا مجاهدين أشداء، ولكن لما كان جهادهم لا ينطوى سوى على أبادتهم فلم يعد أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى التقيّة؛ التقيّة التي تؤدي بهم في خاتمة المطاف إلى العزلة والانطواء ليراهم الأعداء على أنهم أفراد جبناء، كما يراهم الأصدقاء خاملين ليسوا بذات قيمة، والحال أن الظروف تجعل من تقيتهم جهاداً ونهوضاً بالوظيفة «وشملتهم الذلّة» هم أعزّة عند الله وفي أنفسهم إيماناً غياب القيم والمثل في المجتمع جعله يراهم ضعفاء أدلّة «فهم في بحر أجاج».[٢٨٥]

كيف لا يعومون في بحر مالح لا يسعهم شرب ماء والامة لم تقف إلى جانبهم وتدعم نهضتهم «أفواههم ضامرة»[٢٨٦]، وقلوبهم قرحة».

ليس هنالك من قلق لدى الأفراد الذين يعيشون اللابالية في مثل هذه المجتمعات، ولا يقلقهم سوى منافعهم الشخصية، أما المجاهدون الذين تكف أفواههم بالقوة، إنما يتحرقون الماً وقلوبهم تشعر عمق الفاجعة ذهب بعض شراح نهج البلاغة[٢٨٧] إلى أن المراد بقلوبهم قرحة أنها تخاف الله، بينما تشير قرينة الكلام إلى أن قروح قلوبهم إنما تعزى الى الفساد الذي

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٨٢

لا يستطيعون القضاء عليه ولعل هناك من ينسب هذه المفردات من قبيل الضعف والعجز والسكوت والتقيّة إليهم كنتيجة لأعمالهم وعدم قيامهم في الوقت المطلوب، ومن هنا نبه الإمام عليه السلام إلى إزالة هذا الظن فقال عليه السلام:

«قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قتلوا».

فقد خاضوا الجهاد على كافة المستويات وبشتى الطرق والاساليب، من خلال الوعظ باللسان إلى جانب النهضة المسلحة وتقديم الضحايا حتى كثر القتل في صفوفهم فقل عددهم، وذلك لأنه لم يكن لهم نصير و لم يكن هنالك من توازن في القوى مع أعدائهم الذين يفوقونهم عددا وعدة. فقد قاتلوا على أمل تحقيق النصر وإجثاث جذور الفساد ولم تبق منهم إلاقلّة لم يكن أمامها سوى التقيّة حفظاً لنفسها ودينها.

والعبارة «قتلوا حتى قتلوا» لا- تعنى أنهم وتروا ولم يبق منهم إلاالقليل، بل تعنى أستشهد فريق منهم وبقي فريق آخر، والعبارة من قبيل إسناد أوصاف الجزء إلى الكل.

وهنا يطرح هذا السؤال: الاستضعاف المذكور يتعلق بأى زمان، والإمام عليه السلام كان هو الذى يحكم المجتمع؟ وتأمل تأريخ عصر الإمام عليه السلام يوضح الاجابة على هذا السؤال، كما ورد ذلك فى بعض كلماته من أن الفساد الاجتماعى كلمة فى عصره بلغ درجة بحيث خفت شعاع شمس حكومة الإمام عليه السلام فى الكوفة وأطرافها، وقد اجتمعت لكمة سائر المناطق من قبيل الشام ومصر التى عاشت ذروة الشر والفساد والانحراف على إقصاء الصالحين عن مرح الأحداث.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٨٣

القسم الرابع: الاعتاظ بالماضين

«فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصِغَرَ مِنْ حُثَالِهِ الْقُرْطِ وَقُرَاضَهُ الْجَلَمِ وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَبِيلَ أَنْ يَنْعَظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَارْزُقُوهَا دَمِيمَةً، فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ».

الشرح والتفسير

يدعو الإمام عليه السلام الناس في ختام هذه الخطبة بعبارات مقتضبة بعيدة المعانى إلى الزهد في الدنيا بصفته مفتاح سعادة الإنسان بعد أن ذكر صفات الأصناف الأربعة الأثيمة والصنف الخامس الذى يمثل الاتقياء من أولياء الله، مؤكدا على أن البؤس والشقاء الذى طال الأصناف الأربعة إنما يستند إلى حب الدنيا والتعلق بزخارفها.

فقال عليه السلام:

«فلتكن الدنيا فى أعينكم أصغر من حثالة [٢٨٨] القرظ وقراضة [٢٨٩] الجلم [٢٩٠].».

والتشبيهات رائعة غاية فى الدقة، فالقرظ (على وزن مرض) بمعنى ورق الأشجار الذى يستفاد منه لدبج الجلود حتى يشدها ويجعلها أكثر فائدة، وبالطبع فإن الحثالة التى تطرح بعد الاستفادة تكون قدره ومتعفنه ومدعاة للنفرة، وكذلك حين تقص أصواف الحيوانات تطرح بعض القطعات الصغيرة منه على الأرض دون أن يكون لها أدنى فائدة. فالتشبيه الأول

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٨٤

استبطن النفرة والثانى التفاهة وعدم القيمة والاعتبار، والإمام عليه السلام يوصى بأن تكون الدنيا أهون من هذا فى الأعين، الدنيا التى أدى عشق أموالها إلى ظهور القوارين، وعشق مناصبها إلى ظهور الفراعنة والطواغيت الظلمة، وأن حبها رأس كل خطيئة.

من جانب آخر فقد أشار عليه السلام إلى قصر مدة الدنيا وضرورة الاتعاض بها

«واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم».

لقد جمعوا لها وجهدوا من أجلها وانصرفوا، ولم تعد قصورهم الخاوية وتيجانهم البالية وقدرتهم الجوفاء التى خلفوها هنا وهناك سوى عبرة لمن اعتبر، فان اعتبر بها فهو المطلوب، وإلا ستكونون أنتم عبرة يعتبر بكم من يأتى بعدكم.

القرآن الكريم من جانبه لم ينفك عن دعوة الناس للاعتبار بالماضين، فقد أورد عبارات توقظ الضمير وتهز الاعماق بشأن الفراعنة وضرورة الاتعاض بهم «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ* وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ* كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ* فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ».[٢٩١]

غير أنه من المؤسف أن بنى إسرائيل لم يعتبروا بهذه الدروس حتى أصبح مصيرهم عبرة لغيرهم.

ثم قال عليه السلام: وارضضوها ذميمة، فأنها قد رفضت من كان أشغف [٢٩٢] بها منكم».

ومن الطبيعى أن يكون مراد الإمام عليه السلام بهذه الدنيا المذمومة هى الدنيا التى تقود صاحبها إلى الظلم والطغيان والهوى والفساد لا الدنيا التى تشكل الجسر لعبور أولياء الله إلى الآخرة.

كلام السيد الرضى

قال الشريف الرضى: وهذه الخطبة ربما نسبها من لاعلم له إلى معاوية، وهى كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذى لا يشك فيه، وأين الذهب من الرغام، وأين العذب من الاجاج! وقد دل على ذلك الدليل الخريت ونقده الناقد الباصر عمرو بن بحر الجاحظ، فإنه ذكر هذه الخطبة

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٨٥

فى كتاب البيان والتبيين وذكر من نسبها إلى معاوية، ثم تكلم من بعدها بكلام فى معناها، جملة أنه قال: وهذا الكلام بكلام على عليه السلام أشيه، وبمذهبه فى تصنيف الناس، وفى الأخبار عما هم عليه من القهر والاذلال، ومن التقيء والخوف، أليق. قال: ومتى وجدنا معاوية فى حال من الأحوال يسلك فى كلامه مسلك الزهاد ومذهب العباد.

الدنيا فى عين أولياء الله.

ماورد فى الخطبة بشأن الأصناف الخمسة فى عصر الإمام عليه السلام (من يقعد به عن طلب الإمرة قلته ماله، ومن يطلب الامارة ويفسد فى الأرض، ومن يظهر ناموس الدين ويطلب به الدنيا، ومن لامال له أصلاً ويطلب الملك ولا يطلب الدنيا، وأولياء الله الاتقياء الأبرار)

لا يقتصر على عصر الإمام عليه السلام وزمانه، وهم متواجدون في كافة المجتمعات الماضية والمعاصرة والآتية، وإن كافة المشاكل التي تعاني منها المجتمعات إنما تنشأ من الأصناف الأربعة المذكورة، التي سفكت الدماء وأحرقت الاخضر واليابس وجرعت اتباع الحق صنوف الأذى والعذاب.

مع ذلك فإن الدنيا لم تف لهم وقد أتت عليهم حتى آخرهم ليكونوا عبرة لمن بعدهم.

أما العبارات التي أوردها الإمام عليه السلام بشأن كل صنف وعلاماته وصفاته جعلت من اليسير التعرف عليهم.

ولما كان حبّ الدنيا والتعلق بحطامها هو مصدر الشر والفساد الذي سلكته هذه الأصناف، فإن الإمام عليه السلام إختتم خطبته بتصوير حقيقته الدنيا بما يجعل العاقل لا يعيرها أدنى أهمية، فقد وصفها بادي ذى بدء بانها اتفه من حثالة القرظ (و هو ما يسقط من ورق السلم أو ثمر السط يدبغ به مَمًا لا-خير فيه ولا-قيمته له)، ثم أشار إلى تقلب حال الدنيا وعدم دوامها وكيف قضت على الماضين وجعلتهم عبرة للآخرين.

فقد ورد في حديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله مر بجثّة حيوان متعفنّة ملقاة على الطريق فأوماً إليها قائلاً: أترون هذه هنية على أهلها؟ فوالله الدنيا أهون على الله من هذه على أهلها» ثم واصل صلى الله عليه وآله حديثه عن الدنيا قائلاً: الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له وشهواتها يطلب من لافهم له وعليها يعادى من لا علم له وعليها يحسد من لافقه له ولها يسعى من لا يقين له» [٢٩٣].

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٨٦

وجاء في حديث أن الدنيا مثلت للمسيح عليه السلام كعجوز شمطاء فسألها: كم تزوجت.

قالت: كثير. كلهم طلقت. قالت: بل كلهم قتلت. قال عليه السلام: يا ويح أزواجك الباقيين، ألا يتعظون بازواجك الماضين [٢٩٤].

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٨٧

الخطبة [٢٩٥] الثالثة والثلاثون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

عند خروجه لقتال أهل البصرة، وفيها حكمه مبعث الرسل، ثم يذكر فضله ويذم الخارجين.

قال عبد الله بن عباس: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بنى قار وهو يخصف [٢٩٦] نعله فقال لى:

«ما قيمة هذا النعل؟».

فقلت:

«لا قيمة لها!»

فقال عليه السلام:

«والله لى أحب لى من أمرتكم [٢٩٧] إلأ أنت أقيم حقاً أو أدفع باطلاً»

. ثم خرج فخطب الناس.

نظرة إلى الخطبة.

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة فى ظل ظروف دعا فيها أصحابه للتعبئة وإطفاء نار الفتنة التى

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٨٨

أشعلها طلحة والزبير في البصرة.

وقد أطلق الإمام عليه السلام- قبل إيراد الخطبة- تلك العبارات التاريخية الخالده لابن عباس؛ العبارات التي تتحدث عن سمو روح الإمام عليه السلام ومقامه الشامخ ومدى معرفته بالله سبحانه، فقد قال عليه السلام «والله لهي- النعل- أحب إلي من إمرتكم الا أن اقيم حقاً أو أدفع باطلاً».

هذه هي أهداف الإمام عليه السلام من الامر والخلافة. ثم ينتقل الإمام عليه السلام إلى بيان خصائص العصر الجاهلي وانبثاق الدعوة الإسلامية، في اشارة إلى بروز مبادئ العصر الجاهلي ثانية وانه لا بد أن يقتفى آثار رسول الله صلى الله عليه وآله ويقتدى بهديه فيقبر الفتن ويقترب الباطل ليخرج منه الحق.

ثم إختتم عليه السلام الخطبة بدم طائفه من قريش ممن أشعلوا نار الجمل ولم تكن دوافعهم من تلك المعركة سوى الحسد والبغض وحب الدنيا.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٨٩

القسم الأول: دحر الباطل

إشارة

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَوَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا يَدْعِي نُبُوَّةَ فَسَاقِ النَّاسِ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ وَبَلَّغَهُمْ مَنَاجِئَهُمْ فَاسْتَيْقَمَتْ قَنَاتُهُمْ وَأَطْمَأْنَنْتْ صِيَفَاتُهُمْ- أَمَا وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحِذَائِهَا مَا عَجَزْتُ وَلَا جَبُنْتُ وَإِنَّ مَسِيرِي هَذَا لِمِثْلِهَا: فَلَا تَنْبَغِ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- كما ذكرنا- إلى بعثه النبي الإكرم صلى الله عليه وآله وظهور الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية وكيف كانت حياة الناس في العصر الجاهلي وكيف أصبحت إبان انطلاقة الدعوة، ومدى السعادة التي ظفروا بها، فقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَوَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا يَدْعِي نُبُوَّةً».

أثار بعض شراح نهج البلاغة هذا السؤال: كيف يقال لم يكن لاحد من العرب كتاباً سماوياً ولم يكونوا يتبعون نبياً من الأنبياء، والحال كانت طائفه من اليهود والنصارى تعيش هناك ولديها التوراة والانجيل؟ ثم أجابوا على السؤال من خلال الاشارة إلى تحريف التوراة والانجيل، وعليه فلم يكن لديهم كتاباً بالحق، كما أن اليهود والنصارى كانوا أتباعاً كاذبين، ثم إستدلوا على ذلك بالاية الكريمة «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا». [٢٩٨]

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٩٠

كما إحتمل البعض أن يكون المراد بذلك العرب الذين كانوا يشكلون الأكتريه وكانوا على الشرك والوثنية.

الإجابة الاخرى التي يمكن الرد بها على ذلك السؤال أن اليهود لم يكونوا من سكنة الجزيرة العربية بمعنى المواطنه، بل تفيد السير التاريخية أنهم حين قرأوا في كتابهم البشارة بظهور نبي الإسلام وأن ظهوره بات وشيكاً قدموا هناك لدركه، وإن شعروا في ما بعد بالخطر على مصالحهم فسلوكوا سبيل النفاق وعادوا النبي صلى الله عليه وآله، النصارى أيضاً كانوا من المهاجرين ويشكلون الاقلية هناك.

على كل حال فإن الإمام عليه السلام أشار إلى إبتعاد الأقوام الجاهلية عن أجواء الوحي والنبوته، الأمر الذي يصور مدى غرقهم في

وحل الشرك والفساد.

ثم تطرق عليه السلام إلى الأوضاع التي بلغوها في ظل إنبثاق الدعوة والاستضاءة بنور الوحي وبزوغ شمس الإسلام «فساق الناس حتى بوأهم محلتهم وبلغهم منجاتهم» [٢٩٩]

فهو لم يخلصهم من الشرك والكفر والانحراف العقائدي وينقذهم من الفساد الأخلاقي والظلم والجور وسوء العدل فحسب، بل أخذ ييدهم إلى حيث القوة والعزة والحكومة والحضارة والمدنية، ومن هنا قال عليه السلام «فاستقامت قناتهم [٣٠٠] واطمأنت صفاتهم [٣٠١]».

وعليه فقد ظفروا بالنصر المعنوي إلى جانب شمولهم بالنعم المادية وما ذلك إلا ببركة النبي صلى الله عليه وآله ونزول القرآن الكريم والتعبير بمحلتهن إشارة إلى المنزلة الراقية التي ينبغي أن يبلغها الإنسان الفاضل، ومنجاتهم إشارة إلى نقطة النجاة التي ليس معها خوف وخشية ولا قستطن سوى الفلاح والصلاح.

والعبارة «إستقامت قناتهم» وعلى اضواء الاستقامة التي تعنى الاستواء والثبات والقناة بمعنى الرمح تعنى القوة والقدرة والانتصار على العدو.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٩١

أما بعض شراح نهج البلاغة فقد ذهب إلى أن الاستقامة هنا تشير إلى الرمح كناية عن انتظام الامور ونظم الحكومة والدولة والمجتمع والقوة والمنعة، ولكن لما كان الرمح عادة مستقيم وإذا أعوج كسر ولا يمكن تسويته (لأنه يصنع عادة من الخشب لا الفلزات)، فإن العبارة يمكن أن تكون إشارة إلى اطمينان البال واستقرار الذهن؛ لأن الجنود يغرسون حراهم في الأرض وتبقى مستوية مستقيمة حين الهدوء والاستقرار؛ الأمر الذي يفيد أنهم كانوا آمنين من حملات العدو.

أما العبارة «إطمأنت صفاتهم» فهي تشير إلى إستحكام منزلتهم في ظل ظهور الإسلام ونهضة رسول الله صلى الله عليه وآله بحيث إستقرت حياتهم الفردية والاجتماعية.

فالصحارى التي كانت تردد عليها العرب، كانت مليئة بالرمال والحصى المتحركة بحيث يصعب اجتيازها، بينما تسهل حركته وذهابه وايابه وجلوسه إذا إستقر على حجر كبير واسع ومحكم ومستقيم.

ثم قال عليه السلام:

«أما والله إن كنت لفي ساقنتها [٣٠٢] حتى تولت بحذا فيرها [٣٠٣]».

ففي الاوضاع التي يكون فيها الجيش مستجد أو العدو قوى بحيث يحتمل التقهقر والانسحاب، فان أمر الجيش يجعل بعض مساعديه الشجعان في المؤخرة ليسوقوا الجيش إلى الإمام ويحثونهم على التقدم كما يحولوا دون تراجعهم.

وكأن الإمام عليه السلام أشار إلى هذه المسألة في أن النبي صلى الله عليه وآله قلدى مسئولية في سوق الجيش إلى الإمام وتجاوز المخاطر والمشاكل التي تواجهه، أو المراد أنى والنبي صلى الله عليه وآله في مؤخرة هذا الجيش ونسوقه إلى الإمام وقرينه ذلك قوله فساق الناس» على كل حال فإن كل هذه إشارات إلى عصر نهضة النبي الإكرم صلى الله عليه وآله والدور الهام الذي لعبه الإمام على عليه السلام في إنتصار الجيش الإسلامى على معسكر الكفر والشرك.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٩٢

وفى إشارة إلى قيامه بوظيفته على أحسن وجه وبلائه الحسن قال «ما عجزت ولا جنت» فمن البيهية أن الانسحاب إنما يستند إلى الضعف والعجز أو الخوف والرعب، فقوله عليه السلام

«ما عجزت ولا جنت»

يتضمن فيه لعوامل الضعف والتقهر.

ثم يربط عليه السلام هذه المقدمة بذي المقدمة فالإمام عليه السلام أشار إلى نقطة مهمّة وهي أنّ الائمة الإسلامية آنذاك بدأت تعود إلى الافكار والسنن الجاهلية وهي تتباعد كل يوم أكثر من ذي قبل عن مسيرة النبي صلى الله عليه وآله والقرآن والإسلام، ونموذج ذلك الحركة الظالمة لمشعل نار الجمل من أجل الحصول على المناصب من خلال نكث البيعة وسفك دماء المسلمين. فقد أراد الإمام عليه السلام الوقوف بوجه هذه العودة إلى الجاهلية وتجديد رسالته ووظيفته التاريخية في الحفاظ على المسيرة الإسلامية.

ومن هنا قال

«فلا نقين [٣٠٤] الباطل حتى يخرج الحق من جنبه.»

وبالالتفات إلى أنّ «أنقبن» من مادة «نقب» بمعنى ثقب الشئ وشقه، فإنّ العبارة تشير إلى حقيقة هي أنّ الحق لا يظهر ما لم تتبدد حجب الباطل، بعبارة أخرى فإنّ الباطل يسعى على الدوام ليغطي على الحق وبكتمه، فاذا شقت حجب الباطل، تنفس نور الحق واتضح عياناً للجميع. ويمكن أن تكون العبارة إشارة إلى قيام أساس العالم على الحق، وإنّ الحق كامن في باطن كل موجود، ولاسيما في الفطرة البشرية، بينما الباطل أمر عارض طارئ على الإنسان.

فاذا زال هذا العارض ظهر الحق من باطن الأشياء. وقد ورد مثل هذا المعنى في الخطبة ١٠٤ «وآيم الله لا بقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته.»

تأملات

إشارة

نفحات الولاية؛ ج ٢؛ ص ١٩٢

١- من أخبار يوم ذي قار

كما ورد في شرح الخطبة فان «ذى قار» موضع بين البصرة والكوفة شهد معركة قبل

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٩٣

الإسلام بين العرب والجيش الساساني الذي هزم في المعركة وانتصر فيها العرب. [٣٠٥] وقيل في تسميته أنه كان فيها بئراً مأؤه أسود كالقير.

عن ابن عباس، قال: لما نزلنا مع عليّ عليه السلام ذا قار، قلتُ: يا أمير المؤمنين، ما أقلّ مَنْ يأتيك من أهل الكوفة فيما أظنّ! فقال: واللّه ليأتيني منهم ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً؛ لا يزيدون ولا ينقصون.

قال ابن عباس: فدخلني واللّه من ذلك شكٌّ شديد في قوله، وقلت في نفسي: واللّه إن قدّموا لأعدّتهم.

ثم نفر إلى عليّ عليه السلام إلى ذي قار من الكوفة في البحر والبرّ ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً. أقام عليّ بذي قار خمسة عشر يوماً، حتى سمع صهيل الخيل وشحيج البغال حوله. قال: فلما سار بهم منقله، قال ابن عباس: واللّه لأعدّتهم، فإن كانوا كما قال، وإلّا أتمّتهم من غيرهم؛ فإنّ الناس قد كانوا سمعوا قوله. قال: فعرضتهم فواللّه ما وجدتهم يزيدون رجلاً، ولا ينقصون رجلاً، فقلت: اللّه

أكبر! صدق الله ورسوله! ثم سرنا.

لعل كلام ابن عباس إشارة إلى أن الإمام عليه السلام سمع هذه الأمور من رسول الله صلى الله عليه وآله ثم أخبر بها. قال ابن أبي الحديد بعد ذلك: فلما قدم أهل الكوفة على علي عليه السلام، سلّموا عليه، وقالوا: الحمد لله يا أمير المؤمنين، الذي اختصنا بموازرتك، وأكرمنا بنبصرتك؛ قد أجبناك طائعين غير مكرهين، فمّرنا بأمرك. قال: فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال:

مرحباً بأهل الكوفة، بيوتات العرب ووجوهها، وأهل الفضل وفرسانها، وأشدّ العرب مودة لرسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته. [٣٠٦]

٢- جاهلية العرب

مهما قيل ويقال بشأن عظمة الإسلام وانبثاقه وسط امّة متخلفة ومتعصبة فهو قليل. فقد

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٩٤

إنطوت الامّة في العصر الجاهلي على سلسلة من الانحرافات والصفات الرذيلة، ونكتفى هنا بالإشارة فقط إلى التعصب الذي كان سائداً آنذاك والذي لم يكن يسمح لأفكار الآخرين باختراقه.

ويعتقد أحد المحققين المسيحيين بالارتباط الوثيق بين التعصب الجاهلي ومناخ الحجاز، فيقول:

«تصف تلك المنطقة بالجفاف، فكانت طبيعة الناس هي الأخرى الصلابة والشدّة، وكان من الاعجاز تسلل الأفكار الإسلامية إليه».

وإذا أضفنا إلى ذلك الجهل والابتعاد عن العلم وهبوط المستوى الفكري والضحالة الثقافية والتلوث بأنواع الخرافات التي تدعو إلى التعصب والعناد لأدركنا حجم الاعجاز في هدايتهم وانتشالهم من تلك الدوامة.

وقد تعرض القرآن الكريم إلى جانب من تلك العصبية، ومن ذلك قوله «سَأَلْ سَائِلٌ بِعَيْذَابٍ واقِعٍ» [٣٠٧] وقوله «وَإِذِ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّا كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامُطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً...» [٣٠٨]

وتشير أسباب نزول مثل هذه الآيات إلى عمق التعصب الذي كان يحكمهم بحيث كانوا مستعدين للتضحية بانفسهم تعصبا حقا إن هداية مثل هذه الاقوام تبدو من المعاجز الكبرى؛ الأمر الذي أشير له في الخطبة المذكورة، وإن عادت تلك الامّة للأسف بعد رحيل النبي الإكرم صلى الله عليه وآله بمدّة قصيرة إلى جاهليتها الاولى وتسلمت بعض المناصب الحساسة في الحكومة الإسلامية لتذهب جهود النبي صلى الله عليه وآله وأهله أدارج الرياح، ومن هنا فقد سعى الإمام عليه السلام جاهداً لاعادة الامّة إلى عصر الرسالة.

٣- حديث خاصف النعل

لقد ورد في بداية الخطبة عبارة «يخصف نعله» التي تذكرنا بحديث النبي صلى الله عليه وآله بشأن فضائل علي عليه السلام خاصف النعل. حيث جاء في سنن الترمذي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يكلم

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ١٩٥

مشركي قريش فخطبهم قائلاً:

«لتنتهن أو ليعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين قد إمتحن الله قلبه للإيمان»

فسأله من حضر: ومن ذاك؟ وسأله أبوبكر: من هو؟

وسأله عمر: ومن هو؟ فقال صلى الله عليه وآله: هو خاصف النعل: حيث كان علي عليه السلام يخصف نعلي رسول الله صلى الله عليه وآله

و آله ... ثم نقل الترمذى عن أبى عيسى أنه حديث صحيح [٣٠٩]

ومن الطبعى أن ذلك العمل الذى صدر من الإمام عليه السلام على عهده وعهد النبى صلى الله عليه وآله إنما يفيد تواضع الإمام عليه السلام للناس وانصرافه عن الدنيا.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٩٧

القسم الثانى: مالى ولقريش؟

إشارة

«ما لى ولقريش؟ والله لقد قاتلتهم كافرين ولقاتلتهم مفتونين وإننى لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم! والله ما تنقم منا قریش إلا أن الله اختارنا عليهم، فأدخلناهم فى حيزنا فكانوا كما قال الأول: أدمت لعمري شربك المخص صابحاً وأكلك بالزبد المفسرة البجرا ونحن وهبناك الغلاء ولم تكن علينا وحطنا حولك الجرد والسمر».

الشرح والتفسير

يشير الإمام عليه السلام هنا إلى طبيعة علاقته فى السابق والحاضر بقريش، لأنه أورد هذه الخطبة على هامش موقعة الجمل: حيث نعلم بأن مؤججى نار الجمل هم طلحة والزبير وسائر الأفراد من قریش الذين خططوا لهذه المعركة بدافع من أحقادهم تجاه الإمام عليه السلام. فقد كانوا يديرون هذه المعركة علانية أو خفية ومن هنا فإن كلمات الإمام عليه السلام تضمنت تحذير الامة من عدم الوقوع فى شباكهم إلى جانب تنبيهها إلى الدوافع الأصلية لهذه المعركة، فاستهل عليه السلام كلامه قائلاً:

«مالى ولقريش؟ والله لقد قاتلتهم كافرين ولا قاتلتهم مفتونين [٣١٠]»

نعم فهؤلاء كانوا على الشرك، وقد التحقوا بالمسلمين بسيف على عليه السلام ودعوة النبى صلى الله عليه وآله، إلا أنهم وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله وبدافع من حب الجاه قد إبتعدوا عن الحق حتى هبوا لقتال وصى رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن بايعوه طواعية.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٩٨

مفتون من مادة فتن بمعنى الانحراف كما تأتى بمعنى الشرك والكفر، ولعلها تشير فى العبارة إلى انحرافهم عن الإسلام نحو الكفر وقد ورد فى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعلى عليه السلام:

«يا على حربك حربى وسلمك سلمى» [٣١١]

. وعلى ضوء هذا الحديث فقد خرج من ربة الإسلام من قاتل علياً عليه السلام فى الجمل وصفين ونهروان؛ لأن مما لاشك فيه هو كفر من قاتل النبى صلى الله عليه وآله. وهنا يمكن أن يطرح هذا السؤال: لو كان الأمر كذلك لوجب على جيش على عليه السلام فى الجمل أن يأسر من هب لقتاله ويستولى على أموالهم كغنائم، بينما لم يعاملهم الإمام عليه السلام كذلك؟

قيل فى الجواب لقد كان للإمام عليه السلام الحق فى أن يفعل هكذا، إلا أن بعض الامور من قبيل شرائط الزمان والمكان جعلته ينصرف عن هذا الأمر. أضف إلى ذلك فإنه ليس هنالك من ضرورة فى تكافى أحكام جميع الكفار، فممكن أن يستثنى من حكم الأسر ومصادرة الأموال كغنائم حربية هذه الطائفة من المسلمين التى خرجت على إمام زمانها ودخلت الكفر. فقد جاء فى بعض الروايات أن مروان بن الحكم.

قال: إِنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعَادَ الْأَمْوَالَ إِلَى أَهْلِهَا لَمَّا غَلَبْنَا فِي الْبَصْرَةِ، فَكَانَ يَعِيدُ أَمْوَالَ كُلِّ مَنْ أَقَامَ الْبَيْتَةَ أَوْ يَأْتِي بِالشَّهَادَةِ، وَيَحْلِفُ مِنْ لَيْسَ لَهُ بَيْتَةٌ. وَلَمَّا سُئِلَ عَنْ تَوْزِيْعِ الْغَنَائِمِ سَكَتَ ثُمَّ قَالَ:

أَيْكُمْ يَأْخُذُ أُمَّهُ فِي سَهْمِهِ [٣١٢].

وتفيد بعض الروايات أنه عفى عن أهل البصرة كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله حين فتح مكة. كما يستفاد أنه لم يرد أن تكون هذه المسئلة سنة، لأنه كان يعلم بان شيعته ستخضع لضغوط الظلمة ولعلها تعاملهم بهذه المعاملة [٣١٣].

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ١٩٩

على كل حال فإن مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنه لا يكن أى بغض أو عداة لقريش، أما بذور حسدهم للإمام عليه السلام فسببها وقوف الإمام عليه السلام بوجههم فى ميادين صراع الحق ضد الباطل إبان إنبثاق الدعوة الإسلامية، ولم يكن ذلك سوى إمتثالا لأوامر الله. ثم قال عليه السلام:

«وإنى لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم»

فما زال السيف الذى جندلت به الابطال فى بدر وأحد والاحزاب بيدي، فالواقع هذا تهديد صريح لمؤججى نار الجمل.

وتساءل البعض أن مثل هذا الكلام يصدق على معاوية وعمر بن العاص ومروان وأمثالهم الذين هبوا لقتال رسول الله صلى الله عليه وآله و آلته، إلا أنه لا يصدق على طلحة والزبير، فقد وقفا إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله فى معاركه. وقد أجيب على هذا السؤال بأن الإمام عليه السلام لم يرد شخصاً معيناً، إلا أن الهدف بيان حقيقة أنه كان يقاتل فى سبيل الحق ضد الباطل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وما زال بعد النبى صلى الله عليه وآله يقاتل فى هذا السبيل (ونعلم أن قريشاً كانت تقاتل آنذاك ضد المسلمين).

أضف إلى ذلك صحيح أن طلحة والزبير كانا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، إلا أن أغلب أصحابه الجمل ومنهم مروان كانوا من قريش. ثم أشار عليه السلام إلى أحد دوافع أصحاب الجمل فقال

«والله ما تنقم منا قريش إلا أن الله إختارنا عليهم، فأدخلناهم فى حيزنا»

ثم وصفهم بأنهم أصبحوا كما قال الشاعر [٣١٤].

أدمت لعمرى شربك المحض [٣١٥] صابحا

وأكلك بالزبد [٣١٦] المقشرة [٣١٧] البجرا [٣١٨]

ونحن وهبناك العلاء ولم تكن عليا وحطنا حولك الجرد [٣١٩] والسمرا [٣٢٠]

نعم فهؤلاء يحسدوننا ويغنون علينا، إلا أن إرادة الله هى التى إختارتنا للنبوة والإمامة،

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٠٠

مع ذلك لم نعاملهم بالمثل فقد عفونا عن أخطائهم وحفظناهم من الاعداء، إلا أنهم لم يتنكروا لهذه النعمة فحسب، بل شهروا سيوفهم علينا وهبوا لقتالنا، فقد قطعوا الرحم وقابلوا الاحسان بالجحود وأشعلوا نار حرب الجمل فسفكوا الدماء وزرعوا الفرقة فى صفوف المسلمين.

فقريش تشبه بعملها هذا ذلك الحسود الذى يعترض على حكمه الله، فقد قال سبحانه «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» [٣٢١].

وقال «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» [٣٢٢].

وقال «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [٣٢٣].

ومن الطبيعى أن الإنسان المؤمن بالمفاهيم القرآنية والاصول الإسلامية لا يشعر بالحسد تجاه من يشمله الله على ضوء حكمته بالنبوة والإمامة، فلا يرى نفسه سوى مسلمهم لهذه الحكمة.

الحسد مصدر الاضطراب الاجتماعي

قلما نجد صفة رذيلة كالحسد كانت السبب وراء هذه الأحداث الأليمة والفجائع المأساوية التي شهدتها المجتمعات البشرية طيلة التاريخ. فأغلب الناس إثر قلّة العلم وهبوط المستوى الثقافى وضعف الإيمان وعدم الثقة بالنفس ما إن يرى بعض النجاحات التي يحققها أقرانه أو أمثاله حتى تشتعل في قلبه فتائل الحسد فلا- يهتم سوى فى كيفية تحطيم نفسية المقابل عن طريق الاتهام والتحقير والذم ومحاوله الانتقاص أو إيجاد بعض الموانع والمعوقات فى طريقه، بدلاً من الشعور بالفرح والسرور والاحتذاء به من أجل تحقيق النجاح والتغلب على الصعاب

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٠١

والانفتاح على تجاربه وارشاداته. وقد يشتد هذا الحسد حتى يبلغ درجة تدعو إلى إراقة دم المحسود من قبل الحاسد. ولا ننسى هنا أن أول دم إريق كان سببه الحسد، الذى دفع بقايل لقتل أخيه هايل حيث قبل قربان الثانى ولم يقبل قربان الأول، الأمر الذى تكرر كثيرا فى التاريخ حتى قتل الأخ أخاه والابن أباه وبالعكس.

وهكذا تعود أغلب الحوادث الأليمة التى وقعت فى صدر الإسلام ولا سيما فى عصر خلافة أمير المؤمنين على عليه السلام إلى الحسد؛ الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة. وقد تعرضت أغلب الروايات إلى ذم هذه الرذيلة التى لا تجر سوى الفساد على المجتمع، فقد قال على عليه السلام:

«إذا أمطر التحاسد نبت التفاسد» [٣٢٤]

. أما النقطة المهمة التى أرشدت إليها الخطبة فتكمن فى ضرورة عدم مقابلة المحسود للحاسد بالمثل، بل يسعى جاهدا لاطفاء نار الحسد من قلبه من خلال شكر النعمة ومداراة الحاسد وإطفاء حسده بمعاملته بالحب والإحسان، وما أحسن ما قال الشاعر:

إصبر على حسد الحسود فان صبرك قاتله النار تاكل نفسها إن لم تجد ما تأكله [٣٢٥].

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٠٣

الخطبة [٣٢٦] الرابعة والثلاثون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

فى إستنفار الناس الى أهل الشام بعد فراغه من أمر الخوارج. وفيها يتأفف بالناس، وينصح لهم بطريق السداد.

مناسبة الخطبة

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة كما ورد أنفا بعد فراغه من معركة النهروان. ويستفاد من ظاهر كلام ابن أبى الحديد أن الإمام عليه السلام خطبها فى النهروان، بينما نقل عن نصر بن مزاحم أنها أول خطبة خطبها بعد قدومه من النهروان لما كره القوم المسير إلى الشام عقيب واقعة النهروان، وأقبلوا يتسللون ويدخلون الكوفة، فلما رأى ذلك دخل الكوفة فخطبهم [٣٢٧].

وصرح البعض من شراح نهج البلاغة أن الإمام عليه السلام كان حريص فى النهروان على الحركة إلى الشام دون ضياع الفرصة، لأنه كان يرى أن العودة إلى الكوفة تعنى إسترخاء الجيش وصعوبة تجهزه ثانية، إلّا أنهم كانوا يتعللون ببرودة الجو ووجود الجرحى وعدم كفاية الأسلحة فلم يطيعوا أوامر الإمام عليه السلام. فاضطر الإمام عليه السلام إلى دخول الكوفة ليجهزهم للقاء

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٠٤

العدو، ولكن (وكما تكهن سابقاً) تشبثوا بالحجج، فتأثر الإمام عليه السلام وخطب الناس بهذه الخطبة [٣٢٨].

نظرة إلى الخطبة

تعالج هذه الخطبة ثلاثة مواضع وهي:

- ١- التأكيد على جهاد العدو والعواقب الوخيمة لترك الجهاد. والذي يمثل أطول جانب من الخطبة فالإمام عليه السلام يعرض باللوم لأهل الكوفة- في هذا القسم من الخطبة الذي يشكل معظمها- ويذمهم بمختلف العبارات الشديدة القسوة. وبالطبع فإن ذلك جاء بعد عدم جدوى كافة الأساليب عن طريق الاستدلال والبرهان والمنطق والمحبة لتعيتهم للجهاد ومواجهة العدو، فلم يكن أمامه سوى هذا الأسلوب، فقد كان يشبههم أحياناً بالمجانين الذين فقدوا شعورهم وأحاسيسهم فلم يعودوا يدركوا ما يضرهم وينفعهم، وأحياناً أخرى يشبههم بالابل التي ضل رعاتها، ثم يسعى لتعبثهم من خلال تبييهم إلى قسوة عدوهم.
 - ٢- عزمه الراسخ في مجابهة العدو سواء كان هناك من يهب لنصرته أم لم يكن.
 - ٣- الحقوق المتبادلة بين الإمام والامة، فيعرض بادية ذى بدء إلى حقوق الامة على الإمام، فيلخصها في أربع عبارات، ثم يبين بربع عبارات اخرى حقوق الإمام على الامة.
- وكان الإمام عليه السلام أراد أن يختتم الخطبة بما يحيل مرارة ذمه حلاوة على ذلك يجدي نفعاً في علاج ضعفهم وتقاعسهم.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٠٥

القسم الأول: لم الخشية من الشهادة؟

إشارة

«أَفْ لَكُمْ لَقَدْ سَيِّمْتُ عِتَابَكُمْ! أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ عَوْضًا وَبِالذَّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلْفًا؟ إِذَا دَعَوْتُمْ إِلَى جِهَادٍ عَدُوَّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ يُزْتَجِعُ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُونَ، وَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ فَانْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ! مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسِ اللَّيَالِي، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ، وَلَا زَوَائِرُ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ».

الشرح والتفسير

يستهل الإمام عليه السلام خطبته بامطار أهل الكوفة بوابل عتابه ولومه وذمه لتجاهلهم المخاطر التي كانت تهدد البلد الإسلامي وعدم إكترائهم لها، لعل قصبتهم تهتز فيحولوا دون تفاقم تلك المخاطر. فقد كان أهل الشام يشنون الغارة تلو الغارة على مختلف المناطق الإسلامية ويسفكون دماء المسلمين وينهبون أموالهم وثوراتهم. فقد قال الإمام عليه السلام

«أف لكم [٣٢٩] لقد سئمت [٣٣٠] عتابكم»

ودليل ذلك واضح، فالعتاب ولاسيما من شخص كعلى عليه السلام لا بد أن يكون له تأثيراً واضحاً في نفس المعاتيين ودفعتهم لاعادة النظر في أعمالهم الطالحة، إما إذا لم يحصل هذا

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٠٦

التأثير بسبب غفلة المقابل فان تكراره لا ينطوى سوى على الملل والتعب. ثم قال عليه السلام:

«أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً وبالذل من العز خلفاً؟»

إن هذا سكوتمكم المميت وفراركم من الجهاد يدل على أنكم أوبقتم آخر تكم واستبدلتموها ببضعة أيام من الدنيا من جانب، ومن

جانب آخر فقد أفريتف دنياكم؁ وذلك لانكم استبدلتم العزة والرفعة بالذلة والضعفة؟ والحال إن موتاً بعزة أشرف بكثير من حياة بذلة؛ الرسالة التي لقنها أولياء الله والزعماء الربانيين أتباعهم على مدى العصور والدهور. فقد قال على عليه السلام فى نهج البلاغة «فالموت فى حياتكم مقهورين والحياة فى موتكم قاهرين» [٣٣١]

وقال سيد الشهداء

«ألا وإنّ الدعى بن الدعى قد ركزنى بين إثنين بين السلّة والذلة وهيهات منا الذلة»
ثم خاطب جيش الكوفة

«إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخشون المعاد فكونوا أحراراً فى دنياكم»

فالواقع أنّ عبارات الإمام عليه السلام كانت تمثل دليل سئمه عتابهم وكأنّهم عقدوا العزم على إيثار الذلة والحقارة وغضب الله على العزة والشرف ورضى الله؁ ومن هنا لم يعد للعتاب من أثر عليهم؁ حتى سئم الإمام عليه السلام عتابهم. أمّا فى العبارة اللاحقة فيشير الإمام عليه السلام إلى ضعفهم ليلفتوا إلى أنفسهم فيزيلوا ذلك الضعف فقال عليه السلام:

«إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم؁ فأنّكم من الموت فى غمرة» [٣٣٢] ومن الدهول فى سكرة. يرتج عليكم حوارى [٣٣٣] فتعمهون [٣٣٤]

. قوله عليه السلام «يرتج عليكم حوارى»- بالنظر إلى الحوار الذى يعنى الكلام المكرر ويرتج من مادة (رت ج) بمعنى يغلق- له معنيان: الأول ما ذكر سابقاً؁ أى أنّ كلامى المكرر لا يؤثر فيكم فأنكم لا تدركوه؁ لأنّ باب الفهم أغلق بوجهكم. والثانى أنّ لسانكم عقد عن جوابى؁ وذلك لأنّكم لا- تمتلكون الرد المنطقى على كلامى- على كل حال فإنّ نتيجة المعنيين واحدة تضمنتها العبارة اللاحقة وهى حيرتهم وضلالهم

«وكان قلوبكم مألوسة» [٣٣٥] فانتفم لا تعقلون».

نفحات الولاية؁ ج ٢؁ ص: ٢٠٧

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة

«ما أنتم لى بثقة سچيس [٣٣٦] الليالى»

. وبالنظر إلى أنّ سچيس الليالى»

تعنى ظلمة الليل فإنّ معنى العبارة مادامت الليالى بظلامها فليس لى من ثقة بكم؁ وهى كناية عن الأبدية والخلود؁ لأنّ الظلمة لا تفارق الليل أبداً. أما اختيار ظلمة الليل فينطوى على منتهى البلاغة إستناداً إلى أفكار أهل الكوفة وأعمالهم السوداء المظلمة. ثم أكد ذلك بقوله

«وما أنتم بركن يمال بكم ولا زوافر» [٣٣٧] عز يفقر إليكم»

وهكذا أعلن الإمام عليه السلام بهذه العبارات عدم ثقته واعتماده على هذه العناصر الضعيفة بعد أن تطرق لنقاط ضعفهم؁ أملاً فى إثارتهم وتعبئتهم لتوحيد الصف ومجابهة العدو. ودخولهم الميدان بكل قوة وشجاعة.

جدوى الذم واللوم

نرى أنفسنا مضطرين مرة أخرى لملاحقة هذا السؤال: لم كل هذا العتاب واللوم من قبل الإمام عليه السلام- وهو ما هو عليه من العلم والحكمة فى إدارة شؤون الناس- لأهل الكوفة وامطارهم بوابل من الكلمات القاسية العنيفة؟ أفلا يؤدى هذا الكلام الذى ينطوى على العتاب والذم وانعدام الثقة إلى نفرتهم وشدة تعصّبهم وابتعادهم عن الحق؟ ولا بدّ من القول فى الجواب أنّ الإمام عليه السلام قد خبر نفسه وروحية أهل الكوفة؁ وقد أثبت التأريخ أنّ أهل الكوفة لم يكونوا يتحركون إلّا إذا داهمهم الخطر وعرضهم للزوال بالمرّة؁ بعبارة

اخرى فان العتاب لا يجدى معهم نفعاً ما لم يجرح مشاعرهم ويثير أحاسيسهم.

ويبدو أن المجتمعات البشرية إنما تشتمل دائماً على طائفة- وإن كانت ضئيلة- لا تفيق إلى نفسها ما لم تتلق ضربات موجعة متتالية. ولا يفهم من كلام الإمام عليه السلام إننا ينبغي أن نعتمد هذا الاسلوب تجاه من عاش الغفلة وتخلي عن وظيفته ومسؤوليته؛ لأن الأفراد على أنواع: بعضهم يعود إلى نفسه بأدنى إشارة فيستقيم

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٠٨

على الطريق، وبعضهم لا يتحرك ما لم توخزه بارة.

وبناءً على هذا فان ذلك الاسلوب إنما يختص بتلك الجماعة بفضلها العلاج الأخير لدائمهم.

وقد أثبت التاريخ أن ذلك الاسلوب كان قد أثر في أغلب أهل الكوفة فاندفعوا إلى النخيلة وتأهبوا لقتال أهل الشام، غير أن شهادة أمير المؤمنين عليه السلام على يد عبدالرحمن بن ملجم أشقى الآخرين حالت دون ذلك.

والشاهد الآخر على ذلك أن الإمام عليه السلام كان كثيراً ما يثنى على أهل الكوفة أوائل حكومته [٣٣٨]، إلا أنهم حين ضعفوا واستقوى عليهم أهل الشام فكانوا يهجمون كل يوم على منطقة من مناطق البلاد الإسلامية، لم ير عليه السلام بدأً من مخاطبتهم بهذا الاسلوب.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٠٩

القسم الثاني: يقظة العدو وسيات النصير

إشارة

«ما أنتمم إلا كابل ضل رعاتها فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر لبس لعمر الله سيعر نار الحوب أنتم! تكادون ولا تكيون وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون! لا ينأ عنكم وأنتم في غفلة ساهون، غلب والله المتخاذلون! وإيتم الله إنى لأظن بكم أن لو حمس الوغى، واستحز الموت، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب أنفراج الرأس».

الشرح والتفسير

يواصل الإمام عليه السلام عتابه وذمه لعسكر الكوفة

«ما أنتمم إلا كابل ضل رعاتها فكلما جمعت من جانب إنتشرت من آخر»

فالمراد أن إرادتكم ضعيفة وأفكاركم مشتتة ولا تميزون مصالحكم، فقد شبههم عليه السلام بالابل لضيق أفقهم وضحالة أفكارهم، وقوله «ضل رعاتها» إشارة إلى عدم طاعتهم لائمتهم وأوليائهم.

ومن البديهي أن هؤلاء الأفراد لا يسعهم أن يكونوا قوة أمام العدو ولذلك قال عليه السلام:

«لبس لعمر [٣٣٩] الله سعر [٣٤٠] نار الحرب أنتم».

فالحرب ظاهرة ممجوجة غير محببة وآثارها خراب البلدان وقتل الإنسان والفقير والجهل

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢١٠

والبؤس والشقاء والتخلف، إلا أن نفس ظاهرة اللوم هذه قد تكون دواءً حيويًا للمجتمع وذلك حين ينهض العدو ليهضم حقوق الأمة وينشر في ربوعها الذعر والفساد والانحراف.

فلا- يمكن إعادة الأمن والسلام والعدل إلى المجتمع إلا من خلال الحرب. ومن هنا صرح القرآن الكريم قائلاً: «اذن للذين يقاتلون

بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير» [٣٤١] وقال فى موضع آخر «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» [٣٤٢].

وعليه فإن الإمام عليه السلام إذا أشار إلى الحرب، فإنما ذلك لتكرار إعتداءات وحملات أهل الشام وسفكهم للدماء ونهبهم للأموال بل هبوا فى الواقع لمحاربة وصى رسول الله صلى الله عليه وآله من بايعته الأمة برمتها. ومن هنا خاطبهم

«تكادون ولا تكيدون، وتتقض أطرافكم فلا تمتعضون، لا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون».

ومن الواضح أن من لا يستعد لمواجهة العدو ويتأهب لخطئه التدميرية فإن قراه ومدنه الحدودية إنما تكون على الدوام مسرحاً لعمليات العدو ليمارس بحق أهلها القتل والدمار ونهب خيراتهم وثوراتهم، وليس هنالك من مصير بأفضل من هذا المصير ينتظر اولئك الذين يعيشون الغفلة عن عدوهم.

وما أعظم قساوة إصدار الأحكام بشأن الإمام على عليه السلام واتهامه بالضعف وقلة التدبير فى الحروب إذا لم يحط بحقيقته أهل الكوفة والضعف والوهن الذى كان سائداً لديهم إلى جانب عدم الطاعة والتمرد الذى طبعت عليه سجيتهم.

بعد ذلك يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة أعمالهم فيقول

«غلب والله المتخاذلون»

نعم فالفشل والهزيمة لا تقتصر على هولاء الذين تصدعت وحدتهم وتخلوا عن مجابهة العدو، بل الهزيمة من القوانين الثابتة التى يبنى بها كل من يعيش هذه المفردات من قبيل الفرقة والنفاق والضعف والوهن وعدم الطاعة.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢١١

ثم قال عليه السلام:

«وآيم الله [٣٤٤] انى لاظن بكم أن لو حمس [٣٤٥] الوغى [٣٤٦] واستحر [٣٤٧] الموت، قد انفرجتم عن ابن أبى طالب إنفراج الرأس». فقد أشار الإمام عليه السلام إلى عدّة أمور بهذا التشبيه: الأول إن مكانته وإن كانت بمثابة الرأس من الجسد، ولكن هل للرأس - الذى يعتبر مركز الفكر ويضم العين والاذن واللسان - أن يفعل شيئاً دون سائر الأعضاء؟ والثانى: هل من حياة ووجود لهذا الجسد إن فصل عنه الرأس، وإن كان فيه فهل له فعل شئ دون معونة العقل والفكر والسمع والبصر.

وأخيراً يتعذر التثام الرأس بالجسد إذا ما فصل عنه، بينما ليست هنالك مثل هذه الصعوبة فى إلتئام سائر أعضاء البدن.

وعليه فإن مراد الإمام عليه السلام هو أنكم تنفرون عنى وليس لكم العودة إلى إذا حمى الوطيس وأخذكم الخوف فهربتم منى كما احتمال بعض الشراح أن المراد بقوله:

«أنفراج الرأس»

هو فلق الرأس بضربة السيف التى تأبى الالتئام. [٣٤٨]

عوامل اخرى للضعف والهزيمة

يتطرق الإمام عليه السلام بفضل زعيم إنسانياً وسياسياً وعسكرياً - فى هذا القسم من الخطبة - إلى العوامل التى تقف وراء الضعف والفشل والهزيمة، فيجملها بعبارات قصيرة بعيدة المعانى وفى مقدمتها التشتت والفرقة وعدم إمتلاك الزعيم الأوحده، الأمر الذى يشاهد بوضوح اليوم فى

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢١٢

البلدان الإسلامية، حيث تؤدى الفرقة والانقسام إلى هذه الفوضى والانفلات فى صفوف الائمة.

والطريف في الأمر أن الجميع يتحدث عن الوحدة، بينما يسهم كل حسب قدرته بتأجيح نيران الفرقة والاختلاف. والثاني عدم وجود الخطط والمشاريع الصحيحة التي يمكنها مواجهة مخططات العدو الخبيثة والتي أشير إليها بالعبارة «تكادون ولا تكيدون». الثالث استهانة ببعض الحوادث الصغيرة- وهي كبيرة في الواقع- والتي تعرض لها الإمام عليه السلام بقوله «وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون»

فاغلب الحوادث الصغيرة تكشف عن عمق بعض المسائل المهمة الخفية، فتغيير بسيط في البدن قد يعكس حالة مستعصية في باطنه، وهذا ما عليه الحال بالنسبة للقضايا الاجتماعية والسياسية والعسكرية. فاذا رأينا العدو قد هجم على منطقة حدودية صغيرة، أو إغتيال شخصية من البلد، لا بد أن نعلم بأنه إنما يعد نفسه لمعركة أكبر وأعنف، وإلا لما تجاسر وارتكب ذلك العمل.

وعليه لا بد من الالتفات إلى الأعمال في بداياتها وعدم الغلغلة عن القضايا العضال التي تستبطنها وتخترنها. الرابع يقظة العدو وغفلتنا، فالعدو منهمك على الدوام في إعداد العدة والعدة، بينما ننظر بكل سذاجة إلى الأوضاع القائمة على أنها تمثل السلام العادل والمشرف، فاذا قدر لنا أن نفيق من غفلتنا، رأينا زمام المبادرة قد سلبت من أيدينا. الخامس خوف الموت والفرار من الشهادة في سبيل الله والتي أشار إليها الإمام عليه السلام بقوله «وآيم الله! انى لأظن...».

والواقع إن الإنسان ليغفل عن حقيقة مفادها أن خشية الموت سبب الموت: والاستعداد للتضحية والفداء يعد من أسباب حفظ النفس. كانت هذه بعض النقاط المهمة المرتبطة بالضعف والهزيمة التي أوردها الإمام عليه السلام في هذه الخطبة وستتابع تفاصيل هذه المسألة في الأبحاث القادمة ذات الصلة. فقد تطرق الإمام عليه السلام في الخطبة الخامسة والعشرين إلى سائر عوامل الضعف والفشل والهزيمة.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢١٣

القسم الثالث: الانفراد في مجابهة العدو

إشارة

«وَاللَّهِ إِنَّ أَمْرًا يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرِقُ لَحْمَهُ وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ وَيَفْرِى جِلْدَهُ لِعَظِيمِ عَجْزِهِ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ. أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ فَأَمَّا أَنَا، فَوَاللَّهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرَبْتُ بِالْمَشْرِفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَّاشُ الْهَامِ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ.»

الشرح والتفسير

يتحدث الإمام عليه السلام عن العناصر الضعيفة والهزيلة التي تمكن عدوها من نفسها فيقول «والله إن امرء يمكن عدوه من نفسه يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفرى جلد له لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره» [٣٤٩] لحمه ويهشم [٣٥٠] عظمه ويفرى [٣٥١] جلده لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه جوانح [٣٥٢] صدره»

فالعبارة تبين بصراحة أن الضعف والوهن بلغ ذروته في جيش الكوفة بحيث اندفع العدو يكل ما اوتى من قوة ليسدد له الضربات التي تحز اللحم وتطحن العظام، وهي أروع عبارة تجسد تسلط العدو وتحكمه في مصير الضعفاء العجزه، كما تضمنت قمة الفصاحة

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢١٤

والبلاغة بحيث تكفى لا تارة من بقى لديه ثمة إحساس وشعور.

نعم هكذا كانت سيطرة أهل الشام ومعاملتهم لأهل العراق، لم يرعوا إلّا ولا ذمة في أحد، فكانوا يقتلون الأبرياء ولا يرحمون الضعفاء وينهبون الأموال والثروات ويخربون البيوت.

فالواقع عمل هؤلاء أشبه بفعل القصاب بالذبيحة يسلخ جلدها ويحز لحمها عن عظمها ويعدها لقمه سائغة للأكل. أما بعض المفسرين فقد ذهبوا إلى أن كل عبارة من هذه الجمل الثلاث مستقلة، فقوله «يعرق لحمه» تعني نهب الأموال و «يهشم عظمه» قتل الناس و «يفرى جلده» إشارة إلى الاخلال بنظام المجتمع [٣٥٣]، وبالطبع ليست هنالك من قرينه واضحة على هذا التفسير. أما الشيخ المرحوم مغنية قد علق في شرحه على هذه العبارة في أننا سمعنا كثيراً عن المقاومة السلبية تجاه الطواغيت والظلمة كأن ينتحر الفرد أو يحرق نفسه إلّا أننا لم نسمع من يستسلم للعدو إلى الحد الذي يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفرى جلده دون أن يدافع عن نفسه، فليس هنالك أربع وأشنع من هذا الخوف بحيث يلقي الجبان الضعيف بنفسه إلى قصابي البشرية ليذبحوه بهذه الطريقة ويجعلوه لقمه سائغة لهم [٣٥٤].

كما يحتمل إلّا تكون العبارات الثلاث المذكورة بشأن فرد واحد، بل يفعل العدو هذه الامور بشأن عدة أفراد كأن يعرق لحم البعض ويهشم عظم الآخر ويفرى جلد الثالث وعلى ضوى هذا التفسير يمكن حل السؤال الوارد بشأن ترتيب العبارات في أن الإمام عليه السلام لم جعل فرى اللحم في آخر العبارة. فكأنّ جواب الإمام عليه السلام أن جنایات العدو تجاهكم في مرحلة هي فصل اللحم عن العظم، ثم يتقدم في مرحلة اخرى ليهشم العظم وأخيراً لا يبقى أمامه سوى فرى جلد البدن. وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه العبارات إشارات إلى بعض الحوادث التي وقعت بعد شهادته عليه السلام وسيطرة معاوية وأهل الشام على العراق ولم يرحموا صغيراً ولا كبيراً ولا صحيحاً ولا مريضاً ولا فقيراً ولا غنياً ولا رجلاً ولا نساءً [٣٥٥]. ولكن يبدو أنها ليست مختصة بذلك الزمان، وإن كانت أشد وأقسى آنذاك.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢١٥

أما العبارة

«ما ضمت عليه جوانح صدره»

– بالالتفات إلى أن الجوانح جمع جانحة بمعنى الاضلاع – فالمراد بها القلب، وهدف الإمام من قوله

«ما ضمت عليه جوانح صدره»

بيان روحية جيش الكوفة ومدى عجزه. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمّة وأساسية يكشف فيها عن إتخاذه القرار الحاسم بشأن المستقبل وما يحمله من أحداث

«أنت فكن ذاك إن شئت فأمرًا أنا فوالله دون أن أعطى ذلك ضرب بالمشرفية تطير منه قراش [٣٥٦] الهام، وتطيح [٣٥٧] السواعد والأقدام، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء».

وأمرًا من المخاطب بقوله عليه السلام أنت فكن ذاك؟ هنالك احتمالان: الأول أن إنّما خاطب من يمكن عدود من نفسه كائنا من كان، غير معين ولا مخصص، والاحتمال الاخر أنّه خاطب بذلك الأشعث بن قيس، فأنه روى أنّه عليه السلام قال وهو يخطب ويلوم الناس على تبيطهم وتقاعدهم:

هلاً فعلت فعل ابن عفان! فقال له:

«إن امرأ مكن عدوه من نفسه، يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفرى جلده. أنت فكن ذاك ...»

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام فصل نفسه عنهم بعد أن يأس منهم، فافهمهم أنكم إن آثرتم الاستسلام للعدو فسيبلى غير سبيلكم وليس للعدو عندى إلّا السيف وسأقاتله بمفردي، فلكل وظيفة وليس أنا من يتقاعس عن إداء وظيفته، فان تخليتم عن وظيفتكم ورضيتم لأنفسكم الذل والهوان والاستسلام للعدو وعرضتم البلد الإسلامي للدمار والابتزاز وخليتم وأهل الشام لينهبوا الأموال ويعتدوا

على الاعراض، فليس لى إلّا أن أقاتلهم وحدى وأنا مستعد للشهادة التي لا أؤثر عليها شيئاً ولن أشعر بالضعف أبداً. وكان الإمام عليه السلام أراد أن بهذه الكلمات أن يشد أزر ذلك النزر اليسير من الأفراد الشجعان الذين لا يخلو منهم جيش الكوفة، كما يزيل الشك عن قلوب بعض المترددين ليلتحقوا به، ويرشد التاريخ إلى مدى الأثر الذي لعبه كلام الإمام عليه السلام فيهم. فقد شعروا بقوتهم من جديد وتأهبوا لمنازلة العدو.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢١٦

العزم النهائي للزعيم الشجاع

قد تشهد الحياة الاجتماعية والسياسية بعض اللحظات الحساسة التي تجعل الزعماء في موضع لا يحسدون عليه، وتتفعل هذه اللحظات حين يشتد الضعف والخلاف والترديد في إتخاذ القرار؛ الأمر الذي يمنح العدو بعض عناصر القوة في المباغته. وهنا لا بد أن ينبى الزعيم الشجاع ليعلم قراره الحاسم بهذا الشأن ليفهم الجميع بأنه مستعد للقتال وخوض غمار الحرب بمفرده سواء كان هناك من يقف إلى جانبه أم لا، فليس هنالك سوى الشهادة التي تأبى المقارنة بالخضوع والاستسلام. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في الخطبة، وقد وقفنا على مثيله من أبى الضيم والأحرار الإمام الحسين عليه السلام. فقد إتفتت كلمة الأصحاب ليلة عاشوراء في مواكبة إمامهم عليه السلام ولا سيما حين رفع الإمام عليه السلام بيعته عن الجميع وأذن لهم بالانصراف، حيث انصرف أغلب الضعفاء والعجزة وانفجروا عن الإمام عليه السلام وهربوا من خوض الجهاد، ولم يبق معه إلّا قلّة قليلة، لينهض كل واحد منها ويعبر عن موقفه ومساندته للإمام عليه السلام وان قتل سبعين قتله، وآخر قال لو اقتل واحرق ثم اقتل ويفعل بي ذلك سبعين مرة لما تركتك، وما شابه ذلك من المواقف التي عبر عنها صحبه الاوفياء [٣٥٨].

وقد أشار أمير المؤمنين على عليه السلام - في الرسالة ٣٦ من رسائله في نهج البلاغة - إلى هذا المعنى، حيث قال لأخيه عقيل «وأما ما سألت عنه من رأيي في القتال: فان رأيي قتال المحلين حتى ألقى الله لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة ولا تفرقهم عنى وحشة ولا تحسبن ابن أبيك - ولو أسلمه الناس - متضرعاً متخشعاً ولا مقراً للضيم واهناً»

. كما نصطدم في قصة موسى عليه السلام بقومه الذين أعربوا عن خوفهم من مجابهة العمالقة لما بلغوا بوابة بيت المقدس فضعفت إرادتهم وترددوا في إتخاذ القرار، حتى تمردوا على نبيهم موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام وعلنوا موقفهم. المخزى بكل صراحة «قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتل إنا ههنا قاعدون» [٣٥٩].

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢١٧

فما كان من موسى عليه السلام إلّا أن أعلن موقفه منهم وانفصاله عنهم «قال رب إني لا أمالك إلّا نفسي وأخي فأفرق بيننا وبين القوم الفاسقين» [٣٦٠].

وهذا هو موقف نبي الله نوح عليه السلام «وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون» [٣٦١]. ولا شك إن لهذا الموقف الصادم الذي يتخذه الزعيم أثره الكبير في نفوس أتباعه، حيث يشعر الأفراد بارتفاع معنوياتهم وقوة شوكتهم إلى جانب عودة الضعفاء إلى الحق والشعور بالقوة والاعتدال ويضطرها لاتخاذ ذات الموقف.

وأدنى معطيات ذلك الموقف أنه يشكل وثيقة تاريخية حية في سيرة هؤلاء الزعماء الابطال والذي يلهم الأجيال العزم والإرادة والقوة، وهذا ما نلمسه بوضوح في الملحمة الحسينية في كربلاء والتي مازالت تلهم الامم والشعوب كل عناصر القوة والاعتدال في مواجهة الظلم والاضطهاد والطغيان.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢١٩

القسم الرابع: حتى عليكم وحكم على

إشارة

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالْنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ وَتَغْلِيمُكُمْ كَيْلًا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ: فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ».

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالتعرض لاهم القضايا المرتبطة بالحكومة والتي تكمن في حق الإمام على الأئمة وحق الأئمة على الإمام، فيوجزها بعبارات مقتضية عظيمة المعاني، حيث يشير إلى أربعة متبادلة لكل منهما. فقد تحدث بادي زى بدء عن حقوق الأئمة، ومن شأن تقديم حقوق الأئمة على الإمام على العكس، أنه مدعاة للتأثير في نفوس السامعين، إلى جانب كشفه عن البعد الشعبي والجماهيري للحكومة الإسلامية، كما يفيد عمق فارق هذه الحكومة مع الحكومات المستبدة الغاشمة والحكام الطغاة الذين يرون أنفسهم ما لكي رقاب الأئمة فيعاملونها معاملة المالك والمملوك أو الاقطاع والمزارع.

فقد قال عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ».

والحق وإن ذكر بصورة مفردة إلا أنه يفيد معنى جنس الحق الذي ينطوي على مفهوم عام، أما تنكيهه فيشير إلى عظمة هذه الحقوق، لأن الاتيان بالنكرة قد يفيد التعظيم أحياناً.

فيتطرق الإمام عليه السلام إلى الحق الأول للأئمة فيقول

«فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ لَكُمْ».

النصيحة تعني الخلوص ومن هنا يصطلح على العسل الخالص بالناصح.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٢٠

كما وردت بمعنى الخياطة، ولذلك يطلق الناصح على الخياط، ثم اطلقت على كل عمل خير خالص خال من الغل والغش.

وتستعمل هذه المفردة بشأن الله والنبى والقرآن وأفراد الأئمة والإمام والأئمة، حيث تتمتع بالإشارة إلى أحد مصاديقها الواسعة حسب مقتضى الحال ومورد الاستعمال.

وقد ورد في بعض المصادر اللغوية أن النصيحة تشتمل على معانٍ متفرقة، فمثلاً النصيحة لله تعني الاعتقاد بوحدانيته وإخلاص النية له في العبادة ونصرة الحق، والنصيحة للقرآن تعني التصديق به والعمل بأحكامه والدفاع عن آياته، تجاه تأويل الجهلاء وتحريف الغلاة، والنصيحة للنبي هي التصديق بنبوته ورسالته وطاعة أوامره.

ومن هنا يبدو أن المراد بالنصيحة في العبارة العمل من أجل الارتقاء بالجوانب المادية والمعنوية للأئمة من خلال البرامج والمشاريع الصحيحة، حيث تشكل هذه المشاريع الخطوة الأولى لتحقيق خير الأئمة، وعليه فلا بد أن يكون للإمام والولى والزعيم مشروعاً صحيحاً وجامعاً يتضمن تأمين المصالح المادية والمعنوية لأفراد الأئمة ويأخذ بأيديهم إلى الكمال المنشود.

والحق إن هذه المسألة لمن المسائل الحيوية المهمة في عالمنا المعاصر والتي تحظى بأهمية فائقة، حيث يعتقد أغلب العلماء والمنكرين أن العراقيل التي تنطوي عليها المسيرة الاجتماعية إنما أفرزتها بالدرجة الأساس مشكلة عدم وجود المشاريع والخطط الصحيحة.

ثم يشير عليه السلام إلى الحق الثاني - ذات الصلة بالجانب الاقتصادي - فيقول

«وتوفير فيئكم عليكم.»

فالعدالة الاجتماعية في المجال الاقتصادي تعد من أهم مشاكل المجتمعات البشرية، فأغلب الحروب والنزاعات الدموية ومعظم المفاسد الاجتماعية إنما تعزى إلى تغييب العدالة الاجتماعية.

ومن هنا فإن إعادة الأمن والسلام والنظام والاستقرار والوقوف بوجه المفاسد الاخلاقية ومختلف الانحرافات إنما تتطلب بادىء ذى بدء إحياء العدالة الاجتماعية وتفعيلها فى المجتمع.

وإستناد إلى أن المفردة «فىء» حسب أرباب اللغة أنها العودة والرجوع إلى حالة الخير

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٢١

والاحسان، فإنها تطلق أيضاً على الظل حين يرجع من طرف الغرب إلى الشرق.

وتطلق هذه المفردة فى الآيات القرآنية والاحاديث النبوية على الأموال التى تصل المسلمين من الكفار، فقد تطلق على الأموال التى تصل دون القتال، وحتى على مثل هذه الأموال والانفال التى تعنى الثروات الطبيعية للحكومة الإسلامية التى ليست لها ملكية شخصية.

والفيء فى العبارات المذكورة تعنى جميع أموال بيت المال، فقوله عليه السلام توفير فيئكم تعنى أن وظيفة الحاكم الإسلامى تعنى إداء الأموال العامة إلى المحتاجين والمعوزين وأصحاب الحق، أى تنظيم الامور الاقتصادية والمعاشية للأمة أما الحق الثالث الذى أشار إليه

الإمام عليه السلام فيربط بالتعليم والشؤون الثقافية

«وتعليمكم كيلا تجهلوا».

نعم فالإمام لابد أن يعتمد الاسلوب التعليمى الصحيح ويهب لمكافحة الجهل والامية ويرفع المستوى الثقافى لدى الناس ويستأصل جذور الجهل التى تقود الأمة إلى التخلف والانحطاط. وأما الحق الرابع والأخير فهو

«وتأديبكم كيما تعلموا».

فالواقع أن الإمام عليه السلام أوجز الحقوق المهمة للأمة فى أربع هى:

١- المشاريع والخطط الصحيحة

٢- العدالة الاجتماعية فى المجال الاقتصادى

٣- التعليم

٤- التربية والتهذيب والقضاء على الفساد الاخلاقى

جدير بالذكر أن الإمام عبر عن الحق الثالث بقوله

«وتعليمكم كيلا تجهلوا» والحق الرابع «وتأديبكم كيما تعلموا».

والحال أن نتيجة التعليم هى العلم والمعرفة، بينما يقود التأديب إلى تربية الخصال الأخلاقية لا العلم والمعرفة، إلا أن مراد الإمام عليه السلام:

لابد أن تقفوا على آثار الفضائل وأضرار الرذائل، لتتحلوا بالاولى وتواجهوا الثانية- فالحق الثالث يشير فى الواقع إلى العقل النظرى بينما يشير الحق الرابع إلى العقل العملى ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى حقوق الإمام على الامية الإسلامية وأجزها هى الاخرى فى

أربع

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٢٢

فقال عليه السلام:

«وأما حقى عليكم: فالوفاء بالبيعة».

والبيعة هى العهد بين الامية والإمام؛ العهد الموثق الذى يجب العمل به، وعلى ضوء هذا العهد فإن الإمام والحاكم لابد أن يأخذ بنظر

الاعتبار مصالحة الامة ويرسى دعائم الأمن والاستقرار ويقاقل العدو ويمهد السبيل أمام الامة للسمو والتكامل، كما يجب على الامة أن تشد أزره وتقف إلى جانبه وتتجنب كل ما من شأنه تشد أزره وتقف إلى جانبه وتتجنب كل ما من شأنه المساس بهذا العهد والميثاق الحق الثاني الذي ذكره الإمام عليه السلام:

«والنصيحة في المشهد والمغيب»

فلا يكونوا منافقين يظهرن المحبته والاخلاص في حضوره، فان غاب عاثوا الفساد وسلخوا الخيانة. فقد لا يكون الإمام حاضرأ بينهم على الدوام، إلاً أن الله حاضرأ لا يخفى عليه شئ ولا ينبغي أن يعيش المؤمن الغفلة عن هذا الأمر أما الحق الثالث الذي ذكره الإمام عليه السلام:

«والإجابة حين أدعوكم»

فلا- ينبغي أن تتعللوا ببعض الذرائع فراراً من مواكبتى، لابد أن تطيعوا أوامرى وتقتنوا أثرى، والحق الرابع والاخير «والطاعة حين آمركم» ففعل البعض يلبى دعوة الإمام، إلاً أنه لا يطيع ما يصدره من أوامر، وعليه فاجابة الدعوة لابد أن تكمل بطاعة الاوامر. وبالطبع فإن حقوق الإمام على الامة إنما تعود بالنفع مباشرة على الامة، وعليه فلا ينبغي لهم أن يمنوا على الإمام، بل الإمام يمن على الامة بانه يعتمد هذه الحقوق لاعادة الأمن والاستقرار إلى الامة واعمار بلادها. وقد صرح بعض شراح نهج البلاغة بأن هذه الحقوق المتبادلة إنما تختص بالإمام العادل المنصوب من جانب الله سبحانه، لا لكل إمام صالح كان أم طالح، ومن هنا قال الإمام عليه السلام:

«إن لى عليكم حقاً» [٣٦٢].

لكن يبدو أن عبارة الإمام شاملة عامة وهذا ما يفهم من قوله عليه السلام

«لابد الناس من أمير بر أو فاجر» [٣٦٣]

فكل من تزعم أمور المجتمع وأراد أن ينهض بالامة لابد أن يحترم الحقوق الأربع التي ينبغي أن تتمتع بها الامة والتي أشار إليها الإمام عليه السلام ويبدو أن العقل والمنطق يرشد إلى ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبة.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٢٣

تأملان

١- الحقوق المتبادلة للإمام والامة

إن الحكومة رابطة بين الإمام والامة على غرار رابطة الرأس بالجسد، حيث يتعذر القيام بالوظائف دون تضافر جميع الجهود، بعبارة اخرى فإن أولياء الله فى الوقت الذى يكتون فيه خلفاء الله فى الخلق، فهم خلفاء الامة من أجل ضمان مصالحها، ومن هنا كانت الحقوق المتبادلة بين الإمام والامة من أثقل الحقوق وأعظمها.

وقد وردت الأبحاث المسهبة فى الروايات بشأن هذه الحقوق، والتي تفيد مدى إهتمام الإسلام بهذا الموضوع الحيوى. فقد افرد المرحوم الكلينى باباً فى المجلد الأول من كتابه أصول الكافى بهذا الخصوص وقد نقل أول حديث فيه عن أبى حمزة انه سأل الإمام الباقر عليه السلام:

«ما حق الإمام على الناس؟»

قال عليه السلام:

«حقه عليهم أن يسمعوا له ويطيعوه»

قال فقلت له:

«وما حقهم عليه».

قال:

«يقسم بينهم بالسوية ويعدل في الرعية».

ولا يستبعد أن تكون الجملة الاولى إشارة إلى المسائل الاقتصادية والثانية إلى القضايا الاجتماعية والسياسية. ثم قال عليه السلام آخر الحديث:

«فاذا كان ذاك في الناس فلا يبالي من أخذ هاهنا وهاهنا» [٣٦٤]

في إشارة إلى أن الناس على كل حال إنما يحصلون على حقهم. سواء كان مصداقه هنا أم هناك.

حقاً أن سيرة أمير المؤمنين عليه السلام نموذج مهم لا بد من اعتماده كقدوة في الحكومة الإسلامية.

فقد كان عليه السلام شديداً في أمر العدالة حتى وقف نفسه وضحي بها من أجلها. قال ابن أبي الحديد:

روى علي بن محمد بن أبي يوسف المدائني عن فضيل بن الجعد، قال: آكد الأسباب في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمر المال، فإنه لم يكن يُفَضَّلُ شريفاً على مشروف، ولا عربياً على عجمي، ولا يُصانع الرؤساء وأمراء القبائل، كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحداً إلى نفسه. وكان معاوية بخلاف ذلك، فترك الناس علياً والتحقوا بمعاوية؛ فشكى علي

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٢٤

عليه السلام إلى الأشتر تخاذل أصحابه، وفرار بعضهم إلى معاوية، فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين؛ إنا قاتلنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهل الكوفة، ورأى الناس واحد، وقد اختلفوا بعد، و وضعفت التيه، وقلَّ العدد، وأنت تأخذهم بالعدل، وتعمل فيهم بالحق، وتُصَيِّفُ الوضيع من الشريف؛ فليس للشريف عندك فضلٌ منزله على الوضيع، فضجت طائفة ممن معك من الحق إذ عُموا به، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشرف، فتأقت أنفس الناس إلى الدنيا، وقلَّ من ليس للدنيا بصاحب، وأكثرهم يجتوي الحق ويشترى الباطل، ويؤثر الدنيا، فإن تَبَدَّلَ المال يا أمير المؤمنين تَمَلَّ إليك أعناق الرجال، وتَصِفُ نصيحتهم لك، وتَشْتَلِصُ وُدَّهم؛ صنع الله لك يا أمير المؤمنين! وكبت أعداءك، وفض جمعهم، أوهن كيدهم، وشئت أمورهم، إنه بما يعملون خبير.

فقال علي عليه السلام: أما ما ذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل؛ فإن الله عز وجل يقول:

«مَنْ عَمِلْ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»؛ وأنا من أن أكون مُقَصِّراً فيما ذكرت أخوف.

وأما ما ذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقونا لذلك، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور، ولا لجأوا إذ فارقونا إلى عدل، ولم يلتمسوا إلدنيا زائلة عنهم كان قد فارقوها؛ وَلَيْسَأَلَنَّ يوم القيامة: ألدنيا أرادوا أم لله عملوا؟

وأما ما ذكرت من يبدل الأموال واصطناع الرجال؛ فإنه لا يَسْتَعْنَا أن نوتى أمراً من الفياء أكثر من حقه، وقد قال الله سبحانه وتعالى وقوله الحق: «كَمْ مِنْ فِتْيَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْيَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»، وقد بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله؛ فكثره بعد القلة، وأعزَّ فتنه بعد الذلَّة؛ وإن يُرِدِ اللهُ أن يولينا هذا الأمر يذل لنا صيغته، ويُسهِّل لنا حزنه، وأنا قابل من رأيك ما كان لله عز وجل رضاً؛ وأنت من آمن الناس عندي، وأنصحهم لي، أوثقهم في نفسي إن شاء الله.

٢- تعارض الحق والمصلحة!

عادة ما يحدث تعارض بين الحق والمصلحة ليكون أحدهما مقابل الآخر. وغالباً ما يميل

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٢٥

ساسة الدنيا في هذه الحالة إلى المصلحة ويقدمونها على الحق. والتأريخ مليء بنماذج هذا التعارض وما أكثره في عصرنا الراهن حيث نشاهده كل يوم- أما أولياء الله والقادة الربانيين فهم لا يترددون في إثارة الحق. وفي مقدمتهم أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي سلك الحق مع أعدائه فضلاً عن أصحابه فقد قيل بأن العدل في تقسيم بيت المال حقاً لكنه لا يتفق مع المصلحة ولا بد من تقديم الأشراف والأثرياء على غيرهم في مقابل الحد من سهم الضعفاء، بينما كان الإمام عليه السلام لا يتهاون في إجراء العدل وإن شق على صحبه وإنفجوا عنه وإلتحقوا بعده، ولعلنا نلمس ذلك في هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة. ولعل أغلب هذه المشاكل لم تكن لتظهر على السطح لو تسلم الإمام عليه السلام ذمام الأمور بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله كما أمر الله ورسوله بذلك، إلا أن قضية التمييز في العطاء قد ظهرت على عهد الخلفاء وبلغت ذروتها على عهد عثمان الذي كان ينفق المال على بطانته وقرابته دون حساب، حتى طبعوا على هذه الإمتيازات فصعب إعادتهم إلى الحق وجادة الصواب. أضف إلى ذلك فإن إزداد حجم الغنائم وكثرة أموال بيت المال هي الأخرى كانت سبباً لأن يضحي البعض كطلحة والزبير- وهما من السابقين إلى الإسلام وصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله- بالحق من أجل مصالحهم الشخصية، ومن هنا تعقدت المشاكل التي إعتضت حكومة الإمام عليه السلام- إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام ورغم علمه بظهور ما لا يحصى من المشاكل إن هو أشر الحق على المصلحة، لكنه لم يتخل عن سياسته المعهودة لعلمه بأن الهزيمة والخذلان تكمنان في إثارة المصلحة على الحق، ناهيك عن كون نفس هذا الإيثار يعني تعطيل أحد القيم الإسلامية، في حين إحيائها ونقلها للأجيال المستقبلية يفوق أهمية تحقيق بعض الإنتصارات الوقيية ولعل هذا الأمر يشكل رداً على أكثر الأسئلة التي تطرح بشأن حكومة علي عليه السلام- وهذا ما سنتحدث عنه في حينه في الأبحاث القادمة إن شاء الله.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٢٧

الخطبة [٣٦٥] الخامسة والثلاثون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

بعد التحكيم وما بلغه من أمر الحكيمين وفيها حمد الله على بلائه، ثم بيان سبب البلوى.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ وَالْحَدِيثِ الْجَلِيلِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرَّبِ تَوْرَثَ الْحَسْرَةَ، وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ. وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْرُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرًا! فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاءِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعَصَاةِ حَتَّى اِزْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصِيحِهِ، وَضَنَّ الزُّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللُّوِيِّ فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النَّصِيحَ إِلَّا ضَحَى الْعَدِ»

نظرة إلى الخطبة: نتيجة العصيان

كما ذكرنا سابقاً فقد أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة بعد إنتهاء قضية التحكيم. فقد كانت نتيجة

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٢٨

التحكيم شاقه على العالم الإسلامي. وقد دلت على أن الإمام عليه السلام نهى عن التحكيم وحث على مواصلة القتال خشية تلك

النتيجة- ومن هنا شدد الإمام عليه السلام في ذمه لأهل الكوفة وحملهم مسؤولية تلك النتيجة بسبب تمردهم وعدم طاعتهم.

الشرح والتفسير

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة في ظل ظروف عصيبة ومأساة عظيمة، فقد أثمرت مؤامرة معاوية وعمرو بن العاص إثر استغلال جهل أبو موسى الأشعري ومن وقف إلى جانبه، فقد تمكن ابن العاص من حسم التحكيم لصالحه، ظاناً أنه عزل الإمام على عليه السلام عن الخلافة ونصب معاوية مكانه!

طبعاً الإمام عليه السلام كان قد شعر ببالغ الآسى والحزن لأنه تكهن بهذه النتيجة وقد أطلع أهل الكوفة عليها، إلا أن الجهل والعصية والأناية والتخاذل حال دون الاتعاظ بإرشادات الإمام عليه السلام ومواعظه الحكيمة.

على كل حال إستهل الإمام عليه السلام الخطبة- كما درج عليه في سائر الخطب- بحمد الله والثناء عليه، الحمد والثناء الذي يستبطن نكهة خاصة، فقد أورده الإمام عليه السلام حتى في ظل هذه الحادثة الأليمة والبلاء العظيم «الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب [٣٦٦] الفادح [٣٦٧] والحدث الجليل».

فالطريف أن الإمام عليه السلام أولماً يحمد الله على هذه الحادثة ليعلم أن حمد الله والثناء عليه لا يقتصر على الحوادث المسرة والتوفيقات والنجاحات والفيوضات المعنوية والمادية، بل يجب حمده على كل حال في السراء والضراء والعافية والبلاء والغلبة والفشل، حتى الحوادث المريرة تشتمل على فلسفة لو سبر غورها لتبين أنها جزء من النعم الإلهية.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٢٩

ثانياً: أنه ينسب هذه الحادثة المريرة إلى الدهر، ونعلم أن الدهر لا يعنى سوى أهله، وإلا فبزوغ الشمس والقمر وهطول المطر وهبوب الرياح وسائر الظواهر الطبيعية ليست على شئ حتى تخلق مثل هذه الحوادث فالناس وبفعل أعمالهم الشائنة هم الذين يكونون السبب لمثل هذه الحوادث!

ولا شك إن هذه الحادثة لم تكن لتقع لو طاع أهل العراق الإمام عليه السلام والتفتوا إلى تحذيراته واتعظوا بنصائحه. والمراد بالخطيب الفادح قضية التحكيم التي جرت الولايات على العالم الإسلامي.

صحيح أن قضية التحكيم- كما سيمر علينا في البحث القادم- لم تغير من حقيقة الأمر شيئاً، إلا أنها كانت ذريعة كبرى لمعاوية ورهطه من أجل إغواء الجهال وتحريف الأفكار، كما أدت إلى ظهور البدع في العالم الإسلامي.

وقوله عليه السلام

«حدث جليل»

هو تأكيد آخر لآثار السوء لتلك البدعة المشؤومة.

ثم يردف عليه السلام الحمد والثناء بالشهادة لله بالوحدانية ولمحمد صلى الله عليه وآله بالعبودية والنبوة

«وأشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له، ليس معه إله غيره، وأن محمداً عبده ورسوله»

فالاتيان بالشهادتين في مطلع الخطبة وأن تضمن التأكيد من جديد على لزوم تقوية دعائم التكامل الإنساني وإحياء الاصول العقائدية الإسلامية، إلا أن يشير إلى قضية الحكمين، وذلك أن الأمة قد تجاوزت أصل التوحيد واتجهت صوب أفعال الشرك وتجاهلت التأسى برسول الله صلى الله عليه وآله فاستسلمت لاهوائها.

ثم تطرق عليه السلام إلى الهدف الأصلي من الخطبة

«أما بعد، فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب [٣٦٨] تورث الحسرة وتعقب الندامة».

فالعبارة بمنزلة الكبرى وبيان قاعدة كلية في أن المستشار إذا تحلى بأربع صفات فإن مخالفته توجب الندامة والحسرة لا محالة. الأولى صفة النصح واردة الخير ومقتضى ذلك السعي لاحقاق الحق.

الثانية القلب المفعم بالعطوفة والرأفة والحب وإرادة السعادة والخير النابعة من أعماق

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٣٠

القلب لمن يطلب الاستشارة. الثالثة العلم والوقوف على كافة جوانب الأمر وتحليل جميع الملابسات ودراسة الحوادث والنتائج المتمخضة عنها الرابعة التجربة الكافية في القضايا الفردية والاجتماعية المهمة؛ أي التحلى بالعقل العملي إلى جانب العقل النظري فاذا كان هنالك مثل هذا الفرد يتمتع بمثل هذه الصفات فإنه يبلغ بالإنسان واقع الأمر لا محالة، كما أن مخالفته لا تقود سوى إلى الحيرة والضلال والندم والخسران الذي يفرزه الجهل والغرور.

وما إن يفرغ الإمام عليه السلام من بيان الكبرى (القاعدة الكلية) حتى يتطرق إلى الصغرى والمصداق المطلوب فيقول

«وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمرى، ونخلت [٣٦٩] لكم مخزون رأيى، لو كان يطاع لقصير أمر!»

فقد كشف الإمام عليه السلام عن مخالفته لاصل التحكيم فضلا عن كفيته والطريقة التي تم فيها.

ولقد أخيرهم عن آثار هذه القضية المشؤومة، إلا أن تعصبهم ولجاجتهم حالت دون سماعهم لرأى الإمام عليه السلام فاصروا على باطلهم والآن يجنون ثمار جهلهم والعبارة

«لو كان يطاع لقصير أمر»

مثل مشهور عند العرب، فهو قصير صاحب جذيمة، وحديثه مع جذيمة ومع الزياء مشهور فضرب المثل لكل ناصح يعصى بقصير، ويطلق على الأفراد الذين لا يصغون إلى الناصح المجرب الشفيق والذي لا يعقب سوى الندم.

فالإمام عليه السلام يشبه نفسه بقصير وأهل الكوفة بجزيمة الجاهل ومستشاريه البلهاء، حتى وقعوا في شباك عمرو بن العاص ومعاوية. ثم قال عليه السلام:

«فأبيتم على إباء المخالفين الجفأة والمنابذين [٣٧٠] العصاة، حتى إرتاب الناصح بنصحه، وضمن [٣٧١] الزند [٣٧٢] بقده [٣٧٣].»

لقد حذرتكم من أن رفع المصاحف على الحراب مكر وخديعة، فقد بلغ القتال مرحلة

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٣١

خطيرة وأوشك على نهايته وقد لاحت بوادر النصر، إلا أنكم لم تسمعوا كلامى وتركتم القتال وإذ عنتم للتحكيم. وقد قلت لكم إن كان ولا بد فابعثوا ابن عباس حكما، فلم تقبلوا، ثم أشرت عليكم بما لك الأشر فلم تستجيبوا وأبيتم إلا أبى موسى الأشعري الاحمق الجاهل الذى لا يقوى على ابن العاص فلم تكن النتيجة سوى خيبتكم وخسرانكم وندمكم [٣٧٤].

والعبارة

«المخالفين الجفأة»

ان مخالفتكم لى لم تقتصر على سوء تشخيصكم، بل كان ذلك بدافع من جفائكم وعصيانكم وطغيانكم. وقد أكد هذا المعنى بقوله «المنابذين العصاة».

وأما قوله

«ضمن الزند بقده»

فهو مثل أيضاً يقال لمن يكف عن الافصاح بالحقايق لعدم وجود من يسمع، فقد إراد عليه السلام خالفتمونى حتى ظننت أن النصح الذى نصحتكم به غير نصح، لا طباقكم واجماعكم على خلافى، وتعنى العبارة الأخيرة أنه لم يقدح لى بعد ذلك رأى صالح لشدة ما لقيت منكم من الاباء والخلاف والعصيان. ثم قال عليه السلام فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن:

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلاضحى الغد

وأخو هوازن صاحب الشعر هو دريد بن الصمة، وأبياته مذكورة فى الحماسة. وكان من خير هذا الشعر أن عبد الله وهو اسم آخر

لعارض وهو أخو دريد- كان أسود إخوته، فغزا بينى جشم وبنى نصر إبنى معاوية بن بكر بن هوازن؛ وغنم مألًا عظيمًا بمنعرج اللوى فمنعه دريد عن اللبث، وقال: إن غطفان ليست بغافلة عنا، فحلف أنه لا يريم حتى يقسم، وأوقعوا بعبدالله وقتلوه فهرب دريد بعد أن نجى منهم، فانشد هذا البيت الذى إستشهد به الإمام عليه السلام فى الخطبة [٣٧٥].

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٣٢

تأملان

١- قصة التحكيم

إن الذى دعا إليه طلب أهل الشام له وإعتصامهم به من سيوف أهل العراق، فقد كانت أمارات القهر والغلبة لاحت، ودلائل النصر والظفر وضحت. وفى هذه الأثناء رفع أهل الشام المصاحف على الرماح. فسأل مالك الإمام عليه السلام مواصلة القتال. فقام الأشعث بن قيس مغضباً فقال: يا أمير المؤمنين أجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم، وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال- فقال عليه السلام: هذا أمر ينظر فيه.

فنادى الناس من كل جانب: المودعة. فقال عليه السلام: أيها الناس إنى أحق من أجب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وصحبهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إنى أعرف بهم منكم، صحبتهم صغاراً ورجالاً، فكانوا شر صغار وشر رجال، ويحكم إنها كلمة حق يراد بها باطل، إنهم ما رفعوها أنهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيده، أعيرونى سواعدكم وجماجكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا. فجاءه من أصحابه زهاء عشرين ألفاً مقنعين فى الحديد، شاكى سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود فنادوه باسمه لا بأمر المؤمنين: يا على أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم. فقال لهم: ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجب إليه. إنى إنما قاتلتهم ليدنوا بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه، ولكنى أعلمتكم أنهم قد كادوكم، وإنهم ليس العمل بالقرآن يريدون. قالوا: فإبعث إلى الأشر ليأتينك- فقال الأشتهر:

قل لعلى عليه السلام ليس هذه بالساعة التى ينبغى لك أن تزيلنى عن موقفى. فارتفع وهج القوم وعلت الأصوات وقالوا لعلى عليه السلام: والله ما نراك أمرته إلا بالقتال، فابعث إليه يأتينك وإلا فوالله إعتزلناك. فبعث له الإمام عليه السلام ثانية. فقال الأشتهر: أرفع هذه المصاحف؟ قال: نعم. قال:

ألأتى إلى الفتح. ثم أقبل الأشتهر حتى إنتهى إليهم فصاح فيهم أمهلونى فواقا فإنى قد أحسست بالفتح. فلم يجيبوه. فلما إنتهى الأمر إلى الحكيم قال عليه السلام هذا ابن عباس أوليه ذلك فهو لابن العاص. فلم يوافق الأشعث ورهطه. فقال عليه السلام: فإنى أجعل الأشتهر. فقال الأشعث:

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٣٣

وهل سعى الأرض علينا إلا الأشتهر. ثم إضطر الإمام عليه السلام لقبول أبو موسى. فاتفق معه عمرو بن العاص على أن يخلع كل صاحبه ويدعون الناس للشورى. فتقدم أبو موسى ثم قال: أيها الناس أجمع رأيى ورأى صاحبى على خلع على ومعاوية ويكون الأمر شورى بين المسلمين.

فقام عمرو بن العاص وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه، وأثبت صاحبى معاوية فى الخلافة، فإنه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه. [٣٧٦]

٢- الاستفادة من آراء الآخرين

لاشك أن الشورى تشكل أحد أسس التعاليم الإسلامية التي حظت بأهمية فائقة في الآيات القرآنية والروايات والأخبار. فالقرآن يرى أن المشورة من علامات الإيمان، ويجعلها في مصاف الصلاة والزكاة- التي تعد من أركان الإسلام- «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» [٣٧٧]

كما أمر الله سبحانه صراحة باستشارة المؤمنين في الأمور المهمة، رغم إتصال رسول الله صلى الله عليه وآله بالوحي وكونه العقل الكامل «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» [٣٧٨] والمهم في قضية المشورة إنتخاب المستشار الذي يتحلى ببعض خصائص الصفات التي وردت في الخطبة التي نحن بصدددها:

«الناصح الشفيق العالم المجرب»

، والحق أن مخالفة الفرد الذي يتصف بهذه الصفات لا تفضى سوى إلى الحسرة والندامة.

صحيح أن المتعصبين في صفتين لم يستشيروا الإمام عليه السلام إلا أن الإمام عليه السلام أبدى رأيه الذي يمثل رأى الناصح الشفيق والعالم المجرب، إلا أنهم وللأسف الشديد لم يستجيبوا لرأى الإمام عليه السلام وهبوا لمجاوبته وهددوه بالقتل، فلم تتمخض النتيجة سوى عن ندمهم التاريخي الذي جر الولايات على العالم الإسلامي.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٣٥

الخطبة [٣٧٩] السادسة والثلاثون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

في تخويف أهل النهروان

«فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُصَدِّحُوا صِرْعَى بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهْرِ، وَبِأَهْضَامِ هَذَا الْغَائِطِ، عَلَى غَيْرِ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَا سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ: قَدْ طَوَّحْتُ بِكُمْ الدَّارَ وَاحْتَبَلَكُمُ الْمَقْدَارُ. وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَيْدِهِ الْحُكُومَةِ فَأَيَّتُمْ عَلَى إِبَاءِ الْمُنَابِذِينَ، حَتَّى صِرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمُ وَأَنْتُمْ مَعَاشِرٌ أَخَفَاءُ الْأَهَامِ، سُفَهَاءُ الْأَخْلَامِ؛ وَلَمْ آتِ- لَا أَبَا لَكُمْ- بُجْرًا وَلَا أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرًّا».

نظرة إلى الخطبة

واضح أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة في النهروان جنب النهر في يوم القتال عام ٣٧ هـ.

وقد أشار عليه السلام إلى ثلاثة أمور:

١- عدم خوض القتال دون قيام الدليل الشرعي والبينة من الله، وإلا فأنهم يقضون على أنفسهم.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٣٦

٢- أن القوم تذرعوها بقضية التحكيم، والحال أن الإمام عليه السلام كان يرفضها منذ البداية.

٣- أنهم يقاتلون الإمام عليه السلام دون أن يصدر عنه ما يدعو لذلك من معصية، فإن كان هنالك من خلاف فقد صدر منهم ومن

بعض الأفراد، ومن الجهل تحميل الإمام عليه السلام مسؤولية ذلك الخلاف، وهكذا أتم عليهم الإمام عليه السلام الحجّة.

الشرح والتفسير

إتمام الحجّة على الخوارج

كما أشرنا سابقاً فان الإمام عليه السلام خطبها قبل بدأ معركة النهروان التي أفرزتها قضية التحكيم.

فقد خرجت تلك الطائفة الجاهلة على الإمام بعد التحكيم لتعتبره هو المسؤول عنه، في حين كان الإمام عليه السلام يعارض أصل التحكيم من الأساس إلى جانب رفضه الحكم. فالواقع أن الخطبة إتمام الحجة عليهم. فقد إستهل خطبته بالقول «نحن أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وعنصر الرحمة ومعدن العلم والحكمة- نحن أفق الحجاز، بنا يلحق البطيء وإلينا يرجع التائب» [٣٨٠]

ثم خاطبهم قائلاً:

«فانا نذير لكم أن تصبحوا صرعى [٣٨١] باثناء هذا النهر، وبأهضام [٣٨٢] هذا الغائط [٣٨٣] على غير بينة من ربكم، ولا سلطان مبین معكم»

. فعبارة الإمام عليه السلام نبوءة صريحة بشأن عاقبة معركة النهروان حيث أخبرهم بأنهم سيصرعون دون النهر، والافضع من ذلك موقفهم العسير يوم القيامة واسوداد وجوههم، حيث ليس لهم من دافع للقتال سوى العصبية والجهل دون وجود أية بينة. شرعية يمكنهم الاستناد إليها وعليه فهم يهلكون أنفسهم في الحياة الدنيا وليس لهم في الآخرة إلا النار. ثم قال عليه السلام «قد طوحت [٣٨٤] بكم. الدار وأحتلکم [٣٨٥] المقدار»

والمفردة (دار) إشارة

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٣٧

إلى دار الدنيا أو عبارة اخرى الاغترار بالدنيا والعبودية لها و «احتيل» من مادة حيل بمعنى الفخ، والمراد بالمقدار حسب بعض شراح نهج البلاغة الفكر الخاطيء والتحليل العبثي لمختلف الحوادث، وقال البعض الآخر تعنى القدر الإلهي. وإذا تأملنا تاريخ الحادثة سيتضح لدينا الأثر البالغ الذي لعبه كلام الإمام عليه السلام في هذه الطائفة، فقد كانت طائفة متعصبة لجوجه جاهلة هزيلة. ثم أشار عليه السلام إلى قضية التحكيم فقال

«وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فايتم على إباء المخالفين المنابذين، حتى صرفت رأبي إلى هواكم»

إنكم لتحملوني مسؤولية عمل أنتم إرتكبتموه، بل أبعد من ذلك جعلتم تهددوني بالقتل على قبوله، والآن بعد أن تبين لكم فداحة خطأ العمل وتحاولون إلقاء تبعته على «وأنتم معاشر أخفاء الهام [٣٨٦] سفهاء الأحلام»

. يمكن أن تكون هذه العبارة تأكيد لسفاهة وبلاهة أصحاب النهروان.

كما يمكن أن تكون العبارة السابقة- كما ذكر ذلك بعض شراح نهج البلاغة- إشارة إلى خفة أهل النهروان الذين تتغير أفكارهم وحركتهم لأدنى شئ، فهم يتعصبون يوماً للتحكيم، وآخر يعادونه أشد العدا، أمّا العبارة الأخيرة فهي تشير إلى ضحالة فكرهم، وذلك لأن مؤامرات العدو كانت تتكشف يوماً بعد آخر ولم تكن خافية على أهل البصائر إلا أنهم لم يكونوا يرونها أو يدركونها؛ الأمر الذي جعلهم يخدعون أكثر من مرة بحيل معاوية وبطانته، فيرتكبون ما يؤدي إلى بؤسهم وشقائهم وجر الولايات والمصائب على المسلمين. ثم يختم الإمام عليه السلام خطبته بالتأكيد على هذه الحقيقة بأن كل ما يصيبكم من بلاء مما إرتكبته أيديكم ولست طرفا فيه أبداً، بل خالفتموني وشهرتم سيوفكم لتهددوني بالقتل «ولم آت- لا أبا لكم!- بجرا ولا أردت لكم ضراً».

العبارة لا أبا لكم يمكن أن تكون سباً ولعناً، تشير إلى أنكم لم تحظوا بتربية أسرية إسلامية صحيحة، ومن هنا فإنكم تفعلون الأفعال الشائنة وتنسبونها إلى الآخرين، ويمكن أن تكون دعاء عليهم؛ أي أمات الله آبائكم وهي في الواقع كناية عن ذلتهم وهوانهم؛ لأن فقدان الأب في ريعان الشباب تدعو إلى الذلة والهوان.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٣٨

قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج

ذكرنا حين شرحنا للخطبة الشقشقية في المجلد الأول أن الخوارج فئته متعصبه وجاهله قد ظهرت من بطن صفيين وقضية التحكيم. فقد أقرت مسألة التحكيم (عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري) وفرضوها على الإمام عليه السلام. ولم يصفوا إلى قول الإمام عليه السلام أنها خدعة ولم يبق إلا القليل على ختم فتنه أهل الشام وزعيمهم معاوية. لكنهم تدموا بعد نتيجة التحكيم وتابوا لكنهم أفرطوا هذه المرة حيث حكموا يكفر قبول التحكيم وشعارهم الحكم لله فلا بد أن يتوب على عليه السلام من هذه المعصيته. قال الإمام عليه السلام أن التحكيم ليس كفرا، فقد أشار القرآن إلى هذه المسألة في حل الخلافات العائلية «فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها» وفي كفارة الإحرام «يحكم به ذوا عدل منكم» لكن التحكيم الذي أقرتموه كان خاطئا- على كل حال إقتنع هؤلاء- وكان من بينهم بعض المتظاهرين بالعبادة والإتيان بالمستحبات- بقشور الإسلام وتركوا جوهره فاجتمعوا ضد أمير المؤمنين عليه السلام في منطقة قرب الكوفة تدعى الحروراء قرب النهروان. فبالغ الإمام عليه السلام في وعظهم ونصحهم حتى عاد أكثرهم إلى رشده بينما بقي أربعة آلاف منهم فلما تثبت المعركة صرعوا جنب النهروان ولم ينج منهم إلا القليل كما أخبر الإمام عليه السلام.

وقد شهدت حياة الخوارج وسيرتهم العديد من التناقضات العجيبة ومن ذلك:

١- لقيهم عبدالله بن الخطاب في عنقه مصحف، على حمار، ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا له: إن هذا الذي في عنقك ليأمرنا بقتلك، فقال لهم: ما أحياء القرآن فأحيوه،

وما أماته فأميتوه، فوثب رحيل منهم على رطبة سقطت من نخلة فوضعها في فيه، فصاحوا به، فلفظها تورعا. وعرض لرجل منهم خنزير فضربه فقتله، فقالوا: هذا فساد في الأرض، ثم قالوا لابن الخطاب: حدثنا عن أبيك. فقال: إني سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

ستكون بعدى فتنه يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يمسى مؤمنا ويصبح كافرا، فكن عبدالله المقتول ولا تكن القاتل - قالوا: فما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة؟ قال: إن عليا أعلم بالله وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيرة- فقالوا: إنك لست تتبع الهدى، ثم قربوه إلى شاطئ النهر فأضجعوه فذبحوه. [٣٨٧]

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٣٩

٢- قال قيس بن سعد بن عباد: إستنطقهم الإمام عليه السلام بقتل عبدالله بن الخطاب فأقروا به، فقال: إنفردوا كتائب لأسمع قولكم كتيبة كتيبة. فأقرا جميعا بقتله. فقال على عليه السلام: «والله لو أقر أهل الدنيا كلهم بقتله هكذا وأنا أقدر على قتلهم به لقتلتهم». [٣٨٨]

٣- حين هجم الخوارج على جيش الإمام عليه السلام إلتفت إلى أصحابه فقال: والله لا ينجو منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة. والعجيب أنه لم يقتل من أصحاب الإمام عليه السلام سوى تسعة ولم ينج من الخوارج إلا ثمانية.

٤- كانت قضية الخوارج قد فعلت فعلها في الإمام عليه السلام وقد إنعكست سلبا على الوسط الإسلامي، فكان عليه السلام لا ينفك عن التحدث عنها ليبين للناس كيفية إنحرافهم فيعتبروا بهم، ولا غرو فمثل هذا التفكير السطحي المشوب بالجهل والعدا لا يخلو منه عصر ومصر. والخطب التي تحدث فيها الإمام عليه السلام عن الخوارج هي الخطبة: ٤٠، ٥٩، ٦٠، ٦١، ١٢١، ١٢٢، ١٢٧، ١٨٤، والرسالة ٧٧، ٧٨ والتي سنعرض لشرحها جميعا إن شاء الله.

الجدير بالذكر أن خط الخوارج- كما ذكرنا- تيار يتواجد على مدى التاريخ ولا يقتصر على عهد علي عليه السلام- فهم فئته لا تعرف من الدين سوى ظاهره ولا- تعتد إلا- بأفعالها وأعمالها وترى إنحراف كل من سواها وقد ملئت سيرتها بالتناقضات، فهي بلاء وآفة تصيب المجتمع.

والغريب في الأمر أن الإمام عليه السلام أشار إلى هذه الفئة كظاهرة فوصفهم في الخطبة ٦٠ قائلا: «كلا والله، إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء كلما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصا سلايين.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٤١

الخطبة [٣٨٩] السابعة والثلاثون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

يجرى مجرى الخطبة وفيه يذكر فضائله عليه السلام قاله بعد وقعة النهروان.

نظرة إلى الخطبة

بناءً على ما ذكره ابن أبي الحديد فإن هذه الخطبة تشتمل على أربعة فصول لا يمتزج بعضها ببعض:

الفصل الأول: يشير فيه الإمام عليه السلام إلى خدماته الجليلة التي أسداها للإسلام إبان انبثاق الدعوة الإسلامية فقد أوجز ذلك بقوله: «فقد قمت بالأمر حين فشلوا وتطلعت حين تقبعوا ونطقت حين تعتوا ومضيت بنور الله حين وقفوا، كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف. لم يكن لأحد في مهمز ولا لقائل في مغمز».

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٤٢

الفصل الثاني يشير إلى وقوفه الصلب على الدوام بوجه الظلمة من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

الفصل الثالث يشير إلى استحالة الكذب عليم لأنه أول من صدق بالنبي صلى الله عليه وآله وعليه فلا ينبغي أن يستسرب الشك إلى إخباره عن المغيبات التي أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وآله.

الفصل الرابع يختتم الخطبة بعذره في البيعة لمن سبقه من الخلفاء، وأنه فعل ذلك طاعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وخشية الفرقة والتشتت في صفوف المسلمين واستغلال ذلك من قبل خصوم الدعوة الإسلامية.

ج ج

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٤٣

القسم الأول: الصمود أمام العواصف

«فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللَّهِ حِينَ وَقَفُوا- وَكُنْتُ أَخْفَضُهُمْ صَوْتًا وَأَعْلَاهُمْ قُوَّةً فَطَرْتُ بِعِنَانِهَا وَاسْتَبَدَّدْتُ بِرِهَانِهَا، كَالْجَبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ وَلَا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ. لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِي مَهْمَزٍ وَلَا لِقَائِلٍ فِي مَغْمَزٍ».

الشرح والتفسير

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن الفصل الأول من الخطبة يتضمن ذكر الإمام عليه السلام لمقاماته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيام أحداث عثمان، وكون المهاجرين والأنصار كلهم لم ينكروا ولم يواجهوا عثمان بما كان يواجهه به وينهاه عنه إلا أن سياق الكلام يشير إلى الحوادث التي وقعت على عهد النبي صلى الله عليه وآله ولا سيما في بداية انطلاق الدعوة الإسلامية. فقال عليه السلام

«فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا وَتَطَلَّعْتُ [٣٩٠] حِينَ تَقَبَّعُوا [٣٩١] وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا [٣٩٢] وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللَّهِ حِينَ وَقَفُوا. وَكُنْتُ أَخْفَضُهُمْ

صوتاً وأعلامهم فوتاً [٣٩٣]»

ثم أضاف عليه السلام أنه تألق تلك المدّة وحاز سبق على الآخرين

«فطرت بعنانها واستبددت برهانها [٣٩٤]، كالجبل لا تحركه

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٤٤

القواصف ولا تزيله العواصف، لم يكن لأحد في مهزم [٣٩٥] ولا لقاتل في مغمز [٣٩٦].

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة أمور هي:-

الأول: أن الآخرين كانوا آنذاك يعانون من الضعف والعجز، وأنا الذي نهضت بالأمر وقمت بوظيفتي.

الثاني: أن الخوف دفع الآخرين آنذاك لأن يقبعوا في جحورهم وأنا الذي إنبريت للأمر وكنت أتطلع إلى العدو.

الثالث: أنا الذي نطق لساني بالحق وبيان الحقائق الدينية والتعاليم الإسلامية حين عجز الآخرون عن الكلام.

الرابع: لم يعتريني الشك آنذاك كما إعتري الآخرين فواصلت سبيلي على هدى من ربي ونور إيماني وبقيني بالوحي.

ورغم كل ما تقدم لم أكن لأتفاخر على أحد

«كنت أخفضهم صوتاً»

ثم يخلص عليه السلام من كل ذلك إلى نتيجة مؤداها

«فطرت بعنانها واستددت برهانها»

. ثم يعود عليه السلام للتأكيد على ما مضى من حوادث وكيف واجهها فقال

«كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف»

مع ذلك فقد خضت ما خضت و

«لم يكن لأحد في مهزم ولا لقاتل في مغمز».

كما أوردنا آنفاً فإن المراد بهذه العبارات ما حدث في بداية إنبثاق الدعوة الإسلامية؛ لأننا نعلم جميعاً بانّ علياً عليه السلام كان أول

من أسلم حين كان الإسلام غريباً ولم يكن هناك من يهب للدفاع عن الإسلام والقرآن والنبى صلى الله عليه وآله؛ المعنى الذى

يلمس بوضوح فى يوم الدار حين انطلقت الدعوة الإسلامية للعلن بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية.

ولم يجب النبى صلى الله عليه وآله ويعلم دعمه له ووقوفه إلى جانبه سوى على عليه السلام وفى ليلة المبيت نام على فراش رسول الله

صلى الله عليه وآله لينجو من مؤامرة قريش التى استهدفت قتله، ناهيك عن فتح خيبر حين عجز الآخرون، وبروزه لعمرو بن عبدود

العامرى فى الأحزاب حين لم يكن غيره من انبرى لقتاله.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٤٥

كما يحتمل أن يكون المراد بالقيام بالأمر والجمل اللاحقة الدفاع عن الإسلام على عهد الخلفاء، لأنّ أغلب المورخين المسلمين

يقرون بان علياً عليه السلام كان المفزع فى حل المشاكل والمعضلات التى تواجه المسلمين.

فقد وردت العبارة المعروفة عن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب

«اللهم لا تبغنى لمعضلة ليس لها أبو الحسن» [٣٩٧].

أو ما تناقلته كتب الفريقين والتى تؤكد هذا المعنى، حتى صرح بعض أرباب اللغة أنّ العبارة

«مشكلة ليس لها أبو الحسن»

أصبحت مثلاً لدى العرب. وهنالك احتمال ثالث فى أن يكون المراد قيامه عليه السلام بأمر الخلافة بعد انهيار حكومة عثمان وإثر

تلك العواصف التى عصفت بالمسلمين بعد مقتل الخليفة الثالث، فقد تصدعت آنذاك عرى المجتمع الإسلامى، وقد تأهبت عناصر

النفاق ومن تبقى من أسلاف الجاهلية ومشركي العرب، فلم يكن للآمة من أمل سوى على عليه السلام، أجل لقد نهض الإمام عليه السلام بالامر في ظل تلك الظروف وحفظ وحدة المسلمين.

أما قوله

«كنت أخفضهم صوتاً»

نفحات الولاية؛ ج ٢؛ ص ٢٤٥

عله إشارة إلى تواضع الإمام عليه السلام إلى جانب كل تلك الانتصارات والنجاحات، أو إشارة إلى أن الإمام عليه السلام لم يكن من أهل التظاهر وإثارة الصخب والضوضاء فهذه معاني الأفراد الضعفاء العجزة.

ومن هنا أردفها بقوله

«وأعلاهم فوتاً»

التي تعنى السبق على الآخرين، السبق في الإيمان والهجرة، والسبق بالجهاد والقتال، وأخيراً السبق في كافة الفضائل الأخلاقية.

وقوله عليه السلام

«فطرت بعنانها واستبددت برهانها»

هو الآخر تأكيد لهذا الأمر، ولا سيما أن فاء التفرغ وردت في البداية كنتيجة للبرامج السابقة، أى أنى ركبت مركب النصر وسبقت الآخرين، وذلك لأنى لم أشعر بالضعف طرفة عين ولم أهب الحوادث المرعية وأفقد الفرص المواتية، ومع ذلك لم أثير أية ضجة أو صخب وضوضاء.

ثم يشبه نفسه عليه السلام بالجبل العظيم الذى لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف. والطريف فى الأمر أن الإمام عليه السلام ذكر القواصف ثم أردفها بالعواصف، وذلك لان القواصف تعنى الرياح

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٤٦

العاتية الكاسرة، والعواصف الرياح السريعة الجارفة، فى إشارة إلى أن الحادثة كانت من الشدة بحيث تقضى على الإنسان فى موضعه، وأحياناً تكون أكثر شدة فتجرفه كما تجرف أوراق الشجر وتقذف به فى مكان سحيق.

ثم قال عليه السلام:

«ولم يكن لأحد فى مهمز ولا لقائل فى مغمز»

. فالمعروف أن من يعمل يخطئ ومن يرد الميدان الاجتماعى ويمارس الأنشطة والفعاليات فإنه يتعرض إلى بعض الانتقادات من هنا وهناك، فما ظنك بالإمام عليه السلام الذى كان سباقاً فى كل الميادين. وبالطبع فإن العيوب والمطاعن فى غيره لم تحص رغم ندره

إقتحامه للميدان الاجتماعى. [٣٩٨]

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٤٧

القسم الثانى: القوى عندى ضعيف

إشارة

«الدَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخَذَ الْحَقَّ لَهُ وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخَذَ الْحَقَّ مِنْهُ، رَضِينَا عَنِ اللَّهِ قَضَاءَهُ وَسَلَّمْنَا لِلَّهِ أَمْرَهُ».

الشرح والتفسير

لما كانت عدالة الإمام عليه السلام هي السبب الذي يقف وراء أغلب الحوادث الأليمة والحروب الدامية، واعتياد الناس لسنوات على الظلم والجور والاضطهاد على عهد الخلفاء الثلاث ولاسيما عصر عثمان، فإنهم لم يكونوا مستعدين بهذه السهولة لقبول منطق المساواة أمام القانون وفي العطاء من بيت المال.

فالإمام عليه السلام يؤكد في هذه الخطبة أنني سأواصل سيرتي في العدل وإحقاق الحق وانتزاعه من القوى، بل هذا هو هدفي من الحكومة، وبناءً عليه فالقوى عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه والضعيف قوى حتى آخذ الحق له

«الدليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له والقوى عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه»

ومن هنا كان لا ينفك عليه السلام عن تأكيده على الحديث المعروف عن رسول الله صلى الله عليه وآله والذي ضمنه عهده إلى مالك بعد أن أوصاه قائلاً: واجعل لذوى الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك ... فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لن تقدرس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حق من القوى غير متتبع». [٣٩٩]

نصائح الولاية، ج ٢، ص: ٢٤٨

كان الإمام عليه السلام شديد الحرص على العدالة لا يؤثر عليها أى شى وقد وردت عدة أحاديث بهذا الشأن فى أن الإمام عليه السلام كان يقسم عطاء بيت المال فقدم رجل من الأنصار فاعطاه ثلاثة دنانير، ثم دخل عليه عبد أسود فاعطاه ثلاثة أيضاً، فقال له الأنصارى، يا أمير المؤمنين سويت بينى وبين عبدى الذى عتقته بالأمس. فقال عليه السلام لم أرفى الكتاب فضلاً لولد اسماعيل على ولد اسحاق «إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة إن الناس كلهم أحرار» [٤٠٠].

ثم قال عليه السلام:

«رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمره»

تنطوى هذه العبارة على معنيين:

الأول أن الله أمرنا بنصرة المظلوم ومقاتلة الظالم، وإنى مسلم لهذا الأمر ولا بد من التسليم والرضى قبل الاخرين شاءوا أم أبوا.

نصرة المظلوم ومجابهة الظالم

لقد شحن نهج البلاغة بوصاياهم عليه السلام التى تؤكد على الحكومة الإسلامية فى أن تكون للمظلوم عوناً وللظالم خصماً. ومن ذلك

ماورد فى خطبته المعروفة بالشقشقية من أن الحكومة وسيلة للانتصاف للمظلوم

«وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم»

، أما آخر وصية لولده الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام

«كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً». [٤٠١]

وقال فى موضع آخر من نهج البلاغة

«وآيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولأقودن الظالم بخزامة حتى اورده منهل الحق وإن كان كارهاً» [٤٠٢].

ولا غرابة فالقرآن الكريم قد أكد هذا الأمر ليحث المؤمنين على نصرة المظلومين ولو تطلب ذلك القتال «وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً» [٤٠٣].

نصائح الولاية، ج ٢، ص: ٢٤٩

جدير بالذكر أن الفلسفة الأصلية لتشكيل الحكومة وتشريع القوانين (سواء القوانين الإلهية أو الوضعية التى تسنها الأنظمة البشرية) هو حفظ حقوق الضعفاء وتوفير الدعم والاسناد لهم، لأن الطغاة والجبابرة يعتمدون منطق القوة الغاشم من أجل هضم حقوق الآخرين،

وعليه فلو تخلت الحكومة والقانون عن دعم المظلومين والمستضعفين فأنها ستفقد فلسفة وجودها لتتحول إلى وسيلة بيد الظلمة لتبرير ظلمهم وجورهم. ومن هنا كان قبول الإمام عليه السلام للحكومة كما ذكر ذلك في خطبته الشقشقية يكمن في الوقوف إلى جانب المظلوم ومجابهة الظالم.

ومن هنا أيضا فإن القانون يعطى نتيجة معكوسة في المجتمعات التي تغير مسار القانون بالرشوة، لأن الراشى هو الظالم لا المظلوم - وفي هذه المجتمعات يتحول القانون إلى مصدر دخل غير مشروع للظلمة وأداة لتوجيه ظلم الآخرين. لكن ينبغي العلم بأن تحمل العدل ومجابهة الظلم ودعم المظلوم إنما يشق على الأعم الأغلب. فمن الصعب قبول العدل من قبل من يرى مراعاته تشكل خطرا على مصالحه اللامشروعة، أو الأسوأ من ذلك من يرى لنفسه إمتيازاً في المجتمع ولا يمكنهم أن يتساوى مع الآخرين ويرى أن من الإساءة إليه أن يتساوى معهم، فيعمد إلى عرقلة مسيرة الحكومة العادلة ولا يتورع عن ممارسة أبشع الأعمال. وهؤلاء هم الأفراد الذين وقفوا بوجه الإمام عليه السلام وأثاروا الفتن والإضطرابات وحرفوا الوسط الإسلامى.

وأخيرا فقد ورد أن سبب إنفراج العرب عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام إنما يكمن في الأموال وكيفية توزيعها، فلم يكن عليه السلام يرى من فضل لشريف على غير شريف أو عربى على أعجمى، كما لم يكن يستن بسنة السلاطين في معاملته زعماء القبائل، ولم يستميل أحدا عن طريق المال أبداً، بينما كان معاوية يمارس العكس تماماً. [٤٠٤]

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٥١

القسم الثالث: أول من أسلم

إشارة

«أترانى أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ والله لأننا أول من صدقته! فلا أكون أول من كذب عليه. فنظرت في أمرى. فإذا طاعتى قد سبقت بيعتى وإذا الميثاق فى عنقى لغيرى».

الشرح والتفسير

كما أشرنا سابقاً يبدو أن ما ورد في هذه الخطبة فصول مختلفة من خطبة طويلة فصلها السيد الرضى (ره) عن بعضها البعض، ولذلك قد لا يكون هناك من ترابط وثيق بين هذه الفصول. على كل حال فإن هذا الفصل من الخطبة يتناول أمرين: الأول إخباره عليه السلام عن الحوادث الآتية مصرحاً بأن ذلك ممّا علمه إياه رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن ذلك إخباره عن وقائع الجمل وصفين والنهروان، أما بعض ضعاف الإيمان كانوا يشككون في أخبار الإمام عليه السلام، فرد عليهم بالقول «أترانى أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ والله لأننا أول من صدقه! فلا أكون أول من كذب عليه».

لقد صدقته حين كذبه الناس، وكنت أول من صدق به فشمرت فى الدفاع عنه، كنت أقيه بنفسى فى الحروب والمواقف التى تنكص فيها الابطال، أفيمكن أن أنحرف عن طريقتى وأكذب عليه محال ذلك. الاحتمال الآخر فى تفسير هذه العبارة أن الإمام عليه السلام أراد أن يقول: بايعت من سبقنى من الخلفاء لا- لأنهم أجدر بها منى، بل دفعاً للخلاف والفرقة فى صفوف المسلمين طاعة لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله، أفتررون أنى أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا الكلام، أم تعتقدون أنى أنقض وصية النبى صلى الله عليه وآله؟ وعليه فقد بايعت من بايعت وتنازلت عن

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٥٢

حتى طاعة لرسول الله صلى الله عليه وآله. ويبدو أن هذا التفسير هو الأنسب لأنه ينسجم والعبارة اللاحقة. ثم قال عليه السلام:

«فنظرت فى أمرى، فإذا طاعتى قد سبقت بيعتى وإذا الميثاق فى عنقى لغيرى»

والتفسير وإن اختلفت بشأن هذه العبارة- التي تعد من عبارات نهج البلاغة المعقدة- إلا أن التفسير الذي أوردناه آنفا هو الأنسب من جميع التفسيرات وكانَّ العبارة تجيب على سؤال قد يقتدح إلى الأذهان في أن الإمام عليه السلام لم يبايع الخلفاء الثلاث وهو يرى أنه أجدر بالخلافة منهم وقد نص رسول الله صلى الله عليه وآله على إمامته؟ وجواب الإمام عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلى السكوت حفظاً للإسلام إن خالفني القوم، ولا بد لي من البيعة من أجل حفظ المصالح التي يجب علي مراعاتها. وعليه فقد جعلت طاعتي لرسول الله صلى الله عليه وآله أولى من بيعتي، كانت عهداً من النبي صلى الله عليه وآله في عنقي وليس أمامي سوى الوفاء بالعهد، كما ذهب بعض شراح نهج البلاغة، كما أوردنا سابقاً إلى أن المراد أن طاعة النبي صلى الله عليه وآله مقدمه لدى علي بيعة الخلفاء، لقد عهد إلى النبي صلى الله عليه وآله بالسكوت في ظل مثل هذه الظروف، وذكر بعض الشراح إن المراد بقوله «فنظرت في أمري ..»

أن هذه الكلمات مقطوعة من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وأنه كان معهوداً إليه ألا ينازع في الأمر، ولا يثير فتنة، بل يطلبه بالرفق، فان حصل له وإلاً أمسك، فالمراد: فنظرت فإذا طاعتي لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ أي وجوب طاعتي، قد سبقت بيعتي للقوم، أي وجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وامتنال أمره سابق على بيعتي للقوم، فلا سبيل إلى الامتناع من البيعة لأنه صلى الله عليه وآله أمرني بها، «وإذا الميثاق في عنقي لغيري»

أي رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ علي الميثاق بترك الشقاق والمنازعة، فلم يحل لي أن أتعدى أمره، أو أخالف نهيه. [٤٠٥] وقال البعض أن العبارة تنسجم وما قال الإمام عليه السلام في الخطبة الشقشقية «أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر ... لألقيت حبلها على غاربها». ويبدو أن هذا التفسير هو الآخر مستبعداً، لأن القوم تمردوا على طاعة الإمام عليه السلام قبل البيعة، واعلنوا بيعتهم فلم يكن هناك من ميثاق، إلا أن نفس الميثاق مجازياً. نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٥٣

عهد رسول الله صلى الله عليه وآله على و آله لعلي عليه السلام

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى العهد الذي عهدته إليه رسول الله صلى الله عليه وآله، ويفهم من العبارة أن النبي صلى الله عليه وآله عهد لعلي عليه السلام بمماشاة الخلفاء، وإن لم تستند حكومتهم إلى الموازين الشرعية. وقد صرحت بعض الروايات بمضمون ذلك العهد، ومنها ما أورده المرحوم السيد ابن طاووس في كشف المحجبة في رواية عن علي عليه السلام: «وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلى عهداً، فقال: «يا بن أبي طالب! لك ولاء امتي. فان ولو ك في عافية واجمعوا عليك بالرضا فقم بأمرهم وإن اختلفوا عليك فدعهم وما هم فيه فان الله سيجعل لك مخرجاً».

فالواقع أن الإنسان قد يقف أحياناً على مفترق طرق كلاهما مرير، إلا أن أحدهما أمر من الآخر، فالعقل في مثل هذه الحالة يحكم باجتنب الأمر وتقبل المرير؛ القاعدة التي يصطلح عليها في الفقه بقاعدة الأهم والمهم، كما يعبر عنها أحياناً بدفع الأفسد بالفساد، وهذا ما سلكه أمير المؤمنين عليه السلام بعيد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله. فقد كان أمامه عليه السلام سيلان لثالث لهما، إما إن يترك حقه المسلم في الخلافة حفظاً للإسلام والمصالح الإسلامية، أو أن ينهض بالأمر فيطالب بحقه، دون الإكتراث لوحدة المسلمين وتربص الأحزاب الجاهلية بالإسلام والفرصة التي كان ينتظرها المنافقون بفارغ الصبر أملاً في إقتال المسلمين وتسللهم إلى الحكومة، الأمر الذي تكهن به رسول الله صلى الله عليه وآله عليه و آله فعهد لعلي عليه السلام ذلك العهد، ولم يكن من على الذي أوقف نفسه للإسلام سوى الالتزام بذلك العهد.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٥٥

الخطبة: الثامنة و الثلاثون**إشارة**

ومن كلام له عليه السلام
وفيها علّة تسميه الشُّبهه شُبّهه ثُمَّ بيانُ حال النَّاسِ فيها. [٤٠٦]

نظرة إلى الخطبة

إنّ أدنى تأمل للخطبة سيفيد أنّ هذا الكلام فصل من كلام طويل إختاره السيد الرضى (ره)، ومن هنا نرى الكلام عبارة عن فصلين، أحدهما غير منسجم مع الآخر، بل مبتور عنه.

أمّا الفصل الأول فهو الكلام فى الشبهه ولماذا سميت شبهه، وسبيل الخلاص من الشبهات.

والفصل الثانى بيان حال الناس إزاء الموت، حيث لا ينجو منه من خافه، ولا يمنح البقاء من طلبه فكلاهما ميت. وتدل القران على أن الرضى (ره) كان يلتقط الكلام إلتقاطاً، ومراده أن يأتى بفصيح كلامه عليه السلام وما يجرى مجرى الخطابه والكتابه، ويؤيد هذا العبارة

«من كلام له» و «من خطبه له»

ونعرف أنّ من هنا تبعيضيه، فلم يقل ومن خطبته أو ومن كلماته، فقد أراد أن ما ورد هنا جزء من خطبته عليه السلام. على كل حال فإنّ الخطبة ورغم قصرها تناول موضوعين أحدهما؛ الشبهه والآخر الموت.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٥٧

«وَأِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبُهَةُ شُبُهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ: فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَضَتَّ يَأُوهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ وَدَلِيلُهُمْ سَمَتْ الْهُدَى وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللَّهِ فَدَعَاؤُهُمْ فِيهَا الضَّلَالُ وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى، فَمَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ، وَلَا يُعْطَى الْبَقَاءَ مَنْ أَحَبَّهُ».

الشرح والتفسير

النجاة من الشبهه

يستفاد من بعض المصادر أنّ هذا الفصل من الخطبة يتعلق بقصه طلحه والزبير ومعركه الجمل؛ لأنهما خلقا شبهه لدى الناس ودعوهم لنكت البيعه والقيام ضد الحق. ومن عناصر تلك الشبهه زج زوج النبى صلى الله عليه و آله فى تلك المعركه والمطالبه بدم عثمان وما شا كل ذلك. قد تحدث الإمام عليه السلام عن الشبهه قائلاً:

«وَأِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبُهَةُ شُبُهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ»

ومن هنا كانت سببا لخداع السذج وذريعه بيد الشياطين للفرار من الحق. فالواقع أنّ الامور التى تواجه الإنسان فى حياته الفرديه والاجتماعيه لا تخرج عن ثلاث؛ فقد يكون الحق ظاهراً جلياً كأن نقول من يعمل الخير يحصد الخير ومن يعمل الشر يحصد الشر؛ أو يكون الباطل واضحاً، كأن نقول الفوضى وغياب القانون أفضل من النظام وسياده القانون، فمن البداهه القول ببطلان هذا الأمر. غير أن هنالك بعض الحالات التى ليست من قبيل القسم الأول ولا الثانى، حيث يتلبس الباطل أحياناً بثوب الحق، أمر ظاهره حق وباطنه باطل،

كنتلك الامور الجوفاء التي تمسك بها أصحاب الجمل وصفين من أجل إشعال نيران تلك المعارك. ويبدو أن هذه هي مشكلة المجتمعات البشرية، وقد إتسعت في مجتمعاتنا المعاصرة، حيث نرى أغلب الأهداف الباطلة والسلطة الخبيثة التي تلبست ثياب حقوق الإنسان والدفاع عن الحرية والديمقراطية وحفظ القانون وإعادة السلام والاستقرار إلى المنطقة. ثم أشار عليه السلام إلى طرق النجاة من

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٥٨

الشبهات التي يعتمدها أولياء الله

«فأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين ودليلهم سمت [٤٠٧] الهدى».

فالعبرة قد تكون إشارة لأحد أمرين: الأول أن أولياء الله الذين يؤمنون بالله والغيب إنما يلوذون بالقرآن وكلمات أئمة العصمة لمواجهة ظلم الشبهات والخلاص منها بدافع من يقينهم بالوحي، وعليه فاليقين في العبارة هو الإيمان بالله ورسوله «وسمت الهدى» إشارة إلى هدى الوحي، كما قال القرآن «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَازِبٌ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ» [٤٠٨]. وقيل المراد باليقين الاستفادة من المقدمات القطعية والامور اليقينية التي من شأنها إنارة الطريق والقضاء على الشبهة، وبعبارة اخرى فإن أولياء الله الذين لا يكثرثون للاهواء ويحكمون العقل إنما يسعهم في ظل هذا لاعقل أن يجتازوا الشبهات ويهتدوا إلى السبيل، ولو كان للاهواء من سبيل إلى العقل لما وسع هذا الفرد تمييز الحق من الباطل إذا إلتبس عليه الأمر. والتفسيران لا يتعارضان، ويمكن الجمع بينهما في مفهوم العبارة المذكورة.

قد يقال أن بعض الآيات والروايات قد اشتملت على المشتبه الذي يتضمن مختلف التفسير، فما العمل في هذا الحالة؟

لقد أجاب القرآن الكريم صراحة عن هذا السؤال وذلك بالرجوع إلى الآيات المحكمة والروايات الصريحة التي تفسر تلك المتشابهة حتى يتمكن الفرد من اجتياز هذا الامتحان الإلهي بالآيات والروايات المتشابهة. والحياة الإنسانية على غرار الآيات القرآنية قد تنطوي على محكمات ومتشابهات، فقد ترى مثلاً حركة مريية من أحد الأصدقاء تحتل الوجهين في التفسير، وقد أرشدت مختلف الحوادث إلى نزاهته وعفته خلال كل هذه المسيرة، فلا شك أن حسن السيرة هذا من المحكمات وتلك الحركة المريية من المتشابهات التي يمكن تفسيرها من خلال المحكمات. ثم تطرق الإمام عليه السلام لأعداء الله في كيفية التعامل مع الشبهات فقال:

«وأما أعداء الله فداؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى»

فكل سبيل يتطلب دافعاً ودليلاً من أجل الحركة، وهنا يفترق الأفراد إلى أولياء الله وأعدائه، فليس لأولياء الله من دافع سوى اليقين بالله واليوم الآخر ودليل سوى الوحي والنبوة، بينما دافع أعداء ودليلهم الضلال وهوى

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٥٩

النفس ووساوس شياطين الانس والجن وعمى البصر والبصيرة. ومن هنا فإن الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة هي مصير الطائفة الاولى «ألا- إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يخزنون... لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» [٤٠٩] بينما ليس لأعداء الله سوى الظلمات «أَوْ كَظْلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَاحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» [٤١٠]. أما ما ورد في خطبة الإمام عليه السلام فهو صادق على الحياة الفردية وكذلك الحياة الاجتماعية، بل إن أبعاده لأعظم وأخطر في الجانب الاجتماعي وقد تجسد النموذج الكامل لذلك في الطائفة الثانية (أعداء الله) من قبيل الفرق الثلاث التي خاضت معركة الجمل وصفين والنهروان من خلال الشبهات الواهية والادلة الجوفاء الأضعف من بيت العنكبوت لتهد لقتال الإمام عليه السلام وتوجه ضرباتها الماحقة لكيان الإسلام والمسلمين. جدير بالذكر ما أورده صحيح البخاري عن أبي بكر- أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله- أنه قال سمعت حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله نفعني أيام الجمل، فقد كدت أن ألتحق بمعسكر أصحاب الجمل، حيث بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله أن طائفة من الإيرانيين قد ولوا عليهم بنت كسرى فقال صلى الله عليه وآله

«لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة». [٤١١]

تأثير الشبهة في تحريف الحقائق

لو ظهر الباطل كما هو لما خفى على أحد، ولما قبله الوجدان والطبع السليم، ولا يستجيب له سوى مرضى القلوب ومنحرفي الأفكار إلماً أن المشكلة تتعقد حين يتزين الباطل بلباس الحق، فيقبل عليه بعض طلاب الحق بعد أن يغترون بحسن ظاهره، وهذه في الواقع إحدى شعب الشبهة. الشبهة الأخرى أن يمزج مقدار من الحق بمقدار من الباطل فتختفى صورة الباطل القبيحة في ظل الحق. وأخيراً فقد يزيغ الباطل ويجميل حتى يبدو بصورة حق دون أن

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٦٠

يمتاز به. وقد حفل تاريخ البشرية بما لا يحصى من الفتن والويلات التي طالته من خلال الشبهات والوساوس الشيطانية، حتى مارس الطغاة والمخادعون سلطتهم على الناس بواسطة تلك الشبهات. وأفضل نموذج على ذلك المعارك الثلاث المعروفة- الجمل وصفين والنهروان- التي أودت بحياة تلك الجماعة العظيمة من المسلمين وما ذلك إلماً من خلال الشبهات التي إعتمدها أصحاب الباطل من أجل تحقيق أطماعهم ومآربهم؛ فالبكاء ليل نهار على قتل الخليفة المظلوم (عثمان) والطواف بقميصه الملطخ بالدم من أجل تعبئة الناس، حتى من قبل أولئك الذين ساهموا في قتله وتلطخت أيديهم بدمه، ومن ثم الإتيان بام المؤمنين وركوبها الجمل و... كلها نماذج حية من الشبهة. رفع المصاحف على أسنة الرماح وشعار التسليم الحكم القرآن والحيلولة دون إراقة دماء المسلمين هي الأخرى من شبهات معركة صفين. بل أبشع صورة للشبهة في محاولة تحميل الإمام على عليه السلام مسؤولية قتل عمار بن ياسر في معركة صفين حيث إحتج الإمام عليه السلام بقول رسول الله صلى الله عليه وآله:

«يا عمار تقتلك الفئة الباغية»،

فاحتج عليه بأن الفئة الباغية من أتت بعمار إلى المعركة. أما أصحاب النهروان ممن كانوا يتظاهرون بصلاة الليل وقراءة القرآن التي لا تتجاوز تراقيهم، فقد رفعوا شعارهم المعروف «لا حكم إللاً» وقد انطوت هذه الشبهة على فئة عظيمة من الناس والتي أدت في الختام إلى قتلهم وخلودهم في جهنم وبئس المصير. ويشهد عالمنا المعاصر اليوم أسوأ أنواع الشبهات، فما أكثر الشعارات البراقة الساحرة، من قبيل شعار الحرية والديمقراطية والمساواة وتفعيل حقوق الإنسان والحضارة والمدنية وتطوير البشرية والتي ترتكب باسمها أعتى الجنايات وأقبح الجرائم.

وسنسلط مزيداً من الضوء على هذا الموضوع حين نصل إلى الخطبة الأربعين والخمسين الواردة بهذا الشأن، كما أشار الإمام عليه السلام إلى هذا الأمر في الحكمة ١٩٨ من قصار كلماته في نهج البلاغة.

عشبة الخوف من الموت

يرى أغلب شراح نهج البلاغة عدم وجود آية رابطة لقوله عليه السلام:

«فما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطى البقاء من أحبه»

وما ورد في أول الخطبة، وأن السيد الرضى (ره) إنما يلتقط

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٦١

كلام الإمام عليه السلام من أكثر من خطبة. ولعلنا نستطيع تصور رابطة بين الفصلين من الخطبة وذلك أن الأفراد قد يستسلمون للشبهات خوفاً من الموت، فإشار عليه السلام إلى أن خوف الموت لا ينجي من الموت أبداً. على كل حال فإن هذا الفصل من الخطبة يشتمل على عبارتين تعالج كل منها قضية الموت. فقد قال عليه السلام

«فما ينجو من الموت من خافه».

بل إن هذا الخوف قد يكون من العناصر المقربة للموت. فالموت هو القلادة التي خطت على جيد ابن آدم وسائر الكائنات الحية والقانون الذي لا يعرف الشواذ والاستثناء، فليس هنا لك من خلود سوى لله سبحانه.

فجميع الكائنات محدودة وأنها ستنتهي لامحالة وتؤول إلى الفناء. وليس من بقاء سوى للذات الإلهية المقدسة، وعليه فخوف الموت لن يغير من حقيقته شيئاً، كما أن السعي من أجل البقاء والحياة الخالدة لن يكلل بالنجاح أبداً. ومن هنا قال الإمام عليه السلام في العبارة الثانية

«ولا يعطى البقاء من أحبه».

قد تطول مدة الحياة أو تقصر إلا أنها سائرة للزوال في خاتمة المطاف ومن الوهم الساذج والباطل التفكير بالبقاء والخلود. فقد صرح القرآن الكريم «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» وقال «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ». والعبرة هنا في أن يستعد الإنسان للموت ويتزود له، فالموت لا يعنى الفناء المطلق بقدر ما يعنى الانتقال من دار صغيرة محدودة إلى أخرى كبيرة واسعة تشتمل على مختلف النعم واللذائذ، وإذا أصلحنا عملنا فليس هنالك ما يدعو إلى الخوف من الموت.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٦٣

الخطبة [٤١٢]: التاسعة والثلاثون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
خطبها عند علمه بغزوة النعمان بن بشير، صاحب معاوية لعين التمر، وفيها يبدى عذره ويستنهض الناس لنصرته.

نظرة إلى الخطبة

أمر النعمان بن بشير مع عليّ ومالك بن كعب الأرحبيّ

وردت هذه الخطبة كما ذكرنا سابقاً حين غزا النعمان بن بشير عين التمر الموضع المعروف في العراق. وقد كان معاوية قال قبل ذلك بشهرين أو ثلاثة: أما من رجل أبعث به بجريدة خيل؛ حتى يُغيّر علي شاطئ الفرات! فإن الله يُرعبُ بها أهل العراق! فقال له النعمان: فابعثني؛ فإن لي في قتالهم بية وهوى - وكان النعمان عثمانياً: قال: فانتدب علي اسم الله، فانتدب وندب معه ألفي رجل، وأوصاه أن يتجنب المدن والجماعات، وألا يُغير إلا على مسلحة، وأن يعجل الرجوع.

فأقبل النعمان بن بشير؛ حتى دنا من عين التمر، وبها مالك بن كعب الأرحبيّ الذي جرى له معه ما جرى، ومع مالك ألف رجل؛ وقد أذن لهم، فرجعوا إلى الكوفة، فلم يبق معه إلا مائة أو

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٦٤

نحوها، فكتب مالك إلى عليّ عليه السلام: أما بعد؛ فإن النعمان بن بشير، قد نزل بي في جمع كثير، فرأيتك، سدّدك الله تعالى وثبتك. والسلام. فوصل الكتاب إلى عليّ عليه السلام؛ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

اخرجوا هداكم الله إلى مالك بن كعب أخيكم، فإن النعمان بن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشام؛ ليس بالكثير، فانهضوا إلى إخوانكم، لعل الله يقطع بكم من الكافرين طرفاً.

ثم نزل.

فلم يخرجوا، فأرسل إلى وجوههم وكبرائهم، فأمرهم أن ينهضوا ويحثوا الناس على المسير، فلم يصنعوا شيئاً، واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلثمائة فارس أو دونها، فقام عليه السلام، فخطب الخطبة. [٤١٣]

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٦٥

القسم الأول: سكوت الإمام عليه السلام

«مَنِيتُ بَمَنْ لَا - يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ وَلَا - يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ، لَا - أَبَالُكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبِّكُمْ؟ أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ وَلَا حَمِيَّةَ تُحْمِشُكُمْ؟ أَقَوْمٌ فِيكُمْ مُسْتَصْرِحاً وَأُنَادِيكُمْ مُتَعَوِّثاً، فَلَا تَسْمَعُونَ لِي قَوْلًا، وَلَا تُطِيعُونَ لِي أَمْرًا، حَتَّى تَكْشِفَ الْأُمُورَ عَنِّ عَوَاقِبِ الْمَسَاءَةِ، فَمَا يُدْرِكُ بِكُمْ نَارٌ، وَلَا يُبَلِّغُ بِكُمْ مَرَامًا».

الشرح والتفسير

أشرنا سابقاً إلى أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين بعث معاوية النعمان بن بشير ليرعب إحدى مناطق العراق ويضعف معنويات أهلها، فدعا الإمام عليه السلام الناس لقتالهم، غير أن عجز أهل العراق وضعفهم جعلهم يردون بالسلب على دعوة الإمام عليه السلام، فخطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة لغرضين: الأول: تحميل أهل العراق المسؤولية التامة للمصائب والويلات التي تتعرض لها البلاد بفعل هذا الضعف والذلة تجاه العدو، الثاني: لعل هذه الكلمات تؤثر في تلك الأرواح الهامدة فتلتفت إلى عظم الأخطار التي كانت تترصد بها فتهم بموا جبتها. فقد قال عليه السلام:

«مَنِيتُ بَمَنْ لَا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ وَلَا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ»

فمن الطبيعي أن أعظم القادة والامراء وأشجعهم لا يسعهم فعل شيء إذا ما ابتلوا بمثل هؤلاء الأفراد، وما من فشل أو هزيمة تصيبهم إلا ويتحملون مسؤوليتها كاملة. ثم قال عليه السلام:

«لَا أَبَا لَكُمْ: مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبِّكُمْ؟»

إن جميع الظروف متوفرة لديكم من أجل القتال، فعندكم العدة والعدد، كما تعلمون مؤامرات عدوكم وقد أحرق الخطر بكم، فماذا تنتظرون؟ أتتطلعون لقتلكم بهذه الذلة والهوان؟ وقد

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٦٦

أشرنا سابقاً إلى أن قوله عليه السلام:

«لَا أَبَا لَكُمْ»

إما يفيد عدم تربيتهم التربية الاسرية الإسلامية الصحيحة بحيث يبدون كل هذا الضعف والعجز، أو أنه دعاء عليهم بان يميت الله آبائهم، وهو الآخر كناية عن الذلة والهوان الذي يستشعره الإنسان لفقد والده. ثم قال عليه السلام:

«أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ وَلَا حَمِيَّةَ تُحْمِشُكُمْ» [٤١٤]؟

فالواقع من شأن أي من هذين الأمرين دواء دائهم، فالدين حلقة إتصال يمكنها إستقطاب الفئات والطوائف المختلفة حول هدف مركزي واحد، فاذا غاب الدين الذي يجمعهم، فإن الغيرة الاجتماعية وحبّ الاهل والوطن إنما تسوقهم للاتحاد أمام العدو ومواجهته، غير أن المؤسف له هو أن أهل العراق آنذاك قد فقدوا هذين الدافعين، فلم يكن دينهم محكماً راسخاً، كما لم تكن لهم حمية تجعلهم يغضبون ويواجهون العدو. ولا شك أن مثل هؤلاء القوم يعتبرون عقبه كؤوداً في طريق الحاكم. ومن هنا خاطبهم الإمام عليه السلام مصوراً حجم ضعفهم والذل الذي سيطر عليهم

«أريد أن اداوى بكم وانتم دائى كناقش الشوكة بالشوكة». [٤١٥]

ومن هنا قال عليه السلام:

«أقوم فيكم مستصرخاً» [٤١٦] وأناديكم متغوثناً، [٤١٧] فلا- تسمعون لي قولاً، ولا- تطيعون لي أمراً، حتى تكشف الامور عن عواقب المساءة» [٤١٨]

فهل هناك أعظم من هذه المساءة، في أن يتلى مثل هذا الإمام عليه السلام الشجاع العالم العادل المجرب بمثل هؤلاء القوم الذين لا يكثر ثون لصراخه ولا يطيعون أوامره. ويفيد التأريخ أن هذا الأمر لم يقتصر على أمير المؤمنين عليه السلام وقد مارست الامة نفس هذا الموقف مع الإمام الحسن والحسين عليهما السلام فقد وقعت حادثة كربلاء ليقتل الإمام وصحبه بتلك الشاعة، آنذاك ندم أهل الكوفة وهبوا للمطالبة بدم الحسين عليه السلام ولكن بعد أن وقع ما لم يكن ينبغي أن يقع، فقد تخلوا آنذاك عن دعم نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٦٧

سفير الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل ونكتوا بيعته ولزموا بيوتهم، فبقى مسلم وحده يقاتل الأعداء حتى استشهد. وأخيراً خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة «فما يدرك بكم ثار، ولا يبلغ بكم مرام».

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٦٩

القسم الثاني: الضعف أمام العدو

إشارة

«دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَزَجْتُمْ جَزَجَةً» [٤١٩] الْجَمَلِ الْأَسْرَ [٤٢٠] وَتَشَاقَلْتُمْ تَشَاقُلَ النَّضْوِ [٤٢١] الْأَذْبَرِ [٤٢٢] ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ [٤٢٣] مُتْدَائِبٌ [٤٢٤] ضَعِيفٌ «كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام ذمه لأهل الكوفة على ما أبدوه من ضعف وعجز تجاه الهجمات المبرمجة للعدو فقال عليه السلام:

«دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجزجرتهم جزرة الجمال الأسر، وتناقلتم تناقل النضو الأدبر»

أي أنكم أعريتكم عن عجزكم في الكلام كما فعلتم ما يفشلكم في الدنيا والآخرة ويمكن العدو من تكبيدكم الخسائر في أموالكم وأرواحكم، فقد دعوتكم لنصر إخوانكم (مالك بن كعب وصحبه ممن تعرضوا لغارات أهل الشام في منطقة عين التمر) فكانت حركتكم كحركة الجمال وتناقل النضو الأدبر

«دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجزجرتهم

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٧٠

جزرة الجمال الأسر، وتناقلتم تناقل النضو الأدبر»

ولعل تشبيههم بالحيوانات المريضة إشارة إلى ضعفهم الفكري وعجزهم في إتخاذ القرار، لأن الإنسان العاقل لا يدع العدو يهجم عليه بهذه الطريقة بحيث يضرب أينما شاء دون وازع أو رادع. ثم أشار عليه السلام إلى تلك الفئة القليلة التي لبت دعوته، بينما كان الخوف والهلع يسيطر عليهم

«ثم خرج إلى منكم جنيد متدائب ضعيف كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون».

وقد أورد السيد الرضى (ره) في آخر الخطبة قائلاً: قوله عليه السلام متدائب؛ أي مضطرب، من قولهم: تدائبت الريح، أي اضطراب هبوبها.

ومنه سمى الذئب ذئباً، لاضطراب مشيته. ومن هنا فإن هذه الفئة القليلة لم تكن مصداقاً لقوله سبحانه

«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة»

بل كانت فئة ضعيفة قلقلة مضطربة كأنهم يساقون إلى المذبح وهم ينظرون إلى موتهم، فهي فئة عدمها خير من وجودها والوثوق بها مخجل، فما أعظم محنته الإمام عليه السلام وابتلائه بهؤلاء القوم طبعاً قوله عليه السلام كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. إنما اقتبس عليه السلام من الآية السادسة من سورة الانفال التي وردت بشأن بعض المؤمنين الضعفاء على عهد النبي صلى الله عليه وآله الذين كانوا يتشبثون بمختلف الذرائع والحجج للفرار من الجهاد إلى جانب جداهم للنبي صلى الله عليه وآله غير أن حوادث بدر أثبتت لاحقاً مدى خطأهم وتزايد خوفهم عبثاً حتى إنتهت الموقعة بالنصر المؤزر للمسلمين، والعجيب أن هؤلاء كانوا من المعترضين على كيفية توزيع الغنائم بعد انتهاء المعركة. ولعل المراد بالعبارة أن هذه الفئة القليلة لو كانت تمتلك العزم الراسخ والقوة والصلابة من شأنها الانتصار على العدو، غير أن المؤسف ...

عاقبة الضعف أمام العدو

رغم أن التعاليم الإسلامية تستند إلى ارساء قواعد السلام مع كافة الامم والشعوب- باستثناء تلك الحالات التي يشهر فيها السلاح ضد الإسلام والمسلمين- إلا أنها توصى بالشدة والصلابة في بعض الحالات الطارئة، ونموذج ذلك ما ورد في هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة بشأن العتاة المردة من أهل الشام من جيش معاوية. فقد كان معاوية يستغل الفرص من أجل إضعاف أهل العراق وزعزعة روحياتهم، فقد كان يجهز بعض الجماعات

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٧١

ويعبئها لشن غاراتها على بعض المناطق الإسلامية تنتشر فيها الذعر والخراب والدمار وتذبح من فيها دون الإكتراث للشيوخ والنساء والصبيان إلى جانب نهب الأموال والثروات وقد تكررت مثل هذه الحادثة لأكثر من مرة على عهد الإمام عليه السلام، فكان الإمام عليه السلام يستصرخ أهل الكوفة لمواجهة هذه الأخطار فكانوا يردون عليه بكل ضعف وفخور وكأنهم لم يعلموا بما يجري حولهم وقد غطوا في نوم عميق: الأمر الذي جعل إعتداءات أهل شام تتصاعد يوماً بعد آخر، حتى أصبح العراق بعيد شهادة الإمام عليه السلام لقمة سائغة لمعاوية ورهطه بحيث لم يتمكن الإمام الحسن عليه السلام من الوقوف بوجه ذلك الظالم، ولا عجب في الأمر فلم تكن لديه القوة الكافية من الأفراد التي يستطيع بواسطتها قتال معاوية. ونلمس اليوم هذه الحقيقة بوضوح في عالمنا المعاصر، وإذا لم نلتفت إلى تحرشات العدو وتقبرها في المهدي فأنها ستستع شيناً فشيناً، آنذاك لم يمكن المواجهة والصمود. وعليه فلا بد من الانتباه إلى أدنى حركة عسكرية أو إعلامية أو إقتصادية والتعامل معها فوراً بمنتهى الصلابة ليضطر العدو للدفاع بدلاً من الهجوم.

فعادة ما تحاول العناصر الضعيفة التي تميل إلى الدعة والراحه لحمل مثل هذه الحركات على البراءة بعيد عن حملها محمل الجد وإساءة الظن بها، والحال أنها إنما تبدر من العدو الذي لا ينبغي الغفلة عن إتهامه ريثما تتكشف الحقائق. ونختتم البحث بالعبارات الواردة في خطبة الجهاد حيث قال عليه السلام:

«ألا- وإنني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وأعلاناً وقلت لكم: إغزوهم قبل أن يغزوكم: فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا». [٤٢٥]

سؤال

لعل هنالك من يتساءل لم كل هذه الشدة من الإمام عليه السلام مع أصحابه ومخاطبتهم بهذه اللكمات وتحقيرهم إلى هذا الحد، أفليس من الأفضل أن يرفق بهم ويتلطف معهم؟

الجواب: بينا الإجابة على ذلك كراماً في الخطب السابقة، وقلنا أن ذلك يمثل آخر الدواء، وكأنه عملية لاستئصال مرض عضال.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٧٣

الخطبة الاربعون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
في الخوارج لما سمع قولهم: «لا حكم الا الله»

نظرة إلى الخطبة

خطبها عليه السلام بعد موقعه صفيين حين إعترض عليه الخوارج بقبول التحكيم وانتخاب ممثلين أحدهما من أصحاب الإمام والآخر من أصحاب معاوية لهذا الأمر ليحكما بشأن عاقبة موقعه صفيين وخلافة المسلمين، بينما يصرح القرآن «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» [٤٢٦] فاقبضوا من الآية قولهم «لا حكم إلا لله» ليحتجوا بها على الإمام عليه السلام، وبالطبع فان هنالك مغالطة كبرى وقعوا فيها ولم يدركوا حقيقة الامر. فلما سمع الإمام عليه السلام هذا الشعار، رد بهذه الخطبة وأشار فيها إلى أربعة أمور:

الأول: كشف النقاب عن مغالطتهم في هذا الشعار، وأن القول «لا حكم إلا لله» كلمة حق يريدون بها باطلاً.

الثاني: حاجة الأمة إلى الحاكم، وبعبارة اخرى ضرورة الحكومة.

الثالث: شرح وظائف الحاكم العادل وایجازها في سبع.

الرابع: نتيجة وجود الحكومة العادلة.

وقد نقل المرحوم السيد الرضى (ره) آخر هذه الخطبة نفس هذا المضمون طبق رواية أخرى بعبارات أقصر.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٧٥

«قال عليه السلام: كَلِمَةٌ حَقٌّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَا إِمْرَةَ إِلَّا لِلَّهِ، وَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتَعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبْلِغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجَلَ وَيُجْمَعُ بِهِ الْفِيءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَادُو، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ؛ حَتَّى يَشْتَرِيحَ بَرٌّ وَيُسْتَرَاخَ مِنْ فَاجِرٍ.

فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَمِعَ تَحْكِيمَهُمْ قَالَ: حُكْمَ اللَّهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ.

وَقَالَ: أَمَّا الْإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ، وَأَمَّا الْإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ، إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ وَتُدْرِكَهُ مَبِيَّتُهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى الشعار الذي رفعه الخوارج

«لا حكم إلا لله»

بقوله

«كلمة حق يراد بها باطل»

ثم بين عليه السلام بطلان ما أراده الخوارج من تحريفهم لهذا الكلام الحق بقوله

«نعم إنه لا حكم إلا لله ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله»

خطأ الخوارج في هذا الشعار الحق الذي إقتبسوه من القرآن أنهم أرادوا به أن الحكومة بين الناس لله، ومن هنا فقد إعترضوا على

مسألة التحكيم وأوها نوعاً من الشرك، وذلك لأنها منحت الحكومة لغير الله من الأفراد! فمن البديهي أن يكون الحاكم بين الناس هو الله إذا كان الحكم مقتصراً على الله، وعليه لا بدّ من إزالة أصل الحكومة، كما وعليه من إزالة القضاء والمحاكم بالتبع فهي من قبيل الحكومة التي يمارسها الأفراد. لقد خيل لتلك الفئة أنها تريد أن تعيش توحيد الله على مستوى الحاكمية والتخلص من الشرك في هذا المجال، إلّا أنّهم إثر جهلهم وتعصبهم سقطوا في مستنقع الفوضى والهرج والمرج ورفض الحكومة في أوساط المجتمعات البشرية، واصيبوا بالهلوسة التي

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٧٦

جعلتهم يعتقدون بأنّ رعاية التوحيد تتطلب نفى كافة ألوان الحكومة والامرة، غير أنّهم سرعان ما وقفوا على بطلان مذهبهم في الحكومة لما شعروا بحاجتهم إلى من يتزعمهم ويحكم بينهم، رغم عنادهم الذي أفرزه جهلهم والذي لم يدعهم يفيقون إلى أنفسهم. مع ذلك فقد قضت كلمات الإمام عليه السلام مضاجعهم واستطاعت أن تفعل فعلها في ميدان القتال فجعلت الكثير منهم يعودون إلى رشدهم فيعلنوا توبتهم بعد أن وقفوا على عمق إنحرافهم، على كل حال فإنّ الإمام عليه السلام يؤكد في هذه الخطبة أنّ الحاكم ولامشروع الاصلى هو الله سبحانه؛ حتى الحكم بين الناس لا بدّ أن يستند إلى تخويل منه، إلّا أنّ هذا لا يعنى أن الله ينبغي أن يحضر بنفسه في المحاكم ليقضى ويحكم بين الناس، أو أن يأخذ بزمام الامور فيمارس وظيفته كرئيس للبلاد أو والياً وعاملاً على منطقته، أو أن يوكل هذه المهمة إلى الملائكة فيبعثهم إلى الأرض. فهذا كلام عبثي ولغو فارغ لا يرتضيه من كان له أدنى فهم وإدراك، إلّا أنّ المؤسف هو أن هذه الفكرة كانت متأصلة في أفكار الخوارج، ومن هنا خالفوا أمير المؤمنين عليه السلام واعترضوا عليه: لم قبلت التحكيم؟! وصرح بعض شراح نهج البلاغة بأنّ الخوارج يزعمون أن الحكم يتطلب الاذن الإلهي ولا بدّ أن يصرح القرآن بهذا الأمر، بينما لم يأذن القرآن لأحد. ولعل هذا هو الذي دفع بعض الاعلام [٤٢٧] لأن يستدلون على نفى عقيدة الخوارج بالآية القرآنية الشريفة الواردة بشأن الحكم في الاختلافات العائلية «وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدان إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً» [٤٢٨]. فاذا كانت هذه المسألة الصغيرة تحتاج إلى الحكم فما ظنك بالمسائل المهمة التي يدعو الاختلاف فيها إلى تفشى الهرج والمرج في صفوف المجتمع، أفلا ينبغي فصل هذه الاختلافات وحلها عن طريق الحكم؟! ومن هنا يرى البعض أنّ الإمام عليه السلام لم يكن مخالفاً لمسألة التحكيم في بعض الحالات، إلّا أنّه لم يكن يوافق شخص الحكيم وكان يعترض عليهما بشدة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه في ضرورة تشكيل الحكومة، لأنّ لخوارج. كما أشرنا سابقاً- لم

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٧٧

يخالفوا مسألة التحكيم في صنفين فحسب، بل شككوا في أصل الحكومة وزعموا عدم الحاجة إلى الحاكم، إلّا أنّهم رجعوا عن ذلك لما أمروا عليهم عبدالله بن وهب الراسبي [٤٢٩]. ثم علل الإمام عليه السلام ضرورة تشكيل الحكومة والحاكم «وإنه لا بدّ للناس من أمير بر أو فاجر»

ليذكر سبعة فوائد تترتب على قيام الحكومة بعضها يتصل بالجانب المعنوي والبعض الآخر بالجانب المادي وهي: أولاً:

«يعمل في إمرته [٤٣٠] المؤمن». [٤٣١]

ثانياً:

«ويستمتع فيها الكافر»،

ثالثاً:

«ويبلغ الله فيها الاجل»،

رابعاً:

«ويجمع به الفيء»

خامساً:

«ويقاتل به العدو»

سادساً:

«وتأمن به السبل»

سابعاً:

«ويؤخذ به للضعيف من القوى».

ثم تفضى هذه الوظائف السبع إلى هذه النتيجة النهائية المترتبة على الحكومة

«حتى يستريح بر ويستراح من فاجر».

ويدل التأريخ السياسي أنّ فئه قليلة جداً في الماضي وحتى في الوقت الراهن هي التي لا ترى ضرورة تشكيل الحكومة - مستدله ببعض الأدلة الجوفاء التي سنشير لها في البحث القادم - والخارج مصداق لهذه الفئه. وقد رد التأريخ بصراحة على هذه الفكرة الساذجة فقد رأينا بأعيننا وسمعنا بملئ آذاننا مدى الأخطار الجسام التي يواجهها المجتمع إبان إنبهار الحكومة ولو لساعات من قبيل قتل الأنفس وإراقة الدماء وعمليات السرقة والسلب والنهب التي تتعرض لها المؤسسات بل حتى بيوت الناس وانتهاك الاعراض والنواميس وانعدام الامن والاستقرار وسيادة الفوضى والهرج والمرج الاضطراب وشل حركة كافة النشاطات الاجتماعية؛ كما تصبح البلاد لقمة سائغة للاعداء الذين يعيشون في الأرض فساداً فلا يسلم المؤمن من شرهم ولا الكافر فتهمم جميع الحقوق ويعيش الناس الخوف والذعر فمما لا شك فيه أن الف باء الحياة إنما يكمن في إستتباب الأمن والنظام، ثم وجود العناصر المقندرة التي تقف كالطود الشامخ بوجه العدو الخارجي وعملائه في الداخل، ولا يتيسر مثل هذا الأمر إلا في ظل الحكومة. وهنا يبرز هذا السؤال: هل يسع الحاكم الفاجر أن يقوم بالوظائف السبع المارة الذكر التي يقوم بها الحاكم البر والعاقل؟ فقد

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٧٨

ذكرها الإمام عليه السلام لكليهما، بحيث يقوم كل منهما بهذه الوظائف. وللإجابة على هذا السؤال لابد من الالتفات إلى هذه النقطة وهي أنّ الحاكم البر إنما يقوم قطعاً بمثل هذه الوظائف، إلا أنها ليست كذلك بالنسبة للفاجر بصورة مطلقة نعم يمارسها بصورة نسبية، فهو مضطر لاستمرار حكومته أن يراعى النظام، ويقف بوجه العدو الخارجي ويحول نسبياً دون ظلم الظلمة، وان كان في حد ذاته ظالماً؛ وأما فان الناس ستخرج عليه وتترزل دعائم حكومته فيطرح به الأعداء، ومن هنا فإن أغلب الحكومات مهما كان تتسعى فهي جاهدة للقيام بتلك الوظائف المذكورة. ونخلص ممّا سبق أنّ أيّ حكومة تتساهل في الوظائف المذكورة إنما تكون قد مهدت السبيل إلى تصدع كيانها وإنهارها. السؤال الآخر هو أنّ الإمام عليه السلام قد فرق بين المؤمن والكافر. فقال عليه السلام بشأن المؤمن «يعمل» والكافر (يستمتع) فما علة ذلك؟ والجواب هو أنّ المؤمن لا يهدف في حياته إلى الاستفادة من الامكانيات المتاحة من أجل التمتع العابر، بل هدفه الأصلي الفوز برضى الله، وما إستفادته من متع الدنيا إلا بالتبع وكونها مطلوباً ثانوياً، وليس الحال كذلك بالنسبة للكافر، فهو ليس فقط لا ينشد رضى الله، بل يقصر همه على هذه الحياة الدنيا ليتمتع فيها وإن كان ذلك من خلال الحرام والطرق اللامشروعة، ومن هنا صرح الإمام عليه السلام بأن الحكومة ضرورة للطرفين المؤمن والكافر، يعمل فيها هذا ويتمتع فيها ذاك، ولولا الحكومة لما وسع المؤمن العمل ولا الكافر الاستقرار والتمتع.

ج ج

قال السيد الرضى (ره) في ذيل هذه الخطبة، وفي رواية أخرى أنّ الإمام عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال:

«حكم الله أنتظر فيكم»

فالعبرة يمكن أن تكون إقتباساً من كلامهم للرد عليهم فأنتم تقولون الحكم لله، وأنا أنتظر هذا الحكم فيكم، فإنه سيحكم فيكم بالعقاب الشديد لهذه اللجاجة والجهل وتفريق صفوف المؤمنين. أو أنى انتظر اتمام الحجة عليكم فمن بقى على جهله وتعصبه أجريت عليه حكم الله. ثم أضاف السيد الرضى (ره) - على ضوء هذه الرواية - وقال عليه السلام «أما المرأة البرة فيعمل فيها التقى، وأما المرأة الفاجرة فيتمتع فيها الشقى، إلى أن تنقطع مدته وتدركه منيته».

ولكن بالاستناد إلى مفهوم هذه العبارة في أن الفجار يحرمون من التمتع المباح في حكومة البر، ولا يستشعر المؤمنون الاستقرار والسكنية في

نصائح الولاية، ج ٢، ص: ٢٧٩

ظل حكومة الفاجر (وهذا يتناقض وهدف الخطبة في أن الحكومة ضرورة بره كانت أم فاجرة) يبدو أن الرواية الاولى أصح وأنسب وأدق.

هذا وقد ورد في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ما يوضح العبارة المذكورة «حكم الله أنتظر فيكم»:

لما رجع على عليه السلام من صفين إلى الكوفة، أقام الخوارج حتى جموا (جموا بمعنى إستراحوا وكثروا) ثم خرجوا إلى صحراء بالكوفة تسمى حروراء، فنادوا: لا حكم إلا لله ولو كره المشركون: ألا أن علياً ومعاوية أشركا في حكم الله. فدخل واحد منهم على علي عليه السلام بالمسجد، والناس حوله، فصاح: لا حكم إلا لله ولو كره المشركون، فتلقت الناس فنادى لا - حكم إلا لله ولو كره المتلفتون، فرفع على عليه السلام رأسه إليه. فقال: لا - حكم إلا لله ولو كره أبو حسن. فقال علي عليه السلام: إن أبالحسن لا يكره أن يكون الحكم لله، ثم قال: حكم الله أنتظر فيكم. فقال له الناس: هلا - ملت يا أمير المؤمنين على هؤلاء فأفنيتمهم! فقال: إنهم لا يفنون، إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة. [٤٣٢]

تأملان

١- بلاء التحريف

لم يقتصر تأويل الحقائق وتحريف الآيات القرآنية على الخوارج بغية الوصول إلى مآربهم وأهدافهم المشبوهة، بل إذا تصفحنا تاريخ البشرية لوجدنا قضية تحريف الحقائق من الحراب والوسائل الفعالة التي إعتدتها الظلمة والطواغيت على مر العصور. فقد مارس هؤلاء أبشع تحريف لكلام الله وكلام الأنبياء والأولياء وفسروها حسب أهوائهم وهم يشدون هدايتهم:

الهدف الأول خداع الناس والآخر خداع أنفسهم. وما قضية النمروذ مع نبي الله إبراهيم عليه السلام وفرعون مع موسى عليه السلام والتي تطرقت لها أغلب الآيات القرآنية في سورة البقرة وطه وسائر السور منك ببعيد فقد كانوا يقولون كلمات حق ولا يريدون بها سوى الباطل من أجل خداع من حولهم والتغريب بهم. ونشاهد اليوم أبشع صور هذا التحريف وكلمات الحق التي يراد بها

نصائح الولاية، ج ٢، ص: ٢٨٠

الباطل من قبيل كلماتهم في الحرية والديمقراطية والكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان والثقافة والحضارة والمدنية ومكافحة الارهاب وما إلى ذلك من الشعارات التي تلتلق بها السنة الطواغيت والجبابرة، ولا يريدون بها سوى الباطل، بل هنالك منافسة كبرى بين هؤلاء الطغاة في إنتخاب الشعارات البراقة الأكثر تأثيراً وخداعاً من أجل نيل أهدافهم المشؤومة.

ومن هنا تشتد وظيفة العلماء الاعلام في ضرورة تنبيه الامة إلى عظم الأخطار المحدقة وضرورة التحلى باليقظة والوعى وعدم الانزلاق وراء هذه الشعارات الزائفة ليرفعوا من مستوى الامة الثقافى فلا تنطلى عليها خدع الاستكبار وألاعيبه.

٢- ضرورة تشكيل الحكومة

إشارة

إن مسألة تشكيل الحكومة تعد من المسائل التي كثر الحديث فيها الأوساط العملية على المستوى النظري دون أن يتسرب الشك إليها على المستوى العملي قط. فقد شهدت البشرية طيلة التاريخ قيام الحكومة سواء كانت قبيلة يتزعمها رئيس القبيلة أو هذه الحكومات الطبيعية التي يترأسها الملك والسلطان والحاكم، حتى تجلت اليوم بهذا الشكل الجماهيري فأصبح يقودها رئيس الجمهورية، ولا يحتاج قيامها إلى دليل فالمجتمع مهما كان حجمه إنما يحتاج إلى الأمن والاستقرار ورعاية الحقوق والحيولة دون نشوب النزاعات والخلافات، ولا- تيسر مثل هذه الامور إلأى ظل الحكومة ووجود الحاكم. وقد أتضح هذه المسألة اليوم أكثر في المجتمعات المعاصرة، فهناك الفعاليات والأنشطة الثقافية والاقتصادية والسياسية التي لا يكتب لها النجاح لولا الاشراف المباشر من قبل الحكومة، بل الحكومة هي تبلور هذه الأنشطة أن تركت ممارستها وتنفيذها لأبناء المجتمع، إلأ أن هنالك بعض الأفراد والنزعات في الماضي والحاضر التي تتبنى شعار غياب الحكومة وعدم الحاجة إليها وأن الشعب قادر على إدارة شؤونه دون قيام الدولة، بل ذهب الماركسيون أبعد من ذلك ليصرحوا بأن فلسفة قيام الدولة إنما تنبع من فكرة حفظ المصالح الطبقية! والرأسماليون هم الذين ينهضون بهذه المهمة، فاذا ما أزيلت الفوارق الطبقة فإن فلسفة تشكيل الحكومة ستنتفي ولا تعد هناك ضرورة لقيامها، إلأ أن الماركسية وسائر النزعات عجزت حتى الآن عن طرح

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٨١

نموذجها العملي في الميدان؛ الأمر الذي يؤكد خواء هذه النزعات وإقتصارها على الجوانب النظرية، لقد تناسى أصحاب هذه النظريات أن وظيفة الدولة والحكومة- ولو سلنا لما ذكره- لا تقتصر على حفظ المصالح الطبقية، بل هنا لك سلسلة من البرامج الاجتماعية والمشاريع والمخططات المرتبطة بكافة الأفراد في جميع المجالات والتي تنهض بعبئها الدولة. فالتربية والتعليم ضرورية لجميع الطبقات، فهل يمكن القيام بهذه الوظيفة دون برمجة وإختيار من ينهض بمسؤولية هذا العمل؟ الامور الاقتصادية في المجتمع في القطاع الزراعي والصناعي والتجاري والتي يتطلب كل حقل منها تخطيط شامل وكامل وتحتاج إلى إدارة صحيحة ووزير، قطاع الصحة المرتبط بكافة أبناء الشعب والذي يحتاج بدوره إلى مشاريع وبرامج تخصصية وإشراف تام، فهل يمكن قيام مثل هذه الامور في حالة غياب الدولة ناهيك عن النزاعات والخصومات والحاجة إلى البت في الدعاوى من قبيل الجهاز القضائي والمحاكم، وكل هذه الامور هي الاخرى لا تحقق إلأى ظل تشكيل الحكومة، والتي تقوم برئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية وما شابه ذلك. ومن هنا كانت الامم والشعوب رغم اختلاف أفكارها وعقائدها، إلأ أنها تتبنى نوعاً من أنواع الحكومة. وهذا هو الأمر الذي أشار إليه الإمام عليه السلام في الخطبة كما تطرق إلى ذكر الوظائف الملقاة على عاتق الحاكم، كما قال في موضع آخر بهذا الشأن

«سلطان ظلوم خير من فتنه تدوم» [٤٣٣]

حيث أشرنا سابقاً إلى أن الحكومات مهما كانت ظالمة متجبرة الا أنها تسعى لأن تراعى جانب الأمن والعدل وما إلى ذلك، مع العلم أنها قد تظلم إلأ أنها على الأقل لا- تدع الآخريين يمارسون الظلم، فالحكومة عادلة كانت أم ظالمة لن تدوم في ظل الفوضى والاضطراب، وأنها تؤول لا- محالة إلى السقوط الانهيار، ومن هنا فإن كافة الحكومات تسعى للحيولة دون الهرج والمرج وتقديم مشاريعها من أجل البناء والعمران، ولعل هذا المعنى يتجسد في ما أشار إليه الحديث المعروف.

«الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم».

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٨٢

خطأ ابن أبي الحديد

قال ابن أبي الحديد في تعليقه على هذه الخطبة: هذا نص صريح منه عليه السلام بأن الإمامة واجبة وقد اختلف الناس في هذه المسألة فقال المتكلمون: كلمة الإمامة واجبة؛ إلّا ما يحكى عن أبي بكر الأصم من قدماء أصحابنا أنّها غير واجبة؛ إذا تناصفت الأمة؛ ولم تتظالم.

وقال المتأخرون من أصحابنا: إنّ هذا القول منه غير مخالف لما عليه الأمة؛ لأنه إذا كان لا يجوز في العادة أن تستقيم أمور الناس من دون رئيس يحكم بينهم؛ فقد قال بوجود الرئاسة على كلّ حال؛ اللهم إلّا أن يقول: إنه يجوز أن تستقيم أمور الناس من دون رئيس؛ وهذا بعيد أن يقوله: فأما طريق وجوب الإمامة ما هي؟ فإن مشايخنا البصريين رحمهم الله يقولون طريق وجوبها الشرع، وليس في العقل ما يدل على وجوبها.

وقال البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريين، وشيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى:

إنّ العقل يدل على وجوب الرياسة؛ وهو قول الإمامية، إلّا أنّ الوجه الذي منه يوجب أصحابنا الرئاسة غير الوجه الذي توجب الإمامية منه الرئاسة، وذاك أنّ أصحابنا يوجبون الرئاسة على المكلفين، من حيث كان في الرياسة مصالح دنيوية، ودفع مضار دنيوية. والإمامية يوجبون الرئاسة على الله تعالى، من حيث كان في الرئاسة لطف وبعث للمكلفين عن مواقع القبائح العقلية.

والظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام يطابق ما يقوله أصحابنا، ألا تراه كيف علل قوله:

«لا بد للناس من أمير».

فقال في تعليقه: يُجمع به الفىء، ويقا تل به العدو وتؤمن به السبل، ويؤخذ للضعيف من القوى! وهذه كلّها من مصالح الدنيا.

فإن قيل: ذكرت أن الناس كافة قالوا بوجوب الإمام، فكيف بقول أمير المؤمنين عليه السلام عن الخوارج إنهم يقولون:

«لا إمرأة».

قيل: إنهم كانوا في بدء أمرهم يقولون ذلك، ويذهبون إلى أنه لا حاجة إلى الإمام، ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي.

ويبدو أن خطأ ابن أبي الحديد نابع من حصره الوظائف السبع التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام كهدف للحكومة بالمصالح

المادية، والحال أنّ العبارة

«يعمل في إمرته المؤمن»

نقمة الولاية، ج ٢، ص: ٢٨٣

إنّما تعالج المسائل المعنوية، لأنّ عمل المؤمن يهدف الآخرة- على كل حال وعلى فرض أن لكافة هذه الامور صبغة مادية، فإنّ كلام الإمام عليه السلام يدور حول محور إمارة الناس وحكومتهم التي تشكل أحد الأبعاد الوجودية للإمام المعصوم، لأنّ عقيدة علماء الإمامية ومتكلميهم في الإمام أنّه الحاكم في امور الدين والدنيا والهادى إلى الله ومفسّر القرآن ومبين أحكامه وأعماله حجة على الناس، ومن هنا لا بدّ أن يكون معصوماً، ومعلوم أن المعصوم لا يعرف سوى الله، ولذلك يعتقدون أن الإمام ينصب من جانب الله وقد أجاز بعض شراح نهج البلاغة على كلام ابن أبي الحديد بأنّ الخطبة تعالج قضية نصب الأمير وليست لها صلة بنصب الإمام من الله ولذلك قال عليه السلام

«لا بدّ للناس من أمير بر أو فاجر»

ونعلم أن الامير الفاجر لا يمكن أن يكون إماماً. الا ان ما أوردناه هو الجواب في أن الامارة جزء من مسؤوليات الإمام (لابدّ من الدقة في الأمر)، والشاهد على ذلك أن متكلميها ذكروا في كتبهم العقائدية المصالح الدنيوية وما ورد في هذه الخطبة حين ذكروهم لأدلة

وجوب نصب الإمام. بعبارة أخرى فان الشيعة لا ترى الامرة منفصلة عن الإمامة، أما الاذعان لامرة الفاجر فليست على أساس أنها هدف نهائي، بل يدفع إليها الاضطرار حين تتعذر حكومة الإمام المعصوم.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٨٥

الخطبة [٤٣٤] الحادية و الاربعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام
وفيها ينهى عن الغدر ويحذر منه

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى ثلاثة أمور مهمة: الأول: أهمية الوفاء وصدق الحديث، وذم ناقضى العهد، الثاني: أن الخداع والغدر والخيانة ليست من العقل والذكاء كما يظن ذلك الغدر الفجرة. والعقل والفتنة في الصدق والوفاء بالعهد. الثالث: ضرورة إغتنام الفرص من أجل المبادرة إلى الآخرة والوفاء بالعهود والالتزام بالمواثيق.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٨٧

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصُّدْقِ وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْفَى مِنْهُ وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعِ. وَلَقَدْ أَضَيَّبْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغُدْرَ كَيْسًا وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ. مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ! قَدْ يَرَى الْحَوْلَ الْقَلْبَ وَجَهَ الْحِيلَةَ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدْعُهَا رَأَى عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهَزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيَجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ».

الشرح والتفسير

لم يذكر شراح نهج البلاغة - حسب علمنا - سبب إيراد هذه الخطبة، إلا أن الرابطة المعنوية بين هذه الخطبة والخطبة رقم ٣٥ وسائر القرائن تشير إلى ان هذه الخطبة ناظرة لمعركة صفين وقضية التحكيم، لأن مسألة التحكيم المأساوية إتخذت أبعاداً واسعة في البحث والنقاش بين صفوف المسلمين - ولعل بعض الجهال نسب مكر عمرو بن العاص وخيانتة وغدره إلى الكياسة والفتنة؛ الأمر الذي قد يشجع الآخرين لممارسة مثل هذه الأعمال الشائنة البعيدة عن الإسلام وتعاليمه الحقّة، ومن هنا خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة ليقبر هذه الأفكار المنحرفة ويحد من شياعها بين الناس، ثم عرض بالذم إلى المكرو والخديعة ونقض الميثاق وأشار إلى العواقب الوخيمة التي تفضي إليها هذه الأعمال ثم أثنى على الوفاء والصدق فقد إستهل الخطبة بخطاب الجميع «أيها الناس إن الوفاء توأم الصدق».

التوأم بمعنى الذي يولد مع الآخر في حمل واحد، ويستعمل بشأن كل شيئين يرتبطان معا برابطة وثيقة، ومن هنا فقد شبه الإمام عليه السلام فضيلتي الوفاء والصدق بالتوأم ولعل التمعن في مفهوم هاتين الصفتين ومصدرهما الفكري

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٨٨

الروحي يفيد أن الأمر كذلك، فالوفاء يعني الالتزام بالعهد، وهو في الواقع نوع من الصدق، كما أن الصدق نوع من الوفاء. والصدق ذو معنى واسع وشامل لا يقتصر على الحديث، بل يشمل العمل أيضا، ومن هنا صرح القرآن قائلا: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا

عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» [٤٣٦] فمن الواضح أن المراد بصدق العهد في الآية هو الصدق في العمل، ولذلك أردت بالقول «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ». ومن هنا تتضح عمق الرابطة بين الوفاء والصدق، فلو أبرم شخص عهداً ونقض عهده فقد كذب، ومن هنا يمكن اعتبار ناقض العهد كاذباً، ولما كان حسن الصدق وقبح الكذب ظاهر لكافة الناس، فإن الإمام عليه السلام قرن بهما الوفاء بالعهد ونقضه ليتضح حسنهما وقبحهما. ثم تطرق الإمام إلى الآثار الايجابية للوفاء بالعهد فقال:

«ولا أعلم جنّة [٤٣٧] أوقى منه»،

فهذه في الواقع من أهم آثار الوفاء بالعهد وبركاته الدنيوية في أنه جنّة وثيقه؛ لأن أساس الحياة الاجتماعية يتمثل بالتعاون والتكافل والثقة المتبادلة والالتزام بالعهود والمواثيق الفردية والاجتماعية، بعبارة اخرى فإن الثقة المتبادلة تذلل كثيراً من المصاعب، بينما يتعذر حل هذه المصاعب إذا ما انعدمت الثقة وسلب الاعتماد بين الناس، ولذلك كانت الدعامة الأصلية للدين تتجسد في الوفاء بالعهود والمواثيق، حتى ورد في الحديث النبوي المعروف

«لادين لمن لاعهد له» [٤٣٨]

كما ورد أيضاً

«إذا نقضوا العهد سلط الله عليهم عدوهم» [٤٣٩]

جدير بالذكر أن الجنّة بمعنى الدرع الذي يقي أخطار العدو في ميدان القتال. تشبيه الوفاء بهذا الدرع يفيد كونه يشكل الوسيلة الدفاعية تجاه الأخطار الاجتماعية التي تفرزها حالة الفوضى وعرقلة القوانين والمقررات. ثم أشار عليه السلام إلى أبعاده المعنوية والاخرية فقال

«وما يغدر من علم كيف المرجع»؛

الأمر الذي أشار إليه الإمام عليه السلام في نهج البلاغة بقوله

«لولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدره فجرة، وكل فجرة كفره ولكل

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٨٩

غادر لواء يعرف به يوم القيامة» [٤٤٠]

. ولما كان انحراف المجتمع عن المبادئ الأخلاقية يقود إلى تنكر القيم وتبدلها، حتى يعدد العهد والمكر والخداع كياسة والالتزام بالعهود سذاجة وبلاهة فقد قال الإمام عليه السلام

«ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كياساً ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحلية!»

نعم فإن قيم المجتمع إذا تنكرت بفضلها المعيار والمحك للحسن من القبيح فإن ظهور مثل هذا الخلط لا يبدو مستغرباً، فمن الطبيعي أن يصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والملك شيطاناً والشيطان ملكاً وقديساً. ومما يؤسف له أن هذه الظاهرة قد تفتت وبشكل واسع في عالمنا المعاصر فقد ينظر إلى الثعالب المكورة في السياسة العالمية على أنهم الساسة المهرة، بينها يرمون بالسذاجة وانعدام التجربة من يلتزم بالعهود والمواثيق ويراعون القيم الإنسانية والإلهية في سياستهم، وما أصعب العيش في مثل هذا العالم، وبالطبع فإن نقض العهود واعتماد الكذب والخداع قد يجر على صاحبه بعض المنافع على المدى القريب ويحظى بمدح هذا وثناء ذاك، إلّا أن المفروغ منه أن عرى المجتمع إنما تؤول إلى التصدع والانهيال على المدى البعيد. ومن هنا فإن الأفراد من أهل الإيمان والوفاء إنما يسعون لتحسين أموالهم وحفظ ثرواتهم من خلال الامانة واحترام العهد في المعاملة، والدولة هي الاخرى مدعوة لرعاية هذا الأمر من أجل كسب ثقة سائر البلدان واستقطابها لضمان مصالح البلاد الاقتصادية. ومن هنا صرحت الرواية

«الأمانة تجلب الغنى والخيانة تجلب الفقر» [٤٤١]

ولا شك أن هناك رابطة حميمة بين الأمانة والوفاء، رغم كونهما مفهومين منفصلين، ولذلك قال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«الأمانة والوفاء صدق الأفعال» [٤٤٢]

. قال أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ويدعى عبدالرحمن بن سبابة: ساءت حالي بعد وفاة أبي فلما حججت البيت رأيت الإمام الصادق عليه السلام فقال لي: أعطك؟ قلت بلى جعلت فداك، قال: «عليك بصدق الحديث وأداء الامانة تشرك الناس في أموالهم هكذا- وجمع بين أصابعه- قال فحفظت ذلك عنه، فزكيت ثلاثمائة ألف درهم». [٤٤٣]

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٩٠

ثم رد عليه السلام على من إتهمه بعدم العلم بالسياسة فقال:

«ما لهم قاتلهم الله قد يرى الحول [٤٤٤] القلب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأى العين بعد القدرة عليها» أما ذلك الذى لا يتورع عن الذنب والمعصية وعدم الإكتراث للدين فإنه ينتهز الفرصة ليفعل ما يشاء فيراه البلهاء سياسياً ناجحاً «وينتهز [٤٤٥] فرصتها من لاجريه [٤٤٦] له فى الدين»

فالإمام عليه السلام يقول إن عدم استغلالى للفرص الغدرة من أجل التفوق على العدو لا يعنى عدم علمى بالامور، بل ذلك يعنى أنى أخاف الله، وإنى لا اعتمد الورع والتقوى والعدل حتى مع أعدى أعدائى، ولا أرى الغاية تبرر الوسيلة، بل لا أومن بالنصر كيفما كانت قيمته وثمرته، إنما أن أعدائى لا- يراعون أى من هذه المبادئ، فهم يقارفون كل جناية ولا يتورعون عن أية جريمة، فلا يقيمون وزناً لدماء الأبرياء، ولا- يتخرجون من الظلم والعدوان، ولا- يلتزمون بالعهود والمواثيق، نعم ليس لهم من هم سوى تحقيق أهدافهم اللامشروعة بأية وسيلة. فاذا رأى الناس تصرفاتهم وتخرجى عدوهم ساسة أكفاء، والحال ما هم ساسة وأنهم لحفنة من الظلمة الذين يفتقرون إلى الورع والتقوى.

السياسة الإلهية والسيطانية

إن الاختلاف فى الاساليب السياسية إنما تفرزه الرؤى بشأن الحكومة، فالسياسة التى ينتهجها اولئك الذين ينشدون الحكومة من أجل ضمان مصالحهم الشخصية أو الفئوية، تختلف عن السياسة التى يتبعها اولئك الذين لا يرون فى الحكومة سوى وسيلة لحفظ القيم والمثل.

فالحكومات السابقة كانت تتصف بالدكتاتورية المقيتة التى تتكرس فى فرد واحد مستبد غاشم يسعى جاهداً لتحقيق مآربه وإشباع رغباته وضمان مصالح بطانته معتمداً منطلق القوة والعنف من أجل ترسيخ دعائم حكومته فلا يرى من حرمة لقيم ومثل سوى تلك التى تخدم

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٩١

مصالحه أما اليوم فالحكومات وإن تغيرت شكلاً، إلا أن جوهرها وماهيتها لم تختلف كثيراً عن تلك التى كانت سائدة فى الماضى، وإن كان المعروف عن هذه الحكومات إقتحامها الميدان كفتات وأحزاب. على سبيل المثال فإن الأحزاب هى التى تمسك بزمام الامور فى البلدان الصناعية المعاصرة، بحيث يسعى كل حزب لضمان مصالح فئه معينه، ثم يعتمد كافة الوسائل من أجل الحصول على أكثر عدد من الآراء بغية الوصول إلى الحكومة، فاذا تسلموا الحكومة، أتوا بالأفراد الذين يعملون على ترسيخ دعائم حكومته وبالطبع فإن مثل هذه الحكومات قد تتبنى بعض الشعارات من قبيل حقوق الإنسان وحرية المرأة وأحياناً يطرحون بعض المسائل الأخلاقية، إلا أنهم يعلمون كما يعلم الآخرون أنهم ليسوا جادين فى ما يقولون، فاصواتهم عادة ما تتعالى بحجة أن البلد الفلانى- إذا كان من أعدائهم- قد إنتهك حقوق الإنسان، وإن كان من أصدقائهم فقد يحظى بتأييدهم ودعمهم وإن إنتهك تلك الحقوق الف مرة كل يوم- وفى مقابل هذه الحكومات، هنالك حكومة الأنبياء والأولياء التى لا تعرف المصالح الفردية ولا الفئوية، وهى قائمة على أساس القيم

والمثل. فالحكومات السابقة تصرح علنا بتعذر الجمع بين السياسة والأخلاق، وعليه فالحاكم الذي يراعى المبادئ الاخلاقية إنما يفتقر في الواقع حسب ظنهم إلى العقل السياسي؛ وسوف لن يكتب لحكومته الدوام والاستمرار، فالغاية تبرر الوسيلة، وكل ما يقرب من الهدف فهو حسن ومطلوب. بينما ترى الحكومة الأخيرة ان شعارها يتكسر في

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [٤٤٧]

أو

«لو لا ... ما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم...» [٤٤٨]

أو

«وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدى صلى الله عليه وآله» [٤٤٩]

ومن الطبيعي أن يكون هناك بوناً شاسعاً بين سياسة الحكومات بالمعنى الأول والحكومات الإلهية، بل هناك تعارض وتضارب بينهما فالطائفة الاولى تضحى بكل القيم وتذبحها من أجل الوصول إلى دفة الحكم، بينما تخلت الطائفة الثانية بشهادة التاريخ عن الحكومة من أجل الحفاظ على القيم والمثل. وهذا ما وضحه الإمام عليه السلام في الخطبة

«والله ما معاوية بأدهى منى ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٩٢

أدهى الناس» [٤٥٠]

وقال عليه السلام:

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؛ والله لا أطور به، ما سمر سمير، وما أم نجم في السماء نجماً» [٤٥١]

والاختلاف بين هاتين الرؤيتين في السياسة الإلهية والسياسة الشيطانية هو الذي يجعل بعض الأفراد يشكلون أحياناً على الساسة الربانيين ويحملون أعمالهم على السذاجة وعدم المعرفة بفنون السياسة، بينما يغفلون عن حقيقة كبرى وهي أن هؤلاء الأفراد إنما يحثون السير إلى عالم آخر لا تجيز مبادئه وضوابطه التشبث بأي أسلوب وطريقة. فمثلاً لما غلب معاوية أهل العراق على الماء منعهم منه، فلما حمل أهل العراق إنكشف أهل الشام عن الماء، وملك أهل العراق المشرعة - فقال أصحاب على عليه السلام: أمنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك - فقال: «لا، خلوا بينهم وبينه، لا أفعل ما فعله الجاهلون». [٤٥٢] وألاً عجب من ذلك عدم التفات رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أصحابه الذين أشاروا عليه بمنع اليهود الماء حين محاصرة قلاع خيبر فلم يجبهم صلى الله عليه وآله [٤٥٣] ويتعجب أولئك الغافلون حين يسمعون مسلم بن عقيل وقد إمتنع عن قتل ابن زياد غيلة في دار هانئ بن عروة قائلاً:

«الإيمان قيد الفتك» [٤٥٤]

. أضف إلى ذلك فإن علياً عليه السلام إمتنع عن قتل عمرو بن العاص في صفين حين كشف عن عورته. فكل هذه الامور لا يرونها تنسجم والسياسة، بل السياسي الفذ في نظرهم من يدافع عن العهدو والمواثيق ويلتزم بالمبادئ إذا كانت تجرى لصالحه، وإلاً فلا بد أن يضربها جميعاً عرض الحائط. فالسياسي الورع والتمتقى يرى النصر على الأعداء إنما يحتل الدرجة الثانية، والدرجة الاولى تتمثل بحفظ المبادئ ورعاية القيم والمثل. والجدير بالذكر ما أورده ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة حين تحدث عن مروءة ووفاء أحد أحفاد الإمام الحسن المجتبي عليه السلام هو إبراهيم بن عبدالله فقال: «وكان لغير إبراهيم عليه السلام من آل أبي طالب من هذا النوع أخبار كثيرة، وكان القوم أصحاب دين ليسوا من الدنيا بسبيل، وإنما يطلبونها ليقموا عمود الدين بالامرء فيها، فلم يستقم لهم، والدنيا إلى أهلها أميل».

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٩٣

الخطبة [٤٥٥] الثانية و الاربعون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
وفيه يحذر من اتباع الهوى وطول الأمل في الدنيا.

نظرة إلى الخطبة

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة على ضوء نقل نصرين مزاحم في كتاب صفين بعد موقعة الجمل حين ورد عليه السلام الكوفة، وهي تعالج غرور الأفراد وطمعهم بعد تحقيق النصر ولا سيما إن كانت هناك غنائم؛ الأمر الذي يثير حفيظة البعض للتكالب على الدنيا وبالبيع يتطلع إلى المزيد من كان له دور أكبر في المعركة والحصول على الغنائم. فهدف الإمام عليه السلام تحذير الناس وتذكيرهم بالأهداف المعنوية التي قاتلوا من أجلها، كما يحذرهم من رذيلتي إتباع الهوى وطول الأمل الذان يصدان عن الحق وينسيان الآخرة. ثم يؤكد الإمام عليه السلام على قصر عمر الدنيا وضرورة إغتنام الفرص فيها من أجل العمل الصالح والترود للآخرة، حيث يوجز هذا الأمر الحيوي بعبارات قصيرة بليغة المعنى.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٩٥

القسم الأول

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ فَيَصِيدُ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ».

الشرح والتفسير

أوردنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام خطبها بعد الجمل حين ورد الكوفة، بهدف الحد من الغرور الذي تفرزه طبيعة النصر والتنافس على غنائم المعركة، فقال عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ فَيَصِدُ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ».

والعبارة الآخرة مهمّة ذات أثر بالغ في مصير الأمّة، بحيث ورد التأكيد عليها في أحاديث النبي صلى الله عليه وآله، كما أشار إليه الإمام عليه السلام سابقاً في الخطبة الثامنة والعشرين [٤٥٦] ويتضح من معنى مفردة الهوى التي تشير إلى أهواء ورغبات النفس الأمارّة بالذات الدنيوية دون الحدود والقيود مدى صدها الإنسان عن الحق ومنعه من بلوغه، لأنّ الهوى حجاب على العقل يحول دون إدراك الحقائق ومشاهدتها، بينهما يزين له هذا الهوى الباطل لبيديه له أنصح من الحق، في حين يشوه له الحق ويظهره له كاشع صورة للباطل، وقد لمست هذه الحقيقة كثيراً خلال تجربتي ومطالعتي لسيرة الماضين في كيفية تبرير أتباع الهوى لبعض صور الحق والباطل وتغيير هويتهما. وأما طول الأمل فيستقطب جميع طاقات الإنسان وقواه حتى ينسيه الآخرة، ولما كانت قوى الإنسان محدودة فإنّه يستهلكها في الآمال الكاذبة اللامتناهية بحيث لا يبقى لنفسه من قوة يدخرها للآخرة، ولا سيما أنّ الآمال لا تعرف للنهاية

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٩٦

من معنى، وتقتضى طبيعتها أن يتجه الإنسان إلى الأخرى فور ظفره بالأولى حتى يجند نفسه على الدوام بغية الظفر بها جميعاً، بل إن تحقيقه لأمل ربما يدفعه لآخر، لأنّ الآمال عادة مترابطة مع بعضها البعض، وعلى هذا الضوء فسوف لن يبقى لديه من وقت كما لا

تبقى له من قوة، وبالتالي سوف لن يمتلك الدفاع نحو الآخرة. وبالطبع فإنه لن يفيق من غفلته حتى يصفعه الموت، وقد ولى العمر وتصرفت أيامه وفرصه فلم يظفر بأماله ولم يدرك آخرته. وما أروع ما قال أبو العتاهية حين دعى لإنشاد الشعر بحضرة هارون حين أراد أن يفتح له قصرًا جديدًا في مصر:

عش ما بدا لك سالمًا في ظل شاهقة القصور يهدى إليك بما اشتهيت لدى الرواح وفي الكبور حتى إذا ترعزت النفوس ودحرجت فهناك تعلم موقنًا ما كنت إلّافي غرور. [٤٥٧]

فشعر من حول هارون بالامتعاظ من هذه الأبيات على أنها لا تنسجم والمناسبة، إلّا أنّ هارون مدحه وأثنى عليه. وقد علق بعض شراح نهج البلاغة على أنّ طول الأمل ينسى الآخرة وذلك لأنّ هذا الفرد يغتر بمظاهر الدنيا ويرى في الموت الوسيلة التي تقطعه عن هذه الدنيا، فينسى المعاد ويوم القيامة جدير بالذكر أنّ للأمل دور إيجابي في حياة الإنسان والذي عبر عنه القرآن بالرجاء، ولاسيما إذا كان مقرونًا بالتوكل على الله.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٩٧

القسم الثاني

إشارة

«أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَاءً؛ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا ضِيَابَةٌ كَصِيَابَةِ الْإِنَاءِ اضْطَبَّهَا صَابُهَا. أَلَا وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلِّ مِنْهُمَا بُنُونٌ. فَكُونُوا مِنْ أَوْلَادِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَوْلَادِ الدُّنْيَا. فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ.»

الشرح والتفسير

واصل عليه السلام خطبته التي ابتدأها بدم إتباع الهوى وطول الأمل الذان يصدان عن الحق وينسيان الآخرة، وبالتالي يحولان دون سعادة الإنسان وفلاحه، ليقدم تحليلًا رائعًا عن أوضاع الدنيا والآخرة فقال

«أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَاءً [٤٥٨]، فلم يبق منها إلّا صيابة كصبابة [٤٥٩] الإناء اصطبها صابها.»

فقد شبهت الدنيا هنا بالكائن الذي يعود بسرعة إلى مسيرته، الأمر الذي يفيد حقيقة الحركة السريعة لعمر الإنسان، الحركة الخارجة عن إرادة الإنسان وتشمل كافة الكائنات الحية سوى الذات الإلهية المطلقة، ولا يستثنى من تلك الحركة الكواكب والمجرات والسموات والأرضين لتنتهي إلى الفناء والزوال الدنيوي ليكون نافذة على عالم الخلود والبقاء. فالطفولة تتحرك نحو الفتوة والشباب، والفتوة تنطلق نحو الكهولة التي تنتهي بالموت، هذا إذا جرت الأمور وفق القانون الطبيعي والاقدر يتساقط بعض الاطفال والشباب من هذه القافلة لتنتهي

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٩٨

أعمارهم دون بلوغ الكهولة. فالإمام عليه السلام يقول أنّ عمر الإنسان قصير قليل كبقية الماء واللبن في الإناء التي تعلق به عند قلبه، أو بعبارة أخرى فإنّ الإنسان حين يقبل إناءً مملوءاً بسائل ثم يعيد الإناء إلى وضعه الأصلي إنّما يتبقى فيه مقدار من الماء يطلق عليه الصبابة وهذه في الحقيقة هي عمر الإنسان ثم قال عليه السلام

«أَلَا وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ»

فكلما قصر عمر الدنيا اقتربت الآخرة، فالواقع إنّنا نركب قطار الزمان الذي يسير بسرعة نحو الآخرة، والدقائق والساعات والأيام والأسابيع والأشهر والسنوات إنّما تكشف عن سرعة مسيرة قطار الإنسانية بأجمعها، ثم أوضح عليه السلام وظيفة الناس «ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ كل ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة»

نعم هناك خطان: خط عبدة الدنيا وخط عشاق الآخرة، وإن كانت هنالك بعض الجماعات المتذبذبة بين الخطين. ولا يعرف أبناء الدنيا سوى النوم والأكل والشرب والشهوة والطرب والعيش والملذات، فهم متعلقون بظاهر الدنيا دون أن يكفوا أنفسهم عناء التفكير في الآخرة، بل هم عنها عمون «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» [٤٦٠]. فكأنهم مخلدون في الدنيا وليس هنا لك من آخرة، فوثقوا بأموالهم وثوراتهم على أنها تخلدهم في دنياهم «يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ». أما أبناء الآخرة فقد نظروا بعين العقل والبصيرة إلى الدنيا وأدركوا أنهم مفارقوها ومرتلون عنها فلم يطمأنوا إليها. لقد طلقوها كما طلقها الإمام عليه السلام ثلاثة لارجعته فيها. فقد إتعلوا بالقرآن الذي أوقفهم على طبيعته خسرتها «وَالْعَصِيرِ* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ». أما التعبير عن عبدة الدنيا بأبناء الدنيا وعن المؤمنين الصالحين بأبناء الآخرة، وذلك لأن الابناء إنما يشبهون إلى حد كبير آبائهم وامهاتهم بفعل الصفات الوراثية التي تنتقل إليهم عن طريق الجينات، وهو الشبه الذي يدعو إلى المحبة والارتباط. نعم عبدة الدنيا أبناؤها، ومن هنا أحاط حب الدنيا بقلوبهم بحيث أصبحوا لا يرون سوى الدنيا ولا يجنون سواها، وشعارهم فيها «إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا» [٤٦١] وإن كانوا ظاهرا يحملون الإسلام. أما أبناء الآخرة فقد سيطر حب الله على

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٢٩٩

قلوبهم، فهم يتزودون من الدنيا إلى الآخرة دون أن يغرقوا فيها.

وقال بعض شراح نهج البلاغة أن المراد بالعبارة هو أن المؤمنين سيكونون في الآخرة بمثابة الأبناء الذين يرتمون بأحضان آبائهم، بينما سيكون أبناء الدنيا كالتامى إلّا أن هذا التفسير لا ينسجم والعبارة «إن كل ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة»،

بل يفيد هذا التعبير أن الحياة الدنيا المادية ليست سوى الجحيم الذي يرتمي فيه أبناء الدنيا إذا افتقرت إلى الإيمان والتقوى، وهذا ما أشار إليه القرآن بقوله «فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ» [٤٦٢]

أما إن كانت هذه الحياة مقرونة بالإيمان والتقوى والصبغة الآخروية فتتجسم يوم القيامة على هيئة جنة سترتمى في أحضانها المؤمنون. ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلاً:

«وإنّ اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»

فالعبارة تفيد من جهة وجود الفرصة من أجل إستزادة العمل الصالح، وإذا ما شوهده المحسنون والمسيئون، والصالحون والطالحون، واولياء الله وأعداء الله، وحزب الله وحزب الشيطان إلى جانب بعضهم البعض الآخر في هذه الحياة الدنيا فذلك لأنّ الدنيا دار عمل لاحساب فيها ولاجزاء وعقاب. ومن جهة أخرى تحذير بأنّ نهاية العمر في الدنيا تعنى إغلاق صحيفة الأعمال وليس هنالك من سبيل للعودة والعمل وتدارك ما فرط، كما ليس للندم من أثر أو فائدة، فقد قال على عليه السلام

«لا عن قبيح يستطيعون إنتقالاً ولا في حسن يستطيعون إزدياداً» [٤٦٣]

كما ليس هناك من جدوى لصراخهم «رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا» [٤٦٤] كما لا تنفيذهم الآمال والأمانى «فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» [٤٦٥]

الموت يعنى إغلاق صحيفة الأعمال

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٠٠

ما ورد في الخطبة بهذا الخصوص ممّا أكدته الآيات القرآنية، حتى صرحت بعض الآيات أن أبواب التوبة تغلق حين نزول عذاب الاستئصال (من قبيل العذاب الذي إستهدف إجتثاث جذور الأقوام السابقة حين طغت في الأرض) بحيث لم يعد هناك من مجال لتدراك الأعمال، لأنّ الإنسان في ظل هذه الظروف إنّما يودع الدنيا وينتقل إلى الآخرة مروراً بالبرزخ، ومن ذلك قوله سبحانه: «فَلَمَّا

رَأَوْا بِأَسَانَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَّهٖ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسَانَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ». [٤٦٦]. كما نعلم بأن فرعون لما أدركه الغرق وشعر بالموت أظهر الإيمان ولكن أغلقت بوجهه كافة أبواب التوبة فاتاه النداء «الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» [٤٦٧]. ونستج من هذه الآيات وسائر الآيات الواردة بهذا الشأن أن هناك سنة إلهية تفيد إغلاق صحيفة الإنسان وانقطاع أعماله حين يكون على أبواب الموت المحتم، فليس هنالك من سبيل للعودة والإصلاح. وهنا يبرز هذا السؤال وهو أن أغلب الروايات صرحت بأن آثار الأعمال الحسنة والسيئة تصل الإنسان بعد موته بحيث تثقل صحيفة أعماله خيرا أم شرا، فقد ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«سبعة أسبابا يكتب للعبد ثوابها بعد وفاته، رجل غرس نخلا أو حفر بئرا أو أجرى نهرا أو بنى مسجداً أو كتب مصحفاً أو ورث علماً أو خلف ولداً صالحاً يستغفر له بعد وفاته» [٤٦٨]

ومن الواضح أن ما جاء في هذا الحديث نموذج باراز لأعمال الخير، أفلا يتنافى هذا الأمر وما ذكر سابقاً؟ والجواب على هذا السؤال واضح فليس هنالك من عمل جديد يقوم به الإنسان بعد الموت، لا- إن آثار الأعمال السابقة لا تصل إليه. نعم صحيفة الأعمال الجديدة مغلقة ولا يضاف إليها شيئاً، أما صحيفة أعماله السابقة قبل الموت فهي مفتوحة دائماً وإن الإنسان يقطع ثمار عمله الصالح في البرزخ ويوم القيامة، وتصله حتى الأعمال الصالحة فيما إذا خلف ولداً صالحاً يدعو له ويستغفر له.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٠١

الخطبة [٤٦٩] الثالثة الاربعون

إشارة

من كلام له عليه السلام

وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام بعد إرساله جرير بن عبدالله البجلي إلى معاوية ولم ينزل معاوية على بيعته.

نظرة إلى الخطبة

تشتمل الخطبة على قسمين يختلف كل منهما عن الآخر، ويبدو أن كل منهما قد ورد مستقلاً في موضعه، إلا أن السيد الرضى (ره) جمعهما لمناسبة- فالقسم الأول يتعلق بقضية جرير بن عبدالله البجلي الذي كان عاملاً لعثمان على ثغر همدان. فأما خبر جرير بن عبدالله البجلي وبعث أمير المؤمنين عليه السلام إياه إلى معاوية، فقد ورد في الأخبار: لما قدم عليه السلام الكوفة بعد إنقضاء أمر الجمل، كاتب العمال، فكتب إلى جرير بن عبدالله البجلي. فلما قرأ جرير الكتاب، قام فقال:

أيها الناس، هذا كتاب أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان، ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقه بها. فقال الناس سمعاً وطاعة. فكتب جرير إلى على عليه السلام جواب كتابه بالطاعة وكتب على عليه السلام إلى الأشعث وكان عامل عثمان على أذربيجان يدعوه إلى البيعة والطاعة. وكتب جرير بن عبدالله البجلي إلى الأشعث يحضه على طاعة أمير المؤمنين على عليه السلام وقبول كتابه. فقبل

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٠٢

الأشعث البيعة وسمع وأطاع، وأقبل جرير سائراً من ثغر همدان حتى ورد على عليه السلام الكوفة فبايعه. ولما أراد على عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولاً، قال له جرير: إبعثنى يا أمير المؤمنين إليه؛ وأدعوا أهل الشام إلى طاعتك وولايتك فجلهم قومي وأهل بلادى وقد رجوت ألا يعصوني.

فبعثه على عليه السلام. فانطلق جرير حتى أتى الشام ونزل بمعاوية ودفع إليه كتاب على عليه السلام. فقال معاوية أنظر وتنظر؛ واستطلع رأى أهل الشام. فكتب له الإمام عليه السلام: إنما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة، وأراد أن يريثك ويبيطك، فان بايعك الرجل، وألما فاقبل. قيل ولما أبطأ جرير عند معاوية إتهمه الناس، فلما سمع جرير ذلك فارق علياً عليه السلام فلحق بقرقيسياء (بلد بالخابور عند مصبه) ولحق به ناس من قسر من قومه، واقام فيها حتى توفي. [٤٧٠] على كل حال مكث جرير عدّة شهور في الشام، حتى اقترح أصحاب الإمام عليه السلام عليه قتال أهل الشام، إلّا أنّ الإمام عليه السلام لم يجبهم إلى ذلك وجرير هناك، وأنّه قد وقت وقتاً لجرير، فلا بدّ من إنتهاء، ذلك الوقت ومعرفة النتيجة.

القسم الثاني يتناول إصرار الإمام عليه السلام على قتال أهل الشام، حيث اورد نصرين مزاحم في كتاب صفين أنّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام لما كلمه أحد جنود الشام اثناء معركة صفين بالهدنة وترك القتال على أن يرجع أهل العراق إلى العراق وأهل الشام إلى الشام، فردّ عليه الإمام عليه السلام رداً قاطعاً بمواصلة القتال ثم تطرق إلى أسباب ذلك.

وأخيراً فالقسمان يوضحان بجلاء أن الإمام عليه السلام رجل الصلح والسلام في ظروف الأمن والاستقرار، فاذا نشبت الحرب كان بطلها المجرب وليثها الغاضب.

ونتجه بعد هذه المقدمة إلى شرح الخطبة.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٠٣

القسم الأول: رجل الحرب والسلام

إشارة

«إِنَّ اسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِيرٍ عِنْدَهُمْ، إِغْلَاقٌ لِلشَّامِ وَصَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَن خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ. وَلَكِنْ قَدْ وَقَّتْ لِحَرْبِهِ وَقْتًا لَا يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلَّا مَخْذُوعًا أَوْ عَاصِيًا. وَالرَّأْيُ عِنْدِي مَعَ الْأَنَاةِ فَأَرُودُوا وَلَا أَكْرَهُ لَكُمْ الْإِعْدَادَ».

الشرح والتفسير

كما أوردنا سالفاً فإنّ الخطبة بشأن قضية جرير بن عبد الله حين كان عاملاً لعثمان على همدان، ثم قدم الكوفة فوجهه الإمام عليه السلام إلى الشام لأخذ البيعة من معاوية، إلّا أنّ فجاج مهمّة جرير كان يبدو ضعيفاً، ومن هنا رأى أصحاب الإمام عليه السلام قتالهم. فأجابهم الإمام عليه السلام قائلاً

«إن استعدادي لحرب أهل الشام وجرير عندهم، إغلاق للشام وصرف لأهله عن خير إن أرادوه»

فالعبرة تفيد أنّ الإمام عليه السلام بصفته زعيم الدولة الإسلامية لا يرى في الحرب والقتال من وسيلة صحيحة لحل الاختلافات، ولا بدّ من إبقاء باب السلام مفتوحاً لاتمام الحجّة، فان لم تجد نفعاً، آنذاك تكون الحرب هي العلاج. والطريف في الأمر أنّ الإمام عليه السلام لا يأبه بمعاوية وإنّما يفكر بأهل الشام، فقال

«إغلاق للشام»،

ثم أضاف قائلاً

«وصرف لأهله عن خير إن أرادوه»

في إشارة إلى عبثية جر أهل الشام للقتال وصدّهم عن الصلح والسلام وإن كانت لكبيرة على بعض الأفراد المتحمسين، إلّا أنّ الزعيم العالم لا ينبغي أن تستمليه العواطف والأحاسيس، فلا يتصرف إلّا من خلال ضبط النفس والعقل والمنطق بما يرتضيه الحق

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٠٤

سبحانه وتعالى. ثم أزال الإمام عليه السلام الإيهام الذي قد يتسرب إلى عقول هؤلاء الأفراد باستمرار هذه الحالة القلقة فقال
«ولكن قد وقت لجرير وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً»

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام عين مدة بغية الحفاظ على مصالح المسلمين وعدم فوات الآوان ومرور الفرصة، فقد كان يعلم أن معاوية قد يماطل في الوقت ويشغل جرير، وأقصى ذلك هو الابهة والاستعداد للقتال، ثم يرد بالسلب على دعوة الإمام عليه السلام بالبيعة في الوقت الذي تسلب الفرصة والمبادرة من الإمام عليه السلام وصحبه. إما لماذا حصر الإمام عليه السلام بقاء جرير عند معاوية باحتمالين؛ الخداع أو العصيان، بينما يمكن أن تكون عرضت له بعض الوقائع من قبيل المرض وما شاكل ذلك، وذلك لأن سائر الاحتمالات تبدو ضعيفة لا يكثر بها إزاء هذين الاحتمالين، أو على حد تعبير علماء الاصول أن الاصل في مثل هذه الامور السلامة، فلا ينبغي ترتيب الأثر على سائر الاحتمالات. ثم حاول تهدأة خواطر صحبه والتسكين من روعهم فقال
«والرأى عندي مع الأناة [٤٧٢] فأرودوا [٤٧٣].»

من جانب آخر فإن الإمام عليه السلام بغية عدم غفلة أصحابه في ظل تلك الظروف الحساسة المصيرية، وضرورة الابقاء على عزمهم الشديد والراسخ في مجابهة العدو وعدم إطفاء جذوة الحماس للقتال فقال عليه السلام:
«ولا أكره لكم الإعداد»؛

أى أنى لا. أعلن حالة التأهب فهذا الأمر يتعارض والصلح والسلام. وفي نفس الوقت لا أحول دون وظيفتكم في التعبئة الطوعية، والحق أن هذا لأعظم وأنجع اسلوب منطقي وعقلاني في مثل تلك الظروف العصبية؟ أى لا تغلق أبواب السلام، ولا يعيش الجميع حالة الانفعال والغضب، ولا ينبغي أن تقع بعض الأعمال التي تفرزها طبيعة النفاق، وأخيراً لا ينبغي فوات الفرص دون جدوى!

الهدف من الدعوة إلى الصلح والبيعة

إن الإمام عليه السلام وخلافاً لما يعتقد البعض لم يقاتل معاوية، إلّا حين أتم الحجة عليه من كافة الجهات، بحيث لم يكن يلجأ إلى القتال إلّا حين يكون السبيل الأخير الذي اغلقت جميع السبل

نقمة الولاية، ج ٢، ص: ٣٠٥

دونه. تفيد هذه الخطبة أن علياً عليه السلام لم يستجب للضغوط التي مارسها أصحابه من أجل شروع القتال، وأنه بذل قصارى جهده بهدف إرساء الصلح والسلام. والرسالة التي بعثها الإمام عليه السلام إلى معاوية بواسطة جرير لتؤكد هذا المعنى. فقد جاء فيها:

«إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فان إجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى، فان خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فان أبى قاتلوه على إتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى. ولعمري يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبر الناس من دم عثمان، ولتعلمن أنى كنت في عزلة عنه إلّا أن تتجنى، فتجن ما بدا لك». [٤٧٤]

والواقع كان معاوية يعتمد ذريعتين لترك البيعة، الأولى أنه كان غائباً حين تمت البيعة لعلي عليه السلام، والثانية أن الإمام عليه السلام مطالب بدم عثمان، فلا يمكن مبايعته، إلّا أن الإمام عليه السلام فند هاتين الذريعتين بالدليل والبرهان في الرسالة المذكورة، فلم يستجب معاوية بغية تحقيق أهدافه وأطماعه. على كل حال وكما ذكرنا أنفاً فإن جرير عامل عثمان على همدان أعلن بيعته للإمام عليه السلام ومعه الناس إثر وصول كتاب الإمام عليه السلام. ثم ورد الكوفة وطلب من الإمام عليه السلام أن يوجهه إلى الشام لأخذ بيعة معاوية، لأنّ جل أهل الشام كانوا من قومه وأهل بلده ويطمع إلّا يعصون أمره. فاعترض الأشتر وقال للإمام عليه السلام: لا تبعته ولا تصدقه، فوالله إنى لأظن هواه هواهم، ونيتهم نيتهم. إلّا أن الإمام عليه السلام إختاره لقول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه:

«إنك من خير ذى يمن»

كما لم يبدر منه خلافاً حتى ذلك الحين، ولعله لم يكن هناك من هو أفضل منه.

فدفع إليه الإمام عليه السلام كتابه، وقال له: «إئت معاويةً بكتابي، فإن دخل في ما دخل فيه المسلمون، وإلّا فانبد إليه واعلمه أنّي لا أرضى به أمراً، وأنّ العامة لا ترضى به خليفة». فانطلق جرير حتى أتى الشام، ونزل بمعاوية وأخبره باجتماع مسلمي أهل الحرمين وأهل المصريين والحجاز واليمن ومصر وأهل العروض على بيعه الإمام عليه السلام ثم قال: فلم يبق إلّا هذه الحصون التي أنت فيها فبايع لعلي عليه السلام. ثم سلمه كتاب الإمام عليه السلام. فلم يستجب معاوية الذي كان شغفاً بالحكومة

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٠٦

فقام فخطب الناس مطالباً بدم عثمان وأخذ البيعة من أهل الشام للقيام والمطالبة بدم عثمان.

فاستحته جرير بالبيعة. فقال: يا جرير، إنّها ليست بخلسة، وإنه أمر له ما بعده فابلعني ريقى.

فأشار عليه أخوه بعمرو ابن العاص. وقد وعده النصيحة بعد أن اشترط عليه ولاية مصر. ثم دخل شرحبيل - رئيس اليمينية وشيخها والمقدم عليها - فتحدث إلى جرير، فأقنعه جرير باتباع علي عليه السلام. إلّا أنّ معاوية كتب له كتاباً ودس إليه الرجال يغرونه بعلي عليه السلام ويشهدون عنده أنّه قتل عثمان، حتى ملئوا صدره وقلبه حقداً وتره وإحنه على علي عليه السلام وأصحابه، ثم دعاه في الكتاب لمطالبة بدم عثمان. فتاهب شرحبيل للطلب بدم عثمان، ثم وجهه معاوية إلى الشام لدعوة الناس للمطالبة بدم عثمان وجعل لا يأتي على قوم إلّا قبلوا ما أتاهم به وهنا شعر جرير باليأس من معاوية، ثم إلتفت معاوية إلى جرير فقال له: إنّني قد رأيت رأياً، قال: هاته، قال:

اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية، فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده في عنقي بيعة، وأسلم له هذا الأمر، واكتب إليه بالخلافة. فقال جرير: اكتب ما أردت اكتب معك.

فكتب الإمام عليه السلام إلى جرير: إذا أتاك كتابي هذا فاحمل معاوية على الفصل، ثم خيره وخذه بالجواب بين حرب مخزية أو سلم محظية

«ولم يكن لله ليراني اتخذ المضلين عضداً»

فتأخر جرير مدةً ولعله كان يطمع في عودة معاوية إلى رشده، فكثر فيه الكلام. [٤٧٥]

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٠٧

القسم الثاني

إشارة

«وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا الْمَأْمُرِ وَعَيْنَهُ، وَقَلَّبْتُ لَهَا ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرَ لِي فِيهِ إِلَّا الْقِتَالَ أَوْ الْكُفْرَ بِمَا جَاءَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى الْأُمَّةِ وَالْأَحْدَثِ أَحْدَاثًا، وَأَوْجَدَ النَّاسَ مَقَالًا، فَقَالُوا ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا».

الشرح والتفسير

يقابل هذا القسم من الخطبة القسم المذكور تماماً، أو بعبارة أخرى يمثل المرحلة الثانية من مراحل المجابهة. فقد كان الإمام عليه السلام يؤكد في القسم المذكور على ضرورة ضبط النفس واجتناب القتال، واللجوء إلى منطق السلام والصبر والتحمل. بينما يتحدث هذا القسم بصورة قاطعة حادة عن القتال واللجوء إلى القوة؛ ولا غرو فقد أغلقت جميع السبل والأساليب، وثبت بالضرر القاطع أنّ معاوية لا - يستسيغ أي منطق واستدلال، ولا - يفهم سوى تحقيق مطامعه في الحكومة التي يضحى من أجلها بالغالي والنفيس. ومن الطبيعي ألا يكون هنالك من سبيل لمواجهة هذا الشخص سوى الاستسلام وتفويض المقدرات الإسلامية إليه، أو شهر السلاح بوجهه وقتاله. ومن هنا قال الإمام عليه السلام:

«ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه، وقلبت ظهره وبطنه، فلم أر لى إلّا القتال أو الكفر بما جاء محمد صلى الله عليه و آله». العبارة «ضربت أنف هذا الأمر وعينه»

مثل تقوله العرب فى الاستقصاء فى البحث والتأمل والفكر. والعبارة «وقلبت ظهره وبطنه»

هى الاخرى كناية عن دراسة كافة جوانب الموضوع: لأنّ الإنسان إذا أراد أن يشتري بضاعة قلب ظهرها وبطنها ليتعرف على كافة مميزاتها. أما قوله عليه السلام

«فلم أر لى إلّا القتال أو الكفر بما جاء محمد صلى الله عليه و آله»

فذلك لأنّ الإمام عليه السلام إذا سكت وترك الامة لحالها لقاد ذلك إلى انحراف الناس عن الإسلام واستتباب الحكومة الجاهلية الأموية والسفانية وإحياء

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٠٨

مبادئ الشرك والوثنية، وهذا يعنى تجاهل كافة القيم والمثل التى جهد رسول الله صلى الله عليه و آله مدة ثلاث وعشرين سنة فى إرسالها وتحمل صنوف العذاب من أجل ترسيخها، وأصبح على عليه السلام خمسة وعشرين عاماً جليس البيت من أجل الحفاظ عليها، وعليه فلم يبق من سبيل أمام الإمام عليه السلام سوى القتال بصفته الأمين على الإسلام وقيمه، وهذا هو الرد الصريح على كافة من يشكك فى قتاله عليه السلام لمعاوية. ثم أشار عليه السلام إلى مسئلة قتل عثمان واستغلالها من قبل معاوية وزبانيته بغية الوصول إلى أغراضه ومآربه، فقال

«إنّه قد كان على الامة وال أحدث أحداثاً، وأوجد الناس مقالا، فقالوا ثم نقموا فغيروا»

فمراد الإمام عليه السلام أن العامل الرئيسى لقتل عثمان هو نفس عثمان، الذى أتى بالأعمال المخالفة للعدل والسنة النبوية، التى أوجت غضب الناس فحاصروه ثم قتلوه، ولذلك لم يتحرك أى من صحابه رسول الله صلى الله عليه و آله للدفاع عنه، حتى قتل وبقي ثلاثاً على الأرض لم يدفنه أحد من المسلمين [٤٧٦] وهذا بدوره يكشف عن مدى غضب الامة ونقمتها عليه. وعليه فقتل عثمان لم يكن ذريعة تدعو للخروج على أمير المؤمنين عليه السلام.

وبالطبع فان أصحاب تلك الذريعة كانوا يعلمون هذا الأمر أكثر من غيرهم، إلّا أنّهم لم يروا أفضل من هذه الذريعة لتعبئة أهل الشام ضد أمير المؤمنين عليه السلام.

أعمال عثمان وأسباب قتله.

ذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى أن عثمان أحدث أحداثاً مشهورة نقمها الناس عليه وأهم هذه الأحداث:

١- تأمير بنى أمية ولا سيما الفساق منهم وأرباب السفه وقلّة الدين ومنهم الوليد الفاسق وشارب الخمر الذى ولاه الكوفة. [٤٧٧] وقرب الحكم بن أبى العاص عمه الذى طرده رسول الله صلى الله عليه و آله فألبسه جبة من الخز وأعطاه زكاة قبيلة قضاة التى بلغت ثلاثمئة درهم- وذكر ابن قتيبة وابن عبد ربه والذهبي- من مشاهير علماء العامة- أن من الأحداث التى نقمها الناس

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٠٩

على عثمان تقريره للحكم بن أبى العاص الذى لم يقربه أبوبكر ولا- عمر فى خلافتهما. [٤٧٨] كما عين ابن عمه مروان بن الحكم مستشاراً له وأعطاه غنائم أفريقية التى بلغت خمسمئة ألف درهم.

٢- أذاه لكبار صحابه النبي صلى الله عليه و آله كأبى ذر الذى نفاه للربذة حين كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعترض على أعماله. [٤٧٩] وضربه الشديد للصحابى الجليل عمار بن ياسر ولم يكن ذنبه سوى مواجهة عثمان باعتراضات الناس. [٤٨٠] وما فعله

بالصحابي عبدالله بن مسعود بسبب إعتراضه على التناول على بيت المال فجعل يضربه حتى كسر ربايعته. [٤٨١]
سئل الصحابي زيد بن أرقم كيف حكمت بكفر عثمان؟ قال: لثلاث: تقسيمه لأموال بيت المال بين الأغنياء ومحاربتة لصحابة النبي
صلى الله عليه وآله وعمله بغير كتاب الله. [٤٨٢]

٣- توزيعه لأموال بيت المال على بطانته وقرابته دون حساب وحرمان المؤمنين منها.
وللمؤرخين والمحدثين شروحا وافية بالنسبة لهذه الأمور لايسعها المقام. كل ذلك أرى إلى نعمة الأنصار والمهاجرين ولا سيما
صحابه النبي صلى الله عليه وآله عثمان فلم يروه خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله كما قدم الناقمون من مصر والكوفة
والبصرة، وحيث لم يكثر لهم، بينما لم ينصره أهل المدينة وهذا يدل على نعمتهم عليه أيضا. أما معاوية الذي كان واقفا على كل
هذه الأمور فقد إستغلها ليحرض أهل الشام ضد أمير المؤمنين على عليه السلام بحجة المطالبة بدم عثمان.
نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣١١

الخطبة [٤٨٣] الرابعة والاربعون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية، وكان قد إبتاع سبي بنى ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقهم، فلما طالبه
بالمال خاس به وهرب إلى الشام.
سبب الخطبة

قصة الخريت بن راشد الناجي وخروجه على علي عليه السلام

كما ورد سابقا فالكلام يرتبط بقصة قبيلة بنى ناجية: كان الخريت بن راشد الناجي، أحد بنى ناجية، قد شهد مع علي عليه السلام
صفين، فجاء إلى علي عليه السلام بعد انقضاء صفين، وبعد تحكيم الحكيمين في ثلاثين في أصحابه، يمشى بينهم حتى قام بين يديه،
فقال: لا والله لا أطيع أمرك، ولا أصلي خلفك، وإني غداً لمفارق لك؛ فقال له: ثكلتك أمك! إذاً تنقض عهدك، وتغصت ربيك،
ولا تضرر لأنفسك، أخبرني لم تفعل ذلك! قال: لأنك حكمت في الكتاب، وضعفت عن الحق إذ جد الجد، وركنت إلى القوم الذين
ظلموا أنفسهم، فأنا عليك راد، وعليهم ناقد، ولكم جميعا مباين.
فقال له علي عليه السلام: ويحك! هلم إلى أدارشك وأناظرك في السنن، وأفاتحك أموراً من
نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣١٢

الحق أنا أعلم بها منك؛ فلعلك تعرف ما أنت الآن له منكر، وتبصر ما أنت الآن عنه عم وبه جاهل، فقال الخريت: فإني غاد عليك
غداً. فقال علي عليه السلام: اغد ولا يستهوينك الشيطان، ولا يتقحم بك رأيي السوء، ولا يستخفك الجهلاء الذين لا يعلمون؛ فوالله
إن استرشدتني واستنصحتني وقبلت مني لأهدئك سبيل الرشاد.
فخرج الخريت من عنده مُنصرفاً إلى أهله.

قال عبدالله بن قعين: فبعجلت في أثره مُسرعاً، وكان لي من بنى عمه صديق، فأردت أن ألقى ابن عمه في ذلك، فأعلمه بما كان من
قوله لأمير المؤمنين، وأمر ابن عمه أن يشتد بلسانه عليه، وأن يأمره بطاعة أمير المؤمنين ومناصحته، ويخبره أن ذك خير له في عاجل
الدنيا وآجل الآخرة. ثم بعث عليه السلام بمعقل بن قيس فقاتل الخريت حتى قتل وأسر أصحابه، فأطلق من كان منهم مسلماً وبقي غير

المسلمين، وحين ورد الأسرى الكوفة إشتري مصقلة الأسرى بخمسمئة درهم من معقل وأعتقهم. فدفعت مئتي درهم وعجز عن دفع الباقي فخاف وهرب.

فخطب الإمام عليه السلام بهذه الخطبة. [٤٨٤]

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣١٣

«فَبَحَّ اللَّهُ مَصِّقَلَهُ! فَعَلَّ فَعَلَ السَّادَةَ، وَفَرَّ فَرَارَ الْعَبِيدِ! فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّى أَسْكَنَتْهُ، وَلَا صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّى بَكَتَهُ، وَلَوْ أَقَامَ لَأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ وَانْتَظَرْنَا بِمَالِهِ وَفُورَهُ».

الشرح والتفسير

فرار العبيد

قال الإمام عليه السلام بعد أن سمع خبر فرار مصقلة - عامل الإمام على منطقة أردشير حرّة من مناطق فارس - «قبح الله مصقلة فعل فعل السادة، وفر فرار العبيد».

لقد قام مصقلة بعمل إنساني كبير وذلك حين إشتري أسرى بنى ناجية وأعتقهم فلما طولب بالمال وإعادته إلى بيت مال المسلمين وبدلاً من سؤال المهلة للتسديد هرب بالمال إلى الشام حيث معاوية الذي عرف بخداعه للناس واستعبادهم وظاهر القضية أن مصقلة وخشيته دينه لبيت المال هرب إلى الشام، بينما يبدو أنه كان مستعد مسبقاً لهذه الخيانة العظمى، فلعله كان يخشى الفضيحة من بعض الأعمال الأخرى التي قارفها، ولعل شدة على عليه السلام في العدل والاصرار على إسترداد حقوق بيت المال قد شقت عليه كما شقت على الآخرين. ويؤيد ذلك ما قاله صاحب مصقلة زهل بن حارث أن مصقلة قال لم أكن لأغتم لو كنت مديناً لعثمان أو معاوية، فهما يتسامحان في بيت المال، وقد فعلا ذلك بحق الالاف المؤلفة، الا أن عليا عليه السلام شديد التعامل مع بيت المال. مع ذلك فليس هنالك من مبرر لفعل مصقلة، ولا سيما إثر ذلك التناقض الواضح، فقد تكرم من جانب ليقوم بذلك العمل الإنساني، ومن جانب آخر قام بتلك الخيانة وهرب! لذلك قال عليه السلام:

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣١٤

«فما أنطلق مادحه حتى أسكته، ولا صدق واصفه حتى بكته» [٤٨٥]

فقد فعل ما يدعو إلى مدحه من قبل كل من يسمعه، إلا أن خبر عتقه لسبايا بنى ناجية لم يكذب ينتشر بين الناس حتى إنتشر قبله نبأ فراره إلى الشام، فاصاب الجميع بالدهشة والذهول، فكيف يلجأ إلى معاوية من يقوم بهذا العمل النجيب، فيؤثر مجاوره معاوية والوقوف إلى جانبه على عليه السلام؟ نعم لايسع الجميع تحمل العدل! ثم إختتم كلامه بالقول «ولو أقام لأخذنا ميسوره، وانتظرنا بماله وفوره»

أجل هذا منطلق القرآن الكريم «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ» [٤٨٦].

ليس هنالك من يعتقد بأن علياً عليه السلام سيعامله على خلاف القرآن وأحكامه، وعليه فلا يقبل عذره في خشيته من الإمام عليه السلام في تسديد ما بذمته لبيت المال. وهنا يبرز هذا السؤال لم لم يهبه الإمام عليه السلام ذلك المال تقديراً لعمله الإنساني، فمصقلة لم يكن ليتحمل بذلك الدين لمصالحه الشخصية بل كان نتيجة طبيعة لذلك العمل الجبار الذي قام به؟ ونقول في الجواب على هذا السؤال أن الإمام عليه السلام لو فعل ذلك لأصبحت سنة في المستقبل، بحيث يقوم كل عامل وأمر بالطلاق سراح الأسرى الأمر الذي يفرز بعض المخاطر التي تهدد كيان المجتمع الإسلامي بينما يحظى الأمر بمدح الناس وثنائهم. أضف إلى ذلك فإن مثل هذا البذل يززع أسس ودعائم بيت المال ويعيد إلى الازدهان سياسة البذخ والاسراف التي إتبعها عثمان تجاهه، بينما كان الإمام عليه السلام قد وعد الأمة بأنه سيتسرع كل ما أخذ من بيت المال بغير حق وإن تزوج به النساء.

تأملان

إشارة

نقحات الولاية؛ ج ٢؛ ص ٣١٤

١- من بين الأسئلة التي تطرح بشأن هذه الخطبة

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣١٥

أو ليس بنى ناجيةً مسلمين، فكيف يسبون ويفادون؟ ويبدو أن الجواب قد ورد في قصة سبيهم، حيث خرج الخريت بن راشد الناجي ضد أمير المؤمنين عليه السلام واجتمع مع عدد من الأفراد، فلما بلغ الخبر الإمام عليه السلام. فوجه الإمام عليه السلام أحد أصحابه «معقل بن قيس» لقتال الخريت بن راشد فقتله وقتل جمعاً من أصحابه وأسر آخرين من مسلمين وغير مسلمين من النصارى ومانعى الصدقة، فجعل مسلميهم يمنة والنصارى ومانعى الصدقة يسرة، ثم خلى سبيل من كان مسلماً وأخذ بيعته، ومن كان إردتد عرض عليه الرجوع إلى الإسلام أو القتل.

فلما أتى بالأسرى إلى الإمام عليه السلام في منطقة أردشير حرّة التي كان مصقلة عاملها، فبكى إليه النساء والصبيان وتصايح الرجال. فقال مصقلة: أقسم بالله لأتصدقن عليهم، فاشتراهم بخمسمائة ألف درهم فاعتقهم. فبعث مصقلة بمقدار من المال وبقي آخر. وانتظر على عليه السلام مصقلة أن يبعث المال فباطأ به فبعث إليه الإمام، فقدم الكوفة، فسأله الإمام عليه السلام المال، فأدى إليه مائتي ألف درهم وعجز عن الباقي، على أن يهبه الإمام عليه السلام ذلك، فلم يقبل الإمام عليه السلام، ولو وافقه الإمام عليه السلام لكان ذلك الأمر بدعة بحيث يشتري الآخرون الأسرى ثم يعتقونهم ولا يؤدون المال إلى بيت مال المسلمين، إلى جانب كون تلك الموافقة تشيّر تداعيات سياسة عثمان إزاء بيت المال بحيث يساء الظن بحزم الإمام عليه السلام بالنسبة لبيت مال المسلمين. والعجيب أن أحد أصحابه قال له: لو شئت لم يمض عليك جمعة حتى تجتمع هذا المال، فقال: ما كنت لأحملها قومي، ولا أطلب فيها إلى أحد. ثم قال: والله لو أن ابن هند مطالبى بها، أو ابن عفان، لتركها لى. فهذه الامور تشيّر إلى أنه قد يكون منذ البداية قد عزم على عدم أدائها، كما تفيد الرسالة الثالثة والأربعون من نهج البلاغة أنه كان عثمانياً، ولذلك كان قد بذل بعض أموال بيت المال لبطائه وقومه، وخلاصة القول فان بنيتة الفكرية والعملية كانت قائمة على نهج معاوية لا أمير المؤمنين عليه السلام. ولعله كان رجلاً صالحاً قبل وصوله إلى الحكومة إلّا أنّ حب الدنيا والاعتزاز بالجاه قد غلب عليه. ومن هنا شقت عليه عدالة الإمام عليه السلام حتى إلتحق في خاتمة المطاف بمعاوية. فخطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة واختتمها بقوله

«ولو أقام لأخذنا ميسوره، وانتظرنا بماله وفوره».[٤٨٧]

ويتضح ممّا ذكرنا أنّ الاسرى المذكورين لم يكونوا من المسلمين.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣١٤

٢- فلسفة الحزم

السؤال الآخر الذى يمكن طرحه هنا: ما علّة كل هذا الحزم من الإمام عليه السلام فى هذه الحالات؟ ونقول فى الجواب أنّ الإمام عليه السلام لم يتشدد فى هذا الأمر، بل كان قد أمهله لتسديد الدين عند المقدرة أولاً، وثانياً لم يكن

ذلك حقاً للإمام عليه السلام بحيث يهبه أموال بيت المال، بل هو حق المسلمين الذي لا يفرط فيه أمير المؤمنين عليه السلام قط. ورغم حزمه في هذا الأمر إلا أنه أبقى باب الرفق مفتوحاً، ومن ذلك إقترح البعض على الإمام عليه السلام بعد فرار مصقلة إعادة السبايا والأسرى فلم يوافق الإمام عليه السلام على أن مصقلة قد إبتاعهم واعتقهم، فالمدين مصقلة لا هؤلاء. [٤٨٨]

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣١٧

الخطبة [٤٨٩] الخامسة والأربعون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام وهو بعض خطبة طويلة خطبها يوم الفطر، وفيها يحمد الله ويذم الدنيا

نظرة إلى الخطبة

تشتمل الخطبة على فصلين من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: أحدهما حمد الله والثناء عليه، والآخر ذم الدنيا وحث الناس على التزود للآخرة. ويبدو أن الرضى (ره) لم يذكر الخطبة كلها فهي طويلة جداً، ومن هنا لا يرى هناك من إرتباط بين هذين الفصلين، إلا أنها رغم قصرهما يشيران إلى معان ضخمة مهمة.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣١٩

القسم الأول: الرحمة اللامتناهية

«الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرُ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا مَخْلُوفٌ مِنْ نِعْمَتِهِ وَلَا مَأْيُوسٌ مِنْ مَغْفِرَتِهِ وَلَا مُشْتَتِكِفٌ عَنْ عِبَادَتِهِ، الَّذِي لَا تَبْرُحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ وَلَا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ».

الشرح والتفسير

تناول هذا الفصل حمد الله والثناء عليه، ثم أشار إلى ست من النعم الإلهية التي تستحق الحمد والشكر، فقال عليه السلام «الحمد لله غير مقنوط [٤٩٠] من رحمته».

كيف اليأس من رحمة الله الواسعة وهو القائل سبحانه «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» [٤٩١] كما قال على لسان نبيه يعقوب عليه السلام «لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» [٤٩٢] وعلى لسان خليله إبراهيم عليه السلام «وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ» [٤٩٣] وعليه فلا بد للإنسان من الانابة إلى الله مهما كانت ذنوبه ومعاصيه، ولا ينبغي له اليأس من رحمة الله، بل إن هذا اليأس كفر وضلالة وهو من أعظم الذنوب ثم قال عليه السلام «ولا مخلو من نعمته».

كما ورد في القرآن الكريم «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً» [٤٩٤] وأضاف عليه السلام «ولا مأیوس من مغفرتة»

كيف لا وهو القائل «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٢٠

أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» [٤٩٥].

بل ورد في الحديث النبوي الشريف أن هذه الرحمة لمن السعة بحيث يتناول عليها ويطمع بها حتى إبليس

«ليغفر الله يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد حتى إبليس يتناول اليها» [٤٩٦]

كما جاء في الرواية: «أن لله مئة رحمة وقد أنزل واحدة منها إلى الأرض وقسمها بين مخلوقاته، وإستأثر بتسع وتسعين إدخرها لعباده

يوم القيامة» [٤٩٧]. ولما كانت هذه الامور تسوق الناس إلى العبادة، قال عليه السلام:

«ولا مستنكف [٤٩٨] عن عبادته»

وذلك لأن الاستنكاف عن العبادة لا يؤدي سوى إلى العذاب، فقد قال القرآن بهذا الخصوص «وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا

فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً» [٤٩٩]. ثم عد نعمتين اخريين عليه السلام فقال

«الذين لا تبرج منه رحمة، ولا تفقد له نعمة»

فقد تكررت الرحمة والنعمة وكان السابقة أشارت إلى أصل الرحمة والنعمة الإلهية، بينما تحدثت العبارة اللاحقة عن دوام هذه النعمة

وعدم إنقطاعها، وهذا ما ورد تأكيده في القران «وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا» [٥٠٠]. والطريف في الأمر أن هذين الوصفين في

الواقع ذكرا كدليل على عدم استنكاف الناس عن عبادة الله؛ الأمر الذي تناوله علم الكلام تحت عنوان

«شكر المنعم من دوافع معرفة الله».

أما المفردات الرحمة والمغفرة والنعمة فهي وإن كانت مرتبطة مع بعضها إلا أن مفاهيمها مستقلة، فللرحمة معنى واسع يشمل كل فضل

ولطف من الله للعباد سواء عن طريق إفاضة النعم أو مغفرة الذنوب، وبعبارة اخرى فإن نسبة الرحمة إلى النعمة والمغفرة هي نسبة

العموم والخصصوص المطلق، بينما لكل من النعمة والمغفرة مفهوم منفصل عن الآخر، فالنعمة تختص بالإمكانات الوجودية التي

تأخذ بيد الإنسان إلى السمو والكمال، أما المغفرة فهي إزالة آثار الذنب وتعييد الطريق بعد إزالة العراقيل.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٢١

القسم الثاني: الدنيا دار المنى

إشارة

«وَالدُّنْيَا دَارٌ مَنِيٌّ لَهَا الْفَنَاءُ وَلَأَهْلِهَا مِنْهَا الْجَلَاءُ وَهِيَ حُلُوهٌ خَضِرَاءُ، وَقَدْ عَجَلَتْ لِلطَّالِبِ وَالتَّبَسَّتْ بِقَلْبِ النَّاطِرِ، فَارْتَحَلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا

بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الرِّزَادِ، وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكِفَافِ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلَاغِ».

الشرح والتفسير

لقد عرض الإمام عليه السلام هنا بدم الدنيا على أن حُبها والتعلق بها يعد من أعظم آفات سعادة الإنسانية. كما أن الاغترار

بزخارفها وزينتها أساس الذنوب والمعاصي، فقال عليه السلام

«والدنيا دار منى لها الفناء» [٥٠١]

. نعم فدعائم الكون تحكى آثار الزوال والفناء، فالأشجار التي تتفتح في الربيع وتحمل الثمار إنما تذبل في فصل الخريف لتجف ثم

تساقط أوراقها على الأرض فتعذب بها الرياح هنا وهناك، وكأن حياة هذه الاشجار لم تشهد الربيع ولم تحمل الثمار. وهكذا حال

الإنسان فالفتى القوى بالأمس، هو العجوز الهرم اليوم، والكهل العجوز اليوم سيكون عظاما نخرة غداً! ثم قال عليه السلام

«ولأهلها منها الجلاء» [٥٠٢]

فكافة الأفراد دون إستثناء سيودعون عاجلاً أم آجلاً هذه الدنيا الفانية ليتجهوا نحو تلك الحياة الخالدة في عالم الآخرة. فهذا قانون إلهي مطلق لا يسع أحد إنكاره والخروج عليه. ومن هنا عبرت بعض الآيات القرآنية عن نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٢٢

الموت باليقين، وذلك لأنه يوقن به حتى من أنكر المعاد والحساب. ثم قال عليه السلام «وهي حلوة خضرة»

وتختص الحلاوة بالذائقة بينما ترتبط الخضرة بالباصرة، فخضرة الدنيا وجمالها تخطف بصر الفرد الغافل وتشده إليها، بينما تسوق حلاوتها ذلك الإنسان إلى المعصية والخطيئة، ومن المعلوم أن خداع الدنيا لا يقتصر على هذين الأمرين، بل لكل حاسة من حواس الإنسان ما يجذبها ويربطها بالدنيا. وأضاف عليه السلام «وقد عجلت للطالب والتبست [٥٠٣]

بقلب الناظر»

فطبيعة الدنيا خيرها العاجل ومنافعها المبكرة، وإذا أتت الإنسان فإنها تنفذ إلى قلبه حتى تكون جزءاً منه لأنها جميلة للناظر، كما أنها حلوة للمذاق، ولذلك كان التحرر منها صعباً. وما ان فرغ الإمام عليه السلام من بيان صفات الدنيا لتتطلع القلوب إلى أوامر السماء حتى قال

«فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد ولا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ» [٥٠٤]

. لا ينبغي أن ينسى الإنسان أنه مسافر قد أقام هنا بصورة مؤقتة، والمسافر الفطن إنما ينهمك باعداد الزاد والمتاع في مثل هذا المنزل، فهو يتزود بأحسن الأمتعة والأشياء ولا- يتقل كاهله بالردى منها أبداً «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ» [٥٠٥]. فالتقوى أفضل زاد الدنيا إلى جانب الحذر من نوم الغفلة.

الكفاف والعفاف

لقد تضمنت الخطبة إشارات إلى مختلف أبعاد الحياة الدنيا رغم قلّة عباراتها وألفاظها. فقد أشارت إلى طبيعة الحياة الدنيا والتي تكمن في الفناء والزوال ورحيل أهلها عنها شاءوا أم أبوا. كما تطرقت إلى ظاهرها الأنيق الذي يشد الأنظار إليه، ومن هنا يتجه نحوها من يخدع بالمظاهر، بينما يحذرهما من يتمعن في العواقب. وتناولت حب الدنيا الذي يقود بالتدرّج إلى تربعها في قلب الإنسان حتى تصبح جزءاً من كيانه؛ الأمر الذي يجعل من المتعذر عليه نزع نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٢٣

حبّها من قلبه ثم أرشده إلى النجاة من أخطارها وآفاتهما بالقناعة بالكفاف والعفاف، والمراد بالكفاف [٥٠٦] والعفاف (أو العفاف والكفاف) أن يقنع الإنسان في الدنيا بقدر حاجته إليها ويدع الرغبة بالمزيد جانباً ويغض طرفه عن جمع الأموال؛ الأمر الذي يجعله يعيش الاستقرار والسكينة في حياته الدنيا ويحد من حملة في حياته الاخروية، وذلك لأن طامة الإنسان في الحرص والطمع وعدم القناعة. طبعاً إذا كان تطلعه للمزيد من أجل إغاثة الضعفاء والمحرومين فإن ذلك ليس فقط لا يتنافى والعفاف والكفاف فحسب، بل من شأنه أن يقود الآخرين إلى الكفاف. فقد ورد في القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» [٥٠٧]، كما ورد هذا المعنى في الروايات الإسلامية، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله كان يدعو بهذا الدعاء:

«اللهم ارزق محمداً وآل محمداً ومن أحب محمداً وآل محمداً والعفاف والكفاف» [٥٠٨]

. وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال:

«قليل يكفى خير من كثير يردى» [٥٠٩]

فالفرد إذا قنع باللازم من حياته كان ذلك زينة له من الذنب وتحلى بالكفاف والعفاف:

«من اقتنع بالكفاف أداه إلى العفاف» [٥١٠]

أضف إلى ذلك وبغض النظر عن الجوانب المعنوية والأخلاقية للقناعه بالضرورى فى الحياه فأنما مدعاه للسكينه والاستقرار الروحى والنفسى فى الحياه الدنيا، فقد ورد عن الإمام على عليه السلام أنه قال:

«ومن إقتصر على بلغه الكفاف فقد إنتظم الراحة وتبوأ خفض الدعء» [٥١١].

وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وآله على شخص فدعا له قائلاً:

«اللهم ارزقه الكفاف»

كما قال رسول الله:

«إن ما قل وكفى خير مما أكثر وألهى؛ اللهم ارزق محمداً وآل محمد الكفاف».

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٢٥

الخطبة [٥١٢] السادسة و الاربعون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

عند عزمه على المسير إلى الشام وهو دعاء دعا به ربه عند وضع رجله فى الركاب.

نظرة إلى الخطبة

تتضمن هذه الخطبة أو هذا الدعاء عدّة أمور عميقة ومهمّة، فقد بين الإمام عليه السلام جميع المشاكل المتوقعة فى السفر فى ثلاث، ثم إستعاذ منها بالله. ثم وصف الحق سبحانه بأنه الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل توكيداً لحضوره الذاتى المطلق لدى جميع الكائنات.

ج ج

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٢٧

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبِئَةِ الْمُتَقَلِّبِ وَسُوءِ الْمُنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَالِدِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ، لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لَا يَكُونُ مُسْتَضْحَبًا، وَالْمُسْتَضْحَبُ لَا يَكُونُ مُسْتَخْلَفًا».

الشرح والتفسير

الاستعاذة بالله من وعثاء السفر

لا- شك أن اولياء الله يعيشون التضرع إلى الله فى جميع الأحوال إلما أنهم يكونون أكثر تضرعاً حين إشتداد المحن والخطوب، فيستأنفون أعمالهم بدعاء الله والتوسل إليه ليفرج عنهم ويلهمهم القوة والصلابة والثقة بالنفس. الإمام عليه السلام من جانبه لما عزم على المسير لصفين تضرع بهذا الدعاء

«اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء [٥١٣] السفر وكآبة [٥١٤] المنقلب [٥١٥] وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد»

فالواقع أن ما يشغل ذهن المسافر من جراء السفر أو جزه الإمام عليه السلام في ثلاث؛ الأول (وعشاء السفر) والثاني كيفية العودة (وكآبة المنقلب) والثالث القلق على الأهل (سوء المنظر في الأهل والولد). ويستعيد الإمام عليه السلام بالله من هذه الامور المقلقة ويسأله تذليلها، ثم قال عليه السلام:

«اللهم أنت الصاحب في السفر وأنت الخليفة في الأهل، ولا يجمعها غيرك»

نعم الذات الإلهية فقط المنزهة عن الزمان والمكان، فهي محيطه بجميع الأمكنة والأزمنة، فليس هنالك من مكان أقرب إليها من آخر، ومن هنا فان الله معنا في السفر ومع

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٢٨

أهلنا وولدنا في الحضر، وما أروع أن نودع زمام أمور حياتنا إلى من يحيط بكل شى ولا يحيط به شى. ثم يقدم الدليل على ما قال:

«لأن المستخلف لا يكون مستصحباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً»

فالمكان يسود ويحكم جميع الكائنات المادية، ومن هنا فان وجودها في مكان يعنى خلو الآخر منها، وما ذلك إلّا لوجودها المحدود، وليس هنالك من وجود لا محدود سوى الله سبحانه الذى لا يعرف المكان ولا الزمان ولا البعد ولا القرب، وهو كما قال: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيَّمَا كُنْتُمْ» [٥١٦] وقال: «فَأَيَّمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ» [٥١٧].

قال السيد الرضى (ره) آخر الكلام: وابتداء هذا الكلام مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد قفاه أمير المؤمنين على عليه السلام بأبلغ كلام وتممه بأحسن تمام من قوله

«لا يجمعهما غيرك»

إلى آخر الفصل.

فلسفة الدعاء

من يتصفح المصادر الإسلامية يدرك أن للدعاء مكانة خاصة في التعاليم الإسلامية، حتى عد الدعاء مخ العبادة. فقد جاء في الحديث النبوى الشريف

«أفزعوا إلى الله عزوجل في حوائجكم، والجاؤوا إليه في مللماتكم، وتضرعاً إليه، فإن الدعاء مخ العبادة» [٥١٨].

بينما وصفه حديث آخر بسلاح المؤمن، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين، ونور السموات والأرض» [٥١٩]

، وقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«الدعاء مفاتيح النجاح، ومقاليد الفلاح» [٥٢٠]

والدعاء على درجة من الأهمية بحيث قال القرآن الكريم: «قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ» [٥٢١]. مع ذلك هنا لك من إستشاكل على الدعاء ولا سيما اولئك الذين غفلوا عن فلسفته:

١- فهم يقولون أحياناً: لا ينسجم الدعاء وروح الرضا والتسليم لإرادة الله، فالذى يجب

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٢٩

علينا هو التسليم لإرادة الله والرضى بما يرتضى!

٢- إن الدعاء يعدّ إحد العوامل المخدرة للإنسان فيصده عن السعى والعمل والنشاط، حيث ينصرف الإنسان عن هذه الامور ويلوذ بالدعاء لتأمين حاجياته.

٣- ناهيك عن كل ما تقدم، كيف يسعنا تغيير المقدرات الإلهية بواسطة الدعاء، فلو قدر الله أمراً، فإن ذلك الأمر سوف لن يغيره

دعاؤنا، وبعبارة اخرى فإنّ الدعاء نوع من أنواع الفضول والتطفل على أفعال الله، فالله لا يفعل إلّا ما فيه المصلحة ولا داعي للدعاء. ولكن لا ترى هذا الكلام سليم إذا ما وقفنا على فلسفة الدعاء ومفهومه الواقعي. فالمفهوم الواقعي للدعاء هو أننا نعمل ما في وسعنا ونجهد أنفسنا وما فاق ذلك نوكله إلى الله ولطفه، ونتضرع إليه بالدعاء لحل المشاكل، وعلى ضوء «أَمْنٌ يُجِيبُ الْمَضْطَرَّ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ السُّوءَ» [٥٢٢] نطرق بابه ونسأله بعد أن سعينا سعيًا ولم يبق إلّا توفيقه. ومن هنا صرحت بعض الروايات الإسلامية بعدم إستجابة دعاء من قصر في العلم وخلد إلى الكسل والراحة. فالله لا يستجيب دعاء من سأله الرزق وهو جالس في بيته دون أن يسعى ويعمل، كما لا يستجيب دعاء من أقرض مالمًا ولم يكتبه ثم أنكر عليه المدين ولم يعطه ماله! والخلاصة فإنّ الكسل والتعاس لا ينسجم واستجابة الدعاء. وعلى ضوء ما تقدم فإنّ الدعاء لا يعتبر عاملاً مخدرًا، بقدر ما بعد عاملاً محرّكاً. أمّا ما يقال من أن الدعاء لا يغير التقدير، فجواب ذلك واضح، وهو أنّ الدعاء سبب زيادة استحقاق الإنسان لأنّه يتجه إلى الله وينور قلبه بمعرفة الله يتوب إليه من ذنوبه؛ لأنّ التوبة من شروط قبول الدعاء، وبذلك يتأهب أكثر لتلقى الفيض الإلهي والعناية الربانية، لأنّ الله قدر المزيد من لطفه وفضله لمن كان أكثر استعداداً وجدارة، بعبارة أخرى فإنّ لله نعم وخيرات وبركات للعباد مشروطة ببعض الشرائط، في مقدمتها التوجه إليه ودعاؤه والتقرب إليه. وبناءً على هذا فإنّ رحمة الله ولطفه متوقفة على الدعاء. ومن هنا يتضح الجواب على الإشكال الذي يفيد عدم انسجام الدعاء وروح الرضا والتسليم؛ لأنّ الدعاء تأكيد للتسليم والرضا، فالحق سبحانه أراد لعباده أن يعيشوا القرب منه بالدعاء، فإذا عاشوا القرب شملهم الله برحمته وفضله، الأمر الذي أكد الدعاء في أغلب الآيات والروايات.

وزبدة الكلام فإنّ للدعاء آثاره التربوية الجمّة على حياة الإنسان، أدناها أنّه يطهر قلبه

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٣٠

وروحه من الأدران ويزيل عنه صدأ الماديات ويوصله بمصدر الخير والاحسان والعطاء، كما يشكل السبيل للاستزادة من فضل الله ولطفه. ومن هنا فإنّ أولياء الله لا يستغنون في قضاء حوائجهم عن الدعاء، وبالذات يشعر العبد بالقوة، كما يشعر بالسكينة إثر التوكل على الله فيهب لمواجهة المشاكل وقلبه مفعم بالأمل في التغلب عليها، ولا غرو فهو يعلم بأنّها مدللة لإرادة الله تابعه لمشيتة وقدرته. كما تتأتى الحاجة إلى الدعاء في الأسفار المخيفة المحفوفة بالمخاطر، أمّا دعاء الإمام عليه السلام حين عزمه على السير إلى صفين فقد إقتدى به بالنبي صلى الله عليه وآله ومن سبقه من الأنبياء العظام. فقد كلف نوح عليه السلام بالتضرع إلى الله حين ركب السفينة في ذلك الطوفان الهائل لينجيه الله من تلك المخاطر «فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» [٥٢٣] كما دعا موسى عليه السلام لما فرّ من أزلام فرعون حين خرج من مصر متوجهاً إلى مدين «وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ» [٥٢٤]. وقال حين لقي لبنات شعيب «رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» [٥٢٥]. النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين هاجر من مكة إلى المدينة في ظل تلك الأخطار، كان يشعر بالتذمر لمفارقة مكة وبيت الله، وكان يتمنى الرجوع إليها فاتته البشارة «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ» [٥٢٦] وكان النبي صلى الله عليه وآله دعا الله أو كان يعيش حالة الدعاء فاستجيب له. ومن هنا حثت الروايات على الدعاء في السفر. [٥٢٧] وتختتم البحث بما ورد عن علي عليه السلام حين إنطلق من الكوفة إلى الشام، حيث وضع رجله على الركاب فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما استوى على دابته قال:

«سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» [٥٢٨]

ثم دعا بهذا الدعاء الذي فرغنا من شرحه.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٣١

إشارة

من كلام له عليه السلام
في ذكر الكوفة

نظرة إلى الخطبة

كلام الإمام عليه السلام يمثل نبوتين بشأن الكوفة، أو الكوفة والبصرة: الاولى الحوادث المبررة التي تعصف بالكوفة وأهلها من قبل الطواغيت الظلمة، والثانية العاقبة السيئة لأولئك الظلمة وعقابهم بما إقترفته أيديهم.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٣٣

«كَأَنِّي بِكَ يَا كُوفَةَ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاطِيَّ تُعْرَكِينَ بِالنَّوْازِلِ وَتُرَكِّبِينَ بِالزَّلَازِلِ وَإِنِّي لِأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكَ جَبَّارٌ سُوءاً إِلَّا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِشَاغِلٍ وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ».

الشرح والتفسير

نبوءة عن مستقبل الكوفة

ذكرنا أن الإمام عليه السلام خاطب بهذا الكلام الكوفة (وقيل البصرة والكوفة) فقال

«كَأَنِّي بِكَ يَا كُوفَةَ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ [٥٣٠] الْعُكَاطِيَّ»

«عكاظ» [٥٣١] اسم سوق قرب مكة (وقال البعض بين مكة والطائف) تجتمع فيه العرب كل عام من مختلف المناطق لمدة عشرين يوماً كما صرح بذلك البعض، فكانوا يعرضون متاعهم، كما كانوا ينشدون الشعر وتتفاخر كل قبيلة على الأخرى، وبالطبع كان هناك كثيراً من المفاسد؛ الأمر الذي جعل الإسلام يردم ذلك السوق.

أما هل المراد بهذه العبارة الحوادث الأليمة التي ستقع في الكوفة، أم كبر الكوفة وإتساعها.

فقد صرح أغلب شراح نهج البلاغة بالتفسير الأول، بينما قال القليل منهم بالتفسير الثاني، ويبدو أن التفسير الثاني هو الأنسب، لأن دبغ الجلد العكاظي لا يبدو منسجماً وكون العبارة كناية عن الحوادث الأليمة والمأساوية، بينما يمكنه أن يكون كناية عن إزدياد رقعة الكوفة وإتساع مساحتها. جدير بالذكر أن الجلد العكاظي واسع وجميل ومن أرغب الجلود لدى العرب، ولعل في هذا إشارة إلى جمال الكوفة وعمرانها في الأزمنة القادمة مقارنة بما عليها في

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٣٤

زمان الإمام عليه السلام. وذكر البعض أن العبارة إشارة إلى مستقبل الكوفة وتقسيمها إلى أجزاء متعددة، على غرار تقسيم الجلد

العكاظي ودبغه وتوسيعه. ثم قال عليه السلام

«تُعْرَكِينَ [٥٣٢] بِالنَّوْازِلِ [٥٣٣] وَتُرَكِّبِينَ بِالزَّلَازِلِ»

وقد ورد مثل هذا المعنى في الخطبة ١٠٨ بقوله:

«تُعْرَكُكُمْ عِرْكَ الْأَدِيمِ»

أي يسلط عليكم بنى أمية فيسومونكم سوء العذاب. ونبوءته الثانية التي تمثلت بقوله عليه السلام:

«إِنِّي لِأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكَ جَبَّارٌ سُوءاً إِلَّا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِشَاغِلٍ وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ».

ويمكن أن تكون العبارة

«ابتلاه الله بشاغل»

إشارة إلى الأمراض العضال والالام التي تشغل الظلمة وتصرفهم عن الناس، كما أن «ورماه بقاتل» الحوادث التي تهجم على الإنسان من الخارج فتقتله وتقضى عليه.

والحق أن ما تكهن به الإمام عليه السلام بشأن الكوفة قد حدث، حيث إتسعت إتساعاً كبيراً بعد الإمام عليه السلام وكانت على الدوام مركزاً للفتن والحوادث المريرة، وقد هب أغلب الجبابرة للسيطرة عليها، إلا أن الله كان يتليهم بأنواع البلاء ويدفع شرهم عنها، ولعل ذلك يعزى لكون الكوفة تشكل مركز استقطاب خلص المؤمنين من الشيعة الأوفياء لعلي بن أبي طالب عليه السلام وإن كان بينهم بعض المنافقين. ومن هنا صرحت بعض الروايات بفضل الكوفة. أما من بين الأفراد الذين هموا بالكوفة بعد أمير المؤمنين عليه السلام زياد بن أبيه. فقد ورد في بعض الروايات أن زيادا لما حصبه أهل الكوفة، وهو يخطب على المنبر، فقطع أيدي ثمانين منهم، وهم أن يخرّب دورهم، ويحمر نخلهم، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرحبة، يعرضهم على البراءة من علي عليه السلام؛ وعلم أنهم سيمتنعون فيحتج بذلك على استئصالهم وإخراجهم بلدهم. فخرج خارج من القصر فقال:

إنصرفوا، فإن الأمير يقول لكم: إني عنكم اليوم مشغول؛ وإذا بالطاعون قد ضربته، فكان يقول: إني لأجد في النصف من جسدي حر النار حتى مات. [٥٣٤]

رأيان في الكوفة

وردت عدة عبارات في نهج البلاغة بشأن الكوفة وأهلها، ومن ذلك الخطبة المذكورة التي

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٣٥

أشارت إلى المكانة المقدسة للكوفة وأنها ستشهد حوادثاً مريرة وأليمه، وأن الله حافظها من كل جبار عنيد. بينما وردت بعض الخطب التي تدم الكوفة، ومن ذلك الخطبة ٢٥ حيث خاطب الإمام عليه السلام الكوفة قائلاً

«إن لم تكوني إلا أنت تهب أعاصيرك فقبحك الله».

الروايات هي الاخرى صرحت بمدح الكوفة، فقد جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال بشأن الكوفة

«هذه مدينتنا ومحلتنا ومقر شيعتنا» [٥٣٥]

، كما جاء في رواية أن الإمام الصادق عليه السلام دعا للكوفة قائلاً:

«اللهم ارم من رماها وعاد من عادها»

وللجمع بين الروايات نقول إن الكوفة ذاتا مقدسة وأهلها من خلص شيعة أهل البيت عليهم السلام ممن يتحلون بالورع والتقوى، إلا أن أجواء الكوفة تلوث بفعل سيطرة بني أمية ودس العيون والجواسيس فيها وأعان الظلمة وتسليط الفساد عليها وايداع بيت المال إلى عبدة الأهواء. فاذا مدحت الكوفة فالمراد أولئك النجباء من الشيعة، وان ذمت فلذلك الفساد الذي طالها من قبل بني أمية. ونكتفي بهذا القدر على أن نخوض في جوانب هذا الموضوع في الابحاث القادمة ذات الصلة.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٣٧

الخطبة [٥٣٦] الثامنة و الاربعون

ومن خطبة له عليه السلام عند المسير إلى الشام، قيل: إنّه خطب بها وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة إلى صفين.

نظرة إلى الخطبة

تشتمل هذه الخطبة على قسمين: الأول وجريا على عادته في خطبه عليه السلام في الحمد والثناء والشكر للنعم الإلهية على العباد، والثاني يطلع الجيش على خطته فيمن بعثهم من المقدمة ويصف لهم المسير ليلتحقوا بهم، وتعبئة عدداً من القبائل التي كانت تسكن أطراف دجلة وتسييرهم لمقاتلة العدو، ويبدو أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يذكر اتباعه في النخيلة الذين لم يكونوا كثيراً بانهم ليسوا وحدهم في صفين وأنه سيعبئ من كان في مسيرهم للقتال ليزدادوا عدداً وعدة.

ج ج

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٣٩

القسم الأول: استحقاق الله للحمد والثناء

«الْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا لَاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الْإِنْعَامِ، وَلَا مُكَافِئِ الْإِفْضَالِ».

الشرح والتفسير

يعرض الإمام عليه السلام لله بالحمد والثناء في القسم الأول هذه الخطبة بعبارات جديدة عظيمة المعاني وقد أشار إلى قضايا جديدة فقال

«الحمد لله كلما وقب ليل وغسق، والحمد لله كلما لاح نجم وخفق» [٥٣٧] ليل وغسق [٥٣٨]، والحمد لله كلما لاح [٥٣٩] نجم وخفق» [٥٤٠]

فالعبرة تشير إلى نقطتين: الأولى أنّ حمدنا وثنائنا دائمى باقى مادام الليل والنهار متعاقبين دائمين، وهكذا هو مستمر إستمرار طلوع الكواكب وغروبها، النقطة الأخرى هي أنّ ظلمة الليل وطلوع الكواكب وغروبها من النعم الإلهية الكبرى فظلمة الليل تهب الإنسان الهدوء والسكينة بعد تعب النهار وعناء العمل فيه، فطبيعة الليل والظلمة تختزن الراحة والخلود إلى النوم ومن هنا كانت الليالي الظلماء الخالية من المصايح تعد أفضل الأوقات للنوم؛ الأمر الذى أشارت إليه الآية ٧٢ من سورة القصص «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٤٠

عَلَيْكُمْ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» وقال «وَمَنْ رَحِمْتَهُ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [٥٤١] وقد ورد هذا المعنى في عدة آيات قرآنية، كما دلت الأبحاث العلمية على أنّ اليقظة في الليل والنوم في النهار يشكل خطراً جدياً على صحة الإنسان، أما فائدة طلوع الكواكب وغروبها فليست بخافية على أحد وذلك لمعرفة الأوقات والاهتداء في البحار والصحارى بواسطة هذه النجوم والكواكب «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» [٥٤٢] وجاء في القرآن أيضاً «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» [٥٤٣]. أما الروايات التي شبّهت أهل البيت عليهم السلام بالنجوم فواضح من أنّهم وسيلة الهداية في الظلمات والتمتات وعدم الانحراف عن الصراط المستقيم، ولعل إشارة الإمام على عليه السلام إلى ظلمة الليل وطلوع النجوم وغروبها من دون سائر النعم تهدف إلى بيان حقيقة وهي أنّ خروج أهل الشام على الإمام عليه السلام يمثل حلول عصر الظلمة التي لا يمكن النجاة منها إلاّ بزوغ كوكب الولاية ثم خاض الإمام عليه السلام في نوع آخر من النعم التي تستلزم الحمد، فقال

«والحمد لله غير مفقود الانعام، ولا مكافئ الإفضال» [٥٤٤]

فالعبرة الأولى تعنى أنّ النعم الإلهية غير قابلة للاحصاء، أما الثانية فهي تشير إلى عجز العباد عن مكافئة هذه النعم وذلك لأنه أولاً عنى

عمن يكافئ نعمه، وثانياً: أن القدرة على شكره وحمده بحد ذاتها نعمة أخرى، لأن الشكر نعمة توجب المزيد، فقد ورد في مناجاة الشاكرين للإمام على بن الحسين عليه السلام:

«كيف لي بتحصيل الشكر؟ وشكري إياك يفتقر إلى شكر! فكلما قلت لك الحمد، وجب علي لذلك أن أقول لك الحمد» [٥٤٥].
ومن هنا فإن أعظم شكرنا هو إذعاننا بالعجز عن الشكر. فقد ورد في حديث عن الصادق عليه السلام أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام ان اشكرني! فقال عليه السلام كيف أشكرك وشكري نعمة تحتاج إلى شكر. فجاءه الخطاب الآن أدت شكري. [٥٤٦].
نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٤١

القسم الثاني: تعبئة القوى لمواجهة العدو

إشارة

«أَمَّا بَعِيدٌ فَصَدُّ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هَذَا الْمِلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النَّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ مَوْطِنِينَ أَكْنَافَ دِجْلَةَ، فَأَنْهَضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ وَأَجْعَلُهُمْ مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى برنامج وخطه حربيّه فقال

«أما بعد فقد بعثت مقدمتي [٥٤٧] وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط [٥٤٨] حتى يأتيهم أمرى»

فنهز الفرات يقع غرب دجلة، فيكون دجلة شرقه، وعليه فإن مقدمته جيش الكوفة تتحرك من جانب الفرات إلى الشمال باتجاه الجانب الغربي للفرات، وقد أمر الإمام عليه السلام بمواصلته هذا السير من قبل الجيش، بينما إتجه عليه السلام من الفرات إلى الشرق نحو المدائن لتعبئة أكبر عدد ممكن من الناس، ثم قال عليه السلام

«وقد رأيت أن أقطع هذه النطفة [٥٤٩] إلى شردمة [٥٥٠] منكم موطنين أكناف [٥٥١] دجلة، فأنهضهم معكم إلى عدوكم وأجعلهم

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٤٢

من أمداد القوة لكم».

وهكذا ورد الإمام عليه السلام شرق العراق والمدائن، وبينما كانت مقدمته جيش الإمام عليه السلام تواصل زحفها في غرب الفرات، ولما بلغهم قدوم معاوية نحوهم بجيش عظيم، عبروا الفرات واتجهوا إلى الشرق صوب الإمام عليه السلام حذراً من محاصرتهم من قبل العدو ولم يستعدوا بعد لخوض القتال، فاستحسن ذلك منهم الإمام عليه السلام فلما اكتمل الجيش سار به الإمام عليه السلام لمواجهة العدو. جدير بالذكر أن مفردة «ملطاط» من مادة ملط أو لظ هنا بمعنى شاطئ الفرات - نعم فقد دلهم الإمام عليه السلام المسير ليتقدموا من جانب شاطئ الفرات لأن الشام كانت في جهة الشمال، والفرات ينحدر من الشمال إلى الجنوب، وهكذا لا يكون الجيش في مشقة من حيث الماء والهواء وظلال الأشجار، ولا يضلون الطريق، إلى جانب سهولة الالتحاق بهم، وعليه فهذا المسير ينطوي على عدّة فوائد والتعبير بالنطفة عن ماء الفرات حسب ما قال السيد الرضى (ره) هو من غريب العبارات وعجيبها، فالمفردة على ضوء ما صرح به جمع من أرباب اللغة تعنى الماء الخالص، وقيل الماء الجارى، وكيفما كان فهي إشارة إلى عذوبة ماء الفرات وخلوه من الاملاح، وإن كان ظاهره قليل الكدورة.

قال السيد الرضى (ره): يعنى عليه السلام بالملطاط ها هنا السمت الذى أمرهم بلزومه، وهو شاطئ الفرات، ويقال ذلك أيضا لشاطئ البحر، وأصله ما استوى من الأرض، ويعنى بالنطفة ماء الفرات، وهو من غريب العبارات وعجيبها.

أخبار على عليه السلام في جيشه وهو في طريقه إلى صفين

ذكر بعض شراح نهج البلاغة في ذيل هذه الخطبة بعض القضايا التاريخية التي نشير إليها هنا:

١- في قصر كسرى

سار عليه السلام حتى انتهى إلى المدائن وقصر كسرى وإذ رجل من أصحابه أنشد:

جرت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد!

فقال له عليه السلام: ألا قلت:

«كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» [٥٥٢]

٢- في الأنبار

مرّ عليه السلام بالأنبار (أحد المدن الغربية في العراق) فتقدم دهاقتتها إليه فلما استقبلوه، نزلوا عن خيولهم، ثم جاءوا يشترّدون معه،

وبين يديه ومعهم براذنين قد أوقفوها في طريقه، فقال: ما هذه الدواب التي معكم؟ وما أردتم بهذا الذي صنعتم؟ قالوا: أمّا هذا الذي

صنعنا فهو خُلُقٌ مِنَّا نَعْظُمُ بِهِ الْأَمْرَاءَ؛ وَأَمَّا هَذِهِ الْبِرَازِينَ فَهَدِيَّةٌ لَكَ، وَقَدْ صَنَعْنَا لِلْمُسْلِمِينَ طَعَامًا، وَهَيَأْنَا لِدَوَابِّكُمْ عِلْفًا كَثِيرًا.

فقال عليه السلام: أمّا هذا الذي زعمتم أنّه فيكم خُلُقٌ تَعْظُمُونَ بِهِ الْأَمْرَاءَ فَوَاللَّهِ مَا يَنْفَعُ ذَلِكَ الْأَمْرَاءَ؛ وَإِنَّكُمْ لَتَشَقُّونَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ

وَأَبْدَانِكُمْ، فَلَا تَعُودُوا لَهُ. وَأَمَّا دَوَابِّكُمْ هَذِهِ؛ فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ آخِذَهَا مِنْكُمْ، وَأَحْسَبَهَا لَكُمْ مِنْ خَرَاجِكُمْ أَخَذْنَاهَا مِنْكُمْ. وَأَمَّا طَعَامِكُمْ

الذي صنعتم لنا؛ فَإِنَّا نَكْرَهُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ إِلَّا بِثَمَنِ.

٣- قرب الدير

علّي عليه السلام في مسيره إلى الشام؛ حتى إذا كُنَّا بظهر الكوفة من جانب هذا السواد، عطش الناس احتاجوا إلى الماء، فانطلق بنا علّي

عليه السلام حتى أتى بنا إلى صخرة صخرة في الأرض؛ كأنها رُبُضَةٌ عِزْزٌ؛ فَأَمْرُنَا فَاقْتَلَعْنَاهَا، فَخَرَجَ لَنَا مِنْ تَحْتِهَا مَاءٌ، فَشَرِبَ النَّاسُ مِنْهُ،

وَارْتَوَوْا. ثُمَّ أَمْرُنَا فَأَكْفَأْنَاهَا عَلَيْهِ. وَسَارَ النَّاسُ حَتَّى إِذَا مَضَى قَلِيلًا، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمِنْكُمْ أَحَدٌ يَعْلَمُ مَكَانَ هَذَا الْمَاءِ الَّذِي شَرِبْتُمْ مِنْهُ؟

قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فانطلقوا إليه، فانطلق مِنَّا رَجَالٌ رُكْبَانًا وَمِشَاءً، فَاقْتَصَصْنَا الطَّرِيقَ إِلَيْهِ؛ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي نَرَى

أَنَّهُ فِيهِ، فَطَلَبْنَاهُ، فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا عِيلَ عَلَيْنَا انْطَلَقْنَا إِلَى دَيْرٍ قَرِيبٍ مِنَّا، فَسَأَلْنَاهُمْ:

أَيْنَ هَذَا الْمَاءُ الَّذِي عِنْدَكُمْ؟ قَالُوا: لَيْسَ قُرْبَنَا مَاءٌ، فَقُلْنَا: بَلَى إِنَّا شَرَبْنَا مِنْهُ، قَالُوا: أَنْتُمْ شَرِبْتُمْ

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٤٤

منه! قلنا: نعم، فقال صاحب الدَيْرِ: وَاللَّهِ مَا بَيْنِي هَذَا الدَيْرَ إِلَّا بِذَلِكَ الْمَاءِ، وَمَا اسْتَخْرَجَهُ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ وَصِيٌّ نَبِيٍّ.

قال العلامة المجلسي فما كان من الراهب إلا أن أتى الإمام عليه السلام وأعلن إسلامه ولازم الإمام عليه السلام حتى إستشهد ليلة

الهرير فضلى الإمام عليه السلام عليه وأنزله القبر وقال: والله إنى لأرى موضعه فى الجنة.

٤- فى الرقة

ثم سار حتى أتى الرقة- وجل أهلها عثمانية، فزوا من الكوفة إلى معاوية- فأغلقوا أبوابها دونه، وتحصنوا، وكان أميرهم سماك بن

مخرقة الأسدى فى طاعة معاوية، وقد كان فارق علياً عليه السلام فى نحو من مائة رجل من بنى أسد، ثم كاتب معاوية، وأقام بالرقة

حتى لحق به سبعمائة رجل.

قال نصر: فروى حبة أن علياً عليه السلام لما نزل على الرقة، نزل بموضع يقال له البليخ على جانب الفرات، فنزل راهب هناك من

صومعته، فقال لعلّى عليه السلام: إن عندنا كتاباً توارثناه عن آبائنا، كتبه أصحاب عيسى بن مريم، أعرضه عليك؟ قال: نعم، فقرأ

الراهب الكتاب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الَّذِينَ قَضَىٰ فِيمَا قَضَىٰ، وَسَيَّرَ فِيمَا كَتَبَ: أَنَّهُ بَاعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ؛ يَعْلَمُهُم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيَدْلُهُمْ عَلَىٰ سَبِيلِ اللَّهِ، لَا فِظًّا وَلَا غَلِيظًا؛ وَلَا صَيَّحَاتٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزَىٰ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، بَلْ يَعْفُوا وَيَصْفَحُ، أُمَّتَهُ الْحَمَادُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ نَشْرٍ، وَفِي كُلِّ صِيَعٍ عَوْدٍ وَهَبُوطٍ، تَذَلُّ أَلْسِنَتُهُمْ بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ، وَالتَّسْبِيحِ؛ وَيَنْصَرُهُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ نَاوَاهُ؛ فَإِذَا تَوَفَّاهُ اللَّهُ، اخْتَلَفَ أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ؛ ثُمَّ اجْتَمَعَتْ، فَلَبِثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ اخْتَلَفَتْ، فَيَمُرُّ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِهِ بِشَاطِئِ هَذَا الْفُرَاتِ، يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَقْضِي بِالْحَقِّ وَلَا يَرْكُسُ الْحُكْمَ، الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّمَادِ فِي يَوْمِ عَصَفَتْ بِهِ الرِّيحُ، وَالْمَوْتُ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنَ شُرْبِ الْمَاءِ عَلَى الضَّمَانِ. يَخَافُ اللَّهُ فِي السَّرِّ، وَيَنْصَحُ لَهُ فِي الْعَلَانِيَةِ، لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً؛ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ النَّبِيَّ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ فَأَمَّنَ بِهِ كَانَ ثَوَابُهُ رِضْوَانِي وَالْجَنَّةَ، وَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الْعَبْدَ الصَّالِحَ فَلْيَنْصَرِهِ، فَإِنَّ الْقَتْلَ مَعَهُ شَهَادَةٌ.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٤٥

ثم قال له: أنا مصاحبك، فلا أفارقك حتى يصيبني ما أصابك. فبكى عليه السلام، ثم قال: الحمد لله الذي لم أكن عنده منسئاً، الحمد لله الذي ذكرني عنده في كتب الأبرار.

فمضى الراهب معه، فكان فيما ذكروا يتغذى مع أمير المؤمنين ويتعشى، حتى أصيب يوم صفين؛ فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم قال عليه السلام: اطلبوه، فلما وجده صلى عليه ودفنه. وقال: هذا من أهل البيت، واستغفر له مراراً. [٥٥٣]

نزول علي بكر بلاء

فلما نزل بكر بلاء صلى بنا، فلما سلم رفع إليه من تربتها فشمها، ثم قال: واهما لك يا تربة! ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب. ثم قال

«هي هنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم ثم أوما بيده إلى مكان آخر وقال: هي هنا مراق دماثهم».

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٤٧

الخطبة [٥٥٤] التاسعة والاربعون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

وفيه جملة من صفات الربوبية والعلم الإلهي

نظرة إلى الخطبة

تدور الخطبة حول صفات الربوبية والعلم الإلهي - كما ورد سابقاً - وتتضمن إشارات عميقة المعاني إلى جوانب من صفات الجلال والجمال وتنزيه الذات الإلهية المقدسة من مزاعم الملحدين والمشبهة التي تشبه الله بالمخلوقات

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٤٩

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَطَّنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنَكِّرُهُ، وَلَا قَلْبُ مَنْ أَتْبَتَهُ يُبْصِرُهُ، سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ وَقَرَّبَ فِي الدُّنُوتِ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبَ مِنْهُ فَلَا.

اسْتِغْلَاؤُهُ بِأَعْدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا قُرْبُهُ سِوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ. لَمْ يُطَلِّعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الْوُجُودِ عَلَى إِفْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوًّا كَبِيرًا!»

الشرح والتفسير

المنزه عن الظن والخيال

ذكرنا سابقاً أن الخطبة وارده في صفات الجلال والجمال، حيث أشارت إلى عدد من أسماء الله الحسنی بعبارات قصيرة بعيدة المعنى، فقد استهل الخطبة بذكر خمس صفات من صفاته التي توضح كل واحدة منها الاخرى فقال «الحمد لله الذي بطن [٥٥٥] خفيات الامور ودلت عليه اعلام الظهور»

وليس للعين من سبيل إلى رؤيته

«وامتنع على عين البصير»

ومن هنا

«فلا عين من لم يره تنكره ولا قلب من أثبتته يبصره»

. وقد أورد شراح نهج البلاغة عدّة تفسيرات لقوله عليه السلام

«الذي بطن خفيات الامور»

فقال البعض: بطن هنا بمعنى علم، وقيل بطن هنا بمعنى الخفاء؛ أي الله الذي خفيت به الأسرار، إلّا أنّ التفسير الذي ذكرناه أنسب وهو أن

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٥٠

بطن بمعنى الخفاء ومفهوم العبارة أنّ الله مخفى في الأسرار، وعبارة أخرى فإنّ ذاته أعظم خفاءً من الخفاء، وزبدة الكلام فان مفهوم العبارة ما أنشده الفيلسوف في شعره:

وجوده من أظهر الاشياء وكنهه في غاية الخفاء

أمّا العبارة

«دلت عليه اعلام الظهور»

فتعنى أنّ آياته ظاهرة جلية في كل مكان، في السموات والنجوم والمجرات والمنظومات وفي الأرض في الصحارى والبحارى والجبال والأنهار وعلى جبين كافة الكائنات الحية في أوراق الأشجار والبراعم والثمار وفي باطن الذرات والجزئيات. وبالطبع كلما تقدم العلم وكشفت الأسرار ازدادت الأدلة والآيات على قدرة الذات الإلهية وعلمها المطلق. والعبارة الثالثة

«وامتنع على عين البصير»

تفيد تعذر رؤية جماله سبحانه على أحد العيون، وذلك لأنّ المشاهدة الحسية إنّما تختص بالجسم والجسمانيات ذات الجهة والمكان، بينما ذاته المطلقة ليست بجسم ولا جسمانية وليس لها من جهة أو مكان، بل هي مطلقة منزّهة عن كل هذه العوارض والنقائص «لا تُدرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» [٥٥٦]. ولما سأل موسى عليه السلام من جانب بنى إسرائيل ربّه «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» الشهود الحسى، خوطب «لَنْ تَرَانِي» [٥٥٧] ثم شاهد موسى عليه السلام قبسات من تجليات الله التي دكت الجبل فصعق موسى ومن معه فلما أفاق قال «سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ» والعبارة

«فلا عين من لم يره ...»

نتيجة طبيعته تشير إلى أنّ العاقل لا يسعه إنكار الذات الإلهية المقدسة بفعل وجود هذه الأدلة والآيات، رغم تعذر المشاهدة الحسية، أما المؤمنون بالله فلا ينبغي لهم أن يعتقدوا بمشاهدته حتى قلبياً، وبالطبع يمكن رؤيته قلباً كما ورد عنه عليه السلام

«لا تدرکه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدرکه القلوب بحقائق الإيمان» [٥٥٨]

، غير أن هذه المشاهدة تتعلق بالأسماء والصفات لا مشاهدة كنه الذات، وهنا يصدق حتى أولياء الله فضلاً عن عامة المخلوقات «ما عرفناك حق معرفتك»

ثم قال عليه السلام:

«سبق في العلو فلا شيء أعلى منه وقرب في الدنو فلا شيء أقرب منه»

ثم يخلص على عليه السلام

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٥١

إلى هذه النتيجة

«فلا استعلاؤه [٥٥٩] باعده عن شئ من خلقه ولا قربه ساواهم في المكان به»

لعله يتصور بأن هذه الصفات تناقض مع بعضها فكيف يكون الشئ بعيداً عالياً وفي نفس الوقت قريباً ملازماً؟ كيف يكون بعيداً في القرب وقريباً في البعد؟ نعم إذا كان المقياس هو المخلوقات التي من حولنا فهناك تناقض، غير أن الالتفات إلى هذه النقطة يزيل مثل هذا التناقض ويرشد إلى معرفة صفات الله، وهي أن وجوده سبحانه لا متناهي وغني ومطلق من جميع الجهات، وهو الوجود الذي لا يشوبه أية محدودية من حيث الزمان والمكان والعلم والقدرة، بل هو فوق الزمان والمكان فهو في كل مكان وكل زمان وفي نفس الوقت ليس له مكان ولا زمان. ومثل هذا الوجود قريب من جميع الأشياء وهو بعيد عنها جميعاً لأنه لا يشبهها، هو أظهر من كل شئ، لأن كل شئ متقوم بوجوده، وهو ابطن من كل شئ لأنه لا يشبه المخلوقات والكائنات التي نعرفها ونألفها. وبناء على هذا فالمراد بالعلو في العبارة المذكورة فوقيته للوجود وعلوه عليه لا- علوه في المكان، والمراد بالقرب قربه في الاحاطة الوجودية لا القرب في المكان. وهنا لابد من الاذعان إلى أن فهم وإدراك هذه الصفات ليس سهلاً علينا بفعل تعاملنا مع صفات الممكنات؛ إلا أنه يمكن تقريبها إلى الأذهان من خلال التأمل والاستعانة ببعض الأمثلة وإن كانت ناقصة قاصرة. على سبيل المثال للرد على السؤال الذي يقول كيف يكون له وجود في كل مكان وزمان ولا يحويه مكان وزمان، يمكننا أن نستعين ببعض الأمثلة الناقصة من قبيل بعض المعادلات والقوانين الرياضية، فكلنا نعلم بأن $(2 + \frac{4}{2})$ فهي صادقة في كل زمان ومكان في السماء والأرض، وفي نفس الوقت ليس لها من زمان أو مكان. فقولته عليه السلام:

«فلا استعلاؤه باعده عن شئ من خلقه ولا قربه ساواهم في المكان به»

نتيجة واضحة لتلك الحقيقة المذكورة، فقد قال بعض شراح نهج البلاغة بعد أن استعانوا بمثال ناقص إلا أنه مناسب، في أن أمواج الضوء تنعكس على الزجاج وتنفذ إلى داخله فتضيئها، وهي في نفس الوقت أقرب إليها من كل شئ، وهي ليست مثلها، بل هي وجود لطيف وأعلى وأرفع، ولعل هذا المعنى هو المراد بالآية «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...» [٥٦٠] ثم

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٥٢

أشار عليه السلام إلى صفة أخرى

«لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته»

فكنه ذاته ليس واضح لأحد ولا- حقيقة صفاته، لأن ذاته وصفاته لا- متناهي، فأني لعقل الإنسان المتناهي والمحدود أن يحيط باللامتناهي واللامحدود مع ذلك فإن آثاره الوجودية التي تجلت في كافة الوجودات جعلت الإنسان يلم على سبيل الإجمال بذاته وصفاته وإليك هذا المثال الناقص: كلنا نعلم بوجود الروح، وإن الزمان حقيقة واقعة، إلا أن إدراك حقيقة الروح والزماني ليس بالامر إلهين. وكلنا نعرف الفارق بين الكائن الحي والميت، ولكن ما كنه حقيقة الحياة؟ يبدو فهم ذلك صعباً، عبارة أخرى لنا علم إجمالي بهذه الامور لتفصيلي [٥٦١] ثم قال عليه السلام

«فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود» [٥٦٢]

الواقع أن جاحدى الله إنما يجحدوه لساناً بينما يقرون به قلباً «وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَيَّحَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَمَّا نِي يُؤْفِكُونَ* ... وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنَ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» [٥٦٣]. كيف يمكن إنكار وجود الله وكل شى يهتف باسمه ويتقوم بوجوده. ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول «تعالى الله عما يقول المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً»

والمشبهه على نوعين: من يشبه الله بعباده فيرى له جسماً ويدا ورجلاب والآخ من يشبه الآخرين به فيرى له شريكاً وشبيهاً فيعبده ويسجد له بدلاً من الله. وقد ذهب بعض الشراح إلى المعنى الأول هو المراد من العبارة، فى حين ذهب البعض الآخر إلى المعنى الثانى، ويبدو المعنى الثانى أصح إستناداً لقوله «المشبهون به»

وان كانت الطائفتان على خطأ، لأنه لايشتمل على صفات المخلوقين بحيث تتخلل الحوادث ذاته المقدسه، ولا يمكن لمخلوق أن يشمل مكانه لأنه لا يتحلى بأى من صفاته.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٥٣

وجوده ظاهر وكنه ذاته خفى

لقد تضمنت الخطبه بعض الاشارات إلى عدّه جوانب فى مجال أسماء الله وصفاته: الاولى خفاء وكنه ذات الله فى نفس ظهور وجوده فى جميع عالم الوجود بحيث لا يستطيع أحد أن ينكر وجوده، بينما لا يستطيع أيضاً الاحاطه بكنه ذاته المطهره. وهذا فى الواقع أحد الآثار اللامتناهيه لوجوده المطلق، حيث كلما خطونا خطوه نحو معرفه ذاته تفهقنا خطوات عن درك كنه هذه الذات، وكلما حلقتنا فى سماء معرفه صفاته إحترقت أجنحتنا وسقطنا فى عالم الجهل وعلى قول ابن أبى الحديد فى شعره:

فيك يا اعجوبه الكون غدا الفكر كليلاً

أنت حيرت ذوى اللب وبلبلت العقولا

كلما قدم فكرى فيك شبراً فر ميلاً

ناكصاً يخطب فى عمياء لا يهدى سبيلاً [٥٦٤]

وبالمقابل فإن آثاره قد تجلت فى كافه دقائق عالم الوجود، بحيث لا يسع من يلمس هذه الآثار أينما حلّ إلا أن يزمزم مع نفسه بدعاء الإمام الحسين عليه السلام فى عرفه

«متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك، أو يكون لغيرك من الوجود ما ليس لك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفتك عبد لم تجعل لها من حبك نصيباً».

والثانيه الحديث عن قرب الله وبعده إلى جانب قربه وبعده منا، وأنه أبعد ما يكون عنا فى غاية قربيه، وأقرب ما يكون فى غاية بعده، وهذا الأمر هو الآخر من آثار ذاته المطلقة اللامتناهيه، وذلك لأن مثل هذه الذات فى كل مكان ولا يخلو منها مكان، وإلا كانت محدوده.

والثالثه نفى صفات المخلوقات والشبه عن ذاته المقدسه، وهذا أيضاً من آثار الذات اللامتناهيه، لأن جميع المخلوقات محدوده ناقصه، وجودها متناهى وصفاتها مشوبه بالنقص والعدم، فاذا شبهناه بأحد مخلوقاته وقلنا بالشريك والشبيه وتصورنا له صفات المخلوقين نكون قد أخرجناه من حاله اللاتناهى وكونه واجب الوجود وجعلناه فى عداد الممكنات المحدوده وستعرض إلى هذه الامور فى الخطب القادمه إن شاء الله.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٥٥

الخطبة [٥٦٥] الخمسون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
وفيه بيان لما يخرب العالم به من الفتن وبيان هذه الفتن

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى أهم عوامل فساد المجتمعات البشرية ولاسيما الانحراف الذي عصفت بالمجتمع الإسلامي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم بين عليه السلام كيف تخلط الشياطين الحق بالباطل وتزينه للإنسان. فلو طرح الحق كما هو لا غلقت طرق نفوذ الشياطين، كما لو عرض الباطل على هيئته لما قبله أحد، ومن هنا فان الشياطين تخلط الحق بالباطل لاغواء الناس وإضلالهم. نعم فهؤلاء يدسون السم المهلك في كل طعام لذيد ليحثوا المغتلبين على تناوله. فهم يخفون الباطل في الحق دائما ليضلوا الناس عن طريق ذلك.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٥٧

«إِنَّمَا بَدَأَ وَقُوعَ الْفِتَنِ أَهْوَاءُ تُتَّبَعُ وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالًا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُؤْتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَادِيَةِ، وَلَكِنْ يُؤَخَذُ مِنْ هَذَا ضِعْفٌ وَمِنْ هَذَا ضِعْفٌ فَيُمَزَّجَانِ فَهَذَا كَيْفَ يَسْتَوَلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيُنْجُو «الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى».

الشرح والتفسير

هناك كلام بين المفسرين والشرّاح بشأن زمان الخطبة والظروف التي رافقتها، فيرى البعض أنه خطبها بعد ستة أيام من خلافته، بينما يرى البعض الآخر أنه خطبها بعد التحكيم، وبالطبع فإن الخطبة تنسجم والاحتمالين؛ أي أن تكون الخطبة في بداية الخلافه أو بعد التحكيم. فقد استهل الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى سبب ظهور الفتن في المجتمعات الإسلامية التي تشمل ما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعض الحوادث كالجمل وصفين والنهروان فقال:

«إِنَّمَا بَدَأَ وَقُوعَ الْفِتَنِ أَهْوَاءُ تُتَّبَعُ وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ [٥٦٦] يخالف فيها كتاب الله».

نعم أساس الفتن أمرين: اتباع أهواء النفس والاحكام الموضوعه المخالفه لكتاب الله والسنة، فمما لا شك فيه أن الفتن ستقبر لو كانت التعاليم الإسلامية والاحكام القرآنية هي السائدة وحفظت هذه القوانين والاحكام ومنعت البدع وابتعد عن الأهواء في إجراء الأحكام الشرعية؛ وذلك لأن هذه القوانين تهدف بسط العدل والقسط وتضمن حقوق الناس وتعين وظائفهم. فالفتنة تفرزها

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٥٨

الأهواء وتحريف القوانين لصالح الأطماع الشخصية وغياب العدل وتضييع الوظائف والاقبال على البدع. فاصحاب الفتن يلجأون تارة إلى التحريف والتفسير الخاطي لاشباع أهوائهم ورجباتهم، وإذا تطلب الأمر وضع بعض الاحكام الجديدة، أقبلوا على البدع، صحيح أن تلك البدع تفرزها الأهواء، إلا أن الأهواء والرجبات الشيطانية قد تتبلور أحيانا كتفسير وإجراء للأحكام الشرعية واخرى كبدع واحكام موضوعه، ومن هنا فصلا عن بعضها في كلام الإمام عليه السلام. على سبيل المثال يمكن الاشارة هنا إلى فتنة بنى أمية التي تعد من أكبر الفتن التي شهدها الإسلام فقد إستولى معاوية بواسطة المكر والخداع على الحكومة ثم ابتدع توريثها في ولده، وادعى أن زياد ابن أبي سفيان وأخذ البيعة ليزيد في حياته، وسن سب أمير المؤمنين على عليه السلام من على المنابر ثم اتهمه بقتل عثمان وطالب

بدمه [٥٦٧] ثم قال عليه السلام

«ويتولى [٥٦٨] عليها رجالاً على غير دين الله»

ثم أشار في العبارة اللاحقة إلى وسائل هذا العمل، التي استغلت من قبل الجناة والطواغيت طيلة التاريخ حتى أصبحت سنة، وهي أنهم يمزجون الحق بالباطل من أجل تحقيق أطماعهم وأغراضهم

«فلو أن الباطل خالص من مزاج الحق لم يحف على المرتادين [٥٦٩]، ولو أن الحق خالص من لبس الباطل إنقطعت عنه السن المعاندين»

فما أروع هذه العبارة، لو خالص الباطل من مزاج الحق لما كان هناك من يتبعه، ولو خالص الحق من لبس الباطل لخرست ألسن المتخرصين، ولذلك فمن البديهي ألا يحل الحق الخالص مشاكل عبدة الأهواء، لأن منافعهم كامنة في الباطل، ولا الباطل الخالص يحقق لهم أغراضهم، لأن الناس لا يقفون إلى جانبهم، وهنا يتجهون صوب خلط الحق بالباطل؛ الأمر الذي يجسد كافة السياسات المخربة في العالم. ثم قال الإمام عليه السلام بهذا الشأن

«ولكن يؤخذ من هذا ضعف [٥٧٠] و من هذا ضعف فيمزجان فهناك يستولى الشيطان على أوليائه، وينجو «الَّذِينَ سَبَقَتْ

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٥٩

لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى . فالعبارة تفيد أن خلط الحق والباطل لا يمنع من معرفة الباطل وان تطلب ذلك قدرا من البحث والتحري والرجوع إلى الآخرين، ومن هنا قال الإمام عليه السلام بأن خلط الحق بالباطل لا يؤثر في أولياء الله، بينما يؤثر على أولياء الشيطان فيقودهم إلى الغواية والظلال.

فالواقع هو أن مزج الحق بالباطل بمثابة الضوء الأخضر لعبدة الأهواء وذريعة لاتباع الشيطان لخداع أنفسهم فيستدلوا على الآخرين بأننا سلكنا هذا لطريق لأننا إعتدنا الدليل الفلاني (الذي يمثل الحق الممزوج بالباطل). نعم يمكن أن يقع بعض المستضعفين الفكريين والسذج جهلاً في حبال الشيطان، والحال لو كان لهم زعيم ومرشد لما شهدوا مثل هذا المصير وعليه فالامة إزاء مزج الحق بالباطل على ثلاثة طوائف:

الطائفة الاولى «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى [٥٧١] وبعبارة اخرى المخلصون من اتباع الحق ينجون بلطف الله من هذه الفتنة. الطائفة الثانية عبدة الأهواء أتباع الحجج والذرائع الذين يقتحمون الباطل بذريعة الحق فيتجهون عن شبه علم إلى حبال الشيطان. الطائفة الثالثة السذج من الأفراد الذين يتعذر عليهم تمييز الحق من الباطل في ظل هذا المزج الخطير فيسقطون جهلاً في مصائد الشيطان، إلا أن يركنوا إلى زعيم عالم. وقد ورد مثل هذا المعنى في الخطبة ٣٨ حين عرض الإمام عليه السلام للشبهة وسبيل النجاة منها فقال عليه السلام

«وإنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق، فأما أولياء الله فضيأؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال...».

تأملات

١- أساس الفتن

إن التاريخ الإسلامي ولا سيما إبان القرن الأول والثاني ملئ بالفتن الغريبة والأليمة التي كادت تقضى على جهود النبي صلى الله عليه و آله وصحبه الميامين، ولو لا تلك الفتن التي عصفت بالإسلام لما

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٦٠

كنا نعيش مثل هذا العالم، والأنكى من ذلك الفتن التي وقعت بعد خمس وعشرين سنة من رحيل النبي صلى الله عليه وآله حين وصلت الخلافة عام ٣٥ هـ فاستهدفت تلك الفتن إعادة الإسلام إلى الجاهلية؛ أما السنوات الأخيرة لخلافة عثمان فقد شهدت غياب جميع القيم والمثل الإسلامية، في حين تجددت سنن الجاهلية وأعرافها المقيتة وانبرت طلائع الشرك والنفاق للتسلم مواقعاً حساسة في الحكومة؛ الأمر الذي كان يعقد وظيفة الإمام عليه السلام. صحيح أن الإمام عليه السلام تمكن بجهاده المرير أن يحيى القيم والمثل الإسلامية، ولكن المؤسف أن الفتن لم تسكن حتى أدت في خاتمة المطاف إلى قتل الإمام عليه السلام في محرابه من قبل تلك الطغمة الضالة. ثم إتسع حجم هذه الفتن على عهد معاوية ويزيد وسائر الشجرة الأموية الخبيثة، فقد سفكت الدماء، واستفعلت البدع، وسادت الأهواء، لتبلغ ذروتها على عهد بنى العباس حتى مثل الإسلام وجفت عروقه.

فلو نظرنا إلى هذه الفتن لوقفنا على عمق خطبة الإمام عليه السلام التي حصرت أساس الفتن في أمرين إتباع الهوى والبدع في دين الله؛ الأمران الذان يشاهدان في كل مكان، فقد تمسكت طائفة من أصحاب الفتن بالأمر الأول بينما لاذت طائفة أخرى بالأمر الثاني. ولا نرى البحث يسع الخوض في هذه التفاصيل ونوكلها إلى مكان آخر.

٢- السياسات الشيطانية

من عجائب الدهر أن مبادئ السياسة الاستبدادية تقريباً متكافئة طيلة التاريخ. فقد إعتد فرعون قبل ألف سنة - على ضوء المنطق القرآني - سياسة فرق تسد «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا» [٥٧٢] وما زال هذا المبدأ باق على قوته في كافة نقاط العالم الاستكباري، فالحكومات تلجأ إلى أقذر الوسائل من أجل تفرقة الصفوف. ولما كانت السياسة الشيطانية آخذة في التعقيد في عصرنا الراهن أكثر من سائر العصور، فقد تعقد تبعاً لذلك مزج الحق بالباطل، حيث يمزج بعض الساسة الحق بالباطل بالشكل الذي يصعب تمييزه على الناس، وأدنى ذلك خداع الرأي العام ببعض العناوين كحقوق الإنسان والرفق

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٦١

بالحيوان ويوم العامل وأطباء بلا حدود ومنظمة العفو الدولية وتأسيس المراكز الخيرية وإعانة المحرومين ومنح حق اللجوء السياسي لعدد من النازحين، فهم يتحدثون عنها بالشكل الذي قد يسيل له لعاب حتى بعض اليقظين والواعين. وناهيك عن كل ما سبق فالحكومات الاستكبارية تشدق بالديمقراطية وضرورة الرجوع إلى آراء الشعب فاذا تم ذلك وجرت الامور خلافاً لمصالحها اللامشروعة عمدت إلى الانقلاب أو إثارة الفتن؛ الأمر الذي لمسناه بوضوح في التجربة الجزائرية، فابقوا على تلك الحكومة التي فشلت في تلك التجربة لأنها تضمن مصالحها. بينما تغض النظر عن الحكومات التي تعيش عقلياً القرون الوسطى وتمد لها يد العون والمساعدة لأنها تحفظ مصالحها.

نعم هذه هي حقيقة عالم السياسة والتي يتضح منها عمق كلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبة في أن أصحاب الفتن إنما يمزجون الحق بالباطل لخداع عوام الناس.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٦٣

الخطبة [٥٧٣] الحادية والخمسون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

لما غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام على شريعة الفرات بصفين ومنعواهم الماء.

نظرة إلى الخطبة

روى ابن أبي الحديد في إطار شرحه لهذه الخطبة أن نصر بن مزاحم قال: كان أبو الأعور السلمى على مقدمة جيش معاوية، وكان قد ناوش مقدمة جيش على عليه السلام وعليها الأشر النخعي مناوشة ليست بالعظيمة، فانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً، فسبق إلى الماء فغلب عليه في الموضع المعروف بقناصرين - موضع في الشام - إلى جانب صفين، فحال جيشه بين ماء الفرات وأهل العراق. فلما بلغ أمير المؤمنين على عليه السلام الخبر دعا صعصعة بن صوحان فقال: إئت معاوية وقل له: إنا سرنا إليك مسيرنا هذا وأنا كره لقتالكم قبل الإغذار إليكم، وإنك قدمت خيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا بالحرب ونحن ممن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك؛ فحل بين الماء والناس حتى ننظر فيما بيننا وبينكم؛ وفيما قدمنا له وقدمتم له؛ وإن كان أحب إليك أن ندع ما جئنا له، وندع الناس يقتتلون حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا. فمضى صعصعة بالرسالة إلى معاوية، فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فأشار عليه بعض أصحابه بمنعهم الماء، غير أن عمرو بن العاص أشار عليه قائلاً: خل بين القوم وبين

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٦٤

الماء فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان. بينما كان معاوية يرجح الرأي القائل بمنع جيش الإمام على عليه السلام من الماء. فمكث أصحاب الإمام عليه السلام بغير ماء فاغتم عليه السلام فألقى هذه الخطبة التي تفيض عذوبةً وفصاحةً وبلاغةً، شاحداً هم أصحابه فكشفوا أصحاب معاوية عن الماء.

جدير بالذكر أن القسم الأول من هذه الخطبة يشير إلى هذه الحقيقة وهي أن الإنسان إذا لم يقدم بكل شجاعة لأخذ حقه لم يكن أمامه سوى الذل والاستسلام للظلم والجور. أمّا القسم الثاني من الخطبة فيصور خداع معاوية ومكره في تأليب الجهال وزجهم في المعركة بما يجعلهم يستمتتون من أجل الباطل!!

ج ج

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٦٥

«قَدْ اسْتَطَعْمَوْكُمْ الْقِتَالَ فَأَقْرُوا عَلَيَّ مَدَلَّةً وَتَأْخِيرَ مَحَلَّةٍ أَوْ رَوْوَا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَزْوَوْا مِنَ الْمَاءِ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ. أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَةً مِنَ الْعُوَاهِ وَعَمَسَ عَلَيْهِمُ الْخَبْرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاصَ الْمَيْتَةِ».

الشرح والتفسير

أقربوا هذه الفتنة الخبيثة

أشرنا سابقاً إلى أن الإمام على عليه السلام ألقى هذه الخطبة في ظل تلك الظروف العصيبة التي ألمت بصحبه. وقد إختار الإمام - الذي يمثل مصدر البلاغة والفصاحة - هذه العبارات الحماسية من أجل تحقيق الهدف المنشود والذي جعل أصحابه يهبون مسرعين لطرده عتاه الشام ومردتها عن شريعة الفرات.

نعم ما زالت هذه العبارات - ورغم تقادم الزمان عليها - تفرع أسماع الجميع وتلهمهم الصمود والتصدي للأعداء إذا ما شكلوا خطراً على عزتهم وشرفهم. فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بالقول:

«قد استطعموكم القتال»

. وهي كلمة مجازية تعني: طلبوا القتال منكم، وهي تستعمل حيث يطلب أحدهم الطعام من آخر، وكأن الحرب والقتال طعام يطلبونه من أصحاب الإمام عليه السلام. وما أشبه هذا الكلام بما تناقله ألسنة عوام الناس في حياتهم اليومية من قبيل تعبيرهم «هذا الفرد يحكه

جلده» في إشارة واضحة إلى أنه يأتي بالأفعال التي ستؤدي إلى ضربه. والحق أن هذا أبلغ تعبير أوردته الإمام عليه السلام بشأن منع أهل الشام للماء عن أصحابه عليه السلام. ثم يواصل الإمام عليه السلام خطبته بأن ليس أمامكم سوى سبيلين لا ثالث لهما تجاه نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٦٦

خسة هذا العمل الذي ارتكبه أهل الشام؛ فإما السلة وإما الذلة

«فأقروا على مذلة وتأخير محلة» [٥٧٤] أو رروا [٥٧٥] السيوف من الدماء ترووا من الماء».

أجل لم يكن لهم من سبيل ثالث، فلو وهنوا أمام العدو وغلب عليهم العطش بحيث أمات رهطاً من جندهم لكان ذلك وصمة عار في جبينهم ولفقدوا مكانتهم ومنزلتهم لدى العدو والصديق، إلا أنهم حين نهضوا بالأمر وحملوا على العدو قد حظوا بمكانتهم ومنزلتهم لدى العدو والصديق، كما كشفوا عن مروءتهم وعظمة خلقهم حين لبوا طلب مولاهم بالبقاء على شريعة الماء مفتوحة بوجه جيش الشام؛ الأمر الذي جعل جيش معاوية يشعر بخسة عمله، وهذا ما أدى بدوره إلى ارتفاع معنويات أصحاب الإمام على عليه السلام وضعف روحية جيش الشام في معركة صفين ولا سيما في أوائل تلك المعركة حين شهدت هذه الواقعة.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى مفهوم كلي ودائمي على أنه السر في انتصار وعزة ورفعته كل أمّة، فيخاطب جنده قائلاً:

«الموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين».

نعم ليس هناك من قيمة لهذه الحياة المادية في قاموس الأفراد الصالحين، كما لا يعتبر الموت مناهضاً لهذه القيمة، بل القيمة في نظر الأحرار إنما تكمن في الحياة التي تسودها العزة والكرامة، ولذلك تراهم يؤثرون الموت مع العزة على الحياة مع الذلة، وهذا هو السر في انتصار الفئة الإسلامية القليلة في عصر النبي صلى الله عليه وآله وما تلاه من عصور - على الفئة الضالة الكثيرة العدد والعدة. أجل فالعزة في المجتمع الإسلامي مقدمه على كل ما سواها؛ ولا يتوانى مثل هذا المجتمع في التضحية بالغالي والنفيس من أجل تحقيقها. وهذا المعنى قد تجلّى بأروع صورة في كلمات شبل على عليه السلام الإمام الحسين عليه السلام في حادثة كربلاء الدموية، فقد كان عليه السلام لا ينفك ينادي:

«لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر لكم إقرار العبيد» [٥٧٦]

. ثم رد على الحر بن يزيد الرياحي - بعد أن جعجع بالحسين عليه السلام في طريقه إلى كربلاء وسقاهاهم الحسين عليه السلام بعظمتهم المعروفة الماء

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٦٧

ورشف خيولهم - حين نصحه بعدم مقاتلة يزيد حفظاً لنفسه قائلاً: أقبال الموت تخوفني. ثم تمثل عليه السلام بالشعر الذي أنشده شاعر الأوس حين حذره ابن عمه من نصرته النبي صلى الله عليه وآله فقال:

سأمضى فما بالموت عار على الفتى إذا مانوى حقاً وجاهد مسلماً

وواسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مشوراً وباعد مجرماً

فان عشت لم أندم وان مت لم ألم كفى بك ذلاً أن تعيش وترغماً [٥٧٧]

ولا غرو فهذا هو المعنى الذي أكدته القرآن الكريم «قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» [٥٧٨].

ثم يشير أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته إلى مكر معاوية وسداجه أهل الشام. الذين انطلقت عليه الأعيب معاوية وحيله فقال عليه السلام:

«ألا وإن معاوية قاد لمه من الغواة وعمس عليهم الخبر، حتى جعلوا نحورهم أغراض المنية» [٥٧٩].

فالإمام عليه السلام يصور في هذه العبارات حكومة معاوية التي تستند إلى الحيلة والمكر والخداع واستغلال السذج من الناس، إلى

جانب تصويره إلى أهل الشام الذين بلغوا حداً من الضلال والغواية ما جعلهم يضحون بأنفسهم باطلاً من أجل تحقيق مآرب معاوية وأهدافه المشؤومة.

ولعل العبارة الواردة في الخطبة تمثل إجابة على السؤال الذي قد يتبادر إلى أذهان أصحاب الإمام عليه السلام عن علّة دفاع أهل الشام عن مطامع معاوية إلى حد الاستماتة. فالإمام عليه السلام يكشف النقاب عن هذه الحقيقة وهي أن مكر معاوية في تزوير الواقع من جانب وجهل أهل الشام وغفلتهم من جانب آخر قد جعلتهم يظنون بأنهم يقاتلون في سبيل الله ونيل الشهادة. نعم لقد كان للدعاية الواسعة والأساليب النفسية التي إعتدتها معاوية وعمرو بن العاص بالغ الأثر في صفوف أهل الشام إلى درجة أن البعض منهم أيقن بأن عثمان قد قتل مظلوماً وإن قاتله هو الإمام على عليه السلام.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٦٨

وقد نهض معاوية للطلب بدمه إلى جانب الدفاع عن القرآن والإسلام وخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، وعليه فليس القتل في هذا السبيل سوى الجنة والشهادة التي يتعطش إليها كل مسلم غيور! طبعاً حبل الكذب والخداع مهما طال قصير ولا يمكن للشمس أن تحجبها الغربان وسرعان ما تتضح الحقائق، غير أن ذلك لا يكون إلا بعد انجلاء الغبرة وإزهاق الأرواح ولات حين مناص.

تأملات

١- ضرورة العيش في ظل العزة والكرامة

تتميز المدرسة الإسلامية عن سائر المدارس والمذاهب بمبادئها وركائزها الحيوية الأصيلة، ومنها المبدأ الذي ورد في الخطبة المذكورة والذي يكمن في ترجيح الموت الشريف على الحياة الوضيعه، وبعبارة أخرى ففي الوقت الذي تحذر فيه المدرسة الإسلامية عن ممارسة الظلم والجور فإنها تؤكد على عدم الركون إلى الظلم والاستسلام للطواغيت، وقد تجسد هذا المعنى في رجالات الإسلام الذين استحقوا بحق لقب «أبأ الضيم» [٥٨٠]. والواقع أن القرآن هو الذي أكد هذا المبدأ «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» [٥٨١]. وكذلك تظافرت روايات أهل البيت عليهم السلام بهذا الأمر، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوْضَ إِلَى الْمُؤْمِنِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا إِذْلالَ نَفْسِهِ» [٥٨٢]. وقال الإمام الحسين عليه السلام:

«موت في عز خير من حياة في ذل» [٥٨٣]

، كما قال عليه السلام:

«ألا وإن الدعى ابن الدعى قد تركنى بين السلة والذلة وهيئات له ذلك، هيئات منى الذلة أبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون وجدود طهرت وحجور طابت أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام» [٥٨٤].

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٦٩

وأورد ابن أبى الحديد في شرحه لنهج البلاغة:

«سيد أهل الآباء الذى علم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنيا أبو عبد الله الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام عرض عليه الأمان وأصحابه فأنف من الذل».

ثم تطرق إلى كلماته الحماسية فى يوم عاشوراء

«ألا وان الدعى ابن الدعى ...»

وأنها على غرار ما أورده أمير المؤمنين على عليه السلام فى خطبته المعروفة - ٣٤ -

«إنَّ امرءَ يمكن عدوه من نفسه، يعرق لحمه، ويفرى جلده، ويهشم عظمه، لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه صدره، فأما أنا فدون أن أعطى ذلك ضرباً بالمشرفية...»

قيل لرجل شهد يوم الطف مع عمر بن سعد: ويحك! أقتلتم ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله؟! فقال: عضضت بالجدل؛ إنك لو شهدت ما شهدنا لنفعلت ما فعلنا، ثارت علينا عصابة أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقى أنفسها على الموت؛ لا- تقبل الأمان، ولا- ترغب في المال، ولا- يحول حائل بينها وبين الورد على حياض المنية، أو الاستيلاء على الملك؛ فلو كفنا عنها رويداً لأنت على نفوس العسكر بحذاقيرها؛ فما كنا فاعلين لا أم لك [٥٨٥]!

٢- غسل أدمغة المغفلين

النقطة المهمة الأخرى التي تضمنتها خطبة أمير المؤمنين عليه السلام، أن أئمة الباطل قد ينمقون كلامهم بالمكر والخداع بما يجعلهم ينفذون إلى أعماق أفكار السذج من الناس، وكأنهم يسوقونهم إلى الشهادة، حيث يقبلون على القتال بكل شدة وصرامة، في حين لا يزيدهم ذلك القتال سوى الطر من الرحمة والتغلغل في الدرك الأسفل من النار، وهذه طامة كبرى. ولم يكن معاوية يدعا من اولئك الطواغيت الذين ساروا على هذا النهج في غسل أدمغة أتباعهم وسوقهم للدفاع عن أهدافهم ومآربهم المشؤومة، فقد سبقه وتلاه الكثير من الظلمة الذين اعتمدوا هذا الأسلوب. فعمر بن سعد قائد عسكر يزيد في كربلاء حين دفع بأهل الكوفة للهجوم على الإمام الحسين عليه السلام نادى بأعلى صوته:

«يا خيل الله اركبي، وبالجنّة ابشري!» [٥٨٦].

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٧٠

كما كانت أجهزة الدعاية الفرعونية تصور موسى وهارون عليهما السلام ممن يسعى للسيطرة على مصر وإشاعة الفساد فيها، في حين تصف فرعون بالمدافع عن هذه الأرض وعزة واستقلال أهلها، فيخاطب الأمة قائلاً:

«إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا» [٥٨٧]

. وما زال هذا هو المنطق الغاشم الذي يمارسه الظلمة على مر العصور والدهور.

٣- المروءة والشهامة

قال نصر- في كتاب صفين- إن عمرو بن العاص قال لمعاوية لما ملك أهل العراق: ما ظنك يا معاوية بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتهم أمس؟ أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه؟ ما أغنى عنك أن تكشف لهم السوء. ويبدو أن عمرو كان بصدد تقريب معاوية ولومه على عدم قبول إقتراح ابن العاص بعدم منع أهل العراق من الماء. فقال معاوية: دع عنك ما مضى، فما ظنك بعلي؟ قال: ظني أنه لا- يستحل منك ما استحلتت منه، وأن الذي جاء له غير الماء. فهو يعلم بخلق علي عليه السلام وليس لاغلاق شريعة الفرات من انسجام وذلك الخلق. [٥٨٨]

وهذا هو الخلق الذي ورثه ابنه الحسين عليه السلام الذي سقى الحر بن يزيد الرياحي وجنده الماء في تلك الصحراء القافرة بينما كان خلق أعدائه أن ذبحوه عطشاناً إلى جانب شط الفرات، وليتهم اكتفوا بذلك فقد منعوا الماء حتى عن رضيعه.

ملكنا فكان العفو مناسجياً فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحسبكم هذا التفاوت بينا وكل إناء بالذي فيه ينضح

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٧١

الخطبة [٥٨٩] الثانية و الخمسون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
وهي في التزهيد في الدنيا وثواب الله للزاهد، ونعم الله على الخلق

نظرة إلى الخطبة

تشتمل الخطبة في الواقع على ثلاثة أقسام: القسم الأول في الزهد وعدم التعلق بالدنيا وأن نعم الدنيا إلى زوال، وعلى المؤمنين أن يستعدوا لسفر الآخرة من خلال العمل الصالح، القسم الثاني ثواب الزهاد والأعمال الصالحة، والقسم الثالث الاقرار بعجز العباد عن إداء حق شكر المنعم، ولا سيما أعظم هذه النعم الإيمان.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٧٣

القسم الأول: الدنيا الغرور

«أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَيَّرَ مَتًّا، وَأَذْنَتْ بِانْقِضَاءِ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا وَأَدْبَرَتْ حَذَاءً، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا وَقَدْ أَمَرَ فِيهَا مَا كَانَ حُلُوءًا، وَكَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْوًا، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الْإِدَاوَةِ أَوْ جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ، لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدِيَانُ لَمْ يَنْتَفِعْ، فَازْمِعُوا عِبَادَ اللَّهِ الرَّحِيلَ عَنِ هَذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالِ، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الْأَمَلُ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهَا الْأَمَدُ.»

الشرح والتفسير

لقد تواترت خطبه عليه السلام في نهج البلاغة التي توصي بالزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها والتزود منها إلى الدار الآخرة، إلى جانب التحذير من مخاطرها وأنها متقلبة سريعة الزوال،

رغم أن الإنسان يطمح بالحياة مادامه في الدنيا ولا بد أن يعيش بعزة ورفعة ويصرف شؤون حياته المادية دون التبعية للآخرين وأن الإنسان لا بد أن يتأهب فيها إلى السفر الشاق الذي ينتظره، ومن هنا ورد التأكيد في هذا الخطبة على الزهد في عشر عبارات رائعة في الدقة والمعنى، فقال في العبارة الأولى

«أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّتْ، [٥٩٠] وَأَذْنَتْ [٥٩١] بِانْقِضَاءِ»

فالعبرة قد تكون إشارة إلى عمر الدنيا الايل للانقطاع والانهاء، ومن هنا يسمى زماننا آخر الزمان، أو إشارة إلى الحياة الدنيا لكل فرد من الأفراد في كل عصر وزمان في أنه قصير سريع الزوال، والمعنى الاخير أنسب. فمفهوم العبارة هو أن عمر الإنسان من القصر في هذه الحياة الدنيا وكأنه يخاطب بالاستعداد للرحيل منذ ولادته. فقوله عليه السلام:

«أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّتْ»

يتناول باطن الدنيا، بينما تناول قوله عليه السلام:

«وَأَذْنَتْ بِانْقِضَاءِ»

ظاهرها، وبعبارة أخرى فَإِنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ ذَاتًا،

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٧٤

كما أن مختلف ملامحها في الحياة الإنسانية هي الاخرى قد أخبرت عن هذا الفناء، وبالتالي فلا ينبغي للإنسان أن يغتر بها ويعيش

الخسران.

وهي كما صورها الشاعر:

هي الدنيا تقول بمل فيها حذار حذار من بطشى وفتكى
فلا يغرنكم حسن إبتسامي فقولى مضحك والفعل مبك
ثم قال عليه السلام:

«وتنكر معروفها وأدبرت حذاء» [٥٩٢]

كيف لا وغضاضة الشباب وطراوة الفتوة ونظارة الوجه آيلة إلى الكهولة والعجز والشحوب، ثم وصف الدنيا عليه السلام بقوله:
«فهي تحفز» [٥٩٣] بالفناء سكانها وتحذوا بالموت جيرانها»

فالعبرة تفيد حركة الإنسان نحو أجله ومصيره المحتوم شاء ذلك أم أبى. والحدى الصوت الذى يردد لتعجيل حركة الناقه، فما أروع هذا التعبير الذى يفيد توفر جميع العوامل التى تدعو الإنسان لحث الخطى والسرعة فى الحركة إلى الزوال والفناء. أما التعبير بالجيران بعد السكان فكأنه يفيد أن محل سكن الإنسان ليس فى هذا العالم، فهو جاره وليس بصاحبه، أى أنه مفارقه لامحالة! ثم قال عليه السلام:

«وقد أمر» [٥٩٤] منها ما كان حلوا وكدر منها ما كان صفوا».

فما أسرع نهاية مرحلة الطفولة والشباب الحلوة العذبة لتستبدل بمرارة الشيخوخة والكهولة فيعد الاستقرار اضطراباً والحصة سقماً والراحة تعباً، وقيل فى تفسير هذه العبارة إنها إشارة إلى اختلاف ظاهر الدنيا وباطنها، فظاهرها حلو وباطنها مرّ، فظاهرها عذب وباطنها علقم، غير أن التمعن فى العبارات السابقة يفيد أن التفسير الأول أنسب. ثم يختتم عليه السلام حديثه عن الدنيا بالقول
«فلم يبق منها الا سملة كسملة» [٥٩٥] الاداوة [٥٩٦] أو جرعة كجرعة المقله لو تمزها [٥٩٧] الصديان لم ينقع»

فالعبرة إشارة إلى حياة كل فرد من

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٧٥

الأفراد وانها تقترب بمرور الزمان من نهايتها، وقد كان تعبيره بمنتهى الروعة لتصوير قصر عمر الدنيا وسرعة زوالها، فالسملة تعنى الشى الزهيد الذى لا قيمة له، وتطلق على ما يتبقى من الماء فى الاناء، و
«جرعة المقله»

تطلق على المسافر الذى يشكو من قلة الماء فيسعى للحصول على الماء لادخاره، أجل فعمر الدنيا قصير إلى درجة أنه لا يروى ظمأ من تعلق به، فما أحرى العاقل أن يفيق إلى نفسه وينأى بها بعيداً عن الاغترار به، فينهمك بالآخرة ويسرع فى السير إليها. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى النتيجة الواضحة

«فازمعا» [٥٩٨] عباد الله الرحيل عن هذه لدار المقدور على أهلها الزوال ولا يغلبنكم فيها الأمل ولا يطولن عليكم فيها الأمد» [٥٩٩]

. إن الإنسان راحل عن هذه الدنيا شاء أم أبى، ومراد الإمام عليه السلام إرحلوا بعلم وعبرة واغتمنوا الفرصة وسيروا على النهج بالعمل الصالح والخلق الرفيع والمعرفة بالله لتنالوا سعادة الآخرة والخلود فى نعيمها. فقد نبه عليه السلام إلى الخطرين الكامنين فى الطريق فقال:

«ولا يغلبنكم فيها الأمل ولا يطولن عليكم فيها الأمد»؛

الأمر الذى أرشد القرآن الكريم إليه بقوله: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِتَذَكَّرِ اللَّهُ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» [٦٠٠] ونؤكد مرة أخرى أن العبارات لاتفيد ترك الدنيا والرهانية فيها وعدم الإكتراث إلى الحياة، بل تفيد عدم التعلق بزخا رف الدنيا والاعترار بها، وبعبارة أخرى فالمراد التعامل مع الدنيا

كما هي، لا على أساس الوهم والخيال وما تمليه علينا أهوائنا وشهواتنا.

لا أحد يعتقد بالخلود في هذه الدنيا، فهي آيلة إلى الزوال والفناء وأن الإنسان سيودعها يوماً ليودع خده التراب في تلك الحفرة، إلّا أن زينة الدنيا وزبرجها قد تلقى بحجابها على هذا الواقع بحيث قد ينسى الإنسان الموت بالمرّة، أو يتناسى تلك الحقيقة المرّة، فينطلق في نشاطاته

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٧٦

وفعالياته وكأنه مخلد في الحياة الدنيا. وقد يطرح هذا الحجاب مؤقتاً إذا ما مات أحدهم واشتركنا في مراسم تشييعه ودفنه لتتضح أمامنا الدنيا على حقيقتها، فإذا عدنا إلى حياتنا نسينا كل شى وعاد ذلك الحجاب، وكأنّ الموت لم يكتب علينا، وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا يصدق على أولياء الله، فهم أرفع من أن تبعدهم هذه الحجب عن حقيقة الحياة والموت، فهم لا يرون الدنيا سوى قنطرة إلى الآخرة. والحق أنّ تحذير الإمام عليه السلام في هذه الخطبة من الدنيا لا يعنى أبداً أنّه يحث الناس على مقاطعة الدنيا وتركها، كيف وهو يراها مقدمة للآخرة

«الدنيا مزرعة الآخرة»

. والطريف أنّ بعض الشعراء من أولياء الله قد صوروا هذه الحقيقة في أشعارهم، ولا بأس هنا بالتعرض لهذه القضية.

فقد ورد في الحديث المعروف: سعى إلى المتوكل بعلى الهادي عليه السلام أنّ في منزله كتباً وسلاحاً من شيعة من أهل قم، وأنّه عازم على الوثوب بالدولة، فبعث إليه جماعة من الأتراك، فهجموا على داره ليلاً فلم يجدوا فيها شيئاً ووجدوا في بيت مغلق عليه، وعليه مدرعة من صوف، وهو جالس على الرمل والحصى هو متوجه إلى الله تعالى يتلو آيات من القرآن، فحمل على حاله تلك إلى المتوكل وقالوا له: لم نجد في بيته شيئاً ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبلة، وكان المتوكل جالساً في مجلس الشرب، فدخل عليه والكأس في يد المتوكل، فلما رآه هابه وعظمه وأجلسه إلى جانبه، وناوله الكأس التي كانت في يده فقال: والله ما يخامر لحمي ودمي قط، فاعفني فاعفاه، فقال: أنشدني شعراً، فقال عليه السلام: إنى قليل الرواية للشعر، فقال: لا بدّ، فأنشده عليه السلام:

باتوا على قلل الاجبال تحرسهم غلب الرجال فلم تنفعهم القلل

واستنزولوا بعد عزم من معاقلمهم واسكنوا حفرا يابئس ما نزلوا

ناداهم صارخ من بعد دفنهم أين الاساور والتيجان والحلل

أين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الاستار والكلل

فافصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدود يقتل

قد طالما أكلوا دهرأ وقد شربوا وأصبحوا اليوم بعد الأكل قد اكلوا [٦٠١]

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٧٧

القسم الثاني: السعي القليل وإن كثر

«قَالَ اللَّهُ لَوْ خَشِيتُمْ حَيْنَ الْوَلِّهِ الْعِجَالِ وَدَعَوْتُمْ بِهَيْدِيلِ الْحِمَامِ وَجَارْتُمْ جُورًا مُتَّبِلِي الرُّهْبَانِ وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ التِّمَاسِ الْقُرْبِيَةِ إِلَيْهِ فِي اِرْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ أَوْ عُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَيْتَهَا كُتْبُهُ وَحَفِظْتَهَا رُسُلُهُ لَكَانَ قَلِيلًا فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ».

الشرح والتفسير

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من تصوير حقيقة الدنيا وسرعة زوالها حتى تطرق إلى الثواب والعقاب في الآخرة ومصير الإنسان هناك على أنّها تمثل الهدف لهذه الدنيا. وبعبارة اخرى كان القسم الأول من كلامه مقدمة لهذا القسم الذي يشير فيه إلى الهدف الغائي وهو

القرب من الله ونيل ثوابه واجتناب عقابه فقال عليه السلام:

«فو الله لو حننتم [٦٠٢] حنين الوله [٦٠٣] العجال [٦٠٤] ودعوتم

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٧٨

بهديل [٦٠٥] الحمام وجأرتم جوار [٦٠٦] متبلى [٦٠٧] الرهبان [٦٠٨] وخرجتم إلى الله من الأموال والاولاد إلتماس القربة إليه في ارتفاع درجة عنده أو غفران سيئه أحصتها كتبه وحفظتها رسله لكان قليلا فيما أرجو لكم من ثوابه وأخاف عليكم من عقابه»
فقد إستعار الإمام عليه السلام ثلاثة تشبيهات للتضرع إلى الله واستفراغ الجهد في الانقطاع إليه، التشبيه الأول: الصوت الذي تخرجه النوق الوالهة الفاقدة لأولادها، وهو الصوت الحزين الذي يرق له القلب حين سماعه، التشبيه الثاني: هديل الحمام حين إجتماعها، والهديل يطلق على فرخ الحمام كما يطلق على صوتها، وتعتقد العرب أن الهديل حمامة على عهد نوح عليه السلام بقيت وحدها وماتت عطشاً، ومنذ ذلك اليوم والحمام ينوح عليها، التشبيه الثالث: بكاء الرهبان المنقطعين عن الدنيا القابعين في صومعاتهم، والذين ينوحون عند الطقوس الدينية وقد إشتد نياحهم بفعل إنقطاعهم عن الدنيا. ولم يكتف الإمام عليه السلام بهذا التضرع والنوح والبكاء فقال:

«وخرجتم إلى الله من الأموال والاولاد»

أى ولو تركتم أموالكم وأولادكم من أجل القرب إلى الله كان قليلاً.

والدليل واضح على ذلك فالدنيا وما فيها لاتعدل جناح بعوضة من الآخرة، وهى ليست سوى قطرة إلى بحر، ومن الطبيعي أن الإنسان لا يخرج من ماله وولده ما لم يقف على هذا المعنى. وقد وردت هذه المقارنة بين الدنيا والآخرة فى خطبة المتقين بقوله عليه السلام:

نفحات الولاية ؛ ج ٢ ؛ ص ٣٧٨

«صبروا أياما قصيرة أعقبتم راحة طويلة» [٦٠٩]

ج ج .

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٧٩

القسم الثالث: عظمة وسعة النعم الإلهية

«وَتَاللَّهِ لَوْ أَنَّمَاتُ قُلُوبِكُمْ انْمِيَانًا، وَسَالَتْ عَيْوُنُكُمْ مِنْ رَغْبَةِ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبِهِ مِنْهُ دَمًا، ثُمَّ عَمَّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةً، مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ عَنْكُمْ - وَلَوْ لَمْ تُتَّقُوا شَيْئًا مِنْ جُهْدِكُمْ - أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ الْعِظَامُ، وَهَدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ».

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن عظمة النعم الإلهية التى أفاضها الله على البشرية لإثارة حس الشكر لديه والتوجه إلى ربه بما يقوده إلى السمو والرفعة والكمال والقرب من الله. فقال عليه السلام:

«وتالله لو إنماتت قلوبكم انمياناً [٦١٠]، وسالت عيونكم من رغبة إليه ورهبة منه دمًا، ثم عمرتم فى الدنيا، ما الدنيا باقية، ما جزت أعمالكم عنكم - ولو لم تبقوا شيئاً من جهدكم - أنعمه عليكم العظام، وهداه إياكم للإيمان»

فقد شرح الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغة أقصى جهود الإنسان كما وكيفا فى طاعة الله، فمن ناحية الكيفية أنه لو ذاب فى طاعة الله واصطرخت كافة ذرات جسمه وحلقت روحه فى سماء العبودية، ومن الناحية الكمية لو دام هذا العمل طيلة حياة ابن آدم، فمع ذلك لا يسعه أن يؤدى حق شكر النعم الإلهية، بل شكر نعمة واحدة، حيث صرحت بعض الروايات بان ذات الشكر نعمة ينبغى للإنسان الشكر عليها. وما أروع ما قال الشاعر:

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٨٠

شكر الاله نعمته موجبة لشكره وكيف شكرى بره وشكره من بره [٦١١]

فالواقع أنّ الإمام عليه السلام أشار بتلك العبارة إلى عدم محدودية النعم الإلهية. وهو كالتعبير القرآني في الآية ٢٧ من سورة لقمان بشأن علم الله: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ». نعم ليس للبعد سوى الاعراب عن ضعفه وعجزه أمام النعم الإلهية. الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام يؤكد على نعمة الإيمان «وهدها إياكم للإيمان»

من قبيل ذكر الخاص بعد العام. فقد أشار في العبارة السابقة إلى الأنعم الإلهية ثم خص هنا منها نعمة الإيمان على غرار ما جاء في القرآن الكريم: «بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ» [٦١٢]. ولا تتأني أهمية الإيمان من كونها مفتاح سعادة البشر وجواز سفره إلى الجنة فحسب، بل لأنها الدافع لكافة الفضائل والأعمال الصالحة والرائع من الرذائل والأعمال السيئة، فالواقع هي أساس الدين والملفت للنظر في العبارة أنّه عليه السلام نسب الهداية لله، وان حصل عليها الإنسان باختياره وإرادته؛ وذلك لتعذرهما على الإنسان بمفرده ما لم تشمله العناية الإلهية ويرشده الأنبياء والأولياء والكتب الإلهية إليها، ومن هنا نسأل الله في صلواتنا اليومية ليل نهار الهداية. ويبدو من الأهمية في نهاية الخطبة الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن القسم الأول لها بعد المقدمة حيث يعد القلوب من خلال تبيينها إلى تقلب أحوال الدنيا وزوالها، بينما يوجهها في القسم الثاني والثالث إلى طاعة الله وكسب الفضائل ودفع الرذائل. مع هذا الفارق في تأكيد القسم الثاني على أهمية القرب من الله ومطلوبية كل سعي وجهد للوصول إلى هذا الهدف، أما القسم الثالث فيرد ساحة القدس الربوبي صاحب الفضل عن طريق مسألة شكر المنعم، فالوجدان هو الذي يشهد بضرورة هذا الشكر.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٨١

الخطبة [٦١٣] الثالثة والخمسون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
«في ذكرى يوم النحر وصفة الاضحية»
«وَمِنْ تَمَامِ الْأُضْحِيَّةِ اسْتِشْرَافُ أُذُنِهَا، وَسَيِّلَامَةُ عَيْنِهَا، فَإِذَا سَلِمَتِ الْأُذُنُ وَالْعَيْنُ سَلِمَتِ الْأُضْحِيَّةُ وَتَمَّتْ، وَلَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ الْقَرْنِ تَجْرُ رِجْلَهَا إِلَى الْمَسْكِ».
الشرح والتفسير

تمام الاضحية

أشار الإمام عليه السلام في هذا الفصل من الخطبة إلى تفاصيل وجزئيات الاضحية، وقال:
«ومن تمام الاضحية [٦١٤] استشراف [٦١٥] أذنها وسلامة عينها، فاذا سلمت الاذان والعين سلمت

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٨٢

الاضحية وتمت»

ثم أضاف عليه السلام:

«ولو كانت عضاء [٦١٦] القرن تجر رجلها إلى المنسك»

ولا- يتتافی هذا الكلام مع ما تعارف بين الفقهاء وما ورد في سائر روايات المعصومين عليهم السلام من أن الاضحية يجب أن تكون سالمه الرأس، لأنّ غضب قرنها الداخلى يضر بسلامتها لا قرنها الخارجى، كما لا يضر العرج البسيط الذى لا يعيقها عن الحركة. وجاء فى بعض النسخ قوله:

«فلا تجزى»

بعد العبارة

«تجر رجلها إلى المنسك»

وعليه يصبح مفهوم العبارة عدم أجزاء الاضحية إن كسر قرنها وكانت تجر رجلها على الأرض [٦١٧]. قال السيد الرضى (ره) فى ذيل الخطبة:

«والمنسك هاهنا المذبح».

عليه سلامة الاضحية من النقص والعيب

رغم أن الهدف من الضحية هو إستفادة بعض المحتاجين منها كما صرح بذلك القرآن الكريم: «فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [٦١٨] ومن المسلم به عدم وجود أى تأثير على هذا المعنى سواء كان قرنها سالمًا أم لا، ولكن الاضحية شعيرة إسلامية وعبادة، ولا يليق بالساحة القدسية للرب سبحانه إختيار الشاة المعيبة والمريضة، ولا بد من تقديم الخالصة فإن ذلك نوع من الادب والاحترام؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى صلاة المرأة بكامل الحجاب، وارتداء الثياب النظيفة حين الصلاة، والتعطر عند العبادة وغسل الميت وتكفينه وتحنيطه وما إلى ذلك من الامور.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٨٣

الخطبة [٦١٩] الرابعة والخمسون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيهما يصف أصحابه بصفين حين طال منعهم له من قتال أهل الشام.

نظرة إلى الخطبة

هناك خلاف بين الشراح بشأن زمان الخطبة، فقد ذكر صاحب مصادر نهج البلاغة أن جماعة سألو الإمام عليه السلام عن رأيه بمن سبقوه بالخلافة لما غلب عمرو بن العاص على مصر وقتل عامل الإمام عليه السلام عليها محمد بن أبى بكر. فأجابهم عليه السلام وهل خمدت فتنة ابن العاص لتسألوا هذا السؤال وقد غلبكم على مصر وقتلوا صحبى، ثم قال: سأكتب كتاباً واجب على أسئلتكم. بينما ذهب البعض إلى أن بداية الخطبة مرتبط بزمان البيعة وذيلها بواقعة صفين. كما احتمل أن تكون فى البيعة وموقعة الجمل إلّا أنّ كل هذه الاحتمالات بعيدة، والظاهر أنّ الخطبة واردة بشأن صفين حين هم صحبه بالقتال، ويؤيد ذلك ما أورده المرحوم البحرانى والشارح الخوئى من أنّها ناظرة إلى حال أصحاب الإمام عليه السلام فى صفين حين منعهم من قتال أهل الشام. [٦٢٠] وزبدة الكلام

فان الإمام عليه السلام قال لما استبطأ أصحابه القتال:

«وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٨٤

منعنى النوم، فما وجدتنى يسعنى إلقائهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه و آله، فكانت معالجة القتال أهون على من معالجة العقاب، وموتت الدنيا أهون على من موتت الآخرة».

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٨٥

«فَإِذَا كُؤَا عَلِيٍّ تَدَاكَ الْإِبِلُ الْهَيْمِ يَوْمَ وَرْدِهَا وَقَدْ أُرْسِلَهَا رَاعِيهَا، وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِيَّ أَوْ بَعْضُ هُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ، وَقَدْ قَلْبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَجِدْتَنِي يَسَعُنِي إِلَّا قِتَالَهُمْ أَوْ الْجُحُودَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ وَمَوْتَاتِ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الْآخِرَةِ».

الشرح والتفسير

ليس هنالك سوى القتال

بغض النظر عن كون الخطبة بشأن بيعه الناس للإمام عليه السلام أو المسائل المرتبطة بصفين، فإنه استهلها عليه السلام بعدم انطلاقه نحو الناس بل الناس هم الذين إندفعوا إلى:

«فَإِذَا كُؤَا [٦٢١] عَلِيٍّ تَدَاكَ الْإِبِلُ الْهَيْمِ [٦٢٢] يَوْمَ وَرْدِهَا [٦٢٣] وَقَدْ أُرْسِلَهَا رَاعِيهَا، وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا» [٦٢٤]

. ثم أضاف عليه السلام:

«حتى ظننت أنهم قاتلي أو بعضهم قاتل بعض لذي»

تتضمن هذه العبارة عدّة امور:

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٨٤

١- كيفية هجوم الناس عليه من أجل البيعة أو حين الاصرار على شروع موقعة صفين إنما تفيد تغير الناس آنذاك، وهنا لابد من الالتفات إلى أن معنى المفردة تداكوا هو الضرب وقد أشارت في العبارة إلى شدة عطش الابل التي تضرب بعضها بعضاً لتبلغ أسرع من غيرها الماء، والهيم شدة العطش التي تجعل الإنسان أو الحيوان مضطرباً. فلو تركت هذه الابل العطاش لحالها دون الراعى فما عساها تفعل. أجل هكذا كانت حال الناس في تلك اللحظات الحساسة حتى كان يخشى عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً. نعم هذا هو حال الناس حين يعشقون شيئاً ويعبرون عنه بعواطفهم، إلا أنه من المؤسف أن هؤلاء الناس سرعان ما يتخلون عن موقفهم إذا واجهتهم بعض المصاعب.

٢- يمكن أن تكون حالة إندفاعهم نابعة من عدم عمق مشاعرهم وقلة علمهم ومعرفتهم.

٣- تشتمل هذه العبارات على بعض الكنايات التي تفيد صعوبة السيطرة عليهم حين تأخذهم الحرارة والحماس، كما يصعب إثارتهم حين تلفهم البرودة والانتكاس.

ثم قال عليه السلام:

«وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى منعنى النوم فما وجدتنى يسعنى إلقائهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه و آله فكانت معالجة القتال أهون على من معالجة العقاب وموتت الدنيا أهون على من موتت الآخرة».

فتفيد هذه العبارات:

أولاً: أن الإمام عليه السلام لا يرضخ لضغوط الناس، فلا يتخذ القرار حتى يدرس جميع جوانب الموضوع، وهذا ما ينبغي أن تكون

عليه سياسة الزعماء الربانيين بعيدة عن العواطف والأحاسيس مستندة إلى مصالح لأمّة الواقعية. ثانياً: عادة ما يصل الإنسان في حياته الفردية أو القادة في حياتهم الاجتماعية إلى مفترق طرق، فلا بدّ هنا من الشجاعة والاقدام على إنتخاب الاصلح، فان كان القتال هو الأصلح لا ينبغي للدعة والراحة أن تحول دون خوضه بحجة حفظ دماء المسلمين دون الإكتراث إلى المصالح العليا.

ثالثاً: المهم بالنسبة للإمام عليه السلام رضى الله وإداء التكليف ومن هنا آثر رضى الله سواءً تضمن رضى الناس أم لا.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٨٧

رابعاً: واضح أنّ قتال الإمام عليه السلام كان قتال الإيمان للكفر والإسلام للجاهلية. بناءً على ما تقدم فقد كان عليه السلام يرى رضى الله قبل الاستجابة لرغبات الناس، وبالطبع قد يمكن الجمع بين الاثنين إذا كانت رغبات الامية وتطلعاتها مشروعة تهدف نشر القيم والمبادئ السماوية.

تأملان

١- البيعة الفريدة للإمام عليه السلام

تفيد خطب نهج البلاغة الواردة بهذا الشأن، أنّ البيعة كانت من الحوادث العجيبة التي شهدتها خلافة الإمام عليه السلام بحيث خرجت عن المتعارف في البيعات العادية، وقد بلغ الزحام درجة كان يخشى معها وقوع البعض وانحساره بين تلك الجماعات العظيمة. وهنا يطرح هذا السؤال: ما سبب ذلك الهجوم العظيم على الإمام عليه السلام من أجل البيعة؟ يبدو أنّ غضب الناس بلغ ذروته إبان من سبق الإمام عليه السلام من الخلفاء ولا سيما على عهد الخليفة الثالث الذي شهد غياب العدل وضياع القيم والمثل والتناول على بيت المال والاساءة إلى الشخصيات الإسلامية وتسليط عصابه من البطانة على رقاب الناس، بحيث لم يكن أمام الناس سوى اللجوء إلى ذلك الفرد العادل الذي من شأنه اعادة الإسلام إلى مسيرته الأصلية. نعم كانوا متعطشين للعدالة، للإسلام الأصيل والمعارف القرآنية الحقة الخالية من الخرافات والأساطير؛ الامور التي جمعت في أمير المؤمنين على عليه السلام، فما حيلة العطشان إذا رأى الماء الزلال سوى الهجوم عليه والتزود منه، فالهجوم المذكور يفيد عظمة مقام الإمام عليه السلام من جانب ومدى إستياء الناس من الاوضاع السابقة من جانب آخر، والأمران يحتاجان إلى ابحاث تاريخية مسهبة. [٦٢٥]

٢- الحرب والسلام، والكفر والإيمان

رأينا في آخر الخطبة أنّ الإمام عليه السلام وقف أمام سيئين لا ثالث لهما؛ إما الحرب أو الكفر بما جاء به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وما ذاك إلّا أنّ الحرب ورغم ما يكتنفها من خراب ودمار وويلات،

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٨٨

غير أنّها قد تكون السبيل الوحيد لمجابهة الظلم والاضطهاد وعدم العدل كما تشكل الوسيلة الناجعة لاستئصال جذور الفساد والانحراف ومن هنا كانت إحدى غايات القتال، كما صرح بذلك القرآن القضاء على الفتنة واخماد نيرانها واعادة الامور إلى مجاريها الطبيعية «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» [٦٢٦] وقال «فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» [٦٢٧] وهنا يغلق أولياء الله أبواب الراحة والدعة ويهبوا لخوض القتال وتحمل عنائه وشدائده، ولا عجب فالضحية بحطام الدنيا لا يؤثر على سعادة الاخرى

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٨٩

الخطبة [٦٢٨] الخامسة والخمسون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين

نظرة إلى الخطبة

يبدو من تناسب مضمون هذه الخطبة مع الخطبة السابقة أنها خطبة واحدة، أو خطبتان وردتا في زمان متقارب قال ابن أبي الحديد في ذيل هذه الخطبة: لما ملك أمير المؤمنين علي عليه السلام الماء بصفين ثم سمح لأهل الشام بالمشاركة فيه والمساهمة، رجاء أن يطفوا إليه، واستماله لقلوبهم وإظهارا للعدالة وحسن السيرة فيهم، مكث أياماً لا يرسل إلى معاوية، ولا يأتيه من عند معاوية أحد، واستبطأ أهل العراق إذنه لهم في القتال، وقالوا: يا أمير المؤمنين، حلفنا ذراريتنا ونساءنا بالكوفة، وجئنا إلى أطراف الشام لتتخذها وطناً، انذن لنا في القتال، فإن الناس قد قالوا. قال لهم عليه السلام: ما قالوا؟ فقال منهم قائل: إن الناس يظنون أنك تكره الحرب كراهية للموت، وإن من الناس من يظن أنك في شك من قتال أهل الشام. فقال عليه السلام: ومتى كنت كارها للحرب قط! إن من العجب حبي لها غلاماً ويفعاً، وكراهيتي لها شيخاً بعد نفاذ العمر وقرب الوقت! وأما شكى في القوم فلو شككت فيهم لشككت في أهل

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٩٠

البصرة، والله لقد ضربت هذا الأمر ظهراً وبطناً، فما وجدت يسعني إلا القتال أو أن أعصى الله ورسوله، ولكني أستأني بالقوم، عسى أن يهتدوا أو تهتدي منهم طائفة، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي يوم خيبر: «لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس».

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٩١

«أما قولكم: أكل ذلك كراهية الموت؟ فوالله ما أبالي، دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلي. وأما قولكم شكاً في أهل الشام! فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلّا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهدى بي، وتغشوا إلي صوئي، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها».

الشرح والتفسير

تماسك الإمام عليه السلام حيال القتال

كما ذكرنا فإن الخطبة جواباً لأصحابه عليه السلام الذين استبطأوا إذنه لهم بالقتال في صفين، فقد قال عليه السلام

«أما قولكم: أكل ذلك كراهية الموت؟ فوالله ما أبالي، دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلي».

نعم إذا كان هنالك هدفاً مقدساً كرضى الله فإن الفرد المؤمن لا بد أن يسارع إلى الشهادة ولا ينتظرها، فما أسمى أن يهب الإنسان نفسه ويضحى بها من أجل معشوقه ومعبوده.

أضف إلى ذلك فسابقة الإمام عليه السلام في الغزوات الإسلامية لأشهر من نار على علم وليست بخافية على أحد ولا سيما صولاته في بدر وأحد والأحزاب وخيبر وحنين وذوده عن رسول الله صلى الله عليه وآله واستماتته من أجل نيل الشهادة، فكيف وهذا الحال يمكن توجيه هذه التهمة الباطلة لهذا الإنسان بتأخير القتال خوف الشهادة. وقد تحدث الإمام عليه السلام عن مثل هذا المعنى في

الخطبة الخامسة والخطبة مئة وثلاث وعشرين حيث قال:

«والله لابن أبي طالب آنس

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٩٢

بالموت من الطفل بثدي أمه»

وقال:

«والذى نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربةً بالسيف أهون على من ميتة على الفراش فى غير طاعة الله»

. وتشهد سيرة الإمام عليه السلام أنه مارس هذا المعنى عملياً فى حياته وما أجهل تلك الجماعة من جيش أهل العراق التى وجهت

مثل تلك التهمة للإمام عليه السلام وخشيته من الشهادة فى سبيل الله.

قد يقال أن أولئك لم يكونوا أدركوا أولى الغزوات الإسلامية. فنقول فهل يسعهم نسيان موقعة الجمل؟ الموقعة التى كان يتقضى فيها

الإمام عليه السلام كالليث الضارى على جنود الأعداء فيمزق جموعهم وينزل حمم غضبه على رؤوسهم. بل كيف يمكن إتهامه وهو

الذى يمثل الإيمان كله فى مقابل الشرك كله، أو ليس هو القائل:

«لقد كنت وما اهدد بالحرب ولا أرهب بالضرب وإنى لعلى يقين من ربى وغير شبهة من دنى».

وقوله عليه السلام:

«فو الله ما ابالى»

إشارة إلى هذه الحقيقة وهى أن الأفراد العاديين ممن لا هدف لهم، هم الذين يخشون الاتجاه نحو الموت، بل ينتظرون قدوم الموت

إليهم آخر عمرهم؛ بينما ليس هنالك من فارق بين الخروج إلى الموت أو قدوم الموت حسب الأجل المقدر بالنسبة لأهل الإيمان

والورع والتقوى ولعل الموت يمكن تشبيهه هنا بالاسد المفترس، فالفرد العادى لا يتجه إليه أبداً، أما الشجاع فيقدم على مواجهته دون

أن يشعر بخوف أو هلع، فالمؤمن الشجاع حين يرى فى الموت الشهادة فى سبيل الله ونيل رضوانه يستقبله بكل رحابة صدر، فلو قدر

لهذا الموت أن يسلبهم ما تبقى من عمرهم، فأنهم سيستبدلون بذلك الخلود والبقاء. ثم تناول الإمام عليه السلام الاحتمال الثانى الذى

أوردته تلك الجماعة بشأن تأخير القتال فقال:

«وأما قولكم شكاً فى أهل الشام فو الله ما دفعت الحرب يوماً إلأوأنا أطمع أن تلحق بى طائفة فتهتدى بى، وتعشوا [٦٣٠] إلى ضوئى»

ثم برر ذلك بقوله عليه السلام

«وذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء [٦٣١] بآثامها».

فالإمام عليه السلام يؤكد هنا على أن القتال لا يمثل هدفاً ولا السبيل الأول لحل الخصومات من وجهة نظر أولياء الله، بل هو العلاج

الأخير إذا ما عجزت كل السبل والاساليب، فهم يسعون جاهدين للترث

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٩٣

والإناة أملاً فى رجوع ولو فرد واحد إلى الحق فيزداد أهل الحق ويقل أهل الباطل، بينما ينظر السذج من الناس إلى هذا الأمر بنوع من

الشك والريبة، فإن أولياء الله يفتحون ذراعهم باستقبال النادمين والتائبين وقد أثبت التأريخ - ولا سيما موقعة صفين - صحة حسن ظن

الإمام عليه السلام، وذلك لأن فئه كبيرة قد فاءت إلى الحق بينما انسحبت طائفة من المعركة وذلك بفضل تراث الإمام عليه السلام

واناته فى القتال.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٩٥

الخطبة [٦٣٢] السادسة والخمسون

ومن كلام له عليه السلام
يصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك يوم صفين حين أمر الناس بالصلح

نظرة إلى الخطبة

هناك رأيان بشأن زمان الخطبة: فالبعض يعتقد أنه ورد بشأن فتنة ابن الحزرمي بعد أن استشهد محمد بن أبي بكر على يد عمرو بن العاص فقد البصرة من قبل معاوية ليخرجها من حكومة الإمام على عليه السلام حيث استولى عليها بمعونة جماعة من المنافقين. فلما بلغ الإمام عليه السلام ذلك من قبل ابن عباس يعزبه بمحمد بن أبي بكر خطب الخطبة، ثم بعث بجارية ابن قلامه السعدى المعروف بشجاعته فحاصر ابن الحزرمي مع سبعين من صحبه وقضى عليهم جمعياً. والرأى الآخر أن الإمام عليه السلام خطبها فى صفين، حين اقترح على الإمام عليه السلام الصلح وقد ضغطوا على الإمام عليه السلام لقبوله. على كل حال فإن الإمام عليه السلام خطب الناس لا مثقال أوامره، ثم تطرق لا خلاص المسلمين فى صدر الإسلام وأن سبب النصر يكمن فى الانضباط والتسليم لأوامر النبى صلى الله عليه وآله، فى إشارة إلى النصر سيكون حليفهم لو إستوتوا بهذه السنة وطاعوا الأوامر، والأ ليس إمامهم سوى الفشل والهزيمة إذا عاشوا الفرقة والتشتت وعدم طاعة الأوامر.

ج ج

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٩٧

«وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقْمِ وَصَبْرًا عَلَى مَضِضِ الْأَلْمِ وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعُدُوِّ؛ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَّصَلُونَ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمُنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بَعْدُونَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّى اسْتَفَرَّ الْأَشْيَاءَ مُلْقِيًا جِرَانَهُ وَمُتَبَوِّئًا أَوْطَانَهُ. وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عُمُودٌ وَلَا اخْضَرَّ لِلْإِيمَانِ عُودٌ. وَإِنَّمَا اللَّهُ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَمًا، وَلَتَسْبَعُنَّهَا نَدْمًا!»

الشرح والتفسير

الوقوف المشرف إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله

أشار ابن ميثم البحراني فى شرحه إلى بعض الخطبة الذى لم يرد فى كلام السيد الرضى (ره) والذى له تأثير على فهم مضمون هذه الخطبة، فقال: روى البعض أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين أراد الناس الصلح مع جيش معاوية (بينما كان الإمام عليه السلام مخالف ذلك ولو لا اصرار البعضى منهم لما وافق) فقد إستهل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«إن هؤلاء القوم لم يكونوا ليفيئوا إلى الحق ولا- ليجيبوا إلى كلمة سواء حتى يرموا بالمناشر تتبعها العساكر، وحتى يرحموا بالكتاب تقفوها الجلائب، وحتى يجر ببلاده الخميس يتلوه الخميس، وحتى تدعق الخيول فى نواحي أراضيههم، وبأعناء مشاربهم ومسارحهم، حتى تشن عليهم الغارات من كل فج عميق، وحتى يلقاهم قوم صدق صبر، ولا يزيدهم هلاك من هلك من

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٩٨

قتلاهم وموتاهم فى سبيل الله إلا جدا فى طاعة الله وحرصاً على لقاء الله. ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله الفصل» [٦٣٣] عليه فإن مصالحة هؤلاء القوم الجفاة لا تنطوى سوى على الاحباط والفشل، وذلك لأنهم لا يفهون منطق الصلح ولا يمكنهم التعايش مع الآخرين بسلام ولا يدركون سوى منطق القوة، وهذا ما كشفت عنه أحداث صفين. على كل حال واصل الإمام عليه السلام خطبته ليتحدث عن مقومات النصر وعوامل الفشل والهزيمة فقال عليه السلام:

«ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وأبناءنا وأخونا واعمامنا»

في إشارة إلى ضرورة عدم الالتفات إلى قرابة كائن من كان إذا وقف كعقبة أمام المسيرة، الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» [٦٣٤] ثم قال عليه السلام:

«ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما ومضيا على اللقم» [٦٣٥] وصبرا على مضمض [٦٣٦] الالم وجدا على جهاد العدو»

فما أشار إليه الإمام عليه السلام بهذه العبارة إنما يمثل واقعه تاريخي، فقد مثل أمام المسلمين في أغلب المعارك ولا سيما معركة بدر قرابتهم وعشيرتهم، فما كان من المسلمين إلا أن قاتلوهم بكل بسالة دون أن يكتثروا لتلك القرابة رغم احترام العرب المنقطع النظير للروابط القبلية. ثم قال عليه السلام:

«ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان [٦٣٧] تصاول الفحلين يتخالسان [٦٣٨] أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المنون، فمرة لنا من عدونا ومرة لعدونا منا»

في إشارة إلى أنه ليس من الضروري أن ينتصر الحق على الباطل في كافة المعارك وطيلة المجابهة، فقد يتغلب الباطل على الحق أحيانا إلا أن الحق وعلى ضوء الوعد الإلهي منتصر في خاتمة المطاف - وعليه فلا تتوقعوا عدم بروز المشاكل خلال مجابهة أهل الشام، كما أن هذه المشاكل لا ينبغي أن تقود إلى

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٣٩٩

التمرد على أوامر الإمام عليه السلام، ما سيرة النبي صلى الله عليه وآله وصحبه لإدليل واضح على هذا الأمر، ومن هنا قال عليه السلام:

«فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت [٦٣٩] وأنزل علينا النصر، حتى إستقر الإسلام ملقيا جرانه [٦٤٠] ومتوناً أوطانه»

فالإمام عليه السلام أشار هنا إلى العامل الرئيسي لانتصار المسلمين الأوائل ويلوح إلى عناصر فشل أهل الكوفة، فقد نسب العامل الرئيسي للانتصار إلى صدق النية التي تمثل الدافع الأصلي للصمود والمقاومة أمام العدو والطاعة التامة للزعامة الربانية. ولو تلوثت هذه النية وسيطرت الأنانية على الإنسان، آنذاك ستكون إرادته وقراره مستندا لاهوائه وطيشه وغروره؛ الأمر الذي يقود إلى الهزيمة والفشل. ومن الطبيعي ألا تشمل عنايات الله وألطافه ونصره مثل هؤلاء الأفراد، ثم خلص الإمام عليه السلام لهذه النتيجة:

«ولعمري لو كنا نأتى ما أتيتم، ما قام للدين عمود ولا إخضر للايمان عود»

فهل تعلمون من قوم في أي عصر ومصر إنتصروا ويفرقتهم واختلافاتهم، فاذا رجعتم قليلا إلى الوراء لرأيتم أن النصر الخاطف الذي حققه رسول الله صلى الله عليه وآله خلال تلك المدة القصيرة حتى ترسخت دعائم الدين واتسع نطاق الإسلام ليشع بنوره على ظلمات الشرق والغرب فإن ذلك كان بفضل الإيمان والطاعة والجهاد، بينما تمارسون الآن عكس ذلك وتحلمون بالنصر. وأخيراً يحذرهم عليه السلام بالقول:

«وأيم الله لتحتلبنها دماً، ولتبعن ندماً».

فقد تضمنت العبارات الاخيرة للإمام عليه السلام ثلاثة تشبيهات: الأول: تشبيه الإسلام بالخيمة واعمدته الجهاد. حيث نعلم بأن الخيمة موضع الأمن والراحة من الحرارة المحرقة والبرودة القارسة، الإسلام هو الآخر موضع أمن البشرية ووسيلة نجاتها من العواصف القاتلة. الثاني:

تشبيه الإيمان بالشجرة التي إخضرت غصونها بدماء المؤمنين في صدر الإسلام. والثالث:

تشبيه الحكومة بالناقفة التي تحتلب الدم بدلاً من اللبن بسبب تعفن ضرعها أو العبث والإفراط في إحتلابها، أي أنها، أعطت نتيجة معكوسة، فاللبن من أفضل طعام الإنسان ومواده الغذائية، أما الدم فهو ليس بغذاء، بل مادة سامة مفسدة. وأخيراً فقد تحققت نبوءات الإمام عليه السلام بشأن تلك الطائفة الطاغية، حيث تسلط عليهم الظلمة الذين ساموهم سوء العذاب.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٠٠

تأملان

١- ثاني فتن البصرة

كانت البصرة أحد المراكز الإسلامية المهمة والبوابة إلى العالم الخارجي ومن هنا كانت السيطرة عليها قضية مهمة. ولذلك كان يسعى معاوية للسيطرة عليها كما ورد في ورود الخطبة.

ويرى البعض أن الإمام عليه السلام خطبها لإخماد فتنة أخرى في البصرة. فقد طمع معاوية بالبصرة بعد قتل عامل على عليه السلام فيها محمد بن أبي بكر، فكتب كتابا إلى أنصاره في البصرة وذكرهم الواقعة التي أهلكتهم وقد إنتخب «ابن الحضرمي» واليا على البصرة فحث الناس للقيام على خليفة عامل الإمام عليه السلام عليها «زياد بن عبيد» فاستجاب له البعض ومنهم الخوارج فسيطروا على أجزاء من البصرة وقتلوا سفير الإمام عليه السلام «أعين بن صبيعه» فلما بلغ ذلك الإمام عليه السلام بعث بجاريه بن قدامه إلى البصرة ليقرأ عليهم كتاب الإمام عليه السلام.

سلام عليكم: أما بعد فإن الله حليم ذو أناء، لا يعجل بالعقوبة قبل البيئة، ولا يأخذ المذنب عند أول وهله، ولكنه يقبل التوبة، ويستديم الأناة، ويرضى بالإنابة؛ ليكون أعظم للحجة، وأبلغ في المعذرة، وقد كان من شقاق جلكم أيها الناس ما استحققتم أن تعاقبوا عليه، فغفوت عن مجرمكم، ورفعت السيف عن مدبركم، وقبلت من مقبلكم، وأخذت ببعثكم، فإن تفوا ببيعتي، وتقبلوا نصيحتي، وتستقيموا على طاعتي، أعمل فيكم بالكتاب والسنة وقصد الحق، وأقم فيكم سبيل الهدى، فوالله ما أعلم أن والياً بعد محمد صلى الله عليه وآله أعلم بذلك مني، ولا- أعمل بقولي. أقول قولي هذا صادقاً، غير ذام لمن مضى، ولا- منتقياً لأعمالهم، وإن خبطت بكم الأهواء المردية، وسفه الرأي الجائر إلى منابذتي، تريدون خلافي! فهذا أنا ذا قرئت جيادي، ورحت ركابي، وإيم الله لئن ألجأتموني إلى المسير إليكم لأوقعن بكم وقعة، لا يكون الجمل عندها إلا كلقعة لاعتق، وإني لظان ألا تجعلوا- إن شاء الله- على أنفسكم سبيلاً. وقد قدمت هذا الكتاب إليكم حجة عليكم، ولن أكتب إليكم من بعده كتاباً، إن أنتم استغششتم نصيحتي، وناذتم رسولي، حتى أكون أنا الشاخص نحوكم، إن شاء الله تعالى.

والسلام.

فلما قرأها عليهم تأثروا تأثراً شديداً، بينما واصل البعض منهم عناده، فواجهوا ابن

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٠١

الحضرمي وهزموه، فلاذ مع سبعين من صحبه بدار ولم يكن أمام جارية من سبيل سوى إحراق الدار فقتلوا فيها جميعاً. [٤٤١]

ج ج

قال: وروى كعب بن قعين أن علياً عليه السلام كتب مع جاريه كتاباً، وقال: اقرأه علي أصحابك، قال: فمضينا معه، فلما دخلنا البصرة، بدأ بزياد، فرحب به وأجلسه إلى جانبه، وناجاه ساعة وساءلته، ثم خرج فكان أفضل ما أوصاه به أن قال: احذر علي نفسك، وأتق أن تلقى ما لقي صاحبك القادم قبلك.

وخرج جارية من عنده، فقام في الأزد، فقال: جزاكم الله من حى خيراً! ما أعظم غناءكم، وأحسن بلاءكم، أطوعكم لأمركم! لقد عرفتم الحق إذ ضيعة من أنكره، ودعوتم إلى الهدى إذ تركه من لم يعرفه. ثم قرأ عليهم على من كان معه من شيعة علي عليه السلام وغيرهم- كتاب علي عليه السلام، فإذا فيه:

من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى من قرئ عليه كتابي هذا من ساكني البصرة من المؤمنين والمسلمين:

قال: فلما قرئ الكتاب على الناس قام صَبْرَةُ بن شَيْمان، فقال: سمعنا وأطعنا ونحن لمنْ حارب أمير المؤمنين حَزْب، ولمن سالم سلم؛ إن كَفَيْتَ يا جارية قومك بقومك فذاك، وإن أحببت أن ننصرك نصرناك.
وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه، فلم يأذن لأحدٍ منهم أن يسير معه، ومضى نحو بني تميم.
فقام زياد في الأزدي، فقال:

يا معشر الأزد، إن هؤلاء كانوا أمس سَلَمًا، فأصبحوا اليوم حربًا، إنكم كنتم حَزْبًا فأصبحتم سلمًا، وإنى والله ما اخترتكم إلأعلى التجربة، ولا أقمت فيكم إلأعلى الأمل، فما رضيتم أن أجزتموني، حتى نصبتم لى منبرًا وسريراً، وجعلتم لى شُرْطًا وأعاونًا، منادياً وجمعة،

نفعات الولاية، ج ٢، ص: ٤٠٢

فما فقدت بحضرتكم شيئاً إلأهذا الدرهم، لا أجيبه اليوم، فإن لم أجبه اليوم أجبه غدا إن شاء الله. واعلموا أن حربكم اليوم معاوية أيسر عليكم فى الدنيا والدين من حربكم أمس علياً، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة، وإنما أرسله على ليصدع أمر قوم، والله ما هو بالأمر المطاع، ولو أدرك أمله فى قوم لرجع إلى أمير المؤمنين أو لكان لى تبعاً، وأنتم الهامة العظمى، والجزمة الحامية، فقدّموه إلى قوم، فإاضطر إلى نصركم فسيروا إليه، إن رأيتم ذلك.

فقام أبو صبرة شَيْمان فقال: يا زياد، إنى والله لو شهدت قومى يوم الجمل، رجوتُ ألا يقاتلوا علياً، وقد مضى الأمرُ با فيه. وهو يوم بيوم، أمر بأمر، والله إلى الجزاء بالإحسان أسرع منه إلى الجزاء بالسّيء، والتوبة مع الحق، والعفو مع الندم، ولو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء، واستئناف الامور، ولكنها جماعة دماؤها حرام، وجزؤها قصاص، ونحن معك نحب ما أحببت.
فغجب زياد من كلامه، وقال: ما أظن فى الناس مثل هذا.

ثم قام صبرة ابنه، فقال: إنا والله ما أصبنا بمصيبة فى دين ولا دنيا كما أصبنا أمس يوم الجمل، وانا لارجوا اليوم أن تُمحص ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين، وأميا أنت يا زياد، فوالله ما أدركت أملك فينا، ولا أدركنا أملنا فيك دون ردك إلى دارك، ونحن رادوك إليها غداً إن شاء الله تعالى، فإذا فعلنا فلا يكن أحدٌ أولى بك منّا، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يشبهك، وإنا والله نخاف من حرب على فى الآخرة، مالا نخاف من حرب معاوية فى الدنيا، فقدّم هواك وأخر هوانا، فنحن معك وطوعك.

ثم قام خنفر الحماني، فقال: أيها الأمير، إنك لو رضيت منّا بما ترضى به من غيرنا، لم نرض ذلك لأنفسنا، سبنا إلى القوم إن شئت، وإيهم الله مالقينا قوماً قط إلا اكتفينا بعفونا دون جهدنا؛ إلأ ما كان أمس.

قال إبراهيم: فأما جارية، فإنه كلم قوم فلم يجيبوه، وخرج إليه منهم أوباش فناوشوه بعد أن شتمه أسمعوه، فأرسل إلى زياد والأزد، يستصرخهم ويأمرهم أن يسيروا إليه، فسارت الأزد بزياد، وخرج إليهم ابن الحضرمي، على خيله عبدالله بن خازم السلمى، فاقتلوا ساعة، أقبل شريك بن الأعور الحارثي - وكان من شيعة على عليه السلام، وصديقاً لجارية بن

نفعات الولاية، ج ٢، ص: ٤٠٣

قدامة - فقال: ألا أقاتل معك عدوك؟ فقال: بلى؛ فما لبثت بنو تميم أن هزموهم واضطروهم إلى دار سنبل السعدى؛ فحصرنا ابن الحضرمي وحدوه، فأتى رجل من بنو تميم، ومعه عبدالله بن خازم السلمى، فجاءت أمى وهى سوداء جشية اسمها عجلي، فنادته، فأشرف عليها، فقالت: يا بئى، انزل إليّ، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قناعها، وسألته النزول فأبى، فقالت:

والله لتنزلن أو لأتعرين، وأهوت بيدها إلى ثيابها، فلما رأى ذلك نزل، فذهبت به، وأحاط جارية وزياد بالدار، وقال جارية: على بالنار، فقالت الأزد: لسنا من الحريق بالنار فى شىء؛ وهم قومك وأنت أعلم، فحزق جارية الدار عليهم، فهلك ابن الحضرمي فى سبعين رجلاً؛ أحدهم عبدالرحمن بن عمير بن عثمان القرشى التيمى؛ وشيمى جارية منذ ذلك اليم محرقة؛ وسارت الأزد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة؛ ومعه بيت المال، وقالت له: هل بقى علينا من جوارك شىء؟ قال: لا، قالوا: فبرئنا منه؟ فقال: نعم؛ فانصرفوا عنه.

وكتب زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

أما بعد، فإن جارية بن قدامة العبد الصالح قَدِمَ من عندك، فناهَضَ جَمْعَ ابنِ الحضرميِّ بمن نصره وأعانه من الأزد، ففضَّه واضطره إلى دارٍ من دور البصرة في عدد كثير من أصحابه، فلم يخرج حتى حكم الله تعالى بينهما، فقُتِلَ ابنُ الحضرمي وأصحابه، منهم من أحرق بالنار؛ ومنهم من أُلْقِيَ عليه جدار؛ ومنهم من هُدِمَ عليه البيت من أعلاه؛ ومنهم من قُتِلَ بالسيف، وسلم منهم نفر أنابوا وتابوا، فصفح عنهم، وبعداً لمن عصى وغوى! والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

٢- خصائص المسلمين الأوائل

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى خصائص مسلمي صدر الإسلام في أنهم كانوا مطيعين لرسول الله صلى الله عليه وآله ولم يأبوهوا بابائهم واخوانهم وابتاءهم في ميادين القتال، فكانوا يصابولونهم ليجرعوهم القتل من أجل تحقيق الاهداف الإسلامية المقدسة. كانوا يتحلون بالاخلاص وصدق النية؛ الأمر الذي جعل الله يؤيدهم بنصره ويفيض عليهم من لطفه وفضله حتى إنتشر الدين واطاء نور الحق واليقين في أنحاء العالم. والحق لو أن المسلمين الأوائل كانوا على

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٠٤

غرار أهل الكوفة لما تنفس الإسلام وتنهته حتى في مكة والمدينة، ولو كانت إرادتهم الفردية هي الحاكمة وتمردوا على أوامر قيادتهم الربانية لما اخضر عود شجرة الإسلام ولانهارت أعمدة خيمة الإيمان. وبالطبع فإن كثيراً من اولئك كانوا ممن أدرك عصر النبي صلى الله عليه وآله أو رأى أصحابه، إلّا أن إرادتهم ضعفت ووهنت إثر تلك الأحداث التي أعقبت رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا سيما على عهد الخليفة الثالث واقبال الناس على الدنيا والاعتزاز بزخارفها والخلود إلى الراحة والدعة بعد تنامي الأموال والثروات بفعل الفتوحات الإسلامية، إلى جانب الدعاية الواسعة التي كان يمارسها المنافقون وأعداء الدين.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٠٥

الخطبة [٦٤٢] السابعة والخمسون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
في صفة رجل مذموم، ثم في فضله هو عليه السلام

نظرة إلى الخطبة

هناك أبحاث بين شراح نهج البلاغة بشأن المقصود بكلام الإمام عليه السلام إلّا أن المشهور أن المراد به معاوية. فقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه: وكثير من الناس يذهب إلى أنه عليه السلام عنى زياداً، وكثيراً منهم يقول إنه عنى الحجاج أو المغيرة، والأشبه عندي أنه عنى معاوية، لأنه كان موصوفاً بالنهم وكثرة الأكل، وكان بطيناً، يقعد بطنه إذا جلس على فخذه. [٦٤٣]

وروى أبو عثمان الجاحظ في كتاب السفينانية أن أباذر قال لمعاوية: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إذا ولي الأمة الاعين الواسع البلعوم الذي يأكل ولا يشبع فلتأخذ الأمة حذرهما منه»،

كما أورد عدة روايات من المصادر المعروفة من قبيل تاريخ الطبري وتاريخ الخطيب وكتاب صفين عن أبي سعيد الخدري وعبدالله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه، أو فاضربوا عنقه» [٦٤٤]

فالعبارات الواردة في الرواية والتي تشبه

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٠٦

عبارات الخطبة تفيد أنها بشأن معاوية. والشاهد الآخر موضوع السب الذي ورد آخر الخطبة، حيث نعلم جميعاً بان معاوية كان يحرض الناس على سب أمير المؤمنين عليه السلام من على المنابر، فهل من داع للتحري عن فرد آخر وردت بشأنه الخطبة سوى التعصب والعناد؟! على كل حال فإن الإمام عليه السلام تحدث في هذه الخطبة عن حاكم نهم أكل مندحق البطن يأمر الناس بسبه والبراءة منه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظيفة الأمة حيال ذلك. وقد أثبت التأريخ صحة نبوءة الإمام عليه السلام التي تحققت في عهد معاوية. وأخيراً أشار الإمام عليه السلام إلى بعض فضائله في آخر الخطبة.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٠٧

«أَمَّا إِنَّهُ سَيُظْهِرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ إِلَّا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي وَالْبَرَاءَةِ مِنِّي، فَأَمَّا السَّبُّ فَسَيَبُوءُنِي، فَإِنَّهُ لِي زَكَاءٌ، وَلَكُمْ نَجَاءٌ وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ فَلَا تَتَّبِعُوا مِنِّي، فَإِنِّي وَلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهَجْرَةِ».

الشرح والتفسير

إحذروا العدو

كما أوردنا سابقاً على ضوء الأحاديث والروايات أن الإمام عليه السلام تنبىء بحكومة معاوية وما تفضى إليه هذه الحكومة من مفسد فقال:

«أما إنه سيظهر عليكم بعدى رجل رحب، البلعوم [٦٤٥]، مندحق [٦٤٦] البطن، ياكل ما يجد ويطلب ما لا يجد».

يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى وضعه الظاهري، حيث تفيد بعض الروايات أنه كان بهذه الصفات، ومن هنا كان أكل، ويمكن أن تكون كناية عن حالته الروحية والنفسية في ظل الحكومة، في أنه حريص وتوسعي ولا يشعبه شيئاً من الحكومة، ولا يبعد أن يكون المراد كلا المعنيين الروحي والجسمي أو الحقيقي والكنائي، وذلك لانه جمع النوعين من هذه الصفات.

ثم قال عليه السلام:

«فاقتلوه ولن تقتلوه»

قطعاً أن مخاطب الإمام عليه السلام بهذه العبارة هم أهل العراق، وكان يعلم الإمام عليه السلام بعدم قدرتهم على ذلك بسبب ضعفهم ووهن ارادتهم في إتخاذ القرار، أو أنهم قد يستطيعون قتله إلا أنهم لا يمتلكون الشجاعة والإرادة التي ترفعهم إلى ذلك. أما لماذا

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٠٨

حكم الإمام عليه السلام بقتله، فأوضح بسبب هو ذلك الفساد الذي أشاعه بين المسلمين ليكون مصداقاً بارزاً للمفسد في الأرض إلى جانب سلبه لأمن البلاد الإسلامية وأخيراً إثارته المعارك التي سفكت فيها دماء المسلمين. وناهيك عما سبق فقد ابتدع تلك البدع العظيمة التي غيرت معالم الدين إضافة إلى أمره بسبب أمير المؤمنين على عليه السلام الذي قال بحقه رسول الله صلى الله عليه وآله

«من سب علياً فقد سبني» [٦٤٧]

. ثم تنبى الإمام عليه السلام بهذه المسألة فقال:

«إلا وإنه سيأمركم بسبى والبراءة مني»

وهذا بدوره يكشف عن مدى الحقد والضغينة التي كان يكنها معاوية لعلى عليه السلام رغم علمه بفضائله التي صرح بها رسول الله

صلى الله عليه وآله وسمعها القاصي والداني والتي تثبت بطلان حكومته، ومن هنا سعى جاهداً ليحول دون اطلاع أهل الشام على هذه الاحاديث تمهيدا إلى منعها بالمرّة وتحريفها. ثم أصدر أوامره بسبب على عليه السلام من على المنابر وفي خطب صلاة الجمعة، حتى كان ينبرى أحدهم ليقول خير ما نختم به خطبتنا سب أبي تراب، وبالطبع فإنّ إشاعة السب تعنى عدم إمكانية التحدث بالفضائل، وهذه أسوأ بدعة ابتدعتها معاوية يتعذر تبريرها على أى متعصب حقود، وما أروع ما قال الشاعر بهذا الشأن:

أعلى المنابر تعلنون بسبه وبسيفه نصبت لكم أعوادها [٦٤٨]

الجدير بالذكر أنّ بعض بطائفة معاوية أذعن إلى أنّ السب بدعة ظالمة لترسيخ دعائم حكومة معاوية، ومنهم مروان بن الحكم، إلّا أنّه لما سئل عن علّة السب، أجاب: «إنّه لا يستقيم لنا الأمر ألا بذلك» [٦٤٩]. ثم أوصى الإمام عليه السلام بكيفية التعامل مع هذه البدعة فقال «فأما السب فسبوني، فانه لى زكاة ولكم نجاه وأما البراءة فلا تتبرأ وامنى، فانى ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة».

ويبدو من هذه العبارة أنّ السب أمر واجب الزامى لا إباحى لأنّه يتضمن حفظ دماء الشيعة وايصال مبادئ مدرسة أهل البيت عليهم السلام. إلّا أن هذا الأمر قد يكتسب صفة الإباحة كما عبر عن ذلك علماء الاصول حيث أمر الوجوب يقتصر على احتمال المنع لتوهم الخطر، ومن هنا فان بعض تلامذه الإمام عليه السلام كرشيد الهجرى وميثم

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٠٩

التمار وقنبر وسعيد بن الجبير الذين صمدوا وأبوا سبوا على حتى قتلوا فأنهم لم يرتكبوا أى خلاف، بل أتوا بعمل عظيم أهلهم للشهادة. ويتضح ممّا سبق بأنّ المؤمن إذا عرض للاساءة من قبل العدو أو دفع الناس لانتهاك حرمة فانّ ذلك ليس فقط لا يحط من قدره فحسب، بل يزيده عزة وكرامة. وهنا يبرز هذا السؤال: ما الفرق بين السب والبراءة بحيث أذن الإمام عليه السلام بالسب ولم يأذن بالبراءة لثلاث: أولاً: أنّه ولد على فطرة الإسلام والإيمان، ثانياً: أنّه كان من السابقين للإسلام والتصديق بالنبي صلى الله عليه وآله، والثالث: سبقه إلى الهجرة من مكة إلى المدينة؟ فقد كثر الكلام بين المفسرين بشأن الفارق بين السب والبراءة، لا يخلو بعضه من التكلف وعدم الاقتناع، ويبدو أنّ الاقرب فى الفارق بينهما أحد أمرين: الأول أنّ سب الإنسان قد يكون إشارة إلى سوءه ولا يعطى مفهوم الكفر والشرك، أمّا البراءة فتعنى التبرى من دينه ومعتقداته كما ورد ذلك فى الآية الاولى من سورة التوبة: «بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» وعليه فمفهوم البراءة من الإمام عليه السلام هو البراءة من الدين والإسلام، ومن هنا منع الإمام عليه السلام حتى من البراءة منه باللسان، فالواقع أنّ الإمام عليه السلام أذن بالإساءة إلى شخصه لكنه لم يأذن بالاساءة إلى دينه ولو لفظياً- والآخر أنّ أغلب الناس يتصورون أنّهم إذا إجبروا على كلام لا يمكنهم الاقتناع بالألفاظ ولا بدّ من أن ترافقه التية، ومن هنا فمن اجبر على إجراء صيغة الطلاق فانه لا بدّ أن يقصد اللفظ والمعنى حين الصيغة، ان كان طلاق المكره باطلاً إلّا أنّه يتضمن قصد الانشاء ولذلك لا يستدل الفقهاء على بطلان هذا الطلاق بعدم قصد المعنى، بل يستندون فى بطلانه على الاكراه، ويصدق هذا الأمر على السب، فقصد السب سيئ، الا- أنّ قصد البراءة أسوأ، لأنّ الأول يهدف نفي حرمة الإنسان، أمّا الثانى فيهدف البراءة من دينه ومعتقده؛ أى إسلامه وليس هنالك من مسلم مستعد لهذا العمل. والدليل على ذلك الامور الثلاث التى ذكرها الإمام عليه السلام فى نهيه عن البراءة:

الأمر الأول:

«فأنى ولدت على الفطرة».

أما كيف علّل نهيه لهم على البراءة منه عليه السلام، بقوله:

«فأنى ولدت على الفطرة»؛

فإن هذا التعليل لا يختص به عليه السلام، لأنّ كلّ أحدٍ يولد على الفطرة؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وآله:

«كلّ مولدٍ يولد على الفطرة؛ وإنّما أبواه يهودانه وينصرانه».

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤١٠

والجواب، أنه عليه السلام عمل نهيهم عن البراءة منه بمجموع أمور وعلل؛ وهي كونه ولد على الفطرة، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة؛ ولم يعلل بأحد هذا المجموع، ومراده ها هنا بالولادة على الفطرة أنه لم يولد في الجاهلية؛ لأنه ولد عليه السلام لثلاثين عاماً مضت من عام الفيل؛ والنبي صلى الله عليه وآله أرسل لأربعين سنة مضت من عام الفيل؛ وقد جاء في الأخبار الصحيحة أنه صلى الله عليه وآله مكث قبل الرسالة سنين عشرين يسمع الصوت ويرى الضوء، ولا يخاطبه أحد؛ وكان ذلك إرهاباً لرسالته عليه السلام فحكم تلك السنين العشر حكم أيام رسالته صلى الله عليه وآله؛ فالمولود فيها إذا كان في حجره وهو المتولى لتربيته مولود في أيام النبوة، وليس بمولود في جاهلية محضة، ففارقت حاله حال من يدعى له من الصحابة مماثلته في الفضل. وقد روى أن السنة التي ولد فيها علي عليه السلام هي السنة التي بدئ فيها برسالة رسول الله صلى الله عليه وآله، فأسمع الهتاف من الأحجار والأشجار، وكشف عن بصره، فشاهد أنواراً وأشخاصاً؛ ولم يخاطب فيها بشيء. وهذه السنة هي السنة التي ابتدأ فيها بالتبذل والانقطاع والعزلة في جبل حراء، فلم يزل به حتى كوشف بالرسالة، وأنزل عليه الوحي، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمن بتلك السنة وبولادة علي عليه السلام فيها، ويسمياها سنة الخير وسنة البركة؛ وقال لأهله ليلة ولادته، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية، ولم يكن من قبلها شاهد من ذلك شيئاً:

«لقد وُلد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة»،

وكان كما قال صلوات الله عليه، فإنه عليه السلام كان ناصره والمحامى عنه وكاشف الغم عن وجهه؛ وبسيفه ثبت دين الإسلام، ورست دعائمه، وتمهدت قواعده عليه السلام.

الأمر الثاني

«وسبقت إلى الإيمان»

فقد أجمعت الائمة الإسلامية على أن أول من أسلم بعد خديجة الكبرى علي بن أبي طالب عليه السلام. وتسالم الفريقان على أن علي عليه السلام أول من أسلم. وقال ابن الحديد لم يتردد في ذلك أحد من علماء الإسلام. [٦٥٠]

الأمر الثالث: «والهجرة» كيف قال:

«إنه سبق إلى الهجرة»

ومعلوم أن جماعته من

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤١١

المسلمين هاجروا قبله، منهم عثمان بن مظعون وغيره؛ وقد هاجر أبو بكر قبله، لأنه هاجر في صحبة النبي صلى الله عليه وآله؛ وتخلف علي عليه السلام عنهما، فبات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ومكث أياماً يرذ الودع التي كانت عنده، ثم هاجر بعد ذلك؟ والجواب، أنه عليه السلام لم يقل:

«وسبقت كل الناس إلى الهجرة»؛

وإنما قال:

«وسبقت»

فقط؛ ولا يدل ذلك على سبقه للناس كافة؛ ولا شبهة أنه سبق معظم المهاجرين إلى الهجرة، ولم يهاجر قبله أحد إلا نفر يسير جداً. وأيضا فقد قلنا إنه عمل أفضليته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور: منها ولادته على الفطرة، ومنها سبقه إلى الإيمان، ومنها سبقه إلى الهجرة؛ وهذه الأمور الثلاثة لم تجتمع لأحد غيره؛ فكان بمجموعها متميزاً عن كل أحد من الناس.

١- علّة عدم ذكر الإمام عليه السلام للشخص المقصود بالخطبة

أوردنا سابقاً أنّ كافّة القرائن تدل على أنّ المراد بالشخص الذى بين الإمام عليه السلام صفاته هو معاوية، وذلك لانطباق كافّة الاوصاف عليه إلى جانب كونه هو الذى سن سب الإمام عليه السلام ولم يبتدع هذا الأمر أحد غيره، ولعل عدم التصريح به يستند إلى رعايته متانة البيان، أو إثارة حس الاطلاع لدى الامّة لتقف بصورة أعمق على هذا المطلب ولا سيما بالاستناد إلى هذه الصفات، أضف إلى ذلك فإنّ الخطبة حيث تضمنت بعض النبوءات الصريحة فإنّ الإمام عليه السلام لم يشئ الافصاح أكثر عن هذه الموضوع.

٢- لماذا حكم الإمام عليه السلام بهدر دم معاوية؟

لقد صرّح الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بقتل من إشتمل على هذه الصفات، كما قال ولن تقتلوه. والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: لم هدر الإمام عليه السلام دمه؟ والجواب واضح لدى العلماء والفقهاء، لأنّ من يخرج على الإمام المعصوم فهو ناصبى خارج من ربة الإسلام، وقد خرج على إمام ثبتت إمامته بنص رسول الله صلى الله عليه وآله وعن طريق بيعه الامّة. أضف إلى ذلك فقد رسخ نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤١٢

معاوية أساس الفساد فى الأرض وبابشع وأوسع صورته، وقد جيش الجيوش ضد الإمام عليه السلام حتى سالت أنهاراً من الدماء فى تلك المعارك. إلى جانب بعته ببعض أشقيائه لشن الغارات تلو الغارات على مناطق العراق المعروفة وأخيراً قتله لمحمد بن أبى بكر ومالك الأشتر وسائر كبار صحابه الإمام عليه السلام لتجعله فى مصاف المفسدين فى الأرض والذى حكم القرآن بهدر دمهم. فإذا كان هناك بعض الأفراد المتعصبين الذين لا يكثرثون لكل هذه الأعمال ويبررونها باسم الاجتهاد فلنا كلام آخر. فقد ورد فى الحديث الشريف أنّ النبى صلى الله عليه وآله قال:

«يا على حربك حربى وسلمك سلمى» [٤٥١]

وكلنا نعلم بأنّ حرب رسول الله صلى الله عليه وآله تجب الكفر حيث يصطلى على من يحاربه بالكافر الحربى الذى يباح دمه. وورد فى حديث آخر أنّ ابن عباس كان قد كف بصره فمر بجماعة يتحدثون فسأل دليله ماذا يقولون: أجاب: يسبون علياً عليه السلام. قال فاحملنى إليهم ثم سألتهم: لم تسبون الله؟ قالوا سبحان الله من سب الله فقد كفر، قال: فمن منكم سب رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالوا سبحان الله من سب رسول الله صلى الله عليه وآله فهو كافر. قال فمن سب علياً عليه السلام؟ قالوا: نعم نحن سبناه. قال ابن عباس فأنى أشهد الله أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال «من سب علياً فقد سبنى ومن سبنى فقد سب الله عزوجل ومن سب الله أكبه الله على منخريه فى النار. ثم التفت ابن عباس إلى دليله وقال له: كيف رأيتمهم. فانشد يقول:

نظروا إليك باعين محمرة نظر التيوس إلى شفار الجارز

قال ابن عباس: فداك أبوك زدنى. فقال:

خزر العيون نواكس أبصارهم نظر الدليل إلى العزيز القاهر

أحيائهم عار على أمواتهم والميتون فضيحة للغابر [٤٥٢]

ومن الطبيعى أنّ الحكم المذكور إذا كان السب يستند إلى الإرادة والاختيار ويستثنى منه الاكراه والتهديد والاجبار. جدير بالذكر أنّ ابن أبى الحديد قال، لو افتراضاً أنّ النبى صلى الله عليه وآله لم ينص على خلافة على عليه السلام

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤١٣

أفلم يسمع معاوية قوله صلى الله عليه وآله لعل عليه السلام:

«أنا حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت»

وقوله:

«حربك حربى وسلمك سلمى» [٦٥٣]

ومن الطبيعي أن من يحارب رسول الله صلى الله عليه وآله يهدر دمه، وعليه فالذى يحارب الإمام عليه السلام يهدر دمه.

٣- تاريخ سب الإمام على عليه السلام

قوله عليه السلام:

«يا مكرم بسبى والبراءة منى»

، فنقول: إن معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسب على عليه السلام والبراءة منه.

وخطب بذلك على منابر الإسلام، وصار ذلك سنة في أيام بنى أمية إلى أن قام عمر بن عبدالعزيز رضى الله تعالى عنه فأزاله. وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ أن معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة: اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك، وصد عن سبيلك فالعنه لعناً وبئلاً، وعذبه عذاباً أليماً. وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يُشار بها على المنابر؛ إلى خلافة عمر بن عبدالعزيز.

وذكر أبو عثمان أيضاً أن هشام بن عبد الملك لما حجّ خطب بالموسم، فقام إليه إنسان، فقال:

يا أمير المؤمنين، إن هذا يومٌ كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبى تراب، فقال: اكفف، فما لهذا جئنا.

وذكر المبرّد في "الكامل" أن خالد بن عبد الله القسرى لما كان أمير العراق في خلافة هشام، كان يلعن علياً عليه السلام على المنبر، فيقول: اللهم العن على بن أبى طالب بن عبدالمطلب بن هاشم، صهر رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنته، وأبالحسن والحسين! ثم يقبل على الناس، فيقول هل كُنيت!

وروى أبو عثمان أيضاً أن قوماً من بنى أمية قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين، إنك قد بلغت ما أمّلت، فلو كفت عن لعن هذا الرجل! فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلاً!

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٤١٤

قال محمد بن الحنفية في على عليه السلام: كان يد الله على أعداء الله، وصاعقة من أمره أرسله على الكافرين والجاحدين لحقه، فقتلهم بكفرهم فشنّوه وأبغضوه، وأضمرّوا له الشنف والحسد، وابن عمه صلى الله عليه وسلم حتى بعد لم يمت؛ فلما نقله الله إلى جواره، وأحب له ما عنده، أظهرت له رجال أحقادها، وشفّت أضغانها، فمنهم من ابتزّ حقه، ومنهم من اتّمر به ليقته، ومنهم من شتمه وقذفه بالأباطيل؛ فإن يكن لذريته وناصرى دعوته دولةً تنشر عظامهم، وتحفر على أجسادهم؛ والأبدان منهم يومئذ بالية، بعد أن تقتل الأحياء منهم، وتذلّ رقابهم، فيكون الله عزّ اسمه قد عدّبهم بأيدينا وأخزاهم؛ ونصرنا عليهم، وشفّ صدورنا منهم؛ إنّه والله ما يشتم علياً إلّا كافرٌ يسرّ شتم رسول الله صلى الله عليه وآله ويخاف أن يبوخ به، فيكنى بشتم على عليه السلام عنه. ما إنّه قد تخطت المنية منكم من امتدّ عمره، وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه:

«لا يحبّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون».

٤- التقيّة وسيله دفاعية

تطرق بعض شرّاح نهج البلاغة هنا إلى موضوع التقيّة وشرعيّتها، ولا بأس أن نتعرض إليها هنا بصورة مختصرة ونوكل الخوض فى

التفاصيل إلى محلها. فالتقية بالمعنى اللغوي إجتنب الشئ بينما ذكروا لها عدة تعاريف إصطلاحية، أهمها إخفاء العقيدة أو الدين خوف الضرر أو لمصلحته من المصالح ومنها حفظ الوحدة واجتنب الاختلاف أمام الأعداء. ويستند هذا المعنى إلى القرآن الذى تحدث عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله حين كانوا قلة:

«لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ»
ثم قال:

«إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» [٦٥٤]

، فقد تحدثت الآية صراحة عن التقية بما لا يبقى من مجال للشك فيها. أما قصة تقيه عمار ونطقه ببعض الكلمات ضد الإسلام والنبى صلى الله عليه وآله أمام المشركين
نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤١٥

فهى مشهورة معروفة، فقد اضطر لتلك الكلمات، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وآله باكياً خشية فساد دينه وإيمانه، فهدأه رسول الله صلى الله عليه وآله في أن الاكراه هو الذى دفعه إلى ذلك فلا ضرر على دينه وأن الله أنزل بحقه قرآناً: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» [٦٥٥] «وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَيْدراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» [٦٥٦] النموذج الآخر للتقية ما ورد فى سورة غافر بشأن مؤمن آل فرعون: «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ» [٦٥٧] فالقرآن يثنى على هذا المؤمن ويستحسن كلامه ويصرح برضى الله بتقيته. كما تظافت الروايات الإسلامية التى أكدت على أهمية التقية لتصفها بأنها تقى المؤمن مخاطر الأعداء وتحفظ دمه وأن التقى من الدين، ومن لا تقيه له لا دين له، والإيمان بلا تقيه كالجسد بلا رأس، وأنها من أفضل الأعمال، ولا نرى البحث يتسع للخوض فى التفاصيل، ومن أراد المزيد فليرجع إلى القاعدة السابعة من المجلد الأول لكتاب القواعد الفقهية. أضف إلى ذلك فإن فلسفة التقية واضحة، وهى أن اظهار العقيدة الباطنية أحياناً قد يسبب بعض الأخطار على النفس والعرض والمال دون أن تترتب عليه أية فائدة، فالعقل يحكم بضرورة عدم إهدار القوى والطاقات عبثاً، ولا بد من حفظها بواسطة التقية واستثمارها فى المواقع المطلوبة. ولعل هذا هو المعنى المراد بوصفها بترس المؤمن أو جنة المؤمن. فالواقع هو أن التقية لا تعنى الفرار من المسؤولية، بل هى أشبه بالتكتيك الحربى عن طريق الاستتار وإعادة تنظيم القوة واللجوء إليها فى الوقت المناسب.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤١٧

الخطبة [٦٥٨] الثامنة والخمسون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
كلم به الخوارج حين اعتزلوا الحكومة وتنادوا:
لا حكم إلا لله

نظرة إلى الخطبة

تفيد عبارات هذه الخطبة أن الخوارج ذهبوا إلى أن الحكم لله بعد أن فرضوا التحكيم على الإمام عليه السلام ورجعوا عنه، وأن من

ينكر ذلك الشعار قد خرج من الدين، ثم إن دفعوا أبعد من ذلك ليتهموا على عليه السلام بالخروج من الإسلام لقبوله التحكيم وعليه أن يتوب. والحال أن التحكيم فرض على الإمام عليه السلام، ولو فرضنا أن الإمام عليه السلام إقترح ذلك فاصل التحكيم لا يخالف الإسلام، وانحرف في صفتين واستغل من قبل معاوية. على كل حال فإن الإمام عليه السلام يدعو عليهم ويذكرهم بسوء مقاتلهم، ثم يخبر عن المستقبل المظلم للخوارج والذل الهوان الذي ينتظرهم.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤١٩

«أصَابَكُمْ حَاصِبٌ، وَلَا بَقِيَّ مِنْكُمْ آثَرٌ، أَبْعِدَ إِيمَانِي بِاللَّهِ وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكَفْرِ! لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» فَأُوبُوا شَرَّ مَا بَ وَارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الْأَعْقَابِ، أَمَا إِنَّكُمْ سَيَتَلَقُونَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا وَسَيَفِئَا قَاطِعًا وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً».

الشرح والتفسير

فضاعة مظلومية الإمام عليه السلام

كما ذكرنا أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين رأى الخوارج التحكيم في صفتين ثم رجعوا عنه ورفعوا شعار «لا حكم إلا لله» وطالبوا الإمام عليه السلام بالتوبة لقبوله التحكيم ليلتحقوا به فيقاتلوا أهل الشام، فقال عليه السلام:

«أصَابَكُمْ حَاصِبٌ، وَلَا بَقِيَّ مِنْكُمْ آثَرٌ، أَبْعِدَ إِيمَانِي بِاللَّهِ وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكَفْرِ، لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ».

يالها من مصيبة أن يتلى بهؤلاء الحمقى فرد مثل على عليه السلام أول من آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وآله ووقف إلى جانبه في جميع الغزوات - إلا - في البعض التي استخلفه فيها رسول الله صلى الله عليه وآله - وثبت في المواقع التي تنكص فيها الأبطال ليسقى شجرة الإسلام والتوحيد بلسانه وسيفه، فيطالبه أولئك الحمقى بالاعتراف بالكفر والتوبة. ولعل تأريخ الإسلام لم يشهد مثل هذه الحادثة المروعة، ومن هنا نقول بأن مظلومية الإمام عليه السلام كانت وما زالت تفوق من سواه. وكما صرح عليه السلام في الخطبة السابقة:

«فَأَنِّي وَلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهَجْرَةِ»

؛ الأمر الذي أكده علماء الفريقين وأنه لم يشرك بالله طرفه عين أبداً أنه خاض غمار الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وآله في كافة الغزوات سوى تبوك حين كلفه النبي صلى الله عليه وآله و آلِهِ بحفظ المدينة، العبارة «أصَابَكُمْ حَاصِبٌ» وبالالتفات إلى أن المراد بالحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصباء بحيث قد تدفن أحياناً قافلة، تفيد الدعاء عليهم في أن يرسل الله عليهم العذاب السماوي، كما يمكن

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٢٠

أن تكون كناية عن المشاكل الاجتماعية التي تعصف بحياتهم والعبارة «ولا بقي منكم آثر» واستناد إلى أن المقصود بالأثر الشخص الذي يآثر الحديث، أي يرويه، فكأنه قال عليه السلام لابقى منكم مخبر وهلكتم بأجمعكم (طبعاً نقلت هذه المفردة بعدة صور ذات معان مختلفة سنعرض لها في شرح كلام السيد الرضى آخر الخطبة). ثم تساءل الإمام عليه السلام باستغراب عن ذلك الطلب المشين وهو من روى شجرة الإسلام بجهاده العظيم ومواقفه المشهودة وشده أزر رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو أول من آمن وأسلم وهاجر، فهل لمثل هذا الفرد أن يضل وينحرف عن السبيل. ثم أشار عليه السلام إلى موضوعين، الأول دعاؤه عليهم

«فَأُوبُوا» [٤٥٩] شرمآب وارجعوا على أثر الاعقاب» [٤٦٠]

فقد دعا عليهم في العبارة الاولى سائلاً الله لهم الذل والهوان في الدنيا والآخرة، وفي العبارة الثانية سأل الله أن يتلهم بما ابتلى به مشركي الجاهلية الذي كانوا على غرار الخوارج يرون آيات الله ثم يجحدونها. وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن قوله: «ارجعوا...»

أراد به توبوا، بينما تفيد قرينه هذا القول انه استمرار للدعاء السابق. والثاني نبوءته بمستقبلهم «أما ارنكم ستلقون بعدى ذلاً شاملاً وسيلاً قاطعاً وأثره يتخذها الظالمون فيكم سنة»

جدير بالذكر أن نبوء الإمام عليه السلام بحق الخوارج قد تحققت حيث ابيدوا في مختلف الحروب وتجرعوا الذل والهوان. وقد أفرد ابن أبي الحديد فصلاً أسماه أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم ليخوض في تفاصيل أحداث زعمائهم وسنتطرق إلى ذلك في الأبحاث القادمة.

قال السيد الرضى (ره) شارحاً بعض مفردات الخطبة: قوله عليه السلام «ولا بقى منكم آبر»

يروى على ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون كما ذكرناه: آبر بالراء، من قولهم للذى يأبر النخل - أى يصلحه - ويروى «آثر» وهو الذى يآثر الحديث ويرويه أى يحكيه، وهو أصح الوجه عندى، كأنه قال: لا- بقى منكم مخبراً، ويروى آبز- بالزاي المعجمة- وهو الواثب. والهالك أيضاً يقال له «آبز».

ج ج

أثره اسم مصدر من مادة استثار بمعنى الاستبداد.

نفحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٢١

الخطبة [٦٦١] التاسعة والخمسون

إشارة

وقال عليه السلام

لما عزم على حرب الخوارج، وقيل له: إن القوم عبروا جسر النهروان.
«مَصَارِعُهُمْ دُونَ النَّطْفَةِ وَاللَّهِ لَا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ وَلَا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشْرَةٌ».

الشرح والتفسير

هل من سبيل لعلم الغيب

لاشك ولا ريب أن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله و آله وائمة العصمة عليه السلام قد أخبروا كراراً عن الامور الغيبية، وعبارة اخرى لهم علم بالغيب، القرآن تحدث عن المسيح عليه السلام فى أن العلم بالغيب كان يمثل إحدى معجزاته فقال «وَأُتِّبُّكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ» [٦٦٢] كما يختتم هذه الآية بان ذلك من آيات الله وصدق دعوى نبوته.

وقد حفل نهج البلاغة ومنه هذا الكلام بالأخبار عن المغيبات. أما أنى للإمام عليه السلام بعلم الغيب؟ ما حدود علم المعصوم بالغيب؟ وما تفسير الآيات التى حصرت على الغيب بالله؟

وكيف تفسر الروايات الواردة بشأن إثبات هذا العلم للمعصومين؟ وما إلى ذلك من أسئلة واستفسارات فقد أوكلنا الإجابة عليها فى شرح الخطبة ١٢٨.

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٢٣

الخطبة [٦٦٣] الستون

إشارة

و قال عليه السلام

لما قتل الخوارج ف قيل له: يا أمير المؤمنين هللك القوم بأجمعهم
«كَلَّا وَاللَّهِ، إِنَّهُمْ نَطَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ، كُلَّمَا نَجِمَ مِنْهُمْ قَزَنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصًا سَلَابِينَ.»
الشرح والتفسير

مصير الخوارج

هذا الكلام إستمرار لما ورد في الأبحاث السابقة بشأن الخوارج. وهنا أشار الإمام عليه السلام إلى بعض النبوءات بشأن الخوارج؛ الأمر الذى يمكن اعتباره من معاجزه عليه السلام فقد إستهل كلامه بالرد على بعض أصحابه ممن قال له: يا أمير المؤمنين هللك القوم بأجمعهم فقال:

«كلا والله، إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء»

فحتى لو قتل هؤلاء، فهناك النطف التى

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٢٤

ستلد فى المستقبل وتفتنى آثار الخوارج، وهذا ما حصل بالفعل حيث ظهر مثل هؤلاء الأفراد بعد سنوات، بل قرون لينتهجوا ذات السبيل الذى سلكه أوائلهم. أضف إلى ذلك وكما أشير سابقا فقد نجى تسعة أفراد من أصحاب النهروان وفروا إلى مختلف المناطق ليرموا هذه المدرسة الفاسدة ويعيدوا بنائها ممن جانب آخر فانتنا نعلم بأن من حضر النهروان لم يكونوا جميع الخوارج، بل الخوارج. ثم اماط اللثام عن تبوءة اخرى فقال عليه السلام:

«كلما نجم [٦٦٥] منهم قرن قطع»

فالعبرة إشارة إلى وحشية الخوارج من جهة وأنهم كالحيوان الذى له قرن لاذى الآخرين، ومن جهة أخرى يشير إلى الانتكاسات المتتالية والهزائم المتتالية التى يمنى بها الخوارج طيلة حياتهم المقيتة؛ الأمر الذى تحقق تاريخياً وسنتعرض له فى البحث القادم. ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين»

وهذا هو الأمر الآخر الذى ثبت تحققه تاريخياً، حيث تعرض أرباب التأريخ إلى عدد من مشهورى الخوارج ممن تحولوا إلى لصوص خطرين، وسنعرض لهذا الأمر بالتفصيل لاحقاً.

تأملات

١- الخوارج ظاهرة لافرقه

يستفاد من كلام الإمام عليه السلام أن الخوارج لم يكونوا فرقة معينة، يقدر ما كان يراهم الإمام عليه السلام ظاهرة حية طيلة التأريخ الإسلامى، حتى أن القرائن تفيد أن هذه الظاهرة كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد أورد المفسر الجليل المرحوم

الطبرسى عن أبى سعيد الخدرى فى ذيل الآيه «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ...» [٦٦٦] أن رسول الله صلى الله عليه وآله حين قسم غنائم قبيلة هوازن على المسلمين يوم حنين قام إليه حرقوص بن زهير وقال: اعدل يا محمد! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فمن ذا يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: دعنى أضرب عنقه يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وآله:

«دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»
وأضاف المرحوم الطبرسى وجاء فى حديث آخر أن النبى صلى الله عليه وآله قال:

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٢٥

«فاذا خرجوا فاقتلوه ثم إذا خرجوا فاقتلوه»

فترلت الآيه المذكورة: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَشِيخُطُونَ». فالواقع أن هذه الكلمات تفيد إمتداد الجذور الفكرية للخوارج إلى عصر النبى صلى الله عليه وآله وأنهم لم يكونوا يتورعون حتى عن مجابهة النبى صلى الله عليه وآله إذا تعرضت مصالحهم للخطر. ونقل ابن أبى الحديد عن مسند أحمد بن حنبل أن عائشة سألت مسروق: هل عندك علم من المخدج (أحد زعماء الخوارج)؟ فقلت: نعم، قتله على بن أبى طالب على نهر قالت عائشة: إبعنى على ذلك بينة. فأقمت رجالاً شهدوا عندها بذلك. قال فقلت لها: سألتك بصاحب القبر، ما الذى سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله فيهم؟ فقلت: نعم سمعته يقول:

«إنهم شر الخلق والخليقة يقتلهم خير الخلق والخليقة وأقربهم عند الله وسيله» [٦٦٧]

. هذا ويمكن ايجاز مميزات الخوارج فيما يلى: إنهم طائفة تعنى كثيراً بظواهر العبادات وحتى المستحبات والمكروهات البسيطة وهذا ما جعلهم يعيشون الغرور ويشعرون بالعجب، وبالمقابل كانوا أفراد جاهلين متعصبين خارجين عن حدود الادب والخلق، ولا يتورعون عن أقذر الأساليب من أجل تحقيق مآربهم، وأفضل نموذج على ذلك سوء خلق «ذو الخويصرة»

(حرقوص) وفضاضته تجاه النبى صلى الله عليه وآله. صحيح أن الخوارج ظهروا فى صفين بعد التحكيم إلا أن هذا لا يعنى عدم وجود إمتداداتهم الفكرية لما قبل عصر الإمام عليه السلام ومازلنا إلى اليوم نلمس ثقافتهم وأفكارهم المنحطة لدى بعض طبقات وفئات مختلف المجتمعات البشرية، ولعل أغلب الوهابيين ينتمون إلى هذه الزمرة، لأنهم يتصفون بصفاتهم. كما نرى فى أوساطنا بعض الأفراد الشديدي الالتزام بقشور الدين بينما يرون إنحراف كبار علماء الدين عن الصراط المستقيم ويسعون جاهدين لاثارة البلبال والفتن. ولا يبدو القتال علاجاً لمرض هذه الفئة الضاللة، بل علاجها يكمن فى رفع المستوى الثقافى للامة وانفتاحها على المسائل الدينية والعقائدية؛ الأمر الذى صرح به الإمام عليه السلام فى الخطبة القادمة. وقد أشار الإمام عليه السلام فى الخطبة السادسة والثلاثين إلى مدى جهل هؤلاء الأفراد فقال

«وأنتم معاشر أخفاء الهام، سفهاء الاحلام ولم آت - لا بألكم - بجرا ولا أردت

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٢٦

لكم ضراً».

وكفى هذه الفرقة ضلالة وانحرافاً وفضاضة ما فعلته بصحابى النبى صلى الله عليه وآله بن الخباب المعروف بورعه وتقواه وزوجته الحاملة حيث قتلها بتلك الطريقة البشعة وبقرت بطن زوجته لأنهما لم يتكرراً لعلى عليه السلام بينما كانت تستشكل قتل اليهودى، بل كانت لا ترى جواز قتل الخنزير. بل كانوا يشكلون على أحدهم إذا تناول ثمرة مهملة تحت شجرة دون إذن صاحبها، بينما لا يتورعون عن سفك دماء كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام. كان هنالك تناقضاً واضحاً بين ظاهريهم وباطنيهم وأقوالهم وأفعالهم، حتى إمتد ذلك التناقض إلى عقائدهم الفقيهية والكلامية، فكانوا يرون وجوب قتل مرتكب

الكبيرة، بينما يعتقدون بعدم الحاجة إلى الحاكم رغم الفوضى والهرج والمرج الذي يسود المجتمع. وتفيد القرائن أنهم كانوا مفرطين في المسائل الجنسية وغارقين في الشهوات، ولعل هذا ما جعلهم يجوزون العقد على تسع نساء، ولا يرون الرجم عقوبة لمن زنا وهو محصن. ومن الطبيعي أن تتفرع هذه الفرقة عدة فروع بفعل ذلك الجهل والتعصب والحمق، ومن هنا لم تمض عليها مدة حتى انقسمت فرقا لكل منها زعيم من قبيل الازارقة والنجادات والصفريه والعجاردة والثعالبة وما تشابه ذلك. لعنا نلمس هذه الفرقة اليوم في الوهاية التي تعيش التمسك بظاهر العبادات وتتحرج في المكروهات والمباحات وتؤدي المستحبات، بينما تكفر أغلب المسلمين من السنة والشيعة وتبيح دمائهم، ورغم ضحالتهم الفكرية وجمودهم إلا أنهم يرون أنفسهم أفضل من غيرهم، فهم كالخوارج يرون أنفسهم الحق المطلق وما سواهم باطلا.

٢- الخوارج لصوفا سلايين

يشهد التاريخ بتحقيق ما أخبر به الإمام عليه السلام عن الخوارج من أن آخرهم لصوفا سلايين. فمن بين الأفراد الذين ذكرهم ابن أبي الحديد الذي آل أمرهم إلى السرقة والسلب: الوليد بن طريق الشيباني على عهد هارون الرشيد. فبعث له هارون بيزيد بن مزيد هو من بني شيبان فقتله وأتاه برأسه وابن عمرو الخثعمي على عهد المتوكل العباسي الذي عرف بقطعه للطرق، فبعث له بأبي سعيد محمد بن يوسف الطائي، إلا أنه هرب بينما قتل جمع كثير من صحبه وأسر آخرون. ثم ظهرت جماعة منهم في منطقة كرمان وعمان فكانوا مفسدين في الأرض ومحاربين،

نقحات الولاية، ج ٢، ص: ٤٢٧

أما أسماءهم فقد أحصاها أبو اسحاق الصابي في كتاب التاجي. [٦٦٨]

تم المجلد الثاني لشرح نهج البلاغة

لقد إنتهى المجلد الثاني من الشرح باختتام الخطبة الستين، ولا يسعني هنا إلا أن ابتهل إلى الله بفائق الشكر لما وفقني من القيام بهذا العمل المتواضع سائلا إياه الاخذ بيدي إلى إتمام هذا العلم، كما أسأله أن يوفقنا لأن نعيش هذه الكلمات على مستوى القلب والعمل فتقودنا إلى سعادة الدنيا والآخرة. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

السابع من صفر عام ١٤١٩

الولادة الميمونة للإمام الكاظم عليه السلام

[١] (١) نقل كتاب مصادر نهج البلاغة هذه الخطبة التي أوردها السيد الرضى رضى الله عنه فى الخصائص / ٨٧ وأضاف فى ذيل الخطبة ١٦٧- التى تعد هذه الخطبة جزءاً منها- قائلاً: (رواه الطبرى) فى تاريخه ضمن حوادث سنة ٣٥ هـ (مصادر نهج البلاغة ١ / ٣٧١ و ٢ / ٤٠٣).

ويتبين من الرجوع إلى تاريخ الطبرى أن الأمة بايعت علياً عليه السلام يوم الجمعة لخمسة بقين من شهر ذى الحجة وأنها أول خطبة أوردها على عليه السلام ضمن خطبته ١٦٧. تاريخ الطبرى ٣ / ٤٥٧.

[٢] (١) منهاج البراعة ٣ / ٣٠١.

[٣] (١) معارج نهج البلاغة، بيهقى / ١٠٩.

[٤] (١) منهاج البراعة ٣/٤-٣.

[٥] (١) لقد أورد هذه الخطبة وشرحها كل من المرحوم «الشيخ المفيد» في «الإرشاد» في الفصل ٢٢ من كلمات الإمام على عليه السلام، والكليني في «الكافي» ٥/٥٣ كتاب الجهاد إلى جانب بعض الخطب الأخرى، والمرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار ٣٢/١٩٣. كما ذكرها ابن أثير في عدة مواضع من كتابه النهاية بتناسب مفردات الخطبة. ويضيف مؤلف مصادر نهج البلاغة قائلاً: لقد أقتبست هذه الخطبة من سائر خطبه عليه السلام، فهو يعتقد بأنها مرتبطة بالخطبة ٢٦، كما يرى بأن هذه الخطبة ذات إرتباط بالخطبة ١٧٢- مصادر نهج البلاغة ١/٣٧٣.

[٦] (١) بحار الأنوار ٣٢/٢٦٧ ح ٢٠٦ نقلًا عن الاحتجاج للطبرسي.

[٧] (٢) شرح القطب الراوندي ١/١٨٨.

[٨] (٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٣٠٥.

[٩] (١) لم تكن قضية المطالبة بدم عثمان شعار أهل الشام وذريعتهم لإشعال فتيل صفين، بل استغلت كذلك من قبل طلحة والزبير وعائشة لتنتهي بنشوب معركة الجمل. وقد ذكر ابن أثير- المورخ المعروف- في «الكامل» أن عائشة حين قدمت إلى المدينة من مكة سمعت أثناء الطريق بقتل عثمان واجتماع الأئمة على على عليه السلام، فاغتمت وقالت: ليت السماء أطبقت على الأرض ولم يقع هذا، ثم أمرت باعادتها إلى مكة. فقالت «إن عثمان قُتل والله مظلوماً» فقام إليها من قال لها: إنك أول من تحدثت ضد عثمان واسميتها نعتاً قيل أن نعتاً رجل يهودى كثر اللحية، وقال صاحب «لسان العرب» أن نعتاً تعني العجوز الأحمق) وأنت قلت: إقتلوا نعتاً فقد كفر (الكامل ٣/٢٠٦).

[١٠] (٢) ذمر من مادة «ذمر» بمعنى «التشجيع والحث» وقيل بمعنى التحريك المقرون بالذم والعتاب، ومن هنا كان الذمر على وزن «الذهن» يعني الرجل الشجاع والمتحرك.

[١١] (٣) جلب تعني في الأصل السوق والانتقال ويقال الجلب بالنسبة للأفراد الذين يجمعون بسهولة. استجلب هنا بمعنى الاجتماع.

[١٢] (١) سورة المجادلة

[١٣] (٢) سورة المجادلة/١٩.

[١٤] (١) تاريخ الطبري ٣/٤٥٣.

[١٥] (٢) تاريخ الطبري ٣/٤١١.

[١٦] (٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/٢١٥.

[١٧] (١) منهاج البراعة ٣/٣١٠.

[١٨] (٢) «الخبية» بمعنى اليأس، والمراد بالداعى هنا طلحة والزبير الذين دعوا الناس للخروج على عثمان. وقوله إلام اجيب، تحقيراً لأولئك الذين اتبعوهما دون دليل.

[١٩] (١) سورة الحجرات/٩.

[٢٠] (٢) إحقاق الحق ٤/٩٩ نقلًا عن ينابيع المودة.

[٢١] (١) العبارة مثل عربي معروف وقد أشير إليه في بعض الروايات الإسلامية ومنها الخطبة ١٦٨ من خطب نهج البلاغة.

[٢٢] (٢) «طعان» بمعنى الضرب بآله وتستعمل عادة للرمح ويقال لذرب اللسان طعن أيضاً.

[٢٣] (٣) «جلاد» من مادة «جلد» بمعنى الضرب بالعصا أو السيف أو السوط وهو هنا كناية عن الحرب.

[٢٤] (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٣٠٦.

[٢٥] (٥) «هبلتهم» بمعنى ثكلتهم، والهبول بفتح الهاء المرأة التي لا يبقى لها ولد، وهو دعاء عليهم بالموت.

- [٢٦] (١) شرح نهج البلاغة لابن ميشم لئئة كلمة مختارة من الجاحظ، الكلمة الاولى.
- [٢٧] (١) أورد المرحوم الكليني عن الإمام الحسن عليه السلام قسماً من هذه الخطبة في كتاب الكافي ٥/٥٦، كما أورد قسمها الآخر - حسب صاحب مصادر نهج البلاغة - نصر بن مزاحم في صفين وابن عبد ربه في العقد الفريد والزمخشري في ربيع الأبرار.
- [٢٨] (١) «غفيرة» من مادة «غفر» بمعنى الستر ومن هنا اطلقت المغفرة على ستر الذنوب كما تطلق على المال الكثير لتغطيته جزءاً واسعاً من الحياة، حتى أنه يستر العيوب أحياناً، ولذلك يقال للكثرة والزيادة غفيرة.
- [٢٩] (١) «الفالج» من مادة «فلج»، قال صاحب مقاييس اللغة لها معنيان؛ الأول النصر والغلبة، والآخر المسافة بين شيئين. وفسره صحاح اللغة بالظفر والفوز، وقد ورد هنا بهذا المعنى.
- [٣٠] (٢) «الياسر» من مادة «يسر» بمعنى السهولة، وميسر ويسار حسب قول الراغب في المفردات بمعنى الغنى والثروة. وأطلق على المقامر الذي يلعب بقداح الميسر وقد وردت في العبارة بمعنى اللاعب بالقداح المحفوظ منها.
- [٣١] (٣) «قداح» جمع «قدح» على وزن فعل بمعنى السهم. وهي في الأصل بمعنى كسر الشيء وعيبه.
- [٣٢] (١) شرح نهج البلاغة، المحقق الخوئي، ٣/٣١٩ (بتلخيص). وقد وردت إشارة مختصرة إلى هذا المطب في كتاب معارج نهج البلاغة وهو من أقدم شروح هذا الكتاب، معارج نهج البلاغة، ص ١١٠.
- [٣٣] (٢) سورة المائدة/ ٩٠.
- [٣٤] (١) بحار الأنوار ٧٥/١٤٧.
- [٣٥] (١) مسكن الفؤاد نقلًا عن بحار الأنوار ١٠٠/٢٥.
- [٣٦] (١) سورة النور/ ٦٣.
- [٣٧] (٢) سورة آل عمران/ ٢٨.
- [٣٨] (٣) «تعذير» من مادة «عذر» وهنا بمعنى عدم العذر الصحيح.
- [٣٩] (٤) سورة فاطر/ ٢٨.
- [٤٠] (١) منهاج البراعة ٣/٣٢٤ كما ورد هذا المضمون عن الإمام الصادق عليه السلام في بحار الأنوار ٦٧/٢٤٣.
- [٤١] (٢) سورة النساء/ ٦٩ - ٧٠.
- [٤٢] (١) وسائل الشيعة ١/ ٥٠.
- [٤٣] (١) «عتره» قال أرباب اللغة تعنى أصل الشيء وأساسه، كما قيل أن هذه المفردة أقتبست من عتر (على وزن فطر) نبات معطر كثير الغصون والأوراق وتشير إلى فروع القرابة. وقيل تطلق العتره على الأولاد فقط. وعليه فعتره النبي صلى الله عليه وآله هم ولد فاطمة عليها السلام وإلى ذلك أشار الحديث المعروف «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي (لسان العرب، الصحاح، مقاييس اللغة).
- [٤٤] (١) «حيطة» اسم مصدر من مادة «حوط» بمعنى الاحاطة، وهي هنا بمعنى الرعاية والكلاءة. وقال البعض الحيطة بفتح الحاء بمعنى المراقبة وبكسرها بمعنى الحفظ.
- [٤٥] (٢) «الم» من مادة «لمم» بمعنى الجمع والاصلاح.
- [٤٦] (٣) شعث بالتحريك بمعنى التفرق والانتشار.
- [٤٧] (٤) نهج البلاغة، آخر الرسالة رقم ٣.
- [٤٨] (١) سورة الشعراء/ ٨٤.
- [٤٩] (٢) سورة مريم/ ٥٠.

- [٥٠] (١) لقد ورد هذا المضمون فى عدة روايات ومنها كتاب وسائل الشيعة ١١ / الباب ١٦ من أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.
- [٥١] (١) «الخصاصة» هى الفقر والحاجة الشديدة وهى مصدر خص الرجل بمعنى احتاج وافتقر، وقال صاحب مقاييس اللغة تعنى الثلثة ومن هنا أطلقت على الفقر والحاجة لأنها تلمة فى حياة الإنسان.
- [٥٢] (١) بحار الأنوار ٧٤ / ٤١٣.
- [٥٣] (١) بحار الأنوار ٧١ / ١٢٠.
- [٥٤] (٢) بحار الأنوار ٧١ / ٩٧.
- [٥٥] (٣) بحار الأنوار ٧١ / ٢١١.
- [٥٦] (٤) معانى الأخبار نقلًا عن بحار الأنوار ٧١ / ٩٥ ح ٢٦.
- [٥٧] (٥) اصول الكافى نقلًا عن بحار الأنوار ٧١ / ١٢٦.
- [٥٨] (١) مفتاح السعادة فى شرح نهج البلاغة ١ / ١١٢.
- [٥٩] (١) «لعمرى» و«عمر» و«عمر» و«عمر» بمعنى مدة الحياة ويقال حين القسم لعمرى بفتح العين. وهى هنا مبتدأ لخبر محذوف تقديره «لعمرى قسمى» وقد ورد سؤال فى مجمع البحرين كيف بهذا القسم وهو لا يجوز بغير الذات الإلهية المقدسة؟ وأجيب بأن هذا القسم ليس حقيقة بل بصورة قسم، وتقديره «بواهب عمرى وعمرى».
- [٦٠] (٢) «خابط» من مادة «خبط» وخابط الغى بمعنى صارع الفساد، وأصل الخبط اليسر فى الظلام، وتستعمل للناقذة حين تخبط فى مشيها.
- [٦١] (٣) «الادهان» من مادة «دهن» بمعنى المنافقة والمصناعة ولا تخلو من مخالفة الباطن للظاهر، كما تستعمل كناية عن المجاملة والمداهنة.
- [٦٢] (٤) «الايهان» من مادة «وهن» بمعنى الضعف سواء فى الخلقة أو الأخلاق، والايهان والتوهين بمعنى الاضعاف.
- [٦٣] (٥) نهج البلاغة، الكلمات قصار، ١١٠.
- [٦٤] (٦) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٤.
- [٦٥] (١) سورة التوبة / ١١٨.
- [٦٦] (٢) سورة الذاريات / ١٥١.
- [٦٧] (٣) «عصب» من مادة «عصب» على وزن ضرب الذى يربط العظام والعضلات، أى كلفكم به وألزمكم أدائه.
- [٦٨] (١) سورة التوبة / ٥٢.
- [٦٩] (١) جاء فى مصادر نهج البلاغة أن المسعودى أورد هذه الخطبة مع اختلاف طفيف فى مروج الذهب قبل المرحوم السيد الرضى، ثم قال: وقد أشار إليها العقد الفريد وابن عساكر فى تاريخ دمشق.
- [٧٠] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، آخر الخطبة.
- [٧١] (١) «الضمير» هى «يعود إلى الحكومة أو البلاد فمفهوم العبارة» ما الحكومة والمملكة التى تحت سيطرتى إلبالكوفة».
- [٧٢] (٢) «أعاصير» جمع «إعصار» وهى ريح تهب وتمتد من الأرض نحو السماء كالعمود كما تطلق كناية على الامور الاجتماعية وهى تعنى الفوضى التى كانت سائدة فى الكوفة طول التاريخ.
- [٧٣] (١) معجم البلدان، مادة «كوفة»، التاريخ الكامل ٢ / ٥٢٧، قاموس (مادة كوفة).
- [٧٤] (٢) سورة التين / ٢.

- [٧٥] (٣) سفينة البحار، مادة «كوفه».
- [٧٦] (١) نقل هذا الكلام ابن أبي الحديد عن الجاحظ (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٣٤٣).
- [٧٧] (٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.
- [٧٨] (٣) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٠.
- [٧٩] (١) في ظلال نهج البلاغة ١/١٧٧.
- [٨٠] (١) الكامل لابن أثير ٣/٣٨٣؛ تاريخ الطبري ٤/١٠٦، ١٠٨.
- [٨١] (٢) اطلع، تعنى فى الأصل النظر من الأعلى، واستعملت كناية عن النصر والغلبة المفاجأة، مادة «طلوع» بمعنى الظهور.
- [٨٢] (٣) «يدالون» (فعل مضارع مجهول من باب الأفعال) من مدة دولة بمعنى الانتقال من مكان إلى آخر. ومن هنا اطلقت الدولة على المال والثروة التى تتداول بين الناس، والمراد بها فى هذه العبارة سيغلبونكم وتكون لهم الدولة بدلکم.
- [٨٣] (١) «قعب»، قال بعض أرباب اللغة بمعنى قدح خشبي وقال البعض الآخر قدح كبير ضخيم.
- [٨٤] (٢) «علاقة» إذا استعملت مفتوحة العين عنت الرابطة المعنوية وإن كسرت كانت بهذا المعنى أو بمعنى الروابط المادية، وقد وردت هنا بمعنى ما يعلق بالظرف من ليف أو نحوه.
- [٨٥] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢/٣-١٨؛ مروج الذهب ٣/١٦٣ (بحث ذكر أيام الوليد بن عبدالمك).
- [٨٦] (٢) سورة الأنفال / ٦٢-٦٣.
- [٨٧] (١) سورة آل عمران / ١٠٣.
- [٨٨] (٢) سورة الانعام / ٦٥.
- [٨٩] (١) «سئمتهم» من مادة «سأم» بمعنى الملل والتعب من الشيء.
- [٩٠] (٢) «مث» من مادة «ميث» بمعنى حل الشيء فى الماء، ويطلق على المطر الذى يذيب تراب الأرض، كما يطلق على الحوادث المريرة التى تذيب عقل الإنسان وتصدع قلبه.
- [٩١] (١) سورة الأعراف / ٨٢.
- [٩٢] (٢) منهاج البراعة ٣/٣٥٨. صرح المسعودى - من المؤرخين المشهورين - أن الحجاج ولد عام ٤١ هـ وتوفى عام ٩٥ وله من العمر ٥٤ سنة.
- [٩٣] (٣) سورة نوح / ٢٦.
- [٩٤] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٣٤١.
- [٩٥] (٢) بلوغ الأدب ٢/١٢٥.
- [٩٦] (٣) المصدر السابق.
- [٩٧] (٤) سورة البقرة / ٢٤٩.
- [٩٨] (١) مصادر نهج البلاغة ١/٣٩٠.
- [٩٩] (١) سورة الأحزاب / ٤٥.
- [١٠٠] (٢) سورة سبأ / ٢٨؛ سورة فاطر / ٢٤؛ سورة الفتح / ٨ وسورة البقرة / ١١٩.
- [١٠١] (١) «منيخون» من مادة «نوخ» بمعنى تنويم الجمل، ومن البديهي أن يكون موضع استراحة الأفراد هو ذلك الموضع الذى ينومون فيه الجمال بين حجارة خشن.
- [١٠٢] (٢) «الجشب» على وزن «خشن» بمعنى الطعام الغليظ أو ما يكون منه بغير آدم.

- [١٠٣] (١) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم ٢/ ٢٤ أما كيف ضبطت مفردة (أم جبين) فقبيل بيائين وقيل باء وياء وقيل بالجيم كما قيل بالماء (أم جبين) و (أم حبين)، كما كثر الكلام بشأن هذا الحيوان فقيل هو نوع من العضايا وتنفر منه عرب البادية لأنه سام عند الأكل.
- [١٠٤] (١) للوقوف على المزيد راجع بلوغ الأدب والإسلام والجاهلية والتاريخ الكامل (ج ١) وسيد المرسلين وشرح العلامة الخوئي لنهج البلاغة.
- [١٠٥] (١) «أغضيت» من مادة «غضى» تعنى السكوت على مضض، كما تعنى اغماض العين- ومن هنا تطلق الليالى الغاضية على الليالى الظلماء.
- [١٠٦] (١) «قذى» على وزن قضا الصفاء والاخلاص، ومن هنا يطلق القذى على الشيء الذى يقع فى الماء فيلوثه، كما يطلق على ما يقع فى العين.
- [١٠٧] (٢) «شجا» من مادة «شجو» ما يعترض فى الحلق من عظم أو نحوه، كما يطلق على الشدة والهم والغم.
- [١٠٨] (٣) «كظم» على وزن غضب من مادة «كظم». قال الراغب فى المفردات الكظم بمعنى مخرج النفس، والكظوم بمعنى الاختناق وحبس النفس، كما تستعمل بمعنى ربط القرية بعد ملئها بالماء، ومعنى العبارة صبرت على الخناق رغم الضغط الذى مارسه العدو.
- [١٠٩] (٤) «العلقم»، قال صاحب مجمع البحرين هى شجرة شديدة المرارة، وتسمى الحنظل أيضاً، كما جاءت علقمة بمعنى المرة.
- [١١٠] (٥) رواها نصر بن مزاحم عن الإمام عليه السلام؛ شرح نهج البلاغة، ابن ميثم ٢/ ٢٦، شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٢/ ٢٢.
- [١١١] (١) المراجعات، الرسالة ٨٤.
- [١١٢] (١) يقصد قرابة عثمان من بنى هاشم.
- [١١٣] (٢) «المبتاع» بمعنى المشتري والمراد به هنا معاوية والبائع عمرو بن العاص.
- [١١٤] (٣) انظر أسد الغابة فى معرفة الصحابة (عمرو بن العاص).
- [١١٥] (١) سورة البقرة/ ١٦.
- [١١٦] (٢) سورة البقرة/ ٨٦.
- [١١٧] (٣) سورة النساء/ ٥٨.
- [١١٨] (٤) «اهبة» على وزن لقامة بمعنى العدة والتأهب والاستعداد للقيام بعمل وإهاب على وزن كتاب بمعنى الجلد الذى لم يدبغ وقد اعد للدباغة.
- [١١٩] (٥) «شب» من مادة «شبب الشباب»، ويستعمل فى شب النار.
- [١٢٠] (٦) «لظا» بمعنى شعله النار كما تطلق على نفس النار (الراغب فى المفردات).
- [١٢١] (٧) «سنا»، قال صاحب المقاييس تتضمن العلو والارتفاع وقد وردت فى العبارة بمعنى تصاعد ألسنة النيران.
- [١٢٢] (١) بحار الأنوار ٧٤/ ١٦٥.
- [١٢٣] (١) سورة التوبة/ ٣٨.
- [١٢٤] (٢) سورة المجادلة/ ٢٢.
- [١٢٥] (١) سورة الانفال/ ٦٥.
- [١٢٦] (١) الانبار محافظة من محافظات العراق التى تقع غرب بغداد.
- [١٢٧] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٢/ ٧٥.
- [١٢٨] (٣) الكافي ٥/ ٤.
- [١٢٩] (١) مصادر نهج البلاغة ١/ ٣٩٧.

[١٣٠] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٨٥ - ٨٧.

[١٣١] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٨١.

[١٣٢] (١) الكافي ٥ / ٢، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد، ح ٢.

[١٣٣] (١) لابد من الالتفات إلى أن الإضافة (لباس التقوى) في التفسير الأول من قبيل الإضافة اللامية وفي التفسير الثاني إضافة بيانية.

[١٣٤] (١) سورة التوبة / ٩١ - ٩٢.

[١٣٥] (٢) «ديث» من مادة «ديث» بمعنى الذلة والهوان، ومن هنا يصطلح بالديوث على من لا يكثر لعفه أهله، كأنه قد ذل حتى صار كذلك.

[١٣٦] (٣) «صغار» بمعنى الذلة.

[١٣٧] (١) «القماءة» بمعنى الصغار والذل.

[١٣٨] (٢) الأسهاب ذهاب العقل أو كثرة الكلام، أي حيل بينه وبين الخير بكثرة الكلام بلا فائدة، وقدورت بهذا المعنى في الخطبة.

[١٣٩] (٣) «أديل» من مادة «دولة»، قال صاحب المقاييس لها معنيين؛ الأول التحول والانتقال، والآخر الضعف، وإريد بها هنا المعنى الأول.

[١٤٠] (٤) فسرها جمع من شراح نهج البلاغة بالذلة والهوان على أنها من قبيل تكرر وتأکید العبارات السابقة، أمّا ما أوردته في المتن فانه ورغم انسجامه مع المتون اللغوية الا أنه ينطوي على معنى جديد يأبى التكرار، وعليه يبدو هو التفسير الأنسب.

[١٤١] (١) النصف والانصاف من مادة واحدة بمعنى العدل.

[١٤٢] (١) بحار الأنوار ٩ / ٩٨.

[١٤٣] (٢) اصول الكافي ٨ / ٥.

[١٤٤] (٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٢٥٢.

[١٤٥] (١) «عقر» على وزن ظهر بمعنى أساس الشئ وأصله ومنه عقر الناقة، وذلك لزوال أساس الناقة بحيث تفقد توازنها وتقع على الأرض.

[١٤٦] (٢) «تواكلتم» من مادة «وكل»، وكل كل منكم الأمر إلى صاحبه، أي لم يتوله أحد منكم، بل أحاله كل على الآخر.

[١٤٧] (٣) «شنت» من مادة «شن»، وشنت الغارات مزقت عليكم من كل جانب كما يشن الماء متفرقاً دفعة بعد دفعة. والعبارة إشارة إلى الغارات المتوالية التي كان يشنها عليهم الشام.

[١٤٨] (١) «حجل» على وزن فعل و«حجل» على وزن فصل بمعنى الخلخال التي تزين به النساء العرييات أرجلهن.

[١٤٩] (٢) «قلب» بضمّتين جمع قلب بالضم فسكون بمعنى السوار المصمت وتعنى فى الأصل التغيير.

[١٥٠] (٣) «قلاند» جمع «قلادة» على وزن اجارة، تطلق على كل شئ يحيط بآخر.

[١٥١] (٤) «رعث» بضم الراء والعين جمع «رعث» على وزن رأس ما تعلقه المرأة من الزينة فى أذنها.

[١٥٢] (١) سورة التوبة / ٩٢.

[١٥٣] (١) بحار الأنوار ٩٧ / ٦٤ ح ٦٠.

[١٥٤] (١) يا عجباً عجباً، قال بعض شراح نهج البلاغة أن العبارة «فيا عجباً عجباً» أصلها «عجبت عجباً...»؛ أي منصوبة على أنها مفعول مطلق. كما احتمال أن تكون عجباً الأولى من قبيل المفعول المطلق والثانية للتكرار والتأكيد (شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٢ / ٣٦) وقال

البعض تقديرها «يا عجبى احضر» (شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئى ٣ / ٣٩٢) ويبدو هنا التفسير أنسب لأن تكون «عجباً» منادى

[١٥٥] (١) «ترحاً» تعنى الحزن والغم فقد دعا عليهم الإمام عليه السلام بهذه العبارة بالحزن والهم.

- [١٥٦] (٢) «حمارة» من مادة «حمر» بمعنى اللون الأحمر، ويطلق على شدة حرارة الصيف المحرقة، وكأن شدة الحرارة كحمرة النار.
- [١٥٧] (٣) «قيظ» على وزن فيض بمعنى الحرارة الشديدة للصيف، وعليه فاضافة حمارة إلى قيظ تأكيد للحرارة.
- [١٥٨] (٤) «يسبخ» من مادة «سبخ» بمعنى التخفيف والتسكين.
- [١٥٩] (٥) «صبارة» من مادة «صبر» بمعنى حبس الشيء وحفظه، وتطلق الصبارة على شدة البرودة.
- [١٦٠] (٦) «ينسلخ» من مادة «سلخ» بمعنى إزالة القشر ومن هنا يطلق السلاخ على من يزيل جلد الحيوان، ثم اطلقت على كل فصل وإزالة.
- [١٦١] (١) قر له معنيان؛ الأول البرد والثاني الاستقرار في مكان، ولا يبعد أن يعود المعنى الأول إلى الثاني، لأن البرد الشديد يصد الإنسان عن العمل.
- [١٦٢] (٢) سورة التوبة / ٨١.
- [١٦٣] (١) سورة المائدة / ٢٢-٢٤.
- [١٦٤] (١) «حلوم» من مادة «حلم» بمعنى ضبط النفس وقد وردت هنا بمعنى الآمال الفارغة الشبيهة بأحلام الأطفال.
- [١٦٥] (٢) «ربات» جمع «ربة» صاحب الشيء ومالكه، واستناداً إلى تاء التأنيث فإنها تستعمل في المؤنث.
- [١٦٦] (٣) «حجال» جمع «حجلة» وصحيحه حجلة على وزن عجلة وهي القبة، موضع يزين بالستور، والمراد بربات الحجال النساء.
- [١٦٧] (١) لا بد من الالتفات هنا الى ان التعبير بقتالكم الى انهم كانوا في مقام محاربة الله و احكامه، و انهم لا- محالة ملعونين مطرودين من رحمة الله و من هنا فان اغلب المفسرين ذهبوا الى ان الاية ٣٠ من سوره التوبه (قاتلهم الله) تعنى الطرد من رحمة الله انظر المفردات للراغب و نشر طوبى للمرحوم العلامة الشعراني).
- [١٦٨] (٢) «نغب» جمع «نغب» على وزن لقمه بمعنى شربه الماء كجرعه و جرع و قد شبه هنا الحزن بالماء المر الذى شربه الامام جرعه جرعه.
- [١٦٩] (٣) «التهام» من مادة «همم» بمعنى الهم، و يستعمل هداالوزن عاده بمعنى المصدر مثل تكرار و تذكار.
- [١٧٠] (٤) «لله ابوهم» تقال هذه العبارة للمدح، كما تطلق فى بعض الاحيان للتعجب، و مفهومها رحم الله والديهم.
- [١٧١] (٥) «مراساً» و «ممارسة» بمعنى واحد، أى عالجه وزاوله وعاناه.
- [١٧٢] (١) «ذرفت» من مادة «ذرف» بمعنى سيل الدمع، وقد وردت هنا بمعنى زدت على الستين.
- [١٧٣] (١) سورة ابراهيم / ٢٤-٢٥.
- [١٧٤] (٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار / ٢٦١.
- [١٧٥] (١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢١.
- [١٧٦] (٢) فى ظلال نهج البلاغة / ١ / ١٩٢.
- [١٧٧] (١) بحار الأنوار / ٤١ / ٦٢.
- [١٧٨] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد / ٢ / ٨٨-٩٠.
- [١٧٩] (١) تعتبر هذه الخطبة من الخطب المهمة لأمر المؤمنين على عليه السلام التي رواها كبار علماء الفريقين في كتبهم ومؤلفاتهم، ومنهم ١- الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ١ / ١٧١؛ ٢- الباقلاني في كتاب إعجاز القرآن / ٢٢٢؛ ٣- الحسن بن علي بن شعبة في تحف العقول؛ ٤- ابن عبد ربه في العقد الفريد ٢ / ٣٦٥؛ ٥- ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢- ٢٣٥؛ ٦- المسعودي في مروج الذهب ٣ / ٣٦٥؛ كما رواها المرحوم العلامة المجلسي في البحار عن كتاب مطالب السئول لمحمد بن طلحة الشافعي وكتاب الإرشاد للمفيد مع بعض الاختلاف.

[١٨٠] (١) «آذنت» من مادة «اذن» بمعنى الاعلان، ومنه الاذان الذي يعلن وقت دخول الصلاة.

[١٨١] (١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٨.

[١٨٢] (٢) «اطلاع» من مادة «طلع» بمعنى الظهور، وطلوع الشمس بمعنى ظهورها، ويرى البعض أنها تطلق على العلم المفاجئ، وأشرفت باطلاع، أقبلت بعتة.

[١٨٣] (٣) «المضمار»: الموضع والزمن الذي تضم فيه الخيل، وتضمير الخيل أن تربط ويكثر علقها وماؤها حتى تسمن، ثم يقلل علفها وماؤها وتجري في الميدان حتى تهزل، ثم ترد إلى القوت، والمدة أربعون يوماً، وقد يطلق التضمير على العمل الأول أو الثاني، واطلاقه على الأول لأنه مقدمة للثاني وإلا فحقيقة التضمير احداث الضمور وهو الهزل وخفة اللحم، وإنما يفعل ذلك بالخيل لتخف في الجري يوم السباق.

[١٨٤] (٤) «السباق» من مادة «سبق» ومسايقه من باب مفاعلته ولسباق نفس المعنى. وسبقه بمعنى الهدف المطلوب الذي يتسابق من أجله أو بمعنى الجائزة.

[١٨٥] (١) سورة الحديد / ٢١.

[١٨٦] (٢) «منية» من مادة «منى» على وزن نقي، قال صاحب مقاييس اللغة بمعنى تقدير الشيء، ثم اطلقت على الموت والأجل، لأن الموت أمر مقدر، وتطلق المنى على الأمانى التي تدور في خلد الإنسان.

[١٨٧] (١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٧.

[١٨٨] (١) ورد هذا الحديث النبوي في غوالي اللثالي ١ / ٢٦٧.

[١٨٩] (٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار / ١٣١.

[١٩٠] (٣) بحار الأنوار ١٤ / ٣١٩ ح ٢١.

[١٩١] (٤) نهج البلاغة، الكلمات القصار / ١٣٣.

[١٩٢] (٥) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٣.

[١٩٣] (٦) بحار الأنوار ٧٥ / ٣٦٦، مواظ الإمام الهادي عليه السلام

[١٩٤] (١) سورة المؤمنون / ١٠٠.

[١٩٥] (١) سورة العنكبوت / ٦٥.

[١٩٦] (٢) سورة الاسراء / ٦٧.

[١٩٧] (١) «ظعن» على وزن «ظعن» بمعنى الرحيل من مكان إلى آخر ومن هنا اطلقت الظعينة على اليهودج لأنه من وسائل السفر، وتستخدم أحياناً كناية عن النساء، لأنهم غالباً ما يركب اليهودج.

[١٩٨] (١) سورة آل عمران / ١٨٥.

[١٩٩] (٢) سورة النساء / ٧٨.

[٢٠٠] (٣) سورة الزمر / ٣٠.

[٢٠١] (٤) سورة القصص / ٨٨.

[٢٠٢] (٥) على ضوء المعنى الأول فإن الأمر في قوله «أمرتم بالظعن» هو أمر تكويني وأجل الهى ولكن ليس في الجملة من تقدير، وهو أمر تشريعي على ضوء المعنى الثاني وفي العبارة تقدير هو التجهز والاستعداد، أو الظعن بالمعنى المجازي.

[٢٠٣] (٦) سورة البقرة / ١٩٧.

[٢٠٤] (٧) سورة الشعراء / ٨٨ - ٨٩.

- [٢٠٥] (٨) سورة الكهف / ٤٦.
- [٢٠٦] (١) بحار الأنوار ٧٠ / ٩١. فقد روى هذه الحديث جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله في باب حب الدنيا.
- [٢٠٧] (٢) «تحرزون» من مادة «حز» بمعنى الحفظ، و«الحرز» على وزن الحرص بمعنى الموضع الآمن لحفظ الأشياء.
- [٢٠٨] (١) سورة ص / ٢٦.
- [٢٠٩] (٢) سورة الجاثية / ٢٣.
- [٢١٠] (٣) سورة النازعات / ٤٠ - ٤١.
- [٢١١] (١) سورة الحجر / ٣.
- [٢١٢] (٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار / ٣٦.
- [٢١٣] (٣) بحار الأنوار ٧٤ / ١٧٣.
- [٢١٤] (١) قال صاحب مصادر نهج البلاغة هذه من الخطب المعروفة التي رواها أغلب العلماء والمحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضى (ره) ومنهم:
- ١- الجاحظ في البيان والتبيين ١ / ١٧٠.
- ٢- ابن قتيبة الدينوري في الإمامة والسياسة ١ / ١٥٠.
- ٣- ابن عبد ربه في العقد الفريد ٤ / ٧١.
- ٤- البلاذري في كتاب أنساب الأشراف (في شرح سيرة علي عليه السلام) / ٣٨٠.
- ٥- القاضي نعمان المصري في دعائم الإسلام ١ / ٣٩١ (مع اختلاف وما ورد في النهج وقال الشارح الخوئي يستفاد من بحار الأنوار والاحتجاج والإرشاد أن هذه الخطبة جزء من الخطبة ٢٧ (شرح نهج البلاغة، الخوئي ٤ / ٢١).
- [٢١٥] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣ / ١١٧.
- [٢١٦] (١) «يوهى» من مادة «وهى»، عنها صاحب المقاييس بالضعف ومن هنا يصطلح على الكلام الضعيف بالواهى. فالعبارة تعنى أن كلامكم يضعف ويفتت.
- [٢١٧] (٢) «الصم» جمع «أصم» وهو من الحجارة الصلب المصمت، و«الصلاب» جمع صليب، والصليب الشديد.
- [٢١٨] (١) «كيت وكيت» من مادة «تكييت» بمعنى اعداد جهاز الناقه أو ملأ ظرف الماء، إلّا أن العبارة كيت وكيت تستعمل حيث يريد الفرد عمل كل شىء عن طريق الكلام، وهما كلمتان لا تستعملان إلّا مكررتين ككنايه عن الحديث.
- [٢١٩] (٢) «حيدى حيا»: صيغة فعل أمر من مادة «حيود» كنزال بمعنى أنزل، وهى كلمة يقولها الهارب عند الفرار والكتمان تأكيد لاحدهما الأخرى حيث تعنى الميل والانحراف عن الشىء.
- [٢٢٠] (١) سورة الاحزاب / ٢٨.
- [٢٢١] (٢) «أعاليل» جمع اعلوله، ما يتعلل به و«أضاليل» جمع اضلوله بمعنى أسباب الضلالة، أى انكم تشبثون بأسباب واهية من أجل إضلال أنفسكم والآخرين.
- [٢٢٢] (٣) سورة التوبة / ٣٨.
- [٢٢٣] (١) نهج البلاغة، الخطبة ٦٩.
- [٢٢٤] (١) «الضيم» يعنى الظلم والاضطهاد.
- [٢٢٥] (١) ان تقديم المغمور - الخبر للمبتدأ - يفيد الحصر، أى المغرور الواقعى هو هذا الفرد.

[٢٢٢٤] (٢) «أخبب» من مادة «خبب» بمعنى فقدان الشىء.

[٢٢٢٧] (١) بحار الأنوار ٨٣ / ٤٥.

[٢٢٢٨] (١) سورة القصص / ٨٥.

[٢٢٢٩] (١) بحار الأنوار ٤٥ / ٧٥.

[٢٢٣٠] (٢) بحار الأنوار ٢٦٤ / ٧.

[٢٢٣١] (٣) سفينة البحار، مادة وطن.

[٢٢٣٢] (٤) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٤٤٢.

[٢٢٣٣] (١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٣٦٦.

[٢٢٣٤] (١) جاء فى مصادر نهج البلاغة أن هذه الخطبة جزء من رسالة كتبها الإمام عليه السلام حين خلافته، ثم ضمنها الحوادث التى أعقبت وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ثم أمر عليه السلام بقراءتها على الناس من أجل وحدة الرأى العام بهذا الشأن، كما احتمال أن تكون الخطب ٢٦، ٥٤، ٧٨ هى الأخرى جزء من هذه الرسالة.

ثم صرح بأن هذه الخطبة وردت مع بعض التغييرات فى كتاب أنساب الاشراف (مصادر نهج البلاغة، ١ / ٤٠٨).

[٢٢٣٥] (١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥٧ / ٢.

[٢٢٣٦] (١) «إستأثر» من مادة «أثر»، بمعنى الاستبداد كما صرح بذلك القاموس ومنه الحكومة الاستبدادية لأنها حكومه فردية، يستعبد فيها الفرد سائر الناس.

[٢٢٣٧] (١) قال صاحب مصادر نهج البلاغة نقل هذا الكلام طائفة من العلماء ممن سبقوا المرحوم السيد الرضى، منهم الزبير بن بكار) طبق نقل ابن أبى الحديد والجاحظ... وابن قتيبة فى عيون الأخبار وابن عبد ربّه فى العقد الفريد.

والطريف، نقله حتى ابن خلكان فى وفيات الأعيان وشهد بصحته وهو من رفع رأيه مخالفة نهج البلاغة. مصادر نهج البلاغة ١ / ٤١٨.

[٢٢٣٨] (١) «عاقصا» من مادة «عقص» بمعنى التوى قرناه على أذنيه

[٢٢٣٩] (٢) «عريكة» من مادة «عرك» بمعنى الطبيعة، ولين العريكة بمعنى السلس، كما تأتى بمعنى إشتباك الشىء ومن هنا أطلقت المعركة على إشتباك الأفراد.

[٢٢٤٠] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١٦٧ / ٢.

[٢٢٤١] (١) «عدا» به معنى الصرف والاعادة، وفاعله ضمير مستتر يعود إلى ما، ويحتمل أن تكون من فى مما بمعنى عن، و بدأ من مادة بدو بمعنى الظهور.

[٢٢٤٢] (٢) مصادر نهج البلاغة ١ / ٤١١.

[٢٢٤٣] (١) سورة الاحزاب / ٥٣؛ الدر المنثور ٥ / ٢١٤.

[٢٢٤٤] (٢) تفسير الفخر الرازى ٢٥ / ٢٢٥.

[٢٢٤٥] (٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ١٨٤.

[٢٢٤٦] (٤) الاحتجاج للطبرسى، نقلا عن سفينة البحار، مادة (طلع).

[٢٢٤٧] (١) سورة التوبة / ١٠٠.

[٢٢٤٨] (٢) ورد ذمه فى تفسير الآية ٩٣ من سورة الانعام فى الدر المنثور (الدر المنثور ٣ / ٣٠) وذكر صاحب أسد الغابة أنه كان من كتاب الوحي ثم ارتد فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بقتله (اسد الغابة، شرح أخبار عبدالله بن سعد بن أبى سرح).

[٢٢٤٩] (٣) جاء فى أسد الغاية فى معرفة الصحابة فى أخبار هذا الرجل أن النبى صلى الله عليه وآله طرده، كما طردها الخلقاء الثلاثة)

ابوبكر وعمر وعثمان) ولم يقبلوا زكاته، رغم قوله أنه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى توفي في خلافة عثمان.

[٢٥٠] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ١ / ٢٣١.

[٢٥١] (١) نقل هذه الخطبة محمد بن طلحة الشافعي في كتاب مطالب السؤل وأضاف أن الإمام عليه السلام خطبها في مسجد الكوفة، ويتضح من هذا أن له سند غير نهج البلاغة، لأن نهج البلاغة لم يشر إلى موضع الخطبة. كما رواها الجاحظ في البيان والتبيين، وأن أخطأ في البداية حيث نسبها إلى معاوية إلا أنه يعترف أخيراً بأنها لا تشبه كلام معاوية وهي من كلمات علي بن أبي طالب. مصادر نهج البلاغة / ١ / ٤١٧.

[٢٥٢] (١) سورة النمل / ٥٦.

[٢٥٣] (٢) سورة هود / ٢٧.

[٢٥٤] (١) سورة الرعد / ١١.

[٢٥٥] (١) سورة الرعد / ١١.

[٢٥٦] (١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ١٢٦.

[٢٥٧] (١) «كلالة» على وزن ضلالة بمعنى ضعف السلاح عن القطع فيقال كل السيف إذا لم يقطع.

[٢٥٨] (٢) «نضيض» بمعنى قليل، والنضيض وفرة، بمعنى القليل ماله.

[٢٥٩] (٣) سورة البقرة / ٢٠٤ - ٢٠٥.

[٢٦٠] (٤) «مصلت» من مادة «صلت» بمعنى الاظهار و السيف الصلت بمعنى السيف المشهور المصقول، ويقال المصلت لمن شهر سيفه.

[٢٦١] (٥) أشرط من مادة شرط بمعنى العلامة، و معنى العبارة أنه أعد نفسه للفساد و الاهلاك، و كانه ميز نفسه بهذا الامر.

[٢٦٢] (٦) «اويق» من مادة «وبق» بمعنى الهلاك، أى اهلكك نفسه.

[٢٦٣] (٧) «الحطام» على وزن الغلام بمعنى المتكسر الذى لا قيمة له، و من هنا يطلق على المال حطام الدنيا لزهادة قيمته.

[٢٦٤] (٨) «ينتزهه» من مادة «نhez» بمعنى الحركة من أجل القيام بعمل، كما وردت بمعنى الحركة من أجل نيل غنيمته، و عليه ينتهز بمعنى يغتنمه.

[٢٦٥] (٩) «مقتب» على وزن محور تعنى طائفة من الخيل، وقد وردت فى العبارة بمعنى طائفة من الناس، ولعل العبارة إشارة لجهلهم وعدم علمهم.

[٢٦٦] (١٠) «يفرع» من مادة «فرع» أعلى الشئ وقد وردت هنا بمعنى علا المنبر وارتقاه.

[٢٦٧] (١) سورة البقرة / ١٦.

[٢٦٨] (٢) سورة البقرة / ٢٠٧.

[٢٦٩] (٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار ٤٥٦.

[٢٧٠] (١) «طامن» و «اطمينان» من مادة واحدة بمعنى السكينة والهدوء، وهى تشير فى العبارة إلى الوقار والتواضع الصورى والظاهرى.

[٢٧١] (٢) «شمر» من مادة «شمر» بمعنى الترتيب والاعداد.

[٢٧٢] (٣) وسائل الشيعة / ١ / ٥١.

[٢٧٣] (١) «ضوولة» بمعنى الضعف و العجز.

[٢٧٤] (٢) «مراح» من مادة «روح» مصدر ميمى من راح إذا ذهب فى العشى

[٢٧٥] (٣) «مغدى» من مادة «غدو» مصدر ميمى من غدا إذا ذهب فى الصباح، وقيل مكان الحيوانات فى النهار فى مقابل المراح فى

الليل.

[٢٧٦] (١) في ظلال نهج البلاغة، الخطبة المذكورة.

[٢٧٧] (٢) سورة النور / ٣٧.

[٢٧٨] (٣) «شريد» من مادة «شرد» بمعنى هروب الناقة، ثم اطلقت على كل من يهرب من قومه.

[٢٧٩] (٤) «ناد» من مادة «ند» بمعنى المنفرد الهارب من الجماعة إلى الوحدة.

[٢٨٠] (٥) «مقموع» من مادة «قمع» بمعنى المقهور والمغلوب، وتعني الاقتلاع أيضاً.

[٢٨١] (٦) «مكعوم» من مادة «كعم»، كعم البعير بمعنى شد فاه، ثم اتسعت لتطلق على كل فم يشد.

[٢٨٢] (٧) «ثكلان» من مادة «ثكل» بمعنى فقد الاحبة، كما وردت بالنسبة للإنسان الذي يعيش العزاء بمعنى الشخص الباكي الحزين.

[٢٨٣] (٨) شرح نهج البلاغة محمد عبده والعلامة الخوئي وابن أبي الحديد.

[٢٨٤] (١) «أخمل» من مادة «خمل» بمعنى أسقط ذكره حتى لم يعد له بين الناس نباهة.

[٢٨٥] (٢) «اجاج» من مادة «أجج» بمعنى الملوحة والمرارة.

[٢٨٦] (٣) «ضامزة» من مادة «ضمز» بمعنى السكوت والتحفظ عن الكلام

[٢٨٧] (٤) شرح نهج البلاغة لابن ميثم، والعلامة الخوئي وفي ظلال نهج البلاغة لمحمد عبده.

[٢٨٨] (١) «حتالة» بالضم: القشاوة وما لا خير فيه، واصله ما يسقط من كل ذي قشر، ومن هنا تطلق الحتالة على حشاشة الدهن

المتساقطة.

[٢٨٩] (٢) «قراضة» من مادة «قرض» بمعنى قطف الشئ وتطلق على القطع الصغيرة المتناثرة من المقراض ومن هنا يطلق المقراض على

المقص.

[٢٩٠] (٣) «جلم» على وزن قلم بمعنى المقراض.

[٢٩١] (١) سورة الدخان / ٢٥ - ٢٩.

[٢٩٢] (٢) «أشغف» من مادة «شغف» بمعنى اكثر تعلق بالدنيا وحبالها. وقد أخذت في الأصل من شغاف وهو الغلاف الذي يضم

القلب، كما تستعمل في العشق الشديد الذي يجتاح القلب وينفذ إلى أعماقه.

[٢٩٣] (١) بحار الانوار / ٧٠ / ١٢٢.

[٢٩٤] (١) منهاج البراعة / ٤ / ٥٨؛ بحار الانوار / ١٤ / ٣٢٨.

[٢٩٥] (١) روى السيد الرضى (ره) هذه الخطبة في موضعين من نهج البلاغة: مرة هنا و أخرى في الخطبة ١٠٤ حيث قال هناك: وقد

مر جانب من هذه الخطبة (إشارة إلى هذه الخطبة ٣٣) وقد ذكرتها ثانية بسبب إختلاف بعض العبارات. قال صاحب مصادر نهج

البلاغة: ومن هنا يتضح مدى إحتياط السيد الرضى في نقل كلمات أمير المؤمنين عليه السلام. ثم قال: يفهم من رواية الشيخ المفيد في

الإرشاد أن الإمام عليه السلام خطبها في الربذة حيث توقف هناك جمع من حجاج بيت الله وقد تجمعوا حين سمعوا بالإمام عليه

السلام ليصغوا إلى كلامه ولم يكن الإمام عليه السلام قد خرج من خيمته. قال ابن عباس دخلت الخيمة فرأيت الإمام عليه السلام

يخصف نعله. فقال: يا بن عباس: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها. قال: قل. قلت: أقل من درهم. قال: والله، لهي أحب إلي من

إمرتكم، إلا- أن أقيم حقاً أو أدفع باطلا- فقلت: لقد إجتمع حجاج بيت الله ليسمعوا ما تقول. هلا- أذنت لي أن أخطبهم؟ قال عليه

السلام: لا أنا أحدثهم. فخرج من الخيمة فخطب بهذه الخطبة (مصادر نهج البلاغة، ١ / ٤٢١ - ٤٢٢).

قال صاحب المستدرک ومدارك نهج البلاغة رواها الشيخ المفيد في كتاب الإرشاد، المستدرک، ص ٢٤٢.

[٢٩٦] (٢) «يخصف» من مادة «خصف» بمعنى وصل الأشياء ورقعها.

- [٢٩٧] (٣) «امرء» على وزن فطرة بمعنى الحكومة.
- [٢٩٨] (١) سورة الانعام / ٩١.
- [٢٩٩] (١) «بوء» بمعنى تعبيد المكان ضد النبوءة بمعنى المرتفع وغير المعبد، وقد وردت هنا بمعنى تنظيم وترتيب موقع الاستقرار.
- [٣٠٠] (٢) «قنات» من مادة «قنو» بمعنى جذع الشجرة، كما تغنى العود والرمح، والمراد بها هنا القوة والغلبة والدولة، وقوله إستقامت قناتهم تمثيل لاستقامة أحوالهم.
- [٣٠١] (٣) «صفات»، حجر مستوى وكبير ومحكم وواسع.
- [٣٠٢] (١) «ساقه» من مادة «سوق» جمع سائق، واصلها سوقه واصحاب ساق بيت الاعلال.
- [٣٠٣] (٢) «حذا فير» جمع حذ فور بمعنى الشريف والجمع الكثير، وقد جاءت هنا بمعنى جميع جوانب الموضوع. وهنا ينبغي الالتفات إلى أن ضمير الهاء في ساقته يعود إلى الناس في عصر الجاهلية الذين إعتنقوا الإسلام، ويمكن أن يكون الضمير في تولت وحذا فيرها عائدا إلى أعداء الإسلام الذين تفهقروا ابان نصر الإسلام، كما يمكن أن يعود إلى أهل الجاهلية الذين أقبلوا على الإسلام.
- [٣٠٤] (١) «أنقب» من مادة «نقب» بمعنى الثقب والشق ويطلق النقب على الآبار تحت الأرض وذلك لأنها تنقب الأرض - ومنه البحث والتنقيب حين تأمل المطالب وإظهار الحقائق والنقيب العالم بحال القوم.
- [٣٠٥] (١) الكامل لابن أثير ١ / ٤٨٢.
- [٣٠٦] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ١٨٧ - ١٨٨ (بتصرف).
- [٣٠٧] (١) سورة المعارج / ١.
- [٣٠٨] (٢) سورة الانفال / ٣.
- [٣٠٩] (١) صحيح الترمذى ٥ / ٦٣٤ (طبعة دار إحياء التراث العربي) كما ورد هذا الحديث في كتاب ينابيع المودة / ٥٩. وورد في كتب أعلام الشيعة ومنها بحار الانوار، ٣٢ / ٣٠٠ وإحقاق الحق، ٦ / ٤٢٥.
- [٣١٠] (١) «مفتونين» من مادة «فتنة» بمعنى الامتحان والابتلاء كما جاءت بمعنى العذاب والخداع والضلال، وقد وردت هنا بمعنى الضلال.
- [٣١١] (١) رواها ابن المغازلي الشافعي في كتاب مناقب أمير المؤمنين وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة والمحقق الكركي في نفحات اللاهوت لاحقاق الحق (٦ / ٤٤٠). وقد قال ابن أبي الحديد في شرحه للرسالة ٦٥ من نهج البلاغة لو فرضنا أن النبي صلى الله عليه وآله لم يوص بعلي عليه السلام - كما تقول الإمامية - ولكن ألا يعلم معاوية وغيره من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال ألف مرة في علي عليه السلام: «أنا حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت» وقال «اللهم عاد من عاداه ووال من والاه» وقال «أنت مع الحق والحق معك» (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨ / ٢٤).
- [٣١٢] (٢) وسائل الشيعة ١١ / الباب ٢٥ من أبواب جهاد العدو، ح ٧، وللوقوف بصورة أعمق راجع كتاب أنوار الفقاهة، كتاب الخمس والانفال / ٧٠.
- [٣١٣] (٣) للوقوف أكثر على هذه الروايات راجع أنوار الفقاهة (كتاب الخمس والانفال) / ٧٥.
- [٣١٤] (١) لم يرد في شروح نهج البلاغة شئ بشأن الأول هل يقابل الثاني، أم أنها إشارة إلى أحد الشعراء الأوائل، أم المراد به اسم شاعر غير معروف. ويبدو الإحتمال الأول أنسب.
- [٣١٥] (٢) «المحض» بمعنى اللين الخالص بلا رغوۃ الذي لم يخالطه ماء، ثم إطلق على كل شئ خالص.
- [٣١٦] (٣) «زبد» من مادة «زبد» بمعنى استخراج شئ من آخر، ومن هنا يطلق الزيد على ما يستخرج من الحليب.

[٣١٧] (٤) «مقشرة» من مادة «قشر» وتطلق على التمرة بعد نزع نواتها.

[٣١٨] (٥) «بجر» على وزن برج من مادة «بجر» بمعنى ظهور السرة، كما وردت بمعنى التهم في الأكل، ويطلق الأجر على صاحب البطن والحريص.

[٣١٩] (٦) «جرد» من مادة «جرد» بمعنى الخيول الصغيرة قليلة الشعر

[٣٢٠] (٧) «سمراء» من مادة «سمر» بمعنى السهرة والسمار تقال لمن يقضى الليل صاحيا لسهرة أو حراسة أو هدف آخر.

[٣٢١] (١) سورة الانعام / ١٢٤.

[٣٢٢] (٢) سورة النساء / ٥٤.

[٣٢٣] (٣) سورة آل عمران / ٢٦.

[٣٢٤] (١) غر الحكم، الرقم ٥٢٤٢

[٣٢٥] (٢) بحار الانوار / ٧٠ / ٢٥٨.

[٣٢٦] (١) رواها الطبري في تاريخه ٥١ / ٦ وابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١ / ١٥٠ والبلاذري في أنساب الاشراف / ٣٨٠، وكذلك

المرحوم الشيخ المفيد في الامالي (المجلس ١٨) بصورة أكثر إختصارا مما وردت في نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة ١ / ٤٢٥) ورواها المرحوم العلامة المجلسي في بحار الانوار عن مطالب السؤل محمد بن طلحة الشافعي (بحار الانوار ٧٤ / ٣٣٣).

[٣٢٧] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ١٩٢.

[٣٢٨] (١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني ٢ / ٧٧ والعلامة الخوئي ٤ / ٧٢.

[٣٢٩] (١) قال الراغب في المفردت «أف» في الأصل تعني كل شئ قذر وهي كلمة تضجر تطلق للمهانة والاستحقار. فمثلاً يقال «أفت بكذا» أي تضجرت منه واستقدرته. وقال البعض «أف» تعني ما يجتمع من الأوساخ تحت الأظافر وقال البعض أن التراب والغبار إذا علق ببدن الإنسان فان نفخه يشبه القول «أوف» أو «أف» ثم استخدمت هذه المفردة بمعنى اظهار التضجر والنفرة ولا سيما من الاشياء الصغيرة. ونخلص مما ذكر ومن بعض القرائن إلى أن هذه المفردة كانت في الاصل إسم صوت.

[٣٣٠] (٢) «سئمت» من مادة «سئم» بمعنى الملل، التي تتعدى أحيانا بحرف من وأحيانا اخرى بدونها، وسئمته وسئمت منه. بمعنى واحد، وعليه سئمت عتابكم بمعنى سئمت من عتابكم.

[٣٣١] (١) نهج البلاغة، الخطبة ٥١.

[٣٣٢] (٢) «غمرة» الواحدة من غمر وهو الستر، وغمرة الموت الشدة التي ينتهي إليها المحتضر، وهي الحالة التي كان يعيشها جيش الكوفة.

[٣٣٣] (٣) «حوار» من مادة «حور» بمعنى الرجوع وتطلق على المحادثة بين الأفراد والتي يصطلح عليها بالمحاوره، وقد وردت بهذا المعنى في العبارة.

[٣٣٤] (٤) «تعمهون» من مادة «عمه» بمعنى تتحIRON وتتردون.

[٣٣٥] (٥) «المألوسة» من مادة «ألس» تعني فقدان العقل، ومن هنا تستعمل حيث الخدعة التي تسلب عقل المقابل، وهي تعني المخلوطة بمس الجنون.

[٣٣٦] (١) «سجيس» من مادة «سجس» بمعنى تغيير لون الماء وتكدره، ومن هنا اطلقت «سجيس الليالي» على ظلمة الليل وكأن اصل الاستعمال ما دامت الليالي بظلامها، وهكذا وردت في العبارة.

[٣٣٧] (٢) «زوافر» جمع زافرة من مادة «زفر» بمعنى التهنيد وهو التنفس بصوت. كما يطلق الزفير على صوت النار، والزافرة بمعنى الأنصار والأقوام والعشيرة.

[٣٣٨] (١) على سبيل المثال راجع نهج البلاغة، الخطبة ١٠٧ و ١١٨

[٣٣٩] (١) لعمر الله، مفهوم هذه العلمة القسم بالعمر ومدة الحياة، ولما لم يكن للعمر من معنى بالنسبة لله فانّ المعنى هنا «قسماً بالله» وقد تقدم شرح هذه العبارة فى الخطبة الرابعة والعشرين.

[٣٤٠] (٢) «سعر» جمع ساعر من مادة «سعر» بمعنى أوقد النار وسعر بمعنى شعله النار، والمراد لئس موقدو الحرب أنتم.

[٣٤١] (١) سورة الحج / ٣٩.

[٣٤٢] (٢) سورة البقرة / ١٩٠.

[٣٤٣] (٣) «تمتعون» من مادة معنى «معض» الابتئاس والغضب.

[٣٤٤] (١) أوردنا شرحاً وافياً فى المجلد الأول ذيل الخطبة رقم ١٠ لعبارة «وآيم الله» التى تفيد مفهوم القسم.

[٣٤٥] (٢) «حمس» من مادة (ح م س) بمعنى إشتد وصلب، والحماسة والتحمس بمعنى التشديد والتشدد ولاسيما فى الحرب ويقال الاحمس للرجل الشجاع الذى يقف بصلابه بوجه العدو.

[٣٤٦] (٣) «الوغي» بمعنى الضجيج والصوت والجلبة فى ميدان القتال، كما يقال لنفس الحرب الوغى، وهكذا وردت فى العبارة.

[٣٤٧] (٤) «إستحر» من مادة «حرر» بمعنى اشتداد الحر، وهو إشارة لا يثار الفرار على الثبات فى المعركة إذا إشتد القتال وبلغ حدته.

[٣٤٨] (٥) يبدو هذا الاحتمال مستبعدا لوجود التقدير فى الجملة، لان العبارة «قد إنفرجتم عن ابن أبى طالب» تتطلب أن يكون تقدير العبارة «إنفراج الرأس» هو «إنفراج الرأس عن الجسد» أو «إنفراج الجسد عن الرأس» كما ورد مثل هذا التعبير فى الخطبة ٩٧ «انفرجتم عن على بن أبى طالب انفراج المرأة عن قبلها».

والعجيب ما اورده شراح نهج البلاغة من تفاسير غريبة لهذه العبارة، حتى ذكروا ثمانية وجوه أو أكثر لانرى ضرورة للخوض فيها.

[٣٤٩] (١) «يعرق» من مادة «عرق» بمعنى فصل اللحم عن العظم، كما ورد بمعنى فصل اللحم عن العظم بالأسنان وأكله.

[٣٥٠] (٢) «يهشم» من مادة «هشم» بمعنى كسر الشى اليابس كما ورد بمعنى كسر مطلق العظام، أو عظام الرأى و الوجه.

[٣٥١] (٣) «يفرى» من مادة «فرى» بمعنيشق الشى و تمزيقه.

[٣٥٢] (٤) «جوانح» جمع «جانحة»، وهى الضلوع تحت الترائب، اصلها من مادة «جنح» بمعنى الميل و الانحراف، و قد اطلقت على الاضلاع لأنها ليست بشكل مستقيم.

[٣٥٣] (١) شرح نهج البلاغة ابن ميثم البحرانى ٢ / ٨١.

[٣٥٤] (٢) فى ظلال نهج البلاغة / ٢٢٨.

[٣٥٥] (٣) مفتاح السعادة ٦ / ٨٢.

[٣٥٦] (١) «قراش» جمع «قراشه» بعنى العظام الرقيقة التى تلى القحف أو عظام الجبهة والرأس، وهام جمع هامة بمعنى الرأس كما تطلق على زعيم القبيلة.

[٣٥٧] (٢) «تطيح» من مادة «طوح» بمعنى الهلاك أو الاشراف على الهلاك. ولما كان فصل اليد والرجل يشكل القضاء عليهم فقد اطلقت بهذا المعنى فى العبارة المذكورة.

[٣٥٨] (١) للوقوف على خطبة الإمام عليه السلام ليلة عاشوراء وما قاله صحبه الاوفياء راجع بحار الانوار ٤٤ / ٣٩٢.

[٣٥٩] (٢) سورة المائدة / ٢٤.

[٣٦٠] (١) سورة المائدة / ٢٥.

[٣٦١] (٢) سورة يونس / ٧١.

[٣٦٢] (١) مفتاح السعادة ٦ / ٨٤ - ٨٥.

- [٣٦٣] (٢) نهج البلاغة، الخطبة ٤٠.
- [٣٦٤] (١) اصول الكافي ١/ ٤٠٥.
- [٣٦٥] (١) وردت هذه الخطبة مع اختلاف طفيف في مروج الذهب للمسعودي والكمال لابن أثير وأنساب الأشراف للبلاذري وتاريخ الطبري والإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري وصفين لنصر بن مزاحم، كما رواها البسط بن الجوزي في تذكرة الخواص وأبوالفرج الإصفهاني في الأغاني (مصادر نهج البلاغة، ١/ ٤٥٩).
- [٣٦٦] (١) «خطب» على وزن ختم العمل المهم بين الإنسان والآخرين ومن هنا يصطلح بالمخاطبة على الحوار الذي يدور بين فرد وآخر.
- [٣٦٧] (٢) «فادح» بمعنى ثقيل ومن هنا يقال أفدحه الدين لمن أثقل كاهله.
- [٣٦٨] (١) «مجرب» على وزن محقق ممن يتمتع بمعرفة عظيمة بفعل كثرة التجارب إلّا أنّ العرب تلفظه مجرب بالفتح على وزن مقرب.
- [٣٦٩] (١) «نخلت» من مادة «نخل» بمعنى تنقية الشئ، واستعمال هذه المفردة في الخطبة تشير إلى الرأي الصائب الذي طرحه الإمام عليه السلام على أصحابه بشأن التحكيم.
- [٣٧٠] (٢) «منابذين» من مادة «نبد» بمعنى الابعاد، وتستعمل هذه المفردة في نقض العهد، وذلك لان نقض العهد إنّما يطرح العهد بعيدا عنه.
- [٣٧١] (٣) «ضن» من مادة «ضنن» بمعنى البخل والامسك.
- [٣٧٢] (٤) «زند» بمعنى الخشب الذي يشعلون به النار (حيث كانوا يولدون النار سابقا بضرب خشبتين ببعضهما، ثم اطلق على كل وسيلة لاشعال النار ومنه الزناد).
- [٣٧٣] (٥) «قدح» ومنه القداحة ما يخرج منه النار.
- [٣٧٤] (١) راجع مروج الذهب ٢/ ٢٩٠ وسترده بعض الايضاحات لهذه الخطبة لاحقاً.
- [٣٧٥] (٢) الاغانى لابي الفرج الاصفهاني ١٠/ ٣، شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئي ٤/ ٨٨، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢/ ٢٠٥.
- [٣٧٦] (١) إقتباس وتلخيص لما ورد في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢/ ٢٠٦ - ٢٥٦.
- [٣٧٧] (٢) سورة الشورى / ٣٨
- [٣٧٨] (٣) سورة آل عمران / ١٥٩.
- [٣٧٩] (١) وردت هذه الخطبة أو بعضها مسنده أو مرسله من قبل المؤرخين والمحدثين.
- م- قال ابن أبي الحديد (٢/ ٢٨٣) نقلها ابن حبيب البغدادي (المتوفى عام ٢٥٤).
- ب- ابن قتيبة الدينوري في الامامة والسياسة، ١/ ١٢٧.
- ج- البلاذري في أنساب الأشراف، ٢/ ٣٧١.
- هـ- الطبري في تاريخ الرسل والملوك، ٦/ ٣٣٧٧.
- [٣٨٠] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢/ ٢٨٣.
- [٣٨١] (٢) «صرعى جمع «صرع» من مادة «صرع» بمعنى طريح، و تعنى الجنازة أو المقتول الملقى على الأرض؛ كما يطلق على من يسقط على الأرض في المصارعة، و من هنا يطلق مرض الصرع على من يغمى عليه و يقع على الأرض.
- [٣٨٢] (٣) «أهضام» جمع هضم وهو المطمئن من الوادي وتعنى الكسر والضغط.
- [٣٨٣] (٤) الغائط ما سفل من الأرض والمراد هنا المنخفضات.

- [٣٨٤] (٥) «طوحت» من مادة «طوح» بمعنى السقوط والهلكة، وإذا ورد من باب التفعيل كما ورد في الخطبة فإنه بمعنى القذف في المتاهة والمضلة.
- [٣٨٥] (٦) «احتبل» من مادة «حبل»، أوقعكم في حباله، والمقدار القدر الإلهي.
- [٣٨٦] (١) «الهام» جمع هامة رأس الإنسان أو سائر الكائنات الحية، وإخفاء الهام تغنى ضعاف الفعل.
- [٣٨٧] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٢٨١ و تاريخ الطبرى ٢ / ٦٠ - ٦١، حوادث عام ٣٧.
- [٣٨٨] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٢٧١ - ٢٨٢.
- [٣٨٩] (١) قال صاحب مصادر نهج البلاغة هذه من الخطب المعروفة التي رواها أغلب العلماء والمحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضى (ره) ومنهم:
- ١- الجاحظ فى البيان والتبيين ١ / ١٧٠.
- ٢- ابن قتيبة الدينورى فى الإمامة والسياسة ١ / ١٥٠.
- ٣- ابن عبد ربه فى العقد الفريد ٤ / ٧١.
- ٤- البلاذرى فى كتاب أنساب الأشراف (فى شرح سيرة على عليه السلام) / ٣٨٠.
- ٥- القاضى نعمان المصرى فى دعائم الإسلام ١ / ٣٩١ (مع اختلاف وما ورد فى النهج وقال الشارح الخوئى يستفاد من بحار الأنوار والإحتجاج والإرشاد أن هذه الخطبة جزء من الخطبة ٢٧) شرح نهج البلاغة، الخوئى ٤ / ٢١.
- [٣٩٠] (١) «تطلعت» من مادة «طلع» بمعنى مد العنق بحثا عن شىء، وأصلها طلوع بمعنى الظهور والبروز.
- [٣٩١] (٢) «تقبعوا» من مادة «قبع» بمعنى الاختباء، وأصله تقبع القنفذ إذا أدخل رأسه فى جلده.
- [٣٩٢] (٣) «تعتعوا» من مادة «عتع» بمعنى تلثم اللسان، والمراد ترددوا فى كلامهم.
- [٣٩٣] (٤) فوت تعنى فقدان الشىء، وتطلق على التفاوت بين شيئين وابتعادهما عن بعضهما بحيث لا يدرك أحدهما الآخر، ومن هنا تطلق هذه المفردة على من يسبق الآخرين، وهذا هو الذى اريد بها فى العبارة.
- [٣٩٤] (٥) «الرهان» من مادة «رهن» بمعنى جعل الشىء عند الآخر، ومن هنا يطلق الرهن على وثيقة الدين، كما يطلق الرهان على جوائز المسابقات، والمراد بقوله «استبددت برهانها» إنفردت بجائزة هذه المسابقة الإلهية.
- [٣٩٥] (١) لم يكن فى مهمز من الهمز يعنى لم يكن فى عيب أعاب به.
- [٣٩٦] (٢) «الغمز» بمعنى الطعن والغماز من يبحث عن العيوب ويطعن بالناس، وهذا هو المراد بالعبارة.
- [٣٩٧] (١) ورد هذا الحديث بعدة تعبيرات فى أغلب مصادر العامة، ومن أراد الوقوف على المزيد فليراجع الغدير ٣ / ٩٧.
- [٣٩٨] (١) لقد أوردنا توضيحات مسهبة بهذا الشأن فى شرح الخطبة الشقشقية.
- [٣٩٩] (١) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.
- [٤٠٠] (١) روضة الكافى / ٦٩ ح ٢٦.
- [٤٠١] (٢) نهج البلاغة، الرسالة ٤٧.
- [٤٠٢] (٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٣٦.
- [٤٠٣] (٤) سورة النساء / ٧٥.
- [٤٠٤] (١) بحار الأنوار ٤٢ / ١٣٣.
- [٤٠٥] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٢٩٦؛ محمد عبده الشارح المعروف والعلامة الخوئى إختاروا هذا المعنى أيضاً.
- [٤٠٦] (١) نقل هذه الخطبة الامدى فى غررالحكم مع إختلاف طفيف وما ورد فى نهج البلاغة، ويفهم من هذا أن الامدى قد روى

هذه الخطبة من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة ١ / ٤٣٥).

[٤٠٧] (١) سمت بمعنى الطريق أو الجادة، كما تطلق مشكل المحسنين، والتسميت هو الدعاء لمن يعطس حيث يسأل الله له السلامة، فالعطسة من علامات السلامة.

[٤٠٨] (٢) سورة البقرة / ٢.

[٤٠٩] (١) سورة يونس / ٦٢-٦٤.

[٤١٠] (٢) سورة النور / ٤٠.

[٤١١] (٣) صحيح البخارى ١٠ / ٦ باب كتاب النبى صلى الله عليه و آله إلى كسرى وقيصر.

[٤١٢] (١) وردت هذه الخطبة فى ثلاثة مصادر على الأقل قبل السيد الرضى وهى: الغارات لابراهيم بن هلال الثقفى (٢٨٣) وأنساب الاشراف للبلادرى الذى أورد بعضها وتاريخ الطبرى الذى روى بعض أقسامها، وكذلك مصادر نهج البلاغة ١ / ٤٣٨.

[٤١٣] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ٤٣٧.

[٤١٤] (١) «تحمش» من مادة «حمش»، قال صاحب المقاييس لها معنيين الغضب والنحافة، وقد وردت هنا بمعنى الغضب؛ أى أليس لكم حمية تغضبكم على عدوكم.

[٤١٥] (٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٢١.

[٤١٦] (٣) «مستصرخ» من مادة «صرخ»، الصراخ حين الخوف أو المصاب وطلب النصرة.

[٤١٧] (٤) «متغوث» من مادة «غوث» بمعنى النصرة حين الشدة، وعليه يطلق المتغوث على من يطلب نصرة الآخرين عند الشدائد.

[٤١٨] (٥) «المساء» مصدر مادة «سوء»، بمعنى فقد ان النعم المادية أو المعنوية الدنيوية أو الاخروية، البدنية أو غير البدنية.

[٤١٩] (١) «جرجرة» صوت يردده البعير فى حنجرتة عند عسفه، وقيل من مادة «الجرر» بمعنى الجر، واطلق الجررتكراره.

[٤٢٠] (٢) «أسر» من مادة «سرر» المصاب بداء السرر، وهو مرض فى كركرة البعير أى زوره ينشأ من الدبرة والقرحة.

[٤٢١] (٣) «النضو» المهزول من الابل، والأدبر المدبور، أى المجروح المصاب بالدبرة، وهى العقر والجرح من القتب ونحوه.

[٤٢٢] (٤) «أدبر» من مادة «دبر» بمعنى الجرح الذى يتعرض له الحيوان إثر ضغط السراج.

[٤٢٣] (٥) جنيد مصغر جند.

[٤٢٤] (٦) «متذائب» بمعنى مضطرب، من قولهم تذاءبت الريح أى اضطرب هبوها ومنه سمي الذئب ذئباً لاضطراب مشيته.

[٤٢٥] (١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

[٤٢٦] (١) سورة الانعام / ٥٧؛ سورة يوسف / ٤٠ و ٦٧.

[٤٢٧] (١) العلامة الخوئى ١٨٣ / ٤ من شرح نهج البلاغة قد أشار إلى هذا المعنى، ويستفاد من التأريخ الكامل لابن أثير أن ابن عباس احتج على الخوارج بهذه الآية (الكامل ٣ / ٣٢٧).

[٤٢٨] (٢) سورة النساء / ٣٥.

[٤٢٩] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٢ / ٣٠٨.

[٤٣٠] (٢) «إمرة» على وزن عبرة مصدر أو إسم مصدر من مادة «أمر»، و«الامرة» هنا بمعنى الحكومة.

[٤٣١] (٣) واضح ان الضمير فى إمرته يعود إلى مطلق الامير سواء البر أو الفاجر وكذلك ضمير فيها، وليس صحيح ما اورده بعض شراح نهج البلاغة من أن الأول يعود إلى البر والثانى إلى الفاجر، أو كلاهما للفاجر.

[٤٣٢] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٢ / ٣١٠.

[٤٣٣] (١) ميزان الحكمة ١ / ٩٨.

[٤٣٤] (١) رواها ابن طلحة الشافعي في مطالب السؤل، صحيح أن ابن طلحة الشافعي عاش بعد السيد الرضى إلاً أن رواية ابن طلحة تفيد أنه عثر عليها في مصدر غير نهج البلاغة. ورواها الجاحظ في رسالة المعاش والمعاد وقال في مطلع الخطبة «الصدق والوفاء تؤمان» وهذا يدل على أنه رآها في المصادر التي صنفت قبل الرضى (لأن الجاحظ عاش أوائل القرن الثالث بينما يعتبر السيد الرضى من كبار علماء أواخر القرن الرابع) مصادر نهج البلاغة ١/ ٤٤٠.

[٤٣٥] (١) «تؤام» من مادة «وئام» بمعنى الموافقة حسبما صرح بعض أرباب اللغة، بينما ذهب البعض كصاحب المقاييس إلى أن التاء أصلية، واتنام (مصدر باب إفعال) بمعنى ولادة أحد مع الآخر من حمل واحد.

[٤٣٦] (١) سورة الأحزاب/ ٢٣.

[٤٣٧] (٢) «جنة» على وزن «غصة» بمعنى الدرع واشتقت في الأصل من مادة جن على وزن فن بمعنى الستر ومنه المجنون، كما تطلق الجنة على البستان كأنه تغطي بالأشجار، ومنه الجنين المغطى برحم الأم وإطلاق الجن على تلك الجماعة لخفائها.

[٤٣٨] (٣) نوادر الرواندى/ ٥.

[٤٣٩] (٤) بحار الأنوار ٩٧/ ٤٦.

[٤٤٠] (١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٠.

[٤٤١] (٢) بحار الأنوار ٧٢/ ١١٤.

[٤٤٢] (٣) غرر الحكم ح ٨٣- ٢.

[٤٤٣] (٤) فروع الكافى ٥/ ١٢٤.

[٤٤٤] (١) - الحول القلب بضم الاول وتشديد الثانى هو البصير بتحويل الامور وتقليبها.

[٤٤٥] (٢) «ينتهب» من مادة «إنتهاز» بمعنى الإقدام على عمل، كما يعنى الاستفادة التامة من الفرصة.

[٤٤٦] (٣) «حريجة» من مادة «حرج» بمعنى التحرج والتحرز من الآثام، ويأتى الحرج أحياناً بمعنى الذنب.

[٤٤٧] (١) كنز العمال ٣/ ١٦ ح ٥٢١٧.

[٤٤٨] (٢) نهج البلاغة، الخطبة ٣.

[٤٤٩] (٣) بحار الأنوار ٤٤/ ٣٢٩.

[٤٥٠] (١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٠، وروى عنه عليه السلام أنه قال: «لولا- التقى- أو لولا- الدين والتقى لكنت أدهى العرب».

شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١/ ٢٨.

[٤٥١] (٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.

[٤٥٢] (٣) تاريخ الطبرى ٣/ ٥٦٩.

[٤٥٣] (٤) سيد المرسلين ٢/ ٤٠٨ تقللاً عن السيرة الحلبية ٣/ ٤٠.

[٤٥٤] (٥) بحار الأنوار ٤٤/ ٣٤٤.

[٤٥٥] (١) سند الخطبة: وردت هذه الخطبة بعدة أسناد. رواها قبل السيد الرضى (ره) نصر بن مزاحم فى كتاب صفين والشيخ المفيد

فى المجالس والمسعودى فى مروج الذهب. وقال نصر بن مزاحم دخل الإمام عليه السلام الكوفة بعد معركة الجمل فأسرع قراء الكوفة وأشرفها لإستقباله. فدخل المسجد وصلى ركعتين ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم خطب الخطبة.

[٤٥٦] (١) بحار الأنوار ٧٤/ ١٨٨ (مع اختلاف طفيف) وبحار الأنوار ٧٠/ ٩٠- ٩١ مع فارق ضئيل جداً.

[٤٥٧] (١) الأنوار النعمانية ٣/ ١١٤.

[٤٥٨] (١) «حذاء» كما ورد فى تفسير السيد الرضى (ره) وشراح نهج البلاغة بمعنى السريع، من مادة حذ على وزن حظ بمعنى القطع،

أو القطع السريع، ثم اطلقت على كل حركة سريعة، وحذا مؤنث إحدًا.

[٤٥٩] (٢) «صباة» بالضم البقية من الماء واللبن فى الإناء، والضمير فى اصطباها وصابها يعود الى الصباة، لأن الإناء مذكر والضمير المؤنث لا يعود اليه.

[٤٦٠] (١) سورة الروم / ٧.

[٤٦١] (٢) سورة الجاثية / ٢٤.

[٤٦٢] (١) سورة القارعة / ٩.

[٤٦٣] (٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٨.

[٤٦٤] (٣) سورة المؤمنون / ٩٩-١٠٠.

[٤٦٥] (٤) سورة الشعراء / ١٠٢.

[٤٦٦] (١) سورة المؤمنون / ٨٤-٨٥.

[٤٦٧] (٢) سورة يونس / ٩١.

[٤٦٨] (٣) «تنبيه الخواطر»، (طبق نقل ميزان الحكمه، ٣ / ٢٣-٢٤ مادة عمل).

[٤٦٩] (١) وردت هذه الخطبة فى كتابين قبل نهج البلاغة، الأول كتاب صفين لنصرين مزاحم والآخر كتاب الإمامة والسياسة مع فارق طفيف. أما القسم الثانى فقد رواه ابن عبد ربه فى العقد الفريد. مصادر نهج البلاغة، ١ / ٤٤٦.

[٤٧٠] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣ / ٧٠-١١٨ بتلخيص.

[٤٧١] (١) إغلاق مصدر من باب إفعال يستعمل عادة فى الأبواب.

[٤٧٢] (١) «اناء» بمعين التثبث والتأنى والصبر.

[٤٧٣] (٢) «أرودوا» من مادة «رود» على وزن فوت بمعنى طلب الشئ بالرفق والمداراة، ومنه الإرادة.

[٤٧٤] (١) نهج البلاغة، الرسالة ٦.

[٤٧٥] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣ / ٧٠-٩١ بتصرف وتلخيص.

[٤٧٦] (١) الكامل لابن أثير ٣ / ١٨٠.

[٤٧٧] (٢) يتفق الفريقان على نزول الآية «وإن جئكم فاسق بنأ فتبينوا» الآية ٦ من سورة الحجرات» كان فى الوليد. بل نقل العلامة المجلسى فى الغدير ٨ / ٢٧٦ الإجماع على ذلك.

[٤٧٨] (١) الغدير ٨ / ٢٤١.

[٤٧٩] (٢) الغدير ٨ / ٢٤١.

[٤٨٠] (٣) نقل هذه القصة أغلب المؤرخين ومنهم البلاذرى فى أنساب الأشراف ٥ / ٢٩.

[٤٨١] (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣ / ٤٣ وتأريخ يعقوبى ٢ / ١٧٠.

[٤٨٢] (٥) شرح نهج البلاغة طبق نهج الحق / ٢٩٧.

[٤٨٣] (١) سند الخطبة: أوردها عدد من المؤرخين ممن عاشوا قبل السيد الرضى فى كتبهم ورووا قصة بنى ناجية، ومنهم الطبرى فى تأريخه المعروف فى وقائع عام ٣٨ هـ وابراهيم بن هلال الثقفى فى كتاب الغارات والبلاذرى فى أنساب الأشراف والمسعودى فى كتاب مروج الذهب. مصادر نهج البلاغة، ١ / ٤٥١.

[٤٨٤] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣ / ١٢٨ بتصرف.

[٤٨٥] (١) «بكته» من مادة «بكت» على وزن بخت بمعنى الضرب بالعصا، كما تعنى التويخ والغلبة على الآخرين عن طريق الاستدلال.

- [٤٨٦] (٢) سورة البقرة / ٢٨٠.
- [٤٨٧] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ / ١٢٨ - ١٥٠ بتصرف.
- [٤٨٨] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ / ١٢٨ - ١٥٠ بتصرف.
- [٤٨٩] (١) سند الخطبة: قال أغلب شراح نهج البلاغة أنّ هذه الخطبة والخطبة رقم ٢٨ كلاهما فصل من خطبة طويلة روى السيد الرضى قسما منها هنا وآخر فى الخطبة المذكورة (كما ترك القسم الثالث) ويفيد هذا الأمر مرة أخرى أنّ السيد الرضى (ره) لم يرد نقل كافة خطب الإمام عليه السلام فى نهج البلاغة، بل كان يلتقط كلامه عليه السلام إلتقاط لأنّ غرضه ذكر فصاحته عليه السلام لا غير. على كل حال نقل هذه الخطبة قبل السيد الرضى (ره) المرحوم الصدوق فى كتاب من لا يحضره الفقيه، والمرحوم الشيخ الطوسى (بعد الرضى) فى مصباح المتهدد. (مصادر نهج البلاغة، ٢ / ١٠ - ١١).
- [٤٩٠] (١) «مقنوط» من مادة «قنوط» على وزن قنوت بمعنى اليأس من الخير والرحمة، والقنوط على وزن بلوطصيغة مبالغة.
- [٤٩١] (٢) سورة الاعراف / ١٥٦.
- [٤٩٢] (٣) سورة يوسف / ٨٧.
- [٤٩٣] (٤) سورة الحجر / ٥٦.
- [٤٩٤] (٥) سورة لقمان / ٢٠.
- [٤٩٥] (١) سورة الزمر / ٥٣.
- [٤٩٦] (٢) فى ظلال نهج البلاغة ١ / ٢٢٦.
- [٤٩٧] (٣) مجمع البيان ذيل تفسر بسم الله الرحمن الرحيم من سورة الفاتحة.
- [٤٩٨] (٤) «إستنكاف» من مادة «نكف» على وزن نظم بمعنى الابعاد، والانتكاف بمعنى الخروج من أرض إلى أخرى، والاستنكاف بمعنى الآباء والاعراض عن الشيء.
- [٤٩٩] (٥) سورة النساء / ١٧٣.
- [٥٠٠] (٦) سورة النحل / ١٨.
- [٥٠١] (١) منى لها الفناء، أى قدر لها لها الفناء. وتطلق على الآمال التى يخطط لها الإنسان فالمراد أن الفناء مقدر فى طبيعة الدنيا.
- [٥٠٢] (٢) «الجللاء» بمعنى الظهور، ومنه الجلاء عن الوطن بمعنى الخروج منه، وكأنّ الإنسان كان مستخفياً وقد ظهر بعد أن خرج من وطنه.
- [٥٠٣] (١) - مادة «الالتباس» إن تعدت بحرف الباء عنت الاختلاط والامتزاج، وإن تعدت بحرف على عنت الاشتباه، ومن هنا يتضح أنّ المراد بالعبارة هنا الاشتباه.
- [٥٠٤] (٢) «البلاغ» بمعنى الوصول إلى الشيء، ومنه البلوغ الذى يصل فيه الإنسان مرحلة خاصة. والمراد بها هنا ما يتبلغ به، أى يقتات به مدة الحياة.
- [٥٠٥] (٣) سورة البقرة / ١٩٧.
- [٥٠٦] (١) الكفاف من مادة كف بمعنى كف اليد، ولما كان الإنسان يبعد الشيء عنه بكفه فقد وردت هذه المفردة بمعنى المنع والسلب، ومنه المكفوف لمن سلب بصره، ويقال للجماعة كافة لأنها تمنع العدو.
- [٥٠٧] (٢) سورة المائدة / ٨٧.
- [٥٠٨] (٣) اصول الكافى ٢ / ١٤٠.
- [٥٠٩] (٤) غرر الحكم، ح ٢٣٤.

- [٥١٠] (٥) غرر الحكم، ح ٢٨٦.
- [٥١١] (٦) نهج البلاغة/ ٣٧١.
- [٥١٢] (١) سند الخطبة رواه بعض المحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضى (ره) ومنهم نصرين مزاحم فى كتاب صفيين، وذكر بعض المؤرخين أن الإمام عليه السلام دعا بهذا الدعاء عند ما وضع رجله فى الركاب وعزم على المسير إلى الشام لقتال معاوية. وقال السيد الرضى وابتداء هذا الكلام مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قفاه أمير المؤمنين على عليه السلام. ورواه أعثم الكوفى فى كتاب الفتوح، ما اورده مع بعض الاضافات القاضى نعمان المصرى فى كتاب دعائم الإسلام، وقال: إن الإمام عليه السلام كان يدعوا بهذا الدعاء عند كل سفر، مصادر نهج البلاغة، ١٢/٢.
- [٥١٣] (١) «وعشاء» من مادة «وعث» على وزن درس تعنى المشقة، وأصله المكان المتعب لكثرة رمله وغوص الأرجل فيه ومن هنا يطلق الوعثة على المرأة المترهلة لأنها لا تستطيع الحركة بسهولة.
- [٥١٤] (٢) «كآبة» بمعنى الإنزعاج وسوء الحال وتصدع البال ومن هنا يقال الكئيب للفرد غير مرتاح البال.
- [٥١٥] (٣) «منقلب» من مادة «قلب» مصدر بمعنى الرجوع، كما يمكن أن تكون إسم مصدر، واسم مكان وزمان، وهى هنا إسم مصدر أنسب منها مصدر.
- [٥١٦] (١) سورة الحديد/ ٤.
- [٥١٧] (٢) سورة البقرة/ ١١٥.
- [٥١٨] (٣) بحار الانوار ٣٠٢/٩٠.
- [٥١٩] (٤) اصول الكافى ٢/٤٦٨ ح ١.
- [٥٢٠] (٥) بحار الانوار ٣٤١/٩٠؛ اصول الكافى ٢/٤٨٦.
- [٥٢١] (٦) سورة الفرقان/ ٧٧.
- [٥٢٢] (١) سورة النمل/ ٦٢.
- [٥٢٣] (١) سورة المؤمنون/ ٢٨-٢٩.
- [٥٢٤] (٢) سورة القصص/ ٢٢.
- [٥٢٥] (٣) سورة القصص/ ٢٤.
- [٥٢٦] (٤) سورة القصص/ ٨٥.
- [٥٢٧] (٥) الوسائل الشيعة ٨/٢٧٥-٢٨١.
- [٥٢٨] (٦) سورة الزخرف/ ١٣-١٤.
- [٥٢٩] (١) سند الخطبة: من جملة من رواها قبل السيد الرضى (ره) ابن الفقيه فى كتاب البلدان، إلا أنه صرح أن أمير المؤمنين عليه السلام خاطب بهذا الكلام أهل البصرة والكوفة ولا يغير ذلك شيئاً. ونقلها بعد السيد الرضى (ره) الزمخشري فى ربيع الأبرار فى باب البلاد والديار. مصادر نهج البلاغة، ١٥/٢.
- [٥٣٠] (١) «أديم» بمعنى ظاهر الشئ وغالباً ما يطلق على الجلد، كما يسمى وجه الأرض ب (أدمه الأرض)، وقيل هذا هو السبب فى تسمية آدم لأنه خلق من أديم الأرض.
- [٥٣١] (٢) «عكاظ» كما ذكرنا سابقاً سوق كانت تقيمها العرب فى العصر الجاهلى قرب مكة فى صحراء بيت نخلة والطائف يجتمعون إليه ليتعاطوا؛ أى يتفاخروا، وكان تفاخرهم قبلى عادة ما يقود إلى الحروب الدامية.
- [٥٣٢] (١) «تعركين» من مادة «عرك» على وزن درك، من عركت القوم الحرب إذا مارستهم حتى أتعبتهم.

[٥٣٣] (٢) «نوازل» جمع نازلة بمعنى الحوادث الشديدة.

[٥٣٤] (٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ / ١٩٨.

[٥٣٥] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ / ١٩٨.

[٥٣٦] (١) سند الخطبة: كما ذكر سابقاً فإن الإمام خطبها بالنخيلة حين تجهز لصفين خارجاً من الكوفة. وقد جاء في كتاب مصادر نهج البلاغة أنه خطبها في الخامس والعشرين من شوال سنة ٣٧ هـ وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة، وأضاف طبقاً لنقل ابن أبي الحديد أنه ذكرها جماعة من أصحاب السير وزاد وفيها، ومنهم نصر بن مزاحم في كتاب صفين (مصادر نهج البلاغة ٢ / ١٦).

[٥٣٧] (١) «وقب» من مادة «وقب» الحفرة في الأرض أو الجبل، ويقال للشئ وقب إذا دخل الحفرة أو الظلام، ومن هنا كان المعنى دخل الليل.

[٥٣٨] (٢) «غسق» يعني شدة الظلمة، ولما كانت الليل يشتد ظلمة كلما اقترب من منتصفه فإن الغسق كناية عن منتصف الليل أيضاً ومن هنا قال المفسرون: «أقم الصلوة لدلوك الشمس إلى غسق الليل» إشارة إلى الصلوات الأربع الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقرآن الفجر صلاة الصبح (سورة الاسراء / ٧٨).

[٥٣٩] (٣) «لاح» من مادة «لوح» بمعنى الظهور والبزوغ. وتستخدم في كل وجود مضيء ويطلق اللوح على الصفيحة البيضاء التي تصنع من الخشب أو الفلز.

[٥٤٠] (٤) «خفق» من مادة «خفق» و«خفوق» بمعنى الغياب والتزلزل والحركة، ومن هنا تستعمل حين يغرب القمر أو الشمس أو كوكب.

[٥٤١] (١) سورة القصص / ٧٣.

[٥٤٢] (٢) سورة الانعام / ٩٧.

[٥٤٣] (٣) سورة النحل / ١٦.

[٥٤٤] (٤) «افضال» من مادة «فضل» بمعنى الإحسان.

[٥٤٥] (٥) المناجاة الخمسة عشر، مناجاة الشاكرين، بحار الانوار ٩١ / ١٤٦.

[٥٤٦] (٦) بحار الانوار ١٣ / ٣٥١ ح ٤١.

[٥٤٧] (١) «مقدمة» بكسر الدال بمعنى المتقدم و بفتح الدال المبعوث مسبقا و تطلق المفردتان على طليعة الجيش يعني الطائفة التي تتحرك أمام العسكر لتطلعه على ما يواجهه من أحداث.

[٥٤٨] (٢) كما ذكرنا سابقاً فإن ملطاط اقتبست من مادة «لط» «لطط» و ميمها زائدة، و تعني هذه المادة الإقتراب و المرافقة، و من هنا يقال «لط» للقادة لأنها ترافق العنق دائما، كما يقال الملطاط لشاطئ النهر و البحر، بينما أعتبرها البعض الآخر من أرباب اللغة من مادة «ملط» على وزن «شرط» و ليس هناك من فارق مع سابقتها من حيث المعنى و إن تفاوت اللفظ.

[٥٤٩] (٣) «نطفة» الماء الصافي القليل أم الكثير، ويطلق أحيانا بمعنى كل ماء جار و مائع سيال.

[٥٥٠] (٤) «شرذمة» تعني في الأصل الجماعة القليلة و ما يتبقى من الشئ، و يقال الشرذمة لما يفصل عن الثمرة.

[٥٥١] (٥) «أكناف» جمع «كنف» على وزن «هدف» بمعنى أطراف الشئ، و حيث تكون أطراف الأشياء سببا لستر الاقسام الباطنية فانه يقال «الكنيف» للجدران الأربعة التي يستتر فيها الإنسان، و كذلك يطلق على الواقي و الدرع الذي يحفظ الإنسان من ضربات الأعداء.

[٥٥٢] (١) سورة الدخان / ٢٥ - ٢٩.

[٥٥٣] (١) وردت هذه القضايا التاريخية في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ / ٢٨٨.

- [٥٥٤] (١) سند الخطبة: رواها جمع ممن عاش بعد السيد الرضى (ره) ومنهم العلامة المجلسى فى روضة البحار وعلى بن محمد بن شاكرا الواسطى فى كتاب عيون الحكم والمواعظ (مصادر نهج البلاغة، ١٨ / ٢).
- [٥٥٥] (١) «بطن» من مادة «بطن» على وزن متن تستعمل للأشياء الخفية، ويقال بطنت الأمر بمعنى علمت ببواطنه وأسراره. ولما كان داخل البطن خفى فقد استعملت هذه المفردة بشأن كل شىء خفى، وباطن الأشياء بمعنى داخلها، وله معنى الفعل اللازم والمتعدى.
- [٥٥٦] (١) سورة الانعام / ١٠٣.
- [٥٥٧] (٢) سورة الاعراف / ١٤٣.
- [٥٥٨] (٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.
- [٥٥٩] (١) الاستعلاء قد يكون بمعنى الافضلية وارىد بها هنا هذا المعنى.
- [٥٦٠] (٢) سورة النور / ٣٥.
- [٥٦١] (١) للوقوف على المزيد بهذا الشأن راجع المجلد الأول من الشرح، الخطبة الاولى.
- [٥٦٢] (٢) «جحد» و«جحد» بمعنى الإنكار الممزوج بالعلم - وقال الراغب فى المفردات تعنى نفى ما ثبت فى القلب، أو إثبات ما نفاه القلب - وعليه ففى مفهوم الجحد نوع من التعصب والعداء الخفى ضد الحق.
- [٥٦٣] (٣) سورة العنكبوت / ٦١ - ٦٣.
- [٥٦٤] (١) وردت هذه الأشعار فى حواشى «شرح الباب الحادى عشر» فى الصفحة الأولى من قول ابن أبى الحديد.
- [٥٦٥] (١) سند الخطبة: نقل هذه الخطبة عدد ممن عاش قبل السيد الرضى (ره)، كالمرحوم الكلينى فى الكافى فى باب البدع والرأى والمقاييس (١ / ٥٤) وأحمد بن محمد بن خالد البرقى فى كتاب المحاسن (١ / ٢٠٨) واليعقوبى فى تأريخه (٢ / ١٣٦) وابوجبان التوحيدى فى البصائر والذخائر / ٣٢، وآخرون ممن عاشوا بعد الرضى ولا حاجة لذكرهم. مصادر نهج البلاغة ١٩ / ٢.
- [٥٦٦] (١) «بتدع» من مادة «بدعة» بمعنى حديثه الظهور، وتستعمل بشأن الاحكام المخالفة لكتاب الله والسنة النبوية.
- [٥٦٧] (١) راجع كتاب الغدير / ١٠.
- [٥٦٨] (٢) «يتولى» من مادة «تولى» بمعنى الاتباع. وتأتى أحيانا بمعنى الإقتراب والسيطرة على المقام والمنصب إلا أن المراد هنا المعنى الأول.
- [٥٦٩] (٣) «مرتابين» من مادة «ارتباد»، الطالبين للحقيقة.
- [٥٧٠] (٤) «ضغث» على وزن حرص قبضة من حشيش مختلط فيها الرطب باليابس، كما يطلق الضغث على الاحلام المزعجة، وقد وردت فى العبارة بمعنى بعض من الشىء.
- [٥٧١] (١) العبارة إقتباس من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ» التى وردت بعد الحديث عن جهنم، فى اشارة إلى أن هذه الطائفة ناجية من النار، ولما كانت فتن الدنيا هى جهنمها، فقد استثنى عليه السلام هذه الطائفة من هذه الفتن.
- [٥٧٢] (١) سورة القصص / ٣.
- [٥٧٣] (١) لقد نقل هذه الخطبة «نصر بن مزاحم» فى كتاب صفين عن جابر عن أمير المؤمنين على عليه السلام (مع بعض الفوارق الطفيفة) (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٠).
- [٥٧٤] (١) «محلة» تستعمل بمعنى المكانة والمنزلة الاجتماعية.
- [٥٧٥] (٢) «رووا» من مادة «التروية» بمعنى الارتواء من الماء، ولهذا يصطلح على اليوم الثامن من شهر ذى الحجة ب«يوم التروية» حيث كان الحجيج فى السابق يتزودون بالماء حين الذهاب إلى عرفه ومنى والمشعر الحرام، كما قد تستعمل هذه المفردة ويراد بها

المعنى الكنائى كإرواء السيوف الذى ورد فى هذه الخطبة.

[٥٧٦] (٣) بحار الأنوار ٧/٤٥.

[٥٧٧] (١) ارشاد المفيد ٢/ ٨١. طبعة آل البيت.

[٥٧٨] (٢) سورة التوبة/ ٥٢.

[٥٧٩] (٣) «لمه» من مادة «لمى يلمو لموا» بمعنى أخذ الشىء بأكمله و (لمه) بضم اللام وفتح الميم بدون التشديد» بمعنى الجماعة القليلة، (غواة) جمع غاوى بمعنى الضال، والعمس بمعنى محو الأثر وعدم العلم بالشىء، ومن هنا أطلق العميس على الظلام الدامس، فيقال ليل عماس؛ أى مظلم.

[٥٨٠] (١) «أبأة» جمع أبى بمعنى الرفض والامتناع والضيم بمعنى الظلم، وهو ما يطلق على أولئك الذين لا يستسلمون للظلم والجور.

[٥٨١] (٢) سورة المنافقون/ ٨.

[٥٨٢] (٣) الكافي ٥/ ٦٣.

[٥٨٣] (٤) بحار الأنوار ٤٤/ ١٩٢.

[٥٨٤] (٥) بحار الأنوار ٤٥/ ٨٣.

[٥٨٥] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣/ ٢٦٣.

[٥٨٦] (٢) بحار الأنوار ٤٤/ ٣٩١.

[٥٨٧] (١) سورة طه/ ٦٣.

[٥٨٨] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣/ ٣٣٠.

[٥٨٩] (١) سند الخطبة: روى أن الإمام عليه السلام خطبها فى عيد الأضحى وباديتها «الله أكبر الله أكبر لا اله إلا الله والله أكبر والله الحمد الحمد لله على ما هدانا...» ورواها المرحوم الصدوق (ره) فى كتابه من لا يحضره الفقيه ١/ ٢٢٩ والشيخ الطوسى (ره) فى كتاب المصباح/ ٢٦١ وقال: نقل أبو مخنف عن عبدالرحمن بن جندب عن أبيه أن علياً عليه السلام خطب الناس فى الأضحى وقد أورد السيد الرضى (ره) بعضها فى نهج البلاغة، كما روى الشيخ المفيد قسماً منها فى المجلس العشرين من الامالى. مصادر نهج البلاغة ٢/ ٢٢ وقد مضى شبيه هذا المضمون فى الخطبة ٢٨.

[٥٩٠] (١) «تصرمت» من مادة «صرم» بمعنى انقطعت وفنيت، ومن هنا يطلق الصارم على السيف القاطع، وتصرم الدنيا يعنى انقطاع أجلها.

[٥٩١] (٢) «آذنت» من مادة إيدان أعلمت وأخبرت.

[٥٩٢] (١) «حذاء» من مادة «حذ» على وزن حظ بمعنى السريعة الذهاب، ومن هنا يطلق الحذاء على الدابة السريعة، والمراد هنا سرعة أجل الدنيا.

[٥٩٣] (٢) «تحفز» من مادة «حفز» على وزن حبس بمعنى تعجلهم وتسوقهم، وقد ورد فى الحديث الشريف أن حفز الموت من علامات القيامة. قيل وما حفز الموت. قال صلى الله عليه وآله: موت الفجأة (لسان العرب).

[٥٩٤] (٣) «مر» على وزن «شر» بمعنى المضى والعبور ومر على وزن حر ضد الحلو، وأمر» من مادة «مر» بمعنى مضى الزمان يجعل حلاوة الدنيا مرارة.

[٥٩٥] (٤) «سملة» من مادة «سمل» على وزن حمل بمعنى البقية من الماء تبقى فى الإناء، ومن هنا كان الاسمال بمعنى الإصلاح لأنه يزيل ما بقى من الأحقاد والأضغان.

[٥٩٦] (٥) «إدواة» على وزن إدارة القرية الصغيرة من الجلد.

[٥٩٧] (٦) «تمزز» من مادة «مز» على وزن حز بمعنى التذوق والامتصاص والأكل وقال صاحب مقاييس اللغة امتصاص الماء تدريجياً وببطئ.

[٥٩٨] (١) «أزمعوا» من مادة «زمع» بمعنى العزم على الشيء، ولذلك قيل ان هذه المفردة قلبت من عزم أى نقلت فيها حرفى الزاء والميم من مكان إلى آخر، وقيل كانت فى الأصل جمع ثم بدلت إلى زاء، والمفردات الثلاث (عزم وزمع وجمع) بمعنى واحد وهو التصميم والعزم على الشى.

[٥٩٩] (٢) «أمد» على وزن صمد أجل الشى وتأتى بمعنى الغضب، لأن صبر الإنسان ينفد حين الغضب.

[٦٠٠] (٣) سورة الحديد / ١٦.

[٦٠١] (١) بحار الانوار، ٥٠ / ٢١١.

[٦٠٢] (١) «حنين» بمعنى الشفقة والرأفة والرحمة وتقال عادة مقترنة بالألم، و«استن حنانة» تطلق على العمود الخشبي الذى ورد فى الرواية أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يستند إليه ويخطب الناس، ثم استبدل بالمنبر فكان ذلك العمود يتأوه لفراق النبي صلى الله عليه وآله.

[٦٠٣] (٢) «وله» جمع «واله» و«والهة» من مادة «وله» على وزن ولع بمعنى شدة الهم الذى يذهب بالعقل ويفقد التمييز.

[٦٠٤] (٣) «عجال» جمع «عجول» من مادة «عجلة» بمعنى السرعة فى العمل، كما تطلق على المرأة التى تشكل بولدها.

[٦٠٥] (١) «هديل» يطلق على الحمام كما يطلق أحياناً على نوحه وهو من الهدل على وزن العدل بمعنى الصوت العذب.

[٦٠٦] (٢) جوار له معنى مصدرى وهو الصوت المرتفع المشوب بالتضرع والتجدة.

[٦٠٧] (٣) متبتل من مادة تبتل بمعنى الانفصال والإعتزال وتطلق على الرهبان الذين يعتزلون المجتمع وينهمكون بالعبادة. ومن ألقاب الزهراء عليها السلام التبتل لأنقطاعها إلى الله وأفضليتها على سائر النساء فى الفضل والعلم والمعرفة. وورد فى بعض الروايات أن التبتل هو رفع اليد بالدعا.

[٦٠٨] (٤) «رهبان» جمع «راهب» من مادة «رهب» على وزن رحم بمعنى الخوف، الخوف مع ضبط النفس والرهبانية تعنى شدة العبودية وترك الدنيا، وهى بدعة ابتدعتها طائفة من النصارى حيث يقاطع الفتى او الفتاة الزواج ويقع فى زاوية من الدير وينهمك بالعبادة، وقد ورد النهى عنها فى الاسلام، فقد قال صلى الله عليه وآله: «لا رهبانية فى الاسلام».

[٦٠٩] (٥) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

[٦١٠] (١) «انمياث» من مادة «موث» على وزن موت بمعنى الذوبان، وانمياث من باب الانفعال، ويعنى فى العبارة بذل قصارى الجهد فى سبيل الله.

[٦١١] (١) بيت الشعر إقتباس من حديث عن الإمام السجاد والصادق عليهما السلام، بحار الانوار، ١٣ / ٣٥١ المناجاة الخمسة عشر مناجاة الشاكرين.

[٦١٢] (٢) سورة الحجرات / ١٧.

[٦١٣] (١) سند الخطبة: ورد فى كتاب مصادر نهج البلاغة أن هذه ليست خطبة مستقلة (بل هى جزء من الخطبة السابقة التى خطبها فى الأضحى) ومن هنا عدتها نسخة ابن أبى الحديد التى تعتبر أصح النسخ جزءاً من الخطبة السابقة، اما أنها وردت مستقلة فى سائر النسخ فهذا من خطأ الرواة، والشاهد على ذلك أنها وردت جزءاً من الخطبة فى كتاب من لا يحضره الفقيه (١ / ٤٦١) ومصباح المتجهد / ٤٢٩. جدير ذكره أن العبارة التى وردت فى كتاب من لا يحضره الفقيه بعد «تجر رجلها إلى المنسك» «فلا تجزى» الذى يغير العبارة تماماً. ولا يبدو ذلك مستبعداً، وان درجنا على السير فى نهج البلاغة حسب تصنيف صبحى الصالح. مصادر نهج البلاغة، ٢ / ٢٣.

[٦١٤] (٢) «الاضحية»: الشاة التى طلب الشارع ذبحها بعد شروق الشمس من عيد الأضحى.

- [١١٥] (٣) «إستشراف» من مادة «شرف» بمعنى علو المقام، والمراد باستشراف الاذان تفقدها حتى لا تكون مجدوعة أو مشقوقة غير سالمة.
- [١١٦] (١) «عضباء» من مادة «عضب» على وزن عزم بمعنى القطع أو الكسر، وعضباء القرن بمعنى مكسورة القرن، كما يطلق على الناقة إذا شقوا اذنها ناقةً عضباء.
- [١١٧] (٢) وردت العبارة «فلا تجزى» فى كتاب من لا يحضره الفقيه ١/ ١٦٨ باب صلاة العيدين، ح ١٤٨٧.
- [١١٨] (٣) سورة الحج / ٣٦.
- [١١٩] (١) سند الخطبة: يرى صاحب مصادر نهج البلاغة أن هذا الكلام جزء من الخطبة ٢٦ و ٣٠ و ٥٤ و ٧٨، خطبها عليه السلام فى بيته بحضور الناس ليدونوها وينقلوها إلى الآخرين. وقال فى ذيل الخطبة ٢٦ رواها قبل السيد الرضى (ره) الثقفى فى الغارات والطبرى فى المسترشد والمرحوم الكلينى فى الرسائل نقلًا عن كشف المحجة للسيد ابن طاووس وابن قتيبة فى الإمامة والسياسة (مصادر نهج البلاغة ١/ ٣٩٠).
- [١٢٠] (٢) منهاج البراعة ٤/ ٣٢٦؛ شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانى ٢/ ١٤٤.
- [١٢١] (١) «تداكوا» من مادة «دك» على وزن فكك، قال الراغب فى المفردات أنها تعنى الأرض المستوية الرخوة، بينما صرحت سائر كتب اللغة بعكس ذلك وان الدك يعنى الضرب. ومعنى العبارة فى الخطبة أنهم تراحموا عليه ليايعوه رغبة فيه.
- [١٢٢] (٢) «هيم» جمع «أهيم» و«هيماء» صفة مشبهة بمعنى شدة العطش التى تجعل الحيوان أو الإنسان يروح ويجيى، ويقال الهيمان للعاشق. والهيم العطاش من الابل.
- [١٢٣] (٣) «ورد» اسم مصدر بمعنى الورد، وقيل مصدر كأكيد لمعنى الفاعلية، وتعنى الجمع أيضاً. يوم وردها يوم سشربها للماء.
- [١٢٤] (٤) «مثنى» جمع مثناء بالفتح ومثناء بالكسر وهو حبل من صوف أو شعر يعقل به البعير. وهى فى الأصل من مادة ثنى بمعنى التكرار واعادة جزء من الشى إلى الآخر.
- [١٢٥] (١) من أراد المزيد يمكنه مراجعة الخطبة الشقشقية.
- [١٢٦] (١) سورة الانفال / ٣٩.
- [١٢٧] (٢) سورة الحجرات / ٩.
- [١٢٨] (١) سند الخطبة: لم يشر صاحب مصادر نهج البلاغة إلى سند خاص لهذه الخطبة، إلّا أن لابن أبى الحديد فصل ذيل هذه الخطبة تحت عنوان من أخبار يوم صفين يفيد أن ما أورده هنا السيد الرضى (ره) بمعنى آخر ينسجم وما جاء فى التواريخ.
- [١٢٩] (١) هنالك احتمال بشأن إعراب هذه الجملة: أحدهما أن كل منصوبه على أنها مفعول لفعل تقديره «أفعل كل ذلك»، والآخر انها مرفوعة كمبتدأ وتقدير الجملة «أكل ذلك ناشئ من كراهية الموت». على كل حال فإن الجملة «كراهية المت» مفعول لأجله.
- [١٣٠] (١) «تعشو» فى الأصل من مادة «عشو» على وزن ضرب بمعنى الظلمة وعدم وضوح الشىء ومنه صلاة العشاء لأنها أول الظلمة وعشى بمعنى آخر اليوم الذى يظلم فيه الجو تدريجيا ويقال الأعشى لضعيف البصر.
- [١٣١] (٢) «تبوء» من مادة «بوء» على وزن نوع بمعنى الرجوع والعودة وقيل أصلها يعنى الصافى والمسطح وارىد بها هنا الرجوع.
- [١٣٢] (١) سند الخطبة: نقل ابن أبى الحديد هذا الكلام عن الواقدى ابن هلال قبل المرحوم السيد الرضى (ره) ورواها الزمخشرى فى ربيع الأبرار فى الجزء الرابع من باب القتل والشهادة. وأضاف صاحب مصادر نهج البلاغة بعد ما اورد هذا الكلام انه من كلامه المعروف فى مصادر العلماء السابقين وبعد السيد الرضى (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٢٩).
- [١٣٣] (١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٢/ ١٤٦.

- [٦٣٤] (٢) سورة التوبة / ٢٤.
- [٦٣٥] (٣) «لقم»: قال بعض أرباب اللغة وشراح نهج البلاغة تعنى معظم الطريق أو جادته، واصلها من اللقم على وزن العفو بمعنى السرعة فى الأكل.
- [٦٣٦] (٤) «مضض» على وزن «مرض» بمعنى تجذر الهم فى القلب مع الحرقة.
- [٦٣٧] (٥) التصاول من صول على وزن قول أن يحمل كل واحد من الندين على الآخر.
- [٦٣٨] (٦) «تخالس» من مادة «خلس» على وزن درس كل واحد منها يطلب اختلاس روح الآخر.
- [٦٣٩] (١) «كبت» على وزن ثبت بمعنى الاذلال.
- [٦٤٠] (٢) جران البعير مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره، القاء الجران كناية عن التمكن، فالعبارة كناية عن إتساع رقعة الإسلام ونصر المسلمين واستقرار الإسلام فى مختلف بقاع العالم.
- [٦٤١] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣٤ / ٤ باختصار شديد.
- [٦٤٢] (١) سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة لقد روى هذا الكلام عن أمير المؤمنين عليه السلام كراراً من المحدثين قبل السيد الرضى (ره). وروى إبراهيم الثقفى فى كتاب الغارات عن الإمام الباقر عليه السلام أن الإمام عليه السلام صعد منبر الكوفة فقال: «سيعرض عليكم سبى ...» كما روى هذا الكلام الكلينى فى الكافى والبلادى فى أنساب الاشراف والحاكم فى المستدرک وشيخ الطائفة الطوسى فى الامالى (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٣٣).
- [٦٤٣] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٥٤ / ٤.
- [٦٤٤] (٣) مصادر نهج البلاغة، ذيل الخطبة.
- [٦٤٥] (١) «بلعوم» على وزن «حلقوم» موضع مرور الطعام، ورحب البلعوم واسعه، أو كناية لكثرة أكله.
- [٦٤٦] (٢) «مندحق» من مادة «دحق» على وزن قطع بمعنى الدفع والابعاد وطرح الشى بعيداً، ولما كان كبر البطن يؤدى الى بروزها وكأنها تطرح بعضها خارجاً اطلق على الشخص البطن مندحق البطن.
- [٦٤٧] (١) رواه الحاكم فى كتاب مستدرک الصحيحين ١ / ١٢١ طبعه حيدر آباد.
- [٦٤٨] (٢) بحار الانوار ٤٥ / ١٣٧.
- [٦٤٩] (٣) الغدير ١٠ / ٢٦٤.
- [٦٥٠] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١١٥ / ٤.
- [٦٥١] (١) إحقاق الحق ٦ / ٤٤٠ - ٤٤١.
- [٦٥٢] (٢) روى هذا للاحديث المرحوم العلامة الأمينى فى كتاب الغدير عن علماء السنة مثل محب الدين الطبرى فى الرياض والشافعى فى الكفاية والحموى فى الفرائد وابن صباغ المالكى فى الفصول المهمة (الغدير ٢ / ٣٠٠) وللقوف أكثر راجع مصادر هذا الحديث فى المجلد السابع من احقاق الحق ٧ / ٢؛ ١٦ / ٤٢٣.
- [٦٥٣] (١) نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١٨ / ٢٤.
- [٦٥٤] (١) سورة الاعمران / ٢٨.
- [٦٥٥] (١) - أجمع مفسرون الفريقين أن هذه الآية نزلت فى عمار، وصحيح أن عمار اجبر على الكفر إلا أنه تظاهراً به تكلم من خلال الاعتقاد بذلك وأنه رجع عن دين محمد ليركوه ويحفظ دمه.
- [٦٥٦] (٢) سورة النحل / ١٠٦.
- [٦٥٧] (٣) سورة غافر / ٢٨.

[٦٥٨] (١) سند الخطبة: اورد بعض هذه الخطبة قبل السيد الرضى (ره) ابن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة وابن الجوزى في تذكرة الخواص والطبرى فى المسترشد، كما نقل ابن أثير فى كتاب النهاية عدة احتمالات وردت بشأن بعض مفردات الخطبة وهذا يشير أنه حصل عليها من عدة نسخ (مصادر نهج البلاغة، ٢/ ٣٦).

[٦٥٩] (١) «أبووا» من مادة «أوب» على وزن قوم بمعنى الرجوع، كما تطلق هذه المفردة على السحاب والرياح بسبب الرجوع فيها.

[٦٦٠] (٢) أعقاب جمع عقب بمعنى كعب الرجل، كما تطلق على الأثر الذى يتركه على الأرض، وهى هنا كناية عن الأجيال السابقة.

[٦٦١] (١) سيأتى سند هذا الكلام ذيل الخطبة رقم ٦٠ فهى تشير إلى نفس الموضوع.

[٦٦٢] (٢) سورة آل عمران / ٤٩.

[٦٦٣] (١) سند الخطبة: قال صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة بعد أن جمع الخطبة ٥٩ و ٦٠ بشأن هذا الكلام رواه المبرد فى الكامل (

والمبرد من علماء القرن الثالث الهجرى) ونقل بعضه البيهقى فى المحاسن والمساوى والمسعودى فى مروج الذهب ثم مدح ابن أبى الحديد فى انه قال: هذا من الأخبار المشهورة القريبة من التواتر ومن معجزاته الغيبية عليه السلام. مصادر نهج البلاغة، ٢/ ٣٧.

[٦٦٤] (٢) «قرارات» من مادة «قرار»، وقرارت النساء أرحامهن حيث تعتقد النطفة لمدة فى الرحم فتقر هناك، وقال القرآن «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فى قَرَارٍ مَكِينٍ»، سورة المؤمنون / ١٣.

[٦٦٥] (١) «نجم» من مادة «نجم» على وزن حجم بمعنى الطلوع، كما يطلق على كل ظهور وطلوع مفاجىء.

[٦٦٦] (٢) سورة التوبة / ٥٨.

[٦٦٧] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٢/ ٢٦٧.

[٦٦٨] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٥/ ٧٣-٧٦.

الجزء الثالث

الخطبة [١] الحادية والستون

إشارة

وقال عليه السلام

«لَا تَقَاتِلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ».

الشرح والتفسير

الفارق بين الخوارج وأهل الشام

تعرضت بعض الخطب السابقة للخوارج، فقد أشارت بعضها إلى الأمور المهمة فى سيرتهم ومواقفهم وما آل إليه مصيرهم. ويتضمن كلامه عليه السلام هنا الإشارة إلى الاسلوب الذى يتم من خلاله التعامل مع الخوارج بعده عليه السلام فيقول «لا تقاتلوا الخوارج بعدى»

. استناداً إلى صراعه المرير عليه السلام الذى خاضه ضد الخوارج، ولا سيما فى النهروان التى وجه فيها ضرباته الماحقة إلى فلولهم، وكونهم يشكلون أعدى أعداء الإسلام حتى قتل على يدهم، فإن مثل هذا الكلام يبدو مستغرباً فى عدم التعرض لهم ومقاتلتهم، إلا أن الإمام عليه السلام يقدم دليلاً بهذا الشأن فيقول «فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»

وقد صرح السيد الرضى (ره) بأن مراد الإمام عليه السلام

«يعنى معاوية وأصحابه»

. فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أراد أن يجنب أصحابه فتح جبهتين وأن يكرسوا قوتهم تجاه عدو واحد كان يتمثل آنذاك بمعاوية

وحزب بنى أمية المقيت ورهطهم وأعوانهم من أهل الشام. فمما لاشك فيه أن أصحاب الإمام عليه السلام لن

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٦

يصبحوا بعده كما لو كان عليه السلام بينهم، أضف إلى ذلك، ليس لديهم القدرة على التحرك ضمن جبهتين، ومن هنا أوصاهم بلم الشمل وتعبئة قواهم وطاقتهم ضد عدو واحد. ولا سيما أن الخوارج كانوا من الناقمين على حكومة معاوية، ولعلمهم يقفون إلى جانب المؤمنين فى قتالهم لأهل الشام. وناهيك عما سبق فإن الخوارج كانوا فى مركز حكومة أمير المؤمنين عليه السلام ويشكلون جزءا من الجبهة الداخلية، وعليه فقد كاسعهم زعزعة هذه الجبهة وتصديق الحالة الأمنية دون أدنى عناء؛ الأمر الذى دفع بالإمام عليه السلام لأن يوصى بالكف عن مقاتلتهم بعده. وهكذا يتضح الرد على ذلك التساؤل المعروف الذى عجز البعض من شرّاح نهج البلاغة عن الرد عليه. فقد أثاروا هذا السؤال: لم قاتل الإمام عليه السلام الخوارج بنفسه بينما نهى أصحابه عن مقاتلتهم بعده؟ لم شهر سيفه بوجههم بينما نصح أصحابه بغمد السيوف وعدم التعرض لهم؟

ونقول فى الجواب على هذا السؤال أن الظروف التى كانت سائدة على عهد الإمام عليه السلام تختلف كلياً عنها بعده عليه السلام، والقائد الحكيم ينبغى أن يأخذ بنظر الاعتبار هذه الظروف كل يوم، بل كل ساعة فلا يعيش الجمود ويكتفى بأسلوب واحد فى المجابهة والصراع.

وبغض النظر عما تقدم فإن الإمام عليه السلام ينكر السبب الذى يقف وراء هذا الأسلوب فى المجابهة فيقول «فإن من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأدركه». فهناك فارق واضح بين الفريقين؛ فالخوارج حفنة من الجهال ظنت أنها خرجت من أجل الحق، إلا أن تعصبها وجهلها إنتهى بها إلى الحيرة والضلال، أما معاوية ورهطه فأنهم يتجهون عن علم نحو الباطل. وبناءً على هذا فماذا يسع الإنسان أن يقاتل من هذين الفريقين إذا كان لا بد له من القتال ويتعذر عليه عملياً مواجهة الفريقين؟

قطعا سيرجح قتال الفريق الثانى، فاذا فرغ منه وتمكن من دحره، آنذاك سيقف بوجه الفريق الأول. ولعل الحديث الذى نقله المبرد فى الكامل يشير إلى هذا المعنى من أن قتال معاوية وأهل الشام كان أولى من قتال الخوارج، فقد جاء فى الحديث أن الخوارج قاموا على معاوية بعد شهادة أمير المؤمنين على عليه السلام حين كان فى الكوفة، فبعث معاوية برسوله إلى الإمام الحسن عليه السلام فى الكوفة- وهم بالخروج إلى المدينة- لأن يتصدى للخوارج، فأجابه عليه السلام بأنه كف عن قتاله حقناً لدماء المسلمين، فهل يقاتل الخوارج نيابة عنه وهو يرى أنه أحق منهم بالقتل. [٢]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٧

الجدير بالذكر أن الخوارج قد ارتكبوا أعظم جناية عرفها العالم الإسلامى والتى تمثلت بقتلهم لعلى عليه السلام؛ الأمر الذى أخبر عنه الإمام عليه السلام فى عصره، مع ذلك لم يفكر الإمام عليه السلام فى الثأر منهم، بل نهى من بعده حتى عن قتالهم، وهذا نموذج آخر من نماذج ذروة عدالته التى لا يرى مثلها فى تاريخ القادة والزعماء. وأخيراً نقول أن وصية الإمام عليه السلام نافذة مادام الخوارج لم يمارسوا علياتهم الإجرامية فى البلاد الإسلامية؛ وإلا فاذا ارتكبوا مثل هذه الأعمال كان لا بد من معاملتهم على أنهم محاربون مفسدون فى الأرض.

تأملان

لاشك أن الخوارج - وبالاستناد إلى ممارستهم وصفاتهم آنفه الذكر وما ذكره المؤرخون عن عقائدهم وآرائهم - فرقه ضاله ومنحرفه تشكل خطراً جدياً على الإسلام، إلا أن الإمام عليه السلام وعلى ضوء هذه الخطبة يرى في معاوية ورهطه أنهم أضل من تلك الفرقة سيلاً، ثم يوصي أصحابه بأن الأولوية في القتال إنما تتجه صوب معاوية وأهل الشام لا الخوارج. وقد علق ابن أبي الحديد على هذا الأمر فقال: وقد طعن كثير من أصحابنا في دين معاوية، ولم يقتصروا على تفسيقه، وقالوا عنه إنه كان ملجداً لا يعتقد النبوة، ونقلوا عنه في فلتات كلامه وسقطات ألفاظه ما يدل على ذلك.

وروى الزبير بن بكار في "الموفقيات" - وهو غير متهم على معاوية، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله من مجانبه على عليه السلام، والانحراف عنه:-

قال المطرف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي علي معاوية، وكان أبي يأتيه، فيتحدث معه، ثم ينصرف إلي فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة، فأمسك عن العشاء، ورأيت مغتماً فانتظرت ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال يا بني، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به: إنك قد بلغت سناً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإنك قد

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٨

كبرت؛ ولو نظرت إلى إختك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه؛ فقال: هيهات هيهات! أي ذكر أرجو بقاءه! ملك أخو تيم عدل، وفعل مافعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره؛ إلا أن يقول قائل: أبوبكر؛ ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمّر عشر سنين؛ فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره؛ إلا أن يقول قائل: عمر؛ وإن ابن أبي كبشة [٣] ليصاح به كل يوم خمس مرات: «أشهد أن محمداً رسول الله»، فأى عملي يبقى؟ وأى ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلاًدناً دفناً. [٤]

«فقد أثر هذا الكلام حتى في المغيرة بن شعبة المعروف بفساده وانحرافه، فلم يذهب إلى تكفير معاوية فحسب، بل رآه من أكفر الناس وأخبثهم» ثم خاض ابن أبي الحديد في أفعال معاوية وحياته الطاغوتية وتصرفاته المجانبه للعدل والمروءة؛ الأمر الذي يؤكد عمق ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة. فقال ابن أبي الحديد:

و أما أفعاله المجانبه للعدالة الظاهرة من لبسه الحرير، وشربه في آنية الذهب والفضة؛ حتى أنكر عليه ذلك أبو الدرداء، فقال له: إنني سمعت رسول الله ص يقول: «إن الشارب فيها ليجزجر في جوفه نار جهنم»، وقال معاوية: أما أنا فلا أرى بذلك بأساً، فقال أبو الدرداء: من عذيري من معاوية! أنا أخبره عن الرسول صلى الله عليه وآله؛ وهو يخبرني عن رأيه! لا أساكنك بأرض أبداً.

نقل هذا الخبر المحدثون والفقهاء في كتبهم في باب الاحتجاج على أن خبر الواحد معمول به في الشرع؛ وهذا الخبر يقدر في عدالته، كما يقدر أيضاً في عقيدته، لأن من قال في مقابلة خبر قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أما أنا فلا أرى بأساً فيما حرّمه رسول الله صلى الله عليه وآله، ليس بصحيح العقيدة ومن المعلوم أيضاً من حاله استثنائه بمال الفيء، وضربه من لا حدّ عليه، وإسقاط الحدّ عنّ يستحق إقامة الحدّ عليه، وحكمه برأيه في الرعية وفي دين الله، واستلحاقه زيادا؛ وهو يعلم قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، وقتله حُجر بن عدي أصحابه ولم

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٩

يجب عليهم القتل، ومهاتته لأبي ذر الغفاري وجبّه وشتمه إشخاصه إلى المدينة على قتب بعير وطاء لإنكاره عليه، ولعنه علياً وحسناً وحسيناً وعبد الله بن عباس على منابر الإسلام، وعهده بالخلافة إلى ابنه يزيد، مع ظهور فسقه وشربه المسكر جهاراً، ولعبه بالترد، ونومه بين القيان المغنّيات، اصطبأه معهنّ، ولعبه بالطنور بينهنّ، وتطريقه بيني أمية للوثوب على مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وخلافته، حتى أفضت إلى يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد، المفتضحين الفاسقين: صاحب حجابة وسلامه؛ والآخر رامى المصحف

بالسهم وصاحب الأشعار في الزندقة والإلحاد.

ولا- ريب أن الخوارج إنما برىء أهل الدين والحق منهم، لأنهم فارقوا علياً برئوا منه، وما عدا ذلك من عقائدهم، نحو القول بتخليد الفاسق في النار، القول بالخروج على أمراء الجور؛ وغير ذلك من أقاويلهم؛ فإن أصحابنا يقولون بها، ويذهبون إليها، فلم يبق ما يقتضى البراءة منهم إلا براءتهم من علي؛ قد كان معاوية يلعنه على رؤوس الأشهاد وعلى المنابر في الجمع والأعياد، في المدينة ومكة وفي سائر مدن الإسلام؛ فقد شارك الخوارج في الأمر المكروه منهم؛ وامتازوا عليه باظهار الدين والتلزم بقوانين الشريعة، والاجتهاد في العبادة، وإنكار المنكرات، وكانوا أحق بأن يُنصروا عليه من أن يُنصر عليهم، فوضح بذلك قول أمير المؤمنين:

«لا تقاتلوا الخوارج بعدى»

، يعنى فى مُلك معاوية.

٢- جهل اتباع الحق وعلم اتباع الباطل

إتضح من كلام الإمام عليه السلام أنه رجح الخوارج على أهل الشام من أتباع معاوية واستدل على ذلك بقوله:

«فليس من طلب الحق فاخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»

ولا- تقتصر هذه المقارنة على عصر الإمام عليه السلام؛ بل لا يخلو عصر ومصر من هاتين الفرقتين، فمازلنا نرى اليوم بعض الفئات المعادية للإسلام التي تحث الخطى نحو الباطل وقد شممت عن سواعدها للقضاء على الإسلام والمسلمين؛ في حين هنالك الفئات الأخرى التي تشد الحق إلّا أنها لن تبلغه، وهى الأخرى معادية للإسلام والمسلمين. ولا ينبغي للمسلمين أن ينظروا ذات النظرة لهاتين الفئتين، بل عليهم أن يمنحوا الأولوية فى الصراع للفئة الأولى وذلك لعدم وجود سبيل إزاء الفئة الأولى التي تنهج الفساد والباطل عن علم- سوى الصراع المسلح، بينما تحتاج الفئة

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٠

الثانية إلى قدر من الوعظ والإرشاد والانفتاح على التعاليم الإسلامية الحقّة.

وقد أثبت هذا الأسلوب جدواه فى موقعه النهروان بتوبة أغلب الخوارج وانابتهم إلى الحق بعد سماعهم لمواعظ أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام، فقد جاء فى الأخبار أن ثمانية آلاف منهم قد رجعوا عن ضلالتهم ولم يبق سوى أربعة آلاف منهم.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١١

الخطبة [٥] الثانية و الستون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

لما خوف من الغيلة [٦]

«وَإِنَّ عَلِيَّ مِنَ اللَّهِ جُنَّةٌ حَصِيْنَةٌ فَإِذَا جَاءَ يَوْمِي انْفَرَجَتْ عَنِّي أَسْلَمْتَنِي فَحِينِيْدٍ لَا يَطِيْشُ السَّهْمُ وَلَا يَبِيْرُ الْكَلْمُ».

الشرح والتفسير

لماذا أخشى الموت؟

قيل فى سبب هذا الكلام أن أصحاب الإمام عليه السلام كانوا يخبرونه عن سوء نية ابن ملجم، وقد قامت عدة قرائن واضحة تكشف

عن سوء نيته، حتى ذكروا أنّ الإمام عليه السلام كان يخطب الناس يوماً فجلس ابن ملجم أمام المنبر وهو يقول:
«و الله لأريحنهم منك»

فلما إنتهى الإمام عليه السلام من خطبته. أمسكه البعض ممن سمعه وأتوا به إلى الإمام عليه السلام. فقال عليه السلام: دعوه، ثم قال،
وإنّ عليّ من

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٢

الله... [٧] نعم قال الإمام عليه السلام:

«و إن علي من الله جنه حصينه، فإذا جاء يومى انفرجت عني وأسلمتني؛ فحينئذ لا يطيش [٨] السهم [٩] ولا يبرأ [١٠] الكلم [١١]»
. والعبارة إشارة إلى سنه كونه ثابتة، وهي أنّ الإنسان لا يغادر هذه الدنيا ما لم يحن أجله، وعليه فأجل الإنسان بيد الله، ومفهوم ذلك
أنّ إرادته هي التي إقتضت أن يبقى فلان إلى الوقت الفلاني، ومما لا شك فيه أنّ أحداً لا يسعه الوقوف بوجه هذه الإرادة، ومن هنا
يمكن اعتبار الأجل الإلهي جنه حصينه إزاء بعض الحوادث؛ المعنى الذي ورد كراراً في نهج البلاغه، ومن ذلك قوله عليه السلام:
«إنّ الأجل جنه حصينه». [١٢]

كما قال في موضع آخر

«كفى بالأجل حارساً» [١٣]

بل يمكن القول بأنّ هذا المعنى قد ورد في الآية الحادية عشرة من سورة الرعد: «لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ
اللَّهِ» وجاء في تفسير الآية أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال:

«يقول: بأمر الله من أن يقع في ركبي أو يقع عليه حائط أو يصيبه شيء حتى إذا جاء القدر خلوا بينه وبينه يدفعونه إلى المقادير وهما
ملكان يحفظانه بالليل وملكان بالتهار يتعاقبان» [١٤]

. وهنا يبرز هذه السؤال وهو لو كان الأمر كذلك، فليس هنالك من ضرورة في حفظنا لأنفسنا من المخاطر ونسعى لأن نقيها بعض
الحوادث من قبيل الزلازل والأعاصير والأمراض وحوادث الدهس

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٣

والاصطدام، بل يجب علينا أن نندفع بكل قوة وعدم مبالاة واكثرات وخشية من هذه الحوادث؟! وللإجابة على هذا السؤال ينبغي
الألتفات إلى أنّ أجل الإنسان على نوعين: أجل حتمي وأجل غير حتمي، والأجل الحتمي هو الأجل الذي لارجعه فيه، من قبيل مقدار
نبض قلب الإنسان الذي قدر له العمل إلى اللحظة الفلانية، بالضبط كالساعة التي تعمل إلى أجل معين يتعلق بوجود البطارية فيها،
فمتى ما نفذت قوة البطارية توقفت الساعة عن العمل.

أما الأجل غير الحتمي فهو الأجل الذي يمكن إجتنابه؛ وهو على قسمين: قسم تحت تصرف الإنسان بحيث يسعه إجتنابه من خلال
رعاية الموازين العقلانية من قبيل التترس والتدرع وإرتداء الخوذة في ساحة القتال التي تحول عادة دون اغلب حالات القتل، فقد وكل
للإنسان التعامل بحذر مع مثل هذه الامور، وهو المسؤول عن هذه الحوادث، أما القسم الآخر فهو الأجل غير القطعي الخارج عن إرادة
الإنسان من قبيل بعض حوادث المرور أو عدم التحسب من الوقوع في البئر أو إنهيار الجبل وما إلى ذلك من الامور التي لا يمكن
التكهن بوقوعها. وهنا يأتي دور الملائكة الحفظة الذين يحفظون الإنسان من هذه الحوادث ما لم يصل أجله الحتمي، فاذا بلغ أجله
تركوه وتلك الحوادث. وبالطبع فإنّ هذا القسم الأخير هو الآخر يمكن تقسيمه إلى نوعين: مشروط وغير مشروط والمشروط ما تتولى
فيه الملائكة حفظ الإنسان شريطة قيامه ببعض الاعمال من قبيل التصديق والدعاء وصله الرحم وما إلى ذلك من المندوبات، بينما
لا يشترط مثل هذه الاعمال في غير المشروط. والخاصة ليس هنالك من تخلف في الأجل المحتوم بينما يمكن تغيير الأجل المشروط
أو المعلق من خلال التدبير والاحتياط أحياناً، والقيام ببعض الاعمال المندوبة من قبيل التصديق والدعاء وصله الرحم أحياناً أخرى، كما

يمكن ذلك من خلال الملائكة الموكلة بحفظ الإنسان من الأخطار غير المحتومة. ومن هنا يتبين عدم التعارض بين الآيات القرآنية من قبيل: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» [١٥] والآية الشريفة «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا» [١٦] مع الآية المباركة: «لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ...»، ولا مع الروايات التي

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٤

صرحت بتأخير أجل الإنسان إثر التصديق والدعاء، وهكذا يتضح الجمع بين كافة هذه الآيات والروايات على ضوء التقسيم الثلاثي أو الرباعي الذي ذكرنا للأجل. [١٧]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٥

الخطبة [١٨] الثالثة والستون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

يحذر من فتنة الدنيا

نظرة إلى الخطبة

الخطبة كما يفهم من عنوانها تحذير للجمع من فتنة الدنيا، حيث يشير الإمام عليه السلام فيها إلى موضوعين مهمين: الأول أن الدنيا قد تكون مصدر شقاء الإنسان أو سعادته؛ الأمر الذي يتوقف على طبيعة النظرة إلى الدنيا والتعامل معها. فالدنيا مذمومة وهي مصدر بؤس وشقاء إن كانت هدفاً وإنشدت الأنظار إلى زخارفها وأموالها وثرواتها، في حين ممدوحة هي الدنيا ومصدر سعادة الإنسان وفلاحه إذا كانت وسيلة ومزرعة الآخرة وأداة للوصول إلى القيم والمثل الإنسانية. الموضوع الآخر الذي أشار إليه الإمام عليه السلام هو فناء الدنيا وتقلب أحوالها، وتشبيهها بفيء الظل الذي يلجأ إليه الإنسان للراحة وسرعان ما يزول.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٧

«أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لَا يُسَلِّمُ مِنْهَا، إِلَّا فِيهَا وَلَا يُنْجِي بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا: ابْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً، فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ وَحُوسِبُوا، عَلَيْهِ وَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ وَأَقَامُوا فِيهِ؛ فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ، بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغًا حَتَّى قَلَصَ، وَزَائِدًا حَتَّى نَقَصَ».

الشرح والتفسير

الدنيا ظل زائل

لما كانت زخارف الدنيا وزينتها تدعو إلى المبالغة في التعلق بها؛ الأمر الذي يفضي إلى مقارفة الذنوب والمعاصي والانحراف عن الصراط المستقيم والسقوط في هاوية الضلال فإن القادة الربانيين لا ينفكون عن تحذير أتباعهم منها، وهذا ما نلمسه بوضوح في معظم نهج البلاغة الذي أورد التحذير تلو التحذير على لسان خطبه ورسائله وقصار كلماته.

والخطبة التي نحن بصدددها هي نموذج من هذا التحذير الذي ضمنه الإمام عليه السلام ستة أمور مهمة، فقد إستهل ذلك قائلاً:

«أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لَا يُسَلِّمُ مِنْهَا إِلَّا فِيهَا»

والدليل واضح لانقاش فيه؛ لأن من أهم أسباب السلامة هو كسب الفضائل الأخلاقية والتحلي بالقيم والمثل المعنوية وعبودية الله وطاعته، والتي لا تتسنى إلأى هذه الدنيا، وليس للإنسان من فرصة سوى في هذا العالم دون العوالم الأخرى ومن هنا قال الإمام عليه

السلام لاتنال السلامة من الدنيا إلّا فيها. ثم قال عليه السلام:

«ولا ينجى بشيءٍ كان لها»

أى إن كانت الدنيا هى دافع نشاطات الإنسان وغاية أعماله وأفعاله وحتى إتيانه بالعبادات إذا كان ينطوى على هدف دنيوى ويشوبه الرياء والسمعة فأنها لن تكن سببا لنجاته، بل ستفضى إلى هلاكه وشقائه. ثم أشار فى الأمر الثالث إلى كونها ميدان إمتحان:

«ابتلى الناس بها فتنّة»؛

فالدنيا مليئةٌ بالنعم إلى جانب المشاكل

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٨

والمصائب؛ فالنعمة وسيلةٌ للإمتحان، كما المصيبة إمتحان من نوع آخر. فهل تطغى النعمة الإنسان أم تشده إلى الله، وهل يؤدى شكر النعم عملاً فضلاً عن شكرها لساناً؟ وهل يستشعر قلبه اليأس حين المصيبة ويشكو ربه، أم يصبر عند المصائب ويشكر؟ فالإنسان يعيش الإمتحان فى هذين الأمرين كل يوم طيلة حياته فى الدنيا، وهذا قانون خالد انبثق منذ خلق آدم عليه السلام وسيستمر إلى يوم القيامة، فقد قال القرآن الكريم بهذا الشأن: «أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ». [١٩] ثم قال عليه السلام فى الأمر الرابع:

«فما أخذوه منها لها أخرجوا منه وحوسبوا عليه».

ثم واصل كلمه قائلاً:

«و ما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه، وأقاموا فيه»

والعبارة إشارة إلى النظرتين المعروفتين فى نهج البلاغة، النظرة إلى الدنيا كوسيلة والآخرى كغاية؛ فان كانت إمكانات هذه الدنيا والأموال والثروات والنعم والمقام والجاه وسيلة لنيل السعادة والحياة الاخرية الهنيئة فليس هناك أفضل منها، وإن كانت صنماً يسجد له الإنسان فليس هناك أسوأ منها. فالنظرة الاولى تسوق الإنسان إلى الورع والتقوى والطهر والعفاف بينما تدعوه النظرة الثانية إلى الحرص والطمع والظلم والذلة والهوان. والنظرة الاولى تحيل النعم الدنيوية الفانية إلى نعم اخروية باقية، فى حين تكون النظرة الثانية سبباً لزوال النعم وبقاء التبعات. ومن هنا تتضح عليه مدح الدنيا فى أغلب الآيات والروايات، إلى جانب ذمها فى البعض الآخر. فلعل البعض يفسر ذلك بالتناقض للوهلة الاولى بينما كل واحدة منها صحيحة فى مكانها وكأن الواحدة منها مكمله للأخرى، فالمدح يرتبط بالدنيا الوسيلة، والذم بالدنيا الهدف والغاية. وسنعرض لهذا الموضوع بالتفصيل فى الأبحاث القادمة ذات الصلة.

وأخيراً يكشف الإمام عليه السلام اللثام عن حقيقة الدنيا ليشبهها بفى الظل الذى يمر سريعاً فقال:

«فإنها عند ذوى العقول كفىء الظل، بينا تراه سابقاً [٢٠] حتى قلص، [٢١] وزائداً حتى نقص»

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٩

فقد ورد الظل بمعناه المطلق سواء ظل الأشياء قبل الزوال أو بعده، وبطلق أحياناً على ما قبل الظهر خاصة الذى تزيه الشمس تدريجياً، أما

«فى»

فهى تعنى الظل بعد الزوال (لأن مفهوم هذه المفردة يتضمن الرجوع والعودة) الذى يتسع كلما إقتربت الشمس من أفق المغرب ويزول إثر غروب الشمس وحلول الظلمة. وكأن الإمام عليه السلام أشار إلى حقيقة مهمة وهى أن أصحاب الدنيا يجمعون الأموال والثروات كل يوم بحيث تزداد كلما إقترب عمرهم من نهايته، إلّا أنها تزول وتنعدم من الوجود بغروب شمس العمر، وتنتهى كل هذه الثروات بحلول ظلمة الموت.

ونختتم تفسير هذه الخطبة بالقول أن الإمام عليه السلام دائم التحذير من مغبة التعلق بالدنيا والاعتزاز بها وفضحها بمختلف الطرائف

والأمثال وذلك للأسباب التالية: أولاً: أن حب الدنيا والاعتزاز بها يمثل مادة الذنوب والمعاصي؛ الأمر الذي يجعل القائد الرباني محذراً أتباعه وملفتاً إنتباههم إلى عظم هذا الخطر على الدوام، وثانياً: شهد عصر الإمام عليه السلام وما سبقه بعض الفتوحات الإسلامية التي درت على المجتمع الإسلامي ما لا يحصى من الغنائم والثروات والإمكانات؛ الأمر الذي جعل أفراد الأمة تعيش حالة من السباق للتكالب على هذا الحطام، وهذا ما أفرز حالة من الانحراف والاختلاف والتشتت والابتعاد عن التواضع في الحياة والاقبال على الراحة والدعة والضعف أمام العدو من خلال التقاعس عن الجهاد، ومن هنا كان الإمام عليه السلام لا يرى أدنى فرصة إلا واغتنمها من أجل إعادة الأمة إلى مسارها الإسلامي الصحيح. وقد وعظهم بسيرته وحياته قبل وعظهم بلسانه.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢١

الخطبة [٢٢] الرابعة و الستون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
في المبادرة إلى صالح الاعمال

نظرة إلى الخطبة

جرى الحديث في هذه الخطبة- كما في الخطبة السابقة- عن تقلب أحوال الدنيا وضرورة الزهد فيها، داعياً الناس إلى الاستعداد والتأهب للآخرة. ثم صور الدنيا بهذه الصورة
«وما بين احدكم وبين الجنة أو النار الا الموت أن ينزل به، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة، لجديرة بقصرها لمدة، وأن غائباً يحدوه [٢٣] الجديدان: الليل والنهار، لحرى بسرعة الأوبة».

ثم يختتم عليه السلام خطبته بدعوة الناس إلى التوبة والإنابة إلى الله ويحذر من الغفلة عن الموت والاعتزاز بالأمل الذي يصد عن الآخرة، فاذا باغت الإنسان الموت وكان غارقاً في شهواته ومعاصيه صعب عليه مفارقة الدنيا.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٣

القسم الأول: الموت يلقي بظلاله على الجميع

«فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَابْتَاغُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ، وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ حُجِدَ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَطَّلَكُم، وَكُونُوا قَوْمًا صَاحِبِينَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبَدَّلُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَبْحَثُهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً».

الشرح والتفسير

يستهل الإمام عليه السلام خطبته بتحذير الجميع من الدنيا والالتفات إلى سرعة زوالها والهدف من خلق الإنسان فيها، والاستغراق في الغاية التي ينبغي أن ينشدها في هذه الحياة. فقد قال عليه السلام:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ»

كل مالديكم من الله وقد أمطركم بوابل نعمه وآلائه فانتم عباده ولا يصح لكم الخروج على أوامره وعصيانه. أما التأكيد على التقوى في هذه الخطبة وسائر الخطب مما لا يحتاج إلى أدنى إيضاح كون التقوى تشكل اللبنة الأساس للمؤمن والعمل الصالح، الأمر الذي

ورد التأكيد عليه كراراً في القرآن حتى عد الوسيلة للتفاضل «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» [٢٤] وهى خير الزاد «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى [٢٥]. ثم قال عليه السلام:

«و بادروا آجالكم بأع مالكم»

، وكان السباق قد بلغ ذروته بين الإنسان والموت، فلو طبع حياته بالعمل الصالح فإنه سيصل غايته قبل أن يحل به الموت فيحول دون بلوغ تلك الغاية.

والواقع أن غاية الإنسان تتمثل بالعبادة والسمو والتكامل والقرب الإلهي؛ الامور التي يمكن

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٤

للإنسان بلوغها إذا تحلى بالورع والتقوى والعمل الصالح قبل حلول أجله وانتهاء عمره، وإلا سيفاجئه الموت دون الظفر بغايته وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم: «وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ» [٢٦] ثم اتبع ذلك بالقول: «و لن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها» أى ليست هناك من استجابة لمثل هذه الطلبات هناك. ثم قال عليه السلام:

«و ابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم»

فالدينا ومتاعها ونعمها إلى زوال وتبدل وعدم إستقرار، بينما تتصف نعم الآخرة بالدوام والخلود، فهل من عاقل يتردد فى مثل هذه الصفقة وذلك بان يشتري ذلك المتاع الخالد بهذا المتاع الفانى؟ ابتاعوا من مادة ابتياع بمعنى الشراء، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم فى عدة آيات، منها «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِالَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» [٢٧]، فهذه الآية- التى شرحت المقايضة المعنوية والإلهية للناس مع الله باروع بيان وضمن عشرة تأكيدات- إنما تشمل كافة ميادين الحياة البشرية وإن وردت بشأن الجهاد؛ لأن الجهاد جزء من مفردات هذه الحياة، وقد جاء شبيه هذا المعنى فى الآية العاشرة من سورة الصف «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ...» فهل هناك أعظم وأربح من هذه التجارة التى يمثل طرف الإنسان فيها الله سبحانه الكريم الغفور الرحيم من جانب، ومن جانب آخر يرضى الله بهذه المعاملة لأن يبادل الإنسان بهذا المتاع الفانى والزائل الذى يفقده الإنسان شاء أم أبى بذلك المتاع الخالد الذى يأبى الزوال والفناء؟! ثم قال عليه السلام:

«و ترحلوا [٢٨] فقد جد [٢٩] بكم»

فى إشارة إلى أن الرحيل من الدنيا ليس بالهزل ولا- السهل اليسير، بل أمر جدى بالغ الصعوبة فلسان حال كافة أعضائنا الباطنية والظاهرية هو الرحيل، ويعاضد ذلك

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٥

إستزاف القوى الجسمانية، إلى جانب الآفات والأحداث والبلاءات وأنواع الأمراض التى تدفع بالإنسان إلى الرحيل.

ثم أمر الإمام عليه السلام واستناد لما مر بالتجهز والتأهب فقال:

«واستعدوا للموت فقد أظلكم»

وبالطبع ليس المراد بالتأهب والاستعداد للموت أن يكف الإنسان عن السعى والعمل ويقاطع الدنيا ويقع فى زاوية من داره ينتظر الموت، بل المراد الاكثار من الأعمال الصالحة وتهذيب النفس وتزكيتها والتحلى بالفضائل ومكارم الأخلاق والمسارة فى «البقيات الصالحات»

، وبعبارة اخرى التزود للدار الآخرة والقدوم عليها بما ينجى الإنسان من عقباتها. أما العبارة

«فقد أظلكم»

فهى تفيد قرب الموت؛ لأنّ الأشياء القريبة فقط هى التى تظل الإنسان. والواقع ليست هنالك من مسافة بين الإنسان والموت، فقد يستسلم للموت أقوى الأقوياء إثر حادثه بسيطة تحيل كيانه عظاماً ولحمماً خاوياً، كما قد يموت رغم عنفوان شبابه بفعل سكتة قلبية، بل قد تخنقه اللقمة الصغيرة فتميته، وزبده القول لولا الغفلة التى طغت على الناس بتناسى الموت لما استطاع البشر ممارسة الحياة بهدوء وسكينه ولو للحظات. ثم قال عليه السلام:

«وكونوا قوماً صيحين فانتبهوا، وعلّموا أنّ الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا». [٣٠]

ولعل المراد بمن يصيح فى الناس ويوقظهم من نوم الغفلة، هو ذلك الملك الذى أشار إليه الإمام الباقر عليه السلام مروياً عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«له ملكٌ ينادى كلّ يومٍ الدوا للموت وابنوا للخراب!» [٣١]

أو المراد به العناصر الداخلية فى جسم الإنسان التى تؤدى بالتدريج إلى ضعف الجسم وكأنّها تهتف به إلى الرحيل. وقد وردت عدة أشعار فى الديوان المنسوب للإمام عليه السلام بهذا

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٦

الشأن، نرى من الجفاء عدم التعرض لها، فقد قال:

إلى م تجر أذيال التّصابى و شيبك قد نضا برد الشّباب
بلال الشّيب فى فوديك نادى بأعلى الصّوت حىّ على الذّهاب
خلقت من التّراب وعن قريب تغيب تحت أطباق التّراب
طمعت إقامةً فى دار ظعن فلما تطمّع فرجلك فى الزّكّاب
و أرخيت الحجاب فسوف يأتى رسولٌ ليس يحجب بالحجاب
أعمار قصرك المرفوع؟ أقصر! فإنّك ساكن القبر الخراب! [٣٢]

وأخيراً اختتم كلامه الذى أشار فيه إلى الدنيا وتقلب أحوالها وضرورة الاستعداد فيها إلى سفر الآخرة بعبارة أوردها بمنزلة الدليل والبرهان على ما قال:

«فإنّ الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدى» [٣٣]

والعبارة فى الواقع إشارة إلى برهان المعاد المعروف (برهان الحكمة) الذى يصرح بأنّ هدف خلق الإنسان إذا اقتصر على هذه الحياة القصيرة وما يكتنفها من أيام المطعم والملبس والنوم فانما هو العبث بعينه، فلا يمكن أن يكون هذا هو الهدف من هذا الخلق العظيم وهذه السموات والأرضيين وما يكتنفهما من العجائب والغرائب وهذه البنية العجيبة لخلق الإنسان بهذا التعقيد والدقة والنظام، فجميع القرائن الموجودة فى عالم خلقه الإنسان والأكوان تشير إلى عظم الهدف الذى قام من أجله الخلق، وهو الهدف العظيم الذى خلق الحكيم من أجله الإنسان والعالم، والذى يكمن فى تكامل الإنسان وقربه من الله ونيله سعادة الدارين.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٧

القسم الثانى: التزود قدر المستطاع

«وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزَلَ بِهِ، وَإِنَّ غَايَةَ تَنْقِصِهَا اللَّحْظَةُ، وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ، لَجْدِيرَةٌ بِقَصِيرِ الْمُدَّةِ، وَإِنَّ غَايَةَ يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، لِحَرِيِّ بَسْرَعِهِ الْأَوْيَةِ، وَإِنَّ قَادِمًا يَقْدُمُ بِالْفَوْزِ أَوْ الشَّقْوَةِ لِمُسْتَحَقِّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَدًا».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلى ثلاثة أمور مهمّة: الأول

«و ما بين أحدكم وبين الجنّة أو النار إلّا الموت أن ينزل به»

أى إن كنت حذرتكم من الدنيا ودعوتكم إلى التزود للآخرة بالتقوى والعمل الصالح ومبادرة الأجل، فذلك لقصر المسافة بينكم وبين الجنّة أو النار، فما أسرع أن تروا أنفسكم فى الجنّة أو النار إذا حلّ الموت بنايديكم. فالمؤمن الفطن ليقف على مدى قصر هذه المسافة ويراها على ضوء الآية القرآنية: «إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأُنشِقَ الْقَمَرُ»، [٣٤] خاطفه من حيث الزمان، كما يراها كذلك على مستوى المكان على ضوء الآية الشريفة: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا» [٣٥] وبالطبع فالآية إشارة إلى القيامة الصغرى لا الكبرى وتفسير ذلك أنّ للإنسان قيامتان: ١- القيامة الكبرى التى يحشر فيها جميع الأولين والآخرين ليحاسبوا على أعمالهم. فالمحسنون إلى الجنّة والآثمون إلى النار. ٢- القيامة الصغرى

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٨

التى تحل بالفرد عند موته فتقطع علاقته بالدنيا وتغلق صحيفه أعماله فتكون حفرة قبره روضه من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النار. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال

«إنّ للقبر كلاماً فى كلّ يوم يقول: أنا بيت الغربه... أنا روضه من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النار» [٣٦]

. طبعاً يراد بهذه الجنّة والنار الجنّة والنار البرزخية لا جنّة القيامة ونارها. على كل حال فإنّ الإمام عليه السلام تحدث عن قرب القيامة وسرعة ثوابها وعقابها وإن رآها عبيد الدنيا بعيدة ثم قال عليه السلام:

«و إنّ غايه تنقصها اللحظه، وتهدمها الساعه، لجديره بقصر المدّه»

والمراد بالغايه هنا عمر الإنسان أو إختتام هذا العمر حيث يأخذ بالتناقص كل يوم، ويتحطم ركن منه بمرور كل ساعه ولحظه، فالعمر ليس سوى هذه الساعات واللحظات وهى الحقيقة التى أشار إليها القرآن الكريم بقوله: «وَالْعَصِيرُ* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ»، كما أشار إليها الإمام عليه السلام بقوله: «إنّ الإنسان لفي خسر» [٣٧]. ومن العجب العجاب أن تسأل أحدهم عن قيمة عمره فلا تراه مستعداً لاستبداله بأى شى بينما يقضى أغلب أوقاته لاهياً عابثاً دون أن يحترم الوقت، والحال ليس العمر سوى هذه الأوقات. ولا بأس هنا بذكر هذه الطريفه التى أوردها المحقق النراقى أحد كبار الفقهاء فى كتابه الفكاهى الواعظ طاقديس الذى ذكر فيه تلك المواعظ على هيئة الشعر. فقال أن طراراً ذهب إلى بقال وسأله ما ثمن الجوز؟ قال: كل ألف جوزة بعشرة دراهم. سأل: فما ثمن المئه؟ قال: درهم واحد. سأل: ما ثمن العشرة؟ قال: عشر الدرهم. حتى سأله عن ثمن الجوزة الواحدة. فقال: لا قيمة لها. قال الطرار: فان كان كذلك فاعطنى واحدة. فأعطاه. ثم عاد وطلب واحدة. فاعطاه ثم عاد ثالثه وسأله واحدة. وهنا إلتفت إليه البقال وسأله: من أين أنت؟ أجب: من بلدة فلان. فقال: أيها الماكر، إذهب واخذع غيرى (أتريد أن تقتنى متاعى بالمكر والخداع) وهكذا يقوم بعض الجهال من أهل الغفلة بهدم ساعات عمرهم ولحظاته بالمكر والخداع وبالطبع فهم لا يخذعون سوى أنفسهم فيضيعون هذا العمر الذى لا تعدله قيمة. ثم قال عليه السلام:

«و إنّ غائباً يحدوه الجديدان: الليل والنهار،

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٩

لحرى بسرعه الأوبه» [٣٨]

والمراد بالغائب هنا الأجل، وكأنّه الناقه السريعة الجادة فى الحركة حيث يجذبها الجديدان الليل والنهار وهما بمثابة الراعى الذى يحدوها إلى الحركة، ومن الطبيعى أن هذه الناقه- الأجل- ستصل بسرعه إلى هذا الإنسان، أمّا التعبير بالجديدين عن الليل والنهار وذلك لتجددهما على الدوام واستبدال أحدهما بالآخر، والتعبير بالابوه التى تعنى الرجوع، واستنادا إلى القرآن الكريم والأدلة الحسية واليقينية فى أن الإنسان كان فى البدايه مادة خالية من الحياة، ثم دبّت فيه هذه الحياة، وأخيراً سيعود إلى ما كان حين الموت، ثم يبعث

وتدب فيه الحياة من جديد باذن الله: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [٣٩] وقد ورد هذا المعنى فى قصار حكم نهج البلاغة

«إذا كنت فى إقبالٍ والموت فى إقبالٍ فما أسرع الملتقى» [٤٠]

. هذا وقد فسر بعض شراح نهج البلاغة الغائب فى العبارة بالإنسان لأنه غاب عن وطنه ومنزله الأسمى الآخرة والى التى يجب عليه الرجوع إليها، والليل والنهار يسوقانه سريعاً إلى ذلك المنزل. ويبدو أن هذا التفسير ينسجم والقول: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» [٤١] وما ورد فى وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن:

«و اعلم يا بنى أن من كانت مطيته الليل والنهار، فإنه يساربه وإن كان واقفاً، ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً» [٤٢]

. ألا أن الذى يبعد هذا التفسير هو عدم خلوه من التكلف فى تفسير الغائب بالإنسان، أما تفسيره بالأجل يبدو أقرب وأنسب ثم قال عليه السلام:

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٠

«و إن قادمًا يقدم بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة»

ومن الواضح أن المراد بالقادم هنا الإنسان الذى ينطلق فى حركته من الدنيا إلى الآخرة ولا يحمل سوى السعادة أو الشقاء، فما أحره أن يتزود بخير العدة وأفضل الزاد ليفوز بسعادة تلك الدار. وذهب بعض الشراح إلى أن المراد بالقادم هنا الموت وأجل الإنسان وأنه يرد بالسعادة أو الشقاء، فعليه أن يتأهب كأفضل ما ينبغى له ليفوز بالسعادة. ويرجح هذا التفسير على سابقه لأنه ينسجم ومفهوم العبارة السابقة

«و إن غائباً...»

والمراد بأفضل العدة التقوى، التى أشار إليها القرآن بفضلها خير الزاد «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» [٤٣]. ومن هنا خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة

«فتزودوا فى الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً»

فى إشارة إلى أن ما فى الدنيا يمكنه أن يكون تلك المعنوية فى الآخرة، وهل المعنويات هناك سوى الاعمال الصالحة هنا والتقوى والورع التى عدت خير الزاد، فكما أن الزاد الدنيوى يقى المسافر من مخاطر الموت والجوع وآفات السفر، فكذلك زاد التقوى بالنسبة للآخرة وهذا ما ورد التأكيد عليه فى الروايات، فقد جاء فى الحديث أن علياً عليه السلام قال:

«التقوى حرز لمن عمل بها» [٤٤]

وقال فى موضع آخر:

«التقوى حصن حصين لمن لجأ إليها» [٤٥]

وقال:

«الجأوا إلى التقوى فإنه جنة منيعة» [٤٦].

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣١

القسم الثالث: الإنسان والغفلة

إشارة

«فَاتَّقَى عَبْدُ رَبِّهِ، نَصِيحَ نَفْسِهِ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَ مَسْتَوْرٍ عَنْهُ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُرِيْنُ لَهُ الْمُعْصِيَةَ

لِيرَكِبَهَا، وَيَمْنِيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا، إِذَا هَجَمَتْ مَيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا؛ فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمْرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً وَأَنْ تُوَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشَّقْوَةِ! نَسَأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مَمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ وَلَا تُقْصِرُ تَقْتَصِرُوا بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةً وَلَا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدَامَةً وَلَا كَابَةً».

الشرح والتفسير

قال الإمام عليه السلام مستهلاً قوله بفاء التفریح كنتيجة لما سبق:

«فَاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ، نَصَحَ نَفْسَهُ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ» [٤٧]

فقد أوصى عليه السلام بالتقوى كتوضيح لقوله عليه السلام:

«فَتَرَوُّدُوا فِي الدُّنْيَا»؛

لأنها خير الزاد إلى المعاد، ثم خاض في التفاصيل بثلاث عبارات: الأولى نصح النفس ومن ثم التوبة وأخيراً غلبه الشهوة والتي تمثل بمجموعها وصفه كاملة لسعادة البشرية؛ البشرية التي قد تغفل عن نصح نفسها ولا تفكر في التوبة وتدارك ما فرط منها؛ الأمر الذي يجعلها أسيرة أهوائها وشهواتها. ثم تطرق عليه السلام إلى موضوع يمثل الدليل على ما ورد سابقاً «فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكل به، يزين له المعصية ليركبها، يمنيّه

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٢

التوبة ليسوفها [٤٨] إذا هجمت مئيته عليه أغفل ما يكون عنها»

واستناد إلى أن جملة

«أغفل ما يكون عنها»

حالية مفهومة العبارة هو أن مثل هذا الإنسان الأسير للشهوات والوساوس الشيطانية يكون في أشد مراحل الغفلة إذا هجم عليه الموت، فإن فتح عينه وأفاق إلى نفسه لا يرى أمامه إلا الأجل وقد سبق السيف العذل. كما يحتمل إلتاكون إذا شرطية في العبارة وتفيد المفاجئة والمباغته، فيكون مفهوم العبارة «يباغته الموت، وهو في أشد حالات الغفلة»

وبالطبع فإن نتيجة كلا التعبيرين واحدة وهي حلول الموت دون الاستعداد له. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«فِيَالهَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عَمْرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً، وَأَنْ تُوَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشَّقْوَةِ!»

. أجل ليس هناك رأس مال أعظم من ساعات عمر الإنسان وأيامه، ففعل ساعة من الساعات تقود الإنسان إلى ذروة الكمال والعظمة والمجد فيخرج الإنسان فيها على غرار الحرين يزيد الرياحي من زمرة الأشقياء ليلتحق بصفوف الصالحين والشهداء. أو يغتنم لحظة فيسدد ضربة موجعة لجسد الكفر بحيث يكون ثوابها أفضل من عبادة الثقلين، (كما صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله بشأن ضربة على عليه السلام يوم الخندق)، أو يبيت ليلة على فراش ليكسب تجارة عظيمة الربح والفائدة، كالليلة التي بات فيها أمير المؤمنين على عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة الهجرة. فلو غفل الإنسان عن قيمة هذه الساعات واللحظات في حياته ولم يستشمرها بما يعادلها، أفلا يدعو ذلك إلى الاسى والحزن، ومن هنا أعرب الإمام عليه السلام عن أسفه وعمق حسرتة على مثل هذا الإنسان وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته بهذا الدعاء العظيم:

«نَسَأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مَمَّنْ لَا تَبْطِرُهُ [٤٩] نِعْمَةٌ وَلَا تَقْصِرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةً، وَلَا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدَامَةً وَلَا كَابَةً» [٥٠].

فالإمام عليه السلام يعلم الجميع ثلاثة دروس بهذه العبارات التي أوردتها بصيغة الدعاء: الأول

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٣

الحذر من الغرور والسكر عند النعمة، الثاني الحذر من الأهداف المادية التي تصد عن طاعة الله والثالث التحذير من عدم التزود

للآخرة والشعور بالندم والخيبة والخسران حين حلول الأجل.

تأملات

١- فلسفة خفاء الموت

لقد أشارت الخطبة إلى أحد الأسرار المهمة للخلق والذي يكمن في خفاء الموت «فإنَّ أجله مستورٌ عنه»؛

فلا أحد يعلم هل سيبقى حياً إلى ساعة أخرى أم سيموت؟ فهو اليوم مخبر وغدا يخبر عنه، وهو اليوم في مجلس عزاء صاحبه، وغدا صحبه في مجلس العزاء الذي يقام على روحه. ومما لا شك فيه أنَّ عمر الإنسان إذا إتضح لصاحبه جرماً لا يخفى من المفاسد؛ الأمر الذي أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام في توحيد مفضل المعروف: تأمل الان يا مفضل ما سترى الإنسان علمه عن مدة حياته فإنه لو عرف مقدار عمره وكان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش مع ترقب الموت وتوقعه لوقت قد عرفه، بل كان يكون بمنزلة من قد فنى ماله أو قارب الفناء فقد استشعر الفقر والوجل من فناء ماله وخوف الفقر، على أنَّ الذي يدخل على الإنسان من فناء العمر أعظم مما يدخل عليه من فناء المال لأنَّ من يقل ماله يأمل أن يستخلف منه فيسكن إلى ذلك، ومن أيقن بفناء العمر إستحكم عليه اليأس وإن كان طويل العمر ثم عرف ذلك وثق بالبقاء وانهمك في اللذات والمعاصي وعل على أنه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب في آخر عمره، وهذا مذهب لا يرضاه الله من عباده ولا يقبله (ومن هنا حجب الإنسان عن معرفة العمر ليعيش دائماً بين الخوف والرجاء). [٥١]

٢- الاغترار بالاماني

أشار الإمام عليه السلام في الخطبة إلى الآمال والاعترار بها فقال عليه السلام: «و أمله خادع له».

والسؤال

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٤

الذي يطرح نفسه هنا: لماذا وكيف تخدع المال الإنسان فيعيش أفضل ساعات عمره في الوهم والخيال الفارغ؟ ونقول في الجواب أنَّ دائرة الآمال ليست محدودة قط، فالكثير يعتقد أنه سينام مطمئن البال من ناحية السكن على الدوام إذا ما حصل على دار متواضعة، فلا تمر عليه مدة حتى يراها صغيرة ضيقة، فاذا إنتقل إلى دار أوسع رآها هي الأخرى لا تتناسب وشأنه، بل هنالك الكثير من الأفراد الذين يمتلكون القصور ولم تظماً جذوة عطشهم المتقدمة دائماً فما زالوا يطمحون إلى قصر أفخم وأعظم. وزبدة الكلام فلو اعطى الإنسان جيلين من ذهب لا بتغى لهما ثالثاً. وبالطبع لا تقتصر هذه الآمال على مجال دون آخر، بل هي عامة وشاملة لا تدع صاحبها يستريح ولو لبرهة فتهدر جميع طاقاته وتبدد قواه وتشدها إليه، والحال ليست هذه الآمال سوى خيالات موهومة كاذبة والتي وصفها الإمام عليه السلام بالخادعة.

٣- تزوين الشيطان

من النقاط المهمة التي أشارت إليها الخطبة تزيين الشيطان للذنوب والمعاصي، وهذا ما نوه إليه القرآن الكريم في الآية الثالثة والأربعين من سورة الانعام بشأن الاعم السابفة: «وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [٥٢]. كما ورد في سورة الحجر على لسان الشيطان حين لعنه الله وطرده من رحمته وتصدى لمعاداة بنى آدم وإغوائهم: «لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخَلَّصِينَ» [٥٣]. ويحصل هذا التزيين الشيطاني الباطل والوسوسة لمقارفة اللذات واضفاء طابع الحلاوة على بعض الخطايا وهنا يبدأ إمتحان الإنسان فى كيفية التعامل مع هذه الملذات العابرة التى تنتهى لذتها وتبقى تبعتها.

وهنا يبرز هذا السؤال وهو أن بعض الآيات القرآنية نسبت إلى الله تزيين هذه الأعمال، فكيف التوفيق بين هذه الآيات وتلك التى ذكرت سابقاً؟ يتضح الجواب على هذا السؤال من الآية الرابعة من سورة النمل التى قالت: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمِلُونَ». فالآية تشير إلى أن هذا التزيين الإلهى يمثل نوعاً من العقاب لأولئك الأفراد
نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٥

المنحرفين المجانبيين للإيمان، وبعبارة أخرى فان أعمالهم كانت مدعاة لأن يتركهم الله ليقعوا فى مخالفة الشيطان فلا يوليهم دعمه وإسناده. وبناءً على ذلك فإن الطائفتين من الآيات تشيران إلى حقيقة واحدة، ولعل هذا هو المعنى الذى أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«وَالشَّيْطَانُ مَوَكَّلٌ بِهِ، يَزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيُرْكَبَهَا».

٤- عمر الإنسان حجة عليه

حجبة العمر واحدة من الامور التى أشارت إليها خطبة الإمام عليه السلام. فكيف يكون عمر الإنسان حجة عليه؟ يبدو أن الله سبحانه وتعالى يلقي الإنسان طيلة عمره مجموعة كافية من العبر والدروس والحوادث التى تثير لديه حس الوعى واليقظة، إلى جانب الوصايا والتعاليم التى يحملها إليه أنبياء الله وأوصيائهم. ومن هنا صرح القرآن الكريم بأن أصحاب النار حين يصرطخون إلى الله بأخراجهم من النار ليعملوا صالحاً:

«وَهُمْ يَصْطَرُخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ»

يخاطبون: «أَوْ لِمَ تُعَذِّبُهُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَ كُمْ النَّذِيرُ». [٥٤]

٥- سكر النعم

المسألة الأخيرة التى تعرضت لها الخطبة، هى تلك الظاهرة التى تعترى بعض الأفراد الضحليين من جراء وفور النعمة والتى عبرت عنها الخطبة بالبطر؛ الأمر الذى أشار إليه القرآن فى الآية السابعة والأربعين من سورة الانفال: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ» وكما ذكرنا آنفاً فان المراد بالبطر هنا طغيان الإنسان إثر وفور النعم بما يجعله يهتك حجاب الورع والتقوى وطاعة الحق سبحانه، وهى الحالة التى غالباً ما يعيشها الأفراد من أصحاب النعمة البعيدين عن معانى الإيمان والاتزان فى الشخصية؛ فيعيش حالة من الغرور والسكر بما يجعل من المتعذر عليه السيطرة على نفسه والحد من طغيانها وجماعها،

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٦

وهذا ما يؤدى به فى خاتمة المطاف إلى الذلة والهوان، ومن هنا جاء فى الحديث عن الإمام على عليه السلام أنه قال:

«ينبغى للعاقل أن يحترز من سكر المال وسكر القدرة وسكر العلم وسكر المدح وسكر الشباب»

ثم يختتم هذا الحديث بقوله:

«فإن لكل ذلك رباحاً خبيثاً تسلب العقل وتستخف الوقار» [٥٥]

. نعم سكر هذه الامور أثقل من سكر الخمره وأصعب إفاقه منه، فسكر الخمره قد لا يستغرق أكثر من ليلة، بينما قد يمتد سكر الامور الآنفه الذكر طيله عمر الإنسان.

نغمات الولاية، ج ٣، ص: ٣٧

الخطبة [٥٦] الخامسة و الستون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام وفيها مباحث لطيفة من العلم الإلهي

نظرة إلى الخطبة

لما كان ذكر الله والتوجه إلى الله بأسمائه وصفاته يلهم الإنسان القوة والصمود ويدعوه إلى ممارسة مسؤوليته في جهاد العدو، فإن الإمام عليه السلام لا ينفك قبل القتال وخلال له من توجيه الأمة نحو الله وصفاته الجلالية والجمالية، ومن ذلك هذه الخطبة التي خطبها الإمام عليه السلام على أعتاب قتاله لمعاوية ورهطه من أهل الشام، والتي يذكر فيها صفات الله عامته ولا سيما بشأن العلم والقدرة بهدف تفعيل قوة الأمة وتعبئة طاقاتها في ظل الالتفات إلى هذه الصفات.

نغمات الولاية، ج ٣، ص: ٣٩

القسم الأول: الحمد والتناء

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالًا، فَيَكُونُ أَوْلًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِرًا، يَكُونُ ظَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِنًا، كُلُّ مَسْمِيٍّ بِالْوَحْدَةِ غَيْرُهُ قَلِيلٌ، وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرُهُ ذَلِيلٌ، وَكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرُهُ ضَعِيفٌ، وَكُلُّ مَالِكٍ غَيْرُهُ مَمْلُوكٌ، وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرُهُ مُتَعَلِّمٌ، وَكُلُّ قَادِرٍ غَيْرُهُ يَقْدِرُ وَيَعْجَزُ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرُهُ يَصْمُ عَنْ لَطِيفِ الْأَصْوَاتِ، وَيَصْتَمُّهُ كَبِيرُهَا، وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعْدَ مِنْهَا، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرُهُ يَعْصَى عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرُهُ بَاطِنٌ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرُهُ ظَاهِرٌ».

الشرح والتفسير

لابد من الالتفات إلى مسألة في بحث الصفات حيث تقود الغفلة عنها إلى الغواية والضلال وهي أن صفات جمال الله وجلاله ليست لها أي شبه بصفات المخلوقات. فمن صفاته العلم والقدرة إلأنها ليست من قبيل علمنا وقدرتنا، إنه سميع وبصير ولكن ليس كسمعنا وبصرنا، وذلك لأن ذاته لامتناهية من جميع الجهات وهي تفوق الجسم والعوارض الجسمانية، ومن هنا تطالعنا الاعاجيب حين نرد بحث الصفات الربوبية، ومن ذلك على سبيل المثال أن الصفات المتضادة في عالم المخلوقات، تكون إلى جانب بعضها البعض الاخر في العالم الربوبي. فالأول في عالم المخلوقات مثلاً ليس آخر، والآخر ليس أول، والظاهر ليس باطن، والباطن ليس ظاهر، بينما تتصف الذات الإلهية المقدسة بأنها ظاهرة وباطنة وأولى وآخره. أضف إلى ذلك فالصفات في عالم المخلوقات تظهر الواحدة بعد الاخرى

بالتدرج ثم تتبلور وتتكامل، أما الصفات

نغمات الولاية، ج ٣، ص: ٤٠

الإلهية فلا تعرف المسيرة التدريجية ولا التقدم والتأخر. فقد إستهل عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى هذا الأمر

«الحمد لله الذي لم تسبق له حالٌ حالاً، فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً»

ومن هنا فليس هنا لك من وجود قبله ولا بعده، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ»، [٥٧] كما قال: «لا- إله إلا هو كلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» [٥٨]. فالحق أن الوجود الأزلي والأبدى ليس له من أول ولا- آخر، ولا- يعنى نعتة بالأول والآخر سوى أن جميع المخلوقات متوقفة في وجودها عليه سواء في بداية ظهورها أو في إستمرار حياتها. أما وصفه بالظاهر والباطن فيعنى أن أصل وجوده وصفاته أظهر من كل شئ، وذلك لأن الأدلة على وجوده وصفاته تصل إلى عدد النجوم والكواكب والكائنات الحية وأوراق الأشجار وحصى الصحارى، بل بعدد ذرات العالم التي يعجز عن علمها وتصورها أحد غيره؛ ولكن لما كانت الذات الإلهية لامتناهية ولا يسع أحد تصورها كما هي:

«لاستحالة احاطة المحدود باللامحدود»

فإن هذه الذات خفية على جميع الناس بما فيهم الأنبياء والأوصياء والأولياء، وحيث إن الناس يتعرفون بادئ ذي بدء على آثاره في دائرة الوجود ثم يلتفتون إلى ذاته المقدسة فإنه يمكن القول: إنه ظاهر قبل أن يكون باطن، وحسب تعبير بعض الفلاسفة المسلمين: «خفاؤه لشدة ظهوره»

. أوليست الشمس التي تمثل إحدى مخلوقاته خفية لشدة ظهورها؟ وهل من السهل على الإنسان النظر إلى قرص الشمس. ثم إنتقل الإمام عليه السلام إلى المقارنة بين عشر من صفات الكمال والجمال مع شبيهاها لدى المخلوقات ليثبت عمق الفارق بينها وأن حقيقة الكمال مقتصرة على ذاته، وكل ما سواه رصيده العيب والنقص فقال عليه السلام: «كل مسمى بالوحدة غير قليل»

فالعبرة اشارة إلى نقطة مهية وظريفة في باب توحيد الصفات والذات، لأن وحدته تفيد كون ذاته وصفاته لامتناهية، وتعنى عدم وجود الند والشبيه، أما الوحدة في المخلوقات فهي وحدة عديدة وتطلق في مقابل الكثرة، وبالطبع فإن هذه الوحدة تفيد القلة، بينما تشير وحدته إلى عظم وجوده الذي يتجاوز حدود الزمان والمكان وفي نفس الوقت هو في كل زمان ومكان، وهذا ما

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٤١

أشارت إليه الخطبة من أن أوصافه غير أوصاف مخلوقاته، فاذا كانت الوحدة بالنسبة للمخلوقات تفيد القلة، فهي تفيد الكثرة والعظمة بالنسبة لله. فقد جاء في توحيد الصدوق:

إن إعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين أتقول إن الله واحد؟ قال فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام دعوه فإن الذي يريد الأعرابي هو الذي نريده من القوم، ثم قال:

يا أعرابي إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لا- يجوزان على الله عزوجل، ووجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الاعداد فهذا ما لايجوز، لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد أما ترى أنه كفر من قال ثالث ثلاثه، وقول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز لأنه تشبيه وجل ربنا وتعالى عن ذلك وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه كذلك ربنا، [٥٩]

وقول القائل: إنه عزوجل أحدى المعنى يعنى به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربنا عزوجل ثم قال عليه السلام في بيان الصفة الثانية:

«وكل عزيز غيره ذليل»

فالعزة سواء كانت بمعنى القدرة القاهرة أو الحرمة والعظمة فهي لا تليق سوى بذاته المقدسة، ولأن غيره من الملوك وإن كان عزيزاً

فهو ذليل في قبضة قوانين عالم الخلق والقضاء والقدر، أضف إلى ذلك فالجميع محتاج إلى الذات الإلهية، كما أن عزته ذاتية وعزة من سواه عرضية متوقفة على تلك الذات، ومن هنا فليس لأحد من الموجودات إمكانية الوقوف أمام هذه العزة، ولكل عزته بمقدار قربه من تلك العزة المطلقة؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم بالقول: «أَيَّبَتُّعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» [٦٠]، والآية العاشرة من سورة فاطر: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً». ثم قال في الصفة الثالثة:

«وكل قوى غيره ضعيف»

لأن القوة في عالم المخلوقات نسبية؛ فكل كائن قوى إذا ما قورن بمن دونه وضعيف بالنسبة لمن فوقه، وهكذا الأمر حتى تنتهي إلى الذات المقدسة، فهناك القوة اللامتناهية التي

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٤٢

لا يتصور قوة أعظم منها لتقارن بها. ومن هنا فان أقوى الأفراد قد يهزم أمام أضعف المخلوقات من قبيل الذبابة أو النملة أو حتى المكروب الذي تصعب مشاهدته بالعين المجردة بحيث يمرض الإنسان بمرض يعي الأطباء عن علاجه، وعليه فوصف ما سوى الله بالقوة إنما هو وصف مجازي والقوى بالمعنى الحقيقي هو الله. وهذا ما أكدته الآية ١٦٥ من سورة البقرة:

«أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» وقال في الصفة الرابعة:

«وكل مالك غيره مملوك»

لأن الملكية الحقيقية تتبع من الخلق؛ فالمالك الحقيقي من خلق كافة الكائنات التي لا تحتاج إليه في بداية خلقها فحسب، بل تحتاج إليه في بقائها واستمرار حياتها. ومن هنا فان ملكية غير الله اعتبارية ومجازية، وبعبارة أخرى: إذا ملكنا شيئاً فإن الله هو الذي ملكناه، وإلا فلا يملك أحد حتى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله شيئاً، ومن هنا قال: «لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ» [٦١]، كما صرحت الآية ٦، من سورة آل عمران: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وقال في الصفة الخامسة

«وكل عالم غيره متعلم»

لأن علمه سبحانه ذاتي وهو الذي يفيض العلوم على النفوس، وعليه فلم يسبق بجهل ليعلم وليس لعمله من حدود، بل علمه عين ذاته لامتناهى؛ بينما لكل ما سواه علم مبسوق بجهل. فلم يكن للإنسان علم حين لم يكن موجوداً، فلم وجد أودع الله فطرته بعض العلوم، كما حصل على بعض العلوم أيضاً عن طريق الحس والتجربة، كما تعلم على يد الآخرين، والأنواع الثلاثة تشكل نوعاً من أنواع التعلم، وعليه فجميع العلماء - سوى الله - متعلمون، والذات الإلهية فقط الموصوفة بالعلم الازلي اللامتناهي. القرآن الكريم من جنبه قال: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [٦٢] وقال في الصفة السادسة:

«وكل قادر غيره يقدر ويعجز»

ودليل ذلك عدم تناهي ذاته ومحدودية ماسواه، فلما كانت قدرته عين ذاته فهي مطلقة لامتناهى، أما غيره فقدرتة محدودة مهما كان، وعليه فهو يقدر على بعض الأشياء ويعجز من غيرها، بل قد يقوى على القيام بأمر في ظروف ويعجز عن

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٤٣

القيام به في أخرى ومن هنا نقف على زيف المغالطة التي تتساءل إذا كانت قدرة الله مطلقاً إلى هذا الحد فهل يسعه أن يحصر هذا العالم في بيضة دون أن يصغر شيء من العالم أو تكبر البيضة، فالسؤال خاطئ، لأن مفهومه هل يستطيع الله أن يكبر الدنيا وتكون البيضة بهذا الحجم ويكبرها لتسع الدنيا، بعبارة أخرى كأن السؤال هل أن الله قادر على أن يصغر الدنيا ولا يصغرها في نفس الوقت ويجعل البيضة بقدر الدنيا وفي نفس الوقت لا يجعلها كذلك؟ ومن الطبيعي ألا يكون هناك جواباً للسؤال الخاطئ. ويبدو أن مثل هذا

السؤال قد طرح على أمير المؤمنين عليه السلام:

«هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟ فقال عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز والذي ذكرت لا يكون» [٦٣]

وزبدة الكلام فإن قدرة الله ذاتية وغير محدودة وأزلية وأبدية، وكل ما غيره منه، وليس له من قدرة سوى ما يفيضها عليه. وقال في الصفة السابعة:

«وكل سمع غيره، يصم عن لطيف الأصوات ويصمه كبيرها، ويذهب عنه ما بعد منها»

فالسمع لدى الإنسان إنما يحصل عن طريق انتقال الأمواج والذبذبات بواسطة الأذن الخارجية والداخلية والصيوان وطبله الأذان وسائر أعضائها، ولما كانت هذه الأعضاء محدودة، فإن سمعه هو الآخر محدود لا يسعه إنلقاط كافة الأصوات، وكما صرح بعض العلماء من ذوى الاختصاص بان الأذن لا يسعها سماع سوى الاصوات التي تتراوح أطوالها الموجية بي ستة عشر إلى عشرين ألف ذبذبة في الثانية، أى لا يسع الإنسان إدراك ما قلّ عن ست عشرة ذبذبة في الثانية، كما لا يسعه إدراك ما تجاوز العشرين الف ذبذبة في الثانية. طبعاً هذه الذبذبات ليست واحدة لدى جميع الكائنات، فهناك بعض الحيوانات التي لها سمع يفوق نيره لدى الإنسان، فهي تسمع حتى الأصوات ذات الأطوال الموجية الأقصر، مع ذلك لا يسعها سماع جميع الأصوات. أضف إلى ما تقدم فإن الأطوال الموجية إذا بلغت حداً فإنها قد تشق غشاء الأذن وتقضى على حس السمع لديه،

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٤٤

ومن هنا نرى بعض العسكريين يضعون أصابعهم فى آذنهـم ويبتعدون عن الأماكن التي يفجرون فيها الأسلحة حذراً على سماعهم. وأخيراً فإن سمع الإنسان يضعف كلما ابتعد عن مصدر الصوت مهما كان عظيماً، ومن هنا يوصف السمع بالعجز، فالواقع هنالك ما لا يحصى من الاصوات التي تحيط بنا إلا أننا نعجز عن سماعها. أما سمع الحق سبحانه فلا يحتاج إلى واسطة ووسيلة، وسمعه جزء من علمه، أى أنه عليم بجميع الأصوات، فلا يحجزه سمع صوت عن آخر، ولا يؤذيه صوت ولا يبتعد عنه آخر، وكلها لديه على السواء: «قال ربى يغلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم» [٦٤]. وقال فى الصفة الثامنة:

«وكل بصير غيره يعمى عن حفى الألوان ولطيف الاجسام»

فالباصرة لدى الإنسان وسائر الكائنات تحصل بواسطة العين التي تتشكل من عدة طبقات لكل منها وظيفة خاصة من قبيل الشبكية والقزحية والبؤبؤ التي تتعاقد جميعاً لرؤية الصور فى الخارج، مع ذلك فهناك أنواع من الأشعة التي يتعذر على العين رؤيتها، ناهيك عن إنعدام الرؤية لديها فى الظلام، فى حين لا يخفى على الله شىء وهو محيط بجميع الأشياء «ليس كمثله شىء وهو السميع البصير» [٦٥] فالسمع والبصر الحقيقي إنما يختص بالذات الإلهية المقدسة وقال فى الصفتين الأخيرتين:

«وكل ظاهر غيره باطن، وكل باطن غيره غير ظاهر»

وهذه الصفات تستند فى الواقع إلى ذاته اللامتناهية ومحدودية ذوات ما سواه، فلما كانت ذاته القدسية لامتناهية فان آثاره شملت جميع عالم الوجود وساد ظهوره المطلق كل زمان ومكان، أما سائر الكائنات فمهما كان لها من ظهور فهو محدود، ومن هنا يمكن القول بأنها توصف بالظهور والخفاء، فهناك الكواكب والمجرات التي تفوق بحجمها الشمس وتفوقها نوراً وضوءاً، إلا أننا لانرى لها أى أثر، والعكس صحيح فاذا تجاوزنا قليلاً دائرة المنظومة الشمسية لبدت لنا الشمس باهتة حتى تنعدم بالمرّة إضافة إلى ذلك، فإن كل هناك من ظهور لشيء - مهما كان نسبياً ومحدوداً - فان ذلك بركة وجود الله، وإلا فجميع الممكنات مظلمة وقاتمة فى ذاتها، ونور الله هو الذى يمنحها هذا الظهور، هو بالضبط كذرات الغبار المعلقة فى الهواء المعدومة الرؤية إلا أنها تبدو للعيان وتظهر إذا ما

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٤٥

إخترقت أشعة الشمس ادنى ثقب فى الغرفة. أما ما قاله الإمام عليه السلام:

«وكل باطن غيره غير ظاهر»

إشارة إلى هذه الحقيقة وهي أن الذات الإلهية الخافية على جميع الكائنات بما فيها الأنبياء والأولياء والخارجة حتى عن حدود العقل، إلّا أنّ آثارها قد سادت جميع الوجود بما جعلها ظاهرة، بينما تفتقر سائر الوجودات للظهور إذا كانت خافية باطنية، ولو كانت ظاهرة لما كانت باطنية، فالإنسان مثلاً ليس عارياً إذا كان مستوراً، كما أنّ العارى ليس مستوراً، والذات الإلهية فقط المستورة في عريها والعارية في سترها. [٤٦] وقد قال القرآن الكريم في الآية الثالثة من سورة الحديد «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ».

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٤٧

القسم الثاني: تجليات جلال الله وجماله

إشارة

«لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلَا تَخَوُّفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ، وَلَا اسْتِعَانَةٍ عَلَى نِدِّ مَثَاوِرٍ، وَلَا شَرِيكِكَ مُكَاتِرٍ، وَلَا ضِدِّ مُنَافِرٍ، وَلَكِنْ خَلَاتِقُ مَرْبُوبُونَ، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ، لَمْ يَخْلُقْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيْقَالَ: هُوَ كَائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيَقَالَ: هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ، لَمْ يُوْذِهِ خَلْقٌ مَا ابْتَدَأَ، وَلَا تَدْبِيرٌ مِمَّا ذَرَأَ وَلَا وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ، وَلَا وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيمَا قَضَى وَقَدَّرَ، بَلْ قَضَاءٌ مُتَّقَنٌ، عِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ، الْمَأْمُولُ مَعَ النَّعْمِ الْمَرْهُوبُ مَعَ النَّعْمِ».

الشرح والتفسير

يواصل الإمام عليه السلام حديثه عن الصفات الإلهية ذات الأثر التربوي في حياة الإنسان فقال عليه السلام

«لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان، ولا تخوف من عواقب زمان، ولا استعانة على نداء ماثور، ولا شريك مكاتر، [٤٩] ولا ضد منافر [٧٠]»

، إننا غالباً ما نرتكب بعض الأخطاء بحق صفات الجلال والكمال من جراء مقارنتنا للأشياء بوجودنا وصفاتنا وأفعالنا، فنعتقد مثلاً بأن أفعال الله على غرار أفعالنا تهدف النفع وقضاء الحاجة، والحال أن وجوده مطلق

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٤٨

غنى من جميع الجهات ومن هنا كان جامعاً لجميع الكمالات وليس للنقص والحاجة من سبيل إلى ذاته المقدسة. وبناءً على ما تقدم فإن أفعاله ليست من قبيل أفعالنا، ولما كان الله فاعلاً حكيماً، فإن أفعاله منزهة من العبث ولا بد من تحرى أهداف أفعاله خارج وجوده وبالنظر إلى عبادته. والوصف الذى تضمنته العبارة قد أشار إلى هذا الأمر، حيث ينفي عن أفعال الحق سبحانه كافة الأهداف التى تستبطن رفع الحاجة والنقص. فهدفنا من أغلب أفعالنا هو مضاعفة قدراتنا واستزادة قوتنا، وأحياناً هدفنا التحسب لبعض المساوئ والعقبات التى قد تلوح فى آفاق مستقبلنا، وقد يكون اللهم بالغلبة على من ينددون ضعفناً أو يهبون لمواجهتنا من نظرائنا، وقد يكن الوقوف بوجه من ينافسنا من الأفراد الذين يعيشون من حولنا، وأخيراً فقد نهدف إلى إزالة بعض العقبات التى تعترض طريقنا، ومن هنا فإن كافة أفعالنا إنما تفرزها طبيعة مثل هذه الأهداف. أما الوصف الذى أوردته الإمام عليه السلام بشأن الله سبحانه إنما يشير إلى أن أفعاله لا تستند لأى من هذه الأهداف. فليس هنالك من ضعف فى قدرة الله ولا يخشى من أحداث المستقبل، وليس له من شبيه أو نظير يسعه منافسته، وليس له من يطمع فيه من شريك وأخيراً ليس هنالك من موانع أو عقبات تعترض طريقه، وليس لهذه الامور من سبيل إلى ذاته، بل وجودنا الناقص بالذات إنما يصاب بهذه الامور. وهنا يبرز هذا السؤال وهو إذا كانت جميع هذه الامور منتفية على الله سبحانه، فما هدفه من الخلق؟ ورد الرد على هذا السؤال فى العبارة اللاحقة من الخطبة

«و لكن خلّاتق مروبون، وعباد داخرون» [٧١]

نعم فليس هدف الله من الخلق تحقيق نفع، بل هدفه الجود على العباد؛ الأمر الذي أكدته التعبير «مربوبون»

في العبارة الذي يعطى معنى التربية والتكامل، كما أشير إلى المعنى المذكور أيضاً بقوله «عباد داخرون»

، وذلك لأنَّ تكامل الإنسان إنما يمر عبر عبوديته. وبناء على هذا فان العباد والمخلوقات ليست شبيهة ومضادة لله فقط، بل هي تستفيض من رحمته الله ولطفه وفضله. ثم قال عليه السلام:

«لم يحلل في الأشياء فيقال: هو كائن، [٧٢] ولم ينأ [٧٣] عنها فيقال: هو منها

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٤٩

بائن»،

وبالنظر إلى أن الذات الإلهية منزّهة عن المكان والزمان فان هذين الوصفين يعدان من النتائج الحتمية. فليس هنالك من موضع يحتاج إليه ويحل فيه من تنزهت ذاته وفاقته الزمان والمكان، ومن هنا يتعذر تصور البعد والقرب عليه سبحانه، فكل هذه الامور إنما تصدق على الأشياء المحدودة، فاذا حلت في مكان قربت من شئ وبعدت عن آخر، أما الذات الإلهية المقدسة فهي مطلقة لامتناهية حاضرة في كل مكان وهي قريية من كل شئ ولا يحويها مكان؛ الأمر الذي ورد في القرآن: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» [٧٤] وجاء فيه أيضاً «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» [٧٥] وكذلك «وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» [٧٦]. ومن الواضح أن لهذه الصفات الكمالية أثرها البالغ في تربية الإنسان، حيث يرى الله سبحانه معه أينما كان فيتخرج من مقارفة الذنب والمجاهرة بالمعصية. ثم قال عليه السلام:

«لم يؤده خلق ما ابتداء، ولا تدبير ما ذراً، ولا وقف به عجزاً عما خلق»

فقد أشارت العبارة إلى بعض الامور المهمة التي تعود جميعاً الى قدرته الازلية. الأول أن الخلق الأول الذي يتطلب قدرة أكثر لم يشق عليه سبحانه (لم يؤده من مادة أود على وزن عود بالفتح يعني الثقل)، والآخر أن ربوبية الخلق وتدبير شؤونه لم يخلق له أية صعوبة أو مشكلة، وأخيراً أن قدرته لم تنفذ من جراء خلقه لكل هذا الخلق، بل له أن يخلق ما لا نهاية من العوالم بقوله:

«كُنْ» «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [٧٧]. ويمكن أن يكون للعبارة الأخيرة معنى آخر وهو أن خلق هذه المخلوقات لم يعجزه عن إدارتها؛ وتكون العبارة في هذه الحالة تأكيد لما ورد في العبارة السابقة. وهذه الصفات هي الاخرى نابعة من ذاته اللامتناهية؛ لأنَّ العجز والتعب والثقل إنما يصدق على الذات المحدودة القدرة التي تسعى للقيام بما يفوق

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٥٠

قدرتها؛ وليس هنالك من مفهوم للصغير والكبير والثقل والخفيف والسهل والصعب على الذات اللامتناهية القدرة- ثم قال عليه السلام:

«ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر، بل قضاء متقن، وعلم محكم، وأمر مبرم»

فالإنسان وبعلمه المحدود قد يتخذ قرارا مهما وحاسما إلا أنَّ تكشف بعض الحقائق قد تشنيه عن ذلك القرار، كما يقف أحياناً على عمق خطاه فلا يواصل الطريق الذي ابتدأه. أما من كان علمه أزلي ولا يخفى عليه شئ في عالم الوجود ولا تتكشف له حقائق جديدة، وله إحاطة تامة وكل زمان ومكان حاضر عنده، فليس من سبيل للشبهة والشك إلى تدبيره وعزمه وتقديره. ونقول مرة أخرى أن هذه الصفة تستند إلى كون الذات والصفات الإلهية لامتناهية. ثم يختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالقول:

«المأمول مع التَّعَمُّ، المرهوب مع التَّعَمُّ»

وهذا ما أشار إليه القرآن مرارا وكرارا ومن ذلك قوله: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» [٧٨] وقوله «أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ

يَأْتِيَهُمْ بِأَسْنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ* أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ» [٧٩]. نعم فان المشاكل مهما بدت معقدة أمكن حلها بلطف الله وفضله، والنعم مهما كانت واسعة شاملة فان قبضها ليس صعب على الإرادة الإلهية. وعليه فلا يمكن اليأس عند البلاء والشدة، ولا الغفلة عند الرفاه والنعمة ومن هنا فان المؤمن يعيش الخوف والرجاء على الدوام في حياته. والصفات الأخيرتان تستندان أيضاً إلى الذات والصفات اللامتناهيّة، فلما كانت قدرته لامتناهيّة فانّ حل الصعاب سهل يسير عليه سبحانه كما سهل عليه سلب النعم ممن يكفرها. فأدنى زلزال يمكنه أن يقضى على منطقته برمتها، كما أن مرضاً خطيراً يمكنه أن يودى بحياة الآلاف بل الملايين من الأفراد، أو أن برودة أو حرارة يمكنها أن تميت الآلاف الأشخاص.

نقطة مهمة: الآثار التربوية لمعرفة الله

مما لا ريب فيه ان معرفة الله سبحانه وتعالى، والاحاطة باسمائه وصفاته، لها أهمية كبيرة،

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٥١

وكل أحد يجب أن يستفيد أتم الفائدة من هذه المعرفة، وبتعبير آخر «إن نفس المعرفة تمثل الطريق إلى التكامل والقرب من الله سبحانه وتعالى»، ولكن، وفي هذه الحالة يجب أن لا ننسى بأن الاهتمام بصفات الجمال والكمال لها تأثير مهم في تربية النفوس الانسانية والاتجاه إلى الكمال المطلق، وتسوق الانسان إلى مرحلة الوصول إلى المثل، ولو كان بدرجات متدنية جداً. وبعبارة أوضح: عندما نقول بان الله عالم وقادر ومهيمن ونحده لقدرته ونثنى عليه لهيمنه وملكوته، فكيف نرتضى لانفسنا ان نعيش في جهل مطلق وضعف وعدم مقدرة كاملة؟

ان حمدنا وتقديرنا لله من شأنه أن يزيد في عزتنا وكمالنا واقتدارنا، ويدعونا إلى الرفعة والمنزلة العالية، وهذا كله في باب «صفات الذات».

أما عن «صفات الافعال»، فعندما نحمد الله لرحمانيته ورحيميته، ونقول «رَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ»، بل لقول: ان رحمته الخاصة بالرغم من كونها تختص بعباده من أهل التقوى والايمان، الا أن رحمته العامه، تشمل العدو والصديق وان مائدة رحمته ونعمته اللامتناهيّة وسعت كل شيء.

فكيف يمكننا ان نستفيد من هذه الصفه الرفيعة والسامية، لكننا لا نرحم صديقنا ولا عدونا، بل ان قلوبنا في بعض الاحيان خالية من أى نوع من الرحمة؟

ومن هنا فان الاهتمام بكافة الصفات الكمالية، سواء صفات الذات أو صفات الافعال، وهي «الجود والسخاء والمغفرة والعزة والعفو والاحسان، وامثالها» والتي بإمكانها ان تكون شعاعاً ينعكس في وجودنا فيجذبنا اليه.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٥٣

الخطبة [٨٠] السادسة و الستون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

في تعليم الحرب والمقاتلة

والمشهور أنه قاله لأصحابه ليلة الهير، [٨١] أو أول اللقاء بصفين

نظرة إلى الخطبة

بين الإمام عليه السلام في هذه الخطبة أساليب الحرب وفنون القتال بعبارات جزلة واضحة إلى جانب التأكيد على القيم الروحية والمثل المعنوية التي تشكل الدافع للقتال وتسوق المقاتل إلى التضحية في سبيل الله، كما أشار ضمناً إلى أحداث معركة صفين والوظائف التي ينبغي أن يمارسها المؤمنون في تلك الواقعة وقد اختلفت أقوال الشراح بشأن زمان الخطبة، فذهب ابن أبي الحديد إلى أن الإمام عليه السلام خطبها - حسب أغلب الروايات - ليلة الهرير، بينما ذكر نصر بن مزاحم أنه خطبها أول صفين في شهر صفر عام ٣٧ هـ وروى مؤلف كتاب مصادر نهج البلاغة عن الطبري صاحب كتاب بشارة المصطفى - من علماء القرن السادس للهجرة - أن ابن عباس قال: عقم النساء أن يأتين بمثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ما كشفت النساء ذبولهن

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٥٤

عن مثله، لا والله ما رأيت فارساً يوزن به لرأيته يوماً ونحن معه بصفين، وعلى رأسه عمامة سوداء، وكان عينيه سراجاً سليطاً. تتوقدان من تحتها، يقف على شردمة شردمة يخطبهم، حتى إنتهى إلى نفرأنا فيهم، وطلعت خيل لمعاوية تدعى بالكتيبة الشهباء، عشرة آلاف دارع على عشرة آلاف أشهب، فاقشعر لها الناس لما رأوها، وانحاز بعضهم إلى بعض، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: فيما الخنع والنخع - يا أهل العراق - هل هي إلا أشخاص ماثلة فيها قلوب طائفة لو مستها سيوف أهل الحق لرأيتموها كجراد بقيعة سفته الريح في يوم عاصف، ألا فاستعشروا الخشية، وتجلبوا السكينة، ادعوا الصبر، وغضوا الأصوات، وقلقلوا الأسياف في الأعماد قبل السلة.... [٨٢]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٥٥

القسم الأول: طائفة من الفنون القتالية

إشارة

«مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ اسْتَشْعِرُوا الْحَشِيَّةَ، وَتَجَلَّبُوا السَّكِينَةَ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِدِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلْسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ. وَأَكْمَلُوا اللَّأْمِيَّةَ، وَقَلَّبُوا السُّيُوفَ فِي أَعْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا، وَالْحَظُّوا الْخَزَرَ، وَأَطْعَمُوا الشَّرَّزَ، وَنَافِحُوا بِالطُّبِيِّ، وَصَلُّوا السُّيُوفَ بِالْخُطَا».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى تسعة من أساليب وفنون القتال العملية في ساحة المعركة فقال عليه السلام:

«معاشر المسلمين استشعروا الخشية، وتجلبوا السكينة»

إستشعروا من مادة شعار من الثياب ما يكون دون الدثار وهو يلي الجلد، أى اجعلوا الخوف من الله تعالى شعاركم، وتجلبوا من مادة جلباب الثوب المشتمل على البدن وعادة ما يطلق على الثوب الذى تستر به المرأة رأسها وعنقها وبعض صدرها وظهرها، وهو أطول من الخمار وأقصر من الرداء. فالأمر الأول الذى يؤكد الإمام عليه السلام وجوب اختلاطه بروح المقاتل وقلبه هو خوف الله وخشيته والشعور بالمسؤولية تجاه أوامر الله فى طاعتها وإمتثالها، ولعل هذا أهم الدوافع التى ينبغى أن يتحلى به المقاتل المؤمن فيمنحه الثبات والصمود تجاه العدو. الأمر الثانى الذى أكده الإمام عليه السلام هو أن يتحلى المقاتل بالسكينة والحلم والوقار، وذلك لأن أدنى اضطراب فى ميدان القتال أمام العدو إنما يكشف عن الضعف والعجز، وهذا ما يجعل العدو فى مطمع من إقتحام الميدان واللجوء إلى الهجوم. والواقع أن الأفراد الأقوياء والشجعان يتصفون دائماً بالتماسك وضبط النفس، بينما يعيش الضعفاء والجنباء حالة من الاضطراب والقلق على الدوام. وقد قال

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٥٦

القرآن الكريم بشأن السكينة وأهميتها: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» [٨٣] وهذه السكينة كانت هى العامل الذى وقف وراء إنتصار المسلمين فى كافة الغزوات التى

خاضوها ضد معسكر الكفر والشرك، وهي التي شدت أزر النبي صلى الله عليه وآله أثناء تلك الشدائد كدخوله صلى الله عليه وآله إلى غار جبل ثور وكان العدو يقف على باب الغار بحثاً عنه. ثم قال عليه السلام:

«وعضوا على التواجد، فإنه أنبي [٨٤] للسيوف عن الهام [٨٥]»

قوله عليه السلام

«عضوا على التواجد»

جمع ناجذ وهو أقصى الأضراس، وللإنسان أربعة نواجذ في كل شق، ويسمى الناجذ ضرس الحلم، لأنه ينبت بعد لبلوغ وكمال العقل، ويقال إن العاض على نواجذه ينو السيف عن هامته نبوأمًا، وهذا ممًا يساعد التعليل الطبيعي عليه، وذلك أنه إذا عض على نواجذه تصلبت الأعصاب والعضلات المتصلة بدماغه، وزال عنها الاسترخاء، فكانت على مقاومة السيف أقدر، وكان تأثير السيف فيها أقل وصرح بعض شراح البلاغة قائلًا: هذا كلام ليس على حقيقته، بل هو كناية عن الأمر بتسكين القلب وترك اضطرابه واستيلاء الرعدة عليه. ثم قال عليه السلام:

«وأكملوا اللأمة» [٨٦]

، اللأمة بالهمزة الدرع، وإكمالها أن يزداد عليها البيضة والسواعد ونحوها، ويجوز أن يعبر بالأمة عن جميع أداة الحرب، كالدرع والرمح والسيف، وأراد الإمام عليه السلام بهذه العبارة:

أكمل السلاح الذي تحاربون العدو به. ثم قال عليه السلام:

«وقلقلوا [٨٧] السيوف في أغمادها [٨٨] قبل سلها»

فالعبرة تنطوي على أهمية قصوى وان بدت صغيرة للوهلة الأولى وذلك لثلا يدوم

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٥٧

مكثها في الاجفان فيصعب سلها وقت الحاجة إليها، الأمر الذي قد يؤدي إلى بعض الأخطار التي لا يمكن معالجتها في ساحة الحرب. ثم قال عليه السلام:

«و الحظوا الخزر، واطعنوا الشزر»

الخزر أن ينظر الإنسان بعينه، وكأنه ينظر بمؤخرها وهي أمانة الغضب، كما تستعمل أحياناً حين عدم الإكتراث، وقائده مثل هذا الاسلوب في ميدان القتال أولاً: إشعال وتأجيج نيران الغضب في الباطن بحيث تشحن كافة القوى الداخلية وتتضاعف طاقة الإنسان وقدرته، والآخر أن النظر بكامل العين يدل على الخوف والوهن والعجز، الأمر الذي يجعل العدو أكثر جرأة وجسارة. وشزر على وزن نذر بمعنى الشنت وأكثر ما تستعمل لفظه الشزر في الطعن عن اليمين والشمال، ولعل الإمام عليه السلام أراد سلب إحساس العدو بالأمن فيما إذا تركزت ضربات المجاهدين على جانب واحد، كما يتأهبوا لتسديد الضربات الاجهاضية. فالواقع إن مثل هذه العبارات تكشف مدى خبرة الإمام عليه السلام بفنون القتال وخطط الحرب. ثم إختتم وصاياه بالقول:

«ونافحوا بالظبا، وصلوا السيوف بالخطا»

نافحوا من النفع على وزن الفتح بمعنى النفع كناية عن شدة الاقتراب من العدو، والظبا طرف السيف وحده، والمراد كافحوا وضاربوا. والمراد بقوله عليه السلام:

«صلوا السيوف بالخطا»

أن اليد قد لا تكفي أحياناً لضرب العدو بالسيف ولا بد من التقدم بضع خطوات والضرب بالسيف.

تأمل: الفنون القتالية في الماضي والحاضر

تمثل الفنون القتالية في الوقت الراهن علماً من العلوم المهمة التي ينبغي تدريسها في الكليات العسكرية وتعلمها على مدى سنوات وممارستها في ساحات التدريب، فالواقع أن تجاهل مثل هذه الفنون لا يجعل أعظم الجيوش أن تتقدم في ميادين القتال وإن جهز بأحدث الاسلحة المتطورة. ومن هنا كان أتباع المدرسة الإسلامية مطالبين بتعلم كافة هذه الفنون من أجل الدفاع عن مبادئ الدين ومصالح البلاد، ولعل ذلك يمثل واجباً كفائياً، بل واجباً عينياً.

فمما لا شك فيه أن الأسلحة لم تكن بهذا التعقيد كما لم تكن الفنون والخطط الحربية بهذه الدقة

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٥٨

التي هي عليها اليوم، مع ذلك فقد كانت لتلك الحروب أساليبها وقوانينها التي عرض الإمام عليه السلام بالشرح إليها، والتي تكشف عن مدى خبرة الإمام عليه السلام ومراسه للحرب. ولعل هنالك من يقول أن تعلم فنون القتال إنما يؤدي إلى سفك المزيد من الدماء، الأمر الذي أكد عكسه في الوصايا والتعاليم الإسلامية ولا سيما الاوامر الحربية، حيث تحرص هذه التعاليم على الدماء وتدعو إلى الحد قدر المستطاع من سفك الدماء. والجواب إن ماورد في هذه الخطبة أما يمثل الامتداد الطبيعي لتلك التعاليم، لأن المقاتل إذا ألم بأساليب القتال وفنونه أمكنه تحقيق النصر الخاطف السريع على العدو بأقل التضحيات. أضف إلى ذلك فان العدو إذا وقف على قدرة الخصم ومهارته في فنون القتال واستماتته من أجل الأهداف الإسلامية قد يركع ويستسلم فيرجح السلام على الحرب، الأمر الذي يحسم المعركة ويقلل من سفك الدماء.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٥٩

القسم الثاني: الثبات والمقاومة

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بَعِثَ اللَّهُ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَعَاوَدُوا الْكُرَّ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ، فَإِنَّهُ عَارٌّ فِي الْأَعْقَابِ، وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ وَطِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْسًا، وَأَمْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْيًا سُجْحًا، وَعَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ، وَالرَّوَاقِ الْمُطَنَّبِ، فَاضْرِبُوا تَبَجَّهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ، قَدْ قَدَّمَ لِلْوُثْبَةِ يَدًا، وَأَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلًا. فَصِيْ مَدًّا صِيْ مَدًّا! حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ «وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَّركُمْ أَعْمَالُكُمْ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة برفع معنويات جنده وأوصاهم بالثبات في القتال بغية إستئصال شأفة العدو فقال لهم:

«و اعلموا أنكم بعين الله»

فاذا علم الإنسان أنه بعين سيده القادر على كل شئ والمحيط به فانه يستلهم منه العزم والقوة وعدم الشعور بالوحدة من جانب، ومن جانب آخر يلفت نظره إلى عظم المسؤولية والوظيفة التي ينبغي أن ينهض بعينها. وقد ورد هذا المعنى في قصة نوح عليه السلام حين أمر بصنع السفينة «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا» [٨٩] في إشارة إلى أن العدو قد يحاول أن يعيقك عن القيام بهذا العمل من خلال السخرية والاستهزاء، أو من خلال ممارسة الحرب الدعائية والضغط النفسي، فلا تكثر لهذه الامور ولا تخف فانك تعمل وفق المشيئة الإلهية الغالبة. وهو ذات المعنى الذي ألمحت إليه

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٦٠

الآية الشريفة: «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا» [٩٠] في إطار رباطه جأش النبي الأكرام صلى الله عليه وآله حيال تكالب الأعداء. ثم قال عليه السلام:

«و مع ابن عم رسول الله»

ابن عمه الموصوف باخوته ووصيه ومن كان يتبعه اتباع الفصيل إثر امه. وعليه فلا ينبغي أن تشعروا بأدنى شك وترديد في مسيرتكم فاندفعوا بكل ما أوتيتهم من قوة لقتال عدوكم، هذا في الوقت الذي يمثل فيه عدوكم سلالة أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله، فوالد معاوية هو أبو سفيان الذي كان أعدى أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه فهو غاصب للخلافة لا بد من مقاتلته وإعادته إلى الحق. أمّا تأكيد الإمام عليه السلام على قرابته من النبي صلى الله عليه وآله ورغم كونه أمراً متعارفاً لدى العقلاء- الذين يرون قرابة الشخص أعلمهم بما جاء مالم يقم الدليل على خلافه- إلا أنه يمكن أن يكون إشارة إلى حديث الثقلين الذي جعل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله أهل بيته في مصاف القرآن ودعا الأمة إلى وصيتين هما في الواقع بمثابة اللازم والملزوم، فقال:

«فعاودوا الكفر، واستحيوا من الفرّ، فإنّه عارٌّ في الأّعقاب، ونازٌّ يوم الحساب»

فالعدو قد لا ينهار من كرة واحدة ولا بدّ من الكرة تلو الكرة لضعاف العدو والقضاء عليه من جانب، من جانب آخر لا تحدثوا أنفسكم أبداً بالفرار من جهات القتال، فإنّ ذلك عار يوصم به جبينكم كما تجروه على أعقابكم من بعدكم فان الابناء يعيرون بفرار آبائهم [٩١]، وبغض النظر عن ذلك فان هذا الفرار سيكون وبالاً عليكم يوم الحساب فتردون النار، لأنّ الفرار من الزحف يعد من الكبائر، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر بقوله: «يا أيّها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأذبار* ومن يولّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئه فقد باء بغضبٍ من الله ومأواه جهنّم وبئس المصير» [٩٢]. ثم يؤكد عليه السلام الجهاد بأمرين من قبيل اللازم والملزوم أيضاً فيقول:

«و طيبوا عن أنفسكم نفساً» [٩٣] و امشوا إلى الموت مشياً سجيحاً»

سجح على وزن صحف

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٦١

تعنى المستقيم وهي تستعمل بشأن الطرق المستوية والمستقيمة، ولما كان المشى سهلاً في مثل هذه الطرق فإنها تطلق على السهل أيضاً. ومن هنا ورد في المثل العربي المعروف «ملكك فاسجح».

فالإمام عليه السلام يرى أنّ الشهادة في سبيل الله ضالة أهل الإيمان، فيؤكد عليهم عدم الاكتفاء برفض الخشية والخوف من الشهادة، بل لا بدّ من إستقبالها بكل رحابة صدر، فطريقها سهل ويسير ولا بدّ من ركوبه لمعانقتها. وقد كان الإمام عليه السلام نموذجاً بارزاً لهذا الكلام حتى أقسم قائلاً:

«والله لابن ابى طالب أنس بالموت من الطفل بثدى أمه» [٩٤]

وهو الذي صرح عند ما ضربه ابن ملجم:

«فرت وربّ الكعبة».

ثم قال عليه السلام في إشارة إلى مركز تجمع جيش الشام والخيمة التي تربع داخلها معاوية:

«وعليكم بهذا السواد الأعظم، والرواق المطّب، فاضربوا ثبجه»

فقد يطمع العدو وتشتد شوكته لو حمل عليه من هنا هناك مع مراعاة الحذر والاحتياط، وعلى العكس من ذلك لو كانت الحملة مصوبة إلى قلب عسكر العدو لانهارت روحية العدو وتحطمت معنوياته، فإنّ الهجوم على المركز يكشف عن مدى القوة والاقترار، ومن هنا إستفاد الإمام عليه السلام هذه القضية النفية ليأمر جيشه بالهجوم على قلب العدو ومركز قيادته. والسواد الأعظم كناية عن التجمع الكبير الذي يبدو أسوداً من بعيد، والمراد به هنا عسكر الشام. الرواق على وزن كتاب غراب الفسطاط، وهو هنا إشارة إلى الخيمة الكبيرة المضروبة لمعاوية، المطنّب المشدود بالأطناب جمع طنّب بضمّتين وهو جبل يشد به سرادق البيت والنج بالتحريك الوسط وقوله عليه السلام:

«فاضربوا ثبجه»

تعنى الهجوم على قلب جيش الشام وخيمة معاوية. ثم أورد الإمام عليه السلام الدليل على ما قال:

«فإن الشيطان كامنٌ في كسره [٩٥] وقد قدّم للوثبة [٩٦] يداً، وأخر للنكوص [٩٧] رجلاً»

، والمراد بالشيطان هنا معاوية حيث جمع الأفكار والأعمال الشيطانية بينما ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنه أراد بالشيطان عمرو بن العاص، كما قيل قد يراد به الشيطان الحقيقي

«ابليس»

الذى كان يتلاعب بمعاوية وعسكره آنذاك. وقد صور الإمام عليه السلام بهذه العبارة روحية معاوية الذى كان يعد نفسه للهجوم من جهة وهو يهيم بالنكوص والفرار من جهة

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٦٢

أخرى؛ ولا غرو فهذه هو الاسلوب المتبع لدى الساسة الماديين، فليس لهم من هدف مقدس يقاتلون من أجله، ومن هنا يهربون هروب الشاة من الذئب إذا ما جابهتهم ثلة من المؤمنين.

فقد صرح القرآن الكريم بشأن أعوان الشيطان فى مجابتهم للمؤمنين وكيفية تخلى الشيطان عنهم قائلاً: «وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا- غالب لكم اليوم من الناس وإني جاوركم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب» [٩٨] ولا يقتصر هذا الأمر على الشيطان- ابليس- فهذا هو ديدن شياطين الانس الذين يزجون باتباعهم فى الأحداث الساخنة ثم يخذلونهم فى الظروف الحرجة. ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلاً:

«فصمداً صمداً! [٩٩] حتى ينجلي لكم عمود الحق «وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم»»

فالواقع إن هذه العبارة تمثل نتيجة لما أوردته الإمام عليه السلام ودعا إليه صحبه؛ أى أنكم قد وقفتم الآن على التعليمات الكافية والفنون القتالية وكيفية الهجوم على مركز تجمع العدو، فما عليكم إلا الثبات والصمود والمقاومة لاندحار الباطل وانتصار الحق. ثم يعدهم بالنصر استناداً إلى البشارة التى تضمنتها الآية ٣٥ من سورة محمد صلى الله عليه وآله: «والله معكم ولن يتركم أعمالكم».

وعليه فالخطبة تمثل دروساً عظيمة فى التعرف على أساليب القتال وعناصر النصر دون أن تقتصر على زمان الإمام عليه السلام. ويشير التاريخ إلى مدى التأثير الذى لعبته كلمات الإمام عليه السلام حتى ورد فى كتاب صفين لنصرين مزاحم أن الإمام عليه السلام حين أورد هذه الكلمات ودعا صحبه أثناء صفين للهجوم على أهل الشام انطلق أكثر من عشرة الاف خلف الإمام عليه السلام ووثبوا إلى رماحهم وسيوفهم ونبالهم فانقضوا على جند معاوية حتى إقتربوا من خيمته فكاد يقضى عليه لو لاتلك الخدعة التى عمد إليها ابن

العاص فى رفع المصاحف على أسنة الرماح. [١٠٠]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٦٣

الخطبة [١٠١] السابعة و الستون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

قالوا: لما إنتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله قال عليه السلام: ما قالت الانصار؟

قالوا: قالت: منا أمير، ومنكم أمير؛ قال عليه السلام:

نظرة إلى الخطبة

الخطبة تمثل رداً حاسماً على زعيمين بشأن خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله. الأول وهو اجتماع طائفة من الناس في سقيفة بني ساعدة لتعيين الخلافة دون الالتفات إلى وصية النبي صلى الله عليه وآله بهذا الشأن فطالبت الأنصار بالشورى وأن ينتخب منهم أمير وأخر من المهاجرين. ففند الإمام عليه السلام هذا الزعم بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله. والثاني إستدلال المهاجرين على الأنصار بأحقيتهم بالخلافة. فاستدل عليهم الإمام عليه السلام بنفس إستدلالهم في أحقية أهل البيت عليه السلام بالخلافة إن كان إستدلالهم صحيحاً.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٦٥

«فَهَلَّا اِخْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَصَّى بِأَنْ يُحْسَنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ؟ قَالُوا: وَمَا فِي هَذَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ كَانَ الْإِمَامَةُ الْإِمَارَةُ فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَمَاذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ قَالُوا اِخْتَجَجْتُ بِأَنَّهَا شَجَرَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اِخْتَجَجُوا بِالشَّجَرَةِ وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ».

الشرح والتفسير

الاستدلال المنطقي على الخلافة

أوردنا سابقاً أنّ الإمام خطب بهذه الخطبة لما إنتهت إليه أنباء السقيفة وأنّ الأنصار قالت للمهاجرين منا أمير ومنكم أمير، فقال عليه السلام:

«فَهَلَّا اِخْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَصَّى بِأَنْ يُحْسَنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ، وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ؟» [١٠٢]

فاستفسره الحاضرون

«قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟»

فردّ عليهم الإمام عليه السلام:

«فقال:

لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم»

فمن الواضح أنّ وصية أحد بآخر تفيد أنّ تصريف الامور بيد الموصى إليه، لا بيد ذلك الذي أوصى به. بالضبط كالأب الذي يسافر فيوصى ولده الأ-كبر قائلاً: اوصيك باخوانك خيراً. فمفهوم ذلك أنّي فوضتك القيام بالأعمال وأودعتك إخوانك. وعليه فالذي يستفاد من حديث النبي صلى الله عليه وآله أن الحكومه ليست للأنصار، إلّا أن أصحاب السقيفة لم يلتفتوا لهذا الأمر وانحوا الأنصار بالقوة عن الخلافة. وقد استدل

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٦٦

المتأخرون بمثل هذا الكلام على إثبات صحه دعواهم، ومن ذلك ما رواه ابن أبي الحديد قائلاً:

حين توفي سعيد بن العاص، دخل ابنه عمرو بن سعيد على معاوية، فسأله معاوية: إلى من أوصى بك أبوك؟ فقال عمرو. لقد أوصى إليّ ولم يوص بي. فتعجب معاوية من جوابه وقال:

«إنّ هذا الغلام لاشدق»

فعرف منذ ذلك الحين بين الناس بالاشدق أي الخطيب البليغ. ثم طرح الإمام عليه السلام سؤالاً آخر بهذا الشأن:

«ثم قال: فماذا قالت قريش؟»

فردوا عليه:

«قالوا:

احتجّت بأنها شجرة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ»
 فذهب الإمام عليه السلام إلى أن ذلك حجة عليهم
 «فقال: احتجوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة».

فاذا كانت الشجرة ذات أثر كان ثمرها أعظم أثراً. والعجيب ما أورده الشارح البحراني الذي أورد احتمالين بشأن المراد بالثمره في هذه العبارة: أحدهما على وأولاده، والاخر السنه النبويه التي توجب استحقاق على عليه السلام للخلافه والولاية. فمن الواضح أن الاحتمال الثاني مستبعد رغم موافقته للاحتمال الأول، فاذا كانت الشجرة ترمز للقرب فان ثمرها يكون أكثر قربا، وعليه فليس المراد بهذه الثمره سوى أهل البيت عليه السلام.

تأمل: الخلافة وقصة سقيفة بني ساعدة

روى أن النبي صلى الله عليه وآله لما قبض، اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد قبض، فقال سعد بن عباد لابنه قيس - أو لبعض بني: إني لا أستطيع أن أسمع الناس كلامي لمرضتي؛ ولكن تلق مني قولي فأسمعهم. فكان سعد يتكلم، ويستمع ابنه ويرفع به صوته ليستمع قومه.

قال الطبري ثم خاطب سعد الأنصار وذكرهم بسبقهم إلى الاسلام حين عادته العرب وقد لبث رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث عشرة سنة في مكة فلم يجبه إلا القليل، حتى انبريتم للدفاع عن الاسلام ونصرة النبي صلى الله عليه وآله ووقفتم إلى جانب الحق، إلى أن قبض النبي صلى الله عليه وآله وهو راض عنكم فانتم أولى بالخلافه من غيركم.

فحدثه الحديث، ففرغ أبو بكر أشد الفزع، وخرجا مسرعين إلى سقيفة بني ساعدة؛ وفيها

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٦٧

رجالاً من أشرف الأنصار؛ ومعهم سعد بن عباد فقام أبو بكر فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما بعث عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخالفوه وشاقوه، وخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه الإيمان به والمواساة له، والصبر معه على شدة أذى قومه، ولم يستوحشوا لكثرة عيدهم؛ فهم أول من عيّد الله في الأرض، وهم أول من آمن برسول الله، وهم أولياؤه عترته، وأحق الناس بالأمر بعده، لا ينازعهم فيه إلا ظالم؛ وليس أحد بعد المهاجرين فضلاً وقدماً في الإسلام مثلكم؛ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا نمتاز دونكم بمشورة، ولا نقضى دونكم الامور.

فقام الحباب، وقال:

يا معشر الأنصار، لا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من الأمر، فإن أبوا عليكم ما أعطيتموهم فأجلوهم عن بلادكم، وتولوا هذا الأمر عليهم، فأنتم أولى الناس بهذا الأمر، إنه دان لهذا الأمر بأسياكم من لم يكن يدين له. أنا جدي لها المحكك، وعدي لها المرجب، إن شتمت لنعيدنها جذعة، والله لا يرد أحد على ما أقول إلا لحطمت أنفه بالسيف.

فقال عمر: هيهات! لا يجتمع سيفان في غمد؛ إن العرب لا ترضى أن تؤمركم ونبيها من غيركم.

قال: فلما رأى بشير بن سعد الخزرجي ما اجتمعت عليه الأنصار من تأمير سعد بن عباد - وكان حاسداً له وكان من سادة الخزرج - قام فقال:

أيها الأنصار، إنا وإن كنا ذوي سابقه، فإننا لم نرد بجهادنا واسلامنا إلا ربنا وطاعة نبينا، ولا ينبغي لنا أن نستطيل بذلك على الناس، ولا نبتغي به عوضاً من الدنيا، إن محمداً صلى الله عليه وآله رجل من قريش؛ وقومه أحق بميراث أمره، وإيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر؛ فأتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم.

فقام أبو بكر، وقال: هذا عمر وأبو عبيدة، بايعوا أيهما شئتم؛ فقالا: والله لا نتولّى هذا الأمر عليك.

ولما رأت الأوس أن رئيساً من رؤساء الخزرج قد بايع، قام أسيد بن حضير - وهو رئيس الأوس - فبايع حسداً لسعد أيضاً، وناقسه له أن يلي الأمر، فبايعت الأوس كلها لما بايع

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٦٨

اسيد، وأراد عمر ان يقتل سعدا إن لم يبايع، إلا أنه خشى من تهديد سعد بعد أن نصحه ابوبكر بالكف عنه.

وفسد الأمر فتركوه، فكان لا يصلّي بصلاتهم، ولا يجمع بجماعتهم، ولا يقضّي بقضائهم؛ [١٠٣] ولو وجد أعوانا لضارّ بهم، فلم يزل كذلك حتى مات أبو بكر، ثم لقي عمر في خلافته؛ وهو على فرس، وعمر على بعير، فقال له عمر: هيهات يا سعد! فقال سعد: هيهات يا عمر! فقال: أنت صاحب من أنت صاحبه؟ قال: نعم أنا ذاك؛ ثم قال لعمر: والله ما جاورني أحد هو أبغض إليّ جواراً منك، قال عمر: فإنه من كره جوار رجل انتقل عنه؛ فقال سعد: إنّي لأرجو أن أخليها لك عاجلاً إلى جوار من هو أحب إليّ جواراً منك ومن أصحابك؛ فلم يلبث سعد بعد ذلك إلماً قليلاً حتى خرج إلى الشام، فمات بجوران ولم يبايع لأحد؛ لا- لأبي بكر ولا- لعمر ولا لغيرهما. [١٠٤] والمعروف ان سعد قد قتل بيد خالد بن الوليد بأمر عمر حيث كمن له في الليل ورماه بسهمين ثم القى جسده في بئر وشاع بين الناس ان الجن قتلت سعد بن عبادة. والطريف ما نقل عن مؤمن الطاق (محمد بن النعمان الاحول) المعروف بدفاعه عن أهل البيت حيث سئل لم لم ينازع على ابابكر على الخلافة قال: خشى ان تقتله الجن. [١٠٥]

وقال المرحوم العلامة الاميني بهذا الخصوص «وكان من حشدهم اللهم رجال من الجن رموا سعد بن عبادة أمير الخزرج». [١٠٦] وحين حج عمر سمع من يقول «إن مات عمر بايع فلانا» [١٠٧] فغضب عمر وصعد المنبر ثم قال: لا يقول أحد ذلك انما كانت بيعه أبي بكر فتنه وتمت ... ولكن الله وقى شرها.

أضواء على السقيفة

١- يتبين مما مر معنا سابقا أن الشورى التي عقدت في السقيفة لم تكن شرعية منتخبة من

نقحات الولاية؛ ج ٣؛ ص ٦٨

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٦٩

قبل الامية كما أراد أن يصورها البعض، بل حضرها بعض الأنصار على أمل تحقيق أهدافهم، ثم التحق بهم بعض المهاجرين لينافسونهم على الخلافة، حتى آلت الامور إلى تنصيب أبي بكر.

٢- تفتقر السقيفة إلى الشرعية من الناحية الدينية، كما تفتقر إليها من الناحية السياسية على ضوء الاعراف والقوانين الحاكمة في الأنظمة السياسية، وذلك لأنها لو كانت ممثلة لجميع الامية لوجب أن يحضر ممثلاً عن الأنصار وآخر عن المهاجرين، بينما نعلم أن قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله المتمثلة بأهل بيته لم تحضر ذلك الاجتماع.

٣- تفيد أحداث السقيفة أن انتخاب الأصلح لم يكن هو المعيار المعمول به في الخلافة، وكانهم اعتمدوا الميراث أسلوباً في التعامل معها بحيث كان كل يدعى سهم معيناً فيها، ومن الواضح أن من لديه هكذا نظرة إلى الخلافة، لا يسعه أن ينتخب الأصلح لابناء الامة.

٤- لم تتطرق السقيفة من قريب أو بعيد إلى وصايا النبي صلى الله عليه وآله بالخلافة، رغم علم الجميع بأن النبي صلى الله عليه وآله أوصى الامة قائلاً:

«إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي؛ ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً».

أفلم يكن يدعو هذا الحديث الشريف الذي روته أغلب مصادر الفريقين حتى عدّ متواتراً والذي صرح به الرسول صلى الله عليه وآله

في عدة مناسبات، من حضر السقيفة إلى الرجوع إلى القرآن وأهل البيت عليه السلام قبل أن يفرضوا أهدافهم على الأمة ويتحكموا في مصيرها؟ [١٠٨] أولم يكن حديث الغدير المتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله مانعاً لأهل السقيفة مما أقدموا عليه بشأن الخلافة؟ أو لم يسمعوا بحديث يوم الدار حين نص رسول الله صلى الله عليه وآله منذ أوائل دعوته على خلافة علي عليه السلام ووصايته، أو ما أورده آخر ساعات عمره الشريف وقوله إتونى بقلم ودواة؟!

طبعاً قد يبدو ذلك عجباً منذ الوهلة الأولى إلا أنه سرعان ما يزول، حيث النبي صلى الله عليه وآله على فراش الموت ودعى بقلم ودواة فمنعوا من ذلك وتفوهوا باشنع الكلمات ضد أطهر الكائنات من بنى آدم رسول الله صلى الله عليه وآله؛ الأمر الذي يكشف عن وجود خطة مسبقة بشأن الخلافة، بحيث لم يكن ليحول دونها حتى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله ووصاياه. وما ذلك إلا الطمع في الخلافة

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٧٠

وحب الجاه والمنصب التي تجعل الإنسان يتجاهل كل القيم والحقائق التي لا يشوبها أدنى شك أو ريب. [١٠٩] وهنا يتضح عمق كلام أمير المؤمنين عليه السلام «احتجوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة».

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٧١

الخطبة الثامنة والستون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
لما قلد محمد بن أبي بكر مصر، فملكته عليه وقتل

نظرة إلى الخطبة

كان عليه السلام قد ولي محمد بن أبي بكر مصر، فلما اضطرب الأمر عليه بعد صفين وقوى أمر معاوية طمع في مصر. وقد كان عمرو بن العاص بايعه على أن يكون معه في قتال علي، وتكون مصر له طعمة، فبعثه إليها بعد صفين في ستة آلاف فارس، وقد كان فيها جماعة عظيمة ممن يطلب بدم عثمان وكانوا يزعمون أن محمداً قتله فانضافوا إلى عمرو، وكان معاوية كتب إلى وجوه مصر، أما إلى شيعته فبالترغيب، وأقرباً إلى أعدائه فبالترهيب، وكتب محمد بن أبي بكر إلى علي عليه السلام بالقصة يستمده بالمال والرجال، فكتب إليه يشبهه ويعدده بذلك بأسرع ما يمكن، فجعل محمد يدعو أهل مصر إلى قتال عمرو، فانتدب معه أربعة آلاف رجل، فوجه ألفين مع كنانة ابن بشر لاستقبال عمرو، وبقي هو في ألفين، فابلى كنانة في ذلك اليوم بلاءً حسناً وقتل من عسكر عمرو خلقاً كثيراً، ولم يزل يقاتل حتى قتل، فلما قتل تفرق الناس عن محمد. وأقبل عمرو يطلب محمداً فهرب منه مختفياً، فدخل عمرو فسطاطه. وخرج معاوية بن خديج الكندي، وكان من امراء جيش عمرو، في طلب محمد فظفر به، وقد كاد يموت عطشاً، فقدمه فضرب عنقه، ثم أخذ جثته فحشاها في جوف حمار ميت وأحرقه. وقد كان علي عليه السلام وجه لنصرته مع مالك بن كعب إلى مصر نحو ألفي رجل، فسار بهم خمس ليال، ورود الخبر إلى

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٧٢

علي عليه السلام بقتله وأخذ مصر فجزع عليه السلام جزعاً ظهر أثره في وجهه ثم قال: رحم الله محمداً كان غلاماً حدثاً وقد أردت

...[١١٠].

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٧٣

«وَقَدْ أَرَدْتُ تَوَلِيَّةَ مِصْرَ هَاشِمِ بْنِ عُبَيْدَةَ، وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَّا خَلَى لَهُمُ الْعُرْصَةَ، وَلَا أَنهَزَهُمُ الْفُرْصَةَ، بَلَا دَمَّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيْبًا، وَكَانَ لِي رَيْبًا».

الشرح والتفسير

محمد بن أبي بكر وحكومة مصر

كما ورد في شأن الخطبة فإنها ناظرة إلى حملة جيش معاوية على مصر وقتل عامل أمير المؤمنين على عليه السلام محمد بن أبي بكر. فقد استهل الإمام عليه السلام ببعض الكلمات التي تشتم منها رائحة الدم لبعض أصحابه فقال:

«وَقَدْ أَرَدْتُ تَوَلِيَّةَ مِصْرَ هَاشِمِ بْنِ عُبَيْدَةَ، وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَّا خَلَى لَهُمُ الْعُرْصَةَ، [١١١] وَلَا أَنهَزَهُمُ [١١٢] الْفُرْصَةَ»

فالعبارة تفيد أن الإمام عليه السلام ورغم محبته لمحمد بن أبي بكر وثقته به وما يتصف به من إيمان وصدق، إلا أنه كان يرجح توليه هاشم بن عتبة المعروف بالمرقال الذي كان أشجع من محمد وأقوى وأعظم تجربة، ويبدو أن طائفة من أصحاب الإمام عليه السلام كانت ترى ضرورة ولاية مصر من قبل محمد كونه ابن أبي بكر وأكثر معرفة بمصر وأهلها، ومن هنا كان له نحو هيمنة على الرأي العام المصري وقبولاً لديه. أما الإمام عليه السلام فلم يكن يرى فيه مقومات الصمود المتوفرة في هاشم بفعل صغر سنه وقلة تجربته، رغم إتصافه بما لا يخفى من الصفات بيد أن تلك الطائفة مارست ضغوطها كتلك التي مارستها بشأن التحكيم فلم يكن من الإمام عليه السلام سوى الاستجابة. فالإمام عليه السلام وبخ بهذه الكلمات تلك

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٧٤

الطائفة، ولو فسحوا المجال ليتصرف كما أراد لما ضاعت مصر بهذه السهولة. ولكن وبغية الحيلولة لما قد يقتدح إلى الأذهان من أن كلامه عليه السلام يستبطن ذم محمد بن أبي بكر، فقد أردف كلامه بالقول:

«بَلَا دَمَّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيْبًا، وَكَانَ لِي رَيْبًا»

فالواقع أن محمداً لم يقصر في وظيفته وقد بذل كل ما بوسعه ولكن كان هذا أقصى طاقته. جدير بالذكر أن الإمام عليه السلام لما أخبر بقتل محمد بن أبي بكر قال

«رَحِمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا! كَانَ غَلَامًا حَدَثًا، لَقَدْ كُنْتُ أَرَدْتُ أَنْ أُولِيَ الْمُرْقَالَ هَاشِمِ بْنِ عُبَيْدَةَ مِصْرَ، فَأَنَّهُ لَوْ وُلِّاهَا لَمَّا خَلَا لِبْنِ الْعَاصِ وَأَعَانَهُ الْعُرْصَةَ، وَلَا قَتَلَ الْا وَسَيْفَهُ فِي يَدِهِ بَلَاذِمَ لِمُحَمَّدٍ، فَلَقَدْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ فَقَضَى مَا عَلَيْهِ» [١١٣]

. أما قوله:

«فَقَدْ كَانَ لِي حَبِيْبًا، وَكَانَ لِي رَيْبًا»

فلأن الإمام عليه السلام تزوج من أسماء ام محمد بن أبي بكر بعد وفاة أبيه فترى محمد في أحضان الإمام عليه السلام فسار على هديه حتى أنه كان يرى الإمام عليه السلام أبيه، وهكذا كان يرى الإمام عليه السلام فيه ابنه الحبيب.

تأملان

١- من هو هاشم المرقال؟

«هاشم» ابن «عتبة ابن أبي وقاص»، وكان أبوه عتبة من ألد أعداء الرسول الا-كرم صلى الله عليه وآله ولكن ابنه هاشم كان من

المسلمين الغيارى ومن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وأصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وله حديث مشهور يخاطب به أمير المؤمنين عليه السلام فيقول: والله، لو أعطوني كل ما على الأرض وتحت السماء على أن أحب أحداً من أعدائك، أو أبعض أحداً من مجيئك لما فعلت.

كان في حرب «صفين» مع علي عليه السلام وكان يرجو أن ينال وسام الشهادة في طريق الله ومع علي بن أبي طالب عليه السلام فحارب بشجاعة منقطعة النظير، وكان يدعى «المقال»، بمعنى سريع الحركة، وأخيراً، نال ما يريد، فبعد حرب طاحنه خاضها في ميدان صفين تقلد وسام الشهادة، وقد حزن لشهادته الإمام علي عليه السلام وجيشه باجمعهم.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٧٥

وبعد ذلك حمل الراية ابنه وهاجم جيش معاوية، وحارب بشجاعة منقطعة النظير، وبعدها وقع في الأسر، وعندما أخذوه أسيراً إلى معاوية، فكان له حديث مع معاوية وعمرو بن العاص، دافع فيه بعنف عن علي بن أبي طالب عليه السلام مما حدى بمعاوية إلى أن يسجنه في إحدى سجونته. [١١٤]

ورد عن أحوال هاشم عندما كان يحارب في صفين، حيث قاتل قتالاً شديداً فبينما هو في أصحابه اذ خرج عليهم فتى شاب وشدي يضرب بسيفه ويلعن ويشتم، فقال له هاشم: ان هذا الكلام بعده الخصام، وان هذا القتال بعده الحساب، فاتق الله فانك راجع إلى ربك فسائلك عن هذا الموقف وما أردت به، قال: فاني اقاتلكم لاني صاحبكم لا يصلى كما ذكر لي وأنكم لا تصلون، وأقاتلكم لان صاحبكم قتل خليفتنا وانتم وازرتموه على قتله، فقال له هاشم: وما أنت وابن عفان؟ إنما قتله أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وقرأء الناس حين أحدث إحداثاً وخالف حكم الكتاب، وأصحاب محمد صلى الله عليه وآله هم أصحاب الدين و أولى بالنظر في أمور المسلمين، وأما قولك صاحبنا لا يصلى فهو أول من صلى مع رسول الله وأفقه في دين الله، وأما من ترى معه فكلهم قارىء الكتاب لا ينام الليل تهجداً، فلا يغروك عن دينك الاشقياء المغرورون، قال الفتى يا عبدالله أنى لا ظنك أمرأ صالحاً أخبرنى هل تجد لى من توبه؟

قال: نعم، تُب إلى الله يتب عليك.

قال الراوى: فذهب الفتى راجعاً.

فقال رجل من أهل الشام: خدعك العراقى.

قال: لا ولكن نصحنى.

أجل، كان أصحاب علي عليه السلام مثل الإمام علي عليه السلام في ميدان الوغى يحاربون ويتصحون ويهدون اهل الضلالة من أعدائهم، ولم يكن همهم قتال الأعداء بل كان سعيهم هدايتهم وارشادهم. و على أى حال فان «هاشم» و «عمار» قاتلا في صفين بشجاعة وبسالة منقطعة النظير و نالا وسام الشهادة وقد حزن لشهادتهما الإمام علي عليه السلام واصحابه. [١١٥]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٧٦

٢- محمد بن أبى بكر

أم محمد بن أبى بكر أسماء بنت عميس، كانت تحت جعفر بن أبى طالب، وهاجرت معه إلى الحبشة، فولدت له هناك عبدالله بن جعفر الجواد، ثم قتل عنها يوم مؤتة، فخلف عليها أبو بكر الصديق، فأولدها محمداً، ثم مات عنها، فخلف عليها علي بن أبى طالب، وكان محمد ربيبه وخريجه، وجاريا عنده مجرى أولاده، رضع الولاء والتشيع منذ الصبا، فنشأ عليه، فلم يكن يعرف له أباً غير علي، ولا يعتقد لأحد فضيلة غيره، حتى قال عليه السلام: محمد إبنى من صلب أبى بكر. ومن الامور المهمة فى حياة محمد بن أبى بكر أنه كتب إلى الإمام عليه السلام حين ولاء مصر أنه لا يعلم لى بالسنة، فكتب إليه كتاباً، كان ينظر فيه ويتأدب بأدبه، فلما ظهر عليه عمرو بن

العاص وقتله، أخذ كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاوية، فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتعجب منه، فقال الوليد بن عقبة وهو عند معاوية وقد رأى إعجابه به: مر بهذه الأحاديث أن تحرق، فقال معاوية: مه، لا رأى لك! فقال الوليد: أفمن رأى أن يعلم الناس أن أحاديث أبي تراب عندك تتعلم منها! قال معاوية: ويحك! أتأمرني أن أحرق علماً مثل هذا! والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم. فقال الوليد: إن كنت تعجب من علمه وقضائه فعلام تقائله؟ فقال: لو لا أن أبا تراب قتل عثمان ثم أفتانا لأخذنا عنه. ثم سكت هنيهة، ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنا لانقول إن هذه من كتب علي بن أبي طالب، ولكن نقول: هذه من كتب أبي بكر كانت عند ابنه محمد، فنحن ننظر فيها، ونأخذ منها. [١١٦]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٧٧

الخطبة [١١٧] التاسعة و الستون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
في توبيخ بعض أصحابه

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هذه الخطبة من الخطب التي تعبر عن لوعة الإمام عليه السلام بعد الغارات والحملات التي كان يشنها أهل الشام على البلاد الإسلامية وتجابه بكل برود من قبل أتباعه. فقد تضمنت أشد الذم لتلك الجماعة من الكوفة الموسومة بالضعف والهوان والتي جعلت الإمام عليه السلام يشعر بآسها من عدوها، ويبدو أن الإمام عليه السلام لجأ إلى هذه العبارات أملًا في إثارتهم وتعبثهم ضد أهل الشام.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٧٩

«كَمْ أَدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارِي الْبِكَارُ الْعَمِيدَةَ، وَالثِيَابُ الْمُتَدَاعِيَةَ، كُلَّمَا حِيَصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهْتَكَتْ مِنْ آخَرَ، كُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَسِيرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ، وَأَنْجَحَرَ أَنْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرِهَا وَالضَّبُعِ فِي وَجَارِهَا، الدَّلِيلُ وَاللَّهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقِ نَاصِلٍ، إِنَّكُمْ وَاللَّهِ لَكَثِيرٌ فِي الْبَاحَاتِ، قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّاياتِ. وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُضْلِحُكُمْ، وَيَقِيمُ أَوْدَكُمْ وَلَكِنِّي لَا أَرَى إِضْلَاحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي أَوْ ضَرْعِ اللَّهِ خُدُودَكُمْ، أَتَعَسَّ جِدُودَكُمْ! لَا تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَا عَرَفْتُمْ الْبَاطِلَ وَلَا تُبْطِلُونَ الْبَاطِلَ، كَمَا يُبْطِلُكُمْ الْحَقُّ.»

الشرح والتفسير

عظم الشكوى من الاصحاب الضعفاء

يفهم من مضمون الخطبة مدى معاناة الإمام عليه السلام بصفته قائداً لتلك العصابة التي طبعت على العصيان والتمرد والتي مهدت السبيل أمام العدو لتسديد ضرباته الماحقة إليهم، فيعرض لها بالتوبيخ والذم، عليها تعود إلى رشدتها وتفريق إلى نفسها فتوحده صفوفها وتهب للوقوف بوجه عدوها. وتكشف عبارات الخطبة - وخلافاً لما يظنه بعض الجهال - مدى مداراة الإمام عليه السلام لهذه الجماعة الضعيفة المشتتة حتى سئم من مداراتهم وشعر بالتعب فقال عليه السلام:

«كم أداريكم كما

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٨٠

تدارى البكار [١١٨] العمدة، [١١٩] والثياب المتداعية، [١٢٠] كلما حيصت [١٢١] من جانب تهتكت من آخر»
فالتشبهات التي أوردها من قبيل التشبهات الغاية في الروعة والدقة التي تكشف النقاب عن طبيعة أهل الكوفة، فالتأريخ يشير إلى مدى الضعف والوهن الذي ساد عسكر الإمام عليه السلام بعيد موقعه صفيين بفعل ما كانوا عليه من جهل وذل وهوان. فقد كان جلهم من الأفراد الذين خلدوا إلى الدعة والرحة وعدم التمتع بالآفاق والأفكار التي تجعلهم يتعرفون على ما حولهم من الأحداث. فلم تكن تهتكت لهم قصبه رغم الحملات والغارات المباغتة التي كان يشنها أهل الشام على هذه المنطقة أو تلك من مناطق البلاد الإسلامية، وهم يرتكبون أفضع الجنایات وأبشع الجرائم إلى جانب سلبهم الأموال واخراهم للدور. فقد شبههم الإمام عليه السلام بادئ ذي بدء بالنوق الفتيه التي اعدت حديثاً للركوب وقد يجرح أحياناً سنامها. ومن الواضح أن هذا هو حال النوق في بداية عهدنا وأن عليها أن تتحمل حتى يشد ظهرها ويستحکم سنامها. أمّا تلك الجماعة فلم تتعرض إلى ذلك الحمل الخفيف في موقعه صفيين حتى جثت على ركبتيها، مع ذلك فإن الإمام عليه السلام عاملها بمنتهى المدارة عليها تنهض وتستعيد قوتها وشجاعته. وفي التشبيه الثاني شبههم بالاسمال الخلقه الباليه التي تشق بأدنى حركة، فاذا خيطت من جانب شقت وتمزقت من آخر. نعم فهؤلاء قد فقدوا كل عناصر الصمود والثبات إثر ضعفهم وخلودهم إلى الراحة والنكوص عن القتال، فكانوا كلما جمعوا من جانب تفرقوا من آخر، فما أعظمها من مشكله أن يبتلى قائد شجاع وحكيم بمثل هذا الجيش المهزوم. حقا كان الإمام عليه السلام يعيش حالة

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٨١

مذهلة من الألم والمعاناة والاحباط، وهذه قمة المظلومية التي شهدها الإمام عليه السلام. ثم أشار عليه السلام إلى مدى ضعفهم وذلهم عليهم يصلحون أنفسهم:

«كلما أطل [١٢٢] عليكم منسراً [١٢٣] من مناسر أهل الشام أغلق كل رجل منكم بابه، وانجحر [١٢٤] انجحر الضبة [١٢٥] في جحرها، والضبع [١٢٦] في وجارها [١٢٧]»

والتشبيه بالضبة ينطوي على عدة أمور منها أن الضبة تعرف بالحماقة إلى درجة أنها قد تفضل حتى جحرها فتعمد إلى جعل جحرها قرب صخرة بغية الاهتداء إليه، أضف إلى ذلك فهي تتصف بانعدام العاطفة بحيث تأكل أحياناً صغارها، وأخيراً شبههم بانثى الضباب الضبة مبالغه في وصفهم بالجبن والفرار، لأن الانثى أجبن وأذل من الذكر. كما شبههم بالضبع لحماقتهم وسائر الصفات التي أوردها في الخطبة السادسة ومنها أنها تنام رغم تهديدها من العدو الذي يمكن في كهفها فيجعلها تخلد إلى النوم حتى يمسك بها دون أن تبدي أدنى مقاومة والواقع أن أحداث صفيين تعد شاهداً حياً على ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بشأن أهل الكوفة وكيف كانت حماقته تجعله يفقد الفرصة وزمام المبادرة بماجر الولايات عليهم وعلى إمامهم عليه السلام وعلى كافة المسلمين. ثم أضاف الإمام عليه السلام اللثام عن مدى ضعفهم فقال:

«الدليل والله من نصرتموه! ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل [١٢٨]»

والسهم الافوق الناصل المكسور الفوق، المنزوع الفصل، والفوق موضع الوتر من السهم، وهذا مثل يضرب لمن استنجد بمن لا ينجده. ثم قال عليه السلام:

«إنكم والله لكثير في الباحات [١٢٩] قليل تحت الزايات»

فقد

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٨٢

إعتادوا على الراحة والرفاه ولذة العيش، وهذا هو سبب ذلهم وهوانهم وجرأة العدو عليهم. ثم قال عليه السلام «وإني لعالم بما يصلحكم، ويقىم أودكم، [١٣٠] ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي»

. فقد ذكر الشراح تفسيرين لهذه العبارة لا يتنافيان مع بعضهما، ولعل كلاهما صادق:

الأول أنه أستطيع أن أفعل ما يفعله معاوية ويستميل زعماء القبائل والناس بأموال بيت مال المسلمين، الا أنى لا أفعل ما يسخط الله، ولا اقيم دعائم حكومتى على حساب الفقراء والضعفاء وهضمهم حقوقهم، والثانى يمكننى أن أفعل ما يفعله الآخرون من حملكم بالقوة على قتال العدو. فقد جاء فى كتاب الغارات أن الإمام عليه السلام خاطب أهل الكوفة قائلاً:

«و الله لقد ضربتكم بالدرّة التي أعظ بها السيّفهاء فما أراكم تنتهون، ولقد ضربتكم بالسّيّاط التي أقيم بها الحدود فما أراكم ترعون، فما بقى إلّا سيفى! وإني لاعلم الذي يقومكم بإذن الله و لكننى لا أحبّ أن آتى تلك منكم» [١٣١]

. ونموذج ذلك قد تمثل بالحجاج حين هجم جيش المهلب (أحد زعماء الخوارج) وسدد ضرباته القاصمة لحكومة بنى أمية، فبعث الحجاج من نادى بالكوفة من تخلف عن قتال جيش المهلب اخربت داره على رأسه وضربت عنقه بالسيف، ولم يستثن من ذلك حتى الكهول والمرضى. وبالطبع فقد عمل بذلك عدد من المستبدين من قبل الحجاج وبعده. فالإمام عليه السلام يشير إلى سهولة اللجوء إلى هذا الاسلوب، إلّا أنّه لا يلبق بشأنه وعلو منزلته، وأنّه لا يفعل ذلك لأنّه يفسد دينه. وهنا يطرح هذا السؤال: أو ليس الدفاع عن الحكومة الإسلامية و قتال أعدائها واجباً؟ فلم لا يحمل الناس قهراً على القتال؟ والجواب على هذا السؤال يتضح من خلال ذكر هذه المسألة، وهى أن أصل هذا العمل صحيح، وللحكومة الإسلامية أن تلجأ إلى القوة فى مثل هذه الحالة، إلّا أنّ هذا الأمر يستلزم عدّة تبعات قد تكون فى نهاية الأمر مخالفة لأحكام الشرع، ونموذج ذلك واضح فى قضية الحجاج الذى كان يضرب بالسيف البرى والمذنب على حد سواء. أضف إلى ذلك فإنّ هذا العمل قد يستبطن بعض ردود الفعل السلبية من البعض واساءتها لفهم القوانين الإسلامية، وذلك لعدم قبول هذا العمل من قبل الجميع، ولعل بعض الضغوط تدعو البعض إلى الردّة والتمرد على أحكام الدين والقرآن.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٨٣

ومن هنا لم يلجأ النبي صلى الله عليه و آله قط إلى مثل هذا الاسلوب، بل لم يعمل به أى من الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه و آله. وعليه فقد درج الإمام عليه السلام وعلى غرار ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه و آله من اعتماد الترغيب والترهيب فى تعبئة الامة لخوض غمار الجهاد. ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالدعاء عليهم جزاءً لأعمالهم:

«أضرع [١٣٢] الله حدودكم، وأتعس [١٣٣] جدودكم! [١٣٤] لا تعرفون الحقّ كمعرفتكم الباطل، ولا تبطلون الباطل كما بطلكم الحقّ!» فالواقع أنّ دعاء الإمام عليه السلام لم يكن سوى نتيجة أعمالهم، فمن ترك الجهاد لا يذيق سوى الذل والهوان، وما ذلك إلّا لجهلهم بالحق وعدم نهوضهم به واقبالهم على الباطل. وهذا هو البؤس والشقاء الذى يحتاج اليوم مجتمعاتنا الإسلامية. فهذه المجتمعات تعرف الباطل، مع ذلك تقلده وتقتفى آثاره، بينما تجهل الحق واتباعه، والأنكى من ذلك هناك من هم للوقوف بوجه الحق رافعا راية الباطل والضلال.

والحال إنّ هذه الطاقات والإمكانات لا بدّ أن تجند فى سبيل الله وإحقاق الحق وإبطال الباطل.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٨٥

الخطبة [١٣٥] السبعون

إشارة

وقال عليه السلام

فى سحره اليوم الذى ضرب فيه

«مَلَكْتَنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ فَسَيَّحَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاذَا لَقَيْتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأُودِ وَاللَّدَدِ فَقَالَ ادْعُ عَلَيْهِمْ فَقُلْتُ أَبَدَلْنِي اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَأَبَدَلَهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ مِنِّي».

الشرح والتفسير

رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله

روى محمد بن حبيب البغدادي في كتاب المغتالين عن أبي عبد الرحمن السلمى أنه قال:

عدت أمير المؤمنين على عليه السلام فقال: ادن مني (كأنه لم يرد إسماع الآخريين)، بينما كانت النسوة تبكى. فقال عليه السلام:

«ملكنتى عيني وأنا جالسٌ فسنح [١٣٦] لى رسول الله صلى الله عليه وآله...».

على كل حال

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٨٦

فإن هذا الكلام يعبر عن مدى الاذى الذى تعرض له عليه السلام من تلك الجماعة. وبالطبع فهذه ليست المرة الاولى التى يشكو فيها الإمام عليه السلام بل ورد ذلك فى أكثر من خطبة من خطب نهج البلاغة التى تفيده بأجمعها عدم معرفته مقامه عليه السلام ورعايته حرمة إلى جانب الآذى والألم الذى جرعه إياه. فقد استهل كلامه عليه السلام بالقول:

«ملكنتى عيني وأنا جالسٌ»

فالعبارة «ملكنتى عيني» من فصيح الكلام الذى أراد به عليه السلام غلبنى النوم، لأن العين هى العضو الأول الذى تظهر عليه آثار النوم، ومن هنا استعملت كناية عن مفهوم النوم. ثم قال عليه السلام:

«فسنح لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: يا رسول الله! ماذا لقيت من أمتك من الاود واللدد؟».

لعلنا لا نرى نظيراً للإمام عليه السلام من أولياء الله طلبة التأريخ ممن جوبهوا بمثل هذا العداوة والتمرد العصيان والاذى ولم يقتصر ذلك على تلك المدة التى حكم فيها، بل إمتد ليشمل حتى تلك الفترة التى أصبح فيها جليس الدار مدة خمس وعشرين سنة، فقد تعرض لمثل ذلك الاذى طيلة الخلافة الراشدة ولا سيما إبان خلافة عثمان حين ضاق ذرعاً بالممارسات الخطيرة التى طالت بيت مال المسلمين فحاول الإصلاح لإعادة الامور إلى مجاريها، فجوبه بسخط واسع ونقمة عامة، الأمر الذى بلغ ذروته حين آلت إليه الخلافة. وعليه فلا يبدو من العجيب أن يشكو الإمام عليه السلام الأمة إلى النبي صلى الله عليه وآله رغم ما وصف به من الصبر والتحمل، فهو الذى صبر وفى العين قذى وفى الحلق شجى. ولنرى جواب النبي صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام:

«فقال: ادع عليهم»

، فقال الإمام عليه السلام:

«فقلت: أبذلنى الله بهم خيراً منهم، وأبدلهم بى شراً لهم منى»

. والسؤال الذى يقتدح إلى الذهن: لم أمر الرسول صلى الله عليه وآله بالدعاء عليهم وهو الموصوف بأنه

«رحمة للعالمين»؟

ونقول فى الجواب أن طغيان طائفة من الناس وتمرداها قد يصل درجة تغلق معها كافة منافذ الرحمة بوجهها فلا تبقى لنفسها سوى العذاب وسلب النعمة، وهكذا نرى الأنبياء الذين يمثلون ذروة الصبر والتحمل والحكمة واللفظ والرحمة يرون هذه المفردات إنما تتجسد فى الدعاء على أقوامهم بعد وصولهم إلى مرحلة لا يرجى بعدها هدايتهم. فهذا نبي الله نوح عليه السلام قد جهد تسعمائة وخمسين سنة فى تبليغ رسالته ربه وتحمل ذلك الاذى فى سبيل هداية قومه، ولما لم ير

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٨٧

من سبيل سوى الدعاء عليهم تضرع إلى الله سبحانه قائلاً: «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» [١٣٧] فاغرقوا جميعاً بالطوفان. على كل حال فان سيرة الإمام عليه السلام تجسدت في مداراة الأعداء فضلاً عن الأصدقاء، حتى أوصى مالكا حين ولاه مصر باستشعار قلبه الرحمة لكافة الناس بغض النظر عن أديانهم ومعتقداتهم:

«فالناس صنفان اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»

ومن هنا كان لابد من تصور مدى الاذى والتمرد الذي واجهه الإمام عليه السلام حتى اضطرت إلى الدعاء عليهم. جدير بالذكر الادب الذي تحلى به الإمام عليه السلام حيال رسول الله صلى الله عليه وآله حيث لم يقدم على الدعاء عليهم إلا بعد أن أذن له النبي صلى الله عليه وآله. مضمون الدعاء هو الآخر جدير بالتأمل حيث سأله أولاً النجاة من هؤلاء المردة ثم سأل الله أن يسلبهم نعمة وجوده ويسلط عليهم حاكماً ظالماً ليجرعه مراً أعمالهم. اما العبارة

«أبدلهم بى شراً لهم منى»

لا تعنى أن الإمام عليه السلام كان والعياذ بالله سيئاً وقد سأل الله أن يسلب عليهم أسوأ منه، لأن مفردتى الخير والشر فى الاداب العربية لا تقتضى جزماً معانى صيغته التفضيل، وهكذا العبارة

«ابدلنى الله بهم خيراً منهم»

فاولئك كانوا نفاقاً وشرراً ولم يكونوا من الاخيار. والشاهد على ذلك عدة آيات قرآنية كآية الخامسة عشرة من سورة الفرقان: «قُلْ أَذِلَّكَ خَيْرٌ أَمْ جِنَّةُ الْخُلْدِ» والآية السادسة والعشرون من سورة الصافات: «أَذِلَّكَ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ شَجَرَةُ الرَّقْمِ».

على كل حال استجيب دعاء الإمام عليه السلام ليستشهد الإمام عليه السلام بعد أن ضرب فى محرابه ففاز بقاء الله وجوار رسوله صلى الله عليه وآله، بينما تسلط من بعده معاوية ويزيد والحجاج على أهل العراق ليجرعوهم الموت غصة بعد غصة.

وقال السيد الرضى (ره) آخر الخطبة

«يعنى بالأود: الأوغاج، وباللدد: الخصام. وهذا من أفصح الكلام».

تأملان

١- أصحاب على عليه السلام

لاشبهه ولا ريب أن أتباع الإمام على عليه السلام على ثلاث طوائف: الطائفة الاولى الخالص

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٨٨

الأوفياء الذين كانوا يدورون حول الإمام عليه السلام كيفما دار ويضحون من أجله بالغالى والنفيس من قبيل مالك الأشتر وعمار بن ياسر ورشيد الهجرى وميثم التمار وكميل بن زياد وأمثالهم.

الطائفة الثانية الجهال الذين لم يعرفوا مقام الإمام عليه السلام ولم يدركوا شرائط الزمان والمكان، ولم يقفوا على أخطار معاوية وحكومته فى الشام، كما لم يكونوا يحضرون فى ميدان القتال، وهم أفراد سذج متلونون لا يعتمد عليهم فى أى عمل من الأعمال والطائفة الثالثة هى الزمرة الحاقدة التى إعتادت العبث بأموال المسلمين على عهد عثمان، الأمر الذى طالبوا به علماً عليه السلام ولم يكونوا يفكرون سوى فى الأموال والمناصب- بغض النظر عن الطرق المؤدية إليها- إلى جانب كون أكثر يشكلون جواسيس معاوية عيونهم فى الكوفة. مع ذلك كان الإمام عليه السلام يعامل الجميع بالرفق والمداراة حفظاً على مصالح المجتمع الإسلامى، بينما يضطر أحياناً لدمهم وتوبيخهم علمهم يفتقون إلى أنفسهم أما شكواواه وأنيته منهم فيمكن الوقوف عليه فى هذه الخطب:

١- قال فى الخطبة الخامسة والعشرين:

«وإني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم وتفترقكم عن حقاكم ... اللهم إني قد مللتهم وملوني وسئمتهم وسئمونني».

٢- قال في الخطبة السابعة والعشرين:

«فيا عجباً عجباً! - والله - يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفترقكم عن حقاكم! فقبحاً لكم وترحاً ... يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال وعقول ربات الرجال، لوددت آتى لم أركم ولم أعرفكم».

٣- قال في الخطبة التاسعة والعشرين:

«أيها الناس! المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصم الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء! تقولون في المجالس: كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلت: حيدى حيا».

٤- قال في الخطبة التاسعة والستون:

«كم أداريكم كما تدارى البكار العمدة، والثياب الم تداعية! كلما حيصت من جانب تهتكت من آخر».

٥- قال في الخطبة السابعة والتسعين:

«أيها القوم الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم المبتلى بهم أمراؤهم ... يا أهل الكوفة! منيت منكم بثلاث واثنتين: صم ذوو أسمع وبكم ذوو كلام وعمى ذوو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء».

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٨٩

٦- قال في الخطبة المئة وتسعة عشر:

«ما بالكم أمخرسون أتم؟! ... ما بالكم لا سددم لرشد ولا هديتم لقصدي».

٧- قال في الخطبة المئة والحادية والعشرين:

«أريد أن أداوى بكم وأنتم دأى كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها! اللهم قد ملت أطناء هذا الداء الدوى».

٨- قال في الخطبة المئة والثالثة والعشرين:

«و كآنى أنظر إليكم تكشون ككشيش الضب لا تأخذون حقاً ولا تمنعون ضيماً».

٩- قال في الخطبة المئة والخامسة والعشرين:

«أف لكم! لقد لقيت منكم برحاً، يوماً أناديكم ويوماً أناجيكم، فلا أحرار صدق عند النداء ولا إخوان ثقة عند النجاء».

١٠- قال في الخطبة المئة والحادية والثلاثين:

«أيتها النفوس المختلفة والقلوب المتشتمة، الشاهدة أبدانهم، والغائبة عنهم عقولهم، أظاركم على الحق وأنتم تنفرون عنه نفور المعزى من وعوة الأسد».

٢- الأفراد الملعونون

كما مر معنا في شرح الخطبة فإن الأنبياء والأوصياء قد اجتهدوا في إصلاح أقوامهم ودعوتهم إلى الحق بالحكمة والمواعظة الحسنة وتحملوا كافة المشاق والصعاب بكل صبر وجلد، إلا أنهم كانوا يرون أحياناً كافة أبواب الأمل قد أغلقتها تلك الأقوام بوجهها بحيث لم يعد هنالك من أمل في هدايتها، فلم يكن أمامهم من سبيل سوى الدعاء عليها؛ أملاً في إجتثاث أولئك الفسدة واستبدالهم بآخرين. وإنما لنلمس نماذج من ذلك الدعاء في السيرة المفعمة بالعمو والرحمة لرسول الله صلى الله عليه وآله ومنها:

١- جاء في الأخبار أن الحكم بن العاص عم عثمان كان كثيراً ما يسخر من رسول الله صلى الله عليه وآله ويؤذيه من خلال مشيه خلفه وإتيانه ببعض الحركات حيث كان يحرك كتفيه ويكسر يديه خلف رسول الله صلى الله عليه وآله يستهزاءً منه بمشيته النبي صلى الله

عليه وآله حتى إلتفت إليه النبي صلى الله عليه وآله وقال له: هكذا كن

نغمات الولاية، ج ٣، ص: ٩٠

فبقى الحكم على تلك الحال من تحريك أكتافه وتكسر يديه، ثم نفاه رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة ولعنه. [١٣٨]

٢- روى أن ابن مسعود قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وآله فصرخ في ظل الكعبة وناس من قريش وأبوجهل نحروا جزوراً في ناحية مكة فبعثوا وجاءوا بسلاها فطرحه بين كتفيه، فجاءت فاطمة عليها السلام فطرحته عنه، فلما انصرف قال:

«اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم كسنى يوسف»

قال: عبدالله: ولقد رأيتهم قتلى في قلب بدر. [١٣٩]

٣- ومن ذلك أنه دعا على مضر فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم كسنى يوسف، فاصابهم سنون، فاتاه رجل فقال: فوالله ما أتيتك حتى لا يخطر لنا فحل ولا يتردد رايح [١٤٠]، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«اللهم العنهما واركسهما في الفتنة ركساً ودعهما في النار دعاً»

فما قام حتى ملاً كل شيء، ودام عليهم جمعة، فأتوه فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله إنقطعت سبلنا وأسواقنا، فقال النبي صلى الله عليه وآله: حوالينا ولا علينا، فانجابت السحابة عن المدينة وصار فيما حولها وأمطروا أشهراً. [١٤١]

٤- وورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما مر بعمر بن العاص والوليد بن عقبة بن أبي معيط وهما في حائط يشربان ويغنيان بهذا البيت في حمزة بن عبدالمطلب حين قتل:

كم من حواري تلوح عظامه ورآء الحرب عندنا يجر فيقبرا

فقال النبي صلى الله عليه وآله: اللهم العنهما واركسهما في الفتنة ركساً ودعهما في النار دعاً. [١٤٢]

٥- وجاء في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ يوم بدر كفاً من حصي فرمى به في وجوه قريش وقال:

«شاهت الوجوه»

فبعث الله رياحاً تضرب وجوه قريش فكانت الهزيمة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهم لا يفلتن فرعون هذه الأمة أبوجهل بن هشام. فقتل منهم سبعون، وأسر

نغمات الولاية، ج ٣، ص: ٩١

منهم سبعون [١٤٣]. وبالطبع فان دعاء النبي صلى الله عليه وآله لم يقتصر على هؤلاء؛ الأمر الذي يشير إلى أن أولياء الله ورغم تحملهم كل عناء المواجهة مع الاعداء، الا أنهم كانوا لا يرون من أمل في المقابل فيضطرون للدعاء عليه، وهذا ما ورد في خطبة الإمام عليه السلام اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وآله.

نغمات الولاية، ج ٣، ص: ٩٣

الخطبة [١٤٤] الحادية والسبعون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

في ذم أهل العراق

وفيهما يوبخهم على ترك القتال والنصر يكاد يتم، ثم تكذيبهم له

نظرة إلى الخطبة

ورد في بعض الروايات خطب على عليه السلام فقال:

«لو كَسِرَتْ لى الوِسَادَةُ لِحِكْمَتُ بَيْنِ أَهْلِ التَّوْرَةِ بِتَوَارِثِهِمْ، وَبَيْنِ أَهْلِ الْإِنْجِيلِ بِإِنْجِيلِهِمْ، وَبَيْنِ أَهْلِ الْفِرْقَانِ بِفِرْقَانِهِمْ، وَمَا مِنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَنْزَلْتُ فِي سَهْلٍ أَوْ جَبَلٍ إِلَّا وَأَنَا عَالِمٌ مَتَى أَنْزَلْتُ، وَفِيمَنْ أَنْزَلْتُ».

فقال رجل من القعود تحت منبره: يا الله وللدعوى الكاذبة! وقال آخر إلى جانبه: أشهد أنك أنت الله رب العالمين! (فقد كان أحدهما مفرطاً والآخر مفرطاً).

و روى المدائني أيضاً قال: خطب على عليه السلام، فذكر الملاحم، فقال:

«سلوني قبل أن تفقدوني، أما والله لتشعرن الفتنة الصماء برجلها، وتطأ في خطامها».

يا لها من فتنة شبت نارها بالحطب الجزل، مقبله من شرق الأرض رافعه ذيلها، داعية

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٩٤

ويلها، بدجلة أو حولها. ذاك إذا استدار الفلك، وقتلتم: مات أو هلك، بأي واد سلك!

فقال قوم تحت منبره: لله أبوه! ما أفصحه كاذباً!

على كل حال فإن الخطبة قد وردت بعد واقعة صفين حيث يعرض بالدم لجيشه الذي أوشك على تحقيق النصر النهائي والقضاء على فتنة بنى أمية. ومن هنا شبههم الإمام عليه السلام بالمرأة الحامل التي أوشكت على وضع الحمل أسقطت جنينها، فمات قيمها وطال تأيمها وورثها أبعدها، فأصبحت بئس شقية. ثم إختتم الخطبة بالرد على من كذب حديثه وتجاهل ما أخبر به الإمام عليه السلام من حقائق بسبب الجهل والحمق. فالخطبة هي الأخرى تكشف عن مدى مظلومية الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٩٥

«أَمَّا بَعِيدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ وَمَاتَ قِيَمُهَا، وَطَالَ تَأْيِمُهَا، وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا. أَمَا وَاللَّهِ! مَا أَتَيْتُكُمْ اخْتِيَارًا، وَلَكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ (إِتْيَانِكُمْ) سَوْفًا. وَلَقَدْ بَلَّغْنِي أَنْتُمْ تَقُولُونَ: عَلَيَّ يَكْذِبُ، قَاتِلُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ؟ أَعَلَى اللَّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، أَمْ عَلَيَّ نَبِيَّهُ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ! كَلَّا وَاللَّهِ. لَكِنَّهَا لَهْجَةٌ غَبْتُمْ عَنْهَا، وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا. وَيَلُ أُمَّه كَيْلًا بغير تَمَنٍ! لَوْ كَانَ لَهُ وَعَاءٌ «وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ»».

الشرح والتفسير

الشكوى من الاتباع الجهلاء

كما أشرنا سابقاً فإن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة بعد موقعة صفين، حيث بات النصر الحاسم وشيكاً، بينما إنشقت طائفته من جيش الإمام عليه السلام إثر حيلة معاوية وعمرو بن العاص ففقدت فرصة النصر، وأنكى من ذلك أحدث شقاقاً وخلافاً في جيش الإمام عليه السلام، الخلاف الذي بلغ ذروته حتى أدى إلى وقوع تلك الحرب الأهلية. فالإمام عليه السلام وبفعل هذه الحادثة المروعة الأليمة يذم أهل العراق ويقول:

«أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ [١٤٥] وَمَاتَ قِيَمُهَا، وَطَالَ تَأْيِمُهَا، [١٤٦] وَوَرِثَهَا أبعدها»

فالعبرة تتضمن عدة تشبيهات: الأولى شبه أهل العراق بالمرأة حيث لم يدافعوا برجولته عن عزتهم وشرفهم، ثم لم يكتف بهذا التشبيه ليضيف إليه الحمل حيث كان باستطاعتهم وبطاعتهم للإمام عليه السلام أن

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٩٦

يلدوا ذلك النصر المبارك الذي يضع حدا لغارت أهل الشام وتناولهم على حرمة الإسلام والمسلمين، إلا أنهم أسقطوا ذلك النصر في آخر اللحظات بفعل جهلهم. فقد خدع القوم بحيلة عمرو بن العاص حين رفع المصاحف على أسنة الرماح، فتعالت الأصوات

بالرجوع إلى القرآن، حتى هدد الإمام عليه السلام بالقتل إذا لم يرجع مالك الأشر ويكف عن القتال ولم يكن سوى بضع خطوات بينه وبين معاوية. فمثل هذه المرأة إذا فقدت زوجها ولم تحظ بزواج مناسب وماتت غصة في هذه الدنيا، فمن الطبيعي أن يرثها الأبعد، فليس لها من ولد يكون لها إمتداداً، وليس لها زوج يبكيها (على فرض أن ليس لها أب وأم). وذهب البعض إلّا أن هذا الكلام إشارة إلى نبوءات على ما سيصيب أهل العراق من جراء سوء تدبيرهم في صفين، حيث سيفقدون إمامهم لجهلهم وتمردهم فيسلط عليهم البعداء فيسومونهم سوء العذاب، وهذا ما وقع بالفعل، ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى هجرته من المدينة إلى الكوفة التي إستندت إلى الاضطراب وليس فيهم ما يجعل الإمام عليه السلام يهاجر إليهم، على العكس من أهل المدينة الذين إندفع إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد كانوا أهلاً لحب رسول الله صلى الله عليه وآله وإقباله عليهم. فقال:

«أما والله ما أتيتكم اختياراً؛ ولكن جئت إليكم سوقاً».

والتاريخ يشير إلى هذه الحقيقة وهي لولا موقعة الجمل لما إنطلق الإمام عليه السلام إلى البصرة، ولو كان لأهل الحجاز أن يقضوا على فتنة الناكثين لما إستنجد بأهل الكوفة، ولولا خطر معاوية الذي كان يهدد البلاد الإسلامية لما إستقر الإمام عليه السلام في الكوفة وهجر المدينة وغادر قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسيدة النساء. والواقع أن العبارة رداً على إشكال في علة قدوم الإمام عليه السلام إلى الكوفة وهي بهذه الصفات الذميمة، فقد أجيب عن هذا الإشكال بأن الإمام عليه السلام أتى مجبراً لا مختاراً. ثم قال عليه السلام

«و لقد بلغني أنكم تقولون: عليّ يكذب، قاتلكم الله تعالى! فعلى من أكذب؟ أعلى الله؟ فأنا أول من آمن به! أم على نبيّه؟ فأنا أول من صدّقه»

فالحقيقة التي لا غبار عليها هي أن الإمام عليه السلام أول من آمن من الرجال بالله، كما تشير حياته إلى أنه لم يسجد لصنم ولم يعبد سوى الله وأنه أول من صدق برسول الله صلى الله عليه وآله ووقف إلى جانبه طيلة الدعوة. ولعل الكلام يشير إلى بعض إخباره بالمغيبات والحوادث التي كانت خافية على أولئك الناس، وقد انطلق ذلك التكذيب من قبل تلك الفرقة المنافقة التي كانت متغلغلة في صفوف أهل الكوفة والتي كانت تنسب الإمام عليه السلام إلى الكذب كلما أخبر عن

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٩٧

وقوع بعض الحوادث بصفته

«تعلّم من ذى علم».

كما يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى الأحكام والمعارف الإسلامية التي تعلمها الإمام عليه السلام من القرآن الكريم أو من النبي صلى الله عليه وآله وعجزت أفكار المنافقين عن إدراكها وفهمها. وقد صرح ابن أبي الحديد قائلاً: وإذا تأملت أحواله في خلافته كلها وجدتها هي مختصرة من أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته، كأنها نسخة منتسخة منها في حربه وسلمه وسيرته وأخلاقه وكثرة شكايته من المنافقين من أصحابه والمخالفين لأمره، وإذا أردت أن تعلم ذلك علماً واضحاً فاقراً سورة

«براءة»

ففيها الجم الغفير من المعنى الذي أشرنا إليه [١٤٧]. ومن الواضح أن أول موحد ومؤمن بالله ومصدق بالنبي صلى الله عليه وآله ولا يكذب قط ولا يتكلم بما لا يعلم إنما يفترى الكذب من لا يؤمن بالله ولا يعرف للورع والتقوى من معنى. بعبارة أخرى: فإن كافة معارف الإمام عليه السلام حتى الأخبار الغيبية التي كان يحدث عنها إنما كانت دروساً تعلمها من النبي صلى الله عليه وآله، فهل من سبيل إلى الكذب لهذه الأخبار من قبل تلميذ النبي صلى الله عليه وآله و آله و ربيبه الوفي على عليه السلام؟ إلّا أن المنافقين عمى الابصار والبصائر لا يرون سوى منافعهم، من هنا كانوا حريصين على تشويه سمعة الإمام عليه السلام. ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلاً:

«كلّاً والله! لكنّها لهجة [١٤٨] غبتم عنها، ولم تكونوا من أهلها ويل أمّه [١٤٩] كيلاً بغير ثمن! لو كان له وعاءٌ، ولتعلمنّ نبأه بعد حينٍ»

والمراد بالعبارة

«لكنّها لهجةٌ غبت م عنها»

- وبالالتفات إلى أنّ اللهجة هنا تعنى الحقائق الغائبة عنهم- أنّ تكذبيكم وإنكاركم إنّما يستند إلى جهلكم وضحالة أفكاركم وعدم علمكم بالأسرار التي تعلمتها من رسول الله صلى الله عليه وآله والقرآن، ولاعجب ف «الناس أعداء ما جهلوا».

أمّا العبارة

«ويل امه»

- التي تفيد الترحم والتعجب كما ترد أحياناً للدعاء بالشر- فلها

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٩٨

معنيان لدى الشراح؛ المعنى الأول: تأسفه عليه السلام من الجهود التي بذلها بحق اولئك المردة، والثاني: لعن المنافقين الذين دأبوا على الفساد والانحراف أبان حكومته عليه السلام، ويبدو المعنى الثاني أنسب.

تأملان

١- على عليه السلام أول من أسلم

لقد صرحت هذه الخطبة وعلى غرار سائر خطب نهج البلاغة أنّ علياً عليه السلام هو أول من آمن بالنبي صلى الله عليه وآله من الرجال (لأنّ خديجة هي الصديقة الأولى بالنبي صلى الله عليه وآله من النساء). وبالطبع فقد سعى بعض المتعصبين من أبناء العامة كصاحب البداية والنهاية للمساس بهذه الحقيقة المسلمة تاريخياً وروائياً من خلال بعض الذرائع الواهية، ولكن كما أشرنا آنفاً فإن هذه الحقيقة ثابتة على متوى التاريخ والروايات. فقد نقل العلامة الاميني في المجلد الثالث من غديره حدود مئة حديث بهذا الشأن عن مصادر العامة، والتي ورود بعضها عن رسول الله صلى الله عليه وآله والبعض الآخر عن الصحابة والتابعين، ومنها:

١- عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال

«أولكم واردة على الحوض أولكم إسلاماً علي بن أبي طالب» [١٥٠]

٢- وقال على عليه السلام:

«أنا عبد الله وأخو رسول الله وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذبٌ مفترٍ، ولقد صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الناس بسبع سنين، وأنا أول من صلّى معه» [١٥١]

٣- وروى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إنّ أول من صلّى معي عليّ» [١٥٢]

٤- كان من بين الاسئلة التي طرحها الحسن المجتبي عليه السلام في مجلس معاوية:

«أنشدكم بالله هل تعلمون أنّه أول الناس إيماناً» [١٥٣]

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٩٩

٥- روت أغلب المصادر المعتبرة عن خادم النبي صلى الله عليه وآله أنس بن مالك قال

«تبيء النبي يوم الإثنين وأسلم عليّ يوم الثلاثاء» [١٥٤]

٦- قال ابن عباس كنت عند عمر فجرى الكلام عن السبق في الإسلام، فقال عمر: ثلاث لعلي بن أبي طالب عليه السلام لو كانت لي

واحدة منها لكانت خيراً لى مما طلعت عليه الشمس: فقد ربت رسول الله صلى الله عليه وآله على كتف على عليه السلام وقال:

«يا على! أنت أول المسلمين إسلاماً وأنت أول المؤمنين إيماناً، وأنت منى بمنزلة هارون من موسى». [١٥٥]

٧- روى أحمد بن حبل - أحد الائمة الأربعة - فى مسنده أن علياً عليه السلام قال:

«لقد صلّيت قبل أن يصلى أحد، سبعا» [١٥٦]

فالأحاديث الواردة بهذا الشأن كثيرة لايسع المقام ذكرها. وقد صنف المرحوم العلامة الامينى هذه الأحاديث (أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله، أحاديث على عليه السلام، أحاديث الإمام الحسين عليه السلام وأحاديث الصحابة والتابعين والاشعار التى انشدت بهذا الخصوص) إلى جنب شهادة المؤرخين كالطبرى فى التاريخ وابن الأثير فى الكامل ونصر بن مزاحم فى صفين (ومن أراد المزيد فليراجع المجلد من كتاب الغدير ص ٢١٨ فصاعداً). كما نقل ابن أبى الحديد طائفة من هذه الأحاديث عن مصادر العامة فى شرحه لنهج البلاغة. [١٥٧]

٢- إجابة عن سؤال

الجدير بالذكر أن بعض المتعصبين الذين لم يسعهم التكر لهذه الفضيلة من وجهة النظر التاريخية والروائية، تشبشوا ببعض الذرائع للحد من قيمتها، وأهم تلك الذرائع:

يزعمون أن علياً عليه السلام لما أسلم كان له من العمر عشر سنوات والإسلام لايقر إسلام الصبيان؛ وقد إتسعت حدة هذه الذريعة الجوفاء فى الاوساط المعادية للإمام عليه السلام لتظن بتعذر الاجابة على هذا الأشكال، والحال:

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٠٠

أولاً: من المناسب أن نذكر الحوار الذى دار بين المأمون الخليفة العباسى مع فقيه العامة اسحق. قال المأمون: يا إسحاق أى الأعمال كان أفضل يوم بعث رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قلت:

الاخلاص بالشهادة. قال: أليس السبق إلى الإسلام؟ قلت: نعم. قال: فهل علمت أحداً أسبق علياً عليه السلام إلى الإسلام؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إن علياً أسلم وهو حديث السن لايجوز عليه الحكم. قال: فأخبرنى عن إسلام على حين أسلم؟ لا يخلو من أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله دعاة إلى الإسلام، أو يكون إلهاما من الله. فاطرق اسحاق ولم يجب. [١٥٨]

وأضاف المرحوم العلامة الأمينى بعد نقله لهذه المحاورة: وقال أبو جعفر الاسكافى المعتزلى المتوفى ٢٤٠ فى رسالته: قد روى الناس كافة إفتخار على عليه السلام بالسبق إلى الإسلام، وإن النبى صلى الله عليه وآله استتبى يوم الاثنين وأسلم على عليه السلام يوم الثلاثاء. وإنه كان يقول: صليت قبل الناس سبع سنين وإنه مازال يقول: أنا أول من أسلم. ويفتخر بذلك ويفتخر له به أولياؤه وما دحوه وشيعته فى عصره وبعد وفاته، والأمر فى ذلك أشهر من كل شهير، وقد قدمنا منه طرفاً وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا إستخف بإسلام على عليه السلام ولا تهاون به، ولا زعم أنه أسلم إسلام حدث تحرير وطفل صغير، ومن العجب أن يكون مثل العباس وحمزة ينتظران أباطال وفعله ليصدوا عن رأيه، ثم يخالفه على ابنه لغير رغبة ولا رهبة يؤثر القلة على الكثرة، والذل على العزة من غير علم ولا معرفة بالعاقبة [١٥٩]. وروى فى الخبر الصحيح أنه لكفه فى مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكة أن يصنع له طعاما وأن يدعو له بنى عبدالمطلب، فصنع له الطعام ودعاهم ثلاثا، ثم كلمهم صلى الله عليه وآله فدعاهم إلى الدين ثم ضمن لم يوارره منهم وينصره على قوله أن يجعله أخاه فى الدين ووصيه بعد موته وخليفته من بعده فامسكوا كلهم وأجابوه هو وحده وقال: أنا أنصرك على ما جئت به واوازررك وأبايعك، فنصبه وصيه وخليفته، فضحك القوم وقالوا لأبى طالب: أطمع إبنك فقد أمره عليك.

وزبده القول فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قبل إسلام على عليه السلام، فمن قال بعدم إعتبار إسلامه بسبب عمره، فى الواقع يشكل على النبى صلى الله عليه وآله.

ثانياً: جاء في الروايات المشهورة لقصة يوم الدار إن النبي صلى الله عليه وآله أعدّ طعاماً ودعا إليه قرابته

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٠١

من قريش فدعاهم إلى الإسلام وأن من يجب دعوته ويقف إلى جانبه في الدفاع عن الإسلام سيكون وحيه وخليفته، فلم يجبه إلأعلى بن أبي طالب عليه السلام الذي قال: أنا يا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال النبي صلى الله عليه وآله: أنت أخي ووصيي وخليفتي. [١٦٠] فهل هناك من يعقل أن النبي صلى الله عليه وآله جعل علياً عليه السلام أخيه ووصيه وخليفته ودعا الآخرين إلى طاعته بحيث يسخر منه زعماء الكفر والشكر ويقولون لأبي طالب عليك أن تسمع لولدك وتطيع، ولم يكن إسلامه مقبولاً؟! لا شك أن سن البلوغ ليس شرطاً لقبول الإسلام، فكل فتى له عقل وتمييز كاف ويعتق الإسلام وعلى فرض أن أباه ليس مسلماً فإنه يصبح في زمره المسلمين إذا انفصل عنه.

ثالثاً: يستفاد من القرآن أن البلوغ ليس شرطاً حتى في النبوة، حيث بلغ النبوة حتى من كان صبياً، فقد صرح القرآن بشأن نبي الله يحيى عليه السلام بقوله:

«وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» [١٦١]

. كما ورد بشأن عيسى عليه السلام أنه قال

«إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا» [١٦٢]

. وإلّا بعد من كل هذا فإن النبي صلى الله عليه وآله قد قبل الإمام على عليه السلام، كما ذكرنا ذلك وأن النبي صلى الله عليه وآله صرح يوم الدار بانه أخوه ووصيه وخليفته.

على كل حال فإن الروايات التي صرحت بأن علياً عليه السلام هو أول من لبى دعوة النبي صلى الله عليه وآله وأسلم، إنما تنطوي على فضيلة لاتضاهيها فضيلة لعل على عليه السلام، فلا يرقى أحد لأن يكون في مصافه عليه السلام، ومن هنا كان عليه السلام أنسب فرد من هذه الأمة بخلافه رسول الله صلى الله عليه وآله.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٠٣

الخطبة [١٦٣] الثانية والسبعون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

علم فيها الناس الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وفيها بيان صفات الله سبحانه

وصفة النبي والدعاء له

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قصير جداً يتحدث عن صفات الله سبحانه كمقدمة لاستتزال الرحمة والصلوات على النبي صلى الله عليه وآله.

القسم الثاني: تعليم كيفية الصلاة على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، كما تطرق إلى ذكر العديد من صفاته وخدماته الجليلة إلى البشرية ومبادئ الحق، والتي تستلزم أشرف الصلوات.

القسم الثالث: يتضمن مجموعة من الأدعية العظيمة بشأن النبي صلى الله عليه وآله، كما ورد فيه سؤال البارئ سبحانه تعزيز رابطة

الأفراد بالنبي صلى الله عليه وآله ومرافقته في الجنة.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٠٥

القسم الأول: ربّ السموات

«اللَّهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحُوتَاتِ، وَدَاعِمَ الْمَسْمُوكَاتِ، وَجَابِلَ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَتِهَا: شَقِيَّتِهَا وَسَعِيدِهَا».

الشرح والتفسير

يشئى الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة على الله سبحانه بثلاث من صفاته:

«اللَّهُمَّ دَاحِيَ [١٦٤] الْمَدْحُوتَاتِ، وَدَاعِمَ [١٦٥] الْمَسْمُوكَاتِ، [١٦٦] وَجَابِلَ [١٦٧] الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَتِهَا: شَقِيَّتِهَا وَسَعِيدِهَا»

فالعبارة الأولى إشارة إلى بداية خلق السموات والأرض، حيث تشير النظريات إلى أن الكون والكرات والأجرام السماوية كانت كتلة واحدة ثم انفصلت عن بعضها لعدة عوامل حتى اتسعت إلى ما هي عليه اليوم. كما كانت الأرض مغمورة تحت الماء، ثم ظهرت اليابسة شيئاً فشيئاً بعد أن نفذت المياه إلى المناطق العميقة والشقوق الأرضية، ثم اتسعت بمرور الزمان، حتى تكونت المناطق اليابسة والبحار، وأخيراً أصبحت الأرض أكثر اتساعاً بفعل جاذبية الأحجار السماوية، فقد صرح القرآن بهذا لأشأن قائلاً: «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ* وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ» [١٦٨]. والعبارة

«داعم المسموكات»

تعنى

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٠٦

حافظ السموات بما فيها السيارات والثواب والمجرات بواسطة القوى الجاذبية اللامرئية؛ وهى القوى التى تحفظها بحيث لا تتغير المسافة بين كرات المنظومة الشمسية رغم مرور ملايين السنين؛ الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم: «وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا» [١٦٩]. أما العبارة

«و جابل القلوب»

فهى إشارة إلى العلوم الفطرية والإلهية والغرائز والرغبات النافعة التى أودعها الله باطن الإنسان؛ العلوم والغرائز والرغبات التى تمثل الوسائل التى يوظفها الإنسان فى مسيرته نحو السمو والتكامل والسير إلى الله إلى جانب الرقى المادى والمعنوى. ولعل هنالك من يعتقد أن الله أودع الشقاء والسعادة ذات الإنسان، بحيث هناك السعداء ذاتاً والأشقياء ذاتاً، والحال لاتفيد العبارة الواردة فى الخطبة مثل هذا المعنى، بل تصرح العبارة بأن الله أودع هذه العلوم كافة أفراد البشر من آل أمره إلى السعادة أو الشقاء، وان إعتددا البعض ووظفها من أجل السعادة وتجاهلها البعض الآخر ليزج بنفسه فى وادى البؤس والشقاء؛ ولعل الحديث المعروف

«كل مولود يولد على الفطرة...» [١٧٠]

يشير إلى هذا المعنى. فمن الواضح أن السعادة والشقاء لو كانا ذاتيين وكل فرد مجبر على سلوك السبيل الذى عين له سبقاً، أن يكون من العبث بعث الأنبياء وانزال الكتب السماوية والتكاليف والمسؤوليات والأحكام الشرعية والثواب والعقاب، وبكلمة واحدة كافة المسائل المرتبطة بالتربية والتعليم وآثارها ومعطياتها؛ الأمر الذى لايقره العقل ولا الشرع. قال القرآن: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا» [١٧١]. كما قال فى موضع آخر: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» [١٧٢]. فالواقع هو أن الحق سبحانه أرشد الإنسان إلى طرق السعادة والشقاء دون أن يجبره على شئ، فهو مختار فى أى سبيل سلك، ومن هنا كان مسؤولاً أمام الله وضميره.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٠٧

القسم الثانى: آف التوبة والسلام على النبي صل الله عليه وآله

«اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، على محمد عبيدك ورسولك الخاتم لما سبق، والفتاح لما انغلق، والمعلن الحق بالحق، والدافع جيشات الأباطيل، والدماغ صولات الأضاليل، كما حمل فاضطلع، قائماً بأمرك، مستوفراً في مروضاتك، غير ناكل عن قدم، ولا واه في عزم، واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك؛ حتى أوري قبس القابس، أضاء الطريق للخابط، وهديت به القلوب بعيد خوضات الفتن الآثام، وأقام بموضحات الأعلام، وتيرات الأحكام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيذك بالحق، ورسولك إلى الخلق».

الشرح والتفسير

يصلى الإمام عليه السلام أفضل الصلوات وأزكاها على النبي صلى الله عليه وآله ذاكراً أكثر من عشرين صفة من صفاته البارزة صلى الله عليه وآله التي تستلزم أطهر الصلوات عليه

«اجعل شرائف [١٧٣] صلواتك ونوامي [١٧٤] بركاتك على محمد عبدك ورسولك»

فالصلوات هي رحمة الله، والبركات نعمه سبحانه كما تطرق الإمام عليه السلام إلى صفتين بارزتين مهمتين من صفاته صلى الله عليه وآله: الأولى العبودية، والثانية الرسالة.

فالعبودية تشكل إحدى إفتخارات الإنسان المسلم لله سبحانه، فيرى كل شيء لله حتى امواله
نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٠٨

التي يملكها بالظاهر فهي، فقد ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال

«إلهي كفي بي عزاً أن أكون لك عبداً وكفي بي فخراً أن تكون لي رباً» [١٧٥]

ثم أشار إلى ختمه للأنبياء في الصفة الثالثة فقال:

«الخاتم لما سبق»

فان كانت ما تعود إلى العاقل فالعبارة تفيد الأنبياء السابقين وخاتمهم رسول الله صلى الله عليه وآله. وان كانت لغير العاقل عنت اختتام الشرائع السابقة بشريعته صلى الله عليه وآله. ثم قال عليه السلام

«والفتاح لما انغلق، والمعلن الحق بالحق»

والمراد بالعبارة

«الفتاح لما انغلق»

أبواب العلوم والمعارف والمسائل الإنسانية والإخلاقية والاجتماعية المعقدة التي فتحها رسول الله صلى الله عليه وآله بوجه البشرية بدينه ونوره وهدايته، والعبارة

«المعلن الحق بالحق»

يمكن أن تكون إشارة إلى المعجزات التي تبين أحقية النبي صلى الله عليه وآله، كما يمكن أن يراد بها منطوقه الذي يكشف النقاب عن الحقائق، أو المعارك والغزوات التي أقصت خصوم الدعوة لتري الأمة الحقائق، أو توضيح الحقائق بقرائن بعضها البعض الآخر من قبيل تفسير بعض الآيات القرآنية ببعضها الآخر، وأخيراً يمكن أن تكون جميع هذه المعاني مرادة بالعبارة.

ثم قال عليه السلام

«والدافع جيشات [١٧٦] الأباطيل، والدماغ [١٧٧] صولات [١٧٨] الأضاليل»

والجدير بالذكر في العبارة التعبير عن الباطل بالجيشات وعن عوامل الضلال بالصلوات حيث تصور كل منهما عمق ما تختزنه هذه المفردات فالباطل ملء بالصخب والضجيج، كما أن عناصر الضلال غالباً ما تهجم على العزل من الناس. ثم قال عليه السلام في مقام

بيان علة الدعوة لهذه الصلوات الوافرة

«كما حمل فاضطلع» [١٧٩]

فكما هنا بمنزلة التعليل وتفيد معنى لأئنه، والواقع أن قبول هذه المسؤولية العظمى وتحمل كافة تبعاتها بعد من أهم خصائص النبي

صلى الله عليه وآله التي تجعله يستحق

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٠٩

الشكر والثناء. وقال عليه السلام

«قائماً بأمرك، مستوفزاً [١٨٠] في مرضاتك»

فالقيام بالأمر إشارة إلى جديّة الأوامر الإلهية لأنّ الإنسان ينهض من أجل القيام بالأعمال الجادة. فالتعبير لا يشير إلى مدى إمتثال

النبي صلى الله عليه وآله لأحكام السماء فحسب، بل كان يسارع إلى الاتيان بكل ما يرضى الله سبحانه وان لم تصدر إليه الأوامر. ثم

قال عليه السلام:

«غير ناكل [١٨١] عن قدم، [١٨٢] ولاواه في عزم»

فكثير هم الجديون في قراراتهم والانطلاق في أعمالهم، إلّا أنّهم يضعفون في الاستمرار والمواصله، والمهم أن يواصل الإنسان نشاطه

وعمله. ويفيد التاريخ أن النبي صلى الله عليه وآله لم ينكل أو يضعف أمام الوساس والضغوط، كما لم يكن يلين تجاه أى مبادرة

منحرفة، ومن ذلك قوله

«والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله او أهلك دونه» [١٨٣]

. ثم قال عليه السلام:

«واعياً [١٨٤] لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك».

ثم اشار الإمام عليه السلام إلى النتيجة التي تمخضت عنها جهود النبي صلى الله عليه وآله وتضحيتها

«حتى أوري [١٨٥] قيس [١٨٦] القابس، وأضاء الطريق للخابط، [١٨٧] وهديت به القلوب بعد خوضات [١٨٨] الفتن والآثام».

والعبارة تلمح إلى سرعة إنتشار الإسلام واشراقه شبه الجزيرة العربية التي كانت مهد الكفر والشرك ومركز الجهل والجريمة، ولا

يشك في هذه الحقيقة من كان له أدنى إلمام بالتاريخ الإسلامي؛ الأمر الذي إعترف به حتى خصوم الدعوة. ثم قال عليه السلام:

«و أقام بموضحات الأعلام، و ثيرات الأحكام».

فالواقع وبغية الحيلولة دون تلكؤ أصحاب الحق في

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١١٠

مسيرتهم، لابد من نصب العلامات الدالة على الطريق وازضاء كافة ظلماته، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله حين أضاء

كل معالم الطريق ونصب الأدلاء عليه. ومن ذلك الأحكام المتعلقة بالصلوات اليومية و صلاة الجمعة - وبمراسمها الخاصة - وحج

بيت الله الحرام التي من شأنها هداية أتباع الحق وصددهم عن الحيرة والضلال، إلى جانب بيانه للأحكام ذات الصلة بالقضايا الاجتماعية

والتربوية والسياسية والاقتصادية. ثم يختتم عليه السلام هذا الفصل من الخطبة بخمس صفات أخرى للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله

فقال:

«فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، بعثك بالحق، ورسولك إلى الخلق»

فبعض هذه الصفات مقدمة وبعضها الآخر نتيجة. فكونه أمين الله وخازن علمه إنّما هي مقدمة من أجل الرسالة إلى الخلق والبعث

بالحق، كما أنّ شهادته يوم القيامة إنّما تمثل نتيجة هذه الرسالة. أمّا قوله عليه السلام:

«أمين مأمون»

هو تأكيد لمدى أمانته صلى الله عليه وآله وإشارة إلى العصمة المشروطة في النبوة. وأما قوله عليه السلام: «خازن علمك المخزون»

، فالمراد به علمه صلى الله عليه وآله بأسرار الغيب، وقد أشرنا إلى ذلك في حينه إلى تعذر قيام الأنبياء والأئمة بوظيفتهم بصورة تامة دون العلم بتلك الاسرار والخفايا، وقد أشار القرآن بهذا الشأن:

«عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا» إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصِيدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتٍ رَبِّهِمْ [١٨٩]

والعبارة

«شاهدك يوم الدين»

مستوحاة من الآية ١٤٣ من سورة البقرة: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيًّا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» والآية ٨٩ من سورة النحل: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ...» التي تشير إلى شهادة النبي صلى الله عليه وآله على أعمال الأمة وشهادته على شهداء سائر الامم.

ولما كانت الشهادة من فروع العلم، فإن هذه التعبيرات تشكل دليلاً آخر على علمه صلى الله عليه وآله بأسرار الغيب.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١١١

القسم الثالث: الحشر مع النبي صلى الله عليه وآله

إشارة

«اللَّهُمَّ افْسَحْ لَهُ مَفْسِحًا فِي ظِلِّكَ؛ واجزه مضاعفات الخير من فضلك، اللهم وأعل على بناء البانين بناءه، وأكرم لديك منزلته، وأتمم له نوره، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة، مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ، ذا منطقي عدل، خطبة فضل. اللهم اجمع بيننا وبينه في بزد العيش وقرار النعمة، ومنى الشهوات، وأهواء اللذات، ورخاء الدعة، ومنتهى الطمانينة، وتحف الكرامة».

الشرح والتفسير

يتضرع الإمام عليه السلام بدعاء جامع بحق النبي صلى الله عليه وآله، ليعلمنا في الواقع كيفية الدعاء للنبي صلى الله عليه وآله، فقد سأل الله للنبي صلى الله عليه وآله ستة أشياء:

«اللَّهُمَّ افسح [١٩٠] له مفسحاً في ظلك»

فالظل هنا قد يراد به المعنى الكنائى، كما يمكن أن يراد به ظل لطف الله وكرمه وجوده، أو أن يقصد به المعنى الحقيقى ليعنى ظلال الجنان فى المحشر، فقد ورد فى الحديث:

«أن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة لا يقطعها» [١٩١]

. ثم قال عليه السلام:

«واجزه مضاعفات الخير من فضلك»

ومن الواضح أن الثواب الإلهى هو الضعف على الدوام، ولاغرو فذلك نابع من فضله وجوده وكرمه التى لاترى مكافئته الأعمال بمتلها دون زيادة، مع ذلك فقد سأل الله المزيد لنبيه صلى الله عليه وآله. ثم قال عليه السلام:

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١١٢

«اللَّهُمَّ وأعل على بناء البانين بناءه، وأكرم لديك منزلته»

والمراد بالبناء هنا إماماً دين النبي صلى الله عليه وآله الذي سأل الله إظهاره وعلوه على سائر الأديان، وإماماً مقامه صلى الله عليه وآله وعلوه على من سواه.

وتصرح عليه السلام قائلاً:

«وَأْتَمَّ لَهُ نُورُهُ، وَاجْزَهُ مِنْ ابْتِعَاتِكَ لَهُ مَقْبُولُ الشَّهَادَةِ، وَمَرْضَى الْمَقَالَةِ، ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، وَخَطْبَةٍ فَصْلٍ»

والجدير بالذكر في هذا الدعاء أنه عدّ شفاعته النبي صلى الله عليه وآله للامة جزءاً لتبليغه الرسالة؛ الأمر الذي تعود بركته على الامة وهذا ما يمثل قمة لطفه وكرمه عليه السلام.

كما أشارت العبارة إلى أن شهادته وشفاعته صلى الله عليه وآله ليست إعتباطية فمنطقه العدل وحديثه الفرقان بين الحق والباطل، فاذا شفع لشخص أو جماعة فقد توسم فيهم الشفاعه، وهذا ما أوردناه في بحث الشفاعه، في أنها خاضعة لقانون وليست عبثية، بل للشفاعة مقدماتها التي تكمن في الأهلية والاستحقاق، وعبارة اخرى لابد أن تكون هنالك رابطة معنوية قائمة بين الشفيع والشفيع فيه، وإلا فمن قطع هذه الرابطة فهو لا يستحق الشفاعه، ولعل هذه الشفاعه هي المقام الذي أشارت إليه الآية القرآنية: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً». [١٩٢]

ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالدعاء له وصحبه:

«اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ قَرَارِ النَّعْمَةِ، وَمِنَى الشَّهَوَاتِ، وَأَهْوَاءِ اللَّذَاتِ، وَرِخَاءِ الدَّعَةِ، [١٩٣] وَمُنْتَهَى الطَّمَأْنِينَةِ، وَتَحْفِ الْكِرَامَةِ»

ويبدو أن هذه هي خصائص الجنه من قبيل السكينة والكرامة الإلهية والنعم الطيبة والمعنوية والمادية إلى جانب البقاء والخلود.

تأمل: معطيات الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله

إشارة

لقد تضمنت الخطبة أزكى الصلوات والتحيات على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؛ الأمر الذي ينبها إلى عظم هذه المسألة التي صرحت بها التعاليم الإسلامية. فالواقع هو أن الروايات الإسلامية نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١١٣

أكدت الصلوات على النبي صلى الله عليه وآله ومدى الأجر والثواب الذي أشارت إليه مصادر الفريقين إزاء هذا العمل بما يفوق التصور ويدعو إلى الدهشة والذهول، ومن هنا فقد إقتطفنا بعض الروايات الواردة بهذا الشأن والتي نلفت إليها إهتمام القراء الأعزاء ثم نسلط الضوء على ما ورد فيها:

١- فقد جاء في الحديث أن أمير المؤمنين على عليه السلام قال:

«الصلوة على النبي وآله أمحق للخطايا من الماء إلى النار والسلام على النبي أفضل من عتق رقاب». [١٩٤]

٢- وفي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إذا ذكر النبي فأكثروا الصلاة عليه فإنه من صلى على النبي صلاة واحدة صلى الله عليه ألف صلاة في ألف صفة من الملائكة ولم يبق شيء مما خلقه الله إلا صلى على ذلك العبد لصلاة الله عليه وصلاة ملائكته فمن لم يرغب في هذا فهو جاهل مغرور قد برئ الله منه ورسوله وأهل بيته». [١٩٥]

٣- عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«كَلَّ دَعَاءٍ مَحْجُوبٍ حَتَّى يَصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ». [١٩٦]

٤- وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً قال:

«الصَّلَاةُ عَلَيَّ نَوْزٌ عَلَيَّ الصَّرَاطُ». [١٩٧]

٥- وروى عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام انه قال:

«ما فى الميزان شىءٌ أثقل من الصَّلاةِ على محمَّدٍ وآل محمَّدٍ وإنَّ الرَّجُلَ لتوضع أعماله فى الميزان فتميل به فيخرج الصَّلاةُ عليه

فيضعها فى ميزانه فترجح». [١٩٨]

٦- كما روى عنه صلى الله عليه وآله قال:

«إذا كان يوم الخميس بعث الله ملائكةً معهم صحفٌ من فضةٍ و أقلامٌ من ذهبٍ يكتبون يوم الخميس وليلة الجمعة أكثر النَّاسِ عَلَيَّ

صلاةً». [١٩٩]

٧- وعنه صلى الله عليه وآله قال:

«صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ عَلَيَّ زَكَاةٌ لَكُمْ». [٢٠٠]

٨- عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام:

«أَلَا أَبْشُرُكَ؟ قال: بلى بأبى

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١١٤

أنت وأمى فإنك لم تزل مبشراً بكل خير. فقال: أخبرنى جبرئيل أنفاً بالعجب. فقال أمير المؤمنين: وما الذى أخبرك يا رسول الله؟

قال: أخبرنى أن الرَّجُلَ من أمتى إذا صَلَّى عَلَيَّ فَاتَّبَعَ بِالصَّلَاةِ عَلَى أَهْلِ بَيْتِي فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَصَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ سَبْعِينَ صَلَاةً

وَأَنَّهُ إِنْ كَانَ مِنَ الْمَذْنِبِينَ تَحَاتَّ عَنْهُ الذَّنُوبُ كَمَا تَحَاتُّ الْوَرَقُ مِنَ الشَّجَرِ». [٢٠١]

٩- وروى عنه صلى الله عليه وآله قال:

«أَكْثَرُوا الصَّلَاةَ عَلَيَّ فَإِنَّ اللَّهَ وَكُلَّ بِي مَلَكاً عِنْدَ قَبْرِى فَإِذَا صَلَّى عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي قَالَ ذَلِكَ الْمَلِكُ يَا مُحَمَّدُ: إِنَّ فُلانَ بِنِ فُلانٍ

صَلَّى عَلَيْكَ السَّاعَةَ». [٢٠٢]

١٠- وروى الإمام الباقر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«مَنْ صَلَّى عَلَيَّ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً اسْتَأْنَفَ الْعَمَلَ». [٢٠٣]

١١- ولم يقتصر وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله عند ذكر اسمه فحسب، بل تأكد ذلك حتى حين الكتابة، فقد روى عن

رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تَسْتَغْفِرُ لَهُ مَا دَامَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ». [٢٠٤]

١٢- روت عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا رَاضِياً فَلْيَكْثِرِ الصَّلَاةَ، عَلَيَّ». [٢٠٥]

وزبدة الكلام قد تظافرت الروايات بهذا الشأن والتي تفيد مدى أهمية الصلوات والسلام على النبي وآله، بحيث تضمنت مثل هذا

الأجر والثواب لهذا العمل، وما أوردناه فى السابق هو غيض من فيض تلك الروايات.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١١٥

١- ما سر هذه الأهمية للصلوات على النبي

قبل كل شى يبرز هنا هذا السؤال وهو ما سر كل هذه الأهمية للصلوات؟ وما الأمر الذى تخترنه الصلوات على النبي صلى الله عليه و آله؟ ويمكن القول فى الإجابة على هذا السؤال هو عدم نسيان مكانة النبي الأكرم صلى الله عليه و آله ومقامه الجليل، ويستلزم ذلك عدم هجر الإسلام وتعاليم الحق، ومن هنا كانت الصلوات على النبي رمزاً لبقاء الإسلام وديمومة مسيرته. أضف إلى ذلك فإن الصلوات تدعونا للتعرف بصورة أعمق على مقامه صلى الله عليه و آله والافتداء باخلاقه وصفاته، ومن هنا وردت بعض التعبيرات التى تفيد أن الصلوات على النبي صلى الله عليه و آله تؤدى إلى طهارة الأخلاق ونقاء الاعمال وتساقط الذنوب، ومن ذلك ما جاء فى الزيارة الجامعة:

«و جعل صلاتنا عليكم وما خصنا به من ولايتكم طيباً لخلقنا وطهارةً لأنفسنا وتزكيةً لنا وكفارةً لذنوبنا». [٢٠٦]

كما أشير فى عدة روايات إلى تحات الذنوب حين الصلوات على النبي صلى الله عليه و آله. من جانب آخر فان الصلوات على النبي صلى الله عليه و آله و آله إنما تمطر أرواحهم الطاهرة بوابل من رحمة الله، ولما كانوا عليه السلام وسائط الفيض فإن تلك الرحمة وبركاتها إنما تنحدر منهم إلى الأمة. وعليه فالصلوات والرحمة عليهم فى الواقع هى صلوات علينا ورحمة لنا. أضف إلى ذلك فإن الصلوات على النبي صلى الله عليه و آله إنما يمثل نوعاً من الشكر والتقدير للجهود التى بذلها من أجل هداية الأمة، ومما لاشك فيه أن هنالك أجر وثواب لهذا الشكر ومعرفة الجميل.

٢- آثار الصلاة على النبي صلى الله عليه و آله

السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو أن الصلاة على النبي صلى الله عليه و آله هل لها من دور على منزلته ومقامه صلى الله عليه و آله و آله؟ لعل هنالك من يقول بعدم وجود أى دور لهذه الصلاة فالنبي و آله قد بلغوا المقام الذى يريدون؟ إلا أن خواء هذا الكلام يتضح من خلال الالتفات إلى أن المسيرة التكاملية للإنسان إنما تنطلق من المتناهي إلى اللامتناهي، وعليه فهى مسيرة مفتوحة ليست نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١١٦

محددة باطر وحدود، ومن هنا ورد فى بعض الأدعية وبضمنها التشهد القول بحق النبي صلى الله عليه و آله «وارفع درجته» [٢٠٧]

وإلى ذلك أشار القرآن: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» [٢٠٨] والفعل المضارع (يصلون) يفيد استمرار هذه الرحمة، ومن الواضح أن كل مسلم ينطق بالتوحيد والإسلام إنما يمثل رحمة متجددة لمشيد دعائم هذا الدين، وذلك لأنه صلى الله عليه و آله صاحب الفضل فى سن هذه السنة الحسنة.

٣- الفاظ الصلوات على النبي صلى الله عليه و آله

السؤال الآخر الذى يطرح نفسه بهذا الشأن يكمن فى الصيغة التى ترد بها الصلاة على النبي صلى الله عليه و آله. فقد وردت روايات عن طريق الفريقين التى أكدت إقتران آل النبي صلى الله عليه و آله به حين الصلاة. ونكتفى هنا بالإشارة إلى بعض هذه الروايات: روى فى الدر المنثور عن صحيح البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن مردويه عن كعب بن عجرة ان رجلاً قال للنبي صلى الله عليه و آله:

«أما السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاة عليك؟»

قال رسول الله صلى الله عليه و آله:

«قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وآل محمد كما

باركت على ابراهيم إنك حميد مجيد»

. وإضافة إلى الحديث المذكور فقد نقل صاحب تفسير الدر المنثور ثمانية عشر حديثاً صرحت جميعها بوجوب ذكر آل محمد حين الصلاة عليه، وقد نقلت هذه الأحاديث في المصادر المشهورة والمعروفة لدى العامة عن طريق الصحابة ومنهم: ابن عباس وأبو سعيد الخدرى وأبو هريرة وطلحة وأبومسعود الأنصارى وبريدة وابن مسعود وكعب بن عجرة وأمير المؤمنين على عليه السلام. [٢٠٩] وقد روى صحيح البخارى [٢١٠]، عدة روايات بهذا الخصوص، كما

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١١٧

جاءت روايتان في صحيح مسلم [٢١١]، والغريب هو أن العنوان الذى ورد في صحيح مسلم باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (دون ذكر آله) رغم إقتران الآل بالنبي صلى الله عليه وآله في الأحاديث المذكورة. والجدير بالذكر هنا أن بعض روايات العامة وأغلب روايات الشيعة لم تفصل بين محمد وآل محمد بحرف على، والصيغة الواردة هي «اللهم صل على محمد وآل محمد».

ونختم البحث بهذا الحديث الذى ورد في صواعق ابن حجر [٢١٢] ان النبي صلى الله عليه وآله قال:

«لا تصلوا على الصلاة البتراء! فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: يقولون: اللهم صل على محمد، وتمسكون؛ بل قولوا: اللهم صل على محمد وآل محمد»

أضف إلى ذلك فقد وردت عدة أحاديث بهذا المجال فى المجلد الأول من كنز العمال.

٤- الصلاة على النبي واجبة أم مستحبة؟

هنا يبرز هذا السؤال: هل الصلاة على النبي واجبة أم مستحبة؟ ظاهر الآية السادسة والخمسون من سورة الأحزاب: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...» هو الوجوب؛ لأننا نعلم أن صيغة الأمر تفيد الوجوب، إلا أن تكون هناك قرينة على خلافه، وقد أمر الله فى هذه الآية بالصلاة على النبي، فأقل ما يلزم الصلاة عليه ولو لمرة واحدة. أضف إلى ذلك فإن مشهور فقهاء الشيعة وجمع من فقهاء العامة يعتقد بوجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله فى التشهد.

فقد صرح فقيه العامة ابن قدامة فى كتاب المغنى بوجوب الصلاة على النبي فى التشهد الأول وقال:

«اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم... وهى واجبة فى صحيح المذهب وهو قول الشافعى واسحاق...»
ثم نقل عن ابن راهويه (أحد فقهاء العامة)

«لو أن رجلاً ترك الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله فى التشهد بطلت صلاته».

وأضاف: (وظاهر مذهب أحمد أحد الائمة الأربعة لدى العامة) هو الوجوب أيضاً. [٢١٣]

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١١٨

وصرح الشيخ منصور على ناصف صاحب كتاب الجامع للاصول ذيل الآية السادسة والخمسين من سورة الأحزاب: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...» أن ظاهر الآية هو وجوب الصلاة على النبي وعليه إتفاق العلماء. [٢١٤]

٥- المفهوم الحقيقى للصلاة على النبي صلى الله عليه وآله

السؤال الأخير الذى يطرح نفسه هنا: ما مفهوم هذه الصلوات؟ يتفق العلماء على أن صلاة الله على العبد تعنى الرحمة، وصلاة الملائكة والناس تعنى طلب العفو والرحمة، أو حسب الرواية الواردة عن الإمام الكاظم عليه السلام حين سئل عن معنى صلوات الله والملائكة والمؤمنين فى الآية الشريفة: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ» قال: صلاة الله رحمته وصلاة المؤمنین تقديسهم للنبي صلى الله عليه

و آله وصلاة المؤمنين طلبهم الرحمة للنبي صلى الله عليه و آله. [٢١٥] ويرى البعض أن جمعى هذه ارسال الرحمة أو التقديس وطلب المغفرة بحيث يردّها كل أحد على ضوء مقتضى حاله. [٢١٦] ولما كان الأصل اللغوي لهذه المفردة صلى على وزن سعى بمعنى القذف فى النار أو الاشتغال بهما، فإنّ البعض يرى أن الصلوات تعنى إبعاد نار العذاب الاخرى، ونتيجته الرحمة أو طلبها؛ إلا أن البعض فرق بين الصلو الناقص الواوى والصلى الناقص اليبائى، على أن المعنى الأخير يتعلق بصلّى بينما ترتبط المعانى السابقة بالصلو (لابد من التأمل).

على كل حال فان ما ورد يشير إلى أنّ كل صلاة وسلام على النبي صلى الله عليه و آله يمثل رحمة متجددة على روحه الطاهرة، ولا يستبعد أن تطول تلك الرحمة التى تستند لتلك العين الإلهية الفياضة الامّة وترفرف عليها، ومن هنا كانت الصلوات والسلاام على النبي صلى الله عليه و آله مصدر رحمة للإنسان وغفران ذنوبه. أما بشأن المراد بآل محمد صلى الله عليه و آله هل هم أهل البيت من ولده، فهذا ما سنعرض إليه فى الخطبة ٢٣٩. وقد أشرنا فى الخطبة الثانية من المجلد الأول لهذا الأمر.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١١٩

الخطبة [٢١٧] الثالثة والسبعون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
قاله لمروان بن الحكم بالبصرة
قالوا: أُخِذَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ أَسِيرًا يَوْمَ الْجَمَلِ، فَاسْتَشْفَعَ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَلَّمَاهُ فِيهِ، فَحَلَّى سَبِيلَهُ فَقَالَ لَهُ: يَا بِياعِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

نظرة إلى الخطبة

يشير كلامه عليه السلام فى هذه الخطبة إلى عذر مروان وبنى مروان من جانب ويشبه خيانتة بخيانة اليهود الذين وقفوا بوجه الدعوة منذ انبثاقها إلى يومنا هذا. كما يخبر عليه السلام عن حكومة بنى مروان وهذه الشجرة الخبيثة ومدى المصائب والويلات التى طالت المسلمين من تلك الحكومة.

وتكشف هذه النبوءة عن إحاطته عليه السلام بالحوادث المستقبلية.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٢١

«أَوْ لَمْ يَبِيعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ؟ لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ إِنَّهَا كَفَّ يَهُودِيَّةً، لَوْ بَايَعَنِي بِكَفِّهِ لَعَدَرَ بِسَبِّتِهِ. أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعَقَهُ الْكَلْبُ أَنْفَهُ، هُوَ أَبُو الْأَكْبَشِ الْأَرْبَعِيُّ، وَسَلَّقَنِي الْأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْمًا مَوْتًا أَحْمَرَ».

الشرح والتفسير

الغنى عن بيعه مروان

كما أوردنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام لما استشفع إليه الحسن والحسين عليه السلام فى العفو عن مروان بن الحكم لما أسر يوم الجمل، ثم إقترحا على الإمام عليه السلام بيعته، فقال

«أَوْ لَمْ يَبِيعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ؟ لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ! إِنَّهَا كَفَّ يَهُودِيَّةً، لَوْ بَايَعَنِي بِكَفِّهِ لَعَدَرَ بِسَبِّتِهِ».[٢١٨]

وتشبه يده باليد اليهودية تعد إشارة واضحة إلى خيانه مروان وغدره الذي ورثه في الواقع من أبيه الحكم، عم عثمان بن عفان الذي كان يتجسس على رسول الله صلى الله عليه وآله لصالح الكفار والمشركين والمنافقين إلى جانب سخريته واستهزائه بالنبي صلى الله عليه وآله فنفاه صلى الله عليه وآله إلى الطائف، ولم يشفع رسول الله صلى الله عليه وآله عثمان في رده إلى المدينة فلما ولي عثمان الخلافة كان أحد أسوأ أعماله التي دعت الناس للقيام عليه إعادة الحكم بن أبي العاص إلى المدينة. ومن الطبيعي ألا يكون هناك من اعتبار لبيعه هذا الرجل الذي بايع علياً عليه السلام ثم نقض بيعته ولم يبق لها وزناً، رغم أن البيعة كانت محترمة حتى في الجاهلية. فقد نقض بيعته وأجج نار الجمل، فلو بايع ثانية لنقض هذه البيعة

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٢٢

متى تسنح له الفرصة، فقد كان تبعاً لهواه، ولم يك للغزة والشرف والالتزام الأخلاقي والشرعي من أهمية لديه. ثم أخبر الإمام عليه السلام عن ثلاثة أمور غيبية بشأن مروان، يكمن الأول فيها في إستيلائه على الخلافة لمدة قصيرة:

نقحات الولاية ؛ ج ٣ ؛ ص ١٢٢

«أما إن له إمرةً كلعقة [٢١٩] الكلب أنفه»

فالكلب حين يزوج برأسه في جيفة ليتناول مما فيها، يعلق مقداراً من بقايا تلك الجيفة على أنفه فيمد لها لسانه بغية تناوله وتنظيف ما علق بأنفه. ويمثل هذا التعبير بشأن قصر حكومة مروان منتهى البلاغة والفصاحة، وهو من قبيل: «المقال المطابق لمقتضى الحال».

نعم فهو كالكلب الذي إنقض على جيفة الحكومة اللامشروعة لآل أمية، ولمدة قصيرة رآها بعض المؤرخين أربعة أشهر وعشرة أيام وقيل ستة أشهر، وأكثر مدة صرح بها المؤرخون هي تسعة أشهر، وهكذا تحققت نبوءة الإمام عليه السلام بشأنه حتى قتل على يد زوجته كما سنعرض لذلك في البحث القادم. الأمر الثاني الذي تنبأ به الإمام عليه السلام:

«و هو أبو الأكبش [٢٢٠] الأربعة»

والأكبش جمع كبش الحيوان الهائج المعروف حيث يشترك معه ولد مروان بهذه. وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بالأكبش الأربعة من ولد مروان هم: عبدالملك الذي ولي الخلافة بعده وعبدالعزيز الذي ولي مصر وبشر في العراق وأما محمد فولى الجزيرة، وقد ورث كل منهم الشر عن أبيه.

وبالطبع فإن أولاد مروان كثيرون، إلا أن هؤلاء الأربعة قد ولوا الحكومة واليهام أشار الإمام عليه السلام بكلامه. بينما ذهب البعض الآخر من الشراح إلى أن المراد بالأكبش الأربعة حفدة مروان من ولد عبدالملك وهم: الوليد وسليمان ويزيد وهشام، ولم يل الخلافة من بنى أمية ولا من غيرهم أربعة إخوة إلهؤلاء. ومن هنا فقد رجح البعض القول الثاني لانسجامه والنبوءة الثالثة التي وردت في كلام الإمام عليه السلام:

«وستلقى الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر»

وهذه النبوءة هي الأخرى تحققت، وقد ولي هؤلاء الأكبش الخلافة الواحد بعد الآخر فارقوا الدماء وقتلوا طائفة عظيمة من الأبرياء، لتحقق نبوءة الإمام عليه السلام بقوله:

«يوماً أحمر»

من خلال تلك الفضائع والجرائم التي ارتكبوها، وأفضل شاهد على ذلك الجنايات التي اقترفها والى الكوفة على عهد عبدالملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٢٣

تأمل: قصة غريبة من حياة مروان بن الحكم

كان مروان بن الحكم من أعدى أعداء أمير المؤمنين على عليه السلام، وقصته تمثل محور الخطبة والتي من شأنها توضيح أغلب الحقائق ذات الصلة بتاريخ صدر الإسلام. أبوه الحكم الذي نفاه رسول الله صلى الله عليه وآله، إلى الطائف وخاطبه صلى الله عليه وآله قائلاً:

«لعنك الله ولعن ما في صلبك»

وكان ذلك قبل ولادة مروان. وقيل نفى مع أبيه إلى الطائف وكان طفلاً لا يعقل، وإنه لم ير رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يزل في الطائف ولم يجرأ الخليفة الأول ولا الثاني على الشفاعة لدى رسول الله صلى الله عليه وآله لردّه إلى المدينة، حتى ولي عثمان فردّه إلى المدينة، وكان ذلك من الأعمال التي نقمها عليه الناس، والأعجب من ذلك قربه إليه وأغدق عليه أموالاً طائلة من بيت المال؛ ومن هنا إمتنع بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله من الصلاة خلف عثمان. بايع مروان علياً عليه السلام بعد قتل عثمان، ثم نقض بيعته وقدم البصرة وأجج نار الجمل، ثم أسر بعد أن قتل طلحة والزبير وهزم عسكر الجمل، وكما ورد في الخطبة فقد إستشفع الحسن والحسين عليه السلام إلى أمير المؤمنين على عليه السلام وقيل ابن عباس فخلى عليه السلام سبيله. إلا أنه بايع معاوية والتحق بصفين. وجاء في الخبر أنّ معاوية كان يخشى على حكومته يزيد من أربع من بينهم مروان، فعهد إلى ابنه بأن يصلى عليه، فإذا أتم الصلاة قتله، فلما اطلع مروان الخبر لم يكذب الصلاة حتى هرب.

و أما وفاة مروان، والسبب فيها أنه كان قد استقرّ الأمر بعده لخالد بن يزيد بن معاوية على ما قدّمنا ذكره، فلما استوثق له الأمر، أحبّ أن يبايع لعبد الملك عبدالعزيز ابنه، فاستشار في ذلك، فأشير عليه أن يتزوج أم خالد بن يزيد، وهي ابنة أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة ليصغر شأنه فلا يرشح للخلافة، فتروجها. ثم قال لخالد يوماً في كلام دار بينهما والمجلس غاص بأهله:

اسكت يا ابن الرطبة، فقال خالد: أنت لعمرى مؤتمن وخبير.

ثم قام باكياً من مجلسه - وكان غلاماً حينئذ - فدخل على أمه، فأخبرها، فقالت له: لا يعرفنّ ذلك فيك، واسكت فأنا أكفيك أمره. فلما دخل عليها مروان، قال لها: ما قال لك خالد؟

قالت وما عساه يقول؟ قال: ألم يشكني إليك؟ قالت: إن خالداً أشدّ إعظاماً لك من أن يشكّيك، فصدّقها. ثم مكثت أياماً، فنام عندها وقد أعدت جواربها، وقُمنَ إليه، فجعلن الوسائد

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٢٤

والبراذع عليه، وجلسن عليه حتى خنقه، وذلك بدمشق في شهر رمضان. وهو ابن ثلاث وستين سنة، في قول الواقدي. ومما قيل في مروان أنّ أمه كانت من أصحاب الرايات في الجاهلية قبل أن تتزوج من الحكم، حيث نصبت الراية علناً على باب بيتها وكانت تدعوا الرجال إليها. وكما أشرنا سابقاً فإنّ حكومته مروان لم تدم أكثر من بضعة شهور، وقدم جاء في الخبر أنّه رأى في المنام قد بال أربع مرات في محراب رسول الله صلى الله عليه وآله فلما سأل ابن سيرين عن رؤياه، أخبره بأنّ أربعة من بنيه يلون الحكومة فيعملون على هدم الإسلام وهذا ما وقع (طبعاً أربعة من أحفاده من ولد عبد الملك) فقد حكم الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦) وسليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩) ويزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥) وهشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥)، وقد تخلل المدّة القصيرة بين حكومة الأولين والآخرين حكومة عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١) وهو من أحفاد مروان. ثم انتهت حكومة آل مروان أسوأ خلفاء بني أمية. [٢٢١]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٢٥

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
لما عزموا على بيعه عثمان

نظرة إلى الخطبة

ونحن نذكر في هذا الموضوع ما استفاض في الروايات من مناشدته أصحاب الشورى، وتعديده فضائله وخصائصه التي بأن بها منهم ومن غيرهم قد روى الناس ذلك فأكثرُوا؛ والذي صحَّ عندنا أنه لم يكن الأمر كما روى من تلك التعديلات الطويلة؛ ولكنه قال لهم بعد أن بايع عبدالرحمن والحاضرون عثمان، وتلكاً هو عليه السلام عن البيعة: إن لنا حقاً إن نعطه نأخذه، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال الشرى؛ في كلام قد ذكره أهل السيرة؛ وقد أوردنا بعضه فيما تقدم، ثم قال لهم: أنشدكم الله! أفيكم أحدٌ آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وبينه وبين نفسه؛ حيث آخى بين بعض المسلمين وبعضٍ غيري؟ فقالوا: لا؛ فقال أفيكم أحدٌ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا مَوْلَاهُ»

غيري؟ فقالوا: لا، فقال: أفيكم أحدٌ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»

غيري؟ قالوا: لا، قال: أفيكم من أوتمن على سورة براءة، وقال له رسول الله صلى الله عليه وآله إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٢٤

مِنِّي غَيْرِي؟ قالوا: لا، قال: ألا تعلمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فرّوا عنه في مآقط الحرب في غير موطن، وما فررت قَطُّ؟ قالوا: بلى، قال: ألا تعلمون أني أول الناس إسلاماً؟ قالوا: بلى.

قال: فأئنا أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله نسباً؟ قالوا: أنت. فقطع عليه عبدالرحمن بن عوف كلامه، وقال: يا علي؛ قد أبى الناس لإعلي عثمان، فلا تجعلن على نفسك سيلاً، ثم قال: يا أبا طلحة، ما الذي أمرك به عمر؟ قال: أن أقتل من شق عصا الجماعة، فقال عبد الرحمن لعلي: بايع إذن؛ وإلما كنت متبعاً غير سبيل المؤمنين، أنفذنا فيك ما أمرنا به. فقال: «لقد علمتم أني أحقُّ بها من غيري، والله لأسليمن...» الفصل إلى آخره، ثم مدَّ يده فبايع. [٢٢٣]

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٢٧

«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي وَوَاللَّهِ لَأَسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً التَّمَسَّاسَ لِأَجْرِ ذَلِكَ فَضْلِهِ وَزُهْدًا فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ [٢٢٤] مِنْ زُخْرَفِهِ وَزِبْرَجِهِ».

الشرح والتفسير

علم الجميع باحقيتي من غيري

أورد الإمام عليه السلام هذا الكلام حين أمر عمر بتشكيل الشورى من أجل إنتخاب عثمان، والشورى هم: علي عليه السلام وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص.

وقد أمر جماعة بامهالهم ثلاثة أيام لينتخبوا من بينهم خليفة، فاختاروا عثمان خليفه بعد أن رفض علي عليه السلام ما اشترط عليه لقبول الخلافة، فرأى الإمام عليه السلام نفسه أمام عمل قد وقع، فورد هذه الكلمات

«لقد علمتم أنني أحق الناس بها من غيري»

في إشارة إلى أن سكوته عليه السلام لا يعني أدنى شك وريب في جدارته بالخلافة، فتطرق عليه السلام إلى الدافع الذي يكمن وراء ذلك السكوت فقال:

«و والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين؛ ولم يكن فيها جورٌ إلّاعلى خاصةً».

نعم مصالح المسلمين هي الدافع لذلك السكوت، حذرا من شق صفوف المسلمين؛ الأمر الذي كان ينتظره أعداء الإسلام في الداخل والخارج بفارغ الصبر بغية تنفيذ مؤامراتهم التي تهدف إطفاء نور الإسلام، أو حرصاً على دماء المسلمين والحيولة دون إراقتها، ثم يصرح بأنه مستعد للتنازل عن حقه إذا إقتصرت الظلم عليه ولم تمارسه هذه الخلافة بحق الإسلام والمسلمين. ثم أتبعه عليه السلام بالدافع

الثاني

«التماساً لأجر ذلك وفضله»

وإلى جانب ذلك

«وزهداً

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٢٨

فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه»[٢٢٥].

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة القصيرة إلى ثلاث حقائق مهمة هي:

أولاً: أنه أحق من كافة الأفراد بخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وأن أولئك الذين صدوه عن حقه بدافع من مصالحهم الشخصية أو حسداً وبغضاً إنما ظلموه كما ظلموا الأمة لأنهم حرموها من هذا الزعيم الكفوء.

ثانياً: أن سكوت الإمام عليه السلام لم يكن إعتباطياً خالياً من القيود والشروط، بل قيده عليه السلام بانتظام أعمال المسلمين دون أن يتعرضوا لأي ظلم وجور.

ثالثاً: إن الإمام عليه السلام طلب أجر الله وثوابه بهذا السكوت المرير والملي بالمعاناة، كما أراد أن يثبت عدم قيمة ما يتنافس عليه الآخرون من زبرج الدنيا وزخرفها ويحرقون من أجلها الأخضر واليابس، ولا يقيم له الإمام عليه السلام من وزن.

الإجابة عن بعض الأسئلة

هنالك عدة أسئلة تطرح نفسها، الأول: أليفهم من كلام الإمام عليه السلام أن سكوته في عهد الخليفة الأول والثاني دليل على عدم خروجهما عن مسار الحق والعدل؟ وإلّا لقام الإمام عليه السلام واعترض عليهما.

والجواب على هذا السؤال هو أن الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بذلك الوضع قطعاً؛ الأمر الذي نلمسه بوضوح بما ورد في الخطبة الشقشقية وغيرها من الخطب التي صرح فيها برفضه لذلك الوضع ليعلمه الجميع، فقد قال كل ما كان يجب قوله من خلال إمتناعه عن بيعه الخليفة الأول واعتراضه على ما ورد في السقيفة (كما مر علينا في شرح الخطبة ٦٧) ولما استتبت لهم الأمور وترسخت دعائم حكومتهم ولم يعد الاعتراض مجدداً يا سكت الإمام عليه السلام حذراً من خلخلة الأوضاع ونشوب النزاع داخل الحكومة الإسلامية ممّا يؤدي إلى إضعافها وإنهيارها. ومن

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٢٩

هنا تتضح الإجابة على هذا السؤال: لماذا لم يعترض الإمام عليه السلام على عثمان، والحال أن أخطائه في التناول على بيت مال المسلمين واغداقه أمواله على قرابته وبطانته وتسليطه لأولئك الأفراد على رقاب المسلمين ليست بخافية على أحد، فهل يعني ذلك السكوت رضاه عليه السلام بأعمال عثمان عليه السلام؟ فمما لا شك فيه أن الإمام عليه السلام لم يسكت على عثمان ولم يرض

بأعماله، فاعتراضه على نفى أبي ذر إلى الربذة وسائر أفعال عثمان تدل على أن الإمام عليه السلام كان شاجباً لأعمال عثمان، ومن الشواهد على ذلك ما روى عن الإمام عليه السلام أواخر عمر عثمان حيث نزل القوم يريدون قتل عثمان إن لم ينزع عما يكرهون، وعلم عثمان ذلك، جاء إلى منزل على عليه السلام فدخل وقال: يابن عم:

إِنَّ لَكَ عِنْدَ النَّاسِ قَدْرٌ وَهُمْ يَسْمَعُونَ مِنْكَ، وَأَحَبُّ أَنْ تَرْكَبَ إِلَيْهِمْ فَتُرَدِّمَهُمْ عَنِّي، فَإِنِ فِي دُخُولِهِمْ عَلَيَّ وَهَذَا لَأَمْرٌ وَجَرَأَةٌ عَلَيَّ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: عَلَيَّ أَيُّ شَيْءٍ أُرَدُّهُمْ؟ قَالَ: عَلَيَّ أَنْ أَصِيرَ إِلَى مَا أَشْرْتَ بِهِ، وَرَأَيْتَهُ لِي. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنِّي قَدْ كَلِمْتُكَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، فَكُلْ ذَلِكَ تَخْرُجَ وَتَقُولُ وَتَعُدُّ ثُمَّ تَرْجِعُ، وَهَذَا مِنْ فِعْلِ مَرْوَانَ وَمَعَاوِيَةَ وَابْنِ عَامِرٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ، فَاتَّكَ أَطْعَمْتَهُمْ وَعَصَيْتَنِي. قَالَ عُمَانُ: فَآتَيْتُ أَعْصِيهِمْ وَأَطِيعَكَ. فَأَمَرَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّاسَ أَنْ يَرْكَبُوا مَعَهُ، فَركب ثلاثون رجلاً من المهاجرين والأنصار، فأتوا المصريين فكلموهم، فسمعوا منهم ورجعوا بأصحابهم يطلبون مصر [٢٢٦].

ثم قام عثمان بعدة أعمال شائنة مرت علينا في شرحنا للخطبة الشقشقية تحت عنوان «دوافع القيام ضد عثمان»

بحيث أدت تلك الأعمال إلى إحباط سعي الإمام عليه السلام من أجل إطفاء الفتنة. فالكلام يفيد بما لا يقبل الشك مدى إعتراض الإمام عليه السلام على أعمال عثمان مرات وكرات وقد أخذ عهده على إصلاح وضعه، إلا أنه عجز عن ذلك الإصلاح حتى على مستوى الظاهر بفعل ضغوط مروان ومعاوية.

كما ورد في الخطبة ١٦٤ من نهج البلاغة شرح مفصل بهذا الشأن.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٣١

الخطبة [٢٢٧] الخامسة و السبعون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

لما بلغه اتهام بني أمية له بالمشاركة في دم عثمان

نظرة إلى الخطبة

يعرض الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بالذم لخصومه البعيدين عن المنطق في توجيه بعض التهم إليه التي لا يمكنها أن تطل ساحتها المقدسة بفعل سوابقه المشرقة وأهدافه العظيمة التي لا تخفى على أحد.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٣٣

«أَوْلَعَمَ يَنْهَ بَيْنِي أُمِّيَّةً عَلَّمَهَا بِي عَيْنُ قَرْفِي أَوْ مَا وَزَعَ الْجُهَّالَ سَابِقَتِي عَيْنُ تَهْمَتِي وَلَمَّا وَعَظَهُمُ اللَّهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِي أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ خَصِيمُ النَّاكِثِينَ الْمُؤْتَابِينَ وَعَلَى كِتَابِ اللَّهِ تُعْرَضُ الْأَمْثَالُ وَبِمَا فِي الصُّدُورِ تُجَارَى الْعِبَادُ».

الشرح والتفسير

العدو اللدود للمنحرفين

يعتبر قتل عثمان - إثر البذخ والتطاول على بيت مال المسلمين والظلم والجور الذي تعرضت له الأمة منه ومن بطانته والذي أثار نغمة أغلب أفراد الأمة للقيام عليه - بؤرة أفضت إلى حوادث مريرة في التاريخ الإسلامي، إلا أن هنالك جماعة من الناس كانت ترى عثمان

مقصراً ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله مستحقاً للموت، ومن هنا لم يرق لبعضهم قتله ولم يكونوا راضين بذلك، الأمر الذي مهد السبيل أما بعض الفئات المنحرفة لتستغل قتله لتحقيق أهدافها السياسية والقضاء على خصومها، وهكذا أصبح قتل عثمان وسيلة لتصفية الحسابات السياسية. فبنى أمية وفي مقدمتهم معاوية كان ساكتاً لما هجم القوم على دار عثمان، بينما كان يتمثل موقف علي عليه السلام بتوبيخ عثمان على أعماله إلى جانب الحيلولة دون قتله، فقد ذب عنه حتى بعث بالحسن وبالحسين عليه السلام ليصدوا الناس عن الهجوم على داره. مع ذلك ما أن قتل عثمان حتى هب بنى أمية للطلب بثأره ليكون هذا الأمر مقدمة للوصول إلى الخلافة، ولا سيما معاوية الذي إستغل هذا الأمر إستغلالاً بشعاً في الشام البعيدة عن المدينة لتحقيق أطماعه، حتى تمكن من خداع أهل الشام واقناعهم بأنه المدافع عن عثمان والطالب بدمه من علي عليه السلام.

وقصة قميص عثمان معروفه، فقد علق معاوية قميص عثمان (أو قميصاً يشبهه) على بوابة الشام

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٣٤

ليعبى الأمية ضد علي عليه السلام، كما وظف طائفة من كهول الشام التي كانت تقيم مراسم العزاء وتبكي عثمان في المسجد بما يثير مشاعر الناس. فقد قال الإمام عليه السلام في إطار ردّه لمزاعم بنى أمية:

«أولم ينه بنى أمية علمها بي عن قرفي؟ [٢٢٨] أو ما وزع [٢٢٩] الجهال سابقتي عن تهمتي! [٢٣٠]»

فبنى أمية وإن جانبوا الحق والانصاف، إلّا أنهم كانوا ينبغي أن يعلموا صفات الإمام عليه السلام وأنه لا يظلم أحداً ولا يلطخ يده بدماء الآخرين عبثاً، كما يعلمون جيداً سوابقه وفضائله ومنها أنّ النبي صلى الله عليه وآله خاطبه بأخيه وناداه أنت منى بمنزلة هارون من موسى وفيه وفي أهل بيته نزلت آية التطهير وقد فوض إليه النبي صلى الله عليه وآله أغلب أعماله سرية، فهذه التهم رخيصة، فالإمام عليه السلام لم يشترك في قتله ولا قتل غيره، كما بالغ في الدفاع عنه وإن كان يراه مقصراً، لكن دون حد القتل. فقد وعظه الإمام عليه السلام وحذره من مغبة أفعاله، كما دعى تلك الجماعة التي قامت ضده إلى التحلى بالصبر والحلم واعتماد الأساليب السلمية في حل النزاع، بينما بقيت بنى أمية ساكنة دون ان تحرك ساكناً. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«و لما وعظهم الله به أبلغ من لسانى»

أولم يقرأوا قوله سبحانه في كتابه العزيز: «يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثمٌ ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحِبُّ أحيِدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ» [٢٣١] أو لم يسمعوا قوله سبحانه: «وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا» [٢٣٢]. ثم أشار عليه السلام إلى فضيلة اخرى من فضائله فقال:

«أنا حجيج [٢٣٣]

المارقين، وخصيم الناكثين المرتابين»،

وقد اختلفت أقوال المفسرين في محاجته عليه السلام للمارقين في الدنيا أم الآخرة. أشار ابن أبي الحديد [٢٣٤] أنه أراد يوم القيامة حيث روى عنه عليه السلام أنه

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٣٥

قال:

«أنا أول من يجثو للحكومة بين يدي الله تعالى»

، والحال لا ينسجم ظاهر الخطبة وهذا المعنى أو لا يقتصر عليه، بل الظاهر أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يقول بأنى كنت وما أزال أفق بوجه الناكثين الذى ينقضون العهد ولا يقيمون وزناً لتعاليم الدين، والشاهد على ذلك قتاله عليه السلام للناكثين (أصحاب الجمل) والمارقين (الخوارج) والقاسطين (أهل الشام)، وبعبارة اخرى فإنّ الإمام عليه السلام يقول بمخالفته لمن يخالف حقه، فان رأوا ذلك عيباً، فليعيوبه به. ثم إختتم كلامه عليه السلام بقوله

«و على كتاب الله تعرض الأمثال، [٢٣٥] وبما في الصدور تجازى العباد»،

فقد ذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى أن العبارة إشارة إلى الآية ١٩ من سورة الحج «هَذَا خِطَبُ مَا نِ احْتَضَمُوا فِي رَبِّهِمْ» حيث روى النبي صلى الله عليه وآله إنها في علي عليه السلام وحمزة وعبيدة، وعتبة وشيبة والوليد، وكانت حادثتهم أول حادثه وقعت فيها مبارزة أهل الإيمان لأهل الشرك وكان المقتول الأول بالمبارزة الوليد قتله علي عليه السلام، فتجذرت ضغينه بنى امية وكانت تستغل الفرص لدرك ثأرها، فنزلت الآية لتكشف عن مصير الفريقين، فليس لمشركى بنى أمية سوى الجحيم والعذاب الأليم. وأما المسلمون ففي جنات النعيم. والحق أن العبارة لا يمكن أن تقتصر على الإشارة لهذه الآية، بل ترشد إلى عرض المسائل المبهمة على شبيهاتها في القرآن ليميز الحق من الباطل ولا سيما هنا في قضية قتل عثمان وسعى الآخرين لتوجيه أصابع الاتهام إلى هذا وذاك بهدف تحقيق الأغراض السياسية، ولا سيما من قبل اولئك الذين سكتوا لتقع تلك الحادثة، فاذا ما عرض هذا الأمر على القرآن، رأينا آياته تخالف ما قلتم، فهي تفند البهتان والتهمه وسوء الظن واشاعة الفاحشه.

والعبارة الأخيرة إشارة إلى هذه الحقيقة وهي أن الله عالم بنياتكم وأن هدفكم ليس الدفاع عن عثمان ولا إصلاح ذات بين المسلمين، بل تريدون إستغلال الصغيرة والكبيرة من أجل تحقيق أهدافكم وبكل وسيلة رخيصة من أجل الاستيلاء على الحكومة وممارسة الظلم والجور بحق المسلمين، فالله عالم وسيجازيكم بذلك.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٣٧

الخطبة [٢٣٦] السادسة والسبعون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
في الحث على العمل الصالح

نظرة إلى الخطبة

قال الكراجكي صاحب كنز الفوائد وهو من معاصري السيد الرضى (ره) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:
«تلكم أمير المؤمنين صلوات الله عليه باربع وعشرين كلمة قيمة كل كلمة منها وزن السموات والأرض».
ثم روى هذه الخطبة [٢٣٧].

تشتمل هذه الخطبة حسب ما ورد في نهج البلاغة على عشرين صفة من صفات المؤمنين المخلصين، والجملات الأربع التي وردت في نقل المرحوم الكراجكي في هذه الخطبة هي

«حذر أملاً» «ورتب عملاً» «يظهر دون ما يكتنم» «ويكتفى بأقل مما يعلم» [٢٣٨]

وبالطبع هناك بعض الاختلاف الطفيف في عبارات الخطبة. على كل حال فإن هذه الخطبة ورغم قصرها إلا أنها عميقة المعاني ورسينة المضمون، والإمام عليه السلام يسأل الله الرحمة للمؤمن الذي يتحلى بهذه الصفات العشرين، ليحث الناس ويرغبهم في هذه الصفات، وزبدة الكلام فإن هذه الخطبة خلاصة للفضائل الأخلاقية ومجمعة كاملة للسير والسلوك إلى الله.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٣٩

«رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً عَبْدًا سَمِعَ حُكْمًا فَوَعَى، وَدُعَى إِلَى رَشَادٍ فَدَنَا، وَأَخَذَ بِحُجْرَةِ هَادٍ فَتَجَا. رَاقَبَ رَبَّهُ، وَخَافَ ذَنْبَهُ، قَدَّمَ خَالِصًا، وَعَمِلَ صَالِحًا.»

اَكْتَسَبَ مَذْخُورًا، وَاجْتَنَبَ مَحْذُورًا، وَرَمَى غَرَضًا، وَأَحْرَزَ عَوْضًا. كَابَرَ هَوَاهُ، وَكَذَّبَ مُنَاهُ. جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيئَةً نَجَاتِهِ، وَالتَّقْوَى عُدَّةً وَفَاتِهِ. رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغَرَاءَ، وَلَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ. اغْتَنَمَ الْمَهْلَ، وَبَادَرَ الْأَجَلَ، تَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ».

الشرح والتفسير

عشرون كلمة قيمة

إستهل الإمام عليه السلام الخطبة بقوله:

«رحم الله امرأً عبداً سمع حكماً [٢٣٩] فوعى [٢٤٠] ودعى إلى رشادٍ فدنا، وأخذ بحجزه [٢٤١] هادٍ فنجا. راقب ربّه، وخاف ذنبه». لقد بين الإمام عليه السلام في هذه العبارة بهذه الصفات الخمس مقدمة طريقه رواد القرب إلى الله وسالكي مسيرة التقوى وتهذيب النفس، فأول الطريق ضرورة توفر الاذن السامعة التي تصغى إلى الحقائق وتستوعبها ومن ثم الاتجاه نحو الداعي الإلهي لمزيد من الفهم والإدراك، آنذاك اللجوء إلى الهادي وانتخاب القائد والدليل، وأخيراً الشعور بالحضور الدائم لله سبحانه وشهوده للأعمال بغية الورع والتقوى من الذنب. فمن تحلى بهذه الفضائل الخمس يكون قد أعد زاده للسفر إلى الله والحركة نحوه. طبعاً صحيح أن الله قد خلق الإنسان على الفطرة وزوده بالعقل كمصباح يضيئ له الطريق، إلّا أنّ المفروغ منه هو أن اجتياز هذا الطريق

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٤٠

يتعذر بالاقتصار على العقل والفطرة، ولا يتوج ذلك إلّا بتوفر الداعي الإلهي والمرشد والدليل.

ومن الواضح أن المراد بالدليل والمنقذ الذين اشير إليهما في العبارة هم النبي وأئمة العصمة عليهم السلام ومن يتحدث عنهم ويهدى إليهم؛ لا الأفراد المبتدعين ممن تسموا بشيوخ التصوف الذين يغطون في هالة من الظلمة الدامسة ويزعمون أنهم يهدون إلى النور ولا يخفى على أحد مدى الدور الذي يلعبه الشعور بالمراقبة الإلهية والورع عن الذنب في كبح جماح النفس وطمودها أمام الأهواء والشهوات. فاذا ما توفرت هذه المقدمة اللازمة لذلك السفر، آنذاك يأتي دور البرامج العلمية فقال عليه السلام:

«قدم خالصاً، وعمل صالحاً. اكتسب مذخوراً، واجتنب محذوراً، ورمى غرضاً [٢٤٢] وأحرز عوضاً. كابر [٢٤٣] هواه، وكذب مناه».

فقد أكد الإمام عليه السلام بادي ذي بدء على العمل الخالص والصالح، كما ورد تعريفه عن الإمام الصادق عليه السلام:

«العمل الخالص الذي لا تريد أن يمدحك عليه أحدٌ إلّا الله» [٢٤٤]

وإليه أشارت الآية الكريمة: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» [٢٤٥].

وهناك تفاسير أخرى للاخلاص تبدو من قبيل اللازم والملزوم، فقالوا: الاخلاص إخفاء العمل عن الخلاق وتطهيره من العلائق، وقيل: حقيقة الاخلاص ألا ينتظر الإنسان أجراً دنيوياً أو أخروياً على عمله، بل يقوم به حباً لله. وقيل: الاخلاص إخراج الخلق من معاملة الخالق. ولعلنا نلمس قمة الاخلاص في الحديث الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام حين قال:

«إلهي ما عبدتك طمعاً في جنتك ولا خوفاً من نارك ولكن وجدتكم أهلاً للعبادة فعبدتكم» [٢٤٦]

. ثم اتبع الاخلاص والعمل الصالح بالحديث عن المذخور والذخيرة ليوم القيامة والواقع هو أن أعظم ذخيرة إنما تتمثل بالأعمال الخالصة والصالحة.

ولما كانت الأعمال الصالحة والخالصة للإنسان عرضةً للاجباط بفعل الذنوب والمعاصي،

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٤١

فقد ورد الحض على إجتنا هذه الذنوب والتورع عن ارتكابها ليقدم الفرد على ربّه يوم القيامة بتلك الأعمال. وطالماً كان الاقبال على الدنيا يصد الإنسان عن ذخيرة الأعمال الصالحة، واتباع هوى النفس الذي يعد من أهم موانع الطريق وعقبته الكؤود طول الأمل، فقد ورد الحديث عن ترك زخارف الدنيا وعدم الاغترار بها ومقاومة هوى النفس وتكذيب طول الأمل وإجتنا به الآفات المهلكة

التي ورد الحديث عنها عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«يقول الله تعالى: وعزّتي وجلالي ... لا يؤثر عبدٌ هواه على هواي إلا استحفظته ملائكتي وكفّلت السموات والأرضين رزقه» [٢٤٧]

. ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بسبع صفات للمؤمن الصالح فقال:

«جعل الصبر مطية [٢٤٨] نجاته، والتقوى عدّة وفاته [٢٤٩] ركب الطريقة الغراء، لزم المحجّة [٢٥٠] البيضاء. اغتنم المهل، [٢٥١] وبادر الأجل، وتزوّد من العمل».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه الصفات السبع - والتي تبدأ بالصفة الرابعة عشرة وانتهت بالعشرين - إلى شرائط والوسائل المتعلقة بالسالكين إلى الله الذين يحثون الخطي لنيل القرب من الله. ويحتاج هؤلاء السالكون قبل كل شيء إلى مركب يوصلهم إلى شاطئ النجاة وشق عباب هذا الطريق المحفوف بالمخاطر والعقبات، وما أعظم الصبر بصفته المنقذ في كل موضع ومهما كانت الظروف.

من جانب آخر فإن كل مسافر لابد أن يحمل معه بعض الوسائل والأدوات التي تلبى حاجاته طيلة هذا الطريق، ويشير الإمام عليه السلام إلى أنّ هذه الوسائل تتمثل بالورع والتقوى بصفتهما الزاد إلى الوفاء. ثم تأتي المرحلة الضرورية الأخرى المتمثلة بمعرفة الطريق ومواصلة السير عليه فقال عليه السلام

«ركب الطريقة الغراء ولزم المحجّة البيضاء»

فالعبرة الأولى تشير إلى انتخاب

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٤٢

الطريق والثانية إلى السير عليه ومواصلته دون الانحراف عنه طيلة المسيرة. من جانب آخر ليس هنالك من منازل يمكن السالك التزود فيها لسفره الطويل، ومن هنا لفت الإمام عليه السلام إنتباه السالكين إلى إغتنام الفرص واحترام الوقت الذي قد يكون وبالاعلى صاحبه إذا لم يستفد منه:

«اغتنم المهل وبادر الأجل».

واخيرا اختتم كلامه بالحديث عن التزود للأخرة ومبادرة العمل الصالح خلال مدة العمر القصيرة.

تأمل: الصبر واغتنام الفرصة

الصبر حالة نفسانية يعتمده الإنسان لمواجهة ما يعترض مسيرته من صعاب ومشاكل، وتارة يكون هذا الصبر صبر الطاعة إذا تضمن الوقوف بوجه الصعاب من أجل إمتثال الأوامر الشرعية، وتارة أخرى يكون الصبر على المعصية إذا تضمن كبح جماح النفس والحد من طغيانها وكسر شهواتها، وأخيراً هناك الصبر على النوائب إثر مجابهة المصائب والويلات والأمراض ومطبات الحياة وعقباتها الكؤود. والواقع أنّ هذه الصفة تأخذ بيد الإنسان إلى التقوى حتى ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد» [٢٥٢]

وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال

«سيأتى على الناس زمانٌ لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر ولا الغنى إلا بالغصب والبخل، ولا المحبّة إلا باستخراج الدين وأتباع الهوى؛ فمن أدرك ذلك الزمان وصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبّة، وصبر على الدلّ وهو يقدر على العزّ، آتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممّن صدّق بي» [٢٥٣]

. وأخيراً فقد أكد الإمام عليه السلام في هذه الخطبة على إغتنام الفرصة والتأهب للأجل، وذلك لأنّ الفرص تمرّ مر السحاب، وهناك عدّة أخطار تتهدد أعمال الخير، حيث

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٤٣

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إذا هممت بخير فبادر فإنه ما تدري ما يحدث» [٢٥٤]

وقال عليه السلام أيضاً:

«إذا هم أحدكم بخير أو صلّه فإنّ عن يمينه وشماله شيطانين فليبادر

لا يكفاه عن ذلك». [٢٥٥]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٤٥

الخطبة [٢٥٦] السابعة والسبعون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

وذلك حين منعه سعيد بن العاص حقه

نظرة إلى الخطبة

ورد هذا الكلام عن الإمام عليه السلام حين ولي عثمان الخلافة واستولت بطانته على بيت مال المسلمين فعاشت به فسادا لتمارس أبشع أنواع الأسرار إلى جانب تسليطه لبني أمية على رقاب الناس من خلال إغداق المناصب الحكومية الحساسة. ومن ذلك أنه ولي سعيد بن العاص الكوفة فبعث مع ابن أبي عائشة مولاة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام بصله وأوصى مولاة (الحارث بن جيش) يبلغ عليا عليه السلام أنه لم يبعث لأحد أكثر من هذه الصلّة سوى لعثمان، وكأنّه أراد أن يمتن على الإمام عليه السلام، فقال عليه السلام: واللّه لا يزال غلام من غلمان بني أمية يبعث إلينا مما أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرملة؛ واللّه لئن بقيت لأنفضنها نفض اللحام الودام التربة.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٤٧

«إِنَّ بَنِي أُمِّيَّةَ لَيَفُوقُونَنِي تُرَاثَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَفْوِيْقًا، اللَّهُ لئن بَقِيَتْ لَهُمْ لَأَنْفُضَنَّاهُمْ نَفْضَ اللَّحْمِ الْوَدَامِ التَّرْبَةَ!»

الشرح والتفسير

غيب من فيض جنایات بنی أمیة

إشارة

لقد تسالم ساسة العالم ومنذ القديم على ممارسة الضغوط الاقتصادية على معارضيهم لينشغلوا بأوضاعهم دون الانتباه إلى ما يجري من حولهم، بل لا يتخلون عن هذا الأسلوب حتى في حالة جنوحهم إلى التعايش السلمى معهم فلا يزودونهم إللأبادى العطاء. فقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذا الأمر بقوله:

«إِنَّ بَنِي أُمِّيَّةَ لَيَفُوقُونَنِي [٢٥٧] تُرَاثَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَفْوِيْقًا»

. تتضمن المفردة ليفوقوننى - من مادة فواق الناقة يعنى حلبها لمرّة واحدة- إشارة لطيفة رائعة إلى زهد العطاء، وكان الخلافة بمثابة

الناقة الحلوب التى تكالبت عليها بنى أمية ولا تفيض منها على الإمام عليه السلام سوى بهذا الفواق الزهيد. أمّا قوله:

«تراث محمد»

فقد يكون المراد به فدك وما شابه ذلك، كما يمكن أن يكون المراد به الإسلام بكامله الذى يشمل التراث بمعناه الواسع؛ لأنّ إزدهار الاقتصاد الإسلامى إنّما حصل ببركة دين النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والجهود المضيئة التى بذلها صلى الله عليه وآله من أجل نشره، وعليه فكل ما فى أيديهم من تراث محمد صلى الله عليه وآله، ولعلّى عليه السلام السهم الأوفى فى هذا التراث، ليس لقربته من النبى صلى الله عليه وآله فحسب، بل لتضحياته من أجل الإسلام. صحيح أنّ الإمام عليه السلام كان أسوأ الزهد فى حياته؛ إلّا أنّه كان يحصل على عطائه من الغنائم على عهد

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٤٨

رسول الله صلى الله عليه وآله ويصل بها الفقراء والمحتاجين. ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً
«و الله لئن بقيت لهم لأن فضنهم [٢٥٨] نفض اللّخام الوذام التربة!»

تشبيهه عليه السلام لبنى أمية بالوذام التربة التى تعنى الحزب من الكرش أو الكبد والمعدة وسائر ما فى بطن الحيوان التى تقع فى التراب إشارة إلى ذروة تلوث بنى أمية وضعتهم فهؤلاء- وبشهادة أعمالهم على عهد عثمان- بلغوا مرحلة من الدنس بما جعل عامّة المسلمين تنقم عليهم وتفكر فى إجتثاث جذور هذه الشجرة الخبيثة من أصولها وطرد هذه العناصر الفاسدة من المجتمع الإسلامى وانقاذ بيت المال من أيديهم الآثمة.

قال المرحوم السيد الرضى (ره) آخر هذه الخطبة: ويروى التراب الوذمة وهو على القلب.

قال الشريف: وقوله عليه السلام:

«ليفوقونى»

أى يعطونى من المال قليلاً كفوق الناقه. وهو الحلبه الواحدة من لبنها. والوازم: جمع وذمه، وهى الحزب من الكرش، أو الكبد تقع فى التراب فتنفض. وجاء فى بعض الروايات

«التراب الوذمة»

بدلاً من

«الوذام التربة»،

والمفهوم واحد وكلاهما بمعنى الأشياء الزهيدة التى قد تلوث أحياناً ويجب تطهيرها.

تأملان

١- من هو سعيد بن العاص؟

كما أوردنا سابقاً فإنّ الخطبة وردت بشأن سعيد بن العاص لما بعث بسلامه وهو يومئذ أمير الكوفة من قبل عثمان وقد بعث بهدايا إلى المدينة، ثم بعثت بعدية إلى على عليه السلام وكتب إليه إني لم أبعث إلى أحد أكثر مما بعثت به إليك إلّا عثمان، وكأنّه قد إمتن على الإمام عليه السلام بذلك المقدار فأجابه الإمام عليه السلام بهذا الكلام. سعيد من طائفة بنى أمية من قبيلة قريش، أدرك النبى صلى الله عليه وآله وكان من أمراء جيش المسلمين، وقد تربى فى حضانة عمر بن الخطاب، وقد ولاه عثمان الكوفة، فلما قدم الكوفة خطب أهلها واتهمهم بالتمرد والعصيان. فشكاه أهل الكوفة إلى عثمان، فاعاده إلى المدينة فمكث فيها حتى خرج الناس على عثمان فجعل يدافع عنه ويواجه الثوار حتى قتل عثمان، فاضطر للذهاب إلى مكة وبقي فيها. فلما ولى معاوية الخلافة، جعله معاوية أميراً على

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٤٩

المدينة حتى توفي فيها. لم يلتحق بالجمال ولا صفين، ويتصف بالكبر والعنف والفضاضة، كما كان خطيباً متكلماً. بنى له قصرًا كبيراً في المدينة، وتوفي سنة ٥٣ هـ أو ٥٩ هـ في المدينة. [٢٥٩]

٢- بنى أمية

إشارة

بنى أمية من قبيلة قريش وينسبون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وقد بدأت حكومتهم منذ تولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة عام ٤١ هـ حتى عصر مروان الحمار أو مروان الثاني الخليفة الرابع عشر الذي توفي سنة ١٣٢ هـ والحكومة الأموية وإن انقرضت عام ١٣٢ هـ إلا أن أحد أفرادها حكم فيما بعد الأندلس، حيث فتحت الأندلس من قبل المسلمين عام ٩١ حتى ٩٣ هـ ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ١٣٨ هـ كانت تحكم كسائر الممالك الإسلامية من قبل الخلفاء المسلمين. وفي عام ١٣٨ هـ حكمها عبدالرحمن الأول من أحفاد هشام بن عبدالملك الحاكم الأموي العاشر الذي نجى من العباسيين، وقد حكمها ونسله لمدة قرنين، حتى قام الناس في القرن الخامس لتسقط هذه الحكومة. [٢٦٠]

الف) بنى أمية في القرآن الكريم

«وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا». [٢٦١]

. أجمع مفسرو الفريقين أن هذه الرؤيا حتى رأى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بنى أمية ينزرون على منبره إنزواء القردة فنزل عليه جبرئيل بالآية ليطلعه على حكومتهم، فلم ير رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك ضاحكاً.

وقد نقل المفسر المعروف الفخر الرازي في تفسيره رواية بهذا المضمون عن ابن عباس. كما روى عن عائشة أنها قالت لمروان:

«لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض من لعن الله» [٢٦٢]

. إضافة إلى الآية المذكورة فقد فسرت الشجرة الخبيثة في الآية ٢٦ من سورة إبراهيم على ضوء بعض الروايات بنى أمية. [٢٦٣]

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٥٠

ب) بنى أمية في أحاديث العامة

جاء في كتاب كنز العمال من مصادر العامة عن سعيد بن عامر قال: أغلظ أبو بكر يوماً لأبي سفيان فقال له: يا أبا بكر لأبي سفيان تقول

هذه المقالة. قال يا أبت إن الله رفع بالإسلام بيوتاً ووضع فكان بيتي فيما رفع وبيت أبي سفيان فيما وضع. [٢٦٤]

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: إن أول من يبدل سنتي رجل من بنى أمية. [٢٦٥] وقال صلى الله عليه وآله: إن أهل بيتي

سيلقون من بعدى من أمتي قتلًا وتشريداً، وإن أشد قومنا لنا بغضاً بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم. [٢٦٦]

وعن علي عليه السلام قال: لكل أمة آفة وآفة هذه الأمة بنو أمية. [٢٦٧]

ج) بنى أمية في نهج البلاغة

تعرض أمير المؤمنين علي عليه السلام في عده خطب من نهج البلاغة لبنى أمية والمفاسد التي كبدوها الإسلام والمسلمين، ومن ذلك

ما أورده في الخطبة ٧٧ و ٩٣ و ٩٨. فقد وصف عليه السلام حكومة بنى أمية بالكبر وأبشع الفتن على الأمة الإسلامية فقال عليه السلام:

«ألا وإن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية فإنها فتنة عمياء مظلمة...».

د) مفاسد حكومة بني أمية

إشارة

كثيرة هي المفاسد والجنايات التي ارتكبتها حكومة بني أمية في التأريخ الإسلامي، بحيث لا يسع المقام الخوض في تفاصيلها، وعليه نكتفي بالإشارة هنا إلى بعضها:

١- انحراف الخلافة عن مسارها الصحيح واستبدالها بالسلطة

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٥١

فقد صرح معاوية بأنه استولى على الخلافة بالسيف لامن خلال محبة الناس أو رضاهم عن حكومته. [٢٦٨] وقال الجاحظ أن معاوية أسمى العام الذي ولي فيه الخلافة بعام الجماعة والحال كان ذلك العام، عام الفرقة والقهر والغلبة، العام الذي أصبحت الخلافة فيه وراثته على غرار حكومة كسرى وقيصر [٢٦٩]. وقد دفعت حياة الترف والبدخ لمعاوية ونهجه في الخلافة لئن يخاطبه سعد بن أبي وقاص بالملك حين كان يرد عليه. [٢٧٠] وقد عد المؤرخون معاوية أول ملك. [٢٧١]

٢- مسخ وتحريف الحقائق والمعارف الإسلامية

مثل:

١- سب أمير المؤمنين علي عليه السلام ووضع الأحاديث في ذمه ومدح معاوية. وروى أن قوماً من بني أمية قالوا لمعاوية: إنك قد بلغت ما أملت، فلو كفت عن لعن هذا الرجل فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذكراً فضلاً. [٢٧٢] ولما سئل مروان عن ذلك أجاب: لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك. [٢٧٣] وذكر ابن أبي الحديد أن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضى الطعن فيه والبراءة منه؛ وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه، منهم أبوهريرة وعمرو و بن العاص والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة بن الزبير [٢٧٤].

٢- إشاعة مذهب الجبر بين المسلمين، فقد صرح معاوية أن لافائدة من السعي والعمل فكافة الأمور بيد الله [٢٧٥]، ولا يقصد معاوية من هذا الكلام المسائل العقائدية، بل يهدف إلى فرض خلافته على الناس، حيث قال:

«هذه الخلافة أمرٌ من أمر الله وقضاءٌ من قضاء الله» [٢٧٦]

؛ الأمر الذي جعل زياد بن أبيه والي معاوية على البصرة والكوفة يخاطب الناس بأنه

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٥٢

يدافع عنهم من خلال السلطنة التي منحهم الله إياها. [٢٧٧]

٣- قتل كبار الشخصيات الإسلامية وأئمة الدين كالإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام وزيد بن علي بن الحسين عليه السلام وحجر بن عدي.

٤- قصف الكعبة والمسجد الحرام بالمنجنيق على عهد يزيد.

٥- سلب الأمانة أمنها واستقرارها. فقد شاع على عهد زياد بن أبيه الد عبد الله في العراق المثل المعروف:

«أنج سعد فقد هلك سعيد»

الذى يرمز إلى سفك دماء الأبرياء بدون حق. [٢٧٨]

٦- تعذيب أبناء الأمة الإسلامية وممارسة ألوان الاهانة من قبيل كوى وجه وعنق بعض الشيعة، وهذا ما فعله الحجاج بن يوسف بأنس بن مالك وسهل بن سعد وجابر بن عبدالله الانصارى لجهنم لعلى عليه السلام. [٢٧٩] وخلاصة القول فإن جنایات ومفاسد بنى أمية أكثر من أن تحصى، وما مر معنا غيض من فيض جرائم بنى أمية، ولانرا نبالغ إذا قلنا أنها تتطلب عدّة كتب ومجلدات. والعجيب أن بعض المغفلين والجهال يرون هذه الحكومة من قبيل الحكومات الإسلامية؛ الأمر الذى يكشف عن ضحالة أفكارهم وعدم إطلاعهم على السلوكية المنحرفة لبنى أمية.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٥٣

الخطبة [٢٨٠] الثامنة والسبعون

إشارة

ومن دعاء له عليه السلام
من كلمات كان عليه السلام يدعو بها

نظرة إلى الخطبة

يشتمل كلامه عليه السلام على أربعة أدعية عظيمة، تفيد بعض القرائن أن الإمام عليه السلام كان يتلوا كراراً هذه الأدعية ويتضرع بها إلى الله سبحانه وتعالى. طبعاً صحيح أن الإمام عليه السلام معصوم ولا يصدر عنه أى ذنب أو معصية علانية أو خفية، فى الباطن أو الظاهر باللسان أو بالعين، إلا أن مقامه لدى الحق سبحانه يجعله يخشى الغفلة عن أدنى مصداق لترك الأولى فيسأل الله الرحمة على الدوام. أضف إلى ذلك فإن كلماته تعليمية لعموم الأمة لتتعرف على كيفية الاسلوب الذى تناجى به خالقها، كما تفيض عليها بعض المعارف والعلوم والمضامين الإسلامية.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٥٥

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي فَإِن عُدْتُ فَعُدْتُ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الْأَلْحَاطِ وَسَقَطَاتِ الْأَلْفَاظِ وَشَهَوَاتِ الْجَنَانِ وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ».

الشرح والتفسير

من الأدعية التربوية للإمام على عليه السلام

أوردنا سابقاً أن الإمام عليه السلام يسأل الله سبحانه العفو والمغفرة من أربعة أشياء والتي يشكل كل واحد منها فى الواقع مشكلة من المشاكل الأخلاقية المهمة والعقبات المعنوية التى تعترض سبيل الإنسان ومما لاشك فيه أن الإنسان إذا تغلب على هذه العقبات فانه سيبلغ شاطئ الأمان وينال الفلاح والسعادة. فقد استهل دعائه عليه السلام بالقول:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، فَإِن عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ»

فرصيد الإنسان هو النسيان فيقارن الكثير من الذنوب والمعاصي إلى درجة نسيانها وعدم الاعتذار إلى الله منها وطلب العفو والمغفرة، أو الاصرار عليها وعدم الكف عنها دون الالتفات إليها حتى تثقل كاهله. وهنا ينبغى التضرع إلى الله سبحانه:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، فَإِن عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ»

كما ينبغي استحضر الذنوب والمعاصي وسؤال الله العفو والصفح. ومما لاشك فيه أن هذا النسيان آفة سعادة الإنسان، بحيث يؤدي إلى بعض المشاكل التي يتعذر على الإنسان حلها، ومن هنا يتوجب على الإنسان الاستعاذة بالله من هذا النسيان، وسؤال الله العافية من الذنوب المنسية، وقد أبلغ القرآن في التعبير عن مثل هذه الذنوب فقال:

«يَوْمَ يَتَعَنَّهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا»

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٥٦

فَيَتَبَّعُهُمْ بِمَا عَمِلُوا اللَّهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» [٢٨١]. أما بعض شراح نهج البلاغة فقد ذهبوا إلى أن المراد بالعبارة الذنوب التي يجهل الإنسان كونها ذنوباً، أو إذا علم بها فان علمه باهت لا يكثر له بهذا الشأن. ويرد على أصحاب هذا التفسير أن الذنوب التي يقارفها الإنسان جهلاً مغفورة فلا حاجة لسؤال الله المغفرة عليها، إلا أنهم أجابوا عن ذلك بقولهم إن كان هذا الجهل نابعاً من القصور وكان الجاهل قاصراً فالأمر كذلك، أما إذا كان ذلك الجهل يستند إلى التقصير وكان الجاهل مقصراً ولم يجد نفسه في الالمام بالعلم فإن العقاب واللوم والتوبيخ يطال مثل هذا الجاهل، ومن هنا عليه أن يسأل الله العفو والصفح عن ذنوبه أو أن يكون المراد الذنوب التي ينسى الإنسان كونها ذنوباً أو يخطئ في تشخيصها بحيث يجب عليه طلب المغفرة إن كان ذلك النسيان هذا الخطأ وليد التقصير؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» [٢٨٢] والواقع هو أن التفسير الذي أوردناه في البداية يعود إلى نسيان. موضوع الذنب، بينما يعود التفسير الثاني إلى حكمه. إلا أن التفسير الأول أنسب من التفسير الثاني، وإن قال جمع من الشراح بالتفسير الثاني. وأخيراً يبقى احتمال الجمع قائماً وقد سأل الإمام عليه السلام الله العفو عنها جميعاً. أما الدعاء الثاني فقد تضمن الإشارة إلى موضوع مهم آخر والذي يكمن في عدم وفاء الإنسان بالعهود والمواثيق التي يقطعها على نفسه أو مع ربه فقال عليه السلام:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتَ مِنْ نَفْسِي، وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي» [٢٨٣]

قد تتكون العبارة

«ما وأيت من نفسي»

إشارة إلى العهود والمواثيق التي يتمثل طرفيها بنفس الإنسان، كأن يعاهد نفسه، ومما لاشك فيه أن الالتزام بهذه العهود والعمل بمضامينها يكشف عن شخصية الإنسان عزمه على ممارسة الأنشطة والفعاليات، بينما يفيد

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٥٧

نقضها ضعف إرادته فيتوجب عليه الاستعاذة بالله منه. أو يمكن أن يكون طرفها الأول الإنسان والطرف الآخر الله سبحانه تعالى بحيث يكون هذا المعنى مقدرًا في العبارة السابقة [٢٨٤]، وعلى وهذا الضوء فهي إشارة إلى جميع العهود والمواثيق الشرعية التي يعاهد الإنسان فيها الله سبحانه ولا يلتزم بها. وذلك لأن الكثير من الأفراد يعاهدون الله في الشدائد والنوائب فإذا ما كشفت عنهم نسوا تلك العهود؛ الأمر الذي صرح به القرآن الكريم قائلاً: «وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» [٢٨٥]. أمياً في الدعاء الثالث فالإمام عليه السلام يستعيد بالله من الرياء والنفاق ويسأل الله العفو والمغفرة فيقول:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي، ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي»

فالتظاهر بالأعمال الحسنة - من خلال اللسان أو الرياء في العبادات وسائر الطاعات - يعد من أخطر شعب الشرك، الأمر الذي أكد التحذير منه في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية، غير أن الذي يؤسف له هو أن الرياء والنفاق من الأعمال الشائعة التي تكذب الإنسان أضراراً تفوق التصور، حيث يفيد هذا الأمر أن مثل هذا الإنسان لا يؤمن في الواقع بتوحيد الله على مستوى الأفعال، ولا غرو فهو يرى العزة والذلة بيد الناس ويؤثر ولاية الناس ومحبتهم على ولاية الله ومحبته. بينما إذا علم هذا الإنسان بأن العزة والذلة بيد الله،

يعز من يشاء ويذل من يشاء وأن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء، فإنه لا يسأل سوى الله ولا يعمل إلا لله سبحانه. ولا يقتصر التناقض بين القول والنية بالنسبة للرياء، بل إن كل تناقض إنما يشمل الظاهر والباطن، فكل ما ينطق به الإنسان ولا يلتزم به حين العمل، أو أن يعزم على خلافه إنما يشير إلى تناقض الظاهر مع الباطن، وإن لم يكن قد قصد الرياء. فقد صرح القرآن الكريم بهذا الخصوص قائلاً: «يا أيها الذين آمنوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ» [٢٨٦] أننا لنناجى الحق سبحانه وتعالى في صلواتنا اليومية «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» والحال قد تعيش قلوبنا عباءة أخرى وإستعاذة ثانية، كما نتشهد في صلواتنا بالوحدانية لله «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له»

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٥٨

بينما نعيش الشرك في إيماننا ومن ذلك الشيطان المتمثل بهوى النفس الذى يلقي بظلاله على جميع زوايا الحياة البشرية، والدعاء الوارد فى الخطبة من الدروس القيمة التى تحذر من هذا الخطر العظيم. وأخيراً يستغفر الله سبحانه من أربعة أشياء ويستعيد بالله منها «اللهم اغفر لى رمزات [٢٨٧] الألفاظ، [٢٨٨] وسقطات [٢٨٩] الألفاظ، وشهوات الجنان، وهفوات [٢٩٠] اللسان»

فالعبرة إشارة إلى ذنوب العين والقلب واللسان التى قد تكون من أخطر الذنوب والمعاصى. فنظرات الازدراء للمؤمنين والإشارات المشوبة بالغرور والاستخفاف، وارسال الكلام على عواهنه دون إجلاله الفكر والذى قد يقود إلى الاضغان والاحقاد وإثارة الخلافات والتوترات وارقاء ماء وجه الآخرين إلى جانب النزوع نحو الشهوات والرغبات التى تقذف بالإنسان فى أودية الخطيئة والاثم ومقارفة بعض المعاصى التى تفرزها حالة العبيثية فى الحديث التى تؤدى إلى عدّة مفساد، كل هذه الامور من أعدى أعداء سعادة الإنسان وفلاحه، والإمام عليه السلام حين يسأل الله العفو عن هذه الامور إنما يهدف التحذير العملى من مغبة هذه الامور الأربعة وعدم الاستخفاف بمدى خطورة ذنوبها. وأما الفارق بين رمزات الالفاظ وشهوات الجنان فهو واضح، غير أن هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغة بشأن الفارق بين

«سقطات الالفاظ» و «هنوات اللسان»

. فقد ذهب المرحوم مغنية إلى أن المراد واحد، بينما ذهب المرحوم الشارح الخوئى إلى أن المراد بسقطات الالفاظ هو الالفاظ التى لا تترتب عليها فائدة فى الآخرة سواء كانت محرمة أم لم تكن كذلك، أما هفوات اللسان فهى الكلام الحرام من قبيل الغيبة والنميمة والبهتان والاستهزاء والسب والشتم والتهمه. ولكن إستناداً إلى أن سقطات جمع سقط بمعنى الشئ التافه الذى لا قيمة له، يبدو أن العبارة

«سقطات الالفاظ»

إشارة إلى الكلام العبثى واللغو والركيك أحياناً الذى يصدر من الأفراد اللابالين الجهال؛ أما هفوات اللسان وبالاستناد إلى مفهوم الهفوة الذى يعنى الزله، فان العبارة تشير إلى ما يجرى

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٥٩

على لسان الإنسان من كلمات دون التأمل والتفكير، ولعلها تختزن بعض الذنوب الخطيرة كالغيبة والتهمه والاستهزاء بالمؤمن [٢٩١].

فصل فى الدعاء ودوره فى حياة الإنسان

يلعب الدعاء دوراً هاماً فى تربية النفس البشرية وسوقها نحو مدارج السمو والرفعة والكمال، وهى الحقائق التى قد يغفلها أغلب الداعين. والدعاء كمطر الربيع الذى يسقى بغيته أرض القلوب فتفتح أوراق الإيمان والاخلاص والعشق والعبودية والدعاء هو النسيم القدسى الذى يطبع الروح بمعانى الطهر والعفة إلى جانب القوة والقدرة التى تهب العظام الرميم الحياة كدعاء السيد المسيح عليه السلام، ناهيك عما تشتمل عليه بعض الأدعية من فضائل أخلاقية ومعارف ربانية تسبغ بها النفس فتمنحها الهدوء والسكينة فالنفس

حية بالدعاء نابضة بالورع والتقوى ومن هنا فإنّ الدعاء هو الأكسير العظمى وكيمياء السعادة وماء الحياة وروح العبادة، حتى ورد في الحديث أن

«الدعاء مخ العبادة» [٢٩٢]

والجدير بالذكر أنّ القرآن يرى قيمة الإنسان تكمن في دعائه وتضرعه إلى الله: «قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ» [٢٩٣]. وكيف لا يكون الدعاء بهذه الأهمية وهو يدعو الإنسان إلى معرفة الله وعشق والمعبود بغية نيل رحمته والظفر بعفوه ومغفرته من خلال التوسل باسمائه الحسنی، من جانب آخر فإنّ يحث الداعي على التحلي بشرائط الاستجابة وفي مقدمتها التوبة من الذنوب والمعاصي والتعفف عن مقارفتها. أضف إلى ذلك فإنّ الدعاء يدفع بصاحبه إلى إزالة موانع الاستجابة ويتمثل أبسطها في المواظبة على الحلال في المأكل والملبس وإجتنب المال الحرام والسعي لأداء حقوق الآخرين وترك الذنوب والمعاصي من قبيل الغيبة والنميمة وشرب الخمر وقطيعة الرحم التي تعدّ من موانع إستجابة الدعاء. ولذلك يمكن القول إنّ ما يترتب على ذات الدعاء بالنسبة للإنسان يفوق بكثير ما يعود عليه من إستجابته. وناهيك عن كل ما سبق فإنّ

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٦٠

المضامين العميقة التي تضمنتها أدعية أئمة الدين تعدّ دروساً قيمة والمتاع العظيم الذي يتزود به السالكين إلى الله سبحانه على سبيل المثال إذا ألقينا نظرة إلى دعاء يوم الأحد من أدعية أيام الاسبوع تطالعنا العبارة

«واجعل غدی وما بعده أفضل من ساعتی ويومی»

التي ترشدنا إلى أهمية العمر وضرورة إغتنام كل لحظاته بحيث تكون اللحظة الحاضرة أفضل من الماضي والقادمة أعظم من الحاضرة وهكذا، وبخلافه فمن العبث أن يرى الإنسان لعمره معنى دون أن يستثمر أوقاته. أو تطالعنا هذه العبارة في دعاء كميل

«اللهم اغفر لي الذنوب التي تجبس الدعاء»

فنقف على حجاب النفس الذي يحول دون إستجابة الدعاء؛ الأمر الذي يجعلنا نفتش عن مواضع الضعف في ذاتنا. كما نرى أنفسنا مطالبين باستئناف نهارنا على أساس نور الهداية ونختتمه بالغلبة على العدو؛ الأمر الذي ورد في دعاء عرفه

«واجعل غناي في نفسي»

أن غنى النفس ليس بالشئ الذي يتحقق في الخارج بواسطة جمع الثروات الطائلة وسكن القصور الفخمة ونيل المناصب الرفيعة، بل لابد من البحث عن الغنى في الذات التي ألا تشبع وتعيش الغنى من ذاتها فإنّها تبقى عطشى وان صبت عليها الدنيا بما فيها، فلا تكون سوى كالمصاب بمرض الاستسقاء فيطلب الماء دائماً بينما تستقر روح الإنسان ويكفيها أدنى ما في هذه الدنيا إذا تنورت بالمعارف الإلهية. كما نقرأ في دعاء الندبة:

«واجعل صلاتنا به مقبولة وذنوبنا به مغفورة ودعائنا به مستجاباً واجعل ارزقنا به مبسوطة وهمونا به مكفية وحوائجنا به مقضية»

فنفهم أن كافة الابواب مغلقة بوجوهنا دون إدراك حقيقة الولاية، فقبول صلاتنا وغفران ذنوبنا واجابة دعائنا وسعة رزقنا وتفريج همنا مرهون بالولاية، يالها من حقيقة عظيمة؟!!

وإذا عدنا قليلاً إلى الدعاء الذي نحن بصدده نرى أنّ علياً عليه السلام قد قدم شرحاً وافياً واضحاً للدروس الأخلاقية والفضائل الانسانية من خلال هذه العبارات الأربع العميقة المعنى إلى جانب التحذير من الرذائل الأخلاقية التي تقود الإنسان إلى السقوط. نعم فادعية المعصومين عليه السلام على الدوام دروس في التربية والتهديب وزاد ومتاع السالكين إلى الله.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٦١

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج وقد قال له: إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك،
من طريق علم النجوم. فقال عليه السلام:

نظرة إلى الخطبة

يتضح مما مر معنا أن ما ورد في هذه الخطبة ينفي على نحو الاجمال صحة تكهنات المنجمين ويراها تتناقض وتوحيد الله، أو عبارة
أخرى فإن مزاعم المنجمين في تنجيمهم هي من قبيل المسائل الخرافية المضادة القرآن وعلى الامه الحذر من التعامل مع هذه الأفكار
وأن أساس النصر والغلبة يكمن في التوكل على الله وتشتمل الخطبة على قسمين، يخاطب الإمام في القسم الأول المنجمين وفي الثاني
الناس.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٦٣

القسم الأول: خطأ المنجمين

«أ تَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ الشُّؤْمُ؟
وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضَّرُّ؟ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ، وَاسْتَعْنَى عَنِ الْاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ فِي نَيْلِ
الْمُحْبُوبِ وَدَفَعَ الْمَكْرُوهَ؛ وَتَبَتَّغَى فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُؤَلِّقَكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ، لِأَنَّكَ - بَزْعِمِكَ - أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي
نَالَ فِيهَا النِّفْعَ وَأَمِنَ الضَّرَّ!!»
الشرح والتفسير

ذكرنا سابقاً أن الإمام عليه السلام ردّ بهذا الكلام على من قال له حين عزم على المسير إلى الخوارج: خشيت أن لا تظفر بمرادك من
طريق على النجوم إذا خرجت في هذه الساعة.

فرفض الإمام عليه السلام ذلك رفضاً قاطعاً، ثم تطرق إلى العواقب الفكرية الوخيمة التي تترتب على مثل هذا التفكير والاعتقاد بالتأثير
الذي تلعبه النجوم على مصير الإنسان، فيحذر ذلك المنجم إلى جانب الناس من مغبة هذا الأمر. فقد إستهل كلامه عليه السلام
بالقول:

«أترعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه الشؤم؟ وتخوف من الساعة التي من سار فيها حاق [٢٩٥] به الضر؟»
من الواضح أن هذا الاستفهام إستنكاري؛ أي لن يحصل قط مثل هذه المعارف عن طريق علم النجوم. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى
نتيجتين تترتبان على هذا الاعتقاد

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٦٤

السيئ

«فمن صدّقك بهذا فقد كذب القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب و دفع المكروه»

ولا يقتصر الأمر على ذلك بل

«و تبتغى في قولك للعامل بأمرك أن يولييك الحمد دون ربّه، لِأَنَّكَ - بَزْعِمِكَ - أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النِّفْعَ، وَأَمِنَ
الضَّرَّ!!»

هاتان النتيجةتان الخطيرتان المترتبتان على زعم المنجم أمياً فغرزهما طبيعة الفارق الكامن - حسب إعتقاد المنجمين الماضين - بين أحوال النجوم وأحكامها. وتوضيح ذلك أن علم النجوم كان سائداً بين أفراد البشر منذ قديم الزمان، ولعل أولئك الأفراد الذين عاشوا قبل التاريخ قد كان لهم علم ومعرفة بالنجوم، إلا أن علم النجوم قد تطور تطوراً ملحوظاً كسائر العلوم الأخرى بعد إكتشاف الكتابة، فحصلت الاكتشافات وتم التعرف على الأنظمة الخاصة التي تحكم الكواكب السيارة والمنظومة الشمسية والمجرات والثوابت حتى ظهر التقويم الذي يستند إلى حركة النجوم والقمر والشمس. أمياً إقتران بعض حركات النجوم ببعض الحوادث جعل طائفة من المنجمين تعتقد بالتدريج بأن هنالك تأثير لحركة النجوم في مصير الإنسان، ثم إتسع نطاق هذا الاعتقاد حتى قيل بأن لكل إنسان كوكب في السماء وأن مصيره يعتمد إلى حد بعيد على حركات هذا الكوكب، حتى ظهر علم جديد يصطلح عليه بأحكام النجوم إلى جانب أحوال النجوم. وأحوال النجوم قائمة على أساس المشاهدات والمحاسبات المتعلقة بحركة الكواكب وشروقها وافتولها؛ أما أحكام النجوم فيراد بها العقائد التي تنسب حوادث الأرض ومصير من يعيش عليها إلى النجوم. ولم تمض مدة وانطلاقاً من هذا الاعتقاد إلى عبادة النجوم والاستعانة بها من أجل حل المشاكل، وقد ظلت مثل هذه الأفكار والعقائد سائدة في أذهان البعض حتى إبان ظهور الدعوة الإسلامية وشروق شمس التوحيد التي أضاءت ظلمات الشرك، فكان بعض المنجمين يخبرون عن بعض الأحداث الآتية من خلال إستعانتهم بحركات النجوم، ونموذج ذلك ما قاله هذا المنجم لأmir المؤمنين عليه السلام استناداً لحركة النجوم في أنه لا يظفر بمراده إذا تحرك في تلك الساعة لقتال الخوارج في النهروان، ففند الإمام عليه السلام ما قاله المنجم ثم خالفه عملياً بأن سار في تلك الساعة إلى قتال الخوارج فهزمهم هزيمة منكرة وانتصر عليهم ذلك النصر الحاسم. نكتفى بهذا المقدار على أن نعرض له بتفصيل أكثر آخر الخطبة في بحث التأملات.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٦٥

القسم الثاني: اجتناب نبوءات المنجمين

إشارة

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلَّمَ النَّجُومَ، إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكُهَانَةِ، وَالْمُنَجِّمِ كَالْكَاهِنِ وَالْكَاهِنِ كَالسَّاحِرِ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ، سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ».

الشرح والتفسير

يحذر الإمام عليه السلام أفراد الامية من تعلم النجوم، والواقع هو أن الإمام عليه السلام يفرق أحوال النجوم عن أحكامها، إلى جانب بيان ما تقود إليه من مساوئ

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلَّمَ النَّجُومَ، إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ»

فعلم النجوم والتعرف عليه والاستفادة من أوضاع النجوم في السماء بغية الاهتداء في البحار والصحارى وسائر الامور المشابهة القائمة على أساس وضع الكواكب ليست ممنوعة فحسب، بل هي جزء من العلوم الضرورية، وذلك لصلتها الوثيقة بنظام المجتمع البشري. القرآن من جانبه أشار إلى هذا الأمر بصفته نعمة إلهية وآية من آيات التوحيد فقال: «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» [٢٩٦]. كما قال في موضع آخر: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» [٢٩٧] فمثل هذه التعبيرات تفيد حث القرآن للإنسان على الانفتاح على هذا النوع من علم النجوم، أما المحظور فما عرف بأحكام النجوم؛ أي كشف بعض الأشياء من أوضاع الكواكب وكيفية إرتباطها مع بعضها (قربها وبعدها من بعضها البعض الآخر) والأخبار عن بعض الأحداث بالنسبة

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٦٦

للأفراد والمجتمعات البشرية، وبالطبع فان بعضها كلى يتوصل إليه دون النظر إلى أوضاع الكواكب، أو جزئى يبين من خلال الحدس والظن، وغالباً ما يثبت خلافها كما وقفنا على ذلك فى هذه الخطبة. ومن هنا إختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول: «فانها تدعو إلى والكافر فى النار، سيروا على اسم الله».

والمراد بالكهانة الأخبار عن الامور الخفية وكشف الحوادث المستقبلية وزعم العلم بالأسرار ويقال لمن يزعم هذه الامور «الكاهن»

. وقد كان هناك الأفراد الذين يزعمون هذه الامور فى العصر الجاهلى كشق وسطيح، وكان متعارف بين الكهنة أن يؤدوا كلماتهم الباطلة بنوع من السجع والقافية والألفاظ الطنانة الرنانة لتفعل فعلها فى قلوب الناس، ومن هنا نعت المشركون رسول الله صلى الله عليه و آله بالكاهن وذلك لا-خباره عن الامور بواسطة الوحي، إضافة إلى أنه كان يتلوا عليهم الآيات القرآنية التى تمثل ذروة الفصاحة والبلاغة فيتعللون بهذه الترهات إستكباراً عن قبول الحقيقة. وبناءً على ما تقدم فإن علم النجوم (يعنى علم أحكام النجوم) يختزن الكهانة، وعمل الكاهن يشبه إلى حد بعيد عمل الساحر، لأنّ الاثنين يعتمدان الحيلة والخدعة لاستغلال السذج من الناس، والساحر كالكافر، لأنه لايعرف للتوكل على الله من معنى بينما يستند إلى امور اخرى ولا يرى لله من تأثير عملى على مصيره، ويعلق هذا التأثير على امور اخرى يتطلبها السحر، ومن هنا فان مصير هؤلاء المنحرفين هو النار وبئس المصير.

تأملات

١- ما هو علم النجوم؟ وما المحذور منه؟

السؤال الأول الذى يطرح نفسه هنا: ما المراد بعلم النجوم الذى عرض أمير المؤمنين على عليه السلام بدمه بشدة فى هذه الخطبة حتى عدّه بمصاف الكفر؟ قطعاً ليس المراد العلم بأحوال النجوم وحركاتها وابتعادها وإقترابها من بعضها؛ لأنه وكما أشرنا سابقاً فان حركات النجوم وأوضاعها فى السموات من الآيات الإلهية، وقد دعى الناس للاهتمام بها فى ظلمات البحار والصحارى، كما أشير إلى ذلك فى ذيل هذه الخطبة أيضاً. فالوقوف على أسرار عالم الخلق والتفكر فى خلق السموات والأرض لا يستحق الدم فحسب، بل يعد من الامور التى دعى

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٦٧

أولى الأبواب إلى تأملها «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ» [٢٩٨]. وعليه فما شدد على ذمه شئ آخر هو العلم بأحكام النجوم، ويراد بها العقائد التى تنسب حياة الإنسان ومصيره فى الكرة الأرضية إلى أوضاع النجوم وأحوالها، والإخبار عن بعض الحوادث استناداً إلى حركة الأفلاك، ولا يقتصر هذا الإخبار على المسائل العامة والاجتماعية، بل يتجاوزها إلى الامور الشخصية والجزئية؛ ومن هنا نرى إستعانة الملوك والسلطين بالمنجمين الذين يسعون لقراءة أوضاع الكواكب على ضوء رغبات أولئك الملوك، فاذا ما نظروا إلى الكواكب أخبروا بأنها تشير إلى سلامة صاحب السعادة والسمو وتنامى قوته وشوخته، فاذا ما فرغوا من الأخبار الكلية عمدوا إلى بعض الجزئيات التى يمكن إطلاقها حتى من قبل عوام الناس دون تأمل أوضاع الكواكب من قبيل فقدان بعض الشخصيات وبروز الاختلاف فى بعض أصقاع العالم وغلاء أسعار بعض الأشياء وإصابة بعض الزرع بالافات وبرودة الجو فى الشتاء وحرارته فى الصيف وما إلى ذلك. وهذه هى التكهانات والأخبارات التى قد تصيب وقد تخطئ وقد ورد ال لزم عليها فى الروايات الإسلامية ولا سيما فى هذه الخطبة.

٢- الكهانة والكفر

السؤال الآخر الذى يرد بهذا الشأن وهو فساد الاعتقاد بوجود الإرتباط بين حياتنا والنجوم، بل ليس هنالك من منطلق يقر بذلك؛ ولكن ما سبب كل هذا التشدد فى الدم وجعل هذه المسألة فى مصاف الكفر؟ ولا تصنح الاجابة على هذا السؤال لابد من الالتفات إلى هذه النقطة وهى أن أصحاب نظرية الإرتباط (بين الحوادث وحركة الافلاك والنجوم) على عدة أقسام:

١- من يعتقد بأزلية وألوهية الكواكب وأنها ذات تأثير على عالم الوجود وحياة الإنسان والحوادث التى تقع فى الأرض. نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٦٨

٢- من يعتقد بتدبير الكواكب وإدارتها لعالم الوجود، وان سلبها الاستقلال وأسند فعلها إلى إذن الله.

٣- من يعتقد بأن لها تأثير طبيعى على الأرض، وكما أن حرارة الشمس تؤدي إلى نمو الأشجار وحملها للثمار والفاكهة، فإن لاوضاع الكواكب تأثير فى شؤون حياة الإنسان وقد إنكشف لنا بعضه بينما ظل البعض الآخر خافياً علينا.

٤- من لايعتقد بتأثيرها فى شؤون حياة الإنسان، إلا أنها تستطيع أن تخبر عن الحوادث الحاضرة والماضية وبعبارة أخرى فهى إمارات وعلامات على الحوادث لا- أنها علل وأسباب. فمما لاشك فيه أن الطائفة الاولى فى زمرة الكفار وإن اعتقدت بالله سبحانه، لأنها مشركة قد جعلت لها إلهاً آخر تعبده.

أمّا الطائفة الثانية فهى خاطئة من جهتين وان لم تكن كافرة: الاولى: أن زعمها لتأثير الكواكب على حياة الإنسان هو زعم فارغ يفتقر إلى المنطق والدليل والبرهان، الثانية: أن هذا الكلام يخالف ظاهر الايات القرآنية والروايات الإسلامية القطعية التى تنفى عن هذه الكواكب أى شعور وحياة وتدبير للخلق، بل تنسب تدبير الخلق والحياة والموت والرزق إلى الحكيم المتعال، ولا تتطرق إلى النجوم والكواكب والأجرام السماوية والشمس والقمر الا بصفتها آيات من آيات الحق، ولو كان لها حقاً بعض العلم والحياة والقدرة والتدبير والتصرف فى العالم لإشارت الروايات والآيات إلى هذا الأمر. نعم أنها مسخرات بأمر الله ولكل وظيفته، فالشمس تشع بضياؤها، والقمر يضيئ فى الليالى الظلماء و ...

وأما الطائفة الثالثة التى تعتقد بالتأثير الطبيعى لهذه الكواكب على أوضاع الأرض، فهو كلام لا يخالف الواقع، إلا أن السؤال المطروح هو ما مدى هذا التأثير واين؟ والحق أن ذلك ليس واضحاً لدينا. نعم نعلم أن لضوء الشمس تأثير على كل شىء، كما القمر أثره فى ظاهرة المد والجزر، وأن للنجوم تأثير، ولكن هل لهذه الكواكب تأثير فى حوادث حياتنا أم لا؟ هل للانفجارات الشمسية تأثير على الهيجان الفكرى للإنسان على وجه الكرة الأرضية، وهل لها من تأثير فى نشوب الحروب والنزاعات أم لا؟ وهكذا سائر المسائل من هذا القبيل التى لانعرف كنهها وليس لدينا رؤية واضحة عنها، وكل ما نقوله فيها إنما هو قول بغير علم، وكلام

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٦٩

دون دليل، وعليه فإن مثل هذا الكلام لايجوز شرعاً، إلا أن تثبت هذه التأثيرات وما شابهها بالأدلة العلمية والقطعية. بعبارة أخرى لامانع من الأخبار عن التأثيرات الطبيعية للاوضاع الفلكية الثابتة فى الأرض وحياة الناس، وما لم يثبت يجوز التحدث عنه على مستوى الاحتمال، لا- على سبيل الحكم القطعى، عل كل حال فإن الاعتقاد بمثل هذا التأثير ليس كفراً ولا مخالفاً لاحكام الشرع، والروايات التى صرحت بالنهى عن تعلم علم النجوم ليست ناظرة لهذا الأمر البتة، كما لم يكن المنجمون السابقون يعنون بهذا الأمر فى أحكامهم. والذى يستفاد من كلمات المنجمين السابقين أنهم كانوا يقولون بالطباع التى تشتمل عليها هذه الكواكب على أن لبعضها طبع حار وأخرى بارد وما شابه ذلك. ومما لا شك فيه ان القول بهذه الطباع للنجوم إنما نشئ من بعض الاستحسانات والعقائد، فكانوا يصدرن على ضوءها بعض الأحكام ويصرحون بأن الكواكب الفلانى سيقترب هذا الشهر من الكوكب الفلانى ولما كانت طبيعتهما كذا وكذا فستشهد الأرض الحادثة الفلانية. وحيث يفتقر هذا الاعتقاد إلى الدليل والحكم القطعى لأنه يقوم على أساساً

الحدس والاستحسان فإن المنجمين المسلمين إنما يذكرون هذه الامور على سبيل الاحتمال ويصرحون قائلين: يحتمل ظهور مثل هذه الحوادث.

وأخيرا الطائفة الرابعة التي ذهبت إلى أن أحوال الكواكب والنجوم علامات على الحوادث التي تقع في المستقبل، أو تقول جرت السنة الإلهية على وقوع الحادثة الفلانية في الكرة الأرضية إذا حدثت بعض التغييرات في الأفلاك والكواكب، دون أن تعتقد بالالوهية والربوبية لهذه الكواكب، وعليه ففقيده لا توجب الكفر، إلا أن فعلهم حرام، لأن كلامهم يفتقر إلى الدليل وهو قول بغير علم ولا يستند سوى إلى الظن والوهم والخيال، وذلك لأننا نعلم أن الشرع يحرم كل قول يصدر من الإنسان دون أن يستند إلى علم ويقين وحجة شرعية «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» [٢٩٩] كما صرح القرآن قائلًا: «أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» [٣٠٠] وقال بشأن الكفار «وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا» [٣٠١]. ومن جانب آخر فاننا نعلم أن الغيب لله ووحده العالم بحركة الإنسان وما يواجهه

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٧٠

من أحداث وكيف تكون عاقبته ومتى يفارق الدنيا وفي أي أرض يموت. وبالطبع فإن لأولياء الله نصيب من العلم ولا سيما بهذه الامور من خلال تعليم الله لهم، ولكن ليس لديهم مثل هذا العلم ببعض الحوادث من قبيل قيام القيامة أو ظهور المصلح العالمي، وليس لأي أحد من غير المعصومين عليه السلام إدعاء علم الغيب سواء استند هذا الادعاء إلى علم النجوم أو الارتباط بعالم الأرواح أو إخبار الجن وما شاكل ذلك.

ويتضح مما مر معنا لم إعتبر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة علم النجوم على أنه مصدر الكهانة، وأن المنجم بمنزلة الكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر، كما اتضحت كيفية كون تصديق المنجمين نعتي تكذيب القرآن، وكيف أن الاعتماد على أقوال هؤلاء تجعل الإنسان غنياً عن التوكل على الله والاستعانة بذاته المقدسة. والواقع هو أن الإمام عليه السلام أورد الكلام بشأن عدّة طوائف من المنجمين التي تعتقد بالتأثير المستقل للنجوم أو تربط الحوادث بأوضاع النجوم وأحوالها وما إلى ذلك من عقائد موهومة. والإسلام من جانبه لا يرى من إعتبار لمثل هذا النوع من علم النجوم الذي لا يستند سوى إلى الوهم والظن، فرفضه وصرح ببطلانه، بينما حث المسلمين ودعاهم إلى تعلم علوم النجوم الذي يهدف إلى الاطلاع والتعرف على أسرار النجوم وسبر أغوارها.

٣- كيفية ظهور التكهنات النجومية

ليس هناك من وضوح في الدافع الذي يقف وراء ظهور علم النجوم بمعناه الانحرافي لا-العلمي؛ إلا أنه يمكن اعتبار بعض الامور المؤثرة في هذا الأمر على نحو الاحتمال، من قبيل:

- ١- تصادف إقتران بعض الحوادث على الأرض مع بعض الاوضاع الفلكية.
- ٢- الاستحسانات والخيالات التي استندت إليها التحليلات في أغلب القضايا الاجتماعية.
- ٣- إصرار البشر- ولا سيما السلاطين وأصحاب السطوة- على الالمام بالحوادث المستقبلية وما يرتبط بها.
- ٤- استغلال هذا الأمر لتبرير الاعتقاد بالجبر فيصرحون مثلاً بأن ما نواجهه من حوادث

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٧١

إنما هي معلولة لأوضاع الأفلاك، فهذه الحوادث واقعة شئنا أم أبينا.

٥- تبرير القضايا السياسية وتوظيفها في محاربة أفكار الخصوم على أن ذلك من مقتضيات أوضاع الأفلاك ولا يسع أحد الوقوف بوجهها. وهنا يبرز هذا السؤال: لقد وردت عدّة روايات صرحت بتجنب عقد الزواج والقمر في العقب، أو ليس هذا دليلاً على الأثر

الذى تلعبه أوضاع الأفلاك على حياة الإنسان؟ ولا تبدو الإجابة على هذا السؤال صعبة. فنحن لانكر التأثير الطبيعي لأوضاع الأفلاك على حياة الناس، لأنّ كافة أجزاء العالم وحدة واحدة يؤثر كل منها على الآخر. وكل ما قلناه هو أنّ إثبات التأثير الطبيعي لأوضاع الافلاك على حياة الناس فى كل حال ودون إستثناء إنّما يتطلب الدليل والبرهان، ولا يمكن للوهم والخيال أن يثبت شيئاً، وعليه فاذا ثبت شئ عن طريق المعصوم عليه السلام فلا مناص من قبوله بتلك الحدود. ونخلص من هذا إلى أنّ روايات «القمر فى العقب»

لا تتناقض وما ورد فى هذا البحث.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٧٣

الخطبة [٣٠٢]: الثمانون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام بعد فراغه من حرب الجمل، فى ذم النساء بيان نقصهن

نظرة إلى الخطبة

وردت هذه الخطبة بعد الجمل وهزيمة جيش عائشة فى الجمل، حيث عرض فيها بالذم للنساء؛ قطعاً النساء اللاتى أوججن نار موقعة الجمل ومن تبعهن واحتذى بأقوالهن، فالإمام عليه السلام يذم هؤلاء بفعل بعض النقائص التى تدعو إلى إرتكاب بعض الأعمال الطائشة ويحذر المؤمنين من التأثير بما يصدر عنهم من سوء.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٧٥

«مَعَاشِرَ النَّاسِ، إِنَّ النَّسَاءَ نَوَاقِصُ الْإِيمَانِ، نَوَاقِصُ الْحُطُوطِ، نَوَاقِصُ الْعُقُولِ: فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيْمَانِهِنَّ فَتَقُودُهُنَّ عَنِ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضَتِهِنَّ، وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ، وَأَمَّا نُقْصَانُ حُطُوطِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الْأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ الرَّجَالِ.

فَاتَّقُوا شِرَارَ النَّسَاءِ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ، وَلَا تُطِيعُوهُنَّ فِي الْمَعْرُوفِ حَتَّى لَا يَطْمَعَنَّ فِي الْمُنْكَرِ».

الشرح والتفسير

مكانة المرأة فى المجتمعات البشرية

إشارة

هنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة ولا سيما المعاصرين منهم بشأن تفسير هذه الخطبة، ومن هنا نرى ضرورة التمهيد قبل الخوض فى تفاصيل هذه الخطبة. فقد حفل التأريخ بكثرة الكلام والإفراط والتفريط بشأن موقعها وشخصيتها، فقد نزلوا مقامها أحياناً دون مقام الإنسان، بل ترددوا فى إنسانيتها بينما ذهب إلى البعض الآخر إلى أنّها الجنس الراقى الذى يفوق الواقع حتى إقترح سيادتها للجماعة البشرية، ويمكن اعتبار هذين الرأيين من قبيل الإفراط ورد فعله التفريط. أمّا اليوم فقد كثر الكلام أيضاً فى المجتمعات الغربية ومن يناغمها فى إرساء التجربة الديمقراطية بشأن المرأة. فالساسة يرون أنفسهم بحاجة إلى رأى النساء اللاتى يشاركن فى الانتخابات ويدلن بأصواتهن، كما يحتاجها الرأسماليون لاستخدامها فى المعامل والمصانع ولا سيما أنّهم يتوقعون مطالبتهن باجور أقل من

الرجال إلى جانب تحليهن ببعض الصفات التي لا تتوفر في الرجال، وأخيراً هناك الجهاز الإعلامي الذي يعد الشريان الرئيسي للميدان السياسي والاقتصادي هو الآخر يرى نفسه بحاجة ماسة إلى المرأة. كل هذه الامور

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٧٦

أدت إلى الدفاع المستميت عن حقوق المرأة والسعي الحثيث لرفع شخصيتها إلى أقصى ما يمكن على مستوى الكلام، أمّا على مستوى العمل فالقضية معكوسة تماماً. فما زالت المرأة تعيش اليوم شتى أنواع الحرمان؛ الأمر الذي كان له أثره على تفسير بعض النصوص الدينية الواردة بشأن المرأة وتأويلها بالشكل الذي يتناسب وطباع أغلب النساء ويشجع رغباتهن وتطلعاتهن وإن كانت فارغة تفوق الخيال. ولم تسلم هذه الخطبة وسائر شبيهاتها من الخطب في نهج البلاغة من ذلك التقصير، بل هنالك من يتردد في سند هذه الخطبة، وآخر يتحرج في تفسيرها حذراً من المساس بمقام المرأة والاساءة لها، وإلى جانب هؤلاء فهناك من سلك سبيل التفريط بحق المرأة ليصورها على أنها مجموعة من العيوب والنقص. وهنا نقول لا ينبغي التنكر لأمرين: الأول: أنّ هذه الخطبة وردت بعد الجمل، ونعلم أنّ القطب الرئيسي فيها كان زوج النبي صلى الله عليه وآله عائشة التي وردت الميدان إثر التحريض العجيب الذي قام به طلحة والزبير وقد سالت فيها دماء غزيرة ذهب البعض إلى أنها خلفت ما يربو على سبعة عشر ألف قتيل، طبعاً صحيح أنّ تلك المرأة أعربت عن ندمها بعد هزيمة عسكر الجمل، وإن أمير المؤمنين على عليه السلام واحتراماً لرسول الله صلى الله عليه وآله أمر بردها معززة مكرمة إلى المدينة، إلّا أنّ الآثار السيئة لتلك المعركة ظلت باقية في صفحات التاريخ الإسلامي والثاني إننا نرى أغلب الآيات القرآنية التي عرضت بالذم للجنس البشري فقد صرح القرآن قائلاً: «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً» [٣٠٣] وقال: «إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» [٣٠٤] وقال:

«إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ» [٣٠٥] «كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى [٣٠٦] وما شابه ذلك من الآيات. فمما لاشك فيه أنّ الإنسان في طبيعته ليس

«كفور مبین»

ولا

«ظلوم جهول»

ولا

«طاغى»

، ويبدو أنّ هذه الامور تتعلق باولئك الأفراد الذين لم يترعرعوا في ظل التربية الدينية، فهم غارقون في أهوائهم وذواتهم وليس لهم من مرشد أو دليل. ومن هنا نرى القرآن يكيل المدح والثناء للإنسان الذي يتحلى بالطاعة والورع والتقوى بل أشار القرآن إلى

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٧٧

بنی آدم علی أنهم أكرم من فی عالم الوجود «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً» [٣٠٧]. وبصدق ما أوردناه سابقاً على جنس المرأة، فهناك المتميزات من بين النساء بما يقل العثور على نظيرهن في الرجال، وبالعكس هناك النساء المنحرفات اللاتي يشكلن بؤرة فساد المجتمعات البشرية.

والان نخوض بعد هذه المقدمة في شرح الخطبة، وسنشير آخر الخطبة إلى بعض الامور ذات الصلة بهذا الخصوص. كما ذكر سابقاً فإن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة في الجمل كتحذير لجميع المسلمين من مغبة التعرض لمثل هذه الحوادث في المستقبل، فقال عليه السلام:

«معاشر الناس إن النساء نواقص الإيمان، نواقص الحفظ، نواقص العقول»

ثم قدم عليه السلام الدليل على ما ذهب إليه فقال:

«وأما نقصان إيمانهم فقعودهن عن الصلاة والصيام في أيام حيضهن، وأما نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد، وأما نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد، وأما نقصان حظوظهن فمواريثهن على الأنصاف من مواريث الرجال»
ومما لا شك فيه أن لكل نقص دليله فقعود النساء عن الصلاة والصوم حين العادة الشهرية لسببين أحدهما أن المرأة قد تعيش حالة شبه مرضية زمان العادة فهي بحاجة إلى الراحة، والآخر أن وضعها لا يتناسب وحالة العبادة والدعاء. وأما كون شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد فذلك لغلبة الجانب العاطفي عند النساء، وهي تتأثر وتتفعل بهذه العواطف، الأمر الذي قد يدفعها للشهادة لصالح أحد والاضرار بآخر. وأما كون ميراثهن نصف ميراث الرجال فأولاً: إنما يختص هذا الأمر بالبنات والزيجات، بينما الميراث واحد بالنسبة للآباء والامهات وأولادهما، وهكذا الحال بالنسبة للاخوة والاخوات وأولادهما. بعبارة أخرى فإن المرأة كأم أو أخت تتقاضى سهماً مساوياً لسهم الرجل في الميراث. وثانياً: تختص النفقة بالرجال، والمرأة ليست فقط لا تتحمل نفقات الأولاد فحسب، بل يتوجب على الرجل تغطية نفقاتها وإن حصلت على أموال طائلة عن طريق الارث أو غيره. ونخلص من هذا إلى أن هذه الفوارق قد حسبت بمتهى الدقة في الإسلام، مع ذلك هنالك

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٧٨

مسألة لا ينبغي إنكارها وهي أن المرأة ليست مساوية للرجل في كل الامور، وأما أولئك الذين يرفعون شعار المساواة وأحياناً أفضلية المرأة على الرجل فأنما يتبنون ذلك قولاً وينا قضونه عملاً. فهل هناك من رئيس جمهورية - رفع شعار المساواة بين الجنسين - ووزع الحقائق الوزارية بالتساوي على الرجال والنساء، أم هناك مدير وزع الوظائف الإدارية بهذا التساوي، بل يتعذر ذلك حتى في البلدان الغربية وتلك العلمانية والوطنية. أما الرؤية الحق التي تستند إلى الواقع وتجنب الشعار والرياء فهي تلك التي تدعو إلى العدل في التعامل مع الجنسين على أساس الاستعدادات والكفاءات التي أودعت كل منهما، ليتمكن كل طرف من توظيفها بالشكل الصحيح بما يخدم شخصه ومجتمعه؛ الأمر الذي سنخوض في تفاصيله في مباحث التأملات لاحقاً.

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة فيقول:

«فاتقوا شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر، ولا تطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر»

ومن الطبيعي أن عدم طاعتهم في المعروف لا يعني مخالفتهم إذا دعين إلى الامور المعروفة كالصوم والصلاة والعدل والاحسان، بل المراد عدم الاستسلام لمقترحاتهم دون الإكتراف لأي قيد أو شرط، وبعبارة اخرى لا بد من القيام بالمعروف لذاته لا من خلال الاستجابة المطلقة للزواج، حذراً من تمددهن والمطالبة بالخضوع لكل رغباتهن وطلباتهن. فالعبارة الواردة في نهج البلاغة وان لم تختص بالزيجات وأنها تقصد عامة النساء، إلا أن المفروغ منه هو أن هذه الامور إنما تحدث عادة بين الازواج والزيجات. وبناء على هذا فان ما جاء في هذه الخطبة لا يتنافى والآيات التي توجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يشمل الرجل والمرأة؛ لأن لاخطبة لا تقصد ترك المعروف، بل المراد أن العمل لا ينبغي أن يحمل صفة الطاعة العمياء بصيدا عن كل قيد وشرط. كأن يرد الزواج على الزوجة حين إقتراحها المعروف، أجل كنت قد فكرت بالقيام بهذا العمل (في حالة إذا كانت لديه حقانية القيام به)، أو أن يؤخر العمل لمدة قصيرة إن أمكن تأخيره كي لا تشعر الزوجة بأنه منقاد لها دون حدود وشروط. نعم أن النساء المؤمنات الملتزمات الفاضلات مستثنى من هذا الحكم؛ فهناك النساء اللاتي سخطهن سخط الله ورضاهن رضا الله كالزهراء عليها السلام. وهذه النقطة واضحة أيضاً حين قال:

«كونوا من خيارهن

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٧٩

على حذر»

أن المراد الخير النسبي لا الخير المطلق، فالأخيار المطلقين ليس فقط لا ينبغي الحذر منهم، بل لا بد من إغتنام الفرصة للتحدث إليهم

وسماع وصاياهم. ومن هنا صرحت بعض الآيات القرآنية بضرورة إستشارة النساء، ومن ذلك فطم الطفل عن الرضاعة: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا». [٣٠٨]

تأملان

١- الفوارق والمساواة بين الجنسين

هناك عدة أبحاث في أوساط العلماء بشأن هذا الموضوع: هل يتساوى الرجل والمرأة حقاً من وجهة النظر الحقوقية والخلقية أم يتفاوتان. أمّا الاعتقاد السائد فهو القول بالفارق بين الرجل والمرأة على صعيد البنية البدنية والجوانب العاطفية والعقلانية، دون أن يكون هذا الفارق مدعاة للحد من شخصية المرأة أو الارتقاء بشخصية الرجل؛ إلّا أنّ هذا الفارق يمكن أن يكون سبباً لاختلاف المسؤوليات والوظائف التي ينهض بها كل منهما في المجتمع.

أمّا على المستوى الاجتماعي فقد ذهبت جماعة إلى ضرورة سيادة الرجل، فكان لهذا الأسلوب الإفراطى في التفكير رد فعله التفریطى الذى رأى ضرورة سيادة المرأة. بينما انتهجت جماعة ثالثة أسلوباً منطقياً ينفذ الأسلوبين المذكورين ويتمثل بسيادة الإنسان. والذى يفهم من المصادر الإسلامية والمنطق والعقل بهذا الخصوص هو أنّ شخصية الإنسان تنطوى على ثلاثة أبعاد:

١- البعد الإنسانى والمعنوى

٢- البعد العلمى والثقافى

٣- البعد الاقتصادى

أمّا البعد الأول الذى يتضمن أسمى المثل والقيم الإنسانية فليس هنالك من فارق بين المرأة والرجل، وهما متساويان فيهما عند الله ولكل منهما أن يواصل مسيرة التقرب من الله، وبعبارة

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ١٨٠

أخرى فان طريق التكامل واحد أمامهما. ولذلك خاطبهما القرآن معا: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». [٣٠٩]

وصرحت الآية القرآنية قائلة: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» [٣١٠].

من جانب نوع الجنس «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» [٣١١] وهكذا سائر الآيات التى لا يسع المقام ذكرها. ولم يتقصر بيان هذه الحقيقة على الآيات القرآنية، بل تطرقت لها الروايات الإسلامية أيضاً، فقد جاء فى الخبر:

إنّه اجتمعت عصابة الشيعة بنيسابور و اختاروا محمد بن على النيسابورى فدفعوا إليه ثلاثين ألف دينار وخمسين ألف درهم وشقه من الثياب، وأتت شطيطة بدرهم صحيح وشقه خام من غزل يدها تساوى أربعة دراهم فقالت: إن الله لا يستحى من الحق. فلم يقبل الإمام عليه السلام سوى الأموال المتعلقة بشطيطة ورد ما سوى ذلك. [٣١٢]

ويتضح من هذه الرواية أن ليس هنالك من تفاوت فى القيمة الإنسانية بين الرجل والمرأة.

ومن هنا فان المرأة قد تسبق الرجل أحيانا فى هذا المضمار.

الطريف فى الأمر أنّ صحابة النبى صلى الله عليه و آله كانوا يرون الامتياز للرجل، أمّا النبى صلى الله عليه و آله ليس فقط لم ير له من إمتياز فحسب، بل قدم على شخص أخته فى الفضل انطلاقاً من المبادئ والقيم الإنسانية الحقّة. ولما سئل عن ذلك، أجاب صلى الله

عليه وآله: لأنها كانت أبر بوالديها منه. [٣١٣]

أما قصة نسيبة بنت كعب الأنصارية وشجاعتها في ميدان القتال - أحد - وجلبها الماء وتضميد جراح المقاتلين وصمودها بوجه الأعداء حتى أصيبت بثلاثة عشر جرحاً، ثم التحاقها بصفوف المقاتلين المسلمين في اليمامة في قتال مسيلمه حتى نالت الشهادة لهن قصة نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٨١

معروفة. وقد جاء في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال يوم أحد:

«لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان». [٣١٤]

وأما بالنسبة للبعد العلمي والثقافي فهنا أيضاً لا يوجد فارق بين المرأة والرجل، أي أن أبواب العلم مفتحة لهما على السواء والدليل على ذلك ما ورد في الحديث المعروف:

«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» [٣١٥]

حتى وإن لم ترد مفردة المسلمة في الحديث، لأن المراد بالمسلم هنا النوع الإنساني، كما ورد شبيه ذلك في أغلب الروايات والأحاديث. وعليه فليس هنالك من محدودية من وجهة النظر الإسلامية بالنسبة لانتهاج المرأة على العلوم، ولها أن تطوى مسيرتها نحو الكمال أسوة مع أخيها الرجل. وبغض النظر عن كل ما سبق فإن التاريخ الإسلامي حافل بكبار الشخصيات النسوية بصفتهم محدثات وروايات للأحاديث والأخبار.

وأخيراً ليس هنالك من فارق بين الجنسين في البعد الاقتصادي فلكل منهما ملكيته المحترمة ولا سيما بالنسبة للأعمال، بل للمرأة استقلال اقتصادي خاص، على الخلاف مما تعارف بين المجتمعات الغربية التي حظرت عليها التصرف في أموالها دون إذن الزوج فجردتها من هذا الاستقلال، بينما ليس هنالك من ضرورة لاذن الزوج من أجل تصرف الزوجة بأموالها في الإسلام، ولها أن تتصرف في أموالها حسبما يحلو لها في المصارف المشروعة.

ولاننسى هنا إذا أردنا أن ننحى الشعارات جانباً أن القدرة الانتاجية للرجل إنما تفوق نظيرتها لدى المرأة، ويستند ذلك إلى سببين: الأول: أن للرجال طاقة أعظم للأتيان بالأعمال الثقيلة؛ الأمر الذي يمنحهم بعض التفوق الاقتصادي على النساء. الثاني: ما تفقده المرأة من طاقتها البدنية بفعل مشاكل الحمل والوضع والرضاع وتربية الأطفال التي تستغرق مدة مديدة من عمرها، ولو افترضنا أن للمرأة على الأقل ثلاثة أولاد وأنها ترصد مدة أربعة

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٨٢

سنوات لكل منهم منذ زمان الحمل ومرورا بتلك المراحل حتى يستوى كصبي فأنها ستصرف إثنتي عشرة سنة من شبابها في هذا الأمر. ولعل هذا هو السبب الذي دفع بكافة المجتمعات حتى تلك التي تبني مساواة المرأة بالرجل والتي لا تستند حكوماتها إلى المبادئ الدينية لأنّ تسند الأعمال الشاقة ذات المسؤولية الجسيمة إلى الرجال، وأن تختار الرجل أيضاً لمزاولة المهام السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وبناءً على ما تقدم فإن وجود بعض الفوارق في المسؤوليات بين الرجل والمرأة من قبيل التصدي لمنصب القضاء أو الاختلاف في عدد الشهود بينهما أو الاختلاف في الميراث الذي أوردنا دليلاً آنفاً، لا يمكنه قط أن ينقض الأصول الكلية للمساواة بين الجنسين في البعد المعنوي والإنساني والبعيد العلمي والثقافي وبالتالي البعد الاقتصادي. وعلى كل حال فلا بد من الإذعان لوجود التفاوت الطبيعي بين الجنسين وعدم خداع النفس والآخرين بالشعارات البراقة الكاذبة.

٢- أخبار عائشة

عائشة بنت أبي بكر من قبيلة تيم طائفة قريش. أمها «أم الرومان» بنت عامر بن عويمر.

ولدت في العام الرابع من البعثة النبوية، تزوج منها رسول الله صلى الله عليه وآله بعد خديجة. وقفت الى جانب خلافة أبي بكر وعمر وشطرا من خلافة عثمان حتى أصبحت من الناقمين عليه- فلما قتل عثمان ظنت أن ابن عمها «طلحة» سيلي الخلافة ولما انتهى أمر الخلافة إلى علي عليه السلام سارعت للمطالبة بدم عثمان، فكان من ذلك معركة الجمل في البصرة. فلما قتل طلحة والزبير وهزم أصحاب الجمل أعادها عليه السلام إلى المدينة. ذكر ابن سعد في طبقاته ان عمرا جعل عشرة الاف دينار لازواج النبي لكن عائشة كانت تأخذ اثني عشر الف ديناراً ثم قطعها عنها عثمان.

وقد اشتد الخلاف بين عائشة و عثمان بشأن الوليد بن عقبة المعروف بفسقه وشربه للخمر وتعرضه لبعض صحابة النبي صلى الله عليه وآله مثل عبد الله بن مسعود وقد شهد عليه الناس بذلك فما كان من عثمان الا أن أقام الحد عليهم حسبما صرح البلاذري في أنساب الاشراف. فلما سمعت

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٨٣

عائشة بذلك أخذت بنعلي رسول الله صلى الله عليه وآله وهي تنادي هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وآله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته. فلما قتل عثمان سرت عائشة ولم يدم سرورها بعد أن آلت الخلافة لعلي عليه السلام.

قال الطبري في تاريخ الالم والملوك وابن سعد في الطبقات وابن اثير في الكامل لما سمعت عائشة بقتل علي سجدت وانشدت. فالقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالأياب المسافر

وابعد من ذلك ثناءها علي ابن ملجم، فلما سمعت زينب بنت ام سلمة منها ذلك انكرته عليها فقالت بلغني الكبر فانسيت ولا أعود لذلك.

ومن عجائب سيره عائشة موقفها تجاه عثمان حيث قال كل من صنف في السير والاحبار بما فيهم «ابن أبي الحديد» ان عائشة كانت من أشد الناس على عثمان وهي أول من سمي عثمان نعثلا- وقالت «اقتلوا نعثلا قتل الله نعثلا» والنعتل الكثير شعر اللحية كما تعنى العجوز الاحمق وكذلك قيل نعتل فرد يهودي كثيف اللحية ولا يعلم أى المعانى أرادت عائشة. فلما قتل عثمان وآل الأمر لعلي عليه السلام قالت: «قتلوا ابن عفان مظلوما». و اضاف ابن أبي الحديد قائلا: جاءت عائشة إلى أم سلمة تخادعها على الخروج للطلب بدم عثمان. فقالت لها أم سلمة: إنك كنت بالأمرى تحرضين على عثمان، وما كان اسمه عندك إلا نعثلا، وإنك لتعرفين منزلة علي عليه السلام عند رسول الله صلى الله عليه وآله فأذكر كرك؟ قالت: نعم. فروت لها عن رسول الله صلى الله عليه وآله ما يؤكد أحقيته بالخلافة فوافقتها عائشة. فسألته: فأى خروج تخرجين بعد هذا؟ فقالت: انما أخرج للاسلاح بين الناس. [٣١٦]

وروى الطبري قيل لعائشة لما نادى قتل عثمان مظلوماً إنك أول من نقت عليه وقلت اقتلوا نعثلا فقد كفر. فقالت عائشة: نعم لكن قتله بعد أن تاب فقتل مظلوماً. [٣١٧] وأورد ابن اثير هذا الكلام في الكامل. [٣١٨]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٨٤

وقد ذكر البخارى في صحيحه حسد عائشة لخديجة. [٣١٩] ومعروفة هي قصة كلاب الحوئب التي بلغتها عائشة فنبحتها فقررت الرجوع بعد أن ذكرت الخبر، فلفقوا لها خمسين اعرابيا ان هذا ليس بماء الحوئب. [٣٢٠]

توفيت عائشة في المدينة في ١٠ شوال عام ٥٧ أو ٥٩ فصلى عليها أبوهريرة ودفنت في البقيع.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٨٥

الخطبة [٣٢١] الحادية والثمانون

ومن كلام له عليه السلام

فى الزهد

نظرة إلى الخطبة

يخوض الإمام عليه السلام بادئ ذى بدء فى هذه الخطبة فى الزهد ليقدم بشأنه تعريفاً جامعاً رائعاً بثلاث عبارات قصيرة، ثم يوصى من يرى نفسه عاجزاً عن بلوغ هذه الحقيقة بالورع عن المحرمات وشكر النعم، فقد أتم الله حجته بالدلائل والبراهين الساطعة.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٨٧

«أَيُّهَا النَّاسُ الزَّهَادَةُ قِصِيرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النَّعْمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمُحَارِمِ فَإِنَّ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلَا يَغْلِبُ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ وَلَا تَنْسُوا عِنْدَ النَّعْمِ شُكْرَكُمْ فَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ وَكُتِبَ بَارِزَةً الْعُذْرُ وَاضِحَةً».

الشرح والتفسير

حقيقة الزهد

أشار الإمام عليه السلام إلى حقيقة الزهد فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، الزَّهَادَةُ [٣٢٢] قِصْرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النَّعْمِ، وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمُحَارِمِ».

ف عباراته عليه السلام الثلاث بشأن الزهد تشكل الرد على التفاسير الخاطئة الواردة بهذا الخصوص، وما أكثر الأفراد الذين عجزوا عن الوقوف على معنى الزهد ويرون أنفسهم من الزاهدين. فهم يعتقدون بأن الزهد يقتصر على رتداء الثياب البسيطة أو عدم ممارسة الوظائف الاجتماعية واعتزال الناس المتوقع فى زاوية ومجانبة الفعاليات والأنشطة الاقتصادية، والحال ليست هذه الامور من الزهد فى شئ. فحقيقة الزهد التى تقف بوجه الرغبة إنما تكمن فى عدم الاكتراث إلى ماديات الدنيا وزخارفها، أو بعبارة اخرى عدم التعلق بالدنيا والاعتزاز بمظاهرها وإن زود بكافة الإمكانيات. فمن لم يغتر بالامور المادية فقد جنب طول الأمل (فطول الأمل من مميزات أهل الدنيا) وشكر النعمة وهجر الذنب والمعصية، لأن النعم لا تشغله بنفسه وتنسيه ربه. وهناك تفسير آخر للزهد أورده الإمام عليه السلام فى قصار كلماته، قد يبدو مختلفاً مع هذا التفسير إلا أنه يتفق معه فى المعنى، حيث قال عليه السلام:

«الزهد كله بين

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٨٨

كلمتين من القرآن: قال الله سبحانه «لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ» ومن لم يأس على الماضى ولم يفرح بالآتى فقد أخذ الزهد بطرفيه» [٣٢٣]. فالعبارة تفيد أن حقيقة الزهد تعنى ترك التبعية وقطع أغلال الأسر المرتبطة بالماضى والآتى. الركن الثانى من الأركان الثلاث الزهد قوله عليه السلام:

«والشكر عند النعم»

على أن النعم من الله لامن العبد ليتعلق بالخالق ويهجر ذاته. أمّا قوله عليه السلام:

«التورع عند المحارم»

فيشير إلى أن حب الدنيا والتعلق بها هو أساس مقارفة الذنب؛ الأمر الذى عبر عنه الحديث الشريف:

«حب الدنيا رأس كل خطيئة» [٣٢٤]

. وبناءً على ما سبق فمن قصر أمله وشكر نعم ربه وأمسك نفسه عن الذنب فهو الزاهد الحقيقى؛ سواء كان غنياً أم فقيراً، لأن الفقر ليس مقياس الزهد قط. ثم قال عليه السلام:

«فان عزب [٣٢٥] ذلك عنكم، فلا يغلب الحرام صبركم، ولا تنسوا عند النعم شكركم، فقد أعذر الله اليكم بحجج مسفرة [٣٢٦] ظاهرة، وكتب بارزة العذر واضحة»

. فالإمام عليه السلام وإن أكد على ركنين من أركان الزهد في إختتام الخطبة (ترك الذنب وشكر النعمة) إلّا أنّ عباراته تفيد أن مراده هو أنكم إن لم تؤدوا حق النعمة في شكرها، فلا تنسوا على الأقل قضية الشكر، وإن تبلغوا مرتبة من الورع في هجر الذنوب بحيث تشمل الوقوف عند الشبهات، فلا تجعلوا الحرام يجاوز صبركم فعليكم كحد أدنى التحلى بالتقوى عند هذا الحد. أمّا ما ذكره الإمام عليه السلام من أسس ودعائم للزهد والتقوى فهي من الامور التي يجب توفرها في كل فرد، لأنّ الله أتم حجته وليس لأحد العذر في مخالفتها. وزبدة الكلام فان ترك الذنب وشكر النعم على مرحلتين:

الاولى هي وظيفة كافة المسلمين، وهي في الواقع شرط الإيمان. والثانية: أرفع من سابقتها تنطوي على الورع والتقوى من الشبهات وقصر الأمل وهذا ما يليق بالزهاد من أهل الإيمان.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٨٩

تأمل: الزاهد أمير لأسير

لقد شحن نهج البلاغة بخطب الإمام عليه السلام التي تتناول مفهوم الزهد. إلى جانب ذلك فان القرآن الكريم قد تناول حقيقته ومفهومه بصورة واسعة وان لم يورد هذه المفردة بكثرة. والزهد من المفاهيم التي تعرضت لها الأديان الإلهية، على أنه يعنى عدم التعلق بماديات الدنيا وحطامها، وبالطبع لا يراد بالزهد حرمان الإنسان من المال والثروة والمقام والإمكانات، وإنّما يراد به عدم الانقياد والاستسلام لهذه العناصر والوقوع في أسرها، بل ينبغي له أن يكون أميراً عليها. ومن هنا نرى أنّ نبي الله سليمان عليه السلام الذي يضرب المثل بملكه وحكومته كان أميراً لا أسيراً حين رد تلك الهدايا النفيسة التي بعثت بها إليه ملكة سبأ. وقد ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال، ولا- إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أو ثق منك بما في يد الله» [٣٢٧]

. ومن هنا يتضح مدى الفارق الشاسع بين الزهد في الإسلام والرهانية في المسيحية. فالزهد الإسلامى يعنى البساطة في الحياة والابتعاد عن التجملات وعدم الوقوع في مخالب الشهوات وأغلال الأموال والمقام، بينما تعنى الرهانية إلّانزواء والانزغال عن الحياة الاجتماعية. فقد ورد في الحديث أنّ عثمان بن مظعون حزن حزناً شديداً لما مات ولده واقتبل على الزهد فجعل داره مسجداً وانهمك بالعبادة، فلما بلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا عثمان إنّ الله تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهانية، إنّما رهانية أمتى الجهاد في سبيل الله. [٣٢٨]

في إشارة إلى أنّك إذا أردت أن تقاطع الماديات فلا تسلك السبيل السلبي في ذلك وعليك تعقيب هذا الهدف من خلال مساره الايجابي الصحيح الذى يكمن في الجهاد- ثم تطرق رسول الله صلى الله عليه وآله إلى فضيلة صلاة الجماعة ليقف على مدى أهمية الجماعة في الإسلام ورفضه لكافة أشكال الرهنة والعزلة. ويقابل الزهد الرغبة والتنافس على الدنيا؛ أى اللهث وراء الدنيا والتكالب على متاعها الذى ورد الذم عليه في الإسلام. وللزهد عدة آثار على الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان، والتي يمكن بواسطتها التعرف عليه وهي: قصر الأمل وشكر

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٩٠

النعمة والورع عن المحرام وهي الأركان الثلاث التي أشارت إليها الخطبة. وهنا لابدّ من القول بأنّ الزهد لا يساوى الفقر والحاجة أبداً؛ بل الزهد يعنى الغنى الباطنى واشباع النفس بالمعنويات وترك التعلق بالماديات وعلامة ذلك مقاطعة اللذات وإجتناّب التجملات.

كتب أحد المفكرين المسلمين (رحمة الله عليه) بشأن دوافع الزهد: إن الزاهد يعيش حياته بمنتهى القناعة دون أى تكلف ليقود الآخرين إلى الهدوء والسكينة، أنه يشعر باللذة والمتعة فى أن يأكل المحتاجون ويشربون قبل أن يأكل هو ويشرب. ولعلنا نلمس هذا المعنى فى ما تعارف لدى أهل بيت النبى صلى الله عليه وآله: «الجار ثم الدار».

المواساة وتقاسم هموم المحرومين والمعوزين يعد الدافع الآخر من دوافع الزهد، فلما كان المجتمع على قسمين مرفه ومحروم فإن أولياء الله يسعون فى الدرجة الأساس إلى معالجة أوضاع المحرومين، فإن لم تكن خهناك الإمكانيات اللازمة، جهدوا فى العيش كأدنى الطبقات المرحومة فى المجتمع ليخففوا من معاناة الضعفاء ولا يدعوهم يشعرون بالذلة والمسكنة بفضل ما يعانون من جشوبة العيش وخشونة الملابس، ولعل هذا هو المعنى الذى أراد أن يجسده أمير المؤمنين على عليه السلام حين سئل عن ثوبه البالى فقال:

نفحات الولاية؛ ج ٣؛ ص ١٩٠

«يخشع له القلب، وتذل به النفس، ويقتدى به المؤمنون» [٣٢٩]

الدافع الآخر للزهد هو الحرية والخلاص من قيد الحاجة. فالزهد والقناعة تحد من الحاجة وتؤدي بالتالى إلى النجاة من أسر الطمع والحرص على إقتناء الأشياء، من هنا يمكن القول بأن نفس الزهد هو الحرية. فالزاهد شجاع وعالم، ومن هنا نرى الحركا التحررية العالمية إنما توجه غالباً من قبل الزعماء الذين تسودهم روح الزهد. [٣٣٠] ونختتم حديثنا بروايتين عن الزهد. فقد جاء فى الرواية أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام:

«يا على إن الله تعالى زينك بزينة لم يزين العباد بزينة هى أحب إليه منها: زهدك فيها وبغضها إليك وحب إليك الفقراء، فرضيت بهم اتباعاً ورضوا بك إماماً.» [٣٣١]

وجاء فى الحديث وسأله إعرابى شيئاً فأمرله بألف، فقال الوكيل: من ذهب أو فضة؟ فقال:

كلاهما عندى حجران، فاعط الأعرابى أنفعهما له. [٣٣٢]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٩١

الخطبة [٣٣٣]: الثانية والثمانون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

فى ذم صفة الدنيا

نظرة إلى الخطبة

قال المبرد فى الكامل أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين كان يخطب فقام له رجل وقال:

يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا. فقال عليه السلام: ما أصف من دار أولها عناء، وآخرها فناء. فواصل خطبته ليصف الحياة الدنيا ومشاكلها. ومن تأمل عبارات الخطبة يمكنه أن يقف على حقائق الدنيا والمعيشة فيها، بحيث يمكن القول لم يبق الإمام عليه السلام من شئ فى وصفه للدنيا بهذه العبارات العشر القصيرة.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٩٣

«ما أصف من دار أولها عناء» [٣٣٤]، وأخرها فناء في حلالها حساب وفي حرامها عقاب. من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فائته، ومن قعد عنها واتته، ومن أبصر بها بصرتة، من أبصر إليها أغمته».

الشرح والتفسير

الدنيا وسيلة لأهداف

إشارة

وصف الإمام عليه السلام الدنيا بعشر عبارات فصيححة بليغة، فقال في العبارة الاولى

«ما أصف من دار أولها عفاء»

وقال في العبارة الثانية:

«وأخرها فناء»

فأدنى تأمل لحياة الإنسان في هذا العالم ليكشف أنها مشوبة بالصعاب والمشاق، فهي تبدأ بولادته التي تحمل الألم والمعاناة للطرفين وأقصاها لأمته، حيث يرد الوليد من وعاء مغلق إلى بيئه مفتوحة تتفاوت جذرياً عما كان عليه، إلى جانب ذلك فإن رصيده الضعيف والعجز ليس عن دفع أتفه الحشرات بل يتعذر عليه حفظ لعبه في فمه، ولا يؤمن عليه الخطر فيما ذا أغفل عن مراقبته. ثم يجتاز مرحلة الرضاع ليواجه مشكلة الفطم فيعاني الأمرين، ثم يأخذ بالمشي شيئاً فشيئاً دون أن يكون له أدنى تجربة في الحياة والأخطار تتهدده من كل حذب وصوب، فاذا دب فيه العقل ووضع قدمه على الطريق واجه سيلاً جديداً من المشاكل فعليه أن يخوض معترك الحياة وينافس سائر الأفراد من أبناء الدنيا، وعليه أن يجد اعلم ويحظى بالزوجة ويتحمل كل ما يترتب على ذلك من الالام والمعاناة. فاذا تقدمت به السن وبلغ مرحلة الكهولة شاب الرأس وضعفت العين والاذن والقلب والعروق والعظام، نعم هذه صورة مختصرة عن حياة الإنسان تشير إلى ما

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٩٤

يكتنفها من مشاكل وصعاب. القرآن من جانبه أشار إلى هذه الحقيقة فقال: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ» [٣٣٥] وكان العناء والمشقة هي الكهف الذي يلجأ إليه الإنسان. وبالطبع لا يستثنى من هذا التعب والمشقة حتى أولئك الذين يعيشون الحياة المرفهة ولكل مشاقه ومعاناته. أجل طبيعة الدنيا تتمثل بالألم والعناء ويخطئ من ظن فيها غير ذلك، ولعلنا نلمس هذه الحقيقة في الشعر الذي أنشده الشاعر المعروف أبو الحسن التهامي إثر موت ولده في شبابه حيث قال:

طبت على كدر وأنت تريدها صفوفاً من الاقدار والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها مطلب في الماء جذوة نار

هذا بشأن عناء الدنيا، أما فناؤها فليس بخاف على أحد، فالفناء قد كتب فيها على جميع الأفراد المؤمن والكافر والصغير والكبير، فهذا يموت مبكراً وذاك يموت متأخراً، ولا يستثنى من قانون الموت أحد. ثم قال عليه السلام:

«في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب»

إشارة إلى أن الإنسان إنما يتحمل حتى في الآخرة تبعات هذه الدنيا، فهو إما عمل فيها بالحلال أو الحرام.

فإن عمل بالحلال حوسب عليه يوم القيامة، وإن عمل بالحرام عوقب عليه يوم الجزاء. ومن هنا ورد في الحديث النبوي الشريف:

«يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام» [٣٣٦]

أمّا كيفية الحساب وما يحاسب عليه الإنسان ومن يرد الجنة دون حساب، فهي امور نستعرضها إن شاء الله في بحث التأملات. ثم قال

عليه السلام:

«من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن»

نعم هذه هي طبيعة الدنيا وانطوائها على سبيلين كلاهما يؤدي إلى المشقة. فان كان فقيراً عاش في الدنيا مهموماً مغموماً، وإن كان غنياً مرفهاً عاش فيها مشاكل اخرى؛ وأقل ذلك همه في حفظ هذه الثروة وسعيه لصيانتها، ناهيك عن سهام الحسد والطمع والبغض التي تصوب إليه، وفوق كل ذلك ما يتعرض له من إمتحانات إلهية. فالبخل والحرص والطمع من جانب والآفات والبلاء والأخطار من جانب آخر، بل لعل هذا الثراء والغنى يصدده عن ذكر الله ولا يدع له من مجال للخروج من التفكير فيه، وعليه ستغيب لديه المثل والقيم ولا يرى

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٩٥

لها من معنى سوى في الأموال. ونختتم الكلام في قوله عليه السلام:

«من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن»

بالحديث الذي يؤكد هذا المعنى، فقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام. قال: كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مؤمن فقير شديد الحاجة من أهل الصفة، وكان لازماً لرسول الله صلى الله عليه وآله عند مواقيت الصلاة كلها لا يفقده في شيء منها، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يرق له وينظر إلى حاجته وغربته، فيقول: يا سعد لو قد جاءني شيء لأغنيتك، قال: فابطأ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله فاشتد غم رسول الله صلى الله عليه وآله بسعد، فعلم الله سبحانه ما دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله من غمه بسعد، فأهبط عليه جبرئيل عليه السلام ومعه درهمان فقال له: يا محمد إن الله قد علم ما قد دخلك من الغم بسعد، أفتحب أن تغنيه؟ فقال له: نعم، فقال له: فهالك هذين الدرهمين فاعطهما إياه، ومره أن يتجر بهما، قال: فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وآله و آله ثم خرج إلى صلاة الظهر وسعد قائم على باب حجرات رسول الله صلى الله عليه وآله ينتظره، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا سعد أتحسن التجارة؟ فقال له سعد: والله ما أصبحت أملك ما أتجربه، فاعطاه النبي صلى الله عليه وآله الدرهمين؛ فقال له: اتجر بهما وترف لرق الله، فأخذهما سعد ومضى مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتى صلى معه الظهر والعصر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله:

قم فاطلب الرزق فقد كنت بحالك مغتماً يا سعد، قال فأقبل سعد لا يشتري بالدرهم إلا باعه بدرهمين، ولا يشتري شيئاً بدرهمين إلا باعه بأربعة دراهم، وأقبلت الدنيا على سعد فكثر متاعه وماله وعظمت تجارتها فاتخذ على باب المسجد موضعاً جلس فيه وجمع تجارته إليه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أقام بلال الصلاة يخرج وسعد مشغول بالدنيا لم يتطهر ولم يتهيأ كما كان يفعل قبل أن ينشغل بالدنيا، فكان النبي صلى الله عليه وآله يقول: يا سعد شغلتك الدنيا عن الصلاة، فيقول: ما أصنع، أضيع مالي هذا رجل قد بعته فأريد أن أستوفى منه، هذا رجل قد اشتريت منه فأريد أن أوفيه قال؛ فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله من أمر سعد غم أشد من غمه بفقره فهبط عليه جبرئيل عليه السلام فقال: أيما أحب إليك، حاله آخرته، فقال له جبرئيل: قل لسعد يرد عليك الدرهمين اللذين دفعتهما إليه، فان يا سعد أما تريد أن ترد عليّ الدرهمين الذين أعطيتكهما؟

فقال: بلى ومأتين. فقال لها لست أريد منك يا سعد إلا الدرهمين، فاعطاه سعد درهمين، قال:

وادبرت الدنيا على سعد حتى ذهب ما كان جمع، وعاد إلى حاله التي كان عليها. [٣٣٧]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٩٦

ثم أورد عليه السلام صفتين للدنيا من شأن الالتفات إليهما إبعاد الإنسان عن الحرص والطمع والسكون إلى الدنيا

«ومن ساعاها فاتته، [٣٣٨] ومن قعد عنها واتته [٣٣٩].»

إشارة إلى الأعم الأغلب من الأفراد الذي يجرون نحو الدنيا ولا يبلغونها، بينما كثيرهم الذين يهجرون الدنيا فتأتيهم صاغرة. ولعل

المطالعات التاريخية والوقائع تؤيد هذا الأمر في أن الجرى خلف الدنيا لا يفضى إلى الغنى، والانصراف عنها لا يؤدي إلى الفقر. ومن الطبيعي ألا يكون المراد بالدنيا هنا المعيشة المشرفة والخالية من الحاجة إلى الآخرين، بل يراد بها الدنيا المذمومة المشوبة بالجنون. على كل حال فالعبارة تهدف إطفاء نيران الحرص على الدنيا والذوبان فيها. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام كلامه في وصف الدنيا بصفتين أصابت أغلب مفسري نهج البلاغة ولا سيما المرحوم السيد الرضى (ره) جامع النهج بالدهشة والذهول ليعيشوا نشوة السكر بهذا الشراب الطهور، فقد قال عليه السلام:

«من أبصر بها بصرتة، ومن أبصر إليها أعمته».

فاذا تأمل المتأمل هذا القول وجد تحته من المعنى العجيب، والغرض البعيد، ما لا يبلغ غايته ولا يدرك غوره؛ أي أن الإنسان إذا جعل الدنيا وسيلة لنيل الكمال وأداة للوصول إلى الآخرة وجسراً للسمو والرفعة والتكامل فستطرح عنه كافة الحجب ويرى حقائق الكون كما هي، أما ذاك الذى يتعامل مع الدنيا كههدف لاوسيلة فإن ذلك سيكون حجاباً ضخماً مضروباً على عينيه يحول دون رؤيته لأقرب الأشياء فضلاً عن الحقائق، وأبعد من ذلك سيغرق فى مادياتها ولا يرى لغيرها من وجود. والواقع هذا هو الفارق بين أهل الآخرة وأهل الدنيا، فهؤلاء يرون الدنيا مقدمة للآخرة واولئك يرون الدنيا غايتهم وهدفهم. فالدنيا كالشمس إن نظرت بها أبصرت وإن نظرت إليها عميت. كما أورد تفسير آخر لهذه العبارة وهو أن المراد بقوله:

«من أبصر بها بصرتة»

أن النظر إلى الدنيا بكل ما تشتمل عليه من الآيات الربانية إنما يزيدنا

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٩٧

بصيرة، فى حين قصر النظر على ماديات الدنيا يحرمنا من البصيرة بالآخرة بما فيها معرفة الله ونيل القرب منه. وذهب البعض إلى أن المقصود بالعبارة

«أبصر بها»

هو النظر إلى عيوب الدنيا وتقلباتها والدروس العبر التي تنطوى عليها، وبقينا أن مثل هذه النظرة مدعاة للبصيرة والفتنة، أما المراد بالعبارة

«أبصر إليها»

التطلع إلى زخارف الدنيا ومظاهرها الخادعة التي تعمى عين الإنسان. وبالطبع لا مانع من الجمع بين المعانى الثلاث فى المفهوم الجامع لهاتين العبارتين. ويالها من عبارتين رائعتين عظمتى المعنى، وكفى بهما عبرة فى النجاة من الدنيا والسير نحو الآخرة، فالسلام والصلاة على أمير المؤمنين عليه السلام الذى رام تهذيب النفوس وسموها بهاتين العبارتين القصيرتين. وهناك كلمات المعصومين عليهم السلام التي تصور هذا المعنى أيضاً، ومن ذلك أن الله أوحى إلى داود عليه السلام:

«يا داود احذر القلوب المعلقة بشهوات الدنيا فإن عقولها محجوبة عنى» [٣٤٠]

. كما ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال:

«لحبت الدنيا صمت الاسماع عن سماع الحكمة وعميت القلوب عن نور البصيرة» [٣٤١]

قال المرحوم السيد الرضى (ره) آخر الخطبة:

«وإذا تأمل المتأمل قوله عليه السلام

«ومن أبصر بها بصرتة»

وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد، ما لا تبلغ غايته ولا يدرك غوره، لا سيما إذا قرن اليه قوله

«ومن أبصر إليها أعمته»

فأنه يجد الفرق بين

«ابصر بها» و «أبصر إليها»

واضحاً نيراً، وعجيباً باهراً، صلوات الله وسلامه عليه».

تأملان

١- كيفية الحساب في الآخرة

تعدّ مسألة الحساب في يوم القيامة الذي تعرضت له الخطبة من المسائل القطعية في

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٩٨

الإسلام والتي وردت في أغلب الآيات القرآنية والأخبار المتواترة، ويشمل هذا الحساب جميع أعمال الإنسان من صغيرة وكبيرة وفعل وكلام بل وحتى الصمت والسكوت، كما تفيد الايات القرآنية الواردة بهذا الشأن دقة حساب الأعمال. فقد صرحت الآية ١٦ من سورة لقمان على لسانه وهو يعظ ابنه: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صِيحْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ». والذي نخلص إليه من الامور المتعلقة بالحساب كما وردت في الآيات والروايات ما يلي:-

الف- عمومية الحساب: وشموليته لكافة الناس من الأولين والآخرين بما فيهم الرسل والأنبياء، وقد إصطلحت الآيات القرآنية على يوم القيامة بيوم الحساب. [٣٤٢] ولا تقتصر هذه العمومية على الناس فحسب، بل تشمل جميع أعمالهم، كما نلمس ذلك في الآية ٤٧ من سورة الأنبياء: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ». وبالطبع هنالك بعض الأفراد الذين يردون الجنة دون حساب لعظم أعمالهم الصالحة، كما هناك الأفراد الذين يكونون في النار دون حساب بشاعة أعمالهم السيئة، وبعبارة اخرى فإن حسابهم واضح، فقد جاء في الحديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام:

«اعلموا عبادالله إن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين ولا تنشر لهم الدواوين وإنما يحشرون إلى جهنم زمراً». [٣٤٣]

ب- سرعة الحساب: يتضح من الآيات والروايات أن الحساب الإلهي يوم القيامة يحصل بصورة سريعة جداً؛ فقد وردت ثمان آيات في القرآن تصف الله سبحانه بأنه سريع الحساب، كما جاء في الحديث الشريف:

«إن الله يحاسب الخلائق كلهم في مقدار لمح البصر» [٣٤٤]

، ودليل السرعة في الحساب واضح، لأنها تتوقف لاينطوي على أية صعوبة، اللهم إلا أن تقتضى حكمته تأخير البعض في الحساب مبالغه لهم في العقاب أو حكمه اخرى فالحق أن أعمالنا لها تأثير على أرواحنا وأجسامنا، التي يتضح حسابها من خلال نظرة لها، من جانب

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ١٩٩

آخر فإنه يمكن تشبيه أعمال الإنسان بعمل السيارة، بحيث تكفي نظرة واحدة لعدادها لمعرفة كم كيلومتر قطعت، ولا سيما في عصر الحاسب الآلي- حيث يزودك بما شئت من المعلومات أحياناً المجرّد ضغطك على زر من أزراره- فمسألة سرعة الحساب لم تعد بالمعقدة الفهم والإدراك على العقل البشرى.

ج- الدقة في الحساب: الميزة الاخرى في الحساب يوم القيامة استناداً إلى الآيات القرآنية تكمن في الدقة من قبيل الإشارة إلى المحاسبة على العمل وإن كان مثقال ذرة، أو حبة من خردل.

د- التشديد في الحساب: الخاصية الاخرى تكمن في سوء الحساب حسب تعبير الآيات القرآنية بالنسبة لأولئك الذين كانوا يتصفون

بالتشدد والتعصب في حياتهم الدنيا تجاه الآخرين وبالطبع فإن سوء الحساب لايعنى كونه الحساب السيئ وغير الصحيح، فذلك لا يجوز مطلقاً على الله سبحانه، إنما يراد به التشدد على من كان متشددًا.

هـ- اليسر في الحساب: يستفاد من بعض الآيات القرآنية وخلافاً للتعامل مع الطائفة المذكورة، فهناك البعض الذي يخضع للحساب اليسير يوم القيامة، والمراد بهذا البعض اولئك الأفراد الذين تعاملوا بالسهولة واليسر في حياتهم الدنيا مع الآخرين، فكان جزاء أعمالهم أن يسر الله عليهم الحساب يوم القيامة. فقد قال القرآن الكريم: «فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا» [٣٤٥]. وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله قال:

«ثلاث من كن فيه حاسبه الله حسابا يسيرا وأدخله الجنة برحمته، قالوا:

وما هي يا رسول الله؟ قال: تعطي من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك» [٣٤٦]

فالحديث يشير بوضوح إلى أن الحساب اليسير في يوم القيامة إنما هو انعكاس لحساب الإنسان اليسير لبنى جنسه في الدنيا. ورود الجنة بغير حساب: إضافة إلى الطائفة المتشددة في الحساب والاخرى السهلة، هناك طائفة ثالثة ترد الجنة دون أن تتعرض للحساب، وهي الطائفة التي عاشت ذروة الورع

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٠٠

إذا جمع الله عزوجل الأولين والآخرين قام مناد- فنادى يسمع الناس- فيقول:

«أين المتحابون في الله؟»

فيقوم عنق من الناس فيقال لهم:

«أذهبوا إلى الجنة بغير حساب». [٣٤٧]

وقد ورد مثل هذا المعنى بالنسبة للصابرين [٣٤٨]، كما ورد مثله في السابقين إلى الإيمان [٣٤٩]. وبالمقابل هناك طائفة ترد جهنم بغير حساب، فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ثلاثة يدخلهم الله النار بغير حساب: إمام جائر وتاجر كذوب وشيخ زان» [٣٥٠]

. وبالطبع هناك الطوائف الاخرى التي أشارت إليها الروايات أنها تدخل النار دون حساب. ومن الطبيعي أن تكون الطائفة التي ترد الجنة دون حساب او تلك التي ترد النار بغير حساب أن تكون قد عملت بحيث أصبح كل وجودها نور أو ظلمة وكانت تمشى بصفتها فضيلة أو رذيلة، ومن هنا لم تعد هناك من حاجة للحساب.

٢- المذموم عبادة الدنيا لانيلها

المسألة الاخرى التي تجدر الإشارة إليها هناك هو أن المذموم من الدنيا يكمن في الخلود إليها والاعتزاز بها وتقديسها، أى التضحية بالعالى والنفيس من القيم والمثل من أجل المنافع المادية الدنيوية الرخيصة، وإلا ليس هناك من ذم للدنيا المشرفة التي يعيش فيها الإنسان بعز وكرامة ويتمتع بما فيها على ضوء العقل والدين. وسنعرض بالتفصيل لهذا الأمر في المباحث القادمة ذات الصلة بهذا الموضوع إن شاء الله.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٠١

الخطبة [٣٥١] الثالثة والثمانون

ومن خطبة له عليه السلام

وهي الخطبة العجيبة وتسمى «الغراء»

وفيها نعوت الله جل شأنه، ثم الوصية بتقواه ثم التنفير من الدنيا، ثم ما يلحق من دخول القيامة، ثم تنبيه الخلق إلى ما هم فيه من الأعراس، ثم فضله عليه السلام في التذكير.

نظرة إلى الخطبة

نقل ابو نعيم الاصفهاني جانباً من هذه الخطبة في حلية الاولياء وقال في سبب ورودها ان الإمام عليه السلام شيع جنازة لما ارتفع صراخ أهله حين وضع في القبر فأقسم الإمام عليه السلام أن الموت لا يذر أحداً ولو شاهدوا ما يشاهد هذا الميت لبكوا على أنفسهم دونه، ثم نهض عليه السلام إثر ذلك فأورد هذه الخطبة.

الخطبة تشير إلى أن الإمام عليه السلام كان بصدد إعداد قلوب الناس وإيقاظهم من غفلتهم، وهي خطبة عظيمة المضمون بعيدة المعنى لها فعل السحر في النفس بفضلها تتضمن عدداً من الدروس والعبر التي تصنع الإنسان وتهذبها ويمكن تقسيمها إلى اثني عشر قسمًا [٣٥٢] كل منها يكمل الآخر:

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٠٢

القسم الأول: يخوض فيه الإمام عليه السلام بحمد الله والثناء عليه وبين صفات جلاله وجماله ليهيئ القلوب لسماع المواعظ والنصائح.

القسم الثاني: الوصية بالتقوى بفضلها رأس المال الأصلي للإنسان في حياته المادية والمعنوية.

القسم الثالث: ذم الدنيا بفضلها العقبة الكؤود التي تحول دون التقوى والورع.

القسم الرابع: الحديث عن المعاد والحشر وأحوال يوم القيامة لتكون القلوب منفتحة على الاتعاظ بالزواجر.

القسم الخامس: التعرض لآحوال الإنسان من خلال بيان عاقبته.

القسم السادس: التذكير ثانية بالورع والتقوى.

القسم السابع: لما كان الالتفات إلى النعم الإلهية يقود الإنسان إلى معرفة الله وشكره على نعمه وطاعته، تطرق عليه السلام في هذا

القسم إلى النعم التي أفاضها الله سبحانه على الإنسان.

القسم الثامن: المواعظ والإرشادات التي تفتح العقول والقلوب.

القسم التاسع: الحديث عن التقوى ثالثة الإشارة إلى كونها أفضل الزاد والمتاع في سفر الآخرة.

القسم العاشر: الكلام عن خلق الإنسان مذ كونه جنيناً إلى موته وما بعد الموت بعبارات توظف الضمير البشري.

القسم الحادي عشر: التحذير من عدم السبيل إلى الرجعة بعد الموت ولا تدارك ما فرط في الدنيا.

القسم الثاني عشر والأخير: إشارة إلى الدروس والعبر التي يخترنها تأريخ الماضين وبيان أحوال الاقوام بعبارات مثيرة وحساسة رائعة؛

الأمر الذي جعل السيد الرضى (ره) يقول:

بعد أن خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة إقشعرت لها الجلود، وبكت العيون، ورجفت القلوب.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٠٣

القسم الأول: البعيد القرب والعالي الداني

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ وَدَنَا بِطَوْلِهِ مَا نَزَحَ كُلُّ غَنِيمَةٍ وَفَضَّلَ، وَكَاشَفَ كُلَّ عَظِيمَةٍ وَأَزَلَّ أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ وَسَوَابِغِ نِعَمِهِ وَأَوْمَنُ بِهِ أَوْلَمًا بَادِيًا وَأَشْتَهَدِيهِ قَرِيبًا هَادِيًا وَأَشْتَعِينُهُ قَاهِرًا قَادِرًا أَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِيًا نَاصِرًا وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَبْدُهُ

وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ لِإِنْفَازِ أَمْرِهِ وَإِنْهَاءِ عُذْرِهِ وَتَقْدِيمِ نُذْرِهِ».

الشرح والتفسير

يستهل الإمام عليه السلام خطبته المشهورة بالغراء بالحمد والثناء والصلوات على النبي صلى الله عليه وآله ثم يعرج على صفاته سبحانه وتعالى فيحمده بادئ ذي بدء لأربع صفات من صفاته:

«الحمد لله الذي علا بحوله [٣٥٣]، ودنا بطوله، [٣٥٤] مانح [٣٥٥] كل غنيمه وفضل، وكاشف كل عظيمه وأزل» [٣٥٦]

إننا نعلم أن صفات الله على خلاف صفات عباده المحدودة؛ فهو قريب وبعيد، وظاهر وباطن، وله صفات أخرى متناقضة لا تجمع في عباده، إلا أنها تجمع في ذاته اللامتناهية. فقد أشار الإمام عليه السلام في العبارة الأولى إلى هذا المعنى فقال:

«الحمد لله الذي علا يحوله»

فهو قريب

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٠٤

في علوه، وعلوه معلول لقدرته، بينما قربه معلول لنعيمته ومنته. ثم أشار في العبارة الثانية إلى أنه مصدر البركات الذي يفيض الغنيمه والفضل على العباد، وفي نفس الوقت يكشف عنهم الكرب والبلاء، وكيف لا يرتجى منه ذلك وهو ما عليه من القدرة واللفظ والمحبه. ولعلنا نلمس هذا المعنى في الآية القرآنية الكريمة: «وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ» [٣٥٧] ومن البدهة أن غير الله - لأن قدرته محدودة - لا يسعه أى نعمه أو فضل، كما لا يستطيع أن يدفع أى بلاء أو ضرر، وليس هنالك مثل هذه الاستطاعة والقدرة سوى للذات المقدسة. ثم يخوض عليه السلام في عليه الحمد والثناء، بعبارة أخرى كان الحديث في العبارات السابقة عن صفات المنعم، أما هنا فقد جرى الحديث عن النعم:

«أحمده على عواطف كرمه، وسوايح [٣٥٨] نعمه»

فالواقع هو أن للنعم الإلهية صفتان وسيعه شاملة ودائمة مستمرة. وليس هذا سوى لقدرته وكمال لطفه الذي أغرق الإنسان بوابل نعمه ولم يقطعها عنه طرفه عين، ثم قال عليه السلام:

«وأومن به أولاً بادياً [٣٥٩]، وأستهديه قريباً هادياً، وأستعينه قاهراً قادراً، وأتوكل عليه كافياً ناصراً»

فالإمام عليه السلام يقرن كل شئ بدليله، فالإيمان به لكونه سابق كل شئ في الوجود وهو واجب الوجود وقد عمت آثاره كافة أرجاء العالم، كما يستدل على سؤاله الهداية لأنه الهادى للعباد وهو قريب منهم قادر على هدايتهم. ولما كان الركن الثانى للإيمان - بعد الاقرار لله بتوحيد - الشهادة بالنبوة قال عليه السلام:

«وأشهد أن محمداً - صلى الله عليه وآله - عبده ورسوله».

ثم أشار عليه السلام إلى الوظائف الثقيلة للنبوة ليجزها بثلاث عبارات:

«أرسله لانفاذ أمره، وإنهاء عذره، وتقديم نذره» [٣٦٠]

. فالعبارة الأولى إشارة إلى قيام النبي صلى الله عليه وآله ودعوته الامة إلى الإيمان بالله، والعبارة الثانية إلى اتمام الحجج بواسطة إبلاغ أحكام الله واستعراض الأدلة العقلية والمعجزات، والعبارة الثالثة إشارة إلى بيان العذاب الإلهي في الدنيا والآخرة لأولئك الذين يعصون أوامر الله سبحانه.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٠٥

القسم الثانى: دور التقوى فى تقرير مصير الإنسان

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي ضَرَبَ الْأَمْثَالَ وَوَقَّتْ لَكُمْ الْأَجَالَ وَأَنْبَسِيَكُمْ الرِّيَاشَ وَأَرْفَعْ لَكُمْ الْمَعَاشَ وَأَحَاطْ بِكُمْ الْإِحْصَاءَ وَأَرْصِدْ لَكُمْ الْجَزَاءَ وَأَثْرِكُمْ بِالنَّعْمِ السَّوَاعِجِ وَالرَّفِيدِ الرَّوَافِعِ وَأَنْذِرْكُمْ بِالْحَجَجِ الْبَوَالِغِ فَأَخْصَاكُمْ عَدَدًا وَوَضَفْ لَكُمْ مُدَدًا فِي قَرَارِ خَيْرَةٍ وَدَارِ عَيْبَرَهُ أَنْتُمْ مُخْتَبِرُونَ فِيهَا وَمُحَاسِبُونَ عَلَيْهَا».

الشرح والتفسير

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من حمد الله والثناء عليه والشهادة لرسول الله بالنبوة في المقطع الاول من الخطبة حتى تطرق عليه السلام إلى أهم مسألة تلعب دورها في تقرير مصير الإنسانية ألا وهي التقوى، فيوصي بها الجميع ثم يذكر عشر صفات لله كلها تدعو إلى التقوى فتارة يتحدث عن النعم الموفورة، وتارة أخرى عن الحساب والجزاء، وأحياناً يشير إلى النذر الإلهية وإتمام الحجة، كما يتكلم عن محدودية عمر الإنسان وما يتعرض له من تمحيص واختبار، وكل واحد منها من شأنه أن يسوقه إلى التقوى فقال عليه السلام:

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب الأمثال»

فالأمثلة والتشبيهات التي وردت في القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وكلمات المعصومين عليهم السلام لتقريب الحقائق العقلية إلى الأذهان وتجعلها في متناول الحس، لا تخرج عن أربع صور هي: تشبيه المحسوس بالمحسوس (بالطبع المحسوس الثاني لا بد أن يكون أوضح من المحسوس الأول)، تشبيه المعقول بالمحسوس، وتشبيه المحسوس بالمعقول، وأخيراً تشبيه المعقول بالمعقول، والغرض من كل هذه التشبيهات هو الاستئناس بالمسائل التربوية والأوامر

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٠٦

والنواهي الإلهية بحيث يكون مفهومها قريباً لدى النفس ولا تبقى ألغاز المفاهيم المعقدة. ثم قال عليه السلام:

«ووقت لكم الآجال»

فلكل عمر وأجل معين وقد خط الموت والفناء على جبين الجميع، سواء كان هذا الأجل هو النهاية القطعية للحياة؛ أي الأجل المسمى أو النهاية المشروطة؛ أي الأجل المحتوم. فقد قال سبحانه وتعالى «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» [٣٦١] وقال: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ» [٣٦٢].

ومن البديهي أن يتجه الإنسان نحو التقوى حين يلتفت إلى تقلب الحياة الدنيا وقصر العمر. ثم قال عليه السلام:

«وألبسكم الرياش [٣٦٣] وأرفع [٣٦٤] لكم المعاش»

حيث طرح الإمام عليه السلام مسألة اللباس من بين جميع النعم ثم أشار إلى كفاية نعم الحياة والعيش، ولعل كون اللباس من أهم النعم، الذي لا يقتصر على حفظ الإنسان من البرودة والحرارة ويصونه من الأخطار والصددمات التي تتهدده ويستتر عيوبه فحسب، بل لأن القرآن شبه التقوى باللباس في آياته، ومن هنا كان هنالك تناسب مع أصل الحديث عن التقوى، وهذا ما حدا بالإمام عليه السلام إلى تقديم الخاص قبل العام في إطار حديثه عن النعم. والجدير بالذكر أن وجود هذه النعم الفضيلة الواسعة التي عمت حياة الإنسان لهي الدافع لمعرفة الله وبالتالي تقواه. فكيف يعرف الإنسان هذه النعم ولا يجد في رعايته حرمةً وليها. فقد ورد في القرآن الكريم قوله سبحانه: «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ» [٣٦٥]. يذكر أن لريش الطيور ألوان مختلفة وجمالية خاصة، ومن هنا فانه يعني الزينة أيضاً، ولما كانت التقوى تستر عيوب الإنسان وتحفظه من وساوس الشيطان وهي زينة له، فإن مفردة اللباس في الآية

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٠٧

الشريفة تشير إلى التقوى [٣٦٦] ثم قال عليه السلام:

«وأحاط بكم الاحصاء، وأرصد لكم الجزاء»

طبعاً إذا التفت الإنسان إلى هذه المسألة وهي أن الحساب الإلهي دقيق - وكأنه قلعة محكمة يصعب إختراقها حيث لا يسع أي عمل أو

قول صدر من الإنسان أن يفلت من الحساب، كما أن كل قول وعمل إنما يحمل جزائه معه، فان هذا الأمر سيدعوه إلى الورع والتقوى وإجتنب معصية أوامر الله سبحانه، والعبارة:

«أحاط بكم الاحصاء»

المستفاد من الآية الكريمة: «وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا» [٣٦٧] إنما هي عبارة رائعة تشير إلى أن الإنسان قد خضع لدائرة الاحصاء الإلهي بحيث لا يصدر منه شيئاً دون حساب، والعبارة:

«أرصد لكم الجزاء»

تصور الثواب والعقاب كمراقب كمن للإنسان بحيث لا يغادر أي عمل صدر منه، ثم قال عليه السلام:

«وَأَثَرُكُمْ بِالنَّعْمِ السُّوَابِغِ، وَالرَّفْدِ [٣٦٨] الرَّوَابِغِ، [٣٦٩] وَأَنْذَرُكُمْ بِالْحَجِجِ الْبُوَالِغِ»

الايثار تفضيل الشخص على النفس أم الآخرين، ومنه ماورد في الآية ٩١ من سورة يوسف:

«تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا»

. أميا ما تصوره بعض شراح نهج البلاغة من أن الايثار تقديم الآخر على الذات، أو فيما يحتاجه المؤثر ليس بمستقيم، ولما لا يمكن تصور أي من هذين المعنيين على الله فليس من الصواب الاتجاه نحو المعنى المجازي. [٣٧٠] على كل حال فان المراد بالعبارة هو أن الله سبحانه قد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته وأفاض عليه نعمه وكراماته؛ الأمر الذي صرح به القرآن الكريم: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا» [٣٧١]. فاذا إلتفت الإنسان إلى هذا النعم الإلهية بما فيها تفضيله على سائر المخلوقات، سيثار لديه حس الشكر، وكما أوردنا سابقاً فإنه سيتجه

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٠٨

لمعرفة النعم وبالتالي الامتناع عن مخالفته والتمرد على أوامره والتحلى بالورع والتقوى. أما الحجج البوالغ المتمثلة بالانبياء والكتب السماوية والمعجزات والأدلة العقلية والنقلية فهي الاخرى من دواعى الورع والتقوى وأميا ذكر النعم إلى جانب الحجج فيمكن أن يكون إشارة إلى أن الله في الوقت الذي يغدق كل هذه النعم على الإنسان، إلأنه يحذره من استغلالها وأن عليه أن يوظفها بما يقوده إلى الفلاح والسعادة. ثم إختتم عليه السلام كلامه بهذا الشأن قائلاً:

«فأحصاكم عدداً، ووظف لكم مدداً، [٣٧٢] في قرار خبرة [٣٧٣]، ودار عبرة، أنتم مختبرون فيها، ومحاسبون عليها»

لقد سبق الحديث في الصفة الثانية عن أجل الإنسان وفي الصفة الخامسة عن إحصاء الناس وعددهم، ثم كرر عليه السلام هذين الوصفين لأهميتهما وتأثيرهما المباشر في تجلى حقيقة التقوى في وجود الإنسان، كما يمكن أن يفيد هذا التكرار معنى آخر، فقد كان الحديث في العبارات السابقة عن الاحاطة بأعمال الإنسان، ومن هنا أردف بالكلام عن جزاء الأعمال، أما هنا فقد ورد الكلام عن إحصاء الناس بحيث لا يشردهم عن مراقبة الله سبحانه، كما صرح بذلك القرآن: «إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا» [٣٧٤]. ولئن أشار إلى انتهاء الأجل فإن ذلك مقدمة للعبارات التالية (الحياة في دار الإمتحان والابتلاء) وفي الواقع هي من قبيل البيان الإجمالي والتفصيلي للعبارة السابقة. وأما قوله عليه السلام:

«قرار خبرة ودار عبرة»

فواضح في أن حياة الناس تمثل امتحانهم واختبارهم؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن بالقول: «أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» [٣٧٥]. والتعبير بالعبرة يشير إلى الاعتبار بمصير

الظلمة والأقوام الطاغية والأفراد الذين تلطخت أيديهم بالذنوب والمعاصي، وأن العقاب الإلهي لا يقتصر على الآخرة بل يطيل

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٠٩

الأفراد حتى في الحياة الدنيا. والضمير في العبارة

«ومحاسبون عليها»

يعود إلى دار الدنيا؛ أي كما أن الدنيا دار بلائكم وتمحيصكم فان حسابكم يتعلق بها بما أسلفتم من أعمال وتمتعتم من نعم أفاضها الله عليكم.

التقوى في كل زمان ومكان

كما أوردنا آنفاً فإن الإمام عليه السلام أعقب الحمد والثناء بالدعوة إلى الورع والتقوى التي تختزن كافة مقومات السعادة الإنسانية وتحدد مكانة الإنسان لدى الله وتشكل أفضل الزاد إلى الآخرة. والجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام لا يكتفى بالوصية بالتقوى بل يشير إلى جميع الأمور التي من شأنها بلوغ التقوى ومنها النعم الإلهية المختلفة وقصر عمر الإنسان والاحاطة التامة لله سبحانه بالناس وأعمالهم وأقوالهم والدروس والعبر التي تتضمنها حياة الأقسام السابقة، بل وحتى الامم الحاضرة، إلى جانب الالتفات إلى هذا المعنى وهو أن هذه الدار الدنيا هي قاعة اختبار وامتحان وأن الله واطر أنبيائه ورسله وأنزل معهم الكتب السماوية لانذار العباد، والحق أن هذا ذروة الفصاحة والبلاغة في أن تجمع كل هذه الأمور التي تصور التقوى بمعناها الكبير بهذا العبارات القصيرة.

حقاً إن تأمل هذه الأمور الواردة في الخطبة ليقود الإنسان إلى إستشعار الورع والتقوى والاحساس بحضوره سبحانه على الدوام. فأني للإنسان أن يتمرد على خالفة وقد شعر بفيض نعمه عليه وأيقن بالقيامة والبعث والحساب وآمن بالحجج الإلهية التي تضمنتها الكتب السماوية وصدحت بها أنبياء الله ورسله والأئمة عليهم السلام، وهو يرى قصر عمره وتقلب أحوال الدنيا والدروس والعبر التي إشمطت عليها حياة سالف الامم.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢١١

القسم الثالث: حقيقة الدنيا

إشارة

«فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنَقٌ مَّشْرَبُهَا رَدِغٌ مَّشْرَعُهَا، يُونَقُ مَنظَرُهَا وَيُوبَقُ مَخْبَرُهَا، غُزُورٌ حَائِلٌ، وَضَوْءٌ آفِلٌ، وَظِلٌّ زَائِلٌ، وَسَيِّئَاتٌ مَائِلٌ، حَتَّى إِذَا أُنْسَ نَافِرُهَا وَاطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا، قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا، وَقَنَصَتْ بِأَحْبِلِهَا، وَأَقْصَدَتْ بِأَسْبِيْهِمَهَا، وَأَعْلَقَتْ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَتِيَّةِ قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ الْمَضْجَعِ، وَوَحْشَةَ الْمَرْجِعِ، وَمُعَايِنَةَ الْمَحِلِّ وَثَوَابِ الْعَمَلِ، وَكَذَلِكَ الْخَلْفُ بَعْبِ السَّلْفِ، لَا تُقْلَعُ الْمَتِيَّةُ اخْتِرَامًا، وَلَا يَزْعَوِي الْبَاقُونَ اجْتِرَامًا، يَخْتَدُونَ مِثَالًا، وَيَمْضُونَ أَرْسَالًا، إِلَى غَايَةِ الْإِنْتِهَاءِ، وَصَيُورِ الْفَنَاءِ».

الشرح والتفسير

يعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة بالدم الشديد الدنيا، حيث كان حديثه عن دار الامتحان والعبرة، فيشرح هنا خصائص هذه الدار بعبارات روعه في الفصاحة والبلاغة. من جانب آخر خاض الإمام عليه السلام في التقوى، ونعلم أن العقبة الكوود التي تعترض سبيل التقوى إنما تكمن في حب الدنيا والتعلق بمادياتها، ومن هنا ذمها الإمام عليه السلام ليحط من قدرها لدى الناس ويقوى عندهم حس التقوى. فقد أشار عليه السلام إلى ثمان من مميزات الدنيا فقال عليه السلام:

«فإن الدنيا رنق مشربها رديغ مشرعها» [٣٧٧] مشرعها»

عادة ما يكون مستوى الأنهار التي يستفيد الإنسان

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢١٢

من مياهها أكثر ارتفاعاً من سطح الأرض المجاورة لها بحيث يصعب التزود منه، ومن هنا يحفر جزء من ساحل النهر ليتمكن الوصول

إلى ماءه بسهولة، وتصطلح العرب على هذا الجزء الذى يسهل الوصول إلى الماء بالشريعة أو المشرع حيث ينتهى إلى الماء يطلق عليه المشرب؛ فإذا تلوث المشرب بالطين والوحل أو تلوث الماء بحيث يتعذر التزود منه يعمد إلى إحداث شريعة بصورة مناسبة، أو يجعل عليه قنطرة لحل تلك المشاكل. الغرض هو أن الإمام عليه السلام شبه نعم الدنيا بالماء، إلّا أن المؤسف له هو أن الوصول إلى الماء يمر عبر الوحل ونقطة بلوغ الماء كانت موضعاً يلوث الماء، ومن هنا فإنّ هذا الماء يدعو إليه العطاش من بعيد، إلّا أنّهم حين يصلوه يرون أنفسهم أمام سيل من المشاكل، فلا يتمكنوا من الحصول على الماء العذب، والحق أنّ هذا هو حال متع الدنيا كالجمال والمقام وما إلى ذلك؛ وذلك لأنّ نيل الدنيا يحتم على الإنسان الاغماض عن الكثير من الفضائل الأخلاقية واعتياد الكذب والغدر والخيانة والذل، وكل من هذه الرذائل مستتقع يكمن فى طريق الوصول، فإذا وصل اصطدم بأنواع الحسد والطمع؛ الأمر الذى يعكس صفو الماء. ثم قال عليه السلام

«يوتق [٣٧٨] منظرها، ويوبق [٣٧٩] مخبرها»

لقد ورد هذا التناقض لظاهر الدنيا وباطنها بعدة صور فى عبارات أئمة العصمة، ومن ذلك ما ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «فإنما مثل الدنيا مثل الحية: لين مسها، وقاتل سمها» [٣٨٠] ويشبهونها أحياناً بالمرأة الجميلة التى تقتل أزواجها الواحد تلو الآخر. وبالطبع فإنّ أوصاف الدنيا ليست بالخافية على الإنسان اللبيب، فظاهرها أنيق ساحر وباطنها خطر قاتل. ثم قال عليه السلام: «غرور حائل [٣٨١]، وضوء آفل» [٣٨٢] وظل زائل، وسناد [٣٨٣] مائل» ممّا لا شك فيه أنّ الدنيا تنطوى على عناصر الجمال والخداع، إلّا أنّها تنتهى لمجرد أن يريد الإنسان التمتع بها، ومن هنا نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢١٣

عبر عنها الإمام عليه السلام بالغرور الحائل، لأنّ الغرور بالضم من لوازم الجمال الظاهرى، أما الغرور بالفتح تعنى الشخص الخداع ومن هنا اطلق الغرور على الشيطان. ولما كانت أمتعة الدنيا براقه فقد عبر عنها الإمام عليه السلام بالضوء، إلّا أنّ هذا البريق ليس له دوام وسرعان ما يخفت، الأمر الذى جعل الإمام عليه السلام ينعت ذلك الضوء بالآفل. وتتصف بظلمها الوداع المؤقت كظل شعاع الشمس على الأشجار الذى سرعان ما ينقشع ويزول، ومن هنا فان الظل الزائل الذى تمثله أمتعة الدنيا يمكن أن يكون ركنا يوثق به، غير أنّه ركن خاو، ولذلك عبر عنه عليه السلام بالسناد المائل. ثم أشار عليه السلام إلى سائر خصائص الدنيا، وبعبارة أخرى فأنه تعرض للصفات المذكورة بتشبيهات وتعبيرات جديدة فقال عليه السلام:

«حتى إذا أنس نفاها، واطمان ناكرها، قمصت [٣٨٤] بأرجلها، وقنصت [٣٨٥] بأجلها [٣٨٦]، وأقصدت بأسهمها [٣٨٧]»

فقد صور الإمام عليه السلام الدنيا ووضعها بثلاثه تشبيهات: الأول شبه الدنيا بمركب طيب الظاهر، إلّا أنّه سرعان ما يجمع وي طرح راكبه أرضاً. ثم شبهها بالصياد الذى يرمى شبكاه وينثر فيها حبوب فحه فإذا إقترب صيده لم يجد له من سبيل إلى الهرب، وأخيراً شبهها بالصياد الذى يكمن فى الطريق فإذا شاهد صيده صوب إليه سهامه.

والجدير بالذكر فى العبارة

«حتى إذا أنس نافرنا...»

انها تشير إلى حقيقة وهى أنّ خداع الدنيا ليس بالشئ إهين الذى يمكن تجاوزه بسهولة، بل تجر إليها أحياناً حتى الزهاد والعباد لتلقى بهم فى حبالها وشباكها، ومن هنا ينبغى أن يلتفت الجميع إلى مدى خطورة هذه الدنيا الغرارة والمداومة على هذا الذكر: «اللهم لا تكنلى إلى نفسى طرفه عين أبدا».

ثم أشار عليه السلام إلى عاقبة أمر الإنسان فقال:

«وأعلقت المرء أوهاق [٣٨٨] المنية قائدة له إلى ضنك المضجع [٣٨٩]،

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢١٤

ووحشة المرجع، ومعاينة المحل، وثواب العمل»

لاشك أن طلاب الدنيا أهلها ليسوا مستعدين للتخلي عنها، إلا أنها تلقي بحبل الموت بكل قسوة على أعناقهم، فتخرجهم بالقوة من قصورهم الفارقة ودورهم العامرة لتوردهم تلك الحفر المظلمة الموحشة التي تملأه خوفاً واضطراباً، والأنكى من ذلك زوال الحجب عن عينيه ورؤيته لموضعه الذي سيحله، فان كان مستحقاً للعذاب، رأى بأمر عينيه نار جهنم فيزداد خشيةً لمفارقتها لدنيا بما فيها من مال ومقام وزوجة وولد. ثم يختتم كلامه عليه السلام بالإشارة إلى هذه الحقيقة وهي أن ما أورده الإمام بشأن الدنيا وأبناءها لا يختص بالماضيين أو بطائفة معينة من الناس، بل يشمل الجميع الذين لا بد لهم أن يشهدوا هذا الامتحان ويذوقوا الموت فما من خلود وبقاء سوى لله سبحانه، حيث قال عليه السلام

«وكذلك الخلف بعقب السلف، لا تنقلع المنية اختراماً [٣٩٠] ولا يرعوى [٣٩١] الباكون اجتراماً [٣٩٢]»

. نعم فهم يعملون على غرار من سبقهم ويحذون حذوهم

«يحتذون [٣٩٣] مثلاً، ويمضون أرسالاً، [٣٩٤] إلى غاية الانتهاء، وصيور [٣٩٥] الفناء»

. فقد تضمنت العبارة الإشارة إلى أمرين: الأول الحذار من أن يتصور البعض أنه مستثنى من هذا القانون العام فيظنون أنهم مخلدون في الدنيا باقون فيها. والثاني الاعتبار بالماضيين من خلال النظر إلى آثارهم ليروا أين حلوا، وكيف كانوا:

من كان لا يظأ التراب برجله يظأه اليوم بصفحة الخد

ومن كان بينك وبينه شبران فهو اليوم في غاية البعد

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢١٥

أما التعبير بالاخترام وبالالتفات إلى معنى هذه المفردة الذي يفيد القطع والقص (ولذلك فسّر بعض شراح نهج البلاغة الموت المحزوم بالموت الذي يطيل الإنسان قبل مدته الطبيعية) [٣٩٦] كأنه يشير إلى حقيقة وهي أن إحدى مشاكل الحياة الدنيا في أنه كلما يفارق أحد الدنيا بموت طبيعي؛ أي أنه يوظف كافة طاقاته من أجل البقاء بينما يأتيه الموت، بل غالباً ما يخرق عمره بفعل مختلف العوامل سواءً الداخلية أو الخارجية، الجسمية أو النفسية وأخيراً الحوادث الفردية أو الاجتماعية، ومن هنا لا يسع أي فرد أن يؤمل العيش ولو ليوم أو ساعة. والسؤال المطروح لم رغم كل هذه الامور والحال

«لا يرعوى الباكون اجتراماً؟»

ليس هنالك من جواب سوى الغفلة والجهل ووساوس النفس الامارة والشياطين الذين يحكمون سيطرتهم على الإنسان ويحجبون أبصارهم وبصائرهم عن رؤيته الحقائق. فهو بالضبط كالطير الذي يرى الحبوب دون أن يرى المصيدة التي نصبها له الصياد.

تقلب الدنيا

لقد إستفاضت الآيات القرآنية والروايات الإسلامية التي كشفت النقاب عن غدر الدنيا وتقلب أحوالها. وما أروع الصورة التي رسمها القرآن لهذه الدنيا حين شبهها بماء المطر:

«وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا» [٣٩٧]. الخطبة التي نحن بصدددها هي الاخرى رسمت صورة ناصعة لتفاهة الدنيا بحيث تهز عباراتها ضمير أهل الغفلة لتلفت إنتباههم إلى الآخرة، وكثيرة هي خطب نهج البلاغة التي وردت بشأن الدنيا، ولعل السبب الذي يكمن وراء كل هذه التأكيدات هو أن العصر الذي عاشه الإمام عليه السلام قد أعقب تلك الفتوحات الإسلامية والتي جرت ثروات طائلة على البلاد الإسلامية، حتى كانت آثار السلاطين والملوك النفسية من بين الغنائم التي كان تحصل عليها الجيوش الإسلامية؛ الأمر الذي شد أنظار أغلب الأفراد إلى

الدنيا، وهذا ما أدى بالتالى إلى فساد المجتمع الإسلامى. فما

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢١٦

كان من الإمام عليه السلام وبغية إعادة الأمة إلى مسارها الإسلامى الصحيح الذى رسمه رسول الله صلى الله عليه وآله إلاً أن يعتمد تلك الحياة الزاهدة المتواضعة من جهة، ويلقى بكلماته الروحية ليوظ تلك القلوب الغافلة من جهة أخرى الادباء والشعراء على مر العصور أنشدوا الشعر فى تصوير غدر الدنيا وعدم وفائها.

والعجيب فى الأمر أن كل هذه الآيات والروايات إلى جانب النظم الأدبى البديع لم تتمكن من إيقاظ أهل الدنيا وسلخهم عنها، فواصلوا بكل قوة مسارهم المنحرف دون الإكتراث لهذا الواعظ أو ذاك. نعم فالمؤمنون إنما يتعظون بهذه العبر ويتفتعون بها ليجدوا ويجتهدوا فى إصلاح أنفسهم ومعادهم.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢١٧

القسم الرابع: أهوال المحشر

إشارة

«حَتَّى إِذَا تَصَيَّرَ مَتِّ الْأُمُورِ، وَتَقَضَّتِ الدُّهُورُ، وَأَزِفَ النُّشُورُ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ الْقُبُورِ، وَأَوْكَارِ الطُّيُورِ، وَأَوْجِرَةَ السَّبَاعِ، وَمَطَارِحِ الْمَهَالِكِ، سِتْرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ، مُهْطِعِينَ إِلَى مَعَادِهِ، رَعِيلاً صُمُوتاً، قِيَاماً صُفُوفاً، يَنْفُذُهُمُ الْبَصْرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ، عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الْإِسْتِكَانَةِ، وَضَرْعُ الْإِسْتِشْلَامِ وَالِدَّلَةِ، قَدْ ضَلَّتِ الْحَيْلُ، وَانْقَطَعَ الْأَمَلُ، وَهَوَتْ الْأَفْتِدَةُ كَاطِمَةً، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ مُهَيِّمَةً، وَالْجَمَّ الْعَرَقُ، وَعَظُمَ الشَّفَقُ، وَأُرْعِدَتِ الْأَسْمَاعُ لِرَبْرَةِ الدَّاعِيَ إِلَى فَضْلِ الْخُطَابِ، وَمُقَايَضَةِ الْجَزَاءِ وَنِكَالِ الْعِقَابِ، وَنَوَالِ الثَّوَابِ».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة الغراء حقاً من حمد الله والثناء عليه والوصية بالتقوى وشرح أوضاع الدنيا وغدرها، تطرق عليه السلام إلى المعاد ليصور المحشر وأحوال الخلائق فيه بحيث لا يبقى مجالاً للغفلة فقال عليه السلام:

«حتى إذا تصرمت الأمور، وتقضت الدهور، وأزف [٣٩٨] النشور»

فالعبارات الثلاث إشارة واضحة لنهاية العالم. حيث تعرضت العبارة الاولى إلى فناء وزوال كل شئ: العمر، القدرة والقوة، الأموال والثروة و...، والعبارة الثانية لانتهاى الشهور والسنوات والقرون، والعبارة الثالثة وهى النتيجة لما تقدم إقتراب الساعة والبعث والقيامة. أما بشأن نهاية العالم والأحداث المهيبة التى ستودى إلى ذلك- كما صرح القرآن الكريم- وكيفيه عالم

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢١٨

البرزخ فإن الإمام عليه السلام لم يتطرق إلى ذلك، بل خاض مباشرة فى بعث الأموات وخروجهم من القبور التى تمثل لب المطلوب فقال عليه السلام:

«أخرجهم من ضرائح [٣٩٩] القبور، وأوكار [٤٠٠] الطيور، وأوجرة [٤٠١] السباع، ومطارح [٤٠٢] المهالك».

قد يفارق الإنسان الدنيا إثر الموت بصورة طبيعية، وقد يموت فى الصحراء لوحده ليكون جسده طعمه للحيوانات المفترسة، وقد يفترسه أحياناً وحشاً ضارياً، ويمكن أن يموت غرقاً فى البحر، كما قد تقتله الزلزلة فيبقى جسده تحت الانقاض، فالإمام عليه السلام يخبر أن الله سبحانه عليم بمواضع جميع هؤلاء وسينشرهم جميعاً للحشر فيحاسبهم على أعمالهم. كما يشير عليه السلام ضمناً إلى هذه المسألة وهى أن أحدا لا يعرف كيف سيفارق الدنيا، وأى موضع سيحوى جسده، الأمر الذى يدعو إلى الاعتبار فقد قال سبحانه بهذا الخصوص: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» [٤٠٣]. والآية كسائر الآيات الشريفة تعرض بصراحة

للمعاد الجسماني؛ لأن ما في القبور أو أعشاش الطيور وكهوف الوحوش هو تراب البدن وعظامه، وإلا فالقبر لا يضم الروح بعد مفارقتها للبدن، وهذا ما سنتعرض له في المبحث القادم. ثم قال عليه السلام:

«سراعاً إلى أمره، مهطعين [٤٠٤] إلى معاده، رعيلاً [٤٠٥] صموتاً، قياماً صفوفاً، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي»

فالعباره صورة حية عن وضع العباد في عرصة المحشر؛ وبالحق من صورة مرعبة مخيفه. وهي العباره التي ورد شبيهها في القرآن بخصوص حركة الإنسان في المحشر من قبيل المفردة

«سراعاً» [٤٠٦]

و

«يُسَلُونَ» [٤٠٧]

ويعبر أحياناً أخرى عن مدى سرعته بالقول ويعبر أحياناً أخرى عن مدى سرعته بالقول: «كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ». [٤٠٨]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢١٩

فحركة الناس جماعية ووقوفهم في المحشر على شكل صفوف مختلفه، أو أن الناس تفصل عن بعضها البعض البعض الآخر تبعاً لأعمالها بحيث يلتحق كل بنظيره فيكون مصيرهم واحداً، أو أنهم كانوا جماعة في قبورهم فينطلقون معاً للحساب. القرآن من جانبه قال بهذا الشأن: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا» [٤٠٩] ولاشك أن سرعه حركتهم تكشف عن مدى خوفهم واضطرابهم من مصيرهم وتوقعهم لما يفجعهم من حوادث. والعباره:

«ينفذهم البصر»

أى هم مع كثرتهم لا يخفى منهم أحد عن إدراك الله سبحانه وتعالى، وهم مع هذه الكثرة أيضاً لا يبقى منهم أحد إلا إذا دعا داعي الموت سمع دعاه. ثم إنتقل عليه السلام إلى صورة أخرى من صور الخلائق في يوم الحشر فقال عليه السلام:

«عليهم لبوس الاستكانه، وضرع [٤١٠] الاستسلام والذلة، قد ظلت الحيل، وانقطع الأمل، وهوت الأفتدة كاطمه، وخشعت الاصوات مهيمنه» [٤١١] وألجم العرق، وعظم الشفق». [٤١٢]

لا تبدو ظهور مثل هذه الحالات حين يغلق باب الرجعة ويحكم الله بين الخلائق وتخضع كافة الأعمال بصغيرها وكبيرها إلى الحساب العسير ويعرف الجزاء ويتجسم العقاب الذي ينتظر أهل الذنوب والمعاصي. وقد تضمن القرآن الكريم هذه الأوصاف، بل ما ورد في الخطبة إنما إقتبس عليه السلام من القرآن. فقد قال القرآن في موضع: «مُهْطِعِينَ مُقْنِعِينَ رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ» [٤١٣] وقال في موضع آخر: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا» [٤١٤]. العباره

«ألجم العرق»

تعبير رائع عن ذروة بلاء أهل المحشر، فالخوف والاضطراب من جانب، وحرارة المحشر من جانب آخر، وتدافع الناس وشدة الزحام والارهاق بحيث يغطي العرق أبدانهم حتى إن فمهم ليمتلاً عرقاً إذا ما فتحو شفاهم.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٢٠

ثم قال عليه السلام:

«وارعدت السماع لزبرة» [٤١٥] الداعي إلى فصل الخطاب، ومقايضة [٤١٦] الجزاء، ونكال [٤١٧] العقاب، ونوال [٤١٨] الثواب».

والواقع أن الخوف إنما ينبع من عدم معرفة الإنسان لمصيره وما سيؤول إليه أمره وهو يرى نفسه بين الثواب والعقاب والجنة والنار. كما أن سبب الخوف والذعر هو أن الإنسان لا يعلم بمدى إخلاصه في طاعته وعباداته، إلى جانب تذكره لبعض زلاته وأخطائه. فالحساب دقيق ولا محاسب هو الشاهد العليم بكل شيء، ولا من سبيل إلى العوده، كما ليس هنالك من سبيل لأن يدافع شخص عن آخر.

تأملات

١- أضواء على المعاد الجسماني

رغم اختلاف الفلاسفة بشأن المعاد وكونه جسمانياً أو روحياً، غير أن الآيات القرآنية والروايات الإسلامية صريحة بهذا الخصوص ولا تحمل أى إبهام فى عودة الروح والبدن فى عالم الآخرة، وإن المعاد سيكون بالروح والجسم معاً والشاهد على ذلك طائفة من الآيات والروايات، ومنها الآيات التى صرحت بقيام الناس من قبورهم إلى الحساب. [٤١٩] وبالطبع فإنّ القبر إنّما يضم عظام الإنسان وما يتبقى من تراب من جسده. والإمام عليه السلام أشار صراحة إلى هذا الأمر فى الخطبة إذ قال:

«أخرجهم من ضرائح القبور، وأوکار الطيور، وأوجرة السباع، ومطراح الهالك و...»

والواقع أنّ المعاد ينبغى أن يكون كذلك إذا أريد له أن يكون كاملاً عادلاً، وذلك لوجود التأثير المتبادل بين الروح والجسد، وأنهما يتكاملان معاً؛ فمفارقة أى منهما للآخر يجعل صاحبه ناقصاً، ومن الخطئ ما يردد أنّ الإنسان بروحه، على أنّ ذلك يستند إلى الظن السائد باستقلال الروح الكامل. ويبدو أنّ هذا البحث واسع شامل نكتفى هنا بهذا المقدار ونترك التفاصيل لموضعها. [٤٢٠]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٢١

٢- شبهة الأكل والمأكل المعروفة

من بين الشبهات التى أثرت بشأن المعاد الجسماني التى جعلت البعض ممن لم يتلق الاجابة الصائبة عليها إلى نفى مثل هذا المعاد هى الشبهة المعروفة بالأكل والمأكل المعقدة.

والشبهة هى: إذا افترض أن قحطاً أصاب جماعة وتغذى بعض الناس من لحم البعض الآخر، فما تكليف بدن هؤلاء الأفراد الذين أصبح لحمهم جزءاً من بدن أفراد آخرين يوم القيامة والمعاد؟ فإنّ عاد هذا اللحم إلى الأول أصبح الثانى ناقصاً، وإن حشر مع الثانى كان الأول ناقصاً.

كما يمكن طرح هذه الشبهة بصورة أوسع. فبدن الإنسان عادة ما يستحيل إلى تراب، والنباتات والحيوانات إنّما تتغذى على هذا التراب، وبالتالي فإنّ الإنسان إنّما يتغذى على النباتات والحيوانات فتصبح جزءاً من بدنه، وهنا يتكرر السؤال السابق فى أنّ هذه ستلحق أى بدن؟ ولعل ما أورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة:

«... من ضرائح القبور وأوکار الطيور وأوجرة السباع ومطراح الهالك»

يثير مثل هذه الاسئلة أيضاً.

والإجابة على هذا السؤال تبدو طويلة نكتفى بخلاصتها. فالآيات والروايات تفيد عودة آخر بدن للإنسان الذى تحول إلى تراب يوم القيامة، وبناءً على هذا فإنّ هذا البدن الذى أصبح جزءاً من آخر سينفصل عنه ويعود إلى البدن الأول، ومشكلة نقصان البدن الثانى يمكن حلها بكل سهولة، وذلك لأنّ سائر أجزاء البدن تعيش حالة النمو وتملأ المواضع الخالية؛ الأمر الذى نلمسه باستمرار فى هذا العالم حين يتعرض الجسد لبعض الضربات والصدمات، حيث تأخذ الخلايا بالنمو وتعوض الأجزاء التالفة من البدن، وبالطبع فإنّ هذه الحالة إنّما تحصل بصورة أسرع فى ذلك العالم. وأخيراً يشهد عالمنا المعاصر قضية الاستنساخ البشرى، حيث تؤخذ خلية من بدن كائن حتى لتنتج شبيهاً لذلك الكائن، ويبدو حل هذه المسألة سهلاً جداً، وعليه فليس لشبهة الأكل والمأكل أن تعيق المعاد الجسماني. [٤٢١]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٢٢

٣- بعث من فى القبور

هنالك سؤال يطرح نفسه وهو: إذا تغيرت الأرض والسماء عما هي عليه على أعتاب القيامة بحيث يتغير كل شىء، فكيف ستبقى القبور على حالها ويبعث من فيها للحساب؟

ويقال فى الإجابة على هذا السؤال: أن الأرض وعلى ضوء الآيات القرآنية أنها ستشهد زلزلة عظيمة: «إِنَّ زَلْزَلَةً السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ» [٤٢٢]، وعليه فليس هنالك ما يمنع أن تبقى هذه القبور تحت انقراض تلك الزلزلة العظيمة.

كما أن السباع والوحوش التى ابتلعت أبدان بعض الناس وقد استحالت تراباً بعد موتها، هى الأخرى تبقى تحت الانقراض بعد الزلزلة العظيمة فيخرج الناس منها إلى الحشر يوم القيامة. وخلاصة القول هى أن العالم يتهدم لاينعدم ويزول، وبالطبع فإن تراب الناس وعظامهم يبقى محفوظاً.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٢٣

القسم الخامس: الإنسان، من أين وإلى أين؟

إشارة

«عِبَادٌ مَّخْلُوقُونَ أَقْتِدَارًا، وَمَرْبُوبُونَ أَقْتِسَارًا، وَمَقْبُوضُونَ اخْتِصَارًا، وَمُضَمَّنُونَ أَجْدَانًا، وَكَائِنُونَ رُفَاتًا، وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَادًا، وَمَيِّدُونَ جَزَاءً، وَمُمَيِّزُونَ حِسَابًا، قَدْ أَهْلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ، وَهَدُّوا سَبِيلَ الْمُنْهَجِ، وَعَمَّرُوا مَهَلَّ الْمُسْتَعْتَبِ، وَكُشِفَتْ عَنْهُمْ سِدْفُ الرِّيبِ، وَخُلُوا لِمِضْمَارِ الْحِيَادِ وَرَوِيَّةِ الْإِرْتِيَادِ، وَأَنَاءِ الْمُقْتَبَسِ الْمُتَرَادِ فِي مُدَّةِ الْأَجْلِ، وَمُضْطَرَبِ الْمَهَلِ».

الشرح والتفسير

يعود الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة من الآخرة إلى الدنيا ليشرح أوضاع وأحوال الناس فيها، ليعلموا لم خلقوا واين يتجهوا، وما هى الوسائل والإمكانات التى زودوا بها لينجوا يوم المعاد وكيف ينبغى لهم أن يستفيدوا من هذه الإمكانيات. ويشتمل كلامه عليه السلام على ثلاث عشرة عبارة، خمس منها فى خلق الإنسان وموته وتبدل جسده إلى تراب، وثلاث فى كيفية بعث الخلائق، وخمس آخر فى إتمام الحجة الإلهية والقرص التى زود بها الإنسان فى هذا العالم. فقال عليه السلام:

«عباد مخلوقون اقتداراً، ومربوبون اقتساراً، [٤٢٣] ومقبوضون اختصاراً، ومضمنون أجداناً، [٤٢٤] وكائنون رفاتاً» [٤٢٥]

. لاشك أن الإنسان مختار حر فى أفعاله، ولكن ليس له

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٢٤

مثل هذا الاختيار فى الخلق والموت. فلا أحد يعين تأريخ ولادته، ولا أحد يختار زمان موته الطبيعى برغبته، فالحياة والموت خارجة عن دائرة إرادتنا إلى جانب تعفن البدن وصيرورته تراباً، وهذا ما حدا بالبعض لتفسير عبارة الأمر بين الأمرين بهذا المعنى. على كل حال فإن مسيرة الحياة والموت جارية علينا على حنوء الإرادة الإلهية والقوانين المرسومة شئنا أم أبينا؛ الواقع الذى تقود الغفلة عنه إلى جهل الإنسان بنفسه وبخالقه، بينما يمدد الالتفات إليه بعناصر العلم والمعرفة والتأهب. ثم تطرق الإمام عليه السلام فى العبارات الثلاث اللاحقة إلى عملية بعث الناس الخلائق هى الأخرى عن الإرادة البشرية فقال

«ومبعوثون أفراداً، ومدينون جزاءً، ومميزون حساباً»

لاشك أن كل فرد سيخرج من قبره وحيداً، ولا يتنافى هذا والتقسيم اللاحق للناس إلى طوائف تبعاً لعقائدهم وأعمالهم، كما عبرت عن ذلك الخطبة في البحث الماضي بالرعي، ونعتها القرآن بالافواج. [٤٢٦] ولعل العبارة «مميزون حساباً»

إشارة لما ورد في الآية الكريمة: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [٤٢٧]. نعم ليس هنالك من يحمل وزر غيره ويعاقب عليه، ولكل حسابته على ضوء أفعاله، وان كان الرضى بأعمال الآخرين والتقصير في وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى نوع من الحساب المشترك. أمّا العبارات الخمس الأخيرة فقد أشار فيها الإمام عليه السلام- كما ذكرنا ذلك آنفاً- إلى الفرص واتمام الحجة التي تتضمن أبعاداً مختلفة، فقال عليه السلام:

«قد أمهلوا في طلب المخرج، وهدوا سبيل المنهج، وعمرؤا مهل المستعجب، [٤٢٨] وكشفت عنهم سدف [٤٢٩] الريب، وخلوا لمضمار الجياد، [٤٣٠] وروية الارتياح، [٤٣١] وأناة [٤٣٢] المقتبس المرتاد، في مدة الأجل، ومضطرب المهل» تضمنت هذه العبارات الأبعاد المختلفة لاتمام الحجة الإلهية وأنّ الناس يمتلكون المهلة الكافية للفوز بالرضوان الإلهي أولاً،
نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٢٥

وثانياً: تمهدت أمامهم السبل المؤدية للنجاه بواسطة الكتب السماوية وإرشادات الأنبياء والأولياء وهداية العقل، ثالثاً: وجود القدرة والمهلة للتوبة من الذنوب وتدارك ما مضى ونيل رضى الله، رابعاً: ان حجب الظلام التي تغطي قلب الإنسان بفعل الوسواس الشيطانية والشكوك والشبهات، إنّما تنجلي بنور الله وهدايته سبحانه، خامساً: أن أبواب التوفيق الإلهي لرياضة النفس والاستعانة بالفكر والاستضاء بنور المعرفة الربانية إنّما فتحت بوجه الناس لما يكفيهم من المدة. ونخلص من كل هذا إلى أنّ الإنسان الذي يضل الهدف ويوغل في الذنب ويقع في مخالب الشيطان ووساوسه لا ينبغي أن يلوم لأنفسه التي حالت دونه ودون هذه السعادة والفلاح. وعليه فلم يعد هنالك ما يدعو إلى التعجب والدهشة حين ينادون يوم القيامة: «أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ». [٤٣٣]

تأمل: الدنيا دار إمتحان

كثيراً ما كانت تنظم قديماً- وهكذا في الوقت الحاضر- مسابقات للخيل، وكانت تخضع الخيل لتدريبات شاقّة بغية التأهب لخوض المباراة، وعادة ما تصطحب العرب بالمضامر على ميدان التدريب الذي ينحف فيه الفرس ويجهز للسباق، أمّا الجياد فيراد بها العزيز من الخيل.

وقد وردت بعض المتون الإسلامية التي شبهت الدنيا بذلك الميدان الذي يعد من يردده لخوض السباق، حيث السباق الأكبر يوم القيامة، ذلك هو الميدان الحق. وقد أشارت الخطبة بصورة مقتضبة إلى هذه المسألة، وقد مر علينا شرحها في الخطبة الثامنة والعشرين، فهو تشبيه رائع يمكنه أن يكشف عن قيمة الدنيا بالنسبة للآخرة.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٢٧

القسم السادس: مواظب شافية

إشارة

«فَيَا لَهَا أَمْثالاً صَائِبَةً، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً، لَوْ صَادَقَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً، وَأَسْمَاعاً وَاِعْيَةً، وَأَرَءَ عَازِمَةً، وَالْبَابَ حَازِمَةً، فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةً مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ، وَاقْتَرَفَ فَاغْتَرَفَ، وَوَجَلَ فَعَمِلَ، وَحَادَرَ فَبَادَرَ، وَأَيْقَنَ فَأَحْسَنَ، وَعَبَّرَ فَاغْتَبَّرَ، وَحُدِّرَ فَحَدَّرَ، وَزُجِرَ فَارْدَجَرَ، وَأَجَابَ فَأَنَابَ، رَاجَعَ

فَتَابَ، وَأَقْتَدَى فَاحْتَدَى، وَأَرَى فَرَأَى، فَأَسْرَعَ طَالِبًا، وَنَجَا هَارِبًا، فَأَفَادَ ذَخِيرَةً، وَأَطَابَ سِرِيرَةً، وَعَمَّرَ مَعَادًا، وَاسْتَبْطَهَرَ زَادًا، لِيُؤْمَ رَحِيلَهُ، وَوَجَّهَ سَبِيلَهُ، وَحَالَ حَاجَتِهِ، وَمَوْطِنَ فِاقَتِهِ، وَقَدَّمَ أَمَامَهُ إِسْدَارَ مُقَامِهِ. فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ جِهَةً مَا خَلَقَكُمْ لَهُ، وَاحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، اسْتَحَقُّوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّجَزُّزِ لِصِدْقِ مِيعَادِهِ، وَالْحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ.

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- في هذا المقطع من الخطبة الذي يمثل امتدادا للبحث السابق- إلى المواعظ القيمة المؤثرة والأمثال الواضحة والنصائح والإرشادات التي تنتهي بالناس إلى شاطئ الأمان، فقال عليه السلام:

«فيالها أمثالا صائبة، ومواعظ شافية، لو صادفت قلوبا زاكية، واسماعا واعية، وآراء عازمة، وألبابا حازمة» [٤٣٤]

قد تكون هذه العبارة إشارة إلى المواعظ والإرشادات التي وردت في المقاطع السابقة من الخطبة، أو المواعظ التي بلغتنا عن طريق نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٢٨

الوحي وأولياء الله، وقرينه ذلك عبارات القسم السابق بشأن الهداية الإلهية بطرق النجاة وإزالة حجب الشبهات والشكوك والمهله الكافية للاستعداد والترود واتمام الحجة على المقصرين. على كل حال فإن الهدف هو بيان هذه المسألة وهي كفاية المواعظ والنصائح والمعالم على الطريق لو كانت هنالك آذانا صاغية وعقولا متفتحة وقلوبا واعية، وعبارة اخرى ليس هنالك من نقص في فاعلية الفاعل، وإن كان هنالك من نقص ففى قابلية القابل.

والتعبير عن الأمثال بالصائبة يفيد مطابقتها للواقع. وأما التعبير بالاسماع الواعية فيشير إلى أنه بعد سماع كلام لا بد من حفظه والتأمل فيه؛ لاسماعه من أذن وإخراجه من اخرى، كأنه لم يسمع شيئا. وأما الفارق بين «الآراء العازمة» و «الألباب الحازمة»

فهو أن العبارة الاولى إلى القرارات القاطعة، وذلك لأن الإنسان لا يتعظ بنصائح أولياء الله وينتفع بالإرشادات مالم يمتلك العزم القاطع؛ رغم أنه قد يقبلها ولصدق بها إلا أنه لا يمتلك القدرة على إتخاذ القرار لضعف إرادته، والألباب الحازمة إشارة إلى الأفكار العميقة التي تشخص عواقب الأعمال، وتتاامل جوانب كل مسألة بعد نظر وسعة أفق. نعم إنما ينتفع غاية الانتفاع من هذه المواعظ والامثال من كان له فكر عميق وإرادة قوية واذن سامعة وقلب واع. ثم أوصى عليه السلام بالتقوى وبين مظاهرها بعبارات قصيرة بعيدة المعنى بما يقارب عشرين جملة. والحق أن ضالته أرباب السير والسلوك إلى الله إنما اختصرت في هذه العبارات، حيث قال عليه السلام:

«فاتقوا الله تقيه من سمع فخشع»

فاذا أذنب إترف بذنبه وتاب إلى ربه)

واقترف [٤٣٥] فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعبر فاعتبر، وحذر فحذر، وزجر فازدجر، وأجاب فأجاب، وراجع فتاب، واقندى فاحتدى، [٤٣٦] وأرى فرأى

« فقد بينت مظاهر التقوى في هذه العبارات بأكمل وجه. وبالطبع فان التقوى ليس إدعاءً، ولا تقتصر على إجتناب الخطايا والارجاس، فالتقوى تبدأ من سماع كلمات دعاء لاحق وخضوع القلب لها، إلى جانب التوبة والإنابة إلى الله والاعتراف بالذنوب وخشية الله والقيام بالأعمال التي تقرب إليه، وحث الخطى نحو

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٢٩

درجة اليقين والاعتبار بحوادث الماضي والحذر من المعاصي، واستماع أحسن القول والانتهاء، عن المنكر وإجابة دعوة الحق، والاقتراب بأولياء الله والانفتاح على الحقائق ثم قال عليه السلام:

«فاسرع طالباً ونجا هارباً»

وبالنتيجة

«فأفاد ذخيرة، وأطاب سريرة، وعمر معاداً، واستظهر [٤٣٧] زاداً، ليوم رحيله، ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقتة، وقدح أمامه لدار مقامه»

والواقع أن هذه مظاهر أخرى للتقوى والتي من شأنها جعل الإنسان يسارع إلى الحق وتقتل في نفسه الجنوح إلى الذنب والاثم وتمده بمقدمات الاستعداد للمعاد. ثم واصل الإمام عليه السلام خطبته بالدعوة ثانية إلى التقوى وخلص إلى نتيجة هي:

«فاتقوا الله عباد الله جهه ما خلقكم له». [٤٣٨]

حقاً أن لخلق الإنسان هدف «أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى» [٤٣٩] ولا يمكن بلوغ هذا الهدف دون التقوى، والهدف هو العبودية لله سبحانه ونيل القرب الإلهي وبلوغ السمو والكمال، ولا يتيسر هذا إلا من خلال المعرفة والتقوى. ثم قال عليه السلام:

«واحدروا منه كنه [٤٤٠] ما حذركم من نفسه»

هنالك روعة في قوله عليه السلام كنه التي تفيد عدم الاقتناع بالظواهر فقط حيال الانذارات الإلهية ولا بد من تأمل هذه الانذارات والعمل على الفوز بالرضوان الإلهي. ثم أشار عليه السلام إلى معطيات التقوى فقال:

«واستحقوا منه ما أعد لكم بالتنجز [٤٤١] لصدق ميعاده، والحذر من حول معاده»

فعبارات الإمام عليه السلام اشارات إلى بعض الآيات، كآية التاسعة من سورة المائدة: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» وما ورد في الآية الخامسة عشرة من سورة آل عمران: «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» والآية ٦٨ من سورة التوبة: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا».

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٣٠

شعب التقوى

التقوى شرف العبد ووسيلته العظمى للقرب من الله وهي معيار كرامته، كما أنها زاد السالكين إلى الله ومتاعهم إلى الحبيب، وتشتمل التقوى على أغصان وثمار أشارت لها الخطبة التي تعرضنا لشرحها. وبالطبع فإن مادة التقوى تكمن في الأذان الصاغية والقلوب الواعية والإرادات القوية والأفكار النيرة التي تعد الإنسان لسلوك سبيل الورع والتقوى؛ الأمر الذي أشير له في بداية الخطبة. أما غصون وثمار شجرة التقوى المباركة فتمثل بالخشوع لله سبحانه والاعتراف بالذنب والتوبة منه والاعتبار والاحسان والاقتداء بأولياء الله. فاذا نثرت بذور التقوى في القلب الواع وسقيت بماء المراقبة والمحاسبة، حملت هذه البذور ثمار الخوف والخشية والخشوع والتوبة والانابة إلى الحق سبحانه.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٣١

القسم السابع: الجميع يدين له بالفضل

«جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعًا لَتَعْبَى مَا عَنَّا، وَأَبْصَارًا لَتَجْلُو عَنْ عَشَاهَا، أَشْلَاءَ جَامِعَةً لِأَعْضَائِهَا، مُلَائِمَةً لِأَخْنَائِهَا، فِي تَرْكِيبِ صُورِهَا، وَمُيَدِّ عُمْرِهَا، بِأَيْدِيَانِ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا، وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا، فِي مُجَلَّلَاتِ نَعِيمِهِ، مُوجِبَاتٍ مِنْهُ، وَحَوَاجِرِ عَافِيَتِهِ. وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَارًا سَرَّهَا عَنْكُمْ، وَخَلَّفَ لَكُمْ عِبْرًا مِنْ آثَارِ الْمَاضِيَةِ بَيْنَ قَبْلِكُمْ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلْقِهِمْ، وَمُسْتَفْسِحِ خَنَاقِهِمْ، أَرْهَفْتَهُمُ الْمَنَايَا دُونَ الْأَمَالِ، وَشَدَّدْتَهُمْ عَنْهَا تَحَرُّمُ الْأَجَالِ. لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلَامَةِ الْأَبْدَانِ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أَنْفِ الْأَوَانِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضع من الخطبة إلى جانب من النعم الإلهية التي تثير لدى الإنسان الشعور بالامتنان والشكر، كما

تشكل دافعاً لمعرفة الله والانفتاح على الورع والتقوى، فقد قال عليه السلام:

«جعل لكم أسماعها لتعنى ما عنها، [٤٤٢] وأبصاراً لتجولوا [٤٤٣] عن عشاها، [٤٤٤] وأشلاء [٤٤٥] جامعة لأعضائها، ملائمة لأحنائها،

[٤٤٦] فى تركيب صورها، ومدد

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٣٢

عمرها»

. فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار فى هذا المقطع من الخطبة إلى النعم لأعضاء البدن الواحد تلو الآخر، مركزاً على السمع والبصر بفضلها أهم وسيلة لإرتباط الإنسان بالعالم الخارجى إلى جانب حصول الانسان على الجانب الأعظم من العلوم والمعارف عن طريقهما، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أشار عليه السلام إلى الانسجام القائم بين أعضاء البدن بعضها بالبعض الآخر، ومن ذلك تطرق إلى عضلات البدن التى تعمل متناغمة مع كافة الأعضاء وقد تكيفت مع هيئات العظام. فمسألة تناسق وانسجام أعضاء البدن تعد من أروع ظواهر الخلقه ومن أهم النعم الإلهية، وفى نفس الوقت فإن الاستقلال يسود هذه الاعضاء والجوارح، إلّا أنّها تتحد وتتعاقد بما يدعو للدهشة والذهول إذا ما طرأ على الإنسان طارئ. على سبيل المثال لو حدث ما يضطر الإنسان للابتعاد والفرار عن مركز الحادثة بسرعة، فإنّ كافة أعضاء البدن تبنى نفسها فى لحظة واحدة، فدقات القلب تأخذ بالارتفاع، والنفس يصعد وينزل بسرعة ليضخ الدم والاكسجين الكافى لعضلات الجسم، كما تتعاقد حدة اليقظة والوعى، ويحتد السمع والبصر، حتى تذوب موانع الجوع والعطش وتنسى بالمرّة ليتمكن الإنسان من الهروب سريعاً من مركز الحادث، وبالطبع فإنّ هذا التنسيق لم يحصل استجابة لرغبة الإنسان واختياره، بل بواسطة الأوامر والايجازات التى يصدرها الدماغ تلقائياً إلى جميع أعضاء البدن. فهذا التنسيق العظيم كاشف عن قدرة الله سبحانه وعظمته، كما يفيد سعة نعمه على العباد؛ الأمر الذى أشار له الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة. ولا يقتصر هذا التنسيق على ظاهر الاعضاء فحسب، بل يخترق باطنها وكنهها، حتى يؤثر فى أعمارها، وهذا ما أشار إليه الإمام بالخصوص.

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«بأبدان قائمة بأرفاقها [٤٤٧] وقلوب رائدة [٤٤٨] لأرزاقها، فى

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٣٣

مجللات [٤٤٩] نعمه، وموجبات مننه، وحواجز [٤٥٠] عافيته»

. العبارات استمرار لما ورد قبلها من تنسيق بين أعضاء البدن. فمراد الإمام عليه السلام أنّ هذا التنسيق والانسجام لا يقتصر على الأعضاء، بل الروح والفكر أيضاً ينسقان مع هذه الأعضاء بهدف نيل بعض المنافع ودفع بعض الاضرار. ويعتبر هذا التعاضد الروحى والجسمى الذى يحكم جميع كيان الإنسان من بدائع العجائب الذى تنكشف بعض تفاصيل دقته وروعته على مرور الزمان وفقاً لتطور العلم وإزدهاره، حيث تشكل هذه البدائع أعظم نعم الله وأهم آيات عظمته سبحانه.

العبارة

«مجللات نعمه»

تجلل الناس وتعمهم وهى من باب إضافة الصفة إلى الموصوف بمعنى

«نعمه المجللة»

التي تشمل الناس بأجمعهم مؤمنهم وكافرهم.

«وحواجز عافيته»

بمعنى موانع السلامة والجملة تشتمل على تقدير حيث يكون المراد أنّ الله علم الإنسان طرق دفع الاضرار ومنافع العافية

«ما يمنع حواجز عافيته».

ثم أشار عليه السلام إلى نوعين من النعم الإلهية الكبرى على الإنسان إلى جانب النعم المذكورة فقال:

«وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ وَخَلَّفَ لَكُمْ عِبْرًا مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ مِنْ مَسْتَمْتَعِ خَلْقِهِمْ [٤٥١]

وَمَسْتَفْسَحِ خَلْقِهِمْ [٤٥٢] أَرَهَقْتَهُمْ [٤٥٣] الْمَنِيَا دُونَ الْأَمَالِ شَذِبَهُمْ [٤٥٤] عَنْهَا تَخَزَمَ [٤٥٥] الْأَجَالَ لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلَامَةِ الْأَبْدَانِ وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أَنْفِ [٤٥٦] الْأَوَانِ»

أَمَّا النِّعْمَةُ الْأُولَى فَهِيَ نِعْمَةُ الْعَمْرِ الَّتِي تَعْتَبَرُ

نَفْحَاتِ الْوِلَايَةِ، ج ٣، ص: ٢٣٤

مصدر سعادة الإنسان وتوفيقه وفلاحه، حيث أن ليلة من ليال العمر التي بات فيها أمير المؤمنين عليه السلام - والتي تعرف بليلة المبيت - على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليفديه بنفسه وينجو من مؤامرة الكفار فأصابه عليه السلام ما أصابه من الفضل ببركة تلك الليلة. وأما ضربته لعمر بن عبدود العامري في الخندق والتي كانت أفضل من عبادة الثقلين، فلم تكن سوى سويعة من عمر الإمام عليه السلام. وأما شهداء الغاضرية الذين صنعوا أكبر ملحمة عرفها التاريخ البشري ليصبحوا كعبه للثوار وطلاب الحق فلم تكن سوى نهاراً من عمرهم المبارك. نعم فنعمة العمر من أعظم نعم الله على الإنسان. وقد إقتضى لطف الله وحكمته أن يخفي مدة هذا العمر عن الإنسان، لما ينطوى العلم به من مفاصد فقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«فَالْإِنْسَانُ لَوْ عَرَفَ مِقْدَارَ عَمْرِهِ وَكَانَ قَصِيرَ الْعَمْرِ لَمْ يَتَهَنَأْ بِالْعَيْشِ مَعَ تَرَقُّبِ الْمَوْتِ وَتَوَقُّعِهِ لَوْ قَدْ عَرَفَهُ، بَلْ كَانَ يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَدْ فَنِيَ مَالُهُ أَوْ قَارِبَ الْفَنَاءِ، فَقَدْ اسْتَشْعَرَ الْفَقْرَ وَالْوَجَلَ مِنْ فَنَاءِ مَالِهِ وَخُوفَ الْفَقْرِ، عَلَى أَنَّ الَّذِي يَدْخُلُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ فَنَاءِ الْعَمْرِ أَعْظَمُ مِمَّا يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ فَنَاءِ الْمَالِ لِأَنَّ مَنْ يَقِلُّ مَالُهُ يَأْمَلُ أَنْ يَسْتَخْلِفَ مِنْهُ فَيَسْكُنُ إِلَى ذَلِكَ، وَمَنْ أَيَقِنُ بِفَنَاءِ الْعَمْرِ اسْتَحْكَمَ عَلَيْهِ الْيَأْسُ، وَإِنْ كَانَ طَوِيلَ الْعَمْرِ ثُمَّ عَرَفَ ذَلِكَ وَثِقَ بِالْبَقَاءِ وَانْهَمَكَ فِي اللَّذَاتِ وَالْمَعَاصِي وَعَمِلَ عَلَى أَنَّهُ يَبْلُغُ مِنْ ذَلِكَ شَهْوَتَهُ ثُمَّ يَتُوبُ فِي آخِرِ عَمْرِهِ، وَهَذَا مَذْهَبُ لَا يُرِضَاهُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَا يَقْبَلُهُ وَمِنْ هُنَا حَجَبُ الْإِنْسَانِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْعَمْرِ لِيَعِيشَ دَائِمًا بَيْنَ الْخُوفِ وَالرَّجَاءِ. [٤٥٧]

ونخلص من هذا إلى أن ساعات العمر وأيامه نعمة، وهكذا حجب مقداره عن الإنسان نعمة أخرى.

وأما النعمة الثانية: وتتمثل بالاعتبار بالأمم الماضية وما عليه الكبار، وما بقي من القصور والقبور والآثار، فهي نعمة إلهية كبرى وذلك لأن النظر بعين العبرة لهذه الآثار يزود الإنسان بالتجربة وكأنه عمر عمراً مديداً ليكون مع تلك الأمم والأقوام وقد تجرع حلاوة الحياة ومرارتها. فتأريخ الأمم الماضية مادة للدروس والعبر، وللإنسان أن يحدد مصيره على ضوء

نَفْحَاتِ الْوِلَايَةِ، ج ٣، ص: ٢٣٥

هذا التأريخ من خلال الانفتاح على مقومات النجاح وأسباب الفشل وكيفية التعامل معهما، والحق أن هذه نعمة عظيمة من الله بها على الإنسان. القرآن الكريم صرح بهذا الخصوص قائلاً «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ» [٤٥٨] وللاسف فما أكثر الذين خططوا لحياتهم وسبحوا في بحر لجي من الامال والاماني حتى أتاهم الموت بغتة ففضى على تلك الامال والحال أنهم وقفوا على أخبار الماضين وأثارهم، إلمأن أهوائهم وطغيانهم كان حجاباً على أبصارهم وبصائرهم فحال دون رؤيتهم للحقائق، فقدموا على ربهم وقد اعتبر بهم ممن يعدهم دون أن يعتبروا بمن كان قبلهم.

نَفْحَاتِ الْوِلَايَةِ، ج ٣، ص: ٢٣٧

القسم الثامن: الحذر، فالنعم إلى زوال

«فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاذَةِ الشَّبَابِ إِلَّا حَوَانِي الْهَرَمِ؟ وَأَهْلُ غَضَارَةِ الصَّحَّةِ إِلَّا نَوَازِلَ السَّقَمِ؟ وَأَهْلُ مُدَّةِ الْبُقَاءِ إِلَّا آوَنَةَ الْفَنَاءِ؟ مَعَ قُرْبِ الزَّيَالِ، وَأَزُوفِ الْإِنْتِقَالِ وَعَلَزِ الْقَلْقِ، وَأَلَمِ الْمَضِّضِ، وَعُصْصِ الْجَرَضِ، تَلَفَّتِ الْإِسْتِغَاثَةُ بِنُصْرَةِ الْحَفَدَةِ وَالْأَقْرَبَاءِ، وَالْأَعَزَّةُ وَالْقُرْنَاءِ.»

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- في هذا المقطع من الخطبة- إلى نقطة مهمة أخرى ذات صلة بالحياة الدنيا وما فيها من نعم، وأن هذه النعم آيلة إلى الزوال، ومن هنا فلا ينبغي الوثوق بها، كما لا يجوز الخلود إليها والتعلق بها، فقال عليه السلام: «فهل ينتظر أهل بضاضة [٤٥٩] الشباب لإحواني [٤٦٠] الهرم؟ [٤٦١] وأهل غضارة [٤٦٢] الصحة الأنوازل السقم؟ واهل مدة البقاء إلآ آونة [٤٦٣] الفناء»

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«مع قرب الزيال [٤٦٤] وأزوف [٤٦٥] الانتقال، وعلز [٤٦٦] القلق، وألم المضمض، [٤٦٧]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٣٨

وغصص الجرض، [٤٦٨] وتلفت [٤٦٩] الاستغاثة بنصرة الحفدة [٤٧٠] والاقرباء، والأعزة والقرناء»

فمن خصائص هذا العالم تقلب نعمه ولذاته؛ الأمر الذي يدعو الإنسان إلى عدم الاغترار والخلود إلى الدنيا ويضحى بآخرته من أجلها. فالشباب يسرعون نحو الهرم وغضاضة الشباب آيلة إلى ذبول الكهولة وبيع العمر سينتهي إلى خريف التساقط، وسلامة البدن عرضة للزوال وهجوم الأمراض حتى تلوح علامات الوصول والاقتراب من الآخرة وتبدو واضحة للعيان. ورغم كل هذه الخصائص والعلامات، إلا أن الذين تعلقوا بالدنيا وإغتروا بها ليسوا بالقليل فلم ينشغلوا فيها سوى ببعض النعم والتمتع؛ الأمر الذي يجدر بالتأمل والتوقف عنده! حيث يرى الإنسان كل ملامح فناء الدنيا بأم عينيه ويصر على البقاء. ورد في تاريخ بغداد أن السفاح نظر إلى المرأة فقال: اللهم لا- أقول ما قال سليمان بن عبد الملك أنى خليفة شاب، لكنى أقول: ارزقنى عمراً طويلاً بعافية فى طاعتك ولم يكديتم حديثه حتى سمع أحد غلمانة يقول لآخر فى عقد بينهما أن مدته إلى شهرين وخمسة أيام فتطير السفاح من كلامه وكأنه أخبر عما تبقى من عمره، وكان الأمر كذلك [٤٧١]. القرآن من جانبه أكد هذا الأمر وكشف النقاب عنه (وان لم يكن هناك من نقاب فى الواقع) فقد أشار كراراً بأمثاله الحية إلى تقلب أحوال الدنيا، ومن ذلك قوله: «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». [٤٧٢]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٣٩

القسم التاسع: عاقبة الغضاضة الذبول

«فَهَلْ دَفَعَتِ الْأَقْرَابُ، أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ، وَقَدْ غُودِرَ فِي مَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ رَهِينًا، وَفِي ضَيْقِ الْمَضْجَعِ وَجِيدًا، قَدْ هَتَكَتِ الْهَوَامُّ جِلْدَتَهُ، وَأَبْلَتِ النَّوَاهِكُ جِدَّتَهُ، وَعَفَتِ الْعَوَاصِفُ آثَارَهُ، وَمَحَا الْحِدَاثَانَ مَعَالِمَهُ، وَصَارَتِ الْأَجْسَادُ شَحِيبَةً بَعِيدَ بَضْتِهَا وَالْعِظَامُ نَخْرَةً بَعِيدَ قَوَّتِهَا، وَالْأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةٌ بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا، مُوقِنَةٌ بِغَيْبِ أَنْبَائِهَا، لَا تُسْتَرَادُّ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا، وَلَا تُسَدِّعَتُّبُ مِنْ سَيِّئِ زَلَّلِهَا، أَوْ لَسَدِئِمْ أَبْنَاءِ الْقَوْمِ وَالْآبَاءِ، وَإِخْوَانَهُمْ الْأَقْرَبَاءِ؟ تَحْتَدُونَ أَمْثَلَتَهُمْ، وَتَزَكَّبُونَ قَدَّتَهُمْ، وَتَطْؤُونَ جَادَّتَهُمْ؟ فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَن حَظِّهَا، لَاهِيَةٌ عَن رُشْدِهَا، سَالِكَةٌ فِي غَيْرِ مَضْمَارِهَا! كَأَنَّ الْمَعْنَى سِوَاهَا، كَأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِخْرَازِ دُنْيَاهَا.»

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام هذا الربانى الرائد للأخلاق فى عالم البشرية وملهمها فى هذا المقطع من الخطبة إلى ذلك اليوم الذى يغمض فيه الإنسان عينيه ويودع هذه الدنيا، فليس هنالك من يدفع عنه هذا الموت، ولا تحل مشكلته ببيكاء أقربائه وعويلهم، فيستفهم الإمام عليه السلام على سبيل الإنكار قائلاً:

«فهل دفعت الأرقاب، أو نفعت النواحب، [٤٧٣] وقد غودر [٤٧٤] فى محلة الأموات

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٤٠

رهيناً، وفي ضيق المضجع وحيداً»

وكأنَّ جداراً سمكه آلاف الامتار قد ضرب بينه وبين قرابته ولا يمكن تخطى ذلك الجدار، ولا يسع البكاء والعيول أن يقدم من شئ سوى التخفيف من ألم الفراق ولوعة الاشتياق، بينما لا يعود بأى نفع على الميت. ثم يبين مصير جسم الإنسان وروحه بعد الموت بعشر عبارات قصيرة فقال عليه السلام:

«وقد هتكت الهوام [٤٧٥] جلدته، وابلت النواهك [٤٧٦] جدته، [٤٧٧] وعفت العواصف [٤٧٨] آثاره، ومحا الحدثان [٤٧٩] معالمه، وصارت الاجساد شحبة [٤٨٠] بعد بظتها، والعظام نخرة [٤٨١] بعد قوتها، والارواح مرتنهة بثقل اعبائها، [٤٨٢] موقنة بغيب أنبائها، لا تستراد من صالح عملها، ولا تستعتب من سيئ زللها»

حقاً ليس هنالك تعبير أجمع وأكمل وأبلغ من هذا التعبير الذى صور وضع جسم الإنسان وروحه بعد الموت، فسرعان ما يتفسخ هذا الجسم ويكون لقمة سائغة للحشرات، وتذهب زلاقة لسانه وحده ذكائه أدراج الرياح ولن يتبقى منه سوى حفنة من العظام النخرة، والقبور المهدامة. والأنكى من كل ذلك غلق صحيفة الأعمال، فلا من زيادة للحسنات ولا نقصان للسيئات، آنذاك لم يعد هنالك من مجال لتلك القطرة من الدمع التى يمكنها إطفاء بحار من نيران الذنوب، إن أفرزتها حالة الندم والتوبة والانابة إلى الله. كما ذهبت فرصة القول «لا اله الا الله» التى ثوابها شجرة فى الجنة، فلا سبيل إلى العودة، ولا طريق إلى العمل وقد ختمت صحيفة الأعمال. ثم قال عليه السلام:

«أو لستم أبناء القوم والآباء واخوانهم والأقرباء؟»

فالآباء عادة ما يموتون قبل أولادهم، كما يمكن أن يتوفى الأبناء قبل آبائهم، وربما يموت بعض الاخوة قبل غيرهم، وعليه فليس

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٤١

هنالك من زمان معين لدى الإنسان لحلول أجله وإختتام عمره، والكل سواسية أمام الموت وليس هنالك من يرجح عيشه لساعة على آخر أو يضمن أنه سيعيش لساعة. ثم قال عليه السلام موضحاً المعنى المذكور:

«تحتذون أمثلتهم، وتركبون قدتهم، [٤٨٣] وتظؤون جادتهم»

لعل الإمام عليه السلام أراد توبيخهم بهذه العبارة فى أنكم رأيتم مصير من سبقكم فلم تعتبروا بهم، فافتنتم آثارهم وأتيتهم بأعمالهم وقارفتهم ما قارفوه من الذنوب والمعاصى، والحال كان ينبغى أن تتعظوا بهم وتعتبروا بمصيرهم وعاقبتهم. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة يبين من خلالها علته مشاهدة الناس لكل هذه الدروس والعبر دون الاعتبار فقال:

«فالقلوب قاسية عن حظها، لاهية عن رشدها، سالكة فى غيرم ضمورها! كأن المعنى سواها، وكأن الرشد فى إحراز دنياها».

جاء فى نهج البلاغة أن الإمام عليه السلام تبع جنازة فسمع رجلاً يضحك فقال:

«كأن الموت فيها على غيرها كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب، وكأن الذى نرى من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون» [٤٨٤]

نعم إذا قسى قلب الإنسان وسيطرت الظلمة والغفلة على روجه أعمته عن كل هذه الحقائق التى من شأنها إيقاظ كافة البشرية؛ فما ظنك بهذه الحقائق التى تطالنا كل يوم! القرآن أشار إلى هؤلاء الأفراد بقوله:

«ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ». [٤٨٥]

نعم فالركون إلى الدنيا يقسى القلب، فاذا قسى قلب الإنسان ضل طريق السعادة وسار على غير هدى بينما يمر على الآيات مر الكرام ليرى المعنى بالوعيد غيره، وهو المعنى بالصالحين الفائزين برضوان الله.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٤٢

القسم العاشر: مواجهة الأهل

إشارة

«وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَ كُمْ عَلَى الصُّرَاطِ وَمَزَالِ دَحْضِهِ، وَأَهَاوِيلِ زَلِّهِ، تَارَاتِ أَهْوَالِهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ تَقِيَّةً ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ، أَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ، وَأَشِيَهَرَ التَّهْجُدُ غِرَارَ نَوْمِهِ، وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ، وَظَلَفَ الزُّهْدُ شَهْوَاتِهِ، وَأَوْجَفَ الذُّكْرُ بِلِسَانِهِ، وَقَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمَانِهِ، وَتَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضْحِ السَّبِيلِ، وَسَيَلَكَ أَقْصِيدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ؛ وَلَمْ تَفْتَلِهِ فَاتِلَاتُ الْغُرُورِ، وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ، ظَافِرًا بِفَرْحَةِ الْبُشْرَى، وَرَاحَةً النُّعْمَى، فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ، وَآمَنَ يَوْمِهِ، وَقَدَّ عَبَّرَ مَعْبَرِ الْعَاجِلَةِ حَمِيدًا، وَقَدَّمَ زَادَ الْأَجَلِ سَعِيدًا، وَبَادَرَ مِنْ وَجَلٍ، أَكْمَشَ فِي مَهَلٍ، وَرَغَبَ فِي طَلَبٍ، وَذَهَبَ عَنْ هَرْبٍ، وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ، وَنَظَرَ قُدَمَا أَمَامَهُ. فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَوَابًا وَنَوَالًا، وَكَفَى بِالنَّارِ عِقَابًا وَبَالًا، وَكَفَى بِاللَّهِ مُنْتَقِمًا وَنَصِيرًا! وَكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيحًا وَخَصِيمًا!».

الشرح والتفسير

يتطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من خطبته الغراء إلى بعض مواقف الآخرة وأهوالها، وقد شحذ الامة لتأهب لذلك اليوم وتعد نفسها للعبور من مزالقتها الخطيرة. فقال عليه السلام:

«واعلموا أن مجازكم على الصُّرَاطِ، ومزالق دحضه، [٤٨٧] دحضه، [٤٨٨] أهواويل [٤٨٩] زلله، وتارات أهواله».

نفحات الولاية؛ ج ٣؛ ص ٢٤٢

تبر

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٤٣

الصراط أحد مزالق القيامة الذي ورد التأكيد عليه والاشارة إليه في القرآن وآياته، كما صرحت به الروايات الإسلامية على وجه التفصيل والذي يستفاد من الروايات هو أن الصراط قنطرة على النار وهي آخر ما يقطعه الإنسان وصولاً إلى الجنة وأن الناس جميعاً كافرهم ومؤمنهم إنما يردون ذلك الصراط، أما المؤمنون الصالحون فيمرون عليه كالبرق ويدخلون الجنة، بينما يتعذر على الكافر عبوره فيسقطون في نار جهنم. فاجتياز هذا الصراط إنما يتوقف على إيمان الإنسان وعمله، حتى أن سرعة جوازه تتناسب وتقوى الإنسان وعمله.

وبالطبع فإن الصراط يتجسم بأشكال أخرى في الدنيا، بعبارة أخرى الصراط في القيامة هو تجسم صراط الدنيا؛ وذلك لأنه وصف بأنه:

«أدق من الشعر، وأحد من السيف» [٤٩١]

مما لا شك فيه أن الحد الفاصل بين الحق والباطل والإيمان والكفر والاخلاص والرياء هو قصد القربة واتباع الهوى وهو على درجة من الدقة والخطورة بحيث يتعذر جوازه الأعلى المخلصين الصالحين، وهذا ما سنعرض له في البحث القادم. على كل حال فإن هذا الصراط الحاد ينطوي على عدة عقبات لا يمكن اجتيازها دون التأهب والتزود، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«فاتقوا الله عباد الله تقيَّةً ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ، وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ، وَأَسْهَرَ [٤٩٣] التَّهْجُدُ غِرَارَ [٤٩٤] نَوْمِهِ، وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ [٤٩٥] يَوْمِهِ، وَظَلَفَ [٤٩٦] الزُّهْدُ شَهْوَاتِهِ».

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٤٤

نعم فالتفكير من أول لوازم التقوى التي تسهل جواز الإنسان على الصراط، حيث يحيى هذا التفكير قلب الإنسان ويجعله يستعشر خشية الله وبالتالي يقوده إلى التهجد وإحياء الليل وصوم أيام الصيف الحارة والتحلى بالزهد والتواضع. التقوى التي تأخذ بيد الإنسان إلى شاطئ الأمان وتجعله يمر كالبرق على ذلك الصراط.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بشأن التقوى ومعطياتها فقال:

«وأوجف [٤٩٧] الذكر بلسانه، وقدم الخوف لأمانيه، وتنكب [٤٩٨] المخالجات [٤٩٩] عن وضح [٥٠٠] السبيل، وسلك أقصد المسالك إلى التهج المطلوب؛ ولم تفتله [٥٠١] فاتلات الغرور، ولم تعم عليه مشتبهات الأمور»

فقد أشار عليه السلام إلى عشرة من أوصاف المتقين - إلى جانب التفكير الدائم - التي تستبطن كل واحدة منها عالم من المعاني والتي تجعل الإنسان إذا تحلى بها قدوة يحتذى بها وتمنحه العزة والرفعة في الدنيا والآخرة وتحقيق النجاحات الباهرة في سيره إلى الله سبحانه وتعالى وقد إتصفت هذه العبارات بتشبيهات لطيفة وكنيات بليغة بعيدة المعنى بحيث تنفذ إلى أعماق النفس. نعم فالمتقون لا يخدعون بالوساس الشيطانية ولا يسيرون حيارى على الطريق، بل ويسلكون أقرب السبل إلى الله سبحانه، كما أن خوف الله ولهج ألسنتهم بذكر الله يحول دون إنحرافهم عن السبيل القويم. ثم خاض الإمام عليه السلام في جانب من نتائج هذه الصفات في الدنيا والآخرة فقال:

«ظافراً بفرحة البشري، وراحة النعمى، [٥٠٢] فى أنعم نومه، وآمن يومه، قد عبر معبر العاجلة حميداً، وقدم زاد الآجلة سعيداً»

فالواقع هو أن السبب الذى يقف وراء راحتهم وسكينتهم واستقرار أفكارهم إنما يكمن فى اجتيازهم لعقبة الدنيا وتزودهم للدار الآخرة. والشئ المهم هو أن يتمالك الإنسان نفسه حياى هذه المظاهر الكاذبة والخادعة والفساد

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٤٥

والانحراف ويبقى على نهجه فى سلوك الصراط المستقيم. ثم أشار عليه السلام إلى ست صفات أخرى من صفات المتقين فقال:

«و بادر من وجل، وأكمش [٥٠٣] فى مهل، ورغب فى طلب، وذهب عن هرب، وراقب فى يومه غده، ونظر قدماً أمامه»

فهو يستثمر كافة فرص العمر من أجل الفوز بسعادة الدار الآخرة، فهو يقبل على ما ينبغى الاقبال عليه، ويتعد عن كل ما من شأنه إبعاده عن سبيل السعادة والفلاح. أجل هذه هى الصفات التى تنطوى عليها التقوى والتى ينبغى للعباد أن يجعلوها نصب أعينهم ويسعون جاهدين لاكتسابها. ثم يختتم الإمام عليه السلام هذه المقطع من الخطبة بالإشارة إلى النتيجة التى تترتب على التقوى أو عدمها:

«فكفى بالجنة ثواباً ونوالاً، وكفى بالنار عقاباً ووبالاً، وكفى بالله منتقماً ونصيراً! كفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً»

حقاً أن الإمام عليه السلام لمعجز فى عباراته القصيرة التى تناولت التقوى بالشكل الذى لم يسمع نظيره من أحد، وهى العبارات التى تسوق أضعف الأفراد إلى العمل والسعى والحركة، فما أحرأها أن سميت بالخطبة الغراء.

تأملان

١- كيف نجتاز الصراط بسهولة!!

أشارت الخطبة إلى الصراط؛ الجسر الذى يرده كافة الأفراد يوم القيامة، وقد أسهبت الروايات الإسلامية فى الحديث عنه، وان لم ترد كلمة الصراط بهذا المعنى فى القرآن، إلأفى موردين ولعل المراد بهما طريق الحق والباطل فى الدنيا، بينما وردت تعبيرات أخرى فى القرآن الكريم من قبيل المرصاد الذى ذهب جماعة من المفسرين إلى أن المراد به الصراط. على كل حال كما أسلفنا فإن الذى يستفاد من الروايات هو أن الصراط جسر على جهنم حاد مخيف فمن عبره دخل الجنة، ومن تعثر هوى فى نار جهنم، بل صرحت بعض الروايات أن الصراط وسط النار، إلأن المؤمنين يجتازونه كالبرق على غرار مرورهم من وسط نار الدنيا. وقد ورد فى أوصاف الصراط وانه جسر على جهنم ويؤدى إلى الجنة ولا يمكن دخول الجنة إلأبعد

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٤٦

عبوره، فهناك طائفة من المؤمنين تمر عليه مسرعة كالبرق واخرى كالفارس واخرى كالراجل واخرى تحبو عليه حبوا وأخيراً هناك من يعجز عن العبور فيهوى في جهنم. [٥٠٤]

ويمكن فهم مضمون هذا الحديث من خلال الحديث المعروف الذي روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام الصادق عليه السلام هو:

«إن على جهنم جسراً أدق من الشعر، أحد من السيف» [٥٠٥]

وقال الإمام الصادق عليه السلام في تفسيره للآية الشريفة:

«إِنَّ رَبَّكَ لِبَالِمٍ صَادٍ» [٥٠٦]

، «قطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة» [٥٠٧]

. إلى جانب ذلك هنا لك بعض الأعمال التي صرحت الروايات الإسلامية بأنها تسرع عملية عبور الصراط، من ذلك ما ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أسغ الوضوء تمرُّ على الصراط مرَّ السحاب» [٥٠٨]

. كما ورد في حديث آخر أن موسى عليه السلام سأل البارئ سبحانه في مناجاته إياه:

«إلهي ما جزاء من تلا حكمتك سراً وجهراً؟ قال: يا موسى يمر على الصراط كالبرق» [٥٠٩]

. والجدير بالذكر هنا ما ورد في عدة روايات من أن أهم شرائط عبور الصراط ولاية علي بن أبي طالب. وقد نقل كبار محدثي العامة هذه الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله في مصادرهم، ومنهم الحافظ بن سمان الذي نقل في كتابه الموافقة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«لا يجوز أحد على الصراط إلا من كتب له على عليه السلام الجواز» [٥١٠]

، وجاء في رواية

«إذا جمع الله الأولين والآخريين يوم القيامة ونصب الصراط على جسر جهنم ما جازها أحد حتى كانت معه براءة بولاية علي بن أبي طالب» [٥١١]

وقد ورد هذا المضمون مع إختلاف طفيف في مناقب الخوارزمي ومناقب ابن المغازلي وفرائد السمطين

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٤٧

وكتاب الرياض النظرة. [٥١٢] وكما ذكرنا سابقاً في شرحنا للخطبة فإن الصراط في القيامة هو في الواقع تجسم صراط الدنيا وعقبة عبورها وما تنطوي عليه من حدة وخطر.

٢- صلاة الليل شرف المؤمن

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى مسألة إحياء الليل بالتهجد والعبادة على أنها من مميزات المتقين السائرين إلى الحق. والتهجد من مادة هجود، قال الراغب في المفردات تعني في الأصل النوم، إلا أنه تنتقل من معنى النوم إلى اليقظة حين تستعمل في باب التفعيل، ولما كان إحياء الليل في عرف المتقين يتمثل بالدعاء والمناجاة والعبادة، فقد استعملت كلمة التهجد بمعنى الصلاة في جوف الليل، وبالذات نافلة الليل. على كل حال فإنَّ لصلاة الليل آدابها الخاصة، وهي الأكسير الأعظم والكيمياء الكبرى التي تحيل تراب

الإنسان ذهاباً. وقد خاطب الحق سبحانه رسول الكريم صلى الله عليه وآله في قرآنه الكريم قائلاً: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً».[٥١٣] الذي يفيد أن المقام المحمود الذي بلغه رسول الله صلى الله عليه وآله إنما بلغه بعبادة الليل والتهجد فيه. ويكفي في فضلها وتظافر الروايات فيها، ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام: «عليك بصلاة الليل يكررها أربعة»[٥١٤]

، كما ورد في الحديث أنه أوصى علياً عليه السلام قائلاً:

«يا علي ثلاث فرحات للمؤمن: لقي الاخوان، والافطار من الصيام، والتهجد من آخر الليل»[٥١٥]

. فالحديث يفيد أن صلاة الليل لمن دواعي سرور المؤمن وسعاده. وجاء في الحديث أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«ما اتخذ الله إبراهيم خليلاً إلا لاطعامه الطعام وصلاته بالليل والناس نيام»[٥١٦]

. وأوصى الصادق عليه السلام أحد أصحابه قائلاً:

«لاتدع قيام الليل فان المغبون من غبن قيام الليل»[٥١٧]

. الجدير بالذكر أن الآية السادسة من سورة المزمل عبرت عن صلاة الليل بناشئة الليل وهي عظيمة الأهمية والمؤدية إلى

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٤٨

الاستقامة

«إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً أقوم قِيلاً»

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بناشئة الليل نشئة الجذبة الروحية والملكوئية التي تحصل للإنسان ببركة هذه العبادة. وسبب هذه الأهمية واضح لأن روح العبادة التي تبلغ بالإنسان المقامات العالية إنما تكمن في أمرين:

الاخلاص وحضور القلب. وكلاهما حاصل في الليل ولاسيما في آخره بعد تلك الاستراحة والخلود حين يكون الناس نيام وقد إنقطعت الحركة والسعي والعمل المادي فليس هنالك من تفكير في نيل بعض المتع المادية ولا الشواغل الفكرية المادية اليومية التي تشتمل عليها الحياة الإنسانية، ومن هنا كانت صلاة الليل عبادة خالصة متوجهة بحضور القلب والمعنوية التامة.

ويمكن لكافة الاخوة المؤمنين لمس معطيات هذه العبادة من خلال التجربة وتذوق حلاوتها بشغاف القلب فيحرصون على أدائها، فهي الموصوفة لمن أراد الدنيا، وهي كذلك لمن أراد الآخرة، وهي باعثة الرزق ومطيبة الريح ومبيضة الوجه. نسأل الله أن يوفقنا وإياكم للمواظبة عليها.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٤٩

القسم الحادي عشر: المانع الآخر وساوس الشيطان

إشارة

«أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي أَعْدَدَ بِمَا أَنْذَرَ، وَاحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ، وَحَدَّرَكُمْ عِدْوًا نَفَذَ فِي الصُّدُورِ حَفِينًا، وَنَفَثَ فِي الْأَذَانِ نَجِينًا، فَأَضَلَّ وَأَرْدَى، وَوَعَدَ فَمَنَى، وَزَيَّنَ سَيِّئَاتِ الْجَرَائِمِ، وَهَوَّنَ مُوبِقَاتِ الْعُظَائِمِ، حَتَّى إِذَا اسْتَدْرَجَ قَرِيْبَتَهُ، وَاسْتَعْلَقَ رَهِيْبَتَهُ، أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ، وَاسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ، وَحَدَّرَ مَا أَمَّنَ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى أحد الأخطار المهمة للغاية التي تهدد سعادة الإنسان، ويتمثل ذلك الخطر بوساوس الشيطان ومكائده التي تعد من أعظم وسائله في خداع الناس. فقد أوصى الإمام عليه السلام ثلثة بالتقوى مشيراً إلى إتمام

الحجة الإلهية:

«أوصيكم بتقوى الله الذي أعذر بما أنذر، واحتج بما نهج»

فمن الواضح أن العدل الإلهي لا يمكن بسطه دون إتمام الحجة الكافية، ومن هنا بين البارئ سبحانه وتعالى الحق والباطل من خلال الرسول الظاهر المتمثل بالأنبياء والأوصياء والأولياء، والرسول الباطن وهو عقل الإنسان وفطرته حتى لا يعذر أحد بجهله في محاولة لتبرير تمرده وخلافه. فالواقع هو أن العبارة:

«احتج بما نهج»

إشارة إلى بيان طريق السعادة، والعبارة:

«أعذر بما أنذر».

تحذير من الاخطار الكامنة في مسير الإنسان. الجدير بالذكر أن الله سبحانه لا يكتفى باتمام الحجة على عباده فحسب، بل يتمها بمنتهى اللطف والرحمة، ولذلك تأكدت آلية العقل الكافية في أغلب المراحل لاتمام الحجة بالوحي بواسطة الأنبياء العظام، إلى جانب التحذير من مغبة مقارفة الاثم والذنب: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يَتْلُو

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٥٠

عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ» [٥١٨] ثم أشار عليه السلام إلى أخطار الشيطان قائلاً:

«وح ذرکم عدوًّا نفذ في الصدور خفيًّا، ونفت في الآذان نجياً، فأصل وأردى»

لاشك أن الصفات الواردة في العبارة تشير بوضوح إلى أن المراد هو الشيطان، وان لم يرد إسمه صريحاً في هذه العبارة والعبارات اللاحقة. فقد خاطب الحق سبحانه آدم عليه السلام في كتابه العزيز قائلاً:

«إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى» [٥١٩]. وصرح في موضع آخر على نحو العموم قائلاً: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» [٥٢٠] طبعاً يمكن أن يكون الشيطان وسيلة للسمو والتكامل بالنسبة للمؤمنين والسالكين، وذلك لأنهم يزدادون معنوية وقرباً من الحق كلما حاربوه وصمدوا بوجه مكائده وحيله. ثم واصل عليه السلام كلامه بكشف اللثام عن مختلف طرق وساوس الشيطان، فإشار إلى ثلاث منها:

«و وعد فمئى، وزين سيئات الجرائم، وهون موبقات العظائم».

فالحق أن هذه هي المصائد الثالث والطرق الخطيرة التي ينفذ من خلالها إلى نفس الإنسان، الأولى: أنه يمئى الإنسان، ويجعله يعيش طول الأمل والخيالات والأوهام بشأن المستقبل، المستقبل الذى قد لا يدركه الإنسان قط فيلبيه به ويستهلك جميع طاقاته من أجله وهكذا يغلق بوجهه سبيل التركية ويصرفه عن الطاعة. والثانية: يزين له الذنوب والمعاصى التى يأبأها الطبع الإنسانى بوحي من ضميره ووجدانه ويجعله يرى التحلل حربة والتفسخ مدنية ومجالسة أهل الفسوق والخطيئة نوعاً من أنواع التعايش السلمى، والخلاصة فقد أعد عدته لتزيين كل قبيح.

والثالثة: يسعى لأن يصغر للإنسان كباثر الذنوب فيبيديها له سهلة ليست بذات أهمية ويمنيه ببعض التبريرات والمسوغات من قبيل عظمة عفو الله ورحمته وأن ليس هناك من إنسان معصوم وهو عرضة للخطأ والزلل وان باب التوبة مفتوح وقد إدخرت شفاعته الشافعين ولاسيما النبى وأهل بيته الكرام لمثل هذه الامور. والحال لا بد أن نرى النتيجة التى تنتهى إليها هذه الوساس والحيل والمكائد الشيطانية، هذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام قائلاً:

«حتى إذا

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٥١

استدرج قرينته، واستغلق رهينته، أنكر ما زين، واستعظم ما هون، وحذر ما آمن»

فالعبارة

«إستدرج»

تفيد أنّ وساوس الشيطان عادة ما تتم خطوة بخطوة لتكون أكثر تأثيراً في الأفراد، فلو كانت هذه الوسواس دفعية فإنّ الأفراد وأن تمتعوا بقليل من التقوى لحاربوها ووقفوا بوجهها، ولعل هذا هو المعنى الذي أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ» [٥٢١] وسائر الآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن. أمّا العبارة

«قرينته»

فكأنّها اقتبست من الآية الشريفة: «وَمَنْ يَعُشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» [٥٢٢] فالواقع هو أنّ الشيطان على درجة من القرب من أتباعه بحيث لا تنفك مفردات حياتهم عنه وهو مقرون بهم أينما حلوا. وأخيراً تشير العبارة

«إستغلق رهينته»

إلى أنّ الشيطان يرتهن أتباعه ويغلق عليهم باب الرجعة - بالضبط كشياطين الانس الذين يزينون الفساد والانحراف للأفراد فإنّ سقطوا في هذا الفخ وتلوثوا أغلقوا عليهم كافة طرق الخروج ولم يجدوا أمامهم سوى الازدعان والانقياد. أمّا يوم القيامة حيث تطرح حجب الخداع والمكر والغرور ويظهر ما كان يبطنه كل شخص، فلا يسع الشيطان هناك إلاّ الانكار، وأن يكبر ما كان إستغفره، غير أنّ هذا الانكار لا يفيد، كما لا يفيد أتباعه وذلك لأنّ عهد الرجعة والتوبة من الذنوب وتدارك الماضي قد ولى إلى غير رجعة.

مكائد الشيطان

إنّ الإنسان يخوض على الدوام مواجهة تجاه عدوين كبيرين: عدو داخلي يدعى بالنفس الامارة، وعدو خارجي هو الشيطان، ولكل منهما ذات الأعمال المكملّة لبعضها البعض الآخر.

وعلى الرغم مما ذكرناه من أنّ هذا العدو الداخلي والخارجي بالنسبة لأهل الإيمان مصدراً للسمو والتكامل ومحاربة عناصر الذنب والمعصية، وبالتالي يوجب تكامل أرواحهم ويزيد من قربهم إلى الله سبحانه، مع ذلك فإنّ وجود مثل هذا العدو الخطير يتطلب مزيداً من الحيطة

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٥٢

والحذر، ويضاعف من خطورته أنّه لا يدعو الإنسان صراحة إلى الذنب، بل يزين الذنوب وينمق المعاصي ويصغر كبائر الذنوب، ويكبر ما صغر من الطاعات، ويريه المصائد جميلة، مستغلاً كافة نقاط ضعف الإنسان لينفذ إلى أعماقه فيلقيه في مخالب الشهوات والأموال والمقام والآمال الطويلة، ومن هنا فإنّ الغفلة لحظة قد تقود إلى عمر من الشقاء والبؤس والندم.

ولذلك وردت التحذيرات التي أكدتها الروايات والأخبار الإسلامية، ومن ذلك أنّه أوحى إلى موسى عليه السلام:

«ما لم تسمع بموت ابليس فلا تأمن مكره» [٥٢٣]

وقد خضنا في شرح وساوس الشياطين في المجلد الأول من هذا الكتاب في الخطبة السابعة. [٥٢٤]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٥٣

القسم الثاني عشر: بداية حياة الإنسان ونهايتها

إشارة

«أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَشُغِفِ الْأَسْتِثَارِ، نُطْفَةً دِهَاقًا، وَعَلَقَةً مِحَاقًا، وَجَنِينًا وَرَاضِعًا، وَوَلِيدًا وَيَافِعًا، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْبًا حَافِظًا،

لِسَانًا لَافِظًا، وَبَصِيرًا لَاحِظًا، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِرًا، وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِرًا، حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتَدَالُهُ، وَاسْتَوَى مِثَالُهُ، نَفَرَ مُسْتَكْبِرًا، وَخَبَطَ سَادِرًا، مَا تَحَا فِي غَرْبِ هَوَاهُ، كَادِحًا سِعْيًا لِدُنْيَاهُ، فِي لَدَاتِ طَرْبِهِ، وَبِدَوَاتِ أَرْبِهِ، ثُمَّ لَا يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً، وَلَا يَخْشَعُ تَقِيَّةً؛ فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيرًا، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيرًا أَسِيرًا لَمْ يُفِدْ عَوْضًا غَرَضًاو لَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضًا».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام- في هذا المقطع من الخطبة وقد أشرفنا على نهايتها- في أمر مهم آخر وهو خلق الإنسان ومتابعته منذ كونه جنيناً حتى إختتام عمره ومفارقته للدنيا وبعثه في يوم القيامة، اتماماً للأبحاث السابقة حول مكائد الشيطان وضرورة إعداد العدة والتحلي بالورع والتقوى، وبعبارة أخرى ليكون الإنسان على حيطة وحذر فيمارس وظائفه الرئيسية ويجتنب وساوس الشيطان. فقد قال عليه السلام:

«أم [٥٢٥] هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام، وشغف [٥٢٦]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٥٤

الأستار، نطفة دهاقاً، [٥٢٧] وعلقة محاقاً، [٥٢٨] جنيناً وراضعاً، ووليداً وياقاً [٥٢٩]

. فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أشار إلى ستة مراحل من حياة الإنسان، ترتبط ثلاث منها بالفترة التي يكون فيها جنين وقبل الولادة، وثلاث أخرى تتعلق بما بعد الولادة. وهي المراحل التي تطوى سريعاً وتحتفظ كل واحدة منها بميزاتها، فبعضها عجيب للغاية والبعض الآخر ينطوي على الدروس والعبر، فالله سبحانه وبقدرته يعد من ماء الرجل الذي يفتقر إلى الصورة والشكل بعد أن يتكامل في ظلمات المشيمة والرحم وبطن الام إلى علقه فمضغه وعظاماً ولحمياً جنيناً ذا حياة، ليخرج إلى الدنيا، ثم يطوى مراحل الهداية والتكامل ليبدأ مسيرته إلى الحق. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى ما زود به هذا المخلوق من وسائل وأدوات:

«ثم منحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، ليفهم معتبراً، يقصر مزدجراً»

فقد منحه الله العقل ليميز به الحسن من القبيح، واللسان ليستغله في فتح صناديق كنوز العلم بالسؤال والبحث، والعين ليذكر بها الحقائق الحسية، ويصل إلى أهدافه النهائية من خلال هذه النعم الثلاثة، ثم يستفيدا في إدراك الأحكام الإلهية ويعتبر بما حوله ويتعد عما لا يليق بشأنه. فالواقع هو أن مصادر المعرفة الثلاث: العقل واللسان والعين والتي تمثل إدراك وإستيعاب المواضيع الفكرية والنقلية والعينية والحسية قد جمعت في هذه العبارة القصيرة، وبالتالي فقد أمر الإنسان باعتماده للفوز بالسعادة والرضوان.

ثم قال عليه السلام:

«حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتَدَالُهُ، وَاسْتَوَى مِثَالُهُ، نَفَرَ مُسْتَكْبِرًا، وَخَبَطَ سَادِرًا» [٥٣٠]

طبعاً ليس جميع الناس كذلك، إلّا أنّ كلام الإمام عليه السلام إنّما يتناول الأغلبية العظمى التي تشاهد في المجتمعات البشرية والتي تولى ظهرها لكل شئ إذا ما شعرت بالقوة والاقترار ونالت بعض المناصب، كما تشكل تحذيراً لأهل الإيمان من ضرورة مراقبة النفس والسعي لأداء الشكر

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٥٥

والتحلي بالتقوى. ثم قال عليه السلام

«ماتحاً [٥٣١] في غرب [٥٣٢] هواه»

فهم يشقون على أنفسهم من أجل الحصول على الدنيا ويسعون جاهدين للتمتع بلذاتها، ولا يقتدح في ذنوبهم شيئاً من أهوائهم النفسية إلا أتوه:

«كادحاً [٥٣٣] سعياً لدنياه، في لَدَاتِ طَرْبِهِ، وَبِدَوَاتِ [٥٣٤] أَرْبِهِ [٥٣٥]

فهذه العبارات إشارة إلى أولئك الجهال الذين يوظفون كافة إمكاناتهم ويستفرغون ما بوسعهم من أجل الحصول على مال الدنيا

وحطامها والتنعيم بلذاتها الفانية وأشباع أهوائهم ورغباتهم الجامحة، وكأن هذا هو الهدف الذي خلقوا من أجله، والحال أنهم يرون بأم أعينهم مصائب الدنيا ومحنها وأمراضها بالتالي الموت الذي يزليها، فكيف تكون هدفاً وهذا حالها. إلاً أنهم وكما يصفهم الإمام عليه السلام:

«ثم لا يحتسب رزياً» [٥٣٦] ولا يخشع تقياً» [٥٣٧] فمات في فتنته غريباً» [٥٣٨] وعاش في هفوته [٥٣٩] يسيراً لم يفد عوضاً ولم يقض مفترضاً»

ويالها من حالة خطيرة لمن أصيب بمثل هذا الغرور والغفلة؛ فقد ضحى بعمره من أجل التلذذ بضعه أيام، أى لذة، تلك المشوبة بالألم والهيم والغم، حتى ودع الدنيا خالي اليدين وقدم على ربه بذلك السجل الذي يفضحه في محكمة العدل الإلهي.

النعم والجود

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى النعم الإلهية التي أفاضها الرحمن على الإنسان

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٥٦

منذ خلقه في رحم أمه حتى ولادته وانتهاءً باجتيازه لمراحل السمو التكاملي، كما تطرق إلى قدرته سبحانه في كيفية متابعة خلقه في الظلمات الثلاث في بطن أمه وصور تكامله، وكيف جهزه بعد خروجه إلى الدنيا بالآت المعرفة من قبيل منحه القلب الحافظ والعين الباصرة واللسان الناطق، غير أن هذا الإنسان الجاحد المنكر للجميل ما أن يشعر بالقوة والقدرة حتى ينسى الهدف الذي خلق من أجله، وكأنه يخلص في النوم والأكل والشرب والشهوة واللذة، على غرار الحيوان، وقد تجاهل كل ما يرى من مصائب ومحن والام وبالتالي الموت هادم اللذات، بل لا يرى هذا الموت مكتوباً عليه وكأنه مخلد في الدنيا وليس هنالك من خطر من شأنه القضاء على لذاته ومتعه، فأوامر الله وأحكامه لا تعنيه، وأنبيائه ورسوله لم يبعثوا إليه مع ذلك سرعان ما يحل أجله ويفنى عمره إذ يفاجئه الموت، فيقدم على ربه ولاعمل له فكيف به وقد أغلقت كل الأبواب بوجهه وليس هنالك من سبيل إلى العودة والتوبة.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٥٧

القسم الثالث عشر: الموت المفاجئ

«دَهَمَتْهُ فَجَعَاتُ الْمَتِيَّةِ فِي غُبْرِ جِمَاحِهِ، وَسَدَنِ مِرَاحِهِ، فَظَلَّ سَادِرًا، وَبَاتَ سَاهِرًا، فِي غَمَرَاتِ الْأَلَامِ، وَطَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ، بَيْنَ أَخٍ شَقِيْقٍ، وَوَالِدٍ شَقِيْقٍ، وَدَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعًا، وَوَالِدِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلْقًا؛ الْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهَثَةٍ، وَعَمْرَةٍ كَارِثَةٍ، وَأَنَّهُ مُوجِعُهُ، وَجَذْبِيَّةٍ مُكْرِبِيَّةٍ، وَسَوْقَةٍ مُتَعَبِيَّةٍ».

الشرح والتفسير

يتطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى نهاية عمر هذا الإنسان الغافل المغرور وكيف يقضى لحظاته الاخيرة ساعة الاحتضار بين قرابته وبطانته، وقد رسم عليه السلام صورة تهز النفس البشرية وترعبها من جراء ذلك المشهد، فقال:

«دهمته [٥٤٠] فجعات المتية في غبر جماحه [٥٤١] جماحه [٥٤٢] وسنن [٥٤٣] مراحه [٥٤٤]، فظل سادراً، [٥٤٥] وبات ساهراً، في غمرات الآلام، وطوارق الأوجاع والأسقام»

وقد تم هذا الأمر الذي يشهده هذا المحتضر وهو:

«بين أخ شقيق، ووالد شقيق، وداعية بالويل جزعاً، ولادمة [٥٤٦] للصدر قلقاً».

نعم فقد يأس أهله وأقرباؤه من حياته

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٥٨

وأخذوا بالبكاء واللعويل عليه؛ وأن هذا الصراخ والوعويل يقض مضجعه كلما خفت عليه غصص الموت وأفاق إلى نفسه، فيتطلع إلى الموت الذي يراه بعينه وهي تدور يميناً وشمالاً من الخوف والرعب:

«و المرء في سكرةٍ ملهته، [٥٤٧] وغمره كارثة، [٥٤٨] وأنه موجعه، وجذبه مكرية، [٥٤٩] وسوقه [٥٥٠] متعبه»

. حقاً أن الاحتضار وسكرات الموت حالة عجيبة! فهذا الإنسان الذي كان متربعا بالأمس على عرش السلطنة وقد زود بكافة الإمكانيات وشم من كأس الغرور وتفاجر على سائر الكائنات، هو اليوم أسير الأمراض وقد صعبت حالته حتى ينس منه من حوله فتعالت أصواتهم بالبكاء والصراخ، ولكن ما عسى ذلك أن يجيده نفعاً. وقد شحن التأريخ بالدروس والعبر بما تضمنه من قصص أصحاب القدرة حين طرحوا على فراش الموت واستسلموا له.

فقد روى أن المأمون لما أثقل قال: أخرجوني أشرف على عسكري، وانظر إلى رجالي، وأتبين ملكي، وذلك في الليل، فاخرج فاشرف على الخيم والجيش وانتشاره وكثرته وما قد أوقد من النيران، فقال: يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه، ثم رد إلى مرقده وأجلس المعتصم رجلاً يشهده لما ثقل، فرفع الرجل صوته ليقولها، فقال له ابن ماسويه: لا تصح فوالله مايفرق بين ربّه وبين مانى في هذا الوقت، ففتح المأمون عينيه من ساعته، وبهما من العظم والكبر الأحرار ما لم ير مثله قط، وأقبل يحاول البطش بيديه بابت ماسويه، ورام مخاطبته، فعجز عن ذلك، فرمى بطرفه نحو السماء، وقد إمتلأت عيناه دموعاً، فانطلق لسانه من ساعته، وقال: يا من لا يموت ارحم من يموت، وقضى من ساعته، وحمل إلى طوس فدفن فيها. [٥٥١] وفيه قال الشاعر:

هل رأيت النجوم أغنت عن المأمون شيئاً وملكه المأمونوس

خلفوه بعرصتى طرسوس مثل ما خلفوا أباه بطوس

القسم الرابع عشر: حوادث ما بعد الموت

إشارة

«ثُمَّ أَدْرَجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِسًا، وَجُذِبَ مُنْقَادًا سِلْسًا، ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الْأَعْوَادِ رَجِيعٌ وَصَبٌّ، وَنَضُو سِقَمٌ، تَحْمِلُهُ حَفْدَةُ الْوَلْدَانِ، وَحَشْدَةُ الْأَخْوَانِ، إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ، وَمُنْقَطِعِ زَوْرَتِهِ، وَمُفْرَدِ وَحْشَتِهِ، حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمَشِيعُ، وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ مُضْجِعٌ أُفْعِدَ فِي حَفْرَتِهِ نَجِيًّا لِبَهْتِهِ السُّؤَالِ، وَعَثْرَةَ الْأَمْتِحَانِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى مصير الإنسان بعد الموت الذى ينطوى على الدروس والعبر، حيث يواصل فيه كلامه بشأن الاحتضار وسكرات الموت. فقد رسم الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصيرة صورة جلية مؤثرة عن حال الإنسان بعد أن بلغ المرض منه مبلغه وقد توقفت عن العمل كافة أعضائه وجوارحه ولم يبق منه إلا ذلك الجسد الخاوى فأخذ يستعد أهله لغسله وتكفينه ودفنه، الصورة التى يمكن مقارنتها وما كان عليه بالأمس وهو يتمتع بتلك القوة والقدرة:

«ثم أدرج في أكفانه مبلساً، [٥٥٢] وجذب منقاداً سلساً، [٥٥٣] ثم ألقى على الاعواد رجيع [٥٥٤] وصب [٥٥٥] ونضو [٥٥٦] سقم، تحمله حفدة الولدان، وحشدة [٥٥٧] الأخوان، إلى دار غربته، ومنقطع

نغمات الولاية، ج ٣، ص: ٢٦٠

زورته، [٥٥٨] مفرد وحشته».

نعم فاول ما يواجهه هو ذلك اللباس المتواضع الخالى من أناقة ملايس الدنيا التى يجهد الخياطون أنفسهم أياماً وأحياناً أسابيع لخياطتها، فليس هنالك من فصال ولا قياس ولا حاجة لخياط، اللباس الذى لا يعرف من معنى للغنى أو الفقر أو الشريف والوضيع.

وأخيراً هو اللباس الذى فضح الدنيا وكشف النقاب لمن كان له بصيرة عن تقلب أحوالها وعدم دوامها. أمّا الصورة العنيفة الأخرى التى لها وقعها فى النفس فهى حملة على التابوت والانطلاق به إلى مثواه الأخير، دون أن يكون له أية إرادة واختيار، فهو مستسلم لأنّ يطرح فى حفرتة ويوارى فيها التراب. وبالطبع فإنّ هذا الإنسان المناقد اليوم، هو الذى كان بالأمس يأمر وينهى، وربما كانت إشارته كافية لأنّ يندفع له الاف الأفراد، وكان إذا رضى عفى عن حوله، وإذا غضب أمر بضرب الاعناق وإن كانت بريئة، نعم هذه هى عاقبته ومصيره. وكالمعتاد فقد أسرع الأبناء والأحفاد والأقرباء والأصدقاء والأخوة لحمل التابوت على أكتافهم، إلى أين؟ إلى ذلك المكان الذى طالما كان يخشاه، بل لايجرأ على الإتيان باسمه على لسانه، وإذا مر به أشاح بوجهه عنه، المكان الذى لم يبق له من رابطة باهل هذا العالم، أنه بيته الموحش المنسى. ثم قال عليه السلام:

«حتّى إذا انصرف المشيخ، ورجع المتفجع أقعد فى حفرتة نجياً لبهته» [٥٥٩] السؤال، وعثره الامتحان»

أجل قصيره هى تلك المدة التى يرافقه فيها الأهل والمعزون، فاخر عهدهم به حين ينزلونه القبر، فاذا واروه التراب ودعوه وتركوه لوحده فى حفرتة، وسرعان ما يكفكفون دموعهم ويخمد صراخهم حتى ينسوه بالتدريج؛ فى حين يعيش هو أصعب اللحظات وعليه أن يعد إجابات لما ستطرحة عليه الملائكة من أسئلة، وهى الاسئلة التى تبدو إجاباتها واضحة، لكنها تتطلب إستعداداً روحياً وعقائدياً؛ الأمر الذى قد لا يكون الإنسان قد تزود له، ومن هنا كان الامتحان عسيراً.

العبارة:

«أقعد فى حفرتة»

إشارة واضحة إلى سؤال القبر الذى سيمر علينا فى البحث

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٦١

القادم. أمّا قوله عليه السلام:

«نجياً»

فتعنى الصوت الخفى، ولعلها إشارة لمناجاته لرّبّه آنذاك واستغاثته بلطف الله ورحمته، أو الكلام الخفى لعسرة الامتحان والخوف من عدم الإجابة على السؤال.

تأملان

١- وداع الأحياء للأموات

إذا مات الإنسان تغيرت كافة أوضاعه بالمرّة، فقد كان جزءاً من هذه العالم والجماعة حتى آخر لحظة من حياته، أمّا الآن فلم يعد الأمر كذلك وعليه فالجميع يسعى لتنجيته من هذا العالم ويسرع فى التخلص منه فيودعونه ذلك المكان الذى يحول بينه وبين الدنيا ويقطع علاقته مع أهلها. يالها من لحظات معبرة! ليس له من إرادة، لا يستطيع أن يأخذ معه شيئاً، لا يسع أحد مساعدته وإن كان من أقرب المقربين. فسرعان ما تحمل جنازته إلى تلك الحفرة الموحشة المظلمة فيوسد فيها تحت التراب، وليس معه سوى ذلك الكفن المتواضع، فلم يعد هنالك من مجال لحمل الاسرة والتيجان ولاالترين والتفاخر. هنا يوصى أمير المؤمنين على عليه السلام باستحضار هذه اللحظات الحساسة بغية الوقوف بوجه طغيان هذه النفس، كيف تغفلون عما ليس بغافل عنكم. كفى بالموت واعظا، الذى ينقلكم من دار الأهل والانس إلى دار الوحشة والخوف، كفى واعظا بموتى عاينتموهم، حملوا إلى قبورهم غير راكبين، وانزلوا فيها غير نازلين، فكأنهم لم يكونوا للدنيا عماراً، وكأنّ الآخرة لم تزل لهم داراً. أوحشوا ما كانوا يوطنون، وأوطنوا ما كانوا يوحشون، لا عن

قيح يستطيعون إنتقالاً، ولا في حسن يستطيعون ازدياداً [٥٦٠]. حقاً أنّ لحظة ولادة الإنسان ودخوله الدنيا كخروجه منها عبرة لمن إعتبر، فكلاهما يقع بمعزل عن إرادة الإنسان، وليس للإنسان من قدرة على شئ في هاتين الحالتين، ولو تأمل الإنسان هذا الأمر قليلاً، لما أصابه مثل ذلك الغرور الطغوى والنسيان. ورد في الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

وفي قبض كف الطفل ولادة دليل على الحرص المركب في الحي
وفي بسطها عند الممات مواعظاً لا فانظروني قد خرجت بلا شئ

٢- سؤال القبر

تطرت الخطبة إلى سؤال القبر الذي ورد صريحاً في الروايات الإسلامية، كما ورد في
نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٦٢

كلمات علماء العقائد. فقد ذكر المحقق الخوئي شارح نهج البلاغة في شرحه المعروف بمنهاج البراعة أنّ المسلمين إتفقوا على أنّ سؤال القبر حق، بل هو من ضروريات الدين، ولم يخالفه إلّا جماعة قليلة من الملحدين، حيث روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«ليس من شيعتنا من أنكر ثلاثة: المعراج وسؤال القبر والشفاعة» [٥٦١]

كما وردت الروايات في المصادر الإسلامية بهذا الشأن، وإنّ الإنسان إذا وضع في قبره، أتاه الملكان فسألاه عن عقائده؛ التوحيد والنبوة وولاية الأئمة عليهم السلام، بل جاء في أغلب الروايات أنّه يسئل عن أربع: عن عمره فيم قضاه، وعن شبابه فيم أفناه، عن ماله مم إكتسبه وفيم أنفقه، فان كان مؤمناً أجب لي شمل برحمة الله وعنايته، وان كان كافراً عجز عن الجواب فيصب عليه العذاب. الجدير بالذكر أنّ بعض القرائن في الروايات المذكورة تفيد أنّ مسائله القبر ليست باليسيرة بحيث يجيب عنها الإنسان كيفما شاء، بل إنّ جوابه مما تفرزه عقائد الإنسان وأعماله في الحياة الدنيا، وكأنّ سؤال القبر أول محكمة عدل إلهية يشهدها الإنسان تؤهله لورود عالم البرزخ. بعبارة أخرى فإنّ الموت من الحوادث العظيمة التي تهز أعماق الإنسان وتذهله عما في نفسه، فلا يبقى لديه إلّا ما كان حصله على سبيل الملكة وتأصل في روحه وفكره. فقد ذكر العلامة المجلسي أنّ المشهور بين متكلمي الإمامية هو أنّ سؤال القبر ليس عاماً، بل يرتبط بمن محض الإيمان أو الكفر، ولا يشمل الضعفاء والمجانين والصبيان. كما ذكر المرحوم العلامة الخوئي بعد نقله لهذا الكلام أنّ الأخبار الواردة في كتاب الكافي وسائر المصادر إنّما تؤيد هذا المعنى. [٥٦٢] والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل سي طرح سؤال القبر على هذا البدن الجسماني وهو الذي سيجيب عنه، أم أنّ السؤال والجواب مرتبط بروح الإنسان إلى جانب هذا البدن في عالم البرزخ؟ بعبارة أخرى

هل السؤال للروح في قالب المثال، أم لهذا الجسم المادي؟ هناك إختلاف بهذا الخصوص، فالبعض يعتقد بأنّ الروح ستعود بصورة مؤقتة إلى هذا الجسم (بالطبع ليست بصورة كاملة بل بالمقدار الذي يسع السؤال والجواب) فتسئل من قبل الملكين وتجب. أمّا العلامة المجلسي وبعد تحقيقه في الأحاديث الواردة بهذا المجال فقد قال:

«المراد بالقبر في أكثر الأخبار ما

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٦٣

يكون الروح فيه في عالم البرزخ» [٥٦٣]

. ومن هنا تتضح الإجابة على الشبهة التي يثيرها بعض المغفلين من أننا لو وضعنا علامة على فم الميت وجئنا بعد يوم أو يومين ونبشنا قبره لتبين عدم تكلمه خلال تلك الفترة؛ وذلك لأنّ السؤال والجواب ليسا متعلقين بهذا الفم والبدن المادي، لكي نفتش فيهما. أمّا

القرائن التي تؤيد ما ذهب إليه العلماء المجلسي، الآية القرآنية الشريفة القائلة: «رَبَّنَا أَمَنَّاتُنَّ وَأَحْيَيْنَا ائْتِنَّ» [٥٦٤] هذا ما سيورده الأئمة يوم القيامة، والذي يشير إلى أن الأحياء لم يحصل أكثر من مرتين؛ أحدهما في الدنيا، والآخرى في القيامة. فلو كان البدن المادي يتولى الاجابة في القبر لوجب أن يعيش الحياء في القبر بصورة مؤقتة أيضاً، ليقود ذلك إلى وجود ثلاث ميتات وثلاث حياتات (الحياة في الدنيا والحياة في القبر والحياة في القيامة، والموت قبل الحياة في الدنيا، والموت في آخر العمر، والموت بعد الحياة في القبر). ومن هنا لا ينبغي التردد بأن السؤال والجواب مختصان بالروح في قالبها البرزخي، وهو المعنى الذي وردت الإشارة إليه في الخطبة بالعبارة

«أقعد في قبره»

، وإلا فإن أغلب القبور ولاسيما تلك التي لا لحد فيها لاتسع قعود الإنسان.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٦٥

القسم الخامس عشر: القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من النار

«وَأَعْظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةٌ نُزُولُ الْحَمِيمِ، وَتَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ، وَفَوْرَاتُ السَّعِيرِ، وَسَوْرَاتُ الرَّفِيرِ، لَا - فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ، وَلَا - دَعْوَةٌ مُزِيحَةٌ، وَلَا - قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ، وَلَا مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ، وَلَا سِنَّةٌ مُسَلِّيةٌ، بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ، وَعَذَابِ السَّاعَاتِ! إِنَّا بِاللَّهِ عَائِدُونَ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات إلى الحوادث التي يشهدها العاصون في عالم البرزخ، وذلك لأن الثواب والعقاب لا يقتصران على عالم القيامة، بل يشملان طائفة عظيمة من الناس في عالم البرزخ الذي يمثل الوسطة بين عالم الدنيا وعالم القيامة؛ والحديث الشريف:

«القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران» [٥٦٥]

إنما أشار إلى هذا المعنى، وبعبارة أخرى فان هنالك صورة محدودة في البرزخ لتلك الشاملة في عالم القيامة. فقد قال عليه السلام:

«وأعظم ما هنالك بليئة نزول الحميم [٥٦٦] تصلية [٥٦٧] الجحيم، وفورات [٥٦٨] السعير، وسورات [٥٦٩]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٦٦

الرفير [٥٧٠]

فالمراد بالجحيم هنا جحيم البرزخ التي تمثل جانبا من جهنم القيامة، والتي سيردها أصحاب الكبائر. فقد قال سبحانه تعالى في محكم كتابه العزيز بشأن آل فرعون: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» [٥٧١] كما يستفاد من العبارة شدة عذاب البرزخ ورهبته. فناره تضج، والسنتها تتصاعد، وماؤها يشوى البطون حقاً أن آلام الإنسان ومعاناته ومصائبه لتزول بالمرء حين يفارق هذه الدنيا ويودع روضة من رياض الجنة، غير أن البلاء يشتد إذا أودع بعد كل هذا البؤس والشقاء حفرة من حفر النار إثر سوء أعماله. طبعاً كلام الإمام عليه السلام مطلق، ولكن من الواضح أن المراد به عذاب الدنيا والظلمة والطواغيت وعامة أهل الذنوب والمعاصي؛ وهو الأمر الذي أشير إليه بصراحة في العبارات السابقة، كالعبارة:

«نفر مستكبراً، وخبط سادراً، ما تحأ في غرب هواه، كادحاً سعياً لدنياه».

ثم قال عليه السلام

«لا فترَةٌ مُرِيحَةٌ، وَلَا دَعْوَةٌ مُزِيحَةٌ، [٥٧٢] ولا قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ، وَلَا مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ، [٥٧٤] وَلَا سِنَّةٌ مُسَلِّيةٌ، [٥٧٥] بين أطوار الموتات، وعذاب الساعات! إِنَّا بِاللَّهِ عَائِدُونَ»

. تبين هذه العبارات القصيرة العظيمة المنال المقتبسة من آيات القرآن الكريم أن العذاب الإلهي شديد الالم على هؤلاء الأفراد من

جهة، ومن جهة أخرى ليس هنالك من سبيل قط للفرار منه، وذلك لأنَّ صحيفة الأعمال تغلق بموته ولا تشهد أى تغيير بتبدل، اللهم إلاً أن يتظلف الله عليهم برحمته وفضله، مع ذلك فذلك اللطف يستند إلى حكمته سبحانه. فما ورد في هذه الخطبة يتناغم وآيات القرآن الكريم التي تحدثت عن عقاب البرزخ. فقد

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٦٧

صرحت الآية السادسة والسابعة من سورة الملك بشأن نار البرزخ: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ* إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقاً وَهِيَ تَفُورٌ» كما ورد في الآية السادسة عشرة من سورة الفرقان: «إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفيراً». أما حال أهل البرزخ فقد صورته الآية ٧٥ من سورة الزخرف: «لَا يُفَتِّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ»، بينما تحدثت الآية العاشرة من سورة الطارق عن عدم وجود من يعينهم ويخفف عنهم: «فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ»، وأخيراً تطرقت الآية ٧٧ من سورة الزخرف عن تمنيتهم الموت الذى يريحهم مما هم فيه من العذاب: «وَنَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ». وهكذا سائر الآيات القرآنية التي تكشف عن حركة الإمام عليه السلام فى حديثه وفعله من خلال الوحي السماوى والجو القرآنى.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٦٩

القسم السادس عشر: مصير الجاحدين من أصحاب السطوة

«عِبَادَ اللَّهِ، أَيُّنَ الَّذِينَ عَمَّرُوا فَعَمُّوا، وَعَلَّمُوا فَفَهَّمُوا، وَأَنْظَرُوا فَلَهَّوْا، وَسَلَّمُوا فَفَسَّوْا! أَمَهَلُوا طَوِيلًا، وَمُحُوا جَمِيلًا، وَحَدَّرُوا أَلِيمًا، وَوَعَدُوا جَسِيمًا، جَمِيلًا! اخذَرُوا الذُّنُوبَ الْمَوْرُطَةَ، وَالْعُيُوبَ الْمُسَخِطَةَ».

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبة والذى يقترب من نهايتها- كافة العباد داعيتهم إلى تأمل حياة الامم السالفة وما حل بها وقد غير مجرى كلامه، فقال عليه السلام:

«عِبَادَ اللَّهِ، أَيُّنَ الَّذِينَ عَمَّرُوا فَعَمُّوا، وَعَلَّمُوا فَفَهَّمُوا، وَأَنْظَرُوا فَلَهَّوْا، وَسَلَّمُوا فَفَسَّوْا».

لو تصفحنا التاريخ، أو فكرنا فى حياتنا الماضية فى ظل هذا العمر القصير وتأملنا الأفراد من ذوى القدرة والسطوة الذين حفوا بمختلف النعم، إلا أنهم لم يستثمروا هذه النعم الإلهية ولم يستندوا إلى علم أو معرفة كما لم يفكروا أيام سلامتهم وصحتهم بالمرض، ولا فى إقتدارهم بالضعف والعجز، حتى غادروا هذه الدنيا صفر اليدين اتجهوا صوب مصيرهم الاسود. حقاً لو فكرنا فى هذه الامور لعشنا حالة اليقظة ولرأينا مستقبلنا من خلال الاعتبار بحياة هؤلاء. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى طول المهلة التى منحها هؤلاء والنعم التى حفوا بها وحذروا من عاقبة المعية ووعدوا بشدة العذاب «أَمَهَلُوا طَوِيلًا، وَمُحُوا جَمِيلًا، وَحَدَّرُوا أَلِيمًا، وَوَعَدُوا جَسِيمًا».

نعم لم يستفيدوا من تلك المهلة الطويلة، كما لم توقظ تلك النعم المختلفة ضمائرهم الميتة فتشعرها بشكر المنعم، وبالتالي لم يردعهم الوعد بالعذاب الإلهي عن مقارفة الذنوب والمعاصي، ولم يثيرهم الوعد بالثواب الاخرى للحركة من أجل الطاعة. ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٧٠

«اخذروا الذُّنُوبَ الْمَوْرُطَةَ، وَالْعُيُوبَ الْمُسَخِطَةَ»

. القرآن من جانبه صرح بهذا الشأن قائلاً: «كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسِيَّتَمَتَّعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسِيَّتَمَتَّعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [٥٧٧].

فقد دأب أئمة الدين وعلماء الأخلاق على لفت إنتباه العتاة إلى التفكير فى سيره من سبقهم من الأقوام ويتأملوا المصير الذى طال الملوك السلاطين والطواغيت والجبابرة والظلمة، وكيف كانت عاقبتهم، وماذا حملوا معهم من هذه الدنيا، وما بقى منهم. فهل هناك سوى القبور الموحشة والعظام النخرة والقصور المعطلة والأموال والثروات التى آلت لغيرهم، ثم اعتراهم النسيان وكأنهم لم يكونوا من أبناء هذه الدنيا.

ناداهم صارخ من بعد ما قبروا أين الاسره والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت منعمة من دونها تضرب الأستار والكلل
أضحت منازلهم قفراً معطلة وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا
نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٧١

القسم السابع عشر: الحذر الحذر

«أولى الأبصار والأسماع، والعافية والمتمتع، هل من مَنَاصٍ أو خَلَاصٍ. أو مَعَاذٍ أو مَلَاذٍ، أو فِرَارٍ أو مَحَارٍ! أم لا؟ «فَأَنى تُؤفَكُونَ» أم أَيْنَ تُصَرَّفُونَ! أم بِمَاذَا تَعْتَرُونَ! وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، ذاتِ الطُّولِ العَرَضِ، قِيدُ قَدِّهِ، مُتَعَفِّراً عَلَى خَدِّهِ!».
الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام الناس مرة اخرى بطريقة تختلف عن سابقتها قائلاً:

«أولى الأبصار والأسماع، والعافية والمتمتع، هل من مَنَاصٍ [٥٧٨] أو خَلَاصٍ. أو مَعَاذٍ أو مَلَاذٍ، [٥٧٩] أو فِرَارٍ أو مَحَارٍ! [٥٨٠] أم لا؟»
فالمخاطب هنا من كان له عين باصرة وآذان سامعة يعيش نعم الدنيا بعافية وسلامة. فقد بين الإمام عليه السلام أن ليس هنالك من عاقبه سوى الموت ووداع هذه الدنيا الفانية، فلا من سبيل للفرار ولا من طريق لخلاص، لا من ملجأ فيلاذ به، ولا من قلعة تنجى من الموت، وأخيراً ليس هنالك من سبيل للرجعة إلى هذه الدنيا، فالواقع هو أن الإمام عليه السلام قد بين ستة طرق للفرار من مخالب الموت، مؤكداً على أنها جميعاً مؤصدة مغلقة. فهناك مسيرة ينبغى أن يسلكها الجميع، ومصير لا يستثنى منه أحد. أما كون المخاطب من أولئك الذين يتمتعون بالسمع والبصر، فذلك لأن من سلبهما لا يستوعب مثل هذه الامور. والحق أن أدنى تأمل
نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٧٢

للموت الذى يعم الجميع لكاف فى إيقاظنا من سباتنا وهدايتنا للصرط المستقيم، ومن هنا قال الإمام عليه السلام:

«فَأَنى تُؤفَكُونَ! [٥٨١] أم أَيْنَ تُصَرَّفُونَ! أم بما ذا تَعْتَرُونَ! وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، ذاتِ الطُّولِ والعَرَضِ، قِيدُ قَدِّهِ، [٥٨٢] مُتَعَفِّراً عَلَى خَدِّهِ»

. قد يكون هناك بعض الأفراد الذين يملكون مئات البساتين والمزارع والأراضى الزراعية وعشرات القصور، إلّا أنه لا يأخذ منها حين يفارق الدنيا سوى ما يأخذه ذلك المسكين الذى قضى عمره فى الأكواخ؛ أى بقعة من الأرض بقدر قامته، مع كفن يعدّ الحد الأدنى ممّا يستر بدنه العارى. أمّا العبارة:
«متعفراً على خدّه»

يمكن أن يراد بها أنّ أطف أجزء البدن توارى هناك التراب، أو ليس للإنسان نصيب من هذا التراب حتى بمقدار بدنه؛ لأنّه يطرح على جانبه الأيمن فى القبر، وعادة ما لايسعه اللحد لأن يضطجع على قفاه.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٧٣

القسم الثامن عشر: حسن الختام

«الآن عباد الله والخناق مهمل، والروح مُرسل، في فينة الإرشاد، راحة الأجساد، وباحة الاحتشاد، ومهل البقية، وأنف المشية، إنظار التوبة، وانفساح الحوبة، قبل الضنك والمضيق، والزوع والزهوق، وقبل قدوم الغائب المنتظر، وإخذة العزيز المقتدر».

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام ثانية كافة عباد الله، محذرا إياهم من عدم فقدان الفرص قبل حلول الأجل وانتهاء العمر، فقال:

«الآن عباد الله والخناق مهمل، والروح مرسل، في فينة [٥٨٤] الإرشاد، وراحة الأجساد، وباحة [٥٨٥] الاحتشاد، [٥٨٦] ومهل البقية، وأنف المشية، وإن ظار التوبة، وانفساح الحوبة، [٥٨٧] قبل الضنك [٥٨٨] والمضيق، والزوع الزهوق، [٥٨٩] وقبل قدوم الغائب المنتظر، وإخذة العزيز المقتدر»

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى مختلف جوانب

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٧٤

الفرص السانحة للإنسان من قبيل: باقى العمر وسكينة الروح وراحة الجسم وإمكانية نيل الكمال وسهولة الاستشارة وبقاء الفرصة اللازمة للعزم والإرادة والقدرة على التوبة والاقلاع عن الذنب. فكل أمر من هذه الأمور يشكل جزءا من الفرص العظيمة الثمينة التي منحها الإنسان والتي يمكن من خلالها فعل كل شئ ونيل الخير والسعادة؛ والحال يمكن أن يفقد الإنسان جميع هذه الفرص فيقضى على سعادته بنفسه، ويالهم من بؤساء أولئك الذين لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة، فيمارسون حياتهم كقطيع الغنم الذى ينهمك بأكله وشربه فى مرعاه دون أن تلتفت إلى الذنب الذى ينهشها الواحد تلو الآخر.

قال المرحوم السيد الرضى (ره) فى آخر هذه الخطبة:

«وفى الخبر: أنه لما خطب بهذه الخطبة اقشعرت لها الجلود، وبكت العيون، ورجفت القلوب. ومن الناس من يسمى هذه الخطبة الغراء» وقد قال ابن أبى الحديد: واعلم أننا لا يخالجنا الشك فى أنه عليه السلام أفصح من كل ناطق بلغه العرب من الأولين والآخرين، إلا من كلام الله سبحانه، وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وذلك لأن فضيلة الخطيب والكاتب فى خطابه وتكاتبه تعتمد على أمرين؛ هما:

مفردات الألفاظ ومركباتها.

أما المفردات فأن تكون سهلة سلسة غير وحشية ولا معقدة، وألفاظه عليه السلام كلها كذلك؛ فأما المركبات فحشنة المعنى وسرعة وصوله إلى الأفهام، واشتماله على الصفات التي باعتبارها فضل بعض الكلام على بعض، وتلك الصفات هي الصناعة التي سماها المتأخرون البديع، من المقابلة، والمطابقة، وحسن التقسيم، ورد آخر الكلام على صدره، والترصيع، والتسليم، والتوشيح، والمماثلة، والاستعارة، ولطافة استعمال المجاز، والموازنة، والتكافؤ، والتشبيط والمشاكل.

ولا شبهة أن هذه الصفات كلها موجودة فى خطبه وكتبه، ماثورة متفرقة فى فرش كلامه عليه السلام، وليس يوجد هذان الأمران فى كلام أحد غيره فإن كان قد تعلمها وأفكر فيها، وأعمل رويته فى رصيفها ونثرها، فلقد أتى بالعجب العجيب، ووجب أن يكون إمام الناس كلهم فى ذلك؛ لأنه ابتكره ولم يعرف من قبله وإن كان اقتضبها ابتداء، وفاضت على لسانه

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٧٥

مرتجلة، وجاش بها طبعه بديهته، ومن غير رويته ولا اعتماد، فأعجب وأعجب!

وعلى كلا الأمرين فلقد جاء مجلياً والفصحاء تنقطع أنفاسهم على أثره. وبحق مقال معاوية لمحقن الضبي، لما قال له: جئتك من عند أعيان الناس: يابن اللخاء، ألعلى تقول هذا؟

وهل سنّ الفصاحة لقريش غيره!

واعلم أن تكلف الاستدلال على أن الشمس مضيئة يتعب، وصاحبه منسوب إلى السفة، وليس جاحد الأمور المعلومة علماً ضرورياً

بأشدّ سفهاً ممن رام الاستدلال بالأدلة النظرية عليها. [٥٩٠]

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٧٧

الخطبة [٥٩١]: الرابعة والثمانون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
في ذكر عمرو بن العاص

نظرة إلى الخطبة

كما يفهم من عنوان الخطبة أنها وردت بشأن عمرو بن العاص الذي كان من مقربي معاوية، بل يمكن القول أن استمرار خلافة معاوية وتحقيقه لبضع الانتصارات الظاهرية إنما تمّ في ظل مكائد بن العاص ومكره، فالشخص الثاني بل الأول في تلك الخلافة المنحرفة كان عمرو بن العاص ورغم قصر عبارات الإمام عليه السلام إلا أنها رسمت صورة واضحة عن مدى ضلال هذا الفرد المنحرف وإضلاله للأمة، بحيث يمكن الوقوف على تمام تفاصيل سيرته من خلال هذه الكلمات، إلى جانب ذلك فهي توضيح سر العلاقة بينه وبين معاوية. والجدير بالذكر هو أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين وصفه عمرو بن العاص بأنه ذو دعابة.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٧٩

«عَجَبًا لِابْنِ النَّابِغَةِ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً، وَأَنِّي امْرُؤٌ تَلْعَابَةٌ: أَعَافِسُ وَأُمَارِسُ! لَقَدْ قَالَ بَاطِلًا، وَنَطَقَ آثِمًا. أَمَا - وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكُذْبُ - إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، وَيَعِدُّ فَيُخْلِفُ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ، وَيُخُونُ الْعَهْدَ، وَيَقْطَعُ الْإِلَّ؛ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَأَمِيرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَا خَذَهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ سَبَبَتَهُ. أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نَسِيَانُ الْآخِرَةِ، إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتَيْتَهُ، وَيَرَضَّخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً».

الشرح والتفسير

ابن النابغة الكاذب

إشارة

استهل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن كذب عمرو بن العاص وتهمته التي وجهها إليه إلى جانب تعريفه بهذا الفرد المنحرف. أمّا الفرية التي نسبها إلى الإمام عليه السلام فتكمن باتهامه إياه بأنّ فيه دعابة وإنه من أهل المزاح والفكاهة - والعياذ باللّه - ليذرع بها من أجل إثبات عدم صلاحية الإمام عليه السلام لأمر الخلافة. فقد قال عليه السلام:

«عَجَبًا لِابْنِ النَّابِغَةِ! [٥٩٢] يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً، [٥٩٣] وَأَنِّي امْرُؤٌ تَلْعَابَةٌ: [٥٩٤] أَعَافِسُ [٥٩٥] وَأُمَارِسُ! [٥٩٦]»

التعبير عن عمرو بن العاص بابن النابغة

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٨٠

إشارة إلى فساد أسرته، لأنّ العرب كانت تنسب الولد لأمه إن كانت مشهورة بالشرف والمجد أو بالوضاعة والفساد، كما تعنى مفردة النابغة الظهور والبروز، إلا أنها تشير إلى الاشتهار بالفساد إذا أطلقت على المرأة، فقد كانت النابغة أم عمرو بن العاص أمّة لرجل من

عتره اسمها الأصلي سلمى أو ليلي، وقد واقعها أبوسفیان فولدت عمرو، فاختلف فيه حيث واقعها أمية بن خلف وهشام بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي، حيث ادعاه كلهم، فحكمت أمه فيه فقالت: هو من العاص بن وائل، وذلك لأن العاص بن وائل كان ينفق عليها كثيراً. وكان أشبه بأبي سفیان الذي قال عنه: أما إنى لا أشك أنى وضعت في رحم أمه، فأبت إلا العاص. [٥٩٧]

الواقع أن الإمام عليه السلام قدم بهذه العبارة لما بعدها، بمعنى لا ينبغي التعجب من مثل هذا الإنسان الذي يكيل التهم للصالحين ويفترى عليهم الكذب. والمفردة دعابة تفيد كثرة المزاح، وتلعابة من يمازح الناس ويهزل معهم، وأعافس وأمارس بمعنى واحد تقريباً وهو معالجة النساء بالمغازلة، ثم اتخذت معنى أوسع لتطلق على كل هزل ومزاح. فالواقع هو أن الإمام عليه السلام قد اختصر بهذه العبارات كافة التهم التي نسبها عمرو بن العاص للإمام عليه السلام زوراً وبهتاناً، لتكون مقدمة للرد عليه. والجدير بالذكر أن أعداء الإمام عليه السلام لم يتورعوا عن التشبث بمثل ما ورد في الكلام المذكور لما عجزوا عن الطعن في شخصية الإمام عليه السلام ولم يروا فيه أدنى ضعف، فهو المعروف بعلمه وتقواه وزهده وورعه وشجاعته وصبره وحلمه، فرموه بتهمه المزاح بهدف إثبات عدم جدارته بالخلافة؛ الأمر الذي يثبت صلاحيته وجدارته بها، فهم في ذلك كالمثل المعروف:

«الغريق يتشبث بكل حشيش»

فعمدوا إلى هذه الذريعة الجوفاء. وبالطبع فاننا سنتحدث في البحث القادم إن شاء الله عن المزاح متى يكون مباحاً أو مذموماً. ثم رد الإمام عليه السلام على كذب بن العاص في ذلك الاتهام قائلاً:

«لقد قال باطلاً، ونطق آثماً. أما - وشر القول الكذب»

، من يسعه التفكير إلى المزاح اللطيف الذي لا يشوبه الباطل والبعيد عن كل إفراط وتفريط؟ ومن يستطيع تجاهل جدية الإمام عليه السلام في خطبه ورسائله وقصار كلماته؟! فقد كان أعظم جدية ممن سواه، كما كان ذا إرادة جبارة في زعامته، وان كان يعمد إلى المزاح مع

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٨١

بعض أصحابه بغية مواساتهم وتخفيف الهم والغم عن قلوبهم؛ الأمر الذي يشاهد بوضوح في حياة إمامه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. أما العدو فهذا ديدنه، فهو لا يكف عن الكذب والدجل والتشبث بأتفه الذرائع من أجل النيل من الطرف المقابل. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ليذكر ست صفات رذيلة إتصفت بها سيرة عمرو بن العاص:

«إنه ليقول فيكذب، ويعد فيخلف، ويسأل فينخل، ويسأل فيلحف، [٥٩٨] ويخون العهد، ويقطع الإل [٥٩٩]

لاشك أن كل من يطالع سيرة عمرو بن العاص وسجله الأسود يقف بوضوح على هذه الرذائل في شخصيته.

والخلاصة فقد كان وضعياً، لا يتورع عن ارتكاب أفضح الرذائل من أجل الدنيا والظفر بحطامها، فهو يعد إذا كانت الأمور لصالحه، بينما يخلف إذا كانت بضرره. فقد كان يضحى بالغالي والنفيس من أجل الحصول على الدنيا، ولا سيما أمام معاوية الذي كان شديد الحاجة إليه، وهذا ما كان يدفعه إلى إعطائه ما يصبو إليه. أما نقضه للعهود والمواثيق فحدث ولا حرج، بل كان لا يرحم حتى قرابته ومن له صلته به. وأخيراً دوره في التحكيم ليس بخاف على أحد. قال بعض المؤرخين أنه عاش تسعين سنة، وذكر اليعقوبي [٦٠٠] أنه عاش تسعين سنة ولما حضرته الوفاة قال لابنه: لود أبوك أنه مات في غزات ذات السلاسل، إنى قد دخلت في أمور لا أدري ما حاجتي عند الله فيها. ثم نظر إلى ماله فرأى كثرته فقال: ياليتي كان بعراً، ياليتني مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنة، أصلحت لمعاوية دنياه وأفسدت ديني، آثرت دنياي وتركت آخرتي، عمى على رشدي حتى حضرني أجلى، كأني بمعاوية قد حوى مالي وأساء فيكم خلافتي.

على كل حال ليس هنالك من لا يعلم بهذه الرذائل التي إنطوت عليها شخصية عمرو بن العاص. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى أردل الأعمال التي ارتكبتها عمرو بن العاص في حياته، العمل الذي إنعدم مثيله في التاريخ، وذلك يوم صفين حين رأى نفسه مقتولاً بيد على عليه السلام فعمد إلى كشف عورته، لأنه كان يعلم بأن حياة الإمام عليه السلام لا يدعه ينظر إليه في تلك الحالة، فاغتم تلك

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٨٢

الفرصة ليهرب من بين يديه. فشاع هذا الأمر بين العرب آنذاك حتى أخذت الناس تضرب به المثل في أن عورة عمرو أنجته من الموت. فقد قال الإمام عليه السلام:

«إِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَأَمْرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السَّيُوفَ مَأْخُذَهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرَ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقُرْمَ [٦٠١] سَبْتَهُ [٦٠٢]»

فقد قال ابن أبي الحديد: وأما خبر عمرو في صفين واتقائه حملة على عليه السلام، بطرح نفسه على الأرض وإبداء سواته، [٦٠٣] فقد ذكره كل من صنف في السير كتاباً، وخصوصاً الكتب الموضوعه لصفين والقصة كالاتي: قال نصر بن مزاحم في كتاب صفين قال: حدثنا محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي عمرو، وعن عبد الرحمن بن حاطب، قال كان عمرو بن العاص عدواً للحارث بن نصر الخثعمي، وكان من أصحاب علي عليه السلام، وكان علي عليه السلام قد تهيئته فرسان الشام، وملاً قلوبهم بشجاعته، وامتنع كل منهم من الإقدام عليه. وكان عمرو قلماً جلس مجلساً إلاً ذكر فيه الحارث بن نصر الخثعمي وعابه.

فشاعت هذه الأبيات حتى بلغت عمراً، فأقسم بالله ليلقين علياً ولو مات ألف مائة. فلما اختلطت الصفوف لقيه فحمل عليه برمحه، فتقدم علي عليه السلام وهو مختلط سيفاً معتقلاً رمحاً، فلما رهبه همز فرسه ليعلو عليه، فألقى عمرو نفسه عن فرسه إلى الأرض شاغراً برجليه؛ كاشفاً عورته، فانصرف عنه لافتاً وجهه مستديراً له، فعَدَّ الناس ذلك من مكارمه وسؤدده وضرب بها المثل. [٦٠٤] واوردت التواريخ قال معاوية يوماً بعد استقرار الخلافة له لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله، لا أراك إلا ويغلبني الضحك؛ قال: بما ذا؟ قال: أذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفتين، فأزريت نفسك فرقاً من شَبَابِ سَنَانِهِ، وكشفت سواتك له؛ فقال عمرو: أنا منك أشد ضحكاً؛ إنني لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سخرتك، وربما لسأنتك في فمك وغصصت بريقك، وارتعدت فرائضك، وبدا منك ما أكره ذكره لك؛ فقال معاوية: لم يكن هذا كله وكيف يكون ودوني عك

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٨٣

الأشعريون! قال: إنك لتعلم أن الذي وصفت دون ما أصابك، وقد نزل ذلك بك ودونك عك الأشعريون، فكيف كانت حالك لو جمعكما ماقط الحرب! فقال: يا أبا عبد الله، خض بنا الهزل إلى الجدد، إن الجبن والفرار من علي لا عار على أحد فيهما. [٦٠٥] ثم قال عليه السلام رداً على إفتراء عمرو بن العاص:

«أما والله إنني ليم نعى من اللبب ذكر الموت»

فالإمام عليه السلام لا يغفل عن الموت طرفه عين، وذلك لأن الموت قانون يشمل جميع الخلائق لا يعرف الاستثناء ولم يعنى له وقت، ويعلم الإمام عليه السلام على وجه اليقين أن الموت هادم اللذات وأن الإنسان يتحول إلى وحش ضارٍ إذا نسي الموت ومحكمة العدل الإلهي. فهل للإمام عليه السلام من فرصة للمزاح واطلاق العنان للهوى وهو ما عليه من الذكر؟ قطعاً لا يجوز ذلك على الإمام عليه السلام، بينما لم يدفع ابن البانغة للتفوه بذلك الكلام سوى نسيان الآخرة والغفلة عن الموت:

«وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة»

نعم إذا كذب أو إفتري ولم يتورع عن القيام بأي عمل من أجل تحقيق مطامعه الدنيوية فذلك معلول لنسيانه الموت والآخرة. وما أسلفنا فان من نسي الآخرة وتجاهل العدل الإلهي أصبح كائناً خطيراً يخشى منه، لأنه لا يتوانى عن ارتكاب أبشع الأعمال دون أن يكثر حتى لشرفه وحيثيته. ثم يستدل عليه السلام على ذلك بقوله:

«إنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتية أتيه، [٦٠٦] ويرضخ له على ترك الدين رضىخة [٦٠٧]»

. فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى تلك الواقعة المعروفة بين الناس والتي أشرنا إليها في الخطبة السادسة والعشرين، والقصة هي: لما نزل على عليه السلام الكوفة بعد فراغه من أمر البصرة، كتب إلى معاوية كتاباً يدعوه إلى البيعة أرسل فيه جرير بن

عبدالله البجلي، فقرأه واغتم بما فيه، وذهبت به أفكاره كل مذهب، وأحب الزيادة في الاستظهار، فاستشار عمرو بن العاص، فكتب له معاوية كتاباً، فسار حتى قدم على معاوية. فقال له معاوية: إني أدعوك إلى جهاد على بن أبي طالب. قال عمرو: والله يا معاوية ما أنت وعلى حملي بعير، ليس له هجرته
نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٨٤

ولا- سابقته ولاصحبته ولاجهاده ولافقهه ولاعلمه. ثم قال فما تجعل لي إن شايعتك على حربته وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر؟ قال: حكمك، فقال: مصر طعمه. فتلكا عليه معاوية، وقال: إني أكره لك أن تتحدث العرب عنك أنك إذا دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا، فقال عمرو: دعني عنك. حتى استجاب له معاوية آخر الأمر. [٦٠٨] والعجيب أن الدنيا لم تف له حيث لم يحكم مصر سوى بضع سنوات ثم ندم ندماً شديداً وأواخر عمره من فعاله، فكان يلعن نفسه، ولم يكن أمامه من مخرج. [٦٠٩]

تأملان

١- نسب عمرو بن العاص وطرف من أخباره

كلنا نعرف هذا الشخص وقد سمعنا عن مكره ودوره الهدام في التاريخ الاسلامي، ولعل الجميع يعلم بخدعته في رفع المصاحف على أسنة الرماح في معركة صفين حين أو شك جيش الشام على الهزيمة؛ الامر الذي أثر بشدة على بعض السذج من جيش على عليه السلام فاجبروا الإمام عليه السلام على الكف عن القتال والرضوخ للتحكيم. ولد لاربع وثلاثين سنة قبل البعثة. أبوه العاص بن وائل المعروف بعادته للاسلام والذي لقبه القرآن الكريم بالابتر «إن شائتك هو الابتر» [٦١٠] لأنه قال لقريش: سيموت هذا الابتر- رسول الله صلى الله عليه وآله- غدا فينقطع ذكره. وأما أمه فقد ذكر المؤرخون فقد وقع عليها خمس فولدت عمرو فادعاه كلهم، فحكمت أمه فيه فقالت:

هو من العاص بن وائل لأنه كان ينفق عليها كثيرا، ولحسن بن ثابت أشعار فيه.

وقد توجه إلى الحبشة حين هاجر إليها المسلمون ليكيد جعفر أو يقتله، وقد أعلن اسلامه هناك ليسدد ضربته للاسلام والمسلمين. ويرى البعض أنه قصد الحبشة يوم الخندق وقال لصحبه: ارى أن نذهب إلى الحبشة فان ظهر قومنا عدنا اليهم وان ظهر محمد بقينا في الحبشة.

فدخل الحبشة قبل جعفر وقد حمل الهدايا إلى النجاشي وطلبوا منه أن يأذن لهم بقتل جعفر.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٨٥

فلم يجبهم النجاشي الذي أسلم باطنا. فقال عمرو: لم أكن أعلم بمنزلة محمد وأنا على دينه الان. فلما عاد إلى المدينة استقبله النبي صلى الله عليه وآله وأمره وبعثه إلى ذات السلاسل. ثم ولاه النبي عمان (في الشام) فبقى هناك حتى وفاة النبي صلى الله عليه وآله، ثم ولاه عمرو فلسطين والاردن، وحين ولى عمر معاوية على الشام وجه عمرو بن العاص لمصر ففتحها، فولاه اربع سنوات على عهد عثمان ثم عزله، فنقم عليه وهاجر إلى فلسطين. ولما نهض معاوية في الشام استنجد بعمرو فاشترط عليه ولاية مصر فأجابه. فبقى فيها حتى توفي عام ٤٣ وله تسعون سنة.

قيل عرف بالشجاعة في الجاهلية وان لم ينقذه من القتل في صفين الا عورته لأنه يعلم بأن عليا عليه السلام لا يقتله. [٦١١]

يرى العلامة الاميني أنه لم يسلم وقد تظاهر بالاسلام وهو مصداق لمن قال فيهم الإمام على عليه السلام: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أسلموا ولكن استسلموا واسروا الكفر، فلما وجدوا أعوانا، رجعوا إلى عداوتهم منا» [٦١٢].

لم يكن يتورع عن معاداة على عليه السلام حتى قال لعائشة: ليتك قتلت يوم الجمل. فقالت: ولم لا أبا لك؟ قال: لدخلت الجنة وشنعنا بك على على بن أبي طالب. [٦١٣]

واخيراً قال ابن ابى الحديد: وكان عمرو أحد من يؤذى رسول الله صلى الله عليه وآله بمكئة ويشتمه ويضع فى طريقه الحجارة؛ لأنه كان صلى الله عليه وآله يخرج من منزله ليلاً- فيطوف بالشعبة، وكان عمرو يجعل له الحجارة فى مسلكه ليعثر بها. وهو أحد القوم الذين خرجوا إلى زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لما خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة، فروعها حتى أجهضت جنينا ميتا فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله نال منه وشق عليه مشقة شديدة ولعنه. [٦١٤]

٢- المزاح فى الإسلام

مما لاشك فيه أن روح الإنسان ترهق من جراء المشاكل؛ فلا بد من ترويحها بالاستجمام

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٨٦

وطرائف الحكم، وإلما كسلت وشلت عن النشاط، ومن هنا فان العقل والمنطق والفترة تقتضى أن يلجأ هذا الإنسان إلى المزاح بغية التخفيف من حدة المعاناة والتعب والارهاق، فان تم هذا الأمر فى ظل الموازنة والاعتدال فهو ليس مذموما فحسب، بل من الامور المطلوبة، وأبعد من ذلك تكتسب درجة الضرورة والوجوب، لتعد جزءا من مكارم الأخلاق والبشاشة وطلاقة الوجه. والذى تفيده سيرة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمة الدين عليهم السلام وأولياء الله- بل وكافة العقلاء- أنهم كانوا يلجأون إلى المزاح فى أعمالهم طيلة مدة حياتهم. إلّا أن ما يجدر ذكره هو أن هذا المزاح إنما يتحول إلى سخريه واستهزاء لو خرج من حد الاعتدال أو شابه الاثم والغيبة والنميمة، كما يكون وسيلة للتأثر وإراقة ماء وجه الآخرين، حيث يتعذر على الإنسان أحيانا إظهار مكنون قلبه من الحقد والضغينة فيلجأ إلى هذا الاسلوب، وهنا يتحول المزاح إلى رذيلة بشعة من الرذائل الكاشفة عن سوء الخلق. وهذان هما المعنيان الذان كشفت عنهما بعض الروايات الإسلامية التى مدحت المزاح من جانب وعدته فضيلة، وتلك التى ذمته وعدته رذيلة. ولا بأس هنا بذكر بعض الروايات الإسلامية الواردة بهذا الشأن:

١- ورد فى الحديث أن أحد أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام سأله عن المزاح فقال عليه السلام:

«لا بأس ما لم يكن»

(أى ما لم يخالطه الاثم) ثم قال:

«إن رسول الله كان يأتيه الاعرابى، فيهدى له الهدية ثم يقول مكانه: أعطنا ثمن هديتنا! فيضحك رسول الله؛ وكان إذا اغتم، يقول: ما

فعل الاعرابى؟ لبيته أتاناً». [٦١٥]

٢- وورد عن الإمام الكاظم عليه السلام

«المؤمن دعب لعب، والمنافق قطب غضب». [٦١٦]

٣- عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ما من مؤمن إلّا وفيه دعابة؛ قلت: وما الدعابة؟ قال:

المزاح». [٦١٧]

٤- بل ورد فى الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يمزح، حيث جاء فى الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأمرأة

من الأنصار:

«الحقى زوجك فإن فى عينه بياضا»

فسعت نحوه مرعوبة، فقال لها:

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٨٧

ما دهاك؟ فأخبرته، فقال: نعم إن في عيني بياضاً لاسوء، فخفضى عليك. فهذا من مزاح رسول الله صلى الله عليه وآله. وأتت عجوز من الأنصار إليه صلى الله عليه وآله، فسألته أن يدعوا الله تعالى لها بالجنة، فقال:

«إن الجنة لا تدخلها العجز» [٦١٨]

فصاحت، فتبسم صلى الله عليه وآله وقال: «إِنَّا أَنْشَأْنَا هُنَّ إِِنْشَاءً * فَجَعَلْنَا هُنَّ أَبْكَاراً» [٦١٩] وهكذا سائر الروايات ...

وفي نفس الوقت وردت الروايات التي ذمت المزاح، ومن ذلك ما روى عن علي عليه السلام أنه قال:

«المزاح يورث الضغائن» [٦٢٠]

وقال:

«لكل شئ بذر وبذر العداوة المزاح» [٦٢١]

وجاء في الخبر أن المزاح يحد من العقل ويذهب بالهية وهو العدو الاصغر [٦٢٢]. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لا يبلغ العبد صريح الإيمان حتى يدع المزاح والكذب» [٦٢٣]

. ومن الواضح أن ليس هنالك من تضاد بين هاتين الطائفتين من الروايات، لأن الطائفة الاولى تحدثت عن أصل المزاح، بينما تحدثت الطائفة الثانية عن الإفراط وتجاوز الحد في المزاح. أو بعبارة اخرى: الطائفة الاولى ناظرة إلى المزاح الموزون الذي لا يستند إلى أى غرض ومرض وحقد وضغينة، أمّا الطائفة الثانية فهي ناظرة إلى المزاح الباطل، والشاهد على ذلك ما جاء في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إني أمزح ولا أقول إلا حقاً» [٦٢٤]

. والشاهد الآخر أغلب الروايات التي صرحت بدم كثرة المزاح. فقد روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«كثرة المزاح تذهب البهاء وتوجب الشحناء» [٦٢٥]

. كما عبرت بعض الروايات عن ذلك بالإفراط في المزاح. ويتضح مما أوردنا من الروايات - ولاسيما تلك التي وردت عن علي عليه السلام - أن الإمام عليه السلام كان يمزح أحياناً بالحق؛ الأمر الذي يجعله فضيلة من فضائله وأنه كان كريم الخلق بشر الوجه، إلا أن العدو كان يندفع بكل همجية وضغينة ليشوه حتى هذه الصفات الحميدة فيه، بهدف

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٨٨

إقصائه من مكانته، ونموذج ذلك ما ورد في هذه الخطبة. فقد نفى عليه السلام في هذه الخطبة عن نفسه كثرة المزاح، المزاح الممدوح الذي يهدف إلى جلاء الروح ونشاطها وإدخال السرور على قلوب المؤمنين.

ونختتم الكلام بهذا الحديث:

فقد جاء في الخبر أن يحيى عليه السلام لقي عيسى عليه السلام، وعيسى مبتسم، فقال يحيى عليه السلام: مالي أراك لاها كأتك آمن! فقال عليه السلام: مالي أراك عابساً كأنك آيس؟

فقالا: لانبرح حتى ينزل علينا الوحي. فأوحى الله إليهما: أحبكما إلىّ الطلق البسام، أحسنكما ظناً بي. [٦٢٦]

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٨٩

الخطبة [٦٢٧]: الخامسة والثمانون

ومن خطبة له عليه السلام
وفيها صفات ثمان من صفات الجلال

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى ثلاثة أمور مهمة: الأول ذكره لبعض صفات الجلال والكمال بعبارات قصيرة عظيمة المعاني. الثاني دعوة الناس للاعتبار بما تفرزه حوادث الحياة ولاسيما الموت الذي يقف لهذه الحياة بالمرصاد. الثالث التعرض لدرجات أولياء الله والنعم المطلقة الخالدة التي يتمتعون بها في الجنة. أما تعبير السيد الرضى (ره) في بداية الخطبة بالقول «ومنها»

يفيد أنه وكديده قد إقتطف هذه العبارات من خطبة طويلة.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٩١

القسم الأول: معرفة الله

إشارة

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: الْأَوَّلُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ، الْآخِرُ لَا غَايَةَ لَهُ، لَا تَقَعُ الْأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صِفَةٍ، وَلَا تُعْقَدُ الْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ، وَلَا تَنَالُهُ التَّجَزُّؤُةُ وَالتَّبَعِيضُ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَبْصَارُ وَالْقُلُوبُ».

الشرح والتفسير

يقسم علماء العقائد صفات الله إلى قسمين: صفات الجمال وصفات الجلال. وتطلق صفات الجمال على الصفات الثبوتية من قبيل؛ العلم والقدرة. وتطلق صفات الجلال على الصفات السلبية من قبيل؛ عدم وجود الشريك والشبيه. ولما كانت الصفات الثمان الواردة في القسم الأول من الخطبة ثبوتية وسلبية فإن الذي ذكر عنوان لها ليس على ضوء علماء العقائد، بل يراد بالجلال هناك المعنى اللغوي والإشارة إلى عظمة هذه الصفات. على كل حال فإن معرفة الله والتعرف على صفات جماله وجلاله، تعد معين كل خير وحسن وأساس جميع الفضائل الأخلاقية والأعمال الصالحة، ومن هنا فقد إستهل الإمام عليه السلام أغلب خطبه بالإشارة إلى جانب من هذه الصفات، ليحمل القلوب نحو عظمته سبحانه وصفات جلاله وجماله. فقد قال عليه السلام: «وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ» فالأوصاف وإن كانت ثلاث وهي نفى الشريك والمعبود وصفة التوحيد، غير أنها تعد جميعاً إلى حقيقة واحدة وهي توحيدية في الذات والصفات والعبودية. ولما كان التوحيد أساس صفات الله سبحانه، فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى هذه الصفة قبل كل شيء، وسرى لاحقاً أن سائر الصفات السبع إنما تنبع من صفة التوحيد. ثم قال عليه السلام في الصفة الثانية «الأول لا شيء قبله»

هذه واحدة من الصفات التي

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٩٢

تنزهه عن الشبه؛ لأنه وجود لامتناهى، ومثل هذا الوجود أزلي، والوجود الأزلي قبل كل شيء وبعد كل شيء، فلو كان قبله شيء لانتفت أزليته. ثم قال عليه السلام في الصفة الثالثة:

«وَالْآخِرُ لَا غَايَةَ لَهُ»

كما أشرنا آنفاً فإن هذه نتيجة لعدم تناهيه، وبعبارة أخرى إنتفاء نظيره. ومن الواضح أن الصفة الثانية والثالثة ثبوتية: فأوليته في الأزل،

وآخريته في الأبد. وقال عليه السلام في الصفة الرابعة:

«لا تقع الأوهام [٦٢٨] له على صفة»

فنحن نعلم أن عقلمنا محدود لا يسعه إدراك سوى المحدودات، وعليه فليس للوهم أن يحيط بذاته المقدسة وصفاته المطلقة التي هي عين ذاته، وبعبارة أخرى فإن علمنا بصفاته إنما هو من قبيل العلم الإجمالي، وإلا فالعلم التفصيلي بذاته وصفاته متعذر على مخلوقاته. ويتضح مما ذكر أن الأوهام هنا بمعنى الأفكار، غير أن الفكر حين يعجز يعبر عنه بالوهم. ثم أشار الإمام عليه السلام في الصفة الخامسة والسادسة إلى نفي الكيفية والكمية عن الذات الإلهية المقدسة قائلاً:

«و لا تعقد القلوب منه على كيفية، ولا تناله التجزئة التبعية»

والكيفية عبارة عن الشكل والهيئة التي تتخذها الأشياء، سواء كانت هذه الهيئة قابلة للرؤية أو السماع أو اللمس. وبالطبع فإن الكيفية إنما ترتبط بالأمور التي تكون أوصافها زائدة على ذاتها، أما من كانت صفاته عين ذاته، وكانت ذاته خالية من التعدد فليس للكيفية من سبيل إلى ذاته، بعبارة أخرى فإن الكيفيات ناشئة من المحدوديات والذات الإلهية اللامحدودة لا كيفية لها. كما أن الاشتغال على الجزء والبعض من خواص الأجسام، ومن هنا فالكمية من عوارض الجسم، ولما كان الله سبحانه منزّه عن الجسمية، لم تجز عليه التجزئة والتبعية، وليس للكمية من سبيل إلى ذاته المقدسة. بعبارة أخرى: إنما تطلق الكمية حيث الزيادة والنقصان، وعليه فليس لله من كمية حيث ليس هنالك من زيادة أو نقصان في وجوده المطلق اللامتناهي. على ضوء ما مر معنا فإن التجزئة والتبعية لفظان مترادفان يفيدان معنى واحد، ألا أن بعض شراح نهج البلاغة احتملوا أن التجزئة إشارة إلى الأجزاء العقلية (كالجنس والفصل المنطقيين) والتبعية إشارة إلى الأجزاء الخارجية. على كل حال فمفهوم

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٩٣

العبارة هو أن الذات الإلهية ليست مركبة من أجزاء لافى الخارج ولا فى الذهن، لأنه لو كان متركبا من أجزاء لاحتاج إليها، والحال أنه غنى بالذات، والمحتاج ممكن الوجود، لا واجب الوجود. ثم قال عليه السلام فى الصفة السابعة والثامنة:

«و لا تحيط به الأبصار والقلوب»

أمّا قوله عليه السلام لا تحيطه الابصار، فواضح، لأنّ الإنسان يرى بعينه الألوان والضوء ومن ثمّ الأجسام، ولما كان اللون من خواص الجسم، وللجسم زمان ومكان وأجزاء، فالنتيجة أنّه محتاج وممكن الوجود، والله أعظم وأجل شأنًا من ذلك وان ذهب بعض علماء العامة استناداً إلى بعض الروايات - المخدوشة السند أو الدلالة - إلى رؤية الله سبحانه يوم القيامة، الأمر الذى يعتبر من الشرك؛ لأنّ ذلك يستلزم كون الله جسماً له زمان ومكان وجهة ولون، أمّا نحن وعلى ضوء تعاليم أئمتنا عليه السلام نعتقد بأنّ الرؤية محالة على الله سبحانه، لافى هذا العالم ولا فى عالم الآخرة! والأدلة العقلية التى أشارت إلى جانب من ذلك فى الخطبة إنّما تثبت هذه الحقيقة، وليس للاستثناء من سبيل إلى الأدلة العقلية. [٦٢٩] أمّا عدم إحاطة العقول بذاته المطهرة فلكونها غير محدودة، وليس للعقل المحدود قدرة إدراك غير المحدود، ولذلك قلنا سابقاً إن علمنا بذاته وصفاته سبحانه إجمالى لا تفصيلي. والذى يجدر ذكره هو أن الإمام عليه السلام عبر بعدم الاحاطة بشأن نفي الرؤية بواسطة العين وكذلك الرؤية العقلية، والذى يمثل فى الواقع الدليل على المطلوب، لأنّ الاحاطة بالشئ من لوازم الرؤية أو المشاهدة العقلية، وكيف يحاط وجود مطلق لامتناهي.

وهنا يقترح هذا السؤال وهو أن الإمام عليه السلام قال:

«لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان» [٦٣٠]

أفلا يناقض هذا الكلام ما ورد فى الخطبة؟ والجواب على هذا السؤال أن المراد من عدم إحاطة العقل بذاته هو نفي إدراك كنه الذات، وبعبارة أخرى العلم التفصيلي؛ أمّا ما ورد فى الخطبة ١٧٩ من رؤية الله من قبل القلوب يشير إلى العلم الإجمالى. فقد ورد عن الإمام الجواد عليه السلام أنّه قال:

«أوهام القلوب أدق من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التي لم تدخلها ولا تدركها ببصرك، فأوهام القلوب لا تدركه، فكيف أبصار العيون» [٦٣١]

. على كل حال فإن ما أورده الإمام عليه السلام من

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٩٤

صفات في هذه العبارات بشأن الذات المقدسة، إنما يشير إلى ذروة قدرة الإنسان على معرفة الله. فليس هنالك من يورد مثل هذه الصفات سوى المعصوم ولاسيما أمير المؤمنين على عليه السلام.

ونختم البحث بما ذكره ابن أبي الحديد بهذا الشأن فقد قال: وإعلم أن التوحيد والعدل والمباحث الشريفة الإلهية، ما عرفت إلا من كلام هذا الرجل، وأن كلام غيره من أكابر الصحابة لم يتضمن شيئاً من ذلك أصلاً؛ ولا كانوا يتصورونه، ولو تصوروه لذكروه. وهذه الفضيلة عندي أعظم فضائله عليه السلام. [٦٣٢]

تأمل: كيفية معرفة الإنسان بالذات المقدسة

تعد هذه المسئلة من أدق وأعقد المسائل العقائدية والتي تزل فيها الأقدام والأقلام حتى سلكت طائفة الافراط، بينما سلكت اخرى التفريط بهذا الشأن. فقد إبتعدت طائفة عن معرفة الله حتى اصطلح عليها بالمعطلة، حيث زعمت أننا لانعلم أى شىء إيجابى عن ذاته وصفاته سبحانه، وليس لنا سوى إستناد إلى سلسلة من الامور السلبية، فكل ما نقوله أن الله ليس بمعدوم، ليس عاجز، وليس جاهل، ولو أردنا أن نسلك سبيل الصفات الثبوتية فإن كل الأبواب مقلقة بوجهنا. هذه هى الطائفة التي تدعى بالمعطلة. أما الطائفة الثانية فقد ذهبت إلى العكس مما ذهبت إليه الطائفة الاولى حتى جعلت من الله جسماً وصنعت له أعضاء وبدن، وهى الطائفة التي يصطلح عليها بالمشبهة، حيث شبهت الله بعباده. أما الطائفة الثالثة الوسط التي تخالف إفراط الاولى وتفريط الثانية- حيث تتصف كلا الطائفتين بالضلال والتغرب عن القرآن والتعاليم الإسلامية- وهى التي تقول بالمعرفة الإجمالية لذاته وصفاته سبحانه، دون أن يقف أحد على كنه تلك الذات المقدسة وصفاتها. وبعبارة أوضح: إذا نظرنا إلى عالم الوجود وتأملنا آثار العلم والحكمة وعظم القدرة الحاكمة فى كل مكان فاننا سنقف على أن هذه الأنظمة والقوانين المعقدة التي تحكم كافة دقائق هذا الوجود إنما تنطلق من مصدر يتصف

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٩٥

بالعلم والقدرة المطلقة، الأمر الذي يجعلنا نمتلك معرفة إجمالية بهذه الذات المقدسة. من جانب آخر فاننا إذا فكرنا فى ذاته سبحانه وتساءلنا ما حقيقتها؟ هل هى نور؟ أعظم من النور؟ وجود بسيط وخالص؟ لانفهم على وجه الدقة حقيقة ذاته. وكل ما نعرفه أن ذاته تفوق الجسم والجسمانيات، وترفع عن الخيال القياس والظن والوهم، وأنه أعظم من كل ما رأينا وسمعنا وتصورنا. له علم وقدرة مطلقة، ولكن ما كيفية هذا العلم وهذه القدرة، يتعذر علينا الجواب على ذلك. وكلما أردنا أن نحصره فى فكرنا لنقف على حقيقة ذاته، رأينا فكرنا قاصراً عاجزاً، بل إذا إقترنا شبراً من حقيقة ذاته- كما يقول الشاعر- ابتعدنا عنها ميلاً. وكيف لا يكون الأمر كذلك ووجودنا محدود متناهي ووجوده مطلق لامتناهي. فقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«فهذه الشمس خلق من خلق الله فان قدرت أن تملأ عينيك منها فهو كما تقول» [٦٣٣]

. فقد أراد الإمام عليه السلام أن يعرفنا بمحدودية قدرة باصرتنا وفكرنا إزاء ذاته المنزهة عن الحدود. ومن هنا يتوجب علينا أن نخشع لله سبحانه ونمد أيدينا له بالدعاء لتردد ما قاله الإمام الهادى عليه السلام فى مناجاته للحق سبحانه:

«إلهى تاهت أوهام الموهمين، وقصر طرف الطارفين وتلاشت أوصاف الواصفين، واضلحت أقاويل المبطلين عن الدرك العجيب شأنك، أو الوقوع بالبلوغ إلى علوك، فأنت فى المكان الذى لا يتناهى ولم تقع عليك عيون بأشارة ولا عبارة، هيهات ثم

هيات» [٦٣٤]

إلّا أنّ هذا لا يعنى أنّ المعرفة الإجمالية متعذرة علينا؛ فقد ملأت آثار ذاته وصفاته الوجود بأسره، فضلا عن وجودنا.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٩٧

القسم الثاني: الاتعاظ والاعتبار

ومنها: «فَاتَعَطُّوا عِبَادَ اللَّهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ، وَاعْتَبَرُوا بِالْأَيِّ السَّوَاطِعِ، وَازْدَجَرُوا بِالتُّنْذِرِ الْبَوَالِغِ، وَانْتَفَعُوا بِالذِّكْرِ وَالْمَوَاعِظِ، فَكَأَنَّ قَدْ عَلِقْتُمْ مَخَالِبَ الْمَيِّتَةِ وَانْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عِلَاقَةُ الْأُمِّيَّةِ، وَدَهَمَتْكُمْ مَفْطَعَاتُ الْأُمُورِ، وَالسِّيَاقَةُ إِلَى الْوَرْدِ الْمَمُورُودُ، فَ «كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ»: سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا؛ وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا».

الشرح والتفسير

لقد واصل الإمام عليه السلام كلامه بحمل مخاطبيه إلى التأمل في سالف التاريخ وحوادثه التي تنطوي على الدروس والعبر بغية توظيفها لما يخدم مصيرهم وعاقبتهم، فقال:

«فَاتَعَطُّوا عِبَادَ اللَّهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ».

نعم تذكروا عظماء التاريخ وكبكبئة الملوك السلاطين والثراء العظيم الذي كان عليه الماضون والحياة المرفهة الوداعة، ثم انظروا كيف أتى الدهر عليها فأحالتها ركاما بعد أن أبادهم عن آخرهم، فلم تبق من قصورهم الشاهقة سوى الاطلال، بل لم يبق من أجسادهم سوى العظام النخرة، فقد ذهبوا وأكلهم النسيان. ثم قال عليه السلام:

«واعتبروا بالأى السواطع» [٦٣٥] اذ دجروا بالتندر البوالغ

فهى من قبيل التحذيرات التي أثارها القرآن الكريم، فهو يشرح أحيانا العذاب الأليم الذى نزل بالأقوام الطاغية الظالمة الماضية، واخرى يتحدث عن شدة العذاب الاخرى، وأخيراً يضطر الإنسان للتفكير بجد في عاقبته، ويحذره من

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٩٨

مقارنة الذنوب والمعاصى. ثم قال عليه السلام:

«و انتفعوا بالذكر والمواعظ»

والفارق بين هذه التحذيرات الأربع: ففي التحذير الأول يلفت الإمام عليه السلام انتباه الجميع إلى الحوادث التاريخية الماضية والحاضرة التي تنطوي على الدروس والعبر ليتعظ بها، وفي التحذير الثانى أشار إلى دلالة سبحانه فى عالم الوجود أو الآيات القرآنية التي توقظ الضمير. وفي التحذير الثالث تطرق إلى نذر أولياء الله. وأخيراً تعرض فى التحذير الرابع إلى نصائح أولياء الله ومواعظهم، وهى التحذيرات الكافية لآثاره حيطه وحذر من كان له أدنى استعداد للتقبل. ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن مرارة لحظات الموت ومعالجة سكراته فقال:

«فَكَأَنَّ قَدْ عَلِقْتُمْ [٦٣٦] مَخَالِبَ [٦٣٧] الْمَيِّتَةِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عِلَاقَةُ الْأُمِّيَّةِ، وَدَهَمَتْكُمْ [٦٣٨] مَفْطَعَاتُ [٦٣٩] الْأُمُورِ، وَالسِّيَاقَةُ إِلَى الْوَرْدِ الْمَمُورُودِ، فَ «كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ»: سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا؛ وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا»

. لما كان الموت قد كتب على الجميع ولم يعنى زمانه، بحيث يفاجئ الإنسان، فإن الإمام عليه السلام يتحدث عنه كأمر قد وقع، فيصرح كأتى قد رأيتكم فى مخالبا الموت وقد أحاطت بكم سكراته وقد قطعت كل أمانيتكم وذهبت أدراج الرياح كأنها ضرب من ضروب الخيال والاحلام، وكأنكم انتقلتم من هذه الدنيا إلى الآخرة، يقود كما المكان إلى المحشر. وقد ورد عن الإمام شبيه هذا المعنى فى الخطبة ٢٠٤

«تجهزوا رحمكم الله! فقد نودى فيكم بالرحيل، وأقلوا العرجة على الدنيا، وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد، فان أمامكم عقبة

كثودا، ومنازل مخوفة مهولة، لا بد من الورد عليها، والوقوف عندها».

والعبارة

«والسياقة إلى الورد المورود»

إشارة إلى الآية ٩٨ من سورة هود: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٢٩٩

الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ».

«ورد»

تعنى ما يشقه من طريق بمحاذاة النهر الكبير الذى يتعد ساحله عن الماء، ليتمكن الشخص من الوصول إلى الماء بسهولة، والمورد هو الموضوع الذى يرده العطاش، وهى إشارة إلى أن المذنبين محرومون من ماء أنهار الجنة العذبة الزلال فيردون ماء جهنم، الذى يشوى الوجوه والبطون. وقوله عليه السلام:

«كل نفسٍ معها سائقٌ وشهيدٌ»

. أما المراد بالسائق والشهيد فقد اختلفت فيه أقوال مفسرى القرآن وشراح نهج البلاغة. فذهب البعض إلى أن المراد بالسائق الملك الذى يكتب الحسنات، والشهيد من يكتب السيئات، وقيل السائق ملك والشهيد أعضاء بدن الإنسان، أو صحيفة أعماله التى تعلق فى عنقه. وهناك قول آخر أن يكون المراد بالسائق الملك الذى يجمع بين الأمرين، كأنه قال: وجاءت كل نفس معها ملك يسوقها إلى المحشر ويشهد عليها. وأخيراً قيل السائق هو الأمر الإلهى الذى يسوق الإنسان إلى المحشر من أجل الوقوف للحساب والجزاء، والشاهد الأنبياء والعلماء، أو عقل الإنسان وأعضاؤه. إلّا أن الأظهر فى الأخبار والآثار أنهما ملكان، أحدهما يسوق الإنسان إلى المحشر، والاخر يشهد على أعماله.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٠١

القسم الثالث

إشارة

ومنها فى صفة الجنة

«دَرَجَاتٌ مُتَفَاوِضَاتٌ، وَمَنَازِلٌ مُتَفَاوِتَاتٌ، لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا، وَلَا يَطْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلَا يَهْرُمُ خَالِدُهَا، وَلَا يَبْئَسُ سَاكِنُهَا».

الشرح والتفسير

درجات الجنة

نفحات الولاية ؛ ج ٣؛ ص ٣٠١

تم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن نعم الجنة وألطف البارئ سبحانه باهلها ليخطط الانذار بالبشارة جريا على طريقة القرآن فى خلق الشعور بالخوف والرجاء لدى العباد لتدفعهم بالتالى نحو السمو والتكامل والسير إلى الله، فقال:

«درجاتٌ متفاضلاتٌ، ومنازل متفاوتاتٌ»

فالعبارة تفيد أن الإنسان لا ينبغي أن يقتنع بما عليه من الكمال مهما كانت المرحلة التى بلغها، وعليه أن يواصل مسيرته ويجد فى العلم

والعمل ويسعى لتهديب نفسه. ومن الواضح أن نصيب الإنسان من النعم المادية والمعنوية الاخروية إنما يتوقف على مدى إيمانه وعمله ومعرفته وما تحلى به من أخلاق. وقد أشار القرآن كرارا إلى درجات الجنة كقوله:

«وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا» [٦٤٠] وقال: «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ» [٦٤١]، ثم تعرض لشرح هذه الدرجات: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» [٦٤٢] وقال:

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٠٢

«وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ» [٦٤٣] ثم اختتمت سورة الواقعة بالحديث عن هاتين الطائفتين التي تفوق إحداهما الاخرى فقال:

«فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَيَلَامُ لَكَ * مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» [٦٤٤]. كما صرح القرآن بأن مثوى المؤمنين الصالحين

«جَنَّاتِ عدن»

وطائفة

«جَنَّاتِ المأوى»

واخرى

«جَنَّاتِ الفردوس»

وأخرى

«جَنَّاتِ النعيم»

في إشارة إلى مقامات الجنة ودرجاتها. [٦٤٥] وجاء في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض؛ الفردوس أعلاها درجة، منها تفجر أنهار الجنة الأربعة، فاذا سألتموا الله، فاسألوه الفردوس» [٦٤٦]

وورد أيضاً

«إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لِيُرُونَ أَهْلَ عِلْيَيْنِ كَمَا يَرَى النُّجْمُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ» [٦٤٧]

ومن الطبيعي أن تتفاوت مقامات المؤمنين في الجنة على ضوء إيمانهم عملهم، ولعل العدد مئة الوارد في الحديث إشارة إلى الكثرة وأن تفاوت المقامات أكثر بكثير من هذا العدد، كما يمكن أن تكون الدرجات الأصلية للجنة مئة درجة، وتقسم كل واحدة منها إلى

عده درجات، ومن هنا ورد في القرآن: «وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى» [٦٤٨]. وورد في حديث

الإمام زين العابدين عليه السلام أن درجات الجنة بعدد آيات القرآن، فيقال لقارئ القرآن يوم القيامة اقرأ وارقا.

[٦٤٩] ثم ذكر عليه السلام أربع صفات للجنة تفوق كل واحدة منها الاخرى، فقال عليه السلام:

«لا ينقطع نعيمها»

أى نعمها ليست من قبيل نعم الدنيا التي تزداد وتنقص وتنعدم، ما ورد ذلك في الآية ٣٥ من سورة الرعد:

«أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا»، ثم قال في الصفة الثانية

«ولا يظعن [٦٥٠] مقيمها»

والصفة الثالثة

«ولا يهرم خالدها»

وأخيرا الصفة الرابعة

«ولا يبأس [٦٥١] ساكنها».

نجمات الولاية، ج ٣، ص: ٣٠٤

الخطبة [٦٥٢] السادسة و الثمانون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
وفيها بيان صفات الحق جل جلاله، ثم عظة الناس بالتقوى والمشورة [٦٥٣]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة في الواقع من خمسة أقسام: القسم الأول كما ورد في أغلب خطب نهج البلاغة في بيان أوصاف الله سبحانه؛ الصفات ذات الأثر البالغ في تربية الإنسان وتصده عن الذنوب والمعاصي وتسوقه إلى الخير والاحسان. القسم الثاني في وعظ الناس والتزود من هذه الدنيا والتأهب للآخرة وعدم نسيان الهدف من خلقهم. القسم الثالث في أهمية القرآن واتمام الحجّة. القسم الرابع تحذير الناس من نوم الغفلة وتدارك ما مضى من العمر في أواخره والحيطة من مكائد الشيطان. وأخيرا القسم الخامس في الإشارة إلى بعض الصفات الذميمة والتعريف بأفضل الأفراد.

فألخطبة بهذه الأقسام علاج لمرضى القلوب من أهل الغفلة.

نجمات الولاية، ج ٣، ص: ٣٠٥

القسم الأول: العالم بالخفايا والاسرار

«قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ، وَخَبَرَ الضَّمَائِرَ، لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْغَلْبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى خمس من صفات الله سبحانه، يفيد التفاعل معها وتصديقها إلى الانقياد إلى الحق وتهذيب النفس وتركيبتها.

الصفة الاولى

«قد علم السرائر».

الصفة الثانية:

«و خبر الضمائر».

الصفة الثالثة:

«له الإحاطة بكلّ شئ».

الصفة الرابعة:

«و الغلبة لكلّ شئ».

الصفة الخامسة:

«و القوة على كلّ شئ».

وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى وحدة معنى العبارة الاولى والثانية وعدوها من قبيل المرادفات في أنّ الله عليم بأسرار وخفايا

كل فرد. بينما قال البعض: خبر بفتح الباء بمعنى الاختبار وخبر بكسرهما بمعنى العلم، فقد وردت الاولى بمعنى الاختبار فى موضع آخر من نهج البلاغة

«إنما مثل من خبر الدنيا» [٦٥٤]

ولما كان الأصل فى الجملة هو بيانها لمعنى جديد، يبدو أن تفسير الخبر بالامتحان أنسب، وإن كان الامتحان سبب العلم، بل قد يكون امتحان الشئ

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٠٦

كناية عن العلم به. على كل حال الهدف هو أن نلتفت إلى أن البارى سبحانه علیم بكافة أسرارنا وما يدور فى خلدنا، حتى أنه أعلم بنا من أنفسنا، فهو يعلم بسوء نياتنا وريائنا وشر كنا، وعلمه بظاهرنا وباطننا على حد سواء. والعبارة «له الإحاطة بكل شئ»

من قبيل ذكر العام بعد الخاص، لأن العبارات السابقة تحدثت عن احاطته العلمیة سبحانه بباطن الناس، بينما أشارت هذه العبارة إلى علمه بكافة الأشياء، ومن ذلك أيضاً العبارة الرابعة والخامسة التى تحدثت عن قدرته المطلقة سبحانه، مع هذا الفارق وهو أن العبارة الرابعة ناظرة لغلبته وسيطرته على كل شئ، فى حين تبين الخامسة قدرته على الإتيان بكل شئ. وقيل أن الفارق بينهما هو أن القوة على كل شئ تعنى القدرة على إيجاده، والغلبة تعنى السيطرة بعد الإيجاد؛ أى أن الأشياء لا تستطيع الخروج من قدرته سبحانه بعد إيجادها. على كل حال فإن هذه الصفات الخمس شرح لعلم الله وقدرته المطلقة، ومن شأن استحضارهما مجانبة الخطايا والاندفاع نحو الطاعة والانقياد للحق.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٠٧

القسم الثانى: الزاد إلى المعاد

«فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامٍ مَّهَلَةٍ، قَبْلَ إِرْهَاقِ أَجَلِهِ، وَفِي فَرَاغِهِ قَبْلَ أَوَانِ شُغْلِهِ، وَفِي مُتَنَفِّسِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظْمِهِ، وَلِيْمَهْدَ لِنَفْسِهِ وَقَدَمِهِ، لِيَتَرَوِّدَ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ. فَاللَّهُ اللَّهُ أَيُّهَا النَّاسُ، فِيمَا اسْتَحْفَظْتُمْ مِنْ كِتَابِهِ، وَاسْتَوَدَّعْتُمْ مِنْ حُقُوقِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً وَلَمْ يَدْعُكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَلَا عَمَى، قَدْ سَمَى آثَارَكُمْ، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ، وَكَتَبَ آجَالَكُمْ».

الشرح والتفسير

لفت الإمام عليه السلام الانتباه سابقاً إلى قدرة الله وعلمه بخفايا الكائنات وأسرار الضمائر، وما ذلك إلا مقدمة لما أورده هنا: «فليعمل العامل منكم فى أيام مهلة [٦٥٥] قبل إرهاق [٦٥٦] أجله، وفى فراغه قبل أوان شغله، وفى متنفسه [٦٥٧] قبل أن يؤخذ بكظمه [٦٥٨]

ثم بين عليه السلام الهدف من هذا الجهد والعمل فقال:

«و ليْمَهْدَ لِنَفْسِهِ وَقَدَمِهِ، وليتروّد من دار ظعنه لدار إقامته»

فالواقع هو أن العبارات السابقة تحدثت عن أصل السعى والعمل، بينما عينت الأخيرة مساره وجهته.

جدير بالذكر أن العبارة

«أيام مهله»

فسرت بالعبارات الثلاث اللاحقة، فالعبارة الاولى

«قبل إرهاق أجله»

إشارة إلى أصل نعمة الحياة والعمر، والعبارة الثانية

«وفي فراغه»

إشارة إلى

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٠٨

نعمة الفراغ في مقابل الانشغال والعمل والههم بالزوجة والولد، والعبارة الثالثة

«وفي متنفسه»

نعمة العافية والسلامة وعدم وجود الشدائد والمصائب. أما العبارة

«وليمهد...»

فهى تشير إلى التأهب للآخرة، فى حين تشير

«وليتزود»

إلى التجهز وكسب الزاد؛ على غرار ما يفعل الإنسان فى هذه الدنيا، حيث يعد المنزل وأدواته ثم يتجه صوب الزاد والمتاع. ثم يواصل الإمام عليه السلام تحذيراته فيقول:

«فالله الله أيها الناس، فيما استحفظكم من كتابه، واستودعكم من حقوقه».

طبعاً المراد من الكتاب القرآن الكريم حيث كلف الناس بصيانته والالتزام بأحكامه، أما المقصود بالحقوق التى استودعها العباد فهى

أحكام الحلال والحرام التى ينبغى الالتزام بها وعدم مخالفتها. [٦٥٩] ثم بين الدليل من هذا الانذار بقوله:

«فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى [٦٦٠] ولم يدعكم فى جهالة ولا عمى، قد سمي آثاركم، وعلم أعمالكم، وكتب آجالكم»

فهى عبارات قصيرة ذات معان بعيدة تختزن المفاهيم العظيمة المؤيدة بالآيات القرآنية. فقد أشار فى المرحلة الاولى إلى الهدف من

وراء خلق الإنسان، ومن ثم الحديث عن الامور التى تنطوى عليها الحياة الإنسانية، والمرحلة الثالثة الحديث عن وجود الزعماء والعلم

بالأعمال، وتطرق بعد ذلك إلى بيان الوظائف والمسؤوليات وعلم الحق سبحانه بأعمال البشر، وأخيرا الحديث عن قصر عمر الإنسان

وحلول أجله. ومن الواضح أن الإنسان إذا إلتفت إلى هذه الامور وصدقها بكل كيانه ووجوده سيجد من أجل حفظ كتاب الله

والالتزام بحقوقه. فالمهم أن يستحضر الإنسان هدف الخلق ويستفيد مما زوده به الله سبحانه من إمكانيات، فيؤمن بأن الله عالما بأفعاله

وإلا ينسى بأن عمره قصير آيل إلى زوال؛ الامور التى تلعب دوراً بناءً فى خلق شخصيه الإنسان وتهذيب نفسه. فقد قال القرآن بهذا

الشأن: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ» [٦٦١] وقال: «قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ

فَعَلَيْهَا» [٦٦٢] وقال فى الآية ٣٠ من سورة محمد:

«وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ» وقال «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ». [٦٦٣]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٠٩

القسم الثالث: الكتاب الجامع

إشارة

«وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمْ «الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَرْمَانًا، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ- فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ- دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ؛

وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ- عَلَى لِسَانِهِ- مُحَابَبَةَ مَنْ الْأَعْمَالِ وَمَكَارِهِمْ، وَنَوَاهِيَهُ وَأَوَامِرَهُ، أَلْقَى إِلَيْكُمْ الْمَعِيدَةَ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ

بِالْوَعِيدِ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

الشرح والتفسير

جامعية القرآن والسنة

جرى الحديث سابقا عن إتمام الحجّة على العباد، وهنا يتوسع الإمام عليه السلام في هذا الموضوع فيقول: «و أنزل عليكم «الكتاب تبيانا لكلّ شيءٍ» وعمّر فيكم نبيه أزمانا، حتّى أكمل له ولكم م- فيما أنزل من كتابه- دينه الّذى رضى لنفسه».

نعم فقد أنزل سبحانه ذلك الكتاب الجامع الذى ينطوى على كافّة المعارف الإلهية والتعاليم المادية والمعنوية على جميع مستويات الحياة البشرية كما ورد ذلك فى الآية ٨٩ من سورة النحل: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ». كما منح نبيّه صلى الله عليه و آله الفرصة الكافية لإبلاغ الدين واتمامه؛ الأمر الذى صرحت به الآية الثالثة من سورة المائدة: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا». ثم خاض فى التفاصيل بغية توضيح نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣١٠

المطلب فقال عليه السلام:

«و أنهى [٦٦٤] إليكم - على لسانه - محابته [٦٦٥] من الأعمال ومكارهه، ونواهيه وأوامره، وألقى إليكم المعذرة، واتخذ عليكم الحجّة، وقدم إليكم بالوعيد، أنذركم بين يدي عذاب شديد»

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى إنعدام العذر بفضل القرآن وسنة النبي الأكرم صلى الله عليه و آله وماتضمناه من تعاليم ومفاهيم، فليس لأى فرد أن يتفوه ببعض الكلمات من قبيل

«لم أكن أعلم»
أو
«لم أف على هذه الامور»

أو ما بلغتني الحجّة، والحق أنّ هذه العبارة مصداق واضح لقوله سبحانه فى كتابه العزيز: «قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ» [٦٦٦]. تنطوى العبارة «و أنزل عليكم «الكتاب تبيانا لكلّ شيءٍ»» المقتبسة من الآية ٨٩ من سورة النحل على حقيقة مهمة ينبغى أن يتوقف عندها الجميع. طبعاً ليس المقصود بهذه العبارة أنّ القرآن كتاب موسوعى يضم كافّة الفروع والتخصصات العلمية كالرياضيات والجغرافيا والكيمياء والفيزياء إلى جانب العلوم الانسانية وما انطوت عليه المدارس الفكرية والنزعات الفلسفية، بل المراد أنّ القرآن يشتمل على كل ما نزل من أجله وهدف إليه هذا الكتاب السماوى والذى يخلص فى بلورة شخصية الإنسان وسعادته فى جميع الأصعدة والياديين. فقد بين المعارف الدينية والحقائق المرتبطة بالمبدأ والمعاد ووظائف الإنسان ومسؤولياته تجاه خالقه وتجاه بنى جنسه، إضافة إلى تبيين المسائل الأخلاقية والقضايا الاجتماعية والمتطلبات الاقتصادية، وقد عمد أحيانا إلى بيان كافّة الجزئيات والتفاصيل (كبيانه للأحكام المتعلقة بالعقود المالية ومعاملات الديون التى إستعرضتها الآية ٢٨٢ من سورة البقرة، بينما أشار أحيانا

أخرى إلى الاصول الكلية والقواعد العامة من قبيل

«باب يفتح منه

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣١١

ألف باب».

فالآية القرآنية التى وردت ضمن الخطبة إلى جانب روايات أئمة العصمة عليهم السلام تذكر المسلمين بأن الهداية والسعادة إنّما تكمن فى القرآن.

إجابة عن سؤال

يبرز هنا هذا السؤال: ما الحاجة إلى سنة النبي وأقوال المعصومين في ظل وجود القرآن الكريم؟ والجواب على هذا السؤال واضح وهو أن أغلب الآيات تحتاج إلى شرح وتفسير وبيان الشرائط وذكر موارد الاستثناء، أو الآيات المتشابهة التي لا تفسر الا- من المعصومين عليهم السلام بردها إلى المحكمات. على سبيل المثال ترد آية في الزكاة وتطرق إلى مستحقيها من الاصناف الثمانية دون الإشارة إلى ما يجب فيه الزكاة وحد النصاب والشرائط المرتبطة بمرور الحول والشروط التي ينبغي توفرها في المستحقين، وكيفية جمع الزكاة وإنفاقها التي تتطلب تفسيراً من المعصومين عليهم السلام. وناهيك عما سبق فإن هنالك بعض المستحدثات التي تستجد بفعل تقادم الزمان والتي ينبغي البحث عن جذورها واصولها في كتاب الله من أجل إستنباط الأحكام، هنا لابد من إرشادات المعصومين عليهم السلام لتفادي الزلل. والجدير بالذكر أن القرآن قد دعى الناس إلى الانفتاح على جميع العلوم والمعارف، وأمر بالرجوع إلى أهل الخبرة في كل مسألة من المسائل.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣١٣

القسم الرابع: إغتنام الفرصة

إشارة

«فاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ، وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْعُقْلَةُ، وَالتَّشَاغُلُ عَنِ الْمُوعِظَةِ؛ وَلَا تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ، فَتَذْهَبَ بِكُمْ الرُّخْصُ مَذَاهِبَ الظُّلْمَةِ، وَلَا تُدَاهِنُوا فِيهِجَمَ بِكُمْ الْأِذْهَانُ عَلَى الْمُعْصِيَةِ».

الشرح والتفسير

ما إن فرغ الإمام عليه السلام من الانذار والتحذير واتمام الحجّة على الناس حتى خُصص إلى هذه النتيجة المهمة «فاستدرِكوا بقية أيامكم، واصبروا لها أنفسكم»

ثم استدل عليه السلام على ذلك بالقول

«فإنّها قليلٌ في كثيرِ الأيامِ التي تكونُ منكم فيها الغفلة، التّشاغلُ عن الموعظة»

وحقاً أنّ الأمر كذلك فلو انتبه الإنسان إلى ساعات عمره وأيامه ولياليه لرأها قصيرة، وعليه فلا بد من اليقظة في ما بقي من عمره والاستناد إلى سلاح الصبر والاستقامة، وذلك لأنّ الحيطة والحذر من الغفلة تستلزم الصبر، إلى جانب كون الطاعة واجتناب المعصية هي الأخرى بحاجة إلى الصبر، فقد صرحت بعض الروايات الإسلامية بأنّ نسبة الصبر إلى الإيمان كنسبة الرأس إلى الجسد. [٦٦٧]

والعبارة

«تكون منكم فيها الغفلة»

بالفعل المضارع إشارة إلى أنّ هذه الغفلة لم تصدر منكم في الماضي، فهي كذلك في الحاضر، فجدوا واجتهدوا في المستقبل لتدراك ما فرط منكم في السابق. ثم تطرق عليه السلام إلى نقطتين مهمتين تمثلان في الواقع سبيلين خطرين من سبل نفوذ الشيطان؛ الأول:

«و لا ترخّصوا لأنفسكم، فتذهب بكم الرّخص مذاهب الظلمة»

فالتجارب

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣١٤

تفيد أن أولئك الذين جاوزوا الحد في المباحات والرخص قد هوى آخر الأمر في مستنقع المحرمات. فقد شبهت بعض الروايات والأخبار المحارم بالغرق والمنطقة المحظورة ذات الحدود المعينة ثم شبهت النفس البشرية بالشاة التي ترعى عند تلك الحدود، حتى يلوح لها العلف فتندفع نحوه. فالإنسان قد يندفع بأقصى ما لديه لممارسة المباحات حتى تخدعه نفسه فاذا هو يقارف الخطيئة والمعصية. فقد قال الإمام على عليه السلام:

«والمعاصي حمى الله، فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها» [٦٦٨]

. وقد وردت التعبيرات القرآنية الرائعة التي تحذر من الاقتراب من تلك الحمى كقوله: «وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ» [٦٦٩] و «وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَا» [٦٧٠] و «وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ» [٦٧١].

فأفضل سبيل لمجانبة الذنب تكمن في عدم الاقتراب منه، فلا يوغل في المباح خشية من السقوط بما بعده. والسبيل الثاني: «ولا تدهنوا» [٦٧٢] فيهجم بكم الإدهان على المعصية»

. المراد بالمداهنه هنا مما شاء الإنسان ومرونته لأجل الذنوب والمعاصي واطهار حالة من النفاق، فإن من شأن هذا النفاق أن يقود الإنسان إلى مقارفة الذنب. وأحد المصايق التي يمكن الإشارة إليها هنا ما تعارف بالحيل الشرعية واللجوء إلى بعض الأساليب التي تعد من الحلول الكاذبة لبعض المشاكل، حيث تنتهي بالإنسان في خاتمة المطاف إلى الوقوع في المعصية علانية، وهذا بدوره يعد من سبل الشيطان لجر الإنسان إلى الذنب والخطيئة. وأحياناً يخدع الإنسان نفسه ليقارب الذنب، كما يخدع أحياناً من قبل الآخرين للإتيان بالمعصية، وكلا الأمرين من مصاديق المداهنه. ومن هنا حذر الإمام عليه السلام من هذين السبيلين بغيه غلق الابواب بوجه الشيطان وعدم الوقوع في حباله.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣١٥

طرق نفوذ الشيطان

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى طرق نفوذ الشيطان في قلوب الناس، ليؤكد على موضوعين مهمين بهذا الشأن. الأول المبالغة في الاستفادة من الحرية وممارسة المباحات؛ وذلك لأن بعض المباحات تمثل الحد الأخير لحيز الذنب، بحيث يرد الإنسان هذا الحيز إذا ما اندفع أكثر من اللازم. فالإمام عليه السلام يحذر هنا من الاندفاع وراء هذه المباحات، حيث يخشى على مثل هذا الفرد أن يسلك سبيل الظلمة. ومن هنا نرى الدول والبلدان تعتمد اليوم إلى تعيين حدودها لتشكّل حزامها الامني، ولا يحق للأفراد أن يقتربوا لبضع كيلومترات من هذه الحدود، لأن الوصول إلى النقطة الحدودية قد يسول للإنسان إذا وصل حد الذنب، قد يبدو له سهلاً فتوسوس له نفسه لمقارفته. والطريق الثاني الذي ينفذ من خلاله الشيطان إلى الإنسان إنما يكمن في مداهنه أهل الذنوب والمعاصي ومجاملتهم على أعمالهم، إلى جانب حل بعض المعضلات من خلال الحيل الشرعية وما شابه ذلك. فعادة أهل المعاصي هي الاستخفاف بالذنب والمعصية وتصغيرها في نظر الآخرين، كما أن الحيل الشرعية تقضى على فضاغة الذنب وشدته وتهتك الحجب المضروبة بينه وبين الإنسان، فقد جاء في الخبر أن أمير المؤمنين على عليه السلام قال:

«من داهن نفسه هجمت به على المعاصي المحرمة» [٦٧٣]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣١٧

القسم الخامس: من هو السعيد؟

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ؛ وَإِنَّ أَعْشَهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ؛ وَالْمَغْبُوتُ مَنْ غَبِنَ نَفْسَهُ، وَالْمَغْبُوتُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بغيرِهِ». والشَّقِيُّ مَنْ انْخَدَعَ لِهَوَاهُ وَغُرُورِهِ».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام حديثه بالنذر والتطرق لسبل نفوذ الشيطان، ليورد هنا بست عبارات قصيرة عظيمة كيفية العمل والخلاص، فقال بادئ ذي بدء:

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ»

ومعنى هذه العبارة أن لا يخدع الإنسان نفسه ولا يكذب عليها ولا يجعل من نقاط ضعفه عناصر قوة في شخصيته ولا يسدل استار عيبه ونقصه أمام نفسه، بل يتهم نفسه بكل إخلاص، فمثل هذا الإنسان يتجه لا محالة نحو الطاعة. [٦٧٤] ثم أشار في العبارة الثانية إلى عكس ذلك فقال:

«وَأَنَّ أَعْشَهُمْ [٦٧٥] لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ»

. ومن الطبيعي أن الإنسان إذا خدع نفسه وأخفى عنها عيبه، تراءى له الذنب مباحا، بل قد يبدو له أحيانا أمرا واجبا، وهكذا تتوفر لديه الأرضية الخصبة لمقارفة الاثم والمعصية. وقال في العبارة الثالثة:

«وَالْمَغْبُوتُ مَنْ غَبِنَ نَفْسَهُ»

في إشارة إلى أن بعض الأفراد قد يخدعون هذا الإنسان ويغبنه فيسلبوه ما لديه، كما قد يرتكب الإنسان مثل العمل بحق نفسه فيخدعها فيفقد عناصر القوة

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣١٨

التي كان من المفترض أن تقوده نحو الفوز بالآخرة ونيل سعادتها وفلاحها. وقال في العبارة الرابعة:

«وَالْمَغْبُوتُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ»

. فالغبطة أن يتمنى الإنسان ماغيره من النعم، وعليه فالمغبوط هو المستحق لتطلع النفوس إليه والرغبة في نيل مثل نعمته، فان جد واجتهد الإنسان وتمكن من الحفاظ على دينه وإيمانه في ظل هذه الدنيا وتقلباتها فقد أحرز أعظم النعم الإلهية التي يجدر بالآخرين أن يغبطوه عليها. وعلى ضوء القاعدة الأدبية فان تقديم الخبر على المبتدأ يفيد الحصر، فالعبارة تفيد أن الغبطة لا تكون سوى تجاه من حفظ دينه وإيمانه ازاء حوادث الدهر ومكاره الدنيا، لاتجاه من ينال بعض المقامات ويجبى الأموال والثروات وسائر الإمكانيات المادية الآيلة إلى الفناء والزوال. وقال في العبارة الخامسة:

«وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بغيرِهِ».

فمما لاشك فيه أن الحوادث المريرة والتجارب القاسية تعد وسيلة لليقظة ومصدرا لنصيحة الإنسان ووعظه، ولكن ما أروع أن يستفيد من تجارب الآخرين ويتعظ بمصيرهم دون أن يرتكب بعض الاخطاء التي قد تلهمه بعض التجربة، فكأنى بهذا الفرد كذلك المنزل الذي جاور حديقه غناء وكان يعمل فيها الآخرين بينما يصله نسيمها ورائحتها الزاكية. ولما كان مصير الأفراد في حياتهم متشابه في الغالب، وعبارة اخرى

«التأريخ يعيد نفسه»

فلكل فرد أن يرى جانبا من مصيره في حياة الآخرين. وبناءً على هذا فليس هنالك من يستثنى من هذه العبارة ولا يعتبر بحياة الآخرين. هذا وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن العبارة

«وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بغيرِهِ»

تعد مثلاً من الأمثال المعروفة في الأدب العربي [٦٧٦]. بينما عدّها ابن أبي الحديد من الأمثال النبوية. [٦٧٧] ثم اختتم الخطبة بما يقابل

العبارة السابقة قائلاً:

«والشقي من انخدع لهواه وغروره»

. واضح أن الإنسان يلام إذا خدع من قبل الآخرين، إلا أنه يكون أكثر ملامة إذا انخدع بهوى نفسه، وذلك لأنه أحرق سعادته بنفسه.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣١٩

مواطن السعادة لدى الإنسان

من ضمن الأهداف التي تضمنتها الخطبة أن الإمام عليه السلام أشار إلى أن مقومات سعادة الإنسان وفلاحه كامنة في باطنه، لا أن ترد عليه من الخارج. فهو الذي يخدع نفسه، وهو الذي يغيبها وهو الذي يسعه خلق سعادته، وأخيراً هو الذي يفوز بالآخرة بعد أن ينتصر على نفسه ويتغلب على أهوائها وشهواتها. والكلام يصدق على الفرد، كما يصدق على المجتمع؛ فأغلب الأفراد لاسيما في عصرنا الراهن ينسبون عوامل البؤس والشقاء إلى الخارج، فيخدعون أنفسهم ويغلقون عليها سبل النجاة، والحال لا بد من إقتفاء آثار هذه الأزمات في الذات والروابط الاجتماعية والأهواء النفسية والفرقة والشقاق والنفاق والحسد وسائر الأمراض المقيتة. وكفى بهذه الخطبة سبيلاً لسعادة الإنسان حتى لو لم تتضمن سوى هذا الهدف العظيم.

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٢١

القسم السادس: الصفات والذميمة

إشارة

«وَأَعْلَمُوا أَنَّ «يَسِيرَ الرِّيَاءِ شَرُّكَ» وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهُوَى مُنْسَاءٌ لِلإِيمَانِ، وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ. جَانِبُوا الْكُذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلإِيمَانِ. الصَّادِقُ عَلَى شَفَا مَنْجَاةٍ وَكَرَامَةٍ، وَالْكَاذِبُ عَلَى شَرَفٍ مَهْوَاهُ وَمَهَانَةٍ. لِاتِحَاسِدُوا، فَإِنَّ الْحَسِيدَ يَأْكُلُ الإِيمَانَ «كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»؛ وَلَا تَبَاغُضُوا فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ»؛ وَأَعْلَمُوا أَنَّ الأَمَلَ يُسْهِى العَقْلَ، وَيُنْسِي الذِّكْرَ، فَأَكْذِبُوا الأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ».

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالتحذير من ست رذائل (الرياء، مجالسة أهل الهوى الكذب، الحسد، التباغض وطول الأمل)، إلى جانب الإشارة لما تختزنه كل رذيلة من أضرار، فقال عليه السلام:

«و اعلموا أن يسير الرياء شرك»

لأن المرائي يقوم بالعمل رضا للعباد وتظاهراً بالاحسان من أجل لفت إنتباه الآخرين، ليطلب العزة من أقرانه الضعفاء العجزة بدلاً من طلبها من منبعها:

«وَتُعْزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ» [٦٧٨] وهذا شرك يتناقض وتوحيد الأفعال. وقد تظافرت الروايات والأخبار التي صرحت بأن المرائي ينادى يوم القيامة:

«يا كافر! يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! حبط عملك وبطل أجرك، فلا خالص لك اليوم، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له» [٦٧٩]

أضف إلى ذلك فإن المرائي ولتناقض ظاهره وباطنه فهو في زمرة المنافقين، ولهذا فإن النفاق

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٢٢

يحيل أعماله إلى قشور لالب فيها. فقد ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إنه قال:

«سيأتى على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم، وتحسن فيه علانيتهم، طمعاً في الدنيا، لا يريدون بها ما عند ربهم، يكون دينهم رياءً؛

«يخالطهم خوف، يعمهم الله بعقاب، فيدعونه دعا الغريق، فلا يستجيب لهم» [٦٨٠]
وبالطبع فإن أفصح الناس إذا وضعت موازين القيامة هم أهل الرياء. ثم أورد الرذيلة الثانية:
«ومجالسة أهل الهوى منسأة» [٦٨١] للإيمان، ومحضرة» [٦٨٢] للشيطان»

لأنّ الهوى لا يعرف الحدود والقيود فيملاً كيان الإنسان ويستهلك فكره فلا يدع من مجال للإيمان، ومن الطبيعي أن يكون مثل هذا المجلس محضراً للشياطين. ومخالطة الآخرين على درجة من الأهمية بحيث ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:
«المرء على دين خليله وقرينه» [٦٨٣]

. وجاء في المثل المعروف:

«قل لي من تعاشر، أقل لك من أنت» [٦٨٤]

. ثم حذر عليه السلام من رذيلة الكذب:

«جانبوا الكذب فإنه مجانِبٌ للإيمان»

فالمفردة جانبوا تفيد أنّ الكذب على درجة من الخطورة بحيث يجب على الإنسان أن يبتعد عنه ولا يقرب، حذراً من أن تتفاذفه الوسواس فتلقيه في الهاوية. والعبارة:

«مجانِبٌ للإيمان»

لا تفيد أنّ الكذب لا ينسجم والإيمان فحسب، بل هو شديد البعد عنه، لأن الكاذب إنما يكذب عادةً لجلب منفعة أو دفع ضرر أو بدافع من هوى النفس، والحال يعلم المؤمن أنّ كل هذه الامور بيد الله، كما يؤمن بأنّ الهوى نوع من الوثنية. وشاهد ذلك الجملة اللاحقة التي بينها الإمام عليه السلام تأكيداً للعبارة السابقة فقال:

«الصّادق على شفا» [٦٨٥] منجاةً وكرامةً، والكاذب على شرف مهواة» [٦٨٦] ومهانةً.

ثم قال محذراً من الرذيلة الرابعة:

«ولاتحاسدوا، فإنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»؛

لأنّ

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٢٣

الحسود في الواقع يعترض على نظام الخليقة واغداق الله لنعمه على العباد؛ الأمر الذي لا ينسجم والإيمان، أضف إلى ذلك فليس للحسود أن يرى سعادته في سلب نعم الآخرين، ولو كان مؤمناً بالله لسأل الله مثل هذه النعم. ثم حذر عليه السلام من البغض والعداء «و لا تباغضوا فإنّها الحالقة»

. الحالقة من مادة حلق (وبالنظر إلى حذف متعلقها) تفيد أنّ الخصومة والتباغض إنّما تجتث أصول الخير والسعادة من جذورها؛ ولا غرو لأنّ جذور الخير تتمثل بالتعاون والتعاقد بين أفراد المجتمع مع بعضهم البعض الآخر. وأخيراً من الرذيلة السادسة المتمثلة بطول الأمل فقال عليه السلام:

«واعلموا أنّ الأمل يسهى العقل، ينسى الذّكر، فأكذبوا الأمل فإنّه غرورٌ، وصاحبه مغرورٌ»

فالواقع هو أنّ طول الأمل يغرق الإنسان في عالم من الوهم والخيال ويجعله يدور حول محور الامور المادية، وهذا من أعظم العقبات التي تعترض سبيل السعادة، وقد دلت التجارب على أنّ أغلب الأفراد الذين يرتكبون أبشع الجرائم إنما هم ممن ابتلوا بهذه الرذيلة - طول الأمل - التي عدها رسول الله صلى الله عليه وآله وأميرو المؤمنين عليه السلام في مصاف عبادة الهوى ومن أخطر عقبات السعادة.

لقد تضمنت هذه الخطبة وعلى الرغم من قلة عبارتها العديد من الامور المعنوية من قبيل مفهوم التوحيد وعبودية الله والاهتمام بالكتاب- القرآن الكريم- وما ورد فيه من تعاليم قيمة، إلى جانب التحذيرات التي تهدف إلى تنبيه الإنسان إلى مصيره وعاقبته. كما تطرقت إلى المسائل الأخلاقية المهمة التي تعد الركن الركين لسعادة الإنسان المادية والمعنوية، كاجتناب الشرك والكذب والحسد والعداوة والبغضاء وطول الأمل، ثم أوورد الدليل والبرهان المنطقي الذي يكشف اللثام عن أضرار كل رذيلة من هذه الرذائل. الحق لو تأمل الإنسان هذه الخطبة كل يوم وفكر قليلاً في عبارتها وعقد العزم على الالتزام بها لبلغ بنفسه شاطئ السلامة والأمان.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٢٥

الخطبة [٦٨٧] السابعة والثمانون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام وهي في بيان صفات المتقين وصفات الفساق والتنبيه إلى مكان العترة الطيبة والظن الخاطيء لبعض الناس

نظرة إلى الخطبة

تتألف الخطبة في الواقع من خمسة أقسام، أربعة منها متصله، بينما يفصل عنها الجزء الخامس بما له من مفهوم خاص، وهذا ما يفيد أن السيد الرضى (ره) قد حذف بعض الأقسام من الخطبة. والأقسام الخمسة هي: القسم الأول: بيان صفات العلماء العاملين ممن شملتهم العناية الإلهية فاستشعروا التقوى والورع وابتعدوا عن أنفسهم الأهواء والشهوات واهتدوا إلى ربهم.

القسم الثاني: بيان صفات علماء السوء الذين اقتبسوا جهلاً من جهال وضلالاً من ضلال فضلوا وأضلوا.

القسم الثالث: تحذير الناس من الضلال والاتجاه نحو الجهال، والحال فيهم عترة النبي صلى الله عليه وآله منابع العلم ومعادن الحكمة.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٢٦

القسم الرابع: الإشارة إلى بعض كلمات النبي صلى الله عليه وآله بشأن أهل البيت عليه السلام، كما يستدل على كلامه بحديث الثقلين المتواتر المعروف لدى جميع المسلمين.

القسم الخامس: إشارة إلى الظن الباطل بأن الدنيا دائمة لبنى أمية، والأخبار عن سقوط دولتهم وزوال ملكهم، وكما أشرنا سابقاً فإن هذا القسم للاقلة له بما سبقه من أقسام، ومن الواضح أنه هناك بعض الأقسام التي حذفها السيد الرضى (ره) من الخطبة.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٢٧

القسم الأول: أحب العباد إلى الله

إشارة

«عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْهِ عَبْدًا أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشَعَرَ الْحُزْنَ، وَتَجَلَّبَبَ الْخَوْفَ؛ فَزَهَرَ بِصِيْبَاحِ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبُعِيدَ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ. نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَذَكَرَ فَاسْتَذَكَّرَ، وَارْتَوَى مِنْ عَذْبِ فُرَاتٍ سَهَّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ، فَسَرَبَ نَهْلًا، وَسِيلَكَ سَبِيلًا حَادِدًا، قَدْ خَلَعَ سِرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ، إِلَّا هَمًّا وَاحِدًا أَنْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِمْفَةِ الْعَمَى، وَمُشَارِكَةِ أَهْلِ الْهَوَى، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى، وَمَغَالِقِ أَبْوَابِ الرَّدَى، قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسِيلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ، وَقَطَعَ

غِمَارَهُ، وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثِقِهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ بِأَمْتِنِهَا، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ».

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام خطبته - كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - بذكر صفات أولياء الله والسالكين إليه، بالشكل الذي جعل ابن أبي الحديد يصرح في شرحه قائلاً:

«واعلم أن هذا الكلام منه أخذ أصحاب علم الطريقة والحقيقة علمهم، وهو تصريح بحال العارف ومكانته من الله تعالى» [٦٨٨]. ويرى البعض أن الإمام عليه السلام قد عرف نفسه بهذه العبارات؛ لأن العرفان درجة حال رفيعة شريفة جداً، لا تناسب إلا أمثاله عليه السلام، والأنسب أن يقال بأن بيان الإمام عليه السلام استهدف

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٢٨

شرح الصفات الكلية للكاملين من العرفاء وأصحاب السلوك إلى الله، حيث يتمثل مصداقهم به وزوجه والمعصومين من ولده عليه السلام. والجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام لم يترك جانباً من الجوانب المهمة لحال الإنسان الكامل حتى ذكر له أربعين صفة. فقد إستهل كلامه قائلاً:

«عباد الله! إن من أحبّ عباد الله إليه عبداً أعانته الله على نفسه»،

فالعبرة تشير إلى نقطة مهمة وهي أن اجتياز هذا الطريق ليس ميسراً لأحد - دون عناية الله - وذلك لعظم المخاطر والمطبات التي يتعذر على الإنسان عبورها بقوته المتواضعة، فليس أمامه سوى التوكل على الله وتسليم أموره إليه ليستلهم العون من مصدر فيضه ولطفه الذي لا ينضب، وهذا ما أشار إليه القرآن بالقول: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا» [٦٨٩]. ومن الواضح أن أطاف الله سبحانه وتفضلاته ليست قائمة على العبث، بل لا بد من نيلها بواسطة التسليم المطلق وحمل القلوب إليه وعدم إسكانها غيره. ثم خاض الإمام عليه السلام في بيان نتيجة هذا اللطف قائلاً:

«فاستشعر الحزن، وتجلبب الخوف»

استشعر من مادة شعار ما يلي البدن من اللباس، وجعل الحزن بمنزلة الشعار يعنى أن مثل هؤلاء الأفراد المؤمنين إنما يعيشون الحزن في باطنهم على ما مضى من أيام عمرهم ولم يجدوا فيها كما ينبغي لطاعة معبودهم، وبالطبع فإنه حزن بناء يسوقهم نحو العمل والحركة لتدارك ما فاتهم. تجلبب من مادة جلباب ما يكون فوق جميع الثياب وتجلبب الخوف إشارة إلى أن هؤلاء الأفراد المخلصين يراقبون أنفسهم على الدوام، حذرين من صدور الزلل وما من شأنه أن يخرجهم من زمرة المخلصين والسعداء. كما يحتمل أن يكون حزنهم بسبب فراق المحبوب وخوفهم من عدم الوصال. ثم خاض الإمام عليه السلام في نتيجة هذا الحزن والخوف البناء:

«فزهو مصباح الهدى في قلبه، وأعدّ القرى [٦٩٠] ليومه النازل به»

وزهور مصباح الهداية إشارة إلى تلاً أنوار المعارف الإلهية في قلوبهم يتذوقون بها حلاوة الإيمان: «وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ» [٦٩١] والتعبير بالقرى الذي يعنى الوسيلة المعدة للضيوف يشير إلى أن يوم الأجل أو القيامة الذي يمثل ذروة الخشية والخوف لا يعنى لهم سوى

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٢٩

ورود الضيف على المضيف الكريم، وكأنهم كالشهداء ضيوف الرحمن الذين يرتزون من فضل إحسانه: «يَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» [٦٩٢]. ثم قال عليه السلام:

«فقرّب على نفسه البعيد، وهون الشّديد»

أى يرى قرب الأجل والقيامة التي يحسبها الأعم الأغلب بعيدة، ولذلك سهل عليه تحمل الشدائد وصعوبات الطاعة وترك الذنوب والمعاصي. ثم تطرق عليه السلام إلى خمسة أمور يختزن كل واحد منها صفة من صفات هؤلاء العباد من أهل الاخلاص والعرفان

فقال عليه السلام:

«نظر فأبصر، وذكر فاستذكر، وارتوى [٦٩٣] من عذبٍ فراتٍ [٦٩٤] سهّلت له موارده، فشرّب نهلاً، [٦٩٥] وسلّك سبيلاً جدداً» [٦٩٦] فقد تضمنت هذه العبارات القصيرة البعيدة المعاني الإشارة من جانب إلى أهمية التفكير والنظر إلى عالم الوجود ومسائل الحياة التي تشكل أساس البصيرة الكاملة ومعرفة الله، كما أشارت من جانب آخر إلى المداومة على ذكر الله التي تؤدي إلى إحياء القلوب وإطمئنانها: «أَلَا بَدِّكَرِ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ» [٦٩٧] ثم أشار إلى الارتواء من منبع الوحي وكلمات المعصومين عليهم السلام ليتزودوا منهم فيسيروا على الطريق ويحثوا الخطى نحو قرب الحبيب والفوز بوصاله. ثم تطرق عليه السلام إلى ستته أوصاف لتهديب نفس اولئك العباد المخلصين موضحاً معطياتها وآثارها فقال عليه السلام:

«قد خلع سراويل الشهوات، وتخلّى من الهموم، إلّا همّاً واحداً انفرد به، فخرج من صفته العمى، ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى، ومغاليق أبواب الردى»

نعم فإن هجر الشهوات وتصويب العين صوب مبدأ عالم الوجود وتنقية القلب إنّما يفتح بصيرة الإنسان، فلا يصبح ذلك الإنسان سالكاً لسبيل الحق فحسب، بل يكون دليلاً ورائداً للطريق، ثم يودعه الله مفاتيح الهداية أقفال الضلالة

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٣٠

وأبواب النيران، فيفتح طريق الحق لسالكيه ويغلق باب جهنم بوجه العباد. ثم أشار عليه السلام إلى ست صفات أخرى فقال:

«قد أبصر طريقه، وسلّك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره، [٦٩٨] استمسك من العرى [٦٩٩] بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس»

فالواقع أنّ الصفات الست السابقة أكدت على الجوانب العملية، بينما أضيفت لها هنا الجوانب العقائدية، فالخروج من صفته العمى وطرح حجب الهوى والظفر بسبيل الحق وطرق المعرفة وتجاوز بحار الشهوات والتمسك بعرى الهداية المتمثلة بالقرآن الكريم وكلمات المعصومين والراسخين في العلم، إنّما تجعل هذا العبد المخلص يبلغ مقام حق اليقين، فيرى الحقائق بأم عينه، بل تمثل له كالشمس في رابعة النهار، وهذه أعظم نعمة يصيها العبد وأكرم ثواب يمنحه السالكون إلى الله. وقد جرى الكلام سابقاً عن سلوك السبيل القويمه المحكمه:

«سلّك سبيلاً جدداً»

كما كان هناك الانفتاح على الحقائق:

«نظر فأبصر»

ثم تكرر هذا الأمران بعبارة أخرى فقال عليه السلام:

«قد أبصر طريقه وسلّك سبيله»

، ولكن وكما ذكرنا آنفاً فقد ورد الحديث في السابق عن الجوانب العملية، بينما جاء الكلام هنا عن الأبعاد العلمية؛ أي أنّ معرفة الطريق وسلوك السبيل المطمئن ضروري في المرحلتين.

أفضل النعم

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من خطبته إلى أساس مطلق السعادات ودافع الإنسان إلى كافة الصالحات، وما يسهل عليه تحمل الشدائد والصعاب، ويحيله بالتالي إلى كائن يأبى القهر والانزمام، وقد عبر عنه في موضع:

«فظهر مصباح الهدى في قلبه»،

وفي موضع آخر:

«فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس»

ألا- وهو مقام اليقين؛ وهو على مراتب، صنفها القرآن الكريم إلى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، وبالطبع فإن حق اليقين تمثل المرحلة الأخيرة،

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٣١

وهي مرحلة شهود الإنسان الكاملى لعالم الغيب على غرار مشاهدته لضوء الشمس، وهي المرحلة التي بلغها أمير المؤمنين على عليه السلام حين قال:

«لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقينا» [٧٠٠]

وقد جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله قال:

«ألا إن الناس لم يعطوا فى الدنيا شيئا خيراً من اليقين والعافية، فاستلوهما الله» [٧٠١].

وقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«ما أعظم سعادة من بوشر قلبه ببرد اليقين» [٧٠٢]

. ومن الطبيعى أن الوصول إلى هذا المقام يتطلب من الإنسان اجتياز طريق صعب شائك بحيث لا يغفل طرفه عين فيه عن اصلاح نفسه وتهذيبها، ويشفع أولياء الله فى نفسه ويلهج قلبه قبل لسانه ببعض ما ورد فى الأدعية الشعبانية:

«إلهى هب لى كمال الانقطاع إليك، ونر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تحرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا ملعقة بعز قدسك».

كثير وطويل هو الكلام فى اليقين. ونكتفى بحديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام فى كيفية الوصول إلى اليقين، فقد قال عليه السلام:

«أين الموقنون؟»

الذين خلعوا سراويل الهوى، وقطعوا عنهم علائق الدنيا». [٧٠٣]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٣٣

القسم الثانى: خصائص المخلصين

إشارة

«قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ - فِي أَرْفَعِ الْأُمُورِ، مِنْ إِضْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ، وَتَضْيِيرِ كُلِّ فَرَعٍ إِلَى أَصْلِهِ، مِصْبَاحِ ظُلُمَاتٍ، كَشَافِ عَشَوَاتٍ خَشَوَاتٍ مَقْفَتَاحِ مُبْهَمَاتٍ، دَفَاعِ مُعْضَلَاتٍ، دَلِيلِ فَلَوَاتٍ، يَقُولُ فِيهِمْ، يَسِيْرُكَتُ فَيَسِيْرُكُمْ، قَدْ أَخْلَصَ لِلَّهِ فَاسْتَخْلَصَهُ، فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ أَوْ تَادِ أَرْضِهِ، قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعِدْلَ، فَكَانَ أَوَّلَ عِدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ، يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ، لَا يَدْعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أُمَّهَا، وَلَا مَظْلَنَةً إِلَّا قَصْدَهَا، قَدْ أَمَكَّنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ، فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقْلُهُ، وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنَزِلُهُ».

الشرح والتفسير

تطرق الإمام على عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى نقطة مهمة مكمله للقسم السابق، وهى أن العبد المخلص لله - الذى دار الحديث عنه سابقاً - بعد أن يتم مرحلة تهذيب النفس والوصول إلى المقامات العالية فى العلم والعمل والتقوى يهب لهداية الخلق ويصبح رائداً على الطريق لينجى الناس من ظلمات الجهل والوهم والضلال. فالواقع أن مثل هذا العبد ما إن يجتاز مرحلة السير إلى الحق وفى الحق حتى يستأنف مرحلة السير إلى الخلق فينهض بعبئ تبليغ الرسالة التى حمل مشعلها الأنبياء. فقد قال عليه السلام:

«قد نصب نفسه لله - سبحانه - في أرفع الأمور»،

آنذاك خاض الإمام عليه السلام في شرح هذه الوظائف بعبارات قصيرة بعيدة المعاني فقال:

«من إصدار كلِّ واردٍ عليه، وتصيير كلِّ فرعٍ إلى أصله»،

فالعبرة تشير إلى نقطة مهمة وهي أن هذا العبد العالم المخلص قد إنطوى على إحاطة بعلوم الدين وأحكامه إلى درجة

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٣٤

جعلته قادراً على الرد على كل ما يطرح من سؤال وإستفسار. كما تتضمن العبارة تلميحاً إلى عدم وجود سؤال في الدين لا يحمل جواباً، كما ليس هنالك من مشكلة في المعارف الإلهية والأحكام الفرعية دون حلول؛ الأمر الذي أكده رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبته المعروفة في حجة الوداع، إذا قال:

«يا أيها الناس! والله ما من شئ يقربكم من الجنة، ويباعدكم من النار، إلا وقد أمرتكم به، وما من شئ يقربكم من النار، ويباعدكم من الجنة، إلا وقد نهيتكم عنه» [٧٠٤]

، وهو ما تعارف في فقه الإمامية بعنوان:

«ليس هنالك من واقعة إلا والله فيها حكم».

والعبرة

«تصيير كل فرع إلى أصله»

تشير في الواقع إلى التعريف الذي ذكره علماء الدين للاجتهاد والاستنباط، حيث صرحوا بأن حقيقة الاجتهاد هي:

«رد الفروع إلى الاصول»؛

أي الاجابة على كل فرع بالاستفادة من القواعد والاصول الكلية المستقاة من الكتاب والسنة ودليل العقل، والمجتهد من يعلم بأن الفرع لأي أصل يعود. كما تشير العبارة ضمناً إلى فتح باب الاجتهاد في كل مكان وزمان، وقد بينت شرائط المجتهد من حيث العلم والعمل في الابحاث السابقة. ثم قال عليه السلام:

«مصباح ظلمات، كشاف عشوات [٧٠٥] مقفحات مبهمات، دَفَاع معضلات، دليل فلوات» [٧٠٦].

فقد كشف الإمام عليه السلام بهذه الصفات الخمس كيف يخترق هذا العبد المخلص الورع والتمقى حجب الجهل الظلمانية، فيكشف ما خفى من المعارف، ويفتح أقفال الغوامض والمبهمات ويحل مشاكل الناس، كما يهدي الناس إلى الحق والنجاة في صحراء الحياة المليئة بالحيرة والضلالة وخشية الوقوع في مخالب اللصوص وقطاع الطرق. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن خمس صفات اخرى لهذا العالم الرباني فقال:

«يقول فيفهم، ويسكت فيسلم»

. نعم كلامه هادف، وسكوته هو الآخر هادف أيضاً، فهو يتكلم حيث لا بد من الكلام، بينما يسكت حين يخشى الذنب والمعصية من جراء الكلام، فكلامه وسكوته لله ولا يهدف فيها سوى رضاه. فالحق إننا نعرف بعض الأفراد الذين يسعون جاهدين لاحاطة

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٣٥

ما يقولون ويكتبون بهالة من التعقيد والابهام ليفهموا الآخرين بمستواهم العلمي، والحال لايجنى القارئ أو المستمع سوى المفاهيم المغلقة التي لاجدوى من ورائها؛ أما العلماء المخلصون فلا يصابون بهذه الأمراض، فهم لا يرومون من كلامهم سوى هداية الطرف المقابل، أما سكوتهم فلا يستند إلى الهروب من المسؤولية والخلود إلى الراحة والدعة، بل لا يرومون من سكوتهم سوى السلامة من الخطيئة والاثم ومجانبة الهوى ومعصية الله. ثم أشار عليه السلام إلى مقام هذا العارف الإلهي فقال:

«قد أخلص لله فاستخلصه»،

يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى نقطة لطيفة وهي أن الشوائب الأخلاقية للإنسان على قسمين: قسم قابل للرؤية ويمكن التغلب عليه من خلال الجهاد الأكبر وإصلاح النفس، بينما يتعذر رؤية القسم الآخر. والله سبحانه في عون من ينتصر في المرحلة الأولى وقد صورت الروايات الإسلامية الشرك بأعظم صورة حيث قالت:

«إنَّ الشرك أخفى من ديب النمل، على صفاة سوداء، في ليلة ظلماء» [٧٠٧]

. ومن الطبيعي أن تطهير القلب من هذا الشرك لا يبدو سهلاً إلبافي ظل العناية الإلهية. ثم أردف الإمام عليه السلام تلك الصفات الثلاث بصفيتين فقال:

«فهو من معادن، دينه وأوتاد عرضه»،

نعم من خلص كيانه من كل الجوانب وكان عمله هو التربيئة والتعليم فهو بمنزلة المعدن الذي لا يفنى والذي تستخرج منه المجوهرات والفلزات الثمينه، وهو كالجبل الراسخ الذي لاتزعزعه عواصف الشرك ورياح الذنوب والمعاصي والوساوس والمكائد الشيطانية التي تتقاذف الإنسان وتلقى به في مهالك الردى وقد عبر عنه القرآن الكريم بـ «الذي يحفظها من الزلازل: «ألم نجعل الأرض مهاداً* وَالْجِبَالَ أوتاداً» [٧٠٨] وتشبيه هذا العالم الرباني والعبد المخلص بالجبل الى يمثل وتد الأرض تفيد عظم بركته على المجتمع الإسلامي.

فمثل هذا الفرد هو الذي يحفظ المجتمع الإسلامي من عواصف الانحراف والفساد. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى أربع صفات اخرى من صفات هذا العالم الرباني فقال:

«قد أُلزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفى الهوى عن نفسه»

فنحن نعلم بأن حقيقة العدل الخلقى أن تكون كافة صفات ومميزات الفرد منسجمة وحاد الاعتدال والاتزان، بحيث لاتنطوى

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٣٦

شخصيته على الرغبات المفرطة التي تسوقه إلى الهوى إلى جانب عدم الانزواء والتقوقع عن الدنيا، فلا بد له أن يستسيغ الحلال ويمح الحرام ويسلك خط الاعتدال. فالعبارة

«أول عدله ...»

تفيد انطلاقه في العدل من ذاته، والحق أنه مالم يكن كذلك فليس لكلامه من أثر في الآخرين في الدعوة إلى العدالة. ثم قال في

الصفة الثانية

«يصف الحق ويعمل به»

فان كان نصيراً للحق لم يقتصر ذلك على لقلقه اللسان، بل كانت دعوته ونصرتة للحق على مستوى السلوك والأفعال قبل اللسان والأقوال، وذلك لأن كلامه النابع من إيمانه واعتقاده إنما ينعكس مباشرة على سلوكه وتصرفه، ولولا ذلك الانعكاس لأفاد الأمر عدم إيمان ذلك الفرد بما يقول. ثم قال عليه السلام في الصفة الثالثة:

«لا يدع للخير غايةً إلّا أمها، ولا مظنةً إلّا قصدها»

انه طالب كل خير وإحسان وسعادة، بل يقتضى آثار حتى تلك الحالات التي يرتجى من وراءها خيراً، فهو عاشق للخير وكأته ذلك الفرد الذي يبحث عن ضالته النفيسه، فهو لا ينفك عن مطاردتها هنا وهناك. وقال في الصفة الرابعة

«قد أمكن الكتاب من زمامه، فهو قائده وإمامه، يحلّ حيث حلّ ثقله، [٧٠٩] وينزل حيث كان منزله»

وهكذا يرى هذا العبد المخلص نفسه مكلفاً بهداية الناس منطلقاً قبل ذلك من إصلاح نفسه واجتثاث جذور الهوى من أعماقها؛ فلسانه يصدع بالحق دائماً، كما يعمل بهذا الحق إلى جانب سعيه الدؤوب خلف الصالحات وأعمال الخير، والأهم من كل ذلك أنه جعل القرآن إمامه الذي يقوده حيث شاء فقد فوض إليه كافة اموره، فكانت سكناته وحركاته مستندة إلى القرآن.

تأملان

١- فتح باب الاجتهاد

يرى أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن باب الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية من

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٣٧

أدلتها المعروفة (الكتاب والسنة والإجماع والعقل) مفتوح على الدوام؛ الأمر الذي رقى بالفقه الإسلامي وأخذ بيده نحو الكمال. بينما نعلم أن فريقاً من المسلمين قد ذهب إلى غلق باب الاجتهاد، ليحصره ويجعله حكراً على الأئمة الأربع! رغم عدم قلمة الأفراد الذين كانوا يفوقونهم علماً في الأمة الإسلامية، فالواقع ليس هنالك من دليل يدعو إلى حصر الاجتهاد في ذلك العدد المذكور. في حين تحدث الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن خصائص المسلم المخلص العالم وفي مقدمتها إجتهاده في أحكام الدين فقال: «قد نصب نفسه لله - سبحانه - في أرفع الأمور، من إصدار كلِّ واردٍ عليه، وتصيير كلِّ فرعٍ إلى أصله، مصباح ظلماتٍ، كشافٍ عشواتٍ مقفتاح مبهماتٍ، دقّاع معضلاتٍ»

كما أشار ضمناً في عدة مواضع من هذه الخطبة إلى الشرائط التي ينبغي توفرها في الفقيه المجتهد، والتي تدل على أن الفقيه لا يتصدى لهذه المسؤولية الخطيرة ما لم تكن له رابطة خالصة بالحق سبحانه وتعالى وهذا وقد تناولنا في شرحنا للخطبة الثامنة عشرة في المجلد الأول أهمية الاجتهاد وفتح بابيه أمام العلماء، إلى جانب الحديث عن الاضرار الفادحة التي أفرزتها فكرة الاعتقاد بغلق باب الاجتهاد من قبل فقهاء العامة.

٢- شمولية القرآن

لقد أشار الإمام عليه السلام كرراً ومراراً في أغلب خطب نهج البلاغة إلى أهمية القرآن الكريم، فكان يتناول أحد الأبعاد في كل خطبة. وقد تحدث في هذه الخطبة عن خصائص العبد المخلص، فكان من بينها تسليمه المطلق لكلام الله، بحيث جعل القرآن قائده وإمامه ليتبعه في حركاته وسكناته، وبعبارة أخرى فهو ينظر إلى القرآن كمحور لكافة جوانب حياته، لا وسيلة لتوجيه عقائده وأفكاره، فهو على العكس من أولئك الذين يتشدقون بتعبثهم للقرآن، بينما يسعون لتكليف القرآن ومتطلباته وآرائهم، ليكونوا مصداقاً لقوله: «وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ» [٧١٠]. فما لا ينجس ورغباتهم نسوه وهجره، ولو كان ظاهره لا يخدمهم عمدوا

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٣٨

إلى باطنه على ضوء نزعاتهم، والعكس صحيح فقد يتخلون عن باطن القرآن ويتمسكون بظاهره على ينسجم وأهوائهم. فهم منحرفون لم يؤمنوا بالقرآن قط على أنه دليلهم وإمامهم، بل هم في الواقع ليسوا عبيد الله، بل عبدة الأهواء، والتفسير بالرأى الذي نهت عنه أغلب الروايات إنما هو شعبة من شعب عبادة الهوى والشرك الخفى؛ فإين هؤلاء من العلماء المخلصين؟

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٣٩

القسم الثالث: العلماء المخلصون والعلماء المتشبهون

إشارة

«وَأَخْرَجَ قَدْ تَسَمَّى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جَهَائِلِ، أَضَالِيلَ مِنْ ضَمَلَالٍ، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكَاً مِنْ حَبَائِلِ جِبَالِ غُرُورٍ، وَقَوْلِ زُورٍ؛ قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ رَأْيَهُ؛ وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ، يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ الْعِظَائِمِ، وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ، يَقُولُ: أَقْفُ عِنْدَ الثُّبُهَاتِ، وَفِيهَا وَقَعٌ، وَيَقُولُ: أَعْتَزَلُ الْبِدْعَ، وَبَيْنَهَا اضْطَجَعَ، فَالْصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ. لَا يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعُهُ، وَلَا بَابَ الْعَمَى فَيَصُدُّ عَنْهُ، ذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ».

الشرح والتفسير

كان الكلام في الأبحاث السابقة عن العلماء المخلصين الذين كانوا هداةً على الطريق، منهم مصباح ظلمات، وكشاف عشوات ومفتاح مبهمات ودفاع معضلات، وهو ملاذ الضعفاء ومفرغ العباد، وقد بين الإمام عليه السلام صفاتهم على أكمل وجه، أما هنا فقد تحدث الإمام عليه السلام عن المتشبهين بالعلماء من أهل الضلال الذين كمنوا للخلق وصدوهم عن الحق بباطلهم ومكرهم واستغلال سذاجتهم من أجل تحقيق أطماعهم المادية. فقد عدَّ الإمام عليه السلام عشر من صفاتهم فقال:

«و آخر قد تسمى عالماً وليس به»

. فالتعبير بالفعل

«تسمى»

بصيغة المتعدى تفيد أن اليقظين من أبناء الامة لا يرونهم علماء، وهم ليسوا كذلك أيضاً عند الله، بل يزعم أحدهم أنه عالم، إلى جانب شلة من الجهال المتأثرة بكذبهم ودجلهم. ثم قال في الصفة الثانية:

«فاقتبس جهائل من جهالٍ، وأضاليل من ضلالٍ»

. فالمفردة

«إقتبس»

التي تعنى هنا التعلم، تفيد أن هذا

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٤٠

العالم المزيف إنما أجاز هذا الفن في الخداع والتضليل إثر تعلمه ممن سبقه، فوظف ما تعلم في هذا الانحراف دون أن يجعل جهاده وسعيه للعلم والعمل في خدمة الحق، وهذا لعمري قمة البؤس والشقاء. ولعل الفارق بين «جهائل» و «أضاليل»

أن جهائل (جمع جهالة) تعنى الجهل المركب؛ أي أنه جاهل ولا يدرى أنه كذلك (ولا يدرى أنه لا يدرى) أما أضاليل (جمع أضلوله) فهي تعنى الامور المضلة التي يتجه إليها عن علم. ثم قال في الصفة الثالثة

«و نصب للناس أشراكاً [٧١١] من حبايل غرور، وقول زور»؛

ياله من تعبير رائع! نعم فهو كالصياد الذي ينشر الحبوب فيجعلها فخاً للطيور والحيوانات البلهاء، فيبيعها ويتغذى على لحومها، وهذا ما يفعله هذا العالم المزيف تجاه السذج من الناس فيجنى أطماعه المادية ومنافعه الشخصية. وما أبرز مصاديق هؤلاء على مر التاريخ في كل عصر ومصر، الذين يسخرون الدين لخدمة دنياهم، فقد جاء في الخبر أن الإمام عليه السلام وصف عبدالله بن الزبير قائلاً:

«ينصب حباله الدين لاصطياد الدنيا» [٧١٢]

(وقد قال الإمام عليه السلام ذلك حين لم تتضح شخصيته ويكشف عن مواقفه). ثم قال في الصفة الرابعة:

«قد حمل الكتاب على آرائه وعطف الحق على أهوائه»،

بالضبط على عكس العالم الذي طاعتنا صفاته في أنه أمكن الكتاب من زمامه وجعله قائده وإمامه، يحل حيث حل ثقله، وينزل حيث كان منزله، فهو تابع للقرآن بكل كيانه. والحق ليس هنالك من وسيلة أفضل من هؤلاء المزيفين للتعرف على العلماء العاملين. فذاك

الذى جعل القرآن قائده وإمامه هو العالم المخلص، أما هذا الذى يفسر القرآن برأيه ويسعى لتطبيق القرآن على متطلباته ورغباته. لهو عالم سوء مزيف. وقد جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار» [٧١٣]

. كما عنه صلى الله عليه وآله أن الله سبحانه وتعالى قال:

«ما آمن بى من فسر برأيه كلامى» [٧١٤]

والدليل واضح فمن آمن بالله علم أن الحق ما كان من الله، فان رأى غيره الحق فهو على خطأ. كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«من فسر برأيه

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٤١

آية من كتاب الله فقد كفر» [٧١٥]

. ثم قال فى الصفة الخامسة من صفات هذا الذى تشبه بالعلماء:

«يؤمن الناس من العظام، ويهون كبير الجرائم»

وهكذا فإن الآثمين من الأفراد- الذين يشكلون الأكتريه فى المجتمعات- يسعون لحشد الآراء لصالحهم، وبعبارة اخرى فإن هنالك الأغلبية الساحقة فى المجتمع التى تسعى للتظاهر بالدين، أما فى داخلهم فهم يسعون من خلال ذلك لجمع الأفراد حولهم واستقطابهم بواسطة مماشاتهم وتصغير الكبائر لديهم. ثم قال فى الصفة السادسة واصفا حال هذا العالم المزيف:

«يقول: أقف عند الشبهات، وفيها وقع»،

فهذا المرائى الماكر يتظاهر أمام الناس بالدين إلى درجة أنه يزعم لهم: (لا- أجتنب المحرمات فحسب، بل أنا محتاط حتى فى الشبهات) والحال تعج حياته بالشبهات، وأبعد من ذلك المحرمات. وقيل فى تفسير هذه العبارة أن اقتحامه للشبهات نابع من جهله، فمثل هؤلاء الأفراد إنما يعانون عادة من الجهل المركب، فيرون ضلالهم هدى ومعاصيهم تقوى. ومن الواضح أن هؤلاء الجهال يتحلون بهاتين الصفتين، فلا مانع من الجمع بين التفسيرين (لامكانية استعمال اللفظ فى أكثر من معنى). أما الشبهات فتطلق عادة على الامور التى لاتعرف بصورة تامة، فهل هى حرام أم حلال؟ بعبارة اخرى فقد جاء فى الحديث النبوى الشريف:

«حلال بين، وحرام بين، وشبهات بين ذلك» [٧١٦]

؛ أى أن الشبهات هى حد الحرام. ومن هنا فمن أراد أن يصون نفسه عن الذنب وجب عليه عدم الاقتراب من هذا الحد، وإلا هوى فى مستنقع الذنوب ووصل المعاصى. ولذلك جاء فى آخر الحديث:

«فمن ترك الشبهات نجا من المحرمات، ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات، وهلك من حيث لا يعلم».

ثم قال فى الصفة السابعة:

«و يقول: أعتزل البدع، وبينها اضطجع [٧١٧]»،

يمكن أن يكون هذا

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٤٢

الادعاء مما يفرزه المكر والخداع أو الجهل المركب، فاساس نشاط مثل هؤلاء الأفراد قائم على التشبث بالبدع وهجر السنن إرضاءً لاهواء العامة؛ الأمر الذى لايمكن تحقيقه إلا من خلال البدع والأحداث فى الدين، وحقيقه البدعة إدخال ما ليس من الدين فيه، أو إخراج ما كان من الدين، وعليه فالبدعة حرام، ولا- يعنى هذا رفض أساليب التجدد فى الحياة فى كافة جوانبها العلمية والادبية والاجتماعية. فالبدعة أن تحدث شيئاً وتنسبه إلى الدين وهو ليس منه، والعكس صحيح. وما حالات الافراط والتفريط التى يمارسها

الجهال الا إفرزات طبيعية لعدم إدراك حقيقة البدعة. أما في الصفه الثامنة والتاسعة العاشرة التي تعد بمثابة نتيجة الصفات السابقة حيث أوردتها الإمام عليه السلام بفاء التفرغ فقد قال:

«فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ. لَا يَعْرِفُ بَابَ الْهَدْيِ فَيَتَّبِعُهُ، وَلَا بَابَ الْعَمَى فَيَصِدُّ عَنْهُ، وَذَلِكَ مِيتَ الْأَحْيَاءِ»

. حقا ليس هنالك من تعبير يصور وضع هؤلاء العلماء المزيّفون أبلغ وأدق من هذا التعبير. فصورتهم ومظهرهم صورة إنسان، بل إنسان كامل ورع وعالم، في حين يسبح هذا الإنسان- بهذه الصفات- في بحر من الجهل المركب، فاذا فكر يوما في الهداية، ضل الطريق بسبب ذنوبه ومعاصيه، فهو لا يعرف سبيل الحق والهدى ليهدى إليه، ولا يعرف سبيل الباطل والضلال ليصد عنه، بالتالي فهو ميت يتحرك بين الأحياء، وقد ماتت فيه كل مقومات الحياة الانسانية. والواقع إنهم مصداق بارز للآية الشريفة: «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمُؤْتَى وَلَا تَنْسَمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» [٧١٨]، أو الآية الكريمة «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» [٧١٩]

تأملات

١- علماء الضلالة

لا يخفى على أحد خطر علماء السوء والضلالة، فأغلب الجرائم البشعة التي يرتكبها الجهال، إنما تعود جذورها إلى ما يسمى بهؤلاء العلماء، المتطفلين على الدين المفارقين لأحكامه وتعاليمه، أو الذين جعلوا الدين مطيةً لدنياهم. فقد وصفهم أمير المؤمنين على عليه السلام بأدق وصف، فهم جهال خلطوا الجهل بالضلال، فجعلوا أنفسهم أئمة للقرآن يفسرونه برأيهم ويحملون آياته

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٤٣

على رغباتهم وأهوائهم، فاصبحت حياتهم قائمة على أساس البدع والشبهات والذنوب والمعاصي، إلى جانب تصغيرها في أعين الناس وتزيينها لهم. فلم تبق لهم من الإنسانية سوى صورتها، أما السيرة فهي حيوانية تماما. وقد تواترت الأخبار والروايات إلى جانب الآيات القرآنية التي لفتت إنتباه الأمة إلى أخطارهم، لتحذر الناس من مغبة الاستجابة لهم والسقوط في حبالهم وشباكهم. فقد روى أمير المؤمنين على عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«وإن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه»،

بل إنّ الندم يصيبه وتعود مثل هذه الامور بالوبال عليه، ومن هنا ورد في ذيل الحديث السابق:

«وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة، رجل دعا عبدا إلى الله، فاستجاب له، وقبل منه، فأطاع الله، فأدخله الله الجنة، وأدخل الداعي بترك علمه، واتباعه الهوى وطول الأمل» [٧٢٠]

. وقال الإمام الصادق عليه السلام أنّ الله أوحى إلى نبيه داود عليه السلام:

«لا تجعل بيني وبينك عالما مفتونا بالدنيا، فيصدك عن طريق محبتي؛ فإن أولئك قطاع طريق عبادي المريرين إلى، إن أدنى ما أنا صانع بهم، أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم» [٧٢١]

. فمن بين العلامات التي صرحت بها الروايات والأخبار بشأن علماء السوء والضلالة، ترك العمل بعلمهم، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً» [٧٢٢]

. أما العلامة البارزة الاخرى فهي اندفاعهم نحو البدع وتوجيه الضلال والانحراف والانغماس في الدنيا، وكثرة الزعم والادعاء.

٢- التفسير بالرأى، فخ الشيطان الأكبر

إن من أعظم آفات الدين وعقبات العبودية طلب الحق والحركة إليه إنما تتمثل بمعضلة «التفسير بالرأى»

؛ المعضلة التي تهدد الدين بخطرها العظيم وتقضى على روح أغلب الآيات القرآنية والروايات الإسلامية، فتحيلها إلى إلعوبة بيد هذا وذاك لتوجيه أهوائهم وسوء نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٤٤

مقاصدهم، بعبارة أخرى تحيل الآيات والروايات إلى عجينه يصنع منها هذا المفسر ما يشاء ولا يهدف سوى إلى تبرير فساده وإنحرافه وضلاله. وأبسط تعريف للتفسير بالرأى هو إخلاء الآيات والروايات من معناها الحقيقي وصبغها بالطابع المطلوب ومن الواضح أن الآيات والروايات لا تفقد حقيقتها في الهداية على ضوء هذه المعضلة- التفسير بالرأى فحسب، بل تصح وسيلة لتبرير الضلال والانحراف. ومن هنا أكدت الروايات والأخبار بشدة النهى عن التفسير بالرأى، وقد مرت علينا طائفة من هذه الأخبار والروايات فى الأبحاث السابقة، ثم رأينا كيف أن أمير المؤمنين على عليه السلام يذكر هذه الصفة فى إطار وصفه لعلماء السوء والضلالة على أن أهم صفة من صفاتهم تكمن فى التفسير بالرأى. فالبعبارة التى تضمنها الحديث المعروف «من فسر برأيه آية من كتاب الله فقد كفر» [٧٢٣]

تفيد أن التفسير بالرأى أرضية خصبة للتزوع نحو الكفر، وكذلك ما ورد فى الحديث الآخر بهذا الشأن:

«من فسر القرآن برأيه، إن أصاب لم يؤجر، إن أخطأ خر أبعد من السماء». [٧٢٤]

وزبده الكلام فإن أخطار التفسير بالرأى كثيرة نشير إلى جانب منها:

- ١- إيجاد حالة من الفوضى والارباك فى فهم الآيات والروايات.
- ٢- إحالة وسائل الهداية والصلاح إلى ادوات للضلال والفساد ومضاعفة الاخطاء.
- ٣- إيجاد الاختلاف والتشتت والنفاق واثارة التخريب فى القضايا العقائدية والدينية.
- ٤- الهبوط بالكتاب والسنة من مقام الزعامة والإمامة إلى مستوى التابع والمقلد.
- ٥- تكييف التعاليم السماوية على ضوء انحرافات الأوساط الموبوءة.
- ٦- إحالة المفاهيم السامية المطلقة المستندة إلى الوحي إلى أفكار الإنسان المحدودة الضيقة.
- ٧- تمهيد السبل والذرائع للأفراد الضالين المضلين.

طبعاً ليس هنالك من علاقة بين التفسير بالعقل للآيات والروايات وتفسيرها بالرأى.

والمراد بالتفسير بالعقل هو الاستفادة من الأدلة والقرائن العقلية من أجل فهم معنى الآيات

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٤٥

والروايات. على سبيل المثال فان القرائن العقلية القطعية تصرح بأن المراد باليد فى الآية الشريفة: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» [٧٢٥] القدرة والقوة، لاهذه اليد العضو من أعضاء بدن الإنسان المركبة من اللحم والعظم والجلد. أما المراد بالتفسير بالرأى فهو الاستعانة بالقرائن الظنية أو الوهمية الخالية دون القرائن لتفسير الآيات والروايات وفقاً للأهواء والرغبات. على كل حال فإن هذا العمل نابع من الجهل أو الأهواء الشيطانية. ويتضح مما مر معنا أن اولئك الذين حاولوا توجيه ضلالهم وانحرافهم بواسطة التفسير بالرأى، قد ضلوا حتى فى مسألة التفسير الرأى وفسروها بوحى من رأيهم، ومن هنا نقف على أهمية ما ورد فى الخبر الذى صرح بعدم إثابة من فسر برأيه وإن أصاب. فليس هنالك من ركن يستند إليه فى التفسير بالرأى سوى الفرضيات الجوفاء والآراء الظنية والوهمية، الأمر الذى يقضى على

روح إصالة الوحي واشاعة جو الفوضى والاضطراب في بيان المسائل الشرعية، كما يقدر في نورية القرآن ويهدد بالغرق سفينه النجاة المتمثلة بأئمة العصمة عليهم السلام. وإلا لو كانت هنا لك الفرضيات العلمية المسلمة إلى جانب القرائن العقلية لتعذر تسمية هذا التفسير بالتفسير بالرأى، فهذا تفسير بالعقل. ومما يؤسف له أن المنحرفين قد فسروا حتى مسئلة التفسير بالرأى برأيهم ليتخذوا من الوحي وسيلة لتوجيه انحرافهم وتحقيق أطماعهم وأغراضهم.

٣- البدع مادة الانحراف

ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة البدع التي تعد من الصفات التي يتصف بها هذا الصنف ممن تسمى بالعلماء، والحال أنهم يدعون أنهم بعيدون كل البعد عن البدع، وهم يسبحون في هالة منها. وكما أشرنا سابقاً فإن البدعة أن تحدث في الدين ما ليس منه، أو أن تخرج منه ما هو فيه، وعليه فهي لا تصدق على الابداع والتجديد والخلافة في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية وشؤون الحياة اليومية، أو بعبارة أخرى قد تكون البدعة في الدين وقد تكون في

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٤٤

غيره، فما كانت في الدين فهي حرام ومضلة، وما كانت في غيره فهي ممدوحة مطلوبة مالم تسيء إلى الدين. على سبيل المثال فإن رسول الله صلى الله عليه وآله أتى بحج التمتع؛ أي خرج من الاحرام بعد أداء العمرة ثم أحرم للحج بعد فاصله، كما أجاز الزواج المنقطع، فان انبرى من يقول لا أستسيغ حج التمتع، ولا بد أن يكون الحج والعمرة معا، ولا أومن بالزواج المنقطع، فمثل هذا الشخص مبتدع في دين الله، وهو الأمر الذي ذمته الروايات بشدة، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أهل البدع شر الخلق والخليقة» [٧٢٤]

كما قال صلى الله عليه وآله:

«من تبسم في وجه مبتدع، فقد أعان على هدم دينه» [٧٢٧]

وما ذلك إلا للأخطار العظيمة الناجمة عن البدع وفي مقدمتها القضاء على إصالة الدين، ولو فتح باب الدين بوجه البدع وتصرف الأفراد في العقائد والمفاهيم كما يحولهم فسوف لن يمر وقت طويل حتى تنعدم آثار الدين ولا يبقى إلا اسمه، وبالتالي سوف لن يكون إلا أداة طيعة بيد المهووسين والمنحرفين المتطفلين على الدين. ومن هنا جاء في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام في جوابه لمن سأله عن أقل ما يتعامل به ذلك الكافر قال

«أن يتدع شيئا، فيتولى عليه، ويبرء ممن خالفه». [٧٢٨]

ولو تمعنا في تاريخ الأديان الباطلة لرأينا أنها إنما استندت في الغالب إلى البدع.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٤٧

القسم الرابع: لم الضلال، والعترة بين الاظهر؟

إشارة

«فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟» «وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ!» والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوية. فَأَيْنَ يَتَاهُ بِكُمْ! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ، وَبَيْنَكُمْ عِثْرَةٌ نَبِيَّكُمْ! وَهُمْ أَرْزَمَةُ الْحَقِّ، وَأَعْلَامُ الدِّينِ، وَاللِّسَنَةُ الصِّدْقِ! فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، وَرِدُّوهُمْ وَرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ.

الشرح والتفسير

لقد وصف الإمام عليه السلام في المقطع السابق من هذه الخطبة العالم المخلص والآخر المزيف، ثم واصل الكلام في هذا الموضوع من الخطبة بالحديث عن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله ومكانتهم في المجتمع الإسلامي، بغية معرفة الفريق الأول وتمييزه عن الثاني، إلى جانب الاقتداء به، إلا أنه أشار بصورة كلية إلى هذه المسألة فقال:

«فأين تذهبون، وأنى تؤفكون [٧٢٩]، والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة».

فلا- يحق لكم القول إننا نعيش في عصر تتقاذفنا فيه التيارات ولسنا لنا معرفة الحق من الباطل بعد أن إمتزجاً، كلاً- ليس الأمر كذلك، فكل شئ واضح والموازن جلية بينه، وقد اعذر من انذر. فقد جرت العادة على نصب العلام في الطرقات بغية الاهتداء وعدم الضياع، فأحياناً توضع العلامات في مفترقات الطرق المنعطفات، وأحياناً أخرى توضع المصاييح المضاءة على المرتفعات (ولا سيما في الليالي الظلماء) ويكفى أى من هذه الطرق لمعرفة السبيل، فإذا اجتمعت هذه الطرق معاً، بلغ الإنسان المطلوب وسارع في خطاه نحو الهداية والصواب، فالذى أراد الإمام عليه السلام أن هذه الطرق قد سخرها الله سبحانه لكم. ثم طبق الإمام عليه السلام هذا الكلى على مصداقه فانتقل من العام إلى الخاص، كيلا يقال أن هذه

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٤٨

الكليات لا تحل مشكلتنا، فأعاد قوله عليه السلام مستنكراً عليهم الحيرة والضلال، وعتره النبي صلى الله عليه وآله بين أظهرهم:

«فأين يتاه [٧٣٠] بكم! وكيف تعمهون [٧٣١]»

نعم لا يرتجى منكم الضلال والحيرة وبين أظهركم عتره رسول الله صلى الله عليه وآله مصاييح الهدى وأعلام الورى والعروة الوثقى التى من تمسك بها نجى

«وهم أزمه الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق»

فمن أقبل عليهم أخذوا بيده إلى الحق، من إقتدى بهم عن بعد هدى إلى الرشد، بالتالى كل يهتدى بهديهم حسب تبعيته لهم.

أما العبارة:

«وهم أزمه الحق»

فتفيد أن الحق يتحرك حول محورهم؛ المضمون الذى ورد فى الحديث المعروف

«على مع الحق، والحق مع على يدور حيثما دار» [٧٣٢]

. والعبارة:

«وألسنة الصدق»

تعنى أنهم تراجعوا الوحى. كما يمكن أن يكون المراد أن لسانهم عليهم السلام لا ينطق سوى بالصدق؛ سواء تحدثوا عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله، أم حدثوا عن أنفسهم، فكل ذلك صدق محض.

وبالطبع ليس هنالك من تضاد بين هذين التفسيرين ويمكن الجمع بينهما. ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول:

«فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، وردوهم وروود الهيم [٧٣٣] العطاش»

فالقرآن قد يجرى على لسان الإنسان، كما قد يظهر على عمله، وأخيراً قد يشغل حيزاً فى عمق روح الإنسان، وأفضل موضع للقرآن هو الموضوع الأخير من المواضع الثلاثة المذكورة. فالعبارة تصرح بحب أهل البيت النابع من أعماق القلب والروح، كما ينبغى أن يعيش القرآن فى هذه الأعماق. والواقع هو أن هذه العبارة تؤكد حديث الثقلين الذى قرن العتره بالقرآن ودعا الناس كافة إلى اتباعهما والتمسك بها بغية الأمان من الضلال والفرقة. كما قيل فى تفسير هذه العبارة أنزلوهم أفضل المواضع التى أنزلهم بها القرآن الكريم، إلا- وهو مقام الإمامة والولاية الذى أشار إليه القرآن بالقول: «إِنَّمَا وَدَّعْتُمُ اللَّهَ...» [٧٣٤] والآية: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...» [٧٣٥] والآية: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى [٧٣٦] وسائر الآيات القرآنية

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٤٩

الواردة بهذا الشأن [٧٣٧] ويبدو التفسير الأول أنسب. وأخيراً فالعبارة

«الهميم العطاش»

تفيد أنهم عليه السلام منبع ماء الحياة، وأنكم بأشد الحاجة إليهم، وعليه يجب عليكم المسارعة إليهم دون أدنى تريث أو ترديد.

منزلة أهل البيت عليهم السلام

يتضح بجلاء مما مر معنا في هذا القسم من الخطبة أن وجود أهل البيت من عتره النبي صلى الله عليه وآله بين المسلمين، وتبعية الأمة لأقوالهم وأفعالهم إنما تعصمهم من خطر الضلال، فهم أزمه الحق ومصايح الهدى وأعلام الدين وألسنة الصدق وتراجمه الوحي. أما الروايات والأخبار الواردة من الفريقين في التأكيد على حبه فذلك لأن حبهم يبعث على اتباعهم، وبالتالي فإن اتباعهم هو أساس الهداية والحركة نحو الحق. ومن تلك الروايات ما أورده الفخر الرازي في تفسيره المعروف عن الزمخشري في الكشاف أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«من مات على حب آل محمد مات شهيداً».

«ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له».

«ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً».

«ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان».

«ألا ومن مات على حب آل محمد، بشره ملك الموت بالجنة».

«ألا ومن مات على بغض آل محمد، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آئس من رحمة الله» [٧٣٨]

وورد في حديث أنه صلى الله عليه وآله قال:

«أنا أول وافد على العزيز الجبار يوم القيامة، وكتابه وأهل بيتي، ثم أمتي، ثم أسألهم: ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيتي؟» [٧٣٩]

هذا غيض من فيض الأحاديث والروايات التي صرحت بمنزلة أهل البيت وأكدت على حبهم والتمسك بهم.

نقحات الولاية؛ ج ٣؛ ص ٣٤٩

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٥١

القسم الخامس: أعلام الهدى

«أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَى مَنْ بَلَى مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ» فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيهَا تُنْكِرُونَ، وَاعْزِرُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ - وَهُوَ أَنَا - أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ! وَأَتْرَكْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَ الْأَصْغَرَ! قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلَالِ الْحَرَامِ، وَالْبَسْتُكُمْ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي، وَفَرَشْتُكُمْ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، أَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي، فَلَا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لَا يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ، وَلَا تَتَغَلَّغْ إِلَيْهِ الْفِكْرُ».

الشرح والتفسير

أكد الإمام عليه السلام ما ورد في القسم السابق بشأن عتره النبي صلى الله عليه وآله فاضاف قائلاً:

«أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَى مَنْ بَلَى مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ»

هناك كلام وخلاف بين شراح نهج البلاغة بشأن عودة الضمير في

«خذوها»

ولكن يبدو أنه يعد إلى الحقيقة أو الكلام الحق ويعلم ذلك من قرائن الكلام، وان لم ترد في العبارات السابقة، فمفهوم العبارة: خذوا هذا الكلام الحق بشأن أهل البيت عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. أما قوله: إنه يموت من مات منا وليس بميت، ويبلى من بلى منا وليس ببال، فقد حمل على المعنى الحقيقي في أن أجساد أولياء الله تبقى غضة طرية في القبور وهم يتمتعون بنوع من الحياة بحيث يسمعون كلام الآخرين ويردون سلامهم، ولهم حياة

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٥٢

الشهداء الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ». [٧٤٠] وعليه فالعبارة

«يموت»

تعنى الموت الظاهري، والعبارة

«ليس بميت»

تعنى عدم الموت الواقعي، وهكذا عبارتي

«يبلى» و «ليس ببال»

. وقال البعض أن المراد بعدم الموت والبلى هنا المعنى المجازي، أى أن آثارهم وتعاليمهم باقية بين الناس إلى يوم القيامة، وكأنهم أحياء، ولعلنا نلمس هذا المعنى فى رواية كميل فى آخر نهج البلاغة بشأن العلماء العاملين «أعيانهم مفقودة، وأمثالهم فى القلوب موجودة» [٧٤١]

. كما احتمال أن يكون المراد بالحياة هنا تلك الحياة البرزخية التى تكون فيها الروح فى قوالب مثالية لطيفة، إلا أن هذا الاحتمال يبدو مستبعداً لأن مثل هذه الحياة لا تختص بالأئمة والمقربين من أولياء الله. ويبدو الاحتمال الأول هو الأصح، وبالطبع فأنها حياة أرفع من حياة الشهداء، فاننا نناديهم فى الزيارة

«تسمع كلامى وترد سلامى» [٧٤٢]

. ثم أكد الإمام عليه السلام ذلك قائلاً:

«فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تنكرون»

فى إشارة إلى أن معلومات الإنسان محدودة جداً وأن حقائق العالم عظيمه واسعة. والواقع أن العقل يقول فى مثل هذه الحالة «لا ينبغي للإنسان ان يتنكر لكل شئ لا يعرفه»

. على سبيل المثال لو لم يكن لديه من علم بشأن حياة أولياء الله، فلا ينبغي له أن ينكر ذلك. فليس هذا الأمر الوحيد الذى لا يعلمه أغلب الناس، بل هناك آلاف الالوف وملايين المليونات من الوقائع المتحققة فى الخارج والتى لا ندركها، وحسب تعبير أحد العلماء أن وقائع العالم بمنزلة كتاب ضخيم بحيث لو جمعت كافة علوم البشرية من أولها إلى آخرها لما أصبحت ورقة فى ذلك الكتاب. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ليكشف عن حقيقة مريرة صعبة وكذلك مفيدة نافعة بعيدة المعنى فقال:

«و اعذروا من لا حجة لكم عليه- هو أنا»

أى أنى نهضت بكافة وظائفى الملقاة على عاتقى، فلم أقصر فى وظيفتى طرفه عين وقد أدت تكليفى أمام الله والعباد. وبناءً على هذا فليس هنالك مايسى إالى، ومن تفوه على فهو إما خاطئ أو مغرض. طبعاً هذا لا يعنى أنه لا تبدو آرائكم تجاهى وتبخلون

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٥٣

بالمشورة، إلا أنه يعنى ليس لكم حق الاعتراض على؛ الأمر الذى نلمسه فى قوله لابن عباس:

«لك ان تشير عليّ وأرى، فان عصيتك فأطعني» [٧٤٣]

. ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح خدماته التي اسداها للامة بسبع عبارات، فقال بادئ ذي بدء

«ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر»

فسيرة حياة الإمام عليه السلام ولا- سيما زمان حكومته تفيد أن القرآن كان محوره في كافة أقواله وأفعاله؛ الأمر الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وآله حين قال:

«على مع القرآن، والقرآن مع علي» [٧٤٤]

. ثم قال عليه السلام:

«و أترك فيكم الثقل الأصغر»

وشاهد ذلك الحوادث التي وقعت ابان حياته عليه السلام بحيث كثيراً ما كان يتعرض أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وبقيته الثقل الأصغر الإمام الحسن والحسين عليهما السلام إلى الاخطار، بينما كان يسعى الإمام عليه السلام جاهدا للحفاظ عليهما ومن ذلك أنه شاهد الإمام الحسن عليه السلام وهو يسارع إلى الميدان في معركة صفين فقال:

«أملكوا عنى هذا الغلام لا يهدنى، فاننى أنفس بهذين يعنى الحسن والحسين عليهما السلام- على الموت لثلا- ينقطع بهما نسل

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» [٧٤٥]

. ثم قال في العبارة الثالثة:

«قد ركزت فيكم راية الإيمان».

فكلام على عليه السلام- ومن ذلك خطبه في نهج البلاغة- بشأن المبدأ والمعاد وأدلة نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله تفيد أنه كان ينتهز الفرص من أجل تقوية عرى الإيمان في قلوب الامة.

وقال في العبارة الرابعة:

«ووقفتم على حدود الحلال والحرام»

وقد بلغ من تأكيد الإمام عليه السلام على بيان مسائل الحلال والحرام بحيث أنه لم يكن يقتصر على بيانها في خطبه في المساجد وسائر الحلقات، بل كان يقوم بذلك كل يوم حين يتفقد السوق ويخاطب التجار والكسبة ويوصيهم بالتفقه بالدين، بل لم يحفل التاريخ بمثل أمير المؤمنين عليه السلام في بيانه لأحكام الشرع ومسائل الحلال والحرام. فقد جاء في الخبر أنه كان يطوف بالأسواق وينادى أهلها بالورع التقوى وعدم القسم في المعاملة، فانها تذهب البركة والتاجر فاجر إلا أن يأخذ حقاً ويعطى حقاً، ثم يأتي ثانية ويخاطبهم بهذه الكلمات [٧٤٦]. كما كان يطوف في أسواق القصابين ويناديهم من غشنا ليس منا. [٧٤٧]

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٥٤

ثم قال عليه السلام في العبارة الخامسة:

«و ألبستكم العافية من عدلى»

فعدالة أمير المؤمنين عليه السلام وتأثيرها في إعادة روح الاستقرار والهدوء إلى المجتمع ليست بخافية على أحد، لم يكف لحظة إبان حكومته عن التأكيد على ضرورة بسط العدل والقسط، حتى صرح عليه السلام قائلاً:

«والله لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الاماء، لرددته فان في العدل سعة. ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيّق». [٧٤٨]

ثم قال في العبارة السادسة

«و فرشتكم المعروف من قولى وفعلى»

فأعمال الخير والاحسان قد تشيع وتوسع رفعتها في المجتمع عن طريق الوصايا والمواعظ الخطب، كما يمكن أن تنتشر عن طريق

عرض النماذج والقذوات العملية، والحق أن الإمام عليه السلام كان قدوة في الأمرين، وقد شحنت كتب التواريخ ونهج البلاغة بسيرته العملية وأقواله بشأن أمر الناس بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم قال عليه السلام: «وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي».

فضائله الأخلاقية عليه السلام وعدالته وإثاره وتضحيته وزهده وورعه وتقواه ونصرته للمظلومين واليتامى والضعفاء وشجاعته وبسالته ومبارزته للباطال الظلمة ليست بخافية على أحد، حتى إعترف بها الأعداء كعواوية وعمرو بن العاص، فضلاً عن الأصدقاء. وقال البعض أن:

«كرائم الاخلاق»

أسمى من

«حسن الاخلاق»؛

فمثلاً- حسن الخلق يوجب مقابلة الاحسان بالاحسان، أو الرد عليه بما يربو عليه، أما كرم الخلق فانه يوجب مقابلة الإساءة بالاحسان؛ العمل الذي قام به أمير المؤمنين على عليه السلام تجاه عبدالرحمن بن ملجم بعد أن ضربه. ثم اختتم كلامه عليه السلام قائلاً:

«فلا تستعملوا الزأى فيما لا يدرك قعره البصر، ولا تتغلغل إليه الفكر»

في إشارة إلى أن ما بينه من منزلة للثقل الاصغر (عترة النبي) إنما هي من الامور التي اقرتها الارادة الإلهية، فايكم والتشكيك فيها من خلال الوهم والظن والأفكار العاجزة. فهي منزلة حباهم بها العزيز الحكيم إلى جانب كونها نعمة عظيمة أنعمها الله على الأمة الإسلامية. والواقع هو أن هذه العبارة تأكيد للعبارة السابقة التي قال فيها عليه السلام:

«فلا تقولوا بما لاتعرفون، فان أكثر الحق فيما تنكرون».

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٥٥

القسم السادس: زوال حكومة بنى أمية

إشارة

ومنها:

«حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمِّيَّةٍ؛ تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا، وَتُورِدُهُمْ صِفْوَهَا، وَلَا يَرْفَعُ عَنْ هَيْدِهِ الأُمَّةُ سَوْطُهَا وَلَا سَيْفُهَا، كَذَبَ الظَّانُّ لِذَلِكَ، بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَدِيدِ العَيْشِ يَتَطَعْمُونَهَا بُرْهَةً، ثُمَّ يَلْفُظُونَهَا جُمْلَةً!».

الشرح والتفسير

هذا هو ختام الخطبة. ويرى البعض أنه موضوع مستقل ليس له من إرتباط بالأبحاث السابقة. والواقع أن هناك عدة مطالب بين هذا القسم من الخطبة والأقسام السابقة لم يتعرض لها السيد الرضى (ره)، ومن هنا يبدو عدم وجود ارتباط بين هذا القسم وما سبقه من أقسام، مع ذلك لا يستبعد أن تكون هناك رابطة معقولة بين هذين القسمين، أى أن ما حذف منها ليس بالشيء الكثير. وكأن الإمام عليه السلام أشار إلى العبارة الأخيرة من البحث السابق حين قال فلا تقولوا بما لاتعرفون، فإن أكثر الحق فيما تنكرون. ومن ذلك قوله لاتعتقدوا أن حكومة بنى أمية دائمة خالدة، لا ليس الأمر كذلك، فسرعان ما تؤول حكومتهم إلى زوال وإنهيار. وقد ابتدأ المرحوم السيد الرضى (ره) هذا القسم قائلاً أن القسم الآخر من هذه الخطبة:

«حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ [٧٤٩] عَلَى بَنِي أُمِّيَّةٍ؛ تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا، [٧٥٠] تُورِدُهُمْ صِفْوَهَا، وَلَا يَرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلَا سَيْفُهَا».

فالعبارة

«معقولة على بنى أمية»

كناية عن تسليم الشئ إلى

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٥٦

شخص، والعبارة

«تمنحهم درها»

جرباً على عادة العرب بتشبيه أغلب امور حياتهم بالناقصة، حيث كان لها بالغ الأثر في حياتهم وعليه فهذه التشبيهات محببة إليهم. على كل حال فإن الأفراد السطحيين لا يكادون يرون أحدهم مترعباً على عرش السلطة وقد صفت له الدنيا وقمع معارضيته حتى يظنون بخلود هذه السلطة، والحال لا يعلم ما يخبي الغدو ليس هنالك من سبيل للتكهنات في المسائل السياسية، نعم لأولياء الله أن يزودوا الناس ببعض هذه الأخبار المستقبلية إستناداً لعلمهم المستقى من علم الله سبحانه، ومن ذلك هذا الأخبار من الإمام عليه السلام حيث قال مواصلة لكلامه:

«و كذب الظان لذلك، بل هي مجة [٧٥١] من لذيذ العيش يتطمعونها برهه، ثم يلفظونها جملة»؛

أى سيستحوذون على الحكومة تدريجياً، ثم يفقدونها دفعة احده.

فنحن نعلم أن حكومة بنى أمية لم تدم أكثر من ثمانين سنة، فكانت أعظم مدتهم على عهد حكومة معاوية بعد شهادة الإمام على عليه السلام وصلحه مع الإمام الحسن عليه السلام بعد أن أقبلت عليه الدنيا. ثم خلفه يزيد الذى اسود عهده بفعل قيام الإمام الحسين عليه السلام واستشهاده بتلك الطريقة البشعة فلم تدم حكومته أكثر من أربع سنوات، ثم تعاقبت الحكومات التى دام بعضها بضعة أشهر، بل كانت حكومة معاوية بن يزيد أربعين يوماً، ولم تشذ من ذلك سوى حكومة عبدالملك التى استغرقت عشرين سنة، ولعل السبب يعود إلى عدم استجابته لوصايا الحجاج وعدم إراقة دماء بنى هاشم على كل حال وكما أخير الإمام على عليه السلام فقد كانت حكومتهم قصيرة مليئة بالأحداث المريرة- أما العبارة

«هي مجة»

فهى إشارة إلى أن بنى أمية سيدوقون لمدة عابرة نعم الدنيا، إلّا أن مثلهم كمثل الذى يضع طعاماً لذيداً فى فمه ويتذوق طعمه إلّا أنه لا يقوى على إبتلاعه، فسرعان ما سيفقدون لذة الحكومة، والتاريخ أفضل شاهد على ذلك فى أن حكومتهم التى دامت ثمانين سنة- سوى بعضها- كانت مليئة بالمخاطر والنزاعات والحروب والبلابل والاضطرابات.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٥٧

تأملان

حكومة بنى أمية الفاشلة

إشارة

صحيح أن بنى أمية حكموا البلاد الإسلامية ما يقارب الثمانين سنة وقد تسلم زمام الامور أربعة عشر من آل أبى سفيان [٧٥٢] وآل مروان، حيث حكم بعضهم لشهر أو بضعة أشهر، وكانت أطولها حكومة هشام بن عبدالملك حيث دامت عشرين سنة، فكان متوسط حكومة أحدهم ستة أشهر، إلّا أن حكومتهم كانت ملئى بالنزاعات والخلافات؛ أما الحوادث التى وقعت خلال تلك المدة وأحالت

عسل حكومتهم علقما فهي:

(أ) قيام الخوارج ضد بني أمية

شهدت حكومة بني أمية عدة نهضات للخوارج وهي:

- ١- قامت طائفة من الخوارج يبلغ عددها خمسمئة بزعامه فروة بن نوفل بعد حركة الإمام الحسن عليه السلام من الكوفة إلى الحجاز وورود معاوية الكوفة. [٧٥٣]
- ٢- قيام عروة بن حدير المعروف بعروة بن أدية ضد معاوية وقتله من قبل زياد.
- نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٥٨
- ٣- نجدة بن عويم الحنفي أحد زعماء الخوارج الذي ثار ضد معاوية واستولى على اليمامة والطائف وعمان والبحرين ووادي تميم وعامر.
- ٤- قيام مستورد بن سعد الصميمي على المغيرة بن شعبه والى معاوية على الكوفة، فبعث له المغيرة بمعقل بن قيس وقد قتلا معاً. [٧٥٤]
- ٥- قيام حوثة الأسدى ضد معاوية فجهز له معاوية جيشاً من الكوفة فخطبهم حوثة:
- يا أعداء الله لقد قاتلتم بالام من أجل القضاء على حكومة معاوية واليوم من أجل تثبيت دعائهما، وقد قتل حوثة في هذه المعركة وتفرق أصحابه.
- ٦- قيام قريب بن مرة الأزدي وزحاف الطائي وهما من مجتهدى البصرة ضد زياد. [٧٥٥]
- ٧- قيام نافع بن الأزرق الحنفي ونجدة بن عامر وهما من الخوارج وهجومهما على البصرة، وقد قتل في هذه المعركة أمير البصرة ابن عبيس ونافع، وتعرف هذه المعركة بمعركة دولاب وهي من المعارك المشهورة للخوارج.
- ٨- عبيد الله بن بشير بن ماحوز اليربوعي الذي تزعم الخوارج بعد قتل نافع وواصل القتال.
- ٩- قيام الزبير بن على السليطي بعد أن نزل البصرة والتحق به أهالي البصرة والاهواز.
- ١٠- قيام قطري بن الفجاءة المازني ضد معاوية بعد قتل الزبير بن على. حيث أراد الخوارج أن يتزعمهم عبيدة بن هلال إلا أنه قال أن قطري بن الفجاءة خير مني فبايعوه. [٧٥٦]
- ١١- عبد ربه الصغير الذي بويع على عهد قطري والذي قتل في معركته ضد المهلب. [٧٥٧]
- ١٢- قيام شبيب بن يزيد الشيباني في الموصل والجزيرة فقاتله الحجاج [٧٥٨]، وقد تمكن من قتل عدد كثير من جيش الحجاج.

(ب) قيام سائر الناس ضد بني أمية

- ١- قيام حجر بن عدى على المغيرة بن شعبه والى معاوية على الكوفة، حيث خطب
- نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٥٩
- الناس فدم على عليه السلام ومدح معاوية، فقام إليه حجر، ثم قتلوه في مرج عذراء بعد أن منحوه الأمان. [٧٥٩]
- ٢- قيام الإمام الحسين عليه السلام ضد يزيد واستشهاده في محرم الحرام عام ٦١ هـ ق. [٧٦٠]
- ٣- قيام عبدالله بن الزبير في مكة فخلع يزيد ودعى الناس لبيعتة، ثم أخرج والى يزيد من مكة. [٧٦١]
- ٤- قيام أهل المدينة بزعامه عبدالله بن حنظلة والذي يعرف بواقعة الحره، فورد جيش يزيد بزعامه مسلم بن عقبة المدينة فقتل

أهلها. [٧٦٢]

- ٥- قيام التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي عام ٦٥ في عين الوردة تحت شعار يالثاراات الحسين. [٧٦٣]
- ٦- قيام المختار بن أبي عبيدة الثقفي بعد سليمان بن صرد الخزاعي، حيث وجه ابراهيم بن مالك بن الحارث لقتال عبيدالله بن زياد، فتمكن ابراهيم من قتله، ثم اقتص المختار من قتله الإمام الحسين عليه السلام. [٧٦٤]
- ٧- قيام مصعب بن الزبير ضد عبيدالله بن زياد، إلا أنه هزم بعد أن غدر به جمع من أهل العراق. [٧٦٥]
- ٨- قيام عبدالرحمن بن محمد الأشعث في سيستان، حيث كان والي الحجاج عليها، إلا أن الحجاج غضب عليه وهدده، فخلع الحجاج وقاتله في الاهواز عام ٨٣ هـ ق. [٧٦٦]
- ٩- قيام آل المهلب على يزيد بن عبدالملك عام ١٠٢ حيث بايع يزيد بن المهلب مائة وعشرين الف، فبعث يزيد بن عبدالملك بأخيه مسلمة بن عبدالملك فنشبت بينهما معركة
نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٦٠
- ضاريه هزم في بدايتها أهل الشام. [٧٦٧]
- ١٠- قيام سليمان بن كثير الخزاعي وصحبه عام ١١١ في خراسان وقد دعوا الناس لبيعة بني هاشم فاستجاب لهم الكثير. [٧٦٨]
- ١١- قيام زيد بن علي بن الحسين عليه السلام على هشام بن عبدالملك، هيث استشهد أوائل شهر صفر عام ١٢١، وقد بايعه بادئ الأمر جمع من قراء أهل العراق والاشراف، إلا أنهم انفرجوا عنه حين قاتل عامل العراق يوسف بن عمر الثقفي ثم استشهد زيد، فاستخرجوا جسده بعد الدفن وحزوا رأسه ثم حرقوا جسده. [٧٦٩]
- ١٢- قيام يحيى بن زيد ضد نصر بن سيار فهزم جيشه وقتل قائده، ثم استشهد مع سائر أصحابه. [٧٧٠]
- ١٣- قيام الضحاك بن قيس الحروري ضد عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز حيث استولى على واسط والموصل ونصيبين وحران، وفي عام ١٢٧ قتل الضحاك وتفرق أصحابه. [٧٧١]
- ١٤- قيام أبو حمزة المختار بن عوف الحروري الأزدي واستيلائه على المدينة، ثم انطلق للشام، فاشتبك مع مروان الحمار ثم عاد إلى المدينة. [٧٧٢]
- ١٥- قيام ابراهيم بن محمد الإمام وابومسلم الخراساني عام ١٢٩. [٧٧٣]
- نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٦١

الخطبة [٧٧٤]: الثامنة والثمانون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
وفيهما بيان للأسباب التي تهلك الناس

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من قسمين؛ القسم الأول في أن العذاب الإلهي لا يأتي بغتة، بل إن الله ليمهل الجابرة والظلمة والأقوام الطاغية والمفسدة، وإنه لا يعجل في المؤاخذه، عليهم يعودون إلى أنفسهم وينيبون إلى الله. بعبارة أخرى فان العذاب الإلهي لا يحمل طابع الانتقام، بل يهدف إلى الاعتبار والتربية، إلا أن المؤسف هو كثرة العبر وقلة الاعتبار فلا من أذن تسمع ولا من عين تبصر الحق ولا

قلوب تنزع إلى الهدى أما القسم الثاني فيشير إلى الأقوام المنحرفة التي تلجأ إلى أفكارها الناقصة وآرائها الباطلة لحل خلافاتها الدينية بدلاً من الرجوع إلى الوحي والسنة النبوية المطهرة، فتكتفى بظنها؛ الأمر الذي يقودها إلى الهلاك.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٦٣

القسم الأول: هل من عين باصرة واذن سامعة؟

إشارة

«أَمَّا بَعِيدٌ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْصِمْ يَفْصِمِ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلَّا بَعِيدٌ تَمْهِيلِ رِخَاءٍ، وَلَمْ يَجْبُرْ عَظَمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعِيدٌ أَزْلٍ وَبَلَاءٍ؛ وَفِي دُونَ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتَبٍ وَمَا اسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ مُعْتَبِرٍ وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بَلِيْبٍ، وَلَا كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيْعٍ، وَلَا كُلُّ نَاطِرٍ بِبَصِيْرٍ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة إلى أمرين مهمين: الأول أن الله يمهل الطواغيت والجبابرة بغية اليقظة والعدوة. الثاني لانصر دون صعوبات ومعضلات، فقد قال عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْصِمِ [٧٧٥] جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلَّا بَعْدَ تَمْهِيلِ رِخَاءٍ»

نعم فالله حكيم وحليم وغفور ورحيم، واستناداً لهذه الصفات الحسنى فإنه لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل الاثمين والمدننين عليهم يرغبون ويفيدون على اهداء وصواب ويكفون أن الذنوب يرعون والمعاصي، بل أحياناً يشجعهم فيغرقهم بوابل نعمه وآلائه، كما مر علينا ذلك في تأريخ نبي الله نوح وموسى عليه السلام وكذلك فرعون وقوم بني إسرائيل وقوم سبأ. ثم قال عليه السلام:

«وَلَمْ يَجْبُرِ [٧٧٦] عَظَمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ أَزْلٍ [٧٧٧] وَبَلَاءٍ»

ليقدروا النعم فيجدوا في عدم نفاها والحفاظ عليها. ثم قال عليه السلام:

«وَفِي

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٦٤

دون ما استقبلتم من عتب [٧٧٨] وما استدبرتم من خطبٍ معتبرٍ».

وكان الإمام عليه السلام أراد أن يطيب خواطر صحبه ويرد على تساؤل قد تقتدح في أذهانهم بشأن إنتصارات بنى أمية وانزعاجهم من ذلك، في عدم الاستعجال، فلن يدوم ظلم هؤلاء الظلمة، وهنالكَ وقت معلوم للمهلة الإلهية فإذا جاءت حلّ عليهم العذاب. ولا تمتعضوا ممّا يحلّ بكم من خطوب، فتلك سنة إلهية في البلاء والاختبار وتحمل الشدائد ومن ثم الفرج واليسر، حتى في عهد انبثاق الدعوة اللاسلامية وفي الحروب والمعارك فلم يكتب الله للمسلمين النصر في موقعة الأحزاب حتى زلزلوا زلزلاً شديداً؛ الأمر الذي صورته القرآن بالقول: «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ... هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا» [٧٧٩]. أمّا قوم بني إسرائيل فقد خاطبوا

نبيهم موسى عليه السلام حين اشتد عليهم الاذى

«أَوْ ذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا»

فردّ عليهم موسى عليه السلام بالقول: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» [٧٨٠].

ونخلص ممّا سبق ان هذه السنة الإلهية جارية على الأمة الإسلامية كما جرت على الامم من قبلها، ولم يستثن من ذلك أصحاب الإمام

عليه السلام. نعم كل هذه الامور دروس وعبر، إلا أنها تنفع من كانت له عين باصرة وأذن سامعة وقلب واع!

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بَلِيْبٍ، وَلَا كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيْعٍ، وَلَا كُلُّ نَاطِرٍ بِبَصِيْرٍ»

فتأريخ البشرية مفعم باللدروس العبر، قصر عمرنا هو الآخر- لو تأملنا ذلك بدقه- ملئ بالحوادث المعبره، بل قد ملأت العبر أركان كل شئ في عالم الوجود، إلما أن المؤسف له أنه ينبغي أن يكون هنالك من يسمع ويصبر ويعي ويعتبر، وما أقل هؤلاء، ومن هنا يواصلون طريق الضلاله ويصابون بما أصاب من قبلهم من مصير أسود وعاقبه مريره.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٦٥

مصير الجابره

يعتقد كل من يؤمن بالله وعدله أن أساس هذا العالم قائم على العدل والقسط، وأن الظلم والجور طارئ على طبيعه عالم الخلقه، ومن هنا يراود البعض هذا السؤال: إذا كان العدل هو الأساس، فما تفسير تسلم الجابره لمقاليد الامور ومنحهم فرصه ممارسه نشاطهم وفعاليتهم؟

وللإجابة على هذا السؤال لابد من القول بأن هنالك عدة دوافع تقف وراء ذلك منها: أولاً:

فساد الناس ومثل هذه الحكومات هي عذابهم الدنيوي؛ الأمر الذي نلمسه في وصيه الإمام على عليه السلام لمن ترك النهي عن المنكر:

«فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلايستجاب لكم». [٧٨١]

ثانياً: قد يتحلى بعض الجابره ببعض الخصال الحسنه التي تستلزم منحهم تلك المهله التي يتقلبوا فيها في البلاد، فقد جاء في الخبر أن موسى عليه السلام قال: إلهي أهلت فرعون أربعمائه سنه وقد ادعى الربوبيه وكذب نبيك وآياتك! فجاءه الخطاب: إنّه حسن الخلق وسهل الحجاب، (أى لم تكن هناك من صعوبه لدى الناس فى الدخول عليه) وانى أحب أن أثيبه على هذه الصفات. [٧٨٢]

ثالثاً: ما ورد فى الخطبه حيث قال الإمام عليه السلام:

«أما بعد فان الله لم يقصم جبارى دهر قط إلا بعد تمهيل ورخاء»

لعلهم يفيقون من غفلتهم ويكفون عن ظلمهم وعدوانهم.

رابعاً هو أن بعض الجابره قد أغلقوا جميع أبواب الهدايه بوجوههم، فالله يمهلهم إستدراجاً ليزدادوا ذنوباً وآثاماً فيضاعف عليهم العذاب، بالضبط كالذى يصعد شجره وعاقبه السقوط، فكلما تسلق أكثر كان أذاه ومصابه أشد وأعظم. أما القرآن فقد صرح بهذا الشأن قائلاً: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ». [٧٨٣]

وبناءً على ما تقدم فلاينبغى أن يتفر إلينا الشك فى مسئلة العدل إذا ما رأينا ظالماً وقد تحكّم بمصير أمه، وذلك لاختلاف الأسباب المؤديه إلى ذلك والتي أشرنا إلى جانب منها سابقاً.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٦٧

القسم الثانى: الاستبداد ماده الاختلاف

إشارة

«فَيَا عَجَبًا! وما لى لا أعجب من خطا هذه الفرق على إختلاف حجاجها فى دينها! لا يقتضون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن عيب، يعملون فى الشبهات، ويسيرون فى الشهوات. المعزوف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفرغهم فى المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم فى المهتمات المبهمات على آرائهم، كأن كل امرئ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات وثقات- وموثقات، وأسباب محكمات».

الشرح والتفسير

لما كانت العبارات الأخيرة من القسم السابق من الخطبة بشأن الدروس والعبر في حياة الناس، فإن الإمام عليه السلام أشار هنا إلى إحدى الموارد المهمة لهذه العبر، ألا وهو اختلاف الأفراد والأقوام إثر هجرهم للأنبياء والأوصياء والعموم في وادي الحيرة والضلال، فقال عليه السلام:

«فيا عجباً! وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها! لا يقتصون أثرن بي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيبي، ولا يعفون [٧٨٤] عن عيب»،

فقد بان الشقاق والنفاق في أوساط الائمة الإسلامية على عهد أمير المؤمنين على عليه السلام وقد ظهرت مختلف نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٦٨

المذاهب في الاصول والفروع، إلى جانب إتساع رقعة البلاد الإسلامية التي أسهمت في انبثاق مختلف الفرق. فالإمام عليه السلام يضم هذا الاختلاف ويعزا ذلك إلى ثائر الاخباء زلات التي اشير إلى عشر منها في هذا الخطبة، أربع منها وردت في الخطبة: الاولى انهم لا يتبعون تعاليم الوحي التي يبلغهم بها الأنبياء. الثانية أنهم لم يلتزموا ويقتدوا بالأوصياء من بعد الأنبياء. الثالثة عدم الإيمان بالغيب. أما ما المراد بالإيمان بالغيب فهنا لك خلاف بين مفسري القرآن وشرّاح نهج البلاغة. فقد ذهب البعض إلى أن المراد بالغيب الذات الالهية المقدسة، وقيل القيامة وقيل متشابهات القرآن بينما توسع البعض آخر فذهب إلى أن المقصود بالغيب كافة الامور الخارجة عن دائرة حس الإنسان. وعليه فقد يراد بالغيب جميع ماذكر، ويبدوا المعنى الأخير هو الأنسب. الرابعة عدم التورع عن العيوب وبعبارة اخرى فإن هؤلاء يرتكبون كل ذنب بسهولة بسبب افتقارهم لمملكة الافاف التي تحجز الإنسان عن ذنب، وهكذا كانت مباني إيمانهم ضعيفة وأعمالهم خاوية، ومن الطبيعي أن يؤدي التزلزل في الإيمان إلى الفساد في العمل، كما يؤدي الفساد في العمل إلى زعزعة دعائم الإيمان. ثم قال عليه السلام في الصفة الخامسة العشرة:

«يعملون في الشبهات، ويسرون في الشهوات»

العبارة

«في الشهوات»

إشارة إلى نقطة لطيفة وهي أن هؤلاء يخفون أعمالهم السيئة تحت غطاء الشبهات حتى لا يطلع الناس على قبائحهم. أنهم قلما يتجهون صوب محكمات القرآن والأحاديث، بل بالعكس إنما يسارعون إلى المتشابهات، وكذلك في الموضوعات الخارجية التي تعتبر من الموضوعات الواضحة، حيث يتعدون عنها ويقتفون آثار الموضوعات المشتبهة؛ ولا غرو فليس لهم من سبيل القيام بأعمالهم الشائنة إلّا من هذا السبيل. والعبارة

«يسرون في الشهوات»

تشير إلى أن محور حياتهم إنما يمر عبر الشهوات، لا أن الشهوات طارئة عليهم، أضف إلى ذلك فإن مقارفتهم لهذه الشهوات دائم متواصل، ويفهم ذلك من خلال العبارة التي تصدرتها الأفعال بصيغة المضارع

«يعملون ويسرون»

. والجدير بالذكر أن أعمالهم إنعكاس لعقائدهم الفاسدة، كما يمكن أن تكون مقارفة الشهوات تدفعهم لأن يتجهوا صوب العقائد التي تبرر أفعالهم. [٧٨٥] ثم خاض

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٦٩

الإمام عليه السلام في إطار مواصلته لحديثه عن سائر صفات هؤلاء المضلين - الذين قد يكونون أحياناً من العلماء المزيفين - فقال عليه السلام:

«المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا»

. نعم لما قطع هؤلاء رابطتهم بالله والنبي لم يعد الوحي السماوى والسنة النبوية وكلمات المعصومين هي المعيار في تمييز الصالح من الطالح والحسن من القبيح، بل المعيار هو نفس والرغبات الباطنية، أو الافكار الفئوية والتعصبات القبلية والامور التي تؤمن مصالحهم المادية، ولو كانوا حقاً من أهل الفكر فأنهم سيقعون في وادى الضلال أيضاً لعدم إنفتاحهم على تعاليم السماء وإرشادات الأنبياء والمعصومين، ففكر الإنسان عرضه للخطأ والانحراف. ثم قال عليه السلام في صفتهم التاسعة والعاشرة:

«مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم»

فاساس يؤسهم وشقائهم إنما ينبع من هذه القضية، وهي أنهم هجروا أولاً تبعية الوحي وسنة النبي وتعاليم المعصومين، وعليه فكلمة تقدموا أكثر إزداد انحرافهم وابتعادهم عن الحق. ومن هنا صرح الإمام عليه السلام كأن كل امرئ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعري ثقات وأسباب محكمات، والحال لا ينطوون سوى على أفكار هزيلة وتصورات واهية «وإنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» [٧٨٦]. نعم هذا هو المصير المحتوم الذي ينتظر الأفراد الذين يولون ظهورهم للمعايير الدينية الصحيحة في حل خلافاتهم الفكرية والعقائدية وتمييز الحق من الباطل والصرط المستقيم من الطريق السقيم ويعولون على أفكارهم القاصرة وآرائهم الباطلة، ولذلك وقعوا في أودية الشرك والوثنية المقيته حتى جعلوا لله جسماً ويدا ورجلاً وشعراً مجعداً، بينما خالفهم البعض الآخر تماماً حتى عطل صفاته سبحانه وهبطوا بالفكر إلى الحضيض في أنه لا يستطيع إدراك صفاته والتطرق إلى ذاته، فذلك التجسيم الأبله وهذا التعطيل الأحمق هو الوليد الطبيعي للاستناد إلى الآراء الناقصة وهجر تعاليم أئمة الدين، فكان منهم الخوارج الذين يحسبون أنهم عابدون وقد سلكوا سبيل النجاة، بينما أنكروا أبسط بديهات الإسلام وشرعة المقدس في ضرورة الحكومة وحاجة الأمة الماسة إليها.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٧٠

المستبدون الظالمون

استفاضت الأحاديث التي تؤكد على أن الهوى يصد الإنسان عن الحق؛ الأمر الذي أشارت إليه بصورة جامعة هذه الخطبة، فهؤلاء الذين عجت حياتهم بالشهوات لا يرون معروف الله معروفاً ولا منكره منكراً، فهم لا يستندون إلى أدلة العقل، والمعروف ما انسجم وميولهم النفسانية، وما خالفها فهو المنكر. وإذا ما صادفتهم بعض المسائل المعظلة إنما يلودون بأفكارهم المنحطه بدلاً من الاستعانة بالعقل والفكر، وأبعد من ذلك الآيات القرآنية وتعاليم الأئمة ليحلوا مشاكلهم. والعجيب أن هؤلاء الأفراد لا يقبل أحدهم الآخر، بل كل يرى أنه إمام نفسه وأنه مرجعها وملاذها. ومن الطبيعي أن لا يقود هذا السلوك سوى إلى الحيرة والضلال والسقوط، والاسوأ من كل ذلك يرون أنفسهم مهتدين؛ الأمر الذي صورته القرآن الكريم: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» [٧٨٧].

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٧١

الخطبة [٧٨٨] التاسعة والثمانون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
في الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وبلاغ الإمام عنه

نظرة إلى الخطبة

تحدثت الخطبة عن ثلاثة أمور مرتبطة مع بعضها؛ الأول تصوير جامع ورائع عن أوضاع العرب في الجاهلية تزامنا مع بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يفيد أنهم كانوا في أسوأ حالة من الناحية المادية والمعنوية؛ الحالة التي لا يمكن معها وصفهم بالحياة، بل تشير الخطبة إلى الأوضاع الوخيمة والظلام الدامس الذي كان سائداً حتى خارج الجزيرة العربية. ثم حذر صحبه ومن عاصره من الظن بانقطاع عصر الجاهلية، بل عليهم الاعتبار بحياتهم والحيطة والحذر من العودة إلى الجاهلية. أخيراً صرح بهذه الحقيقة وهي مقارعة الجاهلية وأفكارها المنحرفة، وبينت لكم ما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله في زمانه، حتى أتممت الحجّة عليكم. ثم حذرهم عليه السلام من الغرور والغفلة والتحلي باليقظة تجاه الأحداث والمخاطر التي تنتظرهم.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٧٣

القسم الأول: العالم على أعتاب الدعوة

إشارة

«أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَاعْتِزَامِ مِنَ الْفِتَنِ، وَانْتِشَارِ مِنَ الْأُمُورِ، وَتَلَطُّ تَلَطُّي مِنَ الْخُرُوبِ، وَالدُّنْيَا كَاسِفَةٌ النَّوْرِ، ظَاهِرَةٌ الْغُرُورِ، عَلَى حِينِ اضْتِفَارٍ مِنْ رَقِيقِهَا، وَإِيَّاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا، اغْوَارٍ مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ مَنَاةُ الْهُدَى، وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الْجِيفَةُ، شِعَارُهَا الْخَوْفُ، وَدِتَارُهَا السَّيْفُ».

الشرح والتفسير

إن الهدف الغائي للإمام عليه السلام من هذه الخطبة هو إيقاظ الناس من سبات الغفلة والغرور، فقد إصطحبهم إلى عصر الجاهلية واستعرض لهم التاريخ، كيف كان الناس، والنقلة النوعية الكبرى التي أحدثتها نهضة النبي صلى الله عليه وآله، ثم حذر من عودة أوضاع الجاهلية، مؤكداً أنه وعلى غرار النبي صلى الله عليه وآله ثار من أجل اجتثاث جذور الجاهلية بما تنطوى عليه من أفكار وأوهام، ليعودوا إلى أنفسهم قبل فوات الآوان. فقد رسم صورة واضحة للجاهلية بعبارات قصيرة عظيمة المعنى في خمس عشرة. جملة بما يعجز الآخرون عن رسم مثل هذه الصورة. فقال عليه السلام

«أرسله على حين فترة [٧٨٩] من الرسل»،

وقيل إن هذه الفترة قد استغرقت خمسمائة سنة وقيل ستمئة سنة لم يبعث فيها نبي [٧٩٠] (وان كان أوصياؤهم بين الناس). ولذلك ساد الناس سبات

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٧٤

قاتل، وهذا ما أكده الإمام عليه السلام في العبارة الثانية

«و طول هجعة [٧٩١] من الأمم»،

ولعل هذه الفترة تستبطن امتحان الله للعباد وللوقوف على قدر الأنبياء ونعمته عليهم. مع ذلك فقد كان هناك أثر مباشر لهذه الفترة في تفعيل حركة شياطين الجن والانس؛ وذلك أن الميدان قد خلالهم فشددوا من حملاتهم على الامم والشعوب فجرعوها أنواع الانحرافات والأضاليل ثم قال عليه السلام في العبارة الثالثة:

«و اعتزام [٧٩٢] من الفتن»

فقد شبه الإمام عليه السلام الفتن بالإنسان الشرير أو الحيوان الضاري الذي يهجم على الإنسان الأمن دون مبرر؛ وهذا ما كانت عليه الإمام في فترة الرسل.

ثم قال عليه السلام في العبارة الرابعة:

«و انتشار من الأمور»

يمكن أن يكون المراد بهذه العبارة تشتت فعاليات الجماعة البشرية وانشطتها، وعبارة اخرى ظهور الفوضى والهرج والمرج والاضطراب والتشتت في المجتمعات والذي يعد من الفتن والقلقل. ثم قال عليه السلام:

«و تَلَطُّ [٧٩٣] من الحروب»

ياله من تشبيه رائع، حيث شبه الحرب بلهب النار المحرقة التي تأتي على الأخضر واليابس فتحيله رماداً. كما شبه امتداد الحروب بالسنة النيران. ولو رجعنا قليلاً إلى الوراء لرأينا العالم برمته ولا سيما جزيرة العرب أنه كان مسرحاً للحروب الدامية فقد كانت الحرب قائمة على قدم وساق بين القبائل العربية ولأتفه الأسباب، إلى جانب معارك الروم وإيران، فكانت تسيل أودية من الدماء. وقال عليه السلام:

«والدنيا كاسفة [٧٩٤] التور، ظاهرة الغرور»

فالواقع أن نور البشرية ليس إلانور الوحي ووجود الانبياء، فاذا كانت هناك ظلمة مطلقة تلقى بعتمتها على كل شئ فتستفحل أمراض الخدع والمكر، وتتسع رقعة المذاهب الزائفة ويتلبس الدجالون لباس المسوح والاصلاح فيجدوا في إستغلال الخلق من أجل تحقيق منافعهم المادية. ثم شبه الإمام عليه السلام الناس في الجاهلية بمزرعة قد ذبلت جميع أشجارها

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٧٥

واصفرت أوراقها (فهى في حال التساقط) وقد يأس المزارع من ثمرها بعد أن غار ماؤها وجفت عروقها:

«على حين اصفرار من ورقها، وإياس [٧٩٥] من ثمرها، واغورار [٧٩٦] من مائها»

وذلك لأن مزرعة المجتمع البشرى إنما تترين بورود الأخلاق والفضائل، وثمارها العدالة والمروءة والمحبة، أما ماؤها فيكمن في الإيمان والورع والتقوى المعانى التي كانت مغيبة تماماً في العصر الجاهلى. حتى من الناحية المادية فقد شلت الزراعة والتجارة بسبب الحروب وعدم شياع الأمن والاستقرار فكان الفقر قد ساء العالم الجاهلى بالشكل الذى كان يدفعهم إلى قتل أولادهم، وهذا ما أشار إليه القرآن بالقول: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ» [٧٩٧] بغض النظر عن وأدهم البنات خشية الفضيحة والعار. ثم قال عليه السلام في الصفة التاسعة والعاشر:

«قد درست [٧٩٨] منار الهدى، وظهرت أعلام الردى»

فالمناز موضع النور، حيث كانوا يشعلون في السابق سراجاً على مرتفع حين الليل فيكون علامة للقرى المدن يشاهدها القاصى والدانى فلا يضل الطريق. فاذا تآلكت هذه المرتفعات وتهدمت لم يعد هناك من سراج فوقها، فالعبارة كناية رائعة إلى سراج الكتب السماوية وتعاليم الأنبياء التي تمثل نور الهداية للجماعة الإنسانية، وقد انطفئ هذا النور في العصر الجاهلى اثر غلبة الاهواء، فكان من الطبيعى إذا اطفئ النور أن يعم الظلام الدامس بكل معانى الحيرة والظلال والكفر والنفاق وقال عليه السلام في الصفة الحادية عشرة:

«فهى متجهمة [٧٩٩] لأهلها، عابسة [٨٠٠] فى وجه طليها»

فالعبارة كناية عن شدة العنف والنزاعات وصعوبة المعيشة وتعقيد الحياة؛ كيف لا والحياة الوادعة الامنة لا تتحقق الا فى ظل العدالة الاجتماعية والاخاء والمحبة والمودة التي لم يكن لها من أثر فى العصر الجاهلى. ثم قال عليه السلام:

«ثمرها الفتنة، وطعامها الجيفة [٨٠١]»

. حقاً ليست هنا لك من ثمرة لذلك الوسط بتلك

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٧٦

الصفات سوى الفتن وليس له من طعام سوى الميتة؛ والمفردة جيفة قد تكون إشارة إلى الوضع الذى كان عليه الناس فى عصر الجاهلية حيث كانت العرب تأكل الميتة من شدة الاضطرار فالميتة متعفنة وتدعو إلى الاشمئزاز والنفرة، وقطعا فإن الحياة فى مثل هذه

البيئة إنما تتسم بالتعفن والاشمئزاز، كما كان دخلهم عن طريق شن الغارات ولسراقات وما شابه ذلك من الامور التي يمجها العقل السليم؛ أما الدليل على أكل أهل الجاهلية للميتة هو الآية القرآنية التي نهت عن ذلك: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ...» [٨٠٢] وبالطبع فإن المراد بالثمرة والطعام في العبارة الجانب الكنائس. فطعام الإنسان عادةً أما أن يكون من الثمار أو اللحوم، ولم يكن نصيب الناس في الجاهلية سوى الفتنة والأفكار المتعفنة التي تدعو إلى الاشمئزاز والتقرز؛ ثمراتهم ونعمهم المادية والمعنوية كانت معجونة بالتعفن والفساد والعار. ثم قال عليه السلام:

«وشعارها الخوف، ودثارها السيف»

فباللتفات إلى أن الشعار يعنى الثوب الذى يلى البدن والدثار الثوب الداخلى يتبين أن العبارة كناية رائعة ولطيفة مصعمة بالفصاحة والبلاغة لتصوير ظروف ذلك الزمان وسيادة الخوف والسيف من الداخلى والخارج، فكل يخشى الآخر، وكل قبيلة تتوقع أن تحمل عليها اخرى فتقتل رجالها وتسبى نساءها وتنهب أموالها.

فكانت السيوف مشهورة على الدوام بسبب ذلك الخوف والخشية، ولعمري أن هذه العبارة قد أشارت إلى كافة أنواع البؤس والشقاء السائدة آنذاك. ومن الطبيعى أن يسود الخوف والرعب أوساط المجتمع الذى تغيب فيه أنوار الهدى وتشع فيه اعلام الضلال والردى ويتعد فيه الافرد عن تعاليم السماء وإرشادات الأنبياء. أما الصورة التى رسمها أمير المؤمنين عليه السلام بهذه العبارة التى تعرض إلى خصائص العصر الجاهلى فأنها لا تقتصر على شبه الجزير العربية فحسب، بل تشمل كافة مناطق العالم آنذاك وإن بلغت ذروتها بين قبائل العرب. والحق لا يسع خطيب ولا كاتب مهما كانت قدرته على البيان أن يصور فجائع ذلك الزمان وانحرافات كاصورها الإمام عليه السلام بهذه العبارات المعجزة وهذا ما سنتعرض إليه فى الحث القادم والمؤسف أن هذه الخصائص إنما تشاهد اليوم بوضوح فى عصرنا الراهن الذى تحكمه الجاهليات المعاصرة.

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٧٧

ومن هنا نقف على عظم جهود النبى صلى الله عليه وآله فى إخراج تلك الجماعة الممزقة الميتة من الظلمات إلى النور وتبديل خوفها أمنا وقرها غنى ونزاعها وقاتلها إلى إخوة وصلح وسلام، كما جعلهم أمة متحضرة متمدنة حتى إنتشر الإسلام ورفعت رايته خفاقة فى أغلب ربوع المعمورة، وقد استسلمت الملوك والسلاطين والجبابرة والطغاة لجيوش المسلمين الفاتحة التى حملت مشاعل الهداية والخير والصلاح. كما نهض المجتمع الإسلامى نهضات عظيمة ليشهد ذلك التطور والأزدهار فى كافة المجالات العلمية والاجتماعية والاقتصادية. وحقاً إن هذا لمن معجزات الدين الإسلامى الخالد ولجهود المضية التى بذلها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله؛ ولا غرو فإن كافة الحسابات المادية تشير إلى إن إنقاذ تلك الامة مما كانت عليه والأخذ بيدها إلى حيث العزة والرفعة والسمو والكمال لا يمكن تحقيقه فى ظل المعادلات الطبيعية والحسابات المادية! وكما أوردنا سالفاً فإن هدف الإمام عليه السلام يكمن فى تحذير الامة من مغبة العودة إلى الجاهلية المقيتة بثيابها الجديدة وإن الإمام عليه السلام سيقف بوجهها كما وقف بوجهها رسول الله صلى الله عليه وآله واخمدتها بجهاده.

الجاهلية المعاصرة

لقد وقفنا على الصورة الرائعة التى رسمها الإمام عليه السلام للعصر الجاهلى بتلك العبارات المشحونة بالفصاحة والبلاغة. وبالطبع فقد أشرنا إلى جانب من مميزات ذلك العصر فى الخطبة الثانية من المجلد الأول والخطبة السادسة والعشرين من المجلد الثانى. غير أنه لا يمكن الوقوف على عظمة جهود النبى صلى الله عليه وآله فى هداية تلك الأقوام ما لم يتامل الإنسان بعض تفاصيل حياة العرب فى العصر الجاهلى من حيث الحروب والسلام والتقاليد والأعراف والخرافات والأباطيل التى كانت تنظم شؤون حياتهم. والمهم هنا هو أن هذه الجاهلية إنما ترتدى اليوم حلة جديدة فى مجتمعاتنا المعاصرة بينما تشترك فى مميزاتها وخصائصها والجاهلية الاولى فقد كانت

القيم الحقّة مغيبه في العصر الجاهلي، ودماء الأبرياء العزل تسفك بسهولة، وديدنه غارات الأموال والثروات ونهبها، ولا يفرق هذا مع الجاهلية المعاصرة التي لا تفكر سوى في الحصول على الأموال وبارخص الأساليب، أذناها بيع أسلحة الدمار الشامل والتجارة نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٧٨

بالمحدرات وشن الحروب من أجل الاستيلاء على مصادر الطاقة. وان شهد العصر الجاهلي وأد بعض البنات، فالقانون اليوم يبرر للناس حالة الإسقاط والإجهاض، كما شنت الحرب العالمية التي أودت بحياة الآلاف المؤلفه من البنين والبنات، فقد ذكر أن عدد قتلى الحرب العالمية الاولى والثانية ليقوق بكثير كافة ضحايا الحروب التي شهدتها البشرية طيلة التاريخ، بل كان قتلى مدينتين في اليابان من جراء قنبلتين نوويتين أكثر من كافة قتلى العصر الجاهلي! وإن كانت بعض النساء من ذوات الأعلام في الجاهلية، فبعض النسوة اليوم تجاوزت تلك الأعلام لتعلن عن فجورها وفسادها في أغلب صحف العالم وتنظم لنفسها بعض الاعلانات داعية الآخرين إليها؛ الأمر الذي دفع بالدول والحكومات إلى فرض بعض الضرائب عليهن، وهذا ما أدى بالتالي إلى توفير الدعم القانوني لهن. بيع البنين والبنات ما زال متواصلاً حيث يقدم الأوروبيون والأمريكان على شراء الصبية من المناطق المعدمه وبيعونهم إلى الغرب؛ وهذا ما ينشر في الصحف والمجلات. أمّا الأخلاق فحدث ولا حرج فقد محتها أمواج الفساد والبغى والدعارة، ولو إستعرضنا بعض الجرائم والانحرافات لأدركنا أن الجاهلية المعاصرة أرهب وأرعب بكثير من تلك الجاهلية. ولعل الآية ٣٣ من سورة الأحزاب ناظرة إلى الجاهلية المعاصرة حين خاطبت نساء النبي صلى الله عليه وآله بالقول: «وَلَا تَبْرَحْنَ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى .

فالتعبير بالجاهلية الاولى يفيد أن هناك جاهلية أخرى

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٧٩

القسم الثاني: كلكم مسؤول

«فَاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللَّهِ وَاذْكُرُوا تَيْكَ الَّتِي آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ، وَعَلَيْهَا مُحَاسِبُونَ وَلَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ وَلَا بِهِمُ الْعُهُودُ، وَلَا خَلَتْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الْأَحْقَابُ وَالْقُرُونُ الدُّهُورُ، وَمَا أَنْتُمْ الْيَوْمَ مِنْ يَوْمٍ كُنْتُمْ فِي أَصْلَابِهِمْ بِبَعِيدٍ. وَاللَّهُ مَا أَسْمَعُكُمْ الرَّسُولَ شَيْئاً إِلَّا وَهَا أَنَا ذَا مُسْمِعِكُمُوهُ، وَمَا أَسْمَعُكُمْ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِكُمْ بِالْأَمْسِ، وَلَا شَقَّتْ لَهُمُ الْأَبْصَارُ، وَلَا جُعِلَتْ لَهُمُ الْأَفْئِدَةُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ الْأَوَانِ. وَاللَّهُ مَا بُصِّرْتُمْ بِعَيْدِهِمْ شَيْئاً جَهْلُوهُ وَلَا أَصْفَيْتُمْ بِهِ وَحُرْمُوهُ، وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمْ الْبَلِيَّةُ جَائِلاً خَطَامُهَا، رِخْواً بِطَانُهَا فَلَا يَغْرَنُكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الْغُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ».

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام الناس في زمانه محذرهم من إمكانية تكرار أوضاع الجاهلية فتعمكم ما كانت عليه من الفساد والانحراف فعليكم باليقظة والحذر:

«فاعتبروا عباد الله واذكروا تيك التي آباؤكم وإخوانكم بها مرت هنون، وعليها محاسبون».

تيك التي تعني تلك إشارة شاملة إلى كافة ذنوب وآثام أقوام الجاهلية، وإن الله سيحاسبهم عليها، ولم يذكر هنا المشار إليه حيث بين في القسم السابق، وعليه لم تعد هناك من حاجة إلى التكرار. هذا وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد باسم الإشارة الدنيا والحياة الدنيوية أو الامانة الإلهية

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٨٠

التي أشارت إليها الآية القرآنية: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ...» [٨٠٣] إلّا أنّ هذا التفسير لا يبدو مستقيماً بالالتفات إلى صدر الخطبة وذيلها. ثم قال عليه السلام:

«و لعمرى ما تقادمت بكم ولا- بهم العهود، ولا-خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب [٨٠٤] والقرون، وما أنتم اليوم من يوم كنتم في

أصلا بهم ببعيد».

بناءً على التفسير المذكور فإن العهود هي الموائيق، والعبارة إشارة لما ورد في القرآن الكريم «قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» [٨٠٥] أما البعض من الشراح فقد ذهب إلى أن المراد بالعهود هنا العصور وعلى هذا الضوء سيكون المفهوم واحداً مع العبارة القادمة:

«ولا خلت فيما بينكم بينهم الأحقاب والقرون»

، ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مكانته آنذاك والتي تصاف مكانة النبي صلى الله عليه وآله ازاء فجائع زمان الجاهلية فقال: «والله ما أسمعكم [٨٠٦] الرسول شيئاً إلاّوها أنا ذا مسمعكموه، وما أسمعكم اليوم بدون أسمعكم بالأمس، ولا شقت لهم الأبصار، ولا جعلت لهم الأفتدة في ذلك الزمان، إلاّوقد أعطيتهم مثلها في هذا الزمان»

وعليه فانكم تشبهونهم في كل شيء، والحال إنكم تلون رؤوسكم عن الحق الذي كانوا عليه. فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أشار ضمناً إلى حقيقة مريرة في عصره - بسبب سوء تدبير سابق الخلفاء والانغماس في الثروات التي ملأت الجزيرة العربية من خلال الفتوحات الإسلامية التي جرت عليهم هذه الغنائم - وهي بداية جاهلية أخرى قد أصيب بها الناس. فقد ظهرت الأصنام بصور أخرى، بحيث أصبح الدينار والدرهم صنماً، كما أصبح المنصب والمقام صنماً. فقد أوضح الإمام عليه السلام أن رسالته في هذا العصر والزمان هي ذات رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو يبين كل ما بينه النبي صلى الله عليه وآله، ثم قال عليه السلام أن أسمعكم

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٨١

وابصاركم وأفتدكم ليست باقل من أسمع وأبصار وأفتدة الناس في عصر الجاهلية الذي نهض فيه رسول الله صلى الله عليه وآله و آله وصدع بالأمر، فلديكم ذات الحس والشعور والإدراك (بل إنكم لتفوقونهم في ذلك فقد انبثقت الدعوة وانتشرت، فكيف لا تكفون عن سوء الأعمال، ولم ترعون عن الضلال وتعودن إلى الهدى ولم لا تفيقون من نوم الغفلة». ثم حذرهم الإمام قائلاً:

«و لقد نزلت بكم البليّة جائلاً [٨٠٧] خطامها، [٨٠٨] رخواً بطانها [٨٠٩]»

ذهب أغلب الشراح إلى أن المراد بهذه البليّة فتنة بنى أمية التي أحرقت الاخضر واليابس وطالت أموال الناس وأعراضهم. والجدير بالذكر هو أن الإمام عليه السلام قد شبه هذا البلاء الكاسر بالناقّة الجامحة التي إسترخى لجامها فهي تنذر بسقوط راجبها. وعليه فالراكب لا يتمكن من حفظ نفسه فضلاً عن السيطرة على الناقّة وصدّها عن الجموح. نعم هكذا كان بلاء بنى أمية حيث لم يسلم أحد منهم.

وأخيراً إختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلاً:

«فلا يغزّنكم ما أصبح فيه أهل الغرور، فإنما هو ظلّ ممدودٌ إلى أجلٍ معدودٍ».

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٨٣

الخطبة [٨١٠] التسعون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وتشتمل على قدم الخالق وعظم مخلوقاته، ويختتمها بالوعظ

نظرة إلى الخطبة

تتألف الخطبة من أربعة أقسام:
القسم الأول: الحديث عن إحاطة الله بالعباد وعلمه بخفياً الإنسان.
القسم الثاني: ازلية الحق سبحانه وشرحها بعبارات رائعة واضحة.
القسم الثالث: تهديد أعداء الله بالعذاب الليم وبشارة أولياء الله بجزيل الأجر والثواب.
القسم الرابع: وعظ عباد الله والنصح لهم، وكأن الأقسام الثلاث كانت مقدمة لهذا الوعظ المؤثر في الإنسان.
نقعات الولاية، ج ٣، ص: ٣٨٥

القسم الأول: كان ولم يكن أحد سواه

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَيْهِ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَيْهِ، الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِمًا قَادِمًا: إِذْ لَا سَمَاءَ ذَاتُ أَرْجَاجٍ، وَلَا حُجْبَ ذَاتُ إِرْتَاجٍ، وَلَا لَيْلٌ دَاجٍ، وَلَا بَحْرٌ سَاجٍ، وَلَا جَبَلٌ ذُو فِجَاجٍ، وَلَا فَجْجٌ ذُو عَوْجَاجٍ، وَلَا أَرْضٌ ذَاتُ مِهَادٍ، وَلَا خَلْقٌ ذُو اعْتِمَادٍ: ذَلِكَ مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ وَوَارِثُهُ، وَإِلَهُ الْخَلْقِ وَرَازِقُهُ، الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ: يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيُقَرَّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ».

الشرح والتفسير

استهل الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلى ثلاث من صفات الله فقال:
«الحمد لله المعروف من غير رؤيته»

نعم فهو ليس بجسم ولا يحده زمان أو مكان يرى بالعين؛ فالجسمية دليل النقص والحاجة إلى الزمان والمكان، بينما الله منزه عن هذا النقص والحاجة فهو كمال مطلق، مع ذلك فقد ملأت آثاره الآفاق بما يدل على وجود ذاته المقدسة، بما فيها الآيات الآفاقية والنفسية. فالرؤية محالة عليه، إلا أنه أوضح الواضحات، فكافة ذرات العالم تسبحه وتقده وتشهد له بالوجود. وقال عليه السلام في الصفة الثانية:
«و الخالق من غير رؤيته» [٨١١]

فإنما يحتاج إلى الفكر من كان هناك أشياء مجهولة لديه، أما من لم يكن له من شئ مجهول فالفكر محال عليه. كما يحتمل أن يكون المراد يقوله
«غير رؤيته»

بأن سابقه لم تكن لهذا الخلق الذي خلقه الله، خلافاً لخلاقيه الإنسان التي تحتذى بالتجارب. ثم قال في الصفة الثالثة:
«الذي لم يزل قائماً دائماً»

فالازلية والأبدية من مختصات الذات المقدسة التي تعد من لوازم تلك الذات المطلقة
نقعات الولاية، ج ٣، ص: ٣٨٦

اللامحدودة. فلو كانت هناك من بداية لشئ كانت له نهاية فهو محدود قطعاً. أما الذات اللامحدودة واللامتناهية فهي لا تعرف البداية ولا النهاية. فهو الوجود الذي كان وكائن إلى الأبد. ثم وضع عليه السلام أزيلته سبحانه بالقول:

«إذ لا- سماء ذات أبراج، ولا حجب ذات إرتاج، [٨١٢] ولا ليل داج، [٨١٣] ولا بحر ساج، [٨١٤] ولا- جبل ذو فجاج، [٨١٥] ولا فجج ذو اعوجاج، ولا أرض ذات مهاد، ولا خلق ذو اعتماد»

يمكن أن تكون العبارة

«حجب ذات ارتاج»

إشارة إلى ما صرحت به الروايات والأخبار من حجب النور تحت العرش التي لا يسع مخلوق الاقتراب منها، فشدته نورها التي تخفف الأبصار وتحول دون اجتيازها هي بعض مخلوقات الله التي يحتمل أنها وجدت بعد خلق العرش وقد فصلت العرش عن السموات. فقد

جاء في الخبر عن الإمام الكاظم عليه السلام في فلسفة التكبيرات السبع في بداية الصلاة أنه قال:

«يا هشام إن الله خلق السموات سبعا والأرضين سبعا والحجب سبعا...» [٨١٦]

ثم ورد في ذيل الحديث أن هذه الحجب كانت تطرح الواحد بعد الآخر أمام رسول الله صلى الله عليه وآله حين المعراج، فكان يكبر الله عند رفع كل حجاب وهذه هي فلسفة التكبيرات السبع (فالمصلى حين يقف بين يدي ربه للصلاة التي تعتبر معراج المؤمن يكبر سبعا من أجل رفع تلك الحجب عنه. كما تفيد المناجاة الشعبانية أن هذه الحجب النورانية قد رفعت عن بعض أولياء الله «إلهي هب لي كمال الانقطاع اليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة...»

وبالطبع ليس لدينا من إطلاع عن ماهية هذه الحجب، أما الذي يستفاد من عبارات المناجاة الشعبانية أن تلك الحجب تشير إلى سلسلة من المفاهيم الوراثة الطبيعية.

وقد تعرض المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار بعد الإشارة إلى موضوع الحجب النورية الواردة في الروايات إلى بيان وتفسير الحجب في أبعادها الجسمانية والروحانية أو المادية والمعنوية. [٨١٧] العبارة:

«و لا ليلٌ داج، ولا بحرٌ ساج»

في الوقت الذي تشير فيه إلى أزلية الله

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٨٧

ووجوده المقدس قبل الخلق العالم، فهي تلمح إلى نعمه سبحانه على الخلق، وذلك لأن ظلمة الليل وسكون البحر من نعمه سبحانه، فالأولى تدعو إلى النوم والراحة التي تلعب دورا بالغا في بناء البدن والروح، والثانية في الملاحة والصيد واستخراج ما في أعماق البحر من لؤلؤ ومرجان. والعبارة:

«جبل ذوفجاج»

أي أن الجبال لو كانت كالجدران متصلة لانفصلت بقاع الأرض عن بعضها واختلت الحركة عليها، بينما إقتضت حكمة الله فصلها لتيسير الحركة والمشى.

«فج ذو اعوجاج»

يمكن أن يكون المراد بها لولا-انعطاف واعوجاج الأودية لأتت السيول بحركتها السريعة فجرفت كل شيء، حيث حال ذلك الاعوجاج دون طغيان السيول وسيطر عليها.

«أرض ذات مهاد»

إشارة إلى الأراضي الواسعة الساكنة.

«خلق ذواعتماد»

إشارة إلى القدرة الروحية والجسمية التي منحها الله للإنسان. ثم قال عليه السلام:

«ذلك مبتدع الخلق ووارثه»،

فكل شيء زائل ولا يبقى سواه

«و إله الخلق ورازقه»،

وكيف لا يكون إله الخلق ومعبودهم وهو بهذه الصفات والكمالات. أضف إلى ذلك فالرزق بيده وهو يفيضه على العباد.

فهو جدير بالعبادة لعظمته وهو أولى بها شكراً لنعمه. ثم اختتم كلامه بالإشارة إلى نعمتين تفيدان قدرته وعظمته فقال:

«و الشمس والقمر دائبان [٨١٨] في مرضاته: يبلان كل جديد، ويقربان كل بعيد»

فقد سمى الشمس والقمر دائبين لتعاقبهما على حال واحدة دائما لا يفترقان ولا يسكنان. فالقمر في حالة حركة دائما، إلا أن نسب الحركة للشمس يمكن أن يكون إشارة إلى حركتها الظاهرية (وان كانت في الواقع ثابتة والأرض تدور حولها) أو إشارة إلى سائر حركات الشمس، بل جميع المنظومة الشمسية في المجرات.

والجدير بالذكر أن أغلب عبارات الإمام عليه السلام قد اقتبست من آيات القرآن الكريم، ومنها الآية:

«وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لَتَسِيلُ كُفُوكُمُ مِنْهَا سَيْلًا فَجَاجًا» [٨١٩] والآية «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا» [٨٢٠] والآية «وَسَيَخْرُ لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبِينَ» [٨٢١].

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٨٩

القسم الثاني: العالم بالخفايا والأسرار

«قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ، وَأَحْصَى آثَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ، وَعَدَدَ أَنْفُسِهِمْ، وَخَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ، وَمُسْتَوَدَّعَهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ، إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ الْغَايَاتُ».

الشرح والتفسير

يتحدث الإمام عليه السلام هنا أيضاً عن صفات الله ذات الصلة بأوضاع الناس ومصائرهم كمقدمة للوعظ والنصح فقال عليه السلام: «قسم أرزاقهم»،

طبعاً المراد بتقسيم الارزاق تقسيمها على ضوء السعي والعمل والاجتهاد، لا- أن الله ضمن ايصال رزق كل فرد إلى باب بيته دون حساب، وان حصل الإنسان أحياناً على رزق «مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»

إلّا أن هذا ليس أصلاً وقانوناً، والأصل والقانون هو السعي والجد والاجتهاد والعمل والابداع. بعبارة أخرى فإنّ الرزق رزقان؛ يتوقف أحدهما على السعي والعمل وبدونهما يحرم منه، والآخر حتمي يصل إلى الإنسان سعي إليه أم لم يسع. والأساس هو القسم الأول. وقد أشارت بعض الروايات إلى القسمين كقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«إن الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك» [٨٢٢]

والجدير بالذكر أن الأرزاق لا تفسر بالماء والغذاء فقط، بل تشمل كافة النعم المادية والمعنوية. فقد قسم الله سبحانه العلم والإيمان والمقام والجاه والموقع الاجتماعي وما إلى ذلك على ضوء الجهود والحركة، مع ذلك هنالك بعض الحالات التي تتجاوز عالم الأسباب لتشير إلى قدرة

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٩٠

مسبب الأسباب فتخيب نتيجة هذا السعي وتنجح تلك دون سعي وجهد، إلا أن هذه امور استثنائية مختصة به سبحانه ثم قال عليه السلام:

«وَأَحْصَى آثَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ، وَعَدَدَ أَنْفُسِهِمْ، وَخَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ»

وليس هذا فقط فحسب بل

«ومست قرهم ومس تودعهم من الأرحام والظهور، إلى أن تتناهى بهم الغايات»

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بالآثار يعني آثار وطئهم في الأرض، كما فسرها البعض الآخر بما يبقى من الإنسان في العالم. وفسروا عدد الأنفس بعدد الناس في كل زمان ومكان، كما فسرت بعدد الأنفاس (و يصح هذا التفسير إذا كانت العبارة في النسخة أنفاس، كما نقل ذلك بعض شراح نهج البلاغة وهو الانسب لما قبل هذه العبارة وما بعدها). أمّا المراد بخيانة العين النظر

الحرام، أو غمز الآخرين من أهل العفة والحياء. وأما العبارة

«وما تخفى صدورهم»

فهى إشارة إلى النيات الحسنة والقيحة والطاهرة والفاجرة والعقائد المختلفة. والمستقر رحم المرأة الذى تستقر فيه نطفة الرجل والمستودع صلب الرجل الذى يضم النطفة قبل إنتقالها إلى الرحم. والعبارة:

«إلى ان تناهى بهم الغايات»

أى إلى أن يحشروا فى القيامة، ولا يصح ما ذهب إليه بعض الشراح من تفسيرها بالجنة والنار لعدم انسجامها والعبارات السابقة. عل كل حال فالعبارات تشير إلى علمه سبحانه بسبعة امور عن الإنسان، من قبيل الأعمال والحركات والعين والأنفاس والعقائد والنيات ومنذ ظهور النطفة فى صلب الرجل إلى إنتقالها إلى رحم الام مروراً بالولادة ومراحل الحياة وأخيرا الموت، ليعلم الإنسان بأنه فى عين الله على كل حال فيلتفت إلى أعماله وحركاته وسكناته. والحق أن كلماته عليه السلام إنما تستند إلى الآيات القرآنية الكريمة، كالاية: «وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ» [٨٢٣] والآية:

«يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» [٨٢٤] والآية: «وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» [٨٢٥].

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٩١

القسم الثالث: ليس كمثل شئ

«هُوَ الَّذِي اشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ فِي سَبْعَةِ رَحْمَتِهِ، وَأَتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ، قَاهِرٌ مِنْ عَازِهِ، وَمُدَمِّرٌ مِنْ شَاقِّهِ، وَمُذِلٌّ مِنْ نَاوَاهُ، وَغَالِبٌ مِنْ عَادَاهُ، مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ، وَمَنْ أَفْرَضَهُ قَضَاهُ، وَمَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى قدرة الله وشدة نعمته فى ذات رحمته فقال عليه السلام:

«هو الذى اشتدت نعمته على أعدائه فى سعة رحمته»،

ثم قال فى الصفة الثانية:

«و اتسعت رحمته لأوليائه فى شدة نعمته»

فالعبارتان تشيران إلى حقيقة واحدة من زاويتين، وهى أن الرحمة الإلهية الواسعة لاتمنع من شدة العذاب، كما أن العذاب الشديد لايحول دون سعة الرحمة. فالواقع هو أن الخوف والرجاء العاملين الرئيسان فى الحركة نحو الكمال قد تجسداً باروع صورة فى هاتين العبارتين، لنظر العباد بعين إلى رحمته وبالآخرى إلى نعمته، فلا- يغفلون ولا- يياسون، بل يعملوا بين الخوف والرجاء. ثم قال عليه السلام:

«قاهر من عازيه» [٨٢٦] ومدمر [٨٢٧] من شاقه» [٨٢٨] ومذل من ناواه» [٨٢٩] وغالب من عاداه»

فالعبارات اشارة إلى حاكميته المطلقة سبحانه لعالم الوجود. وقد

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٩٢

تكررت رحمته الواسعة فى العبارة، مع ذلك فهى لاتعنى سعة الجبارة والظلمة على مقاومة إرادته سبحانه، وأما إمهاله لهم فإن ذلك يستند إلى بعض الأسباب، من قبيل امتحان العباد، أو تسليط بعضهم على البعض الآخر. وبالطبع فإن عبارات الإمام عليه السلام إنما تستند إلى آيات القرآن، كالاية الواردة بشأن فرعون: «فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ [٨٣٠] ثم استنتج الإمام عليه السلام بعد ذكر هذه الصفات:

«من توكل عليه كفاه، ومن سأله أعطاه، ومن أقرضه قضاها، ومن شكره جزاه»

فهذه النتائج الأربع المترتبة على الأوصاف السابقة في أن الشخص الذي حصل على قدره وأصبح صاحب نعمه وفيره لا بد أن يكون ملاذا للمتوكلين ومانحاً للساتلين ومثيباً للمنفقين والشاكرين. وعليه فمن حرم من الرحمة والعطاء والثواب فهو المقصر حيث لم يطرق بابه سبحانه ولم يقرضه ولم يشكر نعمه. ومرة أخرى نقول أن أغلب عبارات الإمام عليه السلام مملوءة بالمضامين الدينية المستوحاة من الآيات القرآنية، كالاية: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» [٨٣١] والآية الشريفة: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً» [٨٣٢] والآية: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» [٨٣٣].

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٩٣

القسم الرابع: محاسبة النفس

إشارة

«عِبَادَ اللَّهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا، وَحَاسِبُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَنْفَسُوا قَبْلَ ضَيْقِ الْخِنَاقِ، وَانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ، اعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَعْنِ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَعَظٌّ زَاجِرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَا زَاجِرٌ وَلَا وَعَظٌّ».

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام خطبته بهذه العبارات التي تمثل الكلام الفصيح النادر اللطيف حسبما ذكر ذلك ابن أبي الحديد [٨٣٤]. فقال عليه السلام:

«عِبَادَ اللَّهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا، وَحَاسِبُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا»

فقد درج الإنسان في حياته حين المعاملات على زنه المتاع ثم حساب قيمته، وأنه ليفقد رأس ماله إذا التبس عليه الوزن أو الحساب ويصاب بالضرر والخسران، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه في الامور المعنوية، فعليه أن يزن نفسه ويرى ماهى عليه من الأخلاق والإيمان ثم يحاسبها، فان رأى نقصاً هب لاصلاحه قبل أن يرد حساب الآخرة حيث لا سبيل للاصلاح وتدراك الافراط سوى الحسرة والندم. فمما لا شك فيه أن وزن الأعمال في القيامة حق، الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم: «وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ» [٨٣٥] كما أن الحساب من المسلمات، ومن هنان كان أحد أسماء يوم القيامة هو يوم الحساب: «وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ» [٨٣٦]. ثم قال عليه السلام:

«و تَنْفَسُوا قَبْلَ

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٩٤

ضيق الخناق» [٨٣٧]

فالتنفس هنا كناية عن مبادرة العمل الصالح والعلم وتهذيب النفس والورع والتقوى. أما ضيق الخناق فيراد به الموت. فقد جاء في القرآن: «وَأَنْفَسُوا مِنْ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَحْسَنَ لِقَاءٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ» [٨٣٨] ثم قال عليه السلام:

«و انقادوا قبل عنف السيق» [٨٣٩]

فاذا جاء الموت استسلم أعتى الأفراد كفرعون وهامان ونمرود ومن على شاكلتهم ليصرخ

«آمنت لا إله الا الله»

ولم ينفعهم ذلك الإيمان. كما صرح القرآن بشأن الآثمين الذي يرون ملائكة الموت أنهم ينادون: «رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا

فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا» [٨٤٠]. ثم إختتم عليه السلام خطبته قائلاً:

«و اعلموا أنه من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظٌ وزاجرٌ لم يكن له من غيرها لا زاجرٌ ولا واعظٌ»

فالهداية لا بد أن تتبع من باطن الإنسان، ومادام باطن الإنسان ليس مستعداً فليس هنالك من تأثير للواعظ الخارجى. وعليه فالإنسان يجب أن يعزم بآدى ذى بدء على إحياء ضميره ووجدانه لتحفه العناية الإلهية، وهنا يستعد الإنسان لاقتفاء آثار الأنبياء والأولياء ويعر آذانه لسماع الحق.

تأملان

١- الوزن والحساب فى المحشر

تفيد أغلب الآيات والروايات أن يوم القيامة هو يوم وزن جميع الأشياء والحساب عليها، ولا يقتصر هذا الوزن على الأعمال فحسب بل يخضع الإنسان للاختبار لمعرفة عقائده ونياته

نفحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٩٥

وأخلاقه. أما البعض فقد تصوروا أن موازين يوم القيامة كموازين الدنيا، إلّا أنها أدق، فاضطروا للاعتقاد بوزن الأعمال المعنوية، إلّا أن الأمر ليس كذلك، فميزان كل شئ بما يناسبه.

فالיום تستعمل كلمة الميزان ليقال ميزان الهواء وميزان الحرارة، والحال ليس هنالك مثل هذا الميزان. بل تستعمل الميزان بكثرة فى الأعمال المعنوية ولا يراد بها هذا الميزان. والحق أن عالم الآخرة آخر واسع يتجاوز حدود هذا العالم بحيث يتعذر علينا تصور ابعاده وحدوده وجزئياته وان كان لنا علم إجمالى به. وقد أوصى الإمام عليه السلام بزنة الأعمال قبل وزنها هناك ومحاسبتها قبل الحساب؛ الأمر الذى أكدته سائر المعصومين عليهم السلام. فقد ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال:

«ليس منا من لم يحاسب نفسه فى كل يوم، فان عمل خيراً استتراد الله منه، وحمد الله عليه، وإن عمل شراً استغفر الله وتاب عليه» [٨٤١]

. وجاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأبى ذر:

«يا أباذر! حاسب نفسك قبل ان تحاسب، فانه أهون لحسابك غدا، وزن نفسك قبل أن توزن» [٨٤٢]

. كما قال صلى الله عليه وآله لأبى ذر:

«يا أباذر لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم من أين مطعمه، ومن أين مشربه، ومن أين ملسه، أمن حل ذلك، أم من حرام» [٨٤٣]

٢- الواعظ الباطنى

إن النتيجة المطلوبة تتطلب أمرين؛ الموضع المناسب والتربية الصحيحة، وبعبارة أخرى

قابلية القابل وفاعلية الفاعل. فالفلاح مهما كان ماهراً والماء مهما كان وافراً، والبذر مهما كان صالحاً، لا يجنى أى ثمر إذا كانت الأرض الزراعية مالحة غير صالحة للزراعة، وذلك لأنّ إفتقار الموضع لقبالته يبدد جميع الجهود. ويصدق هذا الأمر على تربية النفوس البشرية، فما لم يكن للإنسان واعظ من نفسه ونزوعاً نحو الحق والانصاف لم تؤثر فيه أقوى المواعظ من الخارج.

ومن هنا شرب أبوجهل وابولهب الصدى وهما يجلسان على ساحل منبع الوحي الفياض، بينما ارتوى أمثال أويس القرنى من ذلك

المنع رغم البعد الشاسع عنه. وبالطبع لا يفهم الجبر من هذا الكلام، لأنّ الواعظ الباطني يتبلور أيضاً عن طريق تهذيب النفس وتزكيتها، فشعلته

نقحات الولاية، ج ٣، ص: ٣٩٦

تنطفئ في ظل الأهواء والشهوات، بينما تتقد إثر العفاف والطهارات.

إلى هنا انتهينا بحمد الله من المجلد الثالث ويليهِ المجلد الرابع إن شاء الله. ولا يسعني هنا إلا أن أتضرع إلى البارئ سبحانه بفائق الشكر والامتنان على ما وفقني إليه، كما أسأله أن يمن علي بمواصلته هذا الجهد الزهيد. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١٥ جمادى الثانية ١٤٢١

[١] (١) سند الخطبة: جاء هذا الكلام في المحاسن للبيهقي ومروج الذهب للمسعودي وعلل الشرائع للصدوق والتهذيب للشيخ الطوسي (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٤٠).

[٢] (١) شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئي ٤/ ٣٨٣؛ الكامل للمبرد ٢/ ١١٦٤.

[٣] (١) العلامة المجلسي في «بحار الأنوار» في معرض شرحه لهذا الموضوع، وهو لماذا كان معاوية بن أبي سفيان يدعو الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بابن أبي كبشة، عند ذكره إياه، فيقول: إن مشركي العرب كانوا أيضاً يدعون الرسول بهذا الاسم، وذلك لأن «ابن أبي كبشة» هو من قبيلة «خزاعة» والتي كانت على اختلاف مع قبيلة قريش، حول مسألة عبادة الأصنام، فابن أبي كبشة كان من مخالفي عبادة الأوثان. «بحار الأنوار ١٨/ ٢١٣».

[٤] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥/ ١٢٩.

[٥] (١) سند الخطبة: روى مقدمة هذا الكلام ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن كتاب أبي داود، وتوفى أبي داود لمئة وثلاثين سنة قبل السيد الرضى (ره)، ورواها الزمخشري في ربيع الأبرار مع إختلاف يفيد أنه نقلها من مصدر آخر غير نهج البلاغة. ورواها الأمدى في غرر الحكم في حرف الالف (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٤٢). كما وردت في كتاب صفين لنصر بن مزاحم الذي عاش في القرن الهجري الثاني (نهج البلاغة طبعه. جماعة مدرسي الحوزة العلمية).

[٦] (٢) «غيلة» على غرة بغير شعور من المقتول كيف يأتيه القاتل، كما ورد «الاعتيال» بمعنى القتل الحيلة، ومن مصاديقه أيضاً بعض الأذى الذي يتعرض له البدن دون القتل.

[٧] (١) مصادر نهج البلاغة ٢/ ٤٢-٤٣، كما رواه المرحوم ابن ميثم في شرحه لنهج البلاغة ٢/ ١٥٧.

[٨] (٢) «يطيش» من مادة «طيش» على وزن عيش بمعنى خفة العقل وتستعمل للسهم حين يخطئ الهدف وكأن السهم لم يعمل على ضوء العقل، وفسره البعض بكل خفة (كتاب العين ومقاييس اللغة ولسان العرب).

[٩] (٣) «سهم»، وهو في الأصل واحد النبل، والمركب من النصل والنبل، والجمع، أسهم وسهام، ومن هنا يستعمل أحياناً لتعيين النصيب والقائدة، ويستعمل للقرعة.

ويطلق اصطلاح السهم على النصيب والحظ والفائدة، «والمساهمة» تأتي بمعنى القرعة، ومن هنا وفي حال إجراء القرعة فإن أسماء المقترعين تكتب على نصل السهم، ثم تخلط فيما بينها، ثم تتم عملية انتخاب احد السهام، فيكون الاسم المكتوب عليه هو الفائز

بالقرعة.

[١٠] (٤) «بيراً» من مادة «برء» على وزن قرب بمعنى التحسن من المرض «وبرء» بمعنى الخلق، ومنه «البارئ» بمعنى الخالق.

[١١] (٥) «الكلم» بالفتح على وزن نظم بمعنى الجرح. ومن هنا يقال للحديث الذي يترك أثراً على القلوب بالكلام.

[١٢] (٦) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٢٠٢.

[١٣] (٧) نهج البلاغة، الكلمات قصار، ٦-٣.

[١٤] (٨) تفسير البرهان ٢/٢٨٣.

[١٥] (١) سورة الاعراف / ٣٤.

[١٦] (٢) سورة المنافقون / ١١.

[١٧] (١) لقد ورودت هذه الأقسام بالتفصيل في التفسير نمونه ٢٠٧/١٨ في ذيل الآية ١١ من سورة فاطر.

[١٨] (١) سند الخطبة: كتب صاحب مصادر نهج البلاغة في سند هذه الخطبة: لا ترديد في أن ما ورد في هذه الخطبة قسم من خطبة

طويلة إختار السيد الرضى (ره) بعضها، وأضاف لقد أوردت هنا ما أورده الآمدى في غرر الحكم في حرف الالف، أما التفاوت في

بعض العبارات والاضافات في نقل الآمدى تفيد أنه استقى هذه الخطبة من مصدر آخر غير نهج البلاغة (لا بد من الالتفات هنا إلى أن

الآمدى صاحب غرر الحكم من علماء القرن الهجرى السادس، بينما عاش السيد الرضى في القرن الهجرى الرابع ٢/٤٤.

[١٩] (١) سورة العنكبوت / ٢-٣.

[٢٠] (٢) «سابغ» من مادة «سبوغ» بمعنى الامتداد، ونعمة سابعه تطلق على النعم الدائمة الممتدة، واسباغ الوضوء مواصلته بالماء دون

الاسراف.

[٢١] (٣) «قلص» من مادة «قلوص» على وزن خلوص بمعنى إنقبض وارتفع، وفي الخطبة بمعنى زوال الظل بحلول عتمه الليل.

[٢٢] (١) سند الخطبة: ورد بعض هذه الخطبة في كتاب الغرر والدرر للآمدى مع بعض الاختلاف عما ورد في نهج البلاغة، مما يشير

إلى أنه إقتبسها من غير مصدر نهج البلاغة، كما نقل بعضها السبطين الجوزى في تذكرة الخواص بالاضافة إلى ما ورد في نهج البلاغة،

وهذا يعنى أنه استقاه من مصدر آخر غير نهج البلاغة، وصرح فى كتابه بأنه يذكر عبارات أمير المؤمنين عليه السلام المتصلة بالسند)

مصادر نهج البلاغة ٢/٤٧-٤٨.

[٢٣] (٢) «يحدو» من مادة «حدو» على وزن ضرب، و«حدا» على وزن دعا، وفى الاصل بمعنى الغناء للابل أثناء سوقها بصوت خاص،

وذلك عندما يريد سائق الابل الاسراع فى السير، والصحيح «حدا» وفى لسان عامة الناس يُقال «حدى» .

[٢٤] (١) سورة الحجرات / ١٣.

[٢٥] (٢) سورة البقرة / ١٩٧.

[٢٦] (١) سورة المنافقون / ١٠.

[٢٧] (٢) سورة التوبة / ١١١.

[٢٨] (٣) «ترحلوا» من مادة «رحله» بمعنى السفر والرحيل من مكان إلى آخر.

[٢٩] (٤) «جد بكم» من مادة «جد» بمعنى حثتم وازعجتم إلى الرحيل، كما تأتي بمعنى الأهمية، ويراد بها أيضاً الأسفار السريعة.

[٣٠] (١) تفيد القرائن الواردة فى الخطبة ان «فاستبدلوا» وردت بصيغة الماضى كالمفردة «فاتبهوا» لأن كليهما نتيجة للعبارة السابقة،

فالانتباه نتيجة صراخ اليقظة وتبدل الدنيا بالآخرة نتيجة العلم بموضعيهما، والعجيب أن أغلب شراح نهج البلاغة صرحوا بأن «فاستبدلوا»

فعل أمر؛ الأمر الذى يغير مفهوم هذه العبارة والعبارات اللاحقة.

[٣١] (٢) منهاج البراعة للعلامة الخوئى ٤/٣٣٩؛ وقد ورد هذا المعنى فى الكلمة ١٣٢ من قصار كلمات نهج البلاغة حيث قال عليه

السلام: «إن لله ملكاً ينادى فى كل يوم: لدوا للموت، واجمعوا للفناء وابنوا للخراب».

[٣٢] (١) منهاج البراعة ٣٩٩ / ٤.

[٣٣] (٢) «سدى» من مادة «سدو» على وزن سرو بمعنى الاهمال والعبث، ومن هنا تطلق العرب «سدى على الابل التى لاراعى لها وترعى كيفما تشاء، والعبارة بمعنى تعنى أن الله لم يخلقكم عبثاً دون هدف.

[٣٤] (١) سورة القمر / ١.

[٣٥] (٢) سورة المعارج / ٦.

[٣٦] (١) الكافى ٢٤٢ / ٣.

[٣٧] (٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار / ٧٤.

[٣٨] (١) أوبه له معنى مصدرى وايب بمعنى الرجوع والإنابة.

[٣٩] (٢) سورة البقرة / ٢٨.

[٤٠] (٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٨.

[٤١] (٤) سورة البقرة / ١٥٦.

[٤٢] (٥) نهج البلاغة، الرسالة ٣١.

[٤٣] (١) سورة البقرة / ١٩٧.

[٤٤] (٢) غرر الحكم، ح ١١٢٨.

[٤٥] (٣) غرر الحكم، ح ١٥٥٨.

[٤٦] (٤) غرر الحكم، ح ٢٥٥٣.

[٤٧] (١) إن الأفعال وإن وردت بصيغ الماضى إلا أنها تفيد معنى الأمر. وكأن السامع على درجة من الطاعة بحيث يمثل الاوامر قبل سماعها.

[٤٨] (١) «يسوفها» من «التسويق» بمعنى التأخير فى العمل واصل العبارة «سوف أفعل كذا».

[٤٩] (٢) «تبطر» من مادة «بطر» على وزن نظر بمعنى بقر الشئ ومنه «البيطار» الذى يبقر بطن الحيوان، ثم أطلق على كل طغيان وتجاوز للحد فى السرور عند إقبال النعم، ويمكن القول بان البطر السكر والغرور الذى تفرزه النعمة، فالعبارة تعنى لاتطغيه ولا تسدل على بصيرته حجاب الغفلة عما هو صائر إليه.

[٥٠] (٣) «كآبه» على وزن خرابه لها معنى المصدر وإسم المصدر وتعنى الامتعاظ والانكسار من الهم والحزن، وقيل تطلق على الامتعاظ من الحزن الظاهر على الوجه.

[٥١] (١) بحار الأنوار ٣ / ٨٣ - ٨٤ (ح توحيد مفضل).

[٥٢] (١) سورة الحجر / ٣٩ - ٤٠.

[٥٣] (٢) سورة الحجر / ٣٩ - ٤٠.

[٥٤] (١) سورة فاطر / ٣٧.

[٥٥] (١) غرر الحكم، ح ١٠٩٤٨.

[٥٦] (١) سند الخطبة: نقل الصدوق (ره) هذه الخطبة مع بعض الاختلاف فى كتابه التوحيد وأضاف: أن الإمام عليه السلام خطبها حين جهز الجيش ثانية لقتال معاوية. ومن بين المحدثين الذين نقلوا هذه الخطبة المرحوم الآمدى فى غرر الحكم، وإن عاش بعد السيد الرضى. إلا أن اختلاف عباراته مع عبارات السيد الرضى (ره) يفيد أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة

١٢ / ٥٠.

[٥٧] (١) سورة الحديد/ ٣.

[٥٨] (٢) سورة القصص/ ٨٨.

[٥٩] (١) توحيد الصدوق، بحسب ما نقله عن بحار الانوار ٣/ ٢٠٦، ح ١.

ومن أجل التوضيح أكثر حول حقيقة التوحيد، ووحداية الله سبحانه وتعالى، يرجى مراجعة كتاب «نفحات القرآن ٣/ ٢٦٠ و ما بعد».

[٦٠] (٢) سورة النساء/ ١٣٩.

[٦١] (١) سورة الاعراف/ ١٨٨.

[٦٢] (٢) سورة النحل/ ٧٨.

[٦٣] (١) بحار الانوار، ٤/ ١٤٣ ح ١٠، وورد مثل هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام فى الكافى، ١/ ٧٩ ح ٤، كما جاء فى

بحار الانوار أن الشيطان سأل المسيح عيسى عليه السلام هذا الجواب فأجابه بهذا السؤال (بحار الانوار، ١٤/ ٢٧١ ح ٣).

[٦٤] (١) سورة الأنبياء/ ٤.

[٦٥] (٢) سورة الشورى/ ١١.

[٦٦] (١) لقد وردت العبارة المذكورة فى أغلب نسخ نهج البلاغة بهذه الصورة «وكل ظاهر غيره غير باطن وكل باطن غيره غير ظاهر»

وذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى وجوب إشمال العبارة على غير «فى العبارة» ... غير باطن ... غير ظاهر» أو حذفها، حتى زعم

البعض خطأ نسخة صبحى الصالح التى لم تتضمن غير فى العبارة الاولى بينما وردت فى العبارة الثانية، وبالطبع فان هذا ما يقتضيه

سياق العبارة، ولكن وما ورد سابقاً لا يمكن الزعم بان هذه النسخة خاطئة، ويمكن توجيه العبارة بما أوردناه من تفسير.

[٦٧] (١) «ند» على وزن ضد بكسر النون النظير والمثيل ولا يكون إلّا مخالفاً، ومن هنا فسر «بالضد» أحياناً.

[٦٨] (٢) «مثارور» من مادة «ثور» جاءت بمعنى الحركة والانبعاث والاثارة، ومن هنا فان «إثارة» تعنى تفرق الشىء، و«مثارورة» تأتى

بمعنى وثوب شخصين ليقف أحدهما فى وجه الآخر، ويقال أيضاً لكل ضدين، ومن هنا يأتى معناها بمعنى المحاربة.

[٦٩] (٣) «مكاثر» من مادة «كثر» بمعنى الزيادة، ويطلق على الشخص الذى لديه رغبة فى الزيادة، والذى يتفاخر بالمال والسلطة

والجاه بالمكاثر.

[٧٠] (٤) «منافر» من مادة «النفرة» بمعنى الابتعاد والامتناع من الشىء.

[٧١] (١) «داخرون» من مادة «دخور» على وزن حضور بمعنى الذلة والصغر، تستعمل فى الامور السلبية كما تستعمل فى الامور

الايجابية حينما يوصف عباد الله بصفة «داخر» فى معنى ذلك التسليم والتواضع أمام الحق.

[٧٢] (٢) فى الكثير من نسخ نهج البلاغة التى تعرض لشرحها الشارحون جاءت هذه الجملة التى وردت أعلاه بهذه الصورة «يقال:

هو فيها كائن» ولا ريب فى أن مفهوم هذه الجملة التى جاءت فى هذه النسخة هى أوضح، وفى النسخة التى دون النص منها، فان

كلمة «فيها» جاءت مقدره.

[٧٣] (٣) «يناً» من مادة «نأى» على وزن رأى بمعنى ابتعد، والبعض فسرها بمعنى الابتعاد عن الشىء والاتجاه إلى نقطة بعيدة.

[٧٤] (١) سورة الحديد/ ٤.

[٧٥] (٢) سورة ق/ ١٦.

[٧٦] (٣) سورة البقرة/ ١١٥.

[٧٧] (٤) سورة يس/ ٨٢.

[٧٨] (١) سورة الانشراح/ ٥- ٦.

[٧٩] (٢) سورة الاعراف / ٩٧-٩٨.

[٨٠] (١) سند الخطبة: رواها جمع كثير من المؤرخين والمحدثين قبل السيد الرضى وبعده ومنهم نصر بن مزاحم فى كتاب صفين والحافظ فى البيان والتبيين وقرات بن ابراهيم الذى عاش على عهد الإمام الرضا عليه السلام فى تفسيره المعروف والمسعودى فى مروج الذهب (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٥٢).

[٨١] (٢) «ليلة الهرير»: والمقصود به نباح وعواء الكلاب ليلاً من شدة البرد.

و«هرير»: وتعنى فى الأصل صوت الكلب المنخفض، وهو دون النباح، والذى يطلقه من قلة صبره على البرد. وليلة الهرير هنا، هى الليلة المعروفة، من ليالى حرب صفين المملوءة بالحوادث، حيث استمرت فيها الحرب من النهار إلى طوال الليل، وكانت ليلة قارصة البرد مملوءة بالخوف والمخاطر، حيث هلك فى هذه الليلة عدد كبير من جيش معاوية على يد ابطال جيش الإمام امير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام.

[٨٢] (١) مصادر نهج البلاغة ٢ / ٥٣. (مع تلخيص)

[٨٣] (١) سورة الفتح / ٤.

[٨٤] (٢) «أنبى» من مادة «نوب» على وزن نبض بمعنى ارتقاع شىء عن شىء آخر والابتعاد عنه، وبهذا الدليل يستعمل هذا الاصطلاح عندما تعجز السيوف عن أداء دورها، حيث تتعد السيوف عن تحقيق الهدف.

[٨٥] (٣) «الهام» جمع «الهامة» بمعنى مطلق الرأس وهو كائن ذاروح، واحياناً يستفاد من هذا الاصطلاح بشكل مطلق.

[٨٦] (٤) «لأمة» على وزن رحمة، وهى فى الأصل بمعنى الاجتماع والاتفاق، ومن هنا، فعندما يلتحم الجرح ويشفى فيقال له «التيام» و«لأمة» تأتى بمعنى الدرع، ولعل تسميتها بهذا الاسم جاء من قرب حلقاتها واجتماعها وارتباطها، واحياناً يطلق هذا الاصطلاح على أى سلاح.

[٨٧] (٥) «قلقوا» السيوف من مادة «قلقلة» على وزن مرحمة بمعنى حركوا السيوف.

[٨٨] (٦) «أغمد» جمع «غمد» على وزن رند بمعنى بيت السيف، ومن هنا تطلق على بعض النباتات التى تختفى أشواكها فى حواف أوراقها.

[٨٩] (١) سورة هود / ٣٧.

[٩٠] (١) سورة طه / ٤٨.

[٩١] (٢) لابد من الالتفات هنا إلى أن هذا التفسير على أساس أن «أعقاب» جمع «عقب» على وزن نسب بمعنى الأولاد، وان كان عقب على وزن قفل بمعنى العاقبة وما يؤول إليه الأمر فإن مفهوم العبارة سيكون «إن الفرار من الجهاد عار فى عاقبة أمركم» إلا أن التفسير الأول أنسب.

[٩٢] (٣) سورة الانفال / ١٥-١٦.

[٩٣] (٤) جملة «طيبوا نفساً»، تستعمل كتعبير عندما يستقبل الانسان شيئاً بالرضا وطيب خاطر، وفى هذه الموارد تأتى بعنوان تمييز منصوب.

[٩٤] (١) للوقوف بصورة أعمق على هذا الموضوع راجع الخطبة الخامسة من المجلد الأول.

[٩٥] (٢) «كسر» على وزن مصر شقه الأسفل، كناية عن الجوانب التى يفر إليها المنهزمون.

[٩٦] (٣) «وثبة» من مادة «وثب» على وزن نصر بمعنى الظفر والنصر، كما تعنى القفز للاستيلاء على الشىء.

[٩٧] (٤) «نكوص» بمعنى الانسحاب والتراجع عن القيام بعمل، وعادة ما تستعمل بشأن التراجع عن اعمال الخير.

[٩٨] (١) سورة الانفال / ٤٨.

- [٩٩] (٢) «صمد» على وزن حمد، وجاء على معنيين، أحدهما «القصده» والثاني «الاستحكام والصلابة» وليس مستبعد ان يكون يرجع أصل المعنيين إلى أصل واحد، لان القصده يحصل اذا كان هناك استحكام وصلابة خاصة.
- و «صمد» على وزن سبب، بمعنى الشخص الذي يقصده المحتاجون، وتعنى: المكان الرفيع والسامى، وكذلك يأتي بمعنى الشىء المحلوه، وكل هذه المعاني لها تناسب مع المعنى الاصلى لهذا الاصطلاح.
- وقد ورد فى الجملة اعلاه كتعبير عن المقاومة والصمود البصر والتحمل فى مواجهة العدو.
- [١٠٠] (٣) شرح نهج البلاغه للمرحوم تسترى ١٣ / ٥٤٣.
- [١٠١] (١) سند الخطبة: تعتبر هذه الخطبة من الخطب المعروفة لأئمة المؤمنين على عليه السلام والتي روتها عدة مصادر من قبيل نهاية الارب للتويرى وتاريخ الطبرى وتاريخ ابن الأثير فى حوادث سنة ١١ هـ وكتاب السقيفة لأبى بكر الجوهري، كما ورد بعضها فى صحيح البخارى وصحيح مسلم، مصادر نهج البلاغه ٢ / ٥٨ - ٦٠.
- [١٠٢] (١) روى هذا الحديث فى صحيح مسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب فضائل الأنصار، أن النبى صلى الله عليه وآله قال: «إن الأنصار كرشى وعيبتى... فاقبلوا من محسنهم واعفوا عن سيئهم». صحيح مسلم، ٤ / ١٩٤٩ طبع دار إحياء التراث العربى.
- [١٠٣] (١) تاريخ الطبرى ٢ / ٤٥٥ (بتلخيص).
- [١٠٤] (٢) شرح نهج البلاغه لابن ابى الحديد ٦ / ١٠.
- [١٠٥] (٣) شرح نهج البلاغه لابن ابى الحديد ١٧ / ٢٢٣ ذكر ذلك على أنه أحد اعتراضات الشيعة على ابى بكر حيث يعتقد البعض أنه أمر بقتل سعدها.
- [١٠٦] (٤) الغدير ٩ / ٣٧٩ (لهام بمعنى الجيش العظيم).
- [١٠٧] (٥) يبدو المقصود هو على عليه السلام (شرح البخارى للقسطلانى ١١ / ٣٥٢، نقلا عن البلاذرى فى أنساب الاشراف).
- [١٠٨] (١) روى هذا الحديث ثلاثة وعشرين صحابيا على الأقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله. وللوقوف على أسمائهم والعبارات المختلفة التي وردت فى رواياتهم يمكن الرجوع إلى المجلد التاسع من رسالة القرآن / ٦٢ - ٧٩ أو خلاصة عباقيات الانوار ٢ / ١٠٥ - ٢٤٢ وإحقاق الحق ٤ / ٤٣٨ والسيرة الحلبية ومستدرك الحاكم والصواعق واسد الغابة وسنن البيهقي.
- [١٠٩] (١) حديث «العلم والدواء» أو «العلم والقرطاس» من الأحاديث العجيبة فى أمر الخلافة، وقد روته أشهر مصادر العامة صحيح البخارى. فقد ورد فى هذا الكتاب فى باب مرض النبى صلى الله عليه وآله عن سعيد بن الجبير عن ابن عباس قال: لما حضرت رسول الله صلى الله عليه وآله الوفاة قال: هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده. فقال بعضهم: إن رسول الله قد غلبه الوجد وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله. فاختلف من فى البيت واختصموا فمن قائل يقول: القول ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ومن قائل يقول: القول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف، غضب رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: قوموا، إنه لا ينبغي لنبى أن يختلف عنده هكذا فقاموا، فمات رسول الله صلى الله عليه وآله فى ذلك اليوم. فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله، يعنى الاختلاف واللغو. (صحيح مسلم ٣ / ١٢٥١ كتاب الوصية، باب ٥ طبع دار إحياء التراث العربى). كما نقل هذا الحديث صحيح البخارى بطرق مختلفة (صحيح البخارى، المجلد السادس، باب مرض النبى صلى الله عليه وآله ووفاته، ص ١٢ دارالجيل بيروت).
- [١١٠] (١) مصادر نهج البلاغه ٢ / ٦١.
- [١١١] (١) «عرصة» من مادة «عرض» على وزن غرس كل بقعة واسعة بين الدور، والمراد ما جعل لهم مجالاً للمغالبة، وأراد بالعرصة عرصة مصر، وكان محمد قد فر من عدوه ظنا منه أنه ينجو بنفسه، فأدر كوه وقتلوه.
- [١١٢] (٢) «انهز» من مادة «نهز» على وزن نبض بمعنى القيام والحركة وانتهاز الفرصة إغتنامها.

[١١٣] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩٣ / ٢.

[١١٤] (١) مصادر نهج البلاغة ٦١ / ٢ بتصرف.

[١١٥] (٢) سفينة البحار ومصادر نهج البلاغة ٦١ / ٢ فما بعد ومصادر اخرى

[١١٦] (١) الغارات ٢٥٢ / ١.

[١١٧] (١) سند الخطبة: نقلها بعض المحدثين قبل السيد الرضى (ره) كالبلاذرى (المتوفى عام ٢٧٩ هـ) فى أنساب الاشراف واليعقوبى (المتوفى عام ٢٨٤) فى تاريخه. ويفهم من رواية اليعقوبى أن الإمام عليه السلام خطبها بعد غارة النعمان بن بشير على عين التمر (مصادر نهج البلاغة ٦٠ / ٢).

[١١٨] (١) «البكار» جمع «بكر» على وزن مكر من مادة «بكور»، الفتى من الابل، ولا بدّ من لانتفات إلى أنّها تستعمل بشأن الإنسان أيضاً وجمعها أبكار. و«بكر» على وزن مكر، ويطلق على الصغير من أنثى الابل وجمعها «أبكار».

[١١٩] (٢) «عمدة» من مادة «عمد» على وزن حمد بمعنى إقامة الشئ بالعمود، وتطلق على الدابة التى انفتح داخل سنامها من الركوب وظاهره سليم.

[١٢٠] (٣) «متداعية» من مادة «دعوت»، وهذا الاصطلاح يستعمل للاشخاص يدعون بعضهم الآخر إلى شئ معين، ومن هنا يطلق على قطعة القماش البالية التى عندما تتمزق إحدى زواياها كأنما تدعوا لزاوية الاخرى لتكون مثلها، يطلق على هذه القطعة البالية «المتداعية».

[١٢١] (٤) «حيصت» من مادة «حيص» على وزن حوض بمعنى خيبت.

[١٢٢] (١) «أطل» من مادة «طل» على وزن حل بمعنى الاشراف على شئ وهى هنا إشارة إلى إقتراب جيش الشام.

[١٢٣] (٢) «منسر» على وزن منزل من مادة «نسر» القطعة من الجيش البالغ عددها مئة إلى مئتين والتى تمر أمام جيش كثير.

[١٢٤] (٣) «انجحر» من مادة «جحر» على وزن جهل بمعنى دخل الجحر.

[١٢٥] (٤) «ضبه» على وزن دبه بمعنى أنثى الضب، وفى الاصل جاءت من مادة «ضبت» بمعنى إنسياب الماء بشكل بطيء وأمثلة ذلك.

[١٢٦] (٥) «صُبِع»، يطلق على نوع من السباع.

[١٢٧] (٦) «وجار» من مادة «وجر» على وزن فجر بمعنى صب الدواء فى الحلق، ومن هنا فان زحف الضبع فى حجره له شبه بذلك، ويقال لجحر الضب والحيوانات الاخرى «وجار».

[١٢٨] (٧) وهنا فان الفعل «رُمى» جاء بصورة فعل مجهول، فى حين إن هذا الفعل تكرر فى الخطبة ٢٩ بهذا التعبير ولكن جاء بصيغة فعل معلوم، وبما انهما يعطيان معنى واحداً فى كلا الحالتين، لذا فلا مانع من الاستفادة من التعبيرين فى الترجمة.

[١٢٩] (٨) «باحات» من مادة «بوح» بمعنى الاتساع والظهور، ويراد بها ساحة الدار. ومن هنا فانه يطلق على الساحة الواسعة والظاهرة للعيان، ب «الباحة».

[١٣٠] (١) «أود» من ماء «أود» على وزن قول بمعنى العوج. و«أود» على وزن سند، ويطلق على الاعوجاج ب «الاود».

[١٣١] (٢) الغارات ٤٢ / ١.

[١٣٢] (١) «أضرع» من مادة «ضرع» بمعنى الرضاع «وضع الثدي فى الفم»، ويأتى معناها أيضاً بمعنى المناسب فى الاشياء، ومن هنا فان هذا المصطلح يستعمل للتعبير عن الدولة.

[١٣٣] (٢) «أتعس» من مادة «تعس» على وزن «ترس» بمعنى الهفوة والسهو والزلة وكذلك يأتى بمعنى السقوط، و«اتعاس» من باب افعال بمعنى الهلكة.

- [١٣٤] (٣) «جدود» جمع «جد» وفي الأصل بمعنى أب الأب أو أب الام، وتأتى بمعنى الرزق والموقية الاجتماعية، وأحياناً بمعنى الفائدة، حيث أتت هنا بهذا المعنى
- [١٣٥] (١) سند الخطبة: نقله كثير من المحدثين قبل السيد الرضى (ره) ومنهم ابن سعد فى الطبقات وأبو الفرج الاصفهاني فى مقاتل الطالبين وابن عبد ربه فى العقد الفريد وابن قتيبة فى الإمامة والسياسة والمرحوم السيد المرتضى فى الغرر والدرر والشيخ المفيد فى الإرشاد. مصادر نهج البلاغة ٢/ ٦٤.
- [١٣٦] (٢) «سنع» من مادة «سنوح» على وزن حضور، بمعنى العبور السريع لشيء فى مقابل الانسان، وكذلك تأتى بمعنى عرض الشيء أمام الانسان.
- وقد فسر عدد من أرباب اللغة لفظ «سانح»، بحركة الشيء من اليسار إلى اليمين وفى مقابل الانسان، وعلى القاعدة فان ذلك يعتبر طالع أو فال خير، ويقابل ذلك اصطلاح «بارح» وهى الحركة من اليمين إلى اليسار، وهو طالع غير مبارك وغير حسن.
- [١٣٧] (١) سورة نوح / ٢٦.
- [١٣٨] (١) بحار الأنوار ١٨ / ٥٩.
- [١٣٩] (٢) بحار الأنوار ١٨ / ٥٧.
- [١٤٠] (٣) بحار الأنوار ١٧ / ٢٣٠.
- [١٤١] (٤) بحار الأنوار ١٧ / ٢٣٠.
- [١٤٢] (٥) بحار الأنوار ٢٠ / ٧٦.
- [١٤٣] (١) بحار الأنوار ١٩ / ٢٥٧.
- [١٤٤] (١) سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة هذا مختار من خطبة خطب بها عليه السلام بعد صفيين وقد روى طرفاً منها ابن دأب المعاصر لموسى الهادى الخليفة العباسى فى كتابه الاختصاص. ورواها المفيد فى الارشاد. وقال ابن أبى الحديد: وقد روى هذا الكلام «ما أتيكم إختياراً..» على وجه آخر «ما أتيكم إختياراً ولا جئتكم سوقاً»، والظاهر من كلامه أنها رواية غير النهج وأنها خطبة واحدة مع الخطبة ٩٧ التى فصلها السيد الرضى (ره). مصادر نهج البلاغة ٢/ ٦٦.
- [١٤٥] (١) «أملصت» من مادة «ملص»، أسقطت وألقت ولدها ميتاً، كما تعنى فقد ان الشيء سريعاً.
- [١٤٦] (٢) «تأيم» من مادة «ايم» على وزن زيد فقدان الزوج وتستعمل بشأن الزوج والزوجة.
- [١٤٧] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٦ / ١٢٩.
- [١٤٨] (٢) «لهجة» من مادة «لهج» على وزن فليح، ويأتى معنى هذا اللفظ أحياناً بمعنى الملازمة وأحياناً بمعنى الاختلاط والمعاشرة وأحياناً بمعنى العلاقة الشديدة بالشيء، وكذلك فان اللهجة ملازمة للغة الانسان، وتطلق على مجموعة مختلطة من الامور، أما فى الجملة أعلاه فالاصطلاح جاء بمعنى الاسرار والمفاهيم الخاصة.
- [١٤٩] (٣) «ويل امه»: عبارة مركبة من (ويل) التى تأتى للدعاء أو التعجب وأمه مضافة إلى ويل إن كان مبتدأ، كما يمكن أن تكون مبتدأ وخبرها محذوف وتقدير العبارة «ويل أمه ثابت أو كائن» فان قرأت منصوبة فهى منادى وأصلها (يا ويل أمه) وقد وردت بكلمة واحدة فى بعض النسخ ولا يفرق ذلك فى المعنى.
- [١٥٠] (١) رواه الحاكم فى المستدرک ٣ / ١٣٦ والخطيب البغدادي فى تأريخه ٢ / ٨١، كما رواه آخرون.
- [١٥١] (٢) رواه عدد كثير من كبار علماء العامة باسناد معتبرة ومنهم: النسائي فى الخصائص ص ٣ والحاكم فى المستدرک ٣ / ١١٢ وابن ماجه فى السنن ١ / ٥٧ والطبرى فى تأريخه ٢ / ٢١٣، وجمع آخرون المحدثين.
- [١٥٢] (٣) ورد هذا لاحديث فى الباب ٤٧ من فرائد السمطين بأربعة طرق.

[١٥٣] (٤) أورد ابن أبي الحديد فى المجلد الثانى ص ١٠١.

[١٥٤] (١) رواه الترمذى فى الجامع ٢/٢١٤ والحاكم فى المستدرک ٣/١١٢ كما نقله آخرون.

[١٥٥] (٢) بحار الأنوار ٣٧/٢٦٨.

[١٥٦] (٣) مسند أحمد ١/٩٩ طبع دار الصادق.

[١٥٧] (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٤/١١٦.

[١٥٨] (١) العقد الفريد ٣/٤٣ بتصرف.

[١٥٩] (٢) الغدير ٣/٢٣٧.

[١٦٠] (١) ذكرنا اسناد هذه الرواية بالتفصيل ذيل حديث يوم الدار فى رساله القرآن ٩/٣٢٦.

[١٦١] (٢) سورة مريم ١٢.

[١٦٢] (٣) سورة مريم ٣٠.

[١٦٣] (١) سند الخطبة: رواها الكثير ممن عاش قبل السيد الرضى (ره)، فقد وردت فى الصحيفه العلوية والتذكرة لابن الجوزى

والامالى للبعدادى وغريب الحديث لابن قتيبة والغارات للثقفى، كما فسر عبارتها ابن أثير فى النهاية والزمخشري فى الفائق وابن

منظور فى لسان العرب (مصادر نهج البلاغة ٢/٧٠).

[١٦٤] (١) «داحى» من مادة «دحو» بمعنى البسط، و«دحو الأرض» إشارة إلى الزمان الذى خرجت فيه اليابسة تدريجياً من الماء

وانتشرت.

[١٦٥] (٢) «داعم» من مادة «دعم» على وزن فهم بمعنى تسوية الاعوجاج، ومنه «الدعامة» بمعنى العمود.

[١٦٦] (٣) «المسموكات» من مادة «سمك» على وزن سقف بمعنى رفع، والمسموكات المرفوعات وهى السماوات.

[١٦٧] (٤) «جابل» من مادة «جبل» على وزن جبر بمعنى خالق.

[١٦٨] (٥) سورة الذاريات/٤٧-٤٨.

[١٦٩] (١) سورة فاطر/٤١.

[١٧٠] (٢) ورد مضمون هذا الحديث فى عدة روايات تناهز العشرين، رواها المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار ٣/٢٧٦-٢٨١،

كتاب التوحيد.

[١٧١] (٣) سورة الدهر/٣.

[١٧٢] (٤) سورة الشمس/٧-٨.

[١٧٣] (١) «شرائف» جمع «شريفه» بمعنى ذاقمة.

[١٧٤] (٢) «نوامى» جمع «نامية» من مادة «نمو» بمعنى التوسعة والزيادة والتطور.

[١٧٥] (١) بحار الأنوار ٧٤/٤٠٠.

[١٧٦] (٢) «جيشات» جمع «جيشه» من مادة «جيش» على وزن عيش من جاشت القدر إذ ارتفع غليانها، ومنه الجيش لحركته.

[١٧٧] (٣) «دامغ» من مادة «دمغ» على وزن ضرب إذا شجه حتى بلغت الشجة دماغه.

[١٧٨] (٤) «صولات» جمع «صوله» بمعنى الحمله من أجل الغلبة. ويستعمل هذا الاصطلاح أيضاً فى التعبير عن عضه البعير.

[١٧٩] (٥) «اضطلع» من مادة «اضطلاع» بمعنى القوة والقدرة على القيام بالعمل. وفى الأصل من مادة «ضلع» على وزن جسم، بمعنى

الضلع، وهو العظم المقاوم فى مقابل الحوادث، وكذلك يطلق على اصطلاح «ضلع» وهو على وزن «منع» بمعنى القوة والقدرة.

[١٨٠] (١) «مستوفز» من مادة «استيفاز» بمعنى المساعد المستعجل.

- [١٨١] (٢) «ناكل» من مادة «نكول» بمعنى الناكص والمتأخر.
- [١٨٢] (٣) «القدم» بضممتين المشيى إلى الحرب ومضى قدما سار ولم يخرج.
- [١٨٣] (٤) الكامل لابن اثير ١/ ٤٨٩ كما ورد هذا الكلام فى سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى).
- [١٨٤] (٥) «واعيا» أى حافظا وفاهما، وعيت الحديث فهمته وحفظته.
- [١٨٥] (٦) «أورى» من مادة «ورى» على وزن نفى بمعنى اشعال النيران وعليه فان (ورى) فعل متعدى.
- [١٨٦] (٧) «القبس» على وزن قفص بمعنى شعله من النار.
- [١٨٧] (٨) «خابط» من مادة «خبط» على وزن ضبط بمعنى الحركة فى طريق غير صحيح، وكذلك تأتى بمعنى عدم التعادل أثناء المسير أو القيام.
- [١٨٨] (٩) «خوضات» جمع «خوضه» من مادة «خوض» على وزن حوض، وفى الاصل يأتى بمعنى الدخول التدريجى فى الماء، والسير والسباحة فى الماء، وكذلك يأتى كناية عن معنى الدخول أو البدء بعمل أو خطاب سىء وغير مطلوب.
- [١٨٩] (١) سورة الجن / ٢٦-٢٨.
- [١٩٠] (١) «افسح» من مادة «فسح» على وزن فسخ بمعنى المكان الواسع. ومن هنا فان هذه المادة تأتى بمعنى التوسعة.
- [١٩١] (٢) مجمع البيان، ١٠- ٩/ ٢١٨ ذيل الآية ٣٠ من سورة الواقعة.
- [١٩٢] (١) سورة الاسراء / ٧٩.
- [١٩٣] (٢) «دعه» من مادة «وداع» بمعنى الانفصال والترك وتخليه السبيل، ومن هنا يطلق هذا الاصطلاح على كل شىء يتركه الانسان، ويبقى بدون حركة وبحالة من الهدوء. وهذا الاصطلاح يأتى أحيانا بمعنى الهدوء، وقد جاء فى الخطبة اعلاه بهذا المعنى
- [١٩٤] (١) ثواب الأعمال للشيخ الصدوق / ١٨٥.
- [١٩٥] (٢) بحار الأنوار / ١٧ / ٣٠.
- [١٩٦] (٣) كنز العمال / ١ / ٤٩٠، ح ٢١٥٣.
- [١٩٧] (٤) كنز العمال / ١ / ٤٩٠، ح ٢١٤٩.
- [١٩٨] (٥) وسائل الشيعة ٤ / ١٢١٠ الباب ٣٤ من ابواب الذكر.
- [١٩٩] (٦) كنز العمال / ١ / ح ٢١٧٧.
- [٢٠٠] (٧) كنز العمال / ١ / ٤٩٤، ح ٢١٨٢.
- [٢٠١] (١) شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئى ٥ / ٢١٤-٢١٥.
- [٢٠٢] (٢) كنز العمال / ١ / ٤٩٤، ح ٢١٨١.
- [٢٠٣] (٣) وسائل الشيعة ٤ / ١٢١٣ (الباب ٣٤ من أبواب الذكر).
- [٢٠٤] (٤) كنز العمال / ١ / ٥٠٧، ح ٢٢٤٣.
- [٢٠٥] (٥) كنز العمال / ١ / ٥٠٤، ح ٢٢٢٩.
- [٢٠٦] (١) زيارة الجامعة الكبيرة.
- [٢٠٧] (١) وسائل الشيعة ٤ / ٩٨٩ باب كيفية التشهد.
- [٢٠٨] (٢) سورة الأحزاب / ٥٦.
- [٢٠٩] (٣) تفسير الدر المنثور ٥ / ٢١٦ ذيل الآية ٥٦ من سورة الأحزاب.
- [٢١٠] (٤) صحيح البخارى ٦ / ١٥١ فى تفسير سورة الأحزاب.

[٢١١] (١) صحيح مسلم ١/ ٣٠٥ باب الصلاة على النبي صلى الله عليه و آله.

[٢١٢] (٢) الصواعق لابن حجر/ ١٤٤.

[٢١٣] (٣) المغنى ١/ ٥٧٩.

[٢١٤] (١) التاج الجامع للاصول ٥/ ١٤٣.

[٢١٥] (٢) تفسير نورالثقلين ٤/ ٣٠٢، رقم ٢١١ (ذيل الآية ٥٦ من سورة الأحزاب).

[٢١٦] (٣) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، مادة صلوا (باقتباس ونقل بالمعنى).

[٢١٧] (١) سند الخطبة روى طرفا من هذا الكلام قبل الرضى ابن سعد فى الطبقات ج ١ فى ترجمة مروان، والبلاذرى فى أنساب

الاشراف بترجمة أمير المؤمنين، ورواه بعد الزمخشري فى ربيع الأبرار والسبط ابن الجوزى فى تذكرة الخواص باختلاف يسير، وجاء فى

النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير. وقال ابن أبى الحديد فى ٦/ ١٤٦ من شرحه لنهج البلاغة: وقد روى هذا الخبر من طرق كثيرة

ورويت فيه زيادة لم يذكرها صاحب نهج البلاغة، فترى ابن أبى الحديد هنا ينص على تواتر هذا الخبر وكثرة طرقه.

مصادر نهج البلاغة ٢/ ٧٢.

[٢١٨] (١) «سبة» على وزن غدة تعنى الطعنة فى موضع واصلها من سب كما ترد كناية عن مخرج الإنسان، وقد وردت بهذا المعنى

فى العبارة المذكورة، ومعنى الكلام محمول على وجهين: أحدهما أن يكون ذكر السبة إهانة له وغلظة عليه، والعرب تسلك مثل

ذلك فى خطبها وكلامها، والثانى أن يريد بالكلام حقيقةً لامجازاً، وذلك لأنَّ الغادر من العرب كان إذا عزم على الغدر بعد عهد قد

عاهده أو عقد قد عقده، قبل إستهزاء بما كان قد أظهره من اليمين والعهد، وسخرية وتهكماً. (شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٦/

١٤٧).

[٢١٩] (١) «لعة» من مادة «لعل» على وزن لعب بمعنى لَحسه و«العقة» اسم مرة «يعنى لعل أو لحس مرة واحدة».

[٢٢٠] (٢) «أكبش» جمع «كبش» بمعنى مذكر الغنم أو الخروف بأى عمر كان تطلق العرب هذه المفردة على رئيس القوم وزعيمهم

فيقال: كبش القوم وكبش الكتيبة.

[٢٢١] (١) اقتطفنا سيرة حياة مروان من تاريخ الطبرى وسفينته البحار وشرح النهج لابن أبى الحديد.

[٢٢٢] (١) سند الخطبة: لقد استفاد بعض شراح نهج البلاغة من كلام ابن أبى الحديد أن لديه خطبة طويلة لأمير المؤمنين على عليه

السلام بعد بيعه عبدالرحمن بن عوف لعثمان وما ورد فى هذه الخطبة طرفا منها، حيث أشار الإمام عليه السلام إلى فضائله وسوابقه ثم

قال: «إنى أحق بها من غيرى ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا على خاصة» (شرح نهج البلاغة للعلامة

الخوئى ٥/ ٢٢٣).

[٢٢٣] (١) اقتباس من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٦/ ١٦٧، وللإطلاع أكثر حول المؤامرة التى حدثت فى قضية الشورى من

أجل اقضاء الإمام على عليه السلام من الخلافة وماذا عمل هؤلاء من اجل تأمين مصالحهم المادية، فما عليك الا الرجوع إلى «شرح

نهج البلاغة» تأليف «محمد عبده» أحد علماء مصر، وقد أورد ذلك فى ذيل الخطبة التى يدور بحثنا حولها.

[٢٢٤] (١) «تافستموه» من مادة «منافسة» للحصول على شىء يعد نفيساً (وإن لم يكن فى الواقع كذلك) ومن هنا يصطلح «بالنفس»

على الأشياء المرغوبة التى يخاطر الإنسان بنفسه من أجلها.

[٢٢٥] (١) «زخرفه» و«زبرجه» أصل الزخرف الذهب وكذلك الزبرج، ثم أطلق على كل ممّوه مزور، وأغلب ما يقال الزبرج على

الزينة من وشى أو جوهر.

[٢٢٦] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٢/ ١٢٩.

[٢٢٧] (١) سند الخطبة: لم يذكر الرواة سنداً خاصاً لهذا الكلام سوى ماورد فى نهج البلاغة، إلّا أنّ صاحب مصادر نهج البلاغة نقل

- بعض هذا الكلام فى مادة قرف عن ابن أثير فى النهاية والطريحي فى مجمع البحرين. مصادر نهج البلاغة ٧٦ / ٢.
- [٢٢٨] (١) «قرف» على وزن حرف تعنى فى الأصل فصل قشرة الشئ كقشرة الشجرة، ولما كان تحرى العيوب يؤدى إلى ضياع شخصية الأفراد، فإن هذه الكلمة تستعمل بمعنى الاتهام.
- [٢٢٩] (٢) «وزع» من مادة «وزع» على وزن وضع بمعنى المنع، كما وردت بمعنى الجمع. لأنّ جمع الشئ يتطلب منع تشتت افراده، ولعل «التوزيع» بمعنى التقسيم، لأنّ تقسيم الشئ يتطلب جمعه ثم تقسيمه.
- [٢٣٠] (٣) «تهمة» من مادة «وهم» تعنى فى الأصل الظن السيئ (وقد وردت هذه المفردة بفتح الهاء وضمها)، كما تعنى التهمة البهتان، وهذا هو معناها فى العبارة الواردة فى الخطبة.
- [٢٣١] (٤) سورة الحجرات / ١٢.
- [٢٣٢] (٥) سورة النساء / ١١٢.
- [٢٣٣] (٦) «حجيج» من مادة «حج» بمعنى قصد الشئ، ومنه «المحاجة» لمن يحاور العدو بقصد التغلب عليه، وحجيج المارقين خصيمهم، والمارقون هم الخارجون من الدين.
- [٢٣٤] (٧) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد / ١٧٠ / ٦.
- [٢٣٥] (١) «الامثال» جمع «مثل» يراد بها هنا متشابهات الأعمال والحوادث تعرض على القرآن فما وافقه فهو الحق وما خالفه فهو الباطل، وقد جرى عليه السلام على حكم الله فى أعماله فليس للغامز أن يشير بمطعن.
- [٢٣٦] (١) سند الخطبة: هذه الخطبة رواها قبل الرضى الحرانى فى التحف والكراجكى فى كنز الفوائد مع تفاوت يسير يفيد أنه لم ينقل عن نهج البلاغة. ورواها من بعد السيد الرضى الزمخشري فى ربيع الأبرار والسبسط بن الجوزى فى تذكرة الخواص ومحمد بن طلحة الشافعى فى مطالب السؤل (مصادر نهج البلاغة ٧٧ / ٢).
- [٢٣٧] (٢) مصادر نهج البلاغة ٧٨ / ٢.
- [٢٣٨] (٣) بحار الأنوار ٤٠٨ / ٦٦.
- [٢٣٩] (١) «حكم» هنا بمعنى الحكمة.
- [٢٤٠] (٢) «وعى» من مادة «وعى» على وزن سعى بمعنى الحفظ وفهم المراد و«أذن واعية» كناية عن سماع الشخص للمطالب وفهمها بصورة جيدة.
- [٢٤١] (٣) «الحجزة» بالضم معقد الازار والمراد بها هنا الاقتداء والتمسك.
- [٢٤٢] (١) «غرض» على وزن مرض بمعنى الهدف الذى يسدد نحوه السهم، كما يعنى المقصود والحاجة، إلما أنه ورد فى رواية «عرض» بمعنى المتاع الدنيوى الزائل.
- [٢٤٣] (٢) «كابر» من مادة «مكابرة» بمعنى المنازعة والمبارزة، كما يطلق على المنازعات العلمية التى تهدف الغلبة على الطرف المقابل لتحقيق الحق، وقد ارد بها هنا المعنى الأول.
- [٢٤٤] (٣) الكافى ١٦ / ٢.
- [٢٤٥] (٤) سورة البينة / ٥.
- [٢٤٦] (٥) بحار الأنوار ٢٧٨ / ٦٩.
- [٢٤٧] (١) الكافى ٣٣٥ / ٢.
- [٢٤٨] (٢) «مطية» المركب السريع الذى لا يجمع بصاحبه.
- [٢٤٩] (٣) «غراء» مؤنث «أغر» كل شئ أبيض والطريقة الغراء النيرة الواضحة.

- [٢٥٠] (٤) «المحجة» من مادة «حج» تعنى فى الأصل القصد، ثم اطلقت على جادة الطريق التى توصل الإنسان إلى مقصوده.
- [٢٥١] (٥) «مهل» جاء بصيغة اسم المصدر وبمعنى الرفق والمداراة، ومن هنا فان الفرص تمثل الارضية للرفق والمداراة، وهذا الاصطلاح أستعمل بمعنى الفرصة وفى الخطبة أعلاه، جاء بعنوان الاشارة إلى الفرص التى اعطاها الله سبحانه وتعالى لعباده من اجل اصلاح اعمالهم والالتيان بالاعمال الصالحة، والتى يجب أن يغتنمها الناس.
- [٢٥٢] (١) كلمات القصار / ٨٢.
- [٢٥٣] (٢) اصول الكافى ٢ / ٩١.
- [٢٥٤] (١) اصول الكافى ٢ / ١٤٢.
- [٢٥٥] (٢) اصول الكافى ٢ / ١٤٣.
- [٢٥٦] (١) سند الخطبة: روى هذا الكلام أبوالفرج الاصبهاني فى كتاب الاغانى باسناد رفعه إلى الحارث بن جيش قال: بعثنى سعيد بن العاص بهدايا إلى المدينة، وبعثنى إلى على عليه السلام وكتب إليه: إتنى لم أبعث إلى أحد بأكثر مما بعثت به إليك. قال فأنتيت علياً عليه السلام فأخبرته فقال: الخطبة (طبعا هناك تفاوت بين ما أورده أبوالفرج وما جاء فى نهج البلاغة إلا أن المضمون واحد). وقد روى هذا الكلام الأنزهري فى تهذيب اللغة وأبو عبيد القاسم بن سلام فى غريب الحديث وابن دريد فى المؤتلف والمختلف وأبوموسى محمد بن أبى المدينى الاصبهاني فى مستدركاتى على الجمع بين الغريبين (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٧٩ - ٨٠).
- [٢٥٧] (١) «ليفوقونى» من مادة «فوق» على وزن رواق المدة المتخللة بين رضعتين حسب قول أغلب أرباب اللغة، بينما ذهب البعض إلى أنها تعنى المدة المتخللة بين فتح الضرع وغلقه حين الحلب، ولما كان التدى يخلد إلى الراحة بعد الحلب فقد استعملت بمعنى الهدوء والراحة ومنها إفاقة المريض وإفاقة المجنون. وجاءت فى العبارة بمعنى المال الزهيد الذى كان يعطيه بنى أمية الإمام عليه السلام من بيت مال المسلمين.
- [٢٥٨] (١) «لأنفضنهم» من «مادة» نفض على وزن نبض تحريك الشى لتخليصه ممّا علق به ومن هنا يصطلح بالنفوض على المرأة الولود، كما تستعمل هذه المفردة فى طرح الثمرة من الشجرة.
- [٢٥٩] (١) الاعلام للزركلى ٣ / ٩٦.
- [٢٦٠] (٢) سيد مصطفى الحسينى الدشتى، المعارف والمعاريى، ج ٣ ذيل المفردة بنى أمية.
- [٢٦١] (٣) سورة الاسراء / ٦٠.
- [٢٦٢] (٤) تفسير الفخر الرازى ٢٠ / ٢٣٧.
- [٢٦٣] (٥) راجع تفسير الأمثل للمؤلف ١٠ / ٣٤١ و ١٢ / ١٧٢.
- [٢٦٤] (١) كنز العمال ١ / ٢٩٩.
- [٢٦٥] (٢) كنز العمال، ح ٣١٠٦٢.
- [٢٦٦] (٣) كنز العمال، ح ٣١٠٧٤.
- [٢٦٧] (٤) كنز العمال، ح ٣١٧٥٥.
- [٢٦٨] (١) العقد الفريد ٤ / ٨١ - ٨٢.
- [٢٦٩] (٢) رسالة الجاحظ فى بنى أمية / ١٢٤ تم نقله من التاريخ السياسى للاسلام ٢ / ٣٩٦.
- [٢٧٠] (٣) مختصر تاريخ دمشق ٨ / ٢١٠ وتاريخ يعقوبى ٢ / ٢١٧.
- [٢٧١] (٤) تاريخ الخلفاء / ٢٢٢.
- [٢٧٢] (٥) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٤ / ٥٧.

- [٢٧٣] (٦) أنساب الاشراف ١/ ١٨٤ نقلا عن التاريخ السياسى للإسلام ٢/ ٤٠٩.
- [٢٧٤] (٧) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٤/ ٦٣.
- [٢٧٥] (٨) حياة الصحابة ٣/ ٥٢٩ نقلاً عن التاريخ السياسى للإسلام ٢/ ٤١٠.
- [٢٧٦] (٩) مختصر تاريخ دمشق ٩/ ٨٥.
- [٢٧٧] (١) تاريخ الطبرى ٥/ ٢٢٠ نقلا عن التاريخ السياسى للإسلام ٢/ ٤١٠.
- [٢٧٨] (٢) نقلا عن: الحسين النفس المطمئنة، ص ١٠.
- [٢٧٩] (٣) المصدر السابق.
- [٢٨٠] (١) سند الخطبة: السند الوحيد لهذا الدعاء ما أورده قبل السيد الرضى (ره) الجاحظ فى كتاب المائة المختارة، والذي يرتبط بالعبارات التى اختتم بها الدعاء: «اللهم اغفرلى رمزات الألفاظ...».
- [٢٨١] (١) سورة المجادلة/ ٦.
- [٢٨٢] (٢) سورة البقرة/ ٢٨٧.
- [٢٨٣] (٣) «وأيت» من مادة «أى» على وزن رأى بمعنى العزم على الشى مع قصد الوفاء به، وبعبارة اخرى الموعودالتى يقطعها الإنسان على نفسه، وقد يعنى الواى والوعد بشأن الذات والآخرين.
- [٢٨٤] (١) وتقدير العبارة: «وأيت من نفسى مع ربي».
- [٢٨٥] (٢) سورة التوبة/ ٧٥-٧٦.
- [٢٨٦] (٣) سورة الصف/ ٢-٣.
- [٢٨٧] (١) «رمزات» جمع «رمزة» على وزن غمزة الإشارة بالعين والحجاب وأحياناً بالشفة، وقال البعض الرمز فى الأصل بمعنى حركة الشفاه لبيان مطلب دون أن يتخلله الصوت، كما تأتى بمعنى الإشارة بالعين والحجاب.
- [٢٨٨] (٢) «الالفاظ» جمع «لحظ» على وزن محض بمعنى النظر بطرف العين الذى يكون أحياناً بقصد الازدراء والتحقير، كما يراد به الاستهزاء والسخرية أيضاً.
- [٢٨٩] (٣) «سقطات» جمع «سقط» على وزن فقط كل وضع لاقيمة له من متاع او كلام او فعل وقيل سقطات جمع سقطه بمعنى الزلّة وسقطات الالفاظ لغوها.
- [٢٩٠] (٤) «هفوات» جمع «هفوة» على وزن دفعة بمعنى الزلّة فى الكلام أو العمل، كما وردت هذه المفردة بمعنى السرعة، ولما كانت السرعة تقود إلى الزلّة فالمعنيان يعدان إلى مادة واحدة.
- [٢٩١] (١) العبارة سقطات الالفاظ من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف، تعنى الالفاظ الساقطة، أما العبارة «هفوات اللسان» ليست كذلك.
- [٢٩٢] (٢) بحار الأنوار ٩٠/ ٣٠٠.
- [٢٩٣] (٣) سورة الفرقان/ ٧٧.
- [٢٩٤] (١) سند الخطبة: نقل ذلك قبل الرضى جماعة منهم: إبراهيم بن الحسن بن ديزيل المحدث فى كتاب صفين والشيخ الصدوق فى عيون أخبار الرضا نقله بثلاثة أسانيد، ونقله أيضاً فى الامالى فى المجلس الرابع والستين، ونقله أيضاً فى عيون الجواهر. وأضاف صاحب مصادر نهج البلاغة بعد أن نقل هذا الكلام قائلاً: ولسنا بحاجة إلى ذكر من رواه بعد السيد الرضى فإنه كلام مشتهر دونته الخاصة والعامة بطرق مختلفة وصور شتى لاتختلف عما رواه الرضى إلفى بعض الالفاظ (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٨٢).
- [٢٩٥] (١) «حاق» من مادة «حقيق» على وزن حيف بمعنى احاط ونزل وعمّم، ويستفاد من هذا الاصطلاح فى الاشارة إلى تأثير ضربات

السيف ونزول العذاب وذلك بسبب وجود نوع من الاحاطة والعمومية فى نزول العذاب.

و «حاق» فى الاصل من مادة «حق» بمعنى التحقق وقد اشتقت من كلمة «حق» حيث بدلت القاف الاولى بواو وبعد ذلك بدلت بألف.

[٢٩٦] (١) سورة النحل / ١٦.

[٢٩٧] (٢) سورة الانعام / ٩٧.

[٢٩٨] (١) سورة آل عمران / ١٩٠.

[٢٩٩] (١) سورة الاسراء / ٣٦.

[٣٠٠] (٢) سورة يونس / ٦٨.

[٣٠١] (٣) سورة النجم / ٢٨.

[٣٠٢] (١) سند الخطبة: أن هذا الكلام من جملة كتاب له عليه السلام كتبه بعد احتلال عمرو بن العاص لمصر وقتل محمد بن أبى بكر، استعرض فيه الأحداث من أيام رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليوم الذى حرر فيه ذلك الكتاب وأمر أن يقرأ على الناس، وأنه ليس من البعيد أنه عليه السلام قال هذا الكلام بالخصوص أكثر من مرة، منها فى ذلك الكتاب ومنها بعد حرب الجمل كما ذكر السيد الشريف فى هذا الموضوع. وإنما قلت ذلك إعتماً على نص الشريف هنا وما ذكره السبط بن الجوزى فى التذكرة حيث قال: ذكر علماء السير: أن علياً عليه السلام لما فرغ من حرب الجمل صعد المنبر البصرة فخطب الناس وقال: إن النساء ... بأدنى تفاوت عما ذكر الرضى. ومن نقلها قبل السيد الرضى أبوطالب المكى فى قوت القلوب والشيخ الكلينى فى الكافى المجلد الخامس وابراهيم بن هلال الثقفى فى الغارات وابن قتيبة فى الإمامة والسياسة والطبرى فى المسترشد. (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٨٦).

[٣٠٣] (١) سورة المعارج / ١٩ - ٢١.

[٣٠٤] (٢) سورة الاحزاب / ٧٢.

[٣٠٥] (٣) سورة الزخرف / ١٥.

[٣٠٦] (٤) سورة العلق / ٦ - ٧.

[٣٠٧] (١) سورة الاسراء / ٧٠.

[٣٠٨] (١) سورة البقرة / ٢٣٣.

[٣٠٩] (١) سورة النحل / ٩٧.

[٣١٠] (٢) سورة الاحزاب / ٣٥.

[٣١١] (٣) سورة الحجرات / ١٣.

[٣١٢] (٤) بحار الأنوار ٤٨ / ٧٣.

[٣١٣] (٥) الكافى ٢ / ١٦٢.

[٣١٤] (١) سفينة البحار، مادة نسب.

[٣١٥] (٢) ان رواية «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» وردت فى كتاب بحار الانوار للعلامة المجلسى، نقلها من كتاب «

عوالى اللثالى» منقولة عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وكذلك وردت فى كتاب ميزان الحكمة منقولة من مجموعة ورام.

[٣١٦] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٤ / ٢١٥ (بتلخيص).

[٣١٧] (٢) تاريخ الطبرى ٣ / ٤٧٧ (دار العلمى للنشر).

[٣١٨] (٣) الكامل لابن اثير ٣ / ٢٠٦ (دار صادر للنشر).

[٣١٩] (١) صحيح البخارى ٥ / ٤٧، ورد هذا الحديث فى باب تزويج خديجة وفضائلها.

- [٣٢٠] (٢) ذكره ابن أبي الحديد ٢٢٥ / ٦ والعلامة الاميني في الغدير ٣ / ١٨٨ عن كتب العامة.
- [٣٢١] (١) سند الخطبة: روى صدر هذا الكلام - قبل الرضى - الصدوق في معاني الأخبار وفي الخصال، وروى آخر الكلام البرقى في المحاسن بتفاوت، ورواه بعد الرضى صاحب غررالحكم بتفاوت يسير جداً، والقتال في روضة الواعظين ونقله عنه الطبرسى في مشكاة الانوار. (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٨٨ - ٨٩).
- [٣٢٢] (١) «زهادة» على وزن شهادة تعنى عدم الاعتناء بزخارف الدنيا؛ كما تستعمل هذه المفردة بشأن الأفراد ضيقى النظر أو سئى الخلق، إلّا أنّ المعنى الأول هو الأشهر ومن لوازمه قصر الأمل وترك الذنوب وما شابه ذلك.
- [٣٢٣] (١) نهج البلاغة، الكلمات القصار / ٤٣٩.
- [٣٢٤] (٢) الكافي ٢ / ١٣١، ح ١١.
- [٣٢٥] (٣) «عزب» من مادة «عزوب» على وزن غروب بمعنى بعد، ومن هنا وردت بمعنى ترك الزواج، حيث يطلق عليه صاحبه إسم الأعزاب.
- [٣٢٦] (٤) «مسفرة» من مادة «سفور» على وزن قبور بمعنى الكشف وخلع الحجاب، وعليه فالعبارة تعنى الأدلة التى تكشف النقاب عن الحقيقة.
- [٣٢٧] (١) كنز العمال ٣ / ١٨١، ح ٦٠٥٩.
- [٣٢٨] (٢) بحار الأنوار ٧٠ / ١١٤.
- [٣٢٩] (١) نهج البلاغة، الكلمات القصار / ١٠٣.
- [٣٣٠] (٢) إقتباس من كتاب سير فى نهج البلاغة للشهيد المطهرى / ٢١١.
- [٣٣١] (٣) بحار الأنوار ٤٠ / ٣٣٠، ح ١٣.
- [٣٣٢] (٤) بحار الأنوار ٤١ / ٣٢.
- [٣٣٣] (١) سند الخطبة: صرح صاحب مصادر نهج البلاغة قائلاً: قد تواترت عنه عليه السلام صفة الدنيا هذه، ومن الكتب التى رويت فيها قبل النهج، الكامل للمبرد والامالى للصدوق والمجتبى لابن دريد وتحف العقول لابن شعبة الحرانى والعقد الفريد لابن عبد ربه وبعد النهج الامالى للمرتضى وتذكرة الخواص للسبط بن الجوزى ومشكاة الانوار الطبرسى وغررالحكم للامدى وكنز الفوائد للكرجى بتفاوت. (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٩٠).
- [٣٣٤] (١) «عناء» بمعنى المشقة ومنها «العانى» يطلق على الأسير لماى واجه من مشقة.
- [٣٣٥] (١) سورة البلد / ٤.
- [٣٣٦] (٢) بحار الأنوار ٦٩ / ٤٨.
- [٣٣٧] (١) وسائل الشيعة ١٢ / ٢٩٧ - ٢٩٨.
- [٣٣٨] (١) «ساعى» من مادة «سعى» تعنى فى الأصل الجرى ومنه السعى بمعنى الجهد وكأنّ الإنسان يجرى نحو الشئ وقد وردت فى العبارة بشأن من يجرى خلف الدنيا وكأنه يتسابق مع الآخرين، كما يمكن أن تكون إشارة إلى أولئك الذين يلهثون وراء الدنيا، والدنيا تهرب منهم. أما بعض أرباب اللغة فقد فسروا هذه المفردة بمعنى دعوة الاماء إلى الأعمال المنافية للعفة. وعليه فالعبارة الواردة فى الخطبة تشبه الدنيا بالامء التى يلهث وراءها أهل الدنيا.
- [٣٣٩] (٢) «واتته» من مادة «مؤاتاة» بمعنى طاوعته واستجابت له.
- [٣٤٠] (١) بحار الأنوار ١٤ / ٣٩.
- [٣٤١] (٢) غررالحكم، ح ٧٣٦٣.

[٣٤٢] (١) سورة ص / ١٦، ٢٦، ٥٣؛ سورة غافر / ٢٧.

[٣٤٣] (٢) تفسير نورالثقلين ٤ / ٥٠٧.

[٣٤٤] (٣) مجمع البيان ١ / ٢٩٧.

[٣٤٥] (١) سورة الانشقاق / ٧-٩.

[٣٤٦] (٢) تفسير نورالثقلين ٥ / ٥٧٣.

[٣٤٧] (١) الكافي ٢ / ١٢٦.

[٣٤٨] (٢) بحار الأنوار ٧٩ / ١٣٨.

[٣٤٩] (٣) كنز العمال، ح ٣١-٣.

[٣٥٠] (٤) خصال الصدوق / ٨٠ الباب ٣، ح ١.

[٣٥١] (١) سند الخطبة: هذه الخطبة من خطبه عليه السلام المعروفة وفيها من اللطائف والدقائق ما عده ابن أبي الحديد من معجزاته التي فات بها البلغاء وأخرس الفصحاء، وفي قول الرضى (ره): «ومن الناس من يسمى هذه الخطبة بالغراء» دليل على أنها كانت معروفة بين الناس. رواها الجاحظ، كما رواها حسن بن شعبة في كتاب تحف العقول والآمدى وابونعيم الإصفهاني وابن أثير على كل حال فإن هذه الخطبة أشهر من حاجتها إلى مناقشة الاسناد. (مصادر نهج البلاغة ٢ / ١٠٧).

[٣٥٢] (٢) لا بد من الالتفات هنا إلى ان الخطبة تنقسم على أساس تقسيم كلى إلى إثني عشر قسماً، كما أن بعض أقسامها تنقسم فرعياً إلى عدة أقسام، ومن هنا فانا قسمنا هذه الخطبة في شرحها، وتفسيرها إلى ثمانية عشر قسماً.

[٣٥٣] (١) «حول» بمعنى تغيير الشئ وفصله عن آخر، ومن هنا يطلق «الحائل» على ما يفصل بين شيئين، وإذا استعملت هذه المفردة على الله فانه تعنى قدرته على دفع الخطر عن عباده ومن القول: لاحول ولا قوة إلا بالله.

[٣٥٤] (٢) «طول» على وزن «قول» بمعنى النعمة ومن مادة «طول» على وزن نور ما يبين امتداد الشئ، ولما كانت النعم امتداد وجود المنعم فقد اطلقت عليها هذه المفردة.

[٣٥٥] (٣) «مانح» من مادة «منح» على وزن منح تعنى فى الأصل إعطاء اللبن والصوف وولد الحيوان لشخص، ثم اطلقت على كل عطاء، حتى صرح أرباب اللغة بأن منح تعنى أعطى.

[٣٥٦] (٤) «الأزل» تعنى الضيق والشدة، ثم اطلقت على كل بلاء ومصيبة، كما يصطلح بالأزل على الكذب، وقدوردت فى الخطبة بمعنى المصيبة.

[٣٥٧] (١) سورة النحل / ٥٣.

[٣٥٨] (٢) «سوابغ» جمع «سابعة» بمعنى الواسع والكامل وقد ورد تفسير هذا الاصطلاح فى شرح الخطبة ٦٣.

[٣٥٩] (٣) بادياً أى سابقاً كل شئ من الوجود، ظاهراً بذاته مظهراً لغيره، والبادى من بدو بمعنى الظهور والبداية، فالله بادئ الوجود، كما أن آثاره ظاهرة عمت السموات والأرض.

[٣٦٠] (٤) «نذر» جمع «نذير»، وردت هنا بمعنى الايات والأخبار التي تحذر من معصية الله.

[٣٦١] (١) سورة الاعراف / ٣٤.

[٣٦٢] (٢) سورة الرحمن / ٢٦.

[٣٦٣] (٣) «الرياش» من مادة «ريش» ظاهر اللباس، كما اطلق على كل نعمة موفورة. وقال بعض شراح نهج البلاغة أن الريش لايعنى ظاهر اللباس فقط، فقد ورد فى الآية ٢٦ من سورة الاعراف: «يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا» ولكن يبدو أن الآية تدل على عكس مراده لأن اللباس على نوعين: لباس يغطى بدن الإنسان مصداق (يوارى سواتكم) ولباس الزينة. وقد أشار

القرآن إلى الأمرين، ثم اتبعه بالحديث عن لباس التقوى «ولباس التقوى ذلك خير».

[٣٦٤] (٤) «أرفع» من مادة «رفع» على وزن هدف بمعنى أوسع، أوسع عليكم النعم.

[٣٦٥] (٥) سورة الأعراف / ٢٦.

[٣٦٦] (١) هنالك خلاف بين مفسري القرآن وشراح نهج البلاغة بشأن محل إعراب (ريشا) فعدّها البعض عطفاً على لباساً ومن هنا فسروها بشيء أوسع أو مغاير للباس، بينما اعتبرها البعض الآخر (مفعول له) تبين هدف نزول اللباس على الإنسان وهو ستر العيوب ثم الزينة، ويبدو المعنى الأخير أكثر إنسجاماً مع الآية الشريفة.

[٣٦٧] (٢) سورة الجن / ٢٨.

[٣٦٨] (٣) «رغد» جمع «رغد» على وزن دفع بمعنى نصيب، وعطاء وجائزة.

[٣٦٩] (٤) «روافع» جمع «رافعة» من مادة «رفع» وكما أشرنا سابقاً فإنها تعني السعة والرفعة.

وعلى هذا الأساس فإن «الرغد» و«الروافع» تأتي بمعنى عطايا الله سبحانه وتعالى.

[٣٧٠] (٥) جاء في مقاييس اللغة أن أصل هذه المفردة يعني تقديم الشيء هذا ما صرح به الراغب في مفرداته. وقال في كتاب التحقيق

في كلمات القرآن الكريم: «حقيقة الأيثار إثبات الفضيلة وتقديم صاحب الفضل».

[٣٧١] (٦) سورة الاسراء / ٧٠.

[٣٧٢] (١) «مدد» جمع «مده»، أي عين لكم أزمته تحيون فيها، فالمدة جزء من الزمان، كما تأتي بمعنى انتهاء زمان معين.

[٣٧٣] (٢) «خبرة» تفيد معنى المصدر واسم المصدر تعني العلم والاطلاع، ومن هنا يقال «أهل الخبرة» لمن كان لهم العلم الكافي بالشيء، كما تعني الإمتحان وقد وردت هنا بهذا المعنى؛ أي في دار ابتلاء واختبار وهي دار الدنيا.

[٣٧٤] (٣) سورة مريم / ٩٣-٩٤.

[٣٧٥] (٤) سورة العنكبوت / ٢-٣.

[٣٧٦] (١) «رتق» صفة مشبهة بمعنى الكدر. وعليه فإن العبارة (رتق مشربها) إشارة إلى كدر شرب الدنيا، أما روتق فتعني الجمال، وذلك لأن اللغة العربية تتضمن أحياناً مادة واحدة لمعنيين متضادين.

[٣٧٧] (٢) «ردغ» من مادة «ردغ» على وزن فتق كثير الطين والوحل. وفي التشبيه الذي ورد أعلاه في الخطبة حيث وصفت الدنيا بمثابة نهر كبير ينتهي جريانه بماء مملوء بالطين والوحل.

[٣٧٨] (١) «يونق» من مادة «آنق» على وزن شفق يعجب، وقوله عليه السلام «يونق منظرها» إشارة إلى المنظر العجيب للدنيا.

[٣٧٩] (٢) «يوبق» من مادة «وبوق» يهلك «وموبق» بمعنى مهلك.

[٣٨٠] (٣) نهج البلاغة، الرسالة ٦٨.

[٣٨١] (٤) «حائل» من مادة «حال» بمعنى التحول والانتقال واطلاق «الحول» على السنة لتحولها. وعليه فالحائل المتغير.

[٣٨٢] (٥) «آفل» من مادة «افول» بمعنى الغياب ومنه افول الشمس والقمر غروبهما.

[٣٨٣] (٦) «سناد» بالكسر ما يستند إليه وهو الدعامة، ولما كانت الدنيا دعامة معوجة ولا يمكن الاستناد إليها عبرت عنها خطبة «سناد مائل».

[٣٨٤] (١) «قمصت» من مادة «قمص» على وزن شمس بمعنى رفع اليدين وطرحهما معاً ومنه قمص الفرس، كما تستعمل هذه المفردة كناية عن الذل بعد العز.

[٣٨٥] (٢) «قنصت» من مادة «قنص» بمعنى الصيد والقانص الصياد.

[٣٨٦] (٣) «أحبل» جمع حبل.

[٣٨٧] (٤) «أسمهم» جمع سهم وجمعه الآخر سهام.

[٣٨٨] (٥) «أوهاق» جمع «وهق» على وزن شفق بمعنى الحبل الذى يربط به عنق الإنسان أو الحيوان.

[٣٨٩] (٦) «ضنك المضجع»، ضنك يعنى ضيق ومضجع الموضع الذى يضع الإنسان عليه ضلعه، والمراد به فى العبارة القبر.

[٣٩٠] (١) «أخترام» من مادة «خرم» بمعنى اشق و هى تشير هنا الى الحوادث التى تستأصل عمر الانسان.

[٣٩١] (٢) «يرعوى» من مادة «رعوة» على وزن سهو بمعنى الرجوع و العودة من الجهل إلى العلم و اصلاح النفس و الجملة أعلاه «لا

يرعوى الباقون احتراماً» اشارة إلى أن البعض لا- يعتبرون من دروس العبرة التى تمر بهم و لا- يتراجعون و لا- يتوبون من الذنوب التى اقترفوها و بالاخير فانهم لا يقدمون على اصلاح انفسهم.

[٣٩٢] (٣) «إجترام» من مادة «جرم» الذنب و اقتراف السيئات.

[٣٩٣] (٤) «يحتذون» من مادة «حذو» على وزن حذف بمعنى القيام بالأعمال المشابهة، و من هنا وردت بمعنى الاقتداء فى الأعمال،

و ريد بها فى العبارة يشاكلون بأعمالهم صور أعمال من سبقهم و يقتدون بهم.

[٣٩٤] (٥) «ارسال» جمع «رسل» على وزن عسل القطيع من الابل و الغنم و الخيل، اريد بها فى العبارة من يتبع الآخرين دون أدنى فكر

و مطالعه.

[٣٩٥] (٦) «صيور» على وزن قيوم من مادة «صير» على وزن سيل بمعنى الانتقال من حالة إلى اخرى، و هى هنا صيغة مبالغه اريد بها

مصيره و ما يؤول إليه أمره.

[٣٩٦] (١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانى ٢/ ٢٣٦.

[٣٩٧] (٢) سورة الكهف / ٤٥.

[٣٩٨] (١) «أزف» من مادة «ازف» على وزن شرف بمعنى الاقتراب.

[٣٩٩] (١) «ضرائح» جمع «ضريح» بمعنى القبر، أو الشق وسط القبر.

[٤٠٠] (٢) «أوكار» جمع «وكر» على وزن مكر بمعنى عش الطيور.

[٤٠١] (٣) «أوجرة» جمع «وجار» الحفر التى تظهر إثر السيول فى الأودية، كما تطلق على كهف الوحوش.

[٤٠٢] (٤) «مطارح» جمع «طرح» الموضع الذى تطرح فيه الأشياء.

[٤٠٣] (٥) سورة لقمان / ٣٤.

[٤٠٤] (٦) «مهطعين» مادة «هطع» على وزن منع بمعنى الرعة المصحوبة بالخوف.

[٤٠٥] (٧) «رعيل» القطيع من الخيل أو الطيور.

[٤٠٦] (٨) سورة المعارج / ٤٣.

[٤٠٧] (٩) سورة يس / ٥١.

[٤٠٨] (١٠) سورة المعارج / ٤٣.

[٤٠٩] (١) سورة النبأ / ١٨.

[٤١٠] (٢) «زرع» على وزن طمع الضعف والخضوع والذل.

[٤١١] (٣) «مهيمنة» من مادة «هيمنة» متخافية، الصوت الخفى.

[٤١٢] (٤) «شفق» تعنى فى الأصل إختلاط ضياء النهار بظلمة الليل، كما تطلق على خصوص الخوف وبهذا المعنى وردت فى العبارة.

[٤١٣] (٥) سورة ابراهيم / ٤٣.

[٤١٤] (٦) سورة طه / ١٠٨.

- [٤١٥] (١) «زبره» الكلام الشديد و لا يقال زبره إلا إذا كان فيها زجر.
- [٤١٦] (٢) «مقايضة» من مادة «قيض» على وزن فيض بمعين المعاوضة.
- [٤١٧] (٣) «نكال» بمعنى العذاب.
- [٤١٨] (٤) و نوال بمعنى النعمة.
- [٤١٩] (٥) أشرنا في البحث السابق إلى الآيات ذات الصلة بهذا الموضوع.
- [٤٢٠] (٦) راجع نفحات القرآن ٥ / ٣٠٧ - ٣٥٣.
- [٤٢١] (١) للوقوف على التفاصيل راجع، نفحات القرآن ٥ / ٣٤٠ - ٣٤٧.
- [٤٢٢] (١) سورة الحج / ١.
- [٤٢٣] (١) «اقتسار» من مادة «قسر» على وزن نصر الغلبة والقهر.
- [٤٢٤] (٢) «أجداث» جمع «جدث» على وزن عبث القبر.
- [٤٢٥] (٣) «رفات» جمع رفث الحطام.
- [٤٢٦] (١) سورة النبأ / ١٨.
- [٤٢٧] (٢) سورة فاطر / ١٨.
- [٤٢٨] (٣) «مستعب» من مادة «عتب» على وزن تبت بمعنى الرضى. وذهب بعض أرباب اللغة إلى أن أصل هذه المفردة (عتاب) وإعتاب نفى ذلك والاستعتاب طلب نفى العتاب التي وردت بمعنى طلب الرضى.
- [٤٢٩] (٤) «سدف» جمع «سدفه» على وزن غرفه بمعنى الظلمة.
- [٤٣٠] (٥) «جياذ» جمع «جواد»، والجياذ من الخيل كرامها.
- [٤٣١] (٦) «ارتياذ» من مادة «رود» على وزن صوت، طلب ما يراد.
- [٤٣٢] (٧) «أناه» الهدوء والطمأنينة والوقار والحلم، كما وردت بمعنى الانتظار.
- [٤٣٣] (١) سورة فاطر / ٣٧.
- [٤٣٤] (١) «حازم» من مادة «حزم» على وزن جزم بمعنى التفكير العميق والصائب، ويطلق الحازم على الشخص الواسع الأفق، ومنه الحزام الذى يفيد الاستحكام.
- [٤٣٥] (١) «إقترف» من مادة «قرف» على وزن حرف بمعنى إكتسب وتستعمل إقتراف فى إكتساب الاثم.
- [٤٣٦] (٢) «إحتذى» من مادة «حذو» على وزن حذف بمعنى فصال الحذاء حسب النموذج والقياس المعين، ثم اطلق الحذو والاحتذاء على مطابقة الشئ لآخر، وقد وردت فى الخطبة بمعنى المتابعة والتبعية للاسوة فى كل شئ.
- [٤٣٧] (١) «استظهر» من مادة «ظهر» على وزن دهر، بمعنى حمل الزاد والمتاع على الظهر أو على ظهر مركب.
- [٤٣٨] (٢) قيل جملة (جهة ما خلقكم له) ظرف وقيل مفعول به لفعل مقدر وقيل مفعول لأجله ولعل الاحتمال الأول أنسب الجميع.
- [٤٣٩] (٣) سورة القيامة / ٣٦.
- [٤٤٠] (٤) «كنه»، الحقيقة وباطن الشئ، كما تأتي بمعنى العاقبة وأجل الشئ وارىد بها المعنى الأول فى العبارة.
- [٤٤١] (٥) «تنجز» من مادة «نجز» على وزن عجز، تستعمل فى الوفاء بالعهد، وتنجز الوعد طلب وفائه على عجل.
- [٤٤٢] (١) «عنا» من مادة «عناية» بمعنى الاهتمام بالشئ، والضمير فى عنها يمكن أن يرجع إلى الله فيشير إلى الأهداف الإلهية التى تبلغ الإنسان عن طريق أذنه، أو يرجع إلى الإنسان ليعنى الأهداف التى ينالها الإنسان عن طريق الاذان، أو يعود إلى الحرف ما ليعنى المطالب المهمة السماع للاذن.

- [٤٤٣] (٢) «تجلو» من مادة «جلاء» بمعنى تكشف.
- [٤٤٤] (٣) «عشا» من مادة «عشو» أو «عشى» ضعف البصر وعجزه عن الرؤية وقيل عدم الابصار ليلاً.
- [٤٤٥] (٤) «أشلاء» جمع «شل» على وزن شكل العضو والجسد، وهنا تعنى الجسد، حيث أردفها بالعبارة (جامعة لأعضائها) وقيل قطعة اللحم وهى العضلات ويصدق هذا المعنى على الخطبة المذكورة.
- [٤٤٦] (٥) «أحناء» جمع «حنو» على وزن حلم ما اعوج من البدن، كأغلب العظام.
- [٤٤٧] (١) «أرفاق» جمع «رفق» على وزن فكر المنفعة أو ما يستعان به عليها، وهذا هو المعنى المراد فى عبارة الخطبة.
- [٤٤٨] (٢) «رائدة» من مادة «رود» على وزن شوق طلب الماء والمرتع، ثم اطلقت على كل بحث وطلب، كما وردت بمعنى الهادى وذلك لأن القوافل كانت تبعث بشخص لبيحث عن مكان مناسب لتوقف القافلة حيث يسمى هذا الشخص الرائد.
- [٤٤٩] (١) «مجللات» من مادة «جلال». ومجللات نعمه غامرات نعمه، النعم التى تغطى جميع كيان الانسان، فهى تفيد السعة والشمولية.
- [٤٥٠] (٢) «حواجز» جمع «حاجز» المانع والرادع وحواجز العافية موانع السلامة.
- [٤٥١] (٣) «خلاق» من مادة «خلق» بمعنى تعيين المقدار ومن هنا أطلق الخلاق على السهم والنصيب، والمراد بمستمع خلاقهم التى وردت فى الخطبة النصيب الوافر من الخير واللذات التى تمتعوا بها فى الدنيا.
- [٤٥٢] (٤) «خناق» من مادة «خنق» جبل يخنق به، وخناق بالكسر على وزن كتاب بمعنى الحبل ومستفسح خناقهم النعم التى يتمتع بها الإنسان قبل الموت.
- [٤٥٣] (٥) «أرهق» من مادة «إرهاق» أخذ الشئ باستعجال، واصلها رهق على وزن شفق بمعنى الظلم.
- [٤٥٤] (٦) هناك خلاف بين شراح نهج البلاغة فى أن «شذبهم» كلمة واحدة أم كلمتان. فمن عدها كلمة واحدة «شذب» من مادة شذيب بمعنى التقشير ومنه تشذيب الشجرة، ويناسب هذا المعنى ما ورد فى الخطبة، ومن ذهب إلى أنها كلمتان «شذ + بهم»، شذ من مادة شذوذ بمعنى الانفصال والانفراد وهو المعنى الذى يتناسب وما ورد فى الخطبة أيضاً.
- [٤٥٥] (٧) «تخرم» من مادة «خرم» بمعنى الاستئصال والاقتطاع.
- [٤٥٦] (٨) «أنف» بضمين مفرد بمعنى بداية كل شئ، ومن هنا يطلق على المرعى الذى لم يرع فيه الحيوان حتى ذلك الوقت وكذلك الظرف الذى لم يشرب به الماء.
- [٤٥٧] (١) بحار الأنوار ٣/ ٨٣ (بتصرف).
- [٤٥٨] (١) سورة يوسف / ١١١.
- [٤٥٩] (١) «البضاعة» مصدر الرقة والحيوية والنشاط.
- [٤٦٠] (٢) «حوانى» تعنى فى الأصل أحوال أضلاع الإنسان وهى اثنان فى كل جانب ومفردا حانية، وهى هنا كناية عن الهرم الذى يحدوب فيه الإنسان.
- [٤٦١] (٣) «هرم» بمعنى ذروة الضعف والعجز.
- [٤٦٢] (٤) «غضارة» النعمة والسعة والخصب.
- [٤٦٣] (٥) «آونه» جمع «آوان» بمعنى الزمان.
- [٤٦٤] (٦) «الزيال» مصدر زايله مزايلة وزيال بمعنى المفارقة.
- [٤٦٥] (٧) «أزوف» على وزن خضوع بمعنى الدنو والقرب وتطلق الازفة على القيامة لأنها ليست بعيدة عن العباد.
- [٤٦٦] (٨) «العلز» على وزن المرض قلق وخفة وهلع يصيب المريض المحتضر.

- [٤٦٧] (٩) «مضض» من مادة «مض» على وزن سد بلوغ الحزن من القلب.
- [٤٦٨] (١) «جرض» على وزن «خرج» ابتلاع الريق بمشقة إثر الهم والحزن.
- [٤٦٩] (٢) «تلفت» من مادة «لفت» الانصراف عن الشيء.
- [٤٧٠] (٣) «حفدة» من مادة «حفد» على وزن صفد السرعة في العمل، كما تطلق على بنات الولد لسرعتهم في أعمال بيت والدهم ووالدتهم.
- [٤٧١] (٤) تأريخ بغداد ١٠ / ٤٩.
- [٤٧٢] (٥) سورة يونس / ٢٤.
- [٤٧٣] (١) «نواحب» جمع «ناحبة» من مادة «نحب» على وزن نذر والنحيب في الأصل الجد في العمل ثم اطلق على رفع الصوت بالبكاء، وعليه فالنواحب الأفراد الذين يرتفع صوتهم بالبكاء والعيول.
- [٤٧٤] (٢) «غودر» من مادة «غدر» على وزن مكر نقض العهد، كما وردت بمعنى الترك، وهذا هو المراد بها في العبارة.
- [٤٧٥] (١) «هوام» جمع «هامه» الحشرات المؤذية وتطلق أحياناً على خاصة الحشرات السامة.
- [٤٧٦] (٢) «نواهك» جمع «ناهكة» ما ينهك البدن، وتطلق على من يلبس الثوب حتى يبلى فيقال نهك الثوب.
- [٤٧٧] (٣) «جده» من مادة «جديد»، الحديث.
- [٤٧٨] (٤) «عفت» من مادة «عفو» درست وأزالت ومحت، ومنه العفو الذي يزيل الذنب، وقد وردت في الخطبة بمعنى محو آثار الإنسان بعد الموت بواسطة الرياح والحدثان تشنيه بكسر النون وتجمع بضمها بمعنى الحوادث الاليمة.
- [٤٧٩] (٥) «الحدثان» من مادة «حدث»، تعاقب الليل والنهار.
- [٤٨٠] (٦) «شحبة» من مادة «شحب» تغير الجسم وضعفه، تقابل بضه بمعنى النشاط والغضاضة.
- [٤٨١] (٧) «نخرة» صفة مشبهة من مادة «نخر» على وزن ضرر بمعنى البالية، وقد وردت في الخطبة كإشارة إلى العظام بصفتها ممزقة خاوية.
- [٤٨٢] (٨) «أعباء» جمع «عب» بمعنى الثقل، والأعباء في الخطبة تعني المسؤوليات الثقيلة.
- [٤٨٣] (١) «قده» من مادة «قد» على وزن سد بمعنى الشق الطولي، وتطلق على الجادة التي تشق المرتفعات والمنخفضات وتسير قدما، وتطلق على الطائفة التي تنفصل عن جماعة، لأنَّ طريقتها تختلف عن تلك الجماعة.
- [٤٨٤] (٢) نهج البلاغة، الكلمات قصار ١٢٢.
- [٤٨٥] (٣) سورة البقرة / ٧٤.
- [٤٨٦] (١) «مجاز» من مادة «جواز» مصدر ميمي من جاز يجوز، أى قطع المكان واجتازه.
- [٤٨٧] (٢) «مزالق» جمع «مزاق» موضع الزلل والانزلاق، من مادة «زلق» على وزن دلو.
- [٤٨٨] (٣) «دحض» ورد هنا كمصدر أو اسم مصدر هو الانزلاق والسقوط، كما تستعمل أحياناً بشأن زوال الشمس من دائرة نصف النهار نحو المغرب.
- [٤٨٩] (٤) «أهاويل» جمع «أهوال»، وأهوال جمع هول، وعليه فالأهاويل جمع الجمع و«هول» بمعنى الخوف والخشية.
- [٤٩٠] (٥) «تارات» جمع «تاره» بمعنى الدفعة من مادة «تأر» على وزن طرد بمعنى النظر لشخص بحدّة، كما تعنى الضرب بالعصا.
- [٤٩١] (١) بحار الأنوار ٨ / ٦٥.
- [٤٩٢] (٢) «أنصب» من مادة «نصب» على وزن سبب التعب، وعليه فانصب من باب الأفعال بمعنى أتعب.
- [٤٩٣] (٣) «أسهر» من مادة «سهر» على وزن سفر اليقظة في الليل، ولما كانت الحوادث الأليمة تسلب العين نومها وهول المحشر فقد

اطلق على الاثنين الساهرة.

[٤٩٤] (٤) «غرار» مصدر واسم مصدر القليل من النوم وغيره، والمراد بالعبارة الواردة فى الخطبة أزال قيام الليل نومه القليل.

[٤٩٥] (٥) «هواجر» جمع «هاجرة» نصف النهار عند اشتداد الحرارة، وأصلها من مادة هجر وهجران بمعنى الترك والمفارقة.

[٤٩٦] (٦) «ظلف» من مادة «ظلف» بفتح وسكون المنع، «وظلف» على وزن «علف» المكان المرتفع، وكأنه يمنع الإنسان من الوصول إليه.

[٤٩٧] (١) «أوجف» من مادة «ايجاف» السرعة فى العمل، وأوجف الذكر بلسانه أسرع، كأن الذكر لشدة تحريكه اللسان موجف به كما توجف الناقة براكبها.

[٤٩٨] (٢) «تنكب» من مادة «نكب» و«نكوب» بمعنى الميل عن الشئ والعدول عنه، ومن هنا يقال للذنيا نكبت أن أدبرت عن الشخص.

[٤٩٩] (٣) «مخالج» جمع «مخلج» من مادة «خلج» على وزن حرج الامور المختلجة الجاذبة.

[٥٠٠] (٤) «وضح» من مادة «وضوح» بمعنى الظهور ووضح السبيل وسط الجادة.

[٥٠١] (٥) «فتله» من مادة «قتل» على وزن قتل الانصراف عن الشئ، كما وردت بمعنى الشروق ومنه الفتيلة.

[٥٠٢] (٦) «نعمى» بالضم سعة العيش ونعيمه، وللنعمى مفهوم كالنعمة، حيث هو من المفاهيم الواسعة.

[٥٠٣] (١) «أكمش» من مادة «كمش» على وزن عطش أسرع، والمراد بها فى العبارة جد السير فى مهلة الحياة.

[٥٠٤] (١) هذا الكلام مضمون حديث عن الإمام الصادق عليه السلام فى كتاب آمالى الصدوق المجلس ٣٣.

[٥٠٥] (٢) ورد الصراط بدل الجسر فى حديث الإمام الصادق عليه السلام، بحار الأنوار ١٤ / ٣٨٦ ح ٣٩٣٦ كما روى هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى كنز العمال ١٤ / ٣٨٦ ح ٣٩٣٦.

[٥٠٦] (٣) سورة الفجر / ١٤.

[٥٠٧] (٤) بحار الأنوار ٨ / ٦٦ ح ٦.

[٥٠٨] (٥) كنز العمال، السابق.

[٥٠٩] (٦) بحار الأنوار ٨٩ / ١٩٧ ح ٣.

[٥١٠] (٧) الغدير ٢ / ٣٢٣.

[٥١١] (٨) الغدير ٢ / ٣٢٣ (نقل هذه الروايات العلامة الأمينى من مصادر العامه مع ذكر صفحاتها، وورد فى شرح الشعر المعروف للعبدى:

وإليك الجواز تدخل من شئت جناناً ومن تشاء جحيماً [٥١٢] (١)

[٥١٣] (٢) سورة الاسراء / ٧٩.

[٥١٤] (٣) بحار الأنوار ٦٦ / ٣٩٢ ح ٦٨.

[٥١٥] (٤) بحار الأنوار ٧١ / ٣٥٢ ح ٢٢.

[٥١٦] (٥) بحار الأنوار ٨٤ / ١٤٤ ح ١٨.

[٥١٧] (٦) بحار الأنوار ٨٠ / ١٢٧.

[٥١٨] (١) سورة القصص / ٥٩.

[٥١٩] (٢) سورة طه / ١١٧.

[٥٢٠] (٣) سورة يس / ٦٠.

- [٥٢١] (١) سورة البقرة/ ١٦٨ و ٢٠٨؛ سورة الانعام/ ١٤٢؛ سورة النور/ ٢١.
- [٥٢٢] (٢) سورة الزخرف/ ٣٦، كما ورد مثل هذا التعبير في سورة فصلت/ ٢٤.
- [٥٢٣] (١) بهج الصباغة ١٤/ ٣٥٠، كما ورد شبه هذا المضمون في بحار الأنوار باختلاف طفيف كأحد الوصايا الأربعة لموسى عليه السلام (بحار الأنوار ١٣/ ٢٤٤) (مادمت لا ترى الشيطان ميتا فلاتأ من مكره).
- [٥٢٤] (٢) نقحات الولاية ١/ ٤٦٠-٤٦٧.
- [٥٢٥] (١) هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغة بشأن (أم) هل هي إستفهامية ومتصلة أو منقطعة؟ ويبدو من الصعب الحكم في ذلك، لأن ظاهر عبارة المرحوم السيد الرضى (ره) قد اختار كلاما من هذه الخطبة الطويلة ويمكن أن تكون العلاقة بين العبارات خافية هذه القطوف، وقد فسرناها منقطعة وتقديره العبارة «بل أذكركم بحال الإنسان...».
- [٥٢٦] (٢) «شغف» من مادة «شغاف» على وزن جواب يعنى فى الأصل غلاف القلب، والمفردة هنا بمعنى الاغلفة المتعددة.
- [٥٢٧] (١) «دهاق» من مادة «دهق» على وزن دهر بمعنى متتابعاً وشدة الضغط، ثم استعملت بمعنى الصب بالقوة والضغط، وأشارت هنا إلى صب النطفة فى الرحم.
- [٥٢٨] (٢) «محاق» من مادة «محق» على وزن محو النقص التدريجى والمحو، ومن هنا يطلق المحاق على القمر فى آخره، ووصف العلقه بالمحاق بمعنى خفيت فيها ومحقت حتى زالت صورتها وتبدلت إلى جنين، أو لأن لها شكل ممحو وغير معين ولم تتخذ لها صورة.
- [٥٢٩] (٣) «يافع» من مادة «يفع» على وزن نفع الغلام راهق العشرين.
- [٥٣٠] (٤) «سادر» من مادة «سدر» المتحير والمتخبط.
- [٥٣١] (١) - ماتح تعنى من ينزل البئر إذا قل ماؤها فيملاً الدلو، و«الغرب» بمعنى الدلو العظيمة، فتفسير العبارة التى وردت فى الخطبة هو أن بعض الأفراد الذين يسعون لاشباع أهوائهم ورغباتهم وما يحلمون به من أمانى.
- [٥٣٢] (٢) - ماتح تعنى من ينزل البئر إذا قل ماؤها فيملاً الدلو، و«الغرب» بمعنى الدلو العظيمة، فتفسير العبارة التى وردت فى الخطبة هو أن بعض الأفراد الذين يسعون لاشباع أهوائهم ورغباتهم وما يحلمون به من أمانى.
- [٥٣٣] (٣) «كادح» من مادة «كدح» على وزن مدح شدة السعى، كما تعنى الحرص أيضاً.
- [٥٣٤] (٤) - «بدوات» جمع بدء على وزن «غفلة» من مادة «بدو» على وزن دلو بمعنى الظهور، وأدب بمعنى الحاجة والسرور، فالعبارة «بدوات أربه» تعنى الحاجات واللذات التى تخطر على ذهن الإنسان.
- [٥٣٥] (٥) - «بدوات» جمع بدء على وزن «غفلة» من مادة «بدو» على وزن دلو بمعنى الظهور، وأدب بمعنى الحاجة والسرور، فالعبارة «بدوات أربه» تعنى الحاجات واللذات التى تخطر على ذهن الإنسان.
- [٥٣٦] (٦) «رزية» من مادة «رزا» على وزن عضو بمعنى النقص فى الأصل، كما وردت بمعنى المصيبة.
- [٥٣٧] (٧) «تقية» وردت هنا بمعنى التقوى ومفهوم الجملة أن خشوعه إلى الله لا يستند إلى التقوى، وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن تقيه هنا مفعول مطلق للنوع، وقيل مفعول له، وليس هنالك من فارق فى المفهوم.
- [٥٣٨] (٨) «غري» بمعنى المغرور.
- [٥٣٩] (٩) «هفوة» من مادة «هفو» رفع القدم بسرعة، ولما كانت السرعة فى المشى تدعو إلى الزلل فى أغلب الأحيان ولعلها تؤدى إلى الوقوع فان الهفوة تعنى الخطأ والزلل والوقوع على الأرض.
- [٥٤٠] (١) «دهمته» من مادة «دهم» على وزن فهم بمعنى العشاوة وتغطية الشيء.
- [٥٤١] (٢) «غبر» جمع «غابر» يعنى الباقي.

- [٥٤٢] (٣) «جماح» من مادة «جمع» على وزن جمع التعتت عن الحق، ومن هنا يطلق الجموح على الحيوان الطائش.
- [٥٤٣] (٤) «سنن» مفرد بمعنى الطريقة وسنن بالضم جمع سنة.
- [٥٤٤] (٥) «مراح» من مادة «مرح» على وزن فرح شدة السرور المقرونة بالطغوى واستثمار نعم الله فى الباطل.
- [٥٤٥] (٦) «سادرا» تعنى الحيرة كما تعنى الصلافة، والمعنى الأول أنسب للعبارة، بينما المعنى الثانى أنسب للعبارة الأولى التى مرت فى المقطع السابق.
- [٥٤٦] (٧) «لادمة» من مادة «لدم» على وزن هدم تعنى فى الأصل الضاربة، ومن هنا تطلق اللادمة على المرأة التى تلطمه وجهها ورأسها حين المصاب.
- [٥٤٧] (١) «مبلس» من مادة «ابلاس» تعنى فى الأصل الغم إثر شدة اليأس، ومن هنا فسرت بمعنى اليأس، وهى هنا بمعنى يأس الأحياء من عودة الاموات.
- [٥٤٨] (٢) «سلس» من مادة «سلس» على وزن قصص بمعنى السهل.
- [٥٤٩] (٣) «رجيع»، الرجيع من الدواب ما رجع به من سفر الى سفر فكل ثم استعملت للإنسان التعب.
- [٥٥٠] (٤) «وصب» الالم الدائمى والمرض والتعب.
- [٥٥١] (٥) «نضو» الناقة أو الحيوان المهزول، ثم اطلقت على الضعيف من الناس.
- [٥٥٢] (١) «مبلس» من مادة «ابلاس» تعنى فى الأصل الغم إثر شدة اليأس، ومن هنا فسرت بمعنى اليأس، وهى هنا بمعنى يأس الأحياء من عودة الاموات.
- [٥٥٣] (٢) «سلس» من مادة «سلس» على وزن قصص بمعنى السهل.
- [٥٥٤] (٣) «رجيع»، الرجيع من الدواب ما رجع به من سفر الى سفر فكل ثم استعملت للإنسان التعب.
- [٥٥٥] (٤) «وصب» الالم الدائمى والمرض والتعب.
- [٥٥٦] (٥) «نضو» الناقة أو الحيوان المهزول، ثم اطلقت على الضعيف من الناس.
- [٥٥٧] (٦) «حشده» جمع حاشد المسارعون فى التعاون.
- [٥٥٨] (١) «زوره» مصدر بمعين الزيارة واللقاء.
- [٥٥٩] (٢) «بهته» من مادة بهت الحيرة والاضطراب.
- [٥٦٠] (١) اقتباس من الخطبة ١٨٨ من نهج البلاغة.
- [٥٦١] (١) منهاج البراعة ٦ / ٤٠ - ٤١.
- [٥٦٢] (٢) منهاج البراعة ٦ / ٤٢.
- [٥٦٣] (١) بحار الأنوار ٦ / ٢٧١.
- [٥٦٤] (٢) سورة غافر / ١١.
- [٥٦٥] (١) رواه الترمذى فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وآله (ج ٤، كتاب صفة القيامة، ح ٢٤٦٠) والعلامة المجلسى فى بحار الأنوار (٦ / ٢١٤ - ٢١٨).
- [٥٦٦] (٢) «حميم» من مادة «حم» على وزن غم فى الأصل الماء الحار وهو المعنى المراد فى العبارة. فقد جاء فى القرآن «فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ» سورة الواقعة / ٥٤.
- [٥٦٧] (٣) «تصلية» من مادة «صلى» على وزن سعى ويعنى الاحراق، كما تعنى دخول جهنم، أمّا التصلية فيه متعدية وهى تعنى الاحراق فقط.

- [٥٦٨] (٤) «فورات» من مادة «فورة» الغليان.
- [٥٦٩] (٥) «سورات» جمع سوره الغضب.
- [٥٧٠] (١) «زفير» صوت النار عند توقدها.
- [٥٧١] (٢) سورة غافر / ٤٦.
- [٥٧٢] (٣) «دعة» من مادة «ودع» على وزن منع الراحه.
- [٥٧٣] (٤) «مزيجة» من مادة «ازاحه» تزيج ما أصابه من التعب.
- [٥٧٤] (٥) «ناجزة» من مادة «نجز» منتهية.
- [٥٧٥] (٦) «سنة» بالكسر والتخفيف أوائل النوم.
- [٥٧٦] (٧) «مسليه» من مادة «تسليه» النسيان، تشغله عما هو فيه.
- [٥٧٧] (١) سورة التوبة / ٦٩.
- [٥٧٨] (١) «مناص» من مادة «نوص» على وزن قوس الابتعاد والانصال عن الشيء، وقال البعض تعنى الملجأ والمفر.
- [٥٧٩] (٢) «ملاذ» من مادة «لوذ» على وزن موز بمعنى الاختفاء واللجوء إلى القلعة، ومن هنا يطلق على الملجأ اسم الملاذ، وتختلف قليلاً عن المعاذ من مادة العوذ على وزن الحوض التي تعنى الالتجاء دون مفهوم الاستتار.
- [٥٨٠] (٣) «محار» اسم مكان من مادة «حور» على وزن جور النقص ثم وردت بمعنى المرجع إلى الدنيا بعد فراقها.
- [٥٨١] (١) «توفكون» من مادة «إفك» على وزن فكر بمعنى الانحراف والانقلاب، ثم اريد بها الرجوع.
- [٥٨٢] (٢) «قيد» بكسر وفتح القاف تأتي بمعنى المقدار، ومن هنا يقال للحبل الذي يربط برجل الانسان أو الحيوان والذي يحد من حركته في حد معين، يقال له «قيد» و«قد» بمعنى الطول.
- [٥٨٣] (١) «خناق» من مادة «خنق» الحبل الذي به وضيق الخناق كناية عن شدة المصاب وعظم الضيق.
- [٥٨٤] (٢) «فينه» بالفتح الزمان والوقت.
- [٥٨٥] (٣) «باحه» من مادة «بوح» على وزن قول الظهور والشهرة وباحه بمعنى صحن الدار وساحتها وهذا هو المعنى المراد في العبارة.
- [٥٨٦] (٤) «إحتشاد» الاجتماع من أجل القيام بعمل مشترك.
- [٥٨٧] (٥) «حوبه» على وزن توبه تعنى في الأصل الحاجة التي تقود الإنسان إلى الذنب ومن هنا وردت في القرآن وسائر الاستعمالات بمعنى الذنب والمعصية.
- [٥٨٨] (٦) «ضنك»، الشدة ومعيشه ضنك العيش الصعب.
- [٥٨٩] (٧) «زهوق» على وزن حقوق، بمعنى الابداء والمحو.
- [٥٩٠] (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٦ / ٢٧٨.
- [٥٩١] (١) سند الخطبة: رواها جمع من مشاهير علماء الإسلام قبل السيد الرضى (ره) ومنهم ابن قتيبة في عيون الأخبار وأبوحيان التوحيدى في الامتاع والمؤانسة واليهقى في المحاسن والمسائى والبلاذرى في أنساب الاشراف. ورواها بعد السيد الرضى (ره) ا لشيخ الطوسى في الامالى عن محمد بن عمران المرزبانى الذى عاش قبل صدور النهج بستة عشر عاماً وابن عقدة والزبير بن بكار وابن أثير فى النهاية (مصادر نهج البلاغه ٢ / ١١٩).
- [٥٩٢] (١) «نابغة» من مادة «نوغ» الظهور والشهورة وتصلح العرب بالنابغة على المرأة المشهورة بالفساد، كما تطلق على الافذاذ من الأفراد.
- [٥٩٣] (٢) «دعابة» بالضم المزاح واللعب.

- [٥٩٤] (٣) «تلعابة» بكسر التاء كثير اللعب الذى يشغل الناس بكلامه وأفعاله.
- [٥٩٥] (٤) «أعافس» من مادة «معافسة» شدة المزاح.
- [٥٩٦] (٥) «أمارس» من مادة «ممارسة» الانهماك بالمزاح.
- [٥٩٧] (١) ربيع الأبرار للزمخشري، نقلا عن ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة ٦/ ٢٨٣.
- [٥٩٨] (١) «يلحف» من مادة «الحاف» بمعنى الاصرار والالاحاح واصلها من اللحاف وهو الغطاء المعروف، ولما كان الشخص المصر يلف من حوله فقد اطلقت عليه هذ المفردة.
- [٥٩٩] (٢) «الإل»، العهد، والميثاق، كما تعنى القرابة، والمراد من قطع الال أن يقطع الرحم.
- [٦٠٠] (٣) تأريخ اليعقوبى (طبق نقل الغدير ٢/ ١٧٥).
- [٦٠١] (١) «قرم» الذكر من الجنس، كما وردت بمعنى الشخص العظيم والسيد، وهذا هو المعنى المراد فى العبارة، لأن عمرو بن العاص كان يعلم ان أمير المؤمنين على عليه السلام يصرف وجهه عنه اذا ما كشف عورته.
- [٦٠٢] (٢) «سبه» من مادة «سب» على وزن شق الشتم وكل شئ يكره ذكره، وهى هنا إشارة إلى العورة.
- [٦٠٣] (٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٦/ ٣١٢.
- [٦٠٤] (٤) كتاب «صفين» لنصر بن مزاحم/ ٢٢٤ بحسب ما نقله الغدير، فى ٢/ ١٥٨.
- [٦٠٥] (١) روى ابن ابى الحديد ذلك عن المؤرخ المشهور الواقدى (شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد ٦/ ٣١٧).
- [٦٠٦] (٢) «الائية» بمعنى العطية من الايتاء بمعنى الاعطاء.
- [٦٠٧] (٣) «رضيخة» من مادة رضح، «رضخ» له رضيحة أعطاه قليلا، والمراد بالعبارة أن عمرو بن العاص باع آخرته ودينه بذلك المتاع الزهيد من الدنيا، ولاسيما أنه لم يتمتع بذلك المقام سوى بضع سنوات.
- [٦٠٨] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٢/ ٦١ (بتخليص).
- [٦٠٩] (٢) هناك كلام بين المؤرخين بشأن موت عمرو، غير أن العلامة الأمينى ذكر فى غديره وابن أبى الحديد فى شرحه ٦/ ٣٢١: والصحيح أنه مات فى سنة ثلاث واربعين، فلم تدم حكومته لمصر أكثر من خمس سنوات.
- [٦١٠] (٣) سورة الكوثر/ ٣.
- [٦١١] (١) الغدير ٢/ ١٢٦؛ شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد ٦/ ٢٨٢.
- [٦١٢] (٢) الغدير ٢/ ١٢٦.
- [٦١٣] (٣) شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد ٦/ ٣٢٢.
- [٦١٤] (٤) شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد ٦/ ٢٨٢.
- [٦١٥] (١) اصول الكافى ٢/ ٦٦٣.
- [٦١٦] (٢) تحف العقول/ ٤١ باب مواعظ النبى.
- [٦١٧] (٣) اصول الكافى ٢/ ٦٦٣.
- [٦١٨] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٦/ ٣٣٠.
- [٦١٩] (٢) سورة الواقعة/ ٣٥-٣٦.
- [٦٢٠] (٣) تحف العقول/ ٨٦.
- [٦٢١] (٤) ميزان الحكمة/ ٤، ح ١٨٨٦٩.
- [٦٢٢] (٥) ميزان الحكمة/ ٤ باب ذم المزاح.

- [٦٢٣] (٦) ميزان الحكمة ٤/ ح ١٨٨٧٧.
- [٦٢٤] (٧) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/ ٣٢٠.
- [٦٢٥] (٨) غرر الحكم.
- [٦٢٦] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/ ٣٣٣.
- [٦٢٧] (١) سند الخطبة: رواها أبو نعيم الإصفهاني في كتاب حلية الأولياء والسبط بن الجوزي الذي عاش بعد السيد الرضى (ره) في كتاب تذكرة الخواص ومحمد بن طلحة الشافعي في مطالب السؤل (مصادر نهج البلاغة ٢/ ١٢٢).
- [٦٢٨] (١) «أوهام» جمع «وهم» على وزن فهم تعنى لغويا ما يخطر على القلب، وقد وردت في الخطبة بمعنى إجلال الفكر التي لا تبلغ كنه الذات الإلهية المقدسة وصفاته سبحانه، وبعبارة أخرى لا تبلغ كنه ذاته حتى ذروة حركة العقل التي عبر عنها هنا بالوهم.
- [٦٢٩] (١) راجع بهذا الشأن (نفى رؤية الله) المجلد الأول من هذا الكتاب، وكتاب رسالة القرآن ٤/ ٢٣٢ - ٢٥١.
- [٦٣٠] (٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.
- [٦٣١] (٣) ميزان الحكمة ٣/ ١٨٩٣، ح ١٢٣١٦.
- [٦٣٢] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/ ٣٤٦.
- [٦٣٣] (١) اصول الكافي ١/ ٩٣.
- [٦٣٤] (٢) توحيد الصدوق / ٦٦.
- [٦٣٥] (١) «سواطع» جمع «ساطعة» النور الواسع الظاهر الدلالة، كما تستعمل هذه المفردة في الامور المعنوية كآيات القرآن المجيد الظاهرة أو الشخصيات الإسلامية البارزة.
- [٦٣٦] (١) «علقتكم» من مادة «علق» على وزن فلق تعنى في الأصل الرابطة الشديدة والتعلق بالشئ، كما تستعمل هذه المفردة في الحيوان المفترس الذي يمسك فريسته بأسنانه ويمتص دماؤها، أو أن يفترسها بمخالبه. وقد شبهت العبارة الموت بهذا الحيوان.
- [٦٣٧] (٢) «مخالب» جمع «مخلب» على وزن محور ومادته «خلب».
- [٦٣٨] (٣) «دهمتكم» من مادة «دهم» على وزن فهم بمعنى الغشاوة، وتستعمل هذه المفردة حين غلبه شئ على آخروإحاطته به، هذا هو المراد بها في العبارة، كما تستعمل في الظلمة التي تحيط بالأشياء، كما تطلق على الأخضر الفاتح، من قبيل مدهامتان التي وردت في سورة الرحمن.
- [٦٣٩] (٤) «مفطعات» من مادة «فطع» على وزن جزع بمعنى الاخافة ومفطعات الأمر شدته، وتطلق على الحوادث العظيمة التي تخيف الإنسان.
- [٦٤٠] (١) سورة الانعام / ١٣٢.
- [٦٤١] (٢) سورة الانعام / ٨٣.
- [٦٤٢] (٣) سورة الواقعة / ١٠ - ١٢.
- [٦٤٣] (١) سورة الواقعة / ٢٧.
- [٦٤٤] (٢) سورة الواقعة / ٨٨ - ٩١.
- [٦٤٥] (٣) انظر نفحات القرآن ٦/ ٣٤٥ «مقامات الجنة».
- [٦٤٦] (٤) بحار الأنوار ٨/ ٨٩.
- [٦٤٧] (٥) منهاج البراعة ٦/ ١١٩.
- [٦٤٨] (٦) سورة طه / ٧٥.

- [٦٤٩] (٧) بحار الأنوار ٨ / ١٣٣.
- [٦٥٠] (٨) « يظعن » من مادة « ظعن » على وزن ظعن بمعنى السفر.
- [٦٥١] (٩) « يباس » من مادة « بأس » بمعنى الفقر وشدة الحاجة.
- [٦٥٢] (١) سند الخطبة: رويت هذه الخطبة متفرقة في الكتب الآتية وكلها سابق نهج البلاغة لأن كل واحد من مؤلفيها أخذ غرضه منها: الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري وتحف العقول لابن شعبة الحراني والمحاسن للبرقي، ما رويت فقرات منها في المجالس للمفيد والمشكاة للطبرسي والغرر للآمدي (مصادر نهج البلاغة ٢ / ١٢٧).
- [٦٥٣] (٢) ورد في نسخ نهج البلاغة لصبحي الصالح التي اقتبست منها متون هذا الكتاب وهي النسخة الصحيحة نسيباً، ان عنوان الخطبة هو عظة الناس بالتقوى والمشورة، ويبدو أنه هو الذي ذكر لها هذا العنوان، في حين لم يرد في الخطبة شيئاً بشأن المشورة، فلا يستبعد أن يكون الأمر قد اشتبه عليه حيث خلطها باحدى سائر خطب نهج البلاغة.
- [٦٥٤] (١) نهج البلاغة، الرسالة ٣١.
- [٦٥٥] (١) « مهل » على وزن اجل بمعنى المداراة والمهلة.
- [٦٥٦] (٢) « إرهاق » من مادة « رَهَقَ » على وزن شفق بمعنى الغشية والتغطية والسيطرة، ومن هنا فان الأجل اذا جاء للانسان فانه يسيطر على كافة وجوده، وقد استفيد من هذا التعبير في الخطبة أعلاه بمعنى الأجل.
- [٦٥٧] (٣) « متنفس » من مادة « تنفس » زمان الاتساع والراحة.
- [٦٥٨] (٤) « كَظَمَ » على وزن قلم بمعنى المضيق ومجرى التنفس.
- و « كَظَمَ » على وزن هضم، وله معنى مصدرى بمعنى حبس النفس، ويستعمل كناية عن ضبط النفس عند الغضب، وما شابه ذلك.
- [٦٥٩] (١) يعود الضمير في كتابه وحقوقه إلى الله، ولا يتناسب ارجاع الضمير في حقوقه إلى كتابه وسياق الكلام.
- [٦٦٠] (٢) « سُدى » على وزن شما بمعنى المهمل والذي لا هدف ولا معنى له، وقد استفيد من هذا الاصطلاح هنا للتعبير عن البعير الذي لا راعي له، وقد هام في الصحراء على وجهه، فيرعى من كل مكان يصل اليه.
- [٦٦١] (٣) سورة المؤمنون / ١١٥.
- [٦٦٢] (٤) سورة الانعام / ١٠٤.
- [٦٦٣] (٥) سورة الاعراف / ٣٤.
- [٦٦٤] (١) « أنهى » من مادة « إنهاء » الاعلام والابلاغ وهذا هو المراد بها في العبارة؛ أى أن الله ابلاغكم ما يلزم على لسان نبيه.
- [٦٦٥] (٢) « محاب » جمع « محب » اسم مكان مصدر ميمي مواضع حبه وتقابل المكاره.
- [٦٦٦] (٣) سورة الانعام / ١٤٩.
- [٦٦٧] (١) قال علي عليه السلام: « وعليكم بالصبر فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ». نهج البلاغة، الكلمات القصار ٨٢.
- [٦٦٨] (١) وسائل الشيعة ١٨ / ١١٨ ح ٢٢ الباب ١٢ من أبواب صفات القاضي.
- [٦٦٩] (٢) سورة الانعام / ١٥٢.
- [٦٧٠] (٣) سورة الاسراء / ٣٢.
- [٦٧١] (٤) سورة الانعام / ١٥١.
- [٦٧٢] (٥) « تدهنوا » من مادة « مدهنة » وقد اشتقت من مادة « دهن » التي تعنى المرونة المذمومة والنفاق والمماشاة، كما تعنى إظهار خلاف ما فى الطوية.
- [٦٧٣] (١) غرر الحكم، ح ٩٠٢٢.

- [٦٧٤] (١) لا بد من الالتفات هنا إلى أنصح» من مادة» نصح» تعنى فى الأصل الاخلاص، وهذا هو مفهوم النصيحة.
- [٦٧٥] (٢) «أغش» من مادة» غش» تعنى فى الأصل الضعف والعجز، ومن هنا يصطلح بالمغوش على الشئ غير الخالص.
- [٦٧٦] (١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٢ / ٢٨٥.
- [٦٧٧] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٦ / ٣٦٥، المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار ٢١ / ٢١١ حيث أوردتها فى تاريخ النبى صلى الله عليه و آله فى باب حوادث غزوة تبوك ضمن خطبة صلى الله عليه و آله.
- [٦٧٨] (١) سورة آل عمران / ٢٦.
- [٦٧٩] (٢) وسائل الشيعة، ج ١، الباب ١١ من ابواب مقدمات العبادة، ح ١٦.
- [٦٨٠] (١) وسائل الشيعة، ١ / ١١، ح ٤.
- [٦٨١] (٢) «منساء» من مادة» نسا» على وزن نصب بمعنى الترك والتأخير.
- [٦٨٢] (٣) «محضرة» اسم مكان من مادة» حضور» الموضع الذى يحضره الإنسان أو الشئ.
- [٦٨٣] (٤) شرح نهج البلاغة للخوئى ٦ / ١٣٦.
- [٦٨٤] (٥) فى ظلال نهج البلاغة ١ / ٤٢٧.
- [٦٨٥] (٦) «شفا» بمعنى حافة الشئ، وتطلق فى الأصل على حافة البئر أو الخندق، ولعل ذلك هو السبب فى تسمية الشفة.
- [٦٨٦] (٧) «مهواة» من مادة» هوى» لميل الى الشئ، ومهواة اسم مكان المسافة بين جبلين التى شوق الانسان احيانا الى السقوط.
- [٦٨٧] (١) سند الخطبة: من الأدلة التى تفيد أن الخطبة نقلت من مصادر اخرى غير نهج البلاغة ما قاله ابن ابى الحديد بعد أن أكمل شرح هذه الخطبة: وهذه خطبة طويلة وقد حذف الرضى (ره) منها كثيرا (ثم نقل أبى الحديد بعض أقسامها)، ورواها الزمخشري فى باب العز والشرف من ربيع الابرار بتفاوت يسير نعرف منه أنه لم ينقلها عن النهج (مصادر نهج البلاغة ٢ / ١٣٣).
- [٦٨٨] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٦ / ٣٦٥.
- [٦٨٩] (١) سورة النور / ٢١.
- [٦٩٠] (٢) «قرى» مصدر واسم مصدر ما يهيا للضيف، والمراد به هنا العمل الصالح يهيئه للقاء الموت وحلول الأجل، ومنه «المقراء» التى تطلق على الظرف الكبير الذى يوضع فيه الطعام.
- [٦٩١] (٣) سورة البقرة / ٢٨٢.
- [٦٩٢] (١) سورة آل عمران / ١٦٩.
- [٦٩٣] (٢) «ارتوى» من مادة» رى» على وزن طى شرب الماء.
- [٦٩٤] (٣) «فرات»، الماء العذب.
- [٦٩٥] (٤) «نهل» بمعنى السقى أو الشراب الأول، ومن عادة العرب، أخذ الابل إلى مكان شرب الماء، وعندما تشرب وترتوى ترجع إلى مكانها، فيقال لها نهلت الابل أو إبل نواهل. وفى المرة الثانية تُعرض على الماء فعندما تشرب، فتسمى الطل، وبعد ذلك تذهب الابل للرعى فى المرعى فاصطلاح «النهل» يستعمل عندما تشرب الابل الشربة الاولى، وهذا الاصطلاح يستعمل دائما فى الشرب الاول.
- [٦٩٦] (٥) «الجدد» من جد، الأرض الغليظة الصلبة المستوية.
- [٦٩٧] (٦) سورة الرعد / ٢٨.
- [٦٩٨] (١) «غمار» من مادة» غمر» على وزن أمر بمعنى التغطية، ولما كانت المياه الكثيرة تغطى الأرض، اطلق عليه الغمار.
- [٦٩٩] (٢) «عرى» جمع عروه المقبض.
- [٧٠٠] (١) بحار الأنوار ٤٠ / ١٥٢.

- [٧٠١] (٢) كئز العمال ٣ / ٤٨٣، ح ٧٣٣٤.
- [٧٠٢] (٣) بحار الأنوار ٤٠ / ١٥٣.
- [٧٠٣] (٤) غرر الحكم، ح ٣٩١.
- [٧٠٤] (١) اصول للكافي ٢ / ٧٤ ح ٢.
- [٧٠٥] (٢) «عشوات» جمع «عشوة» ما يقدم عليه الإنسان من عمل جهلا، ومن الواضح أن نتيجة مثل هذا العمل هي الندامة، وكشاف عشوات من يطرح حجب الجهل وينجي أهل الضلالة.
- [٧٠٦] (٣) «فلوات» جمع «فلاة» وهي الصحراء الواسعة، مجاز عن مجالات العقول في الوصول إلى الحقائق، ودليل الفلوات العالم بها.
- [٧٠٧] (١) بحار الأنوار ٦٩ / ٩٣.
- [٧٠٨] (٢) سورة النبأ / ٦ - ٧.
- [٧٠٩] (١) «ثقل» على وزن أجل، وله معان مختلفة، ففي بعض الأحيان يأتي بمعنى أمتع المسافر وحيانا بمعنى الأشياء الثمينة. و«حل» بمعنى نزل في منزل جديد وحل الرحال فيه، والجملة الواردة اعلاه، كناية عن أن المؤمن المخلص والسائر على هدى القرآن الكريم، فان حاله كحال المسافر الذي سار وراء قافلة كلما نزلت القافلة في مكان وحلت رحالها، فانه يتبع هذه القافلة فينزل معها ويحل رحاله معها.
- [٧١٠] (١) سورة النساء / ١٥٠.
- [٧١١] (١) «اشراك» جمع «شرك» بمعنى اشباك الصياد.
- [٧١٢] (٢) الكنى والألقاب ١ / ٢٩٤.
- [٧١٣] (٣) عوالي اللئالي ٤ / ١٠٤.
- [٧١٤] (٤) بحار الأنوار ٨٩ / ١٠٧، ح ١.
- [٧١٥] (١) تفسير البرهان ١ / ١٩.
- [٧١٦] (٢) الكافي ١ / ٦٨.
- [٧١٧] (٣) «اضطجع» من مادة «ضجع» على وزن زجر بمعنى نام ووضع جنبه على الارض.
- [٧١٨] (١) سورة النمل / ٨٠.
- [٧١٩] (٢) سورة الاعراف / ١٧٩.
- [٧٢٠] (١) الكافي ١ / ٤٤، باب استعمال العلم، ح ١.
- [٧٢١] (٢) علل الشرايع / ٣٩٤.
- [٧٢٢] (٣) منهاج البراعة ٦ / ١٨٥.
- [٧٢٣] (١) تفسير البرهان ١ / ١٩.
- [٧٢٤] (٢) وسائل الشيعة ١٨ / ١٤٩، ح ٦٦ الباب ١٣، أبواب صفات القاضي.
- [٧٢٥] (١) سورة الفتح / ١٠.
- [٧٢٦] (١) كئز العمال ١ / ٢١٨، ح ١٠٩٥.
- [٧٢٧] (٢) بحار الأنوار ٤٧ / ٢١٧، ح ٤.
- [٧٢٨] (٣) سفينة البحار، مادة «بدع» بحار الأنوار ٦٩ / ٢٢٠.
- [٧٢٩] (١) «توفكون» من مادة «إفك» على وزن فكر، الانحراف والميل، ومن هنا يطلق الافك على الكذب والتهمة.

[٧٣٠] (١) «يتاه» من مادة «تبه» على وزن شئ الضلال والحيرة.

[٧٣١] (٢) «تعمهون» من مادة «عمه» على وزن فرح الحيرة والتخبط، وقيل: أن العمى فى العربية عمى العين الظاهرة والعمه العين الباطنة.

[٧٣٢] (٣) نقل هذا الحديث العلامة الأمينى باسانيد مختلفة من مصادر العامة (الغدير ٣/ ١٧٦).

[٧٣٣] (٤) «هيم» جمع «أهيم» الابل العطشى وكذلك يقال للرمال تبتلع الماء، وأحياناً يستعمل هذا الاصطلاح للتعبير عن العطش.

[٧٣٤] (٥) سورة المائدة/ ٥٥.

[٧٣٥] (٦) سورة المائدة/ ٧٦.

[٧٣٦] (٧) سورة الشورى/ ٢٣.

[٧٣٧] (١) للوقوف بصورة أعمق على هذه الآيات واقوال مفسرى الشيعة والسنة راجع كتاب رسالة القرآن، ج ٩.

[٧٣٨] (٢) تفسير الفخر الرازى ٢٧/ ١٦٥، الآية ٣٣ من سورة الشورى.

[٧٣٩] (٣) اصول الكافى ٢/ ٦٠٠، ح ٤.

[٧٤٠] (١) سورة آل عمران/ ١٦٩.

[٧٤١] (٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار ١٤٧، «من حسن المصادفات انه كتب هذا القسم من الخطبة فى الذكرى الحادية عشرة لرحيل الإمام الخمينى (ره)».

[٧٤٢] (٣) بحار الأنوار ٦٧/ ٢٩٥.

[٧٤٣] (١) نهج البلاغة، الكلمات القصار ٣٢١.

[٧٤٤] (٢) ينابيع المودة طبقاً لنقل إحقاق الحق ٩/ ٣٥٤، وقد نقل هذا الحديث فى عدة مصادر أخرى من المصادر المعروفة للعلماء، وللوقوف أكثر راجع ٥/ ٦٣٩، من إحقاق الحق.

[٧٤٥] (٣) نهج البلاغة، خطبة ٢٠٧.

[٧٤٦] (٤) الغارات، سيرة على عليه السلام فى نفسه.

[٧٤٧] (٥) المصدر السابق.

[٧٤٨] (١) نهج البلاغة، الخطبة ١٥.

[٧٤٩] (١) «معقولة» من مادة «عقال» الحبل الذى تربط به رجل الناقة بعد الانحاء لكى لا يستطيع القيام فتبقى فى مكانها، ثم اطلقت كناية على الامور المستقرة.

[٧٥٠] (٢) «در» تعنى فى الأصل ترشح اللبن من الثدي، ثم اطلقت على سائر السوائل كالمطر وأمثاله، كما اطلقت كناية على مختلف النعم المادية.

[٧٥١] (١) «مَجَّة» من مادة «مج» على وزن حج، وفى الاصل تعنى قذف الماء أو اللعاب من الضم بعيداً أو قريباً. ويقال لعصير العنب وما يشابهه «مجاج»، على وزن عُقاب، وأيضاً يقال للعسل «مجاج النحل».

وهنا جاء هذا الاصطلاح تعبيراً عن النصر والنجاح والموقية التى يحصل عليها الانسان ثم يفقدها بسرعة.

[٧٥٢] (١) الاربعة عشر هم:

١- معاوية ٤٠-٦١ هـ ق

٢- يزيد بن معاوية ٦١-٦٤

٣- معاوية بن يزيد ٦٤- اربعين يوماً أو شهرين

- ٤- مروان بن الحكم تسعة أشهر من عام ٦٥
- ٥- عبدالملك بن مروان ٦٥-٨٦
- ٦- الوليد بن عبدالملك ٨٦-٩٦
- ٧- سليمان بن عبدالملك ٩٦-٩٩
- ٨- عمر بن عبدالملك ٩٩-١٠١
- ٩- يزيد بن عبدالملك ١٠١-١٠٥
- ١٠- هشام بن عبدالملك ١٠٥-١٢٥
- ١١- الوليد بن يزيد ١٢٥-١٢٦
- ١٢- يزيد بن الوليد شهرين وعشرة أيام من عام ١٢٦
- ١٣- ابراهيم بن الوليد سبعين يوماً من عام ١٢٦
- ١٤- مروان بن محمد المعروف بمروان الحمار ١٢٦-١٣٢
- [٧٥٣] (٢) البداية والنهاية ٨ / ٢٤.
- [٧٥٤] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ / ١٣٢-١٣٤.
- [٧٥٥] (٢) المصدر السابق / ١٣٥.
- [٧٥٦] (٣) المصدر السابق / ١٤٤.
- [٧٥٧] (٤) المصدر السابق / ١٦٧.
- [٧٥٨] (٥) البداية والنهاية ٩ / ١٧.
- [٧٥٩] (١) البداية والنهاية ٨ / ٥٤.
- [٧٦٠] (٢) تاريخ يعقوبى ٢ / ٢٤٥.
- [٧٦١] (٣) تاريخ يعقوبى ٢ / ٢٤٧.
- [٧٦٢] (٤) تتمه المنتهى / ٥٨.
- [٧٦٣] (٥) البداية والنهاية ٨ / ٢٧٦.
- [٧٦٤] (٦) تاريخ يعقوبى ٢ / ٢٥٩.
- [٧٦٥] (٧) البداية والنهاية ٢ / ٢٥٩.
- [٧٦٦] (٨) تاريخ يعقوبى ٢ / ٢٧٧.
- [٧٦٧] (١) البداية والنهاية ٩ / ٢٤٦.
- [٧٦٨] (٢) تاريخ يعقوبى ٢ / ٣١٩.
- [٧٦٩] (٣) تتمه المنتهى / ١٢٤-١٢٧.
- [٧٧٠] (٤) البداية والنهاية ١٠ / ٧.
- [٧٧١] (٥) تاريخ يعقوبى ٢ / ٣٣٨.
- [٧٧٢] (٦) تاريخ يعقوبى ٢ / ٣٣٩.
- [٧٧٣] (٧) البداية والنهاية ١٠ / ٣٢.

[٧٧٤] (١) سند الخطبة: نقل هذه الخطبة بفارق قليل المرحوم الكليني في كتاب روضة الكافي والشيخ المفيد في الإرشاد، كما نقلها

ابن كثير فى كتاب النهاية فى ١/ ٤٦ عن كتاب اللغة مادة «أزل».

[٧٧٥] (١) «يقصم» من مادة «قصم» على وزن غضب تعنى فى الأصل الكسر بشدة وتستعمل كناية بمعنى الهلاك.

[٧٧٦] (٢) «يجبر» من مادة «جبر» تعنى فى الأصل إصلاح الشئ، وجبر العظم طيبه بعد الكسر حتى يعود صحيحاً، كما تطلق على كل قهر وغلبة ولما كان القهر والغلبة ممزوج بالظلم عادة فقد يستعمل الجبار بمعنى الظالم، وأحد أسماء الله الحسنى جابر العظم الكسير.

[٧٧٧] (٣) «الأزل» بفتح الهمزة وسكون الزاى الضيق والشدة ومادتها الأصلية أزل على وزن فضل بمعنى الحبس.

[٧٧٨] (١) «عتب» على وزن حتم تعنى الامتعاظ الباطنى اريد به هنا عتب الزمان، وعتب عليه إذا وجد عليه.

[٧٧٩] (٢) سورة الأحزاب / ١٠ - ١١.

[٧٨٠] (٣) سورة الأعراف / ١٢٩.

[٧٨١] (١) نهج البلاغة، الرسالة ٤٧.

[٧٨٢] (٢) بحار الأنوار ١٣ / ١٢٩.

[٧٨٣] (٣) سورة آل عمران / ١٧٨.

[٧٨٤] (١) «يعفون» من مادة «عفاف» على وزن ثواب، وفى الاصل تأتى بمعنى الامتناع عن الاعمال الشائنة والقيحة، ويقال للشخص الذى يجتنب الاعمال القبيحة «العفيف»، وقد جرى العرف على اطلاق هذا الاصطلاح على الذين يجتنبون القيام بالاعمال الجنسية الغير شرعية.

[٧٨٥] (١) راجع ذيل الخطبة ٣٨ فى المجلد الثانى من هذا الشرح بخصوص الشبهة ومعناها وتأثيرها فى تحريف الحقائق. (٢ / ٤٠٥)

[٧٨٦] (١) سورة العنكبوت / ٤١.

[٧٨٧] (١) سورة الكهف / ١٠٣ - ١٠٤.

[٧٨٨] (١) سند الخطبة: ورود هذه الخطبة أو بعضها فى كلمات جمع من العلماء ممن عاشوا قبل السيد الرضى (ره)، فقد جاءت فى تفسير على بن إبراهيم الذى عاش لقرن قبل السيد الرضى، ورواها الكلينى فى أصول الكافى (١ / ٦٠)، وقد ذكر ابن أبى الحديد فى شرحه اختلاف الروايات فى بعض ألفاظ الخطبة مما يدل على أنها نقلت فى مصادر اخرى غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة ٢ / ١٣٨).

[٧٨٩] (١) «فترة» تعنى فى الأصل الهدوء والسكنية، كما تعنى الضعف، كما تطلق على الزمان بين حركتين أو حدثين، ومن هنا يصطلح بالفترة على الزمان الفاصل بين ظهور الأنبياء.

[٧٩٠] (٢) ذكر البعض أن الفترة بين ولادة السيد المسيح عليه السلام هجرة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله استغرقت ٦٢١ سنة و ١٩٥ يوماً (تفسير ابوالفتوح الرازى ٤ / ١٥٤، هوامش المرحوم العلامة العشرانى) كما قيل أن النبى صلى الله عليه وآله ولد عام ٥٧٠ م وبعث عام ٦١٠ م (بينات خالدة ١ / ١٢١).

[٧٩١] (١) «هجة» من مادة «هجو» نوم الليل شبه به وضع الأقوام الجاهلية بالنسبة للهداية لعمقه.

[٧٩٢] (٢) «اعتزام» من مادة «عزم» العزم والقرار وهو هنا فاعل فتنه.

[٧٩٣] (٣) «تلظ» من مادة «لظى» بمعنى لهب النار، و«تلظى» بمعنى النار المشتعلة.

[٧٩٤] (٤) «كاسفة» من مادة «كسوف» ومنه الكسوف والخسوف الذى تتعرض له الشمس والقمر) وهى هنا كناية عن إنطفاء أنوار الهداية فى العصر الجاهلى.

[٧٩٥] (١) «إياس» على وزن قياس عدم الأصل.

[٧٩٦] (٢) «اغورار» من مادة «غور» الغوص فى الأرض، وعادة ما يطلق على الماء داخل الأرض وهو هنا كناية عن انقطاع الهداية.

- [٧٩٧] (٣) سورة الاسراء / ٣١.
- [٧٩٨] (٤) «درست» من مادة «دروس» زوال الاثار وانعدامها.
- [٧٩٩] (٥) «متجهمة» من مادة «جهم» على وزن فهم العنف والغلظة، ويقال متجهم لمن يستقبل الآخرين وينظر إليهم بوجه كريه.
- [٨٠٠] (٦) «عابسة» من مادة «عبوس» على وزن مجوس كناية عن الاسى الشديد للناس فى العصر الجاهلى.
- [٨٠١] (٧) «جيفة» من مادة «جوف»، وتطلق عادة على الميت الذى يفسد جوفه فتهب منه ريح ننته.
- [٨٠٢] (١) سورة المائدة / ٣.
- [٨٠٣] (١) سورة الاحزاب / ٧٢.
- [٨٠٤] (٢) «أحقاب» جمع «حقب» على وزن عنق قيل ثمانون سنه وقيل أكثر وقيل هو الدهر.
- [٨٠٥] (٣) سورة البقرة / ٨٠.
- [٨٠٦] (٤) من الواضح أن الضمائر هنا لاينبغى أن تكون بصيغة المخاطب (كم) بل لابد أن تكون بصيغة الغائب (هم) لأنها إشارة إلى من عاش فى عصر النبي صلى الله عليه وآله. ويبدو أن الاشتباه من النسخ، ولذلك قبله الشراح بهذا الشكل.
- [٨٠٧] (١) «جائل» من مادة «جولان»، وفى الاصل بمعنى زوال الشىء من مكانه، لذا يقال للحيوان الذى يتحرر من مكانه الموجود فيه بحيث يستطيع أن يذهب إلى أى مكان، يقال له «جائل».
- [٨٠٨] (٢) «خطام» ما جعل فى أنف البعير لينقاد به وجولان الخطام، حركته وعدم إستقراره، لأنه غير مشدود.
- [٨٠٩] (٣) «بطان» البعير حزام يجعل تحت بطنه، ومتى استرخى كان الراكب على خطر السقوط.
- [٨١٠] (١) «سند الخطبة»: جاء فى مصادر نهج البلاغة أنه رواها على بن محمد الواسطى فى عيون الحكم والمواعظ، وورد ذيلها فى غررالحكم مما يدل عد انها نقلت من مصدر آخر غير نهج البلاغة، ونقلها ابن أثير فى النهاية (مصادر نهج البلاغة ٢ / ١٤١).
- [٨١١] (١) «روية» من مادة «رى» على وزن حى الفكر وإمعان النظر إذا وردت من باب التفعيل، ولما كان الإنسان يأخذ بنظر الاعتبار سوابق كل الأشياء والأعمال حين التفكير فإن هذه المفردة تطلق كناية على الامور التى لاسابقة لها.
- [٨١٢] (١) «ارتاج» مصدر باب إفعال من مادة «رتج» على وزن خرج بمعنى الاغلاق وإذا جاء من باب الأفعال عنى الغلق المحكم.
- [٨١٣] (٢) «داج» اسم فاعل من مادة «دجو» على وزن هجو بمعنى المظلم.
- [٨١٤] (٣) «ساج» اسم فاعل من مادة «سجو» الساكن.
- [٨١٥] (٤) «فجاج» جمع «فجع» الطريق الواسع بين جبلين.
- [٨١٦] (٥) وسائل الشيعة ٤ / ٧٢٣ ح ٧ من الباب السابع، أبواب تكبيره الإحرام.
- [٨١٧] (٦) راجع بحار الأنوار ٤٦ / ٥٥.
- [٨١٨] (١) «دائبان» مثنى دائب» من مادة «دأب» و«دؤوب» على وزن قلب وقلوب بمعنى الاستمرار على عمل معين وفق عادة وسنة ثابتة.
- وعلى هذا الاساس، يطلق على الشخص أو الشىء الذى يقوم بعمل أو برنامج معين بصورة مستمرة ودائمة وعلى حالة وسنة معينة بالدائب.
- [٨١٩] (٢) سورة نوح / ١٩ - ٢٠.
- [٨٢٠] (٣) سورة النبأ / ٦.
- [٨٢١] (٤) سورة ابراهيم / ٣٣.
- [٨٢٢] (١) نهج البلاغة، الرسالة ٣١.

- [٨٢٣] (١) سورة يس / ١٢.
- [٨٢٤] (٢) سورة غافر / ١٩.
- [٨٢٥] (٣) سورة هود / ٦.
- [٨٢٦] (١) «عاز» من مادة «معازه» اصلها عزة بمعنى الغلبة والعزيم من يغلب أعدائه، وقد اريد بها هنا من رام مشاركة الله في شئ من عزته.
- [٨٢٧] (٢) «دمر» من مادة «تدمير» واصلها الدمار بمعنى الهلاك.
- [٨٢٨] (٣) «شاق» من مادة «مشاقه» العدا والمراء بها هنا المنازعة.
- [٨٢٩] (٤) «ناواه» خالفه من «نوء» على وزن نوع وتعنى القيام مع المشقة وريد بها هنا من يقف بوجه الارادة الإلهية فتذله.
- [٨٣٠] (١) سورة النازعات / ٢٤ - ٢٥.
- [٨٣١] (٢) سورة الطلاق / ٣.
- [٨٣٢] (٣) سورة البقرة / ٢٤٥.
- [٨٣٣] (٤) سورة إبراهيم / ٧.
- [٨٣٤] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٦ / ٣٩٦.
- [٨٣٥] (٢) سورة الاعراف / ٨.
- [٨٣٦] (٣) سورة غافر / ٢٧.
- [٨٣٧] (١) «خناق» على وزن نفاق بمعنى العنق، ويقال للجلبل أو ما يشابهه والذي يُشد على العنق من أجل خنق الشيء «الخنَّاق».
- [٨٣٨] (٢) سورة المنافقون / ١٠.
- [٨٣٩] (٣) «سياق» من مادة «سوق» إشارة إلى الموت الذى يسوق الإنسان من هذه الدنيا إلى الآخرة.
- [٨٤٠] (٤) سورة المؤمنون / ٩٩ - ١٠٠.
- [٨٤١] (١) ميزان الحكمة / ١ ح ٣٨٤٥ (مادة حساب).
- [٨٤٢] (٢) المصدر السابق، ح ٣٨٤١.
- [٨٤٣] (٣) بحار الأنوار / ٧٤ / ٨٦.

الجزء الرابع

الخطبة [١] الحادية و التسعون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
تعرف بخطبة الأشباح وهي من جلائل خطبه عليه السلام
روى عن مسعدة بن صدقة عن الصادق، جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الخطبة على منبر الكوفة، وذلك أن رجلاً أتاه فقال له: يا أمير المؤمنين صف لنا ربنا مثلما نراه عياناً لتزداد له حباً وبه معرفه، فغضب ونادى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس حتى غص المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضب متغير اللون، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله ثم قال ...

نظرة إلى الخطبة

هذه من الخطب القيمة التي تفيض رقة وفصاحة وبلاغة وعدوبة، وهي شهادة اخرى على

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٦

عظمة أمير المؤمنين على عليه السلام وإرتباطه بالعالم القدسي وانفتاحه على خزائن العلم الإلهي.

قال ابن أبي الحديد في تعليقه على هذه الخطبة

: «إذا جاء هذا الكلام الرباني، واللفظ القدسي، بطلت فصاحة العرب، وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه، نسبة التراب إلى النضار الخالص؛ ولو فرضنا أن العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبة، أو المقاربة لهذه الألفاظ، من أين لهم المادة التي عبرت هذه الألفاظ عنها؟ ومن أين تعرف الجاهلية بل الصحابة المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وآله هذه المعاني الغامضة السمائية؛ ليتيها لها التعبير عنها أمّا الجاهلية فإنهم إنّما كانت تظهر فصاحتهم في صفة بعير أو فرس أو حمار وحش، أو ثور فلاة، أو صفة جبال أو فلوات؛ ونحو ذلك. وأمّا الصحابة فالمذكورون منهم بفصاحة إنّما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة، إمّا في موعظة تتضمن ذكر الموت أو ذم الدنيا، أو ما يتعلق بحرب وقتال؛ من ترغيب أو ترهيب...».

ثم أضاف ابن أبي الحديد بعد أن أشاد بالخطبة قائلاً

: «وأقسم أنّ هذا الكلام إذا تأمله اللبيب اقشعر جلده، ورجف قلبه، واستشعر عظمة الله العظيم في روعه وخلده، وهام نحوه وغلب الوجد عليه وكاد أن يخرج من مسكه شوقاً؛ وأن يفارق هيكله صباةً ووجداً» [٢].

على كل حال فإن هذه الخطبة تشتمل على عدّة أقسام، يكمل كل واحد منها الآخر. وهي على عشرة أقسام:

القسم الأول: في جانب من صفات الله سبحانه وتعالى من أجل إعداد الأفكار لتقبل ما يرد عليها من حقائق.

القسم الثاني: يتضمن إجابة عن سؤال السائل عن صفات الله و يجعل القرآن ميزاناً في دائرة أسماء الله و صفاته، و يوصيه بالتمسك بآياته سيّما في هذا البحث.

القسم الثالث: الإشارة إلى عجز الإنسان عن الاحاطة العلمية بكنه الذات و الصفات

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٧

الإلهية المقدسة وما تنطوي عليه من صفات.

القسم الرابع: بحث القدرة الإلهية في تدبير عالم الخلق- الذي يمثل المرآة التي تعكس صفاته سبحانه-.

القسم الخامس: الحديث عن خلق السموات العلى والتي تمثل جانباً من عظمة الباري سبحانه.

القسم السادس: الحديث عن خلق الملائكة و صفاتهم و خصائصهم.

القسم السابع: لفت انتباه الناس إلى العالم العلوي؛ إلى جانب الحديث عن خلق الأرض.

القسم الثامن: خلق آدم عليه السلام وبعث الأنبياء وارسال الرسل.

القسم التاسع: يتحدث عن علم الله سبحانه بالغيب واحاطته بكافة أسرار وجود الإنسان وخفاياه و ما يضمه من أعمال و أفكار و نيات.

والقسم العاشر: والأخير حيث يختتم الإمام عليه السلام خطبته العميقة المضامين بأدعية روحية عظيمة، لتشكّل الخطبة بكافة أقسامها

لوحة روحية سامية تلطف روح الإنسان وتأخذ بيده إلى السير نحو الله واصلاح فكره وأعماله [٣].

وأما سبب تسمية هذه الخطبة بالاشباح فهناك اختلاف بين الشّراح بهذا الخصوص. فقد ذهب البعض إلى أنّ

«الاشباح»

كناية عن الملائكة، حيث تضمنت الخطبة جانباً مهماً في الحديث عنها ومن هنا سميت هذه الخطبة بالاشباح.

كما رأى البعض الآخر أنّ مفردة الأشباح ذكرت في الخطبة، وحيث اعتاد السيد الرضى (ره) على اختيار قطوف من الخطبة، فقد اسقط تلك العبارة والتي احتمال البعض أنّها وردت بهذا الشكل في الخطبة «وكيف يوصف بالأشباح وينعت بالألسن الفصاح».

وهي العبارة التي أوردها المرحوم الشيخ الصدوق في كتاب التوحيد ضمن خطبة قسما من خطبة الاشباح [٤].

الاحتمال الآخر في سبب هذه التسمية هو أنّ الخطبة طويلة، وأحد معانى الشبح هو الطول

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٨

والامتداد. حيث أورد ابن فارس في مقاييس اللغة في تفسير

«الشبح»

قائلاً:

«أصل صحيح يدل على إمتداد الشى فى عرض، من ذلك الشبح»

وهو الشخص سمي بذلك، لأنه فيه إمتداد أو عرضاً [٥].

وهنا يبرز هذا السؤال: ورد في مقدمة الخطبة أنّ رجلاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام صف لنا مثلما نراه عياناً لتزداد له حباً وبه

معرفة. فغضب ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر وخطب بهذه الخطبة. والسؤال مم كان غضب الإمام عليه السلام؟

يبدو أنّ هناك بعض النقاط التي ينبغي الالتفات إليها لتتضح الإجابة على هذا السؤال ومنها: صيغة السؤال تفيد أنّ السائل كان يتوقع

للّه صفات على غرار صفات مخلوقاته، حيث عبر عن ذلك بالرؤية

«مثلما نراه عياناً»

؛ الأمر الذي يكشف عن عقيدة المجسمة الذين كانوا يرون الله جسماً.

أمّا النقطة الثانية فلعل غضبه عليه السلام كان لهذا السبب وهو: لم لا يزال بعض المسلمين لا يملكون الرؤية الواضحة عن صفات الله

سبحانه رغم تقادم الزمان على انبثاق الدعوة الإسلامية وسعة المعارف والعلوم والخزين الدينى.

أو تأسفاً على تلك الحادثة التي أقصت الإمام عليه السلام عن الساحة وجعلته رهين الدار مدة خمس وعشرين سنة ليحول دونه ودون

تعليم أبناء الأمة الإسلامية وتعريفهم بالمفاهيم الإسلامية الحقّة والمعارف الدينيّة.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٩

القسم الأول: جوده لا ينضب

إشارة

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَفْرُهُ الْمَنَعُ وَالْجُمُودُ وَلَا يُكْدِيهِ الْإِغْطَاءُ وَالْجُودُ إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ وَكُلُّ مَانِعٍ مَيْدُ مُؤَمٍّ مَا خَلَاهُ وَهُوَ الْمَنَانُ بِفَوَائِدِ النَّعْمِ وَعَوَائِدِ الْمَزِيدِ وَالْقَسَمِ عِيَالَهُ الْخَلَائِقُ ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ وَنَهَجَ سَبِيلَ الرَّاعِيْنَ إِلَيْهِ وَالطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلِ الْأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلَ فَيَكُونُ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَالْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ بَعْدُ فَيَكُونُ شَيْءٌ بَعْدَهُ وَالرَّادِعُ أَنَا سَيِّ الْأَبْصَارِ عَنِ أَنْ تَسْأَلَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيُخْتَلَفُ مِنْهُ الْحَالُ وَلَا كَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِنْتِقَالُ وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ مِنْ فِلْزِ اللَّجَيْنِ وَالْعَقِيَانِ وَنَثَارَةُ الدُّرِّ وَحَصِيدِ الْمَرْجَانِ مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ وَلَا أَنْفَدَ سَعَةَ مَا عِنْدَهُ وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ الْأَنْعَامِ مَا لَا تُنْفَدُهُ مَطَالِبُ الْأَنْعَامِ لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَغِيضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ وَلَا يُبْخِلُهُ إِحْسَابُ الْمُلْحِقِينَ».

الشرح والتفسير

أنّ الدافع إيراد من هذه الخطبة كما ورد في مقدمتها هو أنّ شخصاً سأل الإمام عليه السلام قائلاً:
 صف لنا ربنا مثلما نراه عياناً؛ الكلام الذي تشم منه رائحة القول بالتجسم على الله، أو على الأقل الاشتغال على صفات الممكنات.
 فغضب الإمام عليه السلام غضباً شديداً و تغير وجهه وأورد هذه الكلمات من أجل تهذيب هذه العقائد الفاسدة والأفكار المنحرفة
 وهدايتها إلى الصراط المستقيم من خلال استعراض صفاته الحق سبحانه ولذلك فقد استهل عليه السلام الخطبة بأدق
 نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٠

صفاته سبحانه التي تشير إلى مباينتها لصفات كافة مخلوقاته. فقد قال عليه السلام بادي ذي بدء:
 «الحمد لله الذي لا يفره [٦] المنع والجمود، ولا يكديه [٧] الاعطاء والجود».

ثم خاض عليه السلام في الدليل على ذلك قائلاً:

«إذ كل معط منتقص سواه، وكل مانع مذموم ما خلاه».

نعلم جميعاً أنّ أحد الأركان الأصلية لمعرفة صفات الله سبحانه وتعالى يكمن في الاعتقاد بأنّه وجود مطلق من جميع الجهات وليست
 هناك من حدود لذاته المقدسة وصفاته. فمن الطبيعي أنّ اللامحدود يبقى كذلك مهما أخذ منه؛ أي ليس للنقصان والقلّة من سبيل
 إليه. وعلى هذا الضوء فلو وهب كل إنسان عالماً من المادة، لما نفذت خزائن نعمه. ولهذا أيضاً إذا منع أحد شيئاً فلا يذم عليه. لتعذر
 تصور البخل على الذات المطلقة. فليس هنالك من سبيل سوى إسناد المنع إلى الحكمة والمصلحة. بعبارة أخرى فإنّ عطائه ومنعه
 يتوقف على الاستعداد والاستحقاق والأهلية، وعليه يتقطع كل كلام ويخرس كل لسان عن الخوض في هذا الموضوع. جاء في
 الحديث القدسي:

«يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك ممّا عندي
 شيئاً إلّا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر» [٨]

، فمن الطبيعي أن لا يعلق شئ من الماء بالابرة إذا ما القيت فيه سوى بمقدار الرطوبة العالقة بها. وهذا أروع مثال لأدنى نقص يطيل
 أعظم مصدر ومنبع للماء. فالمثال صورة واضحة لعدم تناهي الخزائن الإلهية التي لا تزيد كثرة العطاء إلّا زيادة. كما ورد في حديث
 قدسي آخر:

«إن من عبادي من لا يصلحه إلّا الفاقة، ولو أغنيته لأفسده ذلك» [٩]

، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه عن سائر صفاته سبحانه ذات الصلة بجوده وكرمه وعطائه فقال:
 «وهو المنان بفوائد النعم، وعوائد المزيد والقسم»

فالالتفات إلى النعم الإلهية على أساس أنّ وجدان الإنسان يوجب عليه شكر هذه النعم ويشده إلى الحق سبحانه، نرى الإمام عليه
 السلام يطرق باديء الأمر هذا المعنى ليعد القلوب لما سيرد عليها من حقائق. والتعبير
 «منان»

من مادة من بمعنى كثير العطاء. أمّا فوائد النعم فتتطوى على مفهوم واسع يشمل كافة النعم المادية

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١١

والمعنوية. وأمّا الفارق بين هذه العبارة وقوله:

«عوائد المزيد والقسم»

فقد وردت بشأنه عدّة احتمالات: الأول: أنّ العبارة الأولى إشارة إلى ضروريات الحياة، والثانية إلى الرفاه والدعة وما يدعو إلى
 الاستقرار واللذة والراحة؛ أي كماليات الحياة. والاحتمال الثاني: أن يكون المراد بالعبارة الأولى النعم الفردية، والعبارة الثانية:
 «بالنظر إلى مفردة القسم من مادة قسمة»

المنافع والنعم الاجتماعية. والاحتمال الثالث: أن يكون المقصود بفوائد النعم الأرزاق التي تشمل الإنسان من قبيل الماء والهواء ونور الشمس وضياء القمر وبالتالي ما يصله من رزق دون سعى وجهد، والعبارة:

«عوائد المزيد والقسم»

ناظرة إلى الأرزاق التي يحصل عليها الإنسان بفعل جده واجتهاده وسعيه ونشاطه وإدارته الصحيحة لشؤون حياته. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بهذا الخصوص فقال:

«عياله الخلائق، ضمن أرزاقهم، وقدر أقواتهم»

فالتعبير بعيال تشير من جانب إلى محبة الله ولطفه بعباده، كما أنها مقدمة لبيان ضمان أرزاقهم من جانب آخر، وذلك لأن كل فرد يشعر بعظم مسؤوليته إزاء عياله وأهل بيته. فلا يمكن على الله أن يخلق عبداً دون أن يتكفل برزقه. وأما ما نراه من جوع في عالمنا المعاصر وفيما مضى قد أدى بحياة الناس، فذلك مما تفرزه طبيعة الحرص والظلم التي انطوت عليها سيرة الطغاة والظلمة والاستغلال الذي يمارسونه بحق الضعفاء والفقراء ونهب أموالهم وخيراتهم.

كما لا ينبغي أن ننسى خنوع البعض وعدم السعي الجاد في هذه الحياة والافتقار إلى الإدارة الصحيحة. وإلا فإن السفر الإلهية على درجة من السعة والشمول بحيث تلبى احتياجات كافة العباد إلى يوم القيمة. ثم خاض عليه السلام في النعم المعنوية ليكشف اللثام عن فتح باب الميسرة إلى الله والفوز بقربه وجواره فقال عليه السلام:

«ونهج سبيل الراغبين إليه، والطالبين ما لديه».

وهكذا أبان عليه السلام توفر كافة أسباب سعادة الناس على الصعيد المادي والمعنوي ليهديهم إلى الطريق دون أن يكون هناك من اجبار لنهج هذا السبيل أو ترك ذاك، فلإنسان بمحض إرادته أن يستثمر هذه النعم ويوظفها في الاتجاه الصحيح. ثم اختتم كلامه بشأن هذه النعم حيث تعرض إلى صفة أخرى من صفاته قائلاً:

«وليس بما سئل باجود منه بما لم يسأل».

فالعبارة تختزن إشارة لطيفة إلى حقيقة وهي أن جوده وكرمه على أساس الاستحقاق والاستعداد لا على ضوء الطلب والسؤال، وإن كان الدعاء أحد أسباب نزول النعم الإلهية

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٢

فذلك لأن الداعي إذا أعد في نفسه شرائط الدعاء إنما يكون قد وسع دائرة استحقاقه واستعداده؛ فالدعاء الصحيح يسوق الإنسان إلى التوبة والإنابة وإصلاح الذات وذكر الله، وكل من هذه المعاني يسهم بقدر في اتساع حجم الاستحقاق.

قال ابن أبي الحديد في تفسيره للعبارة:

«وليس بما سئل بأجود...»

فيه معنى لطيف، وذلك لأن هذا المعنى مما يختص بالبشر:

«لأنهم يتحركون بالسؤال وتهزم الطلبات، فيكونون بما سألهم السائل أجود منهم بما لم يسألهم إياه. وأما الباري سبحانه فإن جوده ليس على هذا المنهاج، لأن جوده عام في جميع الأحوال» [١٠].

أضف إلى ذلك فإن الناس وإثر نقصهم وحاجتهم إنما يشحون في العطاء بما هم إليه أحوج من سائر الأشياء التي لا حاجة لهم فيها؛ الأمر الذي ليس به من سبيل إلى الذات الإلهية المطلقة المنزهة عن كل نقص وحاجة. ثم انتقل الإمام عليه السلام إلى بيان أربع صفات من صفات الذات فقال:

«الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شئ قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون شئ بعده».

فالمفروغ منه هو أن الأساس في معرفة ذات وصفات الله يكمن في كونه مطلقاً سبحانه لا يعرف القيود والحدود واللامتناهي، وهو

الكمال المطلق والوجود الدائم من جميع الجهات، فهو كائن ويكون إلى أبد الأبدين.

فالأول في عالم الممكنات يقال للشئ بالنسبة لما يليه، وفي نفس الوقت لما سبقه بعض الأشياء لأن البداية والنهاية في الممكنات أمر نسبي؛ وتنفرد الذات الإلهية المطلقة بعدم وجود شئ قبلها ولا بعدها. ومن البديهي على هذا الأساس أن أوليته وآخرته لا تعني الأول الزماني ولا الآخر الزماني وذلك لأن الزمان يأتي من حركة الموجودات حيث أن الزمان يمثل مقدار الحركة؛ فلا يطلق عليه البعدية والقبلية كما يطلق على الزمانيات؛ وإنما لم يكن وجوده زمانياً لأنه لا يقبل الحركة، والزمان من لواحق الحركة، وإنما لم تطلق عليه البعدية والقبلية إذا لم يكن زمانياً؛ والحركة إما نحو الكمال أو النقصان. ونعلم أنه كمال مطلق لا يشوبه أي نقص. ثم قال عليه السلام في الصفة الثالثة:

«والرابع أناسي [١١] الأبصار عن أن تناله أو تدركه»

فلا العين

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٣

الظاهرة تراه لأنه ليس بجسم فلا مكان له ولا جهة، ولا العين الباطنة يسعها مشاهدته كنه ذاته.

فالمحدود يعجز عن رؤية اللامحدود. فالتعبير بالرابع لا يعني إن الله تعالى خلق في الأبصار مانعاً عن إدراكه، بل كناية عن ذاته أعظم واسمى من أن ترى بالعين الظاهرة أو الباطنة. فقد قال القرآن الكريم بهذا الشأن: «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» [١٢] ولما سأل بنو إسرائيل موسى عليه السلام رؤية الله، جاء الخطاب: «انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَيْعَقًا فَلَمَّا أَبْصَرَ قَالَ سُبْحَانَكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ» [١٣]، ثم قال عليه السلام في الصفة الرابعة والخامسة المكمل للصفات السابقة:

«ما اختلف عليه الدهر فيختلف منه الحال، ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال»

فالواقع هو أن هاتين الصفتين إنما تشيران إلى نفى الزمان والمكان وعوارضهما عن الذات الإلهية المقدسة؛ الذات المطلقة التي تأتي الحركة، ومن هنا لم تخضع لسيطرة الزمان، ولذلك أيضاً لم يكن للحالات المختلفة والحركة نحو الكمال أو النقصان من سبيل إلى هذه الذات. فالله ليس بجسم ليجتاج إلى مكان. ليس بمحدود ليضمه موضع معين، ومن هنا انعدم تصور المكان عليه سبحانه. ثم عاد الإمام عليه السلام ثانية إلى وصف جوده وعطائه سبحانه ليحدث عن سعة نعمه استثاره لحس الشكر والحمد لدى العباد والأمل بهذه الذات إلى جانب الإرشاد للمعرفة بصفات الجلال والجمال فقال عليه السلام:

«ولو وهب ماتنفتت عنه معادن الجبال، وضحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين [١٤] والعقيان [١٥] ونثارة [١٦] الدر، وحصيد المرجان، ما أثر ذلك

في جوده، ولا انفد سعة ما عنده، ولكان عنده من ذخائر الانعام، مالا تنفده مطالب الأنام، لأنه الجواد الذي لا يغيضه [١٧] سؤال السائلين، ولا يبخله الحاح الملحين».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٤

حقاً ليس هناك من تعبير أروع وأبلغ من هذا التعبير لوصف جوده وكرمه سبحانه وسعة رحمته وشمول آياته. فلو صبت الدنيا بما فيها من كنوز ومعادن مستتره في بطون الأرض وأوديتها وجبالها على شخص، لما كان لها تأثير قطرة في بحر بالنسبة لعظم خزائنه وسعة بحر جوده وكرمه. كيف لا وقوله

«كن»

الذي يتبدل إلى «فيكون» يخلق ما لا نهاية من هذه الخزائن في عالم الوجود ومن هنا أيضاً فإن الحاح الملحين وكثرة طلبات السائلين لاتدعوه ال قبض والبخل أو الغضب والغيظ، فانما يغضب من كانت مصادر جوده محدودة ينقصها السؤال والعطاء فتشرف على

الانتهاء وعليه فاذا كانت لدينا من حاجة لا بد من طرحها على الكريم فهو الكريم والجواد الرحيم في عطائه وكرمه، والتعبير بالتنفس عن معادن الجبال إشارة لطيفة إلى طرحها المعادن من جوفها بفعل تصدعها والزلازل والتعرية التي تصيبها مع مرور الزمان و أما تعبير «ضحك» فهي إشارة إلى الشقوق التي تحدث في فوهات الصدف ليستخرج منها اللؤلؤ. وهي على غرار الأسنان الناصعة التي تبدو كحيات اللؤلؤ حين يضحك الإنسان ذا الجمال. فاذا ما ضحكت هذه الاصداف بانشقاقها ظهرت حبات لؤلؤها وقذفتها خارجاً.

تأمل: شمول النعم الإلهية

اشتمل هذا القسم من الخطبة على عدة امور مهمّة بشأن سعة نعمه سبحانه وافاضتها على العبيد من معادن الفيض الازلي الجياش؛ ليشير الإمام عليه السلام بذلك أحاسيس السامعين ويوقظ ضمائرهم، فيستشعروا ضرورة الشكر بحكم بدهاه العقل، وهذا ما يقودهم بالتالي إلى الانفتاح على معرفة الله سبحانه والالمام بصفاته. فقد أشار في موضع آخر إلى سؤاله عن كل ماتريد ودون سؤال غيره وذلك أنّ كثرة الجود والعطاء ليس لها أن تنقص خزائن كرمه ولو مثقال ذرة، بل أنّها لتربو على الجود والعطاء. وصرح في موضع آخر بأنّه على درجة من الجود والكرم بحيث لا يحتاج إلى السؤال كما هي طبيعة الممكنات، فحيثما كان الاستحقاق والاستعداد كان الفيض والعطاء. ولعلنا نلمس هذا المعنى في بعض الأدعية الرجبية:

«يا من

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٥

يعطى من سأله، يا من يعطى من لم يسأله ومن لم يعرفه تحننا منه ورحمة» [١٨]

، وقد عبر الإمام عليه السلام عن ذلك بقوله:

«وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل»

، وأخيراً ما أروع عبارته عليه السلام التي تعرضت لسعة جوده وكرمه وعدم تأثرها من قريب أو بعيد بكثرة السؤال:

«ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين والعقيان ونثاره الدر وحصيد المرجان، ما أثر ذلك في جوده، ولا أنفذ سعة ما عنده ما لا تنفذه مطالب الأنام».

والحال ليس الإنسان كذلك مهما كان جوده وكرمه وعطائه، فمثل هذه الامور تؤثر مباشرة عليه، وليس ذلك إلا لأن كافته إمكانياته ومصادره محدودة، ينقصها العطاء. بينما تتصف نعمه سبحانه بالدوام وعدم التناهي والانقطاع فهي كذاته سبحانه مطلقاً لا تعرف من معنى للحدود والقيود.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٧

القسم الثاني: معرفة الله عن الله

إشارة

«فانظر أيها السائل فما ذلك القرآن عليه من صفته فائتم به واستصنى بنور هدايته وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فزضه ولا في شين النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى أثره فكل علمه إلى الله سبحانه فإن ذلك منتهى حق الله عليك وأعلم أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون العيوب الأقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح الله تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً فافتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الكلام إلى قاعدة كلية مهمة وخالدة في فهم صفات الحق سبحانه وتعالى بحيث لو انطلق الجميع في حركتهم الفكرية من خلالها لما بقي هناك من اختلاف بما يرتبط بصفاته سبحانه، فقال عليه السلام:

«فانظر أيها السائل فما ذلك القرآن عليه من صفته فأنتم به، واستضيئ بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وائمة الهدى أثره؛ فكل عمله إلى الله سبحانه، فان ذلك منتهى حق الله عليك».

فالواقع أن الإمام عليه السلام قد حدد وظيفة الجميع في ضرورة معرفة صفات الله بالاستناد إلى القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وآله وهدى أئمة العصمة عليهم السلام، والابتعاد تماماً عن الاستبداد

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٨

والتمسك بالرأى والتعويل على الأفكار الإنسانية المحدودة بهذا الخصوص، فكل هذه الامور من وساوس الشيطان ومكائده. لأن صفات الله مطلقة كذاته ليست محدودة من جانب، ومن جانب آخر فإن معارف الإنسان وعلومه إنما تقتصر على المخلوقات، فاذا اتجهوا صوب صفات الله خشى عليهم السقوط في مستنقع التشبيه على غرار صفات مخلوقاته، ومن هنا فإن أغلب من ولي ظهره لهذا الأصل الأساسى المتمثل بالرجوع إلى القرآن والوحي وكلمات المعصومين عليهم السلام بلى بالانحراف وإجراء صفات المخلوق على الخالق، من جهة اخرى فهذا القرآن يهتف بأنديتنا صباح مساء:

«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [١٩]

و

«وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» [٢٠]

فأنى للإنسان بهذا الفكر القاصر أن يطمع في معرفة ذات الله وصفاته ولا- يكتفى بمعرفته الإجمالية على ضوء نور الوحي وهدى العصمة الذى ينأى به بعيداً عن الزلل. فلا يمكن معرفة الله إلا به، وهو كما عرف نفسه وصفاته. وهنا يبرز هذا السؤال: هل صفات الله توقيفية؟

يعنى لا يجوز وصفه إلّا من خلال ما ورد فى الكتاب والسنة؟

ونقول فى الإجابة على هذا السؤال نعم هذا ما عليه أغلب المحققين والعلماء الأعلام، إلى جانب ضرورة مراعاة الحيطة والحذر فى مبحث صفات الله والانفتاح عليها انطلاقاً من الوحي وكلمات المعصومين عليه السلام. بعبارة اخرى فإن السبيل إلى معرفة الله وصفاته إنما يمر عبر خط مستقيم يقع على جانبيه مطين عظيمين؛ مطب التشبيه ومطب التعطيل.

وتوضيح ذلك: إن مبحث معرفة ذات الله وصفاته كسائر المباحث التى اكتنفها الإفراط والتفريط. فقد شبه البعض صفات الله بصفات مخلوقاته، حتى اعتبروا صفاته سبحانه زائدة على ذاته على غرار صفاتنا الزائدة على ذاتنا من قبيل العلم والقدرة وسائر الصفات، فقد كنا لانعلم يوماً ثم أصبح لنا علم، ولم نكن أقوياء ثم أصبحنا كذلك، وهكذا اعتقدوا اشتماله سبحانه على هذه الصفات المشوبة بأنواع النقص، ثم اندفعوا أكثر من ذلك ليصوروا له سائر ما لخلقه من جسم وزمان ومكان وجهة، بل ويد ورجل وشعر مجعد وأمثال ذلك.

بينما خالف البعض الآخر هذا الاتجاه تماماً حتى قال بتعطيل معرفة صفات الله، فزعم أننا

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٩

لانعرف شيئاً عن صفات الله ولا يسعنا ادراكها، وكل ذلك حذراً من التورط فى مستنقع التشبيه الذى هوى فيه الفريق الأول. والحق أن الفريقين الأول والثانى على خطأ، فهما لم يستضيئا بنور الوحي وهدى أئمة العصمة عليهم السلام، ومن هنا غرقا فى هالة من الظلام الدامس والجهل المطلق. ولو التزما وصية أمير المؤمنين على عليه السلام لما قالوا- بالتعطيل ولا- التشبيه، ولا- قنعنا بالمعرفة

الإجمالية- التي وردت في العبارات القادمة من هذه الخطبة- ولرنا إلى القرآن وكلمات المعصومين عليهم السلام ليصونا أنفسهما من الزلل والانحراف ولاكتفيا بما وردت عنهم عليهم السلام من كلمات في صفاته سبحانه، دون أن يحكموا عقولهم القاصرة بهذا المجال فليس للعقل من فعالية تذكر في هذا الخصوص دون الاستناد إلى الوحي ومعادنه الواضحة، فالحق أن هذا الوادي خطير فلا ينبغي أن يقتصوه، وأنه بحر لحي لا ينبغي لسهم أن يلجوه. فهي ظلمات بعضها فوق بعض ولا يمكن اختراقها إلا بمعونته من كشفت له. جدير بالذكر أن الإمام عليه السلام عبر عما ورد في القرآن بالفرض وسنة المعصومين عليهم السلام بالأثر، ولعل هذا الاختلاف في التعبير بينها يشير إلى حقيقة وهي لزوم ووجوب التعرف على ما جاء في القرآن في باب صفات الله سبحانه. وما وصل عن المعصومين عليهم السلام إنما هو مبين ذلك الذي جاء في القرآن.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة بالغه الأهمية وهي هداية الراسخين في العلم عن الانحراف في معرفة الحقائق القرآنية وذلك لتسليمهم وقرارهم بما خفى عنهم، فاذعنوا لعجزهم عن الخوض فيما غاب عن علمهم. فمدح الله سبحانه هذا الاذعان والاعتراف «واعلم ان الراسخين في العلم هم الذين اغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الاقرار بجملته ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح الله تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً»

ثم أوصى عليه السلام بالاكتماء والقناعة بهذا المقدار دون تحكيم العقل في الاحاطة بعظمة الله؛ الأمر الذي يؤدي إلى الهلاك «فاقتصر على ذلك، ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين».

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام قد حذر ذلك السائل الذي سأل عن

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٠

صفات الله في أن صفات الله- وعلى غرار كنه ذاته- ليست ميسرة لأي من الناس؛ وذلك لأنها غير محدودة، بينما محدود هو الإنسان في وجوده وذاته وعلمه، ليس للمحدود أن يحيط بكنهه وحقيقته الذات والصفات اللامحدودة. وبناءً على ماسبق فالسبيل الوحيد في مثل هذه الامور هو الاكتفاء بالمعرفة الإجمالية، ونعني بذلك الوقوف على هذا الأمر من خلال آثاره سبحانه التي ملأت عالم الوجود، دون إدعاء معرفة كنه الذات، فتقف على علمه سبحانه وقدرته وسائر صفاته على نحو الإجمال دون الاحاطة بهذا العلم والقدرة وما إلى ذلك من الصفات، من خلال تأمل النظام العجيب والمذهل الذي يسود عالم الوجود. ولا بأس هنا بالاستعانة بهذا المثال من عالم المخلوقات؛ فاننا نعلم بوجود ذات وصفات أغلب موجودات وكائنات عالم الخلق، بينما لانعلم كنهها وحقيقتها. كما نعلم بوجود الزمان والمكان الذان يجريان على حياتنا، ولكن ما حقيقة الزمان والمكان؟ هذا هو الموضوع الذي عجز عن إدراكه كبار الفلاسفة فقدموا لهما عدّة نظريات. كلنا نعلم بوجود الجاذبية ونلمس آثارها إلا أن أحد لا يعرف ماهي حقيقة الجاذبية؟ فهل هي أمواج خاصة؟ أم ظاهرة مجهولة تؤثر من مسافات بعيدة؟ وأوضح من ذلك أننا ندررك جميع الأشياء بعقولنا، لكن ما حقيقة العقل؟ ليس هناك من إجابة واضحة فالواقع هو أننا نكتفي بالمعرفة الإجمالية في أغلب ظواهر عالم الممكنات دون العلم التفصيلي بها، وعليه فليس من الغرابة أن نتعرف سطحياً على نحو الإجمال على ذات وصفات الحق سبحانه واجب الوجود دون أن يكون لنا علم تفصيلي بها.

وعليه فمن الواضح أن الاصرار على إدراك كنه هذه الذات والتعمق في الصفات اما أن تزيد من حيرتنا وذهولنا، أو أن تقذف بنا في متاهات الضلال ومستنقع التشبيه و تشبيه الخالق بالمخلوق؛ و هو الهلاك المعنوي الذي حذر منه الإمام عليه السلام بقوله:

«فتكون من الهالكين»

هنا يقتدح إلى الأذهان هذا السؤال: صرح الإمام عليه السلام في هذه الخطبة قائلاً:

«ان الراسخين في العلم هم الذين اغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الاقرار بجملة ما

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢١

جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح الله تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً»

ونعلم أن عبارته عليه السلام إشارة إلى الآية السابعة من سورة آل عمران «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» فتأويل الآية هو أن الله وحده العالم بتأويل آيات القرآن المتشابهة والراسخون في العلم يعرفون عن عجزهم إزاء ذلك؛ أي أن جملة والراسخون إستثنافية. إلا أن ما ورد في أغلب روايات الأئمة المعصومين عليهم السلام ولعلها تربو على الثلاثين رواية أنهم عليهم السلام قالوا:

«نحن الراسخون في العلم»

معطوفة على الله. والسؤال المطروح: كيف يمكن حل هذا التضارب بين ما ورد في خطب نهج البلاغة وما جاء في الروايات؟ وبعبارة أخرى: هل للراسخين في العلم من معرفة بمتشابهات القرآن واسرار صفات الحق سبحانه وتعالى أم أنهم استحقوا صفة الرسوخ في العلم بسبب قناعتهم بذلك العلم الإجمالي وعدم التعمق في ما وراء ذلك؟

هناك عدّة روايات ذهبت إلى التصريح بالمعنى الأول، ويصعب تجاهل كل هذه الروايات.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الخطبة التي نحن بصددتها تؤيد المعنى الثاني، وهذا ما أصاب أغلب محققي المسائل الإسلامية والمفكرين بالحيرة والذهول. إلا أن قدرًا من الدقة من شأنه أن يجمع بين المعنيين وإزالة ذلك التضارب، ولا يتيسر ذلك من طريق واحد بل من طريقتين:

الأول: أن الراسخين في العلم مهما كانت منزلتهم وعلو مقامهم حتى الأئمة المعصومين عليهم السلام فليس لهم ذاتاً العلم بمتشابهة القرآن وأسرار صفات الحق سبحانه؛ وما علمهم إلا من ذلك التعليم الإلهي والوحي والالهام الغيبي. وهذا ما ذكرناه مسبقاً في بحث علم الغيب والشفاعة بشأن الآيات القرآنية النافية لعلم الغيب عن أولئك الكرام عليهم السلام والآيات المثبتة لهم علم الغيب في أنهم لا يتمتعون ذاتياً بهذا العلم، وان كان لديهم من علم فبتعليم الله، كما أنهم لا يمتلكون الشفاعة ذاتاً، ولا يشفعون إلا بأذنه وإلا لمن ارتضى له الله.

الثاني: أن المتشابهات و أسرار المعارف الدينية المعقدة على نوعين: نوع يعلمه الراسخون في العلم (كتفسير أغلب متشابهة القرآن). أما النوع الثاني المرتبط بتفسير الآيات القرآنية ذات الصلة بذات الله وصفاته. فالعلم التفصيلي به ليس ميسراً لأي إنسان، وكل ما يسع الإنسان

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٢

إدراكه فعلى أساس المعرفة السطحية والعلم الإجمالي الذي ورد بيانه سابقاً. بعبارة أخرى

فإن المتشابهات على قسمين؛ قسم يعلمه المعصومين عليهم السلام والراسخون في العلم، وآخر يتعلق بذات البارئ وصفاته لا يعلمه أحد من الناس، والروايات المذكورة ناظرة إلى القسم الأول، بينما التي نشرحها وارده في القسم الثاني.

والنتيجة فإن الواو في الآية الشريفه عاطفه، ومفاد الآية هي علم الله والراسخين في العلم بتفسير المتشابهات، أما العبارة الواردة في الآية: «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» فهي عبارة منفصلة تعالج بعض المسائل من قبيل كنه الذات والصفات أو زمان القيامة وأمثال ذلك [٢١].

ومن هنا يتضح ما تعارف بين العلماء الأعلام من أن صفات الله توقيفيه؛ أي لا ينعت سبحانه إلا بتلك النعوت والأسماء التي وردت في الكتاب والسنة. وإلا لو فسح المجال أمام الأفكار البشرية لتأخذ سبيلها إلى أسماء الله وصفاته، لنعته بما لا يليق بشأنه بفعل قصر هذه

الأفكار واقتصار تعاملها مع الممكنات المعروفة بالحدود. ومن هنا وردت التحذيرات التي تميظ اللثام عن مدى المخاطر التي تعترض هذا السبيل لو سلك دون الاستضاءة بنور الكتاب وهدى السنة المطهرة. لذلك رد الإمام عليه السلام على السائل عن صفات الحق سبحانه وتعالى بالقول

«فما ذلك القرآن عليه من صفته فائتم به، واستضى بنور هدايته، ... إلى أن يقول عليه السلام فاقصر على ذلك، ولا تقدر عظمه الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٣

القسم الثالث: العالی على الخيال والقياس والظن والوهم

«هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتِ الْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطِعَ قُدْرَتِهِ وَحَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبْرَأَ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ وَتَوَلَّهَتْ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّتِهِ صَمَاتِهِ وَغَمَضَتْ مِدَاخِلَ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لَا تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاقُلَ عِلْمَ ذَاتِهِ رَدْعَهَا وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِي سِدْفِ الْغُيُوبِ مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فَرَجَعَتْ إِذْ جِبْهَتُ مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لَا يُنَالُ بِجُورِ الْإِعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ وَلَا تَحْطُ بِبَالِ أَوْلَى الرُّؤْيَا خَاطِرَةً مِنْ تَقْدِيرِ جَلَالِ عِزَّتِهِ».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام كلامه بالتطرق إلى ما أورده سابقاً بشأن عجز العقول البشرية عن إدراك صفات الله سبحانه بعبارة عميقة ورصينة. كاشفاً النقاب عن حقيقة من خلال قضية شرطية- بأربع جمل شرطية معطوفة على بعضها جزائين للشرط- وهي أن الإنسان مهما كان عميقاً في تفكيره جاداً عن طريق العقل والشهود لبلوغ كنه صفات الله سبحانه، فإن ذلك لن يتكفل بالنجاح ولا ينبغي أن يكتب له النجاح؛ وذلك لأنه ذات فوق:

«ما لا يتناهى بما لا يتناهى»

، فعقول الناس قاصرة من جميع الجهات فقد قال عليه السلام

: «هو القادر الذي إذا ارتمت [٢٢]

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٤

الأوهام، لتدرك منقطع [٢٣] قدرته. وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه

في عميقات غيوب ملكوته، وتولت [٢٤] القلوب إليه، لتجري في كيفية صفاته، وغمضت

مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته، ردها وهي تجوب [٢٥] مهاوى [٢٦]

سدف [٢٧] الغيوب، متخلصاً إليه سبحانه»

. فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أشار إلى أربعة عوامل للبحث في إطار السعي لمعرفة كنه الصفات؛ الأول: الأفكار العادية الملوثة، والثاني الأفكار المنزهة عن الوسواس، والثالث:

القلوب المفعمة بحب الله والتي تحت الخطي باتجاه الشهود، والرابع: والأخير العقول الحادة والدقيقة التي تعتمد الطرق الاستدلالية والنظرية في تعاملها مع المسائل، ليصفها الإمام عليه السلام في خاتمة المطاف بالعجز عن إدراك كنه ذاته وصفاته، وأن لتلك الذات والصفات أنوار خاطفة تسلب العقول لهما وتردع أصحاب هذا السبيل من الخوص والتقدم. فهو كما قال الشاعر:

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر كلياً أنت حيرت ذوى اللب وبلبلت العقولا

كلما قدّم فكري فيك شبراً، فرّ ميلاناً كصاً يخط في عمياء لا يهدى سيلاً

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأن عاقبة حركة هذه العقول والقلوب والأوهام هو العجز، فلا ترى أمامها سوى الاعتراف بسداجة

السعي وتفاهة الحركة التي ليس من شأنها الانفتاح على ذاته وصفاته، فعقول البشر قاصرة عاجزة ليس لها إدراك ذلك بل لا تخطر عظمتها وعزته على أفكار العلماء:

«فرجعت إذ جهت [٢٨] معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف [٢٩] كنه معرفته، ولا

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٥

تخطى ببال أولى الرويات [٣٠] خاطرة من تقدير جلال عزته».

فالعبارة

«إرتمت الأوهام»

إشارة إلى سرعة حركة الأفكار العادية للناس من أجل كشف عمق وسعة صفات الله.

والعبارة:

«حاول الفكر المبرأ ...»

إشارة إلى أفكار العلماء والمفكرين الذين طهروا أرواحهم من وساوس الشيطان فاصبحت أفئدتهم على درجة من الصفاء بحيث عادت كالمرآة تعكس الحقائق. والعبارة:

«تولت القلوب إليه ...»

اشتد عشقها حتى أصابها الوله وهو الحيرة، فهي دائبة السعي وحث الخطي لمعرفة الله والانفتاح على ذاته وصفاته والعبارة:

«وغمضت مدخل العقول ...»

إشارة إلى العقول المقتدرة التي انطوت على أدق السبل النظرية الاستدلالية.

فالإمام عليه السلام أشار إلى أن الإنسان وإن حكم هذه الطرق الأربع فأنها قد تمكنه من إدراك بعض الحقائق. إلا أن أي من هذه الطرق لا يمكنها إدراك كنه الذات وحقيقة الصفات. والحق أن هذا أروع بيان وأبلغه يصور عجز البشر عن إدراك كنه ذاته وصفاته سبحانه. طبعاً هذا ليس معلوماً لخفاء ذاته وصفاته سبحانه، بل اشتد ظهوره حتى حارت الأبصار عن الوقوف على كنهه؛ الأمر الذي نلمسه في تعذر رؤيتنا لقرص الشمس وهل ذاك لظلامها أم لشدة نورها وضوئها. فإذا كان هذا وضع الشمس التي تعد كوكباً ضائعاً ضمن ملايين الكواكب والمجرات، فما ظنك بذات الحق؟ وبعبارة أخرى: فالإنسان كلما اقترب أكثر غرق في بحر وهاله من النور والعظمة، لكي لا يجد من سبيل أمامه سوى الاعتراف بالعجز.

وبالطبع فهذا لا يعني أننا نعتقد بتعطيل صفاته وذاته ونزعم أننا لا نستطيع مطلقاً التعرف على الله، بل ملأت آثار علمه وقدرته وذاته وصفاته عالم الوجود، بحيث نراه في كل مكان ونستمع لتسبيحه وتنزيهه في كل موضع؛ وإن كان علمنا على نحو الإجمال لا التفصيل.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٧

القسم الرابع: الحديث عن تدبيره

«الَّذِي ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ امْتَثَلَهُ وَلَا مِقْدَارٍ اخْتَدَى عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتٍ قُدْرَتِهِ وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ وَاعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمَسَاكٍ قُوَّتِهِ مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارٍ قِيَامَ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ فَظَهَرَتْ الْبِدَائِعُ الَّتِي أَحْرَدَتْهَا آثَارُ صَيْغَتِهِ وَأَعْلَامُ حِكْمَتِهِ فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَدَلِيلًا عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ خَلْقًا صَامِتًا فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ وَدَلَالَتُهُ عَلَى الْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ».

الشرح والتفسير

جرى حديث الإمام عليه السلام سابقاً عن التحذير في التعمق في كنه الذات والصفات، وذلك لتعذر إدراكها على العقل البشري مهما

كانت إمكاناته. فواصل هنا الكلام وبغيه عدم تصور غلق باب معرفة الله فتطرق عليه السلام على نحو الإجمال إلى طرق معرفة ذاته وصفاته ليكشف عن حقيقة فحواها سمو هذه الذات وغناها المطلق عن الحدود. فهو الذي أفاض الوجود على المعدومات دون الاحتذاء بمثال سابق، أو الاستمداد من خالق آخر

«الذي ابتدع الخلق على غير مثال أمثله ولا مقدار احتذى عليه، من خالق معبود كان قبله».

فالعبارات إشارة إلى أزليه ذاته المقدسة سبحانه من جانب، ومن جانب آخر أن مخلوقاته قد وجدت دون تجربته وسابقه؛ فهو خلق جديد وتام بكل معنى الكلمة.

وتعتبر مسألة

«الابداع»

(الخلق دون تجربة) من المسائل المهمّة. حيث تتضح هذه الأهمية من خلال العلم بأنّ كافة الابداعات والاختراعات البشرية إنّما تستند لما قبلها من الأمثلة في

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٨

عالم الخليقة. فهي تقتدى أحياناً في عملها بظاهرة من ظواهر مختلفة في ما تقوم به من إبداع، و أحياناً أخرى بظواهر تركيبية و تلفيقية مختلفة بالضبط كالرسم الماهر الذي يعكس بريشته بعض الصور الرائعة والجميلة بالاستناد إلى من سبقه في الرسم والتصوير. فبالطبع لولا وجود هذه الصور والأشياء لما وسع ذلك الرسام هذا الابداع والجمال. أمّا الحق سبحانه فليس كذلك فعمله الابداع دون الاقتداء بالمثال وليس ذلك لأحد سواه. وقد مرّ علينا شبيه هذا المعنى البديع في الخطبة الأولى من نهج البلاغة بعبارة عليه السلام «أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً...».

ثم قال عليه السلام موضحاً ما أورده أن أراناً من عجائب قدرته والآثار الحالية عن تناهي حكمته وحاجته كافة الأشياء إليه بما يدعوننا تلقائياً إلى معرفته:

«وأراناً من ملكوت قدرته، وعجائب مانطقت به آثار حكمته، واعتراف الحاجة من الخلق إلى أن يقيمها بمسالك قوته، ما دلنا باضطرار قيام الحجّة له على معرفته»

بعبارة أخرى فإنّ الله سبحانه قد أبان آثار قدرته في عالم الوجود وهي تجرى وفقاً لنظام دقيق وقوانين معقدة تفيد أنّ الإبقاء عليها يتطلب علمه وتديبره الحكيم. فذرات الكون برمتها محتاجة إليه في خلقها وكذلك في ادامة حياتها واستمرارها، وهي تحكى بكافة تفاصيلها عن تناهي قدرته وحكمته. بما يجعل الإنسان يقر بضعفه وعجزه والاستضاءة بنور معرفته. ثم واصل الإمام عليه السلام قائلاً: «فظهرت البدائع التي أحدثتها آثار صنعته وأعلام حكمته، فصار كل ما خلق حجّة له، ودليلاً عليه؛ إن كان خلقاً صامتاً، فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على المبدع قائمة» [٣١]

نعم فقد غصت أرجاء العالم بعلمه وقدرته وشع نور التوحيد من جبين كافة مخلوقاته وكائناته سبحانه. كما عطر فضاء العالم بحمده وتسيبحة «سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» [٣٢].

وهو المعنى الذي عبر عنه أبو العتاهية حين أنشد قائلاً: [٣٣]

فيا عجباً كيف يعصى الاله أم كيف يجحده الجاحد

وفى كل شى له آية تدل على أنه واحد

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٩

نعم فإينما وليت وجهك طالعتك آيات الله، وإذا أعرت أذنك أى كائن طرقت سمعك ألسنة حال التسييح والتقديس. فما أكثر الأدلة والبراهين التي تجعلك تدرك تلك الذات المقدسة، أنها تمتد لتشمل عدد أوراق الأشجار وقطرات المطر والذرات وخلايا

البدن ونجوم السموات والمجرات، وبالتالي جميع ذرات وجود هذا العالم.

والعبارة

«ما دلنا باضطرار قيام الحجة»

لا- تعنى أننا ندعن على نحو الإيجاب بوجوده المقدس، بل تعنى أن الدلائل على وجوده على درجة من الظهور بحيث لم يبق معها مجال لانكار. كمثل من أحضر إلى المحكمة وقد نصبت للشهادة عليه الأفلام والأشرطة والشهود والقرائن المختلفة، بحيث لا يسعه التكرار لعماله وأفعاله. فيعبر هنا بأنه مضطر للاقرار، فهذا لا يعنى أنه ارغم على الاقرار من خلال ممارسة الضغوط والتعذيب، حيث أن المسألة على قدر من الوضوح، بحيث لا يسعه الانكار.

والعبارة:

«فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على المبدع قائمة»

إشارة إلى أن تدبير عالم الوجود دليل على علمه المطلق وقدرته، كما أن تنوع موجودات العالم المفعمة بالابداعات المذهلة هو الآخر دليل على قدرته المطلقة وعلمه.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣١

القسم الخامس: انت المنزه عن الشبيه والتميل

إشارة

«فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَائِنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ وَتَلَاحُمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةَ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ وَلَمْ يَبَاشِرْ قَلْبُهُ الْيَقِينَ بِأَنَّهُ لَا- بَدَّ لَكَ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمُتَّبِعِينَ إِذْ يَقُولُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّبُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَافِهِمْ وَنَحَلُوكَ حَلِيَّةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ وَجَزَّوْكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخَلْقِ الْمُخْتَلَفِ الْقَوَى بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ».

الشرح والتفسير

عاد الإمام عليه السلام هنا ثانية إلى بيان صفات الله سبحانه وتعالى محذراً من الاقتراب من وادى التشبيه، فلعل دلائل وجود الله في عالم الخلق والبعث عن آثار عظمته في كل موضع من مواضع هذا العالم توسوس للإنسان أن يعتقد ببعض الصفات لله على غرار صفات مخلوقاته، حتى أنه ليسقط في مطب التجسيم على الله، ليراه جسماً كسائر مخلوقاته.

ومن هنا ابتهل الإمام عليه السلام إلى الله قائلاً:

«فأشهد أن من شبهك بتباين أعضاء خلقك وتلاحم حقايق مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيب ضميره على

معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا ند لك، وكأنه لم يسمع تبرؤ التابعين من

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٢

المتبوعين إذ يقولون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين».

فهذه العبارات إشارة واضحة إلى ضلال المجسم أو المشبهة وشركهم وكفرهم، حيث جعلوا الله جسماً ذا أعضاء ويد ورجل وعين واذن فهووا وافى وادى التشبيه ليروه سبحانه مخلوقاً ضعيفاً وعاجزاً فانياً، حتى عبر عنهم القرآن في الآية الشريفة بأنهم على ضلال مبين.

والعبارة:

«من شبهك بتباين أعضاء خلقك»

إشارة إلى من له جسم، وجسمه مركب من أعضاء مختلفة. والعبارة:

«تلاحم حقاك مفاصلهم»

إشارة إلى الإرتباط السائد بين الأعضاء وبناء على هذا فإن أعضاء البدن منفصلة عن بعضها البعض ومنظمة مع بعضها أيضاً، وهذا من حكمه الله في خلقه المخلوقات، بحيث لولا- اشتماله على الأعضاء المختلفة لتحددت أعمالها، كما لو كانت منفصلة تماماً لتعذر تعاضدها وتعاونها في القيام بانشطتها وفعاليتها. كما أن البارئ بحكمته ولطفه قد أخفى هذا الإرتباط بين الأعضاء تحت طبقات اللحم ليصونها من مختلف الحوادث الخارجية. ولا يمكن تصور هذا الأمر إلّا في عالم الخليفة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فهو منزّه عن الأجزاء والأعضاء ولا يحتاج إلى الجسم.

فالإمام عليه السلام يشير إلى أن هؤلاء الأفراد الجاهل قد إصيبوا بثلاثة انحرافات: الأول: عدم معرفتهم الحقيقية لله، الثاني: عدم اعتقادهم بوحدانيته، الثالث: أنهم لم يسمعوا آيات القرآن ولم يفتحوها على تعليمات هذا الكتاب السماوي، ومن هنا شهدوا على أنفسهم بأنهم «في ضلالٍ مُبينٍ». أمّا يوم القيامة حين ترفع الحجب وتتضح الحقائق سرعان ما يقفون على خطأهم، فيتبرأ التابع من المتبوع ويلعن بعضهم بعضاً ولا يملكون سوى الندم والخجل يوم لا ينفع الندم؛ الأمر الذي ورد بشكل صريح في هذه الخطبة.

الجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام قد نسب كلامه السابق إلى الناس، ثم انتقل هنا إلى الله؛ الأمر الذي ينبه إلى خطورة القضية التي حذر منها لأن التأمل في الكلام يتوقف على درجة ومكانة المخاطب فكيف به إذا صدر من المشفق. ثم واصل عليه السلام الحديث عن طائفة أخرى من المنحرفين - أي المشركين والوثنيين الذين يعدون جزء من المشبهة - فقال

«كذب العادلون [٣٦] بك، إذ

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٣

شبهوك بأصنامهم، ونحلوك [٣٧] حلية المخلوقين باوهمهم، وجزأوك تجزئة المجسمات،

بخواطرهم، وقدروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح [٣٨] عقولهم»

فقد نفى الإمام عليه السلام بهذه العبارات الرصينة القاطعة - والتي بينت بأربع صور - كافة أنواع الشرك والتشبيه لله سبحانه بمخلوقاته، وتحذر الجميع من السقوط في مستنقع الشرك والتشبيه، إلى جانب تعيين الحد الفاصل بين توحيد الموحدين وشرك المشركين. ففي العبارة الأولى نفى التشبيه بالأصنام.

والعبارة الثانية صرحت ببطان اصفاء صفات الزينة للمخلوقات على الله (من قبيل وصفه من بعض الجاهل بأنه فتى جميل أمرد له شعر مجعد).

والعبارة الثالثة التي تنفى عنه التركيب من الأجزاء والأعضاء من قبيل اليد والرجل. والعبارة الرابعة سذاجة الاعتقاد باتصافه بمختلف الحواس (التي لمخلوقاته) من قبيل الباصرة والسماعة والشامة وهكذا تتحطم معاقل الشرك من مختلف الجوانب.

تأمل: من هم المجسمه؟

تطلق المجسمه (بكسر السين) على من نسب الجسميه لله وهم الذين يقولون بأن له يد ورجل واذن وعين، كما يقال لهؤلاء المشبهة بكسر الباء، وذلك أنهم يشبهون الله سبحانه بمخلوقاته المادية. ويبدو أن مثل هذا الاعتقاد كان سائداً بين أفراد البشر منذ قديم الزمان حيث جعلهم قصر فكرهم يعجزون عن تصور ما وراء هذه الطبيعة المادية، حتى ألفوا الماديات والجسام فظنوا أن الله سبحانه مثلهم أو كسائر الأجسام المادية. ومن هنا نشأ الاعتقاد بسائر المعبودات كالشمس والقمر والكواكب وسائر أجسام المشابهة. ويفيد تأريخ اليهود رسوخ عقيدتهم بجسميه الحق سبحانه وتعالى ومن ذلك مدى اصرارهم على نبيهم موسى عليه السلام في أن يريهم الله سبحانه جهره

ولا تخفى علينا قصة جبل الطور والصاعقة التي

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٤

أخذت طائفة من بنى إسرائيل فبعد أن نجى بنى إسرائيل من البحر أتوا موسى عليه السلام وقد مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لنبيهم موسى عليه السلام اجعل لنا إلها كما لأوثكك، بل لم يثوبوا إلى رشدهم حتى بعد أن أخذتهم الصاعقة، ثم سارعوا لعبادة العجل الذي أخرجه لهم السامري، حتى ضلت فيه جماعة من بنى إسرائيل. فرجع اليهم موسى عليه السلام غضبان أسفاً وآخذهم بما فعلوا.

تاريخ النصرى أيضاً يشهد بأن عقيدة التثليث (الله والابن والروح القدس) كانت شائعة بين النصرى والتي تفيد القول بالجسمية على الله. فهم يصرحون جهره بأن المسيح عليه السلام ابن الله وأنه أحد الآلهة الثلاث. والحال لم يكن المسيح عليه السلام سوى بشراً من سائر الناس.

ولما نزل القرآن الكريم على صدر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أبطل هذه العقائد الفاسدة بما فيها القول بالتجسيم والتشبيه. والشاهد على ذلك الآيات القرآنية: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [٣٩] و: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ» [٤٠] و «لَنْ تَرَانِي» [٤١] و «وَهُيَؤُ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ» [٤٢] و «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» [٤٣] و «فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَثُمَّ وَجْهُ اللَّهِ» [٤٤] التي تنفى جسمية الله سبحانه وتعالى إلا أن المؤسف له هو أن بعض الأفكار الانحرافية الموروثة من الامم الوثنية واليهودية والنصرانية والمجوسية قد وردت الإسلام لتخترق عقائد بعض السذج من المسلمين الذين اصطلح عليهم بالمجسمة أو المشبهة.

ولعل بعض التعبيرات الكنائية التي وردت في بعض الآيات القرآنية من قبيل الآية الكريمة: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» [٤٥] والآية: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» [٤٦] قد أصبحت ذريعة لدى بعض المنحرفين من أصحاب النظرة القاصرة والأفكار الضيقة والمنحرفة ليحتوا الخطى نحو هذه المذاهب المشركة الفاسدة؛ والحال من المسلم به أن اليد في الآية تعنى القوة

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٥

والقدرة واستوى بمعنى السلطة والسيطرة، لا بمعنى الجلوس والاستقرار على الشىء، وبالطبع فإن هذه الكنايات كانت سائدة لدى مختلف الأقسام قبل نزول القرآن وبعده، من قبيل قولهم، ليس له يد على هذا الأمر، وهكذا فإن مفردة الاستواء التي تستعمل بشأن استيلاء سلطان وسيطرته على بلاد.

وناهيك عما سبق فإن الأدلة العقلية والمنطقية هي الاخرى تنفى بوضوح أية جسمية عن الله؛ لأن كل جسم محدود وله زمان ومكان واجزاء، وعليه فهو محتاج من مختلف الجهات، ونعلم أن ليس للحاجة والمحدودية من سبيل إلى ذاته المطلقة سبحانه. والأهم من كل ذلك أن كافة الأجسام يعترها التغيير بل وحتى الزوال، فى حين ليس لهذا التغيير والزوال أن يدنس ساحه كبريائه وعظمته. ورغم كل ما مر من أدلة واضحة، فمما يؤسف له - كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - فإن عقيدة الجسمية المنحطة قد طالت جمعاً من جهال المسلمين حتى أوغلوا فى الانحراف والضلال، و حسب ما نقله «المحقق الدوانى» فان البعض يعتقد بأنه جسم مركب من لحم ودم تنبعث منه أشعة قضية شفافة وله قامه من سبعة أشبار، كما اعتقد البعض الآخر بانه على هيئة شاب أمرد له شعر مجعد حسب ما ذكره المحقق الدوانى بشأن هذه الفئات الضالة.

فقد أورد العلامة الحلى فى كتابه منهاج الكرامة قصة عن بعض المجسمة، لا بأس أن نقلها.

فقد حكى عن بعض المنقطعين التاركين من شيوخ الحشوية أنه اجتاز عليه فى بعض الأيام نفاط ومعه أمرد حسن الصورة قطط الشعر على الصفات التى يصفون ربهم بها. فألح بالنظر إليه ليلا وكرره، فتوهم منه النفاط أمراً، فجاء إليه ليلاً وقال له: رأيتك تلح بالنظر إلى هذا الغلام وقد أتيتك به، فان كان لك فيه نية فأنت الحاكم. فرد عليه وقال: إنمأ كررت النظر لأن مذهبى: أن الله ينزل على صورة هذا الغلام، فتوهمت أنه الله. فقال له النفاط: والله ما أنا عليه من النفاط أجود ممأ أنت عليه من الزهد مع هذه المقالة. [٤٧]

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٧

القسم السادس: الممتنع على احاطة العقول

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ وَالْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ وَنَطَقْتَ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ وَإِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ فَتُكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيِّفًا وَلَا فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتُكُونَ مَحْدُودًا مُصْرَفًا».

الشرح والتفسير

عاد الإمام عليه السلام هنا مرة أخرى إلى قضية انحراف المشركين والقائلين بالتشبيه، ليشهد عند الله ثانيه بانحرافهم، وما ذلك الا لسماع المخاطبين وتحذيرهم من الوقوع في هذا المستنقع التنن.

فقد قال عليه السلام:

«وأشهد أن من ساواك بشي من خلقك فقد عدل بك، والعدل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك».

يبدو أن هناك فارقا بين شهادة الإمام عليه السلام هنا في انحراف المشركين، وتلك الشهادة السابقة.

حيث وردت في طائفتين. فالشهادة السابقة إنما وردت بشأن الوثنيين الذين شبهوا الله بالأوثان والأصنام واتخذوها أرباباً من دون الله. أى كانوا يسألونها حاجاتهم ومن هنا عبدوها واتخذوها آلهة. أما الشهادة التي وردت هنا فهي ناظرة لأولئك الذين سواوا به بعض خلقه في جميع الجهات، كالثنوية من الوثنيين الذين يعتقدون بوجود إلهين هما إله الخير وإله الشر، والنصارى القائلين بالتثليث (الأب والابن والروح القدس). فقد اعتبر الإمام عليه السلام هؤلاء كافرين بمحكمات القرآن والحجج البينة:

«كافر بما تنزلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك»

يمكن ان تكون العبارة

«محكمات الآيات» و «الحجج البينات»

كلاهما

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٨

إشارة إلى آيات تنفى صراحة أى نظير وشبيهه لله، من الآية الشريفة «قُلْ أَيْنَ كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا» [٤٨] والآية: «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» [٤٩].

كما يحتمل ان يكون المراد بالآيات المحكمات آيات توحيد صريح القرآن الكريم والحجج البينات الأدلة العقلية التي تنفى عن الله سبحانه أى شبيهه ونظير.

ويؤيد هذا الاحتمال العبارات اللاحقة:

«وَأَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ، فَتُكُونَ فِي مَهَبِّ [٥٠] فِكْرِهَا مُكَيِّفًا، وَلَا فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتُكُونَ مَحْدُودًا مُصْرَفًا».

فقد أشار الإمام عليه السلام في العبارة الاولى إلى عدم إدراك العقول لكنه ذاته وصفاته سبحانه التي أشير إليها في بداية الخطبة. كما أشار في العبارة الثانية إلى عدم إحاطة الأفكار بهذه الذات المطهرة، وذلك لأن هذه الأفكار لو أحاطت به، لكان محدوداً بالضرورة، وما كان محدوداً طراً عليه التغيير والزمان والمكان والجهات الأخرى

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٩

القسم السابع: كلى شىء يستند إلى ارادة الله

ومنها: «قَدَرَ مَا خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ وَدَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ وَوَجَّهَهُ لِرُجُوعِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ الْإِنْتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ وَلَمْ يَسْتَضِعِبْ إِذْ أَمَرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إِرَادَتِهِ فَكَيْفَ وَإِنَّمَا صَدَرَتْ الْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ».

الشرح والتفسير

ذكر الإمام عليه السلام هنا مرّة أخرى بعالم الخليفة والتدبير الإلهي في تنظيم شؤون الخلق وأن هذا التدبير والنظام إنما يستند إلى جلال الحق وجماله، الذي خلق كل شئ بمقدار واخضعه لتدبيره وهداه إلى سبيله:

«قدر ما خلق فأحكم تقديره، ودبره فألطف تدبيره، ووجه لوجهته»

وهكذا يكون الإمام عليه السلام قد بين المراحل الثلاث

«التقدير» و «التدبير» و «التوجيه».

فالتقدير خلق الكائنات بمقدار، والتدبير إدارة شؤونها وفق الخطّة والمسيرة المرسومة لها، والتوحيد تمهيد السبيل وإعداد الظروف اللازمة لهذه الحركة من أجل بلوغ الهدف وتحقيق الغاية، حيث تسير كل هذه المراحل على ضوء برنامج معين منظم غايه في الدقة بالشكل الذي لم يدع مجالاً لكائن من كان أن يسير بطريق عشوائي، لا في انبثاق خلقه ولا في ديمومته بحيث يشذ عن ذلك النظام والقانون. ومن هنا أشار الإمام عليه السلام إلى هذا الأمر في أنّ أحداً من الموجودات لم يتجاوز حدوده، ولم يقصر في بلوغ الهدف، ولم ينطلق في حركته الاعلى أساس ارادة الله سبحانه وأنى له التمرد على هذه الإرادة التي تستند إليها جميع الإرادات:

«فلم يتعد حدود منزلته، ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته، ولم يستعصب إذ أمر بالمضي على إرادته، فكيف وإنما صدرت الامور عن مشيئته؟».

فالواقع هذه العبارات تحول دون التصور بأنه حركات كافة

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٠

الكائنات الأرضية والسماوية بما فيها النباتات والحيوانات والناس والكواكب واجتيازها لمراحل النحو والتكامل يجرى بصورة عشوائية. فهي تسير بوحى من أمره وإرادته على ضوء الخطّة المعدة لها سلفاً ولا يسعها تخطى تلك الخطّة بأى حال من الاحوال. وعليه فعالم الوجود يدار بمنتهى النظام والدقة. ولعلنا نلمس الإشارة إلى المراحل الثلاث المذكورة في الآيات القرآنية، ومن ذلك الآيات ٣٨-٤٠ من سورة يس: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذِكْرُكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ* لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

ناهيك عن سائر الآيات القرآنية التي أشارت إلى هذه الحقيقة وهنا لابدّ من الالتفات إلى أمرين: الأول هو أنّ ما ورد في العبارات المذكورة بشأن الأوامر و تبعية المخلوقات للمشيئة الإلهية إنما هو إشارة إلى الأوامر التكوينية، أو بعبارة أخرى: إشارة إلى القوانين التي أوجدها الله سبحانه في عالم الوجود وسيره على أساسها، بالشكل الذي يحول دون تجاوزها لهذه القوانين. والأمر الثاني أنّ هذا الكلام لا يعنى إجبار الإنسان على أفعاله وذلك لأنّ الله سبحانه جعل صفة الاختيار وحرية الإرادة أحد تلك القوانين التي تسير عالم الوجود، وليس للإنسان قط أن يسلب نفسه هذه الصفة، وعبارة أخرى فإنّ حرية الإنسان أيضاً بأمره سبحانه وتعالى

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٤١

القسم الثامن: سر الخلق

إشارة

«المُشِيئُ أَصْنَافَ الْأَشْيَاءِ بِلَا رَوِيَّةٍ فِكْرٍ آلَ إِلَيْهَا، وَلَا قَرِيحَةٍ غَرِيظَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا، وَلَا تَجْرِيَةِ أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ وَلَا شَرِيكِ أَعَانَهُ

عَلَىٰ ابْتِدَاعِ عَجَائِبِ الْأُمُورِ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، وَأَجَابَ إِلَىٰ دَعْوَتِهِ، لَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثَ الْمُبْطِئِي، وَلَا أَنَاةَ الْمُتَلَكِّي، فَأَقَامَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوْدَهَا، وَنَهَجَ حُدُودَهَا، وَلَا عَمَّ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا، وَوَصَلَ أَشْيَابَ قَرَائِبِهَا، وَفَرَّقَهَا أَجْنَاسًا مُخْتَلِفَاتٍ فِي الْحُدُودِ وَالْأَقْدَارِ، وَالْعُرَائِرِ وَالْهَيْثَاتِ، بِدَايَا خَلَاتِقٍ أَحْكَمَ صُنْعَهَا وَفَطَّرَهَا عَلَىٰ مَا أَرَادَ وَابْتَدَعَهَا».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة في كيفية خلق الموجودات على أن الله سبحانه وتعالى خلقها من دون حاجة إلى التفكير، أو غريزة مستتره في الباطن، إلى جانب الغنى عن تجارب الماضي وسالف الدهور، وبالتالي دون الحاجة إلى عصيد وشريك «المنشى أصناف الأشياء بلا روية فكر آل إليها، ولا قريحة» [٥١] غريزة أضمر عليها، ولا تجربة أفادها من حوادث الدهور، ولا شريك أعانه على ابتداء عجائب الأمور».

فالواقع هو أن أسس علمنا ومعرفتنا بالحقائق إنما تستند إلى أحد أربع: الفكر والتروى، أو الالهام الباطنى الذى يصطلح عليه بالغريزة، أو التجربة التى يحصل عليها الإنسان من

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٢

خلال تكرار الحوادث، و أخيرا العون الذى يحصل عليه من الاستعانة الخارجية لأصحاب الفكر الذين يعينونه فى القيام ببعض الأعمال والابداعات. وبالطبع فإن الحق سبحانه وتعالى ليس بحاجة لأى من هذه الاسس والمصادر فهو العالم بكل الأشياء، وهى حاضرة عنده، وليس هنالك من حقيقة خارجة عن دائرة علمه المطلق. فالفكر إنما يستفيدة من كان له معلومات ومجهولات، يروم توظيف معلوماته لكشف أسرار هذه المجهولات. والالهام الغريزى إنما يعتمد من غابت عنه الحقائق ولا تتضح له إلا من خلال هذا الالهام. وأما التجربة وتكرار العمل للوقوف على النتائج فانما ترتبط بمن يجهل نتائج الامور وأخيراً فان الاستعانة بافكار الآخرين إنما يختص بضعف الأفراد وعجزهم إلى جانب قصور فكرهم؛ فما حاجة الذات المطلقة لمثل هذه الامور وهى بتلك الخصائص والصفات؟ وبغض النظر عما سبق فإن العبارات بدورها ترشد الإنسان الجاهل إلى الظفر بمصادر المعرفة، وأن هذه المصادر الأربعة تمكننا من حل المشاكل التى تواجهنا فى حياتنا اليومية. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة اخرى بهذا الشأن وهى قطعية حاكمية قوانين الخلق على كافة الكائنات:

«فتم خلقه بأمره وأذعن لطاقته، وأجاب إلى دعوته، لم يعترض دونه ريث [٥٢] المبطئ، ولا أناة [٥٣] المتلكى» [٥٤].

فهذا الموضوع إشارة أيضاً إلى قدرة الله ونظامه الرصين فى عالم الخلق، حيث تسير كافة هذه الموجودات على ضوء قوانين معينة وهى مؤتمرة بأمره، فهى لا تتخلف عن هذه القوانين ولا تتقدم عليها. فقد صرح القرآن الكريم بهذا الخصوص قائلاً: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» [٥٥].

أضف إلى ذلك فهى تشتمل على رسالة واضحة لكافة الناس فى الانسجام وعالم الخلق وتبعية هذه القوانين الإلهية، دون التقدم عليها أو التخلف عنها، بهدف بلوغ الغاية والظفر بالفلاح والسعادة.

ثم اختتم عليه السلام كلامه بالإشارة إلى خمسة امور جديرة بالتأمل بشأن نظام الخلق وأسرار عالم

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٣

الخلق، الأول: استواء هذه الموجودات دون أى اعوجاج او انحراف:

«فأقام من الأشياء أودها» [٥٦]

الثانى: أنه عين لها المسار الذى ينبغى لها أن تسلكه

«ونهج حدودها».

الثالث: تأليفه بين الأشياء المتضادة بقدرته

«ولاءم يقدرته بين متضادها»

. الرابع: ربطها مع نظائرها

«ووصل أسباب قرائنها».

والخامس: تقسيمها إلى أنواع مختلفة على أساس الحدود والأجناس والمقادير والغرائز والأشكال والهيئات

«وفرقتها أجناسا مختلفات في الحدود والأقدار والغرائز والهيئات»

وهكذا تمّ نظام الخلق وتكامل من جميع الجهات ليقوم بوظائفه على اختلاف أنواعه وأجناسه كوحدة واحدة ضمن قانون واحد. وأبعد من ذلك تعاضدت وتعاونت حتى الأشياء المتضادة لتفرز نتائج باهرة، كما إتصلت الأشباه والنظائر، لتشكل بالتالي مجموعة بديعة عجيبة تشير إلى مدى قدرته المطلقة سبحانه وعلمه التام.

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالقرائن في العبارة هي نفوس البشر التي أقرها الله في الأبدان، حيث يبدو في الظاهر أنّ هناك تضاد بين البدن الذي ينتمي إلى عالم المادة والنفس التي تنتمي إلى عالم المجردات.

طبعاً وان كان أحد معاني القرينة (وجمعها قرائن) في اللغة هو النفس الإنسانية إلّا أننا لا نمتلك الدليل الذي يجعلنا نصرّف المعنى المذكور ليقصر على هذه النفس: بل الهدف هو بيان جمع الأضداد ووصل القرائن والأشباه في جميع أنحاء عالم الوجود والذي يعد الوجود الإنساني أحد مصاديقه، وأنّ أصل إطلاق القرينة على نفس الإنسان إنّما يعزى لاقترانها ببدنه.

ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول على أساس الخلوص إلى نتيجة واضحة:

«بدايا خلائق أحكم صنعها، وفطرها على ما أراد وابتدعها» [٥٧].

تأمل: أوضح طريق إلى معرفة الله

يعتبر تأكيد الإمام عليه السلام على التفكير في عالم الخلق والتأمل في خلق المخلوقات دون

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٤

الاستغراق في ذات الله، من الاصول الأساسية في الأبحاث ذات الصلة بمعرفة الله. وذلك لأنّ الأول يقود الإنسان إلى الإيمان والتوحيد؛ التوحيد المفعم بالعشق والحب والاخلاص، بينما يسوقه الثاني إلى الشرك والتشبيه. أمّا سائر الأدلة والبراهين في معرفة الله من قبيل برهان الوجوب والإمكان والغنى والفقر التي تدور حول محور الدور والتسلسل، فهي دلائل جافة توصل إلى المعرفة إلّا أنّها لا تختزن أي حب أو عشق وإخلاص. والحال لم يقم نظام الخلق سوى على هذه المفردات. فقد جاء في الحديث القدسي:

«كنت كنزاً مخفياً فأجبت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف»

. فاذا فكرنا بعظمة السموات والكواكب التي تربو على الملايين في مجرتنا فقط والحال يقول العلماء بوجود مليارات المجرات في هذا العالم. وإذا أمعنا النظر في العالم المذهل لخلايا جسم الإنسان والذي تمتاز كل خلية فيه بان بنيتها قد تنطوي عليه مدينة صناعية من الخفيا والأسرار. وعندما نتأمل التنوع العجيب للنباتات والحيوانات، وأنّ هناك الملايين من أنواع النباتات والحيوانات التي تعيش في أعماق الغابات والبحار والتي لم يراها أو يتوصل إليها الإنسان لحد الآن، ونقر بأنّ هذه الموجودات العجيبة إنّما تستمد حياتها من موجودين بسيطين هما الماء والتراب. وأخيراً حين نتدبر روعة الورود والأزهار ولطافة الأوراق ودقة نظام الدورة الدموية. وعمل الاوردة والشرايين المخ والدماغ وايعازات الأعصاب، ثم نلتفت إلى أنّ كل هذا ليس إلّا جانباً من عجائب عالم الخلق، لانملك سوى الالتحاق بقافله هذا العالم ومشاركتها التسبيح والتقديس والحركة نحو الله، ونحن نردد ما يردده الملائكة الأعلى «سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا» [٥٨] و «رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا» [٥٩] وقلوبنا مقعمة بحب الله والإيمان به والخشوع له والتواضع أمام عظمتة وجبروته.

وعبارات الإمام عليه السلام المارة الذكر إشارة عميقة إلى هذه الحقائق.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٥

القسم التاسع: خلق السموات

إشارة

«وَنَظَمَ بِلا- تَعْلِيْقٍ رَهَوَاتِ فُرْجِهَا، وَلاَحَمَ صِدُوعِ انْفِرَاجِهَا، وَوَشَّحَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْوَاجِهَا، وَذَلَّلَ لِلْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ، وَالصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ، حَزُونََهُ مِعْرَاجِهَا، وَنَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ، فَالْتَحَمَتْ عُرَى أَشْرَاجِهَا وَفَتَقَ بَعْدَ الْإِزْتِنَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا، وَأَقَامَ رَصْدًا مِّنَ الشُّهُبِ التَّوَاقِبِ عَلَى نِقَابِهَا، وَأَمْسَكَهَا مِّنْ أَنْ تُمُورَ، فِي خَزَقِ الْهَوَاءِ بِأَيْدِيهِ وَأَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في المقطع السابق من هذه الخطبة إلى الكليات في تدبير عالم الخلق والقوانين التي تسوده، إلى جانب تنوع الموجودات وكثرتها. ويخوض عليه السلام في هذا الجزء من الخطبة والجزء القادم في جزئيات ذلك. فيتعرض بصورة عميقة بعيدة المعنى لخلق السموات والملائكة والأرض والعالم السفلى وخلق آدم وما إلى ذلك. فقد استهل كلامه بادئ ذي بدء بخلق السموات فقال عليه السلام:

«ونظم بلا تعليق رهوات فرجها، ولاحم صدوع انفراجها» [٦٠ فرجها، ولاحم ٦١ صدوع ٦٢ انفراجها]

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٦

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام قد أشار بالعبارة الأولى إلى ما ورد في القرآن الكريم: «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا» [٦٣] ويصرح علماء الفلك بان الكرات السماوية منفصلة عن بعضها وأن التوازن القائم بين القوة الجاذبة والطاردة هي التي تبقى على كل واحدة في موضعها.

بينما أشارت العبارة الثانية إلى ارتباط أجزاء كل كرة وتماسكها مع بعضها. وعليه فليس هنالك من تضاد بين العبارتين

«ونظم بلا تعليق رهوات فرجها، ولاحم صدوع انفراجها».

فالاولى ناظرة للكل والآخرى للأجزاء (ووحدة الضمائر هنا لا تسبب أى اشكال، لأنهما تعودان إلى السموات، أحدهما إلى المجموع والآخر إلى الجزء) (لابد من الدقة والتمعن هنا).

ثم أشار في العبارة الثالثة إلى الرابطة بين الكرات السماوية القرينة لبعضها، فقال عليه السلام:

«ووشح [٦٤ بينها وبين أزواجها]

يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى منظومات العالم العلوى المتألف من كرات شبيهة لبعضها إلى جانب النظام الذى كل كرة [٦٥]

ثم أشار عليه السلام في العبارة الرابعة إلى طرق هبوط وصعود الملائكة إلى السموات:

«وذلل للهابطين بأمره، والصاعدين بأعمال خلقه، حزونهُ معراجها» [٦٦].

وهنا يتبادر هذا السؤال: هل الملائكة وجودات مادية ولها صعود وهبوط مادي من وإلى السموات، أم أن المراد بهذا الصعود والهبوط

هو الصعود والهبوط المعنوي؟ هنالك عدّة أقوال لشراح نهج البلاغة بهذا الخصوص.

ظاهر هذه العبارات الواردة في الخطبة وأغلب الروايات والأخبار والآيات القرآنية، أن الملائكة وجودات نورية لها بعد جسمي رغم

لطافتها التي تحول دون قدرتنا على مشاهدتها،

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٧

وعلى هذا الأساس يجوز عليها الصعود والنزول والذهاب والاياب. وسنخوض أكثر في هذا الموضوع في المقطع القادم من الخطبة بأذن الله السؤال الآخر الذى يطرح نفسه هنا: هل هناك من مكان يضم الله فى السموات لتهبط منه الملائكة فتوصل الرسالات والأوامر ثم تصعد إليه باعمال العباد؟ قطعاً لا يمكن تصور مثل هذا الأمر على الحق سبحانه الذى يفوق عالم المادة ولا يجرى عليه زمان ولا يحويه مكان ولا يتركب من أجزاء. اذن فما معنى هذا الصعود والهبوط؟

يبدو أن الإجابة على هذا السؤال تتضح من خلال الالتفات إلى هذه المسألة الدقيقة وهى:

صحيح أن السموات والأرضين مخلوقات الله، إلا أن هناك بعض المراكز فى هذا العالم المادى التى تعد من مواضع إنعكاس الأنوار الإلهية. أو بعبارة اخرى هناك بعض المواضع التى لها قداسة خاصة. على غرار الأرض التى لا تتساوى جميع بقاعها. على سبيل المثال فقد اتجه موسى بن عمران عليه السلام إلى الطور حين أراد أن يأخذ الألواح، كما كان نبي الإسلام صلى الله عليه وآله يتجه قبيل انبثاق الدعوة إلى غار حراء؛ والحال هذان الموضعان ليسا باقرب من غيرهما إلى الله، إلا أن قدسية بعض المواضع تجعلها أعظم اشعاعاً للأنوار الإلهية كالطور وحراء والمسجد الحرام.

وهكذا الأمر بالنسبة للملائكة، فهناك بعض المراكز القدسية فى العالم العلوى تتسلم فيها الملائكة الأوامر الإلهية، وهى المراكز التى بلغها رسول الله صلى الله عليه وآله فى معراجه، بل جاوزها لما هو أقرب ليفيض الله عليه من لطفه وعنايته، وهناك تستودع الأعمال الخيرة للعباد وتحفظ إلى يوم القيامة.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى تفاصيل ما أورده سابقا على نحو الاجمال، حيث عرض بالشرح بخمس عبارات لمراحل خلق السموات. فأشار فى العبارة الاولى إلى أمره (ويراد به الأمر التكويني لا جتياز مراحل الخلق والتكامل) السماء حين كانت على هيئة دخان

«وناداهما بعد إذ هي دخان»

فهذه العبارة فى الحقيقة أشارت إلى أولى مراحل خلق العالم التى تعرضت لها الآية من سورة فصلت «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ» [٦٧] وهو الأمر الذى يقره العلم المعاصر فى أن العالم برمته كان فى البداية كتلة عظيمة جداً من الغاز. وقال فى العبارة الثانية (حيث وردت الخلق مرحلة جديدة)

«فالتحمت عرى أشراجها».

فبالنظر إلى أن معنى الالتحام هو الوصل، والعرى جمع عروة بمعنى المقبض، والاشراج جمع

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٨

شرح بمعنى الشق. فإن مفهوم الجملة المذكورة هو أن الله ضغط تلك الكتلة العظيمة للدخان.

ثم أدال الشقوق وربط أطرافها مع بعضها، وكان هذه الشقوق كالصناديق التى تغلق مقابضها وتوصل مع بعضها لحفظ ما فيها. والعبارة تتفق و ما توصل إليه العلم الحديث الذى صرح بضغط كتلة الغاز بفعل الجاذبية الداخلية. ثم واصل كلامه عليه السلام حول فصل السموات عن بعضها وفتح أبوابها المؤصدة (وقد جعل مسافة بينها)

«وفتق بعد الارتقاء صوامت أبوابها».

ولعل هذه العبارة إشارة إلى ما توصل إليه العلماء الذين يعتقدون أن تلك الكتلة الغازية الهائلة قد شهدت انفجارا داخليا عظيما لتتلاشى وتظهر منها الكواكب والمجرات. وعلى ضوء الفرضية الاخرى فان بعض أجزاءها أخذت بالانفصال عن البعض الآخر إثر حركتها الدورانية الشديدة والقوة الطاردة عن المركز، فابتعدت عن بعضها البعض فى هذا الفضاء لتشكل منها الأجرام السماوية. فقد قال القرآن الكريم بهذا شأن «أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما» [٦٨].

ثم أشار فى العبارة الرابعة إلى خلق الشهب السماوية (التي تشاهد فى السماء على هيئة خطوط من النور تتحرك بسرعة) ثم تنطفئ،

فقال عليه السلام:

«وأقام رصدًا من الشهب الثواقب على نقابها» [٦٩]

. لا بدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الرصد على وزن الصدف ذات معنى مصدرى في الأصل وتعني الاستعداد والتأهب لمراقبة الشى وحراسته. كما تطلق على الفاعل وتستخدم في المفرد والجمع. ونقاب جمع نقب بمعنى الطريق أو الفاصلة بين شيئين. وعليه فالعبارة تعني أنّ الله زود طرق السموات بهذه الشهب لتحول دون نفوذ الشياطين إلى السموات؛ الأمر الذي أشير إليه كرارا في عدة آيات من القرآن الكريم، ومن ذلك الآية الثامنة من سورة الصافات

«لا يسمعون إلى الملائكة الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب إلامن خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب»، فالذي يستفاد إجمالاً من هذه الآيات وسائرهما الواردة

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٩

بهذا الشأن أنّ هناك أحداث تدور في العالم العلوي بين الملائكة المأمورة من قبل الله سبحانه في إدارة شؤون العالم بشأن بعض الأخبار المهمة لهذا العالم، وأنّ الشياطين تحاول أحياناً الاقتراب من السماوات لاستراق السمع، إلّا أنّ الشهب تدفعها عن السماوات. طبعاً صحيح أنّ الشهب على ضوء العلم الحديث، ليست إلّا صخوراً تائهة تشتعل حين تقترب من الكرة الأرضية وتصطدم بها، إلّا أنّ هذا لا يمنع أن تكون هذه الشهب مأمورة بحراسة فضاء السماء من الشياطين؛ وأنّ تعذرت علينا رؤية الشيطان، وخفيت علينا على وجه الدقة حركات الشهب (لوقوف بصورة أعمق على هذا الموضوع المهم، عليك بمراجعة الجلد ١٩ من التفسير الأمثل ذيل الآيات المذكورة) ثم أشار في العبارة الخامسة إلى موضوع مهم آخر ذا صلة بنظام كواكب السماء في أنّ الله سبحانه أمسكها بيد القدرة من الحركات الطائشة في الفضاء، وأمرها بالتسليم لأمره:

«وامسكها من أن تمور» [٧٠] في خرق الهواء بأيده [٧١]

وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره».

فالعبارة تنجسم تماماً والعلم الحديث الذي صرح بأنّ الكواكب والمنظومات والمجرات في حالة حركة حول مداراتها بفعل تأثيرها بالقوة الجاذبية المتناسبة مع كتلتها والقوة الدافعية التي تظهر فيها من جراء الحركة وقوة الطرد المركزي، دون أن تستند إلى شى أو ادنى انحراف عن مداراتها. بعبارة أخرى فان التوازن الدقيق للقوة الجاذبية و الطارديّة لاتدعها تتعد عن بعضها لتصبح كتلة واحدة. وقد يتضح هذا المطلب من خلال مفردة تمور (الحركة الطائشة) وخرق الهواء. إلّا أنّ بعض قدماء شراح نهج البلاغة الذين عاشوا أجواء نظرية الهيئة البطليموسية القائلة بالأفلاك التسع كقشور البصل، شهدوا بعض المشاكل في تفسير هذه العبارات، فاضطروا لحمل بعض الألفاظ المذكورة على معناها المجازي، والحال أنّ تفسيرها على ضوء الهيئة المعاصرة لم يعد خافياً على أحد.

والعبارة

«أمرها»

و

«الأمر»

أشارة إلى معنيين؛ فالأمر في بداية العبارة الأخيرة يعني الأمر

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٥٠

الإلهي التكويني، والأمر في آخر الجملة يعني قوانين الخلق. أي أنّ الله خلقها بهذا الشكل لتكون منقادة مستسلمة لهذه القوانين.

تأمل: خصائص السماوات

لقد رسم الإمام عليه السلام بهذه العبارات صورة رائعة بليغة عن الخلق العجيبة للسماوات، فأشار أولاً: إلى بداية خلقها على أنها كانت في البداية بمثابة كتلة غازية عظيمة.

ثانياً: الانفجار الهائل الذي وقع في تلك الكتلة العظيمة، والانفصال الذي شهدته الكواكب والمجرات عن بعضها البعض.

ثالثاً: تعلق الكواكب في هذا الفضاء الواسع على أنه آية من آيات عظيمة وقدرته سبحانه تعالى.

رابعاً: الحركات المنظمة للكرات السماوية حول مداراتها والخالية من أية حركات عشوائية (بفعل توازن قوتى الجذب الطرد).

خامساً: حركة الملائكة وصعودها وهبوطها بين الأرض والسماء و المراكز المقدسة، حيث تهبط بالأوامر وتصعد بأعمال العباد.

سادساً: ارسال الشهب التي ترمج الشياطين حين تحاول الصعود إلى السماء بغية استراق السمع، حيث بينها الإمام عليه السلام على سبيل الاختصار بعبارات قصيرة وبليغة حيث يتطلب كل منها بحثاً مستقلاً.

ولا ينبغي أن ننسى هنا أن كل ذلك قد حصل في زمان لم تكن تحكم العقول والأفكار فيه سوى نظرية بطليموس في الأفلاك والسماوات. ولا بد من الاذعان بأن بيان هذه الحقائق في ذلك الوقت قد يبلغ حد الإعجاز، ليدل دلالة واضحة على مدى علم الإمام عليه السلام الذي استقاه من مصادر غير عادية متعارفة [٧٢].

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٥١

القسم العاشر: خلق الشمس والقمر والشهب والكواكب

إشارة

«وَجَعَلَ شَمْسُهَا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا، وَقَمَرُهَا آيَةً مَمْحُوءَةً مِنْ لَيْلِهَا، وَأَجْرَاهُمَا فِي مَنَاقِلِ مَجْرَاهُمَا، وَقَدَّرَ سَيْرَهُمَا فِي مَدَارِجِ دَرَجِهِمَا، لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِهِمَا، وَلِيُعْلَمَ عَدَدُ السِّنِينَ وَالْحِسَابُ بِمَقَادِيرِهِمَا، ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوْهَا فَلَكَّهَا، وَنَاطَ بِهَا زَيْتَهَا، مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيهَا وَمَصَابِيحِ كَوَاكِبِهَا، وَرَمَى مُسْتَتْرِقِي السَّمْعِ بِثَوَاقِبِ شُهْبِهَا، وَأَجْرَاهَا عَلَى أَذْلَالِ تَسْخِيرِهَا مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِهَا، وَمَسِيرِ سَائِرِهَا، وَهُبُوطِهَا وَصُغُودِهَا، وَنُحُوسِهَا وَسُغُودِهَا».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى خلق الشمس والقمر والكواكب وفلسفتها الوجودية، ثم شرح بعبارات بليغة الفوائد والبركات لهذه الكواكب، حيث أشار إلى خلق الشمس وما يختزنه ضياؤها من بركات: «وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها».

ثم أضاف عليه السلام قائلاً:

«وقمرها آية ممحوة من ليلها».

حيث اختلفت أقوال شراح نهج البلاغة في تفسير هذه العبارة فقال البعض المراد ممحوة بليالي المحاق الليالي الظلماء في آخر الشهر. وقال البعض الآخر القطع السوداء على سطح القمر. وقيل أيضاً المراد بهوت لون القمر تدريجياً بعد منتصف الليل. ولكن لا يبدو أى من هذه التفاسير تاماً، والمراد بقوله ممحوة هو قلة ضياء القمر بالنسبة لضياء الشمس. على كل حال فإن هذه العبارة تتفق تماماً والآيات القرآنية التي عدت الليل والنهار من آيات الله:

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٥٢

«وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ» [٧٣] ولا تخفى بركات ضياء النهار وأشعة الشمس على حياة البشرية التي يعزى إليها كافة الأنشطة والفعاليات والسعي والحركة من أجل العيش والحياة، كما أن الضياء المتواضع واللطيف للقمر في الليالي الظلماء والذي يقود

إلى حل أغلب مشاكل الحياة البشرية، كما كان يستعين الإنسان حين الضرورة في الطرق بضيء القمر ولاسيما في الصحراء. وفي ذات الوقت فإنه ليس على درجة من القوة بحيث يعيق حركته ونشاطه في النهار، وهذه نعمة أخرى من نعمه سبحانه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى حالات الشمس والقمر وفلسفتها الوجودية فقال:

«واجراهما في مناقل [٧٤] مجراهما، وقد سيرهما في مدارج درجهما، ليميز بين الليل والنهار بهما، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما»

، وهو الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عِدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ»، [٧٥] فمعلوم إنفصال الليل عن النهار بواسطة الشمس. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الكواكب فقال:

«ثم علق في جوها فلکها، وناط [٧٦] بها زينتها، من خفيات دراريها [٧٧]، ومصايح كواكبها».

فقد أشار عليه السلام إلى نوعين من الكواكب السماوية: الأول الكواكب الصغيرة التي عبر عنها الإمام عليه السلام بقوله خفيات دراريها، والثاني الكواكب الكبيرة والتي عبر عنها بالقول مصايح. ونعلم بالطبع أن هذا التقسيم للكواكب إلى صغيرة وكبير إنما يستند إلى رؤيتنا، وإلا فإن أغلب هذه الكواكب الصغيرة قد تكون عظيمة الكبر حتى أنها لتكبر شمسنا

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٥٣

التي تعتبر إحدى الكواكب السماوية المتوسطة إلا أنها تبدو صغيرة بسبب بعدها عن أبصارنا، وعلى العكس من ذلك بالنسبة للكواكب التي تبدو لنا كبيرة (من قبيل كوكب الزهرة) والذي يعد جزءاً من سيارات المنظومة الشمسية، وبسبب قربه يبدو شديد الإشعاع، والحال ليست الزهرة إلا كوكب صغير. على كل حال فإن هذه الكواكب السماوية لتزين الليل بما يجعله يخطف البصر، فضلاً عن دلالتها على عظمة الحق سبحانه وعدم تناهي قدرته وحكمته.

طبعاً تشكل الكواكب بدورها عالماً مستقلاً، ويرى أغلب العلماء أن معظمها قد يكون مأهولاً بالسكان وتسودها الحياة؛ غير أنه يتعذر علينا تصور كيفية الحياة عليها، على كل حال فإن دور هذه الكواكب في حياتنا لا يقتصر على تزيين السماء ليلاً فحسب، بل يمكن الاهتداء بها في البحار والصحاري؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» [٧٨] و بغض النظر عن ذلك فلعل الجاذبية بين الكواكب و الأجرام السماوية هي التي ضمنت حفظ و بقاء الكرة الأرضية ثم أشار الإمام عليه السلام إلى ظاهرة أخرى من الظواهر السماوية العجيبة وهي الشهب

«ورمى مسترقى [٧٩] السمع

بشواقب شهبها».

تحدثنا سابقاً بالقدر الكافي عن الشهب وارجعنا القارئ إلى المصدر الذي اسهب في شرح هذا الموضوع، ولكن يبدو تكرارها في هذا الموضوع من كلام الإمام عليه السلام هو أنها قد تبدو للناظر في الأرض أحياناً ككوكب متحرك، ومن هنا أشار إليها الإمام عليه السلام إلى جانب تقسيمه للكواكب. ثم تناول الإمام عليه السلام بعض خصائص هذه الكواكب فقال:

«وأجراها على أذلال [٨٠]، تسخيرها من ثبات ثابتها، ومسير سائرها، وهبوطها وصعودها، ونحوسها وسعدها»

وسنخوض في المباحث القادمة في موضوع الكواكب الثابتة والسيارة والهوط والصعود وكيفيه نحسها وسعدها.

تأملات

١- الكواكب الثابتة والسيارة

نعلم أنّ الكواكب التي نراها في السماء تقسم من جهة إلى قسمين: ثابتة و سياره وسيار.

والكواكب الثابتة هي التي لا- تغير أوضاعها في السماء؛ فهي تطلع من جانب وتغيب في آخر دون أن يرى تغيير في مسافتها (طبعا لها حركة، إلا أنّ هذه الحركة لا تؤثر في المسافات بسبب

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٥٤

بعدها الشاسع عنا). أمّا الكواكب السياره فهي عدّه كواكب ضمن مجموعة المنظومة الشمسية التي تدور حول الشمس، ولما كانت مسافتها قليلة جداً عن الكرة الأرضية بالنسبة لسائر الأجرام السماوية، فإنّ حركتها في السماء واضحة تماماً، وهي في تغيير مستمر لموضعها بالنسبة إلينا.

٢- خصائص الكواكب

هنالك مميزات اخرى للكواكب والنجوم ومنها الهبوط والصعود. فهي تتجه في حركتها نحو الأعلى صاعدة أحيانا وإلى الاسفل نازلة أحيانا أخرى وأوضح نموذج على ذلك الشمس التي تبدأ اوائل الشتاء متألفة في مدارها لتشهد كل يوم في موضع أعلى في السماء، حتى تكون أحيانا فوق الرأس بالضبط وذلك حتى أوائل فصل الصيف حتى تبلغ ذروتها. ثم تبدأ مسيرتها التنازلية منذ شروع الصيف لتصل في أول الشتاء إلى أدنى نقطة في الأرض (طبعا هذه التغييرات ليست مرتبطة في الواقع بالشمس، بل ترتبط بتغيير وضع الأرض في حركتها المدارية حول الشمس وانحراف محور الأرض بالنسبة لسطح المدار بنسبة ٢٣ درجة). فهذه العبارات تدل على إحاطة الإمام عليه السلام بالمسائل الفلكية، حيث أشار إلى هذه المسائل باروع بيان.

٣- سعد ونحس الكواكب

أمّا بشأن سعد هذه الكواكب ونحسها، فلو أردنا النظر إلى بداية هذا الأمر فأنّها تعود إلى جمع من المنجمين القدماء. حيث كانوا يعتبرون بعضها نحساً، ويعتقدون بان طلوعها وتغيير أوضاعها يؤدي إلى وقوع بعض الحوادث في الحياة الخاصة لبعض الأفراد (لأنهم يرون لكل فرد كوكباً)، وبالعكس فإنّ ظهور أو تغيير أوضاع البعض الآخر من الكواكب علامة على السعادة والتوفيق التي تصيب المجتمع أو الفرد؛ والحال نعلم أنّ الإسلام لا يرى من تأثير للكواكب على مصير الإنسان. ويعتبر ذلك نوعاً من الشرك. وقد مر علينا في الخطبة ٧٩ من المجلد الثالث ما قاله أمير المؤمنين على عليه السلام لذلك المنجم الذي قال له حين عزم على المسير

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٥٥

إلى الخوارج: إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم. فغضب عليه السلام ورد كلامه وأنّ من صدقه فقد كذب القرآن الكريم واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه. ثم نهى الإمام عليه السلام الناس عن تعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر. كما تظافت الروايات والأخبار التي وردتنا عن أئمة العصمة عليهم السلام بدم ذلك العلم من النجوم، لتجعل المنجم في مصاف الكاهن والساحر الذي عد كافراً. ومن ذلك ماورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«من صدق كاهنا أو منجما فهو كافر بما أنزل على محمد» [٨١]

، وعدّه أحاديث بهذا الشأن، لاشك أنّ قدماء المنجمين كانوا على مذاهب بالنسبة لإرتباط الكواكب بمصير الإنسان والتي بينت

بصورة تامة في شرح الخطبة ٧٩. ولعله يمكن القول أن هذه الروايات ناظرة إلى الأفراد الذين يرون تدبير هذا العالم بيد هذه الكواكب وأن لها نوع من الالوهية. نعم ليس من الكفر أن يقال للكواكب دلالة فقط على وقوع مثل هذه الحوادث (بأمر الله)؛ ولكن ليس هناك من دليل لاثبات هذا الأمر. فهذه الكواكب عوالمها، كما للكرة الأرضية وسكانها عالم. ولم يقم أى دليل علمي على الرابطة المذكورة، مثلاً طلوع الكوكب الفلاني وغروب الكوكب الفلاني أو إقتران هذا الكوكب مع ذاك مؤثر في نشوب الحرب أو السلم؛ كما لا يمكن في نفس الوقت نفي هذا التأثير بصورة قاطعة وإن سمع ذلك من غير المعصوم. طبعاً لا يسعنا التنكر لما ورد في بعض الروايات التي صرحت بكراهية الزواج والقمر في العقب، إلّا أننا أشرنا في حينه إلى عدم وجود أى تضارب بهذا الخصوص. ومن هنا فإن السعد والنحس الذي ورد في الخطبة قد يكون إشارة إلى هذه الامور. كما يحتمل أن تكون لوضع الكواكب - ولا سيما سيارات المنظومة الشمسية - في مداراتها مقارنته مع بعضها البعض الآخر بعض التأثيرات الطبيعية على الكرة الأرضية. فمثلاً نعلم أن ظاهرة المد والجزر التي تشهدها البحار إنما تنشأ بفعل تأثير جاذبية القمر (إثر اقتراب الشمس من القمر أوائل الشهر وآخره) ولعل تأثيرها يتجاوز البحار لتؤثر حتى على سطح الأرض مما يؤدي إلى تشققها وحدوث بعض الزلازل. كما قد يسبب ذلك التأثير هطول بعض الأمطار الغزيرة على الأرض وعليه فقد يكون السعد والنحس للكواكب إشارة إلى هذا التأثير الطبيعي الخاص.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٥٧

القسم الحادي عشر: خلق الملائكة

«ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لِإِسْكَانِ سَمَاوَاتِهِ، وَعِمَارَةِ الصَّفِيحِ الْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ، خَلْقًا بَدِيعًا مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَمَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا، وَحَشَا بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا، وَبَيَّنَ فِجَواتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ زَجَلَ الْمَسْبُوحِينَ مِنْهُمْ فِي حِطَائِرِ الْقُدْسِ، وَسُتْرَاتِ الْحُجُبِ، وَسِرَادِقَاتِ الْمَجْدِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيحِ الَّذِي تَشْتَكُّ مِنْهُ الْأَسْمَاعُ سُبْحَاتُ نُورٍ تَزْدَعُ الْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا، فَتَقِفُ خَاسِتَةً عَلَى حُدُودِهَا».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة في خلق الملائكة ومختلف المسؤوليات والوظائف التي يقومون بها، بعبارات تبطل فصاحة العرب وتجعل نسبة التراب إلى النضار الخالص كما صرح بذلك ابن أبي الحديد. فقال عليه السلام:

«ثم خلق سبحانه السكان سمواته، وعمارة الصفيح ٨٢] الأعلى من ملكوته، خلقا بديعا من ملائكة، وملأ بهم فروج فجاجها،

وحشاهم فتوق ٨٣] أجوائها [٨٤]».

يمكن ان تكون (ثم) إشارة إلى خلق الملائكة بعد خلق الأرض وما عليها من كائنات، كما يمكن أن تكون وردت للتأخير في البيان

لا الزمان. ويبدو الاحتمال

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٥٨

الأخير أنسب بالالتفات إلى الروايات التي صرحت بخلق السموات قبل خلق الكائنات الأرضية إلى جانب ما جاء في الخطبة الاولى من نهج البلاغة التي مر شرحها. ثم صرح عليه السلام أن أصوات المسبحين قد ملأت أقطار السماء ودوت في حظائر القدس وسترات حجب العظمة:

«وبين فجوات ٨٥] تلك الفروج زجل ٨٦] المسبحين منهم في حظائر ٨٧] القدس، وسترات الحجب،

وسرادقات ٨٨] المجد».

إلّا أن هذا لا يعني ان الملائكة المقربين استطاعوا أن يبلغوا أوج معرفه سبحانه، ومن هنا أتبع الإمام عليه السلام ذلك بقوله أن وراء

تلك الصيحات والتسبيحات، سبحات النور التي تردع الأبصار وتوقفها عند حدها

«ووراء ذلك الرجيح ٨٩] الذي تستك ٩٠] منه

الأسماع سبحات [٩١] نور تردع الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئة [٩٢] على حدودها.

طبعاً لا تعنى هذه العبارة أنّ لله سبحانه وتعالى موضع فى السموات وقد أحيط من كل جانب بطبقات من الأنوار الشديدة، بل المراد أنّ هناك مراكز مقدسة فى عالم الوجود تعجز عن مشاهدتها حتى الملائكة. كما يمكن ان يكون المراد من هذه العبارة أنّ ملائكة ورغم قربها من الله وغرقها فى العبادة والتسبيح، إلّا أنّها عاجزة عن إدراك كنه ذاته وصفاته سبحانه، وليس لها من نصيب سوى على قدر إدراكها.

بعبارة اخرى لو حملنا هذه العبارات وفسرناها على أساس ظاهرها فإنّها تفيد أنّ فى السماء مواضع تتمتع بقديسه خاصه وهاله من النور (وهو المعنى الذى أشارت إليه بعض الروايات والأخبار) [٩٣].

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٥٩

وعلى غرار ذلك فهناك على الأرض بعض المراكز التى تحظى بحرمه وقديسه تفوق غيرها كالكعبة وبيت المقدس، دون ان تكون موضعاً لذاته المقدسة سبحانه. وان حملناها على المعنى الكنائى، فإنّها ستكون دليلاً على أنّ للملائكة حداً لا تتجاوزه رغم قربها وعبادتها وعبادتهم.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٦١

القسم الثانى عشر: وظائف الملائكة

إشارة

«وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ «أُولَى أَجْنِحَةٍ» تُسَبِّحُ جَلَالَ عَزَّتِهِ، لَا يَسْتَجِلُونَ مَا ظَهَرَ فِي الْخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ، وَلَا يَدْعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمَّا انْفَرَدَ بِهِ «بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ» * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» جَعَلَهُمُ اللَّهُ فِيهَا هُنَالِكَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ، وَحَمَلَهُمْ إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَدَاتِعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَبِّ الشُّبُهَاتِ، فَمَا مِنْهُمْ زَائِعٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ، وَأَمِيدُهُمْ بِفَوَائِدِ الْمُعْوَنَةِ، وَأَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضَعِ إِخْبَاتِ السَّكِينَةِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً ذُلُّوا إِلَى تَمَاجِيدِهِ، وَنَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً وَاضِحَةً عَلَى أَعْلَامِ تَوْحِيدِهِ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام هنا فى بيان مختلف صور الملائكة وتقاسمها المسؤوليات و جانباً من منيراتها فقال عليه السلام:

«وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ «أُولَى أَجْنِحَةٍ» تُسَبِّحُ جَلَالَ عَزَّتِهِ» [٩٤].

نقحات الولاية ؛ ج ٤، ص ٦١

ل بعض شراح نهج البلاغه هذه العبارات على ظاهرها وقالوا: الملائكة أشكال مختلفة واقدار متفاوتة ولها أجنحة وهى دائمة التسبيح لله سبحانه. بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ هذه العبارات كناية عن تفاوت مقامات الملائكة ودرجات قوتها وقدرتها. ولما كانت

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٦٢

الأجنحة وسيلة لدى الطيور للتخليق فى السماء وكيفية تفاوتها فى التخليق تبعاً لكيفية هذه الأجنحة، فإنّ هذه العبارة بشأن الملائكة إشارة إلى تفاوتها من حيث القوة والقدرة على القيام بالوظائف والمسؤوليات. صحيح أننا مكلفون بحمل جميع الفاظ القرآن الكريم وكلمات الأئمة المعصومين عليهم السلام على معانيها الحقيقية، دون حملها على الكناية والمجاز ما لم تكن هناك قرينة واضحة فى الكلام، ولكن بالنظر إلى العبارات التى تواصل فيها كلام الخطبة بشأن أوصاف الملائكة، يبدو من المستبعد حمل هذه العبارات على معناها الظاهرى، ومن ذلك:

«ومنهم من قد خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى...»

، وكذلك العبارات التي وردت سابقاً بشأن الملائكة، كالذي ورد فيها في الخطبة الاولى بشأن الملائكة:

«ومنهم الثابتة في الارضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم...» [٩٥]

، فهذه العبارات يمكن أن تكون قرينة واضحة على أن لمثل هذه الأوصاف بعد كنائي ومعنوي لا ظاهري ومادى. ثم أشار عليه السلام في مواصلة كلامه إلى بعض خصائص الملائكة وقال:

«لا ينتحلون [٩٦] ما ظهر في الخلق من

صنعه، ولا يدعون أنهم يخلقون شيئاً معه مما انفرد به»

، ثم اردف عليه السلام كلامه مباشرة بما ورد في القرآن الكريم بشأن التسليم المطلق للملائكة أمام إرادة الله سبحانه وتعالى فقال: «عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ» لا يَشْبَهُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» [٩٧]، نعم فهم آذان صاغية لأوامره سبحانه وانقياد مطلق لإرادته، وهذه أولى خصائص الملائكة التي أشارت إليها الخطبة، كما تشير ضمناً إلى عصمة الملائكة وبعدها عن الذنب والمعصية والخطأ والزلل، فهي تبطل كافة مزاعم مشركى العرب وغيرهم ممن قال بربوبيتها والوهبتها، وتصرفهم بأنهم عباد مطيعون منقادون وليس لهم أن يكونوا شركاء الله في الخلق.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظيفة اخرى من وظائف الملائكة بصفتهم حملة الوحي فقال:

«جعلهم الله فيما هنالك أهل الامانة على وحيه، وحملهم إلى المرسلين ودائع أمره وفهيه، وعصمهم من ريب الشبهات. فما منهم زائع [٩٨] عن سبيل مرضاته»

فالعبرة وإن

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٦٣

نسبت ابلاغ الوحي الإلهي إلى جميع الملائكة، إلّا أنّ المفروغ منه هو أنّ المراد طائفة منهم؛ الأمر الذي صرح به القرآن الكريم بقوله: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا». [٩٩] كما صرح عليه السلام في الخطبة الاولى من نهج البلاغة بهذا المعنى قائلاً: «ومنهم أمانا على وحيه، وألسنة إلى رسله».

و هذا تعبير متداول بشأن الأعمال المهمة التي تصدر من فئة معينة ضمن جماعة لتحسب على أساس تلك الجماعة.

على كل حال فإنّ العبرة تشير إلى مدى أمانة الملائكة في ابلاغ الوحي وايصاله على نحو الدقة دون نقيصة أو زيادة والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار بالعبارتين الأخيرتين إلى عصمة الملائكة من الذنب والزلل، حيث أشارت العبارة الاولى إلى عصمتها عن الشبهة والشك والخطي والثانية إلى عصمتها عن الذنب والمعصية وعدم مخالفة الأوامر الإلهية. كما أشار عليه السلام بربع عبارات إلى عناية سبحانه بملائكة الوحي من أجل قيامها بهذه الوظيفة بصورة صحيحة. قال في العبارة الاولى أنّه أمدهم سبحانه بلطفه وعنايته ليقوموا بهذه الوظيفة الخطيرة على أكمل وجه

«وأمدهم بفوائد المعونة».

ثم قال في العبارة الثانية

«وأشعر قلوبهم تواضع إخبارات السكينة» [١٠٠]

كما فتح لهم باب مدحه وتمجيده وسهل لهم ذلك زيادة في عصمتهم وعلو مقامهم. وهذا ما أورده في العبارة الثالثة

«وفتح لهم أبواباً ذللاً [١٠١] إلى

تماجيده [١٠٢]».

ثم قال في العبارة الرابعة «و نصب لهم منارا واضحة على أعلام توحيده» فقد أوجز الإمام عليه السلام بهذه العبارات أشكال الملائكة

وصورها والفوارق بينها في القوة والقدرة، إلى جانب بيان إحدى أهم وظائفها في ابلاغ الوحي و صفات هذه الطائفة المبلغة للوحي.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٦٤

تأمل: لم الملائكة واسطة الوحي؟

نعلم أن الوحي يحصل بعدة صور: فقد يكون أحياناً بواسطة الملك الذي يحمل رسالة الله من قبيل نزول الوحي على نبي الإسلام بواسطة جبرئيل عليه السلام. كما يكون أحياناً أخرى عن طريق سماع الأمواج الصوتية التي تحدثها القدرة الإلهية في الفضاء كنزول الوحي على نبي الله موسى عليه السلام عن هذا الطريق. كما نزل على النبي صلى الله عليه وآله - طبق بعض الروايات - مثل هذا الوحي في المعراج. كما يحصل عن طريق الإلهام والإلقاء في الروح؛ الأمر الذي حصل للنبي صلى الله عليه وآله في بعض المواقع الضرورية. وهنا يبرز هذا السؤال: مادام هناك طريق للوحي من خلال إيجاد الصوت أو الإلهام، فما الضرورة لأن تكون الملائكة واسطة للوحي؟

للإجابة على هذا السؤال المهم، يمكن القول أن لنزول الملائكة بعض المزايا منها:

١- لما كانت الملائكة موجودات مجردة، وللإنسان - كائننا من كان - بعد مادي وجسماني وروحاني فإن تلقى الوحي عن طريق الملائكة أهون وأسهل على الأنبياء من تلقى الوحي بصورة مباشرة. بينما يكون أصعب وأثقل إن كان بصورة مباشرة.

٢- أن نزول الملك يفيد الاطمئنان أكثر إلى الوحي، إلى جانب الأهمية الفائقة لهذا الأمر، لأن الله أمر أعظم ملائكته للقيام بوظيفة ابلاغ الوحي. والجدير بالذكر أن بعض الروايات والأخبار صرحت بتشجيع فريق من الملائكة (يصل عددهم أحياناً إلى سبعين ألف ملك) لبعض السور القرآنية حين نزول جبرئيل بها على النبي صلى الله عليه وآله لتتضح للجميع أهمية ذلك الموضوع، وبالطبع فإن هذا الأمر لا يتحقق في ظل الإلهام أو سماع الصوت. وإن كانت لهذه الأخيرة خصائصها ومميزاتها.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٦٥

القسم الثالث عشر: الانقطاع إلى الله

«لَمْ تَنْقَلِهِمْ مَوَاصِرَاتِ الْآثَامِ، وَلَمْ تَزَلْهُمْ عَقْبُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَلَمْ تَزَلْ الشُّكُوكَ بِنَوَازِعِهَا، عَزِيمَةً إِيْمَانِهِمْ، وَلَمْ تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَى مَعَايِدِ يَقِينِهِمْ، وَلَا قَدَحَتْ قَادِحُهُ الْإِحْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلَا سَلَبَتْهُمْ الْحَيْرَةَ مَا لَاقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَهَيْبَتِهِ جَلَالَتِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ، وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ الْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ بَرِيئَتَهَا عَلَى فِكْرِهِمْ».

الشرح والتفسير

ذكر الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة ما يكمل كلامه في صفات الملائكة - ولا سيما صفة العصمة عن الذنب والمعصية - ليوضح ذلك بسبع عبارات قصيرة عظيمة المعنى، قال في الأولى أن ثقل الذنوب لم يعجزهم ويقعدهم فهم لا يقارفون الذنب أبداً:

«لم تنقلهم موصرات ١٠٣»

«الاثام»

، في إشارة إلى أن الذنب عادة ما يثقل كاهل الإنسان في مسيرة الطاعة، ولما كانت الملائكة لا ترتكب الذنب قط فهي خفيفة على الدوام ومتأهبة للطاعة، ولذلك لا يبدو صحيحاً ما احتمله بعض شراح نهج البلاغة في تفسيرهم لهذه العبارة من أن الذنوب التي يرتكبها الناس لاتجعلهم متقاعسين في عملهم، وذلك لعدم انسجامه وسائر عبارات هذه الخطبة. ثم أشار عليه السلام في العبارة الثانية إلى أن الذهاب والاياب وتعاقب الليل والنهار لم يسق هذه الملائكة إلى الموت (ليستولى عليها الضعف، فهي متأهبة دائماً للطاعة)

«ولم ترتحلهم عقب ١٠٤» [الليالي والأيام]

، يحتمل أن يكون المراد عدم الانتقال من الحياة إلى الموت، بل الانتقال

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٦٦

من الطاعة إلى المعصية أى أن طول الزمان لم يرهقها قط ولم يبعدها عن طاعة الحق سبحانه وتعالى وقال عليه السلام فى العبارة الثالثة

أن سهام الشك لم تستطع أن ترم عزم إيمانهم:

«ولم ترم الشكوك بنوازعها [١٠٥] عزيمة إيمانهم»

ثم قال عليه السلام فى العبارة الرابعة

«ولم تعترك [١٠٦] الظنون

على معاهد يقينهم»

كما أشار عليه السلام إلى عدم وجود العوامل التى تدعوا إلى إثارة نيران الحقد والعداء والضعينة لديهم (لكى يجد الضعف من سبيل

إلى وظائفهم- وعليه فالملائكة تعمل مع بعضها البعض الآخر بكل تنسيق وانسجام دون اختلاف فى القيام بالوظائف الإلهية)

«ولا قدحت قاذحة الإحن [١٠٧] فيما بينهم»،

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى أن الحيرة لم تسلبهم مالديهم من معرفة وانطوت عليه صدورهم من هيبه لله وعظمه:

«ولاسلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم، وما سكن عن عظمته وهيبه جلالته فى أثناء صدورهم»

يمكن أن يكون المراد بالعبارة أن إيمان الملائكة ومعرفتها بالله وصفات جماله وجلاله على قدر من القوة بحيث لا تختزن أليه أو هام

وحيرة يمكنها إختراق تلك المعرفة أو الحد منها؛ والحال ليس الأمر كذلك لدى الإنسان، فقد يصطدم بعض المؤمنين ببعض

الاضواع التى تؤدى إلى ذهولهم وحيرتهم وزعزعة دعائم إيمانهم. كما يحتمل أن يكون المراد بالحيرة هو عدم بلوغ كنه ذاته

وصفاته، إلّا أنها لا تصدهم عن ذلك الإدراك الإجمالى للذات والصفات فيضطر وعلى غرار بعض الناس وبفعل عدم إدراك كنه

الذات إلى تعطيل صفاته. ثم قال فى الصفة الأخيرة:

«ولم تطمع فيهم الوسوس فتقرع [١٠٨] برينها [١٠٩] على فكرهم»

، فالذى يستفاد من مجموع هذه الصفات هو عدم تسلل أدنى خطأ وشك وترديد وفتور وتقصير إلى أعمال أمناء الوحي من الملائكة،

وهم جاهدون فى ابلاغها إلى الأنبياء والرسل. وضمنا فإن هذا الكلام الشريف رساله إلى جميع الأفراد- ولاسيما دعاه الإسلام

والكتاب- إلى مراعاة الدقة والامانة والإيمان والتسامى والابتعاد عن كافة ألوان الوسوس وأمراض الحقد والبغضاء والعداء والحسد

والشك والترديد فى ابلاغ دعوة الأنبياء ورسالتهم بالشكل الصحيح.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٦٧

القسم الرابع عشر: مدبرات الامور

«وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ الْغَمَامِ الدُّلْحِ، وَفِي عِظَمِ الْجِبَالِ الشُّمَخِ، وَفِي فِتْرَةِ الظَّلَامِ الْأَيْتَمِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ حَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تَحُومَ الْأَرْضِ

السُّفْلَى فَهِيَ كَرَايَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَحَارِقِ الْهَوَاءِ، وَتَحْتَهَا رِيحٌ هَفَافَةٌ تَحْبِسُهَا عَلَى حَيْثُ انْتَهَتْ مِنَ الْجُدُودِ الْمُتَنَاهِيَةِ، قَدْ

اسْتَفْرَعَتْهُمْ أَشْعَالُ عِبَادَتِهِ، وَوَصِلَتْ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وَقَطَعَهُمُ الْإِيْقَانُ بِهِ إِلَى الْوَلَةِ إِلَيْهِ، وَلَمْ تُجَاوِزْ رَغْبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ

إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ».

الشرح والتفسير

تطرق الإمام عليه السلام إلى سائر أصناف الملائكة بعد أن فرغ من صفة ملائكة الوحي، فقال عليه السلام:

«ومنهم من هو فى خلق الغمام الدلح [١١٠] فى عظم الجبال الشمخ [١١١]، وفى قتره [١١٢] الظلام

[الأيهم ١١٣]

، الدلح جمع دالح تعنى السحاب المثقل بالماء، وشمخ جمع شامخ بمعنى المرتفع، وقتره تعنى هنا الخفاء والبطون، وأيهم بمعنى الليالى الدامسة التى لا يهتدى فيها. فالذى يبدو أن مراد الإمام عليه السلام الملائكة الموكلة بالسحب الممطرة والجبال المرتفعة والظلمات، حيث لكل منها سهم

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٦٨

فى تدبير هذا العالم، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم فى الآية الخامسة من سورة النازعات، حيث عبر عن هذه الملائكة بالقول «فَالْمَدْبِرَاتِ أَمْرًا»، كما احتمال أن يكون لهذا الصنف من الملائكة دور فى ايجاد تلك السحب والجبال والظلمات - على كل حال فإن مأمورية هذا الصنف من الملائكة هى مأمورية تكوينية - على الخلاف من ملائكة الوحي حيث لهم مأمورية تشريعية. ثم تطرق عليه السلام إلى صنف آخر من الملائكة فقال عليه السلام:

«ومنهم من قد خرفت أقدامهم تخوم [١١٤] الأرض السفلى، فهى كرايات بيض قد نفذت فى مخارق [١١٥] الهواء، وتحتها ريح هفافة [١١٦]، تحبسها على حيث من انتهت من الحدود المتناهية»

وتشبه هذه العبارة ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبة الاولى من نهج البلاغة التى قال فيها:

«ومنهم الثابتة فى الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم»،

طبعاً هذه العبارات إنما تشير على سبيل الكناية إلى رفعة هذا الصنف من الملائكة وسمو مكانته، واننا لاندرک سوى شبح عنها، وذلك لأننا لانمتلك المعلومات الكافية عن خلقها. ولا يتسنى إدراك حقيقة هذه التعبيرات بصورة تامة سوى لعلى عليه السلام وسائر المعصومين عليهم السلام الذين رفعت عنهم الحجب، وما علينا إلا القناعة والاكتفاء بهذا العلم الإجمالى. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى وصف هؤلاء الملائكة فقال عليه السلام:

«قد استفرغتهم أشغال عبادته، ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته، وقطعهم الايقان به إلى الوله [١١٧] إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره»

، فالعبارات الأربع مرتبطة مع بعضها البعض الآخر قطعاً، فلاشتغال بالعبادة سبب لتقوية الإيمان ورسوخه، كما أن قوة الإيمان تنتهى إلى الحب والعشق، فاذا ملأ حبه كيان الإنسان أو الملك، لم يدعه يفكر فى غيره ولا يطمع إلى ما عند سواه. فقد ورد فى الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها، وأحبها

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٦٩

بقلبه، وياشرها؟، وتفرغ لها؛ فهو لايبالى على ما أصبح من الدنيا على عسر، أم على يسر» [١١٨]

، وواضح أن عبادة الملائكة لاتصدهم عن مأموريتهم فى تدبير شؤون العالم - بأمر الله - ولاعبادة أولياء الله تصدهم عن تدبير دينهم وديانهم ووظائفهم الفردية و الإجتماعية فكل أمورهم إنما تنبعث من حبهم وعشقهم الحق سبحانه وتعالى و السير على طاعته.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٧١

القسم الخامس عشر: خصائص الملائكة

إشارة

«قَدْ ذَاقُوا حَمَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وَشَرِبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ سُورِيَدَاءِ قُلُوبِهِمْ وَشَيْجَةَ حَيْفَتِهِ، فَحَنُوا بِطُولِ الطَّاعَةِ اغْتِدَالَ

ظهورهم، وَلَمْ يُنْفِذْ طَوْلَ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ، وَلَا أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمَ الزُّلْفَةِ رَبِّقَ خُشُوعِهِمْ، وَلَمْ يَتَوَلَّهُمُ الْإِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ وَلَا تَرَكَتْ لَهُمْ اسْتِكَانَةُ الْإِجْلَالِ نَصِيباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ، وَلَمْ تَجْرُ الْفَتْرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طَوْلِ دُؤْبِهِمْ، وَلَمْ تَعْضُ رَغَبَاتُهُمْ فَيَخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ، وَلَمْ تَجِفَّ لَطُولُ الْمُنَاجَاةِ أَسِمَاتُ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَا مَلَكَتُهُمُ الْأَشْعَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهِمْسُ الْجُؤَارِ، إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقَامِ الطَّاعَةِ مَنَاجِبُهُمْ، وَلَمْ يَثْنُوا إِلَى رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَابُهُمْ، وَلَا تَعْدُو عَلَى عَزِيمَةِ جِدِّهِمْ بِلَادَةُ الْغَفَلَاتِ، وَلَا تَنْتَضِلُ فِي هِمَمِهِمْ خَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ».

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة بصورة أعمق عن صفات الملائكة ومقام معرفتهم وعشقهم لله سبحانه و درجات عبادتهم وخضوعهم وخشوعهم. فقد أشار في الواقع إلى ثلاث من الصفات بعبارات رائعة مختلفة، تعرض في العبارة الأولى إلى مقام الملائكة الرفيع في المعرفة وكأنها أسكرت عقولهم وجوارحهم فملأتها حبا وعشقا لله. كما تعرض في العبارة الثانية إلى الطاعة المتواصلة بفضلها الوليدة الطبيعية لهذه المعرفة وأخيراً العبارة الثالثة التي تفيد خلو هذه الطاعة المستمرة من الكلل والملل والتعب والفتور والعجب. كأن الإمام عليه السلام دعا الناس للاقتداء بها واحتذاء طريقها في المعرفة والعبودية والاخلاص. فقال عليه السلام:

«قد ذاقوا

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٧٢

حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الروية [١١٩] من محبته، وتمكنت من سويداء [١٢٠] قلوبهم وشيخة [١٢١] خيفته»

تفيد العبارة:

«قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الروية من

محبته»

أن الملائكة قد إنفتحت على معرفة الله وحبته بكل كيانها حتى نفذ إلى سويداء قلوبها، كما تفيد مفردة تمكنت أن خوف الله قد تجذر في أعماق قلوبها بحيث وظف هذا الخوف والرجاء كل قواها في سبيل طاعة الله؛ وذلك لأن الحب والأمل دون الخوف يسوق الإنسان إلى الغفلة والغرور، كما أن الخوف دون الحب والأمل يقوده إلى اليأس والقنوط. من هنا قال الإمام عليه السلام عقب تلك الصفات:

«فحنوا [١٢٢] بطول الطاعة اعتدال ظهورهم»

فهم دائما على أتم الخضوع وكمال التسليم لله. مع ذلك فإن رغبتهم المتفاقمة في عبادته وكثرتها لم تسلبهم حالة التضرع والخشوع (فلم يتطرق إليها التعب والارهاق)

«ولم ينفذ طول الرغبة إليه مادة تضرعهم»

لا كالأفراد من عديمي المعرفة الخالين من معاني الحب والعشق والخوف والرجاء الذين تتعبهم أدنى عبادة وتسلبهم الرغبة والاقبال عليها. ثم أشار عليه السلام إلى نقطة مهمة أخرى

: «ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة [١٢٣] ربقي [١٢٤] خشوعهم، ولم يتولهم الاعجاب فيستكثروا ما سلف منهم ولا

تركت لهم استكائة [١٢٥] الاجلال نصيبا في تعظيم حسناتهم»

، فهناك نقطة لطيفة كامنة في هذه العبارة أشار إليها بعض شراح نهج البلاغة وهي أن من يقترب من الملوك والسلاطين والشخصيات التي تبدو رفيعة وعظيمة سرعان ما يكتشف أن قدرتهم وشوكتهم قاصرة زائلة مهما بدت كبيرة، وبامكان مقربهم أن يبلغوا هذه القدرة يوماً ما، بل حتى أعظم منها.

وهذا ما يؤدي بدوره إلى الحد من تواضع الآخرين وخضوعهم وطاعتهم لهم، فإن اضطروا إلى تعظيمهم ظاهراً، لم يروا لهم مثل هذه العظمة باطناً. أمّا الملائكة فعلى العكس كلما اقتربت

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٧٣

في مسيرتها من الله تكشفت لها حقائق جديدة عن عظمته المطلقة، فيروا فيه ملامح جديدة من صفات الجمال والجلال. من هنا يزدادون له خضوعاً وخشوعاً وتواضعاً كل يوم، فلا يبقى أمامهم من مجال للاعجاب بالحسنات وإكبارها، بل يرون أنفسهم مقصرين على الداوم تجاهه. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه باماطة اللثام عن هذه الحقيقة وهي عدم كلل الملائكة عن عبادته، وليس للفتور من سبيل إليها، كما ليس هناك ما يصدها عن مواصلة مسيرتها العبادية، بل هي دؤوبة على العباداة بدافع من عشقها وإرادتها وعزمها، على غرار الإنسان الذي لا يكل عن استنشاق الهواء الطلق طيلة عمره وإن امتد لآلاف السنين. ثم تناول الإمام عليه السلام هذه المسألة من مختلف الجوانب بثمان عبارات. فقال في العبارة الأولى

«ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم» [١٢٦]

كما قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز واصفاً الملائكة:

«يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ» [١٢٧] ثم قال عليه السلام في العبارة الثانية:

«ولم تغض [١٢٨]

رغباتهم فيخالقوا عن رجاء ربهم»

، وذلك لأن عشقهم للكمال دائم لا يتوقف، وعلمهم متزايد بربهم - وبناءً على هذا فليس هنالك ما يدعو إلى غفلتهم عن العباداة، أو يقلل من أملهم. وقال في العبارة الثالثة أن طول مناجاتهم لم تجف ألسنتهم وتعجزها عن العباداة:

«ولم تجف لطول المناجاة أسلات [١٢٩] ألسنتهم»

، طبعاً ليس هنالك لساناً وفماً للملائكة كما لدينا، بحيث تقل رطوبته بفعل كثرة الذكر والمناجاة فيصيبه الجفاف واليبس، بل العبارة كناية لطيفة عن عدم ضعفهم وفتورهم في تسيحهم وتضرعهم لله سبحانه وتعالى ثم قال عليه السلام في العبارة الرابعة:

«ولا ملكتهم الاشغال فتقطع بهمس [١٣٠] الجوار [١٣١]، إليه أصواتهم»

، فالواقع ليس لهؤلاء من عمل سوى العباداة والطاعة والعبودية، وهذه الامور جزء لا يجتزأ من ذواتهم ووجودهم وإيمانهم. وليس لهذه الامور أن تخلق أى تعب أو ملل، كالقلب المعافى الذي لا يشعر بالتعب ولو عمل لسنين، وقال عليه السلام في العبارة الخامسة:

«ولم تختلف في مقاوم [١٣٢] الطاعة

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٧٤

مناكبهم»

، ثم أورد فيها عليه السلام بالقول بعدم خلودهم إلى الراحة ليؤدي بهم ذلك إلى التقصير في القيام بمهامهم:

«ولم يثنوا [١٣٣] إلى راحة التقصير في أمره رقابهم»

فهم على أهبة الاستعداد للعبادة على الدوام. ثم اختتم ذلك بقوله عليه السلام:

«ولا تعدوا على عزيمة جدهم بلادة الغفلات، ولا تنتضل [١٣٤] في همهم خدائع الشهوات»

، حقاً أن وجودهم خال من أية شهوة وغفلة، ولهم إيمان وحب لخالقهم على درجة من القوة والرسوخ بحيث لا يتسلل إليهم التعب والملل أبداً في مسيرتهم العبادية وطاعتهم لربهم.

هدف الإمام عليه السلام باختصار بيان حال الملائكة في طاعتها وعبوديتها لله سبحانه بعبارات مفعمة بالكنايات والتشبيهات المقرونة بروعة الدقة، و الجمال ليكون ذلك في الواقع درساً لكافة الأفراد في أن الإنسان إذا شق طريقه إلى الله وسار نحو مقام القرب الإلهي وذاق بروحه وأحاسيسه حلاوة معرفة الله وارتوى من حبه وعشقه، ألا يستشعر التعب والفتور أبداً في مسيرته العبودية وطاعته لربه، وعليه أن يكون أكثر جدياً وعزماً كلما تقدم في هذه المسيرة.

فقد ورد في سيرة الائمة ورواد الطريق من العلماء الأعلام ما يشير إلى أن الإنسان يمكنه أن يكون على غرار الملائكة في هذه الامور، بل له أن يسبقهم ويتفوق عليهم، وذلك لأن الملائكة مجردة من الأهواء والشهوات والغفلة، فاذا نال الإنسان تلك الصفات، كان حقاً أفضل من الملائكة. جاء في الخبر أن الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السلام لم ينقطع أربعين سنة عن صلاة الليل، حتى أنه كان يصلي الصبح بوضوء المغرب:

«إنه عليه السلام صلى أربعين سنة صلاة الصبح بوضوء المغرب» [١٣٥]

، وقال الإمام الباقر عليه السلام في وصفه لعبادة الإمام على عليه السلام:
«ما أطاق أحد عمله وإن كان على بن الحسين لينظر في كتاب من كتب على

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٧٥

فيضرب به الأرض ويقول من يطيق هذا» [١٣٦].

القسم السادس عشر: عودة على بدء في صفات الملائكة

إشارة

«قَدْ اتَّخَذُوا ذَا الْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَاقَتِهِمْ، وَيَمَمُّوهُ، عِنْدَ انْقِطَاعِ الْخَلْقِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ، لَيَقْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ وَلَا يَزْجِعُ بِهِمُ الْإِسْتِهْتَارُ بِلُزُومِ طَاعَتِهِ، إِلَّا إِلَى مَوَادِّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ وَمَخَافَتِهِ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ، فَيَنُوتُوا فِي جِدِّهِمْ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمْ الْأَطْمَاعُ فَيُؤَثِّرُوا وَشَيْكَ السَّعَى عَلَى اجْتِهَادِهِمْ. لَمْ يَسْتَتِعْظُمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ إِشِيَتْغَطُوا ذَلِكَ لَنَسَخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ وَجَلِّهِمْ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِإِسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يُفَرِّقُوا سُوءَ التَّقَاتِعِ، وَلَمَا تَوَلَّاهُمْ غِلُّ التَّحَاسُدِ، وَلَمَا تَشَجَّبَتْهُمْ مَصَائِرُ الرِّيبِ، وَلَا اقْتَسَمَتْهُمْ أَحْيَافُ الْهَمِّ، فَهَمُّ أَسْرَاءِ إِيْمَانٍ لَمْ يُفَكَّهُمْ مِنْ رَبِّيَّتِهِ زَيْغٌ وَلَا عُدُولٌ وَلَا وَنَى وَلَا فُتُورٌ، وَلَيْسَ فِي أَطْبَاقِ السَّمَاءِ مَوْضِعٌ إِهَابٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ، يَزْدَادُونَ عَلَى طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْمًا، وَتَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظْمًا.»

الشرح والتفسير

تطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى صفات أخرى للملائكة (وكان الإمام عليه السلام يوصي الناس بأنكم إذا أردتم أن تصبحوا كالملائكة وتسلخوا سبيل القرب إلى الله، عليكم أن تتحلوا بهذه الصفات) فإشار عليه السلام بادية ذي بدء إلى مقامهم في توحيد الأفعال وتوجههم الخاص إلى ربهم وانصرافهم عن سواه فقال عليه السلام: إنهم جعلوا ذا العرش وحبه وطاعته ذخيرة

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٧٦

ليوم الفاقة وقد خلوا بكل كياناتهم للخالق حين كرس الخلق أفكارهم في المخلوقات
«قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم، ويمموه [١٣٧] عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين

برغبتهم» «ذا العرش»

إحدى صفات الله التي تدل على ذروة عظيمة ذاته سبحانه، وذلك لأن العرش أسمى موجودات عالم الخلق. وقد اقتبست هذه الصفة

من الآية الشريفة: «ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ» [١٣٨]. نعم فلم يتعلق قلب هؤلاء سوى بالله ولا يرون من مصدر غيره للخير والفضيلة والبركة والنجاة في هذا العالم، ولا ينال المؤمن هدفه ما لم يسلك هذا السبيل لمعرفة الله، أما العبارة:

«ذخيرة ليوم فاقتهم»

فتفيد وقوف الملائكة يوم القيامة للحساب وانتظارهم للآجر والثواب. ثم قال عليه السلام:

«لا يقطعون أمد غاية عبادته ولا يرجع بهم الاستهتار» [١٣٩] بلزوم طاعته إلّا إلى مواد [١٤٠] من

قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته»

، نعم فدوافع هؤلاء في الطاعة والعبودية إنّما يستقونها من مصدر خوف الله ورجائه الذي يضاعف معرفتهم بالله وسلوك السبيل المؤدى إلى قربته. ولذلك أكد الإمام عليه السلام في العبارة اللاحقة في أنّ أسباب خوف الله لم تنقطع عنهم ليهنوا في سعيهم وجدهم

«لم تنقطع أسباب الشفقة منهم، فينوا [١٤١] في جدتهم»

ثم أردفها عليه السلام بالقول بأنّ الاطماع لم تأسرهم وتستحوذ عليهم ليقدموا سرعة سعيهم في أمور الدنيا على جدتهم في أمور الآخرة:

«ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيكا [١٤٢] السعى على اجتهادهم»

أجل فالذي يضعف الإنسان في طريق عبوديته الحق هو السقوط في مخالف الأهواء والأطماع التي تعطل قواه وتصده عن طاعة ربّه.

ثم قال عليه السلام: في صفة أخرى من صفات الملائكة

«لم يستعظموا ما مضى من أعمالهم،

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٧٧

ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم»

فالعبارة درس عظيم لكافة الأفراد في استصغار أعمالهم عند الله، وذلك أنّهم إذا أكبروا هذه الأعمال تعلقوا بها وازداد أملهم بها فيفتروا في سعيهم؛ الأمر الذي يسلبهم خوف الله الذي يعتبر من أحد العوامل المهمة للحركة نحو الكمال. وبغض النظر عما سبق فما عسانا أن نكون وما أعمالنا التي تليق بساحة الربوبية المطلقة. كان الحديث في بعض الصفات السابقة عن عدم اعجاب الملائكة بأعمالها ونفسها، وجرى الحديث هنا عن تأثير الاعجاب في تغلب الرجاء على الخوف؛ الأمر الذي يصد أصحاب الحق عن مواصلة مسيرتهم و يمنعهم من التكامل، وذلك لأنّ الإنسان إذا شعر بأكبر أعماله عند الله، راوده الشعور بأنه دائن، ومن رأى نفسه دائنا اكتفى بما أتى من أعمال وتخلف عن سلوك سبيل التكامل.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن سائر خصائص الملائكة التي يحتاجها الإنسان بشدة، ومنها عدم اختلافهم في ربّهم، ثم يعزى الإمام عليه السلام هذا الاختلاف إلى الوسوس الشيطانية أحيانا، أو الرذائل الأخلاقية أحيانا أخرى فقال عليه السلام:

«لم يختلفوا في ربّهم باستحواذ الشيطان عليهم»

فالعبارة تحمل رسالة واضحة للجميع، وهي أنّ مصدر اختلاف المذاهب والأديان إنّما يعود بالدرجة الأساس إلى الوسوس الشيطانية، وذلك لأنّ الاختلاف - لاسيما إن كان عقائدياً - إنّما يفرض لأنواع النزاعات والحروب والاضطرابات؛ الأمر الذي يهدد مصير الإنسان ويقضى على سعادته. ثم أشار عليه السلام بعد ذلك إلى العوامل الداخلية والرذائل الأخلاقية التي تؤدي إلى الاختلاف، وإن التعامل السيء لم يفرق هذه الملائكة، ولم يبعتها الحسد عن بعضها، كما أنّ الشك والترديد لم يفرقها ويشتت أمرها:

«ولم يفرقهم سوء التقاطع، ولا تولاهم عن التحاسد، ولا تشعبتهم مصادر الريب، ولا اقسمتهم أخياف [١٤٣]

الهمم»

فالواقع هو أن عمدة عوامل الاختلاف قد بينت في هذه العبارات القصيرة. فلو تعامل الأفراد مع بعضهم البعض الآخر بشكل صحيح وفق معايير الادب، لحيل دون أغلب

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٧٨

الخلافات التي يفرزها سوء التعامل. وذا لم يحسد بعضهما البعض الآخر لاجتث العامل المهم الآخر من عوامل الخلاف والشقاق. وإن طرحوا عنهم الشكوك في مختلف المسائل وتعاملوا مع ما يواجههم استناداً إلى العلم والمعرفة لحد من نسبة الخلاف. وأخيراً لو أذعن الجميع لاختلاف الأفكار والتوجهات وتشعب الاذواق والآراء لقل حجم التقاطع والانفصال، فقد شاء الله أن يخلق الناس على أنواع واختلاف في الأفكار والتطلعات، ولو هم كل أحد بفرض آرائه على الآخرين، فمن اليقين لتعذر عيش شخصين إلى جانب بعضها دون بروز حالة من التوتر والاضطراب. صحيح أن ليس للملائكة من شهوات كما للإنسان، وأن أغلب دوافع الذنب والمعصية ليست متوفرة فيهم. إلا أنهم على كل حال قد زودوا بالعقل والشعور والاختيار وحب الذات والقدرة على المعصية والتمرد على الطاعة. إلا أن عرفان الملائكة بالله حال دون ارتكابها للذنب؛ وذلك أن مقارفتها للذنب والمعصية كلما كانت متعذرة، كانت جديرة بكل هذا المدح والتمجيد وجعلها أسوة للاقتداء بها من قبل الناس. وبناء على هذا فإن الإنسان إذا بلغ هذه الدرجة من الكمال والمعرفة كان له أن يصون نفسه من التلوث بالذنب. ثم قال عليه السلام: في ختام الكلام على سبيل نتيجة قصيرة بليغة

«فهم اسراء ايمان لم يفكهم من ربقتهم زيج [١٤٤] ولا عدول ولا ونى [١٤٥] ولا فتور»

، فالتعبير بالاسراء والربقة (الحبل ذو الحلقات المتعددة) يفيد مدى التزام الملائكة بالإيمان، فقد سبحوا في بحار معرفة الله وسلموا لذاته المطلقة وكأنهم لفوا أعناقهم بطوق محكم من الإيمان، ولا يستطيع أى عامل أن يرفع هذا الطوق من أعناقهم، ولو عاش الناس مثل هذا التسليم للحق والالتزام بالإيمان، لما وسع دوافع الذنب والمعصية أن تتسلل إلى وجودهم قط. ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه بهذا الشأن بالحديث عن مسألة أخرى وهي كثرة الملائكة وسعة معرفتها، حيث يختتم هنا شرحه لصفات الملائكة، بحيث لا يوجد، أدنى موضع في السماء إلا وقد شغل بملك ساجد، وآخر ساع حافد منهمك في أداء مسؤوليته، ومن شأن هذه الطاعة أن تضاعف معرفتهم لربهم، كما تزداد عزة ربهم في قلوبهم عظمة:

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٧٩

«وليس في أطباق السماء موضع إهاب [١٤٦] إلا وعليه ملك ساجد أو ساع حافد [١٤٧] يزدادون

على طول الطاعة برّبهم علماً، وتزداد عزة ربهم في قلوبهم عظماً».

فالعبارات تفيد كثرة عدد الملائكة من جانب بحيث ملأت جميع أقطار السموات بما فيها مدبرات الأمر وامناء الوحي والمنهمكين بالطاعة والعبودية. من جانب آخر فإن كلا الطائفتين من الملائكة لكثرة طاعتها لربها إنما تزداد يوماً بعد آخر علماً ومعرفة فيصبحوا أكثر قرباً لله ومعرفة به. وهذا درس آخر للناس ليعلموا أن الطاعة والتقوى سبب ازدياد العلم والمعرفة والتعرف على صفات الله الجمالية والجلالية. والواقع هو أن هنالك تأثير متبادل بين الطاعة والتقوى والمعرفة حيث تحكمهما علاقة طردية، فالمعرفة تقود إلى الطاعة، كما أن الطاعة تكون سبباً للعلم والمعرفة الأعمق والأشمل. فقد ورد في الحديث أن رجلاً سأل الإمام الصادق عليه السلام: هل الملائكة أكثر أم الناس؟ فاجاب عليه السلام:

«والذى نفسى بيده لعدد ملائكة الله في السموات أكثر من عدد التراب في الأرض؛ وما في السماء من موضع قدم إلا وفيها ملك يسبحه ويقده» [١٤٨].

تأمل: الناس والملائكة ثانية

بين الإمام عليه السلام في هذا الخطبة صفات الملائكة بصورة واسعة جداً، وبالطبع فإن هنالك هدفا مهما كان ينشده الإمام عليه السلام من ذلك. ويبدو أن للإمام عليه السلام هدفان هما: ذلك المطلب الذي وردت من أجله الخطبة ويكمن في معرفة الصفات بعيدا عن الشرك سواء عن طريق التشبيه أو التعطيل.

والآخر هو سوق الإنسان نحو الملائكة والتحلى بصفاتهما؛ ومنها أنهما كهها بالعبادة والطاعة والتواضع والخضوع واتباع الأوامر؛ فلا يكلون ولا يتعبون ولا يفترون، وليس بينهم من

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٨٠

أحقاد وضغائن وحسد، كما ليس بينهم اختلاف وتفرق وتشتت، وأخيراً لا يكبرون أعمالهم ولا يتسلل إليهم اليأس والقنوط، ولا يفكرون سوى في الله وطاعته. صحيح أن خلق الإنسان يختلف تماماً وخلق الملائكة، فالعقل هو الذي يحكم الملائكة، بينما ركبت إلى جانبه الشهوة في الإنسان. إلا أن هذا الإنسان الخليط من الصفات الحيوانية والعقلانية قد ينحدر حتى يكون كالحيوان الوحشي الكاسر

«بَلْ هُمْ أَصَلُّ»

، كما يمكنه أن يتسامى بفضل ما زود به من استعدادات ليقف الملائكة فيبلغ مرتبة لا تتسنى لغيره «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ لِلْمَلَائِكَةِ أَنْ تَكُونَ قَدْوَةً لِلْإِنْسَانِ.

من جانب آخر فإن العلم. بحضور الملائكة في أرجاء العالم- بحيث ليس هنالك شبراً في هذا العالم المترامي الأطراف يخلو منها- دلالة مهمة على فعالية التدبير الإلهي في هذا العالم؛ الأمر الذي لا يخفى دوره في المسائل التربوية. وناهيك عما سبق فإن هذه الصفات تحمل رسالة مهمة للإنسان وهي عدم الاعتزاز بالأعمال واستكثارها إذا ما وقف بين يدي ربه للصلاة أو ناجي ربه وتضرع إليه، بل إن نهض في جوف الليل وصلى والناس نيام. فيطرد عن نفسه هذه الأفكار الشيطانية، فالذات الإلهية مطلقة غنية ليست بحاجة إلى العبادة، بغض النظر عن كثرة عدد الملائكة التي تتقلب في طاعة الله ساجدة وراكعة وقائمة. والحق أن قدراً من الدقة والتمعن في الصفات التي أوردها أمير المؤمنين على عليه السلام بشأن الملائكة لتأخذ بيد الإنسان إلى عالم النور والعرفان وتوقفه على صغر أعماله وطاعته وتعرفه بسر القرب من الله والفوز برضوانه.

وتكشف النقاب عن عدم عبثية شدة قرب الملائكة من الله، إلى جانب عدم بلوغ الإنسان أهدافه المعنوية الرفيعة المرسومة له دون السعي والجد والاجتهاد والطاعة.

فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حين سأله أحد أصحابه وهو عبد الله بن سنان:

أيهما أفضل الملائكة أم بنى آدم؟ قال عليه السلام أمير المؤمنين على عليه السلام:

«إن الله ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بنى آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم» [١٤٩].

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٨١

طبعاً لا يعنى هذا الحديث أن الملائكة لا تملك لنفسها اختياراً، أو أنها تخلو من عوامل الذنب والمعصية، فعدم وجود الشهوة في الملائكة إنما يحول دونها ودون بعض دوافع الذنوب لاجمعيها.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٨٣

القسم السابع عشر: ظهور اليابسة و استقرار البحار

«كَبَسَ الْأَرْضَ عَلَى مَيُورِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، وَلَجَّحَ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ، تَلْتَطِمُ أَوَاذِي أَمْوَاجِهَا، وَتَضِيحُ مَتَقَادِفَاتُ أُتْبَاجِهَا، وَتَزْعُو زَيْدًا

كَالْفُحُولِ عِنْدَ هَيَاجِهَا، فَخَضَعَ جِمَاحَ الْمَاءِ الْمُتَلَاظِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا، وَسَيَكُنْ هَيِجُ ارْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِهَا، وَذَلَّ مُسْتَخْذِيًا، إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا، فَأَضْرَبِجَ بَعِيدَ اضْطِخَابِ أَمْوَاجِهِ، سَاجِيًا مَقْهُورًا، وَفِي حَكْمِهِ الذَّلُّ مُنْقَادًا أَسِيرًا، وَسَيَكُنُّتِ الْأَرْضُ مَدْحُورَةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ، وَرَدَّتْ مِنْ نَحْوِهِ بِأَوِهِ وَإِعْتِنَائِهِ، وَشَمُوخِ أَنْفِهِ وَسَمُوقِ غُلُوَائِهِ، وَكَعَمْتِهِ عَلَى كِطْطِهِ جَرِيَّتِهِ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ، وَلَبَدَ بَعْدَ زَيْفَانٍ وَتَبَاتِهِ».

الشرح والتفسير

مرّ علينا في الخطبة الأولى من نهج البلاغة ما أورده الإمام عليه السلام بشأن خلق الأرض فقال: ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الأرجاء، وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماء متلاطماً تياره، متراكماً زخاره، حمله على متن الريح العاصفة، والززع القاصفة، فأمرها برده، وسلطها على شدة ... فسوى منه سبع سموات.

وقد أشار الإمام عليه السلام هنا في هذا الموضوع من الخطبة إلى ذلك الأمر الذي ذكره سابقاً في إطار عرضه لخلق الأرض بعبارة جديدة رائعة فقال عليه السلام:

«كبس [١٥٠] الأرض على مور [١٥١] أمواج

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٨٤

مستفلة [١٥٢]، ولجج بحار زاخرة [١٥٣] تلتطم أو اذى [١٥٤] أمواجه، وتصطفق [١٥٥] متقاذفات [١٥٦]

أثابجها [١٥٧] وترغوا [١٥٨] زبداً كالفحول عند هياجها»،

ولعل هذه العبارات من قبيل الأمواج والبحار وأمثال ذلك مما كان موجوداً قبل بداية الخلق، أي في ذلك الزمان الذي لم يكن فيه الماء، بل حتى الليل والنهار، إشارة إلى المواد المذابة التي كانت موجودة قبيل انبثاق الخليفة وقد تلاطمت وتلاشت إثر وقوع الانفجارات العظيمة، فظهرت الرغوات الواسعة على هذه المواد المذابة ثم قذفت في الفضاء لتكون الأرض والكواكب والسيارات، ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مرحلة أخرى من مراحل ظهور العالم فقال:

«فخضع جماح [١٥٩] الماء المتلاطم لثقل حملها،

وسكن هيج ارتمائيه إذ وطئته بكلكلها [١٦٠]، وذل مستخذاً إذ تمعكت [١٦١] عليه بكواهلها [١٦٢]»

، ثم أردف الإمام عليه السلام ذلك بقوله:

«فاصبح بعد اضطخاب [١٦٣] أمواجه، ساجياً [١٦٤] مقهوراً، وفي

حكمة [١٦٥] الذل منقاداً أسيراً»

، فالذي يستفاد من هذه العبارات أن ظهور الأرض (وسائر

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٨٥

الكرات السماوية) على المادة المذابة الأولى كان سبباً لاستقرارها بالتدرج وكبح جماحها واضطرابها. كما يحتمل أن تكون هذه العبارات إشارة إلى الأمطار والسيول في بداية ظهور الكرة الأرضية، بحيث شكلت محيطات متلاطمة، إلا أن هذه الأمواج أخذت بالاستقرار نسبياً على سطح المحيطات بفعل الجاذبية الأرضية. حتى أخذت تظهر اليابسة، من هنا قال لاحقاً بان الأرض قرت وظهرت يبوستها شيئاً فشيئاً وحد من حركات الماء حتى سكن وقر في مكانه

«وسكنت الأرض مدحوة [١٦٦] في لجة تياره، وردت من نحوه بأوه [١٦٧] واعتلائه،

وشموخ [١٦٨] أنقه، وسمو غلوائه [١٦٩] وكعمته [١٧٠] على كظة [١٧١] جريته [١٧٢] فهمد [١٧٣] بعد نزقاته [١٧٤]، ولبد [١٧٥]

بعد زيفان [١٧٦] وثباته [١٧٧]»،

وهكذا خمدت العواصف الأولى وقطعت الأمطار والسيول ثم هدأت تلك الأمواج، فتأهبت الأرض لتقبل الحياة عليها، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في المقطع القادم. وهنا لابد من القول بأن بعض شراح نهج البلاغة ذهبوا إلى أن الماء قد وجد قبل خلق الكرة

الأرضية، إلا أنه كما أشير سابقاً أن التعبير بالماء يمكن أن يكون إشارة إلى المواد المذابة السائلة التي وجدت قبل ظهور السماء والأرض.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٨٧

القسم الثامن عشر: ظهور الجبال والعيون

إشارة

«فَلَمَّا سَكَنَ مَاءٌ مِنْ تَحْتِ أَكْنُفِهَا، وَحَمَلَ شَوَاهِقَ الْجِبَالِ الشُّمَخِ الْبُدْخَ عَلَى أَكْتَفِهَا، فَجَرَ يَنَابِيعَ الْعُيُونِ مِنْ عَرَائِنِ أُنُوفِهَا، وَفَرَقَهَا فِي سُهُوبٍ يَبِيدُهَا وَأَخَادِيدِهَا، وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّسَاتِيَّاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيْبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا، فَسَيَّكَنتَ مِنَ الْمَيِّدَانِ لِرُسُوبِ الْجِبَالِ فِي قِطْعِ أَدِيمِهَا، وَتَغْلُغْلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جُوبَاتِ خَيَاشِيمِهَا، وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ الْأَرْضِ يَنْ وَجَرَائِمِهَا، وَفَسَّخَ بَيْنَ الْجُورِ وَبَيْنِهَا، وَأَعَدَّ الْهَوَاءَ مُتَنَسِّمًا لِسَاكِنِهَا، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَاقِفِهَا».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة - بعد أن شرح كيفية ظهور الأرض - إلى مسألة ظهور العيون والآثار المهمة للجبال في استقرار الأرض ومن عليها، فتطرق إلى أهم أسباب الحياة على الأرض وفي مقدمتها الماء والسكون والاستقرار فقال عليه السلام:

«فلما سكن هيج الماء من تحت أكنافها، وحمل شواهيق الجبال الشمخ البدخ [١٧٩] على أكتافها، فجر ينابيع

العيون من عرائين [١٨١] أنوفها وفرقها في سهوب [١٨٢] بيدها [١٨٣] وأخاديدها [١٨٤]»

فالعبارة تفيد أن أول

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٨٨

ما ظهر على الأرض الجبال ثم تبعها العيون؛ الأمر الذي أيدته أبحاث علم طبقات الأرض حيث تشققت القشرة الأرضية في البداية إثر البرودة، فكان في تلك الشقوق حفر عظيمة استوعبت الماء النازل من السماء ثم جرى بشكل عيون و ينابيع. والعبارة «عرائين أنوفها»

التي تعني ما صلب من عظم الأنف، هي كناية رائعة عن قمم الجبال، بل أن تشبيه نتوءات الجبال بالأنف تشبيه رائع يدل على أن جوف الجبل ليس مملوءاً، بل فيها المزيد من الأجزاء الخالية بحيث تبدوا أحياناً للعيان على هيئة غيران وكهوف ومصادر لادخار المياه.

ثم اشار عليه السلام إلى سكون الأرض والسيطرة على حركتها بالجبال، فقال:

«وعدل حركاتها بالراسيات [١٨٥] من جلاميدها [١٨٦] وذوات الشناخيب [١٨٧] الشم [١٨٨] من صياخيدها [١٨٩]».

وهكذا سكنت حركات الأرض بفعل نفوذ الجبال في سطحها ورسوخها في الأعماق واستقرارها على الفلاة فحالت دون اضطرابها:

«فسكنت من الميدان [١٩٠] لرسوب الجبال في

قطع أديمها [١٩١] وتغلغها [١٩٢] متسربة [١٩٣] في جوبات [١٩٤] خياشيمها [١٩٥]، وركوبها أعناق سهول

الأرضين وجرائيمها [١٩٦]».

والحق أن ما أورده الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة هو ذات ما أثبتته العلم الطبيعي؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم في أن الجبال بمثابة مسامير الأرض:

«وَالْجِبَالِ

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٨٩

أوتاداً» [١٩٧]

، كما صرح القرآن قائلاً: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» [١٩٨]. طبعاً هناك عدة فوائد أخرى للجبال؛ ومنها خزن المياه التي تخرج منها أحياناً كعيون، وأحياناً أخرى على هيئة صقيع كثير ذاب ماءً فشكل الأنهار، ناهيك عن سائر فوائد التي ذكرناها في شرح الخطبة الأولى في المجلد الأول من هذا الكتاب. ثم أشار عليه السلام إلى أمور مهمّة أخرى لاعداد الأرض بغية عيش الإنسان وممارسته حياته عليها، في أنّ الله جعل فاصلة بين الأرض والجو، وأعد الهواء والنسيم إلى جانب توفير كافة ما يحتاج إليه سكنه الأرض:

«وفسح بين الجو وبينهما، وأعد الهواء متنسماً [١٩٩] لساكنها، وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها [٢٠٠].»

، فقد ضمنت هذه العبارة أشاره إلى الأركان الأصلية للحياة ومعيشة الإنسان والحيوان، وفي مقدمتها الهواء، أو بعبارة أخرى الاوكسجين الذي لا يستغنى عنه الإنسان لبضع (دقائق حيث يموت إذا قطع عنه. إلّا أنّ الحق سبحانه وتعالى خلقه بكمية كافية وفي جميع الاماكن بحيث يحصل عليه الإنسان دون أدنى جهد أو تعب. كما يحصل عليه الجميع على السواسية غنيهم وفقيرهم وكبيرهم وصغيرهم وعجوزهم وفتاهم وعاجزهم وناشطهم. ثم أشار على نحو الاجمال إلى كل ما يلزم الإنسان والحيوان للمعيشة على الأرض بعبارة قصيرة أو جزها في المفردة «المرافق». أمّا ما المراد بالجوف في العبارة الذي فصله الله عن الأرض، فقد قال البعض المراد به الفضاء، ولما لم يكن الفضاء جسماً أو مادة فلا يبدو التعبير بايجاد الفاصلة بينه وبين الأرض مناسباً. ويمكن أن يكون المراد بالجوف الطبقات التي وراء الهواء، كطبقة الأوزون التي لا يمكنها تلبية الحاجة التنفسية للإنسان لو كانت فاصلتها مع الأرض قليلة، وكانت الطبقة الجوية رقيقة. أضف إلى ذلك فانها تدعو إلى اضطراب سائر شرائط حياة الإنسان وكافة الأحياء على الأرض.

تأمل: أسرار خلق الجبال

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٩٠

لقد أعد الحكيم سبحانه بمقتضى قدرته وعلمه كافة أسباب الحياة ومتطلبات العيش والوسائل التي يحتاجها الإنسان قبل خلقه؛ الأمر الذي أشارت الخطبة إلى جانب منه، ومن ذلك استقرار الأرض، فلو كانت القشرة الأرضية في حالة حركة لتعذرت الحياة عليها، والآخر توفير الهواء بهذه الصورة الواسعة حيث يعتبر مادة الحياة في السفر والحضر وفي البيت وخارجه وفي اليقظة والنام وهو معه أينما كان، وتوفير المياه والعيون وجعلها تحت تصرف الإنسان، إلى جانب نزول الأمطار التي تروى كافة المواضع المرتفعة والعالية وتروىها بالمياه، وهذا ما سيأتي ذكره في الأقسام القادمة من الخطبة.

وظهور الجبال التي تلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان، بل يمكن القول أنّ الحياة البشرية مهددة بالاختار لولا هذه الجبال للأسباب التالية.

أولاً: دورها في الحيلولة دون اضطراب الأرض بفعل الضغط الداخلي.

ثانياً: الحيلولة دون عدم استقرار الأرض إثر الضغط الخارجى الناجم عن جاذبية الشمس والقمر وظاهرة المد والجزر الناشئة عنهما.

ثالثاً: كونها الملجأ الأمن ازاء العواصف التي تهدد كل مقومات وعناصر حياة الإنسان.

رابعاً: وسيلة لايقاف السحب ونزول الأمطار.

خامساً: عامل مهم لادخار المياه بصورة صقيع متراكم في سطحها الخارجى بحيث تتحول بالتدريج إلى ماء طيلة السنة.

سادساً: موضع للآبار الجوفية التي تختزن في حفر عظيمة داخلها وتجرى كعيون.

سابعاً: تمنع الاصطدام الشديد للهواء بطبقة الأرض.

ثامناً: تجعل الأرض قابلة للاستفادة العملية، وبالنظر لاختلاف درجات حرارة وسط الجبال ونقاطها العلوية والسفلية فانها توفر مناخاً مناسباً لنمو مختلف النباتات والمحاصيل.

تاسعاً: انها مراكز للمعادن العظيمة التي تلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان.

عاشراً: يستخرج منها بعض المواد المهمة في البناء ولاسيما الحجر.

ومن هنا عدّها القرآن الكريم من النعم العظيمة ذات الفوائد الكثيرة، فقال «وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» [٢٠١].

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٩١

القسم التاسع عشر: إحياء الأرض الميتة بالسحب الممطرة

إشارة

«ثُمَّ لَمْ يَدْعُ جُرُزَ الْأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا، وَلَا تَجِدُ جِدَاوِلَ الْأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا، حَتَّى أَنْشَأَهَا نَاشِئَتَهُ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتِنَهَا، وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا أَلْفَ غَمَامَهَا بَعْدَ افْتِرَاقِ لُمَعِهِ، وَتَبَايِنِ قَزَعِهِ، حَتَّى إِذَا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ الْمُزْنِ فِيهِ، وَالتَّمَعَ بَرْقُهُ فِي كُفْفِهِ، وَلَمْ يَنْمِ وَمِيضُهُ فِي كَنْهَوْرِ رَبَابِهِ، وَمُتْرَاكِمِ سَحَابِهِ، أَرْسَلَهُ سَيْحًا مُتَدَارِكًا، قَدْ أَسْفَ هَيْدَبُهُ، تَمْرِيهِ الْجَنُوبُ دَرَرَ أَهَاضَةٍ بَيْنِهِ، وَدَفَعَ شَائِبِيهِ. فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحَابُ بَرْكَ بَوَائِنِهَا، وَبَعِيَاعَ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ الْعَبءِ الْمَحْمُولِ عَلَيْهَا، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الْأَرْضِ النَّبَاتِ، وَمِنْ زُغْرِ الْجِبَالِ الْأَعْشَابِ، فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِيَاضِهَا وَتَزْدَهِي بِمَا أَلْبَسَتْهُ مِنْ رَيْطِ، أَزَاهِيرِهَا، وَحِلْيَةِ مَا سَمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا، وَجَعَلَ ذَلِكَ بَلَاغًا لِلْأَنَامِ، وَرِزْقًا لِلْأَنْعَامِ، وَخَرَقَ الْفِجَاجَ فِي آفَاقِهَا، وَأَقَامَ الْمَنَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِّ طَرْفِهَا».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى نعمة مهمة أخرى لا تتم الحياة بدونها على سطح الأرض، حيث شرحها بعبارات لطيفة رائعة، فقال عليه السلام:

«ثم لم يدع جرز الأرض التي

تقصر مياه العيون عن روايها [٢٠٣]، ولا تجد جداول الأنهار ذريعة إلى بلوغها، حتى أنشأ لها

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٩٢

ناشئة السحاب تحيي، مواتها وتستخرج نباتها».

الجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام أشار بصورة عابرة إلى الاقسام الثلاثة للرعى والسقى: السقى الطبيعي بواسطة العيون المليئة بالمياه، والسقى عن طريق الجدوال والآبار وتوجيه مياه الأنهار الطبيعية، والسقى عن طريق الأمطار الأهم من كل ذلك، وذلك لوجود بعض المناطق في الأرض التي يتعذر سقيها بغير الأمطار، وهي المناطق الكثيرة، فلولا مياه الأمطار لماتت أجزاء واسعة من الأرض. اضعف إلى ذلك فما لاشك فيه أن الأنهار والعيون إنما تكتسب مياهها من الأمطار. على كل حال فإن السحب وبالتالي الأمطار تقوم بهذه المهمة في السقى و التي كلفها بها الله فقال عليه السلام:

«الف غمامها بعد افتراق لمعه [٢٠٤]، وتباين قزعه [٢٠٥]، حتى إذا تمخضت [٢٠٦]

لجئة المزن [٢٠٧] فيه و التمتع برقه في كففه [٢٠٨]، ولم ينم وميضه [٢٠٩] في كنهور [٢١٠] ربابه [٢١١]، متراكم

سحابه، أرسله سحاً [٢١٢] متاركاً، قد أسف [٢١٣] هيدبه [٢١٤]، تمرية [٢١٥] الجنوب درر [٢١٦] أهاضيه [٢١٧]، ودفع

شايبيه [٢١٨]»

، فقد استبطنت هذه العبارات عدّة مواضيع علمية مهمة: ومنها الإشارة إلى مهمّة

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٩٣

الرياح التي تؤلف بين السحب المتفرقة المنبعثة من البحار لتتكون منها الأمطار الغزيرة. ثم تطرق عليه السلام إلى تجمع السحب والغيوم والضغط الذي تسلطه كل واحدة على الأرض تأهباً لهطول الأمطار إلى جانب دور البرق في ذلك الهطول، لاننا نعلم أنّ البرق إنّما يحصل من خلال الكهرباء الموجبة والسالبة، فيجذب إليه مقداراً كبيراً من الهواء ويقلل من ضغطه فاذا قلّ ضغط الهواء تمهدت الظروف لسقوط الأمطار. ثم واصل الإمام عليه السلام الكلام في دور الرياح وأنها بمثابة الأصابع التي تستخرج الحليب من ضرع الثدي، فتفصل السحب والغيوم عن الهواء وتبعث بمياه الأمطار هنا وهناك. فكل هذه الامور تشير إلى أن الخالق الحكيم قد أعدّ جميع المقدمات ودبر كافة الاسباب من أجل رى الاراضى المرتفعة والجافة. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى آثار المطر على الأرض وما ينطوى عليه من بركات وفوائد فقال:

«فلما ألفت السحاب برك [٢١٩]

بوانبها [٢٢٠] وبعاع [٢٢١] ما أستقلت [٢٢٢] به من العبث [٢٢٣] المحمول عليه، أخرج به من هوامد [٢٢٤] الأرض

النبات، ومن زعر [٢٢٥] الجبال الأعشاب»

، فقد أشارت هذه العبارات الرائعة إلى مسألة وهي أنّ السحب كأنّها حبلى فاذا هطلت الأمطار الثقيلة وضعت حملها؛ الحمل الذي يفيض الحياة والبركة والجمال لكى تشمل الصحارى الجرداء أطراف قمم و سفوح الجبال- التي يصعب على الإنسان سقيها- فتخرج منها النباتات التي تعود بالفائدة على الناس. ثم واصل عليه السلام حديثه برسم صورة رائعة عن الطبيعة التي تتمخض عن ذلك المطر، فقال

«فهي تبهج [٢٢٦] بزينة

رياضها، وتزدهى [٢٢٧] بما البسته من ريط [٢٢٨] أزاهيرها [٢٢٩] وحيلة ما سمطت [٢٣٠] به من ناضر [٢٣١]

أنوارها [٢٣٢]».

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٩٤

ومن الواضح جداً دور الطبيعة وجمالها في صفاء روح الإنسان وإزالته لتعبه وارهاقه إلى جانب تفعيل قوته وطاقته؛ وعليه فالحديث لا يقتصر على مسألة الجمال، وإن كان هذا الجمال يمثل جانباً من جمال الحق سبحانه وجلاله؛ بل إنّ هذا الجمال يعد أحد عوامل بقاء الحياة وديمومتها، بل ذهب بعض العلماء إلى أهمية دروه حتى في نشاط الحيوانات. ثم قال عليه السلام بأنّ كل ذلك زاد ومتاع للإنسان ورزق للانعام:

«وجعل ذلك بلاغاً [٢٣٣] للأنام، ورزقاً للأنعام»

، فالإنسان لا- يستفيد من نعم الطبيعة على مستوى الغذاء فحسب، بل يؤمن عن طريقها لباسه ومسكنه ومركبه، وبصورة عامة كافة حاجاته ومتطلباته. قال القرآن الكريم بهذا الشأن: «أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدائقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَتَاعاً لَكُمْ * وَالْأَنْعَامِكُمْ» [٢٣٤].

نعم فالإنسان لا يتغذى على النباتات وثمارها، وينسبح مفروشاتة من مختلف أليافها فحسب، بل يبنى بيوته من خشبها وينصب الخيام من أليافها، كما يغطى أغلب حاجاته ومتطلباته عن طريق منتجات الحيوانات التي تتغذى على النباتات. ثم اختتم خطبته عليه السلام بالاشارة إلى مسألة مهمّة اخرى خلقها الله في الأرض من أجل الإنسان:

«وخرق الفجاج [٢٣٥]

في آفاقها وأقام المنار للسالكين على جواد [٢٣٦] طرقها».

فادنى نظرة إلى الأرض وكل بقعة من هذه الكرة الأرضية يتضح من خلالها بأنّ الجبال لم تحول دون الحركة على الأرض أو بفصل بعض بقاعها عن البعض الآخر فحسب، بل جعل في كافة مواضعها الاودية والشقوق لا يصلها مع بعضها عن طريق السبل والجادات وما إلى ذلك: وقلما يلتفت الإنسان أنه لولا وجود هذه الجادات و الجبال العملاقة المتصلة مع بعضها و التي تشكل جدارا لمنع عبور الناس و الحيوانات و تقسم الأرض إلى أقسام متناثرة لتعرض لعظيم البلاء و عاش أشد الفاقة: «وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٩٥

يَهْتَدُونَ» [٢٣٧]

، وقال: «وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ» [٢٣٨].

تأمل: سعة قاعدة اللطف في التكوين والتشريع

جرت عادة أهل التدبير والحكمة على توفير كافة المقدمات والأسباب التي توصل إلى الهدف، ويتجلى هذا الأمر بأعظم أبعاده في الخالق الحكيم سواء في عالم التشريع والتكليف، أم في عالم العينية والواقعية، فقد أعد كافة الشرائط ومهد جميع السبل في عالم التكليف من أجل الطاعة، حيث زود الإنسان بالعقل والذكاء والفضيلة والسليمة وانزل الكتب السماوية وبعث الرسل والأنبياء ليتسنى للعباد اتخاذ سبيل الطاعة؛ الأمر الذي اصطلح عليه باللطف في علم الكلام. وفي عالم الخلق فإنّ الله سبحانه أعد كافة وسائل الحياة قبل أن يضع الإنسان قدمه على هذا العالم، فقد أقر سطح الأرض وحال دون حركاتها الطائشة بواسطة الجبال، وشق فيها الآبار والأنهار التي تعتبر مادة الحياة، وسخر السحب لرى المرتفعات، كما خلق مختلف النباتات التي يتغذى عليها الناس والحيوانات كما أوجد الجواد وسط الجبال لعبور الناس ومشيههم، وسهل للناس روابطهم الاجتماعية، بل منح أرواحهم السكينة والهدوء بما زين به الطبيعة من ورود وأزهار. نعم هذا هو معنى الحكمة والتدبير والربوبية الذي أشار إليه أمير المؤمنين على عليه السلام في هذا الموضع من الخطبة، والذي يعرف الإنسان بعلم الله وقدرته وحكمته من جانب، كما تثير لديه حس الشكر - مادة الطاعة والعبودية - وهو الأمر الذي ورد كرارا في القرآن ومن ذلك في سورة النحل بعد ذكره لخلق السموات والأرض والانعام ونزول الأمطار من السماء و خروج الأشجار و نمو الزرع و أنواع الثمار و الفاكهة و حركة الشمس و القمر و خلق البحار على أنها من نعمه التي لا تعد و لا - تحصى. حيث قال: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» [٢٣٩].

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٩٧

القسم العشرون: خلق آدم وبعثه الأنبياء

«فَلَمَّا مَهَّدَ أَرْضَهُ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ، اخْتَارَ آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، خَيْرَهُ مِنْ خَلْقِهِ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبَلْتِهِ وَأَسْرَكَهُ جَنَّتَهُ، وَأَزْعَدَ فِيهَا أَكْلَهُ، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَا عَنْهُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الإِقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ، وَالْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ؛ فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَا عَنْهُ - مَوْافَاهُ لِسَابِقِ عِلْمِهِ - فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ لِيُعْمَرَ أَرْضَهُ بِسَلْبِهِ، وَلِيُقِيمَ الْحُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ، وَيَصِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسِنِ الْخَيْرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَمَتَحَمَّلِي وَدَائِعِ رِسَالَتِهِ، فَرَزْنَا فَرَزْنَا؛ حَتَّى تَمَّتْ بِنَيْبِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حُجَّتُهُ، وَبَلَّغَ الْمُقَطَّعَ عُدْرَةَ وَنُذْرَهُ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة في قضية خلق آدم بعد خلق الأرض و إعدادها من جميع النواحي، وأنّ الله سبحانه قد أعد الأرض و انفذ فيها أمره ثم اصطفى آدم عليه السلام من بين جميع خلقه:

«فلما مهد أرضه، وأنفذ أمره، اختار آدم عليه السلام، خيره من خلقه، وجعله أول جبلته» [٢٤٠]

، والعبارة

«أول جبلته»

(أول مخلوقاته) يمكن أن يكون المراد بها الإنسان الأول من حيث الترتيب الزماني، أو أول مخلوق من حيث الموقع. والمقام، أو كلاهما.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٩٨

ثم قال عليه السلام بأن الله سبحانه أسكن آدم جنته وزوده بمختلف الأطعمة والأشربة، ثم حذره ما حظر عليه والعاقبة الخطيرة لتجاوز أمره ونهيه على مقامه وكرامته:

«وأسكنه جنته، وأرغد فيها أكله، وأوعز [٢٤١] إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أن في الأقدام عليه التعرض لمعصيته، والمخاطرة بمنزلته».

نعم فقد أسكن الله آدم عليه السلام في جنة أرضية (جنة غناء بالفاكهة من جنات الأرض، والشاهد على ذلك قوله: «فلما مهد أرضه»

، ثم بين لآدم عليه السلام تكليفه وأصدر له وأوامره ونواهيته وحذره من معصيته وعدم طاعة أوامره، والعبارات وان لم تصرح بالشجرة المنهية، غير أنها بينت بصورة عامة؛ الأمر الذي ورد كراراً في عدة آيات قرآنية ومنها الآية: «وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» [٢٤٢] والآية «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» [٢٤٣].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأن آدم وقع في ما حذر منه:

«فأقدم على ما نهاه عنه، موافاةً لسابق علمه».

قد يبدو في البداية أن العبارة:

«موافاةً لسابق علمه»

، أن آدم عليه السلام - قد أجبر على المعصية وذلك لأن علم الله سبق في هذا الأمر (وهذه هي الشبهة المعروفة لدى المجبرة في مسألة العلم الأزلي لله سبحانه)، ولكن كما ذكرنا ذلك سابقاً في بحث الجبر والتفويض، أن العلم الأزلي ليس سبباً الاجبار على فعل قط! لأن الله كان يعلم أن آدم عليه السلام سيقارف هذا العمل باختياره، بالضبط كالاستاذ الذي يعرف تلميذه سيسقط في الامتحان النهائي بسبب إهماله وكسله في الدروس. فمثل هذا العلم من قبل الاستاذ ليس له أية صلة برسوب ذلك التلميذ أو اجباره عليه. فهو يعلم أن تلميذه اختار طريقاً خاطئاً بمحض إرادته، وقد اعتاد الكسل والتقاعد دون الجد والمطالعة والمثابرة [٢٤٤] ومن هنا آخذه الله وخاطبه: «أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفُؤٌ مُبِينٌ» [٢٤٥].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٩٩

فلو كان آدم عليه السلام مجبوراً كيف يؤاخذه الحكيم سبحانه على فعل لم يكن مختاراً في ارتكابه، كذلك لماذا يندم آدم عليه السلام على ذلك الفعل ويتوب منه، أم كيف يخرج الله سبحانه من الجنة بذلك الفعل؟ كل هذه الامور تدل على عدم وجود أي تضارب بين العلم الأزلي لله سبحانه مع اختيار آدم وسائر أفراد البشر، ثم قال عليه السلام:

«فأهبته [٢٤٦] بعد التوبة ليعمر الأرض بنسله،

وليقيم الحجة به على عباده».

فبالنظر للعبارة السابقة

«أسكنه جنته»

يفهم أن هبوط آدم ونزوله لم يكن هبوطاً مكانياً، بل مقامياً، أى أن الله أهبط آدم من ذلك المقام الرفيع الذى كان عليه لتركه ذلك الاولى.

والعبارة:

«ليعمر أرضه بنسله»

تفيد أن هدف كافة الأفراد لابد أن يكون إعمار الأرض لا اضرارها بالحروب والقتال والنزاعات والخلافات أو الخمول والكسل والتقاعد عن العمل أو حتى تلويث البيئة السالمة! والطريف أن هذا الاعمار جاء بعد التوبة، فما لم يتب الإنسان من أخطائه وزلله لا يوفق لهذا البناء والاعمار، فقد جاء فى القرآن الكريم «هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرْ لَهُ ثُمَّ تُوْبُوا إِلَيْهِ» [٢٤٧].

كما يستفاد من العبارة:

«فأهبطه بعد التوبة»

بأن ذلك الهبوط قد حصل بعد التوبة.

النقطة المهمة الاخرى فى العبارة التى أشير إليها مراراً فى القرآن مسألة اتمام الحجّة على العباد. فالله سبحانه وإن زود الإنسان بالعقل، إلّا أنه لم يكتف بذلك فواتر إليه كتبه ورسله وأنبيائه والدعاة إلى طاعته- فى كل عصر ومصر- ليم الحجّة على العباد، وهذا ما أورده الإمام عليه السلام فى حديثه بين بنى آدم وواتر إليهم الأنبياء ليؤدوا رسالات ربهم وقيموا عليهم الحجج:

«ولم يخلهم بعد أن قبضه، ممّا يؤكد عليهم حجّة ربوبيته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على السن الخيرة من أنبيائه، ومحتملى ودائع رسالاته، قرناً [٢٤٨] فقرناً؛ حتى تمت بنينا محمد صلى الله عليه و آله حجته، وبلغ المقطع [٢٤٩] عذره ونذره [٢٥٠]»

، تفيد بعض

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٠٠

الآيات القرآنية وجود التوبة سابقاً، كما تفيد آيات اخرى وجودها لاحقاً، ويمكن الجمع بينهما، فى أن آدم عليه السلام تاب مرات من خطيئته من قبل الهبوط وبعده، وما أكثر ما يخطئ الإنسان ويكثر من الاستغفار كلما عرض له ذلك الخطاء. العبارة

«لم يخلهم بعد أن قبضه» [٢٥١]

، تفيد أن آدم عليه السلام هو أحد أنبياء الله وحججه، وأن الله واطر أنبيائه بعد آدم عليه السلام حتى ختمهم بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وهنا يبرز هذا السؤال: إذا كان اتمام الحجّة ضرورة فى كل زمان ومكان/ لم ختمت النبوة بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فكان صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء؟ وتتضح الاجابة على هذا السؤال من خلال التفات إلى هذه النقطة وهى أن الله أنزل آخر أوامره وأحكامه وأكمل قوانينه وتعاليمه على نبي الإسلام، فكانت شريعته أكمل الشرائع وأشملها، بحيث يمكن للبشرية برمتها أن تحتذيتها فى مسيرتها إلى السعادة والفلاح، ولا سيما أن نسل الأوصياء عليه السلام الامتداد الحقيقى للنبي صلى الله عليه وآله مائل إلى يوم القيامة، ومن أراد المزيد فليراجع المجلد الثامن من كتاب نفحات القرآن بحث الخاتمية.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٠١

القسم الحادى والعشرون: الرزق وسيلة الامتحان

إشارة

«وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا، وَقَسَمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِيُنْتَلَى مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا، وَلِيُخْتَبَرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَيْرِهَا وَفَقِيرِهَا. ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقْتَبَلَهَا، وَبَسَلَمَامَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا، وَبَفَرَجِ أَفْرَجِهَا غَصِيصَ أَتْرَاحِهَا، وَخَلَقَ الْأَجْيَالَ فَأَطَالَهَا

وَقَصَّرَهَا، وَقَدَّمَهَا وَأَخْرَجَهَا، وَوَصَلَ بِالْمَوْتِ أَسْبَابَهَا، وَجَعَلَهُ خَالِجًا لِأَشْطَانِهَا، وَقَاطِعًا لَمَرَائِرِ أَقْرَانِهَا.

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام كلامه بالأدلة الدامغة والواضحة بشأن اتمام الله سبحانه للحجة على العباد من خلال إنزال الكتب السماوية وبعث الأنبياء والرسل بالحديث هنا عن وسيلتين للامتحان الإلهي للعباد في مختلف مراحل تكليفهم، فأشار في الاولى إلى مسألة الرزق التي قدرها وتعرضها للزيادة والتقيص:

«وقدر الارزاق فكثرتها وقللها، وقسمها على الضيق والسعة»

وبغية الحيولة دون التصور بأن هذا التفاوت في الرزق بين العباد يتناقض والعدالة، بادر الإمام عليه السلام إلى القول بتقسيمها على ضوء العدل

«فعدل فيها»

في إشارة إلى أن العدالة لا تعنى المساواة والتكافى، بل العدالة تعنى الايصال على ضوء مصلحة الشخص، فقد ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن الله سبحانه وتعالى قال:

«إن من عبادى من لا يصلحه إلا الفاقة ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الصحة ولو أمرضته

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٠٢

لأفسده ذلك» [٢٥٢]

، ثم تعرض عليه السلام بصورة أعمق لهذا الأمر قائلاً:

«ليبتلى من أراد بميسورها

ومعسورها، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها»

، يمكن أن يكون هذا التفاوت في الأشخاص مختلفاً؛ فتتمتع فئة بنعمة جمّة لترى في ميدان الاختبار هل أدت شكر هذه النعمة وأفاضت بعضها على المحرومين، ووضعت الأموال مواضعها الصحيحة، أم بالعكس فإنّ زيادة الثروة أبعدها تماماً عن الخالق والمخلوق وجعلها تسبح في بحر من الغرور والغفلة. أم أن ضيق الرزق حطم صبر هذه الجماعة وقضى على استقامتها واضطراها إلى مقارفة الحرام وجحود النعمة والأعراض عن الله سبحانه وتعالى

بل إنّ هاتين الحالتين قد تتحققان في نفس الشخص، فقد يكون غنياً أحياناً، كما قد يكون فقيراً أحياناً أخرى، وهو ممتحن في الحالتين في شكره وصبره وجحوده وجزعه ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى هذه النقطة في أن الغنى والفقر والصحة والمرض ليست من الامور المنفصلة عن بعضها ليستند الإنسان على واحدة منها، بل هي قريباً متداخلة مع بعضها، في أن البارئ سبحانه خلط سعة الرزق بما يتبقى من الفقر والفاقة، والصحة والعافية والسلامة بالحوادث الإلهية، والسرور والافراح بالأحزان والاتراح: «ثم قرن بسعتها عقابيل فاقتها، وبسلامتها طوارق آفاتها، وبفرج أفرانها غصص أترانها» [٢٥٣]،

حتى لا يغتر أحد بغناه وعافيته وفرحه وسروره، ويعلم الجميع بان هذه الامور معرضة للزوال والتبدل والعدم على الدوام وفي كل مكان ولدى كائن من كان و أنها تنقلب يوماً إلى ما يصادها.

وسالمتك الليالى فاغتررت بها وعند صفو الليل يحدث الكدر

و بالنظر إلى أنّ

«عقابيل»

جمع عقبولة على وزن جرثومة تعنى الشدائد وبقايا الأمراض والمشاكل التى تتمثل بقروح صغيرة تخرج بالشفة: فإنّ العبارة المذكورة تفيد أنّ المشاكل

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٠٣

والمصائب وآثارها وبقيائها تلازم دائما الراحة والهدوء ولا تفارقهما أبداً، والعبارة:

«يفرج أفرانها غصص أترانها»

تأكيد آخر لهذا المعنى؛ لأنّ أتران جمع ترح على وزن فرح بمعنى الحزن والغم والهم. فبالنتيجة ذكر الإمام عليه السلام أنّ هذه الافراح والسرور مقرونه بالهم والحزن، النقطة الأخرى التي أشار إليها الإمام عليه السلام هي الوقت المحدد. للحياة، فلها نهاية حتمية عاجلا أم آجلا، والشئ الذي ليس للإنسان منه وسيلة للهرب هو الموت:

«وخلق الاجال فأطالها وقصرها، وقدمها وأخرها».

فالموت موصول بالحياة (وجعل الأمراض وسيلة لانتهاء الحياة) من شأنه القضاء عليها

«و وصل بالموت أسبابها، وجعله خالجا [٢٥٤] لأشطانها [٢٥٥]، وقاطعا

لمراتر [٢٥٦] أفرانها»

، فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة القصيرة إلى عدّة نقاط، منها أنّ البعض يعمر كثيراً بصورة طبيعية، والبعض الآخر يعمر قليلاً، كما قد يقصر ذلك العمر الطويل بفعل بعض الأعمال الشائنة أو الذنوب والمعاصي، بينما قد يطال في ذلك العمر القصير إثر رعاية القضايا المرتبطة بالصحة والسلامة، أو بفعل الأعمال الطيبة والخير والاحسان. كما أشار عليه السلام إلى أنّ للموت عدّة أسباب، إذا هرب الإنسان من بعضها وقع في مخالف الآخر، بل لا ينجو من الموت أقوى الأقوياء. وعليه لا ينبغي لأحد أن يعتر بصحته وسلامته وشبابه وقوته، ولا بدّ لكل أحد أن يتأهب للموت ويعد له الزاد المطلوب متوقفاً للموت في أي وقت. [٢٥٧] كما احتل بعض شراح نهج البلاغة أنّ المراد بالتقديم والتأخير، هو أنّ الله سبحانه وتعالى خلق البعض في الأزمنة الماضية والبعض الآخر في الأزمنة اللاحقة على ضوء المصالح، إلّا أنّ المعنى الأول أنسب.

تأمل: هل رزق كل إنسان مقدر؟

لا يستفاد من عبارات هذه الخطبة تقدير رزق الإنسان فحسب، بل يستفاد ذلك من

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٠٤

أغلب الآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن، فقد طالعنا مختلف المصادر الإسلامية بأنّ سعة الرزق أوضيقه إنّما هي خاضعة لإرادة الله ومشيته بغية اختبار العباد وتمحيصهم. بعبارة أخرى لقد منح الإنسان ما يوافق مصلحته. وهذا الأمر يثير عدّة أسئلة منها: أولاً: إذا كان الأمر كذلك، فما معنى السعي والجهد من أجل الرزق.

ثانياً: إنّ مثل هذا الاستنتاج يؤدي إلى سكون الأنشطة الاجتماعية وتخلف المجتمعات البشرية؛ المجتمعات التي ينبغي أن تعيش حالة النشاط والمثابرة بغية عدم تخلفها عن سائر المجتمعات ولاسيما غير الإسلامية، فقد صرح القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً:

«نَحْنُ قَسِيْمًا مِّنَّا يَبْنِيهِمْ مَعِيْشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ» [٢٥٨]، إلّا أنّ الإجابة على السؤال المذكور وردت في الروايات الإسلامية، بحيث لا يبقى من مجال للغموض إذا تأملناها بأجمعها، فقد جاء في كلمات أمير المؤمنين على عليه السلام في نهج البلاغة:

«إنّ الرزق رزقان؛ رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فان أنت لم تاته أتناك» [٢٥٩].

والواقع كذلك فالقسم الأعظم من الرزق يتطلب سعي الإنسان وجهده وتوظيفه لكافة إمكاناته واستعداداته وطاقاته وليس له الظفر به دون ذلك، إلّا أنّ القسم الآخر من الرزق يأتي إلى الإنسان دون السعي إليه، ليدل الإنسان على أن السعي والجهد وإن كان أصلاً مسلماً إلّا أنّ رازقية الله لا تقتصر على ذلك، فلا بد من التوجه إلى الله وطلب الرزق منه.

من جانب آخر جاء في الخبر أن من بين الأدعية التي لاستجاب دعاء الإنسان الصحيح الذي لزم بيته وقعد عن السعى و هو يدعو الله: اللهم إرزقني فتناديه الملائكة بان دعائك ليس بمستجاب، قم و إعمل. فقد ورد في الرواية أن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«أربع لا يستجاب لهم دعاء: الرجل جالس في بيته، يقول: يارب ارزقني! فيقول له: ألم آمرك بالطلب». [٢٦٠]

أضف إلى ذلك فإن التقديرات الإلهية في أغلب الموارد إنما تنسجم وتديرونا وتخطيطنا، أي أن الله قدر سهمًا وخيرًا لمن سعى وبذل جهده، بينما قدر أقل من ذلك لمن تقاعس وكسل. فهذا

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٠٥

الانسجام بين التقدير والتدبير يعد اجابة واضحة لاولئك الذين يستسلمون للكسل والخنوع والخنول، ويفرون من الواقع تحت ذريعة التقدير.

وناهيك عما تقدم مما لا شك فيه أن الناس ليست سواسية في الاستعداد البدني والفكري والإدارة الاقتصادية والقدرة على العمل وتوظيف الإمكانيات المتاحة؛ وهذا بدوره ما أدى إلى تفاوت الأرزاق. وعليه فليس من الصواب بعد كل هذا التصور أن يتساوى الرزق على كافة الأفراد بغض النظر عما سبق، فهذا من قبيل توقع تساوى جميع أعضاء البدن والعظام والعضلات، في حين لكل عضو وظيفته في هذا البدن و قدرته بقدر نشاطه، فعالم البشرية كالبدن يختلف في رزقه على أساس اختلافه في سعيه وجهده. والنتيجة التي نخلص إليها: هو أن تقدير الرزق الذي ورد في هذا الخطبة، إنما هو إشارة لما استعرضناه آنفا؛ الأمر الذي لا يتنافى قط ومفهوم العدالة، بل هو عين العدالة والحكمة.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٠٧

القسم الثاني والعشرون: العالم بكل شيء

إشارة

«عَالَمِ السَّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ الْمُضْمَرِينَ، وَنَجْوَى الْمُتَخَفِّتِينَ، وَخَوَاطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ، وَعَقْدَ عَزِيمَاتِ اليَقِينِ، وَمَسَارِقِ إِيْمَاضِ الجُفُونِ، وَمَا ضَمِنَتْهُ أَكْنَانُ القُلُوبِ، وَعَيَايَاتِ العُيُوبِ، وَمَا أَضِيَعَتْ لِاسْتِرَاقِهِ مَصَائِحَ الْأَشْيَاعِ، وَمَصَائِفُ الدَّرِّ، وَمَشَاتِي الهَوَامِّ، وَرَجْعِ الحَيْنِ مِنَ المُولَهَاتِ، وَهَمْسِ الأَقْدَامِ، وَمُنْفَسِحِ الثَّمَرَةِ مِنْ وَلَائِحِ غُلْفِ الأَكْمَامِ، وَمُنْفَمَعِ الوَحُوشِ مِنْ غَيْرَانِ الجِبَالِ وَأَوْدِيَّتَيْهَا وَمُحْتَبَاءِ البَعُوضِ بَيْنَ سُوْقِ الأشْجَارِ وَالْحَيِّتَيْهَا، وَمَغْرَزِ الأَوْزَاقِ مِنَ الأفْنَانِ، وَمَحِطِّ الأَمْسَاجِ مِنْ مَسَارِبِ الأَصْيَالِ، وَنَاشِئَةِ العُيُومِ وَمُتَلَاحِمِهَا، وَدُرُورِ قَطْرِ السَّحَابِ فِي مُتْرَاكِمِهَا، وَمَا تَسْفِي، الأَعَاصِيْرُ بِذُبُولِهَا، وَتَعْفُو الأَمْطَارُ بِسَيُولِهَا، وَعَوْمِ بَنَاتِ الأَرْضِ فِي كُتْبَانِ الأَعَاصِيْرُ بِذُبُولِهَا، وَتَعْفُوا الأَمْطَارُ بِسَيُولِهَا، وَعَوْمِ بَنَاتِ الأَرْضِ فِي كُتْبَانِ الرَّمَالِ».

الشرح والتفسير

يتضح من خلال تأمل الأقسام المختلفة لهذه الخطبة العجيبة أن الإمام عليه السلام قد اختط مساراً دقيقاً في معرفة الله، ومن ثم التعرف على هذا العالم مروراً بمعرفة الإنسان وتربيته، بعبارات رائعة تأخذ بيد الإنسان نحو هذا المسار الطويل و تقوده نحو الهدف، يعنى يسلك به سبيل السمو والتكامل.

نقحات الولاية ؛ ج ٤ ؛ ص ١٠٧

د تحدث الإمام عليه السلام في السابق عن خلق الأرض ومصادر الحياة ومن ثم خلق آدم

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٠٨

وقصته مع الجنة وما تضمنته من عبر ومن ثم هبوطه إلى الأرض، وتقسيم الأرزاق وتعيين الاجال. ولما فرغ من ذلك واصل حديثه في هذا المقطع من الخطبة عن علم الله سبحانه بكل شيء وكل شخص وفي كل زمان ومكان، والعالم بكافة الخفايا والاسرار. فقد أورد الإمام عليه السلام ذلك بعبارات دقيقة رائعة، مؤكداً على تفاصيل هذه الامور، بحيث يشعر الإنسان بكل كيانه أن العالم برمته حاضر لدى الله بكل حركاته وسكناته؛ وهو الشعور الذي يلعب دوراً حيوياً في تربية الإنسان وسوقه نحو الخير والاحسان. فقال عليه السلام:

«عالم السر من ضمائر المضميرين، ونجوى المتخافتين وخواطر رجم الظنون، وعقد عزيماات اليقين».

فالعبرة تفيد علمه سبحانه بكل شيء: ما يقتدح في الأذهان، وما يمثل في الواقع، وما يجري في الأوهام والظنون، والشك والترديد، وما يجول في باطنه ونجواه وهمسه مع الآخرين، ثم قال عليه السلام:

«ومسارق [٢٦١] إيماض [٢٦٢] الجفون، [٢٦٣] وما ضمنته أكنان القلوب، وغيابات الغيوب،

وما أصغت لاستراقه مصائخ [٢٦٤] الأسماع»

، ولما كانت أهم مصادر علم الإنسان تكمن في قلبه (عقله) وعينه واذنه، كما صرح بذلك القرآن الكريم: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [٢٦٥] والله محيط بجميع هذه المصادر؛ فهو عليم بكافة خفايا الإنسان وأسراره. ثم تجاوز عليه السلام خفايا الإنسان وما تنطوي عليه جوانحه ليتجه صوب أصغر الكائنات، ليكشف عن علمه سبحانه وتعالى بخفايا وأوكار الهوام والحشرات وآهات الألم واصوات الحزن ووقع الاقدام:

«ومصائف [٢٦٦] الذر،

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٠٩

ومشاتي [٢٦٧] الهوام [٢٦٨] ورجع الحنين [٢٦٩] من المولهاات [٢٧٠] وهمس [٢٧١] الاقدام».

ثم واصل عليه السلام كلامه بالاشارة إلى امور اخرى لطيفة وظريفة وخفية ومكتومة، ليكشف النقاب عن إحاطة العلم الإلهي المطلق بها من خلال عبارات غاية في الروعة والدقة فقال عليه السلام:

«ومنفسح [٢٧٢] الثمرة من ولائح [٢٧٣] غلف [٢٧٤] الاكام [٢٧٥]، ومنقمع [٢٧٦] الوحوش من غيران [٢٧٧] الجبال

وأوديتها، مختباء البعوض بين سوق [٢٧٨] الاشجار والحيثها [٢٧٩]، ومغرز [٢٨٠] الاوراق من

الافتان [٢٨١]، ومحط الامشاج [٢٨٢] من مسارب [٢٨٣] الأصلاب»،

العبرة

«لامنفسح»

بمعنى المكان الفسيح الواسع إشارة إلى أن الله سبحانه خلق مكاناً واسعاً في جوف البراعم لنمو الثمار.

والعبرة:

«منقمع الوحوش»

تفيد لجوء الحيوانات الصحراوية إلى الغيران والكهوف بغية حفظ أنفسها من سائر الحيوانات الوحشية المفترسة و تخرج حين الحاجة أو صيد سائر الحيوانات. والتعبير «مغرز الأوراق...» لا إشارة إلى الأوراق ولا الأغصان، بل إشارة إلى

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١١٠

موضع خاص تلتصق فيه الورقة بالغصن و تنطلق جذورها في أعماقه فتحفظه من الريح والعواصف.

و التعبير «محط الأمشاج...» إشارة إلى حركة نطفة الرجل من غدده الداخلية و تختلط مع نطفة المرأة حين نزولها في الرحم حتى تنمو و تتحول إلى إنسان كامل. فالله سبحانه يعلم بهذا المسار و كيفية التركب و موضع النزول، و يمكن أن تكون «أمشاج» إشارة إلى

تركيب نطفة الرجل من مياه مختلفة و الذي أثبتته العلم الحديث، حيث لكل منها هدف معين عند إختلاطه مع الآخر و التي تشكل نطفة الرجل، ثم تتحرك نحو الرحم. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى تفاصيل دقيقة لعالم الخلق و الحوادث المبرمجة، ليكشف عن علمه سبحانه برقيق السحب التي تظهر في السماء وتتصل مع بعضها البعض الآخر، إلى جانب هطول قطرات المطر من تلك السحب والرياح التي تحيط بها وتبعث بها هنا وهناك:

«وناشئة الغيوم ومتلاحمها، ودرور قطر السحاب في متراكمها، وما تسفى [٢٨٤] الأعاصير [٢٨٥] بذبولها، وتعفو [٢٨٦] الأمطار بسيولها، و عوم [٢٨٧] بنات الأرض في كثنان [٢٨٨] الرمال».

نعم فهو عالم بتمام دقائق عالم الوجود و جزئيات الكائنات الحية و الجمادات في السموات والأرض؛ وهو محيط بظهورها و حركاتها و سكناتها. فكيف بنا وهو الخبير بما في أعماقنا و يجول في أذهاننا و خواطرنا.

تأمل: تنوع الكائنات

رغم تركيز الكلام في هذا المقطع من الخطبة على علم الله الواسع بكافة الأشياء و جميع الكائنات، إلّا أنّ هناك إشارة ضمنية لنقطة مهمة أخرى إلّا وهي التنوع العجيب للكائنات، من المسائل الفكرية و الذهنية للإنسان إلى الاجزاء المختلفة للعين و الاذن، و الكائنات الصغيرة

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١١١

و الكبيرة للعالم من قبيل الهوام و مصائفها و الحشرات و مشاتها، مروراً بتشكيل نطفة الإنسان المركبة من ماء الرجل و المرأة، و ظهور السحب و الغيوم و تراكمها و سقوط حبات المطر و هبوب الرياح و الأعاصير و جريان السيول و اختفاء الحشرات في المرتفعات و التلال و ما إلى ذلك من الامور التي سنتطرق إليها في البحث القادم. و الخلاصة فإنّ كل أمر دلالة على علمه سبحانه و قدرته و ابداعه، و كلما تعمق الإنسان في تأمل هذه الامور تعرف أكثر على عظمه الحق سبحانه و علمه، و يسمع باذن البصيرة تسيح هذه الكائنات و حمدها، و يشعر بتوحيدها و توجهها لخالقها. الأشياء التي لا يدركها سوى من تحسسها و انطلق منها لما وراءها.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١١٣

القسم الثالث والعشرون: شمولية العلم الإلهي

إشارة

«وَمُسِيَّتَقَرَّ ذَوَاتِ الْأَجْنِحَةِ بِذُرّاً سَنَاخِيبِ الْجِبَالِ، وَتَغْرِيدِ ذَوَاتِ الْمُنْطِقِ فِي دِيَاغِيرِ الْأَوْكَارِ، وَمَا أَوْعَبْتَهُ الْأَصْدَافُ، وَحَصَنْتِ عَلَيْهِ أَمْوَاجِ الْبِحَارِ، وَمَا غَشِيَتْهُ سُدْفُهُ لَيْلٍ، أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهَارٍ، وَمَا اعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ الدِّيَاغِيرِ، وَسُبُحَاتُ النُّورِ؛ وَأَثَرُ كُلِّ خَطْوَةٍ، وَحِسُّ كُلِّ حَرَكَةٍ، وَرَجْعُ كُلِّ كَلِمَةٍ، وَتَحْرِيكُ كُلِّ شَفْهِ، وَمُسِيَّتَقَرَّ كُلِّ نَسِيمَةٍ، وَمِثْقَالِ كُلِّ ذَرَّةٍ، وَهَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَةٍ، وَمَا عَلِيَّهَا مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ، أَوْ سَاقِطِ رَوْقَةٍ؛ أَوْ قَرَارَةِ نُطْفَةٍ، أَوْ نَقَاعَةِ دَمٍ وَمُضْغَةٍ، أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ وَسَلَالَةٍ؛ لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذَلِكَ كُفْلَةٌ، وَلَا اعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ابْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ، وَلَمَّا اغْتَوَرَّتْهُ فِي تَنْفِيذِ الْأُمُورِ وَتَدَابِيرِ الْمَخْلُوقِينَ مَلَائِمَةٌ وَلَمَّا فَتَرَتْهُ، بَلْ نَفَذَهُمْ عِلْمُهُ، وَأَخْصَاهُمْ عِدَدُهُ، وَوَسَعَهُمْ عِدْلُهُ، وَعَمَّرَهُمْ فَضْلُهُ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام كلامه السابق بالحديث عن علم الله سبحانه و تعالى بكافة جزئيات عالم الوجود، حيث يتعرض إلى ذلك بعبارات رائعة غاية في الدقة و الجمال، و الحق أنّ كلام الإمام عليه السلام يفيد بما لا يقبل الشك أنّه يستند إلى ارتباطه بما وراء هذه

الطبيعية بحيث لا يضاهاه كلام، وان علمه عليه السلام إنما يتصل بمصادر العلم الإلهي فقد تطرق باديء بدء إلى الطيور العائمة في
نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١١٤
السماء:

«ومستقر ذوات الأجنحة بذراً [٢٨٩] شنايب [٢٩٠] الجبال، وتغريد [٢٩١] ذوات المنطق في
دياجير [٢٩٢] الأوكار [٢٩٣]».

فنحن نعلم أن كل طائر يصنع لنفسه ما يناسبه من عش، بحيث تتنوع حسب أصناف الطيور، كما نعلم أن أنغام الطيور على أقسام، كل
واحد منها يبين موضوعاً، الأهم من كل ذلك هو علم الله بتمام جزئياتها.

ثم يغوص الإمام عليه السلام في أعماق البحار ليتحدث عن الاصداف واللؤلؤ والأمواج:
«وما أوعبته [٢٩٤] الاصداف، وحضنت عليه أمواج البحار»

، ثم خاض عليه السلام في نظام النور والظلمة في عالم الخلق وحياء الإنسان فقال:

«وما غشيتة سدفة [٢٩٥] ليل أو ذر [٢٩٦] عليه شارق نهار، وما

اعتقبت عليه أطباق الدياتير، سبحات [٢٩٧] النور»

ثم إتجه صوب مختلف حركات الإنسان قال عليه السلام:

«وأثر كل خطوة، وحس كل حركة، ورجع كل كلمة، وتحريك كل شفة، ومستقر كل نسمة».

ثم تناول عليه السلام أصغر الذرات وأخفى الأصوات في أن الله عالم بها:

«ومثقال كل ذرة، وهماهم [٢٩٨] كل نفس هامة [٢٩٩]» ثم ينتقل إلى الأشجار والثمار والناس والنطف التي

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١١٥

تشبه إلى حد كبير بعضها البعض فقال «وما عليها من ثمر شجرة، أو ساقط ورقة، أو قرارة نطفة، أو نقاعة [٣٠٠] دم ومضغة، أو ناشئة
خلق وسلالة».

ويشير الإمام عليه السلام في آخر الخطبة إلى نقطة مهمة أخرى وهي أن تلك الامور بتلك السعة والشمولية التي أشار إليها الإمام عليه
السلام ما يجعل التبادر إلى الذهن صعوبة حسابها والاحاطة بها، بعبارة أخرى قد يقتدح في الأذهان هذا السؤال: هل علم الله سبحانه
تعالى بهذه الامور لا يوجد من مشكلة لذاته المطهرة؟ فالإنسان يصاب بالتعب والأعياء من جراء احاطته بقسم غايه في الصغر بالنسبة
لحوادث هذا العالم وأسارره إلا أن الإمام عليه السلام يعلن بكل صراحة أن ليس هناك أدنى مشقة على الله بهذا الشأن (ليس فقط من
ناحية العلم والاحاطة بها بل) في حفظ ما أبدع من مخلوقات، كما ليس هنالك من ملل أو فتور عرض له سبحانه في انفاذ أمره وتدبير
شؤون خلقه:

«لم يلحقه في ذلك كلفه، ولا اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضة، ولا اعتورته [٣٠١] في تنفيذ الامور وتدبير المخلوقين ملالة
ولا فترة»

، بل نفذ فيها علمه واحصاها عدداً بقدرته وضمها جميعاً تحت لواء عدالته، كما عم المقصرين منهم بفضلهم وعفوه ولطفه:

«بل نفذهم علمه، وأحصاهم عدده، ووسعهم عدله، وغمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله»

، فقد أكد الإمام عليه السلام بهذه العبارات على عدة أمور:

الأول: أن احاطة الله سبحانه العلمية بجزئيات جميع عالم الوجود لا تنطوي على أية مشكلة بالنسبة له (وذلك لأن علم الله علم حضوري
وليس علم حصولي، كما سيأتي شرح ذلك في البحث القادم).

الثاني: اضافة إلى الاحاطة العلمية فهو حافظها جميعاً؛ الأمر الرفع من العلم؛ وهذا أيضاً لا يسبب أية مشكلة لذاته المطلقة سبحانه (لأن

الكل متوقف على وجوده سبحانه).

الثالث: اضافة إلى العلم والحفظ فهو مدبرها وهاديها إلى السمو والكمال؛ الأمر الذي لا ينطوي على أى ملل أو فتور لذاته المطلقة، وبعيداً عن معرفة الخلائق وأدائها للشكر، فإنّ فضله ولطفه شامل للجميع عدله فيهم نافذ شامل، نعم فعلمه ليس بمحدود وقدرته مطلقة لامتناهية وفضله مطلق شامل، ولا يرتجى منه سوى ذلك.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١١٦

تأملات

١- العلم الكامل

كلماته عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة بشأن سعة علمه سبحانه واحاطته الشاملة بكافة دقائق الامور، لتذكر الإنسان بالآية الشريفة التي وردت فى سورة لقمان:

«وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [٣٠٢].

وهنا لابد أن نلتفت إلى نقطة مهمّة وهى أن ما أورده أمير المؤمنين على عليه السلام إنما يرتبط بالكرة الأرضية ومخلوقاتهما، والحال يغص هذا الفضاء العظيم بملايين، بل مليارات الكرات السماوية العجيبة والتي تخضع برمتها لعلم الله واحاطته، كما لابد من الالتفات إلى أن هذا العالم قد وجد قبل ملايين السنوات قبل خلقنا، ولا يعلم إلى متى سيستمر، فاحصاء الحوادث التي تقع طيلة هذا الزمان إنما تتعذر على كائن من كان سوى الحق سبحانه مع ذلك لا ينبغي أن ننسى بأن هدف الإمام عليه السلام من بيان هذه الحقائق مضاعفة معرفة الله من جانب، ومن جانب آخر تهذيب النفوس البشرية وأنها حاضرة عند الله وأنه محيط بنياتها وكوامنها. وشاهد ذلك ما قاله الإمام عليه السلام فى الخطبة ١٩٨ من نهج البلاغة:

«يعلم عجيج الوحوش فى الفلوات، ومعاصى العباد فى الخلوات، واختلاف النيان فى البحار الغامرات، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات».

٢- علم الله بكافة الخفايا

يرى جمع من قدماء الفلاسفة أنّ الله لا يسعه أن يكون عالماً فهم يعتقدون أنّ الجزئيات متعددة ومتكثرة وليس للمتعدد من سبيل إلى ذاته الواحدة من جميع الجهات. فهذا الكلام واضح البطلان وأساسه أنهم يرون أن علمه سبحانه وتعالى حصولياً، ويعتقدون بأنّ الصور الخارجية تنتقل إلى ذاته المقدسة، والحال كلنا نعلم أنّ علمه سبحانه بالموجودات ليس عن

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١١٧

طريق انتقال صورتها الذهنية لديه، كما هو الحال عند الإنسان، بل علمه علم حضورى، أى أنّه حاضر فى كل مكان، والموجودات برمتها حاضرة عنده، وهو محيط بها جميعاً، دون الحاجة لصورها؛ بالضبط كحضور الصور الذهنية للإنسان أمام روحه، لأنّ الصور الذهنية حاضرة بذاتها فى روح الإنسان لاصورتها، واحاطة الإنسان بها نوع من الاحاطة الحضورية. فتأكيد الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة على علم الله سبحانه بجميع جزئيات الوجود إنّما يبطل هذا الاعتقاد الفاسد لبعض الفلاسفة بشأن نفي علم الله بالجزئيات.

٣- ابن أبي الحديد في شرح هذه الخطبة.

حين بلغ هذا العالم المشهور- شارح نهج البلاغة- هذا الموضوع من الخطبة بشأن علم الله قال: لوسم النضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله ما قاله علي بن العباس بن جريح لاسماعيل بن بلبل:

جريح لاسماعيل بن بلبل قالوا أبو الصقر من شيان قلت لهم
وكم أب قد علا يابن ذرا شرف كما علا برسول الله عدنان

إذ كان يفخر به علي عدنان وقحطان، بل كان يقر به عين أبيه إبراهيم خليل الرحمن، ويقول له:

أنه لم يعف ما شيدت من معالم التوحيد، بل أخرج الله تعالى لك من ظهري ولدا ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب ما لم تبدعه أنت في جاهلية النبط. بل لو سمع هذا الكلام أرسطو طاليس، القائل بانه تعالى لا يعلم الجزئيات، لخشع قلبه ووقف شعره، واضطرب فكره، ألا ترى ما عليه من الرواء والمهابة، والعظمة والفخامة، والمتانة والجزالة! مع ما قد أشرب من الحلاوة والطلاوة واللطف والسلاسة، لا أرى كلاماً يشبه هذا إلا أن يكون كلام الخالق سبحانه، فإن هذا الكلام نبعه من تلك الشجرة، وجدول من ذلك البحر، وجدوة من تلك النار؛ وشرح لآيات الخالق سبحانه [٣٠٣].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١١٩

القسم الرابع والعشرون: إليك الملاذ و أنت الرجاء

إشارة

«اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ، وَالتَّعْدَادِ الْكَثِيرِ، إِنْ تَوَمَّلْ فَخَيْرٌ مَأْمُولٍ، وَإِنْ تَرَجَّحْ فَخَيْرٌ مَرْجُوٌّ. اللَّهُمَّ وَقَدْ بَسَّطْتُ لِي فِيمَا لَأَمْيَدُحُ بِهِ غَيْرَكَ، وَلَمَّا أَتَيْتَنِي بِهِ عَلَيَّ أَحَدِ سِوَاكَ، وَلَا أَوْجَّهُهُ إِلَى مَعَادِنِ الْخَيْبَةِ وَمَوَاضِعِ الرِّيْبَةِ، وَعَدَلْتُ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ الْأَدْمِيِّينَ؛ وَالثَّنَاءِ عَلَيَّ الْمَرْبُوبِينَ الْمُخْلُوقِينَ. اللَّهُمَّ وَلِكُلِّ مَثْنٍ عَلَيَّ مَنْ أَتَى عَلَيْهِ مَثْوِيَةٌ مِنْ جَزَاءٍ أَوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطَاءٍ، وَقَدْ رَجَوْتُكَ ذَلِيلًا عَلَيَّ ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ. اللَّهُمَّ وَهَذَا مَقَامٌ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ لَكَ، وَلَمْ يَرِ مُسْتَحَقًّا لِهَذِهِ الْمَحَامِدِ وَالْمَمَادِحِ غَيْرَكَ؛ وَبِي فَاقَةٌ إِلَيْكَ لَمَّا يَجْبُرُ مَسِيئَتَهَا لِأَفْضَلِكَ، وَلَا يَنْعَشُ مِنْ حَلَّتْهَا إِلَّا مِنْكَ وَجُودُكَ، فَهَبْ لَنَا فِي الْمَقَامِ رِضَاكَ، وَأَعِنَّا عَنْ مَيْدِ الْأَيْدِي إِلَى سِوَاكَ؛ «إِنَّكَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ!».

الشرح والتفسير

لانسى أن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة الجامعة والمفصلة رداً على من سأله الحديث عن صفات الله، فخاض الإمام عليه السلام في البداية بأدق العبارات وأظرفها في بحث صفات الله الجمالية والكمالية، ثم تطرق إلى فعله من قبيل خلق الملائكة والسماء والأرض، ثم خلق الإنسان وما أفاض عليه من النعم، وأخيراً علمه سبحانه وتعالى بجمع جزئيات عالم الوجود و كلياته.

ثم يختتم الخطبة بهذا القسم الذي يطرق فيه باب الله متضرعاً إليه بالدعاء، فيصف الله سبحانه بأفضل صفاته التي لا تجوز على أحد سواه، كما تدل على التوحيد في مقام الدعاء

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٢٠

«اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ، وَالتَّعْدَادِ [٣٠٤] الْكَثِيرِ»

، نعم فقد جمعت كافة الصفات العظيمة في ذاته القدسية، فهو الكريم والرحيم وأهل الفضل والثناء، ومن هنا فإن أمله الإنسان فهو خير مأمول، وان رجاءه فهو خير مرجو لا يقطع رجاء من رجاءه:

«إن تؤمل فخير مأمول، وإن ترج فخير مرجو»،

ثم قال عليه السلام:

«اللهم وقد بسطت لى فيما لا أمدح به غيرك، و أثنى به على أحد سواك ولا أوجهه إلى معادن الخيبة ومواقع الريبة، وعدلت بلسانى عن مدائح الادميين؛ والثناء على المربويين المخلوقين».

الجدير بالذكر أن الإمام مزج مدح الله وثنائه بالشكر، وقد أعرب عليه السلام عن سروره أن وفقه الله سبحانه ففتح لسانه بمدحه سبحانه، وهل يليق هذا المدح والثناء بأحد سواه، و أى عمل أفضل من أن يغض الإنسان طرفه عن عالم الأسباب و لا يتطلع سوى إلى «مسبب الأسباب» فيمطره بحمده و ثناءه. ثم أردف ذلك بقوله:

«اللهم ولكل مثن على من أثنى عليه مثوبة من جزاء أو عارفة من عطاء؛ وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة»،
يمكن أن تكون العبارة بمعنى طلب المزيد من رحمته سبحانه ومغفرته، أو بمعنى طلب التوفيق والاستعداد لكسب هذه الرحمة.
والفرق بين

«جزاء» و «عارفة»

قد يكون فى أن الجزاء هو ثواب العمل، والعارفة بمعنى الفضل والرحمة إلى جانب الثواب. و لما كان الله معروفاً بالفضل و العطاء فقد عبر بعارفة (فالعارفة فى الواقع وردت هنا بمعنى المعروف).

ثم إختتم هذه الخطبة الفريدة و العظيمة بدعائين جامعين عميقى المعنى قال عليه السلام:

«اللهم وهذا مقام من أفردك بالتوحيد الذى الذى هو لك، ولم ير مستحقاً لهذه المحامد والممادح غيرك؛ وبى فاقه إليك لا يجبر مسكنتها إلا لفضلك، ولا ينشئ [٣٠٥] من خلقتها [٣٠٦] إلا منك وجودك»

، فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أراد أن يطرح هذه الحقيقة وهى أنى لأثنى الاعليك ولاأومل سواك،
نفحات الولاية، ج٤، ص: ١٢١

وليس هناك قادر على طلبتى غيرك، وهذه هى حقيقة توحيد الصفات وتوحيد الأفعال، ثم يختتم الخطبة:

«فهب لنا فى هذا المقام رضاك، وأغننا عن مد الايدى إلى سواك، إنك على كل شىء قدير»

، ما أروع هذا الرجل العظيم الذى فاض كل هذه الفصاحة والبلاغة والعلم والمعرفة، ثم يختتم عباراته بهذا الدعاء العظيم الذى يكشف عن مدى تواضعه وتذللته لله فيسأله رضا ولايلتفت إلى أحد سواه.

تأمل: فى اعجاز البيان.

كما أن القرآن الكريم من المعاجز الخالدة لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله فإن بعض خطب نهج البلاغة حقاً لفى حد الاعجاز! أى لايمكن أن تصدر سوى عن المعصوم، وليس ذلك لاحد سواه. ومن ذلك هذه الخطبة المسماة بالاشباح. التى نعرض لشرحها.

فقد انطوت هذه الخطبة على عبارات غاية فى الفصاحة والبلاغة، إلى جانب رقتها وحلاوتها وعذوبة الفاظها بحيث تتسلل إلى أعماق روح الإنسان فتملأها معنوية ونوراً وانفتاحاً على الله سبحانه، أمّا المفردات التى استعملها الإمام عليه السلام فهى غاية فى العمق والرصانة بحيث لايمكن (الوقوف عليها دون الرجوع إلى مصادر العربية وآدابها. أمّا مضمونها فهو الآخر (رصين) عميق لايمكن تصور مثله بشأن صفات الله وعلمه واحاطته بكل شىء؛ الأمر الذى يكشف عن حقيقة ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية:

«ينحدر عنى السيل ولايرقى الاالطير».

وأما من ناحية الآثار التربوية، فقد تطرق عليه السلام إلى نعم الله سبحانه بأدق تفاصيلها بما يثير حس الشكر لأى إنسان يتأملها ويرى

نفسه مقصراً أمام كل هذه النعم التي أفاضها عليه سبحانه، وإذا تأمل سعة علمه سبحانه وحضوره يدرك بكل كيانه معنى هذه العبارة «أن العالم حاضر عند الله، وعليه فلا ينبغي معصيته والتمرد عليه»

أما الأدعية العرفانية آخر الخطبة والتواضع التام للإمام عليه السلام بعد كل هذا البيان فهو الآخر درس لكافة الأفراد في عدم الغفلة والغرور والتوجه إلى الله وطلب الحاجات منه، كيف لا وهو الكريم، الرحيم، المنعم والغفور الودود.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٢٣

الخطبة [٣٠٧] الثانية والتسعون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
لما أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان

نظرة إلى الخطبة

قال المرحوم العلامة الخوئي - أحد شراح نهج البلاغة -: اعلم أن المستفاد من الروايات الآتية وغيرها في سبب هذا الكلام هو أن خلفاء الجور بعد ما غيروا سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسيرته التي كان يسيرها من العدل بالقسم والمساواة بين الرعية، ففضلوا العرب على العجم، والموالي على العبيد، والرؤساء على السفلة، وآثر عثمان أقاربه من بنى امية على سائر الناس وجرى على ذلك ديدنهم سنين عديدة، واعتاد الناس ذلك أزمته متطاولة حتى نسوا سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وكان غرض الطالبين لبيعه عليه السلام أن يسير فيهم مثل سيرة من سبق عليه من المتخلفين من تفضيل الشريف على الوضيع، وكان عليه السلام تفرس ذلك منهم وعرفه من وجبات حالهم فخطبهم بهذا الكلام اتماماً للحجة واعلاماً لهم بأنه عليه السلام ان قام فيهم بالأمر لا يجيبهم إلى

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٢٤

ما طمعوا فيه من الترجيح والتفضيل فقال عليه السلام:

«دعوني والتمسوا غيري»

للبيعة،

«فانا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان»

وهو إنذار لهم بالحرب وإخبار عن ظهور الفتن واختلاف الكلمات وتشدت الآراء وتفرق الأهواء [٣٠٨]، كما أشار ضمنياً إلى زهده عليه السلام بالخلافة والمقامات الظاهرية. وقد رفض بيعه القوم، حتى لا يتصور أحد أن قبول الإمام عليه السلام بيعه الناس كانت لرغبته بالخلافة.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٢٥

«دَعُونِي وَالتَّمَسُوا غَيْرِي؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَجُوهٌ وَأَلْوَانٌ؛ لَأَتَقَوْمٌ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْقُحُولُ. وَإِنَّ الْأَفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَعَلِّمُوا أَنِّي إِنِ أَحْبَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مِمَّا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصِغْ إِلَى قَوْلِ الْقَاتِلِ وَعَتَبِ الْعِيَابِ، وَإِن تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَخِي دِكْمٌ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطُوعُكُمْ لِمَنْ وَلِيْتُمُوهُ أَمْرُكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا!».

الشرح والتفسير

دعوني والتمسوا غيري

أورد شراح نهج البلاغة أبحاثاً مسهبة بشأن هذه الخطبة، وقد خاضوا بصورة مفصلة في الإشكالات ذات الصلة بمسألة الإمامة. غير أن البعض منهم لم يتعرض لشرح هذه الخطبة واتجه مباشرة للرد على الإشكالات. ونرى من الضروري أن نخوض في البداية في شرح الخطبة، ثم نسلط الضوء على بعض الاستئلة والاستفسارات في آخر البحث.

فقد رد الإمام عليه السلام على اولئك الذين بسطوا إليه يدهم بالبيعة وانها لولا عليه من كل جانب، ظانين أن الإمام عليه السلام سيواصل سياسة التمييز في العطاء من بيت مال المسلمين، إلى جانب إغداق المناصب والمقامات بالقول: «دعوني والتمسوا غيري»،

ثم أشار عليه السلام إلى الدليل على ذلك بقوله:

«فانا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان؛ لاتقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول»

، فقد فقدت الأمة وحدتها إثر الأفعال الباهتة التي مارسها الخلفاء ولا سيما عثمان، فكان لكل رأيه، فأصبح الأعم الأغلب منهم كالصياد الذي يبحث عن صيده، ليجدوا في البحث عن الأموال والمناصب الدنيوية، وعليه فإن القضاء على هذه الفرقة والتشتت وإعادة الأمة إلى سابق عزها ووحدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كان يبداً أمراً في غاية الصعوبة والتعقيد

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٢٦

ولا يمكن توقعه فضلاً عن تحقيقه على الواقع العملي.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن الآفاق المظلمة التي تلوح في الآفاق وعدم التعرف على الحق وصراطه المستقيم في ظل هذه الأوضاع المضطربة:

«وإن الآفاق قد أغمات [٣٠٩]،

والمحجة [٣١٠] قد تنكرت»

، وذلك لأن الأهواء الشيطانية والاطماع الدنيوية قد قلبت الموازين الفكرية للمجتمع بحيث يصعب عليه تمييز الصحيح من السقيم، وكيف يتخلص من المطبات التي تواجهه في حياته.

ثم أكد الإمام عليه السلام هذا الموضوع بأنني إذا تقلدت هذه المسؤولية فسوف لن أنتهج السياسة الخاطئة التي كانت سائدة سابقاً، بل سأقتدى بهدى رسول الله صلى الله عليه وآله في بسط الحق والعدل:

«اعلموا أنني إن أجبتمكم ركبتمكم ما أعلم، ولم أصنع إلى قول القائل وعتب [٣١١] العاتب»

- حيث لم يكن الطمع الذي عاشه الناس على عهد عثمان يدعهم يتساوون مع الآخرين فكانوا يهربون من عدالة على عليه السلام و يثيرون الفتن - فلم يكن أمام الإمام عليه السلام من سبيل سوى مخالفة الشرع و مواصلة الظلم أو السير فيهم بالعدل الذي نشده من قام ضد عثمان، فلما سار بهم بعدله حدثت تلك الفتن التي توقعها الإمام عليه السلام. [٣١٢]

في إشارة إلى أن الإمام عليه السلام كان يعلم بأن طلاب الدنيا من أهل المطامع والمصالح سيقفون حجرة عثرة في طريقه من أجل اشاعة الحق وإجراء العدل وبسط القسط، وسيؤلبون الآخرين عليه ويهبوا لمعارضته والوقوف بوجهه، وكأن المبادئ السياسية لتلك المرحلة كانت تتطلب مواصلة الفوضى التي كانت سائدة والتطاول على بيت المال واغداق المناصب والمهام على أصحاب النفوذ والسطوة دون أي إستحقاق، وإن انعكس ذلك سلباً على الأمة وهضمها حقوقها؛ الأمر الذي كان في مقدمه أهداف الأنبياء والرسل القضاء عليه: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٢٧

بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» [٣١٣].

ثم ناشدهم عليه السلام اتماماً لحجته وإثبات مدى زهده بمقامات الدنيا ومظاهرها، تركه ليكون كاحدهم في الأمة:

«وإن تركتموني فانا كأحدكم؛ ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم».

فالعبرة تشير إلى أن الإمام عليه السلام كان يعيش عالماً آخر غير ذلك الذى تكالب عليه أهل المصالح من الذين ركنوا إلى الدنيا، هو لم يفكر لحظة قط فى أن تكون الخلافة لقمه سائغة، بقدر ما كان يراها مسؤولية ثقيلة تهدف أول ما تهدف إليه إحياء القيم والمفاهيم الإسلامية. وإلا فهى لاتعدل عنده أكثر من عطفة عنتر. ثم عاد القول عليه السلام على أولئك الجماعة المتكالبه على الدنيا والتي تطمع إلى المزيد

«وأنا لكم وزيراً، خير لكم منى أميراً».

وذلك إنى ان كنت أميراً لحيل بينكم وبين العلو والاستبداد والتطاول على حقوق المحرومين، أمياً أن أكون وزيراً فلكم أن تشيروا علىى وتنتفعون بما أرىكم من الحق، دون أن أتحمّل مسؤولية أعمالكم. والحق أثبت التاريخ كل ما تكهن به الإمام عليه السلام فى هذه الكلمات الشريفة، وخلافاً لما يزعمه البعض من أصحاب النظرة الضيقة فإن الإمام عليه السلام كان عالماً بكافة الظروف والملابسات التى أحاطت بخلافته، كما كان على علم تام بردود الفعل التى سيمارسها الخصوم ضده، وعليه فلم يقع ما لم يكن يتحسبه الإمام عليه السلام، إلماً أن الإمام عليه السلام كان ينتمى إلى مدرسة تملى عليه القيام بالمسؤولية وإحياء الدين ومفاهيمه السامية وتعاليمه الحقّة وإن كلفه ذلك حياته، على العكس من المدارس المادية التى ترى فى الحكومة هدفاً وكل ما سواها وسيلة يمكن التضحية بها وقد مارس الإمام عليه السلام ما كان يقوله عملياً، كيف لا وهو الذى اشتاط غضباً حين سأله عقيل ما لا يستحقه من بيت المال فعامله بتلك الشدة والصرامة، ليثبت أنه يسير فى الناس بما يعلم ولا يابه بعتب العاتب كائناً من كان. لم يكن اسلوبه اسلوب من سبقه من الخلفاء قط، وهو الذى لم يجمع لنفسه شيئاً من حطام الدنيا، حتى خاطب الائمة قائلاً:

«دخلت بلادكم با شمالى هذه ورحلتى، وراحتى، ها هي فان أنا خرجت من بلادكم بغير ما دخلت فإننى من الخائنين»، [٣١٤]

والعجيب أن الإمام عليه السلام قد سلك سبيلاً يتناقض تماماً وما

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٢٨

ينتهجه اليوم الحكام والرؤوساء حين شروع الحملات الانتخابية، حيث يبذلون قصارى جهدهم لتقديم الوعود المعسولة للامة والشعارات المزيفة الفارغة، بل لايتورعون عن ارتكاب أى خلاف من أجل كسب ود الناس والحصول على آرائهم. فالإمام عليه السلام يعلن بكل وضوح أهدافه، وان تعارضت هذه الأهداف مع الكثير منهم ولم تنسجم مع طموحاتهم ورغباتهم. وبغية التنبيه إلى عدم الغفلة والخداع، فانه يكشف النقاب عن جسامه الأوضاع فى المستقبل؛ الأمر الذى لايرى له مثيلاً على مدى التاريخ بالنسبة للخلفاء والحكام.

تأملات

١- لم قال دعونى؟

استغرق شراح نهج البلاغة وسائر علماء الإسلام كثيراً فى كلام أمير المؤمنين على عليه السلام:

دعونى والتمسوا غيرى. فذهب البعض إلى أنه قال ذلك لعدم وجود النص على الإمامة والولاية، فهبت طائفة من مثقفى العصر لترى فى ذلك الكلام انه يشكل الدليل على إصالة رأى الامة فى الحكومة واختيار القائد، ونرى من الضرورة بمكان أن نسلط الضوء على الشرائط الزمانية والمكانية التى كانت سائدة آنذاك والتي دفعت بالإمام عليه السلام إلى هذا الكلام قبل أن نعلن عن رأينا بهذا الشأن بغية تفادى الزلل والانحراف عن حقيقة الأمر:

١- إنما صدر هذا الكلام من الإمام عليه السلام إثر مقتل عثمان بفعل ذلك البذخ والتطاول على بيت المال المسلمين وتسليط بنى

أمية على رقاب المسلمين، وظهور حالة الاستياء العامة في أغلب مناطق البلاد الإسلامية آنذاك، مما دفع بالامة إلى الهجوم على الإمام عليه السلام وبسط يدها إليه بالبيعة. فقد اعتاد كبار الامية سياسة عثمان ليتوقعوا من الإمام تحقيق رغباتهم وتقسيم بيت المال بينهم حسبما يحلو لهم، إلى جانب أولئك الذين كانوا يحلمون بأن يمنحهم الإمام عليه السلام مقابل بيعتهم بعض المناصب الحساسة في البلاد ليكونوا عماله وولاته على بعض الأمصار فيحكموا سيطرتهم على البلاد.

أضف إلى ذلك فإن الامية قد ابتعدت عن قيمها الإسلامية، وقد دفعتها الفتوحات وما جرتها عليها من غنائم وثروات إلى الاقبال على الدنيا وزخارفها وتفشى الأفكار الجاهلية

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٢٩

ونسيان حياتها التي شهدتها على عهد النبي صلى الله عليه وآله بفعل عدم التفات الخلفاء لهذا الأمر. ومن هنا رأى الإمام عليه السلام نفسه أمام مفترق طرق؛ إما الاستسلام للبيعة في تلك الظروف العصيبة والتأهب لتلك الحوادث والأزمات، وأما رفض البيعة وترك الامية وشأنها.

٢- لم يكن الإمام عليه السلام كساسة الدنيا ليخفي أهدافه الحقيقية التي سيسعى إلى تطبيقها فيما لو تولى الخلافة والحكومة الإسلامية، فيجر الامية بعوده المعسولة إلى البيعة، ثم يكشف عن برامجه وخططه بعد أن يتربع على عرش السلطة وتستتب له الامور ويحكم قبضته على الناس! نعم هيهات أن يفكر الإمام عليه السلام بمثل هذه المراوغات والأساليب المظلمة. ومن هنا حذر الامية من عظم المسؤولية التي ينبغي أن تنهض بها فيما لو لبي بيعتها وتولى زعامتها. فمن الطبيعي الا يكون هناك من مبرر لخداع الامية بغية حصول الأهداف الإسلامية واشاعة المفاهيم السماوية.

٣- لاشك أن الإمام عليه السلام أجدر أفراد الامية على الخلافة ليس في ذلك الزمان فحسب، بل في الزمان الذي سبقه حيث ولا يقتصر الاعتراف بذلك على الإمام صرح قائلاً:

«إنه ليعلم أن محلي منها محك القطب من الرحا» [٣١٥]

، وحين جعله عمر أحد أعضاء الشورى فقال:

«متى

إعترض الريب في مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر» [٣١٦]

، ولما أرادت الامية أن تبايعه بعد عثمان إذ قال:

«ولقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري» [٣١٧]

، بل كان يراه كذلك حتى خصومه (وإن لم تشهد السياسة مثل هذا الأمر) ومن ذلك ما قاله عمر حين انتخاب الشورى:

«أما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحنة البيضاء» [٣١٨]

، كما ذكر الطبري أن أبا بكر حين ولي الخلافة، تطرق لعدم أحقيته فيها طبق أغلب الروايات فقال:

«أيها الناس! فاني وليت عليكم ولست بخيركم» [٣١٩].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٣٠

بل ورد في بعض الروايات أن أبا بكر قال:

«أفيلوني! فلست بخيركم وعلى فيكم» [٣٢٠]

، فبالنظر إلى ما أوردنا من محكمات التاريخ والأخبار، يمكن القول بأن الإمام عليه السلام أراد أن ينفي عن نفسه في هذه الخطبة رغبته بمسألة الخلافة، ويكشف عن ذروة تواضعه في هذا الأمر، كما أراد أن يفهم الامية التي أصرت على البيعة انه ان ولي أمرها فسوف لن يسير بتلك الأساليب الخاطئة، وليس أمامه سوى سلوك سبيل الحق وحياء عصر النبي صلى الله عليه وآله، وأن آثار ذلك

حفيظة البعض وأدى إلى إنزعاجه، ليؤدى به ذلك إلى رفع راية المعارضة والوقوف بوجه الإمام عليه السلام. وعلى هذا الضوء لانرى هناك من حاجة لأن نبحت فى هذه المسألة، هل الخطبة دليل على عدم النص على الإمامة، أو القول بأن معيار الإمامة والخلافة إنما يكمن فى آراء الأمة لاغير. وذلك لأن هذا القول إنما يصدر ممن اكتفى بالنظر إلى ظاهر الخطبة، واغضى عينيه عن جميع القرائن التاريخية وسائر كلمات الإمام عليه السلام فى نهج البلاغة.

٢- لم لا يتحملوا عدالة على عليه السلام؟

لاشك أن بيعه على عليه السلام- وطبق أقوال جميع المؤرخين- كانت الأعظم والأكمل بيعه، ولاسيما مقارنة بيعه السقيفة التى لم تتجاوز بضعة أشخاص، وقد استندت بيعه عمر إلى وصيه الخليفة الأول، كما تمت البيعة لعثمان بثلاثة آراء من تلك الشورى المؤلفة من ستة أعضاء، أما البيعة لعلى عليه السلام فقد تمت من قبل جميع أبناء الأمة، مع ذلك كان الإمام عليه السلام مكرها على قبولها بسبب تلك الظروف الصعبة والملابسات التى عاشها المجتمع الإسلامى من جراء سياسة الخلفاء، فقد أورد المؤرخ المعروف ابن أثير فى الكامل بهذا الشأن قائلاً: أتى المصريون علياً عليه السلام بعد مقتل عثمان وقال بعضهم لبعض لئن رجع الناس إلى أمصارهم بغير إمام لم نأمن الاختلاف وفساد الأمة. فغشى الناس علياً عليه السلام بعد أن باعدهم وقالوا له: نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من بين القرى فقال على عليه السلام:

«دعونى والتمسوا غيرى فانا مستقبلون أمرا له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول». فقالوا:

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٣١

نشدك الله! ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله؟ فقال:

«قد أجبتمكم، واعلموا أنى إن اجبتكم ركب بكم ما أعلم، وان تركتمونى فانما أنا كاحدكم، الا أنى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه» ، ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد. وتشاور الناس فيما بينهم وقالوا: إن دخل طلحة والزبير فقد استقامت، فبعث البصريون إلى الزبير حكيم بن جبلة وقالوا: احذر تحابه ومعه نفر، فجاؤوا به يحدونه بالسيف، فبايع، وبعثوا إلى طلحة الأشر ومعه نفر، فاتى طلحة، فقال: دعونى أنظر ما يصنع الناس، فلم يدعه، فجاء به يتله تلاً عنيفاً، وصعد المنبر فبايع- ثم خاض ابن أثير فى تفاصيل بيعه عامة الأمة. [٣٢١] فالحق أن علياً عليه السلام كان يعلم مدى صعوبة السير على الحق وبسط العدل فى ربوع هذه الجماعة التى تربت على مفردات الظلم والجور، مع ذلك لم يكن يتوانى عليه السلام من التضحية حتى بنفسه من أجل حفظ المبادئ الإسلامية فلم يكن هدف الإمام عليه السلام الاستيلاء على الخلافة مهما كان الثمن، بل كان يرى الحكومة وسليته لحفظ القيم الإسلامية؛ الأمر الذى يصعب إدراكه على من ليس له علم بفحوى رسالة الأنبياء والاولياء، فقد نقل ابن أبى الحديد عبارة رائعة عن بعض العلماء بهذا الشأن إذ قال: وبهذا ونحوه استدل أصحابنا المتكلمون على حسن سياسته وصحة تدبيره، لأن من منى بهذه الرعية المختلفة الأهواء، وهذا الجيش العاصى له، المتمرد عليه، ثم كسر بهم الأعداء، فليس يبلغ أحد فى حسن السياسة وصحة التدبير مبلغه.

إن سياسته عليه السلام إذا تاملها المنصف متدبراً لها بالاضافة إلى احواله التى دفع إليها مع أصحابه، جرت مجرى المعجزات لصعوبة الأمر وتعذره. [٣٢٢]

٣- لم وزارته عليه السلام خير من إمارته؟

إضافة إلى إمكانية حمل عبارة الإمام عليه السلام

«أنا لكم وزيراً، خير لكم منى أميراً»،

على نوع من التواضع واتمام الحجّة، فانه يمكن توجيهها بشكل آخر، وهو أنّ علياً عليه السلام لو أصبح أميراً لكانت معارضته والوقوف بوجهه مدعاةً إلى الكفر، وذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له كما روى

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٣٢

في الخبر المعروف

«حربك حربي» [٣٢٣]

، ولما كانت حرب رسول الله صلى الله عليه وآله كفرةً، فان حرب علي عليه السلام كفرةً. أمّا لو كان عليه السلام وزيراً فإنّ الخروج على تلك الحكومة لا يؤدي إلى الكفر.

وزبدة الكلام فان بعض المغرضين حاول استغلال هذه الخطبة وتفسيرها خلافاً لأصول وعقائد التشيع، والحال ليس فيها ما يدعوا إلى هذا الأمر، لأنّ الإمام عليه السلام أراد أن يبين زهده بهذا المقام الظاهري من جانب وأنّ الآخرين يفقدون صوابهم لأدنى من هذا الأمر. ومن جانب آخر فقد كشف الإمام عليه السلام قمةً تواضعه بهذه العبارات للمؤمنين من أبناء الامة. كما حذر فيها واتم الحجّة بأنّي إذا نهضت بالأمر فلن أعمل سوى بالكتاب والسنة والحق والعدل ورضى الله، ولا- تتوقعوا أن أوصل ما شهدتم من سياسة، وترسيخ دعائم الحكم على الظلم والجور.

وأخيراً لا- تعتقدوا بأنّي غافل عن عواصف المستقبل وأنّي متطلع إلى الخلافة لأراها سهلةً ذلول، فأنّي لعلى يقين من أنّ الخلافة في هذه الظروف خطيرة كركوب الدابة الجموح كالمركب الجموح ولا- اقبلها إلا بفضلها وظيفته وتكليف إلهي، وبخلافه فلا قيمة لها عندي.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٣٣

الخطبة [٣٢٤] الثالثة و التسعون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يتبه أمير المؤمنين عليه السلام على فضله وعلمه وبيّن فتنه بنى أمية

أشار عليه السلام نظرةً إلى الخطبة في هذا الخطبة إلى فتنه بنى أمية وقدرته إلى عظم خطورتها، لأنّ الناس كلهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة، ولا يعلمون كيف يقاتلونهم، هل يتبعون موليتهم أم لا؟ وهل يجهزون على جريحهم أم لا؟ واستعظموا أيضاً حرب عاشته وحرب طلحة والزبير، لمكانهم في الإسلام، فلولا أنّ الإمام عليه السلام اجترأ على سل سيفه فيها. ما أقدم أحد عليها حتى الحسن عليه السلام. ثم قال عليه السلام سلوني قبل أن تفقدوني. فقد روى صاحب كتاب الاستيعاب بن عبد البر عن جماعة من الرواة والمحدثين،

قالوا لم يقل أحد من الصحابة

«سلوني»

إلّعلي بن أبي طالب. [٣٢٥]

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٣٥

القسم الأول: أنا فقأت عين الفتنة

«أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِيَءَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْبُهَا وَاشْتَدَّ كَلْبُهَا. فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَلَا عَنْ فِتْنَةٍ تَهْدِي مَنَّهُ وَتُضِلُّ مَنَّهُ إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِنَاقَتِهَا وَقَاتِدِهَا وَسَائِقِهَا، وَمُنَاحَ رِكَابِهَا، وَمَحَطَّ رِحَالِهَا، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلًا، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتًا. وَلَوْ قَدْ فَصَدْتُ مَوْنِي وَنَزَلْتُ بِكُمْ كَرَائِهِ الْأُمُورِ، وَحَيَ وَازِبُ الْخُطُوبِ، وَلَا طَرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ، وَفَشَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الْمَسْئُولِينَ، وَذَلِكُ إِذَا قَلَصَتْ حَزْبُكُمْ، وَشَمَرَتْ عَنْ سَاقٍ، وَضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضَيْقًا، تَسْتَطِيلُونَ مَعَهُ أَيَّامَ الْبَلَاءِ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ لِيَقِيَّةِ الْأَبْرَارِ مِنْكُمْ».

الشرح والتفسير

بعد أن حمد الإمام عليه السلام الله وأثنى عليه خاطب الناس قائلاً:

«أما بعد حمد الله، والثناء عليه، أيها الناس! فاني فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجتريء عليها أحد غيري بعد أن ماج غيبها [٣٢٧] واشتد كلبها [٣٢٨].»

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٣٦

وقد اختلفت أقوال الشراح في المراد بهذه الفتنة، فقد ذهب البعض إلى أن المراد بها وقعة الجمل، حيث أصابت فيه الحيرة السذج من الأفراد وحتى من لم يكن يمتلك الإيمان والعلم العادي، في أنه هل يجوز قتال فتنة تنتحل الإسلام ظاهراً وهي من أهل القبلة؟ كيف وفيها بعض كبار الصحابة كطلحة والزبير، وكذلك زوج رسول الله صلى الله عليه وآله عائشة، وناهيك عما سبق فإذا تمت الحجّة ونشبت الحرب، فهل يمكن السيطرة على أموالهم كغنائم؟ وكيف سيعامل أسراهم؟ إلّا أنّ الإمام عليه السلام كان يعلم بأنّ هذا النقص للعهود والمواثيق، وشق عصا الأئمة وتمزيق وحدتها، إذا استمر فإنّ الفتنة ستعم كافة البلاد الإسلامية حتى لا يبقى من الإسلام إلّا اسمه، ومن القرآن إلّا رسمه وستطمس معالم الدين. فبذل الإمام عليه السلام بادية الأمر قصارى جهده من أجل اتمام الحجّة محذراً الطرف المقابل من العواقب الوخيمة وذلك من خلال الكتب والرسائل التي كان يبعث بها إليهم، فلما لم يستجيبوا، لم يكن أمام الإمام عليه السلام من سبيل إلا القتال، ومن هنا واجههم الإمام عليه السلام بتلك الشدة والصرامة حتى أخدم فتنة الجمل، بينهما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بها فتنة الخوارج من النهروان لأن ظاهر الخوارج كان يتصف بنوع من الصلاح والقدسية، رغم انحرافهم الباطني وحمقتهم وجهلهم بالتعاليم الإسلامية، بينما كانوا يولون عناية فائقة لأدنى المستحبات والمندوبات، ولذلك تردد الكثير من السذج في قتالهم، بينما نهض الإمام عليه السلام بالأمر ليواجه هذه الفتنة ويفقأ عينها، كما ذهب بعض الشراح إلى أنّ المراد بها الفتنة بمفهومها العام، حيث يعتقدون أنّ هذه الفتن قد بدأت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في وقعة بدر واستمرت في سائر الغزوات، ثم استفحلت وتفاقم خطرها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم امتدت لتشتد في زمان عثمان، فلما قتل وبايع الناس الإمام عليه السلام تجذرت هذه الفتنة لتتخذ أشكالاً أخرى ليواجهها الإمام عليه السلام بالسيف أحياناً، وبالصبر والتحمل والتحذير والنذير أحياناً أخرى ولكن يبدو تفسيرها بالجمل أنسب من غيره أما التعبير:

«عين الفتنة»

فيفيد أنّ الإمام عليه السلام قد شبه الفتنة بشبح وحشى كاسر، وإذا فقأت عينه سلبت قدرته وحيويته، كما تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان يتجه في مجابهته للفتنة إلى مراكزها الأصلية ورموزها الأساس،

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٣٧

ولا يقصد العناصر الثانوية هنا وهناك، فالفتنة تزول إذا مازال مركزها؛ وهذا هو الطريق الأفضل الذي ينبغي اتخاذه في مواجهة الفتن والدسائس. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى مسألة ذات أهمية بالغه جدا فقال عليه السلام:

«فاسألوني قبل أن تفقدوني»

. كما ذكر سابقا فقد قال المحققون لم يكن ليقول هذا الكلام غير علي بن أبي طالب، وذلك لأنه كان واسع العلم بأحداث الماضي

و الحاضر و المستقبل بحيث يجيب يرد على كل سؤال بشأن المعارف و الأحكام، و هو العلم الذى تعلمه من رسول الله صلى الله عليه و آله الذى أخذه عن الوحي.

قال الشارح المعتزلى روى صاحب كتاب الاستيعاب عن جماعة من الرواة و المحدثين قالوا لم يقل أحد من الصحابة عنهم سلونى إلأعلى بن أبى طالب، وقال أبو جعفر الاسكافى فى كتاب نقض العثمانية: ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر سلونى إلأعلى بن أبى طالب عليه السلام.

وقيل إن ابن الجوزى قال يوماً على منبره: سلونى قبل أن تفقدونى، فسألته امرأة عما روى أن علياً سارفى ليله إلى سلمان فجهره ورجع، فقال: روى ذلك، قالت: فعثمان ثم ثلاثة أيام منبوذاً فى المزابل و على عليه السلام حاضر، قال: نعم، فقالت: قد لزم الخطاء لأحدهما، فقال: ان كنت خرجت من بيتك بغير اذن زوجك فعليك لعنة الله و إلأا فعليه، فقالت: خرجت عائشة لحرب على باذن النبى صلى الله عليه و آله أم لا؟ فانقطع ولم يحر جواباً [٣٢٩] ثم قال عليه السلام: «فو الذى نفسى بيده!

لاتسألونى عن شىء فيما بينكم و بين الساعة، و لاعن فئة تهدى منه و تضل منه إلأا أنباتكم بناعقها [٣٣٠] وقائدها و سائقها، و مناخ [٣٣١] ركابها، و محط رحالها، و من يقتل من أهلها قتلاً، و من يموت منهم موتاً»

ربما يتكهن الكثير من الناس بصورة كلية و مبهمه عن بعض حوادث المستقبل، و هذا ما نلمسه بوضوح لدى الساسة الذين يتكهنون ببعض الامور التى قد تصيب و قد تخطىء. إلأا أن أحداً لم يتمكن بالتكهن بدقائق الامور و أدنى التفصيلات و بالنسبة

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٣٨

لتلك الأزمان البعيدة، إلأللمن ارتبط بمصادر الوحي و استند إلى المدد الإلهى و العلم المطلق.

و العجيب فى الأمر أن الإمام عليه السلام أكد فى هذه العبارة أنى أستطيع أن أخبركم بكافه الحوادث القادمة إلى يوم القيامة من جانب، و من جانب آخر أشار إلى جزئيات هذه الحوادث و تفاصيلها. الأمر الذى لا يتيسر إلأللنبى و من يستقى علومه و معارفه منه، و هنا يبرز هذا السؤال: هل للنبى أو الإمام العلم بالغيب، و بهذه السعة و الشمولية، و الحال هذا القرآن يصرح: «قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلأا الله» [٣٣٢]، و تبدو الاجابة واضحة و معروفة على هذا السؤال، على ضوء ما ورد فى الآيات القرآنية، و كلمات الائمة عليه السلام و لاسيما الإمام عليه السلام فى أن علم الغيب بالذات مختص بالله سبحانه، و الله سبحانه يطلع من يشاء من أوليائه على ذلك العلم، كما ورد ذلك فى الآية ٢٤-٢٧ من سورة الجن: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحِداً* إلأا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ»، و سيأتى عما قريب أن الإمام عليه السلام حين أخبر عن بعض الحوادث، فتبادر هذا السؤال إلى ذهن أحد الأفراد بشأن علم الإمام عليه السلام للغيب، ردّ عليه عليه السلام بالقول:

«ليس هو بعلم غيب، و إنما هو تعلم من ذى علم»،

فى إشارة واضحة إلى أن الغيب الذاتى لله، و علم الإمام عليه السلام إكتسابى، فقد تعلم جميع هذه الامور من رسول الله صلى الله عليه و آله الذى تعلمها من الله سبحانه و تعالى (وسيمر علينا فى البحث القادم شرح هذا الكلام). على كل حال، لم يقل مثل هذا الكلام بعد رسول الله أحد سوى أمير المؤمنين، إلأا أن الإمام أورد ذلك كراراً و مراراً ليقع عين ما كان يخبر به عليه السلام. و قد أفرد ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة فضلاً أسماء الامور الغيبية التى أخبر عنها الإمام عليه السلام و أورده فى ذيل هذه الخطبة، و سنشير إليه فى البحث القادم.

و العبارة:

«ولاعن فئة تهدى منه ...»

إشارة إلى أن الإمام عليه السلام لا يخبر عن الجماعات الكثيرة والوقائع الخطيرة فحسب، بل يستطيع الأخبار عن صغائر الحوادث ببركة ذلك التعليم الإلهي. ثم أشار عليه السلام إلى نقطتين بهذا الشأن:

الاولى: لتشجيع أولئك على السؤال عن المسائل المصيرية، حذراً من ندمهم يوماً حين

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٣٩

تضطرب عليهم الامور فيحل مشاكلهم:

«ولو فقدتموني ونزلت بكم كرائه [٣٣٣] الامور،

وحوازب [٣٣٤] الخطوب، لأطرق كثير من السائلين، وفشل كثير من المسؤولين»

أى أسألوني مادمت بينكم، فليس لأحد بعدى أن يرد على ما يدور فى أذهانكم، آنذاك ليس لكم سوى الندم.

الثانية: إشارة إلى الأزمات والخطوب المرتقبة، ليستعدوا لها، كما تبشر من جانب آخر الأخيار والصالحين بالفتح

«وذلك إذا قلصت [٣٣٥] حربكم، وشمرت [٣٣٦] عن ساق، وضافت الدنيا

عليكم ضيقاً، تستطيرون معه أيام البلاء عليكم، حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم»

، فالإمام عليه السلام أشار- إلى سيطرة الجناة من حكام بنى أمية وسيطرتهم على مقدرات الأمة الإسلامية وغصب أموالها، وليس لمن

يقف بوجههم سوى الضربات الماحقة الشديدة، والحق أن جرائمهم وجنایاتهم لتفوق الخيال والتصور، وما أروع عبارة الإمام عليه

السلام بهذا الشأن حين قال:

«ضافت الدنيا عليكم ضيقاً»

لتصور بعض الفضائع التي ارتكبتها بنى أمية بحق الناس.

أما قوله عليه السلام:

«حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم»

، فيمكن أن يكون إشارة إلى زوال حكومة بنى أمية، ليتنفس المسلمون بعدها الصعداء، حيث سترى بهم العباسيون الذين لم تشد

قوتهم آنذاك. كما يمكن أن تكون إشارة إلى الحكومة العالمية للإمام المهدي عليه السلام التي تقتلع جذور الظلم والجور وتنهى

كافة أشكال التسلط والهيمنة وترسى قواعد العدل والقسط، وإليك طائفة من الامور الغيبية التي أخبر عنها الإمام عليه السلام ثم

تحققت، تأمل نبوءات الإمام عليه السلام أفرد ابن أبي الحديد فصلاً بهذا الشأن فقال: واعلم أنه عليه السلام قد أقسم فى هذا الفصل

بالله الذى نفسه بيده أنهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلا أخبرهم به، وأنه ما صحَّ من طائفة من الناس يهتدى بها مائة

وتضلَّ بها مائة، إلا وهو مخبرٌ لهم- إن سألوهم- برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزول ركابها وخيولها؛ ومن يقتل منها قتلاً، ومن يموت

منها

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٤٠

موتاً؛ وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادّعا الزبوية، ولا ادّعاء النبوة؛ ولكنه كان يقول:

إن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بذلك؛ ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقاً، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة،

كإخباره عن الضربة التي يضرب بها فى رأسه فتخضب لحيته، وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام؛ وما قاله فى كربلاء حيث

مرّ بها، وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده، وإخباره عن الحجاج؛ وعن يوسف بن عمر؛ وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهر وان، وما

قدمه إلى صحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم وصلب من يصلب وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره بعدة الجيش

الوارد إليه من الكوفة لما شخص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها، هذه شهادة ضد من لا يعتقد بإمامته عليه السلام على أنه الإمام

المعصوم؛ بينما المسألة واضحة لنا تماماً. فالائمة ورثة علوم النبي صلى الله عليه وآله إلى جانب إدراكهم للحقائق القرآنية التي يعجز

عن دركها الاخرون، مع مالهم من إلهامات غيبية و سنبحت في حينه في ذيل بعض الخطب بشأن سعه علم الإمام.
نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٤١

القسم الثاني: فتنه بنى أمية

إشارة

«إِنَّ الْفِتْنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ؛ يُنْكَرُونَ مُقْبِلَاتٍ، وَيُعْرِفُونَ مُدْبِرَاتٍ، يَحُمَّنَ حَوْمَ الرِّيَّاحِ، يُصِبْنَ بَلْدًا وَيُخْطِنَنَّ بَلْدًا. أَلَا وَإِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمِّيَّةٍ، فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمِيَاءُ مُظْلِمَةٌ: عَمَّتْ خُطَّتْهَا، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا، وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وَأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا، وَإِيمَ اللَّهُ لَتَجِدَنَّ بَنِي أُمِّيَّةٍ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعِيدِي، كَالنَّابِ الضَّرُوسِ، تَعْرِضُ بِفِيهَا، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا، وَتَرْبِنُ بِرِجْلِهَا، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا، لَأَيَّرَالُونَ بَلَاؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا كَانَتْصَارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ، وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَضْحِيهِ، تَرُدُّ عَلَيْكُمْ فِتْنَتَهُمْ سُوءَاءَ مَحْشِيئَةٍ، وَقِطْعًا جَاهِلِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مَنَارٌ هُدَى، وَلَا عِلْمٌ يُرَى .

الشرح والتفسير

أخبر الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة عن جانب من الحوادث المستقبلية والفتن التي ستصيب المسلمين، ثم واصل هنا الكلام عن أولها: الإشارة إلى القانون العام ذات الصلة بالفتن؛ القانون الذي يؤدي العلم به إلى الحد من خطر هذه الفتن، ثانياً: الحديث عن فتنه خاصة- وهي في الواقع من أهم الفتن- وتحذير الناس منها، وهي فتنه بنى أمية التي تطرق الإمام عليه السلام إلى أغلب مميزاتها. فقد قال عليه السلام بادية ذى بدء، أن الفتن عادة ما تتلبس بلباس الحق إذا أقبلت، فاذا أدبرت نبهت الناس إلى ما هيتهما

«إن الفتن إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت نبهت».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٤٢

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة في الحقيقة هي علة هذا الأمر، وهي أن هذه الفتن مجهولة عند الاقبال، معروفة عند الإدبار
«ينكرون مقبلات ويعرفن مدبرات»

، فهذه نقطة اجتماعية سياسية غاية في الأهمية، وهي أن أصحاب الفتن والانحراف إنما يحاولون تنميق ظاهرهم ليخفون صورتهم الكريهة في إطار الحق ليستقطبوا الناس إليهم، فاذا استتب لهم الأمر كشفوا عن أنيابهم الكريهة حتى يطاح بهم.
ومن هنا فإن دعاء الحق مطالبون على الدوام بالنظر بمنتهى الحيطة والحذر إلى الأحداث والوقائع خشية الانخداع والاعتزاز، فحسن الظن والنظرة السطحية في مثل هذه الامور لن تؤدي سوى إلى الضرر والخسران.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة مهمة وهي أن الفتن ليست شاملة، بل هي كالرياح التي تصيب موضعا وتترك آخر:
«يحمئن [٣٣٧] حوم الرياح، يصبن بلداً ويخطئن بلداً».

لأن أرضية كافة المدن والامصار ليست واحدة لتحتضن الفتن، بل هناك عدة عوامل متوفرة هنا وليست متوفرة هناك، وبناء على هذا فلا ينبغي الاعتزاز إذا لم تشاهد بعض آثار الفتن في موضع دون آخر.

ثم يتطرق عليه السلام إلى فتنه بنى أمية ليحذر من خطورتها فيقول:

«ألا وإن أخوف الفتن عندي عليكم فتنه بنى أمية، فإنها فتنه عمياء مظلمة».

فتنه عمياء مظلمة لاتبقى أمامها من قيم ومفاهيم ومثل، وتتجاوز كافة الأشخاص دون الالتفات إلى سوابقهم ومواقفهم، والحق أن فتنه

بنى أمية كانت كذلك! فقد استعادت أعراف الجاهلية حياتها على عهدهم وفي ظل حكومتهم، حيث تمكنت حثالات رجالهم من التسلط على رقاب المسلمين وإشغال المواقع الحساسة في الحكومة، ففتحت تلك الشخصيات الصالحة وأقصيت عن الميدان، بينما مورست أشنع أنواع البطش والتعذيب بحق أولئك الذين رفعوا أصواتهم بوجه هذه الحكومة. ثم أشار عليه السلام إلى بعض خصائص هذه الفتنة في أن حكومتها عامه شاملة بحيث يخضع الجميع لهذه السلطة الغاشمة، غير أن بلائها يختص بطائفة وجماعة؛

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٤٣

فمن كان بصيراً في تلك الفتنة (ووقف بوجهها) شمله ذلك البلاء، بينما يسلم منها من كان أعمى «عمت خطتها» [٣٣٨] وخست بليتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمى عنها».

طبعاً أن آثار الفتنة ستعم بالتالي كافة القوم، ولعل هذا هو المعنى الذي أشارت إليه العبارة «عمت خطتها»؛

إلّا أن شدتها وحدتها إنما تطيل المجاهدين الأشداء، بينما يكون الجهال من عديمي الشعور بالمسؤولية في أمان من ذلك البلاء ثم تطرق عليه السلام إلى خاصية أخرى من خصائص حكومة بنى أمية، ليقسم قائلاً:

«وآيم الله [٣٣٩] لتجدن بنى أمية لكم أرباب سوء بعدى كالناب [٣٤٠] الضروس [٣٤١] تعذب [٣٤٢] بفيها، وتخطب [٣٤٣] بيدها وتزين [٣٤٤] برجلها، وتمنع درها [٣٤٥]».

ياله من تشبيه رائع في الإنسان يتوقع أن يستفيد من لبن ناقته ويركبها ليصل إلى المكان الذي يريد، كما أن الإنسان ينتظر من الحكومة أن تساعد وتحل مشاكله وأن تكون سنده في مسيرة الرقي والتقدم الفردي والاجتماعي. أمّا الحكام الظلمة الذين يفتقرون إلى المنطق والرحمة- والذين لا يفكرون إلّا في تحقيق منافعهم- ليس فقط لا يحلون مشاكل المجتمع فحسب، بل يجعلونه يعيش في خضم هالة من المصاعب والمشاكل ويوجهون له الضربات الماحقة الموجهة وهذه المعاملة الجافة العنيفة، و يالها من نبوءة صحيحة حيث كان عليه السلام يرى ببصيرته كل تلك الأحداث و عظم البلاء الذي صبته هذه الفئة القاسية على المسلمين. حتى لا يبقى منكم إلّا من ينفعهم أو لا يضرهم:

«لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلّا نافعهم، أو غير ضائر بهم».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٤٤

فهم يخنقون أصوات دعاة الحق في حناجرهم ويلتقطون من يعارضهم أينما كان ولا يرون لأى أحد من حق في الحياة سوى من يقوم على خدمتهم، أو لا يشكل أى خطر على مصالحهم، ولا يفرق لديهم أن يكون داع الحق هذا وطالب العدل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله أو من صحابته أم كان من كبار علماء الأئمة وأعلامها وهكذا تتضح عمومية الفتنة وشموليتها التي أشار إليها الإمام عليه السلام. كما أشار في الخاصية الرابعة إلى نقطة وهي أن المشكلة العظيمة في هذه الحكومة تكمن في عدم وجود أى ملاذ من شأنه توفير الأمان للآخرين والنجاة من ظلم هؤلاء الظلمة، وليس هنالك من يسمع شكواهم، الأمر الذي يضطرهم إلى شكوى ظلم الظلمة إلى أنفسهم ومعلوم بالطبع نتيجة مثل هذه الشكوى:

«ولا يزال بلاؤهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه، والصاحب من مستصحبه».

والحق هذا هو مصير الأمة التي تقوم حكومتها الجائرة والظالمة بقطع ألسن كافة دعاة الحق وتحاصر العلماء وتفرض عليهم الإقامة في بيوتهم، وتعز الذليل وتذل العزيز وتحطم عناصر القوة في الأمة وتسخرها من أجل منافعها. ثم أشار في الخاصية الخامسة والأخيرة- والتي تؤكد في الواقع الخصائص السابقة- إلى تتابع هذه الفتن وهي عماء وصماء خالية من الأدلة وسبل النجاة:

«ترد عليكم فتنتهم شوهاء [٣٤٦] مخشية [٣٤٧] وقطعاً جاهلية، ليس فيها منار

هدى ولا علم يرى»

، وهكذا يكون الإمام عليه السلام قد رسم بهذه الخصائص الصورة القائمة لظروف وأوضاع حكومة بنى أمية، كما أشار إلى نهايتها؛ وكأنه كان قد عاش تلك الفترة المظلمة التي دامت ثمانين سنة، وكان يرى تفاصيلها رأى العين. فقد كانت حكومة لا تقيم وزناً للقيم والمثل الإسلامية ولا تعترف بالقوانين الإسلامية، بل هي حكومة مستبدة طاغية تفتقر إلى المنطق والموازن مليئة بالفتن الحاكية عن عصر الجاهلية، الحكومة التي قد لا تفكر حتى في مصالحها، لتمارس أقصى درجات الظلم والجور فترتكب ما قل نظيره في التاريخ البشرى. والعبارة:

«أرباب سوء بعدى»

، إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهي أنكم لم تستجيبوا لحكومتى الإسلامية والإنسانية العادلة، فليس أمامكم سوى الحكام الظلمة وأرباب السوء. وقد أورد

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٤٥

بعض شراح نهج البلاغة أن بنى أمية كانت تعامل طائفة من الناس كعبيد. حتى جاء في شرح نهج البلاغة للعلامة التستري أنهم كانوا يأخذون الجزية ممن أسلم من أهل الذمة ويقولون فروا من الجزية، يأخذون الصدقة من الخيل، وكانوا يختمون في أعناق المسلمين كما توسم الخيل، وينقشون في أكفهم علامة لاسترقاقهم كما يصنع بالعلوج من الروم والحبشة. [٣٤٨]

تأملات

١- مميزات الفتنة

الفتنة مفردة يخشاها الجميع، ويرون نتيجتها هي الشؤم والألم، ولكن هنا يطرح هذا السؤال: ما هي الفتنة؟ وما هي علامتها وملامحها؟ فالإمام عليه السلام بين في هذه الخطبة علامات الفتنة، كما عرفها على أساس هذه العلامات والملامح. فالفتنة إنما تطلق على الحوادث المعقدة التي لا تتضح ماهيتها؛ لها ظاهر براق وباطن مملوء بالفساد؛ تؤدي بالمجتمعات البشرية إلى الفوضى والعداوة والتناحر والاقتيال وسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الاعراض - والأنكى من كل ذلك تعذر السيطرة عليها.

غالباً ما تتلبس بلباس الحق لتجذب إليها السذج من الناس ولا يلتفتون إليها، إلا بعد أن تسدد إليهم سهام حقدتها. والفتن لا تعرف القانون، فقد تأتي على منطقة لتحرقها عن بكرة أبيها، بينما لا تشهد منطقة أخرى أثراً لهذه الفتنة وهي تعيش في أمن وأمان منها، وقد شبهها الإمام عليه السلام في الخطبة بالريح التي تصيب منطقة وتخطيء منطقة أخرى، وقد تلف هذه الريح كل شيء معها من قبيل الناس والسيارات لتقذف بهم هنا وهناك حسب سرعتها وشدتها! وهذا ما فعله الفتن بكبار الشخصيات الدينية والاجتماعية السياسية، إلى جانب فعلها بأموال الأمة وثروات المجتمع والحرب التي وقعت على عهد أمير المؤمنين على عليه السلام تعد كل واحدة منها نموذجاً بارزاً للفتنة؛ فقد شهدت واقعة الجمل حضور زوج النبي صلى الله عليه وآله عائشة التي ركبت الجمل، وإلى جانبها طلحة والزبير وهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله - ومن أهل السابقة

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٤٦

الحسنة في الإسلام، بحسب الظاهر - حتى بثوا أولى بذور النفاق والفرقة والشقاق في صفوف الأمة الإسلامية، ولم تضع الحرب أوزارها إلا بعد مقتل أكثر من عشرين ألف من المسلمين، حتى تم الأمر لعلى عليه السلام فأخمد نيران تلك الفتنة. قضية أهل الشام

وموقعه صفيين والمطالبة بدم عثمان ورفع المصاحف على أسنة الرماح نموذج بارز آخر لهذه الفتنة، ولم تنطفي نيرانها طائفة من الجهال المتنسكين وهم يرفعون شعار

«لا حكم إلا الله»

ليشعلو فتيل موقعه النهروان فالواقع أن تأمل هذه النماذج العينية يمكنه أن يعلم الإنسان بصورة علمية كافة مميزات الفتنة ومدخلاتها كما بينها الإمام عليه السلام في هذه الخطبة.

٢- حكومة بني أمية

بناءً على ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبة فإن حكومة بني أمية كانت من أعظم وأعقد الفتن التي عصفت بالمسلمين منذ انبثاق الدعوة الإسلامية حيث قلبت الحضارة الإسلامية رأساً على عقب وصبغت الحكومة الإسلامية بصبغة الاستبداد والتسلط والخرسة، تنتمي طائفة بني أمية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. ومنها أبو سفيان أعدى أعداء الإسلام الذي أثار أغلب الحروب ضد رسول الله صلى الله عليه وآله وقد بذل قصارى جهده من أجل القضاء على الإسلام، إلا أن إرادة الله وقدرته حالت دون ذلك، حتى استسلم أخيراً بجحافل الإسلام بينهما أسر الكفر وظل يخطط من أجل كسر شوكة الدين، بينما صفح النبي صلى الله عليه وآله عن جرائمه. روى ابن أبي الحديد عن الشعبي أن عثمان لما ولي الخلافة، اجتمع بنو أمية في داره فاغلقوا الباب، وكان حينها أبو سفيان قد كف بصره فالتفت إليهم وسألهم: هل فيكم غيركم؟ قالوا: لا، فقال عبارته المشهورة:

«يا بني أمية تلففوها تلقف الكرة! فوالذي يحلف به أبو سفيان! ما من عذاب ولا حساب ولا جنة ولا نار ولا بعث ولا قيامه» [٣٤٩].

وهي ذات العبارة التي أطلقها معاوية بعد ان سمع مقالة المغيرة، كما وردت مثلها في الأشعار المعروفة ليزيد حين جاءوا إليه برأس الإمام الحسين عليه السلام. هذا وقد ألف علماء الفريقين عدة

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٤٧

كتب ومقالات بشأن الجنايات والجرائم التي ارتكبتها حكومة بني أمية، والتي تدل على عمق الحقيقة التي صرحت بها الروايات الإسلامية قبل استيلاء بني أمية على دفة الحكم، وأنهم آفة هذه الأمة.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٤٩

القسم الثالث: انتقام الله من بني أمية

إشارة

«نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْهَا بِمَنْجَاةٍ، وَلَسْنَا فِيهَا بِمُدْعَاةٍ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللَّهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الْأَدِيمِ: بِمَنْ يَسِمْهُمْ خَسِيفًا، وَيَسُوقُهُمْ عُنْفًا، وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْسِ مُصَبَّرَةٍ لَا يُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، وَلَا يُخَلِّسُهُمْ إِلَّا الْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَدُّ قَرِيْشٌ - بِالْأَدْنَى وَمَا فِيهَا - لَوْ يَرَوْنِي مَقَامًا وَاحِدًا، وَلَوْ قَدَرُ جَزْرٍ جَزُورٍ، لِاقْبَلِ مِنْهُمْ مَا أَطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلَا يُعْطُونِيهِ!».

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالأخبار عن بعض الحوادث المستقبلية الحلوة والمريرة، حيث يلفت النظر إلى أن أهل البيت عليهم السلام بمنجاة من هذه الفتنة وأنهم ليسوا دعاء حكومة آنذاك:

«نحن أهل البيت منها بمنجاة» [٣٥٠]، ولسنا فيها بدعاء».

يبدو أنّ هناك إختلاف بين شراح نهج البلاغة في تفسير هذه العبارة، لأن الفتنة من حيث العينية الخارجية قد شملت أهل البيت، ونموذج ذلك شهادة الإمام الحسين عليه السلام وصحبه الكرام.

وعليه فنجاء أهل البيت من تلك الفتنة بمعنى عدم مسؤوليتهم في هذه الفتنة، وتقع مسؤوليتها على الأمة التي ولت ظهورها عن أهل البيت والتحققت بسليبي الكفر والشرك والجاهلية.

والعبارة

«ولسنا فيها بدعاة»

قرينة على هذا المعنى، لأنّ أهل البيت حين اجبروا على

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٥٠

السكوت ولم تندفع الأمة خلفهم، بات من الطبيعي عدم تحملهم لأيّة مسؤوليّة. ثم بشرهم الإمام عليه السلام بعدم استمرار هذه الفتنة وأنّ الله سيكشفها عن الأمة كما يكشف الجلد عن اللحم:

«ثم يفرجها [٣٥١] الله عنكم كتفريج الأديم.» [٣٥٢]

فهذا التشبيه يشير إلى اخماد فتنة أمية بصورة تامة في ذلك الزمان، لأن الجلد حين يفصل عن اللحم لا تبقى ذرّة منه على اللحم بحيث يتغير شكل الحيوان المذبوح تماماً.

والسؤال المطروح من الذي ينهى هذه الفتنة ويقضى على حكومة بنى أمية وكيف؟

قال عليه السلام: في مواصلة كلامه بشكل عام

«بمن يسومهم حسفاً [٣٥٣]، ويسوقهم عنفاً، ويسقيهم

بكأس مصبرة لا يعطيهم إلّا السيف، ولا يحلسم [٣٥٤] إلّا الخوف.»

العبارة

«مصبرة»

من مادة صبر على وزن خشن نبات شديد المرارة، إشارة إلى مرارة الحياة التي سيعيشها بنى أمية في ظل حكومة بنى العباس، والعبارة «لا يعطيهم ...»

تأكيد لهذا المعنى في ابتلاء بنى أمية بنى العباس، الذين يضعون السيف في أعناقهم، ومن حاله الحظ في الهرب فليس له إلّا الخوف والرعب.

ثم قال عليه السلام آنذاك تود قريش (إشارة إلى طائفة من بنى أمية) أن تعطى الدنيا وما فيها، لتراني مرة أخرى (وتدعن لامرتي) ولو لمدة وجيزة بقدر ذبح الناقة، لأقبل منها ما تمنعني اليوم بعضه:

«فعند ذلك تود قريش بالدنيا وما فيها، لو يروني مقاماً واحداً، ولو قدر جزر جزور [٣٥٥]، لا قبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يعطوني»

فالعبارات وان أشارت إلى تكهن الإمام عليه السلام بشأن زوال سلطته بنى أمية على يد بنى العباس، إلّا أنّ بعض شراح نهج البلاغة احتملوا أنّ هذه العبارات وردت بخصوص حكومة الإمام المهدي عليه السلام حيث سيؤدى.

إلى إجتثاث جذور الظلم والطغيان، إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيداً، وذلك لأنه أولاً: سوف

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٥١

لن يكون بنى أمية آنذاك طائفة خاصة. ثانياً: ليس هنالك من مجال لأن يتمنوا حكومة الإمام على عليه السلام حين ظهور الإمام المهدي عليه السلام وتطبيق كافة تعاليم السماء.

وبعبارة اخرى: فانّ هذه الامنية ستكون من قبيل تحصيل الحاصل. وهذا الكلام إخبار عن ظهور المسودة، وانقراض ملك بنى أمية، ووقع الأمر بموجب إخباره عليه السلام؛ حتى لقد صدق قوله:

«لقد تود قريش ...»

، فانّ أرباب السير كلهم نقلوا أنّ مروان بن محمد قال يوم الزاب لما شاهد عبدالله ابن علي بن عبدالله بن العباس بازائه في صف خراسان: لوددت أنّ علي بن أبي طالب تحت هذه الراية بدلاً من هذا الفتى؛ والقصة طويلة وهي مشهورة. [٣٥٦]

والأعجب من ذلك حين ولي أبو العباس السفاح الخلافة- وهو أول خليفة عباسي أمر بقتل كافة بنى أمية، كما أمر بنش قبورهم وأخراج الأموات منها واحراقها، ولم ينج منهم إلّا من هرب إلى الأندلس- وقيل أنّ السفاح أمر بطرح موتى بنى أمية أمام الكلاب لتنهش لحومهم. [٣٥٧]

بل لقب أبو العباس بالسفاح لكثرة قتله من بنى أمية. [٣٥٨]

ويتضح ممّا مر معنا أنّ الفرج الذي بشر به الإمام عليه السلام إنّما يقتصر على الفترة الممتدة بين حكمه بنى أمية وبنى العباس، أو بعبارة اخرى يرتبط بالمدّة التي لم تقو فيها قدرة بنى العباس إلى الحد المطلوب، وذلك لأنهم حين توطدت دعائم حكومتهم وقويت شوكتهم، غاصوا في هالة من الظلم والاضطهاد ليجعلوا المسلمين يعيشون فترة مظلمة اخرى

تأملان

١- ضريبة الفرار من الحق

شحن التأريخ بهذه التجربة في أنّ من يهرب من الحق والعزة والكرامة، إنّما يعيش حياته في ظل الذل والباطل. وأفضل نموذج على ذلك أهل العراق على عهد علي عليه السلام الذين لم يستجيبوا

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٥٢

لعلي عليه السلام المعروف بعدالته ورحمته حتى في ساحات الوغى ومع الخصوم والاعداء، فكانوا يختلقون مختلف الذرائع ليمردوا عليه، فملأوا قلبه دما وشحنوا صدره غيضاً وجرعوه الهم والغم. إلّا أنّه لم تمض عليهم مدّة حتى دفعوا ثمن ذلك باهضاً ليدوقوا ألوان الذلّة والهوان. فقد سلط عليهم زمرة من الجفأة الطفأة القساء الذين لم يرعوا إلّا لولادمة في كبير أو صغير. وقد نهبوا أموالهم وانتهكوا حرمتهم وجرعوه الموت غصّة غصّة، وأحالوا حياتهم ظلاماً دامساً، حتى تمنوا لحظة من لحظات حكمه علي عليه السلام ولكن هيهات.

نعم هذا ما صرح به الإمام عليه السلام في الخطبة ٢٨:

«ألا وإنّه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى يجربه الضلال إلى الردى .

حقاً أنّ هذا الفصل من تأريخ الإسلام ملء بالدروس والعبر، فمصير أولئك الذين غدروا بأمير المؤمنين علي عليه السلام ينطوي على الدروس والعبر من جانب، ومن جانب آخر فإنّ قصة بنى أمية بعد علي عليه السلام هي الاخرى عبرة لمن اعتبر.

روى المؤرخ المشهور المسعودي أنّ الحجاج حكم الكوفة والبصرة على عهد عبد الملك بن مروان عشرين سنه، واحصى من قتله صبراً سوى من قتل في عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفاً، ومات في حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، منهن ستة عشر ألفاً مجردة، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من البرد والمطر في الشتاء، وكان له غير ذلك من العذاب. [٣٥٩]

وذكر ابن قتيبة في الامامة والسياسة أن الحجاج دخل مسجد البصرة مع مئتي نفر يحملون سيوفهم ثم أمرهم بالهجوم على الناس إن خلع عمامته إذا رموه، فجعلون يضربون أعناق من في المسجد حتى إمتلأ بدمائهم. و لم يكن ذلك سوى جانباً من مصير من تمرد على الإمام عليه السلام.

٢- عاقبة بنى أمية

عاقبة بنى أمية كانت هي الاخرى أسوأ من عاقبة أهل العراق في حكمه بنى العباس

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٥٣

حتى قيل أن أحد خلفاء بنى العباس أحضر في مجلسه تسعين من زعماء بنى أمية فأمر بضرب رؤوسهم بأعمدة الحديد والقوا وسط المجلس، ثم وضعت مائدة الطعام عليهم فجعل يتناول مع صحبه الطعام. [٣٦٠]

بل لم يرحموا حتى صغار بنى أمية فضلاً عن موتاهم. فقد عمد عبدالله بن على أيام أول خليفة عباسى السفاح إلى نبش قبورهم، فاخرج جسد هشام بن عبدالملك وأضرم فيه النار، كما أخرج جسد الوليد بن عبدالملك ويزيد بن معاوية- ولم يبق منهما إلا العظام- وسائر أجساد بنى أمية وأمر باحراقها. [٣٦١]

ثم اتجه صوب قبر معاوية، فلم يكن فيه سوى حفنة من التراب. [٣٦٢]

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٥٥

الخطبة [٣٦٣] الرابعة والتسعون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يصف الله تعالى ثم يبين فضل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ثم يعظ الناس

نظرة إلى الخطبة

تشتمل الخطبة على أربعة محاور: الأول: بيان بعض صفات الله سبحانه، الثانى: خلق الأنبياء من صلب آدم عليه السلام. الثالث: خلق النبى الأكرم صلى الله عليه وآله من النسل الطاهر، وشرح بعض فضائله ومناقبه ومدح عترته عليهم السلام. الرابع: النصح والوعظ بعبارات قصيرة عظيمة التأثير.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٥٧

القسم الأول: عجز الفكر عن معرفته

«فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ بُعْدُ الْهَمِّ، وَلَا يَنَالُهُ حِدْسُ الْفِطَنِ، الْأَوَّلُ الَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِي، وَلَا آخِرَ لَهُ فَيَنْقُضِي.»

الشرح والتفسير

استهل الإمام عليه السلام خطبته - كسائر خطبه - بحمد الله والثناء عليه، أفضل انطلاقة في الحديث واعداد القلوب لسماع الوعظ. فقد بين عليه السلام بهذه العبارات أربع صفات من صفات الله التى تعود فى الحقيقة إلى صفة واحدة (وقد ورد شبيه ذلك فى الخطبة

الاولى من نهج البلاغة في المجلد الأول من هذا الكتاب). فقال عليه السلام:

«فبارك الله الذي لا يبلغه بعد الهمم، ولا يناله حدس الفطن».

فهو سبحانه الأول الذي لانهاية له ليتمكن الوصول إليه، ولا آخر له لتكون له نهاية

«الأول الذي لا غاية له فينتهى، ولا آخر له فينقضى»

فجميع هذه الصفات إنما تشير إلى عدم تناهى ذاته في كل جهة. الذات التي لا تعرف الحدود من حيث العظمة والعلم والقدرة والاولية والآخرية. فهو ليس محدود في الفكر الإنساني، ولا يدرك بالظنون، ليس له أول، كما ليس له آخر، ليس هنالك من هدف لذاته ولا غاية، وذلك لأنه كمال مطلق ووجود لا حدود له ولانهاية.

وفي ذات الوقت فإن هذه الصفات الأربع تعالج هذه الحقيقة من جوانب مختلفة:

في العبارة الاولى أن الأفكار البشرية والإرادات القوية ومهما بلغت جهودها ومساعدتها لا يسعها أن تبلغ معرفة كنهه سبحانه.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٥٨

والعبارة الثانية: إشارة إلى الحدس والظن والانتقالات الدفعية والسريعة الفكرية التي يمكنها أن تذلل أغلب قضايا الحياة، حيث يقول الإمام عليه السلام ليست لها من فاعلية هنا.

العبارة الثالثة: تشير إلى أن الله سبحانه، على خلاف الموجودات الإمكانية التي لها هدف ومقصد لهذا الوجود، فهي تنتهي حين تبلغ هدفها وتقوم برسالتها؛ فليس هناك وجود ليلغاه.

العبارة الأخيرة: تشير إلى أنه آخر لانهاية له - بعبارة أخرى: هو أول الوجود وآخره، ولكن ليس بمعنى الأول الذي ينتهي ولا الآخر الذين ينقضى؛ فهذه الصفات تعنى أزليته وابدئته ومطلقيته.

قد لا يكون المعنى الأخير كذلك للوهلة الاولى ولكن يبدو ذلك صحيحاً من خلال الالتفات إلى العبارة السابقة، ونظيراتها في نهج البلاغة، كما ورد في الخطبة ٨٥.

على كل حال فإن الأفكار البشرية المحدودة لا تصل أبداً إلى كنه ذلك الكمال المطلق، وليس لنا سوى معرفة إجمالية، يمكنها أن تتكامل كلما طهرت روح الإنسان أكثر وأصبح فكره أقوى وأكمل، وأن تعذر بلوغ المعرفة التفصيلية البتة.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٥٩

القسم الثاني: (ومنها في وصف الأنبياء): المكانة الرفيعة للأنبياء

«فَأَسْتَوْدَعُهُمْ فِي أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ، وَأَقْرَبُهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ، تَنَاسَخْتُهُمْ كَرَائِمِ الْأَصْلَابِ إِلَى مُطَهَّرَاتِ الْأَرْحَامِ؛ كُلَّمَا مَضَى مِنْهُمْ سَلَفٌ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللَّهِ خَلْفٌ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى الأنبياء الذين بعثهم الله طيلة تاريخ البشرية، ليكمل بحث التوحيد ببحث النبوة. وتفيد القرائن أن هناك مقاطع محذوفة بين هذا القسم وذلك الذي سبقه، فالأقسام مقتطفات من خطبة طويلة للإمام عليه السلام.

على كل حال فإن الخطبة أشارت في الواقع إلى الامور المهمة التالية.

الأول: أن الأنبياء قد غطوا جميع التاريخ البشري وقد نهضوا الواحد تلو الآخر بمهمتهم في الوعظ والإرشاد.

الثاني: أنهم ينشدون جميعاً هدفاً واحداً.

الثالث: أنهم تربوا في أصلاب شامخة وأرحام مطهرة.

فقال عليه السلام:

«فاستودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر»

، ثم خاض عليه السلام في شرح هذا المجمل بأن الله قد قلبهم في الأصلاب الكريمة والأرحام المطهرة. فقال عليه السلام بهذا الشأن: «تاسختهم [٣٦٤] كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام».

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٦٠

فالواقع هو أن

«أفضل مستودع»

يراد به أصلاب كرام الآباء من أهل الفضل و

«خير مستقر»

يراد به الأرحام الطاهرة للامهات.

ثم أشار عليه السلام إلى استمرار رسالة الأنبياء وامتدادها، وكلما رحل منهم أحد، خلفه آخر ليواصل سبيله:

«كلما مضى منهم سلف، قام منهم بدين الله خلف».

فالواقع هو أن حديقته الحياة الإنسانية لم تخل قط من شجرة الأنبياء الطيبة، لتغذي البشرية على الدوام على ثمارها المعطاء: «تُوتى أكلها كل حين ياذن ربها» [٣٦٥] فترتوى من فيضها وتزدان قوة في روحها وبدنها.

أما قضية طهارة أصلاب الأنبياء وأرحامها فمن الامور المهمة التي أسهبت في ذكرها الروايات الإسلامية والزيارات، وذلك لاهميتها من جانبين: الأول من ناحية قانون الوراثة الذي ينطوي على آثار عميقة والثاني: من الناحية الاجتماعية وثقة الامم بالأنبياء، إلى جانب الرابطة بين الامم والأنبياء بما لا يمكن انكار دوره.

ومن هنا صرحت الروايات التي وردت بشأن انتخاب الزوجة بأن تكون من اسرة دينية مشهورة بعفتها وطهارتها وورعها وتقواها، والعكس صحيح في اجتناب الاسرة الوضيعة وان كانت هناك بعض الصفات في المرأة. فقد جاء في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أيها الناس إياكم وخضراء الدمن! قيل: يا رسول الله وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسنة في منبت السوء» [٣٦٦]

والنقطة الجديرة بالذكر أن العبارة:

«كلما مضى منهم سلف، قام منهم بدين الله خلف»

، إشارة إلى هذه الحقيقة هي أن الأنبياء وبمصادق «لا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» [٣٦٧]، لهم برامج واحدة، وأصول مشتركة، وإن كان هناك بعض الاختلاف في الفروع بسبب تفاوت الزمان والمكان؛ فكانوا يدعون جميعاً إلى التوحيد والعدل والمعاد، حتى أنهم كانوا سواسية في اصول المسائل الفرعية؛ فهم يدعون إلى التصرع والعبودية ويحثون على الفضائل ومكارم الأخلاق ويحذرون من الصفات الرذيلة، وبالتالي احترام القانون ورعاية النظام.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٦١

القسم الثالث: فضائل النبي صلى الله عليه وآله

إشارة

«حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامِيَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَيَّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنِيَّتًا، وَأَعَزَّ الْأَرْوَاحَ مَغْرَسًا مِنْ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءُهُ، وَأَنْتَجَبَ مِنْهَا أَمَنَاءُهُ. عَثَرْتُهُ خَيْرَ الْعَثَرِ، وَأُسْرِيَتْهُ خَيْرَ الْأُسْرِ، وَشَجَرْتُهُ خَيْرَ الشَّجَرِ؛ نَبَتْ فِي حَرَمٍ، وَبَسَقَتْ

فِي كَرَمٍ؛ لَهَا فُرُوعٌ طَوَالٌ؛ وَثَمَرٌ لَائِنَالٌ؛ فَهُوَ إِمَامٌ مِّنْ أَتَقَى وَبَصِيرَةٌ مِّنْ اهْتَدَى سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ، وَشَهَابٌ سَاطَعَتْ نُورُهُ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ، سِيرَتُهُ الْقَصْدُ، وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ، وَكَلَامُهُ الْفَضْلُ، وَحُكْمُهُ الْعَدْلُ؛ أَرْسَلَهُ عَلَى حِينٍ فَتَرَهُ مِنَ الرَّسْلِ، وَهَفْوَةٍ عَنِ الْعَمَلِ، وَغَبَاوَةٍ مِنَ الْأُمَّمِ».

الشرح والتفسير

ركز الإمام عليه السلام في إطار حديثه عن أنبياء الله ورسله على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله وفضائله وكمالاته وأعظم صفاته من جميع الجهات. فقد تطرق في باديء الأمر إلى أجداده الطاهرين وعظم فضيلته ونسبه صلى الله عليه وآله ثم خاض في فروع هذه الشجرة المباركة من عترته وأهل بيته. ثم تناول في المرحلة الأخرى صلاحيته في زعامة الأمة، كما تحدث عن انبثاق دعوته وقيامه بالامر، ومن شأن كل بعد من هذه الأبعاد أن يكشف عن عظمتة صلى الله عليه وآله. فقد قال عليه السلام بأن الله وأصل عنايته ولطفه بيعت الأنبياء إلى أن ختمهم بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«حتى أفضت كرامة الله سبحانه وتعالى إلى محمد صلى الله عليه وآله».

حيث استخرجه من أطيب المعادن وأفضلها ومن أطيب التراب وأعزها، وجعل فرع

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٦٢

وجوده من شجرة الأنبياء، تلك الشجرة الطيبة التي اصطفى منها أمناء رسالاته:

«فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعز الأرومات [٣٦٨] مغرساً: من الشجرة التي صدع منها أنبياءه،

وانتجب منها أمناء».

قطعاً أن أحد الأبعاد المهمة في شخصية الإنسان إنما يبلوره البعد الوراثي، حيث يكتسب الأبناء القدسية من جراء الآباء من أهل الورع والتقوى والصلاح، والامهات من ذوى الطهر والنجابة والعفاف. وبالطبع كل ذلك دون حصول الاجبار. والنبي صلى الله عليه وآله كان نموذجاً بارزاً في هذا الأمر؛ فهو ينتهي لآل ابراهيم عليه السلام والأنبياء الذين إنحدروا من نسله، من صلب بنى هاشم المعروفون بالشجاعة والكرم والاثرة، من ولد عبدالمطلب المشهور بإيمانه وعدله وشجاعته. فقد انفرد صلى الله عليه وآله بكل هذه الصفات.

الحقيقة الأخرى التي لا غبار عليها هي أن الأبناء من ذوى الشخصيات والأحفاد من أهل الفضائل دليل آخر على شخصية كل إنسان وقد يما قيل (الظرف ينضح بما فيه).

ومن هنا ذكر الإمام عليه السلام بأن عترته من أهل بيته من أفضل العتر وأطيبها، واسرته صلى الله عليه وآله من خير الأسر، وشجرته المباركة من أحسن الشجر:

«عترته [٣٦٩] خير العتر، وأسرته خير الأسر،

وشجرته خير الشجر»

الشجرة التي نبتت في حرم الله الأمين، وبسقت في سماء الكرامة والفضيلة:

«نبتت في حرم، وبسقت في كرم».

وتمتاز هذه الشجرة بفروعها الطويلة وثمارها الطيبة القيمة التي لا تبلغها أيادى السفلة:

«لها فروع طوال، وثمر لاينال».

فالحق أن الإمام عليه السلام أدى حق الكلام بهذه العبارات اللطيفة الرائعة بشأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة عليهم السلام، واماط اللثام عن عظمة وبركة هذه الشجرة الطيبة، ليبيّن بتشبيهات وعبارات جميلة فضائله ومناقبه صلى الله عليه وآله وأهل بيته.

وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بالحرم في قوله:

«نبتت في حرم»

الحرم

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٦٣

المكى، الذى نمت فيه شجرة النبى صلى الله عليه و آله، وترعرعت ونمت فى ظله، بينما ذهب البعض الآخر إلى أن المراد بالحرم هنا العترة والحرمه؛ أى أن شجرته صلى الله عليه و آله نبتت فى غاية الحرمة والعزة، ولكن يبدو المعنى الأول أنسب.

نقحات الولاية؛ ج ٤؛ ص ١٦٣

لعبارة

«بسقت فى كرم»

إشارة إلى أن النبى صلى الله عليه و آله لم يلد فى أرض وأسرته عزيزة كريمة فحسب، بل ترعرع وتربى فى بيئه مفعمة بالكرامة والشموخ (لأن البسوق فى الأصل تعنى ارتفاع وطول فروع وأغصان النخل).

والعبارة

«ثمر لاينال»

لا تعنى أن يد أحد لاتصل إلى ثمار هذه الشجرة المباركة؛ لأن هذه ليست فضيلة، بل كما ذكرنا سابقاً إما ان يكون المراد أنه لاتبلغ يد الطالبين ثمار هذه الشجرة الفاضلة، وإما أن يكون المراد أن ثمار هذه الشجرة المباركة إلى درجة من الفضل والكرامة بحيث لايمكن أن يصادفها أحد.

ويتبين ممّا ذكرنا آنفاً أن الشجرة فى العبارة الاولى إشارة إلى إبراهيم عليه السلام والأنبياء السابقين، وفى العبارة الاخرى إشارة إلى شجرة وجود النبى صلى الله عليه و آله وعترة فروعها.

ثم أشار بعد ذلك بتسع عبارات فصار إلى سائر الخصال المهمة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله، فقال عليه السلام:

«فهو إمام من اتقى وبصيرة من اهتدى سراج لمع ضوءه، وشهاب سطع نوره، وزند [٣٧٠] برق لمعه، سيرته القصد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل»

فالعبارة:

«إمام من اتقى ...»

شبيهة

«هدى للمتقين»

بشأن القرآن التى وردت فى الآية الثانية من سورة البقرة. والمراد إنّما يستضيئ بنور هذا السراج الهادى والزعيم الاوحد من كانت له عين باصرة وقلب واع ينشد الحقيقة والفضيلة، بعبارة اخرى يتحلون بالتقوى التى تجعلهم مستعدين لقبول الحق؛ ولذلك فليس من العجيب ألايهتدى بهديه أهل التعصب والعناد والأحقاد والضغان من عمى البصائر، على غرار مكفو فى البصر الذين لا يرون الشمس فى رابعة النهار فلا يستفيدون من ضيائها، والعبارة:

«سيرته القصد»

شبيهة ما ورد فى القرآن الكريم:

«وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» [٣٧١]، فهى إشارة إلى اعتدال سيرة النبى صلى الله عليه و آله وابتعاده عن كل

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٦٤

افراط وتفريط في كافة الشؤون العبادية والاخلاقية والسياسية والاقتصادية.

ولعل هناك من يتصور أن هناك تضاد بين العبارة

«وحكمه العدل»

وما ورد في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إنما أفضى بينكم بالبينات والإيمان، وبعضكم ألحن بحجته من بعض؛ فأبما رجل قطعته من مال أخيه شيئاً، فانما قطعت له به قطعة من النار». [٣٧٢]

وذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله قد يحكم بخلاف الواقع على ضوء مفهوم هذا الحديث. إلا أن الجواب على هذا الإشكال يبدو واضحاً، وهو أن النبي صلى الله عليه وآله لم يستعن في إصداره للأحكام على الوحي والغيب، وإنما يصدر أحكامه دائماً على ضوء الأدلة والمدارك المتعارفة الموجودة، وهذا بحد ذاته عين العدالة، في أن يستند القاضي إلى المدارك الموجودة في إصداره للأحكام والقضاء، فإذا كان هناك من يضعف عن بيان الحق، أو لا يستطيع أن يقدم المدارك المطلوبة فيتعرض إلى نوع من الاجحاف فإن ذلك لا يخدش البتة في عدالة القاضي، ولو كان غير ذلك لما أمكن تسميته عادلاً.

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى الظروف الصعبة والملابسات التي رافقت ظهور النبي صلى الله عليه وآله ليكشف النقاب عن عظمة دعوة النبي صلى الله عليه وآله والجهود الجبارة التي بذلها في هذا الشأن، فقد بعثه الله بعد مدة طويلة من الرسل (ومن هنا) ابتعد الناس عن العمل الصالح وعاشوا الانحراف، وساروا نحو الجهل والظلام:

«أرسله على حين فترة من الرسل، وهفوة [٣٧٣] عن

العمل، وغباوة [٣٧٤] من الامم»

وتتضح حقيقة هذه العبارات من خلال التأريخ البشري إبان ظهور الدعوة الإسلامية، ولاسيما أوضاع عرب الجاهلية. [٣٧٥] ومن الطبيعي أن تكون وظيفة أولياء الله والمصلحين الربانيين ودعاة العدل والحق والاخلاق والفضيلة أصعب وأعقد كلما كانت الظروف السائدة قاسية تدعو إلى الجهل

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٦٥

والبلادة والفساد والانحراف، ومن هنا نكتشف عظمة النبي صلى الله عليه وآله وعظم جهوده في تغيير ذلك المجتمع.

تأملان

١- منزلة النبي صلى الله عليه وآله لدى الآخرين

لا يقتصر ماورد في هذه الخطبة من صفات عاليات وكرامات شامخات للنبي صلى الله عليه وآله على علي عليه السلام واتباعه، بل اننا لنرى حتى كبار الشخصيات الغربية من غير المسلمين ليقفون وقفة إجلال وإكبار لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله.

فهذا الفيلسوف والكاتب الانجليزي برناردشو يقول: إن دين محمد هو الدين الوحيد الذي يلوح لى أنه حائز على أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل جيل أن محمداً يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وأعتقد أنه لو تولى رجل مثله زعامة العالم الحديث لنجح في حل مشاكله بطريقة تجلب إلى العالم السعادة والسلام، أن محمداً أكمل البشر من السابقين والحاضرين، ولا يتصور وجود مثله في الآتين. [٣٧٦]

٢- اسرة النبي صلى الله عليه وآله

لم يقتصر الحديث عن شرف نسب النبي صلى الله عليه وآله وعظمه طائفته واسرته على ماورد في كلام أميرالمومنين على عليه السلام في هذه الخطبة، بل تظافت أحاديث النبي صلى الله عليه وآله في مصادر الفريقين بهذا الشأن. ومن ذلك أنه صلى الله عليه وآله قال:

«إن جبرائيل عليه السلام قال لى: يا محمد! قد طفت الأرض شرقاً وغرباً، فلم أجد فيها أكرم منك، ولا بيتاً أكرم من بنى هاشم» [٣٧٧]. وجاء في حديث آخر:

«سادة أهل المحشر سادة أهل الدنيا: أنا وعلى وحسن وحسين وحمزة وجعفر» [٣٧٨]. وورد في الحديث أيضاً:

«أنه لا يبغيض أحد أهلى إلأحرمة الله الجنة» [٣٧٩].

وروى عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«قال لى جبرائيل: يا محمد! طفت شرق الأرض وغربها فلم أر أكرم من بنى هاشم» [٣٨٠].

، وجاء في صحيح مسلم- وهو من المصادر المشهورة لدى العامة- فى بحث

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٦٦

فضائل الصحابة فى قضية الغدير أن النبي صلى الله عليه وآله قال فى خطبته ثلاثاً:

«اذكر كم الله فى أهل بيتى» [٣٨١].

والطريف فى الأمر أن الإمام الحافظ أبوالعباس أحمد بن عمر بن ابراهيم القرطبي- من مشاهير علماء العامة- صرح فى كتابه المفهم الذى شرح فيه صحيح مسلم حين بلغ هذا الحديث قائلاً: من العجب أن يخالف بنى أمية أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله ويضيعوا حقهم رغم وصايا النبي صلى الله عليه وآله بهم، حتى أراقوا دمائهم وسبوا نساءهم واخربوا بيوتهم وسنوا لعنهم. فويل لهم يوم القيامة. [٣٨٢].

والأعجب من ذلك دفاع البعض عن معاوية رغم فضائح بنى أمية ومدى سعة ظلمهم وجورهم.

على كل حال فإن شجرة النبي صلى الله عليه وآله وفروعها المباركة مصداق واضح للآية ٢٤ و ٢٥ من سورة ابراهيم: «كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا».

ونختتم حديثنا هذا بهذه الأبيات الرائعة [٣٨٣]:

يا حبذا دوحه فى الخلد نابتة ما مثلها نبتت فى الخلد من شجر

المصطفى أصلها والفرع فاطمة ثم اللقاح على سيد البشر

والهاشميان سبطاه لها ثمر والشيعه الورق الملتف بالثمر

هذا مقال رسول الله جاء به أهل الرواية فى العالى من الخير

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٦٧

القسم الرابع: اعملوا ما استطعتم

«اعْمَلُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، عَلَى أَعْلَامٍ بَيِّنَةٍ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَأَنْتُمْ فِي دَارٍ مُسْتَتَعَبٍ عَلَى مَهَلٍ وَفَرَاغٍ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ، وَالْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ، وَالْأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في المقطع الأخير من الخطبة بالنتيجة الأخلاقية والعملية، ليبين بعض الأمور المفيدة والمهمة بعبارات قصيرة، عظيمة المعنى. فقال عليه السلام:

«اعملوا رحمكم الله»،

ثم أشار عليه السلام إلى المسير الذي ينبغي سلوكه في العمل وهو الاستناد إلى الكتاب والسنة «على أعلام بينة».

ثم أشار عليه السلام

إلى أن تشخيص هذا المسير ليس بالشىء الصعب فالسبيل واضح يدعو إلى الأمن والأمان والسعادة الخالدة في الجنة: «فالطريق نهج يدعو إلى دار السلام».

ثم تطرق عليه السلام إلى الفرص الثمينة التي زود بها الإنسان، وغالباً ما يهملها، ليوضحها عليه السلام بثمان عبارات ويكشف جميع جوانبها، أشار في العبارة الأولى إلى أنكم في دار يمكنكم فيها تلافى ما يفرط منكم:

«وأنتم في دار مستعبت».[٣٨٤]

ولديكم الفرصة الكافية والمهلة الوافية للقيام بالصالحات من الأعمال: «على مهل وفراغ».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٦٨

وصحيفة الأعمال مفتوحة والقلم مشرع للكتابة:

«والصحف منشورة والاقلام جارية»

. وأنتم في صحة وعافية والسن حاكية:

«والأبدان صحيحة والألسن مطلقه».

ومن ثم:

«والتوبة مسموعة، والأعمال مقبولة».

فوسائل السعادة وأسبابها متوفرة من جانب، وموانع الطريق يمكن ازالتها من جانب آخر؛ فاذا لم تستثمر هذه الفرص. فإن الأمر يدعو للأسى والأسف حقاً. ولا سيما ليس هنالك من ضمانه باستمرار هذه الفرص. فلعل جميعها تنتهي بلحظة، فتغلق أبواب التوبة وتختم صحيفة الأعمال، وتتوقف الأقلام عن الكتابة، ويعتل البدن، ويعقد اللسان دون أن يكون هناك أى سبيل إلى الرجعة؛ الأمر الذي حذر منه القرآن أن ليس للندم من جدوى بعد الموت ولا سبيل لسؤال الرجعة: «وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّادِقِينَ» فيأتى الجواب: «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».[٣٨٥]

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٦٩

الخطبة [٣٨٦] الخامسة والتسعون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

يقرر فضيلة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله

نظرة إلى الخطبة

الهدف من هذه الخطبة ذكر عظمة الإسلام من جانب، وعظمة من حمل رسالته من جانب آخر. وذلك لأن الخطبة اشتملت على مقارنة لاوضاع الناس قبل الإسلام وبعده؛ ويفهم من هذه المقارنة عظمة جهود النبي صلى الله عليه وآله التي استطاعت أن تنهض بذلك المجتمع الجاهلي المنحط وتجعله مجتمعاً راقياً متطوراً.

نفعات الولاية، ج ٤، ص: ١٧١

«بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضَلَالًا فِي حَيْرَةٍ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ، وَاسْتَرَلْتَهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمْ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ؛ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.»

الشرح والتفسير

النور الذي كشف الظلمة

خاض الإمام عليه السلام كراماً في خطبه في نهج البلاغة بشأن أوضاع الجاهلية التي كانت عليها العرب، حيث رسم صورة واضحة عن دقائق تلك الفترة، ليلتفت الناس في عصر الإمام عليه السلام ممن لم يدرك ذلك العهد إلى عظمة الدعوة الإسلامية، وليعلموا حجم التغيير الذي حدث في المجتمع، فيتعرفوا أكثر على منزلة النبي صلى الله عليه وآله وعظم قدره؛ وذلك لأن مثل هذا العمل الجبار إنما يتطلب إرادة حديدية وعزماً راسخاً وتديباً عالياً وبرامج وخطط واضحة، جمعت كلها في شخص النبي صلى الله عليه وآله. فقد بين الإمام عليه السلام وضع العصر الجاهلي بسبع عبارات، أشار في العبارة الأولى والثانية إلى أن الله بعث النبي صلى الله عليه وآله حين كان الناس يعيشون بالحيرة والضلال ويسبحون في بحر من الفتن:

«بعثه والناس ضلال في حيرة، وحاطبون في فتنه.»

لا شك أن الإنسان يمكنه أن ينقذ نفسه من الضلالة ما لم تكن مقرونه بالحيرة والتخبط كالذي ضل الطريق ثم اكتشفه من خلال بعض القرائن والعلامات؛ إلا أن المشكلة تبدو معقدة إذا اقترنت الضلالة بالحيرة، وهذا هو الوضع الذي كان عليه الناس في الجاهلية. والحاطب تطلق على من يجمع الحطب. فالناس في عصر الجاهلية وفي ذات الوقت الذي يعيشون فيه الفتن، كان يزيدون من حطب نيران هذه الفتن.

ثم قال عليه السلام في العبارة الثالثة والرابعة:

«قد استهوتهم الأهواء، واستترلتهم الكبرياء.»

نفعات الولاية، ج ٤، ص: ١٧٢

فمن البديهي أن تقود الأهواء المجتمع إلى مستنقع الضلالة، فاذا رافقها العجب والخيلاء لسقط في ذلك المستنقع. ثم قال عليه السلام:

«واستخفتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر، وبلاء من الجهل.»

وهكذا يتجسم بؤس هؤلاء القوم وشقائهم في الجهل والضلال والأهواء والافتتان والتكبر؛ الرذائل التي تكفي كل واحدة منها في سقوط المجتمع، فضلا عن جمعها مع بعضها فيه.

ومن هنا يتبين مدى حجم مشاكل عصر الجاهلية وتعقيدها وتهديدها للمجتمع، كما يتضح على سبيل اليقين أن من يتغلب عليها، إنما استند إلى التأييد الإلهي والغيب والامداد.

ثم أشار عليه السلام في آخر الخطبة إلى جهود النبي صلى الله عليه وآله ومدى نصحه للقوم بذلك الاسلوب الروحي الذي يستند إلى الوحي السماوي حتى نفذ إلى القلوب:

«فبالغ في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة».

فالواقع أن عناصر تقدم البعث النبوية والتطور الذي أحرزه النبي صلى الله عليه وآله على صعيد الرسالة إنما يكمن في أربع: الأول: النصح وإرادة الخير، بحيث أيقن الناس أنه يسعى جاهداً من أجل نجاتهم. الثاني: كان ممن قرن القول بالعمل، فبدأت تمر بما يأمر وينتهي عما ينهى.

الثالث: قد دعا أولئك الناس الذين أصيبوا بالجهل والخرافة والحيرة والضلال إلى العلم والمعرفة. وأخيراً كان يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والكلمات الرقيقة التي تخترق القلوب.

وقد ذكر البعض من شراح نهج البلاغة تفسيراً آخر للعبارتين الأخيرتين، وهو أن النبي صلى الله عليه وآله كان يدعو الناس إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كما ورد ذلك في الآية الشريفة:

«أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ» [٣٨٧][٣٨٨].

إلا أن التفسير الأول يبدو أنسب من خلال الالتفات إلى العبارات السابقة التي اعتبر

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٧٣

الإمام عليه السلام عامل بؤسهم يكمن في:

«الجاهلية الجهلاء» و «بلاء من الجهل».

على كل حال فإن ماورد في هذه الخطبة بشأن الأوضاع الأساسية والظروف الشائكة والفضائع التي سادت العصر الجاهلي، تدعو الإنسان إلى التفكير والتأمل، حيث يمكنه الوقوف على عمق هذه المسألة من خلال الرجوع إلى التواريخ والروايات والأخبار التي تناولت تلك الفترة، فهناك المصادر الكافية التي أشارت إلى هذا الأمر. ولما كانت مقارنة تلك الأوضاع والظروف بما حدث بعد انبثاق الدعوة الإسلامية ونهوض رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمر والتي تعدّ من معجزات التاريخ الإسلامي، يبدو من الضروري تسليط الضوء أكثر على هذا الموضوع ودراسته من قبل الجميع، ولا سيما من قبل شريحة الشباب.

هذا وقد قدمنا شرحاً مفصلاً بهذا الشأن في الخطبة الأولى من المجلد الأول، والخطبة ٣٦ و ٣٣ من المجلد الثاني، ولا نرى هنا من ضرورة للتكرار، إلا أننا نوصي القراء الأعزاء بالرجوع مرة أخرى إلى هذه الخطب.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٧٥

الخطبة [٣٨٩] السادسة و التسعون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

في الله وفي الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

نظرة إلى الخطبة

بحث الإمام عليه السلام بصورة رئيسية في هذه الخطبة أمرين:

الأول: إشارة إلى بعض أسماء الله الحسنى والثناء عليه بها.

الثاني: بيان بعض مناقب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وفضائله، إلى جانب الحديث عن نسبه الشريف ومن ثم نهضته الباسلة التي قبرت الفتنة وأطفأت نيران الأحقاد وحصدت الضغائن من القلوب.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٧٧

القسم الأول: الأول والآخ

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ فَلَاشِيءَ قَبْلَهُ، وَالْآخِرِ فَلَاشِيءَ بَعْدَهُ، وَالظَّاهِرِ فَلَاشِيءَ فَوْقَهُ، وَالْبَاطِنِ فَلَاشِيءَ دُونَهُ».

الشرح والتفسير

كما ذكر سابقاً فإن الإمام عليه السلام أشار في هذا المقطع من الخطبة إلى بعض صفات الله وأسمائه الحسنی، وقدر كز على كونه أول وآخر وظاهر وباطن، فحمد الله وأثنى عليه في أنه أول الوجود الذي لم يسبقه شيء، والآخر الذين لا شيء بعده:

«الحمد لله الأول فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده».

وهو الظاهر الذي لا يوجد أظهر منه، والباطن الذي لا يوجد أخفى منه:

«والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه».

فأوليه وآخريه الحق سبحانه وتعالى تعنى أزلية الذات المطهرة وأبديتها؛ لأن أوليته لا- تعنى الابتداء الزمانى، حيث لو كان الأمر كذلك لخصر فى دائرة الزمان، كما ليس كذلك من حيث المكان، لأنه لو كان كذلك لحد بدائرة المكان، بل أوليته تعنى أن ذاته الأزلية القدسية مصدر جميع الوجودات، وقد نشأت منها كافة الموجودات. وهكذا تكون آخريته منزهة عن الاخروية الزمانية والمكانية، والمراد منها أن ذاته سبحانه أبدية، وبقاء الموجودات متوقف على بقاءه، ومن ثم بقاءه حين فناء كل شيء: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ» وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [٣٩٠].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٧٨

وزبدة الكلام فهو أول عالم الوجود وهو الباقي بعد فناء العالم.

أمياً وصفه بالظاهر والباطن فهو تعبير عن إحاطته المطلقة بجميع الأشياء، فهو أظهر من كل شيء، لأن آثاره ملأت أركان كل شيء وغص بها العالم، وهو أخفى من كل شيء، لأن كنه ذاته ليس بمعروف!

وقد أورد بعض الشراح تفاسير أخرى للظاهر والباطن، منها أن المراد بالظاهر الغالب على كل شيء ولا يغلبه شيء، كما قيل المراد بالظاهر أفضليته على جميع الأشياء؛ لكن على ضوء هذين التفسيرين لا يبدو تفسير مفهوم الباطن بقريته المقابلة واضحاً مستقيماً، ومن هنا فإن التفسير الأول أنسب. فى أنه ظاهر جلى من حيث آثاره الوجودية بحيث لا يضاويه شيء؛ فقد ملأت آثاره الأرض والسماء والنبات والحيوانات والناس والبحار والقفار، مع ذلك فإن كنه ذاته على درجة من الخفاء بحيث لا يبلغ أحداً معرفة تلك الذات، فالإنسان متناه وذاته سبحانه ليست متناهية، فأنى للمتناهى أن يحيط باللامتناهى.

فقد ورد فى الدعاء المعروف للإمام الحسين عليه السلام المعروف بدعاء عرفة:

«متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٧٩

القسم الثانى: كلامه بيان وصمته لسان

ومنها: فى ذكر الرسول صلى الله عليه وآله

«مُسَدِّ تَقَرُّهُ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا، وَمَنْبَتُهُ أَشْرَفُ مَنْبَتٍ، فِى مَعَادِنِ الْكِرَامَةِ، وَمَمَاهِدِ السَّلَامَةِ؛ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوُهُ أَفْئِدَةُ الْأَبْرَارِ، وَتُبَيْتَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ الْأَبْصَارِ،

دَفَنَ اللَّهُ بِهِ الضَّعَائِنَ، وَأَطْفَأَ بِهِ الثَّوَائِرَ، أَلْفَ بِهِ إِخْوَانًا، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَانًا، أَعَزَّ بِهِ الدَّلَّةَ، وَأَذَلَّ بِهِ العِزَّةَ، كَلَّمَهُ بِيَانًا، وَصَمَّتْهُ لِسَانًا».

الشرح والتفسير

بين الإمام عليه السلام في هذا الكلام بعض صفات رسول الله صلى الله عليه وآله كل واحدة منها أعمق من سابقتها. وقد انطلق في البداية من جذوره العريقة وموقع ولادته، ليصف مستقره بأنه خير مستقر ومكان ترعرعه أفضل مكان:

«مستقره خير مستقر، ومنبته أشرف منبت، في معادن الكرامة، ومماهد [٣٩١] السلامة».

والمراد بالمستقر والمنبت الأرحام المطهرة للامهات والاصلاب الموحدة والمؤمنة للآباء؛ الأمر الذي ورد في زيارة المعصومين عليهم السلام، ومنها زيارة الإمام الحسين عليه السلام المعروفة بزيارة وارث:

«أشهد أنك كنت نورا في الاصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة».

وقد ورد مثل هذا المعنى في رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث روى الفخر الرازي في تفسير الآية

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٨٠

«وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» [٣٩٢] أنه صلى الله عليه وآله قال:

«لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» [٣٩٣]. «معادن الكرامة»

و

«مماهد السلامة»

تأكيد لهذا المعنى، أو إشارة إلى أن آباء النبي صلى الله عليه وآله وأمهاته إضافة إلى الطهر والإيمان، يتحلون بالفضائل الإنسانية والنزاهة من المعايير الأخلاقية.

كما قيل المراد بالمستقر المدينة موضع إقامة النبي صلى الله عليه وآله والمنبت مكة مكان ولادته.

إلا أن التفسير الأول أنسب، ولا سيما بالالتفات إلى العبارة:

«في معادن الكرامة، ومماهد السلامة».

ثم خاض عليه السلام في خلقه الجذاب صلى الله عليه وآله الذي استقطب القلوب وخطف الأبصار وشدها إليه:

«قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار، وثبتت [٣٩٤] إليه أزمه الأبصار».

حقاً كان رسول الله صلى الله عليه وآله كذلك فقد استطاع بخلقته وتواضعه وشفقته وعفوه وصفحه المقرون بشجاعته وشهامته أن يستقطب إليه القلوب كما استطاع أن يشد إليه الأبصار بجهوده المضنية في سبيل هداية الأمة والأخذ بيدها إلى السعادة والصلاح.

ثم أشار عليه السلام في هذه المرحلة إلى بعض الأنشطة الاجتماعية للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومنها إزالة الاضغان الاحقاد، وأطفا به نيران الفتن والعدوان:

«دفع الله به الضغائن [٣٩٥]، وأطفا به الثوائر [٣٩٦]».

أضف إلى ذلك فقد ألف به القلوب وآخى به الناس، كما فرق البعض بسبب التعارض بين الإيمان والكفر:

«ألف به إخوانا، وفرق به أقرانا»

، كما صرح بذلك القرآن الكريم في الآية ٦٢ و ٦٣ من سورة الانفال: «هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ»،

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٨١

وقال في الآية ١٠٣ من سورة آل عمران «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبِرْتُمْ بِنِعْمَةِ إِخْوَانًا».

ثم أشار عليه السلام إلى لطف آخر من الألفاء الإلهية ببركة وجود النبي صلى الله عليه وآله:

«أعز به الذلة، وأذل به العزة».

فقد أعز الله ببركة نبيه صلى الله عليه و آله تلك الثلة المؤمنة التي وقعت في مخالاب الكفر، وفوض اليهم إرادة شؤون المجتمع الإسلامي، وأقصى تلك العناصر الفاسدة عن الساحة، ثم اختتم كلامه عليه السلام بالاشارة إلى أبرز صفاته صلى الله عليه و آله: «كلامه بيان، وصمته لسان».

فاذا نطق صلى الله عليه و آله تفتق لسانه باسرار الحكمة وبيان حقائق الوحي، وكشف النقاب عن سبيل النجاه، ومهوى الردى ومستنقع السقوط، وأن سكت وصمت، فكان سكوته يختزن المعنى والمفهوم ولم يكن صمتاً طبيعياً. نعم كان سكوته أحياناً تعبيراً عن انزعاجه وقلقه وعدم رضاه ببعض الأفعال، كما كان يرد بهذا السكوت على بعض الأسئلة غير الموجهة والخاطئة. وأخيراً كان يستعين بهذا الصمت تجاه سوء السنة الجهال. كما لانسى أن سكوته أحياناً (ومن خلال بعض القرائن الحالية) كان يعنى تقرير بعض الأعمال والموافقة عليها).

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٨٣

الخطبة [٣٩٧] السابعة و التسعون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام في اصحابه، واصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله

نظرة إلى الخطبة

قيل في الخطبة أنها وردت - كما ذكر شراح نهج البلاغة - حين تمرد جيش الكوفة على أوامر الإمام عليه السلام بمجابهة أهل الشام بعد واقعة النهروان، فقد عرض عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة بالدم لأهل الكوفة وعنفهم أشد التعنيف أملاً في إثارة حميتهم وغيرتهم ليتأهبوا للقاء العدو، بعد إفاقتهم من نوم الغفلة والالتفات إلى مقدراتهم خشية نهبها من قبل الظلمة. ثم دعاهم في القسم الثاني من الخطبة إلى إقتفاء آثار أهل البيت واتباعهم بفضلهم سبيل النجاه، والواقع هو أنه عليه السلام قد ذكرهم بمضمون ومحتوى حديث الثقلين.

ثم اختتم عليه السلام الخطبة بالمقارنة بين أهل الكوفة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله، حيث وضح عليه السلام من خلال هذه المقارنة عمق الهوة بين هؤلاء وأصحاب النبي صلى الله عليه و آله من حيث الإيمان والورع والتقوى والعبارة والجهاد والاستقامة والصمود والشجاعة، ومن الواضح أن الخطبة بجميع أقسامها إنما تنشده هدفاً واحداً، وهو تعبئة جيش الكوفة لمواجهة العدو؛ العدو الذي لا يابه بالدين والدنيا ولا يقيم وزناً لأى شىء.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٨٥

القسم الأول: عبيد كأرباب

«وَلَيْنَ أُمَّهَلِ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمَرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّخِيحِ مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ. أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُظْهِرَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لَانَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لِأَشِيرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَانِكُمْ عَنْ حَقِّي. وَلَقَدْ أَضْيَبَتْ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَضْيَبَتْ أَحَافُ ظُلْمِ رَعِيَّتِي. اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفَرُوا، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهراً

فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَّحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا، أَشْهُودُ كَغَيَْابِ، وَعَيْبِدُ كَأَرْبَابٍ! أَتَلُوا عَلَيْكُمْ الْحِكْمَ فَتَنْفَرُونَ مِنْهَا، وَأَعْظَمَكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَنْفَرُونَ عَنْهَا، وَأَحْثُكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتَى عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَائِكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيْدَى سَبَا. تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ، أَقْوَمُكُمْ عُذْوَةً، وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً، كَطَهْرِ الْحَيَّةِ، عَجَزَ الْمُؤْمِنُ، وَأَعْضَلَ الْمُقَوْمُ».

الشرح والتفسير

كما أشرنا في السابق- نظرة إلى الخطبة- إلى أن الهدف من هذه الخطبة هو حث أهل العراق لمواجهة معاوية وأهل الشام. فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بأن إمهال الظالم مدة من الزمان لا يعنى خلاصه من المؤاخذه والعقاب:

«ولئن أمهل الظالم فلن يفوت أخذه».

فقد كمن له سبحانه بالمرصاد، وإذا شاء منعه ابتلاع ريقه:

«وهو له بالمرصاد على مجاز

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٨٦

طريقه، وبموضع الشجا [٣٩٨] من مساغ [٣٩٩] ريقه [٤٠٠]»

لعل هذه العبارات إشارة إلى معاوية وأهل الشام، حذراً من تسرب الشك والريب إلى قلوب أصحابه بسبب إمهال الله لهم، كما لا يشكوا بأحقية الإمام عليه السلام وبطلان معاوية، فالواقع أن الإمام عليه السلام رام رافع معنويات جيشه بالفات نظره إلى هذه الحقائق. كما يحتمل أن يكون المراد بالظالم ذلك الجيش المتمرد، فالواقع عبارته تهديد لهم بأنكم إن أمهلتهم عدّة أيام فلا يغرنكم ذلك أنكم ستفوتون من العذاب والمؤاخذه بسبب هذا العصيان والتمرد، ويبدو التفسير الأول أنسب.

على كل حال، هذا هو الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم كراراً بقوله: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيُزِدُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ» [٤٠١]. وقال في موضع آخر «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ» [٤٠٢].

ولا يصدق هذا الموضوع أو يقتصر على ظلمة الشام أو مرده العراق فحسب، بل هو درس وعبرة لنا جميعاً، بأن المهلة الإلهية لا ينبغي أن تقود إلى الغفلة والغرور.

ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: أن الله تبارك وتعالى أهبط ملكاً إلى الأرض، فلبث فيها دهرًا طويلاً، ثم عرج إلى السماء، فقيل له: ما رأيت؟ قال: رأيت عجائب كثيرة، وأعجب ما رأيت أنى رأيت عبداً متقلّباً في نعمتك، يأكل رزقك، ويدعى الربوبية، فعجبت من جرئته عليك ومن حلمك عنه. فقال الله جل جلاله: فمن حلمى عجبت؟ قال: نعم.

قال: قد أمهلتهم أربعمئة سنة لا يضرب عليه عرق، ولا يريد من الدنيا شيئاً إلّا ناله، ولا يتغير عليه فيها مطعم ولا مشرب. [٤٠٣]

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٨٧

وبالطبع فإن كل ذلك اختبار له وللعباد.

ثم تكهن الإمام عليه السلام بمستقبل هؤلاء القوم إزاء عدوهم الطامع قائلاً:

«أما والذي نفسى بيده، ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لاسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطانكم عن حقى».

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أشار إلى نقطة مهمّة هنا وهي أن هؤلاء القوم سيتغلبون عليكم آخر الأمر، ولكن لا تظنوا أن هذه الغلبة نابعة من كونهم على الحق. فلا ينبغي أن يعتقد أحد بأنهم على الحق فيؤدى به ذلك إلى الضلال. قطعاً أنهم على باطل، إلّا أنهم راسخون في هذا الباطل عاقدون العزم عليه وهم آذان صاغية لمعاوية؛ أمّا أنتم وإن كنتم على حق، إلّا أنكم ضعفاء، ليس لكم من عزم أو ارادة، ولا تعيرون زعيمكم اذناً صاغية، فدرجتم على التمرد والعصيان، فاذا جمعت هذه الصفات في شخص أو أمة مهما كانت فسوف لن يكون مصيرها سوى الهزيمة والفشل.

فقد روى أبو مخنف في قصة يوم الحرّة: أنّ مسلم بن عقبة ركب فرساً فأخذ يسير في أهل الشام ويحرضهم ويقول: يا أهل الشام أنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها، ولا أكثرها عدداً ولا أوسعها بلدًا، ولم يخصصكم الله بالذي خصكم به من النصر على أعدائكم، وحسن المنزلة عند أئمتكم إلّا بطاعتكم واستقامتكم. [٤٠٤]

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة مهمّة بهذا الشأن:

«ولقد أصبحت الامم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي».

فالامم والشعوب طيلة التاريخ إنّما تشكو ظلم وجور حكوماتها المستبدة الطاغية، بحيث أصبح هذا أمراً طبيعياً، بينما انقلبت هذه المسألة بالنسبة للإمام عليه السلام فهي على العكس تماماً! لم يكن هناك من يخشى ظلمه عليه السلام، فلم يكن للظلم والجور من سبيل إلى وجوده عليه السلام، في حين كان هو عليه السلام يعيش حالة القلق والاضطراب من غدر أصحابه ومكائدهم وما شاكل ذلك؛ والحق أنّ مثل هؤلاء الأفراد إنّما يتلون عاقبة الأمر بالطغاة فيذيقوهم أنواع الظلم، وهذا ماحدث بالفعل، ثم تطرق عليه السلام إلى نقاط ضعف أهل الكوفة والعراق آنذاك فقال:

«استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا».

نقمة الولاية، ج ٤، ص: ١٨٨

والسؤال المطروح: هل كان جيش العراق يشعر بالخطر، إلّا أنّ الضعف والتعاسس يشبطه بعدم مواجهة العدو؟ أم أنه لم يكن يشعر بخطر من معاوية وأهل الشام؟ الاحتمالان قائمان، إلى جانب الخوف والجبن والجهل والاختلافات القبلية. انذاك خاطبهم عليه السلام بعبارات عنيفة - تثير غيره من كان له أدنى غيره ورجولة - بغية آثارتهم ودفعهم للنهوض والحركة، فقال عليه السلام:

«أشهود كغياب، وعبيد كأرياب، أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتى على آخر قولى حتى أراكم متفرقين أيادي سبا».

«أيادي سبا»

وبعبارة اخرى

«مثل أيادي سبا»

إشارة إلى مثل معروف بين العرب يضرب للمتفرقين، وقيل أنّ سبا هو أبو عرب اليمن كان له عشرة أولاد، جعل منهم ستة يمينا له، وأربعة شمالاً تشبها لهم باليدين، ثم تفرق أولئك الأولاد أشد التفرق. [٤٠٥]

على كل حال فإنّ عبارات الإمام عليه السلام تفيد أنّه عليه السلام نصحهم بأدنى الأمر بكلمات حكيمة ومواعظ حسنة، وقد بالغ في مداراتهم، وما ورد من كلمات عنيفة وحادة تضمنتها بعض عبارات الخطبة فإنّما كانت عقب تلك الكلمات التي تضمنت الوعظ والنصح، هذا في الوقت الذي كان الطرف الآخر يمتاز بالفضاضة واللجاجة بحيث لا تجعلهم يفيقون من غفلتهم إلّا كلمات الذم والتوبيخ والعتاب.

ثم قال عليه السلام:

«ترجعون إلى مجالسكم، وتتخادعون عن مواعظكم، أقومكم غدوة، وترجعون إلى عشيّة، كظهر الحنية» [٤٠٦]، عجز المقوم، وأعضل [٤٠٧] المقوم».

فالعبرة تنطوي على نقطة مهمّة وهي كثرة المنافقين آنذاك بين أهل العراق، وكانوا يسعون للالتفاف على كلام الإمام عليه السلام، فكانوا يتأثرون بأخلاق الإمام عليه السلام ومواعظه حين يأتوه، ويقتنعون بضرورة الاستعداد والتأهب لقتال العدو، فاذا رجعوا إلى مجالسهم الخاصة والعامة نفثوا سموهم الشيطانية وشوشوا الأفكار وسعوا لضعاف الارادات وتصديق عرى الاتحاد والاخوة وبث بذور

الشقاق والفرقة.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٨٩

قال نافع بن كليب: دخلت الكوفة للتسليم على علي عليه السلام فاني لجالس تحت منبره وعليه عمامة سوداء- إلى أن قال- ثم نزل تدمع عيناه فقال (إن الله وإنا إليه راجعون) أقومهم والله غدوة ويرجعون إلى عشيء مثل ظهر الحنية، حتى متى وإلى متى [٤٠٨]؟

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٩١

القسم الثاني: شهود الابدان وغياب العقول

«أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَيْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، الْمُبْتَلَى بِهِمْ أَمْرَاؤُهُمْ. صَاحِبِكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللَّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ. لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنْ مُعَاوِيَةَ صَيَّرَ فَنِي بِكُمْ صَيَّرَ الدِّينَارَ بِالدَّرْهِمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشْرَةَ مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ!».

الشرح والتفسير

شدد الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة من تقيده وصب جام غضبه على أولئك القوم، على أمل انبثاق حركة في خضم سكونهم المدهش وإرادتهم الخاوية، ليهبوا قبل بروز الخطر فقال عليه السلام

: «أيها القوم الشاهدة أيديهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفه أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم».

فقد ركز الإمام عليه السلام في هذه العبارة على ثلاث نقاط ضعف: الأولى غياب العقول، وكأن عقولهم فارقت أبدانهم فأصبح وجودهم كبلد ليس له من مدير ومدبر. الثانية: عدم وجود عرى التواصل بينهم أبدأ، حيث لكل منهم طلباته على ضوء أهوائهم وعقولهم القاصرة. وبالبداهة سوف لن تتمكن محل هذه الفئة من حل مشاكلها، فضلاً عن الآخرين.

الثالثة: نقطة ضعفهم تكمن في اضطراب زعمائهم للتأقلم معهم. وقد أدت بهم هذه الصفات إلى الخواء في ميدان قتال العدو، ثم قال عليه السلام:

«صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصى الله وهم يطيعونه».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٩٢

بالعجب! فمن أطاع الله أحق بان يطاع، ومن عصاه لا بد من معصيته والوقوف بوجهه، بينما انعكست القضية هنا؛ فقد عومل مطيع الله بالجفاء، وعاصيه بالحب والاحترام!!

ثم تطالعنا عبارة لا مثيل لها في نهج البلاغة، حيث قال عليه السلام:

«لوددت والله أن معاوية صار فني بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ مني عشرة منكم، وأعطاني رجلاً منهم»

، فالتأكيدات المتعددة في هذه العبارة تفيد جدية الإمام عليه السلام دون أدنى مبالغة، وكأن أهل الشام بمنزلة سكة ذهبية وأهل العراق فضية. كما تفيد العبارة مدى انضباط أهل الشام آنذاك حيث وقفوا بكل صلابة خلف معاوية رفم خداعه لهم؛ بينما لم يكن هناك أدنى انضباط لأهل العراق فلم يكن قيمة عشرة منهم تعدل قيمة واحد من أهل الشام!

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٩٣

القسم الثالث: العمل بالتكليف

إشارة

«يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، مُنِيَتْ مِنْكُمْ بِثَلَاثٍ وَاثْنَتَيْنِ: صُمُّ ذَوُو أَسْمَاعٍ، وَبُكْمُ ذَوُو كَلَامٍ، وَعُمَى ذَوُو أَبْصَارٍ، لِأَحْرَارٍ صَدَقَ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَلَا إِخْوَانَ ثِقَةً عِنْدَ الْبَلَاءِ! تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ! يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رِعَاتُهَا! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالَكُمُ: أَنْ لَوْ حَمَسَ الْوَعَى وَحَمَى الضَّرَابُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبْلِهَا. وَإِنِّي لَعَلَى بَيْنَهُ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي، وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الْقُطْبَةَ لَقُطًّا».

الشرح والتفسير

صعد الإمام عليه السلام هنا من حدة كلامه وامطار أرواح القوم بوابل تقريعه ولومه، مع بيان نقاط ضعفهم، علمهم فيفوقون من غفلتهم ويجدوا في اصلاح أنفسهم، فقال عليه السلام:

«يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ مُنِيَتْ مِنْكُمْ بِثَلَاثٍ وَاثْنَتَيْنِ صَمُّ ذَوُو أَسْمَاعٍ، وَبُكْمُ ذَوُو كَلَامٍ، وَعُمَى ذَوُو أَبْصَارٍ».

فالإمام عليه السلام يشير إلى عجزهم عن مشاهدة الأحداث والافتقار إلى تحليلها الصحيح وعدم السعي للعثور على الحلول، فقد قبعوا في مخادعهم ينتظرون العدو الذي لا يابه بشيء، دون أن تتحرك لهم قصبه، أو يسمعوا رعيده ووعيده فيستعدوا لمجابهته.

إلى جانب ذلك فهناك خصلتان لم تكن فيهم

«لَا أَحْرَارَ صَدَقَ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَلَا إِخْوَانَ ثِقَةً عِنْدَ الْبَلَاءِ».

لا شك أن الحياة مليئة بالأحداث الساخنة والطبيعية: فأحياناً الحرب والقتال والآخرى

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٩٤

الصلح والسلام، وتارة الراحة والأمان وأخرى التعب والبلاء. والأصدقاء الأوفياء والاخوة الثقاء لا يعرفون عند الراحة والاستقرار، وميدان معرفتهم إنما يكمن في الصعوبات والمعضلات والنزاعات والبلايا والأحداث الأليمة، ومما يؤسف له أهل الكوفة لم ينجحوا آنذاك في الامتحان، وقد كشفوا مراراً عن غدرهم وضعفهم وعدم صمودهم وثباتهم.

ومن هنا دعا عليهم الإمام عليه السلام في العبارات القادمة، ثم اختتم كلامه بتشبيهين رائعين لاوضاعهم النفسية فقال:

«تربت [٤٠٩] أيدىكم»

، ثم اتبعها بالقول:

«يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا

رعياتها».

فالتشبيه تعبير واضح عن جهل القوم وعدم انضباطهم. فقد شبههم في البداية بالحيوانات ومن ثم بعدم وجود الراعى النافذ الكلام.

ثم قال عليه السلام بعد أن أقسم أنهم لو حمى الوطيس ونشبت الحرب لتركوا الإمام عليه السلام وحده في الساحة وانفرجوا عنه انفراج المرأة عن وليدها حين وضعها لحملها:

«والله لكأني بكم فيما إخالكم: أن لو حمس [٤١٠] الوغى [٤١١]، وحمى [٤١٢] الضراب، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج

المرأة عن قبلها».

هذا وقد ذكرت عدة تفاسير للعبارة

«انفرجتم ...»

إلما أن ما أوردناه سابقاً هو الأنسب لمقام أمير المؤمنين على عليه السلام إلى جانب رعاية الفصاحة والتناسب في مقام التشبيه. فالمرأة حين الوضع ترجو أن تضع حملها كل لحظة لما تعانیه من الام وأوجاع، والإمام عليه السلام شبه أهل الكوفة بهذه المرأة التي تعد اللحظات أملاً في وضع الحمل، فكانوا يعيشون حالة من الجزع في ميدان القتال بحيث ينتظرون بفارغ الصبر الفرصة المؤتية للهروب من ساحة المعركة، وهو الهروب الذي لا عودة فيه، كالوليد الذي ينسلخ عن رحم أمه فلا يعود إليه. وللإمام عليه السلام تشبيه رائع

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٩٥

بهذا الشأن ورد في الخطبة ٣٤ حيث قال عليه السلام:

«وأيم الله إنى لأظن بكم أن لوحمس الوغى، واستحر الموت، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس».

وفي الختام يكشف عن موقفه في هذه الأحداث فقال عليه السلام

: «وإنى لعلى بينه من ربى، ومنهاج من نبى، وإنى لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً [٤١٣]».

فمن الطبيعى أن لا يكون هناك من شعور بالفشل أو الهزيمة لمن انطلق فى حركته على هدى من الله ونور من رسوله صلى الله عليه و آله، ولا يرى فى كل ما يحدث سوى الغلبة والنصر وأداء التكليف والوظيفة. والعبارة «ألقطه لقطاً»

تعنى جمع الأشياء من نقاط مختلفة، الأمر الذى يحتاج إلى الدقة والفتنة، ومراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنى أجد فى الاختيار من أجل التقدم فى مسار الحق وانتخب أفضل السبل من أجل بلوغ الهدف.

تأمل: مقارنة بين أهل العراق والشام

لقد أورد الإمام عليه السلام عبارة عجيبة فى إطار مقارنته بين أهل العراق والشام لم يرمثلها حيث قال: لوددت والله أن معاوية صرفنى بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ منى عشرة منكم وأعطانى رجلاً منهم. والحال كان ينبغى أن تكون القضية معكوسة، فقد عقد القرآن الكريم مثل هذه المقارنة بين المؤمنين والكفار فقال: «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ» [٤١٤]، ترى لم انقلب هذا المعيار القرآنى بشأن أهل العراق والشام؟

يبدو أن التحليلات الدقيقة من شأنها إيقافنا على ماورد فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الشأن.

فالكوفة منطقة حربية حديثة، وأن أهلها الذين كانوا يمثلون القسم الأعظم من جيش الإمام عليه السلام قد قدموا هناك من عدّة مناطق وهم ينحدرون من مختلف القبائل بحيث لم يكن يسودهم الانسجام والانضباط المطلوب. فكان لكل واحد منهم أهدافه وطموحاته

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٩٦

وطروحاته الفكرية، بينما كانوا أهل الشام كتلة واحدة عاشت هناك ليتحلوا بكافة عناصر الوحدة والانسجام ووحدة الفكر والثقافة. هذا أولاً.

وثانياً: كان فى جيش الإمام عليه السلام من قدم بغية الحصول على الغنائم، فان كانت هناك غنيمة سارعوا لميادين القتال، بينما يقعون فى بيوتهم حيث التضحية والفداء والشهادة.

ثالثاً: كان أهل الشام ينظرون إلى منطقتهم كوطن لا بدّ من الدفاع عنه والدود عن حياضه، بينما كان لأهل الكوفة وطن آخر خارج الكوفة، وكلما ضاقت عليهم السبل فى الكوفة عادوا إلى أوطانهم.

أضف إلى ذلك فإنّ ضعف إرادتهم وسرعة خداعهم وانفعالهم بالأعيب العدو، ومن ذلك خديعتهم فى صفين، وعدم معرفتهم بمقام الإمام عليه السلام ومنزلته، والاعراض عن الحوادث المستقبلية، كل هذه الامور كانت تفعل فعلها فيهم فى ميدان القتال.

ومن هنا كانوا يختلقون مختلف الذرائع للهروب من ساحة الحرب، ولايتوانون فى اغتنام أية فرصة تسنح لهم من أجل الفرار، منهم يتذرعون تارة بحرارة الجو، واخرى ببرودته والحال يصرخ فيهم الإمام عليه السلام:

«فاذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله من السيف أفر» [٤١٥]

وكأن القتال لا بدّ أن ينشب فى فصل الربيع؛ على ظلال الأشجار وسط الحقول الخضراء والمياه المتدفقة وتغريد العصافير والطيور.

العنصر الآخر الذى أدى إلى ضعف جيش الكوفة وعدم تحليه بالانضباط هو أن أشرفهم كانوا مرفهين على عهد عثمان، حيث كان

يقسم أموال بيت المال دون حساب بين الناس، وكانت الحصّة العظيمة تمنح للزعماء والاشراف والبطانة والأقرباء. فلما تسلم الإمام عليه السلام زمام الامور تغيرت الأوضاع ليعيشوا مرارة العدالة بعد أن أنسوا بالظالم والجور، ومن هنا كانوا لا ينفكون عن الشكوى، هذا من جانب ومن جانب آخر فإن معاوية كان يسعى جاهداً لتحقيق أهدافه دون الاكتراث لدين الله والقيم الإسلامية والموازن الشرعية،

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٩٧

فكان يبذل الآف الدنانير لشراء هذا الفرد أو ذاك من أجل ترسيخ دعائم حكومته، فان لم يسعفه ذلك عمد إلى التهديد والارعاب والقتل.

ومن هنا نقف على عمق حكمته الإمام عليه السلام وبعد أفقه وتدييره في كيفية تمكنه من زج هؤلاء القوم في الجمل وصفين والنهران، وإن شهدت هذه الوقائع بعض الانكسارات بسبب تمرد البعض وعدم طاعتهم لأوامر الإمام عليه السلام. وهنا نكتشف عمق ماقاله ابن أبي الحديد: إن سياسة علي عليه السلام إذا تأملها المنصف متدبراً لها بالاضافة إلى أحواله التي دفع اليها مع أصحابه، حرت مجرى المعجزات، لصعوبة الأمر وتعذره ثم كسر بهم الأعداء، وقتل بهم الرؤساء، فليس يبلغ أحد في حسن السياسة وصحة التدبير مبلغه [٤١٦].

والحق إننا إذا أردنا أن نصدر حكماً على سياسة أمير المؤمنين عليه السلام ونعلن رأينا بهذا الشأن، كان علينا أن نأخذ هذه الامور بنظر الاعتبار. وناهيك عن كل ما سبق فإن الإمام عليه السلام لم يكن ليعتمد أية وسيلة من أجل بلوغ الهدف، حيث يمنعه دينه وعدله وورعه وتقواه عن ذلك.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٩٩

القسم الرابع: صحب النبي صلى الله عليه وآله

إشارة

«انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبّدوا فالبّدوا، وإن نهضوا فانهضوا».

ولا تشبهوهم فتضلّوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلّكوا. لقد رأيت أضيحاب محمد صلى الله عليه وآله، فما أرى أحداً يشبههم منكم! لقد كانوا يضيّبون شعباً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحوّن بين أعينهم ركب المعزى من طول سجدتهم! إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبلّ جيوبهم، ومادوا كما يميّد الشجر يوم الرّيح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاءاً للتّواب».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- في المقطع الأخير من هذه الخطبة- إلى نقطتين مهمتين؛ الاولى تعريفه بالقادة الذين لا يضلون أبداً، بهدف تمسك الامية بهم وعدم الانفراج عنهم والتماس الهداية عن طريقهم بغية الفوز بالفلاح والسعادة- والثانية: يتحدث عن صفات أصحاب النبي صلى الله عليه وآله لتكون نموذجاً للاخرين، فيكونوا مصداقاً لمضمون الآية الشريفة: «والذين اتبعوهم بإحسان» [٤١٧]، فيجدوا ويجتهدوا في هذا السبيل ويسعوا لأن يتحلوا بصفاتهم. فقال عليه السلام:

«انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى».

فهذا الكلام في الواقع إشارة إلى حديث الثقلين الذي يعتبر من الأحاديث المتواترة والذي

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٠٠

أوصى بالتمسك بالقرآن وأهل البيت اللذان لن يفترقا حتى يرذا الحوض، ولن تضل الأمة أبدا إن تمسكت بهما. ومن الواضح طبعاً أن المراد بأهل البيت، هم أئمة العصمة عليهم السلام الذين قال فيهم الحق سبحانه وتعالى «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» [٤١٨].

ثم أمرهم عليه السلام بالحركة خلفهم أن تحركوا ونهضوا، والقعود أن جلسوا وصمتوا: «فان لبدوا فالبدو» [٤١٩]، وإن نهضوا فانهضوا».

فالحق أن الشرائط والظروف الزمانية والمكانية فى تغير مستمر؛ فان كانت الظروف تقتضى القيام والنهضة وخوض غمار الجهاد، فان السكوت يقود قطعاً إلى البؤس والشقاء، وان كانت الظروف لاتسمح بالقيام، فان النهضة لاتنطوى سوى على الخيبة والخسران وهدر الطاقات. وأئمة العصمة من أهل البيت عليهم السلام أعلم من غيرهم بهذه الظروف والشرائط وينطلقون فى حركتهم وسكونهم من خلالها، وعليه فعدم الاقتداء بهذا الاسلوب إنما يؤدى إلى الخسران.

ومن هنا قال عليه السلام:

«ولاتسبقوهم فتضلوا، ولاتأخروا عنهم فتهلكوا»،

فالمجتمعات لاتخلو على الدوام من الأفراد الذين يعيشون حالة الافراط والتفريط. فالمفردون يحكمون يبطىء حركة الزعماء الحق فيتقدموا عليهم، ليقودوا المجتمع إلى الهاوية. والمفردين على العكس يرون حركتهم مستعجلة فيتأخرون عنهم بذريعة الحزم والاحتياط وإجالة الفكر؛ الأمر الذى يؤدى إلى هلاكهم واختلال حركة المجتمع.

والواقع هو أن عبارة الإمام عليه السلام تنسجم والحديث النبوى المشهور:

«مثل أهل بيتى فكيم، مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها هلك»،

وقد ورد هذا الحديث بعبارات مختلفة فى مصادر الفريقين، وهو يكشف عن علم أهل بيت النبى عليهم السلام المستقى من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، كونهم السفينة الوحيدة للنجاة فى هذه البحار العاصفة؛ على غرار الطوفان الذى لم يكن فيه من وسليته للنجاة سوى سفينة نبى الله نوح عليه السلام [٤٢٠].

نفحات الولاية، ج٤، ص: ٢٠١

والجدير ذكره ماورد شبيه هذه العبارة فى الخطبة ٨٧ بشأن القرآن فى وصفه خلص عباد الله الذين جعلوه محوراً فى حياتهم «فهو قائده وإمامه، يحل حيث حل ثقله، وينزل حيث كان منزله».

وهذا تأكيد آخر لحديث الثقلين.

ثم تطرق عليه السلام إلى خصائص طائفة معينة من صحب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ليقضى بها صحبه، فقال عليه السلام:

«لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، فما أرى أحدا يشبههم منكم لقد كانوا يصبحون شعثا [٤٢١] غيراً». [٤٢٢]

ثم قال فى صفتهم الثانية:

«وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون [٤٢٣] بين جباههم

وخدودهم [٤٢٤]».

وقال أيضاً:

«ويقفون على مثل الجمر [٤٢٥] من ذكر معادهم».

نعم فقد شعروا بعظم العذاب الإلهى بكل كيانههم، فلم يهدأ بالهم ويسكن روعهم

: «كأن بين أعينهم ركب [٤٢٦] المعزى [٤٢٧] من طول سجودهم»

، فقد ذاقوا حلاوة العبودية، فتراهم يطيلون سجودهم، حتى بدت آثار السجود على جباههم.

«إذا ذكر الله هملت [٤٢٨] أعينهم حتى تبل جيوبهم».

فقد تنهمر دموعهم حياً لله تارة، وخوفاً من العقاب وخشية الفراق تارة اخرى

«ومادوا» [٤٢٩] كما يמיד الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاءاً للثواب».

والتشبيه بالشجر الذى يمد من جراء الريح العاصف، هو تشبيه رائع، وقد أشار عليه السلام إلى

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٠٢

دليل ذلك والذى يكمن فى خوف العقاب تارة ورجاء الثواب تارة اخرى

فهم سيكون بعين شوقا إلى لقاء ربهم، بينما تهمل الاخرى خشية من عقاب ربهم! وهذا هو ديدن الصالحين من عباد الله الذين يعيشون بين الخوف والرجاء.

تأملات

١- ولاية أهل البيت وعصمتهم

تتضح عصمة أهل البيت عليه السلام بجلاء من خلال عبارات الإمام عليه السلام وذلك أنه عليه السلام:

«انظروا أهل بيت نبيكم والزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم فى ردى فان لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فضلووا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا».

فالعبارات من أوضح الأدلة على مقام عصمتهم عليهم السلام؛ لأن مثل هذه الوصايا لاتصح فى غير المعصومين من الذنب والخطأ.

كما تدل من جانب آخر على أن امامة المسلمين دائماً فى أهل البيت وذلك لأن الإمام عليه السلام لم يقيد وصاياه بزمان معين.

كما تدل من جهة اخرى على أن مفهوم الولاية لاينسجم وانتقاء أوامر أهل البيت عليهم السلام، بل الولاية الحقيقية فى امتثال أوامره فى كل شىء وعلى أى حال. أمامن يتبع أهل البيت على مستوى اللسان والقول أو بعض التصرفات الفردية والاجتماعية، فلايمكن اعتباره من الموالين الواقعيين، بل ذلك زعم وإدعاء فقط. ومن البديهي أن مراد الإمام عليه السلام لايقصر على عصره أو زمانه؛ لأنه يعرف بأهل البيت بصفتهم أئمة وولاءة وليس فقط شخصه والشاهد الحى على هذا الكلام ما ورد فى الحديث النبوى الشريف أن النبى صلى الله عليه وآله قال:

«انى وأهل بيتى مطهرون، فلا- تسبقوهم فضلووا، ولا- تتخلفوا عنهم فتزلوا، ولا- تخالفوهم فتجهلوا، ولا تعلموهم فأنهم أعلم منكم. هم أعلم الناس كباراً، وأحلم الناس صغاراً؛ فاتبعوا الحق وأهله حيث كان» [٤٣٠]

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٠٣

٢- مميزات أهل الكوفة والشام

هناك رابطة لطيفة بين القسم الأخير من هذه الخطبة، الذى يدعو الناس من جانب إلى اتباع أهل البيت، ومن جانب آخر إلى بيان خصائص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، والاقسام السابقة من الخطبة التى عرضت بالذم الشديد لأهل العراق والكوفة. وذلك لأنها تفهمهم من جانب أن ليس لكم من عذر عند الله، لأن قادتكم أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، الذين ما انفك رسول الله صلى الله عليه وآله يوصى الائمة بالتمسك بهم وعدم مفارقتهم، فهم عدل القرآن وسفن النجاة، والحال زعيم أهل الشام معروف

بالظلم والانحراف والسلب والنهب، وعليه فقد تمت عليكم الحجة.

والآخر أن ضعفكم وهو أنكم ليس لعدم قدرتكم البدنية، بل لضعف ارتباطكم بالله وخواؤكم الروحي وانعدام معنوياتكم، ومن هنا دعاهم لاقتفاء آثار تلك التلة من صحب رسول الله صلى الله عليه وآله بصورة عملية حيث كانت لها أعظم رابطة بالله سبحانه وتعالى ثم تطرق عليه السلام إلى بيان صفاتهم التي تدعوا إلى الغلبة والنصر فقال: لقد كانوا يصبحون شعناً غرباً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم. إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم، ومادوا كما يمد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاء للثواب. وقد كان هذا التعبد والإلتزام هو سر إنتصارهم على خصومهم.

٣- حقيقة الصحابة

لعل هناك من يفهم من اطلاق كلام أمير المؤمنين على عليه السلام أن هذه الخصائص قد جمعت في كافة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وعليه فهو دليل على ما ذهبوا إليه من نظريتهم المعروفة في تنزيه الصحابة، والحال أن هذه الخصائص إنما تتصف بها فئة خاصة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كسلمان وأبي ذر وعمار والمقداد ومن كان على شاكلتهم، لا جميع الصحابة. وذلك لأنه أولاً: أن هذا الموضوع يخالف السير والتواريخ، حيث لم تدون لهم كل هذه الصفات، ثانياً: تفيد أغلب آيات القرآن الكريم أن بينهم من عرف بالنفاق والذنوب والخطايا والمعاصي. ومن

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٠٤

ذلك أن بعضهم قد خان رسول الله صلى الله عليه وآله وجيش المسلمين، وقد تابوا بعد أن افتضح أمرهم؛ كحاطب بن أبي بلتعة وأبي لبابة، وقصتهم معروفة، وعمود التوبة في مسجد النبي صلى الله عليه وآله شاهد حي على هذه الحقيقة. وفيهم من اعترض على رسول الله صلى الله عليه وآله في حكم الزكوة، والمال ومنهم من عاهد الله بالانفاق أن آتاهم من فضله ومنهم ثعلبة بن حاطب الانصاري الذي وردت قصته في الآيات ٧٥-٧٧ من سورة التوبة. وفيهم من تخلف عن غزوة تبوك وتمرد على أوامر رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد وردت قصتهم في ذيل الآية ١١٨ من سورة التوبة.

وفيهم الحواسيس الذين وصفتهم الآية ٤٧ من سورة التوبة: «وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ».

وفيهم من بنى مسجد ضرار بهدف ايجاد الفرقة والاختلاف بين صفوف المؤمنين، وقد وردت قصتهم في الآيات ١٠٧-١١٠ من سورة التوبة.

وفيهم من سار على الصراط على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ثم انقلبوا بعده فاثاروا الفتن واشعلوا نيران الحروب وسفكوا دماء المسلمين، كطلحة والزبير الذين أوجبا نار الجمل وخرجا على إمام المسلمين، ومعاوية الذي آثر الفتن ومنها فتنة صفين. وعليه يبدو من السداجة أن نتغاضى عن هذه الحقائق والوقائع التاريخية وصريح الآيات القرآنية، لنعتبر الصحابة منزهين جميعاً يتصفون بالطهر والعفاف والورع والتقوى.

وبناءً على ما تقدم فإن أمير المؤمنين على عليه السلام إذا مدح الصحابة وأثنى عليهم- في هذه الخطبة أو سائر الخطب- فالمفروض منه أن مراده خاصة صحب رسول الله صلى الله عليه وآله لاجمعيهم.

وهم تلة معدودة من صحابه كانت تقتفى آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وتلتحق به في كافة المعارك والغزوات، حتى استشهد أغلبهم على عهده صلى الله عليه وآله.

على كل حال فإن هذه التلة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله التي انطوت على أعظم دروس العبودية والاستقامة والصمود

والتضحية في سبيل الله والإسلام، وتعلمتها من معلم البشرية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لجديرة بان تكون قدوة للمسلمين في كل عصر وزمان.

وهم الذين قال قيهم المؤرخون أنهم كانوا يتلون لبعضهم البعض الآخرة سورة العصر حين

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٠٥

يفترقون، ليوصى كل منهم الاخر بالايمن والعمل الصالح والتحلى بالحق والصبر. [٤٣١]

وصفهم القرآن بقوله: «سَيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ». [٤٣٢]

وهم المعروفون بشدتهم وصلابتهم تجاه الاعداء، واللين والرحمة تجاه الأصدقاء: «وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» [٤٣٣].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٠٧

الخطبة [٤٣٤] الثامنة والتسعون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

يشير فيه إلى ظلم بنى أمية

نظرة إلى الخطبة

تحدث الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بعبارات قصار عن فجاجع حكومة بنى أمية وظلمهم وانحرافهم، بحيث صور جميع مظالمهم وفضائحهم في هذه الكلمات المختصرة، وهي تفيده وخامة العواقب التي تنتظر المجتمع الإسلامي إذا ضعفت إرادته في المجابهة والتصدي.

التأريخ من جانبه أشار إلى تحقق كافة تكهينات الإمام عليه السلام، وأن عدم الالتفات إلى تحذيراته عليه السلام فساد ذلك الظلم والجور الذي عم المسلمين بما لم يشهد له التأريخ مثيلاً.

والخطبة ضمناً رد قاطع على أولئك الذين يترددون في قتال الإمام عليه السلام لبني أمية، على أنه قتال المسلمين للمسلمين.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٠٩

«وَاللَّهِ لَا يَزَالُونَ حَتَّى لَا يَدْعُوا لِلَّهِ مُحَرَّمًا إِلَّا اسْتَحْلَوْهُ، وَلَمَا عَقَدُوا إِلَّا حُلُوهُ، وَحَتَّى لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِيدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَبَنَّا بِهِ سُوءَ رَعِيهِمْ، وَحَتَّى يَقُومَ الْبَاكِانِ بَيْنَكِيانٍ: بَاكِ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكِ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّى تَكُونَ نُصِيرَةٌ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصِيرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ، وَحَتَّى يَكُونَ أَعْمَكُمْ فِيهَا عَنَاءٌ أَحْسَنُكُمْ بِاللَّهِ ظَنًّا، فَإِنْ أَتَاكُمْ اللَّهُ بِعَاقِبَةٍ فَاقْبَلُوا، وَإِنْ ابْتَلَيْتُمْ فَاصْبِرُوا، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ».

الشرح والتفسير

مظالم بنى أمية

أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصار إلى مصير بنى أمية، كما يشير إلى الفجاجع التي ارتكبتها هذه الطغمة الفاسدة. حيث أقسم على امتداد حكومتهم حتى تستحل كل حرام وتنتهك كافة المواثيق والعهود:

«والله لا يزالون [٤٣٥] حتى لا يدعوا لله محرماً إلا استحلوه، ولا

عقدًا إلّاحلوه».

وقد قام بعض الأعلام باحصاء بدع بنى أمية والمحارم التي انتهكوها واستحلوها، والعهود التي نقضوها، سنستعرضها في الأبحاث القادمة. ويتضح من خلالها عمق الفجائع التي جروها على العالم الإسلامي.

ثم أشار عليه السلام إلى الفضائع التي ارتكبوها بحق المسلمين وعموم ظلمهم وشموله بحيث لا يفلت منه بيتاً من البيوت: «وحتى لا يبقى بيت مدر، ولا وبر إلّادخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم»،

والمراد بيوت المدر المبنية من الطوب والحجر ونحوهما وهي بيوت المدينة عادة. أمّا

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢١٠

الوبر فيراد به صوف الناقة، فالمراد بيت الوبر الخيام التي كانت تقام في القرى والبادي، والحق أنّ هذا أروع تعبير لشمولية الظلم بحيث لا يسع أحد النجاة من ذلك الظلم. وهو الظلم الذي قد يدفع بالبعض إلى الفرار من بيوتهم.

ثم تطرق عليه السلام إلى أنّ الناس آنذاك على طائفتين؛ طائفة تبكى دينها، واخرى تبكى دنياها: في تصويره للفاجعة الثالثة

«وحتى يقوم الباكيان يبكيان: باكي يبكي لدينه، وباكي يبكي لدنياه».

نعم فالمتدينون يبكون خشية على دينهم من الأخطار التي تهدده من هذه الطغمة سلبية الجاهلية، بينما يبكي أصحاب الدنيا على دنياهم، فالظلمة قد ساموا الناس الظلم في دينهم ودنياهم.

ثم قال عليه السلام: في بيانه للفاجعة الرابعة

«وحتى تكون نصره أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه».

في إشارة إلى أنّهم يستعبدون الناس، وليتها كانت من نوع العبودية التي تسودها علاقة الحب والرأفة بين العابد والمعبود، بل العبودية التي تختزن كل معاني الظلم والتحقير والاستخفاف؛ وكأنّهم قيدوا أعناق الناس وسحبوهم بالاتجاه الذي يريدون.

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالعبارة طلب الناس العون من هؤلاء، لاعون الناس لهم بمعنى نصرتهم (فلاضافة إلى المفعول لا إلى الفاعل): وعليه مفهوم العبارة أنّكم إذا طلبتم عونهم فإنّ ذلك كطلب الغلام العون من سيده الظالم، لا طلب الرفيق من رفيقه. إلّا أنّ عبارتي:

«إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه»

تؤيدان المعنى الأول.

ثم وصف فاجعتهم الأخيرة بأنّها أشد وأعظم على ذلك الأقرب لله والأكثر عبودية له:

«وحتى يكون أعظمكم فيها عناء أحسنكم بالله ظناً».

وهل ينتظر غير هذا من حكومة ظالمة مستبدة مجرمة، لادين لها ولا أخلاق، قطعاً محنة العبد في ظل هذه الحكومة تكون أعقد وأصعب كلما كان لربه أطوع وأقرب.

ثم اختتم عليه السلام كلامه بتسليّة أصحابه وأنصاره لما ينتظرهم من أحداث أليمة:

«فان أتاكم الله بعافية فاقبلوا، وإن ابتليتكم فاصبروا فان العاقبة للمتقين».

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢١١

فالذي يفهم من هذه العبارة أنّ حكومة بنى أمية وإن مارست ظلمها وضغوطها بحق الأمة، فجزعتها أنواع العذاب، إلّا أنّ هناك البعض الذي نجى من هذه الحوادث الخطيرة والمؤتة، وقد أوصى الإمام عليه السلام الطائفة الأولى بالصبر والتحمل وانتظار الفرج، بينما

أوصى الثانية بالحمد والشكر.

تأمل: بدع بنى أمية

لقد حصلت كافة تكهنات الإمام عليه السلام التي أوردها في هذه الخطبة بشأن شمولية فجائع بنى أمية، حيث لم تأل هذه الحكومة المستبدة جهوداً عن مقارنة أنواع الظلم والجور، كما سفكت بحاراً من الدماء من أجل ترسيخ دعائم سلطتها الغاشمة، إلى جانب ملئ السجون بالأبرياء من المومنين وسومهم سوء العذاب، وممارسة أقصى درجات العنف والبطش، فعم الخوف والرعب كافة أبناء الأمة، بما فيهم مقربى هذه الحكومة وبطانتها. وقد قام المرحوم العلامة الأمينى بجمع كافة الانتهاكات والبدع التي ارتكبتها بنى أمية، مع ذكر اسنادها في كتابه الغدير، نورد طائفة منها، وتترك للقارىء العزيز الوقوف على تفاصيلها في المجلد الحادى عشر من كتاب الغدير أن معاوية:

أول من أحدث الاذان فى صلاة العيدين؟!

أول من رأى الجميع بين الأختين إحياء لما ذهب إليه عثمان؟!

أول من غير السنّة فى الديات وأدخل فيها ما ليس منها؟!

أول من ترك التكبير فى الصلوات عند كل هوى وانتصاب وهى سنّة ثابتة؟!

أول من ترك التلبية وأمر به خلافاً لعلّى أمير المؤمنين عليه السلام العامل بسنّة الله ورسوله؟!

أول من قدم الخطبة على الصلاة فى العيد لإسماع الناس سبّ على عليه السلام؟! وقد صحّ عن نبي الإسلام: «من سبّ علياً فقد سبّه، ومن سبّه فقد سبّه الله».

أول من عصى ربه بترك حدوده وإقامه سنّته؟! «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢١٢

أول من نقض حكم العاهر، وأحیی طقوس الجاهليّة، وخالف دين محمد صلى الله عليه وآله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»؟!

أول من تختم بالسيار؟ فأخذ المروانية بذلك إلى أن نقله السفّاح إلى اليمين بقى إلى أيام الرشيد فنقله إلى اليسار.

أول من سنّ سبّ على وقت به وجعله سنّة جاريه فى خلفه الذين أضعوا الصلاة وآتبعوا الشهوات، وشوّه خطب المنابر بذلك الحادث النخري؟!

أول من بغى على إمام وقته وحاربه وقتله وقتل أمية كبيرة من صلحاء الصحابة البدرين وأهل بيعة الشجرة الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه؟!

أول من أعطى المال لوضع الحديث وتحريف كتاب الله وكلمته الطيبة عن مواضعها؟!

أول من اشترط البراءة من على عليه السلام من بايعه فى خلافته الغاشمة أو فى ملكه العضوض؟!

أول من حمل إليه رأس الصحابى العادل عمرو بن الحمق وأدير به فى البلاد؟!

أول من قتل عدول الصحابة الأولين والتابعين لهم بإحسان من عيون الأمة وعبّادها ونسّاكها لمحض ولائهم سيّد العتره، وقد جعله الله أجر رسالة نبيه الخاتم صلى الله عليه وآله؟!

أول من قتل نساء كلّ وإلى أهل بيت النبى وذبح صبيانهم ونهب أموالهم، ومثّل بقتلاهم وشتّت شملهم، وفرّق جمعهم، واستأصل شأفتهم، ونفاهم عن عقر دورهم، وأبادهم تحت كلّ حجر ومدّر؟!

أول من عبث به رعيتته، وسنّ العمل بالشهادات المزوّرة، وسلط ورجال الشرّ والغى والجور على صلحاء أمه محمد صلى الله عليه وآله.

أول من همّ بنقل منبر رسول الله صلى الله عليه وآله عن المدينة المشرفه إلى الشام؟! ولما حرّك المنبر خسفت الشمس فترك.

أول من بدّل الخلافة الإسلاميه إلى شرّ ملك وسلطه سوء؟!

أول من ملك وتجبر في الإسلام بلبس الحرير والديباج، وشرب في آنية الذهب والفضة، وركب السروج المحلاة بهما؟!

أول من سمع الغناء وطرب عليه وأعطى ووصل إليه وهو يرى نفسه أمير المؤمنين؟!

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢١٣

أول من هتك دين الله باستخلاف جروه الفاجر المستهتر التارك الصلاة؟!

أول من شن الغارة على مدينة الرسول صلى الله عليه وآله حرم أمن الله، وأخاف أهليها، وما رعى حرمة ذلك الجوار المقدس؟!

إلى جرائم وبوائق تجر الرجل فيها هو السابق الأول إليها.

أصحيح أن مثل هذا الطاغية تصدر فيه كلمة إطراء من مصدر النبوة؟ أو يأتي عن نبي العدل والحق والصدق ما يوهم الثناء عليه؟ لا، لا يمكن ذلك؛

٢- غيظ من فيض فضائع بنى أمية

ذكر أبو الفرج الاصفهاني وهو من مشاهير علماء القرن الرابع الهجري في كتابه المعروف «الآغاني» بعض الامور العجيبة بشأن بنى أمية، نورد طائفة منها:

١- خالد بن عبد الله القسري و الى هشام بن عبد الملك على الكوفة كان زنديقا و أمه نصرانية و كان يولي النصارى و المجوس على المسلمين. [٤٣٦]

٢- بنى كنيسة لأمه خلف قبله مسجد الكوفة فكان يضرب فيها الناقوس حين يرتفع صوت الأذان [٤٣٧].

٣- كان يقول- و العياذ بالله- بأفضلية الخليفة هشام على رسول الله صلى الله عليه وآله و كان يقول بكل و قاحة: و الله لو أمرني الخليفة لهدمت الكعبة و نقلت حجرها إلى الشام. [٤٣٨] و العجيب عزله هشام بعد مدة إثر تعرضه لبنى أمية. [٤٣٩] روى ابن أبي الحديد المعتزلى [٤٤٠] فى شرح نهج البلاغة عن أبى عثمان الجاحظ أن بنى هاشم كانوا يفخرون على بنى أمية أنا لم نقم بهذه الأعمال:

أ هدم الكعبة (إشارة لما فعله الحجاج على عهد عبد الملك)

ب- تغيير القبلة (إشارة لصلاة الوليد لغير القبلة ثملا و هو يقول أينما تولوا فثم وجه الله)

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢١٤

ج- لم يجعلوا الخليفة أفضل شأنًا من النبي صلى الله عليه وآله (إشارة لما ورد فى كتاب الآغاني)

ع- لم يختموا رقاب المسلمين (إشارة إلى ختم بنى أمية لرقاب المسلمين كعبيد كما كانوا يختمون الخيل).

ه- لم ينهوا حرم النبي صلى الله عليه وآله و ينتهكوا حرمة المسلمات (إشارة إلى قصة مسلم بن عقبة الذى إستباح المدينة بأمر يزيد فارتكب فيها من الجرائم ما يعجز القلم عن وصفها).

و قد وجه معاوية قبل ذلك يسر بن أرتاة ليهجم على المدينة و يطوف فى مسجد النبي صلى الله عليه وآله دعيا الناس لبيعتة و قتل من تخلف و هدم بيته و مصادرة أمواله.

و نختم الكلام بما ذكره ابن عساكر- المؤرخ السننى المعروف- فى كتابه تاريخ دمشق أن عبد الله بن حنظلة- و أبوه غسيل الملائكة من كبار صحابة النبي صلى الله عليه وآله- خاطب الناس حين أمر يزيد مسلم بن عقبة بالهجوم على المدينة فقال: يا قوم اتقوا الله وحده لا شريك له، فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء- إن رجلا ينكح الأمهات و البنات و الأخوات و يشرب الخمر و يدع الصلاة- و الله لو لم يكن معى أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاء حسناً. [٤٤١]

و هنا نقف على عمق كلام أمير المؤمنين عليه السلام «لكل أمة آفة، و آفة هذه الأمة بنو أمية» [٤٤٢] و يالهم من جهال أولئك الذين يطرون معاوية و يتغنون بأمجاد بنى أمية رغم هذه الفجائع.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢١٥

الخطبة [٤٤٣] التاسعة والتسعون

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
في التهديد من الدنيا

نظرة إلى الخطبة

تفيد بعض الروايات أنّ الإمام عليه السلام خطب بهذه الخطبة في صلاة الجمعة، فأوصى فيها الناس بالزهد في الدنيا، وقد صور غدرها وتقلب أحوالها بالشكل الذي جعل طلابها يمجونها ولا يركنون إليها؛ ولا سيما أنّه تحدث عن أولئك الذين يذرفون الدمع حزناً على فقد أعزتهم، وآخرين يعزونهم، وطائفة من الناس قد رقدت على فراش المرض تنتظر الموت، بهدف إيقاظهم من غفلتهم وسيطرة أهوائهم وهوسهم. فالخطبة موعظة لمرضى القلب من عبدة الدنيا.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢١٧

القسم اول: السلامة في الدين والبدن

«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَى مَا يَكُونُ، وَنَسْأَلُهُ الْمَعَاوَةَ فِي الْأَدْيَانِ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمَعَاوَةَ فِي الْأَبْدَانِ».

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه لتتهدى القلوب لسماع الكلمات القادمة في الوعظ والنصح، فقال عليه السلام:
«نحمده على ما كان»

فمفهوم هذه العبارة واسع شامل، حيث تشمل النعم التي يفيضها الله سبحانه وتعالى على العباد، كما تشمل الحوادث المريرة والأليمة. وذلك لأنّ خاصّة عباد الله تعد كل ما صدر من الله نعمة ورحمة، فترى عليها شكره على كل حال.

ثم قال عليه السلام:

«ونستعينه من أمرنا على ما يكون»

، فمن الطبيعي أن يكون الحمد والثناء على الماضي، والاستعانة على المستقبل، وهذا هو ديدن العباد المخلصين الذي يكمن في شكر الباري على ما كان والاستعانة به على ما يكون.

ثم قال عليه السلام

: «ونسأله المعافاة في الأديان، كما نسأله المعافاة في الأبدان»

، فالعبارة إشارة إلى نقطة لطيفة وهي أنّ الناس لو أولوا سلامة دينهم ذات الأهمية التي يولونها لسلامة ابدانهم وديانهم، لأخذوا العافية بطريقتها ونجوا. إلّا أنّ المؤسف له أنّ الإنسان قد يتعرض إلى مرض بسيط فتراه يراجع عدداً من الأحياء، بينما لا يتجه إلى طبيب واحد حتى لو أصابته عشرات الأمراض الروحية والأخلاقية الخطيرة.

هذا وقد أورد بعض شراح نهج البلاغة عن بعض المفكرين قوله لو سكبت عشر هذه الدموع التي تسكب على البطون الجائعة والأبدان العارية على الأرواح الجائعة للمعرفة

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢١٨

والعاريه من الفضائل لزال كل هذا الجوع والعري البدني، كما زال كل هذا الجوع والعري المعنوي. [٤٤٤]

جدير بالذكر أن الأديان بصيغته الجمع إشارة إلى تدين أفراد البشر، لامختلف الأديان، على غرار الأبدان جمع البدن.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢١٩

القسم الثاني: سرعة زوال الدنيا

«عِبَادَ اللَّهِ، أَوْصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهَذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرَكَهَا، وَالْمُبْلِيَةَ لِأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا، فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَيْفٍ، سَلَكَوا سَبِيلًا فَكَانَتْهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وَأَمُّوا عَلَمًا فَكَانَتْهُمْ قَدْ بَلَّغُوهُ. وَكَمْ عَسَى الْمُجْرِي إِلَى الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا! وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَاءٌ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لَا يَغِيدُوهُ، وَطَالِبٌ حَيْثُ مِنَ الْمَوْتِ يَحْدُوهُ وَمُرْعَجٌ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُفَارِقَهَا رَغْمًا! فَلَا تَنَافَسُوا فِي عَزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِهَا، وَلَا تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا، وَلَا تَجَزَعُوا مِنْ ضَرَائِهَا وَبُؤْسِهَا، فَإِنَّ عَزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَى انْقِطَاعٍ، وَإِنَّ زِينَتَهَا وَنَعِيمَهَا إِلَى زَوَالٍ، وَضَرَاءَهَا وَبُؤْسَهَا إِلَى نَقَادٍ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى انْتِهَاءٍ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ».

الشرح والتفسير

بعد أن حمد الإمام عليه السلام الله وأثنى عليه شرع في هذا المقطع من الخطبة حث الناس على الزهد في هذه الدنيا بعبارات نافذة مؤثرة، إلى جانب تصويره لتفاهته هذه الدنيا فقال عليه السلام:

«عباد الله أوصيكم بالرفض بالدنيا التاركة لكم وان لم تحبوا تركها».

ويالها من فاجعة ان يسعى الإنسان بكل كيانه وذاته نحو معشوق يسعى بكل ما أوتي من قوة للهروب منه! فقد قال عليه السلام: إذا كانت الدنيا تاركة لكم فاتركوها، وان شق ذلك على

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٢٠

أهوائكم ورغباتكم، وذلك امتثالاً لقوله سبحانه: «وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ» [٤٤٦]، فلعل هناك بعض الامور التي تبدو حسنة الظاهر يحبها الإنسان، بينما تستبطن السم الزعاف.

ثم قال عليه السلام:

«والمبلية» [٤٤٧] لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها».

فكل فرد يلاحظ على نفسه آثار العجز والتعب بمرور الزمان من قبيل ذهاب النشاط والحيوية وذبول الجلد وضعف العظام وضعف البصر وثقل السمع وتمتمة اللسان وانحناء الظهر وضعف العضلات والاعصاب وما إلى ذلك من الامور التي تورق الإنسان وتجعله يشعر بالاسى والحزن. ومن هنا يسعى احيانا وبشتى الوسائل لا استعادة حيويته ولكن هل يصلح العطار ما أفسد الدهر، طبعاً قد يحقق بعض النجاحات الطفيفة في هذا المجال، إلا أن هناك مسيرة لا بد له من اجتيازها والوصول إلى مصيره المحتوم، فهل من الصحيح أن يولى الإنسان ظهره لكل هذه الامور ويتعلق بالدنيا؟! الجدير بالذكر أن الدنيا لا تبلى الكائنات الحية ولا سيما بدن الإنسان فحسب، بل يشمل هذا القانون عالم المادة برتمته من المجرات حتى الذرات. بل حتى هذه الشمس المشرقة التي تبعث بأشعتها إلى كل مكان إنما تبلى بالتدرج حتى تنتهي يوماً إلى الزوال؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم «تكوير الشمس» وأيده العلم الحديث.

ثم قال عليه السلام:

«فانما مثلكم ومثلها كسفر» [٤٤٨] سلكوا سبيلاً فكأنهم قد قطعوه، وأموا [٤٤٩] علماً فكأنهم قد بلغوه، وكَمْ عَسَى الْمُجْرِي إِلَى الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا».

نفحات الولاية؛ ج ٤؛ ص ٢٢٠

أكد ذلك عليه السلام بقوله، كيف يمكن أن يؤمل البقاء من كان له يوم لا بدّ من بلوغه ولا يمكنه تجاوزه، والموت يجرى خلفه ليسوقه إلى حتفه وان كان كارها:

«وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه، وطالب حيث [٤٥١] من الموت يحدوه [٤٥٢]، ومزعج [٤٥٣] في الدنيا حتى يفارقها رغماً [٤٥٤]».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٢١

فالعبارات بمجموعها تكشف النقاب عن ذات الحقيقة وهي قلب الدنيا وانعدام قيمتها؛ الحقيقة التي يغفلها أغلب الناس، فتقودهم هذه الغفلة إلى البؤس والشقاء والحرمان من السعادة.

ثم يخلص الإمام عليه السلام من هذا البحث بشأن تفاهة الدنيا إلى نتيجة ينبغي أن يبلغها الجميع، وهي مادامت الدنيا كذلك فلا ينبغي اضعاء الجهود من أجل الحصول على مفاخرها الزائفة وعزتها الموهومة، كما لا ينبغي الانخداع بزيتها وزخارفها الزائفة، ولا ينبغي الشعور بالامتعاض والغصّة على آلامها وأحزانها:

«فلا تنافسوا [٤٥٥] في عز الدنيا وفخرها، ولا

تعجبوا بزيتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها».

وذلك لأنّ فخرها آيل إلى الزوال ونعمتها إلى الفناء، وآلامها إلى انقضاء

«فان عزها وفخرها إلى انقطاع، وان زينتها ونعيمها إلى زوال، وضراءها وبؤسها إلى نفاذ [٤٥٦]، كل مدة

فيها إلى انتهاء، وكل حى إلى فناء».

فقد ركز الإمام عليه السلام في هذه العبارات الرائعة على عزة الدنيا وفخرها ونعيمها وزيتها وآلامها ومصائبها، ليرى فناء كل شيء فيها وزواله، ثم عرض لقانون كلى إلى أن كل عز فيها إلى انقطاع وزينته ونعيم إلى زوال وضراء وبؤس إلى نفاذ وكل مدة فيها إلى انتهاء، وكل حى فيها إلى فناء؛ فاذا كان الأمر كذلك فما معنى كل هذا النزاع والتنافس والجزع؟! فقد صرح أحد شراح نهج البلاغة بأن الماضين قد ذهبوا وأصبحوا ترابا واننا لنطى ترابهم ثم نكون مثلهم، ثم يعبر علينا الآخرون من بعدنا. ومع كل هذا لا نفيق من غفلتنا!! وما أروع حديث الإمام الباقر عليه السلام الذى شبه نعم الدنيا بالمال الذى يراه النائم فان نهض من نومه لم ير شيئاً:

«أو كمال وجدته فى منامك، فاستيقظت وليس معك منه شيء» [٤٥٧].

أو كما صورها الشاعر:

ألا إنّما الدنيا كمنزل راكب أناخ عشياً وهو فى الصبح راحل

وكل شباب، أو جديد إلى البلاء وكل امرء يوماً إلى الله صائر

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٢٣

القسم الثالث: دروس الدنيا وعبرها

«أوليس لكم فى آثار الأولين مُرَدَجِرٌ، وفى آباءكم الماضين تبصرةٌ ومعتبرٌ، إن كنتم تغفلون! أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف الباقين لما يتقون! أولست ترون أهل الدنيا يضربون ويمسّون على أحوال شتى فميتت يئسكى وآخر يعزى وصيريع مبتلى، وعائد يعود، وآخر بنفسه يجود، وطالبٌ للدنيا والموت يطلبه، وغافلٌ وليس بمغفول عنه؛ وعلى أثر الماضى ما يمضى الباقى!».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام هذا المعلم الربانى العظيم كلامه السابق من أجل نفخ اليقظة فى هذه الأرواح التى تعيش السبات والغفلة من

خلال للدنيا وتقلب أحوالها فقال عليه السلام:

«أو ليس لكم في آثار الأولين مزدجر [٤٥٨]، وفي آبائكم الماضين تبصرة ومعتبر، ان كنتم تعقلون».

ثم وضع عليه السلام هذه العبارة بقوله:

«أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف الباقي لا يقون».

إشارة إلى قانون الموت والفناء؛ القانون العام الشامل الذى ليس فيه أى إستثناء، فمن ذهب لا يعود، ومن بقى فهو سائر اثر تلك القافلة إلى الزوال وعدم العودة. مع هذا الفارق وهو أن البعض فى الصفوف المقدمة والبعض الآخر فى الصفوف المؤخرة؛ على غرار عباراته التى

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٢٤

خاطب بها الأموات ممن دفنوا ظهر الكوفة:

«أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق» [٤٥٩].

ثم خاض عليه السلام فى بيان هذا الكلام بعبارات أدق وأوضح وتحليل دقيق و بليغ بعد أن قسم أحوال أهل الدنيا فى مصابهم بالحوادث إلى سبعة أقسام ليقول:

«أولستم نزون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال مشتى: فميت يبكى، وآخر يعزى، وصريح مبتلى، وعائد [٤٦٠] يعود، وآخر

بنفسه يجود [٤٦١]، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس

بمغفول عنه؛ وعلى أثر الماضى مايمضى الباقي».

يا لها من عبارات رائعة وشاملة عظيمة التأثير إذا استطاع الإنسان أن يتمثل صورها للناس وهم يتحركون؛ فهذا يموت ويبكى عليه، وهنالك مجلس للجزاء تتوافد عليه الناس جماعات ليعزوا ذوى الفقيد. وهناك من رقد على فراش المرض وقد عاده جمع من الاخوة والأصدقاء. وهناك من يعالج سكرات الموت ويحتضر وليس لأحد أن يفعل له شيئاً. وهناك صورة اخرى يطالعك فيها الناس وهم يسارعون فى الركض والحركة دون الالتفات إلى الحلال والحرام والمشروع والممنوع بغية الحصول على شىء من حطام الدنيا؛ بينما كمن لهم الموت فى الطريق؛ وإذا به يباغتهم ليقضى على جميع آمالهم وأحلامهم. وبالتالي هناك فئة غافلة مشغولة بالذائد العيش وسكر النعم والفرح والسرور دون أن تلتفت إلى الموت الذى ينتظرها؛ فاذا هجم الموت على أحدهم أحال فرحهم حزناً وغماً. هذه هى صور الحياة السائدة طيلة تاريخ البشرية وستكون كذلك، ويا لها من صور تنطوى على الدروس والعبر، إلّا أنّ القلة القليلة من تعتبر.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٢٥

القسم الرابع: هادم اللذات

إشارة

«أَلَا فَادُّكُرُوا هَادِمَ اللَّذَاتِ، وَمُنْعَصَ الشَّهَوَاتِ، وَقَاطِعِ الْأُمِّيَّاتِ، عِنْدَ الْمَسَاوِرَةِ لِلْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ، وَاسْتَعِينُوا اللَّهَ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ، وَمَا لَأِيْحَصَى مِنْ أَعْدَادِ نِعْمِهِ وَإِحْسَانِهِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى ختام هذه الخطبة الفصيحة والبليغة النافذة إلى نقطتين تكملان البحث السابق:

الاولى: الإشارة إلى الموت الذى يدعو ذكره إلى يقظة الإنسان من سباته وغفلته:

«ألا فاذكروا هادم اللذات، ومنغص [٤٦٢] الشهوات، وقاطع الامنيات، عند المساورة [٤٦٣] للأعمال القبيحة».

فقد وصف الإمام عليه السلام الموت هنا بثلاث: الأول: أنه هادم اللذات؛ لأن أغلب الناس يفنون أعمارهم ليوفرا لأنفسهم العيش الهنيئ واللذيد، بالضبط في الوقت الذي تهجم فيه الأمراض على الإنسان وترديه ميتاً. أضف إلى ذلك كثيراً ما تشاهد مجالس السرور واللذة وقد تعكرت وتبدلت عزاء إثر بعض الحوادث، والعجيب ليس هنالك من ضمانه لأحد بعدم وقوع هذه الحوادث.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٢٦

الثاني: منغص الشهوات؛ لأن الموت - الذي ليس له من زمان معين ولا يمكن التكهن به قط - يهجم على الإنسان في تلك اللحظة التي ينعم فيها بالشهوات.

الثالث: قاطع الامنيات؛ فإماني الإنسان كثيرة طويلة لاتعرف الحدود ولا يقطعها ويعطلها سوى الموت. فهذه العبارات على درجة من القوة. بحيث تؤثر على كل إنسان. و الرائع أنه قال «الا فاذكروا هادم اللذات ... عند المساورة للأعمال القبيحة» إشارة إلى أن القبائح كثيرا ما تترين بحيث يهجم عليها الإنسان كالوحش الذي ينقض على فريسته - ففي هذه اللحظة يمكن أن يصد عن ذلك ذكر الموت.

ثم أوصى عليه السلام بذكر نعم الله التي تحول دون ارتكاب الذنوب على أنها العامل الثاني الذي يصد عن المعاصي «واستعينوا الله على أداء واجب حقه، وما لا يحصى من أعداد نعمه وإحاسنه».

فشكر المنعم لا يؤدي إلى معرفة الله فحسب، بل يلعب دوراً مباشراً في دفع الإنسان لاداء الواجبات وترك المحرمات.

تأملان

١- خداع الدنيا محدود

يزعم أغلب الناس أن الدنيا خادعة بزینتها وزخرفها؛ وقد اشير إلى هذا المعنى في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية. إلّا أننا إذا فكرنا بصورة سليمة لتوصلنا إلى أنّ هذا الخداع إنّما يطيل السذج والحمقى من الناس. وهذا ما أورده الإمام عليه السلام حيث صور الدنيا وقد ملئت بحوادث الغدر والخيانة والتكر والتقلب. كما حفلت بالآف الصور التي تبعث على الاعتبار من قبيل المرض والموت والعزاء والحوادث الاليمه وماشاكل ذلك، فهل خادعة هي الدنيا وهي بهذه الصفات.

ومن هنا قال عليه السلام وقد سمع رجلاً يذم الدنيا، أيها الذام للدنيا، المغتر بغرورها، المخدوع بأباطيلها! أنتغر بالدنيا ثم تدمها؟ أنت المتجرم عليها، أم هي المتجرمة عليك؟ متى استهوتك، أم متى غرتك؟ أمبصارع آباءك من البلى أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى كم عللت بكفيك،

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٢٧

وكم مرضت بيديك! تبتغى لهم الشفاء، وتستوصف لهم الأطباء، غداة لا يغني عنهم دواؤك، ولا يجدى عليهم بكاؤك. [٤٦٤] كما قال عليه السلام: مثل الدنيا كمثل الحية لين مسها، والسم الناقع في جوفها، يهوى إليها الغر الجاهل، ويحذرها ذواللب العاقل. [٤٦٥]

٢- أكيس الناس

ورد في بعض الروايات سئل رسول الله صلى الله عليه وآله من أكيس المؤمنين؟
فقال صلى الله عليه وآله:

«أكيس المؤمنين أكثرهم ذكرا للموت، وأشدهم له استعدادا» [٤٦٦].

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله تحت عنوان:

«أكيس الناس وأحزمهم»

جاء في آخره:

«أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» [٤٦٧].

والدليل على ذلك واضح لأن ذكر الموت وفناء الحياة عامل مهم في الصد عن الذنوب والمعاصي التي تنشأ عادة من حب الدنيا والتعلق بزخارفها والحرص والطمع الذي ينسى ذكر الموت والآخرة «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ» [٤٦٨].

ومن الامور التي حث عليها الإسلام زيارة القبور التي تهدف إلى احترام أرواح الأموات من المؤمنين، إلى جانب كونها من العوامل المهمة في إيقاظ الإنسان، حيث لا يملك الإنسان هناك سوى الأذعان لهذه الحقيقة.

كل فتى وان طالت سلامته لا بد يوماً على آله الحدباء محمول

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٢٩

الخطبة [٤٦٩] مائة

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
في رسول الله وأهل بيته عليه السلام

نظرة إلى الخطبة

كما أشرنا في سند الخطبة فإن الإمام عليه السلام خطبها أوائل خلافته. حيث استهلها بحمد الله والثناء عليه، ثم تطرق إلى رسالة النبي صلى الله عليه وآله وضرورة طاعته واتباعه. ثم أشار عليه السلام إلى بعض الأخبار عنه وعن أهل العراق فقال: فاذا أنتم أنتم له رقابكم، وأشرتم إليه باصابعكم، جاءه الموت فذهب به.

ثم يختتم الخطبة بالحديث عن عظمة آل محمد صلى الله عليه وآله وبركتهم واستمرار هدايتهم، وكلما ذهب منهم أحد خلفه آخر.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٣١

القسم الأول: راية الحق

إشارة

«الْحَمْدُ لِلَّهِ النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَالْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ. نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعًا، وَبَذَرَهُ نَاطِقًا، فَأَدَّى أَمِينًا، وَمَضَى رَشِيدًا؛ وَخَلَفَ فِيْنَا رَايَةَ الْحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَ مَرَقًا، وَمَنْ

تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقٌ، وَمَنْ لَزِمَهَا لِحَقٌ، دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلَامِ، بَطِيءُ الْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَلْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ، وَأَشْرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَهُ الْمَوْتُ فَمَدَّ يَدَيْهِ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ حَتَّى يُطْلِعَ اللَّهُ لَكُمْ مَنْ يَجْعَلُكُمْ وَيُضْمُّ نَشْرُكُمْ، فَلَا تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ، وَلَا تَتَأَسُّوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَى أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحْدَى قَائِمَتِيهِ، وَتَجِبَ الْأُخْرَى فَتَرْجِعَا حَتَّى تَتَّبِنَا جَمِيعًا.

الشرح والتفسير

لاشك أن الهدف الأصلي للخطبة بيان أوصاف رسول الله صلى الله عليه وآله ومقامات أهل بيته عليهم السلام، ولكن وعلى ضوء الحديث المعروف:

«أن كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء» [٤٧٠]

، فإن الإمام عليه السلام إستهل كلامه بحمد الله والثناء على والشهادة له بالوحدانية وللرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بالنبوة، لتستثير القلوب بهاتين الشهادتين وتتأهب لسماع المطالب القادمة.

فقال عليه السلام:

«الحمد لله الناشر في الخلق فضله، والباسط فيهم بالجوهر يده».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٣٢

فوصف بالله بهذه الصفات هو في الواقع دليل على تفرد سبحانه بكل حمد وثناء، نعم فهو الجدير بكل مدح وحمد وثناء، كيف لا وقد عم فضله وانتشر جوده وملأت أركان العالم نعمه وآلائه. ولا ينبغي ذلك لمن سواه، فهم عيال على نعمه.

ثم أشار إلى سعة حمده و الثناء عليه قال عليه السلام:

«نحمده في جميع أموره، ونستعينه على رعايته حقوقه».

فالعبارة

«جميع أموره»

تفيد أننا لانحمده عند النعم والرفاه والدعة والعافية فحسب، بل نحمده ونشكره في البلاء والشدة وحين الوقائع الخطيرة، وذلك لأنه أولاً: كل ما يفعله الله يتفق والحكمة والمصلحة، حتى المصائب التي تصب علينا إختباراً فهي كفارة لذنوبنا، أو أنها سبب ليقظتنا من نوم الغفلة.

وثانياً: أن هذه الحوادث تجعلنا ننال أجر وثواب الصابرين وجزاء الشاكرين وهذه نعمه كبرى

والعبارة

«ونستعينه...»

أى إننا يجب أن نستمد العون منه لطاعته وإمتثال أوامره ورعايته حقوقه، حيث لا يسعنا فعل شيء دون عونه، وهذا ما نردده ليل نهار في صلواتنا «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» ولما فرغ عليه السلام من حمد الله والثناء عليه، شهد الله بالوحدانية وأن لا معبود سواه «ونشهد أن لا إله غيره».

لأننا إذ سلمنا أن النعم منه، فإن العبودية والطاعة لا تليق إلا به سبحانه وبذاته المقدسة.

ثم اتبعها بالشهادة للنبي صلى الله عليه وآله بالنبوة والعبودية:

«وأن محمدا عبده ورسوله»

أما تقديم العبودية على الرسالة، فتفيد نفيها لكافة أنواع الشرك عن المؤمنين، إلى جانب كون مقام العبودية أفضل وأسمى من مقام النبوة! لأن العبد الكامل المخلص لله يرى تمام وجوده لله، فلا يفكر في سواه ولا يريجو غيره، وهذا بحد ذاته أوج تكامل الإنسان الذي ليس بعده من مقام. ثم أشار عليه السلام إلى بعض صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في أنه صدح بالحق، وأدى رسالته بكل

أمانه حتى مضى إلى ربّه بعد أن ثبت دعائم الحق:

«أرسله بأمره صادعاً»، [٤٧١] وبذكره ناطقاً،

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٣٣

فأدى أميناً، ومضى رشيداً؛ وخلف فينا رايه الحق».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى الخدمات الجليلة التي أسداها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، إلى جانب ابلاغه لأوامر الحق ونواهيها، كما شرح من جانب آخر كل ما يلزم لمعرفة الله سبحانه، وأنه صلى الله عليه وآله كان أميناً في قيامه بهذه المهمة في أداء الرسالة، كما عمل صلى الله عليه وآله بما قال ليكون للأخري أسوة صالحة، كما كان حريصاً على الأجيال القادمة فنصب لهم رايه الحق، حيث خلف في الأئمة كتاب الله وسنته.

واختلف الشراح في تفسير المراد بقوله:

«رايه الحق»

فذهب البعض الر أن المراد به القرآن الكريم، وقيل الكتاب والسنة، كما فسر بالكتاب والعترة اللذان وردا في حديث الثقلين.

إلا أن تفسيرها بالكتاب والسنة (لأن الكتاب دعا إلى السنة) أنسب بالنظر لتصدر الكلام بالعبارة:

«دليلها مكيب الكلام».

ثم أضاف عليه السلام قائلاً:

«من تقدمها مرق [٤٧٢]، ومن تخلف عنها زهق [٤٧٣] ومن لزمها لحق».

فالعبارة تشير إلى كيفية التعامل الطوائف الثلاث من الناس مع الحق: طائفة مفرطة تتقدم على الحق فتصيبها الحيرة والضلال كالخوارج الذين ذهب بهم الظنون بأنهم إنما يعملون بالقرآن فتقدموا على إمام زمانهم فعاشوا بحماقتهم ذلك التناقض، أو كأولئك الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فرأوه أفطر حين سافر فزعموا أنهم لا يفطرون رعايه طرحة شهر رمضان حتى تسموا بالعصاة [٤٧٤] الطائفة الثانية من أهل التفريط الذين يتقدمون بضع خطوات في الحق ثم تحول أهوائهم وضعفهم دون مواصلة الطريق.

والطائفة الثالثة الملازمة للحق التي لا تتقدم عليه ولا تتخلف عنه؛ فهي تتحرك دائماً في ضل الحق حتى تبلغ أهدافها. [٤٧٥]

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٣٤

ثم قال عليه السلام:

«دليلها مكيب [٤٧٦] الكلام، بطيء القيام، سريع إذا قام».

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل المراد بالدليل في العبارة حامل الرايه؟ أم الشخص الذي يتحرك في مقدمه العسكر والعارف

بالطريق الذي يهدى الآخرين إلى جادة الصواب؟

يبدو الاحتمال الأول هو الاقوى، لأن حامل الرايه ينهض بمسؤولية الهداية أيضاً، والعسكر مكلف باتباعه أينما حل.

على كل حال فقد صرح أغلب شراح نهج البلاغة أن المراد به شخص أمير المؤمنين عليه السلام أو جميع أهل البيت عليهم السلام؛

فقد قرنوا عليه السلام - حسب حديث الثقلين - بالقرآن وأنهم لن يفترقوا عنه أبداً، حيث جاء في الحديث:

«إني تارك فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي وقد نبأني اللطيف الخبير أنها لن يفترقا

حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما».

وأمر المؤمنين على عليه السلام من قال له رسول الله صلى الله عليه وآله حسب مصادر الفريقين:

«انت مع الحق والحق معك حيثما دار» [٤٧٧].

فقد كان عليه السلام القرآن الناطق ومبين سنة رسول الله صلى الله عليه وآله.

والعبارة

«مكيث الكلام»

لا تعنى أنه قليل الكلام؛ بل تعنى تريثه فى الكلام، وعبارة اخرى أنه رزين فى كلامه فلا يبادر من غير روية. والعبارة

«بطيئى القيام، سريع إذا قام»

تأكيد لهذا المعنى وهو أن أعماله هى الاخرى رزينه كأقواله، فلا يعجل فى قيامه بالأعمال، ولكن إذا حان العمل لم يفوت الفرصة، فيقدم عليه بكل صرامة دون أدنى ترديد. والحق أن من عرف

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٣٥

سيرة أمير المؤمنين على عليه السلام يدعن بهذه الصفات التى انطوت عليها شخصيته. فقد تواتر عليه بعض الأفراد بعد رحيل النبى صلى الله عليه وآله وناشدوه القيام؛ إلا أنه لم يجبههم بسبب عدم توفر الشرائط اللازمة إلى جانب خشيته من الأعداء المتربصين بالإسلام، بينما نهض بالأمر لما تغيرت الظروف.

وهناك شواهد اخرى كثيرة وردت فى كلماته عليه السلام بهذا الشأن [٤٧٨].

ثم قال عليه السلام:

«فاذا أنتم ألتتم له رقابكم، وأشرتم إليه باصابعكم، جاءه الموت فذهب به».

إشارة إلى أنه يعانى الأمرين حتى يجمعكم تحت رايته، وتسلمون لإمامته بحيث تشيرون إليه من كل جانب، ولكن ما أن تتمهد مقومات الاتحاد وعناصر النصر والغلبة حتى تأخذه يد القدر منكم فتتفرقون ثانية ويتسلط عليكم الأعداء.

ولعل العبارة إشارة لما أوردناه سابقاً فى سند الخطبة فى أن الناس اجتمعوا على الإمام عليه السلام فى الشهر الذى قتل فيه بحيث اجتمع له مائة الف سيف، عقد كل عشرة الآف لرجل، فخرج عليه السلام يريد الشام، فحال ابن ملجم بينه وبين ذلك. إلا أن بعض شراح نهج البلاغة فسروها بعصره عليه السلام، إلا أن هذا التفسير يبدو بعيداً، وذلك لأن العبارات قبل هذه الجملة تفيد خلاف هذا المعنى، ولا سيما أن الخطبة بعد خلافة عليه السلام وفيها اشارات إلى المستقبل.

ثم حاول الإمام عليه السلام الحيلولة دون شعور أصحابه باليأس، فبشرهم بالنصر القادم قائلاً:

«فلبثتم بعده ماشاء الله حتى يطلع الله لكم من يجمعكم، ويضم شركم».

أما من المقصود بهذا القيام؟ فقد أورد الشراح احتمالين: أحدهما: أن يكون المراد قيام الإمام المهدي عليه السلام، والآخر قيام بنى العباس الذى أنهى حكمه بنى أمية واجتث جذور ظلمهم وفسادهم، وان ما رسوا بدورهم نوعاً آخر من الجرائم والجنایات. ويبدو الاحتمال الأول أنسب، فلم تكن لبنى العباس مثل هذه الجدارة فى عباراته عليه السلام، كما لم تكن جنایاتهم بحق شيعة على عليه السلام وأهل العراق بأقل من جنایات بنى أمية. أضف إلى ذلك فالكلام فى رافع راية

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٣٦

الحق، ومن المسلم به أن راية بنى العباس كانت باطلة.

كما قيل فى تفسير العبارة المذكورة أن المراد بذلك الاجتماع لأصحابه هو الاجتماع الفكرى والثقافى إلى جانب الاجتماع السياسى والعسكرى، وهو المعنى الذى تحقق على عهد الإمام الباقر والصادق والرضا عليه السلام، والعبارات الأخيرة من الخطبة إنما تؤيد هذا المعنى.

إلما أن هذا الاحتمال يبدو مستبعداً بالنظر إلى عدم انسجام هذا التفسير مع العبارات السابقة التى أشارت إلى الاجتماع السياسى والعسكرى. ولكن على كل حال، فالهدف من هذه العبارة نفى ما يسيطر على الأفكار عادة بعد الهزيمة وهو اليأس والتشاؤم. فوصفها بأنها أمواج عابرة وهالك المستقبل المشرق الذى ينتظر المجتمع الإسلامى. و من هنا ذكر ما يؤيد ذلك.

ثم قال عليه السلام:

«فلا تطمعوا في غير مقبل، ولا تيأسوا من مدبر، فإنّ المدبر عسى أن تنزل به إحدى قائمته، وتثبت الاخرى فترجعا حتى تثبتا جميعاً». قالوا: هو أنّ الإمام عليه السلام بين قاعدتين كليتين لا بدّ من الاهتمام بهما في الحوادث الصعبة: الاولى لا ينبغي التفاؤل المفرط في مثل هذه الحالات والاعتماد على شيء لم تتوفر بعد مقدماته. الثانية: ألا تدعو الهزيمة إلى اليأس والقنوط - فيشبه الإمام عليه السلام ذلك بمن يتحرك في جادة فتزل إحدى قدميه، فيظن الناس أنّه سقط ولا سبيل إلى قيامه ثانية، إلّا أنّه سرعان ما يعتمد على قدمه الاخرى فينهض من سقطته ويجد في الحركة ثانية. بناءً على هذا لا ينبغي اليأس عند الحوادث الاجتماعية الصعبة والاستسلام لمعاناتها، كما لا ينبغي التعلق بالحركات الطائشة. وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنّ سائر الأئمة عليه السلام غير الإمام المهدي عليه السلام هم المرادون بقوله «غير مقبل»، وأنّ قوله عليه السلام لا تطمعوا في غير مقبل، إشارة إلى الشرائط اللازمة لقيامهم عليه السلام ليست متوفرة، ومدبر إشارة إلى الإمام المهدي عليه السلام فلا ينبغي اليأس من ظهوره في أي زمان.

إلّا أنّ هذا التفسير لا ينسجم قط والعبارات في آخر هذا المقطع من الخطبة؛ لأنّ زلل القدم

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٣٧

والاعتماد على الاخرى لا ينطبق عليه عليه السلام إلّا بتكلف شديد.

اضافة إلى أنّ التعبير بمقبل ومدبر بصيغة التنكير يدل على أنّ المراد بيان قاعدة كلية، لا الإشارة إلى مصداق شخصي، وإلّا كان من المناسب تحليلتها بالالف واللام.

تأملان

١- أولياء الله

إنّ الخصائص التي ذكرها الإمام عليه السلام بحقه بصورة غير مباشرة في العبارة المذكورة، هي في الواقع إشارة إلى الصفات التي ينبغي أن يشتمل عليها كل زعيم رباني مدير ومدبر:

الأول: لا بدّ أن يكون رزيناً في كلامه إلى جانب التريث والتروي قبل المبادرة. كما ورد ذلك في ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله

«لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه». [٤٧٩]

فالعاقل يفكر أولاً ثم يتكلم، أمّا الأحمق فهو يتكلم ثم يفكر.

الثاني: أعماله هي الاخرى رزينه كأقواله، فهو يفكر في عواقب العمل، فإذا احاط به وعرفه أقدم عليه دون تردد - فقد جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن يك خيراً ورشداً فاتبعه، وإن يك غياً فاجتنبه» [٤٨٠].

٢- الفشل قنطرة النجاح

هناك من يشعر باليأس لأدنى حادثه صعبه، فيما رس بعض ردود الفعل الساذجة، ومثل هذا اليأس يحول دون القيام بالأنشطة

والمواقف المطلوبة مستقبلاً؛ الأنشطة التي قد تحيل النشل نجاحاً والهزيمة نصراً. والاتفات إلى أمرين مهمين أوردهما الإمام عليه السلام في الخطبة من شأنه أن يعالج هذه المواقف السلبية.

الأول: إجتنا الاستعجال في الأعمال والتعويل على مالم تتوفر مقدماته، الثاني: عدم

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٣٨

اليأس من جراء بعض الاخفاقات المرحلية؛ لأنّ الاخفاق يتحول إلى نجاح بالتجارب.

أضف إلى ذلك فإنّ الألفاظ الإلهية قد تشمل الإنسان وتهمد له كل أسباب النجاح ومقومات النصر. فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام طبق رواية الشيخ الصدوق في الامالي أنه قال

«كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو»

، ثم يوضح ذلك عليه السلام بذكر ثلاثة نماذج رائعة بقوله أن موسى بن عمران خرج يلتمس لاهله ناراً فعاد نبياً، كما قدمت ملكة سبأ للقاء نبي الله سليمان عليه السلام فأسلمت وآمنت، كما خرج السحرة يبغون العزة لفرعون فانقلبوا مؤمنين بالله وبموسى عليه

السلام. [٤٨١]

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٣٩

القسم الثاني: هدى آل محمد صلى الله عليه وآله

إشارة

«أَلَمْ يَنْ مَثَلِ آلِ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ، إِذَا حَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلْتُمْ مِنَ اللَّهِ فِيكُمْ الصَّنَائِعُ، وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمَلُونَ».

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام كافة الناس في آخر الخطبة داعياً إياهم إلى الحركة خلف آل النبي صلى الله عليه وآله بصفتهم الكواكب الزاهرة، وكلما غاب كوكب خلفه آخر

«ألا إن مثل آل محمد صلى الله عليه وآله كمثل نجوم السماء، إذا حوى نجم طلع نجم» [٤٨٢] نجم طلع نجم».

ثم قال عليه السلام:

«فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع [٤٨٣]، وأراكم ما كنتم تأملون»،

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيرة إلى عدة أمور: منها أن آل محمد صلى الله عليه وآله كالنجوم التي قال بشأنها الحكيم في كتابه الكريم:

«وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» [٤٨٤]

، كما قال في موضع آخر:

«وَهُوَ

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» [٤٨٥]

فالقوافل كانت تهتدى في الصحارى والبحار في الليالي الظلماء بنجوم السموات، حيث لم يخترع آنذاك البوصلة، كما لم تكن الطرق معبدة بالشكل الذي هي عليه اليوم.

فالنجاه في الدنيا والآخرة ونيل السعادة إنما تتحقق في ظل هدى آل محمد صلى الله عليه وآله والأمر الآخر أن السماء لا تخلو لياليها

من النجوم، فاذا غابت نجمة، أشرقت اخرى في أفقها؛ وهكذا

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٤٠

أهل البيت عليه السلام إذا رحل امام خلفه آخر حتى يقوم آخرهم المهدي عليه السلام فيملاً الدنيا قسطاً وعدلاً، فالعبارة تفيد اتصال سلسلة الإمامة التي تأتي القطع. بعبارة اخرى فإن الأرض لا تخلو من حجة الله. والعجيب ما أورده بعض شراح نهج البلاغة كابن أبي الحديد حين بلغ العبارة المذكورة اذ قال: وهذا إشارة إلى المهدي الذي يظهر في آخر الوقت، وعند أصحابنا أنه غير موجود الان وسيوجد ويملاً الأرض قسطاً وعدلاً.

ولو أمعن هذا القائل في العبارات التي وردت في ذيل الخطبة لوقف على خطأه في ما ذهب إليه؛ ولكن للأسف! فإن التعصب قد لا يسمح أحياناً بان يلتفت الإنسان إلى القرائن الواضحة.

وأخيراً قال الإمام عليه السلام بأن اتباع أهل البيت عليه السلام يؤدي إلى نيل كافة الأمانى وبلوغ جميع النعم، وهذا ما يكشف بدوره عن دور أهل البيت في التكامل الديني والديني في كافة الأزمنة، وماذهب إليه بعض الشراح من أنه إشارة إلى زمان ظهور الإمام المهدي عليه السلام فهو كلام يفتقر إلى الدليل.

كما يكمن ان يكون المراد بالعبارة هو أن الإمام عليه السلام قال: إن الله سبحانه وفرّ لكم كل أسباب السعادة ومنها وجود آل محمد صلى الله عليه وآله.

تأملان

١- حديث النجوم

ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبة شأن آل محمد صلى الله عليه وآله وتشبيهم بنجوم السماء، هو في الواقع اقتباس من الحديث النبوي المعروف الذي قال فيه صلى الله عليه وآله:

«النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف».

رواه الحاكم النيشابوري من علماء العامة في كتاب المستدرک عن ابن عباس وقال:

«هذا حديث صحيح الاسناد» [٤٨٦].

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٤١

كما رواه عدد من محدثي العامة ومنهم الحمويني في فرائد السمطين وابن حجر في الصواعق ومحمد بن صبان في اسعاف الراغبين وغيرهم [٤٨٧] وقد أفرد المرحوم العلامة المجلسي في بحث الإمامة من كتابه بحار الانوار عنواناً أسماه:

«إنهم أمان لأهل الأرض من العذاب»

، وقد نقل فيه عدة أحاديث عن طرق أهل البيت، كما صرح قائلاً: رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن النبي صلى الله عليه وآله [٤٨٨] ومن الواضح أن تشبيه أهل البيت عليه السلام بالنجوم يدل على ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبة أيضاً بدليل الدلالة الالتزامية، لأن طبيعة نجوم السماء بهذه الشاكلة إذا غرب أحدها في أفق المغرب، طلع الآخر في أفق المشرق - أضف إلى ذلك فان التعبير بأمتي تفيد أن جميع أمة النبي صلى الله عليه وآله على طول الزمان يمكنها أن تهتدي بأهل البيت عليه السلام، وبالنتيجة فانه سيكون هناك إماماً على الدوام من أهل البيت عليه السلام في الامّة.

٢- آخر مراحل تكامل النعم الإلهية

هذه النقطة جديرة بالالتفات أيضاً وهي أن تكامل النعم الإلهية في ظل أهل البيت عليه السلام سيكون في كل زمان، إلا أن ذروة كما لها ستكون في عصر ظهر الإمام المهدي عليه السلام أرواحنا فداه.

فقد نقل المرحوم ابن ميثم حديثاً في شرح هذه الخطبة وقال: رأيت حديثاً للإمام عليه السلام يمكنه أن يوضح هذه الخطبة: «يا قوم اعلّموا علماً يقيناً، إن الذي يستقبل قائماً من أمر جاهليّكم ليس بدون ما استقبل الرسول من أمر جاهليّكم... ولعمري لينزعن عنكم قضاء السوء، وليقبضن عنكم المراضين (المرائين) وليعزلن عنكم أمراء الجور، وليطهرن الأرض من كل غاش، وليعملن فيكم بالعدل، وليقومن فيكم بالقسطاس المستقيم». [٤٨٩]

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٤٣

الخطبة [٤٩٠] المائة وواحد

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام وهي إحدى الخطب المشتملة على الملاحم

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة كما ينهم من عنوانها تتحدث بصورة رئيسية عن الحوادث القادمة، والأخطار التي تهدد المسلمين، خاصة أهل العراق. إلا أنها تتناول أمرين قبل ذلك: الأول: حمد الله والثناء عليه والشهادة له بالوحدانية مع ذكر بعض الأمور. والثاني: الاعراب عن القلق من بعض من يسمع كلمات الإمام عليه السلام واخباراته على سبيل الشك والترديد.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٤٥

القسم الأول: الشهادة المطلقة

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ، وَالْآخِرِ، بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ، وَبِأَوْلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا أَوَّلَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السُّرُّ الْإِعْلَانِ، وَالْقَلْبُ اللَّسَانَ».

الشرح والتفسير

استهل عليه السلام هذه الخطبة كسائر الخطب بحمد الله والثناء عليه والشهادة له بالوحدانية، ثم تطرق إلى ذكر صفات الحق سبحانه: «الحمد لله الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر».

فالإمام عليه السلام انطلق هنا نحو أزلية الله وأبديته سبحانه التي تعد من أهم صفاته وتعود إليها سائر الصفات؛ وذلك لأننا قلنا في بحث الصفات: أن أساس صفاته الجمالية والجلالية عدم تناهي ذاته المقدسة من جميع الجهات، والأزلية والأبدية هي بيان آخر لعدم محدودية تلك الذات المقدسة.

ثم خاض عليه السلام في بيان الدليل أو وضع ذلك بقوله

«وبأوليته وجب أن لا أول له، وبآخريته وجب أن لا آخر له».

فالعبارة تشتمل على نقطة لطيفة وهي أن أوليته سبحانه وتعالى ليست أولية زمانية، بل أولية ذاتية وبمعنى الأزلية، ومن الواضح أن الذاتي الذي هو أزلي ليس له من أولية زمانية.

وكذلك آخريته هي الآخرة ذاتية، لا زمانية وبمعنى الأبدية، وما كان أبدياً فلا آخر زمانى له.

وقد أورد بعض شراح نهج البلاغة احتمالات أخرى في تفسير هذه العبارة لا تنسجم وسائر عبارات الإمام عليه السلام.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٤٦

ثم شهد الله بالوحدانية والعبودية له على مستوى اللسان والقلب:

«وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة يوافق فيها السر الاعلان، والقلب اللسان».

فالعبارة تفيد ان الشهادة المطلوبة التي تشمل تمام وجود الإنسان والكيان والتي ينسجم فيها الظاهر والباطن والقلب واللسان.

فالأعم الأغلب يشهد بالوحدانية لساناً، بينما يعيش الوثنية والصنمية في قلبه. وكذلك الكثير ممن يشهد قلباً بهذه الوجدانية، بينما تخالط الشرك أعمالهم وأفعالهم. فهم يسجدون للمال والمقام ويركعون أمام الشهوات؛ بينما قد يرددون صباح مساء على ألسنتهم أو قلوبهم

«لا إله إلا أنت»

، ونعلم أن كل هذا من شعب النفاق، ومثل هؤلاء الأفراد بحق في زمرة المنافقين.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٤٧

القسم الثاني: الحق ما أقول

«أَيُّهَا النَّاسُ، لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي، وَلَا يَشْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي، وَلَا تَتَرَامُوا بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَشْمَعُونَهُ مِنِّي. فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسْمَةَ، إِنَّ الَّذِي أُبْتِكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ، وَلَا جَهْلَ السَّامِعُ».

الشرح والتفسير

مهد الإمام عليه السلام في الواقع بكلامه ما أراد أن يورده هنا في إمطة اللثام عن بعض الحوادث الآتية هو عين اليقين والحق الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ولا سبيل إلى مخالفته. وتفيد هذه العبارات أن الإمام عليه السلام قد أخبر سابقاً عن بعض الحوادث فانكرها عليه بعض المنافقين أضعاف الإيمان. فو عظمهم عليه السلام بأن عدائي ومخالفتمكم لى لا تدفعكم إلى مقارفة الذنب، ولا ينبغي أن تسوقكم معصيتكم لى إلى اتباع هوى أنفسكم، فاذا سمعتم ما أقول أنكرتم على

«أيها الناس لا يجرمنكم [٤٩١] شقاي [٤٩٢]، ولا يشتهو ينكم [٤٩٣] عصياني، ولا تتراموا بالأبصار،

عند ما تسمعونه منى».

ومراد عليه السلام أن الحقد والحسد والضغينة تسوق الإنسان فى أغلب الأحيان إلى ارتكاب الذنب والمعصية، فتكون حجاباً على بصره لتمنعه عن رؤية الحقائق.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٤٨

ثم قال عليه السلام:

«فو الذى فلق [٤٩٤] الحبة وبرأ [٤٩٥] النسمة [٤٩٦] إن الذى أنبتكم به عن النبى الامى [٤٩٧]

صلى الله عليه وآله، ما كذب المبلغ، ولا جهل السامع»

والعبارة التي صدرت بالقسم لمن ابداعات أمير المؤمنين عليه السلام التي ذكرت لمرات فى خطب نهج البلاغة، حيث يشير إلى نقطة مهمة وهي أن أهم وأعقد مسألة فى نظام عالم الوجود هي مسألة الحياة؛ سواء فى عالم النباتات أوفى عالم البشرية، ورغم الجهود

المضنية التي بذلها الإنسان في هذا المجال، مازالت هنالك الأسرار التي تخترنها هذه الحياة لم تكتشف بعد. وبناءً على هذا فإن الحياة رائعة الخلق و هو الشيء الذي يربطنا تأمله بالله و يدل على أن هذه الظاهرة العجيبة ليست بالشيء الذي انبثق دون علم الله وقدرته، فالاستفادة من هذه الأوصاف حين القسم تجسد مفهومًا بارزاً في الأذهان.

على كل حال فإن هدف الإمام عليه السلام طمأنته مخاطبيه إلى أن مايقوله بشأن الحوادث المستقبلية لا يستند إلى الحدس والتخمين، ولا- من قبيل نبوءات الكهنة، بل هو واقع وحق سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وليس الإمام عليه السلام من يخطيء في إدراك كلام النبي صلى الله عليه وآله. وعليه فما يقوله هو عين الحقيقة والصواب، واطلاعهم على هذه الأحداث من سبيله الحد من أخطارها.

فقد ورد في الخبر حين نزلت الآية الشريفة:

«وَتَعِيهَا أَدُنُّ وَعَايَةُ» [٤٩٨].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام

: «سألت الله تعالى أن يجعلها أذنك يا على! قال عليه السلام فما نسيت شيئاً بعد ذلك» [٤٩٩].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٤٩

القسم الثالث: فتنة ضليل الشام

إشارة

«لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضَلِيلٍ قَدْ نَعَى بِالشَّامِ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ، فَإِذَا فَعَرَّتْ فَاعْرِتُهُ، وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ، وَثَقَلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطَاتُهُ، عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْبَابِهَا، وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا، وَبَدَأَ مِنَ الْأَيَّامِ كُلُّوْحُهَا، وَمِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا. فَإِذَا أَيْتَعَ زَرْعُهُ، وَقَامَ عَلَى يَنْعِهِ، وَهَيَّرَتْ شَقَابَتُهُ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ، عَقَدَتْ رَايَاتِ الْفِتَنِ الْمُعْضَلَةَ، وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَمِطِ. هَذَا، وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ، وَيُحْصَدُ الْقَائِمُ، وَيُحْطَمُ الْمَحْصُودُ!».

الشرح والتفسير

كشف الإمام عليه السلام في هذا الكلام- الذي يمثل في الواقع جوهر الخطبة- النقاب عن الحوادث المستقبلية الخطيرة التي تنتظر

أهل العراق، ثم يشرح عليه السلام بعض تفاصيل جزئيات هذه الحوادث المروعة، بغية أعداد الامة للحد من أخطارها:

«لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضَلِيلٍ [٥٠٠] قَدْ نَعَى [٥٠١]

بالشام، وفحص [٥٠٢] برآياته في ضواحي كوفان» [٥٠٣].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٥٠

ثم خاض في توضيح هذه الفاجعة الكبرى

«إِذَا فَعَرَّتْ [٥٠٤] فَاعْرِتُهُ، وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ [٥٠٥]

وثقلت في الأرض وطأته، عضت الفتنة أبناءها بانباها، وماجت الحرب بامواجها، وبدا من الايام كلوحها [٥٠٦]، ومن الليالي

كدوحها [٥٠٧]».

هناك قولان رئيسيان لشراح نهج البلاغة في المراد بالضليل في عبارة الإمام عليه السلام:

الأول: أن يكون المراد به معاوية الذي أحكم قبضته على العراق بعد شهادة أميرالمؤمنين على عليه السلام وصلحه مع الإمام الحسن

عليه السلام، وقد نفذ كل ماورد في العبارة عملياً، والثاني: أن يكون المراد به عبدالملك بن مروان الذي سلب ذلك المجرم المعروف

الحجاج على الكوفة فسام الناس سوء العذاب وجرعهم أنواع الظلم، ومهما كان فالعبارة إشارة إلى الطغاة من حكام بنى أمية.
والعبارة

: «عضت الفتنة أبناءها بأنيابها»

إشارة إلى أن هذه الفتن ستطيل حتى أولئك الذين يثيرونها! فعادة ماتعصف بهم الاختلافات الداخلية، أو أن يتسلط عليهم أعداؤهم فيذيقونهم أشد العذاب.

ثم قال عليه السلام

: «فاذا أبيع زرعه وقام على ينعه [٥٠٨]، وهدرت شقاشقه [٥٠٩]، وبرقت بوارقه،

عقدت رايات الفتن المعضلة، وأقبلن كالليل المظلم، والبحر الملتطم».

فى إشارة إلى أن حكومة هؤلاء لن تدوم، كما لن يلتذ هؤلاء الضلال الظلمة بفتنهم، وسرعان ما تحيط بهم رايات المخالفين. ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى قيام بنى العباس ضد بنى أمية.

ثم اختتم عليه السلام الخطبة بالقول:

«هذا، وكم يخرق الكوفة من قاصف، ويمر عليها من

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٥١

عاصف، وعن قليل تلتف القرون بالقرون، ويحصد القائم، ويحطم المحصود».

والعجيب أن ما تكهن به الإمام عليه السلام فى هذه العبارات القصار قد وقع سريعاً، فقد طحنت الكوفة بفتن بنى أمية ومن بعدهم بنى العباس؛ لتصبح هذه المنطقة مركزاً للمختلف الحوادث العنيفة، وكل من كان له أدنى المام بتاريخ الكوفة يدرك بسهولة عمق كلمات الإمام عليه السلام التى أوردها فى هذه الخطبة.

والعبارة:

«تلتف القرون بالقرون»

إشارة إلى الحروب الطاحنة التى خاضها مختلف الأقسام فى العراق والكوفة، ولاسيما حروب بنى أمية وبنى العباس.

والعبارة:

«يحصد القائم، ويحطم المحصود»

كناية لطيفة عن الاضرار والخسائر التى تلحق بالامة طيلة هذه الحوادث. فمن كان قائماً صرع، و من كان مصروعاً تحطم.

أما ابن أبى الحديد فقد قال فى شرحه للعبارة:

«يحصد القائم»

كناية عن قتل أمراء بنى أمية فى الحرب و

«يحطم المحصود»

كناية عن قتل المأسورين منهم صبراً، وهكذا وقعت الحال.

والحق أن ما ذكره ابن أبى الحديد هو بعض مصاديق المفهوم الواسع للعبارة المذكورة.

تأملان

ملاحم جمع ملحمة تعنى فى الأصل الواقعة المهمة المقرونة بالفتنة، وقد طالعنا أغلب خطب نهج البلاغة فى بعض الموارد التى يتحدث فيها أميرالمومنين على عليه السلام عن الفتن المهمة التى تنتظر الناس، ثم يشرح جزئياتها، ويعلن صراحة أنه سمع ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله. ويبدو أن الإمام عليه السلام يهدف شيئين من هذه الأخبار: الأول: حب الإمام عليه السلام للناس الذى يدفعه لاخبارهم بغية تاهبهم واستعدادهم ليحذروا من أخطار هذه الفتن؛ بالضبط كمن يخبر الآخرين قبل وقوع الزلزال أو السيل؛ وان تعذر منعها، إلّا أنّ العلم المسبق يحد من هذه الاخطار، الثانى: افهامهم أنّ التوانى عن الجهاد والضعف والاختلاف إنّما يقود إلى مثل هذه الحوادث، عليهم فييقون إلى أنفسهم فيتوبون وينيبون إلى الله. وسنبحث نظير هذه الامور فى شرحنا للخطب ١٢٨ و ١٣٨ من هذه الكتاب.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٥٢

٢- الكوفة مركز الازمات والعواصف

لاشك أن من له أدنى معلومات مختصرة بتاريخ الكوفة، ليعلم أنّ الكوفة من المناطق التى شهدت أقسى الأحداث وأخطرها طيلة التاريخ الإسلامى. بعبارة أخرى فان الكوفة كانت مسرحاً لاحداث دامية، وجرائم وجنایات بشعة مارستها بحقها طغاة بنى أمية وبنى العباس، بما يندى لها جبين البشرية حين يتصفح التاريخ. هذا وقد أوردنا شرحاً مفصلاً فى الخطبة ٢٥ و ٤٧ من المجلد الثانى والخطبة ٨٧ من المجلد الثالث بشأن الحوادث البشعة التى تعرضت لها الكوفة، ولا نرى من ضرورة لإعادتها.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٥٣

الخطبة [٥١٠] المائة واثنان

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام تجرى هذا المجرى وفيها ذكر يوم القيامة وأحوال الناس المقبلة

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من قسمين:

القسم الأول: وهو قصير، إشارة إلى الحوادث الصعبة ويوم القيامة، الذى يجمع الله فيه الاولين والآخرين للحساب والثواب والعقاب القسم الثانى: إشارة إلى الفتن المرعبة التى تهجم على الناس كقطع الليل المظلم فتضيق الخناق على الناس، حتى يهب لها جماعة من المجاهدين. ثم يركز الإمام عليه السلام فى كلامه على البصرة التى ستكون مسرحاً لهذه الفتن.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٥٥

القسم الأول: هول المحشر

«وَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِنِقَاشِ الْحِسَابِ، وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ، خُضُوعًا، قِيَامًا، قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ،

فَأَحْسَنُهُمْ حَالًا مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعًا، وَلِنَفْسِهِ مَتَسَعًا».

الشرح والتفسير

كما أوردنا سابقاً أن الإمام عليه السلام أشار في القسم الأول من الخطبة إلى وضع الناس في يوم القيامة بعبارات قصار مؤثرة وقد ذكر المميزات المهولة لذلك اليوم.

فقد قال عليه السلام:

«وذلك يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين لنقاش الحساب، وجزاء الاعمال، خضوعاً قياماً».

فالعبرة

«الأولين» و «الآخرين»

تشير إلى حقيقة وهي أن القيامة والحساب يشمل جميع الناس في يوم واحد، كما ورد ذلك في القرآن الكريم «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا» [٥١١]. وورد في موضع آخر: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ» [٥١٢].

والتعبير بالنقاش يفيد الدقة في الحساب حيث تخضع أصغر الأعمال ذلك اليوم للحساب فيعاقب الإنسان أو يثاب عليه. والتعبير بالخضوع والقيام إشارة إلى أن الناس يوم القيامة كمثل من يحضر في المحكمة ويمثل بين يدي القاضي العادل، حيث تظهر عليه آثار الخوف والخشية.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٥٦

وقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى هذه المعاني، ومن ذلك الآية الشريفة: «حُشْعًا أَبْصَارُهُمْ...» [٥١٣] والآية «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» [٥١٤].

ثم قال عليه السلام:

«قد الجهم العرق، ور جفت [٥١٥] بهم الأرض».

فهل هذا العرق بسبب حرارة محيط المحشر، أم من شدة الخجل، أم كلاهما؟ وهل رجف الأرض بسبب أعمالهم، أم هكذا هي طبيعة محكمة العدل الإلهي، بحيث ينشغل الجميع بأنفسهم ويعترفوا بكل ما اقترفوا؟

كيفما كان فالاجواء هناك مرعبة مهولة للغاية.

وقد صرحت الآيات والروايات الإسلامية بالعوامل التي تدعو إلى الخوف والخشية في ذلك اليوم (نسأل الله أن يشملنا جميعاً برحمته وألطافه ويجنبنا هلع ذلك اليوم).

وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغة - كدينهم في سائر الموارد - إلى أن الألفاظ المذكورة كناية عن الامور الباطنية والروحية، والحال ليست هناك آية قرينة تدعو إلى مثل هذا التأويل - ولو فتح الباب لمثل هذه التأويلات بشأن الآيات والروايات وباب التفسير بالرأى وأن يسطر الإنسان كل ما يفهمه من الآية والرواية، أو الاسلوب الذي يعتمد به بعض من يتسمى بالانفتاحي والذي يكمن في القراءات الجديدة للآيات والروايات، فمن المسلم به لسوف تزول إصالة المتون الدينية، ولا يبقى من شيء للاستدلال بالمسائل العقائدية والعلمية.

ثم أشار عليه السلام في ختام هذا القسم من الخطبة إلى معضلة اخرى من معضلات القيامة:

«فأحسنهم حالاً من وجد لقدميه موضعاً، ولنفسه متسعاً».

فالعبرة تشير إلى زحام الناس وضيق المكان، حيث يفهم من الروايات أن هول المحشر ووحشة حساب الأعمال مسألة عامة تشمل كافة أهل المحشر؛ وذلك لأن خلص عباد الله أيضاً يخشون الحساب! فهول المحشر عدة عوامل، يكمن أحدها في ضيق المكان الذي ورد في هذه العبارة.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٥٧

القسم الثاني: فتنة البصرة

ومنها:

«فَتَنَ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، لَاتَقُومَ لَهَا قَائِمَةٌ، وَلَا تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةٌ مَرْحُومَةٌ: يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا، وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا، أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلْبُهُمْ، قَلِيلٌ سَلْبُهُمْ، يُجَاهِدُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَوْمٌ أَذَلُّهُ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرِينَ، فِي الْأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وَفِي السَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ. فَوَيْلٌ لَكَ يَا بَصِيرَةً عِنْدَ ذَلِكَ، مِنْ جَيْشٍ مَنْ نَقِمَ اللَّهُ! لَا رَهَجَ لَهُ، وَلَا حَسَّ، وَسَيِّئَتَلَى أَهْلُكَ بِالْمَوْتِ الْأَحْمَرِ، وَالْجُوعِ الْأَغْبَرِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الكلام من الخطبة إلى فتنة أخرى تنتظر أهل العراق ولا سيما البصرة، لعل الامة تستعد للدفاع وتقلل من خسائرها في هذه الفتنة، وكذلك تخشى العقاب الإلهي الذي يتمثل أحياناً بظهور الفتن فلا تحيد عن الطريق وتلتزم بدينها. فقد وصف عليه السلام هذه الفتن بأنها كقطع [٥١٦] الليل المظلم، والتي لا يسع أحد الوقوف برجها والتغلب عليها «فتن قطع

الليل المظلم، لا تقوم لها قائمة، ولا ترد لها راية».

في إشارة إلى أن مثيرى هذه الفتن يردون الميدان بكل قوة واقتدار فيأتون على كل ما يقف في طريقهم.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٥٨

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بتشبيه هذه الفتن بالناقه التي وضع عليها رجلها ويسوقها سائقها بسرعة: «تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةٌ [٥١٧] مَرْحُومَةٌ [٥١٨] يَحْفِزُهَا [٥١٩] قَائِدُهَا، وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا».

ثم أشار عليه السلام إلى شدة هذه الفتنة وجسامه خسائرها بعد أن شبهها بالناقه المعدة للركوب وقد استسلمت لراكبها بعبارة أخرى فإن كل شيء جاهز للفتنة بحيث تكون ضربة أصحابها غاية في الشدة و تلفاتها قليلة: «أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلْبُهُمْ [٥٢٠] وَقَلِيلٌ سَلْبُهُمْ [٥٢١]».

فالإمام عليه السلام بين خصائص هؤلاء القوم الذين يقتحمون الميدان بكامل العدة والعدد، وسنرى لاحقاً ومن خلال ما ورد في التواريخ من تنطبق عليه هذه الأوصاف.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمّة وهي عدم تداوم هذه الفتنة لمدة طويلة، حيث يتصدى لها طائفة من أولياء الله فيهبون للوقوف بوجه أصحاب هذه الفتن (ويقضون عليهم)، ثم وصف هذه الطائفة بأنها ذليلة لدى المتكبرين، فهي ليست معروفة في الأرض، لكنها معروفة في السماء:

«يَجَاهِدُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَوْمٌ أَذَلُّهُ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرِينَ، فِي الْأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وَفِي السَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ».

فهذه الطائفة من أولياء الله ذات المقام الرفيع لديه والشديدة في الجهاد في سبيل الله ستخمد نار الفتنة، كما تفقد هذه الطائفة منزلتها لدى المتكبرين بسبب زهدها في الدنيا وبعدها عن التظاهر والرياء، فهي مجهولة في الأرض بين الناس، بينما معروفة لدى ملائكة السماء الخبيرة بباطن هذا العالم.

أمّا من هم هؤلاء القوم الذين أخبر الإمام عليه السلام عن فتنتهم وفجائهم، ومن هم المجاهدون الذين سيتصدون لهم ويخمدوا نيران الفتنة، فيبدو هنالك اختلاف بين شراح نهج البلاغة بهذا الشأن.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٥٩

فقد ذهب البعض إلى أن المراد بأصحاب الفتن هم أنصار رجل يدعى صاحب الزنج واسمه علي بن محمد وقد نسبوه إلى سلالة النبي

صلى الله عليه وآله (وإن كان هنالك شك في نسبه) حيث يجمع عددا من الزوج حوله ومن هنا لقب بصاحب الزنج. فقد نهض في نصف القرن الثالث وأثار فتنة عظيمة أطراف البصرة، ثم قتل على يد المجاهدين بعد ١٢ سنة من حكومة لتلك المنطقة. كما فسرنا البعض الآخر بفتنة المغول، الذين لم يسيطروا على العراق فحسب، بل سيطروا على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي، ثم تصدى لهم المجاهدون المسلمون بعد مدة طويلة وقضوا عليهم. وأخيرا فسرنا البعض بحوادث آخر الزمان وتعم الفتنة أغلب العالم الإسلامي فلا تقتصر على العراق، ثم يهب لهم جيش الإمام المهدي عليه السلام فيقضى عليهم. ولما كان أغلب شراح نهج البلاغة يرون هذه الخطبة جزءا من الخطبة ١٢٨، لذلك نرجح تناول هذا الموضوع بصورة أعمق حين نخوض في شرح تلك الخطبة.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته مخاطبا البصرة:

«فويل لك يا بصرة عند ذلك، من جيش من نعم الله! لارهج [٥٢٢] له ولا- حس [٥٢٣]، وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر، والجوع الأغبر [٥٢٤].»

والعبارة عند ذلك تشير إلى أن حادثة البصرة ليست حادثة منفصلة، بل البصرة إحدى مراكز الفتنة التي يتعرض أهلها إلى أشد الضربات والعقوبات.

والعبارة نعم الله تفيد أن هذه الفتنة المرعبة جزءا لاعمالهم.

والعبارة لارهج له ولا- حس إشارة إلى الاستعداد التام للقوات المهاجمة بحيث تدخل المدينة وفق خطة دقيقة دون أن تثير بعض الاصوات والجلبة فتسلب زمام المبادرة من الطرف الآخر بحيث لا يبقى أمامه من مجال للمقاومة.

والعبارة الموت الأحمر إشارة إلى عظم المقتلة التي تقع في البصرة، فقد ورد في تاريخ صاحب الزنج أنه قتل ثلاثمئة ألف من الناس حين دخل البصرة. [٥٢٥]

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٦٠

والعبارة الجوع الأغبر إشارة إلى القحط الشديد إثر الحروب والاضطرابات بحيث يشحب وجههم.

وقد صرح بعض المؤرخين بأن الظروف الصعبة جعلتهم يقتلون بعض الحيوانات من قبيل الكلب والقط والفأر يأكلونها، كما كانوا أحيانا يأكلون ميتة الإنسان [٥٢٦].

وقد فسّر بعض شراح نهج البلاغة الموت الأحمر والجوع الأغبر بالطاعون والوباء والغرق أثر السيول وهجوم أمواج البحر، ولا يبدو مثل هذا التفسير مناسباً.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٦١

الخطبة [٥٢٧] المائة و ثلاث

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

في التهيد في الدنيا

نظرة إلى الخطبة

يستفاد من تعبيرات المرحوم السيد الرضى (ره) (منها ومنها) أنه لم يأت يتمام الخطبة هنا، بل اقتطف بعضها كعادته. ويبدو بصورة

عامه أن لهذه الخطبة عدة أهداف: الأول: الحث على الزهد والتقوى والرغبة عن الدنيا. الثاني التفكير والاعتبار والتبصر في الأمور، ثم التعريف بالعالم الحق وبيان اتباع الحق من اتباع الباطل من خلال ذكر الصفات، ثم اختتام الخطبة ببيان محن المؤمنين في آخر الزمان ومصير الإسلام في ظل تلك الشرائط، بغية تأهب المؤمنين والحد من الأضرار على مستوى الإيمان والأخلاق. والخطبة على العموم ارشاد معنوي ومادى للإنسان يجعله يتغلب على ما يواجهه من مشاكل.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٤٣

القسم الأول: الدنيا الفانية

إشارة

«أَيُّهَا النَّاسُ! انظُرُوا إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ الرَّاهِدِينَ فِيهَا، الصَّادِفِينَ عَنْهَا؛ فَإِنَّهَا وَاللَّهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُرِيْلُ الثَّوَابِي السَّاكِنِ، وَتَفْجَعُ الْمُتَرَفِّفَ الْأَمِنَ؛ لَمَّا يَرْجِعُ مِمَّا تَوَلَّى مِنْهَا فَأَذْبَرُ، وَلَمَّا يُدْرَى مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيَنْتَظِرُ. سُيْرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وَجَلَمُدُ الرَّجَالِ فِيهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ، فَلَا يَعْرِئُكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا».

الشرح والتفسير

كما ذكرنا سابقاً فإن الإمام عليه السلام تطرق في هذا الكلام من الخطبة إلى مسألة الزهد في الدنيا الذي يقود إلى كافة الصالحات والفضائل.

فقال عليه السلام:

«أيها الناس! انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها، الصادفين عنها»،

طبعاً لا تعنى هذه العبارة أن الإنسان ينبغي أن يترك الدنيا ويعيش الرهينة فيها، بل الهدف عدم فقدان النفس، وعدم الركون إلى الدنيا والاغترار بها. فقد ثبت بوضوح أن التعلق بالدنيا والاغترار بما لها وجاها ولذاتها يشكل حجاباً على سمع الإنسان وبصره، فيؤدى به إلى مقارفة الذنب والمعصية.

فقد ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«حب الدنيا رأس كل خطيئة» [٥٢٩].

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٤٤

إن الذنب هو المادة التي تفضى إلى كافة الحروب والنزاعات والجنايات وسفك الدماء وما إلى ذلك من انحرافات.

ثم تطرق الإمام عليه السلام بعبارة قصيرة لأدلة اثبات تلك الحقيقة فأوجزها في ستة أدلة:

«فإنها والله عما قليل تزيل الثاوي الساكن».

نعم لا بد لكل إنسان دون استثناء ان يودع يوماً هذا العالم، بعضهم يودع أبكر، والبعض الآخر قليل يتأخر، ولكن لامناص من تذوق هذه المرارة: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» [٥٣١].

والفارق بين ثاوي وساكن هو أن الثاوي تطلق عن من أقام بصورة مستمرة في مكان وقد استقر فيه، وقد يكون الساكن كذلك أو لا يكون، وبناءً على هذا فالشباب الذين يعتقدون باستقرارهم لمدة مديدة في هذه الدنيا معرضون للزوال، وكذلك الكهول يبدو سكنهم مؤقتاً ومحدوداً، فالجميع يسير نحو الفناء والزوال، إلى عالم البقاء والخلود.

ثم قال في الدليل الثاني أن الدنيا تفتح بمصائبها من غرق في النعم واغترابها:

«وتفجع المترف [٥٣٢] الأمن».

نعم بينما ترى هذا الإنسان غارقاً في لذاته ونعمه وإذا نقل إليه خبر موت فلان. وبإلها من عبرة هذه الوفيات المفاجئة، وما أكثرها في هذا الزمان. وبإلها من عبرة أن تراه غارقاً ليلاً في نعمه وملذاته فيصحو صباحاً وقد فقد كل شيء. أما الدليل الثالث والرابع فهو أن ما يذهب من الدنيا لا يعود أبداً، ولا يعلم كيف سيكون المستقبل: «لا يرجع ما تولى منها فأدبر، ولا يدري ما هو آت منها فينتظر».

وبإلها من محنة ألا يعثر الإنسان على ضالته قط، كما يفقد الأمل بالمستقبل! فهو في حسرة دائمة! فلا الشباب يعود إليه، ولا قواه وطاقاته التي ذهبت أدراج الرياح مع تقادم العمر، هذا كله من جانب، ومن جانب آخر فالخوف من المستقبل الغامض الذي يهز كيانه ويؤرق تفكيره ويقض مضجعه.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٦٥

ثم أورد عليه السلام الدليل الخامس والسادس الذي يدعو إلى الزهد في الدنيا وهو أن فرحها مقرون بالحزن وسرورها بالهم وقدره الرجال وقوتهم إلى الضعف والوهن:

«سرورها مثوب بالحزن وجلد [٥٣٣] الرجال فيها إلى الضعف والوهن».

فمشكلة النعم المادية الدنيوية قد أشار إليها الإمام عليه السلام في موضع آخر فقال:

«لاتنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى [٥٣٤]

، على سبيل المثال فالعقيم يتصدع قلبه بفعل عدم وجود الأولاد؛ إلا أن مشكلته قد تحل بأن يمنح الأولاد، فسرعان ما تهجم عليه سائر المشاكل! ليس له ثروة كافية فيؤرقه ألم الفقر والحاجة، فإذا ما أصاب ثروة، واجهته مشاكل الحسد وخيانة الخونة وطمع اللصوص بثروته، حتى يفقد سكينته واستقراره. نعم فسرور الدنيا مشوب بالهم والغم والحزن، وقوة الإنسان آيلة فيها إلى الوهن، وهكذا يخلص الإمام عليه السلام من هذه الأدلة إلى نتيجة مؤداها:

«فلا يغرنكم كثرة ما يعجبكم فيها لقله ما يصحبكم منها».

صحيح أن الدنيا مليئة بمعاني الزينة والجمال والمظاهر الخالية، إلا أنها وعلاوة على استبطانها للمشاكل والمحن، فهي متقلبة سائرة نحو الفناء والزوال. وعليه فلا يجدر بالعاقل الاهتمام بها والركون إليها.

على كل حال فإن أدنى تأمل لهذه الأدلة يكفي لافاقة الغافلين من سباتهم، إلا أن المؤسف هو أن أغلب الناس يبخل على نفسه حتى بتلك اللحظة من التأمل.

تأمل: الزهد في الدنيا

قد يتصور أحياناً بأن مفهوم الزهد هو التخلي التام عن الدنيا، والتفوق في زاوية والابتعاد عن المجتمع، والحال لا ينسجم هذا المعنى والروح الاجتماعية للإسلام؛ الأمر الذي ورد النهي عنه في الروايات الإسلامية.

والحق أن للزهد معنى آخر وهو ترك التعلق المفرط بالدنيا وعدم الوقوع أسيراً في قبضة

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٦٦

زخارفها ومفاتها؛ وبخلافه فإن الإنسان يسير نحو الذنب والخطيئة وبيعه دينه وآخرته بمتاع الدنيا الفاني وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«إن من أعون الاخلاق على الدين، الزهد في الدنيا» [٥٣٥].

وقال الإمام الصادق عليه السلام بهذا الخصوص:

«إذا تخلى المؤمن من الدنيا لسما، ووجد حلاوة حب الله» [٥٣٦]

. وورد في الحديث أن علياً عليه السلام رأى جابر بن عبد الله وهو يتنهد فقال:

«يا

جابر علام تنفسك؟ أعلى الدنيا؟»

قال جابر: بلى.

فتطرق الإمام عليه السلام إلى بيان لذات الدنيا وأنها لا تعدو أن تكون في المأكل أو المشرب أو اللباس الفاخر، أو اللذة الجنسية أو المركب الهنيئ، ثم شرح ذلك قائلاً: فألذ المأكولات العسل وهو بصق من ذبابه، وأحلى المشروبات الماء؟ وكفى باباحته وسياحته على وجه الأرض، وأعلى الملبوسات الديباج وهو من لعاب دودة، وأعلى المنكوحات النساء وهو مبال في مبال، ومثال لمثال، وإنما يراد أحسن ما في المرأة لأقبح ما فيها، وأعلى المركوبات الخيل وهو قوادل، وأجمل المشمومات المسك وهو دم من سره دابه، وأجل المسوعات الغناء والترنم وهو إثم، فما هذه صفته لم يتنفس عليه عاقل.

قال جابر بن عبد الله: فو الله ما خطرت الدنيا بعدها على قلبي [٥٣٧].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٦٧

القسم الثاني: سرعة العمر

إشارة

«رَحِمَ اللهُ امرأَةً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، فَكَانَ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَانَ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقِّعٍ آتٍ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانَ».

الشرح والتفسير

قال عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة- والذي يعتبر في الواقع نتيجة لما تقدم-

«رحم الله امرأ تفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر».

طبعاً مراد الإمام عليه السلام التفكير في مصير الدنيا الذي تطرق إليه سابقاً، فإن مثل هذا التفكير يؤدي إلى الاعتبار واليقظة. ومن الواضح أن من يعتبر ويتعظ يتبصر الأمور ويقف على بواطن الأشياء بدلاً من ظواهرها، ويفكر في المقدمات والنتائج فيلتمس سبيل النجاة في ظل هذا الاعتبار والأبصار. وبعبارة أخرى فإن الإنسان ليتعرف على سلسلة من الحقائق من خلال تأمل حوادث الماضي والحاضر، فيحتذئها في مسيره ليميز الحق من الباطل.

فقد ورد في الحديث أن رجلاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن صحة هذا الخبر

«إن تفكر ساعة خير من قيام ليلة»

، فأجاب عليه السلام: نعم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«تفكر ساعة خير من قيام ليلة».

فسأل الراوى:

«كيف يتفكر؟»

. قال عليه السلام:

«يمر بالدور الخربة، فيقول: أين بانوك؟ أين ساكنوك؟ مالك لا تتكلمين؟» [٥٣٨].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٦٨

ولو كانت له أذن سامعة لسمعها وهي تناديه: لقد ارتحلوا جميعاً بعد أن توسدوا التراب ولم يبق سوى آثارهم. ثم قال عليه السلام:

«فكأن ما هو كائن من الدنيا عن قليل لم يكن، وكأن ما هو كائن من الآخرة عما قليل لم يزل».

أى أن الدنيا لتمضى بسرعة، والآخرة تأتي بسرعة بحيث يتصور الإنسان أنه لم تكن هناك من دنيا، والآخرة هي التي كانت موجودة دائماً.

وقد جربنا هذه المسألة في العديد من حوادث الدنيا؛ فقد نمر أحياناً بدار بعض الاشراف وقد كانت داره تغص بالناس والذهب والاياب، وإذا بها صامتة هادئة وكأن لم تشهد تلك الضجة.

ثم اختتم عليه السلام خطبته بثلاث عبارات غاية في الروعة والدقة، في أن ما كان محدوداً (كساعات عمر الإنسان) فهو إلى انقضاء، وما كان منتظراً فهو إلى قدوم ووقوع، وما كان قريباً فهو حاصل:

«وكل محدود منقض، وكل متوقع آت، وكل آت قريب دان».

فالعبرة الاولى إشارة إلى قاعدة كلية فلسفية في محدودية كل ما دخل تحت العدد، وما كان محدوداً فهو إلى انقضاء، ولما كان عمر الإنسان والدنيا برمتها داخل في العدد والارقام، فلا بد من انتظار انقضائه، والعبارات اللاحقة مكملة لذلك؛ لأن ما نتظره سيأتينا يوماً لا محالة، وما يأتينا ليس ببعيد عنا! وعليه فلا ينبغي الاعتقاد ببعيد الموت وخلود الحياة، والعمر ليس بباقي. و الواقع هو أن هذه العبارات الثلاث بمنزلة الدليل على العبارات السابقة.

تأمل: في الاعتبار

مليئة حياة الإنسان في كل عصر ومصر بالدروس والعبر؛ الدروس التي توقظ القلب وترفع الحجب وتفضح ماهية الحياة الدنيا؛ إلا أن الموسف قلة الاعتبار. فالناس عادة ما تمر مَرَّ الكرام على الحوادث التي من شأنها اثاره الاعتبار لديهم، كما أن تكرارها يدعوهم لاهمالها.

العامل الآخر الذي يقف وراء عدم الاعتبار إنما يكمن في حصر مكاره الدهر في الآخرين،

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٦٩

وكانا بمعزل عن تلك المكاره وأنا مخلدون في هذه الدنيا. ولو كانت هناك بصيرة حقاً فإن كل شيء في الأرض يشتمل على عبرة تدعونا للإعتبار.

جاء في الأخبار أن هارون الرشيد كتب رسالة إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام طلب فيها أن يعظه قائلاً

«عظني وأوجز»

(طبعاً من المستبعد أن يكون مثل هؤلاء الأفراد صادقين وأنهم يطلبون النصح والوعظ والارشاد؛ لأن هذه الامور إنما تكون عادة جزءاً من مخططاتهم السياسية، ليوحوا للآخرين أنا من اهل الوعظ الذي نسأله من ابن رسول الله).

فأجابه عليه السلام:

«ما من شيء تراه عينك ألو فيه موعظة» [٥٣٩].

نعم فالأرض والسماء والكائنات والاشجار والحوادث وأنين المرضى ومشيب الشعر وانحناء الظهر والمقابر والقصور الخاوية للملوك، كلها تغص بالدروس والعبر فالواقع هو أن الإمام عليه السلام اراد أن يقول له لو كان لك عين باصرة لاعتبرت.

فقصور الملوك مملوءة بالعبر، ولكن لا يعتبر بها سوى من له آذانا صاغية.

و كفى بالقرآن واعظاً بهذا الشأن: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ * كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا

قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ». [٥٤٠]

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٧١

القسم الثالث: العلماء والمتشبهون بهم

إشارة

ومنها:

نقحات الولاية؛ ج ٤؛ ص ٢٧١

«الْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ؛ وَإِنَّ مِنْ أْبْغَضِ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَعَبِيدًا وَكَلَّهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ، جَائِرًا عَنِ قَصْدِ السَّبِيلِ، سَائِرًا بَعِيرٍ دَلِيلٍ؛ إِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الدُّنْيَا عَمِلَ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الآخِرَةِ كَسَلَ! كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ؛ وَكَأَنَّ مَا وَتَى فِيهِ سَاقَطٌ عَنْهُ!».

الشرح والتفسير

اتجه الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة- والذي يبدو منفصلاً، وان كان له نحو ارتباط بالمقاطع الماضية- صوب التعريف بالعلماء الحق ومن تشبه بالعلماء (العلماء الحقيقيون والعلماء المزيّفون) حيث يعرض لصفات كل منهما، فقال عليه السلام:

«العالم من عرف قدره».

ثم أكد هذه العبارة بقوله عليه السلام

«وكفى بالمرء جهلاً ألا يعرف قدره».

وقد وردت عدة احتمالات في تفسير هاتين العبارتين كلها مناسبة، ويمكن جمعها في مفهوم كلامه عليه السلام. الأول: أن العالم الحقيقي من يعرف قيمته وقدره ازاء عظمة الله سبحانه في هذا العالم، فيرى أنه ليس بشيء يذكر بالنسبة لذلك الوجود المطلق، وأنه تابع له، فيحث الخطى للفوز بقربه، ولعل هذا هو المعنى الذي هدف إليه الحديث:

«من عرف نفسه فقد عرف ربه» [٥٤١].

والثاني: أن المراد معرفة القيم والمكانة الواقعية في المجتمع، وعبارة اخرى العالم الحقيقي من

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٧٢

يبتعد عن الامال التي لا تستند لأى المنطق، ولا يتجاوز حدود نفسه، ولا يضع نفسه في موضع ليس له باهل، فلا يعبث بماء وجهه وقدره. على غرار ما ورد في بعض الروايات:

«رحم الله من عرف قدره، ولم يتجاوز حده» [٥٤٢].

والثالث: أن المراد هو أن الإنسان موجود قيم له استعدادته العاليه، فلا ينبغي أن يبيع هذه الجوهره الثمينه برخص ولا يزهده في نفسه وإمكاناته؛ الأمر الذي ورد في الشعر المنسوب لأمير المومنين على عليه السلام إذ قال:

أترعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وبالنظر إلى إمكانية استعمال اللفظ لأكثر من معنى، حيث يعد ذلك من جمالية الكلام وبدائعه، فلا يبدو من المستبعد الجمع بين هذه الاحتمالات الثلاث في تفسير الكلام المذكور؛ وإن كانت العبارات القادمة أنسب للمعنى الثاني والثالث.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالتعريف بمن تشبه من العلماء من الجهال البعيدين عن الحق والصواب فقال عليه السلام:

«وإن من أبغض الرجال إلى الله تعالى لعبدا وكله الله إلى نفسه، جائراً عن قصد السبيل، سائراً بغير دليل». طبعاً لا يسع الإنسان ما لم تحفه عناية الله والطافه ان يتجاوز هذه الموانع والآفات الخطيرة التي تعترض طريقه، فاذا وكل إلى نفسه فسوف لن تكون عاقبته سوى المهلكة؛ فهو ينحرف عن الصراط، ويفقد الدليل فيسير على عمى وضلال. ثم وضع ذلك عليه السلام بالقول أنه اغتر بالدنيا وخذع بها بحيث لا يعمل لآلها ولا يجهد نفسه إلا من أجل الحصول على متاعها: «إن دعى إلى حرث الدنيا عمل، وإن دعى إلى حرث الآخرة كسل». فهو نشط من أجل الدنيا، كسل من أجل الآخرة، وذلك لضعف إيمانه بالآخرة وعدم اعتقاده بالوعد والوعيد الإلهي. فلم يبصر سوى الدنيا وينسى الآخرة.

ومن هنا إختتم عليه السلام كلامه بهذا الشأن بالقول:

«كأن ما عمل له وأحب عليه، وكأن ما ونى فيه ساقط عنه» [٥٤٣].

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٧٣

والتعبير بالزرع عن الدنيا والآخرة هو اقتباس من الآية الشريفة: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» [٥٤٤].

يمكن للدنيا أن تكون مزرعة الآخرة، كما يمكنها أن تكون مزرعة لنفسها. ويذرها الأعمال الحسنه والسيئه، وأعمالها الحسنه كالحبه التي تنبت سبع سنابل وفي كل سنبله ماء حبه، أمّا الأعمال السيئه فهي البذور التي تزرع في الأراضي المالحه: «لا-يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا» [٥٤٥].

وتشير العبارة الأخيرة ضمناً إلى أن الأعمال الصالحة والطالحة إنما تفرزها طبيعة الاعتقادات القويه والضعيفه.

تأمل: العلماء الحقيقيون

أوضح الإمام عليه السلام بجلاء في هذه الخطبة صفات العلماء، و من تشبه بهم من علماء السوء، فكان في مقدمتها عدم معرفة قدر النفس. عدم معرفة قدر النفس ازاء عظمه الله، ولا قدره تجاه المجتمع، ولا قدر نفسه حيال نفسه. ومن لم يعرف قدر نفسه فإنه سيئته في أمواج من الجهل والبؤس والحيرة والشقاء، حتى يكله الله إلى نفسه فيضل في خضم هذه الحياة؛ فهو لا يرى سوى النعم الماديه، وعليه فالدنيا عنده ماء، والآخرة سراب من الهواء. والحلال والحرام والحق والباطل لديه على حد سواء؛ وهو ينطلق نحو المال والمقام وكأنها أوجب الواجبات، بينما يتقاعس عن واجباته وكأنها من المحرمات.

وقد اوردنا شرحاً مفصلاً بهذا الخصوص في الخطبة السابعه عشر من المجلد الأول، ولا حاجة للتكرار.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٧٥

القسم الرابع: علامات آخر الزمان

إشارة

ومنها:

«وَذَلِكَ زَمَانٌ لَا يَنْجُو فِيهِ إِلَّا كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوْمِيهِ، «إِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرِفْ، وَإِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقِدْ، أَوْلَيْكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى « وَأَعْلَامُ السُّرَى لَيْسُوا بِالْمَسَابِيحِ، وَلَا الْمَدَابِيحِ الْبُدُرِ، أَوْلَيْكَ يَفْتَحُ اللَّهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرَاءَ نَقْمَتِهِ. أَيُّهَا النَّاسُ، سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الْإِسْلَامُ، كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ بِمَا فِيهِ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ، وَلَمْ

يُعذِّكُم مِّنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ، وَقَدْ قَالَ جَلٌّ مِّنْ قَائِلٍ: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع الذي يمثل آخر الخطبة إلى الوضع في آخر الزمان، وبعبارة أخرى الزمان الذي يسوده الشر قبل الإمام المهدي عليه السلام. فكان عليه السلام يتطرق إلى خصائص المؤمنين في ذلك الزمان أحياناً، وأحياناً أخرى إلى وضع الإسلام والأحكام الإسلامية. [٥٤٦]

فقال عليه السلام:

«وذلك زمان لا ينجو فيه إلّا كل مؤمن نومه، إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد».

صحيح أنّ النومة من النوم بمعنى الشخص الكثير النوم؛ إلّا أنّه من الواضح هنا أنّ ذلك كناية عن الفرد المجهول وغير المعروف، ولا سيما أنّ الإمام عليه السلام وضح ذلك بالعبارات القادمة.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٧٦

طبعاً من البديهي في الظروف التي يعم فيها الفساد المجتمع، ويكون زعماء المجتمع وقادته من الفسدة والمنحرفين، ألا يكون الأفراد المؤمنون من الشخصيات المعروفة في المجتمع، لأنّهم سيكونون فريسة للجيايرة الذين لن يتركوهم شأنهم أبداً؛ فأما أن يتسلموا ويكونوا عوناً لهم، وأما أن يقاوموا ويمتنعوا وفي هذه الحالة ليس لهم سوى الحديد والنار.

وبناءً على هذا يتوجب على الأفراد المؤمنين في ظل هذه الظروف أن يختفوا عن الأضواء ويعيشوا بعيداً عن الشهرة والمعرفة، كي لا يكون هناك من يتعقبهم ويبحث عنهم.

وبالطبع فإن هذه المجهولية لن تحط من قدرهم وتقلل من مكانتهم، وأنهم لن يتخلوا عن دورهم المعنوي في المجتمع، ومن هنا وصفهم الإمام عليه السلام بقوله:

«أولئك مصابيح الهدى وأعلام السرى» [٥٤٧].

فهم صامتون حاملون، إلّا أنّهم قدوة للآخرين، فهم مصابيح هدى كتلك العلامات التي تنصب على الطريق لكي لا يضل السائر فيه ليلاً. ثم قال عليه السلام في وصف هذه الطائفة من المؤمنين:

«ليسوا بالمساييح، ولا المذاييع البذر».

قال المرحوم السيد الرضى المساييح جمع مسياح وهو الذي إذا سمع لغيره بفاحشة أذاعها، والبذر جمع بذور وهو الذي يكثر سفهه ويلغو منطقته.

وعليه فمعنى العبارة هو أنّ هذه الطائفة من المؤمنين ليست بمفسدة ولا مثيرة للفتنة وليست سفيهة تشيع الفاحشة.

ثم قال:

«أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته، ويكشف عنهم ضراء نقمته»

. فالعبارة تفيد أنّ الله سبحانه وتعالى لم يسلب الطائفة المؤمنة الحقّة عنصر هدايتها في تلك الظروف العصيبة، وهو حافظهم من شر الظلمة ومكاره ذلك الزمان وحوادثه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بنبوءة صريحة وتوضيح أكثر لذلك الزمان، فقال عليه السلام:

«أيها الناس! سيأتي عليكم زماناً يكفياً [٥٤٨] فيه الإسلام، كما يكفياً الاناء بما فيه».

فالعبارة

«يكفياً فيه الإسلام»

كناية لطيفة عن انقلاب كافة المفاهيم الإسلامية رأساً على

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٧٧

عقب وذهاب حقيقتها وجوهرها، لأنها شبهت الإسلام بالاناء الذي وضعت فيه المعارف والقوانين والأحكام والأخلاق الإسلامية، وكما يضيع كل الماء إذا قلب الاناء، فكذلك الإسلام في ذلك الزمان يضيع كل محتواه، ولا يبقى منه سوى القشور. ويبدو أن عصرنا يشهد مثل هذه العلامات حيث يكتفى أغلب المسلمين بذكر اسم الإسلام فقط، دون أن يكون هناك أى أثر للأخلاق أو انفتاح على السنة النبوية؛ فليس هناك سوى الشهوات والمال والمقام واللذة المادية والشهوات الحيوانية. ولا شك أن أحد عوامل البؤس والشقاء هو التفسير بالرأى والقراءات الكاذبة والمنحرفة للإسلام، حيث يقوم بعض الأفراد خداعاً لأنفسهم وللآخرين بتقديم بعض التفاسير المشبوهة للحقائق الإسلامية المسلمة انسجاماً مع أهوائهم وأفكارهم؛ الأمر الذى يجعل الإسلام العوبة بيدهم يفعلون به ما يشاؤون.

فقد ورد فى الحديث أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام:

«يستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة، والأهواء الساهية» [٥٤٩].

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه بالاجابة على سؤال مقدر وهو: لم يتلى الله المسلمين بهذه الحوادث والاضطرابات؟ فقال عليه السلام:

«أيها الناس إن الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم، ولم يعذكم من أن يبتليكم، وقد قال جل من قائل إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين» [٥٥٠].

فى إشارة إلى أن مثل هذه الحوادث اختبار للناس وامتحان لهم، ولا بد أن يخوض عامة الناس - بما فيهم الأنبياء وسائر الأفراد - هذا الامتحان الإلهي! الامتحان الذى قد ينطوى أحياناً على بعد فردى، وأحياناً جماعى؛ كما ورد فى العبارة المذكورة من شمول الجميع بالامتحان، لتمييز الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق.

كلام السيد الرضى (ره)

قال السيد الشريف الرضى: أَمَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«كُلُّ مُؤْمِنٍ نَوْمَةٌ»

فَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ الْخَامِلَ الذُّكْرَ، الْقَلِيلَ الشَّرِّ.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٧٨

وَ «الْمَسَايِخُ» جَمْعُ «مَسِيحٍ» وَهُوَ الَّذِي يَسِيحُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْفَسَادِ وَالنَّمَائِمِ. وَ «الْمَدَايِخُ» جَمْعُ «مَدْيَاعٍ» وَهُوَ الَّذِي إِذَا سَمِعَ لِغَيْرِهِ بِفَاحِشَةٍ أَدَاعَهَا، وَنَوَّهَ بِهَا. وَ «الْبُدُورُ» جَمْعُ «بُدُورٍ» وَهُوَ الَّذِي يَكْثُرُ سَفَهُهُ وَيَلْغُو مَنْطِقَهُ.

تأمل: الفساد فى آخر الزمان

وردت عدة روايات التى تدم آخر الزمان، حيث فسر آخر الزمان عادة بالزمان القريب من ظهور الإمام المهدي عليه السلام: والواقع هو كثرة الفساد الذى يجتاح العالم بأسره:

«كما ملئت ظلماً وجوراً»

فيعد القلوب الوالهة إلى تقبل وجوده عليه السلام بصفته مظهر العدل والصلاح.

هذا ومن جملة العوامل التى تؤدى إلى سعة حجم الفساد فى آخر الزمان ما يلى:

١- الابتعاد عن تعاليم الأنبياء وارشادات الاوصياء عليهم السلام.

٢- إزدیاد وسائل الفساد والشهوات.

- ٣- اتساع حجم الوسائل الدعائية التي تقوم بنشر الفساد إلى مختلف الأماكن لمجرد حصوله في زاوية من الأرض.
- ٤- إزدیاد الشبهات في المباني الدينية والأخلاقية من خلال التفسير بالرأى والقراءات المختلفة للمعارف والمفاهيم الدينية.
- ٥- تسلط حكام الجور والفساد الذين لا يهتمون سوى بتحقيق منافعهم المادية، إلى جانب بذلهم الجهود الحثيثة من أجل افساد الناس ولا سيما الشباب من أجل الوصول إلى اهدافهم الخبيثة.
- حقاً أن التدين لصعب في مثل هذه العصور والأزمنة، بل الواقع هو أن هذا العصر من أصعب العصور اختباراً وامتحاناً. ولا يمكن للصالحين اجتياز هذا الامتحان العسير إلا من خلال الاستغاثه بالله ليشملهم بلطفه وعنايته.
- نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٧٩

الخطبة [٥٥١] المائة واربع

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة إلى قيام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في وسط جاهلية العرب وجهوده المضنية في سبيل هداية الأمة.

وأشار في القسم الآخر من الخطبة إلى سعى بعض المنحرفين لحياء تقاليد الجاهلية: ثم قال عليه السلام أنى سأواصل طريق رسول الله صلى الله عليه وآله ولأبقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته، لتعلم الأمة كيف تنهض بتكاليفها وتعامل معه، وتناهب لمحاربة أعراف الجاهلية.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٨١

القسم الأول: النهضة التغييرية للنبي عليه السلام

إشارة

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَآلِهِ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا، وَلَا يَدْعَى نُبُوَّةً وَلَا وَحِيًّا، فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ عَصِيَاءَ، يَسُوقُهُمْ إِلَى مَنَاجِزِهِمْ؛ وَيُبَادِرُ بِهِمُ السَّاعِيَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ، يَحْسِرُ الْحَسِيرُ، وَيَقِفُ الْكَسِيرُ، فَيَقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّى يُلْحِقَهُ غَايَتُهُ، إِلَّا هَالِكًا لَأَخِيرِ فِيهِ، حَتَّى أَرَاهُمْ مَنَاجِزَهُمْ وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، فَاسْتَدَارَتْ رِحَاهُمْ، وَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ».

الشرح والتفسير

استهل الإمام عليه السلام الخطبة- بعد الحمد والثناء الذي لم يذكر في العبارة- بالحديث عن بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في ذلك الوسط الجاهلي فقال عليه السلام:

«أما بعد، فإن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وآله وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً، ولا يدعى نبوة ولا وحياً».

فالعبارة إشارة إلى الأغلبية الساحقة من العرب آنذاك التي كانت تعبد الأوثان والأصنام وقد تناست دعوة الأنبياء السابقين. وبناءً على هذا فليس هناك من منافاة بين هذا الحكم العام الناظر للأغلبية العظمى ووجود الأقليات الدينية آنذاك كاليهود والنصارى أضف إلى ذلك فإن الأقلية اليهودية كانت مهاجرة أتت إلى الحجاز من الشام، كما قدمت الأقلية النصرانية من اليمن، فهما لا تنتميان إلى العرب.

كما يحتمل أن يكون المراد بالكتاب، الكتاب السماوي غير المحرف، الذي لم يكن موجوداً آنذاك. أمّا ما قيل من أن المراد بالكتاب هنا هو القراءة والكتابة فيبدو بعيداً، لا سيما أن العبارة القادمة على الخلاف من ذلك.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٨٢

أضف إلى ذلك فقد كان هناك من يحسن القراءة والكتابة آنذاك.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بتقسيم الناس إزاء الدعوة الإسلامية إلى ثلاث طوائف: الطائفة التي تقبلت الإسلام بكل كيانتها، وأخرى التي استجابت بعد جهود، والثالثة التي اعتمدت التعصب واللجاجة فوقت بقوة بوجه الدعوة، فلم تتعاطف معها أبداً، وقد قضى عليها.

فقال عليه السلام بشأن الطائفة الأولى:

«فقاتل بمن أطاعه من عصاه، يسوقهم إلى منجاتهم، ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم».

والمراد بالساعة في هذه العبارة القيامة الصغرى يعنى الموت، لا القيامة الكبرى التي تقوم بعد نهاية العالم.

وقال بشأن الطائفة الثانية:

«يحسر الحسير [٥٥٢]، ويقف الكسير، فيقيم علمه حتى يلحقه

غايته».

ثم أشار إلى الطائفة الثالثة وهي الطائفة الضالة التي لا يؤمل هدايتها:

«إلا هالكاً لا خير فيه».

فما ورد في الحديث الشريف هو عين ماورد في عبارة أمير المؤمنين عليه السلام، ثم عاد عليه السلام إلى أصل المطلب:

«حتى أراهم منجاتهم وبوأهم محلّتهم، فاستدارت رحاهم [٥٥٣]، واستقامت

قناتهم [٥٥٤]».

تأملان

١- هل بعث نبي من العرب؟

تضمنت بداية الخطبة إشارة إلى عدم قيام نبي من العرب؛ وهذا في الواقع اقتباس من الآية الشريفة:

«لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ» [٥٥٥]

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٨٣

وهنا يمكن أن يطرح هذا السؤال: إن القرآن صرح في موضع آخر قائلاً:

«وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ» [٥٥٦].

أضف إلى ذلك فإن قاعدة اللطف تقتضى أن يكون لكل أمة رسول مبعوث من الله.

ونقول في الجواب: أن المراد بالآية وما ورد في الخطبة كبار أنبياء الله الذين ذاع صيتهم في الأرجاء، وإلا فليس هناك من زمان ليس لله فيه من حجة بين الناس. ومن هنا يصطلح بالفترة على الفاصلة الواقعة بين بعث السيد المسيح عليه السلام والنبى صلى الله عليه وآله؛ والحال كان هناك أوصياء المسيح عليه السلام من بعده.

أضف إلى ذلك لم يدع أحد من العرب في زمان بعثه النبى صلى الله عليه وآله- المراد بهذه الخطبة- النبوة والاتصال بالوحي

والإتيان بكتاب سماوى.

٢- القوة فى الدين

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام الواردة فى هذه الخطبة أن ظهور الإسلام لم يقتصر على اصلاح دين الناس فقط، بل حل إلى جانب ذلك الكثير من مشاكلهم الدنيوية.

وهكذا تبلورت أمة قوية وحكومة مقتدرة فى ظل الدين الجديد، تمكنت من إدارة شؤون الأمة وزعامتها لسنوات طويلة؛ ولعل هذه الحكومة كانت ستخلد لو لم تنحرف عن المسار الإسلامى الصحيح. إضافة إلى ذلك نهضت الحضارة وتطورت الثقافة لتشهد اتساعاً ورقياً فى ظل التعليمات الإسلامية، حتى كانت صفحة جديدة فى فصل التاريخ البشرى.

كل هذه أدلة على أن اتباع التعاليم الإسلامية إنما يودى إلى ضمان سلامة دين الإنسان وعمارته دنياه.

والعبارات الاربعة الواردة فى الخطبة شاهد على هذا الادعاء، فقد قال عليه السلام: حتى أراهم منجاتهم، وبوأهم محلثهم، فاستدارت رحاهم، واستقامت قناتهم. لتصف بمجموعها سعادتهم المعنوية والمادية.

نقعات الولاية، ج ٤، ص: ٢٨٥

القسم الثانى: بقر الباطل واخراج الحق

«وَإِيْمُ اللّٰهِ، لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقِئِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحِذَافِيرِهَا، وَاسْتَوْسَيْقَتْ فِي قِيَادِهَا؛ مَا ضَعُفْتُ، وَلَا جُبُنْتُ، وَلَا خُنْتُ، وَلَا وَهَنْتُ وَإِيْمُ اللّٰهِ، لِأَبْقَرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ حَاصِرَتِهِ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى دوره فى انتشار الدعوة الإسلامية ودحر عسكر الكفر فقال عليه السلام:

«وايم الله، لقد كنت من ساقئها حتى تولت بحذافيرها» [٥٥٧]، واستوسقت قيادها» [٥٥٨].

ساقه جمع سائق. وقد كان سائداً فى السابق أن يتقدم حركة الركب أو القافلة شخص يسمى القائد، ويقال عن خلفه السائق.

وهكذا كان الأمر بالنسبة للجيش فقد كان القادة فى مقدمة الجيش و الأمراء خلفه.

فالإمام عليه السلام يشير إلى أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان القائد للجيش وهو بمنزلة السائق، كما ورد السائق أحياناً

بمعنى القائد. أضف إلى ذلك فان ساقه الجيش وردت بمعنى القسم الخلفى منه و فى هذه الحالة لا تكون جمع سائق.

على كان حال فان العبارة تكشف عن دور الإمام عليه السلام فى زعامة جيش الإسلام وهزيمة جيش الكفر.

نقعات الولاية، ج ٤، ص: ٢٨٦

ثم قال عليه السلام:

«ما ضعفت، ولا جبنت، ولا خنت، ولا وهنت»

فالواقع هو أن الهزيمة إنما يفرزها أحد هذه العناصر الأربعة: الضعف الخوف، الخيانة والوهن.

والفارق بين الضعف والوهن هو أن الضعف يعنى العجز وعدم وجود القدرة، بينما هناك قدرة فى الوهن، غير أن هناك مسامحة فى

الاستعمال. وعليه فلا يمكن العثور على أى من هذه العناصر فى شخص الإمام عليه السلام، ومن هنا كان منتصراً على الدوام.

ثم اختتم الخطبة بالقول:

«وايم الله، لأبقرن الباطل حتى أخرج الحق من حاصرته».

فالعبرة تفيد وجود الحق في الدنيا دائماً، وإن غطاه الباطل وعليه فبقر الباطل وطرح حجابيه يظهر منه الحق. و هي نقطة رائعة أشار إليها الإمام عليه السلام بكلامه.

كلام السيد الرضى:

قال السيد الشريف الرضى: وَقَدْ تَقَدَّمَ مُخْتَارُ هَذِهِ الْخُطْبَةِ، إِلَّا أَنِّي وَجَدْتُهَا فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ عَلَى خِلَافِ مَا سَبَقَ مِنْ زِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ، فَأَوْجَبَتِ الْحَالُ إِثْبَاتَهَا ثَانِيَةً. (و هذا يكشف بدوره عن مدى دقة السيد الرضى (ره) في ذكر الخطب حيث لم يهمل حتى إختلاف الروايات).

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٨٧

الخطبة [٥٥٩] المائة و خمس

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام في بعض صفات الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وتهديد بنى أمية وعظه الناس

نظرة إلى الخطبة

يتضح من عنوان الخطبة أنها تشتمل على ثلاثة أقسام:

القسم الأول في ذكر بعض صفات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ويصرح الإمام عليه السلام فيه بأن الرسول صلى الله عليه وآله خير الخليفة طفلاً وأعظمها كهلاً. حيث هدف الإمام عليه السلام في الواقع إلى لفت إنتباه الناس إلى أهمية موروث النبي صلى الله عليه وآله و حفظ القرآن و الإسلام.

القسم الثانى يذم فيه بنى أمية و يلفت إنتباههم إلى الدنيا التى أقبلت عليهم، ويحذرهم من غضب الله لما سفكوه من دماء بريئة، مؤكداً على أن هذه الخلافة ستؤول قريباً إلى الاعداء.

القسم الثالث في وعظ الناس ونصيحتهم بعدم الاستجابة للاهواء، والسعى لتحصيل العلم وعدم ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٨٩

القسم الأول: صفات النبي صلى الله عليه وآله

«حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، شَهِيداً وَبَشِيراً، وَنَذِيراً، خَيْرَ الْبَرِيَّةِ طِفْلاً، وَأَنْجَبَهَا كَهْلاً، وَأَطَهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شَيْمَةً، وَأَجْوَدَ الْمُسْتَمَطَّرِينَ دِيَمَةً».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة إلى النعمة الوفيرة بظهور نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وقد أثنى على سبع من صفاته البارزة، فقال عليه السلام: (أن الناس كانوا في هالة من الضلال) حتى بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله شهيداً على أعمالهم وبشيراً (بالثواب الإلهي على الأعمال الصالحة) ونذيراً (بين يدي عذاب شديد على السيئات) وقد كان خير الخلق طفلاً وانجبههم كهلاً، أخلاقه تفوق أخلاق الجميع، وكرمه وسخاؤه ليس له من مثل

«حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه و آله لشهيداً وبشيراً ونذيراً، خير البرية طفلاً، وانجبتها كهلاً» [٥٦٠]، وأطهر المطهرين شيمه [٥٦١]، وأجود المستمطرين ديمه [٥٦٢].

فصفه الشهيد إشارة لما ورد في الآية الشريفة:

«وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ» [٥٦٣]

. وصفه البشير والنذير إشارة لما وردت كراراً في الآيات القرآنية كآية

«إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً» [٥٦٤].

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٩٠

ثم تحدث الإمام عليه السلام عن طفولته صلى الله عليه و آله حيث كان متميزاً فيها. حيث ورد في مناقب ابن شهر آشوب عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه و آله كان يخالط الأطفال دون أن يأتي ببعض أعمالهم التي تستند إلى الجهل. كما ورد عن أبي طالب قوله: لم أعهد فيه كذبه ولم يتخلق بأخلاق الجاهلية، و لم يضحك عبثاً. كما يروى أن عبدالمطلب كان يفرش في ظل الكعبة ولم يجلس على فرشه أحد حتى يخرج سوى رسول الله صلى الله عليه و آله و حين يحاول أعمامه إبعاده كان يرد عليهم عبدالمطلب: دعوه، فوالله إن له لشأناً عظيماً. [٥٦٥]

و قد أنشد ابوطالب في خلقه هذين البيتين:

ولقد عهدتك صادقاً في القول لا تزيد

ما زلت تنطق بالصواب و أنت طعل أمرد [٥٦٦]

و العجيب ما روى أنه كان يكتفى بالثدي الأيمن من مرضعته حلیمه السعدية و كأنه كان حريصاً على العدل ليرك الثدى اليسر لولد حلیمه. [٥٦٧]

ثم أشار عليه السلام إلى نجابة النبي صلى الله عليه و آله و كرامته في الكهولة؛ الأمر الذي يشهد به التاريخ، كما لا يخفى على أحد. أماتواضعه ورافته و فطنته و عفوه و صفحه فقد دوت في أرجاء كافة المعمورة و هي أشهر من نار على علم. كان يهب كل مالديه للآخرين و وجود بالعطاء.

كان أسخى الجميع بحيث لم يبق عنده دينار أو درهم، وان زاد لديه شيء لم تكن تغمض عينيه دون أن يوصله إلى المحتاجين.

كان يكرم الفضلاء، و يجهد في صلة الأرحام، و كان يقبل العذر و يصفح عن المسيء.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٩١

القسم الثاني: زوال حكومة بنى أمية

«فَمَا اخْلَوْتُ لَكُمْ الدُّنْيَا فِي لَدَّتِهَا، وَلَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رِضَاعِ أَخْلَافِهَا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا صَادَقْتُمُوهَا جَائِلًا خَطَامُهَا، قَلِقًا وَصِيْبًا، قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السُّدْرِ الْمَخْضُودِ، وَحَلَالُهَا بَعِيدًا غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَصَادَقْتُمُوهَا، وَاللَّهِ، ظَلًّا مَمْدُودًا إِلَى أَجْلِ مَعْدُودٍ. فَالْأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ. وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ؛ وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ، وَسَيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مَسِيْلَةٌ، وَسَيُوفُكُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ. أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ دَمٍ نَائِرًا، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِبًا وَإِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحِرَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَمَّا يَعْجُزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَلَا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ. فَأَقْسِمُ بِاللَّهِ، يَا بَنِي أُمَّيَّةَ، عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفَنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ! أَلَا إِنَّ أَبْصَرَ الْأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ طَرْفَهُ! أَلَا إِنَّ أَسْمَعَ الْأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّنْذِيرَ وَقَبْلَهُ!».

الشرح والتفسير

صرح أغلب شراح نهج البلاغة بأن هذا المقطع من الخطبة- والذي يبدو أن هناك حذف بينه وبين القسم الأول، جريا على عادة السيد

الرضى فى اقتطاف بعض كلمات الإمام عليه السلام- فى بنى أمية، والشاهد على ذلك أن اسمهم ورد صراحةً فى أواخر هذا القسم، بينما يرى جمع من شرّاح نهج البلاغة أنّ المخاطب هو من تبقى من الصحابة والتابعين، وذيلها فى بنى أمية، والعبارات التى استهل بها هذا القسم إنّما تؤيد المعنى الثانى؛ لأنّ هذه العبارات تبين أن الإمام عليه السلام إنّما عاتب أفراداً لم يكن يتوقع منهم الانحراف عن جادة الحق، ونعلم أنّ بنى أمية

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٩٢

طائفة ظالمة طيلة التاريخ معروفة بانحرافها عن الإسلام. على كل حال قال الإمام عليه السلام:

«فما احلوت [٥٦٨] لكم الدنيا فى لذتها، ولا تمكنتم من رضاع اخلافها [٥٦٩] إلّا من بعد ما صادقتموها جائلاً [٥٧٠] خطامها، [٥٧١] قلقتا [٥٧٢] وضمينها [٥٧٣]».

المراد أنّكم تكالبتم على لذات الدنيا وزخارفها فى عهد عثمان وبعد الفتوحات الإسلامية والتطاول على بيت المال، وهذا ما جعلكم تبتعدون عن الله، فقد انهكم الحكام بجمع الثروات، بينما انشغلت الأمة بدنياها ولذاتها.

ومن هنا قال عليه السلام أنّ حرام الدنيا أصبح سهلاً سيراً كالسدر الخالى من الشوك، بينما أصبح الحلال بعيداً غائباً:

«قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود، وحلالها بعيداً غير موجود»

، فقد انهال البعض على بيت المال فنهب ماشاء، ثم اتسعت هذه الأموال الحرام بين الناس.

العبارة

«السدر المخضود»

إشارة إلى أن نهى الله وتحريمه كالشوك تجاه لذات الدنيا المحظورة، أمّا الأفراد من عديمى الورع والتقوى فهم لا يكثرثون للنواهى الإلهية، والحرام عندهم كالسدر المخضود، وقد صرح ارباب اللغة أنّ شجرة السدر أنواع، لبعضها ثمار شديدة الحلاوة فواحة العطر تفيض رائحته على يد الإنسان وثيابه إذا ما تناول منه. [٥٧٤]

نعم فاصحاب الدنيا يبتلعون الأموال الحرام وكأنّها ثمار لذيدة كالسدر المنضد الذى قطع شوكه، ولا يلتفتون إلى أوامر الله ونواهيه، وبالطبع فإنّ الحرام إنّما ينتشرويعم مثل هذا الوسط فلا يبقى للحلال من مكان.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٩٣

ثم قال عليه السلام:

«وصادقتموها والله، ظلّاً ممدوداً إلى أجل معدود، فالأرض لكم شاغرة [٥٧٥]،

وأيديكم فيها ميسوطة؛ وأيدي القادة عنكم مكفوفة، وسيوفكم عليهم مسلطة، وسيوفهم عنكم مقبوضة».

فهذه العبارات تبين أنّ الكلام هنا بخصوص فريق من المؤمنين من بقية الصحابة والتابعين الذين لم يتمالكوا أنفسهم حين الاختبار الإلهي، فيميلون حيثما مالت الريح.

فقد شغلتهم الدنيا وغرتهم بزينتها وزخرفها وبالطبع قد حصل هذا فى وقت لم يسع الإمام عليه السلام حتى فى زمان حكومته أن يصدهم عنه؛ وذلك لأنهم غرقوا فى هذه الدنيا على عهد عثمان بالشكل الذى لم يبق معه من أمل لانقاذهم بسهولة.

ثم هددهم عليه السلام ليعلموا أن المسألة ليست بهذه السهولة وهناك الحساب الذى ينتظرهم، محذرهم قائلاً: اعلموا أنّ لكل دم شائراً، ولكل حق طالباً:

«ألا وإن لكل دم ثائراً، [٥٧٦] ولكل حق

طالباً، وإن الثائر فى دماننا كالحاكم فى حق نفسه، وهو الله الذى لا يعجزه من طلب، ولا يفوته من هرب».

فاذا تأخر العذاب والانتقام الإلهي عن بعض العصاة المردة الذين يجاهرون بجنایاتهم، فهذا لا يعنى نسيان هذه الأعمال الشائنة، أو قدرة

هؤلاء الجناء على الفرار من مخالف العدل الإلهي.

والعبارة

«إن الثائر في دماننا...»

تعني أنّ الثائر لدماننا أهل البيت والتي تسفكك بغير حق هو الله سبحانه وتعالى فهي تسفكك في سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمته، فلا تشمل هذه الدماء على جانب شخصي أو قبلي، وقطعاً أن مثل هذا الثائر لا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء وهو بالمرصاد.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٩٤

ثم حذر بنى أمية قائلاً:

«فاقسم بالله، يا بنى أمية، عما قليل لتعرفنها في أيدي غيركم وفي دار عدوكم».

إياكم والظن بأنكم أن سفكتم دماء الأبرياء ولم ترحموا صغيراً وتوقروا كبيراً، ورسختم دعائم حكومتكم على الظلم والعدوان ونهب الأموال وقتل الناس، فإن هذه الحكومة دائمة لكم! فسرعان ما ينهض لكم الأعداء ويسددوا لكم ضرباتهم الماحقة حتى يطيحوا بحكومتكم ويقضوا عليكم، بل سوف لن يرحموا حتى موتاكم، فسيخرجونهم من قبورهم ويحرقون أجسادهم.

ويشير التاريخ إلى تحقق كل ما أخبر به الإمام عليه السلام، وقد مر شرح ذلك في الخطبة ٨٧. [٥٧٧]

ثم إختتم الكلام بقوله عليه السلام:

«ألا إن أبصر الأبصار ما نفذ في الخبر طرفه! ألا إن أسمع الاسماع ما وعى التذكير وقبلة».

أى إن كان لكم بصر وسمع مفتوح، لم تعد عليكم من صعوبة في الظفر بسبيل الخير والسعادة، غير أنه لمن المؤسف أن أهوائكم النفسية وطغيانكم قد غطى أبصاركم وأسماعكم بالحجب، بحيث لا يسمعكم رؤية الحق ولا سماع المواعظ.

جدير ذكره سئل بعض شيوخ بنى أمية عقيب زوال الملك عنهم:

ما كان سبب زوال ملككم؟ فقال: جار عمالنا على رعيتنا، فتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فجلوا عنا، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فأثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا، أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم عنا، واستدعاهم عدونا فظافروه على حربنا، وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقله أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا. [٥٧٨]

ونرى هنا يوضح عمق ما أخبر به الإمام عليه السلام في هذه الخطبة.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٩٥

القسم الثالث: التمسك بالإمام

«أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةٍ مِصْبَاحٍ وَاعْظُمُ مَتَّعِظٍ، وَامْتَاخُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكُدْرِ.

عِبَادَ اللَّهِ، لَاتْرُكُوا إِلَى جَهَالَتِكُمْ، وَلَا تَنْقَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرْفٍ هَارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ؛ يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لَا يَلْتَصِقُ، وَيُقَرِّبَ مَا لَا يَتَقَارَبُ! فَاللَّهُ اللَّهُ أَنْ تَشْكُوا إِلَى مَنْ لَا يُشْكِي شَجْوَكُمْ، وَلَا يَنْفُضُ بَرَأِيَهُ مَا قَدْ أُبْرِمَ لَكُمْ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام هنا في نصح الناس ووعظهم فقال في البداية لإعداد أنفسهم:

«أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةٍ مِصْبَاحٍ وَاعْظُمُ مَتَّعِظٍ، وَامْتَاخُوا [٥٧٩] مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ [٥٨٠]

من الكدر».

كما أنّ الاشارات الضوئية تنير للإنسان طريقه إذا مشى ليلاً في الظلام وتقيه الوقوع في المطبات أو أن يضل الطريق، فإنّ نصائح الواعظ المتعظ تصون الإنسان في مسيرته وسلوكه المعنوي والفكري والأخلاقي من الانحرافات العقائدية، وكما أنّ الماء الزلال والخالي من الكدر هو مادة حياة جسم الإنسان وسائر الكائنات الحية؛ كذلك نصائح دعاة الحق تشكل مادة حياة روح الإنسان ونفسه.

ومن الواضح أنّ المراد بهذا الواعظ المتعظ الذي ينبغي الاستصباح من شعلته والتروى من

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٩٦

صفو عينه هو الإمام عليه السلام الذي وظفت الناس بالتمسك به والاستفادة منه: أما للأسف لم يفعلوا واننا لنهتدى اليوم بما وصلنا من كلماته عليه السلام ونستقى من عينه الصافية.

ثم واصل عليه السلام كلامه بخطاب كافة عباد الله وحذرهم من الجهل والهوى والأفكار الباطلة المنحرفة.
فقال عليه السلام:

«عباد الله، لاتركنوا إلى جهالتكم، ولا تنقادوا لأهوائكم»

ثم بين عليه السلام دليل ذلك قائلاً:

«فان النازل بهذا المنزل نازل بشفاً [٥٨١] جرف هار، ينقل الردى على ظهره من موضع

إلى موضع»

، ثم قال عليه السلام:

«الرأى يحدثه بعد رأى؛ يريد أن يلصق ما لا يلتصق، ويقرب ما لا يتقارب».

فقد بين الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغة حقيقة مهمة وهي أنّ أحد مصادر الضلال إنّما يكمن في الاستناد إلى الاوهام والظنون الباطلة والآراء الفاسدة البعيدة عن البرهان والدليل.

وقد شبههم الإمام عليه السلام بحافة النهر حيث يتمتعون بظاهر خلاب، في حين يستبطن الخلاء والجوفية! فاذا وطى الجهال تلك الحافة هروا في القعر.

ثم خلاص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فالله الله أن تشكوا إلى من لا يشكى شجوكم [٥٨٢]،

ولا ينقض برأيه ما قد أبرم لكم».

ولعل هذه العبارة إشارة إلى أنّ أحد منابع الجهل وعدم العلم والوقوع في متاهات الظنون الباطلة إنّما يتمثل باستشارة غير الاكفاء من الأفراد الذين يفتتروا إلى الفكر السليم والرأى القاطع والاطلاع الكافي واللازم للتغلب على المشاكل والصعوبات، فاذا ما استشير حمل معه من استشاره إلى وادى الضلال والهلكة.

كما يحتمل أن تكون إشارة إلى ضرورة عدم الاغترار بالقدرات الكاذبة والجبارة التي لا تفكر سوى في تحقيق أطماعها وآربها (كبنى أمية). وعليه فلا ينبغي لهم الاستعانة بهؤلاء من أجل حل مشاكلهم. فهم ليسوا فقط غير قادرين على حل هذه المشاكل فحسب، بل غالباً ما يسهمون في مضاعفة هذه المشاكل.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٩٧

القسم الرابع: وظائف الإمام والامة

«إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: الْإِبْلَاغُ فِي الْمَوْعِظَةِ، وَالاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ، وَالإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا، وَإِضْمَارُ الشُّهُمِ عَلَى أَهْلِهَا. فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْعَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَتَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ

أَهْلِيهِ، وَأَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ، فَإِنَّمَا أَمْرُكُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضع من الخطبة إلى الوظائف الخمس لإمام المسلمين ووظائف المسلمين فذكر بعض الامور المهمة بهذا الشأن، وكان ما أورده الإمام عليه السلام سابقاً يدعو إلى سؤال يقتدح في الازهان، وهو أننا إذا وقعنا في وادى الجهل أو شكونا ما يحل بنا لغير أهله، فذلك لأن الإمام لم يأخذ بايدينا ويهدينا ويدلنا على الطريق.

فقد رد الإمام عليه السلام على مثل هذا السؤال المقدر بالقول:

«إنه ليس على الإمام إلّما حمل من أمر ربه».

والوظائف الملقاة على عاتقه هي:

١- الوعظ لعامة الناس

«الابلاغ في الموعظة».

٢- الجد والاجتهاد في الخير والنصح

«والاجتهاد في النصيحة».

٣-

«والإحياء للسنة».

٤-

«وإقامة الحدود على مستحقيها».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٩٨

٥-

«واصدار السهمان ٥٨٣ على أهلها».

هذه هي وظائف حاكم المسلمين. فعليه أن يوصل الأحكام الإسلامية كاملة إلى الأمة بحيث يخرج من نشد الحق عن الجهل والضلال ولا يبقى له من عذر في الجهل بهذه الأحكام. هذا من جانب.

ومن جانب آخر: يسعى ويجتهد من أجل خير المسلمين وإصلاح أوضاعهم الدينية والدنيوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ومن جانب ثالث: أن يسعى لإحياء السنة النبوية والأحكام الشرعية من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو سائر الوسائل.

ومن جانب رابع: إجراء الحدود بحق المستحقين دون التمييز بين أحد وآخر والتساهل في إقامتها بهدف منع الجرائم والجنايات.

ومن جانب خامس: دفع حقوق المستحقين والمحتاجين من بيت المال.

فاذا فعل امام المسلمين ذلك فقد أدى دينه تجاه عبادالله، فان كان هناك من اشكال واضطراب فأنما يعود إلى الناس.

ثم خاض عليه السلام في وظائف الامية ليوجزها في ثلاث، تعلم العلم من قبل أن تجف شجرته، وقبل أن ينشغلوا بأنفسهم ويتلوثوا بالدنيا، كما عليهم أن يستقوا هذا العلم من منابعه:

«فبادروا العلم من قبل تصويح ٥٨٤» نبتة، ومن قبل أن تشغلوا بأنفسكم عن مستشار [٥٨٥] العلم

من عند أهله».

ولعل المراد بجفاف شجرة العلم شهادته عليه السلام، والمراد شخصه عليه السلام أيضاً بمركز فيض العلم - ومن هنا فقد لفت انتباههم

إلى ضرورة السؤال والاستفسار مادامه عليه السلام بينهم.

والعبارة تشبه تلك التي أطلقها عليه السلام أواخر عمره الشريف:

«سلوني قبل أن تفقدوني» [٥٨٦].

كما يحتمل ان يكون المراد بهذه العبارة جفاف شجرة وجود الإنسان، لأن الإنسان لا يمتلك

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٩٩

القدرة الكافية على تناول العلم في أي سن وعمر وينسجم هذا الاحتمال والعبارة القادمة، لأن الإنسان كلما تقدم به العمر ازدادت

مشاكله وهمومه، كما يقل استعداده- كما يمكن الجمع بين الاحتمالين.

ثم أشار إلى الوظيفة الثانية والثالثة للامة بالقول:

«وانهوا عن المنكر وتناهوا عنه، فانما أمرتم بالنهاي بعد التناهي».

وعليه فوظيفة الناس أولاً: ان يرفع من مستواه العلمي ويزيد من معارفه، لأن الجهل من عوامل التخلف.

وثانياً: الجد في امتثال أوامر الله وعدم نسيان وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تعد وظيفة عامة. والحق أن السعادة ستعم

الامة لو عملت بوظائفها ونهض أئمة المسلمين بوظائفهم.

وقد برز سؤال بين شرّاح نهج البلاغة- وهو السؤال الذي يتبادر إلى ذهن كل متتبع- وهو؛ كيف اشترط الإمام عليه السلام النهي عن

المنكر بانتهاء، الشخص عنه فقال:

«فانما أمرتم بالنهاي بعد التناهي»؟

رد ابن أبي الحديد على هذا السؤال بالقول: لم يرد عليه السلام أن وجود النهي عن المنكر مشروط بانتهاء ذلك الناهي عن المنكر،

وإنما أراد: أني لم آمركم بالنهي عن المنكر إلا بعد أن أمرتكم بالانتهاء عن المنكر. [٥٨٧]

بينما اعتبر الشارح الخوئي هذا الرد تكلفاً وقال: الأفضل أن يقال للسائل: أنه عليه السلام أوجب الأمرين (دون اشتراط أحدهما بالآخر)

والعبارة الأخيرة إشارة إلى الانتهاء عن المنكرات التي أكدت أكثر عن وجوب النهي عن المنكر. لأن اصلاح النفس مقدم على اصلاح

الآخرين. [٥٨٨]

إلا أن الأفضل أن يقال: إن الانتهاء عن المنكر لشرط كمال النهي عنه، لا شرط وجوبه، لأن الإنسان حين يرتكب الذنب ويريد نهى

الآخرين عنه، سوف لن يكون لكلامه من تأثير، ولو علم الناس منه ذلك لسخروا منه وقالوا:

«طيب يعالج الناس وهو عليل».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٠٠

ومن هنا أكد أئمة الدين عليه السلام أننا لا ننهاكم عن شيء حتى ننتهي عنه قبلكم.

فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أيها الناس، إني والله ما أحتكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتأتهي قبلكم عنها» [٥٨٩].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٠١

الخطبة [٥٩٠] المائة وست

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يبين فضل الإسلام ويذكر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ثم يلوم أصحابه

نظرة إلى الخطبة

كما يتضح من عنوان الخطبة أنها تتألف من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن أهمية الإسلام وبركاته وآثاره والتركيز على بعض النقاط المهمة بهذا الشأن.

القسم الثاني: يتحدث عن شخصية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله و آله بعبارات قصار عميقة المعنى، ثم يختتمه بالدعاء للنبي صلى الله عليه وآله و آله و عامة المؤمنين.

القسم الثالث: يلوم أصحابه على سكوتهم على الظلم والفساد رغم ما آتاهم من النعم، والسماح لهؤلاء الظلمة بانتهاك الحرمات. و ممارسة كل ما يحلو لهم من أعمال.

وجاء في بعض الروايات أن رجلاً سأل أمير المؤمنين عن الإسلام والإيمان والكفر والنفاق فخطب عليه السلام بهذه الخطبة. وفي خبر

عن الاصمغ بن نباتة أن أمير المؤمنين عليه السلام خطبها في داره أوفى دار الامارة ثم أمر بكتابتها. [٥٩١]

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٠٣

القسم الأول: خصائص الإسلام

إشارة

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَعَ الْإِسْلَامَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ، وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْنًا لِمَنْ عَلِقَهُ، وَسَيِّئًا لِمَنْ دَخَلَهُ، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ، وَنُورًا لِمَنْ اسْتَبْصَأَ بِهِ، وَفَهْمًا لِمَنْ عَقَلَ، وَلُبًّا لِمَنْ تَدَبَّرَ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّسَ، وَتَبَصَّرَةً لِمَنْ عَزَمَ، وَعِبْرَةً لِمَنْ اتَّعَطَّ، وَنَجَاءً لِمَنْ صَدَّقَ، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ، وَجَنَّةً لِمَنْ صَبَرَ، فَهُوَ أَتْلُجُ الْمَاهِجِ، وَأَوْضَحُ الْوَلَائِحِ؛ مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُشْرِقُ الْجَوَادِّ، مُضِيءُ الْمَصَابِيحِ، كَرِيمُ الْمَضَارِ، رَفِيعُ الْغَايَةِ، جَامِعُ الْحَلْبَةِ، مُتَنَافِسُ السُّبْقَةِ، شَرِيفُ الْفُرْسَانِ. التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ، وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ، وَالذُّنُوبُ مَضْمَارُهُ، وَالْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة ضمن الخطبة ٢٦ إلى الخصائص المهمة للإسلام والمميزات التي ينطوى عليها بعبارات قصيرة ذات معان عميقة. وكما أوردنا سابقاً- نظرة إلى الخطبة- أن الإمام عليه السلام خطب بهذه الخطبة في المسجد لعامة الناس، رداً على من سأله عن خصائص الإسلام والكفر والإيمان والنفاق. فقد استهل عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه قائلاً:

«الحمد لله الذي شرع الإسلام فسهل شرائعه لمن ورده»

. حيث نعلم أن الشريعة تعنى الطريق الذي يشقه الناس إلى جانب الأنهار الكبيرة نحو الماء لاستفيد منه الناس.

فقد بين الإمام عليه السلام أن الإسلام أشبه بالنهر العظيم و وصف طرق الوصول إليه بأنها سهلة

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٠٤

يسيرة. كما أن اعتناق الإسلام سهل يخلو من أى تكلف؛ فيكفى فيه أن ينطق الإنسان من صميم قلبه بالشهادتين ليخرج من صف الكفر والنفاق ويلتحق بصفوف المسلمين والمؤمنين، كما أن البرامج الإسلامية هي الاخرى سهلة يسيرة سمحاء، فهناك الأدلة من قبيل «الاضرر» و «نفي الحرج»

التي رفعت أى تكلف و ثقل عن كاهل الإنسان! كما منحت الاصاله فى الشرع للبراءة وحمل أفعال الآخرين على الصحة. كما رفضت

أى إكراه أو إجبار، كما حكم ببطلان كافة العقود التي تبرم على أساس إكراه والاجبار والاضطرار. كما صرحت ببعض الواجبات التي لا تدعو إلى المشقة والعسر والحرص. وزبدة الكلام فقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «بعثت إليكم بالحنيفية السمحة السهلة البيضاء» [٥٩٢].

إلا أن لسهولتها لا تعنى قدرة أرباب السوء على السيطرة عليها والتغلب عليها، ومن هنا قال:

«وأغرر أركانها على من غالبه»

، ثم بحكم: «أشداء على الكفار رحماء بينهم» [٥٩٣] فإن المسلمين مكلفون بالقوة والشدة تجاه الأعداء والرحمة والرأفة إزاء المؤمنين. ثم واصل ذكر الصفات الأخرى للإسلام كونه ملاذاً آمناً لمن لجأ إليه من الأفراد وسلاماً وأمناً لمن دخل حصنه وولج حريمه، ودليلاً وبرهاناً قاطعاً لمن اعتمده في منطقته، وحجة دامغة لمن احتج به على خصمه:

«فجعله آمناً لمن علقه [٥٩٤]، وسلماً لمن دخله، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به».

نعم فالمسلمون جميعاً يتمتعون بالأمن قاطبة دون استثناء في الإسلام، وأسسهم ودعائمهم رصينة قوية تدعو دعاء الحق للاستدلال بها، كما تسوقهم للدفاع عنها تجاه خصوم الدعوة وأعدائها.

ثم قال عليه السلام في ذكره لعدة صفات أخرى:

«ونوراً لمن استضاء به، وفهماً لمن عقل، ولباً لمن تدبر»

، فبلوغ الحقيقة يمر عبر ثلاث مراحل: الظفر بموقعها ومن ثم إدراكها وفهمها وأخيراً تحليلها بصورة دقيقة. وقد بين الإمام عليه السلام هذه المراحل الثلاث بالعبارات الثلاث

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٠٥

المذكورة، فقال أولاً أن الإسلام نور يستقطب نحوه الأفراد ليصلوا إليه. ثم قال: إن من تعقله سيد ركه ويفهمه. وأخيراً من تدبر بلغ حقيقته.

والحق أن الإسلام يتمتع بكل هذه الصفات، فالقرآن الذى تكفل بشرح الإسلام وتوضيحه إنما يستند على الدوام إلى الدليل والبرهان والمنطق والعقل؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى الآيات ١٥ و ١٦ من سورة المائدة: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهتدى به الله من أتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ياذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم».

ثم قال عليه السلام:

«وآية لمن توسم، وتبصرة لمن عزم، وعبرة لمن اتعظ»

، توسم من مادة وسم وضع العلامة، والمتوسم تطلق على من يفهم الواقعة من خلال أبسط أثر أو علامة، وهى الفراسة التى ذكرها القرآن فى الآية الشريفة: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ» [٥٩٥]. فعبارة فى الواقع إشارة إلى أمور مهمة وظريفة فى القرآن يدركها ممن تحلى بالفراسة.

ثم واصل عليه السلام ذكره لسائر صفات الإسلام بصفته وسيلة النجاة لمن صدق به، والاطمئنان والثقة لمن استند إليه وتوكل عليه، كما يغرق الإنسان بالهدوء والراحة إذا ما وكل أعماله إليه وهو الجنة الواقية لمن استقام وصبر:

«ونجاة لمن صدق، وثقة لمن توكل، وراحة لمن فوض، وجنة لمن صبر».

فالعبرة تتحدث عن أربع فضائل أخلاقية هى: التصديق والتوكل والتفويض والصبر.

فتصديق الإسلام فى الاعتقاد والعمل إنما يودى بلا شك إلى النجاة، كما أن الاعتماد على المعارف الإسلامية يقود إلى الاطمئنان بالمستقبل والحاضر للدنيا والآخرة، وتفويض الأمور إلى اصول الإسلام وفروعه بمعنى الحركة فى ظله هى سبب الهدوء والسكينة

والاستقرار والراحة، وأخيراً فإن الصبر والاستقامة في هذه المسيرة وتحمل الشدائد في سبيل حفظ العقيدة والعمل على ضوء أحكام الشريعة إنما تجعل الفرد في جنة وثيقة تجاه الامور التي تهدد سعادته أو سعادة المجتمع.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٠٦

والواقع هو أن الإنسان إنما يطلب النجاة والاطمئنان والهدوء والراحة والأمن؛ وهي الامور التي لا تحصل الأمن خلال العمل بالبرامج الإسلامية وعلى ضوء التعاليم السماوية.

ثم تطرق عليه السلام إلى خمس صفات اخرى تمثل في الواقع النتيجة لما سبق من أوصاف، وهي أن طرق الإسلام أوضح الطرق ومدخلها من أظهر المدخل، وعلاماتها جلية ظاهرة، ومسالكها بينة منيرة

«فهو أبلغ [٥٩٦] المناهج [٥٩٧] وأوضح الولايج [٥٩٨]؛ مشرف المنار [٥٩٩] مشرق الجواد [٦٠٠]، مضىء المصاييح».

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام رسم هنا صورة للجادة التي تضم كافة الامتيازات.

فهى على درجة من الوضوح بحيث يبلغها كل شخص بسهولة. ولها أبواب متعددة ماثلة امام اصحاب الحق واضحة لديهم. وتتطلب هذه الجادة بعض العلامات التي تبدو من بعيد؛ وهذه في الواقع جادة الإسلام.

(فقد كانوا يعمدون في السابق إلى بناء الأبراج في الطرق ثم ينصبون المصاييح فوقها لتبدو للعيان من مسافات بعيدة وتحول دون ضلال الطريق ويطلقون عليها اسم المنار؛ أى موضع النور، إلا أن المعنى الواسع لهذه الكلمة يشمل جميع العلامات التي تمنع السالكين من الانحراف).

ولعل هذه العبارات كناية عن محكمات الآيات القرآنية وصریح السنة النبوية والمعجزات والكرامات وأدلة العقل والنقل التي تضيئ معالم الطريق للموحدين السائرين على هدى الإسلام.

ثم شبه عليه السلام الإسلام بالمسابقة التي تمثل أركانها ذروة الحسن والكمال. فللمسابقة عادة بعض الأركان من قبيل:

١- ميدان التمرين ٢- نقطة انتهاء المسابقة ٣- الخيل الجاهزة ٤- الجائزة الكبيرة ٥- الفرسان النجباء.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٠٧

فقال عليه السلام أن ميدان السباق الإسلامى طاهر مطهر وكريم، ونقطة انتهاء السباق هى نقطة رفيعه سامية، وفرسان هذه المسابقة معروفون بالاصالة والاستعداد، أما الجائزة المترتبة على هذه المسابقة فهى عظيمة للغاية، وأهلها من النجباء

«كريم المضمار [٦٠١]، رفيع الغاية، جامع

الحلبة [٦٠٢]، متنافس [٦٠٣]، السبقة [٦٠٤]، شريف الفرسان».

ثم أضاف عليه السلام بأن التصديق واليقين هو سبيل (الوصول إلى الأهداف) الإسلام، وعلامة ذلك الأعمال الصالحة (فالواقع هو أن الإيمان والعمل الصالح هما العنصران الذان يؤديان إلى الفوز فى هذا السباق).

«التصديق منهاجه، والصالحات مناره».

ثم اختتم عليه السلام كلامه بالقول:

«والموت غايته، والدنيا مضماره، والقيامة حلته، والجنة سبقتة».

ليشخص بصورة جزئية ما ورد سابقاً بنحو الكلية.

أما عدم ذكر فرسان المسابقة فلوضوح الأمر؛ فهم ليسوا سوى المؤمنين من ذوى الأعمال الصالحة.

وقد مرعلينا مثل هذا التشبيه الرائع مع إختلاف طفيف فى الخطبة ٢٨ إذ قال عليه السلام:

«ألا وإنَّ اليوم المضمار، وغدا السباق، والسبقة الجنَّة والغاية النار».

تأملان

١- منزلة الدنيا والآخرة في النظرة الإسلامية

تمثل الدنيا بالنسبة لطلابها ولاولئك الذين ينكرون الآخرة علماً أو عملاً منتهى الطموح والهدف، وعليه فهم يضحون بكافة القيم و المثل من أجلها.

ولعل البؤس والشقاء الذي يعيشه المجتمع العالمي هو وليد هذا النوع من التفكير. أمّا

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٠٨

الإسلام فهو لا يرى الدنيا سوى مرحلة عابرة ومقدمة للآخرة، حتى وردت الروايات والأخبار التي شبهتها بالمزرعة والقنطرة والمتجر (وقد مر شرح ذلك في الخطبة ٢٨).

أمّا في هذه الخطبة والبعض الآخر من خطب نهج البلاغة فقد شبهت الدنيا بميدان التمرين والآخرة بميدان السباق؛ وهو تشبيه رائع غاية في الدقة والروعة. فالإنسان إنّما يتزود بالقوة والقدرة في هذا الميدان بواسطة التعاليم العقائدية والتربوية والأخلاقية، بما يمكنه من اجتياز مسابقة الأخرى بسرعة لدخول الجنَّة والفوز برضوان الله وقربه. والتصديق الذي ورد في الخطبة بصفته المنهاج والصالحات بصفتها المنار إنّما يشيران إلى هذه التربية والتعليم الرباني.

فالذي نستفيده من هذا التشبيه ما يلي!

١- أن السعادة والنجاة في الآخرة ليست عبثاً؛ بل تتأتى في ظل البناء الفكري والأخلاقي والعقائدي.

٢- إنّما تغلق صحيفة الأعمال بانتهاء الدنيا، والقيامه يوم حساب ولا عمل، كما أنّ ميدان المسابقة للسباق لا للتمرين.

٣- جائزة هذه المسابقة من أعظم الجوائز، وذلك لان هذه المسابقة من أعظم المسابقات

٤- يعتمد تفاوت واختلاف درجات الناس ومقاماتهم على أعمالهم وعقائدهم وأخلاقهم.

فقد يدخل الإنسان الجنَّة إلّا أنّ درجته تختلف عن غيره، على غرار الفائزين في السباق، فهناك الفائز الأول والثاني والثالث وهكذا.

٥- ليس هنالك أي عمل من أعمالنا في هذه الدنيا يمكنه أن يزول وأن آثاره باقية، على غرار آثار التمارين التي يقوم بها المتسابقون. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بالقول: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ» [٦٠٥].

وجاء في الحديث عن الإمام الحسن عليه السلام بعد أن وصف شهر رمضان بصفته مضمار الخلق وميدان التمرين أنّه قال:

«وايم الله لو كشف الغطاء لعلموا أنّ المحسن مشغول باحسانه، والمسيئ مشغول باسائه» [٦٠٦].

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٠٩

٢- الشريعة السمحاء

كما أوردنا في الخطبة المذكورة والرواية التي نقلناها في شرحها أنّ الإسلام لشريعة سهلة سمحاء؛ أي ليس هنالك من تكلف ولا عسر ولا حرج في ممارسته وطقوسه فهي لا تدعو إلى الضجر والتعب.

والتمعن في أحكام الإسلام سواء في العبادات والمعاملات والروابط الإنسانية أو في العقوبات والجزاء يفيد أنّها برمجت على ذلك

الأساس أيضاً. فقد روعى هذا الأصل حتى في أشد العقوبات الإسلامية من قبيل قتل الزانى بالمحصنة، وذلك لأن العقاب ان كان شديداً تعذر بسهولة إثبات الجرم. فعادة ما تثبت الدعاوى بشاهدين، بينما يلزم هنا اربعة شهود. وهكذا الحال في اجراء بعض الحدود من قبيل الجلد، فقد أوصى باجرائه في الجو البارد في فصل الصيف، والحرار في فصل الشتاء، وعدم رفع اليد إلى مكان مرتفع وعدم ضرب المواضع الحساسة وما إلى ذلك من الأوامر.

من جانب آخر فإن هؤلاء المجرمين ينالون العفو عما ارتكبوا فيما إذا تابوا قبل القبض عليهم، اضافة إلى العمل بقاعدة درء الحدود عند الشبهات في كافة الجرائم وعند بروز أدنى شك أو شبهة.

وقد جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه كلفوا الناس من دينهم ما يطيقون، ثم نقل له عليه السلام قصة ذلك المسلم الذي كان له جار كافر رغب في الإسلام، فكان يحمله صباحاً وظهراً وليلاً إلى المسجد، بحيث كان يقضى أغلب وقته فيه في أداء الواجبات والمستحبات. حتى فارق هذا الرجل الإسلام بعد أن شق عليه الأمر وقال: لا طاقة لى بهذا الدين. ثم قال الإمام عليه السلام:

«إن إمارة بنى أمية كانت بالسيف والعسف، وإن إمارتنا بالرفق، والوقار، والتقية، وحسن الخلطة، والورع، والاجتهاد. فرغبوا الناس في دينكم، وفيما أنتم فيه» [٦٠٧].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣١٠

ولا يخفى أن الحب والرفق والمداراة والخلطة الحسنة إنما تكون مع الأفراد الذين لا يعملون بالشر وإلا فالإسلام صلب المعاملة لشديد فيها تجاه الظلمة والطغاة والاشرار والأوباش، بغية الحفاظ على سلامة المجتمع وأمنه.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣١١

القسم الثاني: صفات النبي صلى الله عليه وآله ومقاماته

إشارة

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله

«حَتَّى أَوْرَى قَبْسًا لِقَابِسٍ، وَأَنَارَ عِلْمًا لِحَابِسٍ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبِعَيْتِكَ يَعْزَمُ وَرَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً، اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسِمًا مِنْ عَدْلِكَ، وَاجْزِهِ مَضْمَعَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. اللَّهُمَّ أَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءً! وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزْلَهُ، وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنَزْلَهُ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ، وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَالْفَضِيلَةَ، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ غَيْرَ خَرَايَا، وَلَا نَادِمِينَ، وَلَا نَاكِبِينَ، وَلَا نَاكِبِينَ، وَلَا ضَالِّينَ، وَلَا مُضِلِّينَ، وَلَا مَفْتُونِينَ».

الشرح والتفسير

أشار عليه السلام في هذا الموضع من الخطبة إلى خصائص النبي صلى الله عليه وآله وعلو صفاته، ثم سأل الله تعالى له رفيع الدرجات، كما اختتم بالدعاء لنفسه ولجميع المؤمنين بالحرش في زمرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله. فقال عليه السلام:

«حتى أوري قبساً [٦٠٨] قيساً [٦٠٩] لقباس، وأنار علماً لحابس [٦١٠].»

وبالنظر إلى أن هذا القسم من الخطبة - كما صرح المرحوم السيد الرضى (ره) - رواية اخرى للخطب السابقة (٧٢)، فالذى يفهم أن «حتى»

غائية بالنسبة لسعى النبي صلى الله عليه وآله وجهده،

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣١٢

كما يمكن القول بأنّ الفاعل في عبارة أوري وأنار هو لشخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وعليه فقد قام صلى الله عليه وآله بعملين مهمين هما:

الأول: أنّه أمد طلاب الحق بقبسات النور، والثاني أنّه نصب مصابيح الهداية في طريق الحيارى وكأنّ العبارة الاولى إشارة إلى علماء الامّة الذين يأخذون بشعلة الهدى فيواصلون مسيرتهم ويحملون الآخرين معهم. والعبارة الثانية إشارة إلى الأفراد العاديين الذين ليست لديهم مثل هذه القبسات وعيونهم متطلعة إلى مصابيح الهدى الموضوعه على جانب الطريق. وعبارة اخرى فان النبي صلى الله عليه وآله قد أمد دعاه الحق بالهداية العامة والخاصة.

ثم قال عليه السلام على سبيل النتيجة الواضحة والرائعة:

«فهو أمينك المأمون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمه ورسولك بالحق رحمة».

وقوله عليه السلام أمينك المأمون تأكيد لمطلق أمانته وكمالها، وشهيد يوم الدين ويوم الحساب والجزاء إشارة للآية الشريفة ٨٩ من سورة النحل: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ».

ويمكن أن تكون هذه الشهادة على الاصول الكلية التي تضمنتها دعوه كافة الأنبياء، أو على جزئيات الأعمال، بفعل الشهود العلمى للنبي صلى الله عليه وآله بالنسبة لأعمال كافة الأمم.

وقوله عليه السلام:

«بعيثك نعمه»

إشارة إلى أنّ بعثه النبي صلى الله عليه وآله كانت نعمه كبيرة من جانب الله سبحانه، كما كانت نموذجاً بارزاً لرحمته الواسعة سبحانه، فقد اهتدت به الملايين من أفراد البشرية وانقادت إلى الحق في ظل تعاليمه السامية، وهذا الكلام في الواقع اقتباس من الآيات القرآنية ومنها: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ» [٦١١] و «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» [٦١٢].

ثم واصل عليه السلام كلامه في إطار امتنانه وتقديره لجهود النبي صلى الله عليه وآله العظيمة، فرفع يده بالدعاء مبتهلاً إلى الله بافاضة نعمه على النبي صلى الله عليه وآله فقال:

«اللهم اقسّم له مقسماً من عدلك، واجزه

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣١٣

مضعفات الخير من فضلك، اللهم أعل على اباة البانين بناءه وأكرم لديك نزله [٦١٣]، وشرف عندك منزله، وآته الوسيلة، واعطه السناء [٦١٤] والفضيلة».

ويخترن الدعاء الأول والثاني هذه النقطة، وهي أنّ النبي صلى الله عليه وآله يستحق مزيد الثواب بمقتضى العدل الإلهي، كما يتضاعف هذا الثواب بمقتضى الفضل الإلهي. قال القرآن الكريم:

«مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا» [٦١٥].

وسؤال الله علو بناء النبي صلى الله عليه وآله على بناء جميع البانين إمّا إشارة إلى علو دينه على جميع الاديان بمقتضى «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» [٦١٦].

وإمّا علو مقاماته في الجنة، أو علو فضائله المعنوية صلى الله عليه وآله.

ويبدو التفسير الأول أنسبها جميعاً.

والعبارة

«آية الوسيلة»

إشارة إلى المقام العالى للقرب ونتيجة ذلك الدرجات الرفيعة في الجنة، فقد ورد في الحديث النبوي أنّه صلى الله عليه وآله خاطب

أصحابه قائلاً:

«سلوا الله لى الوسيلة»،

ثم أضاف:

«هى درجتى فى الجنّة، وهى ألف مرقة... فلا يبقى يومئذ نبى ولا صديق ولا شهيد إلّا قال طوبى لمن كان هذه الدرجة درجته» [٦١٧].

ثم اختتم كلامه عليه السلام بهذا الدعاء:

«واحشرنا فى زمرة غير خزايا [٦١٨]، ولا نادمين، ولا

ناكبين، ولا ناكثين، ولا ضالين، ولا مضلين، ولا مفتونين»

فى إشارة إلى أن الأفراد يسعهم بالعمل والعلم أن يكونوا فى زمرة النبى صلى الله عليه وآله ويجتازوا هذه الفضائح السبع، فلا يندمون ويفتضحون يوم القيامة، وإذا رأوا أعمالهم لا يشعرون بالندم، فلا يكونوا فى صف الناكثين، ولا يحملون أوزار الآخرين ولا يخذعون بالشياطين.

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام اشار إلى طوائف أمه النبى صلى الله عليه وآله حين ترد المحشر حيث ترد كل

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣١٤

واحدة منها وادياً من الأودية المذكورة السبع، ولعل هذه الطوائف كانت موجودة وقد خاطبها عليه السلام محذراً إياها بهذا الدعاء.

كلام المرحوم السيد الرضى

قال المرحوم السيد الرضى (ره) ذيل هذا الكلام:

«وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم؛ إلّا أننا كررناه هنا لما فى الروايتين من الاختلاف» [٦١٩]

تأمل: إعراف مهم

قال ابن أبى الحديد فى ذيل هذا المقطع من الخطبة: سألت استاذى النقيب أبى جعفر، وكان منصفاً بعيداً عن الهوى والعصبية عن هذا الموضوع، فقلت له: وقد وقفت على كلام الصحابة وخطبهم فلم أر فيهم من يعظم رسول الله صلى الله عليه وآله تعظيم هذا الرجل، ولا يدعوا كدعائه: فانا قد وقفنا من نهج البلاغة ومن غيره على فصول كثيرة مناسبة لهذا الفصل، تدل على إجلال عظيم، وتبجيل شديد منه لرسول الله صلى الله عليه وآله. فقال: ومن أين لغيره من الصحابة كلام مدون يتعلم منه كيفية ذكرهم للنبي صلى الله عليه وآله؟ وهل وجد لهم إلّا كلمات مبتدرة، لاطائل تحتها! ثم قال: إنّ علياً عليه السلام كان قوى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله والتصديق له، ثابت اليقين، قاطعاً بالامر، متحققاً له، وكان مع ذلك يحب رسول الله صلى الله عليه وآله لنسبته منه، وتريبته له، واختصاصه به من دون أصحابه، وبعد، فشرفه له، لأنهما نفس واحدة فى جسمين، الأب واحد، والدار واحدة، والأخلاق متناسبة، فاذا عظمه فقد عظم نفسه، وإذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه، ولقد كان يود أن تطبق دعوة الإسلام مشارق الأرض ومغاربها؛ لأنّ جمال ذلك لا حق به، وعائد عليه، فكيف لا يعظمه ويجله ويجتهد فى إعلاء كلمته. [٦٢٠]

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣١٥

القسم الثالث: تضييع النعم

ومنها فى خطاب أصحابه

«وَقَدْ بَلَّغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَكُمْ مَنزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا إِمَاؤُكُمْ وَتَوْصَلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ، وَيُعْظَمُكُمْ مَنْ لَأَفْضَلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَلَا يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ، وَيَهَابُكُمْ مَنْ لَمَّا يَخَافُ لَكُمْ سَيْطَوَةً، وَلَمَّا لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللَّهِ مَقْفُوضَةً فَلَمَّا تَغْضَبُونَ! وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمِّ آبَائِكُمْ تَأْنِفُونَ!

وَكَانَتْ أُمُورُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُّ، وَعَنْكُمْ تَصُدُّ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ، فَمَكَتُمْ الظَّلْمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ، وَأَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَرْزَمَتَكُمْ، وَأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللَّهِ فِي أَيْدِيهِمْ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، وَإِيْمُ اللَّهِ، لَوْ فَرَّقُواكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمْ اللَّهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ!.

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضع من الخطبة إلى أمرين مهمين مرتبطين مع بعضهما ارتباطاً واضحاً وهما:

الأول: أن المجد والعظمة التي بلغها المسلمون في ظل الإسلام لهي عظمة فريدة لدى العدو والصديق.

الثاني: أن أولئك الناس لم يعرفوا قدر هذه النعمة، وقد آلت أمورهم إلى الحكام الظلمة من عديمي الإيمان وأصحاب الشهوات بفعل

ضعفهم وذلهم وهو انهم، وهذا بحد ذاته جحود عظيم فقال عليه السلام:

«وقد بلغت من كرامة الله تعالى لكم منزلة تكرم بها إماءكم وتوصل بها جيرانكم».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣١٦

واثر ذلك أخذ يعظكم من لستم خيراً منه، وليس لكم من حق عليه

«ويعظكم من لا فضل لكم عليه، ولا يد لكم عنده».

كما يهابكم ويجلكم من ليس لكم قدرة عليه، ولا حكومة أو سيطرة عليه

«ويهابكم [٦٢١]

من لا يخاف لكم سطوة [٦٢٢]، ولا لكم عليه إمرة»

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام قد بين بهذه العبارات الرائعة البليغة منزلة المسلمين في ظل الإسلام، ولم تقتصر حرمة العدو والصديق

لهم فحسب، بل شملت حتى جواريتهم، كما عومل جيرانهم باللطف والرحمة كرامة لهم، كما كان يكبرهم ويجلهم من الأقسام من

ليس لهم عليهم سطوة ولا قوة ولا فضل ولا احسان، بل كان يهابهم حتى من لم يكن تابعا لبلادهم.

فمن الواضح وعلى ضوء الحديث الشريف:

«من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء» [٦٢٣]

، أن المسلم إذا التزم بجوهر الإسلام وعمل باحكامه وما أمر به الله سبحانه واعتمد الورع والتقوى في مسيرته الدينية، يحظى باحترام

الآخرين وإجلالهم. فهذه حقيقة لا مبالغه فيها.

فقد أصبح المسلمون وفي ظل الإيمان يتمتعون بكافة معاني الشجاعة والاقدام والتضحية والقوة والمنعة.

نفحات الولاية؛ ج ٤؛ ص ٣١٦

نف إلى ذلك فقد حفتهم العناية الإلهية والامدادات الغيبية.

فقد نقل ابن أبي الحديد قصة رائعة بهذا الشأن. حيث قال: قيل إن العرب لما عبرت دجلة إلى القصر الأبيض الشرقي بالمداين عبرتها

في أيام مدها، وهي كالبحر الزاخر على خيولها وبأيديها رماحها، ولا درع عليها ولا بيض؛ فهربت الفرس بعد رمى شديد منها للعرب

بالسهام؛ وهم يقدمون ويحملون، ولا تهولهم السهام، فقال فلاح نبطي، بيده مسحاته وهو يفتح الماء إلى زرعه لأسوار من الاساوره

معروف بالبأس وجودة الرماية: ويلكم! أمثلكم في سلاحكم يهرب من هؤلاء القوم الحاسرين! ولدعه باللوم والتعنيف: فقال له: أقم

مسحاتك،

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣١٧

فأقامها فرماها، فخرق الحديد حتى عبر النصل إلى جانبها الآخر، ثم قال: انظر الآن، ثم رمى بعض العرب المارين عليه عشرين سهما لم

يصبه ولا فرسه منها بسهم واحد؛ وأنه لقريب منه غير بعيد. ولقد كان بعض السهام يسقط بين يدي الاسوار، فقال له بالفارسية: أعلمت أن القوم مصنوع لهم! قال: نعم. [٦٢٤]

ثم أشار عليه السلام في القسم الأخير من هذا الموضوع من الخطبة إلى جحد الناس لتلك النعم والقدرة، فقال عليه السلام رغم كل ذلك لا تهتز لكم قصبه وأنتم ترون كل هذه الانتهاكات ونقض العهود والقوانين والأحكام الإلهية! في حين تشتاطون غضباً فيما إذا نقضت ذمم آبائكم:

«وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تغضبون! وأنتم لنقض ذمم آبائكم تأنفون [٦٢٥].»

أى لو نقضت سنة قبليه أو طائفية كانت شائعة بينهم لارتفعت أصواتهم، في حين ينتهك بنى أمية السنن الإلهية بمرأى ومسمع منهم دون أن ينسوا بنت شفة، وهذا قمة جحود النعم الإلهية.

ثم قال عليه السلام:

«وكانت امور الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع، فمكنتم الظلمة من منزلتكم، وألقيتم إليهم أزمتمكم، وأسلمتم امور الله في أيديهم.»

وهذا جحود آخر، فبعد كل تلك القوة والقدرة- بحيث كان كل شيء بأيديهم وتابع لارادتهم- أدخلوا الساحة للظلمة ودعوهم يجلسون على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله ويتحكموا بأمر المسلمين.

ثم قال عليه السلام في وصف هؤلاء:

«يعملون بالشبهات، ويسرون في الشهوات.»

نعم فقد فوضت الامور على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الصالحين فكانوا يعملون على ضوء التعاليم الإسلامية، إلا أن الغفلة والضعف وجحود النعم أدى لأن يتزعم الامور تلك التلة من سليلي الجاهلية وبقايا أهل الشرك والعصية، حيث تربع ابن أبي سفيان- أعدى أعداء الإسلام- على عرش الحكومة الإسلامية فقلب امور الإسلام رأساً على عقب.

ذهب بعضى شراح نهج البلاغة إلى المراد بالعبارة ١١:

«وكانت امور الله عليكم ترد...»

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣١٨

الأحكام الشرعية، لا الحكومة وقالوا: كانت الأحكام الشرعية اليكم ترد من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن الإمام عليه السلام، ثم تصدر عنكم إلى من تعلمونه إياها من اتباعكم وتلامذتكم، ثم يرجع إليكم بأن يتعلمها بنوكم وإخوتكم من هؤلاء الاتباع. أو المراد الحكم في الأحكام الإلهية.

وتبدو هذه الاحتمالات ضعيفة، ولا تنسججم والعبارة

«فمكنتم الظلمة من منزلتكم»

التي تشير إلى أمر الحكومة.

والمراد بالعبارة

«يعملون بالشبهات»

هو أن بنى أمية كانوا يتمسكون بمتشابه القرآن أو كلمات النبي صلى الله عليه وآله- حيث كانوا يكيّفونها بالاستعانة بالقراءات الجديدة على مقاصدهم الانحرافية- من أجل توجيه أعمالهم الشائنة، وهم لا يفكرون سوى في حفظ مصالحهم وشهواتهم الحيوانية واحياء سنن الجاهلية.

ثم إختتم خطبته قائلاً:

«وايم الله، لو فرقوكم تحت كل كوكب، لجمعكم الله لشر يوم لهم».

وقد ذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بهذه العبارة قيام أبي مسلم الخراساني وقيام أهل العراق ضد بني أمية بحيث ينتقمون منهم شر انتقام ويجتثون جذورهم، بل قيل أنهم ارتكبوا ما لم يحفل التاريخ بمثيله.

ولا يبدو صحيح الاحتمال الذي أورده بعض شراح نهج البلاغة من أن المراد بالعبارة المذكورة قيام المهدي عليه السلام حيث لا ينسجم وسائر عبارات الخطبة.

وتشير العبارة:

«لو فرقوكم تحت كل كوكب»

كناية إلى ذروة التشتت والفرقة، وإلا لا يمكن جعل كل إنسان تحت كوكب.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣١٩

الخطبة [٦٢٦] المائة و سبع

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

في بعض أيام صفين

نظرة إلى الخطبة

بالنظر إلى أن الإمام عليه السلام اورد هذه الخطبة في أحد أيام صفين، وأنها ناظرة إلى حادثه في بداية صفين حيث انسحب أصحاب الإمام عليه السلام وتراجعوا ثم عادوا فانتصروا على العدو، فمقصود الإمام عليه السلام هو ذم تراجعهم بالفاظ لطيفة رقيقة، ومن ثم الإشارة بحملتهم ثانية إلى جانب حثهم وتشجيعهم على الصمود والمقاومة. ولا يخفى التأثير الذي يلعبه الكلام حين يتصدر بيان نقاط الضعف، ثم يتابع بذكر عناصر القوة.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٢١

«وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ، وَأَنْجِيَّازَكُمْ عَنْ صِفُوفِكُمْ، تَحُوزُكُمْ الْجَفَاءُ الطَّغَامُ، وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَنْتُمْ لَهَا مِيمُ الْعَرَبِ، وَيَأْفِيحُ الشَّرَفِ، وَالْأَنْفُ الْمُقَدَّمُ، وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ. وَلَقَدْ شَفَى وَحَاوَحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخْرَةِ تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُواكُمْ، وَتَرِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُواكُمْ؛ حَسًّا بِالنِّصَالِ، وَشَجْرًا بِالرَّمَاحِ، تَرْكَبُ أَوْلَاهُمْ أَخْرَاهُمْ كَالِإِبِلِ الْهَيْمِ الْمَطْرُودَةِ؛ تَرْمَى عَنِ حِيَاضِهَا؛ وَتُدَادُ عَنِ مَوَارِدِهَا!».

الشرح والتفسير

أتلجتم صدرى

ذكر بعض شراح نهج البلاغة أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين تراجعت ميمنة أهل العراق، ثم عادت لتهجم ثانية بعد أن

قادها مالك الاشر وحمل على أهل الشام ففرقهم. [٦٢٧]

فلما رأى ذلك الإمام عليه السلام خطب بهذا الكلام. فقد قال عليه السلام: إننى شاهدت فراركم وهزيمتكم وتراجعكم عن صفوفكم بعد أن زادكم عنها الجفأ من العرب من أهل البادية:

«وقد رأيت جولتكم [٦٢٨]، وانحيازكم [٦٢٩] عن صفوفكم تحوزكم الجفأ [٦٣٠] الطغام [٦٣١] وأعراب أهل الشام».

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٢٢

والحال لا يليق هذا بكم

«وأنتم لها ميم [٦٣٢] العرب، ويا فيخ [٦٣٣] الشرف، والانف [٦٣٤] المقدم،
والسنام الاعظم».

ولم أكن أتوقع هذا التراجع منكم، كما لا يليق بكم، إلّا أنّ الذى ائلج صدرى معاودتكم الكر وازاحتكم لهم عن مواضعهم:
«ولقد شفى وحاوح [٦٣٥] صدرى أن رأيتكم بأخرة
تحوزونهم كما حازوكم، وتزيلونهم عن مواقفهم كما أزالوكم».

ثم وصف ذلك عليه السلام بقوله

«حسا [٦٣٦] بالنصال [٦٣٧]، وشجراً [٦٣٨] بالرماح، تركب أولاهم أخراهم
كالابل الهيم [٦٣٩] المطرودة، ترمى عن حياضها، وتذاد [٦٤٠] عن مواردها».

ومما لا شك فيه أن صفيين كانت مقابلة بين عسكريين، ضم أحدهما أغلب الشخصيات الإسلامية من قبيل بعض صحابة النبي صلى الله عليه وآله و آله و ابناء الصحابة ومن البيوتات الصالحة السابقة إلى الإسلام والإيمان، وقد كانت هذه الجماعة تحت إمرة الإمام على عليه السلام. وبالمقابل كان الطرف الآخر يتمثل فى الواقع ببقايا الجاهلية والشرك والاراذل والاباش من طلاب الدنيا وعبداء الأهواء الذين قدموا الميدان بدينار معاوية ودرهمه واجزل لهم فى العطاء، وفى مقدمتهم عمرو بن العاص الذى لم يبايع لمعاوية حتى اشترط عليه ولاية مصر.

وعليه فعبارات الإمام عليه السلام بشأن أهل الشام والعراق كانت تمثل عين الواقع، بعيداً عن اسلوب الحث والتشجيع والمبالغة.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٢٤

الخطبة [٦٤١] المائة وثمان

إشارة

ومن خطبة عليه السلام

وهى من خطب الملاحم

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من أقسام: استهل عليه السلام القسم الأول: كسائر الخطب بحمد الله والثناء عليه وبيان أوصاف الجلال والجمال وأدلة إثبات وجوده سبحانه. والقسم الثانى: جرى كسائر الخطب فى الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وفضائله وكمالاته. القسم الثالث: الحديث عن طيب دوار يتفقد مرضاه وقد اعد كافة وسائل العلاج، وفسره أغلب شراح نهج البلاغة بان المراد شخصه عليه السلام أو النبي صلى الله عليه وآله.

القسم الرابع: لوم الأصحاب الضعفاء وتذكيرهم بأن هذا الضعف والاختلاف يؤدى إلى عاقبة وخيمة يسלט فيها العدو عليكم، فيسدد ضرباته إليكم ولا يبقى لكم باقية.

القسم الخامس: وهو أهم قسم فى الخطبة فى الوعظ والنصح. والقسم السادس والأخير اخبار عن الحوادث المستقبلية فى قطع الأرض والسماء لبركتهما، وظهور التحريف وتحول المعروف إلى منكر والمنكر إلى معروف.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٢٥

القسم الأول: تجلى الله للعباد

إشارة

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَجَلَّى لِحَلْقِهِ بِخَلْقِهِ، وَالظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ. خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيٍّ، إِذْ كَانَتْ الرَّوِيَّاتُ لَمَّا تَلِيْقُ إِلَّا يَدْوَى الضَّمَائِرِ، وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ. خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ السُّتْرَاتِ، وَأَحَاطَ بِغُمُوضِ عَقَائِدِ السَّرِيرَاتِ».

الشرح والتفسير

كما أوردنا سابقاً فإن الإمام عليه السلام استهل الخطبة بحمد الله والثناء عليه وذكر جماله وجلاله وأدلة وجوده سبحانه بعبارات قصار رائعة وهو يشير إلى أدلة التوحيد، فقال عليه السلام:
«الحمد لله المتجلي»

. والواقع هو أن العبارة تشير إلى برهان النظم الذي ورد في عدة آيات قرآنية التي تأخذ بيد الإنسان أحياناً إلى السموات والسيارات والثواب والمجرات العظيمة كما تصحبه أحياناً أخرى إلى عمق الذرة ودقة بنائها العجيب وتنتقل به تارة إلى عجب خلقه الطيور، كما تراه تارة أخرى اسرار البحار والمحيطات، فهي تراه عظمة الخالق من خلال المخلوقات، ويتضح مما تقدم ان الخلق في (لخلقه) تشير إلى الإنسان، وفي بخلقه إلى جميع المخلوقات فاحدها خاص والآخر عام.

ثم أشار عليه السلام فيما بعد إلى برهان الفطرة فقال:

«والظاهر لقلوبهم بحججته».

فأية حجة أعظم من هذه، وهي حين يعود الإنسان إلى قلبه وروحه يستمع نداء التوحيد يأتيه من كل مكان. ومن هنا مهما سعت الشياطين لانكار ذاته، وجهدت من أجل انحراف العباد، فبمجرد زوال هذه التريينات، وتلاشى السحب القاتمة للوساوس الشيطانية، تتجلى

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٢٦

هذه الفطرة التوحيدية في الإنسان فيعود إلى ربه وخالقه.

ثم أشار في العبارة الثالثة إلى ما يمكن تسميته ببرهان الابداع فقال عليه السلام:

«خلق الخلق من غير رويء، إذ كانت الرويات لاتليق إلا بالذوى الضمائير [٦٤٢]، وليس بذى ضمير في نفسه».

نعلم أن جميع المصنوعات البشرية إنما تعود إلى الفكر والبرمجة والخطط والمشاريع المسبقة، وهذه بدورها إلى المخلوقات والمصنوعات في هذا العالم. أي كل ما يصنعه الإنسان فقد شاهد شبيهه في عالم الخلق، كما قد يركب أحياناً بين عدة أشياء ليصنع منها شيئاً معيناً، فقد يحتذى بطيور البحر في صنعه للسفينة وبخلق الطيور في صنعه للطائرة وهكذا، وعليه فهو يحتاج إلى التفكير في صناعته من جانب، ويحتاج إلى موجودات أخرى لكي يقلدها ويستعين بها في صناعته من جانب آخر. أما الابداع بمعنى الخلق دون الحاجة إلى التفكير أو النموذج للاقتداء فأنما يختص به وحده سبحانه. ثبت اليوم أن على الأرض فقط ملايين الأنواع من النباتات و الحيوانات والحشرات، حيث لم تكشفت بعد للإنسان لأنها تعيش في أعمال البحار أو في متاهات الغابات أو في الصحارى النائية و المناطق القطبية، و كل ذلك يرمز إلى الابداع الإلهي في عجائب خلقتها، ويشير هذا الابداع إلى وجوده و علمه و قدرته.

و بغض النظر عن كل ذلك فإن الصناعات البشرية إنما تتكامل مع تقادم الزمان و الإفتتاح على تجارب الآخرين، و الحال مخلوقات الله ليست كذلك، فتكاملها يستند إلى ذاتها، لا إلى التجارب الجديدة.

ثم فسر قوله السابق عليه السلام قائلاً:

«خرق علمه باطن غيب السترات [٦٤٣]، وأحاط بغموض

عقائد السريرات [٦٤٤]».

فان كان غنياً سبحانه في تنويحه لخلقه عن التفكير والمثال الذي يحتذيه فأنما ذلك لعلمه المطلق النافذ في كل شيء والمحيط بكل شيء.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٢٧

نعم فمن يحتاج إلى الفكر والانفتاح على تجارب الآخرين، من كان علمه محدوداً، جاهلاً بما غاب عنه.

والعبارة السابقة من قبيل ذكر الخاص بعد العام؛ أي أنها تحدثت أولاً عن علم الله بباطن جميع الأشياء، ثم علمه بالعقائد الخفية للإنسان.

تأمل: في سعة علم الله

تعتبر مسألة علم الله من المسائل المهمة من خلال النظرة المعرفية، وكذلك من حيث الآثار الأخلاقية والتربوية.

وهي المسألة التي أورد القرآن بشأنها عدة أبحاث مهمة، وقد كشف عن سعتها بأمثله رائعة، من ذلك: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ

شَجَرَةٍ أَقْلَامٍ وَالْبَحْرِ يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [٦٤٥].

ولو تأملنا هذا المثال وتصورنا معناه، لا كشفنا هذه الحقيقة وهي أن علمه سبحانه أوسع وأشمل مما نعتقد.

ومن البدهة أن هذا العلم ليس بعلم حصولي يتأتى عن طريق التصور والتصديق، بل هو علم حضوري. أي أن حضور الحق سبحانه في

كل زمان ومكان وحضور جميع الأشياء لدى ذاته المطهرة يقتضى الأيخفى عليه شيء، لأن حقيقة العلم تعنى حضور المعلوم لدى

العالم. غير أنه في العلم الحصولي لا يحضر شخصاً لدى العالم، بل تحضر صورته في الذهن عن طريق التصور أو التصديق. أما في

العلم الحضوري فالذي يحضر لدى العالم ذات المعلوم، وجميع الأشياء والحوادث في كل زمان ومكان، باطنها وظاهرها عن طريق

هذا العلم الحضوري واضحة لدى الله. ومن هنا قال عليه السلام: خرق علمه باطن غيب السترات، وأحاط بغموض عقائد السريرات.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٢٨

قد يتعذر فهم العلم الحضوري لدى البعض، ولكن توضيحه بمثال وهو: إن ممّا لا شك فيه أن علمنا بصورنا الذهنية والتصورات

والتصديقات التي ترسم في أذهاننا عن العالم الخارجي، والعلم الحضوري يعنى أن هذه الصور الذهنية حاضرة لدى روحنا ولا

تنفصل عنها.

نعم هذا هو علم الله بجميع عالم الوجود، لا أن لديه صور ذهنية عنها، بل وجودها العيني حاضر لديه، لأننا نعلم أنه معنا في كل مكان:

«وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ» [٦٤٦] و «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» [٦٤٧].

ومن هنا نكتشف الآثار المهمة التربوية من خلال الالتفات إلى سعة علمه المطلق. لأن الإنسان إذا علم بأن العالم حاضر لدى الله

وعلمه محيط بأسرار الأشياء وخفاياها فباليقين سيعيش حالة من مراقبة أعماله، بل حتى أفكاره ونياته. [٦٤٨]

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٢٩

القسم الثاني: وصف النبي صلى الله عليه وآله

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله

«إِخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَشَكَاهُ الضِّيَاءِ، وَذُوَابَةَ الْعَلْيَاءِ، وَسُرَّةَ الْبُطْحَاءِ، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ، وَيَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ».

الشرح والتفسير

بعد أن حمد الإمام عليه السلام الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه وأشار إلى أدله وجوده، تطرق في القسم الثاني من الخطبة إلى ذكر فضائل النبي صلى الله عليه وآله حيث عدد فضائله الفريدة ببضع عبارات قصيرة و ستة تشبيهات فقال عليه السلام: «إخثاره من شجرة الأنبياء، ومشكاة الضياء، وذؤابة العلياء، وسرة البطحاء، ومصايح الظلمة، وينايع الحكمة».

فكل تشبيه واستعارة في هذه العبارة تشير إلى فضيلة من فضائل رسول الله صلى الله عليه وآله.

التشبيه الأول- حسب قول أغلب شراح نهج البلاغة- إشارة إلى آل ابراهيم عليه السلام الذي ظهر منه الأنبياء العظام، وينتمي رسول الله صلى الله عليه وآله إلى نبي الله ابراهيم عليه السلام عن طريق إسماعيل.

التشبيه الثاني: إشارة إلى أن أنوار المعارف الإلهية في مشكاة وجود الأنبياء، وحامل هذه الأنوار هو رسول الله صلى الله عليه وآله. والمشكاة وعاء لحفظ السراج لتطفأه الريح، وعليه فالأنبياء حفظه أنوار المعارف الإلهية.

التشبيه الثالث: بالالتفات إلى أن ذؤابة شعر مقدم الرأس، وعلياء المرتفع، فهي إشارة إلى أن نسب رسول الله صلى الله عليه وآله ينتهي إلى أفضل السلالات البشرية وقد ورث عنها ذلك الشرف والمجد.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٣٠

التشبيه الرابع: بالنظر إلى أن البطحاء جزء من مكة سكنته قبيلة قريش، والسرة تعني المركز، فهي إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وآله قد انحدر من مركز قبيلة تعتبر أشرف القبائل (وإن دفع حب الدنيا البعض منها إلى عدم اجابه دعوة النبي صلى الله عليه وآله حتى عرفوا بكفار قريش).

التشبيه الخامس: أن الأنبياء والرسول هم مصايح الهدى ومشكاة الأنوار التي تكشف ظلمات الكفر والجهل، وأنه صلى الله عليه وآله مركز هذه الأنوار وحاملها.

التشبيه الأخير الذي شبه الأنبياء بينايع العلم والحكمة وأن النبي صلى الله عليه وآله أحد هذه الينايع.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٣١

القسم الثالث: طيب سيار

ومنها: «طَيْبٌ دَوَّارٌ بِطَيْبِهِ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ، وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبِ عُمَى، وَأَذَانِ صُمَّ، وَالسِّنِّ بِكُمْ؛ مُتَّبِعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْعُقْلَةِ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ؛ لَمْ يَسْتَضِئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ؛ وَلَمْ يَفْهَمُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ؛ فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ».

الشرح والتفسير

ذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بهذه الصفات التي ذكرها الإمام عليه السلام إنما تعود إليه، حيث خاض في بيان صفاته بعد أن بين صفات رسول الله صلى الله عليه وآله، واصفا نفسه بأنه طيب سيار وقد حمل معه كافة أسباب العلاج التي تشفى المرضى- ولم يشذ من الشراح في نسب هذه الصفات إلى شخص الإمام عليه السلام سوى شخص واحد نسبها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله- فقد صرح الآمدي في كتاب غرى الحكم قائلاً:

«إنه في ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله» [٦٤٩].

إلا أن ارتباط هذه العبارة بالعبارة السابقة من جهة، وانطباقها على الأوضاع التي كانت سائدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله من جهة أخرى تؤيد أن هذه الصفات في رسول الله صلى الله عليه وآله. وأنا لتتعجب كيف لم يطرح قاطبة الشراح هذا الأمر على الأقل- على نحو الاحتمال والحال أنهم لم يقيموا أي دليل لاثبات صحة مدعاهم. صحيح أن النبي صلى الله عليه وآله وعلى عليه

السلام من شجرة واحدة، وهما

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٣٢

روح واحدة في جسمين وعمامة الصفات تصدق عليهما معا؛ غير أنه لا بد من الدقة في ارجاع الضمائر إلى أصولها.
على كل حال فقد قال عليه السلام:

«طيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمة» [٦٥٠] وأحمى مواسمه، [٦٥١]

يضع ذلك حيث الحاجة إليه: من قلوب عمى، واذان صم، والسنة بكم، متتبع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الحيرة».

يا لها من تعبيرات رائعة تشبه النبي صلى الله عليه وآله (أو الإمام) بالطبيب!

لأن الأطباء يتولون علاج مرضى الأبدان، وينهمك هو في علاج مرضى الروح والأخلاق الذي يفوق بمراتب مرضى البدن.

حيث أشار إلى ثلاثة منها في العبارة: أولئك الذين تعمي أبصار قلوبهم ويفقدون السمع واستقبال الحق وعجز اللسان عن ذكر الحق بفعل الذنب والمعصية والغفلة واتباع الهوى

ثم وصفه بأنه (دوار) في إشارة إلى أنه ليس على غرار أطباء الأبدان الذين يجلسون في عياداتهم وينتظرون مراجعة المريض.

بل يحمل وسائله وعلاجه معه ويتجول بحثاً عن المريض، وهذا هو منهج الأنبياء والأوصياء وروثتهم من العلماء، الذين ينبغي لهم أن يقتدوا بالأنبياء ولا يروا أنفسهم كالكعبة وأن أفراد الامية مطالبون بالطواف حولهم، بل عليهم أن يكونوا كالصياد الذي يبحث عن صيده، فيفيضوا علومهم على الناس ويأخذوا بأيديهم إلى الحق.

ثم قال عليه السلام واصفاً ما أورده سابقاً من مواضع الغفلة ومواطن الحيرة؛ وأصحابها من أهل الغفلة والحيرة:

«لم يستضيئوا بأضواء الحكمة، ولم يقدحوا» [٦٥٢] بزناد [٦٥٣] العلوم الناقبة، فهم

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٣٣

في ذلك كالانعام السائمة، [٦٥٤] والصخور القاسية».

فالعبارة لم يستضيئوا ولم يقدحوا تفيد أنهم كانوا يستطيعون حتى قبل قيام الأنبياء أن يتخلصوا من جانب من غفلتهم وحيرتهم بنور الحكمة والعلم ودليل العقل، إلا أنهم لم يلتفتوا قط للعلم والعقل.

ولعل

«لم يستضيئوا...»

و

«لم يقدحوا...»

إشارة إلى طائفتين من الأفراد الضالين الذين كان يمكن أن يتبدل ضلالهم نوراً ولو لومضة من العلم والمعرفة التي تصل إلى قلوبهم، والطائفة الاخرى التي كان لها أن تهدي نفسها وان عجزت عن هداية الآخرين.

كما يمكن أن تكون العبارة

«أنعام سائمة»

و

«صخور قاسية»

إشارة إلى فئتين: فئة ضالة وهي كالأنعام التي لها إلى حد امكانية التعليم والتربية، والفئة الاخرى كالصخرة الصماء التي يصعب اختراقها.

جدير بالذكر هناك تفاوت بين مواضع الغفلة ومواطن الحيرة؛ فالغفلة تطلق حيث لا يلتفت الإنسان إلى أمر ولا يرى أخطاره المحدقة

به؛ أو كأمراض الخالية من الألم وفجأة يصاب بها الإنسان فلا يشفى منها.
 أما مواطن الحيرة؛ فالإنسان يلتفت فيها إلى الأخطار، إلا أنه لا يعرف كيف يواجهها.
 على كل حال فإن هذا الطبيب الروحي السيار إنما يتجول بحساب وبرنامج حيثما حل، فيشفى المرضى ويمنحهم العافية والسلامة.
 نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٣٥

القسم الرابع: اشباح بلا أرواح

إشارة

«قَدِ انْتَحَبَتْ السَّرَائِرُ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ، وَوَضَحَتْ مَحَجَّةً لِخَابِطِهَا وَأَشْفَرَتْ السَّاعِيَةَ عَنْ وَجْهِهَا، وَظَهَرَتْ الْعَلَامَةَ لِمَتَوَسِّمِهَا. مَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحًا بِلَا أَرْوَاحٍ، وَأَرْوَاحًا بِلَا أَشْبَاحٍ، وَنَسَاكَ بِلَا صِيْلَاحٍ، وَتَجَارًا بِلَا أَرْبَاحٍ، وَأَيْقَاطًا نَوْمًا، وَشَهُودًا غَيْبًا، وَنَاطِرَةً عَمِيَاءَ، وَسَامِعِيَةً صِيْمَاءَ، وَنَاطِقَةً بِكَمَاءَ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضوع من الخطبة إلى وضع المنافقين والمعاندين من بنى أمية، فقال عليه السلام سرائرهم وبواطنهم ظاهرة لأهل البصائر، وقد إتضح سبيل الحق لسالكه (وعليه فقد تمت الحجّة على الجميع)
 «قد انجابت [٦٥٥] السرائر لأهل البصائر، ووضحت محجة الحق لخابطها [٦٥٦]».

ثم قال عليه السلام:

«واسفرت [٦٥٧] الساعة عن وجهها، وظهرت العلامة لمتوسمها».

يمكن أن يكون المراد من علامات ظهور القيامة، بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بصفته خاتم

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٣٦

الأنبياء عليه السلام وآخر بنى من أنبياء الله، وكذلك ظهور الفتن في العالم الإسلامي وعلى الأرض، وليست هناك من منافاة بين هذا الأمر ومرور آلاف السنين، لأن هذا الزمان قصير جداً إذا ما قورن بعمر الدنيا.

فقد ورد في الحديث النبوي أنه صلى الله عليه وآله قال:

«بعثت أنا والساعة كهاتين وضم السبابة والوسطى» [٦٥٨].

ونخلص ممّا سبق إلى أن اتضح السرائر ووضوح سبيل الحق واقتراب الساعة لمن دواعى يقظة الغافلين من نوم الغفلة والتوبة إلى الله من الذنوب والمعاصي وسلوك طريق الحق والاستقامة عليه.

ومن هنا يتعجب الإمام عليه السلام لعدم وجود ردود الفعل المناسبة من قبل الناس ازاء هذه الامور فقال عليه السلام:

«مالي أراكم اشباحا بلا أرواح، وأرواحاً بلا أشباح، ونساکاً [٦٥٩] بلا صلاح،

وتجاراً بلا أرباح وأيقاظاً [٦٦٠] نوماً [٦٦١]، وشهوداً غيباً، وناظرة عمياء، وسامعة صماء،

وناطقة بكماء».

العبارة:

«أشباح بلا أرواح، وأرواح بلا أشباح»

بعض الجماعات التي لها قدرة ظاهرية بينما ليس لها من تفكير أو تدبر، أو أنها مفكرة ومدبرة لكنها تفتقر إلى قدرة الاستخدام. ومن

الطبيعى ألا- تكون كلا- الجماعتين على صواب وليس من شأنها فعل شىء، كخواء الجسم الذى لا روح فيه والروح التى لا جسم لها. والعبارة:

«نسا كابلا صلاح»

إشارة إلى العبادات الجوفاء لعباد ذلك الزمان. لأن الأثر الأول للعبادة إنما يتمثل بالتربية والصلاح الإنسانى؛ فاذا لم يكن العبد صالحاً كان ذلك دليل على أن عبادته قشر لا لب فيه.

والعبارة

«تجاراً بلا أرباح»

يمكن أن تكون إشارة إلى ماورد فى سورة العصر: «وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٣٧

والعبارة

«أيقاظانوماً»

والعبارات الأربع القادمة إشارة إلى الأفراد اليقظين ظاهراً ولهم حضور فى الساحة ويتمتعون بالسمع والبصر والنطق، إلا أنهم لا يدون أى رد فعل تجاه الحوادث الحسنة والسيئة، وكأنهم نيام غير شهود، ولا سمع لهم ولا بصر ولا كلام.

نعم فالإسلام يرى وجود كل شىء فى آثاره، والإنسان الحى الذى لا اثر له كأنه فى عداد الأموات، ومن لا بصيرة له فهو أعمى، وقد ورد هذا المعنى كراراً فى القرآن بشأن المنافقين من الأفراد عديمى الإيمان، كالاية: «صُمُّ بَكْمٌ عُمَّى فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ» [٦٦٢] وما شابه ذلك فالذى يستفاد من كلامه عليه السلام أنه وبخ بشدة أصحابه على عدم ابداء أى رد فعل تجاه بنى أمية بعد أن اتضح لهم باطنهم وخبث مقاصدهم، وكأنهم نيام فقدوا السمع والبصر والنطق، فلا يابهون بجنايات بنى أمية. ولا يعلمون أى مصير مظلم ينتظر الإسلام و المسلمين.

تأمل: الوجود الباهت كالعدم

عادة ما ينظر إلى وجود الأشياء وعدمها من خلال عينيتها فى الخارج، بينما ينظر إليها فى المنطق القرآنى والروائى على أساس الآثار والمعطيات. وعليه فقد يرى بعض الأحياء فى عداد الموتى إذا ما انعدمت آثارهم والعكس الصحيح فقد يرى الموتى أحياءً بفعل عطائهم وآثارهم.

وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى كراراً. فقد خاطب النبى الاكرام صلى الله عليه وآله بالقول: «إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» [٦٦٣].

ومن المسلم به أن المراد بالموتى والصم هنا الأفراد الذين يتمتعون بظاهر والحياة لهم أذان سامعة؛ إلا أن القرآن عددهم أمواتاً حين اتخذوا موقف المتفرج ازاء دعوة النبى صلى الله عليه وآله.

ثم قال فى موضع آخر: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا» [٦٦٤].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٣٨

قال أمير المؤمنين على عليه السلام لكميل بن زياد:

«هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر: أعيافهم مفقودة، وأمثالهم فى القلوب موجودة» [٦٦٥].

ولو اعتمدنا المقياس القرآنى والروائى فى تقييم الأفراد والحضارات والمدنيات وسائر الامور، لرأينا العالم بحلة جديدة اخرى، والحق

لابد أن يكون هذا هو المعيار والمقاييس، وذلك لأن الكائن الحي من كان له آثار حيوية، ومن افتقر لهذه الآثار فهو ميت. والأموات الذين يخلفون بعض الآثار فهم أحياء مادامت آثارهم الوجودية قائمة في المجتمع البشري. ولما كانت آثار الشهداء في سبيل الله باقية، فهم أحياء خالدون (بغض النظر عن الحياة البرزخية). ليس للظلمة والطغاة سوى الموت كيف لا- وهم يخلفون هذا الفساد والدمار.

ومن هنا نعت الإمام عليه السلام تلك الجماعة من أهل الكوفة والعراق بأنها أشباح بلا أرواح وابقاظ نوماً وشهود غيباً من خلال ذلك المعيار القرآني والروائي.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٣٩

القسم الخامس: طغاة بني أمية يأتون على الأخضر واليابس

إشارة

«رَأْيَهُ ضَلَالٌ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعْبِهَا، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا، وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا. قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، قَائِمٌ عَلَى الضَّلَّةِ؛ فَلَا يَبْقَى يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلَّا نَفَالَةٌ كَثْفَالُهُ الْقَدْرُ، أَوْ نَفَاضَةٌ كَنَفَاضَةِ الْعِجْمِ، تَعْرُكُكُمْ عَزَكِ الْأَدِيمِ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ، وَتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمْ اسْتِخْلَاصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةَ الْبُطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ».

الشرح والتفسير

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن هذا المقطع من الخطبة منفصلاً عن الأقسام السابقة، ويرون أن بينهما مطالب أخرى حذفها السيد الرضى (ره) جرياً على عاداته في اقتطاف بعض المقاطع من الخطب على أساس فصاحتها وبلاغتها. ومن هنا اعتبر اولئك الشراح هذا المقطع إشارة إلى حوادث وفتن آخر الزمان. في حين لا يرى البعض الآخر من الشراح انفصالاً بين هذه المقاطع، ومنهم ابن ميثم البحراني، فيرى هذا الكلام في طغاة بني أمية وحكامهم الظلمة، ويبدو هذا الاحتمال قريباً لأن عادة السيد الرضى (ره) حين يحذف بعض مقاطع الخطبة يذكرها بقوله (ومنها ومنها)، الأمر الذي شاهدناه بوضوح في الخطب السابقة.

على كل حال قال الإمام عليه السلام:

«رأية ضلال قد قامت على قطبها، وتفرقت بشعبها»

. ورغم أن ذلك اخبار عن الحوادث الآتية ليتأهب الناس ويقللوا من اضرارها وخسائرها إلى أقل حد ممكن، مع ذلك فقد أوردتها بصيغة الفعل الماضي، أي أن مثل هذه الامور واقعه لا محالة!

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٤٠

كما صرح بذلك الادباء بأن المضارع المتحقق الوقوع بمنزلة الماضي. والعبارة

«قد قامت على قطبها»

إشارة إلى أن رأية الضلالة التي سترفعها الطغمة الفاسدة والمفسدة من بني أمية على درجة من الثبات والرسوخ بحيث لا يمكن الاطاحة بها بهذه السهولة.

والعبارة

«تفرقت بشعبها»

وإن بدت ظاهراً في تفرق فروع هذه الرأية، إلا أن المراد في الواقع فرقة الانصار في البلاد الإسلامية، ثم قال عليه السلام:

«تكيلكم [٦٦٦] بصاعها، وتخبطكم بباعها [٦٦٧]»

فى إشارة إلى أنهم يحملونكم على أساس معاييرهم، فمن وافقها رغبوا فيه وإلا فلا، كما يحتمل أن يكون المراد بالعبارة الأولى أنهم يمسكون بجميع مقدراتكم، ويعطون لكل شخص ما يريدون.

والعبارة

«تخبطكم بباعها»

بالنظر إلى «تخبط» التى تعنى تساقط ورق الأشجار بضرب الخشب وباع بمعنى الأيدى المفتوحة إشارة إلى أنهم يستذلونكم بكل ما اوتوا من قوة، وهذا هو أسلوب الحكام الظلمة الذين يحرقون الأخضر واليابس فى البلاد. وهذا هو أسلوب الحكومات المستبدة التى تسوق الجميع حسب معاييرها ويفنى كل من يخالف تلك المعايير.

ثم يصف عليه السلام هذه الحكومة الجائرة بأنها خارجة عن الإسلام، وقائمة على أساس الضلال والفساد:
«قائدها خارج من الملة، قائم على الضلة»

. هذه العبارة التى تشير إلى معاوية أو سائر حكام بنى أمية، ناظرة إلى هذه المعنى وهو أن زعماء هذه الجماعة ليس فقط لا يعملون على ضوء قوانين الإسلام ويتجاوزون ضروريات الدين فحسب، بل أساس عملهم ونشاطهم هو الضلال؛ الأمر الذى يشهد به التاريخ. ثم أشار عليه السلام إلى النهاية المأساوية لهذه الأحداث فى أنه لا يبقى منكم آنذاك إلا النزر اليسير كالأذى يتبقى فى قدر فاذا حرك وقع:

«فلا يبقى يومئذ منكم إلا نفاة [٦٦٨] كثقاله القدر، أو

نفاضة [٦٦٩] كنفاضة الحكم [٦٧٠].»

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٤١

فالعبارة تفيد عدم سلامتهم فيها سوى القلة القليلة منهم، لأن هؤلاء الظلمة لا يدعون بقاء أحد من المؤمنين الصالحين. ولا يكتفون بذلك بل:

«تعركم [٦٧١] عرك الأديم [٦٧٢] وتدوسكم [٦٧٣] دوس الحصيد»

. ويفصلون أهل الإيمان منكم فيقضون عليهم كما تلتقط الطيور الحبوب القوية من الضعيفة:

«وتستخلص المؤمن من بينكم استخلاص الطير الحبة البطينة [٦٧٤] من بين هزيل [٦٧٥] الحب».

فى إشارة إلى أن ظلمهم يعم الجميع، إلا أن ظلمهم وجورهم يتضاعف تجاه المؤمنين من الأفراد.

تأمل: الحكومات المستبدة

إن ما أورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة وإن كان أخباراً عن بنى أمية وحكومتهم فى المستقبل، إلا أنه يبدو أن ذلك يمثل قانوناً عاماً كلياً بشأن كافة الحكومات المستبدة الجائرة، فهى تجهد من أجل ترسيخ دعائمها واعتماد المعايير اللازمة لضمان منافعها وديمومتها، والتعامل بمنتهى العنف والقوة مع من يهب لمعارضتها، فتقمع العناصر المؤمنة ولا سيما الناشطة منها، فهى لا تعرف أية قيمة لقانون أو رافة ورحمة وإنسانية، كما لا تأبه بحقوق الناس؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى الحكومات المعاصرة.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٤٣

القسم السادس: احذروا المستقبل المشؤوم

«أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمْ الْمَذَاهِبُ، وَتَيِّبُهُ بِكُمْ الْعِيَاهُ وَتَحْدَعُكُمْ الْكَوَاذِبُ؟ وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتُونَ، وَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ؟ فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ آيَاتٌ، فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّائِكُمْ، وَأَحْضِرُوا قُلُوبَكُمْ، وَاسْتَيْقِظُوا أَنْ هَتَفَ بِكُمْ. وَلِيُصَدِّقَ رَأْيَ أَهْلِهِ، وَلِيَجْمَعَ شَمْلَهُ، وَلِيُحْضِرَ ذَهْنَهُ، فَلَقَدْ فَلَقَ

لَكُمْ الْأَمْرَ فَلَقَ الْخَرْزَةَ، وَقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَا خَذَهُ، وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاجِبَهُ، وَعَظُمَتِ الطَّاعِيَةُ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ، وَصَيَّالَ الدَّهْرُ صَيَّالَ السَّيِّعِ الْعُقُورِ، وَهَيَّدَرَ فَنِيْقُ الْبَاطِلِ بَعِيدَ كُظُومٍ، وَتَوَاحَى النَّاسُ عَلَى الْفُجُورِ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ، وَتَحَابُّوا عَلَى الْكُذِبِ، وَتَبَاعَضُوا عَلَى الصُّدُقِ».

الشرح والتفسير

خاطب عليه السلام صحبه من أجل الفات نظرهم إلى ما ينتظرهم من حوادث صعبةً مأساويةً- ستصيب المسلمين في المستقبل- بهدف كبس خسائرها واضرارها أو إرشادهم إلى طرق الإبتعاد عنها، فقال عليه السلام:

«أين تذهب بكم المذاهب، وتتيه [٦٧٦] بكم الغياهب [٦٧٧] وتخدعكم

الكواذب؟ ومن أين تؤتون، وأنى تؤفكون»

. وهكذا قام عليه السلام هذا الزعيم الربانى بايقاظ مخاطبيه من نوم الغفلة واعددهم لسماع قول الحق، ثم لفت انتباههم إلى الموت وانتهاء أجل الإنسان، فقال عليه السلام:

«فلكل أجل كتاب، ولكل غيبة إياب».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٤٤

فلا تتصوروا أن أعماركم ممتدة لانهاية لها وأن الفرصة سانحة على الدوام لتدارك ما فرط، ولا تظنوا أن أعمالكم خافية مستترة ولا تعود عليكم، فالموت حق والعمر محدود والأعمال محفوظة عند الله تنتظر الثواب أو العقاب.

وعليه فالمراد بقوله:

«لكل غيبة إياب»

إما الموات وأعمال الإنسان!

كما نرى مثل هذا التعبير فى سائر خطب نهج البلاغة. فقد خاطب عليه السلام الامّة فى الخطبة ٨٣ داعياً إياها إلى التوبة قبل حلول الموت الذى عبر عنه بالقول:

«قبل قدوم الغائب المنتظر».

كما ورد مثل هذا المعنى فى الخطبة [٦٤] [٦٧٨].

ثم قال عليه السلام:

«فاستمعوا من ربانيكم، واحضروه قلوبكم، واستيقظوا إن هتف [٦٧٩] بكم»

. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالنصح والوعظ والتحذيرات، على أن الزعيم لابد أن يتحدث بصدق إلى اتباعه، ويحرص على

لم شملهم وجمع كلمتهم، ويحضر لديهم ذهنه بغية نجاتهم وانقاذهم وهذا ما عليه الحال بالنسبة لزعيمكم

«وليصدق رائد [٦٨٠] أهله، وليجمع شمله [٦٨١]،

وليحضر ذهنه»

. وخلاصة القول فإنّ لزعيم الجماعة وظيفته، كما للامة وظيفته أيضاً، فهو يجب عليه أن يبين للامة الواقع والحقائق من جانب، ومن

جانب آخر عليه أن يجمع أفرادها وينظمهم ويمنحهم فكره وذهنه، فاذا قام الإمام بهذه الامور، كانت وظيفته الامه تتمثل بالجد

والاجتهاد من أجل امتثال أوامره.

ثم قال عليه السلام:

«فلقد فلق [٦٨٢] لكم الأمر فلق الخرزة [٦٨٣]، وقرفه [٦٨٤] قرف الصمغة»

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٤٥

فالعبارة كناية عن بيان الحقائق والواقعات واظهار باطن الامور، والعبارة:

«قرفه قرف الصمغة» [٦٨٥]

إشارة إلى أنى أخرجت لكم عصارة المطالب وجوهرتها، كما تجرى تلك المادة اللزجة من الأشجار. خاض الإمام عليه السلام هنا ثانية في الحديث عن الحوادث القادمة التي ذكرها سابقاً حيث أتمها ببيان الوقائع الإجتماعية والأخلاقية والدينية للحكومات المستبدة، وقد أوضح الآثار المختلفة الإجتماعية والدينية لهذه الحكومات. وإرتباط هذا القسم من الخطبة بالأقسام السابقة واضح تماماً، وإن تخللها بعض العبارات لإيقاظ أصحابه. والعجيب ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغة من مجانية هذا القسم للأقسام السابقة بفعل عادة السيد الرضى (ره) فى الإقتطاف، وكأن هذا الإقتطاف الرائع للسيد أصبح ذريعة لمن لم يتأمل الإرتباط بين أقسام الخطبة ليحملها جامع نهج البلاغة.

ثم قال عليه السلام:

«فعند ذلك أخذ الباطل ماخذه، وركب الجهل مراكبه، وعظمت الطاغية، وقلت الداعية».

يمكن أن يكون للطاغية هنا معنى مصدرى: أى أن الطغيان يكبر ويتسع على مستوى المجتمع، كما يمكن أن يكون لها معنى اسم الفاعل؛ أى يستفحل أمر طائفة طاغية، ويقل عدد دعاة الحق أمامها، فأما أن تقضى عليهم أو تقصيههم عن الساحة الاجتماعية، وهذه أهم الأخطار التى تنتبثق من هذه الحكومات الباطلة المستبدة التى تجهد فى كم أفواه دعاة الحق.

ثم قال عليه السلام:

«وصال الدهر صيال السبع العقور، وهدر فنيق الباطل بعد كظوم».

نعم فقد اقتحمت الساحة ثانية من قبيل الجماعات المنافقة وسليلة الجاهلية- التى طردت من الميدان- أثر ضعف دعاة الحق. وعلى هذا الضوء تقلب كافة الموازين والقيم:

«وتوافى الناس على الفجور، وتهاجروا على الدين، وتحابوا على الكذب، وتباغضوا على الصدق».

وهكذا وبمقتضى

«الناس على دين ملوكهم»

فإن هؤلاء الحكام الفسقة والفجرة عديمى الدين يجدون فى طبع الامة بهذه الصفات الخبيثة بحيث يحيلون الساحة الإسلامية إلى جحيم

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٤٦

لا يطاق.

ورغم أن الدين يشمل ترك الكذب والفجور، وهجر الدين يعنى هجر القيم والمثل، إلا أن الإمام عليه السلام يركز بالخصوص على مسألة الفجور والكذب، لأن هذه الرذائل لمن من أخطر الرذائل التى تفرزها طبيعة الحكومات المستبدة الفاقدة للدين، حيث تركز على الفساد والتحلل الأخلاقى والكذب.

أما التعبير

«توافى وتهاجروا وتحابوا وتباغضوا»

تشير إلى نقطة لطيفة وهى أن الناس فى مثل هذه المجتمعات تتجه زرافات وجماعات نحو الكذب والفجور، وبعبارة اخرى ليس لها من بعد فردى، بل بعد اجتماعى عظيم الخطر.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٤٧

إشارة

«فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الْوَلَدُ غَيْظًا، وَالْمَطَرُ قَيْظًا، وَتَفِيضُ اللَّئَامِ فَيْضًا، وَتَغْيِضُ الْكِرَامِ غَيْضًا، وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذُنَابًا، وَسَلَّطِينُهُ سِبَاعًا، وَأَوْ سَيَاطُهُ أَكَالًا، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتًا؛ وَغَارَ الصِّدْقُ، وَفَاضَ الْكَذِبُ، وَاسْتَعْمَلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ، وَصَارَ الْفُسُوقُ نَسَبًا، وَالْعَفَافُ عَجَبًا، وَلَبَسَ الْإِسْلَامُ لُبْسَ الْفَرْزِ مَقْلُوبًا».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام بحثه السابق في الأخبار عن المستقبل وسيطرة الحكام الظلمة والأعمال الوحشية التي يمارسونها بحق الناس، في التعرض إلى جانب آخر من الآثار المشؤومة لهذه الحكومات، والوضع الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي للناس في ظل هذه الحكومات.

فتطرق عليه السلام بادی الأمر إلى الأولاد الذين يثيرون غضب آبائهم، وأصبح المطر قَيْظًا، وانتشر اللئام في كل مكان وقل الاختيار:

«فإذا كان ذلك كان الولد غيظًا [٦٨٦] والمطر قَيْظًا [٦٨٧]

وتفيض اللئام فيضًا [٦٨٨] وتغيض الكرام غيضًا [٦٨٩].»

في إشارة إلى أن رذائل السوء للحكام الظلمة إنما تخترق الأسر والعوائل، والأولاد الذين

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٤٨

ينبغي أن يكونوا قره أعين والديهم ومصدر سعادتهم وخيرهم، يكونون سبب شقائهم وبؤسهم.

من جانب آخر تتضح الآثار الوضعية لهذه الأعمال السيئة في عالم الطبيعة والنعم الإلهية، كما ينزل المطر في الصيف فيدعو إلى الانزعاج وضياح المحاصيل الزراعية بدلًا من نزوله في فصل الشتاء فيؤدي إلى برودة الجو وتلطيفه.

أضف إلى ذلك وإثر انقلاب القيم وضياحها يفتح الميدان لحتالة المجتمع فيصولون ويجولون فيه، الأمر الذي يعني إقصاء الأختيار والصالحين من الساحة، فهذه العناصر الأربعة تشاهد بوضوح في كل حكومة طاغية مستبدة.

ثم واصل كلامه عليه السلام بالإشارة إلى أربع صفات حيث قسم الفئات الاجتماعية آنذاك إلى أربع وقال:

«وكان أهل ذلك الزمان ذنابًا، وسلطينه سباعًا، وأوساطه أكالًا، [٦٩٠] وفقراؤه

أمواتًا».

والمراد بأهل ذلك الزمان أعوان الحكام الظلمة وعمالهم وولاتهم.

فإذا كان السلطان ذنبًا ضارياً، كان من الطبيعي أن تكون هذه هي صفة بطانته، كما أن من الطبيعي أيضاً أن تكون الطبقة المتوسطة من المجتمع فريسة لهذه الذناب، أما الفقراء فيعترتهم النسيان وكأنهم أموات محوا من صفحة التاريخ.

وكان الإمام عليه السلام قد طالع عن كتب كافة تفاصيل التاريخ البشري، فكشف النقاب بهذه العبارات القصيرة عن عمق مميزات الحكومات المستبدة الطاغية.

ثم إختتم عليه السلام خطبته بالإشارة إلى سبع ظواهر مقيته في هذه المجتمعات والتي تمثل قمة البؤس والشقاء. حيث قال سيزول الصدق في ذلك الزمان ويكثر الكذب وظهرت المودة على اللسان في حين انطوت القلوب على البغض والعدوان، ويتفاخر بالذنب ويندهش من العفة والطهر،

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٤٩

فيلبس الإسلام ثوباً مقلوباً:

«وغار [٦٩١] الصدق، وصار الفسوق نسبا، والعفاف عجباً،

ولبس الإسلام لبس الفرو [٦٩٢] مقلوباً.

يمكن أن تكون العبارة

«غار الصدق، وفاض الكذب»

وبالالتفات إلى معنى الغور الذى يعنى الانتشار داخل الأرض وفاض من فيض بمعنى الماء الوفير أو المطر وأمثال وذلك، إشارة إلى ذلك الزمان وكأنّ عيون الصدق قد غارت فيه فى الأرض بينما جفت بساتين الحياة الإنسانية اثر ابتعادها عن هذه المياه، وبدلاً من ذلك فقد عم وانتشر الكذب وكأنه الماء المالح الذى يخرب كل شىء.

والعبارة

«صار الفسوق نسباً»

تفيد مدى اقتراب الفسقة من بعضهم وتوطيد أواصرهم وكأنهم قرابة ونسب.

وقد فسر بعض شراح نهج البلاغة الفسوق هنا بالزنا؛ أى يكثر أولاد الحرام فى المجتمع، وينسجم هذا التفسير والعبارة: «والعفاف عجباً».

الاحتمال الآخر فى تفسير هذه العبارة أنّ الفسقة يفتخرون بفسقهم، كما تفتخر العرب بنسبها، وعلى العكس من ذلك فإنّ الأفراد من أهل الطهر والعفاف يشعرون بالخجل إثر ذم المجتمع وملامتهم لهم.

والعبارة:

«لبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً»

إشارة إلى نقطة لطيفة وهى أنّ حكام الجور والفسقة والفجرة لا يسعون إلى القضاء على الإسلام وسلب الناس دينهم، بل يحرفون الإسلام ويقبلون محتواه من أجل تحقيق أطماعهم وآرئهم. وشهد تاريخ الحكومات المستبدّة ولاسيما حكومة بنى أمية على صدق هذا الكلام.

طبعى أنّ اللباس إذا قلب لم يعد له من شبه بثياب الناس، بل يبدو من يرتديه حيواناً، أما ذكر هذه العبارة بعد الحديث عن مفاصد ذلك الزمان يمكن أن يكون من قبيل ذكر العام بعد الخاص؛ لأنّ الإسلام إذا قلب كان الكذب بدل الصدق والفسوق بدل العفاف وسائر الرذائل بدل الفضائل والقيم.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٥٠

تأمل: آثار سلطة الأوباش

لقد رسم الإمام عليه السلام فى هذه الأقسام الثلاثة من الخطبة صورة واضحة بيانه للاحداث القادمة التى ستواجه المجتمع الإسلامى عن كافة الحكومات الطاغية والمستبدّة على مدى التاريخ.

حيث تسعى هذه الحكومات لتقوية دعائمها فان استتبت لها الامور واستقرت أقصت كافة الأخيار والشرفاء عن الميدان، واستقطبت بطانتها من حثالة المجتمع ليمارسوا أبشع الأساليب بحق الناس ولا سيما المؤمنين، كما يسعون إلى سوق الناس لأن يعيشوا فى هالة من الجهل والتخبط.

الكذب هو السائد والصدق غائب، والفسوق عامر والطهر ضامر. أضف إلى ذلك فإنّ الناس سرعان ما تكتسب رذائل الحاكم، ولاغرو فالناس على دين ملوكهم. وزبد الكلام فإنّ قيم المجتمع ومثله تقلب تماماً على سبيل المثال يكون الفسق والفجور فخراً، بينما يصبح الطهر والعفاف نقصاً.

وبالطبع فإنّ مثل هذه الحكومات لا تقف بوجه الدين فى الأوساط الدينية بل تسعى جاهدةً لتحريفه واخلائه من محتواه بغيةً تمرير

مخططاتها، إلى جانب تعبئة الرأي العام لصالحها من خلال ترويجها للخرافات التي تستهوي العوام. والحق اننا إذا اعتمدنا هذه المعايير التي أوردتها الإمام عليه السلام تجاه عالمنا المعاصر ولاسيما غالبية البلدان الإسلامية لرأيها مصداقا واضحا لما ذكر، وكان الإمام عليه السلام كان ينظر لكافة الأحداث التي تشهدها مجتمعاتنا اليوم. أما ما أوردته الإمام عليه السلام من نبوءة في هذه الخطبة فأنما يشبه بعض مضامين الروايات التي نقلت عن رسول الله صلى الله عليه و آله فقد جاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه و آله قال:

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ وَجُوهُهُمْ وَجُوهُ الْإِدْمِيِّينَ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ، كَأَمْثَالِ الذَّنَابِ الضَّوَارِي، سَيَفَاكُونَ لِلدَّمَاءِ، لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرِ فَعْلُوهُ، إِنْ تَابَعْتَهُمْ إِذْ تَابُواكَ وَإِنْ حَدَّثْتَهُمْ كَذْبُوكَ، إِنْ تَوَارَيْتَ عَنْهُمْ اغْتَابُواكَ. أَلَسْتُ فِيهِمْ بِدَعَاةٍ وَبِدَعَاةٍ فِيهِمْ سُنَّةٌ،

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٥١

وَالْحَلِيمِ مِنْهُمْ عَادِرٌ، وَالْعَادِرُ بَيْنَهُمْ حَلِيمٌ، الْمُؤْمِنُ فِيمَا بَيْنَهُمْ مُشْتَرَفٌ، وَالْفَاسِقُ فِيمَا بَيْنَهُمْ مُشَرَّفٌ ... فَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْرِمُهُمُ اللَّهُ قَطْرَ السَّمَاءِ فِي أَوَانِهِ، وَيُنزِلُهُ فِي غَيْرِ أَوَانِهِ، وَيُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ شِرَارَهُمْ...» [٦٩٣].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٥٣

الخطبة [٦٩٤] المائة و تسع

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام في بيان قدرة الله وانفراده بالعظمة وأمر البعث

نظرة إلى الخطبة

تعد هذه الخطبة من أفصح وأبلغ خطب نهج البلاغة إلى جانب عظم محتواها ومن هنا أسموها بالزهراء. حتى صرح ابن أبي الحديد قائلاً: من أراد أن يتعلم الفصاحة والبلاغة، ويعرف فضل الكلام بعرضه على بعض فليتأمل هذه الخطبة، فإن نسبتها إلى كل فصيح من الكلام نسبة الكواكب المنيرة الفلكية إلى الحجارة المظلمة الأرضية، ثم لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء، والجلالة والرواء والديباجة وما تحدثه من الروعة والرهبنة والمخافة والخشية؛ حتى لو تليت على زنديق ملحد مصمم على اعتقاد نفي البعث والنشور لهدت قواه، وأرعبت قلبه، وأضعفت على نفسه، وزلزلت اعتقاده. [٦٩٥]

والخطبة تتألف بصورة عامة من ثمانية أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن عظمة قدرة الله وعجز المخلوقات أمامه حيث يورد بعض الامور الدقيقة بهذا الشأن.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٥٤

القسم الثاني: في خلقه الملائكة وبعض صفاتها وخصائصها، التي ستحقر عبادتها تجاه عظمة الحق، لو اطلعت على اسرار الغيب، رغم اجتهادها وذوبانها في العبادة والطاعة.

القسم الثالث: عن غفلة العباد واقبالهم على الدنيا وابتعادهم عن دعوة الأنبياء مع وجود الآخرة ونعمها الدائمة.

القسم الرابع: يعالج عشاق الدنيا من أهل الذنوب والمعاصي حين الموت، بعبارات بليغة مؤثرة تسوق الغافل إلى التفكير وإعادة النظر في سلوكه وتصرفاته.

القسم الخامس والسادس: حول القيامة ومقدمات يوم الحساب وسؤال الإنسان عن أعماله، وسعادة المؤمنين، وتعاسة المذنبين وعاقبة

كل من هاتين الطائفتين.

القسم السابع: عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وزهده بالدنيا ورغبته عنها. وكونه الأسوة التي ينبغي لأهل الايمان الاقتداء بها.

القسم الثامن: عن أهل البيت عليهم السلام واتباعهم وعظم منزلتهم.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٥٥

القسم الأول: الصفات الكمالية لله

«كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ: غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَفْرَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ. مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مَاتَ فَالِيهِ مُنْقَلَبُهُ. لَمْ تَرَكَ الْعِيُونَ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ. لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لَوْحَشِدِهِ، وَلَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَتِهِ، وَلَا يَسْبِقُكَ. مَنْ طَلَبْتَ، وَلَا يُفْلِتُكَ، مَنْ أَخَذْتَ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلَا يَزِيدُ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلَا يَشْتَعْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ. كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عِلَاقِيَّةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ. أَنْتَ الْأَيَّدُ فَلَا أَمِيدَ لَكَ، وَأَنْتَ الْمُتَنَهَى فَلَا مَحِيصَ عَنْكَ، وَأَنْتَ الْمُؤَعَّدُ فَلَا مَنْجِي مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ. بِيَدِكَ نَاصِيَةٌ كُلِّ دَابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ. سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنُكَ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا تَرَى مِنْ خَلْقِكَ! وَمَا أَصْغَرَ كُلَّ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَمَا أَهْوَلَ مَا تَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَمَا أَحْقَرَ ذَلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَمَا أَسْبَغَ نِعْمَكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نِعْمِ الْآخِرَةِ!».

الشرح والتفسير

كما ذكرنا سابقاً فإن هذه الخطبة من أعمق خطب نهج البلاغة و أروعها و أجملها، وقد تطرق عليه السلام في بداية الخطبة إلى أوصافه سبحانه وتعالى الجمالية والجلالية وصفات الأفعال بصورة واسعة جامعة.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٥٦

فاشار عليه السلام إلى عشر صفات من صفات الكمال:

«كل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به:

غنى كل فقير، وعز كل ذليل، وقوة كل ضعيف، ومفرع كل ملهوف».

فهذه الصفات الست تعود إلى قدرته المطلقة سبحانه ووجوده المطلق اللامحدود وحاجه جميع الممكنات إليه.

«خاشع»

من مادة

«خشوع»

تعنى فى الأصل الخشوع؛ مع ذلك لها مفهوم أوسع يشمل الخضوع الظاهري والباطني والتشريعى والتكويني. وعليه فخشوع كل شيء له بمعنى التسليم لله والانصياع لقوانينه.

وقيام كل شيء بالله من حيث إنه واجب الوجود وغيره ممكن الوجود، والممكن يتوقف على الواجب، كتوقف ضياء الشمس عليها. وإليه يعزى أيضاً غنى كل فقير وعز كل ذليل وقوة كل ضعيف؛ وذلك لأن الممكنات والمخلوقات لا تملك لنفسها شيئاً، وكل ما لديها من الله، وكل كمال تحصل عليه فأنما هو فيض من كماله المطلق.

ملهوف من مادة لهف تعنى فى الأصل الغم والههم الذى يعانى منه الإنسان اثر فقدانه لشيء:

كما تستعل أحياناً لمن يظلم من الأفراد ويصرخ مستغيثاً. ولما كانت قدرة الناس زهيدة لا تمكنهم من تحقيق كافة رغباتهم أو الحفاظ على مآلديهم، فإن حالة الههم والحزن تسيطر عليهم حين يفقدون سندهم المادى والمعنوى، فليس أمامهم من سبيل سوى اللجوء

إلى تلك الذات القادرة المقادرة من أجل حل مشاكلهم والتغلب على مصاعبهم.

والواقع هو أن ماورد سابقاً إنما اقتبس من عدة آيات قرآنية اشارت إلى هذه الصفات. فقد صرح القرآن في موضع: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» [٦٩٦]. وقال في موضع آخر: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» [٦٩٧]. وقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» [٦٩٨]. وقال: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُوتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [٦٩٩].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٥٧

ثم اردفها عليه السلام بست صفات اخرى

«ومن تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فالإله منقلبه»

. نعم فهو عليم بظاهرها وباطنها، وهو العالم بحياتنا وموتنا، وإنا إليه راجعون لا محالة.

والحق لو عشنا الإيمان على مستوى القلب والعمل بهذه الصفات التي بينها الإمام عليه السلام لكفتنا في اصلاح أنفسنا، لا بد أن نعلم بأن كل كالدنيا منه سبحانه، وعلينا أن نسأله كل ما نريد، فهو العالم بأسرارنا، وأن يوماً سنعود إليه ونمثل بين يديه في محكمته العادلة. ثم قال عليه السلام وقد ذكر بعضاً من صفات الخالق السلبية:

«لم ترك [٧٠٠] العيون فتخبر عنك، بل

كنت قبل الواصفين من خلقك»

. فالعبارة «لم ترك العيون» إشارة إلى أنه ليس بمخلوق ولا بجسم ليرى، وتبين صفاته من خلال الرؤية والمشاهدة.

والعبارة اللاحقة بمنزلة العلة؛ لأن الله كان منذ الأزل، ولا يمكن أن يكون جسماً. فالجسم حادث. وعليه فإن أردنا أن نصف الذات المقدسة علينا ان نستعين بما أورده انبياء الله وكتبه السماوية.

ثم اشار عليه السلام إلى ثمان صفات اخرى من صفات الجلال ذات البعد السلبي، وفي الواقع نتحدث عن غنى الحق المطلق.

«لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لَوْحَشِيهِ، وَلَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلَا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَلَا يُفْلِتُكَ [٧٠١]

مَنْ أَخَذْتَ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلَا يَزِيدُ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلَا يَبْتَغِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ».

نعم فهو الغنى عن الجميع، وكل كماله مصدره الحق سبحانه وليس لشيء من قدرة على تحدى إرادته- و عليه فخلق للمخلوقات يستند إلى فيضه لالذفع وحشة وحدة أو جلب

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٥٨

منفعة، فلا عبادة العباد تزيد من جلاله، ولا كفرهم ينال من كبريائه، فمن تولى عنه لم يستغن عنه، و من إعترض على قضائه لم يسعه دفعه. ثم ذكر الإمام عليه السلام خمس من صفاته الجمالية فقال:

«كل سر عندك علانية، وكل غيب عندك شهادة، أنت الابد فلا أمد لك، وأنت المنتهى فلا محيص [٧٠٢] عنك، وأنت الموعد فلا منجى منك إلا إليك»

. قد تبدو للوهلة الاولى مفردة

«سر» و «غيب»

بمعنى واحد، وكذلك مفردتى

«علانية» و «شهادة»

، ولكن لايبعد أن يكون المراد بالسر، الأسرار الباطنية للعباد التي يعلمها الله، وعبارة اخرى فإن كل سر علانية لديه، أما الغيب فيعنى

الحوادث الآتية، أو الماضية الغائبة على حسناً وشعوراً، أو الكائنات الموجودة حالياً في هذه السموات والأرض والتي لا يبلغها حسناً. [٧٠٣]

والعبارة أنت الأبد تأكيد لأبدية الله سبحانه. فهو على درجة من الأبدية وكأنه عينها وذاتها، فهو واجب الوجود، ومن هنا لا بداية له ولا نهاية، فالبدائية والنهاية من صفات المخلوقات المحدودة من مختلف الجهات.

والتعبير بالمنتهى والموعود صفتان متفاوتان بشأن الله سبحانه وتعالى فهو المنتهى بمعنى كل شيء ينتهى إليه: «انا لله وانا إليه راجعون»

، وليس لأحد القدرة على الفرار من محكمته عدله.

وقد قال القرآن الكريم صراحة: «وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا» [٧٠٤]. والرسالة التي تحملها هذه الصفات هو أن نعلم ونؤمن بان الله خبير عليم بكل شيء بما في ذلك بواطن أسرارنا وخفائنا، فما نكتمه على الخلق ليس بمكتوم على الخالق، واننا مرجعنا يوماً إلى محكمته العدل الإلهي، واخيراً لا يخفى الدور التربوي والحيلولة دون الوقوع في الذنب والمعصية إذا ما التفتنا إلى هذه الصفات.

ثم واصل عليه السلام كلامه مؤكداً على قدرة الله وعوده جميع الكائنات الحية إليه فقال:

«بيدك ناصية كل دابة، وإليك مصير كل نسمة»

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٥٩

فالتعبير بالناحية كناية عن تسليم المخلوقات لإرادة الله المطلقة. والتعبير بكل نسمة يعنى في الأصل هبوب الرياح المعتدلة، ثم اطلق على روح الكائنات الحية، في إشارة إلى أن كل موجود راجع إليه مائل في محكمته.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالقول:

«سبحانك ما أعظم شأنك! سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك! وما أصغر كل عظيمه في جنب قدرتك! وما أهول ما نرى من ملكوتك! وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك».

والحق ان عظمت هذا العالم وعمق غرائبه تتسع لدينا شيئاً فشيئاً كلما تقدمت مسيرة العلم وتطورت الأجهزة. وقد عبر أحد العلماء بأن عالم الخلق - حسب ما لدينا من معلومات - بمثابة المكتبة العظيمة التي تضم ملايين الكتب، وكرتنا الأرضية بكل ما فيها بمنزلة نقطة في صفحة من صفحات كتاب من تلك المكتبة الضخمة. كما صرح آخر بأن ما ثبت اليوم أن كواكب السماء على قدر من الكبر بحيث تذهل الإنسان. فكوكب الجوزاء يبلغ أكبر من كرتنا الأرضية ثلاثين مليارداً، هذا بالنسبة لكواكب واحد - وما أروع ما قاله الإمام عليه السلام بأن ماخفى عنا لأعظم مما نرى وقد قال ذلك حيث تنعدم الإكتشافات آنذاك وحين كانت الهيئة البطليموسية التي ترى صغر عالم الوجود هي السائدة في كافة الأوساط العلمية.

فقد انطلق الإمام عليه السلام في الواقع من خلال الرؤية القرآنية لهذه المسألة «لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» [٧٠٥].

ثم اختتم عليه السلام كلامه في بيان نعم الدنيا والآخرة فقال:

«وما أسبغ [٧٠٦] نعمك في الدنيا، وما

أصغرها في الآخرة».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٦١

ومنها:

«مِنْ مَلَائِكَةٍ أَسْكَنَتْهُمْ سَمَاوَاتِكُمْ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكُمْ، هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخَوْفُهُمْ لَكَ، وَأَقْرَبُهُمْ؛ لَمْ يَشْكُنُوا الْأَرْضَ لَمَّا، وَلَمْ يُضَمُّوا الْأَرْحَامَ، وَلَمْ يُخْلَقُوا «مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ» وَلَمْ يَشَدَّعْبَهُمْ «رَيْبَ الْمُنُونِ»؛ وَإِنَّهُمْ عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْكَ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ، وَاشْتِجَاعَ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ وَكَثْرَةَ طَاعَتِهِمْ لَكَ، وَقَلَّةَ عَقْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ، لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ لِحَقِّرُوا أَعْمَالَهُمْ، وَلَزَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنََّّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ».

الشرح والتفسير

لما فرغ الإمام عليه السلام من الحديث في الأقسام السابقة عن عظمة خلق الله وملكوت السموات، وأن ما نراه لأصغر بكثير عما خفى علينا من أسرار، أشار هنا إلى الملائكة بفضلها دلالة على عظمة خلق الله فقال عليه السلام:

«من [٧٠٧] ملائكة أسكنتهم سماواتك، ورفعتهم عن أرضك»

. لا شك أن ملائكة لا تقتصر على سكنة سماواته، فهناك ملائكة الأرض التي تحفظ أعمال الانس وتدبر الامور باذن الله وتتولى قبض الأرواح. لكن بالنظر إلى أن الإمام عليه السلام لم يبين بالعبارة المذكورة حكما كلياً بشأن الملائكة بل تحدث عن طائفة منها فليست هناك من مشكلة- ولا ضرورة لتلك التوجيهات التي ذكرها هنا بعض شراح نهج البلاغة.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٦٢

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه في الإشارة إلى بعض الصفات الثبوتية والسلبية لملائكة قائلاً:

«هم أعلم خلقك بك، وأخوفهم لك، وأقربهم منك».

فالصفات الثلاث مرتبطة مع بعضها؛ لأنه المعرفة العظمى للملائكة بالنسبة لذات الله تؤدي إلى خوفها، الخوف من التقصير في إداء الوظائف والمسؤوليات، والخوف الناشئ من عظمتها وهيبة مقامه. والصفتان تؤديان إلى قرب الملائكة من الله.

وهنا يبرز هذا السؤال كيف أن الملائكة أعلم من جميع المخلوقات بالله وأقربها إليه، والحال أنا نعلم أن أنبياء الله- ولا سيما نبي الإسلام- وحتى بعض الصالحين أفضل من الملائكة، وأفضل دليل على ذلك سجود كافة الملائكة لآدم، وأفضليته عليهم من حيث العلم والمعرفة، وقد ورد في الحديث أن طائفة من الملائكة تقوم على خدمة الأنبياء والصلحاء والمؤمنين، كما هناك الحديث المشهور عن تركيب خلق الإنسان من العقل والشهوة والملائكة من العقل دون الشهوة، فإن غلب عقله شهوته كان أفضل من الملائكة، هو الآخر دليل على أفضلية الإنسان على الملائكة [٧٠٨] ويمكن القول في الاجابة على هذا السؤال: المراد العلمية والقرب النسبي، وبعبارة اخرى فإن العبارة المذكورة شبيهة الحصر الاضافي، كما يمكن القول أن العبارة حكم عام يستثنى منه الأنبياء والأولياء.

ثم أشار إلى صفاتهم السلبية بعدم وجود نواقص في الملائكة على غرار الناس، فذكر أربع صفات منها:

«لم يسكنوا الأضلاب، ولم يضمّنوا الأرحام، ولم يخلقوا من ماء مهين [٧٠٩] ولم

يتشعبهم [٧١٠] ريب [٧١١] المنون».

من الواضح أن الاستقرار في مكان محدود كصلب الأب ومن ثم رحم الام، والخلق من قطرة ماء تبدو تافهة، لهو نقص في الإنسان؛ والحال ليست الملائكة كذلك، فلا من زواج ولا ولادة كالإنسان.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٦٣

أضف إلى ذلك فهي لا تموت ولا تتغير بسبب الزمان، ولا تمرض ولا تشيب وتعجز.

فوجود هذه المميزات وإن كانت من علامات شرف خلقه الملائكة، وأن الإنسان لا شك هو أسمى مقاماً منها من هذه الناحية. إلا أن سبب عظمة الإنسان وأفضليته على الملائكة إنما تعود إلى روحه التي أشارت إليها الآية الشريفة: «نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» [٧١٢].

ومن هنا سجد الملائكة كلهم أجمعون لآدم عليه السلام.

أما هدف بيان الإمام عليه السلام لكل هذه الصفات ما أراد ذكره في العبارات اللاحقة «وأنهم على مكانهم منك، ومنزلتهم عندك، واستجماع أهوائهم فيك، وكثرة طاعتهم لك، وقلة غفلتهم عن أمرك، لو عاينوا كنه ما خفى عليهم منك لحقروا أعمالهم، ولزروا [٧١٣] على أنفسهم، ولعرفوا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك، ولم يطيعوك حق طاعتك».

نعم فالملائكة ورغم تلك المعرفة والمقام الشامخ، فهي قاصرة عن معرفة عظمتها ودائرة صفاته في الجمال والجلال، وعليه فلو فرض تعرفها على الله كما هو، لاكتشفوا أنهم لم يعبدوه كما هو أهله ولم يطيعوه كما يستحقه. وكل ما أدوه ذرة لا قيمة لها ولا وزن. فالعبارة تفيد من جانب أن معرفة الإنسان بالله كلما تسامت، تضاعفت عبادته وطاعته لله. كما تفيد من جانب آخر أن أحداً لم يعبد الله حق عبادته، كما أن أحداً لم يعرف الله حق معرفته، وذلك لأن الإنسان والملك - حتى أعظم الناس والملائكة - إنما هو وجود محدود، والذات الإلهية ليست محدودة، فليس لهذا المحدود أن يؤدي حق عبادة الله ولا طاعته ولا معرفته. أما التعبير بالأهواء جمع هوى في العبارة «واستجماع أهوائهم فيك»

فلا تعنى هوى النفس وشططها، بل تعنى الحب والرغبة، لأن لهذا اللفظ معنيان. وعبارة أخرى يستعمل أحياناً في الحب الإيجابي وأخرى في السلبي. والمراد بالعبارة أن الملائكة ركزت حبها وعشقها في الله سبحانه والعبارة «قلة غفلتهم عن أمرك»

تفيد امكانية غفلة الملائكة، إلا أنها طفيفة جداً. وشاهد ذلك الروايات الواردة في بعضى الملائكة في ترك الأولى وعليه فلا حاجة لذلك التكلف الذى صرح به بعض شراح نهج البلاغة من أن القلة هنا تعنى العدم.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٦٤

على كل حال هذا هو حال الملائكة بهذه العبادة والطاعة لآلاف السنين فما ظنك بعباداتنا وطاعاتنا البخسة؟ والجدير بالذكر أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وبالنظر إلى الحديث المعروف «ما عبدناك حق عبادتك، وما عرفناك حق معرفتك» [٧١٤]

، قد التفت إلى هذه الحقيقة، أى عدم معرفة الله وعبادته كما يستحق، بينما تبين العبارة المذكورة للإمام عليه السلام عدم التفات الملائكة لهذه المسألة، ولعل الآية الشريفة: «وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ» [٧١٥] دليل آخر على هذا المعنى، وهذا ما يوضح أفضلية الإنسان على الملائكة.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٦٥

القسم الثالث: عالم الآخرة

إشارة

«سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً! بِحَسْنِ بِلَايَتِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ. خَلَقْتَ دَاراً، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدِيَةً: مَشْرَباً وَمَطْعَمًا، وَأَزْوَاجًا وَخَدَمًا، وَقُصُورًا، وَأَنْهَارًا، وَزُرُوعًا، وَثِمَارًا؛ ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِيًا يَدْعُو إِلَيْهَا، فَلَا الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلَا فِيهَا رَغَبَتْ رَغْبُوا، وَلَا إِلَى مَا شَوَّقَتْ إِلَيْهِ اسْتَأْقُوا. أَقْبَلُوا عَلَى حَيْفِهِ قَدْ افْتَضَّ حُورًا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئًا أَعَشَى بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتْ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا، وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا، وَحَيْثُمَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا؛ لَمَا يَنْزَجِرُ مِنَ اللَّهِ بِزَجْرِ، وَلَمَا يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ، وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُودِينَ عَلَى الْعُرَّةِ، حَيْثُ لَمَّا أَقَالَه

وَلَارْجِعُهُ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الْآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ.
فَغَيَّرَ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ».

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام هنا عن الدار الآخرة وخلق الجنة وما تضمنه من نعم جمه فقال عليه السلام:
«سبحانك خالقاً ومعبوداً! بحسن بلائك عند خلقك»

فقد خلقت تلك الدار العظيمة (الآخرة) وجعلت فيها مختلف النعم من مشارب ومطاعم وأزواج وخدمه وقصور وأنهار
نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٦٦

وزرع وثمار

«وجعلت فيها مادية» [٧١٦]: مشرباً ومطعماً وأزواجاً وخدماءً وقصوراً وأنهاراً
وزروعاً وثماراً».

قطعاً أن الهدف من بيان هذه الامور هو تطهير الإنسان من الرذائل والادناس والذنوب والمعاصي وسوقه إلى القرب من الله سبحانه:
وقد وفرها الحق جميعاً لعباده بصفته تشجع الإنسان على الثبات في الطريق القويم ومواصلته.
ثم قال عليه السلام:

«ثم أرسلت داعياً يدعو إليها، فلا الداعي أجابوا، ولا فيما رغبت رغبوا، ولا إلى ما شوقت إليه اشتاقوا».

فهم لم يكتفوا بعدم الرغبة بتلك النعم المطهرة الخالدة، بل اقبلوا على جيفة نتنه افتضحوا بأكلها والعجيب في الأمر أن كلمتهم اتفقت
على حبها:

«أقبلوا على جيفة» [٧١٧] قد افتضحوا

بأكلها، واصطلحوا على حبها».

طبعاً مراد الإمام عليه السلام من ارسال الداعي هو بعث الأنبياء ولاسيما نبي الإسلام صلى الله عليه وآله والمراد بعدم إجابة الدعوة
لا تشمل جميع الناس؛ بل الأغلبية من أهل الدنيا المفارقين للآخرة من اتباع الهوى والشهوات.
ومن هنا فقد شبههم بالحيوانات المفترسة التي تنهال على جيفة فتفضح نفسها؛ وذلك لأن الرائحة النتنة لتلك الجيفة تفوح من فمها
ويدها.

وقوله عليه السلام:

«واصلحوا على حبها»

لا يعنى عدم وجود النزاع بين أهل الدنيا، بل هم دائماً كالحيوانات التي تجتمع حول جيفة نتنه وتهجم عليها ليتناول كل قطعة منها.
والمراد أنهم اتفقوا على حبها.

وتشبيه الدنيا بالجيفة، هو تشبيه ورد في بعض الروايات، وذلك لتعفن الكامن في باطن

نقحات الولاية؛ ج ٤؛ ص ٣٦٦

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٦٧

الدنيا التي تختزن أنواع الظلم والذنب، أو لأن أصحاب الدنيا يهبون للنزاع والافتتال بهدف سلبها من بعضهم البعض الآخر.
ثم بين الإمام عليه السلام نتيجة هذا الحب للدنيا بشكل قاعدة كلية وعامة وهي:

«ومن عشق [٧١٨]

شيئاً أعشى [٧١٩] بصره، وأمراض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع باذن غير سمعية».

فقد ركز الإمام عليه السلام على نقطة يكشف فيها عن حقيقة وهي أن حب الدنيا وعشق زخرفها وزبرجها وزينتها المادية إنما يسلب الإنسان اصدار الأحكام بصورة صحيحة، بحيث يحسب أن سعادته وموفقيته إنما تتمثل بالوصول إلى هذه الدنيا المادية، مهما كان وكيفما كان الطريق المؤدى إليها.

ومن الطبيعي أن يتعذر على مثل هذا الفرد تشخيص الحق من الباطل والمصالح من المفاسد. فهو ينطلق بشكل جنوني نحو لذات الدنيا، فاذا أفاق رأى نفسه وقد فقد كل شيء.

وستحدث في البحث القادم ان شاء الله عن حقيقة العشق وآثاره.

وتختتم هذا البحث بالحديث النبوي الشريف:

«من جعل الدنيا أكبر همه، فرق الله عليه همه، وجعل فقره بين عينيه» [٧٢٠].

ثم قال عليه السلام:

«قد خرقت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه، وولعت عليها نفسه».

فقد شبه الإمام عليه السلام العقل في العبارة الأولى بالثوب، الذي يمكنه أن يحفظ الإنسان ويكون له زينة، أما الشهوة فهي تمزق ثوب العقل الجميل. وفي العبارة الثانية وصف غلبة الشهوات على العقل بأنه موت للعقل. كما أشار عليه السلام في العبارة الثالثة إلى أن حب الدنيا والرغبة فيها قد أحاط بجميع كيان أهل الدنيا وطلابها.

وعليه فمثل هذا الإنسان عبد للدنيا، ولمن في يده شيء من حطامها:

«فهو عبد لها، ولمن يده شيء منها، حيثما زالت زال إليها، وحيثما أقبلت أقبل عليها».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٦٨

فهو لا ينزجر بأى زاجر ولا يكثرث لأى ناهى، ولا يتعظ بموعظة واعظ ولا يصغى إلى نصح ناصح، والحال يرى بأى عينيه من يؤخذ بغته لاصفح ولا عقو ولا رجعة

«لا ينزجر من الله بزاجر، ولا يتعظ منه بواعظ، وهو يرى المأخوذين على العزة [٧٢١] حيث لا إقالة [٧٢٢]

ولا رجعة، كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون، وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون، وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون، فغير موصوف ما نزل بهم».

نعم فمن يرى بعينه كل يوم تقلب أحوال الدنيا وغدرها بأهلها لا بد أن يكون يقظاً، يستمع إلى الوعظ والنصح وينتهى بنهى الآخرين، إلماً أن المؤسف له هو أن حب الدنيا والتكالب عليها والاعتزاز بزخارفها ليعمى عين الإنسان ويصم سمعه ويستحوذ على فكره بحيث لا يسمح له بأن يفيق إلى نفسه.

تأمل: العشق المقدس والهجين

لقد أشار الإمام عليه السلام بعبارة قصيرة بليغة إلى حقيقة مهمة، طالما استغرق فيها العلماء والعرفاء والشعراء والادباء. فقد قال عليه السلام:

«من عشق شيئاً أعشى بصره، وأمراض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع باذن غير سمعية»

، وقد دفعنا هذه العبارة لأن نتحدث عن العشق، المقدس منه الايجابى، والمستهجن السلبى. فقد قيل الكثير فى العشق وعظمته وجنونه وأمراضه، ولعلها من الكلمات القليلة التي وردت بشأنها كل هذه التعبيرات والتعاريف المختلفة والمتناقضة. فقد سمي به بعض الكتاب

إلى درجة جعلتهم يرونه بمثابة ضابط الحياة والسعادة الأبدية! أو أنّ العشق معمار عالم الوجود.

كما أنّ تحدثوا عن إعجازاته بالنسبة للإنسان حيث ينشط روح الإنسان ويملاً قلبه حيوية وحركة، بل قيل بانعدام طعم الحياة بدونه.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٦٩

وبالمقابل فهناك طائفة من الكتاب والفلاسفة الذين صعدوا من حملاتهم واتهاماتهم للعشق ليصوره كمرض مقيت يدعو إلى التقزز.

فقد قال أحد الكتاب المعروفين: علينا أن نرى العشق عبارة عن عصارة الأدمغة الخاوية إن لم نقل بأنه نوع من الجنون.

وقال كاتب آخر: أنّ العشق كمرض السرطان والنقرس الذي ينبغي أن يفر منه الإنسان العاقل.

فالتفسيرات المتناقضة للعشق تشير إلى أنّ العلماء والمفكرين لم يتحدثوا جميعاً عن شيء واحد. فهناك من تكلم عن العشق المقدس

الذي يضيء القدسية والطهارة على الإنسان، ويشده بقوته الفائقة نحو معشوقه الحقيقي خالق الوجود.

أمّا من ذمه منهم فانما قصد به ذلك العشق المادى والمفعم بالخطايا والرذائل والجنائيات الذي يفضى غالباً إلى المرض والفضيحة والشقاء.

فالإنسان فى العشق المادى يقبل بجنون على الشيء الذى يتعلق به ويعشقه، ويضحى بكل مالىه من أجله. فالمراد بهذا العشق هو

تلك القوة السحرية التى تقود الإنسان إلى المعصية والذنب والخطيئة، وكل ما قيل فى ذمه فهو قليل.

فهذه القوة الطاغية تخرب العقل وتشل حركته وفاعليته بحيث يقدم الإنسان على الأعمال الجنونية الطائشة.

وتتمثل اولى مخاطر ذلك بتعظيمه العيوب والقبائح. فمثل هؤلاء العشاق يتكبرون أنواع التفاسير المذهلة لأقبح العيوب.

فهم لا يقبلون النصح ولا يصغون إلى الوعظ، بل يهبون أحياناً للوقوف بشدة بوجه الناصحين والوعاظ.

والغريب فى الأمر أنّ الأشخاص الذين يعيشون مثل هذا العشق المادى الجنونى يشعرون أنّهم بلغوا إدراكاً حرم منه معظم الآخرين.

فهم يعيشون فى هالة من الأوهام والخيالات ولا يفهمون سوى لغة العشق الطائش، فلا يفهمون لسان العلم والمنطق الذى يحدثهم به

الآخرون.

وبالطبع فان جذبه هذا العشق غالباً ما تطفىء بالمجمعة!

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٧٠

آنذاك تطرح الحجب فيلتفت إلى الواقع. وكان هذا العاشق قد نهض من سبات عميق ليتبدل لديه ذلك العشق إلى نفرة ومقت،

وذلك لأنه يرى نفسه قد فقد كل شيء مقابل ذلك المعشوق؛ الأمر الذى يقود بالتالى إلى الفضيحة والخزى.

الفضيحة التى لا يمكن تلافيها بعد اليقظة.

وبالطبع فإن أغلب حالات الانفصال والانتحار إنّما تفرزه هذه الحالة من العشق لعمق الهوة بين الخيال والواقع.

ولا تقتصر هذه النتائج المريرة على العشق الجنسى، بل تترتب نفسها على عشق المال والمقام والجاه والجلال المادى.

ولعل هذا هو المعنى الذى أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام حين سأله أحد أصحابه فقال عليه السلام

: «قلوب خلت عن ذكر الله، فأذاقها الله حب غيره» [٧٢٣].

وورد فى حديث عن على عليه السلام فى عجز العاشق عن رؤية الحقائق إذ قال:

«عين المحب عمية عن معائب المحبوب، وأذنه صماء عن قبح مساويه» [٧٢٤].

وإلى هذا العشق المجازى أشار الحديث النبوى الشريف:

«من عشق فعف ثم مات، مات شهيداً» [٧٢٥].

كما قال صلى الله عليه وآله:

«من عشق وكنتم وعف وصبر، غفر الله له، وأدخله الجنة» [٧٢٦].

وعلى العكس من ذلك في العشق الحقيقي والمقدس فإن روح الإنسان تعيش حالة من الصفاء والنور، فلا يرى سوى معشوقه الحقيقي مظهر الكمال المطلق، فيتحمل في سبيله كافة الشدائد. فقد ورد في الحديث القدسي:

«إذا كان الغالب على العبد الاشتغال بي جعلت بغيته ولدته في ذكري، فإذا جعلت بغيته ولدته في ذكري، عشقني وعشقتة، فإذا عشقني رفعت الحجاب فيما بيني وبينه» [٧٢٧].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٧١

وما مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام بالاسحار ودعاء الصباح ودعاء كميل وتضرع الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفه في تلك الصحراء والمناجاة الخمس عشرة للإمام السجاد عليه السلام التي وردت في الصحيفة السجادية ودعاء الندبة الذي يلهج به لسان المنتظر لظهور إمام العصر والزمان عليه السلام الامعطييات وآثار هذا العشق الطاهر. وعليه يتضح ممّا مر معنا أنّ الدم الذي أورده بعض العلماء لمفردة العشق وتلك الحساسية التي ابدوها تجاهه إنّما مرادهم العشق الملوث المشوب بالخطيئة، وإلا فالعشق المقدس من أعظم القوى المحركة للإنسان والتي تدفع به نحو الله سبحانه والقيم والمثل الإنسانية النبيلة، ويخطيء كل من يتصور خلو كلمات المعصومين عليهم السلام من هذه المفردة التي كثرت في روايات النبي صلى الله عليه وآله وأئمة العصمة عليهم السلام.

ومن ذلك مارواه المرحوم الكليني عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أفضل الناس من عشق العباداة فعانقها، وأحبها بقلبه، وبأشرفها بجسده، وتفرغ لها» [٧٢٨].

وورد في حديث آخر بشأن الصحابي الجليل سلمان:

«إن الجنة لأعشق لسلمان من سلمان للجنة» [٧٢٩].

قال العلامة المجلسي في ذيل الحديث الأول العشق يعنى الإفراط في الحب وقد تصوره يختص بالأمور الباطلة دون حب الله، بينما تفيد هذه الرواية ليس الأمر كذلك، وإن إقتضى الإحتياط أن لانستعمل مفردة العاشق والمعشوق على الله.

عالم الآخرة

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٧٣

القسم الرابع: سكرات الموت

إشارة

«اجتمع عليهم سكره الموت وحسره الفوت، فصترت لها أطرافهم، وتغيرت لها ألوانهم، ثم ازداد الموت فيهم ولوجاً، فحيل بين أحيدهم وبين منطقه، وإنه لبين أهله ينظر ببصره، ويسمع بأذنه، على صحة من عقله، وبقاء من لبه، يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره! ويتذكر أموالاً جمعها، أغمض في مطالعها، وأخذها من مصير حاتها ومشتبهاها، قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها، ويتمتعون بها، فيكون المهنأ لغيره، والعبء على ظهره. والمزم قد غلقت رهنه بها، فهو يعرض يده ندامه على ما أضحى له عند الموت من أمره، ويؤهد فيما كان يزعج فيه أيام عمره، ويتمنى أن الذي كان يعبئ بها ويحسده عليها قد حازها دونه! فلم يزل الموت يبألغ في جسده حتى خالط لسانه سمعه، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه، ولا يسمع بسمعه:

يُردّد طرفه بالنظر في وجوههم، يرى حركات ألسنتهم، ولا يسمع رجوع كلامهم. ثم ازداد زاد الموت السيطا به، فقبض بصره كما قبض سمعه، وخرجت الروح من جسده، فصار جيفه بين أهله، قد أوحشوا من جانبه، وتباعدا من قربه. لا يسعد باكياً، ولا يجيب داعياً. ثم حملوه إلى مخط في الأرض، فأسلموه فيه إلى عمله، وانقطعوا عن زورته».

الشرح والتفسير

تطرق الإمام عليه السلام هنا إلى سكرات الموت بعبارات تهز أعماق الإنسان وتلفت انتباهه إلى

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٧٤

تلك الحقيقة:

«اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت».

فالواقع هناك هجوم ثقيل على الإنسان وهو على أعتاب الموت: الأول هجوم سكرات الموت، وهو حالة تشبه السكر تحدث للإنسان حين يحل أجله، وقد تستولى أحياناً على عقله فتجعله يعيش حالة من الاضطراب والقلق العظيم.

والآخر حسرة فقد ان كل شيء كان قد أجهد نفسه عمراً طويلاً من أجل الحصول عليه وعانى في سبيله الأمرين.

وهي أمور تعلق وشغف بها وكأنها أصبحت جزءاً من وجوده وكيانه، وإذا به يرى الآن أنه يودعها إلى غير رجعة، وهذا ما يضاعف من قلقه واضطرابه ثم خاض عليه السلام في شرح تفاصيل تلك السكرات، حيث تضعف حينها الأعضاء والجسد بعد أن يتغير لونها، ثم يدب فيها الموت بالتدريج، فيفصلها عن اللسان، والحال هو جالس بين أهله يراهم بعينه ويسمع كلامهم باذنه، وهو على سلامة من عقله:

«ففترت لها أطرافهم، وتغيرت لها أطرافهم، ثم ازداد الموت فيهم ولوجاً، فحيل بين أحدهم وبين منطقته، وإنه لبين أهله ينظر ببصره، ويسمع باذنه، على صحة من عقله، وبقاء من لبه».

فالذي يستفاد من هذه العبارات أن أول ما يتوقف عن العمل هو لسان الإنسان. اللسان الذي يعد أكبر سند للإنسان من أجل حل مشاكله، ويالها من حسرة وفاجعة أن يرى الإنسان بعينه ويسمع باذنه وهو على سلامة من عقله ولبه، لكنه لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة فيلهج بما يريد. ذكر أحد شراح نهج البلاغة هنا مثالا من التوراة عن الموت حيث شبهته بالشجرة ذات الأشواك التي تغوص في جميع البدن، ويغرس كل شوكة في عصب من عصبه فتمزقها جميعاً وتقضى عليه.

ثم واصل عليه السلام كلامه بشأن من هجم عليه سكرة الموت في أنه فاق من غفلته واستغرق في التفكير فهو يفكر فيم أفضى عمره وذهب به أدراج الرياح وكيف أفنى دهره:

«يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره».

يتذكر هنا الأموال والثروات التي جمعها وقد أغمض عينيه عن الكيفية التي جمعت بها

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٧٥

دون الاكترات إلى الحلال والحرام والمحظور والممنوع:

«ويتذكر أموالاً جمعها، أغمض [٧٣٠] في

مطالبها، وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها، قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها».

نعم فهو يفتيق إلى نفسه وأول كابوس يقض مضجعه ويهيمن على كيانه هو كابوس أمواله؛ الأموال التي لم يفكر بالحلال والحرام في جمعها بعد أن أعماه حب الدنيا، أو أنه اعتمد بعض التوجيهات المشبوهة ليستحوذ على بعض الأشياء، والآن بعد أن رفع عنه الحجاب فهو يرى العبيء الثقيل الذي طال عاتقه متمثلاً بحق الله وحق الناس، والأنكى من ذلك عدم وجود سبيل إلى الفرار. ليس له من لسان لبيان هذه المشكلة، وإن كان له من بيان، فليس هنالك من يسمع! ولو سمعه من حوله من قرابته ووارثيه اكتفوا بالقول (أنه ليهجج حيث فقد عقله وفكره) ليمكنوا من مصادرة أمواله بسهولة.

وهذا هو البؤس الحقيقي في أن يشقى الإنسان بجمع هذه الأموال وتبقى عليه تبعاتها ومسؤوليتها، بينما يخلفها الآن إلى غيره ويفارقها إلى غير رجعة.

ومن هنا قال عليه السلام:

«تبقى لمن وراءه ينعمون فيها، ويتمتعون بها، فيكون المهناً لغيره، والعب [٧٣١] على ظهره، والمرء قد غلقت رهونه [٧٣٢] بها». يالها من مصيبة! أن يرى الإنسان كل هذه القصور الفخمة والأجهزة المتطورة والثياب الفاخرة ووسائل الراحة الراقية والأموال الوفيرة التي عانى ما عانى في الدنيا من أجل الحصول عليها وهو يهبها الآن لقممة سائغة لمن وراءه! والأدهى من ذلك ذهب لذتها لغيره وبقيت تبعثها عليه.

وليت شعري ليس له الآن سوى الحسرة والندم فلم تعد هناك من فرصة لتلافي ما فرط

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٧٦

منه وتدارك ما قصر فيه ولذلك قال عليه السلام:

«فهو يعرض يده ندامة على ما أصحح له [٧٣٣] عند

الموت من أمره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره».

وهنا يتذكر الحساد الذين واجهوه في حياته وحاولوا الاستيلاء على أمواله وثوراته ويسلبوه ملكيتها، إلّا أنه حال دونهم بفكره وشطارته ولم يدعهم ينيلون منها، إذ ذاك تمنى حين هجم عليه الموت ألا يكون قد أخذها، وليتها صارت من نصيب من حسده وغبطه عليها: «ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه».

ثم خاض عليه السلام في تفاصيل الموت بعبارات تهز النفس وتوقظ الضمير، وكأنه يعيش تلك الحالة ويوشك أن يودع الدنيا الفانية: «فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتى خالط لسانه سمعه، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه، ولا يسمع بسمعه».

فأخذت الأعضاء تموت الواحد بعد الآخر ولم يبق له من لسان ناطق أو أذن سامعة:

«يردد طرفه بالنظر في وجوههم، يرى حركات ألسنتهم، ولا يسمع رجح كلامهم»

أنهم يسعون لأن يرتبطوا به ولكن لم يعد هنالك من سبيل.

ثم قال عليه السلام:

«ثم ازداد الموت التباطؤ [٧٣٤] به، فقبض بصره كما قبض سمعه، وخرجت

الروح من جسده، فصار جيفة بين أهله، قد أو حشوا من جانبه، وتباعدوا من قربه، لا يسعدوا بكياً، ولا يجيب داعياً».

ثم بلغ مرحلته الأخيرة:

«ثم حملوه إلى مخط [٧٣٥] في الأرض، فأسلموه إلى عمله،

وانقطعوا عن زورته [٧٣٦]».

لقد ألقوه سنوات، كان يضحكون معه وربما لم يطيقوا بعده، أمّا الآن بعد أن حل الموت بساحته، فهم لم يعودوا يتحملوا الجلوس بقربه ولو لساعه، وكانهم لم يألقوه وكانوا غرباء عنه.

تأمل: سكرة الموت والاحتضار

ليست هناك من لحظة يتعرض فيها الإنسان لأعظم خطر طيلة حياته أبلغ وأوجع من لحظة الاحتضار فهي.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٧٧

لحظة انتهاء الآمال والأمانى.

لحظة الاغماض عن كافة وسائل الحياة.

لحظة مفارقة الأهل والأقرباء والأصدقاء.

لحظة وداع الدنيا وما فيها.

وبالتالى لحظة الانتقال إلى عالم جديد ربما انطوى على كثير من المشاكل والمعضلات الخطيرة.

وقد صور الإمام عليه السلام هذه اللحظات بصورة دقيقة متابعا الموت مرحلة تملأ القلب رعبا وخشية إذا ما تمثلها على حقيقتها. فقد هدف الإمام عليه السلام إلى ايقاظ الإنسان من غفلته قبل أن يفيق فى اللحظة حين لا يجديه نفعاً، فيستعد لها ويهيى الزاد اللازم لها.

وهنا لا ينبغي أن ننسى بأن أولياء الله والصالحين من العباد إنما يستقبلون الموت برحابة صدر وطلاقة وجه؛ وذلك لأنهم يرون الموت طفرة نحو السعادة والخلود والحياة الأبدية، وبعبارة أخرى فإن سكرات الموت إنما تتوقف على أعمال الإنسان، وعليه فيمكن أن تكون من أخطر اللحظات وأصعبها، كما يمكن أن تكون من أجملها وأروعها.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٧٩

القسم الخامس: قيامة الناس

«حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالْأَمْرُ مَقَادِيرُهُ، وَالْحَقُّ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءِ وَفَطَرَهَا، وَأَرْجَ الْأَرْضِ وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَدَكَ بَعْضُهَا بَعْضًا مِنْ هَيْبَتِهِ جَلَالَتِهِ وَمَخُوفِ سَطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مِنْ فِيهَا، فَجَرَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلَاقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَعْمَالِ وَخَبَايَا الْأَفْعَالِ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَى هَؤُلَاءِ وَاتَّقَمَ مِنْ هَؤُلَاءِ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى مرحلة أخرى تواجه الإنسان، بعد أن أشار إلى دنيا الطالحين واللحظات المريرة التى يعيشونها آخر حياتهم حين الاحتضار. فقد تطرق عليه السلام هنا إلى القيامة والحساب ليكمل بحث مصير الإنسان ويكون عبرة للآخرين، بهدف اليقظة والابتعاد عن الانحراف وسلوك الصراط المستقيم.

فقال عليه السلام:

«حتى إذا بلغ الكتاب أجله، والأمر مقاديره، والحق آخر الخلق بأوله، وجاء من أمر الله ما يريده من تجديد خلقه»،
نعم فحياة الإنسان فى هذه الدنيا ليست هدفاً غائياً، بل هى مقدمه لتلك الحياة الخالدة فى ذلك العالم الخالد.

«أما [٧٣٧] السماء و فطرها، و أرج [٧٣٨] الأرض و أرجفها، [٧٣٩] و قلع جبالها و نسفها، [٧٤٠]

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٨٠

و دك [٧٤١] بعضها بعضا من هيبته جلالته و مخوف سطوته».

حيث يقع انفجار عظيم فى السموات والأرض فيضنى عالم المادة تماماً فيظهر عليه عالم جديد، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك العالم كونه العالم الذى تقام عليه القيامة والحساب:

«يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ». [٧٤٢]

والواقع هو أن الإمام عليه السلام قد اقتبس هذه العبارة من الآية الشريفة:

«إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ» [٧٤٣].

كما قال بشأن الأرض: «إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبَثًا» [٧٤٤].

وقال: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ» [٧٤٥]

ثم قال عليه السلام:

«وأخرج من فيها، فجددهم بعد إخلاقهم جمعهم بعد تفرقهم». [٧٤٦]

وهذه بداية قيامه الإنسان، حيث يعود إلى حياة جديدة يرد بها المحشر.

والعبارة

«جددهم»

إشارة واضحة إلى المعاد الجسماني واعادة بناء الإنسان وتكامله الجسمي في المحشر.

والعبارة

«وجمعهم بعد تفرقهم»

ممکن أن تكون إشارة إلى تجمع الناس في المحشر، أو جمع الذرات المتفرقة لكل إنسان من أجل تجديد حياته، ولا مانع أن تكون العبارة إشارة إلى كلا المعنيين.

ثم قال عليه السلام:

«ثم مميزهم لما يريد من مسألته عن خفايا الأعمال، وخبايا الأفعال،

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٨١

وجعلهم فريقين: أنعم على هؤلاء وانتقم [٧٤٧] من هؤلاء».

والعبارة:

«خبايا الأفعال، وخفايا الأعمال»

يمكن أن يراد بها مطلب واحد، يعنى الأعمال الخفية: كما يحتمل أن تكون

«خفايا الاعمال»

إشارة إلى الأعمال التي تتم في الخفاء وان أتى بها وسط الناس، و

«خبايا الأفعال»

إشارة إلى الأعمال التي تتم في الخلوات، لأن خبايا جمع خبيثة الشيء المخبوء.

على كل حال ليس هنالك من عمل من أعمالنا يخفى على الله، لأنه حاضر في كل مكان و العالم حاضر لديه.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٨٣

القسم السادس: الثواب والعقاب

إشارة

«فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَتَابَهُمْ بِجَوَارِهِ، وَخَلَدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لَمَّا يَطْعَنُ النَّزْلُ، وَلَا تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ، وَلَا تُتَوَبَّهُمُ الْاَفْرَاعُ، وَلَا تَنَالُهُمُ الْأَسْقَامُ، وَلَا تَعْرِضُ لَهُمُ الْاِخْطَارُ، وَلَا تُشْخِصُهُمْ الْأَسْفَارُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَعَلَّ الْأَيْدِيَ إِلَى الْأَعْنَاقِ، وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالْاَقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطْرَانِ، وَمَقْطَعَاتِ النَّيْرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٌ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلْبٌ وَلَجِبٌ، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ، لَا يَطْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلَا يُفَادَى أَسِيرُهَا، وَلَا تُفْصَمُ كُجُولُهَا. لَا مَدَّةَ لِلدَّارِ فَتَنِي وَلَا أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُفْضَى .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضوع من الخطبة- الذي يمثل في الواقع آخر مرحلة سير الإنسان- إلى جانب من ثواب المحسنين وعقاب المسيئين فقال:

«فأما أهل الطاعة فأتابهم بجواره، وخلدهم في داره».

ثم تحدث عليه السلام عن خصائص تلك الدار بعبارات قصار بعيدة المعنى
«حيث لا يظعن [٧٤٨]

النزال، ولا تتغير بهم الحال».

وإلى جانب ذلك فلا من خوف ولا مرض ولا خطر ولا سفر يخرج من الديار

«ولا تنوبهم الأفراع [٧٤٩]، ولا تنالهم الأسقام، ولا تعرض لهم الأخطار ولا

تشخصهم [٧٥٠] الأسفار».

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٨٤

وعليه فالحوادث المزعجة والعوارض المقلقة التي تصدع باستمرار هدوء الإنسان في الحياة الدنيا، لا وجود لها في الآخرة، والإنسان في راحة تامة هناك ينعم بالسكينة والاستقرار والحياة المملوءة بالفرح والسرور، فليس هنالك من خطر يهدده، ولا مرض ولا عوامل طبيعية مرعبة من قبيل السيول والزلازل والقحط وسائر الحوادث الاجتماعية التي تدعوا إلى النزاع والحرب فتهدد أمنه.

والفارق بين العبارة

«لا يظعن النزال»

والعبارة

«ولا تشخصهم الأسفار»

في أن الأولى إشارة إلى السفر الاضطرارى الذى قد يجبر عليه الإنسان في الدنيا أحياناً فيترك وطنه بالمره، والثانية إشارة إلى الأسفار التي يضطر لها الإنسان في الدنيا بهدف تلبية حاجاته ومتطلباته فيتحمل المشاق والمصاعب، وليس هنالك أى من هذين السفرين في الدار الآخرة.

نعم فالحياة الدنيا مهما كانت مريحة مفعمة بالنعم إلا أنها ليست حلوة مرجوة بسبب تلك الآفات والعوارض؛ بينما حلوة هي الدار الآخرة لخلوها من هذه الآفات والعوارض.

وهنا قد يقتدح إلى الأذهان هذا السؤال اننا لندرك قيمة النعمة حين نفقدها والصحة والعافية والسلامة حين السقم والمرض، وما لم نر ظلمة الليل فلا نقف على أهمية شعاع الشمس في النهار، أفلا يغيب عن الإنسان إدراك لذة تلك النعم إذا لم تطرأ عليها الحوادث المذكورة؟

وللاجابة على هذا السؤال لابد من الالتفات إلى نقطتين: الأولى أن نعم الآخرة في حالة تغيير، أى هناك نعمة تستبدل باخرى على الدوام، وكل يوم يفاض عليهم نعم جديدة، ومن شأن هذا التغيير أن يقضى على حالة الرتابة. والثانية ما يجعل نعم الدنيا مريرة هو أنها محفوفة بالأخطار، والذى يؤرق الإنسان هو عدم انفكاكه عن التفكير في سلبها وزوالها، وقد أشار الإمام عليه السلام إلى عدم وجود هذه الامور في نعم الآخرة.

فقد ورد على لسان أهل الجنة حين حمدهم لله وثنائهم عليه: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ* الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٨٥

فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ» [٧٥١].

ثم خاض عليه السلام في تفاصيل أهل المعصية وما يتعرضون له من مشقة

«وأما أهل المعصية فأنزلهم شر دار، وغل الايدي إلى الاعناق، وقرن النواصي بالأقدام».

والعبارات إشارة إلى ما صرح به القرآن الكريم: «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ* فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» [٧٥٢].

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«والبسهم سراويل القطران، ومقطعات النيران، في عذاب قد اشتد حره، وباب قد أطبق على أهله، في نار لها كلب [٧٥٣] ولجب [٧٥٤]، ولهب ساطع، وقصيف [٧٥٥] هائل».

فالعبارات تفيد شدة حرارة نار جهنم المحرقة، حيث تتصاعد الستتها إلى عنان السماء مصحوبة بالأصوات المرعبة. ثم قال عليه السلام:

«لا يظعن مقيمها، ولا يفادي أسيرها، ولا تفصم [٧٥٦] كبولها [٧٥٧] لا مدة للدار فتفنى، ولا أجل للقوم فيقضى».

ولو تصور الإنسان في ذهنه لحظة هذا العذاب الشديد والمرعب، لما قارف الذنب، وهذا هو هدف الإمام عليه السلام من شرح هذا العذاب!

وقد أكدت الروايات الإسلامية التمعن في الآيات القرآنية التي تتحدث عن الثواب، والتوقف عند تلك التي تتحدث عن العذاب. نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٨٦

وهو ذات الأمر الذي أكده الإمام عليه السلام في الخطبة ٩٣ وهو يصف المتقين:

«فاذا مروا بآية فيها تشويق ركنا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم».

تأمل: أسلوب الهداية

حقاً أنه لاسلوب عظيم في هداية الإنسان ونجاته هذا الذي اعتمده الإمام عليه السلام بهذه العبارات التي تختزن الآثارة والتحذير. فقد الستهل الخطبة بالإشارة إلى صفات الجمال والجلال وقدرته العظيمة سبحانه وعلمه المطلق بكل شيء مما يصدر من العباد إلى جانب عظمة عالم الوجود.

ثم تحدث عليه السلام عن خلق أصناف الملائكة وعبادتها وطاعتها، ليبين زهادة عبادة الإنسان بالنسبة لتلك العبادة.

آنذاك تطرق عليه السلام إلى خلق الإنسان ونعمه الجمه سبحانه، ثم ذم بشدة طلاب الدنيا، محذراً إياهم من التعلق بهذه النعم الزائلة. كما تحدث عليه السلام عن الموت وانتهاء الحياة وسكرات الموت ومدعى الحسرة والندم التي يشعر بها الاثم على أعتاب الموت، حتى رسم صورة يهتز لها القلب ويتيقظ لها الوجدان، وتفيق لها الأرواح الميته.

وأخيراً إختتم عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى الثواب الذي ينتظر الصالحين والعقاب الذي ينتظر المسيئين، ليلتفت كل إنسان إلى نفسه ويراقب عمله.

نعم فقد خط هذا الطيب الروحي العظيم وصفه لمرضى القلوب لاتحمل لهم سوى العلاج إن إلتزموا بالعمل بها.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٨٧

القسم السابع: زهد النبي صلى الله عليه وآله

إشارة

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله

«قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَيَّرَهَا وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ زَوَاهَا، عَنْهُ اخْتِيَارًا، وَبَسَّطَهَا لِغَيْرِهِ اخْتِقَارًا، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا، أَوْ يَرْجُو فِيهَا مَقَامًا. بَلَغَ عَنْ رَبِّهِ مُعِذْرًا، وَنَصَحَ لَأَمَّتِهِ مُنْذِرًا،

وَدَعَا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّرًا، وَخَوْفَ مِنَ النَّارِ مُحَذِّرًا».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام هنا في صفات النبي صلى الله عليه وآله ورغبته عن هذه الدنيا لتكون سيرته قدوة تامة للامة، و ليبين كيف يستطيع الإنسان أن يعيش الأمان من أخطار الدنيا في ظل الإيمان والعمل الصالح فقال عليه السلام:

«قد حقر الدنيا وصغرها، وأهون بها وهونها».

فالعبرة إشارة واضحة إلى زهده صلى الله عليه وآله لأن من يحقر الدنيا ويوصي الآخرين باحتقارها، قطعاً ليس له أدنى تعلق بها، وذلك لأنّ الشيء الحقيق والتافه ليس له قيمة في استقطاب القلب والسيطرة على العقل.

ثم أكد عليه السلام هذا المعنى بالقول:

«وعلم أنّ الله زواها [٧٥٨] عنه اختياراً [٧٥٩]، وبسطها لغيره احتقاراً».

والعبرة شبيه ماورد في الآية الشريفة من سورة الزخرف: «وَلَوْلَا أَنْ يُكُونَ النَّاسُ

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٨٨

أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَبَّرُونَ* وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذِي لُكْمٍ لَمَّا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ». [٧٦٠]

ثم واصل عليه السلام كلامه عن النبي صلى الله عليه وآله:

«فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها ريشاً، أو يرجو فيها مقاماً،

ورد الرياش بمعنى المفرد والجمع وهو اللباس الفاخر، وأصلها الريش، ويمكن أن يراد به جميع زينة الدنيا ومنها اللباس الفاخر.

فأول مزية لرسول الله صلى الله عليه وآله عدم اغتراره بزخرف الدنيا وزينتها فلم يقع في مخالبتها قط.

المزية الاخرى للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله تكمن في وظيفته بتبليغ الرسالة وايصال أوامر الله ونواهيه إلى جميع العباد، وقد استفرد وسعه في هذا السبيل، حيث قال عليه السلام:

«بلغ عن ربّه معذراً، ونصح لأمته منذراً، ودعا إلى الجنة مبشراً، وخوف من النار محذراً».

قطعاً لو فشل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في المرحلة الاولى في كيفية التعامل مع الدنيا واغتر بنعمها ولذاتها، لما تمكن قط من

القيام بالمرحلة الثانية في ابلاغ الرسالة السماوية، فأين إسارة النفس في الدنيا من ابلاغ الرسالة.

ورد في حديث الإمام الصادق عليه السلام أنّ الله أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام:

«يا موسى إنّ الدنيا دار عقوبة عاقبت فيها آدم عند خطيئته، وجعلتها ملعونة، ملعون ما فيها إلّما كان لى. يا موسى إنّ عبادى الصالحين

زهّدوا فى الدنيا بقدر علمهم، وسائر الخلق رغبوا فيها بقدر جهلهم». [٧٦١]

تأمل: الشرط الاصلى فى الزعامة

إنّ أعظم مشكلة تهدد القادة والزعماء إنّما تمكن فى تهافتهم على ماديّات الدنيا؛ الأمر الذى يؤدى إلى تقديمهم الأفراد السيئين على

الصالحين بدافع من حفظ منافعهم ومصالحهم الماديّة،

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٨٩

إلى جانب ايثارهم للظلم والجور على العدل والقسط لذات الهدف.

إنّهم يعتمدون المنافع الماديّة كمعايير فى تعاملهم مع كل شىء فيضحون بالمبادئ الإلهية والعقلانية والإنسانية من أجل تحقيق

منافعهم الدنيوية الرخيصة.

ومن هنا كان أول أمر أكده الإمام عليه السلام في إطار وصفه للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هو عدم اعتناؤه بالدنيا وتصغيرها وتحقيرها، مما جعله لا يكثر لجميع ما فيها، ويمحوها من ذاكرته.

وقد صرح القرآن الكريم مراراً بشأن الأنبياء ولاسيما نبي الرحمة صلى الله عليه وآله أنهم لا يسألون الناس أجراً على ابلاغ الرسالة، وكانت معيشتهم في الدنيا معيشة المستضعفين وهذا ما جعلهم يجرون الحق وقيمون العدل بحق الجميع ولا يخشون سطوة ظالم ولا يحسبون حساباً لأصحاب المال والثراء.

فضرية الحياة المرفهة باهضة لاتأتى إلّا من خلال مماشاة أصحاب الثراء ومداهنتهم؛ الأمر الذي يهدد بالصميم الحق والعدل والإدارة الصالحة الطاهرة.

وقد بلغ من زهد رسول الله صلى الله عليه وآله وانصرافه عن الدنيا أنه كان يجلس على الحصير ويتوسد الليف حتى أثر في بدنه الطاهر، ولما قيل له هذا كسرى وقيصر يجلسان على الحرير والديباج وانت تجلس على الحصير. ردّ رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنما مثل الدنيا كمثل راكب مر على شجرة ولها فيء فاستظل تحتها، فلما أن مال الظل عنها ارتحل فذهب وتركها» [٧٦٢].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٩١

القسم الثامن: أهل البيت عليهم السلام

«نَحْنُ شَجَرَةُ النَّبُوَّةِ، وَمَحَطُّ الرَّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ، وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ، وَيَنَابِيعُ الْحُكْمِ، نَاصِرَتُنَا وَمُجِبِّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ وَعَدُونَا وَمُبْعِضُنَا يَنْتَظِرُ السُّطُوَّةَ».

الشرح والتفسير

اختتم الإمام عليه السلام خطبته بعد ذكر أوصاف النبي صلى الله عليه وآله بالحديث عن صفات أهل البيت عليه السلام وقد بلغ بالفصاحة والبلاغة ذروتها بهذا الختام الحسن فقال:

«نحن شجرة النبوة، ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم».

فالتعبير بالشجرة يفيد أنّ النبوة كالشجرة المثمرة التي لها فروع وأغصان مختلفة، جذرها وساقها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وأوراقها أولاده، وثمرتها هداية الناس إلى الله.

وشبه عليه السلام أهل البيت في العبارة الثانية بالموضع الذي تهبط فيه الرسالة من جانب الله سبحانه، كما وصفهم في العبارة الثالثة بالموضع الذي تختلف إليه الملائكة في صعودها ونزولها.

على عليه السلام وولده ممن تربوا في هذه الاسرة ليستضيئوا بنور الوحي.

ولعل المراد بالملائكة هنا ملائكة الوحي (جبرئيل ومن معه) الذين كانوا يهبطون على رسول الله صلى الله عليه وآله، أو أنها إشارة إلى المعنى الأعم فيشمل جميع الملائكة الذين يختلفون عليهم للخدمة والبشارة وأمثال ذلك، على كل حال فليس المراد أنّ الوحي كان ينزل على غير رسول الله صلى الله عليه وآله.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٩٢

والفارق بين شجرة النبوة ومحط الرسالة أنّ للنبي صلى الله عليه وآله مقامان: مقام النبوة وهو الأخبار عن الله ومقام الرسالة وهو ابلاغها. وبعبارة أخرى فإن النبي صلى الله عليه وآله مأمور بالابلاغ، والرسالة تقتزن عادة بالإمامة والزعامة والإجراء.

والمراد بمعادن العلم أئمة أهل البيت عليهم السلام ورثة علوم النبي صلى الله عليه وآله وحفظه الكتاب والسنة.

فقد قيل في سبب نزول الآية الشريفة: «وَتَعِينَهَا أُذُنٌ وَإِعِيَّةٌ» [٧٦٤].

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَهَا أُذُنَ عَلِيٍّ. ثُمَّ قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ:
«مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ شَيْئًا فَنَسِيتهُ» [٧٦٥].
وكذلك الحديث:

«عَلَى مَعَ الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ» [٧٦٦].
والحديث:

«أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا» [٧٦٧].

وهكذا سائر الأحاديث المعروفة التي روتها كتب الفريقين، تفيد بأجمعها كون أهل البيت معادن العلم والحكمة. والفرق بين معادن وينابيع هو أنّ المعدن الشيء الذي يقصده الناس وينتفعون به، أمّا الينابيع ما يفيض على الناس. ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول:

«نَاصِرْنَا وَمَحَبَّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ، وَعَدُونَا وَمَبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السُّطُوءَ» [٧٦٨].

طبعاً لا تعنى هذه العبارة أنّ لهم حقاً مثل هذا الانتظار، بل تعنى أنّهم لا بدّ أن ينتظروا مثل هذه العاقبة المشؤومة، فالواقع أنّه نوع من التهديد بالعذاب الإلهي في الدنيا والآخرة.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٩٣

الخطبة [٧٦٩] المائة و عشر

إشارة

ومن خطبة له عليه السلام
في أركان الدين

نظرة إلى الخطبة

تألف هذه الخطبة في الواقع من قسمين: القسم الأول: الذي تطرق فيه الإمام عليه السلام إلى أفضل ما تقرب به العباد إلى الله من قبيل الإيمان والجهاد والاخلاص والصلاة والزكاة، ثم ذكر فلسفة كل شعيرة من هذه الشعائر بعبارة قصيرة عميقة المعنى. القسم الثاني: بيان الأبعاد العملية للإيمان وطرق بلوغها والوصية بذكر الله والاقتداء بهدى النبي صلى الله عليه وآله واتباع سنته والاهتمام بتعلم القرآن وفهم آياته.

ثم اختتم عليه السلام الخطبة بالذم الشديد للعالم بلا عمل وشدة عقابه.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٩٥

القسم الأول: فرائض الإسلام

إشارة

«إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ شُجْبَانُهُ وَتَعَالَى الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الْإِسْلَامِ؛ وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ؛ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ؛ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ؛ وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ؛ وَحُجُّ الْبَيْتِ وَعَتْمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحِضَانِ الذَّنْبَ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مُثْرَاءٌ فِي الْمَالِ، وَمَنْسَأَةٌ فِي الْأَجْلِ؛ وَصَدَقَةُ السَّرِّ فَإِنَّهَا تُكْفِرُ الْخَطِيئَةَ؛ وَصَدَقَةُ

الْعَلَانِيَةَ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ الشُّوْءِ؛ وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ».

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام هنا عن أفضل الأعمال التي يؤديها سالكي طريق العبودية ودعاة الحق للتقرب إلى الله فقال عليه السلام: «إِنَّ أَفْضَلَ مَا تُوَسَّلُ بِهِ الْمَتَوَسِّلُونَ [٧٧٠] إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ».

وكان هذه العبارة إشارة إلى الآية الشريفة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» [٧٧١]. إلى جانب شرحها و تفسيرها، فقد أمر الله سبحانه في هذه الآية بالتقوى ومن ثم انتخاب الوسيلة إلى الله. وعلى هذا فالمراد بالوسيلة الإيمان والجهاد وسائر الامور الواردة في هذه الخطبة وليس

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٩٦

هناك من منافاة بين هذا الكلام والتفسير الآخر الذي عنى الوسيلة هنا بشفاعته أولياء الله؛ لأن كل هذه الوسائل يمكن جمعها في الآية الشريفة.

على كل حال فإن الوسيلة الاولى التي ذكرت هي الإيمان؛ الإيمان بالله والنبي، لأن الإيمان أساس الحركة البناءة والفاعلة. الطريف في كلام الإمام عليه السلام أنه تطرق في كل نقطة دليلها بصيغته تحليل وفلسفة لكافة الواجبات العشر الواردة في العبارة، سوى مسألة الإيمان بالله والنبي. وذلك لأن هذه المسألة غنية عن ذكر الدليل، وعبارة اخرى فإن أساس الصالحات والخيرات واعمال البر إنما يكمن في الإيمان، وبدونه ليس هنالك من حركة نحو الفرائض الإلهية والواجبات الدينية. فالأمر على درجة من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل.

ثم أشار عليه السلام إلى الواجب الثاني:

«والجهاد في سبيله، فانه ذروة» [٧٧٢] الإسلام»

وللجهاد هنا معنى واسع يشمل الجهاد العلمي والإعلامي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكافة الجهود والمساعى البناءة من أجل النهوض بالاهداف الإسلامية وحتى جهاد النفس، إلى جانب الجهاد العسكري والمقاومة ضد العدو.

والعبارة

«ذروة الإسلام»

تفيد عدم جدوى الجهاد ما لم يكن عاماً شاملاً. وقد قال الإمام عليه السلام في موضع آخر من نهج البلاغة بشأن فلسفة الأحكام ومنها الجهاد:

«والجهاد عن للإسلام» [٧٧٣].

ورغم سعي إعداء الإسلام إلى استغلال مفردة الجهاد الإسلامي واساءة تفسيرها من خلال وصفها بالعنف إلّا أنهم يغفلون عن المعنى الواقعي للجهاد والذي يتمثل بالصمود من أجل الحياة ومقاومة العناصر الهدامة؛ وهو الأمر الذي أودع طبيعة كل إنسان. فالحق أن الحياة لتتعذر علينا ولو ضعفت الخلايا ليوم واحد كتلك التي ركبت في بدن الإنسان وتقوم بوظيفتها في الدفاع عنه ومهاجمة المكروبات والجراثيم التي تحاول اختراق البدن، وما المرض الخطير الذي يصطاح عليه بالايديز إلّا اختلال القوى الدفاعية للبدن.

فالمجتمع الذي يتخلى عن الجهاد إنما يكون كهذا المريض المصاب بالايديز، فيصبح مسرحاً

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٩٧

لهجوم أنواع المشاكل والمعضلات.

وبالطبع أن أولئك الذين صوبوا سهام حقدهم نحو الجهاد الإسلامي، ليعلمون جيداً أن التسلط على المسلمين متعذر مادام هذا الأصل المتمثل بالجهاد نابض بالحياة، فلو حذف الجهاد بحجة العنف، لم تعد هنالك من مشكلة أمام تسلط الأعداء.

على كل حال فإن ذكر الإمام عليه السلام للجهاد كواجب بعد الإيمان بالله والنبي يفيد موت الدين في حالة غياب هذا الواجب.

فقد ورد في حديث عن علي عليه السلام:

«والله ما صلحت دنيا ولا دين إلا به» [٧٧٤].

ثم ذكر عليه السلام الواجب الثالث

«وكلمة الاخلاص فانها الفطرة».

والمراد بكلمة الاخلاص

«لا إله إلا الله»

التي تتضمن الشهادة لله بالوحدانية والعبودية ونفى الشرك والوثنية.

وتفيد بعض الروايات أن للاخلاص بعد عملي يتمثل بالاقبال على الحق سبحانه والأغماض عما سواه إلى جانب التحفظ عن ارتكاب

الذنب والمعصية. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«من قال لا إله إلا الله عما حرم الله» [٧٧٥].

ومن الواضح أن من يقارف الذنوب أو ينقاد للشيطان أو الأهواء فإنه مشرك في عمله، وهذا ما يتناقض وحقيقة الاخلاص.

ثم قال عليه السلام:

«واقام الصلاة فإنها الملة»،

والملة هنا تعنى الدين، أما أن الصلاة لم تعد جزءاً من الدين بل الدين كله، وذلك لأن الصلاة الدعامة الأساسية للدين. فقد جاء في

الحديث النبوي المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«الصلاة عماد الدين، فمن ترك صلاته متعمداً فقد هدم دينه» [٧٧٦].

كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مثل الصلاة مثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود ثبتت الأطناب والأوتاد والغشاء، وإذا انكسر العمود لم ينفع طنب، ولا - وتد ولا

غشاء» [٧٧٧].

ثم قال عليه السلام:

«وايتاء الزكاة فانها فريضة واجبة».

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٩٨

تطلق الفريضة عادة على الواجب، وبناءً على فان ذكر الواجبة بعدها للتأكيد، إلا أن للفريضة معنى آخر أنسب لموضع بحثنا، وهو قطع

وفصل الشيء، وهنا قسم من المال الذي يفصل لهدف.

أو بعبارة اخرى الضريبة التي فرضت لمساعدة الضعفاء في المجتمع وتأمين بعض تكاليف الحكومة الإسلامية.

وقد ورد في القرآن بشأن أسهم الإرث: «نصيباً مفروضاً» [٧٧٨].

ومن هنا عبر العلماء الاعلام في مباحث الإرث بكتاب الفرائض بدلاً من كتاب الارث.

على كل حال فإن مسألة الزكاة من أهم أركان الإسلام بعد الصلاة.

وقد جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان في مسجده فنادى خمسة أشخاص وقال:

«لاتصلوا فيه وانتم لا تزكون» [٧٧٩].

ثم قال عليه السلام:

«وصوم شهر رمضان فإنه جنة من العقاب».

ورد التعبير هنا

«جنة من العقاب»

بينما وردت العبارة في الحديث المعروف

«جنة من النار» [٧٨٠].

ويكفى في فضل الصوم أنه يخرج الإنسان من البهيمية إلى عالم الملائكة ويجلسه على بساط القرب الإلهي.

ثم بين الركن السابع من أركان الإسلام فقال:

«وحج البيت واعتماره فأنهما ينفيان الفقر ويرحضان [٧٨١] الذنب».

لاشك أن لزيارة بيت الله بركات مادية وأخرى معنوية وروحانية، وقد أشير إليهما هنا، وقد وردت خلاصة ذلك في الآية الشريفة ٢٨

من سورة الحج: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ» وقد ورد في الحديث

«يخرج من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه» [٧٨٢]

أما تأثيره في إزالة الفقر - علاوة على بركاته المعنوية - فذلك أن المسلمين يستطيعون أن يقيموا الأسواق الاقتصادية إلى

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٩٩

جانب مراسم الحج من أجل ممارسة الأنشطة والمبادلات التجارية بحيث بدرون نوعاً من التجارة العالمية فيما بينهم، فقد كان هناك

مثل هذه الأسواق البدائية على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولو وجد المسلمون اليوم في تقوية بناهم الاقتصادية لتمكنوا حقاً من سد حاجات الفقراء والمعوزين. ومن هنا ورد في حديث الإمام

الصادق عليه السلام:

«ما رأيت شيئاً أسرع عني ولا أنفى للفقر من إدمان حج البيت» [٧٨٣].

ثم قال عليه السلام في بيان الركن الثامن:

«وصله الرحم فأنها مثرة» [٧٨٤] في المال ومنسأة [٧٨٥] في

الأجل».

فصلة الرحم وإضافة إلى تأثيرها في ازدياد المال تؤدي إلى نماء العمر وزيادته، ولعل ذلك لدعاء الأرحام بعضهم لبعض، إلى جانب

معونة بعضهم البعض في الأمراض؛ الأمر الذي يؤدي إلى طول العمر، ناهيك عن تقليلها من الهم والغم والحزن.

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«صلة الأرحام تزي الأعمار، وتنمي الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسيء في الأجل» [٧٨٦].

ثم قال عليه السلام في الركن التاسع من أركان الإسلام:

«وصدقة السر فأنها تكفر الخطيئة، وصدقة العلانية فأنها تدفع ميتة السوء»

، المراد بصدقة السر المساعدات التي يقدمها الإنسان إلى الأفراد المحتاجين والمحترمين بدافع من نية خالصة إلى جانب السعي لحفظ

ماء وجههم، ومن هنا كانت بركاتها جمّة، والعبارة تشمل الصدقات الواجبة كالكفارات والندورات والصدقات المتجّهة والانفاقات.

والمراد بصدقة العلانية، المعونة الظاهرة ومن بركاتها تشجيع الآخرين على أفعال الخير. والعبارة اقتباس من الآية الشريفة: «الَّذِينَ

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» [٧٨٧].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٠٠

وتفيد روايات الفريقين أنها نزلت في علي عليه السلام حين كان له أربعة دراهم انفق واحد منها في النهار وآخر في الليل وآخر سراً وآخر علانية. [٧٨٨]

طبعاً تطلق الصدقة في الفقه الإسلامي على ما يعطى للفقراء بقصد القربى إلى الله، إلا أن للصدقة مفهوم واسع يشمل كل عمل خير اجتماعي كبناء المساجد والمدارس والطريق والمستشفيات والأعمال الثقافية، ومن هنا جاء في رواية الإمام الكاظم عليه السلام: «عونك للضعيف من أفضل الصدقة» [٧٨٩]

ولاشك أن بناء المستشفيات والمدارس وأمثال ذلك مصداق لعون الضعيف. وورد في الحديث النبوي:

«كل معروف صدقة» [٧٩٠].

وورد عنه صلى الله عليه وآله أيضاً:

«الكلمة الطيبة صدقة» [٧٩١].

وقال الصادق عليه السلام:

«إسماع الاصم من غير تزجر صدقة هنتة» [٧٩٢].

ونختم هذا الكلام بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله في أنه قال: على المسلم أن يتصدق كل يوم. فقال رجل: لا نقدر كلنا على ذلك.

فقال صلى الله عليه وآله:

«إمطتك الاذى عن الطريق صدقة، وإرشادك الرجل إلى الطريق صدقة، وعيادتك المريض صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة» [٧٩٣].

والمراد بميتة السوء، الموت تحت التعذيب والالام، كالا حترق في النار، أو أثر الاصابة بمرض خطير شاق وحوادث الطريق. ثم قال في الركن العاشر من أركان الإسلام:

«وصنائع [٧٩٤] المعروف فأنها تقى مصارع [٧٩٥] الهوان».

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٠١

والعبارة بصنائع المعروف تشمل كل عمل صالح، من قبيل ذكر العام بعد الخاص، كما يحتمل أن يكون المراد بصنائع المعروف مساعدة عباد الله.

وقد وردت عن الائمة عليه السلام عدة روايات أكدت مسألة صنائع المعروف، منها ماورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«أول من يدخل الجنة أهل المعروف» [٧٩٦]

، وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام

: «عليك بصنائع المعروف فانها نعم الزاد إلى المعاد» [٧٩٧].

كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه كان يحث أصحابه على صنائع المعروف ويقول: إن للجنة باب اسمه المعروف لا يدخله إلا من كان يصنع المعروف في الدنيا، ثم قال:

«إن العبد ليمشى في حاجة أخيه المؤمن، فيوكل على الله عزوجل به ملكين واحداً عن يمينه، وواحداً عن شماله، يستغفرون له ربّه ويدعوان بقضاء حاجته» [٧٩٨].

فلسفة الأحكام

غالباً ما يعمد الاطباء المهرة إلى تنبيه مرضاهم إلى الآثار المهمة للأدوية والأطعمة المقوية التي تسرع في شفاء حالتهم المرضية؛ لكي

يتحملوا مرارة الدواء برغبة ولهفة ويلتزموا بإرشادات الطبيب. ولعل الأطباء الروحيين يسيرون على هذا النهج فيبينون فلسفة تشريع الأحكام ومعطيات البرامج الدينية للناس، ليشيروا فيهم الشعور والدافع نحو هذه البرامج ويرسخوا عزمهم في تنفيذها. وقد رأينا نموذج ذلك- بيان فلسفة الأحكام- في هذه الخطبة، حيث ينطوي هذا البيان على عدة فوائد، إلى جانب كونه يحث الناس على التفاعل مع الوظائف الدينية وممارستها بكل شوق ورغبة ويهون عليهم تحمل بعضى المشاق التي تشتمل عليها بعض الوظائف الدينية.

ومن الفوائد التي يمكن ذكرها هنا:

١- تحدد للناس الأسلوب الصحيح الذى ينبغي أن تؤدى فيه الفريضة، مثلاً حين تبين فلسفة الحج

«فرض الله الحج تشييداً للدين» [٧٩٩]

، فمفهوم ذلك إقامة مراسم الحج بكل عظمة

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٠٢

لتحقيق هذا الهدف ولا يكتفون بأدابه الصورية الظاهرية.

٢- أن يعلموا أن آثار وبركات هذه الأعمال تعود علينا، فليس هناك من منة على الله، بل الله يمن علينا، الأمر الذى صرح به القرآن الكريم بشأن الإسلام والإيمان:

«يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [٨٠٠].

٣- يمكننا تقييم أعمالنا من خلال الالتفات إلى فلسفة الأحكام، لنرى مدى قبولها عند الله، مثلاً حين يقال:

«وفرض عليكم الصوم للتقوى والصلاة نهياً عن الفحشاء والمنكر»

فإن علينا أن نرى هل حصلت لدينا ملكة التقوى بعد القيام بالصوم والصلاة أم لا؟ وهكذا نقف على قيمة عبادتنا وأعمالنا.

نعم اننا نعلم بأن الله حكيم، وحكمته تقتضى ألا يشرع شيئاً دون أن يبين هدفه ونتيجته، ويا لهم من جهال أولئك الذين يزعمون أن أفعال الله ليست معللة بغرض؛ أى ليس هناك من هدف فى تشريعاته وأعماله! أنهم ليسيون بهذا الكلام إلى كونه حكيماً سبحانه، وهم يزعمون أنهم اقتربوا من حقيقة التوحيد، والحال أنهم مصداق لهذه الآية الشريفة:

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا» الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» [٨٠١].

نعم أفعال الله ليست معللة بأغراض، أى ليس هناك من هدف يعود إليه، لأنه غنى عن كل شىء وعن كل موجود؛ إلا أن المؤسف له أن هؤلاء الجهال لا يقولون ذلك، بل يزعمون أن لاضرورة لأن تعود نتيجة أفعال الله وأوامره على العباد، وهذا منتهى الجهل!!

على كل حال فإن الإمام عليه السلام بين فلسفة الأحكام فى هذه الخطبة، بحيث يتأجج الشوق فى أعماق من يتمنعها لأن يؤدى وظائفه على أكمل وجه دون أن يشعر بالتعب والملل.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٠٣

القسم الثانى: القرآن والسنة

إشارة

«أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ. وَارْعَبُوا فِيمَا وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ الْوَعْدِ. وَاقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ. وَاسْتَشْفُوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَى السُّنَنِ. وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شَفَاءُ الصُّدُورِ، وَأَحْسَبُوا تَلَاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصِيدِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْحَائِرِ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ؛ بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ،

وَالْحَسْرَةُ لَهُ الزُّمُّ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ الْوَمُّ».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان أركان الإسلام وذكر فلسفة الأحكام، دعا الناس إلى امتثال الأحكام والعمل بالوظائف فقال عليه السلام:

«أفيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر».

فالعبرة

«أفيضوا»

تفيد كثرة ذكر الله سبحانه والتوجه إليه.

والعبرة

«أحسن الذكرى»

لأن ذكر الله سبحانه مصدر وأساس كافة البركات المادية والمعنوية.

فقد جاء في الحديث النبوي:

«ليس عمل أحب إلى الله تعالى ولا أنجى لعبده من كل سيئة في الدنيا والآخرة، من ذكر الله. قيل: ولا القتال في سبيل الله؟ قال: لولا

ذكر الله لم يؤمر بالقتال» [٨٠٢].

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٠٤

ثم قال عليه السلام:

«وارغبوا فيما وعد المتقين فإن وعده أصدق الوعد، واقتدوا بهدى نبيكم فإنه أفضل الهدى واستنوا بسنته فإنها أهدى السنن».

لاشك أن الوعد الإلهية للمطيعين والمؤمنين الصالحين لهدى أصدق الوعود، لأن من يتخلف عن الوعد إما عاجز، أو بخيل أو جاهل، حيث يعد دون علم، ثم لا يفي بوعده. أما من كان مطلق في علمه وقدرته فخلف الوعد محال عليه.

المراد بالهدى (على وزن منع) السبيل والاسلوب والطريقة.

والسننة تعنى ما يصدر من الأوامر في مختلف المجالات، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو خاتم الأنبياء، فمن الطبيعي أن تكون سنه أهدى السنن.

ثم أكد الإمام عليه السلام على القرآن فقال:

«وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه، فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص».

فقد ذكر الإمام عليه السلام أربع مراحل مختلفة تتقدم كل واحدة منها بصورة طبيعية على الأخرى

في المرحلة الأولى أوصى عليه السلام بتعلم القرآن على أنه أحسن الحديث؛ وذلك لاشتماله على أكمل أسس سعادة الإنسان.

المرحلة الثانية أوصى عليه السلام بالتفكير والتدبر فيه وسبر غوره والوقوف على معناه ومضمونه، بفضل ربيع القلوب، فكما تتفتح البراعم في فصل الربيع وتورق الأشجار وتنبت الأوراد والزهور وتنتشر رائحتها العطرة في كل مكان، فببركة القرآن الكريم تظهر على القلب زهور فضائل الأخلاق وبراعم المعارف الإلهية، فمن لم يكتسب منه الحياة الإنسانية، كان كالشجرة اليابسة التي لا تهتز وتتحرك في فصل الربيع.

المرحلة الثالثة الأمر بالعمل والقول: عليكم بالاستشفاء بنور آيات الله، على غرار نور الشمس التي يستشفى في ظلها المرضى، فقد قيل أشعة الشمس قد تغنى عن حضور الطبيب.

والمرحلة الرابعة:

«أحسنوا تلاوته»

لتغوص القلوب فيه وتطبع بطابعه فتبلغه إلى الآخرين.

وهكذا يكون الإمام عليه السلام قد حدد وظيفة الأفراد تجاه القرآن الكريم. وليت الأفراد لم يكتفوا بالاختصار على حسن تلاوة القرآن وتجويده والتركيز على جماليه الصوت، والتفتوا إلى سائر

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٠٥

المراحل التي تشكل الدف الأصلي للقرآن. وقد عبرت العبارة الأولى عن القرآن على أنه أحسن الحديث، والعبارة الأخيرة أنفع القصص. فالحديث ما يصدر من المتحدث من كلام (لأن الحديث من مادة حدوث ويطلق على الكلام الحديث لأنه حادث باستمرار) فالمفهوم أن القرآن أفضل كلام بين الناس، من حيث الفصاحة والبلاغة، ومن حيث المحتوى والمضمون، والواقع هو أن العبارة إشارة إلى الآية الشريفة: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيًّا» [٨٠٣].

أما أحسن القصص فقد ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بها المجموعة القرآنية بما فيها الآثار والنتائج العلمية للقرآن التي تتحصل في ظل اجراء الأحكام والتعاليم القرآنية.

ومن هنا وردت الإشارة في آخر الخطبة إلى نقطة مهمة بالنسبة للعالم الذي لا عمل له، واولئك الذين يتلون القرآن ولا يعملون به، إذ قال عليه السلام:

«إن العالم بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق [٨٠٤] من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة أزم، وهو عند الله أوم [٨٠٥].»

فالعبارة تشتمل على تشبيه رائع للعالم بلا عمل (أو بتعبير الإمام عليه السلام العالم الذي لا يعمل بعلمه) يفيد أن مثل هذا العالم أقل درجة في الواقع من الجاهل العادي. بل هو كالجاهل الحائر الذي لا يفيق من جهله قط، فليس هنالك من أمل في هدايته؛ وذلك لأنه يسير عن علم على الطريق الاعوج، ومن هنا فان الله سبحانه يسلبه توفيق الهداية فيفقد صوابه في هذه الحيرة ولا يصل ساحل النجاة أبداً فيسقط في الهاوية.

ثم أشار عليه السلام إلى مدى بؤس مثل هذه العالم السادر في غيه فقال عليه السلام أولاً بأنّ الحجة عليه أعظم، فقد يتذرع الجاهل بجهله (إن يكن الجاهل عذراً) ولكن ما عذر العالم بلا عمل.

والثاني حسرته لازمة، فقد تخلف عن السعادة وكانت كافة أسبابها لديه فتاه حائراً في صحراء الحياة.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٠٦

والثالث أنه أكثر لوماً عند الله من الجاهل الحائر، لأنّ الحجة عليه أتم من غيره. ومن هنا ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد» [٨٠٦]

. بل يتعذر قبول توبه هذا العالم الذي لا عمل له. فقد صرح القرآن الكريم قائلاً:

«إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوَاءَ بِيَهَالَةٍ...» [٨٠٧].

تأمل: عاقبة العالم غير العامل

الناس على أربع: عالم، جاهل مقصر، جاهل مقصر بسيط وجاهل مركب. فالعالم من يعلم المطلب على نحو الاجمال أو التفصيل؛ أي قد يكون له أحياناً علم اجمالي بالشىء، وقد يكون له أحياناً اخرى علم تفصيلي. فهو يعلم مثلاً على نحو الإجمال أن المسكر حرام وله أضرار على جسم الإنسان وروحه. أو أنه رأى على نحو التفصيل أدلة حرمة المسكر وقد درس الآثار الضارة له على كل عضو من

أعضاء البدن.

والجاهل القاصر من لا يعلم، وليس له من سبيل إلى العلم، وربما كان بعيداً عن مراكز العلم فانغمس في الغفلة والسهو.

والجاهل المقصر من له سبيل إلى العلم، إلا أن الكسل والإهمال لم يدعه يتجه إلى العلم، فيبقى في جهله، مع ذلك فهو يعلم بجهله! أى يدري أنه لا يدري.

وأما الجهل المركب فهو من جهل ولا يدري أنه في جهل. بل بالعكس يظن أنه عالم وما يفهمه من الامور هو عين الواقع، وبعبارة اخرى فهو: لا يدري أنه لا يدري.

ويبدو أن الخطر والمسؤولية التي تتوجه إلى الجاهل القاصر أقل من غيرها بالنسبة للطوائف الأربع، ويأتي بعده الجاهل المقصر ثم الجاهل المركب؛ الذي قد يدفعه جهله المركب لايجاد بعض المشاكل لنفسه والآخرين. إلا أن الأخطر من الجميع هو العالم.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٠٧

الذى لا عمل له. وإلى هذه الطائفة تعزى جميع الكوارث التي تكبدها البشرية طيلة التاريخ بما فيها النزاعات والحروب في الماضي والحاضر.

فهم الذين يصنعون أخطر أسلحة الدمار الشامل التي تهدف إلى القضاء على الأبرياء من المجتمع البشرى. وهم الذين يشعلون فتيل الحرب من أجل تحقيق مآربهم واطماعهم.

وأخيراً هؤلاء هم الذين يستحوذون على المواقع المتقدمة والمراكز الحساسة في الأجهزة الإعلامية ووسائل الدعاية ليمارسوا أوسع عملية تضليل ليشوهوا الحقائق فيسوقوا الجهال إلى نيران فتنهم ويقضوا على حياتهم. وقد شبههم القرآن الكريم بالكلاب إذ قال: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ» [٨٠٨].

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: ترى ما سر هذا التضاد بين العمل والعلم أو لم يكن حرياً بهذا العالم أن يتجه إلى الصواب ويقود الناس إليه؟

ويبدو الجواب واضحاً على هذا السؤال وهو أن أسس ودعائم إيمان هذا العالم إنما هي فى الواقع ضعيفة خاوية، وإن انتحل الإسلام والعلم ظاهراً، إلا أن لسانه الباطنى

«يقولون إن الله خالق جنه ونار وتعذيب وغل يدين» [٨٠٩].

كما قد يكون مؤمناً بالله إلا أنه منقاد لهوى نفسه الذى يتغلب على إيمانه.

ونختتم هذا الكلام بحديث عن على عليه السلام فى أن التواره قد اختتمت بخمس عبارات هى [٨١٠].

الأول: العالم الذى لا يعمل بعلمه فهو وابليس سواء.

والثانى: سلطان لا يعدل برعيته فهو وفرعون سواء.

والثالث: فقير يتدلل لغنى طمعاً فى ماله فهو والكلب سواء.

والرابع: غنى لا ينتفع بماله فهو والاجير سواء.

والخامس: امرأة تخرج من بيتها بغير ضرورة فهى والامه سواء.

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٠٨

اللهم نسألك العمل بما نعلم من العلم الذى أفضته علينا فى ظل قبسات وعلوم نهج البلاغه لأمير المؤمنين على عليه السلام، اللهم ولا تقرنا مع الشيطان أبداً، اللهم نسألك حسن العاقبه وأن تختم لنا بالخير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تم بعون الله المجلد الرابع من شرح نهج البلاغه

في ١٧ شوال. عام ١٤٢٢ هـ ويليهِ المجلد الخامس ان شاء الله.

[١] (١) سند الخطبة: قد كفانا الرضى (ره) مؤنة البحث عن مصادر هذه الخطبة إذ ذكر أنه نقلها عن مسعدة بن صدقة العبدى عن أبى عبد الله عليه السلام ومسعدة هذا له كتب منها كتاب (خطب امير المؤمنين عليه السلام) كما ذكرنا ذلك في أوائل هذا الكتاب تحت عنوان الكتب المؤلفة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وقلنا هناك إن كتاب مسعدة هذا كان باقياً إلى زمن السيد هاشم البحرانى (ره) إذ نقل عنه كثيراً في تفسيره المعروف بالبرهان كما نوه به في مقدمة الكتاب المذكور ثم صار في ضمائر الغيوب. وعلى كل حال ان الخطبة الاشباح هذه من خطب أمير المؤمنين المشهورة رواها العلماء قبل الرضى أيضاً أحمد بن عبد ربّه المالكي في العقد الفريد والشيخ الصدوق في التوحيد باختلاف في بعض الألفاظ والفقرات مع روايه الرضى. ورواها الزمخشري في ربيع الأبرار وابن الأثير في النهاية. و الخطبة شاهده لنفسها لا- تحتاج مع لفظها الباهر، ومعناها الظاهر، إلى اسناد متواتر كما قال السيد ابن طاووس (حيث من المستبعد إن تصدر مثل هذه المضامين من غير المعصوم) (مصادر نهج البلاغة ٢/١٦٨).

[٢] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٦/٤٢٥.

[٣] (١) لا بدّ من الالتفات هنا إلى أن الخطبة تقسم بشكل عام إلى عشرة أقسام، حيث تقسم هذه الأقسام بدورها إلى عدّة أقسام اخرى. ولذلك عمدنا في النهاية إلى شرحها على أساس جعلها أربعة وعشرين قسماً.

[٤] (٢) توحيد الصدوق / ٧٩ ح ٣٤.

[٥] (١) ابن فارس، مقاييس اللغة.

[٦] (١) «يفره» من مادة «فور» بمعنى الكثرة والزيادة.

[٧] (٢) «يكديه» من مادة «كدي» على وزن كسب بمعنى البخل، وهى هنا بمعنى يفرقه وينفذ خزائنه.

[٨] (٣) منهاج البراعة ٦/٢٨٨.

[٩] (٤) بحار الانوار ٦٨/١٤٠ ح ٣١.

[١٠] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٦/٤٠٠.

[١١] (٢) «اناسى» جمع «إنسان» و يطلق على أفراد بنى الإنسان كما يطلق هذا اللفظ على بؤبؤ العين، لانعكاس صورة الأفراد فيها.

[١٢] (١) سورة الانعام/١٠٣.

[١٣] (٢) اقتباس من سورة البقرة/٢٥٥؛ سورة الاعراف/١٤٢.

[١٤] (٣) «لجين» على وزن حسين بمعنى الفضة.

[١٥] (٤) «عقيان» الذهب الخالص.

[١٦] (٥) «نثارة» من مادة «نثر» على وزن نصر التناثر والتشتت، حيث تتشقق أغلفة الأصداف فتتناثر منها حبيبات الدر هنا وهناك.

[١٧] (٦) «يغيض» من مادة «غيض» على وزن فيض نقصان وذهاب الماء في الأرض ووردت في العبارة بمعنى عدم نقصان منابع الفيض الإلهي بالعتاء.

[١٨] (١) مفاتيح الجنان، أعمال شهر رجب.

[١٩] (١) سورة الشورى ١١.

[٢٠] (٢) سورة طه/١١٠.

- [٢١] (١) قال ابن أبي الحديد فى شرح هذه الخطبة يمكن أن تكون جملةً يقولون نصباً على أنه حال من الراسخين، ويمكن أن يكون كلاماً مستأنفاً، أى هؤلاء العالمون بالتأويل، يقولون: آمننا به (٤٠٤/٦).
- [٢٢] (١) «ارتمت» من مادة «رمى» على وزن نهى تعنى اطلاق السهم، ولما كان السهم يتحرك بسرعة فان جملة «ارتمت» تعنى سرعة حركة الأفكار.
- [٢٣] (١) «منقطع» الشى ما إلبع ينتهى حيث يحصل القطع عادةً آخر الشى.
- [٢٤] (٢) «تولت» من مادة «وله» بمعنى العشق و شدة حب الشى حتى تجعل الإنسان حيراناً وتصيبه بالذهول.
- [٢٥] (٣) «تجوب» من مادة «جوب» على وزن ذوب بمعنى القطع والثقب. فقد ورد فى الآية التاسعة من سورة الفجر بشأن قوم الثمود «و ثمود الذين جابوا الصخر بالواد» فى اشارة الى دورهم التى كانوا بينوها فى الجبال من جراء قطع الحجر والصخر.
- [٢٦] (٤) «مهاوى» جمع «مهواة» و «مهوى» تعنى فى الأصل الوادى بين جبلين، أو الحفرة بين جدارين، و لما كان مثل هذا المكان مطبا، فقد وردت هذه الكلمة بمعنى الهلاك.
- [٢٧] (٥) «سدف» جمع «سدف» بمعنى الظلمة.
- [٢٨] (٦) «جبهت» من مادة «جبهه» بمعنى الجبين با البناء للمجهول ضربت جبهتها والمراد عادت خائبه.
- [٢٩] (٧) «اعتساف» السلوك على غير جادة، كما وردت بمعنى مطلق الانحراف والعدول عن الشى.
- [٣٠] (١) «رويات» جمع «روية» وهى الفكر.
- [٣١] (١) الضمير فى حجته ودلالته يعود إلى الخلق لا الخالق.
- [٣٢] (٢) سورة فصلت / ٥٣.
- [٣٣] (٣) الكنى واللقاب ١ / ١٢١.
- [٣٤] (١) «تلاحم» من مادة «لحم» بمعنى الاتصال، شبيه اتصال عضلات الجسم.
- [٣٥] (٢) «حقاق» جمع «حقه» وهو رأس العظم عند الفصل.
- [٣٦] (١) «عادل» مادة «عدل» على وزن قشر بمعنى المعادل والشبيه والنظير والعادلون بك الذين عدلوا بك غيرك، أى سووه بك وشبهوك به.
- [٣٧] (١) «نحلوا» من مادة «نحل» بمعنى الهبة والعطية، و حلية المخلوقين صفاتهم الخاصة بهم من الجسمانية ومايتبعها.
- [٣٨] (٢) «قرائح» جمع «قريحه» تعنى فى الأصل أول ماء يسحب من البئر، ثم اطلقت على النتائج الفكرية والذوقية للإنسان.
- [٣٩] (١) سورة الشورى ١١
- [٤٠] (٢) سورة الانعام / ١٠٣.
- [٤١] (٣) سورة الأعراف / ١٤٣.
- [٤٢] (٤) سورة الحديد / ٤.
- [٤٣] (٥) سورة ق / ١٦.
- [٤٤] (٦) سورة البقرة / ١١٥.
- [٤٥] (٧) سورة الفتح / ١٠.
- [٤٦] (٨) سورة طه / ٥.
- [٤٧] (١) شرح نهج البلاغة للعلامة التستري ١ / ٣٣٣
- [٤٨] (١) سورة فصلت / ٩.

[٤٩] (٢) سورة البقرة / ٢٢.

[٥٠] (٣) «مهب» اسم مكان من مادة «هبوب» بمعنى موضع هبوب الرياح، وقد شبهت العبارة المذكور الفكر بالنسيم الذي يهب من موضع؛ إلاً أن كنه ذات الله وصفاته سبحانه خارجة عن ذلك الموضوع.

[٥١] (١) قريحة: كما أسلفنا سابقاً في الأصل، بمعنى أول ماء يخرج من البئر عند ما يحفر، و كذلك يطلق على ما يفتق من أعمال فكر و ذوق الانسان.

و يشمل ذلك الغريرة التي هي بمعنى الطبيعة، و هو الشيء الذي يحصل عليه الانسان بمساعدة ذوقه و طبعه.

و يصح هذا المعنى أيضاً على غير الانسان، فمثلاً أكثر الطيور تقوم ببناء أعشاشها و تربية فراخها و الهجرة الطويلة و بشكل جماعي و أمثال ذلك، كل هذا يتم بواسطة القريحة و الغريزة.

[٥٢] (١) «الريث» التثاقل عن الامر والقيام بالعمل.

[٥٣] (٢) «أناة» بمعنى الوقار المقرون بالفكر حين القيام بالعمل.

[٥٤] (٣) «متلكي» من مادة «لكأ» على وزن هدف الوقوف في مكان، ثم اطلقت على من يتوقف في مسألة ويفكر فيها.

[٥٥] (٤) سورة فصلت / ١١.

[٥٦] (١) «أود» بمعنى الاعوجاج.

[٥٧] (٢) الجملة من حيث النحو هي أن «بدايا» خير لمبتدأ محذوف تقديره هذه، و اضافة بدايا إلى الخلاق من قبيل اضافة الصفة إلى الموصوف، التي تعنى في الأصل خلاق بدايا، و بدايا جمع بديته المصنوع البديع.

[٥٨] (١) سورة البقرة / ٣٢.

[٥٩] (٢) سورة آل عمران / ١٩١.

[٦٠] (١) «رهوات» جمع «رهوة»، قال بعض أرباب اللغة (كتاب العين) تعنى المرتفع فوق الجبال، بينما فسرها أغلب أرباب اللغة على انها من مادة «رهو» على وزن سهو بمعنى المكان الخالي والمفتوح. والانسب أن يكون معناها في الخطبة النقاط المفتوحة. وأخير اعتبرها البعض من الأضداد؛ أي تعنى المكان المرتفع والمنخفض أيضاً.

[٦١] (٢) «لاحم» من مادة «لحم» بمعنى ملاً فراغ الشيء، ما يصلح عليه باللحم، ولعل أصلها اللحم الذي يملأ الفاصلة بين العظام.

[٦٢] (٣) «صدوع» جمع «صدع» على وزن حرف بمعنى الشق.

[٦٣] (١) سورة الرعد / ٢.

[٦٤] (٢) «وشج» من مادة «وشج» على وزن نسج أى شبك.

[٦٥] (٣) فسير البعض «الأزواج» هنا بمعنى الأرواح (النفوس الفلكية) وترمز إلى عقيدة بعض الفلاسفة الذين يرون لكل فلك روحا مجردة، إلاً أن الانصاف هو عدم ثبوت هذه النظرية بدليل واضح، كما لا تدل العبارة المذكور على هذا الأمر.

[٦٦] (٤) «حزونة» (ولها معنى المصدر واسم المصدر) بمعنى الصعوبة، وقد وردت في الخطبة بمعنى المشاكل والصعاب.

[٦٧] (١) لا بد من الالتفات هنا إلى أن ثم الواردة في الآية تعنى التأخير في البيان لا الزمان. وعليه فهي لا تدل على أن خلق السموات جاء بعد خلق الأرض (راجع التفسير الأمثل / ١١ من سورة فصلت).

[٦٨] (١) سورة الأنبياء / ٣٠.

[٦٩] (٢) المراد بالرؤية هنا تلك التي تحصل عن طريق الفكر والتأمل، لا عن طريق المشاهدة الحسية؛ وذلك لأنه لم يكن الإنسان في ذلك الزمان كما احتمال في تفسير هذه الآية ان المراد من رتق السموات عدم وجود المطر ونمو النباتات، والمراد بفتقها هو نزول المطر ونمو النباتات.

- [٧٠] (١) «تمور» من مادة «مور» على وزن قول بعدة معانى فى اللغة ومنها الحركة السريعة والغبار الذى تبعثره الرياح هنا وهناك، والذى يستفاد من تعبيرات أرباب اللغة أنها تعنى الاضطراب فى الهواء.
- [٧١] (٢) «أيد» على وزن صيد بمعنى القدرة والنعمة، وجاء فى القرآن ذا الأيد بمعنى صاحب القوة وهذا هو المعنى المراد بها فى الخطبة.
- [٧٢] (١) ورد شرح مفصل لهذا الموضوع فى المجلد الأول من هذا الكتاب / ١٠٢ - ١٢٠.
- [٧٣] (١) سورة فصلت / ٣٧.
- [٧٤] (٢) «مناقل» جمع «منقل» من مادة «نقل» بمعنى الطريق.
- [٧٥] (٣) سورة يونس / ٥.
- [٧٦] (٤) «ناط» من مادة «نوط» على وزن موت توقف الشى على آخر.
- [٧٧] (٥) «درارى» جمع «درى» من الدر الكواكب والقمار.
- [٧٨] (١) سورة الانعام / ٩٧.
- [٧٩] (٢) «مسترقى» جمع «مسترق» بمعنى السارق ومنه استرق السمع، أى سماعه خفية.
- [٨٠] (٣) «أذلال» جمع «ذل» بكسر الذال المجرى والمسير.
- [٨١] (١) وسائل الشيعه ١٢ / ١٠٤. للوقوف على سائر الأحاديث الواردة بهذا الشأن راجع الباب ٢٤ من أبواب مايكتسب به.
- [٨٢] (١) «صفيح» من مادة «صفح» تعنى فى الأصل الانبساط والسعة، وعليه فهى تأتى بمعنى السطح الواسع، وقد وردت هنا بمعنى السماء الواسعة.
- [٨٣] (٢) «فتوق» جمع «فتق» بمعنى الشق فى الشى أو الفاصله بين شيئين، والفارق بين «الفروج» جمع فرج بمعنى الشق هو سعة الفتق، كما قد يكون إشارة إلى الشق الذى يفصل بين الشيئين، بينما ليس للفرج مثل هذا الفصل، ولا يعنى سوى الشق فى الشى.
- [٨٤] (٣) «أجواء» جمع «جو» بمعنى الهواء أو الفاصله بين السماء والأرض.
- [٨٥] (١) «فجوات» جمع «فجوة» الموضع الواسع، كما تأتى بمعنى الفراغ بين الشيئين، وردت فى قصة أصحاب الكهف فى القرآن كإشارة لسعة غار أصحاب الكهف «وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ».
- [٨٦] (٢) «زجل» من مادة «زجل» على وزن حمل بمعنى قذف الشى، وزجل على وزن عمل بمعنى الصوت المرتفع والمطرب، كما أطلقت على كل صوت مرتفع.
- [٨٧] (٣) «حظائر» جمع «حظيرة» المنطقه الممنوعه ومادتها «حظر» على وزن فرض بمعنى المنع.
- [٨٨] (٤) «سرادقات» جمع «سرادق» الحجاب والخيمه العظيمة.
- [٨٩] (٥) «رجيح» من مادة «رج» على وزن حج الزلزله والاضطراب.
- [٩٠] (٦) «تستك» منه تصم منه الاذان لشدته.
- [٩١] (٧) «سبحات» جمع «سبحة» بمعنى النور والعظمة، وازادتها إلى النور فى العبارة هى إضافة بيانية.
- [٩٢] (٨) «خاسته» من مادة «خسأ» على وزن مدح الدفع والطرده مع التحقير.
- [٩٣] (٩) راجع بهذا الشأن بحار الأنوار، ج ٥٥ كتاب «السماء العالم» الباب ٥ (الحجب والاسرار والسرادات).
- [٩٤] (١) يمكن أن تكون العبارة «تسبح جلال عزته» إشارة إلى تسبيح الملائكة أمام جلال الحق وعزته، والصيغة المؤنثة بسبب مفهومها الجمعى.
- [٩٥] (١) راجع المجلد الأول من هذا الشرح / ١٥٩.

- [٩٦] (٢) «ينتحلون» من مادة «انتحال» بمعنى إءعاء الشخص شيئاً لصالحه، وهو يتعلق بآخر.
- [٩٧] (٣) سورة الأنبياء / ٢٦-٢٧.
- [٩٨] (٤) «زائغ» من مادة «زيغ» على وزن ميل بمعنى العءول عن الحق.
- [٩٩] (١) سورة الحج / ٧٥.
- [١٠٠] (٢) «اخبات» الخضوع والخشوع والتواضع.
- [١٠١] (٣) «ذلل» جمع ذلول السهل.
- [١٠٢] (٤) «تماجيد» جمع «تمجيد» بيان المجد والشرف والعظمة الشخصية.
- [١٠٣] (١) «موصرات» من مادة «اصر» بمعنى الحفظ والسجن، ثم اطلق على كل فعل ثقيل يعيق الانسان عن العمل، ومؤصرات الأثام مثقلاتها.
- [١٠٤] (٢) «عقب» جمع «عقبه» على وزن غرفة وجمعها غرف تعنى النوبة. إشارة إلى تعاقب الليل والنهار حسب نوبتهما.
- [١٠٥] (١) «نوازع» جمع «نازعة» من مادة «نزع» على وزن وضع بمعنى سحبه أو رفعه من مكانه.
- وفي العبارة اعلاه، تطلق على السهم عند ما يراد اطلاقه من القوس في حالة سحب وتر الاطلاق إلى الخلف.
- [١٠٦] (٢) «تعترك» من مادة «عرك» الازدحام.
- [١٠٧] (٣) «إحن» جمع «إحنة» بمعنى الحسد والكره.
- [١٠٨] (٤) «تقترع» من مادة «قرع» بمعنى الضرب.
- [١٠٩] (٥) «الرين» بفتح الراء الدنس وما يطبع على القلب من حجب الجهالة.
- [١١٠] (١) «الدلح» جمع «دالح» من مادة «دلوح» بمعنى السحب المليئة بالمطر، وكأنها تتحرك ببطنى لثقلها (لأن أصلها الغوى يعنى بطنى الحركة).
- [١١١] (٢) «شمخ» جمع «شامخ» من مادة «شموخ» بمعنى العلو والرفعة ومن هنا يطلق الشامخ على الجبل المرتفع.
- [١١٢] (٣) «قتره» بمعنى ضيق وانضمام شىء إلى آخر، ولما كانت شدة الظلمة كذلك وكان الظلمات قد انضم بعضها الى بعض وتراكمت، اطلق عليها هذه المفردة.
- [١١٣] (٤) «أيهم» تعنى فى الأصل المجنون وناقص العقل ويقال للصحراء القاحلة فلاة كما تطلق على الظلام فيقال «الظلام أيهم» أى لايرى فيه كوكباً.
- [١١٤] (١) «تخوم» جمع «تخم» تعنى فى الأصل الحد، وتخوم الأرض اعماقها.
- [١١٥] (٢) «مخارق» جمع «مخرق» من مادة «خرق» على وزن خلق. بمعنى موضع الخرق، ومخارق الهواء الشقوق بين طبقات الهواء.
- [١١٦] (٣) «هفافة»، الريح التى تتحرك بسرعة. وقيل هفافة بمعنى الطيبة الساكنة، إلّا أنّ هذا المعنى لا يبدو مناسباً للعبارة المذكورة، ولايستبعد ادغام المعنيين فى مفهوم واحد وهو الريح السريعة المنتظمة.
- [١١٧] (٤) «وله» تغنى الحيرة من شدة الحزن حتى يفقد صاحبها عقله، ثم اطلق على العشق المفرط الذى يسلب الإنسان استقراره.
- [١١٨] (١) الكافي ٢/ ٨٣ ح ٣، باب العبادة.
- [١١٩] (١) «روية» من مادة «رى» على وزن طى التى تروى منه العطش، وكأس روية كناية عن الظرف المملوء الذى يروى العطشان بصورة تامة.
- [١٢٠] (٢) «سويداء» تصغير «سوداء» من السواد، وهى حبة صغيرة فى القلب تشكل مركزه حب اعتقاد القدماء.
- [١٢١] (٣) «وشيجة» من مادة «وشج» أصلها عرق الشجرة وإراد بها هنا بواعث الخوف من الله.

- [١٢٢] (٤) «حنو» من مادة «حنو» على وزن حذف بمعنى الالتواء والانحناء.
- [١٢٣] (٥) «زلفه» من مادة «زلف» على وزن ضعف بمعنى القربى، و«زلفه» و«زلفى» بمعنى المقام والمنزلة والقرب.
- [١٢٤] (٦) «ربق» جمع «ربقه» جبل فيه عدة عرى تربط فيه البهم، ثم أطلقت على الرابطة المحكمة بين شىء وآخر، وقد وردت هنا بهذا المعنى.
- [١٢٥] (٧) «إستكانة» من مادة «سكون» تأتي بمعنى الخضوع والتواضع فى هذه الموارد. قيل من باب إفتعال من مادة سكون، وقيل من باب استفعال من مادة كون وهى أيضاً بمعنى السكون فى مكان مع الخضوع والخشوع.
- [١٢٦] (١) «دؤوب» مصدر بمعنى الدوام والاستمرار والسعى والجهد إلى حد التعب والارهاق.
- [١٢٧] (٢) سورة الأنبياء / ٢٠.
- [١٢٨] (٣) «تغض» من مادة «غيض» بمعنى تنقص و تقل. و أشارت فى العبارة إلى عدم قلة رغبة الملائكة بطاعة الله و عبادته.
- [١٢٩] (٤) «أسلات» جمع «أسله» بمعنى طرف اللسان، وتطلق على من لا يكل عن الذكر ولا يجف لسانه.
- [١٣٠] (٥) «همس» على وزن لمس، الخفى من الصوت.
- [١٣١] (٦) «جوار»، الصوت المرتفع، وقد ورد فى العبارة بمعنى رفع صوت الملائكة بالتضرع وعدم الكف عن المناجاة.
- [١٣٢] (٧) «مقاوم»، قال شراح نهج البلاغة مقاوم جمع مقام بمعنى الصفوف وإن لم تعشر على مثل هذا الجمع ٢ فى المصادر اللغوية.
- [١٣٣] (١) «يثنوا» من مادة «ثنى» بمعنى الطى وأن أطلقت على المدح فلأنها تعدد صفات الشخص البارزة الواحدة بعد الأخرى.
- [١٣٤] (٢) «تنتضل» من مادة «نضال» ترمى السهام.
- [١٣٥] (٣) روضة المتقين ١٣ / ٢٦٤.
- [١٣٦] (١) موسوعة الإمام على بن أبى طالب ٩ / ٢٠٢؛ بحار الأنوار ٤٦ / ٧٥.
- [١٣٧] (١) «يمموا» من مادة «يم» قصدوه بالرغبة والرجاء عند ما انقطع الخلق سواهم إلى المخلوقين، ومنه «التميم» الذى يقصد فيه الإنسان ضرب يديه بالتراب ومسح ظاهرها وجبهته به.
- [١٣٨] (٢) سورة غافر / ١٥.
- [١٣٩] (٣) «الاستهتار» مصدر بمعنى اللامبالاة والحرص على المخالفة، واصله «التهتر» على وزن الستر بمعنى الحماقة والجهل.
- [١٤٠] (٤) «مواد» جمع «مادة» أصلها من «مد» البحر إذ زاد، فالمواد تعنى الزيادة.
- [١٤١] (٥) «ينوا» من مادة «ونى» على وزن روى بمعنى الضعف والفتور.
- [١٤٢] (٦) «وشيك» من مادة «وشك» بمعنى السرعة.
- [١٤٣] (١) «أخياف» من مادة «خيف» على وزن هدف و هو فى الأصل ما انحدر من سفح الجبل، و اريد به هنا سواقطالهمم. و تعنى إختلاف العينين مثلاً واحدة زرقاء و أخرى سوداء، ثم أطلقت على كل إختلاف.
- [١٤٤] (١) «زيغ» من مادة «زيغ» على وزن فيض الاعوجاج.
- [١٤٥] (٢) «ونى» من مادة «ونى» بمعنى الضعف كما مر علينا سابقاً.
- [١٤٦] (١) «أهاب» جلد الحيوان، أو الجلد المدبوغ.
- [١٤٧] (٢) «حافد» من مادة «حفد» السرعة فى العمل.
- [١٤٨] (٣) تفسير القمى ٢ / ٢٥٥.
- [١٤٩] (١) وسائل الشيعة ١١ / ١٦٤ ح ٢.
- [١٥٠] (١) «كبس» بالفتح من مادة «كبس» على وزن حبس بمعنى الأغلاق والضغط.

- [١٥١] (٢) «مور» على وزن غور التحرك الشديد والهيجان والاضطراب.
- [١٥٢] (١) «مستفلحة» من مادة استفحال الهائجة التي يصعب التغلب عليها.
- [١٥٣] (٢) «زاخرة» من مادة «زخر» على وزن فخر بمعنى المليء.
- [١٥٤] (٣) «أو اذى» جمع أذى على وزن قاضى الموج أو أعلاه.
- [١٥٥] (٤) «تصطفق» من مادة «صفق» على وزن سقف بمعنى ضرب الشئء بأخر مصحوباً بالصوت، واصطفقت الأشجار اهتزت بالريح.
- [١٥٦] (٥) «متقاذفات» من مادة «قذف» على وزن حذف النزاع وقذف شئء على آخر.
- [١٥٧] (٦) «أثباج» جمع «ثبج» بالتحريك وهو فى الأصل ما بين الكاهل والظهر، استعارة لأعلى الموج، التي يقذف بعضها بعضها.
- [١٥٨] (٧) «ترغو» من مادة «رغو» على وزن نقد ومنه الرغو ما يطفو على اللبن وأريد بها هنا العناصر المكونة للأرض والتي ظهرت عليها مادة مذابة فى البداية.
- [١٥٩] (٨) «جماح» طغيان الفرس ثم اطلق على كل شئء شبيه ذلك.
- [١٦٠] (٩) «كلكل» يعنى الصدر.
- [١٦١] (١٠) «تمعكت» من مادة «معك»، تمعكت الدابة تمرغت فى التراب.
- [١٦٢] (١١) «كواهل» جمع «كاهل» أعلى الظهر وقرب العنق.
- [١٦٣] (١٢) «اصطخاب» من مادة «صخب» على وزن وهب بمعنى ارتفاع الصوت وتستعمل حين تختلط أصوات الطيور والضفادع مع بعضها، ووردت هنا بشأن اختلاط الأمواج مع بعضها.
- [١٦٤] (١٣) «ساجى» بمعنى ساكن من مادة «سجو» على وزن هجو.
- [١٦٥] (١٤) «حكمة» من مادة «حكم» على وزن حتم تعنى فى الأصل الاعادة والمنع وتطلق على ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه. وتطلق الحكمة على العقل والعلم، لأنها تمنع الإنسان من السيئات والانحرافات.
- [١٦٦] (١) «مدحوة» من مادة «دحو» بمعنى مبسوطه.
- [١٦٧] (٢) «بأو» على وزن نحو الكبر والزهو والفخر.
- [١٦٨] (٣) «شموخ» بمعنى الكبر والغرور.
- [١٦٩] (٤) «غلواء» من مادة غلو النشاط و الطموح و تجاوز الحد.
- [١٧٠] (٥) «كعم» من مادة «كعم» على وزن طعم، كعم البعير شد فاه لثلا يعفى أو يأكل، وما يشد به كعام.
- [١٧١] (٦) «كظة» بالكسر ما يعرض من امتلاء البطن بالطعام، ويراد بها هنا ما يشاهد فى جرى الماء من ثقل الاندفاع.
- [١٧٢] (٧) «جريه» بمعنى الجريان.
- [١٧٣] (٨) «همد» من مادة «همود» بمعنى اخماد حرارة النار.
- [١٧٤] (٩) «نَزَقَات» من مادة «نزق» الخفء والطيش.
- [١٧٥] (١٠) «لبد» من مادة «لبود» الوقوف فى مكان.
- [١٧٦] (١١) «زيغان» التبخر فى المشية.
- [١٧٧] (١٢) «وثبات» جمع «وثبة» القفز وقد وردت فى العبارة بمعنى حركة الأرض الشديدة فى الأيام الاولى.
- [١٧٨] (١) «شواهق» جمع «شاهق» العالى والمرتفع.
- [١٧٩] (٢) «شمخ» جمع «شامخ» و «بذخ» جمع «بازخ» العال والرفيع.

[١٨٠] (٣) شمش جمع شامخ وبذخ جمع باذخ العال والرفيع.

[١٨١] (٤) «عرانين» جمع «عرنين» على وزن عشرين وهو ما صلب من عظم الأنف.

[١٨٢] (٥) «سهوب» جمع «سهب» على وزن فهم الفلاة.

[١٨٣] (٦) «بيد» جمع «بيداء» بمعنى الأرض الفلاة.

[١٨٤] (٧) «أخاديد» جمع «أخدود» الحفرة الكبيرة.

[١٨٥] (١) «الراسيات» جمع «راسية» بمعنى الثقيل والمحكم.

[١٨٦] (٢) «جلاميد» جمع «جلمود» الحجر الصلد.

[١٨٧] (٣) «شناخيبي» جمع «شناخوب» رأس الجبل.

[١٨٨] (٤) «الشم» جمع «أشم» بمعنى العالى والمرتفع.

[١٨٩] (٥) «صياخيد» جمع «صيخود» على وزن محمود الصخرة الشديدة.

[١٩٠] (٦) «ميدان» بالتحريك الاضطراب.

[١٩١] (٧) «أديم» يعنى فى الأصل الجلد المدبوغ ثم اطلق على سطح الأرض.

[١٩٢] (٨) «تغلغل» المبالغة فى الدخول.

[١٩٣] (٩) «متسربة» من مادة «تسرب» الدخول خفية.

[١٩٤] (١٠) «جوبات» «جوبة» على وزن توبة الحفرة.

[١٩٥] (١١) «خياشيم» جمع «خيشوم» على وزن زيتون وهو منفذ الأنف إلى الرأس.

[١٩٦] (١٢) «جراثيم» جمع «جرثومة» المراد هنا ما سفلى عن السطوح من الطبقات الترابية.

[١٩٧] (١) سورة النبأ / ٧.

[١٩٨] (٢) سورة النحل / ١٥.

[١٩٩] (٣) «متنسم» من مادة «نسيم» هبوب الرياح المعتدلة. وعليه متنسم (بصيغة اسم مفعول) بمعنى الهواء الصالح للتنفس.

[٢٠٠] (٤) «مرافق» جمع «مرفق» على وزن مكتب كل ما يحتاج الإنسان ويستفيد منه، وهذا هو المعنى المراد فى الخطبة. كما ورد

بمعنى مرفق اليد.

[٢٠١] (١) سورة الرعد / ٣.

[٢٠٢] (١) «جرز»؛ تطلق على الأرض التى تمر عليها مياه العيون فتنتب.

[٢٠٣] (٢) «روابى» جمع «رابية» من مادة «ربو» على وزن غلو مرتفعات الأرض.

[٢٠٤] (١) «لمع» جمع «لمعة» على وزن لقمة بمعنى قطعة من السحاب أو شىء آخر.

[٢٠٥] (٢) «قزع» جمع «قزعة» على وزن ثمرة القطة من الغيم.

[٢٠٦] (٣) «تمخضت» من مادة «مخض» على وزن فرض، بمعنى الحركة الشديدة، مثل حركة الشكبة - وهو الوسيلة التى يخض فيها

اللبن لفصل الزبد عنه - عند ما نريد فصل الزبد عن اللبن.

والمخاض: يطلق على حركة الطفل الشديدة فى بطن أمه فى حالة الطلق والوضع.

[٢٠٧] (٤) «مزن» السحب الماطرة.

[٢٠٨] (٥) «كفف» جمع «كفه» على وزن قبة حاشية شىء واطرافه.

[٢٠٩] (٦) «مىض» من مادة ومض على وزن رمز التشعشع.

- [٢١٠] (٧) «كنهور» القطع العظيمة من السحاب.
- [٢١١] (٨) «رباب» جمع «ربابة» السحاب الابيض.
- [٢١٢] (٩) «سح» متلاحق متواصل.
- [٢١٣] (١٠) «أسف» من مادة إسفاف الدنو من الأرض.
- [٢١٤] (١١) «هيدب» السحاب المتدلى الذى يقترب من الأرض.
- [٢١٥] (١٢) «تمرى» من مادة «مرى» من مرى الناقة مسح على ضرعها ليحلب لبنها.
- [٢١٦] (١٣) «درر» جمع «درة» اللبن.
- [٢١٧] (١٤) «أهاضيب» جمع «أهضوبة» الحلب المتواصل.
- [٢١٨] (١٥) «شاييب» جمع «شؤبوب» ما ينزل من المطر بشدة.
- [٢١٩] (١) «برك» بالفتح مايلى الأرض من جلد صدر العبير.
- [٢٢٠] (٢) «بوانى» مثنى «بوان» على وزن لسان عمود الخيمة.
- [٢٢١] (٣) «بعاع» بالفتح ثقل السحاب من الماء.
- [٢٢٢] (٤) «استقل» من مادة «استقلال» الحمل.
- [٢٢٣] (٥) «عبء» الحمل.
- [٢٢٤] (٦) «هوامد» جمع «هامدة» من مادة «همود» انطفاء النار والهوامد من الأرض ما لم يكن بها نبات.
- [٢٢٥] (٧) «زعر» جمع «أزعر» الموضع القليل النبات.
- [٢٢٦] (٨) «تبهج» من مادة «بهجت» سر وفرح.
- [٢٢٧] (٩) «تزدهى» من الأزدهاء العجب.
- [٢٢٨] (١٠) «ريط» جمع «ريطة» الثوب الرقيق.
- [٢٢٩] (١١) «أزاهير» جمع «زهرة» النبات.
- [٢٣٠] (١٢) «سمطت» من مادة «سمط» التعليق.
- [٢٣١] (١٣) «ناضر» من مادة «نضارة» النشاط، ولا سيما الحاصل من وفور النعمة.
- [٢٣٢] (١٤) «أنوار» جمع «نور» البرعم والزهر.
- [٢٣٣] (١) «بلاغ» من مادة «بلوغ» الوصول إلى الشىء وهو هنا ما يتبلغ به من قوت.
- [٢٣٤] (٢) سورة عبس / ٢٥ - ٣٢.
- [٢٣٥] (٣) «فجاج» جمع «فج» بمعنى الوادى بين الجبلين.
- [٢٣٦] (٤) «جواد» جمع «جادة» الطريق الواسع الواضح.
- [٢٣٧] (١) سورة الأنبياء / ٣١.
- [٢٣٨] (٢) سورة فاطر / ٢٧.
- [٢٣٩] (٣) سورة النحل / ١٦ - ١٥.
- [٢٤٠] (١) «جبله» بمعنى الطبيعة و الفطرة الإنسانية وقد اشتقت هذه الكلمة من مادة «جبل» حيث تابى هذه الفطرة التغيير).
- [٢٤١] (١) «أوعز» من مادة «وعز» على وزن وعظ اقتراح عمل على آخر.
- [٢٤٢] (٢) سورة طه / ١١٥.

- [٢٤٣] (٣) سورة البقرة / ٣٥.
- [٢٤٤] (٤) للوقوف على تفاصيل هذا الموضوع راجع كتاب «معرفة الله».
- [٢٤٥] (٥) سورة الاعراف / ٢٢.
- [٢٤٦] (١) «أهبط» من مادة «هبوط» النزول.
- [٢٤٧] (٢) سورة هود / ٦١.
- [٢٤٨] (٣) «قرن» الزمان الطويل الذي قد يمتد الى مئة عام، كما يطلق الجماعة التي تعيش مع بعضها في عصر.
- [٢٤٩] (٤) «مقطع» النهاية.
- [٢٥٠] (٥) «عذره» و «نذره»، «العذر» هنا اتمام الحجة على العباد بحيث لا يبقى لهم عذرا للمخالفة، و «النذر» جمع النذير بمعنى الانذار، ذكر العواقب السيئة للشئ.
- [٢٥١] (١) جملة «ليقيم الحجة به على عباده» في حالة عود الضمير «به» على آدم عليه السلام أيضاً يمثل دليلاً آخرأ على نبوة آدم عليه السلام.
- و تعبير «عباده» يشير إلى حواء و أولاد آدم، بالاضافة إلى مصير آدم و زوجته بعد الخروج من الجنة بعد ارتكاب الخطأ، و هي حجة على بنى آدم كافة إلى يوم القيامة.
- [٢٥٢] (١) بحار الأنوار ١٤٠ / ٦٨، وقد ورد شبه هذا المعنى فى الغنى والفقر والصحة والمرض والتوفيق للعبادة من عدمه فى بحار الانوار ٢٨٤ / ٥ عن النبي صلى الله عليه و آله عن الله سبحانه.
- [٢٥٣] (٢) «أتراح» جمع «ترح» على وزن فرح بمعنى الغم والهم، وفسر ضد الفرح كما فسر أيضاً بالهلاك وقطع الخير والاحسان.
- [٢٥٤] (١) «خالج» من مادة «خلج» بمعنى الجذب، والخلجان شئ فى ذهن الإنسان يعنى انجذابه أمام الشئ، ومن هنا اطلق الخليج لجذبه ماءً كثيراً من البحر.
- [٢٥٥] (٢) «أشطان» جمع «شطن» على وزن وطن وهو الجبل الطويل، كما وردت هذه المفردة بمعنى العبد، ومنه «الشیطان» لبعده عن الهداية والرحمة.
- [٢٥٦] (٣) «مرائر» جمع «مير» الجبل المحكم.
- [٢٥٧] (٤) اوردنا بحثاً مفصلاً فى الخطبة ٦٢ من المجلد الثالث بشأن الأجل ونهاية عمر الإنسان.
- [٢٥٨] (١) سورة الزخرف / ٣٢.
- [٢٥٩] (٢) نهج البلاغة، الرسالة ٣١.
- [٢٦٠] (٣) ميزان الحكمة ٢ / ح ٥٧٠١.
- [٢٦١] (١) «مسارق» جمع «مسرق» من مادة «سرقه» النظر خلسة.
- [٢٦٢] (٢) «ایماض» من مادة «ومض» على وزن رمز اللمعان القصير والمخفى.
- [٢٦٣] (٣) «جفون» جمع «جفن» على وزن جفت، بمعنى جفن العين.
- [٢٦٤] (٤) «مصائخ» جمع «مصيخة» من مادة «صوخ» على وزن صوت الشق، والمراد هنا شق الاذان الذى يسمع به الإنسان الأصوات.
- [٢٦٥] (٥) سورة النحل / ٧٨.
- [٢٦٦] (٦) «مصائف» جمع «مصيف» موضع اقامتها فى الصيف.
- [٢٦٧] (١) «مشاتى» جمع «مشتى» موضع اقامتها فى الشتاء.
- [٢٦٨] (٢) «هوام» جمع «هامه» الحشرات (الخطيرة، كما تطلق على مطلق الحشرات).

[٢٦٩] (٣) «حنين» الألم من مادة «حنان» ورجع الحنين تردیده.

[٢٧٠] (٤) «مولهات» الحزينات من مادة «وله» على وزن فرح.

[٢٧١] (٥) «همس» على وزن لمس، بمعنى الصوت الهادىء الخفى، يطلق أحيانا على صوت الاقدام الحافية.

[٢٧٢] (٦) «منفسح» المكان الواسع من مادة «فسح» على وزن مسح.

[٢٧٣] (٧) «ولائج» جمع «وليجه» البطانة الداخلية.

[٢٧٤] (٨) «غلف» جمع غلاف معروف المعنى.

[٢٧٥] (٩) «الأكام»، جمع «كم» غطاء النوار ولايبعد اضافة الغلف إليها أنها إضافة بيانية.

[٢٧٦] (١٠) «منقمع» موضع الاختفاء من مادة «الانقماع» بمعنى الاختفاء.

[٢٧٧] (١١) «غيران» جمع «غار»، والواسع منها يطلق عليه الكهف.

[٢٧٨] (١٢) «سوق» جمع «ساقه» أسفل الشجرة.

[٢٧٩] (١٣) «ألحية» جمع «لحاء» قشر الشجرة.

[٢٨٠] (١٤) «مغرز» موضع جذور الشىء.

[٢٨١] (١٥) «أفنان» جمع «فنن» على وزن قلم بمعنى الغصون.

[٢٨٢] (١٦) «أمشاج» جمع «مشج» على وزن سبب الشىء المخلوطة.

[٢٨٣] (١٧) «مسارب» جمع «مسرب» على وزن مركب وهى ما يتسرب المعنى فيها عند نزوله أو عند تكونه.

[٢٨٤] (١) «تسفى» من مادة «سفى» على وزن نفى الرياح التى تثير الغبار والتراب.

[٢٨٥] (٢) «أعاصير» جمع «إعصار» على وزن إجبار الريح التى تثير السحاب.

[٢٨٦] (٣) «تغفو» من مادة «غفو» بمعنى المحو وتستعمل هذه المفردة فى الذنوب بمعنى محوها، ومن هنا يقال العافية بمعنى محو المرض.

[٢٨٧] (٤) «عوم» على وزن قوم السباحة والطوفان.

[٢٨٨] (٥) «كثبان» جمع «كثيب» التل المرتفع.

[٢٨٩] (١) «ذرا» جمع «ذروة» المكان المرتفع و أعلى الشىء.

[٢٩٠] (٢) «شناخيب» جمع «شنخوب» على وزن بهلول رؤوس الجبال.

[٢٩١] (٣) «تغريد» أصوات الطيور.

[٢٩٢] (٤) «دياجير» جمع «ديجور» الظلمة.

[٢٩٣] (٥) «أوكار» جمع «وكر» على وزن مكر العش.

[٢٩٤] (٦) «أوغبت» من مادة «وعب» على وزن صعب جمعت.

[٢٩٥] (٧) «سدفة» ظلمة.

[٢٩٦] (٨) «ذر» بمعنى نثر و تأتى ايضاً بمعنى انتشار ضوء الشمس.

[٢٩٧] (٩) «سبحات» جمع «سبحة» على وزن لقمة بمعنى شعاع النور، و «سبحات النور» فى الجملة أعلاه جاءت بمعنى اشعة النور.

[٢٩٨] (١٠) «هماهم» جمع همهمة مجاز من المهمة تريد الصوت فى الصدر من الهم.

[٢٩٩] (١١) «هامة» قال بعض شراح نهج البلاغة من له هممة عالية، كما يراد بها الهموم من الهم والغم وهذا ما اريد بها فى العبارة.

[٣٠٠] (١) «نقاعة» من مادة «نقع» على وزن نفع جمع الماء و «نقاعة دم» الحفرة التى يجمع فيها الدم، وهى هنا ٢ إشارة إلى رحم

- (الام) وقال البعض اريد بها هنا العلقه.
- [٣٠١] (٢) اعتورت من مادة اعتوار تداولته وتناولته.
- [٣٠٢] (١) سورة لقمان / ٢٧.
- [٣٠٣] (١) شرح نهج البلاغه لابن ابي الحديد ٢٣ / ٧ بتصرف طفيف.
- [٣٠٤] (١) «تعداد» بفتح التاء له كما صرح بذلك ارباب اللغة، ويعنى عد الشىء (واعبره البعض مصدر ثلاثى مجرد، وقيل من باب تفعيل، كان تعديد ثم بدلت ياء، بالف وتلفظ تعداد بكسر التاء قليل جداً).
- [٣٠٥] (٢) «ينعش» من مادة «نعش» وهى فى الاصل بمعنى رفعه و أقامه، ويقال لجسد الانسان اذا خرجت منه الروح نعشاً، و كذلك للآله التى يرفع فيها الميت بالنعش، و الذى يرفع لينقل إلى مكان مناسب.
- [٣٠٦] (٣) «خلة» الحاجة والفقر، كما وردت بمعنى الضعف.
- [٣٠٧] (١) سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغه فى ذيل هذه الخطبة. رواه الطبرى وابن الأثير فى حوادث ٣٥ هـ بتفاوت يسير جدا وكلام هذا نسجه لا- سبيل إلى انكاره، ولذا ترى الناس اختلفوا فى توجيهه بعد أن لم يسعهم رده. ويستفاد من المصدرين المذكورين أن الإمام عليه السلام لم يرد هذه العبارات لخطبة واحدة، بل حدث كلام بينه عليه السلام وبين الناس فى الخلافة، فحذف السيد الرضى كلام الناس وذكر الإمام عليه السلام. فالمعروف ان مصدرين من مصادر العامة ذكرت هذه الخطبة قبل السيد الرضى (تاريخ طبرى ٣ / ٤٥٦، تاريخ الكامل لابن أثير ٣ / ١٩٠) والشيخ المفيد فى الجمل / ٤٨ وابن الجوزى فى تذكره الخواص / ٥٧.
- [٣٠٨] (١) منهاج البراعة ٧ / ٦٢.
- [٣٠٩] (١) «أغامت» من مادة «غيم» غطيت بالغيم، كناية عن اضطراب الأوضاع السياسية والاجتماعية للمسلمين فى ذلك الزمان.
- [٣١٠] (٢) «محجة» الطريق المستقيمة والواضحة سواء الظاهرية أم المعنوية، وقد اقتبست فى الأصل من مادة «حج» بمعنى القصد، لأن الإنسان يقصد دائما المشى على الطريق المستقيم ليصل إلى الهدف.
- [٣١١] (٣) «عتب» مصدر بمعنى اللوم والتأنيب و التوبيخ.
- [٣١٢] (٤) شرح نهج البلاغه للشيخ محمد عبده، ذيل الخطبة ٩٢ / ٢٣٣.
- [٣١٣] (١) سورة الحديد / ٢٥.
- [٣١٤] (٢) بحار الانوار ٤٠ / ٣٢٥.
- [٣١٥] (١) نهج البلاغه، الخطبة ٣.
- [٣١٦] (٢) نهج البلاغه، الخطبة ٣.
- [٣١٧] (٣) نهج البلاغه، الخطبة ٧٤.
- [٣١٨] (٤) شرح نهج البلاغه لابن ابي الحديد ١ / ١٨٦؛ وقد نقل هذا المضمون الطبرى فى ٣ / ٢٩٤ حوادث عام ٢٣ هـ باختلاف طفيف.
- [٣١٩] (٥) تاريخ الطبرى ٢ / ٤٠٥.
- [٣٢٠] (١) احقاق الحق ٨ / ٢٤٠.
- [٣٢١] (١) الكامل لابن أثير ٣ / ١٩٣.
- [٣٢٢] (٢) شرح نهج البلاغه لابن ابي الحديد ٧ / ٧٣.
- [٣٢٣] (١) روى ابن المغازلى أحد علماء العامة فى مناقبه عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام: «سلمك سلمى و حربك حربى» (مناقب ابن المغازلى / ٥٠).

[٣٢٤] (١) سند الخطبة: قال ابن أبي الحديد هذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السيرة، وهي متداولة منقولة مستفيضة، خطب بها على عليه السلام بعد انقضاء أمر النهروان، وفيها ألفاظ لم يروها الرضى (ره) (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧/ ٥٧) كما ورد في مصادر نهج البلاغة أن من رواها ابن واضح في تاريخه (تاريخ يعقوبى ٢/ ١٩٣) وأبو نعيم في حلية الأولياء وابن أثير في النهاية. كما رواها العلامة المجلسى عن كتاب الغارات الثقفى (مصادر نهج البلاغة ٢/ ١٧٨) فالذى يستفاد من هذه النقول أن هذه الخطبة من الخطب المعروفة التي ذكرت في عدة مصادر.

[٣٢٥] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧/ ٤٦ و ١٣/ ١٠٦.

[٣٢٦] (١) «فقات» من مادة «فقا» على وزن فقر القلع بمعنى تغلبه عليها.

[٣٢٧] (٢) «غيب» من مادة «غهب» على وزن وهب الظلمة وشدة السواد، وتستعمل فى الليالى الدامسة الظلام، كما تعنى فى الأصل الغفلة والنسيان المناسب للظلمة.

[٣٢٨] (٣) «كلب» على وزن طلب من مادة «كلب» على وزن قلب داء معروف يصيب الكلاب، فكل من عضته ٢ أصيب به فجن ومات إن لم يبادر بالدواء. ومن هنا يستعمل فى الحوادث الأليمة والحروب الطاحنة وهجوم الحيوانات الوحشية المفترسة.

[٣٢٩] (١) منهاج البراعة ٧/ ٧٤.

[٣٣٠] (٢) «ناعق» من مادة «نعق» على وزن ضرب من نعق بغنمه صاح بها لتجتمع وتستعمل فى الافراد السذج الذين يتحركون بواعز من المفسدين.

[٣٣١] (٣) «مناخ» من مادة «نوخ» بمعنى أقام، و«مناخ» يطلق على المكان الذى يبرك فيه البعير، وتستعمل بشكل واسع ككناية عن محل الإقامة.

[٣٣٢] (١) سورة النمل / ٦٥) كما ورد شبيه هذا المضمون فى آيات متعددة اخرى .

[٣٣٣] (١) كرائه جمع كرية.

[٣٣٤] (٢) حوازب جمع حازب من مادة حزب على وزن جذب الأمر الشديد.

[٣٣٥] (٣) «قلص» من مادة «قلوص» بتشديد اللام تمارت واستمرت.

[٣٣٦] (٤) «شمر» من مادة «تشمير» ويطلق على عملية رفع الثوب عن الساقين و التهيو والاستعداد للقيام بعمل ما.

و«شمر» تطلق على الاشخاص ذوى الجد والتجربة، وكذلك تطلق على الاشرار.

[٣٣٧] (١) «يُحمن» من مادة «حوم» على وزن قوم بمعنى الدوران.

[٣٣٨] (١) «خطئة» من مادة «خط» به معنى وضع العلامة، ولفظ «خطئة» يأتى أحياناً بمعنى حالة أو موضوع.

[٣٣٩] (٢) «أيم» يرى بعض الادباء أن أصلها (أيمن) أسقطت نونها، فان قيل وأيم الله تفيد القسم) ومن أراد المزيد فليراجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧/ ٥٤).

[٣٤٠] (٣) «الناب» الناقاة المسنة.

[٣٤١] (٤) «ضروس» الحيوان السى الخلق يعنى حباله.

[٣٤٢] (٥) «تعدم» من مادة «عدم» من عدم الفرس إذا أكل بحفاء أو عض.

[٣٤٣] (٦) «تخبط» من مادة «خبط» الضرب باليد.

[٣٤٤] (٧) «تزبن» من مادة «زبن» على وزن دفن تضرب.

[٣٤٥] (٨) «درّ» جريان اللبن توفير، كما يطلق على كل خير وبركة.

[٣٤٦] (١) «شوهاء» من مادة «شوه» على وزن قوم قبيحة المنظر.

- [٣٤٧] (٢) «مخشية» من الخشية مخوفة مرعبة.
- [٣٤٨] (١) شرح نهج البلاغة للتستري ١٠٦/٦.
- [٣٤٩] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥٣/٩.
- [٣٥٠] (١) «منجاة» من مادة «نجا» الأرض المرتفعة التي لا يصلها السيل، ثم اطلقت على كل موضع يكون سبباً للنجاة، إلاً أنها وردت أيضاً بمعنى الاقصاء عن التدخل في أمر، وقد جاءت بهذا المعنى في العبارة؛ أي ليس هنالك أي دور لأهل البيت في حكومه بنى أمية، وعلى بنى أمية وزرها خاصة.
- [٣٥١] (١) «يفرج» من مادة «فرج» بمعنى السلخ ورد هنا، كما يعنى حل المشاكل.
- [٣٥٢] (٢) «أديم» بمعنى الجلد.
- [٣٥٣] (٣) «خسف» بمعنى الاخفاء، وورد في الخطبة بمعنى الذل.
- [٣٥٤] (٤) «يجلس» من مادة «جلس» على وزن فلس بمعنى الكساء الذي يوضع على ظهر البعير.
- [٣٥٥] (٥) «جزور» من مادة «جزر» على وزن جذب الناقه المجزورة، كما وردت هذه المفردة بمعنى انخاض ماء البحر وما شاكل ذلك.
- [٣٥٦] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥٧/٧.
- [٣٥٧] (٢) تتمه المنتهى / ١٥٦.
- [٣٥٨] (٣) دائرة المعارف الاعلمي ٤٠٥/١٠.
- [٣٥٩] (١) مروج الذهب ١٦٦/٣.
- [٣٦٠] (١) الكامل لابن أثير ٤٣٠/٥.
- [٣٦١] (٢) مروج الذهب ٢٠٧/٣.
- [٣٦٢] (٣) الكامل لابن أثير ٤٣٠/٥.
- [٣٦٣] (١) سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة مانقله الرضى (ره) في هذا الموضع مأخوذ من خطبة له عليه السلام مشهورة أولها: الحمد لله الواحد الأحد الصمد، المتفرد ... وقال الكليني في الكافي عن هذه الخطبة بعد أن أخذ غرضه، منها في الكتاب التوحيد: وهذه الخطبة من مشهورات خطبة عليه السلام حتى لقد ابتدلتها العامة (الكافي ١/١٣٤) وقال المرحوم الصدوق، قال الإمام الصادق عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام خطب بهذه الخطبة لما استنهض الناس لحرب معاوية في المرة الثانية. (توحيد الصدوق، ٤١/١، باب التوحيد ونفى التشبيه، الحديث ٣). رواها ابن عبد ربه المالكي في العقد الفريد ٧٤/٤ بتفاوت مع رواية الرضى تحت عنوان خطبته الفراء. وقال صاحب المصادر: ويلاحظ أن رواية العقد خلت من ذكر أهل البيت في الخطبة فلعل يداً أمينة! حذفت ذلك، كما حذفت الخطبة الشقشقية من العقد (مصادر نهج البلاغة ٢/١٨٥).
- [٣٦٤] (١) «تناسخ» من مادة «نسخ» بمعنى الازالة وانتقال الشيء، وتعنى هنا انتقال نطفة الآباء إلى أرحام الامهات.
- [٣٦٥] (١) سورة ابراهيم / ٢٥.
- [٣٦٦] (٢) وسائل الشيعه ٢٩ / ١٤ ح ٤.
- [٣٦٧] (٣) سورة البقرة / ٢٨٥.
- [٣٦٨] (١) «أرومات» جمع «ارومه» بمعنى أصل الشيء وأساسه، كما تطلق على جذر الشجرة.
- [٣٦٩] (٢) «عتره» من مادة «عتر» على وزن سطر آل بيت الرجل ونسله ورهطه الأقربون، والعشيرة. ومعناها الأصلي هو الأصل.
- [٣٧٠] (١) «زند» ما تشعل به النار مثل الكبريت، أو الوسائل القديمة التي كانت توقد منها النار.

- [٣٧١] (٢) سورة البقرة / ١٤٢.
- [٣٧٢] (١) وسائل الشيعة ١٨ / ١٦٩ ح ١.
- [٣٧٣] (٢) «هفوة» من مادة «هفو» الزلل.
- [٣٧٤] (٣) «غباوة» من الغباء وعدم الفهم.
- [٣٧٥] (٤) راجع شرح الخطبة الاولى / ١ / ٢٢٨.
- [٣٧٦] (١) محمد جواد مغنية، في ظلال نهج البلاغة / ١ / ٦٣.
- [٣٧٧] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٧ / ٦٣.
- [٣٧٨] (٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد / ٧ / ٦٣.
- [٣٧٩] (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٧ / ٦٤.
- [٣٨٠] (٥) ورد الحديث في عمدة ابن بطريق / ٢٧٣؛ فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل / ٢ / ٦٢٨.
- [٣٨١] (١) صحيح مسلم / ٤ / ١٨٧٣ (كتاب فضائل الصحابة، ح ٣٦).
- [٣٨٢] (٢) المفهم / ٦ / ٣٠٤.
- [٣٨٣] (٣) منهاج البراعة / ٧ / ١١٠.
- [٣٨٤] (١) مستعرب من مادة عتب على وزن حتم طلب العتبي، أى طلب الرضى من الله بالأعمال النافعة.
- [٣٨٥] (١) سورة المنافقون / ١٠ - ١١.
- [٣٨٦] (١) سند الخطبة: لم يذكر صاحب مصادر نهج البلاغة مصدرا آخر نقل هذه الخطبة، وقال فى نقل ابن أبى الحديد اختلاف وهذا دليل على أنه قرأها فى غير نهج البلاغة، لأن الرضى (ره) لم يشر إلى ذلك (مصادر نهج البلاغة / ٢ / ١٨٦).
- [٣٨٧] (١) سورة النحل / ١٢٥.
- [٣٨٨] (٢) بحسب هذا التفسير فان «إلى» جاءت بمعنى به، أو أن الذى يأتى بعد «إلى» يجب ان يكون مقدراً، «إلى ربه بالحكمة».
- [٣٨٩] (١) سند الخطبة: لم نثر على سند لهذه الخطبة سوى أنها وردت فى نهج البلاغة.
- [٣٩٠] (١) سورة الرحمن / ٢٦ - ٢٧.
- [٣٩١] (١) «مماهد» جمع «ممهده» على وزن مكتب اقتبست فى الأصل من «مهده»، ثم اطلقت على كل مكان يستريح فيه الإنسان أو تسكن إليه روجه.
- [٣٩٢] (١) سورة الشعراء / ٢١٩.
- [٣٩٣] (٢) تفسير الفخر الرازى / ٢٤ / ١٧٤، كما نقل المرحوم العلامة الأمينى عدة روايات بهذا الشأن فى بحار الانوار / ١٥ / ٣.
- [٣٩٤] (٣) «ثنيت» من مادة «ثنى» بمعنى الاعادة ووردت هنا بمعنى الانتباه.
- [٣٩٥] (٤) «ضغائن» جمع «ضغينة» البغض والعداء.
- [٣٩٦] (٥) «ثوائر» جمع «ثائرة» الفتنة والعداء.
- [٣٩٧] (١) سند الخطبة: ما أورده المرحوم السيد الرضى (ره) فى هذه الخطبة جزءا من خطبة طويلة نقلت بصورة متفرقة فى عدة مصادر، ومن ذلك فى كتاب سليم بن قيس الهلالي والكافى للمرحوم الكلينى والإرشاد للمفيد والتذكرة للسبط ابن الجوزى وتاريخ دمشق لابن عساكر والبيان والتبيين للجاحظ (مصادر نهج البلاغة / ٢ / ١٩٢). ونهج البلاغة طبعة جماعة مدرسى الحوزة ذيل الخطبة).
- [٣٩٨] (١) «الشجا» ما يعترض فى الحلق من عظم وغيره.
- [٣٩٩] (٢) «مساغ» من مادة «سوغ» على وزن فوق العذب

- [٤٠٠] (٣) «ريق» ماء الفم.
- [٤٠١] (٤) سورة آل عمران / ١٧٨.
- [٤٠٢] (٥) سورة الفجر / ١٤.
- [٤٠٣] (٦) بحار الانوار ٧٠ / ٣٨١.
- [٤٠٤] (١) ابو مخنف، طبق نقل شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري ١٠ / ٥٩٦.
- [٤٠٥] (١) «أيادي» جمع «أيدى» وهذه الاخيرة جمع يد، كما تستعمل الأيادي في معاني اخرى
- [٤٠٦] (٢) «الحنية» بمعنى القوس وذلك بسبب انحنائه.
- [٤٠٧] (٣) «أعضل» من مادة «الاعضال» بمعنى الشدة والتعقيد.
- [٤٠٨] (١) العقد الفريد، ج ٤، ص ١٦٢ (مطابق نقل شرح نهج البلاغة للتستري).
- [٤٠٩] (١) «تربت» من مادة «تراب»، تستعمل في الخسارة والفقر، وكأنّ الفقير قد صرع وخالط التراب يده.
- [٤١٠] (٢) «حمس» بالفتح من مادة «حمس» على وزن قفص بمعنى الشدة و«الحماسة» و«التحمس» يعنى التشديد ولا سيما في المعركة.
- [٤١١] (٣) «وغى» يعنى في الأصل اصوات المقاتلين في المعركة، كما تطلق على نفس المعركة، وقد وردت عنا بهذا المعنى.
- [٤١٢] (٤) «حمى» من مادة «حمى» على وزن سعى شدة الحرارة، و«الضراب» بمعنى الاشتياك والمناوشة والقتال.
- [٤١٣] (١) «لقط» أخذ الشيء من الأرض، وتطلق «القطعة» على الأشياء المفقودة، لأنها عادة ماتلتقط من الأرض.
- [٤١٤] (٢) سورة الانفال / ٦٥.
- [٤١٥] (١) نهج البلاغة، خطبة ٢٧.
- [٤١٦] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٧ / ٧٣.
- [٤١٧] (١) سورة التوبة / ١٠٠.
- [٤١٨] (١) سورة الاحزاب / ٣٣.
- [٤١٩] (٢) «لدوا» من مادة «لبود» الإقامة في المكان.
- [٤٢٠] (٣) نقل هذا الحديث المرحوم السيد حامد حسين الهندي في كتاب عبقات الأنوار عن ٩٢ كتاب من ٩٢ عالم من علماء العامة.
- [٤٢١] (١) «لشعث» جمع «أشعث» وهو المغير الرأس وهي كناية عن الفقر أو الزهد.
- [٤٢٢] (٢) غير جمع أغير بمعنى الغبار.
- [٤٢٣] (٣) «يراوحون» من مادة «تراوح» القيام بالأعمال الواحد بعد الاخر.
- [٤٢٤] (٤) «خدود» جمع «خد» طرفا الوجه.
- [٤٢٥] (٥) «جمر» جمع «جمرة» قطعة من النار، وتطلق الجمرة وجمعها جمرات.
- [٤٢٦] (٦) «ركب» جمع «ركبة» موصل الساق من الرجل بالفخذ.
- [٤٢٧] (٧) «معزى» و«معز» معروف.
- [٤٢٨] (٨) «هملت» من مادة «همول» الجريان والنزول.
- [٤٢٩] (٩) مادوا من مادة ميدان الحركة و الاضطراب.
- [٤٣٠] (١) تفسير القمي نقلًا عن بحار الانوار ٢٣ / ١٣٠ ح ١٢.

- [٤٣١] (١) اسد الغاية ٣ / ١٤٤.
- [٤٣٢] (٢) سورة الفتح / ٢٩.
- [٤٣٣] (٣) سورة الفتح / ٢٩.
- [٤٣٤] (١) سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة، روى هذه الخطبة ابن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة، والذي يفهم من عباراته أن الإمام على عليه السلام خطبها بعد الخطبة ١٢٣ (مصادر نهج البلاغة ٢ / ١٩٣).
- [٤٣٥] (١) قال بعض شراح نهج البلاغة ان العبارة «لايزالون» فيها محذوف تقديره «لايزالون ظالمين»، والظاهر الأنسب أن يكون تقديره لايزالون حاكمين، ولا سيما بالنظر إلى العبارات اللاحقة.
- [٤٣٦] (١) الأغاني ٢٢ / ٢٣.
- [٤٣٧] (٢) الأغاني ٢٢ / ٢٢.
- [٤٣٨] (٣) الأغاني ٢٢ / ٢٥.
- [٤٣٩] (٤) الأغاني ٢٢ / ٣٣.
- [٤٤٠] (٥) شرح نهج البلاغة ١٥ / ٢٤٠ - ٢٤٢.
- [٤٤١] (١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٢ / ١٢٧.
- [٤٤٢] (٢) كنز العمال ١١ / ٣٦٤ ح ٣١٧٥٥.
- [٤٤٣] (١) سند الخطبة: رواها قبل السيد الرضى (ره) جامع نهج البلاغة زيد بن وهب (وهو من أصحاب أمير المؤمنين على عليه السلام الذى نقل جانباً من خطبه عليه السلام فى كتابه خطب أمير المؤمنين على المنابر فى الجمع والأعياد وغيرهما، وهو أول كتاب صنفه بهذا الشأن) ونقلها عنه المرحوم المحدث النورى فى مستدرک الوسائل باختلاف قليل، ورواها المرحوم الصدوق فى كتابيه معانى الأخبار ومن لا يحضره الفقيه. كما رواها عدد آخر ممن عاش بعد السيد الرضى (ره). (مصادر نهج البلاغة ٣ / ١٩٦).
- [٤٤٤] (١) شرح نهج البلاغة العلامة الجعفرى ١٨ / ٩.
- [٤٤٥] (١) «رفض» تعنى فى الأصل ترك الشىء، ومن هنا سميت الشيعة بالرافضة لتركها الخلفاء الثلاثة، وقيل استعملت هذه المفردة لأول مرة على عهد زيد بن على، حيث نهاهم زيد عن سب الشيخين، ولهذا تركوه.
- [٤٤٦] (١) سورة البقرة / ٢١٦.
- [٤٤٧] (٢) «مبليء» من مادة «بلاء» منهكة.
- [٤٤٨] (٣) «سفر» جمع «مسافر» بمعنى مسافر.
- [٤٤٩] (٤) «أموا» من مادة «أم» على وزن غم القصد.
- [٤٥٠] (٥) «مجرى» من مادة «اجراء» كناية عن المسافر، وقد وردت فى تفسيره عدة أقوال، الأنسب ما أوردناه فى المتن.
- [٤٥١] (٦) «حثيث» من مادة «حث» بفتح الحاء السرعة فى العمل.
- [٤٥٢] (٧) «يحدو» من مادة «حدى» يسوق.
- [٤٥٣] (٨) «مزعج» من مادة «ازعاج» السوق والاضطراب والاجتثاث.
- [٤٥٤] (٩) «رغم» بمعنى الاجبار، ومنه تمرىغ الأنف بالتراب حين يضاف للأنف فيقال رغم أنفه.
- [٤٥٥] (١) «تنافسوا» من مادة «تنافس» بمعنى بذل الجهد والسعى، ومحاولة شخصين او مجموعتين للحصول على شىء نفيس.
- [٤٥٦] (٢) نفاذ بمعنى الفناء والزوال.
- [٤٥٧] (٣) بحار الانوار ٧٠ / ٣٦.

[٤٥٨] (١) مزدجر من مادة زجر المانع، مصدر ميمي بمعنى اسم الفاعل.

[٤٥٩] (١) نهج البلاغة، كلمات القصار ١٣٠.

[٤٦٠] (٢) «عائد» من يذهب لعبادة أحد.

[٤٦١] (٣) «يجود» من مادة «جود» السخاء، وتستعمل فى الاحتضار وكأنّ الإنسان يسخو بانفس ما لديه وهى روجه.

[٤٦٢] (١) «منغص» من مادة «نغص» على وزن نقص بمعنى ليس عذب، وبمعنى اعتراض الماء فى الحلق، ثم اطلقت على الحياة الصعية ونحو ذلك.

[٤٦٣] (٢) «مساورة» من مادة «سور» على وزن غور المواثبة، كأنه يرى العمل القبيح لبعده عن ملاءمة الطبع الإنسانى بالخطرة ينفر عن مقترفه كما ينفر الوحش، فلا يصل إليه المغبون إلا بالوثبة عليه.

[٤٦٤] (١) نهج البلاغة، كلمات القصار ١٣١.

[٤٦٥] (٢) نهج البلاغة، كلمات القصار ١١٩.

[٤٦٦] (٣) ميزان الحكمة ٣/ ح ١٨٠١٣.

[٤٦٧] (٤) ميزان الحكمة ٣/ ح ١٨٠١٤.

[٤٦٨] (٥) سورة العنكبوت / ٦٥.

[٤٦٩] (١) سند الخطبة، لابن أبى الحديد كلام فى هذه الخطبة يدل على أنه نقلها من مصدر آخر غير نهج البلاغة فقد قال: واعلم أنّ هذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين على عليه السلام فى الجمعة الثالثة من خلافته، وكنى فيها عن مال نفسه، وأعلمهم فيها أنهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه وطاعتهم له؛ وهكذا وقع الأمر، فأنه نقل أن أهل العراق لم يكونوا أشد اجتماعاً عليه من الشهر الذى قتل فيه عليه السلام. وجاء فى الأخبار أنه عقد للحسن ابنه عليه السلام على عشرة آلاف، ولأبى أيوب الأنصارى على عشرة آلاف ولفلان وفلان، حتى اجتمع له مائة ألف سيف، وأخرج مقدمته، أمامه يريد الشام فضربه اللعين ابن ملجم، وكان من أمره ما كان، وانفضت تلك الجموع، وكانت كالغنم فقدت راعيها. (مصادر نهج البلاغة ٢ / ١٩٨).

[٤٧٠] (١) شرح نهج البلاغة للمرحوم العلامة الخوئى ٧ / ١٥٧.

[٤٧١] (١) «صادع» من مادة «صدع» فالقابه، كما وردت هذه المفردة بمعنى الاظهار والاعلان، حيث يظهر باطن الشىء عند فلقه وهذا ما اريد بها فى العبارة، وأما «الصداع» الذى يطلق على وجع الرأس فكأنه يريد أن يفلقه.

[٤٧٢] (١) «موق» من مادة «مروق» على وزن غروب الخروج عن الدين، ومن هنا اطلق الخوارج على تلك الفرقة التى خرجت عن الإيمان.

[٤٧٣] (٢) «زهق» من مادة «زهوق» الاضمحلال والهلكة.

[٤٧٤] (٣) وسائل الشيعة ٧ / ١٢٥، ح ٧ ابواب من يصح منه الصوم.

[٤٧٥] (٤) يمكن أن يكون مفعول لحق كتاب الله أو رسول الله أو الحق أو جميعها.

[٤٧٦] (١) «مكيث» من مادة «مكث» الرزين فى قوله فلايبادر من غير روية فى قوله وعمله.

[٤٧٧] (٢) نقل هذه الحديث عن أم سلمة بطرق مختلفة عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله. ومن ذلك نقله ابن عساكر فى تاريخ دمشق وأبوبكر البغدادى فى تاريخ بغداد والحموى فى فرائد السمطين. وجاء فى صحيح الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال «اللهم أدر الحق معه حيثما دار» للوقوف على تفاصيل هذا الحديث راجع كتاب احقاق الحق ٥ / ٦٢٣ والغدير ٣ / ١٧٦. والطريف مانقله الفخر الرازى فى تفسير سورة الحمد فى مورد الجهر بالبسملة عن البيهقى عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان يجهر بالبسملة، ثم قال: كما كان يجهر بها عمر وابن عباس وعبدالله بن عمر وعبد الله بن الزبير أما على عليه السلام فقد ثبت بالتواتر

- أنه كان يجهر بالبسملة دائماً، فمن اقتدى به فى دینه هدى إلى الحق والدليل على ذلك حديث النبى صلى الله عليه وآله أنه قال: «اللهم أدر الحق مع على حيث دار» (تفسير الفخر الرازى ١/ ٢٠٤-٢٠٥).
- [٤٧٨] (١) راجع شرح الخطبة الخامسة والسادسة من المجلد الأول من هذا الكتاب.
- [٤٧٩] (١) نهج البلاغة، الكلمة ٤٠.
- [٤٨٠] (٢) شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئى ٧/ ١٥٩.
- [٤٨١] (١) امالى الصدوق / ١٥٠ ح ٧.
- [٤٨٢] (١) «خوى من مادة» خوى بمعنى غرب.
- [٤٨٣] (٢) «صنایع» جمع «صنعة» النعمة والاحسان.
- [٤٨٤] (٣) سورة النحل / ١٦.
- [٤٨٥] (٤) سورة الانعام / ٩٧.
- [٤٨٦] (١) مستدرک الحاكم ٣/ ١٤٩ (طبق نقل احقاق الحق ٩/ ٢٩٤).
- [٤٨٧] (١) احقاق الحق ٩/ ٢٩٤-٢٩٦.
- [٤٨٨] (٢) بحار الانوار ٢٧/ ٣٠٨.
- [٤٨٩] (٣) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٣/ ٩.
- [٤٩٠] (١) سند الخطبة: ورد فى كتاب مصادر نهج البلاغة لم تذكر هذه الخطبة فى غير مصدر السيد الرضى (ره)، وأن ذكرت اسناد هذه الخطبة فى نهج البلاغة، طبعه جماعة مدرسى الحوزة للمحقق المرحوم حجة الإسلام الدشتى، غير أنه تبين خطأها بعد الرجوع إلى المصادر الأصلية التى ذكرت فى ذلك الكتاب.
- [٤٩١] (١) «يجرمن» من مادة «جرم» على وزن جهر (جرم على وزن ظلم، اسم مصدر) تعنى فى الأصل القطع، ولما كان الإثم يقطع صلته بالله، فهذه الكلمة تطلق على الذنب، وعليه لا يجرمنكم بمعنى لا يحملنكم على الذنب.
- [٤٩٢] (٢) «شقاق» فى الأصل تعنى المخالفة والنزاع.
- [٤٩٣] (٣) «يستهوین» من مادة «هوى» من هوى النفس.
- [٤٩٤] (١) «الخلق»: وتأتى أحياناً بمعنى الإبداع والإيجاد والتقدير، وأحياناً بمعنى الابتعاد والبراءة من الشىء. وفى هذه الخطبة جاءت هذه الكلمة بالمعنى الاول.
- [٤٩٥] (٢) «برأ» من مادة «برء» على وزن ظلم وتعنى الصحة وحسن الحال، أى خروج الشخص من حالته الاولى التى كان فيها مريضاً إلى حالة جيدة وحسنة.
- [٤٩٦] (٣) «نسمة» تعنى فى الأصل هبوب الرياح المعتدلة، كما تأتى بمعنى التنفس، ومن هنا تطلق على الإنسان.
- [٤٩٧] (٤) التعبير بالأمرى يطلق على الشخص الذى لا يعرف القراءة والكتابة، أو على الشخص الذى ينسب الى الأم، وهو الذى تعلم فى أحضان أمه ولم يتعلم من غيرها.
- وهنا نود ان نشير اشارة لطيفة فى هذا المورد، وهى أن الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله كان امياً، ولكنه أخبر عن الماضى والمستقبل، وهذه من علامات ارتباطه بالله سبحانه وتعالى.
- [٤٩٨] (٥) سورة الحاقة / ١٢.
- [٤٩٩] (٦) كفاية الطالب للكنجى / ٤٠ وردى مثل هذا المعنى أغلب مفسرى العامة كالقرطبى فى تفسير جامع الأحكام والبرسوى فى روح البيان والآلوسى فى روح المعانى، ذيل الآية ١٢ من سورة الحاقة.

[٥٠٠] (١) «ضليل» من مادة «ضلال» الشديد الضلال فهو ضال مضل.

[٥٠١] (٢) «نق» من مادة «نق» على وزن نعل تعنى فى الاصل صوت الفرس، ثم اطلق على الأصوات التى تطلق لحركة الحيوانات و أمرها و نهيها، و وردت فى العبارة بمعنى أن بنى أمية قد استضعفوا جماعة، يسوقونها كالحيوانات حيثما أرادوا.

[٥٠٢] (٣) «فحص» البحث والتفتيش.

[٥٠٣] (٤) «كوفان» بمعنى الكوفة.

[٥٠٤] (١) «فغرت» من مادة «فغر» على وزن ففر فتح الضم.

[٥٠٥] (٢) «شكيمة» تعنى فى الاصل الحديدة المعترضة فى اللجام فى فم الدابة، ويعبر بقوتها عن شدة البأس، ثم اطلقت على كل قوة.

[٥٠٦] (٣) «كلوح» عبوس.

[٥٠٧] (٤) «كدوح» شدة السعى والجهد، وتعنى فى الأصل الخدش وأثر الجراحات.

[٥٠٨] (٥) «ينع» بمعنى نضج الفاكهة، ثم اطلق على كل نضج واستعداد لتلقى نتيجة.

[٥٠٩] (٦) «شفاشق» جمع «ششقة» شىء كالرئة يخرج البعير من فيه إذا هاج.

[٥١٠] (١) سند الخطبة: لم ترد هذه الخطبة فى المصادر التى الفت قبل السيد الرضى (ره)، ولكن يبدو أنها جزء من الخطبة ١٢٨ التى ستعرض باذن الله لشرحها، إلا أنها ذكرت فى الكتب التى دونت بعد السيد الرضى (ره).

[٥١١] (١) سورة مريم / ٩٥.

[٥١٢] (٢) سورة الواقعة / ٤٩ - ٥٠.

[٥١٣] (١) سورة القمر / ٧.

[٥١٤] (٢) سورة المطففين / ٦.

[٥١٥] (٣) «رجف» من مادة «رجف» على وزن ربط تعنى الاضطراب، ولما كانت أخبار الفتن تدعو لاضطراب المجتمع فقد اصطلح عليها بالاراجيف.

[٥١٦] (١) «قطع» جمع «قطعة» ولعله إشارة إلى بعض أقسام الليل كصفه، أو الوقت الذى فيه القمر، كما فسره البعض بالظلمة.

[٥١٧] (١) «مزمومة» من مادة «زمام» الحيوان الذى الجم.

[٥١٨] (٢) «مرحولة» من مادة «رجل» جهاز الناقه أو أدوات السفر، ومرحولة هنا بمعنى الناقه الجاهزة للركوب، وهى كناية عن تمام الفتن وقوتها.

[٥١٩] (٣) «يحفر» من مادة «حفر» على وزن حبس يحث ويدفع.

[٥٢٠] (٤) «كلب» على وزن طلب الاذى والشدة.

[٥٢١] (٥) «سلب» محرکه ما يأخذ القاتل من ثياب المقتول وسلاحه فى الحرب.

[٥٢٢] (١) «رهج» بالتحريك والسكون الغبار كناية عن دخول الجيش بكل هدوء وبصورة مباغتة دون أن يشر شيئاً.

[٥٢٣] (٢) «حس» الجلبة والأصوات المختلفة.

[٥٢٤] (٣) «أغبر» من الغبار والجوع والأغبر كناية عن المحل والجذب والقحط الشديد؛ فوجه الناس تبدو مغبرة فى القحط من شدة الجوع.

[٥٢٥] (٤) مروج الذهب / ٤ / ١١٩.

[٥٢٦] (١) مروج الذهب / ٤ / ١١٩.

[٥٢٧] (١) سند الخطبة: ما نقله المرحوم السيد الرضى (ره) فى هذه الخطبة جزء من خطبة طويلة ولذلك قال منها ومنها. وقد وردت أجزاء مختلفة من هذه الخطبة فى عدة مصادر قبل نهج البلاغة، ومنها روضة الكافى وتحف العقول واصل الكافى وعيون الأخبار لابن قتيبة وكتاب الفتن لنعيم بن حماد الخزاعى المتوفى عام ٢٢٨ (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٢٠٦).

[٥٢٨] (١) «صادف» من مادة «صدف» على وزن حرف بمعنى الأعراض عن الشىء.

[٥٢٩] (٢) روى هذا الحديث بعبارات مختلفة عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين والإمام الصادق وحتى الأنبياء الماضين عليهم السلام. (ميزان الحكمة ٢/ ح ٥٨١٣-٥٨٢٣) وفى الحديث الذى نقله الكلينى فى الكافى عن الإمام السجاد عليه السلام بعد شرح ودوافع الذنوب قال: «فاجتمعن كلهن فى حب الدنيا». فقال الأنبياء والعلماء- بعد معرفة ذلك- «حب الدنيا رأس كل خطيئة». (اصول الكافى ٢/ ١٣١).

[٥٣٠] (١) «ثاوى» من مادة «ثواء» الإقامة مع الاستقرار.

[٥٣١] (٢) سورة آل عمران/ ١٨٥.

[٥٣٢] (٣) «مترف» من مادة «ترف» التمتع ويطلق «المترف» على من تغفله كثرة النعم وتؤدى به إلى الغرور والطغيان.

[٥٣٣] (١) جلد بمعنى القوة والصلابة.

[٥٣٤] (٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٤٥.

[٥٣٥] (١) منهاج البراعة، للعلامة الخوئى ٧/ ١٨٢.

[٥٣٦] (٢) المصدر السابق.

[٥٣٧] (٣) بحار الانوار ٧٥/ ١١.

[٥٣٨] (١) بحار الانوار ٦٨/ ٣٢٤ ح ١٦.

[٥٣٩] (١) سفينة البحار- مادة وعظ.

[٥٤٠] (٢) سورة الدخان/ ٢٥-٢٩.

[٥٤١] (١) بحار الانوار ٢/ ٣٤ ح ٢٢.

[٥٤٢] (١) اشتهرت هذه العبارة التى يطلقها العلماء بالاستفادة من الاحاديث.

[٥٤٣] (٢) «ونى» بمعنى ضعف وتعب.

[٥٤٤] (١) سورة الشورى/ ٢٠.

[٥٤٥] (٢) سورة الاعراف/ ٥٨.

[٥٤٦] (١) يفيد عدم الارتباط المعنوى بين هذا المقطع من الخطبة والذى سبقه، أن السيد الرضى (ره) حذف بعض الأقسام بينهما، والشاهد على ذلك تعبيره (منها).

[٥٤٧] (١) «السرى» تعنى السير فى الليل.

[٥٤٨] (٢) «يكفأ» من مادة «كفأ» على وزن نفع بمعنى الانقلاب.

[٥٤٩] (١) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٦.

[٥٥٠] (٢) سورة المؤمنون/ ٣٠.

[٥٥١] (١) سند الخطبة: تشبه هذه الخطبة إلى حد كبير الخطبة الثالثة والثلاثين. ومن هنا قال المرحوم السيد الرضى (ره) فى آخر الخطبة: وقد تقدم مختار هذه الخطبة، إلأأنى وجدتها فى هذه الرواية على خلاف ما سبق من زيادة ونقصان، فأوجب الحال إثباتها ثانية. فالعبارة تفيد ان الخطبتين مرتبطة بواقعة واحدة، وإن نقلهما الرواة مع بعض الاختلاف؛ إلأأن التفاوت الواضح بين الخطبتين

يجعل احتمال التعدد أقوى.

وللوقوف على التفاصيل راجع ما أوردهنا ذيل الخطبة ٣٣.

[٥٥٢] (١) «حسير» من مادة «حسر» على وزن حبس بمعنى العرى وسلب اللباس من شيء. ثم استعمل بمعنى الكسل والتعب.

[٥٥٣] (٢) «رحى» كناية عن وفرة أرزاقهم، فالرحى تدور على ما تطحنه من حب.

[٥٥٤] (٣) «القناة» من مادة «قتو» على وزن صنف فى الأصل فرع الشجرة، كما اطلقت على الرمح لشباهته بفرع الشجرة، وهى كناية

عن صحة الأحوال وصلاحها.

[٥٥٥] (٤) سورة يس / ٦.

[٥٥٦] (١) سورة فاطر / ٢٤.

[٥٥٧] (١) «حذافير» جمع «حذفور» الجماعة الكثيرة، كما وردت بمعنى الجانب، إشارة إلى أن كل طوائف الباطل تولت وانتهت.

[٥٥٨] (٢) حسب التفسير الذى اوردهنا فان الضمير فى «ساقتها» و«قيادها» يعود إلى جيش الإسلام، بينما يعود إلى جيش الكفر فى

حذافيرها بقريئة المقام.

[٥٥٩] (١) سند الخطبة، روى بعض هذه الخطبة المفسر المعروف على بن ابراهيم المتوفى عام ٣٠٧ فى المجلد الأول من تفسيره /

٣٨٤ ذيل الآية «ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة» (سورة النحل / ٢٥) عن الإمام الصادق عليه السلام. كما ورى بعضها الشيخ المفيد

فى كتابه الارشاد / ١٦٠٠ وقد عاش كلاهما قبل السيد الرضى (ره).

[٥٦٠] (١) «كهل» متوسط العمر، وقيل تطلق على من جاوز الثلاثين، ولا تعنى العجز.

[٥٦١] (٢) «شيمة» بمعنى الأخلاق وجمعها «شيم».

[٥٦٢] (٣) «ديمه» بكسر الدال المطر المستديم الذى يخلو من الرعد والبرق.

[٥٦٣] (٤) سورة النحل / ٨٩.

[٥٦٤] (٥) سورة البقرة / ١١٩.

[٥٦٥] (١) مناقب ابن شهر آشوب / ١ - ٣٤ - ٣٧ (طبق نقل شرح نهج البلاغة للشوشترى / ٢ / ٢٠٤) و سيرة ابن هشام / ١ / ١٧٨.

[٥٦٦] (٢) المصدر السابق.

[٥٦٧] (٣) ابن شهر آشوب طبق نقل بحار الأنوار / ١٥ / ٣٣٢.

[٥٦٨] (١) «احلوت» أصبحت حلوة من مادة «حلو».

[٥٦٩] (٢) «اخلاف» جمع «خلف» على وزن جلف حلمة ضرع الناقة.

[٥٧٠] (٣) «جائل» من مادة «جولان» تعنى فى الأصل إزالة الشى من مكانة، وتطلق على الحيوان الذى ينزل عنانه وينطلق اينما يشاء.

[٥٧١] (٤) «خطام» ما يوضع فى أنف البعير ليقاد به.

[٥٧٢] (٥) «قلق» من مادة «قلق» الاضطراب وتحريك الشىء.

[٥٧٣] (٦) «وضين» بطان عريض منسوج من سيور أو شعر يكون للرحل كالخرام للسرورج.

[٥٧٤] (٧) لسان العرب، مادة سدر.

[٥٧٥] (١) «شاغرة» من مادة «شغور» خالية.

[٥٧٦] (٢) «ثائر» من مادة «ثأر» على وزن قعر» وقد بُدلت الهمزة بألف. و«ثأر» تقرأ على وزن غار.

وفى الاصل جاءت بمعنى الثأر والانتقام، وتأتى أحيانا بمعنى الدم، وهو كناية عن الثأر أيضاً.

وتعبير «ثارالله» اطلق على الإمام الحسين والإمام على عليهما السلام «يا ثارالله وابن ثاره»، ومعنى ذلك ان ثأر هذين الامامين لا يتعلق

بعائلة او قبيلة، بل يرتبط بالله سبحانه وتعالى وبكل بنى الانسان فى هذا العالم.

[٥٧٧] (١) المجلد الثالث من هذا الكتاب فى الخطبة ٨٧؛ ج ٤ الخطبة ٩٣.

[٥٧٨] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٧ / ١٣٦.

[٥٧٩] (١) «امتاحوا» من مادة «متح» سحب الدلو من بئر الماء.

[٥٨٠] (٢) «روقت» من مادة «روق» على وزن فوق بمعنى صفت، فتأنى بمعنى التصفية إذا حملت على باب التفعيل.

[٥٨١] (١) «شفا» حافة الشىء وتعنى فى الأصل حافة البئر والنهر، و«الهار» من «هور» على وزن غور بمعنى المتهدم أو المشرف على

الانهدام.

[٥٨٢] (٢) «شجو» الهم والغم) ولهذه المفردة معنى المصدر واسم المصدر).

[٥٨٣] (١) «سهمان» على وزن لقمان جمع «سهم» الحظ والنصيب.

[٥٨٤] (٢) «تصويح» جفاف النبات.

[٥٨٥] (٣) «استثار» من مادة «استثار» بمعنى الاستشارة والنشر.

[٥٨٦] (٤) نهج البلاغة، الخطبة، ٩٣.

[٥٨٧] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٧ / ١٧٠.

[٥٨٨] (٢) شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئى ٧ / ٢٥١.

[٥٨٩] (١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٥.

[٥٩٠] (١) سند الخطبة: ورد فى مصادر نهج البلاغة سنذكر مدارك هذه الخطبة فى ذيل الكلمات القصار (الكلمات ٣٠، ٣١، ٢٦،

٢٦٨) ويبدو انها فى خطبة واحدة للإمام عليه السلام (فصلها المرحوم السيد الرضى (ره))، ولكن ليس لدينا مدارك واضحة لما نقله

المصادر. والذى يستفاد من كتاب المستدرک والمدارك لنهج البلاغة ان جانب من هذه الخطبة ورد فى كتاب اصول الكافى وجانب

آخر منها فى الامالى للطوسى (من اول الخطبة إلى العبارة والجئة سبقتة).

[٥٩١] (٢) شرح نهج البلاغة للشوشترى ١٢ / ٣٣٩.

[٥٩٢] (١) بحار الانوار ٦٥ / ٣٤٦.

[٥٩٣] (٢) سورة الفتح / ٢٩.

[٥٩٤] (٣) «علق» من مادة «علق» التعلق بالشىء والاتصاق به.

[٥٩٥] (١) سورة الحجر / ٧٥.

[٥٩٦] (١) «أبلج» من مادة «بلوج» على وزن بلوغ واضح ونير.

[٥٩٧] (٢) «المناهج» جمع «منهج» الطريق الواضح والمستقيم.

[٥٩٨] (٣) «ولائج» جمع «وليجه» من مادة «لوج» بمعنى الدخول فولائج أبواب الدخول.

[٥٩٩] (٤) «مشرف» من مادة «اشراف» بمعنى المرتفع.

[٦٠٠] (٥) «جواد» جمع «جادة» الطريق الواسع الواضح، كما تطلق على مطلق الطريق.

[٦٠١] (١) «المضمار» موضع تضمير الخيل وزمان تضميرها.

[٦٠٢] (٢) «الحلبة» من مادة «حلب» على وزن قلب خيل تجمع من كل صوب للنصرة كما تطلق على حلب اللبن من الحيوان، ثم

اطلقت على الخيل التى تتسابق فى الميدان.

[٦٠٣] (٣) «متنافس» من مادة «تنافس» سعى الإنسان للحصول على شىء نفيس.

- [٦٠٤] (٤) «سبقة» جزاء السابقين.
- [٦٠٥] (١) سورة الزلزلة / ٧-٨.
- [٦٠٦] (٢) بحار الانوار ٧٥ / ١١٠.
- [٦٠٧] (١) الخصال للشيخ الصدوق ٢ / الباب ٧، ح ٣٥.
- [٦٠٨] (١) «أورى» من مادة «ورى» على وزن نفى بمعنى التغطية والستر، وتستعمل بمعنى اشعال النار إذا جاءت من باب الأفعال؛ وكأن النار التى كمنت فى جوف المواد المشتعلة قد خرجت، وتشير فى الخطبة إلى أنوار الهداية التى نصبها الرسول صلى الله عليه و آله لدعاة الحق.
- [٦٠٩] (٢) «قبس» الشعلة من النار، والقابس آخذ النار من النار، وهى هنا إشارة إلى النور والهداية.
- [٦١٠] (٣) «الحابس» من حبس ناقته وعقلها حيرة منه لا يدرى كيف يهتدى فيقف عن السير.
- [٦١١] (١) سورة آل عمران / ١٦٤.
- [٦١٢] (٢) سورة الأنبياء / ١٠٧.
- [٦١٣] (١) «نزل» بضمين ما هينى للضيف لينزل عليه.
- [٦١٤] (٢) «السناء» علو المقام والرفعة.
- [٦١٥] (٣) سورة الانعام / ١٦٠.
- [٦١٦] (٤) سورة الصف / ٩.
- [٦١٧] (٥) تفسير نور الثقلين ١ / ٦٢٦ ح ١٧٨.
- [٦١٨] (٦) «خزايا» جمع «خزيان» الخجل والافتضاح.
- [٦١٩] (١) الخطبة ٧٢ فى المجلد الثالث.
- [٦٢٠] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٧ / ١٧٤.
- [٦٢١] (١) «يهاب» من مادة «هيبة» الاحترام المقرون بالخوف.
- [٦٢٢] (٢) «سطوة» و أصله كما ورد فى مفردات الراغب، من سطا الفرس اذا اقام على رجليه رافعاً يديه. القهروالغلبة والتسلط.
- [٦٢٣] (٣) الكافي ٢ / ٦٨.
- [٦٢٤] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٧ / ١٧٧.
- [٦٢٥] (٢) «تأنفون» من مادة «أنف» على وزن شرف بمعنى الحمية و الغضب و العزة.
- [٦٢٦] (١) سند الخطبة: رواه الطيبرى فى تاريخه فى حوادث عام ٣٧، والمرحوم الكلينى فى كتاب الجهاد من فروع الكافى، ونصرين مزاحم فى كتاب صفين (باختلاف)، وفسر ابن أثير فى كتاب النهاية بعض مفرداتها، ممّا يدل على عثوره عليها (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٢١).
- [٦٢٧] (١) جاء فى كتاب «وقعة صفين» لنصر بن مزاحم، حول سبب ايراد هذه الخطبة قوله: كان ذلك فى يوم السابع من صفر، و هو من الايام العصبية فى حرب صفين، فى ذلك اليوم هاجم جيش معاوية قسماً من جيش الإمام اميرالمؤمنين عليه السلام و أجبروهم على التراجع إلى الخلف، فتألم الإمام على عليه السلام لذلك، و لام جيشه، وبعدها حرضهم و شجعهم على القتال، و قد قاد هجوماً شاملاً بنفسه يصحبه مالك الاشر، فهزم جيش معاوية و فرقهم، و بعدها خطب الإمام على عليه السلام فى جيشه هذه الخطبة. (كتاب وقعة صفين، / ٢٤٣ إلى / ٢٥٤، طبعه بصيرتى - قم المقدسة).
- [٦٢٨] (٢) «جولة» من مادة «جولان» تعنى فى الأصل الدوران فى الميدان، ثم وردت بمعنى التراجع والحملة ثانية، وهكذا وردت فى

العبارة.

- [٦٢٩] (٣) «انحياز» ترك المواضع.
- [٦٣٠] (٤) «الجفأة» جمع «الجافي» بمعنى السفلة من الناس و ذوى الخلق السىء و الخشن.
- [٦٣١] (٥) «الطغام» جمع «طغامه» الأوباش والأراذل.
- [٦٣٢] (١) «لهاميم» جمع «لهميم» و «لهموم» وهو السابق الجواد من الخيل والناس.
- [٦٣٣] (٢) «يافيخ» جمع «يافوخ» وهو من الرأس حيث يلتقى عظم مقدمه مع مؤخره، ووردت هنا كناية عن القادة.
- [٦٣٤] (٣) «الانف» المراد به الموضع البارز من الوجه، وتطلق العرب هذه الكلمة على المقدم.
- [٦٣٥] (٤) «وحاوح» جمع «وحوح» صوت مع بحح يصدر عن المتألم.
- [٦٣٦] (٥) «حس» بالفتح القتل.
- [٦٣٧] (٦) «النصال» جمع «نصل» السهم.
- [٦٣٨] (٧) «شجر» الطعن بالرمح.
- [٦٣٩] (٨) «هيم» شدة العطش جمع «أهيم» أو «هائم».
- [٦٤٠] (٩) «تداد» من مادة «ذود» بمعنى الطرد و الدفع.
- [٦٤١] (١) «سند الخطبة»: روى بعض هذه الخطبة الآمدى فى الغرر والزمخشري فى ربيع الأبرار وجانباً آخر رواه الآمدى فى الغرر باختلاف مع ماورد فى نهج البلاغة، وهذا يدل على أنه نقلها من مصادر اخرى غير نهج البلاغة. (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٢٢٧).
- [٦٤٢] (١) «ضمائر» جمع «ضمير» من مادة «ضمور» على وزن قبول تعنى فى الأصل الضعف كما يراد بها باطن الإنسان.
- [٦٤٣] (٢) «سترات» جمع «ستره» على وزن قربه ما يستربه.
- [٦٤٤] (٣) «سريرات» جمع «سريرة» ما يخفيه الإنسان ويكتمه، وقد تجمع سريرة جمع تكسير فيقال سرائر، كما تجمع جمع مؤنث سالم.
- [٦٤٥] (١) «سورة لقمان/ ٢٧».
- [٦٤٦] (١) «سورة الحديد/ ٤».
- [٦٤٧] (٢) «سورة ق/ ١٦».
- [٦٤٨] (٣) راجع نفحات القرآن ٤.
- [٦٤٩] (١) «غرر الحكم ودرر العلم، الحكمة ٦٠٣٣».
- [٦٥٠] (١) «مراهم جمع مرهم الدهون التى يداوى بها الجروح».
- [٦٥١] (٢) «مواسم» جمع «ميسم» بمعنى الآلات التى يوسم بها بدن الانسان أو الحيوان بعد أن يحمى عليها. و «وسم» على وزن رسم، و يطلق على العلامة التى تظهر على جسم الحيوان أو الانسان بعد وسمه بالآلات الحارة.
- [٦٥٢] (٣) «يقدحوا» من مادة «قدح» على وزن «مدح» بمعنى إضرام النار بواسطة القداحة» وهى الآلة التى تحتوى على حجر خاص يستعمل فى قديم الزمان، حيث يقدح عليه فيولد ناراً، و كانوا يستفيدون منه كما نستفيد فى الوقت الحاضر من الشخاط الحاوى على الكبريت».
- [٦٥٣] (٤) «زناد» جمع «زند» وهى آلات تستخدم لتوليد شرارة لغرض اضرام النار و اشعالها فى الوقود، كالخشب والفحم و الحطب، و قد اعتاد العرب فى القديم على الاستفادة من هذه الوسيلة لاشعال النار فى الوقود.
- [٦٥٤] (١) «سائمة» من مادة «سوم» على وزن «قوم» بمعنى حركة الحيوان فى الصحراء.

وكذلك على هبوب الرياح المستمرة. و يطلق «الحيوانات السائمة» على الحيوانات التي ترعى و تحصل على علفها من الصحراء و هي سائبة في الصحراء.

[٦٥٥] (١) «أنجابت» من مادة «جوب» على وزن قَوْمٍ. و «جوبه» على وزن توبه بمعنى قطع وفصل، وعلى هذا الأساس سمي الرد على الكلام ب«الجواب»، و ذلك لان السؤال يُقطع و ينتهي بواسطة الجواب.

و اذا جاءت هذه الكلمة على وزن انفعال، فيكون معناها الانكشاف و الاعلان، و في الخطبة أعلاه جاءت بهذا المعنى [٦٥٦] (٢) «خابط» من مادة خبط، و تأتي تارةً بمعنى القرب الشديد، و تارةً بمعنى السير على غير هدىً، كالذى يسير ليلاً بدون ضياء، وقد جاءت الكلمة هذه في الخطبة أعلاه بهذا المعنى

[٦٥٧] (٣) «أسفرت» من مادة «سفور» بمعنى جلد أى شىء و يستفاد من هذه الكلمة بشكل أكثر عند الحديث عن جلود الحيوانات.

[٦٥٨] (١) أورد أغلب مفسرين الفريقين هذا الحديث ذيل الآية ١٨ من سورة محمد صلى الله عليه و آله.

[٦٥٩] (٢) «نساك» جمع «ناسك» العابد.

[٦٦٠] (٣) «أيقاظ» جمع «يقظان» ضد النائم.

[٦٦١] (٤) «نوم» جمع «نائم».

[٦٦٢] (١) سورة البقرة / ١٧١.

[٦٦٣] (٢) سورة النمل / ٨٠.

[٦٦٤] (٣) سورة يس / ٦٩ - ٧٠.

[٦٦٥] (١) نهج البلاغة، كلمات القصار ١٤٧.

[٦٦٦] (١) «تكيل» من مادة «كيل» على وزن ذيل بمعنى المكيال و تستعمل عادةً في المواد الغذائية كاحتظة والشعير، كما تستعمل في غيرها مجازاً.

[٦٦٧] (٢) «باع» يعنى فى الأصل المسافة بين أصابع اليدين، حين يفتحها نحو اليمين أو اليسار بصورة تامة، كما يستعمل مجازاً بمعنى القدرة الكاملة للإنسان.

[٦٦٨] (٣) «ثفالة» من مادة «ثفل» هو ما استقر تحت الشىء من كدره.

[٦٦٩] (٤) «النافضة» من مادة «نفض» على وزن نبض ما يسقط بالنفض.

[٦٧٠] (٥) «العكم» بمعنى الكيس الذى يحفظ فيه الأشياء.

[٦٧١] (١) «تعرك» من مادة «عرك» شديد الدلك و من هنا تطلق المعركة على ميدان القتال حيث يدك كل منها الطرف الآخر.

[٦٧٢] (٢) «الاديم» فى الأصل بمعنى جلد أى شىء. و يستفاد من هذه الكلمة بشكل أكثر عند الحديث عن جلود الحيوانات.

[٦٧٣] (٣) «تدوس» من مادة «دوس» على وزن قوس.

[٦٧٤] (٤) «بطينة» من مادة «بطن» سمين.

[٦٧٥] (٥) «هزيل» ضد بطين بمعنى الضعيف وخفيف الوزن.

[٦٧٦] (١) «تته» من مادة «تبه» على وزن «بيه» بمعنى الضلال والحيرة.

[٦٧٧] (٢) «غياهب» جمع «غيب» على وزن «حيرت» بمعنى شدة ظلام الليل.

[٦٧٨] (١) ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى ان هذه العبارة منقطعة حيث لم يروا من إرتباط واضح بينها وبين العبارات السابقة على أنّ السيد الرضى فصلها طبق عاداته فى الانتخاب، والحال هذا ليس من عادة الرضى (ره) فى ان يحذف عبارة دون أن يشير إليها كما مر معنا ذلك بقوله (ومنها) وعليه و كما ذكرنا فان هناك علاقة معنوية وطيدة.

- [٦٧٩] (٢) «هتف» من مادة «هتاف» صراخ.
- [٦٨٠] (٣) «الرائد» من يتقدم القوم ليكشف لهم مواضع الكلا ويتعرف سهولة الوصول اليها من صعوبته.
- [٦٨١] (٤) «شمل» بمعنى الجمع.
- [٦٨٢] (٥) «فلق» بفتحتين بمعنى الشق.
- [٦٨٣] (٦) «الخرزة» الجواهر القيمة النفيسة او قليلة الثمن.
- [٦٨٤] (٧) «قرف» من مادة «قرف» على وزن حرف بمعنى التقشير.
- [٦٨٥] (١) «صمغه» ما يجرى من الشجرة من مادة لزجة.
- [٦٨٦] (١) «غيض» بمعنى الغضب، وقيل حالة أشد من الغضب.
- [٦٨٧] (٢) «قبض» بمعنى وسط الصيف «قلب الاسد» واذا وردت بالمعنى المصدرى فهي شدة الحرارة.
- [٦٨٨] (٣) فيض سيل الماء أو المطر والدمع.
- [٦٨٩] (٤) غيض الغور في الأرض والنقصان.
- [٦٩٠] (١) «أكال» جمع «آكل» مثل طلاب بمعنى الآكل، و على هذا المعنى يكون معنى الجملة «أوساطه أكالاً»، المقصود به الطبقة المتوسطة في ذلك الزمان والذين لاهم لهم غير الاكل والشرب وسلب ونهب الأموال، واذا جاءت بصيغة اسم فاعل، حيث نرى أنها جاءت على صيغة اسم مفعول، وهو ما يناسب الجمل التي سبقتها، فيكون معناها، بالشكل الذي أوردناه في الشرح أعلاه.
- [٦٩١] (١) «غار» من مادة «غور» الدخول في الشيء وإذا استعمل في الماء عنى غوره في الأرض، ومن هنا يستعمل بمعنى الانعدام أيضاً.
- [٦٩٢] (٢) «فرو» ما يهيب من جلد الحيوانات وله صوف عادة ما يلبس في الشتاء.
- [٦٩٣] (١) سفينة البحار، مادة زمن.
- [٦٩٤] (١) سند الخطبة: جاء في مصادر نهج البلاغة أن المرحوم الرضى (ره) اقتطفها من الخطبة المعروفة بالزهراء، ورواها ابن عبد ربّه المالكي في العقد الفريد والزمحشرى والآمدى (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٣٥).
- [٦٩٥] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٧ / ٢٠٢.
- [٦٩٦] (١) سورة النمل / ٤٩.
- [٦٩٧] (٢) سورة البقرة / ٢٥٥.
- [٦٩٨] (٣) سورة فاطر / ١٥.
- [٦٩٩] (٤) سورة آل عمران / ٢٦.
- [٧٠٠] (١) «لم تر» فعل، والكاف مفعوله، و فاعله «العيون» يعنى «لا تبصر ك الانظار».
- [٧٠١] (٢) «يفلت» من مادة «افلات» ينفك أو يفر. ومنه الحديث المعروف لعمر فى كتب الفريقين «إن يبعه أبى بكر كانت فلتة وقى الله شرّها».
- [٧٠٢] (١) «محيص» من مادة «حيص» على وزن حيف بمعنى العودة والعدول واعتزال الشيء ومحيص اسم مكان، وعليه قد تعنى الملاذ.
- [٧٠٣] (٢) يستفاد من المصادر اللغوية ان السر ما يخفيه الإنسان، أما الغيب فما خفى على عيننا وحسنا.
- [٧٠٤] (٣) سورة الكهف / ٤٨.
- [٧٠٥] (١) سورة غافر / ٥٧.

- [٧٠٦] (٢) «اسبغ» من مادة «اسبغ» الكثير الوافر.
- [٧٠٧] (١) بناء على ماورد فان «من» تبعيضية وإشارة إلى بعض مخلوقات الله العظيمة التي وردت في المقطع السابق من الخطبة.
- [٧٠٨] (١) وسائل الشيعة ١١/ ١٦٤، أبواب جهاد النفس، الباب ٩، ح ٢.
- [٧٠٩] (٢) «مهين» من مادة «مهانة» بمعنى الضعة والحقارة وماء مهين إشارة إلى المنى الذى ليس له قيمة من حيث المقدار ولا الظاهر.
- [٧١٠] (٣) «يتشعبهم» من مادة «تشعب» التفرق، وشعبة بمعنى الفرع الذى فصل عن الأصل.
- [٧١١] (٤) «ريب» كل شك وترديد، ومنون حوادث الدهر أو الموت.
- [٧١٢] (١) سورة الحجر / ٢٩.
- [٧١٣] (٢) «زروا» من مادة «زرى» على وزن سعى العيب والتوبيخ واللوم، والازراء بهذا المعنى أيضاً.
- [٧١٤] (١) بين المرحوم العلامة المجلسى فى المجلد ٦٨ من بحار الانوار ص ٢٣ الحديث المذكور عن النبى صلى الله عليه وآله ضمن شرحه لبعض الاحاديث.
- [٧١٥] (٢) سورة البقرة / ٣٠.
- [٧١٦] (١) «المأدبة» بضم الدال وفتحها ما يصنع من الطعام للمدعوين فى عرس ونحوه، والمراد هنا نعيم الجنة، من مادة أدب التى تعنى فى الأصل الدعوة.
- [٧١٧] (٢) «جيفة» بمعنى الميتة، وأصلها من مادة «جَيْفَ» و«الأجيف» بمعنى الأنتن، ولذلك فان كل شىء فاسد وتنت يُشَبَّه بـ«الجيفة»، ومن هنا فقد سبَّهت الخطبة أعلاه الدنيا المادية بانها «جيفة».
- [٧١٨] (١) «عَشَقَ» من مادة «عشق» على وزن فكر بمعنى العلاقة الشديدة بالشىء.
- و«عشقه» على وزن ثمره بمعنى الشجرة الخضراء اليانعة، والتى لا يمر عليها الا وقت قصير فتصبح صفراء وذابله.
- وبعضهم قال: ان العشق أشق فى الأصل من هذه المادة، وذلك لان العاشق يصبح نحيفاً ذابلاً.
- [٧١٩] (٢) «أعشى» من مادة «عشو» على وزن «خشم» بمعنى ضعف النظر و عدم قدرة العين على الابصار بصورة جيدة، و تأتى أحيانا بمعنى العمى الليلي أو العشو ليلاً.
- [٧٢٠] (٣) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٣/ ٦٣.
- [٧٢١] (١) «غرة» بمعنى الغفلة من مادة «غرور» بمعنى الخداع، حيث يستغفل هذا الخداع الإنسان ويأخذه بغتة.
- [٧٢٢] (٢) «إقاله» من مادة «قيل» على وزن سيل بمعنى فسخ المعاملة، وقيل معناها الأصلى انقاذ الإنسان من السقوط، ووردت فى الخطبة بمعنى العفو عن الذنوب.
- [٧٢٣] (١) بحار الانوار ٧٠/ ١٥٨.
- [٧٢٤] (٢) غرر الحكم، ٦٣١٤.
- [٧٢٥] (٣) كنز العمال، ٦٩٩٩.
- [٧٢٦] (٤) كنز العمال، ٧٠٠٢.
- [٧٢٧] (٥) كنز العمال ١/ ٤٣٣، ح ١٧٧٢.
- [٧٢٨] (١) الكافي ٢/ ٨٣، ح ٣، باب العبادة.
- [٧٢٩] (٢) بحار الانوار ٢٢/ ٣٤١.
- [٧٣٠] (١) «أغمض» من مادة «غمض» على وزن نبض اطباق الجفن على العين، ثم اطلق على كل تساهل وغفلة.
- [٧٣١] (٢) «العب» بمعنى الحمل والثقل.

- [٧٣٢] (٣) «رهون» جمع «رهن» حبس الشيء وهو عادةً سند يسلم مقابل قرض لا يعاد مالم يسدد «والمرء قد غلقت رهونه بها» استحقها مرتبتها وأعوزته القدرة على تخليصها، كناية عن تعذر الخلاص.
- [٧٣٣] (١) «أصحر» برز في الصحراء، أى على ما ظهر له وانكشف من أمره.
- [٧٣٤] (٢) «التياط» من مادة «ليط» على وزن ليل الالتصاق.
- [٧٣٥] (٣) «مخط» الحفرة وتطلق على القبر، لأنهم يحضون ثم يحفرون.
- [٧٣٦] (٤) «زوره» من مادة «الزيارة» وجاءت بهذا المعنى
- [٧٣٧] (١) «أما» من مادة «ميد» الحركة والاضطراب.
- [٧٣٨] (٢) «أرج» من مادة «رج» على وزن «حج» ومعناها التحريك الشديد.
- [٧٣٩] (٣) «أرجف» من مادة «رجف» على وزن «كشف» بمعنى الاضطراب والاهتزاز الشديد، ومن هنا يطلق على الأخبار التي تثير الفتنة بـ «الأراجيف» والتي تسبب الاضطرابات في المجتمع.
- [٧٤٠] (٤) «نسف» من مادة «نسف» على وزن «حذف» بمعنى وضع الحبوب التي يستفاد منها كمادة غذائية في الغربال، وتحريكه أو يُذرى في الهواء من أجل فصل الحبوب عن القشور.
- وهنا تأتي بمعنى تحطيم وتلاشى الجبال وبشكل شديد.
- [٧٤١] (١) «دك» فى الاصل بمعنى تسوية الأرض، ومن هنا فان عملية تسوية وتعديل الارض الغير المستوية يحتاج الى ان ندكها، ويستعمل هذا الاصطلاح فى موارد عديدة بمعنى التحطيم الشديد.
- [٧٤٢] (٢) سورة ابراهيم / ٤٨.
- [٧٤٣] (٣) سورة الانفطار / ١ - ٢.
- [٧٤٤] (٤) سورة الواقعة / ٤ - ٦.
- [٧٤٥] (٥) سورة النازعات / ٦ - ٧.
- [٧٤٦] (٦) «إخلاق» من مادة «خلق» على وزن شفق البلى.
- [٧٤٧] (١) «انتقم» من مادة «نقم» على وزن نعمت تعنى فى الأصل الجزاء والعقاب، كما تأتي بمعنى الثأر المقرون بالعداء، الا انها وردت بالمعنى الأول فى الخطبة والاستعمالات القرآنية.
- [٧٤٨] (١) «يظعن» من مادة «ظعن» السفر.
- [٧٤٩] (٢) «أفزع» جمع «فزع» الخوف.
- [٧٥٠] (٣) «تشخص» من مادة «إشخاص» الاخراج من منزل إلى آخر.
- [٧٥١] (١) سورة فاطر / ٣٤ - ٣٥.
- [٧٥٢] (٢) سورة غافر / ٧١ - ٧٢.
- [٧٥٣] (٣) «كلب» من مادة «كَلَب» على وزن «جلب» وفى الاصل بمعنى الضغط على الحصان بواسطة المهماز و ذلك لكى يُسرع فى عدوه، وهذا الاصطلاح يستعمل لأى نوع من أنواع الشدة.
- [٧٥٤] (٤) «لجب» له معنى المصدر واسم المصدر الصوت المرتفع.
- [٧٥٥] (٥) «قصيف» أشد الصوت.
- [٧٥٦] (٦) «تفصم» من مادة «فصم» على وزن نظم كسر الشيء دون فصله، وتعنى القطع.
- [٧٥٧] (٧) «كبول» جمع «كبل» القيد.

[٧٥٨] (١) «زوى» من مادة «زى» على وزن طى الجمع والفيض والابعاد.

[٧٥٩] (٢) «اختيار» بمعنى الانتخاب والاصطفاء والاعتزاز ضد «الاحتقار».

[٧٦٠] (١) سورة الزخرف / ٣٣ - ٣٥.

[٧٦١] (٢) الكافي ٣١٧ / ٢ ح ٩.

[٧٦٢] (١) بحار الانوار ٢٨٣ / ١٦.

[٧٦٣] (١) «مختلف» من مادة «اختلاف» وتأتى هنا بمعنى الذهب والإياب، ومن هنا فان كلمة «مُخْتَلَفٌ» تعنى هنا محل الذهب والإياب.

[٧٦٤] (١) سورة الحاقة / ١٢.

[٧٦٥] (٢) راجع نفحات القرآن ٩ / ٣٥٩؛ بحار الانوار ٣٥ / ٣٢٦ - ٣٣١.

[٧٦٦] (٣) الغدير ٣ / ١٧٨ و ١٨٠.

[٧٦٧] (٤) الغدير ٦ / ٤١ - ٨٠.

[٧٦٨] (٥) «سطوة» الثوب على الشخص وقهره، ولما كان من لوازم ذلك العقاب، فقد وردت بهذا المعنى فى العبارة.

[٧٦٩] (١) سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة بداية الخطبة «الحمد لله فاطر الخلق وخالق الأشباح» وهى خطبة معروفة مشهورة تعرف بخطبة الديباج. رواها قبل السيد الرضى (ره) المرحوم الصدوق فى كتاب من لا يحضره الفقيه (١ / ١٣١) بتفاوت وفى علل الشرايع، كما وردت فى تحف العقول وفى كتاب المحاسن (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٣٨) إلّا أنّ الخطبة فى تحف العقول بدأت «الحمد لله فاطر الخلق، وخالق الاصباح» ثم اورد الخطبة وذكرانها تعرف بخطبة الديباج. (تحف العقول، / ١٠٤ - ١٠٧).

[٧٧٠] (١) «متوسلون» من مادة «وسيلة» بلوغ الشىء مع الميل والرغبة.

[٧٧١] (٢) سورة المائدة / ٣٥.

[٧٧٢] (١) «ذروة» على وزن قبلة أعلى الشىء.

[٧٧٣] (٢) نهج البلاغة، الحكمة ٢٥٢.

[٧٧٤] (١) وسائل الشيعة ١ / ٩.

[٧٧٥] (٢) بحار الانوار ٨ / ٣٥٩.

[٧٧٦] (٣) جامع الأخبار (طبق نقل بحار الانوار ٧٩ / ٢٠٢).

[٧٧٧] (٤) منهاج البراعة ٧ / ٣٩٨ وبحار الانوار ٧٩ / ٢١٨.

[٧٧٨] (١) سورة النساء / ٧.

[٧٧٩] (٢) شرح نهج البلاغة للمرحوم الشوشترى ١٣ / ١٠٢.

[٧٨٠] (٣) الكافي ٤ / ٦٢ ح ١.

[٧٨١] (٤) «يرحضان» من مادة «رحض» على وزن محض الغسل، إشارة إلى أن الحج والعمرة يغسلان الذنوب.

[٧٨٢] (٥) بحار الانوار ٦٩ / ٢٦.

[٧٨٣] (١) بحار الانوار ٦٦ / ٤٠٦.

[٧٨٤] (٢) «مثراء» من مادة «ثرى» و «ثروة» وتعنى الزيادة، وعلى هذا الاساس، يقال للمال الكثير «الثروة» و «مثراء» مصدر ميمى بمعنى اسم فاعل و يعنى سبب الزيادة.

[٧٨٥] (٣) «منسأة» من مادة «نساء» على وزن نسخ بمعنى التأخير، ومنسأة: مصدر ميمى بمعنى اسم فاعل يعنى سبب التأخير.

ويقال للعصا «المنسأة» لأنها تستعمل لازالة الأشياء الضارة التي تعترضنا أثناء السير.

[٧٨٦] (٤) الكافي ٢ / ١٥٠.

[٧٨٧] (٥) سورة البقرة / ٢٧٤.

[٧٨٨] (١) احقاق الحق ٣ / ٢٤٦ - ٢٥١.

[٧٨٩] (٢) تحف العقول، الكلمات القصار للإمام الكاظم عليه السلام.

[٧٩٠] (٣) الخصال ١ / ١٣٤.

[٧٩١] (٤) بحار الانوار ٨٠ / ٣٦٩.

[٧٩٢] (٥) بحار الانوار ٧١ / ٣٨٨.

[٧٩٣] (٦) بحار الانوار ٧٢ / ٥٠ ح ٤.

[٧٩٤] (٧) «صنائع» من مادة «صنع» على وزن «فعل» بمعنى صناعة الشيء وابداعه.

وفي لغة العرب يقال للاعمال الجيدة والحسنة «الصنائع» وهو جمع «صنيعة». «نقل من المعجم الوسيط».

[٧٩٥] (٨) «مصارع» جمع «مصرع» بمعنى السقوط على الارض، ويطلق لمحل القتل بالمصرع، ويقال للصراع بين طرفين «المصارعة»

لان كل طرف من هذين الطرفين يحاول أن يطرح الآخر أرضاً.

[٧٩٦] (١) ميزان الحكمة ٢ / ١٩٣١ ح ١٢٦١.

[٧٩٧] (٢) غرر الحكم، ٦١٦٦.

[٧٩٨] (٣) الكافي ٢ / ١٩٥ ح ١٠.

[٧٩٩] (٤) خطبة الزهراء عليها السلام، احتجاج الطبرسي ١ / ٢٥٨، طبع اسوة، وورد مثل هذا المعنى في الكلمات القصار، ٢٥٢.

[٨٠٠] (١) سورة الحجرات / ١٧.

[٨٠١] (٢) سورة الكهف / ١٠٣ - ١٠٤.

[٨٠٢] (١) كنز العمال، ٣٩٣١.

[٨٠٣] (١) سورة الزمر / ١٧.

[٨٠٤] (٢) «يستفيق» من مادة «استفاقة» بمعنى تحسن الحالة الصحية بعد المرض والوعى بعد السكر واليقظة من النوم وجاءت هذه

الكلمة في هذه الخطبة بالمعنى الثالث أى اليقظة من النوم.

[٨٠٥] (٣) «ألوم» من مادة «لوم» على وزن قوم بمعنى العتب، ومع الأخذ بنظر الاعتبار بان «ألوم» هي صيغه أفعال تفضيل، وهنا تعنى

الملامة، وهو الأنسب.

[٨٠٦] (١) الكافي ١ / ٤٧ ح ١.

[٨٠٧] (٢) سورة النساء / ١٧.

[٨٠٨] (١) سورة الأعراف / ١٧٦.

[٨٠٩] (٢) ورد ذلك عن عمر بن سعد حين اقترح عليه قتال الحسين عليه السلام في كربلاء، واعطائه ملك الري، ففكر في الأمر ثم

انشد شعرا، زعم فيه أن يقتل الحسين عليه السلام ويفوز بملك الري ثم يتوب الى الله سبحانه. ألا لعنة الله على الظالمين.

[٨١٠] (٣) الاثني عشرية / ٢٠٦.

الخطبة [١] المائة وإحدى عشرة

إشارة

وَمِنْ حُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي ذَمِّ الدُّنْيَا

نظرة إلى الخطبة

تحدثت هذه الخطبة بصورة عامة - كما ورد في عنوانها عن ذم الدنيا، الدنيا التي تغرق الإنسان في لذاتها وزخارفها الزائلة اللامشروعة، وامتعتها الرخيصة، بحيث يتناسى الله والخلق ومصيره وعاقبته، الدنيا التي تغيب فيها معاني القيم والمثل ولا يعد فيها من مفهوم للحلال والحرام والظلم والعدل.

والخطبة التي نحن بصددتها على أقسام:

القسم الأول: فيها يتعرض إلى خداع الدنيا وغرورها وزبرجها وظاهرها الأجوف الذي لا باطن له.

القسم الثاني: فيتناول تقلب أحوال الدنيا وعدم ثباتها، إلى جانب الحديث عن النعم التي قد تتبدل نقماً والنجاحات التي تتحول فشلاً.

القسم الثالث: خاض عليه السلام في بيان فناء الدنيا وزوالها، حيث تضمن عبارات رائعة مؤثرة

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٦

تكشف النقاب عن حقيقة هذا الأمر.

القسم الرابع: فكأنه يأخذ بيد الناس ويغوص بهم في أعماق تاريخ الماضيين، والعاقبة المريرة التي طالت الأقوام من ذات القوة والسطوة لتهز عروشهم وتحيلهم أجساداً خاوية قبرت تحت التراب.

وأخيراً القسم الخامس: الذي تطرق إلى الموت والأموات الذين عاشوا دهرًا بيننا بذلك النشاط والحيوية وقد ذاع صيتهم ليعم الأرجاء، والحال قد ذهبت تلك الحيوية أدراج الرياح وتبدل ذلك النشاط إلى خمول وضمور بعد أن أتاهم الموت وأحال أجسادهم تراباً.

هذا وقد أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة بعبارات لطيفة بالغة التأثير شأنها بإيقاظ أسوأ الأفراد الذين يغطون في سبات الغفلة ونفت النور والأمل في أوراخهم المظلمة البائسة.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٧

القسم الأول: الدنيا الغرارة!

«أَمَّا بَعِيدٌ، فَإِنِّي أَحِذْرُكُمْ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا حُلُوهُ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْأَمْرِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ. لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤْمَنُ فَجَعَتُهَا. غَرَارَةٌ ضَرَارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِذَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَالُهُ عَوَالَهُ. لَا تَعْدُو - إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمَّتِي أَهْلِ الرُّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا - أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى سُبْحَانَهُ: «كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَاحْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا».

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام الخطبة بتحذير الجميع من هذه الدنيا الفانية والغرارة، ثم أماط اللثام عن ماهية واقعها وحقيقتها من خلال وصفها والتعرض لغرورها وخداعها بثمان عشرة عبارة، فقال عليه السلام أحذرکم من هذه الدنيا ذات الظاهر اللطيف الذي إنطوى

على اللذات والشهوات، الأمر الذي يجعلها تشد إليها الأنظار بفعل عينيتها ومثولها للإنسان رغم ضحالة نعمها وتفاهتها، إلّا أنّها تحلّت بالآمال وتزوّنت بالغرور لتسوق إليها هذا الإنسان:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَدِّرُكُمْ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا حُلُوَّةٌ خَصِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٨

بِالعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ ٢ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْأَمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ».

فالإمام عليه السلام يرى خداع الدنيا في حلوّ ظاهرها المحفوف بالشهوات، فهي محببة إلى النفوس كونها ماثلة للعيان ملموسة، وهذا هو المعنى المراد من العبارة

«تَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ».

أما العبارة

«رَاقَتْ بِالْقَلِيلِ»

، فهي إشارة إلى أنّ الدنيا قد زينت متاعها القليل بالشكل الذي جعلها تستقطب قلوب عبدة الدنيا المتكالبين على حطامها. بينما أشارت العبارت

«تَحَلَّتْ بِالْأَمَالِ»

إلى زيف هذه الزينة التي تحلّت بها الدنيا، حيث تفتقر إلى الواقع، بل زينت مظهرها بالآمال والخيالات الفارغة الزائفة، وهذا هو المعنى الذي أكدته العبارة

«تَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ»

، فرصيدا الرئيسى الذى يشكل عنصر التزيين إنما هو الغرور الخداع، ولعل الوقوف على عمق هذا المعنى يتجسد من خلال النظر من بعيد إلى قصور الملوك وسلطتهم الظاهرية المرعبة، وسعة حجم أموالهم وثرواتهم، وأبهته وجلال مراكبهم وملابسهم النفيسة الفاخرة وسائر الوسائل والأدوات التى يعتمدونها فى حياتهم ومعيشتهم التى تخطف الأبصار وتسحر القلوب، بينما الاقتراب منهم والغوص فى واقع حياتهم لا يرى سوى البؤس والشقاء وسبل المصاعب والمشاكل التى تلف حياتهم ومدى القلق والاضطراب الذى يسودهم من جراء المؤامرات والدسائس التى يخطط لها أعداؤهم إلى جانب الحسد والطمع الذى تكنه لهم بطانتهم وقرابتهم.

والواقع هو أنّ هذه العبارات إقتباس ممّا صرحت به بعض الآيات القرآنية، فقد جاء فى القرآن الكريم بشأن الحياة الدنيا:

«وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ...» [٣].

وجاء فى موضع آخر: «إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ...» [٤].

كما جاء أيضاً: «زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ...» [٥]

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٩

. وقال تعالى أيضاً: «ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» [٦].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأنّ نعم الدنيا وسرورها إلى إنقطاع ولا دوام لها، وليس هناك من شخص بمنأى عن مشاكلها وفجائعتها، ورصيدا الخداع والغرور والضرر والخسران، معروفة بالفناء والزوال وعاقبة أمر سكانها وعمارها الهلاك والعدم:

«لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا [٧]، وَلَا تُؤْمَنُ فَجَعَتُهَا. عَزَاةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ [٨] زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ [٩] بَائِدَةٌ [١٠]، أَكَالَةٌ عَوَالَةٌ [١١]».

نقد تناول الإمام عليه السلام الدنيا ليتحدث بهذه العبارات الرائعة البيان عن تقلب أحوالها وعدم ثباتها، فليس هنالك من دوام واستمرار لأى من مفرداتها من قبيل حلاوتها وطلاوتها ونعمها وثرواتها وإمكاناتها وآمالها ورغباتها ونشاطها وعنفوان الشباب فيها، فكل هذه الامور محكومة بالفناء والزوال، وبناءً على هذا فلا يركن إليها إلّا الجاهل الغافل.

ثم اختتم عليه السلام كلامه- في هذا القسم من الخطبة- بالقول:

«لَا تَعْدُو- إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمَّيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرَّضَاءِ بِهَا- أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى سُبْحَانَهُ: «كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا» [١٢] تَذْرُوهَ الرِّيحَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا» [١٣].

فقد عزز الإمام عليه السلام إثبات مراده من خلال التمسك والاستشهاد بالتشبيه الرائع الذي أورده القرآن في سورة الكهف بشأن الدنيا، وكأني به قد اصطحب المخاطب إلى حيث الصحراء

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٠

ليريهم صورة الربيع والخريف واهتزاز الأرض وحيوتها من نزول المطر وخروج النباتات وفتح البراعم والزهور وحمل الأشجار للفاكهة والثمار، غير أن هذه الأمور لا يكتب لها الاستمرار والدوام، فلم تشهد هذه الحالة سوى بضعة شهور لتذبل تلك الأوراق وتنتهي تلك الثمار وتنقطع زرقعة العصافير والطيور وتبدل الخضرة بيوسة وجفافاً، وهذه بالضبط حقيقة الحياة الدنيا التي تعيشها البشرية حيث يتجه كل شيء فيها نحو الزوال فيا له من تشبيه رائع وعجيب!

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١١

القسم الثاني: الدنيا كل يوم بلباس

«لَمْ يَكُنْ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبْتَهُ بَعْدَهَا عَجْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَائِهَا بَطْنًا، إِلَّا مَنَحْتَهُ مِنْ ضَرَائِهَا ظَهْرًا؛ وَلَمْ تَطْلُهُ فِيهَا دِيمَةً رَخَاءً، إِلَّا هَتَّتْ عَلَيْهِ مُرْنَةً بَلَاءً، وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةٌ أَنْ تُمَسِّيَ لَهُ مُنْتَكِرَةً، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اغْدُودَبَ وَاخْلَوْلَى، أَمَرَ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى! لَأَيْنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَعْبًا، إِلَّا أَرْهَفْتَهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعْبًا. وَلَا يُمَسِّي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ. غَرَارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَإِنْ مَنْ عَلَيْهَا، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى. مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْتَرَّ مِمَّا يُؤْمِنُهُ. وَمَنْ اسْتَكْتَرَّ مِنْهَا اسْتَكْتَرَّ مِمَّا يُؤْبِقُهُ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنَّهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة مواصلة لذم الحياة المادية الدنيوية إلى صفة أخرى من صفاتها البارزة الأخرى والمتمثلة بسرعة تغييرها وتبدلها، إلى جانب تبدل نعمها ونقمها، فلم يصب أحد منها سروراً إلا أتبعته حزناً وحسرة، ولم يذق حلاوتها إلا استشعر مرارتها:

«لَمْ يَكُنْ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبْتَهُ بَعْدَهَا عَجْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَائِهَا بَطْنًا، إِلَّا مَنَحْتَهُ [١٤] مِنْ ضَرَائِهَا ظَهْرًا».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٢

ثم أكد عليه السلام هذا المعنى بأنه لم يستشعر هبوب الرياح اللطيفة والأمطار الملائمة حتى يغرق في سبيل من البلاء:

«وَلَمْ تَطْلُهُ [١٥] فِيهَا دِيمَةً [١٦] رَخَاءً، إِلَّا هَتَّتْ [١٧] عَلَيْهِ مُرْنَةً [١٨] بَلَاءً».

ومن هنا فلا وجه للغرابة والتعجب إذا انتصرت لأحد صباحاً تنكرت له مساءً، وإن حملت بيد ظرفاً حلواً حملت بأخرى ظرفاً مرّاً:

«وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةٌ أَنْ تُمَسِّيَ لَهُ مُنْتَكِرَةً، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اغْدُودَبَ [١٩] وَاخْلَوْلَى [٢٠]، أَمَرَ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى! [٢١]».

نعم، هذه هي طبيعة الدنيا وستكون كذلك، حيث تستحيل حلاوتها مرارة، ونصرها هزيمة، وحياتها موتاً، وليست هناك أية قدرة يسعها الحيلولة دون هذه الاستحالة والتغيير.

ثم واصل عليه السلام تأكيد هذه الحقيقة في أن الإنسان لا يصيب منها لذّة ونعمة إلا أتبعته غصّة ورهقه، ودفعت به إلى ما يتعبه من الشدائد والنوائب، فلا يكاد يتمتع بلذّة الأمن حتى يزججه ألم الخوف والخطر:

«لَأَيْنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا [٢٢] رَعْبًا، إِلَّا أَرْهَفْتَهُ [٢٣] مِنْ نَوَائِبِهَا تَعْبًا، وَلَا يُمَسِّي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ [٢٤] خَوْفٍ».

أجل، ليست هناك من فاصلة يؤبه بها في هذه الدنيا لا مكانية ولا زمانية بين السعادة والشقاء، فقد تراه أحياناً جن عليه الليل وقد غرق في لذاته وشهواته وهنّىء عيشه ودعته في هالة من فرحه وسروره، ولم يكد يطلع الصبح عليه حتى تتعالى الأصوات بالنحيب والبكاء تنعى فقده ومفارقتة لهذه الدنيا، بل لعله يتجرع كأس المنون من يد أقرب مقربيه:

ثم استمر عليه السلام في الحديث عن غرور الدنيا وزوالها فقال:

«غَرَارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَايْنَةُ، فَا نِ مَنْ عَلَيَّهَا، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَرْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى. مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْتَرَ مِمَّا يُؤْمَنُ. وَمَنْ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٣

اسْتَكْتَرَ مِنْهَا اسْتَكْتَرَ مِمَّا يُؤْبَقُهُ [٢٥]، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ».

وهكذا أورد الإمام عليه السلام هذه الصفات التي تصور تغير أحوال الدنيا وعدم ثباتها وأقول قدرتها وزوال موفقياتها ليخلص إلى نتيجة مفادها ضرورة قناعة العاقل بالقليل منها (على قدر الكفاف) ليمهد السبل أمام أمنه واستقراره وراحة باله، وذلك لأن من طلب المزيد فيها غامر بنفسه وقذف بها في لهوات المخاطر، فيكون بذلك قد مهد السبل أمام شقاء نفسه وبؤسها.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٥

القسم الثالث: الدنيا سند هش خاوي!

«كَمْ مِنْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعْتُهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعْتُهُ. وَذِي أُبْهَةٍ قَدْ جَعَلْتُهُ حَقِيرًا، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا سُلْطَانَهَا دُوْلٌ وَعَيْشُهَا رِنَقٌ، وَعَذْبُهَا أَجَاجٌ، وَحُلُوْهَا صَبْرٌ، وَغَدَاؤُهَا سِمَامٌ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ. حَيْثُهَا بَعْرَضٍ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بَعْرَضٍ سَقْمٍ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيْزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا مَنُكُوبٌ. وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ!»

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- في هذا المقطع من الخطبة- إلى أمرين مهمين آخرين بشأن الحياة الدنيا ووضعها متاعها المادية: الأمر الأول: أن لا شيء فيها يمكن الاعتماد عليه والثوق به، فقد قال عليه السلام بهذا الشأن كم من وثق بهذه الدنيا وسكن إليها فجرعته الألم والمعاناة، وما أكثر الأفراد الذين اطمئنوا إليها فصرعتهم، وما أكثر الأفراد الذين كانوا من أهل السطوة والشوكة، فأذاقتهم لباس الذلّة والمسكنة:

«كَمْ مِنْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعْتُهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعْتُهُ. وَذِي أُبْهَةٍ [٢٦] قَدْ جَعَلْتُهُ حَقِيرًا، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا».

نعم، ليس هنالك من فرد مهما كان مقامه، وموقعه بمأمن من الحوادث الخطيرة والمكاره

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٦

التي تصيب الإنسان بغيته، فعظام الملوكة والسلاطين والأبطال الأشرار أصحاب رؤوس المال من أهل الجاه والسطوة والشباب الذين يعيشون عنفوان النشاط والحيوية والجمال، كل هؤلاء ومن شاكلهم إنما يخضعون لهذه الحوادث التي تجري عليهم وهم صاغرون، الحوادث التي تأتي على جميع النعم واللذات فتحطفها في لحظة وتذل الأعزّة والجبابرة وما التاريخ عنك ببعيد، فقد شحن بمثل هذه الحوادث، وقد ورد في تاريخ الطبري أن سليمان بن عبد الملك لبس ذات يوم لباساً فاخراً واعتم بعمه خضراء وأخذ ينظر في المرأة (وهو يتلذذ بما يشاهد من نفسه فدفعه الفخر لأن) يقول: أنا ملك شاب سعيد الحظ، فلم يعمر بعد ذلك أكثر من سبعة أيام [٢٧].

الأمر الثاني: هو أن حلاوتها قد عجت بالمرارة وانتصاراتها بالهزائم:

«سُلْطَانَهَا دُوْلٌ [٢٨] وَعَيْشُهَا رِنَقٌ [٢٩]، وَعَذْبُهَا أَجَاجٌ [٣٠]، وَحُلُوْهَا صَبْرٌ [٣١]، وَغَدَاؤُهَا سِمَامٌ [٣٢]، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ [٣٣]».

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى حال ساكن الدنيا من أن حياته معرض للموت والسقم والمرض يترصد بعافيته وصحته، ملك هذه الدنيا يستبطن الزوال والفناء، وعزيزها آيل إلى الانكسار، ووفرة نعمها تحمل معها مفردات النفاذ والانقضاء:

«حَيْثُهَا بَعْرَضِ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بَعْرَضِ شَقْمٍ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيْزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا [٣٤] مَنكُوبٌ [٣٥]، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ! [٣٦]». نعم، فمتع الدنيا ولذاتها إن وجدت، فهي مشوبة بأنواع المعاناة والألم، والحكام في ذوى القدرة والسطوة الذين نغبطهم على مدى قدرتهم وشدة شوكتهم وتربعمهم على العرش نراهم

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٧

حين الاقتراب منهم أخوف ما يخافون حتى من مقربهم، وأكثر الناس طاعة لأوامرهم، بل هم في غاية القلق والاضطراب مما يخبىء لهم الغد والمستقبل القريب.

ولعل هذا الأمر أشبه شيئاً بتلك القصيدة التي تحدثت عن ذلك الفرد الذى كان يتمنى التربع على العرش السلطنة ولو ليوم واحد، فحققوا له ما يريد، غير أنهم عقلوا على رأسه خنجراً حاداً ربطوه بشعرة، فكان يتوقع فى كل آن قطع تلك الشعرة ونزول ذلك الخنجر على هامته، فكان يرجو بفارغ الصبر انقضاء ذلك اليوم والخلص من مسند العرش الذى انطوى على ذلك الخطر، فما أروع الصورة التى رسمها الإمام عليه السلام لهذه الدنيا الغرور حين قال:

«كَمْ مِنْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعْتُهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرََعْتُهُ».

فليس هنالك ما يوثق به منها ولا يعتمد عليه فيها.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٩

القسم الرابع: تأملوا الماضى قليلاً

«الَسْتُمْ فِي مَسَاكِنٍ مِنْ كَمَا كَانَ قَبْلُكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَارًا، وَأَبْقَى آثَارًا، وَأَبْعَدَ آمَالًا، وَأَعَدَّ عَدِيدًا، وَأَكْتَفَ جُنُودًا! تَعْبُدُوا لِلدُّنْيَا أَيْ تَعْبُدُوا، وَأَثَرُوهَا أَيْ إِثَارًا. ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبْلَغٍ وَلَمَّا ظَهَرَ قَاطِعٌ. فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَيَحْتَ لَهُمْ نَفْسًا بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صِدْقَةً! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَأَوْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ، وَضَعَضَتْهُمْ بِالنَّوَابِ، وَعَفَرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ، وَوَطَّئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَبِّبَ الْمُنُونِ. فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَكَرُّهًا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَأَثَرَهَا وَأَخْلَمَدَ لَهَا، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَيْدِ. وَهَيْلَ زَوَدَتْهُمْ إِلَّا السَّعْبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ! أَفَهَذِهِ تُؤَثِّرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ؟ أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبَسَّتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهَمَهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا!»

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام الخطبة التى أوردتها فى ذم الدنيا وسرعة زوالها وخداعها وغرورها مصطحباً مخاطبيه هذه المرة ليغوص فى أعماق تاريخ الامم السالفة، ليصور من خلالها حياة أصحاب السلطنة والقدرة ممن ملأ صيبتهم الأرجاء وكانت تقوم الدنيا وتقع بين أيديهم، وكذلك أصحاب الثروة والمال ليتساءل عليه السلام أستم تحلون محل من كان قبلكم وتسكنون مساكنهم، ممن عمروا كثيراً وتركوا آثاراً وكانت لهم أمنياتهم وآمالهم وورغباتهم، وكانت لهم

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٠

جنودهم وحماتهم:

«الَسْتُمْ فِي مَسَاكِنٍ مِنْ كَمَا كَانَ قَبْلُكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَارًا، وَأَبْقَى آثَارًا، وَأَبْعَدَ آمَالًا، وَأَعَدَّ عَدِيدًا [٣٧]، وَأَكْتَفَ [٣٨] جُنُودًا!».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى خمس خصائص إمتازت بها الأقسام السابقة وهى: طول العمر، وبقاء الآثار والمخلفات، وطول الآمال، وكثرة السكان، وكثرة الجنود، فهى خصائص منحتمهم التفوق على سائر من سواهم، وإلا أن أى من هذه الامتيازات لم يحل دون زحف العدم والفناء لقصورهم وأديتهم، فكان مصيرهم أن تلاحشوا وتساقطوا ركوعاً للموت تساقط أوراق الشجر فى فصل الخريف.

ثم أضاف عليه السلام مواصلاً كلامه بهذا الشأن: «تَعَبُّدُوا لِلدُّنْيَا أَىَّ تَعَبَّدُوا، وَآثَرُوهَا أَىَّ إِثَارَ. ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبْلَغٍ وَلَا ظَهَرَ قَاطِعٍ». نعم، فرغم كل سعيهم وجهدهم فى سبيل عبادة الدنيا والدوبان فيها وتجنيد كافة قواهم وطاقاتهم فى هذا الاتجاه، إلا أنهم لم يصيبوا أى شىء منها، ثم مشوا إلى حتوفهم وقد خلت جعبهم من الزاد والمتاع ودون حمل الورع والتقوى التى لا يجدى غيرها نفعاً هناك، فطريق الآخرة شاق طويل لا يجتازه إلا أهل الورع والتقوى.

ثم خاطب عليه السلام صحبه: هل بلغكم أن الدنيا قدمت لأحدهم فدية لتنجيه من الموت أو سكراته؟ أم هل أعانتهم بشىء فى هذا السبيل؟ أم هل كانت على الأقل صاحباً حسناً لهم:

«فَهَلْ بَلَّغْتُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ [٣٩] لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنْتْ لَهُمْ صُحْبَةً!».

نعم، لم تقدم لهم أى عون ولم تنجهم عن المكاره والأهويل، أفلا يكون ذلك عبرة لم اعتبر من أبناء الدنيا!

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بهذا الخصوص قائلاً:

«بَلْ أَرْهَقْتُهُمْ [٤٠] بِالْقَوَادِحِ [٤١]، وَأَوْهَقْتُهُمْ [٤٢]

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢١

بِالْقَوَارِعِ [٤٣]، وَضَعَعْتُهُمْ [٤٤] بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرْتُهُمْ [٤٥] لِلْمَنَاجِرِ، وَوَطَّنْتُهُمْ بِالْمَنَاسِمِ [٤٦]، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَبِّبَ الْمُنُونِ [٤٧].».

فهذه العبارة المؤثرة تشير إلى أن الدنيا ليس فقط لم تقدم العون والمساعدة لعبادها وأصحابها، بل سارعت بكل ما أوتيت من وقوة لتوجيه ضرباتها الماحقة إليهم بغية إبادتهم، وإستئصال شوكتهم، حتى جندت جميع قواها وطاقاتها ضدهم.

والطريف فى بيان الإمام عليه السلام هو أنه بدأ من المراحل الكبرى نزولاً إلى الصغرى فى إطار تصويره لإعانة الدنيا وما يمكنها أن تقدمه من نصرة ومساعدة، بينما تدرج فى أضرارها التى تصيب من تعلق بها من المراحل السفلى إلى المراحل العليا المتمثلة بالانقراض عليهم وإزالتهم من صحفة الوجود، ولعمري هذه قمة الفصاحة والبلاغة فى بيان الحقائق المريرة والأليمة ويكشف النقاب عن مدى وضاعة الدنيا وانحطاطها وتنكرها لمن أخلد إليها واطمأن بها.

ثم خالص عليه السلام إلى نتيجة مما سبق مفادها تنكر الدنيا لأصحابها ممن آثرها على كل شىء وهو الأمر الذى رأوه بأم أعينهم (أو لعلمهم طالعوه بشأن الامم التى سبقتهم) فقد سلمتهم للأقدار وساقتهم نحو الموت دون أن يعدوا الزاد والمتاع لتلك الدار الآخرة:

«رَأَيْتُمْ تَنَكَّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ [٤٨] لَهَا، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ.».

فهل أمدتهم هذه الدنيا بشىء سوى الجوع والفقر؟ وهل عرضتهم سوى للتعب والارهاق

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٢

والضنك؟ وهل وهبتهم إلا الظلمة التى ليس معها نور؟ (أبداً، بل أودعتهم حفراً مظلمة موحشة تفيض رعباً وخشياً)، وهل بقى لديهم من شىء سوى الحسرة والندم:

«وَهَلْ زَوَّدْتُهُمْ إِلَّا السَّعْبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ [٤٩]، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعَقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ!».

فكيف الوثوق بهذه الدنيا التى لا تضم لمن تعلق بها سوى البؤس والشقاء والهزيمة والفشل والظلمة، ولا تعقبه سوى الندم؟! أم كيف له التضحية بالغالى والنفيس فى سبيل الحصول على بعض حطام الدنيا وجعلها هدفاً فى حياته؟! ومن هنا تساءل الإمام عليه السلام مستنكراً:

«أَفَهَذِهِ تُؤَثِّرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ؟ أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبَسَّتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهَمَهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا!».

حقاً، ليست هناك من عبارات أوضح وأفصح من هذه العبارات التى وردت بشأن تهاهة الدنيا والمصير والعاقبة المريرة التى تنتظر من تعلق بها وسكن إليها، وهدف الإمام عليه السلام من هذه التأكيدات المتواصلة والعبارات المنبهة الشديدة إلى الوقوف بوجه الريح الدنيوية العاتية، وما إنطوت عليه من نعم جمّة أفرزتها قضية الفتوحات الإسلامية والتى إستهوت قطاعات واسعة من المسلمين لتقذف

بهم في أتون الرفاهية والراحة والدعة بما ينسيهم القيم والمثل والمبادئ السماوية الخالدة، ويجعلهم يغطون في سبات الغفلة، عليهم فيفوقون إلى أنفسهم ويعودون إلى رشدهم فيهبوا لإحياء القيم الإسلامية المغيبة، إلى جانب محاولة الإمام عليه السلام إعادة الأمة - لا سيما أولئك الأفراد الذين تكالبوا على الدنيا وثوراتها إبان عهد عثمان - إلى المسار الإسلامي الصحيح.

وما أروع هذه المواعظ والنصائح البليغة الواضحة للمتكالبين على الدنيا من أبناء عصرنا الراهن حيث يشهدون ذات الظروف، بل أسوأ منها والتي عصفت بالمجتمع وجعلته يتعلق بالدنيا، والحق لو لم يلتفتوا إلى هذا الأمر ويفكروا في علاج وضعهم فلا من دين ولا دنيا معقولة يمكنهم أن يظفروا بها ويحصلوا عليها.

والعبارات تنسجم تماماً وما صرحت به الأحاديث النبوية الشريفة وروايات وكلمات

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٣

المعصومين عليهم السلام وبالتالي الآيات القرآنية، فقد صرحت الآية ٩، من سورة الروم:

«أُولَئِكَ يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

كما صرحت الآية ٧- ٨ من سورة يونس:

«إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَاؤَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»

وورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا أَثْبَتَ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فِي قَلْبِهِ وَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ وَبَصَّرَهُ عَيْوَبَ الدُّنْيَا دَاءَهَا وَدَوَاءَهَا وَأَخْرَجَهُ مِنَ الدُّنْيَا سَالِمًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ» [٥٠].

كما ورد عنه عليه السلام أنه قال:

«مَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَشَتَّتْ أَمْرَهُ، وَلَمْ يَنْلِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ، مَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللَّهُ الْغِنَى فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ أَمْرَهُ» [٥١].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٥

القسم الخامس: الاعتبار بالموتى

إشارة

«فَاعْلَمُوا- وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ- بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ عَنْهَا. وَاتَّعَظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً». حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا، وَأَنْزِلُوا الْأَجِدَاتِ فَلَا يُدْعَوْنَ ضَيْفَانًا. وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنَ الرِّفَاتِ جِرَانٌ، فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمًا، وَلَا يُبَالُونَ مَنْدَبَةً. إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا.

جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ. مُتَدَنُونَ لَا يَتَزَاوَرُونَ، وَقَرِيبُونَ لَا يَتَقَارَبُونَ. حُلَمَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ. وَجُهَلَاءٌ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ، لَا يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ، اسْتَبَدَلُوا بَطْنَهُ الْأَرْضِ بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنًا، وَبِالسَّعَةِ ضَيْقًا، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً. فَجَاءَ وَهِيَ كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاءَ عُرَاءً، قَدْ ظَنَعُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالِدَارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

«كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ».

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث مرّة أخرى عن تقلب أحوال الدنيا وغدرها وتنكرها لمن تعلق بها، إلى جانب الكلام عن

المصير الحتمي الذي ينتظر كل إنسان والذي يتمثل بمفارقة الدنيا والرحيل إلى عالم الآخرة، فقال عليه السلام: «فَاعْلَمُوا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ [٥٢] عَنْهَا».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٦

نعم، فلا بد لكل إنسان أن يذوق طعم الموت: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ...» [٥٣].

وقال تعالى: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * يَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» [٥٤].

ولعل الإنسان يشك في كل شيء، غير أنه لا يشك في حقيقة الموت: «وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» [٥٥].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بضرورة الاتعاظ بمن كان قبلهم من الامم ممن غزتهم قواهم، فلم تنفعهم تلك القوة شيئاً حتى حملوا راغمين إلى قبورهم، فلم يحلوا ضيوفاً على تلك القبور بعد أن ورد وهاقراً وإكراهاً دون أن يكون لهم أدنى إرادة واختيار: «وَأَتَعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً» [٥٦]. حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا [٥٧]، وَأُنزِلُوا الْأَجْدَاثَ [٥٨] فَلَا يُدْعَوْنَ ضَيْفَانًا». ولعل العبارة إشارة لما ورد في الآية ١٥ من سورة فصلت القائلة: «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ...».

فالمعروف أن قوم عاد كانوا ذوى جث ضخمة وقصور وبيوت فارهة عملاقة ينحتونها وسط الجبال، الأمر الذي جعلهم يصابون بالكبر والغرور، فلما عتوا عن أمر الله وعصوه أرسل الله عليهم ريحاً عاتية فأحالت جثتهم الضخمة إلى ما يشبه أوراق الأشجار التي تتناثر على الأرض، حيث حدث عنهم القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» [٥٩].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٧

أما قوله عليه السلام

«فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا»

والركبان جمع راكب وذلك لأن الراكب من يكون مختاراً، ولا اختيار لهؤلاء، وقوله عليه السلام

«فَلَا يُدْعَوْنَ ضَيْفَانًا»

لأن الضيف يرد برغبته وإرادته إلى المكان الذي يستقبل فيه، وقد ورد مثل هذا المعنى في الخطبة ١٨٨ من نهج البلاغة إذ قال عليه السلام:

«حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ».

ثم قال الإمام عليه السلام مواصلةً لوصفهم:

«وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ [٦٠] أَجْنَانٌ [٦١]، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنَ الرُّفَاتِ [٦٢] جِيرَانٌ».

فالعبرة إشارة إلى أن قبورهم خالية من البناء والسقوف والأعمدة والأبواب والنوافذ، فهي ليست أكثر من قبضة من الحجر والتراب على وجه الأرض، والتعبير عن التراب بالكفن فذلك لأنه يحيط ببدن الميت ويواريه كالكفن، وأما ذلك الكفن الذي يلف به الميت فهو مؤقت سرعان ما يبلى ويزول، ولا يبقى سوى الكفن الأصلي وهو التراب.

والجدير بالذكر هو أن الإمام عليه السلام واصل كلامه بالحديث عن هؤلاء الجيران وهم ليسوا أكثر من عظام نخرة، فيكشف النقاب عن حقيقة وضعهم بعبارات غاية في الجمال والروعة، وبما يدعو للتأمل والاعتبار: «فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمًا [٦٣]، وَلَا يُبَالُونَ مَنَدَبَةً [٦٤]».

أضف إلى ذلك فهم على درجة من عدم الإكتراث بأى شيء بحيث:

«إِنْ جِيدُوا [٦٥] لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ فُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا. جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِيرَةٌ [٦٦] وَهُمْ أَبْعَادٌ. مُتَدُونُونَ لَا يَتَرَاوَرُونَ، وَقَرِيبُونَ لَا يَتَقَارَبُونَ».

حقاً، أنهم عبرة لمن اعتبر وأوضاعهم مدعاة إلى التأمل والنظر، فكل شأن من شؤونهم يختلفت ماماً وما عليه الحال بالنسبة لأهل الدنيا،

فقد كانوا معاً حتى أمس القريب، ينجد

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٨

بعضهم البعض الآخر، يهرعون لاستقبال السنين التي تدر عليهم النعم والمنافع، بينما كانوا ينزعجون من القحط والجذب، كما كانوا يطوون المسافات القريبة والبعيدة لرؤية بعضهم البعض الآخر، لكن دون خبر عن أوضاعهم وما عليه أحوالهم، قبورهم متصلة متلاصقة مع بعضها، إلا أن المسافة بينهما كأنها ما بين المشرق والمغرب، ومن كان منهم بأن ليل نهار من عذاب البرزخ فلا يسمع أنيه أقرب مقريه من صحبه من أهل القبور، بل حتى لو سمع صراخه وألمه لما وسعه نجاته وتقديم العون له. وما أروع ما كان يردده الإمام السجاد عليه السلام حين مناجاته باكياً وهو يجسد ما أورده الإمام على عليه السلام بهذا الشأن، إذ كان يقول:

وَأَصْحَاوِ رِمِيمًا فِي التُّرَابِ وَأَقْفَرَتْ مَجَالِسُ مِنْهُمْ عُطَّلَتْ وَمَقَاصِرُ
وَحَلُّوا بَدَارٍ لَا تَرَاوُرُ بَيْنَهُمْ وَأَنْتَى لِسُكَّانِ الْقُبُورِ تَرَاوُرُ
فَمَا أَنْ تَرَى إِلَّا جُثَى قَدْ تَوَّوَا بِهَا مُسْتَمَّةً تَسْفِي عَلَيْهِ الْأَعَاصِرُ [٦٧]

ثم واصل الإمام عليه السلام حديثه عن أصحاب القبور بأنهم عقلاء قد ذهب عدوتهم وخصومتهم، وفي نفس الوقت هم جهال قد طرحت أحقادهم وأضغانهم، فليس هناك ما يدعو للخشية من ضررهم وشرهم، كما لا يؤمل أن يدافعوا عن أنفسهم، فقد انسلخوا من ظاهر الأرض ليوطنوا باطنها، فاستبدلوا بتلك السعة ضيقاً وبالأهل والوطن والنور غربه وظلمة:

«حَلَمَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ. وَجَهْلَاءٌ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ، لَا يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ، اسْتَبَدَّلُوا بَطْنَهُ الْأَرْضِ بِطَنْهَا، وَبِالسَّعَةِ ضَيْقًا، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً.»

والعجيب في الأمر أنه يصفهم في عبارة بالعقلاء، ثم يردفها بالعبارة التالية بوصفهم بالجهلاء، والواقع هو أنهم جثث خاوية قد خلت من الأرواح، فهم ليسوا بعقلاء ولا جهلاء، بل وضعهم في موضع جعلهم أشبه بالعقلاء حيث زالت العداوة بينهم، وفي موضع آخر تشبهوا بالجهلاء حيث ماتت بينهم روح الحسد ودوافعه، فقد تغيرت جميع مفرداتهم في لحظة حيث استبدلوا بظاهر الأرض باطنها وباللذات الواسعة المنيرة المليئة بالأهل والعيال، القبور الضيقة

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٩

والمظلمة الموحشة الخالية من الصخب والضجيج.

ثم إختتم حديثه عليه السلام بالقول:

«فَجَاءَ وَهَهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاءَ عُرَاهُ» [٦٨].

والعبارة مستوحاة من الآية القرآنية الشريفة: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى» [٦٩].

نعم كما خلق آدم عليه السلام من التراب، كذلك أولاده سيعودن حفاة عراه إلى هذه الأرض على غرار ولادتهم وقدمهم إليها، وإن حملوا معهم كفنًا، فهو ليس كذلك في الواقع، إذا سرعان ما يبلى ويزول ولا يعد له من وجود، بالتالي سيودع هذا الإنسان شاء أم أبي يوماً كل ما جمعه من أموال وأعد لنفسه من قصور ودور فارهه وحدائق ومراكب وإمكانات ووسائل، لينزل تلك الحفرة حافياً عرياناً وعليه أن يستعد لتلك الظلمة والوحشة.

نعم، الشيء الوحيد الذي يحمله معه هو عمله والذي قد يكون أحياناً وبالاً عليه وأعظم بلاء يصيبه، وهو الأمر الذي أكده الإمام عليه السلام فقال:

«قَدْ طَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْيَانِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالِدَارِ البَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «كَمَا يَدُ أُنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَغِيداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» [٧٠].»

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أشار في ختام هذه الخطبة إلى نقطتين:

الأولى: عودة الإنسان إلى الأرض كما خلق منها.

والثانية: النشأة الجديدة في الآخرة.

ثم استشهد عليه السلام بالآية القرآنية الكريمة: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»، لكي لا يبقى أدنى مجال للشك في حقيقة عودة الإنسان إلى التراب الذي خلق منه فيرى هناك جزاء أعماله من ثواب أو عقاب.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٠

تأملان

١- سبل مواجهة التعلق بالدنيا

إنَّ حبَّ الدنيا كما ورد في الرواية هو رأس كل خطيئة وأساس جميع الذنوب والمعاصي، كما أنَّ التعلُّق بها والاعتراض بزخارفها وحطامها يصد الإنسان عن ربِّه وينسيه الآخرة والحساب يوم القيامة، ومن شأن هذه الغفلة والصدود أن تشكل أحد العوامل المهمة التي تقذف بالإنسان في وحل الخطايا والذنوب، وقد شهد عصر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تنامي الأموال والثروات إثر التقدم السريع الذي أحرزه الإسلام والغنائم المتحصلة من الغزوات، وهو الأمر الذي لفت إنتباه طائفة عظيمة من المسلمين ليشده إلى الدنيا ويدفع بها إلى التكالب عليها، وأفضل شاهد على ذلك الفساد المالي العظيم الذي حصل على عهد عثمان، ومن هنا لم ينفك الإمام عليه السلام في أغلب خطب نهج البلاغة من ذم الدنيا والتحذير من الانخداع بها والركون إليها والثوق بها، وقد أورد عباراته بمنتهى الفصاحة والبلاغة وبالشكل الذي يجعلها تثير حساسية أهل الغفلة ممن نسوا أنفسهم وتعلّقوا بالدنيا، ولا سيّما في هذه الخطبة التي مرّ علينا شرحها، فقد سارت مواكبة للقرآن الكريم في ذمّه للدنيا، وقد سلك الإمام عليه السلام مختلف الطرق من أجل بيان هذه الحقيقة منها:

١- تحدّث عليه السلام بادية ذى بدء عن

«غدر الدنيا وعدم ثباتها»

وكيف استقطبت كل من تطلّع إليها بينما ولّت ظهرها وتنكرت له وقذفت به في وحل البؤس والشقاء.

٢- تحدّث أحياناً عن

«تقلب الدنيا السريع»

حيث سرعان ما تتبدل القوّة ضعفاً، والانتصار هزيمة، والغنى فقراً، والعافية مرضاً.

٣- كما تحدّث أحياناً أخرى عن إختلاط النعم بالآلام، والمعافاة والعذوبة بالمرارة، فهناك الاشواك حيث الأزهار، والأفاعى حيث الكنوز، بهدف عدم اغترار الناس بالدنيا والتعلّق بها والانخداع بزخارفها.

٤- كما يصحب عليه السلام مخاطبيه تارة أخرى ليوقفهم على نماذج عينية ملموسة للغدر وعدم الثبات الذي تنطوى عليه طبيعة الدنيا، فيقول لهم: إنظروا إلى الدنيا ماذا فعلت بمن كان أشدّ منكم قوّة وأكثر جمعاً للأموال وأعظم جنداً.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣١

٥- وأحياناً أخرى يكون على غرار الرسّام الماهر الذي أمسك بريشته وجعل يرسم على لوحته الحالات المرعبة للإنسان على أعتاب الموت، وإنفصاله عن الأهل والولد والمال والثروة والجاه والمنصب، فيضع تلك اللوحة أمام أعينهم ليروها عن قرب فيعتبروا ويفكروا

فى مصيرهم.

٦- كما يعمد أحياناً أخرى لرسم لوحة صادقة معبرة عن ضيق القبر وظلمته والذى يمثل آخر منازل الدنيا، فهو يحكى عن وحدة الإنسان وغرته وسط ما يجاوره من قبور صامتة، فليس هناك من تراور بينهم قط، كما ليس لأحد منهم علم عن آخر، إلى جانب تصويره لانقطاع الإنسان عن زوجته وولده ومدى عجزه وحاجته.

والملفت للنظرها هو أن جميع هذه المباحث والمضامين إنما تتحرك فى ظل آيات القرآن الكريم، فأحياناً تشير صراحة إلى تلك الآيات، وأخرى تكون العبارات مستقاة من الآيات القرآنية، وهذا ما يسبغ نوراً ولمسات روحية، وجذبات معنوية على كلمات الإمام على عليه السلام وبالتالى مضاعفة مدى تأثيرها.

يالىت أهل الدنيا ممن اغتروا بها وخذعوا بحطامها وزيفها وتزينها أن يلتفتوا لأنفسهم ولو لحظة واحدة طيلة عمرهم فيطالعوا هذه الخطبة الموقظة ويتدبروا عباراتها ومفاهيمها، بل ما أحرانا نحن أيضاً أن نتأمل هذه الخطبة وما شابها من الخطب التى وردت فى نهج البلاغة لتتعمق معرفتنا بخصوص الدنيا والوقوف على مدى ضحالتها وتفاهتها فتجدد فىنا روح الطاعة والابتعاد عن الخطيئة والمعصية. جدير بالذكر أن العديد من الأدباء والشعراء قد انطلقوا أيضاً فى ظل الآيات القرآنية والروايات الشريفة والمفاهيم الدينية فانشدوا أشعاراً تهزّ الضمير وتوقفه على واقع الدنيا، من أولئك الشعراء الإيرانيين هو الشاعر الكبير والفريد «الحافظ الشيرازى» الذى أنشد أشعاراً كثيرة بشأن سرعة زوال نعم الدنيا وغدورها وأن حلاوتها قد مزجت بالمرارة وراحتها بالألم وسلامتها بالمرض والسقم، كما نظم قصائد فى تقلب أحوال الدنيا وتغيرها المفاجيء وعدم استقرارها على حال.

قصر الجديد إلى بلى والوصل فى الدنيا انقطاعه

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٢

أى اجتماع لم يعد يفرق منها اجتماعه

أم أى شعب ذى إلتنام لم يبدده انصداعه

أم أى منتفع بشيء ثم تم له انتفاعه

يا بؤس للدهر الذى ما زال مختلفاً طباعه

قد قيل فى مثل خلايكفيك من شر سماعه

ومن كلام الحكيم فى الدنيا: «إنا قد أصبحنا فى دار رابحها خاسر، ونائلها قاصر، وعزيزها ذليل، وصحيحها عليل، والداخل إليها مخرج، والمطمئن فيها مزعج، والذائق من شرابها سكران، والواثق بسرابها ظمآن، ظاهرها غرور، وباطنها شرور، وطالبها مكدود، وتاركها محمود».

٢- الرد على سؤال

حين نطالع ما أورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة حول «أهل القبور» فى أنهم جيرة لا يتزاورون وقريبون لا يتقاربون وما إلى ذلك، يتبادر إلى الأذهان هذا السؤال وهو أنه وردت عدّة روايات صرّحت بعضها بأن أهل القبور يجتمعون أحياناً مع بعضهم ويطلع كل منهم على أوضاع الآخر وأن لهم مجالسهم وحلقاتهم، ومن ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«كَأَنِّي بِهِمْ جَلَّقَ جَلَّقَ جَلَّقَ فَعُوْدٌ يَتَحَدَّثُونَ» [٧١].

فكيف الجمع بين هذه الروايات وما ورد فى عبارات الخطبة المذكورة؟

ولعل الآجابة على هذا السؤال تتضح من خلال الالتفات إلى أن الروايات المذكورة إنما وردت بشأن المؤمنين وأصحاب الأعمال الصالحة، وأما ما جاء في هذه الخطبة، فإنما ورد بشأن أصحاب الدنيا من أهل الأعمال السيئة، وعليه فليس هنالك من تعارض بين هذه الخطبة وما صرحت به الروايات.

نغمات الولاية، ج ٥، ص: ٣٣

الخطبة [٧٢] المائة وإثنا عشره

إشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
ذَكَرَ فِيهَا مَلِكَ الْمَوْتِ وَتَوْفِيَةَ النَّفْسِ وَعَجْزَ الْخَلْقِ عَنْ وَصْفِ اللَّهِ

نظرة إلى الخطبة

تفيد بعض القرائن أن هذه الخطبة جزء من خطبة مفصلة طويلة، وهي تهدف في الواقع إلى بيان هذه الحقيقة التي تكمن في عجز البشرية عن إدراك كنه الذات وصفات الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن الإنسان إن عجز عن معرفة ملك الموت وصفاته وطبيعته أعماله، فكيف يتوقع أن يقف على كنه الذات والصفات للخالق سبحانه كما هي عليه.

والذي يفهم من كتاب «تمام نهج البلاغة» أن هذه الخطبة هي جزء من الخطبة المعروفة بالأشباح والتي أوردتها الإمام علي عليه السلام بشأن عجز الإنسان عن إدراك كنه الذات والصفات الإلهية، والحق إن عبارة هذه الخطبة تنسجم تماماً وعبارات خطبة الأشباح، فاذا ما وضعت الخطبتان مع بعضهما لتوصلنا إلى أن الخطبة التي بين أيدينا هي جزء من تلك الخطبة [٧٣].

نغمات الولاية، ج ٥، ص: ٣٥

«هَلْ تُحْسِبُ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا؟، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَدًا؟ يَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ. أَيْلَاحُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا؟ أَمْ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْسَائِهَا؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلَهُهُ مَنْ يَعْجُزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!».

الشرح والتفسير

أينما تكونوا يدركم الموت

كما ورد سابقاً فإن هذه الخطبة في الواقع جزء من خطبة التي تصدت لبيان صفات الله تعالى وعجز البشرية عن إدراك كنهه وصفاته سبحانه، وقد استدلل الإمام عليه السلام بمثال في هذه الخطبة يشخص الحقيقة المذكورة ويبين عجز الإنسان عن الوقوف على كنه ذات أغلب المخلوقات، وبناءً على ما سبق فكيف يمكن توقع وقوف هذا الإنسان على كنه ذات وصفات الخالق المطلق بينما لا يسعه إدراك كنه مخلوق مثله؟

فقد قال عليه السلام:

«هَلْ تُحْسِبُ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا؟، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَدًا؟».

قطعاً أن روح الإنسان تفصل عن جسده من قبل ملك الموت، كما صرحت بذلك العديد من الآيات القرآنية، والحال ليس لدينا أي علم بولوجه من أجل قبض الروح ولا خروجه، كما لا نراه حين يقبض الروح، رغم أنه مخلوق من مخلوقات الله سبحانه، وما أكثر من مثله من الملائكة الذين يتعذر علينا رؤيتهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالتطرق إلى مورد خاص بشأن قبض الروح والذي يتصف بالتعقيد والغموض، وهو قبض روح الجنين في بطن أمه، فقال عليه السلام:

«بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ. أَيْلُجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا؟ أَمْ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا؟».

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٦

فمن البديهي أنه يشق على كل عالم بانتقاء أي من الأجوبة الثلاث على سؤال المذكور، فليس هنالك دليل يثبت أي منها، وعليه فقضية قبض الروح بواسطة ملك الموت بحد ذاتها قضية شائكة غاية في التعقيد يعجز عن إدراكها الإنسان فضلاً عن قبض روح الجنين في بطن أمه.

ثم يخلص الإمام عليه السلام من العبارات السابقة إلى هذه النتيجة:

«كَيْفَ يَصِفُ إِلَهُهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!».

نعم، فهناك الألوف المؤلفه من المخلوقات والكائنات التي عجز الإنسان عن إدراكها حتى بعد تطور العلوم وتقديمها، فما حقيقة الروح؟ وما كيفية ارتباطها بالجسد؟ كيف تنسلخ عن الجسد؟ وأين تتجه هذه الروح بعد انفصالها من البدن؟ ما حقيقة الحياة؟ لم استطاع العلماء جمع كافة العناصر الموجودة في الخليه الحيه في مختبراتهم بصورة صناعيه إلا أنهم عجزوا عن نفخ الروح فيها! ما حقيقة الزمان والمكان؟ ما كيفية أمواج الجاذبية التي تربط شرق العالم بغربه؟ ومئات الأسئلة من هذا القبيل. فاذا عجزنا عن وصف هذه المخلوقات التي نشترك معها في كثير من الأمور، فكيف نتوقع إمكانية وصفنا لله الذي لا يشترك معنا في أي أمر؟! بلى، لدينا علم إجمالي بوجوده وصفاته سبحانه، حيث نعلم أنه موجود وله الصفة الفلانية على سبيل الإجمال، إلا أن الكل يعرب عن عجزه وفشله من اقتحام ميدان العلم التفصيلي، بما فيهم أنبياء الله سبحانه وتعالى.

تأملات

١- ملك الموت أم ملائكة الموت

هل ملك واحد أم جماعة؟ سؤال يتبادر إلى أذهان الكثيرين، فقد وردت بعض الآيات القرآنية التي نسبت إلى الله تعالى قبض الأرواح: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...» [٧٤].

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٧

بينما نسبت البعض الآخر منها قبض الروح إلى الملائكة، كما نسبته إلى ملك الموت الذي عبرت عنه أيضاً بالملائكة، فقد صرحت الآية ١١ من سورة السجدة قائلة: «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ...». وقالت الآية ٨ من سورة النحل: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ».

ويعلم أرباب التفسير وأهل التحقيق في القرآن أن ليس هنالك أي تعارض بين الآيات الثلاثة المذكورة، وذلك لأن السنة الإلهية جرت في تفويض الملائكة تدبير شؤون الخلق وأمور العالم، وعليه فالفعل المذكور هو فعل الله سبحانه من جانب حيث منه يصدر الأمر، وهو فعل الملائكة من جانب آخر كونها تباشر ذلك العمل، على سبيل المثال يقال الحاكم الفلاني جدد بناء المسجد الحرام في التاريخ الفلاني، يعنى أنه أصدر أوامره للمهندسين والمقاولين والبنائين بمباشرة ذلك البناء، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: لملك الموت معنى الجنس، ونعلم أن الجنس يستعمل في مفهوم العموم ومعنى الجمع أيضاً.

واستناداً لما مر معنا فإن قبضة الأرواح هو طائفة من الملائكة يباشرنا ذلك العمل بأمر الله سبحانه وكبير هذه الملائكة هو «عزرائيل».

ويعتقد البعض بأن الملكين المأمورين بكتابة أعمال الإنسان هما اللذان يتوليان قبض روح الإنسان إذا انتهى أجله، ولعل العبارة الواردة

في الآية الشريفة: «وكل بكم» أشارت إلى هذا المعنى.

ولما كان الصلحاء والأتقياء يتميزون بجميع خصائصهم عن الطلحاء والمتهتكين، فمن الممكن أن تختلف الملائكة التي تتولى قبض أرواحهم، ولقبض الروح الطاهرة لعظماء الناس كالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فإن شخص ملك عزرائيل عليه السلام هو الذى يتولى هذه المهمة [٧٥].

٢- كيفية قبض الأرواح

تبدو قضية قبض الروح مبهمه وغامضة لدينا على غرار الابهام الذى يكتنف ولوج

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٨

الروح فى البدن، وكل الذى نعرفه بهذا الخصوص هو قطع الرابطة القائمة بين الروح والجسد حين قبض الروح، ولكن كيف يحصل ذلك وبأية صيغة؟ فهذا ما يكتنفه الغموض والابهام.

ويبدو أن كل ما ورد فى الروايات الإسلامية يكون من قبيل التلميحات والتشبهات، وإلا فليس لدينا سجناء عالم المادة من سبيل إلى مثل هذه الأمور المتعلقة بعالم ما وراء الطبيعة.

فهل ملك الموت كائن فى موضع - كما ورد فى بعض الروايات - والدنيا لديه كالدرهم فى كف اليد يقبله كيف يشاء بحيث يتوفى كل أحد إذا ما صدر أمر وفاته، فيقبض روحه، أم أن ملائكة الموت انتشروا فى كل مكان من العالم ويتجهون لقبض الأرواح إذا حان أجلها؟

لقد ذكرت ثلاثة احتمالات فى الخطبة بشأن الأطفال الذين تقبض أرواحهم وهم أجنة فى بطون أمهاتهم:

الأول: ورود ملك الموت فى أحشاء الام من بعض جوارحها.

والثانى: يدعو روح الجنين اليه وهو فى الخارج.

الثالث: كونه مع الجنين فى أحشاء الام منذ البداية، ولذا عدم ترجيح الامام عليه السلام أحد هذه الاحتمالات الثلاثة إشارة الى حقيقة أن صعوبة إدراكنا لجزيئات هذه الأمور بفعل وجودنا فى عالم المادة.

وقد ركز بعض شراح نهج البلاغة على الاحتمال الثانى من بين الاحتمالات الثلاثة المذكورة، ولعل دليلهم فى ذلك ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قيل لملك الموت عليه السلام: كيف تقبض الأرواح وبعضها فى المغرب وبعضها فى المشرق فى ساعة واحدة؟

فقال: أدعوها فتجيبنى، قال: ثم قال ملك الموت: إن الدنيا بين يدي كالقصعة بين يدي أحدكم يتناول منها ما شاء» [٧٦].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٩

الخطبة [٧٧] المائة ثلاثة عشرة

إشارة

مِنْ حُطْبَةٍ لَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي ذِمِّ الدُّنْيَا

نظرة إلى الخطبة

تحدث الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن عدة مسائل مهمة مرتبطة مع بعضها البعض الآخر. فقد حذر عليه السلام في القسم الأول من الخطبة من الدنيا، ثم ذكر عيوبها ومصائبها، حيث شبهها بالدار الآيلة للسقوط فلا ينبغي الاغترار بها، ثم واصل في القسم الثاني كلامه بهذا الخصوص موصياً بعدم نسيان الموت والزهد في الدنيا من خلال عدم التعلق بها. وأخيراً اختتم الخطبة بالإشارة إلى تشتت المسلمين واختلافهم وإسناد ذلك إلى التهافت على الدنيا، وإن صلاح المجتمع في الحذر منها.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤١

القسم الأول: التحذير من الدنيا

«وَأَحْذَرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ. وَلَيْسَتْ بِدَارٍ نُجْعَةٍ. قَدْ تَرَيْنَتْ بَغْرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارٌ هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلَالُهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرُهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتُهَا بِمَوْتِهَا، وَخُلُوقُهَا بِمَرِّهَا. لَمْ يُضِفْهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ. خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ. وَجَمْعُهَا يَنْفَسِدُ، وَمُلْكُهَا يُشَلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرُبُ. فَمَا خَيْرٌ دَارٍ تَنْقُصُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمُرٌ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ، وَمُدَّةٌ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ! اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلِبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ آدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ. وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ».

الشرح والتفسير

يتجه الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة نحو ذم الدنيا وأصحابها المتكالبين عليها، ثم حقرها وعدد عيوبها بما يوقظ كل عاقل وينبهه إلى أن الدنيا لا يمكنها أن تكون سبيل للنجاة وأداة للسعادة.

فقد استهل عليه السلام الخطبة بتحذير مخاطبيه بما فيهم الناس آنذاك واليوم وسائر الأفراد في كل العصور من الدنيا قائلاً:

«وَأَحْذَرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ. وَلَيْسَتْ بِدَارٍ نُجْعَةٍ».

«القلعة»

بضم القاف وسكون اللام المشتقة من مادة «قلع» الموضع غير المستوطن الذي يجب أن يرحل عنه الإنسان في أي زمان.

و

«النجعة»

بضم النون عكس سابقتها فهي تعنى الموضع الذي عثر فيه الإنسان على الخير

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٢

والبركة، وقد عزم قطعاً على الاستقرار فيه، وعليه فمفهوم كلامه عليه السلام أن الدنيا منزل مؤقت عابر ولا قيمة لها لكي يتخذها الإنسان موضعاً للإقامة والاستقرار، ثم واصل عليه السلام الكلام بالإشارة إلى أدلة المطلب السابق ليقول:

«قَدْ تَرَيْنَتْ بَغْرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارٌ [٧٨] هَانَتْ

عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلَالُهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرُهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتُهَا بِمَوْتِهَا، وَخُلُوقُهَا بِمَرِّهَا».

إذا أردت الحصول على الرزق الحلال فإن عليك أن تتحمل آلاف المصاعب والمعاناة وأن تتجاوز الطرق الوعرة والمطبات الشائكة، كما عليك أن تعد بدنك لوخر الأشواك كلما حاولت غرس الزهور، وإن ابتغيت العسل فما عليك إلا أن تتوقع لدغ الزنابير، فالواقع هناك أفعى كامنة في كل كنز ومرارة في كل حلوة، وعلى سبيل المثال فمن لم يرزقه الله الولد عاش الهم والغم الذي يثقل كاهله ويكدر روحه، ولكن ما إن يرزق الولد حتى يواجه سيل المشاكل التي تعقب ذلك، وهكذا سائر النعم التي يثير فقدانها الغم ووجودها التعب والإرهاق.

ثم أكد عليه السلام ذلك الكلام على أنه هو السبب الذي لم يجعل الله سبحانه يرضها ثواباً لأولياؤه ولم يمنعها عن أعدائه:

لَمْ يُصْفِهَا [٧٩] اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ [٨٠] بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ».

نعم، لو كان متاع الدنيا ثمين لخص بها الحق سبحانه أوليائه وزواها عن أعدائه، لكنها لما كانت زهيدة لا قيمة لها، فهو يهبها لكل شخص.

ثم أضاف عليه السلام:

«خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ [٨١]. وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسَلَبُ، وَعَامِرُهَا يَحْرَبُ».

والعجيب ليس هناك من تدريج في هذه التغييرات وزوال النعم وانهايار الحكومات وخراب المعمور، بل أحياناً يتغير كل شيء خلال ساعة، بل في برهة من الزمان والتاريخ مليء بمثل هذه الحوادث المرعبة والتي تنطوي على العبر والدروس.

فكيف والحال هذه يتعلق بالدنيا عاقل؟ ويتق بنعمها؟ ويفرح باقبالها ويحزن لإدبارها؟

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٣

ثم واصل الإمام عليه السلام الكلام بهذا الخصوص من خلال طرحه على شكل سؤال، لينطلق الجواب عليه من باطن قلب المخاطب فيكون له أثره البالغ والعميق:

«فَمَا خَيْرٌ دَارٍ تَقْفُضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمْرٍ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ، وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ!».

لقد استعمل الإمام عليه السلام قمية الفصاحة والبلاغة في هذه التشبيهات الثلاث، فقد شبه بادية الأمر الدنيا بدار خاوية بالية قد انفطرت جدرانها وأشرفت سقوطها على الانهيار، ثم شبه عمر الإنسان بالأطعمة التي توضع على المائدة وتأخذ بالتناقص مع مرور الزمان إثر تناولها، وأخيراً شبه فترة بقاء الإنسان في هذا العالم بالأسفار القصيرة التي لا يكاد المسافر يحث خطاه فيها حتى ينقطع أمدها.

ثم إختتم عليه السلام هذا القسم من الخطبة بثلاث وصايا خاطب بها الجميع فقال:

«اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلِبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ آدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ، وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ».

فقد أوصى الناس في العبارة الأولى أن يهتم الناس على الأقل بالفرائض الشرعية بقدر طلباتهم الشخصية فيجدوا ويجتهدوا في هذا الأمر، لا أن يجعلوا الصدارة لحاجاتهم الدنيوية ويهمشوا الفرائض الإلهية والواجبات الشرعية.

كما يحتمل أن يكون المراد اجعلوا التوفيق للإتيان بالفرائض والواجبات الشرعية من حاجاتكم وطلباتكم بين يدي الله تبارك وتعالى، غير أن المعنى الأول يبدو هو الأنسب وذلك للإشارة إلى هذا المعنى والتي وردت في العبارة الثانية إذ قال:

«وَاسْأَلُوهُ مِنْ آدَاءِ حَقِّهِ»

، وعليه سيكون تفسير الجملتين تكرر لمفهوم واحد.

وأخيراً أشارت العبارة الثالثة إلى التأهب والاستعداد لمواجهة الموت من خلال أداء حقوق الناس والتوبة من الذنوب وتدارك ما فرط، وبخلافه فإن الموت سيباغت الإنسان ويقذف به في عالم لم يعد العدة لدخوله.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٥

القسم الثاني: صفات الزهاد في الدنيا

«إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبَكَّى قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا، وَيَسْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسُهُمْ وَإِنْ اغْتَبَطُوا بِمَا رَزَقُوا. قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْأَجَالِ، وَحَصَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الْأَمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الْآجِلَةِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا حُبُّ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الصَّمَاثِرِ. فَلَا تَوَازَرُونَ وَلَا تَنَاصِحُونَ، وَلَا تَبَادُلُونَ وَلَا تَوَادُّونَ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاث نقاط تكمل المقطع المذكور من الخطبة وتؤكد، وهي مقدمة للقسم القادم من الخطبة.

فقد إتجه أولاً إلى وصف الزهاد في الدنيا ليتضح وضع كل فرد من خلال مقارنة أحوال المخاطبين مع أحوال اولئك، فذكر ثلاث خصائص يتحلى بها الزهاد قائلاً:

«إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا».

صفتهم الثانية تكمن في شدة حزنهم رغم فرحهم وسرورهم:

«وَيَسْتُنْدُ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا».

وأما صفتهم الثالثة فهم ناقدون على أنفسهم ساخطون عليها (وهم ليسوا راضين عن أعمالهم وطاعاتهم) رغم شكرهم الله سبحانه وتعالى على موفور الرزق والنعمة:

«وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنْ اغْتَبَطُوا [٨٢] بِمَا رَزَقُوا».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٦

نعم، فعين قلوبهم باكية لما يرون في أنفسهم من نقائص وعيوب وما يتدر منهم من زلّات أحياناً، وإن عاشوا حالة من السرور والضحك على مستوى الآداب الاجتماعية والأخلاقية، إنهم يأسفون على ماضيهم ويغتمون لما كانت في أيديهم من فرص لم يستثمروها، رغم ما هم عليه ظاهرياً من الفرح والسرور، إلى جانب ذلك فإنّ لسانهم يلهج بحمد الله وشكره على ما حباهم به من نعم مادية ومعنوية من جهة، ومن جهة أخرى فهم لا ينفكون عن مقتهم لأنفسهم وتوبيخها لشعورهم بالتقصير في عدم استثمارها بالشكل الصحيح.

وخاصة القول فهم في مقام النقد لأنفسهم وإصلاح نقائصهم ومعايهم المعنوية وهذا هو السبب في حركتهم التكاملية نحو الله سبحانه، فهم لا يقنعون بوضعهم السائد قط ليكون ذلك مدعاة لتخلفهم وإنحطاطهم.

ثم شرح في النقطة الثانية وضع مخاطبيه ليقارنوا أنفسهم بالزهاد فيقفوا على عيوبهم، وقد بين لهم ثلاث صفات:

«قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآجَالِ، وَخَضِرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الْأَمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الْآجِلَةِ».

نعم، فالدنيا تستولى على عقل الإنسان وفكره وينسى الآخرة إذا ما غاب عن قلبه ذكر الموت وإنهمك في هذه الدنيا العابرة واحاطة القلب بالأمانى الخيالية الكاذبة.

ثم إختتم عليه السلام هذا المقطع من الخطبة ببيان هذه النتيجة:

«وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْتُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ. فَلَا تَوَازَرُونَ [٨٣] وَلَا تَنَاصِحُونَ، وَلَا تَبَادُلُونَ وَلَا تَوَادُّونَ».

فالعبارة تشير إلى توفر سبل الوحدة بينكم من خلال الإخاء الإسلامي وقد تصدعت هذه السبل بفعل الاختلافات التي تستند إلى التعصب والحقد والحسد وحبّ الدنيا وضيق الأفق، فأدى ذلك بالتبع إلى ضعف الأمن الداخلي والعجز أمام العدو الخارجي وبالنتيجة قطعت عنكم البركات الاجتماعية كالتعاون والموازرة وإسداء الخدمات المتبادلة أو اصر المحبّة والصدقة.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٧

فهذه العبارة تشير بوضوح إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ حبّ الدنيا وخبث السريرة وسوء النيّة والأخلاق لا يفسد الآخرة فحسب، بل يحيل المجتمع البشري إلى بؤرة للتوتر والنزاع والاصطدام بحيث تنعدم فيه مظاهر التعاون والمساعدة.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٩

القسم الثالث: العود على ذم أصحاب الدنيا

«مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَحْزَنُكُمْ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمْ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ، وَقَلَّةُ صَبْرِكُمْ عَمَّا زَوَى مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مَقَامِكُمْ. وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ. وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبَلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلَّا مَخَافَةٌ أَنْ يَسْتَقْبَلَهُ بِمِثْلِهِ. قَدْ تَصَيَّفْتُمْ عَلَى رَفْضِ الْأَجْلِ وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُغْمَةً عَلَى لِسَانِهِ. صَنِيعٌ مَنْ قَدْ فَرَّغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ».

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام- في القسم من الخطبة والذي يمثل آخرها- أصحاب الدنيا وهو يسعى لإيقاظهم من سباتهم وغفلتهم من خلال الذم واللوم القائم على أساس الدليل والبرهان فقال:

«مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَحْزَنُكُمْ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمْ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ، وَقَلَّةُ صَبْرِكُمْ عَمَّا زَوَى [٨٤] مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مَقَامِكُمْ. وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ».

نعم، هذا حال أغلب أهل الدنيا الذين لا يحزنهم فوات الأمور المعنوية بينما تنقلب أحوالهم لأدنى ضرر مادي يحيق بهم، على سبيل المثال ليس هناك ما يقلقهم إذا فاتتهم صلاة الفجر

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٥٠

لعدة أيام متتاليات، أو لا- يغمون إن حرموا لسنوات من فيوضات التهجد وقيام الليل، بينما يضجرهم خسران بضعة دارهم، فلا يتمالكون أنفسهم عن الزعيق بمن حولهم، ولعل هذا التفاوت الواضح والمخجل يستند إلى أحد أمرين: إما ضعف إيمانهم بالآخرة والوعد والوعيد الإلهي، أو أنهم مؤمنون بالآخرة والوعد والوعيد غير أن الهوى قد أحاط بقلوبهم واستولى على أنفسهم وسيطرت عليهم الغفلة بحيث لم يعودوا يروا سوى الدنيا وحطامها ومتاعها الزائل.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن نقطة ضعف أخرى يمتاز بها طلاب الدنيا والتي تتمثل بعدم قدره أي أحد منهم على التعرض لعيوب أخيه (بهدف الإصلاح والنهي عن المنكر) ما ذلك إللأخشيء أن يجابهه بنفس ذلك العيب:

«وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبَلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلَّا مَخَافَةٌ أَنْ يَسْتَقْبَلَهُ بِمِثْلِهِ».

فالعبرة تشير إلى حرمانهم من إصلاح بعضهم البعض الآخر رغم إتصافهم بكل تلك العيوب الناشئة من حب الدنيا، وذلك لأنه لا يجراً أحد منهم أن يتصدى للإصلاح فهو يخشى الرد من الآخرين الذين ينبرون له ويقولون: إن هذا العمل أو ذاك شيئاً فلم نفعله؟ وإن كنت طيباً فهلاً عالجت نفسك قبل أن تهتم بعلاج الآخرين (طبيب يداوى الناس وهو عليل)؟

وهل يصح اطلاق الحجر ممن كان بيته من الزجاج!؟

ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالقول كأنكم قد اتفقتم على نبذ الآخرة والذوبان في الدنيا وقد أصبح الدين لقلقه لسان، وأنكم لأشبه بمن قام بعمله وأحرز رضى سيده ومولاه:

«قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الْأَجْلِ وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُغْمَةً [٨٥] عَلَى لِسَانِهِ. صَنِيعٌ مَنْ قَدْ فَرَّغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ».

قد تحصل أحياناً بعض الأفعال الشائنة بين الناس دون أن يكون هناك إتفاق مسبق عليها، إللأنها على درجة من التناغم والتنسيق والانسجام وكأنهم حضروا عدّة جلسات مخططة ومبرمجة، وقد اتفقوا على كل شيء، وما هذا إلللتشابه الدوافع في مثل هذه الامور،

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٥١

وأحد مصاديقها الواضحة يتمثل بعدم المبالاة بالقضايا المرتبطة بالآخرة والخلود إلى الدنيا المادية.

يمكن أن يكون مثل هؤلاء الأفراد الطلاب للدين من المتدينين ظاهرياً، غير أن تدينهم لا يتجاوز سلسلة من الشعارات والمزاعم والألفاظ وأحياناً القليل من العبادات، والمفردة «لعقة» تشير إلى هذا المعنى، وقد يعيشون أحياناً حالة من الرضى عن أنفسهم وكأنهم عملوا بكل تكاليفهم الشرعية ووظائفهم الإنسانية وقد فازوا بمقام القرب الإلهي وبلوغ رضاه، والواقع هذا انحراف خطير أشار الإمام عليه السلام إليه في آخر هذه الخطبة.

نجات الولاية، ج ٥، ص: ٥٣

الخطبة [٨٦] المائة و أربعة عشرة

إشارة

وَمِنْ حُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَفِيهَا مَوَاعِظٌ لِلنَّاسِ

نظرة إلى الخطبة

مزج الإمام عليه السلام القسم الأول من هذه الخطبة حمد الله والثناء عليه بعبارات تكشف معالم طريق معرفة الله تعالى وتعلم الإنسان أسلوب الشهادة بالإخلاص، كما تبين أهمية الشهادة بالوحدانية والنبوة وذلك بعبارات عميقة المعنى، وفي القسم الثاني من الخطبة دعى الجميع إلى التحلى بالورع والتقوى وتطرق إلى آثارها وبركاتهما التي تنعكس على حياة الإنسان.

أما القسم الثالث فقد جرى فيه الحديث عن تقلب أحوال الدنيا وسرعة زوال النعم وعدم بلوغ الأمانى وقصر الحياة الدنيا، وأخيراً القسم الرابع الذى تضمن مختلف النصائح والمواعظ البالغة حيث دعى الجميع إلى طاعة الله سبحانه وحذرهم من نسيان الآخرة والانغماس فى مخالب الغفلة والغرور بالحياة الدنيا، ولا يخفى على أحد الترابط الوثيق بين الأقسام الأربعة

نجات الولاية، ج ٥، ص: ٥٤

وتبلورها فى عرض سلسلة من المواعظ المتسقة.

أما فصاحة وبلاغة هذه الخطبة ولطافة وعضوبة عباراتها ليتبين مما صرح به صاحب كتاب «الطراز» الإمام يحيى الزيدى (من علماء القرن الثامن) فى ختام هذه الخطبة إقال:

«لَوْ كَانَ كَلَامٌ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ مُعْجِزَةً لَكَانَ هَذَا هُوَ الْأَوَّلُ وَلَوْ أَعْجَزَ شَيْءٌ مِنْ الْكَلَامِ بَعْدَ كَلَامِ اللَّهِ لَكَانَ هَذَا هُوَ الثَّانِي» [٨٧].

نجات الولاية، ج ٥، ص: ٥٥

القسم الأول: الثقة القيمة

إشارة

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاصِلِ الْحَمْدُ بِالنَّعْمِ وَالنَّعْمَ بِالشُّكْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى آلَائِهِ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلَائِهِ. وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هَذِهِ النُّفُوسِ الْبِطَاءِ عَمَّا أَمَرَتْ بِهِ، السَّرَاعِ إِلَى مَا نُهِيتْ عَنْهُ. وَنَسْتَعْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَخْصَاهُ كِتَابُهُ:

عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ، وَكِتَابٌ غَيْرُ مُعَادِرٍ، وَتَوْفِيقٌ بِهِ إِيمَانٌ مِنْ عَيْنِ الْغُيُوبِ وَوَقْفٌ عَلَى الْمُوعُودِ، إِيمَانًا نَفَى إِخْلَاصُهُ الشُّرُكَ، وَيَقِينُهُ الشُّكَّ. وَنَسْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ الْقَوْلَ وَتُرَفَعَانِ الْعَمَلَ. لَا يَخْفُ مِيزَانٌ تَوْضَعَانِ فِيهِ، وَلَا يَنْقُلُ مِيزَانٌ تُرَفَعَانِ عَنْهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة إلى مسائل مهمّة في جانب حمد الله والثناء عليه والاستعانة بذاته المقدّسة والاستغفار من الذنوب والمعاصي، فقال باديء ذي بدء:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ».

قرن الحمد بالنعمة يستند إلى أنّ حمد الله تعالى بنعمه وشكره يجعل الإنسان جديراً بالنعم، فهذا الحمد يجعل العباد يتمتعون بنعمه وأفضاله، كما تعود علاقة النعمة بالشكر إلى أنّ النعمة سبب الشكر، وذلك لأنّ العباد مكلفون بشكر كل نعمة، فالشكر واجب على كل نعمة (الواقع هو أنّ الحمد يشكل السبب التكويني للنعم والنعم السبب التشريعي للشكر)، والشاهد على ذلك ما ورد في الخطبة ١٥٧ إذ قال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحًا لِذِكْرِهِ، وَسَبَبًا لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٥٦

طبعاً يمكن أن تكون هناك عدّة تفاسير أخرى للعبارتين المذكورتين من حيث تفاوت العلّة والمعلول، غير أنّ ما ورد هو أنسبها جميعاً.

ثم قال عليه السلام في المسألة الثانية:

«نَحْمَدُهُ عَلَى آلائِهِ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلَائِهِ».

في إشارة إلى أنّ البلاء الإلهي هو في الواقع نوع من النعم، كما بيّنا ذلك في بحثنا لفلسفة الآفات والبلاء ضمن مباحث التوحيد والعدل، فقد يكون البلاء سبباً لليقظة والعودة إلى الله تعالى وترك المعاصي أحياناً، وقد يكون أحياناً أخرى بلاءً ظاهراً، لكنّه نعمة باطنياً، غير أننا لا نميز ذلك، فربّما يكون البلاء كفارة للذنوب كما قد يكون وسيلة لمعرفة قدر النعم وذلك لأنّ الإنسان قد لا يعرف قيمة النعم إلّا أنّ يفقدها ويتعرض إلى بعض الشدائد، وإلّا فالحكيم تبارك وتعالى لا يعرض شخصاً للبلاء عبثاً، وعليه فبلاؤه رحمة وداؤه دواء.

ثم قال في المسألة الثالثة:

«وَنَشْتَعِينُهُ عَلَى هَذِهِ النُّفُوسِ الْبِطَاءِ [٨٨] عَمَّا أَمَرَتْ بِهِ، السَّرَّاعِ إِلَى مَا نُهِيتَ عَنْهُ».

إشارة إلى النفوس البشرية ما لم تبلغ المرحلة المتكاملة للنفس المطمئنة فهي ضعيفة في الإتيان بالوظائف الشرعية وإمثال الأوامر الإلهية ومسارعة في مقارفة الذنوب التي تنسجم والغرائز الحيوانية، ويتعذر تجاوز مرحلة النفس الأمارة وبلوغ مرحلة النفس اللوامة والوصول إلى النفس المطمئنة ما لم تكن هناك نصره الله ومدده.

ثم قال عليه السلام:

«وَنَشْتَعْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَخْصَاهُ كِتَابُهُ: عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ، وَكِتَابٌ غَيْرُ مُعَادِرٍ».

فالعبرة تشير إلى أننا إن لم نستغفر من الذنوب ولم نجل صدأ القلوب فسوف لن يسعنا التخلص من وساوس النفس والفوز بمقام القرب وبلوغ تلك المرحلة من الإيمان التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً، والواقع هو أنّ الاستغفار تكميل للبحث السابق ومقدمة للبحث القادم.

أمّا القضية الأخيرة فقد تناولت النتائج النهائية لهذا البحث فقال:

«وَتَوْفِيئُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ عَايَنَ الْعُيُوبَ وَوَقَفَ عَلَى الْمَوْعُودِ، إِيمَانًا نَفَى إِخْلَاصُهُ الشُّرُوكَ، وَيَقِينُهُ الشُّكَّ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٥٧

إشارة إلى خلاص الإنسان من وساوس النفس إذا ما مزج حمد الله تعالى والثناء عليه بشكر النعم، وخرج سالماً معافى من ميدان الامتحان وتغلب على هواه ونزع عن ذنوبه وتاب من معاصيه آنذاك له أن يبلغ كمال الإيمان، الإيمان الذي يبلغ به درجة الشهود، وكأنه يرى الله ببصيرته ويشاهد بام عينيه الجنة والنار وثواب المحسنين وعقاب المسيئين، الإيمان المتزه عن كافة أشكال الشرك واليقين الذي لا يتطرق إليه الشك.

نعم، فاليقين على مراتب: المرتبة الاولى وهي مرحلة التي يتجه إليها الإنسان بواسطة البرهان والاستدلال والتي يصطلح عليها باسم «علم اليقين»، والمرتبة الثانية وهي المرحلة التي يصلها الإنسان عن طريق الشهود وكأنه يرى من بعيد الأنوار الإلهية وعرضه الحشر يوم الحساب، وهي المرحلة المسماة «عين اليقين» يلمس جميع الأشياء، فالأنوار الإلهية تحيطه من كل جانب ونسيم الجنة المنعش يداعب ظلال روحه ويتكدر لنيران جهنم المحرقة، وهي المرحلة التي تدعى «حق اليقين»، وعلى هذا فالمراد بالعبارة عين ووقف هو تلك المرحلة النهائية للإيمان واليقين والتي تبلغ فيها الإنسان مقام الشهود عن قرب وبالمعانية.

وأخيراً يتجه الإمام عليه السلام صوب الشهادة بالتوحيد والنبوة ليختتم به هذا المقطع من الخطبة، فقال:

«وَتَشْهَدُ أَنْ لَمَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَمَّا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُضَيِّعِدَانِ الْقَوْلَ وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلِ. لَمْ يَخْفُ مِيزَانُ تَوْضَعَانِ فِيهِ، وَلَا يَثْقُلُ مِيزَانُ تَرْفَعَانِ عَنْهُ».

في إشارة إلى أن الشهادة بالوحدانية والنبوة إن انطلقت من أعماق النفس البشرية وظهرت آثارها على القول والعمل، فإنها على درجة من الطهر الاخلاص بحيث تشكل أثقل الأوزان في ميزان الأعمال يوم القيامة حتى لا يخف ذلك الميزان بوجودها، والعكس صحيح لا ثقل لذلك الميزان مهما وضع فيه دونها.

ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى لو أن السموات وعامريهن عندى، والأرضين السبع في كفّ ولا إله إلا الله في كفّ، مالت بهنّ لإله إلا الله» [٨٩].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٥٨

وبالطبع ليس المراد بالزنة هنا الأوزان وما يرتبط بها عن ميزان، بل المراد زنة القيم على ضوء المعايير العقلية والمعنوية.

تأمل

اسس الموقفية والنجاة

بين الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة والذي يشكل في الواقع مقدمة للقسم الثاني الذي يتحدث عن أهمية التقوى وآثارها، حقيقة جذور الورع والتقوى والتي يكمن أهمها في الإيمان واليقين والمعرفة، والإيمان القوى والراسخ الذي يبلغ بصاحبه درجة تجعله كأنه يرى الله ويشاهد نعم الجنة ونيران جهنم، ومما لا شك أن مثل هذا الإيمان هو مادة التقوى.

أضف إلى ذلك فقد أشار إلى الموانع الأصلية لهذا الأمر والتي تتمثل بالنفس الطائشة على أن الاستعانة باللطف الإلهي، هو سبيل النجاة منها وقد تطرق إلى ما ورد في سورة يوسف وشأنه مع زليخا: «إِنَّ النَّفْسَ لَمَأْمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَزَقَنَا رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» [٩٠].

حيث استعان بعدة وسائل من أجل بلوغ هذا الهدف ومن ذلك حمد الله والثناء عليه وشكره على النعم والبلاء والحديث عن التوبة والاستغفار بصفته أحد العوامل المؤثرة في التوفيق في هذا المسير، وما أن يتم الانتهاء من هذا البرنامج الإلهي حتى يشرع بحث التقوى على أنه من الأبحاث المداعبة للقلب والتي تخترن تعتبر غاية في التأثير ولو استفاد المرّبون وأساتذة درس الأخلاق من هذا الطريق

الذي علمناه الإمام عليه السلام لتحقيق هذا الهدف لما كان هناك من شك في تأثير حديثهم ونفوذ كلامهم.
نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٥٩

القسم الثاني: أعظم الفضائل

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَادُ: زَادٌ مُتَّبِعٌ، وَمَعَادٌ مُنْجِحٌ. دَعَا إِلَيْهَا أَسْمِعُ دَاعٍ، وَوَعَاَهَا خَيْرٌ وَاعٍ. فَاسْمِعْ دَاعِيَهَا وَفَارَ وَاعِيَهَا.

عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مَحَارِمَهُ. وَالزَّمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ. فَاتَّخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ، وَالزِّيَّ بِالظَّمَامِ. وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلَا حَظَّوَا الْأَجَلَ».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام عن تلك المقدمة الرصينة والوثيقة في المقطع الأول من هذه الخطبة، إتجه إلى أهم فضيلة من الفضائل التي يكتسبها الإنسان وهي التقوى، فقد أشار في البداية إلى آثارها الاخروية، فقال:

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَادُ: زَادٌ مُتَّبِعٌ، وَمَعَادٌ مُنْجِحٌ».

من البديهي أن يحتاج الإنسان في أسفاره الطويلة المليئة بالأخطار والمخاوف إلى شيتين:

الزاد والمتاع اللازم والمنازل والأماكن التي تحفظه من المخاطر، وهو ما صرح به القرآن الكريم بقوله: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى...» [٩١].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٦٠

وما اقتضه من خبر يوسف عليه السلام حين لاذ بالتقوى كسبيل للنجاة حين وقف على حافة خطر هاوية الذنوب:

«قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ...» [٩٢].

حقاً إن التقوى كهف حصين وأمين وراسخ إزاء السيول الجارفة لأهواء النفس ووساوس الشيطان وحصن حصين للنجاة من نار جهنم يوم القيامة وأفضل زاد ومتاع في هذا السفر المليء بالخوف والخطر.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن أهمية التقوى في أن من دعا إليها أسمع داع نافذ الكلمة (إشارة الله تبارك وتعالى، أو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أو جميع الأنبياء والأولياء) وقد وعى تلك الدعوة خير واع (إشارة إلى كافة التقاة وأتباع مدارس الأنبياء):

«دَعَا إِلَيْهَا أَسْمِعُ دَاعٍ، وَوَعَاَهَا خَيْرٌ وَاعٍ. فَاسْمِعْ دَاعِيَهَا وَفَارَ وَاعِيَهَا».

ذهب البعض إلى أن المراد بالداع إلى التقوى قد يكون الله سبحانه وتعالى أو شخص النبي صلى الله عليه وآله الذي ينطق عن الله تعالى، والمقصود بواع التقوى هو على عليه السلام، ولا يبعد أن يكون لهما مفهوم عام يشمل جميع دعاة الحق ووعاته، على أن المنيع الأصلي هو الحق تبارك وتعالى والنبي صلى الله عليه وآله وإمام المتقين على بن أبي طالب عليه السلام.

ثم حاض عليه السلام في الآثار القيمة للتقوى في خاصة عباد الله فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ حَمَتْ [٩٣] أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مَحَارِمَهُ. وَالزَّمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ [٩٤]».

طبعاً العبارتان المذكورتان بشأن الليل والنهار هما تعبيران كنهانين لطيفان، حيث المراد أصحاب الليل الذين يفيقون في جوف الليل، فيقومون للعبادة والتهجد وقد أحجموا عن النوم وانهمكوا بالدعاء والمناجاة، إلى جانب صومهم نهارهم وذكرهم الله على كل حال، فالعبارة تشير إلى أن تقوى الله هي مادة الحركة نحو جميع الفضائل والخيرات، وذلك لأن الإنسان حين يشعر بالمسؤولية ينطلق في

الحركة نحو إمتثال الطاعات واجتناب المعاصي

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٦١

والمحرمات، وما إحياء الليل والصوم لإلجانب من آثار خشية الله تعالى التي تسمى بالتقوى.

ثم إختتم هذا المقطع من الخطبة بوصف طريقة عبادتهم لرّبهم بأنهم آثروا المشقة والتعب على الراحة والكسل والعطش على الرى، وقد شعروا بقصر الدنيا ودنو الأجل وهذا ما دعاهم إلى المسارعة فى الخيرات ومبادرة الأعمال الصالحة، وعدم الخلود إلى الأمل بعد أن جعلوا الموت نصب أعينهم:

«فَاخْذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ [٩٥]، وَالزَّيَّ [٩٦] بِالظَّمِّ. وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلَا حَظُّوا الْأَجَلَ».

نعم، ففى الوقت الذى ينغمس فيه أهل الدعة والراحة فى مختلف الذنوب والأرجاس ترى هؤلاء يغضون الطرف عن الراحة بهدف مجانية الذنوب والإتيان بالصالحات، وهم ليسوا كأهل الدنيا الذين خدعوا بها فوقعوا فى حبالها وآمالها الكاذبة.

والواقع هو أن العبارة «فبادروا» و «فلاحظوا» هى نتيجة ومعلول للعبارة «واستقربوا» و «كذبوا» يعنى من يرى قرب الأجل وسرعة العمر يبادر بالعمل، ومن يكذب الآمال يفكر بالموت ويراه أمام عينيه، والطبع فإن تحمل مصاعب وشدائد هذا العالم يؤدى إلى سكينتهم الخالدة واستقرارهم التام، وهو ما عبّر عنه الإمام عليه السلام فى موضع آخر بقوله:

«صَبِرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةٌ طَوِيلَةٌ» [٩٧].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٦٣

القسم الثالث: العبر والاعتبار

«ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَعْنَاءٍ، وَغَيْرٍ وَعَبْرٍ؛ فَمَنْ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسُهُ، لَا تُحْطَىءُ سَهَامُهُ، وَلَا تُؤَسَى جِرَاحُهُ. يَزِمَى الْحَيَّ بِالْمَوْتِ وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ، وَالنَّاجِيَ بِالْعَطْبِ. أَكَلٌ لَا يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ. وَمَنْ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُ وَيَبْنِي مَا لَا يَسْكُنُ. ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِمَا مَالًا حَمَلْ، وَلَا بِنَاءً نَقَلَ. وَمِنْ غَيْرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَعْبُوطًا، وَالْمَعْبُوطَ مَرْحُومًا؛ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا نَعِيمًا زَلَّ، وَبُؤْسًا نَزَلَ. وَمِنْ غَيْرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَلَا أَمَلٌ يُدْرِكُ وَلَا مَوْلٌ يُتْرَكُ، فَسَبِّحَانَ اللَّهَ مَا أَعَزَّ سِرُّوَرَهَا وَأَظْمَأَ رِيَّهَا وَأَضْحَى فَيْئُهَا، لِمَا جَاءَ يُرَدُّ، وَلَا مَاضٍ يَزْتَدُّ. فَسَبِّحَانَ اللَّهَ، مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلْحَاقِقِ بِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ!».

الشرح والتفسير

لما كان الانغماس فى الدنيا والتكالب عليها وفقدان النفس لتوازنها إزاء زخارف عالم المادة من أهم العوامل لعدم التقوى، فقد ورد الحديث هنا عن تفاهة الدنيا وتقلب أحوالها وما تنطوى عليه من شدائد ونوازل بهدف اجتثاث جذور التحلل وعدم استشعار الورع والتقوى فقال عليه السلام:

«ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَعْنَاءٍ، وَغَيْرٍ وَعَبْرٍ».

حيث تشير العبارة إلى أربع خصائص تمتاز بها الدنيا والتي يقود التفكير بها الإنسان إلى التعرف على الصورة الحقيقية للدنيا، ثم خاضت العبارات التالية فى شرحها الواحدة بعد

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٦٤

الـاخري مع التطرق إلى بعض التفاصيل الدقيقة لكل واحدة منها، فأشارت فى البداية إلى خاصية فناء الدنيا، حيث صورت بعض علامات هذا الفناء فى أن الدهر يشبه الرامى الماهر الذى يطلق سهامه دون أن تطيش وتخطىء الهدف، كما يتعذر علاج جروح من أصابته تلك السهام:

«فَمِنْ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسُهُ، لَا تُحْطَىءُ سَهَامُهُ، وَلَا تُؤَسَى [٩٨] جِرَاحُهُ».

فلا خلاص لأحد من الموت والعجز والمشيب والمرض والألم والعناء، ولذلك قال الإمام عليه السلام في شرحه لهذه العبارة:

«يَرْمِي الْحَيَّ بِالْمَوْتِ وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ، وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ».

فأقوى أفراد البشر يستسلم يوماً للموت، كما يمرض أصحاب الأصحاء ويهزم حتى الأبطال.

نعم، هذه طبيعة الحياة الدنيا، وهذا هو القانون الذي لا يعرف لاستثناء، والغريب في الأمر أن الجميع يعرف ذلك ويرونه بأعينهم ورغم كل ذلك فهم يتعلقون بالدنيا ويخلدون إليها ويغترون بها.

ثم يختتم عليه السلام كلامه بشأن توضيح فناء الدنيا قائلاً:

«أَكِلْ لَأَ يَشْبِعُ، وَشَارِبْ لَأَ يَنْقَعُ [٩٩]».

فقد كشف الإمام عليه السلام حقيقة فناء الدنيا من خلال العبارات الثمان التي أوردها في وصف الدنيا، بحيث لا يشك من كان له أدنى عقل بفناء الدنيا وعدم دوامها.

ثم خاض عليه السلام في شرح وتفسير عناء الدنيا ومن ذلك جمعه الأموال التي لا يستفيدها جميعاً والمباني التي يشيدها دون أن يسكنها وأخيراً يودع كل ذلك وينتقل إلى عالم آخر دون أن يحمل معه شيئاً من الأموال أو الدور:

«وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُ وَيَبْنِي مَا لَا يَسْكُنُ. ثُمَّ يُخْرِجُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا مَالًا حَمَلًا، وَلَا بِنَاءً نَقَلَ».

نعم، كثيرون هم الأفراد الذين يدخرون أموالاً طائلة، إلا أنهم لا يستفيدون إلا من جزء يسير منها وما أكثر أولئك الذين يبنون لأنفسهم أعظم القصور والدور فلا يقيمون فيها إلا مدة قليلة، بل قد لا يسكنونها حتى ليوم واحد، وقد رأينا بأم أعيننا إقامة مراسم العزاء على

أرواحهم في تلك القصور الفخمة، فهم يتركونها في خاتمة المطاف ولا يحملون من مال الدنيا

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٦٥

سوى الكفن، بل ربّما لم يحملوا حتى ذلك الكفن، فتكون ثيابهم أكفانهم وبيوتهم قبورهم.

ورد في البحار عن العلامة المجلسي أن علي عليه السلام قال:

«كَمْ مِنْ غَافِلٍ يَنْسُجُ ثَوْبًا لِيَلْبَسَهُ وَإِنَّمَا هُوَ كَفَنُهُ وَيَبْنِي بَيْتًا لِيَسْكُنَهُ وَإِنَّمَا هُوَ مَوْضِعُ قَبْرِهِ» [١٠٠].

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح الصفة الثالثة للدنيا فقال:

«وَمِنْ غَيْرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطًا، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُومًا؛ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا نَعِيمًا زَلَّ [١٠١]، وَبُؤْسًا نَزَلَ».

حيث رأينا كرراً ليس في صفحات التاريخ فحسب، بل في حياتنا اليومية عدّة أفراد كانوا من أهل السطوة وقمة القدرة حتى يتمنى الجميع الحصول على شيء من قدرتهم، لكنهم هووا في مستنقع السقوط بما جعل الكل يترحم عليهم، وبالعكس فإننا نعرف بعض الأفراد ممن يشعر من يراهم بالأسى والحزن لصعوبة أوضاعهم ومعاناتهم، بينما تسلقوا فجأة سلّم القدرة ليحظوا باعجاب الجميع وغبطتهم.

نعم، لم يكن «قارون» لوحده الذي استعرض يوماً كل تلك القدرة والثروة التي خطفت أبصار قصار النظر من بني إسرائيل الذين اعتراهم الحسد والأمل، فتمنوا الحصول على تلك الثروة بدله، ولم تمض مدة حتى شقت الأرض لتبتلع كل كنوزه وثوراته، ممّا دفع من تمنى تلك الثروة إلى شكر الله أن لم يجعلهم بدلاً منه ولم يصدق عليهم الثروة والسطوة، أجل لقد تكررت هذه الصورة مراراً في التاريخ ثم قال عليه السلام في الصفة الرابعة للدنيا والتي تختص بكونها عبرة:

«وَمِنْ غَيْرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَلَا أَمَلٌ يُدْرِكُ وَلَا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ».

فأحياناً يعدّ الإنسان عدّة مقدمات بغية الحصول على المال والثروة أو الجاه والمنزلة ولا يكاد يقترب من الوصول إلى أهدافه حتى يتخطفه الموت فيقضى على جميع طموحاته ورغباته ويحول دون تحقيقها، بل لا يدوم له حتى المال الذي يجنيه والمنصب الذي يشغله.

ثم يعرب الإمام عليه السلام في آخر كلامه عن وحشته لمن يغترّ بمثل هذه الدنيا المليئة بالفناء والعناء والموصوفة بالغير والغير: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَعَزَّ شُرُورُهَا وَأَظْمَأَ رَبِّهَا» [١٠٢] وَأَصْحَى

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٦٦

فِيئَهَا، لَا جَاءَ يُرَدُّ، وَلَا مَاضٍ يَرْتَدُّ».

نعم، عابرة جداً لحظات الفرح والسرور وهي أشبه بلحظات الإرتواء من النعم وزوال الفيء والظل.

يمكن أن تكون العبارة

«لا جاء يرد ولا ماض يرتد»

نفحات الولاية؛ ج ٥؛ ص ٦٦

ارة إلى الناس حيث تأتي طائفة لا يقدر أحد على صدها، كما تنتقل طائفة من هذا العالم وليس لأحد من قدره على إعادتها، كما يمكن أن تكون إشارة إلى حوادث الدهر شرّها وخيرها والتي لا يسع أحد الحيلولة دون وقوعها إن أبرمت وأصبحت قطعية حتمية، كما لا يمكن عودة ما تولى من أمور ودهور، فلا عودة للطفولة في الشباب ولا الشباب في المشيب.

ثم إختتم عليه السلام هذا المقطع من الخطبة بهذه العبارة التي تكمل سابقتها من العبارات قائلاً:

«فَسُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَقْرَبَ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلْحَاقِقِ بِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ!».

نعم، فالفاصلة بين الموت والحياة قصيرة جداً حتى صورتها الروايات بأنّها تكاد تكون كطرفه العين، ومن ما ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«وَاللَّهِ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا طَرَفْتُ عَيْنَايَ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ سَيَفِرُّ لَا يَلْتَقِيَانِ حَتَّى يَقْبِضَ اللَّهُ رُوحِي وَلَا رَفَعْتُ طَرْفِي وَظَنَنْتُ أَنَّي حَافِضُهُ حَتَّى اقْبِضَ وَلَا تَلْقُنُ لِقْمَةً إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّي لَا اِسِيغُهَا حَتَّى اعْضَّ بِهَا مِنَ الْمَوْتِ» [١٠٣].

إن من له أدنى إلمام ببنية جسم الإنسان ليعلم بمدى قرب هذه الفاصلة، فيكفي تخثر مقدار قليل من الدم ليغلق منافذ شرايين الفاصلة أو الدماغ فيؤدّي بحياة الإنسان، بل يكفي نفوذ جزء يسير من الطعام إلى لسان المزمار بدلاً من إتجاهه إلى المعدة ليختنق الإنسان ويموت من فوره، كما تكفي صدمة طبيعية لهذا الإنسان قد توقف قلبه عن الدق وإلى الأبد.

أما بالنسبة للحوادث الخارجية فبمجرد اهتزاز الأرض للحظة قد تنقلب مدينة رأساً على عقب، كما قد تأتي عاصفة أو سيل على كل شيء فتحيله خراباً لا حركة فيه ولا حياة، بل لصاعقه من السماء أن تحيل كل شيء إلى رماد.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٦٧

إلى جانب ذلك هنالك الحوادث اليومية في حياتنا المعاصرة من قبيل الاصطدامات وسقوط الطائرات والحرائق والانفجارات التي تنهي حياة الأفراد خلال لحظات، نعم، تكاد تكون معدومة هي الفاصلة بين الحياة والموت، ولكن من جانب آخر فإن هذه الفاصلة قد تكون في غاية البعد، فلو اجتمع كافة الأطباء وأعدوا مختلف الوسائل الطبية، فليس لهم أن يهبوا الحياة للأموات، على غرار الوليد الذي لا يسعه الرجوع إلى بطون امه و الثمار التي لا تعود ثانية إلى الأشجار بعد سقوطها.

نختتم الكلام بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءٌ لَا يَتَّبِعِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَنْسَاهُنَّ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَنَاءُ الدُّنْيَا وَتَصَرُّفُ الْأَحْوَالِ وَالْآفَاتُ الَّتِي لَا أَمَانَ لَهَا» [١٠٤].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٦٩

إشارة

«إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرِّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ. فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبْرُ.»

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا. فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ! إِنَّ الَّذِي أَمْرُهُ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهَيْتُمْ عَنْهُ وَمَا أَحَلَّ لَكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُّوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ. قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَأَمْرُهُ بِالْعَمَلِ فَلَا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْ لِي بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ اعْتَرَضَ الشُّكُّ وَدَخَلَ الْيَقِينُ، حَتَّى كَانَتْ الدُّنْيَا ضَمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَانَ الَّذِي قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ. فَبادِرُوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَعْتِيَةَ الْأَجَلِ، فَإِنَّهُ لَا يُرْجَى مِنْ رَجْعِهِ الْعُمُرُ مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعِهِ الرِّزْقُ. وَمَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِي غَدًا زِيَادَتُهُ. وَمَا فَاتَ أَمْسٍ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ. الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِ، وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي. فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.»

الشرح والتفسير

بين الإمام عليه السلام سلسلة من النصائح والمواعظ في هذا المقطع من الخطبة والذي يمثل آخرها بهدف إعداد المخاطبين بحيث لو تأملها الإنسان وفكر فيها وسعه تحقيق السعادة والنجاة فقال:

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٧٠

«إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرِّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ.»

فالإنسان بصورة عامة يهرب من السوء والشر ويجنح نحو الخير، وقد جبل على السعي نحو جنى منفعة ودفع الضرر، فقد اعتمد الإمام عليه السلام هذا الأمر الفطري ليدعو الناس إلى طاعة الله تعالى والابتعاد عن المعصية والذنب فقال إنَّ الأسوأ من السوء هو عقاب الله تعالى ومؤاخذته على الذنوب والأفضل من الخير هو جزاء الله تعالى وثوابه على الطاعة والاحسان، من الواضح أنَّ المراد من الشر والخير (بقرينة الثواب والعقاب) هو المعصية والطاعة، بينما يتسع معنى الشر والخير إن توسعنا في معنى العقاب والثواب ليشمل العقاب والثواب التكويني (أي جزاء وبركات الأعمال في الدنيا).

وقد أورد الإمام عليه السلام مثل هذه العبارة في موضع آخر حيث قال:

«فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ» [١٠٥].

فقد إهتم الإمام في النظرة الأولى إلى النتائج ومن ثم إلى الأسباب والعلل، حقاً إنَّ الذي يضممه فاعل الخير والشر أعظم مما يقوم به من عمل، لأنه لا يرى توفر أرضيته وأسبابه، من جانب آخر فإنَّ نتائج الأعمال خالدة بينما تزول الأعمال وهذا بحد ذاته دليل على أفضلية النتائج على نفس الأعمال.

ثم أضاف الإمام عليه السلام نقطة مهمّة أخرى بهذا الخصوص فقال:

«وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ،»

هذه حقيقة في أنَّ المتع المادية كالسراب له منظر خاص من بعيد، ولكن لا يبدو شيئاً يذكر حين يصله الإنسان، فلقصور والثروات والقدرات واللذات والمتع ظاهر أنيق من بعيد، ولكن ما أن يقترب منها الإنسان حتى يرى سيل المشاكل والمصائب، فيتمنى أحياناً أنَّه لم يبلغها ويحصل عليها، في حين ورد بشأن النعم الإلهية الجمّة في الآخرة:

«أَعَدْتُ لِعِبَادِي مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَ قَلْبٍ بِشَرٍّ» [١٠٦].

بل ليشعر الإنسان بالعجز عن وصف اللذة التي يعيشها في هذه الدنيا حين مناجاته لله

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٧١

وإحساسه بالقرب منه والفوز برضاه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأن الأمر إذا كان كذلك لابد أن يغنيكم سماع الحقائق المرتبطة بالآخرة بواسطة الأنبياء وأولياء الله سبحانه وتعالى عن رؤيتها:

«فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعِ، وَمِنَ الْعَيْبِ الْخَبْرِ»،

من البديهي أن يعجز الإنسان عن العالم الخارجي مادامه في زنائه الجسد وفي دار الدنيا الظلماء الضيقة، فلا سبيل لإدراك أوضاع الآخرة وتفصيلها سوى ما يوصله له هؤلاء العظام من أخبار يكتفى بها.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أمرين منطقيين بهدف التشجيع على الإتيان بالصالحات وإجتنب السيئات فقال:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا. فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَاحَ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ!»،

وهذا هو الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم بوضوح إذ قال: «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ...» [١٠٧].

وكما قال في موضع آخر: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ...» [١٠٨].

وبناءً على هذا فالأموال والأعمار والإمكانات التي توظف في مسار الآخرة إن قلت في الظاهر شيئاً من الدنيا، ولكن في الواقع قد تضيف أحياناً مئة ضعف إلى ثواب الآخرة، وبالعكس فإن الإنسان يدفع الثمن باهضاً إن أخل بشيء من آخرته وتنازل عن دينه وإيمانه وإنهمك بدنيته لينال شيئاً من حطامها، قال القرآن الكريم بهذا الخصوص: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَأَخْلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ...» [١٠٩].

فهل هناك من عاقل مستعد لمعاوضة الصفة الأولى المربحة بالثانية الخاسرة!؟

ثم قال الإمام عليه السلام في الأمر الثاني:

«إِنَّ الَّذِي أَمْرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نَهَيْتُمْ عَنْهُ وَمَا أَحَلَّ لَكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُّوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ».

المراد من «ما أمرتم به» هنا الأمر في مقابل الحظر، يعني ما أجاز لكم بالنسبة إلى الذنوب

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٧٢

هو أوسع وأشمل، وترك الذنب لا يؤدي بكم إلى الضيق والعسر، بل أمامكم مسار واسع وشامل بهدف الحصول على الدين والدنيا، قطعاً إننا نصل إلى عدد محدود حين نحصى الذنوب ولا سيما الكبائر، بينما نواجه دائرة واسعة جداً إن أردنا إحصاء ما أجازته الشرع المقدس، ويصدق هذا الأمر على الحلال والحرام، فما أكثر الأغذية الحلال بالنسبة للطعام الحرام، وما أكثر معاملات الحلال قياساً بمعاملات الحرام، كما أن النساء اللاتي يحلّ الزواج منهن أكثر بكثير من تلك اللاتي يحرم الزواج منهن [١١٠]، وعليه فطاعة أوامر الله تعالى ورعاية الحلال والحرام لا تجعل الإنسان في حرج، وهذا في الواقع ردّ قاطع على أولئك الذين يرون دين الله سلسلة من المحظورات والممنوعات، وهكذا يحث الإمام عليه السلام الجميع على ترك الذنوب والمعاصي والمحرمات، وهكذا والمحدودة والحركة باتجاه السبيل الرحب للحلال والمباح، فليست هنالك من مشكلة في حياتهم المادية ولا المعنوية.

والواقع هو أن هذه العبارة إشارة لما ورد في القرآن الكريم: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...» [١١١].

وجاء في الحديث النبوي الشريف:

«بَعَثَنِي بِالْحَنْفِيَةِ السَّمْحَةَ» [١١٢].

كما صرح القرآن الكريم قائلاً: «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ كُتُوبَكُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ...» [١١٣].

ولما كان السعي من أجل المعاش والحرص لنيل الرزق يشكل أحد العوامل المهمّة للغفلة والكسل عن الإتيان بالفرائض الإلهية والخوض في تهذيب النفس وترقيتها، فإن الإمام عليه السلام أشار إلى مسألة دقيقة، وهي ضرورة علمهم بأن الله قد ضمن أرزاقهم

وأمرهم بالقيام

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٧٣

بالواجبات، وعليه فلا ينبغي لهم منح الأولوية لما ضمن والغفلة عما يجب عليهم الإتيان به فقال: «قَدْ تَكْفَلْ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَأَمْرُكُمْ بِالْعَمَلِ فَلَا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ» [١١٤].
وبعبارة أخرى فإنّ لدينا شيئين: الأول تحصيل الرزق والثاني القيام بالفرائض الإلهية، وقد تكفل الله تعالى بضمان الأول وقلدنا مسؤوليته الأمر الثاني، ومن هنا لا بد أن نبذل ما في وسعنا بالأمر الثاني، والحال القضية على العكس في أن أغلب الناس يركزون جهودهم ويبدلون قصارى سعيهم ويشغلون فكرهم من أجل تحصيل الرزق والمعاش ويولون ظهورهم ليتناسوا الواجبات والفرائض الملقاة على عاتقهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«مَعَ أَنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ اعْتَرَضَ الشُّكُّ وَدَخَلَ [١١٥] الْيَقِينُ، حَتَّى

كَأَنَّ الَّذِي ضَمِنَ لَكُمْ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ الَّذِي قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ».

ويبدو أن هذه العبارة تشبه ما ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام في مقارنته لطلب العلم بطلب المال حيث قال: «أَيُّهَا النَّاسُ اعْلَمُوا أَنَّ كَمَالَ الدِّينِ طَلَبُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلُ بِهِ، أَلَا وَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ أَوْجِبُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِ الْمَالِ إِنَّ الْمَالَ مَقْسُومٌ مَضْمُونٌ لَكُمْ قَدْ قَسَمَهُ عَادِلٌ بَيْنَكُمْ وَضَمِنَهُ وَسَيَفِي لَكُمْ وَالْعِلْمُ مَحْزُونٌ عِنْدَ أَهْلِهِ وَقَدْ أَرْتُمُ بَطْلَبِهِ مِنْ أَهْلِهِ فَاطْلُبُوهُ» [١١٦].
لا شك أن المقصود بالعبارة المذكورة ليس إيقاف الناس لأنشطتهم الاقتصادية الإيجابية ويتخلون عن مساعيهم من أجل ضمان الحياة المشرفة، بل الهدف هو الحد من الحرص

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٧٤

والتكالب على الدنيا والجنوح نحو الشره الذي يصد الإنسان عن العلم والمعرفة والأمور المعنوية.

ثم خلاص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَبَادِرُوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَعْثَهُ [١١٧] الْأَجَلِ، فَإِنَّهُ لَا

يُرْجَى مِنْ رَجْعِهِ الْعُمُرُ مِمَّا يُرْجَى مِنْ رَجْعِهِ الرِّزْقِ. مِمَّا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجَى عَدَا زِيَادَتِهِ. وَمِمَّا فَاتَ أَمْسٍ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ»

، نعم،

«الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي».

حقاً إنه منطوق بليغ واضح في عدم إمكانية عودة ساعات العمر بأى شكل من الأشكال، في حين يمكن استعادة متع الدنيا وفي كل الظروف وتداركها، بناءً على هذا فالذى يقوله العقل لا بد من الحزم والحساسية تجاه الأمور التي يمكن عودتها، لا الأمور التي إن فقدت اليوم أمكن الحصول عليها بالغد، والحال أن أغلب الناس يتصرفون على العكس من هذا الأمر، فأصواتهم ترتفع بالصراخ إلى عنان السماء لمجرد فقدانهم لشيء من حطام الدنيا، بينما لا يأبهون لتصرم الأيام والأسابيع والأشهر والسنوات، وهذا يدعو إلى الدهشة والعجب، وهذا ما دفع بالإمام عليه السلام للتأكيد على هذا المطلب وشبهه في هذه الخطبة وسائر الخطب.

ورد في الخبر أن نبى آدم عليه السلام مساكين يشهدون ثلاث مصائب كل يوم ولا- يعتبرون بها ولو اعتبروا بها لهانت عليهم المصائب، المصيبة الأولى: كل يوم يمر عليهم يذهب من عمرهم (لكنهم لا- يأسفون على ذلك) لكنهم يحزنون إن قلّ مالهم، والحال هناك خلف للدينار والدرهم بينما ليس للعمر من عودة قط، المصيبة الثانية: هو أن الإنسان يرتزق كل يوم فان كان رزقه حلالاً كان فيه

حساب وإن كان من الحرام فيه عقاب، المصيبة الثالثة وهى أعظمها جميعاً:
 «مَا مِنْ يَوْمٍ يُمَسَّى إِلَّا وَقَدْ ذَنَا مِنَ الْآخِرَةِ مَرَحَلَةً لَا يَدْرِي عَلَى الْجَنَّةِ أَمْ عَلَى النَّارِ» [١١٨].
 وفى ختام الخطبة نصح الناس من خلال الوعظ بالآيات القرآنية فقال: «فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».
 نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٧٥

والقول مستوحى من قوله تبارك وتعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» [١١٩].

تأملات

١- غرور عن بعد ورعب من قرب

إنّ المتع الدنياوية المادية والبهرجة لهذا العالم تبدو خلابه ساحره من بعيد، لكن ما إن يبلغها الإنسان حتى يراها غاية فى الصغر والضحالة، بل تكون مقلقة ومرعبة أحياناً، مثلاً يرى الإنسان من بعيد حياة الملوك فيظن لو إعتلى يوماً عرش السلطنة، فقد سيطر على العالم بأسره وقد نال السعادة والموفقية، ولكنه ما إن يبلغ ذلك حتى يشعر أنه فقد على الأقل ثلاثة أشياء من ركائز الحياة:
 الأول: الأمن فهو يشعر فى ذلك المنصب بالخوف من أقرب مقربيه، فهو مطالب بالحد من بطانته دائماً حتى فى قصره وغرفه نومه فلا أمن ولا أمان، فما أكثر السلاطين الذين قتلوا على يد مقربيهم.

الثانى: الحرية، على سبيل المثال لا يستطيع ممارسة حياته كالأفراد العاديين من قبيل الخروج فى نزهة مع زوجته وأولاده أو الحضور بحرية فى المجالس والحفلات التى يقيمها الأصدقاء والأقرباء.

الثالث: راحة البال، فهو مشغول على الدوام ولا يهدأ أبداً، فما زلنا نذكر بعض رؤوسا الجمهوريات الذين صرّحوا علناً بأنهم لم يذوقوا طعم النوم الهادىء طيلة ليالى حكومتهم وأن حاشيتهم كانوا يوقظونهم من نومهم ليطلعوهم على الحوادث التى تقع هنا هناك من العالم، نعم لم يذوقوا طعم النوم إلّا بعد أن تمت مدّة حكومتهم.

ومثال آخر لما ذكرنا آفاق حياة الأثرياء من بعيد فيظن الناظر أنها مفعمة بالسعادة والرفاه، ولكن إن قدر له أن يعيش ذلك الشراء فسيشعر أنّ بحاجة إلى جزء يسير من هذه

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٧٦

الثروة فى حياته بينما تتقل باقى الثروة كاهله، فالحرص على حفظ هذه الثروة وصيانتها من الأعمال الشاقة، والعداوة والبغض الحسد الذى يعانىه من الآخرين والذى يمثل كابوساً مرعباً يقض مضجعه، ومن هنا عبّر الإمام عليه السلام بتلك العبارة الرائعة التى أوردها فى هذه الخطبة فى أنّ كل شىء فى الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وبالعكس بالنسبة للآخرة فإنّ كل شىء فيها عيانه أعظم من سماعه، فهل لعاقل بعد كل هذا أن يؤثر الدنيا على الآخرة.

نعم، إن نشد الإنسان المقامات المادية وثروات هذا العالم من أجل خدمة خلق الله تعالى، على حدّ تعبير القرآن الكريم فى إطار خطابه لقارون: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ...» [١٢٠].

وتحمل كل ما يترتب على ذلك من مشاكل وصعاب فذلك له حساب آخر، فقد ورد فى الخبر إنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام شكى إليه طلب الدنيا والتعلق بها، فقال له عليه السلام لم تطلب الدنيا؟ قال: لأصل بها رحمتى وأنفق على عيالى وأعطى وأحج وأعتمر، فقال:

«لَيْسَ هَذَا طَلَبُ الدُّنْيَا، هَذَا طَلَبُ الْآخِرَةِ». [١٢١]

٢- الدنيا وآراء الناس

الكل يعلم أنّ هذه الدنيا والحياة في هذا العالم لا تدوم لأحد، فهم يرون بأم أعينهم مراحل انتقال الطفولة إلى الشباب ومنه إلى الكهولة ثم العالم الآخر تطالعنا صفحات النعي في الصحف المسائية كل يوم بالإعلان عن موت بعض الأعرز الذين يشكل بهم الأقرباء والأهل، ولا- سيّما في عصرنا الراهن الذي أصبح فيه الموت والحياة قريب جدّاً من الإنسان مقارنة الأزمنة الماضية ومتوسط عمر الإنسان، فقد نسمع بسقوط مفاجيء لطائرة فتتناثر أجساد ركابها في الهواء لتقع هنا هناك، والحوادث الأخرى التي تزيد من عدد الوفيات كل يوم وفي مختلف الأماكن، حتى أنّ ضحايا الوسائل الثقيلة في المناطق والمدن لتفوق ضحايا الحروب، وبغض

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٧٧

النظر عما سبق فإنّ هذه الحياة القصيرة مليئة بأنواع المعاناة والألم والمشاق، ويكفي في ذلك أن نلقى نظرة عابرة على مستشفى لنرى مختلف الأمراض التي يعاني منها الأطفال والشباب والكهول، أو نتطلع أحد السجنون ونشاهد عن كثب الأفراد الذين زجت بهم المظالم والشهوات والأخطاء والنزوات في ذلك المكان، ولكن مع ذلك أغلب الناس يتناسون كل هذه المسائل ليحصلوا على استقرار كاذب مزيف، والاستقرار الذي يشبه ذلك الذي يشعر به الحيوان الذي يخفي جسده في الرمال مخافة الصياد، والحال يراه الصياد ويسارع إلى افتراسه.

ومن هنا فإنّ الإمام عليه السلام يورد وصاياه في أغلب مواضع نهج البلاغة بهدف التنبيه إلى تلك الغفلة والنسيان المميت وإيقاظ الضمير البشري الذي يغط في سبات عميق، وقد اتبع الإمام مختلف الأساليب من أجل تحقيق هذا الغرض فتارة يذكر الدنيا على أنّها دار عناء وفناء وغير وعبر وأخرى يذكر إنزوائها على أنواع الشدائد والمشاكل، كما يتطرق إلى قصر المسافة بين الحياة والموت، إلى جانب ذلك يلفت الانتباه إلى هذه الحقيقة في عدم إمكانية عودة ما يتصرم من ساعات العمر، في حين يمكن تدارك كافة سائر النعم المادية، والحق لو تأمل كل إنسان مرّة واحدة في الاسبوع هذه الخطبة لما عانى من الغفلة قط.

٣- كيف نبحث عن سعادة الآخرة في الدنيا؟

ربّما يطلب الإنسان الدنيا من أجل إشباع أهوائه ورغباته إلى جانب الامتياز على الآخرين واستغلالهم واستعمارهم، كما قد يطلبها بهدف الحصول على الرفاه المتوازن، وأحياناً ينشدها بغية وفره الإمكانيات لخدمة الآخرين، أخيراً قد يريد لها لترسيخ دعائم اقتصاد المجتمع الإسلامي وتحقيق مجده وعظمته ورفعته وإبعاده عن كافة أشكال التبعية للآخرين، ومن البديهي أنّ هذه الأهداف تتفاوت فيما بينها تتفاوتاً تاماً.

فعلى ضوء الهدف الأول يتصف بأبشع الصفات الرذيلة، والثاني يتّجه نحو الأهداف

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٧٨

المباحة والاستفادة من النعم الإلهية، والثالث يمارس أرفع عبادة وأخيراً الرابع يسدى أعظم الخدمات الإنسانية والإسلامية، وكل ما ورد من ذمّ في هذه الخطبة وسائر الأخبار والروايات عن أئمة العصمة عليه السلام وكذلك القرآن الكريم إنّما يشير في الواقع إلى الطائفة الأولى من الناس وهو الموصوف برأس كل خطيئة ومصدر جميع الذنوب، ولا عاقبة له سوى جهنّم وبئس المصير.

ومن هنا فلا ينبغي تفسير ذمّ الدنيا والمتكالبين عليها بأنّ الإسلام يرتضى للمجتمع حالة الفقر والحرمان ويوصى بذلك، قد ورد هذا المضمون في الروايات الإسلامية، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ مَنْ عَبَدَ الدِّينَارَ والدَّرْهَمَ» [١٢٢].

وقال المرحوم الشيخ الصدوق في تفسير هذا الحديث: «يعنى به من يمنع زكاة ماله ويبخل بمواساة إخوانه، فيكون قد آثر عبادة الدينار والدرهم على عبادة خالقه» [١٢٣].

وجاء في الخبر أن علياً عليه السلام يفخر برفاه أهل الكوفة خلال مدة حكومته رغم ما هو عليه من الزهد والعزوف عن الدنيا فقال: «ما أصبح بالكوفة أحد إناعماً، إن أدناهم منزلة لئلا يأكل التبر ويجلس في الظل ويشرب من ماء الفرات» [١٢٤]

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٧٩

الخطبة [١٢٥] المائة وخمسة عشرة

إشارة

وَمِنْ حُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي الاسْتِسْقَاءِ

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في عنوان الخطبة فإنها دعاء في الاستسقاء، وقد أوردتها الإمام في عصر حكومته حين أصاب الناس الجفاف، حيث أشار عليه السلام في البداية إلى الأسباب التي تدعو إلى حبس المطر وشياع الجفاف في أن أغلب الحوادث من هذا القبيل معلولة لمعاصي الناس وذنوبهم وسوء أعمالهم، ثم يتهلل إلى الله تعالى بالدعاء بعبارات رصينة عميقة المعنى سائلاً الحق تبارك وتعالى التلطف بنزول المطر، حتى أن عباراته لتخترق شغاف القلب وتملأه بالمعنويات والشدة لله سبحانه.

وما أحرانا بالتوسل بهذه العبارات والمضامين الواردة في هذه الخطبة من أجل الاستسقاء.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٨١

القسم الأول: الأمل بالله في القحط والجفاف

«اللَّهُمَّ قَدْ انْصَحَتْ جِبَالُنَا، وَاعْتَبَرَتْ أَرْضُنَا، وَهَامَتْ دَوَابُّنَا. وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا، وَعَجَّتْ عَجِيجَ التَّكَالِي عَلَى أَوْلَادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرْدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالْحَيْنَ إِلَى مَوَارِدِهَا! اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَيْنَ الْمَانَةِ، وَحَيْنَ الْحَيَاةِ! اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مِزَاهِبِهَا، وَانِيهَا فِي مَوَالِجِهَا! اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حِدَابِيرُ السِّنِينَ، وَأَخْلَفْتَنَا مَخَايِلُ الْجُودِ. فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُتَبَسِّسِ، وَالْبَلَاغَ لِلْمُلْتَمِسِ. نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْعَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا. وَأَنْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ الْمُتَبَعِ، وَالرَّبِيعِ الْمُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ الْمُوْتِقِ. سَخَا وَابِلًا، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ».

الشرح والتفسير

بين الإمام عليه السلام في بداية هذه الخطبة الوضع المأساوي الذي أصاب الناس إثر الجفاف ومع السماء بعبارات رائعة بعيدة المعنى، حيث استهلها بسته جمل قائلاً:

«اللَّهُمَّ قَدْ انْصَحَتْ [١٢٦]

جِبَالُنَا، وَاعْتَبَرَتْ [١٢٧] أَرْضُنَا، وَهَامَتْ [١٢٨] دَوَابُّنَا. وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا [١٢٩]، وَعَجَّتْ [١٣٠] عَجِيجَ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٨٢

التَّكَالِي [١٣١] عَلَى أَوْلَادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرْدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالْحَيْنَ إِلَى مَوَارِدِهَا».

فقد رسم الإمام عليه السلام صورة واضحة بعبارة فصيحة عن الجفاف الشديد الذى أصاب الناس فى ذلك الزمان، وكشف النقاب عن وضع الجبال والأراضى والمراتع والدواب، ثم رفع يديه بالدعاء مبتهلاً إلى الله:

«اللَّهُمَّ فَارْحَمْنَا أَيْنَ الْأَثَّةِ [١٣٢]، وَحَيْنَ الْحَانَةِ! [١٣٣].»

كما شكى شدة عطش الدواب وجوعها وصراخها فى أماكنها:

«اللَّهُمَّ فَارْحَمْنَا حَيْزَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَإِنِّي فِي مَوَالِجِهَا! [١٣٤].»

وأردف قائلاً:

«اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرَتْ [١٣٥] عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السَّنِينِ [١٣٦]، وَأَخْلَفْتَنَا [١٣٧] مَخَائِلُ [١٣٨] الْجُودِ [١٣٩].»

إن دقة العبارات التى استخدمها الإمام عليه السلام فى هذا الدعاء تشير إلى مدى حرقة الإمام عليه السلام والناس من جانب، ومن جانب آخر تستبطن تصويراً عميقاً لتلك الحادثة، فحدابير جمع حدبار تستخدم بشأن الجمل الذى تبين عظام سنامه وقد حز لحمه بصورة تامة إثر شدة الضعف (بسبب الجوع أو كثرة المشى).

فقد شبه الإمام عليه السلام الجفاف المتواصل بهذا الجمل، ومن الطبيعى أن يدعو منظره إلى الأسى والحزن، كما أن ركوبه يبدو متعذراً شاقاً.

أما العبارة التى تضمنت «آث» و «حانة» التى تستخدم كله منهما بشأ تألم الحيوان حيث

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٨٣

تشير الأولى إلى الشاة والثانية إلى الجمل، فأنما تشير إلى حالة الألم التى كانت تعيشها جميع الحيوانات فى ذلك القى الشديد، وبالالتفات إلى أن القسم الأعظم من أراضى العراق تقع بين النهرين العظيمين دجلة والفرات المروفان بوفرة المياههما مقارنةً بأنهار المنطقة يتبين أن القحط تلك السنوات على درجة من الشدة بحيث ضيق على أهل العراق حتى فى تلبية الحاجات الأولية للحيوانات (تشير القرائن إلى أن الإمام عليه السلام ألقى هذه الخطبة بعد صلاة الاستسقاء حين كان فى الكوفة).

ثم ابتهل إلى الله سبحانه وتعالى فى أنك الأمل والرجاء لكل بائس وحلال مشاكل كل طالب حاجة وقد سيطر اليأس على الناس وقد منعت السماء بركاتهما والغيوم مياهها وأشرفت الحيوانات على الهلكة فنسألك ألا تؤاخذنا بسيئات أعمالنا ولا بوائق ذنوبنا:

«فَكُنْتُ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَسِسِ [١٤٠]، وَالْبَلَاغَ [١٤١] لِلْمُلْتَمِسِ. نَدْعُوكَ حِينَ قَطَّ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْعَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ [١٤٢]، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخِذْنَا بِذُنُوبِنَا.»

تفيد هذه العبارة أن أغلب الآفات والبلاء والشدة معلولة لذنوب الناس، ولا تزال مشاكلهم قائمة مستعصية ما لم يتوبوا إلى الله ويسألوه العفو والمغفرة، والعبارة تشبه الشكوى التى بثها نبي الله نوح عليه السلام إلى ربه بشأن قومه: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا» [١٤٣]

كما ورد فى سورة الأعراف قوله: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [١٤٤].

ثم طرح الإمام طلبته الأصلية على الحق تبارك وتعالى قائلاً: «وَأَنْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٨٤

بِالسَّحَابِ الْمُبْتَعِقِ [١٤٥]، وَالرَّبِيعِ الْمَغْدِقِ [١٤٦]، وَالنَّبَاتِ الْمُؤَنِقِ [١٤٧]. سَحًّا [١٤٨] وَأَبْلًا [١٤٩]، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتُرْدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ.»

فما ورد فى عبارات الإمام عليه السلام إنعكاس تام لما عاناه الناس من قحط شديد ومصائب عضال من جهة، ومن جهة أخرى

تضمنت طلباً للغيوم الملبدة بالأمطار، وكذلك ربيعاً مباركاً ونباتات طرية جميلة وأخيراً تتجه صوب نتيجة نهائية هي الأمطار التي تحيي الأرض وتستعيد كل ما فقد؟ ولا تكون تلك السنة سنة عامرة بالبركة فحسب، بل سنة تتلافى سنوات الجفاف السابقة.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٨٥

القسم الثاني: اللهم أمطرنا بوابل رحمتك

إشارة

«اللَّهُمَّ سُقِيَا مِنْكَ مُحِييَةً مُرَوِيَةً، تَامَةً عَامَةً، طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيعةً.

زَاكِيًا نَبْتُهُا، ثَامِرًا فَرْعُهُا، نَاصِرًا وَرَقُّهَا، تُنْعَشُ بِهَا الضَّعِيفُ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلَادِكَ! اللَّهُمَّ سُقِيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا، وَتَجْرِي بِهَا وَهَادُنَا وَيُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا، وَتُقْبَلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَتَنْدِي بِهَا أَقَاصِينَا، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا. مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ الْجَزِيلَةِ عَلَى بَرِيَّتِكَ الْمُزْمَلَةِ، وَوَحْشِكَ الْمُهْمَلَةِ. وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِئَةً، مَدْرَارًا هَاطِلَةً، يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ، غَيْرَ خَلْبٍ بَرَقُّهَا، وَلَا جَهَامٍ عَارِضُهَا، وَلَا قَرْعَ رَبَابُهَا، وَلَا سَفَانَ ذَهَابُهَا، حَتَّى يُخْصِبَ لِأَمْرَاعِهَا الْمُجْدُبُونَ، وَيَحْيَا بِبَرَكَاتِهَا الْمُسْتَبُونَ، فَإِنَّكَ تُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ».

الشرح والتفسير

طرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة طلبه وصحبه الرئيسي والذي يتمثل بنزول المطر المبارك فسأل الله سبحانه وتعالى مطراً ذات عشرين صفة تشير كل واحدة منها إلى قضية رائعة، وما أروع أن يذكر الإمام كل هذه الأوصاف للمطر المطلوب، وهي الأوصاف التي تجعل الإنسان يتواضع ويشعر بالخضوع أمام عظمة الخلاق، كما تفهم السامع عمق الآثار والبركات التي تختزنها هذه القطرات من المطر:

«اللَّهُمَّ سُقِيَا مِنْكَ مُحِييَةً مُرَوِيَةً، تَامَةً عَامَةً،

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٨٦

طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيعةً [١٥٠]. زَاكِيًا نَبْتُهُا، ثَامِرًا [١٥١] فَرْعُهُا، نَاصِرًا [١٥٢] وَرَقُّهَا، تُنْعَشُ [١٥٣] بِهَا الضَّعِيفُ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلَادِكَ!».

الواقع هو أن الإمام عليه السلام سأل الله تعالى مطراً تتوفر فيه الشرائط وبعيداً عن كل الموانع، فقد لوحظ في أغلب الأحيان نزول الأمطار على شكل سيول، لكنها تحطم كل شيء تأتي عليه، أو إنها تتركز في نقطة معينة ليست لها منفعة عامة، أو أنها مصحوبة ببرد شديد قارس لا تخفي آثاره السلبية، أو يكون مصحوباً ببعض الموانع من قبيل الرياح الحارة والعواصف الشديدة والآفات التي تصيب النباتات كالجراد والحشرات المؤذية وأمثال ذلك التي تقضى على آثار الأمطار، فالإمام عليه السلام يأخذ جميع هذه الأمور بنظر الاعتبار فيسأل الله تعالى اجتماع كافة الشرائط ودفع جميع الموانع.

ثم واصل الإمام عليه السلام الدعاء بذكر سبعة أوصاف أخرى ليكتمل عدد الصفات عشرين صفة فقال:

«اللَّهُمَّ سُقِيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا [١٥٤]، وَتَجْرِي بِهَا وَهَادُنَا [١٥٥] وَيُخْصِبُ [١٥٦] بِهَا جَنَابُنَا [١٥٧]، وَتُقْبَلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَتَنْدِي [١٥٨] بِهَا أَقَاصِينَا [١٥٩]، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا [١٦٠]. مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ الْجَزِيلَةِ عَلَى بَرِيَّتِكَ الْمُزْمَلَةِ [١٦١]، وَوَحْشِكَ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٨٧

المُهْمَلَةُ».

فقد كشف الإمام عليه السلام النقاب بهذا الدعاء عن سعة صدره وعمق نظره وعمومية شفقتة ورحمته، ذلك لأنه أخذ بنظر الاعتبار المناطق القاصية والدانية ولم يهمل الدواب حتى حيوانات الصحراء الوحشية، فدعائه يشمل الجميع وسؤاله يهدف حاجة الجميع وهذا هو معنى لطف إمام المسلمين ورحمته العامة.

وأضاف الإمام عليه السلام في معرض مواصلة لطلب الماء ونزول المطر الذي يفيض بالخير والبركة قائلاً:

«وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً [١٦٢]، مِدْرَارًا هَاطِلَةً [١٦٣]، يُدَافِعُ الْوَذْقَ مِنْهَا الْوَذْقَ [١٦٤]، وَيُخْفِزُ [١٦٥] الْقَطْرَ مِنْهَا الْقَطْرَ».

كما واصل عليه السلام وصف الأمطار:

«غَيْرِ خُلْبٍ [١٦٦] بَرَقُهَا، وَلَا جَهَامٍ [١٦٧] عَارِضُهَا، وَلَا فَرَعٍ [١٦٨] رَبَابُهَا [١٦٩]، وَلَا شَفَانَ [١٧٠] ذَهَابُهَا [١٧١]».

ثم واصل الإمام عليه السلام الدعاء قائلاً:

«حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَأَةٍهَا [١٧٢] الْمَجْدُبُونَ [١٧٣]، وَيَحْيَا

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٨٨

بِبَرَكَتِهَا الْمُسْتُونَ [١٧٤]، فَإِنَّكَ تُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ [١٧٥]».

فقد بين الإمام في هذه العبارة تسع أوصاف أخرى للأمطار المفيدة النافعة ذات الخير والبركة، حيث يبلغ عدد الصفات مع ذكر سابقاً ٢٩ صفة، حقاً إنه لمن دواعي العجب والدهشة أن يستسقى الإمام عليه السلام ويوصف المطر بتسع وعشرين صفة بينما يصف ذلك الطالبون عادة بصفة، أو صفتين فيتهلون إلى الله سبحانه وتعالى أن أسقنا الغيث المبارك، ومن هنا لا يشعر الإنسان سوى بالحيرة والذهول حين يتأمل عبارات أمير المؤمنين على عليه السلام، لقد استفرغ الإمام أقصى فصاحته وبلاغته في هذه الخطبة وشرح طلبه إلى الله تعالى بما يعرّف الناس بلطف الله تعالى وفضله ورحمته ويفهمهم أنّ مسار النعمة مليء بكثير من الموانع بحيث لا يسعهم بلوغ الكمال المنشود ما لم تشملهم رعاية الله ورحمته، والحق يتعذر مثل هذا المنطق على من لم يكن مؤيداً من عند الله ويؤيد بروح القدس.

تفسير ما في هذه الخطبة من الغريب

نقرأ في ختام هذه الخطبة:

«قَالَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلِهِ: (انصاحت جبالنا) أي تشققت من المحول يقال: لنصاح الثوب إذا انشق ويقال أيضاً: انصاح أنبت وضاح وصوح إذا جف وييس كله وقوله (وزهامت دوابنا) أي عطشت والهيام: العطش، وقوله (حدابير السنين) جمع جدبار، وهي الناقة التي أنصاها السير، فشبّه بها السنة التي فشا فيها الجدب، قال ذو الرمة:

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٨٩

حدابير ما تنفك إلامناحه على الخسف أو ترمى بها بلداً فقراً

وقوله: (ولا فرع ربابها) الفرع: القطع الصغار المتفرقة من السحاب.

وقوله: (ولا شفان ذهابها) فان تقديره: ولا ذات شفان ذهابها، والشفان:

الريح الباردة، والذهاب: الأمطار اللينة، فخذف (ذات) لعلم السامع به».

تأملان

١- صلاة الاستسقاء

صلاة الاستسقاء واحدة من التعاليم الإسلامية القيمة والتي ذكرها عامية فقهاء المسلمين من الفريقين في كتبهم الفقهية، ومن جملة الآداب التي أوردتها مصادر أتباع أهل البيت عليهم السلام بشأن هذه الصلاة أن يصوم الناس ثلاثة أيام ويتجهون في اليوم الثالث وهم صيام إلى خارج المدينة، ويأتون بركتين على غرار ركعتي عيد الفطر والأضحى حيث تشتمل الركعة الأولى على خمس قنوتات والثانية على أربع قنوتات، ولكن يقتنون بالأدعية الواردة بشأن الاستسقاء ونزول الرحمة والمغفرة بدلاً من الدعاء المأثور المختص بالعيد، فيصلون على النبي وآله قبل كل دعاء، فان فرغ الإمام من الصلاة قلب العباء رجاء نزول المطر واستقبل القبلة وكبر بأعلى صوته مئة مرة (ويكبر الناس معه) ثم يلتفت إلى الناس ويتجه يمينا ويسبح الله سبحانه بصوت عال مئة مرة ثم يلتفت شمالا ويهلل بصوت عال مئة مرة، ثم يستقبل الناس ويحمد الله مئة مرة ويردد الناس من بعده، آنذاك يرفع يديه إلى السماء ويتضرع مع الناس إلى الله سبحانه وتعالى يسأله الرحمة ويؤمن الناس على دعائه.

وقد ورد في بعض الروايات التصريح بأن يحملوا معهم إلى الصحراء الشيوخ والنساء والأطفال وحتى الحيوانات الجائعة العطشى وأن يفرق بين الآباء وأولادهم بهدف التأثير على الناس حين يتجهون إلى الله في الدعاء [١٧٦].

فان تعذر عليهم القيام بكل هذه الأمور تابوا إلى الله واستغفروه من ذنوبهم ورفعوا أيديهم

نقعات الولاية، ج ٥، ص: ٩٠

بالدعاء جمعة سائلين الله سبحانه العفو الرحمة.

حقاً إنها لمراسم ذات آثار عجيبة أداها حالة التضرع والخشوع التي يعيشها الداعي إلى الله تعالى، فهي تربط الفرد بالذات الإلهية المقدسة لله سبحانه الرحمن الرحيم وتؤدي إلى نزول الرحمة وشموله بها.

أضف إلى ذلك فان لهذه الصلاة آثارها الكبيرة في تربية النفوس والتوبة من الذنوب والعودة إلى الطهر والعفاف، والذي يستتبع أحياناً نزول المطر الذي يعود على الجميع بالخير والبركة ويستفاد من الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يدعو بدعاء الاستسقاء حين يشكو إليه الناس من القحط والجذب، فكانت تنزل الأمطار بما يجعل الناس يطلبون توقفها [١٧٧].

وتفيد القرائن أن أمير المؤمنين عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد صلاة الاستسقاء حيث جاء في بعض الروايات التي نقلت هذه الخطبة بصورة تامة العبارة:

«اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ»

التي تكشف اتجاهه عليه السلام مع الناس إلى الصحراء ويختص هذا العمل عادة بصلاة الاستسقاء، وورد في بعض الروايات أن علياً عليه السلام بكى آخر هذه الخطبة وقد سأل الله سبحانه وتعالى بعبارات تفيض لوعة وحرقة. وسيأتي تفاصيل ذلك حين شرحنا للخطبة ١٤٣ من نهج البلاغة الواردة بشأن صلاة الاستسقاء.

٢- الذنب وزوال البركة

وردت عدّة أبحاث في الكتب الفلسفية والكلامية والتفسيرية بشأن فلسفة الآفات والبلاء، فالذي يستفاد من القرآن الكريم هو تشديد

البلاء على الامم حين ظهور الانبياء بغية ايقاظهم، حيث صرح القرآن الكريم قائلاً: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ» [١٧٨].

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٩١

فالآية تشير إلى أن هذا القانون عام ودائمي يهدف إلى الاستعداد لتقبل دعوة الانبياء، فكانت تقع الحوادث الأليمة من جانب الله طيلة تاريخ الامم وحين بروز الغفلة وذلك بهدف القضاء على تلك الغفلة وايقاظ تلك الامم، وربما تكون هذه الحوادث الأليمة والمفجعة نتيجة لذنوب الناس، والهدف أيضاً الفساد والإنابة والعودة إلى الله، فقد جاء في الآية القرآنية:

«ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» [١٧٩].

وهكذا يتضح أن أحد طرق التربية الإلهية هو هذه الحوادث الأليمة الطبيعية أو الاجتماعية، والقحط يمكن أن يكون أحد هذه الحوادث، كما أشار الإمام عليه السلام إلى ذلك في الخطبة المذكورة، حيث قال في هذه الخطبة:

«نَدْعُوكَ حِينَ قَطَعَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْعَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخِذَنَا بِذُنُوبِنَا».

وقد ورد هذا المطلب بصورة أوضح في الخطبة ١٤٣، حيث حذر فيه الناس حين القحط بالتزوع عن المعاصي والاحتراز من الذنوب والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، واستشهد عليه السلام بآيات من سورة نوح بهذا الخصوص وهذا ما سيرد ذكره إن شاء الله في محله.

ونختتم هذا الكلام بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إِذَا فَشَتْ أَرْبَعَةٌ ظَهَرَتْ أْبَعَةٌ فَشَتْ لِرْنَا ظَهَرَتْ الزَّلَازِلُ وَإِذَا أَمْسَكَتِ الزَّكَاةُ هَلَكَتِ الْمَاشِيَةُ وَإِذَا جَارَ الْحُكَّامُ فِي الْقَضَاءِ أَمْسَكَ الْقَطْرُ مِنَ السَّمَاءِ وَإِذَا خَفَرَتِ الذَّمَّةُ نَصَرَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ» [١٨٠].

وورد في الحديث المعبر والمعروف عن أبي ولاد أن الإمام الصادق عليه السلام لما سمع الفتاوى غير الصحيحة لأبي حنيفة في بعض المسائل الفقهية قال:

«فِي مِثْلِ هَذَا الْقَضَاءِ وَشِبْهِهِ تَحِسُّ السَّمَاءُ مَاءَهَا وَتَمْنَعُ الْأَرْضُ بَرَكَاتِهَا» [١٨١].

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٩٣

الخطبة [١٨٢] المائة و سادسة عشرة

إشارة

مِنْ حُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَفِيهَا يَنْصَحُ أَصْحَابَهُ

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة في الواقع من عدة أقسام:

القسم الأول: وصف بليغ للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وجهاده العظيم في إبلاغ الرسالة ودعوة الناس إلى الإسلام.

القسم الثاني: التوجه إلى الناس بالوعظ والإرشاد والنصيحة، المواعظ المؤثرة والبالغة.

القسم الثالث: الشكوى من الأصحاب ورجاء الله في مفارقتهم وإحاقه بصنوه من الأفراد.

القسم الرابع والأخير: الذي يختص بالإخبار عن فتنة طاغ واستعراض جانب من جنائمه وجرائمه أملاً في إيقاظ الناس والوقوف بوجه هذه الجرائم من خلال التوبة إلى الله سبحانه والعودة إلى وحدة ونبذ الخلافات والفرقة.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٩٥

القسم الأول: عدم التواني في الجهاد

«أَرْسَلَهُ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ وَشَاهِدًا عَلَى الْخَلْقِ. فَبَلَغَ رَسُولَاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَأَنَّ وَلَا مُقَصِّرٍ، وَجَاهِدَ فِي اللَّهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ وَلَا مُعَذِّرٍ. إِمَامٌ مَنِ اتَّقَى. وَبَصَّرُ مَنْ اهْتَدَى».

الشرح والتفسير

كما صرح البعض من شراح نهج البلاغة يبدو أن هذه الخطبة جزء من خطبة طويلة حيث تطرق الإمام عليه السلام فيها إلى تشجيع صحبه على الجهاد والوقوف بوجه بغاة الشام وبين الأخطار التي تتهددهم في حالة الضعف وترك الجهاد ومقاتلة العدو فأتم الحجّة عليهم.

ففي القسم الأول من هذه الخطبة أشار إلى الجهود الجبارة التي بذلها رسول الله صلى الله عليه وآله في إبلاغ الوحي ونشر الرسالة من أجل ترقيق قلوب المخاطبين فيتعرفوا على أهميته هذا الميراث العظيم ولا يتوانوا في الدفاع عنه والتصدي لهجمات خصوم الدعوة، فقال عليه السلام:

«أَرْسَلَهُ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ وَشَاهِدًا عَلَى الْخَلْقِ».

فالواقع أخلص الإمام عليه السلام الرسالة الإسلامية التي نهض بها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هاتين العبارتين، قد دعى إلى الحق وإبلاغ الأحكام الشرعية من جانب، وأشرف على حسن تطبيقها من جانب آخر، أما شهادة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقد قيل المراد بها الشهادة على أعمال الناس أو الشهادة على الأنبياء في يوم القيامة حيث ورد في القرآن الكريم: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» [١٨٣].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٩٦

لكن ظاهر كلام الإمام عليه السلام يشير إلى أن المراد بالشهادة إطلاع النبي صلى الله عليه وآله على أعمال الناس من أجل إمتثال الأوامر الإلهية في هذه الدنيا، وبعبارة أخرى فإنّ وظيفة النبي صلى الله عليه وآله لا تقتصر على إبلاغ الدعوة إلى الحق، بل تتبع إجراء وتطبيق تلك الدعوة وهذا هو معنى إمامته وولايته التشريعية، ولا مانع طبعاً من الجمع بين المعنيين في أنّه شاهد على الأعمال في هذا العالم وكذلك شاهد عليها في العالم الآخر. ثم خاض في بيان أوصاف نبي الإسلام صلى الله عليه وآله ليدكر ست صفات آخر فقال: صلى الله عليه وسلم

فَبَلَغَ رَسُولَاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَأَنَّ [١٨٤] وَلَا مُقَصِّرٍ، وَجَاهِدَ فِي اللَّهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ وَلَا مُعَذِّرٍ [١٨٥]. إِمَامٌ مَنِ اتَّقَى. وَبَصَّرُ مَنْ اهْتَدَى».

فقد تضمنت هذه العبارة القصيرة جميع الخصائص التي ينبغي توفرها في القائد الشجاع المقتدر، عدم الضعف والوهن والتقصير ومجاهدة العدو وعدم الاعتذار والتدرع، ومن جانب آخر فإنّه عدّ النبي صلى الله عليه وآله إمام المتقين ووسيلة هداية المبصرين، حيث يزود عنه الأفراد من المفسدين ويقصى المضلين المعاندين.

نعم، الكثيرون هم الأفراد الذين يخلقون الذرائع والحجج الواهية بهدف التغطية على تقصيرهم وعدم جدّهم واجتهادهم، ويستبعد ذلك من زعيم شجاع ومدير مدبّر فلا يتجه صوب الحجج والذرائع.

فالعبارات المذكورة تشير في الواقع إلى مدى ضعف أهل الكوفة ووهنهم وتركهم للجهاد وتشبّهم بالذرائع من أجل الفرار من المسؤوليات، فالإمام صلى الله عليه وآله يذكرهم بأنّ نبيكم لم يكن كذلك فما بالكم تقيمون على هذا الحال.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٩٧

القسم الثاني: الآفات المظلمة من ورائكم

إشارة

و منها: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ مِمَّا طَوَى عَنْكُمْ غَيْبَهُ، إِذَا لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعِيدَاتِ تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَتَلْتَرِكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لِمَا حَارَسَ لَهَا وَلِمَا خَالَفَ عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ كُلُّ أَمْرِيٍّ مِنْكُمْ نَفْسُهُ، لِمَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا. وَلَكِنَّكُمْ نَسِيْتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُدِّرْتُمْ، فَتِيَاهَ عَنْكُمْ رَأَيْكُمْ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ. وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَالْحَقْنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ. قَوْمٌ وَاللَّهِ مَيَامِينُ الرَّأْيِ، مَرَاجِيحُ الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ. مَضَوْا قُدَمًا عَلَى الطَّرِيقَةِ وَأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ، وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ».

الشرح والتفسير

يحذر الإمام صلى الله عليه وآله في هذا المقطع من الخطبة كافة الأفراد الذين يبدون الضعف في مجاهدة العدو الغادر والغاشم، ويتهربون من المسؤولية من خلال اللجوء إلى بعض الحجج والأعذار، في أن الآفاق المعتمة إنما تكمن أمامكم، والمستقبل المظلم الذى يتسلط فيه العدو عليكم ويهيمن على مقدراتكم وسيصوبون عليكم جام غضبهم بما يجعلكم تفقدون صوابكم وعقلكم:

«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ مِمَّا طَوَى [١٨٦] عَنْكُمْ غَيْبَهُ، إِذَا لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعِيدَاتِ [١٨٧] تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ [١٨٨] عَلَى أَنْفُسِكُمْ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٩٨

بل قد لا تكتفون بذلك:

«وَلْتَرِكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لِمَا حَارَسَ لَهَا وَلَا خَالَفَ [١٨٩] عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ كُلُّ أَمْرِيٍّ مِنْكُمْ نَفْسُهُ، لِمَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا».

فهذه العبارات تجسد حال الشخص الذى يتلى بمصائب عظيمة بحيث ينسى كل شىء سوى إنقاذ نفسه، فقد إتجه صوب الصحراء ويتابع لطم وجهه ورأسه يسكب دموعه ويتعالى صراخه، كما يسعى إلى التخلي عن أموال رغم مالها من أهمية لديه ومدى الجهود التى بذلها من أجل الحفاظ عليها، إلى جانب ذلك فهو لا يعير أهمية لمن خلفه حتى أنه لينسى أعزته وبطانته.

ويرى بعض شراح نهج البلاغة أن هذه العبارات ترتبط بأحوال يوم القيامة التى وردت فى مختلف الآيات القرآنية، لكن بالنظر إلى ذيل الخطبة الذى يتحدث عن جرائم الحجاج وسبب الخطبة الذى يفيد ضعف أهل الكوفة فى جهاد العدو، فإن المعنى المذكور يبدو بعيداً، والظاهر أنها ناظرة إلى سلطة بنى امية والجرائم المروعة التى إرتكبها الحجاج وأمثاله.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى المصدر الرئيسى الذى انبثقت منه هذه الحوادث:

«وَلَكِنَّكُمْ نَسِيْتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُدِّرْتُمْ، فَتَاهَ [١٩٠] عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ».

لا- ينبغى لكم أن تتصوروا أبداً بأن الحوادث الأليمة التى تنتظركم إنما تأتاكم بغتة، كلا ليس الأمر كذلك، فقد حذرتكم مراراً، وأديت لكم حق الوعظ والنصح، وكشفت لكم المستور، ثم أنذرتكم، لكن للأسف لم تعيروا وعظي ونصحي آدانا صاغية، فقد نسيتم كل ما ذكرته لكم وتجاهلتم كل الإرشاد، ومن هنا لم تمارسوا ما ينبغى عليكم فى موقعه وأوانه ولم تعدوا الخطط اللازمة للوقوف بوجه الأعداء فلم تكن نتيجة ذلك الذى لا مثيل له فى التاريخ.

ثم قال الإمام عليه السلام:

«وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَالْحَقْنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ».

إشارة إلى أنه طالما تعذر إصلاحكم فيما ليتنى فارتقتكم، وليت القدر الإلهى أذن بالتحاقى

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٩٩

بمن ينسجم معى فى الأفكار والتطلعات.

ثم خاض عليه السلام في شرح خصائص القوم الذين يراهم ينسجمون وأفكاره وتوجهاته: «قَوْمٌ وَاللَّهِ مَيَّامِينَ [١٩١] الرَّأْيِ، مَرَّاجِيحُ [١٩٢] الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَّارِيكُ [١٩٣] لِلْبَغْيِ. مَضُّوا قُدَمًا [١٩٤] عَلَى الطَّرِيقَةِ وَأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحَبَّةِ، فَظَفَرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ، وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ».

فهذه العبارات إشارة واضحة إلى النبي صلى الله عليه وآله وطائفة من صحبه ممن يتصف بالخصائص المذكورة الست، صفتان في برامج الحياة (نصرة الحق ومصارعة الظلم) و صفتان في العمل (الانطلاق باتجاه الحق والسرعة من أجل بلوغ الهدف) و صفتان في الفكر (التحلي بالفكر الناضج والعقل التام)، فبين أيضاً نتيجة هذه الصفات والتي تتمثل بالسعادة المطلقة والحياة الحرة الكريمة.

مظلومية أمير المؤمنين علي عليه السلام

لا تقتصر المظلومية على أن يقتل الإنسان من قبل فئة ظالمة جبارة ناقضة للعهود وغادرة في معركة ليست متكافئة فحسب، بل من أسوأ نماذج المظلومية أن يرى الإنسان الكفوء والمدير الناجح والأمر المقتدر والخبير الماهر والسياسي اليقظ والواعي نفسه وسط طائفة لا تنسجم وأفكاره وكفاءته ولا يسعها الحركة باتجاهه، فهي تفعل على العكس من كل ما يقول ولا تتحرك خلفه مهما حذرهما وأنذرهما، فهي فرقة مشتتة وجاهلة وضعيفة وهنئة مسلوبة الإرادة، فابتلاء مثل هذا الزعيم بمثل هؤلاء الأتباع يؤدي إلى ضياع القيم وتناسي الأفكار، بل أبعد من ذلك يذهب بعض الجهال إلى إتهام هذا الزعيم بعدم القدرة على إدارة الأمور.

هذا هو أحد نماذج المظلومية والذي عاشه أمير المؤمنين عليه السلام في عصره، وقد أشار إلى ذلك

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٠٠

الإمام نفسه عليه السلام في أكثر من خطبة من خطب نهج البلاغة، فتارة يقول عليه السلام:

«لَوِدِدْتُ وَاللَّهِ أَنْ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدَّيْنَارِ بِالدَّرْهِمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشْرَةَ مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ» [١٩٥].

وأخرى يقول:

«مَلَكْتَنِي عَيْنِي وَأَنَا حَيِّ السُّ، فَسَبَّحَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا إِذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْوَأْدِ وَاللَّدْدِ؟ فَقَالَ: «ادْعُ عَلَيْهِمْ» فَقُلْتُ: أَبَدَلْنِي اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَأَبَدَلَهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ مِنِّي» [١٩٦].

ويقول في الثالثة:

«يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالِ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رِبَّاتِ الْجِبَالِ، لَوِدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمُ» [١٩٧].

والحق لعلنا لا نعثر طيلة التاريخ على زعيم وولي من أولياء الله قد واجه في مدة قصيرة من حكومته بكل هذه العداوة والبغضاء والقسوة والجلادة والعنف والطغوى، وهذا أشنع أنواع المظلومية، ومن هنا قيل: «على عليه السلام أول مظلوم في العالم».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٠١

القسم الثالث: الانتقام الإلهي

إشارة

«أَمَّا وَاللَّهِ لَيَسْلَطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامٌ ثَقِيفِ الدِّيَالِ الْمِيَالِ. يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيَذِيبُ شَحْمَتَكُمْ إِلَيْهِ أَبَا وَدَحَةَ!».

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام الخطبة باستعراض صريح لا لبس فيه للإخبار عن المصير الأسود الذي ينتظر أهل الكوفة فقال:

«أَمَّا وَاللَّهِ لَيَسْلَطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامٌ ثَقِيفِ الدِّيَالِ الْمِيَالِ [١٩٨] ١٩٩. يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيَذِيبُ شَحْمَتَكُمْ».

ثم أردفها بالقول:

«إِيَّاهُ أَبَا وَذَحَةَ!» [٢٠٠].

أجمع شراح نهج البلاغة على أن المراد بـغلام ثقيف هو الحجاج بن يوسف الثقفي الذي ينسب إلى قبيلة بنى ثقيف والذي ولى الكوفة على عهد عبد الملك بن مروان، كان مشهوراً بقسوته وتعطشه للدماء وقد إختاره عبد الملك بن مروان للانتقام من أهل الكوفة وإخماد الثورة ضد حكومته بنى امية، وكما أخبر الإمام عليه السلام في هذا الكلام، فهو لم يرحم أحد وقد نهب أموال الامه وسفك دماءها، وقد صور الإمام أوضاع الناس على عهده بقوله:

«يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيَذِيْبُ شَحْمَتَكُمْ».

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٠٢

لابد من الالتفات إلى أن «خضرة» وإن كانت بمعنى محصول الحقول والأراضي الزراعية، لكنها هنا تشير إلى كافة الأموال التي نهبها الحجاج والعبارة يذيب شحمتكم كناية عن شدة الضغط الذي يتعرض له الناس فيصبحوا على درجة من الضعف، وكأنه لم يبق لهم سوى الجلد والعظم، وهذا هو مصير الأفراد الذين يتمردون على القائد الفذ والشفيق الرؤوف بالامه العادل معها كعلي عليه السلام. والمفردة «أيه» بالكسر والتنوين حسب تصريح أغلب أرباب اللغة تستخدم حين يراد تشجيع الشخص على مواصلة الكلام أو العمل وإيها بتنوين الفتح تستعمل حين يراد دعوة شخص لل سكوت أو الامتناع عن العمل، بالنظر إلى أن «أيه» وردت في نسخ نهج البلاغة بتنوين مكسور فالمفهوم ضاعف يا حجاج من ضغوطك على الأفراد الطلحاء وضعفاء الإيمان جاحدى الحق الطغاة الذين يتمردون على إمامهم العادل! وبعبارة أخرى فإن هذه المفردة كناية في أن اولئك الأفراد يستحقون ما يحل بهم من عذاب إلهي، لا يعنى ذلك رضى الإمام عليه السلام بأى مقدار من ظلم الحجاج.

فالكلام أشبه بما نقوله لشخص إن هذا الدواء وإن كان مرّاً لكنه العلاج الذى يشفيك فلا يصغى لما يقال له، فإن اشتد ألمه وتعالى صراخه وارتفع صوته نقول له: تألم أكثر! فهذه نتيجة عملك، فمن البديهي أن مفهوم ذلك ليس رضانا بألمه ووجعه، بل معناه أن تلك هى النتيجة الطبيعية لعدم إمتثاله لأوامر الأطباء والحكماء، وهذا الكلام شبيه ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبة ٢٨ حيث قال: «أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى، يَجُرُّ بِهِ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى».

وأما وذحة فقد صرحت أغلب المصادر اللغوية من قبيل (لسان العرب، مجمع البحرين، أقرب الموارد)، أنها تعنى الخنفساء، وقال البعض كصاحب القاموس والخليل بن أحمد فى كتاب «العين» أنها تعنى بعة الحيوان بوله الذى يلتصق بصوفه.

وأما بشأن انتخاب كنية «أبا وذحة» للحجاج فقد وردت فيها عدّة آراء ذكرتها التواريخ وشروح نهج البلاغة، أنسبها أن الحجاج رأى يوماً خنفساء قرب موضع صلاته فدفعها عنه، فأثته ثانية فدفعها، فلما أثته ثالثة أمسكها بيده وعصرها فعضته فورمت يده فأدى به الورم إلى الموت، وكان الله تعالى أراد أن يرى هذا السفاح مدى قدرته حيث قضى عليه وبواسطة

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٠٣

أحقر مخلوقاته، على غرار النمروود ذلك الطاغية المعروف والذى ولجت أنفه بعوضة قضت عليه.

وقال البعض أن الحجاج كان يتنفر من الخنفساء فلم تكذ تقع عينيه عليها حتى يأمر غلمانها بدفعها، ومن هنا إصطلحت عليه الناس أبا وذحة، ولا يبدو مناسباً أن نذكر هنا سائر ما ورد فى هذا الشأن وخلصته أن الحجاج كان يشكو من مرض جنسى، فكان يعالج مرضه بالخنفساء، وقد صرح ابن أبى الحديد بعد ذكره لهذه الروايات أن الإمام عليه السلام إختار هذه الكنية للحجاج لأن عادة العرب جرت على ذكر الفرد بكنيته حين الاحترام وذلك للعظمة، وإن أرادوا تحقيره ذكروه بالكنية أيضاً من قبيل كنية عبد الملك بن مروان بأبى الذبان، حيث كان الذباب يتجمع على فمه لخبث رائحته (أو كان حتى الذباب ينفر منه كما صرح بذلك البعض)، وكذلك كنية يزيد بن معاوية بأبى زنة [٢٠١].

قال الشريف الرضى آخر هذه الخطبة: «الوذحة الخنفساء» وهذا القول يؤمى به إلى الحجاج وله مع الوذحة حديث ليس هذا موضع ذكره.

من هو الحجاج؟

الحجاج من أشبع الطغاة الذين عرفهم التاريخ البشرى، وقد ألفت مختلف القصص التي تعنى بجرائمه وجنایاته والتي يصعق لها كل من طيلع عليها، كان والى عبدالملك بن مروان على الكوفة، وعبدالملك خامس الخلفاء بنى امية، وقيل فى صفة الحجاج أنه كان دميم الخلقه كرية المنظر قصير القامة ضعيف أعوج الرجلين أبرص ولعل سفكه للدماء وولعه بها ناشىء من تلك العقدة والشعور بالحقارة، وقد ذكر المؤرخ المعروف المسعودى فى «مروج الذهب»: «بأنه كان يعترف بأن أعظم لذته فى سفك الدماء والإتيان بالأفعال التي لا يقوم بها الآخرون» [٢٠٢].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٠٤

تولى إمارة الحجاز «مكة والمدينة» من قبل عبدالملك بن مروان لستين فارتكب أشبع الفضائع ومنها قصفه الكعبة بالمنجنيق، ثم وضع النار على طائفة من صحابه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله المعروفين مثل جابر بن عبدالله الأنصارى، وأنس بن مالك، وسهل بن الساعدى على أنهم اشتركوا فى قتل عثمان، ثم وجهه عبدالملك إلى العراق وولاه البصرة والكوفة، حكم الحجاج مدة عشرين سنة وبلغ من قتلهم الحجاج مئة الف وعشرين من غير الذين قتلوا على يديه وأعوانه فى الحروب، كان فى سجنه حين مات خمسون ألف رجل ثلاثين ألف وإمرأة ستة عشر ألف منهم عراة، وكان يضع النساء مع الرجال ولم يكن لسجنه سقف فكانوا يعانون من شدة الحرارة فى الصيف والبرودة فى الشتاء.

وقال ابن الجورى: أن حرس السجن كانوا يرمون السجين بالحجر إن لاذ بالجدار من شدة حرارة الشمس، وكان طعامهم قليلاً من الخبز المخلوط بالملح والرماد، فكان يسود وجهه من يدخل السجن بحيث لا تعرفه امه حين تأتى لرؤيته.

ولعل أبلغ كلام قيل فى الحجاج ما ذكره الشعبى حين قال: «لو أخرجت كل امه خبيثها وفاسقها وأخرجنا الحجاج بمقابلتهم لغلبناهم». وكان موته ذا عبرة أيضاً حيث أصيب بمرض شديد فكان يصرخ بشدة من الألم حيث كانت تسيطر عليه برودة شديدة فيضعون قربه ظروفاً مملوءة بالنار حتى كان يحترق جلده وهو يرتعش من البرد.

نعم، لقد احترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة، توفى فى الرابعة والخمسين من عمره عام ٩٥ هـ فإلى جهنم وبئس المصير. [٢٠٣]

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٠٥

الخطبة [٢٠٤] المائة و سبعة عشرة

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
يُؤَيِّخُ الْبَخْلَاءَ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ

نظرة إلى الخطبة

يبدو أن هذه الخطبة القصيرة هي جزء من خطبة طويلة فصلها المرحوم السيد الرضى، ومن هنا لم يتضح سبب ووردها ولا أقسامها الأولى: والآخرة، مع ذلك فهي تشتمل على عبارات مؤثرة ومعبرة رغم قصرها.

ويستفاد من بعض المصادر [٢٠٥] أن الإمام عليه السلام أورد هذه العبارات ضمن خطبة في نهاية معركة صفين فهي تناسب تلك الأجواء تماماً.

على كل حال فإن الإمام عليه السلام عرض بالذم المخاطبيه الذين يسحون في بذل الأموال والأنفس في سبيل الله سبحانه وتعالى فقال لهم اعتبروا بتاريخ أسلافكم واتعضوا بحياتهم كيف تركوا كل شيء وارتحلوا عنه.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٠٧

«فَلَا أَمْوَالٌ بَدَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا، وَلَا أَنْفُسٌ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا.

تَكْرُمُونَ بِاللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلَا تُكْرِمُونَ اللَّهَ فِي عِبَادِهِ! فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصِلِ إِخْوَانِكُمْ».

الشرح والتفسير

الفكر والاعتبار

إستهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة بدم طائفه من أصحابه وهو يعتب عليهم ويوبخهم فقال:

«فَلَا أَمْوَالٌ بَدَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا، وَلَا أَنْفُسٌ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا».

فالواقع هو أن الله تبارك وتعالى خالق الأنفس هو المالك الأصلي لهذه الأموال، وهذه الأموال والأنفس أمانة استودعها الله سبحانه الناس مدة من الزمان، وإلما أنكم أخذتم إليها وإلتصقتم بها وكأنكم أنتم المالك الأصلي والخالق لها، وهذا قمة الجهل بالواقع، فالعبارة تبدو متناسبة تماماً وإلقاء هذا الكلام بعد معركة صفين، حيث كانت هناك فئة في جيش الإمام عليه السلام لم تكن مستعدة للمخاطرة بأرواحها دفاعاً عن الحق ولم تكن حاضرة لبذل ما في أيديها من أموال لتجهيز جند الإسلام.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«تَكْرُمُونَ [٢٠٦] بِاللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلَا تُكْرِمُونَ اللَّهَ فِي عِبَادِهِ!».

حقاً إن هذا الإزدواج لشيء عجيب في أن يتوقع الإنسان أن يعزه ويكرمه الناس على أنه عبد من عباد الله، بينما لا يكرم أي من عبيد الله سبحانه، فهو لا ينفق شيئاً من ماله ولا يضحى

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٠٨

بنفسه من أجل الوقوف بوجه الظالم ونصرة المظلوم.

ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه بتحذيرهم وضرورة الاعتبار بمن سبقهم حيث سيجرى عليهم نفس الحكم، وإن كانوا رحلوا فسترحلون ويأتي قوم آخرون يسكنون مساكنكم كما سكنتم منازل من كان قبلكم كما عليهم الإعتاظ بانفصام عرى القرابة حتى مع أقرب إخوانكم، فقد رأيتم بأعينكم ذهاب بعض أعزتكم وقريباً ما تلحقون بهم:

«فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصِلِ إِخْوَانِكُمْ».

فهذا دليل آخر على أن كافة الأموال والأنفس ودائع وهي مخلوقة جميعاً لله، وأنه سبحانه يداول هذه الأموال والمساكن والمناصب بين الناس إلى أجل مسمى، والتاريخ أعظم شاهد على هذا الأمر.

فلسنا أول من وطأنا هذا العالم، ولسنا بأخر من يغادره، إننا حلقة صغيرة ضمن هذه السلسلة الطويلة الممتدة منذ بداية الخليقة حتى نهاية العالم، فمن الغفلة ألا نرى الحلقات السابقة واللاحقة، فلا نعرف موقعنا في هذا العالم ونرى هذه الدنيا خالدة دائمة لنا.

وزبدة الكلام فإن الإمام عليه السلام كشف النقاب عن الممكنون بهذه العبارات بما يوقظ النائم الغافل ويقض مضجع من يشهد سكر المال والمقام والجاه.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٠٩

الخطبة [٢٠٧] المائة وثمانية عشرة

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي الصَّالِحِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ

نظرة إلى الخطبة

كما ذكر في سند هذه الخطبة فقد صرح بعض شراح نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام بعد معركة الجمل، حيث كان أصحاب الإمام عليه السلام وحدة واحدة وصفوف مترابطة مطيعة لأوامره وتوجيهاته فحققوا نصراً سريعاً باهراً بعد أن قضوا بكل شجاعة وبسالة على فلول العدو وأحمدوا نار الفتنة.

فقد أثنى الإمام عليه السلام عليهم بهذه العبارات البليغة القصيرة، ثم أوصاهم بمواصلة السير على هذا النهج، وأخيراً إختتم خطبته بإشارة عابرة إلى مقام ولايته

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١١١

«أَنْتُمْ الْأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ، وَالْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْجَنُّ يَوْمَ الْيَأْسِ، وَالْبَطَانَةُ دُونَ النَّاسِ. بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ. فَأَعِينُونِي بِمَنْصَحَةِ خَلِيَّتِي مِنَ الْعِشِّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ. فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!».

الشرح والتفسير

الأصحاب الأوفياء

شجنت أغلب خطب نهج البلاغة بالدم الشديد بالنسبة لطائفة من أصحاب الإمام عليه السلام خاصة بعد معركة صفين على ما أبدوه من ضعف وفرقة وغدر في ميدان المعركة، لكن في هذه الخطبة التي وردت بعد معركة الجمل، فإنّ الإمام عليه السلام يعرض بالمدح والثناء البليغ على أصحابه الأوفياء، ويدل هذا بوضوح على أنّ الإمام عليه السلام كان على الدوام يحث المحسنين من أصحابه ويرغبهم في الأعمال الصالحة، كما كان يذم المسيئين منهم، ليخلص الفريق الأول في عمله ويلتصق به، ويرعوى الفريق الثاني ويهم بإصلاح نفسه، فقد خاطب الإمام الصالحين من صحبه بأربع عبارات:

«أَنْتُمْ الْأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ، وَالْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْجَنُّ يَوْمَ الْيَأْسِ، وَالْبَطَانَةُ [٢٠٩] دُونَ النَّاسِ».

نعم، أنتم إخواني في الدين وقد أثبتتم عدم تقصيركم في نصره الحق، تقفون بكل شموخ في ميادين القتال بوجه الأعداء، إلى جانب ذلك فأنتم ثقة في حفظ الأسرار المتعلقة بالحرب والسلام.

ثم قال عليه السلام:

«بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١١٢

إشارة إلى أنّ الناس على صنفين: صنف أدار ظهره للحق وهب لمقارعتة ولا سبيل هناك سوى التصدي له والوقوف بوجهه، وأنتم الأنصار في هذا القتال، وصنف آخر أقبل على الحق ولكن لا يتمتع بالمعرفة اللازمة والطاعة الكافية، وسأعمل على تربيتهم بواسطةكم لكي ينقادوا لله ويطيعوه.

والخلاصة: فأنتم أنصاري في مقاتلة العدو وكذلك في المجال الفكري تجاه الصديق، ثم نصح عليه السلام صحبه الأوفياء بعبارتين

عميقتين المعنى فقال:

«فَأَعْيُونِي بِمَنَاصِحِهِ خَلِيَّتِي مِنَ الْعِشِّ، سَلِيمَةً مِنَ الرَّيْبِ».

ففي العبارة إشارة إلى نقطة مهمّة وهي أنّ بطانة الأمراء ومشاورى الحكّام غالباً ما يقدمون مصالحهم الشخصية أو منافع قرابتهم ومن لهم علاقة بهم، ثم يعرضونها للحكّام على أساس إرادة الخير والخدمة، بل أحياناً يطرحون بعض الاقتراحات التي لا يقتنعون بها أنفسهم وهذا ما يؤدّي بدوره إلى الإحباط والفشل في أغلب الخطط، فالإمام عليه السلام يؤكد على أصحابه الإخلاص في ما يطرحونه من آراء واقتراحات وابعادها عن كل ما يشوبها وعدم الأخذ بنظر الاعتبار سوى الخير وصلاح دين الحق وعباد الله.

وأخيراً يختتم خطبته بهذه العبارة:

«قَوْلَ اللَّهِ إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!».

ولعل هذه العبارة دليل على العبارات السابقة، أي إنّني إن توقعت نصرتكم ووقوفكم إلى جانبي فذلك كوني وليّ الناس باذن الله، بل إنّني أولى بهم حتى من أنفسهم، وهذا ما ينبغي أن يجعلكم تشعرون بالرضى والسرور على إنّكم تسيرون خلف مثل هذا الإمام وتطيعون أوامره.

الثناء على الأصحاب

أثنى الإمام عليه السلام ثناءً بليغاً على أصحابه بعد معركة الجمل، حيث استطاعوا بمدة قياسية ومن خلال إتحادهم وصمودهم وقوة إيمانهم من القضاء على قدرات العدو وإخماد نار الفتنة في تلك المنطقة الإسلامية الحساسة (البصرة).

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١١٣

بينما توالى الخطب التي تعرض بالذمّ لطائفة أخرى من أصحابه، وذلك بعد معركة صفين التي انتهت بفشلهم بفعل اختلاف كلمتهم وضعفهم في عقيدتهم وإرادتهم وعدم طاعتهم وإمتثالهم للأوامر، ولم يكن ذلك سوى في اللحظات الأخيرة التي أوشك النصر فيها على التحقق والرسوخ، فذلك الثناء وهذا الذم يفيد أن كل ذلك يتم على أساس حساب تخطيط وليس هناك من تناقض في الأمر، كما لم تطلق كلمة في هذا المجال تتعارض والحكمة والمصلحة، الأمر الذي ربّما يلتبس على البعض الذين لا يعلمون بشأن وورد هذه الخطبة.

النقطة الأخرى هي أنّ الإمام عليه السلام عين في هذا الكلام القصير وظيفه الأمة تجاه الحكومة، فيجب عليها من جانب الوقوف من أجل استقطاب الأوفياء ودفع الحاقدين، ومن جانب آخر التمعن في كافة الأنشطة السياسية والاجتماعية والعسكرية وإبداء المقترحات النافعة والانتقادات البناءة بهذا الخصوص.

ثم يشير في آخر عبارة من هذه الخطبة إلى نقطة مهمّة وهي مسألة الولاية الإلهية، وهو الأمر الذي أكّده النبي الأكرم صلى الله عليه و

آله في خطبة الغدير حيث قال:

«أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ»

، فردّ المسلمون: بلى يا رسول الله، ثم قال صلى الله عليه وآله:

«مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلَيَّ مَوْلًا»

.. هكذا قطع رسول الله صلى الله عليه وآله الأعذار على جميع من يتشبث بالحجج الواهية ويختلق الذرائع ليقول الولي هنا بمعنى الصديق.

والطريف في الأمر أنّ العلامة الأميني صاحب كتاب الغدير قد نقل العبارة:

«أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ»

من أربعة وستين محدثاً ومؤرخاً إسلامياً، وهذا ما يؤكد إتفاق الجميع على هذه العبارة [٢١٠]، فالإمام عليه السلام ذكر هذه النقطة في الخطبة وأقسم قائلاً:

«قَالَ اللَّهُ إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!».

من الواضح أن المراد من هذه العبارة هو أن أوامر الإمام المعصوم كأوامر الله تبارك وتعالى مقدمة على رغبات الناس، وإن كانت هذه الأوامر تصب في طريق مصالح المجتمع ومنافعه.

نفعات الولاية، ج ٥، ص: ١١٥

الخطبة [٢١١] المائة و تاسعة عشرة

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَقَدْ جَمَعَ النَّاسُ وَحَضَبَهُمْ عَلَى الْجِهَادِ فَسَكَنُوا مَلِيًّا

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في سند الخطبة فإن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة إثر إحدى حملات معاوية وجيش الشام على أطراف العراق، فيعرض الإمام عليه السلام بالنقد اللاذع في هذه الخطبة لذلك الصمت السلبي وعدم الإكتراث من قبل الناس تجاه تلك الأحداث المؤذية التي تضعف معنويات جند الإسلام وروحياتهم، وحين ردّ البعض على الإمام عليه السلام إن سرت سرنا معك، شدد الإمام عليه السلام من ذمهم وتوبيخهم على أن وظيفة الإمام وزعيم الجماعة ليست في أن يدفع بشخصه لإخماد أي تمرد ومطاردة عدو وترك مركز الحكومة الإسلامية والتخلي عن مختلف وظائفه، فالإمام لا بد أن يقوم بهذا العمل في الأحداث الغاية في الأهمية ويترك لبعض الأمراء الصغار ممن دونه التعامل مع سائر الأحداث، فهذا أحد الأصول المسلمة للإدارة والإمرة وللأسف لم يكن أهل الكوفة على علم بذلك أو أنهم لم يريدوا العلم بذلك.

نفعات الولاية، ج ٥، ص: ١١٧

القسم الأول: المخلفون الضعفاء والجهال

«فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا بَالُكُمْ أَمْحَرَسُونَ أَنْتُمْ؟

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ سِرَتْ سِرْنَا مَعَكَ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا بَالُكُمْ! لَا سِدْدُكُمْ لِرُشْدٍ! وَلَا هُدًى لِقَصْدٍ! أَفِي مِثْلِ هَذَا يَتَّبِعِي لِي أَنْ أَخْرُجَ؟ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَدَوَى بِأَسْكُمْ، وَلَا يَتَّبِعِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالْمِصْرَ وَبَيْتَ الْمَالِ وَجَبَايَةَ الْأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَيْبِيهِ أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقَلَّبُ تَقَلُّبَ الْقَدْحِ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ، وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَى، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتَهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا. هَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ الرَّأْيُ السُّوْءُ!».

الشرح والتفسير

حين بلغ الإمام عليه السلام هجوم أعوان معاوية على بعض المناطق الحدودية، جمع الناس وأمرهم بالحركة إلى الجهاد، لكن وكما ورد في الخطبة المذكورة سكت الناس ولم يجيبوه، فامتعض الإمام عليه السلام وتأثر شديداً فقال:

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا بِالْكُمْ أَمْخَرَسُونَ أَنْتُمْ؟»

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ سِرْتَ سِرْنَا مَعَكَ».

فردّ عليهم الإمام بعنف بعدم التوفيق وبلوغ الهدف [٢١٢]، فلا ينبغي للإمام الحركة في مثل تلك

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١١٨

الظروف:

«فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا بِالْكُمْ! لَا سُدُّتُمْ [٢١٣] لِرُشْدِي! وَلَا هُدَيْتُمْ لِقَصْدِي! أَفِي مِثْلِ هَذَا يَتَّبِعِي لِي أَنْ أَخْرُجَ؟ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِي بَأْسِكُمْ».

فلم يكف متعارفاً في أي مكان من الدنيا ولا عصر من العصور أن ينهض زعيم فرقة أو رئيس دولة بشخصه للتدخل في حادثة صغيرة وبلبله معينه، بل عادة ما يوجه لها أحد أمریه برفقة مجموعة من العناصر الشجاعة والوفية من أجل إخماد الفتنة وحل النزاع، وذلك لأنّ التخلي عن مركز الحكومة من شأنه أن يقود إلى عدّة مخاطر جانبية، ومن هنا واصل الإمام كلامه قائلاً:

«وَلَمَّا يَتَّبِعِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالْمِصِيرَ وَبَيْتَ الْمَالِ وَجِبَارَةَ الْأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرَجَ فِي كَيْبِيهِ [٢١٤] أَتْبَعَ أُخْرَى، أَتَقَلَّقُ تَقَلُّقَ [٢١٥] الْقِدْحِ [٢١٦] فِي الْجَفِيرِ [٢١٧] الْفَارِغِ [٢١٨]».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى ستة جوانب تتضمن الوظائف المهمة لرئيس الدولة يمكنها الإنهيار جميعاً فيما إذا شغل مركز الحكومة من ذلك الرئيس، وهي الاشراف على الجند وأمور العسكر والجيش والحفاظ على مركز الدولة وحفظ بين مال المسلمين وجباية الخراج والضرائب والقضاء بينهم والدفاع عن حقوق عنهم.

فمن البديهي يمكن لرئيس الدولة أن يشخص بنفسه للتعامل مع الحوادث الضحمة ويهب لمواجهة العدو، أما في غيرها من الحوادث ذات الطبيعة العادية، فيمكن لغيره التعامل معها، وتشير سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه كان يشخص بنفسه الشريفه في الغزوات المهمة المصيرية، فيتزعم الجند، وكان ينصب بعض الأفراد في الغزوات العادية فيسلمه الراية

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١١٩

ويوصيه ببعض التعاليم كما يوصي الجيش بطاعة أوامره، وهكذا كانت تحصل أغلب الغزوات في تاريخ الإسلام والتي يصطلح عليها عادة بالسريه، غايه ما في الأمر أنّ صحابه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كانوا يأترون بأوامره بحيث يطيعونه في كل ما يقول ولم يكن يرد عليه أحد بأن سرت سرنا معك.

نعم، صحيح لكل قسم مسؤول على أساس تقسيم وتنظيم شؤون البلاد، لكن لا يخفى الدور الحيوي الذي يلعبه الرئيس المشرف على اولئك المسؤولين في تقدم الأعمال والنهوض بها قدماً، هذا الأمر واضح تماماً، بل هو من البديهيات، لكن اولئك المتقاعسون المسلوبون الإرادة والضعاف الذين يتذرعون بمختلف الذرائع من أجل إجتناّب مواجهة العدو فيشترطون شرطاً غايه في البعد عن المنطق لخروجهم، وبعبارة أخرى شرطهم هو تعليق على المحال، ويواصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال تشبيه رائع لشخصه بقطب الرجا ومحورها والذي يفيد ضرورة بقائه في موضعه (بحيث تدور كل الأمور من خلاله) فان إبتعد هذا المحور عن مركزه اختلت حركة جميع الأشياء:

«وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَى، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ [٢١٩] مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِقَالُهَا».

فقد جرت العادة سابقاً على الاستفادة من الرجا اليدوية أو المائية والهوائية من أجل طحن الحنطة والشعير، وكانت بنيه هذه الآليات بسيطة وواضحة، فقد كانت هناك حجرة ثابتة في الأسفل وأخرى تتحرك في الأمام بواسطة حركة اليد أو ضغط الماء الذي يعبر من تحتها أو الرياح، وكان وسط الحجرين قطب يدور حول محوره الحجر لو كسر القطب لخرج الحجر عن مساره ووقع جانباً إلى جانب ذلك كان هناك جلد كبير أو قطعة من القماش تبسط تحت الرجا لجمع الدقيق بسهولة، حيث إذا خرج الدقيق من وسط الحجرين

وقع عليه، ولو زال ذلك القطب والمحور الأصلي لوقفت الرحا عن الحركة ووقع الحجر على تلك القطعة من القماش أو الجلد وإضطراب.

هذا ما أشار إليه الإمام بقوله:

«اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا»

، إضافة إلى ذلك فإن

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٢٠

الشيء الذى يحرك الحجر فى الرحا هو ذلك الواقع فى وسط الحجر والذى يتصل من الأسفل بمحور أكبر يصب عليه الماء من جانب ويحركه، وهكذا يكون القطب عامل حركة وعامل تنظيم، وهذه هى منزلة الإمام والقائد.

وأخيراً يخلص الإمام إلى النتيجة صريحة بأن ذلك الاقتراح مرفوض تماماً فى أن يشخص بنفسه لإطفاء كل فتنة هنا وهناك تاركاً لمركز الحكومة:

«هَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ الرَّأْيُ السُّوءُ!».

حقاً أنه لإقتراح فاشل بشهادة كل مدير ومسؤول له علم بهذه الأمور فى أن القائد لا يفارق موقعه ومركز ثقله ومهامه سوى فى الحوادث المهمة.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٢١

القسم الثانى: لولا رجاء الشهادة

إشارة

«وَاللَّهِ لَوْ لَمَّا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعِدُوَّ - وَلَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ؛ طَعَانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ رَوَّاعِينَ. إِنَّهُ لَأَغْنَاءٌ فِي كَثْرَةِ عِدَدِكُمْ مَعَ قَلَّةِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ لَقَدْ حَمَلْتُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ، مَنِ اسْتَقَامَ فِإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فِإِلَى النَّارِ».

الشرح والتفسير

شدد الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة من ذمّه وتوبيخه لأهل الكوفة وعين نقاط ضعفهم وأعرب عن يأسه وعدم أمله فى مستقبلهم وعاقبه أمرهم، فقال:

«وَاللَّهِ لَوْ لَمَّا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعِدُوَّ - وَلَوْ قَدْ حُمَّ [٢٢٠] لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ».

العبارة

«مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ»

، إشارة إلى مراده أننى لم آتى إليكم أبداً، فالعبارة أشبه بما ورد فى إحدى كلماته عليه السلام حين أقترح عليه عدم التسوية فى العطاء من بيت مال المسلمين، فقال عليه السلام:

«أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللَّهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرًا، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا!» [٢٢١].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٢٢

تطالعنا هنا ثلاثة أسئلة تطرح نفسها:

الأول: كيف قال الإمام عليه السلام لولا- رجائي الشهادة لما مكثت بينكم ولتركتكم، بينما ذكر سابقاً لا- ينبغي لي أن أدع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين والنظر في حقوق المطالبين، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين؟
الثاني أن الإمام عليه السلام قد سمع بشارة رسول الله صلى الله عليه وآله له بالشهادة وكان يعلم أنه سيقتل على يدي أشقى الآخرين عبدالرحمن بن ملجم، فكيف قال لولا رجائي الشهادة عند لقائي العدو؟

الثالث: كيف يستطيع الإمام عليه السلام التخلي عن إمامته وزعامته ويخرج من الناس؟
وللإجابة على السؤال الأول لابد من القول أن نيل فيض الشهادة كان يشكل أحد الأهداف المقدسة للإمام عليه السلام في بقائه وسط تلك الفئة ولا مانع من أن يكون له أهداف أخرى، حيث بين اثر تلك الأهداف فلم تعد هناك من حاجة لديه لذكرها هنا [٢٢٢].
ونقول في الرد على السؤال الثاني إن لقاء العدو يشتمل على مفهوم غاية في السعة وإن بدى في الوهله الاولى يجسد مواجهة الخصم في ساحة المعركة والذي يمثل حزاً من ذلك اللقاء، ونعلم أن شهادة الإمام عليه السلام كانت أحد مصاديق ذلك.
وأما السؤال الثالث: فيمكن الإجابة عليه بالقول بأن ترك فئة فاسدة لا يمكن إصلاحها لا يعنى التخلي عن وظائف الإمامة أبداً، بل يمكن للإمام عليه السلام أن يتجه صوب جماعة أعظم استعداداً، على غرار ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله حين هاجر من مكة إلى المدينة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بذكر الأدلة التي تدعوه إلى عدم الإرتياح منهم ويبين لهم نقاط ضعفهم على أمل الإلتفات إلى أنفسهم فيهموا بإصلاحها فقال:
«طَعَانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ [٢٢٣]
رَوَّاعِينَ [٢٢٤]».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٢٣

فهذه الصفات الأربعة على درجة من القبح والبشاعة بحيث يكفى وجود واحدة منها في فرد لتدعو للنفرة منه والابتعاد عنه، فضلاً عن اجتماعها جميعاً فيه، أى أن جلّ همّة الالتفات إلى المعايب والمثالب، بل يعطيها حجماً أكثر من واقعها فهو لا ينفك عن طرحها وتكرارها حتى شعر المقابل بالأس، فلا يرى الحق حتى يولى له ظهراً فتختلط حياته بالمكر والأسى، فكيف لرجل صالح أن يعيش وسط مثل هذه الفئة فضلاً عن الإمام المعصوم عليه السلام الزعيم للخلق والذي ليست أمامه من نتيجة لهذا الوضع المأساوى سوى الحزن والمعاناة، ومن هنا يرجو الإمام عليه السلام مفارقتهم والانفصال عنهم.

ثم أضاف الإمام عليه السلام بأنه إلى جانب تلك العيوب الشخصية هناك عيب اجتماعي كبير فيهم والذي يتمثل بعدم جدوى كثرة عددهم مع قلّة اجتماع أفكارهم:
«إِنَّهُ لَأَغْنَاءُ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ مَعَ قَلِيَّةِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ».

صحيح أن عددكم يبدو كثيراً في الظاهر، ولكن حيث تغيب الوحدة التي ينبغي أن تجمع قلوبكم وتوحدها وحيث ينفرد كل بإرادته وقراره، فلم يعد هناك من خير يؤمل فيكم، أو بعبارة أخرى فإن اجتماعكم الموتى وتجمعكم تجمع الوحشة.

ثم إختتم الإمام عليه السلام الخطبة بقوله أتى قمت بوظيفتي تجاهكم:

«لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ، مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ».

فالإمام عليه السلام أوضح بهذه العبارة حقيقة مفادها أتى قمت لكم كل ما ينبغي قوله وأتممت عليكم الحجة وإن تمنيت الخروج عنكم ومفارقتكم فذلك لا- يعنى أتى قصر في مقام بوظيفتي تجاهكم، ولكن لأسف إنكم لستم بالأفراد للائقين الذين يسعكم الاستفادة من البرامج التربوية التي يطرحها مرشد ربّانى شفيق عليكم.

القلوب الواعية

أورد مؤرخ القرن الثالث المعروف أبو اسحاق الثقفي في كتاب «الغارات» في ذيل هذه الخطبة حين خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة قام

«جارية بن قدامة السعدي»

فقال:

«يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا أَعَدَمْنَا اللَّهُ نَفْسَكَ وَلَا أَرَانَا فِرَاقَكَ أَنَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فَسَرَّحَنِي إِلَيْهِمْ».

نغمات الولاية؛ ج ٥؛ ص ١٢٤

نغمات الولاية، ج ٥، ص: ١٢٤

فسر الإمام عليه السلام لكلامه وأثنى عليه، من جانب آخر قام إليه

«وهب بن مسعود الخثعمي»

فقال:

«أَنَا لَهُمْ».

فأمر الإمام عليه السلام جاريته أن يسير بألفين إلى البصرة والخثعمي بألفين إلى الكوفة، ثم أمرهما بتتبع بسر بن أبي ارطاة أينما وجدوه [٢٢٥].

والذي يستفاد من هذا البحث التاريخي:

أولاً: إن شدة كلمات الإمام عليه السلام كان لها في خاتمة المطاف الأثر البالغ في بعض القلوب الواعية فاستعد أصحابها لمواجهة الأعداء.

ثانياً: يتضح أن هذه الخطبة قد وردت قبل المرحوم الرضي في كتاب «الغارات».

نغمات الولاية، ج ٥، ص: ١٢٥

الخطبة [٢٢٦] المائة و عشرون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يَذْكُرُ فَضْلَهُ وَيَعْظُ النَّاسَ

نظرة إلى الخطبة

بداية الكلمات إشارة إلى وجود أبواب الحكم وكنوز العلم لدى أهل البيت عليهم السلام الذين تعلموا من رسول الله صلى الله عليه وآله و آله تبليغ الرسالة وتفسير كلمات الله سبحانه وتعالى، ثم خاض الإمام في إسداء مواعظه ونصائحه النافعة وحذر الناس في ضرورة الاعتبار بالآخرين والخوف من نار جهنم وأن يعملوا ما يجعل الناس يذكرونهم بكل خير بعد إيمانهم، فالسمعة الحسنه أفضل من الأموال تلحق الإنسان بعد وفاته، الأموال التي قد لا يعرف الورثة عادة قيمتها ولا يشكرون جامعها.

نغمات الولاية، ج ٥، ص: ١٢٧

«تَاللَّهِ لَقَدْ عَلَّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ.

وَعِنْدَنَا- أَهْلَ الْبَيْتِ- أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ. أَلَا وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ، وَسُبُلُهُ قَاصِدَةٌ. مَنْ أَخَذَ بِهَا لِحَقٍّ وَغَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ.

إِعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُدْخِرُ لَهُ الذَّخَائِرَ، وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ. وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرٌ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ. وَاتَّقُوا نَارًا حَرَّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَلِيقَتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ. أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ».

الشرح والتفسير

المواعظ القيمة

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن العلوم التي تعلمها من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«تَاللَّهِ لَقَدْ عَلَّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ».

المراد بتبليغ الرسالات أساليب نشر المعارف الإسلامية وأحكام الدين بمختلف الطرق وايصالها إلى الناس، إشارة إلى أنني لم أتعلم الرسالات الإلهية فحسب، بل تعلمت من رسول الله صلى الله عليه وآله طرق التبليغ، فكنت لا أثنى في هذا السبيل.

والمراد باتمام العادات «الوفاء بالعهود» تلك وعود الله تبارك وتعالى بصورة عامية بالنسبة لجميع المؤمنين والوعود بصورة خاصة بالنسبة له عليه السلام، كما ورد في القرآن الكريم: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَصَصَ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» [٢٢٧].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٢٨

يمكن أن يكون هذا الوعد الإلهي هو الوعد بالشهادة في سبيل الله، أو سائر الوعود من قبيل مقاتلة الناكثين والقاسطين والمارقين، أو غير ذلك.

والمراد بتمام الكلمات يمكن أن يكون إشارة إلى تفسير آيات القرآن وتفسير كلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وتبيان وإكمال كافة الكلمات التي وصلت من الكتاب والسنة.

كما يحتمل أن يكون المراد بالإمام صلى الله عليه وآله أنني أولى من جميع الأفراد بخلافة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وذلك لأنني تعلمت طريق تبليغ الرسالة وتحقيق وعوده صلى الله عليه وآله وتفسير وتكميل كلماته، وعليه فإنني أستطيع النهوض لمسؤولية الخلافة، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام:

«أَنْتَ وَصِيٌّ وَأَخِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَتَقْضِي دِينِي وَتُنَجِّرُ عِدَاتِي» [٢٢٨].

الاحتمال الآخر الذي يمكن ذكره بالنسبة لهذه العبارة هو أن الإمام عليه السلام أراد أن يقول أنا أولى بالخلافة، لأنني أقدر على تبليغ جميع رسالات الله سبحانه، كما أستطيع العمل بالوعود التي أقطعها وكذلك أتم ما أورده من كلمات وأحاديث.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالقول:

«وَعِنْدَنَا- أَهْلَ الْبَيْتِ- أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ».

والحكم بضم الحاء بمعنى الحكومة والقضاء، بناءً على هذا فالمراد بالعبارة عندنا أهل البيت طرق تدبير الحكومة وإقامة العدل وبسط الأمن، والحكم بكسر الحاء وفتح الكاف جمع الحكمة بمعنى العلوم والمعارف، ولا شك ولا ريب أن لدى أهل البيت عليهم السلام أبواب الحكمة وكنوز العلم والمعرفة، كما قرنهم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال في حديث الثقلين المعروف:

«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِترَتِي» [٢٢٩].

ثم أورد الإمام عليه السلام خمس نصائح من شأنها نجاة العباد في الدنيا والآخرة، وكان العبارات الأولى لهذه الخطبة قد وردت لإعداد

القلوب من أجل تقبل هذه النصائح ليقول أن كلامي يستند إلى علم عميق ودقيق بتعاليم الإسلام وتعاليم النبي صلى الله عليه وآله، فكانت النصيحة الأولى مسألة الإتحاد ووحدة الكلمة وذلك لأن الاختلاف آفات سعادة الإنسان، فقال:

«أَلَا وَإِنْ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٢٩

شَرَائِعِ الدِّينِ وَاحِدَةٌ، وَسُبُلُهُ قَاصِدَةٌ. مَنْ أَخَذَ بِهَا لِحَقٍّ وَغَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ».

المقصود بشرائع الدين كافة التعليمات التي صرح بها الدين الحنيف بما فيها المعارف والعقائد والقوانين والوصايا والأمر الأخلاقي، فجزدوها واحدة في جميع الأديان السماوية وإن إقتضت الظروف الزمانية والتطور البشرى أن يكون هناك بعض الاختلاف شرحها وتفصيلها وتنوع فروعها.

كما يحتمل أن يكون المراد بشرائع الدين مختلف الطرق إلى الله سبحانه في الدين الإسلامي والتي تنتهي جميعاً إلى طريق رئيسي واحد وهو القرب إلى الله والسعادة المطلقة للبشر، فالصلاة والصوم والجهاد والحج والزكاة وكافة مثل هذه التعليمات إلى جانب التعاليم العقائدية والأخلاقية تتصل وتنتهي بنقطة واحدة ويؤكد عليه السلام على أن بلوغ السبيل سهل وواضح وقريب، وعليه فإن الفرقة والاختلاف إنها تحصل من مزج الأفكار الباطلة والأهواء ووساوس النفس والشيطان بشرائع الدين، فقال تعالى في كتابه العزيز: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...» [٢٣٠].

وقال عليه السلام في الموعظة الثانية:

«إِعْمَلُوا لِيَوْمٍ تَدْخُرُ لَهُ الدَّخَائِرُ، وَتُبَلَى فِيهِ السَّرَائِرُ».

العبارة الأولى إشارة إلى الآية الشريفة: «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ...» [٢٣١].

والعبارة الثانية إشارة إلى الآية القرآنية:

«يَوْمَ تُبَلَى السَّرَائِرُ» [٢٣٢].

من البديهي أن للإنسان قدرة محدودة ينبغي توظيفها في أفضل سبيل، فالعقل يقول: لم تستهلك طاقتك في طريق لا يدوم أكثر من أيام، لم لا تستهلكها في سبيل يرافقتك على الدوام ويخلد فيه معك، أضف إلى ذلك يوم تبلى فيه السرائر وكافة أعمال الإنسان الخفية، فهو يوم عصيب وفضيحة بالنسبة للطالحين.

وقال عليه السلام: في عظته الثالثة:

«وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرٌ لِيهِ فَعَازِبُهُ [٢٣٣] عَنْهُ أَعْجَزُ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ» [٢٣٤].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٣٠

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أراد بهذه العبارة مزج الأدلة العقلية بالنقلية وتعبئة الجميع من أجل متابعة سبيل الحق، وقد قال الإمام عليه السلام هنا ثلاثة أنواع لعقل هي: العقل الحاضر والبعيد والغائب، يمكن أن يكون الأول إشارة إلى المسائل العقلية الواضحة، والثاني إلى المطالب النظرية التي يبلغها الإنسان من خلال الطرق الاستدلالية الواضحة، والأخير إشارة إلى المواضيع المعقدة التي يتعذر التوصل إليها من خلال الدليل والبرهان، فمن البديهي أن يتعذر إدراك المطالب النظرية والمعقدة والبعيدة عن الفكر على من لا يستفيد من المسائل الفكرية البسيطة.

ففي المسائل النظرية تتضح تماماً معرفة الله يوم القيامة (بالمبدأ والمعاد)، وذلك لأن آياته قد ملأت جميع العالم، والقيامة التي تمثل محكمته العادلة ثابتة بحكم العقل، وفي المسائل العلمية فإن حسن العدل وقبح الظلم ومدح الصدق والوفاء والعفة والورع والتقوى مسلم للجميع، ولكن قد يحول التعصب الأعمى وأهواء الإنسان دون الوقوف على هذه الأمور الواضحة، فأني لمثل هذا الفرد أن يبدي

رأيه في المسائل النظرية والمعقدة ويبلغ الهدف المطلوب.

ثم خاطب الإمام عليه السلام الناس في المواعظة الرابعة بصفته منذر عالم فقال:

«وَاتَّقُوا نَاراً حَرَّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَلِيَّتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ» [٢٣٥].

والعبارات البليغة التي أوردها الإمام عليه السلام بشأن نار جهنم والتي تكفي كل واحدة منها لصد الإنسان عن الذنب إنما اقتبست من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فقد جاء في الآية:

«قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا...» [٢٣٦].

وجاء في أخرى: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ...» [٢٣٧].

يعنى أنها على قدر من الكبر والسعة بحيث لا تمتلىء بسهولة، وجاء في أية أخرى: (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ» [٢٣٨].

وجاء في أية أخرى: «مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ» [٢٣٩]، قطعاً من يؤمن

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٣١

بالآخرة ومحكمته العدل الإلهي وشيء من العذاب الأليم، فإنه يتحكم ويسيطر على أهوائه ويجتنب الظلم والجور ولا يقارف الذنب والمعصية، أما أولئك الذين ليس لهم من إيمان بهذه الأمور ولا يعتقدون بالحساب والكتاب والثواب والعقاب، فليس هناك ما يدعوه إلى السيطرة على أهواه وكف الأذى عن الآخرين وعدم التعرض لحقوقهم.

نعم، يمكن للضمير أن يجد من هوس الأفراد إلى حدود معينة، لكن من اليقين أن ليس لذلك من بعد عمومي وشامل، وتأثيره يبقى متواضعاً، أضف إلى ذلك فإن نبتة الضمير تذبل وتجف وتموت ما لم تسق بماء تعاليم الأنبياء عليهم السلام.

أما المواعظة الأخيرة والخامسة فقد أشار إلى نقطة مهمة جداً فقال:

«أَلَا وَإِنَّ اللَّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يَرِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ».

إن أغلب الناس وبدافع حبهم لأولادهم وأزواجهم يبذلون قصارى جهدهم من أجل ضمان مستقبلهم ويفنون جانب عظيمياً من أعمارهم في هذا المجال حتى أنهم يخلطون أحياناً الحلال بالحرام، لكنهم يغفلون عن قضية مهمة دلت عليها التجربة أنه كلما نجد وارثاً يحمده من ورثه على ما خلفه لهم من ميراث، بل غالباً ما تكون الأموال الموروثة مصدراً للشقاق والاختلاف والنزاع، ولا غرو فكل فرد يسعى لأن يحصل لنفسه على السهم الأوفى، حتى قيل موت الغنى بداية قتال الفقير.

بل قد يتجاوز الأمر ذلك لنشهد سب الوارث والتشجيع عليه والتعرض له بالذم من جراء ما خلفه من مشاكل بسبب الارث.

والحال لو تجاوز الإنسان وهو على قيد الحياة ذاته وأنفق قسماً من أمواله كصدقة جارية وخدمة إنسانية وثقافية يسديها إلى المجتمع لبقى ذكره الطيب بين الناييس فلن ينسوه أبداً، ويتنون عليه دائماً ويسألون الله له المغفرة والرحمة، فهذا هو ثوابه في الدنيا ولثواب الآخرة أعظم.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٣٣

الخطبة [٢٤٠] المائة والحادي العشرون

إشارة

مِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

بعد ليلة الهرير

وَقَدْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: الْأَمْرَيْنِ أَرَشِدُ؟ فَصَفَّقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى ثُمَّ قَالَ:

نظرة إلى الخطبة

لابد من الالتفات إلى مناسبة وورد الخطبة من أجل الوقوف على عمق محتواها ومضمونها، فهذا الكلام يرتبط بمعركة صفين حين نهى الإمام عليه السلام الناس عن قبول التسليم للتحكيم، ثم دعاهم إلى قبوله، والمعروف بهذا الشأن أن عمرو بن العاص فكر بخدعة حين شارف جيش الشام على الهزيمة، فأمر برفع المصاحف ووضعها على أسنة الرماح، ثم دعى أصحاب على عليه السلام إلى تحكيم القرآن، فانخدع لذلك الكثير من السذج من أصحاب على عليه السلام فكفوا عن القتال واستجابوا لطلب أهل الشام، ثم أصروا على تحكيم القرآن بشأن مصير

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٣٤

المعركة في أن ينهض حكم من جيش الإمام عليه السلام وآخر من جيش معاوية، وبلغ بهم الأمر أن هددوا الإمام قائلين: «إن لم تفعل قتلناك كما قتلنا عثمان».

الإمام كان يعلم بأن تلك مصيدة خطيرة كمنت في طريقهم ورغم مخالفته لهذا العمل، وإصراره على مواصلة القتال، غير أنه اجبر على التسليم للتحكيم، وهذا ما دفع البعض للاعتراض على الإمام على عليه السلام، وفحوى اعتراضهم إنك نهيتنا عن التحكيم، واليوم تأمرنا به؟

فالخطبة رد على هذا الاعتراض وقد أشار الإمام عليه السلام إلى عدة أمور في إطار الجواب فقال أولاً: هذه نتيجة طبيعية لفعلكم وعدم تبعيتكم لإمامكم، فلو عملتم بما أمرتكم به وواصلتم القتال لما أصبحتم اليوم تعانون من هذه المشكلة، ثم بين الإمام نقاط ضعفهم التي أدت إلى هذه المشكلة الكبيرة وفي المرحلة الثالثة ذكر طائفة من أوائل المسلمين في صدر الإسلام كانت تهب مسرعة لتلبية نداء الجهاد ومواجهة العدو بفعل قوة إيمانها، فكانت تنتصر دائماً (إشارة إلى أن طريق النصر ما سلكوه، لا ما أنتم عليه). وأخيراً يعرض لهم بالنصح ثانية في مراقبه أنفسهم والحذر من مصاد الشيطان.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٣٥

القسم الأول: الداء وليس الدواء

«هَذَا جَزَاءٌ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ! أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا، فَإِنْ اسْتَفَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِنْ اعْوَجَجْتُمْ قَوْمْتُكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتْ الْوُثْقَى وَلَكِنْ بَمَنْ وَإِلَى مَنْ؟ أُرِيدُ أَنْ أَدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي، كَنَاقِشِ الشُّوْكَهَ بِالشُّوْكَهَ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا! اللَّهُمَّ قَدْ مَلَأْتَ أَطْبَاءَ هَذَا الدَّاءِ الدَّوِيَّ، وَكَلَّتِ النَّزْعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِيِّ!».

الشرح والتفسير

رد الإمام عليه السلام بجواب قاطع على من اعترض عليه في أن هذه المصيبة التي عصفت بكم إنما أفرزها التحكيم وهذا جزاء من ترك الرأي السليم:

«هَذَا جَزَاءٌ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ [٢٤١]!».

لقد صرخت بكم أن واصلوا القتال ولا تتركوه في هذه المرحلة الحساسة فالنصر قريب، لكنكم وليتم ظهوركم واستسلمتم لخدعة عمرو بن العاص، فأبيتكم إلا التحكيم، كان مكر ابن العاص في رفع المصاحف خدعة ظاهرها الإيمان وباطنها الكفر والنفاق على ضوء ما أخبر به الإمام عليه السلام في الخطبة القادمة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وقد أقسم بالله لو أجبرتكم على الجهاد- والذي لم يكن يروق لكم بينما فيه الخير الكثير- حين

أمرتكم بقبول التحكيم (بفعل الاضطرار واصرار الجهال) لكان خيراً لكم، فان سلكتم سبيل الحق هديتكم وإن انحرقتكم أعدتكم إلى الصواب، ولو

نفعات الولاية، ج ٥، ص: ١٣٦

تخلفت طائفة منكم لاستبدالها بأخرى (على كل حال لو أطمعتموني في مواصلة القتال) وهذا هو الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، لكن من المؤسف إنكم لم تجيوني، فبمن استظهر على العدو وبمن أثق؟
«أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا، فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنِ أَيَّتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ الْوُثْقَى وَلَكِنْ بَمَنْ وَإِلَى مَنْ؟».

فالإمام عليه السلام قد بين بهذا الرد القاطع حقيقة في أن تبتى مواصلة الجهاد حتى تحقيق النصر، سيما أننا على أعتاب النصر، وكنت مستعداً لمواصلة هذا الطريق بكل قوة وعزم، ولذلك نهيتكم عن التحكيم، لكنكم أفراد ضعاف لا- إرادة لكم وطغاة عصاة لستم مستعدين للقيام بهذا العمل، وعليه فلم يكن لي من سبيل سوى قبول التحكيم، والحال رجعتكم الآن عن رأيكم وسوّلت لكم أنفسكم الاعتراض على.

ثم أعرب الإمام عليه السلام عن دهشته فقال:

«أُرِيدُ أَنْ أَدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي، كَنَاقِشِ الشُّوْكَهَ بِالشُّوْكَهَ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلَعَهَا [٢٤٢] مَعَهَا!».

فالتشبيه المأخوذ من المثل المعروف تشبيه غايه في الدقة والبلاغه، فعادة ما يخرجون الشوكه التي تغوص في الرجل بإبره أو مناقش، فان اريد سلها بشوكه أخرى احتمال أن تغوص الثانية في الرجل أيضاً، فيزيد الطين بله حتى أصبح الأمر بصيغه مثل تعارف عند العرب حيث يقول:

«كَنَاقِشِ الشُّوْكَهَ بِالشُّوْكَهَ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلَعَهَا مَعَهَا».

فالمثل يصرّب لمن يحكم آخر لرفع الاختلاف بينه وبين شخص آخر والحال يرغب ذلك الفرد بزيادة العداوة والنزاع، فمراد الإمام عليه السلام إنّي اريد أن أدفع بكم عصاة الشام بينما أنتم العصاة الذين يجب تأديبهم، على كل حال، فإنّ هذه العبارات التي تفيض معاناة تفيد مدى الوضع العصيب الذي شهده الإمام عليه السلام، فإنّ أمرهم بالهجوم ومواصلة القتال خالفوه وقالوا:

عليك بالنزول لحكم القرآن، وإن طرح عليهم قضية التحكيم اعترضوا عليه بالقول: لم تسلّم لمنطق العدو؟ فلكل هواه ورأيه، ولكل فكره ونهجه، بحيث انتهى بهم الأمر إلى إتهام أعظم

نفعات الولاية، ج ٥، ص: ١٣٧

إمام خلف رسول الله صلى الله عليه وآله على أنه ضعيف في التدبير، وليس ذلك إلا بسبب وجود فئه سيئه من الأتباع الضعاف، لم وكيف أصبح الأمر كذلك؟ كأن الحق سبحانه أراد امتحان الجميع بهذا الزعيم الفذ.

وأخيراً شكى الإمام وعرض حاجته إلى الله سبحانه فقال: «اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطْبَاءُ هَذَا الدَّاءِ [٢٤٣] الدَّوِي، وَكَلَّتِ [٢٤٤] النَّزْعَةُ [٢٤٥] بِأَشْطَانِ [٢٤٦] الرِّكِي [٢٤٧]!».

ياله من تعبير بليغ وموجع في نفس الوقت، فان أصيب شخص بمرض عضال ولم يجد معه نفعاً كل علاج يقدمه الطبيب المختص، فلا يشعر مثل هذا الطبيب سوى بالملل والإرهاق، على غرار الفلاح الذي يجهد نفسه في استخراج الماء من البئر ليسقى به الأرض المألحة فلا تخرج بالنبات، وهذا بالضبط حال الإمام على عليه السلام حين إبتلى بتلك العصابة من الجهال المسلوبه الإيمان والإرادة لا خير يرتجى فيهم.

ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن عيسى بن مريم عليه السلام قال:

«دَاوَيْتُ الْمَرَضَى فَسَفَيْتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرَأْتُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَالَجْتُ الْمَوْتَى فَأَحْيَيْتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَالَجْتُ الْأَحْمَقَ فَلَمْ أَقْدَرْ

عَلَى إِصْلَاحِهِ» [٢٤٨].

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٣٩

القسم الثاني: إخواني في الجهاد

«أَيُّنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهَيَّجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلَّيْهُوا وَلَهُ اللَّقَاحُ إِلَى أَوْلَادِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَعْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفًا، وَصِفًا صِفًا. بَعْضُ هَلَكٍ، وَبَعْضُ نَجَا. لِأَيِّبَشْرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَلَا يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَى الْقَتْلَى. مُرَّةُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ، خُمُصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبْلُ الشَّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهْرِ. عَلَى وَجْهِهِمْ غَبْرَةٌ الْخَاشِعِينَ. أَوْلَيْكَ إِخْوَانِي الدَّاهِبُونَ. فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَنْظُمًا إِلَيْهِمْ، وَنَعُضَّ الْأَيْدَى عَلَى فِرَاقِهِمْ».

الشرح والتفسير

ذكر الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة أصحابه الشجعان من أهل الإيمان بهدف إثارة قدراتهم وقواهم وحثهم على الجهاد، كما ذمهم على ضعفهم وتقصيرهم، أصحابه الذين تألقوا في ساحات الحرب حين قتالهم للأعداء وكذلك في ميدان الطاعة والعبودية حيث كانوا سابقين في هذه الميادين فقد قال:

«أَيُّنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهَيَّجُوا [٢٤٩] إِلَى الْجِهَادِ فَوَلَّيْهُوا [٢٥٠] وَلَهُ اللَّقَاحُ [٢٥١] إِلَى أَوْلَادِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَعْمَادَهَا [٢٥٢]، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفًا [٢٥٣]، وَصِفًا صِفًا. بَعْضُ هَلَكٍ، وَبَعْضُ نَجَا».

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٤٠

دقيقه هي الأوصاف التي أوردها الإمام عليه السلام في هذه العبارة لهم، فقد ابتدأها بالإيمان بالإسلام والفهم والإدراك الصحيح للقرآن والعمل به والذي الدافع الرئيسي للحركة نحو الجهاد، ومن ثم عشقهم للجهاد الذي يشبه بعشق الام لولدها وولدها إليه، ويثنى على شجاعتهم حيث لم يفكروا قط في إغمد سيفهم والتراجع عن الجهاد، وأخيراً مدح مدى حركتهم الجماعية- والذين كانوا يحضرون في الميدان في أي موضع كانوا- والحق من يتحلى بهذه الصفات، فهو منتصر على الدوام.

ثم واصل الكلام بالحديث عن سائر صفاتهم حيث يكشف النقاب عن علو معنوياتهم ومدى زهدهم وخضوعهم وخشوعهم لله تبارك وتعالى فقال: «لَا يُبَشِّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَلَا يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَى .

وهذه علامة علو روحيتهم حيث لم يكونوا يفكرون قيود الحياة المادية، بحيث ينزعجون لفقد الأجابة أو يهنى أحدهم الآخر على البقاء على قيد الحياة، إنهم يفخرون بالشهادة في سبيل الله سبحانه ويرونها حلمهم في نيل السعادة الآخروية، ومن صفاتهم أيضاً:

«مُرَّةُ [٢٥٤] الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ، خُمُصُ [٢٥٥] الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبْلُ [٢٥٦] الشَّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ [٢٥٧] الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهْرِ [٢٥٨]. عَلَى وَجْهِهِمْ غَبْرَةٌ الْخَاشِعِينَ».

نعم، فهم في ساحات المعارك يزأرون كالأسد، وإن جن عليهم الليل ارتفعت أصواتهم بالنحيب والبكاء وجرت دموعهم على خدهم، هكذا هم في الحالين.

ثم خلاص الإمام عليه السلام بعد ذلك إلى الدرس والعبرة التي ينبغي الاحتذاء بها فقال:

«أَوْلَيْكَ إِخْوَانِي الدَّاهِبُونَ. فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَنْظُمًا إِلَيْهِمْ، وَنَعُضَّ الْأَيْدَى عَلَى فِرَاقِهِمْ».

لقد جرت عادة أرباب التربية على الاستشهاد بالتماذج البارزة القيّمة من أجل تهذيب الأفراد المطلوب تربيتهم ليتمكنوا من مقارنة أنفسهم بتلك النماذج فيحذو حذوهم، يقفون

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٤١

على أخطائهم فيهمون بتداركها وإصلاح أنفسهم، وهذا هو الأسلوب الذي إعتمده الإمام عليه السلام في إطار تربيته للأفراد، ولكن

وللأسف لم يكن اولئك الأفراد آنذاك مستعدين لتقبل نصائحه ووصاياه وبرامجه التربوية، وبالطبع لا فائدة لأي مربٍ ومعلم مهما كان بصيراً ومشفقاً ونموذجاً ما لم يكن هناك من استعداد في الطرف المقابل لتقبل أفكاره والاستجابة لها، فالأمطار المفعمة بالحياة والخير والبركة تنزل على كل مكان، ولكن لا تخرج الأرض المالحة إلا الخبث ولا يسعها الاستفادة من تلك الأمطار، والشمس هي الأخرى تضيء لكل ذي عينين، ولكن ماذا يسع الأعمى أن يرى منها، والرياح المنعشة تهب في كل مكان ولكن لا تنتفع بها قبور الموتى.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٤٣

القسم الثالث: الحذار من وساوس الشيطان

«إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسِنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً، وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ، وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ. فَاصْبِرُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ، وَأَقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاكُمْ إِلَيْكُمْ، وَاعْقِلُوا عَلَيْهَا عَلَي أَنْفُسِكُمْ».

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن الشيطان كون وساوسه تمثل مصدر البؤس والشقاء، حيث حذر صحبه ومخاطبيه من هذا المكر وضرورة مراقبة الشيطان والإلتفات إلى طرق نفوذه، وقد بين ذلك على شكل خلاصة بأربع عبارات فقال:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسِنِّي [٢٥٩] لَكُمْ طُرُقَهُ».

ولما كان الشيطان يتبع الأساليب السياسية شيئاً فشيئاً فإنه يسعى لتقويض جموح الدين والقضاء على العقائد والأعمال الواحدة بعد الأخرى:

«وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً»

، من ضمن برامجه وخططه أيضاً إيجاد الفرقه بدلاً من الإتحاد:

«وَيُعْطِيكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ»

، فيشير الفتن بواسطة هذه الفرقه:

«وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ».

أجل أول برنامج للشيطان أن يبدي الطرق الوعرة والخطيرة معبده سهلة في نظر الإنسان، فيستقطب إليه الجميع من خلال المرونة والتساهل وتصوير طريق الطاعة على أنه معقد خطير وصعب، فإن سلك سبيله واتبعه قاده كل يوم إلى ترك قانون من قوانين الشرع وعهد

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٤٤

من عهوده المقدسة، وهو الأمر الذي أكده القرآن الكريم أربع مرّات محذراً من أتباع الشيطان:

«وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...» [٢٦٠].

وقال تعالى: «وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...» [٢٦١].

فان جعل الإنسان غير مكترث للأحكام الإلهية وسادت المجتمع الأهواء، آنذاك يستفيد من تضارب المصالح المادية والتعصبات الجاهلية ليدعو الناس إلى الفرقه، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...» [٢٦٢].

ومن الطبيعي إن اشتعلت نيران الفرقه والاختلاف والنفاق في المجتمع استتبع ذلك ظهور الفتن، ومما لا شك فيه فإن دين الأفراد وديناهم تتحطم بفعل تلك الفتن، ولعل هذا هو الأمر الذي أجراه الشيطان في أحدث معركة صيفين، فقد لقنهم الشيطان بادية الأمر

أن قبول التحكيم هو أسهل الطرق لبلوغ الصلح والاستقرار، ثم دعاهم للتمرد على أوامر المحكم أمير المؤمنين على عليه السلام في مجال الجهاد، آنذاك بث بذور الفرقة والنفاق بين صفوف الجيش حتى انتهى الأمر إلى فتنة عمرو بن العاص وأثرها فتنة الخوارج.

ثم قال الإمام عليه السلام بغية عدم سقوط أصحابه في شباك الشيطان:

«فَاصْدِقُوا [٢٦٣] عَنْ نَزَاغَاتِهِ [٢٦٤] وَنَفَثَاتِهِ [٢٦٥]، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَاعْقِلُوهَا [٢٦٦] عَلَى أَنْفُسِكُمْ».

ويصدق هذا الأمر في عصرنا وزماننا، فالشيطان يرى طرقه المنحرفة سهلة وبسيطة بادىء الأمر، ويسحب الناس إليه، ثم يسلبهم القيم الإسلامية الواحدة بعد الأخرى، ثم يبث بينهم بذور الفرقة والخلاف، وأخيراً تقود الفرقة إلى اشتعال نيران الفتنة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٤٥

الخطبة [٢٦٧] والثانية والعشرون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
قَالَ لِلخَوَارِجِ، وَقَدْ خَرَجَ إِلَى مَعْسِكُرِهِمْ وَهُمْ مَقِيمُونَ
عَلَى إِنْكَارِ الْحُكُومَةِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

نظرة إلى الخطبة

كما ورد أعلاه فإن هذه الخطبة جانب من حديث الإمام عليه السلام قبل معركة النهروان، ذكره الإمام حجة عليهم، فكان لكلامه بالغ التأثير بحيث تاب أغلب الخوارج وتراجعوا عن القتال، فقد قسمهم الإمام عليه السلام بادىء الأمر إلى فئتين، وقد فرق بين صفوفهم، فنة شهدت صفين وأخرى لم تشهدا، وفي القسم الثاني ذكر أصحاب الصفين بأنكم أنتم من فرضتم عليّ مسألة التحكيم، والحال كنت شديد المخالفة لذلك الأمر، وقد أمرتكم بمواصلة الجهاد حتى تحقيق النصر.

وفي القسم الثالث أشار إلى مسألة وهي إننا كنا في صدر الإسلام نقاتل قرابتنا حين كانوا في معسكر الكفر من أجل نصر الدين، وأما الآن فالذي يقف في المعسكر المقابل إخواننا من

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٤٦

المسلمين الذين أخطأوا الطريق وقد اختلفت الظروف والشرائط، وعليه فإن علينا أن ندفع الشبهة عنهم لتحل المشكلة.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٤٧

القسم الأول: كيف وقعتم في فخ العدو

إشارة

«أَكَلْتُمْ شَهْدَ مَعْنَا صِغْفِيرٍ؟ فَقَالُوا: مِمَّا مَنْ شَهَدَ وَمِمَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ. قَالَ:
فَأَمْتَارُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهَدَ صِغْفِيرَ فِرْقَةٍ، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةٍ، حَتَّى أَكَلَمَ كُلًّا مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ. وَنَادَى النَّاسَ، فَقَالَ:
أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي، وَاقْبَلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَسَدْنَا شَهَادَةَ فَلْيُقِلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا.
ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصِيحَةَ حِيلَةً وَغِيْلَةً، وَمَكْرًا وَخَدِيْعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا وَاسْتَرَاخُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ؟ فَقُلْتُ لَكُمْ: هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ إِيمَانٌ، وَبَاطِنُهُ عِدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ. فَأَقِيمُوا عَلَيَّ شَأْنَكُمْ، وَالزُّمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَيَّ الْجِهَادِ بِنَوَاجِدِكُمْ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَيَّ نَاعِي نَعَقٍ: إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِنْ تَرَكْتُ دَلَّ. وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْفَعْلَةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا. وَاللَّهِ لَئِنْ أَبَيْتُمَا مَا وَجَبْتُ عَلَيَّ فَرِيضَتَهَا، وَلَمَّا حَمَلَنِي اللَّهُ ذَنْبَهَا. وَوَاللَّهِ إِنْ جِئْتُمَا إِنِّي لِلْمُحِقِّ الَّذِي يُتَّبَعُ؛ وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِي، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحَبْتُهُ:»

الشرح والتفسير

كما ذكرنا سابقاً فإنَّ المخاطب بهذه الخطبة هم خوارج النهروان الذين كلمهم الإمام عليه السلام بهذا الكلام لإتمام الحجية عليهم وهدايه وإرشاد الفئة الضالة المنخدعة، فقال بادىء الأمر من

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٤٨

أجل إعدادهم:

«أَكَلِكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صَفِيْنٌ؟ فَقَالُوا: مِمَّنْ مَنْ شَهِدَ وَمِمَّنْ مَنْ لَمْ يَشْهَدْ».

رغم أن المدَّة بين معركة صفين ومقاتلة خوارج النهروان لم تكن طويلة، لكن لا يعلم كيف اتصلت الفئة الثانية التي لم تشهد صفين بالفئة الأولى الباغية، وربما أثرت عليها وساوس الفئة الأولى سمومها التي بثتها بين أهل الكوفة فجعلتها تلتحق بها وتقف معها في مواقفها الفاسدة.

ثم قال عليه السلام:

«فَأَمْتَارُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مِنْ شَهِدِ صَفِيْنٍ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً، حَتَّى أَكَلِمَ كُلًّا مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ».

فالعبرة تفيد أن المخاطبين بحديث مهم إن لم يكونوا على مستوى واحد فإنَّ الفصاحة والبلاغة تقتضى تمييزهم عن بعضهم والتحدث لكل بما يتناسب ووضعه، ليكون للكلام أثره المرجو والمطلوب، ومن هنا سلك الإمام عليه السلام هذا النهج:

«وَنَادَى النَّاسَ، فَقَالَ: أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي، وَأَقْبِلُوا بِأَفْنِدِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ [٢٦٨] شَهَادَةً فَلْيُقِلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا».

فالذى يستفاد من هذه العبارة أن الخوارج أو جيش الإمام عليه السلام ممن حضر هناك، أو كلاهما، أنهم كانوا مشغولين بالكلام مع بعضهم البعض الآخر، فقد دعاهم الإمام عليه السلام إلى الصمت والاستماع لما يقول والاقبال عليه بقلوبهم ليستعدوا للتفاعل مع الكلام، كما إختار من جمعهم بعض الشهود:

«ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:» [٢٦٩].

فقد أخذ الإمام عليه السلام أيديهم إلى الماضى القريب وذكرهم بكبر أخطائهم وعظم معصيتهم وتمردهم، ثم خاطب الفرقة التي شهدت صفين:

«أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيْلَةً [٢٧٠]، وَمَكْرًا وَخَدِيْعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا [٢٧١] وَاسْتَرَاخُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ؟».

بعد ذلك طرح الإمام عليه السلام رده على تلك الخدعة:

«فَقُلْتُ لَكُمْ: هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ إِيمَانٌ،

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٤٩

وَبَاطِنُهُ عِدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ».

وعليه:

«فَأَقِيمُوا عَلَيَّ شَأْنَكُمْ، وَالزُّمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَيَّ الْجِهَادِ بِنَوَاجِدِكُمْ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَيَّ نَاعِي نَعَقٍ: إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِنْ تَرَكْتُ دَلَّ».

لكن مع الأسف فقد وقعت هذه الفتنة (التحكيم) ورأيكم استجبت لها، والآن قد ارتفع صوتكم بعد أن سقطتم في الفتنة: «وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْفَعْلَةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا».

حقاً، إنه لمن دواعي العجب! فقد عرضوا الإمام لأشد الضغوط في اللحظات الأخيرة لتلك المعركة المصيرية والتي أشرفت على تحقيق النصر النهائي حتى فرضوا عليه الاستجابة لخدعه عمرو بن العاص وقبول التحكيم، بل أبعد من ذلك هددوه بالقتل إن لم يصدر أمره لمالك الأشتر بالانسحاب والف عن القتال، ولما زالت الحجب وتكشفت الأمور وبانت الخدعة توجهوا باللوم إلى الإمام عليه السلام لم قبلت التحكيم، بدلاً من العودة إلى نفوسهم والاعتذار والههم بإصلاح ما بدر منهم من أخطاء).

الجدير بالذكر في هذا الأمر أن الإمام عليه السلام ميز الخوارج في بداية الأمر إلى فرقتين، فرقة شهدت صفين وأخرى لم تشهدا، لتتضح قضية وهي إن تمرّت الفرقة الثانية بفعل جهلها وعدم إحاطتها بأحداث صفين، فما بالكم أنتم الذين شهدتم صفين وتابعتهم الأحداث؟ فما المنطق والاسس التي دفعتكم للقدوم إلى النهروان؟ كيف تتهمونى بمسؤولية التحكيم؟

وهكذا أتمّ الحجّة عليهم وعلى أولئك الفريق الثاني الذي خدع بالفريق الأول ورافقه إلى الميدان، وليس هنالك أسوأ ممن لا يصغى لكلام الناصح الأمين المشفق، فان أصابته مصيبة بما قدمت يداه نسب التقصير فيها إلى ذلك الناصح وجابهه بالإعتراض، نعم، هذا هو دين الأفراد البعيدين عن الانصاف والذين ينسون ما يصدر منهم من أفعال.

ثم أوضح الإمام عليه السلام حقيقة الموقف بصورة أخرى ليقسم بأنه لو لم يقبل التحكيم لما كان عليه من مسؤولية في الالتزام بلوازمها ولا يحملها الله سبحانه ذنبها ووزرها:

«وَاللَّهِ لَئِنْ أَيْبَيْتُهَا مَا وَجِبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا، وَلَا حَمَلِيَّ اللَّهُ ذَنْبَهَا».

إشارة إلى مراده: إن خالفت بشدّة مسألة التحكيم في بداية الأمر فذلك لكى لا أكون مسؤولاً تجاه لوزامها ولا يلحقنى وزرها؛ لأنّ قضية التحكيم أدت إلى تقوية حكومة

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٥٠

طواغيت الشام وذهبت بدماء شهداء صفين أدرج الرياح، فذلت دعاة الحق وأشعرتهم باليأس.

ثم قال عليه السلام إثر ذلك:

«وَوَاللَّهِ إِنْ جِئْتُهَا إِنِّي لِلْمُحِقِّ الَّذِي يَتَّبِعُ؛ وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعَى، مَا فَارَقْتُهُ مُدَّ صَحِيبَتِهِ».

إشارة إلى أنه حين رأيت ما وقع بينكم من شقاق في مسألة التحكيم يتطلب أن أمنعه، وبخلافه لنزع أحدكم الآخر وشهر السيف في وجه صاحبه ولقاد ذلك الأمر إلى فضيحة كبرى، وهنا شعرت بالاضطرار لقبول التحكيم.

أضف إلى ذلك فلو فوضتم التحكيم إلى من هو عالم به ولا يفارقه ومحيط بمضمونه ولم تتجهوا صوب فرد بسيط وجاهل كأبى موسى الأشعري، لفشلت تلك المؤامرة وخمدت الفتنة، وإن كان فيها من ضرر جزئى محدود، لكنكم فرضتم على التحكيم وكذلك أجبرتمونى على تحكيم أبى موسى الأشعري، فسقطتم في هذه الفتنة وتكبدتم كل هذه الأضرار فما تقولون بهذا الخصوص؟ فهل على أن أتحمّل مسؤولية تقصيركم؟ وأدفع ثمن جريمتكم؟ والذي نخلص إليه ما مر معنا من كلام:

١- أن الإمام عليه السلام أقسم مرّتين في هذا المقطع من كلامه، سيّما في القسم الثاني الذى أردفه بالتوكيد ليبيّن بعده كل البعد عن أدنى تقصير.

٢- ما بيّنه الإمام عليه السلام فى القسمين المذكورين ليس فيه ما يدلّ على ترديده فى مسألة للتحكيم، بل إشارة إلى حالتين مختلفتين، فقد كان مخالفاً بشدّة فى البداية، لأنّه كان يعتبرها مكر وحيلة خطيرة، ولما اختلف جيشه وصحبه، وأبى الأعم الأغلب منهم إلّا للتحكيم، استجاب للتحكيم دفعاً للفتنة وإبعاداً للفرقة والشقاق، وعليه فقد كانت مخالفته فى بداية الأمر وموافقته تستند إلى الحكمة، وبغض النظر عمّا سبق لو لم يصرّ ذلك الفريق الجاهل على تحكيم ذلك العنصر الفاسد كأبى موسى الأشعري لما كانت المشاكل

بذلك الحجم، فذلك الإصرار الفرض هو الذي أدى إلى عقم نتائج معركة صفين والامتياز الذي حصل عليه أعداء الإسلام، وبناءً على هذا فإن هذه الفئة المتعصبة أخذت تفقد مواضعها الواحد بعد الآخر حتى انتهت إلى ذلك المصير الأسود، والعجيب أنهم استجيبوا للتحكيم؟!!

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٥١

لكن وعلى كل حال، فإن منطق الإمام عليه السلام بهذا الخصوص قد أتى أكله فعاتت طائفة عظيمة من الخوارج إلى نفسها فتابت وكفت عن القتال، حتى صرحت كتب التاريخ بأن الأغلبية الساحقة من الخوارج قد تابت ووقفت على عظيم زلتها.

نبذة عن شخصية معاوية

إن الأعمال التي مارسها معاوية طيلة تاريخ حياته ولا سيما في مدة حكومته لتكشف حقيقة واضحة لكل فرد منصف في أنه لم يفكر بارساء العدل بين المسلمين، ولم يكن يهتم بنشر الإسلام، بل كان جل همّه ترسيخ دعائم حكومته المترزلة، ومن هنا فقد اعتمد كافة الأساليب التي يلجأ إليها جابرة الدنيا من أجل ترسيخ حكوماتهم، وأبسط نموذج يمكن الإشارة إليه في هذا المجال إنما يتمثل برفعه لقميص عثمان في الشام وذرف دموع التماسيح على الخليفة المقتول ظلماً بهدف إثارة الناس للتمرد على أمير المؤمنين على عليه السلام وسفك دماء المسلمين، إلى جانب إغداق الرشاوى الضخمة على زعماء القبائل، بل حتى بعض قواد جيش الإمام على عليه السلام وإيجاد الفرقة والخلاف بينهم وبين سائر الناس.

وكذلك توجيه الأراذل إلى مختلف نواحي البلاد الإسلامية لنهب الثروات وإشاعة أجواء التوتر والقلق. ولعل قضية رفع المصاحف وحملها على أسنّة الرماح تعدّ واحدة من تلك الأساليب، فمعاوية لم يكن مستعداً لقبول حكم القرآن الكريم، كما لم يكن مهتماً بهذا الأمر، وكل ما يفكر فيه هو الحكومة، كما ذكر شراح نهج البلاغة أنّ معاوية قام بوجه أمير المؤمنين على عليه السلام في البداية تحت شعار الطلب بدم عثمان، إلّا أنه لم يصطدم قط بقتله عثمان بعد ظهوره عليهم، فقد كان يقول أحياناً، ألسنت من قتله عثمان؟ وأحياناً أخرى كان يسكت، ويغدق عليهم العطاء (هذا ما نقله العقاد في كتاب «معاوية» ونقل عبد الكريم الخطيب عن كتاب «على بن أبي طالب عليه السلام» أنّ عائشة بنت عثمان طالبت معاوية بالقصاص من قتله أبيها.

فأجابها معاوية:

«لأنّ تكوني ابنة عمّ أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض الناس»
مراده أنّ قضية الطلب بدم عثمان قد انتهت، وكان الهدف منها الاستيلاء على

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٥٢

حكومته وقد حصل هذا الأمر، ولعل المطالبة بدم عثمان تهدد كياننا، وما عليك إلّا الإكتفاء والقناعة بأنك ابن عمي، ابن عم حاكم المسلمين طبعاً، يمكن التعرف على شخصية معاوية من خلال مقريه، فقد ذكر العقاد، أنّ عمرو بن العاص قال يوماً لمعاوية:

«أترى أننا خالفنا علياً لفضلنا؟ لا والله إن هي إلّا الدنيا تنكأب عليها»

، أي ولم يكن الحديث عن الإسلام والقرآن سوى الذريعة.

وذكر ابن الأثير أنّ سعد بن أبي وقاص قال لمعاوية:

«السلام عليك أيها الملك».

فقال معاوية:

«لم لم تسلم عليّ بأمر المؤمنين».

فأجاب سعد قائلاً:

«وَاللَّهِ إِنِّي مَا أَحْبُّ إِنْ وَلَّيْتَهَا بِمَا وَلَّيْتَهَا».

ومراده أنك ولَّيتها بالمكر والحيلة [٢٧٣].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٥٣

القسم الثاني: بذلنا ما في الوسع من أجل الوحدة

«فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيُدُورُ عَلَى الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانَ وَالْقَرَابَاتِ الْأَقْرَبَاءِ، فَمَا نَزْدَادُ عَلَيَّ كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِيمَانًا، وَمُضِيًّا عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيمًا لِلْأَمْرِ، وَصَبْرًا عَلَى مَضِضِ الْجِرَاحِ. وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّرِيعِ وَالْأَعْوَجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ. فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْمِلِهِ يَلُمُّ اللَّهُ بِهَا شَعْنَنَا، وَتَنَدَّأَنِي بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا، رَغْبِنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا».

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالإجابة المنطقية لأصحاب الخوارج، فقد قالوا: لِمَ استجاب الإمام عليه السلام إلى التحكيم؟ لِمَ لا نقاتل الأعداء إلى آخر نفس على غرار ما فعله المسلمون من صحابة النبي صلى الله عليه وآله في صدر الإسلام؟ هل أذن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لمسألة التحكيم؟ فقد أوضح الإمام عليه السلام حقيقة في إجابته على اولئك بأن زماننا يختلف تماماً عن زمان النبي صلى الله عليه وآله، ومن نقاتلهم الآن طائفة من المسلمين المخدوعين، والحال كان أعداؤنا في صدر الإسلام هم الكفار والمشركون الذين وقفوا بوجه الإسلام.

فقد قال عليه السلام:

«فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيُدُورُ عَلَى الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانَ وَالْقَرَابَاتِ الْأَقْرَبَاءِ، فَمَا نَزْدَادُ عَلَيَّ كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٥٤

إِيمَانًا، وَمُضِيًّا عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيمًا لِلْأَمْرِ، وَصَبْرًا عَلَى مَضِضِ الْجِرَاحِ».

نعم، لقد كنا نهجم بشدة آنذاك على العدو، وإن كان فيهم إخواننا وقرابتنا، فالمصائب وإن عظم علينا، لكن حيث كان ذلك يأمر فقد كنا نزداد إيمانًا، ولم نجابه كل مصائب المعارك وجراحاتها إلا بالصبر والشكر:

«وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّرِيعِ وَالْأَعْوَجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ. فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْمِلِهِ يَلُمُّ اللَّهُ بِهَا شَعْنَنَا [٢٧٦]، وَتَنَدَّأَنِي بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا، رَغْبِنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا».

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى أن قياس زمانه بزمان رسول الله صلى الله عليه وآله هو قياس مع الفارق، وذلك لأن القتال ذلك الزمان كان يدور مع العدو الخارجي، بينما أصبح زمان الإمام عليه السلام ضد الأصدقاء المخدوعين والمنحرفين من الداخل، فالواقع يستند موقف الإمام عليه السلام في قبول التحكيم إلى الآية الشريفة: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَمَا تَلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تَ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» [٢٧٧].

صحيح أن أصل مسألة التحكيم خدعة ولم يكن أمراء جيش الشام يعتقدون بالقرآن، ولهذا السبب كان الإمام شديد المخالفة في بادئ الأمر، لكنّه استجاب لذلك الأمر بعد ذلك الضغط الشديد الذي مارسه السواد الأعظم المخدوع من جيشه مع ذلك كان بالإمكان أن تتمخض مسألة التحكيم عن نتائج مرضية لو خضعت لقيادة سليمة، ولكن كما نعلم فإن ضغوط الجهال قد دفعوا التحكيم إلى مسار لا يجر عليهم سوى الضرر والخسارة.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٥٥

الخطبة [٢٧٨] المائة والثلاثة والعشرون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
قَالَ لِأَصْحَابِهِ فِي سَاعَةِ سَاعَةِ الْحَرْبِ «بَصْفَيْنِ»

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة جزء من خطبه طويلة إقتطف المرحوم السيد الرضى بعضها، وقد تضمنت إشارة إلى بعض النقاط المهمة، وهي:

- ١- يجب على الأفراد الذين يتمتعون بقدرات فائقة في القتال أن يدافعوا ويشدوا من أزر الضعاف.
 - ٢- إن الأفراد الذين يهربون من الجهاد خشية الموت هم على خطأ، لأنه لا يمكن الفرار من الموت الذي يدرك الجميع أينما كانوا.
- نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٥٦
- ٣- لا موت أشرف وأكرم من الشهادة، فألف ضربه بالسيف خير من ميتة على الفراش.
 - ٤- إخبار عن هوان أهل الكوفة وذلهم في المستقبل بسبب وهنهم وضعفهم في مواجهة الظلمة.
- نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٥٧

القسم اول: شكر القدرة

إشارة

«وَأَيُّ أَمْرِي مِنْكُمْ أَحْسَنُ مِنْ نَفْسِي رِبَاطَةَ جَاشٍ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَسَلًّا، فَلْيَذُبْ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فَضَّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ. إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَيْثُ لَا يَنْفُوهُ الْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ. إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَيَّ الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ!».

الشرح والتفسير

يشتمل هذا الكلام- سواء أوردته الإمام عليه السلام على أعتاب معركة الصفين كما ورد آنفاً أو حسبما صرح به بعض المحققين على هامش معركة الجمل بعد ضجة معسكر عائشة، أو في المعركتين وذلك لأنه يتناسب مع كل مهما- على نقاط مهمة وردت ثلاث منها في هذا القسم من الخطبة:

الاولى: لزوم التنسيق بين أفراد الجيش بحيث يتولى الأقوياء الدفاع عن الضعفاء للحد من جسامه الخسائر، فقد قال عليه السلام:

«وَأَيُّ أَمْرِي مِنْكُمْ أَحْسَنُ مِنْ نَفْسِي رِبَاطَةَ [٢٧٩] جَاشٍ عِنْدَ
اللَّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَسَلًّا، فَلْيَذُبْ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ [٢٨٠] الَّتِي فَضَّلَ بِهَا
عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٥٨

ثم أضاف عليه السلام:

«فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ».

فان وهبه القوة والصلابة فقد وجب عليه الشكر، والمراد أن أفعال الله وإن استندت إلى الحكمة جميعاً، مع ذلك فمن تمتع بنعم كثيرة وجب عليه الشكر بافاضتها على الآخرين ليؤدى بذلك الشكر العملى للنعمة.

والثانية: لو لم يكن هناك من تنسيق بين العسكر فان ذلك يؤدى إلى إحباط الجميع، وذلك لأن العدو إنما يهجم على الجانب الذى يشعر بضعفه، فان اخترقه وقضى عليه، إلتف ليحاصر باقى العسكر، وعليه وإضافة لمسألة الشكر فان فنون القتال وسياسة المعركة تتطلب من الأجنحة القوية من العسكر شد ظهور الأجنحة الضعيفة وعدم التوانى فى الدفاع عنها، بحيث لا تسدد إليها ضربات العدو، ولا سيما إذا استطاع العدو أن يشل حركة طائفته من الجيش، فانه سيتمكن من تحطيم معنويات الجميع.

ثم إتجه الإمام عليه السلام صوب نقطة مهمة أخرى وهى ضرورة ألا يتصور أحد أنه يستطيع الفرار من مخالف الموت، فهو يدرك المقيم والمنتظر والهارب:

«إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَيْثُ لَأَيُّوْتُهُ الْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ».

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: الموت على نوعين: موت حتمى، وموت معلق أو مشروط، والذى لا يمكن تغييره هو الموت الحتمى، أما الموت المشروط، فهو قابل للتغيير على ضوء تغير الظروف والشرائط، ولعل الموت فى ساحة القتال ليس من الموت الحتمى فكيف إستدل الإمام عليه السلام بهذه المسألة وقال بشأن الموت لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب.

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بوجهين:

الأول: هو أن الإمام عليه السلام ناظر للموت الحتمى فقط سواء فى ساحة القتال أو غير ساحة القتال فلا يمكن إجتنابه.

والثانى: على فرض أن الإنسان يستطيع الهروب من مخالف الموت المشروط أو المعلق، ولكن ما جدوى ذلك؟ فالموت الحتمى بالتالى سيدرك جميع الأفراد دون استثناء، فلا ينبغى للإنسان أن يستسلم للظلمة فى مقابل البقاء عدّة أيام [٢٨١].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٥٩

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمة وقيمة فقال:

«إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ [٢٨٢] عَلَى الْفَرَّاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ!».

فالعبرة تفيد عظمة مقام الشهداء إلى درجة أن الإمام عليه السلام يعرب عن إستعداده لتحمل ألف ضربة بالسيف يؤثرها على ميتة الفراش الطبيعية، وهذا هو لسان حال أو قال جميع المؤمنين المخلصين والشجعان الذين يعشقون طريق الحق، طبعاً لا تعنى العبارة أنى لا أشعر بألم ضربات السيف - كما ذهب إلى لذلك بعض شراح نهج البلاغة - بل المراد أن الأولى بالإنسان من حيث الجانب المعنوى أن يفتح صدره لتحمل أقسى الضربات بدلاً من الموت الطبيعى على الفراش، لأن وسام الشهادة يجعل الإنسان يتحمل الألم والمعاناة، ولا ننسى هنا الروايات التى صرحت بأن الإنسان بحكم الشهيد إن مات على الفراش على سلامة من دينه، وهو الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى آخر العبارة.

الشهادة عرس الأبطال

الشهادة من القيم السامية التى تضمناها الثقافة الإسلامية، والشهيد يمثل قمة المرتبة الإنسانية، وأولياء الله كما أورد الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة يفكرون دائماً بالشهادة ويأبون الموت طبيعياً على الفراش، ويرون الشهادة أفضل ألف مرّة من ميتة على فراش، وكانوا مستعدين لتلقى آلاف الضربات والفوز بالشهادة دون الموت على الفراش، وذلك لأنّ روح الإنسان أعظم هدية إلهية، وما أروع أن تبذل هذه الهدية فى سبيل الله سبحانه، لا أن تذهب هدراً فى الموت.

ويكفى فى فضل الشهادة ما ورد فى حيث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حين شاهد فرداً يدعو الله تعالى قائلاً:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا تُسْأَلُ فَأَعْطِنِي أَفْضَلَ مَا تُعْطَى».

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٦٠

فقال صلى الله عليه وآله:

«إِنْ اسْتُجِبَ لَكَ أَهْرِيْقَ دَمُكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [٢٨٣].

كما ورد في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَيَتَمَنَّى أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا إِلَّا الشَّهِيدُ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجَعَ فَيَقْتَلَ عَشْرَ مَرَلَاتٍ مِمَّا يَرَى مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ» [٢٨٤].

نعم، مقام الشهداء رفيع جداً في التعاليم الإسلامية، وهم الذين حفظوا الإسلام حين الخطر، ولولا تضحيات الشهداء كشهداء بدر واحد وشهداء كربلاء لما بقى من الإسلام اليوم شيئاً سوى اسمه، ويعيش أعداء الإسلام اليوم حالة من الرعب إزاء الشهادة وفلسفتها في الإسلام، وذلك لأن الشهيد قد يبدد في لحظات مخططات الأعداء وبرامجهم التي تستوعب تكاليفاً باهضة.

أضف إلى ذلك فهم لا يمتلكون أى سلاح يمكنهم من مواجهة هذا السلاح، سمع أخيراً أن الدوائر الصهيونية وإثر عجزها عن مواجهة انتفاضة الشعب الفلسطيني، قد أكدت على ضرورة إجتناب جذور ثقافة التفكير بالشهادة، لابتدأ من اسقاط مفردة الشهادة من كتاب الدراسة المتوسطة والثانوية، كما لابتدأ من إزالة الآيات القرآنية المتعلقة بالشهادة من الكتب الدينية، ومن المؤكد أن البلدان الإسلامية العميلة وما أكثرهم قد ساروا على هذا النهج، وقد اصطالحوا على الشهادة بالانتحار والشهيد بالإرهابي لتشويه هذه المفردة الطيبة، لكن ولحسن الحظ فإن هذه الثقافة قد اتسعت وترسخت بحيث لا يسع هذه الدعايات الوقوف بوجهها، حتى سارع إليها العديد من الشباب والشابات، وهذا ما يشكل أعظم خطر على أعداء الإسلام، نأمل أن يتعرف المسلمون أكثر فأكثر على هذه القيمة السامية التي تدعو إلى الفخر والاعتزاز.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٦١

القسم الثاني: عاقبة السوء

و منه: «وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكْشُونَ كَشَيْشِ الضَّبَابِ: لَأَتَأْخُذُونَ حَقًّا، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْمًا. قَدْ خُلِيتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالْنَّجَاهُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ».

الشرح والتفسير

يرى البعض من شراح نهج البلاغة أن هذا الكلام مستقل، ومن هنا ذكره بصورة مستقلة، بينما يراه البعض الآخر استمرار للكلام السابق، فمن ذكره بصورة مستقلة استدلل بعدم وجود ارتباط بين هذا المقطع والمقطع السابق، حيث حث الإمام عليه السلام أصحابه في المقطع السابق على الجهاد والقتال ببسالة، بينما جرى الكلام في هذا المقطع عن الهزيمة والفرار، وليس هنالك من إنسجام بين هذين المقطعين، ولكن بالنظر إلى أن هذا المقطع يخبر عن المستقبل، وهو المستقبل الذي لا يكون فيه الإمام عليه السلام بين ظهرانيهم ويشهدون حالة من الفرقة والتشتت والضعف والهوان والذل، وعليه يمكن تصور ارتباط بين هذا المقطع وسابقه.

ولكن على حال سواء كان هذا المقطع مستقل أم مرتبطاً، فهو كلام الإمام عليه السلام ويخبر عن المصير المرير لأفراد يوثرون العافية والدعة على الجهاد، فقال:

«وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكْشُونَ كَشَيْشِ الضَّبَابِ» [٢٨٥].

فالعبرة يمكن أن تكون إشارة إلى الحيوانات المعروفة الضباب جمع ضب بالكسر والتي إن تحركت بصورة جماعية اضطربت وإحتك بعضها ببعض الآخر فيظهر من هذا الاحتكاك

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٦٢

صوتاً، والمراد أنكم اضطربتم حين الفرار، بحيث إنك بعضكم بالبعض الآخر وقد انبعث صوت اضطرابكم.

ثم قال عليه السلام:

«لَا تَأْخُذُونَ حَقًّا، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْمًا» [٢٨٦].

أى حال أسوأ من أن يصبح الإنسان على درجة من الضعف والعجز بحيث لا يستطيع الدفاع عن حقه أو عن صحبه وقرابته وإخوته فى الدين، كما لا يستطيع الوقوف بوجه الظلم الذى يوجه إليه وإلى الآخرين، حقاً إنها لحاله مؤلمة مهينة.

ثم إختتم خطبته بالقول:

«قَدْ خَلَيْتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالْتَجَاءُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ» [٢٨٧].

فالعبرة قد خليتكم والطريق تشير إلى إتمام الحجة الكاملة، فقد بين الطريق إلى الهدف بكل وضوح من قبل زعيم عالم، وقد زالت الموانع التى تحول دون سلوكه، وعليه فلن تعد هناك من حجة لمن يقصر فى هذا الطريق، ولذلك بشر سالكين هذا الطريق بالسعادة، بينما هدد المتباطىء بالهلكة.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٦٣

الخطبة [٢٨٨] المائة والرابعة والعشرون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

فى حث أصحابه على القتال

نظرة إلى الخطبة

وردت هذه الخطبة كما يفهم من عنوانها بشأن حث الإمام عليه السلام لأصحابه على الجهاد، وذلك لأنه حسب تصريح شراح نهج البلاغة أنها وردت قبل معركة صفين، ومن هنا تضمنت إشارة إلى بعض الأمور المهمة:

١- ذكر الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة مطالب دقيقة بخصوص فنون القتال وانتخاب أفضل السبل فى مجابهة العدو، بحيث يمكن التوصل إلى النتائج بأقل الخسائر.

٢- حذر أصحابه فى المقطع الآخر من الخطبة وضمن مدحه لمقاتليه من الفرار الذى يستتبع الفضيحة والعار، كما يتطرق إلى ذكر مقامات الشهداء.

٣- يلعن فى المقطع الثالث أعدائه ويقوى عن هذا الطريق عزائم أصحابه المجاهدين.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٦٥

القسم الأول: سبع وصايا فى فنون القتال

«فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ، وَأَخْرُوا الحَاسِرَ، وَعَضُّوا عَلَى الأَصْرَاسِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلشُّبُوفِ عَنِ النَّهَامِ؛ وَالتَّوُوا فى أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمُورٌ لِلأَسْتَنَةِ؛ وَعَضُّوا الأَبْصِيَارَ، فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلجَاشِ، وَأَشْيَكُنُ لِلقُلُوبِ؛ وَأَمِتُوا الأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفِشْلِ. وَرَأَيْتُكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تُخْلُوهَا، وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلاَّ بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَالمَانِعِينَ الدِّمَارَ مِنْكُمْ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الحَقَاقِ هُمُ الَّذِينَ يَحْفُونَ بِرَأْيَاتِهِمْ، وَيَكْتِنِفُونَهَا: حَفَافِيهَا، وَوَرَاءَهَا وَأَمَامَهَا؛ لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيَسْلِمُوهَا، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا. أَجْزَأُ امْرُؤٌ قِرْنَهُ، وَأَسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ،

فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ وَقَوْمُ أَخِيهِ».

الشرح والتفسير

يرى بعض كبار المحدثين أن هذه الخطبة تبدأ كآلاتي:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ دَلَّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ وَتُشْفِي بِكُمْ عَلَى الْخَيْرِ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَجَعَلَ ثَوَابَهُ مَغْفِرَةً لِلذَّنْبِ وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَاتِ عَدْنٍ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صِدْقًا كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُورَةٌ» [٢٨٩] فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ...» [٢٩٠].

ثم أشار في مواصلته لهذا الكلام إلى سبع وصايا هامة في فنون تحقيق النصر، فقال في

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٦٦

وصيته الأولى بهذا الشأن: «فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ [٢٩١]، وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ [٢٩٢]».

فمن الطبيعي أن يكون قليلاً هو الضرر الذي يتعرض له من يلبس الدرع بفعل السهام والسيوف، ومن هنا لا يسع العدو السيطرة عليهم، ومن لم يتدرع يمكنه أن يواصل قتاله وهجماته من خلفهم، والذي يستفاد من هذه العبارة وجود فئته في ميدان القتال لم ترتدى الدرع، وذلك إما يعود إلى الأزمات والمشاكل التي يعيشها المجتمع الإسلامي، أو أن إرتداء الدرع كان يثقل على البعض ويعيق حركته في ميدان القتال، ولذلك كان الأشداء من المقاتلين هم الذين يتدرعون.

وقال عليه السلام في وصيته الثانية:

«وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ [٢٩٣]، فَإِنَّهُ أَنْبَى [٢٩٤] لِلشُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ [٢٩٥]».

وكما ذكرنا في شرح الخطبة الحادية عشرة أن لهذه الخطبة فائدتان، الأولى إزالة الخوف والرعب، أو الحد من هذا الخوف إلى أقل درجة، ومن هنا فإن الإنسان يعمد إلى إطباق أسنانه على بعضها حين الخوف بهدف إزالتها، والأخرى تبقى على صلابه عظام الرأس فلا تتأثر كثيراً بضربات السيف.

وقال في الوصية الثالثة:

«وَأَلْتَمُوا [٢٩٦] فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمُورٌ [٢٩٧] لِلنَّاسِئَةِ».

والوصية أشبه بما يقال اليوم، إن أراد أحد أن يرميك تحرك يميناً وشمالاً، أى عليك بتغيير موضعك باستمرار حتى لا يتمكن العدو من التصويب باتجاهك.

جدير بالذكر أن بعض شراح نهج البلاغة أشار أن المراد بالانعطاف والانحناء حين الهجوم بالحربة على العدو، فإن ذلك يضاعف من دقة الحربة لمواجهه ضد جسد العدو، لكن

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٦٧

بالإلتفات إلى الوصايا السابقة واللاحقة لهذه الوصية والتي تبين فنون الدفاع، فإن المعنى الأول يبدو هو الأنسب، لا سيما التعبير بالحرف في لا يتناسب والمعنى الثاني، بينما يتناسب ما اخترناه حتى التعبير الأمور المأخوذ من مادة مور والذي يعنى الاضطراب.

وقال في الوصية الرابعة بعض النظر (وعدم النظر إلى كثرة العدو وآخره) فذلك أسكن للقلب:

«وَعَضُّوا الْأَبْصَارَ، فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَاشِ [٢٩٨]، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ».

تختلف هذه الوصية عن سابقتها لاشتمالها على بعد نفسى ونعلم جميعاً أن روحية الجنود كلما كانت مرتفعة كان الأمل بالنصر أكثر، ومن هنا أكد الإمام عليه السلام هذا المعنى مراراً وقد مر علينا نموذج ذلك في الخطبة ١١ و ٦٦.

وقال في الوصية الخامسة:

«وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرُدُ لِلْفَسْلِ».

من الطبيعي أن الإنسان حين يشغل بالحديث فإنه يستهلك جانباً من قواه الفكرية وكذلك جانباً من طاقته البدنية ويحد من تركيزه الفكرى والالتفات إلى حملات العدو المبرمجة، ومن هنا فإن العدو الصامت البعيد عن الضوضاء والضجيج يبدو أخطر من غيره. ولذلك ورد بشأن معركة بدر أن قريش تعجبت من قلة عدد جيش الإسلام وتصورت أن عدد المسلمين أكثر مما ترى ولعلمهم إختفوا خلف التلة حيث يردون ميدان القتال فى الوقت المناسب، فبعثوا بعمير بن وهب لينظر أطراف الميدان، فركب فرسه وجعل ينظر حول الصحرا ولم ير شيئاً، فعاد وقال: عدد المسلمين يقارب الثلاثمائة، إلّا أنى رأيتهم مستعدين للقتال ولا يقوى أحد على مواجهتهم، أما ترونها خرسا لا يتكلمون، يتلمذون تلمذ الأفاعى ما لهم ملجأ إلّا سيوفهم وما أراهم يولون حتى يقتلوا ولا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم [٢٩٩].

وقال فى الوصية السادسة:

«وَرَأَيْتَكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تُخْلُوهَا [٣٠٠] وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَالْمَانِعِينَ الذَّمَّارِ [٣٠١] مِنْكُمْ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٦٨

ثم أتت كلامه باستدلال منطقي قائلاً:

«فِيَانِ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ [٣٠٢] هُمُ الَّذِينَ يُحْفُونَ بِرَأْيَاتِهِمْ، وَيَكْتَفُونَهَا: حِفَافِيهَا [٣٠٣]، وَوَرَاءَهَا وَأَمَامَهَا؛ لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيَسْلُمُوهَا، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا».

كان للراية أهمية خاصة فى ميدان القتال فى الأزمنة الماضية، وذلك لدورها فى إرتباط الصفوف والتحامها، وحين كان ينهمك المقاتلون وسط الميدان وجوانبه بالقتال، كانوا يلتفون حين الضرورة حول الراية لإعادة تنظيم صفوفهم وشن الحملات من جديد، وإن سقطت الراية اضطرب العسكر وأحياناً كان ينهار، ولذلك ترى العدو يسعى جاهداً للإحاطة بالراية، بينما يحاول الطرف الآخر الإبقاء على الراية مرفوعة وهو يدافع عنها بكل ما اوتى من قوة، فقد كان سقوطها يعنى الهزيمة، وزبدة الكلام فإن انتصاب الراية دليل على القدرة وسبب قوة وعزيمة المقاتلين وحلقه اتصالهم مع بعضهم، ولهذا ما انفك الإمام عليه السلام عن التأكيد وصاياه بحفظ الراية، حيث أكد من جهة ضرورة ثبوت موضع الراية وأن حمايتها من أشجع الأفراد، ومن جهة أخرى يوصى حملة الراية بعدم التخلي عنها ومراقبتها من جميع الجهات، لا أن يتخلفوا عنها ولا يتقدموا عليها، ويضحوا بالغالى والنفيس من أجل حفظها بفضلها علامة الاقتدار والشموخ وورد فى شأن غزوة خيبر التى. لف الفريقان بخصوصها عشرات الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله أعطى الراية فى اليوم الأول إلى أبى بكر فلم يتمكن من فتح قلاعها، وفى اليوم الثانى أعطاها عمر بن الخطاب، فلم يفلح، فقال صلى الله عليه وآله:

«لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ كَرَارًا غَيْرَ فَرَارٍ يَفْتَحِ اللَّهُ عَلَيْهِ» [٣٠٤].

فامتدت الأعناق فى اليوم التالى ليروا من هو ذلك الرجل، وقد تمنى كل فرد (شجاع) أن

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٦٩

يكون هو المعنى فيعطيه رسول الله صلى الله عليه وآله و آله الراية، نادى رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام وسلّمه الراية فلم يرجع إلّا بعد أن فتح خيبر واستسلم له أهلها، هذه دلالة على الأهمية الفائقة للراية وحاملها فى ذلك الزمان، وقد تكرر نفس هذا المعنى فى عصر على صلى الله عليه وآله مالك الأشتر النخعى وقال له علمت بوقوفك فى القتال وشجاعتك ولولا ذلك لدفعت الراية إلى غيرك، فردّ عليه بالقول:

«لَأَسْرِنَكَ الْيَوْمَ يَا مَالِكَ أَوْ أَقْتَلُ شَهِيداً» [٣٠٥].

ثم أشار الإمام عليه السلام فى وصيته السابعة والأخيرة إلى قضية أخرى من تكتيكات الحرب أنذاك فقال:

«أَجْزَأُ أَمْرًا قَوْلُهُ [٣٠٦]، وَآسَى [٣٠٧] أَحَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ قَوْلُهُ إِلَى أَخِيهِ، فَيَجْتَمِعَ

عَلَيْهِ قَوْلُهُ وَقَوْلُ أَخِيهِ».

يتضح المفهوم الدقيق لهذا الكلام فيما لو دققنا بصورة صحيحة على وضع الحروب في ذلك الزمان، فقد كانت للمعركة في ذلك الوقت ثالث صور (وأحياناً كانت تتحقق الصور الثلاث في نفس المعركة):

الأولى: أن يتقدم أحد الشجعان وسط الميدان ويدعو شجاعاً آخر من العدو لمبارزته، فيتبارزان حتى يهلك أحدهما.

الثانية: أن يتقدم الميدان عدّة أفراد ليقف كل واحد منهم أمام خصمه فيبدأ بينهم القتال.

الثالثة: أن تدور المعركة بين المعسكرين بأكملهما طبعاً هناك صورة رابعة تكون المعركة فيها غادرة كأن تنهال طائفة على فرد فتزل عليه ضرباتها من كل جانب، ويبدو أنّ العبارة تشير إلى هذه الصورة الثانية التي يبرز فيها عدّة أفراد إلى أمثالهم، وفي هذه الحالة لا ينبغي لأحد أن يترك خصمه لآخر، بل يبارز كل واحد خصمه فيراعى المساواة والمواساة وتقف من خلال هذه الوصايا على مدى خبرة الإمام عليه السلام بفنون القتال حيث يعرّف أصحابه على أدق تفاصيل القتال قبل البدء فيه.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٧١

القسم الثاني: الجنة تحت ظلال السيوف

«وَإِيمُ اللَّهِ لَنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ، لَاتَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ، وَأَنْتُمْ لَهَا مِيمُ الْعَرَبِ، وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ. إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ اللَّهِ، وَالذَّلَّ اللَّازِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِي. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلَمَّا مَحْجُوزٍ [مَحْجُوبٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ. مَنْ الرَّائِخُ إِلَى اللَّهِ كَالظَّمَانِ يَرُدُّ الْمَاءَ؟

الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي! الْيَوْمُ تُبْلَى الْأَخْبَارُ! وَاللَّهِ لَأَنَا أَشَوْقٌ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاثة أمور بهدف إعداد الأصحاب في ميدان القتال، فأحياناً يهددهم إن هم فروا من القتال، وأخرى يمدحهم ويتعرض لما يتحلون به من نقاط إيجابية يراها فيهم، وأخيراً يشجعهم ويحثهم على الثواب والأجر الاخرى، وعليه يمكن إيجاز هذا المقطع من الخطبة في ثلاثة محاور هي: التهديد، والتشجيع، والتمجيد، فقد قال على مستوى المحور الأول:

«وَإِيمُ اللَّهِ لَنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ، لَاتَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ».

فالعبارة سيف الآخرة إشارة إلى عذاب الله الذي يشمل الفارين من ميدان الجهاد، ولا شك أنّ الفرار من الزحف من الكباثر، وذلك لأنّ فرار عدّة أفراد يؤدي إلى هزيمة عسكر جرّار ويقود حضارة عريقة إلى السقوط والانهيار، أو يجعل العدو يسدد ضرباته الموجهة إلى

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٧٢

الإسلام، ثم قال على مستوى المحور الثاني، أي المدح والثناء:

«وَأَنْتُمْ لَهَا مِيمُ [٣٠٨] الْعَرَبِ، وَالسَّنَامُ [٣٠٩] الْأَعْظَمُ. إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ [٣١٠] اللَّهِ، وَالذَّلَّ اللَّازِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِي. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلَمَّا مَحْجُوزٍ [٣١١] بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ».

فهو يعددهم من جانب بصفتهم مبرزى شخصيات العرب التي تشد نحوها الأنظار، من جانب آخر يذكرهم بمساوىء عار الفرار وهي الغضب الإلهي والذل الدائم والهوان والفضيحة الأبدية، على صعيد آخر ذكرهم بهذه النقطة وهي إن كان الهدف من الفرار هو التمتع بعمر أطول فإنّ هذا الهدف لا يحصل بالفرار، ذلك لأنه لا محيص من الممات واليوم الذي قدر فيه فلا يدفعه دافع.

نعم، قد يتصور الإنسان أنّه يحصل على عمر أطول عن طريق الفرار، ولو فرض أنّ الأمر كذلك فما قيمة هذا العمر وهو يتضمن العواقب الثلاث متمثلة بغضب الله والذل والهوان الأبدى، وقد خاطب القرآن الكريم أولئك الذين يشعرون بالقلق من تواجدهم في

جبهات القتال قائلاً:

«قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ...» [٣١٢]

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بعبارة قصيرة عميقة المعنى تهدف حثهم على جهاد العدو فقال:

«مَنْ الرَّاغِبُ [٣١٣] إِلَى اللَّهِ كَالظَّمَانِ يَرُدُّ الْمَاءَ؟ الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي [٣١٤]!».

وأخيراً قال عليه السلام بأن اليوم تبلى أخبار وأعمال كل فرد ويتميز فيها الغث من السمين:

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٧٣

«الْيَوْمَ تُبْلَى الْأَخْبَارُ!».

العبارة من الرائج إلى الله سبحانه إشارة إلى الأفراد الذين يقبلون بكل شوق ورغبة وعشق الشهادة، كعشق العطشان إلى الماء الزلال.

وقد أورد الإمام عليه السلام شبيه هذا المعنى في وصيته قبل الشهادة وبعد ضربته حيث قال:

«وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدٍّ، وَطَالِبٍ وَجَدٍ...» [٣١٥]

. والعبارة اليوم تبلى الأخبار هي في الواقع إقتباس من الآية ٣١ من سورة محمد صلى الله عليه وآله:

«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَمْثَلًا...».

والفردة أخبار إما تعنى الأعمال أو الكلام والزعم والتي تبلى جميعاً في ميدان الجهاد، والعبارة:

«الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي!».

. تشبه العبارة التي أوردها رسول الله صلى الله عليه وآله في ميدان معركة أحد، حيث قال:

«الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ».

الجدير بالذكر أن أحد الأنصار سمع هذا القول من رسول الله صلى الله عليه وآله وفي يده تميرات يلوكها، فقال: بخ بخ! ليس بيني

وبين الجنة إلا هذه التميرات، ثم قذفها من يده وكسر جفن سيفه وحمل على قريش فقاتل حتى قُتل [٣١٦].

ثم قال في العبارة الأخيرة من أجل حث صحبه على الجهاد:

«وَاللَّهِ لَأَنَا أَشَوْقٌ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ».

بمعنى لا دافع عندهم للجهاد وهم يحرضون على العودة إلى بيوتهم، بينما أحرص على جهاد عدو الحق والعدالة، فالمراد هلموا لكل

رغبة لميدان الجهاد واعلموا أن النصر حليفكم حين تقاتلون عدواً لا دافع له.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٧٥

القسم الثالث: القضاء على آخر معاقل العدو

«اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ، وَشَدِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ. إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنِ دِرَاكٍ، يَخْرُجُ

مِنْهُمْ

[مِنْهُ]

النَّسِيْمِ، وَضَرْبِ يَفْلُقِ الْهَامِ، وَيُطِيحُ الْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ السَّوَاعِدَ وَالْأَفْدَامَ؛ وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ تَتَّبِعُهَا الْمَنَاسِرُ؛ وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ، تَقْفُوها

الْحَلَائِبُ؛ وَحَتَّى يُجَرَّ بِلَادِهِمْ الْخَمِيسُ يَتْلُوهُ الْخَمِيسُ؛ وَحَتَّى تَدْعَقَ الْخَيُْولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِيهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام على عليه السلام في هذا المقطع - الذي يمثل المقطع الأخير من الخطبة - في أمرين:

الأول: يدعو فيه على العدو، وهو الدعاء الذي يجر عليهم الهزيمة والعذاب الإلهي ويشد من عزيمة صحبه ويضعف إرادتهم فقال:

«اللَّهُمَّ فَإِنَّ رُدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ [٣١٧] جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتَّ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ [٣١٨] بِخَطَايَاهُمْ».

جدير ذكره أن الإمام عليه السلام اشترط اللعن بعدم قبول الحق، وذلك لأن الهدف النهائي من هذا القتال لا يكمن في الاستيلاء على العدو والسلطة، بل ليس للإمام عليه السلام من هدف سوى قبول الحق، فإن قبله انتفت الحرب، وهذه هي فلسفة قتال دعاة الحق وأهل الإيمان طيلة التاريخ.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٧٦

والأمر الآخر: هو أن الإمام عليه السلام ذكر اختلاف الكلمة ضمن دعائه كوسيلة لتفريق العدو وهزيمته والذنوب من أسباب البؤس والشقاء، ومن هنا كان دعاؤه درساً، ليس درس واحد بل دورس. وفي القسم الآخر من هذا المقطع من الخطبة أشار إلى وصية قتالية مهمة أخرى فقال لهم، إن أردتم الانتصار عليكم بتوجيه الضربات الموجهة إلى العدو وأن تقوم كل فرقة من العسكر بمهمتها الخاصة ومتابعة العدو حين الهزيمة دون إمهاله ليتحقق النصر الشامل، فشرح ذلك قائلاً:

«إِنَّهُمْ لَمَنْ يَرُؤُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنِ دِرَاكٍ [٣١٩]، يَخْرُجُ مِنْهُمْ النَّسِيمُ، وَضَرْبُ يَفْلِقِ الْهَامِ، وَيُطِيحُ [٣٢٠] الْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ [٣٢١] السَّوَاعِدَ وَالْأَقْدَامَ».

ثم واصل عليه السلام حديثه مؤكداً على ضرورة شن الهجمات عليهم تلو الهجمات وأن تتبنى فرقة مطاردتهم ورميهم بالسهم، وأن تعاضد كل فئة الأخرى وتحمل على العدو، كما يقوم الفرسان بمطاردتهم حتى المدن حتى تندوس حوافر خيلكم آخر نقطة في أرضهم والاستيلاء على مسار الذهب والأياب والطرق المرأى من كل جانب:

«وَحَتَّى يَزْمُوا بِالْمَنَاسِرِ [٣٢٢] تَتَّبِعُهَا الْمَنَاسِرُ؛ وَيَزْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ [٣٢٣]، تَقْفُوهَا الْحَلَائِبُ [٣٢٤]؛ وَحَتَّى يَجْرَّ بِيَادِهِمُ الْخَمِيسُ [٣٢٥] يَتْلُوهُ زَالِخَمِيسُ؛ وَحَتَّى تَدْعُقَ [٣٢٦] الْخَيُْولُ فِي نَوَاحِرِ [٣٢٧] أَرْضِهِمْ، وَيَأْعَنَانِ [٣٢٨] مَسَارِيهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ [٣٢٩]».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٧٧

فقد علم الإمام عليه السلام في هذه الخطبة جنوده الآداب الفردية للقتال، وفي القسم الأخير الآداب الجماعية في كيفية عمل الكتائب والفرق والخيالة والمشاة وتنسيقها فيما بينهما تجاه العدو والاعتماد على الأساليب العلمية في القضاء على العدو، ومن النقاط المهمة التي تطرق إليها الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة هي عدم التواني في إتمام النصر على العدو، وربما كانت للإنسحابات أبعاد المباغتة، والهدف تشديد الحملات، فلا يدمى تعقيب العدو إلى أقصى نقاط منطقة الاستيلاء على كل مكان ليزول بالمرء أي احتمال لأن يشن العدو هجماته.

والحق لو عمل جيش الإمام عليه السلام بهذه الوصية في صفين والتي أوردتها الإمام عليه السلام قبل المعركة لخدمت فتنة بنى أمية إلى الأبد ولزال شبح ظلمهم وجور حكمهم عن المسلمين، ولكن وللأسف فقد سمعوا كل هذه الوصايا وضربوها عرض الحائط فتجرعوا مرارة تمردهم.

خاض المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه في نهاية هذه الخطبة بشرح بعض مفرداتها الصعبة فقال:

الدعق: الدعق، أى تدق الخيول بحوافرها أرضهم، ونواحر أرضهم: متقابلاتها ويقال:

منازل بنى فلان تتناحر أى تتقابل، انتهى كلام السيد الرضى.

ولكن فسر أغلب أرباب اللغة النواحر بمعنى المناطق البعيدة وهذا ما يناسب الخطبة.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٧٩

الخطبة [٣٣٠] المائة والخامسة والعشرون

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّحْكِيمِ وَذَلِكَ بَعْدَ سَمَاعِهِ لِأَمْرِ الْحَكَمِيِّينَ

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في السابق أنّ هذه الخطبة وردت بصورة عامّة بشأن التحكيم بعد معركة صفين، وهي تتألف من عدّة أقسام، فقد بيّن الإمام عليه السلام قبول التحكيم من خلال الاستدلال بالآيات القرآنية.

وفي القسم الثاني يتكفّل بالردّ على الاعتراضات والقسم الثالث والأخير ينصح الإمام عليه السلام بالكفّ عن الخلاف وإعداد أنفسهم من أجل الوقوف بوجه ظلمة الشام كما ذمهم على ما أبدوه من تقصير واعتراض وعدم انضباط.

نفحات الولاية، ج 5، ص: 181

القسم الأول: الردّ على الخوارج

إشارة

«إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطُّ مَسْتُوْرٍ بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَا يُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ. وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّئِ عَنِ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ). فَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ أَنْ نُحَكِّمَ بِكِتَابِهِ، وَرُدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا».

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً فإنّ الخطبة ردّ على اعتراض قبول الإمام عليه السلام للتحكيم، ومضمون كلام المعترضين: لم قبلت تحكيم فردين في هذا الأمر الديني المهم؟ والحال لا حكم إلا لله وليس لعامة الأفراد من حق في الحكم في الوظائف الدينية، أمّا الإمام عليه السلام فقد أشار في رده إلى نقطه مهمّة فقال:

«إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطُّ مَسْتُوْرٍ [331] بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ [332]، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَا يُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ».

نفحات الولاية، ج 5، ص: 182

إشارة إلى أنّ القرآن الكريم بيّن طائفة من الأحكام الكلية وعلى العالمين بالقرآن استنباط الأحكام الجزئية وإبلاغها إلى عموم الناس، أو بعبارة أخرى تطبيق تلك الكليات على المصاديق، على سبيل المثال قال القرآن الكريم: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحِدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تِ قَاتِلُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» [333].

لا شك أنّ معركة صفين أحد مصاديق هذه الآية، ووظيفته التحكيم - إن كانا على الصواب وعالمين بالأمور - أن يقولوا: لما بايع الناس علياً عليه السلام إضافة إلى نص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه فإنّ عامة الامّة والصحابة قد قبلت خلافته، فمن سلك غير هذا السبيل كان مصداقاً للباغي والظالم وعليه العودة إلى الامّة والتوبة، فإن أبي وجب على المسلمين مقاتلته حتى يرعوى عن غيه.

ومسألة التحكيم لا - تشذ عن هذا الأمر، فهي ليست سوى ما يقوم به قضاء الإسلام، أي أنهم يطبقون أحكام الكتاب والسنة على

مصاديقها ويصدرون الأحكام بهذا الخصوص، فهل هناك من اعتراض على هذا الكلام؟ للأسف لم يدرك الخوارج الجهال هذا المطلب الواضح ولم يدعهم تعصبهم وجهلهم ليفهموا ذلك فيعوا الهدف الأصلي من الحكومة.

ثم خاض الإمام عليه السلام في توضيح هذا المعنى قائلاً:

«وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحْكَمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلَّى عَنْ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» [٣٣٤].»

فوضح الإمام عليه السلام الآية بالقول: «فَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ أَنْ نُحْكَمَ بِكِتَابِهِ، وَرُدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا».

ومن هنا فقد أثبت الإمام عليه السلام بوضوح أنّ تحكيم الكتاب والسنة لا تعنى سوى الرجوع إليهما، ولما كنا مأمورين بهذا الأمر، فليس لأحد أن يعترض علينا لم قبلنا التحكيم، فخطأ

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٨٣

المعترض في تصويره أننا قبلنا تحكيم الأشخاص، والحال إننا لم نقبل سوى تحكيم كتاب الله.

وهنا سؤال يطرح نفسه: يفهم من كلام الإمام عليه السلام هذا أنه قبل التحكيم على ضوء رغبته ورضاه ووظيفته الشرعية، والحال يفهم من عدة خطب وردت في نهج البلاغة أنّ التحكيم فرض على الإمام عليه السلام وكان ممتنعاً من هذا الأمر، فكيف يمكن حلّ هذا التناقض؟

نقحات الولاية؛ ج ٥؛ ص ١٨٣

دّ من القول في الإجابة عن هذا السؤال أنّ الإمام عليه السلام لم يكن مخالفاً للتحكيم قط، بل كان الإمام عليه السلام يؤكد على أمرين: الأول: هو أنّ رفع المصاحف على أسنة الرماح كان خديعة ومؤامرة تهدف الحيلولة دون انتصار جيش الإمام عليه السلام في اللحظات الأخيرة من المعركة، وإيجاد الفرقة والاختلاف بين صفوف عسكر الإمام عليه السلام، وإلّا فأهل الشام لم يكونوا مستعدين لقبول تحكيم القرآن الكريم، فلم يكونوا من أهل الدين ولا القرآن حسب تعبير الإمام عليه السلام [٣٣٥].

الأمر الآخر: هو أنّ الإمام عليه السلام كان معترضاً على أبي موسى الأشعري كمثل له في تحكيم القرآن، وعليه فليس هنالك من تناقض بين هذه الخطبة وسائر الخطب نهج البلاغة، والشاهد على ذلك ما فعله الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء طبق نقل أرباب المقاتل أنّه وضع المصحف على رأسه وخاطب أهل الكوفة:

«يَا قَوْمِ إِنِّي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ جَدِّي رَسُولُ اللَّهِ» [٣٣٦].

قضية التحكيم

نعلم أنّ جيش معاوية حين أشرف على الهزيمة المنكرة في صفين، فبادر عمرو بن العاص المعروف بمكره إلى توصية أهل الشام برفع المصاحف على أسنة الرماح والقول بالتسليم لحكم القرآن، من جانبه قال الإمام عليه السلام بأنّ هؤلاء لا يسلمون لحكم القرآن وليس ذلك سوى خدعة بهدف منع تلك الهزيمة الحتمية، إلّا أنّ فئة من جهال عسكر الإمام عليه السلام إلى جانب

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٨٤

المنافقين لم يسمعوا كلام الإمام عليه السلام وأصروا على إيقاف المعركة، حتى هددوا الإمام عليه السلام بالقتل، فلم يكن من الإمام عليه السلام وبهدف الحيلولة دون ذلك الاختلاف والشقاق وبحكم الإجماع إلّا أنّ أصدر أمره بإيقاف القتال.

ثم قالوا بوجوب انتخاب فردين من العسكرين لتحكيم القرآن، والعجيب أنّ طائفة منهم بعد ذلك وقفوا بوجه الإمام وهبوا لمخالفته

والاعتراض عليه في قبوله للتحكيم، الخطأ الآخر الذي بدر من الجهال والمنافقين هو اختيارهم لأبي موسى الأشعري الجاهل كحكم وفرضوه على الإمام عليه السلام وهو الأمر الذي أدى إلى تلك الانتكاسة المريعة والعجيب في الأمر فته بعد هذه الحادثة رفعت رايه التمرد على الإمام عليه السلام معترضه على قبوله للتحكيم، في حين هذا القرآن يصرح قائلاً:

«إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» [٣٣٧]

، فكان من نتائج ذلك وقوع معركة أخرى عرفت بمعركة النهروان، وقد رجعت طائفة منهم إلى نفسها بعد أن سمعت كلام الإمام عليه السلام فتابت إلى الله سبحانه، ولم تبقى إلا فئة قليلة لم يكتب لها الدوام، وقد كان عمل الإمام عليه السلام واضحاً في هذا الأمر للأسباب التالية:

١- تحكيم القرآن في حلّ الخلافات العالقة بين المسلمين ليس بخفى على أحد، وقد أمر القرآن المسلمين صراحة بالرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله في حالة حدوث اختلاف بينهم (الآية ٥٩ من سورة النساء التي استشهاد بها الإمام عليه السلام في كلامه). وبناءً على ما سبق فتحكيم القرآن واستناداً لعقيدة كافة المسلمين الذين للقرآن الكلمة الفصل في حل المنازعات ليست بالأمر الذي يدعو إلى الاعتراض على الإمام عليه السلام، لكن لم يكن من أولئك الجهال إلا أن يصوروا الأمر على أنه نقطة ضعف في الإمام عليه السلام.

٢- لا شك أن الذين أثاروا فتنة رفع المصاحف على أسنة الرماح لم يكن لهم من اعتقاد بحكم القرآن ولا الحق والعدل، بل لم يكن لساسة الكفر عديمي الإيمان من هم سوى التسلط على الأمة والهيمنة على إمكاناتها المادية، وقد كشف الإمام عليه السلام اللثام منذ البداية عن كنه هذه المؤامرة، ولكن ما جدوى ذلك حيال الجهال الذين رفضوا منطق الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٨٥

٣- قطعاً ليس للقرآن من دور في التحكيم من خلال نفسه، وإنما يتسنى ذلك بواسطة أهل الذكر العالمين بالقرآن فيجتهدون في استنباط أحكامه في كل مسألة وإبلاغها إلى الناس، ولو حصل هذا الأمر في حادثة صفيين لتبين أن عسكر معاوية مشمولون بالآية التاسعة من سورة الحجرات القائلة:

«فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ...»

فينبغي إدانتهم بصفتهم بغاة طغاة هبوا للوقوف بوجه إمام المسلمين والحكومة الإسلامية.

والمؤسف أن الحكيم هما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص اللذان ليس لهما من علم بالقرآن، ونهض بالأمر من هو عارف بالقرآن، فإن ذلك ليس خلافاً فحسب، بل يمثل عملاً بالقرآن وأحكامه، لكن حيث لم تحصل الشرائط اللازمة في أية مرحلة، وكانت النتيجة مريعة على تلك الفئة الجاهلة، فعمدت إلى لوم الإمام عليه السلام بدلاً من ذمها لنفسها، فلم تعتمد لإصلاح منظرها، بل اتجهت إلى كسر المرأة، طبعاً لا ينبغي تصور قضية التحكيم على أنها ترتبط بحادثة تاريخية عابرة، بل هي قضية تكرر في مختلف العصور والأزمنة وحتى في عصرنا الحاضر، فهناك من يتستر خلف بعض المقدمات من ثم يحملوها بعض القراءات الخاطئة عن علم وبدونه ويختارون ما يتماشى ومصالحهم اللامشورعة.

فلعمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري - هذان الجاهلان - أشباههما في كل زمان، وأما أكثر ما تتكرر واقعه صفيين وحمل المصاحف على السنان والتحكيم التي تتخذ لنفسها صوراً مختلفة، فلا تتمخض سوى عن النتائج التي تؤدي إلى مظلومية من يسير على النهج العلوي.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٨٧

إشارة

«وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلًا فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِيَتَّبِعَنَّ الْجَاهِلُ، وَيَتَّبِعَتِ الْعَالِمُ؛ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ وَلَا تُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا، فَتَعَجَلَ عَنِ تَبْيِينِ الْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ. إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ - وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَّهَهُ - مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةٌ وَزَادَهُ. فَأَيْنَ يَتَاهُ بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتَيْتُمْ! اسْتَبَعِدُوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ، وَمُوزَعِينَ بِالْجُورِ لَا يَعْدِلُونَ بِهِ، جُفَاءً عَنِ الْكِتَابِ، نُكِبَ عَنِ الطَّرِيقِ. مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا، وَلَا زَوَافِرَ عَزٌّ يُغْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَبَسَ حُشَّاشُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ! أَفْ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرَحًا، يَوْمًا أَنَادِيكُمْ وَيَوْمًا أَنَاجِيكُمْ، فَلَا أَحْرَارٌ صِدْقٍ عِنْدَ النَّدَاءِ [[القاء]]

، وَلَا إِخْوَانٌ ثِقَةٌ عِنْدَ النَّجَاءِ!.

الشرح والتفسير

يتألف كلام الإمام عليه السلام في الواقع من قسمين: الأول يعالج شبهات الخوارج وأمثالهم، ثم يحثهم على جهاد ظلمة الشام، فكلام الإمام عليه السلام في القسم الأول إشارة إلى ميثاق التحكيم الذي وقع بين الإمام عليه السلام ومعاوية (وسياتى شرح ذلك في موضوع تأملات) وعلى ضوء العهد فقد منح الحكمان مدة سنة لحل اختلاف الامة دون التسرع في ذلك، والمعترضون الجهال يشكلون أحياناً على أصل التحكيم والذي أوجب عليه الإمام عليه السلام في القسم السابق من الخطبة، وأحياناً أخرى كانوا يشكلون على تفاصيله، أى مسألة المدة، ومن هنا رد الإمام عليه السلام على الإشكال

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٨٨

الأخير بالقول:

«وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلًا فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِيَتَّبِعَنَّ الْجَاهِلُ، وَيَتَّبِعَتِ الْعَالِمُ».

ثم أضاف:

«وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ [٣٣٩] أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ وَلَا تُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا [٣٤٠]، فَتَعَجَلَ عَنِ تَبْيِينِ الْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ».

فقد بين الإمام عليه السلام عدّة فوائد للأجل الوارد في مسألة التحكيم،

الأولى:

أن يترث الجهال ويكفوا عن شططهم وتعصبهم ويحققوا في المسألة المصيرية، والأخرى: أن يقوم القوم علماء الامّة من أصحاب على عليه السلام بدراسة جوانب المسألة ويختاروا ما ينطوى على الحد الأدنى من الخسائر ويهدوا الحكمين لانتخاب الصحيح، والثالثة: التفكير خلال هذه المدة في الطرق التي تتكفل بإصلاح أمر الامة بصورة كلية واجتناب الأفعال المتسرعة التي تقود إلى الضلال، والغريب في الأمر التسرع والطيش الذي مارسه الخوارج الجهال بهذا الشأن ليعرضوا مصير الامة للخطر دون أدنى دراسة وتحقيق، وهذا هو ديدن الجهال من الأفراد في كل عصر ومصر.

أما العبارة:

«لَا تُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا»

فهى كناية عن الحرية من أجل المطالعة واتخاذ القرار والانتخاب، وهى كناية فصيحة وبلغه، والعبارة:

«تَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ»

إشارة إلى أن التسرع في القرار ضلالة عادة.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بأول الغي رفع المصاحف على أسننه الرماح التي تعدّ أول خطوة في الضلال [٣٤١]، ويبدو التفسير الأول بقرينة الجملة التي سبقتها أنسب.

ثم خاض الإمام عليه السلام في نصحهم ووعظهم بالانقياد للحق وعدم مجابته بالتعصب واللجاجة وملاحظة المنافع الشخصية، فقال: «إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ - وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرِهَتْهُ [٣٤٢] - مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةٌ وَزَادَهُ». نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٨٩

الواقع إن علامة المؤمن الحقيقي هي هذه، يعنى ان وقف على مفترق طرق بحيث كان الحق في جانب والمنافع الشخصية في جانب آخر، ولى ظهره لمنافعه الشخصية واندفع نحو الحق، وإلا فلا فخر في تعصب الإنسان للحق الذي ينسجم مع حفظ مصالحه الشخصية، ومن هنا ذم القرآن الكريم طائفة من اليهود التي عملت على هذا الضوء فقالوا: «تُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَتُكْفِرُ بِبَعْضٍ...» [٣٤٣]، كانت تلك الطائفة تدعن للقوانين الموافقة لميلها ورغبتها وتحقق منافعها، بينما تتمرد على تلك التي تتعارض ورغباتها، والحق إن مثل هذا التفكيك لا يعنى عبادة الله سبحانه، بل عبادة الهوى، ويصدق هذا الكلام على الأفراد الذين يهتبون لنصرة الباطل بدافع التعصب واللجاجة ودعم الأصدقاء والقرباء، وقد ورد مثل هذا الكلام عن على عليه السلام في خطابه لعمر بن العاص حيث أقسم أنه يعرف الحق، إلا أنه يتجاهله، ولم يدفعه للإلتحاق بصوف أعداء الله سبحانه سوى منافعه [٣٤٤].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«فَأَيْنَ يَتَاهُ [٣٤٥] بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ [٣٤٦]!».

آنذاك دعاهم لجهاد القوم الظالمين، وقد نعتهم بخمس صفات سلبية تتمثل بحيرتهم عن الحق وعدم رؤيته وقد شجعوا على الظلم والجور، ومن هنا فلا يسعهم الاقلاع عنه، وقد ابتعدوا عن كتاب الله وانحرفوا عن الصراط، رغم حملهم المصاحف ووضعها على الرماح وكلامهم عن تحكيم القرآن الكريم: «اسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ، وَمُوزَعِينَ [٣٤٧] بِالْجَوْرِ لَا يَعْدِلُونَ بِهِ، جُفَاءً عَنِ الْكِتَابِ، نُكِبَ [٣٤٨] عَنِ الطَّرِيقِ».

وهكذا أشار الإمام عليه السلام إلى أننا نمتلك خمسة أدلة قاطعة إن أردنا قتال هؤلاء وكل واحد من هذه الأدلة يكفى سبباً لقتالهم!

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٩٠

فقد حادوا عن الصواب وانحرفوا عن الصراط، ولا يكثرثون للقرآن الكريم، اعتادوا على الظلم والجور، وقد عجزت أعينهم عن رؤية الحق فأصبحوا يدورون حول ذواتهم.

ثم لهج لسان الإمام عليه السلام بالشكوى في عباراته الأخيرة وعرضهم لأشدّ الذم واللوم، لعلهم يفيقون إلى أنفسهم ويعيدون النظر في أعمالهم فقال:

«مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُغْلَقُ بِهَا، وَلَا زَوَافِرَ [٣٤٩]

عَزٌّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَبِئْسَ حُشَّاشٌ [٣٥٠] نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ!».

ثم شدد عليه السلام في تفريعهم فقال:

«أَفْ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحًا [٣٥١]، يَوْمًا أَنْادِيكُمْ وَيَوْمًا

أُنَاجِيكُمْ، فَلَا أحرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النَّدَاءِ

[[القاء]]

، وَلَا إِخْوَانٌ ثَقَّةٌ عِنْدَ النَّجَاءِ [٣٥٢]!».

فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى حقيقة في هذه العبارات وهي إن كانت هنالك من مشكلة قد ظهرت في أمر الجهاد وحكومته عليه السلام فأنما مرد ذلك إلى عدم كفاءة جمع من صحبه، وذلك لأنهم كانوا يبدون الضعف والوهن في كل ميدان يطرقة الإمام عليه

السلام، ومن الطبيعي أن هناك ضرورة للصولة المقتدرة في بداية المعركة والتي ينبغي أن تحصل من قبل الرجال الأشداء والشجعان والمخلصين، ولم يكن من ينهض بهذا الدور في معسكر الإمام عليه السلام، من جانب آخر فإن القائد حين ينادى أن أحملوا! فلا بد من حركة الجميع بشكل منسجم، إلتأثم كانوا أضعف وأوهن من ذلك، وإن كانت هناك من خطط حربية يطلعون عليها بصورة سرية، لا بد أن يجدوا ويجتهدوا في حفظها، إلتأثم لم يكونوا من حفظه الأسرار ويوثق بهم، وعليه لا يبدو من الصواب توقع حصول نصر خاطف في ظل وجود مثل هؤلاء الأفراد، والعجيب في الأمر فإن مثل هؤلاء الأفراد وبهذا المدى من الضعف والوهن حين يصابون بفشل، فهم يوعطونه إى الخارج ويحملوا الإمام عليه السلام مسؤوليته زلاتهم دون أن يهتموا ويفتشوا عن أسباب ذلك في أنفسهم، وهذه مشكلة كبرى.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٩١

تأملان

١- عهد صفين

حين استغل ظلمة الشام قضية رفع المصاحف على أسنة الرماح وخذعوا بها أهل العراق، ففرض الصلح على أمير المؤمنين على عليه السلام كتب هذا العهد بين الفريقين:

«هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب [٣٥٣] ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي

بن أبي طالب علي أهل العراق ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية بن أبي سفيان علي أهل الشام ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين أنا ننزل عند حكم الله وكتابه ولا يجمع بيننا إلا إياه وإن كتاب الله سبحانه بيننا من فاتحته إلى خاتمة نحيى ما أحيا القرآن ونميت ما أمات القرآن فإن وجد الحكمان أن ذلك في كتاب الله إبتعناه وإن لم يجداه أخذنا بسنة العادلة غير المفرقة والحكمان عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص [٣٥٤].

وقد نقل هذا الصلح أو العهد (أو مهما سميته) في مختلف الكتب مع اختلاف طفيف، وكلها تشير إلى أن المسألة كانت مسألة تحكيم القرآن الكريم لا- تحكيم الأشخاص، وبعبارة أخرى فإن الأشخاص كانوا مكلفين باستنباط ما في القرآن بهذا الشأن وتطبيقه على مصاديقه، بينما اعتبرها الخوارج تحكيم للأفراد في دين الله فأثاروا مختلف الولايات والمآسى التي أفرزتها الجهل والحمافة.

٢- حوار الإمام عليه السلام مع الخوارج

روى أن أمير المؤمنين على عليه السلام أرسل عبد الله بن عباس إلى الخوارج وكان بمرآى منهم

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٩٢

ومسمع ليسألهم ما الذي نعموا عليه؟ فقالوا في الجواب: نعمنا يابن عباس على صاحبك خصالاً كلها موبقة مكفرة تدعو إلى النار: أميا أولها: فأنه محى اسمه من إمرة المؤمنين، ثم كتب بينه وبين معاوية فإذا لم يكن أمير المؤمنين فنحن المؤمنون فلسنا نرضى أن يكون أميرنا.

وأما الثانية: فأنه شك في نفسه حين قال للحكيمين: انظر فإن كان معاوية أحق بها فأثبتناه، وإن كنت أولى بها فأثبتاني، فإذا هو شك في نفسه، فنحن فيه أشد شكاً.

والثالثة: أنه جعل الحكم إلى غيره وقد كان عندنا أحكم الناس.

الرابعة: أنه حكم الرجال في دين الله ولم يكن ذلك إليه.

الخامسة: أنه قسم بيننا الكراع والسلاح يوم البصرة ومنعنا النساء والذرية.

السادسة: أنه كان وصياً فضيخ الوصيئة.

قال ابن عباس: قد سمعت يا أمير المؤمنين مقالته القوم فأنت أحق بجوابهم. فقال عليه السلام: نعم، ثم قال له: قل لهم يا ابن عباس أترضون حكم الله ورسوله؟ فقالوا: بلى، ثم قال: أميا الأولى فقد كتبت عهد الصلح يوم الحديبية «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اصطلح عليه رسول الله وأبوسفیان وسهيل بن عمرو» فقال سهيل: إنا لا- نعرف الرحمن الرحيم أولاً، وثانياً ولا نقر أنك رسول الله، وثالثاً ولكننا نحسب ذلك شرفاً لك أن تقدم اسمك قبل أسمائنا. إن كنا أسن منك، فأمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أكتب بدلاً من «بسم الله الرحمن الرحيم» «بسمك اللهم» وبدلاً من «رسول الله» «محمد بن عبد الله»، ثم قال لي: إنك تدعى إلى مثلها فتجيب وأنت مكره، وهكذا كتبت بيني وبين معاوية وعمرو بن العاص، فقال الخوارج: هذه لك خرجت منها.

وأما الثانية إني شككت في نفسي حيث قلت للحكمين: انظروا فان كان معاوية أحق بها مني فأثبتاه، فان ذلك لم يكن شكا مني فقد قال القرآن: «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» [٣٥٥].

ولم يكن ذلك شكاً وقد علم الله أن نبيه على الحق، فقالوا: وهذا لك، وأما قولكم أنني جعلت الحكم إلى غيري وقد كنت عندكم أحكم الناس، فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله قد جعل الحكم إلى سعد

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٩٣

يوم بنى قريظة وقد كان أحكم الناس، وقد قال الله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» [٣٥٦]، قالوا: وهذه لك بحجتنا، قال وأما قولكم أنني حكمت في دين الله الرجال، فما حكمت الرجال ولكن حكمت كلام ربي فقال في الصيد عند الاحرام:

«وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ» [٣٥٧]

، فدماء المسلمين أعظم من دم طائر، قالوا: وهذه لك، قال وأما قولكم: إني قسمت يوم البصرة الكراع والسلاح ومنعتكم النساء والذرية، فاني مننت على أهل البصرة كما من رسول الله صلى الله عليه وآله على أهل مكة، وبعد فأيتكم كان يأخذ عائشة في سهمه، قالوا: وهذه لك بحجتنا قال وأما قولكم أنني كنت وصياً فضيخت الوصيئة، فأنتم كفرتم وقدمتم عليّ وأزلتم الأمر عني ...

قالوا: وهذا لك وإثر ذلك رجع بعضهم وبقي منه أربعة آلاف فقاتلهم فقتلهم. [٣٥٨]

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ١٩٥

الخطبة [٣٥٩] المائة والسادسة والعشرون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
لَمَّا عُوتِبَ عَلَى التَّسْوِيَةِ فِي الْعَطَاءِ

نظرة إلى الخطبة

يبدو الهدف من هذه الخطبة كما يفهم من عنوانها هو جواب الإمام عليه السلام لمن أشار عليه باغداق أموال بيت المال على الأشراف

وزعماء القبائل الذين يمكنهم التأثير على الحكومة، فيعطيهم سهماً أكثر من غيرهم ويميزهم بالعتاء، وذلك من أجل ترسيخ حكومته، وقد تضمنت إجابة الإمام عليه السلام الإشارة إلى أمرين:

الأول: ليس لي قط ترسيخ دعائم حكومتي من خلال الظلم والجور والتمييز بين الناس وإعتاء حق أحد لآخر، فلا يسعني بلوغ الحق والعدل بواسطة المعصية.

الثاني: أن من يمارس هذا الفعل فإن عاقبته جحود اولئك الأفراد الذين أعتدق عليهم.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٩٧

«أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللَّهِ لَمَا أَطُورُ بِهِ مَا سَجَرَ سَجِيرٌ، وَمَا أَمْ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا! لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ! أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِشْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللَّهِ. وَلَمْ يَضَعْ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلَا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وَدُهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النُّعْلُ يَوْمًا فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَالْأَمُّ خَدِينٍ!».

الشرح والتفسير

المنصب والعدالة

أورد المرحوم الكليني في بداية نقله لهذه الخطبة عن أبي مخنف أن جماعة من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام اقترحوا على تقسيم أموال بيت مال المسلمين على الزعماء والأشراف (في أن يعطيه من سهمهم) لتستقر الحكومة ومن ثم يعود إلى التسوية في العطاء، فانزعج الإمام عليه السلام وأورد هذه الخطبة ليوضح لهم عدم إمكانية الوصول إلى هدف مقدس من خلال وسيلة ليست مقدسة، فهذا الأمر لا ينسجم مع تعاليم الإسلام فقال:

«أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ!».

أو ليس الهدف من الحكومة هو بسط العدل والقسط؟ كيف تقترحون على تثبيت هذه الحكومة بالظلم والجور؟ هذا تناقض واضح للعيان، وهو أمر لا يرتضيه الحق تبارك وتعالى.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٩٨

ثم أضاف عليه السلام قائلاً:

«وَاللَّهِ لَأَطُورُ [٣٦٠] بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ [٣٦١]، وَمَا أَمْ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا!».

فقد بين الإمام عليه السلام رسوخ عزمه بهذا الشأن بعبارات صريحة وقوية، فهو يقسم من جانب، ويستعمل العبارة لا أطور من جانب آخر، والمراد ليس فقط لا أفعل هذا، بل لا أقاربه ولا أحوم حوله، إلى جانب ذلك أشار إلى الحركة المتواصلة والأبدية للنجوم في السماء والليل والنهار في الأرض، كناية عن مراده لو كان عمري خالداً فلست مستعداً للممارسة مثل هذا الظلم والتمييز، ثم أكد ذلك بقوله:

«لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ!».

فالعبرة وإن بدت صعبة على الأفراد الذين ليس لهم بُعد نظر واولئك الذين يضحون بالحق والحقيقة من أجل المصلحة، إلا أن الحق هو أن هذه العبارة إنما تتفق وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وتعاليم القرآن الكريم والقيم الإسلامية العليا، وهذا ما سنعرض له في البحث القادم.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مفسدات الظلم والجور والتقسيم غير العادل لأموال بيت المال فقال:

«أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللَّهِ». قد يكون التبذير والاسراف بمعنى واحد ويرادف كل منهما الآخر تارة، وتارة أخرى بمعنيين، لأنَّ التبذير بالمعنى الواقعي يختلف عن الاسراف، فالتبذير من مادة بذر بمعنى نثر البذور وتستعمل حين يضيع الإنسان نعمة الله ويطرحها جانباً، وبعبارة أخرى ينفق الأموال في غير موضعها، أما الاسراف فهو المبالغة في إستهلاك النعم بحيث يخرج من حالة الاعتدال

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ١٩٩

دون أن يضيع شيئاً ظاهرياً، كأن يعد طعاماً كثيراً للغاية وفاخراً لبضعه أفراد، بينما يمكن إطعام عشرات الأفراد بتلك القيمة، فقد أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من خطبته إلى الآثار المعنوية السيئة لصرف الأموال في غير مواضعها، حيث يمكن أن يحظى الإنسان في ظلها بمكانة معينة إلى أجل بين الناس، بينما يسقط بالمرء أمام الله ويعرض نفسه لأشد العقاب في يوم الجزاء، وأما نعتة مثل هذا العطاء بالتبذير والاسراف، فذلك لأنه يؤدي إلى اشاعة التبذير والاسراف في وسط المجتمع، فاولئك الذين يأخذون أكثر من الحد اللازم، لا يسعهم غالباً إفاضة جزء منه على الآخرين، كما لا يستطيعون احتمالها بأنفسهم، فلا مناص من بروز حالة التبذير والاسراف.

ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلى الآثار الدنيوية السيئة لذلك العمل فقال:

«وَلَمْ يَضَعْ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلَا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لغيرِهِ وَدُهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْمًا فَاحْتِاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَالْأُمُّ خَدِينٍ [٣٦٣]».

والعبارة ألام خدين إشارة إلى أن اولئك الأفراد الذين أحسن إليهم ليس فقط لا يقدمون المساعدة لمن أحسن إليهم في يوم عوزه فحسب، بل تبلغ بهم الوضاعة واللؤم أن يتحولوا إلى ذامين، أما ما فهمه بعض شراح نهج البلاغة من أن العبارة تعنى اللوم والتوبيخ، فلعل ذلك كون الصديق هو المصداق الواضح للوضاعة حين الحاجة، وقد دل التاريخ والتجارب الشخصية كراراً ومراراً على أن أغلب الظلمة والأثرياء الذين يصدقون الأموال على أصدقائهم، لم يمهد أحد لهم يد العون حين ذاقوا وبال أعمالهم، بل نفر عنهم أقرب أصدقائهم القدماء، ولعل بيت الشعر المعروف للشاعر المشهور حافظ الشيرازي والذي تناقله الألسن ومضمونه «أني لم أتأثر قط بما يفعله الأجانب، بقدر ما أتأثر مما يفعله الصديق» إشارة إلى هذا المعنى.

بحث في اسلوب تقسيم العطاء

يستفاد من هذه الخطبة الشريفة أن الإمام عليه السلام كان شديد الحرص على تقسيم أموال بيت

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٠٠

مال المسلمين بينهم بالسوية دون أن يكون هناك أدنى امتياز لشريف على وضع وشخصية سياسية واجتماعية وحتى السابقين في الإسلام، بل حتى أهل الحاجة على أحد من الناس، وهذا ما كانت عليه الحال على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ويبدو أنه كان النهج الذي اعتمده الخليفة الأول أيضاً، حتى خلافة عمر حيث إتبع التمييز والاخذ بنظر الاعتبار الامور السياسية والاجتماعية في تقسيم بين المال.

قال ابن الحديد: أما عمر فإنه لما ولي الخلافة فضل بعض الناس على بعض، ففضل السابقين على غيرهم، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضل العرب على العجم، وفضل الصريح على المولى، وقد كان أشار على أبي بكر في أيام خلافته بذلك، فلم يقبل وقال هذا خلاف كتاب الله، ولما ولي عثمان الخلافة بلغ التمييز قمته، فقد فضل آنذاك كافة قرابته وبطانته، فقسم بينهم أغلب أموال بيت المال [٣٦٤]، وقد ذكر العلامة الأميني رحمه الله في المجلد الثامن من كتابه الغدير الصفحة (٤٨٦) عنواناً أسماه (الفوضى في مال الله) جمع فيه الأرقام الدقيقة التي روتها مختلف مصادر العاقبة بشأن

هباته إلى قبيلته وأعوانه، وهي الأرقام التي تذهل كل إنسان حين يتأملها، فكان هذا أحد العوامل التي دعت الناس للقيام عليه، كما أن رفع هذه الامتياز من قبل الإمام عليه السلام كان أحد العوامل التي جعلت زعماء القبائل يتمردون عليه (كما يفهم من هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة) [٣٦٥].

والطريف في الأمر أن أصحاب الإمتيازات في ذلك الزمان لم يخفوا هذا الأمر، كما نقل ذلك الطبري في تاريخه، حيث قال رجل لأبي عبدالرحمن السلمي (الذي كان معروفاً آنذاك) [٣٦٦]:

ناشدتك الله متى عادت علياً عليه السلام أليس ذلك حين قسم العطاء ولم يعطك وأهلك شيئاً (وقد استغلوا بيت المال قبل ذلك)؟ قال أبو عبدالرحمن: بلى هو كذلك. [٣٦٧]

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٠١

على كل حال لا بد من بحث جذور مسألة المساواة التي تأكدت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام، قطعاً إن ذلك يعود إلى ماهية الأموال التي كانت ترد بيت المال، وتوضيح ذلك أن الأموال التي كانت ترد بيت المال تستند إلى نواحي:

الأولى: غنائم الحرب وتعلم أن ليس هناك أي تفاوت بين المقاتلين بخصوص الغنائم الحربية، سوى أن الفارس كان يأخذ ضعف الراجل (بسبب التكاليف المتعلقة بالمركب، فهم الذين كانوا يعدونه، إضافة إلى دور الفارس مقارنة بدور الراجل في المعركة).

الثانية: أموال الخراج وهي الأموال المتعلقة بالأراضي الإسلامية والتي كانت تشكل أغلب بيت المال على عهد الخلفاء، فهذه الأموال تتعلق بجميع المسلمين ولا بد من تقسيمها بالسوية عليهم، وذلك لأن أراضي الخراج ملك لعامة المسلمين وينبغي توزيعها عليهم بالسوية، حيث يتقسم دخل الملك المشاع بالتساوي على جميع المالكين، لأن سهم ملكية الجميع متساوي.

الثالثة: الجزية والأموال التي تجبى من غير المسلمين إزاء ما يتمتعون به من دعم وحماية من جانب الحكومة الإسلامية إلى جانب حفظ أموالهم وأعراضهم، ويرى طائفه من كبار الفقهاء أن مصاريف الجزية هي مصارف الخراج المتعلقة بجميع المسلمين.

الرابعة: الزكاة التي تفرض على بعض الأجناس بمقدار معين وقد تكفل القرآن الكريم ببيان مصاريفها الثمانية، وقد قسمت بصورة عامة إلى الفقراء، والمساكين، حسب حاجتهم وفي موارد مصاريف الجهاد حسب الحاجات، وعليه فالمعيار في تقسيمها الحاجة لا المساواة.

الخامسة: الخمس وهي الأموال المفروضة على كافة الإيرادات بعد طرح التكاليف ومخارج السنه، وعلى وضوء ما أورده القرآن الكريم والروايات فإن الخمس نصفان، نصف يتعلق بأهل الحاجة من بني هاشم، والنصف الآخر بإمام المسلمين والذي ينفقه في حاجيات الحكومة الإسلامية.

السادسة: الأنفال التي تشمل جميع الأموال التي ليس لها ملكية خاصة كالأراضي الموات والبساتين وبعض المعادن وسواحل البحار والأراضي البوار التي غادرها أصحابها وانصرفوا عنها، فهي الأخرى جزء من أموال الدولة وتتعلق بجميع المسلمين، ولكل مصدر من المصادر

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٠٢

الست الماضية بحث مفصل ورد في الكتب الفقهية مثل كتاب الخمس وكتاب الزكاة وكتاب الجهاد.

وهنا يطرح هذا السؤال: أي من هذه الأموال الست التي ينبغي توزيعها بصورة مساوية بين المسلمين وقد عمل بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله واستمر العمل بها حتى في زمان الخليفة الأول، وواصلها الإمام علي عليه السلام إحياءاً للسنه بعدما إندرت على عهد الخليفة الثاني والثالث؟

يبدو أن تلك الأموال هي أموال الخراج (ويحتمل إلحاق الجزية بها) والتي كانت تشكل في ذلك الزمان القسم الأعظم من بيت المال، وقد كانت إلى درجة من الكثرة بحيث لم تكن هناك من أهميته لسائر موارد بيت المال في مقابلها، ولذلك فإن أحد البرامج

الرئيسية للولاية الذين يتجهون إلى مختلف المناطق جباية الخراج، ويستفاد هذا المعنى من أغلب الرسائل الواردة في نهج البلاغة، ومن ذلك عهد الإمام عليه السلام إلى مالك الأشتر رضي الله عنه ورسالته عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة (الرسالة ٥٣ و ٤٣). وبناءً على ما تقدم فإنّ وزع قسم آخر من أموال بيت المال بصورة غير متساوية على أساس مصالح المسلمين والحكومة الإسلامية على ضوء المدارك الفقهية، فليس هناك من منافاة مع ما ورد في هذه الخطبة وأمثالها.

أضف إلى ذلك فإنّ هناك تقسيماً لأموال بين المال على أساس مصالح المسلمين والخدمات التي يقوم بها بعض الأفراد، لا على أساس المصالح الشخصية كما كان يفعل ذلك معاوية، حيث كان يشتري زعماء القبائل بما يصدق عليهم من أموال، حتى كان يغرر ببعض الأفراد ضعاف الإيمان من جيش الإمام عليه السلام فيغيرهم بما ينفقه عليهم من أموال كثيرة [٣٦٨]، وهذا بحد ذاته يمثل جناية عظمى لا يمكن تداركها والإغماض عنها، وقد كان الإمام عليه السلام كما ورد في هذه الخطبة يتنفر من هذا العمل، وقد غضب بشدة على من اقترح عليه استمالة الأشراف وزعماء القبائل بالأموال.

وبالطبع فإنّ هذه مدرسة الأحرار والأتقياء الأوفياء التي كانت وما زالت تتضاد ومدرسة سماسرة السياسة وعبدة المناصب وأسرى الأهواء.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٠٣

الخطبة [٣٦٩] المائة والسابعة والعشرون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَفِيهِ يَبِينُ بَعْضُ أَحْكَامِ الدِّينِ
وَيَكْشِفُ لِلخَوَارِجِ الشَّبَهَةَ وَيَنْقُضُ حُكْمَ الْحَكَمِيِّينَ

نظرة إلى الخطبة

خاطب الإمام عليه السلام الخوارج بهذه الخطبة، رغم عمومية نفع الخطبة، تتألف الخطبة من عدة أقسام، فقد الإمام عليه السلام في القسم الأول عقيدة الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة وحكمهم بقتل عامية أمية النبي صلى الله عليه وآله، وذلك من خلال الأدلة المحكمة، وأشار عليه السلام في القسم الثاني إلى غفلة الخوارج وجهلهم وسلوكهم المفرط في عدوانهم، بينما أفرط البعض الآخر منهم في موالاتهم، فكلاهما على ظلاله، والقسم الثالث تضمن التأكيد على متابعة جميع المسلمين وعدم الإنفراد عنهم والتحذير من الفرقة، وأنّ شعار الخوارج هو شعار مزل وخاطر، وأخيراً القسم الرابع وهو إشارة إلى خطأ الحكمين، كما يوضح أن وظيفة الحكمين العمل بأحكام القرآن، ولكنهم ضلوا الطريق، وعليه فليست هنالك أية قيمة لحكمهم.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٠٥

القسم الأول: العنف الهمجي للخوارج

إشارة

«فَإِنَّ أَيْبَتَكُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلَمَّ تَطَلَّلُونَ عِيَامَهُ أُمَّهُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِضَمِّ الْمَالِي، وَتَأْخُذُونَ نَهْمَ بِخَطِيئِي، وَتَكْفُرُونَ نَهْمَ نَبِيِّ نَبِيِّ! سَيُؤْفِكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُ مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّقْمِ، وَتَحْلُطُونَ مَنْ أذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ

اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَجِمَ الزَّانِي الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ؛ وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ. وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ؛ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمُهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ».

الشرح والتفسير

هذا المقطع من الخطبة ناظر إلى الردّ على شبهات الخوارج التي لحقت بهم بفعل جهلهم وتعصبهم وتقليدهم الأعمى، فهم يعتقدون بكفر من ارتكب الكبيرة، والكافر يجب قتله، فقد صنعوا لأنفسهم صغرى وكبرى وعلى أساسهما أجازوا لأنفسهم قتل أى فرد من أصحاب على عليه السلام أينما وجدوهم، ومن هنا حمل هؤلاء الضالون المتعطشون لدماء الأبرياء سيوفهم على عواتقهم ليسفكوا دماء من شاءوا من الأبرياء فى مختلف مناطق البلاد الإسلامية، فأتوا بالأفعال الشنيعة التي يندى لها جبين التاريخ، نعم لقد ابتكروا لأنفسهم صغرى وكبرى وقالوا:

إن علينا عليه السلام قبل تحكيم الأفراد فى مقابل القرآن، وعليه فقد ارتكب الذنب، وكل من ارتكب الذنب فهو كافر، واتباع على عليه السلام كذلك فهم كفرة، والكافر يجب قتله وقد رد الإمام على عليه السلام

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٠٦

بالعبارة المذكورة على خطأهم ليطم الحجة عليهم، فلو فرض (وفرض المحال ليس بمحال) أنه ضل فما الذى يدعو إلى الحكم بضلالة كافة أمة محمد صلى الله عليه وآله بضلاله:

«فَإِنْ أَيْبَتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلَيْسَ تَطْلُبُونَ عِيَامَةَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِضَمِّ مَالِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطِيئِي، وَتُكْفَرُونَهُمْ بِذُنُوبِي!».

ثم واصل كلامه بالقول:

«سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ [٣٧٠] تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلُطُونَ مَنْ أَدْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنَبْ».

فهذا العبارات تتضمن إشارة إلى عدّة أجوبة: الأول بطلان التصور القائم على أنى أخطأت وضللت، فأولاً: أنى قبلت التحكيم بفعل ضغوطكم، وثانياً: لو تم التحكيم بصورة صحيحة لكان مطابقاً للقرآن، فالواقع أن الحكم هو القرآن، ومن ينهض بالتحكيم إنما يرجع إلى القرآن ويستنبط منه حكم الله سبحانه، فيطبق الكليات على مصاديقها، كما مرّ ذلك فى الخطب السابقة، وعليه فليس هنالك من عمل مخالف حكم الله حتى يؤدى إلى الخطأ والضلالة، ثالثاً:

على فرض أنى ارتكبت خلافاً فما معنى حمل ذلك على سائر المسلمين؟ لم تكفروهم وتريقون دماء الأبرياء؟ أى قانون هذا الذى تتمسكون به؟ وبأى شرع تؤمنون؟

ثم إتجه الإمام عليه السلام صوب خطأهم الأصلى المتمثل بقولهم كل مذنب كافر، فردّ عليهم ردّاً قاطعاً فقال:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَجِمَ الزَّانِي الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ؛ وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ. وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ؛ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمُهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ».

فقد أراد الإمام عليه السلام عدّة شواهد من سنة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله تؤكد وضوح خطأ الخوارج، الأول أن النبى صلى الله عليه وآله كان يعدم الزانى والقاتل، ثم يصلى عليهما ويورث أهلهما، لو كفر هؤلاء بارتكابهم الزنا وقتل النفس لما وجب توريث أهلهم لهم حسب عقيدتكم، لأنّ المسلم لا يرث الكفار، (هذه عقيدة أغلب فقهاء العامة)، كما حدّ رسول الله صلى الله عليه وآله سائر المدنيين كالسارق

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٠٧

والزاني غير المحصن، فقطع يد الأول وجلد الثاني، لكنهم بقوا في صفوف المسلمين فأجازهم جميع الأحكام الإسلامية كالزواج من المسلمات وأخذهم سهمهم من بيت المال، والحال لا تجرى عليه أى من هذه الأحكام إن كفر بارتكاب الكبيرة.

تأملات

١- الخوارج وتكفير أهل الذنوب

يستفاد من هذه الخطبة أن الخوارج يعتقدون بأن ارتكاب الكبيرة يوجب الخروج من دين الإسلام، بناءً على هذا فمن ارتكب الكبيرة وكان قبل ذلك مسلماً فهو مرتد يجب إعدامه، وقد استدلل هؤلاء الجهال بظاهر بعض آيات القرآن التي لم يدركوا مفهومها، ومن ذلك الآية الشريفة ٩٧ من سورة آل عمران بشأن تارك الحج والتي تقول: «وَمَنْ كَفَرَ فَبِإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»، والآية ٤٤ من المائدة: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»، والآية ٢٣ من سورة الجن التي تحدثت عن المذنبين جمعاء: «وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا».

فقد أطلقت هذه الآيات على بعض المذنبين كلمة الكفر أحياناً، وأحياناً أخرى الخلود في جهنم الذي يختص بالكفار، وقد غفلوا عن أن مفردة الكفر في اللغة واصطلاح الشرع لا- تعنى على الدوام الخروج من الإسلام، بل الكفر درجات ومراحل: فقد يكون بمعنى ارتكاب الذنب، ويكون أحياناً أخرى بمعنى إنكار الله والعقائد الدينية، وبعبارة أخرى الكفر بمعنى مجانية الحق أو ستره وهو على مراحل ودرجات، ولكل أحكامه الخاصة، كما للإيمان درجات، لكل منها أحكامه الخاصة، فقد ذكر الإمام الصادق عليه السلام في الرواية المعروفة في اصول الكافي خمسة معاني للكفر الوارد في القرآن، أحدهما: أن الكفر بمعنى ترك أوامر الله والعصيان، ثم يورد الإمام شواهد من القرآن الكريم على هذه المعاني الخمسة [٣٧١].

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٠٨

وأوضح دليل على بطلان هذه العقيدة ما أورده أمير المؤمنين على عليه السلام في هذه الخطبة من كثرة عدد المذنبين في عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والذين كان يقيم عليهم الحد، مع ذلك كان يجرى عليهم كافة أحكام الإسلام، حتى وإن لم يتوبوا من قبيل إقامة صلاة الميت والدفن في مقابر المسلمين وأحكام الارث، ومن كان حياً بعد إقامة الحد؛ أجرى عليه سائر الأحكام كأخذه لسهمه من بيت المال والزواج من المسلمات وأمثال ذلك، هذه هي سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تواصلت في العهود اللاحقة حتى عصرنا الحاضر بين جميع مسلمي العالم والتي تدل على أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر بمعنى خروجه من الإسلام قط، وليس فقط لا يراق دمه فحسب، بل هناك دية على أدنى جرح يعرض له.

٢- جانب من جنایات الخوارج

إن أدنى مطالعة لجانب من التاريخ المظلم للخوارج تكفي لأن نقف على مدى فضاغة الفئة التي وقفت بوجه أمير المؤمنين على عليه السلام، والأسباب التي عاقت برامجه عليه السلام في النهوض بالامة، فليست هنالك فئة تشبه الخوارج شهداها التاريخ، فهي فئة متعصبة عاشت جميع التناقضات ويسفكون الدماء بكل بساطة ولا- يرحمون كبيراً ولا- صغيراً حتى الجنين في بطن امه، كما وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة حيث وضعوا سيوفهم على عواتقهم فيريقون دم من يريدون، ولم يأمن أحد في منطق حكومتهم

التي لم تدم طويلاً لحسن الحظ، وكأنّهم يرون أنفسهم المالكين والناس عبيد فلهم أن يفعلوا بهم ما يشاؤون من قتل وتعذيب وتشريد. قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة: حين مضى الخوارج إلى النهروان أصابوا في طريقهم مسلماً ونصرانياً، فقتلوا المسلم لأنّه عندهم كافر، إذ كان على خلاف معتقدهم، واستوصوا بالنصراني، قالوا: احفظوا ذمّة نبيكم، ونحو ذلك أنّ واصل بن عطاء (وهو من مشاهير علماء عصره) أقبل في رفقة فأحسوا بالخوارج، فقال واصل لأهل الرفقة: إنّ هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعوني وإياهم، فقالوا: شأنك، فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ فقال: قوم مشركون مستجيرون بكم، ليسمعوا كلام الله، ويفهموا حدوده، قالوا:

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٠٩

قد أجرناكم، قال واصل: فعلمونا، فجعلوا يعلمونهم أحكامهم، ويقول واصل: قد قبلت أنا ومن معي، قالوا: فمضوا مصاحبين فقد صرتم إخواننا.

فقال: بل تبلغونا مأمنا لأنّ الله تعالى يقول: «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ» [٣٧٢].

فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ذاك لكم، فساورا معهم بجمعهم حتى أبلغهم المأمن [٣٧٣].

ومعروفة هي قصة قتلهم صحابي النبي صلى الله عليه وآله المعروف: عبدالله بن خباب وقتلهم لإمراته وهي حامل، وقد عرضنا لشرح ذلك سابقاً، وهذا غيض من فيض جرائم الخوارج، هذا في الوقت الذي إذا قتل أحدهم خنزيراً، واعترضوا عليه على وأن ذلك فساد في الأرض وأنكروا قتل الخنزير [٣٧٤]، يبدو أنّ الجهل والتعصب والعجب هي العوامل الأصلية لظهور هذه الفئة السفاكة التي لا تتورع عن ارتكاب أية جريمة وجناية، أو ليس جزاء هؤلاء تلك الحملات المتتالية التي شنّها عليهم جيش الإمام على عليه السلام بعد إتمام الحجّة وتوبه المخدوعين منهم، لكي لا تبقى لهم من باقية، كما حدث في النهروان!؟

٣- الرد على سؤال

تصدى الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة للردّ على الخوارج الذين يقولون بكفر من ارتكب الكبيرة، في أنّ ذلك خلاف سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله في إقامته للحدود على مرتكبي الكبائر، وفي الموارد التي تتطلب إعدام صاحبها من قبيل قصاص القتال، فقد كان يحكم بقتلهم ويورثهم أهلهم من المسلمين.

هذا في الوقت الذي نعتقد فيه على ضوء مذهبنا بأنّ المسلم لا يرث الكفار وعليه فإن إيصال إرثهم إلى وارثهم المسلمين ليس دليلاً على نفى كفرهم، وللإجابة على هذا السؤال لابدّ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢١٠

من القول بأنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام طبق مذهب أغلب العامية والخوارج الذين يعتقدون بعدم إرث الكافر للمسلم ولا المسلم من الكافر، وبناءً على هذا فقد استدللّ على ضوء مسلمة مذهبهم، أمّا مذهب أهل البيت عليهم السلام الكافر لا يرث المسلم بينما يرث المسلم الكافر، للرواية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام:

: «إِنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَزِدْ الْمُسْلِمَ إِلَّا عِزًّا فِي حَقِّهِ» [٣٧٥].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢١١

إشارة

«ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ! وَسَيَهْلِكُ فِي صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِي حَالِهَا النَّمِطُ الْأَوْسَطُ فَالزُّمُوهُ، وَالزُّمُوا السَّوَادَ الْمَاعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ!

فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْعَمَلِ لِلذُّنْبِ. أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشُّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ».

الشرح والتفسير

أوضح الإمام عليه السلام جهراً في ما مضى من كلام الخطبة بطلان عقيدة الخوارج في تكفير المسلمين، وقد حدّثهم بمنتهى المرونة حسبما يقتضيه البحث المنطقي، أما في هذا القسم (القسم الثاني) فقد عنّفهم في الكلام ليحدّ من غرورهم ويعرضهم بمكانتهم بين المسلمين على أنّهم شر الناس وأغراض الشيطان الذي أضلهم وأوردهم الحيرة، وأفضل شاهد على ذلك أفكارهم الشيطانية وأعمالهم العدوانية ضد البشرية:

«ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ!».

حقاً ليس هناك من فته في أوساط المسلمين شر من الخوارج، فهم مصداق الآية الشريفة:

«اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [٣٧٦].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢١٢

وهم مصداق واضح للآية: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» [٣٧٧].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى وهي أنّ الإفراط والتفريط شيمتا الأفراد الجاهل، فمنهم من ألّهنى ومنهم من كّفرنى، فقال عليه السلام:

«وَسَيَهْلِكُ فِي صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ».

فإن دفعكم جهلكم وجنابتكم لأنّ تعتبروننى كافراً، فإنّ هناك من ذهب إلى عكس ذلك- وبدافع الجهل أيضاً- ليقولوا بالوهيتى، والفتتان ضالتان، والطريف فى الأمر إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر الإمام عليه السلام منذ سنوات بهذا الإفراط والتفريط تجاهه، فقد روى ابن عبدالمالكى فى كتاب «الاستيعاب» أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خاطب علياً عليه السلام بالقول:

«لَا يُحِبُّكَ الْإِيمَانُ وَلَا يُبْغِضُكَ إِلَّا مُنَافِقٌ ... وَيَهْلِكُ فِيكَ رَجُلَانِ مُحِبٌّ مُفْرِطٌ وَكَذَّابٌ مُفْتَرٍ .. وَتَفْتَرِقُ فِيكَ أُمَّتِي كَمَا افْتَرَقَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي عَيْسَى [٣٧٨]

. (الحديث إشارة إلى أنّ طائفته من بنى غ اسرائيل آمنت واعتقدت بالوهيته وطائفته لم تؤمن ورأته ابن الله والعياذ باللّله).

وروى المرحوم السيد محسن الأمين فى «أعيان الشيعة» عن «مسند أحمد» و «صحيح الترمذى» و «الاستيعاب» لابن عبد البر و «مستدرک الحاكم» أنّ المعروف بين الصحابة بغض على عليه السلام علامة النفاق والذى يميزه عن المؤمن الصادق.

ثم أضاف والثابت تاريخياً أنّ معاوية كان يسب علياً عليه السلام ويدعو الناس إلى سبّه (وعليه فمعاوية كان من المنافقين) [٣٧٩].

على كل حال فالجهال دائماً على الإفراط والتفريط، الغلو أو العداوة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وبالتأكيد على حفظ الاعتدال فقال:

«وَخَيْرُ النَّاسِ فِي حَالِهَا النَّمِطُ الْأَوْسَطُ فَالزُّمُوهُ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢١٣

فقد ورد عنه عليه السلام أنه قال:

«أَلَا إِنَّ خَيْرَ شَيْعَتِي النَّمَطُ [٣٨٠] الْأَوْسَطُ إِلَيْهِمْ يَرْجِعُ الْغَالِي وَبِهِمْ يَلْحَقُ التَّالِي» [٣٨١].

ثم أصدر أمراً مهماً كانت مخالفته السبب في سقوط الخوارج في وادي الضلال فقال:

«وَالزُّمُومَا السَّوَادُ [٣٨٢] الْأَعْظَمُ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ».

كما بالغ في هذا التأكيد ليقول:

«وَيَاكُمْ

وَالْفُرْقَةَ! فَإِنَّ الشَّاذَّ [٣٨٣] مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذَّبِّ».

فالجماعة المؤمنة غالباً من تنطلق في مسار الحق، فان ضلت طائفة منهم ذكرت طائفة أخرى وانقذتها من وادي الضلال، أما الأفراد الشاذون والفئات الصغيرة والمعزولة عن المجتمع الإسلامي فهي عرضة لأنواع الأخطاء والانحرافات والشيطان غالباً من ما يشدد من وساوسه بينهم فهم لقمه سائغة للشيطان على غرار الشاذة من الغنم، فتكون لقمه سائغة للذئب، ثم أورد في وصيته في الخصوص تقضى بقتل كل من رفع شعار لا حكم إلا لله ودعى إليه الناس وإن لاذ بالإمام عليه السلام واختفى تحت عمامته:

«أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشَّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ».

وهكذا أصدر حكمه النهائي بشأن هذه الفئة الفاسدة والمفسدة والقاسية المتعطشة للدماء والذي لا يشكلون سوى الخطر الجدى على الإسلام والمسلمين، أما ما هو مراد الإمام عليه السلام من مفردة «الشعار» التي وردت في العبارة المذكورة فقد اختلفت فيه أقوال شراح نهج البلاغة فقيل: المراد بالشعار التفرقة، قيل يعنى شعار الخوارج، وكان شعارهم أنهم يحلقون وسط رؤوسهم ويبقى الشعر مستديراً حوله كالإكليل [٣٨٤]، وقيل هو الشعار الذى يعد شعار الخوارج أينما حلوا وقد إرتكبوا بواسطته ما لا يحصى من الفتن والمفاسد وأشعلوا بالنيران المجتمع

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢١٤

الإسلامى، والواقع قد مهدوا بهذا الشعار أسباب الفرقة، والقتال وسفك الدماء والفساد فى الأرض، ومن هنا فقد حكم بالإعدام على حملة هذا الشعار.

كما وردت عدّة تفاسير للعبارة:

«لَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ»،

أنسبها ما ذكرناه سابقاً، وهو وإن اعتصم هؤلاء الأفراد الفاسدين بى ولاذوا بدارى وكانوا تحت ثيابى.

تأملات

١- الحذر من الإفراط والتفريط

من بين المسائل التى أكد عليها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة ضلاله وهلاك الفئة المفرطة والمفرطة، وقد ظهرت هاتان الفتتان بصورة جلية بشأن الإمام عليه السلام فى أوساط المجتمع الإسلامى، الفئة التى تصوّرت الإمام عليه السلام هو الله التى عاشت على عهده عليه السلام وقد تلقت أشد العقاب من الإمام عليه السلام، والفئة الأخرى التى تراه - نعوذ بالله - كافراً، وقد عوقبت هذه الفئة أشد العقاب أيضاً، فالإفراط والتفريط مذموم فى كل شىء ومصدر البؤس والشقاء، ولا يقتصر ذلك على القضايا العقائدية، بل يتجاوزه ليشمل الحياة المتواضعة، وعادة ما يستند هذا الإفراط والتفريط إلى الجهل والعصبية، فهناك طائفة انحرفت عن الإسلام

وشدت عن إتباع منهج أهل البيت عليهم السلام، فهبطت بالله إلى منزلة متسافلة لتراه كالجسمانيات فصوّرتة كفتى أمرد وشعر مجعد وما إلى ذلك من صفات الأجسام، بينما رفعتة فئة أخرى عن فكر البشر، لتقول باستحالة معرفة ذاته لدينا، وأبعد من ذلك بأننا لا نعلم شيئاً من صفاته، وبعبارة أخرى قال بتعطيل معرفة الله، فئة سلكت طريق الإفراط فقالت: بالتفويض، وأخرى سلكت سبيل التفريط فقالت: بالجبر، أما أئمة الهدى عليهم السلام فقد وصفوا أنفسهم بأنهم «المرقة الوسطى» أي الفئة المعتدلة البعيدة عن الإفراط والتفريط، والتي ينبغي أن يعود إليها المتطرفون ويلحق به المغالون:

«نَحْنُ النُّمْرَقَةُ الوُسْطَى بِهَا يَلْحَقُ التَّالِي وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الغَالِي» [٣٨٥].

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢١٥

٢- يد الله مع الجماعة

ورد التأكيد في الخطبة المذكورة على مرافقه ومسايرة السواد الأعظم، أي جماعة المسلمين والابتعاد عن كافة أشكال العزلة والتفرد، فقال عليه السلام صراحة:

«يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ»

، فالجماعة الإسلامية كانت قوية ومقتدرة ذات شوكة كما كانت متحدة ومتفقة، بينما عاشت الذل والهوان والضعف كلما سادها النفاق والشقاق، فمقاطعة الجماعة الإسلامية وبعبارة أخرى الانعزال الاجتماعي يشكل أحد الانحرافات والفكرية والعقائدية، والأفراد الانعزاليون عادة كما يعيشون خيال العجب بالنفس فيظنون أنهم أفضل من غيرهم وعلى الآخرين أن يعظموهم، وحيث لا يرون ذلك في الناس تشتعل في قلوبهم نيران العداوة والبغضاء وسوء الظن، الأمر الذي يجعلهم يهمون أحياناً بالثأر وقتل الأبرياء والإساءة إلى المثل الاجتماعية، وأحياناً أخرى يدعى النبوة أو الإمام أو نياحة الإمام لمهدى عليه السلام فيصبح مصدراً لكل شقاق وفرقة ونفاق، ومن هنا نقف على عمق عبارة الإمام في قوله:

«فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الغَنَمِ لِلذُّبِّ».

طبعاً المراد من مسايرة الجماعة بمعنى الأكثرية الموصوفة بالإيمان والقيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية، وإلا فالإسلام لا يوصى بمسايرة الأكثرية الفاسدة، قال عليه السلام في موضوع آخر:

«لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهِ» [٣٨٦]

. واما الذم الذي أورده القرآن الكريم على لسان عدّة آيات بشأن الأكثرية إلا كان المراد بها الأكثرية الفاسدة والمفسدة: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [٣٨٧].

٣- شرار الخلق

وصف الإمام عليه السلام في هذه الخطبة الخوارج بصفتها شرار الناس، فهذا الكلام ليس مبالغاً، فالحق أن الخوارج شرف فئة ظهرت في أوساط المسلمين، ليس فقط لتكفيرهم أشرف مؤمن

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢١٦

بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أي على عليه السلام الذي سقى شجرة الإسلام بدمائه الزكية فاستقام عودها وكثفت أغصانها، وليس لحملهم سيوفهم على عواتقهم وسفكهم لدماء الأبرياء، بل لأنهم أسسوا لأنفسهم بالتدرج مدرسة منحرفة من حيث العقائد،

كما ابتعدت عن أحكام الإسلام والقرآن السنّة، ففي جانب عقائدهم وردت عدّة أبحاث في كتب الملل والنحل تصوّر مدى اختلافها وتضاربها، ولعل ذلك بسبب اختلاف فروعهم، مع ذلك فقد ذكر المؤرخ المعروف المسعودي اشتراك الخوارج في ما يلي:

١- تكفير عثمان وعلى عليه السلام (والعياذ بالله)

٢- وجوب القيام ضد الإمام الجائر.

٣- كفر من ارتكب الكبيرة (وجوب قتله).

٤- أنهم بريئون من الحكمين (أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص).

٥- كفر معاوية وأتباعه وأتباعه.

لكنهم يختلفون في بعض المسائل كالتوحيد والوعد والوعيد في القيامة والإمامة [٣٨٨].

وعدّ البعض الآخر من جملة عقائدهم المشتركة وجوب انتخاب الامية للخليفة سواء كان من قريش أم من غيرها، والأخرى قبولهم الخلفاء الأربعة (وإن عزلوا عثمان وعلى عليه السلام)، وكذلك شدّة مخالفتهم لكافة خلفاء بني الامية وبني العباس، خاصية أنهم يسبون بني امية [٣٨٩].

وأما الأباضية الذين ينتشرون اليوم في عمان ومراكش وليبيا والجزائر وتونس ومصر والذين يعدّون أحياناً من الخوارج، فهناك فارق كبير لعقائدهم مع عقائد الخوارج، وإن اشتركوا معهم في مخالفة التحكيم في صفين وعدم اشتراط وصف القريشي في إمام المسلمين.

ولعل عقائد الأباضية تشبه كثيراً عقائد الشيعة مثل:

١- صفات الله ليست زائدة على ذاته.

٢- استحالة رؤية الله في الآخرة.

٣- القرآن حادث لا قديم.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢١٧

٤- مرتكب الكبيرة كافر بالنعمة لا كافر ملئ (يعنى مثل هذا الفرد مسلم وليس خارجاً عن الإسلام).

٥- وجوب موالة أولياء الله والبراءة من أعدائه.

وروى بعض أنهم يقولون بوجوب حبّ الخليفة الأول والثاني وبغض عثمان وعلى عليه السلام إلا أنّ الأباضية في هذا الزمان ينكرون ذلك [٣٩٠].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢١٩

القسم الثالث: انحراف الحكمين

إشارة

«فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحُكَمَاءَ لِيُحْيِيَا مَيَّا أَحْيَا الْقُرْآنَ، وَيُمَيِّتَا مَيَّا أَمَاتَ الْقُرْآنَ، وَإِحْيَاؤُهُ الْاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الْاِفْتِرَاقُ عَنْهُ. فَإِنْ جَرْنَا الْقُرْآنَ إِلَيْهِمْ اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّهْمُ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا. فَلَمْ آتِ - لَأَيِّ الْكُفْمِ - بُجْرًا، وَلَمَّا خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلَا لَبَسْتُتْهُ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَأِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يَتَّعَدَيَا الْقُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَ الْحَقَّ وَهَمَّا يُبَصِّرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَا عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا - فِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ - سُوءَ رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا».

الشرح والتفسير

عاد الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة والذي يمثل آخرها إلى الأدلة المنطقية ليكشف بالبراهين القاطعة خطأ الخوارج. توضيح ذلك أن الخوارج حين رأوا النتيجة المريرة لقضية التحكيم التي خدع فيها الماكر عمرو بن العاص أبي موسى الأشعري الساذج وقد حسم التحكيم لصالح معاوية، ارتفعت أصواتهم ليقولوا لم قبلنا التحكيم، ولماذا قبل على عليه السلام التحكيم، رغم أنهم يعلمون:

أولاً: أن التحكيم فرض على على عليه السلام.

ثانياً: أن الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بأبي موسى الأشعري ممثلاً عنه في التحكيم، بل كان رأيه أن يلعب ابن عباس ذلك الرجل العالم دور التحكيم، رغم ذلك أصر اولئك الجهال وفرضوا عليه أبي موسى الأشعري، وقد خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة في جواب

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٢٠

آخر على أن تحكيم الحكمين كان مشروطاً بأن يتم على ضوء القرآن لا على أساس الأهواء النفسية والعقد الشخصية، فلم يعمل بهذا الشرط وهذا ذنبهم لا ذنب الإمام عليه السلام فقال:

«فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمِيتَ مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ».

جدير بالذكر إنه ورد نفس هذا المطلب الذي أشار إليه الإمام عليه السلام في متن العهد الذي أشرنا إليه سابقاً: «

وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بَيْنَنَا مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ نُحْيِي مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ وَنُمِيتُ مَا أَمَاتَ».

ثم أضاف قائلاً:

«وَإِحْيَاؤُهُ الْاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الْاِفْتِرَاقُ عَنْهُ»

، ووضح هذه العبارة من خلال التأكيد على مضمونها بالقول:

«فَإِنْ جَرَّأْنَا الْقُرْآنَ إِلَيْهِمْ اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّهْمُ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا».

فهذا الكلام منطقي يدركه من كان له أدنى فكر وشعور، لكن كأن الخوارج لم يتمتعوا حتى بهذه النعمة الإلهية، ثم بين الإمام عليه السلام هذا المطلب بتعبير أوضح بحيث يبدو وكأنه اشتاط غضباً من جهلهم وكلامهم الذي يفتقر إلى المنطق فقال:

«فَلَمْ آتِ - لَأَبَاكُمْ - بُجْرًا [٣٩١]، وَلَا خَتَلْتُمْ [٣٩٢]

عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلَا لَبَسْتُمْ عَلَيْنَا، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلِكِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْنَهُمَا أَنْ لَا يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ»

، لكنهم فقدوا عقلهم «إيمانهم» وتركوا الحق وهم يرونه بام أعينهم، كما كان الظلم والجور ديدنهما وهواهما فاتخذوا سبيلاً وقد كنا اشترطنا عليهما قبل أن يحكما بذلك الحكم الظالم أن يستندا إلى العدل ولا يهملوا الحق:

«فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَ الْحَقَّ وَهَمَّا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَى عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا - فِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمْدِ [٣٩٣] لِلْحَقِّ - سُوءَ [٣٩٤] رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا».

فالواقع أن زبده الكلام الإمام عليه السلام هي:

أولاً: إن انتخاب الحكمين كان على أساس ضغطكم وإصراركم على هذا الأمر، فان كان

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٢١

خلافاً فهو خلاف منكم لا مني.

وثانياً: إننا اشترطنا عليهم الحكم على ضوء الآيات القرآنية، لكنهم آثروا هوى أنفسهم وانحرفوا عن السبيل البين الذي هديناهم إليه، وعليه فان كان هناك من خلاف فقد بدر منهما لا مني [٣٩٥].

ولكن طبيعة الأفراد الجهال والمتعصبين حين يرتكبون مخالفة وبيتلون بسوء عواقبها شرعان ما يغرونها إلى الآخرين ويحملونها

مسؤولية أخطأهم وهذا أخس الأساليب، والحال يقتضى العقل والانصاف والإيمان الاعتراف بالذنب فى مثل هذه الموارد والاعتذار منها ومن ثم التفكير فى تدراكها.

تأمل

دروس التحكيم

كثير هو الكلام بشأن قضية التحكيم وهى تنطوى على الدروس والعبر التى نقلتها التواريخ والسير ومنها: أن عمرو بن العاص اشترط على معاوية إن انتصر فى معركة أن يسلمه حكومة مصر، وقد وفى له معاوية بهذا الشرط وقد قدم أكثر رشوة لعمرو بن العاص، ولم تمض مدّة حتى كتب معاوية لعمرو بن العاص أن إعطى خراج مصر لهذا العام فبيت المال لا يسد حاجات أهل الحجاز والعراق، فرفض عمرو ذلك من خلال شعر بعثه لمعاوية، فلم يعد معاوية للحديث عن خراج مصر - أمّا كتابه الذى ضمنه فهو:

مُعَاوِي حَظِي لَا تَغْفَلِ وَعَنْ سُنَنِ الْحَقِّ لَا تَعْدِلِ
أَتَسَى مُخَادَعَتِي الْأَشْعَرِي وَمَا كَانَ فِي دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ! [٣٩٦]
وَأَعْلَيْتُهُ الْمَيْتَرَ الْمُشْمَخِرَ كَرَجِعِ الْجِسَامِ إِلَى الْمَفْصَلِ فَأُضْحِي لِصَاحِبِهِ خَالِعًا كَخَلْعِ النَّعَالِ مِنَ الْأَرْجُلِ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٢٢

وَأَبْتُهَا فِيكَ مَوْرُوثَةٌ تُبَوِّتِ الْخَوَاتِمَ فِي الْأَنْمَلِ
وَهَبْتَ لِغَيْرِي وَزَنَ الْجِبَالِ وَأَعْطَيْتَنِي زِنَةَ الْخَرْدَلِ
وَإِنْ عَلَيَّا غَدًا خَصْمُنَا سَيَحْتَجُّ بِاللَّهِ وَالْمُرْسَلِ
وَمَا دَمَ عُثْمَانُ مُنْجٍ لَنَا فَلَيْسَ عَنِ الْحَقِّ مِنْ مَزْحَلِ [٣٩٧]
نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٢٣

الخطبة [٣٩٨] المائة والثامنة والعشرون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي مَا يُخْبِرُ بِهِ عَنِ الْمَلَا حِمِّ بِالْبَصْرَةِ

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى عدّة أمور:

- ١- فتنة صاحب الزنج وهم جماعة من العبيد بزعامه فرد أسمى نفسه على بن محمد العلوى وقد قاموا فى زمان خلافة المهتدى العباسى، وقد سفكوا الكثير من الدماء.
- ٢- إشارة إلى فتنة أخرى فسرها شراح نهج البلاغة بفتنة المغول والعجيب أنه أشار إلى أغلب صفاتهم هنا وفى القسم السابق.
- ٣- بيان الإمام عليه السلام بشأن الغيب بعد أن سأله أحد الحاضرين إنك تعلم الغيب فتخبر عن المستقبل، كما أشار إلى الفرق بين

العلم الذاتى والعلم الإكتسابى، وهو فى الحقيقة تفسير للآيات القرآنية التى تنفى بعضها عن العباد علم الغيب بينما يشته البعض الآخر. أما المرحوم ابن ميثم فقد إختتم الخطبة فى شرحه لنهج البلاغة بهذه العبارة «وناظرها نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٢٤

بعينها» واعتبر بقية الخطبة، خطبة أخرى، وهذا ما نهجه أيضاً المرحوم الخوئى وابن أبى الحديد، فقد قسموا الخطبة إلى قسمين واعتبروا كل قسم خطبة منفصلة، بينما اعتبرهما المرحوم مغنية فى شرحه كصحيح الصالح خطبة واحدة. نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٢٥

القسم الأول: الفتنة المرعبة بالمرصاد

إشارة

«يَا أَحْنَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ عُبَارٌ وَلَا لَجَبٌ، وَلَا فَعْقَعُهُ لُجْمٌ، وَلَا حَمْحَمَةٌ خَيْلٌ. يُبَيِّرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ.

قَالَ الشَّرِيفُ: يُومئى بذلك إلى صاحب الزنج) ثم قال عليه السلام: وَيَلُّ لِسِكَكِكُمْ الْعَامِرَةَ، وَالذُّورِ الْمُرْخَرَفَةَ الَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النَّسُورِ، وَخَرَاطِيمٌ كَخَرَاطِيمِ الْفَيْلَةِ، مِنْ أَوْلِيكَ الَّذِينَ لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ. أَنَا كَاتِبُ الدُّنْيَا لَوْجْهَهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاطِرُهَا بِعَيْنِهَا».

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام بادية الأمر الأحنف بن قيس [٣٩٩] وهو من أشرف قبيلته، فقال:

يَا أَحْنَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ عُبَارٌ وَلَا لَجَبٌ [٤٠٠]، وَلَا فَعْقَعُهُ [٤٠١] لُجْمٌ، وَلَا حَمْحَمَةٌ [٤٠٢] خَيْلٌ. يُبَيِّرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ [٤٠٣].».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٢٤

والإمام عليه السلام لم يذكر إسماً لزعيم الجيش، إلا أن القرائن الواردة فى هذه العبارات وما بعدها تشير إلى أن المراد به صاحب الزنج الذى قام فى البصرة عام ٢٥٥ هـ ق وجمع حوله العبيد وقد خلق هناك فتنة عظيمة سنعرض لتفاصيلها فى البحث القادم إن شاء الله.

والعبارة:

«لَا يَكُونُ لَهُ عُبَارٌ»

والعبارات القادمة تدل صراحة على أن جيش صاحب الزنج كان من المشاة، حيث لم يكن لهم من خيول ليركبوها، طائفة من العرأة المستضعفين الذين ساءت أحوالهم فقاموا على الأسياد فارتكبوا الجرائم الفضيعة، والعبارة يثيرون الأرض بأقدامهم تدل على أنهم كانوا حفاة وقد اتسعت أرجلهم بسبب المشى حفاة طيلة أعمارهم لتصبح كرجل الناقة، مع ذلك كانوا مخفين فى السير والحركة، وحين وصل هنا المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه قال:

قَالَ الشَّرِيفُ: يُومئى بذلك إلى صاحب الزنج).

ثم قال عليه السلام:

«وَيَلُّ لِسِكَكِكُمْ الْعَامِرَةَ، وَالذُّورِ الْمُرْخَرَفَةَ الَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النَّسُورِ، وَخَرَاطِيمٌ كَخَرَاطِيمِ الْفَيْلَةِ، مِنْ أَوْلِيكَ الَّذِينَ لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ،

وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ».

والذى يستفاد من هذه العبارة أن البصرة كانت عامرة (وإن عاش العبيد منتهى الشقاء والعسر) فقد كانت بيوتهم كالقصور مزودة بالشرفات والظلال الجميلة وخراطيم المياه التى تزيدها روعةً وجمالاً، وكما سيأتى فإن كل ذلك قد تحطم إثر قيام صاحب الزنج وقد ضرج أصحاب القصور بدمائهم، والعبارة «لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ».

تشير إلى أن العبيد لم يكونوا ذوى زوجات وأولاد، بل كانوا عزاباً فلا نادية لهم من الأقرباء ليبحثوا عنهم ويتفقدونهم ويكون عليهم، وهذه هى صفات العبيد فى ذلك الزمان حيث كانوا يجلبون إلى البلاد الإسلامية وغير الإسلامية بالقهر والغلبة من البلدان البعيدة خاصة أفريقيا، وخلافاً للتعاليم الإسلامية فقد كانوا يعاملون كالحوانات، فكان قيام صاحب الزنج رد فعل تجاه المعاملة غير الإسلامية والإنسانية، ثم قال آخر كلامه:

«أَنَا كَابُ [٤٠٤]

الدُّنْيَا لَوْجِهَيْهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاطِرُهَا بِعَيْنَيْهَا».

فهذه العبارات الثلاث إشارة إلى تفاهة متاع الدنيا لدى الإمام عليه السلام وكأن الدنيا موجود

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٢٧

حتى شرير لا قيمة له وقد كبه الإمام عليه السلام على وجهه وهو ينظر إليه بحقارة، وتشبه هذه العبارة ما ورد عن الإمام عليه السلام فى قصار كلماته حيث قال:

«يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، إِلَيْكَ عَنِّي أَبِي تَعَرَّضْتِ؟ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ؟ لَأَحَانَ حِينِكَ، هَيْهَاتَ! عُرِّي غَيْرِي، لَأَحَاجِيَهُ لِي فِيكَ، قَدْ طَلَّقْتُكَ ثَلَاثًا لَأَرْجِعَهُ فِيهَا!» [٤٠٥].

ولعل شقاء أهل الدنيا المتكالبين عليها إنما يعود إلى تقييمهم الباطل للدنيا فهم يرونها بعين أخرى فيعظمونها ويركعون لها ويضحون بالعالى والنفيس من أجلها، أمّا ما هو الإرتباط بين هذه العبارة والعبارات السابقة بشأن أخطار صاحب الزنج، فيبدو أن شراح نهج البلاغة لم يخوضوا فى توضيح هذا الأمر، وربما كان الإرتباط من خلال ذلك الظرف العصيب الذى أصاب أهل البصرة بسبب حب الدنيا، فقد شيّدوا القصور واهتموا بالدور وعاشوا الاسراف والتبذير فى حياتهم، فى حين عانى غالبية العبيد فى مدنهم ومزارعهم الأمرين فسامهم الزنوج أنواع العذاب.

تأمل: قيام صاحب الزنج

ظهر فى البصرة عام ٢٥٥ هـ ق على عهد الخليفة العباسى المهتدى رجل زعم أنه على بن محمد ونسب نفسه إلى الإمام زين العابدين وزيد بن على عليهما السلام وقد دعى العبيد للقيام ضد مالكيهم ولّبوا دعوته مسرعين بسبب صعوبة معيشتهم فى الدور والمزارع فى خدمة السلاطين فاجتمع له مائة نفر وألف نفر، وقد وعدهم بعقدهم وتسليمهم أموال مالكيهم ومزارعهم، وكانت الطبقة شديدة فى ذلك الزمان، فالبعض مرفه فى القصور كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين على عليه السلام فى هذه الخطبة، والبعض الآخر يعيش الحياة الصعبة، لذلك إلتحق به جماعة من غير العبيد أيضاً، فاجتمع له جيش عظيم، لقد أشعل فى قلوب العبيد والمحرومين نار

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٢٨

الانتقام حتى أمر غلمانهم بعد غلبته للأثرياء بأن يضرب كل رجل منهم خمسمائة شطبة وسبى نسائهم وكان يبيع كل واحدة منهم بدرهمين أو ثلاث وملكهن العبيد.

قال المؤرخ المشهور المسعودى فى «مروج الذهب» أن صاحب الزنج قتل النساء والأطفال والشيخ الفانى والمريض وكان يحرق

أموالهم وأدواتهم ويخرب بيوتهم، وقد قتل في البصرة ثلاثمائة ألف، ومن فرّ إلى الصحراء ونجى من القتل كان يأكل الكلاب والقطط والفئران، وأحياناً يأكلون الأموات، إستولى على قسم عظيم من العراق وإيران ودام حكمه مدّة تزيد على أربع عشرة سنة (وهذا يدلّ على أنّ حركته لم تكن عابرة بل كانت متجذرة في أعماق ذلك المجتمع).

وقد أو شكك صاحب الزنج أن يسقط الدولة العباسية، فهب له أبو أحمد الملقب بالموفق وهو أخو الخليفة العباسي فقاتله بجيش كبير حتى تمكن من قتله في شهر صفر عام ٢٧٠ هـ وفرق جيشه بعد معركة دموية طويلة، لقد ألفت عدّة كتب بشأن قيام صاحب الزنج فهو ليس بالأمر الهين الذي يمكن المرور عليه بسهولة، وذلك لأنّ جمع جيش يقارب عدده ثمانمائة ألف أو ثلاثمائة ألف آنذاك ليست بالشيء البسط وكذلك تلك المدّة من الحكم والتي تعتبر طويلة نسبياً، وكل ذلك يشير إلى رسوخ ذلك القيام بفعل الاضطراب وغياب العدل والذي ساد آنذاك، وإن قاد هذا القيام إلى الكثير من المظالم والجنايات. وهنا لابدّ من الإشارة إلى بعض الامور:

١- شبّه بعض الكتّاب قيام صاحب الزنج بثورة العبيد التي حدثت في ايطاليا عام ٧٣ قبل الميلاد بزعامه اسبارتكوس الذي جمع حول فئة عظيمة من العبيد وقد قاتل الأثرياء والمرفهين وأحرز عدّة انتصارات حتى قتل عام ٧١ قبل الميلاد مع أربعين ألف من العبيد، لكن يبدو أنّ هناك بوناً شاسعاً بين قيامه وقيام صاحب الزنج، فقيام صاحب الزنج كان أوسع وأشمل وقد تمكن من تشكيل الحكومة آخر الأمر والتي حكمت قسماً كبيراً من العراق وإيران لمدّة أربع عشرة سنة، على كل حال فهو رجل دموى ومجرم رغم إمتلاكه للحجج التي تبدو منطقية نسبياً من أجل قيامه وثورته.

٢- كما ذكرنا سابقاً فإنّ صاحب الزنج أسمى نفسه على بن محمد ومن نسل الإمام السجاد عليه السلام، وتلقب بالعلوي، إلّا أنّ ذلك لا حقيقة له، ولم يكن هدفه سوى شرعية حركته
نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٢٩

والاستفادة من مكانة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، ولذلك ورد عن الإمام الحسن العسكري أنّ قال:

«صاحب الزنج ليس من أهل البيت» [٤٠٦]

، وكما أوردنا فإنّ قيام صاحب الزنج كان أواخر عمر الإمام الحسن العسكري عليه السلام وتزامناً مع الولادة المباركة لإمام العصر والزمان المهدي عليه السلام.

٣- كان ظاهر قيام صاحب الزنج وفتنته الدفاع عن العبيد والمحرومين، لكنّه انحرف عن هذا الهدف وتسبب في دمار عظيم وسفك للدماء، حتى قال المسعودي في «مروج الذهب» [٤٠٧] أنّه قتل خمسمائة ألف من النساء والأطفال والشيوخ وهذا أقل عدد لقتلاه، وقال بعض المؤرخين أنّه دخل البصرة بعد عامين فأحرق مسجدها الجامع وكثير من البيوت، وأحرق حتى المواشى وجرت الدماء في أزقة البصرة [٤٠٨].

٤- رغم كل نقاط الضعف في صاحب الزنج فقد كانت فيه بعض الجوانب الإيجابية ومنها خطه الجميل وضلوعه بعلم النحو النجوم وقد نقلت عنه بعض الأشعار التي تدلّ على ذوقه الشعري ومن أشعاره:

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى قُصُورِ بَغْدَادَ وَمَا قَدْ حَوَّثَهُ مَلُّ عَاصِ
وَحُمُورِ هُنَاكَ تُشْرِبُ جَهْرًا وَرِجَالٍ عَلَى الْمَعَاصِي حِرَاصِ
لَسْتُ بِابْنِ الْفَوَاطِمِ الْغُرِّ إِنْ لَمْ أَجْلِ الْخَيْلِ حَوْلَ تِلْكَ الْعِرَاصِ
رَأَيْتُ الْمَقَامَ عَلَى الْإِقْتِصَادِ قُتُوعًا بِهِ ذُلَّةً فِي الْعِبَادِ [٤٠٩]

ومن الشعر المنسوب إليه:

وَأِنَّا لَتَصِيحُّ أَسْيَافُنَا إِذَا مَا انْتَضَيْنَ لِيَوْمِ سُفُوكِ
مَنَابِرُهُنَّ بَطُونُ الْأَكْفِ وَأَعْمَادُهُنَّ رُؤُوسِ الْمُلُوكِ [٤١٠]

فهذان البيتان يكشفان بوضوح عن روحيته وأهدافه.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٣١

القسم الثاني: نبوءة أخرى

إشارة

منه في وصف الأتراك

«كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْمًا «كَأَنَّ وَجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ»، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالْدِّيَبَاجَ، وَيَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ.
وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ قَتْلِ حَتَّى يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ، وَيَكُونُ الْمُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ!».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة في نبوءة عجيبة أخرى طبقها المرحوم السيد الرضى وتقريباً كافة شراح نهج البلاغة على المغول وحملاتهم الوحشية الهدامة، ومن هنا قال المرحوم السيد الرضى: القسم الآخر من الخطبة في وصف الأتراك (المغول).

فقد قال الإمام عليه السلام:

«كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْمًا «كَأَنَّ وَجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ [٤١١] الْمُطْرَقَةُ [٤١٢]».

وردت المفردة «كأنى» في عدّة موارد من نبوءات أمير المؤمنين على عليه السلام، والمفردة أراهم إشارة إلى الشهود الباطنى والبصيرة التى كانت ترى الحوادث المستقبلية عبر القرون فيخبر عنها بصورة دقيقة، وتشبيه وجوههم بالدروع لأنّ وجوههم كانت عريضة وكبيرة ووصفها

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٣٢

بالمطرقة يمكن أن يكون إشارة أن أغلب وجوههم كانت تشبه بالضبط موضع المطرقة على صفيحة الترس، ثم قال عليه السلام:

«يَلْبَسُونَ السَّرَقَ [٤١٣] وَالْدِّيَبَاجَ [٤١٤]، وَيَعْتَقِبُونَ [٤١٥] الْخَيْلَ الْعِتَاقَ [٤١٦]».

فالعبارة تفيد أن هؤلاء وإن كانوا فقراء وجوعى أول أمرهم يرتدون الثياب الخشنّة، إلّا أنّهم حين يستولون على البلدان الغنيّة وسيطرون على أموالهم وثوراتهم يتجهون صوب الثياب الفاخرة والخيول النفيسة، ويحتمل أن يكون المراد أنّ لهم رغبة شديدة فى القتال، ومن المعروف أن لبس الحرير يمنح الإنسان قوة القلب ويجعله أكثر مقاومةً للسيف، كما للخيول الخفيفة دور مهم فى ميدان القتال، وهذا ما يجعلهم يتجهون إلى هذه الأمور.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى أعمالهم وأشار بعبارات قصيرة إلى أبعاد ما يرتكبونه من فاجعة فقال:

«وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ [٤١٧] قَتْلِ حَتَّى يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ، وَيَكُونُ

الْمُفْلِتُ [٤١٨] أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ [٤١٩]!».

فالعبارتان تشيران إلى مدى سعة أبعاد الفاجعة، حيث لا يبقى فى الأرض مكان يسمح لعبور الجرحى، لابدّ من وضع أقدامهم على أجساد القتلى، ومن لم يقتل يؤسر، وقليل هم الناجون، وإن أدنى مطالعة فى تاريخ المغول تفيد انطباق جميع هذه الأوصاف عليهم، قال ابن أبى الحديد: واعلم إنّ هذا الغيب الذى أخبر به على عليه السلام قد رأيناه نحن عياناً ووقع فى زماننا فقد فعل هؤلاء القوم ما لم تحتو التواريخ منذ خلق الله تعالى آدم إلى عصرنا هذا على مثله [٤٢٠].

وهنا يبرز هذا السؤال: ماذا كان قصد الإمام عليه السلام بالإخبار عن فتنة صاحب الزنج التي

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٣٣

وقعت بعد مئتي سنة وفتنة المغول التي وقعت بعد ستمائة سنة؟ ربّما أراد الإمام عليه السلام أن يذكّرهم بأنّ أعمالكم الطالحة هذه والتي تأتون بها في هذا العصر وقد وليتم ظهوركم للحق وأقبلتم على الباطل وضربتم أحكام الإسلام ووقعتم أسرى هوى أنفسكم، فإنّ تواصلت هذه الأعمال في أجيالكم القادمة ستشهدون عواقب وخيمة وسيطالكم العقاب الإلهي، كما يحتمل أن يكون الإمام عليه السلام أراد تحذيرهم من البلاء العظيم الذي ينتظرهم، عليكم أن تتحدوا وتركزوا قوتكم لتتمكنوا من التقليل من آثاره المخربة.

فتنة المغول

المغول فرع من الترك الذين عاشوا في آسيا المركزية والشرقية في حدود الصين وهم طوائف مختلفة، طائفة منهم التاتار، وكانوا يأترون عادة بأوامر سلاطين الصين، وكان والد جنكيز أول من نهض من هذه الطائفة وإدعى الاستقلال، وحين خلف جنكيز أباه ١٢٠٠ هـ سعى للسيطرة على الأقاليم المختلفة لتلك المنطقة حيث أراد الرئاسة العامة لنفسه واستولى على قسم واسع من الصين وسيطر على عاصمتها بكين.

أمّا السلطان محمود خوارزم شاه الذي كان يحكم أكثر الشرط الأوسط وآسيا المركزية، فقد عقد الهدنة بادية الأمر مع جنكيز، ولكن لم تمض مدّة حتى نشبت بينهما عداوة فقتل رسل جنكيز، فما كان من جنكيز وبدافع الانتقام إلّا أن هجم على إيران وسائر المناطق الخاضعة لنفوذ خوارزمشاه.

أمّا ابن أبي الحديد الذي عاش في ذلك الزمان وقد شهد تلك الأحداث حسب قوله كما سمع بعضها الآخر، فقد أفرد ٢٥ صفحة في شرحه لنهج البلاغة وتطرق فيها بالتفصيل إلى حملة المغول على المناطق الإسلامية وقال: واعلم أنّ هذا الغيب الذي أخبر به الإمام عليه السلام قد رأيناه نحن عياناً، ووقع في زماننا، وإليك الآن جانب ممّا أورده ابن أبي الحديد بهذا الشأن:

هم التاتار الذين خرجوا من أقاصى المشرق حتى وردت خيلهم العراق والشام، وقد فعلوا بالقوقاز وبلاد ما رواء النهر وبخراسان وما والاها من بلاد ما لم تحتو التواريخ منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى عصرنا هذا على مثله، رئيسهم هو جنكيز الذي كان شجاعاً عاقلاً

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٣٤

موفقاً منصوراً في الحرب، كما كان عسكريه من الأفراد الشجعان وكانوا يعيشون بصورة شبه وحشية وأنهم من أصبر الناس على القتال، لا يعرفون الفرار ويعلمون ما يحتاجون إلى من السلاح بأيديهم، وأنّ خيلهم لا تحتاج إلى الشعير، بل تأكل نبات الأرض وعروق المراعى، وأنّ عندهم من الخيل والبقر ما لا يحصى، وأنهم يأكلون الميتة والكلاب والخنزير وهم أصبر خلق الله سبحانه على الجوع والعطش والشقاء، وثيابهم أخشن الثياب مساً، ومنهم من يلبس جلود الكلاب والدواب والميتة، وأنهم أشبه شيء بالوحش والسباع، كانوا يقتلون كل من يروونه من الرجال ويغنمون الأموال ويحرقون المدن ويسبون النساء الأطفال، لقد دخلوا من شرق إيران وأشاعوا الخوف والرعب بحيث لم يفكر أحد في مواجهتهم، ومن قاومهم استسلم أخيراً لهم، وأحياناً كانت تفتح لهم أبواب المدن بعد أن يعطيهم التاتار الأمان حين يطلبونه، ولكنهم كانوا ينقضون عهدهم ويقتلون أهالي المدن ويسبون النساء والأطفال ويعذبون الناس بأنواع العذاب في طلب المال .. ومن العجيب في هذا الأحداث أنّهم وصلوا إلى إصفهان بعد أن سيطروا على المدن الإيرانية، فحصلت بين الفريقين مقتلة عظيمة، ولم يبلغوا منها غرضاً حتى اختلف أهل إصفهان في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وهم طائفتان: حنفيه وشافعية، وبينهم حروب متصلة وعصبية ظاهرة، فخرج قوم من أصحاب الشافعي إلى ما يجاروهم ويتأخموهم من ممالك التتار، فقالوا لهم: اقصدوا البلد حتى نسلّمه إليكم، وفتحت أبواب المدينة فلما دخلوا البلد بدؤوا بالشافعية فقتلواهم قتلاً ذريعاً، ولم يقفوا مع العهد

الذي عهدوه لهم، ثم قتلوا الحنفية، ثم قتلوا سائر الناس وسبوا النساء وشقوا بطون الحبالى ونهبوا الأموال وصادروا الأغنياء، ثم أضرمو النار، فأحرقوا إصفهان حتى صارت تلوها من الرماد.

ثم ساروا إلى بلاد العرب فهجموا على بغداد فتصدى لهم عسكر بغداد وثبت أحسن ثبوت ورشقوهم بالسهم، وبعد مدة توفي جنكيز وخلفه حفيده هولوكو الذى تمكن من السيطرة على بغداد بعد أن قتل آخر خلفاء العباسيين المستعصم بالله وقد أنهى حكومتهم بذلك.

وبقى المغول فى إيران والبلدان الإسلامية وقد فقدوا ما طبعوا عليه من وحشية بالتدريج وتأثروا بالثقافة الإسلامية، وأسلم هولوكو حتى تشيع السلطان محمد خدابنده أحد سلاطين المغول [٤٢١].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٣٥

القسم الثالث: الغيب لله ولكن ...

إشارة

«فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ أُعْطِيَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمَ الْغَيْبِ! فَضَحِكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ، وَكَانَ كَلْبِيًّا: يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ. وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعِيَةِ، وَمَا عَدَدَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعِيَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْبَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ...) الْآيَةَ، فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَقَيْحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَيْخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطْبًا، أَوْ فِي الْجَنَّةِ لِنَيْبٍ مُرَافِقًا. فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَمَّا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِينَهُ صِدْرِي، وَتَضَطَّمَ عَلَيْهِ جَوَانِحِي».

الشرح والتفسير

حين خاض الإمام عليه السلام فى تلك الحادثتين المهمتين (قيام صاحب الزنج وفتنه المغول) وذكر خصوصياتهما «فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ أُعْطِيَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمَ الْغَيْبِ!».

فالعبرة وإن كانت على سبيل الإخبار، لكنّها فى الواقع استفهامية، لأنّه سمع أن علم الغيب مختص بالله سبحانه، ولذلك طلب توضيح الإمام عليه السلام:

«فَضَحِكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ، وَكَانَ كَلْبِيًّا: يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ».

قطعا أنّ ضحك الإمام عليه السلام لم يكن بدافع السخرية ولم يفرزه الغرور، بل كان ضحك الفرح

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٣٦

والسرور، ولعل مرد ذلك إلى حسن الأمر فى طرح ذلك السؤال من الرجل الكلبى ليكشف الإمام عليه السلام عن كنه ذلك الموضوع أمام الجميع .. أو أنّ ضحكه كان من تعجبه فى أنّه لا ينبغى أن يكون مثل هذا الأمر بخفى على أحد، على كل حال فإنّ عبارة الإمام عليه السلام تشير إلى حقيقة فى أنّ ذلك العلم مختص بالله وهو علم ذاتى، والعلم الممكن لما سوى الله، فهو العلم الحاصل من التعلم والذى له بُعد إكتسابى، يعنى يتعلمه الإمام عليه السلام من النبى صلى الله عليه وآله والنبى عن طريق الوحى الإلهى (سيأتى شرح هذا المطلب).

ثم قال الإمام عليه السلام:

«وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعِيَةِ، وَمَا عَدَدَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعِيَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْبَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي

نَفْسٌ مَادَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ...» [٤٢٢].

ثم أوضح معنى ذلك قائلاً:

«فَعَلِمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَفَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَسَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطْبًا، أَوْ فِي الْجَنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقًا».

فخلص عليه السلام إلى نتيجة نهائية مؤداها:

«فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ [٤٢٣] صَدْرِي، وَتَضَطَّمْ [٤٢٤] عَلَيْهِ

جَوَانِحِي [٤٢٥]».

فالذي يستفاد من مجموع هذه العبارات:

أولاً: أن علم الغيب علم ذاتي مختص بالله سبحانه وتعالى، لكن العلم الإكتسابي والإعطائي لا يسمى بعلم الغيب، بل هو ذلك العلم الذي علمه الله سبحانه نبيه وعلمه النبي من يراه مستعداً لذلك العلم.

ثانياً: لهذه العلوم التعليمية استثناءات وردت خمسة منها في الآية الشريفة الأخيرة من

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٣٧

سورة لقمان، وهذه مصاديق علم الغيب التي لم يعلمها الله سبحانه أحداً من الخلق.

وهنا لابد من طرح هذه الأسئلة

١- كيف يستفاد من الآية الشريفة أن هذه العلوم الخمسة مختصة بالله سبحانه؟

٢- كيف تختص هذه العلوم بالله والحال أخبر النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام أحياناً عن نزول الأمطار والأطفال في الأرحام أو الزمان والمكان الذي يتوفون فيه، بل أحياناً أخرى كانوا يخبرون عن العلوم المعاصرة فمثلاً متى وأين سينزل المطر، وذلك الجنين ولد أم بنت؟

٣- ما الفارق بين هذه العلوم الخمسة وسائر الأمور الخفية التي لا يعلمها غير الله سبحانه؟

ويقال في الإجابة على السؤال الأول:

العبارة الأولى بشأن القيامة قد بينت بوضوح إختصاص علمها بالله سبحانه، وتقديم عنده على علم الساعة دلالة على الحصر، يعنى العلم بالقيامة مختص فقط بالذات الله المقدس، كما تدل العبارة والرابعة والخامسة على الحصر أيضاً حيث قالت:

«وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَادَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ...».

وبناءً على ما تقدم فإن المورد الثاني والثالث بمقتضى وحدة السياق جزء من العلوم المختصة بالله سبحانه، والروايات المتعددة الواردة عن أئمة العصمة عليهم السلام في تفسير الآية شاهد آخر على هذا المعنى [٤٢٦].

ويقال في الرد على السؤال الثاني:

أن الالتفات إلى هذه النقطة ضرورة، وهي أن العلم بهذه الأمور الخمسة بصورة تفصيلية مختص بالله سبحانه، وإن أمكن حصول العلم الإجمالي للمعصومين أو بعض أولياء الله سبحانه، مثلما يمكن أن يعلم المعصوم أن المطر ينزل غداً، أو الشخص الفلاني يموت في الأرض الفلانية، أما العلم بجزئيات هذا الأمر من قبيل العلم بلحظة الشروع وحبات المطر التي تنزل في المكان، وكذلك العلم بلحظة الموت والبقعة التي يموت فيها والحالات الناشئة من سكرات الموت وما إلى ذلك في أمور فهو مختص بالذات الإلهية المقدسة،

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٣٨

والشاهد على ذلك ما أورده الإمام عليه السلام بشأن الجنين في رحم أمه فقال:

«فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَبَيْحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطْبًا، أَوْ فِي الْجَنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقًا»

، وسائر الأمور التي يقتصر علمها على الله تبارك وتعالى، وبناءً هلى هذا فما يعلمه الناس من حالات في بعض الأدوار الجنينية من خلال تعلم الغيب أو المختبرات المتداولة في الوقت المعاصر، فهو من قبيل العلم الجزئي، والحال يختص العلم الكلي بالله سبحانه. وأما الإجابة على السؤال الثالث:

فلا بد من الإذعان بأننا لا نرى من فارق بين الموارد الأربعة الأخرى غير القيامة وسائر الأمور الخفية، سوى أن الآية المذكورة وروايات المعصومين عليهم السلام تفرق هذه الأمور مع سائر الأمور الخفية وتقول بأن العلم التفصيلي فيها مختص بالذات الإلهية، ولكن في الموارد الأخرى كالذي ورد في هذه الخطبة بشأن فتنة صاحب الزنج وحمله المغول، فممكّن أن يزود الله بعض الخواص من عباده بعلمها الإجمالي والتفصيلي، وعلى كل حال فاننا تبع للنصوص القرآنية وروايات المعصومين المعتبرة.

علم الغيب في الآيات والروايات

اختلف العلماء في قضية علم الغيب وهل هناك من يعلم الغيب سوى الله سبحانه أم لا؟ ويبدو اختلافهم يعود إلى اختلاف ظواهر آيات القرآن والروايات الإسلامية، فبعض الآيات القرآنية صرحت علانية قائلة أن علم الغيب مختص بالله تبارك وتعالى، مثل الآية ٦٥ من سورة النمل: «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ...». وصرحت في الآية ٥٩ من سورة الأنعام قائلة: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...»، في حين يستفاد من البعض الآخر من الآيات أن جانباً من علم الغيب على الأقل قد زود به بعض أولياء الله تعالى، كما في الآية ٤٩ من سورة آل عمران بشأن السيد المسيح عليه السلام:

«أَتَّبَعْنَاكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ...»، والآية ٢٦ و ٢٧ من سورة الجن: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَمَّا يُظْهِرْ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ...».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٣٩

ونرى نفس هذا التفاوت في الروايات، فمثلاً جاء في الحديث أن الإمام الصادق عليه السلام ورد مجلساً غاضباً وكان فيه أبو بصير وبعض أصحابه، فلما جلس قال:

«يَا عَجَبًا لِأَقْوَامٍ يَزْعُمُونَ أَنَّا نَعْلَمُ الْغَيْبَ مَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» [٤٢٧].

بينما يستفاد من عدة روايات علم الأئمة المعصومين عليهم السلام بأغلب الأمور الخفية كالذي ورد في هذه الخطبة بشأن فتنة صاحب الزنج والمغول، أو سائر خطب نهج البلاغة بخصوص الأمور المستقبلية، ومما لا شك فيه أنه ليس هناك من تضارب بين الآيات المذكورة وأمثالها ولا بين الروايات السابقة (والروايات الأخرى التي وردت بهذا المضمون) وقد ذكر المحققون عدة آراء من أجل الجمع بين هذه الآيات والروايات، منها:

١- المراد بعلم الغيب الذي اختصته الآيات والروايات بالله تبارك وتعالى هو العلم الذاتي، وما يعلمه الأنبياء والأولياء هو العلم التعليمي من جانب الله سبحانه (وهو ما ورد في كلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبة).

٢- أسرار الغيب على قسمين: قسم يختص بالله تعالى ولا يعلمه أحد إلا هو كزمان الساعة والأمور الأخرى التي وردت في الآية ٢٤ من سورة لقمان، وقد أشارت الخطبة إلى هذا الوجه في الجمع وقد تقدم شرح ذلك.

٣- علم الله سبحانه بأسرار الغيب بالفعل يعني يعلم كل شيء في كل زمان، أما علم أولياء الله سبحانه، فليس بفعلي بل حيني، أي إن

أرادوا أن يعلموا شيئاً وتتحقق هذه الإرادة باذن الله تعالى ورضاه، ومن هنا نقرأ في سورة يوسف أن يعقوب لم يكن يعلم مصير ولده في صحراء كنعان، والحال علم بعد سنوات بمصيره في مصر، فقد وجد ريح يوسف من مصر بينما لم يجده في بئر كنعانه، فلم يكن مأذوناً في المورد الأول لأن يريد فيعلم، بينما أذن له في المورد الثاني.

٤- الطريق الآخر للجمع بين الآيات والروايات المختلفة في أن أسرار الغيب مثبتة في موضعين، اللوح المحفوظ والذي لا يحدث فيه أدنى تغيير ولا- يعلمه إلتعالى، واللوحة المحو والإثبات وهو في الواقع علم بالمقتضيات لا علم بالعلّة التامة، ومن هنا فهو قابل للتغيير، وما

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٤٠

يعلمه أولياء الله إنما يرتبط بهذا القسم.

ومن أراد المزيد من الشرح لكل من الطرق الأربعة المذكورة، فليراجع المجلد ١٩، من تفسير الأمل في تفسير سورة الجن.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٤١

الخطبة [٤٢٨] المائة والتاسعة والعشرون

إشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

في ذكر المكايل والموازين [٤٢٩]

نظرة إلى الخطبة

خاض الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بوعظ المسلمين فأورد عدّة نصائح شافية وكافية، الأولى وتحدث فيها عن قصر عمر الدنيا وأنّ الناس فيها كالضيوف وستتهدى بسرعه هذه الضيافة، بينما تبقى تبعات أعمال الإنسان حين الحساب والجزاء، ثم تحدث في الثانية عن سعة الفساد في ذلك العصر شاكياً منه، وأشار في الثالثة إلى الخيار والصلحاء والأتقياء والسمحاء ليحذر من خلال المقارنة بضرورة إصلاح النفس وإجثاث الفساد من المجتمع وأخيراً إختتم الخطبة بدم المرائين الذين يأمرن بالمعروف وليسوا من أهله، وينهون عن المنكر ولا ينتهون عنه.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٤٣

القسم الأول: التحذير من الفساد الاجتماعي

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّكُمْ - وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا - أَنْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ، وَمَعْدِنُونَ مُقْتَضُونَ: أَجَلٌ مُنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ. فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيِّعٍ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٍ. وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنِ لَا يَزِدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ إِلَّا إِدْبَارًا، وَلَا الشَّرُّ فِيهِ إِلَّا إِقْبَالًا، وَلَا الشَّيْطَانُ فِي هَلَاكِ النَّاسِ إِلَّا طَمَعًا. فَهَذَا أَوْ أَنْ قَوِيَّتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمَكَنْتْ فَرِيْسَتُهُ. اضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ

[تنظر]

إِلَّا فَقِيرًا يُكَابِدُ فَقْرًا، أَوْ غَنِيًّا بَدَلَ نِعْمَةِ اللَّهِ كُفْرًا، أَوْ بَخِيلًا اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللَّهِ وَفَرًّا، أَوْ مُتَمَرِّدًا كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَن سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْرًا!.

الشرح والتفسير

كما ورد في سند الخطبة وخلافاً لما جاء في عنوان هذه الخطبة فاننا لا نشاهد في متنها ما يشير إلى رعاية العدل في الكيل والوزن،

ولعل ذلك يعود إلى أحد سببين: إما أن المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه قد حذف بعض جوانب الخطبة المتعلقة بالكيل والوزن حسب طريقتة في اختيار الأفصح، أو ليس هنالك من حذف في الخطبة إلا أن الإمام عليه السلام خطب بهذه الخطبة في ظروف حين اتسع الفساد في الكيل والوزن والتطيف في البيع وظلم الناس وساد ذلك في المجتمع، وبالنظر إلى ذلك أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة ليحذر المرء، بعبارة أخرى فإن شأن وورد الخطبة قضية الكيل والميزان وإن لم يذكر ذلك صريحاً في متنها، إلا أنه ذكر من خلال الدلالة الالتزامية، على كل حال خاطب الإمام عليه السلام عامة الناس وقد حذرهم من تقلب الدنيا

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٤٤

وفساد المجتمع فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّكُمْ - وَمَا تَأْمَلُونَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا - أَثَوِيَاءُ [٤٣٠] مُؤَجَّلُونَ، وَمَدِيُونُونَ مُفْتَضَّوْنَ: أَجَلٌ مُنْقُوضٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ».

فقد شبه الإمام عليه السلام وضع أهل الدنيا بهذه العبارة بالضيوف الذين دعوا لمدّة معينة في ضيافته، وبالأفراد المدنيين الذين لا يتركهم دائنهم، فمن الطبيعي ألا يرى الضيف دار المضيف محطته الأبدية، فهم لا يتعلق بها أبداً ولا يثق بها ولا يحرص عليها، وليس الشخص المدنيين الذى يتابع دائماً من قبل الدائن من سبيل سوى منحه كل ما يجد بالتدريج، أملاً بأن يأتى اليوم الذى يكون قد سدّد فيه كل دينه، كأن العمر الذى منحنا الله تعالى من ديوننا التى تؤخذ منا كل لحظة، والمشكلة المهية أن إلى جانب ذلك العمر المتقلب والذى ينقضى بسرعة أعمالنا التى نقوم بها التى تحفظ ويجب علينا تحمل تبعاتها.

ورى بعض شراح نهج البلاغة عن بعض الصلحاء قوله:

«مَا أَدْرِي كَيْفَ أَعْجَبُ مِنَ الدُّنْيَا! أَمِنْ حُسْنِ مَنْطَرِهَا وَقُبْحِ مَخْبَرِهَا أَمْ مِنْ ذَمِّ النَّاسِ لَهَا وَتَنَاخُرِهِمْ عَلَيْهَا» [٤٣١].

نفحات الولاية؛ ج ٥؛ ص ٢٤٤

واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«قُرْبٌ ذَائِبٌ [٤٣٢] مُضَيِّعٌ، وَرُبُّ كَادِحٍ [٤٣٣] خَاسِرٌ».

صحيح أن السعى والجهد رمز الموقية والنجاح، إلا أن هذا ليس قانوناً كلياً، فهناك الأفراد الذين أفنوا عمرهم فى السعى والجد وأجهدوا أنفسهم ليل نهار ولم يظفروا بشيء، وهذا أحد إحباطات الإنسان فى الحياة الدنيا، ولعل العبارة إشارة إلى السعى المتعلق بالأمور المادية أو المعنوية، لأنهم كثيرون هو الأفراد الذين أجهدوا أنفسهم من أجل الوصول إلى المقامات المعنوية والنجاه الاخرية، ولكن تسلت إليهم أهواء النفس ووسوس الشيطان فى اللحظات الحساسة فاشتعلت النيران فى مزارع طاعتهم وأحرقت كل شيء، ثم أشار إلى الأوضاع المزرية لزمانهم وإقبال الناس على المساوىء وفرارهم من الصالحات فقال:

«وَقَدْ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٤٥

أَصِيبُحْتُمْ فِي زَمَنِ لَمَّا يَزْدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ إِلَّا إِذْيَارًا، وَلَمَّا الشَّرُّ فِيهِ إِلَّا إِقْبَالًا، وَلَمَّا الشَّيْطَانُ فِي هَلَاكِ النَّاسِ إِلَّا طَمَعًا. فَهَذَا أَوْ أَنَّ قَوِيَّتْ عِيدَتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمَكَّتْ فَرِيستُهُ [٤٣٤].»

فهذه العبارات الصريحة والواضحة تشير إلى مدى سقوط الوضع الأخلاقي للمسلمين فى ذلك العصر والزمان بفعل الحكومات المستبدة، ومدى الوسط المضحك الذى واجهه الإمام عليه السلام فى عهده، نعم إن فسد مسؤولوا البلاد ومن كان على رأس الحكومة فإن الفساد سيشمل كل شيء

«الناس على دين ملوكهم».

فما الذى يمكن توقعه من الناس إن وزع الخليفة أموال بيت المال المسلمين على بطانته، وولى قرابته الطالحة ونصبهم فى المواقع الحساسة، وتعاطى عامله الشراب علانية ليدخل المحراب فيصلى بالناس جماعة ثملاً، ويمارس الآخرون الرذيلة والأعمال البشعة، أو ليست سلطة الشيطان بالتكالب على الدنيا وابتاع الأهواء؟

نعم، إن سادت هذه الأمور تيسرت حكومة الشيطان، فقد ورد فى الخبر أن ابن عمر وبعض ولد أبى بكر وسعد بن أبى وقاص قصدوا علياً عليه السلام حين خلافته وسألوه زيادة العطاء من بين المال، فصعد عليه السلام المنبر وخطب الناس قائلاً: «... إذا منعتهُم ما كانوا فيه يخوضون وصيرتُهُم إلى ما يستوجبون فيفقدون ذلك فيسألون ويقولون: ظلمنا ابن أبى طالب وحرمانا ومنعنا حقوقنا- إلى أن قال- أما أنى أعلم الذى تريدون ويقيم أودكم، ولكن لا أشتري صلاحكم بفساد نفسى...» [٤٣٥].

ثم قال:

«اضرب بطرفك [٤٣٦] حيث شئت من الناس، فهل تبصر [تنظر]]

إلاً فقيراً يكابد [٤٣٧]
فقراً، أو غنياً بدل نعمة الله كُفراً، أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وقرأ [٤٣٨]، أو متمرداً كان

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٤٦

بأذنه عن سماع الموعظ وقرأ [٤٣٩]!.

فقد ركز الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغة والرائعة على أربع فئات محرومة أو منحرفة تشكل أساس فساد المجتمع وإنهياره:

الأولى: الفقراء الذين يقعون أسرى الفقر، وهو الفقر الذى عبرت عنه الروايات بالقول:

«كاد الفقر أن يكون كُفراً».

الثانية: الأغنياء الذين غرقوا فى النعم والملذات والشهوات حتى نسوا كل شىء وهووا فى الكفر.

الثالثة: البخلاء الذين تصوروا أن البخل سبب زيادة الثروة.

الرابعة: المتمردون الذين عاشوا الغرور ولم تعد آذانهم تسمع كلام الحق.

فعبارة الإمام عليه السلام التى قال فيها:

«اضرب بطرفك [٤٤٠] حيث شئت...»

فلا تبصر أحداً سوى هذه الفئات الأربع دليل على أن الفقر والفساد أصبح على درجة من الشمولية بحيث ظهرت آثارهما فى كل

مكان، والدليل على تلك السعة والشمولية ما اشير إليه فى العبارة المذكورة.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٤٧

القسم الثانى: أين الأخبار؟

إشارة

«أين أختياركم وصيلاحواكم! وأين أحراركم وسيمحاؤكم! وأين المتورعون فى مكاسبتهم، والمتزهنون فى مآذاهم! أليس قد ظعنوا جميعاً عن هذه الدنيا الدنيئة، والعاجلة المنغصية. وهل خلقتم إلاً فى حثاله لا تلتقى بدمهم الشفتان، استصغاراً لصدورهم، وذهاباً عن ذكرهم! ف (إنا لله وإنا إليه راجعون)، (ظهر الفساد)، فلا منكراً مغيراً، ولا زاجراً مُردجراً. أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله فى دار قُدمه، وتكونوا أعز أوليائه عنده؟»

هَيْهَاتَ! لَا يُخَدَعُ اللَّهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ. لَعَنَ اللَّهُ الْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ النَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ!.

الشرح والتفسير

استعمل الإمام عليه السلام عبارات بليغة رائعة في هذا المقطع من الخطبة ليكشف النقاب عن فساد الزمان والتولى عن الصالحات والاقبال على السيئات فقال:

«أَيْنَ أَحْيَارُكُمْ وَصَلْحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسَمَحَاؤُكُمْ! [٤٤١] وَأَيْنَ الْمُتَوَرُّعُونَ [٤٤٢] فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ!».

فقد بحث الإمام عليه السلام بهذه العبارات عن ستة طوائف في المجتمع ليدل فقد أنها أنذاك على مدى الانحطاط والفساد، والطوائف الست هي: الأخيار، الصالحون، الأحرار، السمحاء،

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٤٨

المتورعون، والمتزهون، حقاً إن افتقرت المجتمعات البشرية إلى هذه الطوائف الشريفة والنجية في المجتمع، فليس هناك سوى الفساد والانحراف، والمراد من المتورعين في مكاسبهم، الأفراد الذين لا يطفون في البيع ولا يغشون ولا يكذبون ولا يقسمون بالباطل ولا يرابون والذين ينقضون عهودهم ومواثيقهم، فمن يرى المجتمع الصالح العامر بالأخيار والصلحاء والأحرار والسمحاء على أنهم نماذج المجتمع إنما يشعر بالامتعاض لا سيما إن رأى بدلاً منهم الأشرار والطلحاء والأسرى والبخلاء فلا يمتلك سوى الصراخ: اين اولئك الأعزة؟ كيف خلى مكانهم؟

ثم قال الإمام عليه السلام:

«أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا [٤٤٣] جَمِيعاً عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّيْتِيَّةِ، وَالْعَاجِلَةِ الْمُتَنَصِّصَةِ [٤٤٤]».

فأردفها عليه السلام بالقول:

«وَهَلْ خَلِقتُمْ [٤٤٥] إِلَّا فِي حُثَالَةٍ [٤٤٦] لَأَتَلْتَقِي بِدَمِهِمُ الشَّقَاتَانِ، اسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ! فَ (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)».

وقد انبثقت هذه الظروف العصبية والأفراد المنحطين منذ انحراف الخلافة الإسلامية عن محورها الأصلي وقد بلغ الأمر ذروته على عهد عثمان، فقد فوضت المواقع الحساسة من الحكومة الإسلامية إلى أصحاب الدنيا البعيدين عن الورع والتقوى وقد تغلغلوا في المجتمع الإسلامي بحيث كان من المتعذر تغييرهم ابان حكمه على عليه السلام، كما كان هؤلاء الأفراد هم السبب لكافة المعارك التي حدثت ضد الإمام عليه السلام.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الوظيفة التي ينبغي أن يقوم بها أصحابه تجاه تلك الظروف والأوضاع فقال:

«ظَهَرَ الْفَسَادُ، فَلَا مُنْكَرَ مُعَيَّرٍ، وَلَا زَاجِرَ مُزْدَجِرٍ. أَفِيهِذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللَّهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَاءِهِ عِنْدَهُ؟».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٤٩

طبعاً إن هذا الاستفهام إستفهام استنكاري، والمراد على ضوء هذا الوضع الذي سلكتموه وقد سكتتم إزاء الفساد أو أعنتم عليه، فلا من أمر بمعروف ولا نهى عن منكر، فليس لكم أن تنالوا القرب الإلهي وتكونوا في صفوف أولياء الله، فأكد ذلك بالقول:

«هَيْهَاتَ! لَا يُخَدَعُ اللَّهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ».

فاولئك المسلمون ظاهراً ويحسبون في صفوف أهل الإيمان لكنهم راضون بالفساد ساكتون باطناً، لا يقدرّون على خداع الله العالم بأسرارهم وأعمالهم، لعلم يخدعون الآخرين، بل وأنفسهم لمدّة، ولكن أنى لهم ذلك يوم القيامة يوم لا يخفى على الله منهم خافية، فليس أمامهم سوى الندم.

ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّيِّ وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ مَا حَلَصَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْأَعْمَالُ» [٤٤٧].

ثم إختتم الخطبة مشدداً في التأكيد فقال:

«لَعَنَ اللَّهُ الْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالتَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ!».

صحيح أن عمل الإنسان لا يشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعبارة أخرى فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفتان مستقلتان وإن كان نفس الإنسان تاركاً للمعروف وعاملاً بالمنكر.

كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوا كُلَّهُ» [٤٤٨].

ولكن أن يأمر الإنسان بالمعروف ولا يأتمر به وينهى عن المنكر ولا ينتهي عنه بحد ذاته نوع من النفاق الواضح، والمنافق يستحق اللعن واللوم والعقاب.

وبعبارة أخرى فإن اختلاف الظاهر والباطن الذي يكون سبباً لخداع الناس وروح النفاق من أسوأ الصفات التي يجعل الإنسان يستحق اللعن فيوجب بعهده عن الله ورحمته.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٥٠

شكوى أهل الزمان

من المسائل الغاية في الصعوبة والمرارة في التاريخ الإسلام هو أن علياً عليه السلام بدلاً من أن يأخذ بزمام أمور الأمة الإسلامية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لينشر الإسلام في الشرق والغرب ويحفظ مبادئ الإسلام، قد تسلم الحكومة الإسلامية والأمة الإسلامية عاشت الانحراف عن العدالة والزهد بفعل اضطراب عهود الخلفاء ولا سيما عهد عثمان الذي ضاعت فيه القيم الإسلامية وقد وضعت الأموال والمناصب تحت تصرف حثالة بنى أمية وآل مروان، فهم لا يفكرون إلّا في المال والثروة والمقام والسيطرة على الناس، وقد انتعشت أغلب مثل الجاهلية، فقد قام الإمام عليه السلام في ظل هذه الظروف العصيبة من أجل إحياء القيم الإسلامية وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وإطفاء فتن الجاهلية، من خلال الحث والتبشير أحياناً والانذار واللوم أحياناً أخرى، ون خلال الاستشهاد بحوادث عصر النبي الأكرم عليه السلام ومقارنتها بالأوضاع السائدة، كما يستعين أحياناً بتاريخ سالف الأنبياء والعذاب الذي صب على العتاة الذين تمردوا عليهم، وهكذا أخذت تظهر الفضائل الإسلامية والإنسانية شيئاً فشيئاً بين أصحاب الإمام عليه السلام حتى استقرت وتبلورت بعد أن رويت شجرتها بدم الإمام عليه السلام، وكادت أن تثمر، ولكن مع الأسف الشديد أن تلك الأجواء تعكرت بفعل فتن الناكثين والقاسطين والمارقين، وقد بلغت الجريمة بأحدهم لأن ينهال بالسيف على رأس الإمام عليه السلام لتبقى تلك البرامج ناقصة، فتنشط من جديد الشياطين لتعيث في الأرض الفساد.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٥١

الخطبة [٤٤٩] المائة والثلاثون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

لَأَبِي ذَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا أُخْرِجَ إِلَى الرَّبِذَةِ

نظرة إلى الخطبة

لما إنهال أزلام بنى أمية وبنى مروان على بيت مال المسلمين بتلويح من عثمان فجعلوا يتهبون ما يريدون، واجههم أبو ذر رحمه الله ذلك الصحابي الشجاع والاسوة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأصبح يشكل خطراً جدياً على منافعهم، فأشاروا على عثمان بنفيه إلى ربذة التي تعتبر أسوأ المناطق مناخاً، أما الإمام عليه السلام فقد أراد أن يثبت عدم شرعية هذا الحكم الجائر من جهة، وأن يشد من عزيمة أبي ذر من جهة أخرى، فيعينه على تحمل ما يواجهه من صعوبات، ومن هنا شايح أبي ذر وقد واساه بكلمات رائعة وعميقة وأمله بالمستقبل الزاهر الذي ينتظره، كما أضاف ورقة سوداء أخرى إلى سجل بنى أمية ومروان المظلم.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٥٣

القسم الأول: أبو ذر رحمه الله بطل مقارعة الفساد

إشارة

«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلَّهِ، فَارْجُ مِنْ غَضَبِ بَتِّ لَهُ. إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَخِيفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِيفْتَهُمْ عَلَيْهِ، فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَيَّ مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَعْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَسَتَعْلَمُ مِنَ الرَّابِحِ عَدَاً، وَالْأَكْثَرِ حَسْداً» [خسراً]]

. وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَنْ كَانَتِيَا عَلَى عَبْدٍ رَتَقًا ثُمَّ اتَّقَى اللَّهَ لَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجًا! لَا يُؤْنِسِيَنَّكَ إِلَّا الْحَقُّ، وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلَّا الْبَاطِلُ. فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لِأَحْبُوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لِأَمْنُوكَ».

الشرح والتفسير

كما ذكرنا فإن الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام حين نفى أبو ذر من قبل عثمان إلى الربذة، جاء في الخبر: لما أخرج أبو ذر إلى الربذة أمر عثمان، فنودي في الناس ألا يكلم أحد أبا ذر ولا يشيعه، وأمر مروان بن الحكم أن يخرج به، فخرج به، وتنحى عنه الناس إلأعلى بن أبي طالب عليه السلام وعقيلاً أخاه وحسنًا وحسينًا عليهما السلام وعماراً رحمه الله، فأنهم خرجوا معه يشيعونه، فجعل الحسن عليه السلام يكلم أبا ذر، فقال مروان إليها حسن ألا تعلم أن أمير المؤمنين (عثمان) قد نهى عن كلام هذا الرجل، فان كنت لا تعلم فاعلم ذلك، فحمل على عليه السلام على مروان فضرب بالسوط بين أذني راحلته وقال: تنح لحالك الله إلى النار، فرجع مروان مغضباً إلى عثمان فأخبره الخبر [٤٥٠].

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٥٤

وهنا وقف أبو ذر رحمه الله فودعه القوم، وخطب الإمام عليه السلام بهذه الكلمات التي تتضمن كل واحدة منها نقطة مهمّة بهدف مواساة أبي ذر وتحمله المصاعب التي ستواجهه في المستقبل، فقد أشار عليه السلام إلى ست نقاط فقال أولاً:

«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلَّهِ، فَارْجُ مِنْ غَضَبِ بَتِّ لَهُ».

أما قوله عليه السلام فارج من غضبت له ولم يقل ارج الله، فالواقع بين الإمام عليه السلام دليل ذلك الأمل، لأن كل شخص يغضب لآخر بالنسبة لشيء يؤذيه، فمن الطبيعي أن ذلك الشخص سيقف إلى جانبه.

وقال في الثانية:

«إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَخِيفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِيفْتَهُمْ عَلَيْهِ».

إشارة إلى أنهم شعروا بالخطر على حكومتهم ومنافعهم المادية إثر صراحه كلامك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلم يستطيعوا تحمل وجودك في المدينة، لكنك قاطعتهم ولم تقبل بذلهم، وذلك لأنك شعرت بالخطر على دينك، فلما قمت

بوظيفتك واطلعت الناس على أعمال هؤلاء الحكام، فاتركهم واهرب بدينك وإيمانك.

ثم قال الإمام عليه السلام:

«فَمَا أَحْوَجُهُمْ إِلَيَّ مَا مَنَعْتُهُمْ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَسَتَعَلَّمُ مِنَ الرَّابِحِ غَدًا، وَالْأَكْثَرُ حُسْدًا»،

فهم بحاجة إلى دينك، الدين الذي لم تكن مستعداً للتضحية به من أجل دنياهم، لكنك لست بحاجة إلى دنياهم وإن منعوها عنك [٤٥١]، والعبارة «وستعلم...» مواساة أخرى لأبي ذر فعمر الدنيا قصير كأنه ويوم وغدا تقوم القيامة، أنذاك سيفتضح الظلمة عبدة الدنيا

ويغبطون الأتقياء على درجاتهم العالية، ثم ضاعف من ذلك الرجاء في قلب أبي ذر فقال في الثالثة:

«وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ كَانَتَا عَلَيَّ عَبْدًا رَتَقًا [٤٥٢] ثُمَّ اتَّقَى اللَّهُ لَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجًا!».

والواقع هو أن هذه العبارة إشارة إلى الآية الشريفة:

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا

* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» [٤٥٣].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٥٥

ثم قال في الرابعة والخامسة:

«لَا يُؤْنِسُكَ إِلَّا الْحَقُّ، وَلَا يُوحِشُكَ إِلَّا الْبَاطِلُ».

فليكن أنسك في الحق ولا تخشى شيئاً مادمت في هذا السبيل، ولتكن وحشتك من الباطل وإنك لسعيد مادمت هارباً من الباطل، فلا ضير عليك إنك قمت لله وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر في الله، فلو قبلت دنياهم وعاونتهم في نيل أطماعهم المادية لأحبوك، ولو أخذت من ذلك شيئاً وهدانتهم لأمنوك، ولذا قال في السادسة:

«فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لِأَحْبُوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ [٤٥٤] مِنْهَا لِأَمْنُوكَ»

، فهم تجار ظلمة ذائبون في الدنيا وأهل معاملة فيها، فمن وافق على مظالمهم وهدانهم بقبول سهم من أموالهم، أحبوه وقدسوه ودافعوا عن ماله وعرضه.

فبإمرته عليه السلام مواساة لأبي ذر من جانب وصاعقة شديدة على الحكام الظلمة من جانب آخر، فالحق أن نفى «أبوذر» ذلك العبد الصالح والزاهد الورع كان نموذجاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان وصمة عار في جبين الحكام الظلمة وأعاونهم، فقد كانوا يعلمون أن لسان ذلك الصحابي الجليل يعدل مئة ألف سيف.

تأملات

١- من هو أبو ذر رحمه الله

تعتبر حياة أبي ذر مليئة بالأحداث مقارنته بحياة سائر صحابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والتي يمكنها أن تكون أسوة لكافة المجاهدين في سبيل الحق طيلة التاريخ البشري، ولا- غرو فحياته إقتباس من حياة مولاه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام مع فارق بسيط هو أنه خضع لظروف صعبة جداً، لكنه لم يتوان قط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الوقوف بوجه الظلمة والفساد، وإليك جانب من سيرته:

اسمه جندب وأبوه جنادة [٤٥٥] وأسماء رسول الله عبد الله، ينسب إلى طائفة معروفة من طوائف

نفعات الولاية، ج ٥، ص: ٢٥٦

العرب وهى بنى غفار، كانت له ضيعة أطراف مكّة، سمع ببعث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فاتجه إلى مكّة، فلما دخل المسجد رأى فيه طائفة من قريش وهى تتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وهى تسبه وتشتمه، فدخل أبو طالب، فقالوا: إسكتوا هذه عمه، عرف أبو ذر، أبا طالب، فلما خرج من المسجد تبعه فالتفت إلى أبو طالب وسأله هل من حاجة؟ قال: اريد الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله، فقال له أبو طالب تعال هنا غداً، فقصى أبو ذر ليلته فى المسجد الحرام، وفى اليوم التالى إلتقى حمزة، ثم تعرف بجعفر وعلى وأخيراً حملة على عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله فأسلم وآمن طواعيةً.

ثم أمره رسول الله صلى الله عليه وآله بالرجوع إلى أهله وقال له: فان لك ابن عم قد توفى وليس به وارث غيرك فاستعن بتلك الأموال حتى يؤذن لى بالدعوة العلنية آنذاك عد إلينا، كان أبو ذر من أوائل من أسلم، وإلتحق بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعد غزوة بدر وأحد والخندق وحين أنفق كل ما لديه فى سبيل الله، وقد وصفه النبي صلى الله عليه وآله بصديق الأمة وشبيه عيسى بن مريم.

قال العلامة المجلسي رحمه الله فى كتاب «عين الحياة» يستفاد من مصادر الفريقين أنه لم يكن من بين الصحابة بعد المعصومين من هو أجل قدراً من سلمان وأبى ذر والمقداد وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَيَّا أَظَلَّتِ الْخُضْرَاءُ وَلَا- أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ عَلَى ذِي لَهَجَةٍ أَصْدَقُ مِنْ أَبِي ذَرٍّ يَعِيشُ وَحَدَهُ وَيَمُوتُ وَحَدَهُ وَيُبْعَثُ وَحَدَهُ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَحَدَهُ» [٤٥٦].

لازم أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وآله فى المدينة، ولما ولى عثمان الخلافة وأعطى مروان من بيت المال، جعل أبو ذر يقول بين الناس وفى الطرقات والشوارع:

«وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...» [٤٥٧].

فى إشارة إلى عثمان وبطانته الذين أخذوا ينهبون بيت مال المسلمين، كان أبو ذر يردد تلك الآية ويرفع بها صوته، فرجع ذلك مراراً إلى عثمان وهو ساكت، ولم تمض مدة حتى صعب على الخليفة وبطانته تحمل كلام أبى ذر، فأرسل إليه عثمان مولى من مواله أن إنته عمّا بلغنى عنك،

نفعات الولاية، ج ٥، ص: ٢٥٧

فقال أبو ذر: أو ينهانى عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى؟ فوالله لأن أرى الله بسخط عثمان أحبّ إلى وخير لى من أن أسخط الله برضا عثمان، فأغضب ذلك عثمان وأحفظه، فتطايير وتماسك، إلى أن قال يوماً والناس حوله: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال شيئاً قرضاً، فاذا أيسر قضى؟ وكان فى المجلس كعب الأحبار وأبو ذر، فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك، فقال: أبو ذر: يابن اليهودية أتعلمنا ديننا؟ (فمثل هذه الأمور لا تجوز فى بيت مال المسلمين) فقال عثمان: قد كثر أذاك وتولعك بأصحابى، إلتحق بالشام، فأخرجه إليها.

ولم يسكت أبو ذر فى الشام حين شاهد الخضرى التى بناها معاوية فى دمشق إلى جانب البيوت المتواضعة للفقراء من الناس والمحرومين، فقال لمعاوية: يا معاوية إن كانت هذه من مال الله فهى الخيانة، وإن كانت من مالك فهى الاسراف، والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هى فى كتاب الله ولا- سته نبيه، والله إنى لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذباً، وأثرة بغير تقى، وصالحاً مستأثراً عليه، فثقل ذلك الكلام على معاوية، فكتب إلى عثمان، فكتب عثمان أن إحمل جندياً إلى على أغلظ مركب وأوعره حتى قدم به المدينة.

فلما دخل أبو ذر رحمه الله على عثمان، سعى عثمان لأن يضطره للقول بخلاف ما يريد فقال له: أنت الذى تزعم أنا نقول:

«إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ الْأَغْنِيَاءُ»

، فقال أبو ذر: لو كنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مال الله على عباده، ولكنني أشهد أنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إِذَا بَلَغَ بَنُو الْعَاصِ ثَلَاثِينَ رَجُلًا، جَعَلُوا مَالَ اللَّهِ دُولًا، وَعِبَادَهُ حَوْلًا، وَدِينَهُ دَخْلًا»

، فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالوا: لا؟ قال عثمان: ويلك يا أبا ذر! أتكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: ادعوا لي علياً، فما جاء قال عثمان لأبي ذر: اقصص عليه حديثك في بني العاص، فأعاده، فقال عثمان لعلي أسمع هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: لا؛ وقد صدق أبو ذر، فقال: كيف عرفت صدقه؟ قال: لأنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول:

«مَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ وَلَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ عَلَى ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقُ مِنْ أَبِي ذَرٍّ...»

. فقال من حضر: أما هذا فقد سمعناه كلنا من رسول الله صلى الله عليه وآله، فندم عثمان.

وجاء في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ عِثْمَانَ بَعَثَ غَلَامِينَ بِمِثْقَى دِينَارٍ إِلَى أَبِي ذَرٍّ وَقَالَ: قَوْلًا لَهُ إِنَّ عِثْمَانَ يَقْرَأُكَ السَّلَامَ وَبَعَثَ بِهَذَا الْمَالِ لِتَسْتَعِنَ بِهِ عَلَيَّ مَعِيشَتِكَ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ:

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٥٨

فهل أعطى سائر المسلمين، قالوا: لا، فقال: لا حاجة لي به، قالوا: إن عثمان يقول إنه من خاصة مالي ولم يخالطه الحرام، فلم يقبل أبو ذر وقال: إنني لأغني الناس بولاية علي بن أبي طالب، فعودا بالمبلغ إليه والله يحكم بيني وبينه» [٤٥٨].

وأخيراً ضاق عثمان ذرعاً بأبي ذر واستشار من حوله، فأشاروا عليه بنفيه من المدينة، فاختار أبو ذر الشام والعراق، فلم يوافقوه حيث كانوا يخشون منه، إلى انتهى بهم الأمر لنفيه إلى الربذة [٤٥٩] المعروفة بسوء أحوالها ومناخها حتى توفي فيها، ولم يكن لديه حتى الكفن مرّت جماعة وفيهم مالك الأشتر فأخبرتهم بنته في الطريق، فكفونوه وصلى عليه صحابي رسول الله صلى الله عليه وآله عبد الله بن مسعود، ثم دفنوه [٤٦٠].

٢- أبو ذر رحمه الله والاشتراكية

لقد سعى البعض من المتعصبين بدافع حبه لمعاوية وبني أمية أو لفرط ذوبانه في عثمان لإثارة بعض الغبار على شخصية أبي ذر، وذلك لعدم إمكانية الجمع بين كون أبا ذر من أولياء الله أنه أصدق من على الأرض وأن عثمان خليفة المسلمين ومعاوية من الصحابة، ومن هنا فلم يروا أخف وطأه عليهم من أبي ذر فقالوا: إن أبا ذر لا يؤمن بالملكية الفردية وكانت له نزعة اشتراكية.

وقال الرزكلي في كتاب «الاعلام في أبي ذر»: «ولعله أول اشتراكي طادرت الحكومات» [٤٦١].

وهذا في الوقت الذي لم يتطرق فيه أبو ذر قط إلى نفي الملكية الفردية، بل شدد من حملاته ضد الأثرياء كمعاوية ممن يوزعون الثروة بصورة غير عادلة، ولذلك لم يكن يشن مثل هذه

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٥٩

الحملات على عهد الخيفة الأول والثاني، قال البعض وردت عبارة «مال الله» في كلمات أبي ذر، فاستفادوا منها نفيه للملكية الخاصة، والحال التعبير بمال الله عن بيت المال هو تعبير متداول وسائد، فقد صرح المرحوم العلامة الأميني في المجلد الثامن من الغدير حين نقل نعت أبي ذر بالاشتراكية أن التعبير بمال الله كثير في أقوال الصحابة، ثم نقل عدّة روايات عن عمر عبّر فيها صريحاً بمال الله، كما وردت عدّة روايات عن أمير المؤمنين علي عليه السلام عبّر فيها بمال الله [٤٦٢].

لا شك أنه يمكن التعبير عن تلك الأموال بمال الله، بل يمكن إطلاق مال الله حتى على الأموال الشخصية للناس، فقد جاء في القرآن الكريم مثل هذه التعبير:

«وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ...» [٤٦٣].

والحق إن هذه الفتنة تسرعت في الحكم على أبي ذر، حيث كان يؤكد مراراً تمسكه بالآية:

«وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...» [٤٦٤]

، ونعلم جميعاً أنّ هذه الآية وردت بشأن مانعي الزكاة.

والأدهى من كل ذلك لجنة فتوى الأزهر قد أصدرت فتوى عام ١٣٦٧ ق تحت تأثير بعض المتعصبين في نفى الشيوعية لتنقل عقيدة أخرى لأبي ذر وحكمت بطلانها لتعتبرها معلولة لبعده عن مبادئ الإسلام، وهي أنّه كان يعتقد بوجوب اعطاء المال الزائد عن حاجته إلى أهل الحاجة ولا ينبغي أن يحتفظ بتلك الأموال، قال المرحوم الأميني بعد ذكره لهذه الفتوى لو اوكل شيخ الأزهر مطالعة هذه المسألة لمن هو أعرف بأبي ذر وحكموا فيها بعيداً عن التعصب، لعلم أنّ ليس هناك مثل هذه العقيدة لأبي ذر، والأسوأ من ذلك ما ذكره من عذر لأبي ذر بعدم معرفة بمبادئ الإسلام، وهذا ما يضحك الثكلى ويبيك كل مسلم غيور، فهل يصح مثل هذا الكلام بشأن صحابي جليل قضى شرطاً من حياته مع رسول الله صلى الله عليه وآله وقد شبّهه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعيسى خلقاً وخلقاً [٤٦٥]، والطريف في الأمر أنّ أبا ذر ثقة عند بعض

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٦٠

المحدثين كالبخاري ومسلم حيث نقلوا عنه ٨١ حديثاً [٤٦٦]، وهذا بدوره يكشف عن مدى بعد لجنة فتوى الأزهر عن الحقيقة.

٣- العاقبة المريرة لأبي ذر

إنّ الحديث في أبي ذر وما لم يقال فيه لكثير ويتطلب كتاباً مستقلاً، ولكن يبدو من الضروري ذكر هذه النقطة في أنّ ما منح أبي ذر القوة والصلابة وأربع خصومه هو زهده الممزوج بصراحة لسانه، فهم لم يستطيعوا الاعتراض عليه لزهده من جانب، ومن جانب آخر لم يطبقوا تحمل صراحته، وإليك نموذج من ذلك.

روى ابن أبي الحديد عن الجاحظ عن جلام بن جندل الغفاري قال: كنت غلاماً لمعاوية على قنسرين والعواصم في خلافة عثمان، فجت إليه يوماً أسأله عن حال عملي، إذا سمعت صارخاً على باب داره يقول: أتتكم القطار بحمل النار (إشارة إلى الجمال التي كانت تحمل أموال بين المال)، اللهم إلعن الأمرين بالمعروف التراكين به، اللهم إلعن الناهين عن المنكر المرتكبين له، فازبأر معاوية وتغير لونه وقال: يا جلام أتعرف الصارخ؟ فقلت: اللهم لا. قال:

من عذيري من جندب بن جنادة، يأتينا كل يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعت! ثم قال:

أدخلوه عليّ، فجيئني بأبي ذر بين قوم يقودونه، حتى وقف بين يديه، فقال له معاوية: يا عدوّ الله وعدوّ رسوله تأتينا كل ويوم فتصنع ما تصنع، أمّا لو أني كنت قاتل رجلاً من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتك، ولكنني أستاذن فيك. فقال أبو ذر: ما أنا بعدوّ لله ولا لرسوله، بل أنت وأبوك عدوّان لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر، ولقد لعنك رسول لله صلى الله عليه وآله وودعا عليك مرات ألا تشع .. فغضب معاوية وأمر بحبسه وكتب إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاوية أن إحمل جندباً على أغلظ مركب وأوعره، فوجه به مع من سار به الليل والنهار، وحمله على شارف ليس عليها إلّا قتب، حتى قدم به المدينة وقد سقط لحم

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٦١

فخذه من الجهد، ثم نفاه عثمان إلى الربرة [٤٦٧].

ونختتم هذا البحث بحديث نبوي شريف ورد في كتاب أسد الغابة، فقد أسلم أبو ذر لثلاث سنوات قبل البعثة، وكان يعبد الله:

«وَبَايَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَيَّ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمَةٌ وَعَلَيَّ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مَرًّا» [٤٦٨].

٤- كلمات المؤدعين لأبي ذر

جاء في الكتب التاريخية أن عقيلًا وحسنًا وحسينًا عليهم السلام وعمارًا رحمه الله قد ودعوا أبا ذر إلى جانب علي عليه السلام وكل قال في وداعه كلمة، ففقد قال عقيل:

«ما عسى أن نقول يا أبا ذر وأنت تعلم إننا نُحِبُّكَ، وأنت تُحِبُّنا! فاتق الله فان التقوى نجاهٌ واصبر فان الصبر كرم».

ثم تكلم الحسن عليه السلام فقال:

«يا عمّاه، لولا أنه ينبغي للمودع أن يسكت، وللمشيّع أن ينصرف، لقصر الكلام وإن طال الأسف، وقد أتى القوم إليك ما ترى، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها، وشدة ما إشتد منها برجاء ما بعدها، واصبر حتى تلقى نبيك صلى الله عليه وآله وهو عنك راض».

ثم تكلم الحسين عليه السلام فقال:

«يا عمّاه، إن الله تعالى قادر أن يغير ما قد ترى، والله كل يوم هو في شأن، وقد منعك القوم دنياهم، ومنعتهم دينك، فما أغناك عمّا منعوك وأحوجهم إلى منعتهم، فأسأل الله الصبر والنصر، واستعد به من الجشع والجزع، فإن الصبر من الدين والكرم...».

ثم تكلم عمار رحمه الله فقال:

«لا- آنس الله من أوحشك، ولا- آمن من أخافك، أما والله لو أردت دنياهم لأمنوك، ولو رضيت أعمالهم لأحبوك، وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلا الرضا بالدنيا، والجزع من الموت، مالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه، والملك لمن غلب، فوهبوا لهم دينهم، ومنحهم القوم دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٦٢

فبكى أبو ذر رحمه الله وكان شيخاً كبيراً، وقال: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة إذا رأيتمكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وآله، ما لى بالمدينة سكن ولا شجن غيركم، والله ما أريد إلا الله صاحباً، وما أخشى مع الله وحشاً، توكلت على الله والصلاة والسلام على رسول الله وآله [٤٦٩].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٦٣

الخطبة [٤٧٠] المائة والحادية والثلاثون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وفيه يبين سبب طلبه الحكم ويصف الإمام الحق

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام علي عليه السلام في هذا الكلام إلى عده مطالب:

١-

قبوله الحكومة من أجل رفع راية الدين والعدل في المجتمع الإسلامي وإصلاح البلاد وأمان العباد واستقرار المظلومين.

٢-

أشار عليه السلام في جانب آخر من الخطبة إلى الاختلافات الفكرية لأصحابه فقال: لا يمكن بسط العدل في ظل هذه الظروف واعطاء

الحقوق إلى أصحابها، ويستحيل بلوغ هذه الأهداف ما لم تتحد قلوبكم وتتفق أعمالكم.

٣-

خاض عليه السلام في تعريف نفسه فقال: أنى أول من سمع رسول الله صلى الله عليه وآله فآمنت به، ولم يسبقنى إلا رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة.

٤-

أشار في القسم الأخير من الخطبة إلى صفات الزعيم المقدر، فعدد أوصافه بكل دقة، وهى الأوصاف التى يؤدى توفرها فى الزعيم الإسلامى إلى الديمومة والثبات.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٦٥

القسم الأول: لستم من الأصحاب الأخيار

إشارة

«أَيَّتْهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْقُلُوبُ الْمَشْتَتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظَارَكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفَرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْرَى مِنْ وَغْوَعَةِ الْأَسَدِ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطَّلَعَ بِكُمْ سِرَّارَ الْعَدْلِ، أَوْ أَقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ».

الشرح والتفسير

من الحوادث الأليمة فى التاريخ الإسلامى أن يبتلى إمام عالم وكفوء مقدر كعلى عليه السلام بناس جهال وعبدة للأهواء يعيشون التناحر والفرقة، فقد كانوا وسائل سيئة لإقامة حكومة الحق والعدل، وقد رأينا منذ بداية الكتاب لحد الآن فى مختلف خطب نهج البلاغة أن الإمام على عليه السلام كان يتألم بشدة من هذا الأمر وكان دائم الشكوى، باحثاً عن مختلف الأساليب لعلاج أمراضهم النفسية والأخلاقية، فقد قال عليه السلام مستهلاً هذه الخطبة:

«أَيَّتْهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْقُلُوبُ الْمَشْتَتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ».

فقد ركز الإمام عليه السلام هنا على الجذور الأصلية لداء المجتمعات والامم، ألا وهو الاختلاف والتشتت الذى يؤدى إلى النزاعات وهدر الطاقات، والعبارة:

«الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ...»

إشارة إلى حضورهم الجسمانى فى المجتمع وغيابهم الفكرى والروحى عن الحوادث الخطيرة التى تصيب المجتمع، أما أهمية هذا الموضوع فقد دفعت بالإمام إلى ذكر مثل هذه العبارات مع اختلاف طفيف فى الخطب الأخرى، كالذى ورد فى الخطبة ٢٩ و ٩٧ حيث قال فى الأولى:

«أَيَّتْهَا النَّاسُ، الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٦٦

وقال فى الثانية:

«أَيَّتْهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ».

ثم قال عليه السلام:

«أَظَارَكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفَرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْرَى [٤٧٢] مِنْ وَغْوَعَةِ [٤٧٣] الْأَسَدِ!»

، العبارة «أطأركم» بالنظر إلى أن «ظأركم» جاءت في اللغة بمعنى القابلة، فهي تشير إلى مراده أنني كالقابلة الشفيقة قد رويتكم على الدوام من عين الحق الجياشة، لكنكم كنتم تفرون من ذلك دائماً، تفرون فراركم من الأسد، وهذه أسوأ حالة يمكن أن تعرض لإنسان فينفر من الحق ويهرب منه بالشكل الذي يفوق التصور، والعبارة «وَعَوَّعَهُ الْأَسَدُ!»

، تعبير رائع فلم يقل «من الأسد» بل قال «وَعَوَّعَهُ الْأَسَدُ!»

يعنى إن هذا الحيوان على درجة من الجبن بحيث لا ينظر إلى أطرافه ليرى هل هو أسد أم لا، بل يهرب لمجرد سماعه الصوت، وهذا هو حال بعض الحيوانات التي تهرب إذا سمعت زئير الأسد مهما كانت المسافة بعيدة في الصحراء. ثم قال عليه السلام:

«هَيْهَاتَ أَنْ أُطَّلَعَ [٤٧٤] بِكُمْ سَرَارَ [٤٧٥] الْعَدْلِ، أَوْ أُفِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ.»

قطعاً ليس للحق من إعوجاج ليراد قيامه، والمراد يخلطونه بالباطل وقد سعى أئمة الهدى عليهم السلام لتخليص الحق من شوائب الباطل، كما ليس في العدل من ظلمة ليجلوها عنه، فالظلم الذي غالباً ما يخالط العدل ويلبسه على حال لا شك أن إزالة الظلمة عن العدالة وتمييز الباطل عن الحق، يتطلب أعواناً وأنصاراً من أهل الوعي والتضحية، ولم يكن للجهاال والغدرة المشتتين كأهل الكوفة من قدرة للإستعانة بهم في إزالة الظلمات وتسوية الاعوجاجات، وهذا داء دوى عرض لإمام عادل وشجاع كعلي بن أبي طالب عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٤٧

العوامل الرئيسية للفشل

أشرنا سابقاً إلى إبتلاء الإمام عليه السلام بالأصحاب الذين اعتادوا الحياة المرفهة والدعة والراحة، وقد اعتمدوا مختلف الذرائع للهروب من الجهاد ومقاتلة العدو، وقد سعى الإمام عليه السلام جاهداً لتطهير روحيتهم من هذه الأدران عن طريق الحث والتشجيع تارة واللوم والعتاب والذم تارة أخرى.

وقد أشار في هذه الخطبة إلى نقاط ضعفهم ليخلصها في ثلاث هي الاختلاف و التشتت وغياب العقل والهروب من الواقع، ثم صرح إثر ذلك: كيف يمكن تطهير المجتمع من رواسب بني أمية وعناصرهم المناقفة المتبقية من عصر الجاهلية وإقامة الحق وتسوية العوج، وأنتم بهذه الأحوال.

وكما أراد الإمام عليه السلام في هذه الخطبة قانون كلي دائم يحكم كل عصر ومصر ويصدق في المشاريع السياسية والاجتماعية والعسكرية، وهي الامة المتحدة الواعية التي تستقبل الحق وتعمل به مهما كان مريراً.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٤٩

القسم الثاني: الهدف هو إقامة الحق وبسط العدل

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافِقَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلَمَّا التَمَّاسَ شَيْءٌ مِنْ فُضُولِ الْحَطَامِ، وَلَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الْأَضِلَّالِمَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعْظَلَةُ مِنْ حُدُودِكَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالصَّلَاةِ.»

الشرح والتفسير

بين الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة أهداف الحكومة الإسلامية - ومنها حكومته - بعبارات غاية في الروعة والدقة ليضمنها دروساً خالدة لجميع الحكام المؤمنين والمخلصين فقال:

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً [٤٧٦] فِي سُلْطَانٍ، وَلَا التَّمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ».

ربما كانت هذه العبارة إشارة إلى أصل قبول بيعه الامه على الخلافة، أو إشارة إلى المعارك التي وقعت بينه وبين الأعداء في صفين وأمثالها، وهي تعكس الأهداف الرئيسية لحكام الاستبداد الذين يهدفون إلى أمرين: الحصول على المنصب مهما كان الثمن والاستيلاء على الأموال أينما كانت ومن أي كان، والواقع ليس ذلك سوى حب الجاه وحب المال الذي ساد تاريخ البشر واجتاح حتى الحكومات المستبدة، وقد أثبت الإمام عليه السلام عملياً ما قال، فقد

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٧٠

اشترط على الإمام عليه السلام من قبل الشورى التي عينها عمر نيل الخلافة شريطة الانحراف عن مسار رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يستجب الإمام عليه السلام كما وقف بقوة بوجه طلحة والزبير وما قدماه من اقتراح ليس بصواب، كيف يستجيب لهما الإمام عليه السلام هو يرى الدنيا كعطفه عنز، ثم بين الإمام أهدافه الأربعة من أجل قبول الحكومة وهي:

«وَلَكِنْ لِنَرِدَ [٤٧٧] الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الْإِضْلَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعْطَلَّةُ مِنْ حُدُودِكَ».

فالواقع أشار الإمام عليه السلام في العبارات الأربع التي أوردتها كدافع أصلية لقبول البيعة، إلى برامج المعنوية في الحكومة ومشاريعه المادية والظاهرية، فلابد في الدرجة الأولى من إعادة معالم الدين التي تعين للناس مسيرتها نحو الله سبحانه وقد اندثرت بفعل الحكومات المستبدة، ومن ثم الإصلاحات في كافة الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية، ونصرة المظلوم من الظالم وإجراء الحدود الإلهية بحيث يشعر المظلومون بالأمن والاستقرار حقاً، وإن كان هذه الأهداف الأربعة هي مراد الحكومات لعاشت المجتمعات السعادة والمادية والمعنوية، وإن كان هدفهم الحصول على المناصب ونيل الأموال والثروات، فليست هناك من نتيجة سوى الفساد والظلم وتعطيل الحدود الإلهية ومحو الأخلاق والدين، وهذا بحد ذاته درس لجميع المسلمين في كافة الأزمنة والعصور، وهذه هي الأمور التي ذكرها القرآن الكريم كأهداف لبعثه الأنبياء وتشكيل الحكومة الإسلامية، فقد ذكر التعليم والتهديب والنجاة من الظلال المبين كهدف للبعثه فقال: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [٤٧٨])، كما ذكر في موضع آخر هذا الهدف المتمثل بسط العدل والقسط: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...» [٤٧٩]، كما قال: «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» [٤٨٠].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٧١

ثم إختتم الإمام عليه السلام هذا المقطع من الخطبة بذكر شهادة واضحة على صدق قوله بالنسبة لداوغة في قبول البيعة فقال:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنْابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالصَّلَاةِ».

إشارة إلى أن الإسلام كان غريباً آنذاك، والرسول لوحده وليس إلى جانبه سوى خديجة عليها السلام زوجته الوفية، فكان الجهر بالإسلام إزاء المشركين المتعصبين غاية في الخطورة، فقد بايع رسول الله صلى الله عليه وآله وإنقاد له، فكان أول من إلتحق به، ولم يكن همّه سوى طاعة الله سبحانه وإحياء الحق والتوحيد والعدل، وما زال ذلك الهدف هو الدافع له من أجل قبول البيعة.

ليس هناك من خلاف بين علماء الفريقين بشأن خديجة على أنها أول امرأة أمنت بالنبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأن علياً عليه السلام أول من آمن به من الرجال، وإن تذرع البعض من علماء العامة بصغر سن علي حين آمن، ليسقطوا عنه تلك الفضيلة ويلصقوها

بالآخرين، ولكن يتضح خواء هذه الذريعة من خلال قبول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لإسلام على صلى الله عليه وآله وأبعد من ذلك تسميته بوصيته في يوم الدار [٤٨١].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٧٣

القسم الثالث: شرائط حكام العدل

إشارة

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَتَّبِعِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالِدَمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ، وَإِمَامَهُ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلَمَّا الْجَاهِلُ فَيُضِلُّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلَمَّا الْجَرَّافِي فَيَقْطَعُهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلَا الْحَائِفُ لِلدُّوْلِ فَيَتَّخِذُ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ، وَلَا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبُ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفُ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ، وَلَا الْمُعْطَلُ لِلسُّنَّةِ فَيَهْلِكُ الْأُمَّةَ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام في المقطع الأخير من الخطبة في بيان خصائص ولاء العدل ودعاء الحق حيث أشار إلى ست صفات من صفاتهم، وهكذا يختتم هذه الخطبة التي أوردتها بشأن الحكومة الإسلامية، والتحذير بالذكر أنه استهل الكلام بالعبارة «وقد علمتم» حيث يرى الالتزام بهذه الصفات من الأمور العقلية الواضحة والمسلمة التي يعرفها كل شخص، أو على الأقل ينبغي معرفتها من كل شخص، فقال:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَتَّبِعِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالِدَمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ، وَإِمَامَهُ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ» [٤٨٢].

والواقع هو أن هذه الأمور تشكل أصول الحياة الفردية والاجتماعية للناس وهي الفروج، والأرواح، والأموال، والقوانين، وإدارت الدولة التي ينبغي للإمام المدبر والواسع الآفاق والعاقل المنصف أن يؤدي حقوقها جميعاً، فتأمن الأمة على أرواحها وأموالها وأعراضها،

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٧٤

وتطبق القوانين والأحكام وتوكل زعامة الأمة وإمامتها إلى الصالحين من أفرادها، فان كان إمام الخلق بخيلاً اقتصرت همته وشهوته على جمع الأموال وضحي بكل شيء من أجل بلوغ هذا الهدف، فلا من أمن واستقرار، ولا من احترام للقوانين والأحكام.

ثم قال عليه السلام في بيان الصفة الثانية:

«وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِلُّهُمْ بِجَهْلِهِ»،

فلا شك أن العلم بالأحكام والموضوعات والأساليب الصحيحة تعد من أهم دعائم الحكومة وليس للجهاًل من الأفراد قدرة إدارة شؤون الحكومة وإن صفت تبتهم واتصفوا بالورع والتقوى، فهم يقودون الأمة إلى المجهول بجهلهم.

وقال عليه السلام في بيان الصفة الثالثة:

«وَلَا الْجَرَّافِي [٤٨٣] فَيَقْطَعُهُمْ بِجَفَائِهِ»،

فمن أبرز صفات والي العدل العطف والمحبة والسماحة والمدارسة، ونعلم بأن رسول الله صلى الله عليه وآله قد استقطب القلوب البعيدة عن الحق بهذه الشفقة والمحبة، وهذه رحمة إلهية كبرى كما وصفها القرآن الكريم بالقول:

«فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ...» [٤٨٤].

ثم قال عليه السلام في الصفة الرابعة:

«وَلَا الْحَائِفُ [٤٨٥] لِلدُّوْلِ [٤٨٦] فَيَتَّخِذُ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ»،

وهذا هو البلاء الذي أصاب عثمان، وقد سدّد الضربات المهلكة للمجتمع الإسلامي بحيث لا يمكن معالجتها، فقد أغدق أموال بيت

المال المسلمين على قرابته وبطائه وتملقيه، ممّا أدى إلى قيام المظلومين عليه حتى قتلوه فظهرت الخلافات العظيمة بين الناس آنذاك وما زالت أثارها باقية.

ثم قال عليه السلام في الصفة الخامسة:

«وَلَا الْمُزْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاتِعِ [٤٨٧]»،

فأهم عامل للحكم بالظلم والجور هو الرشوة التي يقدمها أصحاب الثراء والقدرة فيغيرون مسار القضاء ليصدر أحكامه لصالحهم ضد أصحاب الحق فيحولون دون إجراء الحق والعدل.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٧٥

طبعاً فلسفة القوانين والمحاكم حفظ حقوق الضعفاء، وإلاً فالأقوياء يحفظون حقوقهم، وإن تسللت هذه الرشوة إلى المحكمة ونفذت إلى ذهن القاضي والتي لا يقوى على دفعها سوى الأثرياء والأقوياء، فعندما تسلب قدرة الضعفاء على الدفاع فتضيع حقوقهم، وهذا هو الأمر الذي نشهده في كافة أنحاء عالمنا المعاصر، ومن الضروري الالتفات إلى هذه النقطة أن الرشوة لا تقتصر على الجانب المالي، فقد تتخذ أشكالاً أخرى كتصنيف الحسابات السياسية والوصول إلى المناصب والمقامات والشهوات الجنسية والمدح الكاذب وأمثال ذلك، وهكذا تتحرك عجلة المحكمة باتجاه الظلم والجور.

وقال عليه السلام في الصفة السادسة الأخيرة:

«وَلَا الْمُعْطَلُ لِلْسُنَّةِ فَيَهْلِكَ الْأُمَّةُ»، طبعاً

يمكن أن يكون المراد بالسنة سنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو السنن والقوانين التي أمضاها الله في عالم الخلق أو السنن الاجتماعية الحسنه التي أشير إليها في عهد مالك الأشر:

«وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةَ صَالِحَةٍ عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ لِأُمَّةٍ»

، أو جميعها وإن بدا المعنى الأول هو الأقرب.

آفة الحكومات

كما ورد في بداية هذه الخطبة، فهي تتألف في الواقع من ثلاثة أقسام مرتبطة مع بعضها تماماً، الأول ذم الإمام عليه السلام القوى الجاهزة التي ينبغي لها أن تنشط في إقامة الحق والعدل، لكنها عاشت الضعف والجز بفعل الاختلاف وعدم توظيف العقل والفكر، ثم أشار إلى أهداف ودوافع حكومة العدل الإسلامية والإنسانية، بينما ذكر آخر الخطبة الأركان الأصلية لمواصفات حكّام العدل، طبعاً إن كانت القوى المؤمنة والمتحدة من جانب، والأهداف والدوافع المقدّسة والوالى الذى يتحلى بالصفات الست المذكورة من جانب آخر، فإن ذلك سيؤدى إلى قيام حكومة من شأنها حفظ الأمن والاستقرار وإحياء القيم الإنسانية، وبالعكس لو:

حل البخل بدل الكرم.

والجهل بدل العلم.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٧٦

والعنف بدل الرأفة والرحمة.

وخاض الحكّام فى البذخ ونهب الأموال والثروات والتميز والظلم والجور، وتسللت الرشوة إلى الجهاز القضائى، وعطلت السنن الحسنه، فتأسس حكومة فاسدة ينعدم فيها الدين كما تزول فيها الدنيا... ويا له من درس وعبرة لحكّام الحق.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٧٧

الخطبة [٤٨٨] المائة والثانية والثلاثون

إشارة

وَمِنْ حُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
يَعِظُ فِيهَا وَيَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا

نظرة إلى الخطبة

- تشمثل هذه الخطبة كما ورد في عنوانها على المواعظ والإرشادات والنصائح والوصية بالزهد في الدنيا، وتتألف من أربعة أقسام هي:
- ١- حمد الله والثناء عليه مع ذكر صفات الله سبحانه الخاصة والشهادة الخاصة للنبي صلى الله عليه وآله بالنبوة.
 - ٢- إشارة إلى انتهاء الأجل وسلخ الإنسان من كافة ممتلكاته التي حازها في الحياة الدنيا.
 - ٣- لزوم الاعتبار بحياء الأمم السالفة، واولئك الذين جمعوا الأموال والثروات، فكان عاقبة دورهم أن أصبحت قبورهم، كما خلفوا للآخرين أزواجهم وأموالهم.
 - ٤- ضرورة اغتنام فرض الدنيا وإعداد المتاع والزاد للآخرة.
- نقمة الولاية، ج ٥، ص: ٢٧٩

القسم الأول: صفات الله الخاصة

«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى وَعَلَى مَا أَبْلَى وَابْتَلَى الْبَاطِنَ لِكُلِّ حَفِيَّةٍ، وَالْحَاضِرَ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ. الْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَحُونُ الْعُيُونُ. وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيُّهُ وَبِعَيْتِهِ شَهَادَةٌ يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْأَعْلَانُ، وَالْقَلْبُ اللَّسَّانُ».

الشرح والتفسير

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله والثناء عليه وذكر أوصافه الخاصة فقال:

«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى وَعَلَى مَا أَبْلَى وَابْتَلَى .

والمراد من «أخذ» سلب النعم والآلاء الإلهية، والمراد من «أعطى» وهبها، ومن «أبلى» إعطاء النعمة و «إبتلى» الامتحان بواسه أخذ النعم، ومن هنا ذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى أن هاتين العبارتين تفسيرتين (أى أن أخذ تعادل أبلى وأعطى تعادل ابتلى)، لكن يحتمل أن تكون الأولى إشارة إلى النعم المادية والثانية إشارة إلى النعم المعنوية، لأن المفردة «أخذ» كثيراً ما تستعمل فى الأمور المادية. على كل حال يستفاد من العبارات المذكورة أن سلب النعمة قد يكون نفسه نعمة، لأن وفور النعمة سبب الغرور والابتعاد عن الله ومقاطعة الخلق، أضف إلى ذلك فإن الحمد تجاه سلب النعم علامة على التسليم المطلق لمشيئة الله.

ثم أشار إلى ذكر ثلاثة أوصاف أخرى من أوصاف الله سبحانه وتعالى والتي تشكل فى

نقمة الولاية، ج ٥، ص: ٢٨٠

الواقع تحذيراً لكافة الأفراد الذين يراقبون أنفسهم وتياتهم فقال عليه السلام:

«الْبَاطِنُ لِكُلِّ حَفِيَّةٍ [٤٨٩]، وَالْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ. الْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَحُونُ الْعُيُونُ».

فهذه الصفات تدل بوضوح على أن علم الله سبحانه علم حضوري، يعنى أنه حاضر وناظر فى كل مكان، فالخفيات والعليات لديه على حد سواء، والحضور والغياب عنده واحد، فهو يعلم أسرار الصدور وخائنه الأعين، وهو علم بباطن كل شخص وكل شىء.

حقاً إن الإنسان لو تأمل حقيقة الحمد والثناء وذكر هذه الصفات وأمن بها إيماناً راسخاً لأدرك أن العالم حاضر عند الله تبارك

وتعالى، ولله حضور في روحه وفكره، ولما قارف السيئة، بل لما فكر فيها.

ثم إختتم هذا المقطع من الخطبة بالشهادة لله بالوحدانية وللنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالنبوة، فقال عليه السلام: «وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيُّهُ [٤٩٠] نَجِيه وَبَعِيثُهُ [٤٩١] شَهَادَةٌ يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِغْلَانِ، وَالْقَلْبُ اللَّسَانَ».

طبعي أن الشهادة بهذين الركنتين الأصليين الذين يشكلان أسس الإيمان تدعو الإنسان إلى نفي معبود آخر وتحذر من عبادة الشيطان وهوى النفس الأماره، كما تدعو الشهادة بالنبوة إلى طاعة الإنسان لأوامر النبي صلى الله عليه وآله، ولا سيما الشهادة التي لا تقتصر على اللسان بل تتعزز بالقلب وروح الإنسان.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٨١

القسم الثاني: نزول الموت؟

ومنها: «فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الْجِدُّ لِللَّعِبِ، وَالْحَقُّ لَالْكَذِبِ. وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ. فَلَا يُعْرَنُكَ سِوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَذَرَ الْإِقْلَالَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ - طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِيعَادَ أَجَلٍ - كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَازْعَجَهُ عَنْ وَطْنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ، مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَارِي، يَتَعَاطَى بِهِ الرَّجَالُ الرَّجَالَ، حَمَلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكًا بِالْأَنَامِلِ. أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيدًا، وَيَبْنُونَ مَشِيدًا، وَيَجْمَعُونَ كَثِيرًا! كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُورًا، وَمَا جَمَعُوا بُورًا؛ وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ؛ لَأَفَى حَسَنَةً يَزِيدُونَ، وَلَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ!».

الشرح والتفسير

حذر الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الجميع في أن هذه الحياة الدنيا إلى زوال ولا بد من مفارقة هذه الدنيا عاجلاً أم آجلاً والالتحاق بالآخرة وتحمل تبعات الأعمال فقال:

«فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الْجِدُّ لِللَّعِبِ، وَالْحَقُّ لَالْكَذِبِ. وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ [٤٩٢]، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ [٤٩٣]».

ولما كان الموت حقيقة واقعة بالنسبة لجميع الأفراد، وقضية قطعية تأبى الاجتناب، فقد

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٨٢

أكد الإمام عليه السلام كلامه بأنواع التأكيدات [٤٩٤]، والتي بلغت عشرة أنواع حسب قول بعض شراح نهج البلاغة، فقال أن صوت داعي الموت يطرق الأذن من كل جانب وقد دوى صوت الرحيل ليملا كافة أرجاء العالم، وملك الموت لا يفرق بين كهل وشاب وطفل، فقد كمن للجميع ولا ينتظر سوى أمر الله، ثم قال عليه السلام:

«فَلَمَّا يُعْرَنُكَ سِوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَذَرَ الْإِقْلَالَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ - طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِيعَادَ أَجَلٍ - كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَازْعَجَهُ [٤٩٥] عَنْ وَطْنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ»

، يمكن أن يكون للعبارة

«فَلَمَّا يُعْرَنُكَ

سِوَادُ النَّاسِ»

، معنيان:

الأول: إن رأيت الناس أحياء وسالمين فلا يخذعك ذلك ولا يغفلك من الموت.

والثاني: لا تخدعك جماعات الناس لأن تفكر في الحياة لا الموت، ومفهوم العبارة:

«وَحَذَرَ الْإِقْلَالَ»

، ابعاد النفس (حسب طنه) عن الفقر بجمع الأموال، والعبارة: »

وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ»

تعنى تصور الشخص أنه بمأمن من عاقبة عمله بسبب الآمال الفارغة بأن الوقت مازال مبكراً على الموت، ولكن رغم كل هذه الآمال والأمانى، فقد فاجأهم الموت وأخرجهم بسرعة وعنق من وطنهم المألوف وطردهم من مكانهم الآمن، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأن ذلك في الوقت الذى يحملون فيه على الأولاد وقد تناولتهم أيدي الرجال ليمسكهم بالأنامل، وكأنهم متنفرون ومرعبون من حمل توابيتهم بكامل أيديهم: »

مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَائِي، يَتَعَاطَى بِهِ الرَّجَالُ الرَّجَالَ، حَمَلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكًا بِالْأَنَامِلِ».

فقد رسم الإمام عليه السلام صورة واضحة بهذه العبارات الصريحة والبلغية المؤثرة لكيفية نهاية حياة الأثرياء المرفهين والمغرورين بالجاه والمنصب، ولاسيما حين يدركهم الموت المفاجيء، فهى عبارات تمزق كافة الحجب التى تسدل على عين الإنسان، كما توقظ كل سامع من نوم غفلته.

ثم أضفى عليه السلام صورة أخرى على هذا المعنى مواصلة لكلامه فقال:

«أَمَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ

نفحات الولاية، ج 5، ص: 283

بَعِيدًا، وَيَبْنُونَ مَشِيدًا [496]، وَيَجْمَعُونَ كَثِيرًا! كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُورًا، وَمَا جَمَعُوا بُورًا؛ وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ؛ لَأَفَى حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَلَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ!

نعم، يفيق الإنسان من نوم الغفلة حين يصفعه الأجل، وفى تلك اللحظة تعلق صحف الأعمال تماماً، فلا من شىء يمكن إضافته إلى الحسنات، ولا يمكن تقليل شىء من السيئات، ولو سلب الإنسان حياته بينما بقيت صحف العمل مفتوحة والسبيل مشرع أمام تداركها فلا عقبه ولا ضمير، إلا أن المشكلة تكمن فى غلق صحيفة الأعمال فلا مجال لتداركها، وهذا ما يجعل الإنسان يعيش الهم والغم.

نفحات الولاية، ج 5، ص: 285

القسم الثالث: ممر يعرف باسم الدنيا

إشارة

«فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَزَ

[[برز]]

مَهَلُهُ، وَفَارَ عَمَلُهُ. فَاهْتَبَلُوا هَبْلَهَا، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا: فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازًا لَتَرْوَدُوا مِنْهَا الْأَعْمَالَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ. فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ. وَقَرَّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ [[للزوال]].»

الشرح والتفسير

خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة بعد مقدمات دقيقة أوردتها فى بدايته ووسط هذه الخطبة بشأن علم الله بكل شىء سيما بأعمال العباد وتياتهم وكذلك قرب الموت والاعتبار بحياة الماضين فقال:

«فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَزَ [497] بَرَزَ مَهَلُهُ [498]، وَفَارَ عَمَلُهُ».

فمن الواضح أن التقوى إذا تجذرت فى أعماق قلب الإنسان ظهرت ثمارها على يديه ولسانه وعينه وسمعه، وذلك لأن التقوى ملكة نفسية تتمثل بخشية الله وهى الدافع القوى للإتيان بالأعمال الصالحة وحاجز عن الذنوب والمعاصى.

ثم واصل الإمام كلامه فقال:

«فَاهْتَبِلُوا هَبْلَهَا» [٤٩٩]، وَأَعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا»

، إشارة إلى أن

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٨٦

الجنة لا تعطى لأحد بالمجان، كما لا تتأتى من خلال الظن والتصور والخيال والزعم الفارغ، فمفتاح الجنة الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة تنبعث من التقوى.

ثم قال عليه السلام في مواصلة لشرح وضع الدنيا والآخرة ومنزلة كل جماعة:

«فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لَتَرْوُدُوا مِنْهَا الْأَعْمَالَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ»

، فالنظرة الإسلامية التي تعرض لها القرآن الكريم ونهج البلاغة مراراً تكمن في أن الدنيا دار ممر وأنها قنطرة وميدان للتدريب وبالتالي فهي متجر ومقدمة للآخرة الموضوع الأصلي للإنسان، وإن اعتمدنا هذه النظرة للدنيا آنذاك سيبدو لنا كل شيء بصيغته أخرى وستحول دون مقارنتنا للذنوب والظلم، وتسوقنا نحو الخير والاحسان.

أما أتباع المدارس المادية التي ترى الدنيا ولذاتها هدفها النهائي، وقد غفلت تماماً عن الآخرة، فليس هناك من حد لتلوثها بالذنوب والنزاعات من أجل الاستحواذ على الأموال والمناصب الظاهرية، وعليه فلا أمل في إطفاء غائلة المعارك والنزاعات بينها، وأخيراً خلص الإمام إلى نتيجة رائعة عميقة المعنى فقال:

«فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ [٥٠٠]. وَقَرَّبُوا الظُّهُورَ

لِلزِّيَالِ [٥٠١]»،

في إشارة إلى أن الوقت ضيق والموانع كثيرة وزمان الرحيل مجهول تماماً، ولا ينبغي أن يقتصر التأهب على الكهول، بل لابد أن يعيش ذلك التأهب حتى الشباب على الدوام، فما أكثر من بقى من الآباء الكهول والعجزة، بينما رحل الشبان الأشداء.

نتيجة الخطبة

أشار الإمام في هذه الخطبة إلى أمور مهمة يمكن إيجازها في ما يلي:

١- لفت الأنظار في بداية الخطبة إلى حضور الله سبحانه في كل مكان وعلمه بخفايا الإنسان وباطنه، ليراقب الجميع أعمالهم.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٨٧

٢- عدّ الشهادة الحقيقية بالوحدانية للحق والنبوة للنبي صلى الله عليه وآله من العلم الذي ينسجم فيه الظاهر والباطن وينفصل عن كل نفاق.

٣- إلفات إنتباه الجميع إلى قرب الموت والرحيل عن الدنيا وهو سبب اليقظة والعلم.

٤- دعى مخاطبيه لمطالعة تاريخ الماضين من خلال الكتب والآثار التي خلفوها في المدن والمناطق، ليعلموا أن ذلك المصير ينتظرهم مهما كانوا ومهما بلغوا.

٥- دعى الجميع إثر تلك المواعظ والإرشادات إلى الروع والتقوى، التقوى التي تخترق أعماق قلب الإنسان وتظهر آثارها على جميع أفعاله وممارساته.

٦- يذكر كافة مخاطبيه بهذه النقطة وهي عدم إعطاء الجنة لأحد دون حساب، بل لها ثمن لا يبلغها العبد إلا به.

٧- يستعرض أخيراً هذا الأمر في أن الدنيا ممر ولا مقر، متجر ينبغي للجميع التزود منه فيستعدوا في كل آن للرحيل والانطلاق.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٨٩

الخطبة [٥٠٢] المأة الثالثة والثلاثون

إشارة

وَمِنْ حُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
يُعْظِمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَيَذَكُرُ الْقُرْآنَ وَالنَّبِيَّ وَيُعْظُ النَّاسَ

نظرة إلى الخطبة

يتضح من النظرة الإجمالية إلى الخطبة أنها تتألف من خمسة أقسام مهمة هي:
القسم الأول: يتحدث عن عظمة الله وقدرته المطلقة وسجود كافة المخلوقات لذاته المقدسة.
القسم الثاني: إشارة إلى عظمة القرآن الكريم وخلوده.
القسم الثالث: في النبي صلى الله عليه وآله وأن الله سبحانه أرسله بعد فترة وختم به النبوة.
القسم الرابع: الحديث عن تفاهة الدنيا ودعوة الجميع لليقظة والتعرف على الدنيا والتزود منها.
القسم الخامس: وعظ المخاطبين والعود على التذكير بالقرآن وعظمته ولزوم التدبر في آياته، وهكذا يعرض اطروحة كاملة لأهل الحق لنيل السعادة.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٩١

القسم الأول: انقياد ما في الدنيا لله

إشارة

«وَأَنْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ بِأَزْمَتِهَا، وَقَدَفَتْ إِلَيْهِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُونَ مَقَالِيدَهَا، وَسَيَّجَدَتْ لَهُ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ الْأَشْجَارُ النَّاصِرَةَ، وَقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النَّيْرَانَ الْمُضِيئَةَ، وَآتَتْ أَكْلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الثَّمَارَ الْيَانِعَةَ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع في بيان طائفة من أوصاف الله تبارك وتعالى، وأشار بخمس عبارات إلى أمور دقيقة بهذا الشأن فقال:

«وَأَنْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ بِأَزْمَتِهَا [٥٠٣]».

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام شبه الدنيا والآخرة بالحيوانات السلسة والمروضة التي أسلمت زمامها فيقودها حيث يشاء، ثم قال عليه السلام في العبارة الثانية مؤكداً ذات المعنى السابق بصيغة أخرى:

«وَقَدَفَتْ إِلَيْهِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُونَ مَقَالِيدَهَا [٥٠٤]»،

فهو يفتح ما يشاء ويغلق ما يشاء ويفعل كل ذلك على أساس الحكمة، وأشار في العبارة الثالثة إلى سجود الأشجار والناصره لذاته المقدسة وقال عليه السلام:

«وَسَيَّجَدَتْ لَهُ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ [٥٠٥] الْأَشْجَارُ النَّاصِرَةَ».

صبغاً التركيز على الأشجار الناصرة لا يعنى الحصر، بل نموذج من أجمل الكائنات الحية

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٩٢

لعالم الخليفة، كما يشير الغدو والآصال إلى جميع الأوقات، كقولنا إنا في خدمة نشر المبادئ الإسلامية ليل ونهار، أى فى جميع الأحوال والأوقات، ومن هنا أطلق القرآن الكريم القول:

«وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ» [٥٠٦]، كما يحتمل أن تكون آثار الله وعظمته أوضح فى الأشجار حين شروق الشمس وغروبها أكثر من أى زمان، ويمكن أن يكون هذا السجود بلسان الحال، لأن نظامها الدقيق يعكس علم خالقها وقدرته المطلقة، كما يمكن أن يكون بلسان القول، وبناءً على تمتع كافة ذرات كائنات العالم بالعلم والشعور وتسييحها لله سبحانه عن علم وسجودها له.

وقال عليه السلام فى العبارة الرابعة:

«وَقَدَحَتْ [٥٠٧] لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا [٥٠٨] النَّيْرَانَ الْمُضِيئَةَ».

وهذا من عجائب القدرة الإلهية بأن يخلق مادة بين الماء والتراب تكون مركزاً للنور والضوء، وذلك الضوء الذى تحل من خلاله أغلب مشاكل الإنسان.

ثم قال عليه السلام:

«وَأَتَتْ أَكْلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الثَّمَارُ الْيَانِعَةُ» [٥٠٩].

اسجام الآيات والروايات

تتفق عبارات الخطبة التى تضمنت آثار التوحيد الله وعظمته وما ورد فى الآيات والقرآنية، فقد ورد فى موضع من القرآن الكريم: «لَهُ الْحَمْدُ فى الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [٥١٠]، وفى موضع آخر: «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [٥١١]، وكذلك: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فى الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ...» [٥١٢]، وورد أيضاً: «الَّذِى

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٩٣

جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ» [٥١٣]، وقال: «وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّيْحَانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ...» [٥١٤].

على كل حال كلما تأملنا آيات القرآن الكريم وخطب نهج البلاغة كهذه الخطبة اتضح لنا عظمة الحق تبارك وتعالى وقدرته ونعمته فتشير الدنيا حس الشكر له لنتوى من العين الصافية لفرات معرفته وتعرفنا على صفات جماله وجلاله.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٩٥

القسم الثانى: إعجاز القرآن

إشارة

منها: «وَكِتَابَ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لايَعْيَا لِسَانُهُ، وَبَيَّتْ لَاتُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعَزَّ لَاتُهْزَمُ أَعْوَانُهُ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى هذا المقطع القصير من كلامه بالحديث عن أهمية كتاب الله القرآن الكريم، وقد أدى حق المطلب بثلاث عبارات قصيرة وبلغه:

«وَكِتَابَ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ [٥١٥]

نَاطِقٌ لايَعْيَا [٥١٦] لِسَانُهُ، وَبَيَّتْ لَاتُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعَزَّ لَاتُهْزَمُ أَعْوَانُهُ».

فقد أشار في العبارة الاولى إلى هداية القرآن في كل زمان ومكان وتحت أية ظروف، وإن بدا صامتاً، لكنّه تحدث بمئة لسان، وقد سمعه كل من جلس إليه ومنحه آذاناً صاغية، فهو لا ينفك يلقي الإنسان دورس الحياة السعيدة، والعبارة:

«لَا يَغِيَا لِسَانُهُ»

يمكن أن تكون إشارة إلى أن تقادم الزمان لا يؤثر مطلقاً على حقائق القرآن الكريم، وهو غض طرى على الدوام كما صورته الأخبار والروايات [٥١٧].

وأشار في العبارة الثانية إلى نقطة أخرى حفظ القرآن الكريم، فكما يحفظ البيت المستحکم

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٩٦

ذا الأعمدة القوية أصحابه من مخاطر الحوادث والحرارة والبرودة والحيوانات الوحشية والأعداء واللصوص، فإن القرآن الكريم يتكفل بحفظ أتباعه من الانحراف والضلال ووسوسة الخناسين وإلقاءات الشياطين.

وأشار في العبارة الثالثة إلى هذه الحقيقة وهي أن قدرة الإنسان لا تقهر إن لاذ بالقرآن وهب لنصرته، وذلك لأن قدرة هداية القرآن تستند إلى قدرة الله سبحانه وقدره الله قاهرة لا تغلب، وبفعل مصداق الآية الشريفة: «إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ...» [٥١٨]، فمن تأيد بنصر القرآن لن يهزمه عدو.

القرآن الناطق

لعل العبارة التي وردت في هذا المقطع من الخطبة والتي عبرت عن القرآن الكريم بأن

«نَاطِقٌ لَّا يَغِيَا لِسَانُهُ»

تشير هذا السؤال: كيف التوفيق بين هذه العبارة وما ورد عن الإمام في الخطبة ١٥٨ بشأن القرآن إذ قال عليه السلام:

«ذَلِكَ الْقُرْآنُ، فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرْكُمْ عَنْهُ».

وكذلك العبارة التي وردت في الخطبة ١٨٣ إذ قال عليه السلام:

«فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ»، أو ليس

هناك من تضاد بين هذه العبارات؟

تتضح الإجابة على هذا السؤال من أدنى دقة وتأمل، بعبارة أخرى فإن العبارات المذكورة تفسر بعضها البعض الآخر، لأن القرآن حين يعبر عن القرآن بالصامت والناطق فمفهوم ذلك أن كل تعبير ناظر لشيء، مثلاً يمكن القول: القرآن صامت من حيث الظاهر، لكنّه في الواقع تحدث بصوت جلي بليغ، أو أنّه صامت إزاء الأفراد السطحيين بينما ناطق هو تجاه العلماء المفكرين، أو أنّه ناطق في مواصلة الطرق العملية الأصولية، أما بالنسبة لتطبيقها على مصاديقها استنباط الأحكام الفرعية (كقضية التحكيم في حادثه معركة صفين)، فيجب على المجتهدين أن ينطقوا عنه، ويمكن جمعها معاً في مفهوم جامع لكلام على عليه السلام وسيأتي مزيد من التوضيح في ذلك هذه الخطبة.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٩٧

القسم الثالث: رسالة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله

منها: «أَرْسَلَهُ عَلَيَّ حِينَ فُتِرَ مِنَ الرُّسُلِ، وَتَنَازَعَ مِنَ الْأَلْسُنِ، فَفَقِيَ بِهِ الرُّسُلَ، وَخَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ، فَجَاهِدَ فِي اللَّهِ الْمُدْبِرِينَ عَنْهُ، وَالْعَادِلِينَ بِهِ».

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام في المقطع الأول والثاني عن صفات الله سبحانه والقرآن الكريم، ثم أشار هنا بعبارات قصيرة عميقة المعنى إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في أن الله تعالى أرسله بالإسلام بعد مدة وفترة من الرسل السابقين حين كان النزاع قائماً على قدم وساق بين الأفراد في دفاع كل عن معتقده فقال:

«أَرْسَلَهُ عَلَيَّ حِينَ فِتْرَةٍ [٥١٩] مِنَ الرُّسُلِ، وَتَنَازُعٍ مِنَ اللُّسُنِ».

فالعبرة:

«تَنَازُعٍ مِنَ اللُّسُنِ»

، إشارة إلى أن الحوادث التي تدور بين أتباع المذهب المختلفة بما فيهم عبدة الأوثان وأهل الكتاب ومن ليس له دين وعقيدة، لم تكن حوارات منطقية ذات محتوى فكري وعقلي، بل كان كل يسطر بعض الألفاظ بدافع التعصب لإثبات أحقيته، بل كان هذا النزاع والاختلاف اللفظي أحياناً مصدر معارك طاحنة وسفك دماء غزيرة.

ثم قال عليه السلام:

«فَقَفَى [٥٢٠] بِهِ الرُّسُلُ، وَخَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ»،

فقد أشار الإمام إلى نقطتين: الأولى أن رسول الله صلى الله عليه وآله واصل مسيرة الأنبياء الماضين، وذلك لأن مسرتهم بصورة كليه واحدة، والثانية أنه بلغ بتعاليمهم الكمال وختم بهم النبوة، ثم إختتم كلامه عليه السلام بالقول:

«فَجَاهَدَ فِي اللَّهِ الْمُدْبِرِينَ عَنْهُ، وَالْعَادِلِينَ [٥٢١] بِهِ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٩٨

فالواقع هو أن الكفار فريقان: فريق نسى الله تعالى بالمرّة ولا يعتقد بالحق، وفريق آخر مشرك جعل لله سبحانه شريكاً، وقد جاهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كلا الفريقين، جهاد ثقافي وإعلامي وخاضه لمدة ثلاث عشرة سنة وقد أسلم العديد منهم، وعندما شاهد الفريق المعاند الذي حال دون إقبال الناس على الدين الله خاض الجهاد المسلح ليقضي على تلك الموانع دون أن يجبر أحداً على قبول دينه ذلك لأنه:

«لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ...» [٥٢٢]

، وزبدة الكلام فقد أوجز الإمام عليه السلام جميع أنشطة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله في الجهاد، وهو الجهاد ذو المفهوم الواسع والذي يشمل كل سعي وجهد من أجل نشر دين الحق، والعبارة جاهد في الله إشارة لطيفة في أنه لم يكن أسيراً للمال أو المقام والجاه والجلال، بل جاهد من أجل الله سبحانه وسعى لنجاة العباد.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٢٩٩

القسم الرابع: الدنيا غايه بصر الأعمى

إشارة

منها: «وَأِنَّمَا الدُّنْيَا مُتَّهَى بِصِيرِ الْأَعْمَى لَا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً، وَالْبَصِيرُ يُنْفِذُهَا بِصِيرِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا. فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ، وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ. وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ».

الشرح والتفسير

أورد الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة كما ذكر ذلك الشارح البحراني عدّة نقاط لطيفة ورائعة رغم اقتضابها، وقد لفت الأنظار إلى الأصول التي تعد معالم حياة الأفراد فقال:

«وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُتَّهَىٰ بِصَرِّ الْأَعْمَىٰ .

ثم أكمل ذلك بقوله:

«لَا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئًا، وَالْبَصِيرُ يُنْفَذُهَا بِصُرَّةٍ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا».

نعم، فعباد الدنيا وبسبب حبهم وشغفهم بزخارف الدنيا وزبرجها كالمحبوس في سجن لا يرى سوى ما في داخل السجن، فأما نظرهم ضعيف، أو هناك حجب تحيط بأطرافهم، أو كلاهما، وأما دعاء الحق فنظرهم ثابت ولا حجاب لهم، ومن هنا فهم يرون ببصيرتهم الثاقبة الدار الآخرة منزلهم الأبدى الخالد بكل وضوح فليس لهم من هم سواها والحق إننا عرفنا الدنيا كما هي تبع ذلك الإيمان بالآخرة، وذلك لتعذر فهم الدنيا دون الآخرة، فهل خلق الخالق الحكيم كل ما في هذا العالم الواسع ليعيش الإنسان هذه المدّة المعينة فيأكل ويشرب وينام ويصحو بالتالي يموت ويوارى جثمانه الثرى ويدع النسيان؟ والحال بداية عمره كنهايته ممزوجة بالضعف والعجز، ووسطه الذى يمكن الاستفادة منه مشوب بأنواعه المشاكل المصائب والآلام والمعاناة؟ هل هناك حكيم يقوم بمثل هذا العمل الطائش؟ ولذلك صرح

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٠٠

القرآن الكريم:

«يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» [٥٢٣].

وقال فى النقطة الثانية التى تمثل فى الواقع نتيجة بالنسبة للنقطة الأولى:

«فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ، وَالْأَعْمَىٰ إِلَيْهَا شَاخِصٌ».

وبناءً على هذا فقد استعمل الشاخص بمعنيين وما يصطلح عليه بالجنس التام، المعنى الأول من مادة شخوص بمعنى الرحيل والمفارقة، والمعنى الثانى التطلع وتصويب العين نحو موضع والتخلف عن الحركة، وكأن العين تريد مغادرة الحدقة، وللعبارة تفسير آخر اقتصر على ذكره شراح نهج البلاغة وهو أنّ الشاخص هنا يعنى الراحل غاية ما فى الأمر تطلق حين يقال «منها شاخص»، كما يقال «إليها شاخص» وهذا هو الفارق بين من كانت له بصيرة والأعمى، وقال فى النقطة الثالثة والأخيرة:

«وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مَتَرَوِّدٌ، وَالْأَعْمَىٰ لَهَا مَتَرَوِّدٌ».

فهل البصيرة يتزودون من الدنيا للآخرة كما صرح بذلك القرآن الكريم: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ» [٥٢٤]، بينما يتزود عمى القلوب من أجل العيش فى الدنيا، فهناك اختلاف تام بين المسيرين بتعين فقط بكلمة «منها» و «لها».

التعامل مع الدنيا

هناك على الدوام نظرتان يمتلكها الإنسان تجاه الدنيا، فأتباع الأديان السماوية يرون الدنيا بصفاتها منزلًا لا بدّ من التزود فيها إلى الآخرة، يبلغون مرادهم بواسطة هذا الزاد والمتاع وليس لهم من مراد سوى السعادة الأبدية والفوز برضوان الله سبحانه وتعالى، أما أتباع المدرسة المادية (والمدارس التى تتفق معها) فهم ينظرون إلى الدنيا على أنها الهدف النهائى والغاية فيوظفون كافة طاقاتهم ويجندون قواهم من أجل الظفر بها، وأحياناً يتفق أصحاب النظرة الأولى فى العمل مع أتباع النظرة الثانية، يعنى رغم اعتقادهم بأن الدنيا وسيلة لنيل الآخرة، إلا أنّ عملهم يشير إلى نسيان ذلك الاعتقاد وتعاملهم مع الدنيا كهدف نهائى ومن هنا وردت

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٠١

تحذيرات أئمة الدين التى تهدف ايقاظهم من الغفلة، فيقولون أحياناً:

«تَجَهَّرُوا، رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ» [٥٢٥].

وأخرى يقولون:

«النَّاسُ عِبِيدُ الدُّنْيَا وَالِدِّينِ لَعَرَقٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ» [٥٢٦]

، كما يقولون:

«الدنيا: تَعْرُ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ» [٥٢٧].

وأخيراً يقولون: إنّما الدنيا منتهى بصر الأعمى، ولا يبصر ما وراءها شيئاً والبصير ينفذها بصره، ويعلم أنّ الدار وراءها». وأعظم مانع من الافراد، وأهم وظائف أئمة الدين إيقاظ هؤلاء الافراد ولفت إنتباههم إلى أنّ الدنيا ممر لا مقر.

نفحات الولاية ؛ ج ٥ ؛ ص ٣٠١

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٠٣

القسم الخامس: أهمية القرآن و دور عبادة الدنيا في الصراعات

منها: «وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمْلَهُ إِلَّا الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً. وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصِيرَةٌ لِلْعَيْنِ الْعَمِيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَاءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمآنِ، وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلَامَةُ. كِتَابُ اللَّهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطَفُونَ بِهِ، وَتَسْتَمْعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بِغَضُّهُ بَعْضُ، وَيَشْهَدُ بِغَضُّهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلَمَّا يَخْتَلِفُ فِي اللَّهِ، وَلَمَّا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللَّهِ. قَدْ أَضَلَّحْتُمْ عَلَى الْعَلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَتَبَّتِ الْمَرْعَى عَلَى دِمْنِكُمْ. وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ الْأَمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ. لَقَدْ اسْتَهَامَ بِكُمْ الْخَيْثُ، وَتَاهَ بِكُمْ الْعُرُورُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع إلى مسائل مهمّة وقضايا مختلفة لا يبدو أنّها مرتبطة مع بضعتها، ومن هنا يعتقد بعض شراح نهج البلاغة أنّ هذه العبارات قطوف اختارها المرحوم السيد الرضى من خطبة طويلة مرتبطة، وذلك لأنه رآها أعظم فصاحة وبلاغة، وإلى هذا يعود سبب عدم رؤيتنا لإرتباط واضح بينها، ومع ذلك فهناك حكمه بالغة تختزنها هذه العبارات، فقد ساق في البداية تشبيها من أجل لفت الأنظار إلى أهمية العلم الذى يمثل حياة قلب الإنسان فقال:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمْلَهُ إِلَّا الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً».

وقد صرح أغلب شراح نهج البلاغة هنا سؤالاً وهو: لا ينسجم هذا التعبير مع ما ورد في

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٠٤

بعض الآيات والروايات التى تصور راحة أولياء الله سبحانه فى الموت، ومن ذلك ما ورد فى سورة الجمعة: «قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [٥٢٨]. وما ورد فى سورة الواقعة: «فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ» [٥٢٩].

فمن الطبيعى ألا يكره الموت من يرى نفسه على أعتاب الروح والريحان والجنّة المليئة بالنعم، وقد ورد فى الحديث النبوى الشريف:

«لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ رَاحَةٌ دُونَ لِقَاءِ اللَّهِ» [٥٣٠]

، كما ورد هذا المعنى بعبارة أخرى عن الإمام الصادق أنّه قال:

«لَا رَاحَةَ لِلْمُؤْمِنِ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا عِنْدَ لِقَاءِ اللَّهِ» [٥٣١].

وجاء فى الدعاء المعروف للإمام على بن الحسين عليهما السلام فى يوم الثلاثاء:

«وَأَجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ وَالْوَفَاةَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ».

وقد ذكرت عدّة أجوبة على هذا السؤال أوضحتها جميعاً أنّ هذه العبارة إشارة إلى الناس الذين يهربون عادة من الموت، بينما ليس

لأمر كذلك بالنسبة لخواص الله سبحانه، كما يحتمل أن يكون المراد كراهة حتى أولياء الله تعالى للموت بفضلها نهاية التزود ومواصلة مسيرتهم التكاملية، على كل حال فقد أراد الإمام على عليه السلام هذه المقدمة على أنها نتيجة وتشبيه للعلم والمعرفة التي يرتوي منها الإنسان مطلقاً فقال:

«وَأَيْمًا ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصِيرَةٌ لِلْعَيْنِ الْعَمِيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَاءِ، وَرَى [٥٣٢] لِلظَّمَانِ [٥٣٣]، وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلَامَةُ».

فالواقع أراد الإمام عليه السلام أن هناك نوعين من الحياة حياة مادية وجسمانية والتي لا يشبع منها الناس غالباً، والحياة المعنوية والروحانية والأفضل منها العلم والمعرفة التي لا يرتوي منها العقلاء والعلماء قط، وبناءً على هذا فإن المشار إليه «ذلك» بالضبط هو ذلك الشيء الذي ورد

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٠٥

قبل ذلك وهو الحياة المادية التي لا يشبع منها الناس، والغريب هنا كما أورده شراح نهج البلاغة حيث ذكر كل واحد منهم احتمالاً للعبارة المذكورة، الحال تفسيرها واضح وهو يشبه ما ورد في إحدى قصار الكلمات لأبي الميراثين على عليه السلام إذ قال:

«مَنْهُوَ مَنْ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبٌ عِلْمٍ وَطَالِبٌ دُنْيَا» [٥٣٤].

على كل حال فالمراد بالحكمة في العبارة المذكورة هو العلم والمعرفة التي تقرب الإنسان من الله وتنظم أموره المادية والمعنوية وتحول دون أعماله العبيثية، وبعبارة قصيرة كما وردت في القرآن الكريم فإن الخير الكثير يعود إلى صاحبه: «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا...» [٥٣٥].

وقد بين الإمام عليه السلام في عبارته المذكورة العميقة المعنى الأوصاف الخمسة للحكمة وكشف عن منزلتها في حياة الإنسان المادية والمعنوية، فقال أولاً إن الحكمة حياة القلب الميت، يعنى أن الأرواح والأفكار التي تصبح بفعل الجهل كالأموات خالية من أية حركة إيجابية، إنما تعود إلى الحياة في ظل العلم والحكمة فتحيا وتمارس الحركة.

وثانياً وثالثاً أن الحكمة تبصر الأعمى وتسمع الأصم وتوضح الحقائق لمن غطت الحجب بصره وأثقل الوقر أذنه، بحيث يرى الحق في كافة أنحاء الخلق ويسمع نداء تسييح الكائنات ويدرك رسالته أولياء الله سبحانه، وقال في الوصف الرابع والخامس أن عطشى الحق لا يرتوي من منابع الحكمة ويجدون فيها أسباب عافيتهم وسلامتهم، وعليه فلن يبقى من الخير والبركة والسعادة شيئاً إلا وقد اخترنته الحكمة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن القرآن الكريم والذي يراه بعض شراح نهج البلاغة أنه جمل استثنائية قطع ارتباطها بالعبارات السابقة بسبب ما اعتمده السيد الرضى في الانتخاب [٥٣٦]، ولكن كما أورد المرحوم البحراني فإنه لا يمكن القول أن ليس هناك ارتباط بين هذه العبارات وسابقتها حيث بينت أحد منافع الحكمة المهمة وهي القرآن الكريم، أو عبارة

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٠٦

أخرى قد ركزت على المصداق التام للحكمة، والجدير بالذكر أن الأوصاف التي بينتها للقرآن تشبه الأوصاف التي بينتها العبارات المذكورة للحكمة، على كل حال فقد قال كتاب الله الذي تبصرون به الحقائق وتتحدثون به، وتسمعون به ينطق بعضه البعض الآخر (وتفسر فيه المتشابهات على ضوء المحكمات) ويشهد بضعه على البعض الآخر (ويؤيد بعضه الآخر) ولا يختلف ما يقوله في الله، ومن يصحبه لا يخلاف الله: «كِتَابُ اللَّهِ تُبَصِّرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِي اللَّهِ».

والأوصاف السبعة التي بينها الإمام عليه السلام بشأن القرآن تشبه من جهات الأوصاف الخمسة التي بينها بصورة كلية بخصوص الحكمة.

والجدير بالذكر أن الحكمة اقترنت بالكتاب في غلب الآيات القرآنية [٥٣٧] والذي يدل على العلاقة الوثيقة بينهما وأن رسل الله سبحانه كانوا يمضون قدماً في ظلّهما (الكتاب والحكمة).

من جانب آخر فإن الأوصاف التي تضمنتها العبارة بشأن القرآن الكريم في أنه أساس البصر والسمع والنطق، وقد وردت الإشارة إليها في بعض الآيات القرآنية ومن ذلك الآية: «قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ...» [٥٣٨].

ومما لا شك فيه أن الآيات الإلهية ودلائل الحق قد وردت بكثرة في القرآن الكريم بحيث يسع الإنسان بواسطتها رؤية جمال الحق ويسمع نداء الله تبارك وتعالى، وهناك فارق واضح بين العبارة:

«يَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ»

والعبارة:

«يَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ»

، لأن الحديث في العبارة الأولى عن آيات القرآن التي يفسر بعضها البعض، وتتضح المتشابهات في ظل المحكمات، وأما العبارة الثانية فتتحدث عن إنسجام آيات القرآن وكل منها يعاضد الأخرى وتشهد على صدقها، وبالعبارة:

«وَلَا يَخْتَلِفُ فِي اللَّهِ»

، إشارة إلى عدم اختلاف القرآن الكريم في بيان صفات الجمال والجلال والتي تعدّ من أهم مباحث القرآن الكريم، ويتحدث بجميع آياته عن تلك الذات المقدسة الجامعة لكافة الكمالات اللامتناهية، والعبارة:

«وَلَا يَخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللَّهِ».

إشارة إلى أن أي من آيات القرآن لا تبعد الإنسان عن مسار الحق، بل

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٠٧

تأخذ بيده إليه، فمن تمسك بالقرآن لن يضل أبداً، ومن رجاه لا يخيب، فالقرآن يعرّف نفسه:

«أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» [٥٣٩].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه كطبيب حاذق وحكيم ماهر فحاض في بيان معاناه مخاطبيه المعنوية وقد ذكرهم بنقطة مهمّة، كيف ولم عجزتم عن مواصلة سبيل الحق وعندكم هذا القرآن - وعليه لا يبدو صواباً ما أورده شراح نهج البلاغة من عدم ارتباط العبارات اللاحقة بالعبارات السابقة، فقال بادية الأمر كأتى بكم قد إتفقتم على الخيانة والحسد والحقد:

«قَدْ اضْطَلَحْتُمْ عَلَى الْغُلِّ [٥٤٠] فِيمَا بَيْنَكُمْ».

ثم قال:

«وَوَبَّتَ الْمَرْغَى عَلَى دِمْنِكُمْ [٥٤١]»،

إشارة إلى أن أعمالكم الخاطئة إنما تفرزها أفكاركم الملوثة، وأضاف في بيانه لنقطة ضعفهم الرابعة والخامسة فقال:

«وَتَصَافِيئْتُمْ عَلَى حُبِّ الْأَمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ»

، فنقطة اشتراككم تكمن في تعلقكم بالأمال والأمانى الفارغة، ونقطة اختلافكم في كسب المال، حيث يريد كل منكم أن يختطف المال الذي في يد غيره.

والواقع يمكن خلاصة نقاط ضعفهم في أربع كلمات هي الحقد والحسد والرياء وطول الأمل والنزاع من أجل كسب المال، والحق أن المجتمع لن يرى الأمن والاستقرار إن سادته هذه الرذائل، ولا يسوده سوى النزاع والقتال وأنواع التوتر، كما لا يعيش سوى الضعف والوهن تجاه العدو الخارجي، وإن طالعتنا بعض مظاهر الجمال في هذا المجتمع فهي بمثابة الزهور الجميلة التي تنبت في المزابل

وجذورها عفنة، وكأنَّ الإمام عليه السلام أراد أن يفهمهم هذه القضية وهي أنَّ المبادئ التي سادت المجتمع الجاهلي قبل الإسلام والتي وردت الإشارة إليها في صدر هذه الخطبة قد إنتعشت اليوم مرّة أخرى في وسطكم، ثم أشار الإمام عليه السلام في آخر الخطبة إلى أحد الأركان المهمة لانحرافهم والذي يتمثل بوساوس الشياطين والتي جعلتهم يضلون سبيل

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٠٨

السعادة والنجاة:

«لَقَدْ اسْتَهَامَ بِكُمْ الْخَيْثُ، وَتَاهَ [٥٤٢] بِكُمْ الْعُرُورُ [٥٤٣]، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ».

قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا...» [٥٤٤]، كما قال: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» [٥٤٥]، استهام من مادة هيام على وزن قيام خرج لا يدرى أين يذهب، فهو يمشى دون هدف حيران فلا يبلغ الهدف، ولما كان العاشق حيران في حياته فقد اطلقت هذه المفردة على العشق الشديد.

على كل حال فإنَّ الشيطان يحث الإنسان على العبث والعشوائية ولا يقود ذلك سوى للحيرة والاضطراب، وهذا بدوره يلقي بالإنسان في وادي الهلكة، وبالنتيجة فإنَّ صفاتهم الباطنية القبيحة من جانب، والانقياد لوساوس الشياطين من جانب آخر قد مهدت السبيل لبؤسهم وشقائهم وسلبتهم بصيرتهم وسمعهم ونطقهم وفهم الصحيح، وهكذا يستعرض هذا الطبيب الرباني بهذه الخطبة الغراء جذور الأمراض وطرق مكافحتها وعلاجها.

أشار الإمام في هذا المقطع الأخير من الخطبة إلى عدّة أمور مهمّة منها:

١- أن القرآن الكريم مصدر البصر السمع والنطق، مع ذلك هناك من لم يستثمر ذلك، لأنهم محجوبون وحجابهم فسادهم والباطني وتلوّثهم وطول أملهم وغرقهم في حبّ الدنيا، ونعلم أنّ هذه الأمور أهم حجب المعرفة، نعم فالكتب السماوية مهما ملئت الحكمة، ومهما تحلى الأئمة بالعلم والبلاغه فلا جدوى من ذلك ما لم تكن هناك قابلية في القابل، فالشمس ترسل أشعتها

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٠٩

على الدوام ولكن ما جدوى هذا الشعاع بالنسبة للأعمى، وكذلك هي الأمطار في لطافة طبعها لكنه لا ينبت الأزهار في كل مكان.

٢- إنّ حبّ المال والثراء أساس الحروب والمعارك النزاعات ولا يقتصر هذا الأمر على الزمان والماضي، بل تلمسه بوضوح في كل مكان في الوقت الحاضر، فالدول الغاشمة تصرّح دون خشية إننا دخلنا تلك الحرب من أجل حفظ مصالحنا، أو لدينا بعض المصالح في البلد الفلاني (طبعاً مصالح غير مشروعة) وعليه فلا بدّ أن يكون لنا تواجد عسكري فيه لنرعى تلك المصالح، والمؤسف أن وجه الدنيا أخذ يتكدر يوماً بعد آخر والحياء أصبحت فيها عديمة الأمن، وليس ذلك سوى ما أورده الإمام عليه السلام إذا قال:

«وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ».

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣١١

الخطبة [٥٤٦] المائة والرابعة والثلاثون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وقد شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم

نظرة إلى الخطبة

قال بعض شراح نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام خطب بهذا الكلام حين أتجه قيصر بجيشه نحو ثغور الإسلام عندما عزل خالد بن الوليد عن إمرة جيش المسلمين وقد تولى الإمرة أبو عبيدة الجراح وشرحبيل وقد ضاق عليهما الأمر، لذلك عزم عمر أن يحضر بنفسه وأستشار أمير المؤمنين على عليه السلام [٥٤٧]، ويفهم من كلام ابن أبي الحديد أنّ عمر خالف ما أشار عليه على عليه السلام، فلمّا علم الروم مقدم عمر بنفسه خافوا وسألوا الصلح على أن يؤدّوا الجزية إلى المسلمين، ثم روى قصة أشبه بالخرافة [٥٤٨].

قال المرحوم العلامة التستري أولاً: ما وراه ابن أبي الحديد عن سيف وروايات سيف لا تخلو من الوضع والتحريف.

ثانياً: لا دليل لدينا أنّ هذا الكلام قاله على عليه السلام حين استشارة عمر في الخروج بنفسه

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣١٢

لقتال الروم، بل ظاهر بعض كلمات الشيخ المفيد رحمه الله أنّ الكلام في معركة القادسية أو نهاوند [٥٤٩].

والجدير بالذكر هنا أنّ عمر كان يقبل عادة ما يشير عليه على عليه السلام وكان يرى نجاته في ذلك القبول، وهذا بدوره يؤيد ما أورده المرحوم العلامة التستري.

على كل حال تتألف هذه الخطبة من قسمين: الأول وعد الله سبحانه لهذه الأمة بالنصر والغلبة والامل بهذا الوعد، والثاني الذي قال فيه على عليه السلام لعمر: لا تشخص بنفسك فأنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتكذب لا يكن للمسلمين كهف دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣١٣

«وَقَدْ تَوَكَّلَ اللَّهُ لِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ، وَسِتْرِ الْعَوْرَةِ. وَالَّذِي نَصِيرَهُمْ، وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَنْتَصِرُونَ، وَمَنْعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَمْتَنِعُونَ، حَتَّى لَا يَمُوتَ.

إِنَّكَ مَتَى تَسِرَ إِلَى هَذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتَكْذِبَ، لَا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانْفَهُ دُونَ أَقْصَى بِلَادِهِمْ. لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ. فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِحْرَبًا، وَاخْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ الْبَلَاءِ وَالنَّصِيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللَّهُ فَدَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الْآخِرَى، كُنْتَ رَدَاءً لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ».

الشرح والتفسير

الحضور الخطير

استهل الإمام عليه السلام كلامه للخليفة بهدف تقوية معنوياته حذراً من خوف لقاء العدو الغاشم كالروم بقوله:

«وَقَدْ تَوَكَّلَ اللَّهُ لِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ» [٥٥٠]، وَسِتْرِ الْعَوْرَةِ

، والعبارة توكل تشير إلى أنّ الله سبحانه تكفل بحمايتهم والدفاع عنهم، وهو الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» [٥٥١].

وهذا الوعد الإلهي - طبق كلام الإمام عليه السلام - لم يكن مقتصرًا على زمان النبي صلى الله عليه وآله، بل يجري في كل عصر ومصر، والعبارة:

«وَسِتْرِ الْعَوْرَةِ»

، بالنظر إلى أنّ العورة تعنى في الأصل النقاط الحدودية الهشة وما يخشاه الإنسان ويخافه، فهي تشير إلى أنّ الحق تبارك وتعالى وإضافة إلى

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣١٤

تعهد بهجرة المسلمين ورفعتهم فأنه يمنع العدو من الالتفات إلى نقاط ضعفهم أسرارهم حتى لا يتمكن من تسديد ضرباته للمسلمين.

ثم شد من العزائم أكثر فأتى بشاهد حي فقال عليه السلام:

«وَالَّذِي نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَنْتَصِرُونَ، وَمَنْعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَمْتَنِعُونَ، حَتَّىٰ لَا يَمُوتَ [٥٥٢].»

فقد نصر الله تعالى اولئك المسلمين الذين كانوا يبدون في الظاهر ضعفاء ومن حيث العدة قلائل، واليوم وقد اتسعت حوزة الإسلام والحمد لله وقد انصوت عدة أفواج تحت رايته، فهم مشمولون قطعاً بنصرة الحق والغلبة لهم والهزيمة لأعدائهم، فناصرهم هو الله تعالى الحي القيوم الذي لا يموت، طبعاً إن أي موجود تثق به وتعتمد عليه فإن مرور الزمان يصيبه بالضعف والهين والفتور وبالتالي الزوال والفناء، والذات الإلهية المقدسة الوحيدة التي لا تعرف للضعف الفتور من معنى والتي لا ينبغي الاعتماد سوى عليها.

ثم ورد الإمام عليه السلام ذى مقدمة بعد هذه المقدمة فيخلص إلى نتيجة ليؤكد على عمر عدم حضور ميدان القتال بنفسه بعد أن ذكر دليلاً واضحاً لذلك والذي يقبل بصورة تامة في الموارد المشابهة فقال:

«إِنَّكَ مَتَى تَسِرْ إِلَىٰ هَذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتَنكَبَ [٥٥٣]، لَا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانِفَةً [٥٥٤] دُونَ أَقْصَىٰ بِلَادِهِمْ، لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ».

إشارة إلى هذا الأمر إن حضرت ميدان القتال بنفسك وقتلت فإن أرادت الامة مبايعة شخص آخر فإن المجتمع الإسلامي سيفقد مركزته وتنها المناطق النائية التي تكون عرضة للخرق أكثر من غيرها وهذا ما سيسرى إلى سائر أنحاء البلاد، ولما كان السلب في القضايا الاجتماعية يقترن دائماً بالايجاب بغية سد الفراغ الاجتماعي، فبعد أن أشار عليه الإمام بعدم الذهاب بنفسه، طرح عليه البديل ببعث رجل مجرب في الحرب وطائفة ممن أبلت في القتال، من أهل النصح والخير فإن أتاهم النصر فذلك ما ينبغي ويحب، وإن حدث شيء آخر (إشارة

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣١٥

إلى الهزيمة المسلمين) فسيكون هو ملاذ المسلمين وكهفهم (فيستطيع ومن خلال بعث القوى السيطرة على الأوضاع وتحقيق النصر على العدو):

«فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مَحْرَبًا [٥٥٥]، وَاخْفِزْ [٥٥٦] مَعَهُ

أَهْلَ الْبَلَاءِ [٥٥٧] وَالنَّصِيحَةَ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللَّهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَىٰ، كُنْتَ رَدَاءً [٥٥٨] لِلنَّاسِ وَمَتَابَةً [٥٥٩] لِلْمُسْلِمِينَ».

فقد بين الإمام عليه السلام جوابه للخليفة حين المشورة بدليل منطقي وواضح وهو أن حضور زعيم جماعة في ميدان القتال أمر خطير سوى في الموارد الاستثنائية، لأن من الاحتمالات الواردة قتله في المعركة ونتيجة ذلك إنيهار الجيش من جانب وتصدع كيان البلاد من جانب آخر، بينما لو بقي مكانه كان له أن يبعث بجيوش بدل جيش واحد ويحتفظ بقدرته وسيطرته على جميع البلاد.

تأملات

١- الرد على سؤال

طرح بعض شراح نهج البلاغة هذا السؤال أشار على عليه السلام على عمر ألا يشخص بنفسه، فما بال رسول الله صلى الله عليه وآله كان يشاهد الحروب بنفسه، ويباشرهم بشخصه، وما بال أمير المؤمنين على عليه السلام شهد حرب الجمل وصفين والنهروان بنفسه؟ وقد أجاب بعض الشراح بالقول أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان عالماً عن طريق الوحي بأنه لا يقتل في الحرب، كما كان على عليه السلام عالماً من جهة النبي صلى الله عليه وآله أنه لا يقتل في هذه الحروب، ويشهد لذلك الخبر المتفق عليه بين الناس يقاتل بعدى الناكثين، والقاسطين، والمارقين، وعليه

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣١٦

فليست هنالك من خطورة في حضورهما، وقال البعض الآخر، أنهما كانا يحضران المعارك التي لم تكن تدور بعيداً عن مركز البلاد، بينما اقتصر حضور النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في المعارك الخارجية على تبوك فقط، وبعد أن استخلف علياً عليه السلام في المدينة.

وبعبارة أخرى يمكن القول: الموارد مختلفة تماماً ولكل ميدان من ميادين القتال وشرائطه ووضع العدو حكمه الخاص، ولكن غالباً إن كان الميدان بعيداً عن مركز الحكومة واشترك رئيس الحكومة فيه وقتل أدى إلى عدّة مشاكل، ومن هنا نهى الإمام عليه السلام الخليفة عن حضور ميدان القتال بنفسه.

٢- شبهة أخرى

لعل هناك من يشكّل: كيف قدم الإمام عليه السلام هذه النصيحة الودّية والمشفقة للخليفة مع أنه يرى الحكومة من حقوقه المسلمة وقد صرح النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والآيات القرآنية بهذا المعنى في أنّ الولاية لعلّ عليه السلام؟ الجواب على هذا السؤال واضح وهو أنّ الإمام عليه السلام إنّما يفكر في المصير النهائي للإسلام والمسلمين لا في شخصه، وهو يعلم أنّ الخليفة الثاني قد تربع على مسند الحكومة وتسلم زمام الأمور وقد وقف إلى جانبه عوام الناس وطائفة من الخواص، فإنّ تعرض في ظل هذه الظروف إلى أزمة عظيمة وقتال خطير ساد الهرج والمرج البلاد وعمتها الفوضى وتعرض كيان الإسلام للخطر، فروح على عليه السلام العظيمة تقتضى نسيانه لكل شيء وإيثاره لخير المسلمين على كل شيء.

٣- الأمانة في الاستشارة

الكلام المذكور درس لجميع المسلمين بتقديم الخير والصلاح حين المشورة دون الأخذ بنظر الاعتبار قضية المستشار وكيفية العلاقة به.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣١٧

بعبارة أخرى: إما يرفض المشورة وإما أن يقبلها ويؤدّي حقها، فقد ورد في الحديث أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «اعلم أنّ ضارب عليّ بالسيف وقاتله لو إتمننى واستنصحنى واستشارنى ثمّ قبلت ذلك منه لأديت الأمانة» [٥٦٠].

٤- إستنتاج خاطيء

أراد بعض المخالفين التشبث بكلام الإمام عليه السلام ليقوموا الدليل على أحقية الخليفة الثاني بالخلافة وعلى لسان علي عليه السلام، ولكن من الواضح أنّ هذا الاستنباط خاطيء، لأنّ الوظيفة الشرعية والعقلية وحفظاً لمصالح المسلمين تتطلب من كل شخص في مثل ظروف علي عليه السلام أن يقدم النصيحة لمن كان يمر بظروف عمر، فينطق لسانه بخير المسلمين وصلاحهم، وإن جرت الأمور على خلاف مصالحه الشخصية، بل إن كانت بضرورة، والعبارة:

«لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ»

، لا تعنى قط أنّك أصلح الامه، بل معناها أنّ الناس عرفوك في ظلّ الظروف الفعلية- حقاً أم بغير حق- بهذه الصفة فان قتلت تطلبت البيعة لآخر زماناً طويلاً وهنا تنهار الامه.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣١٩

الخطبة [٥٦١] المأة الخامسة والثلاثون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 وَقَدْ وَقَعَتْ مَشَاجِرُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَثْمَانَ
 فَقَالَ الْمَغِيرَةُ بْنُ الْأَخْنَسِ لِعَثْمَانَ: أَنَا أَكْفِيكَه، فَقَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْمَغِيرَةِ:

نظرة إلى الخطبة

صَرَّحَ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ وَآخَرُونَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَمْ يَكُنْ بِحَضْرَةِ عَثْمَانَ، وَإِنْ أَفَادَتْ عِبَارَاتُ الْخُطْبَةِ أَنَّ هَذِهِ الْمَشَاجِرَ كَانَتْ بِحَضْرَةِ عَثْمَانَ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ عِمَارًا لَمَّا سَمِعَ بِخَبَرِ وَفَاةِ أَبِي ذَرٍّ تَرَحَّمُ عَلَيْهِ بِحُضُورِ عَثْمَانَ، فَغَضِبَ عَثْمَانَ وَقَالَ: انْفُوهُ إِلَى الرَّبْذَةِ، فَقَالَ عِمَارٌ: مَجَالِسَةُ الْكِلَابِ وَالْخِزَانِيرِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَجَالِسَتِكَ قَالَ ذَلِكَ وَخَرَجَ، فَعَزَمَ عَثْمَانَ عَلَى نَفْسِهِ، فَذَهَبَ بَنُو مَخْزُومٍ إِلَى عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَكُوا لَهُ ضَرْبَ عَثْمَانَ لِعِمَارٍ وَهُوَ عَازِمٌ الْآنَ عَلَى إِبْعَادِهِ فَسَأَلُوهُ أَنْ يَكْلِمَ عَثْمَانَ وَإِلَّا وَقَعَتْ فَتْنَةٌ عَظِيمَةٌ، فَذَهَبَ الْإِمَامُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى عَثْمَانَ وَقَالَ لَهُ: نَفَيْتَ أَبِي ذَرٍّ إِلَى الرَّبْذَةِ حَتَّى مَاتَ غَرِيبًا وَهُوَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ نَقَمَ عَلَيْكَ النَّاسَ ذَلِكَ، وَتَرِيدُ الْآنَ نَفْيَ عِمَارٍ.

فَغَضِبَ عَثْمَانَ وَقَالَ: لَا بَدَّ مِنْ نَفْيِكَ أَوْلًا لَكَي لَا يَجْرَأَ عِمَارٌ، فَفَسَادَهُمْ مِنْكَ، فَقَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَفَسَادَ أَمْثَالِ عِمَارٍ بِسَبَبِ أَعْمَالِكَ، فَأَنْتَ تَعْمَلُ خِلَافَ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى فَتَقْمُ
 نَفْحَاتِ الْوِلَايَةِ، ج ٥، ص: ٣٢٠

النَّاسَ عَلَيْكَ، قَالَ ذَلِكَ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ عَثْمَانَ، وَقَدْ أَحَاطَ النَّاسُ بِهِ وَقَالُوا فَلْيَبْعِدْنَا عَثْمَانَ جَمِيعًا لِنَمُوتَ بَعِيدًا عَنْ أَهْلِنَا، فَقَالَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلُوا لِعِمَارٍ يَلِازِمُ بَيْتَهُ وَلَا يَخْرُجْ.

فَقَالَ بَنُو مَخْزُومٍ: إِنْ كُنْتَ مَعْنَا فَلَيسَ لِعَثْمَانَ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَثْمَانَ شَكَى عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى النَّاسِ، فَقَالَ لَهُ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَكَانَ مِنْ شِيعَتِهِ وَخَاصَّتِهِ: أَفَلَا أَمْشَى إِلَيْهِ فَأُخْبِرُهُ بِمَوْجِدَتِكَ فِيمَا يَأْتِي إِلَيْكَ، قَالَ: بَلَى، فَأَتَاهُ زَيْدٌ مَعَهُ الْمَغِيرَةُ بْنُ الْأَخْنَسِ [٥٦٢] وَعِدَادَةُ بَنِي زَهْرَةَ وَآمَةُ عَمَةُ عَثْمَانَ، فَحَمَدَ زَيْدُ اللَّهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ قَدَّمَ لَكَ سَلْفًا صَالِحًا فِي الْإِسْلَامِ، وَجَعَلَكَ مِنَ الرَّسُولِ بِالْمَكَانِ الَّذِي أَنْتَ بِهِ، فَأَنْتَ لِلْخَيْرِ كُلِّ الْخَيْرِ أَهْلٌ، وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَثْمَانَ ابْنَ عَمِّكَ وَوَالِيَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَلَهُ عَلَيْكَ حَقَانٌ، حَقُّ الْوِلَايَةِ وَحَقُّ الْقَرَابَةِ، وَقَدْ شَكَا إِلَيْنَا أَنَّ عَلِيًّا يَعْرِضُ لِي، وَيُرِدُ أَمْرِي عَلَيَّ، وَقَدْ مَشِينَا إِلَيْكَ نَصِيحَةً لَكَ، وَكِرَاهِيَةً أَنْ يَقَعَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ابْنِ عَمِّكَ أَمْرٌ نَكْرَهُهُ لَكَ، فَحَمَدَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى رَسُولِهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللَّهِ مَا أَحَبَّ الْاِعْتِرَاضَ وَلَا الرَّدَّ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَأْبَى حَقًّا لِلَّهِ لَا يَسْعُنِي أَنْ أَقُولَ فِيهِ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَوَاللَّهِ لَا أَكْفَنُ عَنْهُ مَا وَسَعَنِي الْكُفُّ.

فَقَالَ الْمَغِيرَةُ بْنُ الْأَخْنَسِ وَكَانَ رَجُلًا وَقَاحًا، وَكَانَ مِنْ شِيعَةِ عَثْمَانَ وَخِلَاصَتِهِ: إِنَّكَ وَاللَّهِ لَتَكْفَنُ عَنْهُ أَوْ لَتَكْفَنُ، فَإِنَّهُ أَقْدَرَ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ.

فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا بَنَ اللَّعِينِ الْأَبْتَرِ، وَالشَّجْرَةَ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا فَرْعَ... [٥٦٣].

بِنَاءً عَلَى هَذَا فَخِلَاصَةُ الْكَلَامِ أَنَّهُ اِعْتِرَاضٌ شَدِيدٌ عَلَى الْمَغِيرَةَ بْنِ الْأَخْنَسِ الَّذِي نَطَقَ بِكَلَامٍ أَكْبَرَ مِنْهُ وَاعْتَقَدَ أَنَّ لَهُ مَنزِلَةً أَعْظَمَ مِمَّا فِي نَفْسِهِ.

نَفْحَاتِ الْوِلَايَةِ، ج ٥، ص: ٣٢١

«يَا بَنَ اللَّعِينِ الْأَبْتَرِ، وَالشَّجْرَةَ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِينِي؟»

فَوَاللَّهِ مَا أَعَزَّ اللَّهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلَا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهَضُهُ. أَخْرَجَ عَنَّا أَبْعَدَ اللَّهُ نَوَاكٍ، ثُمَّ ابْلُغْ جَهْدَكَ، فَلَا أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ!». الشرح والتفسير

أنت عاجز

كان على عليه السلام الكهف الحصين للمظلومين والمحرومين على عهد الخلفاء الثلاث سيما على عهد الخليفة الثالث عثمان الذي تجاوزت بطانته الحد في الظلم والجور، فلم ترحم صغيراً ولم توقر كبيراً، فكان عليه السلام من يوصل نداء المظلومية للخليفة، فمن الطبيعي أن يسبب له هذا الأمر بعض المشاكل حيث كان يجند الأمة ضد الخلافة الحاكمة.

فقد عرض الإمام عليه السلام بهذا الرد على تهديد المغيرة بن الأحنس بالدم له والاستخفاف به، فأشار بادية الأمر إلى جذور فسادة ونقاط ضعفه ليخلص إلى نتيجة تفيد عجزه عن القيام بأى عمل ضد الإمام عليه السلام فقال:

«يَا بَنَ اللَّعِينِ الْأَبْتَرِ، وَالشَّجْرَةَ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِينِي؟»،

والتعبير عن المغيرة بن الأحنس باللعين كونه من رؤوس النفاق حيث أظهر الإسلام في فتح مكة وأبطن الكفر، وقد حاول رسول الله صلى الله عليه وآله إستمالة قلبه فأعطاه سهماً كبيراً من غنائم حنين، وأخوه أبو الحكم الذي قتله عليه السلام يوم احد، ومن هنا حقد المغيرة على عليه السلام [٥٦٤].

وأما وصف الإمام لأبيه بالأبتر لا أنه لم يكن له عقب، بل الأبتر هنا تعنى انقطاعه عن الخير والسعادة، أو أبتر من حيث النسب حيث كان أولاده ممن لا خير فيهم فكانوا كالعدم،

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٢٢

وأما قوله والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع فهو كناية عن وضاعه هذه الاسرة وبعدها عن القيم والمثل، فالواقع أن قول الإمام عليه السلام إقتباس من الآية الشريفة:

«وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجْرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتَثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ» [٥٦٥].

ثم قال الإمام عليه السلام:

«فَوَاللَّهِ مَا أَعَزَّ اللَّهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلَا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهَضُهُ» [٥٦٦].

العزة والقدرة بيد الله سبحانه ذلك طبقاً للآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَصَّرُوا لِلَّهِ يُنْصِرْكُمْ وَيُجِبِّتْ أَعْدَاءَكُمْ» [٥٦٧].

وقوله تعالى: «إِنَّا لَنَنْصِرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» [٥٦٨]، فالعزة لله لا للمنافقين، ثم إختتم الخطبة باستخفافه الشديد بالمغيرة فقال:

«أَخْرَجَ عَنَّا أَبْعَدَ اللَّهُ نَوَاكٍ» [٥٦٩]، ثُمَّ ابْلُغْ جَهْدَكَ، فَلَا أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ [٥٧٠] إِنْ أَبْقَيْتَ!».

إشارة إلى أنك لأصغر من أن تهدد علياً عليه السلام، فافعل ما بوسعك لترى إنك لا تقوى على شيء، وبإس هو الفرد الذي أنت ناصر.

سلوك الإمام عليه السلام تجاه الفرد العديم المنطق

لو أنعمنا النظر في شأن وورد هذا الكلام للإمام عليه السلام وتبعنا بدقه مساره التاريخي لرأينا كيف اصطدم الإمام عليه السلام بصورة منطقية بالانحرافات في عصر الخلفاء ولا سيما على عهد عثمان، فلم يتوان في تقديم الوعظ والنصح من أجل منع أي توتر واضطراب حيث كان يكتفي بالحد الأدنى من التذكير، أما حين كان يصطدم بالمنافقين والجهال عديمي المنطق، فقد كان يقف بوجههم بكل شدة وصلابة حتى لا يقتدح في أذهانهم التفكير بالأعمال الطائشة والخطيرة، وصدر وذيل الكلام المذكور خير شاهد على السلوكين.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٢٣

الخطبة [٥٧١] المائة والسادسة والثلاثون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي أَمْرِ الْبَيْعَةِ

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى أمور:

الأول: أن بيعتي لم تكن صدفة بعيدة عن تفكير الناس وتخطيطهم، وعليه فلا يحق لأحد نقضها لأنها بيعه عامة.

الثاني: أنني أريدكم جنوداً لتبلور الأهداف الربانية، لكنكم تريدونني من أجل ضمان منافعكم الدنيوية.

الثالث: أبغى من كل الافراد النصرة لاستنقاذ حق المظلوم من الظالم، ويبين الإمام عليه السلام عزمه القاطع بهذا الشأن

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٢٥

«لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَهُ، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِدًا. إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ. أَيُّهَا النَّاسُ، أَعْيُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَإِيَّامَ اللَّهِ لَأَنْصَحَ فَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلِبَأْفُودِنَ الظَّالِمِ بِخِرَامَتِهِ حَتَّى أُورِدَهُ مَنَهْلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهًا».

الشرح والتفسير

أنصف المظلوم من الظالم

كما ورد سابقاً فإن الإمام أورد هذا الكلام - بعبارة أخرى هذا المقطع من الخطبة - حين إمتنع بعض صحابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عن بيعته، فأتم الإمام عليه السلام الحجة عليهم بهذا الكلام فقال:

«لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَهُ»،

بل حين رأيتم المشاكل الناشئة من بيعه الخلفاء السابقين ولاسيما بيعه الخليفة الثالث وما ترتب عليها من آثار فقد عزمتم على الإقبال على فأيتمت أمراً جديداً في مسألة البيعة، وبناءً على ما تقدم فإن الأقلية لا تمتلك الحق في نقض البيعة التي سارعت إليها الأكتيرة من الامة.

وبالنظر إلى أن الفلته تعني العمل الذي يقع بغته دون روية وتدبر فقد أراد الإمام:

أولاً: يوضح أن بيعته كانت دقيقة جداً وقد حصلت بعد مشورة الامة وزعماء القبائل مع بعضهم.

ثانياً: التلميح إلى بيعه أبي بكر التي حصلت في أجواء متوترة مغلقة من قبل قلة قليلة حتى قال عمر بهذا المضمون:

«إِنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً، وَقِي اللَّهُ شَرَّهَا» [٥٧٢]

، كما ورد في بعض الروايات في ذيل هذا الحديث

«فَمَنْ عَادَ إِلَى مِثْلِهَا فَاقْتُلُوهُ» [٥٧٣]

، وسنقدم شرحاً وافياً لهذا الموضوع في البحث القادم.

ثم قال الإمام عليه السلام فى مواصلة كلامه:
«وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِدًا، إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ،

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٢٦

وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ نِيَّيَ لِنَفْسِكُمْ»، فلست

من قبيل طلاب الدنيا من الحكام الذين ينشدون من وراءها تأمين جلالهم وأبهتهم ومصالحهم الشخصية، فما أريده هو إقامة الدين بواسطتكم وأن أؤدى حقوق الناس وأفوز برضى الله سبحانه، ولكنكم تريدوننى لمصالحكم الشخصية كالحصول على سهم كبير من بيت المال أو نيل المناصب والمقامات والرفاه فى الحياة، وبالإنلغات إلى الاختلاف بين هاتين النظرتين فمن الطبيعى ألا تتساوى المسارات تبعاً لوسائل العمل، ثم دعاهم لإصلاح أنفسهم بعد أن وبخهم وأيقظهم فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، أَعْيُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ»

، فى إشارة إلى أن مدرستى التربوية معدة لإصلاحكم، فما أريده منكم وبقبول نصائحي - التى تستند إلى مصدر الوحي والقرآن الكريم وتعاليم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله - الإلتحاق بها والتعاون معى، فإن لم يكن لديكم الإندفاع فلا جدوى من أى برنامج، ثم أشار فى الختام إلى نقطة مهمية ووضح عزمه الراسخ فيها وهى مسألة بسط العدالة فى كافة أرجاء البلد الإسلامى مقاتلة الظلمة فقال:

«وَأَيُّمُ اللَّهُ لَأَنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ [٥٧٤] حَتَّى أُرِدَهُ مِنْهُلَ [٥٧٥] الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهًا»

، فهذا التشبيه الرائع للظلمة بالبعير الجامح الذى يمتنع حتى من شرب الماء ويريد صاحبه أن يورده مشربه كرهاً ويرويه، يفيد أن الهدف من مقارعة الظلمة لا يقتصر على استرداد حقوق المظلومين فحسب، بل أن هذا العمل بنفعهم أيضاً، لأن الظالم إن جاوز الحد فإن التمرد والعصيان العام سيكون كألسنه اللهب التى تحرق الأخضر واليابس وأن الظلمة أول من تحرقهم تلك النار، الأمر الذى وقع فى عصر عثمان قبيل حكومة الإمام عليه السلام كما يفيد من جانب آخر أن أهم هدف اجتماعى للإمام عليه السلام بسط العدل وأخذ حق المظلومين، وهذا هو الدواء الشافى المرير على ألسنة أغلب الأفراد الجهال، وهذا أهم هدف لبعثة الأنبياء والذى صورته القرآن الكريم بالقول: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...» [٥٧٦].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٢٧

الخطبة [٥٧٧] المائة والسابعة والثلاثون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي شَأْنِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَفِي الْبَيْعَةِ لَهُ

نظرة إلى الخطبة

المحاور الأصلية للخطبة هى:

- ١- نقض طلحة والزبير للبيعة لحجة اشتراك على عليه السلام فى قتل عثمان، والحال هم كانوا يحرضون الناس للقيام على عثمان.
- ٢- النصيحة المشوبة بالتهديد لطلحة والزبير ليكفيا عن الفتنة، ويلتحقا بصوف عامة المسلمين.
- ٣- الإشارة إلى مسألة البيعة وأن الإمام عليه السلام لم يكن طالباً للحكومة، بل هم الذين أصروا عليه بقبول البيعة.

٤- لعن الإمام عليه السلام فى ختام الخطبة طلحة والزبير وهو الأمر الذى جرى عليهما عملياً فساءت عاقبتهما.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٢٩

القسم الأول: الحاقدون الظالمون

«وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَرًا، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصِيْفًا. وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيْبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وُلُوهُ [وُلُوهُ]

دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ إِلَّا قَبْلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لِلْحُكْمِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ. إِنَّ مَعِيَ لَبَصِيْرَتِي؛ مَا لَيْسْتُ وَلَا لَيْسَ عَلَيَّ. وَإِنَّهَا لِلْفِتْنَةِ الْبَاغِيَّةِ؛ فِيهَا الْحَمَاءُ وَالْحُمَمَةُ، وَالشُّبُهَةُ الْمُغْدِفَةُ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ؛ وَقَدْ زَاخَ الْبَاطِلُ عَنِ نَصَابِهِ، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنِ شَعْبِهِ. وَإِنَّمِ اللَّهُ لَأَفْرَطَنَّ لَهُمْ حَوْضًا أَنَا مَا تَحُهُ، لَا يَصُدُّرُونَ عَنْهُ بَرِيًّا، وَلَا يَعْبُونَ بَعْدَهُ فِي حَسِيٍّ!.

الشرح والتفسير

لا شبهة ولا شك أن طلحة والزبير كانا من بين اولئك الذين اثاروا الناس ضد عثمان ويجمع العدو والصديق على اشتراكهما فى قتل عثمان، كما أعلنت عائشة صراحة اعتراضها على عثمان، إلا أن العجيب ما إن هبت الامة لمبايعة على عليه السلام فتسلم زمام الأمور حتى وقف بوجهه طلحة والزبير وكذلك عائشة، والأعجب من ذلك أن حجّتهم لذلك الوقوف هو الطلب بدم عثمان، ولا زال التاريخ يحفل بالكثير من هذه العجائب والأفراد الذين يحرصون على الدنيا وزخارفها، على كل حال فإن الإمام عليه السلام أشار فى هذه الخطبة إلى هذا المطلب فقال:

«وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَرًا، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصِيْفًا [٥٧٨]»،

ثم أضاف قائلاً:

«وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ

حَقًّا هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ».

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٣٠

ثم استدللّ بدليل واضح على ذلك فقال:

«فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيْبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وُلُوهُ

[وُلُوهُ]

دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ إِلَّا قَبْلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لِلْحُكْمِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ»

، قطعاً ليس الإمام عليه السلام من يد فى قتل عثمان، وإن اعتبر أغلب الصحابة أن عثمان يستحق القتل، إلا أن الإمام عليه السلام ليس فقط لن يشترك فى هذا العمل فحسب، بل بعث بولديه الحسن والحسين عليهما السلام للدفاع عنه، مع ذلك صرح تجاه ذرائع طلحة والزبير وبغية سلبهم حق المطالبة فقد قال لم يقل أحد بأتى كنت الوحيد فى قتل عثمان على فرض أنى اشتركت فى قتله، فقد شركتمونى فيه، وعليه فأى منطق يستول لكم مطالبة الآخرين بأمر اشركتم فيه معهم، وإن كنتما لوحد كما من فعل ذلك، فالعقاب يقتصر عليكم، وعليكم أن تدينوا أنفسكم قبل أى شخص، فالمتعارف بين الساسة الشياطين أنهم يسعون لخلق بعض الذرائع التى يستحسنها العوام بغية التشنيع على منافعهم، فهم يبذلون قصارى جهدهم لإتهام منافسهم بما يشوه سمعتهم لدى الرأى العام، وفى ظلّ هذه الأجواء تغيب معانى المنطق والعدالة والوجدان والشرف، فالهدف إقصاء المنافس الخصم مهما كان الثمن، وهذا بالضبط هو المنهج الذى مارسه طلحة والزبير وعائشة بعد بيعة الامة لعلى عليه السلام فألبوا الكثير من الناس لقتاله عليه السلام حتى احترقوا بنيران

تلك المعارك، على كل حال فإن الإمام عليه السلام سلب من خصومه الحجة وأفضل خططهم ليعلم الناس أنهم قتلوا عثمان وقد تذرغوا بالمطالبة بدمه وهدفهم ضمان مصالحهم الشخصية، فهم لا يفكرون في الناس ولا يهتمون بدم الخليفة المظلوم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن أصحاب الجمل الذين ينقضون البيعة: «إِنَّ مَعِيَ لَبِصِيرَتِي [٥٧٩]؛ مَا لَبِسْتُ وَلَا لَبِسَ عَلِيٌّ. وَإِنَّهَا لِلْفِتْنَةِ الْبَاغِيَّةِ؛

فِيهَا الْحَمَاءُ وَالْحَمَةُ، وَالشُّبُهَةُ الْمُغْدِقَةُ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ؛ وَقَدْ زَاغَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَعْبِهِ [٥٨٠].»

فهذا الكلام إشارة للحديث المعروف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لَا تَذْهَبُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ حَتَّى تَتَنَاجَحَ كِلَابٌ مَاءٍ بِالْعِرَاقِ يُقَالُ لَهَا الْحَوَابُّ إِمْرَأَةٌ مِنْ نِسَائِي فِي فِتْنَةٍ بَاغِيَّةٍ» [٥٨١].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٣١

فالحديث يشير إلى الحادثة المعروفة لأصحاب الجمل حين قدموا من المدينة إلى البصرة، فلما بلغوا الحوَابُ نبحت عائشة كلابها، فتذكرت حديث النبي صلى الله عليه وآله قال: إرجعوني إلى المدينة، لكن الساسة المحترفين جندوا أهل تلك المنطقة ليشهدوا بأن تلك المنطقة ليست الحوَابُ [٥٨٢].

وروى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ومتقى الهندي في كنز العمال أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام:

«يَا عَلِيُّ سَتَقَاتِلُ الْفِتْنَةَ الْبَاغِيَّةَ وَأَنْتَ عَلَى الْحَقِّ فَمَنْ لَمْ يَنْصُرَكَ يَوْمَئِذٍ فَلَيْسَ مِنِّي» [٥٨٣]

، ومن هنا قال الإمام عليه السلام إن معي لبصيرتي ما لبست ولا لبس علي، فالعبارة:

«فِيهَا

الْحَمَاءُ وَالْحَمَةُ»

، بالنظر إلى أن الحمأ بمعنى المستنقع والمادة الغامقة في جرف الأحواض والجداول، والحممة بضم ففتح بمعنى الإبرة اللاسعة للعقرب والحية، فهي كناية عن الأفراد الأرجاس والخطيرين الذين كانوا من مثبتي فتنة الجمل.

وهنا تفسير آخر لهاتين المفردتين في أن الحمأ بمعنى القرابة الحميمة والحممة بمعنى الزوج وهي كناية عن الزبير بن العوام ابن عمه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وعائشة إحدى أزواج النبي صلى الله عليه وآله، والعبارة الشبهة المغدقة بالنظر إلى أن المغدقة من مادة أغدق تعني في الأصل التغطية إشارة إلى الضجة التي أقامها أصحاب الجمل بعنوان المطالبة بدم عثمان والحال أيديهم ملطخة بدم عثمان، بينما صوروا أنفسهم من حماته، وهذه العبارة لا تنافي العبارة اللاحقة التي قالت بوضوح المطلب، لأن المراد هو عدم خفاء الأمر على الأفراد من ذوى العقول والإدراك، لأنهم كانوا على علم بمؤامرات أصحاب الجمل ودعاياتهم المغرضة الكاذبة.

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بتوجيه تهديد شديد استهله بالقسم فقال عليه السلام:

«وَإِيْمَ اللَّهِ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٣٢

لَأُفْرِطَنَّ [٥٨٤] لَهُمْ حَوْضًا أَنَا مَا تَحُهُ [٥٨٥]، لَأَيْضُدُّرُونَ عَنْهُ بَرِي [٥٨٦]، وَلَا يَعْبُونَ [٥٨٧] بَعْدَهُ فِي حَسِي [٥٨٨].»

كما أوردنا في الخطبة العاشرة التي تشبه إلى حد بعيد هذه الخطبة، مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنني سأجعل من ميدان معركة الجمل مستنقعا خطيرا مملوءا بالماء بحيث لا يسعهم الهروب منه وأخمد الفتنة في مهدها حتى لا يفكروا قط في العودة إلى مثل ذلك الميدان، وكما ورد في التواريخ فإن الإمام عليه السلام حقق عمليا ما قاله، فقد قتل زعماء الجمل وعادت عائشة مخذولة إلى المدينة وافتضح أصحاب الفتنة وتشتوا في البلاد.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٣٣

إشارة

و منه: «فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةُ الْبَيْعَةُ! قَبِضْتُ كَفِّي فَبَسَّطْتُ يَدِي فَجَادَ بْتُمُوهَا. اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَا نِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلْبَا النَّاسَ عَلَيَّ، فَاخْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أُبْرَمَا، وَأَرِهَمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَلَا وَعَمَلَا. وَلَقَدْ اسْتَنْبَيْتُهُمَا قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ، فَعَمَطَا النَّعْمَةَ، وَرَدَّ الْعَافِيَةَ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى مسألة البيعة فقال: «فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ [٥٨٩] عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةُ الْبَيْعَةُ! قَبِضْتُ كَفِّي فَبَسَّطْتُ يَدِي فَجَادَ بْتُمُوهَا».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى هذه الحقيقة وهي أن عليكم أن تقارنوا بي الزاعمين الطالبه بدم عثمان ليجعلوا ذلك ذريعة للوصول إلى الخلافة والحكومة وهم طلحة والزبير، فهما لا- يتورعان عن أية حيلة وخذعة من أجل تحقيق أهدافهما، أما أنا فقد أريتكم منذ البداية أنني لا أطلب المقام، وأنتم الذين أصررتهم على البيعة، ولأن قبلت بيعتكم فإنما ذلك بسبب القيام بالمسؤولية التي تتمثل باجراء الحق وبسط العدل والقسط وإحياء الإسلام فعبارة الإمام عليه السلام

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٣٤

تكشف مدى شوق الناس للبيعة، وفي ذات الوقت مدى زهد الإمام عليه السلام بها.

ثم إتجه إلى الحق تبارك وتعالى فشكى إلى الله الظلمة الذين نقضوا العهد وجعلوا من إراقة دماء الأبرياء وسيلة لتحقيق أطماعهم وأغراضهم، ثم أخذ بالدعاء عليهم ولعنهم:

«اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَا نِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلْبَا [٥٩١] النَّاسَ عَلَيَّ».

ثم قال:

«فَاخْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أُبْرَمَا، وَأَرِهَمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَلَا وَعَمَلَا».

والتفت إلى الناس قائلاً:

«وَلَقَدْ اسْتَنْبَيْتُهُمَا [٥٩٢] قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ [٥٩٣] بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ [٥٩٤]،

فَعَمَطَا [٥٩٥] النَّعْمَةَ، وَرَدَّ الْعَافِيَةَ».

لعل العبارة الأخيرة مواصلة شكوى الإمام عليه السلام لله سبحانه، ويمكن أن تكون خطاباً للناس، يبدو المعنى الثاني أنسب، على كل حال فإن هذه العبارات تبين مدى سعى الإمام عليه السلام لاجتناب الحرب وسفك الدماء وقد بذل قصارى جهده لوعظ أصحاب الجمل ومثري الفتن عليهم يعودون إلى رشدهم وتثار حميتهم الدينية، فيعودوا عن سبيل الغي، إلا أن حبّ الخلافة والجاه والمقام قد أعمى أبصارهم وأصم أسماعهم بحيث لم يعد لنصائح الإمام عليه السلام ومواعظه من تأثير عليهم، بالتالي حلت عليهم لعنة الإمام عليه السلام ففشلوا في تحقيق أهدافهم، فانهزموا شرّ هزيمة وقتلوا بذلة وهوان.

القاتل يطالب بالنار

لا شك أن طلحة والزبير كانا ممن أثارا الناس ضد عثمان، فقد أورد ابن قتيبة في كتابه «السياسة والإمامة» أن أهل الكوفة ومصر حين قاما ضد عثمان وحاصروه في داره كان

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٣٥

طلحة ممن أثار الفريقين ضد عثمان ويقول: أن عثمان لا يهتم لمحاصرته طالما يحمل إليه الماء والغذاء فاقطعوا عنه الماء [٥٩٦]، كما ورد عن ابن أبي الحديد بشأن الزبير أنه كان يقول: اقتلوا عثمان فقد أحدث في دينكم، فقالوا له: ابنك على باب دار عثمان يدافع عنه، قال: إن قتل عثمان فليقتل ابني قبله [٥٩٧]، فقد كان تصور طلحة العكس حين قتل عثمان وبايع الناس عليه السلام فتغيرت الأوضاع تماماً، ولم تكن الامه مستعدة لبيعتهما على حد قول الكاتب المصرى المعروف العقاد، حيث لم يكن أمرهما يختلف عن عثمان [٥٩٨]، وكانت عائشة من الناقمين على عثمان [٥٩٩]، إلماً أن هؤلاء الأفراد الثلاث انقلبوا على عقبهم بعد بيعه الامه لأمير المؤمنين على عليه السلام فاصبحوا من أنصار عثمان وهبوا للمطالبة بدمه، وكثيرة هي هذه الانقلابات التي تسود حركة الساسة المحترفين، وبالتالي ذاق الثلاث العاقبة المريرة لإثارتهم الفتن، فقد هزم طلحة والزبير وقتلا في المعركة، وعادت عائشة تجر أذيال الخيبة إلى المدينة، وقد تناولنا بالتفصيل موقعة الجمل وطيش عائشة ودور طلحة والزبير في المجلدات السابقة من هذا الشرح [٦٠٠].

ولكن ما ينبغي إضافته هنا أن اتباعهم ممن حاول توجيه أعمالهم قد خسروا أنفسهم في زوايه حرجه، فمن جانب اعتبروا طلحة والزبير من الصحابة، كما يجرون عليهم نظرية عدالة الصحابة (طهارة وقدسيتها جميع صحابة النبي صلى الله عليه وآله)، ومن جانب آخر يعتبرونهما من ضمن العشرة المبشرة، تارة يزعمون أنهم كانوا مجتهدين وإن أخطأوا في اجتهادهم، وعليه فهم معذورون ومأجورون، والحال لو وجها أعمالهم تحت هذا الغطاء لأمكن تبرير كل جريمة ومن كل فرد، ذلك لأن الاجتهاد لا يقتصر على هؤلاء الأفراد، وهذا بدوره يؤدى إلى تجاوز البديهيات العقلية والنصوص القرآنية، وتارة أخرى يزعمون أنهم تابوا، وتوبتهم مقبولة عند الله، ولكن هل يمكن اشعال فتيل حرب تؤدى بسبعة عشر ألف شخص ثم تنسلخ مسؤولية هذه الدماء بمجرد لقلقه اللسان بالقول استغفر الله؟! فهل أدوا حق تلك الدماء لأصحابها؟ أم

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٣٦

هل عوضوا تلك الأموال التي ذهبت هدراً بهذا الخصوص؟ وهل اعترف طلحة والزبير وعائشة بخطأهم أمام الملأ العام؟ إن مثل هذا الدفاع العايب هو نتيجة للأغماض عن الحقائق والتعصب الأعمى، أو ليس من الأجدر بنا تقسيم صحابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى طائفتين، طائفة كانت صالحة على عهده وأخرى منافقة وطالحة، كما تقسم الطائفة الصالحة إلى فئتين، فئة واصلت صلاحها، وأخرى انقلبت على عقبها فجانب الحق والعدل والإيمان والسلاح، كما علينا أن نعلم بأن المراد من بشارة القرآن الكريم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بنجاء شخص أو أشخاص في ذلك الزمان هو شمولها بهذا الحكم، على أنهم ربما غيروا مسيرتهم، فممكّن أن يقوم الإنسان بعمل بحيث تجب له الجنة، ثم يفعل بعد ذلك ما يوجب دخوله النار.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٣٧

الخطبة [٦٠١] المائة والرابعة والثلاثون

إشارة

وَمِنْ حُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
يَوْمِي فِيهَا إِلَى ذِكْرِ الْمَلَا حِم

نظرة إلى الخطبة

تألف هذه الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام مرتبطة مع بعضها:

القسم الأول: إشارة إلى ولي من أولياء الله سبحانه ينطلق في عمله على أساس هداية القرآن، ويرى أغلب شراح نهج البلاغة أن ذلك الولي واستناداً إلى صفاته هو الإمام المهدي «عجل الله تعالى فرجه الشريف».

والقسم الثاني: إشارة إلى الأحداث الدائمة التي يفرزها قيام ذلك الولي من أجل بسط العدل في ظل الحكومة الإلهية حيث يملأ الأرض بالقسط والعدل.

القسم الثالث: إشارة إلى الحوادث دامية أخرى تظهر من الشام، ولعل ذلك إشارة إلى حكومة البعض من بني مروان، أو ظهور بعض الأفراد كالسفياني الذي يسبق ظهور الإمام المهدي عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٣٩

القسم الأول: خصائص الإمام المهدي عليه السلام

«يَعْطِفُ الْهُوَى عَلَى الْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهُوَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ».

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً فإن هذه الخطبة تشير إلى الحوادث المستقبلية حيث تطرقت إلى ثلاث حوادث، الأولى عدّها أغلب شراح نهج البلاغة في الإمام المهدي عليه السلام، لأنه قال يجعل رغبات النفس وهواجس القلب تابعة للهدى حين يسود العكس باتباع الهدى للهوى، ويجعل الرأي والفكر منقاداً للقرآن في الوقت الذي يجعلون القرآن فيه تابعاً للرأي:

«يَعْطِفُ ٦٠٢] الْهُوَى عَلَى

الْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهُوَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ».

والسؤال هل للعبارة مفهوم واحد ويؤكد كل منهما الآخر؟ أم أن العبارة الأولى إشارة إلى الهداية العقلية والعبارة الثانية إلى الهداية القرآنية؟ يبدو المعنى الثاني أنسب، يعنى في ذلك اليوم الذي يغيب فيه الناس منطق العقل والهداية بسبب عبادة الهوى فإنه يزيل حجب الهوى، ويجعل السيادة لهداية العقل، كما يجعل القرآن هو ميزان التقييم بعد أن يقصى التفسير بالرأي حين يحاول ذوى الاطماع تطبيق النصوص القرآنية على ضوء تفسيرهم إياه حسب آرائهم

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٤٠

من أجل تحقيق أطماعهم للامشروع، ولو تأملنا أسباب البؤس والشقاء لرأيناها تتمثل بهذين الدائنين، تحكيم هو النفس على العقل وتطبيق الرغبات الخفية على آيات القرآن من التفسير بالرأي، وإن زال هذان السبيلان تمهد السبيل من أجل بلوغ حكومة العدل الإلهي، ولعل جميع القضايا التي أصابت المسلمين منذ البداية لحد الآن إنما تعود إلى هذين الانحرافين كما يعود سبيل الصلاح إلى إصلاحهما.

ذكر العلماء في بحث المعرفة أن الهوى من بين حجب المعرفة، حيث قال القرآن الكريم:

«أَفْرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً...» [٦٠٣].

وما أروع ما قال أمير المؤمنين على عليه السلام في الخطبة ١٠٩:

«وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعَسَى بَصَرَهُ»

، والتفسير بالرأي وحمل الآيات القرآنية عليه إحدى مكائد الشيطان الكبرى في تحريف العبارات عن معناها الواقعي وإسقاط الوحي عن قيمته، ومن هنا فقد عدت الأحاديث الإسلامية هذا العمل بمنزلة الكفر حيث قال الإمام الصادق عليه السلام:

«مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» [٦٠٤]

، ولما كان الوقوف بوجه هذين الانحرافين من خصائص الإمام المهدي (أرواحنا فداه) فإن الضمير في هذه العبارات يعود كما يعتقد

شراح نهج البلاغة إلى الإمام المهدي عليه السلام.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٤١

القسم الثاني: جانب من الحوادث المرعبة آخر الزمان

ومنها: «حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ، بَادِيًا نَوَاجِدُهَا، مَمْلُوءَةٌ أَخْلَافُهَا، حُلُومًا رَضَاعُهَا، عَلَقَمًا عَاقِبَتُهَا. أَلَا وَفِي عَدَدٍ - وَسَيَأْتِي عَدَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ - يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَالَهَا عَلَى مَسَاوِي أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيدَ كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سَلْمًا مَقَالِيدَهَا، فَيَرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السَّيْرَةِ، وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

الشرح والتفسير

يمثل هذا القسم من الخطبة في الواقع استمراراً للقسم السابق وهو إشارة إلى حوادث آخر الزمان يتعرض بادية الأمر فيها إلى المعارك الدموية المدمرة التي تثقل كاهل المجتمعات البشرية ويعم الظلم والجور كافة الأماكن، ثم يظهر رمز العدل الإلهي فينهي النزاعات والاقتيال ويملا الأرض قسطاً وعدلاً، ويوفر كافة مستلزمات الراحة والرفاه، فقال عليه السلام بأن هذا الوضع سيتواصل:

«حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ، بَادِيًا نَوَاجِدُهَا» [٦٠٥]

ثم أشار إلى الانتصارات التي تتحقق في بداية الحرب والمرارة التي تختتم بها فقال:

«مَمْلُوءَةٌ أَخْلَافُهَا» [٦٠٦]

حُلُومًا رَضَاعُهَا، عَلَقَمًا [٦٠٧] عَاقِبَتُهَا،

وكان الحرب تنطوي على لبن حلو وفي نفس الوقت مسموم

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٤٢

بحيث يجذب الأفراد المهوسين ليأملوا بتحقيق نصر خاطف سريع، بينما يصرعون ويهلكون في نهاية الأمر، ثم أشار الإمام إلى ظهور حكومة العدل الإلهي:

«أَلَا وَفِي عَدَدٍ - وَسَيَأْتِي عَدَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ - يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَالَهَا عَلَى مَسَاوِي أَعْمَالِهَا».

ثم تطرق إلى ذكر الأوضاع المطلوبة المفعممة بالخير والبركة والتي تحصل بعد قيامه فقال:

«وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيدَ [٦٠٨] كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سَلْمًا مَقَالِيدَهَا، فَيَرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السَّيْرَةِ،

وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

فمن جانب: يتم اكتشاف المعادن النفيسة باطن الأرض بسهولة.

ومن جانب ثان: بيده مقاليد تلك الكنوز أو مقاليد حكومة أرجاء الأرض.

ومن جانب ثالث: يبسط العدل والقسط بالاستناد إلى التمتع بتلك المصادر الغنية وهذه الحكومة الشاملة.

ومن جانب رابع: يحيى التعاليم المندرسة والقيم المغيبة للقرآن والكرام والسنّة الشريفة، وهكذا تسير البشرية باتجاه التكامل على المستوى المادي والمعنوي، فالعقول تتم في ظل حكومة الإمام المهدي عليه السلام، وتحيا القيم الإنسانية وتفيض النعم بأنواعها على الناس ويطاح بصنم الظلم والجور.

وقد وردت مثل هذه العبارات في الروايات المتعلقة بقيام الإمام المهدي عليه السلام فقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: « وَتَظْهَرُ لَهُ الْكُنُوزُ وَيَبْلُغُ سِلْطَانُهُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ، وَيُظْهِرُهُ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ فَلَا يَفْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ خَرَابٌ إِلَّا عَمَّرَ » [٦٠٩].

وقا في موضع آخر:

«يَمَلَأُ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مِلْتُمْ ظُلْمًا وَجَوْرًا، فَيَفْتَحُ اللَّهُ لَهُ شَرْقَ الْأَرْضِ وَغَرْبَهَا» [٦١٠].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٤٣

القسم الثالث: خصائص ذلك الحاكم الدموي

منها: «كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ، فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ، وَفَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَعَرَتْ فَاعْرَتُهُ، وَتَقَلَّتْ فِي الْأَرْضِ وَطَأْتُهُ، بَعِيدَ الْجَوْلَةِ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ. وَاللَّهُ لَيَشْرُدَنَّكُمْ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ، فَلَا تَزَالُونَ كَذَلِكَ، حَتَّى تَتُوبَ إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلَامِهَا! فَالْزُمُوا السُّنَنَ الْقَائِمِيَّةَ، وَالْأَثَارَ الْبَيْتِيَّةَ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي السُّبُوءِ.»

وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسْنِي لَكُمْ طُرْفَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ.»

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة إلى حاكم دموي وغاشم ومقتدر يظهر مستقبلاً بالشام فيشهر سيفه ويستولى على جميع البلاد الإسلامية، ثم ذكر له تسع صفات، فقال:

«كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ [٦١١] بِالشَّامِ، وَفَحَصَ [٦١٢] بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي [٦١٣] كُوفَانَ [٦١٤].»

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٤٤

ثم قال:

«فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ [٦١٥]، وَفَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَعَرَتْ [٦١٦] فَاعْرَتُهُ، وَتَقَلَّتْ فِي الْأَرْضِ وَطَأْتُهُ، بَعِيدَ الْجَوْلَةِ [٦١٧]، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ [٦١٨].»

ثم أقسم قائلاً:

«وَاللَّهُ لَيَشْرُدَنَّكُمْ [٦١٩] فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ.»

فهذه الصفات التسع لذلك الحاكم الدموي المقتدر والتي تكشف عن شخصه بصورة تامة تشير إلى أنه يدك أهل الإيمان دكاً بحيث لا يبقى منهم إلا القليل، فهو يكتنم الأنفاس في الصدور ويخنق كل حركة ونشاط، ويستولى على البلاد بعد سفكه للدماء وانطلاقه من الشام إلى الكوفة ثم سائر المناطق، أما من هو هذا الشخص الذي يتصف بهذه الصفات؟ هناك رأيان لشراح نهج البلاغة، رأى يراه عبد الملك بن مروان خامس خلفاء بني أمية، كان جباراً طاغياً ودموياً، فقد تحرك بجيش عظيم من الشام ليقضى على مصعب بن الزبير الذي كان يحكم الكوفة، فاستولى على العراق والكوفة، ثم وجه جيشاً بقيادة الحجاج إلى الحجاز فقتل عبد الله بن الزبير فسيطر على مكة والمدينة، كما هدم جانباً من الكعبة بعد أن لاذ بها جمع من جيش عبد الله بن الزبير.

والرأى الآخر أن ذلك الشخص هو السفيناني الذي يسبق ظهور الإمام المهدي عليه السلام حيث يظهر في الشام ويسفك الدماء ويدعو الناس إلى نفسه، وبالنظر إلى أن الأقسام السابقة من الخطبة بشأن ظهور الإمام المهدي عليه السلام لذلك يبدو أن هذا القسم في الظهور أيضاً، والعبارات المذكورة إشارة إلى ظهور السفيناني.

وقد ورد في الخبر عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله صلى الله عليه وآله أشار إلى فتنة بين أهل الشرق والغرب فيخرج السفيناني حتى يرد دمشق فيبعث بجيش إلى الشرق وآخر إلى المدينة حتى

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٤٥

يصل بابل وبغداد، فيقتل أكثر من ثلاثة آلاف وينتهك عرض أكثر من مئة امرأة، ثم يتجهون إلى الكوفة فيخربون أطرافها، ثم يعودون إلى الشام، فتظهر راية هدى في الكوفة وينطلق جيشها إلى جيش السفيناني فيقتله ولا ينجو منه إلا واحد يخبر عن الحادثة (وهكذا تخمد

الفتنة).

قال المرحوم العلامة المجلسي نقل أصحابنا هذا الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام ضمن أحاديث المهدي عليه السلام [٦٢٠].

ولكن القسم الأخير من هذه الخطبة لا ينسجم مع هذا التفسير، ثم قال الإمام عليه السلام: بأن هذا الوضع من الاضطراب وسفك الماء والابعاد والنشتت يستمر حتى يعود إلى العرب رشدوا وعقلها فتتخلص بهذا العقل من فرقتها واختلافها وتتحدها كلمتها: «فَلَا تَزَالُونَ كَذَلِكَ، حَتَّى تَوُوبَ [٦٢١] إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ [٦٢٢] أَخْلَامَهَا! [٦٢٣]».

ثم أمر الناس بأربع من شأنها نصرهم على حكام الظلم والجور، وإعادة الأمن والسلام إليهم فقال عليه السلام: «فَالزُّمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ، وَالْأَثَارَ الْبَيِّنَةَ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ يَأْتِي الثُّبُوءُ. وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَيِّنِي [٦٢٤] لَكُمْ طُرْقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقْبَهُ».

والمراد بالسنن القائمة ضروريات الإسلام وتعاليمه التي ينبغي أن تكون محور الأنشطة السياسية والاجتماعية والفردية في كل زمان، والمراد بالآثار البيئية هي الأخبار والروايات التي ثبتت من الطرق المعتمدة والتي تختزن أغلب التعاليم والوصايا الإسلامية، والمراد بالعهد القريب وصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بولاية علي عليه السلام، والمراد بالعبارة «واعلموا...» مراقبة الشيطان والحذر منه في الإتيان بالأمور المذكورة، وذلك لأن الشيطان يسهل طرقه ليصد الناس عن طاعة الله والأئمة المعصومين عليه السلام والذي لا يخلو عادة من المصاعب، أما الأفراد الذين اعتبروا

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٤٦

القسم الأخير من الخطبة بشأن حكومة عبدالملك بن مروان فيرد عليهم إشكالات:

الأول: مفهوم العبارة هو أن إسقاط حكومة بني أمية ومجيء حكومة بني العباس قد تم في ظل عقل العرب ودرائتها والعودة إلى الطريق الصحيح، والحال نعلم أن بني العباس قد واصلوا جنایات بني أمية ولم تكن حكومتهم أقل استبداداً من حكومة بني أمية، إلا أن يقال بعقلانية سقوط بني أمية وشروع حركة بني العباس وإن انحرفوا في مواصلة الطريق.

الثاني: لم يكن ظهور بني العباس مباشرة بعد موت عبدالملك، بل استغرق عشرات السنين حيث حكم ولد عبدالملك ثم أعقب ذلك سقوط بني أمية، إلا أن يقال في جواب هذا الإشكال أن حكومة ولد عبدالملك كان امتداداً لحكومته، ولكن من اعتبر القسم الأخير من الخطبة إشارة إلى خروج السفيناني قبل قيام الإمام المهدي عليه السلام قد فسّر العبارات المذكورة على أنها بعد سفك الدماء الطائش في آخر الزمان والفساد الذي يحصل للناس مع خروج السفيناني، حيث يطرح حجب الغفلة وتتم العقول وتستعد الناس لقبول حكومة المهدي عليه السلام لا بد في تلك الشرائط ومن أجل مزيداً من الاستعداد من حفظ السنن الإسلامية والولاء للولاية، وقد مر علينا في الخطبة ١٠١ العبارات المشابهة لما ورد في هذه الخطبة، وقد وردت الابحاث بشأن تطبيقها على حكومة عبدالملك.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٤٧

الخطبة [٦٢٥] المائة والتاسعة والثلاثون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي وَقْتِ الشُّورَى

نظرة إلى الخطبة

نعلم أن عمر حين أشرف على الموت عهد بتشكيل الشورى المؤلفة من ستة أفراد لتعيين الخليفة، كان أحدهم علياً عليه السلام وعثمان، وكان إختيار الأفراد قد جرى وفق تخطيط وسياسة، وكان الهدف واضحاً منذ البداية في إقصاء علي عليه السلام وتسلم عثمان لزمام الأمور بصفته الخليفة السابق، بل بصفته منتخب شورى كبار المسلمين وقد مضى شرح ذلك في الخطبة الشقشقية [٦٢٦].

أمّا الإمام علي عليه السلام الذى كان ينظر لما هو أبعد من الشورى فقد خطب هذه الخطبة ليحذر أصحاب الشورى، وقد ذكر المرحوم السيد الرضى جانب منها.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٤٩

«لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصَلِّهِ رَحِمَ، وَعَائِدَهُ كَرَمَ. فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي؛ عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أُنْمَةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَشَيْعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ».

الشرح والتفسير

تحذير من الحوادث المستقبلية

يتألف هذا الكلام فى الواقع من ثلاثة أقسام:

الأول: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى جانب من فضائله، ولم يكن ذلك بدافع الفخر ومدح النفس، بل ليمهد السبيل أمام الآخرين للقبول.

الثانى: طلب فيه من مخاطبيه سماع ما يقول وقبول نصائحه التى تستيع خيرهم ومصالحهم وسعادتهم.

والقسم الثالث: تطرق فيه إلى الحوادث الأليمة التى يشهدها المجتمع الإسلامى فى حالة عدم قبول مواعظه وإشراسته.

فقد قال فى القسم الأول: «لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصَلِّهِ رَحِمَ، وَعَائِدَهُ كَرَمَ».

فقد أشار فى هذه الفضائل الكبرى الثلاث إلى قبول الإسلام فقال إن علياً عليه السلام هو أول من أسلم ومن الطبعى أن مثل هذا الفرد يكون أكثر وعياً به من غيره وأحرص، والآخري إلى سبقة فى صلة الرحم، لأنه وقف إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله منذ إنبثاق الدعوة الإسلامية حتى وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وقد فدى رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه فى المواطن الصعبة من قبيل مبيته على فراش النبي صلى الله عليه وآله واقعة أحد وأمثال ذلك، كما كان الأبرز فى البر والخير والإحسان حتى نزلت

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٥٠

آيات من القرآن الكريم بشأن تصدقه بالخاتم حين الركوع فى الصلاة [٦٢٧]، وتصدقه بالطعام على المسكين واليتيم والأسير [٦٢٨]، وتصدقه بدرهم فى السر وآخر فى العلانية، ودرهم فى الليل وآخر فى النهار [٦٢٩].

ثم قال بالاستناد إلى إذعان الجميع بالفضل فيما ذكر:

«فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي»

، لا تتعجلوا الأمور بانتخاب عثمان، فهذا عمل خطير له عواقب وخيمة على المسلمين، وتطرق عليه السلام إلى المصير الصعب الذى سيفرز هذا الانتخاب فقال:

«عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أُنْمَةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَشَيْعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ».

هناك خلاف بين شراح نهج البلاغة فى أن هذا الإخبار إشارة لحادثة قتل عثمان وشهر السيوف ونقض البيعة من قبل بعض الأفراد كطلحة والزبير وأمثالهما أم إشارة إلى تمرد الناكثين والقاسطين والمارقين (أصحاب الجمل وصفين والنهروان)، ولكن بالنظر إلى الظروف التى وردت فيها هذه الخطبة (حين تشكيل الشورى لانتخاب الخليفة الثالث)، يبدو المعنى الأول أقوى، وكما تكهن الإمام

عليه السلام فبمجرد تسلم عثمان زمام الأمور حتى بدأ التبذير والبذخ في بيت مال المسلمين وحصل أقرباؤه وبطانته على المراكز الحساسة في البلد الإسلامي فتهافتوا على بيت المال ليفعلوا فيه ما شاؤوا، وهو الأمر الذي أثار غضب المسلمين فثاروا عليه وكان في مقدمته من ثار عليه طلحة والزبير، وقد تبعهم طائفة من الناس فحصل ما لم ينبغي أن يحصل، والحال لو لم تسود الشورى تلك العصبية والملاحظات الشخصية وفوضت الخلافة لأهلها، لما وقعت تلك الحوادث المريرة ولا ما تبعها من نتائج، وذلك لأن جذور فتنة الناكثين والقاسطين والمارقين إنما ترعرعت في ظل حوادث عصر عثمان.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٥١

جذور الفساد

ذكرنا في المجلد الأول من هذا الكتاب في شرحنا لخطبة الثالثة المعروفة بالخطبة الشقشقية قصة الشورى المؤلفه من ستة أفراد والتي شكلها عمر وأدت إلى انتخاب عثمان كخليفة والتي تمثل في الواقع مؤامرة ضد خلافة علي عليه السلام، وقد أوردنا جانباً من الأقوال بهذا الشأن استناداً إلى التواريخ المعتمدة والذي نود إضافته هنا إلى ما ذكرناه هو أننا لو أنعمنا النظر في تركيب هذه الشورى وحوادثها السلبية وسنرى أن أغلب مشاكل المسلمين قد أفرزتها تلك الشورى، ومن ذلك أيضاً حكومة عثمان واستيلاء بني أمية وبني مروان على المناصب الحساسة للبلاد الإسلامية وبيت المال المسلمين وحكومة معاوية ومعارك الجمل وصفين والنهروان ومن ثم حكومة يزيد وأمثال عبدالملك.

والجدير بالذكر هنا ما أورده شارح نهج البلاغة ابن أبي الحديد حيث قال بخصوص الشورى:

«إن ذلك كان سبب كل فتنة وقعت وتقع إلى تنقضي الدنيا» [٦٣١].

فهذه الشورى هي التي أدت بالتالي إلى تغييب القيم الإسلامية وأحيت السنن الجاهلية والمعايير المادية والدينيوية وشادت المجتمع الإسلامي وقطعت ألسن دعاء الحق ونفت وشردت أبي ذر وأثارات النقمة ضد عمّار بن ياسر حين اعترض على نتيجة الشورى فلم يكثر أحد لما كان يقول: فقد استوى أوائلك العتاء على عرش الغرور والحمية فعاثوا الفساد في أوساط المجتمعات الإسلامية، الفساد في الحكومة والفساد في الإيمان والأخلاق، ولو سمحت النعرات الطائفية بالتعامل الدقيق مع هذه الأحداث لاتضح فداحة الخسارة التي منى بها المسلمون من جراء الشورى.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٥٣

الخطبة [٦٣٢] المائة والأربعون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام

في النهي عن غيبة الناس

نظرة إلى الخطبة

نهى الإمام عليه السلام الناس في هذه الخطبة عن اغتياب بعضهم البعض الآخر وقد عزز ذلك بعدة أدلة، فقد ذكر بادية الأمر وجوب الشكر على من تطهر من العيوب والذنوب، ويتمثل شكرها بتجنب الغيبة واقتفاء عيوب الآخرين، الأمر الآخر لو تأمل صاحب الغيبة نفسه لاكتشف فيها العيوب التي يحاول العثور عليها في الآخرين، فكيف والحال كذلك يسعى لدم الآخرين على عيوبهم وهم

يحملونها، وأخيراً لعل الإنسان يقارن الصغيرة وهو يظن بأنه لم يرتكب الكبيرة من الذنوب فيخوض في غيبة الآخرين، وتقصى معائبهم وهذا بحد ذاته من الكبائر، أضف إلى ذلك فما يدري من يغتاب الآخرين أن الله قد غفر لهم بينما لم يغفر لمن فتش عن عيوب الآخرين، وزبدت الكلام فإن الله قد أغلق الطريق على أصحاب الغيبة والباحثين عن عيوب الناس ليظهر المجتمع الإسلامي من هذه الفاحشة.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٥٥

القسم الأول: التغابي عن عيوب الذات

«وَإِنَّمَا يَتَّبِعِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمُضِنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلَامَةِ أَنْ يَزْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ، وَعَيْرَهُ بِلَوْاهُ. أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ! وَكَيْفَ يَدُومُ بِدَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَإِيمَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجَرَّاتُهُ [لَجَرَّاتُهُ]

على عيب الناس أكبر!.

الشرح والتفسير

إهتم الإسلام بقضية الغيبة وإقتفاء عيوب الآخرين على أنها من المشاكل الاجتماعية الكبرى التي تشيع روح الشائوم والنفاق وتفكك عرى الثقة وتقضى على روح الاتحاد والأخوة، ومن هنا عدّها الإسلام من الذنوب الكبيرة، وقد قسم الإمام عليه السلام الناس إلى خمس طوائف، الطائفة الأولى التي شملتها عناية الله سبحانه فلم تلوث بالذنوب المعاصي، فقال بشأن هذه الطائفة:

«وَإِنَّمَا يَتَّبِعِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمُضِنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلَامَةِ أَنْ يَزْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ»

، فأى نعمة أعظم من أن يتلطف الله تعالى على إنسان ويصونه من مقارفة الذنب، وأى شكر أعظم من شكر هذه النعمة الإلهية الكبرى بأن يحفظ لسانه من إغتياب الآخرين واقتفاء عيوبهم.

الطائفة الثانية التي تحمل العيوب وتذم الآخرين على مثلها، أى إن حب الذات لا يدعمهم

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٥٦

يرون عيوبهم بينما دقيق هو في متابعه عيوب الآخرين، وقد قال فيها على عليه السلام:

«فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ، وَعَيْرَهُ بِلَوْاهُ. أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ!».

إشارة إلى أن الإنسان المؤمن يجب أن يتحلى بقبسات من صفات الله سبحانه، فالله ستار العيوب، فينبغي عليه أن يستر عيوب الآخرين.

الطائفة الثالثة التي ترتكب الذنوب وتذم الآخرين على مثلها، والحال من الطبيعي أن يكون الإنسان أحرص على نفسه من الآخرين، فكيف لهذا الإنسان بالتفكير في عيوب الآخرين دون أن يهتم بإصلاح نفسه وعبوبه، أى عقل يسؤل للإنسان نسيانه لذاته بصورة كلية ويلقى بها في مستنقع البؤس والشقاء فيخوض في ذنوب الآخرين، ناهيك عن أن الدافع من ذلك هو الفساد لا الإصلاح، فقد قال الإمام عليه السلام:

«وَكَيْفَ يَدُومُ بِدَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ!».

الطائفة الرابعة من تذم الآخرين على ذنوب لم ترتكبها، لكنّها ارتكبت ما هو أفضع منها، وهو غافل عن هذه الذنوب غير مكترث لها،

فقال الإمام عليه السلام بشأنها:

«فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ».

الطائفة الخامسة التي ربّما لم ترتكب تلك الذنوب التي تدم الآخرين على ارتكابها، حيث لم تصدر منها سوى بعض الصغائر من الذنوب فقال قال الإمام عليه السلام بشأنها:

«وَإِيْمُ اللَّهِ لَنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجْرَاتُهُ [لَجْرَاتُهُ]

عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ!».

وهكذا أغلق الإمام عليه السلام جميع الطرق على اولئك الذين يقتفون عيوب الآخرين ويسلبهم أية ذريعة بعد أن يذكرهم بكافة العواقب الوخيمة التي تترتب على شنائع أعمالهم، ليتعدوا عن وساوس الشياطين ويطلعهم على أهوائهم وقبح أفعالهم ليجسدها أمام أنظارهم.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٥٧

القسم الثاني: اقتفاء العيوب جحود عظيم

إشارة

«يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صِغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ. فَلْيَكْفُفْ مَنْ عِلْمٍ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ».

الشرح والتفسير

أكد الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة تلك المبادئ التي أوردتها في القسم السابق وقد حذر كافة العباد من تتبع عيوب الآخرين وغيبتهم، ثم تابع هذا الأمر من خلال الأدلة المنطقية فقال عليه السلام:

«يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صِغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ».

في إشارة إلى أن ذنب الآخرين قد يغفر بسبب التوبة أو شفاعته المعصومين عليه السلام أو على أساس القيام بأعمال الخير بينما يؤخذ هذا الإنسان بذنبه مهما كان صغيراً بفعل الغرور والغفلة، وعليه كيف يسمح العاصي لنفسه بدم الآخرين على معائبهم ومثالبهم فيغتابهم؟

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال:

«فَلْيَكْفُفْ مَنْ عِلْمٍ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ».

فالله هو المنزه من العيوب والظاهر من الذنب هو المعصوم، وعليه فلا يجوز لنا العقل بأن نضرب سهام غيبتنا وذنمنا للآخرين ونحن غارقون في العيوب والذنوب.

ثم اختتم الخطبة بالإشارة إلى المطلب الذي ذكره في القسم الأول من الخطبة ولكن بعبارة أخرى فقال عليه السلام:

«وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٥٨

فوفرضنا تنزه شخص عن كل عيب أو عيوب معينة، فذلك نعمه كبيرة تستحق شكر الله والشعور بلطف الله تعالى وعنايته، والحق إن مثل هذا الشكر يشغل الإنسان بنفسه إلى الحد الذي يسلبه فرصة البحث عن عيوب الآخرين.

نعم، فهذا المعلم الرباني يعتمد مختلف الأدلة المنطقية بغية القضاء على هذه الرذيلة القبيحة المتمثلة بالغيبة وتحري عيوب الآخرين، كما يغلق جميع الطرق على أصحاب الحجج والذرائع.

الغيبة والبحث عن العيوب آفة المجتمعات الإنسانية

الغيبة تعني إفشاء عيوب الأفراد ومثالبهم، والمؤسف له هو أن هذه الظاهرة شائعة في أغلب المجتمعات البشرية، وبما لا شك فيه أنها تختزن مختلف الآثار السلبية على المستوى الأخلاقي وكذلك الاجتماعي، وذلك لأنّ السند الرصين لكل مواطن في المجتمع هو ماء وجهه، والغيبة تزيل ماء الوجه وتطعن في شخصيته الفرد وتقتضى على روح الثقة وبين أفراد المجتمع والتالي تلعب دوراً سلبياً في إضعاف التعاون الاجتماعي، ومن هنا عدّها الشارع وحداً من أقبح وأشنع الذنوب حتى شبهها القرآن الكريم يأكل لحم الأخ الميت، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبة حجة الوداع وهي خطبة حساسة:

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْغَيْبَةَ كَمَا حَرَّمَ الْمَالَ وَالْدَّمَ» [٦٣٣].

وكفى بقباحة الغيبة ما ورد في الحديث القدسي أنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى بن عمران:

«مَنْ مَاتَ تَائِباً مِنَ الْغَيْبَةِ فَهُوَ آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ مُصِراً عَلَيْهَا فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ» [٦٣٤].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا الشأن:

«مَنْ مَشَى فِي غَيْبَةِ أَخِيهِ وَكَشَفَ عَوْرَتَهُ كَانَ أَوَّلَ خُطْوَةٍ خَطَاَهَا وَضَعَهَا فِي جَهَنَّمَ» [٦٣٥].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٥٩

كما قال صلى الله عليه وآله:

«مَا عَمَرَ مَجْلِسٌ بِالْغَيْبَةِ إِلَّا حَرِبَ بِالَّذِينَ» [٦٣٦].

وكثيرة هي الأحاديث التي وردت بهذا الخصوص والتي لا يسع المجال ذكرها، ونكتفي هنا بذكر حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: ونحيل من أراد المزيد إلى المجلد الثالث من كتاب الأخلاق في القرآن في مبحث الغيبة وكتاب جامع السعادات المجلد الثاني والمجلد الثامن من وسائل الشيعة، حيث قال:

«الْغَيْبَةُ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَأَنَّهَا تَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» [٦٣٧].

والحقيقة هي أنّ الإسلام يرى حرمة ماء وجه المسلم والتي تعدل حرمة دمه، وقد اقترن العرض بالدم في الروايات والأخبار الإسلامية وبناءً على ما تقدم فإنّ من إغتاب شخصاً آخر وانتهك حرمة الاجتماعية وأراق ماء وجهه فكأنه قتله، ومن هنا تواترت الروايات التي أكّدت الثمن الباهض الذي سيدفعه صاحب الغيبة يوم القيامة وما سيؤخذ منه حسنات بسبب ما اقترف من غيبة فتضاف إلى حسنات من إغتابه، فإنّ لم يكن له من حسنات، أخذت من سيئات من إغتابه وأضيفت إلى سيئات صاحب الغيبة.

نعم، الغيبة حق الناس على غرار قتل النفس وجرح الأفراد، ولهذا فلو إلتفت المؤمنون إلى تبعات السيئة لهذه الذنوب والتي صورتها الروايات الإسلامية لما سعى لمقارفة هذه السيئة، وهذا ما دفع بالإمام عليه السلام للإتيان بعدة أدلة منطقية لبيان الآثار السيئة لهذه السيئة وقد حذر الجميع من مقارفتها، ويبدو بحث موضوع الغيبة من الأبحاث الواسعة كما صورها علماء الأخلاق ونكتفي هنا بذكر بعض الأمور بهذا الشأن:

١- لا بدّ أن نتجّه قبل كل شيء نحو دوافع الغيبة وذلك لأنه يمكن الاستدلال على قبح النتائج من خلال قبح الدوافع، فدافع الغيبة غالباً هو الحسد وحبّ الذات والغرور والتكبر والحقد والرياء وحبّ الدنيا والثأر والسخرية والاستهزاء بالآخرين وما شاكل ذلك، حيث يحاول الأفراد الملوثون بهذه الأمراض بلوغ أهدافهم السيئة عن طريق الغيبة وبالنظر إلى أنّ الدوافع المذكورة جميعاً من الكبائر فإنّه

يمكن الوقوف على قباحة الغيبة.

نقحات الولاية؛ ج ٥؛ ص ٣٦٠

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٦٠

٢- إن أهم أرسده المجتمع وسنده الأصل والذي من شأنه توحيد الأفراد ويدفعهم باتجاه الأهداف النبيلة هو الثقة المتبادلة ومما لا يشك فيه أن أولى النتائج السيئة للغيبة تتمثل بالقضاء على هذا السند، وذلك لأن كل فرد في الغالب ينطوى على عيب أو عيوب فإن بقيت خفية لن تنعكس سلباً على الآخرين ويبقى التفاؤل ثقة الأفراد بعضهم البعض الآخر قائمة، أما كشف هذه العيوب عن طريق تحريها والبحث عنها وممارسة الغيبة وذم كل فرد آخر إنما يحيل المجتمع إلى جهنم محرقة بحيث يسيء كل فرد الظن بالآخر وينفر منه، بالنتيجة ترزع النظام العام للمجتمع وتعرضه للقلق والاضطراب.

وبعبارة أخرى كما يتهدد الأمن العام للمجتمع بفعل نهب الأموال وسفك دماء الأبرياء، فإن سلب ماء الوجه وسرقته من الآخرين عن طريق الغيبة إنما يشيع تلك الفوضى ويقضى على الأمن، وذلك لأنه كما ورد في الرواية المذكورة عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإن التعرض لحيثيات الآخرين بمثابة التعرض لأنفسهم وأموالهم، لا يمكن كتمان الغيبة عادة وتفشى على صاحبها فتشتعل فيهم نيران الحقد والكراهية، الحقد الذي يمهد السبيل أمام سفك الدماء وعظام المشاكل، والغيبة أحد أسباب إشاعة الفحشاء وعامل مهم من عوامل سوء الظن، إلى جانب كونها تجعل الآثم جريئاً في ذنوبه، لأن المذنب الآثم يراعى عادة جانب الاحتياط إن بقيت معصيته خفية مستورة، فان هتكت زال حجاب الحياء والخجل.

٣- الغيبة حق الناس، والمسألة المهمة بشأن الغيبة أنها ليست معصية بين الإنسان وربّه تبارك وتعالى يمكن غسلها بماء الندم فتحصل التوبة، بل كما لا يمكن تلافى الخسائر الناجمة عن سفك الماء وغصب الأموال دون القصاص أو الدية ودفع التعويضات المالية، فإنه لا يمكن غفران إزالة ماء وجه الآخرين دون تعويض، سيما إن توفى من أغتیب ولم يكن هناك من سبيل لمن إغتابه للوصول إليه ولم يبق أمامه سوى الحساب والقيامة، يعنى حين لا يكون هنالك من سبيل للتعويض سوى إضافة حسناته إلى ذلك الفرد أو تقبل سيئاته، وهذه بحد ذاته مصيبة كبرى.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٦١

٤- إن أفضل علاج للغيبة يتمثل بما ذكره مولى الموحيد أمير المؤمنين على عليه السلام في الكلام المذكور وقد لفت انتباه الإنسان إلى هذه الحقيقة وهي إن رأى الإنسان عيباً ومنقصه في شخص آخر وليس فيه مثلها، فقد وجب عليه شكر الله، الشكر الذي يصده عن تحرى عيوب الآخرين، وإن قارف معصية وقد ارتكبها مثله، فلا ينبغي له أن يتجاهل عيبه وينشغل بعيوب الآخرين، وإن ارتكب الصغيرة وجب عليه أن يفكر في أن كبيرة غيره ربما غفرت ولم يغفر له، بل جرأته على تقصى عيوب الآخرين لأكبر من ذنوبهم مهما كبرت.

أضف إلى ذلك فكما أن الأمراض البدنية لن تعالج بصورة تامة ما لم تزول جذورها فإن الأمراض الروحية كالغيبة لا بد من إقتلاع جذورها حتى تزول الرغبة في مقارفتها.

٥- استماع الغيبة أحد الذنوب - كما سيأتى شرح ذلك في الخطبة القادمة - ذلك لأن السامع شارك في إراقة ماء وجه مسلم فهو شريك في الجرم، سيما إن استمع مختاراً بما يجعله سبباً لتشجيع صاحبه الغيبة.

٦- لا يقتصر سبيل التوبة عن الغيبة على الاستغفار، بل لا بد من محاولة تعويض من أغتیب واريق من ماء وجهه إلى جانبى الندم والتوسل إلى الله تعالى في طلب العفو الرحمة، فان أمكن مناشدته إبراء الذمّة، وأما إن تعذر ذلك بسبب ترتب مفسدة، أو توفى الشخص، فلا بد من القيام بأعمال الخير من أجله حتى يرضى، وكل هذه الأمور تشير إلى مدى فضاة الغيبة وصعوبة التخلص من

تبعاتها، ومن أراد المزيد بشأن المسائل المتعلقة بالغيبة ومن ذلك موارد الاستثناء عليه مراجعة الجلد الثالث من كتاب الأخلاق في القرآن [٦٣٨].

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٦٣

الخطبة [٦٣٩] المائة والحادية والأربعون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي النِّهْيِ عَنِ سَمَاعِ الْغَيْبَةِ وَفِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ

نظرة إلى الخطبة

يبدو أن هذا الكلام مواصلة للخطبة السابقة، فقد ورد الحديث في الخطبة السابقة عن نهى الناس عن الغيبة، وجرى الكلام هنا في النهي عن سماع الغيبة، كما أكد عليه السلام عدم تصديق كل ما يصدر من الشخص بهدف حفظ شخصيه الآخرين، فالخطأ جازر حتى على الصادقين.

وإختمت عليه السلام الخطبة بوصية الجميع بعدم تصديق الشيء ما لم يره، فما أكثر الخطأ واللبس في السماع.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٦٥

«أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَحِيهِ وَثِيْقَةً دِينَ وَسَدَادَ طَرِيقٍ، فَلَمَّا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرَّجَالِ. أَمَّا إِنَّهُ قَدْ يَزْمِي الرَّامِي، وَتُخَطِّئُ السَّهَامُ، وَيُحِيلُ [يُحِيكُ]

الْكَلَامُ، وَبَاطِلٌ ذَلِكَ يَبُورُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ. فَسَيُّئِلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنِ مَعْنَى قَوْلِهِ هَذَا، فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ وَوَضَعَهَا بَيْنَ أُذُنِهِ وَعَيْنِهِ ثُمَّ قَالَ: الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ!».

الشرح والتفسير

المسافة بين الحق والباطل

كما ورد سابقاً، يبدو أن هذا الكلام جزء من الخطبة السابقة فصلها عن بعضها المرحوم السيد الرضى، وذكرها بصورة مستقلة، والواقع أن الهدف من الخطبتين واحد هو حفظ ماء الوجه وإشاعة أجواء الثقة بين أفراد المجتمع والابتعاد عن الآثار السيئة للغيبة وتحري العيوب.

فقد بين الإمام عليه السلام في الخطبة السابقة طرق معالجة الغيبة، وسعى هنا للحد من الآثار الهدامة للغيبة أو القضاء عليها تماماً.

فقال بادية ذي بدء:

«أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَحِيهِ وَثِيْقَةً دِينَ وَسَدَادَ [٦٤٠] طَرِيقٍ، فَلَمَّا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرَّجَالِ.»

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام قد أبطل بهذه العبارة القصيرة ومن خلال عدّة طرق الآثار السيئة للغيبة في المستمع، وأول تلك الطرق

ما ورد في العبارة المذكورة، لأن الإنسان إن عرف

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٦٦

أحداً بحسن السيرة والورع والتقوى كان عليه أن يوقن بخطأ ما يقال فيه من أمور مخالفة، لأن الموارد المشكوكه غالباً ما تحمل على الموارد المعلومة وعلى حد التعبير المشهور:

«الظن يَلْحَقُ الشَّيْءَ بِالْأَعْمِّ الْأَغْلَبِ»

، وبالطبع فإن هذا الكلام لا يعنى قبولنا لغيبة الأفراد وتتبعهم لعورات الآخرين الذين ليس لهم من سابقه، بل الهدف مضاعفة التأكيد بالنسبة للأفراد من ذوى السوابق الحسنة، بحيث لا ينبغي التصديق مطلقاً بما يقال بشأن اولئك.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى وهى لو فرضنا أن المتكلم كان صادقاً، ولكن من الموقن به أنه ليس بمعصوم، وعليه فالخطأ محتمل من جميع الناس سوى المعصومين، وعليه فلا ينبغي تصديق المقابل بكل سهولة فى ما ينسبه إلى الآخرين، ناهيك عن عدم مطابقتها الظن والحدس إلى الواقع على الدوام، فقال:

«أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَزْمِي الرَّمِي، وَتُخْطِئُ السَّهَامُ»،

أضف إلى ذلك وعلى ضوء كلام الإمام عليه السلام: «

وَيُجِيلُ [٦٤١]

[يُحِيك]

الْكَلَامُ، وَبَاطِلُ ذَلِكَ يَبُورُ [٦٤٢]، وَاللَّهُ

سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ»، فى

إشارة إلى أن أغلب الناس لا يلتزمون بكلام الحق ويتفوهون بكل ما يرد على ألسنتهم، ومن هنا لا ينبغي قبول ما ينسبونه إلى الآخرين من عيوب، فقد يكون ذلك من الأقوال الباطلة التى تنسب إلى الأفراد دون تريت.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة مهمة أخرى فقال:

أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ.

وفى هذه الأثناء سأله أحد الحاضرين:

«عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ هَذَا، فَجَمَعَ أَصَابِعُهُ وَوَضَعَهَا بَيْنَ أُذُنِهِ وَعَيْنِهِ ثُمَّ قَالَ: الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ!».

فالعبرة فى الواقع إشارة إلى الشائعات التى تتناقها الألسن فيطالعك هذا وذاك وهم يرددون يقال كذا ويقال كيت وليس الأمر سوى شائعات لا أساس لها، وقد قال عليه السلام لا تلتفتوا إلى الشائعات ولا تنسبوا إلى الآخرين ما لا ترون، ومن هنا تتضح الإجابة على

السؤال الذى أورده أغلب شراح نهج البلاغة ومفاده: إن الآيات القرآنية والوحي السماوى وسنة النبى

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٦٧

الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمة المعصومين عليهم السلام كلها عن طريق السمع فكيف يحكم ببطلاتها؟

فليس مراد الإمام عليه السلام بطلان أخبار الثقة والأحاديث المتواترة والمستفيضه التى وصلتنا عن طريق السمع، بل مراده ذلك المعنى العرفى والمتداول بشأن الشائعات، والشاهد على ذلك ما روى عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام لما سئل: كم بين الحق والباطل؟ فقال عليه السلام:

«أربع أصابع فما رأيت بعينك فهو الحق وقد تسمع باذنيك باطلاً كثيراً» [٦٤٣].

وزبدة الكلام ليس كل ما يراه الإنسان حق، وذلك لأن العين قد تخطف أحياناً، وليس كل كما يسمعه باطل، وذلك لأن المتكلم قد يكون فرداً عادلاً وثقة، لكن قليل هو الخطأ على مستوى العين، أمّا الكلام الباطل عن طريق السمع فهو كثير، وهذا ما أشارت إليه

العبارة الواردة عن الإمام عليه السلام.

ولعل هذا هو أنسب التفاسير للعبارة المذكورة، بينما أورد البعض من شراح نهج البلاغة تفسيراً آخر خلاصته أن العبارة: «ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع» إشارة إلى العيوب التي تقال في حق الأفراد، أغلب هذه العيوب ناشئة من سوء الظن وعدم التحقيق والحسد، والحقد والكراهية وما شاكل ذلك، وعليه فهناك الكثير من الكذب والباطل في هذه الأقوال، ولكن يمكن للإنسان القول بأن العيوب الفلانية في الشخص الفلاني إن رآها بعينه.

درس أخلاقي رفيع

لو وضع الناس نصب أعينهم واستحضروا على الدوام وفي كل مكان عبارة الإمام عليه السلام ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع وعملوا بها في حياتهم، قطعاً كل التفاؤل محل التشاؤم وحسن الظن بدل سوء الظن والثقة والاعتماد بدل عدمهما والمحبة بدل البغض والكراهية، وسوف تبتهت الإشاعات ولا يكون لها ذلك الصدى والتأثير وبالتالي سوف لن يبلغ أصحابها ما يرومونه من أهداف فلا يسود المجتمع سوى الحب والأخاء، والمؤسف له أن الشائعات في

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٦٨

الوقت الحاضر قد تجاوزت الأفراد لتطيل فئات البلاد وتجمعاته بحيث ألفت بظلالها الوخيمة على جميع أرجاء العالم وما ذلك إلى للغفلة عن الفارق بين الحق والباطل التي أشير إليها في كلام الإمام عليه السلام، وإنما نلمس الثمن الباهظ الذي يدفعه العالم بسبب عدم التزامه بهذا الأمر.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٦٩

الخطبة [٦٤٤] المائة والحادية والأربعون

إشارة

ومن كلام له عليه السلام
المعروف في غير أهله

نظرة إلى الخطبة

تدور هذه الخطبة حول محورين:

المحور الأول: يشرح النتائج السلبية للمعروف والإحسان إلى غير أهله.

والمحور الثاني: الموارد المؤهلة لأن يصنع الإنسان إليها المعروف لينال من خلالها شرف الدنيا والفوز بفضائل الآخرة.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٧١

القسم الأول: المعروف في موضعه

«وَلَيْسَ لِوَأَضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحَظِّ فِيمَا أَتَى إِلَّا مَحْمِدُهُ اللَّئَامُ، وَتَنَاءُ الْأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ، مَا دَامَ مُنْعِمًا عَلَيْهِمْ: مَا أَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَ عَنِ ذَاتِ اللَّهِ بِخَيْرٍ!»

مواضع المعروف

فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيُفَكِّكْ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِي، وَلْيُعِطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزًا بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفٌ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرَكٌ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً هذه الخطبة حسب بعض الروايات المعتبرة جزء من الخطبة رقم ١٢٦، والتي اعترض فيها بعض الجهال على الإمام عليه السلام بسبب تسويته بين الناس في العطاء من بيت المال المسلمين، فكلموه لم لا تزيد في عطاء أشرف القبائل ليطروه ويشنوا عليه ويقفوا إلى جانبه عند الشدائد، أما الإمام عليه السلام فقد وبّخهم في هذه الخطبة في أن البذل والعطاء في غير موضعه لا يوجب غضب الله وسخطه فحسب، بل به آثاره السلبية حتى في الدنيا أهونها ثناء الأشرار وإنسحاب الأخيار، فقال عليه السلام:

«وَلَيْسَ لَوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحَطِّ فِيمَا أَتَى إِلَّا مَحْمَدَةٌ [٦٤٥] اللَّئَامِ، وَثَنَاءُ الْأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ الْجُهَالِ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٧٢

أضف إلى ذلك فإن هذا المدح والثناء قائم مادام البذل والعطاء ومد يد الجود والسخاء، ولكن بمجرد أن يقطع هذا البذل لا يبقى من أثر لذلك المدح ولا ثناء، هذا في الوقت الذي يكون فيه بخيلاً عن البذل في سبيل الله تعالى: «مَادَامَ مُنْعِمًا عَلَيْهِمْ: مَا أَجُودَ يَدُهُ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللَّهِ بِخَيْلٍ!».

وقد جربنا كلام الإمام عليه السلام مراراً في حياتنا والذاكرة البشرية تحتفظ بالكثير من ذلك طيلة التاريخ، فقد حفلت الدنيا بالأفراد المتكالبين على الدنيا ممن تحكّموا بثروات المجتمع وقد أغدقوها على المتملقين من الأشرار ممن حولهم وبطانتهم وقد ولو ظهورهم بالمرّة عن معاناة المحرومين وآلام المساكين، فان دارت عليهم الدوائر وتكررت لهم الدنيا، هب المحرومون للوقوف بوجههم ولم يكتف الأمر عند هذا الحدّ، بل تنكر لهم حتى أنصارهم من المتملقين وعرضوا لهم بالذم والتوبيخ، فلم يتركوهم وشأنهم فحسب، بل سارعوا للتمرد عليهم وأعدوا أنفسهم للإنسجام مع من يخلفونهم من الحكّام، وهذه هي عاقبة من ولى ظهره للحق تبارك وتعالى والخلق والتحق يركب النفعيين.

ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ طَلَبَ مَحَامِدَ النَّاسِ بِمَعَاصِيِ اللَّهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنْهُمْ دَامًا» [٦٤٦]

، وعن المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ إِلَى

خَيْرٍ يَصِيْبُ الرَّجُلَ أَمْ إِلَى شَرٍّ؟ انظُرْ إِلَى أَيْنَ يَضَعُ مَعْرُوفَهُ؟ فَإِنْ كَانَ يَضَعُ مَعْرُوفَهُ عِنْدَ أَهْلِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَصِيْبُ إِلَى خَيْرٍ وَإِنْ كَانَ يَضَعُ مَعْرُوفَهُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ» [٦٤٧].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٧٣

القسم الثاني

«فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيُفَكِّكْ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِي، وَلْيُعِطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزًا بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفٌ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرَكٌ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

الشرح والتفسير

عرض الإمام عليه السلام بالذم الشديد لصانع المعروف في غير أهله كما ورد ذلك في المقطع الأول من الخطبة والذي كان يمثل الجانب السلبي من القضية، أمّا في هذا القسم فقد تعرض إلى جانبها الإيجابي فيبين الموارد الطبيعية التي تستحق الانفاق والبذل والعطاء، حذراً من استغلال البعض لما مرّ معنا سابقاً في العبارات، فيعتمد البخل وعدم الانفاق فقال:

«فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيُنْفِكْ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِيَةَ [٦٤٨]، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ [٦٤٩].»

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى ستة موارد للانفاق والبذل وفي مقدمتها القرابة من ذوى الحاجة، فمما لا شك فيه أن هؤلاء مقدمون على غيرهم، وهذا ما ورد في الخبر المروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«سئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ» [٦٥٠]

، ثم ركز الإمام على قضية الضيافة وهي الأمر الذي يؤدى إلى إشاعة أجواء المودة

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٧٤

والمحبة بين الأصدقاء ويزيل الأحقاد، كما يوطد العلاقات العاطفية والاجتماعية وقد أولى الإسلام هذه المسألة الإنسانية والأخلاقية أهميته قصوى حتى ورد في الخبر أن الإمام الصادق عليه السلام سأل أحد أصحابه:

«أَتُحِبُّ إِخْوَانَكَ يَا حُسَيْنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: تَنْفَعُ فَقَرَانَهُمْ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّهُ يَحِقُّ عَلَيْكَ أَنْ تُحِبَّ مَنْ يُحِبُّ اللَّهَ، أَمَا وَاللَّهِ لَا تَنْفَعُ مِنْهُمْ حَتَّى تُحِبَّهُ، أَتَدْعُوهُمْ إِلَى مَنَزِلِكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا أَكُلُ إِلَّا وَمَعِيَ مِنْهُمْ الرَّجُلَانِ وَالثَّلَاثَةُ وَالْأَقْلُ وَالْأَكْثَرُ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمْ إِنْ فَضَلْتَهُمْ عَلَيْكَ أَعْظَمَ مِنْ فَضْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَقُلْتُ: فِدَاكَ أَطْعَمْتَهُمْ طَعَامِي وَأَوْطَيْتَهُمْ رَحْلِي وَيَكُونُ عَلَيَّ فَضْلُهُمْ عَلَيَّ أَعْظَمَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنْهُمْ إِذَا دَخَلُوا مَنَزِلَكَ دَخَلُوا بِمَغْفِرَتِكَ وَمَغْفِرَةِ عِيَالِكَ، وَإِذَا خَرَجُوا مِنْ مَنَزِلِكَ خَرَجُوا بِذُنُوبِكَ وَذُنُوبِ عِيَالِكَ» [٦٥١].

ولما كان دفع الحقوق الواجبة والمستحبة وتعويض الخسائر شاقاً على النفس فقد أكد الإمام عليه السلام على الصبر والتحمل فقال:

«وَلْيُصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالتَّوَابِ [٦٥٢]، ابْتِغَاءَ التَّوَابِ».

وبناءً على هذا فالتعبير بالحقوق يشمل الواجبة والمستحبة، والنواب جمع نائبه والحادثه الأليمه، وتشير هنا إلى جميع الأمور التي تتضمن الخسارة المالية، سواء كان من جانب ظلم الظلمة وحكام الجور، أو الحوادث غير المتوقعة التي تصيب الإنسان طيلة حياته.

والعبارة

«ابتغاء الثواب»

إشارة إلى أن الصبر تجاه كل هذا البذل وصرفه في الموارد المذكورة لا بد أن يكون لله تعالى ليحصل الأجر والثواب.

وإختتم كلامه بالإشارة إلى الآثار العظيمة لهذا البذل فقال عليه السلام:

«فَإِنَّ فَوْزًا بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفٌ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرَكُ فِضَائِلِ الآخِرَةِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»

، فالحق أن البذل في الموارد الستة المذكورة يؤدى إلى حسن سمعة الإنسان في المجتمع، كما يوجب فوزه في الحياة الآخرة، وأفضل شاهد على ذلك ما روى عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

«مَنْ جَادَ سَادَ» [٦٥٣]

، وقد أصبحت هذه

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٧٥

العبارة مثل يضرب لتأكيد المعنى المذكور، وكذلك ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«وَأَحْسَنُ إِلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَمِيرَهُ» [٦٥٤]

، بل يؤيد ذلك ما نلمسه في حياتنا اليومية، وهذا على مستوى الدنيا.

أما من حيث الآخرة فإن البذل من أهم أسباب النجاة ولاسيما إعانة المحتاجين، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْمَعْرُوفُ» [٦٥٥].

والتعبير ب

«فوزاً»

بصيغة النكرة يفيد حقيقة في أن هذا البذل وإن كان قليلاً فإنه يوجب عزّة الدنيا ورفعها الآخرة.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٧٧

الخطبة [٦٥٦] الماء والثلاثة والاربعون

إشارة

وَمِنْ حُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي الاسْتِسْقَاءِ

وفيه تنبيه العباد على وجوب استغائهم رحمة الله إذا حبس عنهم رحمة المطر

نظرة إلى الخطبة

الخطبة كما ورد في عنوانها بشأن الاستسقاء والتضرع إلى الله سبحانه في طلب نزول الأمطار، وهي الخطبة الثانية من خطب نهج

البلاغه في باب الاستسقاء (الخطبة الاولى رقم ١٥٥)، وتتألف هذه الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يشير إلى هذه الحقيقة في أن السماء والأرض مطيعة لأمر الله فان شاء أخرج بركاتهما إلى الناس، وبناءً على هذا فان

الذي ينبغي التوجه إلى قبل عالم الأسباب هو ذات مسبب الأسباب.

القسم الثاني: ناظر إلى هذا المطلب وهو أن أعمال السوء والذنوب والمعاصي تؤدي إلى إغلاق أبواب الخير والبركة بأمر الله تبارك

وتعالى، ومفاتها الاستغفار من الذنوب والإنابة إلى الله تعالى.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٧٨

القسم الثالث: يعرض إلى رفع الإمام عليه السلام يده بالتوسل إلى الله سبحانه في مراسم صلاة الاستسقاء حيث يطلب نزول المطر

بعبارة دقيقة رائعة عميقة المعنى، والأمطار المفعمة بالبركة والتي تروى الأرض وتسقى الأشجار والثمار وتسرّ الناس.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٧٩

القسم الأول: درس في التوحيد والأخلاق

«أَلَمْآ وَإِنَّ الْمَأْرَضَ الَّتِي تُقْلِكُمْ تَحْمِلُكُمْ، وَالسَّمِيَاءَ الَّتِي تُظْلِكُمْ مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ، وَمَا أَصْرَبِحَتَا نَجُودَانِ لَكُمْ بِرَبِّكُمَا تَوَجُّعًا لَكُمْ، وَلَا زُلْفَةً

إَيْكُمْ، وَلَا لِحَيْرٍ تَزُجُونَهُ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ أَمْرًا بِمَنَافِعِكُمْ فَطَاعَتَا، وَأَقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا».

الشرح والتفسير

من الوصايا الإسلامية التي وردت بصورة موسعة في الكتب الفقهية الوصية بصلاة الاستسقاء، حيث يقبل فيها الناس على الله تبارك

وتعالى ويتوبون إليه من ذنوبهم معاصيهم ويسألونه نزول المطر، وقد حدث هذا الأمر كراراً ومراراً في الإتيان بهذه الصلاة ونزول

الرحمة الإلهية، ويبدو أن الإمام عليه السلام قد دعى الناس حين الاستسقاء، ومن هنا فقد خطب بهذه الخطبة المليئة بدروس التوحيد

والتهديب والتربية، فقد قال عليه السلام بادية الأمر بهدف إعداد الناس وإحياء روح التوحيد فيهم والتوجه إلى الله تعالى الذي يمثل

مصدر الخير والبركة والعطاء:

«أَلَا وَإِنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تُقْلِكُمْ [٦٥٧] تَحْمِلُكُمْ، وَالسَّمَاءَ الَّتِي تُظَلِّكُم مَّطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ».

ثم قال عليه السلام:

«وَمَا أَضْيَبَحْنَا تَجُودَانِ لَكُمْ بَرَكْتَهُمَا تَوْجَعًا لَكُمْ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَلَا لَخَيْرٍ تَوْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ أَمْرًا بِمَنَافِعِكُمْ فَاطَاعَتَا، وَأَقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا»

، والتعبير بالسماء إشارة إلى الغيوم المحلية، لأن العرب تستعمل السماء بمعنى الجانب العلوي،

نفعات الولاية، ج ٥، ص: ٣٨٠

فتطلقه أحياناً على موضع النجوم فتقول نجوم السماء، وتطلقه أحياناً أخرى على موضع الشمس والقمر، وأخيراً على موضع السحب والغيوم وحتى الموضع الذي يضم الغصون المرتفعة للأشجار، ومن ذلك الآية القرآنية: «أَضَلُّهَا تَابَتْ وَفَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ» [٦٥٨].

هذا الكلام يشتمل على درس مهم في التوحيد والأخلاق، فقد قال الإمام عليه السلام من جانب أن الله أمر السماء والأرض بمنافعكم، وكأن السماء أشبه بالأب والأرض بالأم اللذان يتحdan لتزويد الإنسان بما يحتاجه من غذاء وشراب ولباس ودواء ومركب دون التمييز بين المطيع والعاصي والمؤمن والكافر، لأنهما مظهر رحمانية الحق.

الطريف في الأمر أن المائدة الإلهية لا تنضب فالأجيال متعاقبة في الذهاب والإياب وهما قائمان على خدمتهم، ومن جانب آخر فإن السماء والأرض ورغم تقديمها لكل هذه الخدمات فهما لا يرحوان أى عوض من الإنسان، بل يخدمان بكل إخلاص، وهذا درس مهم للإنسان يشده إلى خدمة الآخرين بعيداً عن الأجر والثواب.

نفعات الولاية، ج ٥، ص: ٣٨١

القسم الثاني: الذنب وقلة البركة

إشارة

«إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ، وَإِعْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ، لِيُتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلَعُ مُقْلَعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكَّرٌ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْاسْتِغْفَارَ سَبَبًا لِدُرُورِ الرُّزْقِ وَرَحْمَةً الْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً اسْتَفْبَلَتْ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقَالَ حَطِيبَتَهُ، وَبَادَرَ مَيِّتَهُ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى نقطة مهمّة من أجل إعداد الناس لصلاة الاستسقاء فقال:

«إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ، وَإِعْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ، لِيُتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلَعُ مُقْلَعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكَّرٌ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ».

ثم إعتد الإمام عليه السلام بعد ذلك أسلوب الطبيب الماهر الذي يصف العلاج بعد تشخيص المرض فقال:

«وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْاسْتِغْفَارَ سَبَبًا لِدُرُورِ [٦٥٩] الرُّزْقِ وَرَحْمَةً الْخَلْقِ،

فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ

نفعات الولاية، ج ٥، ص: ٣٨٢

بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا».

وأخيراً يخلص إلى نتيجة:

«فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقَالَ [٦٦٠] حَطِيئَتَهُ،

وَبَادَرَ مَيِّتَهُ!».

نعم، حين تغلق أبواب الرحمة الإلهية بفعل كثرة الذنوب فليس هنالك من سبيل لفتحها سوى الاستغفار والتوبة والنصح. والجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام وبهدف إثبات هذا الأمر قد استدلل بأنسب أية قرآنية، وهي الآية التي وردت على لسان نبي الله نوح عليه السلام حين خاطب قومه باستغفار الله والتوبة إليه والذي يؤدي إلى نزول البركات والخيرات ومضاعفة الأرصدة المادية والمعنوية وتقوية الوجود الإنساني وتحسين الأوضاع الاقتصادية والزراعية.

والعبارة

وَبَادَرَ مَيِّتَهُ!»

، إشارة إلى أن التوبة لا تقتصر على بلوغ الرفاه المادي في الحياة الدنيا، بل الهدف الأهم من ذلك النجاة في الآخرة، وذلك لأن الموت إن سبق التوبة فلا سبيل للتدارك، وإن كان العكس وسبقت التوبة والأعمال الصالحة الموت، كان مفتاح النجاة بيده في الدار الآخرة.

جانب من فلسفة البلاء

لقد قيل الكثير في فلسفة البلاء، والذي يستفاد من أغلب الآيات القرآنية والروايات الإسلامية هو أن الذنوب والمعاصي تشكل أحد علل الآفات والحوادث الصعبة في الحياة البشرية، حيث تحدث عدة آيات عن التلازم بين هذين الأمرين، بل يستفاد من بعض الروايات والأخبار الترابط الوثيق بين نوع الذنب والبلاء الذي يترتب عليه، على سبيل المثال فإن الزنا وعدم العفة وشرب الخمر والتطيف والربا وقطع الرحم كل ذلك يؤدي إلى سلب نعمة معينة كما أشار إلى ذلك الحديث النبوي الشريف، من ذلك روى أبي حمزة عن الإمام الباقر أنه قال:

«وَجَدْنَا فِي كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِذَا ظَهَرَ الزُّنَا مِنْ بَعْدِي كَثُرَ مَوْتٌ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٨٣

الْفُجَاءَ، وَإِذَا طَفَفَ الْمِكْيَالُ وَالْمِيزَانُ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالسِّنِينَ وَالنَّقْصِ إِذَا مَنَعُوا الزَّكَاةَ مَنَعَتْ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا مِنَ الزَّرْعِ وَالشَّمَارِ وَالْمَعَادِنِ كُلُّهَا، إِذَا جَارُوا فِي الْأَحْكَامِ تَعَاوَنُوا عَلَى الظُّلْمِ وَالْعِدْوَانِ، إِذَا نَقَضُوا الْعَهْدَ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، إِذَا قَطَعُوا الْأَرْحَامَ جُعِلَتْ الْأَمْوَالُ فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ إِذَا لَمْ يَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَلَمْ يَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْأَخْيَارَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ شِرَارَهُمْ فَيَدْعُوا خِيَارَهُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ» [٦٦١]

والدليل العقلي يؤكد هذا الأمر على أن هناك ارتباط بين الذنب وقطع النعم، فالفيض الله يتوقف على الاستعداد والاستحقاق، فان قارف الإنسان الذنب وأفضح عن عدم استعداده كان من الطبيعي أن يقطع عن نفسه الفيض الإلهي.

أضف إلى ذلك فالذي يستفاد من الآيات القرآنية أن هناك هدفاً مهماً آخر يتمثل بايقاظ الغافلين وإعادتهم إلى الله تبارك وتعالى، حتى صرحت بعض الآيات بأن البلاء يعم الأقسام المشركة حين بعث الأنبياء والرسل لهدايتها من أجل تمهيد السبيل أمامهم لقبول الدعوة ومن ذلك الآية ٩٤ من سورة الأعراف التي قالت: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ».

وهكذا فإن القضية التربوية تشكل أحد الأهداف المهمة للبلاء والحوادث الأليمة، على كل حال فإن مفتاح الأبواب الموصدة وإخماد جذوة أمواج البلاء إنما يكمن في العودة إلى الله سبحانه كما صرح بذلك القرآن الكريم إذ قال: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا

لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [٦٦٢].

وهكذا سائر الآيات، وورد في الخبر أن شخصاً قال لأمير المؤمنين على عليه السلام لقد أسرفت في المعاصي فادعوا الله أن يغفر لي، قال على عليه السلام: عليك بالاستغفار، وقال الآخر: مزارعنا تشكو من قلة الماء، فادعوا الله أن يرسل علينا المطر، فقال عليه السلام: عليك بالاستغفار، وشكى الثالث من الفقر فأشار عليه الإمام عليه السلام بالاستغفار، وشكى الرابع العقم وكان له مال كثير فأشار عليه الإمام بالاستغفار، وشكى له الخامس من قلة ثمار البستان فنصحته عليه السلام بالاستغفار، وشكى

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٨٤

السادس من جفاف الآبار وغيون الماء فقال له عليه السلام عليك بالاستغفار، فتعجب ابن عباس من إشارته على الجميع بالاستغفار وقد كان لكل مشكلته التي تختلف عن غيره، فقال عليه السلام أولم تسمع إلى القرآن والآيات ١٠، ١١، ١٢ من سورة نوح إذ قال: «وَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُبْنِيَنَّ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا» [٦٦٣].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٨٥

القسم الثالث: إلهي أمطرنا مطراً مباركاً

إشارة

«اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الْأَسْتَارِ وَالْأَكْنَانِ، وَبَعْدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانِ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ. اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا عَيْشَكَ، وَلِمَا تَجْعَلُنَا مِنَ الْفَانِينَ، وَلَا تُؤَاخِذْنَا (بِمَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ مِنَّا) يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، حِينَ الْجَأْتِ الْمَضَائِقُ الْوَعْرَةَ، وَأَجَاءَتْنَا الْمَقَاحِطُ الْمَجْدِبِيَّةُ، وَأَعْيَتْنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ، وَتَلَاخَمَتْ عَلَيْنَا الْفِتْنُ الْمَحْنُ الْمُسْتَضِيعَةُ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلَّا تُرَدَّنَا خَائِبِينَ، وَلَا تَقْلِبْنَا وَاجِمِينَ، وَلَا تُخَاطِبْنَا بِجُدُنُونَا، وَلَا تُقَابِسِنَا تَنَاقِسَنَا بِأَعْمَالِنَا. اللَّهُمَّ انشُرْ عَلَيْنَا عَيْشَكَ وَبَرَكَتَكَ، وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ؛ وَاسْقِنَا سُقْيَا نَافِعَةٍ نَافِعُهُ مُرْوِيَّةٌ مُعْشِبَةٌ، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ. نَافِعَةُ الْحَيَا، كَثِيرَةُ الْمُجْتَنَى تُرْوَى بِهَا الْقِيَعَانُ، وَتُسَيِّلُ الْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوِرُقُ الْأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ الْأَسْعَارَ؛ «إِنَّكَ عَلَى مَا نَشَاءُ قَدِيرٌ».

الشرح والتفسير

بعد أن مهد الإمام عليه السلام قلوب الناس ودعاهم إلى التوبة من الذنوب والإنبابة إلى الله سبحانه في هذه الخطبة التي خطبها بمناسبة صلاة الاستسقاء، إلتفت إلى الحق تبارك وتعالى فتوسل إليه بعبارات وهو يسأله اللطف والرحمة، كما فرض عده مطالب من خلال خمس عبارات يستهلها بالقول اللهم، فقد قال بادي ذي بدء:

«اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الْأَسْتَارِ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٨٦

وَالْأَكْنَانِ [٦٦٤]، وَبَعْدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانِ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ».

إشارة إلى أن خروجنا من المنازل وقدمنا إلى الصحراء من أجل أداء صلاة الاستسقاء دليل على إسرافنا على أنفسنا، فإن كنا من عبادك الخاطئين فما ذنب هذه الماشية والأطفال العطاشي، وليس لنا من دافع في هذا الخروج سوى طلب رحمتك وفضلك وكرمك وقد أقبلنا عليك وأتينا إليك واستجرنا بك من عذابك وعقوبتك، وقد صرحت الروايات الإسلامية الواردة في باب آداب

صلاة الاستسقاء بحمل حتى الرضع من الأطفال والهميم العطاشى إلى الصحراء، بل وردت الوصية بتفريق الأطفال عن امهاتهم لترق القلوب لبكاء الأطفال ويزداد الإقبال على الله تبارك وتعالى [٦٦٥].

ولا يخفى ما لهذا المنظر من عظيم الأثر فى إثارة عواطف الناس وحضور قلوبهم وجريان دموعهم والذى يؤدى إلى استجابة الدعاء، إلى جانب كونه سبب المزيد من لطف الله ورحمته.

ثم طرح طلبه الرئيسى فقال عليه السلام:

«اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا عَيْتَكَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسَّنِينِ [٦٦٦]، وَلَا تُؤَاخِذْنَا «بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا» يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»

، أى وإن فعل فريق من الجهال ما يوجب قطع الفيض الإلهى عنهم، ولكن عاملنا بكرمك وفضلك ولا تعاملنا بعدلك، فلا طاقة لنا بعدلك وليس لنا سوى عفوكم ورحمتكم، ولما كان شرط استجابة الدعاء فى إذعان الفرد بعجزه وأن الله على كل شىء قدير فقد قال عليه السلام:

«اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَيْخَفَى عَلَيْكَ، حِينَ الْجَأْتْنَا الْمُضَاقَ الْوَعْرَةَ [٦٦٧]، وَأَجَاءْنَا [٦٦٨] الْمَقَاحِطُ [٦٦٩] الْمَجْدِبَةُ [٦٧٠]، وَأَعْيَيْنَا الْمَطَالِبَ الْمُتَعَسِّرَةَ، وَتَلَاَحَمَتْ [٦٧١] عَلَيْنَا الْفِتْنُ الْمُشْتَصِعِبَةُ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٨٧

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى مسألة وهى إننا إن عددنا حاجتنا ومشاكلنا الواحدة بعد الأخرى لا على أساس إنك لا تعلمها، بل لأنك تحب أن يطرح العباد مشاكلهم بألسنتهم ويقرون بعجزهم وسعة حاجاتهم، ثم أشار إلى أربع مشاكل تشترك مع بعضها من جهات وتشترك فى أخرى وهى: صعوبات الحياة والجذب والقحط والرغبات التى يتعذر نيلها فى الشرائط العادية، وأخيراً الفتن الصعبة والمزعجة، وهى المشاكل التى لا يرجى حلها إلا من الله تبارك وتعالى، ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ حَاجَتَكَ وَمَا تُرِيدُ وَلَكِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ تَبْتَئَ إِلَيْهِ الْحَوَائِجَ» [٦٧٢].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال:

«اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلَّا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ، وَلَا تَقْلِبْنَا وَاجِمِينَ [٦٧٣]، وَلَا تُخَاطِبُنَا بِدُنُوبِنَا، وَلَا تُقَاسِنَا تَنَاقِسَنَا بِأَعْمَالِنَا».

فليس هنالك من سبيل للنجاة إن عاملتنا على أساس أعمالنا، فنسألك أن بحملنا على لطفك وكرمك وألا نرجع خائبين من بابك، والطبع فإن هذه الأدعية وإن اشتملت على الطلبات المؤكدة من الله تبارك وتعالى، فهى تنطوى على الدروس العميقة المعنى للسامعين ليقضوا على آثار ذنوبهم وشناعه أعمالهم فيسارعوا لإصلاح أنفسهم، وتشتمل أغلب الأدعية التى تردنا عن المعصومين عليه السلام على هذه الأمور التربوية.

وأخيراً طرح طلبه النهائى قائلاً:

«اللَّهُمَّ انشُرْ عَلَيْنَا عَيْتَكَ وَبِرِّكَتِكَ، وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ؛ وَاسْقِنَا سُقْيَا نَاقِعَةً نَافِعَةً مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً [٦٧٤]، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدَفَات، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدَمَات. نَافِعَةَ الْحَيَا [٦٧٥]، كَثِيرَةَ الْمُجْتَنَى تُرْوَى بِهَا الْقِيَعَانُ [٦٧٦]، وَتُسِيلُ الْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوْرِقُ الْأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ الْأَسْعَارَ؛ «إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ» [٦٧٧].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٨٨

سل الله كل شىء

تحدثنا باسهاب فى ذيل الخطبة ١٥٥ عن صلاة الاستسقاء وآدابها، ونخوض هنا فى الإجابة عن سؤال وهو لم شرح الإمام عليه السلام الصفات المذكورة فى المطر حين استغاثته بالله سبحانه فى نزوله (حيث ذكر فى هذه الخطبة تسع صفات وفى الخطبة السابقة عشرين

صفة) والحال الله عليم بكل هذه الصفات ولا داعي من شرحها؟

وللإجابة عن هذا السؤال لابد من الالتفات إلى أن شرح الطلبات بجميع جزئياتها وبالنظر إلى طلب الحاجات من الله تعالى، تفيد هذا المعنى وهو ضرورة سؤال الناس من الله عز اسمه عن جميع وحاجاتهم وطلباتهم، وذلك لأن هذه الأدعية تفيد مدى حاجة الناس، وهذا بدوره يضاعف من عشق الناس لله سبحانه، ومن جانب آخر لابد أن يعلموا كم هو حيوى المطر النافع وأى بركات وخيرات فيه.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٨٩

الخطبة [٦٧٨] المأة والرابعة والاربعون

إشارة

وَمِنْ حُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
مَبْعَثُ الرِّسَالِ

نظرة إلى الخطبة

تحدث الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن ثلاثة محاور هي:
المحور الأول: الذى يبين فيه بعض الأمور المهمة بشأن مبعث الأنبياء ورسالاتهم.
المحور الثانى: الذى تطرق فيه إلى فضائل أهل البيت عليه السلام وأفضليتهم على من سواهم.
المحور الثالث: الذى يتضمن إشارات عميقة المعنى إلى نهج الضالين وعاقبة أمرهم
نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٩١

القسم الأول: فلسفة الإمتحان الإلهى

«بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ. أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَهُ؛ لِأَنَّهُ جَهْلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْتُونِ ضَمَائِرِهِمْ؛ وَلَكِنْ «لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» فَيَكُونُ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالْعِقَابُ بَوَاءً».

الشرح والتفسير

يعتقد جمع من شراح نهج البلاغة أن دافع الإمام عليه السلام من هذه الخطبة بيان الرد القاطع على المغرضين الذين ينكرون فضائل الإمام عليه السلام، والطبع فإن جانباً من الخطبة قد عالج هذا الأمر، وإن اشتملت سائر الأقسام على إبعاد كلية.
وعلى كل حال فقد أشار الإمام عليه السلام فى المقطع الأول من هذه الخطبة إلى أمرين: هما فلسفة بعثه الأنبياء وفلسفة الامتحان الإلهى، فقال عليه السلام:

«بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ [٦٧٩] إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ».

فهذه العبارة تشير إلى نقطة مهمة وردت كراراً فى الآيات القرآنية وهى عدم مؤاخذه الله سبحانه العباد دون بعث الرسل وإبلاغهم أوامره ونواهيه سبحانه عن طريق الوحي، فقد جاء

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٩٢

في الآية ١٥ و ١٦ من سورة الاسراء: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا* وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا»، هنا يطرح هذا السؤال وهو عدم انسجام ما ورد في هذه الخطبة والآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن ومبدأ استقلال حكم القتل، فالحجة تتم على الإنسان من خلال العقل الذي يحكم بحسن وقبح الأشياء (كإدراكه لحسن العدل وقبح الظلم) وعليه فهو يستحق العقاب أو الثواب حتى دون بعث الأنبياء والرسل، ونقول في الإجابة عن هذا السؤال صحيح أن هناك استحقاقاً للثواب والعقاب وإرادة الحق تبارك وتعالى ومن باب اللطف بالعباد واقتضت عدم مؤاخذه العباد وعقابهم ما لم تويد المستقلات العقلية بواجبات الشرع ومحرماته التي تعين عن طريق الوحي.

ومن هنا نتضح عدم الحاجة للإجابة التي ذكرها بعض شراح نهج البلاغة حيث صرحوا بأن هذه الآية في حكم العموم الذي يخصص في المستقلات العقلية.

وبعبارة أخرى: إن الله تعالى لا يعاقب شخصاً دون بعث الأنبياء ونزول الوحي سوى في المستقلات العقلية من قبيل قبح الظلم والجور والسرقة وقتل النفس، ثم خاض الإمام عليه السلام في مطلب آخر في إطار مواصلة لكلامه والذي يتمثل بفلسفة الإمتحان الإلهي فقال: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخُلُقَ كَشْفَهُ؛ لِأَنَّهُ جَهْلٌ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ؛ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ أَتِيَهُمْ أَحْسِنُ عَمَلًا» فَيَكُونُ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالْعِقَابُ بَوَاءً [٦٨٠].

فقد كشف الإمام عليه السلام بهذه العبارة اللثام عن مسألة مهمة حيث لا معنى لمفهوم الامتحان بالنسبة لله بالشكل الذي تعارف على العباد، فالهدف من اختبار العباد لرفع الجهل والإبهام، لمعرفة الأشياء والتعرف على الأشخاص، وليس لمثل هذه الأمور من مفهوم لمن كان الغيب والشهادة والظاهر والباطن عنده سواء، بل هدف البلاء الإلهي هو أن يظهر الإنسان ما يبطنه لتتحقق مسألة استحقاق الثواب والعقاب.

وبعبارة أوضح: لا يمكن إثابة الفرد أو معاقبته على ما يضمرة من نيات حسنة أو سيئة، بل يترتب الثواب والعقاب على ما يصدر منه من أعمال وأفعال تفرزها النيات، وهذا ما بينه

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٩٣

الإمام عليه السلام في إحدى قصار كلمات في تفسير للآية القرآنية:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ...» [٦٨١]، معنى أن يختبرهم بالأموال والأولاد ... «وَأَنَّ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنْ لِيُظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ» [٦٨٢].

فلم يرد في الفقه ولا- في دستور أي بلد التصريح بعقاب شخص بسبب نية القتل أو السرقة، وكما لا يثاب بسبب نيته الحسنه في الخدمة، وإن شمل مثل هؤلاء الأفراد بنوع من التكريم تفضلاً بسبب تلك النيات وقد تظافت الروايات التي صرحت بجزاء الخير تفضلاً منه سبحانه كونه أرحم الجميع، لكنه لا يعاقب على نية الشر كما ورد في الحديث:

«مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ... وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تَكْتُبْ عَلَيْهِ» [٦٨٣].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٩٥

القسم الثاني: منزلة الولاية

إشارة

«أَيُّنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّايسِحُونَ فِي الْعِلْمِ دُونِنَا، كَذِبًا وَبَغْيًا عَلَيْنَا، أَنْ رَفَعْنَا اللَّهَ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلْنَا وَأَخْرَجَهُمْ. بِنَا يُسَبِّحُ عَلَى الْهُدَى، وَيُسَبِّحُ عَلَى الْعَمَى إِنَّ الْبَائِمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَيْاشِمٍ؛ لِأَتَصِلُحَ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلَمَّا تَصِلُحَ الْوَلَاءُ مِنْ

غَيْرِهِمْ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة في الرد على التخرصات في مجال العلم والمعرفة الإسلامية تجاه أهل البيت عليهم السلام ويقدمهم على أنهم أعلم من غيرهم بكذبهم، وأنّ الساسة المحترفين آنذاك كانوا يثيرون تلك التخرصات بهدف النيل من مسألة خلافة وإمامة أهل البيت عليهم السلام فقال:

«أَيُّنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنََّّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِبًا وَبَغْيًا عَلَيْنَا».

وأضاف عليه السلام أيّهم أولئك ليروا كيف رفعنا الله تعالى وفضلنا وأعطانا ووضعهم وحرّمهم وأدخلنا في سعة رحمته وأخرجهم منها:

«أَنْ رَفَعْنَا اللَّهَ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلْنَا وَأَخْرَجَهُمْ».

في إشارة إلى أنّ إتباع أهل البيت عليهم السلام في معارفهم والإسلامية ووقوفهم على القرآن والوحي والسنة النبوية الشريفة ليس بالشىء الخفى على أحد، فهم كهف الامة الذى كان يلوذ به حتى الخلفاء فى ما يعترضهم من مشاكل وصعوبات، وهذا من البدييات التى لا- يختلف عليها إثنان، وأما أولئك الذين تدفعهم القضايا السياسية والحب والبغض الناشىء من العلاقات المادية بانكار هذه الحقيقة فإنما يفضحون أنفسهم.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٩٦

ثم قال عليه السلام: »

بِنَا يُسْتَعَطَى الْهُدَى، وَيُسْتَجَلَى الْعَمَى ،

والشواهد التاريخية المستفيضة والأحاديث النبوية القطعية إنّما تؤيد هذا الكلام، وهذا ما سنتعرض له فى البحث القادم.

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام هذا المقطع من الخطبة بالإشارة إلى الحديث النبوى الشريف بشأن اقتصار الإمام على قريش وبنى هاشم فقال:

«إِنَّ الْأَيْمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ؛ لَأَنْتَضِلُّ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلَا تَضِلُّ الْوَلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ».

فالإمام بإشارته إلى الحديث النبوى المعروف:

«إِنَّ الْأَيْمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ»

، ومن ثم حصرها فى بنى هاشم أوضح بأنّ ادعاء الخلافة من غير بنى هاشم لا يستحقون هذا المقام ولا بدّ من التحرى عن بنى هاشم فى كل زمان للعثور على الإمام الحق.

قبسات من علم على عليه السلام

لقد عمد تجار السياسة بهدف نيل أهدافهم وتحقيق مآربهم إلى إنكار أوضح المسائل أحياناً أو المرور عليها من خلال التوجيهات الجوفاء وأحد مصاديق ذلك منح بعض الصحابة الأفضلية على على عليه السلام حتى قدموا عليه تلميذه فى التفسير والذى كان يفخر بذلك هو ابن عباس [٦٨٤]، وزيد بن ثابت فى العلم بأحكام الميراث وأبى بن كعب فى القراءة، ولم ينسبوا للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله حديثاً بهذا الشأن، فى حين تظافت مصادر الفريقين (الشيعة والسنة) التى تؤكد أعلمية على عليه السلام على سائر الصحابة قاطبة بما لا يمكن إنكارها ومن ذلك:

١- حديث الثقلين وهو من أشهر الأحاديث التى روتها مصادر العامية- وقد استشهدنا به سابقاً [٦٨٥]- بالكتاب وأهل البيت عليهم السلام الذين لا يفترون عنه والكل يعلم بأنّ القرآن هو مصدر جميع العلوم المعارف.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٩٧

٢- الحديث المعروف

«أفضاكم علياً» [٦٨٦]

، هو الشاهد الآخر على هذا الأمر، وذلك لأن القضاء واصدار الأحكام الإسلامية يتطلب إحاطة علمية بأصول الإسلام وفروعه، ومن كان الأعم كان هو الأفضى.

٣- الحديث المروى عن علي عليه السلام أنه قال:

«عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ أَلْفَ بَابٍ كُلُّ بَابٍ يَفْتَحُ (منه) أَلْفَ بَابٍ» [٦٨٧]

، وهو دليل آخر يكشف بوضوح أن ليس بين الأمة من يماثله في العلم والمعرفة وذلك لأن هذا الحديث لم يرد في شخص سواه.

٤- قال رسول الله صلى الله عليه وآله في تفسير الآية: «وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» [٦٨٨] «إِنَّمَا هُوَ عَلِيٌّ» [٦٨٩].

لا بد من الالتفات هنا إلى أنه طبق الآية ٤٠ من سورة النمل فقد تمكن آصف بن برخيا:

«الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ...»، من الإتيان بعرض بلقيس من اليمن إلى الشام، فما بالك بقدره من لديه علم بكل الكتاب.

٥- الكلام المشهور لعلي عليه السلام حين قال:

«سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي»

والذي صرح كبار علماء العامة أن شخصاً غير علي عليه السلام لم يقل ذلك إلا فاضح [٦٩٠].

٦- العارفون بتاريخ الإسلام في عصر الخلفاء يعلمون أن علياً عليه السلام كان الكهف العلمي الحصين للأمة حتى قال الخليفة الثاني كراراً ومراراً

: «لولا علي لهلك عمر»

، وقال في عبارة أخرى:

«اللَّهُمَّ لَا تَبْقِنِي لِمَعْضَلَةٍ لَيْسَ لَهَا ابْنُ أَبِي طَالِبٍ»

، وقال:

«لَا أَبْقَانِي اللَّهُ بِأَرْضٍ لَسْتُ فِيهَا (يا) أبا الحسن» [٦٩١].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٩٨

وهذا المطلب على درجة من الوضوح حتى أصبح المثل يضرب به بين الناس، فكلما عصيت قضية على أحد ولم يكن هنالك من يحلها قالوا:

«قَضِيَّةٌ وَلَا أبا حَسَنِ لَهَا» [٦٩٢].

رواية أن الأئمة من قريش

نشير في الخطبة إلى هذه النقطة وهي أن الأئمة من قريش ومن بني هاشم وليس للآخرين صلاحية الخلافة والإمامة وينسجم هذا الكلام مع عدة روايات التي وردت في أشهر مصادر العامة ومنها:

١- روى عن جابر بن سمره في صحيح مسلم أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزاً إِلَى إِثْنِي عَشَرَ خَلِيفَةً - ثُمَّ قَالَ كَلِمَةً لَمْ أَفْهَمَهَا - فَقُلْتُ لِأَبِي مَا قَالَ؟ قَالَ: فَقَالَ:

كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ» [٦٩٣]

، وقد وردت هذه الروايات بعبارات مختلفة.

والجدير بالذكر إننا نقرأ في أحد طرق هذا الحديث في صحيح مسلم أن جابراً قال في ذيل الحديث «فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَلِمَةً أَصْمِنِهَا النَّاسُ فَقُلْتُ لِأَبِي مَا قَالَ؟ قَالَ: كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ» ، كما ورد عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «لَا يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْكُمْ إِثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ».

٢-

جاء في صحيح البخارى عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يَكُونُ إِثْنَى عَشَرَ أَمِيرًا فَقَالَ كَلِمَةً لَمْ أَسْمَعْهَا فَقَالَ: أَبِي أَنَّهُ قَالَ: كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ» [٦٩٤].

٣- وورد مثل هذا المضمون في صحيح الترمذى مع اختلاف طفيف وقال فيه: «هذا حديث حسن صحيح» [٦٩٥].

٤- كما ورد نفس هذا المضمون في صحيح أبى داود ويفيد تعبير الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله قاله فى جماعه، حيث جاء فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وآله حين قال: «لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا إِلَى إِثْنَى عَشَرَ خَلِيفَةً كَثَرَ النَّاسُ بِأَعْلَى أَصْوَاتِهِمْ» [٦٩٦].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٣٩٩

٤- كما ورد الحديث فى عدة موارد فى مسند أحمد بن حنبل [٦٩٧].

وقد ذهب بعض المحققين إلى أن عدد طرقه فى مسند أحمد ٣٤ طريق [٦٩٨].

لقد أسهب علماء العامة بشأن تفسير الأحاديث المذكورة والتي وردت فى أشهر مصادرهم، إلا أنهم لم يقدموا تفسيراً قانعاً حول الإثنى عشر خليفة أو أمير، وذلك لأنهم يعتقدون بعدم انطباق هذا العدد والخلفاء، ولا يمكن تفسيره إلا على ضوء اعتقاد أتباع أهل البيت عليهم السلام.

منزلة بنى هاشم فى الإسلام

اشير فى الخطبة إلى منزلة بنى هاشم فى قريش، والذى اقتبس فى الواقع من كلمات النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، ومن ذلك ما روى عن عائشة فى كتاب «فضائل الصحابة» لأحمد بن حنبل قالت:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«قَالَ لِي جِبْرَائِيلُ يَا مُحَمَّدُ قَلْبُ الْأَرْضِ مَسَارِقُهَا وَمَعَارِبُهَا فَلَمْ أَجِدْ وَوَلَدَ أَبَ خَيْرًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» [٦٩٩].

ومن الواضح أن المقصود ليس جميع بنى هاشم، والحديث يبدو ناظرًا إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٠١

القسم الثالث: هؤلاء الجفاه يحرقون الأخضر واليابس

منها: «آثَرُوا عَاجِلًا وَأَخْرَجُوا آجِلًا، وَتَرَكُوا صَافِيًا وَشَرِبُوا آجِنًا؛ كَأَنِّي أَنْظِرُ إِلَى فَايَسَتَمِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلْفَهُ، وَبَسِيَ بِهِ وَوَأَفَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصَبَعَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُرِيدًا كَالثَّيَارِ لِأَيْبَالِي مَا عَرَّقَ، أَوْ كَوَقِعِ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ لِيُخْفِلُ مَا حَرَّقَ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى الأفراد الذين وقفوا بوجه أئمة الحق وقد ولوا ظهورهم للحق من أجل الحكومة لبضعة أيام فقال:

«آثَرُوا عَاجِلًا وَأَخَّرُوا آجِلًا، وَتَرَكُوا صَافِيًا وَشَرِبُوا آجِنًا» [٧٠٠]؛ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلْفَهُ، وَبَسِيَ بِهِ [٧٠١] وَوَأَفَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصُبِعَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ [٧٠٢].»

ثم قال مواصلةً لكلامه عليه السلام:

«ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِدًا [٧٠٣] كَالْتِيَارِ [٧٠٤] لِأَيْبَالِي مَا غَرَّقَ، أَوْ كَوْعِ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ [٧٠٥] لِأَيْخِفُلٍ [٧٠٦] مَا حَرَّقَ!».»

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٠٢

هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغة بشأن الضمير وعودته في هذه العبارات، فقد ذهب البعض إلى أن المراد بالخلفاء الأوائل، وذهب البعض الآخر إلى أن المراد بعض الصحابة الذين انحرفوا، وقال البعض يراد بها مفهوماً عاماً وأخيراً رآه البعض إشارة إلى بنى امية، ويبدو الاحتمال الأخير أنسبها جميعاً، لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة جهرة وقد تنكروا للحق وسقطوا في مستنقع الدنيا العفن، وبناءً على هذا فالمراد بالعبارة

«كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ»

، هو عبد الملك بن مروان حيث كان من أقدر عناصر بنى امية، وقد ارتكب الكثير من الجرائم وبارسها بنفسه، وما أشع الجنائيات التي ارتكبها واليه الغاشم الحجاج، فقد كان كالنار الملتهبة التي تحرق الأخضر واليابس ولا يقف أمامها شيء، والعبارة كَأَنِّي انظروا إلى فاسقهم إشارة إلى فرد يظهر في المستقبل، فلا يمكن تطبيقها على الماضين أو المعاصرين له عليه السلام إلامع تكلف.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٠٣

القسم الرابع: دعاء الحق واتباع الشيطان

«أَيْنَ الْعُقُولِ الْمُسْتَضِيحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ إِلَى مَنَارِ التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي وَهَبَتْ لِلَّهِ، وَعَوَقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ! ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ، وَتَشَاخَوْا عَلَى الْحَرَامِ، وَرَفَعْ لَهُمْ عَلَمَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَصَرَّفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وَجُوهَهُمْ، وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَفَنَفَرُوا وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا!».»

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام في المقطع الأخير من هذه الخطبة عن فئتين: فئة عاقلة ومتقية ومطيعه للحق وأخرى تكالبت على حطام الدنيا وتسابقت مع بعضها من أجل نيل الأموال الحرام فقال:

«أَيْنَ الْعُقُولِ الْمُسْتَضِيحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ [٧٠٧] إِلَى مَنَارِ التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي وَهَبَتْ لِلَّهِ، وَعَوَقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ!»

، إشارة إلى أن جماعة عظيمه من الناس سلكت سبيل المخالفة، وقد قل الصالحون وكان الإمام عليه السلام يبحث عنهم ليجدهم.

ثم تطرق عليه السلام إلى الفئة الثانية التي تهافتت على الدنيا فقال:

«ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ [٧٠٨]،

وَتَشَاخَوْا [٧٠٩] عَلَى الْحَرَامِ، وَرَفَعْ لَهُمْ عَلَمَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَصَرَّفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وَجُوهَهُمْ،

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٠٤

وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَفَنَفَرُوا [٧١٠] وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا!».»

يبدو أن الفئتين اللتان أشار إليهما الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة، هما تلك الفئتين اللتان ذكرتا سابقاً، فئة سلمت لأئمة

الهدى وانقادت لهم، وأخرى تمرت ووقفت بوجههم سعت لإطفاء نورهم، فهي فئة أخلدت إلى الدنيا ولم تهتم بالحلال والحرام وتتسابق فيما بينها من أجل تبعية الشيطان وطاعته.

نغمات الولاية، ج ٥، ص: ٤٠٥

الخطبة [٧١١] المائة والخامسة والأربعون

إشارة

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فناء الدنيا وذم البدع

نظرة إلى الخطبة

الخطبة ناظرة إلى موضوعين:

الموضوع الأول: إشارة إلى تقلب الدنيا ووزال نعمها، حيث يتعرف الإنسان أكثر فأكثر على حقيقة هذا العالم المتغير حين يتأمل هذه العبارات التي تضمنت مواضع توقظ السامع من غفلته.

الموضوع الثاني: حول ذم البدع حيث تتعيب سنه كلما شاعت بدعة بين الناس.

نغمات الولاية، ج ٥، ص: ٤٠٧

القسم الأول: تضارب نعم الدنيا

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، مَعَ كُلِّ جَزَعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصِيصٌ! لَاتَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى، وَلَا يُعَمَّرُ مَعَمَّرٌ مِنْكُمْ، يَوْمًا مِنْ عُمُرِهِ، إِلَّا بِهَدْمٍ آخَرَ مِنْ أَجْلِهِ، وَلَا تُجَدِّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ، إِلَّا بِنَفَادٍ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ. وَلَا يَخْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ. وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلَّا بِغَيْدٍ أَنْ يَخْلُقَ لَهُ جَدِيدٌ. وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلَّا وَتَشِقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ. وَقَدْ مَضَتْ أُصُولُ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة إلى آفات الدنيا التي تهدد الإنسان من كل ناحية وقد عكس هذه الآفات بثلاث عبارات عميقة المعنى فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَرَضٌ [٧١٢] تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، مَعَ كُلِّ جَزَعَةٍ شَرَقٌ [٧١٣]، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصِيصٌ! [٧١٤] لَاتَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى»

، فهي تشير من جانب إلى الآفات المميتة التي تشمل الفردية من قبيل أنواع الأمراض وحملات الحيوانات ومنازعة الأشرار والسقوط من الشاهق وإلى ذلك، وكذلك الآفات الجماعية كالزلازل والسيول والقحط والحروب، ومن جانب آخر ذكر اقتران كل نعمة بنقمة وكل نصر ونجاح بهزيمة وفشل، أهونها ما ورد في عبارة الإمام عليه السلام حين قال:

نغمات الولاية، ج ٥، ص: ٤٠٨

«مَعَ كُلِّ جَزَعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصِيصٌ! لَاتَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى»

، فلعله يغص بالطعام ويموت رغم لذته وشوقه إليه، وأخيراً أشار إلى تنافر النعم الدنيوية المادية فصرّح بتعذر جمعها، فما إن ينال

واحدة حتى تفارقه أخرى، مثلاً يحرم من نعمة الولد فيهبه الله الولد لكنه يسلبه الهدوء والراحة، أو أنه فقير لا مال لديه ويعيش ظروفاً صعبة فيهبه الله المال، ولكن الحرص على هذا المال وكيفية التصرف به لا تدع له مجالاً للراحة، ليس لديه وسيلة نقلية فهو يعاني من المصاعب وما إن يحصل عليها حتى يعاني من مشاكل جديدة من قبيل إنفاق المال عليها وكيفية المحافظة عليها، وهكذا فهو لا يحصل على نعمة إلى بفراق أخرى.

والعبارة تنتصل بالنظر إلى أنها تستعمل بشأن الأفراد الذين يشتركون في مسابقات الرمي فهي تشير إلى آفات الدنيا وكأنها تتسابق لاستهداف حياة الإنسان، والعبارة منايا جمع منية بمعنى الموت إشارة إلى اختلاف أنواع الوفيات سواء الفردية أو الجماعية والتي اشير إليها في الخطبة، قد يتصور أحياناً أن العبارة »
لَا تَنَالُونَ مِنْهَا ...»

، تعبير آخر عن الجملة
«مَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ ...»

، والحال العبارتان مختلفتان، فالعبارة مع كل جرعة شرق إشارة إلى أن بانتظار كل نعمة آفة كامنة، وأما العبارة لا تناولوا منها ... فهي تشير إلى أنه لو لم يكن هنالك من آفة فإن النعم لا تجتمع، فلا تنال واحدة إلا بفارقة أخرى.
ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بشرح رائع للعبارة السابقة حين قال لا تناولون نعمة إلا بفراق أخرى، فبين خمسة نماذج واضحة في خمس عبارات فقال:

«وَلَا يَعْمرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ، يَوْمًا مِنْ عُمْرِهِ، إِلَّا بِهِدْمٍ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلَا تُجَدِّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ، إِلَّا بِفَادٍ مَا قَبَلَهَا مِنْ رِزْقِهِ. وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ. وَلَا يَنْجَدُّ لَهُ جَدِيدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلُقَ [٧١٥] لَهُ جَدِيدٌ. وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ [٧١٦].»

نعم، للإنسان حيوية خاصة حين الطفولة فإن انتقل إلى مرحلة الشباب ودب فيه نشاطه تزوال عنه حيوية الطفولة، فإن اتجه نحو مرحلة الشيخوخة وأصبح وجوده مجموعة من
نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٠٩

التجارب والخيرات فقد نشاط الشباب، وهكذا يمنح الله الإنسان نعمة الولد ولا تَمْضِي مَدَّةً حَتَّى يَفْقِدَ أَبَاهُ وَيَتَعَرَّفَ عَلَى أَصْدِقَاءِ جَدِّدٍ، فِي حِينٍ يَسْلُبُ الْقَدَمَاءَ مِنْ أَصْدِقَائِهِ، وَهَكَذَا يَحْصُلُ عَلَى نِعْمَةٍ وَيَفْقِدُ أُخْرَى، وَهَذِهِ هِيَ طَبِيعَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالنِّعْمُ الْمَادِيَّةُ، فَهِيَ لَا تَجْتَمِعُ لِأَحَدٍ فِي أَى زَمَانٍ وَمَكَانٍ فَلَا تَنَالُ نِعْمَةٌ إِلَى بَفِرَاقِ نِعْمَةٍ أُخْرَى، وَهَذَا بِحَدِّ ذَاتِهِ إِذْ نَارِ لِكَافَةِ النَّاسِ بَعْدَ التَّعَلُّقِ بِنِعْمِ الدُّنْيَا وَرَبَطِ الْقَلْبِ بِهَا، وَالْعِبَارَةُ
«وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ ...»

، إشارة إلى أن الإنسان إن خَلَفَ بَعْضَ الْآثَارِ - سِوَا كَانَتْ هَذِهِ الْآثَارُ عِلْمِيَّةً أَمْ خَيْرِيَّةً ذَاتَ النِّفْعِ الْعَامِ - فَانَّهُ يَفْقِدُ قِطْعًا مِنْ أَجْلِهَا طَاقَةَ مِنْ حَيْثُ الْفِكْرُ وَالْبَدَنُ، وَالْعِبَارَةُ
«وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ ...»

، يمكن أن تكون إشارة إلى نعمة الولد والحفيد حيث كلما كبر هؤلاء فقدوا بالتدريج قرباتهم الأكبر، كما يمكن أن تكون إشارة إلى كل نمو وتقدم، مثلاً يغرس الإنسان بذور جديدة في جانب من بستانه في حين يعاني جانب آخر من ذبول الأشجار وموتها الواحدة بعد الأخرى.

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول:

«وَقَدْ مَضَّتْ أَصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فُرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!»

، فقد ذهب أبائنا وأسلافنا وصاروا إلى الزوال فلا ينبغي لنا إنتظار البقاء، لأنّ الفرع الزائد على الأصل ليس بممكن، وبناءً على هذا سنلحق بهم عاجلاً أم آجلاً.

لقد رسم الإمام عليه السلام صورة واضحة ودقيقة في هذا القسم من الخطبة عن الدنيا، نعم، فهذه الدنيا نعيش فيها آفاق تختلف تماماً عن واقعها، آفاق القصور والثروات والنعم والجمال والنشاط ولكن ما إن نقرب منها حين نصطدم بصورتها القبيحة، فالإنسان من جانب - كما أشار الإمام عليه السلام - هو هدف دائم لسهام الآفات والبلاء، بحيث لا يسعه التهكن بمستقبله لما بعد ساعة، ومن جانب آخر فيالي جانب كل نعمه مصيبة وإلى جانب كل وردة شوكة وأخيراً لا ننال نعمه حتى نفقد أخرى، نعيش حياة متواضعة، لكنّها مفعمة بالاستقرار، نتمنى سعة هذه المعيشة، إلّا أننا إن نلنا منيتنا طالعنا العديد من المشاكل، حفظ المال والثروة بحدّ ذاته مشكلة كبيرة، إلى جانب عين الحساد التي تصوب نحوه وأمانى الأشرار بزواله واللصوص الذين يتربصون به، وأحياناً خيانه الزملاء والأصدقاء وهكذا سائر المشاكل التي تصب على رأسه من كل حذب وصوب والتي تقضى على استقراره بصورة تامة، ناهيك عن مختلف الأمراض

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٤١٠

التي تعرض للإنسان بفعل الجهاد، إنا خام ما دمنا شباباً فان نضجنا وعجزنا، وأنذاك يسعنا الاستفادة الصحيحة من الأموال بينما أيدينا خالية، فان أصبحنا نملك شيئاً لم يسعنا الاستفادة منه، فهل يمكن التعلق بمثل هذه الدنيا والوثوق بها؟ يقال إن أحدهم طلب من ملك أن يجلس على عرشه ساعة ويسلمه مقاليد الحكم ويأتمر بأمره الحرس والغلمان، فأجابه الملك لكنه أمر أن يعلق فوق رأسه بشعرة، فلما جلس على العرش شعر بالفرح الشديد، فوقع عينه على الخنجر وأنه معلق بشعرة فارتعش، لأنه ظن سيقع عليه في كل لحظة، فلمّا همّ بالهروب قيل له لم تنتهي ساعتك، فجلس خائفاً ينتظر انتهاء المدّة وهو يدعو إلى إنتهائها، ففهم إن كان السلطنة من جمال فهي تشتمل على آلاف الأخطار، ولعل هناك من يهم بقتله من أقرب مقريه كما يفيد التاريخ ذلك، ورغم كل هذه المشاكل فليس هناك من بقاء وخلود في الحياة الدنيا ليسعى إليها الإنسان ويجهد نفسه من أجلها، وما عليه إلّا السير نحو الآخرة، وكما قال آخر خلفاء بنى امية

«لَمَّا حَلَا لَنَا الدَّهْرُ خَلَا مِنَّا» [٧١٧].

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٤١١

القسم الثاني: موت السنن بظهور البدع

منها: «وَمَا أُحْدِثْتُ بِدْعَةً إِلَّا تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ. فَاتَّقُوا الْبِدْعَ وَالزُّمُومَ الْمُهَيِّعَ.

إِنَّ عَوَازِمَ الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَإِنْ مُحَدَّثَاتِهَا شِرَارُهَا».

الشرح والتفسير

يعالج هذا الكلام من الخطبة قضية مهمّة وهي قبح البدع، وعلى ضوء عدم الإرتباط الواضح بين هذا القسم والذي سبقه فالذي يبدو أن بين هذين القسمين أقسام حذفها المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه، ولا بدّ من تغيير مفردة البدعة على أساس اللغة والشرع ليتضح لدينا مضمون هذا القسم من الخطبة: فالبدعة لغوياً تعنى كل تجدد والذي يمكنه أن يكون حسناً أو سيئاً، حسب ما صرّح به أرباب اللغة: «البدعة إنشاء أمر على غير مثال سابق».

أمّا المعنى السائد بين الفقهاء العلماء - كما ذكرنا ذلك في شرح الخطبة السابعة عشرة - إدخال شىء في الدين أو إخراجه دون قيام دليل معتبر على ذلك، ولما كانت تعاليم الإسلام وأحكامه خالدة ونازلة عن طريق الوحي فكل بدعة كبيرة، وإليها تعود كل فرقة واختلاف أصاب الامّة الإسلامية، نعود الآن إلى شرح كلام الإمام عليه السلام فقد قال:

«وَمَا أُحْدِثْتُ بِدْعَةً إِلَّا تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ».

ثم نصح باجتناب البدع وضرورة السير على النهج المستقيم فقال عليه السلام:

«فَاتَّقُوا الْبِدَعَ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤١٢

وَالزُّمُومَا الْمُهَيِّعَ [٧١٨]. إِنَّ عَوَازِمَ [٧١٩] الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَإِنَّ مُحَدَّثَاتِهَا [٧٢٠] شِرَارُهَا».

فقد اتضحت حقيقة ما قيل في هذه العبارة في كيفية ترك سنه حين ظهور بدعه، وكيف تكون البدعه شر الامور، لأنه لو سمح للأفراد أن ينقصوا من الدين شيئاً أو يضيفوا له شيئاً على ضوء ذوقهم وفكرهم القاصر، لما بقى من أحكام الدين وتعاليمه شيئاً خلال مدة وجيزة ولإنقلب كل شيء رأساً على عقب، وفقد اعتباره وأصلته، ولإستبدلت التعاليم الأصلية للدين بسلسلة من الأفكار المنحرفة والواهية ولحل السراب محل العين الزلال، طبعاً إن كان التجدد وليد البحث والتحقيق والدقيق في أدلة أحكام الشرع وكشف حقائق حديثه من خلال الكتاب والسنة والدليل القاطع للعقل، فليس هذا من البدعه في شيء فحسب، بل سيكون سبب رفعة الدين وإزدهاره. وبعباره أخرى: فإن الكشف شيء جديد، أما المكشوف فهو موجود سابقاً في الدين، أما إن كان الذوق الشخصي والاستحسان الظني هو دعامة وأساس التجدد فليس له من نتائج سوى الظلال ومسوخ الصورة الحقيقية الناصعة للدين ويتضح مما مر معنا عدم صواب ما أورده شراح نهج البلاغه للعبارة المذكورة من أن كل بدعه خلاف لسنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي حرم البدعه، وعليه فالسنة تترك بظهور البدعه، بل المراد أن لكل موضوعه في الإسلام حكم، وكل بدعه تعارض ذلك الحكم، إذن بظهور البدع تترك الأحكام الأصلية للدين - كما تبين جسامه خطأ ما أورده بعض شراح نهج البلاغه مثل ابن أبي الحديد الذي قسم البدع إلى حسنة وسيئة، فاعتبر مثلاً صلاة التراويح (تلك الصلاة المتسحبة التي كان يصلها الناس فراداً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في ليالي رمضان وقد ابتدع عمر أن تصلى جماعة) من البدع الحسنه،

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤١٣

وذلك لأنه بهذه البدعه ترك سنه، وترك سنه استحباب الأفراد في الصلاة المستحبه، وعليه فليس لدينا بدعه حسنة، وإن أقرنا البدعه الحسنه كان ذلك الإقرار بأن السنة قد تكون حسنة وقد تكون سيئة، كما اتضح المعنى الذي أراده بعض العلماء للبدعه حين أجروا عليها الأحكام الخمسة من أن بعض البدع واجبه وبعضها محرمة، فأنما أرادوا المعنى اللغوي لا الشرعي بإضافة أو طرح أشياء من الدين وأحكامه ومن هنا ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَلَا وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، أَلَا وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ» [٧٢١].

ومن أراد الوقوف على المزيد بشأن البدعه فليراجع المجلد الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبة السابعة عشرة.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤١٥

الخطبة [٧٢٢] المائة والسادسة والأربعون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وقد استشاره عمر بن الخطاب في الشخوص لقتال الفرس بنفسه

نظرة إلى الخطبة

هناك خلاف بين المؤرخين في أن هذه الاستشارة بخصوص الحضور في معركة نهاوند أو القادسية، ويرى الطبري حسب قول ابن

أبي الحديد أنها في معركة نهاوند، بينما يراها المدائني في كتاب «الفتوح» بشأن معركة القادسية [٧٢٣]، وخلاصه ما ورد في تاريخ الطبري أن عمر حين عزم على الشخوص بنفسه لقتال العجم طلب مشورة الصحابة فتقدم طلحة والزبير وقالا رأيهما، إلا أن عمر استشار علياً عليه السلام فأشار عليه السلام بعدم الشخوص بنفسه كما في الخطبة، قال المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله في «الإرشاد»، ورد عن أبي بكر الهذلي أن من بين الامور التي نقلت عن أمير المؤمنين على عليه السلام في إرشاد الناس لما فيه مصلحتهم ولولا إرشاده لكان فسادهم أن فريقاً من أهل همدان والري وإصفهان ودامغان وناهند تكاتبوا بينهم وبعثوا الرسل فرأوا أن الإسلام قد فقد زعيمه (النبي الأكرم صلى الله عليه وآله) وخلفه من لم يستمر، ثم خلفه من طال عمره وقد

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤١٦

هجم على مدننا وإنه لن يتركنا ما لم نخرجه، فلما بلغ عمر الخبر فقدم إلى المسجد وأطلع الصحابة بالخبر، فقال كل رأي، فأشار على عليه السلام (كما ورد في هذه الخطبة) بما فيه صلاح الإسلام والمسلمين، قال الشيخ المفيد: انظر كيف بين الإمام عليه السلام رأيه الصائب في تلك الظروف الحساسة وأنقذ المسلمين [٧٢٤]، على كل حال فإن هذه الخطبة تعالج بمجموعها موضوعاً واحداً، وهو أن حضور رئيس الدولة في الحرب في بعض الظروف أمر خطير جداً من شأنه أن يؤدي إلى مشكلتين، أحدهما إتحاد أفراد العدو فيما بينهم وبذل قصارى جهدهم من أجل قتله، فيضطرب الجيش ويختل نظمه، والأخرى على فرض عدم حدوث مثل هذا الخطر فلعل إخلاء الجبهة الداخلية يشجع العدو على الهجوم على المراكز الأصلية للبلاد من كافة الجهات فتتجم من جراء ذلك الأخطار الشديدة التي تهدد كيان الإسلام والمسلمين، وتشير هذه الخطبة بوضوح إلى أن علياً عليه السلام أنه كان يقف حتى إلى جانب أعدائه إذا اقتضت ذلك مصالح الإسلام والمسلمين حرصاً على الدين وكيانه.

طبعاً هذا الكلام لا يعنى أن رئيس الدولة لا ينبغي أن يشخص بنفسه قط في ميدان القتال فقد شخص أمير المؤمنين على عليه السلام بنفسه في معارك الجمل وصفين والنهروان، وأعظم من ذلك حضور النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الغزوات، فالشرائط متفاوتة تماماً بحيث كانت تتطلب عدم حضور الخليفة الثاني في الميدان.

والجدير بالذكر أن المعارك قد تقع أحياناً بالقرب من البلاد الإسلامية وفي المناطق القريبة منه فإن حضور المعركة من قبل رئيس الدولة لا يترتب عليه أية مخاطر في مثل هذه الظروف، في حين تبرز مثل هذه المخاطر في المناطق البعيدة وتجاه عدو قوى يمتلك جيشاً كبيراً، وقد تحدثنا في مثل هذا الأمر في شرحنا للخطبة ١٣٤.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤١٧

القسم الأول: الالتصاق بمركز الدولة

إشارة

«إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصِيرَةً وَلَا حِدْلَانُهُ بِكَثْرَتِهِ وَلَا بِقِلَّةِ. وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَمَدَهُ وَأَمِيدُهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ؛ وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعَدُهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدُهُ. وَمَكَانُ الْقِيَمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النَّظَامِ مِنَ الْخَرْزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنْ انْقَطَعَ النَّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرْزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحِذَائِهِ أَبَداً. وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالْاجْتِمَاعِ! فَكُنْ قُطْبًا، وَاسْتَبْدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَّصْتَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدْعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعُورَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ».

الشرح والتفسير

صرح الإمام عليه السلام في البداية بهدف عدم رعب المسلمين بفعل كثرة جيوش العدو في تلك المعركة القاسية، سيما ما ذكرته

بعض التواريخ من أن رأى عثمان حين أشار عليه الخليفة الثاني كان مقبولاً، فقال:

«إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصِيرُهُ وَلَا حِدْلَانُهُ بِكَثْرَةِ وَلَا بِقِلَّةِ. وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعِيدَهُ وَأَمِيدُهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ»

، فى إشارة إلى أننا كنا دائماً قلبه مقابل العدو فى الحروب التى خضناها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، مع ذلك فقد انتصرنا وشملنا الله برحمته وعنايته، وقد لمسنا هذا الفضل دائماً، وعليه فلا تخشوا من كثرة العدو وامتصوا بعد التوكل على الله تعالى.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٤١٨

والعبارة هذه تذكر بنصر المسلمين فى بدر والأحزاب وأمثالهما.

ولعل الفارق بين العبارتين بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع أن العبارة الثانية تخبر عن انتشار الإسلام والأولى عن منتهى منطقة نفوذ الإسلام، كما يحتمل أن تكون العبارة الأولى إشارة إلى المناطق التى نفذ إليها الإسلام، والعبارة الثانية إلى المناطق التى ذاع فيها صوت الإسلام وشع عليها بما يمهّد السبيل أمامه وإن لم ينفذ إليها بعد، أو أن العبارة الأولى إشارة إلى قوة الإسلام وقدرته، والثانية إلى سعة الإسلام وانتشاره.

ثم قال عليه السلام مؤكداً ذلك الكلام:

«وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ»

، إشارة إلى الآية الشريفة: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» [٧٢٥]. والآية: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» [٧٢٦].

نعم، فقد وعدنا فى ظل الإيمان بالنصر فى الدنيا والآخرة وتشهد سائر الآيات القرآنية على هذا المعنى، وما إن فرغ الإمام عليه السلام من بيان هذه المقدمة بهدف الاستقرار الروحى للخليفة والحاضرين حتى تطرق إلى الموضوع الأصلى للمشورة فى حضور عمر بنفسه فى المعركة فقال:

«وَمَكَانَ الْقَيْمِ بِالْأَمْرِ مَكَانَ النَّظَامِ [٧٢٧] مِنَ الْخَرْزِ [٧٢٨] يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنْ انْقَطَعَ النَّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرْزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَدَافِيرِهِ [٧٢٩] أَبَدًا»

يا له من تعبير رائع وتشبيه جميل فالقائد والزعيم لبلد بمنزلة خيط المسبحة أو القلادة بفضله رمز الوحدة وإنسجام الأمة، كما تحمل الزعيم قضية فى أن يتحلى بسعة الصدر ووسع الفكر بحيث يستطيع استقطاب كافة الأفراد وصهرهم فى كتلة متحدة.

ثم خاض الإمام ثانية فى رفع معنوياتهم على أن العرب اليوم هم الكثرة رغم قلتهم وما

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٤١٩

ذلك إلّا بالإسلام فقههم عزيزون ومقتدرون فى ظل اجتماعهم واتفاقهم فى ظل هذا الدين:

«وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالْاجْتِمَاعِ!»

فخلص من ذلك إلى نتيجة أصلية:

«فَكُنْ قُطْبًا، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ [٧٣٠]

دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ».

ثم ذكر دليل ذلك فقال عليه السلام:

«فَإِنَّكَ إِنْ شَخَّصْتَ [٧٣١] مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَصَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ

مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدْعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعُورَاتِ [٧٣٢] أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ»

إشارة إلى أن الإسلام فى بداياته لحد الآن، وما زال المنافقون وسليوا عصر الجاهلية فى صفوف العرب وهم يتربصون الفرصة لظعن

المسلمين من الخلف، فلو انطلق القائد وصحبه الأوفياء إلى نقطة بعيدة يكون الميدان قد خلى للمفسدين والمنافقين، ولعلمهم يسيون بعض الأخطار التي تفوق أخطار العدو الخارجي، أضف إلى ذلك فلو اصطدم الجيش بمشكلة في الجبهات، كان بإمكان القائد إن استقر في المركز أن يعي جيشاً جديداً ويبعث به إلى ميدان القتال، بينما ينهار سند الجيش إن حضر بنفسه الميدان.

والجدير بالذكر أن العرب في العبارة

«وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ...»

تختلف عن العرب في العبارة

«انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ...»

فالمراد بالاولى المخلصون من المؤمنين، والثانية المنافقون الذين يظهرون الإيمان، أو المسلمون الضعاف.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٢٠

فائدة

ما يستفاد من هذه العبارات دورس مهمة في مجال الإدارة والقيادة وتصريف شؤون البلاد:

أولاً: حفظ القائد والزعيم للامة لا من منظار شخصي بل كونها قضية اجتماعية تعد من أهم الواجبات، وذلك لأنه رمز وحدة الامة وتماسكها، ومن هنا لا بد من الأخذ بنظر الاعتبار جميع التدابير اللازمة من أجل حفظه ودفع أي احتمال يمكنه أن يشكل خطراً عليه، سيما أن العدو ومن خلال الاطلاع على هذا الموضوع يسعى لاستهداف شخص القائد قبل كل شيء، وقد دلت التجربة التاريخية أن أقصر طريق لهزم جماعة يتمثل بدك موقع القيادة واستهداف القائد، ولعلنا نلمس هذا الأمر في قضية بنى اسرائيل وقتالهم لجالوت التي عرضها القرآن الكريم حيث استهدف داود شخص جالوت فقتله فانهمز الجيش إثر ذلك.

ثانياً: على القائد أن ينظر باحدى عينيه إلى العدو الخارجي وبالاخرى إلى الاعداء في داخل البلاد، حتى ورد في هذه الخطبة وكما دلت التجارب التاريخية الكثيرة على خطر العدو الداخلي الذي يفوق الخطر الخارجي، وذلك لأن الذي يأتي من الخارج معروف، بينما يتمثل العدو الداخلي عادة بالمنافقين الذين يتخفون بين أبناء المجتمع، فإن سنحت لهم أدنى فرصة سدوا سهام حقدهم وضربوا ضربتهم، إضافة إلى أنهم على علم تام بمواقع الخلل في الداخل وكيفية التسلل إلى المناطق، ومن هنا عبر الإمام عليه السلام عنهم وعن أخطارهم المتوقعة بالعورات وعد أخطارهم من أهم الأخطار.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٢١

القسم الثاني: الكثرة لا تسبب النصر

إشارة

«إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِن يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَدًا يَقُولُوا: هَذَا أَصْلُ الْعَرَبِ، فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ قَطَعْتُمُوهُ»

[استرحتم، فيكون ذلك أشد لقلبهم عليكم، وطمعهم فيك. فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين؛ فإن الله سبحانه، هو أكره لمسيرهم منك، وهو أفدر على تغيير ما يكره. وأما ما ذكرت من عددهم، فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة!].

الشرح والتفسير

هذا المقطع من الخطبة في الواقع تأييد وتأكيد للقسم الأول، وقد أشار إلى ثلاث نقاط، الأولى: الدليل الذي أقامه الإمام عليه السلام على عدم حضور الخليفة في ميدان الحرب فقال:

«إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ عَدَاً يَقُولُوا: هَذَا أَضَلُّ الْعَرَبِ، فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ قَطَعْتُمُوهُ»

[استرحمهم، فيكون ذلك أشد لقلبهم ٧٣٣] عليك، وطمعهم فيك».

الثانية:

«فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ»

، وتشير العبارة إلى أن عمر قال سابقاً بأن الأعاجم قد زحفوا نحونا وبنوون قتالنا وهذا يدل على ما يروونه في أنفسهم من قوة، ولعل الأمر كان كذلك حسب الظاهر وما تفيده الشواهد التاريخية، إلا أن الإمام عليه السلام ذكر بقدره الله الخاصة من أجل رفع معنوياته وهو الأمر الذي لمسه المسلمون كراراً في غزواتهم، ومن

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٢٢

الطبيعي أن يتعدد الأمر لو بقي المسلمون في ديارهم وهجم عليهم العدو فما أراهم لو توكلوا على الله وتصدوا للعدو خارج بلادهم.

الثالثة: أن الخليفة الثاني كان يخشى عدم التكافؤ وموازنة القوى بين المسلمين والأعداء، فرد عليه الإمام عليه السلام بالقول:

«وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيْمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ!»،

فقد كان عمر يرى قوة العدو واقتداره في أمرين، أحدهما كثرتهم وزيادة عددهم، والآخر حركتهم وهجومهم على بلاد الإسلام.

نفحات الولاية؛ ج ٥؛ ص ٤٢٢

د صرح الإمام عليه السلام إننا لم نقاتل العدو ومنتصر عليهم بهذه القوة الظاهرية، وقد أيدنا الله بنصره ومدده العيني في جميع مواقف القتال، وقد انتصرنا رغم قلة العدد وكثرة العدو وهجومه علينا، وهكذا شجعه الإمام عليه السلام على مواجهة العدو، وأكد أيضاً عدم حضوره شخصاً في الحرب، واستجاب له عمر وكان النصر حليف المسلمين.

معركة القادسية ونهاوند

وقعت معركة مهمتان بين المسلمين والساسانيين على عهد عمر القادسية [٧٣٤] في عام ١٤ هـ ومعركة نهاوند عام ٢١ هـ، وقد استشار عمر بشأن حضوره القتال، وقد مرر علينا في الخطبة أن الإمام عليه السلام منعه من ذلك بعد ذكره للأدلة المحكمة، بينما أشار عليه الآخرون بالحضور، فقبل من الإمام عليه السلام وبقي في المدينة، وذهب بعض المؤرخين إلى أن هذه المشورة كانت في معركة نهاوند، على كل حال حين عزم عمر على عدم الحضور في القادسية ولي سعد بن أبي وقاص إمره الجيش، بينما نصب يزدجرد الساساني رستم فرخزاد، فبعث سعد رسوله النعمان بن المقرن إلى يزدجرد، فعنفه حيث لم يتوقع ذلك من العرب آنذاك وقال له لولا أنك رسول لقتلتك، ثم أمر بذر التراب على رأسه وطرده من المدائن، وقال له أن رستم سيدفن قائد عسكركم في خندق القادسية، فلما عاد النعمان إلى سعد، فقال سعد، ابشر أن وضعوا التراب على رأسك فاننا سنملك بلدكم، والعجيب أن رستم كان يخشى قتال المسلمين رغم تعداد جيشه الذي بلغ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٢٣

١٢٠ ألف بينما كان عدد جيش المسلمين بضع وثلاثين ألف.

وأخيراً تقاتل الجيشان، وفي اليوم الأول هجم الساسانيون بفيلهم على المسلمين، ولكن المسلمين تمكنوا من قطع خراطيمها وقد قتل

من العدو في ذلك اليوم ٢٠٠٠ ومن المسلمين ٥٠٠، وفي اليوم الثاني تقدم أبو عبيدة الجراح بجيش من الشام لنصرة سعد بن أبي وقاص فقتل من الساسانيين عشرة آلاف بينما قتل ألفان من المسلمين، وفي اليوم الثالث اشتد القتال واستمر القتال حتى اليوم الرابع فبان الضعف على العدو، فهبت ريح شديدة فهجم المسلمون على خيمه رستم، فحاول الهرب لكنه صرع تحت حوافر الخيل، فانهزم الجيش الساساني فلما بلغ الخبر عمر أمر بعدم تعقيب العدو وأن تستقر الجيش هناك فبقى سعد هناك في الكوفة فعلاً فبنى مسجداً وباشر بناء الكوفة، أما معركة نهاوند [٧٣٥]، فقد ذكر الطبري أن عمر أراد أن يشخص لقتال الجيش الساساني في نهاوند فأشار عليه الصحابة حتى خطب الإمام عليه السلام فوافقه عمر وقال هذا هو الصواب.

ثم أمر النعمان الذي كان والي البصرة، فواجهه لقتال الفيروزان قائد جيش كسرى في نهاوند، فان قتل خلفه حذيفة ومن بعده نعيم، كما وجه معه طلحة بن خويلد وعمرو بن معدى كرب العارفين بالقتال ثم أمره بمشورتها، وقد قتل النعمان في المعركة، فحمل الراية حذيفة حتى قتل الفيروزان ودخل المسلمون نهاوند وحصلوا عن غنائم كثيرة فبعثوا بها إلى عمر، فلما رأى عمر الغنائم بكى فسألوه عن ذلك، قال: أخشى خداع الناس من هذا الثراء.

قال بعض المؤرخين: أن هذه المعركة حدثت عام ٢١ هـ لسبع سنوات بعد القادسية وقد انهزم الساسانيون ودخل المسلمون إيران، فما كان من الايرانيين المعروفين بالفطنة إلا أن تعرفوا على الإسلام واعتنقوه فأصبحوا من رواد العلوم الإسلامية. والجدير بالذكر أن مقاومة الايرانيين تركزت في القادسية ونهاوند، بينما كانوا يستقبلون المسلمين حين دخلوا من سائر المدن، ولم يبدو أية مقاومة، فقد كانوا يعانون من الساسانيين من جانب، ومن جانب آخر رأوا نجاتهم في الإسلام [٧٣٦].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٢٥

الخطبة [٧٣٧] المائة والسابعة والأربعون

إشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي الْغَايَةِ عَنْ بَعْتِهِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَأَهْمِيَّةِ الْقُرْآنِ، وَالْإِخْبَارِ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من عدة أقسام:

القسم الأول: إشارة إلى أهداف بعته النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ودور القرآن في هداية الناس.

القسم الثاني: يخبر فيه الإمام عليه السلام عن الفتن القادمة ويتحدث عن وقت يغرق الناس فيه بالذنوب والمعاصي وينسون القرآن.

القسم الثالث: إنذار الناس والتذكير بعاقبة الأقوام السابقة التي صب عليها البلاء.

القسم الرابع: بين فيه الإمام عليه السلام بعض المواعظ الموثرة والمفيدة وقد دعى الناس إلى إتباع القرآن وأهل البيت عليهم السلام من أجل النجاة من الفساد.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٢٧

القسم الأول: تجلى الله لعباده في القرآن

إشارة

«فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَّهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيُعَلِّمَ الْعِبَادَ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوا، وَلِيُقَرِّبُوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثَبِّتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ. فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ، بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَخَوْفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَكَيْفَ مَحَقَّ مَنْ مَحَقَّ بِالْمَثَلَاتِ، وَاحْتَصَدَ مَنْ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة - كما ذكر ذلك الشارح البحراني - إلى بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ثم شرح أهداف البعثة، ثم أشار إلى الوسيلة التي اعتمدها لتحقيق ذلك الهدف وهي القرآن الكريم فقال: «فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ»، يالها من عبارة بليغة رائعة وقصيرة بشأن الهدف من بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والتي تستند إلى ركيتين: الأولى: ترك عبودية الأصنام والتمسك بالتوحيد في العبادة، أي عبادة الله. الثاني: التحرر من طاعة الشيطان والاقبال على طاعة الله سبحانه وتعالى.

لا شك أن طاعة الشيطان نوع من الوثنية، وعليه فهي داخله في مفهوم العبارة الأولى يعنى عبادة الأوثان، إلّا أن تقابل هاتين العبارتين يفيد أن العبادة قد استعملت في معناها الخاص، والمراد طاعة الشيطان، إتباع أوامره لا عبادته، على كل حال فإن للأوثان والشيطان في هاتين

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٢٨

العبارتين مفهوم واسع يشمل كل معبود غير الله سبحانه وتعالى ويضم شياطين الانس والجن، وبناءً على هذا يدخل في مفهوم هذه الجمل التسليم لحكام الظلم والجور وطاعة أوامرهم والاستسلام للاستعمار والاستغلال والانصياع للقوانين غير الشرعية، وهذا هو هدف البعثة والذي يتمثل بالتحرر من كل هذه الأمور.

نقل المرحوم الكليني في الكافي العبارات المذكورة بهذه الصيغة:

«إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ وَمِنْ وَلايَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى وَلايَةِ اللَّهِ» [٧٣٨].

وهكذا بين الإمام الهدف الأصلي لبعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والذي تعود إلى سائر الأهداف بهذه العبارات المختصرة وقد أماط كل إبهام.

ثم أشار عليه السلام إلى الوسيلة اللازمة لتحقيق هذا الهدف السامي فقال:

«بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَّهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيُعَلِّمَ الْعِبَادَ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوا، وَلِيُقَرِّبُوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثَبِّتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ».

لا شك أن مشركي العرب كانوا يؤمنون بالله ويعترفون بوجوده وأنه خالق السماوات والأرض ويرون الأوثان شفعا لهم إليه، ولكن ليس لهذا الاعتقاد الممزوج بالشرك أية قيمة، وقد بعث الله نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله ليطهر أرواحهم وأفكارهم من أدران الشرك والوثنية ويشدهم نحو التوحيد والعبودية الخالصة، وهذا في الواقع وظيفة كافة الأنبياء والمرسلين في تطهير التوحيد من رواسب الشرك.

وقال عليه السلام في تعريفه للقرآن وآثاره البناء في الفكر والعمل:

«فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي

كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ، بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ».

والعبارة إشارة إلى آيات التوحيد وبيان أسماء الله وصفاته والتي تفعل مثل هذا الفعل في الإنسان حين يتأملها وكأنه يرى الله سبحانه وتعالى جهره، نعم يراه ولكن بالبصيرة لا

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٢٩

بالبصر، احتمال البعض أن المراد بالكتاب هنا كتاب عالم التكوين المملوء بآيات الله سبحانه بحيث نشاهدها أينما نظرنا [٧٤٠]، ولكن يبدو هذا المعنى مستبعداً بالاستناد إلى العبارة السابقة التي أشير فيها إلى القرآن في العبارة اللاحقة إلى الإنذار الإلهي، والمراد بالكتاب القرآن الكريم، ولما كان تجلي الله بواسطة الآيات القرآنية قد يوهم إمكانية رؤية الله بالعين، فقد صرح عقيب ذلك مباشرة بأن هذا التجلي يحصل دون رؤية بالبصر.

وأشار في العبارة القادمة إلى جانب آخر من آيات القرآن الكريم وهي آيات الإنذار والتخويف، فقال عليه السلام:

«وَخَوْفَهُمْ مِنْ سَطَوْتِهِ»،

ثم تطرق بعد ذلك إلى القصص الأليمة للأقوام السابقة وما تنطوي عليه من دروس وعبر فقال:

«وَكَيْفَ مَحَقَّ [٧٤١] مَنْ مَحَقَّ بِالْمَثَلَاتِ [٧٤٢]،

وَاحْتَصَدَ [٧٤٣] مَنْ احْتَصَدَ بِالْقِمَاتِ!»،

وأخيراً ما زال هناك احتمال في تفسير العبارات المذكورة في أن الله تعالى قد تجلى في كتابه بجميع هذه الموارد (آيات القدرة والتخويف من السطوة والقصص الأليمة للأقوام العاصية).

كيفية تجلي الله في القرآن

كما شحن كتاب عالم التكوين بآثار عظمة الله وقدرته في آيات الآفاق والأنفس وفي السماوات والأرض وفي أكثر المنظومات والكرات السماوية وفي أصغر ذرات وجودنا، وكما صور ذلك الشاعر بأن كل نبات يخرج من الأرض يهتف وحده لا شريك له، وكذلك الذات الإلهية متجلية في القرآن الكريم، حين يتحدث عن آياته في السماوات والأرض وحين يستعرض نعم الجنان ونعم النيران وحين يتحدث عن قدرته الباهرة في الخلق وحين يكشف اللثام عن صفات جلاله وجماله ورحمانيته، فذاته ظاهرة متجلية في كل هذه الآيات وقد قال

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٣٠

بعض الأعلام أن أغلب المكاشفات تتم حين تلاوة القرآن الكريم والتدبير في مفاهيمه، أجل لا يمكن رؤية الله سبحانه بهذه العين، بينما يمكن رؤيته بعين القلب ومن خلال آياته القرآنية، فما أحرانا بالنظر إلى عالم التكوين والتفكير وفي أسرار الوجود ومن ثم نفتح القرآن الكريم ونطالع آيات التكوين في الكتاب التدوين، حقاً لو كان لنا مئة ألف عين لشاهدنا مئة ألف تجلي من تجليات الحق تبارك وتعالى.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٣١

القسم الثاني: لا يبقى من القرآن سوى اسمه

إشارة

«وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سَلْمَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تَلَى حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ وَلَا فِي الْبِلَادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ! فَصَدَّ بَدَأَ الْكِتَابِ حَمَلَتَهُ، وَتَنَاسَاهُ حَفْظَتُهُ؛ فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ، وَصَاحِبَانِ مُضِيَّ طَجِبَانِ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَيُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ. فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ! لَأَنَّ الضَّلَالَةَ لَأَتَوَافِقُ الْهُدَى،

وَإِنْ اجْتَمَعَا. فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ، وَافْتَرَقُوا عَلَى الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَيْمَةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَغْرِفُونَ إِلَّا حَطَّهُ وَزَبْرَهُ. وَمِنْ قَبْلِ مَا مَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلِّ مَثَلَةٍ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللَّهِ فَرِيَةً، وَجَعَلُوا فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ».

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام في القسم المذكور عن ظهور الإسلام والهدف من بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والآثار العظيمة للقرآن في الهداية، ثم واصل عليه السلام كلامه في هذا القسم بالحديث عن زمان لا يبدو بعيداً وسيشهد تغيراً تاماً في الأوضاع بما يهدد بالخطر جهود النبي صلى الله عليه وآله فينذر كافة المؤمنين بالالتفات إلى الأخطار التي تترصد بهم، فاستهل عليه السلام كلامه ببيان الوضع في ذلك الزمان بسبع عبارات قصيرة بليغة فقال:

«وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٣٢

شَيْءٌ أَحْفَى مِنَ الْحَقِّ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكُذْبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ»

، كما ليست لدى الناس من سلعة أبور من القرآن الكريم آنذاك إن فسّر وتلى حق تلاوته، بينما يزداد الإقبال عليه إن حُرّف عن معناه الحقيقي:

«وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سَلْعَةٌ [٧٤٤] أَبْوَرُ [٧٤٥] مِنَ

الْكِتَابِ إِذَا تَلَى حَقَّ تَلَاوَتِهِ، وَلَا أَنْفَقَ [٧٤٦] مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ وَلَا فِي الْبِلَادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ

مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ! فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ، وَتَنَاسَاهُ [٧٤٧] حَفِظَتُهُ».

نعم، ستظهر غيوم الجاهلية ثانية في سماء الإسلام فتحجب شعاع شمس النبوة والقرآن فيتغير كل شيء وتنطمس حقائق الإسلام ويستولى سليلوا أئمة الكفر والشرك والوثنية على الحكومة الإسلامية فتعاني الأمة من ظلمات الجهل والجور، والسؤال المطروح أي زمان هذا الذي أشار إليه الإمام عليه السلام؟ هل المراد زمان معين؟ أم الحكومة مفهوم عام ويشمل مختلف الأزمنة حتى زماننا الحاضر؟ هناك خلاف بهذا الشأن بين شراح نهج البلاغة، ولكن بالنظر إلى العبارة «سيأتي» التي تفيد عادة الإخبار عن المستقبل القريب والتعبير بـ «عليكم» ومن بعدى التي تشير إلى درك مخاطبيه له، يبدو أنه إشارة إلى زمان سيطرة بنى امية ومعاوية ويزيد وسائر حكامهم الذين تنطبق عليهم هذه الصفات، نعم، فهؤلاء الذين كتموا الحق وقطعوا رقبة كل من تعصب له، إلى جانب ذلك فقد إتسق سوق الكذابين والوضاعين والمتملقين لبنى امية ممن اندفع في مدحهم والثناء عليهم، فقد ظهرت المنكرات في كل مكان وضاع المعروف.

طبعاً لا ننكر أن هذا الأمر حدث ويحدث في سائر الأزمنة وحتى في عصرنا، مع ذلك فمراد الإمام عليه السلام من هذه العبارات العصر المظلم لبنى امية.

ثم خاض الإمام عليه السلام في وضع القرآن وأصحابه في ذلك الزمان المظلم وشرح علّة بؤس الناس آنذاك والتي تتمثل بابتعادهم عن القرآن: «فَالْكِتَابُ يَوْمٌ مَيِّدٌ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ [٧٤٨] مِنْفِيَانِ [٧٤٩]،

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٣٣

وَصَاحِبَانِ مُضْطَحِبَانِ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَأَيُّوِيهِمَا [٧٥٠] مُؤَوْ».

ثم أكد عليه السلام قائلاً:

«فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ!»

، فهم يتلون القرآن في دورهم وعلى منابرهم، ويقبلونه ويتبركون به، بينما ليس هنالك أدنى أثر لتعاليمه ومفاهيمه في حياتهم الفردية والاجتماعية، فقد اكتفوا من القرآن بغلافه وتركوا مضمونه، إنهمكوا بالألفاظ وأهملوا المعاني.

ثم خاض عليه السلام في الدليل قائلاً:

«لَأَنَّ الصَّلَاةَ لَأَتَوَفَّقُ الْهُدَى، وَإِنِ اجْتَمَعَا».

نعم، فالضالون في وادي والهدى وأتباعه في وادي آخر، وإن كانوا معاً في الظاهر، والدليل الآخر المهم لشقائهم:

«فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ، وَافْتَرَقُوا عَلَى الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَنَّمَةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ»،

بعبارة أخرى فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا، وقد أدت هذه الفرقة إلى أن يفسر كل القرآن حسب رغبته، أو بعبارة أخرى فقد أسسوا بنيانهم على التفسير بالرأى، يأخذون ما ينسجم مع رغباتهم من آيات بينما يسعون لتوجيه البعض الآخر من الآيات التي تتعارض وأهوائهم بما يتفق ورغباتهم، فهم يجعلون أنفسهم أئمة القرآن بدلاً من أن يكون القرآن الكريم إمامهم، ولذلك فهم لا ينتفعون بالقرآن، بل يجعلونه الموجه لضلالهم، فيزدادوا ضلالاً وبعداً عن القرآن الكريم.

ثم رسم صورة واضحة عن مصير القرآن في ذلك العصر والزمان بعبارة رائعة لا تماثلها عبارة فقال عليه السلام:

«فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا حَطَّهُ وَزَبْرَهُ [٧٥١]»

، فقد يسطر القرآن بخطوط غاية في الجمال وتذهب صفحاته وغلافه وابتدعوا روائع الفن بهذا الخصوص وتتداول الأيدي القرآن ويتلى في المساجد بمختلف الأصوات بصورة فردية وجماعية، ولكن دون أن يكون هناك أدنى خبر عن مضمونه ومحتواه، بالضبط كالدواء الشافي الذي يوضع في زجاجة جميلة تترك على الرف دون أن يتناول المرضى منها شيئاً، وهنا يبرز هذا السؤال: هل الصالحون والمؤمنون وأصحاب القرآن صامتون في ذلك الزمان؟ كأن الإمام عليه السلام أجاب في

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٣٤

العبارة الأخيرة على هذا السؤال فقال:

«وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَلُوا [٧٥٢] بِالصَّالِحِينَ كُلِّ مَثَلٍ، وَسَمَّوْا

صِدْقَهُمْ عَلَى اللَّهِ فِرْيَةً [٧٥٣]، وَجَعَلُوا فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ».

فالعبارة إشارة إلى التاريخ الأسود لبنى امية الذين مثلوا بالصالحين من العباد لما رأوهم يشكلون خطراً عليهم، حتى قيل بلغ تعداد من قتلهم معاوية ما يزيد على الأربعين ألف من المهاجرين والأنصار.

ولا- نرى من حاجة لاستعراض تلك الفاجعة التي إرتكبها ولده يزيد بحق الحسين عليه السلام وأنصاره في كربلاء، كما لا يمكن إحصاء من قتلهم عبدالملك بن مروان وعامله الحجاج من أهل العراق والحجاز [٧٥٤]، وهكذا أخمدوا كل دعوة حق وقطعوا كل لسان صدق ومهدوا السبيل لإملاء أفكارهم ورغباتهم.

تأملان

١- أبشع عصور الإسلام

لا شك إن عصر حكومة بنى امية من أبشع العصور التي شهدتها الامة الإسلامية، ويشترك حكام بنى امية من معاوية حتى آخرهم الذي يعرف بمروان الحمار في ثلاث خصال هي: الجلافة والقسوة المتناهية وحب الحكومة والذوبان فيها مهما كان الثمن لبلوغها وحسن الثأر والانتقام، ومن هنا فقد ضحوا بكل معاني الحق والعدل والشرف والإنسانية من أجل حكومتهم المقيتة فارتكبوا من الظلم والجور ما لم يرد مثيله في التاريخ، وقد أذاقوا دعاء الحق

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٣٥

وصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله الأُمّرين بين قتل وتشريد وقطع الرأس ونفى وصلب وحصار فى البيت من أجل تلك الحكومة، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى عباراته الأخيرة من هذا القسم من الخطبة، إلّا أنّ أهم كهف كانت تلوذ به الامّة الإسلامية والذى يشكل أكبر عقبة تعترض طريقهم إنّما هو القرآن، القرآن الذى أعلن الحرب ضد الظلمة، والطمعاً وهدد دائماً عروش الغاشمين، وكان المعيار لتمييز الحكومة الإسلامية من الحكومات الغاصبة والظالمة والكافرة، فما كان من اولئك الطغاة إلّا أن وظفوا أشباه العلماء ووعاظ السلاطين ويهدف إزالة تلك العقبة عن طريقهم بتفسير القرآن حسب أهوائهم، فى أن آياته تشهد بحقانية اولئك الغرباء على القرآن والبعيدى عن الحق تبارك وتعالى، كما منعوا من يرون تلاوة القرآن حق تلاوته، وهكذا لم يبق من القرآن سوى اسمه ورسمه فحكم عليه بأن يصبح كالسجين الذى أودع ززانة إنفرادية مخيفة ليبعد عن أفكار الناس، وهو الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة.

فقد جاء فى الخبر أنّ معاوية حين قدم المدينة مرّ بمجلس من كبار قريش، فلما رأوا قاموا له خوفاً سوى ابن عباس، فقال له مالك لا تقوم يابن عباس أهى صفين، فقد قتل عثمان مظلوماً (وهذا ما دفعنا للقتال).

فقال ابن عباس: فقد قتل عمر بن الخطاب مظلوماً (لماذا لم تقم لنصرتة)، فقال معاوية: إنّ كافراً قتل عمر. قال ابن عباس: فمن هم قتله عثمان، قال معاوية: المسلمون. قال ابن عباس:

فهذه عليك لا لك.

قال معاوية: لقد أمرنا بعدم ذكر فضائل على وأهل بيته فاحفظ لسانك. قال ابن عباس:، أتمنعنا من قراءة القرآن؟ قال: لا. قال ابن عباس: تمنعنا من تأويله؟ قال معاوية: بلى، لك القراءة دون التأويل، وإن كان ولا بدّ فلا تحدث بفضائل أهل البيت.

ثم أمر لابن عباس بمئة ألف درهم (ليمزج الترهيب والترغيب ليتمكن بكل الوسائل من إسكات ابن عباس) [٧٥٥]، ومن أراد المزيد بشأن جنایات بنى امية والتعرف عليهم بدقّة على ضوء القرآن وأخبار العامة والأعمال التى قاموا بها من أجل مسخ المعارف الإسلامية وتحريفها فليراجع المجلد الثالث من هذا الكتاب.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٣٦

٢- التاريخ يعيد نفسه

ما أورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بشأن العصر المظلم للحكومة الاموية بأن لا يبقى من القرآن إلّا اسمه لا يقتصر على ذلك الزمان، والمؤسف له أنّ ذلك الأمر قد تكرر فى مختلف النقاط وإن لم يبلغ ما بلغه أبان الحكومة بنى امية، وما زلنا نلمس نماذج ذلك حتى فى عصرنا.

وقد وردت للإمام عليه السلام عبارة أشمل فى قصار كلماته بهذا الخصوص إذ قال:

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا إِسْمُهُ وَمِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا إِسْمُهُ وَمَسَاجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَامِرَةٌ مِنَ الْبِنَاءِ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى سُكَّانُهَا وَعُمَّارُهَا شِرٌّ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ تَجْرُجُ الْفِتْنَةُ وَإِلَيْهِمْ تَأْوَى الْخَطِيئَةُ». [٧٥٦]

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٣٧

القسم الثالث: أسباب شقاء الإنسان

«وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَعَجُّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعِيدَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ النَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنَّقْمَةُ».

الشرح والتفسير

أندر الإمام عليه السلام الجميع في هذا المقطع من الخطبة ودعاهم لتأمل تاريخ الامم السابقة ويفكروا في أسباب بؤسهم وشقائهم فيعتبروا بذلك حيث قال:

«وَأِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَعَيَّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ»،

المراد بالهلك في قوله إنما هلك حسب ما ذهب إلى جمع من شراح نهج البلاغة الهلاك المعنوي يعنى الضلالة التي ينتج عنها العذاب الاخرى، ولكن لا يبعد أن تشمل الهلاك المعنوي والاخرى وكذلك المادى والديوى، أى أن طول الأمل ونسيان أجل الحياة والغرق في الشهوات، إنما يفسد الآخرة ويحط من قدر وعظمة الإنسان فى الدنيا، وبالتالي تعرضهم لأنواع العذاب الديوى من قبيل طوفان قوم نوح وزلزلة قوم لوط والصواعق السماوية التي أصابت الأقوام الأخرى.

نعم، فتغيب الآجال أحد آثار طول الأمل والذي يعد من أعدى أعداء سعادة الإنسان، لأنه يلقي بحجاب ضخم على بصيره العقل ويجعل الهوى حاكماً عليه ويقذف بالإنسان فى مستنقع الذنوب والمعاصى، وهذا ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين على عليه السلام:

«وَأَمَّا طُولِ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْأَخِرَةَ» [٧٥٧]

، ويفهم من العبارة:

«حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ»

، أن اولئك

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٣٨

الأفراد يفتقون فى تلك اللحظة، أجل يفتقون، ولكن حيث لا ينفهم ذلك، ولذلك قال الإمام عليه السلام:

«الَّذِي تُرِدُّ عَنْهُ الْمَعْدِرَةَ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةَ» [٧٥٨] وَالنَّقْمَةَ [٧٥٩].

نعم، فمصدر كل تلك الجنايات والمخالفات التي ورد الكلام عنها فى القسم السابق من الخطبة إنما يكمن فى حب الدنيا وطول الأمل ونسيان الأجل، الأجل الذى لا رجعة فيه ولا يمكن تدارك ما فرط من الإنسان فيه.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٣٩

القسم الرابع: سبيل النجاة

إشارة

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مِنْ أَسِيئَاتِنَا اللَّهُ وَفُقٌّ، وَمَنْ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلًا هُدًى (لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)؛ فَإِنَّ جَارَ اللَّهِ آمِنٌ، وَعَدُوُّهُ خَائِفٌ؛ وَإِنَّهُ لَا يَتَّبِعِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَّعِظَ، فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمْتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسِلَامَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ. فَلَا تَنْفَرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرَبِ، وَالْبَارِي مِنْ ذِي السَّقَمِ. وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَفَّضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ، حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ. فَالْتَمِسُوا ذَلِكُمْ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. هُمْ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ؛ لِأَيِّخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ؛ فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ».

الشرح والتفسير

تحدّث الإمام عليه السلام فى هذا القسم السابق عن فئة ضالة ومستبدة غيرت جميع الحقائق وإرتكبت أفضع الجرائم، ثم حل أجلها

ولم تتب إلى ربها فسارعت إلى عالم آخر ليصب عليها العذاب، فأبان الإمام عليه السلام في هذا المقطع سبيل النجاة حتى لا يبتلى الآخرون بذلك المصير الأسود فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مِنْ اسْتَنْصَحَ اللَّهَ وَفَّقَ، وَمَنْ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلًا هُدِيَ (لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)»

، نعم، هذه هي الخطوة الاولى من أجل الإهداء إلى الحق والصراط المستقيم ثم استدلل على ذلك بقوله: «فَإِنَّ جَارَ اللَّهِ آمِنٌ، وَعَدُوُّهُ خَائِفٌ».

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٤٠

وأضاف بعد ذلك بهدف استماع الناس للمواعظ الإلهية ويعدوا عنهم الكبر والغرور ويسلموا لأوامر الله: «وَإِنَّهُ لَيَتَّبِعِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَّعِظَ، فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَيَلَامَةَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسِيلُوا لَهُ»، في إشارة إلى أن اولئك الذين يعيشون الغرور والتكبر غافلون عن عظمة الله سبحانه، والذين يغترون بقدرتهم جاهلون بقدره الله تعالى، أما من عرف الله وقدرته فهو يدرك أنه لا شيء تجاهه، عليه فلا داعي لهذا الكبر والغرور الفارغ.

ثم قال على سبيل الاستنتاج:

«فَلَا تَنْفِرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرِبِ، وَالْبَارِي [٧٦٠] مِنْ ذِي السَّقَمِ»

، إشارة إلى أن سعادتك وفلاحك وسلامتك في إتباع الحق، وأن النزوع نحو الباطل نوع من أنواع المرض والسقم، لكن من المؤسف هناك من يهرب من الحق وكأنه يفر من مرض معدى، أو حسب تعبير القرآن الكريم: «كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ» فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ [٧٦١].

ثم عرض الإمام عليه السلام في الخطوة التالية سبيلاً واضحاً بهدف هدايته مخاطبيه إلى الحق وإبعادهم عن الباطل فقال: «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ، حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ».

والواقع هذا هو أحد طرق معرفة الحق والباطل والذي ينطوي تحت القاعدة المعروفة:

«تَعْرِفُ الْأَشْيَاءَ بِأَضْدَادِهَا»

، فالإنسان يجهل معنى العافية ما لم يمرض ولا يدرك مفهوم الضياء ما لم يرى الظلمة، فقد اعتبر الإمام عليه السلام- في هذا المقطع من الخطبة كما ورد في العبارة المذكورة- التعرف على تاركى الحق ومخالفه كطريق بلوغ الحق، فأشار إلى ثلاث طوائف: طائفة تركت الحق، وطائفة نقضت ميثاق القرآن، والطائفة الثالثة التي نبذته وراء ظهرها، والفارق بين هذه الطوائف الثلاث واضح، فالبعض يترك الحق دون أن يحضره والبعض الآخر يحقره علاوة على تركه، وأخيراً هناك من ينقض عهد الله وموآثيقه، والذي وردت الإشارة

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٤١

إليه في الآية القرآنية الشريفة: «أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ...» [٧٦٢]، والآية صادقة على الآخرين وإن كانت في الظاهر في بني اسرائيل.

نعم، يمكن الظفر بسبيل الحق من خلال معرفة هؤلاء التاركين للحق والناقضين لموآثيق الله والمحقرين لكتاب الله، ومعرفة المبادئ التي تسود حياتهم.

ثم عرض الإمام عليه السلام طريقاً آخر في آخر قسم من هذه الخطبة من زيادة الاطمئنان بهدف الظفر بالحق وإدراك مفاهيم القرآن الكريم وهو التمسك بأهل البيت من عتره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بفضلهم أحد الثقلين الذين خلفهما النبي في الامم، فقال عليه السلام:

«فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ؛ لِأَيِّخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ؛ فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ».

فقد وصف الإمام عليه السلام أهل البيت عليهم السلام في هذه العبارات القصيرة والعميقة المعنى بأوصاف منها:

«فَأِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ...»

، حيث عندهم علم الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه وآله، فأينما يحلون يكشفون الظلام بنورهم، وحكمهم (سواء كان الحكم بمعنى القضاء أو الحكم بمعنى كفاءة وصاياهم وبياناتهم للحلول) ينطق عن علمهم، وصمتهم العميق المعنى يفيد منطقتهم ومقاصدهم (لأنّ السكوت أبلغ من الكلام في أغلب الموارد)، وظاهر على قدر من الرزانة والإخلاص والظهور بحيث يعكس طهارة ونقاء باطنهم، من خصائصهم الأخرى أن علمهم لا يختلف مع الدين قط ولا يختلفون في تفسيرهم لحقائق الدين، ولا غرو فعلمهم تنبع من ذات المصدر، ومن هنا لديهم حقيقة الدين والقرآن وروحهما، في حديث الثقلين:

«... إِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا (العترة والقرآن) مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا فَلَنْ تَضَلُّوا...».

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٤٢

تأمل: معرفة الأشياء بأضدادها

كثيرة هي طرق معرفة الحق والباطل والمهم أن يعزم الإنسان على معرفة الحق ويتجه قدماً بشجاعة - وإحدى هذه الطرق ما أشار إليه الإمام عليه السلام في هذه الخطبة والذي يتمثل بمطالعة الأضداد.

فإن رأى الإنسان المصير الأسود لجماعة تسبح في بحر من الأخطاء والزلات، أدرك ببساط أن الطريق الصحيح عكس ذلك، وإن أراد السير على الحق وجب عليه التخلي عن الاصول التي اعتمدها تلك الجماعة، فيتعلم الأدب من عديميه والعدل الظالمين والظهور من المدنيين.

لعل هناك من يتصور تضارب هذه العبارة مع ما ورد في عبارة أخرى للإمام عليه السلام قالها للحارث الهمداني:

«إِنَّ دِينَ اللَّهِ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ بَلْ بِآيَةِ الْحَقِّ فَاعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفِ أَهْلَهُ» [٧٦٣]

، لكن الطريقتان صحيحتان، كل في محله، فإن عرف الحق بوضوح في موضع كان لا بد من معرفة شخصية الأفراد على أساس معياره، فمن كان مع الحق فهو الحسن الصالح ومن كان ضده فهو السيئ الطالح، فهنا نعرف الأشخاص بمعيار الحق. وإن كان الأفراد معروفين والحق خفي كان لا بد من التعرف على الحق والباطل بواسطتهم، على سبيل المثال لو تنازع عمار بن ياسر مع أبي جهل، فأننا ندرك بسهولة أن عمّاراً على الحق وأبي جهل على الباطل، وقد يتعذر أحياناً معرفة الأشخاص ومعرفة الحق، فهنا ننظر إلى حاشية وأصدقاء أولئك الأشخاص، فرضاً شككنا في شخص معاوية ورأينا بطانته وحاشيته جماعة من المنافقين وأصحاب الدنيا كعمرو بن العاص ومن طردهم رسول الله صلى الله عليه وآله ومن تبقى من أقطاب الجاهلية آنذاك يمكننا التعرف عليه.

وزبدة الكلام هناك عدّة طرق لمعرفة الحق والباطل ولا بد من استفادة ما يناسب كل مورد من طريق.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٤٣

الخطبة [٧٦٤] المائة والثامنة والأربعون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

فى ذكر أهل البصرة

نظرة إلى الخطبة

تحدث الإمام عليه السلام فى المقطع الأول من هذه الخطبة عن طلحة والزبير واللذان قد إتحدوا فى الظاهر واتفقا على قتال على عليه السلام فى الجمل، فقد كشف الإمام عليه السلام اللثام عن جانب من أسرارها فقا إنهما وإن اتحدا ظاهرياً، إلا أن ذلك الاتحاد مرحلى ومؤقت، فان تسلط أحدهما أسقط الآخر، وأشار عليه السلام فى المقطع الثانى إلى فتنة البصرة وأصحاب الجمل، وقد دعى الناس للعمل على إخماد نار هذه الفتنة، كما حذر فى الختام من ضرورة مراقبة التحركات المشبوهة لناقضى المواثيق (طلحة والزبير وأخوانهما).

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٤٥

«كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ، دُونَ صَاحِبِهِ، لَأَيِّمَتَانِ إِلَى اللَّهِ بِحَبْلِ، وَلَأَيِّمَدَانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلٌ ضَرْبٍ لَصِيحِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ! وَاللَّهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَرِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا. قَدْ قَامَتِ الْفِتْنَةُ الْبَاطِنِيَّةُ، فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ! فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَيْرُ. وَلِكُلِّ ضَلُّةٍ عَلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ. وَاللَّهِ لَأَأْكُونَ كَمُسْتَمِعِ اللَّذَمِّ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ وَيَحْضُرُ الْبَاكِى، ثُمَّ لَيَعْتَبِرُ!».

الشرح والتفسير

الإتحاد الظاهرى والعداء الباطنى

كشف الإمام عليه السلام فى القسم الأول من هذه الخطبة النقاب عن حقيقة فى عدم وجود دافع شرعى لطلحة والزبير- اللذان أثارا معركة الجمل- وليس لهما من هم سوى الدنيا والاستيلاء على الحكومة، ومن هنا فإن تحقق لهما ما يريدان سعى كل منهما لإزالة الآخر لينفرد بالحكومة فقال:

«كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ، دُونَ صَاحِبِهِ».

ثم استدلل عليه السلام على ذلك بالقول:

«لَأَيِّمَتَانِ [٧٦٥] إِلَى اللَّهِ بِحَبْلِ، وَلَأَيِّمَدَانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ. كُلُّ

وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلٌ ضَرْبٍ [٧٦٦] لَصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ!»

، والضرب هو الحيوان المعروف، وتعتقد العرب بأنه خال من العاطفة إلى جانب حماقته حتى أنه لياكل فراخه ومن هنا ضرب به المثل فى العقوق، وقد استشهد الإمام عليه السلام بذلك المثل فى قوله:

«حَامِلٌ ضَرْبٍ لَصَاحِبِهِ»

فهى عبارة غاية فى الروعة لمدى العداوة والبغضاء التى يخفيها كل منهما لصاحبه.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٤٦

ثم قال عليه السلام:

«وَاللَّهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَرِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا»

، والطريف أن ما أورده الإمام عليه السلام فى العبارة السابقة بشأن طلحة والزبير يصدق على جميع الأفراد الذين يتحدون من أجل نيل السلطة دون أن يكون لهم أى دافع إلهى، فهم متحدون ومتفقون مادامهم لم ينتصروا، فبمجرد الانتصار يسعى كل واحد منهم للقضاء على الآخر والتفرد بالسلطة، وشواهد ذلك كثيرة على مر العصور وفى كل زمان ومكان، والحال لو كانت الدوافع إلهية لدام الإتحاد

وربما اقترح كل السلطة على غيره، وقد إتضحت حقيقة كلام الإمام عليه السلام بشأن طلحة والزبير حتى قبل شروع معركة الجمل وتنازعهما على الزعامة، وهذا ما سنتناوله إن شاء الله في البحث القادم، ولما كانت هذه الخطبة قبل معركة الجمل فقد دعى الإمام الناس إلى الوقوف بوجه ناقضى العهد الذين حملوا رايات معركة الجمل فقال:

«قَدْ قَامَتِ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ، فَأَيُّنَ الْمُحْتَسِبُونَ [٧٦٧]! فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبِيرُ».

والعبارة الفتنه الباغية إشارة إلى كل جماعة تقوم بوجه الحق وحكومة العدل، كما يصدق هذا الكلام على أصحاب الجمل، وعلى أعوان معاوية أيضاً، لأنهم وقفوا جميعاً ضد الحق، ومن هنا جاء في الحديث النبى الأكرم صلى الله عليه وآله لعمار الذى استشهد فى صفين وقتله أعوان معاوية:

«يَا عَمَارُ تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ» [٧٦٨].

والمفردة «المحتسبون» إشارة إلى الأفراد الذين يجاهدون حسبه لله ولا ينتظرون سوى ثوابه وأجره. والعبارة

«فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ ...»

، إشارة إلى أن سنن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قد عرضت السبل اللازمة للقيام ضد البغاة والعصاة. العبارة:

«وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبِيرُ»

، إشارة إلى حديث النبى الأكرم صلى الله عليه وآله لصحبه:

«تُقَاتِلُونَ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ» [٧٦٩]

، بناءً على هذا وبالنظر إلى اتضاح الضلال بالنسبة لتلك

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٤٧

الفتنة واتضاح سنن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله تجاه مثل هؤلاء الأفراد والنبوءة السريعة التى طرحها النبى الأكرم صلى الله عليه وآله و آله فلم يبق هنالك من مجال للإبهام ولا بد لكل مؤمن مخلص أن يقف فى وجه الباطل. ثم قال الإمام عليه السلام:

«وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عَلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ»

، قطعاً لم يرد الإمام عليه السلام بها الكلام توجيه الأعمال القبيحة والطائشة لطلحة والزبير، بل يريد الإشارة إلى هذه الحقيقة إلى أن الضلال ليس عبثياً، وعادة ما تكون علته اختيارية، فالعلة الأصلية لأغلب الضلال تتمثل فى هوى النفس وحب الدنيا والجاه والاستبداد والكبر والغرور والحسد، وهذا المعنى واضح تماماً بالنسبة لطلحة والزبير.

والعبارة:

«وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ»

، إشارة إلى أن كل ناكث لعهد عادة ما يخلق لنفسه ذريعة ليخدع العوام ويجرهم إليه، كما تذرع طلحة والزبير بدم عثمان على أنه الخليفة الذى قتل مظلوماً، فيثيرون طائفة من العوام ضد على عليه السلام فيتمكنا من تحقيق أهدافهما المغرضة، بينما كانا من العناصر التى قتلت عثمان، كما مر معنا فى الخطبة ١٣٧ حيث قال الإمام بشأن طلحة والزبير ومعاوية:

«وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ».

والعبارة

«ناكث»

إشارة إلى طلحة والزبير حيث بايعا علياً عليه السلام في البداية ثم نقضوا البيعة.

ثم إختتم الإمام الخطبة بالإشارة إلى نقطة مهمة وهي المراقبة وعدم الغفلة عن العدو فقال:

«وَاللَّهِ لَا أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ الدَّمِ [٧٧٠]، يَسْمَعُ النَّاعِيَ وَيَخْضُرُ البَاكِيَ، ثُمَّ لَا يَغْتَبِرُ!»،

إشارة إلى أن الزعيم اليقظ لا يسمع أنين المظلومين وتعبئة قوى الشياطين، وقد مضى شبيه هذا المعنى في الخطبة السادسة:

«وَاللَّهِ لَا أَكُونُ كَالضُّبُعِ: تَنَامُ عَلَى طُولِ الدَّمِ، حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَائِفُهَا، وَيَخْتَلِهَا رَاصِدُهَا، وَلِكُنِّي أَضْرِبُ بِالمُقْبِلِ إِلَى الحَقِّ المُدْبِرِ عَنْهُ».

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٤٨

تأمل: أصدقاء الأمس وأعداء اليوم

العبارة أعلاه تبين حقيقة وهي أن أصحاب الباطل وإن إتحدوا في بادية الأمر من أجل تحقيق أهدافهم، إلّا أنهم ما إن ينتصروا ويتمكنوا حتى يسعى كل منهم لإزالة الآخر والتفرد بتناول ثمرة شجرة النجاح والنموذج البارز لذلك الإتحاد طلحة والزبير في معركة الجمل والذي يشكل الموضوع الرئيسي لهذه الخطبة، والطريف في الأمر أن بوادر هذه المنافسة الهدامة قد لاحت حتى قبل شروع المعركة.

فقد نقل ابن أبي الحديد عن المؤرخين أن خلافاً وقع بينهما قبل الجمل بشأن إمامة العسكر، ولما إشتد النزاع بينهما تدخلت عائشة فأمرت أن تصلى يوماً محمد بن طلحة وآخر عبدالله بن الزبير حتى تنتهي المعركة [٧٧١].

من جانب آخر سأل طلحة عائشة أن يسلم عليه الناس بصفته أمير المؤمنين، كما سألها الزبير ذلك، فسلمت عائشة عليهما بأمر المؤمنين، كما اختلفا في إمرة الجيش فقد أراد طلحة الإمرة، بينما رأى الزبير نفسه الأجدر بها [٧٧٢]، وكل هذه الامور شواهد حية على ما أخبر به الإمام عليه السلام في هذه الخطبة حين قال كل واحد منها يرجو الأمر له ويفكر في القضاء على صاحبه، فليس هناك من دافع إلهي، ولا تؤدى الدوافع النفسانية سوى إلى الاحتكار دائماً.

نقحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٤٩

الخطبة [٧٧٣] المائة والتاسعة والأربعون

إشارة

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قَبْلَ شَهَادَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في أسناد الخطبة فإن الإمام عليه السلام خطبها حين كان على أعتاب الشهادة، فقد أوردتها على سبيل الوصية إلى جانب النصح والمواعظ، والواقع أن الخطبة تتألف من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: بشأن الموت الذي لا يستطيع أحد الفرار منه ولا يعلم أين ومتى يدركه.

القسم الثاني: وصية قصيرة وبلغته عظيمة المضمون تجذب القلوب وتوضح معالم الطريق في المستقبل.

القسم الثالث: الدروس التي ينبغي للناس تعلمها من شهادة الإمام عليه السلام كما يشير عليه السلام إلى هذه الحقيقة وهي إننى إن رحلت عنكم وخلفنى غيرى آنذاك ستعرفون، من كنت؟ وماذا أردت؟ وما كانت سرائرى؟

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٥١

القسم الأول: استحالة الهروب من الموت

«أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ امْرِئٍ لَاقِيَ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. وَالْأَجَلَ مَسَاقُ النَّفْسِ؛ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ. كَمْ أَطْرَدْتُ الْأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكُونِ هَذَا الْأَمْرِ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا إِخْفَاءَهُ. هَيْهَاتَ! عَلِمْتُ مَخْزُونًا!».

الشرح والتفسير

أكد الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة أن الفرار من الموت مستحيل، وأبعد من ذلك فإن الإنسان يستقبل الموت حين فراره، فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ امْرِئٍ لَاقِيَ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. وَالْأَجَلَ مَسَاقُ [٧٧٤] النَّفْسِ؛ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ».

هناك عدّة تفاسير لشراح نهج البلاغة للعبارة الهرب من الموت موافاته، فقد قال البعض:

المراد من هذه العبارة أن الأجل إذا حلّ وجاء أمر الله سبحانه برحيل من الدنيا فحتى الدواء يعطى نتيجة معكوسة، فما كان مشفياً في الأحوال العادية يصبح سبباً للموت، وقيل في تفسير العبارة أن الزمان الذي يصرفه الإنسان من أجل العلاج في مثل هذه الحالات إنما يقربه من آجله [٧٧٥].

وبعبارة أخرى، فقد شوهد كثيراً وقوع الإنسان في ما يخافه ويحذره، ويدركه ما هرب منه، وعلى ضوء هذا التفسير فإن الحكم المذكور حكم غالبى وليس كلى.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٥٢

ثم قال عليه السلام:

«كَمْ أَطْرَدْتُ [٧٧٦] الْأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكُونِ هَذَا الْأَمْرِ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا إِخْفَاءَهُ. هَيْهَاتَ! عَلِمْتُ مَخْزُونًا!».

سؤال

هنا يبرز هذا السؤال وهو: كيف قال الإمام بأن الله وحده العالم بالآجل ولا يعلمه أحد [٧٧٧]، بينما تضافرت الأخبار التي وردت عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه كان يعلم بزمان وفاته، وكان يعرف قاتله، كما يخبر ولده على الدوام في ليلة شهادته، بل أشار بعبارات مختلفة إلى زمان شهادته حتى خلال شهر رمضان الذى استشهد فيه، وقد ورد في الكافي أن الطيور في بيت الإمام عليه السلام كانت على علم بشهادته؟

جواب

يعتقد البعض بالاستناد إلى بعض الروايات [٧٧٨]، أن حالات المعصومين عليهم السلام وأولياء الله تعالى مختلفة، فأحياناً يعلمون كل شىء بإرادة الله تعالى، وأحياناً أخرى تخفى عليهم بعض المسائل بإرادة الله تعالى حتى اللحظات يمكن أن تكون متفاوتة، فقد شم نبي الله يعقوب رائحة قميص يوسف من مساحه بعيدة (مصر) بينما لم يراه فى بئر كنعان، وهناك احتمال آخر ما ذكره الإمام عليه السلام قانوناً كلياً حول الأجل وخاتمة حياة جميع الأفراد، إلا أن هذا القانون الكلى كسائر القوانين الكلية له استثناءات، فما المانع أن يعلم أولياء الله وبأذن الله وتعليمه بلحظة موتهم.

وهناك نقطة أخرى هي: إن علوم المعصومين عليهم السلام بالنسبة لمسائل المستقبل على أساس لوح المحو والإثبات وهو قابل للتغيير، أو ما يصلح عليه بالعلم بالمقتضيات، لا العلم بالعلّة التامة التي تأبى التغيير، لأن ذلك القسم الذى يسمى باللوح المحفوظ مختص بالله تبارك وتعالى، مثلاً جاء فى قصة السيد المسيح عليه السلام أنه أخبر عن موت عروس فى ليلة زفافها، بينما لم يقع ذلك،

وذلك لأنها تصدقت وحالت الصدقة دون وقوع تلك المصيبة.

وستتناول شرح هذا الموضوع في محله إن شاء الله.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٥٣

القسم الثاني: وصية الإمام عليه السلام

«أَمَّا وَصِيَّتِي: فَاللَّهُ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَمُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعُمُودَيْنِ، وَأَوْقُدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ مَا لَمْ تَشْرُدُوا. حُمِّلَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهْلَةِ.

رَبِّ رَحِيمٍ، وَدِينٍ قَوِيمٍ، وَإِمَامٍ عَلِيمٍ. أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا الْيَوْمَ عَيْزَةٌ لَكُمْ، وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ!».

الشرح والتفسير

بين الإمام عليه السلام في القسم من الخطبة وصيته وقد صب الإمام عليه السلام فيها عصارة روحه وفكره في تلك اللحظة الحساسة والصعبة التي يوشك فيها على الرحيل فقال:

«أَمَّا وَصِيَّتِي: فَاللَّهُ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَمُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعُمُودَيْنِ، وَأَوْقُدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ [٧٧٩] مَا لَمْ تَشْرُدُوا».

والمراد بالشرك هنا المعنى الواسع للكلمة والذي يشمل الشرك في الذات والصفات وكذلك الشرك في الأفعال، وبعبارة أخرى، كل ميل لما سوى الله سبحانه سواء في العقيدة أو العمل، وكذلك اريد بالسنة معناها الواسع الذي يشمل جميع البرامج العبادية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية، والواقع هو أن العبارتين قد تضمنتا جميع أسباب سعادة الإنسان،

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٥٤

فالإنسان لم يتعلق بما سوى الله ولا يطلب غير رضاه ولم يحكم هو نفسه وطبق كافة تعاليم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على كافة الأصعدة والمجالات فهو الإنسان سعيد وموفق، ومن هنا شبه الإمام هذين الاثنتين بعمودى الخيمة إن اقيما فإن الخيمة ملاذ آمن من الحرارة والبرودة وواقية من أغلب المخاطر، كما شبهها بمصباحين على جانبي الإنسان وهما يضيئان الفضاء والطريق، ومن البديهي ألا يبقى مجالاً للظلاله مع وجود هذين المصباحين المضيئين.

ولذلك قال الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه، إعملوا بهذه الوصايا وخلاكم ذم، وسوف لن يكون هناك من خلل ونقص في دينكم وإيمانكم وحياتكم، ولكنه يشترط ذلك بمواصلة الطريق دون الانحراف، والالتزام بمسار التوحيد والعمل بالسنة، والواقع هو أن جميع أصول الإسلام وفروعه قد جمعت في هذه العبارة: فالتوحيد يشمل كافة الاصول العقائدية وحفظ سنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يشمل جميع التعاليم العلمية والأخلاقية، وإن قال عليه السلام أقيموا هذين العمودين وخلاكم ذم، للدليل السابق، ولما كان إقامة التوحيد وسنة النبي صلى الله عليه وآله في جميع الأبعاد ليس ميسراً للجميع وذلك لعدم تساوى القدرات الفكرية والجسمية، فقد قال عليه السلام:

«حُمِّلَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهْلَةِ»

، وهو ذات الأمر الذي اشير إليه كراراً في الآيات الروايات.

فقد قال القرآن الكريم: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ...» [٧٨٠]، وقال في موضع آخر:

«لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ...» [٧٨١].

وجاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعُونَ ذَنْبًا قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لِلْعَالِمِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ» [٧٨٢]

. كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام:

«إِنَّمَا يُدَاقُ الْعِبَادُ فِي الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدَرِ مَا آتَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ فِي الدُّنْيَا» [٧٨٣]

، والواقع أن هذا هو مقتضى العدالة في أن تؤخذ القدرات الفكرية والجسمية للأفراد بنظر الاعتبار في تفويض المسؤوليات والحساب على المخالفات، ومن هنا قال الإمام عليه السلام:

«رَبِّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٥٥

والواقع هو أن كافة أسباب السعادة في ظل هذه الثلاث، فالله سبحانه رحيماً قد فتح كافة أبواب السعادة بوجه الإنسان والدين الذي أتى به نبي الإسلام صلى الله عليه وآله يتمتع برسوخ لا مثيل له، والإمام عليه السلام الذي نصب لإجراء أحكام الدين عادل من جميع الجوانب يمكن أن تكون كلمة الإمام هنا إلى شخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو على عليه السلام أو جميع أئمة الإسلام من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى آخر الأئمة الإمام المهدي (سلام الله عليهم أجمعين)، ومن الطبيعي أن مثل هذا الرب والدين والإمام لا يكلف الإنسان سوى على قدر وسعه.

ثم أشار الإمام عليه السلام في الختام إلى نقطة مهمّة ليكمل بها القسم الأول والثاني فقال:

«أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ!»

، إشارة إلى أنكم إن جعلتم هذه الأيام الثلاث مع بعضها لعلمتكم مطالب كثيرة، فبالأمس كنت مثلكم، بل زعيمكم وقائدكم حيث صرعت الكثير من على شاكله عمرو بن عبد ود، لقد فتحت خبير وقلعت بابها، ودافعت عن رسول لله صلى الله عليه وآله في ميادين القتال حين تظافت علينا الأعداء، وكنت أجنّدل الأبطال في الجمل وصفين والنهروان، لكنني اليوم لكم عبرة بعد أن رقدت على فراش الموت، وغداً أنا مفارقكم، سوف ترون مكاني خالياً، أو ليست هذه الأيام الثلاث تكفيكم عبرة لتكشف عن وضع الدنيا وتفاهتها؟ حقاً لم يسمع كلام أبلغ من هذا الكلام وبهذا الاختصار والعمق في المعنى.

أما بشأن المراد من العبارة

«وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ...»

، هل هو الإخبار عن شهادته في ذلك الوقت أم الإخبار عن مستقبل بعيد والذي ورد التعبير عنه في العبارات المتداولة بقولهم غداً؟ يبدو هنالك خلافاً بين شراح نهج البلاغة، ولكن ما يفهم من القرآن المختلفة وسائر كلمات الإمام عليه السلام في تلك الحادثة الأليمة وقبلها أن المراد الخبر القطعي عن المستقبل القريب، ولا يتنافى ذلك مع العبارة:

«إِنْ تَبَيَّتِ الْوَطْأَةُ...»

، لأن مثل هذه التعبيرات تهدف إلى بيان مقاصد خاصة واعتيادية، كما ورد في القرآن الكريم: «أَفَمَا لِنُبَيِّنَ مَا نَافِيَهُمْ أَنْزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ وَأَنْزَلْنَاهُ فِي الْغُرُوبِ» [٧٨٤]. والحال يعلم الله سبحانه أن نبيه صلى الله عليه وآله لا يقتل، فهدف الإمام عليه السلام هنا بيان هذا المطلب، أنني لو بقيت لعفوت عن ضاربي.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٥٧

القسم الثالث: معرفتي بعد موتي

«إِنْ تَبَيَّتِ الْوَطْأَةُ فِي هَذِهِ الْمَرْزَلَةِ فَذَاكَ. وَإِنْ تَدَحَّضَ الْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَعْصَانٍ، وَمَهَابِّ رِيَّاحٍ، وَتَحْتِ ظِلِّ غَمَامٍ، اضْمَحَلَّ فِي الْجَوْ مُتَلَفِّقُهَا، وَعَفَا فِي الْأَرْضِ مَخْطُهَا. وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمُ بَدَنِي أَيَّاماً، وَسَتَعْتَبُونَ مِنِّي جُنَّةً خَلَاءً: سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَكَتِي، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقِي لِيُعْظَكُمُ هُدُوءِي، وَخُفُوتُ إِطْرَاقِي، وَسَيَكُونُ أَطْرَافِي، فَإِنَّهُ أَوْعِظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمُنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمُسْمُوعِ. وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعِي»

امري مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِي! عَدَا تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوقِ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي». الشرح والتفسير

شرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة مصيره على فراش الشهادة كما بين وضع المسلمين بعده فقال: «إِنْ تَثَبَّتِ الْوُطْأَةُ [٧٨٥] فِي هَذِهِ الْمَزَلَّةِ [٧٨٦] فَذَاكَ. وَإِنْ تَدَخَّصِ [٧٨٧] الْقَدَمَ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَقْيَاءِ [٧٨٨] أَغْصَانٍ، وَمَهَابِ [٧٨٩] رِيَّاحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفِّقُهَا [٧٩٠]، وَعَفَا [٧٩١] فِي نَفْحَاتِ الْوِلَايَةِ، ج ٥، ص: ٤٥٨
الْأَرْضِ مَخْطُهَا [٧٩٢]».

فتاريخ البشر وتجاربنا اليومية تكشف هذه الحقيقة في أن الحياة كظلال الأشجار والقدرات كظلال الغيوم تمرّ بشرعة وتزول آثارها إلى الأبد، لكن العجيب عدم التفات الإنسان رغم رؤيته لكل هذه الأمور وكأنه غير مشمول بهذا القانون. ثم بين هذا المعلم الرباني أثر ذلك وبالنظر إلى علمه بمفارقة الدنيا عاجلاً بعض الدروس والعبر التي يمكن للآخرين الاستفادة منها والتي من شأنها إيقاظهم من غفلتهم فقال: «وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَزَ كُمْ بَدَنِي أَيَّاماً، وَسَتُعْتَبُونَ مِنِّي جُنَّةً خَلَاءَ [٧٩٣] سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَائِكِ [٧٩٤]، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقِي».

ثم استنتج مباشرة:

«لِيُعْظُكُمْ هُدُوءِي [٧٩٥]، وَخُفُوتُ [٧٩٦] إِطْرَاقِي [٧٩٧]، وَسُكُونُ أَطْرَافِي، فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ».

حقاً أن الأمر كذلك فالمتحكمون مهما كانوا فصحاء وبلغاء، والسامعون مهما كانوا صاغين ولكن هناك فارق كبير بين النظر والسماع، فإياها من عبرة أن ترى ذلك الرجل الشجاع الذي ذاع صيته في الأرجاء وهو الآن طريح الفراش جثته هامدة لا يقوى حتى على تحريك جفن عينيه، كما لا تقوى شفتاه على الحركة وهذا ما ينطوي على أعظم درس وعبرة حيث يشاهد الإنسان بعينه أفول القوة والقدرة فيغرق في هالة من التفكير، وهل لواعظ القدرة على إبراز هذا التأثير؟ وأخيراً اختتم الوصية بتوديع الناس، ذلك الوداع الأليهم فقال:

«وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ امْرِئِي مُرْصِدٍ [٧٩٨] لِلتَّلَاقِي! عَدَا تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوقِ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي».

نعم، فحين رجل مظهر العدل ذلك الزعيم الشفيق والرووف، وحين غادر الناس تلك نَفْحَاتِ الْوِلَايَةِ، ج ٥، ص: ٤٥٩

الكنوز العلمية التي كانت تجرى على لسان الإمام عليه السلام وحل محلّه جابره بنى امية الذي لا يجيدون سوى لغة الظلم والجور ولا يفكرون سوى بأهوائهم وغرائزهم الحيوانية وأراقوا دماء الأبرياء، آنذاك فهم المسلمون من فقدوا، وأية خسارة تكبدوا. وبناءً على تقدم فالتعبير بغد لا يثير حسب ظاهر العبارة إلى لعالم البرزخ ولا القيامة (كما ذهب إلى ذلك بعض شراح نهج البلاغة)، بل إشارة إلى الأيام السوداء والمريرة التي مرّت على المسلمين بعد شهادة أمير المؤمنين على عليه السلام. والعبارة

«مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِي»

، سواء كانت بمعنى لقاء ملائكة الموت أو الله سبحانه فهي تفيد عدم تعلق روحه المقدسة سلام الله عليه بهذا العالم المادي الزائل، بل كان متعلقاً بالعالم العلوي والملائكة والذات الإلهية المقدسة، وضربه ابن ملجم كانت المقدمة لذلك الفوز العظيم ولقاء ربّ

الكعبة، والشاهد الناصع على ذلك قوله عليه السلام حين ضرب:
«فُرْتُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٦١

الخطبة [٧٩٩] المائة والخمسون

إشارة

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
يَوْمِي فِيهَا إِلَى الْمَلَا حِمٍ وَيَصِفُ فِتْنَةً مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ

نظرة إلى الخطبة

تتألف الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن فتنه ظلت الطريق القويم وإتجهت نحو الانحراف، ثم تحدث عن إمامة أهل البيت عليهم السلام الذين يرون الفتن بمصايح الهداية وينهضون بهداية الامه، الإمامة والزعامه التي تذلل الصعاب وتحرر الامم.

القسم الثاني: تحدث عن ضعاف الإيمان الذين يسبحون في الفتن والظلال إثر اتباع أهواء النفس، فتنه أخرى راسخة الإيمان وهي تجابه الكفر والشرك وقد نالت القرب الإلهي.

القسم الثالث: الذي أشار إلى الأفراد الذين تراجعوا القهقري بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وقطعوا أواصر الإيمان وجانبوا أولياء الله سبحانه والتحقوا بأعدائه وقد اقتلعوا اسس الولاية وحولوها إلى غير موضعها.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٦٣

القسم الأول: إنتظام كل شيء في ظل وجوده

إشارة

«وَأَخَذُوا يَمِينًا وَشِمَالًا ظَنَنَّا فِي مَسَالِكِ الْغَيِّ، وَتَرَكَآ لِمَا ذَاهِبِ الرُّشْدِ. فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ. فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنْهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ! يَا قَوْمَ، هَذَا إِبَانٌ وَرُودٌ كُلُّ مَوْعُودٍ، وَدُونُ مَنْ طَلَعَهُ مَا لَمَاتَ غَرْفُونَ. أَلَمْآ وَإِنْ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسِيرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَيَخِذُوا فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ، لِيُحَلَّ فِيهَا رِبْقًا، وَيُعْتَقَ فِيهَا رِقًا، وَيَصِيدَ شَعْبًا، وَيَشْعَبَ صَيْدًا، فِي سِتْرِهِ عَنِ النَّاسِ لَأَيْبَصِرُ الْقَائِفُ أَثَرَهُ وَلَوْ تَابَعَ نَظْرَهُ. ثُمَّ لِيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحَذَ الْقَيْنِ النَّضْلَ تُجَلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ، وَيُعْبَقُونَ كَأَسِّ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ!».

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً فإن هذه الخطبة بالمجموع تتكهن بحوادث المستقبل وتفيد القرائن والعبارات الواردة فيها، أن الإمام عليه السلام قد أشار إلى الحوادث ما قبل ظهور الإمام المهدي عليه السلام ومن ثم قيامه المبارك.

فقد قال الإمام عليه السلام:

«وَأَخَذُوا يَمِينًا وَشِمَالًا ظَنَنَّا فِي مَسَالِكِ الْغَيِّ، وَتَرَكَآ لِمَا ذَاهِبِ الرُّشْدِ. فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ [٨٠٠]، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ».

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٦٤

ثم خاض الإمام عليه السلام في ذكر الدليل لترك الاستعجال فقال:

«فَكَمْ مِنْ مُسْتَعِجِلٍ بِمَا إِنَّ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنْهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ [٨٠١] عَدُوِّ!»

، إشارة إلى الانتصارات الموعودة بعد الفتن (لاسيما ظهور المهدي عليه السلام الذي وردت الوعود الصريحة في عصر النبي بشأن بسط العدل والقسط في كافة أنحاء العالم)، وفي عدم استعجالها وذلك لأن لكل شيء زمان وشرائط، وما لم تحصل الشرائط فهي كالثمار الخام وتقطف من الشجرة فلا يؤدي ذلك سوى إلى الندم.

ثم خاطب الناس قائلاً بأن الآن أوان تحقق ما وعدتم به (من ظهور الفتن والبلابل وسلطة الظلمة وزيادة الضغط على المظلومين):

«يَا قَوْمَ، هَذَا إِبَانٌ [٨٠٢] وَرُودٌ كُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٌّ مِنْ طَلْعِهِ

مَا لَا تَعْرِفُونَ».

ثم تحدث بصورة أوضح عن هذا الظهور العظيم فقال:

«أَلَا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مَتَا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَيَحْذُو [٨٠٣] فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ»

، ثم تطرق في مواصلة حديثه إلى برامج ذلك المصلح الكبير بعبارات قصيرة عميقة المعنى، فقال:

«لِيُحْلَلَ فِيهَا رَبْتَقًا [٨٠٤]، وَيُغْتَقَ فِيهَا رِقًا،

وَيَصْدَع [٨٠٥] شَعْبًا [٨٠٦]، وَيَشْعَبُ صَدْعًا، فِي سُنْتَرِهِ عَنِ النَّاسِ لِأَيْبِصِرُ الْقَائِفُ [٨٠٧] أَثَرُهُ وَلَوْ تَابَعَ

نَظْرُهُ».

فهذه العبارات تنطبق تماماً على قضية ظهور المهدي عليه السلام، لأنه يقطع أغلال الأسر ويطلق المظلومين ويكسر شوكة الظالمين ويفرق جمعهم، فهو يعيش لسنوات في الخفاء بحيث يعجز أعظم الباحثين عن العثور عليه، وقد أورد البعض من شراح نهج البلاغة عدة تفاسير

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٦٥

للعبارة، وحيث لا يجدر الالتفات إليها فاننا نعزف عن ذكرها.

والجدير بالذكر أن شارح نهج البلاغة ابن أبي الحديد المعروف بتعصبه بالنسبة لأغلب المسائل المرتبطة بالإمامة، صرح في شرحه للعبارة المذكورة:

«وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مَتَا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ»،

إلى أن المراد بها مهدي آل محمد صلى الله عليه وآله، كما ترى إنطباق سائر الصفات المذكورة عليه، وإن كان اعتقاد العامة بالنسبة للإمام المهدي عليه السلام أنه يولد في آخر الزمان [٨٠٨].

ثم أشار في ختام هذا المقطع من الخطبة إلى أصحاب الإمام المهدي عليه السلام وأوصافهم:

«ثُمَّ لِيَشْحَذَنَّ [٨٠٩] فِيهَا قَوْمٌ شَحَذَ الْقَيْنِ [٨١٠] النَّصْلَ تُجَلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُزْمَى بِالتَّفْسِيرِ

فِي مَسَامِعِهِمْ، وَيُغْبَقُونَ [٨١١] كَأَسِّ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ!».

ويستفاد من العبارات إلى أن أصحاب الإمام المهدي عليه السلام هم من الرجال الشجعان والعلماء الذين أعدوا سلفاً وعملياً بنائهم مستمرة متواصلة، وقلوبهم نابضة بآيات القرآن وتفسير كلمات سبحانه، وهم دائموا التعلم صباح مساء ويزدادون استعداداً وتأهباً، ولكن من هذا الذي أعدهم مسبقاً؟ هل حصل ذلك بأنفسهم أو لديهم بعض الأساتذة الذين أمروا بأعدادهم؟ أم لإرتباطهم بإمامهم ومعلمهم الغائب؟ القضية ليست واضحة لدينا بالضبط، ولكن على كل حال أنهم أفراد أعدوا للمساعدة في هذه الثورة العظيمة حتى وصفهم ابن أبي الحديد بالعرفاء، فمن جمع فيهم الزهد والحكمة والشجاعة فهم أصحاب ولي الله الذي إصطفاه [٨١٢].

ويفهم ممّا مرّ معنا في هذا القسم من الخطبة أنّ الإمام عليه السلام قد بشر المسلمين بفجر مضىء بعد تلك الظلمات، وهو الفجر الذي يأتي به ولده الميمون المهدي (عج) وبشروق شمس جماله تنجاب الظلمات.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٦٦

تأمل: قطعية قيام المهدي الموعود عليه السلام

وردت في هذه الخطبة الشريفة في الفصل السابق - كسائر خطب نهج البلاغة - البشارة بظهور الإمام المهدي عليه السلام، البشارة التي وصلتنا من خلال الروايات المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن هنا إتفق علماء الإسلام من الفريقين على هذا الأمر، ولم يشذ سوى النزر اليسير الذين يعانون من انحراف فكري، حتى سطر أبرز علماء العامية كتباً تحت عنوان تواتر روايات المهدي عليه السلام [٨١٣].

ويستفاد من هذه الخطبة كأغلب روايات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام أمران: الأول: أنّ هذا الظهور المقدس بهدف إزالة بساط الظلم ونشر التوحيد والعدل سيكون في زمان يعم فيه الفساد العالم، أي يملّ الناس الظلم والجور وتعلق طرق الصلاح وتثبت جميع المدارس والقوانين البشرية فشلها وهزيمتها، وهذا ما يضاعف من استقبال تلك الحكومة الإلهية.

الثاني: أنّ أصحاب المهدي عليه السلام وبهدف إجراء هذا المشروع العالمي الإنساني العظيم هم من الأفراد الشجعان والعلماء والحلماء والرهن لإمتهال الأوامر.

ونختتم هذا البحث بحديث عن الصحابي المعروف أبي سعيد الخدري في مسند أحمد بن حنبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لَا تَقُومُ السَّاعِيَةُ حَتَّى تَمْتَلَأَ الْأَرْضُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، قَالَ: ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِترَتِي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمَلَأُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَأَتْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا» [٨١٤].

كما ورد مثل هذا المعنى باختلاف طفيف في سنن أبي داود [٨١٥].

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٦٧

القسم الثاني: خصائص أنصار النبي صلى الله عليه وآله

منها: «وَطَالَ الْأَمْدُ بِهِمْ لَيْسَتْ تَكْمَلُوا الْخِزْيَ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغَيْرَ؛ حَتَّى إِذَا اخْلَوْلَقَ الْأَجَلُ، وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ، وَأَسْأَلُوا عَنْ لِقَاحِ حَزْبِهِمْ، لَمْ يَمْنُوا عَلَى اللَّهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَسْتَعْظَمُوا يَدْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدَ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مِدَّةِ الْبَلَاءِ، حَمَلُوا بِصَائِرِهِمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِزُبَيْهِمْ بِأَمْرِ وَعَظْمِهِمْ».

الشرح والتفسير

اختلف شراح نهج البلاغة في هذا القسم من الخطبة وذلك لأن الضمائر التي وردت في هذا القسم والأوصاف لا تبد منسجمة، ومن هنا قال بعض الشراح بوجود تقدير في العبارات، واعتقدوا بأن عدم الإنسجام هذا يرتبط بإختيار السيد الرضى رضى الله عنه، فلعل عدم الإنسجام هذا يزول لو نقل المرحوم جميع الخطبة، على كل حال ما يبدو مناسباً في تفسير هذا القسم هو أنّ الإمام عليه السلام نظر إلى ناس العصر الجاهلي ومن ثم عصر الظهور النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فقسم أهل ذلك الزمان إلى ثلاث طوائف: الضالون وضعاف الإيمان، والمؤمنون الشجعان الأشداء، فقال بشأن الطائفة الأولى:

«وَطَالَ الْأَمْدُ بِهِمْ لَيْسَتْ تَكْمَلُوا الْخِزْيَ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغَيْرَ» [٨١٦].

نعم، فأحياناً يترك الله الأفراد الذين يصرون على سلوك سييل العصيان والطغيان ليلبغوا قمة الفضحية فيستوجبوا العقاب الإلهي.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٦٨

وقد أشارت الآشارات القرآنية إلى هذه الطائفة في عدة موارد واصطلحت على عقابهم بالاستدراج. ثم تحدت عن الطائفة الثانية والثالثة فقال:

«حَتَّىٰ إِذَا أَخْلَوْنَ [٨١٧] الْأَجْلُ،

وَاسْتَرَاخَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتْنِ، وَأَسْأَلُوا [٨١٨] عَنْ لَقَاحِ [٨١٩] حَزْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللَّهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ

يَسْتَعْظَمُوا يَذَلَّ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَقِّ؛ حَتَّىٰ إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلَاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَىٰ أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرٍ وَعَظْمِهِمْ».

وهكذا ميز هذه الطوائف الثلاث التي لا يخلو مجتمع من نظائرها، وكل تسلك طريقها، وقد قسمهم جمع من شراح نهج البلاغة إلى قسمين، والعبارة:

«وَاسْتَرَاخَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتْنِ ...»

، اعتبروها إشارة إلى الصالحين الذين يتخذون جانب الصمت والتقية تجاه بعض الفتن في زمان معين حتى يحين موعد القيام، والعبارة:

«لَمْ يَمُنُّوا ...»

معطوفة عليها.

وكما أشرنا سابقاً فقد اختلف شراح نهج البلاغة بشأن هؤلاء القوم ومن هم اولئك الأفراد ومتى ينهضون ومن هو زعيمهم وفي أى وقت يظهر.

ذهب البعض إلى أن ذلك هو زمان بنى امية الذين يتسلطون بادية الأمر على كافة البلاد الإسلامية ويطردون الأخيار الصالحين من الساحة ويختفون أصوات المظلومين، ولكن لا تمر مدة حتى تقوم طائفة ضدهم وتطيح بسلطانهم وتقذف بهم في مزبلة التاريخ. ويرى البعض الآخر أنهم أنصار الإمام المهدي عليه السلام الذين ينهضون بالأمر بعد كل ذلك الفساد والظلم والابتعاد عن الله سبحانه بأمر من إمامهم فيملأون الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن تملأ ظلماً وجوراً، ولكن بالنظر إلى ما سيرد في المقطع الآخر يبدو أنها إشارة إلى ناس يعيشون في الجاهلية وقد سلكوا سبيل الفساد، ثم نهض عليهم ثلة من الصالحين التي تهب لنصرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فتصحى بما لها ونفسها حتى ينتشر الإسلام في كل مكان.

والعبارة:

«حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَىٰ أَسْيَافِهِمْ ...»

، تعبير غاية في الروعة تشير إلى أن الجهاد الإسلامى لا بد أن يبتنى على العلم والجهاد الثقافى مقدم على الجهاد العسكرى.

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٦٩

القسم الثالث: العودة إلى القيم الجاهلية

إشارة

«حَتَّىٰ إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُودَهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمْ السُّيْلُ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَايَةِ، وَوَصَّيُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رِصِّ أَسْيَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي

عَمْرَهُ. قَدْ مَارُوا فِي الْحَيْرَةِ، وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ عَلَى سُنَّةِ مَنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُتَّقِعٍ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام بحثه السابق عن العصر الجاهلي ومن ثم زمان قيام رسول الله صلى الله عليه وآله وإنبثاق الدعوة الإسلامية، ليتحدث هنا عن العصر الذي يعقب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث رسم صورة واضحة عنه وأزاح الستار ليكشف الحقائق فقال:

«حَتَّى إِذَا قَبِضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمْ [٨٢٠] السُّبُلُ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَائِحِ [٨٢١]، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ».

المراد من العبارة:

«رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ»

، العودة إلى الجاهلية وإحياء سنن ذلك الزمان والذي ظهر للأسف في المجتمع الإسلامي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد استحوذ الطالحن على

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٧٠

مختلف المناصب وأقصى الصالحون وبرز حب الدنيا وأصبح بين المال العائد لجميع المسلمين تحت تصرف طبقة معينة.

والعبارة:

«وَغَالَتْهُمْ السُّبُلُ»

، إشارة إلى اختلاف الآراء الذي ظهر بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وقد فسّر العديد من الأفراد محكمات الإسلام على ضوء ميولهم ومنافعهم الشخصية، وهذا ما أدى إلى ضلالة الكثير من الناس، وهي الضلالة التي عبر عنها الإمام بالهلكة.

والمراد بالعبارة:

«وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَائِحِ»

أن جماعة من المسلمين قد إختارت المنافقين بطانة لها.

والعبارة:

«وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ»

، إشارة إلى الآية الشريفة:

«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ...» [٨٢٢].

والعبارة:

«وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ»

، تأكيد آخر على هذا المعنى في أنهم مأمورون بمودة أهل البيت عليهم السلام وأتباع منهجهم، وإلا أنهم تركوهم واتبعوا غيرهم.

ثم خاض الإمام عليه السلام بصراحة أبعد بشأن الخلافة وتغيير أساسها فقال:

«وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رِصِّ [٨٢٣] أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ».

رغم أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عين خليفته مراراً صراحة وكنايته فقال، تمسكوا بالقرآن والعترة، لكنهم هدموا هذا البنيان ونقلوه إلى موضع هش آخر.

ثم تطرق الإمام عليه السلام في ختام الخطبة إلى صفات العامل الأصلي وراء ذلك التغيير فقال:

«مَعَادِنُ كُلِّ حَظِيئَةٍ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي عَمْرَةٍ [٨٢٤]. قَدْ مَارُوا [٨٢٥] فِي الْحَيْرَةِ، وَذَهَلُوا فِي

السَّكْرَةَ عَلَى سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُنْقَطِعِ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقِ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ». فقد بين الإمام عليه السلام هذه الصفات الخمس لهم ليشير إلى انحراف أفكارهم وأعمالهم من

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٧١

الجدور، فهم أفراد فاسدون ومفسدون ومغرورون وغافلون وغارقون في الدنيا ومجانبون لدين الحق، وقد شبَّههم الإمام عليه السلام بآل فرعون، وأحدى صفات آل فرعون أنهم قسموا المجتمع إلى قسمين: الأقباط والأسباط، أو بعبارة أخرى آل فرعون وبنى اسرائيل، وقد تمتع الفريق الأول بكافة الامتيازات في البلاد (مصر) ومرغوا انوف الفريق الثاني بالتراب، فكانوا يقتلون رجالهم ويسبون نساءهم وملأوا الأرض فساداً:

«إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» [٨٢٦]. فقد اعتمد خط النفاق الجاهلي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ذات السنة الفرعونية، فقد اقتصرت كافة امتيازات البلاد الإسلامية على بنى امية ولم يكن نصيب شيعة على عليه السلام سوى القتل «تحت كل حجر ومدرا» والتشريد والحبس والتعذيب، وقد ملأوا العالم الإسلامي بالفساد.

والعبارة:

«مُنْقَطِعِ إِلَى الدُّنْيَا...»

؛ إشارة إلى أن طائفة منهم قد أقبلت علانية على الدنيا، فقد طاولت قصورهم عنان السماء، كما ذكر ترفهم وبذخهم بحياة كسرى والقيصر، ويبدون أن من بين حاشيتهم ممن لا يبدى علاقة ظاهرة بالدنيا لكنه باع دينه بدنيا غيره ووضع له الأحاديث التي تصيرح بفضلها ونسبها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ووجه أعماله القبيحة، ومصدق ذلك واضح للجميع.

تأمل: مصير جاحدوا الولاية

تعد هذه الخطبة من أقوى الخطب التي تدافع عن ولاية أهل البيت عليهم السلام، وإن مرَّ عليها بعض شرّاح نهج البلاغة مرور الكرام، فقد أعلن الإمام عليه السلام صراحة وجود حركة رجعية بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله، وأساسها إسقاط ولاية أهل البيت عليهم السلام وضرب الوصايا المؤكدة للنبي

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٧٢

الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الخصوص، وأفضل محمل لها يتمثل ب «الاجتهاد مقابل النص» وعدم اعتبارهم وصايا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لمصلحة المسلمين، ولكن على كل حال فإنّ مؤججى نيران تلك المعركة هي العناصر المعروفة في الجاهلية وخصوم الدعوة كأبى سفيان وأعوانه الذين نفذوا تدريجياً إلى الخلافة الإسلامية وتقدموا إلى الصفوف الأمامية بعد أن كانوا من المؤخرين، فسيطروا على كل شيء وإرتكبوا من المفضائع ما ليس له مثل في التاريخ أو قل مثيله، لكن الخطبة تشير بصورة دقيقة إلى نهجهم ومسارهم وبالتالي عاقبتهم.

والجدير بالذكر أن ابن أبى الحديد المعروف بتعصبه في مسألة خلافة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والخلفاء الأوائل قد اعترض صراحة ليقول بأن الإمام عليه السلام قصد بهذه الخطبة مسألة الخلافة والإمامة غير أنه سعى بتكليف ليراها مختصة بزمان بنى امية، ثم يفصل العبارة:

«حَتَّى إِذَا قَبِضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»

عن

«رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ»،

ويفسرُها لما بعد أربعين سنة [٨٢٧]، وهو الضعف الذي لا يخفى على أحد، وذلك لأنَّ صريح كلام الإمام عليه السلام هو أنَّ هذه الحركة على الأعقاب قد بدأت مباشرة بعد رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، والتاريخ يشهد بأنَّ الجنايات بنى امية جذور في عصر الخلفاء والطريف في الأمر أنَّ هذه الإشارة وردت في «صحيح البخارى» الذي يعتبر من المصادر الروائية المعتبرة لدى العامة في أنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أخبر عن الحوادث الأليمة من بعده، حيث قال:

«يَرُدُّ عَلَيَّ الْحَوْضَ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِي فَيَحْلَلُوْهُ عَنْهُ فَأَقُولُ: يَا رَبَّ أَصْحَابِي، فَيَقُولُ، إِنَّكَ لَا عَلِمَ لَكَ بِمَا أَحَدُثُوا بَعْدَكَ إِنَّهُمْ إِرْتَدُّوا عَلَيَّ أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى [٨٢٨]

. والعبارة إرتدوا جديرة بالتأمل.

والجدير بالذكر أنه وردت عدّة روايات بهذا الخصوص وفي هذا الباب في صحيح البخارى والتي تدلّ جميعاً على قلق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعد رحيله من أعمال طائفة من أصحابه، وهذا شاهد بين على ما ورد في هذه الخطبة بشأن الأحداث الأليمة بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله، والواقع هو أنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أراد بهذا البيان تحذير أصحابه في أن يراقبوا أنفسهم وأنهم

نفحات الولاية، ج ٥، ص: ٤٧٣

مؤاخذون يوم القيامة على أى خلاف يصدر منهم فيسعون لأن لا يكونوا من تلك الطائفة.

حسن الختام

انتهى المجلد الخامس من هذا الكتاب بالخطبة المائة والخمسين وهى نهاية رائعة حيث تتحدث عن ولاية أهل البيت عليهم السلام فى أيام الولاية، الولاية بفضلها الصراط المستقيم وسبيل النجاة والمانعة من كل انحراف وزلل.

اللهم ثبتنا على ولايتهم، واحشرونا بولايتهم، واجعلنا من أتباع منهجهم، إنك حميد مجيد، وبالإجابة جدير وعلى كل شىء قدير.

نهاية المجلد الخامس

محرم الحرام ١٤٢٤

[١] (١) سند الخطبة: نقل هذه الخطبة طائفة من الأعلام ممن عاشوا قبل وبعد المرحوم السيد الرضى ومنهم: ابن شعبة الحرّانى فى «تحف العقول»، وابن طلحة الشافعى فى «مطالب السؤل»، ومحمد بن عمران المرزبانى فى «الموفق»، كما فسّر ابن أثير ما صعب من مفرداتها فى كتابه «النهاية»، إلّا أنّ هناك اختلافاً فى نقله مع بعض عبارات هذه الخطبة (مصادر نهج البلاغة ٢/ ١٤٤) وقال ابن أبى الحديد حين شرحه لهذه الخطبة: نقل هذه الخطبة أيضاً أبو عثمان الجاحظ فى كتاب «البيان والتبيين» (شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٧/ ٢٣٦).

[٢] (١) «راقت»: من مادة «ورق» على وزن ذوق بمعنى المسرة والإعجاب.

[٣] (٢) سورة آل عمران/ ١٨٥؛ الحديد/ ٢٠.

[٤] (٣) سورة الإنسان/ ٢٧.

[٥] (٤) سورة آل عمران/ ١٤.

- [٦] (١) سورة الحجر / ٣.
- [٧] (٢) «حبرة»: من مادة «حبر» بالفتح السرور والنعمة.
- [٨] (٣) «حائلة»: من مادة «حول» على وزن قول المتغيرة.
- [٩] (٤) «نافذة»: من مادة «نفاد» بمعنى الفناء والعدم والزوال.
- [١٠] (٥) «بائدة»: من مادة «بيد» على وزن صيد هالكه.
- [١١] (٦) «غواله»: من مادة «غول» على وزن قول الهلكة المباغته.
- [١٢] (٧) «هشيمًا»: من مادة «هشم» بمعنى كسر الأشياء ومن هنا تطلق على النبت اليابس المكسر.
- [١٣] (٨) سورة الكهف / ٤٥.
- [١٤] (١) «منحت»: من مادة «منح» على وزن مدح بمعنى العطاء.
- [١٥] (١) «تطله»: من مادة «طل» على وزن تل المطر الخفيف ويقابله الوابل المطر الشديد.
- [١٦] (٢) «ديمة»: من مادة «دوام» مطر دوم فى سكون لا رعد ولا برق معه.
- [١٧] (٣) «هنتت»: من مادة «هتن» على وزن حتم بمعنى إنصبت.
- [١٨] (٤) «مزنه» قطعة من السحاب الممطر.
- [١٩] (٥) «اعذوذب»: من مادة «عذب» الفرات الزلال.
- [٢٠] (٦) «احلولى»: من مادة «حلو» الطعم المعروف.
- [٢١] (٧) «أوبى»: من مادة «وبى المرض والهلكه».
- [٢٢] (٨) «غضارة»: من مادة «غضر» على وزن نذر كثرة النعم، وسعة العيش.
- [٢٣] (٩) «أرهقت»: من مادة «رهق» على وزن شفق ألبسته بالقوة والقهر.
- [٢٤] (١٠) «قوادم»: جمع «قادمة» الواحدة من الريشات فى مقدم جناح الطائر، وهى زلقة عادة.
- [٢٥] (١) «يوبق»: فى الأصل من مادة «وبوق» على وزن نبوغ، بمعنى الهلكه، وعليه فيوبقه يعنى يهلكه.
- [٢٦] (١) «أبهه»: بمعنى العظمة وقد اشتقت من مادة «أبه» بمعنيين الفطنة حيث توصل ممن يتصف بها من الأفراد إلى المجد والعظمة.
- [٢٧] (١) الطبرى ٥ / ٣٠٥.
- [٢٨] (٢) «دول»: بضم الدال وفتح الواو المشددة المتحول، الشىء الذى يتحول من يد إلى أخرى، ولما كانت حال الحكومات كذلك، فقد اصطلح عليها بالدول أيضاً.
- [٢٩] (٣) «رنق»: صفة مشبهة من مادة «رنق» بمعنى الكدر.
- [٣٠] (٤) «اجاجم»: شديد الملوحة تلدغ حرارته الفم.
- [٣١] (٥) «صبر»: جمع «صبره» على وزن كلمة أو جمع صبر على وزن فقر عصارة شجرة مرة، كما يطلق أحياناً على نفس الشجرة.
- [٣٢] (٦) «سمام»: جمع «سم» المواد التى إذا خالطت بدن الإنسان أفسدته وأهلكته.
- [٣٣] (٧) «رمام»: جمع «رمة» بالضم القطعة البالية من العظم أو الحبل.
- [٣٤] (٨) «موفور»: من مادة «وفور» الكثير من الشىء.
- [٣٥] (٩) «منكوب»: من مادة «نكبة» بمعنى المصاب.
- [٣٦] (١٠) «محروب»: من مادة «حرب» القتال والحرب.
- [٣٧] (١) «عديد»: بمعنى «العدد»، كما ورد بمعنى الشبيه والمثيل وأريد بها المعنى الأول فى عبارة الخطبة.

- [٣٨] (٢) «أكثف»: تفضيل «كثيف» بمعنى الكثير.
- [٣٩] (٣) «سخت»: من مادة «السخاوة» بمعنى العطاء.
- [٤٠] (٤) «أرهقت»: من مادة «إرهاق» ستر الشيء بالقوة، أرهقتهم بمعنى غشيتهم.
- [٤١] (٥) «قوادح»: جمع «قادحة» بمعنى الآفة.
- [٤٢] (٦) «أوهقت»: من مادة «وهق» حلقة توضع على رقبة الحيوان.
- [٤٣] (١) «قوارع»: جمع «قارعة» بمعنى المحن والدواهي.
- [٤٤] (٢) «ضععت»: من مادة «ضععة» بمعنى الذلة والهوان، كما تأتي بمعنى الإبادة.
- [٤٥] (٣) «عفرت»: من مادة «التعفير» كبتهم على مناخرهم في العفر وهو التراب.
- [٤٦] (٤) «المناسم»: جمع «منسم» يكسر الميم وهو مقدم خف البعير.
- [٤٧] (٥) «ريب المنون»: الريب الشك الذي يكشف عنه الغطاء آخر الأمر ويبلغ اليقين، والمنون يعني الموت، وريب المنون الموت المحتمل ويراد بها أحياناً مكاره الدهر التي تكون في البدايةً مشكوكة ثم يحصل بها اليقين.
- [٤٨] (٦) «أخلد»: من مادة «إخلاد» وأصلها من الخلود، والعبارة أخلد إليها بمعنى الركون، أي أن أصحاب الدنيا قد أبدوا منتهى الرغبة بالدنيا وكأنهم التصقوا بها.
- [٤٩] (١) «ضنك»: بمعنى «الضيق» والشدة وهي مفردة تستعمل بصيغة المفرد دائماً.
- [٥٠] (١) اصول الكافي ٢ / ١٢٨.
- [٥١] (٢) المصدر السابق / ٣١٩.
- [٥٢] (١) «ظاعنون»: من مادة «ظعن» على وزن دفن بمعنى السفر والرحيل.
- [٥٣] (١) سورة العنكبوت / ٥٧.
- [٥٤] (٢) سورة الرحمن / ٢٧ - ٢٨.
- [٥٥] (٣) سورة الحجر / ٩٩.
- [٥٦] (٤) سورة فصلت / ١٥.
- [٥٧] (٥) «ركبانا»: صرح بعض شراح نهج البلاغة أن العرب إعتادت الاصطلاح بالركبان على من يركب مختاراً وله التصرف في مركبه، فان نزلوا سموا ضيفان، أما الموتى الذين يحملون إلى قبورهم فلا يدعون ركبناً ولا ضيفان.
- [٥٨] (٦) «الاجداث»: جمع «جدث» على وزن قفص بمعنى القبور.
- [٥٩] (٧) سورة القمر / ١٩ - ٢٠.
- [٦٠] (١) «صفيح»: وردت هنا بمعنى وجه الأرض، من مادة «صفح» على وزن مدح.
- [٦١] (٢) «أجنان»: جمع «جنن» على وزن كفن بمعنى القبر، وأصلها بمعنى التغطية والستر، ولما كان القبر يستر بدن الميت فقد اطلق عليه الجنن.
- [٦٢] (٣) «رفات»: بمعنى كل شيء بالي ومتعفن، كما يراد بها العظام المندقة المحطومة والمتنافرة.
- [٦٣] (٤) «ضيمًا»: له مفهوم المصدر واسم المصدر ويعنى الظلم.
- [٦٤] (٥) «مندبة»: من مادة «ندبة» بمعنى البكاء.
- [٦٥] (٦) «جيدوا»: من مادة «جود» على وزن قوم مبنى للمجهول بمعنى مطروا.
- [٦٦] (٧) «جيرة»: جمع «جار» وغالباً ما تجمع جيران.

[٤٧] (١) منها البراعة ٨ / ٢٥، وردت هذه الأشعار فى حاشية بحار الانوار بعنوان مناجاة للإمام السجاد عليه السلام نقلًا عن البداية والنهاية، لابن كثير (بحار الانوار ٤٦ / ٤٨).

[٤٨] (١) اختلفت أقوال شراح نهج البلاغة لهذه العبارة، ويبدو الأنسب هو ما أورده سابقاً.

[٤٩] (٢) سورة طه / ٥٥.

[٧٠] (٣) سورة الانبياء / ١٠٤.

[٧١] (١) بحار الانوار ٦ / ٢٤٨.

[٧٢] (١) سند الخطبة: ورد فى مصادر نهج البلاغة أنه نقلها «على بن محمد الليثى» صاحب كتاب «عيون الحكم والمواعظ» مع فارق قليل، وقال ابن ميثم البحرانى حين شرحه لهذه الخطبة أنها جزء من خطبة طويلة أوردها الإمام على عليه السلام بشأن توحيد الله سبحانه وتعالى وتزيهه. ويفيد هذا الكلام أنه نقل هذه الخطبة من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٤٤).

[٧٣] (٢) كتاب «تمام نهج البلاغة»، ص ٤٥.

[٧٤] (١) سورة الزمر / ٤٢.

[٧٥] (١) وردت إشارة لهذا المعنى فى رواية عن على عليه السلام (بحار الانوار ٦ / ١٤٢، ح ٤).

[٧٦] (١) من لا يحضره الفقيه ١ / ٨٠، ح ١٢.

[٧٧] (١) سند الخطبة:

ذكر البعض هذه الخطبة كل من الزمخشري فى أوائل كتاب «ربيع الأبرار» والآمدي فى كتاب «غرر الحكم» باختلاف طفيف يفيد أنه نقلها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٤٧).

[٧٨] (١) وردت هذه العبارة فى سائر النسخ بهذه الصيغة «دار هانت على ربها»، بينما يبدو أنها وردت خطأ فى نسخة صبحى الصالح والى أقتبست منها هذه النسخة بهذه الصيغة «دارها هانت».

[٧٩] (٢) «لم يصفها»: من مادة «الاصفاء» بمعنى الاختصاص إشارة إلى تفاهة نعم الدنيا بحيث منحها الله الجميع.

[٨٠] (٣) «لم يظن»: من مادة «الظن» بمعنى البخل.

[٨١] (٤) «عتيد»: من مادة «عتاد» على وزن جواب بمعنى حاضر وتأتى بمعنى الإدخار.

[٨٢] (١) قرأها أغلب شراح نهج البلاغة مبنية للمجهول بينما قرأها البعض الآخر مبنية للمعلوم ففهموا من العبارة شبيه ما ذكر، والحال يتبين من الرجوع إلى المتون اللغوية أن للإغبطاط معنى آخر هو السرور وحمد الله وشكره على نعمة (انظر لسان العرب والقاموس وسائر المصادر اللغوية).

[٨٣] (١) «لا توازون»: من مادة «موازرة» بمعنى التعاون والمساعدة.

[٨٤] (١) «زوى»: من مادة «زى» على وزن حى بمعنى الجمع والأخذ والإبعاد والمراد بها فى العبارة فقدان والإبعاد حيث وردت بصيغة الفعل المجهول مقرونة بالفعل عن.

[٨٥] (١) «لعة»: من مادة «لعم» على وزن فرق بمعنى لحس الشيء وتطلق اللعة على القليل من الطعام الذى يجعله الإنسان بأصبعه أو ملعقة صغيرة على لسانه ويبتلعه بسرعة، وهى كناية عن الشيء المختصر.

[٨٦] (١) سند الخطبة:

ورد قسم مهم من هذه الخطبة فى كتاب «تحف العقول» الذى يحتمل تأليفه قبل نهج البلاغة، وقد نقل الزمخشري مقطعها الأول فى أوائل كتابه «ربيع الابرار» والقسم الآخر فى أوائل المجلد الثانى من ذلك الكتاب، ويتضح من الفرق بين نقله ونقل السيد الرضى قدس سره أنه إقتبسها من مصدر آخر غير نهج البلاغة، كما نقلها مع اختلاف طفيف القاضى القضاعى (وهو من علماء القرن الخامس

ومن مقربي أحد خلفاء الدولة الفاطمية في مصر) في كتابه «دستور معالم الحكم» والمرحوم الشيخ الطوسي في الآمالى (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٢٥٢).

[٨٧] (١) مصادر نهج البلاغة ٢/ ٢٥٢.

[٨٨] (١) «بطاء»: جمع «بطيئة» ضد السريعة.

[٨٩] (١) ثواب الأعمال، (حيث نقل شرح نهج البلاغة، للعلامة الخوئي ٨/ ٥٧) وهذا هو الحديث الأول الذى ورد فى كتاب ثواب الأعمال.

[٩٠] (١) سورة يوسف / ٥٣.

[٩١] (١) سورة البقرة / ١٧٩.

[٩٢] (١) سورة يوسف / ٢٣.

[٩٣] (٢) «حمت»: من مادة «حمايه» بمعنى المنع، ولذلك يقال الحامى للذى يمنع عن الآخرين الخصوم والأعداء.

[٩٤] (٣) «هواجر»: جمع «هاجرة» وسط النهار فى الجو الحار.

[٩٥] (١) أعظم الفضائل «نصب»: بمعنى العناء والتعب.

[٩٦] (٢) «الرئى»: بمعنى الارتواء من الماء.

[٩٧] (٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣ (همام).

[٩٨] (١) «توسى»: من مادة «اسو» بمعنى علاج الجرح.

[٩٩] (٢) «ينقع»: من مادة «نقع» على وزن نفع بمعنى إرواء وارتواء.

[١٠٠] (١) بحار الانوار ٦/ ١٣٢.

[١٠١] (٢) «زل»: من مادة «زل» على وزن حل بمعنى الانزلاق والسقوط.

[١٠٢] (٣) «رى»: بمعنى الارتواء.

[١٠٣] (١) بحار الانوار ٧/ ١٦٦.

[١٠٤] (١) بحار الانوار ٧٥/ ٢٣٨.

[١٠٥] (١) نهج البلاغة، الكلمات القصار ٣٢.

[١٠٦] (٢) بحار الانوار ٨/ ١٩١، ح ١٦٨.

[١٠٧] (١) سورة البقرة / ٢٦١.

[١٠٨] (٢) سورة التوبة / ١١١.

[١٠٩] (٣) سورة آل عمران / ٧٧.

[١١٠] (١) الواقع أن العبارة «إن الذى أمرتم به ..» إشارة إلى الأحكام التكليفية الخمسة، والعبارة «ما أحل لكم ...» ناظرة إلى الأحكام الوضعية، وعليه فلا داعى لأن تعتبر العبارتين مترادفتين للتأكيد كما ذهب إلى ذلك بعض شراح نهج البلاغة.

[١١١] (٢) سورة الحج / ٧٨.

[١١٢] (٣) بحار الانوار ٢٢/ ٢٦٤.

[١١٣] (٤) سورة النحل / ١١٤ - ١١٥.

[١١٤] (١) يعتقد بعض شراح نهج البلاغة أن «طلبه» فى العبارة المذكورة ليست نائب فاعل للمضمون ونائب الفاعل هو «الرزق» التى وردت فى العبارات السابقة، وإلا أدنى تأمل يكشف أن هذا المطلب ينقض نسق العبارتين المذكورتين (المضمون لكم ... المفروض

عليكم) والحال يقتضى الانسجام بين هاتين العبارتين أن يكون كل من «طلب» و«عمل» نائب فاعل أحدهما للمضمون والآخرى للمفروض، وعليه يصبح معنى الجملة «لا ينبغي أن تولون الأهمية للشىء الذى ضمنه لكم الله وتغفلون عمّا وجب عليكم من عمل» بعبارة أخرى فإنّ الطلب هنا بمعنى تحصيل وإعداد الرزق من جانب الله تعالى.

[١١٥] (٢) «دخل»: يعنى الفساد فى مثل هذه الأمور ودخل على وزن دعل بمعنى الأمور الفاسدة التى تتسلل داخل الإنسان فتؤثر على عقله.

[١١٦] (٣) اصول الكافى ١ / ٣٠.

[١١٧] (١) «بغتة»: من مادة «بغت» على وزن وقت يعنى الشىء الذى يحدث فجأة.

[١١٨] (٢) بحار الانوار ٧٥ / ١٦.

[١١٩] (١) سورة آل عمران / ١٠٢.

[١٢٠] (١) سورة القصص / ٧٧.

[١٢١] (٢) وسائل الشيعة ١٢ / ١٩.

[١٢٢] (١) بحار الانوار ٧ / ١٤٠.

[١٢٣] (٢) المصدر السابق.

[١٢٤] (٣) المصدر السابق ٤٠ / ٣٢٧.

[١٢٥] (١) سند الخطبة:

رواها قبل السيد الرضى المرحوم الشيخ الصدوق فى كتابه «من لا يحضره الفقيه» فى آداب صلاة الاستسقاء مع اختلاف كبير وإضافات تدلّ على أنّ ما نقله السيد الرضى فى نهج البلاغة هو بعض ما اختاره من تلك الخطبة «من لا يحضره الفقيه ٢ / ٢٣٥» كما نقلها المرحوم الشيخ الطوسى فى «التهديب ج ٢، ص ١٥١» وفى «المصباح المتهجد» فى آداب صلاة الاستسقاء مع اختلاف وما ورد فى نقل السيد الرضى فى نهج البلاغة ممّا يدلّ على وجود مصدر آخر اعتمده الشيخ، ونقلها من علماء العامة الزمخشري فى «ربيع الابرار» وابن الأثير فى «النهاية» (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٥٦).

[١٢٦] (١) «انصاحت»: من مادة «صوح» على وزن صوم بمعنى الانشقاق وقيل بمعنى الجفاف والتشقق والزوال الملازمة لبعضها البعض الآخر.

[١٢٧] (٢) «اغبرت»: من مادة «غار» وهى هنا إشارة إلى الجذب الذى يؤدى إلى جفاف الأرض.

[١٢٨] (٣) «هامت»: من مادة «هيم» على وزن حيف بمعنى الحيرة وتستعمل أحياناً بشأن الإنسان أو الحيوان الذى لا يدرى أين يذهب من شدة العطش.

[١٢٩] (٤) «مرابض»: جمع «مربض» موضع الماشية ومبرك الغنم.

[١٣٠] (٥) «عجت»: من مادة «عجيج» بمعنى الصراخ والصياح بأعلى الصوت.

[١٣١] (١) «ثكالى»: جمع «ثكلى» المرأة التى مات إبنها.

[١٣٢] (٢) «آنة»: من مادة «أنين» وعادة ما تطلق على الشاة التى تتألم.

[١٣٣] (٣) «حانة»: من مادة «حنين» التى تطلق على الجمل حين يتألم.

[١٣٤] (٤) «موالج»: جمع «مولج» مدخل الشىء.

[١٣٥] (٥) «اعتكرت»: من مادة «عكر» على وزن مكر بمعنى الهجوم.

[١٣٦] (٦) «سنين»: اسم جمع السنوات، لكنّها ترد عادة فى العبارات كالعبارة المذكورة بمعنى القحط والجفاف (ورد معنيان لسنين

في قاموس اللغة أحدهما بمعنى السنه والآخر بمعنى الجفاف والقحط).

[١٣٧] (٧) «أخلفتنا»: من مادة «خلاف» بمعنى المخالفة.

[١٣٨] (٨) «مخايل»: جمع «مخيلة» على وزن قبيلة بمعنى الغيوم التي يأمل الإنسان بنزول المطر منها لكنها ليست بماطرة.

[١٣٩] (٩) «جود»: لفتح الجيم جمع «جائد» المطر الكثير والجود بالضم بمعنى السخاء والهبة.

[١٤٠] (١) «مبتس»: من مادة «بؤس» على وزن قرص الفقر وشدة الحاجة.

[١٤١] (٢) «البلاغ»: بمعنى الكفاية وحل المشكله.

[١٤٢] (٣) «سوام»: وسائمة الحيوان الذي يرعى في الصحراء.

[١٤٣] (٤) سورة نوح / ١٠ - ١١.

[١٤٤] (٥) سورة الأعراف / ٩٦.

[١٤٥] (١) «منبعق»: من مادة «انبعاق» بمعنى انشقاق ولما كانت الغيوم حين نزول المطر تبدو منشقة وتجرى منها الأمطار فقد استخدمت هذه المفردة بشأن نزول المطر.

[١٤٦] (٢) «مغدق»: من مادة «غدق» على وزن شفق الماء الوفير وتستعمل كناية بشأن السنوات المفعمة بالخير والبركة.

[١٤٧] (٣) «مونق»: من مادة «أنق» على وزن شفق بمعنى السرور والاعجاب بالشيء.

[١٤٨] (٤) «سح»: بمعنى انسياب الماء الوفير وبصورة مستمرة.

[١٤٩] (٥) «وابل»: المطر الشديد الضخم القطر.

[١٥٠] (١) «مريع»: من مادة «مرع» على وزن كثيف النبات.

[١٥١] (٢) «ثامر»: بمعنى ذو ثمر.

[١٥٢] (٣) «ناصر»: بمعنى ذو نصره.

[١٥٣] (٤) «تنعش»: من مادة «نعش» على وزن فرش بمعنى الإثارة واقامة.

[١٥٤] (٥) «نجاد»: من مادة «نجود» على وزن سجد ما ارتفع من الأرض حيث تصطحح العرب بالنجد على الأرض المرتفعة.

[١٥٥] (٦) «وهاد»: جمع «وهدة» على وزن غفلة ما انخفض من الأرض.

[١٥٦] (٧) «يخصب»: من مادة «خصب» على وزن فكر كثير النبات.

[١٥٧] (٨) «جناب»: ناحية الدار أو المدينة.

[١٥٨] (٩) «تندى»: من مادة «نداوة» الرطوبة وهي هنا كناية عن الجود والسخاء.

[١٥٩] (١٠) «أقاصى»: جمع «أقصى» النقطة البعيدة.

[١٦٠] (١١) «ضواحي»: جمع «ضاحية» المنطقه الخارجة عن المدينة.

[١٦١] (١٢) «مرملة»: من مادة «إرمال» الفقر ونفاد المتاع والزاد.

[١٦٢] (١) «مخضلة»: من مادة «خضل» على وزن عمل الليل والرطوبة وتستخدم كناية للسنوات المليئة بالأمطار ونزول البركة.

[١٦٣] (٢) «هاطله»: من مادة «هطل» على وزن سطل السيول والقطرات الضخمة.

[١٦٤] (٣) «الودق»: حبات المطر، كما تطلق على ذرات الماء الصغيرة التي تتعلق كغبار في الجو حين نزول المطر، والمعنى الأول هنا أنسب.

[١٦٥] (٤) «يحفز»: من مادة «حفز» على وزن نبض الدفع بشدة.

[١٦٦] (٥) «خَلَب»: بمعنى خارع من مادة «الخلابة» وهي هنا إشارة إلى الغيوم ذات البرق والرعد الخالية من المطر.

[١٦٧] (٦) «جهام»: بالفتح السحاب الذى لا مطر فيه.

[١٦٨] (٧) «قرع»: القطع الصغيرة المتفرقة من السحب.

[١٦٩] (٨) «رباب»: السحاب الأبيض (الذى لا مطر فيه).

[١٧٠] (٩) «شفان»: الرياح الباردة أو الجو البارد المقرون بالرطوبة (لسان العرب ومعجم دهخدا) وأصلها شفون على وزن فنون النظر بطرف العين أو النظرة باعتراض، ولعل اطلاقها هنا على الرياح الشديدة لأنها تسبب انزعاج الطرف المقابل.

[١٧١] (١٠) «ذهاب»: جمع «ذهبه» بالكسر الأمطار القليلة.

[١٧٢] (١١) «امراع»: بمعنى كثير البركة.

[١٧٣] (١٢) «مجدب»: من مادة الجفاف بسبب قطع الماء ويقال مجدب لمن اصيب بالجفاف والقحط.

[١٧٤] (١) «المسنت»: هو المقحط.

[١٧٥] (٢) إقتباس من الآية الشريفة: «وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ» (سورة الشورى / ٤٨).

[١٧٦] (١) ذكرت آداب صلاة الاستسقاء فى أغلب المصادر الفقهية وكتب الحديث ومنها جواهر الكلام ١٢٧/١٢ وتحرير الوسيلة للإمام الخميني، ج ١ و ج ٥، ص ١٦٢ من وسائل الشيعة.

[١٧٧] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧/ ٢٧٢؛ بحار الانوار ٨٨/ ٣٢٩.

[١٧٨] (٢) سورة الاعراف / ٩٤.

[١٧٩] (١) سورة الروم / ٤١.

[١٨٠] (٢) بحار الانوار ٧٦/ ٢١، ح ١٣.

[١٨١] (٣) وسائل الشيعة ١٣/ ٢٥٦.

[١٨٢] (١) سند الخطبة:

تتضمن الخطبة إشارة إلى موضوع خلافة الحجاج للكوفة وما ارتكب فيها من جرائم، وقد نقل أغلب المؤرخين والمحدثين هذا الجانب من الخطبة ومنهم ابن عبد ربه فى العقد الفريد، والمسعودى فى مروج الذهب، والأزهري فى تهذيب اللغة، وابن الفقيه فى كتاب البلدان، وابن أثير فى النهاية، والديلمى فى الإرشاد(مصادر نهج البلاغة ٢/ ٢٥٩).

[١٨٣] (١) سورة النساء / ٤١.

[١٨٤] (١) «وان»: من مادة «ونى» على وزن وحى بمعنى الضعف والتناقل، ويقال الوانى لمن يتباطىء فى الأعمال.

[١٨٥] (٢) «معذر»: من مادة «عذر» تقال لمن يعتذر ولا يثبت له عذر.

[١٨٦] (١) «طوى»: من مادة «طى» بمعنى الكتمان والاختفاء وارىد بها هنا الكتمان.

[١٨٧] (٢) «صعدات»: جمع «صعيد» بمعنى بقعة الأرض والتراب والمواضع المرتفعة من الأرض، وهى هنا إشارة إلى الصحراء والجبل والسهل، وصرح البعض بأن صعادات جمع صعدا على وزن دهل وصعدات جمع الجموع.

[١٨٨] (٣) «تلتدمون»: من مادة «لدم» على وزن لفظ بمعنى الضرب وإلتدام بمعنى ضرب النساء صدورهن للنياحة.

[١٨٩] (١) «خالف»: من مادة «خلوف» من يخلف فى الأهل والمال حين الخروج إلى السفر أو الحرب، كما وردت بمعنى الفرد الكثير الخلاف، إلّا أنّ المراد هنا هو المعنى الأول.

[١٩٠] (٢) «تاه»: من مادة «تیه» الحيرة والقلق.

[١٩١] (١) «ميامين»: جمع «ميمون» بمعنى مبارك.

[١٩٢] (٢) «مراجيح»: جمع «مراجح» على وزن مثقال ذو حلم.

- [١٩٣] (٣) «متاريك»: جمع «متراك» على وزن مساوك من يترك الشيء تماماً.
- [١٩٤] (٤) «قدم»: من «مادة» قدوم بمعنى السبق، وهى هنا إما ظرف بمعنى فى مسار السبق وإما معنى جمعى بمعنى السابقون.
- [١٩٥] (١) نهج البلاغة، الخطبة ٩٧.
- [١٩٦] (٢) المصدر السابق، الخطبة ٧٠.
- [١٩٧] (٣) المصدر السابق، الخطبة ٢٧.
- [١٩٨] (١) «الذيال»: من مائه «ذيل» آخر كل شيء وتصطلىح العرب بالذيال على الشخص الذى تخط ذيال ثوبه على الأرض، ولما كان هذا العمل يقوم به المتكبرون من الأفراد، فقد أطلقت الذيال على الأفراد الذين يتصفون بالكبر والأنايه.
- [١٩٩] (٢) «الميال»: من مائه «ميل» الفرد الطائش.
- [٢٠٠] (٣) «وذحة»: كما سيرد فى المتن بعرة الشاء أو بولها والذى يلتصق بصوفها، كما ورد بمعنى الخنفساء، إلّا أن ابن أبى الحديد صرح بأنّ المعنى الثانى لم يرد فى أى من لغات العرب، والحال إذا رجعنا إلى متون اللغة لرأينا أنّ أغلب أرباب اللغة ذكروا هذا المعنى لمفردة الودحة.
- [٢٠١] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٧ / ٢٧٩.
- [٢٠٢] (٢) مروج الذهب ٣ / ١٢٥.
- [٢٠٣] (١) مروج الذهب ٣٦ / ١٦٦؛ وتاريخ ابن الجوزى حسب نقل سفينة البحار، وسيرة الأئمة، / ٢٤٤؛ وشرح نهج البلاغة للمرحوم التستري ٦ / ١٢.
- [٢٠٤] (١) سند الخطبة:
- ورد فى مصادر نهج البلاغة أنّ أى مصدر غير نهج البلاغة لم يتعرض لنقل هذه الخطبة، ويكتفى بالإشارة إلى كلام ابن أبى الحديد فى آخر هذه الخطبة وقال: جاء فى بعض الروايات «أصل اخوانكم» بدلاً من «أوصل إخوانكم» ويستفاد إجمالاً من هذا الكلام أنّ هناك مصدراً آخر لابن أبى الحديد فى هذه الخطبة.
- [٢٠٥] (٢) تمام نهج البلاغة، ص ٦٥٩.
- [٢٠٦] (١) ورد الفعل تكرمون بصيغة الفعل الثلاثى المجرى المعلوم الذى يعنى الإكرام والاحترام، وهى هنا بمعنى انتظار الإكرام.
- [٢٠٧] (١) سند الخطبة:
- نقل هذه الخطبة المؤرخ المعروف الطبرى فى كتابه «تاريخ الامم والملوك»، وابن قتيبة الدينورى فى كتاب «الإمام والسياسية»، وابن أبى الحديد الذى قال فى شرح هذه الخطبة، قال على عليه السلام هذا الكلام بعد معركة الجمل، كما نقلها المدائنى، والواقدى فى كتبهما (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٦١).
- [٢٠٨] (١) «جنن»: جمع «جنة» على وزن قوّة الوقاية.
- [٢٠٩] (٢) «بطانة»: من مائه «بطن» صاحب السر وخاصة الرجل.
- [٢١٠] (١) الغدير ١ / ٣٧١.
- [٢١١] (١) سند الخطبة:
- نقلت مصادر أخرى هذه الخطبة وكذلك فسّر ابن الأثير فى «النهاية» بعض المفردات من هذه الخطبة، كما أشار إلى بعض عباراتها. قال ابن أبى الحديد فى شرح لهذه الخطبة أنّ الإمام خطبها بعد معركة صفين والنهروان بعد غارات أهل الشام على مناطق البلاد الإسلامية، وهذا يفيد وجود مصدر آخر لابن أبى الحديد غير الذى إعمده السيد الرضى (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٦٣).
- [٢١٢] (١) هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغة بشأن هذه الجملة هل هى جملة خبرية تخبر عن وضع جماعة الكوفة الضعيفة

والمسلوبة الإرادة على أنهم سلكوا سبيلاً لا يدعهم يتفوقون في حياتهم أبداً، أم أنها جملة إنشائية ونوع من الاشمئزاز، يبدو المعنى الثاني هو الأنسب.

[٢١٣] (١) «سددتم»: من مادة «سد» المعروف المعنى ولما كان السد هو البناء المحكم فالتسديد يعنى الإحكام والترسيخ وسدده وفقه للسداد.

[٢١٤] (٢) «كتيبة»: طائفة من الجيش قال بعض أرباب اللغة يتراوح عددها من مئة إلى ألف.

[٢١٥] (٣) «تقلقل»: الحركة من جانب إلى آخر.

[٢١٦] (٤) «قدح»: بكسر القاف السهم أو القطعة من الخشب وقيل أيضاً هو السهم قبل أن يراش وينصل.

[٢١٧] (٥) «جفير»: الكنانة التي توضع جانب الفرس وتوضع فيها السهام.

[٢١٨] (٦) «الفرغ»: بمعنى الخالى.

[٢١٩] (١) «استحار»: من مادة «تحيير وحيرة» بمعنى التردد والاضطراب وتطلق على السحب الثقيلة التي لا تدعها الرياح تتحرك في مسارها وكأنها تبقى مضطربة مترددة.

[٢٢٠] (١) «حم»: من مادة «حم» على وزن غم بمعنى قدر، وعليه فمفهوم العبارة قد حم لى لو قدر لى مثل هذا الأمر، أو إن وفقت لهذا الأمر.

[٢٢١] (٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.

[٢٢٢] (١) للأسف وحسب علمنا فإن شراح نهج البلاغة لم يطرقوا هذا البحث ويردوا على هذه الأسئلة، وشذ منهم أحد أعلام القرن السادس هو المرحوم البيهقي الذى أجاب عن السؤال الثالث بأن الإمام عليه السلام قال: ذلك بغض النظر عن مقام الإمامة، وإلا فإن مقام الإمامة يقتضى من الإمام أن يكون بين الناس مهما كانت الشرائط، وبعبارة أخرى فإن الإمام عليه السلام قال لولا مقام الإمامة وكنت حراً فى هذا الأمر لتركتكم.

[٢٢٣] (٢) «حيادين»: من مادة «حيد» على وزن حرف بمعنى الانحراف ويقال الحياد، لمن ينحرف كثيراً عن جادة الحق.

[٢٢٤] (٣) «رواغين»: من مادة «روغ» على وزن ذوق بمعنى الذهاب إلى هذا الطرف وذاك وهى كناية عن المكر والحيلة، ومن هنا تستخدم هذه المفردة بشأن الثعلب، فيقال (راغ الثعلب).

[٢٢٥] (١) الغارات ٢ / ٦٢٧.

[٢٢٦] (١) سند الخطبة:

جاء فى كتاب مصادر نهج البلاغة أن سليم بن قيس الذى عاش قبل السيد الرضى نقل القسم الأول من هذه الخطبة فى كتابه، كما وردت سائر أجزائها بصورة متفرقة فى كتاب «غرر الحكم»، ولما كان هناك تفاوت بين بعض عبارتها، فإن ذلك يعنى أنها أخذت من كتاب آخر غير نهج البلاغة، كما قال ابن أبى الحديد فى شرح بعض عبارات هذه الخطبة نقلها جماعة بشكل آخر وهذا يشير إلى أنه كان لديه مصدراً آخر (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٦٤).

[٢٢٧] (١) سورة الأحزاب / ٢٣.

[٢٢٨] (١) بحار الانوار ٣٦ / ٣١١.

[٢٢٩] (٢) للوقوف على مصادر هذا الحديث الشريف راجع كتاب نفحات القرآن ٩ / ٦٢ - ٧١.

[٢٣٠] (١) سورة الشورى / ١٣.

[٢٣١] (٢) سورة النحل / ٩٦.

[٢٣٢] (٣) سورة الطارق / ٩.

- [٢٣٣] (٤) «عازب»: من مادة «عزوب» بمعنى الابتعاد وعازب بمعنى بعيد.
- [٢٣٤] (٥) «أعوز»: من مادة «عوز» على وزن مرض وعوز الشيء بمعنى لم يوجد ويراد به عدم وجود الشيء عند الحاجة.
- [٢٣٥] (١) «صديد»: الماء الساخن، كما ورد بمعنى ماء الجرح الرقيق.
- [٢٣٦] (٢) سورة التوبة / ٨١.
- [٢٣٧] (٣) سورة ق / ٣٠.
- [٢٣٨] (٤) سورة الحاقة / ٣٠ - ٣٢.
- [٢٣٩] (٥) سورة إبراهيم / ١٦.
- [٢٤٠] (١) سند الخطبة:
- وردت هذه الخطبة في عدة كتب ألفت قبل المرحوم السيد الرضى مثل كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربّه و«الاختصاص» للشيخ المفيد، والكتب التي ألفت بعده «الكتب التي تفيد عباراتها أنّها نقلت الخطبة من مصادر أخرى غير نهج البلاغة» مثل «مطالب السؤل» لمحمد بن طلحة الشافعي، و«الاحتجاج» للطبرسي، و«ربيع الأبرار» للزمخشري مع اختلاف.
- [٢٤١] (١) «عقدة»: ما حصل عليه «التعاقد» والمراد بها هنا الرأى الصحيح والعهد على الطاعة.
- [٢٤٢] (١) «ضلع»: من مادة «ضلع» على وزن سبب بمعنى الميل نحو الشيء، وتعنى هنا الشبه والمثل.
- [٢٤٣] (١) «داء»: من مادة «دوى» بمعنى المرض الشديد.
- [٢٤٤] (٢) «كلت»: من مادة «كلول» على وزن ملول بمعنى الضعف.
- [٢٤٥] (٣) «نزعة»: من مادة «ترع» على وزن جمع نازع بمعنى السحب.
- [٢٤٦] (٤) «أشطان»: جمع «شطن» على وزن وطن الحبل الطويل الذى يسحب به الماء من البشر.
- [٢٤٧] (٥) «ركى»: جمع «ركية» البشر.
- [٢٤٨] (٦) بحار الانوار ١٤ / ٣٢٣، ح ٣٦.
- [٢٤٩] (١) «هيجوا»: فعل مجهول من مادة «هيجان» وتعنى هنا أنهم كانوا يندفعون إلى الجهاد.
- [٢٥٠] (٢) «ولهوا»: من مادة «ولّه» على وزن فرح شدة الشوق أو الحزن.
- [٢٥١] (٣) «لقاح»: من مادة «لقوح» الناقة.
- [٢٥٢] (٤) «اغماد»: جمع «غمد» على وزن هند موضع السيف.
- [٢٥٣] (٥) «زحف»: تعنى فى الأصل المشى مع الثقل.
- [٢٥٤] (١) «مره»: أمره من مضت عينه أو وجعت.
- [٢٥٥] (٢) «خمص»: جمع «أخمص» ضامر البطن.
- [٢٥٦] (٣) «ذبل»: جمع «ذابل» الجفاف والتبيس.
- [٢٥٧] (٤) «صفر»: جمع «أصفر» شاحب اللون.
- [٢٥٨] (٥) «سهر»: البقاء واعياً فى الليل.
- [٢٥٩] (١) «يسنى»: من مادة «سنا» بمعنى الضياء وإن استعملت فى باب التفعيل وردت بمعنى يسهل.
- [٢٦٠] (١) سورة البقرة / ١٦٨.
- [٢٦١] (٢) سورة البقرة / ٢٠٨؛ سورة الانعام / ١٤٢؛ سورة نور / ٢١.
- [٢٦٢] (٣) سورة المائدة / ٩١.

[٢٦٣] (٤) «اصدقوا»: من مادة «صدق» على وزن عطف بمعنى الإعراض.

[٢٦٤] (٥) «نزغات»: جمع «نزغة» على وزن ضربة وساوس.

[٢٦٥] (٦) «نفثات»: جمع «نفثة» تعنى هنا الوسوسة.

[٢٦٦] (٧) «اعقلوها»: من مادة «عقل» على وزن دغل احبسوها على أنفسكم لا تتركوها فتضيع منكم، والعقل ربط رجل الناقة.

[٢٦٧] (١) سند الخطبة:

نقل المرحوم الطبرسى فى كتاب الاحتجاج أقصر ممّا ورد فى هذه الخطبة ممّا يدل على أنّه أخذها من مصدر آخر، وقال ابن أبى الحديد إنّ هذا الكلام وإن كان متصلًا لكنّه يتألف فى الواقع من ثلاثة أقسام منفصلة، وقد جرت عادة السيد الرضى على انتخاب الأوضح من الكلمات وحذف سائر الكلمات (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٢٧١).

[٢٦٨] (١) «نشد»: من مادة «نشد» بمعنى النداء والسؤال والطلب وهنا بمعنى الاستشهاد.

[٢٦٩] (٢) هل هذه الجملة للسيد الرضى أم كلام روى الخطبة الذى نقل عنه السيد الرضى، لا يعلم بالضبط، لكن من المسلم به أنّ

كلام الإمام عليه السلام أكثر ممّا ورد فى نهج البلاغة وقد اعتاد السيد الرضى على اقتطاف أضح وأبلغه.

[٢٧٠] (٣) «غيلة»: بمعنى «غدر».

[٢٧١] (٤) «استقالوا»: من مادة استقاله بمعنى عودة الشىء.

[٢٧٢] (٥) «تنفيس»: بمعنى الكف والحل.

[٢٧٣] (١) فى ضلال نهج البلاغة، للمرحوم محمد جواد مغنیه، ذيل الخطبة التى بحثها ٢/ ٢٢٢.

[٢٧٤] (١) «مضض»: الألم والحرقه.

[٢٧٥] (٢) «يلم»: من مادة «لم» على وزن غم بمعنى جمع، وتأتى أحياناً بمعنى الجمع والإصلاح.

[٢٧٦] (٣) «شعث»: وردت فى الأصل بمعنى ما يقع عليه الغبار، ثم يطلق على نوع من التشتت والتفرق.

[٢٧٧] (٤) سورة الحجرات / ٩.

[٢٧٨] (١) سند الخطبة:

يمكن التعرف على هذا الكلام بصورة متفرقة فى سائر الكتب، ومنها:

١- الكافى فى باب فضل الجهاد.

٢- العقد الفريد لابن عبد ربه.

٣- الجمل للشيخ المفيد نقلًا عن كتاب الجمل للواقدى.

٤- الإرصاد للشيخ المفيد.

٥- تجارب الامم لابن مسكويه طبق نقل تأسيس الشيعة.

٦- الآمالى للشيخ الطوسى.

(مصادر نهج البلاغة ٢/ ٢٧٣).

[٢٧٩] (١) «رباطه جأش»: جأش على وزن عرش والرباطه الربط بإحكام، فالمراد بالعبارة قوه القلب عند لقاء العدو، حيث يراد بالجأش

القلب والصدر.

[٢٨٠] (٢) «نجدة»: من مادة «نجد» على وزن مجد، بمعنى الشجاعة.

[٢٨١] (١) مرّ علينا بالتفصيل بحث الموت الحتمى والمعلّق فى المجلد الثالث من هذا الكتاب.

[٢٨٢] (١) «ميتة»: بكسر الميم بمعنى كيفية الموت، والميتة بفتح الميم الشخص الميت (بدلاً من الالتفات هنا إلى ميت مذكر ومؤنث

ميتة).

[٢٨٣] (١) مستدرک الوسائل ١١/١٣، ح ٢١.

[٢٨٤] (٢) المصدر السابق، ح ٢.

[٢٨٥] (١) «كشيش الضباب»: بمعنى الصوت الذى لا يرتفع كثيراً ويطلق على صوت الضفدع، والضب وصوت الناقة.

[٢٨٦] (١) «ضيم»: بمعنى الظلم.

[٢٨٧] (٢) «متلوم»: من مادة «تلوم» بمعنى الانتظار والتباطىء والتوقف.

[٢٨٨] (١) سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة نصر بن مزاحم المتوفى عام ٢٠٢ ق في كتاب صفين، كما نقلها المؤرخ المشهور الطبرى في تاريخه عن أبى مخنف في حوادث عام ٣٧ هـ، كما وردت في كتاب الجهاد عن الكافى وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفى (مصادر نهج البلاغة ٢/٢٧٧).

[٢٨٩] (١) سورة الصف / ٤.

[٢٩٠] (٢) الكافى ٥/٣٩، ح ٤.

[٢٩١] (١) «الداع»: بمعنى لابس الدرع من مادة درع على وزن فعل.

[٢٩٢] (٢) «الحاسر»: من لا درع له من مادة حسر على وزن عصر بمعنى العرى.

[٢٩٣] (٣) «أضراس»: جمع «ضرس» على وزن حرس الإنسان وردت بمعنى سن العقل.

[٢٩٤] (٤) «أنبى»: من مادة «نبو» على وزن عفو بمعنى عدم العمل.

[٢٩٥] (٥) «الهام»: جمع «هامه» على وزن قامه رأس الإنسان أو رأس أى موجود حى.

[٢٩٦] (٦) «التووا»: من مادة «التواء» بمعنى الانعطاف أو الميل لهذا الجانب وذاك.

[٢٩٧] (٧) «أمور»: من مادة «مور» على وزن غور بمعنى الحركة السريعة، كما وردت بمعنيين الذهاب الإياب والاضطراب وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

[٢٩٨] (١) فسرت هذه المفردة سابقاً.

[٢٩٩] (٢) منتهى الآمال، ج ١، وقائع العام الهجرى الثانى.

[٣٠٠] (٣) «تخلوا»: من مادة «تخليه» بمعنى الإخلاء والترك، وعليه فالصحيح فتح الخاء لأنها من باب التفعيل.

[٣٠١] (٤) «ذمار»: بكسر الذال ما يلزم الرجل حفظه وحمايته.

[٣٠٢] (١) «الحقائق»: جمع «حاقه» على وزن جاده النازلة الشديدة.

[٣٠٣] (٢) «حفاى»: مثنى «حفاف» على وزن كتاب بمعنى جانب الشىء وحفايها هنا إشارة إلى جانبى الراية يمينها وشمالها.

[٣٠٤] (٣) الكامل لابن الأثير ٢/٢١٩، وتفسير الثعلبى (طبق نقل غايه المرام، /٤٦٧) وصحيح مسلم، ج ٤ كتاب الفضائل الصحبة الحديث ٣٢؛ صحيح البخارى ٥/١٧١ باب غزوة خيبر (طبعاً ذكرت الجملة الأخيرة فقط بشأن على عليه السلام فى صحيح البخارى مسلم).

[٣٠٥] (١) شرح نهج البلاغة للعلامة التستري ١٣/٥٥٨.

[٣٠٦] (٢) «قرن»: الكفو وعدل الإنسان فى الشجاعة فى ميدان القتال ويطلق أحياناً القرن على كل كفو، وقد اشتق فى الأصل من قرن بفتح القاف والاقتران الذى يعنى الاقتراب بين شىئين أو عدة أشياء، ومن هنا يقال للزمان الطويل قرن حيث تكون فيه طائفة من الأجيال مع بعضها.

[٣٠٧] (٣) «آسى»: من مادة «وسى» على وزن مشى بمعنى عاون والمواساة تعنى المعاونة ومساعدة كل واحد الآخر.

- [٣٠٨] (١) «لهاميم»: جمع «لهوموم» على وزن حلقوم الجواد السابق من الإنسان والخيول.
- [٣٠٩] (٢) «سنام»: أعلى الجمل ثم اطلق على كل شيء بارز.
- [٣١٠] (٣) «موجدة»: من مادة «وجد» علث وزن نجد بمعنى الغضب، كما ورد بمعنى الحزن والمعنى الأول هو الأنسب هنا.
- [٣١١] (٤) «محجوز»: من مادة «حجز» بمعنى المنع.
- [٣١٢] (٥) سورة آل عمران / ١٥٤.
- [٣١٣] (٦) «رائح»: من مادة «رواح» الاندفاع بسرعة خلف شيء.
- [٣١٤] (٧) «العوالى»: جمع «العالية» تعنى أسنة الرماح، كما تعنى الرمح.
- [٣١٥] (١) نهج البلاغة، الرسالة ٢٣.
- [٣١٦] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨ / ٦ الحديث (الجنة تحت ظلال السيوف)، كما ورد الحديث في بحار الانوار ٩٧ / ١٣.
- [٣١٧] (١) «افضض»: من مادة «فضّ» على وزن خط بمعنى الهزيمة.
- [٣١٨] (٢) «أبسل»: من مادة «بسل» على وزن نسل بمعنى المنع من الشيء أو القهر والغلبة والإبسال بمعنى التسليم للهلكة والعبارة إشارة إلى هذا المعنى.
- [٣١٩] (١) «دراك»: من مادة «درك» متتابع متوال وكأن كل واحد منهم يدرك الآخر ويصله، وعليه فإنّ طعن الدراك بمعنى السهام التي تطلق تبعاً على العدو.
- [٣٢٠] (٢) «يطيح»: من مادة «إطاحه» بمعنى الاسقاط.
- [٣٢١] (٣) «يندر»: من مادة «اندار» بمعنى يسقط، كما يطلق على طرح شيء من الحساب.
- [٣٢٢] (٤) «مناسر»: جمع «منسر» على وزن محفل القطعة من الجيش تكون أمام الجيش العظيم ويطلق عليها الطليعة، ومنسر على وزن منبر بمعنى منقار الطيور.
- [٣٢٣] (٥) «كتائب»: جمع «كتيبة» طائفة من الجيش من مئة إلى ألف.
- [٣٢٤] (٦) «الحلائب»: جمع «حلبية أو حلوبة» بمعنى الجماعة التي تجتمع على صوب، كما تطلق على الخيالة.
- [٣٢٥] (٧) «الخميس»: بمعنى الجيش الكامل الذي يتألف من خمسة أقسام، المقدمه والميمنه والميسره والقلب والساقه.
- [٣٢٦] (٨) سيأتي تفسير كلمه «تدعق» في كلام السيد الرضى.
- [٣٢٧] (٩) سيأتي تفسير كلمه «نواحر» في كلام السيد الرضى.
- [٣٢٨] (١٠) «أعان»: قال صاحب لسان العرب جمع «عنن» على وزن كفن بمعنى نواحي الشيء وأطرافه.
- [٣٢٩] (١١) «مسارب»: جمع «مسربة» بمعنى المرعى وكذلك مسارح بمعنى المرعى، إلّا أن بعض شراح نهج البلاغة ذهب إلى أنّ المسارب ما يسرب فيه المال والمرعى، والمسارح ما يسرح فيه والفرق بين مسرح ومسرب أنّ السروح إنّما يكون في أول النهار وليس ذلك بشرط في السروب. (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨ / ٩).
- [٣٣٠] (١) سند الخطبة:
- تطرق المؤرخ المعروف الطبرى في حوادث عام ٣٧ هـ إلى هذه الخطبة وشأن صدورها وخلاصته أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام في الخوارج حين حاججهم ابن عباس، حيث أمر الإمام عليه السلام ابن عباس بالسكوت، ثم حمد الله وأثنى عليه وقال لهم: «من إمامكم؟ قالوا: ابن الكواء، قال: لم خالفتمونى، قالوا: لقبولك التحكيم فى صفين، فقال: ناشدتكم الله ألم تطالبونى بالكفّ عن القتال حين رفعت المصاحف على أسنة الرماح، فقلت: لكم إني أعلم بهم منكم، فلا- دين لهم ولا- قرآن، فلم تسمعوا قولى وأبيتم إلّا التحكيم فقبلت، لكننى اشترطت عليهم أن يحكموا القرآن وإلّا لا نستجيب لحكمهم؟»

قالوا: أمن العدل تحكيم الأفراد في دماء المسلمين؟ قال عليه السلام: إننا لم نحكم الرجال بل حكمنا القرآن.

ثم أورد الطبري جانباً من الخطبة، كما نقلها باختلاف طفيف السبط بن الجوزي في تذكرة الخواص، والمرحوم المفيد في الإرشاد، والطبرسي في الاحتجاج.

[٣٣١] (١) «مستور»: الشيء الخفي، إلّا أن هذه المفردة وردت مسطوره في بعض النسخ من مادة سطر وردت صفة للخط في العبارة وهي أنسب.

[٣٣٢] (٢) «دفتين»: مثني «دفة» بمعنى جانب كل شيء ويقال دفتين لجانبى الكتاب أو القرآن.

[٣٣٣] (١) سورة الحجرات / ٩.

[٣٣٤] (٢) سورة النساء / ٥٩.

[٣٣٥] (١) كما ورد في سند هذه الخطبة.

[٣٣٦] (٢) مسند الإمام الشهيد ٢ / ٤٣، وقد نقل هذا الأمر في الأصل مقتل الحسين، للمقرّم وقد نقله عن تذكرة الخواص لابن الجوزي (مقتل الحسين / ٢٣٣).

[٣٣٧] (١) سورة يوسف / ٦٧.

[٣٣٨] (١) «يتثبت»: من مادة «ثبت» بمعنى التحقيق.

[٣٣٩] (٢) «هدنة»: من مادة «هدون» على وزن قرون بمعنى الهدوء والسكون، وتستعمل عادة بمعنى المصالحة بعد القتال أو وقف إطلاق النار.

[٣٤٠] (٣) «أكظام»: جمع «كظم» على وزن عزم وجمع كظم على وزن قلم بمعنى مخرج النفس.

[٣٤١] (٤) منهاج البراعة، للعلامة الخوئي ٨ / ١٨٠.

[٣٤٢] (٥) «كرث»: من مادة «كرث» بمعنى شدة الغم.

[٣٤٣] (١) سورة النساء / ١٥٠.

[٣٤٤] (٢) شرح نهج البلاغة، للمرحوم التستري ١٠ / ٢٦٣؛ تاريخ الطبري ٤ / ٥٠ طبعة الأعلمي بيروت.

[٣٤٥] (٣) «يتاه»: من مادة «تياه» على وزن قيد بمعنى الحيرة والاضطراب، ويقال تياه للصحراء التي يحترق فيها الإنسان.

[٣٤٦] (٤) «اتيمم»: من مادة «إتيان» لها معاني مختلفة وتعني هنا الانخداع والتسليم للباطل.

[٣٤٧] (٥) «موزعين»: من مادة «ايزاع» بمعنى التشجيع وإيجاد الرغبة في شيء وترد بمعنى الإلهام والتوفيق، والمعنى الأول هو المراد بها في هذه العبارة.

[٣٤٨] (٦) «نكب»: جمع «ناكب» من مادة نكب على وزن نفي الانحراف عن الشيء.

[٣٤٩] (١) «زوافر»: جمع «زافرة» من مادة على وزن فقر بمعنى الألم والصراخ، ولما كان أعوان الإنسان بصفتهم الموسمين في الألم والأين فقد اطلقت مفردة الزافرة على النصير وهذا هو المعنى المراد في العبارة.

[٣٥٠] (٢) «حشاش»: جمع «حاش» من مادة حش على وزن شكك بمعنى إيقاد النار، والمراد بها هنا الأفراد الذين يسدون أولى الضربات للعدو.

[٣٥١] (٣) «برح»: بفتح الباء الشدة والغضب.

[٣٥٢] (٤) «نجاء»: ونجوى الهمس في الاذن والشيء الذي يقال للآخرين سراً.

[٣٥٣] (١) ورد في أغلب التواريخ أنّ كتاب الإمام عليه السلام كتبوا أمير المؤمنين إلى جانب إسمه، فاعترض عمرو بن العاص وقال: لو علمناك أميراً للمؤمنين فلا بد أن يكون من يعاديك أميراً للفاسقين، لا بدّ من محو هذه الكلمة، فأطرق على عليه السلام وذكر صلح

الحديبية فقال: «اللّه أكبر لقد كتبت محمد رسول الله صلى الله عليه و آله فاعترض الكفّار وطالبوا بمحو رسول الله، فلم أفعل، فأشار عليّ النبي أن أمحوها ثم محاها بنفسه دفعاً للفتنة، فغضب عمرو بن العاص وقال تشبهنا بالكفّار فلن أبق في هذا المجلس - فقال عليه السلام: أسأل الله أن يطهر مجلسي من مثلك، ثم استمر الكلام حول كتابة لقب أمير المؤمنين حيث رأى البعض عدم محوها وإن شهرت السيوف، ولكن محيت تلك الكلمة آخر الأمر (انظر تاريخ الطبري ٣٧ / ٤ والتواريخ الأخرى).

[٣٥٤] (٢) بحار الانوار ٣٢ / ٥٤٢؛ وقد ورد هذا العهد في تاريخ الطبري ٣٨ / ٤ مع بعض الاختلاف.

[٣٥٥] (١) سورة سبأ / ٢٤.

[٣٥٦] (١) سورة الأحزاب / ٢١.

[٣٥٧] (٢) سورة المائدة / ٩٠.

[٣٥٨] (٣) الاحتجاج للطبري ١ / ٤٤٢، (يتصرف ونقل بالمعنى) ووردت في مناقب ابن المغازلي / ٤٠٦ مع اضافة، وبحار الانوار ٣٣ / ٣٧٧ مع اختلاف.

[٣٥٩] (١) سند الخطبة:

هذه الخطبة جزء من خطبة طويلة للإمام عليه السلام في تقسيم بيت المال لما اعترض عليه، ويبدو أنها مرتبطة بالخطبة ١٤٢، والجزءان من خطبة واحدة، وقد نقلها الكثيرون ممن عاشوا قبل السيد الرضى وبعده ومنهم: ابن قتيبة في الإمامة السياسة، وابن شعبة في تحف العقول، والكليني في فروع الدين، والشيخ المفيد في كتاب المجالس، والمرحوم الشيخ الطوسي في كتاب الآمال (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٨٢).

[٣٦٠] (١) «أطور»: من مادة «طور» على وزن غور بمعنى حام حول الشيء، والمفردة طور وجمعها أطوار وردت بمعنى نوع وحالة وصيغة.

[٣٦١] (٢) «سمير»: من مادة «سمر» على وزن تمر حديث الليل، وقال البعض أن المعنى الأصلي لهذه المادة هو الاختلاط بالنور والظلمة، ولما كانت أحاديث الليل تتم أحياناً في ظلّ النور، فقد استخدمت هذه المفردة بشأن أحاديث الليل، وإن اطلق الأسمر على بعض الأفراد فذلك لأنّ بياض بشرتهم مشوب باللون الغامق.

[٣٦٢] (٣) «أم»: من مادة «أم» على وزن غم بمعنى القصد، والعبارة (ما أمّ نجم في السماء نجماً) كناية عن طلوع النجوم وغروبها متتابعة، وكأنّ كل نجم يقصد متابعه الآخر.

[٣٦٣] (١) «خدين»: من مادة «خدن» بمعنى الصداقة وخدن على وزن اذن بمعنى الصديق وجمع ذلك أخدان.

[٣٦٤] (١) مرّت تفاصيل ذلك في شرحنا للخطبة الشقشقية.

[٣٦٥] (٢) انظر الخطبة ٢٣٢.

[٣٦٦] (٣) ابو عبدالرحمن السلمى من مشاهير التابعين، ولم يكن من الصحابة وقال البعض كان بادية الأمر من خواص أمير المؤمنين عليه السلام (الكنى واللقاب).

[٣٦٧] (٤) كتاب منتخب ذيل المذيل، ص ١٤٧ نقلًا عن العلامة التستري في شرحه لنهج البلاغة ٦ / ٤٩١.

[٣٦٨] (١) ورد عن معاوية أنّه قال: «والله لأستميلنّ بالأموال أهل ثقات عليّ ولا أقسمنّ فيهم المال حتى تغلب دنيائ عليّ آخزته» شرح نهج البلاغة للعلامة التستري ٦ / ٤٩١.

[٣٦٩] (١) سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة المؤرخ المعروف الطبري في حوادث سنة ٣٧ هـ عن أبي مخنف باختلاف طفيف، وابن الأثير في كتاب النهاية وأشار إلى المفردة (بجر). (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٨٥).

[٣٧٠] (١) «عواتق»: جمع «عائق» قسم من الجسم يقع بين الرقبة والكتف.

[٣٧١] (١) أصول الكافي ٢/ ٣٨٩، باب وجوه الكفر، ح ١.

[٣٧٢] (١) سورة التوبة/ ٦.

[٣٧٣] (٢) شرح ابن أبي الحديد ٢/ ٢٧٩ - ٢٨١.

[٣٧٤] (٣) انظر نفحات الولاية ٢/ ٣٧٧.

[٣٧٥] (١) وسائل الشيعة ١٧/ ٣٧٧.

[٣٧٦] (١) سورة المجادلة/ ١٩.

[٣٧٧] (١) سورة الكهف/ ١٠٣ - ١٠٤.

[٣٧٨] (٢) الاستيعاب ٣/ ٣٦.

[٣٧٩] (٣) شرح نهج البلاغة لمغنية ٢/ ٢٤٧، كما وردت في كتاب الغدير عدّة روايات من المصادر المعتبرة للعامة بخصوص معرفة المؤمن يحبّ على عليه السلام والمنافق ببغضه (الغدير ٣/ ١٨٣).

[٣٨٠] (١) «النمط»: هو الطائفة من الناس التي لها هدف واحد، كما تستعمل هذه المفردة أحياناً بمعنى الاسلوب والطريق.

[٣٨١] (٢) بحار الانوار ٦/ ١٧٨.

[٣٨٢] (٣) «السواد»: تعني في الأصل اللون الأسود، ولما كانت الجماعة الكثيرة والأشجار المتشابهة والكثيرة تبدو سواء من بعيد فقد وردت هذه المفردة بهذين المعنيين، وقد جاءت في هذه الخطبة بمعنى الجماعة.

[٣٨٣] (٤) «شاذ»: من مادة «شذوذ» بمعنى القلّة والندرة ويطلق الشاذ على من يتخلف عن الجماعة وينفرد لوحده.

[٣٨٤] (٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨/ ١٢٣.

[٣٨٥] (١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ١٠٩.

[٣٨٦] (١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١.

[٣٨٧] (٢) سورة المائدة/ ١٠٨.

[٣٨٨] (١) مروج الذهب، طبق نقل سفينة البحار مفردة الخوارج.

[٣٨٩] (٢) قاموس دهخدا، ذيل مفردة الخوارج.

[٣٩٠] (١) الملل والنحل لآية الله السبحاني ٥/ ٢٤٢ و ٢٤٩.

[٣٩١] (١) «بجر»: بضم الباء الشر والأمر العظيم، كما ورد بمعنى اتساع البطن وملأها.

[٣٩٢] (٢) «ختلت»: من مادة «ختل» على وزن قتل بمعنى المكر والخداع.

[٣٩٣] (٣) «الصمد»: بمعنى المكان المرتفع، كما يرد بمعنى القصد وعدم الاعتماد وهذا هو المعنى المراد في العبارة.

[٣٩٤] (٤) «سوء»: مفتوح مفعول سبق الذي ورد في أول العبارة ومفهوم الجملة قبل أن يبدي هؤلاء الرأي الظالم والفاسد قد اشترطنا عليهم إننا سوف لن نقبل رأيهم إن حاد عن الحق.

[٣٩٥] (١) ورد شبه هذا المعنى مع إختلاف طفيف في الخطبة ١٧٧.

[٣٩٦] (٢) دومة الجندل منطقة قرب تبوك انتخبت كموضع للتحكيم.

[٣٩٧] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠/ ٥٦ بتصرف.

[٣٩٨] (١) سند الخطبة:

جاء في كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ هذا الكلام جزء من خطبة طويلة لإمام عليه السلام في البصرة بعد موقعة الجمل، وقد نقل

المرحوم ابن ميثم البحراني في شرح نهج البلاغة أجزاء منها، والمخاطب هو الأحنف بن قيس من أشرف قومه والمعروف بحكمته وسابقته، وترتبط هذه الخطبة بالخطبة رقم ١١٠ التي شرحت سابقاً (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٢٨٨).

[٣٩٩] (١) المراد بالأحنف بن قيس من أشرف البصرة وأحد صحابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وورد في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سأل الله له المغفرة، فكان يثق بدعائه رغم أنّه رجل شريف وكريم، كما وجهه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى البصرة لنشر الإسلام، شهد صفين في عسكر أمير المؤمنين على عليه السلام ولم يشهد الجمل بوصية منه عليه السلام حيث قال: إن لم أشهد المعركة فلي أن أمنع عنك ستّة آلاف سيف فوافقه عليه السلام.

سفينه البحار مادة حنف واسد الغابة ١/ ٥٥، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢/ ٢٤٩.

[٤٠٠] (٢) «لجب»: بمعنى الصياح وتطلق أحياناً على أصوات الخيل والمقاتلين.

[٤٠١] (٣) «قعقعة»: الصوت الذي ينبعث من احتكاك الأشياء اليابسة كالجام الذي ورد في الخطبة.

[٤٠٢] (٤) «حمممة»: بمعنى صوت الفرس التي لا تبلغ الصهيل المرتفع.

[٤٠٣] (٥) «نعام»: حويان المعروف.

[٤٠٤] (١) «كاب»: من مادة «كب» على وزن خط تعنى في الأصل طرح الشيء على وجهه في الأرض.

[٤٠٥] (١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٧٧.

[٤٠٦] (١) بحار الانوار ٦٣/ ١٩٧.

[٤٠٧] (٢) مروج الذهب ٤/ ١٢٠.

[٤٠٨] (٣) الكنى والألقاب ٢/ ٤٠٢.

[٤٠٩] (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨/ ١٢٨.

[٤١٠] (٥) المصدر السابق.

[٤١١] (١) «المجان»: جمع «مجن» ومجنه الترس.

[٤١٢] (٢) «المطرقة»: من مادة «طرق» على وزن برق بمعنى دق الشيء بالطرقة أو مطلق الدق، وعليه فالطرقة الشيء الذي دق بالطرقة.

[٤١٣] (١) «السرقة»: بمعنى الحرير الفاخر أو الحرير الأبيض، وقال أغلب أرباب اللغة أصلها فارسي أخذ من السرّه بمعنى الحسن والخالص.

[٤١٤] (٢) «الدياج»: بمعنى القماش الحريري الملون، كما يستعمل أحياناً بمعنى كل قماش حسن النقش، وأصله فارسي أيضاً.

[٤١٥] (٣) «يعتقبون»: من مادة «اعتقاب» يحبسون كرائم الخيل ويمنعونها غيرهم.

[٤١٦] (٤) «اعتاق»: جمع «عتيق» بمعنى كل شيء حسن وقيم وتستعمل في الخيل الأصيلة.

[٤١٧] (٥) «استحرار»: من مادة «حرارة» بمعنى الشدة والحدة.

[٤١٨] (٦) «المفلت»: من مادة «فلت» على وزن فرد بمعنى الهروب والفرار وتطلق مفردة المفلت على من ينجو من الشدة.

[٤١٩] (٧) «المأسور»: بمعنى الأسير.

[٤٢٠] (٨) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ٨/ ٢١٨.

[٤٢١] (١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ٨/ ٢١٨-٢٥٢، وقاموس دهخدا مفرد المغول.

[٤٢٢] (١) سورة لقمان/ ٣٤.

[٤٢٣] (٢) «يعى»: من مادة «وعى» على وزن سعى بمعنى حفظ الشيء في القلب، أو بعبارة أخرى التعلم والايدياع في الحافظة.

[٤٢٤] (٣) «تضطم»: من مادة «ضم» بمعنى جمع الشيء.

[٤٢٥] (٤) «جوانح»: جمع «جانحة» الأضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر.

[٤٢٦] (١) تفسير نور الثقلين، ووردت أحاديث سبعة أقلًا في هذا المضمار في ذيل الآية الشريفة.

[٤٢٧] (١) اصول الكافي ١/ ٢٥٧، ح ٣ من باب «نادر فيه ذكر الغيب».

[٤٢٨] (١) سند الخطبة:

ورد في مصادر نهج البلاغة أنّ هذه الخطبة وإن كانت في رعاية العدل في الكيل والميزان، لكن لا يرى مطلب بهذا الخصوص في هذه الخطبة سوى إشارة قال فيها الإمام عليه السلام: «ابن المتورعون في مكاسبهم»، وهذا يدلّ على أنّها جزء من خطبة طويلة أشارت إلى هذه المسألة المهمة، إلّا أنّ المرحوم السيد الرضى كعادته يختار منها ويترك بقيتها، رواها الزمخشري في «ربيع الأبرار»، كما ورد قسم منها في «غرر الحكم» (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٢٩٠).

[٤٢٩] (٢) مكاييل جمع مكيال، والموازين جمع الميزان.

[٤٣٠] (١) «أثوياء»: جمع «ثوى» على وزن قوى بمعنى الضيف وفي الأصل من مادة «ثواء» بمعنى الإقامة في مكان.

[٤٣١] (٢) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ٨/ ٢٤٧.

[٤٣٢] (٣) «دائب»: من مادة «دؤوب» على وزن غروب المداوم في العمل.

[٤٣٣] (٤) «كادح»: من مادة «كدح» على وزن مدح الساعى بجهد ومشقة في القيام بعمل.

[٤٣٤] (١) «فريسة»: من مادة «فرس» على وزن قرص بمعنى الصيد.

[٤٣٥] (٢) اصول الكافي ٨/ ٥٥١.

[٤٣٦] (٣) «طرف»: وردت أحياناً بمعنى العين، وأخرى حركة جفن العين، كما استعملت بمعنى النظر لأنّ الأجفان تتحرك حين النظر.

[٤٣٧] (٤) «يكابد»: من مادة «كبد» بمعنى تحمل المشقة وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة، كما وردت بمعنى الجعل في المشقة.

[٤٣٨] (٥) «الوفر»: بمعنى الوفير والكثير.

[٤٣٩] (١) «الوقر»: بمعنى الثقل.

[٤٤٠] (٢) «طرف»: وردت أحياناً بمعنى العين، وأخرى حركة جفن العين، كما استعملت بمعنى النظر لأنّ الأجفان تتحرك حين النظر.

[٤٤١] (١) «سمحاء»: جمع «سميح» الشخص الرؤوف وصاحب الكرم، وقيل من يبذل حين وفرة النعمة وضيقتها.

[٤٤٢] (٢) «متورع»: من مادة «ورع» بمعنى اجتناب الذنب والشبهة.

[٤٤٣] (١) «ظعنوا»: من مادة «ظعن» السفر والرحيل.

[٤٤٤] (٢) «المنغصة»: من مادة «نغص» على وزن نقص الكدر وعدم الصفاء ماء الشرب، ثم اطلقت على كدورة العيش ومنه العيش المنغص.

[٤٤٥] (٣) وردت هذه المفردة في أغلب شروح نهج البلاغة خلقتم التي لا- تختلف كثيراً عن «خُلِفْتُمْ» كما لم تذكر إلفي العبارة

إلّا بدمهم.

[٤٤٦] (٤) «حثالة»: تعنى في الأصل راسب الدهن ثم استعملت بشأن الأفراد الأراذل الذين لا شخصيية لهم.

[٤٤٧] (١) بحار الانوار ٦٦/ ٧٢، ح ٢٦.

[٤٤٨] (٢) كنز العمال ٣/ ٦٦، ح ٥٥٢٢.

[٤٤٩] (١) سند الخطبة:

ذكرها المرحوم الكليني في كتاب «روضة الكافي» باختلاف طفيف ويستفاد من ذيلها أن ليس على عليه السلام شيعة إلى الربذة فقط،

بل شيعه الإمام الحسن والحسين عليهما السلام وعمار (وعقيل حسب بعض الروايات)، وبعبارات رائعة سيأتى بيانها فى الأبحاث القادمة (الكافى ٨ / ٢٠٦، ح ٢٥)، قال صاحب مصادر نهج البلاغة بعد الإشارة إلى رواية الكافى نقلها ابن أبى الحديد عن كتاب «السقيفة» لأحمد بن عبدالعزيز الجوهري (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٩١).

[٤٥٠] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٨ / ٢٥٢.

[٤٥١] (١) وعليه تفسير «ما» بالموصوله بمعنى الدين لأنهم أرادوا أن يستفيدوا من دين أبى ذر لصالح دنياهم، فحال أبو ذر دون ذلك، كما يحتمل أن يكون الدين بصورة مطلقة، إلّا أنّ هناك تقديراً فى العبارة حيث يكون المعنى ما أحوجهم إلى الدين، الدين الذى حذرت عليه من إفسادهم له.

[٤٥٢] (٢) «رتق»: إلتحام شىء بآخر وتعنى فى العبارة إغلاق طرق الخلاص والفرار.

[٤٥٣] (٣) سورة الطلاق / ٢ - ٣.

[٤٥٤] (١) «قرضت»: من مادة «قرض» تعنى فى الأصل قطع الشىء ومن هنا يقال المقرض للمقصر، كما يقال القرض لما يعطى من مال، ووردت فى العبارة المذكورة بمعنى قطعت منها جزءاً من المال لنفسك، ومهادنة الظالمين.

[٤٥٥] (٢) روت أغلب المصادر «جندب وجنادة» بضم الجيم، وكنيته أبو ذر، حيث كان له ولد بهذا الاسم.

[٤٥٦] (١) بحار الانوار ٢٢ / ٢٩٨.

[٤٥٧] (٢) سورة التوبة / ٣٤.

[٤٥٨] (١) بحار الانوار ٢٢ / ٣٩٨.

[٤٥٩] (٢) ورد فى معجم البلدان أنّ الربدة من القرى الواقعة أطراف المدينة حيث تبعد عنها ثلاثة أميال (حدود ١٥٠ كيلومتر).

[٤٦٠] (٣) لخصت هذه المطالب من عدّة كتب معروفة كشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، وشرح المرحوم التستري، وشرح المرحوم الخوئي، وبحار الانوار.

[٤٦١] (٤) الأعلام للزركلى، ذيل كلمة جندب.

[٤٦٢] (١) الغدير ٨ / ٣٤٣.

[٤٦٣] (٢) سورة النور / ٣٣.

[٤٦٤] (٣) سورة التوبة / ٣٤.

[٤٦٥] (٤) الغدير ٨ / ٣١٢ و ٣٦٣.

[٤٦٦] (١) الأعلام للزركلى ٢ / ١٤٠.

[٤٦٧] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٨ / ٢٥٧.

[٤٦٨] (٢) اسد الغابة ١ / ٣٠١.

[٤٦٩] (١) الكافى ٨ / ٢٠٨، بتصرف، شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٨ / ٢٥٣.

[٤٧٠] (١) سند الخطبة:

أشار ابن الجوزى فى «تذكرة الخواص» إلى هذه الخطبة وقال: ابتدأ الإمام هذه الخطبة حين استوى على منبر الكوفة بالقول: الحمد لله وأومن به ثم خطب الخطبة، وأورد القاضى نعمان الفصل الأخير من الخطبة فى المجلد الثانى من «دعائم الإسلام»، كما أشار إلى بعضها ابن أثير فى «النهاية» فى مادة ظار ومادة دعا (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٩٥) وتدلّ هذه المصادر على أنّ الخطبة وردت فى عدّة كتب قبل السيد الرضى.

[٤٧١] (١) «أظار»: من مادة «ظار» على وزن ضرب تعنى فى الأصل المراقبة والمواظبة على الشىء ولما كان عمل القابلة الإرضاع

ومراقبة الطفل فقد استعملت هذه المفردة لها.

[٤٧٢] (٢) «المعزى»: بمعنى السخلة فى مقابل الضأن بمعنى الخروف.

[٤٧٣] (٣) «وعوعه»: بمعنى الضراخ والضجة والزئير، وتطلق على الأموات المتداخلة.

[٤٧٤] (٤) «اطلع»: لها معنى اللازم وهو الطلوع والظهور وكذلك معنى المتعدى، وهنا بالنظر لسرار مفعولها فقد وردت متعدية، والباء فى بكم للاستعانة أو السبب.

[٤٧٥] (٥) «سرار»: من مادة «سر» تعنى فى الأصل آخر ليلة من الشهر «ليلة المحاق التام» ويراد بها شدة الظلمة.

[٤٧٦] (١) «منافسة»: تعنى فى الأصل سعى فردين يريد كل منهما الظفر بشىء نفيس يمتلكه الآخر، فالواقع هى مسابقة شريفة بين فردين من أجل بلوغ كمال من الكمالات، ولكن قد تستعمل هذه المفردة فى الموارد السلبية، كما تستعمل بشأن الأفراد الذين يتسابقون من أجل نيل المال والمقام، والمراد بها فى الخطبة المعنى الثانى.

[٤٧٧] (١) يبدو أن هذه المفردة «لترد» من مادة وورد قد وردت خطأ فى نسخة نهج البلاغة لصبحى والصحيح لئرد بالتشديد من مادة الرد بمعنى الإعادة، كما وردت كذلك فى أغلب نسخ نهج البلاغة.

[٤٧٨] (٢) سورة الجمعة / ٢.

[٤٧٩] (٣) سورة الحديد / ٢٥.

[٤٨٠] (٤) سورة الحج / ٤١.

[٤٨١] (١) ورد شرح إسلام على عليه السلام وأنه أول من أسلم فى أغلب مصادر الفريقين والرد على التخرصات فى المجلد الثالث من هذا الكتاب، والمجلد التاسع، ص ٣٢٦ من نفحات القرآن.

[٤٨٢] (١) «النهمة»: تعنى فى الأصل الحاجة وشدة الحب لشىء والمبالغة فى الحرص عليه.

[٤٨٣] (١) «الجافى»: من مادة «جفاء» تعنى قى الأصل العنف وأخذ الشىء.

[٤٨٤] (٢) سورة آل عمران / ١٥٩.

[٤٨٥] (٣) «الحائف»: من مادة «حيف» بمعنى الظلم والجور وتعنى فى الأصل الانحراف فى الحكم التمييز.

[٤٨٦] (٤) «دول»: جمع «دولة» بمعنى المال.

[٤٨٧] (٥) «المقاطع»: جمع «مقطع» بمعنى آخر كل شىء، كما تطلق هذه المفردة أحياناً على الحدود الإلهية التى تنتهى بجرم المجرمين وقد وردت بهذا المعنى فى العبارة، وفى إشارة إلى أن القاضى إن كان مرتشياً فإنه لا يأذن باجراء حدود الله تعالى.

[٤٨٨] (١) سند الخطبة:

نقلها بصورة متفرقة الأمدى - من علماء القرن الخامس - فى كتاب «الغرر»، ويفهم من اختلافها مع ما ورد فى نهج البلاغة أنها كانت فى مصدر آخر غير نهج البلاغة، كما أشار ابن الأثير المتوفى عام ٦٠٦ هـ فى «النهاية» إلى جوانب من هذه الخطبة (مصادر نهج البلاغة / ٢ / ٢٩٨).

[٤٨٩] (١) اللام فى «خفية» بمعنى فى أو بمعنى مع وكذلك اللام فى «لكل سريرة».

[٤٩٠] (٢) «نجيب»: من مادة «نجا» الإنسان أو الشىء المصطفى والنفيس.

[٤٩١] (٣) «بعث»: من مادة «بعث» بمعنى مبعوث.

[٤٩٢] (١) اسمع فعل وداعى فاعل وضميره يعود إلى الموت ومفعوله محذوف وهو جميع الناس، أى إن داعى الموت أوصل صوته لسمع الجميع.

[٤٩٣] (٢) «حادى»: من مادة «حدا» من يسوق الجمال بسرعة والعبارة فعل وفاعل ومفعول محذوف كالجملة السابقة.

[٤٩٤] (١) هذه الأنواع العشرة من التأكيد هي: «ان» وضمير الشأن «إن» اعتبرنا الضمير في «أنه» ضمير الشأن والجملة الاسمية والقسم بلفظ الجلالة والجد والألف واللام التي دخلت عليه ولا اللعب والحق ولا الكذب والاستفادة من الحصر في العبارة (ما هو إلا...).

[٤٩٥] (٢) «ازعج»: من مادة «ازعاج» بمعنى الاقتلاع والخراج.

[٤٩٦] (١) «مشد»: من مادة «شيد» على وزن بيد، لها معنيان: الأول بمعنى الارتفاع والآخر بمعنى الجص ومن هنا يطلق على القصور المرتفعة والعالية التي تعانق السماء باقصو المشيدة، كما تطلق على القصور المحكمة لتبقى محصنة من حوادث الدهر (في مقابل مساكن المستضعفين التي تبني عادة من الطين).

[٤٩٧] (١) «برز»: من مادة «بروز» بمعنى الظهور والسبقة، وتوضيح ذلك أن هذه المفردة تكون أحياناً على هيئة ثلاثي مجرد (على وزن ضرب) بمعنى الظهور، وأحياناً أخرى من باب تفعيل (على وزن صرّف) بمعنى السبقة، وقد استعملت في العبارة الثانية، وإن وردت بصيغة الثلاثي المجرد في بعض النسخ.

[٤٩٨] (٢) «مهل»: له معنى الاسم المصدرى وتعني الوقف والمدارة، كما تستعمل بمعنى الفرصة للقيام بالعمل الصالح.

[٤٩٩] (٣) «هبل»: نعى أحياناً الهلكة وفقدان الشيء أحياناً، وأخرى بمعنى الغنيمه والاهتبال بمعنى الخدعة، كما يعني الاغتنام والاستيلاء على شيء، والمعنى الثاني هو المراد بالعبارة.

[٥٠٠] (١) «أوفاز»: جمع «وفر» على وزن نبض السرعة والعجلة والاستعداد للسفر.

[٥٠١] (٢) «الزيال»: بمعنى الفراق والعبارة «قربوا الظهور للزيال» تعني أعدوا المراكب للرحيل من الدنيا ولازمة ذلك الإتيان بالأعمال الصالحة والتوبة من الذنوب وأداء حقوق المخلوق والخالق.

[٥٠٢] (١) سند الخطبة:

لم يجد كاتب مصادر نهج البلاغة سنداً آخر لهذه الخطبة، سوى ما قاله ابن أبي الحديد من أن ما ورد في هذه الخطبة جزء اقتطفه السيد الرضى من خطبة طويلة، فيراه دليلاً على أنه أصل الخطبة وإن لم يشر إلى سندها، ولكن يحتمل أن يكون كلام ابن أبي الحديد استنباطاً لهذه الخطبة في نهج البلاغة، لأن السيد الرضى بين من خلال تعبيره «منها ومنها» والذي كرره في هذه الخطبة أنه قطعها، كما أن عدم إرتباط أجزاءها يفيد أن أصل الخطبة طويل جداً، وقد ذكرها الآمدى في «الغرر» ويحتمل أنه نقلها من مصدر آخر.

[٥٠٣] (١) «أزمة»: جمع زمام اللجام.

[٥٠٤] (٢) «مقاليد»: قال أغلب أرباب اللغة مقلد وقال البعض الآخر جمع مقلاد بمعنى مفتاح، وقال صاحب «لسان العرب» أن أصلها فارسي كليلد الذي يعني المفتاح، كما قال صاحب «لسان العرب» تأتي أحياناً بمعنى الخزائن إلا أن المعنى الأول أنسب وأكثر إنسجاماً مع العبارة أزمة في الجملة السابقة وقذفت في هذه الجملة.

[٥٠٥] (٣) «غدو»: جمع «غدوة» بمعنى الصباح، و«الأصال» جمع أصل على وزن رسل وهي جمع من مادة أصل بمعنى العصر وآخر النهار واعتبر بعض أرباب اللغة الأصال والأصل جمع أصيل.

[٥٠٦] (١) سورة الرحمن / ٦.

[٥٠٧] (٢) «قدحت»: من مادة «قدح» على وزن مدح بمعنى ضرب الحجر بالسندان لتوليد شعلة النار والتي كانت شائدة سابقاً، ثم وردت بمعنى اشتعلت.

[٥٠٨] (٣) «قضبان»: جمع قضيب بمعنى عَضن الشجرة وقضب على وزن نبط بمعنى الفاكهة.

[٥٠٩] (٤) «يانعة»: من مادة «ينع» على وزن منع بمعنى نضج الفاكهة.

[٥١٠] (٥) سورة القصص / ٧٠.

[٥١١] (٦) سورة الزمر / ٦٣.

- [٥١٢] (٧) سورة الحج / ١٨.
- [٥١٣] (١) سورة يس / ٨٠.
- [٥١٤] (٢) سورة الانعام / ١٤١.
- [٥١٥] (١) «أظهر»: جمع «ظهر» كل شيء، والتعبير بين أظهركم تعنى فى أغلب الموارد الدفاع عن الشيء، وذلك لأن الأفراد إن أرادوا الدفاع عن منطقة ولوا إليها ظهورهم وإلتفوا حولها واستقبلوا العدو، ثم استعملت هذه المفردة حين يكون الشخص وسط جماعة سواء دافعوا عنه أم لم يدافعوا، وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة.
- [٥١٦] (٢) «يعبى»: من مادة «عى» على وزن حى بمعنى التعب والعجز، وقال الراغب فى المفردات تعنى فى الأصل العجز الذى يعرض لجسم الإنسان إثر كثرة المشى، ثم اطلقت على كل تعب وعجز.
- [٥١٧] (٣) ورد هذا الكلام فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «هو فى كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة» (بحار الانوار ٢ / ٢٨٠).
- [٥١٨] (١) سورة آل عمران / ١٦٠.
- [٥١٩] (١) «فترة»: وفتور تعنى فى الأصل الهدوء والاستقرار وتأتى أحياناً بمعنى الضعف والفتور، وتطلق على الفاصلة بين حركتين أو حادثتين أو انقلابين، ومن هنا عبروا بالفترة عن الفاصلة بين ظهور الانبياء.
- [٥٢٠] (٢) «قفى»: من مادة «قفا» بمعنى ظهر، كما ورد بمعنى خلف الشيء فى المجيىء.
- [٥٢١] (٣) «العادلين»: جمع «عادل» من مادة عدل على وزن فكر بمعنى المعادل والشبيه والمثيل وإن وردت من مادة عدل على وزن نظم عن العدالة، ومن مادة العدول بمعنى الانحراف والرجوع عن الشيء، وعليه فالعادل على ثلاثة معانى، وأريد بها المعنى الأول فى الخطبة (لا بد من الالتفات إلى أن المعنى الأول يتعدى عادةً بالباء والمعنى الثالث بواسطة عن).
- [٥٢٢] (١) سورة البقرة / ٢٥٦.
- [٥٢٣] (١) سورة الروم / ٧.
- [٥٢٤] (٢) سورة البقرة / ١٩٧.
- [٥٢٥] (١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٤.
- [٥٢٦] (٢) بحار الانوار ٤٤ / ٣٨٣.
- [٥٢٧] (٣) نهج البلاغة، قصار الكلمات ٤١٥.
- [٥٢٨] (١) سورة الجمعة / ٦.
- [٥٢٩] (٢) سورة الواقعة / ٨٨ - ٨٩.
- [٥٣٠] (٣) شرح نهج البلاغة، لابن ميثم ٣ / ١٥٧.
- [٥٣١] (٤) بحار الانوار ٦٩ / ٦٩.
- [٥٣٢] (٥) «رى»: له معنى مصدرى هو الارتواء.
- [٥٣٣] (٦) «الضمان»: من مادة «ظماً» على وزن طمع بمعنى العطش.
- [٥٣٤] (١) نهج البلاغة، قصار الكلمات ٤٦٦.
- [٥٣٥] (٢) سورة البقرة / ٢٦٩.
- [٥٣٦] (٣) هذا الاحتمال مختار ابن أبى الحديد والمرحوم الشارح الخوئى ومحمد عبده.
- [٥٣٧] (١) سورة البقرة / ١٢٩، ١٥١؛ وآل عمران / ٤٨، ٨١ و ...

- [٥٣٨] (٢) سورة الانعام / ١٠٤.
- [٥٣٩] (١) سورة النساء / ٨٢.
- [٥٤٠] (٢) «غل»: من مادة «غلول» أو غلل على وزن أفول وأجل تعنى فى الأصل النفوذ التدريجى والخفى للماء فى جذور الأشجار، ثم اطلق الغل الذى له معنى (الاسم المصدرى) على الخيانة لأنها تحصل بصورة تدريجية وخفية.
- [٥٤١] (٣) «دمن»: جمع «دمنة» على وزن فتنه بمعنى السارقين، كما يطلق على الحقد القديم.
- [٥٤٢] (١) «تاه»: من مادة «تیه» بمعنى الحيرة ومن مادة «توه» على وزن لوح بمعنى الهلكة، ويبدو المعنى الثانى فى العبارة هو الأنسب.
- [٥٤٣] (٢) «غرور»: إن قرأ بالضم فهو الخداع والمكر، وإن قرأ بالفتح أفاد الوصف وعنى الشخص الخادع وقد أطلقه القرآن على الشيطان، وقد ورد بالصيغة الأولى فى النسخة المعروفة لصبحى الصالح، بينما ورد بالصيغة الثانية فى أغلب النسخ، وتبدو الصيغة الثانية أنسب على ضوء تناسق العبارات.
- [٥٤٤] (٣) سورة النور / ٢١.
- [٥٤٥] (٤) سورة النساء / ٨٣.
- [٥٤٦] (١) سند الخطبة:
- نقل هذا الكلام عن الإمام عليه السلام باختلاف طفيف ابن الأثير فى النهاية فى مادة كنف وأبو عبيد فى كتاب الأموال (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٣٠٢)
- [٥٤٧] (٢) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانى ٣ / ١٦٢.
- [٥٤٨] (٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبى الحديد ٨ / ٢٩٨.
- [٥٤٩] (١) شرح نهج البلاغة، للتستري ٧ / ٤٢١-٤٢٣، بتصرف.
- [٥٥٠] (١) «حوزة»: من مادة «حوز» على وزن موز تعنى الجمع والاتصال والإمتلاك وعادة ما تطلق الحوزة على كل مجموعة.
- [٥٥١] (٢) سورة التوبة / ٣٣.
- [٥٥٢] (١) العبارة «والذى نصرهم...» مبتدأ وخبرها «حتى لا يموت».
- [٥٥٣] (٢) «تنكب»: من مادة «نكب» على وزن نخل بمعنى الانحراف عن المسير، وفى هذه العبارة بمعنى الهزيمة والقتل.
- [٥٥٤] (٣) «كانفة»: من مادة «كنف» على وزن ظرف بمعنى الحفظ، وعليه كانفة تقال للشخص أو الشىء العاصم الذى يحفظ الأفراد.
- [٥٥٥] (١) «محرِب»: من مادة «حرب» بمعنى المقاتل والشجاع.
- [٥٥٦] (٢) «احفز»: من مادة «حفز» على وزن نبض الدافع والسوق الشديد.
- [٥٥٧] (٣) «بلاء»: بمعنى الاختبار وأهل البلاء أهل المهارة فى الحرب.
- [٥٥٨] (٤) «ردء»: بالكسر من مادة «ردء» على وزن عبد بمعنى المساعدة وعليه فردء بمعنى النصير والعضيد والسند.
- [٥٥٩] (٥) «مئابة»: من مادة «ثوب» على وزن قوم بمعنى رجوع الشىء إلى حالته الأولى ومثابة بمعنى المرجع ومن يعاد إليه.
- [٥٦٠] (١) تحف العقول / ٣٧٤.
- [٥٦١] (١) سند الخطبة:
- لم ينقل صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة من نقل هذه الخطبة سوى أحمد بن أعثم الكوفى فى كتاب الفتوح، لكنّه أورد بعض التوضيحات بشأن وورد الخطبة عن كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد.
- [٥٦٢] (١) المغيرة بن الأحنس وأبوه أحد المنافقين وهو غير المغيرة بن شعبة المعروف بنفاقه وعداوته لأهل البيت عليهم السلام.
- [٥٦٣] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٨ / ٣٠١-٣٠٢؛ والفتوح لابن أعثم الكوفى ١ / ١٦ طبقاً لنقل شرح نهج البلاغة

للمرحوم التستري ٩ / ٢٤١.

[٥٦٤] (١) يقال إنَّ عداء آل المغيرة استمر ضد علي عليه السلام حتى شهد ولده عبد الله المعركة الجمل فقتل فيها (شرح نهج البلاغة

للمرحوم التستري ٩ / ٢٦٦).

[٥٦٥] (١) سورة ابراهيم / ٢٦.

[٥٦٦] (٢) «منهض»: من مادة «نهض» القيام من المكان ومنهض من باب إفعال الشخص الذي يساعد غيره لينهض.

[٥٦٧] (٣) سورة محمد / ٧.

[٥٦٨] (٤) سورة غافر / ٥١.

[٥٦٩] (٥) «نواك»: من مادة «نوا» والكاف ضمير متصل تعنى فى الأصل غاية المسافر بعيدة كانت أم قريبة.

[٥٧٠] (٦) فالعبارة لا أبقي الله عليك تطلق حين اللعن ليعبد عن رحمة الله، والعبارة إن بقيت تعنى لا رحمك الله إن رحمتنى، فهى

فى الواقع استخفاف بالمخاطب، فافعل ما شئت إنك لا تقدر على شىء.

[٥٧١] (١) سند الخطبة:

قال المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله فى كتاب «الإرشاد» أن الإمام على عليه السلام أورد هذا الكلام إمتنع البعض عن بيعه الإمام عليه

السلام- حسب رواية الشعبى- ومنهم عبدالله بن عمر وسعد بن أبى وقاص ومحمد بن مسلمة وحسان بن ثابت واسامة بن زيد، فخطب

الإمام عليه السلام لبيان أحقيته بيعته (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٣٠٦) وهكذا نقل هذه الخطبة الشيخ المفيد فى إرشاده وقد عاش قبل

السيد الرضى، وكذلك أشار إليها ابن الأثير فى كتاب «النهاية» فى مادة (فلت).

[٥٧٢] (١) صحيح البخارى ٦ / ٢٥٠٥ طبعه دارالنشر بيروت وصحيح ابن جبان ٢ / ١٤٨، طبع مؤسسه الرساله.

[٥٧٣] (٢) بحار الانوار ١٠ / ٢٤٨ (نقلًا عن مناقب ابن شهر آشوب).

[٥٧٤] (١) «خزامة»: بالكسر حلقه من شعر تجعل فى وتره أنف البعير ليشد فيها الزمام ويشهل قياده، وقال البعض إن كان جنس الحلقة

من النحاس قيل لها البرة وإن كانت من الشعر فهى الخزامة.

[٥٧٥] (٢) «منهل»: من مادة «نهل» على وزن جهل بمعنى الشربة الأولى ويطلق المنهل على الموضع الذى يمكن الاستفادة منه من ماء

النهر (لابد من الالتفات إلى أن سطح ماء أغلب الأنهار أكثر انخفاضاً من الساحل وعادة ما يشقون بعض الأماكن لوصول الماء ليلبغه

الناس والحيوانات بسهولة ويقال لمسير هذه الأماكن الشريعة وآخرها المنهل.

[٥٧٦] (٣) سورة الحديد / ٢٥.

[٥٧٧] (١) سند الخطبة:

رواها ابن عبد البر من علماء العامية للقرن الخامس فى كتاب «الاستيعاب» فى شرح سيرة طلحة، كما رواها ابن الأثير من علماء القرن

السابع فى «اسد الغابة»، ونقلها المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله فى كتاب «الجمل» عن الواقدى، كما فسر بعض أجزاءها ابن أبى

الحديد عن أبى مخنف وكذلك ابن الأثير فى كتاب «العوذ» (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٣٠٩).

[٥٧٨] (١) «نصف»: بكسر النون وضمها الإنصاف.

[٥٧٩] (١) أوردنا شرحاً تاماً للعبارة «إنَّ معى لبصيرتى» فى هذا الكتاب ١ / ٤٨١.

[٥٨٠] (٢) «شغب»: مصدر وبمعنى تهيج الشر والفساد.

[٥٨١] (٣) منهاج البراعة ٨ / ٣٣٨؛ الاحتجاج ١ / ١٦٥.

[٥٨٢] (١) أورد ابن الأثير فى المجلد الثانى، ص ٣١٥ عن الكامل شرحاً مفصلاً لقضية نباح كلاب الحوآب وصراخ عائشة وعزمها

على الرجوع وشهادة البعض على كذب من قال تلك المنطقه هى الحوآب.

- [٥٨٣] (٢) تاريخ دمشق ٣٢ / ١٧١، طبعه بيروت؛ كنز العمال ١٢ / ٢١١ طبعه حيدر آباد (مطابق نقل أحقاق الحق ١٧ / ١٦٦).
- [٥٨٤] (١) «افرطن»: من مادة «افراط» تعنى فى الأصل تجاوز الحدّ، لكنّها وردت أحياناً بمعنى القيام بالحدّ الأكثر من العمل وقد جاءت بهذا المعنى فى العبارة، يعنى سأملاً- حوض المعركة للخصوم (طبعاً المراد حوض المنية) بحيث لا- يبقى أمامهم من سبيل للنجاة، وبناءً على هذا فلا مجال لطرح مثل هذا السؤال أو يمكن للإمام عليه السلام أن يفرض فى شىء.
- [٥٨٥] (٢) «ماتح»: من مادة «متح» على وزن مدح بمعنى سحب الماء من الأعلى كسحب الماء من البئر بواسطة الدلو، وعليه فالماتح تطلق على من يطرح الدلو بواسطة الحبل فى البئر ويسحب منه الماء.
- [٥٨٦] (٣) «رى»: اسم مصدرى ومصدره «رى» على وزن حى والباء للمعية.
- [٥٨٧] (٤) «يعبون»: من مادة «عب» بمعنى شرب الماء أو مانع آخر دون تنفس.
- [٥٨٨] (٥) «حسى»: السهل من الأرض الذى يتجمع فيه الماء.
- [٥٨٩] (١) «العوذ»: بضم العين جمع «عائد» الإنسان أو الحيوان الذى يلد حديثاً.
- [٥٩٠] (٢) «المطافيل»: جمع «مطل» على وزن مسلم ذات الطفل من الإنسان والوحش، وعليه فالعوذ والمطافيل قريبة المعنى وهما هنا للتأكيد.
- [٥٩١] (١) «البا»: من مادة «تأليب» بمعنى الافساد وإثارة الناس.
- [٥٩٢] (٢) «استثبت»: من مادة «ثوب» على وزن صوم بمعنى رجوع الرميص إلى العافية ومفهوم العبارة أنى أردت من طلحة والزبير الرجوع عن انحرافهما.
- [٥٩٣] (٣) «استأنيت»: من مادة «أناة» على وزن قناه بمعنى الصبر والانتظار ومفهوم الجملة أنى كنت أنتظر تأثير اقتراحى عليهما فيعودا إلى رشدهما ويسلكا سبيل العافية والسلامة، لكن من المؤسف ...
- [٥٩٤] (٤) «وقاع»: بمعنى الحرب وتستعمل هذه المفردة أحياناً بمعنى المصدر وأخرى الجمع «وقيعه».
- [٥٩٥] (٥) «غمط»: من مادة «غمط» على وزن غصب بمعنى استصغار الشىء وكفران النعمة والعبارة المذكورة إشارة إلى أن طلحة والزبير استخفا بما منحتهم من فرصة وكفرا بالنعمة.
- [٥٩٦] (١) السياسة والإمامة ١ / ٣٨.
- [٥٩٧] (٢) شرح نهج البلاغة ابن أبى الحديد ٩ / ٣٦.
- [٥٩٨] (٣) فى ظلال نهج البلاغة ٢ / ٢٩٤.
- [٥٩٩] (٤) الكامل لابن الأثير ٣ / ٢٠٦؛ تاريخ الطبرى ٣ / ٤٧٧.
- [٦٠٠] (٥) ج ١ شرح الخطبة الثالثة عشرة، ج ٢ شرح الخطبة الثلاثون والحادية والثلاثون ج ٣، ص ٢٠٩ - ٣٠١.
- [٦٠١] (١) سند الخطبة:
- ورد فى مصادر نهج البلاغة أنه نقل جانباً من هذه الخطبة عن الآمدى فى «غرر الحكم» وقال بالنظر إلى أن بعض شراح نهج البلاغة اعتبروا القسم الأول إشارة إلى قيام الإمام المهدي عليه السلام فإن ذلك يدل على أنهم نقلوا الخطبة من مصدر آخر أشار إلى هذه القيام (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٣٠٢) لكننا لا نعتقد بتوجيه هذا الاستنتاج، ولعلمهم استنبطوا ذلك من خلال بعض القرائن الواردة فى الخطبة.
- [٦٠٢] (١) يعطف من مادة عطف على وزن فتح بمعنى الميل والرغبة أو الترغيب بشىء، وقد تستعمل أحياناً بصيغة المتعدى فتعنى الترغيب، كما تتعدى أحياناً بحرف إلى فتعنى الرغبة فى شىء، وتتعدى أيضاً بحرف على فتعنى الرجوع إلى الشىء وأخيراً تتعدى بحرف عن فتعنى الانصراف عن الشىء.

- [٦٠٣] (١) سورة الجاثية / ٢٣.
- [٦٠٤] (٢) بحار الانوار ١ / ١٩.
- [٦٠٥] (١) «نواجذ»: جمع «ناجد» أقصى الأضراس أو الأنياب، كما فسر بجميع الأسنان وهذا هو المعنى المراد منها في العبارة.
- [٦٠٦] (٢) «أخلاف»: جمع «خلف» بالكسر بمعنى حلمة ضرع الناقة، كما وردت بمعنى حلمة ضرع سائر الحيوانات كالبقرة والشاة.
- [٦٠٧] (٣) «علقم»: برعم شديد المرارة يطلق عليه الحنظل، وتطلق هذه الكلمة على كل شيء مَرّ.
- [٦٠٨] (١) «أفاليذ»: جمع «أفلاذ» وهذا جمع «فلذ» على وزن فكر بمعنى كبد الناقة، أو كبد كل إنسان أو حيوان،: وفلذة تعني قطعة من الكبد، والمراد بها في هذه العبارة الأشياء النفيسة والكنوز والمعادن الثمينة في جوف الأرض.
- [٦٠٩] (٢) شرح نهج البلاغة لعلامة الخوئي ٨ / ٣٥٣.
- [٦١٠] (٣) بحار الأنوار ٥٢ / ٣٩٠.
- [٦١١] (١) «نق»: من مادة «نق» على وزن كعب تعني في الأصل صوت الغراب أو الصوت الذي يخرج من الشاة حين يذودها الراعي وتشير هنا إلى زعيق الظالم في الشام.
- [٦١٢] (٢) «فحص»: من مادة «فحص» على وزن بحث تعني في الأصل البحث، كما وردت بمعنى البسط وهذا هو المعنى المراد بها في الخطبة.
- [٦١٣] (٣) «ضواحي»: جمع «ضاحية» من مادة «ضحو» على وزن سهو بمعنى التعرض للشمس كما تطلق الضواحي على المناطق أطراف المدن.
- [٦١٤] (٤) «كوفان»: اسم آخر للكوفة وتعني في الأصل تلال الرمل الحمراء الدائرية.
- [٦١٥] (١) «ضروس»: من مادة «ضرس» بمعنى عض الشيء والضغط عليه، وتطلق الضروس على الناقة السيئة الخلق التي تعض حالبها.
- [٦١٦] (٢) «فغرت»: من مادة «فغر» على وزن فغر بمعنى فتح الفم، وهي هنا كناية عن الحرص في الاستيلاء على كل شيء، وافغر اسم فاعل من هذه المادة.
- [٦١٧] (٣) «جولة»: من مادة «جول» على وزن قول بمعنى الحركة والدوران حول مكان، وهي كناية عن السعي والجهد المتواصل.
- [٦١٨] (٤) «الصول»: من مادة «صول» على وزن قول بمعنى الحمل في الحرب أو القفز على شيء.
- [٦١٩] (٥) «ليشردنكم»: من مادة «تشريد» بمعنى النفي والطرده والتفريق.
- [٦٢٠] (١) بحار الانوار ٥٢ / ١٨٦ - ١٨٧ بتصرف.
- [٦٢١] (٢) «يؤوب»: من مادة «أوب» الرجوع من السفر أو مطلق الرجوع.
- [٦٢٢] (٣) «عوازب»: جمع «عازبة» في الأصل من مادة «عزبة» من لا زوجة له، لكنها وردت أحياناً بمعنى الخفاء والابتعاد، وهذا هو المراد بها في العبارة.
- [٦٢٣] (٤) «أحلام»: جمع حلم بمعنى العقل.
- [٦٢٤] (٥) «يسنى»: من مادة «سنو» تعني في الأصل ري الأرض من الغيوم، ثم استعملت بمعنى مطلق التسهيل من أجل القيام بعمل.
- [٦٢٥] (١) سند الخطبة:
- نقل هذه الخطبة الطبري في تاريخه في شرح حوادث عام ٢٣ هـ (عام قتل عمر) وقال ابن أبي الحديد هذا جزء من خطبة خطبها على عليه السلام في أصحاب الشورى بعد وفاة عمر، وقد ورد في الكلمات القصار رقم ٢٢ «لنا حق...» وهو جزء من هذه الخطبة (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٣٠٢).
- [٦٢٦] (٢) نقحات الولاية ١ / ٢٤٤.

- [٦٢٧] (١) سورة المائدة/ ٥٥.
- [٦٢٨] (٢) سورة الدهر/ ٨.
- [٦٢٩] (٣) سورة البقرة/ ٢٧٤.
- [٦٣٠] (٤) «تتنضى»: من مادة «نضو» و«نضى» على وزن نظم بمعنى سل السيف، أو الخروج من البيت وشحوب اللون وما شابه ذلك، والمراد بها في العبارة المعنى الأول.
- [٦٣١] (١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ١١/ ١١.
- [٦٣٢] (١) سند الخطبة:
- ذكر الآمدى فى كتاب «غرر الحكم» مع فارق وما ورد فى نهج البلاغة وهذا يدل على أنّ مصدره غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٣١٤)، كما وردت هذه الخطبة فى بعض المصادر كجزء من خطبة تعرف بالديباج (كتاب تمام نهج البلاغة).
- [٦٣٣] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩/ ١٦٢.
- [٦٣٤] (٢) جامع السعادات ٣/ ٣٠٢؛ بحار الانوار ٧٢/ ٢٥٧.
- [٦٣٥] (٣) جامع السعادات/ ٣٠٣.
- [٦٣٦] (١) بحار الانوار ٧٥/ ٢٥٩.
- [٦٣٧] (٢) جامع السعادات ٣/ ٣٠٥.
- [٦٣٨] (١) للمؤلف.
- [٦٣٩] (١) سند الخطبة:
- نقلها القاضى القضاعى فى كتاب «دستور معالم الحكم»، كما نقل جزءاً منها على بن هذيل فى كتاب «عين الأدب والسياسة»، وكذلك المرحوم الصدوق فى «الخصال» وابن عبد ربه فى «العقد الفريد»، (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٣١٥)
- [٦٤٠] (١) «سداد»: بمعنى الصحيح من الكلام والعمل وتستعمل هذه المفردة كمصدر واسم مصدر، ويبدو أنّها قريبة من مادة سد بمعنى الجدار المحكم الذى يقام ضد السيول وما شابه ذلك، لأنّ للكلام الحق استحكام خاص.
- [٦٤١] (١) «يحيل»: من مادة «إحالة» كل تغيير أو حركة تخرج عن الحق والاستقامة وتحيل إلى الانحراف و الاعوجاج.
- [٦٤٢] (٢) «يبور»: من مادة «بور» تعنى فى الأصل شدة كساد الشىء وحيث يبعث ذلك على الفساد حسبما ورد فى المثل كسد حيا فسد فقد اطلقت هذه المفردة على الفساد ومن ثم الهلكة.
- [٦٤٣] (١) بحار الانوار ٧٢/ ١٩٦.
- [٦٤٤] (١) سند الخطبة:
- ذكرها المرحوم الكلينى فى كتاب «الكافى» (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٣٠٢)، والمرحوم الشيخ المفيد والشيخ الطوسى فى الآمالى وابن قتيبة فى كتاب «الإمامة والسياسة»، والجدير بالذكر أنّه يستفاد من بعض المصادر المذكورة مثل كتب الكافى أنّ هذه الخطبة هى استمرار للخطبة ١٢٦ (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٢٨٢ بتصرف).
- [٦٤٥] (١) «محمدة»: بمعنى الحمد والثناء وهو ضد الدم.
- [٦٤٦] (١) بحار الانوار ٧٤/ ١٧٨.
- [٦٤٧] (٢) منهاج البراعة ٧/ ٤٣٩.
- [٦٤٨] (١) «العانى»: من ماد «عنى» بمعنى الشدة والتعب، وعدّها البعض من شراح نهج البلاغة مرادفة لأسير، ويبدو أنّ معناها واسع يشمل كل إنسان يعيش التعب والإرهاق.

[٦٤٩] (٢) «الغارم»: من مادة «غرامة» من عليه الديون.

[٦٥٠] (٣) الكافي ١٠ / ٤.

[٦٥١] (١) المصدر السابق ٢ / ٤٠١، ح ٨.

[٦٥٢] (٢) «النائب»: جمع «النائب» تعني الحوادث الأليمة التي تصيب الإنسان، ولكن فسرها بعض أرباب اللغة بمطلق الحوادث سواء المطلوبة منها أو غير مطلوبة.

[٦٥٣] (٣) كشف الغمة ٢ / ٢٤٢.

[٦٥٤] (١) الإرشاد ١ / ٣٠٣؛ وبحار الانوار ٧٤ / ٤٣٣.

[٦٥٥] (٢) ميزان الحكمة، ١٢٦١.

[٦٥٦] (١) سند الخطبة:

وردت هذه الخطبة حسب تصريح صاحب مصادر نهج البلاغة في كتاب «أعلام النبوة» للديلمى عن الإمام الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين على عليه السلام، وفي «النهاية» لابن الأثير في مادة بطن بمناسبة المفردة بطنان التي وردت في آخر الخطبة، (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٣١٩) كما وردت في بحار الانوار، ج ٨٨ عن «أعلام» النبوة للديلمى، لكن لم يتضح على وجه الدقة في أى قرن عاش الديلمى مؤلف الكتاب.

[٦٥٧] (١) «تقلكم»: من مادة «اقلال» بمعنى حمل الشيء وأخذه، ولما كان الإنسان يعيش على الأرض فكأنها تحمله على أكتافها، وقد وردت تحملكم بدلاً من تقلكم فى أغلب شروح نهج البلاغة والتي تفيد نفس المعنى.

[٦٥٨] (١) سورة ابراهيم / ٢٤.

[٦٥٩] (١) «درور»: من مادة «درّ» على وزن جرّ بمعنى تقاطر الحليب من الثدي، ثم استعملت فى المطر وأمثاله، و«درور الرزق» بمعنى نزول الرزق من الله تعالى.

[٦٦٠] (١) «استقال»: من مادة «إستقاله» بمعنى معونة من وقع على الأرض للقيام، ثم اطلقت على فسخ المعاملة أو طلب العفو على الذنب.

[٦٦١] (١) الكافي ٢ / ٣٧٤، ح ٢.

[٦٦٢] (٢) سورة الأعراف / ٩٦.

[٦٦٣] (١) تفسير نهج الصادقين ١٠ / ١٩ (بتصرف، وقد ورد هذا الحديث بصورة مختصرة عن الإمام المجتبى عليه السلام) (مجمع البيان ١٠ / ٣٦١).

[٦٦٤] (١) «الأكنان»: جمع «كن» على وزن «جن» بمعنى واسطة الحفظ والصون ومن هنا تطلق الأكنان على الغيران.

[٦٦٥] (٢) راجع الخطبة ١٥٥ بشأن آداب صلاة الاستسقاء.

[٦٦٦] (٣) «السنين»: جمع «سنه» وإن استعملت مع مفردة الهلكة أو الأخذ عنت الجذب والقحط.

[٦٦٧] (٤) «الوعرة»: بالتسكين كناية عن صعوبة الحياة.

[٦٦٨] (٥) «أجاءت»: من مادة «مجىء» من باب إفعال بمعنى ألجأته.

[٦٦٩] (٦) «مقحط»: جمع «مقحطة» من مادة «قحط» بمعنى سنين الجذب.

[٦٧٠] (٧) «مجدية»: من مادة «جذب» على وزن جعل قلمة النعمة، وعليه المجدبة تطلق على السنين التي يعاني فيها الناس من الشدة فى غ أرزاقهم.

[٦٧١] (٨) «تلاحمت»: من مادة «تلاحم» بمعنى الاتصال.

- [٦٧٢] (١) في ظلال نهج البلاغة ٢ / ٣١٩.
- [٦٧٣] (٢) « واجم»: من مادة « وجم» على وزن نجم من اشد حزنه حتى أمسك عن الكلام.
- [٦٧٤] (٣) « معشبة»: من مادة « عشب» على وزن شرف نمو النبات.
- [٦٧٥] (٤) « الحيا»: بمعنى المطر ووفرة النعمة.
- [٦٧٦] (٥) « القيعان»: جمع « قاع وقاعة» الأرض السهلة الواسعة كما تطلق أحياناً على الأرض التي تتجمع فيها المياه.
- [٦٧٧] (٦) والجدير بالذكر قد نزلت الآن (حين كتابتي لهذه السطور في العاشر من رمضان عام ١٤٢٣ هـ) أمطار مفعمة بالبركة والخير بعد جفاف طويل، ويبدو أن هذا المطر ينطوي إن شاء الله تعالى على جميع الصفات التي ذكرها الإمام عليه السلام في هذه الخطبة.
- [٦٧٨] (١) سند الخطبة:
- أورد الآمدى جانباً من هذه الخطبة في كتابه « غرر الحكم» وفيها إضافات لما في نهج البلاغة مما يدل على أنه استقاهها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٣٢٢).
- [٦٧٩] (١) « الاعذار»: مصدر باب إفعال من مادة « عذر» بمعنى إتمام الحجّة.
- [٦٨٠] (١) « بواء»: تعنى فى الأصل العودة والنزول ثم أطلقت على العقوبة المستمرة والمتواصلة وهذا هو المعنى المراد بها فى الخطبة.
- [٦٨١] (١) سورة الانفال / ٢٨.
- [٦٨٢] (٢) نهج البلاغة، قصار الكلمات ٩٣.
- [٦٨٣] (٣) وسائل الشيعة ١ / ٣٦، من أبواب مقدمة العبادات، الباب ٦، ح ٦.
- [٦٨٤] (١) نقل الدكتور الذهبى فى كتابه « التفسير والمفسرون» عن ابن عباس: « مَا أَخَذْتُ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ إِلَّا مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» ج ١، ص ٨٩، كما روى عن ابن عباس أنه قال: « وَمَا عَلِمِي وَعَلِمَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ فِي عِلْمِ عَلِيٍّ إِلَّا كَقَطْرَةٍ فِي سَبْعَةِ أَبْحُرٍ» (الغدیر ٢ / ٤٥ فى شرح ديوان حسان).
- [٦٨٥] (٢) ذكرنا أسناد حديث ثقلين فى نفحات القرآن ٩ / ٦٢ - ٧١.
- [٦٨٦] (١) روى هذا الحديث جمع من حفاظ العامّة كابن عبد البر فى « الاستيعاب»، والقاضى فى « الموقف»، وابن أبى الحديد فى « شرح نهج البلاغة»، وابن طلحة الشافعى فى « مطالب السؤل»، (الغدیر ٣ / ٦٩، وابن عساكر فى (التاريخ المختصر لدمشق ١٧ / ٣٠١).
- [٦٨٧] (٢) ورد هذا الحديث فى كنز العمال ١٣ / ١١٤، ح ٣٦٣٧٢.
- [٦٨٨] (٣) سورة الرعد / ٤٣.
- [٦٨٩] (٤) انظرو مصادر هذا الحديث فى كتب العامّة فى إحقاق الحق ٣ / ٢٨٠، كما وردت روايات بهذا الخصوص فى شواهد التنزيل للحسكاني ١ / ٣٠٧ - ٣١٠.
- [٦٩٠] (٥) ذكرنا شرح هذا الموضوع فى المجلد الرابع من هذا الكتاب ذيل الخطبة ٩٣.
- [٦٩١] (٦) المرحوم العلامة الأمينى أورد هذه العبارات بمصادر دقيقة من كتب العامّة (الغدیر ٣ / ٩٧) تحت عنوان آراء الصحابة بعلى عليه السلام.
- [٦٩٢] (١) التفسير والمفسرون ١ / ٨٩.
- [٦٩٣] (٢) صحيح مسلم ٣ / ١٤٥٣؛ طبع بيروت دار التراث العربى.
- [٦٩٤] (٣) صحيح البخارى ٣ / ١٠١، جزء ٩، طبع دار الجيل بيروت.
- [٦٩٥] (٤) صحيح الترمذى ٤ / ٥٠١، طبع دار التراث الاحياء العربى بيروت.
- [٦٩٦] (٥) صحيح أبى داود ٤ / ١٠٦ (كتاب المهدي).

- [٦٩٧] (١) مسند أحمد ٥/ ٨٩ - ٩٠ - ١٠١.
- [٦٩٨] (٢) انظر كتاب منتخب الأثر/ ١٢؛ إحقاق الحق/ ١٣.
- [٦٩٩] (٣) فضائل الصحابة ٢/ ٦٢٨، ح ١٠٧٣.
- [٧٠٠] (١) «آجن»: من مادة «اجن» على وزن فجر الماء المتغير اللون والطعم والرائحة.
- [٧٠١] (٢) «بسيء به»: من مادة بسوء ألفه وإستأنس به.
- [٧٠٢] (٣) «خلائق»: أحياناً جمع «خلق» بمعنى المخلوق وأخرى جمع «خليقة» بمعنى الخلق والملكة وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة.
- [٧٠٣] (٤) «مزبد»: من مادة «زبد» رغوّة الماء وما شابه ذلك ومزبد اسم فاعل.
- [٧٠٤] (٥) «تيار»: يعنى فى الأصل الموج الشديد الذى يقذف الماء خارج البحر، ويطلق أحياناً على مطلق الموج.
- [٧٠٥] (٦) «الهشيم»: من مادة «هشم» تطلق على النباتات الجافة المتكسرة.
- [٧٠٦] (٧) «يحفل»: من مادة «حفل» بمعنى الاعتناء بالشيء وعليه فلا يحفل تعنى لا يهتم.
- [٧٠٧] (١) «لامحة»: من مادة «لمح» على وزن لمس تعنى فى الأصل لمعان البرق، ثم جاءت بمعنى النظرة الخاطفة، كما وردت بمعنى النظر إلى الشيء وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة.
- [٧٠٨] (٢) «حطام»: الشيء المكسور الفانى الذى لا قيمة له ويقال حطام الدنيا لأموالها بسبب فنائها وزوالها سريعاً.
- [٧٠٩] (٣) «تشاحوا»: من مادة تشاح واصلها الشح بمعنى البخل المقرون بالحرص ويقال تشاح حيث يتنازع فردان أو طائفتان من أجل الحصول على الشيء.
- [٧١٠] (١) «نفروا»: من مادة «نفر» و«نفور» بمعنى الابتعاد عن الشيء والفرار منه.
- [٧١١] (١) سند الخطبة:
- أورد ابن شعبة الحرانى فى كتابه «تحف العقول» جانباً من هذه الخطبة ضمن خطبة تعرف باسم الوسيلة، كما ذكرها المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله فى كتاب «الإرشاد» مع اختلاف طفيف، كما نقلها المرحوم الشيخ الطوسى فى الأمالى وأشار أبو العتاهية فى أشعاره إلى مضمون بعض عبارات هذه الخطبة ويحتمل أنه أخذها من كلام الإمام عليه السلام، ووردت أجزاء من هذه الخطبة فى الكلمات القصار فى كلمة رقم ١٩١. (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٣٢٣)
- [٧١٢] (١) «غرض»: الهدف الذى يرمى بالسهام.
- [٧١٣] (٢) «شرق»: له معنى مصدرى يعنى الاختناق بالماء.
- [٧١٤] (٣) «غصص»: له معنى مصدرى ويعنى الاختناق بالطعام.
- [٧١٥] (١) «يخلق»: من مادة «خلق» بمعنى يبلى ويخلق من مادة خلق المراد المعنى الأول فى الخطبة.
- [٧١٦] (٢) «محصودة»: من مادة «حصد و حصاد» على وزن غصب بمعنى حصاد الشيء.
- [٧١٧] (١) فى ظلال نهج البلاغة ٤/ ٣٨٩.
- [٧١٨] (١) «المهيع»: من مادة «هيع» على وزن رأى بمعنى الطريق الواسع والواضح.
- [٧١٩] (٢) «عوازم»: جمع «عازمة أو عوزم» على وزن جوهر تعنى فى الأصل المسن من الإنسان أو الحيوان وتطلق على كل شىء قديم، وتعنى هنا الأمور التى كانت موجودة منذ زمان النبى وأصلاتها ثابتة فى الدين.
- [٧٢٠] (٣) وردت حدثات بكسر الدال فى النسخة المعروفة لصبحى الصالح فلها معنى اسم الفاعل، وردت مفتوحة فى أغلب النسخ بمعنى الحدوث وهذا هو الصحيح.

- [٧٢١] (١) ورد مثل هذا المعنى فى الأمالى للشيخ المفيد رحمه الله، ص ١٨٨ مع اختلاف طفيف كما ورد فى مصادر العامة (الموسوعة الفقهية الكويتية ٨ / ٢٤).
- [٧٢٢] (١) سند الخطبة:
- روى جانباً من هذه الخطبة أبو حنيفة الدينورى فى كتاب «الأخبار الطوال» وأحمد بن أعثم الكوفى فى كتاب «الفتوح» والطبرى فى تاريخه والمعروف فى حوادث عام ٢٧هـ (الصحيح عام ٢١هـ كما ورد فى تاريخ الطبرى) وذكرها الشيخ المفيد رحمه الله فى «الإرشاد» (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٣٢٥).
- [٧٢٣] (٢) شرح ابن أبى الحديد ٩٧ / ٩.
- [٧٢٤] (١) إرشاد المفيد، ص ١٢٠ بتصرف.
- [٧٢٥] (١) سورة التوبة / ٣٣.
- [٧٢٦] (٢) سورة غافر / ٥١.
- [٧٢٧] (٣) وإن كان لهذه المفردة مفهوم كلى لكنّها تعنى هنا السلك ينظم فيه الخرز.
- [٧٢٨] (٤) «خرز»: بمعنى حبات السبحة وتكون نفيسة، كما تكون عادية ويصنع منها المسيحة وأصلها «الخرز» على وزن الفرض بمعنى ثقب الجلد أو شىء آخر.
- [٧٢٩] (٥) «حذافير»: جمع «حذفور و حذفار» على وزن مضمار بمعنى جانب الشىء وناحيته وحذافير بمعنى جميع الجوانب.
- [٧٣٠] (١) «اصل»: من مادة «صلى» على وزن سعى بمعنى دخول النار أو الاحتراق فيها، وإن استعملت فى باب الأفعال عن القذف فى النار، والعبارة إشارة إلى أن الجيش حين ينشغل بالحرب عليك بالابتعاد عنهم حتى لا يتمكن العدو من إصابتك.
- [٧٣١] (٢) «شخصت»: من مادة «شخص» على وزن خلوص تعنى فى الأصل الخروج من المنزل أو المدينة، ولما كان الإنسان يظهر حين الخروج فقد أطلقت على قامه الإنسان والمرتفعات التى تلوح من بعيد، ويقال للمسافر شاخص حيث يبين حين دخوله المدينة، وتطلق هذه المفردة على كل شىء مرتفع.
- [٧٣٢] (٣) «عورات»: جمع «عورة» تعنى فى الأصل العيب والعار ولما كان إظهار الآلة الجنسية مدعاة للعب والعار فقد أطلقت عليها العرب العورة، ولكن لهذه المفردة معنى أوسع وأشمل وهى النقطة التى يمكن اختراقها وما يخشاه الإنسان ويقلق منه، وحيث كانت حدود كل بلد من المناطق التى يمكن إلحاق الصدر بها والمقلقة فقد استعملت بهذا المجال، إلّا أنّها لا تعنى الحدود خلافاً لما أورده أغلب شراح نهج البلاغة، والمراد بها النقاط المضطربة داخل البلد الإسلامى والتى يمكن هجوم المنافقين عليها، والشاهد على ذلك العبارة ما تدع وراءك، لأنّ الجيش حين يتحرك نحو عدو خارجى لا يبقى خلفه سوى الجبهة الداخلية للبلاد.
- [٧٣٣] (١) «كلب»: بمعنى الأذى.
- [٧٣٤] (١) القادسية كانت من المدن الإيرانية الغربية ولم تكن تبعد كثيراً عن الكوفة (ذكر البعض أنّها تبعد تسعين كليومتراً) وهى الآن من مدن العراق.
- [٧٣٥] (١) نهاوند مدينة معروفة غرب إيران وهى الآن تابعة لمحافظة همدان ولا تبعد عنها كثيراً.
- [٧٣٦] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٩٦ / ٩ - ١٠٢؛ وتاريخ الطبرى ٣ / ٢٠٢.
- [٧٣٧] (١) سند الخطبة:
- نقلها قبل السيد الرضى باختلاف طفيف المرحوم الكلينى فى كتاب روضة الكافى، وقد اشير فى الخطبة ٢٣٧ إلى جزء من هذه الخطبة كما وردت إشارة إلى جانب منها فى قصار الكلمات، الكلمة ٩٨ (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٣٣١).
- [٧٣٨] (١) الكافى ٨ / ٣٨٦.

[٧٣٩] (٢) «تجلى»: من مادة «تجلى» وأصل جلو على وزن دلو بمعنى الظهور والبروز، وتجلي الله بمعنى أن آياته على درجة من الوضوح وكأنه يمكن رؤيته من خلالها.

[٧٤٠] (١) قال الشاعر:

وله في كل شيء آية تدل على أنه واحد [٧٤١] (٢) «محق»: من مادة «محق» على وزن خلق بمعنى المحو الكامل أو إزالة بركة الشيء.

[٧٤٢] (٣) «المثلات»: جمع «مثلة» على وزن عضلة بمعنى العقوبة.

[٧٤٣] (٤) «احتصد»: من مادة «حصد» بمعنى القطف.

[٧٤٤] (١) «سلعة»: المتاع والبضاعة.

[٧٤٥] (٢) «أبور»: من مادة «بور» شدة كساد الشيء والأرض البائر والبوار الميتة الخالية من النبات.

[٧٤٦] (٣) «أنفق»: فعل تفضيل من مادة «نفاق» لها معاني مختلفة وأريد بها هنا غلاء السلعة ورواجها.

[٧٤٧] (٤) «تناسا»: من مادة نسيان.

[٧٤٨] (٥) «طريدان»: مثني «طريد» من مادة طرد ومعناها معروف.

[٧٤٩] (٦) «منفيان»: من مادة «نفي» بمعنى الابعاد.

[٧٥٠] (١) «يؤوى»: من مادة «ايواء» بمعنى الملاذ والملجأ.

[٧٥١] (٢) «زبر»: بالفتح الكتابة وقد جاء بالمعنى المصدرى واسم المصدر.

[٧٥٢] (١) «مثلوا»: من مادة «تمثيل» وأصلها «المثلة» بمعنى التنكيل والتشنيع.

[٧٥٣] (٢) «فريئة»: من مادة «فري» على وزن فرد تعنى فى الأصل القطع، ولما كان قطع الشيء يؤدى إلى فسادة غالباً، فهى تطلق على

كل خلاف ومنه الكذب والتهمه.

[٧٥٤] (٣) روى ذلك المرحوم العلامة الحلى فى كتاب «كشف الحق» عن كتاب «الهاوية» (شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئى ٧٠ / ٩).

[٧٥٥] (١) بحار الانوار ١٢٤ / ٤٤.

[٧٥٦] (١) بحار الانوار ١٢٤ / ٤٤.

[٧٥٧] (١) الخطبة ٤٢؛ بحار الانوار ٩١ / ٧٠.

[٧٥٨] (١) «قارعة»: من مادة «قرع» على وزن فرع بمعنى ضرب شيء بآخر وتطلق القارعة على كل حادثة مهممة ومهلكة.

[٧٥٩] (٢) «النقمة»: تعنى فى الأصل استقباح الشيء بحيث تحصل أحياناً باللسان وأخرى بصورة عقوبة علمية، ومن هنا غالباً ما

تستعمل هذه المفردة بمعنى العقوبة.

[٧٦٠] (١) «البارى»: من مادة برء على وزن قفل لها معنيان: الأول: بمعنى الخالق والايجاد ومن هنا يقال لله البارى، والآخر: بمعنى

الابتعاد عن الشيء ولذلك تستخدم بمعنى العافية والبعد عن المرض وهذا هو المعنى المراد بها فى عبارة الخطبة.

[٧٦١] (٢) سورة المدثر / ٥٠ - ٥١.

[٧٦٢] (١) سورة الأعراف / ١٦٩.

[٧٦٣] (١) بحار الانوار ١٧٩ / ٦.

[٧٦٤] (١) سند الخطبة:

قال ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة روى هذه الخطبة قبل السيد الرضى أبو مخنف فى كتاب «الجمال»، كما رواها باختلاف لا بد من الالتفات إلى أن هذا الاختلاف ليس بقليل (المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله فى كتاب «الإرشاد» مصادر نهج البلاغة ٢ / ٣٣٢)

- [٧٦٥] (١) «يمتان»: من مادة «مت» على وزن خط تعنى فى الأصل سحب الحب وحيث يسبب هذا العمل إقتراب الدلو فقد وردت هذه المفردة بمعنى الإقتراب والتقرب وهذا هو المعنى المراد بها فى الخطبة.
- [٧٦٦] (٢) «ضب»: لها عدة معانٍ ومنها سحب الماء والحقد والحيوان المعروف.
- [٧٦٧] (١) «المحتسب»: من مادة «حسب» بمعنى الإتيان بالعمل حسبة لله وإرادة الثواب منه سبحانه، ووردت مفردة المحتسب بمعنى المأمور الذى يكلف من الحكومة للإشراف على إجراء أحكام الدين ولعل ذلك لأنه يقوم بالعمل لله، أو أن هدفه حساب عمل الناس.
- [٧٦٨] (٢) وردت هذه الرواية فى أغلب مصادر العامة ومنها مسند أحمد بن حنبل وصحيح مسلم وطبقات ابن سعد ومصادر أخرى) انظر إحقاق الحق ٨ / ٤٢٢.
- [٧٦٩] (٣) تاريخ بغداد ١٣ / ١٨٧ طبع دار الفكر.
- [٧٧٠] (١) «اللدم»: تعنى فى الأصل ضرب الشىء بأخر دون شدة الصوت.
- [٧٧١] (١) ورد هذا المعنى فى مروج الذهب فى شرح معركة الجمل وأضاف المسعودى ولم يتم تقسيم صلاة الجماعة بهذه البساطة، بل حدث ذلك بعد حوار طويل ونزاع طلحة والزبير (مروج الذهب ٢ / ٣٦٧ طبعه دار المعرفة بيروت).
- [٧٧٢] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٩ / ١١٠.
- [٧٧٣] (١) سند الخطبة:
- رواها المرحوم الكلينى فى الكافى ١ / ٢٩٩؛ والمسعودى فى مروج الذهب بصورة مختصرة، وابن عساكر فى كتاب مقتل أمير المؤمنين، ويتفق الجميع على أن الخطبة بعد ضربه ابن ملجم وقبل شهادة الإمام عليه السلام، وقد ذكر صاحب مصادر نهج البلاغة أسناد الخطبة فى قسم الرسائل حيث جاء جانب مهم من هذه الخطبة فى الرسالة رقم ٣٣ (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٣٤٧).
- [٧٧٤] (١) «مساق»: مصدر ميمى أو اسم مكان من مادة «سوق» بمعنى الغاية التى يصلها الإنسان، أو بعبارة أخرى آخر الطريق.
- [٧٧٥] (٢) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانى، ومنهاج البراعة للخوئى.
- [٧٧٦] (١) «اطردت»: من مادة «طرد» بمعنى الاخراج، واطردت الأيام طويتها واحداً بعد الآخر.
- [٧٧٧] (٢) اصول الكافى، ج ١ باب «أن الأئمة يعلمون متى يموتون» الحديث ٤.
- [٧٧٨] (٣) المصدر السابق.
- [٧٧٩] (١) «خلا- كم الذم»: مثل بين العرب مفهومه ليس هناك من ذم لكم لأنكم تقومون بوظيفتكم، وقيل أن أول من قال هذه العبارة (قصور بن سعد) غلام (خزيمة) (أحد ملوك العرب) والذى قتل على يد الزباء، فقال قصير لابن شقشقة الملك خذ بئار خزيمة، فقال: أنى لى به وإنه لأسرع من العقاب، فقال له قصير: (اطلب وخلاك ذم)، (شرح نهج البلاغة لليهقى من علماء القرن السادس، ص ٢٣٩ ذيل الخطبة التى نبهتها).
- [٧٨٠] (١) سورة البقرة / ٢٨٦.
- [٧٨١] (٢) سورة الطلاق / ٧.
- [٧٨٢] (٣) اصول الكافى ١ / ٤٧، ح ١.
- [٧٨٣] (٤) المصدر السابق / ١١.
- [٧٨٤] (١) سورة آل عمران / ١٤٤.
- [٧٨٥] (١) «وطأة»: بمعنى محل القدم وتأتى بصيغة كناية بمعنى الضغط الشديد.
- [٧٨٦] (٢) «مزله»: من مادة «زلل» على وزن ضرر بمعنى محل الزلل.

- [٧٨٧] (٣) «تدحض»: من مادة «دحض» على وزن محض بمعنى الزلل أيضاً.
- [٧٨٨] (٤) «أفياء»: جمع «فيء» على وزن شيء بمعنى الظل.
- [٧٨٩] (٥) «مهاب»: من مادة هبوب بمعنى حركة الرياح ومهب جمع مهب محل هبوب الرياح.
- [٧٩٠] (٦) «متلفق»: بمعنى القطع المتصلة من مادة لفق على وزن لفظ الجمع.
- [٧٩١] (٧) «عفا»: من مادة «عفو» بمعنى ترك، ولكن ما كان ترك الشيء يؤدي إلى ذهابه وإندراسه، فقد وردت في هذه العبارة وأمثالها بمعنى الإندراس.
- [٧٩٢] (١) «مخط»: من مادة «خط» بمعنى محل الخطوط.
- [٧٩٣] (٢) «خلاء»: بمعنى خالية.
- [٧٩٤] (٣) «حراك»: وحركة لها معنى واحد.
- [٧٩٥] (٤) «هدو»: على وزن غلو بمعنى السكون وعدم القدرة على الحركة.
- [٧٩٦] (٥) «خفوت»: بمعنى السكون والتوقف عن الحركة.
- [٧٩٧] (٦) «اطراق»: خفض العين لضعف الأجفان.
- [٧٩٨] (٧) «مرصد»: من مادة «ارصاد» بمعنى الاستعداد والانتظار.
- [٧٩٩] (١) «سند الخطبة»:
- السند الوحيد الذي ورد في كتاب مصادر نهج البلاغة هو كتاب المسترشد للطبرى الذي نقل أقساماً من آخر هذه الخطبة باختلاف، ويفهم من رواية الطبرى أنّ هذه الخطبة أطول مما نقل المرحوم السيد الرضى وقد إكتفى السيد الرضى رحمه الله حسب طريقته ببعض مقاطعها (مصادر نهج البلاغة ٢/ ٣٣٧).
- [٨٠٠] (١) «مرصد»: من مادة رصد على وزن «صمد» تعنى فى الأصل مراقبة الشيء، ويطلق المرصد على الشيء الذى يراقب وينتظر.
- [٨٠١] (١) «تباشير»: بمعنى البشارة وأوائل كل شيء (والذى يشير فى الواقع بوروده) وتباشير الصبح بمعنى أوائله، وذهب البعض إلى أنّ تباشير جمع تبشير، ولكن يستفاد من تعبيرات البعض أنّها مفرد أو جمع لا مفرد له.
- [٨٠٢] (٢) «أبان»: بمعنى بداية ووقت كل شيء.
- [٨٠٣] (٣) «يحدو»: من مادة حدو على وزن حذف بمعنى الاتباع.
- [٨٠٤] (٤) «ربق»: بكسر فسكون جبل فيه عدّة هرا، كل عروة ربقه تشدّ فيه البهم.
- [٨٠٥] (٥) «يصدع»: من مادة «صدع» تعنى فى اللغة مطلق الشق، أو شق الأجسام المحكّمة، كما وردت بمعنى الاظهار حيث يظهر باطن الشيء بالشق.
- [٨٠٦] (٦) «شعب»: بمعنى جماعة عظيمة من الناس وتستعمل اليوم بمعنى الامّة.
- [٨٠٧] (٧) «قائف»: من مادة «قوف» على وزن خوف بمعنى البحث عن آثار الشيء، ويقال القائف لمن يتتبع آثار الأشياء أو الأفراد، وهذا هو معنى معرفة القيافة.
- [٨٠٨] (١) «شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٩/ ١٢٨.
- [٨٠٩] (٢) «ليشحن»: من مادة «شحن» تعنى فى الأصل حدّ السكين، إلّا أنّها وردت بمعنى حدّ الذكاء والاستعداد.
- [٨١٠] (٣) «القين»: بمعنى الحداد، ولهذه المفردة معنى مصدرى يعنى الحدادة والإعداد.
- [٨١١] (٤) «يغبون»: من مادة غبوق بمعنى يسقو بالماء فى مقابل صبح بمعنى يشرب وقت الصباح ومصدرها غبق على وزن غبن.
- [٨١٢] (٥) «شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٩/ ١٢٩.

- [٨١٣] (١) ومن ذلك كتاب للعالم المعروف الشوكاني تحت عنوان التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر (راجع كتاب نفحات القرآن ١٠ / ٤٢٣).
- [٨١٤] (٢) مسند أحمد ٣ / ٣٦.
- [٨١٥] (٣) سنن أبي داود ٤ / ١٥٢.
- [٨١٦] (١) «غير»: جمع «غيرة» بكسر ففتح بمعنى حوادث الدهر والتغيرات التي توجب تغير النعم، وقال البعض غير مفرد ولا جمع.
- [٨١٧] (١) «اخلوق»: من مادة «خلق» أحد معانيها القدم، وتعني هنا الانتهاء لأنّ لازمة القدم انتهاء العمر الشيء.
- [٨١٨] (٢) «اشالوا»: من مادة «شول» على وزن قول تعني في الأصل رفع الشيء كرفع الحيوان لذيله، وتعني هنا الكف عن القتال.
- [٨١٩] (٣) «لقاح»: تعني بداية الحرب.
- [٨٢٠] (١) «غالهم»: من مادة «غول» على وزن قول تعني في الأصل الفساد الذي ينفذ في الشيء بصورة خفية، ومن هنا يقال غيلة للأعتيال والقتل السري، ووردت هذه المفردة بمعنى الهلكة والتضاد بعوامل خفية، ولما كانت الضلالة بمعنى الهلكة المعنوية فقد جاءت بهذا المعنى وهو المراد في العبارة.
- [٨٢١] (٢) «ولائج»: جمع «وليجة» بمعنى نظير ومثيل وشبه وخاصة الرجل من أهله.
- [٨٢٢] (١) سورة الشورى / ٢٣.
- [٨٢٣] (٢) «رص»: بمعنى الصاق شيء بآخر ويطلق المرصوص على كل بناء محكم، ورص العبارة المذكورة بمعنى مرصوص، وعبارة الإمام رص أساسه من قبيل إضافة الصفة على الموصوف يعني الأساس المحكم للولاية.
- [٨٢٤] (٣) «غمزة»: من مادة غمز على وزن أمر بمعنى إزالة آثار الشيء، ثم اطلق على الماء الوفير الذي يغطي شيئاً ويزيل آثاره، وفي الخطبة إشارة إلى الأفراد الذين غطوا في الغفلة والضلالة.
- [٨٢٥] (٤) «ماروا»: من مادة «مور» على وزن فور بمعنى الحركة السريعة والاضطراب.
- [٨٢٦] (١) سورة القصص / ٤.
- [٨٢٧] (١) يمكن الوقوف على شرح كلام ابن أبي الحديد واعترافاته وتوجيهاته الضعيفة في شرح نهج البلاغة ٩ / ١٣٤.
- [٨٢٨] (٢) صحيح البخاري ٨ / ٢١٧، ح ١٦٥ (باب ما جاء في حوض النبي).

الجزء السادس

الخطبة ١٥١

إشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُحَدِّثُ مِنَ الْفِتَنِ [١]

نظرة إلى الخطبة

تتكوّن هذه الخطبة من أقسام ثلاثة:

أما القسم الأول: فهو حمد الله والثناء عليه، ومن ثم الشهادة بالرسالة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وبعض صفاته الخاصة. حيث أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم إلى الأوضاع المربكة التي كانت سائدة إبان الجاهلية ليقف المسلمون من خلال المقارنة على عظمة النعم التي أفاضها الله عليهم ببركة الإسلام.

أمّا القسم الثاني من الخطبة: فقد أخبر فيه الإمام عليه السلام عن ظهور الفتن في المستقبل والعودة القهقري إلى الجاهلية بأفكارها وممارساتها، كالفتن التي يقودها

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦

الظلمة والتي تفعل فعلها في الوسط الإسلامي.

وأخيراً يختتم الخطبة بوصية الناس بالحذر من الظلمة وعدم الإندفاع بفتنهم والاستجابة لتحقيق مآربهم، إلى جانب عدم اتباع خطوات الشيطان والسقوط في شركه، والإبتعاد عن تناول الحرام وتقوى الله على كل حال.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٧

القسم الأول

وَأَحْمَدُ اللَّهُ وَأَشْتَعِينُهُ عَلَى مِدَاحِ الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ وَالْإِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيُّهُ وَصِيْرُ فَوْتِهِ. لَا يُؤَاوِزِي فَضْلُهُ، وَلَا يُجْبِرُ فَقْدُهُ. أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعِيدَ الصَّلَاةِ الْمُظْلِمَةِ، وَالنَّجْهَالَةُ الْعَالِيَةِ، وَالنَّجْفَةُ الْجَافِيَةِ؛ وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ، وَيَسْتَنْدِلُونَ الْحَكِيمَ؛ يَحْيُونَ عَلَى فِتْرَةٍ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَةٍ!

الشرح والتفسير: الشمس التي أشرقت في الظلام

إنّ هذه الخطبة من خطب الملاحم التي تتعرض إلى جانب من الأحداث الخطيرة التي تقع في المستقبل وتحذّر الناس من ضرورة التحلي باليقظة ومراقبة الذات بغيه عدم التلوث بالظلم والفتن والفساد. فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه والاستعاذة بذاته المقدسة من شر الشياطين فقال:

«وَأَحْمَدُ اللَّهُ وَأَشْتَعِينُهُ عَلَى مِدَاحِ [٢] الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ [٣] وَالْإِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ [٤]»

، فالإمام عليه السلام يسأل الله تعالى في هاتين العبارتين التوفيق للطاعة والعبادة والاعتصام من الذنب والمعصية، فليس هنالك من وسيلة لابتعاد

«مداحر»

الشيطان و

«مزاجره»

سوى طاعة الله وامتنال أوامره، وليست

«حبائل»

الشيطان و

«مخاتله»

سوى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨

الذنوب والمعاصي.

ولا تبدو طاعة الله والاحتراز من الذنب والمعصية ممكنة دون تسديد الله وتوفيقه، وذلك لأنّ طريق الطاعة واجتناب المعصية صعب مليء بالمطبات والعوائق، ثم يقر لله بالوحدانية وللنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرسالة فيقول:

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيَّهُ وَصَفْوَتُهُ»

. وذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى أن

«نجيبه» و «صفوته»

بمعنى واحد هو الانتخاب والاصطفاء وكل منهما يؤكد الآخر، والصحيح أن هنالك فارقاً بين المفردتين. بالنظر إلى أن النجيب يعنى النفس، والمفردة الأولى فى الواقع ممهدة للمفردة الثانية؛ لأنّ الشىء يصطفى حين يكون نفيساً قيماً، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى صفتين من صفات النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«لَا يُؤَازَى فَضْلُهُ، وَلَا يُجْبَرُ فَقْدُهُ»

حقاً يتعذر تعويض الشىء الذى لا نظير له حين يفقد، كما أشار فى آخر صفة إلى آثار النبى صلى الله عليه وآله الوجودية فى تلك الظروف التى شهدها عصر الجاهلية حيث أشرقت بنور وجوده البلاد التى كانت غارقة فى لجج الضلالة والظلمة وقد استحوذ الجهل على أفكار أهلها فقتت قلوبهم وطفحت بالجمود:

«أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلَمَةِ، وَالْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ [٥]»

. وذلك حين كان الناس يستحلون الحرمات ويحتقرون العلماء فى ظل الفترة وغياب أولياء الله وهم يموتون على الكفر ومجانبة الدين «وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ، وَيَسْتَدِلُّونَ الْحَكِيمَ؛ يَحْيُونَ عَلَى فِتْرَةٍ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَةٍ!»

. فهذه الصفات السبع التى أوردها الإمام عليه السلام بعبارات مجملته بشأن عهد الجاهلية إنما تجسد صورة رائعة عن ذلك الزمان الذى اتسم بالضلال، والجهل، والقسوة، واستحلال الحرمات، والاستخفاف بالعلماء، وانعدام وجود القائد والمرشد، والموت على الكفر.

وقد بلغ ضلال القوم مرتبة من الفضاغة إلى الحد الذى جعلهم يفخرون بجنایاتهم

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩

ويرون سفك الدماء ووأد البنات دليلاً على الغيرة، والسلب والنهب شجاعة، كما تأصلت لديهم معانى الجهل والخرافة حتى جعلهم يصنعون آلهتهم بأيدهم تارة من الخشب وأخرى من الحجر وأخيراً من التمر، فإن جاعوا التهموها. وأما قساوة قلوبهم فقد تجذرت فى أعماقهم حتى توارثوا الحقد جيلاً عن جيل، فكانوا لا يبهون بسفك الدماء وممارسة سائر المفاسد والانحرافات. وفى ظل هذه الظروف العصبية يمكن إدراك عظمة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ومعطياته فى تلك الأجواء المتلفعة بالظلمة، حتى استطاع خلال تلك الفترة القصيرة من النهوض بذلك المجتمع الخرافى الجاهل والمتخلف ليضعه فى مصاف المجتمعات المتمدنة والمتحضرة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١

القسم الثانى

«ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعَشَرَ الْعَرَبِ أَعْرَاضُ بِلَايَا قَدِ اقْتَرَبَتْ، فَاتَّقُوا سَيِّكَرَاتِ النَّعْمَةِ، وَاحذَرُوا بَوَاقِ النَّقْمَةِ، وَتَبَتُّوا فِي قَتَامِ الْعَشْوَةِ، وَأَعْوَجَّاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَأَنْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَمَدَارِ رِحَاهَا. تَبَدُّوا فِي مَدَارِجِ خَفِيَّتِهَا، وَتَوَوَّلُوا إِلَى فِطَاعَةِ جَلِيَّتِهَا. شَتَابُهَا كَشِبَابِ الْعُلَامِ، وَأَنَارُهَا كَأَنَارِ السَّلَامِ، يَتَوَارَثُهَا الظُّلْمَةُ بِالْعُهُودِ! أَوْلَهُمْ قَائِدٌ لَأَخْرِهِمْ، وَأَخْرَهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوْلِهِمْ؛ يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّتِهَا، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيْفِهَا مُرِيحَةً. وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمَتَّبِعِ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمُقَوِّدِ، فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبُغْضَاءِ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللَّقَاءِ».

الشرح والتفسير: الحذر من الفتنة

أخبر الإمام عليه السلام الناس فى هذا المقطع من الخطبة بالفتن التى تنتظرهم إلى جانب تحذيرهم وإلفات نظرهم إلى خطورتها

ليتحصنوا قدر المستطاع من ضربات تلك الفتن ويحدوا من الخسائر، حيث أشار الإمام عليه السلام بعبارات لطيفة إلى مصادر هذه الفتنة وكيفية تبلورها ومرورها بمختلف المراحل فقال:

«ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعَشَرَ الْعَرَبِ أَعْرَاضُ بَلَايَا قَدِ افْتَرَبْتُ، فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النُّعْمَةِ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ [٦] النَّقْمَةِ»

. فقد ركز الإمام عليه السلام في هذه العبارة على عنصرين يقفان وراء الفتن؛ أحدهما سكرات النعمة، والآخر عقوبة الأعمال.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢

وبيّن نتيجة تلك الفتن التي يعصف بلاؤها بالناس. ثم أوصى الناس بالتحلي باليقظة والحذر بغية التقليل من الخسائر حين تهب رياح

الحوادث المعتمنة وتستفحل الفتن عند ظهور اجنتها وانتصاب محورها وحركة رحاها

«وَتَتَّبِعُوا فِي قَتَامِ [٧] الْعِشْوَةِ [٨]، وَأَعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَأَنْتِصَابِ

قُطْبِهَا، وَمَدَارِ رَحَاهَا»

. فالأمام عليه السلام يشبه الفتنة في هذه العبارة بالجنين الذي يترعرع بصورة خفية ويولد فجأة تارة، وتارة أخرى يعدها كالرحى التي

يقام محورها بادئ الأمر ثم تدور حوله، وتشير الشواهد التاريخية إلى أن الفتن كذلك حقاً، فهي مراحل تتبلور أثر بعض العوامل

الاجتماعية المختلفة لتنفجر فجأة ويطفو على السطح ما يعتصر في باطن المجتمع، ثم يتطرق الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه إلى

الملامح الأخرى لتبلور الفتن على أنها تبدأ من مراحل خفية لتظهر في خاتمة المطاف بوجهها الخطير، وهي تنمو وتنتشر بسرعة على

غرار نمو الشباب وتسدد ضرباتها الموجعة إلى جسد المجتمع

«تَبْدَأُ فِي مَدَارِجِ خَفِيَّةٍ، وَتَوُؤَلُّ إِلَى قَطَاعِهِ جَلِيَّةٍ. شَبَابُهَا كَشَبَابِ [٩] الْعُلَامِ، وَأَتَارُهَا كَأَتَارِ السَّلَامِ [١٠]».

هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغة في الفتنة التي أشار إليها الإمام عليه السلام في هذه العبارة وحذر منها؛ ويبدو أن المراد بها فتنة

بنى أمية التي بدأت منذ عهد عثمان وبرزت بقتله ثم بلغت ذروتها إثر خلافة معاوية ويزيد وعبد الملك بن مروان ومن سار في

فلكهم، وقد اتضح هذه الفتنة وتجلت فضيحتها بشتم أمير المؤمنين على عليه السلام من على منابر المسلمين وتلك الضربات التي

وجهت إلى الإسلام بحيث لو وضعت على جبل لتصدع.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣

ثم واصل حديثه بالإشارة إلى سائر خصائص هذه الفتنة

«يَتَوَارَثُهَا الظُّلْمَةُ بِالْعَهْدِ! أَوْ لُهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ»

. أجل ففادة الفتن على هذه الشاكلة يتوارثون فيما بينهم أسباب الفتنة ويسيرونها جميعاً في خط واحد وباتجاه مشترك، ومن شأن هذا

الانسجام والاتفاق والوراثه أن يضاعف أخطار الفتنة ويشعب آثارها السلبية، آنذاك أشار الإمام عليه السلام إلى الدافع الأصلي لقادة

الفتن والظلمة في أنهم يتسابقون من أجل الظفر بهذه الدنيا الدنية ويتكالبون على حطامها كتهافت الكلاب على المزابيل النتنة، فالواقع

هم متحدون في الظاهر وينطلقون معا في مسار واحد، غير أنهم يعيشون باطنياً حالة من الصراع والنزاع ويسعى كل فرد منهم لأن يكون

رأس الفتنة ويقتنى آثاره الآخرون

«يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دُنْيَيْهِ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى حَيْفِهِ مَرِيحَهُ [١١]».

ثم أشار عليه السلام بعبارة قصيرة وبلغه إلى عاقبتهم المريرة فقال:

«وَعَنْ قَلِيلٍ يَبْتَرُّ التَّابِعُ مِنَ الْمَشُوعِ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ، فَيَتَرَايِلُونَ بِالْبُغْضَاءِ، وَيَتَلَاعُونَ عِنْدَ اللَّقَاءِ»

. لعل هذه العبارة إشارة إلى أصحاب الفتن من بنى العباس.

رغم أنهم اقتنفوا آثار بنى أمية في سلوك هذا النفاق والتكالب على الدنيا وتوجيه الضربات إلى أهل البيت عليهم السلام زعماء الأمة

الإسلامية وأئمتها، إلبان الظاهر أنهم كانوا يلعنونهم ويتبرأون من أفعالهم، وكان شعارهم الذى أرادوا به خداع الناس «الرضا لآل محمد»، ففتكوا بفلول بنى أمية وسفكوا دماءهم حتى سالت أنهار من الدماء وقضوا على تراثهم ونهبوا أموالهم، وذهب البعض من شراح نهج البلاغة إلى أن المراد من العبارة «وَيَتَلَاعُونَ عِنْدَ اللَّقَاءِ»

، لقاء الله ويوم القيامة، كما ورد فى القرآن الكريم: «إِذِ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ» [١٢] كما ورد فى القرآن الكريم بشأن براءة المشركين من أئمتهم: «وَيَوْمَ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤

نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» [١٣]. وعبارة «وَيَتَلَابَّونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ»

تشبه هذه الفئة الطاغية المتهافئة على الدنيا بالكلاب التى تهجم على الميتة العفنة وينهش كل منها ما فى يد الآخر وفمه، وباله من تشبيه بليغ رائع!

تأمل: مميزات الحكام اتباع الهوى

يستفاد من العبارات المذكورة فى خطبة الإمام عليه السلام أن الحكام الظلمة يتسمون ببعض المميزات التى يشهد بها التاريخ البشرى، ومنها:

١. إثارة الفتن والبلابل بغيه تحقيق الأهداف؛ الأمر الذى نشهده فى استغلال بنى أمية لقضية المطالبة بدم عثمان.
٢. الاتحاد والتنسيق فى الانطلاقة والتواطؤ فى الخطط الهدامة وإثارة الفتن.
٣. اشتداد المنافسة حين الغلبة بحيث تبدو المجموعة وكأنها حفنة من الكلاب التى تتكالب على جيفة ليحوز كل حصته من الآخر.
٤. لعن كل طرف للآخر فى خاتمة المطاف وتحمله المسؤولية ولعل التاريخ بماضيه وحاضره شاهد حى على كلام الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥

القسم الثالث

«ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ، وَالْقَاصِمَةُ الرَّحُوفِ، فَتَزِيغُ قُلُوبَ بَعْدَ اسْتِقَامَتِهِ، وَتَضِلُّ رِجَالَ بَعْدَ سَلَامَتِهِ؛ وَتَحْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ الْأَرَءَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا. مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتُهُ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتُهُ؛ يَتَكَادِمُونَ فِيهَا تَكَادِمَ الْحُمْرِ فِي الْعَانَةِ! قَدْ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ. تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةَ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظُّلْمَةَ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبَدْوِ بِمَسْحَلِهَا، وَتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ؛ تَرْدُ بِمِرِّ الْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَيْبَ الدَّمَاءِ، وَتَتَلِيمُ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَنْقُضُ عَقْمَدَ الْيَقِينِ. يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ، وَيَدْبُرُّهَا الْأَرْجَاسُ. مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ، كَاشِفَةٌ عَن سَاقٍ! تُقَطِّعُ فِيهَا الْأَرْحَامَ، وَيَفَارِقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ! بَرِيئًا سَقِيمًا، وَظَاعِنًا مُقِيمًا!».

الشرح والتفسير: خصائص هذه الفتنة الكبرى

أشار الإمام عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبة- إلى فتنة مهمة أخرى تنتظر المسلمين، فتنة مرعبة وكاسرة وردت تفاصيلها فى عبارات الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة، على أمل أن يتعرف عليها المسلمون فينأوا بأنفسهم بعيداً عنها ولإجتنب من فداحة

أضرارها، فقال عليه السلام:

«ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ [١٤]،

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦

وَالْقَاصِمَةُ [١٥] الرَّحُوفِ [١٦]، فَتَرْيُحُ قُلُوبَ بَعْدَ اسْتِقَامَةٍ، وَتَضِلُّ رِجَالَ بَعْدَ سَلَامَةٍ؛ وَتُخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ الْأَرَءَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا [١٧].»

ذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بهذه الفتنة هنا فتنة المغول والتاتار، ولم يذكروا حسب اطلاعنا احتمالاً آخر؛ إلا أن هذا الاحتمال يبدو بعيداً؛ لأن أهداف المغول لم تكن سوى نهب الأموال وخراب البلدان والسيطرة على الممالك الإسلامية؛ في حين أخبر الإمام عليه السلام بعبارات في هذه الخطبة عن فتنة تستهدف أفكار الناس ومعتقداتهم وتلقى بهم في غياهب الغي والضلال والاختلافات الفكرية والدينية، وعليه يمكن أن يكون المراد بها فتنة بنى العباس التي أعقبت فتنة بنى أمية والتي أشارت إليها العبارات السابقة، والواقع هو أن بنى العباس وبنى أمية وإن كانوا وجهين لعملة واحدة وسياسة شيطانية واحدة، إلا أن بنى أمية وكما صرح زعيمهم معاوية كانوا لا يكثرثون للصوم والصلاة وطقوس الناس الدينية، سوى - في المواقع - التي تصطدم بحكومتهم الغاشمة؛ بينما اخترق بنو العباس عقائد الأمية حتى ظهرت على عهدهم أغلب المدارس المنحرفة والمذاهب الفاسدة، كما اشتدت الاختلافات في بعض المسائل من قبيل «حدوث القرآن وقدمه» و «الجبر والتفويض» إلى جانب الخلافات بين «الأشاعرة والمعتزلة»، ومما لا شك فيه أن ذلك كان يجري وفق خطة مرسومة حتى أنهم كانوا يشجعون العلماء والمفكرين لإثارة مثل هذه المباحث بهدف الاستمرار في السلطة، طبعاً لا نزعاً أن بنى أمية تخلوا مطلقاً عن هذه الأمور، لكننا نقول ليس لمثل هذه المباحث من ظهور آنذاك كالذي أصبح عليه بنو العباس، كما يبدو، مستبعداً أيضاً، الاحتمال الآخر الذي ذكره بعض شراح نهج البلاغة من أن هذا الكلام إشارة إلى فتنة «الذجال» في آخر الزمان

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧

الذي يضل فتنه من الناس.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى شدة تلك الفتنة قائلاً:

«مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ؛ يَتَكَادِمُونَ [١٨] فِيهَا تَكَادِمَ الْحُمْرِ [١٩] فِي الْعَانَةِ!»

وهذه العبارة تأكيد لما ذكر في الكلام السابق بشأن الفتنة الأولى من أن رؤوس الفتنة متحدون بادية الأمر، أنهم سرعان ما يسعون لطردهم كل منهم الآخر عند الغلبة، ثم تطرق إلى أوضاع الناس الدينية والأخلاقية آنذاك فقال:

«قَدْ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ. تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةَ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظُّلْمَةَ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا [٢٠]، وَتَرُضُّهُمْ [٢١] بِكَلْكَلِهَا [٢٢]»

. نعم، حين يغيب العلماء عن مسرح الأحداث تؤول الأمور إلى الظلمة ليقولوا ما يريدون ويحملوا الآخرين على فعل ما يشاؤون، آنذاك تعم الفتنة لتشمل البلاد بأسرها وتأتي على القرى الصغيرة والنائية.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بشأن فضاغة أخطار هذه الفتنة (حيث يصبح الوضع بالشكل الذي) يضيع في غبارها المشاء من الأفراد وتهلك فيها الفرسان:

«يَضِيغُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ»

. إشارة إلى أن الفتنة على درجة من القوة بحيث يكفي غبارها لقمع المعارضين المتفردين، كما تعصف بالجمع الكثير منهم إن اعترضوا سبيلها، بالتالي ليس لأحد القدرة على مواجهتها والصمود بوجهها.

قال بعض شراح نهج البلاغة في تفسيرهم لهذه العبارة، إن المراد ب

«الوحدان»

، العلماء والفضلاء الذين يتلون بغبار الشبهات ويضيعون الحق، والركبان كناية عن الفئات المقتدرة التي لا تقوى أيضاً على مقاومة رؤوس الفتنة وتهلك في مواجهتها؛

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨

إلا أن التفسير الأول أقرب، لأن

«الوحدان»

إشارة إلى الأفراد الوحيدين أو المشاة، و

«الركبان»

إلى الأفراد الأشداء أو الفرسان.

ثم قال عليه السلام:

«تَرِدُ بِمَرِّ الْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَيْبًا [٢٣] الدَّمَاءِ، وَتَتَلَمَّ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَتَقَضُّ عَقْدَ الْيَقِينِ. يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ، وَيُدْبِرُهَا الْأَرْجَاسُ»

، أجل حين ينحى الأكياس والحكماء ويتسلم الأراذل والأرجاس زمام الأمور تتصدع عرى الإيمان وتفسخ عقد اليقين وتعرض أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم إلى الخطر.

ويختتم الإمام عليه السلام بيانه لخصائص هذه الفتنة العظيمة بالقول:

«مِرْعَادٌ [٢٤] مِبْرَاقٌ،

كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ! تُقَطِّعُ فِيهَا الْأَرْحَامَ، وَيُفَارِقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ! بَرِيئُهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!»

. و «مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ»، صفات كناية لشدّة هول هذه الفتنة، لأن هذه العبارات عادة ما تستعمل بهذا المعنى، رغم أن بعض الشراح عدوا

ذلك إشارة إلى أصوات ضربات السيوف وبرقها، غير أن المعنى الأول أنسب. وعبارة

«كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ»

كناية عن شدّة مشقتها؛ لأنّ الإنسان يشمر عن ذراعه وساقه عادة إن همّ بإتيان عمل شاق. وعبارة

«تُقَطِّعُ فِيهَا الْأَرْحَامَ»

إشارة إلى أن رؤوس الفتنة لا يرعون في آخ وأب وأم وإلا ولا ذمّة ويذبحون كل من يعترض طريقهم ولتحقق رغباتهم.

ومن الطبيعي أن تغيب التعاليم الإسلامية في ظل هذه الظروف، وأخيراً عبارة

«بَرِيئُهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!»

إشارة إلى أن الفتنة تطل حتى من يعتقد أنّه بعيد عن مخاطر هذه الفتنة، كما يقع فيها حتى من ظن باستطاعته الهرب منها، فهي فتنة

كاسرة قاصمة قلّ من ينجو منها.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩

القسم الرابع

بَيْنَ قَيْلٍ مَطْلُولٍ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يَخْتَلُونَ بِعَقْدِ الْإِيمَانِ وَبِعُرْوَةِ الْإِيمَانِ؛ فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَأَعْلَامَ الْبِدَعِ؛ وَالزَّمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ، وَبَيِّتْ عَلَيْهِ أَرْكَانَ الطَّاعَةِ؛ وَأَقْدَمُوا عَلَى اللَّهِ مَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ؛ وَأَتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ؛ وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لَعَقَ الْحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بَعِينٌ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَعْصِيَةَ، وَسَهْلٌ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ.

الشرح والتفسير: التكليف حين الفتنة

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى عدم إرتباط هذا الجانب من الخطبة بما سبقه من كلام، وقد اختاره السيد الرضى جرياً على عادته في الاقتطاف ولم يذكر الكلام الذي سبقه؛ والحال هنالك ارتباط وثيق بين هذا المقطع من الخطبة وما سبقه من مقاطع، حيث تصدت المقاطع السابقة لبيان الفتن التي تنتظر الناس وأهم مميزاتها، وانتقلت هنا إلى نتائجها ووظيفته الأُمّية في ظلها، فقد استهل الإمام عليه السلام كلامه هنا قائلاً:

«بَيْنَ قَبِيلٍ مَطْلُوبٍ [٢٥]، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ»

، ثم واصل كلامه بالقول:

«يَخْتَلُونَ [٢٦] بِعَقْدِ الْإِيمَانِ وَبِعُرْوَةِ الْإِيمَانِ».

أجل فرأس الفتنة يتشبه بكل وسيلة لتحقيق مآربه الشيطانية من قبيل ممارسته

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠

القتل والقمع والتظاهر بالإيمان إن اقتضت الضرورة واعطاء الأمان لبعض الأفراد ومن ثم ضرب كل هذه الأمور عرض الحائط، ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظائف الناس في ظل هذه الفتن والإرباكات فأورد خمس تعليمات لأصحاب الحق فقال في وصيته الأولى:

«فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَأَعْلَامَ الْبِدْعِ»

إشارة إلى اعتزال هذه المعركة الخطيرة دون التعاون مع رؤوس الفتنة وأصحاب البدعة.

والوصية الثانية:

«وَالزُّمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ»

والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة، وبنيت عليه أركان الطاعة إشارة إلى ضرورة الالتزام بالقوانين والتعاليم الشرعية التي تضمن طاعة الله وبقاء المجتمع الإسلامي ورعايتها قدر المستطاع في ظل نشوب الفتن، ذلك لأنه إن كان هنالك من سبيل للنجاة من الفتنة إنما يتمثل في الالتزام بهذه التعاليم، والكلام يشمل بالطبع التعاليم الإسلامية الواردة بهذا الخصوص من قبيل الجمعة والجماعة والحج والتكافل الاجتماعي، وهي الأمور التي تؤدي إلى النجاة من الفتنة.

وقال في الوصية الثالثة:

«وَأَقْدَمُوا عَلَى اللَّهِ مَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ»

. طبعاً ليس مفهوم العبارة الاستسلام للظلم والاستجابة للظالم؛ فهذا الأمر منهي عنه في الإسلام وهو نوع من إعانة الظالم على الظلم، لكن المراد إن خيرتم بين أمرين إمّا أن تهضم حقوقكم أو تهضموا حقوق الآخرين، فما عليكم إلّا أن تغضوا الطرف عن حقوقكم لكي لا تدنسوا أنفسكم بظلم الغير، ومثل هذا الأمر عادل ومرضى لله على ضوء قاعدة تقديم الأهم على المهم.

الوصية الرابعة:

«وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ»

أى لا تقربوا من الخطوط الحمراء (الظلم والفساد)، والتعبير ب

«المدارج»

و

«المهابط»

إشارة إلى نكتة لطيفة، أي أن الشيطان يرفع الإنسان من سلم الطغيان، فإن بلغ القمة قذف به إلى الأسفل، وأحياناً يهوى به إلى أودية المعصية ليزل قدمه فتهدى به إلى أعماق الكبائر.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١

والوصية الخامسة والأخيرة:

«وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ [٢٧] الْحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بَعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَعْصِيَةَ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ»

. لا شك في أن الأموال الحرام تزداد في أيدي الناس في ظل حكومة الظلمة ويزور الفتن والاستفادة من تلك الأموال تنعكس سلباً على الإنسان، فهي تسود القلب وتبعد الإنسان عن الله وتسوقه لاتباع خطوات الشيطان. فالإمام عليه السلام يحذر من الحرام ويلفت نظرهم إلى عدم غلق الرحمن لأبواب الطاعة والكسب الحلال قط، فالله يترك الباب مفتوحاً في كل الظروف بوجه عباده لممارسته الطاعة والنجاه من الفتنة. قال العلامة مغنية: «إن أفضل تفسير لهذه العبارة وما بعدها ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبة ١١٤ إنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ وَمَا أَحَلَّ لَكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُّوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ».

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣

الخطبة ١٥٢

إشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَصِفَاتِ أُنَمَّةِ الدِّينِ [٢٨]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة بصورة رئيسية من ثلاثة أقسام. أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول إلى بعض النقاط المهمة بشأن صفات الله التي صرح فيها بعض شراح نهج البلاغة بأنها لم ترد في أي كتاب وهي أعظم من تلك المطالب التي ذكرها الفلاسفة والحكماء والعرفاء بشأن صفات الله، بينما أشار في القسم الثاني إلى المنزلة الرفيعة لزعماء الدين وأئمة الهدى ومقامهم عند الله وموقعهم في المجتمع البشري، وتحدث الإمام عليه السلام في القسم الثالث عن نعمة الله الكبرى أي الإسلام والقرآن، فذكر بعض النقاط الرقيقة بشأن هذا الكتاب السماوي ليقف المسلمون على عظمة الكتاب وينهلوا من فيضه العذب.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥

القسم الأول

الْحَمِيدُ لِلَّهِ الدَّالُّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحَدَّثِ خَلْقِهِ عَلَى أَرْزَلِيَّتِهِ؛ وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَاشَبَهُ لَهُ. لَاتَسْبِيْلُهُ الْمَشَاعِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ؛ الْأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلٍ عَدَدٍ، وَالْخَالِقِ لِابْتِمَعْنَى حَرَكَهٍ وَنَصْبٍ، وَالسَّمِيعِ لِابْتِدَاءِهِ، وَالْبَصِيرِ لِابْتَفْرِيقِ آلِهِ، وَالشَّاهِدِ لِابْتِمَاسِهِ، وَالْبَائِنِ لِابْتِرَاحِي مَسَافَةِ، وَالظَّاهِرِ لِابْرُؤِيَّةِ، وَالْبَاطِنِ لِابِلَاطَافِهِ. بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةَ عَلَيْهَا، وَبَانَ الْأَشْيَاءِ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ. مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَيَّدَهُ، وَمَنْ حَيَّدَهُ فَقَدْ عَيَّدَهُ، وَمَنْ عَيَّدَهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَرْزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدْ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّرَهُ. عَالِمٌ إِذْ لَمْ يَعْلُومَ، وَرَبٌّ إِذْ لَمْ يَرْبُوبُ، وَقَادِرٌ إِذْ لَمْ يَقْدُرْ.

الشرح والتفسير: شمة من صفات الله الجمالية والجلالية

كما ذكر آنفاً فإن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد أن بايعته الأمة أثر نعمتها على عثمان وبطائه وقتلها إياه، استهل الإمام عليه السلام الخطبة بمعرفة الله وبيان صفاته الجلالية والجمالية؛ كونها دعامة السعادة والفلاح والصلاح الفردي والاجتماعي. وقد ذكر ثمان صفات في عبارات قصيرة عميقة المعنى بما يعجز الفلاسفة والمتكلمون عن الوقوف على كنهها.

فقد قال عليه السلام:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الدَّلَّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ»

أجل، حين نتأمل عجائب

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦

الخلق إلى جانب الأسرار والنظم التي تكتنف خلق الأرض والسماء والإنسان والحيوان لا- نملك سوى التسليم بأن هنالك إرادة حكيمة وقادرة عالمه وراء كل تلك الآثار البديعة التي لا يسعها أن تكون وليدة هذه الطبيعة الصماء، وهذا هو برهان النظم الذي أشار إليه القرآن الكريم والروايات الإسلامية بفضله أدل دليل على معرفة الله.

ثم قال في بيان الصفة الثانية:

«وَبِمُخَدِّثِ خَلْقِهِ عَلَى أَرْزَلِيَّتِهِ»

والعبارة في الواقع إشارة إلى برهان الوجوب والإمكان؛ ذلك أن سلسلة المخلوقات التي ارتدت لباس الوجود خلف بعضها البعض لا يمكنها الاستمرار إلى مالانهاية فكل حادث مخلوق، لأن عدم تناهي المعلول يحتاج بالتالي إلى علته أزيد وغنية عن الخلق والتي يصطلح عليها بواجب الوجود.

وقال في الصفة الثالثة:

«وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَأَشْبَهَ لَهُ»

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف يكون تشابه المخلوقات دليلاً على عدم الشبيه لله؟ الجواب: أن هذا الشبه دليل على تركيب هذه المخلوقات، لأن لها قدراً مشتركاً من قبيل الزمان والمكان وبعض الأشكال والعوارض الظاهرية، كما هنالك بعض الجهات المختلفة التي تميزها عن بعضها. وبناءً على هذا فإن كل مخلوق مركب مما به الاشتراك وما به الامتياز (الجهات المشتركة والجهات المختلفة) ومن الطبيعي أن تكون هذه المخلوقات المركبة محتاجة (محتاجة إلى أجزائها ومن يركبها) ومن هنا نفهم أن لا شبيه لله وإلا للزم التركيب والحاجة على ذاته المقدسة.

وقال في الصفة الرابعة والخامسة:

«لَا تَسْتَلِمُهُ [٢٩] الْمَشَاعِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ،

لِإِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ»

والدليل واضح على تعذر بلوغ مشاعر الإنسان بما فيها الحواس الظاهرية والباطنية والعقل كنه ذاته المقدسة؛ فهو وجود غير محدود ولامتناه من جميع الجهات، والعقل البشري

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧

محدود من جميع الجهات، وغير المحدود لا يسعه المحدود مطلقاً. من جانب آخر فقد ملأت آثار وجوده أركان العالم بأسره بحيث لا يسع شيء حجبتها، فذاته خفية على الجميع وآثاره ظاهرة للجميع.

والعبارة

«لِإِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ ...»

دليل على خفاء ذاته المقدسة وظهور آثاره، لاختلاف الخالق والمخلوق والحاد والمحدود والرب والمربوب. فالمصنوع الممكن

الوجود لا- يمكنه إدراك الصانع الواجب الوجود، والمخلوقات المحدودة لا يسعها درك الخالق اللامحدود والموجودات الخاضعة لربوبية الرب يتعذر عليها إدراكه كما هو. جدير بالذكر أن طائفة من شراح نهج البلاغة ذهبوا إلى أن هذه استدلالات على جميع الصفات المذكورة سابقاً، إلا أن التفسير الأول يبدو أنسب.

وقال في بيانه للصفة السادسة والسابعة:

«الْأَحَدُ بِلَا تَأْوِيلٍ عَدَدٍ، وَالْخَالِقُ لَّا بِمَعْنَى حَرَكَهٍ وَنَصَبٍ [٣٠]»

فحين يقال: الله واحد يتصور البعض أن مفهوم ذلك أنه واحد وليس بثنان، وهذا خطأ محض؛ لأن مفهوم هذا الكلام إمكانية تصور ثانٍ له ولكن لا- وجود له؛ والحال لا- يمكن تصور ثانٍ لذاته المقدسة، وهل يمكن تصور التعدد في الذات اللامحدودة من جميع الجهات؟! لو تصور التعدد لكان كلاهما محدودا. وعليه فتوحيد الذات الإلهية ليس بمعنى الوحدة العددية، بل بمعنى الوحدة بالنسبة للشبيه والنظير وما شاكل ذلك، لا في الذهن ولا في الخارج. وحين يقال: قد يقتدح إلى ذهن البعض أن الخالق شمر عن ساقيه ويديه وانطلق من هنا إلى هنالك واجهد نفسه لخلق الموجودات؛ على غرار ما نقوم به حين نصنع بعض الأشياء، كلا:

«إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [٣١].

ثم تطرق إلى الصفة الثامنة والتاسعة فقال:

«وَالسَّمِيعُ لَأَبَادًا، وَالْبَصِيرُ لَابْتَفْرِيقِ آلِهَةٍ»

. والتوضيح الذي أورده الإمام عليه السلام منشأ ما يتوارد إلى الأذهان حين الحديث

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨

عن السمع والبصر وما شابه ذلك إلى سمعنا وبصرنا الذي يتم من خلال بعض الوسائل من قبيل الاذن والعين، والحال سمعه وبصره سبحانه ليس بأداة، بل بحضور ذاته المطلقة في كل مكان وفي ظاهر جميع الأشياء وباطنها. العبارة

«لَا يَتَفَرِّقُ آلِهَةً»

يمكن أن تكون إشارة إلى نقطة وهي أن الإنسان إذا أراد رؤية صورة كاملة- بيت مثلاً- ينبغي له أن يركز بصره على مختلف جوانب ذلك البيت، ليرى أعلاه وأسفله وشرقه وغربه، وتنتقل عدده صور إلى الدماغ ليقوم بترتيبها للظفر بصورة صحيحة تامة عن البيت. وبناءً على هذا فوظيفة العين الأولى، التقاط الصور المستقلة، والثانية، تحويلها إلى الدماغ ليركبها مع بعضها. وهكذا بشأن مشاهدة حركة معينة- كحركة إنسان مثلاً- والعملية أشبه بالتقاط الأفلام والتصوير، حيث تلتقط العين كل لحظة صورة لشكل ذلك الإنسان وهيئته، ثم تنقلها إلى الدماغ ليركب هذه الصور واظهار الحركة.

قال في بيانه للصفة العاشرة والحادية عشرة:

«وَالشَّاهِدِ لَأَبْمَاسَةٍ، وَالبَّائِنِ لَأَبْتَرَاخِي مَسَافَةٍ»

. إشارة إلى أن حضور الله في كل مكان لا بمعنى الحضور المكاني من خلال الاتصال بالأشياء، بل حضوره بمعنى إحاطته الوجودية بكل شيء، كما أن مباينته عن الأشياء ليس على نحو المسافة المكانية أو الزمانية، بل بمعنى أن ذاته في ذروة الكمال وما سواه في غاية النقص. لعل هنالك من يتصور تناقض هذه الصفات مع تلك التي ستأتي، فالبعد والقرب والعلو والدنو والظاهرة والباطنية من الصفات التي لا يسع تفكيرنا جمعها مع بعضها؛ والأمر كذلك بالنسبة لهذه الصفات أن استعملت بشأن المخلوقات المحدودة من حيث الزمان والمكان ومختلف الجهات، غير أن هذه الصفات المتضادة يمكن جمعها في الذات المقدسة اللامتناهية، فرغم حضوره المطلق في كافة الأمكنة (بمعنى إحاطته العلمية بجميع الأشياء) لكن ليس له حضور مكاني في أي مكان، ذلك لأنه ليس بجسم ليحتاج إلى مكان.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩

ثم خاض الإمام عليه السلام في بيان الصفة الثانية والثالثة عشرة فقال:

«وَالظَّاهِرِ لَا بُرُؤِيَّةٍ، وَالْبَاطِنِ لَا بِلَطَافَةٍ»

أجل، فهو أظهر جميع الأشياء، فأثاره قد ملأت العالم بأسره فأصبح الوجود قبساً من صفات جلاله وجماله، وهو خفي لا على شاكلة الأشياء اللطيفة الغاية في الصغر كالهواء، بل بمعنى عجز العقول عن إدراك كنه ذاته.

والصفة الرابعة عشرة:

«بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةَ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ»

أى إن قيل إن الله بائن عن كل شيء، فذلك لا يعنى أنه بعيد عنا، بل هو قريب منا بمقتضى الأدلة الفلسفية القطعية وصريح الآية القرآنية: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» [٣٢]، والمعنى أن قدرته قهرت كل شيء، فأين نحن من الله، وأين الثرى من الثريا؟ كما أن بينونة الأشياء عنه تعنى خضوع كل شيء لإرادته.

وقال في الصفة الخامسة عشرة التي تنزه الذات عن الوصف:

«مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَرْزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدْ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّرَهُ [٣٣].»

وتوضيح هذا الكلام: إننا كمخلوقات نعيش في عالم الممكنات إنما نقارن كل شيء بالنسبة لنا، ونصف الله في أغلب الأحيان بأوصافنا الناقصة والمحدودة فنضفى عليه بعض صفات الممكنات وهذا هو وادى التشبيه الخطير الذى حذرتنا الآيات والروايات من السقوط فيه. ومن هنا قال الإمام عليه السلام من وصف الله بهذه الصفات فقد حده ومن حد الله فإنه سيتصور له شبيها لا محال وعليه سيجعله في قالب الأعداد فإن فعل ذلك أنكر عليه أزليته وأبديته، ذلك لأن هاتين الصفتين تترشحان من ذاته الغنية عن الحدود، كما أن من يسأل عن كيفية ذاته فقد نعت بصفات المخلوقات، ومن سأل عن مكانه أو زمانه فقد افترضه جسماً يقع ضمن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠

دائرة المكان والزمان. ولعل هنالك من يرى الوصف المذكور ليس بقوة الأوصاف السلبية الثلاث عدم الحدودية ونفى الكيفية ونفى المكان على الذات المقدسة.

أما الصفات السادسة عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة، فقال في بيانها عليه السلام:

«عَالِمٌ إِذْ لَمْ يَعْلَمْ، وَرَبٌّ إِذْ لَمْ يَرُبُّ، وَقَادِرٌ إِذْ لَمْ يَقْدِرْ»

. إما أنه عالم إذ لا - معلوم فذلك لأنه عالم بذاته وذاته مصدر جميع الموجودات، وعليه فالعلم بالذات هو فى الواقع علم بجميع الموجودات التى لبست ثوب الوجود تدريجياً فى العالم. وإما أنه ربّ قبل وجود الموجودات فذلك لأن القدرة على الربوبية وربوبية الموجودات عين ذاته المقدسة، على غرار قولنا: إن فلاناً مديراً ومدبراً فى الوقت الذى لم يتسلم فيه لحد الآن زمام الإدارة. وأخيراً إن قيل هو قادر قبل وجود المقدور فإنما يستند ذلك أيضاً إلى أن قدرته عين ذاته، وهكذا كقولنا إن فلاناً قادر على القيام بالعمل الفلانى ولم يقم به لحد الآن. وزبدة الكلام فإن صفاته كالعالم والقدرة وجميع الصفات الثبوتية عين ذاته تبارك وتعالى، وعليه فقد كان كل شيء قبل أن يوجد أى شيء، ولو تمعنا قليلاً فهو الآن كل شيء وكل ما سواه لا شيء.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١

القسم الثانى

منها: «قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لَامِعٌ، وَوَلَّاحٌ لَازِحٌ، وَعَاتِدَلٌ مَائِلٌ؛ وَاسْتَبَدَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ قَوْمًا، وَبِيَوْمٍ يَوْمًا؛ وَأَنْتَظَرْنَا الْغَيْرَ أَنْتَظَارَ الْمُجِدِّبِ الْمَطَرِ. وَإِنَّمَا الْأَيْمَةُ قَوْمُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرْفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ؛ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ. وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اسْمُ سَلَامَةٍ، وَجَمَاعُ كَرَامَةٍ.»

اضْطَفَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُجَهُ، وَبَيَّنَّ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ، وَبِإِطْنِ حِكْمٍ. لَمَّا تَفَنَّى غَرَائِبُهُ، وَلَا تَنَقَّضَتِ عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلْمِ، لَا تُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَفَاتِيحِهِ، وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ. قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ، وَأَرْعَى مَرْعَاهُ. فِيهِ شِفَاءُ الْمُسْتَشْفَى، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفَى».

الشرح والتفسير: إنتظار الفرج

يعتقد البعض من شراح نهج البلاغة- كما ذكرنا سابقاً- بأن هذه الخطبة ولاسيما هذا المقطع منها يعالج مسائل الخلافة عقب مقتل عثمان وبيعة الأمة للإمام عليه السلام بالخلافة، والشاهد على ذلك عباراتها وخاصة مايتعلق بأئمة المسلمين. على كل حال فإن الإمام عليه السلام أشار هنا بادىء الأمر إلى ظهور خلافة الحق فقال:

«قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لَامِعٌ، وَوَلَّحَ لَائِحٌ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ»

تفيد هذه العبارات بما لا يقبل الشك أن عهد حكومة عثمان كان من العهود المظلمة في التاريخ الإسلامي، وذلك لأن بطانته وقرابته استأثرت بالسلطة وتسلطت على كافة المقامات المهمة في البلاد

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢

وجعلت بيت المال جزءاً من ملكيتها الشخصية فعمالت صرخات المحرومين إلى عنان السماء، ثم أشرقت من بعده شمس العدالة واحترقت سحب الظلم لتعود الحكومة إلى سابق عزها على عهد النبي الأكرم صلى الله عليه و آله. جدير ذكره، هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغة بشأن العبارات الثلاث الأولى، هل العطف فيها عطف تفسيري وأنها تبين مطلباً واحداً (بزوغ شمس ولاية الحق) بعدة عبارات، أم أن كل عبارة تشير إلى معنى معين. ويبدو الصحيح أن لكل عبارة معنى معين؛ لأن الشمس إنما تجتاز ثلاث مراحل حين البزوغ؛ الأولى: الخروج من الأفق، والثانية: نشر شعاعها على سطح الأرض، والثالثة: ارتفاع قرص الشمس وتوسطها للسماء وطلوعها للجميع. وكل عبارة من العبارات الثلاث تشير إلى مرحلة من هذه المراحل؛ أى أشرقت شمس الولاية وألقت بأشعتها على الأرض وبالتالي ارتفعت لتستقر في قلب السماء.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالقول:

«وَأَسْتَبْدَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ قَوْمًا، وَبِيَوْمٍ يَوْمًا؛ وَأَنْتَظَرْنَا الْغَيْرَ أَنْتَظَرَ الْمُجْدِبِ الْمَطَرِ»

. حيث تشير هذه العبارات بوضوح إلى أن الحوادث التي وقعت على عهد عثمان لم تكن بعيدة عن التوقع، فكل شخص عاقل كان يتكهن بأن مثل هذه الحكومة التي تتسلم فيها القرابة مقدرات البلاد دون رادع أو وازع سوف لن يكتب لها النجاح وأنها ترعرع نطفة الثورة في رحمها، وهذه سنة إلهية جارية طيلة التاريخ، ولعل من أشكل على علي عليه السلام ما ورد في هذه العبارة أنه كان ينتظر مقتل عثمان، قد غفل عما ذكرناه آنفاً من أن تلك الأحداث كانت متوقعة من قبل شخص فطن، بعبارة أخرى إنما كان ذلك نتيجة طبيعية لتلك الأعمال. أضف إلى ذلك فإن الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بمقتل عثمان- بل ينتظر التغييرات على غرار من ينتظر المطر حين الجفاف؛ وياله من تعبير رائع! فالبلاد الإسلامية أصبحت إثر ظلم بطانة عثمان وكأنها صحراء مقفرة وقد أمطرتها السماء بزوال عثمان وظهور حكومة العدل العلوي. وقد تعرض ابن أبي الحديد المعتزلي لهذه القضية من خلال

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣

إثارته لسؤال والإجابة عنه.

فقد سأل نفسه بادىء الأمر: هل يصح حسب عقيدة المعتزلة أن ينتظر على عليه السلام قتل عثمان انتظار نزول المطر حين الجفاف؟ أو ليس هذا دليلاً على حقانية الشيعة؟

ثم قال ابن أبي الحديد في مقام الجواب عن هذا السؤال: إن علياً عليه السلام لم يقل كنا ننتظر قتله، بل كان ينتظر بعض التغييرات

كعزله عن الخلافة، لأننا نعتقد أنه كان يرى أعماله توجب ضرورة عزله لا قتله، وهذا ينسجم مع عقيدتنا، كما تعرض لسؤال آخر وهو: هل تعتقد المعتزلة أن علياً عليه السلام كان يعتبر عثمان فاسقاً يجب عزله عن الخلافة؟ فيجيب: إن المعتزلة لا ترى ذلك، بل تعتقد إن علياً عليه السلام كان يرى عثمان شخصاً ضعيفاً لا يستطيع تدبير أمور المسلمين، وذلك لأنه قرب بطانته وسلطهم على بيت مال المسلمين حتى قاموا عليه [٣٤].

ثم تطرق الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه إلى منزلة أئمة الهدى فقال:

«وَإِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قَوَامُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرْفَاؤُهُ [٣٥] عَلَى عِبَادِهِ؛ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ. وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ»

. وهذه العبارة تفيد أن نصب الإمام عليه السلام من قبل الله تعالى لا من قبل الناس وإن كانت هنالك من بيعه وإنتخاب فبغية تنسيق الأعمال والنهوض بمستوى الأمة وتطوير شؤونها، والمفردة «قَوَامُ»

إشارة إلى تدبير شؤون الخلق والعرفاء جمع عريف إشارة إلى أن هؤلاء الأئمة بفعل معرفتهم بالآخرين وعلمهم بالظروف الزمانية والمكانية وخبرتهم بمصالح الناس ومفاسدهم إنما يضعون كل فرد في موضعه المناسب ويباشرون كل عمل بموعده وفي وقته.

وأما العبارة

«وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ

...

وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ»

تأكيد لما قيل في العبارات السابقة؛ فلو سلمنا أنهم نصبوا من قبل الله، فمن تبعهم وسار على نهجهم وقبلوا عمله كان من الداخلين إلى الجنة، ومن أنكرهم فقد أنكر في واقع الأمر أوامر الله،

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤

ومثل هذا الفرد يدخل النار. وطبعاً كل هذه العبارات تنسجم مع المدرسة الشيعية التي ترى نصب الإمام من قبل الله بواسطة النبي أو من سبقه من إمام، وتراه معيار الفرقان بين الحق والباطل، وتعتقد بعدم اتصاف من يختاره الناس بهذه المقامات ولعله يسير فيهم بالخطأ والظلم والعدوان، ومن هنا ورد في الحديث الشريف:

«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةَ الْجَاهِلِيَّةِ» [٣٦]

والغريب إصرار ابن أبي الحديد على أن هذه العبارة صادقة على جميع الخلفاء من بعد النبي صلى الله عليه وآله والحال عرض الإمام عليه السلام في العبارات السابقة بالذم الشديد لحكومة عثمان؛ الأمر الذي يتناقض صراحة مع ما استنبطه ابن أبي الحديد. بل كيف يكون ذلك الخليفة الضعيف - الذي جعل كافة مناصب الدولة الإسلامية وبيت مال المسلمين ومقدراتهم تحت تصرف قرابته الانتهازية الهزيلة من عبدة الأهواء حتى قامت ضدّهم جموع المسلمين وأباحوا دماءهم وقد صمت إزاء ذلك أغلب الصحابة - مصداقاً لقول الإمام عليه السلام: قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده؟ ليدخل من أذعن له الجنة ومن أنكره النار؟! ورد في الحديث الشريف أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال لأمر المؤمنين على عليه السلام:

«ثَلَاثَةٌ أَقْسَمُ أَنَّهُنَّ حَقٌّ، إِنَّكَ وَالْأَوْصِيَاءُ مِنْ بَعْدِكَ عُرَفَاءُ، لَا يَعْرِفُ اللَّهُ إِلَّا بِسَبِيلِ مَعْرِفَتِكُمْ، وَعُرَفَاءُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَكُمْ وَعَرَفْتُمُوهُ، وَعُرَفَاءُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَكُمْ وَأَنْكَرْتُمُوهُ» [٣٧].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى أعظم النعمة التي من الله بها على المسلمين:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ»

أجل، إنَّ اللهَ تعالى خَصَّكُمْ بهذه النعمة العظيمة وراكم أهلاً للذود عنه.
ثم أضاف:

«وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اسْمٌ سَلَامَةٌ، وَجَمَاعُ كَرَامَةٍ»

. ووضح ذلك بالقول:

«اصْطَفَى اللهُ تَعَالَى مِنْهُجَهُ، وَبَيَّنَّ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ، وَبَاطِنِ حِكْمٍ»
لعلَّ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥

الضمير في

«منهجه» و «حججه»

يعود إلى الله أو الإسلام والنتيجة واحدة لكليهما، والعبارة

«ظَاهِرِ عِلْمٍ»

إشارة إلى الأدلة العقلية التي تثبت حقانية الإسلام، كما أن العبارة

«بَاطِنِ حِكْمٍ»

إشارة إلى أسرار الأحكام الشرعية المبينة في الأدلة النقلية.

نعم، الإسلام دين السلامة وشرعه الكرامة، ودعوته أينما كان إلى الحب والسلام والوئام والتحذير من البغض والعنف والعداوة حيث يخاطب المؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَمَا فَتَنَّا لَمَّا اتَّبَعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» [٣٨]. أضاف إلى ذلك فإنه مصدر الكرامة الإنسانية وداعية العدل والمساواة والحرية وتنمية الفكر والبيان والورع والتقوى ومكارم الاخلاق. والحق أن المسلمين أفضل سند ودرع للذود عن الإسلام وقد ضحوا بالغالي والنفيس طيلة التاريخ من أجل إسلامهم وسعوا جاهدين لحفظ بيضته وكيانه، ولما كانت هذه العبارات تختزن إشارة واضحة إلى القرآن الكريم، فقد أردفها بيان خصائص هذا الكتاب السماوي بما يربو على عشر صفات فقال:

«لَمَّا تَفَنَّى غَرَائِبُهُ، وَلَمَّا تَنَفَّضَتْ عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعُ [٣٩] النَّعْمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلْمِ، لَاتُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَفَاتِيحِهِ وَلَمَّا تَكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ»

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى ست صفات مهمة للقرآن الكريم كل واحدة منها أروع من الأخرى فذكر بادية الأمر أن غرائب القرآن (صفاته البارزة الفريدة) لا تفنى أبداً ولا يعترها غبار القدم فتتآكل، فهي غضة طرية على الدوام، وأشار في الصفة الثانية إلى التجدد والحيوية التي تبدو عليه كل يوم فقال: إنها لا تنقضي؛ وعليه فالفارق بين «الغرائب»

و

«العجائب» و «الفناء» و «الانقضاء»

أن الأولى إشارة الصفات البارزة التي كان وسيظل يتحلى بها القرآن، والثانية إشارة إلى نقاط مهمية تظهر كل يوم من تقادم الزمان وكثرة القراءة، وهذا ما ورد في الحديث المروي

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦

عن الإمام الصادق عليه السلام حين سئل:

«ما بال القرآن لا يزداد على التشر والدرس إلا غصاصة؟ قال: لأنَّ الله تعالى لم يجعله لزمانٍ دون زمانٍ ولا لناسٍ دون ناسٍ فهو في كلِّ

زَمَانٍ جَدِيدٍ وَعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [٤٠].

ثم شبهه في الصفة الثالثة بالأرض المليئة بالنبات وتفيض بالنعم في فصل الربيع، ونعلم جميعاً ما عليه نبات الربيع من طراوة ولطافة وطعم عذب، كما شبهه في الصفة الرابعة بمصابيح النور التي تخترق دهاليز الظلمة وتضيء بنورها كل شيء، بينما حصر في الصفتين الخامسة والسادسة سبل نيل الخيرات بالقرآن، إشارة إلى خطأ من يبحث عن مفاتيح الخير خارج القرآن ويستعين بغيره في ضياء عتمته القلب وظلمة المجتمع.

ثم اختتم كلامه بالإشارة إلى أربع صفات آخر في أن القرآن قد أوضح الحلال والحرام والمباح، فهو الشفاء لمن استشفاه والكفاية لمن استكفاه

«قَدْ أَحْمَى حِمَاةَ [٤١]، وَأَرْعَى [٤٢] مَرْعَاةً. فِيهِ شِفَاءُ الْمُسْتَشْفَى، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفَى»

. فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الأوصاف إلى النظام القانوني القرآني حيث بين الأصول الكلية للحلال والحرام بصورة تامة وعرض سبل مواجهة الأمراض الأخلاقية والمفاسد الاجتماعية على عمق هذه العبارة مالم يتعرف على القرآن. أجل إن علاج الأمراض الخلقية والانحرافات الفكرية والمشاكل الاجتماعية كافة، في القرآن. ومن كان القرآن معه وكان مع القرآن فقد ظفر بكل شيء، كما قال الإمام عليه السلام في خطبة أخرى

«وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنَى» [٤٣]

. ومن هنا بلغ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧

ذلك المجتمع شبه الوحشى في الجاهلية تلك المنزل المرموق في ظل تعاليم القرآن بعد أن كان يعيش منتهى الفقر الأخلاقي والإقتصادى والاجتماعى، وما يجدر ذكره أن بعض شراح نهج البلاغة يرى أن الصفات المذكورة تعود إلى الإسلام لا القرآن والضمائر كذلك، ولكن بالنظر إلى ورود مثل هذه العبارات في سائر خطب نهج البلاغة بشأن القرآن، يتضح أن المراد بتلك الأوصاف هو القرآن وإن لم ترد مفردة القرآن في نصوص العبارة، ناهيك عن عدم اختلاف النتيجة مهما كان المراد [٤٤].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩

الخطبة ١٥٣

إشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

نظرة إلى الخطبة [٤٥]

هذه الخطبة قطوف مختارة من خطبة طويلة للإمام عليه السلام. يتحدث في القسم الأول عن صفات الأفراد الفاسدين والمفسدين ليتعرف عليهم الناس وليبتعدوا عنهم.

وأشار في القسم الثانى إلى مميزات الغافلين الذين لا يفقهون إلآحين ضياع الفرصة وفوات الأوان فيبتلون بشر أعمالهم. ويعرض في القسم الثالث بالوعظ والنصح لهم لينهضوا من سباتهم ويصلحوا أمر آخرتهم. وتطرق في الفصل الرابع إلى بعض الأمور الخطيرة التى تحبط الأعمال وتحول دون النجاء. ويختتم الخطبة في القسم الخامس بالمقارنة بين صفات البهائم والسباع والناس من أصحاب الدنيا

والمؤمنين.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١

القسم الأول

«وَهُوَ فِي مُهَلَّةٍ مِنَ اللَّهِ يَهْوَى مَعَ الْغَافِلِينَ، وَيَعْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ».

الشرح والتفسير

يعتقد بعض شراح نهج البلاغة - كما ذكرنا سابقاً - أن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة أثناء حركته إلى البصرة للقضاء على فتنة طلحة والزبير وعائشة وضمّنها جانباً من الوعظ والنصح والإرشاد. تحدّث عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة عن الإنسان الضال - والذي يتجلى نموذجاً في مشعل فتيل معركة الجمل - على ضوء أربع صفات تميّزه، فقد منحه الله الفرصة في عمره لياشر الأعمال الصالحة من أجل الظفر بالسعادة الأبدية، ولكنه لا ينفك عن ملازمة الغافلين والمذنبين الذين يسلكون به مهاوى الردى، دون أن يسير على الحق ويقتدى بزعيم حق

«وَهُوَ فِي مُهَلَّةٍ مِنَ اللَّهِ يَهْوَى ٤٦] مَعَ الْغَافِلِينَ، وَيَعْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ»

. نعم أن أسباب بؤسه وشقائه تكمن في أربعة أمور؛ ملازمة الغافلين والآثمين، وعدم السير على طريق الحق إلى جانب عدم الإقتداء بالإمام الصالح.

ولعلّ العبارة

«إِمَامٍ قَائِدٍ»

إشارة إلى الإمام المعصوم عليه السلام أو كلّ عالم صالح من أتباع المعصومين عليهم السلام وعلى كلّ حال فإنّ الإمام عليه السلام

يفصح عن دور القائد الصالح

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢

في هداية الناس ونجاتهم، كما يوضح دور ملازمة أهل الغفلة والمعصية في بؤس الإنسان وسقوطه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣

القسم الثاني

منها: «حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَحْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ غَفْلَتِهِمْ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِرًا، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلًا، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أُذْرِكُوا مِنْ طَلَبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ.

إِنِّي أُحِذِّرُكُمْ، وَنَفْسِي، هَذِهِ الْمُنْزِلَةُ. فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعَبْرِ، ثُمَّ سَلَكَ حِدَادًا وَاضِحًا يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي، وَالضَّلَالَ فِي الْمَعَاوِي وَلَمَّا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغَوَاةَ بِنَعْسَفٍ فِي حَقِّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ».

الشرح والتفسير: الموعظة البالغة

لما أشار الإمام عليه السلام إلى غفلة أصحاب الدنيا أوردتها بعدم ديمومتها و طرحها قريباً حين يصفعهم الموت ويخرجهم من غفلتهم، وعليه فمدى هذه الغفلة

«حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَحْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ [٤٧] غَفَلَتِهِمْ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِرًا، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبَلًا»

أجل، عمر الدنيا قصير فإن أشرف الإنسان على الموت وأزيلت عن عينه البرزخية حجب الغفلة ورأى أعماله آنذاك عندئذ يتغير كل شيء ويواجه حقيقة الموقف. ومن هنا يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة واضحة

«فَلَمْ يَتَنَفَعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلَبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ [٤٨]»

. قد ظن هؤلاء بخلودهم في الدنيا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤

بما جنوا من تلك الأموال الطائلة والقصور الفارهة والبساتين الواسعة والخدم والحشم لكنهم ودعوا في الحال وأصبحوا تحت التراب.

كأن العبارة الأولى تشير إلى أولئك الأفراد الذين لم يتنفعوا قط بإمكاناتهم (مثلاً شيدوا قصرًا فلم يتنعموا به حتى أتاهم الأجل). والعبارة الثانية إشارة إلى أولئك الذين تمتعوا قليلاً بإمكاناتهم ثم حال بينهم وبينها الموت من قبيل ذلك الذي بنى قصرًا، وما أن حل فيه حتى أخرجه الموت منه.

ثم استطرد الإمام عليه السلام ليسدى بعض النصائح والمواعظ التي تقود إلى السعادة والفلاح بعد أن حذر من الحياة العصبية التي يعيشها أهل الغفلة

«إِنِّي أَحْذَرُكُمْ، وَنَفْسِي، هَذِهِ الْمُنْزِلَةَ»

. ثم بين أثر ذلك، سبيل النجاة من هذه الغفلة القاتلة من خلال خمسة تعاليم فقال:

«فَلْيَتَّقِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مِنْ سَمِّ مَجِّ فَتَفَكَّرْ، وَنَظَرْ فَأَبْصِرْ، وَانْتَفَعْ بِالْعَبْرِ، ثُمَّ سَلِّكَ حِدَادًا [٤٩] وَاضِحًا يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي [٥٠]،

وَالضَّلَالَ فِي الْمَغَاوِي [٥١]»

فالإمام عليه السلام يخاطب نفسه والآخرين بادية الأمر لياخذ النصيح موضعه من قلوب الآخرين، وذلك لأن المستمع إنما يتفاعل مع الواعظ الذي يمزج القول بالعمل ولا يترفع عن الآخرين. ثم يحذر الجميع من أن الله أسبغ عليهم ما لا يحصى من النعم وأودعهم مختلف الاستعدادات والقابليات بغية استثمارها والانتفاع بها من خلال تفعيل السمع بالأذن والنظر بالعين والانتفاع على تجارب الآخرين وسلوك السبيل القويم الذي يجنبهم الانحراف والضلال.

وأخيراً يحذر الإمام عليه السلام من تمكين الغواية من النفس:

«وَلَا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغَوَاةَ [٥٢] بِتَعَسُّفِ [٥٣] فِي حَقِّ، أَوْ تَحْرِيفِ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ»

. إشارة إلى أن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥

البعض من الأفراد الضعاف النفوس والذين يميلون إلى الدعة والراحة حين يواجهون الغواية من الأفراد يسعون إلى التغاضي عن بعض الحقائق أو المداهنة في بيان الحق أو الخشية من الصدق والصراحة بهدف الحد من معارضةهم وهذا ما يؤدي إلى تسلط أولئك الغواة وتفاقم جرأتهم بما يجعل من المتعذر الوقوف بوجههم. وعليه لابد من اعتماد الصراحة المفعمة بالأدب والشفقة في بيان الحقائق والإبتعاد عن الخشية، فالغواة عادة ما يتراجعون وينكسرون إزاء المواقف الشجاعة، وقد دلت بعض النماذج التي حفل بها التاريخ على أن الأفراد الذين يحرفون الحقائق ويكتمون الواقع إنما أسهموا في مضاعفة المشاكل التي جرّت عليهم وعلى مجتمعاتهم الوليات. فقصه قرية الحوآب المعروفة في معركة الجمل معروفة. حيث سمعت عائشة من النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لها:

«فِيكَرَّ مَنْ تَبَّحَهَا كِلَابُ الْحَوَابِ»

. وحين انطلق أصحاب الجمل إلى البصرة وبلغوا الحوَاب سمعت عائشة ذلك النبأ، فسألت عن اسم الموضع فقيل لها: الحوَاب. فعزمت على العودة إلى المدينة، فاعترضها محمد بن طلحة وقال لها: هذه ليست الحوَاب، ثم أتى ببعض الأفراد وشهدوا لها زوراً، فواصلت مسيرها.

وما أكثر القصص من هذا القبيل في الماضي والحاضر [٥٤].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٧

القسم الثالث

«فَأَفَقُّ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مَنْ غَفَلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مَنْ عَجَلَتِكَ، وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مِمَّا لَأَبَدٌ مِنْهُ وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ؛ وَخَالَفَ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ، وَدَعَا وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ؛ وَضَعَّ فَخْرَكَ، وَاخْطَطَّ كِبْرَكَ، وَادُّكِرْ قَبْرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمْرَكَ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدُمُ عَلَيْهِ غَدًا، فَاْمْهَدْ لِقَدَمِكَ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ. فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ! «وَلَا يُبْتَنِّكَ مِثْلُ خَيْرٍ».

الشرح والتفسير: الحذر الحذر

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة بعد تلك التحذيرات السابقة في إسداء الوعظ والنصح بعبارة قصيرة عميقة المعنى فخاطب مستمعه قائلاً:

«فَأَفَقُّ [٥٥]

أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مَنْ غَفَلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مَنْ عَجَلَتِكَ»

. إشارة إلى أن زخرف الدنيا والمال والمقام والشهرة تسكر الإنسان وتقذفه في سبات الغفلة وتضطّره للعجلة دون التروي والترث، وتورث هذه الأمور مختلف المعاصي والذنوب والأخطاء، وهل يرتجى من السكران سوى الخطأ والزلل؟ ثم قال عليه السلام:

«وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ [٥٦] - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٨

وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مِمَّا لَأَبَدٌ مِنْهُ وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ؛ وَخَالَفَ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ وَدَعَا وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ»

فقد دعى بادية الأمر إلى الاتباع التام للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فما يقوله عليه السلام هو الوحي السماوي الذي يهدف إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. ثم يوصي عليه السلام بمخالفة من يخالف ذلك مهما كثر عدد المخالفين واتباع الحق دون أدنى شك وريبة أو إكترات للآخرين.

وواصل عليه السلام نصحه قائلاً:

«وَضَعَّ فَخْرَكَ، وَاخْطَطَّ [٥٧] كِبْرَكَ، وَادُّكِرْ قَبْرَكَ»

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الوصايا الثلاث إلى أساس الشر والفساد الذي يتمثل في الفخر والكبر التي لن تجعل الإنسان يذوق طعم السعادة ما لم يطرحتها جانباً، وسيكون مصيره مصير الشيطان الذي قاده نحو فخره وكبره. وتطرق عليه السلام بعد ذلك إلى القبر الذي يسوق نسيانه الإنسان إلى طول الأمل والانغماس في الدنيا، وهو الموضع الذي يتساوى فيه الجميع وهذا ما ورد في الكلمة القصيرة رقم ٣٩٨ من قصار الكلمات وهذا يدل على أن السيد الرضى كان يقتطف أحياناً الكلمات القصار من بعض الخطب الطويلة.

ثم أورد عليه السلام ثلاث نصائح أخرى منسجمة مع بعضها، فقال:
«وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ عَدَاً، فَاْمَهْدُ [٥٨] لِقَدَمِكَ، وَقَدَّمَ
لِيَوْمِكَ».

كيف ينتظر الإنسان من الله أن يعفو عن سيئاته ويجازيه بالاحسان وهو يظلم الآخرين ويقابل الاحسان بالإساءة؟ أم كيف ينتظر الورد
من يزرع الشوك؟! الواقع

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٩

هو أن هذه النصائح مستقاة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فالله: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» وفي الحديث:
«الدُّنْيَا مَرَرَةٌ الْآخِرَةُ»

والآية الشريفة: «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ» [٥٩] والآية الكريمة: «وَمَا تَقْدُمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ» [٦٠]. ثم يعود الإمام
عليه السلام في ختام الخطبة الى ذات المطلب الذي ابتدأ به ليوقظ الغافلين ثانياً من سباتهم ويسوقهم إلى الجد والاجتهاد فيقول:

«فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ!

«وَلَا يُبْنِيكَ مِثْلُ خَيْرٍ»». العبارة الأخيرة المقتبسة من الآية ١٤ من سورة فاطر إشارة إلى أن أى شخص لا يضاهاى القائل فى بيانه لحقيقته
الموت والحياة وحاضر الإنسان وغده ومصيره فى المستقبل وعاقبته فى الآخرة.

وقد قال أحد شراح نهج البلاغة: إن من يتأمل خطب أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله وقصار كلماته يكتشف بوضوح أن أحداً لا
يسعه التحدث بهذه الدقة والرقعة عن الدنيا وماهيتها وبنهايتها ونهايتها.

قال الشاعر بشأن النصائح الأخيرة فى الخطبة:

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بِمَلِّ فِيهَا حَذَارٍ حَذَارٍ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي

فَلَا يَغْرَزُكُمْ حُسْنُ ائْتِسَامِي فَقُولِي مُضْحِكٌ وَالْفِعْلُ مُبِكٌ [٦١]

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٥١

القسم الرابع

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللَّهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ، إِنَّهُ لَا يَنْفَعُ عَبْدًا - وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ -
أَنْ يُخْرَجَ مِنَ الدُّنْيَا، لِأَقْبَابِ رَبِّهِ بِخَصْمِلِهِ مِنْ هَذِهِ الْخَصَائِلِ لَمْ يَبْ مِثْلُهَا: أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفَى غَيْظَهُ
بِهَلَاكِ نَفْسٍ، أَوْ يَعْرِى بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بَدْعِهِ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشَى فِيهِمْ
بِلِسَانَيْنِ. اعْقِلْ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شَبِّهِه.

إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بَطُونُهَا؛ وَإِنَّ السِّيَاحَ هَمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا؛ وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ
مُسْتَكِينُونَ.

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ».

الشرح والتفسير: الموبقات الخمس

حذر الإمام عليه السلام مخاطبيه فى المقطع السابق من الخطبة من سبات الغفلة وحثهم على الجد والاجتهاد، ليشير هنا إلى خمسة من
الذنوب الكبيرة الخطيرة التى لا يقبل عمل العبد دون التوبة منها، فقال:

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللَّهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ، إِنَّهُ لَا يَنْفَعُ عَبْدًا - وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ -

أَنْ يُخْرِجَ مِنَ الدُّنْيَا، لَأَقِيًّا رَبُّهُ بِخِصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتَّبِعْ مِنْهَا»

العبارة .

«وَأَخْلَصَ فِعْلُهُ»

- مع العلم، يتعذر الإخلاص في العمل لمن اتصف بهذه الخصال

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٥٢

السيئة- تبدو إشارة إلى الإخلاص المرحلي والآني حين ينسى في لحظة كل هذه المساوىء من قبيل التصديق في سبيل الله ومد العون للفقير، إلّا أنّ هذا الإخلاص لا يدوم حتى يحل محله الشرك والنفاق والبدعة.

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح هذه الخصال المتمثلة بالشرك وقتل النفس والتهمة والبدعة والنفاق حيث بين كل واحدة منها بعبارة قصيرة فقال:

«أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِي غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ، أَوْ يُعَرِّ [٦٢] بِأَمْرِ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَشِي سُنْجِحَ حَاجِيَهُ إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بَدْعِهِ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِي فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اغْفَلْ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمَثَلَ دَلِيلٌ عَلَى شَبْهِهِ»

. وعلى هذا الضوء فإن أول كبيرة هي الشرك. في عبودية الله؛ وهي الكبيرة التي مالم يتب عنها العبد لن ينال عفو الله ومغفرته «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» [٦٣].

والكبيرة الأخرى اطفاء الإنسان لغضبه بسفك دم الآخرين، حيث ورد في القرآن: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا» [٦٤]. ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن العبارة تشمل الانتحار وقتل النفس أيضاً، إلّا أن المعنى الأول هو المراد من ظاهر الآية. على كل حال فإن البعض اعتبر الآية دليلاً على أن قتل النفس البريئة يؤدي بالقاتل إلى الموت على الكفر، لأن الخلود في جهنم يختص بالكافرين، أمّا بالنسبة للخصلة الثالثة، اتهام الأفراد بما لم يقارفوا من أعمال هو في الواقع قتل لشخصية الآخرين وإراقة ماء وجوههم. الأمر الذي تعدّه بعض الروايات بمثابة إراقة الدم.

وأما الخصلة الرابعة أي البدعة في الدين بهدف نيل المال والمقام فيكفي في ذمها ما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَهْلُ الْبِدْعِ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، أَهْلُ

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٥٣

الْبِدْعِ كِلَابُ أَهْلِ النَّارِ» [٦٥].

وأخيراً خصلة النفاق التي قال بشأنها القرآن الكريم: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ» [٦٦] وقد صرحت ما بعدها من آيات أن الإحباط هو نصيب عمل هؤلاء المنافقين الذين لن يهديهم الله.

حقاً أن المجتمع البشري إذا طهر من دنس هذه الرذائل الخمس لعاش الأمن والسلام والوئام ولحفظت فيه الأموال والأنفس والأعراض، ولتكاتف الجميع على الحبّ والمودة وسارعوا على مدارج السمو والكمال والإبتعاد عن البدعة والشرك، ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بالعبارة

«أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ»

معنى معين، وبالعبارة

«أَوْ يَمْشِي فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ»

معنى آخر؛ فالأول يشير إلى نفاقه بالنسبة لنفسه، والآخر إلى النفاق بالنسبة للآخرين. ومن هنا جعلوا الصفات المذكورة ستاً، لكن يبدو أن كليهما من آثار النفاق، أحدهما باللسان والآخر بالوجه، وعليه فالأفضل جمعهما في عنوان واحد. القضية الجديرة بالاهتمام ما

أورده بعض شراح نهج البلاغة من أن هذه الخطبة وإن وردت أثناء المسير إلى البصرة لمواجهة أصحاب الجمل إلى أنها تشير إلى أن الصفات المذكورة موجودة في أصحاب الجمل؛ ذلك لأنهم حكموا أهواءهم بدلاً من الله من جانب، ومن جانب آخر فإنهم يسعون لإطفاء غضبهم على علي عليه السلام بسفك دماء الأبرياء، كما نسبوا لعلي عليه السلام تهمة قتل عثمان الذي قتل على أيديهم بتحريض الآخرين، كما أنكروا إمامة علي عليه السلام ونسبته من رسول الله صلى الله عليه وآله فابتدعوا في الدين ما ليس منه، وأخيراً منعوا الناس من التعرض لقتل عثمان من جهه، ومن جهه أخرى كانوا يتآمرون على قتله خفية. والعبارة «اغقل ذلك»

إشارة إلى هذا المعنى [٦٧]. قال الإمام عليه السلام إثر طرحه

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٥٤

لهذه الأمور

«اغقل ذلك»

، وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن هذه العبارة إشارة إلى مطلب سيرد لاحقاً، إلّا أن هذا خلاف التعبير (ذلك). وأخيراً أشار الإمام عليه السلام في ختام الخطبة إلى بعض النقاط المهمة التي لا تبدو بمعزل عن قضية معركة الجمل فقال: «إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بَطُونُهَا؛ وَإِنَّ السَّيَّاحَ هَمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا؛ وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْتَكِيُونَ [٦٨]. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ».

أجل فالمؤمنون الصالحون العاملون خائفون من الله وخائفون من خلق الله، إمّا خوفهم من الله بدليل تكاليفهم ووظائفهم تجاهه، وإمّا خوفهم من خلق الله حذراً من هضم حقوق فرد من الأفراد، خلافاً للسباع الذين لا يفكرون سوى في بطونهم والعدوان على الآخرين. فالواقع هو أن الإمام عليه السلام يوجز المظاهر الدنيوية في ثلاثة أشياء؛ الاهتمام بالطن والنزعة السبعية والاهتمام بالزينة، فأسند أحدهما إلى البهائم والأخرى إلى السباع إشارة إلى قادة معركة الجمل الذين ساقتهم هذه العناصر إلى تأجيج نار حرب الجمل فسفكوا تلك الدماء ولم يظفروا بأهدافهم (لابد من الالتفات إلى أن الإمام عليه السلام على ضوء بعض الروايات أورد هذه الخطبة حين سار إلى قتال أصحاب الجمل.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٥٥

الخطبة ١٥٤

إشارة

يَذْكُرُ فِيهَا فَضَائِلَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ [٦٩]

نظرة إلى الخطبة

تدور مطالب هذه الخطبة بصورة رئيسية حول ثلاثة محاور:

١. فضائل أهل البيت عليهم السلام وعلومهم ومعارفهم الخارقة ووصية الناس باتبعاهم.
٢. بحث بشأن ارتباط الظاهر بالباطن وأن طهارة الباطن عادة ما تؤدي إلى طهارة الظاهر لأعمال الإنسان، ومن كان ملوثاً باطنياً غالباً ما يكون ملوثاً ظاهرياً.

٣. لا بد من الرجوع إلى الجذور في ممارسة إصلاح كل شيء والانطلاق من الأساس والبنية التحتية في الإصلاحات.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٥٧

القسم الأول

«وَنَاطِرُ قَلْبِ اللَّيْبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى فَاشْتَجَبُوا لِلدَّاعِي، وَاتَّبَعُوا الرَّاعِي. قَدْ خَاضُوا بِحَارِ الْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ. وَأَرَزَّ الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ. نَحْنُ الشُّعَارُ وَالْأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ؛ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقًا».

الشرح والتفسير: أبواب علم النبي

إنّ الأبحاث المتنوعة لهذه الخطبة تفيد جري المرحوم السيد الرضى على عادته في اقتطاف هذه المقاطع من خطبة طويلة، ولذلك يبدو هنالك نوع من التعقيد في ترابط مقاطع هذه الخطبة. يورد الإمام عليه السلام مقدمة لبيان فضائل أهل البيت عليهم السلام فيتحدث عن صفات المهتدين والضالين فيقول:

«وَنَاطِرُ [٧٠] قَلْبِ اللَّيْبِ [٧١] بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ [٧٢]»

إشارة إلى أنّ الإنسان العاقل لا يقنع بظواهر الأمور، بل يسعى إلى الوقوف على ملابساتها وتفصيلها وما يمكن أن تؤول إليه عاقبتها فلا يسلك مساره جزافاً ويواجه بعض المطبات والمخاطر.

ثم قال عليه السلام:

«دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى فَاشْتَجَبُوا لِلدَّاعِي، وَاتَّبَعُوا الرَّاعِي»

من

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٥٨

الواضح أنّ المراد بالداعى نبي الإسلام صلى الله عليه وآله الذى أرسى دعائم الدين، والمقصود بالراعى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذى تزعم الأمة الإسلامية بأمر الله ورسوله صلى الله عليه وآله.

فالكلام يشير إلى هذا الأمر: أنكم إن نظرتهم بحكمة لمعرفة رسول الله صلى الله عليه وآله وخليفته بالحق، وبموجب هذه المعرفة سوف لن يكون لديكم أدنى شك وريبة في اجابته دعوته واقتفاء آثار خليفته.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الفئة الأخرى التى تقابل الفئة المذكورة وهى الفئة المعادية للحق التى خاضت فى بحار الفتن وابتدعت فى الدين حتى انتهى الأمر إلى اقضاء المؤمنين فخدمت أصواتهم ولم تصدح سوى اصوات الضالين المكذبين المنحرفين

«قَدْ خَاضُوا بِحَارِ الْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ. وَأَرَزَّ [٧٣] الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ».

فالعبرة إشارة إلى تلك الفئة المنحرفة التى غصبت الخلافة عقب رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى انتهت إلى بنى أمية بزعامه معاوية ويزيد وآل مروان. أجل لم يكن هم تلك الفئة سوى إثارة الفتن من قبيل فتنة الجمل وصفين والنهروان واستغلالها

لصالحها إلى جانب ايجاد البدع فى دين الله وهجران سنن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، الأمر الذى اتضح بجلاء على عهد خليفته

بنى أمية الثالث، بعد ذلك خاض الإمام عليه السلام فى صفات وفضائل أهل البيت عليهم السلام فقال:

«نَحْنُ الشُّعَارُ وَالْأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ؛ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقًا»

. إشارة إلى أننا أقرب الجميع للنبي صلى الله عليه وآله (لابد من الالتفات هنا إلى أن الشعاع يعني ما يلي البدن من الثياب) وقد ورثنا علم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكل من أراد نيل تعاليمه صلى الله عليه وآله والاقتران بهديه عليه أن يمر من خلالنا.

والواقع هو أن هذه العبارات قد اقتبست من روايات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن أهل

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٥٩

البيت عليهم السلام عموماً وعلى عليه السلام على وجه الخصوص. ومن ذلك حديث الثقلين الذي ألزم المسلمين بالتمسك بالقرآن وأهل البيت إلى يوم القيامة وحديث:

«أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بِأُيُهَا فَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَأْتِ الْبَابَ» [٧٤]

. جدير بالذكر أن شارح نهج البلاغة ابن أبي الحديد حين بلغ هذا الموضوع من الخطبة صرح بأن ما أشار إليه على عليه السلام في هذه الخطبة لا يتضمن سوى عشر الفضائل التي صرحت بها العديد من الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله بشأن على عليه السلام. ثم أضاف: لا أقصد الروايات التي استدلت بها الإمامية على إمامة على عليه السلام، بل مرادى الروايات التي رواها كبار محدثي العامة في مصادرهم عن فضائل على عليه السلام وأذكر هنا بعضها، ثم يذكر أربعاً وعشرين رواية معتبرة في فضائل على عليه السلام سنشير في البحث القادم إلى جانب منها إن شاء الله.

تأملان

١. الفارق بين العجب والتعريف بالذات

يتساءل بعض المغرضين هنا: لماذا خاض الإمام عليه السلام في مدح ذاته والتعريف بها؟ أليس هذا الأمر دون شأن الإمام عليه السلام؟ وقد روى ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة أن البعض أشار على عمر بتأمير على عليه السلام على الجند. فقال: إن علياً عليه السلام يرى نفسه أرفع شأنًا من ذلك.

ولكن يبدو أن مثل هذه الإشكالات إنما يفرزها الجهل والحسد الذي لا يصمد أمام منطق العقل، وذلك أن أغلب الناس قد لا يقفون على عظمة شخص وعمق مكانته فلا يكادون يفتحون على أفكاره ومشاريعه وخططه التربوية والإصلاحية، ونقول هنا: ألا ينبغي لهذا الشخص أن يعرف الآخرين بذاته وإمكاناته؟ ولعل هذا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦٠

الأمر أشبه بذلك الطبيب الماهر والمتخصص بمختلف الأمراض والذي نصب لوحه كبيرة على باب عيادته ليبيّن عليها شهاداته وخبرته الطبية والعلمية حتى يتعرف عليها الآخرون فيقبلون على عيادته، فهل هذا العمل من العجب ومدح الذات أم التعريف بالنفس في مقابل الجهال؟

ناهيك عما سبق، فإن إحدى مراحل شكر النعم التحدث بها. قال الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم بهذا الشأن: «وَأَمَّا نِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» [٧٥].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة أنه قال:

«حدث بما أعطاك الله وفضلك ورزقك وأحسن إليك وهداك» [٧٦]

. ومن هنا ورد في بعض الروايات أن علياً عليه السلام حين سئل عن بعض فضائله، أجاب بأن الثناء على النفس مذموم؛ لكنني أجيئك عن هذه الفضائل على أساس ما ورد في القرآن الكريم: «وَأَمَّا نِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» ثم بين عدداً من فضائله ومناقبه.

٢. الفضل ما شهدت به الأعداء

كما أشرنا سابقاً فإن ابن أبي الحديد حين بلغ في شرحه لنهج البلاغة هذه الخطبة، نقل أكثر من أربع وعشرين رواية روتها مصادر العامة في فضائل علي عليه السلام وصرح بأن هذه الروايات غير تلك الأحاديث التي تمسكت بها الشيعة الإمامية في مقام اثبات ولاية وإمامة علي عليه السلام. ومن الضروري بمكان أن نشير هنا إلى بعض تلك الروايات العظيمة المضمون:

١. قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«يا علي إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب إليه منها هي زينة الأبرار عند الله تعالى الزهد في الدنيا جعلك لا تزوء من الدنيا شيئاً، ولا تزوء الدنيا منك شيئاً وهب لك حب المساكين فجعلك ترضى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦١

بهم أتباعاً ويروضون بك إماماً» [٧٧].

٢. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إن الله عهد إلي في علي عهداً، فقلت: يارب بيته لي.

قال: إسمع أن علياً راية الهدى وإمام أوليائي ونور من أطاعني وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين من أحبه فقد أحبني ومن أطاعه فقد أطاعني فبشره بذلك» [٧٨].

٣. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من سيره أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنه عدن التي عرضها ربي فليوال علياً من بعدى وليوال ولته وليقتد بالأئمة من بعدى فإنهم عترتي خلقتوا من طينتي ورزقوا فهماً وعلماً فويل للمكذبين من أمتي الفاطعيين فيهم صلتى لأنا لهم الله شفاعتى» [٧٩].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦٣

القسم الثاني

منها: «فيهم كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمن. إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا. فليصدق رائد أهله، وليحضر عقله، وليكن من أبناء الآخرة، فإنه منها قدم، وإليها ينقلب.

فالنظر بالقلب، العامل بالبصير، يكون مبتدأ عمله أن يعلم: أعمله عليه أم له؟! فإن كان له مضي فيه، وإن كان عليه وقف عنه. فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق. فلا يزيدُه بعدُه عن الطريق الواضح إلا بعيداً من حاجته. والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح. فليُنظر ناظر:

أسائر هو أم راجع؟!».

الشرح والتفسير: خصائص دعاه الحق

تعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة بالإشارة إلى غيظ من فيض فضائل أهل البيت عليهم السلام بهدف إحباط الدعايات المغرضة لأجهزة بني أمية ضد أهل البيت عليهم السلام والعناصر التي تأمرت عليهم من بعض العملاء الذين تجلببوا بثياب رواة الحديث، فقال:

«فيهم كرائم [٨٠] القرآن، وهم كنوز الرحمن. إن نطقوا صدقوا،

وإن صمتوا لم يسبقوا»

. العبارة

«فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ»

يمكن أن تكون إشارة إلى المعنى المذكور أو تعنى عندهم آيات القرآن الكريم، والعبارة «كُنُوزٌ»

إشارة إلى أن عندهم أحكام الله وتعاليم السماء؛ لأن الأشياء النفيسة عادة ما تحفظ في الكنز. نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦٤

والعبارة

«إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا»

تتضمن إحدى صفات أهل البيت عليهم السلام وهي الصدق في الكلام التي تنسجم والآية الشريفة: «كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» [٨١]. والعبارة

«وَإِنْ صَمْتُوا لَمْ

نفحات الولاية؛ ج ٦؛ ص ٦٤

يُسَبِّحُوا»

إشارة واضحة إلى أن صمتهم عليهم السلام لا يعنى عجزهم عن الإجابة قط، بل صمتهم على ضوء الحكمة والمصلحة، وعليه فلا يسع أحد أن يسببهم. أو معنى ذلك أن هيبتهم تحول دون قدرة الآخرين على الكلام حين صمتهم. على كل حال فإن هذه الصفات الأربع في أهل البيت عليهم السلام تميز مقامهم عن الآخرين وتكشف عن علو منزلتهم ومكانتهم العلمية، ثم قال تأكيداً لهذا المطلب في أن الهدف ليس المدح والثناء على الذات:

«فَلْيَصُدِّقْ رَائِدُ [٨٢] أَهْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ،

فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِيمٌ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ».

تعنى كلمة

«رَائِدٌ»

في الأصل، الشخص الذي يتقدم القافلة و يبحث عن الماء والمرعى. فلو كان مثل هذا الشخص كاذباً لعرض أهل القافلة أنفسهم إلى الخطر.

فاختيار هذه الكلمة يشير إلى لطيفه مؤداها أنى إن شرحت لكم خصائص أهل البيت عليهم السلام فذلك لأنى بمنزلة ذلك الشخص الذى يوفر لاتباعه ضروريات وسائل العيش. ولعل العبارة

«فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِيمٌ»

تشير مفهوم الآية الشريفة: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ». أو بعبارة أخرى أن الآخرة تعنى هنا ما وراء الطبيعة. نعم ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بالعبارة أننا خلقنا للآخرة، كما ورد ذلك فى قصار كلمات الإمام:

«أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالْدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ» [٨٣].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالنظر إلى ما ورد قبيل ذلك بشأن أهل البيت عليهم السلام

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦٥

ليحذر الآخرين من ضرورة مراقبة أعمالهم وأن يلحقوا بتلك الكنوز أى الأئمة العارفين بالقرآن ويحذوا حذوهم ويسيروا على هديهم وأن يفكروا فى بداية كل عمل بعاقبته ويعزمون عليه:

«فَالنَّاطِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصْرِ، يَكُونُ مُبْتَدَأَ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعْمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ؟! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ»
 . والواقع هو أن الإمام عليه السلام يرى توقف النجاح على ثلاثة أمور تتفرع جميعها من العلم والمعرفة؛ التفكير في أصل العمل، والعمل على أساس البصيرة ودراسة وتأمل نتيجة ذلك العمل نافعة له أم مضرة؟

ثم خاض في بيان دليل ذلك وقد استعان بتشبيه رائع ليوضح الفارق بين العالم والجاهل فقال:
 «فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ. فَلَا يَزِيدُهُ بَعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إِلَّا بَعْدًا مِنْ حَاجَتِهِ. وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ».

يا له من تشبيه رائع! فالعالم والجاهل كلاهما يسعى، إلا أن العالم حيث يسير على الطريق الصحيح فإنه يقترب من هدفه كل آن، أما الجاهل حيث يسير على غير هدى وعلى غير الطريق فإنه يبتعد عن هدفه كل آن؛ بعبارة أخرى فإن سعيه لن يؤدي إلا إلى النتائج المعكوسة.

روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله تعبير رائع بهذا الشأن حيث قال:

«مَنْ عَمِلَ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ» [٨٤].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ لِأَنَّهُ لَيَزِيدُهُ سُرْعَةَ السَّيْرِ إِلَّا بَعْدًا» [٨٥].

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَلْيَنْظُرْ نَاطِرًا: أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ؟!»

. فالعبارة تشير إلى أن الجهال ليسوا فقط لا يبلغون الهدف بسعيهم وجهدهم، بل أحياناً يخطون بذلك الجهد إلى ما يخالفه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦٧

القسم الثالث

«وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِنًا عَلَى مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ، وَمَا خَبِثَ ظَاهِرُهُ خَبِثَ بَاطِنُهُ. وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ».

وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتًا. وَكُلُّ نَبَاتٍ لَأَغْنِي بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَمَا طَابَ سَيْقِيئُهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَّتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبِثَ سَيْقِيئُهُ، خَبِثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ».

الشرح والتفسير: معرفة المحسن والمسيء

كشف الإمام عليه السلام هنا - مواصلة لما أورده سابقاً - سبيل معرفة المحسن من المسيء فقال:

«وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِنًا عَلَى مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ وَمَا خَبِثَ ظَاهِرُهُ خَبِثَ بَاطِنُهُ»

. فهذه قاعدة كلية من شأنها تمهيد السبيل أمام الإنسان لمعرفة الأفراد والمجتمعات البشرية ومختلف التنظيمات الاجتماعية والسياسية والعقائدية (وإن كانت لها على غرار كل قاعدة كلية شواذ) لأن أعمال الإنسان عادة ما تكون انعكاساً لأفكاره وأخلاقه وصفاته الباطنية، وظاهره ما يترشح عن باطنه، على غرار ما ورد في المثل المعروف: الظرف ينضح بما فيه.

وعلى هذا الأساس فإن شككنا في باطن شخص كان لابد لنا من التوقف عند أعماله لننظر من خلالها إلى باطنه. وقد أيد القرآن الكريم هذه الحقيقة في عدة آيات فقال بشأن المنافقين: «قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦٨

أَكْبَرُ» [٨٦]. وقال في موضع آخر: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَيِّمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» [٨٧]. كما قال في آية أخرى «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَآيَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا» [٨٨] كما ورد هذا الأمر في الروايات الإسلامية وكلمات الفقهاء. فقد قال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئًا إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَاتِ لِسَانِهِ وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ» [٨٩]

. وصرح الفقهاء في مبحث العدالة: أن حسن الظاهر والعمل بالتكاليف الشرعية يفيد وجود ملكة العدالة في الباطن. الغريب في عصرنا الراهن أن العلماء توصلوا إلى صنع جهاز من شأنه التعرف على كذب المقابل من صدقه في موضوع ما من خلال نبض قلبه وضغط دمه وما شاكل ذلك. وكما أشرنا سابقاً أن لهذه القاعدة كما لسائر القواعد الكلية شواذ؛ فهناك بعض الأفراد الذين يعيشون حالة من التعقيد بحيث لا يمكن التعرف عليهم من خلال أعمالهم بسهولة، كما يمكن لبعض المرائين والمنافقين أن يخدعوا العقلاء، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه ليقول:

«وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ»

. فافتراق الظاهر عن الباطن والعمل عن العقيدة في بعض الحالات يعزى إلى بعض العوامل التي تحدث وتبعد الشخص عن ذلك الأصل الكلي؛ من قبيل مجالسة الصالحين والطالحين والتواجد في الأوساط الطاهرة والفاصلة إلى جانب التعصب والبغض والحقد والحسد والدعاية المسمومة والفقر المدقع وما شاكل ذلك من الأمور التي تقدر أحياناً بانسجام الظاهر مع الباطن. آثار المرحوم العلامة الخوئي شارح نهج البلاغة مطلباً آخر في شرحه لهذه العبارة، فقد قال - بعد تلك الإشارة إلى تناقض صدر هذا القسم

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦٩

من الخطبة وذيلها- إنه تدبر وفكر لأيام وتوسل بجده أمير المؤمنين عليه السلام ليخلص إلى هذه النتيجة وهي أن الإمام عليه السلام أراد أن يشير بالاستناد إلى حديث النبي صلى الله عليه وآله إلى أن الشخص إن رأى عدم انسجام ظاهره وباطنه عليه أن يسعى لإصلاح نفسه، يعني، إن كان باطنه حسناً وعمله سيئاً يسعى لأن يصلح عمله، وإن كان عمله حسناً وباطنه سيئاً يسعى لإصلاح باطنه [٩٠]. وهذا الكلام وإن كان صحيحاً إلا أن استفادة هذا المعنى من العبارة المذكورة لا يخلو من إشكال، ويبدو التفسير الأول أنسب.

ثم اختتم الخطبة في إطار اتمام عبارته السابقة في مجال انسجام الظاهر والباطن ولزوم تطهير الباطن بهدف تطهير الظاهر بالقول: «وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتًا. وَكُلُّ نَبَاتٍ لَأَغْنِي بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَالْمِيَاءُ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَمَا طَابَ سَيِّقِيهِ، فَطَابَ غَرْسُهُ وَحَلَّتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبَثَ سَيِّقِيهِ، خَبَثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ»

. فقد شبه الإمام عليه السلام الإنسان وأعماله بالنبات وثمره، فكما أن النبات لا غنى به عن الماء لسقيه ونموه، فإن الإنسان لا يستغنى عن التعليم والتربية والإرشاد. فمن عكف على التعليم والتربية والإرشاد الصحيح ظهرت أعماله سالحة، بينما تسي وتخث أعمال ذلك الذي لاحظ له من الإرشاد والتربية. بعبارة أخرى فإن قيمة ثمرة النبات تنشأ في الواقع من ثلاثة عوامل: البذرة الطيبة والأرض الخصبة والماء الوفير. والحق أن بذرة الإنسان على ضوء الفطرة التي أودعها إياه الله، طيبة؛ كما أن عوامل البيئة الوراثية بمثابة الأرض، والتعليم والتربية بمنزلة الماء، فإن طهرت وطابت هذه الأمور، كانت ثمرة وجود الإنسان طيبة وطاهرة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٧١

الخطبة ١٥٥

إشارة

يَذْكُرُ فِيهَا بَدِيعَ خَلْقَةِ الْخُفَّاشِ [٩١]

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هذه الخطبة من خطب نهج البلاغة التوحيدية المهمة وتتألف من قسمين. يتعرض القسم الأول لحمد الله والثناء عليه وبيان عظمته التي حيرت العقول إلى جانب قدرته في الخلق دون الاستناد إلى فكرة مسبقة حيث يخترن كل مخلوق عجائب الاسرار. اما القسم الثاني فقد ركز على الخفاش وعجائب خلقته، فيتعرض الإمام عليه السلام إلى تفاصيل خلقه وكأنه استغرق سنوات في دراسته هذا المخلوق العجيب حتى وقف على اسراره.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٧٣

القسم الأول

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغًا إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ! هُوَ اللَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبِينُ مِمَّا تَرَى الْعَيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُسَبَّهًا، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمْتَلًا. خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمَثِيلٍ، وَلَا مَشُورَةَ مُشِيرٍ، وَلَا مَعُونَةَ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقَهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَأَنْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ».

الشرح والتفسير: درس في معرفة الله

ذكرنا آنفاً أن الإمام عليه السلام استهل هذه الخطبة بحمد الذات الإلهية المطلقة وبيان صفاتها الجمالية والجلالية، فأشار بادىء ذي بدء إلى معرفة كنه ذات الله فقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ [٩٢] الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغًا [٩٣] إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ! [٩٤]».

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا عجزت الاوصاف عن معرفة كنه الذات

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٧٤

الإلهية؟ ذلك لأن جميع الألفاظ الموضوعية لبيان الأوصاف إنما ترتبط بصفات المخلوقين وهي صفات محدودة ومخلوقة. وبعبارة أخرى فإن ذات الله المطلقة واللامتناهية من جميع الجهات متعذرة الإدراك من قبل عقولنا المحدودة ولا يسع ألفاظنا وأفكارنا بيانها والوقوف عليها، وهذا ما أذهل العقول البشرية وحال دون ظفرها بالسبيل إلى معرفة تلك الذات، طبعاً هذا لا يعني أننا نقول باستحالة معرفة البشر بالله، أو بعبارة أخرى أننا لانقول بتعطيل المعرفة، بل المراد أن حظنا من العلم بتلك الذات المطلقة من جميع الجهات هو العلم الإجمالي الذي يسعنا الإشارة إليه من خلال آثاره وليس لدينا من علم تفصيلي بهذا الشأن. ولا تبدو هذه القضية عجيبة، فعظمة الله مما لا نقاش فيها. بل هنالك الكثير من مخلوقات عالم الإمكان التي تؤمن بها وتبدو واضحة لنا كالشمس، غير أننا نهمل كنهها، على سبيل المثال أننا نؤمن بوجود الروح، ووجود الجاذبية والزمان والمكان، لكن ما حقيقة كنه هذه الأمور؟ إن هذه الأمور تعد من الأبحاث التي حظيت باهتمام الفلاسفة والحكماء وعلماء العلوم الطبيعية ولم يتفقوا لحد الآن على نقطة مشتركة، بل أبعد من ذلك إننا لأقرب إلى أنفسنا من كل شيء ولكن ما زلنا نهمل الكثير من أسرار وجودنا، حتى انبرى العالم الغربي «ألكسيس كارل» ليكتب كتابه «الإنسان ذلك المجهول».

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ببيان صفة أخرى من صفات الله - وهي تأكيد لما سبق - فقال

«هُوَ اللَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَيُّنُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونُ مُشَبَّهًا، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونُ مُمَثَّلًا» . نعم، فوجوده أظهر الأشياء وكنهه في غايه الخفاء وما تاره العين قد يكون خطأ الباصرة- الذى ذكر له العلماء عدّة أنواع- ولكن العلم بوجود الله لأخطأ فيه. وإنما نشعر بحضوره فى كل زمان وكل مكان وكل حال، مع ذلك نحن حيارى فى إدراك حقيقة ذاته، وكلما تقدمنا خطوة فى هذه المرحلة رجعنا خطوات إلى الوراء، كما قال الشاعر:

كَلَّمَا قَدَّمَ فِكْرِي فِيكَ شَيْراً فَرَّ مِيلاً

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٧٥

نَاكِصاً يَخْبِطُ فِي عَمِيَاءٍ لَا يَهْدِي سَبِيلاً

كأن هذا الموضوع أشبه بذلك الإنسان الذى يبصر مصدراً شديداً للنور يخطف الأبصار فيقترب منه ببطء فإذا النور يهزه فجأه ويدفع به خائفاً إلى الخلف. حقاً يبدو أننا سنقع لا محال فى الخطأ إن حاولنا تشبيه أى من صفات وكنه الذات المقدسة، ذلك لأننا نشبهه بمخلوقاته فنصاب بنوع من الشرك.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى خلقه سبحانه وتعالى للخلق فقال:

«خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمَثِيلٍ، وَلَا مَشُورَةٍ مُشِيرٍ، وَلَا مَعُونَةٍ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَدْعَنَ [٩٥] لِبَطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَأَنقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ»

جدير ذكره أن كل ابداعات الإنسان إنما تستند إلى برامج مسبقه وخطط معدة بشأن عالم الطبيعة. فأحياناً يستفيد منها بعينها وأخرى يضيف لها بعض أفكاره، إلا أن أيّة فكرة ليست جديدة فى الواقع، على العكس من ذلك فإنّ نظرنّا إلى عالم الوجود سنرى ملايين الأنواع من النباتات والحيوانات الصحراوية والبحرية والطيور وسائر الكائنات التى يتسم كل واحد منها ببعض الخصائص المميزة له، كلها تدين لخالقها تبارك وتعالى.

وأخيراً فإنّ الإمام عليه السلام قد أشار فى هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاثه مواضع مهمّة؟ عجز الإنسان عن إدراك كنه الذات الإلهية، وظهور وجوده تعالى، وأخيراً إبداعه الفريد فى عالم الخلق.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٧٧

القسم الثانى

«وَمِنْ لَطَائِفِ صِدْقَتِهِ، وَعَجَائِبِ خَلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ الْخَفَافِشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَسْطُهَا الظَّلَامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ؛ وَكَيْفَ عَشِيَّتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيءِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مِذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلُ بِعَلَانِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا. وَرَدَّعَهَا بِتَلَاوُضِ يَأْتِيهَا عَنِ الْمُضِيءِ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا، وَأَكْنَهَا فِي مَكَامِينِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِي بُلُوحِ انْتِلَاقِهَا، فَهِيَ مُسَدَلَةٌ الْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَى حِدَاقِهَا، وَجَاعِلَةٌ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي التَّمَاسِ أَرْزَاقِهَا؛ فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافَ ظُلْمَتِهِ، وَلَا تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيءِ فِيهِ لِعَسَقِ دُجَّتِهِ. فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَيَدَّتْ أَوْصَاحَ نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضُّبَابِ فِي وَجَارِهَا، أَطْبَقَتِ الْأَجْفَانَ عَلَى مَا قِيَهَا، وَتَبَلَّغَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلْمِ لَيْلِيهَا. فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَالنَّهَارَ سَكناً وَقَرَاراً».

الشرح والتفسير: الطائر العجيب

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيانه العام والجامع بشأن خلق العالم حتى ركز هنا على أعجب وأظرف مخلوقات الله، ألا- وهو الخفاش الفريد فى خلقه من كل النواحي، وإن كانت جميع المخلوقات عجيبة لو أجلنا التفكير بصورة صحيحة. فقد أشار عليه السلام

إلى جانبين فريدين في خلقه هذا الحيوان؛ عينه وجناحيه، فقال:

«وَمِنْ لَطَائِفِ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٧٨

صَنَعْتِهِ، وَعَجَائِبِ خَلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ الْخَفَافِشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَنْسِي طُهَا الظَّلَامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ».

ثم يردفها بالعبارة:

«وَكَيْفَ عَشَيْتَ [٩٦] أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ

نُورًا تَهْتَدِي بِهِ فِي مِذَاهِبِهَا، وَتَنْصَلُّ بِعَلَانِيَةٍ بُرْهَانَ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا. وَرَدَّعَهَا بِتَلَاؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيئِ فِي شَيْبَاتِ [٩٧] إِشْرَاقِهَا، وَأَكْنَهَا [٩٨] فِي مَكَامِنِهَا [٩٩] عَنِ الذَّهَابِ

فِي بُلْجِ [١٠٠] ائْتِلَاقِهَا [١٠١]»

. النقطة الجديرة بالتأمل، إن الإمام عليه السلام أشار إلى ثلاث نقاط مختلفة بثلاث عبارات إلى التأثير السلبي لضياء الشمس عليها، فقال: إن ضياء الشمس لم يدعها تتلمس طريقها وإن أشعة الشمس تمنعها من بلوغ مقاصدها في هذه الطرق (كالطعمه والحجر) وأخيراً أنها لو سلكت طريقاً وطلعت عليها الشمس فجاءة لصدتها عن مواصلة السير.

وبالنتيجة، ليس لها سوى الاختباء في الحجور المظلمة لتأمن أشعة الشمس، وعلى هذا الأساس فإن ضياء الشمس الذي ينير كل شيء ويساعد جميع الكائنات الحية لأن تعرف طريقها وتواصل حركتها نحو غايتها، لا يبدو كذلك بالنسبة لهذا الطائر «الخفاش» فأثاره سلبية عليه، وعلى العكس من ذلك فهو يستفيد من الظلمة التي تسوق كل ما سواه إلى السكون، ليبدأ بالنشاط والحركة.

ومن هنا واصل كلامه فقال:

«فَهِيَ مُسَدَّلَةٌ [١٠٢] الْجُفُونِ [١٠٣] بِالنَّهَارِ عَلَى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٧٩

حِدَاقِهَا [١٠٤]، وَجَاعِلَةٌ اللَّيْلَ سِرَاجًا تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي التَّمَاسِ أَرْزَاقِهَا؛ فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ [١٠٥] ظُلْمَتِهِ، وَلَا تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِعَسَقِ [١٠٦] دُجْنَتِهِ [١٠٧].

ثم تطرق إلى وضع الخفاش حين شروق الشمس وارسالها لأشعتها على الجبال والصحارى فقال:

«فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ [١٠٨] نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ

إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضُّبَابِ [١٠٩] فِي وَجَارِهَا [١١٠]، أَطْبَقَتِ الْأَجْفَانَ عَلَى مَا قَبِيهَا [١١١]، وَتَبَلَّغَتْ [١١٢]

بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلْمِ لَيْالِيهَا».

ياله من تشبيه لطيف! فقد شبه الشمس منتصف الليل بالمرأة التي تلتفت بخمارها وحين الشروق طرحته جانباً وقد أشرق ضياء وجه هذه الأم الحنون على مهد أولادها. العبارة الرائعة الأخرى أنه قال: إن إشراق ذلك النور والضياء بلغ جحور الضباب المعروفة بشغفها بطلوع الشمس وقد أخرج آنذاك راسه من جحره ليستقبل ضياء الشمس. وهي إشارة أيضاً إلى أن الخفافيش تحتفظ بما اصطادته في الليل لنهارها.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٠

ثم يخلص إلى نتيجة ليقول بعبارة قصيرة:

«فُسُجْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَارًا وَمَعَاشًا، وَالنَّهَارَ سَكْنًا وَقَرَارًا!»

فهذا الكائن الفريد، وخلافاً للكائنات الحية كافة- ولاسيما الإنسان- التي تقف في النهار وتستريح وتسكن في الليل «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ

لِبَاسًا* وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا» [١١٣]، إنما يستريح في النهار ويكّد من أجل المعاش في الليل لتعلم الخليفة أن قدرة الله لامتناهية وكل ما يريده سبحانه يكون.

وستكلم في آخر الخطبة إن شاء الله عن عجائب خلقه الخفاش ولاسيما خلقه عينيه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨١

القسم الثالث

«وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيْرَانِ، كَأَنَّهَا شَطَايَا الْأَذَانِ غَيْرِ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيْنَهُ أَعْلَامًا. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقًا فَيَنْشَقًّا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا. تَطِيرُ وَوَلَدَهَا لِمَا صِقُّ بِهَا لِمَا جِيءَ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَزْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَأَيْفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلُهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفُ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ. فَسُبْحَانَ الْبَارِيءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ!».

الشرح والتفسير: عجائب الخفاش

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى أمرين من عجائب خلقه الخفاش (جناحه وتربيته لفرخه)، فقال:

«وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيْرَانِ، كَأَنَّهَا شَطَايَا [١١٤] الْأَذَانِ غَيْرِ ذَوَاتِ رِيشٍ [١١٥] وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيْنَهُ

أَعْلَامًا. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقًا فَيَنْشَقًّا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا»

. حقاً إن هذا لمن عجائب الخلقة، فاجنحة جميع الطيور تتكون من الريش الذي يتوسطه شيء يشبه القصبه، ونظراً لخفته فإن الطيور تستطيع الطيران بواسطته بسهولة، أما الخفاش المعروف بطيرانه السريع فهو يختلف تماماً عن جميع الطيور، فجناحه قطعة من اللحم يتوسطها عظام نحيفة أشبه بالعضاريف. وهذه القطعة رغم نحافتها إلا أنها شديدة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٢

المقاومة، كما أنها خفيفة وصامدة على الدوام وهي تشبه صفحة إذن الإنسان.

والغريب أننا لو نظرنا إليه إزاء ضوء الشمس أو المصباح لشاهدنا مجموعة من الأنابيب الظرفية والواسعة والمعقدة من العروق الدموية التي تغذيه والتي يشتد نشاطها حين يطير لتوصل المواد الغذائية اللازمة إلى الأجنحة بهدف السرعة في الحركة.

ثم أشار إلى قضية عجيبة أخرى في خلقه هذا الطائر والتي تتعلق بتربيته لولده فقال:

«تَطِيرُ وَوَلَدَهَا لِمَا صِقُّ بِهَا لِمَا جِيءَ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَزْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَمَّا يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلُهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفُ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ»

. معروف أن لهذا الحيوان دورة شهرية كسائر (الثدييات) وهو يحمل ويضع الحمل، خلافاً لسائر الطيور البيوضة وتفقيس فراخها في بيوضها. وينفرد الخفاش بحمله لفرخه معه حين الطيران والهبوط ليعلمه الطيران وكيفية الحصول على الغذاء وصيد الحشرات والخروج والرجوع إلى العش والحجر، ولعل سرّ حمله لفرخه معه خلافاً لعادة جميع الطيور أنه يمارس الطيران ليلاً فيضطر لحمله معه.

على أية حال فإن كل شيء عجيب في هذا الطائر، وهذا بدوره أحد عجائب الخليفة التي تعرف الإنسان على تنوع المخلوقات وقدره الخالق.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته الشريفة بالخشوع أمام عظمة الله وقال:

«فَسُبْحَانَ الْبَارِيءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ!»

وكما استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله والثناء عليه فقد اختتمها بتسبيحه وتنزيه ذاته المقدسة.

تأمل

خلقة الخفاش العجيبة

تحدث الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن بديع خلقه الخفاش الذي يختلف في كل شيء تقريباً عن سائر الطيور، حتى صرحت بعض المصادر العلمية أنّ الخفاش

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٣

ليس من فصيلة الطيور، بل جزء من الثدييات وذلك لما يلي:

١. للخفاش أسنان، بينما للطيور منقار.

٢. بدن الخفاش مغطى بالشعر، بينما للطيور ريش.

٣. تتكون أجنحة الخفاش من قطعة لحمية رقيقة وليست الطيور كذلك.

٤. للخفاش يدان ورجلان ويمشي على الأرض على يديه ورجليه وليست الطيور كذلك.

٥. الخفافيش ولودة، بينما الطيور بيوضة.

٦. ترضع الخفافيش صغارها، بينما توفر الطيور الغذاء المناسب لفراخها.

٧. معاش الخفافيش ليلاً، والطيور نهاراً.

٨. تمام الخفافيش نهاراً وتطير عقب الغروب وتعلق حين النوم بأرجلها على الأشجار والسقوف، بينما ليست الطيور كذلك.

٩. تتغذى الخفافيش على الحشرات وتفتح أفواهها حين تطير وتبتلع عشرات أو مئات الحشرات ولعل هذا سبب رائحتها الكريهة، ولعل

هذا العمل من الخفافيش هو الذي يسهم في تنقية أجواء البيئه من الحشرات، ومن هنا فقد عمد الناس إلى بناء الأبراج لتربية الخفافيش

في المناطق التي تكثر فيها الحشرات. جدير بالذكر، وخلافاً لما يتصوره البعض من ضعف بصر الخفاش حتى راح يضرب به المثل أنّ

الشخص الفلاني أعمى كالخفاش، فإنّ باصرة الخفاش حادة جداً، إلّا أنّ عينه حساسة للضوء ولا يطيق تحمله. والخفاش يطير بسرعة

ومهارة في الليل حتى حين شدّة الظلمة، ولا يستعين الخفاش في طيرانه الليلي بعينه فقط، بل يتمتع بجهاز صوتي يشبه الرادار. فالخفاش

حين الطيران يُخرج صوتاً من أنفه وليست لدينا القدرة على سماعه، إلّا أنّ هذا الصوت يصطدم بكل شيء يعترض طريقه وينعكس

إليه، ويلتقط هذا الصوت المنعكس بأذنه الكبيرة فيقف على الأشياء التي تقف في طريقه فيغيّر مساره، ومن هنا قيل: الخفاش يرى

بأذنه. عادة ما يتغذى الخفاش على

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٤

الحشرات، إلّا أنّ بعض الخفافيش تتناول الفاكهة، وبعضها الآخر وحشية خطيرة، ويبدو أنّ عددها قليل جداً. وهي تهجم على الإنسان

حين النوم فتغرس أسنانها بكل هدوء في بعض المواضع التي تفتقر إلى الأعصاب والحساسية من قبيل شحمة الأذن فتمتص الدم، كما

تتأتى خطورتها من إمكانية حملها لبعض الميكروبات القاتلة من قبيل الحمى الصفراء. والخفاش يقترب من الماء حين الطيران

ليرتشف الماء كالماء بلسانه. ويضع الخفاش القليل الوزن ما يقارب من أربعة فراخ يحملها معه حين الطيران، أمّا تلك الثقيلة الوزن

والتي تشبه القطعة أحياناً، فلا تلد أكثر من فرخ، أضف إلى ذلك فهناك بعض الخفافيش التي لاتزن أكثر من الدرهم [١١٦].

وقد وردت في كتاب التوحيد للمفضل بعض العبارات القصيرة والعميقة المعنى بشأن خلقه الخفاش حيث إنّ الله خلقه وسطاً بين

الطيور والأنعام (الثدييات) ذلك أنّ له أذنين طويلتين وأسناناً وهو يلد ويرضع وليده ويمشي على يديه ورجليه، وكل ذلك خلافاً

للطيور، كما يطير في الليل ويتغذى على الحشرات الطائرة في الهواء، ويعتقد البعض أنّه لا يتغذى سوى على الهواء، وهذا باطل،

وذلك أولاً: لخروج البول والغائط منه وهذا غير ممكن دون غذاء، وثانياً: إنَّ له أسناناً وليس لهذه الأسنان من معنى إن لم يتغذَّ ونعلم أن الله لم يخلق شيئاً عبثاً [١١٧]. على كل حال فكلما أمعنا النظر في الخفاش أدركنا عمق الأسرار المركبة فيه، وهنا نقف على عظمة ما أورده الإمام عليه السلام في أن الله كأنه خلق هذا المخلوق للتعريف بعظمة قدرته بعرضه أحد بدائع خلقه الذي انطوى على العديد من العجائب والغرائب.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٥

الخطبة ١٥٦

إشارة

حَاطَبَ بِهِ أَهْلَ الْبُصْرَةَ عَلَى جِهَةِ اقْتِصَاصِ الْمَلَا حِمِ [١١٨]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى مسائل مختلفة مرتبطة مع بعضها البعض رغم استقلالية كل منها، وتدور هذه الخطبة حول عدّة محاور هي:

الأول: أن الإمام عليه السلام حثَّ الناس على طاعته وقد كشف لهم النقاب عن سبيل الجنَّة الملى بالمتاعب والمشقات. الثاني: إشار الإمام عليه السلام إلى دوافع عائشة في إثارة فتنة الجمل حتى لا يظن الآخرين بأنَّ خروجها للمعركة يضيفى شرعية على ممارسات طلحة والزبير.

الثالث: يتحدث عن القيامة والمعاد ويعدّ الناس لذلك بالتزود من التقوى والعمل الصالح وكسب الفضائل ومكارم الأخلاق.

الرابع: أشار فيه إلى كيفية بعث الموتى من القبور وحضورهم في المحشر.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٦

الخامس: الحديث عن ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يخالف ظن البعض من المشاكل المترتبة عليها في الحياة الدنيا والآخرة.

السادس: إشارة إلى أهمية القرآن ودوره في إصلاح الفرد والمجتمع.

السابع: الرد على سؤال طرحه شخص بشأن الفتنة وهل سأل الإمام عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك، إلى جانب إخبارهم عن شهادته.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٧

القسم الأول

فَمَنْ اسْتَطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقِهِ مَرِيرَةٍ.

وَأَمَّا فَلَانَةُ فَأَذْرَكَهَا رَأَى النِّسَاءِ، وَضَعْنَ غَلَا فِي صِدْرِهَا كَمِرْحَلِ الْقَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالِ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدَ حُرْمَتِهَا الْأُولَى وَالْحِسَابُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى

الشرح والتفسير: ظهور الاحقاد بذرائع واهية

ذكرنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد موقعه الجمل حيث تفيد العبارات الواردة في طليعتها إشارة الإمام عليه السلام قبل ذلك إلى الفتن التي تنتظر الناس ويحذرهم أنّ فتنه الجمل ليست الأولى والأخيرة فقال:

«فَمَنْ اسْتِطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقَلَ نَفْسَهُ عَلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقَةٍ مَرِيْرَةٍ [١١٩]»

. مفهوم العبارة

«أَنْ

يَعْتَقَلَ نَفْسَهُ»

- بالنظر إلى أن يعتقل من مادة عقل بمعنى المنع - اقتصار النفس على طاعة أوامر الله التي تمثل أرفع درجات الطاعة والعبودية.

والعبارة

«وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ»

إشارة إلى أن الإنسان لا ينال الجنة والسعادة بالهين، وعلى الفرد الذي يبغى الجنة أن يعد لها عدتها؛ وذلك لأنّ جهاد النفس ولجم هواها شاق كمواجهة العدو.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٨

وقد عبر الإمام عليه السلام عن هذا المعنى في الخطبة ١٧٦ بما رواه عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الدافع الذي ساق عائشة إلى الجمل - الفتنه التي عمت العالم الإسلامي آنذاك - وقد تطرق إلى التفاصيل بخمس عبارات عميقة المعاني فقال:

«وَأَمَّا فَلَانَةٌ فَأَذْرَكَهَا رَأَى النَّسَاءِ، وَضِعْنَ عَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرَجَلٍ [١٢٠] الْفَيْنِ [١٢١]،

وَلَوْ دُعِيَتْ لَتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى وَالْحِسَابُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى

. لا شك في أن المراد من فلانة في العبارة المذكورة عائشة، وحيث إن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة بعد موقعه الجمل، يبدو

أن الهدف هو الرد على بعض الشبهات، واحدى الشبهات، لو لم تكن هذه المعركة شرعية كيف تشترك فيها عائشة لتلعب ذلك

الدور الحساس؟ وقد أشار الإمام عليه السلام في رده على هذه الشبهة إلى دافعين يكمنان وراء مساندة عائشة لطلحة والزبير:

الأول: آراؤها الضعيفة كامرأة والتي يستطيع طلحة والزبير اختراقها وضمها إلى جانبهما، ويؤيد ذلك، الأخبار التي صرحت بندم عائشة على فعلتها وتوبتها.

والآخر، الحقد الدفين الذي كانت تكنه لعلى عليه السلام والذي فاق الحدود بحيث لم يدعها تفكر في عواقب فعلتها وبوجه من تقف

ولحساب من، وكيف ستكون نتيجة المعركة؟ وقد أسهب شراح نهج البلاغة في بيانهم للعوامل التي تقف وراء ذلك الحقد والبغض؛

إلّا أنّ الشرح الوافي ما ذكره ابن أبي الحديد عن استاذه أبي يعقوب، ونشير إلى جانب من ذلك:

١. على عليه السلام زوج الزهراء عليها السلام والزهراء بنت خديجة وقد شحنت التواريخ المعروفة بالأخبار التي تتحدث عن حساسية

عائشة من خديجة حتى بعد وفاتها.

٢. منزلة فاطمة الزهراء عليها السلام لدى رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تكشف عن شخصيتها عليها السلام

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٩

وأنه كان يوليها منتهى الحب والاحترام حتى صرحت بعض الروايات المعتبرة أنه اطلق عليها «سيدة نساء العالمين» وقال:

«فَاطِمَةُ بِضَعَةٌ مِنِّي مَنْ آذَاهَا فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ أَغْضَبَهَا فَقَدْ أَغْضَبَنِي» [١٢٢]

. وهذا ما أثار حفيظة عائشة حيث كانت ترى أنها تستحق هذه الألقاب لا غيرها، ولذلك حملت الحقد على علي عليه السلام.

٣. منزلة علي عليه السلام لدى النبي صلى الله عليه وآله ومدى حب النبي صلى الله عليه وآله له وحديثه عن فضائله ومناقبه، وكانت ترى أحقية أبيها أبي بكر بتلك الفضائل.

٤. كون نسل رسول الله صلى الله عليه وآله من فاطمة عليها السلام وعلي، وحبه للحسن والحسين عليهما السلام بينما لم تكن عائشة ولودة.

٥. إغلاق النبي صلى الله عليه وآله كافة أبواب الصحابة في المسجد حتى باب بيت أبي بكر سوى باب دار علي عليه السلام. أضف إلى ذلك فهناك عدّة عوامل أخرى لا يسع المجال ذكرها [١٢٣].

جدير بالذكر أن ابن أبي الحديد روى عن استاذة أبي يعقوب قال: «ثم بايع علي أباهـ/ عائشةـ/ فسيرت بذلك، وأظهرت من الاستبشار بتمام البيعة واستقرار الخلافة وبطلان منازعة الخصم ما قد نقله الناقلون فأكثرُوا واستمرت الأمور على هذا مدّة خلاف أبيها وخلافه عمر وعثمان، والقلوب تغلى، والأحقاد تذيب الحجارة، وكلّما طال الزمان على عليّ تضاعفت همومه وغمومه، وباح بما في نفسه إلى أن قتل عثمان، وقد كانت عائشة فيها أشدّ الناس عليه تأليماً وتحريضاً، فقالت:

أبعده الله! لَمَّا سمعت قتله، وأمّلت أن تكون الخلافة في طلحة، فتعود الإمرة تيمية، كما كانت أولاً، فعدل الناس عنه إلى علي بن أبي طالب، فلَمَّا سمعت ذلك صرخت:

واعثماناه! قتل عثمان ظلوماً، وثار ما في الأنفس، حتى تولد من ذلك يوم الجمل وما بعده» [١٢٤].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩٠

والغريب في الأمر أن بعض العلماء رغم اعترافهم بخطأ عائشة وارتكابها المعصية في معركة الجمل، يزعمون أنها تابت وقد عفا الله عنها. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل سفك دماء سبعة عشر ألفاً وفي رواية عشرين ألف مسلم في الجمل بالإضافة إلى تلك المصائب التي طالت العالم الإسلامي بسبب تلك المعركة وما زالت آثارها عالقّة، يُغفر بمجرد قول: «استغفر الله»؟ وهل يتجاوز الله عن هذا الحق بهذه السهولة؟ ذكر ابن عبد ربه في عقده الفريد أن امرأة تدعى أم أوفى دخلت على عائشة بعد الجمل وسألته: يا أم المؤمنين ما تقولين في من قتل ولده الصغير؟ قالت عائشة: وجبت له نار جهنم؟ ثم سألتها: فما تقولين فيمن قتل عشرين ألفاً من ولدها؟ أدركت عائشة أنها المعنية بهذا السؤال لما فعلته في الجمل فردت: عليكم بعدوه الله هذه [١٢٥].

وأما عبارة الإمام عليه السلام: (ولو دعيت لتنال من غيري ما أتت إليّ، لم تفعل) إشارة إلى أن هذه المرأة لم تكن لتطالب بدم عثمان، بل هدفها تأليب الناس على. وأما عبارته (ولها بعد حرمتها الأولى) ذلك انها كانت زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وقد غض النظر عن عقابها في الدنيا حرمة لرسول الله صلى الله عليه وآله ولذلك أردفها بالعبارة (والحساب على الله تعالى في أن الله سوف لن يعفو عن هذه المعصية. وقد أشار القرآن إلى هذا الأمر في الآية الكريمة ٣٠ من سورة الأحزاب: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩١

القسم الثاني

منها: سَبِيلُ أَبْلَحِ الْمَنَهَاجِ، أَنْوَرُ السَّرَاجِ، فَبِالْإِيْمَانِ يُسَيِّدُ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسَيِّدُ عَلَى الْإِيْمَانِ، وَبِالْإِيْمَانِ يُعَمَّرُ الْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُزْهَبُ الْمَوْتُ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُرْلَفُ الْجَنَّةُ، وَتُبْرَزُ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ الْخَلْقَ لَأَمْقَصِرَ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ، مُزْفَلِينَ فِي مَضْمَارِهَا إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى

الشرح والتفسير: السبيل إلى النجاة

تحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة عن الإيمان ثم آثاره- العمل الصالح والعلم والمعرفة وخوف العقاب والاستعداد للسفر الشاق وبالتالي نيل الجنة- فقال:

«سَبِيلٌ أَبْلَجُ [١٢٦] الْمِنْهَاجِ، أَنْوَرُ السَّرَاجِ»

. شبه الإمام عليه السلام الإيمان بالسبيل الواضح الخالي من العقبات نهاراً والمليء بالمصاييح ليلاً، كما يحتمل أن يكون المراد من السراج، العلامات والألواح التي تنصب على جوانب الطرق بغية إرشاد المسافر إلى الهدف، أي أن الإيمان طريقه واضح وعلاماته جلية.

ثم قال عليه السلام:

«فَبِالْإِيْمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْإِيْمَانِ، وَبِالْإِيْمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُزْهَبُ الْمَوْتُ» [١٢٧]

. قطعاً أن معنى الإيمان في

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩٢

العبارتين هو الاعتقاد الباطني؛ و (يستدل) في العبارة الأولى، يعطى معنى العلية وفي العبارة الثانية، الكاشفة، أي أن الإيمان سبب العمل الصالح، والعمل الصالح كاشف عن الإيمان، مع ذلك ربما تكون العلية هي المرادة من (يستدل) في المعنيين، أي كما أن الإيمان سبب العمل الصالح فإن العمل الصالح سبب قوة الإيمان. وقوله عليه السلام (وبالإيمان يعمر العلم) إشارة إلى أمرين:

الأول: إن الإنسان إن آمن بالخالق العالم والحكيم وانفتح على الهدف الذي ينطوى عليه الخلق سيوقن بان ليس هنالك شيء خلق عبثاً في هذا العالم فيسعى أثر ذلك للوقوف على علل الأشياء وأسرار الظواهر. حيث صرح أحد علماء العلوم الطبيعية بأنّ العنصر الذي دفع بكبار العلماء للسعي من أجل كشف أسرار الطبيعة ولسنين مديدة إيمانهم بالهدفية التي تحكم عالم الخليقة وأن ليس هنالك من سبيل للعبث في خلق أي شيء.

الثاني: إن أحد موانع العلم والمعرفة هو التعصب الأعمى والغرور، لكن إن حل الإيمان زالت كل هذه الموانع وتمهد السبيل أمام بلوغ منابع العلوم والمعارف. أضف إلى ذلك فإن العلم دون عمل هو علم هدام يستبطن الجهل، والعنصر الذي يقرن العلم بالعمل هو الإيمان، كما ورد ذلك في الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال:

«إِنَّ الْعِلْمَ يَهْتَفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا اذْتَحَلَ عَنْهُ» [١٢٨]

. وقوله عليه السلام: إن الإنسان بسبب العلم يهرب الموت في أنه لا يرى الموت نهاية الحياة، بل يراه بداية حياة جديدة يعيشها على ضوء ما أسلف من أعمال.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بذكره للعلم والمعلول واللازم والملزوم فقال:

«وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ، وَتُبْرَزُ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩٣

الْجَحِيمِ لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ الْخَلْقَ لَأَمَقْصَرٍ [١٢٩] لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ، مُرْقَلِينَ [١٣٠] فِي مِضْمَارِهَا إِلَى

الْغَايَةِ الْقُضْوَى

. نعم، الموت نهاية الحياة الدنيوية وانطلاقة الحياة الأبدية، وصحيفة الأعمال تطوى بالموت؛ ذلك أن مزرعة الآخرة هي الدنيا، وليس في القيامة سوى الجنة والسعادة الأبدية أو النار والعذاب الأبدى، وكل إنسان دون استثناء آيل إلى أحدهما. لا يستبعد أن يكون ذكره لهذه العبارة بعيد موقعة الجمل أن أولئك نفر الضال لو كان إيمانهم قوى لما انساقوا إلى تلك الفتنة والمركة القاتلة. فالإيمان

يدعو العلم والمعرفة وترجيح الدار الباقية على تلك الفانية: ولكن من المؤسف أن حجاب الهوى يحول دون إدراك العقل لهذه الحقائق رغم أن الطريق واضح والمعالم جلية.

أما العبارة

«وَبِالْقِيَامَةِ تَزْلَفُ الْجَنَّةُ، وَتُبْرَزُ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ»

مقتبسة من سورة الشعراء، الآية ٩١-٩٠: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩٥

القسم الثالث

منها: قَدْ شَخَّصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ.

لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا، لَا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا.

وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانٍ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ وَإِنَّهُمَا لَا يَقْرَبَانِ مِنْ أَجْلِ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ. وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، «فَبِإِنَّهُ الْحَبِيلَ الْمُتَيْنِ، وَالتُّورَ الْمُبِينِ»، وَالشِّفَاءَ النَّافِعَ، وَالرِّزْقَ النَّافِعَ، وَالْعِصْمَةَ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاهَ لِلْمُتَعَلِّقِ. لَمَا يَعْجُجُ فَيْتَمَامَ، وَلَا يَزِيغُ فَيَسْتَعْتَبَ، «وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ»، وَوُلُوجِ السَّمْعِ. «مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ».

الشرح والتفسير: عوامل النجاة في القيامة

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة عقب العبارات السابقة- التي تحدث فيها عن الموت والجنة والنار- في مسألة الحشر والنشر يوم القيامة ثم تطرق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهميته القرآن الكريم، كونها تشكل العناصر المحورية في النجاة يوم القيامة فقال:

«قَدْ شَخَّصُوا [١٣١] مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ [١٣٢]،

وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ. لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا، لَا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا»

. فأشار بادية الأمر إلى أن الجميع ينهضون من القبر كما ورد ذلك كراراً في القرآن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩٦

الكريم: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً» [١٣٣] ويستفاد من العبارة أن ذرات البدن التي تحولت إلى تراب تعود إلى القبر أينما كانت لتتحيا ثانية وتنفض عنها التراب.

وهنا يرد هذا السؤال: إن آيات القرآن صريحة في أن الدنيا ستنتهي بزلزلة عظيمة تحطم كل شيء فكيف ستبقى القبور ويخرج الموتى منها إلى الحساب؟ أوردنا الاجابة عن هذا السؤال في الجزء الثالث من الأنوار العلوية.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى عدم استبدال دور الجنة والنار وسيقيم كل شخص على ضوء أعماله في الجنة أو النار؛ والمراد أن الثواب والعقاب في الآخرة للمؤمن والكافر أبديان، لا يمكن استبداله ولا نقله. والحق أن تلك الدار على قدر من النظام والدقة الذي ينسجم مع العقيدة والعمل وكان كل مكان يبحث عن شخص لا العكس. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أن معركة الجمل كانت من النماذج البارزة لهذا المفهوم، فقال:

«وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانٍ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ وَإِنَّهُمَا لَا يَقْرَبَانِ مِنْ أَجْلِ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ»

. على غرار ما جاء في القرآن الكريم: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ». ويرى بعض شراح نهج البلاغة أن التعبير (بالخلق) عن الله هو تعبير مجازي (مجاز في الكلمة أو مجاز في النسبة)، لأن الخلق ملكة نفسانية

تنبعث من الأعمال الصالحة والسيئة، والله منزّه عن هذه العوارض والحالات، إمّا أن اعتبرنا الخُلق بمعنى الوصف فليست هنالك من مشكلة سواء أريد به الحالة النفسانية أو الوصف عين الذات الذى يطلق على الله. على كل حال فإنّ الوظائف التى عينها الإسلام للناس تكون أحياناً متعلقة بالإنسان مثل العبادات وأغلب المحرمات، لكن هنالك أمور واسعة جداً تصدق حتى على الله، كالعدالة وترك الظلم وإرشاد الجاهل وتبنيه الغافل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إنّ أساس نزول الكتب السماوية وبعث الأنبياء على ضوء نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩٧

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو إرشاد الجاهل، وبناءً على هذا، كفى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهميّة أنه محور انطلاقة جميع الأنشطة للأنبياء والرسل. وما قاله الإمام عليه السلام من أنّهما لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق، إشارة إلى أنّ أغلب الناس من ذوى النظرة الضيقة والآفاق المحدودة يعتقدون بأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدّى إلى الاشتباك مع أهل المعاصى، وهذا ما يؤدّى بدوره إلى القتل تارةً وأخرى انفراج الناس عن هذا الإنسان وبالتالي قلة رزقه.

ولكن إن جرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق الأسلوب الصحيح والمعقول وجانب الإفراط والتفريط فإنّ الله يحفظ الإنسان الذى يمارس هذه الوظيفة ولا يبخل عليه فى رزقه. وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، شرائط، منها: احتمال التأثير وعدم الضرر، كما أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوعان؛ عام، وهو وظيفة كافة الناس (عن طريق القلب واللسان، وخاص، وهو وظيفة الحكومة الاسلامية (من خلال الإجراءات العملية). فلو راعى الإنسان هذه الأمور فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جانب الأدب والاحترام فسوف يحظى بحب الآخرين واحترامهم لا انفراجهم عنه ونفرتهم، فإن عرضت له بعض المكافه يفرجها الله تعالى. وزبد الكلام إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أساس ودعامه نظام المجتمع وقدسيتها ونهضته وتطوره، والعكس بالعكس، فإنّ المجتمع الذى يموت فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستفحل فيه التنصل عن المسؤليه وترتكب فيه الذنوب والمعاصى ويجهر فيه بالفسوق حتى يغط المجتمع فى وحل الانحراف والفساد.

ولما كان سبيل نيل السعادة وحل المشاكل الفردية والاجتماعية يتمثل بالعودة إلى القرآن فإنّ الإمام عليه السلام يتطرق هنا إلى أهميّة القرآن ليوضحها بعبارات حية عميقة المعانى وتشبيهات لطيفة ضمن احدى عشرة جملة- تشير كل جملة منها إلى ميزة من مزايا القرآن- قال

«وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ الْجَبَلُ الْمَتِينُ».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩٨

كأنّ البشرية قبل التعليم والتربية مستغرقة فى وحل الطبيعة ولا بد لها من التمسك بحبل بغيه النجاه. وينبغى أن يكون هذا الحبل متيناً كى لا يتركها منتصف الطريق.

ومن هنا يعبر عن القرآن بالحبل المتين، الوسيلة الفضلى فى النجاه، وبالنظر إلى أنّ سلوك الطريق فى الظلمات يؤدّى إلى الضلال والسقوط فى المستنقعات فقد شبه القرآن بالنور المبين الذى يحف الإنسان حتى يبلغ الهدف.

وقال فى صفته الثالثة والرابعة بالنسبة للقرآن:

«وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّىُّ [١٣٤] النَّافِعُ [١٣٥]»

، فالصفات الذميمة والردائل الأخلاقية سواء تلك التى يتسم بها الفرد أو الجماعة كالأمرض المعضلة وربما القاتلة وقد ورد علاجها فى ظلال القرآن الكريم، وطالما كان أهم عوامل الحياة وديمومتها هو الماء فإنّ القرآن الكريم يلعب دور الماء فى حياة الإنسان المعنوية، ومن هنا عدّه الإمام عليه السلام وسيلة رى عطاشى الحق.

ثم قال فى الميزة الخامسة والسادسة:

«وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاهُ لِلْمُتَعَلِّقِ»

فالإنسان عادة ما يتعرض في مسيرته نحو الصلاح والسعادة إلى بعض المطبات ولا بد له من التمسك بما يعونه من الوقوع في تلك المطبات. وقال في الميزة السابعة والثامنة

«لَا يَعْوُجُ فَيْقَامُ، وَلَا يَزِيغُ فَيَسْتَعْتَبُ [١٣٦]»

. قطعاً أن كلام الله الذي يستند إلى علمه المطلق ليس من سبيل للخلاف والخطأ والانحراف إليه، ذلك لأن الخطأ إنما يقارنه من كان علمه محدوداً وقدرته بسيطة، لا تلك الذات المطلقة العلم والقدرة، ونعلم جميعاً أن إحدى ملامح اعجاز القرآن، عدم وجود التضاد والاختلاف في آياته:

«وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» [١٣٧]

كما

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩٩

ورد في سورة الكهف: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْنَا عِبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا» [١٣٨].

ثم قال في الصفة التاسعة:

«وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ، وَوُلُوجُ السَّمْعِ»

. أجل فطراوة القرآن وحلاوته ودوره التربوي يسمو على القراءة والتكرار، ذلك لأن القرآن كلام الله وكلامه كذاته غير متناه وكلما تدبر الإنسان فيه اكتشف حقيقة جديدة وكلما تطور العلم البشري كلما تكشف أبعاد جديدة منه كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله

: «لَا تُحْصَى عَجَائِبُهُ وَلَا تُبْلَى غَرَائِبُهُ» [١٣٩]

أو كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام حين سأله شخص عن تسامى القرآن على التلاوة والتكرار فقال عليه السلام: «لَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَجْعَلْهُ لِمَنْ لَزِمَ دُونَ زَمَانٍ وَلَا لِمَنْ دُونَ نَاسٍ فَهُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ جَدِيدٌ وَعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [١٤٠].

وأخيراً قال في الميزة العاشرة والحادية عشرة:

«مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ».

إشارة إلى أن القرآن معيار الحق والباطل والنصر والهزيمة، ومن تحدث على ضوء القرآن كان كلامه عين الحقيقة ومن التزم بالقرآن عملاً نال السعادة، ولاغرو فليس من سبيل للخطأ إلى القرآن وهذا ما يجعل الملتزم به قريباً من الحق في منطق وسلوكه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠١

القسم الرابع

وقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنها؟ فقال عليه السلام: إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَوْلَهُ: «الْمُ * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَمَّا تَنْزَلُ بِنَا وَرَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي»، فَقُلْتُ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتَشْهِدَ مِنَ اسْتَشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبَيْتُ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟» فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرَكَ إِذِنْ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ

الصَّبْر، وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ.

الشرح والتفسير: الفتنة الكبرى

جاء في متابعه الخطبة:

«وقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنها؟»

فالعبارة تشير إلى أن أذهان الناس كانت تساورها وقوع الفتنة، وأراد السائل أن يعرف هل ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله شيء بشأن هذه الفتنة الخطيرة. فأجابه الإمام عليه السلام:

«إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَوْلَهُ:

«الْم * أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» [١٤١]

عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَاتَنْزِلُ بِنَا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٢

وَرَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتَشْهِدَ مَنْ اسْتَشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ [١٤٢] عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ لِي: «أَبُشْرُ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟» [١٤٣] فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ.

تأملان

١. الرد على بعض الأسئلة

تفيد العبارة الواردة في الخطبة أن الآية: «الْم * أَحْسِبَ النَّاسَ ...» أنها نزلت في المدينة بعد موقعه أحد، في حين يتفق المفسرون على أن سورة العنكبوت مكية، حيث لم يكن آنذاك شيء عن الجهاد.

قيل في الجواب عن هذا السؤال: إن مكية سورة معينة يعنى نزول السورة بجميع آياتها في مكة، بل لا يمنع أن تكون أغلب آياتها نزلت في مكة كما نزلت آية أو أكثر، منها في المدينة، وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله بوضع هذه الآية في السورة، على غرار إجماع المفسرين على مكية سورة النحل مع العلم اليقين بنزول ثلاث آيات منها بعد موقعه أحد.

السؤال الثاني: من أين علم على عليه السلام بعد نزول الآية المذكورة أن الفتنة لا تقع على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بينما لم تشر الآية إلى هذا الأمر من قريب أو بعيد؟

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٣

والجواب واضح في أن المراد من الفتنة خطر الانحراف عن أصول الدين وفروعه والذي يهدد كيان الأمة الإسلامية وليس لمثل هذا الانحراف أن يقع طالما كان النبي صلى الله عليه وآله بين ظهرانيهم، ولكن ما أن تغيب شمس النبي صلى الله عليه وآله حتى يستغل المنافقون الفرصة وتبرز الخلافات.

السؤال الثالث: ما تلك الفتنة التي أشار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذه الخطبة إلى وقوعها بعده؟ فقد ورد في رواية عن النبي صلى الله عليه وآله تعرض للتفاصيل أكثر من رواية نهج البلاغة، أنه قال:

«إن أمتي ستفتن من بعدى فتأول القرآن وتعمل بالرأى وتستحل الخمر بالنبيذ [١٤٤] والسحت بالهدية والربا بالبيع وتحرف الكتاب عن مواضعه وتغلب كلمة الضلال فكن جليس بيتك حتى تقلدها، فإذا قلدها جاشت عليك الصدور وقلبت لك الأمور» [١٤٥]. فهذا الحديث الذي ذكره ابن أبي الحديد في شرحه لهذه الخطبة يبين تلك الفتنة الكبرى [١٤٦].

السؤال الرابع والأخير:

لماذا سأل على عليه السلام بشأن شهادته؟ فهل أشار النبي صلى الله عليه وآله إلى شهادته حين تحدث عن تلك الفتنة؟ والحال لم يرد في الخطبة ما يشير إلى هذا الأمر؟ والجواب كما أسلفنا أن المرحوم السيد الرضى (ره) قد أوجز الخطبة. وقد ورد في الروايات المفصلة أن علياً عليه السلام لما سمع من النبي صلى الله عليه وآله وقوع هذه الفتنة قال: يارسول الله لقد وعدتني بالشهادة فاسأل الله أن يعجل لي بين يديك. قال صلى الله عليه وآله: فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين؟ أما أنى وعدتك الشهادة وستشهد تضرب على هذه فتخضب هذه [١٤٧].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٤

٢. الشهادة مفخرة لا مصيبة

القضية الجديرة بالذكر في هذا المقطع من الخطبة ما ورد من حوار بين النبي صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام، حيث تطرق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى مفهوم الصبر الذي يكشف عن ذروة الإيمان وقمة الإيثار والتضحية في سبيل الله والقيم الإسلامية التي لم تنقل عن شخص آخر على غرار ما هي عليه بالنسبة لعلي عليه السلام، ولعلنا نلمس امتدادات ذلك في صرخته التي اطلقها عليه السلام حين ضرب في محراب عبادته وخضب بدمه،

«فُرْتُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ».

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٥

القسم الخامس

وَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنُّونَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أَنْزَلُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ أِبْمَنْزِلَةٍ رِدَّةٍ، أَمْ بِمَنْزِلَةٍ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: «بِمَنْزِلَةٍ فِتْنَةٍ».

الشرح والتفسير: الحيل الشرعية في استحلال المحرمات

قال الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الذي يمثل آخرها ومواصلة لنقل كلام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بخصيص الفتنة التي تقع من بعده:

«وَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنُّونَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتَ [١٤٨] بِالْهَدِيَّةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ».

فقد ركز رسول الله صلى الله عليه وآله على تفاصيل هذه الفتنة الكبرى وأشار إلى خمس صفات من صفات الفئة التي تعيش ذلك الاختبار. فصرح قبل كل شيء بافتنانهم بأموالهم في إشارة إلى أن المال من المحاور الرئيسية في الاختبار والامتحان، كما نرى أن الأمر كذلك في كل عصر ومصر، والآخر، أنهم يعيشون حالة من الغرور

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٦

الزائف، ذلك أنهم يتناولون على الناس بإسلامهم وكأنهم يمتنون على الله، ويظنون رغم كل آثامهم بنيل رحمة الله والأمان من عذابه، وهذه هي الحالة التي تستحوذ عادة على جميع الاثمين المغرورين الراضين عن أنفسهم.

قال القرآن الكريم بشأن بعض الأعراب الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً واتسموا بتلك الصفات: «يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَّا تَمُنُوا عَلَيَّ إِشْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [١٤٩].

الميزة الأخرى لهؤلاء أنهم يحاولون التغطية على أعمالهم السيئة بغية خداع الآخرين وربما خداع أنفسهم. فهم على سبيل المثال يتناولون الخمر وحين يشكل عليهم بأنهم من المحرمات، قالوا: بل هذا النبيذ الذي كان يشربه رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه، في حين لم يكن ذلك النبيذ مسكراً ولا حراماً، وقضية ذلك النبيذ أن أصحابه بعد أن قدموا إلى المدينة وشكوا من طبيعة الماء، أشار عليهم بقذف عدة تميرات في ظرف كبير من الماء. ولم يكن ذلك الماء مضافاً، كما لم تكن التميرات بالحد الذي يؤدي إلى السكر، فكانوا يشربون من ذلك الماء ويتوضؤون به، إلا أن بعض المغرضين استغل هذه القضية وقذف المزيد من التمر وعرضها للحرارة حتى تخمرت وتحولت إلى مسكر، فكانوا يتعاطونه باسم النبيذ [١٥٠]. على غرار الكثير من الأشخاص ضعاف الإيمان في الماضي والحاضر الذين يصطلحون على الرشوة بالهدية، كما يمارسون الربا في معاملاتهم باسم البيع. طبعاً يسعى الآثمون في الأوساط الدينية التي لا يخفى فيها الإثم ويؤدي إلى بعض المشاكل بالنسبة لمن يقارفه إلى ممارسة الحرمات من خلال بعض المظاهر الزائفة، وهذا ما تناولته الأخبار الواردة بشأن الفتنة.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته في حديثه مع الرسول الله صلى الله عليه وآله:

«قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٧

فَبَأَيِّ الْمَنَازِلِ أَنْزَلْتَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ أَيْمَنْزِلَهُ رَدَّةٌ [١٥١]، أَمْ بَيْمَنْزِلَهُ فِتْنَةٌ؟ فَقَالَ: «بَيْمَنْزِلَهُ فِتْنَةٌ»

. يبدو أن هؤلاء الأفراد يقرون بالتوحيد والنبوة وكان انحرافهم في القضايا العملية، ولم يكونوا منكرين حتى لضروريات الدين وكانوا يسعون لتمويه ما يقترفون من محرمات بغطاء الحلال، وعليه لا يجري عليهم حكم الارتداد، ولم يعاملهم الإمام عليه السلام كمرتدين.

تأمل: الحرام لا يحل بالزيف

ما أورده النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن الفتنة لا يقتصر على عهد على عليه السلام بل يمتد ليشمل كل العصور بما فيها عصرنا الراهن. فهناك العديد من الأفراد الذي يظنون أنهم في ركب المؤمنين حين يجري الكلام عن الأموال والثروة غير المشروعة وكأنهم يمتنون على الله بإسلامهم ويطمعون بعفوه ورحمته. والأسوأ من ذلك ارتكاب الكبائر في إطار بعض العناوين المباحة والمزيفة، بعبارة أخرى يرتكبون هذه المخالفات من خلال التحايل على القانون واستغلال بعض فقراته المرنة. ولعلنا نشاهد اليوم أغلب المرابين الذين يتشبثون بمختلف الحيل، تارة باسم تبادل العملات النقدية بأخرى وتارة أخرى عن طريق «ضم الضميمة» أي أنهم يضمون إلى المعاملة شيئاً زهيد القيمة فيبيعونه بقيمة فادحة، وأحياناً باسم تقاضى الأجر وأخرى ببيع الشروط الكاذبة أو حق العمل وذريعة التضخم وسائر العناوين الكاذبة والزائفة لإضفاء الحلية على الربا، حتى عدنا نلمس بوضوح ما قاله النبي صلى الله عليه وآله بهذا الخصوص

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرَّبَا فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ» [١٥٢]

. حقاً أن هذا النوع من المخالفه للقوانين الشرعية هو أسوأ وأخطر من

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٨

المخالفة الصريحة؛ لأنها قد تستشري سريعاً في أوساط المجتمع دون أن تصطدم ببعض الموانع، والحال ليست المعاصي الصريحة

بهذا الشكل والتي تصطدم بالكثير من العقبات في المجتمعات الدينية. أضف إلى ذلك فإن هذا الهروب من القانون يعد جريمة مضاعفة؛ فهو ينطوي على معصية الربا إلى جانب الرياء والتلاعب بأحكام الدين. بعبارة أخرى، لا يبقى من القانون والحكم الشرعي في الهروب سوى صورته الظاهرية مع اسقاط مضمونه وفلسفته؛ فتحريم الربا مثلاً يستند إلى مفسده العديدة على النظام الاقتصادي للمجتمع وإثارة السلبية في خلق الطبقة البغيضة وبروز الطبقة المعدمة إلى جانب تلك المرفهة، ومن هنا عدته بعض الروايات أسوأ من الزنا بالمحارم وأنه بمثابة محاربة الله، وذكرت سبعا من مفسده أوضحناها في بحث الربا [١٥٣]. ولنا أن نتساءل: هل تزول هذه المفسد بممارسته بعض الأمور الظاهرية من قبيل إضافة علبه كبريت أو مقدار من النبات إلى تلك المعاملة الثقيلة؟ كلا. وهل يكمن جوهر المشكلة في كلمة السحت والربا كما قال المرحوم وحيد البهبهاني وأن جميع مساويء الربا إنما تعود إلى هذه الألفاظ، أم أن هنالك حكمة في هذا الحكم لا ينبغي الغفلة عنها؟!

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٩

الخطبة ١٥٧

إشارة

يُحُثُّ النَّاسَ عَلَى التَّقْوَى [١٥٤]

نظرة إلى الخطبة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة كسائر خطب نهج البلاغة بحمد الله والثناء عليه، ثم خاض في بعض الأمور الحساسة. تطرق في القسم الأول إلى الاعتبار بالماضين - الذين نشترك معهم في المصير - ليأخذ بأيدينا إلى أعماق التاريخ لننظر بوضوح لمصيرنا فنظفر بالسعادة.

وأشار في القسم الثاني إلى أهميّة الورع والتقوى والترود من الدنيا للآخرة، وحذر من أن نهاية الحياة الدنيا ليست معلومة لأي فرد فلا ينبغي الغفلة. وتحدث في القسم الثالث عن المراصد التي تتابع أعمال الإنسان بما فيها الملائكة والحفظة وحتى جوارح الإنسان وأعضائه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١٠

وخاض في القسم الأخير في نهاية الحياة وعالم القبر والوحشة هنالك وفناء الدنيا والقيامة من خلال عبارات قصيرة تهز الإنسان وتحثه على اغتنام الفرصة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١١

القسم الأول

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مَفْتَاْحًا لِذِكْرِهِ، وَسَبَبًا لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ. عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرِيهِ بِالْمَاضِينَ؛ لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَدًا مَا فِيهِ. آخِرُ فَعَالِهِ، كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ. فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَخِيدُوكُمْ حَيْدُ الرَّاجِرِ بِشَوْلِهِ: فَمَنْ شَعَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَارْتَبَكَ فِي الْهَلَكَاتِ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيْطَانِيَّتُهُ فِي طُعْيَانِهِ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ. فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ.

الشرح والتفسير: انعطافاً على المبدأ والمعاد

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله بعبارات جديدة فقال:

«الْحَمْدُ [١٥٥] لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ

الْحَمْدَ مِفْتَاحًا لِذِكْرِهِ، وَسَبَبًا لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ»

. أمياً بشأن الذكر الوارد في العبارة، فقد قيل: المراد به القرآن الكريم حسب بعض الآيات التي عبرت عنه بالذكر، وذلك لأن سورة الحمد بداية القرآن (بناءً على أن سورة الحمد أول سورة نزلت على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأن القرآن جمع بهذا الشكل على عهد

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١٢

النبي صلى الله عليه وآله وأمه وأمه وقد صدر بسورة الحمد [١٥٦]. أو أنها إشارة إلى بعض السور القرآنية التي تصدرت بالحمد كسورة الحمد والأنعام والكهف وسبأ وفاطر. أو أن الذكر مطلق ذكر الله كما ورد في الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم» [١٥٧]

. ومن هنا نشاهد أغلب خطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمعصومين عليهم السلام تستهل بحمد الله والثناء عليه. والعبارة (سبباً للمزيد من فضله) إشارة للآية الكريمة:

«لَنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ» [١٥٨]

وهنا لابد من الالتفات إلى أن الحمد ورد في أغلب الآيات القرآنية بمعنى الشكر. والعبارة (دليلاً على عظمتهم وآلانه) إشارة إلى أننا حين نحمد الله ونشكره فإننا نكون قد توجهنا إلى نعمه وآلائه إلى جانب التفاتنا لمقام عظمتهم.

ثم خاطب الإمام عليه السلام عباد الله ليحذروهم من تقلب الدنيا ويوصيهم بالاعتبار بمن سبقهم من الماضين فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ الدَّهْرَ [١٥٩] يَجْرِي بِالبَاقِينَ كَجَزْيِهِ بِالمَاضِينَ»

. والعبارة تشير إلى موضوع معروف في أن التاريخ يعيد نفسه وأن حوادث اليوم هي حوادث الأمس بتغيير طفيف. ويقول موضحاً ذلك

«لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَداً مَا فِيهِ، آخِرُ فَعَالِهِ، كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ».

أجل، لو تمعنا قليلاً عرفنا أن سلسله من الأصول تحكم تاريخ البشرية وأنها تبرز كل يوم بصيغته الجديدة، ومن هنا يستطيع كل فرد الوقوف على مستقبله من خلال دراسة تاريخ الماضين، ذلك أن تاريخ الأمس مرآة عاكسة لأحداث اليوم. فهناك على الدوام فئة تمسك بزمام الأمور وتسيطر على كل شيء ولا تمضي عليها مدّة حتى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١٣

يدب فيها الضعف والعجز وتتخلى عن تلك السلطة مختارة أو مرغمة إلى الآخرين «فإذا حياءً أجلهم لا يشد تأخر و ساعية ولا يشد تقدّمون»، كما جرت العادة على أن يولد الفرد طفلاً ثم يصبح شاباً يافعاً وبالتالي يسير إلى الشيخوخة والهرم لينتظر أجله فيلتحق بقافلة الموتى ويتوسد التراب.

وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من هذا الأمر حتى يسدى نصائحه ومواعظه

«فَكَانَكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ [١٦٠] حَدْوُ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ»

. وبالنظر إلى أن الزاجر تطلق على من يسوق الجمال بسرعة، والشوال جمع شائلة التي تطلق على الجمال الخفيف، أي التي مضت مدّة على وضعها لحملها وقد جفّ ثدياها وبالطبع لا يلتفت إليها الراعي، نستنتج أن الدهر يسوق الناس سراعاً إلى الفناء. فما أسرع الليالي والأيام والسنوات والأشهر، إلى جانب الحوادث المفاجئة والأمراض وسائر الأمور التي تستهدف حياة الإنسان.

ثم يلفت عليه السلام الانتباه بعد ذلك التحذير إلى هذه الحقيقة: «فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَارْتَبَكَ [١٦١] فِي الْهَلَكَاتِ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيْطَانُهُ فِي طُعْيَانِهِ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ»

. فكل إنسان ينطوي على بعض المناقص والمثالب ونقاط الضعف وليس له من سبيل سوى إصلاحها ليتدرج في المسيرة نحو الإنسان الكامل فيستحق قرب الله وخلافته، أمّا من صوب نظره خارج ذاته وانهمك بسائر قضايا الناس كالمال والثروة والجاه فلا مناص أنه سيعيش الحيرة والارباك، والأسوأ من ذلك أن الشياطين تتخطف هذا الإنسان الغافل فتسوقه إلى الطغيان وتزين له سوء أعماله حتى يراها من مواطن قوته فيفخر بها، ومن الطبيعي أن مثل هذا الإنسان لا سبيل لديه إلى النجاة. صرح القرآن بشأن مثل هذا الفرد: «كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [١٦٢].

نفعات الولاية، ج ٦، ص: ١١٤

وأشار عليه السلام في ختام هذا القسم من الخطبة إلى مصير هذا العمل فقال: «فَالجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفْرَطِينَ»

والمراد طبعاً من السابقين، السابقين في ميدان طاعة الله وهدفهم الجنة، على غرار ماورد في القرآن الكريم: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا» [١٦٣] العبارة (والنار غاية المفرطين) إشارة إلى الأفراد الذين تؤول أمورهم إلى النار بفعل تقصيرهم وعدم استغلالهم الفرص؛ حيث يقول القرآن الكريم بشأن مثل هؤلاء الأفراد: «قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا» [١٦٤].

تأمل: كيف يعيد التاريخ نفسه

تاريخ البشرية سلسلة من الأحداث الجمّة المتنوعة والمختلفة، ولكن ما أن تأملها بدقه حتى نستطيع التوصل إلى خصائص تلك الأحداث المختلفة وتقولبها في فئات معينة وعناوين خاصة، وبعض تلك الخصائص كما يلي:

١. الزوال السريع للنعم والسلطات: نعم، فالنعم والسلطة تأتي بسرعة وتزول كذلك وتنتقل من طرف لآخر.
٢. التقلب: التقلب هو احد مميزات حوادث هذا العالم فما أن يتعلق الإنسان بشيء حتى يفقده، وما أن يدوب في شخص حتى يفجع به.

٣. غدر الدنيا: وقد ضرب المثل بهذا الشأن حتى قيل (لمن صفت الدنيا لتصفو لنا).

٤. النصر والهزيمة: ما زالت ذاكرة التاريخ حافلة بالكثير من الأفراد والطوائف

نفعات الولاية، ج ٦، ص: ١١٥

الذين عاشوا الانتصار وغروره ولكنهم ما لبثوا أن تجرعوا غصص الذل والهوان ومرغت انوفهم بوحل الهزيمة.

٥. استبدال الود بالعداء والعكس: فأقرب مقربى الإنسان اليوم قد يصبح عدوه في الغد كما أن أعداء الأمس قد يصبحون أصدقاء اليوم، الأمر الذي نلاحظه بجلاء في حياة الساسة والحكام.

٦. الترحم واللعن: الذى يبقى فعلا ويدعو إلى الذكر الحسن لدى الناس هو أعمال الخير والبر والمروءة والاخلاص، والعكس صحيح، فليس للظلم والطغيان سوى اللعن.

نفعات الولاية، ج ٦، ص: ١١٧

اعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لَمَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلَمَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ. أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقَطَّعُ حُمَةُ الْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْعَايَةُ الْقُصْوَى
عِبَادَ اللَّهِ، اللَّهُ اللَّهُ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقِهِ. فَشِقْوَةٌ لَازِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ! فَتَرَوْدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبُقَاءِ. قَدْ دَلَلْتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَأَمَرْتُمْ بِالطَّعْنِ، وَحِثَّيْتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكِبٍ وَوُفُوفٍ، لَا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ. أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالذُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسَلِّبُهُ، وَتَبَقَى عَلَيْهِ تَبَعْتُهُ وَحِسَابُهُ!
عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرُكٌ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ.
عِبَادَ اللَّهِ، اخْذَرُوا يَوْمًا تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزَّلْزَالُ وَتَشِيبُ فِيهِ الْأَطْفَالُ.

الشرح والتفسير: ثقل الدنيا

قال الإمام عليه السلام هنا- بعد أن خاض في ثقل أحوال الدنيا واعد المخاطبين لاستماع المواعظ والإرشادات:
«اعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لَمَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ»
. إشارة إلى أن

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١١٨

التقوى ملكة باطنية قوية تحول دون مقارفة الإنسان للذنوب وهذا ما يؤدي بدوره إلى الاحتراز من انعكاسات الذنوب الخطيرة في الدنيا والآخرة، بعكس الأفراد المجانبيين للورع والتقوى والذين يصبحون عرضة لنفوذ الشياطين وأهواء النفس وبالتالي السقوط في مستنقع الذنوب والفضيحة في الدنيا وسوء العذاب في الآخرة.

ثم تطرق عليه السلام إلى آثار التقوى فقال:

«أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقَطَّعُ حُمَةُ [١٦٥] الْخَطَايَا،

وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْعَايَةُ الْقُصْوَى

فالإمام عليه السلام يشبه سطوة الذنوب بالحشرات السامة كالحية والعقرب. نعم، فالتقوى هي التي تمنح الإنسان الحياة، ولما كانت التقوى واليقين لازماً وملزوماً لبعضهما البعض فقد صرح الإمام عليه السلام بأن من ينطق باليقين يبلغ الهدف، والتقوى تزيل عقبات الطريق ولا يفرز عدم التقوى سوى ضعف اليقين.

فهل يسع من يوقن بهذه الآية:

«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا» [١٦٦]

أن يأكل مال اليتيم؟ وهل يسعك أن تجد شخصاً يتناول قطعة من النار ويضعها في فمه؟! ثم قال في إطار حث الآخرين على التزود من الدنيا للآخرة:

«عِبَادَ اللَّهِ، اللَّهُ اللَّهُ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ»

. قطعاً المراد من (أعز الأنفس) في هذه العبارة نفس الإنسان، ذلك لأن حب الذات مسألة طبيعية لدى الإنسان وإن تعلق بشخص أو شيء ففي ظل غريزة حب الذات (بغض النظر عن أولئك الذين تجاوزوا ذاتهم ولم يعودوا يروا سوى الله وذاته المطلقة ولا يرومون سواه. على كل حال، فالمراد: إن لم ترحموا أحداً فعلى الأقل ارحموا أنفسكم وإن غفلتم عن مصالح الآخرين فلا- تغفلوا عن مصالحكم، فهذا الأمر مودع في فطرتكم.

ثم حذر قائلاً:

«فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقِهِ. فَشِقْوَةٌ لَازِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ!»

. وخاض أخيراً في بيان أسباب نيل السعادة الدائمة واجتناب

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١٩

الشقوة الدائمة فقال:

«فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ. قَدْ دُلِّتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَأَمَرْتُمْ بِالظُّعْنِ [١٦٧]، وَحُشِّتُمْ [١٦٨] عَلَى الْمَسِيرِ»

. جدير ذكره أن المراد من الزاد: التقوى والعمل الصالح الذي أشار إليه القرآن: «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى [١٦٩].» والعبارة (أمرتم بالظعن ...) يمكن أن تكون إشارة إلى أمر تشريعي ورد في الآيات المرتبطة بفناء الدنيا وأن كل شخص سيدوق في خاتمة المطاف طعم الموت على ضوء الدلالة الالتزامية، كما يمكن أن يكون إشارة إلى أمر تكويني؛ لأن الله خلق أسباب الحركة بحيث يسرع الطفل نحو الشباب والشباب إلى الكهولة وحث الخطى نحو دار البقاء، وقد أصدر أمره ببحث الحركة نحو أسباب العفو والمغفرة: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم» [١٧٠]. كما ورد في الخطبة ٣١ من نهج البلاغة في وصية الإمام عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: «يا بني من كانت مطيته الليل والنهار، فإنه يسار به وإن كان واقفاً، ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً».

ثم واصل كلامه بتشبيه بليغ فقال:

«فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكِبٍ [١٧١] وَقُوفٍ، لَا يَدْرُونَ مَتَى

يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ»

. لعل هنالك من يتساءل كيف التوفيق بين عبارة الإمام عليه السلام وقوله (أمرتم بالظعن) التي اردفها بالعبارة (لا يدرون متى يؤمرون بالسير)؟ وإن أدنى تأمل يفيد أن العبارة الأولى إشارة إلى الحركة في الدنيا نحو الكمال والمسارة في أعداد عناصر العفو والمغفرة، أما العبارة الثانية فهي تشير الحركة من الدنيا إلى الآخرة.

على كل حال فقد ورد هذا التشبيه في سائر مواضع نهج البلاغة ومنها الكلمات القصار حيث قال عليه السلام:

«أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكِبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ» [١٧٢]

وهذا النوم هو الغفلة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢٠

التي يعيشها أغلب الناس. ثم قال في توضيح هذه الحقيقة:

«أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالْدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسَلَّبُهُ، وَتَبَقَى عَلَيْهِ تَبَعُهُ [١٧٣] وَحِسَابُهُ!»

. إن كانت دارنا الأصلي هي دار الآخرة والدار الدنيا ليست سوى ممر فما معنى تعلقنا بهذه الدنيا؟ وما معنى كل هذا السعي والجهد

من أجل جنى الأموال ولو عن طريق مزج الحلال بالحرام وهي ليست سوى وديعة لدينا وإن يوماً سنفارقها ونحاسب عليها؟

ثم استعان الإمام عليه السلام في اطار حثه الآخرين على الخير والإحسان واجتناب الشر والسوء بمنطقتين مؤثرتين؛ الأول الذي قال فيه:

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرُكٌ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَوْعَبٌ»

. إشارة إلى أن من أمر ونهى ووعده بالثواب وتوعد بالعقاب ليس فرداً عادياً يمكن الريبة في كلامه.

والثاني الذي قال فيه:

«عِبَادَ اللَّهِ، اخْذَرُوا يَوْمًا تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزَّلْزَالُ وَتَشِيبُ [١٧٤] فِيهِ الْأَطْفَالُ»

. ففي ذلك اليوم ستخضع جميع الأعمال مهما كانت صغيرة لدراسة دقيقة، كما قال القرآن الكريم: «يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صِيحْرِهِ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» [١٧٥]، والمراد من كثرة الزلازل في ذلك اليوم زلزلة الافكار وارتعاد القلوب من هول المحشر وخوف نتيجة الأعمال. صحيح أن نهاية العالم ستشهد زلزلة بمعناها الحقيقي

والتي تقلب كل شيء رأساً على عقب، وما ورد في العبارة إشارة إلى الزلزلة الفكرية والاضطراب الذي يعانيه الإنسان في ساحة الحشر. والعبارة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢١

«تشيب فيه الأطفال»

كناية عن عمق وشدة ذلك المشهد وهو التعبير السائد لدينا في المكالمات اليومية حين نقول: إن تلك الحادثة مثلاً تشيب الإنسان، كما ورد في القرآن الكريم: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا» [١٧٦] نعم، ذهب البعض إلى أن شيب الأطفال هنالك بالمعنى الحقيقي لا- الكنائي، إلا أن هذا الاحتمال بعيد، فليس هنالك ما يشير إلى أن الطفل الذي يتلقى العذاب يشيب بفعل هول العذاب.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢٣

القسم الثالث

اعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصِيداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحِفَاطَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ، وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ، لَاتَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةٌ لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُورِتَاجٍ وَإِنْ غَدَا مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. يَذْهَبُ الْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ الْغَدُ لَأَحْقَابِهِ، فَكَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْأَرْضِ مَنْزِلَ وَخِيدَتِهِ، وَمَخَطَّ حُفْرَتِهِ. فَيَا لَهُ مِنْ بَيْتِ وَخِيدَةٍ، وَمَنْزِلِ وَخِشَّةٍ، وَمُفْرَدِ غُرْبَةٍ! وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، قَدْ زَاخَتْ عَنْكُمْ الْأَبَاطِيلُ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْكُمْ الْعِلَلُ، وَاسْتَحَقَّتْ بِكُمْ الْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا، فَاتَّعَظُوا بِالْعِبَرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغَيْرِ، وَأَنْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ.

الشرح والتفسير: حضور المحكمة الإلهية

أشار الإمام عليه السلام تماماً لمواعظه السابقة إلى ثلاثة أمور مهمة؛ الأول، بشأن حفظه الأعمال، والثاني، الموت والقبر، والثالث، الحساب يوم القيامة والتي من شأنها تنبيه الغافل ويقظته من سبات الغفلة، فقال في الأمر الأول:

«اعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصِيداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحِفَاطَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ، وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ».

ثم وضع طبيعة هؤلاء المراقبين فقال:

«لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةٌ لَيْلٍ دَاجٍ [١٧٧]، وَلَا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢٤

يُكِنُّكُمْ [١٧٨] مِنْهُمْ بَابٌ ذُورِتَاجٍ [١٧٩]»

. العبارة

«أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصِيداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ»

إشارة إلى شهادة أعضاء بدن الإنسان وجوارحه وجلده يوم القيامة، كما عبر عن ذلك القرآن الكريم: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [١٨٠] ثم قال:

«شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» * وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ

شَيْءٍ [١٨١]. بالنظر أن معنى «الرصد» الرقيب، و«عيون» بمعنى الاطلاع فإن المفردتين من قبيل الإجمال والتفصيل؛ أي أن مراقبي

أعمال الإنسان في الدرجة الأولى أعضاؤه وجوارحه التي تنطق يوم القيامة وتشهد على جميع أعماله. أما ما ذهب إليه بعض شراح نهج

البلاغه من أن «الرصد» يعني وجدان الإنسان الذي يلومه على الأعمال السيئة، فليس بصحيح؛ لأن الوجدان قاضي الباطن لا المراقب

والشاهد الكامن في مفهوم الرصد. وهل هذه الشهادة بلسان القال والنطق المتعارف أم بلسان الحال وشهادة الآثار؟ الاحتمالان واردان؛ لأنّ أى عمل يقوم به الإنسان تنعكس آثاره على جميع أعضائه وستظهر هذه الآثار يوم القيامة لتفصح عن جميع أعماله التي أتى بها طيلة عمره، كما يمكن تبديلها إلى أمواج صوتية يسمعها الجميع. والعبارة «وَحُفَاظَ صِدْقٍ»

إشارة إلى الملائكة الموكلة بضبط أعمال الإنسان، كما ورد في القرآن الكريم: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كَرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ» [١٨٢] وهنا يرد هذا السؤال المعروف: ما حاجة الله إلى هؤلاء الملائكة رغم علمه الذي أحاط بكل شيء وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد؟ وتتضح الإجابة عن هذا السؤال من خلال الالتفات إلى هذه النقطة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢٥

وهي أنّ الإنسان كائن مادي وليس له من معرفة عميقة بعالم ماوراء المادة ولا يشعر بقرب الله منه؛ إلّا أنّه يدرك هذا المطلب تماماً حين يقال له إنّ أعضاء بدنك ستشهد عليك يوم القيامة، كما يعبر هذا الموضوع أهمية كبرى إن قيل له: عليك ملكان يكتبان كل أعمالك، وهذا بدوره يمثل عنصراً مهماً في رده عن ارتكاب الذنوب والمعاصي. فالله سبحانه وتعالى أراد بكل وسيلة أن يصد عباده عن الذنوب، وشهادة الأعضاء والملائكة واحدة من هذه الوسائل.

الغريب في الأمر أنّ هؤلاء الحفظة يحصون على الإنسان حتى عدد أنفاسه ولا يحتاجون في كتابتهم لأعمالنا لأدنى سراج ومصباح، فهم يكتبون حتى في عتمة الظلمة المطلقة، ولكن ما كيفية هذه الكتابة؟ قطعاً ليس ذلك من قبيل كتابتنا وإن لم نحط علماً بتفاصيل ذلك.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه عن الموت والقبر الذي يهزّ الغافل بعنف فقال:

«وَإِنَّ غَدًا مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. يَذْهَبُ الْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ الْغَدُ لَأَحِقًّا بِهِ»

. المراد من

«الغد»

قرب نهاية العمر والموت الذي إن غفل عنه الإنسان يهوى في مستنقع الغفلة فإن رآه قريباً راقب أعماله وقام بوظيفته وتاب من ذنوبه. حقاً أنّ نهاية العمر ليست بعيدة مهما عمّر الإنسان، ذلك أنّ الأشهر والسنين تمرّ بسرعة إلى جانب الحوادث غير المتوقعة والأمراض التي تهجم على الإنسان فجأة وتقتضى عليه. وذهب بعض الشراح لنهج البلاغة إلى أنّ المراد ب

«الغد»

في العبارة المذكورة غد القيامة، وهذا المعنى وإن كان قريباً إلّا أنّ المعنى الأول وبالاستناد إلى العبارات القادمة التي تحدثت عن القبر أنسب.

ثم ذكر الجميع بوحشة القبر فقال:

«فَكَأَنَّ كُلَّ أَمْرٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ، وَمَخَطَّ [١٨٣] حُفْرَتِهِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ، وَمَنْزِلِ وَحْشَةٍ، وَمُقَرَّدِ غُرْبَةٍ!».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢٦

أجل، فالإنسان الذي لا يتحمل الوحدة لساعته ويعيش دائماً بين صحبه وقربته وأهله، لا يكاد يغمض عينيه عن هذه الدنيا حتى يفارق الجميع وإلى الأبد فينزل حفرة مظلمة ومرعبة في وحدة وغربة مطلقة، فيالها من غربه أليمة صعبة، اللهم إلّا أن يظفر بأصحاب جدد من أعماله الصالحة فتجعل الملائكة قبره روضة من رياض الجنة، لا حفرة من حفر النار.

قال الإمام الصادق عليه السلام

نفحات الولاية ؛ ج ٦ ؛ ص ١٢٦

«إِنَّ لِلْقَبْرِ كَلَاماً فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقُولُ: أَنَا بَيْتُ الْغُرَيْبِ، أَنَا بَيْتُ الْوَحْشَةِ، أَنَا بَيْتُ الدُّودِ، أَنَا الْقَبْرِ، أَنَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ» [١٨٤].

وأخيراً ما أن يفرغ الإمام عليه السلام من بيان الموت والقبر حتى يتجه صوب القيامة ومحكمة العدل الإلهي ليحذر الجميع قائلاً: «وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشَّيْتُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، قَدْ زَاخَتْ عَنْكُمْ الْأَبَاطِيلُ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْكُمْ الْعُلَلُ، وَاسْتَحَقَّتْ بِكُمْ الْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا» . «وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ» .

، في العبارة، إشارة إلى صيحة القيامة التي توقظ جميع الموتى وتنشرهم من قبورهم وتدفعهم إلى الحساب. يستفاد من الآيات والروايات أن العالم ينتهي بصيحة عظيمة يقال لها نفخة الصور الأولى ثم تتبعها صيحة عظيمة أخرى تدعى نفخة الصور الثانية، وما ورد في الخطبة بقرينه ما بعدها من عبارات، إشارة إلى النفخة الثانية. والتعبير بالساعة، إشارة إلى القيامة، لأن الساعة تعني في الأصل، برهه من الزمان أو لحظة عابرة، ولما كان قيام الساعة سريعاً والحساب أيضاً سريعاً لاستناده للسرعة الحساب فقد عبر عن القيامة بالساعة.

«لِفَضْلِ الْقَضَاءِ»

، القضاء الذي يفصل الحق من الباطل وزوال الأباطيل وضمحلل العلل، إشارة إلى خلو القيامة من الكذب والاعذار الواهية والحجج الجوفاء وكل ما هنالك هو الحق والحقيقة. والعبارة

«وَصَدَرَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ»

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢٧

مَصَادِرَهَا،

إشارة إلى أن كل شخص يرى نتيجة عمله وكل يحل في مكانه الأصلي هنالك. والإمام عليه السلام يرى القيامة قريبة إلى الحد الذي جعله يقول بأن كل شيء كأنه قد وقع ونفخ في الصور وقامت القيامة وخرج الموتى للحشر من قبورهم ونصبت موازين العدل وحصلت نتيجة الأعمال، وكل ذلك يشير إلى مدى قصر عمر الدنيا بالنسبة للآخرة.

وقد عبر القرآن الكريم عن القيامة فقال:

«يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» [١٨٥]

كما عبر عنها بيوم الفصل الذي يفصل الحق عن الباطل وعبر عنها بسرعة الحساب، وقال في موضع آخر:

«وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ» [١٨٦]

و

«يَوْمَ هُمْ

بَارِزُونَ» [١٨٧]

و

«يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ» [١٨٨].

واختتمها بالقول:

«فَاتَعَطُّوا بِالْعَبْرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغَيْرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّدْرِ»

و .

«عبر»

جمع عبرة، إشارة إلى الحوادث الجديرة بالاعتبار والتي عادة ما يحفل بها تاريخ الإنسان وسيشهد لها في حياته، و

«غير»

جمع غيرة بمعنى التغيير، إشارة تغيير النعم ونزول البلاء وتقلب الدهر، و

«نذر»

جمع نذير، والتي تشمل الأنبياء والأوصياء والآيات والروايات وحوادث الدهر.

تأملان

١. الشهود على الأعمال

رغم أن الله شاهد وناظر لأعمالنا في كل حال وزمان ومكان وعلمه الذي أحاط بكل شيء الكافي في عدم شروء أدنى صغيرة وكبيرة، إلا أنه وللمبالغة في الحجة ولفت أنظار المحسنين والمسيئين إلى مراقبه أعمالهم، فقد وكل بنا إضافة لذلك،

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢٨

العديد من الشهود ومنها:

١. أعضاء البدن وجوارحه حتى الجلود على ضوء ما ورد في الآيات. والغريب في الأمر اتضح هذه الحقيقة بعد طرح قضية الإنسان الشبه من أن كل ذرة من ذرات بدن الإنسان استبطنت إنساناً كاملاً، والأغرب، الاستفادة من جلد الإنسان في هذا الموضوع.

٢.

«الحفظ»

و

«الكتاب»

أي الملائكة الموكلة بثبت الأعمال.

٣. الأرض التي نعيش عليها هي الشاهد الآخر، جاء في القرآن: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا [١٨٩].

٤. الزمان الذي نعيش فيه من الشهود علينا يوم القيامة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَا مِنْ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ الْيَوْمُ: يَا بَنَ آدَمَ أَنَا يَوْمٌ جَدِيدٌ وَأَنَا عَلَيْكَ شَهِيدٌ فَقُلْ فِي خَيْرٍ وَأَعْمَلْ فِي خَيْرٍ أَشْهَدُ لَكَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [١٩٠].

٥. شهادة الأنبياء أعظم من كل ذلك، لنص القرآن الكريم في شهادة كل نبي على أعمال أمته يوم القيامة وشهادة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على الجميع: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً» [١٩١] هكذا يخضع الإنسان طيلة عمره لهؤلاء الشهود ومن الجهات الست، وحق لمن آمن بحقيقة هؤلاء الشهود أن يراقب أعماله ويتحفظ عن الأخطاء.

٢. ثلاث عبارات عميقة المعنى

العبارة

«فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغَيْرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذْرِ»

، تنطوي على ثلاثة مفاهيم تكفي لايقظ الإنسان من نوم الغفلة حيث تشير كل واحدة إلى حقيقة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢٩

مستقلة. فالعبارة الأولى ترى كفاية العبر في الموعظة، وتشمل هذه المفردة كافة الحوادث الخطيرة في الماضي والحاضر، بل حتى الحوادث الطبيعية. من قبيل الذهاب والإياب والليل والنهار يمكنها أن تكون عبرة لمن اعتبر: «يَقْلُبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ» [١٩٢]. والعبارة الثانية تشير إلى الوعظ في التغييرات التي تطال حياة الإنسان والعالم. فأعزّه الأمس أذله اليوم، وأذله الأمس أعزّه اليوم، ما أسرع ما يحكم الحاكم ويعتلى المحكوم سدة الحكم، والشباب آيل الكهولة والعجز، والطفل الضعيف سرعان ما يشب ويهرم، ما كان غضاً بالأمس أصبح اليوم تحت التراب في المقابر المهجورة، وهذا الضجيج المرتفع اليوم سيخمد بعد سنوات، يالها من دروس وعبر؟! العبارة الثالثة أن السن الأنبياء والأوصياء والأولياء والعلماء والآيات كلها مشرعة بالتحذير وهي تنادي الحذر الحذر والعمل والعمل.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣١

الخطبة ١٥٨

إشارة

يُنَبِّئُ فِيهَا عَلَى فَضْلِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَفَضْلِ الْقُرْآنِ، ثُمَّ حَالِ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ [١٩٣]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة من قسمين: يؤكد الإمام عليه السلام في القسم الأول على رسم صورة عن عصر البعثة وأهميته القرآن وعظمته وأنه الدواء لكل داء والعلم المتعلق بالماضي والحاضر والمستقبل. أما في القسم الثاني فيشير إلى فتنة بني أمية ومدى ظلمهم وطغيانهم وسعة حجمه، إلا أنه يواصل كلامه بأن هذه الحكومة لن تدوم طويلاً وستولى إلى غير رجعة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣٣

القسم الأول

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأَمَمِ، وَانْتِقَاضِ مِنَ الْمُبْرَمِ؛ فَجَاءَهُمْ بِتَصَدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ. ذَلِكَ الْقُرْآنَ فَاسْتَنْطَقُوهُ، وَلَكِنْ يَنْطِقُ، وَلَكِنْ أَخْبِرُكُمْ عَنْهُ: أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ.

الشرح والتفسير: الكتاب الذي استوعب كل شيء

أشار الإمام عليه السلام في مطلع الخطبة إلى الوضع على عهد الجاهلية والذي تزامن مع بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ [١٩٤] مِنَ

الْأَمَمِ، وَانْتِقَاضِ مِنَ الْمُبْرَمِ [١٩٥]»

. ومضمون هذه العبارات من قبيل العلة والمعلول.

فالفتره التي توسطت عصر ظهور الأنبياء السابقين وخاتمهم كان سبب نوم الغفلة الذي غطت فيه الأمم وهذه الغفلة أدت إلى ذلك الانتقاض المبرم، بمعنى تقطع وشائج الحقائق ونظام الحياة البشرية التي وقعت في وحل المعصية والظلمة. ثم تطرق عليه السلام إلى

بعثة النبي الخاتم والكتاب الذي جاء به مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية:

«فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ»

. فقد قام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بمهمتين؛ إنه بين للناس المعارف والأحكام التي تنسجم مع الأصول الكلية لمعارف وأحكام من مضى من الأنبياء، والأخرى حملة لمشعل الهداية الذي

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣٤

أضاء ظلمات الجهل والضلال. ثم خاض عليه السلام في بيان هذا النور المتمثل بالقرآن:

«ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أَخْبِرْكُمْ عَنْهُ»

. لقد شبهت أغلب الآيات القرآن بالنور، ومنها ما ورد في سورة المائدة: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ» [١٩٦]، وسورة الاعراف: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [١٩٧]، وكما يضيئ النور أجواء الحياة ويحول دون تعثر الإنسان في الظلمة والضلال وينمي النباتات ويرعى جميع الكائنات الحية، فللقرآن مثل هذه المهام في حياة الإنسان المادية والمعنوية.

المراد من

«بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ»

وبالنظر إلى أن بين يديه تعنى هنا ما قبل ليس تصديق التوراة والانجيل الذين طالهما التحريف، بل هي إشارة إلى تلك الكتب السماوية التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام كما لا- يعنى هذا التصديق أن الإسلام يتفق مع هاتين الديانتين في جميع التفاصيل، بل المراد الأصول الكلية التي تشكل المحور المشترك لكافة الأديان السماوية، وإن طبقها الإسلام على مستوى أرفع وأوسع.

والعبارة

«وَلَنْ يَنْطِقَ»

لا تعنى أن القرآن لا يفتح على أى شخص (سوى الأئمة المعصومين عليهم السلام)، وذلك لأن القرآن نزل بلسان عربى مبين ومنطق واضح جلى وقد أمر الجميع بالتدبر فيه والاصغاء إلى مواعظه ليعيشوا الرجاء من خلال آيات البشارة والخوف من خلال آيات الوعيد والانذار. وعليه فالمراد من

«وَلَنْ يَنْطِقَ»

فيما يتعلق ببطون القرآن والأسرار الكامنة فيها، فهذه البطون من اختصاص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام.

ومن هنا قال:

«أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ»

. فالعبارة

«عِلْمَ مَا يَأْتِي»

كما أوردها بعض شراح نهج البلاغة

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣٥

إشارة إلى المسائل المرتبطة بالآخرة من قبيل الحساب والكتاب والصراف والجنة والنار، ولكن يبدو أنها إشارة إلى الحوادث المستقبلية لهذا العالم والكامنة في بطون هذا القرآن والتي يعلم بها المعصومين عليهم السلام بقرينة العبارة القادمة

«وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي»

، التي تشير إلى الأمم السابقة وشرح سيرتها، كما قيل: هي إشارة إلى بداية الخليقة والعصور الأولى لخلق هذا العالم. والعبارة «وَدَوَاءَ دَائِكُمْ»

إشارة إلى التعاليم والمفاهيم التي تعالج كافة أنواع الأمراض الأخلاقية والاجتماعية «وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مِا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ» [١٩٨].

والعبارة الأخيرة:

«وَنُظِّمَ مَا بَيْنَكُمْ»

، إشارة إلى جميع القوانين التي تنظم شؤون المجتمع البشري وتزيل العوائق وتنشر الأمن والاستقرار وبسط العدل والقسط في ربوع البلاد.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣٧

القسم الثاني

ومنها: فَعِنْدَ ذَلِكَ لَمَّا بَقِيَ بَيْتٌ مِدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلْمَةُ تَرْحَةً، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً. فَيَوْمَئِذٍ لَأَبْقَى لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ. أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَسَيِّئْتُمْ اللَّهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَا كَلَّا بِمَا كَلَّ، وَمَشْرَبًا بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلَقَمِ، وَمَشَارِبِ الصَّبْرِ وَالْمَقْرِ، وَلِيَّاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدِثَارِ السَّيْفِ. وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ وَزَوَامِلُ الْأَثَامِ. فَأُقْسِمُ، ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنَحْمَنَهَا أُمَّيَّةً مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفِظُ النُّخَامَةَ، ثُمَّ لَا تَدُوقُهَا وَلَا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَدًا مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ!

الشرح والتفسير: حكومة الظلم ودولة الطغيان

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى فتنة بنى أمية الشاملة والتي تلقى بظلامها على جميع المسلمين دون أن تغادر مسلماً إلّا وجرعته غصص ظلمها وطغيانها، إلى جانب تعذر الفرار من تلك الفتنة، وهي ليست سوى نتيجة طبيعية لأعمال الناس، فقال:

«فَعِنْدَ ذَلِكَ لَأَبْقَى بَيْتٌ مَدْرٍ [١٩٩] وَلَا وَبَرٍ [٢٠٠] إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلْمَةُ تَرْحَةً [٢٠١]، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً»

يمكن أن يرد الهمم والغم بيتاً دون أن يرده الظلم، أما ظلم بنى أمية فقد بلغ درجة بحيث عم الهمم والغم كل مكان، إلى جانب البلاء والمصائب، وذلك لأنّ ولاة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣٨

بنى أمية كانوا جميعاً من بطانتهم الذين سادتهم روح الظلم والانتقام بغيه الاحتفاظ بسلطتهم لأقصى مدّة ممكنة. ثم قال عليه السلام:

«فَيَوْمَئِذٍ لَأَبْقَى لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ.

أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ»

ونفهم من هذه العبارة أنّها تخاطب أولئك الذين صمتموا إزاء الظلم والطغيان بعد أن قصرُوا في أداء مسؤولياتهم، والدليل على ذلك العبارة

«أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ»

؟ وجاء مثل هذا المعنى في الخطبة ١٩٢ التي قال فيها:

«وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَىٰ غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ ثُمَّ لَجِبَرَائِيلُ وَلَا مِيكَائِيلُ وَلَا مُهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ»

وليس من الصواب ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغة من أن المخاطب بالعبارة المذكورة هم الحكام الظلمة والذي يتابع فيه كل صغيرة وكبيرة من أعمالهم السيئة:

«وَسَيَبْتَغِيَنَّ اللَّهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَا كَلَّمَا بِمَا كَلَّلِ، وَمَشْرَبًا بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعُلُقَمِ [٢٠٢]، وَمَسَارِبِ الصَّبْرِ [٢٠٣] وَالْمَقْرِ [٢٠٤]، وَلِنَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدِثَارِ السَّيْفِ.

وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا [٢٠٥] الْخَطِيئَاتِ وَزَوَامِلُ [٢٠٦] الْأَثَامِ»

. إشارة إلى أن الله سيجرعهم كل بلاء يصوبه على الناس وسيذيقهم مرارة الذلة إزاء كل لذة حصلوا عليها من مناصبهم، وقد شهروا سيوفهم على رقاب الناس، وسيسلط الله عليهم من يضع السيف في أعناقهم. وقد ثبت وقوع كل هذه الأحداث كما أخبر عنها الإمام عليه السلام وقد انتقم الله من بنى أمية شر انتقام بحيث دب الرعب والهلع في صفوف من تبقى منهم حتى فروا إلى المناطق النائية ولم يخلفوا لأنفسهم سوى الفضيحة والعار واللعنة الأبدية.

والعبارة:

«وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ»

تشبيه لطيف ورائع. فقد شبههم بالحيوانات

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣٩

حيث باءوا بخطايا الناس إثر جهلهم وافتقارهم للعقل والشعور، على غرار ما وصف به القرآن الكريم تلك الطائفة من الكفار: «وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» [٢٠٧].

ثم اختتم الخطبة بنبوءة حاسمة أخرى بشأن مصير بنى أمية فقال:

«فَأَقْسِمُ، ثُمَّ أَقْسِمُ، لَتَنْخَمَنَّهَا [٢٠٨] أُمِّيَّةٌ مِنْ بَعْدِي كَمَا تَلْفُظُ النُّخَامَةَ، ثُمَّ لَا تَذُوقُهَا وَلَا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَدًا مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ!»

. فقد أورد الإمام عليه السلام عبارة عجيبة بشأن دولة بنى أمية على أنهم شابوا الحكومة الإسلامية بالارجاس والأدناس والقذارة والظلم والفساد فأصبحت كالمواد المخاطية التي يدفعها الصدر والرأس، بحيث سينتهي الأمر إلى ما لا يطيقونه أنفسهم على غرار ذلك الذي يهيم بطرح تلك المواد، فسيفقدون تلك السلطة ولا يظفرون سوى بلعات الناس.

تأملان

١. وظيفة الحاكم والرعية

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى مسألتين مهمتين تتعلقان بحوادث التاريخ المريرة؛ الأولى وظيفته ومسؤولية الحاكم، والأخرى مسؤولية الرعية.

فالإمام عليه السلام لا يقتصر بإلقاء المسؤولية على الحاكم في ممارساته الظالمة، بل يحمل الأمة المستسلمة والراضية بهذا الظلم جزءاً من تلك المسؤولية. فالحكام ومرتزقتهم إنما يمثلون فئة معينة، ولو مارست الأمة وظيفتها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم الرضا والسكوت إزاء الظلم لما سهل على مثل هؤلاء الأفراد الأخذ بزمام الأمور ليعيشوا في الأرض الفساد ويهلكوا البلاد والعباد.

فالإمام عليه السلام يحمل الأمة وأعمالها ما صب عليها من البلاء على أيدي حكومة بنى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤٠

أمية الظالمة، فأنتم الذين أسهمتم في توطيد دعائم هذه الحكومة، وأنتم الذين سلمتم مقاليد الدولة لغير أصحابها، وأنتم الذين

تصمتون اليوم إزاء هذه الجرائم، ولعل هذا من الألفاظ الإلهية بغية العودة إلى أنفسكم وسلوك طريق الحق «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» [٢٠٩]. طبعاً تحميل الأُمّة مسؤوليّة تجاوز الحكّام الظلمة لا يعنى سلب تلك المسؤوليّة عن أولئك الحكّام، ومن هنا تطرق الإمام عليه السلام العذاب الشديد الذى ينتظرهم، فبين بعبارات قصيرة عميقة المعنى مصيرهم الأسود ونهايتهم الأليمة.

٢. فاجعة نهاية دولة بنى أمية

نعلم أنّ دولة بنى أمية استغرقت أكثر من ثمانين سنة لتحكم من قبل ١٤ حاكماً من حكام بنى أمية وقد حكم البعض منهم لأقل من شهرين، إلّا أنّ التاريخ لم يشهد مثيلاً لظلمهم الذى طال الناس عامة ولا سيّما أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وبنى هاشم. وبالطبع فإنّ بنى أمية لم يشهدوا الأمان والراحة طيلة مدّة حكمهم حيث كانت تتوالى عليهم الثورات والنهضات، فكانوا يقمعونها بقوة الحديد والنار وسفك المزيد من الدماء، حتى قامت عليهم الأُمّة بأسرها دفاعاً عن آل محمد إثر الشعار الذى رفع آنذاك «الرضا لآل محمد» [٢١٠]

والذى لم تكن نتيجته سوى مجى بنى العباس. أصدر الخليفة العباسى أوامره بقتل جميع بنى أمية فوق فيهم القتل بما لا يحصى، حتى نبشوا القبور وأحرقوا من كان فيها منهم (من أراد المزيد فليراجع آخر الخطبة ١٠٦ الجزء الرابع والخطبة ٩٣ الجزء الأول والجزء الثالث). وذكر المرحوم العلامة التستري فى الجزء السادس من شرحه لنهج البلاغة أنّه حين قتل مروان

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤١

آخر خلفاء بنى أمية مروان، هجم عامر بن إسماعيل على داره وكان فيها ونسائه.

فغلقوا الأبواب وتعالى الصرخات. فأمسك عامر برجله وسأله عن عائله مروان.

قال أمرنى مروان إن قتلت فاقتل جميع بناتى (حتى لا يقعن فى أيدي الآخرين) لكنى لم أفعل. وهنا احضروا له اثنتين من بناته، فأمر بوضع رأس مروان فى حجر بنته البكر وقال لها: معذرة، هذا ما فعلتموه برأس يحيى بن زيد حين وضعت رأسه فى حجر أمّه، وكنتم أول من فعل ذلك والبادىء أظلم، ثم أمر بقتلهم جميعاً [٢١١].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤٣

الخطبة ١٥٩

إشارة

يُبَيِّنُ فِيهَا حُسْنَ مُعَامَلَتِهِ لِرُعِيَّتِهِ [٢١٢]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى قضية لطيفة فى أنّه عاملهم قدر المستطاع بالرفق والاحسان على ما بدر منهم من حسن التصرف والسلوك رغم قلته وكثرة إساءة التصرف فعفى عن كثير ظلمهم وما يكونون من العدا والبغضاء.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤٥

وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جَوَارِكُمْ، وَأَخْطُتُ بِجَهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ. وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رَبِّ الدُّلِّ، وَحَلَقِ الضَّيِّمِ، شُكْرًا مِنِّي لِلْبَرِّ الْقَلِيلِ وَإِطْرَاقًا عَمَّا أَدْرَكَهُ

الْبَصْرُ، وَشَهَدَهُ الْبَدَنُ، مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ.

الشرح والتفسير

الدعم المطلق

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة القصيرة إلى أياديه الكريمة وخدماته للمسلمين والتابعين لحكومته وأوجزها في أربع عبارات فقال:

«وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جَوَارِكُمْ»

المراد من حسن الجوار أن يعتمد الإنسان حالة التعايش السلمى المقرون بالأدب والاحترام وحسن التصرف تجاه الوسط الآخر من الأصدقاء وتحمل مساوئهم بحيث بشعرون بالارتياح لتواجده بينهم. وسيرة الإمام عليه السلام لاسيما إبان عهد حكومته تفيد أنه كان يعامل الآخرين بالعطف والمحبة، حتى كان يتفقد اليتامى والأرامل ليلاً ويحمل لهم الطعام ويلبى حاجاتهم، كما كان يداعب الأطفال ويسهر على راحتهم، ويواسى المهمومين ويدارى المخالفين ويسعى جهده للترويح عن الموالين والمحبين. على العكس تماماً من عهد حكومة عثمان الذى بالغ وولاته فى اىذاء الناس، ولم يسلم منهم حتى كبار الصحابة كأبى ذر وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود، فكان أن نفى الصحابى الجليل أبا ذر إلى تلك الأرض القاحلة الجرداء حتى مات فيها، كما اندفعت بطانته لتتال من عمار بذلك الأسلوب الهمجى البشع لمجرد اعتراضه على بعض الممارسات، فكسرت أسنانه وأشبعوه ركلاً ورفساً، كما شددوا على عبد الله بن مسعود حتى قيل إنه فارق الحياة إثر التعذيب. وإن ساوى على عليه السلام

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤٦

بين عقيل وسائر المسلمين فى العطاء من بيت المال، فإن قرابة عثمان تهافتت على بيت المال حتى عدت العراق بستان قريش وبنى أمية [٢١٣].

ثم قال:

«وَأَخْطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ»

. أى أنى حفظتكم من وساوس شياطين الجن والانس فى مسيرة طاعة الله وعبوديته، ودفعت عنكم شر الأعداء. وأشار إلى دوره فى عتقهم من قيود الذل والظلم والأسر فقال:

«وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رَبِّي [٢١٤] الذُّلُّ،

وَحَلَقِ [٢١٥] الضَّيْمِ [٢١٦]»

. وذلك لأن عهد عثمان وحكومة بنى أمية وبنى مروان وسيطرتهم على مقدرات المسلمين شهدت اتساع رقعة الظلم والجور الذى وصل إلى كل مكان، ولم يكن هنالك من اعتبار سوى لأولئك الأفراد المتعاونين مع السلطة والمستبدين؛ وقد أنقذهم أمير المؤمنين على عليه السلام من هذه الحكومة القبلية وحررهم من أيدي شرار بنى أمية وبنى مروان.

ثم اختتم خطبته بالإشارة إلى دوافعه من تلك الأعمال الحسنة تجاههم والتي لا تنبعث من اقرارهم بحقه وفضله بل:

«شُكْرًا مِّنِّي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ وَإِطْرَاقًا [٢١٧] عَمَّا أَدْرَكَهُ

الْبَصْرُ، وَشَهَدَهُ الْبَدَنُ، مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ»

. فالواقع مراد الإمام عليه السلام أنكم لم تسدوا إلى معروف لأكافئكم عليه، بل ما أكثر الخطوب والمحن التى خلفتموها على، فإن أسديت لكم معروفاً ففى سبيل الله وأداء الوظيفة الشرعية. وعلى ضوء هذا التفسير فإن

«الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ»

في هذه العبارة إشارة إلى تمرد الناس وغدرهم بالإمام عليه السلام، بينما فسّرها البعض من الشّراح بالمنكرات بهذا الحجم على عهد الإمام عليه السلام ولم ينهاتهم ويردعهم عنها؟ فأجابوا: لم يكن بوسع الإمام عليه السلام الحيلولة دون بعض نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤٧

المنكرات المتجدرة، أو لو أراد منعها لآل الأمر إلى مفسده أعظم. لكن كما ذكرنا فإنّ المراد من المنكر ليس ما ذهب إليه أولئك الشّراح ليرد ذلك الإشكال وضرورة دفعه. والمراد المساوىء التي مارسوها بحق الإمام عليه السلام والدليل على ذلك العبارة السابقة: «للبّر القليل».

هذا، وقد ورد مثل هذا المعنى في سائر خطب نهج البلاغة كالخطبة ٩٧ التي قال فيها: «وَلَقَدْ أَصْبَحَتْ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رَعَاتِهَا وَأَصْبَحَتْ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي».

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤٩

الخطبة ١٦٠

نظرة إلى الخطبة [٢١٨]

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى مطالب متعددة تشكل بعض التعاليم القيمة بشأن تهذيب النفس ومعرفة الله حيث يمكن خصرها في خمسة أقسام:

القسم الأول: تحدث فيه عن عظمة الله وحمده والثناء عليه بذكر أسمائه وصفاته.

القسم الثاني: جرى الكلام فيه عن حقيقة الرجاء بصفته أحد أركان السعادة الإنسانية.

القسم الثالث: تطرق فيه الإمام عليه السلام إلى جانب من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأفعاله وأقواله التي ينبغي التأسي بها من قبل الجميع إلى جانب سائر صفات الأنبياء كموسى وداود وعيس عليه السلام.

القسم الرابع: عودة إلى صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهي الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الجميع.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٠

القسم الخامس: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى تواضعه واختتمه بالمثل الرائع

«فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يُحْمَدُ الْقَوْمُ الشُّرَى .

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥١

القسم الأول

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ، يَفْضِي بِعِلْمٍ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ.

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي؛ حَمْدًا يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ. حَمْدًا يَمَلَأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ. حَمْدًا لَا يُحْجِبُ عَنْكَ، وَلَا يُقْصِرُ دُونَكَ.

حَمْدًا لَا يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَلَا يَفْنَى مَدَدُهُ، فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ «حَيٌّ قَيُّومٌ، لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ». لَمْ يَنْتَهَ إِلَيْكَ نَظْرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ.

أَدْرَكَتْ الْأَبْصَارَ، وَأَخْصَيْتِ الْأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ «بِالنَّوَاصِي وَالْأَفْئِدَامِ». وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعَجِبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصَةِ فُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَعَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصِيرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَأَنْتَهَتْ عَقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سِتُورُ الْعُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمَ. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ،

وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيُعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَيِّمًا وَآتَكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَيَّ مَوْرَ الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرَفُهُ حَسِيرًا، وَعَقْلُهُ مَبْهُورًا، وَسَمْعُهُ وَالْهَاءُ، وَفِكْرُهُ حَائِرًا.

الشرح والتفسير: عجز العقول امام عظمة الله

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى أربعة مواضع فقال:
«أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ»

أى يستند أمره إلى الحكمة رغم قاطعيته على العكس من المستبدين والمقتدرين الذين يصدرون الأوامر الصارمة دون أدنى حكمه. ولمفردة (أمره) في

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٢

العبارة معنى واسع يشمل الأوامر التكوينية: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [٢١٩] والأوامر التشريعية: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى [٢٢٠].

والحكمة واضحة في كلا الأمرين تتضمن مصالح العباد والبلاد.

ثم قال:

«وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ»

يمكن أن يرضى الناس عن فرد ويأمنونه، إلماً بأن أمنهم مشوب بالخوف والرهبنة، بينما لا ينطوي أمان الله سوى على الرحمة، كما تحدث في العبارة التالية عن قضاء الله، فقال:

«يَقْضَى بِعِلْمٍ»

خلافاً لقضاء الإنسان الذي يمتزج عادة الجهل وعدم العلم.

ثم قال في المقطع الرابع:

«وَيَعْفُو بِحِلْمٍ»

. نعم، عفو بحلم ومن يعفو عنه لا يؤاخذه ولا يعاقبه، بخلاف البعض الذين يسعون لعقاب الآخرين حين يعفون عنهم لإطفاء غضبهم،

كما هنالك من يعفو عن الآخرين لطفاً ورحمة. ثم أتجه الإمام عليه السلام صوب حمد الله والثناء عليه وقد تكرر هذا الحمد ثمان

مرات في هذا الجانب من الخطبة حيث أورد صفة خاصة لكل مرحلة، ثم خاض في هذا الحمد والثناء بأسلوب بليغ وفضيح فقال:

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي»

أى أحمدك وأثنى عليك في كل الاحوال، ذلك لأن الخير والسعادة منك، فإن أفضت نعمه فتلك كرامه وإن سلبتها كان ذلك عن

عناية. وإن منحت الصحة والعافية فتلك سعادة وإن أمرضت وابتليت فعن مصلحته، فلا تفعل إلا الحكمة وكل ما يأتي منك رحمة.

ثم خاض الإمام عليه السلام في صفات هذا الحمد ليجزها في ستة أوصاف ليحمله حمداً جامعاً شاملاً من جميع النواحي فقال:

«حَمْدًا يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ. حَمْدًا يَمْلَأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ.

حَمْدًا لَا يُحْجِبُ عَنْكَ، وَلَا يُفْضِرُ دُونَكَ. حَمْدًا لَا يَنْقَطِعُ عَدْدُهُ، وَلَا يَفْنَى مَدَدُهُ».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٣

فهذا الحمد جامع شامل يتجاوز الزمان والمكان والعدد والقصور والحجاب.

أضف إلى ذلك فهو حمد على العافية والبلاء والأخذ والعطاء فهو حمد على كل شيء وفي كل زمان ومكان وعلى كل حال. ثم

خاض عليه السلام في صفات الجلال والجمال ليورد أوصافاً بليغة أعرب فيها عن العجز عن إدراك عظمة الله، فقال:

«فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ»

ذلك لأن الله وجود مطلق ولا متناه من جميع الجهات، وهل من نصيب للإنسان المحدود مهما كان هذا الإنسان سوى العجز عن إدراك غير المحدود. إلا أن الإمام عليه السلام وبغية دفع التصور الخاطئ من أن هذا الكلام ربما يعنى عدم إمكان معرفة الله وتعطيل صفاته تطرق مباشرة إلى المعرفة الإجمالية من خلال بيان ثمان صفات من صفاته الثبوتية والسلبية على أننا وإن عجزنا عن إدراك كنه ذاتك المقدسة

«إِلَّا أَنَا نَعْلَمُ أَنَّكَ

«حَتَّى قِيَوْمٍ، لَأَتَأْخُذَكَ سِنَّهُ وَلَا نَوْمٍ».

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«لَمْ يَنْتَه إِلَيْكَ نَظْرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصْرٌ. أُذْرِكْتَ الْأَبْصَارَ، وَأَخْصَيْتِ الْأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ

«بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ».. طبعاً وصف الله بالحياة ليس المراد منه الحياة الواقعية بمعنى العلم المطلق والقدرة التامة على جميع الوجود. والقيوم القائم بذاته والذي يقوم به غيره، لأنه واجب الوجود، وواجب الوجود غنى عن الغير ولكل محتاج إليه. والعبارة «لَا تَأْخُذُكَ سِنَّهُ وَلَا نَوْمٌ»

إشارة إلى أن علمه ولطفه دائم على العباد، لا أنه يلتفت أحياناً ويحرف عباده بالعبادة وأخرى ينام فيساهم. والعبارة

«لَمْ يَنْتَه إِلَيْكَ نَظْرٌ...»

إشارة إلى أن علم الإنسان لا يسعه الاحاطة بذاته المقدسة - لأن ذاته مطلقة - كما لا يسع البصر الظاهر رؤيته، لأنه ليس بجسم وليس له جهة ولا لون، بينما يدرك سبحانه حركات العيون ويحاسب على أدنى الأعمال. والمراد من «بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ»

- بالنظر إلى أن النواصي جمع ناصية بمعنى شعر مقدمة الرأس والأقدام جمع قدم - قدرة الله وغلبته لكل شيء، ذلك أن الإنسان متى أخذ منه ناصيته أو قيدت رجلاه سلب القدرة تماماً.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٤

ثم خاض الإمام عليه السلام في عالم الخلقه وعظمته لإثبات تلك الصفات الجمالية والجلالية من خلال عبارات عميقة وورصينه تفيد أن العالم الذي نراه وندرکه رغم عظمته لا يشکل بالنسبة لما لا نراه وندرکه سوى قطرة إلى بحر فقال:

«وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعَجِبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَأَنْتَ هَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سُتُورُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ»

. نعم، ما نراه اليوم رغم اتساع العلوم والمعارف بشكل مذهل بشأن عالم الخلقه - لغيض من فيض ما لا نراه وندرکه. والعلماء المعاصرون يتحدثون اليوم عن عوالم لا تكون كرتنا الأرضية بالنسبة لها سوى نقطة في كتاب ضخمة!! كما يتكلمون عن كرات عظيمة في هذا الكون تفوق كرتنا الأرضية بثلاثين ملياراً!! وأجرام سماوية عملاقة تفوق الشمس بثلاثة مليارات مرة (وهي الأجرام التي تجذب كل شيء من حولها حتى النور الذي ينعكس حين اصطدامه ببعض الأجسام)، ومن هنا لا نراها سوى قطع سوداء متناثرة هنا وهناك في السماء، وتضم كرتنا الأرضية رغم صغرها ملايين النباتات والحيوانات التي تغوص في أعماق البحار والغابات والتي لم يتعرف عليها العلماء لحد الآن ولا يمكن رؤيتها بالعيون المجردة. أجل، فعالم الملك والملكوت على قدر من السعة بما تعجز العقول عن إدراكه وتحير الأفكار في عظمته فضلاً عن عظمه الله في خلقه، وهذا بدوره أعظم درس في التوحيد ومعرفة الله.

ورد في الرواية عن الإمام السجاد على بن الحسين عليه السلام أنه قال:

«لَوْ اجْتَمَعَ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَصِفُوا اللَّهَ بِعَظَمَتِهِ لَمْ يَقْدِرُوا» [٢٢١].

ثم قال عليه السلام مواصلاً خطبته:

«فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ [٢٢٢] خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي السَّمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٥

عَلَى مَوْرٍ [٢٢٣] الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ [٢٢٤] حَسِيرًا [٢٢٥]، وَعَقَلَهُ مَبْهُورًا [٢٢٦]، وَسَمِعَهُ وَالِهًا، وَفِكْرَهُ حَائِرًا»

. فقد ركز الإمام عليه السلام بهذه العبارات اللطيفة العميقة المعنى على أربعة أمور بشأن عظمة الخلق؛ إقامة العرش، وبداية الخلق، وتعليق الكرات في السماء، وظهور الأرض من تحت الماء، وكل واحدة أعجب من الأخرى ثم أشار عقبها إلى آثار هذه الحيرة من قبيل تعب العين وعجزها، وبهت العقول، ووله السمع، وحيرة الفكر. أمّا بشأن تفسير العرش فهناك كلام كثير، والمستفاد من آية الكرسي أن العرش عالم فوق السماء والأرض، حيث ورد في القرآن بشأنه: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ». جدير ذكره أن الملوك القدماء كان لهم عرشان؛ عرش صغير يطلق عليه الكرسي يستعملونه في الأيام الاعتيادية، وآخر مرتفع يسمى العرش يعتلونه في الأعياد والمناسبات الرسمية، ثم أصبح هذان التعبير أن كناية عن مختلف درجات العظمة، والقرآن يعد السماوات والأرض التي نراها كرسي الله، وعليه فعرشه أرفع من ذلك. ومن هنا ربما يكون العرش إشارة إلى عالم ماوراء الطبيعة، أي عالم الملائكة والكروبيين [٢٢٧] أو عالم المادة الذي ليس لدينا من سبيل إليه.

والعبارة

«وَكَيفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرٍ الْمَاءِ أَرْضَكَ»

يمكن أن يكون إشارة إلى دحو الأرض وظهور اليابسة من المياه؛ لأنّ المياه عمت بادىء الأمر الكرة الأرضية برمتها، ثم تخللت فجوات الأرض وشقوقها بالتدرج حتى ظهرت اليابسة. أجل لا يمتلك الإنسان سوى الحيرة والذهول أن فكر بشأن عالم الخليفة وما ينطوى عليه

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٦

من عجائب وغرائب وأسرار، وهي الحيرة التي تلفت نظرنا إلى عظمة الخالق وضرورة معرفته وتنزيهه عن سواه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٧

القسم الثاني

منها: يَدْعَى بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يُرْجُو اللَّهَ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ! مَا بَالُهُ لَا يَتَّبِعُنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرْفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ. وَكُلُّ رَجَاءٍ - إِلَّا رَجَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ، إِلَّا خَوْفَ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ يُرْجُو اللَّهَ فِي الْكَبِيرِ، وَيُرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطَى الْعَبْدَ مَا لَا يُعْطَى الرَّبَّ! فَمَا بَالُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقْصَرُ بِهِ عَمَّا يُضَيِّعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِبًا؟ أَوْ تَكُونَ لَاتِرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعًا؟ وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَا يُعْطَى رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَفْدًا، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِعْمًا مَرَّةً وَوَعْدًا. وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْجِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آتَرَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا.

الشرح والتفسير

عبيد الدنيا

بعد أن أشار الإمام عليه السلام إلى عظمة الله وحمده وأثنى عليه وتطرق إلى علامات ذاته المقدسة في عالم الوجود، خاض في وعظ الغافلين وإرشادهم وركز على مسألة من أهم المسائل وهي الخوف حيث كشف حقيقته وشرح تفاصيله وفضح الكاذبين في دعواهم إياه فقال:

«يَدْعِي بَزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللَّهَ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ! [٢٢٨]»

. ثم خاض في ذكر الدليل فقال:

«مَا بِالُّهُ لِيَتَّبِعُنَّ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فُكُلٌ مَنْ رَجَا عُرْفَ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٨

رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ»

. فهذا دليل واضح فالفلاح الذي يرجو جنى ثمار مزرعته ينهمك في سقيها ودفع الآفات عنها وتوفر كافة مقدمات الانبات والأثمار، فإن ادعى مزارع الرجاء لكنه جلس في بيته ولم يقدم على أي عمل فسوف يتفق الجميع على أن رجاءه كاذب فهو يتخيل الرجاء دون واقعيته لذلك الخيال، فالرجاء الصادق المقرون بطاعة الله والسير على سبيله والفوز برضاه. قيل للإمام الصادق عليه السلام أن جماعة يرتكبون الذنوب ويرجون عفو الله ورحمته فقال:

«كَذَّبُوا لِيَسُوُوا بِرَاجِحِينَ أَنْ مَنْ رَجَا شَيْئًا طَلَبَهُ وَمَنْ خَافَ شَيْئًا هَرَبَ مِنْهُ» [٢٢٩].

ثم خاض عليه السلام في تفاصيل ذلك الخوف والرجاء فقال:

«وَكُلُّ رَجَاءٍ - إِلَّا رَجَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ [٢٣٠] وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ [٢٣١] إِلَّا خَوْفَ اللَّهِ».

يبدو دليل ذلك واضحاً فليس هنالك من مبدأ للخير سوى الله وكل من قدر على الإتيان بالخير فبمعونته (لا مؤثر في الوجود إلا الله). وعليه فلا ينبغي التعلق سوى بالله والرجاء لما عنده، فالذي ينفع ويضر ويشب ويعاقب هو الله وحده وليس للآخرين من ذلك شيء كما ورد في القرآن الكريم: «وَمَا هُمْ بِبَصَائِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ» [٢٣٢]. صحيح أن الله ترك للعبد قدرة الإتيان بالأعمال، إلا أن ذلك لا يعني سلب القدرة عن ذاته المقدسة. ولذلك لا بد من حصر الرجاء في تلك الذات والخوف من مخالفتها.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٩

ثم أشار عليه السلام إلى قضية مهمة تكمن في تضاد أعمال الناس بخصوص موضوع الخوف والرجاء. فلو أمل شخص شخصاً آخر في مسألة لا بد له من الخضوع والخشوع، وإن خاف شيئاً أيضاً حسب له ألف حساب، بينما لا يبدى مثل هذه الحساسية تجاه الله تبارك وتعالى سواء على مستوى الرجاء والأمل أو الخوف وحتى في القضايا المهمة، فهناك تواضع يديه لسائر العباد يفوق نظيره لله تعالى:

«فَإِنَّهُ مَغْلُولٌ يَرْجُو اللَّهَ فِي الْكَبِيرِ، وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي الرَّبَّ!».

ثم واصل كلامه عليه السلام بالإشارة إلى سبب ذلك فقال:

«فَمَا بِالُّ اللَّهِ جَلَّ تَنَاؤُهُ يَقْضَرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِبًا؟ أَوْ تَكُونَ لَاتِرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعًا؟»

حقاً أن الإنسان الذي يؤمن بالله وأنه قادر على كل شيء ويؤمن برحمانيته ورحيميته وفضله وكرمه، لا يمكن أن يكون أمله بالله كاذباً، أو أن لا يراه أهلاً للأمل. لو تأملنا قليلاً هذه الأفكار لأدركنا بما لا يقبل الشك أصل الانحراف عن التوحيد ومعرفة الله. فالحقيقة أن عصاره كلام الإمام عليه السلام هي أننا نرى أن بعض الأفراد يتجهون البعض الآخر لحاجة صغيرة فيبدون لهم صنوف الاحترام والاجلال، بينما لا تشاهد منهم هذه الأمور حين يقصدون الله لحاجاتهم الكبرى، وليس هنالك من تفسير لهذه القضية سوى ضعف مثل هؤلاء الأفراد وعجزهم عن معرفة الله والوقوف على صفاته الجلالية والجمالية.

ثم انتقل الإمام عليه السلام من الرجاء إلى الخوف وقارن بين خوف الله وخوف العبد، فقال:

«وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَيْدًا مِنْ عَيْدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَأُعْطَى رَبُّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْدًا، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِعْمًا مَرَّةً [٢٣٣] وَوَعْدًا».

قطعاً أن سبب هذا الازدواج يعزى إلى ضعف الإيمان، ذلك لأن قدرة العباد هشة مقارنة بقدرة الله، فلو فرضنا جميع قدراتهم، ومضة، لكانت قدرة الله بحاراً من

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٠

النيران بالنسبة لتلك الومضة، فكيف يتعرف الإنسان على هذين الميدانين للخوف فيخاف الومضة ولا يخاف بحار النار؟! طبعاً يمكن أن يكون منشأ هذا التفاوت، الأمل المفرط بلطف الله وكرمه والذي تفرزه بالطبع الغفلة، لأنه أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة. ولما كان هذا التعامل الازدواجي تجاه الله والعباد ناشئاً من ضعف المعرفة وضيق الافق، فقد خاض الإمام عليه السلام في اختتامه لهذا الكلام في هذا التعامل الازدواجي للإنسان حيال الدنيا والآخرة، فقال:

«وَكَذَلِكَ مَنْ عَظَمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا».

أجل، أن عبيد الدنيا عديمو المعرفة لا يرون سوى متاع الدنيا الزائل وحطامها الفاني ويغفلون عن نعيم الآخرة الدائم، وهذا ما يدعوهم لا يثار الدنيا على الآخرة وتقديماً لرضا المخلوق على الخالق. على العكس من عباد الله من أهل الورع والتقوى الذين وصفهم الإمام عليه السلام في خطبة المتقين:

«عَظَمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ».

العبارة

«فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا»

إشارة إلى حقيقة هي أن طلاب الدنيا عادة ما ينتهي بهم الأمر إلى الخروج عن عبودية الله والاشتغال بعبودية الدنيا وطاعة النفس والهوى والشيطان، وبالتالي الخروج من معسكر التوحيد وعبودية الله إلى معسكر الشرك وعبودية الدنيا. أجل عاقبة أمرهم ما آل إليه أمر عمر بن سعد حيث لم ير شيئاً سوى الدنيا متمثلة بملك الري وغفل عن عذاب جهنم ونعيم الجنة فاختار ذلك الموقف:

ألا إِنَّمَا الدُّنْيَا لِحَيْرٍ مَعْجَلٍ فَمَا عَاقِلٌ بَاعَ الوُجُودَ بِدَيْنِ [٢٣٤]

تأمل

الخوف والرجاء

إن أقوى دافع نحو الحركة باتجاه الورع والتقوى يتمثل بالخوف من عقاب الله والرجاء لرحمته وعفوه. وليس لأحد أن يخلق في سماء الحق ويقرب من ساحة القدس الرباني دون العنصرين المذكورين. فعلى غرار التلميذ الذي يأمل تذوق طعم النجاح من خلال رجائه الموفقيه والحصول على الدرجات العالية إلى جانب الخوف من الرسوب في الامتحان، فيجد ويجتهد ويجند طاقاته من أجل العلوم والمعارف، يبدو لا بد من هذا الرجاء والخوف في الجانب المعنوي أيضاً.

ورد في الحديث الشريف أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«أَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ أَحْوَفُهُمْ مِنْهُ» [٢٣٥].

وقال الصادق عليه السلام:

«لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَكُونَ خَائِفًا رَاجِيًا، وَلَا يَكُونُ خَائِفًا رَاجِيًا حَتَّى يَكُونَ عَامِلًا لِمَا يَخَافُ وَيَرْجُو» [٢٣٦]

. والإنسان لا يمكنه الاستفادة من هذين المفهومين، الخوف والرجاء أن زعمهما كذباً، والتأكيد من عدم الكذب بهذا الشأن يكمن في الموازنة والعمل على أساسهما، إلا أن المؤسف له هو أن أغلب الناس صادقون في رجائهم وخوفهم بالنسبة لأموال الدنيا، لكنهم ليسوا

كذلك بالنسبة للآخرة. لقد ظهر الآن مرض شديد هو مرض ذات الرئة: «والذى يطلق عليه الالتهاب الرئوى اللانمطى» القاتل حيث بلغ عدد الوفيات ستة بالمئة بالنسبة للمصابين بهذا المرض، ويبد وأن طرق الوقاية التى اتخذت بهذا الشأن تفوق التصور، فقد عمدوا إلى رش السموم فى المناطق الملوثة، والجميع يرتدى الأقنعة الواقية، وإن عثروا على من يظن أنه مصاب يعزلونه عن الآخرين، كما هنالك تفتيش دقيق لكافة المسافرين حين يهبطون فى المطارات. حقاً هذا هو الخوف الصادق.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٢

والسؤال الذى يرد هنا: هل يبدى المؤمنون مثل هذا الخوف من عذاب الله يوم القيامة الذى يفوق هذا الأمر بما لا يحصى؟! يتعجب الإمام عليه السلام فى الخطبة المذكورة من كيفية شعور الإنسان بذلك الخوف من بعض الحوادث الطفيفة بينما لا يعيش مثله من الله! والأمر كذلك بالنسبة للرجاء؛ نعم، أولياء الله كانوا يرتعشون خوفاً من الله فى محراب عبادتهم، وكان يسمع من بعضهم أنين وتأوه. الكلام بهذا الشأن كثير والهدف هنا إشارة سريعة لاتمام المباحث، ونختتم البحث بهذا الحديث. قال الإمام الصادق عليه السلام: كان أبى يقول:

«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفَى قَلْبِهِ نُورَانِ، نُورٌ خِيفَةٍ، وَنُورٌ رَجَاءٍ لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا وَلَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا» [٢٣٧].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٣

القسم الثالث

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَافٍ لَكَ فِي الْأُسُوءَةِ، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَجَبِيهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا، إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا، وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا، وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا.

الشرح والتفسير: التأسى بالنبي صلى الله عليه وآله

تحدث الإمام عليه السلام فى العبارات الأخيرة من المقطع السابق عن أولئك الأفراد الذين ذاعوا فى الدنيا فأصبحوا عبيدها الأذلاء بعد أن ولّوا ظهورهم لكل شىء وأخلدوا إلى الدنيا. وقد سعى الإمام عليه السلام لإيقاظ هذه الفئة المتهافتة على الدنيا من خلال الاقتداء بجوانب من سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن سبقه من الأنبياء، وقد ركز بادية الأمر على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَافٍ لَكَ فِي الْأُسُوءَةِ، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَجَبِيهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا» [٢٣٨] وَمَسَاوِيهَا»

جدير ذكره أن الإمام عليه السلام يرى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله هنا اسوة ودليل. والواقع هو أن العبارتين تنتهيان إلى نتيجة واحدة وهى اقتناء آثار ذلك النبي الأعظم وتكييف الحياة على ضوء حياته، لكن هنالك تفاوتاً لطيفاً فى المعنى؛ فالأسوة إشارة إلى أننا نكيف حياتنا طبق حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله أما الدليل، فإشارة إلى أنه يدعونا إلى الآخرة.

ثم ذكر عليه السلام توجيه ذلك التأسى فقال:

«إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ»

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٤

«أَكْنَافُهَا، وَفُطِمَ [٢٣٩] عَنْ رَضَاعِهَا، وَزُوِيَ [٢٤٠] عَنْ زَخَارِفِهَا» [٢٤١].

فقد عاش رسول الله صلى الله عليه وآله حين كان القياصرة والأكاسرة يرتعون فى الجزيرة العربية، وقد واصل تلك الحياة البسيطة المتواضعة حتى حين تزعم الدولة الإسلامية وحاز على الغنائم العظيمة، وكان يفخر صلى الله عليه وآله بتلك المعيشة فيقول:

«الْفَقْرُ فَخْرِي» [٢٤٢]

فالعبرة لا- تعنى أنه لم يكن بوسع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الحصول على تلك الحياة وأسلوب العيش، بل لم يكن شخصياً يرغب في مثل تلك المعيشة، ومن هنا ورد في الرواية أنه هبط عليه أحد الملائكة ويده مفتاح خزائن الدنيا فقال: «يا مُحَمَّدُ هَذِهِ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الْأَرْضِ يَقُولُ لَكَ رَبُّكَ إِفْتَحْ وَخُذْ مِنْهَا مَا شِئْتَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَنْقُصَ شَيْئاً عِنْدِي» ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله :
الدُّنْيَا دَارٌ مَنْ لَادَارَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَاعْقَلَ لَهُ.

فقال الملك:

أَقْسِمُ بِاللَّهِ الَّذِي بَعَثَكَ نَبِيًّا بِالْحَقِّ، إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ حِينَ تَسَلَّمْتُ هَذِهِ الْمَفَاتِيحَ» [٢٤٣].
والعبرة

«إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا»

إشارة أن حكومة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلطته لم تكن كحكومة القياصرة والأكاسرة، والعبرة
«وَفُطِمَ عَنْ رِضَاعِهَا»

إشارة إلى عدم تناوله الأطعمة اللذيذة المتنوعة، والعبرة

«وَزَوَى عَنْ زَخَارِفِهَا»

أنه لم يستفد من القصور الفارهة والمراكب الهنيئة والثياب الفاخرة. على كل حال فقد استعان الإمام عليه السلام بأعظم أسوة وركز على حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إزاء أولئك الذين إنقادوا للدنيا وقصروا همتهم عليها. النبي الذي كان يجلس على التراب ويعيش كأضعف الأفراد ولم يكن لديه أحياناً سوى ثوب واحد وقد اعترض على ابنته فاطمة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٥

الزهراء عليها السلام حين وضعت ستاراً جديداً على باب دارها وقد لبست بعض الحلى من الفضة لا الذهب، وسنخوض في المزيد بهذا الشأن في ختام هذه الخطبة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٧

القسم الرابع

وَإِنْ شِئْتَ تَنَيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَيْثُ يَقُولُ:

«رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ». وَاللَّهُ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْرًا يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَهُ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ، لِهَزَالِهِ وَتَشَدُّبِ لَحْمِهِ.

وَإِنْ شِئْتَ تَلَّتْ بِجَدَاوُدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِيءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سِفَائِفَ الْخُوصِ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجَلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ تَمْنِهَا.

وَإِنْ شِئْتَ قَلْتُ فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ الْحَشْنَ، وَيَأْكُلُ الْجَسْبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وَظِلَالُهُ فِي الشَّيَاءِ مَشَارِقُ الْمَارِضِ وَمَغَارِبُهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرِيحَانُهُ مَا تَنَبَّتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلَا وَلَدٌ يَحْزَنُهُ، وَلَا مَالٌ يَلْفَتُهُ، وَلَا طَمَعٌ يُدْلُهُ، دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ!

الشرح والتفسير: زهد الأنبياء

أشار الإمام عليه السلام في البحث السابق إلى جانب من حياة النبي صلى الله عليه وآله كأسوة بالمؤمنين في الزهد، ثم تطرق هنا إلى هذا الجانب في حياة ثلاثة من سائر الأنبياء ليتضح من خلال ذلك أن هذا الأمر كان محورياً في حياة الأنبياء فكانوا أسوة لأممهم، فقال:

«وَإِنْ شِئْتَ تَنَيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَيْثُ

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٨

يَقُولُ:

«رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ». ثم خاض عليه السلام في تفسير العبارة المذكورة وهي آية من آيات سورة القصص على لسان موسى عليه السلام حين وروده إلى مدين فقال:

«وَاللَّهُ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْرًا يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبُقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ [٢٤٤] صِفَاقِ [٢٤٥] بَطْنِهِ، لَهُزَالِهِ [٢٤٦] وَتَشْدُبِ [٢٤٧] لَحْمِهِ»

. فرَّ موسى عليه السلام إلى الشام ثم مدين إثر دفاعه عن أحد أفراد بني إسرائيل وقتله لأحد اتباع فرعون ومطاردته من قبل الأجهزة الفرعونية والبحث عنه في مصر، ولم يكن يحمل في سفره متاعه وحيث لم يكن يستجدي أحداً من الناس فقد اضطر لأكل نبات الأرض فهزل بدن موسى عليه السلام وضعف خلال هذه المدة بفعل المسافة الطويلة التي قطعها ماشياً من بلد إلى بلد آخر وقد بلغ الضعف مداه بحيث كانت تبدو خضرة البقول من بطنه. وقد سأل الله سبحانه طعماً يسد رمقه ويزيل جوعه، بينما كان باستطاعته سؤال الله عيشه هانئاً وسفرأ مريحاً. صحيح أن موسى عليه السلام كان يمر بظروف عصبية اضطرتته إلى تلك الأزمة العنيفة، إلا أن المهم أنه لم يسأل الله سوى مقدار الضرورة، وهذا دليل واضح على الزهد الذي كان محور حياته.

ثم عرج على زهد داود عليه السلام فقال:

«وَإِنْ شِئْتَ تَلْتُ بِدَاوُدَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِيءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ [٢٤٨] الْخُوصِ [٢٤٩]

بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجَلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا»

. نعلم أن داود عليه السلام وإلى جانب النبوة كان من ملوك بني إسرائيل وكانت حكومته قوية شاملة على ضوء الآية الشريفة: «شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخِطَابِ» [٢٥٠]. فهل ما

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٩

قيل يتعلق بعهد حكومته أم بعدها؟ كيف ما كان الأمر فهناك دليل دامغ على زهده ولاسيما ما ورد في بعض الروايات أنه لم يكن يقتات من بيت المال، بل كان يعمل الدروع ويأكل من عرق جبينه. العبارة

«صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِيءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»

إشارة إلى مقاماته المعنوية الرفيعة في الدنيا والآخرة. وقد أفاض الله عليه من العلوم المعنوية بحيث كان ينشئ المزامير (المزامير كما سيأتي بمبحث التأملات مجموعة من الأدعية والمناجاة والمواظ والإرشادات التي كان يتلوها داود عليه السلام ويترنم بها بصوت عذب فكان يشد إليه الناس، بل حتى الطيور والحيوانات حسب الرواية).

وقارِيءِ (أهل الجنة) إشارة إلى مقامه الاخرى حيث يتذوق أولياء الله هناك لذة القرب الإلهي وعشق ذاته المقدسة من ترانيمه المعنوية لذلك الصوت العذب ومناجاته الروحية.

والعبارة

«أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا»

ربما تكون إشارة إلى هذه النقطة وهي أنه أراد شخصاً يبيعها ويستفيد مقداراً من ثمنها، وإن كان هذا الأمر على عهد قضائه فهو إشارة

إلى أن القضاء لا يتعامل في مثل هذه الأمور مباشرة مع الآخرين حذراً من معرفته واعطائه الكثير بغية استمالته في إصدار الأحكام. ثم تطرق عليه السلام إلى زهد عيسى عليه السلام حيث أوجز حياته المتواضعة في ثلاث عشرة عبارة قصيرة، يصعب علينا حقاً تصور تلك الحياة العجيبة لهذا النبي الزاهد فضلاً عن العمل بها فقال:

«وَإِنْ شِئْتُمْ قُلْتُ فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ [٢٥١] الْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ، وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ

بِاللَّيْلِ الْقَمَرِ، وَظِلْمَالُهُ فِي الشَّتَاءِ مَشَارِقُ الْمَارِضِ وَمَعَارِبُهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرِيحَانُهُ مَا تُثْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلَا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ، وَلَا مَالٌ يَلْفَتُهُ، وَلَا طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاؤُهُ!»

. المراد من العبارة

«وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ»

أنه

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧٠

كان يكتفى من الطعام بالخبز. وتشير العبارة

«وَظِلْمَالُهُ فِي الشَّتَاءِ...»

أنه كان يستعين بدفء حرارة الشمس على برودة الشتاء. جدير بالذكر أن المسيح عليه السلام ظهر في فترة كان يتنعم بها عبيد الدنيا من بنى اسرائيل في القصور الفخمة والمراكب الهائئة والثياب الفاخرة وتنقل إليهم مختلف الأطعمة مما لذ وطاب. وقد اختار عليه السلام هذا النوع من الحياة لتحذيرهم من مغبة التكالب على الدنيا المحفوفة بالقيود والاعلال والتي تذلل في خاتمة المطاف كل من ركن إليها، وقد قاطع بعض المحاور المهمة التي من شأنها فتنة الإنسان من قبيل الدور الفارهة والزوجات الجميلة الفاتنة والمال والولد والمركب، فقد ولى عليه السلام ظهره لكل هذه الأمور بهدف ايقاظ المجتمع من غفلته والسعي إلى دار الآخرة.

تأملات

١. مزامير داود

مزامير جمع مزمور بمعنى الترانيم التي تنشأ بنغمه معينه، ومزامير داود عليه السلام اشعار روحية مناجاة ومواعظ وعبر، كان يتلوها داود عليه السلام بصوته العذب لتؤثر في القلوب [٢٥٢] وتتكون هذه المزامير التي تعد الآن من كتب أهل العتيق من خمسة كتب تكرر لفظ آمين آخر كل قسم منها، ويعتقد الأغلب من المفكرين أن هذا اللفظ من إضافات جامعي الكتب (لابد من الالتفات إلى أن المزامير الفعلية الموجودة في الكتب المقدسة تخلو من هذا اللفظ.

على كل حال يضم الكتاب الأول ٤١ والثاني ٣١ والثالث والرابع ٧١ والخامس ٤٤ مزمورة. ويمكن ايجاز مفاهيم المزامير بصورة عامة في العناوين الآتية:

١. مزامير الحمد والتسبيح التي تشمل عدة مزامير.

٢. مزامير الشكر التي يطلقها الأشخاص إزاء ألطاف الله.

٣. المزامير المتعلقة بالتوبة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧١

٤. المزامير السياحية (بشأن قصة الأفراد الذين خصتهم عناية الله أو غضبه).

٥. المزامير التاريخية بشأن رحمة الله وفضله على بنى اسرائيل.

٦. مزامير النبوة على أساس وعد الله لداود عليه السلام وأبنائه.
 المزامير التعليمية التي كان يوصي داود عليه السلام فيها ببعض الأمور.
 أ) خصائص العادلين ومميزات الشريرين.
 ب) قدسية وطهارة؟ الشريعة الإلهية.
 ج) هوان قيمة الحياة الدنيا.
 د) الوظائف الواجبة على الحكام.
 ٧. مزامير دعاء للمذنبين (يجدر الإشارة إلى أن أغلب هذه المزامير لا جميعها تنسب إلى داود عليه السلام) [٢٥٣].

٢. الصوت الداودي

يستفاد من الآيات والروايات أن لداود عليه السلام صوتاً شجياً، إلى درجة أنه لا يقتصر على جذب الناس فحسب، بل كانت تجتمع إليه الطيور وتحط إلى جانبه أو على بدنه حين ينادي الحق في محراب عبادته. ولما كانت الجنة الموضع الأفضل فقد ورد في الخطبة أن داود عليه السلام قارئ أهل الجنة، كما أشار ابن أبي الحديد إلى رواية تحمل هذا المعنى فقال: ورد في الخبر، داود قارئ أهل الجنة.

٣. زهد الأنبياء

ستعرض في نهاية الخطبة عقب الحديث عن زهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى عليّ تشدد أنبياء الله على أنفسهم في الحياة، بما نعجز عن تحمله.
 نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧٣

القسم الخامس

فَتَأْسَ بِنَبِيِّكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَإِنَّ فِيهِ أَسْوَأَ لِمَنْ تَأْسَى، وَعَزَاءَ لِمَنْ تَعَزَى وَأَحَبُّ الْعِيَادِ إِلَى اللَّهِ الْمُتَأْسَى بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَضَى لِأَثَرِهِ. قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْمًا، وَلَمْ يُعْرِهَا طَوْفًا. أَهْضَمَ أَهْلَ الدُّنْيَا كَشْحًا، وَأَحْمَضِيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْنًا، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سَبِحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئًا فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئًا فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئًا فَصَغَّرَهُ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقًا لِلَّهِ، وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللَّهِ.

الشرح والتفسير: سيرة النبي صلى الله عليه وآله وإزاء عبدة الدنيا

إن الله جعل أنبياءه من البشر ليكونوا أسوأ للآخرين من جميع النواحي؛ ولو كانوا من جنس الملائكة لتعذر التأسي بهم ولأصاب الشلل أهم مفصل حركتهم الرسالية المتمثلة بالتعاليم العملية. والواقع مهما كان الخطيب متمكناً وبلغاً والكاتب فصيحاً ومتعمقاً فإن تأثير مواعظه ونصائحه لا يرقى إلى الأسوة العملية، ولا يمكن مقارنة ما يستفيده الآخرون من السيرة العملية لأولياء الله مع تلك التي تحصل عند سماع الوعاظ؛ ومن هنا ركز الإمام عليه السلام بعد ذكره لبعض الأنبياء على سيرة الرسول الله صلى الله عليه وآله في إطار مواجهته لأصحاب الدنيا الذين تكالبوا عليها في ذلك الزمان وفي كل زمان، فأشار قبل الخوض في الجوانب العملية لسيرة النبي صلى الله عليه وآله إلى رؤيته للدنيا فقال:

«فَتَأْسَ بِنَبِيِّكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَإِنَّ فِيهِ أَسْوَأَ لِمَنْ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧٤

تَأْسَى، وَعَزَاءٌ لِمَنْ تَعَزَّى وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الْمُتَأْسَى بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَصُ [٢٥٤] لِأَثَرِهِ.

وتطرق إلى نظرتة صلى الله عليه وآله إلى الدنيا، فقال:

«قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْمًا [٢٥٥]، وَلَمْ يُعْرِهَا طَرْفًا.

أَهْضَمُ [٢٥٦] أَهْلُ الدُّنْيَا كَشْحًا [٢٥٧]، وَأَحْمَصُهُمْ [٢٥٨] مِنَ الدُّنْيَا بَطْنًا، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ

يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئًا فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئًا فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئًا فَصَغَّرَهُ [٢٥٩]»

. إشارة إلى أنه كان مسلم لله بكل كيانه، يحب ما أحب الله ويعادي من يعاديه الله، وكل هذه العبارات إشارة إلى زخرف الدنيا الزائفة في أن الدنيا مبعوضة وحقيرة وصغيرة وتافهة. القضية المهمة أن حب الدنيا أساس الظلم والحروب وسفك الدماء، والذي ينظر إلى زخارفها نظرة حقيرة لن يحبها ويفتن بها ولما يتلوث بآثامها.

ثم يخلص إلى نتيجة واضحة يقول:

«وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيْنَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِفَاقًا لِلَّهِ، وَمُحَادَّةً عَنِ أَمْرِ اللَّهِ»

. نعم فسعادتنا في الدارين وصدقنا في ادعاء الإيمان بالله ورسوله في أن نعظم ما عظمه ونستصغر ما صغره. فقد وقف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله موقفًا مخالفًا لزخارف الدنيا ومظاهرها الزائفة، فكيف نزعم الإيمان به ونحن نعظم هذه التوافه الدنيوية ونضحى من أجلها بالغالي والنفيس؟! يمكن أن يرد هنا هذا السؤال: إذا كان

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧٥

النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بجانب الطعام إلى هذه الدرجة وكان أخلى بطنًا من عامة الناس، فكيف كان يصمد أمام العدو في المعركة حتى وصفه على عليه السلام بقوله:

«كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَاسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبُ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ» [٢٦٠]

. فقد ورد مثل هذا السؤال بشأن على عليه السلام كيف وقف تلك المواقف الصعبة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في معركة بدر واحد والأحزاب وخيبر وحنين وإبان حكومته في الجمل وصفين والنهروان ولم يكن طعامه سوى الشعير. وقد أجاب الإمام عليه السلام عن السؤال في كتابه إلى عثمان بن حنيف [٢٦١] فقال:

«أَلَا إِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ

أَصْلَبُ عُودًا وَالرَّوَاتِعَ الْخَصِرَةَ أَرْقُ جُلُودًا وَالنَّابِتَاتِ الْغِذِيَّةَ أَقْوَى وَقُودًا وَأَبْطَأُ خُمُودًا»

وعليه، فالنهم في الطعام ليس بدليل على القوة والقدرة. ولعل أولئك الأعراب الذين كانوا يقتاتون على الأطعمة العادية قد ابلوا بلاءاً حسناً في الحرب التي نشبت بين ايران والروم على العكس من أولئك الجنود الذين كانوا يطعمون مختلف الأطعمة، فقاوموا وصمدوا بالشكل الذي أذهل الجميع. القضية الأخرى هي أن معنويات المقاتل هي التي ترسم صورة واضحة عن مصيره في جبهة القتال لا الطعام وانواعه، وكانت معنويات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام في القمة بما أهلهما لتلك الشجاعة الفائقة. جدير ذكره أن ما ورد بشأن طعام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام لا- يعنى أنهما كانا يتناولان مثل ذلك الطعام طيلة حياتهما، بل المراد أنهما لم يتعلقوا بطعام معين قط.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧٧

القسم السادس

وَلَقَدْ كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جَلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْفَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ

الْعَارِي، وَيُزِدُ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السُّرُّ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: «يَا فَلَانَةُ- لِأَحَدِي أَرْوَاجِهِ- عَيْبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَرَخَّارِفَهَا». فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَمَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَارًا، وَلَا يَزُجُو فِيهَا مَقَامًا، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ، وَعَيْبَهَا عَنِ الْبَصْرِ. وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذَكَّرَ عِنْدَهُ.

الشرح والتفسير

زهد النبي صلى الله عليه وآله

تطرق الإمام عليه السلام في المقطع السابق من الخطبة بصورة عامة إلى زهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وضرورة الاقتداء والتأسي به، إلا أنه بين هنا مصاديق ذلك الزهد والتواضع في حياته اليومية فأشار إلى سبعة مواضع تكشف بجلاء عن مدى زهده وتواضعه [٢٦٢]، فقال:

«وَلَقَدْ كَانَ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ،

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧٨

وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ [٢٦٣] بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ [٢٦٤] بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكُبُ الْحِمَارَ الْعَارِي، وَيُزِدُ [٢٦٥] خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السُّرُّ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: «يَا فَلَانَةُ- لِأَحَدِي أَرْوَاجِهِ- عَيْبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَرَخَّارِفَهَا».

العبارة

«يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ»

إشارة إلى عدم امتلاك المحتاجين للمفروشات آنذاك ليجلسوا عليها فكانوا يضطرون للجلوس على الأرض فكان النبي صلى الله عليه وآله يواسيهم في الجلوس على الأرض. والعبارة «وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ»

تشير إلى مدى تواضعه في جلوسه، لا على غرار المتكبرين الذين يضعون رجلاً على أخرى بكل غرور. والمعروف عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يجثو على ركبتيه على غرار العبيد؛ فهي جلسة متواضعة إلى جانب كونها سهلة في النهوض. ورد في الحديث أن امرأة سيئه اللسان مرّت بالنبي صلى الله عليه وآله وهو جالس فقالت له: يا محمد إنك لتجلس كالعبيد؟ فقال صلى الله عليه وآله: «آله»

«وَأَيُّ عَبْدٍ أَعْبُدُ مِنْي» [٢٦٦].

والعبارة

«وَيَكُونُ السُّرُّ...»

إشارة إلى عائشه حين وضعت سترًا مزينا فيه صور لذي أرواح، فامتعض رسول الله صلى الله عليه وآله من رؤيته لأنه مزين فقال: «عَيْبِيهِ عَنِّي فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَرَخَّارِفَهَا، وَأَمَرَ بِرَفْعِهِ فَوْرًا» [٢٦٧].

ثم قال عليه السلام مواصلاً كلامه:

«فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ،

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧٩

وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَمَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا [٢٦٨]، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَارًا، وَلَا

يَرْجُو فِيهَا مَقَامًا»

. إشارة إلى أن حيين لا- يجتمعان في قلب إنسان. فإن افتتن بالدنيا وأحبها رحل عن قلبه حب الله ونعيم الآخرة، فما لم يطرد من قلبه حب الدنيا لن يحب الله. ويصدق هذا المعنى على جميع الأفراد، وأبرز نموذج لذلك تمثل في حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي قال:

«ما لى وللدنيا إنما مثلى ومثلها كمثل الزاكب رُفعت له الشجرة في يوم صائفٍ فقال تحتها ثم راح وتركها» [٢٦٩].

ثم خلس الإمام عليه السلام إلى نتيجة واضحة أنه طالما كانت الدنيا بهذا الشكل فما كان من النبي صلى الله عليه وآله إلا أن قاطعها: «فأخرجها من النفس، وأشخصها» [٢٧٠] عن القلب، وغيبها عن البصر.

وكذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه، وأن يذكر عنده»

. وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: لماذا كل هذا الذم والتحقير للدنيا من قبل الإمام عليه السلام؟ سنرد على هذا السؤال بالتفصيل في آخر الخطبة إن شاء الله.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨١

القسم السابع

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِيءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ.

فَلْيَنْظُرْ نَاطِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَّبَ - وَاللَّهِ الْعَظِيمِ - بِالْإِفْكَ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَّاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ. فَتَأَسَّى مُتَأَسِّ بِنَبِيِّهِ، وَافْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَّجَ مَوْلَجَهُ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنُ الْهَلَكَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - عَلَمًا لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ، وَمُنذِرًا بِالْعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا حَمِيصًا، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيمًا. لَمْ يَضَعْ حَجْرًا عَلَى حَجْرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ. فَمَا أَعْظَمَ مِنْهُ اللَّهُ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلْفًا تَتَّبَعُهُ، وَقَائِدًا نَطَأَ عَقْبَهُ! وَاللَّهِ لَقَدْ رَفَعَتْ مَدْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ:

اغْرُبْ عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى

الشرح والتفسير: لم التأسي بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله

عاود الإمام عليه السلام تأكيداً لما أورده في المقطع السابق من الخطبة في ذم الدنيا والمتعلقين بها فقال بادية الأمر على نحو الاستدلال المنطقي:

«وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِيءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨٢

فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ [٢٧١]، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ [٢٧٣]»

. وعلى ضوء هذه المقدمة خاض في برهانه المنطقي فقال:

«فَلْيَنْظُرْ نَاطِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَّبَ - وَاللَّهِ الْعَظِيمِ - بِالْإِفْكَ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَّاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ»

. لا ينبغي أن ننسى هنا أن فتنه من الأثرياء آنذاك كانت ترى ثروتها دليلاً على عناية الله بها، وبالتالي فإن الفقراء والضعفاء مبعدون

عن عناية الله، وهذا التفكير دفع بهم لحث الآخرين على جمع الثروة عن أى طريق وبأية وسيلة. ومن هنا «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ» [٢٧٤] فرد عليهم الحق تعالى «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ شِقُفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِيُؤْتِيَهُمْ آثَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَبَّرُونَ* وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُنُّ لِمَا مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ» [٢٧٥].

والإمام عليه السلام ليفند بالبرهان القاطع هذه الفكرة المريضة السائدة فى الأذهان.

فالحق أن الله سبحانه وتعالى أولى رسوله صلى الله عليه وآله عناية فائقة، فى حين كان محروماً من زخارف الدنيا وزبرجها، ولا يستطيع أحد أن يزعم أن الله أهان نبيه، وعليه نخلص إلى نتيجة مفادها أن الإمكانيات المادية والثروة ليست دليلاً على الشخصية ولذلك خلس الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَتَأْسَى [٢٧٦] مَتَأْسٌ بِنَبِيِّهِ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلَجُهُ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنُ الْهَلَكَةَ».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨٣

ثم واصل عليه السلام حديثه بالقول:

«فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - عَلَمًا لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ، وَمُنذِرًا بِالْعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصًا، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيمًا. لَمْ يَضَعْ حَجْرًا عَلَى حَجْرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ»

. إشارة إلى أن النبى صلى الله عليه وآله ورغم عظمتة وكونه علماً للساعة وبصفتة البشير والناذير فقد عاش تلك الحياة البسيطة المتواضعة إلى درجة أنه رحل عن الدنيا ولم يملأ بطنه أو يبنى له بيتاً مشيداً (طبعاً بنى النبى صلى الله عليه وآله حجرات لأزواجه عند المسجد من الطين وسعف النخيل والعبارة

«لَمْ يَضَعْ حَجْرًا عَلَى حَجْرٍ»

تشير إلى بيوت الأثرياء الذين كانوا يبنون بيوتهم من الحجر).

وأخيراً خلس إلى هذه العبرة:

«فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللَّهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفًا نَتَّبِعُهُ، وَقَائِدًا نَطَأُ عَقْبَهُ!»

نفحات الولاية؛ ج ٦؛ ص ١٨٣

أجل، فأحدى نعم الله العظمى على البشر وجود هؤلاء الزعماء العظام الذين حفلت جميع حركاتهم وسكناتهم بالدروس والعبر، ولم تنتفع أية أمة كالمسلمين من النعمة الفضيلة، فالأمة وإن كانت لها عظماء، إلا أن نبى الإسلام صلى الله عليه وآله كان أعظم الجميع، وليت شعري أى كفران للنعمة أعظم من ضلالتنا وحيرتنا رغم نعمة الله علينا بهذا القائد العظيم. وأخيراً وليثبت الإمام عليه السلام أنه أول من يتمثل عملاً بما يقول وأنه يحذو حذو رسول الله صلى الله عليه وآله فقد قال:

«وَاللَّهِ لَقَدْ رَفَعْتُ [٢٧٧] مَدْرَعَتِي [٢٧٨] هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَتَبَدُّهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: اغْرُبْتُ [٢٧٩] عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الشَّرِيَّ»

. يستفاد من هذه العبارة بوضوح أن الإمام عليه السلام كان يعطى ثوبه بين الحين والآخر ليرقعوه (وإن قام أحياناً بهذا العمل شخصياً) وقد كثرت رقعات ثوبه حتى شعر الإمام عليه السلام بالخجل من رقعته، مع ذلك لم يكن مستعداً لطحه. شتان بين سيرة الإمام عليه السلام وبعض الأفراد الذين

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨٤

ينتقون ثياب كل فصل وزمان ومكان بما يناسبه، فهناك ثوب لمجالس السرور وآخر لمجالس العزاء، وهكذا للسفر والحضر والنوم،

بل الأسوأ من كل ذلك طرح بعض الملابس كونها لا تناسب الموضة. العبارة

«فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الشَّرِيَّ»

، مثل معروف عند العرب، معناه، أن من يصبر على النوائب ويتحمل الشدائد حين يبلغ هدفه يُسَرَّ بصبره ويحمد الله ويحمده الآخرون أيضاً [٢٨٠].

تأمل

لعلنا نتعرف بصورة عميقة على حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال

«حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»

كلما أمعنا النظر في حجم الذنوب والمعاصي والنزاعات الاجتماعية العنيفة وتأمنا الملفات الحقوقية والجزائية التي تضج بها المحاكم والجدير بالذكر أن هذا الحديث لم يقتصر على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بل أكدته سائر الأئمة المعصومين عليهم السلام كالإمام الصادق والإمام السجاد عليهما السلام إلى جانب تأكيده من الأنبياء السابقين عليهم السلام [٢٨١].

ولو توقفنا قليلاً وتأمنا لأمكننا إيجاز عمدة مظاهر حب الدنيا في ثلاثة أشياء هي: حب المال وحب الجاه وحب الشهوة. فليس هنالك من حرب وقعت في العالم ولا فساد انتشر في صفوف المجتمع إلا كان معلولاً لأحد هذه المحاور الثلاثة. وبناءً على هذا فإن أردنا ممارسة عملية الإصلاح في المجتمعات الإسلامية كان لابد لنا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨٥

من مواجهة التعلق بالدنيا. ولعل هذا الموضوع يبدو بارزاً في المجتمعات الفقيرة التي تنتقل فجأة إلى الغنى، كالمجتمع الإسلامي في صدر الإسلام؛ ذلك أن الفقر كان قد عم المجتمع قبل بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، إلا أن الفتوحات وما انطوت عليها من غنائم بصورة مفاجئة قد غيرت الأوضاع فأخذ أصحاب الدنيا يتهافتون على اللذات والغرق في المعاصي. وعليه فلا يبدو من المستغرب على ذلك الإمام الهمام على عليه السلام وبغية تغيير تلك الأوضاع أن يورد تلك الخطبة ويكرسها لدم الدنيا ومن تعلق بها؛ فيأخذ بأيدي الناس ويغوص بهم في أعماق تاريخ الأنبياء الماضين ويكشف لهم عن عمق زهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وحياته البسيطة المتواضعة بهدف إيقاظهم من غفلتهم وإعادةهم إلى المسار الصحيح.

على سبيل المثال كان على عهد عثمان - حين ازدادت الأموال في بيت مال المسلمين وكان ينبغي أن تصرف في العمران وبناء الدولة الإسلامية وانقاذ المحرومين - أن سيطرت قرابته وبطانته على الأموال، فجنى كل منهم ثروة عظيمة أفرد لها العلماء الأئمة رحمهم الله في الجزء الثامن من الغدير باباً أسماه (الكنوز المكتنزة بركة الخليفة) وقد عرض فيه بعض تلك الكنوز من مصادر العامة. وذكر بعض الأفراد من قبيل: مروان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ويعلى بن أمية وعبدالرحمن بن عوف وزيد بن ثابت وسائر الأفراد، وقد حصل كل منهم على آلاف الدنانير من بيت المال، حتى ذكر أن ورثة زيد بن ثابت كانت تتقاسم ارثه من الذهب والفضة عن طريق كسرها بالفؤوس، كما ترك يعلى بن أمية مبلغ خمسمائة ألف دينار إلى جانب المزارع والبساتين والدور والديون التي له بدمه الناس والتي تبلغ مائة ألف دينار (كل دينار مثقال من الذهب المسكوك).

وأما عبدالرحمن بن عوف فقد ترك ألف ناقه وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس إلى جانب الأراضي الزراعية، ومن أراد المزيد فليراجع الغدير وما ذكره من مصادر

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨٦

وأرقام بهذا الشأن [٢٨٢].

وعلى هذا الضوء ألا يتوجب على زعيم عظيم كعلى عليه السلام أن يكون كالطبيب الحاذق فيشمر عن ساعديه ويعالج ذلك المجتمع

المريض بوباء حب الدنيا من خلال ذمها واستصغار شأنها؟ وعليه ينتفى السؤال الذي يطرح نفسه أنه لم عرض على عليه السلام بكل هذا الذم للدنيا وهو إمام الإسلام هذا الدين الذي يعنى بالدنيا والآخرة والحضارة والمدنية. واليوم أيضاً إن أردنا أن نحول دون هذه النزاعات الدامية وسفك الدماء وتجار السلاح الذين يصدرون الموت والدمار للشعوب والوقوف بوجه مراكز الفساد والدعارة والانحراف، فليس أماننا من سبيل سوى تحقير هذه الدنيا ومن تعلق بها واستصغارها حتى تصبح فضيحة ليقنع الآخرون بالحياة البسيطة المتواضعة على حد الكفاف.

ونختتم الكلام بالحديث الذي ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال
«جَعَلَ الْخَيْرُ كُلَّهُ فِي بَيْتٍ وَجَعَلَ مِفْتَاحَهُ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا» [٢٨٣].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨٧

الخطبة ١٦١

إشارة

فِي صِفَةِ النَّبِيِّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأَتْبَاعِ دِينِهِ وَفِيهَا يَعِظُ بِالتَّقْوَى [٢٨٤]

نظرة إلى الخطبة

تشتمل هذه الخطبة على ثلاثة أقسام، أشار في المقطع الأول إلى بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وصفاته الحميدة وخصائص أهل بيته، ويذكر آثار دعوته في إظهار الحق ودحر الباطل، ويخلص إلى نتيجة مفادها أن شقاء الدنيا والآخرة في عدم الإيمان بالإسلام الحنيف.

وتطرق الإمام عليه السلام في المقطع الثاني من الخطبة إلى التوكل على الله وسؤاله الهدى. ثم اختتم الخطبة بدعوة الجميع إلى الورع والتقوى وطاعة الله والحذر من التعلق بالدنيا بعبارات عظيمة المعاني إلى جانب ضرورة الاعتبار بالوقائع والأحداث التي يشهدها العالم.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨٩

القسم الأول

ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيِّ، وَالنُّورِ الْجَلِيِّ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي وَالْكِتَابِ الْهَادِي. أُسْرَتْهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ، وَشَجَرَتْهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ؛ أَعْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدَلَةٌ. مَوْلَدُهُ بِمَكَّةَ، وَهَجَرَتْهُ بِطَيْبَةَ عَلَّا بِهَا ذِكْرُهُ وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ. أُرْسِلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَفِّفِيَةٍ. أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمُدْخُولَةَ، وَبَيَّنَّ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ.

«فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا» تَتَحَقَّقُ شَقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمُ عِزُّوَتُهُ، وَتَعْظُمُ كِبَوْتُهُ، وَيَكُنْ مَآبُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ. وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلِ الْإِنَابَةَ إِلَيْهِ. وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ.

الشرح والتفسير: صفات النبي صلى الله عليه وآله

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بالحديث عن خصائص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ورسالته فقال:

«ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيِّ، وَالْبُرْهَانَ الْجَلِيَّ، وَالْمِنْهَاجَ الْبَادِي [٢٨٥] وَالْكِتَابَ الْهَادِي»
 . المراد من النور المضيء نور نبوته صلى الله عليه وآله الذي أضاء كل شيء،
 «وَالْبُرْهَانَ الْجَلِيَّ»

إشارة إلى معجزاته الواضحة، كما تبين العبارة

«وَالْمِنْهَاجَ الْبَادِي»

شريعته الغراء،

«وَالْكِتَابَ الْهَادِي»

القرآن الذي يهدي عامة الخلق إلى الله حتى قيام الساعة. هذا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٠

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن العبارات الأربع المذكورة تشير إلى القرآن الذي نظر إليه الإمام عليه السلام من عدة جوانب؛
 إلّا أن الأنسب ما ذكرناه من أن كل عبارة تشير إلى جانب معين؛ الأمر الذي استحسنته سائر الشراح. على كل حال فإن كلام الإمام عليه
 السلام إشارة إلى أركان الدعوة الكاملة الشاملة والتي تستند إلى نور الوحي، والتي بينت بمختلف المعجزات والأدلة والبراهين وكتاب
 الهداية القرآنية بأحكامه الجليلة الواضحة.

ثم خاض عليه السلام بثمان عبارات قصيرة في التعريف بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«أُسْرَتُهُ خَيْرٌ أُسْرَةٍ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرٌ شَجَرَةٍ؛ أَعْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثَمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ. مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهَجْرَتُهُ بِطَبِيبَةَ [٢٨٦] عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ وَامْتَدَّ مِنْهَا
 صَوْتُهُ»

. متهدل، بمعنى متدلّ وهنا تعنى الفاكهة القريبة من الجميع. ولعل موفيقية الإنسان وسعادته تتحقق في ظل أمور مختلفة ولكل من
 نجابة الأسرة وكرامة الحسب والنسب ورفع شخصيته الأهل والقرابة وأهميته مسقط الرأس والبيئة والنشاط في أجوائها، دور مهم في
 تلك السعادة. ولو أمعنا النظر في حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله نجد أنه صلى الله عليه وآله إلى جانب سموه الذاتى قد
 توفرت له سائر العوامل اللازمة للتوفيق والنجاح ليتمكن على ضوئها من ممارسة دوره في هداية الناس، فنسبه الشريف يمتد إلى
 إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام حيث ورث منهما الشجاعة والتضحية. قبيلته بنى هاشم من أشرف القبائل العربية. أبوه عبد الله،
 وجدّه عبدالمطلب، وعمّه حمزة وأبوطالب، وابن عمّه على وجعفر عليهما السلام، وبتته فاطمة الزهراء عليها السلام أم المعصومين
 عليهم السلام. وولادته في مكة الحرم الإلهى الآمن، وهجرته إلى المدينة الطيبة مركز الإيثار والقدرة والتضحية. ومن هناك وسع رقعة
 دعوته وأسمع صوته العالم بأسره، والأسرة من مادة أسر على وزن عصر، بمعنى القوة والقدرة إشارة إلى أسرة بنى هاشم وقرابة النبي
 الأكرم صلى الله عليه وآله.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩١

وتشير الشجرة إلى أصل هذه الأسرة التي تنتمى إلى إبراهيم عليه السلام، والأغصان المعتدلة إشارة إلى فروع كعبدالمطلب
 وأبى طالب وحمزة وجعفر وأمير المؤمنين عليه السلام وأئمته الهدى عليهم السلام وهم بمثابة الفروع المتداخلة للشجرة في فضلهم
 وعلمهم وكمالهم وعدم اختلافهم ومعارفهم التي يتغذى على ثمارها جميع الناس على مرّ العصور والدهور.

ثم اتّجه الإمام عليه السلام صوب سيرته العملية فقال:

«أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَفِّفِيَةٍ [٢٨٧]»

. نعم، فقد كانت له مختلف الأدلة العقلية والفطرية والمعاجز الحسية، فيعالج أمراض الناس والمجتمعات بكلماته الحكيمه ويصلح
 الخراب الذى لحق بالناس إبان الجاهلية فى كافة مجالاتهم الاجتماعية. فقد اقترنت دعوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالدليل

والبرهان من حيث جذورها وانطلاقها، كما تضمنت على مستوى المضمون الخطط العملية الهادية، وكل ذلك يقود إلى نتيجة مرجوة تتمثل في إصلاح الفساد وإعادة بنية الأصول الفكرية والأخلاقية والاجتماعية.

ثم خاض عليه السلام في الأعمال المهمة التي أتى بها رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمُدْحُولَةَ» [٢٨٨]، وَبَيَّنَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْضُولَةَ [٢٨٩]

. فالواقع هو أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مارس ثلاثة أعمال مهمة: أعلن العقائد الحقّة، وأزال البدع والخرافات، وبيّن الأحكام الشرعية بوضوح لجميع الناس، حصل كل منها بسعى متواصل وجهد عظيم. ثم خلاص إلى هذه النتيجة التي صرح بها القرآن الكريم: «فَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا»

تَتَحَقَّقُ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَعِصَمُ عُزُوْتُهُ، وَتَعْظُمُ كَبُوْتُهُ، وَيَكُنْ مَأْبَهُ إِلَى الْخُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَيْلِ»
فمن الطبيعي أن لا تكون

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٢

نتيجة مخالفة الدين الذي يتسم داعيته بكل تلك المكارم ودينه الجامع والشامل، سوى الشقاء والضلال والهلكة. ويتضح من هذه العبارات مدى زيف الشعارات الجوفاء التي يرفعها البعض اليوم في الأوساط الإسلامية انفعالا بكتاب الغرب فيتبنون كفاية اعتناق أي من الأديان؛ الأمر الذي لا ينسجم ومنطق القرآن ولا كلمات أئمة الهدى كعلي عليه السلام.

وأخيراً يعرب الإمام عليه السلام عن توكله على الله وإنابته إليه فيقول:

«وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلَ الْإِنَابَةُ إِلَيْهِ. وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ»

. ربّما تكون هذه العبارة إشارة إلى أن أسباب سعادة البشرية توفرت ببيعة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والدين العظيم الذي بعث به، ولم يبق لتحقيق هذه السعادة سوى أن نسير على الدرب وبالتوكل على الله وطلب الهداية منه والإرشاد إلى الحق. ومن هنا اختتم الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبة بالتوكل على الله واسترشده الطريق إلى الجنة.

تأمل

من قال أم ما قال؟

يبدو أن هذه العبارة المعروفة:

«أَنْظُرْ إِلَى مَا قَالَ وَلَا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ» [٢٩٠]

صادقة في القضايا الواضحة والمنطقية، أما في القضايا المهمة والمعقدة والمدارس الفكرية المطروحة فلا بد من النظر والتركيز على من قال، حتى يتسنى الوثوق به والتأسي بسيرته، ولذلك خاض القرآن في أكثر من موقع في خصائص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» [٢٩١] وقال في موقع آخر: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٣

لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [٢٩٢]. ومن هنا أشار الإمام عليه السلام في بداية الخطبة إلى شخصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من حيث النسب والأسرة والأصل وصفاته الكمالية وأثنى على شجرته وفروعها المثمرة، ثم تطرق إلى شريعته السمحاء من مختلف الجوانب ليلفت انتباه الآخرين إلى ضرورة الوثوق به ويقطع اعدار المغرضين.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٥

القسم الثاني

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَدًا، وَالْمُنْجَاةُ أَيْدًا. رَهَبٌ فَأَبْلَغُ، وَرَغَبٌ فَأَسْبَغُ؛ وَوَصَفَ لَكُمْ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا. فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقَلَّةِ مَا يَصِحُّ بِكُمْ مِنْهَا. أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سِخِطِ اللَّهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ! فَعُضُّوا عَنْكُمْ- عِبَادَ اللَّهِ- عُمُومَهَا وَأَشْعَالَهَا، لِمَا قَدْ آيَقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَيُّرِهَا حَالَاتِهَا. فَاحْذَرُوا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ. وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصِيَهُمْ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَانْقَطَعَ سِرُّورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ؛ فَيَدُلُّوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقْدَهَا، وَبِصِيْحَبِهِ الْمَرْوَجِ مُفَارَقَتِهَا. لَا يَتَفَاخَرُونَ، وَلَا يَتَنَاسِلُونَ، وَلَا يَتَرَاوِرُونَ، وَلَا يَتَحَاوِرُونَ. فَاحْذَرُوا، عِبَادَ اللَّهِ، حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، الْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، النَّاطِرِ بِعَقْلِهِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ، وَالطَّرِيقَ جَدِّدٌ وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ.

الشرح والتفسير: الاعتبار بالأمم السابقة

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة باسداء النصح والموعظة التي توقظ الغافلين بعد أن أكد في الموضوع السابق على تقوية روح الإيمان لدى المخاطبين ليؤكد هنا على بعض الجوانب العلمية، ذلك لأن عمل ثمرة الشجرة الإيمان فقال:

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَدًا، وَالْمُنْجَاةُ [٢٩٣] أَيْدًا».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٦

ربما أمكن عودة الطاعة والتقوى إلى مفهوم واحد، كما يمكن اعتبار التقوى أساس الطاعة، ذلك لأن طاعة الله إنما تنبعث من التقوى والورع، كما يحتمل أن تكون التقوى إشارة إلى ترك الذنب، والطاعة إلى امتثال الأحكام الشرعية، فهما لا يفترقان كيفما كان الأمر (ولعل ذلك هو سبب الإتيان بالضمير مفرداً في أنها والحال، ينبغي أن يكون مرجع الضمير مثنى). واطلاق النجاة على التقوى من قبيل اطلاق المسبب على السبب، لأن التقوى سبب النجاة في الآخرة.

ثم قال:

«رَهَبٌ [٢٩٤] فَأَبْلَغُ، وَرَغَبٌ فَأَسْبَغُ [٢٩٥]»

. إننا لنعلم أن الضمان الفعلي لجميع الأحكام الشرعية هو البشارة والإنذار. وقد شحنت الكتب السماوية بالوعد والوعيد والإنذار والبشارة ترغيباً للناس في الطاعة وحياشة لهم عن المعصية. ولما كان التعلق بالدنيا والخداع بمظاهرها رأس المعاصي والذنوب فإن الإمام عليه السلام عاد ليؤكد هذا الأمر فقال:

«وَوَصَفَ لَكُمْ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا. فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقَلَّةِ مَا يَصِحُّ بِكُمْ مِنْهَا»

. فالذي يستفاد من هذه العبارة القصيرة والعميقة المعاني أن الله بين أربعة أمور بشأن الدنيا؛ الأول أصل الحياة الدنيا وكما يبدو من أسمها حياة دنيئة وتافهة لا قيمة لها، والثاني، أنها ليست مستقرة وذات يوم يحل الموت بالإنسان ويقضى على دنياه، والثالث، ما أن ينغمس الإنسان في متع الحياة الدنيا حتى يشعر بزوالها التدريجي، حيث تأخذ قواه البدنية بالضعف وتختل صحته ويثقل بفقد الأعزّة والأصدقاء، الواحد تلو الآخر، وينظر إليهم وهم يتوسدون التراب، والرابع، أن الدنيا دائمة الانتقال من قوم إلى قوم: «اعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتْرَاهُ مُضِيئاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُزُورِ» [٢٩٦].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٧

فقد رسمت الآية القرآنية الشريفة صورة واضحة عن تهاه الدنيا وانقطاع نعيمها وزوالها في إطار واضح، كما ورد هذا الانتقال في آية

أخرى: «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ» [٢٩٧].

ثم قال مواصلاً وصف الدنيا:

«أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ!»

. ودليل ذلك واضح هو أن الدنيا هوى وهوس يقذف بالإنسان في مستنقع الذنب من كل جانب وهذا ما يوجب غضب الله وعدم رضاه. طبعاً، المراد من الدنيا هنا، الدنيا المادية التي يجعلها الإنسان هدفاً ويعتمد كل الوسائل للحصول عليها وإن قارف الذنوب، وإلا فالدنيا وسيلة على الاقتدار للطاعة وشكر النعمة وبلوغ السعادة.

ثم خالص عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَعَضُّوا [٢٩٨] عَنْكُمْ - عِبَادَ اللَّهِ - غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا،

لِمَا قَدْ أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَرُّفِ حَالَاتِهَا. فَاحْذَرُواهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ [٢٩٩]

. إشارة إلى تصاعد آلام الدنيا وتزايد همها، فكلما اقترب الإنسان منها زاد غناؤه حتى يسيطر الهم على جميع كيانه.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«مَثَلُ الْحَرِيصِ عَلَى الدُّنْيَا مَثَلُ دُوْدَةِ الْقَرْزِ كُلَّمَا إِزْدَادَتْ مِنَ الْقَرْزِ عَلَى نَفْسِهَا لَفَأَ كَانَ أَبْعَدُ لَهَا مِنَ الْخُرُوجِ حَتَّى تَمُوتَ غَمًّا» [٣٠٠]

. وقد تمثل الشاعر العربي فانشد [٣٠١].

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرَّةَ طُولَ حَيَاتِهِ حَرِيصٌ عَلَى مَا لَا يَزَالُ يَنَاسِجُهُ

كَدُودٌ كَدُودِ الْقَرْزِ يَنْسِجُ دَائِمًا فَيَهْلِكُ غَمًّا وَسَطًا مَا هُوَ نَاسِجٌ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٨

ثم أخذ الإمام عليه السلام بيد مخاطبيه إلى العهود الماضية ليشرح عاقبة الحياة الدنيا لمن تعلق بها ضمن عشر عبارات قصيرة بما يهز ضمير الإنسان فقال:

«وَأَعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ [٣٠٢] الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَرَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ [٣٠٣]، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ

وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَأَنْقَطَعَ سُورُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ».

وتشير العبارة

«تَرَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ»

إلى تآكل الجسد تحت التراب، كما يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى تآكل الشوائب الاجتماعية في حياة الإنسان والتي تزول بعد وفاة الإنسان، كما يمكن أن تكون الأسماع والأبصار إشارة إلى الأذن والعين الظاهرية لقدرة الرؤية والسمع الحسى. ولا تزول حواس الإنسان الظاهرية وأعضائه البدنية فحسب، بل تزول كل امتيازاته الاجتماعية من قبيل الترف المادى والعزة وكافة النعم والمتع. ثم أشار عليه السلام إلى جانب آخر من النعم التي يفارقها الإنسان بالموت فقال:

«فَبَدَلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقْدَهَا، وَبِصُحْبَةِ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا. لَا يَتَفَاخَرُونَ، وَلَا يَتَنَاسَلُونَ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ، وَلَا يَتَحَاوَرُونَ».

بل وصفهم الشاعر [٣٠٤]:

وَحَلُّوا بِدَارٍ لَا تَزَاوَرُ بَيْنَهُمْ وَأَنَّى لِسْكَانِ الْقُبُورِ التَّرَاوُرُ

طبعاً هذا الكلام فى جسم الإنسان ولا مانع من اجتماع أرواح المؤمنين وتزاورها وتحاورها.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبة محذراً الجميع:

«فَاحْذَرُوا، عِبَادَ اللَّهِ، حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، الْمَانِعِ لَشَهْوَتِهِ، النَّاطِرِ بِعَقْلِهِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ، وَالطَّرِيقَ جَدِّدٌ [٣٠٥]

وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ»

. العبارة

«فَاخَذُوا ... النَّاطِرِ بِعَقْلِهِ»

إشارة إلى أن الإنسان يمكنه

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٩

اجتياز الأخطار الواردة في العبارات السابقة للإمام من خلال: غلبته لنفسه ليمكن بعد ذلك من كبح جماح شهواته ومن ثم النظر إلى الأمور ببصيرة العقل لا الشهوة المضلة، والعبارات الأربع الأخيرة في الخطبة تشير كل واحدة منها إلى قضية مستقلة، قال في الأولى: إن سبيل السعادة قد اتضح بواسطة القرآن وأولياء الله وقد نصبت الأعلام الواضحة على طول طريق السير إلى الله، كما أن الجادة محكمة ومستوية وخالية من العوائق والمطبات والانحراف، ولا يبقى شيء سوى العزم والإرادة للسالكين على الدرب واجتيازه بصورة سريعة. وهنيئاً لأولئك الذين عزموا وساروا على الدرب كما قال الشاعر:

فَطُوبَى لِعَبْدٍ آتَرَ اللَّهَ رَبَّهُ وَجَادَ بِدُنْيَاهُ لِمَا يَتَوَقَّعُ [٣٠٦]

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠١

الخطبة ١٦٢

إشارة

لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ وَقَدْ سَأَلَهُ: كَيْفَ دَفَعْتُمْ قَوْمَكُمْ عَنْ هَذَا الْمَقَامِ
وَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ؟ فَقَالَ: [٣٠٧]

نظرة إلى الخطبة

كما ورد آنفاً فإن الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام كجواب لأحد أصحابه وقد سألته عن كيفية دفعه عن حقه في الولاية وجدارته بها. فأشار الإمام عليه السلام إلى أمرين تدور حولهما الخطبة: الأول: أن السبب الرئيسي هو البخل والاستبداد والتعلق بالدنيا. والثاني: الذي قال فيه إنك إن تعجب من قضية بداية الخلافة، فانظر اليوم وقد تصدى معاوية وتبعه الناس، دون أدنى جدارة بهذا المنصب ولا يمكن المقارنة بيني وبينه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠٣

القسم الأول

فَقَالَ: يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَلْقَلْبُ الْوَضِينِ تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدِّدٍ، وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصَّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدْ اسْتَعْلَمْتَ فَأَعْلَمَ: أَمَا الْإِسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَبًا، وَالْأَشْدُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - نَوَاطًا، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثْرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَحَّتْ عَنْهَا نُفُوسٌ آخَرِينَ؛ وَالْحَكْمُ لِلَّهِ، وَالْمَعْوَدُ إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ. وَدَعَّ عَنْكَ نَهْبًا صَبِيحًا فِي حَجَرَاتِهِ وَلَكِنْ حَدِيثًا مَا حَدِيثُ الرَّوَاجِلِ

الشرح والتفسير: علة غضب الخلافة العلوية

أورد الإمام على عليه السلام هذا الكلام في رده على السائل الذي يبدو أنه طرح السؤال في موقع لم يكن مناسباً، مع ذلك أجاب عليه السلام عن السؤال فقال:

«يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلْبُ الْوُضِيِّينِ تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدِّ [٣٠٨]، وَلَكَ بَعْدَ ذِمَامَةِ [٣٠٩] الصُّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدْ اسْتَعْلَمْتَ فَأَعْلَمُ»

. أما لماذا خاطبه الإمام عليه السلام
«يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ»

وأشار ضمن كلامه بالقول لك علينا ذمامة الصهر؟ هناك خلاف بين شراح نهج البلاغة بهذا الشأن؛ فالبعض كابن أبي الحديد ومغنية يقولان إن ذلك يعود إلى أن إحدى أزواج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله زينب بنت جحش من طائفة بنى أسد [٣١٠]. بينما يرى البعض الآخر أن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠٤

علياً عليه السلام تزوج امرأة من بنى أسد، وإن لم تذكر كتب التاريخ ذلك، ولا مانع من الجمع بين الاحتمالين. العبارة

«لَقَلْبُ الْوُضِيِّينِ»

بالنظر إلى أن

(الوضيين)

بطان يشد به الرحل على البعير كالحزام للسر، و

(قلق)

، بمعنى الضعيف فإن من الطبيعي أن اضطرب ذلك الحزام تملل الجمل وتحرك هنا وهناك ومن هنا يطلق على المضطرب:

الوضيين. والعبارة

«وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ»

تعبير حي رائع يفيد أن لكل شخص الحق في سؤال الإمام، كما يستفاد ضمناً التزام الإمام بالاجابة ما لم يكن هنالك محذور معين.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه السابق ليتطرق إلى الأسباب التي وقفت وراء دفعه عن حقه فقال:

«أَمَّا الْأَسْبَابُ فَبِهَذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسِيبًا، وَالْأَشَدُّونَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - نَوْطًا [٣١١]، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثْرَةً [٣١٢] شَحَتْ [٣١٣] عَلَيْهَا نُفُوسُ

قَوْمٍ، وَسَخَتْ [٣١٤] عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ؛ وَالْحَكَمُ اللَّهُ، وَالْمَعُودُ [٣١٥] إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ».

المراد من الاستبداد، من مادة

(بدد)

، بمعنى الابعاد والتفريق، بحيث يستولى الإنسان على شيء ويبعد الآخرين عنه. فقد عزي الإمام عليه السلام في هذا الموضوع من كلامه الدليل الأصلي لغضب الخلافة رغم أولويته بها إلى الاستبداد والبخل الذي أعمى أعين البعض عن الواقع فسارع عزل الآخرين واعتلى موقع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

من الواضح أن المراد من هؤلاء الأفراد أولئك الذين اجتمعوا في سقيفة بنى ساعدة لاختيار الخليفة، وإن دفع التعصب ابن أبي الحديد

لينسب المقصود إلى الشورى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠٥

التي نصبها عمر ومعارضه عبدالرحمن بن عوف لخلافة على عليه السلام والذي يعد في الواقع من قبيل انكار البديهيات؛ ذلك لأن

سؤال السائل كان بشأن أصل الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وجواب الإمام عليه السلام أيضاً عالج هذه القضية والذي يشبه ما أورده الإمام عليه السلام بهذا الخصوص في خطبة أخرى والمراد من العبارة «وَسَحَّتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ»

إننا بنى هاشم حين رأينا الإصرار العجيب لتلك الفئة على مصادرة الخلافة ولا- تعود المقاومة سوى إلى تصدع كيان المجتمع الإسلامي غضضنا الطرف عنها بكل سخاء ولم نمارس أية مقاومة. ثم تمثل الإمام عليه السلام بذلك الشعر الذي ينسب إلى امرؤ القيس

الذي قال فيه دع عنك الحديث بشأن الغارات التي وقعت في الزمان الماضي وحدثني عن غارات اليوم (حيث آلت فيه الخلافة الإسلامية إلى معاوية الذي أصبح الخطر العظيم الذي يهدد الإسلام). ودع عنك نهياً صريحاً في حجراته [٣١٦] ولكن حديثاً ما حديث الرواحل. يذكر أن امرؤ القيس

أنشد هذا البيت بعد قتل أبيه الذي لجأ إلى

خالد بن سدوس

فهجمت عليه طائفة من قبيلة

بنى جديله

ونهبوا الأموال والجمال. فأخبر

امرؤ القيس خالد

الخبر فقال له: أعطني جمالك حتى استعيد تلك الجمال فقبل. فاتجه

خالد

إلى قبيلة

بنى جديله

فطالبهم باعادة الجمال. فأزروه من ناقته وأخذوا منه البقية. فلما اطلع

امرؤ القيس

على هذا الخبر أنشد ذلك البيت، ومضمونه: دع عنك نهب تلك الجمال وحدثني عن هذه التي سلمها

خالد

لهذه القبيلة [٣١٧]. ينطوي هذا القسم على موضوعين مهمين سنتطرق إليهما في ختام الخطبة.

نغمات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠٧

القسم الثاني

وَهَلُمَّ الْخُطْبَ فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ؛ وَلَا غَرَوَا لِلَّهِ، فَيَا لَهُ خُطْبًا يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ، وَيُكَيِّرُ الْأَوْدَ! حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَيَدَ فَوَارِهِ مِنْ يَثْبُوعِهِ، وَحَدَّحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شَرِبًا وَبَيْئًا، فَإِنْ تَزَفَّعَ عَنَّا وَعَنْهُمْ مَحْنُ الْبُلُوَى أَحْمِلُهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ؛ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ».

الشرح والتفسير

هذا المقطع من الخطبة شرح لما ذكره الإمام عليه السلام على نحو الإشارة في البيت الذي تمثل به والذي أنشده امرؤ القيس، فقد صرح الإمام عليه السلام بترك الماضي رغم عيوبه وإشكالاته والنظر إلى الطامة التي تحدث اليوم:

«وَهَلَمْ [٣١٨] الْخَطْبُ [٣١٩] فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِنْكَائِهِ».

إنك تسألني لم أبعثوك عن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله في حين لا يرقى إليك أحد؟ تعال اليوم وانظر إلى ابن أبي سفيان عدو الإسلام اللدود الذي يطالبني بالخلافة. يا له من أمر مبك ومضحك، أما أنه مبك فذلك لأن الإسلام بلغ مرحلة يريد فيها ابن أعدى أعداء الدين زعامة الدولة الإسلامية والدفاع عن حمى الإسلام

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠٨

والمسلمين، وأما أنه مضحك فذلك لأنه ليست هنالك من نسبة للمقارنة بيني وبينه، ولذا لا يقاس معاوية أبداً بي بل أنا وهو طرفي التضاد، نعم ربما لا يعود هذا البكاء والضحك لزمان واحد، فالبكاء لهضم حقوق الإسلام والمسلمين في كيفية رضاهم بحكومة بنى أمية حثالة عصر الجاهلية.

ثم قال عليه السلام

: «وَلَا غَرْوٌ [٣٢٠] وَاللَّهِ، فَيَا لَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ [٣٢١] الْعَجَبَ، وَيُكَيِّرُ الْأَوْدَ [٣٢٢]».

لعل صدر وذيل العبارة يبدو في الوهلة الأولى متناقضاً، إلا أنه في الواقع نوع من البلاغة والفصاحة التي أوردها الشاعر حين أنشد:

قَدْ صِرْتُ فِي الْمِيدَانِ يَوْمَ طَرَادِهِمْ فَعَجِبْتُ حَتَّى كِدْتُ أَنْ لَأَعْجِبَا [٣٢٣]

أى، تعجبت إلى الحد الذي لم يبق لي من مجال للتعجب فقد وطأت الميدان فعجبت من الوضع إلى درجة أنني كدت أن لا اتعجب، ولعل ذلك من باب المثل المعروف، «أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا تَجَاوَزَ حُدَّهُ انْقَلَبَ ضِدُّهُ». والعبارة «وَيُكَيِّرُ الْأَوْدَ!»

إشارة إلى أن المجتمع الإسلامي بفعل حكومه يتزعمها ابن أبي سفيان سينحرف تماماً عن الصراط ويعيش الاعوجاج في كل شيء.

ثم خاض الإمام عليه السلام في تفاصيل هذا الأمر فقال:

«حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَدَّ فَوَارِهِ [٣٢٤] مِنْ يَنْبُوعِهِ، وَجَدَحُوا [٣٢٥] بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شَرْباً وَبَيْئاً [٣٢٦]»

. فالعبارة

«حَاوَلَ الْقَوْمُ ...»

إشارة إلى أن بنى أمية لا يسعون إلى الحكومة وزعامة الأمة فحسب، بل هدفهم إطفاء نور الإسلام والقرآن، والهدف إعادة الأمة إلى الجاهلية

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠٩

وعصرها المظلم وأعمالهم خير شاهدة على ذلك.

والعبارة

«وَسَدَّ فَوَارِهِ ...»

بينت نفس المعنى بتعبير آخر، حيث شبه الإسلام والقرآن بعين فياضة انفجرت في صحراء جاهلية العرب وروت بمائها العذب ما تصحو من قلوبهم واثمرت تلك النبتة، ويسعى بنى أمية لغلق هذه العين وسوق الأمة إلى تلك الصحراء.

والعبارة

«وَجَدَحُوا...»

تعبير رائع آخر للمعنى المذكور. فقد خلط هؤلاء القوم ماء الشريعة العذب الفرات بالسموم الفتاكة ليسموا أفكار الأمية ويلوثوا أخلاقها، فمثل هذه الأمة لن تنقاد إلى بنى أمية وآل أبي سفيان إن عاشت السلامة في فكرها والطهر في أخلاقها. نعم، فهؤلاء لم يسعوا لإطفاء نور الولاية فحسب، بل وعلى غرار المشركين الذين قال فيهم القرآن: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ» [٣٢٧] سعوا إلى إطفاء نور الإسلام والقرآن والحيلولة دون نشر الإسلام والمعارف الدينية وقد وضعوا العديد من الأحاديث لتلويث هذا الماء العذب.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى عزمه الذي اتخذه بهذا الشأن فقال:

«فَإِنْ تَرْتَفِعَ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحْنُ الْبُلُوَى أَحْمِلُهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ؛ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى

«فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسِرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»... أى، إن زالت الموانع فإني على استعداد تام لإعادة الأمة الإسلامية إلى سابق عزها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسأبذل جهدي بهذا الخصوص، ولكن إن لم تسمح الظروف فلا إشكال، ذلك أتى أعمل بوظيفتي وسيدوق هؤلاء وبال أعمالهم.

تأملات

١. حق السؤال

عادة ما يواجه الإنسان من حوله سيلاً من المجاهيل التي ترتبط أحياناً بالأمر

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٠

المادية وأخرى المعنوية وسؤال العلماء والمختصين، مفاتيح حل تلك المجاهيل.

ولذلك فتح الله تعالى على الإنسان أبواب السؤال بشأن عالم التشريع والتكوين.

وتمتاز الشريعة الإسلامية الغراء بأنها لم تأذن بفتح باب السؤال لكل شخص وفي أى مجال فحسب، بل أمرت بذلك. القرآن الكريم من جانبه أكد على هذا الأمر في آيتين: «فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» [٣٢٨]. كما قال أمير المؤمنين على عليه السلام فى بعض كلماته القصار فى نهج البلاغة:

«وَلَا يَسْتَحْيِينَ أَحَدًا إِذَا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ» [٣٢٩]

. نعم، فالسؤال ليس عيباً، بل العيب أن لا يسأل الإنسان ويبقى فى الجهل.

الجدير بالذكر أن الخطبة المذكورة إشارة إلى أن السؤال حق لكل شخص، ويبدو هذا الأمر أكثر أهمية لدى الشباب وذلك لكثرة مجهولاتهم. فمن حيث التكوين والخلق فإن الله خلق فى ذات الإنسان حب الاستطلاع والبحث. فالإنسان يميل بطبعه لمعرفة الأشياء التى لا يعلمها، وتبدو هذه الرغبة أعمق لدى الشباب، بسبب تلك الحاجة، فهم يطرحون أحياناً على الوالدين بعض الأسئلة التى تنتهى عادة بارتفاع أصواتهم، والحال، واجبهم يتطلب منهم تلبية هذه الحاجة الروحية بكل عطف ورقة، فيعلمونهم ما لا يعلمون وإن عجزوا عن الجواب أرشدوهم إلى من يجيبهم. والبعض يعتقد أن السؤال عن القضايا الأصولية والعقائدية من دواعى الكفر والإلحاد، بينما تسهم مثل هذه الأسئلة فى ترسيخ الإيمان وشد الجانب العقائدى لدى الإنسان. لا شك أن وظيفة العلماء تقتضى تأهبهم للإجابة عن الأسئلة فى كافة الظروف والتعامل مع السائل بكل أدب واحترام، ولا ينبغى لهم نسيان ضرورة قيامهم بهذا الدور، لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ يَأْخُذُ عَلَى الْجُهَالِ عَهْدًا بِطَلَبِ الْعِلْمِ حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ عَهْدًا بِبَدْلِ الْعِلْمِ لِلْجُهَالِ» [٣٣٠].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١١

ونختتم البحث ببعض الأحاديث الواردة بهذا الشأن: أولاً: ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام في حثه أحد أصحابه وهو حمران بن أعين على السؤال أنه قال:

«إِنَّمَا يَهْلِكُ النَّاسَ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْأَلُونَ» [٣٣١].

وثانياً: قال علي عليه السلام:

«الْقُلُوبُ أَقْفَالٌ مَفَاتِحُهَا السُّؤَالُ» [٣٣٢].

وثالثاً: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«الْعِلْمُ خَزَائِنٌ وَمَفَاتِيحُهَا السُّؤَالُ فَاسْأَلُوا يَزِدَّكُمْ اللَّهُ فَإِنَّهُ يُؤَجِّرُ فِيهِ أَرْبَعَةٌ: السَّائِلُ وَالْمُعَلَّمُ وَالْمُسْتَمِعُ وَالْمُحِبُّ لَهُمْ» [٣٣٣]

. التفت اعرأبي يوم الجمل إلى أمير المؤمنين وقال: يا أمير المؤمنين، تقول أن الله واحد؟ ما المراد بهذه الوحدة. فهجم عليه الناس من كل جانب وقالوا له ألا ترى انشغال أمير المؤمنين بالقتال؟ (فلكل حادث حديث) فأشار عليهم الإمام عليه السلام دعوه فما يسأل عنه الأعرأبي هو ما نريده من القوم (إننا ندعوهم إلى التوحيد والقتال لمعرفة هذه التعاليم المقدسة) ثم قسم الإمام عليه السلام التوحيد إلى أربعة أقسام اثنان مرفوضان واثنان مطلوبان [٣٣٤].

٢. الهدف الاصلى من السؤال والجواب فى الخطبة

مراد الرجل الاسدى من السؤال بشأن الخلافة واجابة الإمام عليه السلام واضحة تماماً أنها بخصوص السقيفة وتغيير محور الخلافة عن أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بعد وفاته، إلا أن تعصب ابن أبى الحديد لمذهبه جعله يفسر العبارة ومرادها على أساس احتمال ضعيف من قبيل أن المراد معارضة عبدالرحمن بن عوف لخلافة على عليه السلام ودفعها لعثمان. والغريب فى الأمر أن ابن أبى الحديد نقل هنا قصة عن

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٢

استاذة أبى جعفر النقيب تؤيد تماماً ما قلناه، وهى منطقية تماماً، مع ذلك لم يستطع هذا الرجل المفكر ابن أبى الحديد من التسامى على بعض تعصبه، إذ يروى عن استاذة الذى يصفه بأنه رجل منصف علوى المذهب وله حظ وافر من العقل أنه يسأله ماذا عنى ذلك السائل بسؤاله الإمام على عليه السلام عن أبعده عن حقه؟ أكان مراده يوم السقيفة أم يوم الشورى أجاب: السقيفة. قلت: لا أجزى لنفسى أن أقول إن أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله عليه وآله خالفوه ولم يلتزموا بمعنى الخلافة. قال: إنا أيضاً لا أجزى لنفسى أن أنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله أنه أهمل أمر الخلافة والإمامة من بعده وترك الأمة دون إمام، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله ينصب من يقوم مقامه إن سافر إلى المدينة، فكيف لا ينصب شخصاً للخلافة بعد وفاته وأضاف الأستاذ أن الجميع يعتقدون أن رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله كان قمة الكمال العقلى، كما يعتقد اليهود والنصارى والفلاسفة والحكماء أنه رجل حكيم وله نظرة صائبة وقد أتى بقوانين منطقية وعقلية، وبغض النظر عن مقام النبوة فإن تعاليمه تستند إلى الوحى، وهذا الإنسان كان عارفاً بالعرب ويعرف طباعهم وأحقادهم وإن قُتل شخص لقبيلة ثأروا له، فإن عجزوا فمن أهله وقرباته، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله كان يحب بنته فاطمة وولديها الحسن والحسين وبعلمها علماً عليهم السلام، ولا شك فى أنه لو لم يستند إلى الوحى فلن يتركهم دون إمام، أتظن أنه أراد أن تكون إحدى ضعفاء المدينة. وفى وسط قوم أراق على عليه السلام دماء قرباتهم، والواقع هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله سفك دماءهم لا على عليه السلام.

خلاصة القول أن هذا الرجل العاقل كان لابد له من تنصيب أحد للخلافة من أهل بيته لكى لا تموت رسالته. قال: فقلت له: هذا صحيح، لكن كلام الإمام عليه السلام لا يدل على النص فى الخلافة، أجاب: صحيح، إلا أن السائل لم يسأل عن النص فى الخلافة بل

سأل كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم الأعلى نسباً وقرباً من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فأجابه الإمام عليه السلام عن هذا السؤال [٣٣٥].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٣

٣. بنى أمية ومؤامرة القضاء على الإسلام

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة ولاسيما قوله:

«حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِضْبَاحِهِ...»

أن هدف بنى أمية لم يقتصر على الإستيلاء على الخلافة الإسلامية فحسب، بل إنهم سعوا جاهدين لمحو آثار الإسلام، كونهم حثالي عصر الجاهلية، ولولا تضحيات تلك الثلة المخلصه في كربلاء والتي كشفت عن كوامن بنى أمية لما بقى اليوم من الإسلام إلا اسمه، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة منها:

١. إن المؤرخ المعروف المسعودي قد روى في كتابه (مروج الذهب) قصة عن المأمون، الخليفة العباسي أنه أصدر أمراً سنة ٢١٢ هـ وبعث بمنادٍ ينادى أن ليس لأحد أن يذكر معاوية بخير أو يقدمه على أي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وحين حاول البعض معرفه دافع المأمون، اتضح أن السبب ما ذكره له ابن المغيرة بن شعبه، قال: دخلت الشام مع أبي وكان كل يوم يقصد معاوية ويمدحه حتى رجع يوماً حزيناً فسألته الخبر. قال: رجعت من أخبث الناس. قلت: لم؟ قال: كنت عند معاوية فأشرت عليه بالعدل والخير تجاه بنى هاشم وصله الرحم فقال غاضباً: - هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ أَخُو تَيْمِ (أبو بكر) ولى الخلافة وفعل ما فعل، فلما مات انقطع ذكره، ثم ولاها أخو عدى (عمر) فلما مات انقطع ذكره، وكذلك عثمان إلا أخو هاشم ينادى باسمه كل يوم خمس مرات

«أشهد أن محمداً رسول الله»

فما الذى يبقى لنا ثكلتك أمك.

ثم قال:

«وَاللَّهِ إِذَا دَفَنَّا دَفَنًا» [٣٣٦]

. فلما سمع المأمون ذلك أصدر أمره المذكور بحق معاوية [٣٣٧] فهذا الخبر الذى تناقلته كتب التاريخ يكشف الكثير من الأمور ويتضمن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٤

الأجوبة عن الكثير من الأسئلة التى تطرح بشأن مؤامرات بنى أمية.

والشاهد الآخر على ما ذكرناه الشعر الذى تمثل به يزيد بن معاوية حين سمع بمصرع الحسين فأنشد:

لَعِبْتُ هَاشِمًا بِالْمَلِكِ فَلَاخَبْرٌ جَاءَ وَلَا وَحْيٌ نَزَلَ

ولا غرو فهو ابن معاوية بن أبى سفيان. قال الطبرى: حين ولى عثمان الخلافة خاطب أبوسفيان بنى أمية: هل فيكم غيركم؟ قالوا: لا، قال:

«تَلَقَّفُوهَا تَلَقَّفَ الْكُرَّةَ فَمَا هُنَاكَ جَنَّةٌ وَلَا نَارٌ» [٣٣٨].

وروى المسعودي (في مروج الذهب) أنه قال

«يَا بَنِي أُمِيَّةَ تَلَقَّفُوهَا تَلَقَّفَ الْكُرَّةَ فَوَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ أَبُو سَفِيَانَ مَا زِلْتُ أَرْجُوهَا لَكُمْ وَلَتَصِيرَنَّ إِلَى صِيَانِكُمْ وَرَائَهُ» [٣٣٩]

. كما روى هذا المعنى ابن عبد البر فى الاستيعاب، وقال: كان هذا فى مجلس عثمان، فلما سمع انكاره للجنة والنار قال:

«قُمِ وَأَنْصِرْ عَنِّي» [٣٤٠].

نغمات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٥

الخطبة ١٦٣

نظرة إلى الخطبة [٣٤١]

إنها خطبة بليغة وفصيحة تتكون من قسمين:

القسم الأول: يتحدث عن صفات الله الجمالية والجلالية، وقد شرح الإمام عليه السلام تسع عشرة صفة من صفات الله بعبارات غاية في الروعة حسبما ذكره المرحوم المحقق البحراني.

أما القسم الثاني: فخطب فيه الإمام عليه السلام الإنسان وقد بين آيات القدرة الإلهية في خلقه رغم ضعفه وعجزه، ليربط صدر الخطبة بذيلها ويرسم صورة جميلة عن توحيد الله ومعرفته.

نغمات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٧

القسم الأول

الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ الْمَهَادِ، وَمُسَيْلِ الْوَهَادِ، وَمُخْصِبِ النَّجَادِ. لَيْسَ لِأَوْلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلَا لِأَزَلِّيَّتِهِ انْقِضَاءٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ، وَالْبَاقِي بِلَا أَجَلٍ. خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاءُ، وَوَحَّدَتْهُ الشَّفَاءُ. حَدَّ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ خَلْقِهَا إِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهَاتِهَا. لَا تُقَدَّرُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْمَادَوَاتِ. لَا يُقَالُ لَهُ: «مَتَى» وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمِيدٌ «بِحَتَّى». الظَّاهِرُ لَا يُقَالُ: «مِمَّ؟» وَالْبَاطِنُ لَا يُقَالُ: «فِيمَ؟» لَا شَبِيحٌ فَيَتَقَصَّى وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحَوَّى لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالتَّصَاقِ، وَلَمْ يَتَّعِدْ عَنْهَا بِافْتِرَاقٍ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ سُخُوصٌ لِحُظَّةٍ، وَلَا كُرُورٌ لَفُظَةٍ، وَلَا اِزْدِلَافٌ رَبْوَةٍ، وَلَا انْبِسَاطٌ خُطْوَةٍ، فِي لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا مَا غَسَقَ سَاحٍ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَغْتَبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الْأُفُولِ وَالْكُرُورِ، وَتَقْلِبُ الْأَزْمِنَةَ وَالذُّهُورِ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِذْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ. قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعَدَّةٍ، تَعَالَى عَمَّا يَنْحُلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ، وَنَهَايَاتِ الْأَفْطَارِ، وَتَأْتِلِ الْمَسَاكِينِ، وَتَمَكِّنِ الْأَمَّاكِينِ. فَالْحَدُّ لِحَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مُسُوبٌ.

الشرح والتفسير: حادثة مهمة

يبين المقطع الأول من الخطبة كما ذكرنا جانباً من صفات الله، والمهم أنه يستهل الخطبة بصفات الأفعال، يعني خلق عالم الوجود وما ينطوي عليه من عجائب

نغمات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٨

وغرائب، ذلك لأن هذه الصفات تدرك من قبل الجميع، حيث قال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ الْمَهَادِ [٣٤٢]، وَمُسَيْلِ الْوَهَادِ [٣٤٣]، وَمُخْصِبِ النَّجَادِ [٣٤٤]، وَالنَّجَادِ [٣٤٥]» [٣٤٦]

فقد أشار الإمام عليه السلام بادىء الأمر إلى خلق الناس بصفته، أروع خلق الله، ثم أشار إلى ثلاثة محاور مهمة (موضع السكن والماء، مادة الحياة، والمواد الغذائية) ليثير لدى الآخرين الشعور بالإمتنان والشكر ويعدهم للتعرف على صفات الله الجمالية والجلالية. (والعباد)

الواردة بقريته العبارات القادمة تعود إلى الناس وأن تشمل أحياناً الملائكة والجن. وتشير

«وَسَاطِحِ الْمَهَادِ»

إلى ما ورد في الآية الشريفة: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا» [٣٤٧]. والعبارة

«وَمُسِيلِ الْوَهَادِ»

بالنظر إلى أن الوهاد تعنى الوديان والمنخفضات إشارة إلى أن الله تعالى جعل بعض مناطق الأرض منخفضة لتتخلها المياه دون غيرها. والعبارة

«وَمُخَصِبِ النَّجَادِ»

إشارة إلى قدرة الله في إحياء الأراضي المرتفعة بالنباتات رغم عدم وصول المياه إليها.

ثم خاض الإمام عليه السلام في جانب مهم من صفاته تعالى الأزلية والأبدية وواجب الوجود فقال:

«لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلَا لِأَزَلِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ، وَالْبَاقِي بِلَا أَجَلٍ»

. أثبتت الأدلة العقلية أن الله واجب الوجود ليس له بداية ولا نهاية، كان دائماً ولا يزال، فوجوده عين ذاته وذاته مطلقة، وعليه فالعبارة «هُوَ الْأَوَّلُ ...»

وَالْبَاقِي ...»

نتيجة للعبارة

«لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ... وَلَا لِأَزَلِيَّتِهِ ...»

لأنه حين لا تكون لأزليته وأبديته بداية ولا نهاية، فهو الأول والآخر، وهاتان الصفتان في الواقع أساس أغلب صفات الله، وصفاته الجمالية والجلالية إنما تعود إلى هاتين الصفتين.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٩

قال القرآن الكريم: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [٣٤٨].

ثم قال عليه السلام:

«خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشَّفَاةُ»

. ومن المسلم به أن خالق جميع الأشياء والمخلوقات والنعم والذي يستمد الوجود بأسره، الوجود منه فهو أهل للعبادة والسجود والحمد وليس لأحد غيره هذا المقام. وبالطبع فإن ذلك السجود والحمد يختص بالعارفين بالله لا الكفار والمشركين الذين لا يستحقون الذكر.

ثم واصل كلامه بالإشارة إلى بعض الصفات السلبية المنزهة من كل نقص فقال:

«حَدَّ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ خَلْقِهَا لِأَنَّهَا لَهُ مِنْ شَبْهِهَا»

. إشارة إلى أن جميع المخلوقات محدودة وذاته المقدسة فقط لا تعرف الحدود، ومن هنا ليست هنالك من صعوبة في تمييز الخالق من المخلوق والابتعاد عن السقوط في مستنقع الشرك. وهنا يرد هذا السؤال: أيمكن أن يخلق الله شيئاً غير محدود أو بعبارة أخرى، واجب الوجود؟ أن ذات كل مخلوق تقتضى كونه محدوداً، ومن هنا كيف يقال إن الله خلق الأشياء المحدودة حتى لا تشبه ذاته؟

والجواب عن هذا السؤال: إن المراد من

«حَدَّ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ خَلْقِهَا ...»

تمييزه عن المخلوقات؛ بعبارة أخرى فإن

«إِبَانَةٌ لَهُ»

ليست مفعولاً لأجله، بل نتيجته وغاية الفعل. والمسألة الأخرى الجديرة بالالتفات أن أغلب نسخ نهج البلاغة نقلت العبارة

«إبانة لها»

وفي هذه الحالة لا يرد أي غموض وإبهام؛ حيث مفهوم العبارة أن الله حد الأشياء عند خلقها أي جعل لكل موجود حدود معينة تميزه

من الأخرى من قبيل ما ورد في الآية ١٣ من سورة الحجرات: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا» [٣٤٩].

ثم أسهب عليه السلام في شرح مطلقيه ذات الله المقدسة ليكشف عمق هذه الحقيقة
نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٠

بعبارات مختلفة تسلط الضوء على كل جوانب غناه عن الحدود فقال:

«لَا تُقَدَّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَدْوَاتِ»

. ليست له أعضاء كأعضاء الإنسان ولا يعتمد الوسائل والأدوات لتحقيق مايشاء، كما لا يحتاج الحركة والانتقال من مكان إلى آخر، ذلك لأن كل هذه الأمور من علامات المحدودية ولا تعرف ذاته الطاهرة أية حدود وقيود، ومن هنا تعذر على سكان العالم المحدود المعروف بالنقص والحاجة، الوقوف على كنه تلك الذات المقدسة، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«كُلُّ مَا مَيَّزَتْهُ بِأَوْهَامِكُمْ فِي أَدَقِّ مَعَانِيهِ مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ مِثْلُكُمْ مَزْدُودٌ إِلَيْكُمْ» [٣٥٠].

ثم وضع مقاله سابقاً:

«لَا يُقَالُ لَهُ: «مَتَى» وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ «بِحَتَّى». الظاهر لا يُقَالُ: «مِمَّ؟» وَالْبَاطِنُ لَا يُقَالُ: «فِيمَ؟»»

وعلى هذا الضوء ليست له من بداية ولا نهاية، لا ظاهر كظهور الشمس والقمر، ولا باطن كالمعادن الخفية في باطن الأرض، وفي ذات الوقت فذاته أظهر من كل شيء وأخفى من كل شيء، بعبارة أخرى، فإن ظهوره ظهور ذاتي وخفاءه من كنه ذاته.

ثم خاض عليه السلام بصورة أعمق ليقول:

«لَا شَيْخَ [٣٥١] فَيَتَفَصَّى [٣٥٢]، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحَوَّى [٣٥٣].

لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالتَّصَاقِ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِالتَّفَرُّقِ»

. فقد نفى الإمام عليه السلام في هذه العبارات بادية الأمر، الجسمية عن الله، ذلك لأن الجسم إما ظاهر له حدّ وحدود أو مخفي ومحتجب في شيء آخر وله حدّ وحدود في كلا الحالتين، والحال ليس لواجب الوجود من حدود، كما يلاحظ في العبارتين الأخيرتين تجلي آخر لغنى الذات المقدسة عن الحدود. فهو أقرب لكل شيء، لكن ليس بمعنى الالتصاق أو الحلول والاتحاد، بل بمعنى الحضور في كل مكان والاحاطة بكل شيء، كما هو

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢١

بعيد عن كل شيء ليس بمعنى المسافة والانفصال عن الأشياء، بل بمعنى سمو ورفعه وجوده وصفاته بالنسبة لسائر الأشياء. وهذا يشبه ما ورد في الخطبة الأولى من نهج البلاغة:

«مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَابْتِمَارَانَةٌ وَعَبِيرٌ كُلِّ شَيْءٍ لَابْتِمَارَانَةٌ»

. لا شك أنه يستحيل جمع هذه الصفات في الممكنات؛ ذلك أن الشيء إن بعد فلا يسعه الاقتراب، وإن اقترب فلا يمكنه الابتعاد، ولكن ليس هنالك من معنى لتضاد القرب والبعد وأمثال ذلك في ذات واجب الوجود المطلق.

ثم تطرق عليه السلام إلى موضوع علم الله تعالى بكل شيء وفي كل زمان ومكان من خلال عبارات رائعة عميقة المعنى فقال:

«وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شَخُوصٌ [٣٥٤]

لَحْظَةٍ، وَلَا كُزُورٌ لَفْظَةٍ، وَلَا أَرْدِلَافٌ [٣٥٥] رَبْوَةٌ [٣٥٦]، وَلَا انْبِسَاطٌ خُطْوَةٍ، فِي لَيْلٍ دَاجٍ [٣٥٧]، وَلَا

عَسَقٍ [٣٥٨] سَاجٍ [٣٥٩]

. فالإمام عليه السلام بغية تشخيص عدم خروج أخفى الأشياء عن علم الله يفترض مسافراً مرّ في ليلة ظلماء بصحراء وقد صوب بصره إلى الصحراء وينبس ببعض الكلمات، يقترب من التلال والمرتفعات ويتسلقها بسرعة ليبلغ غايته وهو يشق طريقه في تلك الظلمة

المعتمة، فالله تعالى الذي لا يخفى عليه شيء من حركات عيون وشفاه وأقدام هذا المسافر لهو أعلم بأعمال عباده وهم يأتون بها في وضوح النهار وفي المدن والبلدان.

ثم قال في وصف هذه الليلة الظلماء:

«يَتَفَتَّأُ [٣٦٠] عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ
ذَاتُ الثُّورِ فِي الْأُفُولِ وَالْكُزُورِ [٣٦١]»

. إشارة إلى أن علم الله بالموجودات وأعمال

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٢

الإنسان لا يقتصر على اليالي المظلمة، بل يشمل اليالي المقمرة والنهار الواضح، بالتالي ليس هنالك من مكان خارج عن علم الله كالذي ورد في ما بعد:

«عِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى .

ثم قال مواصلاً كلامه:

«وَتَقَلَّبُ الْأَزْمِنَةَ وَالذُّهُورَ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ»

. هذه العبارة كتلك التي وردت في العبارات القادمة:

«عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ»

وكل هذه العبارات تشير إلى سعة علم الله الذي لا يحده الزمان والمكان. وهنا يرد هذا السؤال: لماذا استند إلى إقبال الليل والنهار مع أن لكل من الليل والنهار إقبال وإدبار؟ لعل هذه العبارة تأكيد لما مر في العبارات السابقة بشأن نفوذ علم الله إلى أعماق الظلمات وليس فقط وضوح النهار. وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن تركيز الإمام على إقبال الليل وإدبار النهار ربما إشارة إلى أن أمور الدنيا غالباً ما تجري على خلاف رغبة الإنسان [٣٦٢].

ثم قال عليه السلام:

«قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعِدَّةٍ»

. الواقع أن العبار

(لا يخفى عليه من عباده ...)

التي تحدت فيها عن علم الله بالزمان والمكان وكل إنسان وشيء تشمل هذا المعنى أيضاً أنه عليم بنهاية عمر كل إنسان وكل موجود قبل أن ينتهي عمره كما يعلم عدد الموجودات قبل أن تعد وتحصى [٣٦٣].

ثم قال في نتيجة كلية:

«تَعَالَى عَمَّا يَنْحُلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ، وَنِهَآيَاتِ الْأَقْطَارِ، وَتَأْتَلِ [٣٦٤] الْمَسَاكِينِ، وَتَمَكِّنُ الْأَمَّاكِينَ»

. نعم؛ فكل طائفة ضالّة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٣

تفتقر إلى المعرفة من قبيل المشبّهة والمجسّمه إنما شبّهت الله بمخلوقاته وجعلت له جسماً وأعضاءاً، وأن له مكاناً وينتقل من مكان إلى آخر فيحضر هنا ويغيب هناك، والحال أنه لأرفع من الزمان والمكان والقياس والوهم؛ أرفع ممّا نرى ونقرأ ونكتب، فليس له جسم ولا مكان ولا صفة من صفات المخلوقات. والعبارة المذكورة إشارة إلى أربعة أنواع من الحدود يتنزه الله عنها جميعاً: الحدود من حيث القامة كالصغر والكبر ومن حيث النهاية كمقدار العمر ومن حيث اختيار السكن وأخيراً من حيث المكان. فهو وجود مطلق لا متناهٍ غني عن أي من الحدود، ذلك لأن كل هذه الأمور من صفات المخلوقات. ومن هنا اختتم الخطبة بالقول:

«فَالْحَدُّ لِحَلْفِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ»

. فهذه العبارة هي عبارة الأبحاث السابقة في أن كل محدودية هي إنما تعود للمخلوقات ومن شأن الممكنات، وليس لهذه الصفة من سبيل إلى ذاته المطلقة.

تأمل: الله حقيقة مطلقة

إن أول وأهم مطلب ينبغي إثباته في باب صفات الله ليتضح مفهوم التوحيد وكذلك سائر الصفات كالعلم والقدرة وماشابه ذلك يتمثل في كون ذاته مطلقاً لا متناهية، وذلك لأنه إن ثبت هذا المطلب فقد تمهد السبيل أمام إدراك جميع صفاته الجمالية والجلالية (الصفات الثبوتية والسلبية). ولإثبات ذلك لابد من الألتفات إلى الأمور التالية:

١. إن محدودية الوجود تعني طروء العدم، ذلك لأنه إن لم يرد العدم فلا معنى للحدود. فلو قلنا إن عمر فلان محدود، فذلك يعني أن عمره سينتهي يوماً إلى العدم، وهكذا بشأن العلم والقدرة وماشابه ذلك.

٢. إن الوجود ضد العدم فإن اقتضى شيء بذاته الوجود فلا يمكنه اقتضاء العدم.

٣. ثبت في برهان العلة والمعلول أن سلسلة العلة والمعلول لهذا العالم يجب أن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٤

تنتهي إلى نقطة ثابتة وأزلية يصطلح عليها (واجب الوجود) أي أن وجوده من ذاته لا- من خارجها، وعليه فإن العلة الأولى للعالم تقتضي الوجود بذاتها فهي لا تمتزج بالعدم. وعلى ضوء هذه المقدمات الثلاث يتضح أن طرأت حدود على الذات الواجبة الوجود فلا بد أن تكون من خارجها، ذلك لأن المحدودية استناداً إلى المقدمات المذكورة بمعنى الامتزاج بالعدم، والشئ الذي تقتضي ذاته الوجود فإنها لا- تقتضي العدم اطلاقاً. وبناءً على هذا فإن اعترته محدودية فلا بد أن يحده عامل خارجي ويلزم من ذلك أنه ليس بواجب الوجود، لأنه معلول لذات أخرى ومخلوق آخر في حد وجوده. بعبارة أخرى مّا لا- شك فيه أن العالم ينتهي إلى واجب الوجود، فإن كان واجب الوجود غير محدود فليست هنالك من مشكله، أما إن كان محدوداً فذلك ليس من مقتضيات ذاته، لأن ذاته تقتضي الوجود لا العدم، إذن لابد أن تطرأ عليه من الخارج. ومفهوم هذا الكلام أن هنالك علة خارج وجوده وهو معلول لتلك العلة وفي هذه الحالة سوف لن يكون واجب الوجود.

وقد تعرضت الرواية الواردة عن الإمام السجاد عليه السلام إلى وجوده المطلق على ضوء البرهان المذكور، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ بِمَحْدُودِيَّةٍ عَظُمَ رَبُّنَا عَنِ الصِّفَةِ فَكَيْفَ يُوصَفُ بِمَحْدُودِيَّةٍ مَنْ لَا يَحْدُ» [٣٦٥]

. وورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«هُوَ أَجَلٌ مَنْ

أَنْ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ أَوْ يُحِيطَ بِهِ وَهَمٌّ أَوْ يَضْبِطُهُ عَقْلٌ»

قال السائل: حده لي؟ قال عليه السلام:

«إِنَّهُ لَا يُحَدُّ قَال: لِمَ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام: لِأَنَّ كُلَّ مَحْدُودٍ مُتَنَاهٍ إِلَى حَدٍّ فَإِذَا اِحْتَمَلَ التَّحْدِيدَ اِحْتَمَلَ الزِّيَادَةَ وَإِذَا اِحْتَمَلَ الزِّيَادَةَ اِحْتَمَلَ النُّقْصَانَ فَهُوَ غَيْرُ مَحْدُودٍ وَلَا مُتَزَائِدٍ وَلَا مُتَجَزِّئٍ وَلَا مُتَوَهِّمٍ» [٣٦٦].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٥

القسم الثاني

لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَرْزَلِيَّةٍ، وَلَمَّا مِنْ أَوَائِلِ أَيْدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ مِمَّا خَلَقَ فَأَقَامَ حِدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ. لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ

امْتِنَاعٌ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةٍ شَيْءٌ اِنْتِفَاعٌ. عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى

الشرح والتفسير: العلم الإلهي المطلق

واصل الإمام عليه السلام ما طرحه سابقاً بشأن قدرة الله التامة وعلمه المطلق فقال: «لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولِ أَرْزِيئِهِ، وَلَا مِنْ أَوَائِلِ أَبْدِيئِهِ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ» فالعبارة إشارة إلى الابداع في الخلق، أي خلق الأشياء دون سابقه، فلم تكن هناك مواد أزلية استعان بها الله لخلق الأشياء، كما لم تكن هنالك إشكال وصور احتذاها في تصويره الأشياء، خلافاً لما اعتقده الفلاسفة من أزلية المادة، فلا أبدية وأزلية سوى للذات المقدسة، وهذا ما بيناه في برهان التوحيد من امتناع وجود الأبدى والأزلى في عالم الممكنات. والعجيب أن الإمام عليه السلام كشف النقاب عن هذه الحقيقة في عصر وبيئه لم ترق لهذه الأفكار ولم تشهد معرفه الله مثل هذا المنطق الرصين.

ثم أشار عليه السلام إلى قدرة الله المطلقة من زاوية أخرى فقال:

«لَيْسَ لَشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةٍ شَيْءٌ اِنْتِفَاعٌ»

. بل الجميع مستسلم لإرادته التكوينية، فيوجد ما يشاء متى شاء ويعدم ما يشاء كيفما شاء، مع ذلك فاستسلام الموجودات وطاعة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٦

المطيعين وعبادة العابدين لا تزيد في عظمته شيئاً، لأن وجوده مطلق ومصدر جميع الخيرات والبركات. هذا من حيث القدرة، أما بشأن العلم المطلق فقال:

«عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى

. فما ذكره الإمام عليه السلام في هذه العبارات البليغة الرائعة العميقة المدى اقتباس من بعض الآيات القرآنية من قبيل: «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» [٣٦٧] «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا» [٣٦٨] والآية: «وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسِيئِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسِيئِينَ تَأْخِرِينَ» [٣٦٩]. وزبدة الكلام:

تتعذر معرفة الله دون الوقوف على علمه المطلق وقدرته اللامتناهية وأزليته وأبديته الغنية عن الحدود.

تأمل: دور الإيمان بعلم الله على العمل

الموضوع المهم هنا أن مثل هذا الإيمان بعلم الله وقدرته وأزليته وأبديته لا يقتصر دوره على البعد الذهني والفكري فحسب، بل له تأثير عميق وشامل على أعمالنا وأفعالنا، لأننا حين نوقن بأنه معنا أين ما كنا وكان قبلنا وسيكون بعدنا ولا يخفى عليه ظاهراً وباطناً بل حتى تفاصيل دوافعنا وجزئيات تياتنا، فإن هذا الإيمان سيريتنا ويضطرنا إلى مراقبة أنفسنا وأعمالنا ويسوقنا إلى محاسبه أنفسنا، إلى جانب إبعادنا عن الشعور باليأس والإحباط وبيعت فينا روح الرجاء والأمن.

وعلى هذا الأساس فإن إيماننا بالله على ضوء الصفات المذكورة لا يقتصر دوره

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٧

على يوم الجزاء فحسب، بل من شأنه إصلاح حياتنا الدنيوية والأخذ بأيدينا إلى الورع والتقوى والشعور بالأمن والاستقرار، وعليه فما نراه اليوم من تهتك لحجاب التقوى من جانب وحالة الاضطراب من جانب آخر إنما يعزى أحد أسبابها الرئيسية إلى الإبتعاد عن العقائد الدينية الصحيحة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٩

القسم الثالث

أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ، فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ. بُدِئَتْ «مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ»، وَوُضِعَتْ «فِي قَرَارٍ مَكِينٍ* إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ» وَأَجَلَ مَقْسُومٍ. تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِينًا لِاتُّجِيرَ دُعَاءً، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً؛ ثُمَّ أُخْرِجَتْ مِنْ مَقْرَكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سَبِيلَ مَنَافِعِهَا. فَمَنْ هَذَاكَ لِاجْتِرَارِ الْعِدَاءِ مِنْ تَدْيِ أُمِّكَ، وَعَرَفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلْبِكَ وَإِرَادَتِكَ! هَيْهَاتَ، إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجِزُ، وَمَنْ تَنَاولَهُ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ!

الشرح والتفسير: الأرفع من الخيال والوهم

هذا المقطع الذي يمثل القسم الأخير من الخطبة هو جواب عن سؤال من الأسئلة التي تفرزها الأقسام السابقة، وهو تعذر معرفة الله بهذه الصفات من قبيل كونه الأول والأخر والظاهر والباطن والقريب من الأشياء والبعيد عنها والمطلق العلم واللامتناهي القدرة. صحيح، لدينا علم إجمالي بكل هذه الصفات ولكن ليس لدينا من سبيل إلى العلم التفصيلي الذي نعبر عنه بالعلم بكنه الذات والصفات. يشير الإمام عليه السلام هنا إلى جانب من خلق الإنسان والأسرار المعقدة التي تكتنف فترة كونه جنيناً إلى جانب الأسرار العظيمة لولادته وما بعدها، ثم يخلص إلى نتيجة في أنك إن عجزت عن التوصل إلى أسرار خلقتك كيف يسعك العلم بكنه صفات خالقك؟

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٠

فقال:

«أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ [٣٧٠]، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ [٣٧١]، فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ»

. نعم؛ مرحلة الجنين من أعجب مراحل الخلق التي تنطوي على العديد من الأسرار. فنطفة الإنسان تطوى مراحلها التكاملية بصورة متتالية في وسط مغلق ومظلم ومحاط بالأسرار بحيث يظن كل يوم مرحلة جديدة في إطار خلقه موزونه ومنظمة، ورغم أنها تجري في وسط رقيق وشفاف إلا أنها بعيدة كل البعد من المخاطر.

ثم خاض في شرح هذا المطلب فقال:

«بُدِئَتْ

«مِنْ سَلَالَةٍ [٣٧٢] مِنْ طِينٍ»

، وَوُضِعَتْ

«فِي قَرَارٍ مَكِينٍ [٣٧٣] * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ»

وَأَجَلَ مَقْسُومٍ»

. إشارة إلى أن عملية توقف الإنسان في الرحم خاضعة لحساب دقيق. من حيث كمية البدن وكيفيته من حيث المدة والزمان وقد أشار

الإمام عليه السلام إلى أحدهما بالعبارة

«إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ»

والأخرى بالعبارة

«وَأَجَلَ مَقْسُومٍ».

ثم تطرق إلى المرحلة الأخرى التي تعقب الرحم فقال:

«تَمُورُ [٣٧٤] فِي بَطْنِ أُمِّكَ

جَنِينًا لِاتِّحِيْرٍ [٣٧٥] دُعَاءً، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً»

. فهذه العبارة إشارة لطيفة إلى الحركة المتتابعة للجنين في بطن أمه والتي تتم من خلال السباحة في ماء معين حوله. وأنه ليتلقى بوزع من فطرته وبحكم طبيعته الأمر بالحركة، دون أن يسأل أو يجيب أحداً، ذلك لأنه ليس له من سمع ولا لسان، لكن الله وفر له كل حاجاته مسبقاً حين كان في ذلك الوسط المظلم والمغلق.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣١

ثم أشار عليه السلام إلى مرحلة الولادة والرضاعة في احضان الأم فقال:

«تُمُّ أُخْرِجَتْ مِنْ مَقْرَكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا»

. نعم، يرد من ذلك القرار المكين والمكان الآمن إلى الدنيا لا يعرف منها شيئاً، فلا يعرف الغذاء اللازم ولا الإرادة للحصول عليه ولا كيفية تناوله، لا يعرف وسائل النمو، ولا معوقاته، ولا يعرف أسلوب التعايش ولا التعامل مع الآخرين، فإن لم يأخذ اللطف الإلهي بيده وتشمله الهداية التكوينية لعجز قطعاً عن مواصلة الحياة، غير أن الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هده يحفه بعنايته فيتجاوز الطرق الوعرة بحكم الغريزة التي أودعها الله إياه.

لذلك واصل الكلام عليه السلام قائلاً:

«فَمَنْ هَذَاكَ لِاجْتِرَارِ [٣٧٦] الْغِذَاءِ مِنْ نَدْيِ أُمِّكَ،

وَعَرَفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلْبِكَ وَإِرَادَتِكَ!»

. حقاً من علم الوليد أن غذاءه في ثدي أمه؟ عليك أن تضغط بأصابع يدك الصغيرة وتمتص ما في الثدي من اللبن بضمك الصغير؟! من علمه ذلك البكاء بالصوت الحزين ليعلم من خلاله عن حاجاته كافة؟! العطش والجوع والحر والبرد والمرض والحاجة إلى النوم؟! والغريب أن فراخ الطيور والدواب وسائر الحيوانات يندفع كل منها بطريق عجيب نحو حاجته.

ثم اختتم الخطبة بهذه النتيجة:

«هَيْهَاتَ [٣٧٧]، إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ

وَالْأَدْوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَمَنْ تَنَاوَلَهُ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ!»

. أجل، لا يمكن حقاً الوقوف على عجائب وغرائب عالم الخلق وسبر غور أسرارهم.

فإن عجزنا عن إدراك بعض ما يتعلق بمخلوقات الله فأنى لنا بالوقوف على كنه الذات والصفات الغنية عن الحدود من جميع الجهات. البنية المعقدة للأعصاب والقلب والعروق والخلايا والجينات ومختلف الغرائز التي أودعها الله أجسامنا لمن المسائل التي شغلت أذهان العلماء لقرون وما زالوا يعترفون بكثرة المجاهيل التي

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٢

تعترى خلقه الإنسان حتى أُلّف ذلك العالم الفرنسي المعروف، كتابه الشهير (الإنسان ذلك المجهول).

تأمل

الدورة الجينية المذهلة

ما ورد في هذا الجانب من الخطبة بشأن الأسرار الغريبة لخلق الإنسان في الدورة الجينية ومن ثم الولادة والرضاع ينسجم تماماً والعديد من الآيات القرآنية التي أكدت على التفكير في هذه الأسرار، ومنها سورة الزمر: «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعِيدٍ خَلَقَ فِي

ظَلَمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ» [٣٧٨] وسورة المؤمنون:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» [٣٧٩]. وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى هذه المرحلة في توحيد المفضل كآية من آيات الله في التوحيد والقدرة، وأوصى المفضل وقال: «نبتدىء يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به، فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم، وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلم البطن، وظلم الرحم، وظلم المشيمة، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ولا دفع أذى، ولا استجلال منفعه ولا دفع مضره، فإنه يجرى إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذوا الماء النبات فلا يزال ذلك غذاؤه حتى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه، وقوى أديمه على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقات الضياء هاج الطلق بأمه فأزعجه أشد إزعاج، وأعنفه حتى يولد، وإذا ولد صرف ذك الدم الذي كان يغذوه من دم أمه إلى ثديها فانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء...» [٣٨٠].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٣

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح تكامل المولود في مختلف المراحل وهو يعرض لعجائب الخلقة الواحدة تلو الأخرى [٣٨١]. (طبعاً لا يسع البحث الاستغراق في القضايا المذهلة التي تم اكتشافها في عصرنا الراهن بشأن تكامل النطفة من خلال مرورها بتلك المراحل، وكل الذي يسعنا قوله إن مثل هذا البحث ينطوي على آلاف الأسرار والعجائب: «خُلِقَ مَنْ بَعْدِ خَلْقٍ». ومن الضروري أن نشير هنا إلى سر من تلك الأسرار وهو أن الجنين طيلة هذه المدة يسبح في كيس صغير مملوء بماء غليظ، ولا يتأثر هذا الكيس بالضربات حتى وإن سقطت المرأة على الأرض أو قامت بحركات سريعة وعنيفة، فليس هنالك أدنى أذى على الجنين، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنه يمتاز بتعديله للحرارة والبرودة بالشكل الذي يحول دون تأثيرهما على الجميع. أضف إلى ذلك فإن سباحة الجنين في ذلك السائل يبعد الضغط عن أعضائه الرقيقة، وأخيراً يحفظ هذا الكيس الجنين من الأمواج الصوتية العالية ويحافظ على نعومة الجلد، كما يلعب دوراً مهماً في التغذية: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ».

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٥

الخطبة ١٦٤

إشارة

لَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَشَكُوا مَا نَقَمُوهُ عَلَى عُثْمَانَ وَسَأَلُوهُ مُحَاطَبَتَهُ لَهُمْ وَاسْتِعْتَابَهُ لَهُمْ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: [٣٨٢]

نظرة إلى الخطبة

المراد الأصلي من هذه الخطبة كما ذكرنا سابقاً أنها تعرض بالنصح لعثمان وتحذيره بمنتهى الأدب والحرص للحيلولة دون تجاوز أجهزة حكومته للحدود، وهي تتألف من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: خطاب لشخص عثمان، خطاب الناصح المشفق الذي يرى مقابله على شفا حفرة خطيرة، وقد ركز الإمام عليه السلام على علم عثمان بالأحكام الإسلامية وسوابقه مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ليصده عن الزلل والانحراف.

أما القسم الثاني: فيعرض فيه الإمام عليه السلام بحثاً جامعاً و كلياً بشأن أئمة العدل

نقحات الولاية ؛ ج ٦ ؛ ص ٢٣٦

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٦

والظلم وخصائص كل منهما، وبما يجعل كل إمام منهما اسوة للأخرين في سيرته وفي كل زمان ومكان، ومن ثم حذر عثمان من أن يصبح العوبة بيد بطانته كمروان وأمثاله.

والقسم الثالث: نقل جواباً عن عثمان وما أن سمع الإمام عليه السلام ذلك الجواب حتى عرض عليه كيفية الخروج من المأزق، والمؤسف أن هذه النصائح لم تجد أذاناً صاغية من عثمان ف وقعت تلك الحوادث العنيفة والمريرة.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٧

القسم الأول

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدْ اسْتَشَفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَذُكُّكَ عَلَىٰ أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاكَ إِلَىٰ شَيْءٍ فَخَبِرَكَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَتَبَلَّغَكَهُ. وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا صَحَبْنَا. وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَىٰ بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَبِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَشِيخَهُ رَحِمَ مِنْهُمَا؛ وَقَدْ نَلْتُ مِنْ صَهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا. فَاللَّهُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ - وَاللَّهِ - مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِّي، وَلَا تُعْلَمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحُهُ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لِقَائِمَةٌ.

الشرح والتفسير: إتمام الحجّة على عثمان

ينبغي لاتضح مضمون هذه الخطبة الإشارة إلى الأحداث والأوضاع التي أدت إلى هذا الحوار بين الإمام عليه السلام وعثمان. حيث ذكر المؤرخ المعروف الطبري أن الناس حين رأوا أعمال عثمان - من قبيل سلب ونهب بيت المال وتسليط الظلمة والفسقة على المناصب الحساسة في الحكومة الإسلامية - كتب عدد من صحابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كتبهم إلى أمراء الجيش على الثغور ودعواهم إلى الجهاد في سبيل الله ونشر دين محمد صلى الله عليه وآله والقدوم إلى هنا وإنقاذ من يقوم بهدم هذا الدين. وتقاطر الجنود من كل مكان على المدينة - سيما أولئك الذين أتوا من مصر والذين عاشوا

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٨

ظلم الولاة وعمال الخليفة - حتى قتلوا عثمان ٣٨٣]. آنذاك تعالت الأصوات التي ضجت من ظلم عثمان، فقدم جماعة من الناس إلى الإمام عليه السلام وسألوه وضع حد لتلك الأوضاع بطريقه سلمية، فيكون عليه السلام سفيرهم إلى عثمان ويتم الحجّة عليه. فأورد الإمام عليه السلام ذلك الكلام بما يجعله و بطانته يكفون عن الظلم. وكلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبة يتضمن براءة البلاغة والفصاحة والقضايا النفسية الدقيقة أملاً في عودة الطرف المقابل إلى رشده ولعله يلتفت إلى الأخطار المحدقة بالإسلام والعالم الإسلامي. وقد تحدث الإمام عليه السلام بادية الأمر عن علم عثمان ومعرفته بالأحكام الإسلامية بشأن رعاية حقوق الناس والإبتعاد عن الظلم والجور فقال:

«إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدْ اسْتَشَفَرُونِي [٣٨٤] بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَذُكُّكَ عَلَىٰ أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاكَ إِلَىٰ شَيْءٍ فَخَبِرَكَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَتَبَلَّغَكَهُ»

. من الواضح أن عبارات الإمام عليه السلام لا تعنى أن عثمان بمصاف الإمام على عليه السلام في العلم والمعرفة، بل مراده أن عثمان كان يعلم بالأحداث التي وقعت وسوء الظلم والجور وضرورة رعاية حقوق الناس، وهي الأمور العادية التي يتساوى فيها عثمان مع عامة الناس الذين كانوا يعرفون تلك الأمور، بل حتى الأطفال - فضلاً عن العقلاء والكبار - كانوا يعلمون صحيحها من سقيمها كما

ذكر ذلك ابن أبي الحديد [٣٨٥]. وبناءً على هذا فإنه يخطئ كل من يتصور بأن العبارات المذكورة دليلاً على أن عثمان بمنزلة الإمام على عليه السلام في العلم والمعرفة. فعلى عليه السلام كما قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله باب علم مدينة النبي صلى الله عليه وآله وآله وعلى عليه السلام حسب الروايات الإسلامية من عنده علم الكتاب وهو الملاذ العلمي للأمة في حل جميع مشاكلها حتى صرح بعض الخلفاء

«اللَّهُمَّ لَا تَتَّبِعْنِي لِمُعْضَلِهِ لَيْسَ لَهَا ابْنٌ»

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٩

ابن طالب [٣٨٦].

ثم واصل كلامه مشيراً إلى سوابق عثمان في الإسلام فقال:

«وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْتَنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا صَحَبْنَا»

. إشارة إلى أنك كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله لسنوات عديدة وقد سمعت منه تعاليم الإسلام وأحكامه الشرعية، وعليه فكيف تخفى عليك هذه المسائل الواضحة بشأن حق الناس وبيت المال والعدالة الاجتماعية. آنذاك طرق السبيل الثالث بغية التأثير على أفكار عثمان فقارنه بأبي بكر وعمر، ذلك لأنهما لم يرتكبا ما ارتكبه عثمان قط، وإن كانت لهم زلتهم الأخرى فقال:

«وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَبِي [٣٨٧] رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَشَيْجَةَ رَحِمَ مِنْهُمَا؛ وَقَدْ نَلْتُ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا»

. بالنظر إلى أن الوشيجه بمعنى جذور الشجرة أو الألياف التي تصنع من النخيل وشم اطلقت على اشتباك القرابة، فإن الإمام عليه السلام أراد أن يذكره بقرابته من النبي صلى الله عليه وآله حيث يقرب للنبي صلى الله عليه وآله من جده عبد مناف. فقد اعتمد الإمام عليه السلام مختلف الطرق بغية التأثير عليه وإعداده لقبول الحق والكف عن ممارسة الباطل. إلا أن المؤسف أن الخليفة الثالث لم يعد يسمع قول الحق وقد انغمس في الفساد الذي دب في كافته مرافق الحكومة. على كل حال عاد الإمام عليه السلام ليؤكد على الخليفة ضرورة الأنصياح إلى الحق والشفقة على نفسه فقال:

«فَاللَّهُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ - وَاللَّهِ - مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِي، وَلَا تُعَلِّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ»

. فالإمام عليه السلام لم يتخل عن أي أسلوب من شأنه التأثير على الخليفة، فأحياناً يحدثه بحسن وقبح مثل هذه الأمور، وأخرى يقول له

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٠

إنك سمعت من النبي صلى الله عليه وآله ما ينبغي سماعه، وتارة يقول له على الأقل سر بسيرة من سبقك من الخلفاء فهما ليسا أولى منك بالعمل بالحق. وأخيراً يبين له أن طريق الحق واضح فلماذا تعرض نفسك لكل هذه الأخطار وتسلك السبيل غير القويم، لكن لم يستجب عثمان حتى حدث ما لا ينبغي أن يحدث بعد أن ولّى ظهره لكل تلك المواعظ والإرشادات القيمة.

تأمل

سبل نفوذ الكلام في الآخرين

إذا قام شخص ببعض المخالفات وكان يبدو مدركاً لبعض الأعمال الخطيرة وأراد عاقل أن يوقظه من نوم الغفلة، فإن أفضل أسلوب يمكن اعتماده بادية الأمر أن يستقطب قلبه ويذكره بإيجابياته، فيقول مثلاً: إنك من أسرة عريقة ولديك تحصيلات علمية قيمة وسمعتك حسنة بين الناس لعله يشعر بشخصيته ويثق بالمقابل فيقبل منه. ومن ثم مقارنته بأمثاله وأقرانه بهدف إعادته إلى الصواب والإبتعاد عن الخطر.

الإمام عليه السلام بصفته سيد الفصحاء والبلغاء والعالم بالقضايا التربوية والنفسية، فقد ذكر عثمان بكل هذه الأمور، فقال له إنك لصهر رسول الله صلى الله عليه وآله [٣٨٨] وأقرب إليه من الخليفة الأول والثاني ولك سابقته في الإسلام وقد لازمت النبي صلى الله عليه وآله وليس هنالك من شيء غائب عنك لأذكرك به، فهناك ظلم وجور وتطاول على بيت مال المسلمين وهضم لحقوق الناس. إلا أن الخليفة الثالث قد انغمس في شباك بطانته - تلك البطانة التي يمثل أغلبها حثالات الجاهلية - ولم يعد يتحمل نصيح ذلك الناصح الأمين وينقذ نفسه من تلك الورطة. ويتضح مما مر معنا أن ليس هنالك من فضيلة لعثمان تضمنتها عبارات هذه الخطبة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤١

القسم الثاني

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدًى وَهَدًى فَاقَامَ سُنَّةَ مَعْلُومَةٍ، وَأَمَاتَ بِدْعَهُ مَجْهُولَةً. وَإِنَّ الشَّنَّ لَكَثِيرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدْعَ لظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ. وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضَلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةَ مَأْخُودَةٍ، وَأَحْيَا بِدْعَهُ مَتْرُوكَةً. وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - يَقُولُ: «يُوتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى ثُمَّ يَرْتَبُ فِي قَعْرِهَا». وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللَّهَ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُقْتُولِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَلْبَسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ الْفِتْنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؛ يَمْوَجُونَ فِيهَا مَوْجًا، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجًا.

فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ السَّنِّ وَتَقْضَى الْعُمْرِ.

فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: كَلَّمَ النَّاسَ فِي أَنْ يُوجَّحُوا لِي، حَتَّى أُخْرَجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَطَالِمِهِمْ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَاجْلُهُ وَصُورُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ.

الشرح والتفسير: خصائص الحاكم العادل والظالم

تضمن المقطع الأول من هذه الخطبة، خطاب الإمام عليه السلام بصورة خاصة لعثمان

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٢

وبذل له النصيح والإرشاد لإنقاذه من خطورة الموقف الذي كان فيه وليطفيء عنه غضب الأمة، والأهم من كل ذلك رضى الله تبارك وتعالى. أما هنا فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى الضوابط الكلية والعامّة للحاكم العادل ومن ثم صفات الحاكم الظالم ليتبين الخليفة من ذلك، الطريق الصحيح فيسلكه فقال عليه السلام:

«فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدًى وَهَدًى فَاقَامَ سُنَّةَ مَعْلُومَةٍ، وَأَمَاتَ بِدْعَهُ مَجْهُولَةً. وَإِنَّ الشَّنَّ لَكَثِيرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدْعَ لظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ»

. فقد ركز الإمام عليه السلام بادية الأمر على هذا الموضوع المهم في أن أفضل عباد الله هو الإمام العادل، كيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«عَدَلٌ سَاعَةٌ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةٍ سِتِينَ سَنَةً قِيَامٌ لَيْلَهَا وَصِيَامٌ نَهَارَهَا» [٣٨٩]

ثم تطرق إلى خصائص الإمام العادل، ومنها أن تلمس الهدى عن طريق القرآن والوحي والعقل السليم ثم هدى الناس إلى الصراط المستقيم، ذلك لأن البرامج الثقافية البناءة من وظائف الحاكم العادل لأنها تتمثل في إقامة السنن المعروفة وإماتة البدع المجهولة؛ لأنه لا بد للحاكم العادل من رؤية دقيقة بحيث لا تطمس السنن الحسنه وتنسى وتسد المجتمع خصال الخير والفضيلة والتقوى والعلم والمعرفة والتعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب عدم السماح لظهور البدع السيئة والخرافات

والاختلافات والنزاعات وكل ما جهد الأنبياء من أجل تنقية الأمة من شوائبه، خاصة أن الإمام عليه السلام صرح بأن للسنن والبدع علامات. فعلامات السنن الأيمن والاستقرار وتطور البلاد ومسارة الأفراد إلى المعنويات، على العكس من علامات البدع المتمثلة بالاضطراب والإرباك والركود والتخلف والخرافات. وبالطبع فإن مميزات الحاكم الظالم (الإمام الجائر) بالضبط على العكس من سابقته في الحاكم العادل، فهو ضال مضل لغيره، يطمس سنن الله ويحيى البدع، وللأسف كلنا نعلم أن الخليفة الثالث كان مصداقاً للإمام الجائر بتسليطه لبطانته على رقاب المسلمين ونهبهم لبيت المال.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٣

ثم قال عليه السلام:

«وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةَ مَاخُودَةً، وَأَحْيَا بَدْعَهُ مَثْرُوكَةً»

. فمن البديهي أن دعائم العدالة وركائزها في المجتمع إنما تستحكم في ظل إحياء السنن الإلهية التي تضمن خير البشرية وسعادتها، وتهجر البدع التي تسوق الناس إلى الفساد والظلم. والحاكم الذي يقوم بهذه الأعمال إنما يفصح عن ظلمه وفساده، بالتالي فهو شر الناس، ذلك لأنه يسوق المجتمع إلى البؤس والشقاء، بغض النظر عن ظلمه لنفسه وسوقها للشقاء الأبدى.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه مستشهداً بحديث خطير عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«وَإِنِّي سَجَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى ثُمَّ يَرْتَبُطُ فِي قَعْرِهَا» [٣٩٠]

. فقله عليه السلام:

«وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ»

إشارة إلى أنه كان له في الدنيا فئة من الناس يقفون إلى جانبه في الشدائد والمشاكل التي تعرض عليه ويجدون له المبررات في ممارسة الظلم والجور، ومن جانبه كان يغدق عليهم الإمتيازات بغية الاحتفاظ بهم. أما في ذلك اليوم فهو وحيد فريد في محكمة العدل الإلهي وليس له سوى النار جزاء لأعماله الشنعاء. ولعل العبارة

«فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى»

إشارة إلى أن دورانه في نار جهنم يوجب مزيداً من الألم والأحراق أولاً ويجلب انتباه الآخرين ثانياً فتبدو فضيحتة علانية.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمة تتعلق بمصير عثمان تحذره من مغبة سوء فعالة فقال:

«وَإِنِّي أَنْشُدُكَ [٣٩١] اللَّهُ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي

هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»

. فالإمام عليه السلام وإن لم يشر إلى من قال هذا الكلام، لكن من الواضح أنه رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد وقع عين ما أخبر به

حيث كان الظلم سبب قتل عثمان وأثر ذلك - وبجدة دم عثمان - حصل كل ذلك

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٤

القتال وسفك الدماء ومازلنا نشهد حتى العصر الراهن بعض التبعات والاختلافات التي تحدث بين المسلمين. والشاهد على ذلك

الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله والذي ورد في سنن أبي داود أنه قال:

«وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَيْمَةَ الْمُضِلِّينَ وَإِذَا وَضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [٣٩٢].

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«وَيَلْبَسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبِثُّ الْفِتْنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؛ يَمُوجُونَ [٣٩٣] فِيهَا مَوْجًا،

وَيَمْرُجُونَ [٣٩٤] فِيهَا مَرْجًا»

. وتشير العبارة

«وَيَلْبَسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا»

إلى أن الساسة المحترفين يحاولون تضليل الرأي العام فهم ينطلقون في الظاهر على أساس المطالبة بدم الخليفة المقتول، لكنهم يزيفون الحقائق باطناً بهدف الوصول إلى الخلافة، فهم يصورون الظالم مظلوماً والمظلوم ظالماً [٣٩٥]. والعبارة «وَيَبُثُّ الْفِتْنَ فِيهَا»

وهي إشارة إلى اتساع الفتنة في صفوف الأئمة نتيجة ذلك، والعبارات القادمة بمثابة نتيجة، فمن جانب يصعب تمييز الحق من الباطل ومن جانب آخر فإن الناس سيعومون في بحر من الفتنة. والفارق بين يمجون ويمرجون أن الأولى إشارة إلى اقتتال الأئمة في تلك الفتنة، والثانية إشارة إلى اختلاط الحق والباطل في المجتمع بحيث يصعب تمييز الحق من الباطل. جدير بالذكر أن كل ما تتبأ به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الرواية وأخبر به أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام وقع دون أدنى زيادة أو نقصان.

فقد ألب عثمان وبطانته الأمة عليهم لظلمهم حتى قتل عثمان واندفعت عقب ذلك فته من بني أمية لتستغل الأحداث السياسية لصالحها وارتفعت حدة الخلافات بين

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٥

الناس حتى تعذر تمييز الحق من الباطل وسفكت تلك الدماء الغزيرة، ثم امتدت تلك الاضطرابات لقرون. راجع المزيد بشأن عوامل القيام ضد عثمان الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب [٣٩٦].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى أهم عنصر يقف وراء انحراف عثمان - والذي جرّ عليه كل تلك الويلات - والمقصود من طاعته العمياء لمروان، فقال عليه السلام:

«فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً [٣٩٧] يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ [٣٩٨] السَّنِّ وَتَقْضَى الْعُمَرِ».

ورد في التاريخ أن عمر عثمان كان آنذاك ٨٢ سنة [٣٩٩]. لا شك أنه كان لمروان الدور الأساسي في حكومة عثمان بحيث كان سير الأمور حسب رغباته، وحتى حين استمع عثمان لنصائح الإمام عليه السلام وعزم على الاعتذار من الأئمة، اعترضه مروان بشدة وحال دون إصلاحه لأخطائه، والواقع أنه صب الزيت على فتيل النار التي أوقدها الناس حتى طالت حياة عثمان، وربما كان ذلك يستند إلى خطئه تمكنه أو تمكن معاوية من استلام زمام الأمور بعد عثمان.

فلما بلغ الإمام عليه السلام هذا الموضوع من كلامه استجاب له عثمان وتأثر شديداً:

«فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: كَلَّمَ النَّاسَ فِي أَنْ يُوجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَاجْلُهُ وَصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ»

. إشارة إلى أن المهلة في هذه الحالات الحادة قد تقود إلى ثورة عارمة فلا معنى لهذه المهلة، إضافة إلى أن المهلة إنما تهدف إلى إعداد المقدمات، وإعادة حقوق الناس لا تحتاج إلى أي مقدمات، فما كان في المدينة لابد من إصدار الأوامر بشأنه فوراً

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٦

فيؤخذ من الظلمة ويسلم إلى المظلومين، وما كان في المناطق البعيدة فلا بد من الإسراع في انتزاعه. ولعل العبارة المذكورة إشارة إلى هذه النقطة في أن الساسة حين يواجهون أزمة إنما يلجأون إلى التسوية بغية الهروب من المسؤولية ويطلبون من الطرف المقابل مهلة زمنية على أمل امتصاص نقمة الغضب وتوجيه ضربة مهلكة إلى الطرف الآخر، فما كان من الإمام عليه السلام إلا أن سد عليه الأبواب كافة واختلاق الذرائع. صرّحت كتب التاريخ بأن عثمان استجاب للإمام عليه السلام لكنه استمهل الإمام عليه السلام ثلاثة أيام بالنسبة للمدينة. فوافق الإمام عليه السلام وخرج من عند عثمان وأخبر الناس وكتب العهد على عثمان ومهلة الثلاثة أيام لإعادة الحقوق المهضومة وعزل الولاة الظلمة الذين نقم منهم الناس. وقد أشهد على العهد طائفة من المهاجرين والأنصار، فانسحب الناس على أمل

وفاء عثمان بالعهد بينما أراد عثمان خلال الأيام الثلاثة جمع العدة والعدد وتجهيز الجيش، فلما مضت المهلة شعر الناس بعدم الوفاء بالعهد فثاروا على عثمان، حتى انتهى الأمر إلى قتل عثمان، جدير بالذكر أن كل ما ذكرناه أورده الطبري في تاريخه [٤٠٠].

أضواء على حادثة قتل عثمان

أشرنا في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب إلى الأحداث التي رافقت مقتل عثمان، ونود هنا أن نشير إلى بعض الأمور، ومنها:

١. لا شك في أن قتل عثمان حادثه مفاجئ، ذلك لأنها انعكست سلباً على المسلمين، وكما ورد في الرواية الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإن قتل عثمان أدى إلى تصاعد الخلافات بين المسلمين وسفك المزيد من الدماء، رغم أن المقصر الأصلي في هذه الحادثة شخص عثمان وبطانته وقرابته الذين أخرجوا الحكومة من إطارها المتعارف وأشاعوا في المجتمع معاني الظلم والجور إلى جانب الفساد والانحراف.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٧

٢. جدير ذكره أن هذه الحادثة وقعت في المدينة أمام الصحابة من المهاجرين والأنصار ولم يهتوا للدفاع عن عثمان، وكأنهم راضون عن حركة الناس ضد عثمان، بل حسبما ورد في تاريخ الطبري أن جماعة من الصحابة كتبوا لبعضهم إن الجهاد حقاً في المدينة لا في الروم (لأن الحكومة الإسلامية اندفعت نحو الفساد وإصلاحها مقدم على كل شيء). أما الشخص الوحيد الذي وقف إلى جانب عثمان وحال دونة فهو أمير المؤمنين عليه السلام والذي أمر ولديه بالدفاع عنه، لأنه كان يعلم بالآثار السلبية التي تترتب على قتل عثمان وإن كانت حركة الأمة عنيفة ولم تنجح تدابير الإمام عليه السلام في الحيلولة دون وقوعها.

٣. تقدم الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة وقبل تصاعد حدة الاعتراض بإسداء النصح والإرشاد المشفق لعثمان وحذره بشدة بضرورة الكف عن مواصلة ذلك الأسلوب وتلافى ما فرط منه، ووعد هو من جانبه بالعمل بذلك، لكنه إما أن يكون رفض أو منعه حاشيته من الإستجابة. والذي يستفاد من بعض المصادر التاريخية أنه لم يكن مستعداً بفعل تعصبه الشديد لقرابته أن يعترف صراحة بما فرط منه، حيث قال بعد نصح الإمام: لم أرتكب خلافاً، فقد وصلت رحمى (فالأموال التي أنفقتها على قرابتي من باب صلة الرحم) وأغنيت الفقراء وآويت المحتاجين واستعملت مثل من استعمل عمر وولاه. فرد الإمام عليه السلام إن عمر كان يعاقب بشدة من يرتكب الخلاف ممن ولاه من عماله، لكنك ضعيف، أما قرابتك وولاتك فلا تكثرث لما يرتكبون من أخطاء [٤٠١].

والعجيب أن عثمان صعد المنبر بعد هذه الأحداث ليحدث الناس بأن لكل شيء آفة وآفة هذه الأمة أهل الغيبة الذين يتكلمون بما لا يعلمون والأمة تلهث خلفهم، وإنكم لتعيبون عليّ بعض الأمور التي كنتم ترضونها لعمر، لغلضته عليكم، على العكس من مداراتي لكم وإن شئت لأشرت على رجالي، فلا تفعلوا ما يدعونى إلى

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٨

النقمة عليكم، فاسكتوا ولا تطعنوا في ولايتي. وهنا انبرى مروان ليصرخ: أيها الناس إن شئتم جعلنا السيف حكماً بينا وبينكم. فغضب عثمان وأسكته وقال له دعنى اكلم أصحابي، ألم أوصيك بعدم الكلام؟ فصمت مروان ونزل عثمان من المنبر [٤٠٢].

وهذه العبارات تفيد أن عثمان إما كان جاهلاً بالأوضاع! أو أنه كان يثق بقرابته وبطانته بحيث كان يرى ظلمهم وجورهم عين العدالة والقسط! فكان أسيراً بيدهم بحيث لم يستطع تغيير مسار الأحداث [٤٠٣].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٩

الخطبة ١٦٥

يَذْكُرُ فِيهَا عَجِيبَ خَلْقِهِ الطَّائُوسِ [٤٠٤]

نظرة إلى الخطبة

يمكن تقسيم هذه الخطبة إلى أربعة أقسام:

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول إلى العجائب والغرائب التي تكتنف المخلوقات ولا سيما الطيور ليستدل عن هذا الطريق على وجود الله والإيمان به. ويركز في القسم الثاني على خلق الطاووس من بين الطيور وأسرار خلقته ليشير إلى تفاصيل لطيفة ودقيقة عن هذا المخلوق، كما يرد على بعض الخرافات والأوهام الواردة بشأنه.

ويختتم هذا الكلام بالإشارة إلى نقطة وتتمثل بعجز العقول عن وصف مخلوقات

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٠

الله فأتى لها بوصف الخالق العظيم؟ كما تطرق في القسم الثالث إلى عجائب خلق الديدان الصغيرة وكشف عن عجائب خلق النمل ليستدل من خلال ذلك على توحيد الله تعالى. أما القسم الرابع والأخير فقد خاض في جانب من أوصاف الجنة بما يجعل السامع يعيش لهفة الشوق إليها، وعلى هذا الأساس يربط بين المبدأ والمعاد ليعرض صورة واضحة متكاملة في بحث العقائد.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥١

القسم الأول

ابْتَدَعَهُمْ خَلْقًا عَجِيبًا مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ؛ وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنِيعِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْفَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلَالَةً عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَمَا ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلَفِ صُورِ الْأَطْيَارِ الَّتِي أَسَدَّ كَنَهَا أَحْرَادِيدَ الْأَرْضِ، وَخُرُوقِ فِجَاجِهَا وَرَوَاسِي أَعْلَامِهَا، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَيَّرَفَةٍ فِي زِمَامِ التَّشْيِيرِ، وَمُرْفَرَفَةٍ بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ، وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ. كَوْنَهَا بَعِيدٌ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُورِ ظَاهِرِهَا، وَرَكَّبَهَا فِي حَقَاقِ مَفَاصِلِ مُخْتَجِرَتِهَا، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعِبَالِهِ خَلْقَهُ أَنْ يَشِيْمُوَ فِي الْهَوَاءِ خُفُوفًا، وَجَعَلَهُ يَدْفُ دَفِيفًا وَنَسَقَهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الْأَصَابِعِ بِالطِّيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنِيعِهِ. فَمِنْهَا مَعْمُوسٌ فِي قَالِبِ لَوْنٍ لَيْشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنٍ مَا غُمِسَ فِيهِ؛ وَمِنْهَا مَعْمُوسٌ فِي لَوْنٍ صَبِغٍ قَدْ طُوقَ بِخِلَافِ مَا صُبِغَ بِهِ.

الشرح والتفسير: خلق الطيور

إن معرفة الله من أهم أصولنا العقائدية والتي يستند جانب كبير منها إلى القرآن الكريم، وهذا هو الهدف من الخطبة. ومما لا شك فيه أن أعمال الإنسان وسلوكه إنما يتوقف على تلك المعرفة ومدى رسوخ دعائمها. فقد بين الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عجائب الخلق التي تعكس وجود الله وعلمه المطلق وقدرته التامة، سيما أن الإمام عليه السلام يصطحبنا إلى عالم الطيور ويكشف لنا النقاب عن أسرار تلك الخلق. ومن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٢

ثم يتطرق إلى الطاووس ليكشف عجب صنعه بما يحير العقول ويسوق الإنسان إلى حمد الله والثناء عليه وتسيحه وتقديسه، فقال:

«ابْتَدَعَهُمْ خَلْقًا عَجِيبًا مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ»

. المراد من الموات، الجوامد كالأرض والسماء والنجوم والشمس والقمر، وبعضها ساكنة والأخرى متحركة (وإن كان هنالك رأى بحركتها جميعاً). والمراد من الابداع، الخلق من غير مثال مسبق، وهذا موضوع في غاية الأهمية، ذلك لأن جميع ما سوى الله إنما

يحتذى الأمثلة المسبقة في تصويره وصنعه وابداعه. ثم خاض في شرح هذا الكلام فقال:

«وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَيْغَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ [٤٠٥] فِي أَسْمَاعِنَا دَلَائِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ»

. حقاً أن الإنسان لو تعرّف على العلوم الطبيعية وخاض في دراسته عجائب خلقه موجودات العالم لأنطلق نحو الله تبارك وتعالى.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى جانب خاص من غرائب وعجائب العالم - الملى بالأسرار واللطائف - ليتحدث عن عالم الطيور ويشرح أسرارها، فقال:

«وَمَا ذَرَأَ [٤٠٦] مِنْ

مُخْتَلِفِ صُورِ الْأَطْيَارِ الَّتِي أَشْكَنَهَا أَخَادِيدَ [٤٠٧] الْأَرْضِ، وَخُرُوقَ [٤٠٨] فِجَاجِهَا [٤٠٩] وَرَوَاسِي [٤١٠] أَعْلَامِهَا [٤١١]» [٤١٢].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٣

هذا أول تنوع لخلق الطيور من حيث موضع سكنها، فبعضها كالبوم تلجأ إلى شقوق الأرض وتخرج عند الظلام، كما يسكن البعض في الوديان كالفاخته والبعض الآخر في سفوح الجبال كالنسر والعقاب، وقد أمد الله تعالى كلاً منها بما يتطلبه في حياته. طبعاً ما ذكره الإمام عليه السلام في العبارات المذكورة يقتصر على نماذج من الحيوانات البحرية والأهلية الأليفة من قبيل الطيور التي تعيش في الغابات والأعشاش والصحارى ولكل عجائبه وغرائبه التي تحير عقل الإنسان. فما ذكره الإمام عليه السلام تصنيف للطيور على أساس سكنها.

ثم أشار إلى تصنيف آخر - على أساس نوع الطيران والأجنحة - فقال:

«مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَرَّفَةٍ [٤١٣] فِي زِمَامِ التَّشْخِيرِ، وَمُرْفَرَفَةٍ [٤١٤] بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ [٤١٥] الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ [٤١٦]، وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرَجِ»

. وهو ما أشير إليه في القرآن بعده آيات مثل: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [٤١٧].

ثم خاض الإمام عليه السلام في تصنيف ثالث ورابع للطيور فمنها ما لها أشكال مختلفة وطيور ثقيلة الوزن تعجز عن الطيران وأخرى خفيفة تحلق إلى عنان السماء فقال:

«كَوْنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُورِ ظَاهِرَةٍ، وَرَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ [٤١٨] مَفَاصِلِ مُخْتَجِبَةٍ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بَعْبَالَةً [٤١٩] خَلَقَهُ أَنْ يَشْمُوَ فِي الْهَوَاءِ خُفُوفًا [٤٢٠]، وَجَعَلَهُ يَدْفُ

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٤

دَفِيفًا [٤٢١]»

. نعم؛ فأشكال الطيور على درجة من الاختلاف بما يذهل تنوعها عقل الإنسان، فبعضها غاية في الجمال بما لا تشبع العين من رؤيته، والبعض الآخر له شكل مخيف غالباً ما يفرع الإنسان من مشاهدته، وبعضها ذات أقدام طويلة وكأن أجسامها حملت على عمودين (كالنعام والقلق) والأخرى قصيرة لا ترى إلّا بصعوبة، ومنها الطيور ذات الجثة الضخمة والأخرى النحيفة، كما تختلف مع بعضها في الطيران فبعضها لا- تستطيع الطيران لكنها تبسط جناحها وتطلق بسرعه، وتحلق الأخرى إلى ارتفاعات منخفضة فتنهض من الأرض كنهوض الطائفة، أما البعض الآخر فيرتفع سريعاً من الأرض ويحلق في عنان السماء مستفيداً من دفع أقدامه بالإضافة إلى الاستعانة بأجنحته (كحركة المروحيات)، وتبقى بعض الطيور محلقة في السماء لأسابيع دون أن تشعر بالتعب والملل، كالطيور المهاجرة التي تقطع أحياناً نصف الكرة الأرضية وتتغذى على ما تدخره من مواد غذائية. جدير بالذكر أن بعض الطيور ذات الأجنحة المنبسطة

والبدن الخفيف تستغنى عن بسط جناحيها حين تبلغ ذروة التحليق وعلى العكس من ذلك الطيور ذات الجثة الثقيلة والتي لا غنى لها عن الأجنحة مهما حلقت. حَقًّا أَنَّ الْإِنْسَانَ كَلِمَا تَأْمَلُ هَذِهِ الْأَنْوَاعَ تَعْرِفُ أَكْثَرَ عَلَى عِظْمَةِ الْخَالِقِ وَعِلْمِهِ الْمَطْلُوقِ وَإِرَادَتِهِ التَّامَّةِ.

وأشار عليه السلام في المرحلة الرابعة إلى تنوع ألوان الطيور والذي يكشف أيضاً عن جانب من العجائب فقال:

«وَسَقَفَهَا [٤٢٢] عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الْأَصَابِعِ [٤٢٣] بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ،

وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ. فَمِنْهَا مَعْمُوسٌ [٤٢٤] فِي قَالِبٍ [٤٢٥] لَوْنٍ لَأَيْشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنٍ مَا غَمِسَ فِيهِ؛

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٥

وَمِنْهَا مَعْمُوسٌ فِي لَوْنٍ صَبِغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافٍ مَا صُبِغَ بِهِ»

. فتنوع ألوان الطيور هو الآخر من العجائب. وقد قام البعض بإنشاء حديقة كبيرة في بعض المناطق تدعى حديقة الطيور فضمت مختلف أنواع الطيور وتعيش ظروفها كالظروف الطبيعية للحياة مع فارق بسيط هي أنها أحيطت بسياج كبير بغية المحافظة عليها، والحق أن كل من يتأمل ألوانها المتنوعة ليسحره منظرها الخلاب فيخيل إليه أن رسماً ماهراً جلس لأيام يخط هذه الألوان، فلا يملك الناظر سوى التوجه إلى الله بالحمد والثناء والتسبيح والتقدير.

تأمل: عجائب عالم الطيور

إنَّ النظر إلى طائر جميل والإبداع في بنية جناحه وبالتالي خلقه يجعل الإنسان مستغرقاً في التوحيد، فما ظنك لو قطعنا هذه الرحلة الطويلة في عالم الطيور والتي تتطلب سنوات عديدة. لقد ألف العلماء العديد من الكتب بشأن الأسرار المودعة في الطيور ومختلف أنواعها وأقسامها بما فيها الطيور البرية والبحرية والمهاجرة وغير المهاجرة، ولا يسع البحث لاستيعاب زاوية منها ولذلك نقتصر على الإشارة إلى جانب منها، فما قاله العلماء:

١. هنالك حوالي أربعة عشر ألف نوع من الطيور في الكرة الأرضية وقد دفع اختلافها العلماء إلى تصنيفها إلى عدّة فصائل، وبالطبع فإن لكل فصيلة آلاف المصايق في الخارج، ولا يخفى أن هنالك الآلاف المؤلفة أيضاً من الطيور في الغابات والوديان التي لم يقف عليها الإنسان لحد الآن.

٢. إن بعض الطيور كالنعامة التي تزن حوالي ١٠٠ كيلوغرام وتستطيع بأرجلها الطويلة أن تسير بسرعة ٩٥ كيلومتر بالساعة، وهنالك الطيور الخفيفة الصغيرة التي لا يتجاوز وزنها بضعة كيلو غرامات، وربما لا تقل سرعة طيرانها عن سرعة سير النعامة.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٦

٣. إن خلقه كل طير متناسب مع بيئته وظروفه المحيطة وأوضاعه المعاشية، فلبعضها منقار طويل وحاد يتمكن من صيد الأسماك، ولبعضها منقار قصير ومخروطي يستطيع كسر البذور النباتية، كما هنالك المنقار النحيف والحاد الذي يمتص رحيق الأزهار، وأخيراً المنقار الذي يشبه السلّة ويتمكن من صيد عدد من الأسماك والاحتفاظ بها.

٤. ليس لأي من الطيور أسنان لكنها تطحن الطعام وتمتصه في أوعيتها الصلبة.

٥. الطيور بيوضة عادة تنام على بيضها لأيام لتفقس عن أفراخ، طبعاً الاثنى هي التي تنام عليها، كما يتناوب معها الذكر أحياناً، وأحياناً يجلس الذكر اثنائه في عش ولا يسمح لها بالخروج ولا يدع سوى فتحة صغيرة في العش ليوصل إليها ما تحتاج من غذاء.

٦. بدن الطيور خفيف للغاية مستعد للطيران وهو ملىء بالغضاريف والغدد التي تساعد على الطيران.

٧. لطيور الماء ويقصد بها الطيور العائمة في المياه وسواحل البحار برامح عجيبة فأحياناً تستهدف طعامها تحت الماء من خلال اكتشافه بجهاز يشبه الرادار فتغوص في الماء لتحصل عليه وبالطبع فإن جسمها دهني لا يسمح بنفوذ الماء إلى داخلها.

٨. ألوان الطيور من عجائب الخلق، فهناك بعض الطيور الجميلة التي تخطف الأبصار وتشرح القلوب حتى يظن الناظر أنها رسمت

بريشة فنان عبقرى (وهذا من أبداع أمور الخليقة التي ركز عليها الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة) ولا يدرك الإنسان هذه العظمة دون النظر والتأمل.

٩. أعشاش الطيور هي الأخرى متنوعة وعجيبة، ورغم أنها لا تمتلك الأيدي إلا أنها تصنع أعشاشها وتبنيها بدقّة متناهية، فهناك طائر يسمى (الخياط) يقوم بصنع عشه من خلال خياطته لأوراق الأشجار حيث يستعين بمنقاره كأبرة وخيوطه ألياف النباتات. نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٧

١٠. طيور الصيد لها أرجل وأجنحة قوية كالعقاب والغراب ولها رؤية حادة وقوية بحيث ترى حتى الحشرات الصغيرة في الأرض وهي على ارتفاعات في السماء، وبعضها على درجة من الضخامة بحيث يمكنها التقاط شاة وحملها معها.

١١. وللطير المهاجرة عالم غريب وعجيب فهي تنطلق أحياناً من خط الإستواء نحو المناطق القطبية وبالعكس فتقطع أكثر من عشرة آلاف كيلومتر دون أن تضل طريقها، فهي تحلق لأيام وليالٍ دون تعب وتعكف قبل الهجرة غريزياً على جمع المواد الغذائية لتستفيد منها طيلة مدة الهجرة.

١٢. للطير مقاومة شديدة لدرجات الحرارة والبرودة فهي صامدة حتى في درجة تحت الصفر، وحرارة جسمها أعلى من درجة حرارة جسم الإنسان وتصل إلى ٤٥ درجة فوق الصفر [٤٢٦].

١٣. خدمات الطيور للإنسان كثيرة، فطعام أغلب هذه الطيور من الحشرات، وطيور الصيد تحول دون مضاعفة نسل الطيور الأخرى وهناك الطيور التي تتغذى على الميتة فتظهر سواحل البحار ووسط الأرض كما تلعب دوراً في القضاء على الآفات.

١٤. نقل شارح نهج البلاغة عن كتاب روبرت لمن «كل شيء عن الطيور»

والذي ترجمه الدكتور بدران، أن البعض يعتقد أن على وجه الأرض أكثر من مئة مليار طير أكبرها النعامة التي يبلغ طولها مترين ونصف ... وأصغرها الطنان وطوله خمسة سانتى مترات، وتحلق بسرعة حيث تبلغ سرعتها أكثر من تسعين كيلومتر بالساعة وتستطيع الوقوف مدة طويلة في الجو، وتبلغ خطوة بعض الطيور أكثر من ستة أمتار. وتحلق بعض الطيور إلى ستة آلاف متر في الهواء بينما تغطس بعضها إلى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٨

عمق ١٨ متر [٤٢٧]. وزبده الكلام فإن الإنسان لا يملك إن تأمل هذا الخلق العجيب سوى الركون لله والاستسلام لقدرته المطلقة وصنعه العجيب.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٩

القسم الثاني

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقًا الطَّائِفُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَصَدَّ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ. إِذَا دَرَجَ إِلَى الْأُنْتَى نَشَرَهُ مِنْ طَيْهِ، وَسَمَّا بِهِ مُطَلًّا عَلَى رَأْسِهِ كَأَنَّهُ قَلْعٌ دَارِيٌّ عَنَجَهُ نُورِيَّهُ. يَحْتَالُ بِأَلْوَانِهِ، وَيَمِيسُ بِزَيْفَانِهِ. يُفِضُ كَأَفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيُورُّ بِمَلَقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُعْتَلِمَةِ لِلضَّرَابِ. أُحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايِنَتِهِ، لَأَكْمَنَ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْبَادَهُ. وَلَوْ كَانَ كَرْعَمٍ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْفِحُ بِدَمْعِهِ تَسْفِحُهَا مَدَامِعُهُ، فَتَقْفُ فِي ضَفْتِي جُفُونِهِ، وَأَنَّ أَنْتَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لَأَمِنْ لِقَاحٍ فَخَلَّ سِوَى الدَّمْعِ الْمُتَبَجِّسِ، لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ.

بعد أن تطرق الإمام عليه السلام في المقطع السابق من الخطبة إلى عجائب عالم الطيور أشار هنا بالخصوص إلى أعجب وأجمل طيور الدنيا ألا وهو (الطاووس) الذي يضرب به المثل في الجمال حتى يستفاد من ريشه الجميل كعلامة للوصول إلى آية معينة في القرآن وصنع المكناس لنكت الغبار عن الأضرحة المقدسة، حيث أشار الإمام عليه السلام الى بعض خصائص هذا الطائر فقال:

«وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقًا الطَّائُوسُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَصَّدَ [٤٢٨] أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْصِيدٍ، بِجَنَاحِ نَفْحَاتِ الْوَلَايَةِ، ج ٦، ص: ٢٦٠

أَشْرَجَ [٤٢٩] قَصَبَهُ [٤٣٠]، وَذَنَّبَ أَطَالَ مَسْحَبَهُ [٤٣١].»

الشيء الأول الذي يلفت الانتباه في الطاووس، الألوان الرائعة العجيبة لأجنحته وذيله الطويل نسبياً حيث يخط وراءه عندما يمشى ويتبختر كأنه العروس الجميلة في ليلة زفافها. حقاً لا يمكن وصف ألوان الطاووس بأى شكل من الأشكال، سوى أن يقف الإنسان مذهولاً أمام عظمة الخالق ويشاهد ويتمتع بهذا الطائر اللطيف. ما يجدر ذكره في عالم الحيوانات أن الذكر يستغل مختلف الطرق بغية جلب انتباه الانثى له، فأحياناً عن طريق الصوت العذب وأخرى الحركات الموزونة وبعض الحركات الأخرى كما أشار الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة المهمة فقال:

«إِذَا دَرَجَ [٤٣٢] إِلَى

الْأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيْهِ [٤٣٣]، وَسَمَّا بِهِ مُطَلَّأً [٤٣٤] عَلَى رَأْسِهِ»

. حقا أن بسط الطاووس لجناحه لمن أروع المناظر ويعكس حالة من النسق والنظام الرائع.

ثم أورد الإمام عليه السلام تشبيها لذلك فقال:

«كَأَنَّهُ قَلَعٌ [٤٣٥] دَارِي [٤٣٦] عَنَجَهُ [٤٣٧] نُوثِيَهُ [٤٣٨]»

. ربّما

نغمات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦١

كان هذا التشبيه لأن حركة الشراع نحو المقصد تمنح السفينة جمالاً خاصاً، الطاووس أيضاً عند حركته وفتحته لمظلته يجلب انتباه الآخرين لجماله وروعته.

ثم قال عليه السلام:

«يَحْتَالُ [٤٣٩] بِالْوَانِهِ، وَيَمِيسُ [٤٤٠] بِزَيْفَانِهِ [٤٤١]. يُفْضِي [٤٤٢] كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ،

وَيُؤَوِّرُ [٤٤٣] بِمَلَامِحِهِ [٤٤٤] أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ [٤٤٥] لِلضَّرَابِ [٤٤٦]»

. الواقع أن هذا الكلام مقدمة لا بطل بعض خرافات عامة الناس بشأن هذا الطائر (ويالها من خرافات كثيرة يحيكها العوام بشأن عجائب الحيوانات) لذلك قال:

«أَحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايِنَتِهِ، لَا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادَهُ».

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَلَوْ كَانَ كَزَعْمٍ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعِهِ تَسْفَحُهَا [٤٤٧]

مَدَامُهُ [٤٤٨]، فَتَقَفَ فِي ضَفَّتِي [٤٤٩] جُفُونِهِ [٤٥٠]، وَأَنَّ أُنثَاءَهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ، ثُمَّ تَبْيَضُ لَأَمِنْ لِقَاحِ

فَحْلِ سَوَى الدَّمْعِ الْمُتَبَجِّسِ [٤٥١]، لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ [٤٥٢] الْغُرَابِ»

. إشارة إلى عدم التعجب من هذه الخرافة التي قيلت بشأن الطاووس، فقد قيل الأعجب من ذلك بشأن الغراب، أنه ليس هنالك من جماع لدى الغراب بل إن أراد لئنثاه الحمل يضع منقاره في منقارها وينقل إليها مقداراً من الماء من القامصة الذكورية فتحمل، وهو كلام باطل ولقد شوهد الجماع كراراً لدى الغراب، وإن سعى إلى الابتعاد عن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٢

أنظار الناس، وعليه فعملية الجماع لديه خفية حتى ضرب المثل به لدى العرب ف قيل:

«أخفى من سفاد الغراب»

ولعل سبب هذه الخرافة أن أغلب الطيور تضع مناقيرها أمام مناقير الطيور الأخرى قبل الجماع وهذا ما جعل البعض يلتبس عليه الأمر. وشبه ذلك ما قيل في الطاووس من أن الانثى تمتص دم الذكر قبل الجماع [٤٥٣].

سؤال: وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: ترى من الذى جعل الإمام عليه السلام يتعرض لهذه الخرافة بشأن الطاووس أو الغراب، والحال لو كان الأمر كذلك لكان من عجائب الخلقه وغرائبها؟

والجواب: أن الناس لو اتجهوا صوب الخرافات لإثبات العجائب والغرائب لاضطربت الواقعيات وسلبت نتائجها المطلوبة. والسؤال الآخر الذى يرد هنا لم يكن فى الحجاز طاووس ليرى الإمام عليه السلام عملية التلقيح فكيف ورد هذا الكلام؟

أجاب ابن أبى الحديد فى شرحه لهذه الخطبة من نهج البلاغة أن المدينة وإن خلت من هذا الطائر غير أن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة فى الكوفة التى كان يجلب إليها كل شىء بما فيها هدايا وصفايا الملوك، وعليه فليس من العجيب أن الإمام عليه السلام شاهد الطاووس وحر كاته [٤٥٤].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٣

القسم الثالث

تَحَالَ قَصَبُهُ مِدَارِي مِنْ فَضِّهِ، وَمَا أُنبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ، وَشَمُوسِهِ خَالِصِ الْعُقَيَانِ، وَفَلَذِ الزَّبْرَجِدِ. فَإِنْ سَبَّهْتَهُ بِمَا أُنبِتَتِ الْأَرْضُ قُلَّتْ: جَنَى جُنَى مِنْ زَهْرِهِ كُلِّ رَيْبِعٍ. وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلْبَاسِ فَهُوَ كَمُوشَى الْحَلَمِ، أَوْ كَمُونِقِ عَصَبِ الْيَمَنِ. وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحَلِيِّ فَهُوَ كَقُصُوصِ ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نَطَقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ. يَمَشَى مَشَى الْمَرْحِ الْمُحْتَالِ، وَيَتَصَفَّحُ ذَنْبَهُ وَجَنَاحَيْهِ، فَيَقَهْقَهُ ضَاحِكًا لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ، وَأَصْبَحَ ابْيَعُ وَشَاحِهْ؛ فَإِذَا رَمَى بِبَصِيرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَمًا مُعَوْلًا بِصَوْتِ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِعَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوْجِعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمُشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخَلَّاسِيَّةِ. وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ طُثُوبِ سَاقِهِ صَيْصِيَّةٌ خَفِيَّةٌ.

الشرح والتفسير: صورة رائعة لجناح الطاووس

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى عجب خلقه الطاووس من خلال وصف جناحه وريشه الملون الرائع ليشرح ذلك بعبارات فصيحةً بليغةً وتشبيهات غايةً فى الروعة فقال:

«تَحَالَ قَصَبُهُ مِدَارِي مِنْ فَضِّهِ، وَمَا أُنبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ

دَارَاتِهِ [٤٥٧]، وَشَمُوسِهِ خَالِصِ الْعُقَيَانِ [٤٥٨]، وَفَلَذِ الزَّبْرَجِدِ [٤٥٩] [٤٦٠].»

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٤

يعلم كل من رأى ريش الطاووس أن ألوانه خارقة فى الجمال، إلبا أن هنا لك لونين يجليان الإنتباه أكثر من غيرهما، هما اللون الأصفر- الذى يلمع كالذهب الخالص، واللون الأخضر الذى يشبه قطعات الزبرجد (ذلك الحجر النفيس الأخضر اللون والذى يستخدم فى الزينة وتاج الملوك) ومن هنا ركز الإمام على هذين اللونين من بين سائر الألوان، والغريب أن جميع ريشه الجميل ينبت على قصبه بيضاء شهبها الإمام عليه السلام بالفضة. ثم شبه الإمام عليه السلام جناحى الطاووس بغية زيادة التوضيح تارة بالأزهار الربيعية المتنوعة الألوان وأخرى بالثياب النفيسة الملونة.

وأخيراً التيجان المرصعة بها، فقال:

«فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أُنبِتَتِ الْأَرْضُ قُلْتَ: جُنِي [٤٦١] جُنِي
مِنْ زَهْرِهِ كُلِّ رَبِيعٍ»

. ذكر بعض شراح نهج البلاغة أنه يوجد في بعض البلدان عشرة آلاف نوع من البراعم والزهور ولكل جماله الخاص به.

ثم ذكر الإمام عليه السلام تشبيها آخر وعبارة رائعة فقال:

«وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ [٤٦٢] بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ

كَمَوْشِي [٤٦٣] الْحَلْلِ، أَوْ كَمَوْتِقِ [٤٦٤] عَصَبِ الْيَمَنِ»

والتشبيه الثالث والأخير:

«وَإِنْ شَاكَلْتَهُ

بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصِ [٤٦٥] ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِقَتْ بِاللُّجَيْنِ [٤٦٦] الْمَكَلِّ [٤٦٧]»

. فقد كان لقدماء الملوك تيجان مفعمة بالنقوش والألوان ومليئة بالمجوهرات حيث يجعلون المجوهرات على شريط أو يخيطنونها عليه بخيوط رقيقة ليزينوا بها تيجانهم.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٥

والقصبات التي تتوسط جناحي الطاووس - كما وردت سابقاً في عبارة الإمام عليه السلام - بيضاء كالفضة والريش على جانبيها كالمجوهرات. الواقع، أن النقوش الجميلة والملونة لا تعدو عادةً أحد هذه الأشياء الثلاثة: باقة الورد والملابس والجواهر. وقد استعان الإمام عليه السلام بالتشبيهات الثلاثة بتلك العبارات الفصيحة البليغة ليجسد جمالية ريش الطاووس.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليخوض في شرح الطاووس من خلال مشيه ونظرته لنفسه فقال:

«وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصِ ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمَكَلِّ، يَمَشِي مَشَى الْمَرْحِ [٤٦٨] الْمُخْتَالِ [٤٦٩]، وَيَتَصَفَّحُ ذَنْبَهُ وَجَنَاحِيهِ، [٤٧٠] فَيَقْهَقُهُ ضَاحِكًا لِحِمَالِ

سِرْوَالِهِ، وَأَصَابِيغِ [٤٧١] وَشَاحِيهِ [٤٧٢]؛ فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا [٤٧٣] مُغَوَّلًا [٤٧٤] بِصَوْتِ يَكَادُ

يُبِينُ عَنِ اسْتِعَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمُشٌ [٤٧٥] كَقَوَائِمِ الدَّيْكَةِ

الْخِلَاسِيَّةِ [٤٧٦]. وَقَدْ نَجَمَتْ [٤٧٧] مِنْ ظُنُوبِ [٤٧٨] سَاقِهِ صَيْصِيَّةٌ [٤٧٩] خَفِيَّةٌ»

. فقد أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه لطيفة وهي أن الله سبحانه جعل في هذا الطائر بعض نقاط الضعف رغم آيات الجمال، وإذا ما شعر حيناً بالغرور ودفعه ذلك للضحك بالتحققه فإنه لا يكاد يخفى ألمه إن وقعت عينه على نقصه. وبالطبع فإن هذا نموذج من عالم الخلق الذي حال فيه الحكيم دون الغرور والطغيان الناشئ من الشعور بالقوة حيث جعل قدرًا من الضعف والنقص بغية التوازن والقضاء على الغرور والغفلة. فهناك الكسل والعجز الذي يطارد الشباب والنشاط، والمرض والسقم الذي يتبع الصحة والعافية،

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٦

والفقر الذي يجرى خلف الغنى، وإدبار الدنيا الذي يحث الخطى نحو إقبالها. نعم هذه إحدى فلسفات المرض والعجز وسائر المحن والويلات.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٧

القسم الرابع

وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنْزَعَةٌ خَضْرَاءُ مُوشَاءَ. وَمَخْرُجُ عُنُقِهِ كَالْأَبْرِيقِ، وَمَغْرُزُهَا إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصَبِغِ الْوَسِيمَةِ الْيَمَانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةَ ذَاتِ صِقَالٍ، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمٍ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُحْيِلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ، وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ الْخَضِرَةَ النَّاصِرَةَ مُمْتَرِجَةً بِهِ. وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ حَطَّ

كَمَسِي تَدَقُّ الْقَلَمَ فِي لَوْنِ الْأَفْحَوَانِ، أْبْيَضُ يَقْقُ، فَهُوَ بَيَّاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ. وَقَلَّ صَبِغٌ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وَعَلَاهُ بَكْتَرُهُ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ، وَبَصِيصٍ دِيبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ، فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ الْمَبْثُوثَةِ، لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ، وَلَا شُمُوسُ قَيْظٍ.

الشرح والتفسير: صورة دقيقة عن جمال الطاووس

خاض الإمام عليه السلام هنا بعبارات فصيحته بليغة في خمس خصائص أخرى تعكس جمال الطاووس ليذكر من خلالها هذه الجمالية على ضوء مظاهر جمال الله وجلاله، فقال:

«وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ [٤٨٠] قَنْزَعَةٌ [٤٨١] خَضْرَاءُ مُوشَاءُ [٤٨٢]»

. العرف عند العرب، شعيرات طويلة تبدأ من أعلى الكتف والرقبة حتى خلف الرأس لتنتهي بين الأذنين فيكون كالتاج وحيث هذا التاج أخضر براق في الطاووس فإنه يمنحه جمالاً يسحر الأبصار ويلفت نظر الإنسان إلى مبدأ هذا الجمال الساحر.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٨

وقال في الخاصية الثانية:

«وَمَخْرُجُ عُنُقِهِ كَالْبَرِيقِ [٤٨٣]، وَمَعْرُزُهَا [٤٨٤] إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ

كَصَبْغِ الْوَسْمَةِ [٤٨٥] الْيَمَانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرِهِ مُلْبَسَةً مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ [٤٨٦].»

وقال في الثالثة:

«وَكَاَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ [٤٨٧] بِمَعْجَرٍ [٤٨٨] أَسْحَمَ [٤٨٩]؛ إِلَّا أَنَّهُ يُحْيِلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ،

وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ الْخَضْرَاءَ النَّاصِرَةَ مُمْتَرِجَةٌ بِهِ»

. وقال في الخاصية الرابعة:

«وَمَعَ فَتَقٍ سَمِعِهِ حَطُّ كَمُسْتَدَقٍ [٤٩٠] الْقَلَمِ فِي لَوْنِ

الْأَفْحَوَانِ [٤٩١]، أْبْيَضُ يَقْقُ [٤٩٢]، فَهُوَ بَيَّاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ [٤٩٣].»

وأخيراً قال في الخاصية الخامسة:

«وَقَلَّ صَبِغٌ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وَعَلَاهُ بَكْتَرُهُ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ [٤٩٤]، وَبَصِيصٍ [٤٩٥] دِيبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ [٤٩٦]، فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ الْمَبْثُوثَةِ، لَمْ

تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ، وَلَا شُمُوسُ قَيْظٍ [٤٩٧].»

إنَّ التمعن في هذه الخواص الخمس للطاووس إضافة لما ذكر في مقاطع الخطبة السابقة يكشف من جانب، عن عظمته وقدرته المصور الماهر الذي جمع كل هذا الحسن والجمال في هذا المخلوق وجعله نموذجاً لأنواع الجمال، حيث أدنى وقفته

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٩

عند هذا المخلوق دليل على وجود الخالق سوى لهذا المخلوق البديع لكفى في الوقوف على الخالق العظيم، وكلما أوغل الإنسان أكثر وتعمق أصبح أكثر خضوعاً لخالقه الحكيم ونطق بلسان حاله: يا لك من مخلوق رائع جميل، فما أجمل من خلقك ومنحك كل هذا الجمال. ومن جانب آخر، نقف على مدى عظمته هذا الإمام العظيم بطل التوحيد ومدى دقته في عرض عجائب وجمال عالم الخلق وإرشاده الخلق إلى الخالق، والحق أن أحداً لم يستطع أن يتحدث عن جمال هذا الطائر كما تحدث الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧١

القسم الخامس

وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيَشِهِ، وَيَعْرِى مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى وَيَثْبُتُ تَبَاعاً، فَيَنْحُتُ مِنْ قَصْبِهِ انْحِتَاتٍ أَوْرَاقِ الْأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلَاخَقُ نَامِيًا حَتَّى يَعُودَ

كَهَيْتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ، لَأِيْخَالِفَ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ! وَإِذَا تَصَفَّحَتْ شَعْرَةً مِنْ شَعْرَاتِ قَصَبِهِ أَرْتَكَّ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبْرَجْدِيَّةً، وَأَحْيَانًا صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً، فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هَذَا عَمَائِقِ الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحِ الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ!

وَأَقْلُ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَالْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ! فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقِ جَلَاءِ اللَّعْيُونِ، فَأَدْرَكَتَهُ مَحْدُودًا مُكَوَّنًا، وَمُؤَلَّفًا مُلَوَّنًا؛ وَأَعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ!

الشرح والتفسير: حيرة العقول في الوصف

أشار الإمام في هذا المقطع والذي يمثل ختام الكلام في الطاووس إلى أمرين مهمين؛ الأول قال:

«وَقَدْ يَنْحَسِرُ [٤٩٨] مِنْ رِيْشِهِ، وَيَعْرِى مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى [٤٩٩]، وَيَيْبُتُ بِنَاعًا، فَيَنْحَتُ [٥٠٠] مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتٍ أَوْ رَاقٍ الْأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلَاحِقُ نَامِيًا حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧٢

ثم قال:

«لَا يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ!»

. لا شك في أن ريش الطاووس ورغم كل هذا الجمال لكنه قد يتعرض مع مرور الزمان إلى الإتساخ بالتراب والغبار، ومن هنا فإن الله تعالى ينزع عنه كل سنة لباسه القديم ويغطي جسمه بلباس جديد وجميل ليبقى غضاً جميلاً على الدوام. غالباً ما تسقط أوراق الأشجار في فصل الخريف ويسلب الطاووس نشاطه وحيويته، وحين تتفتح الأزهار في فصل الربيع تدب الحيوية في الطاووس ويكتسى حلة جديدة ملونة تجعل قصبه الأبيض الفضي اللون يبدو كسيقان الأشجار.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة لطيفة فقال:

«وَإِذَا تَصَفَّحَتْ شَعْرَةً مِنْ شَعْرَاتِ قَصَبِهِ أَرْتَكَّ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبْرَجْدِيَّةً، وَأَحْيَانًا صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً [٥٠١]» .

. لما كانت على ريش الطاووس دوائر جميلة بألوان مختلفة، وكل لون يختص بخصلة معينة لتبدو بصورة رائعة.

وأخيراً يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هَذَا عَمَائِقِ الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحِ الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ! وَأَقْلُ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ وَالْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ!»

. نعم؛ إن عجز الإنسان العاقل والمفكر عن الوقوف على عجائب الطاووس وتعذر عليه وصفه وإدراكه فكيف بعالم الخلقه وأسراره؟! وإضافة إلى النتيجة السابقة الواضحة في موضوع معرفة الله وإدراك عظمه الخالق وسعه علمه وقدرته إنما خلص إلى نتيجة أخرى فإن عجزنا عن إدراك كائن من هذه الكائنات فكيف لنا بإدراك كنه الذات والصفات والتعريف على الله كما هو [٥٠٤]، فقال:

«فَسُبْحَانَ الَّذِي

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧٣

بَهَرَ [٥٠٥] الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقِ جَلَاءِ اللَّعْيُونِ، فَأَدْرَكَتَهُ مَحْدُودًا مُكَوَّنًا، وَمُؤَلَّفًا مُلَوَّنًا؛

وَأَعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ!».

غرائب الطاووس

إنّ عالم الخليفة لعجيب كيفما نظرنا إليه، إلّا أنّ هنالك البعض الأعجب غيره ومن ذلك الطاووس. فهذا الطائر فريد في الجمال ومن هنا ضرب به المثل. لقد اصطبغ ريشه بعدّة ألوان جميلة، وإن نشر جناحيه بدأ أكثر جمالاً وروعاً ويفعل ذلك على وجه السرعة حين تلحظه أثناء ليلفت نظرها إليه، فهو يبدو كالعروس التي ترتدى حلتها ليلة الزفاف، ويشعر بالمتعة من هذا المنظر فيمشى باختيال وغرور ويختتم ذلك بقهقهة ضاحكاً.

يبلغ عمر الطاووس ٢٥-٢٠ سنة وتبيض الانثى في الثالثة من العمر، تبيض الانثى عادةً مرّة في العام وتضع ١٢ بيضة، إلّا أنّ كثرة حركاته تجعله لا يحافظ على بيوضه، لذلك توضع البيضة تحت بطن آخر لتفقس، يعتبره اليونانيون والرومانيون طائراً مقدّساً، بينما يراه الآخرون مشؤوماً أدى إلى دخول ابليس إلى الجنّة، يبلغ طوله من منقاره إلى انتهاء ذيله أكثر من مترين، والأُنثى أقصر من الذكر. وكما ذكر الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة فإنّ هنالك خرافة سائدة بين الناس بشأن حمل الطاووس وأنّ الذكر حين يتهبج يضع قطرة دم في عين الانثى فتمتصها

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧٤

وتحمل، والواقع أنّه يلقح اثنائه على أساس الجماع كما لوحظ ذلك كثيراً. عادة ما يربي هذا الطائر الجميل الذي يستفاد منه في الزينة، وهنالك من يتناول لحمه، غير أنّ الشريعة الإسلامية حرمت ذلك [٥٠٨].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧٥

القسم السادس

وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمْجَةَ إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحَيْتَانِ وَالْفَيْلَةِ! وَوَأَى عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا يَضْطَرِبَ شَبْحٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلَّا وَجَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَةً، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ.

الشرح والتفسير: الديدان والفيلة والحيتان

أشار الإمام هنا بصورة عابرة إلى عجائب سائر الأحياء حتى لا يتصور أنّ العجائب تقتصر على الطاووس، فقال:

«وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ ٥٠٩ قَوَائِمَ ٥١٠ الذَّرَّةِ ٥١١»

وَالْهَمْجَةَ ٥١٢ إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحَيْتَانِ ٥١٣ وَالْفَيْلَةَ!»

. فقد أشار الإمام إلى حشرتين من أصغر الحشرات على الأرض صغار النمل والذباب وإلى أضخم وأكبر حيوانين هما الحوت في البحار والفيل في اليابسة، ولقد لفت الإنتباه إلى أيدي وأرجل صغار الحشرات، اليد والرجل التي تضاهي يد الفيل ورجله فتتحرك يميناً وشمالاً وتأخذ أوامرهما من الدماغ وتشتمل على الأعصاب والعضلات والمفاصل وما شابه ذلك، والحق لو جعلنا رجل هذه الدودة الصغيرة تحت المجهر وتأملنا بنيتها لتعرفنا على قدرة الله تعالى وعلمه المطلق.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧٦

كذلك لو تأملنا الحيوانات الكبيرة حيث إنّ زنة بعض الحيتان تبلغ طناً وترضع فراخها اللبن تحت الماء، حيث تسكب الأم اللبن في الماء ويمتصه الوليد فوراً، وتنطوي سائر عجائبها على الدروس البليغة في التوحيد ومعرفة الله، نعم؛ إنّ هذه الديدان- على سبيل المثال- كثيرة من حولنا وقد اعتدنا على رؤيتها فلم نعد نلفت إلى أنّ بنيتها تفوق بنية الطائفة الضخمة. قال الله تعالى في كتابه العزيز: «وَكَأَيِّنُّ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» [٥١٤].

وأشار الإمام عليه السلام أخيراً إلى مصير الأحياء كافة، أى الموت والعدم، فقال:
 «وَوَأَى [٥١٥] عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا يَضْطَرِبَ شَيْخٍ [٥١٦] مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلَّا وَجَعَلَ الْحِمَامَ
 مَوْعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ»

. أجل؛ إن الموت هو مصير كل ذى روح وهذا الكلام هو إشارة إلى أن الدنيا لا تدوم رغم كل ما فيها من جمال وعجائب ولا يمكن التعلق بها، ومن جانب آخر يمكن الوقوف على عظمة الله تعالى بصورة أفضل من خلال مقارنة موت هذه الموجودات بحياتها، لأن أهميته كل شىء تظهر حين فئائه.

تأمل: غيض من عجائب الحيتان والفيلة

سنخوض فى شرح الخطبة ١٨٥ التى أوردها الإمام عليه السلام بشأن النمل إن شاء الله، ونشير هنا إلى الحيتان والفيلة بصورة مختصرة:

الحيتان

يقول العلماء: إن هنالك خمسة عشر ألف نوع من الحيتان فى بحار ومحيطات العالم، بعضها صغيرة جداً لا تتجاوز سانتيمترين وبعضها الآخر كالحوت الذى يبلغ نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧٧
 طوله ثلاثين متراً ويزن ثلاثين طناً تنطوى على العديد من العجائب. فمعدتها كبيرة جداً تستوعب الكثير من المواد الغذائية، ويبلغ طول وليدها ستة أمتار حين الولادة.

وتتغذى فراخها على لبنها الذى يخرج من بدنها بغزارة. تتحرك دائماً على سطح الماء للتنفس ولا تستطيع البقاء أكثر من ساعة تحت الماء، فهى أكبر الحيوانات على الأرض وتعتبر من الثدييات. أبدانها دهنية، يستفاد منها فى الصناعات المختلفة ولا تملك أسناناً بل لها شفرات عظيمة طويلة وخطيرة تشبه الأسنان ويستفيد الصيادون من هذه الشفرات والغدد الدهنية.

الفيلة

يعتبر الفيل فى الوقت الحاضر من أكبر الحيوانات، والفيلة نوعان: الفيلة الهندية ويطلق عليها الفيلة الآسيوية، والآخر، الفيلة الأفريقية. والفيلة الآسيوية أكبر ومستعدة للتربية أكثر من نظيرتها الأفريقية. والواقع هو أن خرطوم الفيل بمثابة أنفه وشفته العليا، غير أنه يقوم بعمل اليد عادة، أى أن الفيل يحمل الطعام بيده إلى فمه ويقذف الماء على ظهره عند الحرارة. يتغذى الفيل على العلف حيث يجمعه من الأرض بخرطومه ويضعه فى فمه، كما يستعين بعاجه القوى والحاد على اقتلاع الأشياء من الأرض. الفيل حيوان ذكى جداً يمكن ترويضه للقيام بعدة أعمال، كما يقوم بالعديد من الحركات السريعة والعجيبة فى السيرك. تعيش الفيلة بصورة جماعية وهذا بدوره دليل على ذكائها. تعمر أحياناً مائة وخمسين سنة! تعرف أسنان الفيل (بالعاج) الذى يعتبر من الأشياء النفيسة والذى تصنع منه أشياء الزينة.

كان قدماء الملوك والسلاطين عادة ما يشكلون جيشاً من الفيلة ويزينون فيلتهم وينصبون عليها الأعلام. نعم؛ عجائب الحيتان والفيلة أكبر من أن تختصر فى هذا البحث، وغرض الإمام عليه السلام من التطرق إلى هذه الخصائص إلفات الإنتباه إلى آيات الخلق العظيمة [٥١٧].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧٩

القسم السابع

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصِيرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَرَفْتَ نَفْسَكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَاتِهَا، وَزَخَارِفِ مَنَاطِرِهَا، وَلَمَذَهَلَتْ بِالْفِكْرِ فِي اضْطِغَاقِ أَشْجَارٍ عُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُتُبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا، وَفِي تَغْلِيْقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيحِهَا وَأَفْنَانِهَا، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثَّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلْفِ أَكْمَامِهَا، تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنِيَّةٍ مُجْتَنِبِهَا، وَيُطَافُ عَلَى نَزَالِهَا فِي أَفْتِيَّةِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّهَةِ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ. قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكِرَامِيَّةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَهُ الْأَسْفَارِ. فَلَوْ شَغَلَتْ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُضُوءِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاطِرِ الْمُوَنِقَةِ، لَزَهَقَتْ نَفْسُكَ شَوْقًا إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالًا بِهَا. جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الْأُبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير: نعم الجنة ومفاتها

يشير هذا المقطع من الخطبة كما يفهم من مضمونه وصرح به السيد الرضى إلى صفات الجنة، وبالطبع فإن هنالك مطالب أخرى بين هذا المقطع وما سبقه إلا أن السيد اقتطف هذه الرياحين كعادته، لكن يبدو أن الإمام تحدث سابقاً عن التوحيد، بينما تطرق هنا إلى المعاد، ليتكامل مبحث المبدأ والمعاد، أو بعبارة أخرى يعرض لنعم الجنة بعد هذه الدنيا. فقال:

«فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصِيرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨٠

لَعَرَفْتَ [٥١٨] نَفْسَكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَاتِهَا، وَزَخَارِفِ مَنَاطِرِهَا، وَلَمَذَهَلَتْ [٥١٩] بِالْفِكْرِ فِي اضْطِغَاقِ أَشْجَارٍ عُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُتُبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا.

وما أن فرغ الإمام عليه السلام من وصف الأشجار في الجنة، حتى تطرق إلى ثمارها فقال:

«وَفِي تَغْلِيْقِ كَبَائِسِ [٥٢٢] اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيحِهَا [٥٢٣] وَأَفْنَانِهَا [٥٢٤]، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثَّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلْفِ [٥٢٥] أَكْمَامِهَا [٥٢٦]، تُجْنَى [٥٢٧] مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنِيَّةٍ مُجْتَنِبِهَا».

إن أحد معضلات أشجار الفاكهة في الدنيا يكمن في جنيتها الذي ينطوى على متاعب جمه، إلى درجة أن البعض يتسلق الشجرة لعملية الجنى، فيفقد حياته. هذه هي طبيعة الدنيا في مزج اللذة بالألم، أما في الجنة حيث لا موضع للألم وكل شيء على ما يرام وطبق المراد فإن ثمار الأشجار في متناول الجميع، وعلى كل حال، سوى الوقوف أو الجلوس، بل على أساس بعض الروايات أن غصون الشجرة تحضر بثمارها عند الشخص كلما اشتهاها: «قُطُوفُهَا دَائِبَةٌ» [٥٢٨]، وفي أية أخرى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨١

«وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ» [٥٢٩].

ثم خاض الإمام عليه السلام في النعمة الأخرى في الجنة فقال:

«وَيُطَافُ عَلَى نَزَالِهَا فِي أَفْتِيَّةِ [٥٣٠] قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّهَةِ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ [٥٣١]»

. وقد أشار القرآن إلى الشراب الطهور اللذيذ في الجنة الذي لا يصيب الرأس بالصداع ولا يذهب بعقل الإنسان، ومن ذلك ما ورد في سورة الدهر التي أشارت إلى هذا الشراب اللذيذ وأربع صور وطبائع: «إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * وَيُسِقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ... وَسَيَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا» [٥٣٢] وقال في موضع آخر:

«لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ» [٥٣٣].

ثم أشار عليه السلام إلى أوصاف الجنة فقال:

«قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكِرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ، وَأَمْنُوا نُقْلَةَ [٥٣٤] الْأَسْفَارِ»

. ويستفاد من هذه العبارة أن أصحاب الجنة حفظوا قدسياتهم وطهارتهم وورعهم إلى آخر عمرهم ولم يخذشوا الكرامة الإنسانية التي أشارت إليها الآية القرآنية: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...» [٥٣٥] فلقوا ربهم على الإيمان والعمل الصالح الذى ملأ كيانهم، كما تفيد العبارة، التأكيد على حسن العاقبة وأن كل شيء يتوقف على خاتمة الأمور والأعمال. وأخيراً يشعل فى قلوب الآخرين شعله

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨٢

الشوق إلى لقاء اللطف الإلهى ونعمه التى لا تحصى فى ذلك العالم:

«فَلَوْ شِئْتَ لَقَلْبِكَ أَيْهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُضُوءِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاطِرِ الْمُؤَنِقَةِ [٥٣٦]،

لَزَهَقَتْ [٥٣٧] نَفْسُكَ شَوْقًا إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَلَتْ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مُجَاوَزَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ

اسْتِعْجَالًا بِهَا»

. أراد الإمام عليه السلام أن يؤكد فى هذا الكلام على حقيقة هى أن عظمة نعم الجنة أكبر من أن يحيطها وصف الإنسان، ولو تأملها

الإنسان لذاب شوقاً إليها وكأنه يروم التحليق إليها، كما ورد ذلك فى خطبة المتقين:

«فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا» [٥٣٨].

وهكذا اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بهذا الدعاء:

«جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ»

. إشارة إلى أن الإنسان لا يبلغ شيئاً دون أن تشمله رحمة الله.

تفسير بعض الكلمات الصعبة فى الخطبة (من جانب الشريف الرضى):

قال السيد الشريف الرضى فى آخر هذه الخطبة:

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«يُؤَرُّ بِمَلَأِقِيهِ»

الْأُرُّ: كِنَايَةٌ عَنِ النِّكَاحِ، يُقَالُ: أُرُّ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ يُؤَرُّهَا، إِذَا نَكَحَهَا. وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«كَأَنَّهُ قَلَعَ دَارِيَّ عَنَجَهُ نُوتِيَهُ»

الْقَلْعُ: شِرَاعُ السَّفِينَةِ، وَدَارِيٌّ:

مَنْسُوبٌ إِلَى دَارِينَ، وَهِيَ بَلَدٌ عَلَى الْبَحْرِ يُجَلَبُ مِنْهَا الطَّيْبُ. وَعَنَجَهُ: أَيْ عَطَفَهُ.

يُقَالُ: عَنَجْتُ النَّاقَةَ - كَنَصَرْتُ - أَعْنَجُهَا عَنَجًا إِذَا عَطَفْتُهَا. وَالنُّوتَى: الْمَلَأُحُ.

وقوله عليه السلام:

«ضَفَّتَى جُفُونِهِ»

أَرَادَ جَانِبَيْ جُفُونِهِ. وَالضَّفَّتَانِ: الْجَانِبَانِ. وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«وَفَلَدَ الرَّبْرَجِدِ»

الْفَلْدُ: جَمْعُ فَلْدَةٍ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ. وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ»

الْكِبَاسَةُ: الْعِدْقُ وَالْعَسَالِيحُ: الْعُصُونُ، وَاحِدُهَا عُشْلُوحٌ.

تأمل: أيها أجمل؟

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨٣

تحدث الإمام عليه السلام بكل فصاحته وبلاغته المعهودة في هذه الخطبة عن جمال هذا العالم أحياناً، وأحياناً أخرى عن جماليه العالم الآخر، لكنه ما أن يبلغ شرح نعم الآخرة حتى يشير إلى هذه الحقيقة وهي أن ما يتعلق بذلك العالم يتعذر بيانه، بحيث لو يراه الإنسان لتمنى المسارعة إليه. حقاً أن آداب الحياة الدنيا لا يسعها شرح الحياة الآخرة، وذلك أشبه بأن يسجن الإنسان منذ ولادته في غرفة ولما اكتمل عقله أرادوا أن يشرحوا له المناظر الجميلة المتناثرة في الحدائق والبساتين والشلالات ومختلف الأماكن الطبيعية الرائقة، يحدثوه عن الطاووس وألوانه الجميلة وأصوات الطيور العذبة، والفاكهة الذيدة وسائر المناظر الخلابة، فبالطبع لا تسعفه الآداب التي تعلمها في تلك الغرفة المظلمة لأن يفهم ما يسمع. الجدير بالذكر أن الإمام ينظر إلى نعم الآخرة من زوايا مختلفة، فتارة من زاوية حظ البصر وأخرى من خلال الفواكه الذيدة والثمار الطبيعية، وأحياناً من خلال الضيافة المفعمة بالكرامة والاحلال، والأخرى عن الأمن والسكينة التي تسود الجنة. فليس هنالك من مرض ولا تعب ولا إرهاق ولا موت ولا سلطان ظالم ولا خيانة ولا مكر ولا غدر ولا حرب وخراب ودمار. بل الحاكم هو الأمن والأمان والسلام.

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا حَوَّطَ حَائِطَ الْجَنَّةِ لَبِنَةً مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ وَغَرَسَ غَرْسَهَا قَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَالَ: طُوبَى لَكَ مَنْزِلَ الْمَلُوكِ» [٥٣٩].

وعن عبد الله بن جابر الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ لَهُمْ رَبُّهُمْ تَعَالَى أَتَجِبُونَ أَنْ لَذِيذُكُمْ يَقُولُونَ: وَهَلْ خَيْرٌ مِمَّا أُعْطِينَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ رِضْوَانِي أَكْبَرُ» [٥٤٠].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨٥

الخطبة ١٦٦

نظرة إلى الخطبة [٥٤١]

تتألف هذه الخطبة من ثلاثة أقسام: حث الإمام عليه السلام في القسم الأول الناس على احترام بعضهم البعض الآخر واتباع الصغير الكبير ويراف الكبير بالصغير ولا يكونوا كجفاه الجاهلية. وأخبر في القسم الثاني عن مصير بني أمية الذين يستولون على كل شيء بفعل فرقة المسلمين وابتعادهم عن أصالتهم، وسيصلون إلى أقصى مناطق البلاد الإسلامية، إلّا أنهم لا يلبثون كثيراً حتى يفقدون كل شيء.

وأخبر في القسم الثالث عن عوامل تخلف المسلمين في آخر الزمان وفي مقدمتها عدم نصره الحق والوقوف بجانب الإمام العادل.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨٧

القسم الأول

لَيْتَ أَسَّ صِدِّغِيْرُكُمْ بِكَبِيْرِكُمْ، وَلَيْزَ أَوْ كَبِيْرُكُمْ بِصِدِّغِيْرِكُمْ؛ وَلَا تَكُونُوا كَجَفَاهِ الْجَاهِلِيَّةِ: لَأَفِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلَا عَنِ اللَّهِ يَعْقِلُونَ؛ كَفَيَضِ بِيضٍ فِي أَدَاحٍ يَكُونُ كَسْرُهَا وَزَرًّا، وَيُخْرِجُ حِصَانَهَا شَرًّا.

الشرح والتفسير: ثلاث وصايا أخلاقية

أورد الإمام في هذه العبارات القصيرة العميقة المعنى ثلاث وصايا أخلاقية واجتماعية مهمّة يؤدّي العمل بها إلى تماسك عرى المجتمع، فقال في الأولى:

«لِيَتَأَسَّ [٥٤٢] صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ»

. ذلك لأنّ الكبير عادةً سلسلة من التجارب وقد ذاق حلاوة الدنيا ومرارتها ووقف على خيرها وشرّها، أضف إلى ذلك فقد اجتاز هذا الكبير عصر الفتوة بنشاطه وحيويته ويشعر الآن بنوع من الاستقرار الأخلاقي وقد تعرف على الآداب والأعراف الاجتماعية، ولا يمكن التنكر لهذه الحقيقة، بالرغم من أنّ هذه ليست قاعدة كلية ولا تخلو من الاستثناء.

الوصية الثانية

«وَلْيُرَأَفْ [٥٤٣] كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ»

فيتلافى ضعفهم وينقل إليهم تجاربه ويتغاضى قدر المستطاع عن أخطائهم ويقف في كل الأحوال إلى جانبهم. ولو كان هناك الترام بهاتين الوصيتين لتوطدت العلاقات بين الجيل القديم والحديث بما يجعلهم يشكلون جبهة واحدة رصينة الصفوف. وإلا فليس هنالك سوى احتدام

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨٨

النزاع بينهما بما يعكر صفو المجتمع.

أمّا الوصية الثالثة والتي تمثل في الواقع تأكيداً للوصايا السابقة:

«وَلَا تَكُونُوا كَجُفَاءِ [٥٤٤] الْجَاهِلِيَّةِ: لَأَفَى الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلَا عَنِ اللَّهِ يَعْقلُونَ»

. نعم، فالجهال لم يفتحوا على التريبة الدينية ولم يستعينوا بعقولهم، فهم زمرة فضة متحللة تهد كيان المجتمع، لا ترحم الصغير ولا تتعظ بنصائح الكبير.

ثم خاض عليه السلام في هذه الفئة فقال على سبيل التمثيل:

«كَقَيْضِ [٥٤٥] بَيْضِ فِي أَدَاحِ [٥٤٦]

يَكُونُ كَشْرَهَا وَزُرّاً، وَيُخْرِجُ حِصَانَهَا [٥٤٧] شَرّاً»

. إشارة إلى الحذر من كون ظاهرهم الإسلام وباطنكم كجفأة العصر الجاهلي بحيث يشك الصالحون بكم حين التعامل، فلو عاملوكم بصدق وأمانة خشوا من باطنكم الذي تشم منه رائحة النفاق، وإن عاملوكم كمنافقين خشوا أن يكون باطنكم طاهراً. من المعروف أنّ النعامة تحفر الرمل وتبيض هناك وهكذا تفعل الحية والأفعى، ومن هنا فإنّ الإنسان حين يرى هذه البيضة لا يعلم هل هي للأفعى تعود أم النعامة؟ فيشك في التعامل معها! وبعبارة أخرى أنّ صورة الإنسان الجافي صورة إنسان إلّا أنّ باطنه مملوء بالشر والفساد، كالبيضة التي صورتها بيضة الطيور وباطنها حية قاتلة. وعلى هذا الضوء فقد رسم الإمام عليه السلام بهذا التشبيه الرائع صورة واضحة للمشاكل التي تفرزها التعامل مع الفرد المنافق.

نفحات الولاية؛ ج ٦؛ ص ٢٨٨

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨٩

القسم الثاني

افْتَرَقُوا بَعْدَ أَلْفِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ. فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُضَنِ أَيْنَمَا مَالَ، مَالٍ مَعَهُ. عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِسَرِّ يَوْمِ لِبْنِي أُمِّيَّةَ، كَمَا

تَجْتَمِعُ قَرْعُ الْخَرِيفِ يُؤَلَّفُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَّامًا كَرَّامِ السَّحَابِ؛ ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابًا. يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَنَارِهِمْ كَسِيلِ الْجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسَلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكْمَةٌ، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَّهُ رَصُّ طَوْدٍ، وَلَا حِدَابٌ أَرْضٍ. يُدْعِدُهُمُ اللَّهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَّتِهِ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيَمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ. وَائِمْ اللَّهُ، لِيَذُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالتَّمَكِينِ، كَمَا تَذُوبُ الْأَثِيَّةُ عَلَى النَّارِ.

الشرح والتفسير: المصير الأسود لبني أمية

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى المصير الباهر لأصحابه إلى جانب النهاية المفجعة فقال:

«افترقوا بعد ألفتهم، وتشتتوا عن أصلهم»

فمنهم من التحق بالخوارج ووقف في وجه الإمام عليه السلام ومنهم من أصابه الشك واعتزل عن الجماعة، ومع ذلك فإن هناك بعض أصحابه

«فمنهم آخذٌ بغصنٍ أينما مال، مال معه»

. فهذه إشارة إلى طائفة ثبتت على الحق وتمسكت بالثقلين (الكتاب والعترة) وتعلقوا بغصن شجرة النبوة المتمثل بأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام فانطلقوا خلفهم لرضى الله. نعم؛ ذهب البعض إلى أن هذه العبارة إشارة إلى فئة منحرفة أيضاً، والحال تفيد العبارات القادمة أن المعنى الأول هو الصحيح. لأن الإمام قال لاحقاً:

«عَلَى أَنَّ اللَّهَ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩٠

تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمِيَّةٍ، كَمَا تَجْتَمِعُ قَرْعُ [٥٤٨] الْخَرِيفِ [٥٤٩]

. ثم قال:

«يُؤَلَّفُ

اللَّهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَّامًا [٥٥٠] كَرَّامِ السَّحَابِ؛ ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابًا.»

ثم واصل عليه السلام كلامه ليبين كيف سيواجه اتباع أهل البيت عليهم السلام ظلمة بني أمية فقال:

«يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَنَارِهِمْ [٥٥١] كَسِيلِ الْجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسَلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ [٥٥٢]، وَلَمْ

تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكْمَةٌ [٥٥٣]، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَّهُ [٥٥٤] رَصُّ [٥٥٥] طَوْدٍ [٥٥٦]، وَلَا حِدَابٌ [٥٥٧] أَرْضٍ»

. ما ورد في هذه العبارة إشارة إلى قوم سبأ الذين عاشوا في اليمن وبنوا سداً عظيماً بين جبلين يعرف بسد مارب منعوا السيول واستفادوا من ماء السد في بناء جنتين عظيمتين على جانبي نهر كان يجري هناك، فعاشوا حياة مرفهة وادعاه، إلا أن جحودهم وبطر نعمتهم وغرورهم عزّضهم لأليم العقاب.

إنهار السد عند الليل فأتى السيل على جنتيهم وأحال أرضهم خراباً فاضطر من تبقى منهم للهجرة. وسيكون اتباع أهل البيت عليهم السلام بمثابة السيل الذي يدمر ظلمة بني أمية ويخربون بيوتهم ويقضون عليهم ويهاجر من يبقى منهم.

ثم شبه الإمام عليه السلام هذه الجماعة المدافعة عن الحق فيما بعد زوال بني أمية بالماء المظمور في الأرض والذي ينبع كعيون جارية في البناء والعمران، فقال:

«يُدْعِدُهُمُ اللَّهُ [٥٥٨] فِي بُطُونِ أَوْدِيَّتِهِ [٥٥٩]، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩١

قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيَمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ»

. ذكر بعض شراح نهج البلاغة احتمالاً آخر لتفسير العبارة المذكورة ومرجع الضمائر، ولا نرى حاجةً لذكره سيما لعدم انسجامه مع العبارات السابقة واللاحقة. نعم؛ فأتباع أهل البيت عليهم السلام ينطلقون بادىء الأمر كالسيل الذى يحطم قصور بنى أمية كما حطم السيل عروش الظلمة فى سبأ، وسيطيحون بدولتهم، فيتفرقون فى كل مكان ويكونوا كعيون الماء فى إقامتهم للعدل والقسط. وأخيراً أقسم الإمام عليه السلام قائلاً:

«وَأَيْمُ اللَّهِ، لَيَذُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالتَّمَكِينِ، كَمَا تَذُوبُ اللَّائِيَةُ [٥٦٠] عَلَى النَّارِ»

. والتشبيه المذكور إشارة إلى أن بنى أمية وإن ترهلوا على عهد حكومتهم، إلّا أن أعداءهم سيكونون عليهم كالنار فيذيبون أجسادهم كما يذاب الشحم فى النار، يذوب أولاً ثم يحترق ولا تبقى له باقية. وقد اختلف شراح نهج البلاغة بشأن من يسلط على بنى أمية ويطيح بحكومتهم الظالمة وينتصر للمظلوم منهم؛ قيل المراد بهم بنو عباس، وقيل الشيعة الذين قاموا ضد بنى أمية، والظاهر أن كلاهما يعود إلى معنى واحد، لأننا نعلم أن قيام بنى العباس انطلق باسم العلويين وإن انحرف عن مساره وجعلوه لبنى العباس خاصة فساروا على نهج بنى أمية حتى قضى عليهم.

تأمل: ثورات دامية ضد بنى أمية

دوت أصداء شهادة الإمام الحسين عليه السلام وصحبه فى كربلاء فى أرجاء العالم الإسلامى وأثبت العديد من المسلمين على بنى أمية. وقد نال أغلبهم الشهادة بسبب

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩٢

سطوة بنى أمية، بينما انتصر البعض الآخر لمدّة قصيرة. وقد ذكرنا هذه الثورات التى بلغ عددها خمسة عشر فى الجزء الثالث من هذا الكتاب، [٥٦١] وكان آخرها قيام أبو مسلم الخراسانى والذى أدى إلى سقوط دولة بنى أمية. وخلافاً لما يتصوره البعض فإنّ أبا مسلم وصحبه لم يثوروا لأجل بنى عباس، بل اجتمع بادىء الأمر عدد من زعماء الشيعة عند أبى مسلم - وكان رجلاً شجاعاً - فى خراسان وعزموا على مواجهته آخر خلفاء بنى أمية (مروان الحمار) وإقامة حكومة آل محمد وكان شعارهم «الرضا لآل محمد»

ولم تمض مدّة حتى سيطر أبو مسلم على خراسان وأغلب مناطق إيران. ورغم محاولة إبراهيم الإمام وهو من بنى العباس للتقرب منه وكذلك عبد الله بن محمد المعروف بالسفاح وأبو جعفر المنصور - وكلاهما أخ لإبراهيم الإمام - إلّا أنه لم يرض بذلك. ومن هنا قام عامله على الكوفة أبو سلمة حين وصله الأخوة الثلاثة باخفائهم فى موضع لبيتزعم المسلمين أحد أبناء على عليه السلام فبعث بثلاثة كتب إلى المدينة؛ إلى الإمام الصادق عليه السلام وعبد الله بن الحسن وعمر بن على بن الحسين وأوصى رسوله أن يبتدىء بالصادق عليه السلام فإن وافق لا يسلم الرسائل. وحيث كان الإمام عليه السلام يعلم بالمؤامرات الخفية حتى على أبى مسلم فلم يجب الدعوة، وهكذا عبد الله وعمر تبعاً للإمام الصادق عليه السلام. لكن قبل أن يعود رسول أبى سلمة إلى الكوفة علم جماعة من أهل خراسان بموضع السفاح وأخويه فبايعوه، فما كان من أبى مسلم إلّا أن التحق بهم، حتى وصلت الحكومة لبنى العباس بعد قتال شديد بينهم وبين أتباع عبد الله بن على عم المنصور، فوّلّى المنصور الخلافة بعد أبى العباس السفاح، فأحضر أبا مسلم إلى بغداد وقتله وفق خطة معدة سلفاً، لعله كان يعلم بأنّ أبا مسلم من أتباع آل على عليه السلام لا بنى العباس، فكان يراه خطراً يهدد حكومتهم [٥٦٢]. ذكر العلّامة المجلسى رواية بهذا الخصوص عن الإمام على عليه السلام أن جيش الشام هجم يوماً فى صيفين على جند العراق ففرقهم عن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩٣

ميمنتهم وكان مالك الأشتر (رضوان الله تعالى عليه) يدعوهم إلى الرجوع. فكان الإمام عليه السلام يصيح فى وجه جيش الشام: خذهم يا أبا مسلم ويكرر ذلك ثلاثاً. فقال الأشتر: أوليس أبو مسلم فى جيش الشام؟ قال الإمام عليه السلام: لا أقصد أبا مسلم

الخلواني، بل أبا مسلم رجل يظهر من مشرق الأرض يهلك الله الأميين على يده ويطيح بدولتهم [٥٦٣]. طبعاً شخصية أبي مسلم وإن كانت تعيش نوعاً من التعقيد على ضوء النظرة التاريخية، إلّا أنّ هنالك من يراه من أتباع أهل البيت عليهم السلام ويكونون له الاحترام، وعلى العكس، هنالك من يراه من أعدائهم ويقول بجواز لعنه. والمسلم به أنّ قيامه كان في بادئ الأمر لنصرة آل محمد وكان أنصاره من الشيعة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩٥

القسم الثالث

أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَّخِذُوا عَنِ نَصْرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهْنُوا عَنِ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوِ مِنْ قَوِي عَلَيكُمْ. لَكِنَّكُمْ تَهْتُمُ مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَعَمْرِي، لِيُضَعَّفَنَّ لَكُمْ التِّيهِ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافًا بِمَا خَلَقْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الْأَذْنَى وَوَصَلْتُمُ الْأَبْعَدَ. وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفَيْتُمْ مَوْوَنَةَ الْاِعْتِسَافِ، وَنَبَذْتُمُ الثَّقَلَ الْفَادِحَ عَنِ الْأَعْنَاقِ.

الشرح والتفسير: عامل التخلف

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة - الذي هو آخرها - بعد بيانه لمصير بني أمية الأسود في بيان مصير فئة من أتباع الحق التي ضعفت عن نصرته فتسلط عليها عدوها فكانت عاقبتها كعاقبة بني إسرائيل، فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَّخِذُوا عَنِ نَصْرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهْنُوا عَنِ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوِ مِنْ قَوِي عَلَيكُمْ»
 . هذا الكلام إشارة إلى حكومة معاوية وتسلطه وصحبه على أصحاب الإمام عليه السلام على عهده (بصورة محدودة) ومن بعده (دون حدود). وما ذكره الإمام عليه السلام في هذه العبارة لا يختص بزمان ومكان معين، بل هو أصل كلّي للأعصار والأمصار كافة في أن تنامي الباطل معلول لضعف أتباع الحق.

ثم واصل عليه السلام كلامه بتشبيه تلك الفئة ببني إسرائيل أثر إبتعادهم عن الحق وتيهيمهم

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩٦

(في صحراء سيناء) فقال:

«لَكِنَّكُمْ تَهْتُمُ [٥٦٤] مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَعَمْرِي، لِيُضَعَّفَنَّ لَكُمْ التِّيهِ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافًا [٥٦٥] بِمَا خَلَقْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الْأَذْنَى وَوَصَلْتُمُ الْأَبْعَدَ»

. ثم أوضح في الختام سبيل النجاء وذكرهم بأنّ باب العودة إلى الحق مفتوح على الدوام فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفَيْتُمْ مَوْوَنَةَ الْاِعْتِسَافِ [٥٦٦]، وَنَبَذْتُمُ الثَّقَلَ الْفَادِحَ عَنِ الْأَعْنَاقِ».

تأمل: بنو إسرائيل

...

شبه الإمام عليه السلام بالعبارة المذكورة طائفة من المسلمين الذين حادوا عن الحق واحتاروا كبنو إسرائيل الذين تاهوا في الصحراء أثر عنادهم وعدم استجابتهم لنبينهم موسى عليه السلام، بجهاد غاصبي بيت المقدس. وقد نقل بعض شراح نهج البلاغة رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«التركيب سنن من كان قبلكم حذو النعل النعل، والقذة بالقذة، حتى لو دخلوا حجر ضب ضب لدخلموه، فقيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن إذن» [٥٦٨]

. وبغض النظر عن الإشكال الذي يرد على اسناد الرواية، فإن تطبيقها على الواقع لا يخلو من إشكال أيضاً، وعلى فرض صحة الرواية فإنه يمكن حملها على الغالب. إشارة إلى أن أغلب الحوادث المريرة التي شهدتها الأقسام السابقة سيشهدها المسلمون، ويعيد التاريخ نفسه، ذلك لأن الأسباب المتشابهة تتطلب مسببات متشابهة.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩٧

الخطبة ١٥٦

إشارة

في أوائل خلافته [٥٦٩]

نظرة إلى الخطبة

تتضمن هذه الخطبة عدّة مواضع وإرشادات بحيث ربّما يُتصور عدم وجود الترابط بين أقسام الخطبة، ولعل المرحوم السيد الرضى اقتطف هذه الخطبة من خطبة أطول خطبها الإمام أوائل خلافته.

على كل حال فإن الخطبة تتكون من خمسة أقسام رئيسية:

القسم الأول: يتحدث عن عظمة القرآن الكريم وهدايته والتأكيد على اتّباعه.

القسم الثاني: التأكيد على إتيان الفرائض والعمل بالواجبات وترك المحرمات.

القسم الثالث: أهميّة حقوق المسلمين وحفظ كرامتهم وترك أذاهم.

القسم الرابع: يوصى فيه الإمام عليه السلام بالاستعداد للموت والقيامه والتزود للآخرة.

القسم الخامس: التأكيد على التقوى وطاعة الله.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩٩

القسم الأول

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَابًا هَادِيًا بَيِّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدُقُوا عَنْ سَمِّ الشَّرِّ تَقْصِدُوا.
الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ! أَدُوهُمَا إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ. إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَامًا غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالًا غَيْرَ مَدْخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحَرَمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا، «فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَحِلُّ أذى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ.

الشرح والتفسير: معرفة سبيل الحق

أكد الإمام على ضرورة الالتزام بالقرآن والعمل بتعاليمه بصفته المصدر الرئيسي للتعاليم الإسلامية وتبيان كل خير وإحسان، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَابًا هَادِيًا بَيِّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهْجَ [٥٧٠] الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدُقُوا [٥٧١] عَنْ سَمِّ الشَّرِّ

تَقْصِدُوا»

. فهذا الكلام يدل على أن جميع أصول الخير والشر والواجبات والمحرمات والفضائل والرذائل والعقائد الصحيحة والمنحرفة إنما بينت في القرآن الكريم، وهو في الواقع تعبير آخر عن «تبيان كل شيء»

الذي ورد في القرآن وإن فوض شرحه إلى سنة المعصومين عليهم السلام.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠٠

ثم أكد الإمام عليه السلام من بين كل الفضائل على الفرائض والواجبات، فقال:

«الْفَرَائِضُ الْفَرَائِضُ! أَدُوهَا إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ»

. إشارة إلى إن الخيرات التي دعى إليها القرآن على نوعين، واجبة وغير واجبة (مستحبات وفضائل) وعليكم قبل كل شيء بأداء الواجبات فإن شعرتم بقوة فأتوا بالمستحبات؛ ذلك لأن ما يأخذ بيد الإنسان قبل كل شيء إلى الجنة، أداء الفرائض والواجبات. طبعاً الفرائض تشمل العبادات والواجبات الأخرى التي أوجبها الله على الإنسان فيما يتعلق بنفسه أو الآخرين.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة كأنها دليل على العبارة السابقة، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَامًا غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالًا غَيْرَ مَدْخُولٍ [٥٧٢]»

. إنها عبارة لطيفة تشير إلى مصالح ومفاسد الأحكام الشرعية التي اعتبرها الحكيم في الواجبات والمحرمات، بعبارة أخرى رغم وجوب طاعة أوامر الله في الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، إلما أن هذه الطاعة ليست عمياء، ذلك لأن جميع الواجبات تشتمل على مصالح، بينما تنطوي المحرمات على مفاسد تعود على نفس العباد: «يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ» [٥٧٣] ولما كانت رعاية حقوق المسلمين وحفظ حرمتهم لا تقل أهمية عن الفرائض والواجبات، فقد قال عليه السلام:

«وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرْمِ [٥٧٤] كُلِّهَا،

وَشَدَّدَ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا [٥٧٥].»

إن أدنى نظرة إجمالية على الكتب الفقهية كافة - من العبادات إلى الحدود والديات - لتشهد على صدق هذا المعنى في أن الإسلام أولى أهمية عظيمة لحرمة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠١

المسلمين وحقوقهم، حتى وقف الإمام الكاظم عليه السلام أمام الكعبة، وقال:

«مَا أَعْظَمَ حَقِّكَ يَا كَعْبَةُ وَاللَّهِ إِنَّ حَقَّ الْمُؤْمِنِ لِأَعْظَمَ مِنْ حَقِّكَ» [٥٧٦]

وعبارة الإمام عليه السلام تشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين يمكن أن تكون إشارة إلى أن الإنسان الموحد والمخلص من يراعى حقوق المسلمين، وهذا ما قال به أغلب شراح نهج البلاغة، كما يحتمل أن يكون المراد ضرورة حرمة حقوق كل مسلم، لا إخلاصه وتوحيده (الإخلاص والتوحيد في التفسير الأول صفة للمحافظين وصفة للمحفوظين في التفسير الثاني). التفسير الثالث أن يكون احترام حقوق المسلمين في مصاف الإخلاص والتوحيد.

ثم أضاف عليه السلام كنتيجة

« فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَحِلُّ أَدَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ »

. فاستنتاج الإمام عليه السلام هذا يفيد أن التفسير الأول هو الأنسب للعبارة السابقة من التفاسير الأخرى لأننا إن اعتبرنا حفظ حقوق المسلمين علامة إخلاص وتوحيد الحافظين لهذه الحقوق فإن نتيجة ذلك ستكون:

المسلم من سلم الناس من لسانه ويده. جدير بالذكر أن العبارة

«إِلَّا بِالْحَقِّ»

والأخرى

«إِلَّا بِمَا يَجِبُ»

أن تكون الأولى: إشارة إلى عدم جواز أذى المسلمين ما لم يكن هنالك من مجوز من قبيل العقوبات والحدود الإسلامية والتعزيرات، والثانية: إشارة إلى الإكتفاء بالمقدار الذي أجازته الله من حيث الكمية والكيفية على فرض الجواز. ورد في بعض الروايات أن قبراً ورغم مكانته عند الإمام عليه السلام غلط في حدّ رجل فأضاف ثلاثاً، فأخذ الإمام عليه السلام بالقصاص منه:

«إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَ قَبْرًا أَنْ يَضْرِبَ رَجُلًا حَدًّا فَغَلَطَ قَبْرٌ فَرَادَهُ ثَلَاثَةٌ أُسْوَاطٍ فَأَقَادَهُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبْرِ ثَلَاثَةِ أُسْوَاطٍ» [٥٧٧].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠٣

القسم الثاني

بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَخِيدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ، تَخَفُّوْا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوْلِكُمْ آخِرُكُمْ.

اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبُهَائِمِ.
أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.

الشرح والتفسير: المسؤولية الشاملة

واصل الإمام عليه السلام مواضعه السابقة بتذكير القوم بالموت والتأكيد على الورع والتقوى أفضل زاد إلى الآخرة فقال:

«بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَخِيدُوكُمْ [٥٧٨] مِنْ خَلْفِكُمْ»

. المراد من الأمر العام والخاص الموت، لأننا إذا نظرنا إلى عامة المجتمع البشري نرى الموت مصير الجميع، وعليه فللموت بعد عام، وإن نظرنا لأنفسنا فقط فإننا نرى الموت حاضراً آخر أعمارنا، فله على هذا الأساس بعد خاص. واستناداً إلى تفسير الإمام عليه السلام بقوله:

«وَهُوَ الْمَوْتُ» [٥٧٩]

فلا يبقى مجال للشك في تفسيرنا، والعجيب ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغة من تفسيرهم للعبارة

«بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ»

بإصلاح شؤون

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠٤

المجتمع. العبارات القادمة أيضاً تشير إلى أن ما ورد في هذه العبارة يتعلق بالموت ونهاية الحياة، لا إصلاح المجتمع البشري والذي يعتبره مقوله أخرى نعم؛ هنالك دليلان على حقانية الموت - على أنه قانون عام - أحدهما: إننا نرى بأم أعيننا الأفراد الذين كانوا سابقاً بيننا وقد التحقوا بهذه القافلة ونحمل أجسادهم الخالية من الروح على أكتافنا ونواريهم الثرى ونعود، فهل من فارق بيننا وبينهم أنهم يمضون ونبقى؟!!

والآخر: إن علامات الحركة باتجاه نهاية حياتنا الواحد بعد الآخر واضحة من قبيل الشيخوخة والعجز والمشيب وكسل الاعضاء. فهل يسع عاقل بعد هذين الدليلين أن يشعر باستثناء من هذا القانون؟

ثم خاض الإمام عليه السلام في هذه النتيجة بناءً على ما ورد في السابق وطالما كان الأمر كذلك قال:

«تَخَفُّوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوْلِيكُمْ آخِرُكُمْ»

. أجل، إن سفر الآخرة سفر شاق ومتعب ولا يجتاز مطباته سوى المخفين، أولئك الذين قنعوا بالكفاف في الحياة الدنيا وعضوا الطرف عن جمع الثروة والعيش الرغيد الملى بالكماليات، على غرار المسافر الذي يحمل معه ما يكفي من الطعام للسفر فيمر بسهولة، بينما لا يسع المثلث إلا التلخف عن الركب والقافلة. روى المرحوم السيد الرضى، العبارة الأخيرة باختلاف طفيف في الخطبة ٢١ وقال: إن العبارة

«تَخَفُّوا تَلْحَقُوا»

ما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر منه محصوفاً، وما أبعد غورها من كلمة. وقد قدمنا من جانبنا شرحاً وافياً بهذا الشأن [٥٨٠]. وحيث يتطلب سفر الآخرة زاداً ومتاعاً وخيره التقوى على لسان القرآن: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» [٥٨١].

فقد واصل الإمام عليه السلام كلامه داعياً الجميع إلى التقوى فقال:

«اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ [٥٨٢] وَالْبَهَائِمِ [٥٨٣].»

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠٥

ومفهوم التقوى في العباد واضح يتمثل في ترك آذاهم وحفظ حقوقهم ورعاية حرمتهم، أما تقوى البلاد فالسعى لإعمارها واجتناب تخريبها وعدم تلويث محيطها. وأما المسؤولية إزاء البهائم وعدم إيذاؤها عبثاً وتحميلها فوق طاقتها وتوفير متطلباتها من الغذاء والماء والدواء، وذهب بعض شراح نهج البلاغة في تفسيرهم للمسؤولية في البقاع في عدم السكن في بلدان الكفر التي يتعذر فيها القيام بالوظائف الدينية وعدم تشييد القصور الضخمة للتطاول على الآخرين وحب الظهور. إلا أن الصحيح ما أوردناه من تفسير، والشاهد على ذلك، الروايات التي سندكرها في المبحث القادم. ولما كان مفهوم التقوى ربما يبدو معقداً للبعض فقد كشف الإمام عليه السلام عن حقيقته بوضوح، فقال:

«أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ»

. والجدير بالذكر أن بداية ونهاية الخطبة تتحد في خصوص الخير والشر، حيث أشار في مستهل الخطبة إلى مصدر الخير الذي يكمن في الرجوع إلى القرآن.

تأمل: سلامة البيئة وحماية الحيوانات في الإسلام

إن التطور الصناعي ورغم فوائده الجمة للبشرية، إلا أنه أخذ يهدد بالصميم سلامة البيئة وتلوثها، وهذا ما يهدد بدوره العديد من الكائنات ويعرضها إلى خطر الزوال، وإن استفيد من الأسلحة الفتاكة ولا سيما أسلحة الدمار الشامل فإن حجم الكارثة يبدو مفعجاً، ومن هنا هب عالمنا المعاصر لأخذ التدابير اللازمة بغية الحفاظ على سلامة البيئة والحيلولة دون انقطاع نسل الحيوانات، على الرغم من العراقيل التي يضعها أصحاب رؤوس الأموال الذين لا يفكرون سوى في التنمية لثرواتهم فحدوا من نشاطات الفرق القائمة على أساس تطهير البيئة ولا يعلم بعمق الفاجعة التي ستشهدها الأجيال القادمة. أما زعماء الإسلام وحماة الدين فقد أكدوا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠٦

على هذا الموضوع قبل ألف سنة، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة المذكورة شاهد على ذلك، كما وردت عدة روايات عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بهذا الخصوص حيث أكدوا على هذه المسألة المهمة، ومن تلك الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى ناقة نائمة وجهازها على ظهرها بينما قيدت رجلها (والحال يجب أن تستريح الدابة فلا يبقى شيء على ظهرها) فقال:

«أَيْنَ صَاحِبُهَا؟ مَرُوهُ فَلَيْسَتْ عَدَاً لِلْخُصُومَةِ» [٥٨٤].

وروى عنه صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لَا تَتَوَزَّكُوا عَلَى الدَّوَابِّ وَلَا تَتَّخِذُوا ظُهُورَهَا مَجَالِسَ» [٥٨٥]

إشارة إلى أنكم إن رأيتم أصحابكم وأنتم على ظهر الدابة فأنزلوا لتحدثوا معهم فإن تم حديثكم فاركبوا [٥٨٦].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا سِتَّةُ حُقُوقٍ لَا يُحْمَلُهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا وَلَا يَتَّخِذُ ظَهْرَهَا مَجَالِسَ يَتَحَدَّثُ عَلَيْهَا وَيَبْدَأُ بِلَعْفِهَا إِذَا نَزَلَ وَلَا يَسْمُهَا وَلَا يَضْرِبُهَا

فِي وَجْهِهَا فَإِنَّهَا تُسَبِّحُ وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ إِذَا مَرَّ بِهِ» [٥٨٧]

. فهذه الروايات وغيرها تفيد مدى دقة الإسلام في مجال حماية الحيوانات ورعاية حقوقها، ولا نرى دينا كالإسلام أوصى بهذه

التعاليم. أميا بشأن عدم تلويث البيئة فقد ورد النهى عن تلويث مياه الأنهار وكذلك تحت الأشجار المثمرة ومقابل أبواب الدور

وموضع نزول القوافل وأطراف المساجد [٥٨٨]. كما ورد في الوصايا الحربية عدم قطع الأشجار أو حرقها أو ردم عيون الماء والنهى

عن تلويث مياه الأعداء [٥٨٩].

نقمة الولاية، ج ٦، ص: ٣٠٧

الخطبة ١٦٨

إشارة

بَعْدَمَا بُويعَ بِالْخِلَافَةِ

وَقَدْ قَالَ لَهُ قَوْمٌ مِنَ الصَّحَابَةِ: لَوْ عَاقَبْتَ قَوْمًا مِمَّنْ أَجْلَبَ عَلَى عُثْمَانَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: [٥٩٠]

نظرة إلى الخطبة

كما ورد آنفاً فإن قوماً من الصحابة طلبوا من الإمام عليه السلام بعد أن بويع بالخلافة أن يعاقب أولئك الذين ثاروا على عثمان وقتلوه،

فأقنعهم الإمام عليه السلام بأن ذلك ليس في أوانه، لأنهم متحدون وخلفهم اناس كثيرون، يقفون بوجه كل من يقف ضدهم ولا

يتخرجون من عمل.

نقمة الولاية، ج ٦، ص: ٣٠٩

القسم الأول

يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةِ وَالْقَوْمِ الْمُجْلِبُونَ عَلَى حَيْدِ شَوْكِيهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ! وَهَاهُمْ هَؤُلَاءِ

قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبَادَتُكُمْ، وَالتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاءُوا؛ وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعًا لِقُدْرَةِ عَلَى شَيْءٍ تَرِيدُونَهُ! إِنَّ

هَذَا الْأَمْرَ أَمْرٌ جَاهِلِيٌّ، وَإِنَّ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً. إِنَّ النَّاسَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ - إِذَا حَرَّكَ - عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرُونَ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لَا تَرُونَ،

وَفِرْقَةٌ لَمَّا تَرَى هَذَا وَلَمَّا ذَاكَ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدِيَ النَّاسُ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتَوَخَّذَ الْحُقُوقُ مَسَامِحَةً؛ فَاهْدُوا عَنِّي، وَانظُرُوا مَاذَا

يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَمَهُ تَضَعُ قُوَّةً، وَتَسْقِطُ مِنْهُ، وَتَوَرِّثُ وَهْنًا وَذِلَّةً. وَسَأُمْسِكُ الْأَمْرَ مَا اشْتَمَسَكَ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدًّا فَاجْرُ

الدَّوَاءِ الْكُفَى.

الشرح والتفسير: أسباب تأخير عقوبة قتله عثمان

هذه الخطبة، كما ذكر، ردّ على بعض أصحاب الإمام عليه السلام الذين طالبوه بالقصاص من قتله عثمان، حيث تطرق إلى هذا الموضوع على ضوء تحليل دقيق، فقال:

«يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ»

. عادة ما يتصور البعض أنه توصل إلى قضية لو إهتم بها الحاكم لكانت لصالح المجتمع الإسلامي، والواقع أنهم يرون شيئاً دون ملاحظة ملابساته، فهناك حالة من الغموض في القضية يجهلون. ومن هنا أردف الإمام عليه السلام عبارته السابقة بشرح للظروف الاجتماعية

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١٠

القائمة آنذاك ليتضح لهم عدم عملية اقتراحهم، فقال:

«وَالْقَوْمُ الْمُجَلِبُونَ [٥٩١] عَلَى حَدِّ شَوْكِهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ!»

. كيف يمكن الوقوف بوجه فئة متحدة وغاضبة أوائل الخلافة؟ وهل هناك سوى سفك المزيد من الدماء دون جدوى؟! والشاهد على ذلك ما رواه بعض شراح نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام جمع الناس ووعظهم.

ثم قال:

«لتقم قتله عثمان»

فقام الجميع سوى قلة قليلة [٥٩٢]. ثم أشار عليه السلام إلى نقطة أخرى فقال:

«وَهَاهُمْ هَوْلَاءٍ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ، وَالتَّفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ [٥٩٣] مَا شَأْوُوا»

. يستفاد من هذه العبارات أنّ الثورة ضد عثمان كانت متجذرة وقد أسهم المحرومون فيها بصورة واضحة.

ثم قال عليه السلام

«وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ!»

. إشارة إلى أنّكم لا تستطيعون القيام بعمل في ظل هذه الظروف ولا أنا. ومارس عليه السلام تحليلاً آخر للتأكيد على هذا الأمر، فقال:

«إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرٌ جَاهِلِيٌّ، وَإِنَّ لِهَوْلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً»

. إشارة إلى أنّه إن وجب مؤاخذه عثمان لسوء تصرفه في بيت مال المسلمين وتسليطه فساق القوم على رقاب المسلمين وإغداق المناصب عليهم، فلا بدّ أن تتم من خلال الطرق الشرعية وقضاء العدل، ونتيجة العمل غير المدروس إنّما هو ضرب من ضروب الأنشطة الجاهلية، وقوله: إنّ لهؤلاء القوم مادة، تأكيد لتلك الحقيقة التي ذكرها في العبارة السابقة من أنّ تلك الفئة ليست وحيدة في الساحة، بل يقف خلفها الأعراب وطائفة من الساسة المحترفين المتعطشين للمناصب، وعليه فليس من المصلحة الإصطدام بها.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١١

كما واصل كلامه بأنّ الاشتباك مع قتله عثمان يؤدّي إلى تفرقة صفوف المجتمع، فقال:

«إِنَّ النَّاسَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ - إِذَا حَرَّكَ - عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرُونَ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لَا تَرُونَ، وَفِرْقَةٌ لَا تَرَى هَذَا وَلَا ذَاكَ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ [٥٩٤] النَّاسُ، وَتَفْعَ»

الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُوَخَّذَ الْحُقُوقُ مُسَمَّحَةً [٥٩٥].»

ثم أورد تأكيداً آخر:

«فَاهْدُوا عَنِّي، وَانظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَهُ تَضَعُصُ [٥٩٦] قُوَّةً، وَتُسْقِطُ مِنْهُ [٥٩٧]، وَتُورِثُ وَهْنًا وَذِلَّةً»

. إشارة إلى أنّ عدم التأنّي في القضايا الاجتماعية ربّما يعطى نتائج معكوسة، فلا ينبغي القيام بفعل دون توفر شروطه، ذلك لأنّ الاخفاق فيه يؤدّي الذلّة والهوان. كما ورد شبيه ذلك في الخطبة الخامسة:

«وَمُجْتَنَى الثَّمَرَةَ لِغَيْرِ وَقْتِ إِيْنَاعِهَا كَالزَّرَاعِ بِغَيْرِ اَرْضِهِ» [٥٩٨].

وأخيراً اختتم الخطبة بهاتين العبارتين:

«وَسَأْمُسِكُ الْأَمْرِ مَا اسْتَمْسَكَ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدًّا فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ» [٥٩٩]

. ربّما تكون هذه العبارة بفعل ضغوط طلبة الثأر لدم عثمان، حيث قال عليه السلام: سأصمد ولن ألبأ إلى السيف، لكن إن شعرت بخلق أبواب السلام فسأضطر إلى القوة وأنهى التمرد. الاحتمال الآخر أن هذه العبارة إشارة إلى أولئك الذين تذرّعوا بدم عثمان ليقفوا بوجه الإمام عليه السلام كطلحة والزبير. فصّرّح الإمام عليه السلام بيّانه سيعاملهم بالطرق السلمية وإلا لجأ إلى القوة. طبعاً لا يبدو هذا الاحتمال منسجماً مع الخطبة، حيث لم ترد أدنى إشارة في الكلام إلى طلحة والزبير وأمثالهما، إلّا أن يكون السيد الرضى قد حذف بعض الكلمات، وهذا أيضاً يبدو مستبعداً. أمّا العبارة «فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ»

فهو مثل معروف ورد في الأصل بشأن

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١٢

الجروح الخطيرة حيث كانوا يسلكون عدّة طرق لعلاجها فإن لم تنفع أحرقوا الجرح بحديد ساخن، ثم أصبحت هذه الجملة كناية عن القضايا المشابهة، وعليه تستعمل هذه العبارة حين تغلق الطرق السلمية كافة [٦٠٠].

تأملان

١. معوقات العدالة

ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبة مطلب جدى، لا كما تصور البعض أنّه يهدف إلى إسكات المقابل. حقّاً كان الثائرون على عثمان آنذاك أشداء، حتى لم يجرأ على مجابتهم حين قتلهم لعثمان بعض الصحابة الموالين له. والأهم من ذلك أن معاوية حين تسلّم الخلافة وعبء كل طاقاته للمطالبة بدم عثمان، لم يستطع مواجهة قتله عثمان فضلاً عن التعرف عليهم، بل لما ورد معاوية المدينة وسيطر على الأوضاع اتّجه إلى دار عثمان، فصاحت بنته عائشة: أينك يا أبى؟ ومرادها الثأر من قتله عثمان. فرد عليها معاوية بأنّ الناس قد استسلموا لنا وأعطيناهم الأمان وقد حملناهم على الحلم وسيوفنا لم نغمد، فإن نقضنا عهدنا نقضوا عهدهم ولا ندرى ينفعنا ذلك أم يضرنا (فالأولى أن نسكت ولا- تضعف خلافتنا) وأنت بنت عمّ الخليفة خير لك أن تكونى من عوام النساء، أى إن زالت خلافتى فسوف لن تكونى أكثر من امرأة عادية [٦٠١].

٢. إشكال الثوار

لا شك في أن الثورة التي قامت ضد عثمان كانت متجذرة، ذلك لأنّ أنصار عثمان وبطانته لم يكونوا قلائل في المدينة. لم يتمكنوا من الوقوف بوجههم واكتفى

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١٣

المهاجرون والأنصار بالنظر إلى الأحداث. وسبب ذلك واضح، فقل من كان راضياً بحكومة عثمان واقتصر هذا على قرابته وبطانته التي عبثت بيت المال وتسلطت على رقاب الناس. وأنّ كل محقق منصف لا يرى من مبرر لما وقع من أعمال على عهد خلافة عثمان. فقد كان من الأجدر بكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار أن يفتادوه إلى القضاء، تجنباً لغضب الأمة ومباشرتها لوضع حد لأعمال عثمان. وعليه فالإشكال الرئيسى الذى يرد على الثوار أنّهم تصرفوا بعيداً عن قوانين الإسلام القضائية، وقد لمسنا دور الإمام عليه السلام

إبان محاصرة عثمان وامتصاصه لنقمة غضب الناس وأمره الحسن والحسين بالدفاع عن عثمان. ونخلص مما سبق إلى أن جواب الإمام عليه السلام في هذه الخطبة كان دقيقاً ينسجم وروح الأحكام الشرعية والقضائية في الإسلام.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١٥

الخطبة ١٦٩

إشارة

عَنْدَ مَسِيرِ أَصْحَابِ الْجَمَلِ إِلَى الْبَصْرَةِ
الْأُمُورُ الْجَامِعَةُ لِلْمُسْلِمِينَ [٦٠٢]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من قسمين:

القسم الأول: دعوة الناس إلى طاعة الحكومة الإسلامية عقب اتباع القرآن الكريم ونبذ البدع المضلة، ويحذروهم من أن الله يسلبهم النعمة إن لم يطيعوه، وبالتالي يعدهم لمواجهة الناكثين.

القسم الثاني: أشار فيه إلى اتحاد أعداء الحق رغم اختلافهم وإجماعهم على الوقوف بوجه الإمام عليه السلام وأنه سيصبر فإن أصروا على غرضهم في القضاء على النظام الإسلامي فسأقف بوجههم بكل حزم.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١٧

القسم الأول

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِيًا بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لَيَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ.
وَإِنَّ الْمُبْتَدِعَاتِ الْمَشْبَهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللَّهُ مِنْهَا. وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا.

وَاللَّهِ لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللَّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لَيَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا حَتَّى يَأْرِزَ الْأَمْرُ إِلَيَّ غَيْرِكُمْ.

الشرح والتفسير: القيام أو زوال الحكومة الإسلامية

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة حين علم باتحاد الناكثين واقامتهم حكومة في البصرة مناوئة لحكومته العادلة عليه السلام وقد انطلقوا إلى البصرة. وهدف الإمام عليه السلام من هذه الخطبة تعبئة الناس لمواجهةهم. دعاهم بادية الأمر إلى التمسك بالقرآن، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِيًا بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لَيَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ [٦٠٣]»

. ثم حذرهم قائلاً:

«وَإِنَّ الْمُبْتَدِعَاتِ [٦٠٤] الْمَشْبَهَاتِ [٦٠٥] هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللَّهُ مِنْهَا».

إشارة إلى أن رؤوس الفتنة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يسعون إلى تحقيق أهدافهم الخبيثة

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١٨

تحت غطاء الإسلام، كأن يغفلوا نكتهم البيعة بالمطالبة بدم عثمان. وعليه، ينبغي التحلى باليقظة وعدم الانخداع بالظواهر والتوكل على الله.

ثم دعاهم إلى الطاعة فقال:

«وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ عِصْمَةً لَأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ [٦٠٦] وَلَا مُشْتَكِرَةٍ بِهَا. وَاللَّهُ لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللَّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لَيَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا حَتَّى يَأْرِزَ [٦٠٧] الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ».

نعم، إن هذه النعمة عقوبتها الزوال إن لم تُشكر، وهكذا شأن سائر النعم: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» [٦٠٨] وما يستفاد من العبادة المذكورة (بناءً على أن «حتى» للغاية) أنكم إن لم تطيعوا إمام الحق، فإن الله يسلبكم نعمة الحكومة الإسلامية ولا تعود إليكم، إلا أن يسلط عليكم العدو وتزول حكومته ثم تعود إليكم. وقد حيرت هذه العبارة الشراح، ذلك لأن الحكومة غير الصالحة بعد الإمام كانت بيد بنى أمية ولم تعد الحكومة بعد بنى أمية لأهل البيت عليهم السلام. قال البعض عادت إلى بنى العباس وهم من بنى هاشم وعليه فقد عادت إلى أهل البيت، إلا أن هذا التفسير غير مستقيم لأن ظلم بنى العباس لم يكن أقل من ظلم بنى أمية.

واحتمل البعض الآخر أن عودة الحكومة إلى أهل البيت عند ظهور ولى العصر أرواحنا فداه. نعم، ليست هنالك من مشكلة إن كانت (حتى) عاطفة بمعنى الواو، لأن معنى العبارة سيكون: إن لم تطيعوا إمام الحق سيسلبكم الله الحكومة الإسلامية ولا تعود إليكم وسيكون الأمر لغيركم (طبعاً المراد فى المستقبل القريب، وإلا ليس من شك فى المستقبل البعيد لحكومة صاحب العصر والزمان عليه السلام والتي تمثل عودة الحكومة العالمية لأهل البيت عليهم السلام).

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١٩

القسم الثانى

إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ تَمَّ الْوَأُو عَلَى سَخَطِهِ إِمَارَتِي، وَسَيَأْصِبُ مَا لَمْ أَحْفَ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيْالِهِ هَذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا. وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ.

الشرح والتفسير: الصبر على الفتنة

بالنظر إلى ورود الخطبة فى أوائل خلافة الإمام عليه السلام وإبان السير إلى البصرة لمواجهة أصحاب الجمل فقد حث الإمام عليه السلام أصحابه فى القسم الأول، على الطاعة، وحذر هنا، العدو من مغبة مواصلة الفتنة وإلا سيقف بوجههم بكل ما أوتى من قوة فقال:

«إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ تَمَّ الْوَأُو [٦٠٩] عَلَى سَخَطِهِ [٦١٠] إِمَارَتِي»

. إشارة إلى اختلافهم ففهم المنافق والحسود والضيق الافق (كطلحة والزبير) ولا يجمعهم سوى عدائهم لى.

ثم قال:

«وَسَأْصِبُ مَا لَمْ أَحْفَ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ»

. فالعبارة تشير إلى تحمل الإمام عليه السلام لذلك العدو، ويرى عدم ضرورة المبادرة إلى السيف ما لم يكن هناك خطر يهدد الجماعة، وبالطبع، هذا لا يعنى أن الإمام عليه السلام كان يسكت تجاه كل أعمالهم.

ومن هنا قال عليه السلام

«فَأَنَّهُمْ إِن تَمَّمُوا عَلَيَّ فَيَالَهُ [٦١١] هَذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ»

ثم .

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢٠

قال:

«وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَيَّ أَدْبَارَهَا»

. فقد أخرج رسول الله صلى الله عليه وآله الحكومة من صورتها الدنيوية والمادية ومنحها صبغة ربانية بجهود الأولياء والأصفياء،

إلّا أنّ أصحاب الجمل يظنون أنّ الحكومة لقمة سائغة وطعمة هنيئة فيصرون على اقتناصها وتحقيق أغراضهم الدنيوية.

والعبارة

«حَسَدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا»

بالنظر إلى أنّ أفاء من مادة في بمعنى العودة فإنّها تشير إلى أنّ الحكومة على عهد النبي صلى الله عليه وآله كانت في بني هاشم وقد

عادت إليهم الآن. وإن سعى الحساد لاستعادتها وحياء سنن الجاهلية.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى حقوق الناس على الحكومة، فقال:

«وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ [٦١٢] لِسُنَّتِهِ»

. أى إن كان لى عليكم حق (وهو حق الطاعة والانقياد التام) فلکم على حق أيضاً هو إحياء كتاب الله وسننه رسول الله صلى الله عليه وآله

آله، ذلك لأنّ للحق طرفين، وليس هنالك من حق ذى طرف واحد. جدير ذكره أنّ الخطبة بدأت وانتهت بالتأكيد على أهميّة

القرآن.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢١

الخطبة ١٧٠

إشارة

في وجوب اتباع الحقّ عند قيام الحجّة [٦١٣]

كَلَّمَ بِهِ بَعْضَ الْعَرَبِ وَقَدْ أَرْسَلَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ لَمَّا قَرَّبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهَا لِيَعْلَمَ لَهُمْ مِنْهُ حَقِيقَةَ حَالِهِ مَعَ أَصْحَابِ الْجَمَلِ لِتُرُودِ

الشُّبُهَةِ مِنْ نَفُوسِهِمْ، فَبَيَّنَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَمْرِهِ مَعَهُمْ مَا عَلِمَ بِهِ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا بَعْ، فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ، وَلَا أُخِذْتُ

حَدَّثًا حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ:

نظرة إلى الخطبة

الخطبة، كما ورد، سابقاً، جواب واضح لرسول بعض قبائل أطراف الكوفة والبصرة حين طالبه الإمام عليه السلام بالبيعة وحاول التهرب

منها.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢٣

القسم الأول

فقال: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَأْسًا تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلْبِ وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ وَالْمَجَادِبِ، مَا كُنْتَ صَانِعًا؟ قَالَ: كُنْتُ تَارِكُهُمْ وَمُخَالَفَهُمْ إِلَى الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ.
فَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: فَأَمُدُّ إِذَا يَدَكَ. فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَاللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
وَالرَّجُلُ يُعْرِفُ بِكَلْبِ الْجَرْمِيِّ.

الشرح والتفسير: لماذا لا تبايع

روى الواقدي في كتاب الجمل عن (كليب الجرمي) أنه لما قتل عثمان ولم تمضى مدّة حتى قدم طلحة والزبير إلى البصرة (ليمهدوا السبيل أمام حكومتهم) وحين علم على عليه السلام قدم إلى منطقة ذي قار (لمنعهما). سألتني شخصان من أهل البصرة لأحملهما إلى علي، لنعلم ما هدفه؟ فلما بلغنا ذي قار وجدنا علياً عليه السلام أعقل العرب، سألتني من زعيم قبيلة بني راسب؟ قلت فلان. قال من زعيم قبيلة بني قدامة؟ قلت فلان. قال: هل لك أن تحمل كتابي لهما؟ قلت: بلى. قال: ألا تبايعني؟
وهنا بايع الرجال، بينما لم أبايع، فالتفت إلى عدد من الرجال الذين كان عليهم سيماء الصالحين فقالوا: بايع، بايع. قال علي عليه السلام: دعوه. فقلت: أنا رائد القوم فأعود إليهم وأخبرهم فإن بايعوك أبايعك وإن لم يبايعوا، تبعتم، فأجابني الإمام عليه السلام جواباً لم أجد بداً من البيعة. نعود الآن إلى النصّ لنرى ماذا قال له عليه السلام لقد قال:
«أَرَأَيْتَ لَوْ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢٤

أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَأْسًا [٦١٤] تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ
عَنِ الْكَلْبِ [٦١٥] وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ [٦١٦] وَالْمَجَادِبِ [٦١٧]، مَا كُنْتَ صَانِعًا؟ قَالَ: كُنْتُ
تَارِكُهُمْ وَمُخَالَفَهُمْ إِلَى الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ».

فما كان هنا من الإمام عليه السلام إلّا أن ابتدره:

«فَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: فَأَمُدُّ إِذَا يَدَكَ.

فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَاللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»

قال السيد الرضي:

«وَالرَّجُلُ يُعْرِفُ بِكَلْبِ الْجَرْمِيِّ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في جوابه المذكور إلى حقيقة مهمّة يحل الالتفات إليها الكثير من المشاكل. فكثيرون هم الأفراد الذين يفخرون بانصهارهم بالجماعة وتلونهم بلونها، فهم يفتقرون إلى الاستقلال الفكري بحيث لا يطبقون الانفصال عن الجماعة - وإن كانت ضالة - وهذا ما يؤدي إلى انتقال الخرافات والمساويء من جيل إلى آخر. فالإمام عليه السلام يفند هذا اللون من التفكير بمثال واضح حيث قال: لو كنت ضمن جماعة وبلغت موضعاً في الصحراء حيث الماء والغذاء، بينما انحرفت الجماعة إلى موضع مجذب خالٍ من الماء والغذاء، فهل تبقى معهم أم ترجع إلى عقلك؟ فتنفصل عنهم وتسلك سبيل العافية والسلامة، هل من عاقل يبقى في هذه الحالة مصراً على الجماعة؟! قطعاً لو كان الإنسان مستقلاً فكرياً فإنه يسلك الطريق المستقيم أن تعرف عليه وإن سلكه لوحده.

وهذا من قبيل ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبة ٢٠١ حين قال

«أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهِ»

. نعم، مبايعة إمام كعلي بن أبي طالب عليه السلام مجادب، جمع مجذب، المكان الذي لم ينزل إليه المطر فهو جاف لا نبات فيه.

وقبول ولايته تمثل ماء الحياة في

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢٥

ذلك المجتمع الذي شهد فساد عصر عثمان، ولم يكذ هذا الرجل يسمع كلام على عليه السلام حتى بايعه.

تأمل: عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام

يفيد الكلام المذكور مدى عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام في المستمع، والجدير بالذكر أن هذا الأمر حدث بالنسبة لرسول عائشة ورسول طلحة والزبير. ولما همت عائشة ببعث رسولٍ إلى على عليه السلام، سألت القوم أن يأتوها بأشد أعداء على عليه السلام فأعطته عائشة كتابها وحذرت من تناول طعامه وشرابه فففيه سحر. فأتى بكتاب عائشة إلى على عليه السلام، فلما أعطاه الكتاب قرأه ودعاه إلى بيته ليتناول الطعام حتى يكتب له الجواب، فأقسم الرجل على عدم الذهاب. فقال له الإمام على عليه السلام: هلا تجيبي إن سألتك؟ قال: بلى. قال عليه السلام: ناشدتك الله حين أرادت عائشة أن تبعث برسولها ألم تسأل القوم عن رجل شديد العداوة لعلي، فأتوا بك إليها وسألتك عن عدائي فأجبت كذا وكذا؟ قال: بلى. قال عليه السلام: ألم تحذرك من تناول الطعام فإن فيه سحر؟ قال: بلى. قال عليه السلام: أتكون رسولي؟ قال: بلى والله. لقد قدمت إليك وأنت أبغض الخلق إليّ والآن أنت أحب الخلق إليّ. قال عليه السلام: إذهب بكتابي هذا إلى عائشة وقل لها: لقد عصيت الله وعصيت رسول الله صلى الله عليه وآله حيث خرجت من بيتك. وقل لطلحة والزبير: حفظتم نساؤكم وأبرزتم زوج رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله. فقدم الرجل وسلم عائشة الكتاب، وقال لها ما أوصاه الإمام عليه السلام، وقد قتل هذا الرجل في صفين مع على عليه السلام.

قالت عائشة: ما أرسلنا من رجل إلى على إلأعصانا وتمرد علينا [٦١٨]. وقد حصل مثل هذا الأمر لرجل يدعى خدش رسول طلحة والزبير، وقد ورد شرح ذلك في

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢٦

كتاب الكافي للمرحوم الكليني، [٦١٩] وخلصته، أن هذا الرجل أتى بكتاب طلحة والزبير إلى أمير المؤمنين على عليه السلام وقد حذراه سابقاً من بيان على عليه السلام الذي يسحر العقول فلا ينبغي أن يجالسه ويتناول معه الطعام ولا يطيل النظر إلى وجهه وأن يقرأ عند رؤيته، آية السحرة: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَجَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَمَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْمَأْمُرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * اذْعِبُوا رَبُّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَسَائِجِبُ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ» [٦٢٠].

ليأمن من سحره. فلما قدم إلى الإمام عليه السلام نظر إليه وضحك ثم قال: أجلس. قال:

لا. قال عليه السلام: نأتيك الطعام ثم قل ما عندك. قال: لا حاجة بي إلى ذلك. قال عليه السلام: تعال نتحدث في مجلس. قال ليس لدي ما أخفيه. قال عليه السلام: قل الصدق، ألم يأمرك الزبير بذلك؟ قال: بلى. قال عليه السلام: أخبرك أن تقرأ آية السحرة إن رأيتني؟ قال: بلى. فأخذ يقرأها والإمام عليه السلام يقرأ معه، ثم قال عليه السلام: كثرها، حتى كثرها سبعين مرة. قال عليه السلام: قل ما عندك؟ فقال له ما أوصاه طلحة والزبير، فرد عليه السلام على تناقضاتهما وجعل (خدش) يصدقه حتى قال لنفسه: لقد جئت بكتاب يبطل بعضه بعضاً؟ إلهي أبرء إليك منهما؟ قال عليه السلام: قل لهما ما قلت لك، قال: خدش والله لا أبرح حتى تسأل الله أن يرجعني إليك. ففعل الإمام عليه السلام فرجع إلى طلحة والزبير وأوصل كتاب الإمام عليه السلام إليهما ثم عاد مسرعاً إلى الإمام عليه السلام حتى قتل بين يديه في الجمل.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢٧

إشارة

لَمَّا عَزَمَ عَلَى لِقَاءِ الْقَوْمِ بِصَفِينٍ [٦٢١]

نظرة إلى الخطبة

هذه الكلمات ليست خطبة وليست كلاماً عادياً، بل هي دعاء عظيم المعنى لهج به الإمام عليه السلام حين عزم على مواجهة الفاسطين في صفين معاوية ورهطه في شهر صفر سنة ٣٧ هـ واختتمه بدعوة صحبه إلى الجهاد. ويتضمن كلامه قسمين:
الأول: دعاء يثنى فيه على الله بما يرسخ الإيمان لدى الآخرين ويسأله تعالى التسديد إلى الحق والثبات إن انتصر على عدوه، وأن ينعم عليه بالشهادة والابتعاد عن الفتنة إن كانت الغلبة للعدو.

أما القسم الثاني: فقد دعى فيه صحبه لجهاد معاوية ورهطه من خلال عبارات قصيرة، لكنها تثير الحماس والقوة.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢٩

القسم الأول

اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْحَرِّ الْمَكْفُوفِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرَى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلِفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ؛ وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سَبْطاً مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَأَيِّشَ أُمُومٍ مِنْ عِبَادَتِكَ؛ وَرَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلْأَنَامِ، وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ، وَمَا لَأِيْضَ يَمَّا يُرَى وَمَا لَا يُرَى وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَاداً، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً، إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عِدُونَا، فَجَنَّبْنَا الْبُغْيَ وَسَدَّدْنَا لِلْحَقِّ؛ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ.
أَيْنَ الْمَانِعِ لِلدَّمَارِ، وَالْغَائِثِ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاطِ! الْعَارُ وَرَاءَ كُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!

الشرح والتفسير: الجنة أمامكم

كما ذكرنا سابقاً فإن الإمام عليه السلام استهل الخطبة بدعاء روى عميق المعاني ليعد نفسه وصحبه للقاء العدو، وحيث يحمد الله في الدعاء بصفات تعد القلوب فإن الإمام عليه السلام حمد الله في هذا الدعاء باسم رب السموات والأرض ورب الجبال فقال عليه السلام:

«اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْحَرِّ الْمَكْفُوفِ [٦٢٢] الْمَكْفُوفِ [٦٢٣]، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً [٦٢٤]

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣٠

لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرَى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلِفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ؛ وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سَبْطاً [٦٢٥] مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَأَيِّشَ أُمُومٍ [٦٢٦] مِنْ عِبَادَتِكَ»
العبارة .

«السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ»

إشارة إلى موضع النجوم التي تشاهد في السماء بصورة سقف - وقد سحبت من الشرق والغرب والشمال إلى الجنوب - أو إشارة إلى جو الأرض، أي طبقة الهواء التي تحيط بالأرض بقطر طوله مئتي كيلومتر ويحفظها كسقف من الأشعة الكونية القاتلة والصخور السماوية النائية [٦٢٧]. إلماً أن التفسير الأول أنسب، وعليه فالسقف المرفوع محل نجوم العالم العلوى والتي تبدو لأهل الأرض كالسقف، ومفهوم مجرى الشمس والقمر ... بهذا المعنى.

﴿وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ﴾

طبقة الهواء المحيطة بالأرض موضع ظهور الليل والنهار (فالليل ظل الأرض ويظهر في هذا الجو المكفوف وكذلك النهار موضع شروق الشمس).

وربما تشير العبارة مختلفا

﴿وَمُخْتَلَفًا لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ﴾

إلى جميع نجوم السماء السابحة في هذا الفضاء الواسع، حيث تطلع كل ليلة من أفق المشرق تغيب في أفق المغرب، أمّا إن كانت (النجوم السيارة) إشارة إلى السيارات الخمس المعروفة للمنظومة الشمسية فإنّ المفردة (مختلفاً) تشير إلى حركتها الخاصة في السماء، وكأنّها تتقدم قليلاً ثم تعود ثم تنطلق (وإن لم تكن كذلك في الواقع). ضمناً، فإنّ الكلمات المذكورة على غرار التعبيرات القرآنية التي تنسجم وعلم الفلك المعاصر وتنفي نظرية بطليموس، وذلك لأنّ معنى مجرى الشمس والقمر، هاتين الكرتين مستقلتان في حركتهما في السماء، وكذلك النجوم، لا أنّها مشدودة إلى أفلاك بلورية وتتحرك معها.

ثم أشار عليه السلام إلى الأرض وكنائنها الحية فقال:

﴿وَرَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣١

قَرَارًا لِلْأَنَامِ، وَمَدْرَجًا [٦٢٨] لِلْهَوَامِ [٦٢٩] وَالْأَنْعَامِ، وَمَا لِيُخْصِيَ مِمَّا يُرَى وَمَا لَا يُرَى .

إنّ هذه العبارات تفيد احاطة الإمام عليه السلام العلمية بجميع الكائنات على الأرض والتي تشمل الإنسان والحيوانات الأهلية وغير الأهلية حتى الديدان التي لا ترى بالعين المجردة كأنواع الميكروبات والفيروسات. وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنّ المراد من (ما لا يرى) الأحياء المتناثرة في الصحراء والتي لا يراها أحد، وقالوا: لو أوقدت نار في الصحراء في ليلة مظلمة لاجتمعت حولها ديدان لم يرها الإنسان، ولكن بالنظر إلى الاكتشافات الحديثة بشأن الأحياء المجهرية التي لا ترى بالعين المجردة لا تبدو هناك حاجة لمثل هذا التفسير، فهناك طائفة من الأحياء التي لا ترى بأى شكل من الأشكال، وهذا الكلام من كرامات الإمام عليه السلام التي أمامت اللثام عن حقيقة كانت خفية على الجميع آنذاك. وعبر عن الإنسان بالقرار (موضع الإستقرار والإقامة) وعن الحيوانات بالمدرج (موضع السير البطئ والتدرجي) ولعل الفارق في التعبيرين، يعزى إلى الحركة في الحيوانات التي تفوق نظيرتها عند الإنسان.

ثم قال عليه السلام في الصفة الثالثة للذات المقدّسة في دعائه العظيم:

﴿وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي [٦٣٠] الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَادًا، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَادًا﴾

. فالعبارة كون الجبال للأرض أوتاداً اقتباس من القرآن الكريم بشأن الجبال: «وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا [٦٣١]» [٦٣٢]. أحياناً يتصور أنّ حجم أضخم الجبال صغير بالنسبة للكرة الأرضية، بحيث لا يصح إطلاق الوند عليه، لكن بالنظر إلى أنّ لهذه الجبال العظيمة جذور في أعماق الأرض، وهذه الجذور متصلة مع بعضها كدرع أحاط بالأرض يحول دون الضغوط الداخلية

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣٢

والخارجية- والذي يفرزه جاذبية القمر وجزره ومدّه- فإنّ الجبال تعتبر بمثابة الأوتاد التي تحول دون تصدع الأرض. أمّا قوله: إنّ الله جعلها للخلق اعتماداً، ذلك لأنّ الجبال تحطم الرياح الشديدة العاتية وتمنع العواصف الرملية والسيول الخطيرة، أضف إلى ذلك فإنّ أغلب الأنهار والعيون تنحدر من الجبال وهي مركز أكثر المعادن المفيدة، إلى جانب بناء البيوت والقلاع المحكمة فيها، سيما المناطق التي تكون عرضة للسيول إنّما تلجأ لبناء الدور هناك خلاصاً من هذا الخطر. والسؤال ما الذي أراد أن يطلبه الإمام عليه السلام من الله في هذا الدعاء. قال عليه السلام

﴿إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا، فَجَبَّبْنَا الْبُعْثَى وَسَدَّدْنَا لِلْحَقِّ؛ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ﴾.

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذا الدعاء إلى هذه الحقيقة وهي أن الكثير ربّما يفارق العدالة حين النصر والغلبة في المعركة ويمارس الظلم بحق العدو، ومن هنا يسأل الله في حالة النصر ابعاده عن هذا العمل أولاً، وثانياً، كثيرون هم الأفراد الذين ينشدون النصر ارضاء لغرورهم والسيطرة على الآخرين. الإمام عليه السلام يدعو الله أن يسدده للنق وإقامة العدل إن كتب له النصر، وثالثاً، على فرض كون الغلبة للأعداء فإنه يسأل الله الشهادة والاعتصام من الفتنة. الفتنة هنا يمكن أن تكون إشارة إلى الامتحان، ذلك لأنّ ساحة القتال من ميادين الامتحانات الصعبة وعلى الإنسان أن يسأل الله تثبيته في القتال. فالفرد الذي يعتقد أنه على الحق ربّما ينقم حظه إن أصابه شيء، وينطلق لسانه بالشكوى وهذا فشل في ميدان الامتحان.

ثم دعى الإمام عليه السلام أصحابه لمواجهة العدو من خلال عباراته المؤثرة في الدعاء فقال:

«أَيُّنَ الْمَانِعِ لِلدَّمَارِ [٦٣٣]، وَالْعَائِزِّ [٦٣٤] عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ [٦٣٥] مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ! [٦٣٦] الْعَارُ

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣٣

وَرَاءَ كُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!»

. وأخيراً يختتم كلامه بتشجيع المدافعين وتهديد الهاربين فيقول:

«الْعَارُ وَرَاءَ كُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!»

فإن فررتم كان ذلكم عاراً عليكم وإن ثبتتم فلکم الجنة.

تأمل

لقد شهد تاريخ البشرية نشوب العديد من الحروب العالمية والأقليمية، ولكن غالباً ما يكون الهدف منها، الطمع وحب الاستعلاء والسيطرة والتأر، ومن هنا فإن النصر في المعركة إنما يؤدي إلى ارتكاب أفعال الجنايات، وذلك لغياب الهدف المقدس. نعم، يستثنى من ذلك حروب الأنبياء والأولياء، حيث الهدف منها إطفاء نار الفتنة، «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» [٦٣٧] والدفاع والوقوف بوجه المهاجم: «فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ» [٦٣٨] ولذلك فإنّ الأصول الإنسانية لا تغيب قط في المعركة. ومن ذلك ما أوصى به أمير المؤمنين عليه السلام جند الإسلام عند النصر بأن لا يتعقبوا فارعاً ولا يجهزوا على جريح ولا يتهيجوا النساء بأذى وإن شتمن الأعراض وسببن الأمراء [٦٣٩].

وتراه عليه السلام في هذه الخطبة والدعاء الذي تقرب به إلى الله يسأله الثبات والتسديد إلى الحق عند ظهوره على العدو، وهذا هو الفارق بين من يخوض الحرب من أهل الدنيا وأولئك الذين يعملون للآخرة.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣٥

الخطبة ١٧٢

نظرة إلى الخطبة [٦٤٠]

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله والثناء عليه ثم أشار إلى بعض الأعمال والأقوال الطائشة لبعض الصحابة المعروفين. تتكون الخطبة من ثلاثة أقسام. أشار في القسم الأول: إلى موقف عبدالرحمن بن عوف أو سعد بن أبي وقاص يوم الشورى (الشورى المؤلفة من ستة أفراد والتي شكلها عمر لاختيار الخليفة من بعده)، حيث نسب إلى الإمام عليه السلام الحرص على الخلافة فأجابه الإمام عليه السلام بجواب رائع. وشكى إلى الله.

في القسم الثاني، قريشاً ومن اصطف معها ضده. وتطرق.

فى القسم الثالث، إلى قضية طلحة والزبير وموقعة الجمل وعملها القبيح الذى ارتكبه حين أخرجنا عائشة (زوج النبى) إلى المعركة ولم يحفظا حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وما تبع ذلك من سفك للدماء.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣٧

القسم الأول

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَأْتَوَارِي عَنْهُ سَمَاءُ سَمَاءٍ، وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا.
منها: وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ لِحَرِيصٍ؛ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَحْصُ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ. فَلَمَّا قَرَعْتُهُ بِالْحَجَّةِ فِي الْمَلَأِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لَأَيْدِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ! اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَجِمِي، وَصَعَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَازَعَتِي أَمْرًا هُوَ لِي. ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ.

الشرح والتفسير: قريش والخلافة

إستهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله والثناء عليه وركز على علم الله وسعته - بما يتناسب وأبحاث الخطبة - فقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَأْتَوَارِي عَنْهُ سَمَاءُ سَمَاءٍ، وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا».

يبدو أن بعض شراح نهج البلاغة تكلفوا فى تفسير العبارة «وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا»

على أساس عدم وجود أكثر من أرض، فذهبوا إلى أنها تشير إلى الأقاليم السبعة على الأرض التى نراها محيطة بالأرض بسبب كرويتها حتى وإن نظرنا إليها من خارج الكرة الأرضية، ولا يمكن رؤية جميع المناطق فى الأرض فى لحظة معينة وإن نظرنا إليها من مسافة بعيدة، إلا أن الأمر ليس كذلك بالنسبة لله الذى لا يغيب

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣٨

عن علمه شىء. وقيل: تشير العبارة إلى طبقات الأرض، فالأرض تتألف من طبقات ولا نرى سوى طبقة واحدة منها، أما الله فلا يغرب عنه شىء. وقيل: المراد، المخلوقات التى تعيش فى الأرضين، حيث ورد مثل هذا الكلام فى تفسير الآية الشريفة ١٢ من سورة الطلاق: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» وقد قال كل من الفخر الرازى والمرحوم العلامة الطبرسى بأحد هذين التفسيرين المذكورين. الاحتمال الآخر فى تفسير الآية وكلام الإمام عليه السلام أن المراد، العوالم الواقعة فى الجانب الآخر من الكرة الأرضية. توضيح ذلك، أننا نصلح على ما فوقنا بالسماء وما تحتنا بالأرض، ونعلم أن الكرة الأرضية وسط مجموعة من الكواكب الثابتة والسيارة، وكما أن هناك عدداً هائلاً من تلك المجموعة فوقنا، كذلك لو تأملنا الجانب الآخر للكرة الأرضية فإن فيها مجموعة من هذه العوالم التى تعد سماءاً بالنسبة لسكنتها بينما تعتبر أرضاً بالنسبة لنا، فالسماء لا تقتصر على هذا النصف الكروى الذى فوقنا، بل هنالك النصف الآخر تحتنا والملىء بالكواكب والكرات السماوية (عليك بالتأمل).

ثم أشار الإمام عليه السلام فى الجانب الآخر من الخطبة إلى وقائع يوم الشورى المكونة من ستة أعضاء لاختيار الخليفة الثالث فرد على مقولة عبدالرحمن بن عوف أو سعد بن أبى وقاص فى حرص الإمام عليه السلام على الخلافة فقال:

«وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ لِحَرِيصٍ؛ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَحْصُ وَأَقْرَبُ»

. فالواقع أن عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص ومن شاكلهما ينظرون من خلال أفقهم الضيق على أن الخلافة طعمه لذيذة لهم أو من يرونه مؤهلاً لها، فهم لا يعلمون أو لا يريدون أن يعلموا أن الخلافة ليست بذات قيمة لدى ابن أبى طالب سوى إحقاق

الحق والانتصاف للمظلوم وزهق ودحر الظالم. والإمام عليه السلام لا يريد الخلافة لنفسه بقدر ما يريد لها لبسط العدل والقسط وسلامة المجتمع الإسلامي.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣٩

ثم قال عليه السلام

«وَأِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ»

. إِلَّا أَنَّ حَرَصَهُمْ حَال دُونَ إِذْعَانِهِمْ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ. لِذَلِكَ وَاصِل كَلَامِهِ قَائِلًا:

«فَلَمَّا قَرَعْتَهُ [٦٤١] بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلَاءِ الْحَاضِرِينَ هَبَ [٦٤٢] كَأَنَّهُ بُهِتَ لَأَيْدِي مَا يُجِئِنِي

بِهِ!»

قضية الشورى التي شكلها عمر حين وفاته كانت ضجة ضخمة أفصحت عن الأحقاد والضغائن التي يكنها بعض الصحابة لأمر المؤمنين على عليه السلام وتشير إلى حجم المؤامرة المبيتة بغية زحزحته عن مقامه وحقه الاجتماعي حتى طالبوه بالتخلي عن حقه وإلّا إتهم بالحرص على الخلافة. جدير بالذكر أن ابن أبي الحديد قال: يعتقد الشيعة أن الإمام عليه السلام قال هذا الكلام في أبي عبيدة الجراح في سقيفه بنى ساعدة التي شكلت لاختيار الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وآله [٦٤٣]. والحال لم نر أحداً من علماء الشيعة قال بذلك، والمسلم لدينا أن الإمام عليه السلام لم يكن حاضراً في السقيفة. وقد فرغنا من شرح هذه الأحداث في الجزء الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية.

ثم تضرع الإمام عليه السلام إلى الله يشكو ما ألم به من ظلم فيستلهمه العون قائلاً:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ [٦٤٤] عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا

عَظِيمَ مَنْرَلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَازَعَتِي أَمْرًا هُوَ لِي. ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ»

. فهذه العبارة تكشف بوضوح أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يرى الخلافة حقه الطبيعي، وذلك لأنه كان أجدر بها من غيره إلى جانب نص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على ولايته في الغدير والذي أكده مراراً وتكراراً، إلّا أن عشاق المناصب اسقطوا نص رسول الله صلى الله عليه وآله وحكم العقل، ومارسوا الأعمال التي من شأنها

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٠

قطع صلة الرحم، والأمر الغريب أنهم يعترفون بهذا الحق، لكنهم يزعمون أنها من الحقوق التي ينبغي الإغماض عنها، فالظروف ليست مناسبة لاستحصاله.

والتعبير بقطع صلة الرحم إمّا لاستدلالهم بأوليئتهم في أمر الخلافة لقربهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وقد رد عليهم الإمام عليه السلام بأنه أخصّ منهم وأقرب (كما مرّ علينا في عبارة الخطبة) أو (أنا) إشارة إلى أنهم لم يأخذوا الخلافة وهي حقي فحسب، بل لا يكفون عن ارتكاب الجنايات التي تعدّ مصداقاً بارزاً لقطع الرحم.

تأملان

١. العيون المعصوبة ازاء الحقائق

إنّ البعض وإن سعى المرور مرّ الكرام على القضايا المتعلقة بالخلافة، إلّا أنّ الأمر لا يبدو بهذه السهولة والبساطة. لا شك في أنّ علياً عليه السلام شكى مراراً من سلبه حقه المسلّم في الخلافة (طبعاً ليس المراد من الحق، المقام الذي يختزن الفائدة والريح والمنفعة) بل يمثل المسؤولية الشرعية وهدفها- على ضوء ما ذكره الإمام عليه السلام- إقامة العدل وإحقاق الحق وإجراء الحدود. ولعل الكلام المذكور هو أحد النماذج البارزة على شكواه حتى قال: إنهم اجمعوا على منازعتي ليصادروا حقي، وسنورد المزيد بهذا الشأن في

شرحنا للخطبة رقم ٢١٧.

الجدير بالذكر أن ابن أبي الحديد نقل هذا الكلام وحاول تبريره وتوجيهه بما لا يمكن قبوله بأى شكل من الأشكال. فقد صرح قائلاً:
أعلم أنه وردت أخبار متواتر عنه عليه السلام ومنها هذه الخطبة أنه قال:

«مَا زِلْتُ مَظْلُومًا مُنْذُ قَبِضَ اللَّهُ رَسُولَهُ حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا»
، وقال أيضاً:

«اللَّهُمَّ اخْزِ قُرَيْشًا فَإِنَّهَا مَنَعَتْنِي حَقِّي وَغَصَبَتْنِي امْرِي

وسمع شخصاً يقول:

«أَنَا مَظْلُومٌ»

فقال عليه السلام:

«هَلُمَّ فَلْنُصْرِحْ مَعًا فَإِنِّي مَا زِلْتُ مَظْلُومًا»

وقال في الخطبة الشقشقية:

«وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلَّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى

وأضاف في الخطبة المذكورة:

«أرى تراثى نهبا»

ولما فرغ ابن أبي

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤١

الحديد من ذلك هب للدفاع عن الخلافة ليقول: أن أصحابنا يوجهون ذلك بأن مراد الإمام عليه السلام أنه كان أفضلهم وأولاهم- وهذه حقيقة- لا- أن مراده أن النبي صلى الله عليه وآله نص عليه، لأن ذلك يدعونا إلى تكفير وتفسيق كبار المهاجرين والأنصار (نسبهم للكفر أو الفسق) وأضاف أن الزيدية والإمامية يحملون هذا الكلام على ظاهره (ويرون الخلفاء غاصبين للخلافة). ثم قال: والذى نفسى بيده أن مفهوم هذه العبارات وإن كان أغلب الظن ما يقوله هؤلاء، إلا أن هذا الظن باطل وليس أمامنا سوى اعتبار هذا الكلام من قبيل الآيات القرآنية المتشابهة التى تطرح بعض الأمور التى لا نقرأها لله [٦٤٥]. والعجيب كيف يتأول ابن أبي الحديد وأمثاله هذه الكلمات الواضحة بهذا الشكل، والأسوأ من ذلك أنه قاس هذا الكلام بآيات القرآن المتشابهة، فالآية القرآنية: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» [٦٤٦] يفهم كل فرد عاقل أن المراد منها قدرة الله، وإلا فالله ليس بجسم لتكون له يد كيدنا. نعم، قال الإمام صراحة فى العبارة السابقة أن هؤلاء غصبوني حقى، وليس لهذه العبارة أكثر من تفسير وتأبى التوجيه، ليت شعري ما الضير فى قولنا إن طائفه من المهاجرين والأنصار أخطأت بشأن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟ أفكانوا معصومين؟ الحق أن الأحكام المسبقة والتعصب للمذهب يؤدى بالإنسان أحياناً إلى أن يعصب عينيه عن رؤية القضايا الواضحة والتثبت بالتوجيه غير المنطقى.

٢. هل ينبغى التنازل عن بعض الحق

تمسك غاصبوا الخلافة- كما ورد فى الخطبة- بضرورة استيفاء بعض الحقوق والتنازل عن بعضها الآخر على ضوء بعض المصالح.

ويرون خلافة أمير المؤمنين عليه السلام من النوع الثانى. نعم، العبارة المذكورة تنطوى على مفهوم صحيح

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٢

وآخر باطل. فالإنسان ينبغى له التنازل عن جانب من حقه الشخصى أو جميعه بغيه الحيلولة دون نشوب النزاعات ومواصلة الخصومة ومراعاة للمحبة والمودة، أما بالنسبة للحقوق المتعلقة بالمجتمع ومصيره، فلا يحق لأحد التنازل عنه أو المساومة على حسابه. وأصحاب

هذه الحقوق هم وكلاء الأمة. وليس للوكيل مثل هذا التنازل، والخلافه من هذا النوع من الحقوق، إلا أن غاصبي الخلافه حاولوا خلط الأوراق. بمنطقهم الأيخوف بغيه تحقيق أهدافهم ومآربهم. والعبارة المذكوره تشير ضمناً إلى أن أعداء الإمام عليه السلام كانوا يعترفون بحقه، أو بعبارة أخرى فإن حقه كان على درجه من الوضوح بحيث لم يسعهم إنكاره، فعمدوا إلى الذرائع والحجج الواهيه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٣

القسم الثاني

فَخَرَجُوا يَجْرُونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا تُجْرُ الْأُمَّةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصِيرَةِ، فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا، فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ، فَقَدِمُوا عَلَيَّ بِهَا وَخَزَانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا، وَطَائِفَةً غَدْرًا. فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ يُصَبِّبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مُعْتَمِدِينَ لَقَتَلْتُهُ، بَلَمَا جُزِمَ جَزْرُهُ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ. دَعَا مَا أَنْتَهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!

الشرح والتفسير

فضيحة أصحاب الجمل

شرح الإمام عليه السلام هنا الخطأ الفادح الذي ارتكبه أصحاب الجمل ليعلم الجميع بأن الإمام عليه السلام إن قاتلهم وقتل طائفة منهم فهي مستحقة لذلك، فلا ينبغي التذرع بالأعذار ومواجهه هذا المنطق المتين، حيث أشار عليه السلام إلى ثلاث من جرائمهم الكبرى، فقال في الأولى

«فَخَرَجُوا يَجْرُونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا تُجْرُ الْأُمَّةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصِيرَةِ»
 . ثم قال:

«فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٤

كلنا نعلم أن القرآن الكريم أوصى أزواج النبي صلى الله عليه وآله بأن يقرن في بيوتهن وأن لا يتبرجن تبرج الجاهلية فيتصفحن هذا وذاك: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى [٦٤٨]» وكان بعض الأحداث كموقعه الجمل كانت منظوره من قبل، إلا أن هؤلاء المتحللين أبقوا على نساءهم في بيوتهن وأخرجوا زوج النبي صلى الله عليه وآله خلاف نص القرآن ليجعلوها وسيلة لتحقيق مآربهم.

ثم قال عليه السلام في جنابهم الثانية:

«فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ»

. ولا يقتصر الالتزام بالبيعة على الإسلام، بل كان يلتزم بها حتى قبل الإسلام، بينما نقض أصحاب الجمل هذه السنه ونكثوا عهدهم علانية واستعدوا لمواجهه الإمام عليه السلام. وأشار إلى جريرتهم الأخرى فقال عند ما دخلوا البصرة:

«فَقَدِمُوا عَلَيَّ بِهَا وَخَزَانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا [٦٤٩]، وَطَائِفَةً غَدْرًا»

. ذكر ابن أبي الحديد في شرح لجنايات أهل الجمل أن طلحه والزبير وأعانهما تدرعا وقدموا المسجد عند صلاة الصبح وكان فيه عامل على عليه السلام عثمان بن حنيف. فتقدم للصلاة فدفعه أصحاب طلحه والزبير وقدموا الزبير. فتقدم

(السباجة)

(حماة بيت المال) [٦٥٠] ودفعوا الزبير خارج المسجد، فهجم عليهم أنصار الزبير وقدموه واستمر النزاع حتى طلوع الشمس. فصاح الناس: اتقوا الله يا أصحاب محمد صلى الله عليه وآله فالشمس تكاد تطلع، فغلبهم الزبير وصلى بالناس. ثم أمر بالقبض على ابن حنيف فضربوه حتى كاد يموت، كما قبضوا على السباجة وهم سبعون، حملوا عثمان بن حنيف إلى عائشة، فأمرت بقتله. فقال عثمان: إن قتلتموني سيقتص منكم أخى (والى المدينة) فخافوا وتركوه. وأمرت

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٥

الزبير بقتل السباجة فذبحهم ابنه عبدالله كما تذبح الشاة. قال بعض المؤرخين كأبى مخنف كان السباجة أربعمائه وقد نقض طلحة والزبير عهدهم مع عثمان بن حنيف - بعدم التعرض لأحد - فكان السباجة أول طائفة قتلت صبراً فى الإسلام [٦٥١]. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا، وَطَائِفَةً غَدْرًا».

وأخيراً خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ يُصَيَّبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بَلَّا جُزْمَ جَرَّةٍ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا يَدٍ. دَعَا مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!».

أثار هنا بعض شراح نهج البلاغة أسئلة وأجابوا عنها، نورد هنا بما يناسب البحث:

سؤال: كيف تفسر فقهيًا عبارة الإمام عليه السلام فى حلية قتل الجيش كله وإن أصابوا واحداً فضلاً عن قتلهم لذلك العدد الكثير؟

الجواب: أجاب البعض بأنهم أباحوا قتل المسلمين وهذا نوع من انكار ضروريات الدين وعليه فهم مرتدون. وقيل: إن قتلهم من باب النهى عن المنكر، ولو توقف النهى عن المنكر بذلك لكان جائزاً. الجواب الثالث: والأنسب، أنهم كانوا مصداقاً للمفسدين فى الأرض، فقد جهزوا الجيوش ونكثوا البيعة وعاثوا فساداً فى بعض مناطق البلد الإسلامى، فهم مشمولون بالآية الشريفة «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا...» [٦٥٢] وعبارة الإمام عليه السلام أنهم حضروا ولم ينكروا ولم يدفعوا بلسان ولا يدهم فى الواقع مقدمة لاثبات كونهم من

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٦

المحاربين والمفسدين.

الجواب الرابع: الذى يتبناه مذهب أتباع أهل البيت عليهم السلام فى أن الخارج عن الإمام المعصوم كافر، كما ذكر ذلك الخواجة الطوسى فى تجريد العقائد [٦٥٣] فقال:

«وَمُحَارِبُو عَلِيٍّ كَفَرَةٌ»

ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام:

«حَرْبُكَ حَرْبِي»

. وقد فصلنا فجائع طلحة والزبير وعائشة فى موقعه الجمل فى الجزء الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبة الثالثة عشرة، والجزء الثانى فى تفسير الخطبة ٢٢ و ٣١، والجزء الخامس فى شرح الخطبة ١٣٧.

سؤال آخر:

لو استحق أولئك، القتل لمجرد قتلهم جماعة من المسلمين وقبل المعركة، لماذا لم يقتص الإمام عليه السلام من أتباع طلحة والزبير بعد أن انتصر عليهم فى المعركة؟ بل حتى عائشة كانت تستحق القتل لخروجها على أمام المسلمين والفساد فى الأرض، لكن الإمام

عليه السلام أعادها بكل احترام إلى المدينة؟ والجواب على هذا السؤال واضح، فالأوضاع كانت مضطربة والظروف معقدة بحيث لو قام الإمام عليه السلام بمثل هذا العمل لتمكن أعداء الإمام عليه السلام من تأليب عامة المسلمين عليه وتعبثهم ضده. ومن هنا قال عمرو بن العاص لعائشة: ليتك قتلت في الجمل. قالت: لم لا أم لك؟ فقال عمرو: لدخلت الجنة وحرصنا الناس على على بقتلك [٤٥٤]. على كل حال، فإنه لمن دواعي الفخر لعلى عليه السلام أنه غص النظر عنهم وأراح المجتمع الإسلامي من شرهم.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٧

الخطبة ١٧٣

إشارة

فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَمَنْ هُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَكُونَ لِلْخِلَافَةِ،
وَفِي هَوَانِ الدُّنْيَا [٤٥٥]

نظرة إلى الخطبة

تبدأ هذه الخطبة ببيان صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بصورة مختصرة، كما يتعرض الإمام عليه السلام في القسم الثاني إلى خصائص الجدير بخلافه رسول الله صلى الله عليه وآله فيؤدي حق الموضوع بعبارات قصيرة. ويتحدث في القسم الثالث عن تقوى الله ويوصي صحبه بعدم العجلة في الأعمال والتروى عند الإقدام. وأخيراً يذم الدنيا والتعلق بها والخداع بزخارفها.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٩

القسم الأول

أَمِينٌ وَحِيهِ، وَخَاتَمَ رُسُلِهِ، وَبَشِيرٌ رَحْمَتِهِ وَنَذِيرٌ نِقْمَتِهِ.
أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ.
فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتِغْتَبَ، فَإِنْ أَبِي قُوْتَل. وَلَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ الْإِمَامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّى يَخْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَلَكِنْ أَهْلُهَا يَخْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَزْجَعَ، وَلَمَّا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ. أَلَا وَإِنِّي أَقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلًا ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ.

الشرح والتفسير: أجدد الأفراد بزعامة الأمة

كما ورد سابقاً فإن الإمام عليه السلام قد استهل الخطبة ببيان جانب من خصائص رسول الله صلى الله عليه وآله حيث أشار إلى أربع منها، فقال:

«أَمِينٌ وَحِيهِ، وَخَاتَمَ رُسُلِهِ، وَبَشِيرٌ رَحْمَتِهِ وَنَذِيرٌ نِقْمَتِهِ»

والواقع، إن أنشطة النبي صلى الله عليه وآله كإبجازه في هذه الصفات الأربع؛ ذلك لأن الفعالية الأولى للنبي، تلقى الوحي وإيصاله وإبلاغه إلى الناس بكل أمانة والتخطيط لنشر مبادئ الدين إلى نهاية الدنيا ومن ثم التمهيد لطاعة الله عن طريق البشارة

بالرحمة والإنذار بالعذاب والجزاء. وقد أكدت هذه الصفات الأربع من خلال الآيات القرآنية حيث أشارت إلى بعضها من قبيل البشارة والإنذار.

ثم تطرق عليه السلام إلى شرائط خليفة الأمة وإمامها ليجزها في أمرين:
«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى ركنين أساسيين، لأحدهما بعد عملي، والآخر
نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٠

علمي، فعلى المستوى العلمي ينبغي أن يكون أعلم الجميع، وفي الجانب العملي أقواهم في أمور الإدارة، فكثيرون هم الأفراد العلماء، لكنهم يفتقرون إلى حسن الإدارة، أو أنهم يتمتعون بحسن الإدارة إلمائهم يفتقرون إلى العلم، ولا يمكن النهوض بزعامه الأُمّية دون توفر هذين الشرطين معاً. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الموضوع في قصة بنى إسرائيل أثر اختيار (طالوت) كزعيم وقائد فاعترض البعض على أنهم أولى بالزعامة منه على أساس الثروة، فرد القرآن عليهم بأن طالوت أولى بها لعلمه وقدرته: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسِيطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ» [٦٥٦] ومن الواضح أن الإمام عليه السلام أراد أن يكشف عن أولويته من الجميع بالتصدي لأمر الخلافة، ذلك لأن الجميع يعلم بأنه أعلم في أصول الدين وفروعه وهو الأقوى والأقدر على الإدارة ومواجهة العدو.

سؤال:

نفحات الولاية؛ ج ٦؛ ص ٣٥٠

إذا لم يستدل الإمام عليه السلام بنص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على خلافته؟ أليس هذا دليلاً على أن الخلافة لم تكن على أساس النص، بل على ضوء انتخاب الناس لأكفأ الأفراد؟

الجواب:

قطعاً، لو استدل الإمام عليه السلام بالنص، لهب أغلبهم لإنكاره، وعليه فمن الأفضل الاستناد إلى مسلماتهم وإلزامهم بمنطقهم (الأمر الذي يصطلح عليه في المنطق بالجدل) والذي قال بشأنه القرآن: «وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» [٦٥٧]. جدير بالذكر أن ابن أبي الحديد حين يبلغ هذا الموضوع من شرحه لنهج البلاغة، وخلافاً لأولئك الذين لا يصغون لصوت الضمير يُقرّ بأن علياً عليه السلام أعلم القوم، لكنه يرى أن هذا ليس بدليل على نفي خلافة الآخرين، ذلك لأنه يمكن أحياناً تقديم المفضول على الأفضل [٦٥٨]. طبعاً، هذا منطق الأفراد الذين لا يفقهون قوانين العقل ولا يرون قبح

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥١

ترجيح المرجوح على الراجح، والحال، قبح هذا الأمر واضح للجميع، إلّا أن التعصب الأعمى يحول عادةً دون رؤية الواقع. ثم قال عليه السلام: فإن تصدى مثل هذا الفرد، للأمر:

«فَإِنْ شَغَبَ [٦٥٩] شَاغِبٌ اسْتَشْتَعِبَ [٦٦٠]، فَإِنْ أَبِي قُوتِلَ»

. وقال القرآن بهذا الخصوص «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ...» [٦٦١].

ثم خاض الإمام عليه السلام في الردّ على بعض المتخرصين، حيث انبرى البعض كعوايئة وعمرو بن العاص وطلحة والزبير وأمثالهم

وصرّحوا بأنّ الخلافة والإمامة لمن تنتخبه عامة الأمة. وعليه، لا تكفى بيعه المدينة وأطرافها لعلّ عليه السلام.

فقال عليه السلام:

«وَلَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ الْإِمَامَةُ لَاتَتَّعِدُ حَتَّى يَخْضُرَهَا عَامَةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَلَكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَيَّ مِنْ غَابِ عَنْهَا»

. ثم واصل كلامه قائلاً:

«ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَزْجَعَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ»

. وأخيراً حدّثهم جميعاً بالقول:

«أَلَا وَإِنِّي أَقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلًا ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ»

. يبدو أنّ العبارة الأولى تشير إلى معاوية الذي تخلف عن البيعة بذريعة المطالبة بدم عثمان، والحال، أنّ تتم المطالبة بدم عثمان من

قبل أولياء الدم أو إمام المسلمين، ومن بايعه الناس أى، على بن أبى طالب عليه السلام. والثانية إشارة إلى طلحة والزبير وأمّالهما

الذين بايعوا ثم نكثوا البيعة بما فيهم معاوية والآخرين. وأمّا ما قيل: إنّ المراد، ادّعاء الخلافة من قبل معاوية والذي ليس له حقّ، فلا

ينسجم مع التواريخ، لأنّ معاوية لم يدع الخلافة على عهد أمير المؤمنين على عليه السلام، بل ركّز على المطالبة بدم عثمان.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٢

سؤال:

لم يستدل الإمام عليه السلام فى حديثه المذكور فى إثبات خلافته وإمامته على نص النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الخصوص،

ولم يتطرق إلى حديث الغدير وما شابهه، بل أكد على بيعه الأمة، وهذا فى الواقع إمضاء لخلافه من سبقة. لذلك قال ابن أبى الحديد،

هنا، صراحة: إنّ هذا الكلام من الإمام عليه السلام دليل على صحته مذهبتنا، ولا يؤيد مذهب الإمامية، فكيف تحلّ هذه الشبهة؟

الجواب:

لا بدّ من الالتفات إلى أمور:

الأول: أنّ الإمام عليه السلام استدلّ بمسلمات الخصم لإثبات حقه، لأنهم يرون كفاية قبول أهل الحل والعقد (علماء الأمة) لثبوت

الخلافة والإمامة. وعليه فقد أجابهم بمنطقهم (منطق الجدل بالتي هى أحسن)، ولو استدلّ بالنص لأنكروه.

الثانى: أنّ خلافة من سبقة لم تستند إلى قبول الناس، أمّا أبو بكر فقد انتخب من قبل أهل السقيفة حيث كانوا عدّة قليلة من الناس،

وأما عمر فقد انتخب بنص من أبى بكر، بينما لم تتمّ خلافة عثمان إلّا من قبل ثلاثة أو أربعة أفراد من الشورى.

الثالث: أضف إلى ذلك، فإنّ الوقوف على رأى الإمام عليه السلام بشأن الخلافة لا يمكن من خلال خطبة أو خطبتين، بل لا بدّ من

دراسة شاملة لجميع كلماته بهذا الخصوص، لنرى كثرة تركيزه فى نهج البلاغة على النص فى الخلافة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٣

القسم الثانى

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا خَيْرٌ مَّا تَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرٌ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَ اللَّهِ. وَقَدْ فَتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ،

وَلَمَّا يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصِيرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ، فَاْمْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ؛ وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرِ

حَتَّى تَتَّبِنُوا، فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكَرُونَهُ غَيْرًا.

الشرح والتفسير

تعليمات عسكرية

أعدَّ الإمام عليه السلام صحبه هنا لمواجهة الظلمة والطواغيت حيث أوصاهم بادية الأمر بالتقوى فقال:

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا خَيْرٌ مَّا تَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرٌ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَ اللَّهِ»

. القرآن الكريم من جانبه أكد هذا المعنى حيث إن الأفراد الذين لا يصيبهم الخسران هم فقط الذين يتواصون بالحق والصبر: «وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ». وقال: «وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى» [٦٦٢] وقال أيضاً: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» [٦٦٣].

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَقَدْ فَتَحَ بَابَ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصْرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ»

. ثم قال:

«فَأَمْضُوا لِمَا تُوْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ؛ وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرِ حَتَّى تَتَيَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٤

مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكَرُونَهُ غَيْرًا [٦٦٤].»

تشير العبارة

«وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ»

إلى أننا نضطر لأول مرة في الإسلام لأن نقاتل أفراداً يدعون الإسلام، وأنهم من أهل القبلة لبغيهم وطغيانهم، ويبدو هذا الأمر مستصعباً بالنسبة للأفراد السطحيين وضيقى الأفق، وعليه، فلا يستحق حمل هذا العلم سوى من تحلى بالبصر والعلم والصبر.

والعبارة

«فَأَمْضُوا لِمَا تُوْمَرُونَ ...»

إشارة إلى أن هذا الطريق مسؤوليه كبيرة، فينبغي المضى فيه بدقه ورعاية النظم والانضباط. أما العبارة الأخيرة

«فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكَرُونَهُ غَيْرًا»

فتشير إلى أن الأوامر التي تصدر أحياناً من القيادة- الإمام عليه السلام- في القضايا الحربية وجزئيات الأعمال، بما لا ينسجم ورغبات أكثرية الناس، مثلاً، يرد الأمر بالهجوم على العدو في البصرة من شمالها، إلّا أن الأكثرية ترى صعوبة ذلك وتود لو أنها هجمت من جنوبها. فالإمام عليه السلام يوصى هنا بالترث وعدم الاستعجال طالما لا تتضارب هذه الأوامر مع الشرع والمصلحة، فربما نمارس بعض التغييرات ونحقق رغباتكم، كذلك إن شكى بعض الناس من بعض الولاية فليس لدى من إصرار، كعثمان، على بقائهم وما دام رأى الناس موافقاً للشريعة والمصلحة فهو مقبول لدى. ولعل إحدى خصائص الأمر والمدير الناجح تتمثل في احترامه لأفكار الآخرين والإفتتاح عليها ما لم تتعارض مع الأصول. أما ما ذكره بعض شراح نهج البلاغة من تفسير لهذه العبارة فلا يبدو مناسباً؛ ففسروا (غيراً)

مثلاً، بالمصالح، ولكن هذه المفردة؛ والاحتمالات الأخرى التي وردت في كلمات بعض الشراح ليست منسجمة مع ظاهر كلمات الإمام عليه السلام ومن هنا لا نرى ضرورة الخوض فيها.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٥

تأمل: حوار مع عمار بن ياسر في صفين

لا شك في أن أهل القبلة والمسلمين إن مارسوا بعض الأعمال التي تهدد كيان الإسلام أو قاموا ضد الحكومة الإسلامية، فلا بد من إرشادهم وإعادتهم إلى جادة الصواب من خلال الطرق السلمية؛ لكن إن واصلوا غيهم وتمادوا في أعمالهم، فليس هنالك من سبيل سوى اللجوء القوة، ولا يبدو هذا العمل مستساغاً من قبل الأفراد السطحيين وضيقي الأفق، لذلك قال الإمام عليه السلام:

«وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمُ إِلَّا أَهْلَ الْبَصْرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ»

. ورد في أحداث موقعة صفين: روى عن نصر بن مزاحم، قال: «حدثني يحيى بن يعلى، قال: حدثني صباح المزني، عن الحارث حصن، عن رجاء بن ياسر، عن أسماء بن حكيم الفزاري، قال: كنا بصفين مع علي، تحت راية عمار بن ياسر، ارتفاع الضحى، وقد استظلنا برداء أحمر، إذ أقبل رجل يستقرى الصف حتى انتهى إلينا فقال: أيكم عمار بن ياسر، فقال عمار:

أنا عمار، قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قال: إن لي إليك حاجة أفأنتظر بها سرّاً أو علانية؟ قال: اختر لنفسك، أيهما شئت، قال: لا بل علانية، قال: فانطق، قال: إني خرجت من أهلي مستبصراً في الحق الذي نحن عليه، لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم، وأنهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً، حتى ليلتي هذه، فإني رأيت في منامي منادياً تقدّم، فأذن وشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونادى بالصلاة ونادى مناديهم مثل ذلك، ثم أقيمت الصلاة، فصلينا صلاة واحدة، وتلونا كتاباً واحداً، ودعونا دعوة واحدة، فأدركني الشك في ليلتي هذه، فبت بليلة لا يعلمها إلا الله تعالى، حتى أصبحت، فأتيت أمير المؤمنين، فذكرت ذلك له فقال: هل لقيت عمار بن ياسر! قلت: لا، قال عليه السلام فالفقه، فانظر ماذا يقول لك عمار، فاتبعه، فجتتك لذلك، فقال عمار: تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي! فإنها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٦

ثلاث مرات، وهذه الرابعة فما هي بخيرهن، ولا أبرهن، بل هي شرهن وأفجرهن.

أشهد بداراً واحداً يوم حنين، أو شهدا أب لك فيخبرك عنها؟ قال: لا، قال: فإن مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر، ويوم أحد ويوم حنين، وإن مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب، فهل ترى هذا العسكر ومن فيه! والله لوددت أن جميع من فيه ممن أقبل مع معاوية ويريد قتالنا، مفارقاً للذي نحن عليه، كانوا خلقاً واحداً، فقطعته وذبحته، والله لدمائهم جميعاً أحل من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟ قال: لا بل حلال، قال: فإنهم حلال كذلك، أتراني بينت لك، قال: قد بينت لي، قال عليهما السلام فاختر أي ذلك أحببت [٦٦٥]. فهذه الواقعة وأمثالها تفيد أن ارتداء ثوب الإسلام من قبل تلك الفرق المنحرفة إنما كان يخدع البعض من السذج، وهذا ما دفع الإمام عليه السلام لتحذيرهم من الفتنة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٧

القسم الثالث

أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنُّونَهَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحْتُمْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَلَا مَنْزِلِكُمْ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلَا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ. أَلَمْآ وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلَا تَبْقُونَ عَلَيْهَا؛ وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ خَدَرَتْكُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتَحْوِيفِهَا؛ وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَأَنْصِرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا؛ وَلَا يَخَنَّ أَحَدُكُمْ خَيْنَ الْأَمْرِ عَلَى مَا زُوِيَ عَنْهُ مِنْهَا، وَاسْتَتَمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَالْمَحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظْتُمْ مِنْ كِتَابِهِ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ. أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَالْهَمْنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْر!

الشرح والتفسير: الدنيا ليست داركم

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضوع من الخطبة إلى تقلب الدنيا وعدم ثباتها وحدّر الجميع من زخرفها وزبرجها، ذلك لأنّ الإنحراف الذي طال أصحاب الجمل إنّما يُعزى إلى تهافتهم على الدنيا وحطامها، فلا ينبغي لهم السير على خطاهم، وعليهم أن يسلكوا سبيل الحق وإن انتهى بهم إلى الشهادة، فقال:

«أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَوَّنُونَهَا وَتَزَعْبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحْتُمْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَلَا مَنَزِلِكُمْ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلَا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٨

فالعبرة، إشارة لما تأكد مراراً في نهج البلاغة والقرآن أنّ الدنيا ليست خالدة وأنها ليست بدار إقامتنا، بل هي ممر مؤقت نجتازه في سفرنا إلى الآخرة حيث مقرنا ومقامنا بعد التزود من هذه الدنيا لتلك الحياة الحقيقية التي قال عنها القرآن:

«لَيْسَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» [٦٦٦].

ثم أكد الإمام عليه السلام أكثر فقال:

«أَلَا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلَا تَبْقُونَ عَلَيْهَا».

كما ردّ على أولئك الذين يصفون الدنيا دائماً بالخداع والغرور، فقال:

«وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَرْتُكُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتُخْوِيفِهَا»

. صحيح أنّ أغلب مظاهر الدنيا تثير الغرور والغفلة، لكنها ترينا إلى جانب ذلك بعض المشاهد التي توقظ كل غافل من نوم غفلته. فاللحظة التي ينال فيها أحدهم السلطة ويستولى على العرش، هي ذاتها التي يسقط فيها أخيراً، وفي الوقت الذي يرث فيه شخص الآلاف المؤلفة من الثروة، هو نفس الوقت الذي يحمل فيه جثمان صاحب تلك الثروة ليوسد التراب، وحين يولد طفل وتطالعنا مظاهر الفرح والسرور على سيماء وجوه أسرته، ترتفع إلى جانبه أصوات أسرة بالعويل لفقداهم أحد أعزتهم، فلم نركز على الصورة الأولى ونتناسى الصورة الثانية؟! حاول الإمام عليه السلام بهذه العبارات العميقة المعنى أن يلفت الانتباه إلى هذه الحقيقة وقد أكدها في سائر خطب نهج البلاغة وقصار الكلمات.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَأَنْصِرُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا»

، كما قال:

«وَلَا يَخِنَّ أَحَدُكُمْ خَيْنَ الْأَمَةِ عَلَى مَا زُوِيَ [٦٦٧]

عَنْهُ مِنْهَا، وَاسْتَيْمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٩

فقد شبه الإمام عليه السلام الأفراد الضعاف الذين لا يكادون يفقدون نعمته من نعم الدنيا حتى يعيشوا حاله من العزاء وكأنهم فقدوا عزيزاً من أعزتهم بتلك الأمية التي يرتفع صوتها بالبكاء لأدنى مُلمية، وربما دوى صوت البكاء أثر شدة الجزع. نعم، هذا فعل العبيد الضعاف؛ ضعاف الدنيا وأسرى مظاهرها، والحال، لو فكروا بصورة صحيحة لأدركوا أنّ ما فقدوه مهما كان مهماً فلا قيمة له، لأنهم يفقدونه عاجلاً أم آجلاً، وإن لم يفقدوه اليوم سيفقدونه ويفقد كل شيء عندما يموت غداً.

أضف إلى ذلك فإنّ أغلب النعم التي تزول إنّما تعود فيما بعد بفضل الله ولطفه، وعليه فلا داعي للتأوه والشعور بالألم والحسرة. ويستفاد من العبارة الأخيرة أنّ أحد عوامل بقاء نعم الله وديمومتها طاعة الله واتباع أوامره والإلتزام بالقرآن والعمل بأحكامه.

وأشار الإمام عليه السلام في ختام الخطبة إلى نقطة مهمة أخرى تتمثل في ضرورة حفظ الدين حين يكون هنالك مفترق طرق وتضاد

بين حفظ الدنيا بزيتها وزخرفها وحفظ الدين، فليس هنالك من ضرر يطيل الإنسان إن ذهب دنياه، بينما لا ينفعه شيء إن ذهب دينه: «أَلَا وَإِنَّهُ لَإِيْضًا رُّكْمٌ تَضْبِيعٌ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةٌ دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَإِيْنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْبِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافِظٌ عَلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ»

. إشارة إلى أن الغنى الحقيقي، في حفظ الدين والإيمان الذي يشكل مفتاح حياة الإنسان الأبدية، لا النعم المادية العابرة، فهي عناصر ثانوية تغادر سريعاً كالفقاعات التي تطفو على سطح الماء. نقل المرحوم الكليني أن أحد أصحاب الإمام عليه السلام كان يقدم كل عام إلى الحج ويرى الإمام عليه السلام، لكنه غاب مدة. فسأل الإمام عليه السلام أحد أصحابه المعروفين عن ذلك الشخص، فلم يشأ أن يخبر الإمام عليه السلام بوضعه المالى الصعب. فقال عليه السلام وكيف دينه وإيمانه؟ قال: هو والله كما تحب. فقال عليه السلام: هو والله الغنى [٦٦٨].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦٠

وأخيراً اختتم عليه السلام الخطبة بهذا الدعاء:

«أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَالْهَمَمَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرُ!»

لقد قلنا مراراً إن الإمكانيات المادية إن استعملت كوسيلة لتحقيق الأهداف المعنوية فهي ليست مذمومة، بل هي من أفضل الوسائل لتطور الإنسان، ولما كان عصر الإمام عليه السلام والأئمة من بعده قد شهد إقبال المسلمين على الدنيا أثر الفتوحات وما جلبت إلى البلاد من أموال طائلة وثروات، فقد جهد الإمام عليه السلام على ذم الدنيا وتحذير الآخرين من الخداع بها، والخطبة المذكورة نموذج لذلك.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦١

الخطبة ١٧٤

إشارة

فِي مَعْنَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَقَدْ قَالَهُ حِينَ بَلَغَهُ خُرُوجُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ إِلَى الْبَصْرَةِ لِقِتَالِهِ [٦٦٩]

نظرة إلى الخطبة

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة حين بلغه خروج طلحة والزبير إلى البصرة للإستيلاء عليها وقتال الإمام عليه السلام. فأراد الإمام عليه السلام بهذه الخطبة رفع معنويات صحبه وكشف حقيقة طلحة والزبير، وتتألف الخطبة من قسمين:

الأول: الذي قال فيه الإمام عليه السلام إنه لم يهدد من قبل شخص بالحرب لحد الآن، فقد لمس الجميع شجاعتى فى ميدان القتال، وعليه فتهدد طلحة والزبير هراء.

والآخر: يستدل فيه الإمام بالبرهان والمنطق أن المطالبة بدم عثمان - التى يتذرع بها طلحة والزبير من أجل إشعال فتيل الحرب - كذبة فارغة، ذلك لأن يد طلحة ملطخة قبل أى أحد بدم عثمان.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦٣

القسم الأول

قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهْدَدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أَرْهَبُ بِالضَّرْبِ؛ وَأَنَا عَلَى مَا قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ. وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّدًا لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لِأَنَّهُ مَظْنَتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصَ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُعَالِطَ بِمَا أُجْلَبُ فِيهِ لِيَلْتَبَسَ الْأَمْرُ وَيَقَعَ الشُّكُّ. وَوَاللَّهِ مَا صَيَّعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: لَيْنُ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِمًا - كَمَا كَانَ يَزْعُمُ - لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازَرَ قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ. وَلَيْنُ كَانَ مَظْلُومًا لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَنَهِّينَ عَنْهُ، وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ وَلَيْنُ كَانَ فِي شُكٍّ مِنَ الْخَصِيْلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَرِلَهُ وَيَزُكِّدَ جَانِبًا، وَيَدَعَ النَّاسَ، مَعَهُ، فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرِفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسَلِّمْ مَعَاذِيرُهُ.

الشرح والتفسير: تناقض طلحة دليل فضيحة

أشار الإمام عليه السلام في بداية الخطبة إلى تهديد طلحة والزبير فقال:

«قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهْدَدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أَرْهَبُ بِالضَّرْبِ».

إشارة إلى أن الجميع يعلم بشدة وقع سيفي في المعارك الإسلامية قد جندلت صنايد العرب حتى اقترن اسمي بالشجاعة لدى الداني والقصي. وأنه لمن دواعي العجب أن يجراً طلحة والزبير على تهديدي بالحرب وقد شهدوا صولاتي في الحروب.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦٤

ثم قال عليه السلام:

«وَأَنَا عَلَى مَا قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ»

. يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى الوعد الإلهي للمؤمنين بالنصر والذي نصت عليه الآية الشريفة «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» [٦٧٠] كما يمكن أن تكون إشارة إلى وعد خاص وعده به رسول الله صلى الله عليه وآله في ظهوره على الناكثين، وقد أطلعه على موقعه الجمل وأخبر عائشة بها صراحة ونهاها عن الخروج، وقد ورد هذا الأمر في التواريخ [٦٧١].

ثم تطرق عليه السلام إلى نية طلحة والزبير من هذه الفعل القبيحة فقال:

«وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّدًا [٦٧٢] لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لِأَنَّهُ مَظْنَتُهُ، وَلَمْ

يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصَ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُعَالِطَ بِمَا أُجْلَبُ فِيهِ لِيَلْتَبَسَ الْأَمْرُ وَيَقَعَ

الشُّكُّ. وَوَاللَّهِ مَا صَيَّعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: لَيْنُ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِمًا - كَمَا كَانَ يَزْعُمُ - لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازَرَ [٦٧٤]

قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ [٦٧٥] نَاصِرِيهِ. وَلَيْنُ كَانَ

مَظْلُومًا لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَنَهِّينَ [٦٧٦] عَنْهُ، وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ وَلَيْنُ كَانَ

فِي شُكٍّ مِنَ الْخَصِيْلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَرِلَهُ وَيَزُكِّدَ [٦٧٧] جَانِبًا، وَيَدَعَ النَّاسَ،

مَعَهُ».

ثم قال عليه السلام:

«فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرِفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسَلِّمْ مَعَاذِيرُهُ [٦٧٨]».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦٥

وهكذا يكشف الإمام عليه السلام النقب عن كذب طلحة ومؤامرتة بهذا الأسلوب المنطقي ويشير إلى أنه سياسى محتال ومحترف، ذلك لأن وضعه إزاء عثمان - طبق الحصر العقلي - لا يتجاوز إحدى ثلاث حالات: إما، كان يعتبره ظالماً أو مظلوماً أو شاكاً فيه؛ وكل حالة تتطلب تعامل مناسب، لكنه وقف يوماً خلف الكواليس يؤلب الآخرين على قتل عثمان، وما أن قتل عثمان حتى هب للدفاع عنه والمطالبة بدمه.

هذه هي طريقة الساسة المحترفين الذين يغيرون مسيرتهم بين ليلة وضحاها أحياناً.

ولا تبدو سياسة معاوية- وإن حاول الإبتعاد عن هذه الأحداث- مختلفة عن سياسة طلحة. فقد تخلى عن عثمان حتى قتل، ثم طالب بدمه. كان هؤلاء راضيين في الواقع بقتل عثمان، أملاً في نيل الخلافة. وقد صرح الإمام على عليه السلام بأن طلحة لم يتعاون مع قتلة عثمان، والحال، يفيد التاريخ أنه ساعدهم. طبعاً، مراد الإمام عليه السلام أنه لم يرد الميدان علناً، لكنه كان ينسّق بعيداً عن الأنظار- ما يجدر ذكره أن ابن قتيبة ذكر في كتابه (الامامة والسياسة) أن عائشة خطبت الناس في البصرة ودعتهم للطلب بدم عثمان، فأبرز رجل من أشرف البصرة كتابا كتبه إليه طلحة يحثه فيه على قتل عثمان. فقال لطلحة: أتعرف هذا الكتاب؟ قال طلحة: بلى. قال: فما الذي حدث؟ بالأمس تريد قتل عثمان، واليوم تدعوا إلى المطالبة بدمه؟ وقد قلت: إن علياً عليه السلام دعاك ليوليكم الناس الخلافة لكبر سنك، فأبيت وبايعته حيث قلت: هو أقرب للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسوابقه في الإسلام مقدمه، فلم نقضت بيعتك؟ أجب طلحة: لقد قال ذلك بعد أن بايعه الناس وولّى الخلافة، وكنت أعلم أنه لا يفعل، وإن فعل لم يرض بخلافة المهاجرين والأنصار، فخفت إن لم أبايع أقتل فبايعت مكرها؟

فقال له الرجل: وكيف تغير موقفك من عثمان؟ قال طلحة: إن قومنا عابوا علينا عدم نصرته، واليوم نطالب بدمه [٦٧٩] ويتضح من هذا، أن الناس آنذاك كانوا يدركون عدم

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦٦

صدق طلحة في مزاعمه. ومن عجائب التاريخ الإسلامي ما رواه المدائني في كتاب مقتل عثمان أن طلحة منع دفن عثمان ثلاثة أيام، حتى استعان بعض الصحابة بعلي عليه السلام لدفنه. وقد أمر طلحة بعض الأفراد بإطلاق الحجر على الجنازة، حتى دفنوه في المدينة في موضع يدفن فيه اليهود، يدعى (حش كوكب)، ثم رماه البعض بالحجر. فبعث على عليه السلام من منعهم عن هذا العمل [٦٨٠].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦٧

الخطبة ١٧٥

إشارة

فِي الْمَوْعِظَةِ وَيَبَيِّنُ قُرْبَاهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ [٦٨١]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة من ثلاثة أقسام: ذكر الإمام عليه السلام في القسم الأول: مواظب قيمة لجميع مخاطبيه- الذين يمثلون في الواقع، الناس على مر العصور- بعبارات مؤثرة توقظ الغافل من غفلته.

وأشار في القسم الثاني إلى علمه بالأحداث القادمة وأن ذلك مما علمه إياه رسول الله صلى الله عليه وآله حيث صرح بأنه يستطيع أن يخبر كل أحد منهم بتفاصيل حياته، لكنه يتحفظ ذلك خشية الغلو والكفر.

أما القسم الثالث- الذي يمثل آخر الخطبة- فقد أشار فيه إلى سبقه الجميع في الأوامر والنواهي، فلا يأمر بشيء حتى يأتمر هو به ولا ينهى عنه حتى ينتهى هو عنه.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦٩

القسم الأول

أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرِ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُودَ مِنْهُمْ. مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللَّهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمَ أَرَاخَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعَى وَبِيٍّ، وَمَشْرَبِ دَوِيٍّ، وَإِنَّمَا هِيَ كَالْمَغْلُوفَةِ لِلْمُدَى لَاتَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أَحْسِنُ إِلَيْهَا تَحَسَّبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشَبَعَهَا أَمْرَهَا. وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلَجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِي بَرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

الشرح والتفسير: الغفلة التامة

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بخطاب جميع الناس قائلاً:
«أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرِ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُودَ مِنْهُمْ».

ثم أضاف عليه السلام:

«مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللَّهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمَ أَرَاخَ بِهَا سَائِمٌ ٦٨٣] إِلَى مَرْعَى وَبِيٍّ ٦٨٤]، وَمَشْرَبِ دَوِيٍّ ٦٨٥]».

رغم أن جميع المسلمين يتحدثون عن الله، إلا أن عمل البعض يشير إلى أنه

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٠

تولى عن الله والتصق بالدنيا وهوى النفس، فقد شبّه الإمام عليه السلام مثل هؤلاء بالحيوانات التي حملها الراعي الجاهل أو المغرض إلى مرعى ليس فيه ماء ولا كلاء سوى المرض والموت. هذا الراعي، هو الشيطان وهذه الحيوانات، هم الناس الذين لا يصغون لنداء العقل وقد استغرقوا في هوى أنفسهم، وهذا المرعى المميت هو وادى اللذات والشهوات الذي يفرز الذنوب والمعاصي وبالتالي يقتل روح الإنسان ومعنويته.

ثم قال عليه السلام:

«وَإِنَّمَا هِيَ كَالْمَغْلُوفَةِ لِلْمُدَى ٦٨٦] لَاتَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أَحْسِنُ إِلَيْهَا تَحَسَّبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشَبَعَهَا أَمْرَهَا».

فقد شبّه الإمام عليه السلام بهذين التشبيهين أصحاب الدنيا، بالحيوانات التي لا هم لها سوى شبعها وأن من يقدم لها العلف يحسن إليها، ولا تعلم أن علفها وسقيها مقدمة لذبحها، وهذا حالهم حين ينغمسون في لذات الدنيا وشهواتها.

وأخيراً أشار إلى جانب من علمه بأسرار الغيب وحوادث المستقبل ليقفوا على جديته ومعرفته بما يصلحهم:

«وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلَجِهِ ٦٨٧] وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِي بَرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان جالساً فدخل عليه على عليه السلام فقال:

«إِنَّ فِيكَ شَبَهًا مِنْ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ وَلَوْ لَأَنْ تَقُولَ فِيكَ طَوَائِفٌ مِنْ أُمَّتِي مَا قَالَتِ النَّصَارَى فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ لَقُلْتُ فِيكَ قَوْلًا لَاتَمُرُّ بِمَلَأٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا اخْتَدُوا التُّرَابَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْكَ يَلْتَمِسُونَ بِذَلِكَ الْبَرَكَهَ» [٦٨٨].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧١

القسم الثاني

أَلَا وَإِنِّي مُفَضِّلٌ بِهِ إِلَى الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَاصِطَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلَّا صَادِقًا، وَقَدْ عَهَدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِكَ مَنْ يَهْلِكُكَ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَالَ هَذَا الْأَمْرِ. وَمَا أَبْقَى شَيْئًا يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَعُهُ فِي أُذُنِي وَأَفْضِي بِهِ إِلَيَّ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَاللَّهِ، مَا أَحْتَكُمُ عَلَى طَاعَةِ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ إِلَّا وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا.

الشرح والتفسير: علمنى رسول الله صلى الله عليه وآله كل شيء

بالنظر إلى أن الإمام عليه السلام أشار في السابق إلى علمه بأسرار الغيب وإخبار كل شخص عن تفاصيل حياته، إلا أنه يخشى منهم الغلو والكفر، ليشير هنا إلى أمرين؛ الأول: إنى أطلع على هذه الأسرار بعض الخواص من المؤمنين ممن يتحملون الأسرار ويحفظونها، والآخر، ما أقوله إنما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«أَلَا وَإِنِّي مُفْضِيهِ [٦٨٩] إِلَى الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمِنُ ذَلِكَ مِنْهُ»

. هذه الخاصة، مثل، كميل بن زياد، ورشيد الهجرى، والأصغ بن نباتة، وميثم التمار، وحبيب بن مظاهر، الذى يسع كل واحد منهم حفظ بعض الأسرار. وقد حفلت حياتهم بالتعرض لبعض الأسرار فى المواقع الحساسة؛ فإذا كان التلامذة يحملون مثل هذه الأسرار ولهم مثل هذه

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٢

المقامات، فما ظنك بالأسرار المودعة لدى الأستاذ، والمقام الذى هو عليه!!؟

ثم خاض فى الأمر الثانى فقال:

«وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَاصْبِطْ فَاهُ عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطَقُ إِلَّا صَادِقًا، وَقَدْ عَهَدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِكَ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَالَ هَذَا الْأَمْرِ. وَمَا أَبْقَى شَيْئًا يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَعُهُ [٦٩٠] فِي أُذُنِي وَأَفْضِي بِهِ إِلَيَّ».

ترى هل كان تعليم النبى صلى الله عليه وآله لهذه الأسرار بصورة بيان جزئى وشرح لكل واقعة، أم أنه علم علينا عليه السلام أصول وكليات، وأن كل باب يفتح ألف باب، أم كانت الموارد مختلفه فتارة من خلال الأصول الكلية وأخرى من خلال التفاصيل؟ يبدو الإحتمال الثالث، هو الأقرب. نعم، هذه الأمور ليست واضحة لدينا، والله ورسوله أعلم، إلا أننا نعلم أنه أخبر عن حوادث جمه ووقعت كما أخبر، وقد بينت فى خطب متعددة من نهج البلاغه، ولو جمعت لكانت كتاباً رائعاً. وبالطبع فإن أى من ذلك ليس من علم الغيب الذاتى - الذى يختص بالله تعالى - بل كما قال عليه السلام فى الخطبة ١٢٨

«إِنَّمَا هُوَ تَعَلَّمَ مِنْ ذِي عِلْمٍ» [٦٩١]

ولما كان الإمام عليه السلام قد أفرد جانباً مهماً من الخطبة فى دعوة الناس إلى ترك الانغماس فى الدنيا عاد فى ختام الخطبة ليشير إلى هذه النقطة المهمه فى سبقه للعمل بما يأمر فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَاللَّهِ، مَا أَحْتُكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنَهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ إِلَّا وَأَتَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا»

. فالشروط اللازمة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإن لم تتضمن ضرورة عمل الأمر والنهى.

كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ وَأَنْهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَجْتَبِئُوهُ كُلُّهُ» [٦٩٢]

. ولكن الأمر والنهى إذا كان عاملاً قبل الآخرين بما

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٣

يأمر به وينهى عنه فسيكون لكلامه أبلغ الأثر فى نفوسهم، لأن تأثير الكلام إنما ينبع من القلب، فإن خرج من القلب استقر لا محاله فى القلب. ومن هنا كان هذا هو الأسلوب الذى اعتمده رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام وأتباعهم وأنصارهم، فإن نشبت الحرب، كانوا فى خطوطها الأمامية وإن حل وقت العبادة تغيرت ألوانهم، حتى حذر القرآن الكريم رسول الله صلى الله عليه وآله من إجهاد نفسه فى العبادة: «طه* مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى [٦٩٣]. وقال أمير المؤمنين على عليه السلام بشأن سبق رسول الله صلى الله عليه وآله فى القتال:

«كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ النَّبَأُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبُ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ» [٦٩٤].

ونعلم جميعاً أنّ علياً عليه السلام إن حثّ الناس في هذه الخطبة وسائر الخطب على الزهد في الدنيا وعدم التعلق بزخارفها، فقد كان أزهد العباد، وحياته خير شاهد على زهده الفريد، والحق لو انطلق زعماء البلدان الإسلامية من هذه المفاهيم في أن يلتزموا هم وبطانتهم بالعمل بالقوانين قبل غيرهم، لكان لكلماتهم أعظم التأثير في نفوس الآخرين.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٥

الخطبة ١٧٦

إشارة

وَفِيهَا يَعِظُ وَيُبَيِّنُ فَضْلَ الْقُرْآنِ وَيَنْهَى عَنِ الْبِدْعَةِ [٦٩٥]

نظرة إلى الخطبة

هذه خطبة طويلة تتحدث عن مسائل مهمّة وتتضمن وصايا حية وبناءة لحياتنا المعاصرة وتتألف من ثمانية أقسام: القسم الأول، الذي يتضمن مواعظ قيّمة يؤكد فيها الإمام عليه السلام أنّ جهنم حُفَّت بالشهوات، والجَنَّةُ بمقاومة هذه الشهوات. وشرح في القسم الثاني، أهميّة القرآن مع ذكر بعض التفاصيل الظريفة التي تضاعف من شوق القلوب إلى آيات القرآن. وتطرّق عليه السلام في القسم الثالث، إلى العمل بالأحكام والاستقامة.

ثم عاود النصح والوعظ في القسم الرابع، مؤكداً على مراقبة اللسان الذي يمثل

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٦

أولى مراحل إصلاح الذات والمجتمع. وأكد في القسم الخامس، على حفظ أصالة التعاليم الإسلامية، ونبذ البدع، كما تعرض في القسم السادس، إلى أهميّة القرآن وخصائصه. وأوضح في القسم السابع، أقسام ظلم النفس والآخرين. أمّا القسم الثامن (والأخير في الخطبة) فهو بيان مختصر عميق المعنى بشأن إصلاح الذات.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٧

القسم الأول

اتَّنَفَعُوا بِبَيَانِ اللَّهِ، وَاتَّعَظُوا بِمَوَاعِظِ اللَّهِ، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَدَّ لِلْيَكْمِ بِالْجَلِيَّةِ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَكَارِهِهْ مِنْهَا، لِتَتَّبِعُوا هَذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةٍ لِلَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهِهِ، وَمَا مِنْ مَعْصِيَةٍ لِلَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي شَهْوَاهِ. فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا نَزَعَ عَنْ شَهْوَاهِ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْرَعًا وَإِنَّهَا لَأَتْرَالُ تَنْرَعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوَى.

الشرح والتفسير: حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات

إستهل الإمام عليه السلام خطبته قائلاً:

«انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللَّهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللَّهِ، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّهِ»

يمكن اعتبار هذه العبارات الثلاث تبياناً لحقيقته واحدة بجمل مختلفه، ويحتمل أن تكون كل عبارة مُبَيَّنَةً لمطلب معين. فقد أوصى عليه السلام بادیء الأمر بالانتفاع ببيان الله والمراد به الأوامر والنواهي، ومن ثم الإعتاظ بمواعظ الله، أى الترغيب والترهيب والبشارة والإنذار التى تشكل دوافع الطاعة وترك المعصية، والمرحلة الأخيرة مرحلة الخير التى تتضمن بركات الطاعة وهجر المعصية، فالمرحلة الثلاث هى السبيل إلى القرب الإلهي. جدير ذكره أن لفظ الجلالة تكرر فى العبارات الثلاث، وذلك لبيان أهميته الموعظ والنصائح والشعور بمراقبة الله.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٨

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال الدليل والبرهان، فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَدَّ لِكُلِّكُمْ بِالْجَلِيلَةِ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّتَهُ [٦٩٦] مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَكَارِهِهُ مِنْهَا، لِيَتَّبِعُوا هَذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ».

فالإمام عليه السلام لا يرى من مبرر للتوانى فى قبول الموعظ والإتيان بالواجبات وترك المحرمات، ذلك لأن الله أتم الحجة على الجميع ووضع بما لا يقبل الشك، سبيل قبح العقاب بلا بيان. وخاض عليه السلام فى الرد على إشكالات مقدرة فقال:

«فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ [٦٩٧] بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

وواصل عليه السلام كلامه فى بيان حديث الرسول صلى الله عليه وآله، فقال:

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةٍ لِلَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهِهِ، وَمَا مِنْ مَعْصِيَةٍ لِلَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي «فِي شَهْوَةٍ. فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً نَزَعَ [٦٩٨] عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ [٦٩٩] هَوَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْرَعًا وَإِنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَتِهِ فِي هَوَى».

فهذه حقيقة، وهى أن الإنسان لا بد له من اجتياز الطرق الصعبة الوعرة فى مسيرته العبادية وكسب الفضائل ودفع الرذائل، وعليه مراقبة الأخطار التى تكمن فى طريقه وتعيقه عن الوصول إلى هدفه، أما فى مسيرة المعصية فكأن هذه النفس الجامحة تسلك سبيلاً سهلاً لا ينطوى على أية صعوبات، وهذا هو سر ثواب الطاعة وعقوبة المعصية.

نقرأ فى حديث لطيفه عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَنَّ اللَّهَ حِينَ خَلَقَ الْجَنَّةَ أَمَرَ جِبْرِيلَ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٩

بالنظر إليها، فأقسم بعزة الله وجلاله أن كل من سمع عنها يود دخولها، ثم حَفَّها الله بالمكاره وأمره بالنظر إليها، فنظر إليها وقال أخشى أن لا يرغب فيها أحد، وحين خلق النار أمر جبريل بالنظر إليها، فلما نظر إليها أقسم بعزة الله وجلاله أن كل من سمع عنها سوف لن يدخلها، ثم حَفَّها بالشهوات، وأمره بالنظر إليها، فأقسم بعزة الله وجلاله أنه يخشى أن يدخلها الجميع» [٧٠٠].

تأمل: عشق الطاعة

ما ورد فى هذه الخطبة حكم غالب، لا دائم، بعبارة أخرى أن أكثر الطاعات مصحوبة بالمشاكل وأغلب المعاصى محفوفة باللذة. والجدير بالذكر أن هذا الحكم الغالب يختص بعامة الناس، وإلا فإن أولياء الله ودعاة الحق إنما يبلغون درجة تجعلهم يتلذذون بكل طاعة ويذوبون فيها ويتنفرون من كل معصية، حيث ورد فى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَشِقَ الْعِبَادَةَ فَعَانَقَهَا» [٧٠١]

وقد اعتمد الإمام عليه السلام تلك العبادة لأن مخاطبيه عامة الناس لا الخواص والأولياء. وصدر الخطبة يشهد على هذا الأمر. القرآن الكريم من جانبه يقول بشأن الصوم والصلاة:

«وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ» [٧٠٢] سؤال: قيل في تفسير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن المعروف ما عُرف؛ لأن روح الإنسان متعرفة على المحاسن، والمنكر ما لم يُعرف، وروح الإنسان لا تعرف المساوىء، أليس العبارة المذكورة في الخطبة، تتعارض مع هذا التفسير المشهور؟

يتضح من التأمل أن ليس هنالك من تعارض، لأن معرفة المعروف ومجهوليته

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٨٠

المنكر لا تتنافى من حيث الإدراك الكلي مع جاذبه المعصية ودافعه الطاعة، مثلاً نلتد جميعاً بالعلم ونتنفر من الجهل، إلا أن تحصيل العلم ينطوي على عدّة مصاعب، بحيث يزهده فيه بعض الأفراد، وينزعون إلى الجهل، حيث الكسل والخمول.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٨١

القسم الثاني

وَاعْلَمُوا- عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُضْبِحُ وَلَا يُمَسِّي إِلَّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ، فَلَا يَزَالُ زَارِيًا عَلَيْهَا وَمُسْتَرِيدًا لَهَا. فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ. قَوْضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَّوْهَا طَيِّ الْمَنَازِلِ.

الشرح والتفسير: نقد الذات

أعطى الإمام عليه السلام هنا دعاء الحق والسالكين إلى الله درساً معنوياً مهماً فقال:

«وَاعْلَمُوا- عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُضْبِحُ وَلَا يُمَسِّي إِلَّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ [٧٠٣] عِنْدَهُ، فَلَا يَزَالُ زَارِيًا [٧٠٤] عَلَيْهَا وَمُسْتَرِيدًا لَهَا».

فإننا نعلم أن أحد حجب تكامل الإنسان، هو حب الذات الذي يبدى له عيوبه محاسن وضعفه قوة، وعليه فإن أراد الإنسان سلوك طريق السمو والتكامل، لا بد أن يتهم نفسه ويعرضها للنقد لي طرح عنها حجب حب الذات ويرىها الواقع كما هو. وقد بين الإمام عليه السلام هذا الأمر بثلاث عبارات قصيرة، قال في الأولى بوجوب إساءة الظن بالنفس ومن ثم انتقادها وأخيراً إيصالها إلى الكمال المطلوب. وقد أشار في خطبة المتقين التي تضمنت مائة وعشرة دروس أخلاقية إلى هذه القضية المهمة:

«فَهُمْ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٨٢

لَأَنْفُسِهِمْ مُتَّهَمُونَ».

ثم رغب مخاطبيه- الإنسانية جمعاء- في ترك التعلق بالدنيا وقد عرض لهم نماذج السلف الصالح فقال:

«فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ.

قَوْضُوا [٧٠٥] مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَّوْهَا [٧٠٦] طَيِّ الْمَنَازِلِ».

وصايا ضرورية

١. ورد الحث في الإسلام والتأكيد على حسن الظن، فما معنى تأكيد الإمام عليه السلام هنا على إساءة الظن؟ سبب ذلك واضح في أن حسن الظن يتعلق بالآخرين، أما بالنسبة للذات التي تعيش طبيعياً حسن الظن المفرط إلى درجة رؤية الضعف قوة، والرذيلة فضيلة، ورد

الحث على إساءة الظن لإيجاد حالة من التوازن. فلا بد للإنسان من نقد ذاته وتقييم أعماله وسلوكه دون تهاون لينفتح على الكمال. فهو كذاك الذي يجتاز طريقاً خطراً، فإن اطمأن للطريق، هوى وإن احتاط وحذر، نجى.

جدير بالذكر أن نقد الذات لا يتنافى والثقة بالنفس، فالثقة بالنفس من قبيل وجود قوة عظيمة لدى الإنسان وهو عالم بها، وهذا لا يمنع من الحذر في مواضع الخطر وعدم نسيان الاحتياط حين الاستعانة بتلك القوة.

٢. أورد الإمام عليه السلام لمخاطبيه نموذجين (كالسابقين من قبلكم) و (الماضين أمامكم) لانطواء حياة كل فئة منهما على الدروس والعبر.

٣. اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بأمرهم بالنظر إلى الدنيا كمن قوض عماد الخيمة وجمعها وسلك سبيله يطوى المنازل دون الإقامة في الدنيا والاستقرار فيها، ويبدو أن جميع مشاكل أهل الدنيا تنبعث من هنا، في أنهم نسوا الموت تماماً وظنوا بخلودهم في الدنيا، وكأنهم لا يرون الزلازل والسيول التي تضرب بعض المناطق

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٨٣

فتحليها خلال ثوانٍ، خراباً كأنها لم تسكن من قبل، وتأتى على مزارع وحقول لتحطم كل محاصيلها التي استغرقت مئات السنين [٧٠٧].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٨٥

القسم الثالث

وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يُغْشَى، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هَيْدِيٍّ، أَوْ نَقْصَانٍ مِنْ عَمِيٍّ. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعِيدِ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقِهِ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنَى؛ فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَانِكُمْ، وَاسْتَبْعِنُوا بِهِ عَلَى لَأْوَانِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنَّفَاقُ، وَالْغِيُّ وَالضَّلَالُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ.

الشرح والتفسير: القرآن دواء لكل داء

بين الإمام عليه السلام هنا أهمية القرآن الكريم بصفته الكتاب السماوي الشافي في خمسة أوصاف فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يُغْشَى، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هَيْدِيٍّ، أَوْ نَقْصَانٍ مِنْ عَمِيٍّ. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعِيدِ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقِهِ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنَى»

. فقد أشار بالعبارة الأولى والثانية والثالثة إلى هذه الحقيقة وهي أن الناصح الأمين والهادي من لا يكذب أو يغش أو يغدر أو يضل حتى لا يكون سبباً لانحراف الآخرين، فلعل هناك من يعرف السبيل إلا أنه لا يصدق الآخرين أو يخدعهم، كما يمكن أن يكون صادقاً لكنه لا يعرف الطريق، والحال، ليس القرآن كذلك، فالوحي إنما يستند إلى علم الله المطلق

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٨٦

الذي لا يتسلل إليه الكذب والغش والخيانة، فهو كتاب الله الغني عن الجميع والمشفق بهم.

ومن هنا خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجتين مهمتين لهداية القرآن؛ الأولى أن من يجالس القرآن فهو دائماً في إزدياد ونقصان؛ زيادة في الهدى، ونقصان، من العمى والضلال، والأخرى أن القرآن مصدر عظيم، والفرد أو المجتمع الذي يلتزم بأحكامه ويعمل بتعاليمه، لا يصيبه فقر معنوي، ولا مادي، وعلى العكس من فارقه شهد الفقيرين. طبعاً قد لا يكون الفرد في زمرة أتباع القرآن الكريم إلا أن أعماله تنسجم مع تعاليمه، كأن لا يكذب ولا يغش ولا يهضم الآخرين حقوقهم فذلك له نصيبه من النجاح والتوفيق، وهذا ما

أكده الإمام عليه السلام في وصيته

«اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ لَيَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ» [٧٠٨]

وقد اختلف شراح نهج البلاغة في كلمة (بعد) في العبارة (بعد القرآن) هل معناها، بعد نزول القرآن، أم بعد العمل به؟ ويبدو المعنى الثاني هو الصواب، لأن العمل بالقرآن يزيل الفقر المعنوي والمادى، لا النزول دون العمل.

ويستفاد ضمناً من هذه العبارة أن ما يشهده العالم الإسلامى من ضعف وفقر فى الجانب المعنوي والمادى إنما يعزى لابتعاده عن القرآن، على غرار من جلس عند عين ماء صافية ويشكو العطش.

ثم خلاص إلى نتيجة أخرى فقال عليه السلام

: «فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ [٧٠٩]، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنَّفَاقُ، وَالْغَى [٧١٠] وَالضَّلَالُ»

. فالإمام عليه السلام يعتبر القرآن وسيلة لحل المشاكل والشفاء من جميع الأمراض الأخلاقية والاجتماعية والمعنوية، ويوجز هذه الأمراض فى أربعة: الكفر والنفاق والجهل والضلال؛ ذلك لأن القرآن يقذف نور الإيمان والإخلاص فى القلب

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٨٧

ويهتك حجاب الجهل ويهدى الإنسان من الضلالة. قطعاً، ليس هنالك من مرض يهدد المجتمع القرآنى المعروف بالإيمان والإخلاص.

ثم خلاص الإمام عليه السلام إلى نتيجة أخرى:

«فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ»
. ويستفاد من هذا التعبير أن القرآن أهم وسيلة للنجاة ونيل العناية الإلهية، والعبارة
«وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ»

إشارة إلى عدم جعل القرآن وسيلة لإلفات انتباه الآخرين بهدف تحقيق بعض الأطماع الدنيوية. روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ فُلَانٌ قَارِئٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيُطَلَّبَ بِهِ الدُّنْيَا وَلَا خَيْرَ فِي ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ فِي صَلَاتِهِ وَلَيْلِهِ وَنَهَارِهِ» [٧١١].

تأمل

القرآن والشفاء

صحيح أن عدّة روايات تحدّثت عن تأثير القرآن فى شفاء أمراض البدن أيضاً، ولا يستبعد من كلام الله حتى إحياء الموتى به فضلاً عن شفاء الأمراض، إلّا أنّ ما ركز عليه الإمام عليه السلام فى الخطبة، شفاء القرآن للأمراض المعنوية والخلقية التى أوجزها فى أربعة؛ الكفر والنفاق والجهل والضلال، كما أكد عليه السلام على ضرورة الإستغاثة بالقرآن وتعزيز العلاقة به وحبّه. ويتضح أن المراد من التوسل والحب، ما ليس ببعيد عن العمل. وبالطبع فإنّ الاستشفاء بالقرآن من الأمراض الخلقية والاجتماعية والعقائدية يتم من خلال الوقوف على مضامين الآيات والإلتزام بها على صعيد العمل، على غرار ما فعله النبى صلى الله عليه و آله حين نهض بذلك المجتمع المريض ليجعله من أقوى وأفضل المجتمعات.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٨٩

القسم الرابع

وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ، وَقَانِلٌ مُصَدِّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَّ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلَى فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبُهُ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرْثِهِ الْقُرْآنِ». فَكُونُوا مِنْ حَرْثِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَأَتِهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَ كُمْ، وَاسْتَنْصِحُوا فِيهِ أَهْوَاءَ كُمْ.

الشرح والتفسير: القرآن شفيع القيامة

واصل الإمام عليه السلام حديثه هنا عن بركات القرآن وآثاره، مع هذا الفارق في أن الكلام في السابق عن البركات المعنوية والمادية للقرآن في هذه الدنيا، وهنا عن بركاته في الآخرة، وقد أكد على شفاعته، فقال:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ، وَقَانِلٌ مُصَدِّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَّ [٧١٢] بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ»

. لا شك في أن شفاعته القرآن بلسان الحال أو القول لمن عمل به، وشكواه ممن هجره ولم يحط به علماً.

ثم وضع عليه السلام أكثر فقال:

«فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ [٧١٣] مُبْتَلَى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٠

فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبُهُ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرْثِهِ الْقُرْآنِ». فَكُونُوا مِنْ حَرْثِهِ وَأَتْبَاعِهِ»

. وتشير هذه العبارة إلى الحديث المعروف

«الدُّنْيَا مَرْزَعَةُ الْآخِرَةِ»

فالإمام عليه السلام يوصي بزراعة بذور الآيات القرآنية في هذه المزرعة، فلا بذور مثمرة سوى هذه، وكل ما سواها ضرر وخسران. فمن طابقت أعماله تعاليم القرآن كانت بذوره آياته، ومن خالف سلوكه القرآن، فلا يحصد سوى الخيبة والخسران.

ثم اختتم عليه السلام بالإشارة إلى هذه الحقيقة وهي كون القرآن بمعيار والميزان لكل الأشياء، فقال:

«وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَأَتِهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَ كُمْ، وَاسْتَنْصِحُوا [٧١٤] فِيهِ أَهْوَاءَ كُمْ»

. حيث أشار عليه السلام بهذه العبارات القصيرة إلى ثلاثة أمور مهمّة، الأول: ضرورة أخذ العقائد الصحيحة من القرآن، والثاني: كسب الفضائل الخلقية عن طريق القرآن، والثالث: جعل القرآن، الفرقان بين الحق والباطل، فما وافق القرآن صحيح وحق وما خالفه خاطئ وباطل. وهذه العبارة، تأكيد آخر على بطلان التفسير بالرأى وتحميل الأفكار على المفاهيم القرآنية.

جاء في الرواية

«مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» [٧١٥].

وورد في رواية أخرى أن الله تعالى قال:

«مَا آمَنَ بِي مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ كَلَامِي» [٧١٦]

. جدير بالذكر أن الاستدلال بالقرآن لمعرفة الله يتم تارة عن طريق أدلة التوحيد- الواضحة في القرآن بأسره- وتارة أخرى عن طريق ذات القرآن، حيث هذا الكتاب العظيم هو دليل النبوة من جانب، وذاته المقدسة من جانب آخر. ويصدق هذا الكلام على جميع المعجزات بخصوص القرآن.

أما الفارق بين الآراء والأهواء التي وردت في العبارة. أن الآراء إشارة إلى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩١

العقائد المخالفة للقرآن، والأهواء، الرغبات النفسانية المضادة له.

القسم الخامس

الْعَمَلُ الْعَمَلُ، ثُمَّ النَّهْيَةُ النَّهْيَةُ، وَالْإِسْتِقَامَةُ الْإِسْتِقَامَةُ، ثُمَّ الصَّبْرُ الصَّبْرُ، وَالْوَرَعُ الْوَرَعُ! «إِنَّ لَكُمْ نَهْيَةً فَانْتَهُوا إِلَيْهَا نَهْيَتِكُمْ»، وَإِنَّ لَكُمْ عِلْمًا فَاهْتَدُوا بِعِلْمِكُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى غَايَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَى اللَّهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَحَجِيحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ.

الشرح والتفسير: الدفاع المشروط

أشار الإمام عليه السلام بعد الفراغ من بيان أهمية القرآن، إلى هذه الحقيقة وهي أن الهدف النهائي من نزول القرآن، العمل به، لا الاقتصار على تلاوته:

«الْعَمَلُ الْعَمَلُ، ثُمَّ النَّهْيَةُ النَّهْيَةُ، وَالْإِسْتِقَامَةُ [٧١٧] الْإِسْتِقَامَةُ، ثُمَّ الصَّبْرُ الصَّبْرُ، وَالْوَرَعُ الْوَرَعُ!»

. حقاً أن هذه المراحل الخمس التي ذكرها الإمام عليه السلام هي في الحقيقة عصارة السمو والتكامل والسير إلى الله. فالإنسان ينبغي أن يتجه بادية الأمر إلى العمل ومن ثم لا- يتهاون في إتمامه، ويراقب نفسه خلال ذلك حذراً من الانحراف عن جادة الصواب ويتحلى بالصبر إزاء أهواء النفس ووسوس الشيطان، حتى يصل المرحلة الأسمى، الورع عند الشبهة حتى يصل الهدف.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٢

ذكر بعض شراح نهج البلاغة أن العبارة الثانية والرابعة عطف بالحرف ثم والثالثة والخامسة، بالواو، لأن بلوغ الهدف يكون بعد العمل، ولما كانت الإستقامة هي كيفة العمل فقد عطف بالواو، وحيث الصبر إزاء المعصية وما ورد قبله، في الطاعة فقد عطف بالحرف ثم، وعطف الصبر والورع بالواو لأنهما متلازمان [٧١٨]. طبعاً هنالك تفسير أخرى واردة بشأن العبارة.

ثم أشار عليه السلام إلى هدف المراحل المذكورة وعلامة بلوغ الهدف، فقال:

«إِنَّ لَكُمْ نَهْيَةً فَانْتَهُوا إِلَيْهَا نَهْيَتِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ عِلْمًا فَاهْتَدُوا بِعِلْمِكُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى غَايَتِهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى قضية مهمة هي هدية حياة الإنسان إلى جانب هدية التعاليم الدينية، فالله لم يخلقنا عبثاً، والشرعية تنشأ هدفاً هاماً هو سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. وقد أوصى الإمام عليه السلام بالسعي لنيل هذا الهدف وحذر من الغفلة والتوقف في الطريق، فعلاماته واضحة. وربما كان المراد من العلم وجوده عليه السلام والأنبياء والأولياء في كل عصر ومصر، الذين أضاءوا الطريق للجميع، أو المراد، القرآن المجيد، بعبارة أخرى الكتاب والسنة، أو جميع ذلك.

وخلص في الختام إلى هذه النتيجة

«وَاخْرُجُوا [٧١٩] إِلَى اللَّهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ

حَقِّهِ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَحَجِيحٌ [٧٢٠] يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ».

المقصود بالشاهد أنه عليه السلام يشهد في القيامة على الأعمال الصالحة للناد وأداء الحقوق واستقامتهم في سبيل الوصول إلى الهدف وصبرهم وورعهم وتقواهم، والمراد من الحجيج، أنني سأدافع عنكم وأجيب الملائكة في محكمة العدل الإلهي.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٣

فهذه العبارات اقتباس من القرآن الكريم وقوله: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ» [٧٢١] وقال بشأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ» [٧٢٢].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٥

القسم السادس

أَلَمْ وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ؛ وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَّةِ اللَّهِ وَحُجَّتِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ»، وَقَدْ قُلْتُمْ: «رَبُّنَا اللَّهُ»، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ثُمَّ لَا تَمْرُقُوا مِنْهَا، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا. فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْفَطِحٌ بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى الأحداث السابقة، فقال:

«أَلَمْ وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ [٧٢٣]»

. وردت عدة احتمالات من قبل بعض شراح نهج البلاغة بشأن المراد من القضاء والقدر في العبادة، ولكن بالنظر إلى العبارات القادمة فلا- يستبعد أن تكون إشارة إلى الأمور المرتبطة بزعامته عليه السلام- التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله ومواجهته للناكثين- والمفروغ منه أن القضاء والقدر- كما شرحناه في محله- لا- يعنى إجبار العباد وسلب اختيارهم، بل إن آثار الأفعال الاختيارية للإنسان نوع من القضاء والقدر؛ مثلاً، إن الله قدر نجاح من يسعى ويجد ويجتهد، وفشل من يتوانى ويكسل، فهذه الأمور وإن جرت باختيار الإنسان إلا أن الله مسبب الأسباب جعل لذلك آثاراً تعتبر من القضاء والقدر، طبعاً، هناك القضاء والقدر

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٦

الإلزامى الخارج عن حدود الأفعال الإنسانية [٧٢٤].

ثم بين عليه السلام وظيفة الناس بالنسبة للمستقبل، فقال:

«وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَّةِ اللَّهِ وَحُجَّتِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ».

ثم خالص إلى نتيجة واضحة، فقال:

«وَقَدْ قُلْتُمْ:

«رَبُّنَا اللَّهُ»

، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ».

إشارة إلى أن القول بلا عمل لا يؤدي إلى الهدف ولا يوجب دخول الجنة والفوز بالسعادة الأبدية، فما دمتم أظهرتم الإيمان فعليكم بالعمل لتشملون بوعده الله.

ثم بين عليه السلام الأخطار التي تكمن في طريق المؤمنين، فقال:

«ثُمَّ لَا تَمْرُقُوا مِنْهَا، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا. فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ [٧٢٥] مُنْفَطِحٌ [٧٢٦] بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ»

. فقد أشار عليه السلام في هذه العبارة إلى ثلاث فرق من المنحرفين وحذر من السير على نهجهم، الفئة الأولى التي تمرق من الدين وترى نفسها على الدين بينما هي بعيدة عنه كل البعد، كخارج النهروان الذين نعتهم الروايات والتواريخ بالمارقين، فقد بلغوا درجة من التعبد والتمسك بقشور الدين بحيث يحسبهم الجاهل من المتدينين الحقيقيين، والحال، ليس لهم حظ من الدين سوى ظاهره ولا

يعلمون عن حقيقة الدين شيئاً.

الفئة الثانية: أهل البدع الذين يُحمّلون الدين ما ليس منه، والواقع أنهم يقدمون أهواءهم وأفكارهم على أحكام الدين ولم يكونوا قلائل على عهد الخلفاء. الفئة الثالثة: التي تخالف الأحكام الشرعية عامدة وتترك ما لا ينسجم مع مصالحها

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٧

ومنافعها، وأفضل نموذج على ذلك، معاوية حين ظهر ودخل الكوفة خطب الناس، فقال: «والله لم أقاتلكم لتصوموا وتصلوا وتحجوا وتزكوا فأنتم تفعلون ذلك، ولكن قاتلكم لأتأمر عليكم» (وقيل على روايه، لأتسلط على رقابكم) [٧٢٧]. نعم، من جانب هذه الطرق المنحرفة ولم يصغ لوساوس الشيطان وهوى النفس فهو الذى قال:

«قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ» [٧٢٨].

تأمل: الإستقامة فى مسار الولاية

ورد فى بعض الروايات فى تفسير العبارة
«ثُمَّ اسْتَقَامُوا»

(المقتبسة من الآية ٣٠ من سورة فصلت) أنها إشارة إلى الولاية. فقد أجاب الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام من سألته عن الإستقامة فى الآية المذكورة، فقال:

«هِيَ وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» [٧٢٩]

. طبعاً الإستقامة والثبات على الصراط لهما مفهوم واسع، واحد مصاديقه البارزة، ولاية أهل البيت عليهم السلام.

سؤال: متى هذه البشارة التى تزفها الملائكة للمؤمنين، عند الموت أم فى الحياة الدنيا أم القيامة؟ هل يلمس المؤمنون هذه البشارة، أم لا؟

الجواب: مِمَّا لا شك فيه أن نجد الملائكة - طبق صريح الآيات القرآنية - للمؤمنين فى الظروف الحساسة مبدولة فى هذه الحياة الدنيا، ونموذج ذلك ما حصل

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٨

فى موقعة بدر والأحزاب [٧٣٠]؛ طبعاً لم يرههم المؤمنون إلا أنهم شاهدوا إمداداتهم الغيبية على صعيد نصرتهم فى ميدان القتال. وما يستفاد من الروايات أن بشارة الملائكة المذكورة فى الآية السابقة، والتى أشارت إليها الآية ٣١ من سورة فصلت، تتعلق بلحظة الموت أو الحشر وقد فسرت العبارة

«نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...»

بصيغته «ونحن كنا أولياءكم فى الحياة الدنيا»، أى، كنا أولياءكم فى الحياة الدنيا وستنولواكم لحظة الإحتضار والقيامة. روى صاحب مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«أَلَّا تَخَافُوا مَا تَقْدِمُونَ عَلَيْهِ وَلَا تَحْزَنُوا مَا حَلَفْتُمْ وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ فِي الدُّنْيَا» [٧٣١].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٩

القسم السابع

ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِجَ الْأَحْلَاقِ وَتَضْرِبُ رِيفَهَا، وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِدًا، وَلِيَحْزُنَ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ. وَاللَّهُ مَا أَرَى عَبْدًا يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَحْزَنَ لِسَانَهُ. وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ

بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَاَرَاهُ. وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ. وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ». فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَائِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ.

الشرح والتفسير: فرق المؤمن عن المنافق في إصلاح اللسان

بين الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة بعض المسائل المهمة المرتبطة بهتذيب الأخلاق وتطهير الروح من الرذائل الخلقية، وأشار إلى الأمور المهمة التي تشكل مفتاح الإصلاح الأخلاقي، فقال:

«ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الْأَخْلَاقِ وَتَضْرِيْفَهَا» [٧٣٢]

. بالنظر إلى أن تهزيع، من مادة هزغ، على وزن نظم، بمعنى التكبير، وكأن الإمام عليه السلام يرى أن الفضائل الأخلاقية كالبناء الشامخ والجوهر الثمين الذي يمثل أى انحراف فيه كسره وتغيير شكله، ولا يقتصر هذا البناء على الفرد، بل حتى المجتمعات البشرية إن نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٠

فقدت الفضائل الاخلاقية تنحدر نحو الفساد والانحراف والزوال:

إِنَّمَا الْأُمَّمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

ثم ركز الإمام عليه السلام على واحدة من أهم المسائل الأخلاقية التي لا يتسنى تهذيب النفس إلّا من خلالها والتي تتمثل بإصلاح اللسان، قائلاً:

«وَأَجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِدًا»

حيث تقابل هذه العبارة تلك العبارة

«ذواللسانين»

بحق المنافق، الذي يقول شيئاً في حضور الإنسان وآخر في غيابه، «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ» [٧٣٣] ومن الطبيعي أن تغيب كل معاني المحبة والمواساة التي تشكل الركن الأساس للحياة الاجتماعية في المجتمع الذي يمتاز أفرادها بالنفاق والابتعاد عن الصدق، وليس هنالك سوى سوء الظن الذي يسود المجتمع.

ثم قال في الوصية الثانية:

«وَلْيُخْزِنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جُمُوحٌ [٧٣٤]

بِصَاحِبِهِ»

. فتشبيه اللسان بالفرس الجموح تشبيه رائع ولطيف، ذلك لأن اللسان أسهل عضو لدى الإنسان يحركه دون عناء، إلّا أنّ أهواء النفس ووساوس الشيطان قد تغلب الإنسان بحيث لا يستطيع السيطرة عليها، فيصبح كالفرس الجموح الذي يغلب فارسه فيوشك أن يطرحه في المهلكة. ولعل أفضل وسيلة لحفظه من الخطر أن يقلل الإنسان من كلامه، وهذا هو المراد من حفظ اللسان، وليس بعدم الكلام قط، ذلك لأن اللسان أهم وسيلة في التربية والتعليم ونقل العلوم والمعارف والتجارب وذكر الله تعالى.

ثم أكد عليه السلام ذلك، فقال:

«وَاللَّهُ مَا أَرَى عَبْدًا يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْزِنَ لِسَانَهُ»

. فهذا التأكيد المقرون بالقسم إشارة إلى المرحلة الأولى التي قال بها أرباب السير والسلوك إلى الله والتي تتمثل بإصلاح اللسان، وما لم يجتز الإنسان هذه العقبة فلن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠١

يقف على حقيقة التقوى والقرب من الله.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أهميته حفظ اللسان في أن إحدى فوارق المؤمن عن المنافق إنما تكمن في هذا الموضوع فقال: «وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَارَاهُ. وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ».

طبعاً، لسان كل شخص في فيه، والقلب - سواء العضو الواقع في وسط الصدر أو المراد به العقل - مفصول عن اللسان، ولا فرق في هذا بين المؤمن والمنافق، لكن هناك كناية لطيفة في العبارة، أن المؤمن يفكر ثم يتكلم، أما المنافق فيتكلم ثم يفكر، الأمر الذي فسره الإمام عليه السلام في العبارات القادمة.

جدير ذكره أن هذا المعنى ورد بصورة أخرى في قصار كلمات الإمام عليه السلام ومنها:

«لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ» [٧٣٥]

. وقال:

«قَلْبُ الْأَحْمَقِ فِي فِيهِ

وَلِسَانُ الْعَاقِلِ فِي قَلْبِهِ»

وكل هذه العبارات تشير إلى حقيقة واحدة هي أن المؤمن والعقل يفكر وينطق والمنافق والأحمق ينطق ولا يفكر.

سؤال: يمتاز المنافقون عادةً بالذكاء والخطط الجهنمية في مشاريعهم الهدامة فكيف يوصفون بأنهم لا يدرون ماذا لهم وماذا عليهم؟!
الجواب: تمكن الإجابة عن هذا السؤال من خلال الآيات القرآنية الواردة بشأن المنافقين وهو أن المنافق وإن كانت له بادية الأمر بعض الخطط الشيطانية والذكية حتى يرى نفسه عاقلاً والمؤمن سفيهاً، إلا أن المنافق في خاتمة المطاف هو السفيه الحقيقي، قال القرآن الكريم: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ» [٧٣٦]. وعليه تتضح فطنة المؤمن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٢

وبلادة المنافق من خلال التأمل الدقيق، والمنافق شاء أم أبي فهو مفضوح في الدنيا والآخرة.

ثم استدل عليه السلام بحديث عميق المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانٌ عَبْدٌ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ».

فالعلاقة القائمة بين إصلاح اللسان والقلب والإيمان في هذا الحديث هي علاقة جدلية واضحة. وقد دلت التجربة على أن سوء اللسان وتلوته بالذنوب والكلمات العبيثة الفارغة، يسود القلب ويخلى الروح من المعنوية، ومن الطبيعي أن القلب إذا اسودَّ لن يجد بصيص نور الإيمان. قال القرآن الكريم في تعبير دقيق وبعيد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ» [٧٣٧] وعليه فالعلاقة بين إصلاح اللسان وإصلاح القلب وإصلاح الإيمان علاقة لازم وملزوم، وإن تكلف بعض الشراح في تفسير العبارة. طبعاً، لا يمكن إنكار صدق عكس هذا المعنى، أي أن قوة الإيمان تؤدي إلى نورانية القلب والذي يؤدي إلى إصلاح اللسان، وبعبارة أخرى تؤثر هذه الأمور الثلاثة في بعضها البعض الآخر تأثيراً متبادلاً، إلا أن الأبرز، ما ورد في حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى ثلاثة مواضيع مهمة أخرى فقال:

«فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَائِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ»

قطعاً، أن مثل هذا الفرد على درجة رفيعة من الورع والتقوى التي تجعله مشمولاً بعناية الله ورحمته. وأي تقوى أعظم من كف الأذى عن الناس واحترام أموالهم وأعراضهم وأنفسهم. ويبدو هذا الموضوع على قدر من الأهمية بحيث كانت رعايته دليلاً على كون الفرد مسلماً وهجره دليلاً على بعده عن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٣

الإسلام. ورد في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» [٧٣٨]

وأبعد من ذلك ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام الذى أوسع ليشمل الناس، فقال:

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ اتَّمَنَّهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ» [٧٣٩].

تأملان

١. اللسان اعجب اعضاء البدن

لهذه القطعة البسيطة من اللحم والتي نسميها (اللسان) مسؤوليات خطيرة على مستوى الظاهر والباطن. ولو تأملنا نطق الآخرين لرأينا أن اللسان يتحرك بسرعة مذهلة فى الفم فيرتب الحروف سريعاً لينطلق ببعض الكلمات، ولا يكمل أبداً. ولو أخطأ قليلاً فى الحركة لصدرت منه الكلمات المهملة والمضحكة أحياناً، كما يقوم بدور فريد حين تناول الطعام حيث يدفع الغذاء بسرعة فائقة إلى الاسنان وينسحب قليلاً بغية طحنه. ووظيفته الأخرى تتمثل فى جمع الطعام الممضوغ ودفعه إلى البلعوم، ولولا اللسان لتعذر علينا ابتلاع الماء والغذاء؛ هذا من حيث الظاهر. وأما من حيث القضايا المعنوية والأخلاقية، فدور اللسان واضح وجلّى؛ فهو أبسط وسيلة عبادية وأهم وسيلة للمعصية؛ فأفضل العبادات (الصلاة، تلاوة القرآن، التربية والتعليم، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و...) إنما تتم باللسان، كما قيل بأن ثلاثين كبيرة (من قبيل الغيبة، التهمة، أذى المؤمن، الحكم بالباطل، إيجاد الفساد، والإختلاف و...) ترتكب بواسطة اللسان، فاللسان أفضل وسائل الطاعة كما أنه أخطر وسائل الذنب، ذلك لأنه مستعد فى كافة الأزمنة والأمكنة والظروف ودون أدنى تكاليف لارتكاب الذنب، والأدهى من ذلك أن ذنوب اللسان أثر كثرتها وسعتها لم تعد قبيحة لدى عوام الناس، ومن هنا كانت الخطوة الأولى لإصلاح

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٤

الذات تكمن فى إصلاح اللسان. هنالك طريقان مهمان للنجاة من معاصى اللسان أشار إليهما الإمام عليه السلام؛ الأول: قلعة الكلام واجتناب الفضول للخلاص من آفات اللسان. الثانى: أن يفكر كلما أراد الكلام، كما قال الإمام عليه السلام أن يكون لسانه وراء قلبه، لا أن يكون قلبه وراء لسانه كالمناقض والأحمق. ويبدو الكلام بهذا الشأن كثير، نختصره ونختتمه بالحديث النبوى الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«يُعَذَّبُ اللَّهُ اللِّسَانَ بِعَذَابٍ لَأَيُّعَذَّبُ بِهِ شَيْئاً مِنَ الْجَوَارِحِ فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ عَذَّبْتَنِي بِعَذَابٍ، لَمْ تُعَذَّبْ بِهِ شَيْئاً فَيَقَالَ لَهُ: خَرَجْتَ مِنْكَ كَلِمَةً فَبَلَغْتَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَسُفِكَ بِهَا الدَّمُ الْحَرَامُ وَأَنْتَهَبَ بِهَا الْمَالَ الْحَرَامُ وَأَنْتَهَكَ بِهَا الْفَرْجَ الْحَرَامَ، وَعَزَّيْتَنِي (وَجَلَّيْتَنِي) لَأَعَذَّبَنَّكَ بِعَذَابٍ لَأَعَذَّبُ بِهِ شَيْئاً مِنَ الْجَوَارِحِ حَكَ» [٧٤٠].

٢. رصيد الإنسان

إن رصيد الإنسان ثلاثة أشياء: النفس والمال والعرض، ولعل العرض يتقدم على الجميع حيث يستعد الإنسان للتضحية بنفسه من أجله، ثم النفس والأموال. وقد أولى الإسلام هذه الأمور الثلاثة أهميّة فائقة، وكما ورد فى الخطبة فإنّ النجاة يوم القيامة لمن سلمت يده من دماء الناس وأموالهم ولم يتعرض لأعراضهم. ويرى الإسلام حرمة الأموال كحرمة الأنفس، وأن حرمة إنسان كحرمة البشرية جمعاء، وأن انتهاك حرمة مؤمن بغيبته كمن يأكل لحم أخيه ميتاً. ورد فى الحديث النبوى فى حجة الوداع فى منى، (التي يقصدها الناس من

مختلف مناطق العالم) أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب الناس بعد أداء مناسك الحج فقال: أى يوم أفضل أيام السنة؟ قالوا: هذا الشهر. قال: وأى أرض؟ قالوا هذه الأرض. فقال صلى الله عليه وآله: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٥

عَلَيْكُمْ حَرَامٌ لِحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَهُ فَيَسْئَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ»
، ثم قال: هل بلغت؟ قالوا: بلى. قال صلى الله عليه وآله: «اللَّهُم فَاشْهَدْ» [٧٤١].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٧

القسم الثامن

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلًا، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلًا؛ وَأَنَّ مَا أَخَذَتِ النَّاسُ لَأِيْحُلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ. فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَضَرَسْتُمُوهَا، وَوَعِظْتُمُ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضُرِبَتِ الْأَمْثَالُ لَكُمْ، وَدُعِيْتُمْ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ؛ فَلَا يَصِّمُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَصَمُّ، وَلَا يَعْمَى عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَعْمَى وَمَنْ لَمْ يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَالْتِجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَأَنَّهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ. وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعٌ شِرْعَةً وَمُتَّبِعٌ بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانٌ سُنَّةً، وَلَا ضِيَاءٌ حُجَّةً.

الشرح والتفسير: أخطار البدع

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى آفة دينية واجتماعية أخرى ليكمل ما ذكره من آفات، وتلك الآفة هي البدعة وتغيير أحكام الله على ضوء الرغبات والأهواء النفسية، فقال:

«وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلًا، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلًا».

لا- يُخضع الأحكام الشرعية لهوى نفسه ويُغيرها بأفكاره الناقصة، فلو فتح باب البدع فى الأحكام لغير الظلمة والطواغيت كل ما لا ينسجم مع مصالحهم ومنافعهم، فلا تمضى مدة حتى تدرس أصول الدين وفروعه ويمحق محتواه. والعبارة تشير

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٨

إلى البدع التى وردت إلى الدين عقب وفاة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، ولم يكتف القوم بالقياس عند عدم وقوفهم على نصوص الكتاب والسنة، بل هبوا لمخالفة صريح القرآن وسنة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله. فالخليفة الثالث خالف طريقه رسول الله صلى الله عليه وآله فى توزيع أموال بيت مال المسلمين وتسويته بينهم فى العطاء، فقدم الأعيان والأشراف ولا سيما خاصته وبطانته من قرابته. ثم انبرى الخليفة الثانى ليقول صراحة: متعتان كانتا حلالاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أحرهما وعاقب عليهما، متعة النساء (الزواج المؤقت) ومتعة الحج (الحج بصورة حج التمتع) ناهيك عن سائر البدع التى ظهرت على عهد الخلفاء التى أحصتها بعض الكتب [٧٤٢]. والإمام عليه السلام بدرأيته الواسعة شعر أنه إن لم يقف بوجه هذه البدع لمحق الدين وغيبت أحكامه، ولذلك عدَّ الإبتعاد عن البدعة من الإيمان.

ثم قال عليه السلام

: «وَأَنَّ مَا أَخَذَتِ النَّاسُ لَأِيْحُلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ»

. ومن ثم أشار إلى نقطة بمثابة الدليل على ما ذكر، فقال:

«فَقَدْ جَرَّبْتُمْ الْأُمُورَ وَضَرَسْتُمُوهَا [٧٤٣]، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضُرِبَتِ الْأَمْثَالُ لَكُمْ، وَدُعِيتُمْ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ»

. بمعنى أنكم شاهدتم حجم المصائب والإرباكات التي جرّتها البدع السابقة على الإسلام والمسلمين. فالبدع في زمان عثمان أدت إلى تلك الثورة الهوجاء التي سفكت دمه وأحدثت التمييز بين العرب والموالي، إلى تلك الفرقة بين المسلمين أيضاً وكان عاقبتها سفك دمه أيضاً [٧٤٤]. وناهيك عما سبق، فإنّ الله ذمّ اليهود في القرآن الكريم على بدعهم وتحريفاتهم وكشف عن مصيرهم، وأنتم قد جرّبتم البدع وقد وعظتم بمن كان

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٩

قبلكم، فقد دعوتهم إلى مطلب واضح قامت عليه الأدلة الحية والتجريبية والنقلية.

ثم خلاص إلى هذه النتيجة:

«فَلَا يَصُمْ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَصَمُّ، وَلَا يَعْمَى عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَعْمَى وَمَنْ لَمْ يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَالْتَجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ [٧٤٥]، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ».

فالتجارب الحسية والبلاء الإلهي أهم وسيلة لإيقاظ الإنسان، فمن لم يتقظ بهذا الأسلوب يستبعد أن ينتفع بالمواعظ والنصائح، وليس له من عاقبة سوى رؤيته للحسن سيئاً والسيء حسناً، كما أورد ذلك القرآن الكريم: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» [٧٤٦].

فقد حسب معاوية وطلحة والزبير أنفسهم من المدافعين عن دم المظلوم (دم عثمان) هذا في صدر الإسلام، واليوم يرى أصحاب البدع الوهابيون أنّهم مصلحو هذه الأمة، وعادة ما يزعم المبتدعون طيلة التاريخ أنّهم مصلحون.

ويختتم الإمام عليه السلام الخطبة بعبارة، لتمييز صفوف المبتدعين من صفوف المتبعين للدين، فيقول:

«وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعٌ شِرْعَةً وَمُتَّبَدِعٌ بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانٌ سُنَّهَ، وَلَا ضِيَاءٌ حُجَّةٌ»

وعليه فلا بد لكل شخص من معرفة صنفه. فإن كان متشرعاً فهو تابع للكتاب والسنة والدليل العقلي اليقيني، وإن كان في صف المبتدعين فليس لديه دليل من كتاب ولا سنة ولا نور ولا ضياء من عقل ولا يتبع سوى أهوائه ويغيّر أحكام الله بما ينسجم وتلك الأهواء. وبناءً على ما سبق فإنّ برهان السنة إشارة إلى الأدلة النقلية، وضياء الحجة الأدلة العقلية، وهكذا يُعرّف الإمام عليه السلام أهل البدع بأنهم الأفراد الذين يتبعون أهواءهم وخيالاتهم الباطلة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١٠

تأمل

البدعة

ركّز الإمام عليه السلام في المقطع المذكور من الخطبة على وقوفه بوجه البدع. والبدعة في اللغة تعنى إيجاد الشيء دون تجربة أو مثال وهي ممدوحة حيناً ومذمومة حيناً آخر. فالقرآن يصف الله بالقول: «يَدْبِغُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» [٧٤٧]، كما يصف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ» [٧٤٨] والمراد هو المفهوم المذكور. إلماً أنّ لهذه المفردة مفهوماً خاصاً في لسان الروايات وكلمات الفقهاء وهو تغيير الأحكام الشرعية وتبديلها بأحكام طبق الرغبات النفسية والمنافع الشخصية. ومن هنا ورد الذم الشديد للبدعة في الروايات، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَهْلُ الْبِدْعِ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيفَةُ» [٧٤٩].

وقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«أَمَّا أَهْلُ الْبِدْعَةِ فَالْمُخَالِفُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ الْعَامِلُونَ بِرَأْيِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ وَإِنْ كَثُرُوا» [٧٥٠]

والروايات كثيرة بهذا الشأن والتي ذمّت بشدة، البدعة والمبتدع. والسبب واضح، فكما ذكرنا سابقاً أنّ باب البدع لو فتح لما بقي من أحكام الدين وأصوله وفروعه شيءٌ ولمحق الدين. وعلى هذا الأساس قال رسول الله صلى الله عليه وآله

: «مَنْ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِ مُبْتَدِعٍ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ دِينِهِ» [٧٥١]

. ويتضح من هنا خطأ أولئك الذين خلطوا المعنى الواسع للبدعة بمعناها الخاص ليزعموا أنّ كل القضايا متجددة، فمن يسعه الوقوف بوجه التجدد؟ وأما أولئك فإنهم يرون تغيير الآراء الإجهادية وكشف المسائل المستحدثة من الكتاب والسنة ضرباً من البدعة، فإما أنّهم يخدعون أنفسهم أو أنّهم يريدون خداع الآخرين. فكشف

نفعات الولاية، ج ٦، ص: ٤١١

المسائل المستحدثة من الكتاب والسنة تبعية للشرعة لا بدعة بالمعنى الخاص للكلمة؛ أي، تحريم حلال الله وتحليل حرمته استناداً لأهواء النفس والمنافع الشخصية. جدير بالذكر أنّ المبتدعين وخشيعة اعتراض المؤمنين يلجأون إلى التغيير بالرأى، فيحرفون آيات القرآن الكريم أو روايات المعصومين عليهم السلام ليوردوا البدع.

وبالطبع فإنّ هؤلاء أعظم خطراً من الذين يمارسون البدعة علانية. على كل حال، فقد قال الإمام عليه السلام في هذه الخطبة: إنّ المؤمن من يلتزم بحلال الله وحرامه ولا يغيرهما، ويعمل بالأحكام الشرعية في كل الأوقات ولا يحيد عن الكتاب والسنة.

نفعات الولاية، ج ٦، ص: ٤١٣

القسم التاسع

وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعْظُ أَحَدًا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ «حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ»، وَسَبَبُهُ الْأَمِينُ، وَفِيهِ رَيْعُ الْقَلْبِ، وَيَنْبِيعُ الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلَاءٌ غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ التَّمِيدُ كُرُونًا، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوْ الْمُتَنَاسُونَ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَادْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «يَا بَنِي آدَمَ، اْعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعْ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ».

الشرح والتفسير: القرآن ربيع القلوب وينابيع العلوم

تطرق الإمام عليه السلام هنا ثانية إلى القرآن وعظمته ليطم ما ذكره سابقاً فأشار إلى بعض الأمور الجديدة فقال:

«وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعْظُ أَحَدًا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ»

. ذلك لأنّ الكتب السماوية التي أنزلها الله لهداية الخلق تشتمل على أعظم المواعظ.

ويمتاز القرآن من بين هذه الكتب بكونه الشمس المشرقة ومواعظه فريدة وإرشاداته قيمة. فتارة يتحدث مباشرة للعباد، وأخرى كسؤال يجيب عنه الوجدان، وأحياناً يطرق التاريخ الماضي المليء بالدروس والعبر، وأحياناً أخرى يتحدث من خلال المثال البليغ ويلبس الحقائق العقلية ثوب الحسّ، ويورد كل ذلك عبارات تفيض رقة وعدوبة وبلاغاً، ومن هنا فليس هنالك من مواعظ كمواعظ القرآن. ثم ذكر عليه السلام أدله ذلك، فقال:

«فَإِنَّهُ «حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ» [٧٥٢]»، وَسَبَبُهُ الْأَمِينُ، وَفِيهِ رَيْعُ

نفعات الولاية، ج ٦، ص: ٤١٤

الْقَلْبِ، وَيَنْبِيعُ [٧٥٣] الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلَاءٌ غَيْرُهُ»

. فقد أوجز الإمام عليه السلام بهذه العبارات الخمس ما يمكن قوله في القرآن؛ الأول: أنّ حبل الله المتين وكأنّه سحب من السماء إلى الأرض ليمسك به العباد، فيحلّقون به إلى عنان السماء ويبلغون مقام القرب. وهذه هي العروة الوثقى التي أشار الله إليها في كتابه:

«فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَأَنْفِصَامَ لَهَا». يعنى لا شك فيه أن الطريق إلى الإيمان بالله والكفر بالطاغوت هو القرآن.

الثانى: أنه السبب الأمين، أى، الواسطة بين الخلق والخالق والذى لا يعرف الزلل والخيانة وكل ما فيه حق خالص. والثالث: أن القرآن ربيع القلوب، فكما تدب الحياة فى الربيع فى الأشجار الميتة وتتفتح غصونها وأوراقها، كذلك من يفتح على القرآن يشعر بحيوية روحه وحياته بالإيمان والفضائل والأخلاق. الرابع: أن القرآن ينابيع العلوم، ليس فقط العلوم التى تتعلق بمعرفة الله وتربى فى الإنسان روح الفضيلة والورع والتقوى فحسب، بل القرآن دافع للخوض فى العلوم التى تعنى بخلق الإنسان والسماء والأرض وسائر الأحياء والكائنات، وله إشارات عميقة المعنى فى كل هذه العلوم. وأشار فى الخامس إلى هذه الحقيقة وهى، أن جلاء القلوب مما يعلق بها من أدران الذنب والغفلة لا يتيسر إلا بنور القرآن الذى يزيل عنها الصدأ من خلال تلاوته وتدبر آياته. أما قصير الجلاء على القرآن فذلك لأن سائر الوسائل إنما تستند فى الواقع إلى القرآن، فالقرآن مصدر كل شىء. ومن الطبيعى أن يكون الكتاب الذى يشتمل على هذه الخصائص أفضل واعظ.

نفحات الولاية؛ ج ٦؛ ص ٤١٤

عرب الإمام عليه السلام عن أسفه لوضع المسلمين تجاه القرآن، فقال:

«مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكَّرُونَ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوْ الْمُتَنَاسُونَ»

هذه العبارة إجابة عن سؤال مقدر فى أن الآثار العظيمة التى أُشير إليها بشأن القرآن إن انحسرت فى المجتمع الإسلامى فسبب ذلك لا يُعزى إلى القرآن، بل لغفلة الجهال والمنافقين أو تغافلهم

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١٥

عن هذا الفيض الإلهى. ولعل هذه العبارة تشبه تلك التى ذكرها الإمام عليه السلام فى الخطبة ١٨٢ حين أعرب عن أسفه على شهادة صحبه الأوفياء، فبكى، وقال:

«أَوْءَ عَلَىٰ إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفُرْصَ فَأَقَامُوهُ، أَخْيُوا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ».

فقد صنّف الإمام عليه السلام الناس إلى ثلاث فئات، فئة يقظة تنتفع دائماً بآيات الله، وأخرى غارقة فى ماديات الدنيا نسيّت القرآن، وثالثة، عمدت إلى تناسى تعاليم القرآن، فهى تمرّ عليه بكل بساطة رغم معرفتها بأهدافه. طبعاً إن رأينا المجتمع الإسلامى يشكو المرض من عدّة جوانب، فذلك ليس لتقصير الطبيب ولا عدم فائدة الوصفة الطبيّة، بل السبب الحقيقى يكمن فى عدم الإلتزام بهذه الوصفة الإلهية الشافية.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وكأنه ردّ على إشكال من يقول: إن كانت هناك فئة نسيّت طريق الحق أو تناست، فذلك لأنّ طريق الحق ليس معروفاً وقد امتزج بطرق الباطل، بحيث لا يبدو تشخيصه سهلاً، فقال:

«فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَاذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «يَا بَنِي آدَمَ، اْعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعْ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ [٧٥٤] قَاصِدٌ [٧٥٥]».

يتّضح من العبارة أنّ للخير والشّرّ معانٍ واسعة، كما تشير العبارة إلى الحسن والقبح العقليين فى أن الإنسان يدرك بعقله وفكره الخير والشّر، وإن عمل به فقد طوى مسافة واسعة من الطريق القويم والجادة المستقيمة. وللوقوف على عظمة القرآن وأهميته مضمونه، فقد أوردنا مباحث كثيرة فى الأجزاء السابقة (الجزء الأول، ذيل الخطبة ١٨، والجزء الرابع، ذيل الخطبة ١١٠) وستتطرق بإذن الله إلى مبحث مفصل بهذا الشأن فى شرح الخطبة ١٩٨.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١٧

القسم العاشر

أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَأَيُّغْفِرُ، وَظُلْمٌ لَأَيَّتْرِكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَأَيُّطَلَّبُ.
فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَأَيُّغْفِرُ فَالشُّرْكُ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى «إِنَّ اللَّهَ لَأَيُّغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ». وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفِرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ
الْهَنَاتِ.

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَأَيَّتْرِكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا. الْفِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ. لَيْسَ هُوَ جَزْحًا بِالْمَدَى وَلَا ضَرْبًا بِالسِّيَاطِ، وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَضَعَرُ
ذَلِكَ مَعَهُ. فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوْنَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ. وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ
يُعْطِ أَحَدًا بِفُرْقَةٍ خَيْرًا مِمَّنْ مَضَى وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْنُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ»، وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكْمَلَ قُوَّتَهُ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، «وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ»
فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغْلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!

الشرح والتفسير: إصلاح النفس

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الذي يمثل ختامها إلى ثلاثة مواضيع مهمّة؛ أحدها، أقسام الظلم الثلاثة، والآخر،
موضوع وحدة المسلمين وأهميتها، والثالث، التهذيب وإصلاح النفس بدلًا من تقصّي عيوب الآخرين، والأبحاث التي ذكرت في هذه
الخطبة بشأن المسائل الأخلاقية والنصائح الواردة بهذا الخصوص تكتمل بهذه المواضيع الثلاثة. فقد قال عليه السلام في الموضوع
الأول:

«أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١٨

ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَأَيُّغْفِرُ، وَظُلْمٌ لَأَيَّتْرِكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَأَيُّطَلَّبُ».

ثم خاض عليه السلام في شرح كل قسم، فقال:

«فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَأَيُّغْفِرُ فَالشُّرْكُ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى

«إِنَّ اللَّهَ لَأَيُّغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ»... طبعًا، بالتوجه إلى صدر الآية وذيلها:

«وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» [٧٥٦] يتبين لنا أنّ الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله، إن مات الإنسان ولم يتب منه، هو الشرك، أمّا
سائر الذنوب، كبيرةً كانت أم صغيرةً إن مات الإنسان ولم يتب منها، فربّما يشمل بالعفو الإلهي، وإن لم يكن ذلك قطعياً وشموله
بالعفو خاضع لبعض الشرائط، لأنّ العبارة

(من يشاء)

لا- تعنى العفو عن المذنبين دون حساب وكتاب، ذلك لأنّ الله حكيم وإرادته ومشيئته حكيمة، ولا يشمل بالعفو سوى من امتلك
مقوماته، بالضبط على غرار العفو عن السجناء والذي ينظر إلى حالة السجين، فإن رأى فيه الإستعداد شمل بالعفو، والمراد من الشرك
هنا هو الشرك الجلي من قبيل عبادة الأوثان وما شابه ذلك، وأمّا الشرك الخفي

(كالرياء)

فهو من قبيل الكبائر الداخلة في ذيل الآية المذكورة.

ثم خاض عليه السلام في بيان القسم الثاني والثالث، فقال:

«وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفِرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ [٧٥٧]. وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَأَيَّتْرِكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ. لَيْسَ هُوَ جَزَاءً بِالْمُدَى [٧٥٨] وَلَا ضَرْبًا بِالسَّيَاطِ، وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَضَعَرُ ذَلِكَ مَعَهُ»

. فقد أشار الإمام عليه السلام في العبارة الأولى إلى الصغائر التي ذكر القرآن شرط عفوها بترك الكبائر: «إِنْ تَجْتَبِئُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» [٧٥٩]. أو إشارة إلى الكبائر التي لها بعد حق الله ويستطيع الإنسان غسلها بماء التوبة والندم وتداركها بالأعمال الصالحة، أما العبارة الثانية التي تبين النوع الثالث

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١٩

للظلم، فهي إشارة إلى حق الناس الذي توعد الإسلام عليه أشد العقوبات، والله لا يغفره ما لم يتنازل صاحب الحق، وعليه، فالتعبير بالقصاص في العبارة إشارة إلى العقاب، لا- القصاص الإصطلاحى المعروف، ولذلك قال: ليس ذلك القصاص جرحاً بالسكين والخنجر ولا ضرباً بالسياط، بل عقاب يهون كل ذلك معه: «نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأُفْدَةِ» [٧٦٠].

ورد في الرواية، عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ فِي مَمْلَكَةٍ جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرِينَ أَنْ آتِ هَذَا الْجَبَّارَ فَقُلْ لَهُ: إِنَّنِي لَمْ أَسْتَعْمِلْكَ عَلَى الدِّمَاءِ اتِّخَاذِ أَمْوَالٍ، بَلِ اسْتَعْمَلْتَك لِتُكْفَ عَنِّي أَصْوَاتِ الْمَظْلُومِينَ، فَإِنِّي لَمْ أَدْعُ ظَلَامَتَهُمْ وَإِنْ كَانُوا كُفَّارًا» [٧٦١].

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام:

«مَا مِنْ أَحَدٍ يَظْلِمُ بِمَظْلَمَةٍ إِلَّا أَخَذَهُ اللَّهُ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَمَا الظُّلْمَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ فَإِذَا تَابَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ» [٧٦٢].

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى موضوع وحدة صفوف المسلمين، فقال:

«فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوْنَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ. وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَدًا بِفُرْقَةٍ خَيْرًا مِمَّنْ مَضَى وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ».

العبارة

«فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوْنَ فِي دِينِ اللَّهِ...»

إشارة إلى أن كل طائفة كانت تتخذ لها صيغة تميز برنامجها من الآخرين، سواء في المسائل العقائدية أو العملية، وهذا التلون يؤدي إلى فرقة الصفوف وضياع الطاقات وأحياناً نشوب الحروب الأهلية التي تهدد مصير المجتمع ومنافعه. وكلما كان أفراد المجتمع - كما ورد في عبارات الإمام عليه السلام المذكورة- يتحولون بالمرونة في القضايا البسيطة، والصبر في الأمور التي لا تنسجم مع رغباتهم، فإن الوحدة ستسود هذا المجتمع جانب الهدوء والأمن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٠

والإستقرار. وبالطبع، فإن اختلاف الصفوف والفرق طيلة التاريخ - كما ذكر الإمام عليه السلام - لم يجلب من خير قط.

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بدعوة الجميع إلى إصلاح الذات وترك البحث عن عيوب الآخرين، فقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عَيْبِ النَّاسِ»، وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوتَهُ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، «وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ»

. ثم خالص عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغْلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!»

إشارة إلى أن كل انسان - سوى أولياء الله والمعصومين عليهم السلام - ينطوي على عيب، فإن إنهمك بعيوب الآخرين غفل عن إصلاح نفسه ولا يسعه بلوغ القرب الإلهي والتهديب الخلقى والسير إلى الله، أما إن اختلى بنفسه وانشغل بعيبه وشعر بالندم لما فرط منه وغسل أدران المعصية بمياه طاعة الله ولاسيما بقطرة دمع صادقة، أنذاك سيتمكن من إصلاح تلك نفسه والعروج بها إلى ساحة القدس.

تأمل: العيش بصورة جماعية أم الإنزواء

حثَّ الإمام عليه السلام في ختام الخطبة على الإنزواء والإعتزال، الإعتزال الذي يعدُّ مقدمته لتهديب النفس والإبتعاد عن المفسدات الإجتماعية، وذهب أغلب علماء الأخلاق إلى أن الإعتزال يعدُّ أحد الشروط اللازمة لتهديب الأخلاق. ولو تأملنا آيات القرآن الكريم لرأينا مرحلة العزلة التي شهدتها الأنبياء العظام والصالحون في حياتهم. فقد قال إبراهيم الخليل عليه السلام حين واجه المجتمع الضال والمتعصب- الذي كان يصير على عبادة الأوثان- «وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَاقِيًّا» [٧٦٣].

وقد اعتزل موسى عليه السلام قومه أربعين يوماً لأخذ الألواح واتَّجه إلى الطور، حيث
نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢١

وردت تفاصيل هذا الموضوع في الآية ١٤٢ من سورة الأعراف.

وكما ورد اعتزال مريم عليها السلام حيث أشارت إليه الآية ١٦ من سورة مريم، وكذلك ما ورد في شأن أصحاب الكهف عندما عجزوا من مقارعة الوثنيين فاعتزلوهم إلى الكهف وأشار القرآن الكريم إلى ذلك حيث قال: «وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبِدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا» [٧٦٤].
وإننا لنعلم جميعاً باعتزال النبي صلى الله عليه وآله القوم حين كان يختلئ في الغار لأيام بل أشهر قبل البعثة ويجتهد في العبادة. نعم، وردت عدَّة روايات بهذا الشأن ومنها، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:
«الْعَزْلَةُ عِبَادَةٌ» [٧٦٥].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«الْعَزْلَةُ أَفْضَلُ شَيْمِ الْأَكْبَاسِ» [٧٦٦].

وقال عليه السلام أيضاً:

«فِي اعْتِزَالِ ابْنَاءِ الدُّنْيَا جَمَاعُ الصَّلَاحِ» [٧٦٧]

. والحال هنالك بعض الروايات أكدت على الجماعة، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:
«أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ» [٧٦٨].

وورد مثل هذا المضمون عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال:

«وَالزُّمُومَا السَّوَادُ الْأَعْظَمُ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذَّبِّ» [٧٦٩].

فالأحاديث في الموضوعين كثيرة، ويتصور أحياناً تعارضها مع بعضها، والحال، صرحت ذات الروايات بكيفية الجمع بينها. فالذي يفهم من النصوص القرآنية

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٢

والروائية أن العزلة تتم على ضوء بعض الشروط الإجتماعية الخاصة، والواقع أنها استثناء إزاء حكم كلى بالاجتماع، وقد ورد الحث على العزلة في الأمور التالية:

١. الإبتعاد عن طلاب الدنيا والتي صرحت به الأحاديث المذكورة.

٢. الإبتعاد عن المجتمع الفاسد والمنحرف، كما ورد ذلك في قصيدة إبراهيم وأصحاب الكهف، وقد سئل الصادق عليه السلام عن سبب اعتزاله، فقال:

«فَسَدَ الزَّمَانُ وَتَغَيَّرَ الْإِخْوَانُ فَرَأَيْتَ الْإِنْفِرَادَ أَسْكَنُ لِلْفُؤَادِ» [٧٧٠].

٣. حين تكون العزلة بهدف التفكير والتهذيب وإصلاح النفس، كالذى كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله قبل البعثة وتفرغه للعبادة فى غار حراء. ولا شك أن الإنسان إذا أفرد بعض الوقت من يومه وليته للتفكير فى نفسه ومجتمعه كان لذلك آثاره الطيبة والنافعة.

٤. الإبتعاد عن الأشرار- الذين يشكلون جزءاً من المجتمع- فقد. ورد الحث على الإعتزال عن هؤلاء، وقد روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال:

«مَنِ اعْتَزَلَ النَّاسَ سَلِمَ مِنْ شَرِّهِمْ» [٧٧١]

. وإلا ليس هنالك من يسعه التنكر للجماعة التى حظيت باهتمام واسع من أحكام الشريعة السمحاء. والإبتعاد التام عن المجتمع يعنى الإبتعاد عن التجارب والعلوم والمعارف وطاقت أفراد المجتمع، أضف إلى ذلك فإن العزلة على ضوء ما أثبتته التجربة قد تدفع بالإنسان إلى العجب والفخر وإساءة الظن بالآخرين، إلى جانب بعض الإدعاءات الباطلة والفاصلة.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٣

الخطبة ١٧٧

إشارة

فى معنى الحكمة [٧٧٢]

نظرة إلى الخطبة

كما ورد فى سند الخطبة فقد خاطب الإمام عليه السلام الخوارج الذين ضغطوا بادىء الأمر على الإمام عليه السلام فى قبول التحكيم فاضطر إلى الموافقة رغم ممانعته للحيلولة دون الإنقسام فى صفوف أتباعه ووقوع الحرب الأهلية، ولكن ما إن ظهرت نتيجة التحكيم السلبية أثر خيانه ممثله فى تحكيم أبى موسى الأشعري وخداعه من قبل عمرو بن العاص ممثل معاوية حتى اعترضوا على الإمام عليه السلام فى قبوله التحكيم. فرد عليهم الإمام عليه السلام بذلك الرد الحاسم فى أنكم أنتم الذين أترتم هذه الفتنة وقد حذرتكم فلم ترعوا، والآن حيث ترون سوء اختياركم تعترضون! أضف إلى ذلك أن التحكيم كان مشروطاً لا مطلقاً، وشرطه عدم الإنحراف عن القرآن ولكنهم انصرفوا، وعليه فينبغى الاعتراض عليهم لا على.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٥

القسم الأول

فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَائِكُمْ عَلَى أَنْ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجْعِلَا عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعُهُ، فَتَأْخُذُ بِمَا يَنْبَغِي وَتَرْكََا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَالْإِعْوَجَاجُ رَأْيُهُمَا. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سَوْءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا. وَالثَّقَّةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لَا يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ.

الشرح والتفسير: بطلان الحكم بانحراف الحكيم

فضلنا الكلام بشأن الحكيم فى الخطب السابقة ولا سيما الخطبة ١٢٥ و ١٢٧ وخلاصته، أنه لما أوشك جيش الشام على الهزيمة، لجأ

عمرو بن العاص إلى خدعته، فأمر برفع المصاحف على أسنة الرماح وقولوا: بينا وبينكم القرآن، فما حكم به القرآن رضينا به. أمير المؤمنين عليه السلام حذرهم من أنها خدعة وأن هؤلاء القوم لا يتبعون القرآن فامضوا في القتال، إلا أن بعض الجهال والمغرضين رفضوا وضغطوا على الإمام عليه السلام في قبول الإحتكام إلى القرآن. لم يستجب لهم الإمام عليه السلام، فأصروا عليه بعد أن اختلفوا، فلم ير الإمام عليه السلام بداً من القبول. ثم أصير هؤلاء القوم على اختيار أبي موسى الأشعري. الإمام عليه السلام الذي كان يعلم بحماقة هذا الرجل وضعف إيمانه، أشار إليهم بآب بن عباس الرجل العاقل العالم المعروف والذي لا يخدع بالأعيب عمرو بن العاص، لكنهم رفضوا وأصروا على اختيار أبي موسى، وهنا

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٦

اضطر الإمام عليه السلام ودفعا للفرقة والانقسام، إلى القبول بعدة شروط، منها، عدم خروج الحكيمين عن الحق والعدل. استغرقت المحادثات بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري، شهوراً عديدة حتى قال ابن العاص: ليخلع كل منا صاحبه حتى يختار الناس خليفة. فأعلن أبو موسى هذا الجاهل والأحمق - عن خلعه للإمام على عليه السلام من الخلافة، ثم انبرى ابن العاص ليعلن نصبه لمعاوية. فشب النزاع بين القوم، وقدم أولئك الذين أصروا على وقف القتال وقبول التحكيم واختيار الأشعري على الإمام عليه السلام واعترضوا عليه، لم قبلت التحكيم؟ قال الإمام على عليه السلام:

«فَأَجْمَعُ رَأْيَ مَلَئِكُمْ [٧٧٣] عَلَى أَنْ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجَفِّجَا [٧٧٤] عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعُهُ»

. فالإمام عليه السلام يشير إلى أن قبول التحكيم وإن حصل بفعل الضغط إلا أنه كان مشروطاً لا مطلقاً دون قيود وشروط بحيث يفعلون ما يشاؤون حسبما تمليه عليهم أهواؤهم ورجباتهم وينبغي أن يقبله الآخرون. فالشرط كان تبعية القرآن وعدم الإنحراف عن تعاليمه، إلا أن الشيء الوحيد الذي عُتِبَ في العملية، إنما كان القرآن، فانطلق الأشعري الأحمق ليتصرف خلاف منطق الحق والعدل القرآني.

ومن هنا قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه:

«فَتَاهَا [٧٧٥] عَنْهُ، وَتَرَكَ الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَالْبَاغِجَا جُجَ رَأْيَهُمَا»

. ثم أكد الإمام عليه السلام على شروط التحكيم، فقال:

«وَقَدْ سَبَقَ اسْتِنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا».

فهل في القرآن الكريم آية تصرح بضرورة خلع شخص كعلى عليه السلام الذي بنى صرح الإسلام بجهاده وتربى في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وكان مظهر الحق

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٧

والعدل من الخلافة، أم هل هناك من آية تصرح باستخلاف سليل الجاهلية والكفر والظلم والجور الذي لا يخفى مكره وخداعه على أحد، وقد استقطب حوله كل المنافقين والشياطين؟

ثم خالص عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«وَالثَّقَّةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لَأَيُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ»

. وهكذا يرد بحسم على المعترضين:

أولاً، إن قبول التحكيم كان من قبلكم، ثانياً، إن هؤلاء لم يطلق لهم العنان في التحكيم، بل كانوا مأمورين باتباع القرآن والإنصياح لأحكامه لا الإنصياح لأهوائهم. وماداموا لم يلتزموا بالشروط فلا اعتبار لحكمهم، الغريب في الأمر أن الحكيمين نفسيهما لم يتفقا في الحكم وسعى كل منهما لخداع الآخر وليضعه أمام حقيقة لا نقاش فيها، بينما يشترط في التحكيم اتفاق الحكيمين على الشروط

المطروحة في التحكيم؟

تأمل: تولى الحكيمين عن القرآن

صرح الإمام في هذه الخطبة بتجاهل الحكيمين للقرآن ومخالفة الحق وهما يبصرانه وقدموا أهواءهما على الحقيقة وكان ذلك واضحاً، ولو أنهما فكراً قليلاً في مختلف الآيات القرآنية الواردة بحق علي عليه السلام أو تلك التي تبين أصلاً كلياً، والذي يمثل الإمام علي عليه السلام نموذج البارز طبق روايات رسول الله صلى الله عليه وآله لما ترددنا لحظة في ترجيحه على شخص كما عايناه بن أبي سفيان أعدى أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله. فقد صرح القرآن قائلاً: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» [٧٧٦] وهل كان غير الإمام علي عليه السلام من تصدق بخاتمه حين ركوعه ونزلت هذه الآية بحقه؟ وقد روى هذا، عشرة من كبار الصحابة مثل ابن عباس

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٨

وعمار بن ياسر وجابر بن عبد الله الأنصاري وأبوذر الغفاري وأنس بن مالك وعبد الله بن سلام ومسلمة بن كهيل وعبد الله بن غالب وعقبه بن حكيم وعبد الله بن أبي، وذكر شرحه في التفاسير العامة.

وهل يساوي شخص بمن نام في فراش النبي صلى الله عليه وآله ليلة المبيت [٧٧٧] وفداه بنفسه فنزلت بحقه الآية الشريفة: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ» [٧٧٨] وهل يتقدم عليه شخص وهو الذي عدّه القرآن الكريم خير البرية [بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ»] [٧٧٩]. لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَنْتَ وَشِيعَتُكَ يَا عَلِيُّ خَيْرُ

الْبَرِيَّةِ» [٧٨٠].

وهل ينبغي الإستغراق لشهور، لكي تعلم الأمة الإسلامية أيها أفضل علي أم معاوية؟ حقاً إنَّها مقارنة عجيبه وجفاء كبير لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام في أن يُقرن بمعاوية ويعلم فضله، أين هذا من ذاك وأين الثرى من الثريا؟!

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٩

الخطبة ١٧٨

إشارة

فِي الشَّهَادَةِ وَالتَّقْوَى

وَقِيلَ إِنَّهُ خَطَبَهَا بَعْدَ مَقْتَلِ عُمَانَ فِي أَوَّلِ خِلَافَتِهِ [٧٨١]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام علي عليه السلام بادية الخطبة إلى صفات الله، ومنها، علمه المطلق سبحانه بجميع الأشياء حتى أصغرهما حجماً - كعدد قطرات المطر وذرات التراب - ليعلم الناس أن أعمالهم محفوظة عند الله ولا يخفى عليه شيء من أسرارهم.

ثم شهد في القسم الثاني، لله تعالى بالوحدانية ولرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله بالنبوة، وقرن كل بصفاته ليكشف عن عمق تلك

الشهادة.

أما القسم الثالث، فقد تحدّث فيه عن خداع الدنيا وعودها الكاذبة التي تمنى بها من تعلق بزخرفها.

وأخيراً حدّر الجميع من أنّ الذنوب سبب زوال النعم، وأنّ آيماً من الأمم لم تعش

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٠

البؤس والشقاء إلّا لارتكابها الذنوب والمعاصي، ومن هنا فقد دعى الجميع لإعادة النظر في أعمالهم وتصرفاتهم فيهبوا لإصلاحها بغية السعادة والفلاح.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣١

القسم الأول

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُعَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ، وَلَا يَغْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ، وَلَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا دَيْبِبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا، وَلَا مَقِيلِ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ الْأَخْدَاقِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ، شَهَادَةٌ مِنْ صِدْقَتِ نَبِيِّهِ، وَصِفَتِ دِخْلَتِهِ وَخَلَصَ يَقِينُهُ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَائِقِهِ، وَالْمُعْتَمَدُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَالْمُخْتَصَّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ وَالْمُضِيَّ طَفَى لِكِرَائِمِ رِسَالَاتِهِ، وَالْمَوْضَحُّ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى وَالْمَجْلُوبُ بِهِ غَزِيْبُ الْعَمَى

الشرح والتفسير: عظمة الله وكرامة نبيه صلى الله عليه وآله

كما أشرنا سابقاً استهل الإمام عليه السلام خطبته خمس صفات من صفات الله الجمالية والجلالية بعبارات قصيرة وعميقة المعنى فقال:

«لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُعَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ»

. هذه الصفات تتبع من ذاته القدسية المطلقة. فالفرد المحدود العلم والقدرة إن خاض في شيء واستعان بعلمه وقدرته، فمن الطبيعي إلّا يسعه التعامل مع عمل آخر، أما الذات المقدسة فهي تدبر عالم الوجود برمته في لحظة واحدة، يسمع سبحانه استغاثة العباد ويعلم بحاجاتهم، وحيث كانت ذاته غنية

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٢

عن الحدود وجامعة للكمالات كافة فليس من سبيل لتغيير تلك الذات، كما أنّ المكان من لوازم محدود الوجود، فتلك الذات المطلقة عن الحدود حاضرة في كل مكان، وفي نفس الوقت هي ليست بحاجة إلى مكان. أضف إلى ذلك فإنّ صفات الله خارجة عن نطاق وصفنا، فنحن محدودون، والذات وصفاتها ليست محدودة، وليست لنا من قدرة للحديث عن كمالات الله وإن طال بنا الحديث فإننا نعود من حيث ابتدأنا، شننا أم أبينا. نعم، له وحده وصف ذاته وكمالاته كما ورد في الحديث:

«لَا أَبْلُغُ مَدْحَكَ وَالثَّنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» [٧٨٣].

ثم خاض في الصفة الخامسة وهي علمه المطلق حيث ركّز على سبعة مواضع خفية تماماً عن الآخرين، فقال:

«وَلَا يَغْزُبُ [٧٨٤] عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ،

وَلَا سَوَافِي [٧٨٥] الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا دَيْبِ [٧٨٦] النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا [٧٨٧]، وَلَا مَقِيلُ [٧٨٨] الذَّرِّ [٧٨٩] فِي

اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ [٧٩٠] الْأَخْدَاقِ».

فالعبارة

«عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ»

تشير إلى قطرات المطر وقطرات ماء البحار والأنهار والآبار والينابيع التي لا يعلمها إلا الله، كما يعلم عدد نجوم السماء التي يقول العلماء اليوم أن مجرتنا فقط تحتوى على ٢٠٠ مليار نجمة، لكن ما عدد النجوم في سائر المجرات التي لا تعد ولا تحصى؟ لا يعلم ذلك إلا الله. والأدهى من ذلك، ذرات الغبار التي ترتفع في كل آن في أمواج الرياح في كرتنا الأرضية وتنتقل من موضع إلى آخر ولا يعلم بها إلا الله. ذهب البعض إلى أن المراد من ديب النمل، الأصوات

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٣

التي تصدر عن وقع أقدام النمل على الحجر، والذي يصعب إدراكها بأيء وسيلة متطورة، إلا أن الله عالم بكل ذلك، كما يعلم بمخادعها، والمراد، جميع النمل في نقاط العالم كافة.

وتشير العبارة

«يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأُورَاقِ»

إلى موضع سقوطها في أنحاء الكرة الأرضية كافة حيث يسقط في كل لحظة ما لا يعد ولا يحصى من الأوراق في البساتين والحدائق وأعالى الجبال وأعماق الوديان ولا يعلم ذلك إلا الله، كما يعلم عدد أطباق أجفان عيون الناس والحيوانات وكل ذى عينين. أجل، لا يخفى عليه شىء من الكليات ولا الجزئيات في عالم الوجود بأسره، وكفى الإنسان تربية وأدباً، إيمانه بهذا الإله، كفاه أن يعلم أن العالم حاضر بأسره لدى الله وهو عليم بظاهرها وباطنها، ومن هنا ورد في القرآن «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [٧٩١]. ثم شهد لله بالوحدانية، فليس سوى الله تعالى أهل للعبودية:

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَيْرَ مُعَدُولٍ [٧٩٢] بِهِ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ»

. وهكذا ينفى الإمام عليه السلام كل أنواع الشرك والشك والكفر بالآيات التكوينية والتشريعية، بعبارة أخرى ينفى كل شبيه وشريك لله ثم يخوض في الشك في ذاته المقدسة وأفعاله التشريعية والتكوينية ويقول: ليس من سبيل للشك في دينه ولا في خالقيته وربوبيته في عالم التكوين، ثم قال:

«شَهَادَةٌ مِنْ صَدَقَتْ نَيْتُهُ، وَصَفَتْ [٧٩٣] دِخْلَتَهُ [٧٩٤] وَخَلَصَ يَقِينُهُ،

وَنَقَلَتْ مَوَازِينَهُ».

إشارة إلى أن هذه الشهادة لذات الحق وصفاته شهادة من اتصف بهذه الصفات الأربع: صدق نيته وطهاره قلبه من الشرك والرياء وبعد يقينه عن الريه والشك

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٤

وتكشف أعماله عن عمق إيمانه بالله، وهى ليست كشهادة المنافق أو الطامع بالمال والجاه، ولا ذلك الذى خلط إيمانه بالشك، ولا ذلك الذى يتحدث عن الإيمان ولا يبادر العمل الصالح.

ثم أردف شهادته لله بالوحدانية بالشهادة لمحمد صلى الله عليه وآله بالرسالة ونعته بست صفات، فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَائِقِهِ، وَالْمُعْتَمَدُ [٧٩٥]

لِشْرَحِ حَقَائِقِهِ، وَالْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ [٧٩٦] كَرَامَاتِهِ وَالْمُصْطَفَى لِكِرَائِمِ رِسَالَاتِهِ،

وَالْمَوْضَعُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى وَالْمَجْلُوبُ بِهِ غَزِيْبُ [٧٩٧] الْعَمَى .

الصفة الأولى التي ورد الحديث فيها عن صفته التي سببت اختياره للرسالة.

والصفة الثانية، وظيفته في شرح حقائق الدين والعقائد الصحيحة. وتطرق في الصفة الثالثة، إلى مكارم خلقه، والصفة الرابعة، في وظيفته المهمة في بيان الأحكام، والصفة الخامسة، هدايته صلى الله عليه وآله عن طريق قوله وفعله وإمضائه العملى. وتحدث في الصفة السادسة، عن جهوده في محاربة الجهل والذى عبر عنه بالعمى. وتشير هذه الصفات إلى أنى لم أشهد اعتباطاً بنبوته وأنقاد

لإمامته.

تأملان

١. مشكلة الصفات

كما ورد في كلمات الإمام عليه السلام العميقة المعنى فإن الذات القدسية تتجاوز الحدود والزمان والمكان ولها إحاطة علمية تامة بكل شيء في عالم الوجود. نعم، فالعالم بأسره حاضر عند الله وله حضور في كل مكان دون أن يضمه مكان. وإن صفاته الجمالية والجلالية وإن منحتنا معرفة عميقة، إلا أنه لا بد من الاعتراف بأنه خارج

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٥

عن وصفنا. أحياناً تبدو تعبيراتنا بشأن الذات لغز ونوع من التناقض، إلا أن حل هذا اللغز يمكن في الالتفات إلى نقطة وهي أن وجوده مطلق ولا متناه من جميع الجهات، فليس له من بداية ولا نهاية ولا حد محدود. وإن تصور هذا الموجود للانسان المحدود من جميع الجهات يبدو مستصعباً، ولكن على كل حال لا تحل قضية الصفات الإلهية دون الالتفات إلى ذلك الأمر. فإن قلنا إنه عالم بكل شيء حتى بذرات الغبار التي تتعلق بالهواء، فذلك لأنه حاضر في كل مكان، وقولنا إنه حاضر في كل مكان بمعنى أن وجوده غني عن الحدود ومحيط بكل شيء. وإن قلنا ليس له مكن زمان أو مكان، ذلك لأن الزمان يأتي من الحركة والمكان بواسطة محدودية الإنسان، وليس للوجود المطلق من حركة نحو النقص أو الكمال، وحيث هو غني عن كل شيء فلا حاجة به إلى مكان. وخلاصة الكلام إذا أردنا معرفة الله فإن علينا أن ننفي جميع صفات المخلوقات التي تنبع من الحاجة والمحدودية عن تلك الذات المقدسة.

٢. أهداف بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

تضمنت آيات القرآن الكريم والروايات وخاصة نهج البلاغة، الكثير من الكلمات بشأن هدف بعث الأنبياء ولا سيما نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، ومن ذلك، العبارات العميقة التي أوردها الإمام عليه السلام في هذه الخطبة. فقد بين الإمام عليه السلام أن أحد أهداف رسالة النبي صلى الله عليه وآله شرح الحقائق والتي يمكن أن يراد منها كل حقيقة أو حقائق مرتبطة بالمبدأ والمعاد وأصول العقائد، إلى جانب بيان القيم الخلقية كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» [٧٩٨].

والهدف الآخر، بيان الرسالات السماوية في الأحكام الدينية وكشف علامات الهداية وأخيراً طرح حجب الجهل والعمى عن قلوب الناس وأبصارها. فهو معلم عظيم ومرتب رباني ومرشد خبير.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٧

القسم الثاني

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تَعْرِى الْمُوَمِّلَ لَهَا وَالْمُخَلِّدَ إِلَيْهَا، وَلَمَّا تَنَفَّسَ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَغَلَّبَ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا. وَإِيْمُ اللَّهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضٍّ نِعْمَةٌ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا، لِأَنَّ «اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ».

وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النَّعْمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمْ النَّعْمُ، فَرَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَوَلَّهِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ. وَإِنِّي لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فِتْرَةٍ. وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتَمٌ فِيهَا مِثْلَةٌ، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَكِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعْدَاءُ. وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ!

الشرح والتفسير: صدق النية مع الله

خاطب الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الناس كافة وذكرهم بأربع نقاط مهمّة، لها بالغ الأثر في حياة الناس، فقال في النقطة الأولى

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تَعْرُ الْمُؤَمِّلَ لَهَا وَالْمُخَلِّدَ [٧٩٩] إِلَيْهَا، وَلَا تَنْفَسُ [٨٠٠] بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا»

. لما كان حبّ الدنيا كما ورد في الحديث رأس كل خطيئة فقد شرع الإمام عليه السلام بحبّ الدنيا. الجدير بالذكر أنه لم يرد دم لمن حصل على الدنيا بل على

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٨

أولئك الذين يتهافتون على الدنيا ويتعلقون بزخارفها. وقد تفرغوا بزخارف الدنيا أولئك المتكالبين عليها حتى يظنون بأن كل شيء خالد فيها، إلا أنهم يرون فجأة زوال كل شيء بفعل حادثه أليمه، على سبيل المثال، فإن زلزلة لا تستغرق بضع ثوان تضرب المدينة فتقضي على ما فيها ومن فيها، نعم ربّما يفوق لمدّة وسرعان ما يعود إلى سبات الغفلة.

ثم أشار إلى النقطة الثانية فقال كقاعدة كلية:

«وَأَيْمُ اللَّهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عَضِّ [٨٠١] نَعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا [٨٠٢]، لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ». والواقع أن هذه العبارة اقتباس من الآية الشريفة: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» [٨٠٣] والآية: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [٨٠٤]. طبعاً، نعم الله تقسم على العباد حسب استعدادهم وأهليتهم، ومن هنا يستحقها الصالحون الطاهرون لا الآثمون الملوثون.

سؤال: ورد في بعض الروايات أن الله يتلى أوليائه بأنواع البلاء كما جاء في الخبر «البلاء للولاء» [٨٠٥] لرفع مقام أوليائه، كما يستفاد من بعض الروايات أن البلاء قد يكون امتحاناً للمؤمن وأخرى تحذيراً وإيقاظاً للعباد، أفلا يتنافى هذا وما ورد في عبارة الإمام؟

الجواب: ما ورد في كلام الإمام عليه السلام قانون كلّي ونعلم أن لكل قاعدة شواذ، فموارد الامتحان والإيقاظ وأمثال ذلك استثناءات من تلك القاعدة الكلية والقانون

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٩

العام، وبعبارة أخرى عبارة الإمام عليه السلام تحمل على الغالب وهذا شبيه ما ورد في القرآن: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ» [٨٠٦] قطعاً، ليس هناك من منافاة بين هذه الآية، والآية: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ...» [٨٠٧] التي تتحدث عن مختلف الإمتحانات الإلهية بواسطة البلاء، وكذلك الآية: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» [٨٠٨] ولعل الإنسان إذا تأمل قليلاً لأمكنه التعرف على الموارد التي يكون البلاء فيها جانب العقاب والجزاء أو الامتحان والتحميص والتحذير. فإن بدرت منه معصية أو قارف المجتمع أنواع الفساد وأصابته بعض الحوادث المريرة فإن ذلك عقاباً؛ أمّا الحوادث المريرة التي تطيل الصالحين فهي تمحيص يهدف إلى رفع مقامهم.

ثم خلاص الإمام عليه السلام إلى نتيجة فقال:

«وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينٍ تَنَزَّلَ بِهِمُ النَّعْمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمْ النَّعْمُ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِّنْ نِّيَّتِهِمْ، وَوَلَّهِ [٨٠٩] مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ [٨١٠]، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلُّ قَاسِدٍ»

. عادة ما يعتمد هذا الطبيب الرباني الماهر إلى وصف العلاج بعد ذكر المرض، ويعلم الناس سبيل دفع المكروه والبلاء، ويرى أن الدعاء إن كان صادقاً وخارجاً من أعماق القلب بمعنى تحدث حالة من التغيير لدى الإنسان فإنه يدفع البلاء كما ورد ذلك في العديد من الروايات، ومنها ما روى عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال:

«الدُّعَاءُ يَدْفَعُ الْبَلَاءَ النَّازِلَ وَمَا لَمْ يَنْزِلْ» [٨١١].

ثم أشار إلى النقطة الرابعة التي بينها سابقاً على نحو العموم فقال:
«وَإِنِّي

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤٠

لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فِتْرَةٍ [٨١٢]. وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِثْلَهَا مِثْلَهُ، كُنْتُمْ

فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسَعْدَاءُ. وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ!»

. أما مراد الإمام عليه السلام من هذه الإشارة المطلقة إلى بعض انحرافاتهم، فقد قيل إنه أشار قضية عثمان وحكومته التي فوضت إليه من جانب شوري عمر الظالمة بعد أن سلبتها من أولى الناس بها (عليّ) - والذي أثبتت الحوادث اللاحقة هذه الحقيقة - وقد سلمتم لتلك الحكومة، وورود الخطبة بعد مقتل عثمان في أوائل خلافة الإمام عليه السلام شاهد على هذا المعنى. لكن الاحتمال الأكبر أنه إشارة إلى جميع الخلفاء والأحداث المريرة التي رافقت الخلافة. ومراده من العبارة »
«لَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ»

، أى لو أردت أن أكشف النقاب عن هذه الأحداث الأليمة لاستطعت، لكنني أغض النظر عنها وأسأل الله أن لا يؤاخذكم ويعفو عن
تقصيركم [٨١٣].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤١

الخطبة ١٧٩

إشارة

وَقَدْ سَأَلَهُ ذِغْلِبُ الْيَمَانِيِّ فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبِّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَفَأَعْبُدُ مَا لَأَأْرَى

فَقَالَ: وَكَيْفَ تَرَاهُ؟ فَقَالَ: [٨١٤]

نظرة إلى الخطبة

يدور محور الكلام حول صفات الله ويؤكد هذا المعنى: إن تعذرت رؤية الله بالعين فإنه يمكن مشاهدته من خلال قبسات صفاته
بالبصيرة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤٣

القسم الأول

فَقَالَ: لَا تَدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ، وَلَكِنْ تَدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ. قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَابِسٍ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ. مُتَكَلِّمٌ لِمَا بَرَوِيهِ، مُرِيدٌ لِمَا بَهَمِهِ، صَائِعٌ لِبِجَارِ حَيْهٍ. لَطِيفٌ لَأَيُوصَفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَأَيُوصَفُ بِالْجَفَاءِ، بَصِيرٌ لَأَيُوصَفُ بِالْحَاسَةِ، رَحِيمٌ لَأَيُوصَفُ بِالرَّفَةِ. تَغْنُو الْوُجُوهُ لِعِظَمَتِهِ، وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ.

الشرح والتفسير: هل رأيت الله؟

يستفاد من مختلف الروايات في سيرة أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال مراراً:

«سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تُفْقِدُونِي»

، فقد أعرب عن استعداده للإجابة عن كل سؤال يتعلق بدين الناس وديانهم، وقد كُرر هذه العبارة حتى حين التقى الناس وهو على فراش الموت بعد ضربة ابن ملجم. وحين وُلِّي عليه السلام الخلافة خطب فقال:

«سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تُفْقِدُونِي»

وأكد بهذا المعنى بأنه أعلم بآيات القرآن فيم نزلت وأين نزلت وناسخها ومنسوخها ومتشابهها ومحكمها. فقام ذعبل اليماني وكان رجلاً شجاعاً وبلغاً فسأله السؤال المذكور وأجابه الأمير عليه السلام [٨١٥] فقال:

«أَفَأَعْبُدُ مَا لَا أَرَى»

بمعنى أن العبادة فرع من المعرفة وللمعرفة درجات أرفعها درجة الشهود، وقد التفت الإمام في كلامه عليه السلام إلى مرحلته العبادية الرفيعة التي ترافق مشاهدة الذات المقدسة، ذعبل غرق في التفكير في أن مراد الإمام عليه السلام هنا أيّة رؤيته؟ هل الرؤية الحسية التي نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤٤

يقول بها أم المجسمة؟ أم الرؤية الروحية والمعنوية التي تفوق الرؤية العقلية؟ لذلك أردف سؤاله بسؤال آخر فقال:

«وَكَيْفَ تَرَاهُ؟»

هل هذا سؤال واستفهام لكشف الحقيقة أم نوع من الإنكار والجدال؟ الجواب عن هذا السؤال يتوقف على تقييمنا لذعبل، فإن كان من أصحاب الإمام عليه السلام فلا شك في أن سؤاله كان لمعرفة الحقيقة، وإن كان أنساناً طائشاً، كما يستفاد من بعض روايات المارة- فإن سؤاله يستند إلى الإنكار والجدال. على كل حال أجابه الإمام عليه السلام بما يميظ اللثام عن بعض الحقائق وقد أثر جوابه بالجميع بما فيهم ذعبل، حيث نفهم على قدر مطالعتنا أنه أصيب بالذهول عندما فرغ الإمام من الكلام.

فقد قال عليه السلام:

«لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمَشَاهِدِ الْعِيَانِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ»

. المراد من حقائق الإيمان، الأصول العقائدية والمعارف الحقّة. ولتوضيح هذا الكلام ينبغي الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن المشاهدة على ثلاثة أنواع:

١. المشاهدة الحسية التي تتم بالعين، وأحياناً تزود هذه العين ببعض الأجهزة كالمجهر والتلسكوب.

٢. المشاهدة العقلية التي يبلغها عن طريق الاستدلال به فيرى الحقائق ببصيرة كالشمس من قبيل- ما ذكره المرحوم مغنية في شرح نهج البلاغة- مشاهدة نيوتن لقانون الجاذبية الذي يستحيل رؤيته بالعين أثر مشاهدته لسقوط التفاحة من الشجرة على سطح الأرض.

٣. الشهود الباطني وهو نوع من الإدراك الباطني لكن ليس الاستدلال.

فالإنسان يرى ببصيرته الواقع الموجود ويؤمن به دون الحاجة إلى الاستدلال ويبدو فهم هذا الإدراك والرؤية صعباً ما لم يبلغه الإنسان، ولهذا الموضوع نماذج كثيرة في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية، فقد ورد في آية بشأن إبراهيم: «وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» [٨١٦]. وبشأن يعقوب حين انطلق إخوة يوسف

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤٥

بقميصه، فقال: «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ» [٨١٧] والنبى الأكرم صلى الله عليه وآله حين حفر الخندق قبيل شروع معركة الأحزاب لما ضرب الحجر ثلاث مرات وزف البشارة لصحبه بفتح قصور كسرى وقصر وقصور صنعاء في اليمن [٨١٨]. وقد أخبر على مراراً في نهج البلاغة عن المستقبل، وكان يقول في بعض المواقع، كأني أرى جماعة ستفعل كذا وكذا، بل نال بعض المؤمنين المخلصين هذا الكشف والشهود.

ومعروفة هي قصة ذلك الفتى الذى قال للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ، يَنْتَعِمُونَ فِيهَا الْجَنَّةَ ... كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ»

. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه:

«هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ» [٨١٩]

. وسائر الموارد التى تستحق كتاباً مستقلاً فى الكشف والشهود، والتى تدل جميعاً على وجود شهود آخر يفوق الشهود الحسى والعقلى [٨٢٠].

ثم بين الإمام عليه السلام احدى عشرة صفة من صفات الله وأسمائه الحسنى، وقد قرن تسعة منها بعبارات تنفى عنه صفات المخلوقات لتوضيح هذا المطلب فى كيفية إدراك القلوب لله بحقائق الإيمان فقال فى الصفة الأولى والثانية:

«قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ مُلَابِسٍ [٨٢١]، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرِ مُبَايِنٍ»

. ذكرنا مراراً أن مشكلتنا فى فهم صفات الله هى الإنطلاق من صفات المخلوقات والممكنات التى تعيقنا عن إدراك صفات الله ما لم نبتعد عنها، مثلاً فى هذين الوصفين حين نقول: الله قريب، يتراءى لنا سىء مثل

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤٤

قرب جسمين من بعضهما يقعان فى مكانين حسيين، وعندما نقول: الله بعيد يتداعى لنا جسمان بعيدان عن بعضهما وانفصالهما، والحال، بعدهما وقربهما ليس كذلك، فهو قريب من كل شىء، بمعنى إحاطته التامة بجميع الموجودات، وبعيد بمعنى تنزهه كبريائه عن أدناس المكان وصفات المخلوقات الناقصة.

وقال فى الصفة الثالثة والرابعة:

«مُتَكَلِّمٌ لِأَبْرَوِيَّةٍ [٨٢٢]، مُرِيدٌ لِأَبْهَمَةٍ [٨٢٣]»

. وإن طرح موضوع الكلام والإرادة يتبادر إلى أذهاننا إن الشخص يجيد لغة معينة ويفكر فى مطلب ثم يصوغه فى إطار كلمات وعبارات، ثم يستعين بلسانه وشفتيه ليوصل صوته المنطلق من حنجرته إلى الآخرين، وهكذا الأمر بالنسبة للإرادة فى أن يفكر المرید مسبقاً ويتأمل صلاح الشىء من فساده ثم يعزم على القيام بالعمل وأمر الجوارح والأعضاء بالتنفيذ. قطعاً إن أياً من هذه الأمور لا تصدق على الله، فهو ليس بجسم وليس له أعضاء وجوارح وليس بحاجة إلى التفكير. فكلامه ليس سوى خلق الموجات الصوتية فى الفضاء كتلك الأمواج التى سمعها النبي موسى عليه السلام من الشجرة، وإرادته ليست سوى علمه بالمصالح والمفاسد. وهذه الحقيقة صادقة تماماً على الصفات السبع الأخرى ومن هنا اعتبر الإمام عليه السلام أن أفضل طريق لمعرفة الله، نفى صفات المخلوقات عنه، فقال:

«وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ» [٨٢٤].

وقال فى الصفة الخامسة:

«صَائِعٌ لِأَبْجَارِحَةٍ»

نعم، إن أمره إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون، وله أن يخلق عالماً واسعاً ومترامياً كعالمنا فيقول له كن فيكون ولا يحتاج إلى وسائل وأدوات وأجزاء كالإنسان.

وقال فى الصفة السادسة والسابعة:

«لَطِيفٌ لَأَيُّوَصْفٍ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَأَيُّوَصْفٍ بِالْجَفَاءِ»

، لشراح نهج البلاغة وعلماء الكلام أحاديث مسهبة فى باب صفات الله ومنها صفة اللطيف، فذكروا لها عدة معانٍ، فتارة فيسروه بالخفى، وأخرى بخالق الأشياء الظريفه وأخيراً ذو اللطف والحب، ولله كل هذه الصفات، إلّا أن المعنى الأول أنسب، أى أن الذات

المقدّسة ظريفه الخفاء، لكن لا بمعنى الخفاء عن العباد،

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤٧

ذلك لأن آثاره ملأت أركان العالم وتجلت فيه جميع الموجودات، والعبارة
«لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ»

إشارة إلى عظّمته، لكن ليست كعظمه الطواغيت والجابرة الممزوجة بالظلم والجور والجفاء، كما قال القرآن الكريم في أواخر سورة
الحشر:

«الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ».

وقال في الصفة الثامنة والتاسعة:

«بَصِيرٌ لَأَيُّوصُفُ بِالْحَاسِئِ، رَحِيمٌ لَأَيُّوصُفُ بِالرَّقَةِ»

. فإن قلنا: فلان بصير، تبادر إلى الذهن بسرعة العين التي يبصر بها، وحين يقال: فلان رحيم تتداعى شفقه قلبه ورقته، والحال، هذه
الصفات الممكنات والموجودات الجسمانية والله أسمى من ذلك. فبصره سبحانه بمضى علمه بالموجودات كافة التي ترى بالعين
ورحيمته بمضى لطفه وعظائه لعباده، وإن مثل هذه الصفات مركبة من النقص والكمال، ولله كمالها ونزاهته من نقصها.

وقال في الصفتين الأخيرتين:

«تَغْنُو [٨٢٥] الْوُجُوهُ لِعِظَمَتِهِ، وَتَجِبُ [٨٢٦] الْقُلُوبُ مِنْ

مَخَافَتِهِ»

. إشارة إلى أنه رغم لطفه ورحمته، إلّا أنّ ذلك لا يعنى جراه العباد على الذات من خلال التشبث بتلك الصفات، بل لا بدّ من خشية
عقابه إلى جانب الأمل بلطفه ورحمته. ومن هنا قال القرآن بشأن المؤمنين: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ» [٨٢٧]. ونعلم جميعاً
بأنّ تعادل الخوف والرجاء من شأنه الأخذ بيد الإنسان إلى السمو والكمال.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤٩

الخطبة ١٨٠

إشارة

في ذمّ العاصين من أصحابه [٨٢٨]

نظرة إلى الخطبة وسبب الورود

يستفاد من كتاب (الغارات) للثقفى، أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين أتاه رسولا محمد بن أبي بكر لنجدته قبل قتاله مع
عمرو بن العاص في مصر، فدعى الإمام عليه السلام الناس إلى المسجد وأخبرهم بالأمر، إلّا أنه لم يستعد للجهاد سوى نفر قليل. ثم
بعث، ليلاً، إلى أشرف الكوفة ودعاهم إلى دار الإمارة، وكان حزينا، لأنه كان يعلم بعمق الخسارة في ظهور ابن العاص وأعوان معاوية
على مصر. فعرض بالدم في هذه الخطبة لصحبه العاصين وناشدهم دفع فتنة عمرو بن العاص عن مصر.

ويتضح ممّا قيل أنّ مضمون الخطبة ذم لترك الجهاد وحثّ على جهاد العدو إلى جانب العواقب الوخيمة للوهن والضعف.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥١

القسم الأول

أَحْمَدُ اللَّهِ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ابْتِلَائِي بِكُمْ أَيَّتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِيعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنَّ أُمَّهَلْتُمْ خُضْتُمْ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ وَإِنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ. لَأَبَا لِعِغْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ؟ الْمَوْتُ أَوِ الدَّلُّ لَكُمْ؟ فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي - وَلِيَأْتِيَنِي - لَيَفْرَقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لَصُحْبَتِكُمْ قَالٍ، وَبِكُمْ غَيْرٌ كَثِيرٌ.

الشرح والتفسير: الجهاد أو الموت والعار

إستهل الإمام عليه السلام الخطبة كسائر أغلب الخطب بحمد الله والثناء عليه، وقال:

«أَحْمَدُ اللَّهِ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ابْتِلَائِي بِكُمْ»

. لشراح نهج البلاغة عدة تفاسير في المراد بالقضاء والقدر في هذه العبارات هل له معنى واحد ويشير بأجمعه إلى المقدرات الإلهية، أم له معنيان؟ قال البعض: كلاهما بمعنى واحد، وقال الآخر: القضاء يتعلق بخلق عالم الأمر والعقول يعنى عالم ماوراء الطبيعة، والقدر إشارة إلى عالم الخلق أى عالم الطبيعة. وأحد التفاسير الواضحة للقضاء والقدر - والذي تؤيده الآيات والروايات - أن القضاء سواء في عالم التكوين أو عالم التشريع يشير إلى أمر الله بأصل وجود الشيء، ويشير القدر بحجمه وأجزائه وشرائطه، مثلاً، شخص يأمر ببناء مسجد أو مستشفى فهذا مصداق للقضاء، ثم يبين متطلباته، وهذا هو القدر. فأمر الله بالصلاة والصوم في عالم

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥٢

التشريع، القضاء، وأمره بالنسبة لأجزائه وشروطه، قدر.

النقطة الأخرى في كلام الإمام عليه السلام حمده الله على ابتلائه بأصحابه العاصين. ذلك لأن أولياء الله المسلمون لأمره ويرون كل ما ينالهم منه حسناً جميلاً.

ثم خاطب عليه السلام الحاضرين في المجلس من زعماء قبائل الكوفة فقال:

«أَيَّتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِيعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنَّ أُمَّهَلْتُمْ خُضْتُمْ [٨٢٩]، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ [٨٣٠] وَإِنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ [٨٣١] إِلَى مُشَاقَّةٍ [٨٣٢] نَكَصْتُمْ [٨٣٣]»

. فقد أشار إلى أربع نقاط لضعف الناس تجاهه: المعصية وعدم الإهتمام بالدعوة وتضييع الفرصة والضعف في ميدان القتال، ولا شك أن كل واحدة تكفى لأن تكون سبباً للهزيمة فضلاً عن اجتماعها. ثم وبخهم بنوع من الحب، فقال:

«لَا أَبَا لِعِغْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ؟ الْمَوْتُ أَوِ الدَّلُّ لَكُمْ؟» [٨٣٤].

إشارة إلى أن الوضع الذي أنتم عليه - إزاء العدو الماكر كعماوية وجيشه والذي يتسم بالضعف وعدم الإكتراث - ليس له من نتيجة سوى الموت أو الدل، وإن بقيتم أحياء فالذلة لهؤلاء، العز في الجهاد ونتيجته النصر أو الشهادة، كما قال الإمام عليه السلام:

«الْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ» [٨٣٥].

ثم قال:

«فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي - وَلِيَأْتِيَنِي - لَيَفْرَقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لَصُحْبَتِكُمْ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥٣

قَالَ [٨٣٦]، وَبِكُمْ غَيْرٌ كَثِيرٌ»

. فقد لفت الإمام عليه السلام انتباههم إلى قضية مهمة وهي أن وجودى سند عظيم لكم فعوا ذلك. واعلموا إن من فسوف لن أحسر شيئاً سوى جيش لا إرادة له، بينما ستخسرون أنتم كل شيء وستفقدون قائداً شجاعاً وآمراً لا يقهر.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥٥

القسم الثاني

لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ! وَلَمَّا حَمِيَّتْ تَشْحَدُكُمْ! أَوْلَيْسَ عَجَبًا أَنْ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاءَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكُهُ الْإِسْلَامَ، وَبَقِيَّةَ النَّاسِ - إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَحْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟ إِنَّهُ لَمَّا يُخْرِجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضَى فِتْرَظُونَهُ، وَلَا سُخْطَ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ! قَدْ دَارَسْتُمْ الْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُمْ الْحِجَابَ، وَعَرَفْتُمْ مِمَّا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّعْتُمْ مِمَّا مَجَّجْتُمْ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ! وَأَقْرَبُ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ فَازِدُهُمْ مُعَاوِيَةَ! وَمُؤَدِّبُهُمْ ابْنُ النَّابِغَةِ!

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام عرضه بالذم لأولئك الضعاف من أصحابه في الامتثال لأوامره:
«لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ! وَلَا حَمِيَّةٌ [٨٣٧] تَشْحَدُكُمْ [٨٣٨]!».

إشارة إلى أن الوقوف بوجه العدو والدفاع عن الأهداف المقدسة يتطلب أحد العنصرين: أحدهما الإيمان بالله ويوم الجزاء ووعده للمجاهدين والشهداء أو الدفاع القومي الوطني، وللأسف ليس فيكم أي من هذين العنصرين، فدينكم وإيمانكم ضعيفان وليس فيكم من دافع أو هاجس لحب الوطن، ولذلك توانيتم حتى شئت

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥٦

عليكم الغارات وداهمكم العدو.

ثم قارن الإمام عليه السلام بينهم وبين أصحاب معاوية فقال:

«أَوْلَيْسَ عَجَبًا أَنْ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاءَ [٨٣٩] الطَّغَامَ [٨٤٠] فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكُهُ [٨٤١] الْإِسْلَامَ، وَبَقِيَّةَ النَّاسِ - إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَحْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟»

. فهنا سؤالان جديران بالاهتمام، الأول أن معاوية معروف في البذل والعطاء السياسي الهادف، فكيف يقول الإمام عليه السلام إن معاوية لا يقدم للأفراد معونة ولا عطاء؟ أجاب بعض شراح نهج البلاغة عن هذا السؤال بأنه كانت لمعاوية مساومات سياسية مع زعماء القبائل وقادة الجيش فكان يغدق عليهم الأموال الطائلة دون الالتفات إلى الناس، أما الإمام على عليه السلام فكان يقسم أموال بيت المال بالتسوية على الناس بمنتهى العدل والقسط ويقدم التكاليف الحربية لجميع المقاتلين.

والثاني: لم عتياً معاوية الناس بتلك الطريقة من توزيع الأموال، بينما لم يتعبأ الناس لأمر المؤمنين عليه السلام رغم تعميمه العطاء والمعونة على أساس العدل؟ ولا تبدو الإجابة عن هذا السؤال صعبة، فإضافة إلى ضعف أهل الكوفة وغدورهم كان هناك وفاء أهل الشام وانصياع الأفراد لزعماء قبائلهم الذين كان يرشيهم معاوية بالأموال، ولكن زعماء القبائل كانوا يشعرون بعدم الرضا من تسوية الإمام عليه السلام بينهم بالعطاء، فلم يكونوا يعثون أفراد قبيلتهم.

ثم ذم الإمام عليه السلام فرقتهم واختلافهم فقال:

«إِنَّهُ لَمَّا يُخْرِجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضَى فِتْرَظُونَهُ، وَلَا سُخْطَ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ.»

ويبدو تفسير هذه العبارة واضحاً رغم اختلاف الشراح في تفسيرها فالإمام عليه السلام

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥٧

يريد أن يقول إنكم دائماً تحثون الخطي باتجاه التشقت والفرقة وليس هناك ما يوحد كلمتكم، لا العناصر التي ترضيني ولا النواهي

عن الأمور التي تغضبني، والفرقة هي أهم عوامل فشلكم، فأنتم لا تمثلون لأوامري ولا تنتهون بنهيي، كما يحتمل أن يكون مراد الإمام عليه السلام أنكم تجتمعوا على ما يخالف رغبتكم أو يطبقها، كمن يقول للمريض انك لا تتناول الدواء المر ولا الحلوى، أى إن لم تقبل الأول فاقبل الثاني، كحد أدنى. ثم تشتعل النار في قلب الإمام عليه السلام بعد ذلك الدم والتوبيخ فيقول:

«وَإِنْ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ!»

حقاً إنها لفاعجة أن تبلغ الحالة درجة يتمنى معها هذا الجبل الشامخ الذي يفيض صبراً وتحملاً الموت. نعم أحياناً يصيب الإنسان من صحبه الغدرة الفجرة ما لا يصيبه من أعدائه وهنا يتمنى الإنسان الموت، الموت الذي يفرق بينه وبين مثل هؤلاء الأفراد الناكرين للجميل المنحرفين عن الحق.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أياديه الثقافية والتربوية للأمم الإسلامية سيما بالنسبة لصحبه فأشار إلى أربعة مواضع مهمة فقال:

«قَدْ دَارَ شُكُّكُمْ [٨٤٢] الْكِتَابَ»

طبعاً القرآن كان بأيدي المسلمين يتلونه أثناء الليل والنهار ولم تكن هنالك من حاجة لتدريس الإمام عليه السلام، فالمراد فهم مضمون القرآن الكريم وسبر أغواره والوصول إلى مفاهيمه حيث يعتبر الإمام عليه السلام المفسر الأول بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان يفسر للناس آيات القرآن ويستشهد بها في أغلب خطبه، ثم تطرق إلى خدمته الثانية للأمم فقال:

«وَفَاتَحْتُكُمْ الْحِجَابَ [٨٤٣]»

. أى علمتكم الأدلة العقلية كحجة شرعية بعد الأدلة النقلية.

وقال في الخدمة الثالثة:

«وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ»

فقد كشفت لكم الغطاء عن مكنون كثير من الحقائق الخافية عليكم وكنتم تجهلونها، كما يمكن أن يكون لهذه العبارة مفهوم آخر هو انكاركم لبعض المسائل واتخاذكم مواقف أخرى منها بفعل

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥٨

جهلكم، فعرفتكم حقيقتها لتقلعوا عن انكاركم، وأخيراً

«وَسَوَّغْتُكُمْ [٨٤٤] مَا مَجَّجْتُمْ [٨٤٥]»

. فهنالك الكثير من المفاهيم التي لم تبلغوا عمقها وحقيقتها، ومن هنا كنتم تمجون هذه المفاهيم وتبتعدون عنها، إلّا أنى كشفت لكم عن أسرارها لتصبح لديكم كالماء الزلال.

ثم أعرب عن أسفه عن سذاجه مخاطبه فقال:

«لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوْ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ!»

. فأننا لم أقصر في تربيتكم وتعليمكم، وقد بنيت لكم كل ما ينفعكم، ولكن ليس لديكم من استعداد وكان بذور علمي وتربيتي وحكمتي قد صادفت أرضاً قاحلة.

ثم اختتم عليه السلام خطبته بإبراز تعجبه قائلاً:

«وَأَقْرَبُ [٨٤٦] بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ قَائِدُهُمْ

مُعَاوِيَةُ! وَمُؤَدَّبُهُمُ ابْنُ النَّابِغَةِ [٨٤٧]!»

. جاء في الرواية أن الإمام عليه السلام قال هذه العبارة مع إضافات حين مرّ بجماعة من أهل الشام كان فيهم الوليد بن عقبة، المعروف بشرب الخمر وقد أقيم عليه الحد، حين سمعه البعض قد شتم الإمام عليه السلام فهتموا به ونهاهم الإمام عليه السلام [٨٤٨].

١. الفرق بين المعونة والعتاء

قال الإمام عليه السلام فى الخطبة المذكورة إنَّ معاوية لم يقدم لأتباعه معونةً ولا عطاءً

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥٩

(طبعاً، المراد الأفراد العاديون، وإلما فإنَّ شراءه لزعماء القبائل بواسطة الأموال الطائلة ما تناقلته كتب التاريخ). والفارق بين المعونة والعتاء، إلّا أنَّ العطاء شىء من قبيل المرتبات الرسمية والمعونة ما يقدم من منح ومساعدات لإعداد السلاح أو الدابة للقتال.

٢. الخدمات الثقافية الأربع للإمام عليه السلام

أشار الإمام عليه السلام فى الخطبة المذكورة إلى أربع من خدماته لصحبه، وأجزها فى:

تعليم كتاب الله، القرآن الكريم، والثانية، تعريفهم بالأدلة العقلية والبراهين الجلية، والثالثة، تعليمهم ما كانوا يجهلونه وكشف أسرار أغلب الحقائق المتعلقة بالدين والدنيا، والرابعة، والأخيرة إعادتهم إلى المفاهيم الحقّة وجعلها مستساغة لهم بعد أن كانت ممجوجة، والواقع هو أنّ هذه الأصول الأربعة تشكل دورة تعليمية ودينية وفكرية متكاملة، ينبغى لجميع القائمين على شؤون التعليم، الالتفات لها، وبالطبع فإنَّ النتيجة المطلوبة لهذه اللحظة إنّما تتأتى حين يتمتع الفرد الخاضع للتربية والتعليم بالإستعداد التام لتقبّلها. اللهم ارزقنا عيناً باصرةً وأذناً سامعةً ويقظةً ووعياً لنصغى إلى كلمات أوليائك التى تطهر روح الإنسان وتهذبها وننظر إلى آيات عظمتك بعين البصيرة.

اللهم لا تفرّق بيننا وبينهم ولا طرفه عين فى الدنيا وفى الآخرة وثبتنا على مسيرتهم. يارب العالمين.

ختام الجزء السادس

كانون الثانى ٢٠٠٣ م

محرم الحرام ١٤٢٥ هجرى

[١] (١). سند الخطبة:

لم ترد هذه الخطبة فى مصادر أخرى والشىء الوحيد الذى يعتمد عليه مؤلف «مصادر نهج البلاغة» ما ذكره السيد اليماني فى كتاب «الطراز» وقد استشهد فيه بعدة عبارات من هذه الخطبة، رغم أنّه عاش بعد السيد الرضى، إلّا أنّ اختلاف بعض العبارات مع ماورد فى نهج البلاغة يفيد أنّه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة. راجع مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٤١

[٢] (١). «مداحر» جمع مدحر، بمعنى الأمر الذى يسبب طرد الشىء وإبعاده من مادة (دحور) بمعنى الطرد والإبتعاد

[٣] (٢). «مزاجر» جمع مزجر، بمعنى المانع من الشىء من مادة (زجر) بمعنى المنع

- [٤] (٣). «مخاتل» جمع مختل، المكيدة وهي الوسيلة التي يتم بها الخداع من مادة (ختل)
- [٥] (١). «الجفوة» بمعنى القسوة
- [٦] (١). «بواتق» جمع بائقة، بمعنى الحادثة المهمة والداهية المميته من مادة (بوق) على وزن فوق، بمعنى الفساد
- [٧] (١). «قتام» بمعنى الغبار
- [٨] (٢). «العشوة» ركوب الأمر على غير بيان
- [٩] (٣). «شباب» بكسر الشين أى بداياتها فى عنفوان وشدة كشباب الغلام وفتوته، وقد وردت هذه المفردة بكسر الشين فى بعض نسخ نهج البلاغة وبالفتح فى البعض الآخر
- [١٠] (٤). «السلام» بكسر السين جمع سلمة، على وزن كلمة بمعنى الحجارة الصم
- [١١] (١). «مريح» بمعنى التتن والعفن من مادة (ريح) بمعنى التتن
- [١٢] (٢). سورة البقرة، الآية ١٦٦
- [١٣] (١). سورة الأنعام، الآيتان ٢٣ و ٢٤
- [١٤] (١). «رجوف» من مادة (رجف) على وزن حذف بمعنى شدة الاضطراب، وتطلق الأراجيف على الاشاعات التى تجعل المجتمع شديد الاضطراب
- [١٥] (١). «قاصمة» من مادة (قصم) على وزن خصم بمعنى الكسر مع الشدة
- [١٦] (٢). «زحوف» من مادة (زحف) على وزن حرف بمعنى الثقل فى المشى وتطلق على حركة الجيش الكثير، وزحوف فى العبارة إشارة إلى الافتتان الذى يستشرى فى المجتمع
- [١٧] (٣). «نجوم» وردت هنا بالمعنى المصدرى وهو الظهور
- [١٨] (١). «يتكادمون» من مادة (كدم) على وزن شرم بمعنى العض والتكادم أن يلتحم حيوانان فيعض كل منهما الآخر
- [١٩] (٢). «حمر» جمع حمار، بمعنى الحمار الوحشى هنا بقرينه العانة وهي الجماعة من حمر الوحش
- [٢٠] (٣). «مسحل» من مادة (سحول) بمعنى الفأس والمبرد وما شابه ذلك مما يبرد به الشىء
- [٢١] (٤). «ترض» من مادة (رض) التهشيم
- [٢٢] (٥). «كلكل» بمعنى الصدر
- [٢٣] (١). «عبيط» من مادة (عبط) على وزن خبط بمعنى قطع رأس الحيوان ويقال الدم العبيط للدم الطرى الذى يجرى من بدن الإنسان أو الحيوان
- [٢٤] (٢). «مرعاد» من مادة (رعد) الشىء العظيم الصوت والمبراق من مادة (برق) الشىء البراق الذى يخطف الأبصار
- [٢٥] (١). «مطلول» من هدر دمه من مادة (طل) على وزن حل بمعنى هدر الدم
- [٢٦] (٢). «يختلون» بمعنى (يخدعون) من مادة (ختل) على وزن قتل بمعنى الخداع
- [٢٧] (١). «لحق» جمع لعة، الشىء القليل، وما تأخذه من طعام بالملعة
- [٢٨] (١). سند الخطبة:
- أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة بعد تسلّمه الخلافة. هذا ما ذكره ابن أبى الحديد والذى يدل على أنه وجدها فى مصدر آخر غير نهج البلاغة؛ وذلك لأن نهج البلاغة لم يشر إلى هذا الموضوع، كما روى المرحوم الكليني بعضها فى الجزء الأول من أصول الكافى، وأشار الأمدى فى غرر الحكم إلى بعض جوانب الخطبة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٤٤)
- [٢٩] (١). «تستلمه» من مادة (الاستلام) بمعنى الاتصال بالشىء

- [٣٠] (١) «النصب» بمعنى التعب والمشقة
- [٣١] (٢) سورة يس، الآية ٨٢.
- [٣٢] (١) سورة ق، الآية ١٦
- [٣٣] (٢) «حيزه» من مادة (حيز) بمعنى المكان
- [٣٤] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ١٥٣
- [٣٥] (٢) «عرفاء» جمع عريف، بمعنى رئيس القوم الذي يدير أمورهم ويعرفه جميعهم
- [٣٦] (١) اصول الكافي، ج ١، ص ٣٧١-٣٧٨؛ بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٢٣ ومستدرک الوسائل، ج ١٨، ص ١٨٧
- [٣٧] (٢) خصال الصدوق، باب الثلاثة، ح ١٨٣
- [٣٨] (١) سورة البقرة، الآية ٨٢
- [٣٩] (٢) «مرايع» جمع مربع، على وزن مثقال بمعنى المكان ينبت نبتة في أول الربيع. وقال بعض: المطر الذي ينزل أول الربيع
- [٤٠] (١) بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٥، ح ٨، وقد قدمنا شرحاً وافياً بهذا الشأن ذيل الخطبة ١٨
- [٤١] (٢) «حمى» المنطقه المحرمة العائدة لشخص أو جماعة ولا يحق للآخرين دخولها دون إذن، ووردت في الخطبة بمعنى حرمان الله
- [٤٢] (٣) «ارعى» من مادة (رعى) مراقبه الشيء ومن هنا يطلق الرعى على الأغنام وحيث يترك الحيوان بحريته في المرعى فإن الارعاء ورد بهذا المعنى في الخطبة، أى أن الله حكم في قرآنه بحريه ما ينبغي بقاؤه حراً
- [٤٣] (٤) نهج البلاغه، الخطبة ١٧٦
- [٤٤] (١) قال المرحوم العلامة التستري في شرحه لنهج البلاغه: كأن مفردة القرآن أو كتاب أنزله سقطت من نسخه نهج البلاغه الموجودة (نهج الصباغه، ج ٣٣، ص ١٣)
- [٤٥] (١) سند الخطبة:
- ورد في مصادر نهج البلاغه: ذكرت هذه الخطبة في بعض نسخ نهج البلاغه كجزء من الخطبة السابقة. قال ابن أبي الحديد إن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة حين اتجه إلى البصرة (لقتال أصحاب الجمل والقضاء على الفتنة). ومما لا شك فيه أنه عثر على هذه الخطبة في مصدر آخر ليقول ذلك الكلام. وردت هذه الخطبة بالتفصيل من قبل السيد الرضى في كتاب تحف العقول، كما روى الكليني بعضها في الجزء الخامس من كتابه الكافي، كما وردت عبارة من خطبة في قصار الكلمات وهي الكلمة ٢٩٨ (ضع فخرک، واحفظ كبيرك واذكر قبرك)، (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٣٤٧)
- [٤٦] (١) «يهوى» من مادة (هوى) على وزن نهى تعنى فى الأصل، السقوط من شاهق، وهوى على وزن نوى بمعنى الرغبة فى الشيء وعادة ما تستعمل فى الميول النفسية والأمر الباطلة، والمعنى الأول هو المراد فى العبارة، أى أن الشخص الذى يعبد الدنيا يسقط مع الغافلين فى وادى الشقاء
- [٤٧] (١) «جلايب» جمع جلباب، الستار والثوب
- [٤٨] (٢) «وטר» بمعنى الحاجة وقضاء الوتر الاستفادة التامة من الشيء
- [٤٩] (١) «جدد» و«جادة» بمعنى واحد يطلق على الطريق السهل الذى لا تغوص فيه القدم.
- [٥٠] (٢) «مهاوى» جمع مهواة، على وزن مقلاة الخفرة التى يسقط فيها الإنسان.
- [٥١] (٣) «مغاوى» جمع مغواة، على وزن مقلاة، الشبهة المضلة.
- [٥٢] (٤) «غواة» جمع غاوى، الشخص الضال

- [٥٣] (٥). «تعسف» من مادة (عسف) على وزن خسف، المشى على غير هدى، ومن هنا يقال للظالم متعسف لأنه يسير بغير هدى.
- [٥٤] (١). شرح نهج البلاغة للشوشترى، ج ٢، ص ٧٤
- [٥٥] (١). «افق» من مادة (افاقه) بمعنى الصحو
- [٥٦] (٢). «أُمى» ينسب إلى الام بمعنى عديم القراءة، وكأنه بقى على تلك الحالة التى ولد فيها من بطن امه ولم يتلمذ، وبالطبع فإن معنى أمية النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أن جميع علومه ومعارفه إلهية ولم يتعلم من الإنسان. راجع سائر الآراء بهذا الشأن فى الجزء السادس من تفسير الأمثل، ذيل الآية ٥٧، سورة الأعراف
- [٥٧] (١). «احطط» من مادة (حط) على وزن خط لازم ومتعدى بمعنى الخفض والاختصاص وإريد به المعنى الثانى فى الخطبة
- [٥٨] (٢). «فامهد» من مادة (مهد) على وزن عهد تعنى فى الأصل مهد الطفل أو الموضع الذى يعد للأطفال، ثم استعملت بمعنى الإعداد كما وردت فى هذه الخطبة
- [٥٩] (١). سورة الحشر، الآية ١٨
- [٦٠] (٢). سورة البقرة، الآية ١٦٠
- [٦١] (٣). الابيات للشاعر أبو الفرج الساوى (شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٣، ص ٣٣٥)
- [٦٢] (١). «يعر» من مادة (عر) على وزن شر، أوغر على وزن حُر، يعنى فى الأصل الجرب الذى يصيب الجلد، ثم أطلق على كل ضرر يلحق بالإنسان، وأريد به العيب والتهمه فى العبارة
- [٦٣] (٢). سورة النساء، الآية ٤٨
- [٦٤] (٣). سورة النساء، الآية ٩٣
- [٦٥] (١). كنز العمال، ح ١١٢٦، ١٠٥٩.
- [٦٦] (٢). سورة البقرة، الآية ١٤.
- [٦٧] (٣). اقتباس من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ١٦٢
- [٦٨] (١). «مستكينون» من مادة (سكون) بمعنى الوضوح، ثم اطلقت على الخضوع والخشوع
- [٦٩] (١). سند الخطبة:
- أورد الآمدى الذى صنّف كتابه (تحرر الحكم على أساس الحروف الأبجدية) جوانب مختلفه من هذه الخطبة بتفاوت فى حروف «ق» و«ن» و«ه» و«ا» ورغم أن الآمدى عاش بعد المرحوم السيد الرضى، إلّا أن اختلاف عباراته مع نهج البلاغة يفيد أنه اقتبسها من مصدر آخر، كما أوردها السيد باختلاف طفيف فى كتابه، الطراز، وهذا يشير إلى أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة
- [٧٠] (١). «ناظر» بمعنى سواد العين التى يقع فيها البؤبؤ
- [٧١] (٢). «لييب» من مادة (لب) على وزن حب بمعنى الدماغ ويقال: اللييب للشخص العاقل الحكيم
- [٧٢] (٣). «نجد» ما ارتفع من الأرض
- [٧٣] (١). «ارز» من مادة (ارز) على وزن فرض، تعنى فى الأصل الايقاض والثبات، ثم استعملت بمعنى الاعتزال والانعزال عن المجتمع، وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة
- [٧٤] (١). ورد هذا الحديث المشهور فى مصادر العامة المعروفة مثل مستدرک الحاكم و المعجم الكبير للطيرانى وغيرها (وللوقوف على المزيد من مصادر هذا الحديث فى كتب العامة راجع كتاب احقاق الحق، ج ٥، ص ٤٦٩ وما بعدها)
- [٧٥] (١). سورة الضحى، الآية ١١
- [٧٦] (٢). مجمع البيان، ذيل الآية المذكورة

- [٧٧] (١). نقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة هذا الحديث عن أبي نعيم الاصفهاني في حلية الأولياء ومسند أحمد بن حنبل (شرح نهج البلاغة، ج ٩، ص ١٦٦)
- [٧٨] (٢). المصدر السابق
- [٧٩] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ١٦٦
- [٨٠] (١). «كرائم» جمع كريمة، الآيات المباركة التي نزلت بشأن أهل البيت عليهم السلام
- [٨١] (١). هذه هي الآية ١١٩ من سورة التوبة التي تأمر المؤمنين في كل عصر ومصر باتباع الصادقين وملازمتهم، وقد فسرت الروايات الواردة في مصادر الفريقين، الصادقين، بالأئمة المعصومين عليهم السلام. راجع للوقوف على مصادر هذا الحديث كتاب، نفحات القرآن، ج ٩، ص ١٦٧
- [٨٢] (٢). «رائد» من مادة «ورد» على وزن قوم بمعنى السعي للقيام بشئ، كما ورد في الشرح، فانها تطلق عادة على الشخص الذي ينطلق امام القافلة ويبحث عن المرعى والمرتع
- [٨٣] (٣). نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧
- [٨٤] (١). اصول الكافي، ج ١، ص ٤٤ باب العمل بغير علم، ح ٣.
- [٨٥] (٢). المصدر السابق، ص ٤٣، ح ١
- [٨٦] (١). سورة آل عمران، الآية ١١٨
- [٨٧] (٢). سورة الحمد، الآية ٣٠
- [٨٨] (٣). سورة الأعراف، الآية ٥٨
- [٨٩] (٤). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٦
- [٩٠] (١). منهاج البراعة، ج ٩، ص ٢٤٨ بتلخيص
- [٩١] (١). سند الخطبة:
- لم يرد في مصادر نهج البلاغة سند يمكن الاعتماد عليه كما في سائر المصادر، ويبدو أن السند الرئيسي لهذه الخطبة ما ذكره المرحوم السيد الرضى، إلا أن مضمون الخطبة على درجة من الرفعة بحيث يقوى سندها حيث يفيد عدم ترشح تلك الكلمات سوى من فكر عظيم كفكر الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام
- [٩٢] (١). «انحسرت» من مادة (حسر) على وزن قصر، تعنى فى الأصل العرى، ثم استعملت بمعنى الضعف والعجز حيث يتعري الإنسان فى هذه الحالة من قواه
- [٩٣] (٢). «مساغ» من مادة (سوغ) بمعنى سهولة الاكل والشرب ثم أطلقت على كل مسير سهل، وهذا هو المعنى المراد فى العبارة
- [٩٤] (٣). «ملكوت» من مادة (ملك) على وزن قفل، بمعنى الحكومة والملكية، وإضافة الواو والياء تفيد التأكيد والمبالغة وإن استعملت بشأن الله تبارك وتعالى فإنها تفيد حكومته المطلقة على العالم قاطبة
- [٩٥] (١). «اذعى» من مادة (اذعان) بمعنى الاقرار والامثال
- [٩٦] (١). «عشيت» من مادة (عشو) بمعنى الظلمة، إشارة إلى أن عيونها عاجزة عن رؤية ضياء الشمس
- [٩٧] (٢). «سبحات» جمع سُبْحَةٌ، على وزن لقمه، بمعنى النور، كما تعنى الظلمة
- [٩٨] (٣). «اكنها» من مادة (كن) على وزن جن، تعنى فى الأصل، الظرف الذى يحفظ فيه الشئ، ثم اطلقت على جميع الوسائل التى تؤدى إلى الخفاء
- [٩٩] (٤). «مكامن» جمع مكمن، من مادة (كمون)، بمعنى الاخفاء والمكمن هو الموضع الذى يخفى فيه الإنسان أو الشئ

- [١٠٠] (٥). «بلج» جمع بلجة، أول ضياء الصباح
- [١٠١] (٦). «اقتلاق» من مادة (الق) على وزن برق، بمعنى البريق، وبلج ائتلاقها بمعنى أول الضياء ولمعان الشمس
- [١٠٢] (٧). «مسدلة» من مادة (سدل) على وزن عدل، تعنى فى الأصل، هبوط الشىء من الأعلى إلى الأسفل بحيث يتغطى وهى هنا إشارة إلى سقوط أجفان الخفاش إلى الأسفل
- [١٠٣] (٨). «جفون» جمع جفن، على وزن قفل، ما يغطى العين
- [١٠٤] (١). «حداق» جمع حدقة، سواد العين
- [١٠٥] (٢). «اسداف» جمع سدفة، على وزن وزنة، تعنى، أحياناً الظلمة، وأخرى النور، ووردت هنا بالمعنى الأول
- [١٠٦] (٣). «غسق» بمعنى شدة الظلمة، كما تستعمل بمعنى منتصف الليل لاشتداد الظلمة منتصف الليل
- [١٠٧] (٤). «دجنة» من مادة (دجون) بمعنى، السحاب والمطر، ولما كان السحاب والمطر يؤدى إلى الظلمة، فإن مفردة الدجنة تعنى الظلمة، وغسق دجنته، تعنى، شدة الظلام
- [١٠٨] (٥). «اوضاح» جمع وضح، على وزن شفق، بياض الصبح
- [١٠٩] (٦). «ضباب» جمع ضب، على وزن سد، الحيوان المعروف
- [١١٠] (٧). «وجار» بمعنى، جحر
- [١١١] (٨). «مآقى» جمع موق، على وزن قفل، بمعنى طرف العين ممّا يلي الأنف، كما فسّرها البعض بمجرى الدمع الواقع فى زاوية العين، ووردت فى العبارة كإشارة إلى أنّ جفون الخفاش تغطى جميع عينه حتى زواياها. ولعل هذه العبارة إشارة إلى نقطة لطيفة وهى أنّ آخر نقطة تغلق عند غلق العين ما يلي طرف أنفه
- [١١٢] (٩). «تبلغت» من مادة (تبلغ) بمعنى اكتفت بالشىء
- [١١٣] (١). سورة النبأ، الآيتان ١٠ و ١١
- [١١٤] (١). «شظايا» جمع شظية، على وزن قضية، القطع المتفرقة
- [١١٥] (٢). «ريش» الشىء المعروف عند الطيور
- [١١٦] (١). الرسالة الثقافية، ج ٧، ص ٦٥٨. ألفت هذا الكتاب العالم الغربى موريس باركر وقد ترجم إلى الفارسية من قبل «رضا أقصى» ونخبه من الكتاب المعروفين، كذلك كتاب المعجم الزولوجى الحديث للمؤلف محمد كاظم المالكى، المتخصص فى علم الأحياء، ج ٢، ص ٦٣٦ وكتاب البحث عن الله، لآية الله العظمى مكارم الشيرازى.
- [١١٧] (٢). راجع بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٠٧
- [١١٨] (١). سند الخطبة:
- لم يرد فى مصادر نهج البلاغة سند يمكن الاعتماد عليه كما فى سائر المصادر، ويبدو أنّ السند الرئيسى لهذه الخطبة ما ذكره المرحوم السيد الرضى، إلّا أنّ مضمون الخطبة على درجة من الرفعة بحيث يقوى سندها حيث يفيد عدم ترشح تلك الكلمات سوى من فكر عظيم كفكر الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام
- [١١٩] (١). «مريرة» من مادة (مر) على وزن حُر الطعم المعروف بمرارته
- [١٢٠] (١). «المرجل» هو القدر
- [١٢١] (٢). «القين» الحداد
- [١٢٢] (١). بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٤٣
- [١٢٣] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١، ص ١٩٢ بتصرف وتلخيص

- [١٢٤] (٣). المصدر السابق، ص ١٩٨ و ١٩٩
- [١٢٥] (١). العقد الفريد، ج ٥، ص ٧٩
- [١٢٦] (١). «ابلج» من مادة (لوج) بمعنى الوضوح، سيما ضياء أول الصبح
- [١٢٧] (٢). المعروف من شراح نهج البلاغة أن (سبيل) مبتدأ لخبر محذوف هو الإيمان، بقرينه ما ورد في الجملة القادمة، كما احتمال البعض أن المبتدأ المحذوف «سبيل الجنة» التي وردت في المقطع السابق، والواقع، عبارة (واما فلانة...) ذكرت كجملة اعتراضية
- [١٢٨] (١). بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٣
- [١٢٩] (١). «مقصر» من مادة (قصر) على وزن فصل، أحد معانيه، المنع، كما يطلق المقصر على الموقف، كونه يمنع الإنسان من الحركة
- [١٣٠] (٢). «مرقل» من مادة (ارقال) بمعنى المسرع
- [١٣١] (١). «شخصوا» من مادة (شخص) على وزن خلوص، بمعنى الخروج من الدار، كما وردت بمعنى، تركيز النظر على نقطة معينة، وكأن العين تريد الخروج من حدقتها، وأريد بها هنا، الخروج
- [١٣٢] (٢). «اجداث» جمع (جدث)، القبر
- [١٣٣] (١). سورة المعارج، الآية ٤٣
- [١٣٤] (١). «رى» بمعنى السقى
- [١٣٥] (٢). «ناقع» من مادة (نقع) على وزن نفع، تعنى فى الأصل انغمار الماء، وتعنى هنا الرى الكامل، بحيث يزول العطش
- [١٣٦] (٣). «يستعتب» من مادة (عتب) على وزن ثبت تعنى فى الأصل الانفعال الباطنى وان استعملت فى باب الاستفعال بمعنى كسب ود الطرف المقابل وكأنه يطلب منه العتبى حتى يرضى ويعود الى سبيل الحق
- [١٣٧] (٤). سورة النساء، الآية ٨٢
- [١٣٨] (١). سورة الكهف، الآية ١
- [١٣٩] (٢). اصول الكافي، ج ٢، ص ٥٦٩
- [١٤٠] (٣). بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٩٢
- [١٤١] (١). سورة العنكبوت، الآيتان ١ و ٢
- [١٤٢] (١). «حيزت» من مادة (تعنى) الوصول إلى شىء إن تعدت يالى، وعدمه إن تعدت بعن، كما فى الخطبة المذكورة
- [١٤٣] (٢). «وراء» تعنى الخلف كما تعنى أحياناً الأمام
- [١٤٤] (١). المراد من النبيذ كما ورد فى روايات أهل البيت أن النبي صلى الله عليه وآله أراد الحد من برودة ماء المدينة فأمر بطرح كمية من التمر فى ظرف كبير من الماء (لا- أن يكون الماء مضافاً) إلماً أن بعض المنافقين تذرع لاحقاً بهذا الموضوع وقذف بمقدار كبير من التمر حتى تخمر وخرج منه هذا الشراب الشفاف الذى يعرف بالنبيذ
- [١٤٥] (٢). بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٢٤٣
- [١٤٦] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٠٦
- [١٤٧] (٤). المصدر السابق
- [١٤٨] (١). «السحت» يعنى فى الأصل، فصل القشر عن الشىء، ثم اطلق على كل مال غير شرعى ولا سيما الرشوة، لأن هذه الأموال تسلب الإنسان البركة على غرار الشجرة التى تدبل حين سقوط قشرها
- [١٤٩] (١). سورة الحجرات، الآية ١٧٠

[١٥٠] (٢). راجع الكافي، ج ٦، ص ٤١٦، ح ٣٠

[١٥١] (١). «ردّة» على وزن مكّة الرجوع عن شىء، و(ردّة) على وزن فتنّة، الرجوع عن الدين، وهذا هو المعنى المراد فى العبارة المذكورة فى الخطبة

[١٥٢] (٢). مستدرک الوسائل، ج ١٣، ص ٢٣٣

[١٥٣] (١). راجع كتاب الربا والبنوك المصرفية لسماحة المؤلف

[١٥٤] (١). سند الخطبة:

رغم سمو مضامين الخطبة وألفاظها الفصيحة والبلغية التى يستبعد صدورها- على غرار سائر خطب نهج البلاغة- عن غير الإمام المعصوم عليه السلام، مع ذلك نشير إلى بعض المصادر التى وردت بشأنها فى كتاب مصادر نهج البلاغة، فقد أشار إلى بعضها العالم اللغوى ابن الأثير فى النهاية فى مادة شول ومادة ربك، كما وردت بعض عباراتها باختلاف فى غرر الحكم والذى يفيد أنّها أخذت من مصدر آخر غير نهج البلاغة

[١٥٥] (١). «الحمدة» فى اللغة، بمعنى المدح على عمل أو صفة اختيارية، ولما كانت افاضته النعم على المحتاجين احدى الأعمال الحسنة فإنّ هذه المفردة ترد بمعنى الشكر أيضاً

[١٥٦] (١). أكدنا على هذا الاحتمال فى بحث سورة الحمد فى التفسير الأمثل واعتبرنا تسميتها من قبل الروايات بفاتحة الكتاب دليلاً على ما ذهبنا إليه

[١٥٧] (٢). فقه السنة، ج ٢، ص ٢٣٠ (كما وردت بعض الروايات بهذا الخصوص فى كتاب المغنى لابن قدامة ونيل الأوطار للشوكانى)

[١٥٨] (٣). تفيد هذه العبارة أنّ الاحتمال الثالث أنسب الاحتمالات

[١٥٩] (٤). «الدهر» حسب الراغب فى المفردات أنّها فى الأصل اسم لعمر العالم، ثم أطلقت على معنى أوسع يشمل الزمان وتاريخ الحياة البشرية، كما تستعمل بمعنى ناس عصر معين وخالق الزمان أيضاً

[١٦٠] (١). «تحدو» من مادة (حدو) و(حدى)، سوق الابل، ومطلق السوق

[١٦١] (٢). «ارتبك» من مادة (ربك) على وزن ربط، الاضطراب، بحيث يصعب على الإنسان النجاء

[١٦٢] (٣). سورة الانعام، الآية ١٢٢

[١٦٣] (١). سورة الحديد، الآية ٢١

[١٦٤] (٢). سورة الانعام، الآية ٣١

[١٦٥] (١). «حمة» بالضم، على وزن قوة، بمعنى لسع الحشرات والعقارب وما شابه ذلك، كما تطلق على سمها أيضاً

[١٦٦] (٢). سورة النساء، الآية ١٠

[١٦٧] (١). «الظن» بمعنى (الرحيل) من مكان إلى آخر

[١٦٨] (٢). «حشتم» من مادة (حث) على وزن وصف، الاندفاع والسرعة

[١٦٩] (٣). سورة البقرة، الآية ١٩٧

[١٧٠] (٤). سورة آل عمران، الآية ١٣٣

[١٧١] (٥). «ركب» جمع (راكب) تعنى فى الأصل، ركوب الدابة، إلّا أنّ معناها المتعارف، القافلة

[١٧٢] (٦). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٦٤

[١٧٣] (١). «تبعه» من مادة (تبع) على وزن خبر، بمعنى المتابعة، ويطلق تبعه العمل على الجزاء الذى يطال الإنسان بعد مقارفته المعصية

- [١٧٤] (٢). «تشيب» من مادة (شيب) على وزن عيب، بمعنى بياض الشعر، وتطلق عادةً على الكهول، وشيب: على وزن سيب، جمع أشيب بمعنى الكهول في مقابل الشباب، والشبيبة بمعنى الشباب
- [١٧٥] (٣). سورة لقمان، الآية ١٦
- [١٧٦] (١). سورة المزمل، الآية ١٧
- [١٧٧] (١). «داج» من مادة (دجو) على وزن هجو، بمعنى الظلم، وليل داج، الليلة الظلماء التي لا يرى فيها القمر والنجوم
- [١٧٨] (١). «يكنكم» من مادة (كن) على وزن جن، يقال عادةً للظرف الذي يحفظ فيه الشيء، ثم توسع هذا المعنى وأصبح يطلق على كل ما يحفظ الأشياء أو الأشخاص
- [١٧٩] (٢). «رتاج» و«رتج» على وزن كرج، الباب العظيم المحكم الاغلاق
- [١٨٠] (٣). سورة النور، الآية ٢٤
- [١٨١] (٤). سورة فصلت، الآية ٢١-٢٢
- [١٨٢] (٥). سورة الانفطار، الآيات ١٠-١٢
- [١٨٣] (١). «مخط» من مادة (خط) بمعنى الخط والعلامة، فهو اسم مكان، والمراد به في العبارة، المكان الذي يُخط لحفر القبر
- [١٨٤] (١). بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٦٧؛ اصول الكافي، ج ٣، ص ٢٤٢
- [١٨٥] (١). سورة ق، الآية ٤٢
- [١٨٦] (٢). سورة المرسلات، الآية ٣٦
- [١٨٧] (٣). سورة المؤمن، الآية ١٦
- [١٨٨] (٤). سورة الطارق، الآية ٩
- [١٨٩] (١). سورة الزلزال، الآية ٤-٥
- [١٩٠] (٢). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٣٧٩
- [١٩١] (٣). سورة النساء، الآية ٤١
- [١٩٢] (١). سورة النور، الآية ٤٤
- [١٩٣] (١). سند الخطبة:
- بداية هذه الخطبة كبدية الخطبة ٨٩ التي مرت علينا في الجزء الثالث، ومن هنا ذهب البعض إلى أنها خطبة واحدة وقد جمعها الشريف الرضي، والحال، ليس الأمر كذلك، فهاتان الخطبتان لا تتشابهان إلّا في جملتين. على كل حال المصدر فالوحيد غير نهج البلاغة الذي ذكر أن ابن الأثير خاض في تفسير بعض مفردات هذه الخطبة في كتابه (النهاية) وما ذكره من عبارات تختلف عمّا جاء في هذه الخطبة، وهذا يفيد أن ابن الأثير أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٦٤، كما أورد الكليني في كتاب الكافي جانباً من هذه الخطبة بالاختلاف، راجع اصول الكافي، ج ١، ص ١٦٠ كذلك تفسير القمي، ج ١، ص ٢)
- [١٩٤] (١). «هجعته» من مادة (هجوع) النوم ليلاً، ولما كان هذا النوم أعمق فقد شبه به أوضاع أقوام الجاهلية
- [١٩٥] (٢). «مبرم» من مادة (ابرام) المحكم، من ابرام الحبل إذا أحكم فتله ثم اطلق على مطلق الأعمال المحكّمة
- [١٩٦] (١). سورة المائدة، الآية ١٥
- [١٩٧] (٢). سورة الاعراف، الآية ١٥٧
- [١٩٨] (١). سورة الاسراء، الآية ٨٢
- [١٩٩] (١). «مدر» ورد في اللغة بمعنى الزهور المتداخلة، أحياناً والحجر والطبوق، أحياناً أخرى وبيت المدر عادةً ما يطلق على بيوت

الحضر

[٢٠٠] (٢). «وبر» وبيت (الوبر) عادة ما يطلق على بيوت البادية

[٢٠١] (٣). «ترحة» الغم والحزن

[٢٠٢] (١). «علقم» شجرة ثمرتها شديدة المرارة، والتي يطلق عليها أيضاً الحنظل

[٢٠٣] (٢). «صبر» بكسر الباء، على وزن فقر، عصارة شجر مر، والتي صار يضرب بها المثل، كما يطلق على نفس الشجرة

[٢٠٤] (٣). «المقر» نبات سام، كما يطلق على كل سم

[٢٠٥] (٤). «مطايا» جمع (مطية) المركب الهنيء السريع

[٢٠٦] (٥). «زوامل» جمع (زاملة) دابة الحمل

[٢٠٧] (١). سورة العنكبوت، الآية ١٣

[٢٠٨] (٢). «تنخمّتها» من مادة (نخامة) وبمعنى الاخلاط التي تجتمع على الرأس والصدر ويرمى بها خارجاً

[٢٠٩] (١). سورة الروم، الآية ٤١

[٢١٠] (٢). تكرر رفع هذا الشعار في التاريخ كثيراً، حيث ورد بشأن أبي مسلم الخراساني (وقد قام يدعو إلى الرضا من آل محمد).

كتاب شرح الأخبار للنعمان بن محمد، ج ٣، ص ٤١٨

[٢١١] (١). شرح نهج البلاغة للعلامة التستري، ج ٦، ص ١١٦

[٢١٢] (١). سند الخطبة:

لم يرد في مصادر نهج البلاغة سند خاص غير ماورد في نهج البلاغة، إلا أن سائر الكتب التي ألفت بعد النهج أخذتها منه، ومن ذلك

ما ذكره العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٣٤

[٢١٣] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ١٢٩. قول سعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة

[٢١٤] (٢). «ربق» جمع ربقه، على وزن فتنه، الحبل الذي يربط به الشخص، كما فسره البعض بالحبل الذي يشتمل على عدة عقد

[٢١٥] (٣). «حلق» جمع حلقة، معروف

[٢١٦] (٤). «الضيم» الظلم والحيث

[٢١٧] (٥). «أطراق» بمعنى السكوت والاعماض عن مطلب معين

[٢١٨] (١). سند الخطبة:

قيل في سند هذه الخطبة: ذكر الزمخشري المتوفى عام ٥٣٨ هـ والذي عاش بعد قرن من وفاة الشريف الرضي رحمه الله بعض هذه

الخطبة باختلاف في كتابه (ربيع الابرار) وهذا يفيد أنه أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٧٣)

[٢١٩] (١). سورة يس، الآية ٨٢

[٢٢٠] (٢). سورة النحل، الآية ٩٠

[٢٢١] (١). اصول الكافي، ج ١، ص ١٠٢

[٢٢٢] (٢). «ذرات» من مادة (ذرع) على وزن زرع، الخلق والايجاد

[٢٢٣] (١). «مور» على وزن قول، لها معان مختلفة في اللغة، منها التيار السريع أو أمواج الماء

[٢٢٤] (٢). «طرف» على وزن حرف، أهداب العين

[٢٢٥] (٣). «حسير» من مادة (حسر) على وزن قصر، التعب والضعف

[٢٢٦] (٤). «مبهور» من مادة (بهر) على وزن قهر، الغلبة والحيرة

- [٢٢٧] (٥). أشرنا إلى هذا المطلب فى شرح آية الكرسي فى التفسير الأمثل
- [٢٢٨] (١). التعبير بالعظيم بدل والله العظيم، لأنه حذف الموصوف والتركيز على الصفة يكشف عن مدى التأكيد، يعنى أن هذه الصفة للعظمة لذاته تعالى إلى درجة من الثبات وكأنها اسم من أسمائه
- [٢٢٩] (١). اصول الكافى، ج ٢، ص ٦٨
- [٢٣٠] (٢). «مدخول» من مادة (دخل) على وزن أجل، بمعنى الفساد، وعليه فالمدخول، هو المغشوش غير الخالص
- [٢٣١] (٣). «محقق» معلوم وقطعى وثابت، وورد فى العبارة المذكورة صفة لخوف- ولا بد أن يكون مجروراً إشارة إلى أن خوفهم من الله ثابت لا غبار عليه، ذلك لأنه هو الذى يؤاخذ العباد وعليه إن خفنا الله ولم نعص أوامرہ فسوف لن نخاف أى أحد. إلا أن بعض الشراح ذهبوا إلى أن محقق خبر كل خوف فتكلفوا مرجع الضمير فى «فأنه» وكذلك الاستثناء ومفهوم العبارة، بينما لو اعتبروا محقق صفة لخوف لوضح معنى العبارة تماماً، ولعل العبارة السابقة بشأن الرجاء قرينة جيدة على هذا المعنى، بعبارة أخرى أن الإمام عليه السلام قال ببطلان كل رجاء سوى رجاء الله وكل خوف سوى خوف الله
- [٢٣٢] (٤). سورة البقرة، الآية ١٠٢
- [٢٣٣] (١). «ضمار» الوعد البعيد، وتعنى الوعود والديون التى لا رجاء فيها
- [٢٣٤] (١). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٨٠
- [٢٣٥] (١). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٨٠
- [٢٣٦] (٢). اصول الكافى، ج ٢، ص ٧١
- [٢٣٧] (١). اصول الكافى، ج ٢، ص ٦٧
- [٢٣٨] (١). «مخازى» من جمع، مخزأة من مادة (خزى)، الفضيحة
- [٢٣٩] (١). «فطم» من مادة (فطم) منع الطفل من اللبن
- [٢٤٠] (٢). «زوى» من مادة (زى) على وزن حى، الجمع والابعاد
- [٢٤١] (٣). «زخارف» جمع زخرف، على وزن هرمز، تعنى فى الأصل كل زينة مكتوبة، واطلاق الزخرف على الكلام الفارغ لما ينطوى على تزويق وتجميل
- [٢٤٢] (٤). مستدرک الوسائل، ج ١، ص ١٧٣
- [٢٤٣] (٥). اصول الكافى، ج ٢، ص ١٢٩
- [٢٤٤] (١). «شيف» من مادة (شفوف) رقة الشىء، بحيث يستشف ما وراءه
- [٢٤٥] (٢). «صفاق» الجلد الباطن الذى فوقه جلد البطن الظاهر
- [٢٤٦] (٣). «هزال» ضعف
- [٢٤٧] (٤). «تشذب» بمعنى تفرق، وارىد بها هنا، تفرق لحم البدن
- [٢٤٨] (٥). «سفائف» جمع سفيفة، ما ينسج من سعف النخيل
- [٢٤٩] (٦). «خوص» سعف النخيل
- [٢٥٠] (٧). سورة ص، الآية ٢٠
- [٢٥١] (١). «يتوسد» من مادة (وسد) جعل الشىء كالوسادة تحت الرأس
- [٢٥٢] (١). وأحياناً جمع مزمار، المعروف
- [٢٥٣] (١). اقتباس من قاموس الكتاب المقدس امستر هاكس

- [٢٥٤] (١). «مقتص» من مادة (قص) على وزن نص، قطع الشيء وقصه، كما وردت بمعنى متابعة الشيء، قصة أيضاً بمعنى متابعة حادثه، ومنه القصاص أيضاً
- [٢٥٥] (٢). «اقضم» تعنى فى الأصل لوك الأشياء الجافة مقابل الخضم للأشياء الرطبة وابتلاعها، وأريد بها هنا قلة الاستفادة من الدنيا
- [٢٥٦] (٣). «اهضم» من مادة (هضم) على وزن قدم، بمعنى الضعف للبدن، ومنه هضم الطعام حيث تضمر البطن بعد الهضم، ومنه ضمور الخاصرة والبطن
- [٢٥٧] (٤). «كشح» الخاصرة
- [٢٥٨] (٥). «اخمص» من مادة (خمص) على وزن شمس، خلو البطن اثر الجوع
- [٢٥٩] (٦). الفارق بين التصغير والتحقيق، أنّ الحقيق يطلق عادة بشأن الكيفية؛ مثلاً يعتبر الإنسان المحروم من العلم والمعرفة والصفات الحميدة حقيراً، أمّا الصغير فيطلق على الشيء القليل من حيث الكمية كالإنسان الصغير العمر وما شابه ذلك، إشارة إلى عدم قيمة الدنيا وقتلتها
- [٢٦٠] (١). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٢٦
- [٢٦١] (٢). نهج البلاغة، الرسالة ٥٣
- [٢٦٢] (١). استفاد من المطالعات التاريخية أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان عادة ما يركب أحداً خلفه، أحياناً أسامة وأخرى الفضل بن العباس وسائر الأفراد من الصحابة حتى بلغ عددهم حسب ما أورده المؤرخون ٣٣ شخصاً انظر شرح العلامة التستري لنهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٣٧) كما ورد فى الحديث أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يستقبله الأطفال حين يعود من المدينة فكان يأمر بإركابهم خلفه وأمامه، وكان يوصى أصحابه بإركابهم، فكانوا يفخرون بركابهم على مركب رسول الله صلى الله عليه وآله (المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٣٦٦)
- [٢٦٣] (١). «يخصف» من مادة (خصف) على وزن وصف، رقع الشيء وخياطة القطع. وتعنى هذه المفردة فى الأصل ضم الشيء إلى آخر ومن هنا تطلق على خياطة الحذاء والثوب
- [٢٦٤] (٢). «يرقع» من مادة (رقع) على وزن رفع، بمعنى وصل الشيء
- [٢٦٥] (٣). «يردف» من مادة (ردف) على وزن حرف الكون خلف شيء، ومن هنا يقال لمن يركب خلف غيره رديف
- [٢٦٦] (٤). اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧١ بتلخيص
- [٢٦٧] (٥). تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج ٢، ص ٢٩٣ ولكن ورد فى هذا الحديث كلمة النمركة بدل الستر
- [٢٦٨] (١). «رياش» جمع ريش، تعنى فى الأصل، ريش الطيور، ولما كان ذلك الريش ثوبه الطبيعى الجميل فإنها تطلق أحياناً على كل ثوب جميل كما تطلق على كل زينة، والمعنيان محتملان فى العبارة المذكورة
- [٢٦٩] (٢). اصول الكافي، ج ٢، ص ١٣٤ (لابد من الالتفات هنا إلى أنّ العبارة (قال تحتها) من القيلولة، بمعنى الاستراحة والنوم عند منتصف النهار)
- [٢٧٠] (٣). «أشخصها» من مادة (شخص) على وزن خلوص، تعنى فى الأصل التركيز فى النظر على نقطة، ويفيد عادة الخوف ثم اطلقت على اخراج شخص من مكانه فجأة
- [٢٧١] (١). «خاصة» بمعنى (قراءة الإنسان)، شرّاح نهج البلاغة فسروا (خاصة) اسم الفاعل بالمعنى المصدرى والمفهوم أنه جاع رغم خصوصيته عند الله تعالى، لكنه لا يبدو مستقيماً
- [٢٧٢] (٢). «زويت» من مادة (زى) على وزن حى، قبض الشيء وأبعاده
- [٢٧٣] (٣). «زلفه» بمعنى المقام والمنزلة

- [٢٧٤] (٤). سورة الزخرف، الآية ٣١
- [٢٧٥] (٥). سورة الزخرف، الآيات ٣٣-٣٥
- [٢٧٦] (٦). «فتأسى» وردت فى أغلب نسخ نهج البلاغة (تأس) كفعل ماض، لكن يستفاد منها معنى الأمر بقريته العبارة (وإلا فلا يأمن الهلكة)، لكنّها وردت بصيغته فعل الأمر فى بعض النسخ «فتأسى»
- [٢٧٧] (١). «رقت» من مادة (ترقيع) معروفة، وتستعمل اليوم بخصوص تطعيم الأعضاء
- [٢٧٨] (٢). «مدرعة» ثوب الصوف
- [٢٧٩] (٣). «أغرب» من مادة (غروب) اذهب وابتعد
- [٢٨٠] (١). كتب أغلب شراح نهج البلاغة كلمة «يحمد» على شكل فعل معلوم، لأنهم اعتبروا لكلمة (سرى) معنى مصدرىاً، يعنى (السير فى الليل) وفى هذه الصورة يكون مفهوم الجملة: يحمد السير فى الليل والسائرون يحمدون الله تعالى عندما يصلون إلى مقاصدهم، ولكن فى بعض النسخ «يحمد» جاءت بشكل فعل مجهول، عندئذ تكون كلمة (سرى) بمعنى الوصف، يعنى (السائرين فى الليل)، وفى هذه الصورة يكون مفهوم الجملة: عند الصباح يحمد السائرين فى الليل، البتة النتيجة فى المفهومين واحدة
- [٢٨١] (٢). روى المرحوم الكلينى فى أصول الكافى، ج ٢، ص ٣١٧ حديثاً فى باب حب الدنيا عن الإمام السجاد عليه السلام شرح فيه المصادر السبعة للذنب حتى ورد فى آخره: «فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك: حب الدنيا رأس كل خطيئة»
- [٢٨٢] (١). الغدير، ج ٨، ص ٢٨٢
- [٢٨٣] (٢). أصول الكافى، ج ٢، ص ١٢٨
- [٢٨٤] (١). سند الخطبة:
- يبدو أنّ لهذه الخطبة سنداً غير نهج البلاغة، كما لم يعثر صاحب مصادر نهج البلاغة على سند آخر، مع ذلك رواها بعض الأعلام ممن عاش بعد المرحوم السيد الرضى كالعلامة المجلسى وآخرين (نحن أيضاً بحثنا فى الحاسوب ولم نعثر على مصادر أخرى لهذه الخطبة)
- [٢٨٥] (١). «البادى» على وزن (النادى)، بمعنى الواضح والجلّى بصورة تامة، ووصف شريعة النبى بالبادية إشارة إلى أنّ أوامره وتعاليمه تحظى بقبول العقلاء
- [٢٨٦] (١). «طيبه» بمعنى الطاهرة، ويستفاد من لسان العرب أنّ النبى صلى الله عليه وآله دعاها بهذا الاسم (بمناخها المعتدل وكثرة اشجارها وإيثار أهلها) ونهى عن بقاء اسم يثرب لأنه يعنى فى الأصل الفساد
- [٢٨٧] (١). «متلافى» من مادة (تلافى) بمعنى تدارك، وتأتى بمعنى معالجة الفساد، وهذا هو المعنى المراد بها فى هذه العبارة
- [٢٨٨] (٢). «مدخولة» من مادة (دخول) إشارة هنا إلى البدع التى كانت تنسبها الجاهلية إلى الله. أو من مادة دخل، على وزن دخل، بمعنى الفساد، لأنّ هذه البدع مصدر فساد الفرد والمجتمع
- [٢٨٩] (٣). «المفصولة» من مادة (فصل) واطلقت على الكلام والقضاء الذى يميز الحق من الباطل ويمكن أن يكون المراد بها المعنيين معاً؛ الأول إنّ أحكام الشريعة بينت بصورة منفصلة والآخر، فصل الحق عن الباطل، (تكون الجملة فى الأول اسم المفعول وفى الثانى اسم الفاعل)
- [٢٩٠] (١). وردت هذه الكلمة فى غرر الحكم، ح ١٠١٨٩ لعلّى عليه السلام أنه قال: «لا تنظر إلى من قال وأنظر إلى ما قال»
- [٢٩١] (٢). سورة التوبة، الآية ١٢٨
- [٢٩٢] (١). سورة الأعراف، الآية ١٥٧
- [٢٩٣] (١). «منجاة» من مادة (نجا) اسم مكان بمعنى موضع النجاة، ولها معنى مصدرى، ونجاة، بمعنى الخلاص

[٢٩٤] (١) «رهب» من مادة (ترهيب) بمعنى التخويف.

[٢٩٥] (٢) «أسبع» من مادة (اسباع) بمعنى الإتيان بالعمل بصورة تامة، و أطلقت على النعمة التامة و الوضوء التام.

[٢٩٦] (٣) سورة الحديد، الآية ٢٠

[٢٩٧] (١) سورة آل عمران، الآية ١٤٠

[٢٩٨] (٢) «غضوا» من مادة (غض) على وزن حظ، بمعنى الحد والتقليل، وغض البصر، بمعنى عدم تركيز الإنسان على الشيء في

النظر إليه، بل يخفض عينيه إلى الأسفل

[٢٩٩] (٣) «كادح» من مادة (كدح) على وزن مدح، السعي المصحوب بالمشقة

[٣٠٠] (٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣١٦

[٣٠١] (٥) حاشية الكافي، ج ٢، ص ٣١٦، كدود في البيت الثاني صيغة مبالغة من مادة (كد) يعني الجهد

[٣٠٢] (١) «مصارع» جمع مصرع، موضع الوقوع على الأرض ويطلق أيضاً على المقتل

[٣٠٣] (٢) «أوصال» جمع وصل، على وزن قفل، العظام وانسجة الأعصاب التي تربط الأعضاء

[٣٠٤] (٣) منهاج البراعة، ج ٩، ص ٤١٢

[٣٠٥] (٤) «جدد» من مادة (جد) على وزن خط، القطع وطى الطريق المستوي، ويقال للطريق المحكم والمستوي، الجادة

[٣٠٦] (١) منهاج البراعة، ج ٩، ص ٤١٢

[٣٠٧] (١) سند الخطبة:

ذكر هذا لعلى عليه السلام قبل السيد الرضى، المرحوم الشيخ الصدوق فى كتابه الامالى فى سبب ترك الناس لعلى عليه السلام

والطبرى فى المسترشد والمرحوم الشيخ المفيد فى الإرشاد، كما ذكروا أنّ السائل هو (ابن دودان). (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص

(٣٧٧)

[٣٠٨] (١) «سدد» بمعنى الاستقامة

[٣٠٩] (٢) «ذمامة» الحق والحرمة

[٣١٠] (٣) «بنو أسد» قبيلة معروفة بالقتال بالجاهلية والإسلام. عاشت هذه القبيلة قرب نجد واعتنقت الإسلام وقاتلت إلى جانب سعد

بن أبى وقاص فى القادسية وقدمت العديد من القتلى. وتاريخ بنى أسد ملئ بالأحداث وقد سارعت فته من بنى أسد لدفن أجساد

شهداء كربلاء، كما كانت فته منهم فى جيش عبيد الله بن زياد

[٣١١] (١) «نوط» بمعنى التعلق والالتصاق

[٣١٢] (٢) «أثرة» بمعنى الاختصاص بالشيء (الاحتكار) دون الغير المستحق على العكس من الإيثار الذى يعنى تقديم الغير على

الذات

[٣١٣] (٣) «شحت» من مادة (شح) بمعنى البخل

[٣١٤] (٤) «سخت» من مادة (السحاء)

[٣١٥] (٥) «معود» اسم مكان، موضع العودة

[٣١٦] (١) «حجرات» جمع حجرة، على وزن ضربة، بمعنى الناحية

[٣١٧] (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٦، ص ٢٤٤

[٣١٨] (١) «هلم» تركيب من هاء التثنية ولم، بمعنى اجمع، وتستعمل هذه المفردة كلمة واحدة بمعنى تعال إلينا وإلى جانبنا

[٣١٩] (٢) «خطب» على وزن ختم، بمعنى الأمر العظيم، ومنه الخطاب والمخاطبة حيث الحوار المهم

- [٣٢٠] (١) «غرو» بمعنى، التعجب
- [٣٢١] (٢) «يستفرغ» من مادة (فراغ) تعنى هنا، الاخراج ومعنى العبارة، يستفرغ العجب أنه يزيل أى عجب ولا يترك له من مكان
- [٣٢٢] (٣) «أود» من مادة (أود) على وزن قول، بمعنى العوج، وأود على وزن سند، بمعنى الاعوجاج
- [٣٢٣] (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٤٧
- [٣٢٤] (٥) «فوار» صيغة مبالغة بمعنى كثير الفوران، كما تعنى عين الماء والثقب الذى يخرج منه الماء بشدة
- [٣٢٥] (٦) «جدحوا» من مادة (جدح) على وزن مدح، بمعنى، الخلط والمزج
- [٣٢٦] (٧) «ويثا» الشىء الذى يكثر فيه الوباء، طبعاً يطلق الوباء أحياناً على مرض خاص، وأخرى على كل مرض، والمعنى الثانى هو المراد فى الخطبة
- [٣٢٧] (١) سورة الصف، الآية ٨.
- [٣٢٨] (١) سورة النحل، الآية ٤٣؛ سورة الأنبياء، الآية ٧
- [٣٢٩] (٢) نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ٨٢
- [٣٣٠] (٣) الكافي، ج ١، ص ٤١
- [٣٣١] (١) الكافي، ج ١، ص ٤٠
- [٣٣٢] (٢) ميزان الحكمة، ج ٤، ح ٨٠٣٩
- [٣٣٣] (٣) المصدر السابق، ح ٨٠٤١
- [٣٣٤] (٤) راجع كتاب توحيد الصدوق، ص ٨٣ باب «معنى الواحد والتوحيد»
- [٣٣٥] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٤٨
- [٣٣٦] (١) ورد فى شرح ابن أبي الحديد أنه قال: لا والله إله إلا الله إلهاً دافعاً
- [٣٣٧] (٢) مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٥٤؛ شرح نهج البلاغة، ج ٥، ص ١٢٩
- [٣٣٨] (١) تاريخ الطبرى، ج ٨، ص ١٨٥ حوادث عام ٢٨٤ هجرية لرسالة كتبت للمعتضد العباسى فى فضائح معاوية
- [٣٣٩] (٢) مروج الذهب، ج ١، ص ٤٠٣
- [٣٤٠] (٣) الاستيعاب، ج ٢، ص ٦٩
- [٣٤١] (١) سند الخطبة:
- ذكر أبو نعيم الإصفهاني فى حلية الأولياء والواسطى فى عيون الحكم والمواعظ والزمخشري فى ربيع الأبرار جوانب من هذه الخطبة
- [٣٤٢] (١) «ساطح» من مادة (سطح) بمعنى معروف، ويقال ساطح، لمن يجعل الشىء مسطحاً
- [٣٤٣] (٢) «مهاد» و«مهد» بمعنى الفراش، وتطلق على الأرض موضع السكن والاستراحة، وهذا هو المعنى المراد
- [٣٤٤] (٣) «وهاد» جمع وهدة، بمعنى الأراضى المنخفضة
- [٣٤٥] (٤) «مخصب» من مادة (خصب) على وزن غضب، بمعنى كثرة النبات، وعليه فالمخصب تطلق على الشخص الذى يملأ الأرض نباتاً وبركة
- [٣٤٦] (٥) «نجاد» جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض، ومصدرها نجد
- [٣٤٧] (٦) سورة النبأ، الآية ٦
- [٣٤٨] (١) سورة الحديد، الآية ٣
- [٣٤٩] (٢) وردت هذه العبارة ضمن خطبة أخرى وبصيغة أخرى فى أصول الكافي والتي تدعم التفسير الأول وهى «حَدَّ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ

خَلَقَ لَهَا لَهَا إِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهَةٍ، وَإِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهَةٍ» (أصول الكافي، ج ١، ص ١٣٥)

[٣٥٠] (١). بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٩٢

[٣٥١] (٢). «شبح» بمعنى الشخص، وتطلق أحياناً على الشخص الذي لا يبدو واضحاً من بعيد

[٣٥٢] (٣). «يتقصى» من مادة (قصو) على وزن قصد، بمعنى الإبتعاد، وتعني أيضاً، البحث والتحرى عن الشيء

[٣٥٣] (٤). «يحوى» من مادة (حواية)، الاستيلاء على الشيء

[٣٥٤] (١). «شخص» بمعنى التركيز في النظر على الشيء

[٣٥٥] (٢). «ازدلاف» بمعنى الاقتراب والصعود من نقطة مرتفعة، ويقال (المزدلفة) للمشعر الحرام لاقتراب الناس هناك من منى أو

اقترابهم من الله بهذه العبادة

[٣٥٦] (٣). «ربوة» الموضع المرتفع

[٣٥٧] (٤). «داج» من مادة (دجو) على وزن علو، المظلم، وليل داج، الليلة المظلمة الخالية من القمر

[٣٥٨] (٥). «غسق» شدة الظلمة، وتطلق هذه المفردة على منتصف الليل لشدة ظلمته

[٣٥٩] (٦). «ساج» الساكن، والمراد من الغسق الساج، الظلام الطويل والمستمر

[٣٦٠] (٧). «يتفياً» من مادة (فیی) على وزن غيب، العودة، وتفياً بمعنى، الإنتقال والذهاب والإياب

[٣٦١] (٨). «كرور» له معنى مصدرى، الرجوع

[٣٦٢] (١). شرح نهج البلاغة للعلامة التستري، ج ١، ص ٢٧٣

[٣٦٣] (٢). «إعتبر أغلب شراح نهج البلاغة أن هذه العبارة مستقلة تشير إلى عدم حدود الذات المقدسة، إلّا أن هذا التفسير لا يبدو

صحيحاً، لأنه لو كان كذلك لقال (بعد كل غاية ومدّة) أى أن ذاته موجودة بعد كل نهاية كما هي موجودة قبل كل بداية. أمّا من

فسرها كما أوردنا فهو العالم المعروف محمد عبده في شرحه لنهج البلاغة حيث ربط هذه العبارة بعبارة (لا يخفى) وهذا ما عليه ظاهر

عبارة العلامة الجعفرى

[٣٦٤] (٣). «تائل» بمعنى عمران المسكن، ومن مادة ائل على وزن أمل، شجرة معروفة

[٣٦٥] (١). اصول الكافي، ج ١، ص ١٠٠ باب النهي عن الصفة

[٣٦٦] (٢). بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٥ للوقوف على المزيد راجع نفحات القرآن، ج ٣، ص ١٤٩

[٣٦٧] (١). سورة يونس، الآية ٦١

[٣٦٨] (٢). سورة فاطر، الآية ٤٤

[٣٦٩] (٣). سورة الحجر، الآية ٢٤

[٣٧٠] (١). «سوى» من مادة (تسوية) التنظيم والرعاية لتناسب أجزاء الشيء

[٣٧١] (٢). «مرعى» على وزن منفى، بمعنى الشيء الذى يرمى ويحافظ عليه

[٣٧٢] (٣). «سلالة» من مادة (سل) على وزن حل، عصاره الشيء وخصائصه، ومنه معنى الإختيار أيضاً

[٣٧٣] (٤). «مكين» من مادة (مكانة) بمعنى المنزلة وبمعنى الشخص أو الشيء الذى له منزلة واستقرار وثبات وتحت تصرفه جميع

وسائل العمل

[٣٧٤] (٥). «تمور» من مادة (مور) على وزن قول، بمعنى الحركة السريعة، كما وردت بمعنى الذهاب والإياب. وورد هذا التعبير بشأن

الجنين بسبب كونه دائم الحركة داخل الرحم

[٣٧٥] (٦). «تحير» من مادة (حور) على وزن غور، بمعنى الذهاب والإياب، وكذلك وردت هذه المادة بمعنى الحوار فى الكلام،

فعلية (لا تحير) فى العبارة المذكورة بمعنى أن الجنين لا يردّ على أى كلام ولا يقدر على بيان حاجاته

[٣٧٦] (١) «اجترار» من مادة (جر) بمعنى الجر الشئ وسحبه

[٣٧٧] (٢) «هيهات» اسم فعل يفيد البعد

[٣٧٨] (١) سورة الزمر، الآية ٦

[٣٧٩] (٢) سورة المؤمنون، الآيات ١٢-١٤

[٣٨٠] (٣) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٦٢

[٣٨١] (١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٦٢

[٣٨٢] (١) سند الخطبة:

كما ورد سابقاً حين إزداد حجم المخالفات فى أجهزة حكومة عثمان وظهرت للقاصى والدانى، اجتمع الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام وطلبوا منه أن يكون سفيرهم إلى عثمان فيعظه وينصحه. وقد نقل هذا الكلام قبل السيد الرضى، البلاذرى فى (أنساب الأشراف) والطبرى المؤرخ المعروف (فى حوادث سنة ٣٤ هجرية)، وابن عبد ربّه فى (العقد الفريد) والمرحوم الشيخ المفيد فى (الجمال). (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٨٧)

[٣٨٣] (١) تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٤٠٠ و ٤٠١، فى بيان حوادث سنة ٣٥

[٣٨٤] (٢) «استسفرنى» من مادة (سفرة) والسفير، يقال لشخص يقوم بالوساطة بين شخصين أو بلدين

[٣٨٥] (٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٦٣

[٣٨٦] (١) الغدير، ج ٦، ص ٢٦٣

[٣٨٧] (٢) الغريب أن كلمة «أبى» التى وردت فى نسخة صبحى الصالح لم ترد فى أى من سائر النسخ. فلم ينقلها هنا المرحوم الشارح البحرانى والخوئى والعلامة الجعفرى ومحمد عبده وابن أبى الحديد ومغنية والتستري وصاحب مصادر نهج البلاغة، ويبدو أنها من زلات صبحى الصالح، سيما بالنظر إلى أن مثل هذه التعبيرات لم ترد فى كلمات على عليه السلام بالنسبة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله

[٣٨٨] (١) كان عثمان زوج رقية بعد أم كلثوم بنتى النبي صلى الله عليه وآله

[٣٨٩] (١) ميزان الحكمة، ج ٦، ح ١١٩٧٣

[٣٩٠] (١) روى الطبرى هذه الخطبة مع الحديث فى (تاريخه)، ج ٣، ص ٣٧٦ حوادث سنة ٣٤

[٣٩١] (٢) «أنشد» بصورة ثلاثى مجرّد على وزن أقتل من مادة (نشد)، على وزن قتل، بمعنى التذكير والطلب وإنشادضالة، بمعنى

كسب الإطلاع من الناس بشأن الضالة

[٣٩٢] (١) سنن أبى داود، ج ٤، ح ٤٢٥٢

[٣٩٣] (٢) «يموجون» من مادة (موج) بمعنى الحركة، كما تستعمل بمعنى الاضطراب والحيرة والكناية

[٣٩٤] (٣) «يمرجون» من مادة (ورج) على وزن فلج، بمعنى الاختلاط أو البعث والترك، ولما كان الاختلاط وترك الشئ يؤدى

إلى الفساد، فإنّ هذه المفردة تستعمل بمعنى الفساد

[٣٩٥] (٤) يفهم من بعض كلمات شراح نهج البلاغة أنّ هذه العبارة جزء من حديث النبي صلى الله عليه وآله لكن بالنظر إلى

أنّ الحديث المذكور ورد فى بعض المصادر المعروفة (كسنن أبى داود) دون ذيلها، فالذى يستفاد أنّ حديث النبي صلى الله عليه وآله

آله ينتهى بالعبارة (إلى يوم القيامة)

[٣٩٦] (١) نفحات الولاية، ج ١، ص ٢٤٤ علل القيام ضد عثمان، ج ٢، ص ١٥٢ عوامل قتل عثمان وكذلك الجزء الثانى بعنوان

الأعمال التي مارسها عثمان ودعت إلى الغضب العام

[٣٩٧] (٢). «سيقة» على وزن (سيدة) صفة مشبهة من مادة سوق، على وزن فوق، بمعنى ما يستاق من الدواب إلى هذا الجانب أو

ذاك، وتعنى أحياناً ما يستاقه العدو من الحيوانات

[٣٩٨] (٣). «جلال» بمعنى الكبر، وجلال السن، بمعنى السن الرفيعة

[٣٩٩] (٤). تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤٤١ وهناك أقوال أخرى في سن عثمان آنذاك وأغلبها ترى أن عمره كان ٨٢ سنة

[٤٠٠] (١). تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤٠٤ حوادث سنة ٣٥ هجرى

[٤٠١] (١). تاريخ الطبري حسب نقل ابن أبي الحديد، ج ٨، ص ٢٦٤

[٤٠٢] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٦٥

[٤٠٣] (٢). راجع بشأن قتل عثمان وأسباب القيام عليه وأعماله التي جعلت العامة تنقم عليه الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب في

الصفحات التي ذكرتها سابقاً

[٤٠٤] (١). سند الخطبة:

روى الزمخشري من أعلام القرن السادس بعض هذه الخطبة في كتابه «ربيع الأبرار» حيث نقل أغلب كلمات الإمام عليه السلام

باختلاف بحيث يفهم أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة، ورغم أنه عاش بعد الشريف الرضى لكن من المستبعد أن يستند إلى

كتب الشيعة لموقفه المعادى لهم، وفسر ابن اثير بعض مفردات هذه الخطبة في كتابه (النهاية)، ويفهم من عباراته أنه اقتبسها من

مصدر آخر، ذلك لأنه ذكر كلمات لم ترد في الخطبة التي رواها السيد الرضى (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٠٠)

[٤٠٥] (١). «نعقت» من مادة (نعق) على وزن برق، تعنى فى الأصل صوت الغراب، ثم أطلقت على الأصوات التي تقال لأمر الحيوانات

ونهيها عن الحركة

[٤٠٦] (٢). «ذراً» من مادة (ذراً) على وزن زرع، الخلق والإيجاد

[٤٠٧] (٣). «أخاديد» جمع (أخدود) الشق الواسع والعميق فى الأرض ويطلق على الوادى

[٤٠٨] (٤). «خروق» جمع (خرق) على وزن زرع، الصحراء الواسعة، كما تعنى الشقوق

[٤٠٩] (٥). «فجاجها» جمع (فج) على وزن حج، الطريق الواسع، وتعنى فى الأصل الوديان الواسعة بين الجبال والتي كانت تتجازها

القوافل

[٤١٠] (٦). «رواسى» جمع (راسية) تعنى الثابت والراسخ، ولذلك تطلق على الجبل

[٤١١] (٧). «أعلام» جمع (علم) على وزن قلم، بمعنى العلامة وتطلق على القمم والجبال

[٤١٢] (٨). احتمال البعض بشأن إعراب ما ذراً أنها عطف على (ما انقادت)، كما قالوا إنها معطوفة على الضمير فى دلائله أو كلمة

دلائله، ولا يبدو هذا الاحتمال مستبعداً أنها مبتدأ لخبر محذوف وتقدير الجملة وما ذراً ... من آثار صنعه وعظمته

[٤١٣] (١). «مصرفه» من مادة (صرف) على وزن حرف، بمعنى التغيير وتأتى معرفة بمعنى الأشكال المختلفة

[٤١٤] (٢). «مرفرفه» من مادة (ررفرفه) بمعنى الجناح، وبسطه، كما وردت بمعنى القماش الجميل والملون، والمعنى الأول هو المراد

فى العبارة

[٤١٥] (٣). «مخارق» جمع (مخرق) على وزن مشرب، الفلاة والصحراء الشاسعة

[٤١٦] (٤). «منفسح» من مادة (فسح) على وزن مسح، بمعنى الواسع

[٤١٧] (٥). سورة النحل، الآية ٧٩

[٤١٨] (٦). «حقاق» جمع (حق) على وزن، حب، مجتمع المفصلين

- [٤١٩] (٧). «عبالة» بمعنى الثقل والضخامة
- [٤٢٠] (٨). «خوف» السرعة والخفة التي تكون غالباً لازماً وملزوماً
- [٤٢١] (١). «دفيق» بسط الجناح و لما كانت الطيور تبسط اجنحتها قرب سطح الأرض فإن هذه المفردة تطلق على مرور الطائر فوق الأرض.
- [٤٢٢] (٢). «نسقتها» من مادة (نسق) على وزن غسق، الترتيب سواء في الصفوف أو العبارات والكلمات وغيرها.
- [٤٢٣] (٣). «أصايغ» جمع اصباغ، و اصباغ جمع صبغ، على وزن فعل اللون.
- [٤٢٤] (٤). «مغموس» من مادة (غمس) على وزن لمس، غمر الشيء في الماء، وقد شبه الإمام لون الطيور و كأنها مرتبة في قالب من اللون فأخرجت بهذا الشكل.
- [٤٢٥] (٥). «قالب» على وزن فالج، ما يصب فيه الفلز ليظهر بالشكل المطلوب
- [٤٢٦] (١). القاموس الثقافي وكتب أخرى
- [٤٢٧] (١). في ضلال نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٦٧
- [٤٢٨] (١). «نضد» من مادة (تنضيد) بمعنى نظم الأشياء وترتيبها مع بعضها
- [٤٢٩] (١). «اشرج» من مادة (اشراج) بمعنى خلط الأشياء مع بعضها أو إدخال الحبال والخيوط بكيس أو صندوق مع بعضها وإحكام غلقها
- [٤٣٠] (٢). «قصب» بمعنى ساق النبات الأجوف
- [٤٣١] (٣). «مسحب» من مادة (سحب) على وزن (سهو) السحب على الأرض، وله هنا معنى المصدر أو اسم المصدر
- [٤٣٢] (٤). «درج» من مادة (درج) على وزن خرج، المشى إلى موضع معين أو صعود السلم، والمعنى الأول هو المراد في عبارة الخطبة، كما يطلق على حركة الطفل البطيئة
- [٤٣٣] (٥). «طى» بمعنى اللوى من طيه، وفي الخطبة بمعنى بعد طيه، إشارة إلى أن الطاووس يفتح جناحيه المركبين
- [٤٣٤] (٦). «مطل» من مادة (طل) على وزن حل، بمعنى المشرف والنظر من الأعلى والمعنى الأول هو المراد في العبارة
- [٤٣٥] (٧). «قلع» شراع السفينة
- [٤٣٦] (٨). «دارى» ينسب إلى (دارين) فى البحرين مركز تجارة المسك ومفهوم العبارة أن الطاووس ينشر مظلة كأنه شراع السفينة التي تجلب العطر من دارين
- [٤٣٧] (٩). «عنج» من مادة (عنج) على وزن رنج، السحب والغلق
- [٤٣٨] (١٠). «نوتى» ربان السفينة من مادة (نوت) على وزن فوت الحركة هنا وهناك واطلاق هذه المفردة على الربان لأنه يحرك السفينة كيفما يشاء
- [٤٣٩] (١). «يختال» من مادة (اختيال) بمعنى التكبر والغرور الذى يظهر عادة من الخيال الفارغ
- [٤٤٠] (٢). «يميس» من مادة (ميس) على وزن حيث الحركة والغرور
- [٤٤١] (٣). «زيفان» المشى المتبختر تأكيد لعبارة يميس
- [٤٤٢] (٤). «يفضى» من مادة (افضاء) كناية عن اللقاح وتعنى فى الأصل التوسعة
- [٤٤٣] (٥). «يؤر» من مادة (أر) على وزن شر، الجماع واللقاح
- [٤٤٤] (٦). «ملاقح» جمع ملقحة، من مادة (اللقاح)، الآلة التناسلية وتعنى الحمل
- [٤٤٥] (٧). «مغتملة» من مادة (غلمة) على وزن لقمه، شدة الشهوة، وفحول مغتملة بعض الحيوانات التي تندفع من شبقية الشهوة

- [٤٤٦] (٨). «الضراب» لقاح الفحل لأنثاه
- [٤٤٧] (٩). «تسفع» من مادة (سفع) على وزن محو، نبع الدموع والسفاح، سفك الدم
- [٤٤٨] (١٠). «مدماع» جمع مدمع، على وزن منبر، مجرى الدمع
- [٤٤٩] (١١). «ضفة» ساحل النهر أو البحر، حيث شبه الأجنان بجانبى النهر
- [٤٥٠] (١٢). «جفون» جمع جفن، معروفة في العين
- [٤٥١] (١٣). «منيجس» من مادة (انبجاس) وأصله بجس على وزن نحس، نبع الماء بصورة رقيقة وشفافة
- [٤٥٢] (١٤). «مطاعمه» من مادة (طعم) بمعنى تناول الطعام مع الآخرين، ومن ثم أطلق على عمل الطيور التي تضع مناقيرها في مناقير الأخرى وكأن كل واحد يطعم الآخر
- [٤٥٣] (١). وعليه فما ذكر جواب القضية الشرطية «ولو كان ...» جملة «لما كان ذلك بأعجب ...»
- [٤٥٤] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٧٠
- [٤٥٥] (١). «قصب» بمعنى عمود الريش
- [٤٥٦] (٢). «مدارى» جمع مدرى، على وزن املاء، بمعنى المشط
- [٤٥٧] (٣). «دارت» جمع دائرة، بمعنى الحلقة أو الهالة لطرف القمر
- [٤٥٨] (٤). «عقيان» بمعنى الذهب
- [٤٥٩] (٥). «فلذ» جمع فلذة، على وزن بدعة، بمعنى القطعة
- [٤٦٠] (٦). «زبرجد» حجر ثمين للزينة له عدة ألوان وأشهره الأخضر، و من هنا يُشبه كل شيء أخضر اللون جميل بالزبرجد
- [٤٦١] (١). «جنى» بمعنى الحصاد، وقيل باقة الزهور
- [٤٦٢] (٢). «ظاهيته» من مادة (مظاهاه) بمعنى، التشبيه
- [٤٦٣] (٣). «موشى» بمعنى المنقوش من مادة (وشى)، بمعنى النقش والنميمة أيضاً
- [٤٦٤] (٤). «موتق» بمعنى الجميل والعجيب من مادة اتق
- [٤٦٥] (٥). «فصوص» جمع فص على وزن نص، فص الخاتم
- [٤٦٦] (٦). «لجين» بمعنى الفضه
- [٤٦٧] (٧). «مكلل» ذواتج من مادة (إكليل)، بمعنى التاج، كما يطلق على ما يزين بالمجوهرات
- [٤٦٨] (١). «مرح» بمعنى سكر النعمة والقدرة، من مادة (مرح) على وزن فرح، بمعنى شدة السرور
- [٤٦٩] (٢). «مختال» المتكبر والزاهى بنفسه، من مادة (خيال)
- [٤٧٠] (٣). قال الراغب في المفردات: الثوب ويطلق على مطلق اللباس
- [٤٧١] (٤). «أصبايغ» جمع أصباغ، و«أصباغ» جمع صبغ، بمعنى اللون
- [٤٧٢] (٥). «وشاح» شريط عريض جميل يلقي على الكتف ويحمل
- [٤٧٣] (٦). «زقا» من مادة (زقو) على وزن ضعف، بمعنى الصيام
- [٤٧٤] (٧). «معول» بمعنى رفع صوته بالبكاء، وأصله عويل
- [٤٧٥] (٨). «حمش» جمع أحمش الشخص أو الشيء النحيف الرجل كما وردت بمعنى اللون الغامق
- [٤٧٦] (٩). «الخلاسى» الديك المتولد من دجاجتين هندية وفارسية
- [٤٧٧] (١٠). «نجمت» من مادة (نجم) على وزن حجم، بمعنى نبتت

- [٤٧٨] (١١). «ظنوب» الإنحراف والإعوجاج
- [٤٧٩] (١٢). «صيصية» شوكة في رجل الديك وتعنى أيضاً، المشط الذى يصفف به القماش قبل نسجه
- [٤٨٠] (١). «العرف» ما على الرأس من شعر
- [٤٨١] (٢). «قزعة» الخصلة من الشعر
- [٤٨٢] (٣). «موشاة» بمعنى منقوشة
- [٤٨٣] (١). «ابريق» وقال البعض فيها أن أصلها فارسي (أبريز) الذى يستعمل لغسل اليد أو الفم قبل تناول الطعام أولرش الورد فى الضيافة وقد صنع أنبوبها بانحناء خاص وشكل جميل
- [٤٨٤] (٢). «مغرز» بمعنى موضع الغرز
- [٤٨٥] (٣). «وسمة» لون خاص تخصب به اللحية والحاجب
- [٤٨٦] (٤). «صقال» بمعنى الجلاء
- [٤٨٧] (٥). «متلفع» بمعنى الملفوف، من مادة (لفع) على وزن نفع، الاحاطة وستر جميع الأشياء
- [٤٨٨] (٦). «معجر» بمعنى المقنعة والربطة
- [٤٨٩] (٧). «اسحم» بمعنى الأسود
- [٤٩٠] (٨). «مستدق» بمعنى النحيف والرقيق، من مادة (دق)، على وزن حق
- [٤٩١] (٩). «الاقحوان» بمعنى البابونج
- [٤٩٢] (١٠). «يقيق» بمعنى شديد البياض، من مادة (يقوقه)
- [٤٩٣] (١١). «يأتلق» بمعنى يلمع، من مادة (التق)، على وزن دلق
- [٤٩٤] (١٢). «بريق» بمعنى لمعان، من مادة (برق)
- [٤٩٥] (١٣). «بصيص» بمعنى اللمعان
- [٤٩٦] (١٤). «رونق» بمعنى الحسن، من مادة (رتق)، على وزن فتق
- [٤٩٧] (١٥). «قيظ» بمعنى شدة الحرارة
- [٤٩٨] (١). «ينحسر» يعنى يعرى ويتكشف، من مادة (حسر)، على وزن حشر، بمعنى العرى
- [٤٩٩] (٢). «تترى» من مادة (وتر)، بمعنى الواحد، وتأتى بمعنى الواحد تلو الآخر
- [٥٠٠] (٣). «ينحت» يعنى يتقشر، من مادة (نحت)، على وزن تخت، التقشر
- [٥٠١] (١). «عسجدية» من عسجد، الذهب
- [٥٠٢] (٢). «عمائق» جمع عميقة، الدقيق والعميق
- [٥٠٣] (٣). «قرائح» جمع قريحة، بمعنى الذهنية والذكاء الذى أودعه الله فى الفطرة
- [٥٠٤] (٤). على ضوء التفسير المذكور فإن جميع الضمائر تعود إلى الطاووس، وهذا ما فهمه أغلب شراح نهج البلاغة وإن مروا عليه بنوع من الإجمال والإبهام، كما يحتمل أن يعود الضمير فى العبارة (أعجز الألسن عن تلخيص صفته) وكذلك العبارة (عن تادية نعتة إلى الله تعالى). وعليه فمفهوم العبارة: أنى للعقل بإدراك كنه الذات والصفات وهى عاجزة عن إدراك صفات المخلوق
- [٥٠٥] (١). «بهر» من مادة (بهر)، على وزن نهر، بمعنى الغلبة والقهر
- [٥٠٦] (٢). «جلاه» يعنى أظهره، من مادة (جلاه)
- [٥٠٧] (٣). «تلخيص» ورد بمعنى الشرح، وكذلك الخلاصة والمعنى الأول الأول هو المراد هنا

- [٥٠٨] (١). جواهر الكلام، ج ٣٦، ص ٣٠٩؛ راجع حياة الحيوان للدميري، وقاموس دهخدا، والزولوجي الحديث
- [٥٠٩] (١). «ادمج» من مادة «دموج»، بمعنى الاستحكام
- [٥١٠] (٢). «قوائم» جمع قائمة، بمعنى العمود، وهنا إشارة إلى الأيدي والارجل التي تعتبر أعمدة البدن
- [٥١١] (٣). «ذرة» صغار النمل، وبمعنى الغبار، كما تطلق على الذرة في الكيمياء
- [٥١٢] (٤). «همج» ذباب صغير، وجمعه همج
- [٥١٣] (٥). «حيتان» جمع حوت معروفة
- [٥١٤] (١). سورة يوسف، الآية ١٠٥
- [٥١٥] (٢). «وأى» من مادة «وأى»، على وزن سعى، بمعنى الوعد
- [٥١٦] (٣). «شبح» بمعنى الشخص، وكل شيء يترأى للإنسان ويدركه الحس
- [٥١٧] (١). «الموسوعة» المسماء (موسوعة ومفردات قاموس عميد)
- [٥١٨] (١). «عزفت» من مادة (عزف)، على وزن حذف، الترك والانصراف عن شيء، كما وردت بمعنى اللعب واللهو
- [٥١٩] (٢). «ذهلت» من مادة (ذهل)، بمعنى غفلة العقل وترك الشيء ونسيانه
- [٥٢٠] (٣). «اصطفاق» بمعنى اضطراب شيء بحيث يحدث صوتاً كالتصفيق أو تضارب أوراق الأشجار
- [٥٢١] (٤). «كثبان» جمع كتيب، بمعنى التل، من مادة (كثب)، على وزن حرب، بمعنى الجمع
- [٥٢٢] (٥). «كبائس» جمع كباسة، على وزن حماية، بمعنى عنقود الفاكهة وما شابهه
- [٥٢٣] (٦). «عساليج» جمع عسلوج، على وزن بهلول، بمعنى غصن الشجرة
- [٥٢٤] (٧). «أفنان» جمع فن وفنن، على وزن قلم، بمعنى الغصن الطرى الملى بالأوراق، ويقال الفنون لمختلف فروع العلم والمعرفة والصناعة وما شاكل ذلك
- [٥٢٥] (٨). «غلف» جمع غلاف، من مادة (غلف)، على وزن قصر، بمعنى الغطاء
- [٥٢٦] (٩). «اكامم» جمع كم، على وزن جن، بمعنى الوعاء الذي يغطي الفاكهة، وجمع كم على وزن أم بمعنى الردن التي تغطي اليد
- [٥٢٧] (١٠). «تجنى» من مادة (جنى) على وزن نهي، بمعنى قطف الثمار
- [٥٢٨] (١١). سورة الحاقة، الآية ٢٣
- [٥٢٩] (١). سورة الرحمن، الآية ٥٤
- [٥٣٠] (٢). «افنية» جمع فناء، على وزن غناء، بمعنى الساحة ومقدمة الدار
- [٥٣١] (٣). «مروقة» بمعنى المصفاة، من مادة (روق)
- [٥٣٢] (٤). سورة الدهر، ٥ و ٦ و ١٧ و ١٨ و ٢١
- [٥٣٣] (٥). سورة الواقعة، الآية ١٩
- [٥٣٤] (٦). «نقله» من النقل وتأتى أحياناً بمعنى النيمة
- [٥٣٥] (٧). سورة الاسراء، الآية ٧٠
- [٥٣٦] (١). «مونقة» بمعنى المعجبة، من مادة (أنق)، على وزن شفق، الإعجاب بالشيء
- [٥٣٧] (٢). «زهقت» من مادة (زهوق) على وزن غروب، بمعنى الهلكة
- [٥٣٨] (٣). نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣
- [٥٣٩] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٨٠

[٥٤٠] (٢). المصدر السابق

[٥٤١] (١). سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة قبل المرحوم السيد الرضى، مسلم ابن قيس فى كتابه، كما روى صاحب الكافى جوانب منها فى الجزء الثامن. وقال صاحب مصادر نهج البلاغة يستفاد من رواية الكافى والشيخ المفيد فى الإرشاد أن هذه الخطبة وما ورد فى الخطبة ٨٦ (طبق نسخة صبحى الصالح ٨٨) خطبة واحدة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٠٣)

[٥٤٢] (١). «ليتاس» من مادة (اسوة) على وزن عروء، بمعنى اتباع الغير والاقتداء به

[٥٤٣] (٢). «ليرأف» من مادة (رأفة) بمعنى العطف والشفقة

[٥٤٤] (١). «جفاء» جمع جافٍ، من مادة (جفاء)، بمعنى الغلظة، ويقال للشخص العنيف، الجافى

[٥٤٥] (٢). «قيض» قشرة البيضة، وتأتى بمعنى كسر البيضة أيضاً

[٥٤٦] (٣). «أداح» جمع دَحَى، على وزن نَهَى، بمعنى مبيض الانعام فى الرمال، ومن مادة (دحو) على وزن سَهَو، بمعنى السعة

[٥٤٧] (٤). «حضان» بمعنى البيض تحت بطن الطائر ليفقس عن فرخ، ومن مادة (حضانة) بمعنى ما تحت الجناح والريش

[٥٤٨] (١). «قزع» جمع قزعة، على وزن ثمرة، بمعنى قطعة من السحاب، كما تطلق على الأشياء التى لها قطع متناثرة

[٥٤٩] (٢). «الخريف» هو أحد فصول السنة المعروفة

[٥٥٠] (٣). «ركام» من مادة (ركم) على وزن مكر، بمعنى الأشياء المتراكمة

[٥٥١] (٤). «مستثار» بمعنى موضع الغليان والخروج، من مادة (ثور)، على وزن فور، بمعنى الهيجان

[٥٥٢] (٥). قارة بمعنى الجبل الصغير

[٥٥٣] (٦). «أكمة» بمعنى التل والهضبة

[٥٥٤] (٧). «سنن الطرق» بمعنى المسير المادى والمعنوى

[٥٥٥] (٨). «رص» من مادة (رصاص) بمعنى المحكم

[٥٥٦] (٩). «طود» بمعنى الجبل العظيم

[٥٥٧] (١٠). «حداب» جمع حدب، على وزن هدف، بمعنى الأرض المرتفعة

[٥٥٨] (١١). «يزدع» من مادة (ذدعة) بمعنى التفرق

[٥٥٩] (١٢). «اودية» جمع وادٍ، معروف

[٥٦٠] (١). «الآلية» بمعنى الشحم المعروف

[٥٦١] (١). نفحات الولاية، ج ٣، ص ٣٥٨-٣٦٠

[٥٦٢] (٢). راجع كتاب المعارف والمصاريف، ج ١، ص ٤٨١ والموسوعة الإسلامية الكبرى، ج ٦، ص ٢٢٧

[٥٦٣] (١). بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٣١٠

[٥٦٤] (١). «تهتم ومته» كلاهما من مادة (تبه)، تعنى فى الأصل، الزهو والتكبر، ثم استعملت بمعنى الحيرة والضلال عن الطريق وهذا

هو المراد بها فى العبارة، أى احترتم كحيرة بنى إسرائيل (مته مصدر ميمى)

[٥٦٥] (٢). «أضعاف» جمع ضعف، على وزن فعل، معروف

[٥٦٦] (٣). «اعتساف» من مادة (عسف) على وزن وصف، بمعنى الضلال

[٥٦٧] (٤). «فادح» بمعنى ثقيل وشاق، وهى هنا تأكيد لكلمة ثقل

[٥٦٨] (٥). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٨٦؛ منهاج البراعة، ج ١٠، ص ٨٣

[٥٦٩] (١). سند الخطبة:

قال المرحوم عبد الزهراء الحسيني: لم أعر في كتاب مصادر نهج البلاغة على سند قبل السيد الرضى للخطبة سوى ما ذكره المؤرخ الطبرى فى حوادث سنة ٣٥ هجرية (ج ٥، ص ١٥٧). وينبغى الإلتفات إلى أن بعض هذه الخطبة مر سابقاً فى الخطبة ٢١

[٥٧٠] (١). «النهج» بمعنى الطريق الواضح، من مادة (نهج)، على وزن خرج، الوضوح

[٥٧١] (٢). «اصدقوا» من مادة (صدف) على وزن صبر، بمعنى الإعراض

[٥٧٢] (١). «مدخول» بمعنى معيب، من مادة (دخل) على وزن نخل، بمعنى الفساد من الداخل. ولهذه المفردة معانٍ أخرى منها الدخول فى المكان

[٥٧٣] (٢). سورة الأعراف، الآية ١٥٧

[٥٧٤] (٣). «حرم» بفتح الراء جمع حرمة بمعنى الاحترام، وحرم بضم الراء، جمع حرام بمعنى الممنوع، و«احرام» جمع حرم على وزن قلم، بمعنى الناحية الممنوعة

[٥٧٥] (٤). «معاقد» جمع (معقد) على وزن مجلس، بمعنى موضع اغلاق الشئ، كالحزام الذى يربط الظهر، وفى العبارة إشارة إلى رابطة الإخلاص والتوحيد لحقوق المسلمين

[٥٧٦] (١). بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٢٧

[٥٧٧] (٢). وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣١٢ (الحديث الثالث من الباب الثالث من أبواب مقدمات الحدود)

[٥٧٨] (١). «تحدوا» من مادة (حدو) حدى، على وزن حدو، بمعنى طرد الشر أو الصوت الخاص للحادى ثم أطلق على كل سوق

[٥٧٩] (٢). لابد من الالتفات إلى أن الضمير «هو» مذكر يعود إلى أمر وعليه لابد أن تكون خاصةً مجرورة لا مفتوحة كما ورد فى النص

[٥٨٠] (١). نقحات الولاية، ج ٢، ص ٥

[٥٨١] (٢). سورة البقرة، الآية ١٩٧

[٥٨٢] (٣). «بقاع» جمع (بقعة) بمعنى مساحة من الأرض متميزة عنها، ووردت فى العبارة بمعنى مطلق الأرض العامرة

[٥٨٣] (٤). «بهائم» جمع (بهيمة) بمعنى الحيوانات، ويشتمل السباع والطيور

[٥٨٤] (١). وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٣٩٤

[٥٨٥] (٢). ورد فى بعض المصادر اللغوية أن التورك على الدابة، وضع الرجل على الأخرى فوق سرج الدابة

[٥٨٦] (٣). اصول الكافي، ج ٦، ص ٥٣٩

[٥٨٧] (٤). المصدر السابق، ص ٥٣٧، ح ١

[٥٨٨] (٥). وسائل الشيعة، أحكام الخلوة، الباب ١٥

[٥٨٩] (٦). المصدر السابق، كتاب الجهاد، الباب ١٦ و ١٥ باب جهاد العدو

[٥٩٠] (١). سند الخطبة:

المصدر الوحيد الذى ذكرها غير نهج البلاغة، تاريخ الطبرى فى حوادث سنة ٣٥ هـ (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٠٦)

[٥٩١] (١). «مجلبون» من مادة (جلب) على وزن كلب، بمعنى السوق والطرود وتطلق على الأفراد الذين يغيرون مواقفهم بسهولة،

وجلب، على وزن غضب، وإجلاب، بمعنى الجمع، ومجلبون، هنا إشارة إلى الثوار الذين جمعوا الناس ضد عثمان

[٥٩٢] (٢). منهاج البراعة، ج ١٠، ص ١٠٢. روى الحديث المرحوم العلامة المجلسي فى بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٥٠٣

[٥٩٣] (٣). «يسومونكم» من مادة (سوم) على وزن قوم، بمعنى البحث عن الشئ، كما وردت بمعنى تكليف الآخرين بعمل

- [٥٩٤] (١) «يهدأ» من مادة (هدوء)، معروفة
- [٥٩٥] (٢) «مسمحة» من مادة (سماح وسماحة) السهولة واليسر، وتعني أحياناً السخاء والكرم أو الموافقة، والمعنى الأول هو المراد بها في العبارة
- [٥٩٦] (٣) «تضعض» من مادة (ضعضة) بمعنى الهدم والتخريب
- [٥٩٧] (٤) «منه» بمعنى القوة
- [٥٩٨] (٥) نفحات الولاية، ج ١، ص ٢٨٩
- [٥٩٩] (٦) «كى» على وزن حى، احراق بدن الإنسان أو الحيوان بحديدة ساخنة وما شابه ذلك
- [٦٠٠] (١) قال المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار إنها وردت في أغلب النسخ: آخر الداء الكى، بمعنى أن ختام الألام الصعبة الحرق، لكن هذا المعنى مستبعد (بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٥٠٣)
- [٦٠١] (٢) العقد الفريد، ج ٥، ص ١١٣
- [٦٠٢] (١) سند الخطبة:
- لم يذكر هذه الخطبة، سوى الطبري في حوادث سنة ٣٦ في تاريخه ج ٣، ص ٤٦٥ (ذكر الطبري، القسم الأول من الخطبة فقط)
- [٦٠٣] (١) «هالك» من مادة (هلاك) تعني في الأصل الموت والفناء، لكنها ترد أحياناً بمعنى الهلكة المعنوية وهي الضلال والبؤس والشقاء، والمراد بها في العبارة الهلكة المعنوية، فمعنى لا يهلك عنه إلا الهالك أنه لا يضل ألاً من استعد للضلال والهلكة
- [٦٠٤] (٢) «مبتدعات» من مادة (بدع) على وزن بدر، ظهور الشيء دون سابقه، وتطلق في الرد على ما خالف الكتاب والسنة، وعليه فالمبتدعات الطرق المخالفة للكتاب والسنة
- [٦٠٥] (٣) «مشبهات» البدع التي تلبس ثوب الدين وتوجب الضلال
- [٦٠٦] (١) «ملومة» من مادة (لوم) على وزن قوم، معروفة
- [٦٠٧] (٢) «يأرز» من مادة (أرز) على وزن فرض، بمعنى الجمع
- [٦٠٨] (٣) سورة إبراهيم، الآية ٧
- [٦٠٩] (١) «تمالؤوا» من مادة (ملائة) تعاونوا على أمر، وعليه فمفهوم تمالؤوا أنهم اتحدوا وتعاونوا
- [٦١٠] (٢) «سخطه وسخط» بمعنى واحد الغضب
- [٦١١] (٣) «فيالته» ضعف الفكر
- [٦١٢] (١) «نعش» بمعنى الرفع والحمل، ويقال لجسد الميت، النعش، لرفعه على الأيدي وحمله إلى القبر
- [٦١٣] (١) سند الخطبة:
- أوردها العديد قبل السيد الرضى، ومنهم المرحوم الشيخ المفيد في كتابه الجمل عن جمل الواقدي (كتاب الجمل للشيخ المفيد، ص ١٥٦) ورواها الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٣٦ هجرية، والزمخشري في ربيع الأبرار في باب الجوابات المسكتة
- [٦١٤] (١) «رائد» من مادة (رود) على وزن ذوب، بمعنى اللقاء، وتطلق عادة على من ينطلق أمام القافلة أو الجيش ويستطلع المكان المناسب من حيث الماء والغذاء
- [٦١٥] (٢) «كلاء» النبات الطويل
- [٦١٦] (٣) «معاطش» جمع (معطش) الموضع الذي يعطش فيه الإنسان
- [٦١٧] (٤) «مجادب» جمع (مجدب) المكان الذي لم ينزل إليه المطر فهو جاف لا نبات فيه
- [٦١٨] (١) شرح نهج البلاغة للخوئي، ج ١٠، ص ١١٥ بتلخيص طفيف

[٦١٩] (١). اصول الكافي، ج ١، ص ٣٤٣

[٦٢٠] (٢). سورة الأعراف، الآيات ٥٤- / ٥٦

[٦٢١] (١). سند الخطبة:

روى هذا الدعاء قبل السيد الرضى، كل من نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، وحسين بن سعيد الأهوازى فى كتاب الدعاء والذكر، حسب نقل السيد ابن طاووس رحمه الله فى منهج الدعوات، والطبرى فى تاريخه فى حوادث سنة ٣٧ هـ. (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤١١)

[٦٢٢] (١). «جو» بمعنى السماء، وردت بمعنى الهواء

[٦٢٣] (٢). «مكفوف» بمعنى المتراكم، كما جاء بمعنى المقيد، ومن مادة (كفّ)، بمعنى الجمع أو المنع

[٦٢٤] (٣). «مغيض» بمعنى موضع نفوذ الماء، كأنّ الجو كالأرض يبتلع فى صدره الليل والنهار، وهذه المفردة من مادة (غيض) على وزن فيض، بمعنى استقرار الماء فى عمق الأرض

[٦٢٥] (١). «سبط» بمعنى القبيلة والطائفة، وتعنى فى الأصل، اتساع الشىء بسهولة، ولما كانت الطوائف تتسع فقد اطلقت عليها هذه المفردة

[٦٢٦] (٢). «يسأمون» من مادة (سأمة) بمعنى التعب عن مواصلة العمل

[٦٢٧] (٣). راجع التفسير الامثل، ذيل الآية ٣٢ من سورة سبأ

[٦٢٨] (١). «مدرج» من مادة (دروج) بمعنى طى الطريق، ومدرج، يطلق على موضع طى الطريق

[٦٢٩] (٢). «هوام» جمع (هامء) الحيوانات الصغيرة كالفأرة والحيه

[٦٣٠] (٣). «رواسى» جمع (راسية) الثابت والراسخ

[٦٣١] (٤). «أوتاد» جمع (وتد) على وزن نمد، المسمار، ومن مادة (وتد)، على وزن وقت، بمعنى تثبيت الشىء

[٦٣٢] (٥). سورة النبأ، الآية ٧

[٦٣٣] (١). «ذمار» ما يجب على الإنسان حفظه كالأهل والعرض والوطن، ومن ذمر، على وزن رمل، بمعنى اللوم والتوبيخ، فهى تطلق بهذا المعنى على من يقصر فى حفظ الأهل والشرف والوطن حيث يستحق اللوم

[٦٣٤] (٢). «غانر» بمعنى الغيور

[٦٣٥] (٣). «حقايق» جميع حقيقته، تشير هنا إلى النوازل التى تحل بالإنسان أو المجتمع والوطن

[٦٣٦] (٤). «حفاظ» من مادة (حفظ) تعنى هنا، الوفاء بالعهد ورعاية الذمة

[٦٣٧] (١). سورة البقرة، الآية ١٩٣

[٦٣٨] (٢). سورة البقرة، الآية ١٩١

[٦٣٩] (٣). نهج البلاغة، الرسالة ١٤

[٦٤٠] (١). سند الخطبة:

يبدو أنّ هذه الخطبة جانب من كتاب كتبه الإمام عليه السلام فى أواخر أيام خلافته ذكر فيه الأحداث التى وقعت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأمر أن تقرأ على الناس، وقد ردّ الإمام عليه السلام على عبدالرحمن بن عوف حين قال له يوم الشورى: إنك على هذا الأمر لحريص، بذلك الجواب الذى ورد فى الخطبة. رواها الطبرى فى كتاب المسترشد (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤١٤)

[٦٤١] (١). «قرعته» من مادة (قرع) على وزن فرع، بمعنى ضرب الشىء على آخر بحيث يتولد صوت شديد. وتستعمل هذه المفردة فى الأمور المعنوية، أى تستعمل بشأن الأدلة الواضحة والدامغة كالخطبة المذكورة

- [٦٤٢] (٢). «هب» من مادة (هبوب) بمعنى حركة الرياح، أحياناً، وأخرى بمعنى الهيجان، وكذلك البهت أو النهوض من النوم، والمعنى الثاني هو المراد فى العبارة
- [٦٤٣] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٠٥
- [٦٤٤] (٤). «استديك» من مادة (استعداء) بمعنى الشكوى وطلب العون
- [٦٤٥] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٠٦ و ٣٠٧
- [٦٤٦] (٢). سورة الفتح، الآية ١٠
- [٦٤٧] (١). «حبس» من مادة (حبس) بمعنى المحبوس، وإشارة إلى عائشة زوج النبى صلى الله عليه وآله التى كانت منهيئة عن الاشتراك فى الحرب والخروج إلى المسرح الاجتماعى، لكن طلحة والزبير دفعها لذلك العمل
- [٦٤٨] (١). سورة الأحزاب، الآية ٣٣
- [٦٤٩] (٢). «صبر» تعنى فى الأصل الحبس، ومن هنا يطلق الصبر على مسك النفس وحبسها عن المكارة. المعنى الآخر للصبر أن يحبس الإنسان أو الحيوان فى موضع، ثم يرمى بحجر أو سهم، بالتالى يقال، قتل صبراً لمن يقتل بالزجر والتعذيب
- [٦٥٠] (٣). «السبابجة» جمع (سيجي) قال صاحب لسان العرب، من مادة (سيج) طائفة شجاعه من السند استؤجر والقتال (الدفاع عن بيت المال). وقيل: كلمة فارسية تعنى الشبان الصغار وألوانهم سوداء
- [٦٥١] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٢٠
- [٦٥٢] (٢). سورة المائدة، الآية ٣٣
- [٦٥٣] (١). شرح التجريد، ص ٢٤٠
- [٦٥٤] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٦، ص ٣٢٢
- [٦٥٥] (١). سند الخطبة:
- ذكر صاحب تحف العقول قبل السيد الرضى، الفصل الأخير من الخطبة (إلما وأن هذه الدنيا...) باختلاف، كما نقلها أبو جعفر الإسكافى (المتوفى عام ٢٤٠ هـ) فى رسالته (نقض العثمانية) (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤١٧)
- [٦٥٦] (١). سورة البقرة، الآية ٢٤٧
- [٦٥٧] (٢). سورة النحل، الآية ١٢٥
- [٦٥٨] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٢٧
- [٦٥٩] (١). «شغب» من مادة (شغب) على وزن شرق، بمعنى إثارة الفتنة والشر والفساد
- [٦٦٠] (٢). «استعتب» من مادة (عتب) وعتاب بمعنى اللوم والتوبيخ بقصد الرجوع إلى الحق، وإن استعملت فى باب الإستفعال أفادت معنى الإسترضاء
- [٦٦١] (٣). سورة الحجرات، الآية ٩
- [٦٦٢] (١). سورة طه، الآية ١٣٢
- [٦٦٣] (٢). سورة الأعراف، الآية ١٢٨
- [٦٦٤] (١). «غير» بمعنى الحوادث والتغيرات التى تقع فى حياة الإنسان، وأريد بها فى الخطبة، مطلق التغيير
- [٦٦٥] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٦، ص ٢٥٦ بتصرف وتلخيص، وقد نقل هذه الواقعة نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، ص ٣٢١
- [٦٦٦] (١). سورة العنكبوت، الآية ٦٤

- [٦٦٧] (٢). «زوى» من مادة (زى) على وزن حى، بمعنى الجمع والأخذ والحمل والإبعاد، وتعنى فى العبارة الإبعاد والفقدان لأنها وردت بصيغة الفعل المجهول فى العبارة ومعها الحرف عن
- [٦٦٨] (١). اصول الكافى، ج ٢، ص ٢١٦، ح ٤
- [٦٦٩] (١). سند الخطبة:
- يرى صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة أن هذه الخطبة متصلة بالخطبة ٢٢ و ١٣٥ (وحسب أرقامنا، الخطبة ١٣٧)، وأضاف: رواها باختلافات) المرحوم الشيخ الطوسى فى كتابه الأمالى، والخوارزمى فى المناقب وشرح ابن أثير فى كتابه اللغوى (النهاية) كلماتها الصعبة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤١٩)
- [٦٧٠] (١). سورة غافر، الآية ٥١
- [٦٧١] (٢). أوردنا شرحاً مفصلاً، ذيل الخطبة ١٣ فى الجزء الأول
- [٦٧٢] (٣). «متجرد» من مادة (تجرد) بمعنى الإستعداد للقيام بعمل بجد واجتهاد، ومنه السيف المجرد
- [٦٧٣] (٤). «أجلب» من مادة (اجلاب) بمعنى، الجمع والعون
- [٦٧٤] (٥). «يوازر» من مادة (موازره) ينصر ويعين
- [٦٧٥] (٦). «ينابذ» من مادة (منابذة) بمعنى، المدافعة والمقاتلة
- [٦٧٦] (٧). «منههين» بمعنى، الزجر والمنع من العمل، من مادة (نههه)، على وزن قهقهة
- [٦٧٧] (٨). «يركد» من مادة (ركود) السكوت والصمت
- [٦٧٨] (٩). معذرين من يصطنع العذر لنفسه أو غيره
- [٦٧٩] (١). الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٨٨ ذكرنا مطالب أخرى فى الجزء الخامس من هذا الكتاب، ذيل الخطبة ١٣٧
- [٦٨٠] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٠، ص ٦، كما ذكر هذه القصة دون ذكر اسم طلحة، الطبرى فى الجزء الثالث من تاريخه فى حوادث سنة ٣٥ ص ٤٣٨ ثم كتب: أمر معاوية أن يهدم جدار حش كوكب ويوصل بالبقيع
- [٦٨١] (١). سند الخطبة:
- من المصادر التى نقلت بعض هذه الخطبة، غرر الحكم للآمدى (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٢٢) ويفهم من كتاب تمام نهج البلاغة أن هذه الخطبة وردت فى مصادر أخرى وفيها إضافات: ومنها إخبار على عليه السلام عن الحجر الأسود ونقله من مكة إلى بلاد أخرى من قبل الأعداء ثم يعاد إلى موضعه الاصلى (كتاب تمام نهج البلاغة، ص ٢٨٧)
- [٦٨٢] (١). «أراح» من مادة (إراحة) بمعنى إعادة الحيوانات عند المساء إلى الإسطبل، وتطلق أحياناً على حركة الحيوانات فى كل زمان، وهذا هو المراد بها فى العبارة
- [٦٨٣] (٢). «سائم» تعنى فى الأصل الشخص الذى يتابع الشىء، ثم استعملت بمعنى الراعى الذى يحمل الحيوانات إلى المرعى، والحيوانات التى ترعى، وتعنى فى العبارة، الراعى (وعليه لها معنى المتعدى واللازم)
- [٦٨٤] (٣). «وبى» من مادة (وباء) بمعنى، الشخص المصاب بالوباء أو أى مرض معدٍ، ومرعى وبى، فى العبارة المذكورة بمعنى المرعى الذى يجلب الوباء أو الملوث بالمرض
- [٦٨٥] (٤). «دوى» من مادة (داء) بمعنى، المرض، ودوى، يقال للماء والغذاء الذى يجلب المرض
- [٦٨٦] (١). «مدى» جمع (مدية) على وزن لقمة، بمعنى السكين
- [٦٨٧] (٢). «مولج» بمعنى الدخول إلى الشىء، من مادة (ولوج)، على وزن، ورود
- [٦٨٨] (٣). اصول الكافى، ج ٨، ص ٥٧

[٦٨٩] (١) «مفضية» فى الأصل، من مادة (فضاء)، بمعنى السعة، وعلية فالإفضاء، بمعنى، التوسعة، وحين يتصل شخص بآخر بصورة تامة يكون فى الحقيقة قد وسع الوجود بمعونة الآخر. وتعنى هذه المفردة الاختلاء بالشخص لبيان الأسرار وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة

[٦٩٠] (١) «أفرغه» من مادة (إفراغ) تعنى فى الأصل، سكب شىء سىال من الطرف بحيث يخلو ممافيه، ثم استعملت بمعنى إلقاء المطالب المختلفة على الآخر

[٦٩١] (٢). للوقوف على المزيد بشأن علم الغيب وعلم الأنبياء والأئمة عليهم السلام راجع إلى هذا الكتاب ج ٥، ص ٣٦٦

[٦٩٢] (٣). ميزان الحكمة، ج ١، ح ١٢٧٧٦ هناك قضية، وهى أن الإنسان إن دعى الآخرين إلى المعروف ونهاهم عن المنكر ولم يلتزم هو بذلك فإنه يشعر بالخجل من نفسه، وهذا الخجل يسوقه بالتالى إلى المعروف والابتعاد عن المنكر

[٦٩٣] (١). سورة طه، الآيتان ١ و ٢

[٦٩٤] (٢). نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ٢٢٦

[٦٩٥] (١). سند الخطبة:

صرح ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة، وابن ميثم بأن هذه الخطبة أولى خطبة بعد البيعة وقتل عثمان. وهذا يدل على أن هذين الشارحين وجداهما فى مصدر آخر، غير نهج البلاغة، لأن المرحوم السيد الرضى لم يشر إلى ما قالاه، كما روى الزمخشري فى كتابه (ربيع الأبرار) بعضها باختلافات متعددة، وقد بين البعض الآخر من هذه الخطبة فى أربعة كتب ألفت قبل نهج البلاغة (كتاب الكافي، والمحاسن، للبرقى، والأمالى للصدوق، وتفسير العتاشى)، (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٣٠)

[٦٩٦] (١) «محاب» جمع (محب) من مادة الأمر المحبوب

[٦٩٧] (٢) «حفت» من مادة (حف) على وزن كف، بمعنى الاحاطة بالشىء

[٦٩٨] (٣) «نزع» من مادة (نزع) على وزن نبض، تتعدى هذه المادة بحرف (إلى) أحياناً فيقال: نزع عنه أى ألق عن هذا العمل، وقد وردت فى العبارة بالمعنى الثانى، واستعملت بالمعنى الأول فى العبارات اللاحقة (تنزع إلى المعصية). وتتعدى أحياناً دون حرف الجر كقولهم نزع الشىء أى، إبطاله وهدمه

[٦٩٩] (٤) «قمع» من مادة (قمع) على وزن منع، بمعنى، القهر والغلبة

[٧٠٠] (١). سنن أبى داود، ج ٢، ص ٤٢٢، ح ٤٧٤٤؛ وبحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٧٢

[٧٠١] (٢). اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٣

[٧٠٢] (٣). سورة البقرة، الآية ٤٥

[٧٠٣] (١) «ظنون» صيغة مبالغة من مادة (ظن) ترد فى مثل هذه الحالات بمعنى سوء الظن، وعلية، تعنى هنا، من ينظر إلى نفسه بالنقد ويتهمها، كما وردت مادة ظن بمعنى الشىء القليل، وعلية فالظنون تطلق على الفرد الضعيف، والمعنى الأول هو المراد

[٧٠٤] (٢) «زارى» بمعنى عائب، من مادة (زرى)، على وزن جرى

[٧٠٥] (١) «قوضوا» من مادة (تقويض) بمعنى الهدم، والمراد هنا نزع أعمدة الخيمة وإطناها لرفعها وجمعها

[٧٠٦] (٢) «طوها» من مادة (طى) بمعنى الاجتياز

[٧٠٧] (١). تعيش البلاد الإسلامية حالة من العزاء بسبب الزلزال الذى ضرب مدينة (بم) ونواحيها وخلف آلاف الضحايا، حيث أحالت هذه الزلزلة خلال ١٢ ثانية (نعم، فقط ١٢ ثانية) هذه المدينة النضرة إلى كتيان من التراب كأنها مدينة مهجورة منذ آلاف السنين. نعم، نعلم أن لا اعتبار لهذه الدنيا، لكننا لم نر مثل هذا، حدث ذلك فى ٢ ذى القعدة عام ١٤٢٤ هـ

[٧٠٨] (١) «نهج البلاغة، الرسالة ٤٧

[٧٠٩] (٢). «لأوى من مادة (لأى) على وزن سعى، بمعنى الشدة والمحنة»

[٧١٠] (٣). «غى» بمعنى العمل الطائش أو الجهل التابع من الاعتقاد الفاسد، حسب الراغب فى المفردات

[٧١١] (١). اصول الكافى، ج ٢، ص ٦٠٧ (باب من حفظ القرآن ... ذيل الحديث)

[٧١٢] (١). «محل» من مادة (محل) على وزن نحل، بمعنى الشكوى الممزوجة بالسعاية والعيب، لكنّها وردت هنا بمعنى الشكوى

[٧١٣] (٢). «حارث» تطلق على الفلاح، من مادة (حارث)، على وزن غرس، بمعنى الزراعة

[٧١٤] (١). «استغشوا» من مادة (غش) على وزن مسّ، بمعنى، الخداع والأعمال غير الصالحة، وأريد به فى العبارة، الظن بالغش فى

العمل

[٧١٥] (٢). وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣٩

[٧١٦] (٣). بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٠٧

[٧١٧] (١). «الاستقامة» ملازمة الطريق المستقيم والثبات على المسار الصحيح، وفسره بعض أرباب اللغة، بالإعتدال، وكلاهما بمعنى

واحد، كما وردت بمعنى الثبات والرسوخ، والاحتمالان واردان بشأن العبارة ولا مانع من الجمع بينهما

[٧١٨] (١). شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئى، ج ١، ص ٢٠٤

[٧١٩] (٢). «اخرجوا» من مادة (خرج) ولما كان أداء الحق يخرج الإنسان من المسؤولية فقد وردت بهذا المعنى، وإذ اتعدت هذه

المفردة بالحرف (من) عنت أداء الحق

[٧٢٠] (٣). «حجيج» من مادة (حج) وردت بمعنى الغلبة، ويطلق الحجيج على من يغلب الخصم بالدليل والبرهان

[٧٢١] (١). سورة الاسراء، الآية ٧١

[٧٢٢] (٢). سورة النحل، الآية ٨٩

[٧٢٣] (١). «توزّد» من مادة (ورود) بمعنى، الدخول، وتستعمل حين يكون الدخول تدريجياً

[٧٢٤] (١). للوقوف على المزيد، راجع شرح آيات القضاء والقدر فى التفسير الأمتل، ذيل الآية ٤٩ من سورة القمر، وكتاب دوافع

ظهور الدين

[٧٢٥] (٢). «مروق» تعنى فى الأصل، مرور السهم من الهدف، ويطلق المارقين على الخوارج الذين أفرطوا فى الدين حتى خرجوا منه

[٧٢٦] (٣). «منقطع» بهم: بمعنى الفرد الذى انتهى متاعه أو أوقف مركبه وسط الطريق ولم يصل الهدف

[٧٢٧] (١). نقل ذلك الكلام الكثير من مصادر المحدثين والمؤرخين ومنها: مصنف ابن أبى شيبة، ج ٧، ص ٢٥١؛ وتاريخ دمشق، ج

٥٢، ص ٣٨٠؛ والبداية والنهاية لأبن كثير، ج ٨، ص ١٤؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ٥١٠ وورد إلى جانب ذلك،

قوله: كل شرط أعطيته فهو تحت قدمى (إشارة إلى عدم التزامه بالشروط فى صلحه مع الإمام الحسن عليه السلام)

[٧٢٨] (٢). سورة فصلت، الآية ٣٠

[٧٢٩] (٣). مجمع البيان ذيل الآية ١٢٤

[٧٣٠] (١). سورة آل عمران، الآية ١٢٤؛ سورة الأحزاب، الآية ٩

[٧٣١] (٢). مجمع البيان، ذيل الآية المذكورة

[٧٣٢] (١). «تصريف» بمعنى، التغيير

[٧٣٣] (١). سورة البقرة، الآية ١٤

[٧٣٤] (٢). «جموح» من مادة (جمع) الفرس، الذى يغلب صاحبه

[٧٣٥] (١). نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ٤٠

- [٧٣٦] (٢). سورة البقرة، الآية ١٣
- [٧٣٧] (١). سورة الاحزاب، الآيتان ٧٠ و ٧١
- [٧٣٨] (١). ميزان الحكمة، ح ٨٧٧٨
- [٧٣٩] (٢). بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٥١، ح ٣
- [٧٤٠] (١). وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٣، ح ٣
- [٧٤١] (١). بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٥٠
- [٧٤٢] (١). راجع النص والاجتهاد للمحقق المرحوم السيد عبدالحسين شرف الدين
- [٧٤٣] (٢). «ضرستموها» من مادة (ضرس) على وزن درس، بمعنى، العض أو البعض أو العض الشديد بالأسنان، ثم وردت بمعنى الدراسة الدقيقة للشيء، وهذا هو المراد بها في العبارة
- [٧٤٤] (٣). ذكرنا قصيدة أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبه الذي شكى مظالم المغيرة إلى عمر فلم يُصغ له فشعر بالبغض والكرهية له حتى قتله. راجع الجزء الأول من هذا الكتاب، ذيل الخطبة الشقشقية
- [٧٤٥] (١). «أمامه» تعنى فى الأصل جهة الأمام والعبارة (أناه التقصير من أمامه)، أى، أناه التقصير علانية
- [٧٤٦] (٢). سورة الكهف، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤
- [٧٤٧] (١). سورة البقرة، الآية ١١٧
- [٧٤٨] (٢). سورة الأحقاف، الآية ٩
- [٧٤٩] (٣). ميزان الحكمة، ح ١٦٢٩
- [٧٥٠] (٤). المصدر السابق، ح ١٦٣٢
- [٧٥١] (٥). المصدر السابق، ح ١٦٣٥
- [٧٥٢] (١). «متين» من مادة (متن) يعنى فى الأصل العضلتان القويتان على طرفى العمود الفقرى، ثم أطلق على كل موضوع محكم
- [٧٥٣] (١). «ينابيع» جمع ينبوع، على وزن مقبول، العين
- [٧٥٤] (١). «جواد» تعنى فى الأصل، الفرس السريع، ومن مادة (جود)، معروف، ثم اطلقت على الإنسان المجدو والمستقيم
- [٧٥٥] (٢). «قاصد» من مادة (قصد) بمعنى الإعتدال، وعليه فالقاصد، من يسير على الدرب دون إفراط وتفريط
- [٧٥٦] (١). سورة النساء، الآية ٤٨
- [٧٥٧] (٢). «هنات» جمع (هن) على وزن من، بمعنى الأمر المهم والحادثه الشديده، كما ورد فى لسان العرب، مادة (هن)، وتطلق أحياناً على الموضوعات الصغيرة قليلة الأهمية، وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة
- [٧٥٨] (٣). «مدى» جمع (مدية) على وزن، بنية، السكين
- [٧٥٩] (٤). سورة النساء، الآية ٣١
- [٧٦٠] (١). سورة الهزء، الآيتان ٦ و ٧
- [٧٦١] (٢). اصول الكافى، ج ٢، ص ٣٣٣، ح ١٤
- [٧٦٢] (٣). المصدر السابق، ح ١٥
- [٧٦٣] (١). سورة مريم، الآية ٤٨
- [٧٦٤] (١). سورة الكهف، الآية ١٦
- [٧٦٥] (٢). ميزان الحكمة، ح ١٢٨٨٤

- [٧٦٦] (٣). غرر الحكم، ح ١٤١٤ و ٦٥٠٥
- [٧٦٧] (٤). المصدر السابق
- [٧٦٨] (٥). كنز العمال، ج ١، ص ٢٠٦، ح ١٠٢٨
- [٧٦٩] (٦). نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧
- [٧٧٠] (١). بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٦٠، ح ١١٦
- [٧٧١] (٢). غرر الحكم، ح ٨١٥١
- [٧٧٢] (١). سند الخطبة:
- روى هذه الخطبة مع اضافات كثيرة، المؤرخ المعروف، الطبري، في تاريخه في حوادث سنة ٣٧ هجرية عن أبي مخنف، وقد خاطب بها أصحاب النهروان. وقد ذكر الإمام على عليه السلام في بداية الخطبة أموراً بشأن الحكمين وأخطائهما، ثم بين (باختلاف) ما رواه المرحوم السيد الرضى (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٢٨) ولا يبعد أن تكون هذه الخطبة جزءاً من الخطبة ١٢٨
- [٧٧٣] (١). «ملاً» تعنى لغوياً، ما يملأ العين ويثير إعجاب الناظر، ومن هنا تطلق على الجماعة الكثيرة المتفقه في الرأى والعقيدة والتي يملأ تجمعها العين، ومادة هذه الكلمة وكلمة مملوء واحدة
- [٧٧٤] (٢). «يجعجع» من مادة (جعجعة) تطلق فى الأصل على بروك البعير، ثم استعملت بمعنى الخضوع والإستسلام
- [٧٧٥] (٣). «تاه» من مادة (تیه) بمعنى، الحيرة والضلال
- [٧٧٦] (١). سورة المائدة، الآية ٥٥
- [٧٧٧] (١). راجع من ذكر سبب نزول الآية فى على عليه السلام ومنهم، الطبرى وابن هشام والحلبى واليعقوبى وأحمد بن حنبل وابن الجوزى وابن الصبأغ المالكى (الغدیر، ج ٢، ص ٤٨-٤٩)
- [٧٧٨] (٢). سورة البقرة، الآية ٢٠٧
- [٧٧٩] (٣). سورة البينة، الآية ٧
- [٧٨٠] (٤). راجع شواهد التنزيل والصواعق المحرقة والدر المنثور ونور الأبصار وتفسير الطبرى وكتاب آيات الولاية لسماحة المؤلف
- [٧٨١] (١). سند الخطبة:
- روى الشيخ صدوق، إلى جانب كتابه الخصال، جانباً من هذه الخطبة، وشرح ابن أثير فى كتابه (النهاية) مفرداتها الصعبة، كما روى بعضها الزمخشري، فى (ربيع الأبرار) (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٣٥)
- [٧٨٢] (١). «يحوى» من مادة (حواية) على وزن شفاعه، بمعنى الإحاطة بالشىء
- [٧٨٣] (١). أصول الكافى، ج ٣، ص ٣٢٤، ح ١٢. مناجاة النبى عند سجوده منتصف الليل
- [٧٨٤] (٢). «يعزب» من مادة (عزوب) على وزن غروب، بمعنى الإبتعاد والإختفاء، ومن هنا يقال، الأعزب
- [٧٨٥] (٣). «سوافى» جمع سافية، بمعنى، الريح الشديدة
- [٧٨٦] (٤). «ديب» المشى البطىء
- [٧٨٧] (٥). «صفا» جمع صفاه، على وزن وفا، بمعنى، الحجر الأملس الضخم
- [٧٨٨] (٦). «مقيل» من مادة (قيلولة) النوم قبل الزوال، ومقيل اسم مكان بمعنى، موقع الراحة والنوم منتصف النهار
- [٧٨٩] (٧). «ذر» جمع ذرة، وهى صغار النمل
- [٧٩٠] (٨). «طرف» بمعنى جفن العين، وترد بمعنى النظر وتحريك الأجفان
- [٧٩١] (١). سورة لقمان، الآية ٢٧

[٧٩٢] (٢). «معدول» من مادة (عدل) على وزن علم، بمعنى التشبيه والمثيل

[٧٩٣] (٣). «صفت» من مادة (صفا) بمعنى طهرت

[٧٩٤] (٤). «دخله» بمعنى، باطن الشيء

[٧٩٥] (١). «معام» من مادة (عيم) على وزن غيب، تعنى فى الأصل الشغف باللبن، والمعتم هنا، الشخص الشديد الحب لإتيان الوظيفة المكلف بها

[٧٩٦] (٢). «عقائل» جمع عقيلة، بمعنى اقتطاف كل شىء، ومن هنا يقال للجوهرة الثمينة عقيلة البحر

[٧٩٧] (٣). «غريب» تعنى الشىء الأسود المعتم، وتعنى هنا، ظلمة الجهل

[٧٩٨] (١). كثر العمال، ج ٣، ص ١٦، ح ٥٢١٧٥

[٧٩٩] (١). «مخلد» من مادة (خلد وخلود) الشخص الذى يسكن مكاناً بصورة دائمية وتشير فى العبارة إلى من التصق بالدنيا

[٨٠٠] (٢). «تنفس» من مادة (نفاسة) بمعنى الثمين، ووردت هنا، بمعنى الأهمية

[٨٠١] (١). «غض» النظر والجديد

[٨٠٢] (٢). «اجترحو» من مادة (جرح) وما يصيب البدن من ضرر ويبقى أثره، واجترح، بمعنى، الإتيان بالذنب، وكأن الإنسان يجرح

نفسه، ثم توسع هذا المعنى ليطلق على كل اكتساب وارتكاب

[٨٠٣] (٣). سورة الرعد، الآية ١١

[٨٠٤] (٤). سورة الاعراف، الآية ٩٦

[٨٠٥] (٥). وردت فى كلمات العلماء وهى مقتبسة من الأحاديث الإسلامية، مثل قول الإمام الصادق عليه السلام «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ

بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ». (أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٢ باب شدة ابتلاء المؤمن)

[٨٠٦] (١). سورة الشورى، الآية ٣٠

[٨٠٧] (٢). سورة البقرة، الآية ١٥٥

[٨٠٨] (٣). سورة الروم، الآية ٤١

[٨٠٩] (٤). «وله» بمعنى الحيرة، من شدة الحزن حتى يفقد الإنسان أحياناً عقله ووعيه، ومن هنا اطلقت على العشق الذى يسلب عن

الإنسان سكونه وواعيته

[٨١٠] (٥). شارذ الشخص الذى يفر من الطريق أو ينحرف

[٨١١] (٦). أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٦٩، باب الدعاء يرد البلاء، ح ٥

[٨١٢] (١). «فترة» تعنى فى الأصل، التوقف والضعف والعجز، ومن هنا هى تطلق على الفاصلة بين برنامجين لإيقاف الأعمال، وحيث

تمتج بالغفلة استعملت لهذا المعنى

[٨١٣] (٢). ذهب كأغلب شراح نهج البلاغة ومترجميه، إلى ترجمة هذه العبارة بمعنى: «إذا أردت أن أقول شيئاً قلت، عفا الله عما

سلف»، ولكن هذا المعنى بعيد، لأنه ما ورد فى كلام الشيخ المفيد فى كتاب «الجمال» وفى كتاب «مناقب» حسب ما نقله كتاب «تمام

نهج البلاغة» بوجود (لكن) قبل العبارة «عفا الله عما سلف»، فعليه أن جملة «عفا الله عما سلف» دعاء لأوثكك، وهذا ما تقتضيه العلاقة

بين هذه الجملة والجملة التى سبقتها: واختار عدده من الشراح هذا المعنى، راجع الكتب، معارج نهج البلاغة، تأليف البيهقى، بحار

الأنوار، العلامة المجلسى، ج ٢٩، ص ٥٩٩، وشرح حدائق الحقائق، البيهقى، ج ٢، ص ٩٤، وشرح المرحوم الخوئى، ج ١٦، ص ٣٥٩

[٨١٤] (١). سند الخطبة:

وردت العبارة المذكورة (باختلاف فيها) فى عدة كتب معتبرة من كتب علماء الشيعة بطرق متعددة قبل تأليف نهج البلاغة، ومنها

- المرحوم الكليني في الجزء الأول من أصول الكافي حيث نقلها في بايين، والمرحوم الصدوق في كتاب التوحيد والمرحوم الشيخ المفيد في الإرشاد. ومن علماء العامة ابن الجوزي الحنفي في كتابه (التذكرة) عن ابن عباس (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٣٧)
- [٨١٥] (١). توحيد الصدوق، ص ٣٠٥ الباب ٤٣، ح ١ و ٢
- [٨١٦] (١). سورة الأنعام، الآية ٧٥
- [٨١٧] (١). سورة يوسف، الآية ٩٤
- [٨١٨] (٢). الكامل لابن أثير، ج ٢، ص ١٧٩
- [٨١٩] (٣). اصول الكافي، ج ٢، ص ٥٣ (باب حقيقة الإيمان واليقين، ح ٢)
- [٨٢٠] (٤). للوقوف على المزيد وفهم معنى الشهود وأسبابه وموانعه (راجع نضحات القرآن، ج ١، ص ١٩٣)
- [٨٢١] (٥). «ملايس» اسم فاعل من مادة (ملايسه) بمعنى، الإختلاط والإلتصاق بشيء
- [٨٢٢] (١). «روية» من مادة (تروية) تعني، أحياناً، الشبع من الماء، كما وردت بمعنى التفكير
- [٨٢٣] (٢). «همة» من مادة (هم) بمعنى العزم على الإتيان بشيء، كما تعني، الهم الذي يشغل فكر الإنسان، والنوع الأول هو المراد
- [٨٢٤] (٣). نهج البلاغة، الخطبة ١
- [٨٢٥] (١). «تعنو» من مادة (عنو) على وزن غلوا، بمعنى، تذلل وتخضع
- [٨٢٦] (٢). «تجب» من مادة (جوب) تعني أحياناً، الثبوت، وأخرى السقوط والوقوع ولازمته الثبوت والاستقرار، وإن وردت بشأن القلب عنت الاضطراب
- [٨٢٧] (٣). سورة المؤمنون، الآية ٦٠
- [٨٢٨] (١). سند الخطبة:
- روى هذه الخطبة قبل السيد الرضى، إبراهيم بن هلال الثقفي، في (الغارات) عن حبيب بن عبد الله. (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٣٩ و ٤٤٠)
- [٨٢٩] (١). «خضتم» من مادة (خوض) على وزن حوض، قال الراغب في المفردات، الورود شيئاً فشيئاً في الماء والمشى فيه، ثم وردت بالمعنى الكنائى للشروع بالأعمال السيئة أو الأقوال القبيحة
- [٨٣٠] (٢). «خرتم» من مادة (خوار) الصراخ وحيث ينشئ الصراخ من الضعف فهي تعني الضعف أو العجز
- [٨٣١] (٣). «أجتتم» من مادة (أجاء) وجذرها مجيء، جلب الشخص أو الشيء، وعليه إن اجتتم بمعنى أن جلبوكم
- [٨٣٢] (٤). «مشاقة» بمعنى الصعوبة أو الخصومة والعداء من مادة (شق) على وزن حق
- [٨٣٣] (٥). «نكصتم» من مادة (نكص) على وزن عكس، الرجوع إلى الوراء، القهقري
- [٨٣٤] (٦). اعتبر أغلب شراح نهج البلاغة العبارة «الموت أو الذل» لكم نوعان من اللعن والدعاء عليهم، أى متم أو ذلتم، وهي ليست كذلك فقد أراد الإمام عليه السلام أن يبين وهنهم وضعفهم في الجهاد، أى أن نتيجة عملكم إما الموت أو الذل، لاسيما أن العبارة التي وردت قبلها «لا أبا لغيركم!» والعبارة اللاحقة «لله أنتم!» تفيد أنه لم يكن في مقام الدعاء عليهم، وقد أذعن الشراح بأنه تطف من الإمام عليه السلام بتوجيه الدعاء لغيرهم
- [٨٣٥] (٧). نهج البلاغة، الخطبة ٥١
- [٨٣٦] (١). «قال» بمعنى العدو، ومن مادة (قلا)، على وزن ندا، بمعنى، شدة البغض والعداء
- [٨٣٧] (١). «حمية» بمعنى الغيرة والشخصية والتعصب، كما وردت بمعنى التكبر وأصلها من مادة (حماية)، لأن مثل هذه الصفات سبب لحماية الشخص أو الشيء

[٨٣٨] (٢). «تشحد» من مادة (شحد) على وزن قبض، بمعنى حد، وتستعمل فى المسائل المعنوية كالدكاء والفتنة

[٨٣٩] (١). «الجفأة» جمع جافٍ، الشخص الغليظ والسيء الخلق، من مادة (جفاء)

[٨٤٠] (٢). «الطغام» جمع طغامه، بمعنى، ضعاف الفكر وأراذل الناس

[٨٤١] (٣). «تريكة» من مادة (ترك) والمراد به، الشخص أو الشيء المتبقى، والمراد هنا المتبقون من شخصيات صدر الإسلام

[٨٤٢] (١). «دارستكم» من مادة (مدارسه) بمعنى، التدريس والتعليم والتفهم

[٨٤٣] (٢). «حجاج» جمع حجة، بمعنى الدليل والبرهان، ولها أحياناً معنى مصدرى وتستعمل بصيغة المفرد

[٨٤٤] (١). «سوغتكم» من مادة (تسويغ) جعلت الشيء سائغاً، ثم استعملت بمعنى، الأذن

[٨٤٥] (٢). «مجبتم» من مادة (مج) على وزن حجج، بمعنى رمى الماء أو شيء آخر من الغم، ثم استعملت بمعنى كئيب هو إبراز

الكرهية من شيء

[٨٤٦] (٣). «أقرب» بقوم من قبيل صيغة التعجب، حيث يبدى الإمام عليه السلام تعجبه بهذه الصيغة من الأفراد الجهال الذين استسلموا

لخطط معاوية

[٨٤٧] (٤). «نابغه» تعنى فى الأصل الفرد المشهور والعبرى، من مادة (نبوغ)، وتطلق أحياناً على الفرد المشهور بالفساد، ليس لها داعٍ

هنا

[٨٤٨] (٥). تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٣١ حوادث سنة ٣٧ هجرية

الجزء السابع

الخطبة ١٨١

إشارة

وَقَدْ أَرْسَلَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، يَعْلَمُ لَهُ عِلْمَ أَحْوَالِ قَوْمٍ مِنْ جُنْدِ الْكُوفَةِ، قَدْ هَمُّوا بِاللِّحَاقِ بِالْخَوَارِجِ، وَكَانُوا عَلَى خَوْفٍ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ،

فَلَمَّا عَادَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ قَالَ لَهُ: «أَمِنُوا فَقَطَّنُوا» [١]، أَمْ جَبِنُوا

فَطَعَّنُوا [٢]؟» فَقَالَ الرَّجُلُ: بَلْ طَعَّنُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

[٣]

نظرة إلى الخطبة

لابد من التعرف على سبب ذكر هذا الكلام الذى ورد فى الخطبة بغية الوقوف على معناها.

إن رجلاً يدعى الخريت بن راشد أحد بنى ناجية قد شهد مع على عليه السلام صفين

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٦

فجاء بعد تحكيم الحكيمين فى ثلاثين من صحبه (وفى رواية الطبرى ثلاثمائة) فقال:

«وَاللَّهِ يَا عَلِيُّ لَا أُطِيعُ أَمْرَكَ وَلَا أُصَلِّيُ خَلْفَكَ وَإِنِّي عَدَا مُفَارِقَكَ».

فقال الإمام عليه السلام:

«تَكَلَّفَكَ أُمُّكَ إِذَا تَعَصَى رَبُّكَ وَتَنَكَّتْ عَهْدَكَ وَلَا تَضُرُّ إِلَّا نَفْسَكَ»

، «أَخْبِرْنِي لِمَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟»

قال:

«لَأَنَّكَ حَكَمْتَ فِي الْكِتَابِ وَضَعْتَ عَنِ الْحَقِّ إِذَا جَدَّ الْجَدُّ فَأَنَا عَلَيْكَ زَادٌ وَلَكُمْ جَمِيعاً مُبَايِنٌ».

فقال عليه السلام:

«وَيَحْكُ هَلُمَّ إِلَى أَدَارِسُكَ وَأَنَاظِرُكَ فِي الشَّنِّ وَأَفَاتِحُكَ أُمُوراً مِنَ الْحَقِّ أَنَا أَعْلَمُ بِهَا مِنْكَ فَلَعَلَّكَ تَعْرِفُ مَا أَنْتَ الْآنَ لَهُ مُنْكَرٌ».

فقال الخريت:

«فَأِنِّي غَادٍ عَلَيْكَ غَدًا».

فقال عليه السلام:

«أَعْدُو وَلَا يَسْتَهْوِينُكَ الشَّيْطَانُ وَلَا يَتَفَحَمَنَّ بِحُكِّ رَأْيِ السُّوءِ وَلَا يَسْتَخْفِنُكَ الْجُهْلَاءُ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، فَوَاللَّهِ إِنْ اسْتَنْصَيْتَنِي وَاسْتَرَشَدْتَنِي وَقَبِلْتَ مِنِّي لِأَهْدِيَنَّكَ سَبِيلَ الرَّشَادِ» [٤].

فقرر هذا الرجل الجاهل الإلتحاق بقومه من الخوارج لبيتلى بذلك المصير الأسود، وإثر ذلك بعث الإمام عليه السلام أحد أصحابه خلف هذا الرجل علّه يتراجع عن موقفه، ولكن سرعان ما عاد مبعوث الإمام عليه السلام ليخبره بالتحاقه وصحبه بالخوارج ومغادرته الكوفة.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٧

بُعْدًا لَهُمْ «كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ!»! أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ الْأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ، وَصَبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَتْ مِنْهُمْ. إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدْ اسْتَقْلَبَهُمْ، وَهُوَ غَدًا مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ، وَمُتَخَلِّ عَنَّهُمْ. فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى، وَازْتِكَاسِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى، وَصَدَّهُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَجَمَّاحِهِمْ فِي التَّيْبِ.

الشرح والتفسير: مصير المشككين الجهال

كما مضى سابقاً كان الكلام من قبل فئة قليلة جاهلة ومتعصبة أشكلت على الإمام عليه السلام بسبب استجابته لتحكيم القرآن، والحال هذا وأمثاله ممّا كانوا قد مارسوا ضغوطهم على الإمام عليه السلام لقبول التحكيم، والأسوأ من ذلك وإثر اعتراضهم على الإمام عليه السلام الذي يمثل محور الهدى انشقوا عنه وإلتحقوا بالخوارج محور الجهل والتعصب والضلال، ويشرح الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عوامل تعاسة هذه الفئة الضالة بغية تجنّب الآخرين السقوط في هذا المستنقع فقال عليه السلام:

«بُعْدًا [٥] لَهُمْ

«كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ»

!». كان هذا التعبير إشارة لما ورد في القرآن الكريم بشأن قوم ثمود إذ قال تعالى

«أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ» [٦] والذي كان لعنة لقوم شعيب الوثنيين، كما كان إشارة إلى الجهات المشتركة بين هؤلاء القوم الضالين وقوم شعيب وقوم صالح،

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٨

حيث كان هؤلاء اناساً متكبرين ومغرورين وردت قصتهم في عدّة سور من القرآن الكريم، ثم قال عليه السلام:

«أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ [٧] الْأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ، وَصَبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى

هَامَاتِهِمْ [٨]، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَتْ مِنْهُمْ، إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدْ اسْتَقْلَبَهُمْ [٩]، وَهُوَ غَدًا

مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ، وَمُتَخَلِّ عَنَّهُمْ».

يشير هذا الكلام في الواقع إلى ما ورد مراراً في القرآن الكريم بخصوص الطغاة الغافلين الذين ما أن يركبوا السفينة وتغشاهم أمواج

البحار الهادرة ويستشعروا بالخطر حتى تطرح عنهم حجب الغفلة ويتوجهون إلى الله، ولكن سرعان ما يعودون لتلك الغفلة إذا ما بلغوا ساحل النجاة [١٠].

كما يشير أيضاً إلى ما ورد كراراً في القرآن الكريم أن الشيطان [١١] وأئمة الضلال [١٢] يتبرأون يوم القيامة من أتباعهم. ثم قال عليه السلام:

«فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى، وَارْتِكَاسِهِمْ [١٣] فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى، وَصَدَّهُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَجَمَّاحِهِمْ [١٤] فِي التَّبِيِّ».

إشارة إلى أنه نتيجة تلك اللجاجة التيه في الضلال والحيرة والابتعاد عن الهدى وهذا المصير الأسود الذي يصنعه كل إنسان لجوج وجاهل، جدير بالذكر أنه يستفاد من هذا الكلام وتلك المقدمة التاريخية الواردة في سبب ذكره:

إن الإمام عليه السلام كان رحيماً حتى بالأفراد من أهل اللجاجة والجهل والتعصب، وكان

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٩

يسعى قدر المستطاع لإصلاحهم، وإن لم تؤثر مواعظه البليغة كان يقرعهم بكلمات عنيفة ويربهم عاقبة أعمالهم في الدنيا والآخرة لعلمهم يفيئون إلى الحق.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١١

الخطبة ١٨٢

إشارة

رَوَى عَنْ نَوْفِ الْبَكَّالِي قَالَ: خَطَبْنَا بِهِذِهِ الْخُطْبَةِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْكُوفَةِ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى حِجَارَةٍ، نَصَّ بِهَا لَهُ جُعْدَةٌ بِنُ هُبَيْرَةَ [١٥] الْمَخْزُومِي، وَعَلَيْهِ مِدْرَعَةٌ [١٦] مِنْ صُوفٍ وَحَمَائِلُ سَيْفِهِ لَيْفٌ، وَفِي رِجْلَيْهِ نَعْلَانِ مِنْ لَيْفٍ، وَكَأَنَّ جَبِينَهُ نَفْنَةٌ [١٧] بِعَيْرٍ [١٨]

نظرة إلى الخطبة

يستفاد من أواخر هذه الخطبة أن الإمام عليه السلام خطبها قبل شهادته بأسبوع، وهدفه

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٢

منها إعداد الناس لجهاد معاوية ولصوص الشام، واستجابوا لدعوته فتقاطروا عليه ألوفاً مؤلفه، ولكن للأسف خاض الإمام عليه السلام في استعراض عدّة أمور من هذه الخطبة بغية إثارة أرواحهم وعواطفهم لمواجهة الأعداء الظلمة، فاستهل حديثه في القسم الأول والثاني والثالث من الخطبة بحمد الله والثناء عليه إلى جانب بيان صفاته الجمالية والجلالية ومن ثم وحدانيته وعلمه المطلق بذرات الوجود كافة، وأن ذاته وصفاته أسمى من أن يستوعبها الفكر، كما لا يقوى على ذلك الأمر حتى الملائكة المقربون.

ثم تطرق الإمام عليه السلام في القسم الرابع إلى الورع والتقوى والزهد في الدنيا، وبين جوانب من سيرة سالف الأنبياء مثل نبي الله

سليمان عليه السلام الذى عاش الزهد فى الدنيا مع ما كان لديه من الملك.

وبين فى القسم الخامس من الخطبة المصير الأسود الذى طال طغاة العالم كالفراعنة والعمالقة وأصحاب الرس الذين قتلوا أنبياء الله وسعوا لإطفاء نور الله، ولكن سرعان ما صرعوا وغادروا الدنيا.

وأشار فى الفصل السادس إلى ظهور المهدي عليه السلام وتشكيل حكومة العدل العالمية وتطرق إلى جانب من فضائله ومناقبه. وخاض فى القسم السابع ثانياً فى الوعظ والإرشاد، وتحدث عن غدر الدنيا وتقلب أحوالها وتفاهتها، وذكر شهداء صفين الذين عانقوا الشهادة وبكى عدداً من أصحابه مثل عمار بن ياسر وابن التيهان وخزيمة ذى الشهادتين، ثم مدحهم على طاعتهم لأوامر الله وإحيائهم لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وإماتتهم البدع واستعدادهم الدائم للجهاد. وأصدر فى القسم الثامن من خطبته أمره بالجهاد ودعى الجميع للإلتحاق بسوح الوغى.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٣

القسم الأول

إشارة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ، وَعَوَاقِبُ الْأَعْمُرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، وَتَبِيرِ بُرْهَانِهِ، وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ، حَمِيداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً، وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً، وَإِلَى تَوَابِهِ مُقَرَّباً، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً. وَنَشْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةً رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٌ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٌ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٌ لَهُ بِالطَّوْلِ، مُدْعِنٌ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ. وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَاناً مِنْ رَجَاءِهُ مُوقِناً، وَأَنَابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً، وَخَنَعَ لَهُ مُدْعِناً، وَأَخْلَصَ لَهُ مَوْحِداً، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّداً، وَلَآذٍ بِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً.

الشرح والتفسير: هو من يستحق الشكر

ينبغى قبل الشروع فى شرح هذه الخطبة الإشارة إلى شخصيه (نوف البكالى) راوى هذه الخطبة، لا شك ولا ريب فى أنه من أصحاب الإمام على عليه السلام وقيل حاجبه، ويعتقد البعض أنه من قبيلة حمير التى سكنت اليمن، بينما يراه البعض الآخر من قبيلة همدان، وهنالك كلام فى لقبه، قيل بكال (على وزن فعّال) وقيل بكال (على وزن كتاب) وقيل بكال (على وزن طواف)، على كل حال فقد كان رجلاً عفيفاً ومؤمناً ووفياً.

استهل الإمام عليه السلام هذا القسم من الخطبة بحمد الله والثناء عليه بهدف إعداد قلوب المخاطبين وإزالة صداد الغفلة عنها، ثم استعان بذاته المقدسة وأبرز إيمانه المطلق بها

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٤

فقال فى الحمد والثناء:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ [١٩] الْخَلْقِ، وَعَوَاقِبُ الْأَمْرِ».

نعم فمنه تعالى بداية الخلق وإليه المصير، فموجودات هذا العالم كافة من فيض وجوده وستؤول عاقبه أمرها إليه، وهذه إشارة إلى قضية المعاد ويوم القيامة فالحديث فى هذه العبارة عن مبدى نعمده ونثنى عليه.

ولكن لم هذا الحمد والثناء؟ قال عليه السلام:

«نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، وَنَثِيرُ بُرْهَانِهِ، وَنَوَامِي [٢٠] فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ».

العبارة:

«عَظِيمِ إِحْسَانِهِ»

يمكن أن تكون إشارة إلى نعمة الإيمان والاعتقاد الخالص بالله تعالى بقرينه

«نَثِيرُ بُرْهَانِهِ»

التي تشير إلى الأدلة الواضحة، وكما يمكن أن تكون إشارة إلى نعمة الحياة والخلق التي تعدّ من أعظم نعم الله، إلّا أنّ التفسير الأوّل أنسب، والعبارة:

«وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ»

إشارة إلى تكامل الإنسان في المجالات الماديّة والمعنويّة والتي تعدّ من النعم الإلهيّة الكبرى.

ثم خاض عليه السلام في بيان كيفية هذا الحمد فقال:

«حَمْدًا يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً، وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً، وَإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرَّبًا، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِبًا».

من البديهي أن لا يسع أحد أداء حقّ الشكر والحمد لله تبارك وتعالى، ويعجز عن ذلك حتى جميع الأنبياء والأولياء والملائكة المقرّبين، وعليه فالمراد من الأداء ما كان في وسع الإنسان والذي يوجب ثواب الله ونيل المزيد من نعمه.

وعلى هذا الأساس تطرق في هذه الجملات الحكيمه، تارة الصفات الإلهيّة وإحسانه ونعمه، وتارة أخرى إلى أساس النعم المتنوعة الإلهيّة وأصولها، وفي الثالثة إلى كيفية الحمد والشكر، وبذلك تطرق إلى مجموعته كاملة من الصفات الإلهيّة ونعمه.

ثم تطرق بعد الحمد - كما ورد شبيه ذلك في سورة الفاتحة - إلى الاستعانة بالله

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٥

تبارك وتعالى فقال:

«وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةً رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطُّوْلِ [٢١]، مُذْعِنٍ [٢٢] لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ».

تشير هذه العبارات الخمس إلى مواضيع متنوعة؛ الأوّل: الحديث عن الأمل بفضل الله في الأمور المعنويّة، والثاني: الأمل والرجاء في المنافع والمصالح الماديّة، والثالث: الثقة بدفع الآفات والمضرتّات عن العباد، والرابع: مقام الاعتراف بالنعم، وأخيراً أداء حقّ الشكر بالقول والعمل.

فقد اتّجه الإمام عليه السلام بعد بيانه لما يستحقّ الله تعالى من حمد واستعانة تامه بذاته المقدّسه الإفصاح عن إيمانه بالذات المقدّسه،

وهو الإيمان الذي انطوى على جميع المزايا فقال عليه السلام:

«وَتَوْفُؤُنِي بِهِ إِيْمَانٌ مِّن رَّجَاءٍ مُّوقِنًا، وَأَنَا بِإِلَيْهِ مُؤْمِنًا، وَخَنَعٌ [٢٣] لَهُ مُذْعِنًا، وَأَخْلَصَ لَهُ مَوْحِدًا، وَعَظْمَةٌ مُّمَجِّدًا، وَلَازِبٌ بِهِ رَاغِبًا مُّجْتَهِدًا».

حقاً إنّ الإيمان الذي ينطوى على كلّ هذه الصفات ويختزن كلّ هذه الآثار لهو أرفع إيماناً وأرسخ عقيدة، ولا يتأتّى مثل هذا الإيمان إلّا من خلال تطهير القلب من دنس المعصية والإبتعاد عن الأهواء والسعى إلى تهذيب النفس والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى، ولعلّ هنالك من يتساءل: لماذا استهل الإمام عليه السلام كلامه بحمد الله والثناء عليه ثم استعان بذاته المقدّسه ليتجه أخيراً إلى الإيمان، والحال أنّ الإيمان هو دافع الحمد والاستعانة؟

والجواب عن ذلك، إنّ الإيمان الذي تطرق إليه الإمام عليه السلام هنا هو الإيمان الجامع للكمال، والذي لا يحصل إلّا بعد حمد الله والاستعانة بذاته المقدّسه وما وجب سابقاً قبل الحمد والاستعانة إنّما يمثل المراحل الابتدائية للإيمان.

نفعات الولاية، ج٧، ص: ١٧

القسم الثاني

إشارة

لَمْ يُوَلَّدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكًا، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْزُونًا هَالِكًا. وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتُ وَلَمَّا زَمَانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَزْهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتَقَنِّ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ. فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ مَوَطَّدَاتٍ بِلَمَّا عَمِدَ، قَائِمَاتٍ بِلَمَّا سَدَّ. دَعَا هُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُبِذَعَاتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ وَلَا مُبِطِّنَاتٍ؛ وَلَوْلَا إِفْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَإِذْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مُؤَصِّحَةً مَعَا لِعَرْشِهِ، وَلَا مَسِيكَةً لِمَلَائِكَتِهِ، وَلَا مَصِيحَةً عَدَا لِلِكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ.

الشرح والتفسير: دلالة السماء على الله

قال الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة- في مواصلة شرح صفات الله التي تصدرت بها الخطبة: «لَمْ يُوَلَّدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكًا، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْزُونًا هَالِكًا، وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتُ وَلَا زَمَانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَزْهُ [٢٤] زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ». إنَّ من بين القوانين التي تحكم عالم المادة والممكنات أن كل جماعة ترد الحياة تفارقها بعد مدَّة لتحل محلها طائفة أخرى فالأبناء يرثون صفات الآباء، كما ينقل هؤلاء صفاتهم إلى الأبناء، وبما أن الذات الإلهية أزليَّة وأبدية فهي لم تولد من أحد ليكون لها مثل ولم يولد منها أحد ليرثها.

نفعات الولاية، ج٧، ص: ١٨

والعبارة:

«وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ ...»

إشارة إلى أنه يفوق الزمان؛ لأنَّ الزمان نتيجة لحركة الموجودات من النقص إلى الكمال وبالعكس، وبما أن وجوده المقدس عين كماله المطلق وليس للزيادة والنقصان من سبيل إلى ذاته فلا معنى لظرو الوقت والزمان عليه [٢٥]. وحيث إن نفي الشبيه والنظير والزمان والزيادة والنقصان عن ذاته القدسيَّة ربَّما يخلق وهماً يتمثل في تعطيل معرفة الله، وبعبارة أخرى إنعدام السبيل إلى معرفته؛ فقد قال:

«بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتَقَنِّ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ».

إشارة إلى أن الذات القدسيَّة وإن كانت خارجة عن متناول العقول البشريَّة إلَّا أنَّ إثبات أصل وجودها ممكن من خلال تأمل نظام الخليقة والتدبير الحكيم الذي يحكمه، وهذا ما أشارت إليه بعض الروايات الإسلاميَّة التي حثت على عدم الاستغراق في الذات المقدسة، بل التفكير في آثار قدرته وعظمته وعلمه في عالم الوجود، الأمر الذي جعله القرآن الكريم محوراً في معرفة الله ودعى أصحاب الفكر وأولوا الألباب إلى التفكير على الدوام فقال تعالى «أَنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُشِيعَانِكَ فَفِنَا عَذَابِ النَّارِ» [٢٦].

ثم ركز الإمام عليه السلام على مصاديق هذا البيان الكلي والعام فقال:

«فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ مَوَطَّدَاتٍ [٢٧] بِلَمَّا عَمِدَ [٢٨]، قَائِمَاتٍ بِلَمَّا سَدَّ [٢٩]».

نقحات الولاية، ج٧، ص: ١٩

ثم أشار إلى هذه الحقيقة:

«دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُدْعِنَاتٍ، غَيْرِ مُتَلَكِّنَاتٍ [٣٠] وَلَا مُبْطِنَاتٍ».

يبدو هنالك رأيان بشأن المراد من طاعة السماوات لأوامر الله وإقرارها بربوبيته تعالى؛ قال البعض: إن المراد الإقرار والطاعة بلسان الحال، أي أن الله سبحانه وتعالى خلقها بهذه الصيغة بحيث تعيش حالة التسليم له من حيث نظام العلة والمعلول وقوانين الخلق دون أن يكون لها أية إرادة أو علم، لأنها موجودات جامدة ولا روح لها.

وقال البعض: إن العبارات أعلاه تدل على أن جميع عالم الوجود - من الإنسان والحيوان والجماد وجميع الكواكب السماوية - له عقل وشعور، وقد أقرّوا بإرادتهم على ربوبيته تعالى وأذعنوا له بالطاعة.

طبعاً هذان التفسيران صحيحان ولا يختلفان عما أراد الإمام عليه السلام بيانه، لأن الهدف بيان عظمة الخلق وتسليم عالم الوجود لأمر الله تبارك وتعالى.

ثم قال عليه السلام:

«وَلَوْلَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرَّبُوبِيَّةِ وَإِدْعَائُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَّةِ [٣١]، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعًا لِعَرْشِهِ، وَلَا مَسْكَنًا لِمَلَائِكَتِهِ، وَلَا مَضْعَدًا [٣٢] لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ».

أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى أن طاعة السماوات لأوامر الله منحها ثلاثة امتيازات: الأول: أنها موضع عرش الله، والثاني: مسكن لملائكته، والثالث: موضع لصعود الأعمال والأقوال الصالحة للعباد؛ بمعنى أن حفظ الأعمال وكتبه الأفعال

نقحات الولاية، ج٧، ص: ٢٠

تكتبها في سجل الأعمال ويرفع إلى السماء ما يستحق منها القرب الإلهي.

ومن الطبيعي أن يختار الله تعالى موضعاً لهذه الأمور خاضعاً لسيطرته وهيمته، وعبارة أخرى بما أن جميع السماوات في قبضته فقد أسبغ عليها تلك الأمور، والتعبير بالملائكة في العبارة المذكورة إشارة إلى الملائكة المقربين، وإلا فللملائكة حضور في العالم برمته من أرض وسماء.

وأما حقيقة العرش فهذا ما سيأتي شرحه في هذه الخطبة إن شاء الله.

نقحات الولاية، ج٧، ص: ٢١

القسم الثالث

إشارة

جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَامًا يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلَفِ فِجَاجِ الْأَفْطَارِ، لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا اذْلِهَامًا سِجْفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَلَا اسْتِطَاعَتْ جَلَابِيْبُ سَوَادِ الْحِنَادِيسِ أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلَأُلُو نُورِ الْقَمَرِ، فَسَبَّحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقِ دَاجٍ، وَلَا لَيْلِ سَاجٍ، فِي بَقَاعِ الْأَرْضِينَ الْمُتَطَاطِمَاتِ، وَلَمَّا فِي يَفَاعِ السُّفَعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ؛ وَمَا يَنْجَلِجُلُ بِهِ الرَّغِيدُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، وَمَا تَلَّاشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ، وَمَا

تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقِطِهَا عَوَاصِفُ الْأَنْوَاءِ وَإِنْهَطَالُ السَّمَاءِ! وَيَعْلَمُ مَسْقِطُ الْقَطْرَةِ وَمَقَرَّهَا، وَمَسْحَبُ الدَّرَّةِ وَمَجْرَّهَا، وَمَا يَكْفِي الْبُعُوضَةَ مِنْ قُوَّتِهَا، وَمَا تَحْمِلُ الْأُنثَى فِي بَطْنِهَا.

الشرح والتفسير: احاطته العلميّة بكل شيء

تطرق الإمام عليه السلام في مواصلته لبيان آثار عظمة الله في عجائب السماوات في العالم العلوي عن القمر والنجوم حيث قال ابن أبي الحديد: إن هذا القسم من كلام الإمام عليه السلام بيان لتوحيد الله وتمجيده بأحسن وجه وبأفصح الكلام وأجمل العبارات حيث قال عليه السلام:

«جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَامًا يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ [٣٣] الْأَقْطَارِ [٣٤].»

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٢

هذه العبارة إشارة إلى ما ورد كراراً في القرآن الكريم بشأن النجوم: «وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» [٣٥].

وقال تعالى في موضع آخر: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» [٣٦].

نعلم أنّ النجوم الثابتة التي تشكل تقريباً أغلب كواكب السماء إنّما تطلع من نقاط معينة وتغيب في أخرى معينة كذلك وأنّ مواضعها في السماء من شأنها تعيين الجهات الأربع الشمال والجنوب والشرق والغرب وتعدّ أفضل وسائل للإيهتداء في الأسفار الطويلة خلال الليالي المظلمة في الصحارى والبحار.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة بديعة أخرى فقال:

«لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا إِذْ لِهَمَامٌ [٣٧] سُجِفَ [٣٨]

الَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَلَا اسْتَطَاعَتْ جَلَابِيبُ [٣٩] سَوَادِ الْخَنَادِسِ [٤٠] أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي

السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلَالُوتِ نُورِ الْقَمَرِ.»

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى نكتة ظريفة إلى أنّ الله سبحانه وتعالى خلق ظلمة الليل كنعمته كبيرة لهدوء المخلوقات وراحتها من جانب، ومن جانب آخر جعل النجوم ليتهدى بها في الصحارى والبحار وخلق القمر منيراً، إلماً أنّ هذين المصدرين المضيئين خلقتا بحيث لا يقضيان على عتمة الليل، والجمع بين هذا النور والظلمة بهدفين مختلفين نموذج لقدرة المطلقة سبحانه.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٣

وما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان آثار عظمة الله وقدرته في عالم الخلق حتى تطرق لسعة علمه وإحاطته بجميع الموجودات في الأرض والسماء؛ حتى أشار بشرح رائع إلى عشرة موارد منها تجسد سعة علمه سبحانه فقال:

«فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقِ [٤١] دَاجِ [٤٢]، وَلَا لَيْلِ سَاجِ [٤٣]، فِي بَقَاعِ الْأَرْضِينَ الْمُتَطَاطَاتِ [٤٤]، وَلَا فِي

يَفَاعِ [٤٥] الشُّفَعِ [٤٦] الْمُتَجَاوِرَاتِ؛ وَمَا يَتَجَلَّجَلُ [٤٧] بِهِ الرِّعْدُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، وَمَا تَلَأَشَتْ [٤٨]

عَنْهُ بُرُوقُ الْعَمَامِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقِطِهَا عَوَاصِفُ [٤٩] الْأَنْوَاءِ [٥٠]

وَإِنْهَطَالُ [٥١] السَّمَاءِ! وَيَعْلَمُ مَسْقِطُ الْقَطْرَةِ وَمَقَرَّهَا، وَمَسْحَبُ [٥٢] الدَّرَّةِ وَمَجْرَّهَا [٥٣]، وَمَا

يَكْفِي الْبُعُوضَةَ مِنْ قُوَّتِهَا، وَمَا تَحْمِلُ الْأُنثَى فِي بَطْنِهَا.»

حقاً إنّ تأمل عبارة الإمام عليه السلام بشأن علم الله تبارك وتعالى بجميع الكائنات في السماوات والأرض التي تجعل أعظم الأشياء وأصغر الموجودات وأخفى المخلوقات يعوص في بحر من التفكير هل بالإمكان خفاء أعمالنا وأقوالنا، بل نيّاتنا وأفكارنا على الله تبارك وتعالى المحيط بكل شيء؟ وهذه أحد أهم الآثار التربويّة للإيمان بسعة علم الله وإحاطته بجميع الأشياء.

والطريف أن الإمام عليه السلام حين يتحدث عن ظلمة الليل أو سكونه يشير إلى آثاره المختلفة في مختلف بقاع الأرض من قمم الجبال إلى سفوحها، وحين يتحدث عن

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٤

تساقط الأوراق يخوض في جملة الأسباب التي تؤدي إلى هذا التساقط، وبالتالي حين يتطرق إلى هطول قطرات المطر لا ينسى الحديث عن مواضع استقراره في جوف الأرض الذي يعدّ خزاناً مباركاً لتلك المياه، وحين يتحدث عن طعام ذبابة يشير إليه بمقدار، وهذا بدوره ما يجعل هذه الخطبة في مصاف أفصح وأبلغ خطب نهج البلاغة، وهي الفصاحة والبلاغة التي بلغت حد الإعجاز. جدير بالذكر أن لأغلب هذه التعبيرات جذوراً في الآيات القرآنية، فالله تبارك وتعالى حين يشير إلى علمه بجميع الموجودات يقول: «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» [٥٤] ويقول تعالى في موضع آخر: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ» [٥٥].

تأمل

ما الأنواء؟

تضمنت الخطبة إشارة إلى عواصف الأنواء التي تستحق المزيد من الشرح، فأنواء جمع نوء على وزن نوع تعني لغوياً طلوع النجوم أو غروبها، إلا أنهم اقتصروا على معنى الطلوع، وإن أضاف البعض إليها الغروب واعتبرها من مفردات الأضداد، ومن العقائد السائدة لدى العرب أن القمر يطوى ٢٨ منزلاً خلال دورته حول نفسه ويستغرق كل منزل ١٣ يوماً، وتقترن بداية كل منزل بطلوع نجم في المشرق وغروب آخر في المغرب، كما يعتقدون بحصول تغيير في الجو وسقوط مطر أو هبوب رياح يتزامن مع بداية كل منزل، ومن هنا كانوا يقولون: (مُطِرْنَا بِنُوءِ فُلَانٍ)، وقد اتخذ هذا الاعتقاد صيغته خرافية بالتدرج ليعتقدوا بأن هذا النجم هو العنصر المسبب لنزول الأمطار ولا بد من التضرع إليه بغية نزول المطر.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٥

ذكر العلامة المجلسي رحمه الله في الجزء ٥٥ من بحار الأنوار باباً مفصلاً حمل عنوان:

«في النهي عن الاستمطار بالأنواء والطيرة والعدوى»

ونقل فيه عدّة روايات بهذا الشأن منها ما روى عن الإمام الباقر عليه السلام:

«ثَلَاثَةٌ مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ، الْفُحْرُ بِالنَّسَابِ وَالطُّغْنُ فِي الْأَحْسَابِ وَالْإِسْتِشْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ» [٥٦].

والذي تجدر الإشارة إليه هنا أن أحداً لو طرح الموضوع بصيغته بحث فلكي وقال باقتران هبوب رياح شديدة أو سقوط مطر في كل منزل من المنازل الثمانية والعشرين بأمر الله فإنه لم يجانب الحقيقة، وليس هناك من نهى عن هذا الكلام، غير أن عرب الجاهلية نسبوا هبوب الرياح وهطول الأمطار إلى تلك الأنواء وهذا نوع من الشرك، لأنهم قالوا باستقلالية تلك الأنواء بعيداً عن إرادة الله، من هنا يتضح عدم وجود أي إشكال في عبارة الإمام:

«تُرِيْلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ الْأَنْوَاءِ»

لأن مراد الإمام عليه السلام أن كل ما اقترن بطلوع وغروب هذه الأنواء تابع لإذن الله وأوامره.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٧

إشارة

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيُّ أَوْ عَرْشُ، أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ، أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ. لَا يُدْرِكُ بِهِمْ، وَلَا يُقَدَّرُ بِهِمْ، وَلَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ، وَلَا يَنْظُرُ بَعَيْنٌ، وَلَا يَحْدُ بِأَيْنٍ، وَلَا يُوصَفُ بِالْأَرْوَاحِ، وَلَا يُخْلَقُ بِعَلَاجٍ، وَلَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ. الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيمًا؛ بِلَمَّا جَوَارِحَ وَلَمَّا أَدْوَاتٍ، وَلَمَّا نَطَقَ وَلَا لَهَوَاتٍ. بَلْ إِنْ كُنْتُ صَادِقًا أَثْبَهَا الْمُتَكَلِّفُ لَوْصِفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِي حُجَرَاتِ الْقُدُسِ مُرْجِحِينَ، مُتَوَلِّهِ عَقُولَهُمْ أَنْ يَحْدُوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. فَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُ الْهَيْئَاتِ وَالْأَدْوَاتِ، وَمَنْ يَنْقُصِي إِذَا بَلَغَ أَمِدَّ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ. فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَضَاءَ بُنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ.

الشرح والتفسير: عجزنا عن إدراك صفاته

تابع الإمام عليه السلام بيان صفات الله تعالى بعد أن أشار إلى عظمة الخالق وقدرته وذكر آياته في عالم الوجود، فشرح في هذا القسم جانباً مهماً من الصفات الثبوتية والسلبية والصفات الفعلية بصورة رائعة فأتم درسه لمخاطبيه في سبيل معرفة الله، فقد تحدث في بادئ الأمر عن أزلية الله تبارك وتعالى المقرونة بالأبدية فقال عليه السلام:

«وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيُّ أَوْ عَرْشٌ، أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ، أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٨

فالأمر الستة هذه إشارة إلى تكوين العالم، ذلك لأنها الأصل والأساس وما سواها تابع لها، على كل حال فإن هذه العبارة إشارة إلى أهم صفاته الجمالية سبحانه والتي تعود إليها سائر الصفات وهي عدم تناهي ذاته القدسيه من جميع الجهات، فلكل المخلوقات زمان وتاريخ لحدوثها سوى الذات القدسيه التي كانت منذ الأزل وستبقى إلى الأبد، ومن هنا أشار إثر ذلك إلى إحدى عشرة صفة من صفاته السلبيه والتي تنبع جميعها من ذاته القدسيه اللامتناهية.

فقال في العبارة الأولى والثانية:

«لَا يُدْرِكُ بِهِمْ، وَلَا يُقَدَّرُ بِهِمْ».

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن الفارق بين هاتين العبارتين هو أن الوهم هنا إشارة إلى القوة التي تدرك الجزئيات، والفهم إشارة إلى إدراك الكلليات، وهنالك احتمال آخر هو أن الوهم إشارة إلى قوة الحدس والفرض، والفهم إشارة إلى الإدراك واليقين، أي لا يمكن الوصول إليه تعالى عن طريق العلم ولا الحدس ولا الظن، أضف إلى ذلك أن العبارة الأولى إشارة إلى إدراك أصل وجوده، والعبارة الثانية إشارة إلى قياس ذاته القدسيه وبما أنها لامتناهية فهي لا تدرك بوهم ولا تقاس بعقل.

ثم قال في الصفتين السلبيتين الثالثة والرابعة:

«وَلَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ [٥٧]».

إن الإنسان مهما كان ذكياً وفضلاً إن تحدث إليه شخص أو عدده أشخاص بشأن موضوع مهم لا يسعه إدراك مطلب الآخرين، أو تعامله مع شخص يحول دونه والآخرين، ذلك لأنه وجود محدود ومتناه، أما الذات الإلهية القدسيه فلا يضيق بها التعامل مع جميع المخلوقات وفي آن واحد فهي تسمع أصواتهم وتقضى حاجاتهم وتعلم بتياتهم ولا يشغلها سائل عن آخر، وكذلك لو طرق جميع العباد باب الله وسألوه ما سألوا وضمن لهم الإجابة لما نقص شيء من ملكه وخزائنه، بل لما شكل

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٩

ذلك قطرة من بحر وجوده، كيف لا وهو الخلاق لما يشاء وفيضه غنى عن الحدود [٥٨].

ثم قال عليه السلام: في الصفتين الخامسة والسادسة:

«وَلَا يَنْظُرُ بَعَيْنٍ، وَلَا يُحَدُّ بِأَيْنٍ [٥٩].»

أجل! إنه يرى كل شيء وكل مكان والعالم برمته حاضر عنده، مع ذلك ليس له عين ولا مكان، لأنه أسمى من الزمان والمكان والعوارض الجسمية.

ثم قال عليه السلام في الصفتين السابعة والثامنة:

«وَلَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ [٦٠]، وَلَا يُخْلَقُ

بِعَلَّاجٍ.»

ذكروا عدّة معانٍ لأزواج منها: جمع زوج مثل النظير والقرين والزوج والشبيه والمثيل والضد والتركيب، ولا مانع من جمع كل هذه المفاهيم في العبارة السابقة، أي أنّ الله منزّه عن كل هذه الأمور، والعبارة «لَا يُخْلَقُ بِعَلَّاجٍ»

إشارة إلى الناس وأشباههم إن أرادوا خلق شيء - أو بتعبير أدق - إن أرادوا تركيب هيئة من أشياء إنما يستعينون ببعض الوسائل التي قد تكون بسيطة وأخرى صعبة، والمخلوق الوحيد الذي لا يحتاج إلى أيّة وسائل وأدوات هو الحق سبحانه وتعالى [٦١]، بل أبعد من ذلك كما قال القرآن الكريم: «أَنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [٦٢].

ثم قال في الصفتين التاسعة والعاشر من صفاته السلبية سبحانه:

«وَلَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ.»

إننا نعلم بأنّ دائرة حواس الإنسان هي الأجسام المادية، وعليه فالذات القدسيّة

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٠

التي تفوق عالم المادة لا تدرك إلا بالعقل والفكر، ويخطئ أولئك الذين يعتقدون بإمكانية رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة بهذه العين.

العبارة:

«لَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ»

تشير إلى أصل كلّى بشأن صفات الله تعالى في عدم إمكانية مقارنة هذه الصفات بصفات المخلوق فإنّ ذلك ينتهي إلى الضلالة، وهذا المعنى ورد في الخطبة الأولى من نهج البلاغة:

«وَكَمَالُ الْأَخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ.»

وقال أخيراً في بيان آخر الصفات:

«الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيمًا؛ بِلَا جَوَارِحٍ وَلَا أَدْوَاتٍ، وَلَا نُطْقٍ وَلَا لَهَوَاتٍ [٦٣].»

بما أنه نقل في السابق مختلف الصفات وأثبتها لله تعالى بأكمل وجه، فقد خاض هنا في مسألة تكلم الله سبحانه وتعالى وأوضح أنّ الله كَلَّمَ موسى عليه السلام ولكن ليس على غرار الناس الذين يتكلمون بواسطة اللسان والفم والأمواج الصوتية وأداء الحروف، بل يخلق الأمواج الصوتية ليتحدّث بواسطتها مع موسى عليه السلام، فكان موسى يسمع الكلام من ست جهات وهذا من عظمة آيات الله دون الحاجة إلى الجوارح والأعضاء الصوتية، وظاهر كلام الإمام عليه السلام أنّ عظمة آيات الله هو سماع كلامه سبحانه من الجهات الست، والشاهد على ذلك قوله عليه السلام:

«بِلَا جَوَارِحٍ وَلَا أَدْوَاتٍ، وَلَا نُطْقٍ وَلَا لَهَوَاتٍ.»

الاحتمال الآخر الذي ذكره شراح نهج البلاغة بهذا الشأن أنّ المراد من عظيم آياته المعجزات التسع التي حبي بها موسى بن عمران

[٦٤]، ولكن يبدو هذا الاحتمال بعيداً ولا ينسجم مع سياق كلام الإمام عليه السلام فهو لا يخلو من تكلف ومخالفة الظاهر،

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٣١

ويحتمل أن يكون المراد معجزتي العصا واليد البيضاء التي اقترنت بتكليم موسى عليه السلام.

على كل حال فلا- يصح إطلاق صفة الناطق أو اللافظ على الله تبارك وتعالى، هذين اللفظين يشيران إلى حركة اللسان ومخارج الحروف والأمواج الصوتية التي ينتزعه عنها الله تبارك وتعالى، بينما يصح إطلاق لفظ المتكلم على الله لأنه يوجد الكلام ويخلق الأمواج الصوتية في ست جهات كي لا يتصور موسى والآخرون أن الله يحويه مكان.

ثم خاض الإمام عليه السلام في مطلبين آخرين بهدف إكمال هذه الصفات وإثبات عجز الفكر البشري عن تبيانه لحقيقة الله تبارك وتعالى فقال في الأولى

«بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَتَيْهَا الْمُتَكَلِّفُ [٦٥] لَوْصِفِ رَبِّكَ، فَصِفِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِي حُجْرَاتِ الْقُدْسِ مُرْجِحِينَ [٦٦]، مُتَوَلِّهِ [٦٧] عَقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ».

إشارة إلى أن الإنسان الذي يعجز عن بيان صفات ملائكة الله المقربين ولا يسعه إدراك حقيقة وجودها وحقيقتها صفاتها، فكيف يتوقع إدراك صفات الخالق ويستوعب في حيزه الفكرية صفاته الجمالية والجلالية، مع العلم أن الملائكة الذين نعجز عن بيان صفاتهم يعيشون حالة الحيرة ضمن دائرتهم.

ثم خاض عليه السلام في النقطة الثانية التي تعدد دليلاً عقلياً واضحاً فقال:

«فَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُوهَيْتَاتِ وَالْأَذْوَاتِ، وَمَنْ يَنْقُضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ».

ثم اختتم هذا القسم باستنتاج واضح فقال عليه السلام:

«فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ».

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٣٢

وقد ركز شراح نهج البلاغة في تفسيرهم لهذه العبارة على معنى مطابق؛ فقالوا:

المراد القضاء على ظلمة الليل بضياء النهار وجمع ضياء النهار بظلمة الليل وجعل الظلمة المقرونة بالسكون والهدوء تعم كل مكان، بينما أخذ البعض الآخر المعنى الكنائي، فقال: إن المراد من الظلمات الأخلاق القبيحة التي تزول من روح الإنسان بنور معرفة الله، وبالمقابل فإن الأفراد الذين يعيشون ظلمة الجهل وعدم معرفة الله إنما تزول عن وجودهم أنوار الفضيلة والأخلاق الإنسانية.

نعم، ليست هنالك من حاجة للتفسير الكنائي استناداً إلى إمكانيّة التفسير على ضوء المعنى المقارن وعدم وجود القرينة على المعنى الكنائي وإن أمكن الجمع بين المعنيين.

تأملان

١. سرّ صعوبة معرفة صفات الله

ذكرنا كراراً أن طريق معرفة الله صعب بنفس الدرجة التي يتضح فيها السلوك إليه والتعرف عليه، وبعبارة أخرى فإن العلم بوجود الله عن طريق تدبر أسرار الخلق في الأرض والسماء والوقوف على عجائب الخلق أمر في غاية الصعوبة، فكل إنسان مهما كان لديه من علم وشعور يرى آثار علمه وقدرته وعظمته تعالى في كل مكان وفي كل شيء، ولكن يستحيل عليه فهم كنه ذاته وصفاته، ذلك لأنه

كما ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة أننا نعاني من القياس المضل بهذا الشأن، فليس لنا حظ سوى معرفة الصفات بواسطة الوسائل والأدوات والمقرونة بالزمان والمكان، فكان من الطبيعي أن يتعذر علينا إدراك ما يفوق الزمان والمكان والأدوات واللامتناهي من حيث الوجود والصفات، أو بتعبير: «ما تُراب وربُّ الأرباب».

إننا لنعجز عن إدراك صفات بعض المخلوقات الأسمى كالملائكة المقربين - كما أشار إلى ذلك الإمام عليه السلام في الخطبة - فضلاً عن إدراك صفات خالقها، وعلى هذا

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٣

الأساس أمرنا بالاكْتفاء بالعلم الإجمالي في مرحلة إدراك كنه الذات والصفات، وأن لا نسعى للوصول للعلم التفصيلي فهو خارج عن طاقتنا، على سبيل المثال إننا نعلم أن الله عالم بكل شيء وقادر على كل شيء، ولكن هل علمه عن طريق الصور الذهنية كالذي عليه الأمر بالنسبة للإنسان؟ طبعاً لا! ولكن كيف ذلك، حقاً إننا لا نعلم وهذه هي الحقيقة التي أشار إليها الإمام عليه السلام كرراً في خطب نهج البلاغة ولا سيما في الخطبة ٩١ المعروفة بخطبة الأشباح، كما حذرنا سائر أئمة الهدى عليهم السلام من سلوك هذا الوادي وقد نقل المرحوم الكليني في الكافي والصدوق في كتاب التوحيد بعض نماذج ذلك.

يذكر أن عبد الملك بن أعين أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام كتب له رسالة أن طائفة في العراق يصفون الله بالأوصاف الجسمية فطلب منه بيان المذهب الحق في التوحيد فكتب الإمام عليه السلام:

«سَأَلْتُ عَنِ التَّوْحِيدِ رَحِمَكَ اللَّهُ، فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، وَأَنَّهُ أَسْمَى مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي يَشْبَهُ بِهَا مَخْلُوقَاتِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَذْهَبَ الصَّحِيحَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَتَزَهُهُ عَنِ الشَّبِيهِ» [٦٨]

(إشارة إلى أنه في باب صفات الله أن لا نشبّه بالمخلوقات وأن لا نعتقد بالعدم بصورة كليّة بالاكْتفاء بالمعرفة الإجمالية).

٢. العرش والكرسي

قيل الكثير في العرش والكرسي، وقد أسهبنا في شرح العرش وحملته في الخطبة الأولى من نهج البلاغة [٦٩].

تكررت مفردة العرش في القرآن الكريم ٢٠ مرة، وإن لم تكن جميعها متعلقة بالعرش الإلهي، كما ذكرت مفردة الكرسي مرتان تتعلق إحداهما فقط بكرسي الله

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٤

كما وردت عبارة «العرش» في نهج البلاغة سبع مرّات والكرسي مرّة واحدة في هذه الخطبة، ورغم أن العرش يعني المسند المعهود والأريكة التي ينصبها السلاطين ويجلسون عليها في الأعياد والمناسبات الرسمية، ويعني الكرسي الأريكة القصيرة الدعامة والتي يجلسون عليها في الأيام الاعتيادية، ولكن قطعاً ما ورد في القرآن ونهج البلاغة والروايات بشأن العرش والكرسي ليس المراد منه هذا المعنى وإنما هي كناية عن أمور أخرى.

فقد اعتبر البعض العرش إشارة إلى مجموع عالم الوجود، بينما عدّه البعض الآخر علم الله تعالى، وذهبت طائفة ثالثة إلى أن المراد به صفات الجمال والجلال، كما فسّروا الكرسي بهذا المعنى أيضاً، وهناك من اعتبر الكرسي إشارة إلى تدبير الأمور الجزئية للعالم والعرش بمعنى التدبير الكلي والأحدي والذي يفرز جميع التدبيرات الجزئية، ولكن كما أشرنا سابقاً فإن ما يفهم من القرآن الكريم أن أحد معاني الكرسي على الأقل مجموعة السماوات والأرض وعالم المادة أو الحاكمية عليه، والعرش إشارة إلى عالم الأرواح والملائكة وعالم ما وراء المادة أو الحاكمية عليها، ذلك أن القرآن الكريم قال في آية الكرسي: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ» [٧٠] ومن الطبيعي أن العرش أسمى وأرفع من الكرسي، طبعاً ما ذكرناه هو أحد التفاسير الواضحة للعرش والكرسي، وهناك بعض التفاسير الأخرى كما صرحت بها الروايات [٧١].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٥

القسم الخامس

إشارة

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمْ الرِّيَاشَ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ؛ فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُبُلًا، أَوْلَدَفَعَ الْمَوْتَ سَبِيلًا، لَكَانَ ذَلِكَ سُبُلِيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي سُبِّحَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالنَّاسِ، مَعَ الثُّبُورَةِ وَعَظِيمِ الرَّزْفَةِ. فَلَمَّا اسْتَوَفَى طُعْمَتَهُ، وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قَبِيئَةُ الْفَنَاءِ بِبَيْتِ الْمَوْتِ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، وَالْمَسَاكِينُ مُعْطَلَةً، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ. وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً!

أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ! أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وَأَطْفَأُوا سُنَنَ الْمُؤْمِلِينَ، وَأَخْيَرُوا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ! أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُبُوشِ، وَهَزَمُوا بِالْأُلُوفِ، وَعَشَكَرُوا الْعَسَاكِرَ، وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ!

الشرح والتفسير: أين الفراعنة والعمالقة؟

خاض الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة بعد الأبحاث المرتبطة بصفات الجمال والجلال وعظمته عالم الوجود بالأبعاد العمليّة، ذلك لأن الأعمال الصالحة إنما تفرزها العقيدة الصالحة، فقد دعى الإمام عليه السلام الجميع للتقوى إزاء تلك النعم التي أفاضها تعالى على عباده فقال عليه السلام:

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمْ الرِّيَاشَ [٧٢]، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٦

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى نعمتين عظيمتين تعدان مصدراً لنعم جمة أخرى؛ النعمة الأولى أنواع الثياب التي تحفظ البدن من الحرارة والبرودة ومختلف المخاطر، وتضفي على الإنسان الوقار والهيبة والاحترام وتمييزه عن الحيوانات. والنعمة الأخرى المعاش، أي أنواع الرزق التي يحتاجها الإنسان في حياته، وللمعاش من مادة معيشة مفهوم واسع يشمل الطعام والماء والهواء والدواء والسكن، وجميع مواهب الحياة ولا يبدو صحيحاً ما تصوره البعض من أنه يقتصر على الماء والغذاء، ورغم أن هذا المفهوم عام إلا أنه يشمل أنواع الألبسة الفاخرة، ولكن ممكن ذكر ذلك بالخصوص بسبب أهميته الفائقة في حياة الإنسان. وبما أن حب الدنيا رأس كل خطيئة فقد خاض الإمام عليه السلام في تقلب أحوال الدنيا وزوالها ثم ركز على مصداق واضح فقال عليه السلام:

«فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُبُلًا، أَوْ لِدَفَعَ الْمَوْتَ سَبِيلًا، لَكَانَ ذَلِكَ سُبُلِيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي سُبِّحَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالنَّاسِ، مَعَ الثُّبُورَةِ وَعَظِيمِ الرَّزْفَةِ [٧٣]».

نعم فسلیمان عليه السلام مع ما كان له من جلال وجبروت وقدرة وعزة وكر وفر لم يستطع الحيلولة دون الموت ليغادر الدنيا في الأجل المعين دون أدنى تأخير أو تريث، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«فَلَمَّا اسْتَوَفَى طُعْمَتَهُ، وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قَبِيئَةُ [٧٤] الْفَنَاءِ بِبَيْتِ [٧٥] الْمَوْتِ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، وَالْمَسَاكِينُ مُعْطَلَةً، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ».

يا له من تشبيه رائع! فقد شبه الإمام عليه السلام قانون الفناء بالنبال التي تحمل الموت! وقد صوبت هذه النبال نحو الجميع لنتظر آخر لقمة طعام يتناولونها وآخر دقيقة عمر يقضونها لتصوب نحوهم سهام الموت فتصيب أهدافها، سواء كان هذا الهدف

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٧

نملة ضعيفة أو سليمان الذي سخرت له جنود الإنس والجن والوحش والطيور، والعجيب أن قانون الموت والفناء من القوانين التي لا تعرف من معنى للاستثناء، فهو يطال الصالحين والسيئين والأتقياء والأشقياء والأقوياء والضعفاء دون أن يرحم أحداً أو يمهله مدة: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» [٧٦] وسنورد بحثاً مهماً في التأملات بشأن كيفية موت سليمان عليه السلام.

ثم خالص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً! أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَيْنَ الْعَمَالِقَةُ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ! أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وَأَطْفَأُوا سُنْنَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَحْيَوْا سُنْنَ الْجَبَّارِينَ! أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُبُوشِ، وَهَزَمُوا [٧٧] بِاللُّؤْفِ، وَعَشَكُرُوا الْعَسَاكِرَ، وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ!».

فالإمام عليه السلام في هذه العبارات العميقة المعنى وعقب إشارته للاعتبار بموت سليمان عليه السلام يسلط الضوء على تاريخ البشرية السالفة فيطرق إلى ذوى النفوذ والقدرة الذين حكموا البلاد بقبضتهم الفولاذية آنذاك ولم يبق منهم اليوم سوى حفنة من التراب مركزاً على طائفة معينة منهم فقد أشار بادئ الأمر إلى العمالق الذين ينحدرون من العملاق أحد أحفاد نبي الله نوح عليه السلام ممن كانت لهم أجساد قوية وضخمة وقد حكموا البلاد لسنين متمادية.

ثم أشار إلى الفراعنة أى ملوك مصر الذين كانوا من أقوى ملوك التاريخ، بينما تطرق في المرحلة الثالثة إلى أصحاب الرس (نهر الرس أو الأبار المليئة بالماء التي كانت في بعض مناطق إيران)، وهم أولئك الذين وقفوا بوجه الأنبياء وقتلهم وأطفأوا سنن الله وأحيا سنن الظلمة.

وأشار في المرحلة الأخيرة بصورة كلية إلى الملوك المتجبرين السابقين كافة

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٨

الذين كانوا يمتلكون العدة والعدد وشيدوا المدن الجميلة والرائعة، ولكن لم تكن عاقبتهم سوى الركوع للموت ومغادرة العروش المذهبة والاكتفاء بحفرة صغيرة في باطن الأرض.

تأملات

١. شوكة سليمان عليه السلام وموته

خلافاً للتوراة المعاصرة التي تصور سليمان عليه السلام كملك جبار وصانع للمعابد الوثنية [٧٨] يعتبره القرآن الكريم من الأنبياء العظام ونموذجاً للقدرة والحاكمة الاستثنائية، وقد اخترنت سيرته العديد من الدروس والعبر للجميع فالقرآن الكريم يصرح بأن الله سبحانه وتعالى أفاض عليه العديد من النعم فسخر له الريح التي تنقله من مكان إلى آخر وسخر له الإنس والجن وأفاض عليه العلم الجم حتى علمه منطق الطير وزوده بالعديد من الجنود والعمال، مع ذلك كان موته عبرة ودرسا، جاء في بعض الروايات: أن سليمان عليه السلام قال ذات يوم لأصحابه:

«إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَهَبَ لِي مُلْكًا عَظِيمًا وَمَعَ جَمِيعِ مَا أُوتِيتُ مِنَ الْمَلِكِ مَا تَمَّ لِي سُيُورَ يَوْمِ اللَّيْلِ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَدْخَلَ قَصْرِي فِي غَدٍ فَأَصْعِدُ أَعْلَاهُ وَأَنْظُرُ إِلَى مَمَالِكِي فَلَا تَأْذُنُوا لِأَحَدٍ بِالْدُّخُولِ عَلَيَّ»

فلما كان من الغد أخذ عصاه بيده وصعد إلى أعلى موضع من قصره ووقف متكئاً على العصا ينظر إلى ممالكه مسروراً بما أوتى فرحاً بما أعطى، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه واللباس قد خرج عليه من بعض زوايا قصره فقال له سليمان:

«مَنْ أَدْخَلَكَ إِلَى هَذَا الْقَصْرِ وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَخْلُو فِيهِ الْيَوْمَ فَيَاذَنْ مَنْ دَخَلْتَ»

فقال الشاب:

«أَدْخَلَنِي هَذَا الْقَصْرَ رَبُّهُ وَيَاذَنِهِ دَخَلْتُ»

فقال:

«رَبُّهُ أَحَقُّ بِهِ مِنِّي فَمَنْ أَنْتُ؟»

قال:

«أَنَا مَلِكُ الْمَوْتِ»

قال:

«وَفِيمَا جِئْتُ»

قال:

«لَأَقْبِضَ رُوحَكَ»

قال سليمان:

«إِمضْ لِمَا أَمَرْتُ بِهِ فَهَذَا يَوْمٌ سُرورِي وَأَبَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ لِي

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٩

سُرور دُونَ لِقَائِهِ»

، فقبض ملك الموت روحه وهو متكئاً على عصاه (ولم يمنحه إذن الجلوس) وهو ميت ما شاء الله والناس ينظرون إليه وهم يقدرون أنه حتى فافتتوا فيه واختلفوا فمنهم من قال إن سليمان عليه السلام قد بقي متكئاً على عصاه هذه الأيام الكثيرة ولم يتعب ولم ينم ولم يأكل ولم يشرب، إنه لرَبُّنا الذي يجب علينا أن نعبد، وقال قوم إن سليمان عليه السلام لساحر وأنه يرينا أنه واقف متكئ على عصاه يسحر أعيننا وليس كذلك، فقال المؤمنون: إن سليمان هو عبد الله ونبيه يدبر الله أمره بما شاء، فلما اختلفوا بعث الله الأرضة فدبت في عصاه فلمَّا أكلت جوفها انكسرت العصا وخرَّ سليمان عليه السلام على وجهه فعلموا جميعاً بموته [٧٩].

وكما أشار الإمام عليه السلام في الخطبة لما تمَّ عمر سليمان صوبت إليه أقواس المتيَّة وأصابه سهم الموت.

٢. من هم العمالقة؟

«عمالقة»:

جمع «عمالق» اسم شخص من أحفاد نوح وإليه تنسب قبيلة العمالقة وكان هؤلاء الأفراد أقوياء وأشداء ومقاتلين عاشوا في شمال الحجاز لألفي سنة قبل الميلاد حسب بعض المؤرخين، هجموا على مصر فاحتلوها وحكموها مدَّة، ولكن حمل عليهم المصريون لسبعة عشر قرن قبل الميلاد فعادوا إلى جزيرة العرب وأقاموا في اليمن والحجاز وسائر المناطق وشكلوا هناك بعض الدويلات ويرى بعض المفسرين أن الجبابرة الذين تحدَّث عنهم القرآن في قصَّة دخول موسى وبنى إسرائيل إلى بيت المقدس هم طائفة من أولئك العمالقة.

وأخيراً قضى عليهم يوشع حيث أمر بنى إسرائيل بأمر من موسى عليه السلام، وقد تساءل أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة قائلاً:

«أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ»

الذين

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٠

كانوا يتمتعون بقدرات هائلة وشكلوا الحكومات المقتدرة ليحكموها لعقود من الزمان، ثم زالوا من صفحة الوجود ولم يبق سوى اسمهم [٨٠].

٣. فراعنة مصر

كان ملك مصر يسمى (فرعون) وسلطان الروم (القيصر) وسلطان ايران (كسرى) ، ويُدعى فرعون مصر الذى عاصر نبي الله موسى عليه السلام رمسيس الثانى والذى عاصر نبي الله يوسف عليه السلام كان الريان بن الوليد، وقيل إن الفراعنة الذين حكموا مصر قبل الميلاد بلغوا ٣٢ فرعوناً، كان بعضهم من مصر والبعض الآخر من العمالقة والروم واليونانيين وبعض الايرانيين الذين أوفدوا من قبل بعض السلاطين لفتح مصر فحكموا البلاد ولم يبق لهم من اليوم أثر.

٤. أصحاب الرس

تعنى مفردة الرس فى الأصل (الأثر المختصر)، ويرى البعض أن الرس مختصر الأرس (نهر معروف فى شمال ايران) بينما يرى الأعم الأغلب أنها بئر ويعتقدون أن القوم الذين لم يبق منهم الآن إلا القليل كانوا مزارعين ولديهم عدّة آبار مليئة بالمياه فكانت أوضاعهم المعاشية جيدة، وهنالك خلاف بين المفسرين بشأن المكان الذى عاشوا فيه والنبي الذى أرسل إليهم، فالبعض يعتقد أنهم بقايا عاد وثمود، بينما يرى البعض الآخر أنهم عاشوا فى اليمامة وكان نبيهم يدعى حنظلة، ويرى آخرون أن نبيهم كان شعيب.

جاء فى كتاب عيون أخبار الرضا أن أمير المؤمنين على عليه السلام قال:

«إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا يَعْبُدُونَ شَجْرَةً صُنُوبِر يُقَالُ لَهَا شَاهِ دَرَخَتْ وَكَانَتْ لَهُمْ إِثْنَا عَشَرَ قَرِيَّةً عَلَى

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤١

شاطئ نهر يقال له أرس يُسمى إحداهن أبان والثانية أذر والثالثة دى والرابعة بهمن والخامسة اسفندار والسادسة فروردين والسابعة اردبيشت والثامنة خرداد والتاسعة تير والعاشره مُرداد والحادية عشرة شهر يور والثانية عشرة مهر، وكانوا يأتون بشياهٍ وبقر فيذبحونها للشجرة ويشعلون النيران بالخطب فإذا ارتفع دخان تلك الذبائح خروا للشجرة سجداً يبكون ويتضرعون إليها، ثم بعث الله عز وجل إليهم نبياً من بنى اسرائيل فلم يتبعوه فدعا الله قائلاً: أيبس شجرهم أجمع، أرىهم قد رتكت وسلطانك، فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كله فها لهم ذلك واجتمع رأيهم واتخذوا أنابيب طوال من رصاص واسعة الأفواه ثم أرسلوها فى قرار العين وأرسلوا فيها نبيهم حيناً حتى مات، فأرسل الله عليهم ريحاً عاصفاً، شديدة الحمرة؛ فأما لهم جميعاً» [٨١].

نعم، لقد رأت الدنيا الكثير من السلاطين والأقوام المنحرفة والجبابرة الظالمة، وقد طفح غبار النسيان لا على قبورهم فحسب بل على تاريخهم، وهذا أفضل سند ودليل على عدم وفاء الدنيا لأحد.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٣

القسم السادس

إشارة

ومنها: قَدْ لَبَسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدْبِهَا، مِنَ الْأَقْبَالِ عَلَيْهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغَ لَهَا؛ فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّةٌ الَّتِي يَطْلُبُهَا، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا، فَهُوَ مُعْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الْأَسْلَامَ، وَضَرَبَ بِعَسَائِبِ ذَنْبِهِ، وَأَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ، بَقِيَّةً مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَةً مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ.

الشرح والتفسير: خصائص ذلك الولي

ما ورد في هذا القسم يبدو ظاهراً عديم الإرتباط بالأقسام السابقة من الخطبة وسبب ذلك أن السيد الرضى لا ينقل جميع الخطبة في أغلب الأحيان، بل يختار قطوفاً منها، ويدل على ذلك ما صدر به هذه الخطبة بقوله «منها»

، وهذا ما أدى إلى نوع من الإبهام والغموض في هذا القسم وعودة الضمائر فيه ليقدم كل شارح ما يراه من احتمال بشأنها، لكننا نعتقد بوجود بعض القرائن لها هنا.

فقال عليه السلام:

«قَدْ لَبَسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا» [٨٢]، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدْبِهَا، مِنَ الْأَقْبَالِ عَلَيْهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغَ لَهَا.

هنالك عدّة احتمالات بشأن هذا الشخص الذى تدرع بالحكمة وأخذ بجميع آدابها ومنها أربعة احتمالات هي:

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٤

١. قال البعض: المراد به الإمام المهدي عليه السلام وغيبته ونهضته، وقد نسب ابن أبي الحديد هذا الراى إلى الإمامية ولم يقرّ به بادي الأمر، بينما أذعن أخيراً بأنه الشخص الذى سيولد فى آخر الزمان واسمه المهدي عليه السلام.

٢. قال الفلاسفة: هم نخبة من العرفاء يتواجدون بين الناس فى كل زمان.

٣. جاء عن بعض المتصوفة أن المراد أولياء الله وسالكي طريق الحق الذين يتواجدون على الأرض على الدوام.

٤. وترى المعتزلة أن المراد به العالم العدل والموحد من المؤمنين من الأفراد الذين يعيشون بين الناس، ولكن حين نسلط الضوء على هذه العبارات إلى آخر القسم سيّضح لدينا بما لا يقبل الشك أن المراد هو الإمام المهدي عليه السلام.

على كل حال فالعبارة:

«قَدْ لَبَسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا»

تشير إلى أنه حكيم وقد لبس جلباباً لحفض هذه الحكمة والمراد من ذلك طبعاً جلباب الورع والتقوى، كما ورد فى هذا الحديث الشريف:

«مَا أَخْلَصَ عَبْدُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً إِلَّا جَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ» [٨٣].

والعبارات اللاحقة:

«وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدْبِهَا...»

كلّها تشير إلى أنه حكيم، قد عمّت الحكمة والعلم كل كيانه وبها يدير شؤون من حوله.

ثم قال عليه السلام:

«فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّةٌ الَّتِي يَطْلُبُهَا، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا.»

وهذا الكلام تأكيد آخر على أن ذلك الولي ينطلق في مشروعه من الحكمة والعلم ليمارس قبل كل شيء خلق الثورة العلمية والثقافية، وينسجم هذا الكلام تماماً وما ورد في الروايات بشأن المهدي عليه السلام.

ومن ذلك ما روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«إِذَا قَامَ قَائِمُنَا وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْعِبَادِ فَجَمَعَ بِهَا عُقُولَهُمْ وَكَمَلَتْ بِهَا أَخْلَاقَهُمْ» [٨٤].

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٥

وواصل كلامه عليه السلام في بيان ميزة أخرى لذلك الولي فقال:

«فَهُوَ مُعْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ [٨٥] الْأَسْثَاءَ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ [٨٦] ذَنْبِهِ [٨٧]، وَأَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجَرَائِهِ [٨٨]».

حين تتخلف الناقة عن المشى فإنها تفتش الأرض بحيث يلتصق ذنبها بالأرض حتى تضع عليه أسفل عنقها وهذه دلالة على شدة التعب ويستفيد العرب من هذا الأمر بصفته كناية عن الضعف والعجز، وهذا الكلام إشارة واضحة أخرى إلى أحد صفات ذلك الولي الرباني في أن الإسلام والمسلمين يعيشون أقصى درجات الضعف في غيبته وتكالب عليهم الأعداء من كل حذب وصوب بغية القضاء على الإسلام وكسر شوكة المسلمين.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام:

«الْعِلْمُ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا فَجَمِيعُ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ حَرْفَانِ فَلَمْ يَعْرِفِ النَّاسُ حَتَّى الْيَوْمِ غَيْرَ الْحَرْفَيْنِ فَإِذَا قَامَ قَائِمُنَا أَخْرَجَ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ حَرْفًا فَبَثَّهَا فِي النَّاسِ وَضَمَّ إِلَيْهَا الْحَرْفَيْنِ حَتَّى يَبْثَّهَا سَبْعَةً وَعِشْرِينَ حَرْفًا» [٨٩].

(إشارة إلى أن الإمام المهدي عليه السلام يمارس ثورة ثقافية هائلة وسريعة بحيث يرقى بسطح العلم والمعرفة عشرة أضعاف ما كانت عليه).

ويختتم الإمام عليه السلام هذا القسم بمسألة واضحة بهذا الخصوص فيقول:

«بَقِيَّتُهُ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَتُهُ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ».

وكما يفهم من بيان هذه الصفات فإن مرجع الضمير في العبارات السابقة لا يعود

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٦

إلا إلى الإمام المهدي عليه السلام سيما من خلال هذه المفردات «بقية»، «بقية الله»، «الحجة»، «ال خليفة» الواضحة في نصوصنا الدينية.

تأمل

إشارات لنهضة الإمام المهدي عليه السلام

يستفاد من الإشارات الواضحة التي تضمنتها هذه الخطبة بشأن نهضة الإمام المهدي عليه السلام وخلافاً لما يتصوره الجهال فإن القاعدة الأصلية التي ينطلق منها الإمام عليه السلام إنما تستند إلى الثورة الثقافية والعلمية والفكرية، لا النهضة العسكرية التي تختزن إراقة الدماء، حيث يرتقى بالمستوى العلمي لدى الناس بحيث يمارس حكومته القائمة على أساس العدل والقسط، طبعاً سيواجه الإمام عليه السلام في بدايته مشروعه تلك الأقلية المتطرسة والمنحرفة التي تحاول إعاقة مشروعه مما يضطره لمعالجتها عسكرياً، ولكن يبقى همه محصوراً في طلب العلم والارتقاء بالمستوى العلمي لدى الأمة ولسان حاله وقاله على غرار سيرة جدّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا» [٩٠].

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٧

القسم السابع

إشارة

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكُمْ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الْأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَّهَتَهُمْ، وَأَدَيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدْبَيْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوْجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا، لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَامًا غَيْرِي يَطَّأُ بِكُمْ الطَّرِيقَ، وَيُرْشِدُكُمْ السَّبِيلَ؟

أَلَمْ إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِرًا، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادَ اللَّهِ الْأَخْيَارَ، وَبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لِيَبْقَى، بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْنَى. مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سَفَكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ بِصِفِّينَ أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءَ؟ يُسِغُونَ الْغُصَصَ وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ! قَدْ وَاللَّهِ لَقُوا اللَّهَ فَوَفَّاهُمْ أَجُورَهُمْ، وَأَحْلَهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ.

الشرح والتفسير: التذكير بما يلزم!

خاض الإمام عليه السلام في الوعظ والإرشاد والنصح المشوب بالتحذير فقال:
«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ بَنَيْتُ [٩١] لَكُمْ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الْأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَّهَتَهُمْ، وَأَدَيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدْبَيْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَحَدَوْتُكُمْ [٩٢] بِالزَّوْجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا [٩٣].»

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٨

تشير هذه العبارات إلى أن الإمام عليه السلام كان يستغل كل فرصة بغية هداية أهل الكوفة الذين عرفوا بالضعف والتشتت وقد مارس شتى الأعمال الثقافية بهذا الشأن حتى أفاض عليهم مختلف مواعد الأنبياء وإرشادات الأوصياء إلا أن المطر الرحمة الإلهية لم يجد له من سبيل في أرض قلوبهم السبخة، ثم تخلى عن الرفق والمرونة ليجابهم بشدة علمهم يعودون إلى أنفسهم ويعيشون الوحدة؛ ومرة أخرى لم تجد هذه المسامير من سبيل في تلك الأحجار الصلدة، ليتضح بجلاء أن لا نقص ولا عيب في الزعامة والقيادة، بل العيب كله في تلك الفئة الجاهلة الفاقدة للحمية.

كما تفيد هذه العبارات أن مساعي جميع الأنبياء والأوصياء لا تبدو مجدية مع هؤلاء القوم.
«لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَامًا غَيْرِي يَطَّأُ بِكُمْ الطَّرِيقَ، وَيُرْشِدُكُمْ السَّبِيلَ؟».

أى حين لا يتمكن زعيم مثلى من إعادةكم إلى جادة الصواب فسوف لن يكون هنالك قط من يسعه القيام بذلك.
والغريب أنه رغم حالة اليأس والقنوط التي تفرزها طبيعة تلك الفئة إلا أن الإمام عليه السلام لا يكف عن النصح والإرشاد، فيستعرض لهم طبيعة ما حولهم وما تحكمه من ظروف ويكشف لهم عن منزلة الشهادة في سبيل الله فيقول:

«أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِرًا.»

إشارة إلى اقبال جميع الفضائل على المجتمع الإنساني إبان بزوغ فجر الإسلام وشروق شمس النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، إلا أن هذه القيم والسنن الإلهية قد ولت ظهرها لهذا المجتمع وحلت محلها قبائح عصر الجاهلية التي طويت صفحتها عن المجتمع الإسلامي بفعل ظهور بنى أمية وسليلى عصر الجاهلية.

ثم ذكر عليه السلام مقدمه بهدف الاشارة بمقام الشهداء في سبيل الله وترسيخ ثقافة الجهاد والشهادة إزاء الطواغيت والظلمة فقال:

«وَأَزْمَعَ [٩٤] التَّرْحَالَ [٩٥] عِبَادَ اللَّهِ الْأَخْيَارَ،

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٤٩

وَبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لِيَبْقَىٰ بِكَثِيرٍ مِنَ الآخِرَةِ لَآيْفَنِي».

تشير هذه العبارة اللطيفة إلى أن أولئك الأخيار الذين فازوا بالشهادة وتقلدوا وسام الشرف بالجهاد في سبيل الله لم يجانبوا الضرر فحسب، بل مارسوا تجارة مربحة حيث باعوا القليل من متاع الدنيا الفاني بالكثير من متاع الآخرة الباقي، كما أن أولئك الذين وفقوا لجهاد أنفسهم ولم ينالوا الشهادة وولوا ظهورهم لزعرف الدنيا وزبرجها وأقبلوا على الآخرة ونعيمها هم أيضاً في مصاف عباد الله الأخيار.

ثم أكد الإمام عليه السلام ذلك بقوله:

«مَا صَرََّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سَفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ بِصِفِّينَ أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءَ؟ يُسَيِّغُونَ [٩٦] الْغُصَصَ وَيَشْرَبُونَ الرِّثْقَ! [٩٧]».

إشارة إلى أنهم ذهبوا واستراحوا لبقى اليوم ونشهد هذه الأوضاع المزريّة التي يصول ويجول فيها العدو بينما يكتفى الأصحاب الضعاف في الحق والفاقدو الإرادة بالفرج على هذا المشهد الذي يهز من الأعماق كل مؤمن غيور، والواقع أن الإمام عليه السلام يشير بهذه العبارات إلى جنایات معاوية وجند الشام وسكوت وضعف أهل الكوفة والعراق.

ثم بلغ كلام الإمام عليه السلام ذروته فقال:

«قَدْ وَاللَّهِ لَقُوا اللَّهَ فَوَفَّاهُمْ أَجُورَهُمْ، وَأَحْلَهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ».

أجل، فالأمر كما قال القرآن الكريم: «وَلَمَّا تَخَسَّبَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَهْوَاتًا بَلَّ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»، بل الموتى أولئك الذين استسلموا للذل وواصلوا حياتهم الماديّة التافهة في ظلّ رايه الطواغيت والظلمة، والحق أن الشهادة مدعاة للفخر، ويتضاعف هذا الفخر حين يكون في وسط اجواء فاسده وقدره وتنتهي إلى الخلاص من الطغمة المفسدة والمتجربة.

ولعل الرسالة التي اطلقها الإمام على عليه السلام من محراب عبادته حين شهادته بقوله:

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥٠

«فُرْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ»

لتختزن العديد من الدروس والعبر التي ينبغي أن يحتذى بها المؤمنون.

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥١

القسم الثامن

إشارة

أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضُوا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وَأَيْنَ ابْنُ النَّيْهَانِ؟ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟ وَأَيْنَ نَظْرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَمِيَّةِ، وَأُتْرِدَ بَرُّوْسِهِمْ إِلَى الْفَجْرَةِ!

قال: ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة الكريمة، فأطال البكاء، ثم قال عليه السلام: (أَوَّهَ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَّوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرَضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيُوا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ. دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ).

ثم نادى بأعلى صوته: الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ! أَلَا وَإِنِّي مُعْسِكِرٌ فِي يَوْمِي هَذَا؛ فَمَنْ أَرَادَ الرِّوَاحَ إِلَى اللَّهِ فَلْيَخْرُجْ!

الشرح والتفسير: النفير العام للجهاد

تغيّر خطاب الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة ليواصل خطبته بعبارات مليئة بالحزن ويذكر تلك التلة من الشهداء في صفين التي خلا مكانها الآن بين الأصحاب فقال:

«أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضُوا عَلَى الْحَقِّ؟».

ثم ركر عليه السلام على الطليعة منهم في الاثرة والشهادة والعلم والمعرفة فقال:

«أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وَأَيْنَ ابْنُ النَّيْهَانِ؟»

ثم ذكرهم بصورة كلية وعامة فقال:

«وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟ وَأَيْنَ نَظْرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَيْتَةِ، وَأُبْرِدَ [٩٨]

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٢

بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجْرَةِ!».

إشارة إلى عشرات الأفراد من أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذين لزموا علياً عليه السلام ونالوا الشهادة في صفين وقام جناء جيش معاوية بحز رؤوسهم وارسالها إلى طاغيتهم معاوية [٩٩].

«قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ يَدَيْهِ عَلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ، فَأَطَالَ الْبُكَاءَ»

، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«أَوْه [١٠٠] عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَّوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْقُرْصَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوْا

السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ. دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ».

فهذه الصفات الست تنفيذ عظمة مقامهم في العمل والعلم في حفظ الدين والجهاد وطاعة الإمام والزعيم الرباني، فقد كانوا على بصيرة بالقرآن فيطبقونه على تفاصيل حياتهم كما كانوا على علم بالواجبات فيعملون بها ويميتون البدعة ويحيون السنة كما كانوا من أهل الإيثار والتضحية حين الجهاد.

في الواقع أن الإمام عليه السلام أراد أن يقدم لأصحابه أسوة حسنة ويقول إن المؤمن الواقعي والمسلم الحقيقي وصاحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من يتصف بهذه الخصائص، أملاً في أن تفعل هذه الكلمات الحماسية فعلها في تلك القلوب الباهتة فيهب أصحابها لجهاد الظلمة والطواغيت.

«ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ! أَلَا وَإِنِّي مُعَسِّكِرٌ فِي يَوْمِي هَذَا؛ فَمَنْ أَرَادَ الرِّوَاحَ إِلَى اللَّهِ فَلْيَخْرُجْ!»

. وهكذا دعا الإمام عليه السلام القوم للجهاد بعد تلك المواعظ البالغة، فأقبل العديد منهم وشعر بخطورة المسؤولية فتأهب للجهاد.

«قَالَ نَوْفٌ: وَعَقَدَ لِلْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامِ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ، وَلِقَيْسِ بْنِ سَعْدٍ فِي عَشْرَةِ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٣

آلَافٍ، وَلِابِي أَيُّوبِ الْأَنْصَارِيِّ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ، وَلِعَيْرِهِمْ عَلَى أَعْدَادٍ أُخْرَى، وَهُوَ يُرِيدُ الرَّجْعَةَ إِلَى صِفَيْنَ، فَمَا دَارَتْ الْجُمُعَةُ حَتَّى ضَرَبَهُ الْمَلْعُونُ ابْنُ مَلْجَمٍ لَعْنَهُ اللَّهُ، فَتَرَاجَعَتِ الْعَسَاكِرُ، فَكُنَّا كَأَغْنَامٍ فَقَدَتْ رَاعِيَهَا، تَخْتِطِفُهَا الذِّئَابُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ!».

وعلى هذا الأساس فرح ذئاب الشام ولصوص جيش معاوية بتخلصهم من ذلك الخطر العظيم، بينما عاش المؤمنون حالة من الأسى

والهم، جاء في الرواية أن الشام لما بلغها خبر قتل أمير المؤمنين عليه السلام علم بذلك عمرو بن العاص فبشر معاوية قائلاً:

«إِنَّ الْأَسَدَ الْمُفْرِشَ ذِرَاعِيهِ بِالْعِرَاقِ لَاقَى شُعُوبَهُ» [١٠١].

صحب الإمام عليه السلام الميامين

إشارة

ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بعض الأصحاب الأوفياء الذين كانوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله الأشداء، ثم فووا بما عاهدوا عليه الإمام عليه السلام حتى نالوا الشهادة في صفين، وكما ذكر سابقاً وجاء في الرواية أنّ ٣٠٠ من صحابة النبي صلى الله عليه وآله الذين بايعوه في بيعه الرضوان وكان منهم ممن شهد بدر قد وقفوا إلى جانب علي في صفين فقتل منهم ٦٣ وقد ذكر الإمام عليه السلام ثلاثة منهم، ونذكر هنا نبذة عن كلّ واحد منهم ثم نخوض في سيرة قيس بن سعد وابي أيوب الأنصاري الذين ورد إسماهما في آخر الخطبة بصفتها من امراء جيش الإمام عليه السلام.

١. عمّار بن ياسر

كنيته أبو اليقظان، أسلم في مكة وتحمل أشدّ العذاب، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنّ ياسر حين قدم إلى مكة تزوج من جارية هي سمية التي ولدت له عمّاراً الذي عذب على يد المشركين وأجبر على الطعن بالإسلام، فأتى النبي صلى الله عليه وآله

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٤

بأكياف نزلت الآية الشريفة: «الْأَمَّنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» [١٠٢] التي تدلّ على التقية في هذه الموارد، وأجمع المفسرون على أنّ الآية نزلت في عمّار، وكان ممن هاجر الحبشة وصلى إلى القبلتين ومن أوائل المهاجرين الذين شهدوا بدرًا وجميع الغزوات الإسلامية.

قال فيه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«أَنَّهُ مَلِيٌّ إِيْمَانًا إِلَى أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ»

؛ وقال أيضاً:

«مَنْ أَبْغَضَ عَمَّارًا أَبْغَضَهُ اللَّهُ»

؛ وقال صلى الله عليه وآله:

«تَشْتَأِقُ الْجَنَّةُ إِلَى أَرْبَعَةٍ: عَلِيٍّ وَعَمَّارٍ وَسَلْمَانَ وَأَبِي ذَرٍّ».

وأضاف ابن عبد البر تواتر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«تَقْتُلُ عَمَّارًا الْفَيْئَةُ الْبَاغِيَّةُ».

وعده ابن عبد البر من أصحاب الأخبار، وقد قتل يوم صفين وهذا أعظم دليل على بطلان معاوية، وروى ابن عبد البر عن أبي عبد الرحمن السلمانية قال: شهدنا صفين فرأيت عمار بن ياسر ومعه أصحاب محمد وكأنه رأيتهم وسمعت عمار يقول لهاشم ابن عقبه (عتبة) احمل ياهاشم فالجئة في ظلال السيوف، اليوم نلقى محمداً وأصحابه فإتما نحن على الحق وهم على الباطل. يقول عبد الله ابن سلمة: نظرت عمّار في صفين وقد أصابه العطش فالتمس ماء، فأتوه بطرف من اللبن فقال اليوم التقى أصحابي فقد قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ آخِرَ شَرَابِكَ مِنَ الدُّنْيَا صَبَاحًا مِنْ لَبَنٍ» [١٠٣].

جدير ذكره أنه لما بلغ معاوية خبر قتل مالك الأشتر - بعد صفين - خطب الناس فقال: «أما بعد فإنه كانت لعلي يمينان فقطعت إحداهما بصفين - يعني عمّار بن ياسر، وقطعت الأخرى اليوم - يعني الأشتر» [١٠٤].

٢. ابن التيهان

هو أبو الهيثم بن التيهان واسمه مالك من قبيلة الأنصار، وهو أحد النقباء ليلة

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٥

العقبة وممن شهد بدرًا، وقيل إنّه أدرك صفين وقتل فيها، ويؤيد ذلك هذه الخطبة، وذكر ابن أبي الحديد أسماء طائفة من علماء أهل السنّة الذين قالوا بقتله في صفين [١٠٥].

٣. ذو الشهادتين

هو خزيمه بن ثابت الأنصاري وكنيته أبو عمّار وممن التحق بالنبي صلى الله عليه وآله في المدينة وقد وروى ابن الأثير في أسد الغابة سبب لقبه ذو الشهادتين فقال: إنّ النبي صلى الله عليه وآله اشترى فرساً من سواء بن قيس المحاربي، فوجد سواء، فشهد خزيمه بن ثابت للنبي فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما حملك على الشهادة ولم تكن معنا حاضرًا»

، فقال: صدقتك بما جئت به وعلمت أنّك لا تقول إلّا حقًا، فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مَنْ شَهِدَ لَهُ خُزَيْمَةُ أَوْ عَلَيْهِ فَحَسْبُهُ» [١٠٦]

، فجعل رسول الله شهادة خزيمه بشهادتين (طبعاً هذا استثناء وذلك بسبب إيمان خزيمه ولعل ذلك كون شهادته تدعو إلى علم القاضي). كان ممن شهد الغزوات الإسلامية، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنّه شهد صفين فقاتل فيها حتى قتل [١٠٧].

٤. قيس بن سعد بن عباد

كنيته أبو الفضل. كان رجلاً شجاعاً وجواداً، وأبوه سعد رئيس الخزرج، وكان قيس من كبار شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وهو معروف بمحبته وولائه للإمام وشهد معه حروبه كلّها وروى انس بن مالك أنّ قيس بن سعد كان رئيس حاجبي النبي صلى الله عليه وآله (وكان ثقة في كلّ الأمور) وذكر ابن شهاب: أنّ قيس بن سعد كان أحد الساسة العرب الخمسة الذين يحلّون المشاكل والفتن [١٠٨].

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٦

٥. أبو أيوب الأنصاري

هو خالد بن زيد ويعرف عادة بالكنية، كان ممن صحب رسول الله صلى الله عليه وآله وشهد العقبة وشهد بدرًا، وعليه نزل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين قدم المدينة ولم يزل عنده حتى بنى مسجده ومسكنه، شهد مع علي عليه السلام الجمل وصفين وكان في المقدمة يوم النهروان، عاش عشر سنوات بعد علي عليه السلام وتوفي سنة ٥٠ للهجرة [١٠٩].

ويتّضح ممّا مرّ معنا سابقاً هذه النقطة التاريخية من هم الأفراد الذي قاتلوا مع علي عليه السلام قاسطى الشام وسائر البغاة؟ ومن هم أولئك الأفراد الذين نالوا الشهادة مع علي عليه السلام ومن هم قادة جيشه؟ ولو لم يكن هناك من دليل على أحقيته عليه السلام وبطلان خصمه سوى هذا لكفى.

نقحات الولاية؛ ج ٧؛ ص ٥٦

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٧

الخطبة ١٨٣

إشارة

فِي قُدْرَةِ اللَّهِ وَفِي فَضْلِ الْقُرْآنِ وَفِي الْوَصِيَّةِ بِالتَّقْوَى [١١٠]

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة من الخطب الغاية في الفصاحة والبلاغة والتي تتضمن عدّة مباحث تبدو غير متصلة الأقسام، وذلك بسبب أسلوب السيد الرضى رحمه الله المعهود في الاختيار. على كل حال تتعرض الخطبة لخمسة مواضع مهمّة هي:

١. جانب من صفات الله الجلالية والجمالية بعبارات عميقة المعنى.
٢. التعريف بالقرآن الكريم وبيان بعض خصائصه المهمّة.
٣. الوصية بالورع والتقوى وشرح آثارها وبركاتها.
٤. ذكر للقيامة و نار جهنم الأليمة وعجز الإنسان عن تحملها.
- نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٨
٥. بيان سبل النجاة من نار جهنم والاستفادة من إمكانات الدنيا في هذا السبيل وأهمها إغاثة المحرومين والمساكين.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٩

القسم الأول

إشارة

الْحَدِيدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيِهِ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصِبِهِ. خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الْأَرْيَابَ بِعِزَّتِهِ، وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ؛ وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالنَّاسِ رُسُلَهُ، لِيُكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غَطَائِهَا، وَلِيَحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيُضَرِّوهُمْ عُيُوبَهَا، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِحِهَا وَأَسْقَامِهَا، وَحَلَالِهَا وَحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعَصَاةِ مِنْ جَنَّةِ نَارٍ، وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ. أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلًا، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا.

الشرح والتفسير: دور الأنبياء عليهم السلام في هداية الأمم

جدير ذكره أن «ابن أبي الحديد المعتزلي» لما بلغ هذه الخطبة تأثر جداً بفصاحتها وبلاغتها. ثم خاض في مقارنتها مع أحد أبرز وأفضل الخطب التي خطبها الكاتب العربي المعروف (ابن أبي الشحماء العسقلاني) فأشار إلى ضعف تلك الخطبة إزاء خطبة أمير المؤمنين عليه السلام، واستنتج أن مثل هذه العبارات لا تصدر إلا من على عليه السلام وعرض بالذم لأولئك المتعصين الذي يحاولون عبثاً نسب خطب نهج البلاغة لغير الإمام عليه السلام ويراهم لا يتبعون إلا أهواءهم ورجباتهم [١١١].

على كل حال استهل الإمام عليه السلام خطبته قائلاً:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ،

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٦٠

وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ [١١٢]. خَلَقَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ».

لا شك في أن الرؤية والمشاهدة تختص بالأجسام، والله أسمى من الجسمي، والتعب والإرهاق أثر القيام بالأعمال من شؤون الأفراد ذوى القدرة المحدودة، وليس لها من سبيل إلى من كانت جميع صفاته لامتناهية في خلقه لما يشاء، فخلق هذا العالم أهون عليه من رؤيتنا لبعضنا خلال لحظة، كما ليس لمقتدر من قدرة أمام الله، فهو القادر على فناء كل شيء بعاصفه أو صاعقه أو زلزلة أو سيل جارف.

العبارة:

«وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ»

إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة أن عظمة الإنسان في جوده وكرمه فكلما كانت كرمه أكبر كان عظمته كذلك، ولكن بما أن جميع نعم الأرض والسماء من الله الذى بسط مائدته لتشمل الجميع فهو أعظم من كل عظيم.

ثم أشار إلى جانب من صفاته سبحانه في خلق الإنسان والهدف من هذه الخلق وطرق الأنبياء عليهم السلام في التربية والتعليم فقال:

«وَهُوَ الَّذِي أَشْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ رُسُلَهُ».

ثم تطرق إلى الهدف من بعث الأنبياء ليوجزها في عدة أمور فقال:

«لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غَطَائِهَا، وَلِيَحْذَرُواهُمْ مِنْ ضَرَائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَهَا».

أجل، فزخارف الدنيا ومتاعها غفلة وعيشها نكد ومالها ومقامها ضلالة، ومن هنا كان أحد المبادئ الأساسية للأنبياء تحذيراتهم المتكررة للإنسان بغيه عدم الغفلة عن الهدف الأساسى للخلق وعدم الاستغراق في هذه الدنيا واتخاذها قنطرة إلى الآخرة وعدم الركون إلى الإقامة فيها فهى ليست إلا منزل يتوقف فيه الإنسان لليلة.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالإشارة إلى سائر أهداف الأنبياء فقال:

«وَلِيَهْجُمُوا [١١٣] عَلَيْهِمْ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٦١

بِمُعْتَبَرٍ [١١٤] مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِحِهَا [١١٥] وَأَسْقَامِهَا، وَحَلَالِهَا وَحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُطِيعِينَ

مِنْهُمْ وَالْعَصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ، وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ».

إشارة إلى أن الأنبياء عليهم السلام وإضافة لما سبق يشدون ثلاثة أهداف مهمة أخرى لهداية الناس؛ فذكر في البداية الدروس والعبر التى تخترنها هذه الحياة العابرة، ومن ذلك أننا نرى بعض الأفراد الأصحاء والأقوياء الذين سرعان ما يهجم عليهم المرض فيسلبهم قدرة الحركة ويسير بهم إلى حافة الموت، وإذا بهم ينهضون فجأة ليستأنفوا نشاطهم من جديد، والآخر بيان الحلال والحرام الذى يشكل جانباً مهماً من دعوة الأنبياء ويمثل الحد الفاصل بين المنطق الآمن والمحظورة.

والثالث بيان الثواب والعقاب المادى والمعنوى- المادى مثل الجنة والنار والمعنوى مثل الاحترام والتحقير- فكل هذه الأمور من شأنها أن تكون دافعاً لطاعة الله [١١٦].

العبارة:

«لِيَهْجُمُوا»

إشارة إلى أن أنبياء الله يخوضون فى أهداف الدعوة من خلال بياناتهم البلاغية وتعبيراتهم المؤكدة التى تفعل فعلها فى نفس

المخاطب.

ثم عاد الإمام عليه السلام في ختام هذا القسم إلى حمد الله والثناء عليه فقال:
«أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحَمَدَ إِلَى خَلْقِهِ».

وقد اختلف شراح نهج البلاغة في مفهوم هذه العبارة، ولكن بالنظر إلى العبارة
«اسْتَحَمَدَ إِلَى فُلَانٍ»

التي تعنى أنه عامله بإحسان ليحمده [١١٧] يصبح معنى العبارة

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٦٢

(أحمده على إفاضة النعم) كما طلب من عباده.

وعاد عليه السلام في الختام إلى ما استهل به الخطبة فتطرق إلى محدودية الحياة الدنيا والحساب الدقيق الذي يسود العالم فقال:
«وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلًا، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا».

نعم! فكل ذرات هذا العالم تسير وفق حساب وكل شيء في لوح محفوظ، كما أن لجميع موجودات هذا العالم نهاية ستبلغها في وقت معين ينتهي فيه عمرهم وهذه عبرة لجميع الناس ليعلموا من جانب أن الدنيا ليست باقية ومن جانب آخر أن هنالك حساباً دقيقاً ينتظر جميع الأعمال.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٦٣

القسم الثاني

إشارة

منها: فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ زَاجِرٌ، وَصِيَامٌ نَاطِقٌ. حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ. أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ، وَارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ. أَتَمَّ نُورَهُ، وَأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدَّمَ فَرَعًا إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ. فَعَظَّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُخَفِ عَنْكُمْ شَيْئًا مِنْ دِينِهِ، وَلَمْ يَتْرِكْ شَيْئًا رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عِلْمًا بَادِيًا، وَآيَةً مُحْكَمَةً، تَرْجُو عَنْهُ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وَسَيَخْطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَيَخْطُهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرِ بَيْنٍ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرَّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ. قَدْ كَفَاكُمْ مَوْوَنَهُ دُنْيَاكُمْ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذُّكْرَ.

الشرح والتفسير: الهدى في ظل القرآن

تحدث الإمام عليه السلام في القسم السابق من الخطبة عن المبدأ والمعاد وصفات الجلال والجمال والثواب والعقاب يوم القيامة إلى جانب بعثة الأنبياء والرسل وبيانهم للحلال والحرام.

وتطرق هنا إلى القرآن الكريم لكونه معجزة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وأعظم مشروع عمل يوم القيامة وذكر له عدة أوصاف تشير جميعاً إلى جامعية القرآن وشموليته فقال:

«فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ. حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ. أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ،

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٦٤

وَارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ».

فقد ذكر عليه السلام سبع صفات مهمة للقرآن كافيّة شافية لبيان أهميّة القرآن ومنزلته الرفيعة، العبارة «أَمْرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ»

في الواقع كلّ منهما صفتان للقرآن وقد حذف واو العطف بينهما، أي للقرآن أوامر ونواهٍ سكت في بعض الأمور التي تقتضى المصلحة فيها السكوت وانطلق بيانه في الأمور التي يتوجب على الجميع الإلمام بها أو أنّ القرآن ساكت في الظاهر ذلك أنه ليس أكثر من حروف وكلمات، إلّا أنّ حقيقة الأمر أنه تحدّث بمئة لسان وإمات اللثام عن الحقائق، العبارة «أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ»

إشارة إلى العهد الذي أخذه الله وأنبيأؤه من المؤمنين حين الإيمان بالتوحيد والنبوة، لأنّ من يبدي إيمانه بهذين المبدئين فمعنى ذلك تسليمه لأوامر الله وأوامر رسوله صلى الله عليه وآله، أو أنّ الله بافاضته للعقل من جانب وفطرة التوحيد من جانب آخر أخذ هذا العهد من جميع الناس من خلال التكوين ليسلموا لأمره ويعملوا بكتابه.

العبارة:

«وَارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ»

إشارة إلى الحقيقة التي صرّح بها القرآن الكريم «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» [١١٨] فكما لا تطلق العين المرهونة دون تسديد الديون فإنّ الإنسان لا يبلغ حريته الحقيقية ما لم يمارس وظائفه الدينيّة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ليكشف عن عمق أهميّة كتاب الله بذكره لصفتين آخرين فقال:

«أَتَمَّ نُورَهُ، وَأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ».

والمراد من النور هنا الفيض الإلهي الذي يشمل العباد عن طريق القرآن، والعبارة «أَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ»

إشارة إلى الآية: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» [١١٩] التي كمل بموجبها الدين بنزول القرآن ومشروع الولاية. وتطرق الإمام عليه السلام إلى شمولية أحكام الإسلام والقرآن فقال:

«وَقَبَضَ نَبِيُّهُ صَلَّى

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٦٥

اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ فَرَّغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ».

ثم استنتج من ذلك

«فَعَظَّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمُوا مِنْ نَفْسِهِ».

إشارة إلى عدم ارتجال الصفات لله وعدم الابتداع في العبادة والدعاء وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن كلّ شيء بل لا بدّ من اتباع هديه وإرشاده الذي ورد في القرآن في كل هذه الأمور (يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى توقيفيّة صفات الله والتعبدية في الطاعة).

ثم خاض عليه السلام في بيان علّة هذا الموضوع فقال:

«فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ، وَلَمْ يَثْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عِلْماً بَادِيّاً [١٢٠]، وَآيَةً مُحْكَمَةً، تَزْجُرُ عَنْهُ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ».

بعبارة أخرى أنّ الله سبحانه وتعالى أتمّ الحجيّة في جميع أوامره ونواهيه وجهد رسول الله في ابلاغ الرسالة؛ فأوضح المعالم من الدين وبين الأصول والفروع، وعليه فلم يدع من مجال للبدع في الدين.

ثم قال عليه السلام:

«فَرِضَاءُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ».

وعليه فقد سلب هذه الذريعة في أن أحكام عصر النبي صلى الله عليه وآله إنما تختص بعهده وعلينا الاجتهاد على ضوء تغير الزمان وتبدل الوسط، والواقع أن هذه العبارة إشارة إلى الحديث النبوي الشريف:

«حَلَالٌ مُحَمَّدٌ حَلَالٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَحَرَامُهُ حَرَامٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [١٢١].

وقال في تأكيده على وحدة الرسالة بشأن جميع الناس بما فيهم الماضون والحاضرون والقادمون:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يُوَضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخَطُهُ عَلَيَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسَخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرِ بَيْنٍ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَه الرَّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٦٦

وتشير كل هذه العبارات إلى وحدة تعاليم الأنبياء وسفراء الله وطرق السعادة والتكامل التي ابلغت من جانب الله بواسطة أنبيائه، رغم رقى التكامل البشري بفعل تقادم الزمان وهذا في الواقع أحد فروع التوحيد، وهو ما أكدته القرآن الكريم.

«آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانْفِرَاقٍ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ» [١٢٢].

واختتم الإمام عليه السلام كلامه هنا بالإشارة لبعض الأمور المهمة فقال:

«قَدْ كَفَاكُمْ مَوْوَنَةً دُنْيَاكُمْ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ».

إشارة من جانب إلى أنه شملكم بأنواع النعم: «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» [١٢٣]

و

«هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا» [١٢٤] ومن جانب آخر أمركم بالشكر الذي يوجب زيادة النعمة واستمرار العناية الإلهية، ومن جانب آخر دعاكم لذكره والذي يعود على قلوبكم بالطمأنينة والنجاة من مخالب الشيطان: «أَلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» [١٢٥] «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» [١٢٦].

وما يلاحظ من أن الإمام عليه السلام أكد على ذكر اللسان من بين جميع الأعمال الواجبة والمستحبة كونه مدعاة ليقظة القلب وهذه اليقظة هي المصدر الرئيسي للحركة نحو الخير والسعادة، أضف إلى ذلك فإن اللسان إن لم يلهج بالذكر سينطلق لخدمة الشيطان وأنا لنعلم أن العديد من الكبائر إنما تصدر من اللسان، جدير بالذكر أن التوجه إلى النعم وشكر المنعم على فضله ونعمه هو المحور الأصلي لمعرفة الله كما ورد في علم العقائد.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٦٧

تأملان

١. وحدة حكم الله في الأولين والآخرين

إن وحدة الأحكام الشرعية وسريانها على الأولين والآخرين بما فيها الأقوام والأمم كافة لمن الأمور المهمة التي أكد عليها الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة، وتوضيح ذلك أن تاريخ البشرية في الماضي والحاضر شهد أنواع التمييز بين الأقوام والشعوب في وضع القوانين والتشريعات، فكانت هنالك الأحكام المختلفة التي تتأثر عادة بلون البشرة والأخرى بالمنزلة الاجتماعية وكان دم ذوى البشرة البيضاء أثنى من نظيره لدى العبيد فكانت هنالك الامتيازات الخاصة لدى طبقة الأشراف في سن القوانين.

فانبثق الإسلام ليُلغى تلك الامتيازات كافةً إثر تنبيه لرسالة المساواة وعدم التمايز الطبقي وتكافؤ جميع الأفراد مهما اختلفت ألوانهم وأعراقهم في الحقوق والواجبات وجاء في الخبر أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بينما كان في منى أيام الحج راكباً دابته إذ التفت إلى الناس فقال:

«يا أيُّها النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ [١٢٧]، وَلَا

لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا نَعَمْ! قَالَ لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» [١٢٨].

ولم يقتصر النبي صلى الله عليه وآله على هذا الكلام في ذلك التجمع العظيم بمنى، بل أشار إليه في موارد كثيرة بصفته أحد المبادئ الإسلامية المسلمة، ففي الخبر أن سلمان الفارسي دخل مجلس النبي صلى الله عليه وآله فأكرمه النبي لفضله وسنه وأجلسه في صدر المجلس فلما رآه عمر أنكر ذلك وقال:

«مَنْ هَذَا الْعَجَمِيُّ الْمُتَّصِدِّرُ فِيمَا بَيْنَ الْعَرَبِ»

فصعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله المنبر (الأمر الذي كان يقوم به لبيان حكم عام وأساسى) فخطب الناس وقال:

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٦٨

«إِنَّ النَّاسَ مِنْ آدَمَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا مِثْلُ أُسْنَانِ الْمِشْطِ؛ لَا فَضْلَ لِلْعَرَبِيِّ عَلَى الْأَعَجَمِيِّ وَلَا لِلْأَحْمَرِ عَلَى الْأَسْوَدِ إِلَّا بِالتَّقْوَى، سَلِمَانُ بَحْرًا لَا يُتْرَفُ وَكَثْرًا لَا يُنْفَدُ، سَلِمَانُ مِمَّنْ أَهْلُ الْبَيْتِ» [١٢٩].

يشير هذا الحديث صراحة إلى عدم مساواة الناس الذين يعيشون في عصر معين إزاء القوانين الشرعية فحسب، بل شموليته لجميع الأفراد الذين سكنوا الأرض طيلة تاريخ البشرية في ظل نفس الظروف ويبدو لهذا المبدأ والحكم الإسلامي جدواه الفعلية آنذاك حين كانت الامتيازات القبلية بين العرب والامتيازات العرقية والتمايز الطبقي هو الحاكم في العالم آنذاك.

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة إنما هو تأكيد لهذا الموضوع حين قال إن الله لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم ولن يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان من قبلكم وما زال هذا القانون هو الحاكم، كما يبدو لهذا الكلام الذي يمثل امتداداً لكلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قيمة القصوى على أساس إعادة تلك الامتيازات الجاهلية بما فيها امتياز العرب على العجم إبان خلافة عمر كما تفيد تواريخ الفريقين.

ونختم الحديث هنا بعبارته من خطبته صلى الله عليه وآله في حجة الوداع حين بين للجميع أسس وقوانين الشريعة الإسلامية للجميع:

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ كُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ،

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»

وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى؛ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» [١٣٠].

٢. القرآن ناطق أم صامت؟

صدر الإمام عليه السلام كلامه في هذه الخطبة بأن القرآن صامت وناطق، بينما وصفه في

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٦٩

الخطبة ١٢٥ في قصة التحكيم قائلاً:

«هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ حَظٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ لَا يُنْطَقُ بِلسانٍ وَلَا يُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمان. وَإِنَّمَا يُنْطَقُ عَنْهُ الرَّجَالُ»

كما ورد شبيه ذلك في الخطبة ١٥٨.

فهل هنالك من تناقض بين هذه التعابير؟ الجواب هو أن المراد من ناطقية القرآن أنه بين أحكام الله فيه بلسان عربي مبين، فكل من كان لديه استعداد دعاه لنفسه وهداه للخير والسعادة وعليه فهو ناطق بالنسبة لدعاة الحق؛ أما بالنسبة إلى أولئك الأفراد المتعصبين والذين انبروا للنزاع فهم لا يسمعون رسالة القرآن وإن سمعوها تظاهروا بعدم السماع، ولا مناص لهؤلاء الأفراد من قاضٍ وحكم عادل يبلغهم رسالة القرآن ويتم عليهم الحجة، على سبيل المثال للقرآن رسالته واضحة في قصة صفيين حيث يقول: «فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتَلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» [١٣١]. فمن الواضح للجميع أن علياً عليه السلام وإضافة إلى نصبه لخلافته النبي صلى الله عليه وآله من جانب الله تعالى إنما يبيع من قبل قاطبة المؤمنين وأغلبية المهاجرين والأنصار، ولم يكن معاوية وجيشه سوى حفنة من الطغاة الجفاه الذين أرادوا فرض أنفسهم على الأمة، ولكن حيث انبروا لمواجهة حكم الله لزم أن يكون هناك حكم يأخذ بأيديهم إلى الحق رغم أن مسألة التحكيم وللأسف لم تسر بالاتجاه الصحيح ولم تتوصل إلى النتيجة المتوخاة.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٧١

القسم الثالث

إشارة

وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ. فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بَعِينِهِ، وَنَوَاصِحَ يَدَيْكُمْ بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ. إِنْ أَسْرَرْتُمْ عِلْمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كِتْبَهُ؛ قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِرَامًا، لَأَيْسِرَ قَطُونَ حَقًّا، وَلَمَا يُشْتُونَ بَاطِلًا. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ (مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) مِنَ الْفِتَنِ، وَنُورًا مِنَ الظُّلْمِ، وَيُخَلِّدْهُ فِي مَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنْزِلْهُ مَنَزِلَ الْكِرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَارِ اضْطِنَاعِهَا لِنَفْسِهِ؛ ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُورُهَا مَلَانِكَتُهُ، وَرَفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ؛ فَيَادِرُوا الْمَعَادَ، وَسَابِقُوا الْأَجَالَ، فَإِنَّ النَّاسَ يُوْشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ، وَيَرْهَقَهُمُ الْأَجَلُ، وَيُسَدِّدَ عَنْهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ. فَقَدْ أَصَيْبَتْكُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْتُمْ بِنُوسَيْبِ، عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارِ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَقَدْ أَوْذَيْتُمْ مِنْهَا بِاللَّارِ تَحَالٍ، وَأَمْرُكُمْ فِيهَا بِالزَّادِ.

الشرح والتفسير: منزلة التقوى

أكد الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة على الدعوة إلى التقوى إلى جانب ذكره لسبب ذلك مع الإشارة إلى آثار التقوى، كما قدم شرحاً عميقاً لتقلب الدنيا ورحلة الآخرة وما يلزمها من زاد ومتاع يكمن في الورع والتقوى.

فقال بادئ الأمر:

«وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ».

وتشير هذه العبارة إلى أن التقوى أفضل شيء سأل الله عباده وأعظم فخر يتقلده

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٧٢

الجميع والذي ينسجم مع الآيات القرآنية القائلة: «أَنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ» [١٣٢]، «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» [١٣٣]، «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» [١٣٤] وجعل للتقوى قيمتها العميقة.

والحقيقة هي أن التقوى شعور باطنى بالمسؤولية فهي وليدة الإيمان القوى من جانب وأساس الطاعة واجتناب المعصية من جانب آخر، والتعبير بالحاجة بشأن الله تعالى لا يعنى أن الله محتاج إلى العباد فالحاجة لغويًا لا تقتصر على الفقر، بل ترد أحياناً بمعنى الطلب والسؤال.

ثم خاض الإمام عليه السلام في الإشارة إلى الداعي لرعاية تقوى الله فقال:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، وَنَوَاصِيكُمْ [١٣٥] بِيَدِهِ، وَتَقَلِّبَكُمْ [١٣٦] فِي قَبْضَتِهِ».

نعم فالعالم حاضر عند الله وزمام الجميع بيده سبحانه، ورغم أن العباد أحرار في ما يمارسون من أعمال، إلا أن هذه الحرية لا تعنى سلب الذات القدسيّة قدرتها.

ثم قال عليه السلام لمزيد من التأكيد:

«إِنْ أَسْرَرْتُمْ عِلْمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كِتْبَهُ؛ قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفِظَهُ كِرَامًا، لَا يُسْقِطُونَ حَقًّا، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلًا».

وجاء في القرآن أيضاً: «وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» [١٣٧].

وكذلك: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ» [١٣٨].

فمن البديهي أن كتابة الأعمال من قبل الملائكة الحفظة إنما هو للتأكيد، وإلا فقد اتضح من العبارات السابقة أن السر والعلانية سواء عند الله وعلمه محيط بكل ما في السماوات والأرض، استناداً للعبارة «قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ»

وحصر هذه الكتابة بأعمال

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٧٣

معينه

«وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كِتْبَهُ»

فالذي يستفاد أن الملائكة ليست مأمورة بكتابة كل الأعمال الخفية وأن الله الستار للعيوب قد أخرج جانباً من هذه الأعمال عن دائرة علمهم واختص بها نفسه وهذا يشير إلى منتهى لطفه.

جاء في دعاء كميل:

«وَكُلَّ سَيِّئَةٍ أَمَرْتُ بِإِثْبَاتِهَا الْكِرَامَ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ وَكَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ مَا يَكُونُ مِنِّي وَجَعَلْتَهُمْ شُهُودًا عَلَيَّ مَعَ جَوَارِحِي وَكُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيَّ مِنْ وَرَائِهِمْ وَالشَّاهِدَ لِمَا خَفِيَ عَنْهُمْ وَبِرَحْمَتِكَ اخْفَيْتَهُ وَبِفَضْلِكَ سَتَرْتَهُ».

ثم خاض الإمام عليه السلام في بيان آثار وبركات التقوى فذكر بعبارة قصيرة عميقة المعنى أربع نتائج تفرزها التقوى. فقال في الأولى والثانية:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ

«مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا»

مِنَ الْفِتَنِ، وَنُورًا مِّنَ الظُّلْمِ».

فالشق الأول من الكلام اقتباس من الآية الشريفة: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا» [١٣٩].

روى أبودر الغفاري عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنِّي لَأَعْلَمُ آيَةً لَوْ أَخَذَ بِهَا النَّاسُ لَكَفَفَتْهُمْ:

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا»

فَمَا زَالَ يَقُولُهَا وَيُعِيدُهَا» [١٤٠].

والشق الثاني من سائر الآيات مثل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا» [١٤١] (ورؤيته خاصة تعرفون من خلالها على الحق والباطل).

وقال في الثمرة الثالثة والرابعة للتقوى:

«وَيُخَلِّدُهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنزِلُهُ مَنزِلَ الْكِرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَارِ اضْطِنَاعِهَا [١٤٢] لِنَفْسِهِ».

فنتيجة التقوى في هذه العبارة الخروج من الفتنة وزوال الظلمات من حياة المتقين في هذا العالم والخلود في النعم المادية والمعنوية في العالم الآخر، فالواقع أن الله سبحانه وتعالى جمع للمتقين النعم المادية والمعنوية لهذا العالم والعالم الآخر

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٧٤

والعبارات تشير كل منها إلى إحدى هذه النعم.

وتشير العبارة

«اضْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ»

أن الله خلق منازل الآخرة الخاصة لخواصه أو أنها من قبيل بعض العبارات مثل «بيت الله» و «شهر الله» التي تشير إلى عظمة تلك الدار وأهميتها.

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح صفات ذلك المنزل الخاص فقال:

«ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُورُهَا مَلَائِكَتُهُ، وَرُقُقَاؤُهَا رُسُلُهُ».

يا له من منزل رفيع ذلك الذي يفوق السماء والأرض وفي ظل عرش الله، أضاءته أشعة نور الله وتقاطرت فيه ملائكته على زيارة

ذلك الإنسان وجالس فيها رسل الله وأنبياءه، وهى الصفات التي تسحر الإنسان عند سماعها، فما ظنك برؤيتها؟

قال تعالى في القرآن الكريم: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» [١٤٣].

وخلص الإمام عليه السلام في مواصلة كلامه بالدعوة إلى التقوى وبيانه لبركاتها بالقول:

«فَبَادِرُوا الْمَعَادَ، وَسَابِقُوا الْأَجَالَ».

كما قال القرآن: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» [١٤٤].

وقال في موضع آخر: «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» [١٤٥].

ثم خاض عليه السلام في بيان العلة فقال:

«فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ، وَيَزْهَقَهُمُ [١٤٦] الْأَجَلُ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ. فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٧٥

مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

والكلام إشارة لما ورد في القرآن: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ

هُوَ قَائِلُهَا» [١٤٧].

ومراد الإمام عليه السلام بادروا اليوم إلى العمل الصالح والتوبة من الذنب قبل أن تعيشوا مثل هذا المصير وتطلبوا ما لا يليى لكم.

وحت إثر ذلك على التأهب لسفر الآخرة والاستعداد والتزود لذلك السفر الطويل والمليء بالمخاطر فقال:

«وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ، عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ».

واختتمها بالعبارة:

«وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالْأَرْتِحَالِ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالرَّادِ».

وعادة ما يلاحظ مثل هذا التشبيه الرائع للدار الآخرة والدنيا وسكنة هذا العالم في بعض الآيات القرآنية والعديد من الروايات الإسلامية

التي شبهت الإنسان بالمسافر الذي ينطلق نحو الهدف المطلوب وعليه أن يطرق بعض الأيام أثناء الطريق فيتوقف في بعض الأماكن

فيهىء الزاد والمتاع وينطلق من هناك وليس المراد من الزاد والمتاع سوى التقوى كما ليس المراد من المركب سوى الإيمان، فأولئك

الذين يقصرون في الإعداد إنما يتخلفون في الطريق ويهلكون ولا يبلغون المقصد قط فقاغله الأنبياء والأوصياء عليهم السلام مازالت

تنادى بالرحيل والتزود لذلك السفر الطويل، وإن غط البعض في نوم عميق وفقد الآذان الصاغية فصم عن سماع ذلك النداء. قال تعالى في محكم كتابه:

«وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ» [١٤٨]

. وقال: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» [١٤٩].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٧٧

القسم الرابع

إشارة

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نَفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا. أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشُّوْكَهِ تَصَبُّبُهُ، وَالْعَثْرَةَ تَدْمِيهِ، وَالرَّمْضَاءَ تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ، وَقَرِينَ شَيْطَانٍ! أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكًا إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضَهَا بَعْضًا لِعُصْبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعًا مِنْ زَجْرَتِهِ!

الشرح والتفسير: العذاب الشديد يوم القيامة

إثر تأكيدات الإمام عليه السلام على الورع والتقوى في القسم السابق من الخطبة أشار هنا بعبارات رائعة إلى شدة العذاب يوم القيامة فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نَفُوسَكُمْ».

ثم جسد بمقارنة بسيطة وواضحة شدة إحراق نار جهنم فقال:

«فَأَنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا، أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشُّوْكَهِ [١٥٠] تَصَبُّبُهُ، وَالْعَثْرَةَ

تَدْمِيهِ [١٥١]، وَالرَّمْضَاءَ [١٥٢] تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ [١٥٣] مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ،

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٧٨

وَقَرِينَ شَيْطَانٍ!».

وقال في مواصلته لهذا الكلام:

«أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكًا إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ [١٥٤]

بَعْضُهَا بَعْضًا لِعُصْبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ [١٥٥] بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعًا مِنْ زَجْرَتِهِ!».

وللمرحوم «مغنية» حين بلغ هذا القسم من الخطبة كلام رائع حيث يقول: «إن جميع خطب نهج البلاغة تبحث أصليين أو ثلاثة أصول مع بعضها، فمن جانب الثناء على صفات الله الجمالية والجلالية وأسمائه الحسنى ومن جانب آخر مدح النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وما أتى به من هدى للناس وأخيراً الكلام عن خداع الدنيا وسكرات الموت ووحشة القبر وأليم العذاب في القيامة، والعجيب أن هذه الخطب لا تتضمن التكرار رغم تكرر هذه المواضيع، حيث يوردها بأسلوب بديع وشكل جديد، الأمر الذي أذهل سراح نهج البلاغة» [١٥٦].

على كل حال فإن الإمام عليه السلام شرح في هذا الكلام عجز الإنسان وانزعاجه الشديد من مصائب الدنيا الهينة وقارنها مع أليم العذاب وشدة المصائب في الآخرة ليحذر الجميع من ذلك.

وقد ورد شبيه ذلك في دعاء كميل حيث يقول:

«يَا رَبِّ وَأَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفِي عَنْ قَلِيلٍ مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا وَعُقُوبَاتِهَا وَمَا يَجْرِي فِيهَا مِنَ الْمَكَارِهِ عَلَى أَهْلِهَا عَلَى أَنَّ ذَلِكَ بَلَاءٌ وَمَكْرُوهٌ قَلِيلٌ مَكْتُهُ يَسِيرٌ بِقَاؤُهُ قَصِيرٌ مُدَّتُهُ فَكَيْفَ اِحْتِمَالِي لِبَلَاءِ الْآخِرَةِ وَجَلِيلِ وَقُوعِ الْمَكَارِهِ فِيهَا وَهُوَ بَلَاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ وَيَدُومُ مَقَامُهُ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْ أَهْلِهِ».

والذي يستفاد ضمناً من العبارات المذكورة أن نار جهنم مخلوق فطن، يشعر بالرعب من غضب مالك خازن النار فيتأرجح هنا وهناك، كما يفهم من تلك

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٧٩

التعبيرات أن لعذاب جهنم بعد جسمي هو حرقة النار وآخر معنوي يتمثل في مجاورة الشيطان.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٨١

القسم الخامس

إشارة

أَيُّهَا الْيَفْنَ الْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا التَّحَمَّتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بَعْظَامِ الْأَعْنَاقِ، وَنَشِبَتْ الْجَوَامِعُ حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ. فَاللَّهُ اللَّهُ مَعَشَرَ الْعِبَادِ! وَأَنْتُمْ سَيِّئُ الْمُؤَنِّ فِي الصَّحَّةِ قَبِيلِ السُّقْمِ، وَفِي الْفُسْحَةِ قَبِيلِ الصَّبِقِ. فَاسْتَعْمُوا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبِيلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا. أَشْهَرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ، وَاسْتَعْمِلُوا أَفْدَامَكُمْ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَبْخُلُوا بِهَا عَنْهَا، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: «إِنْ تَنْصِرُوا اللَّهَ يَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَفْدَامَكُمْ» وَقَالَ تَعَالَى: «مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفْ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ». فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ؛ اسْتَنْصِرْكُمْ «وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». وَاسْتَقْرِضْكُمْ «وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ «لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

الشرح والتفسير: الامتحان الإلهي

تغيرت نيرة الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة ليخاطب الكهول ويستعرض لهم جانباً من أشد عذاب وأهوال يوم القيامة، ثم يدعو عباد الله كافة اغتنام الفرصة بغية الخلاص من عذاب الله ونقمته ليقدم تعاليم دقيقة بهذا الشأن يتمثل أحدها في الانفاق فقال عليه السلام:

«أَيُّهَا الْيَفْنَ الْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٨٢

لَهَزَهُ [١٥٨] الْقَتِيرُ [١٥٩]، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا التَّحَمَّتْ [١٦٠] أَطْوَاقُ النَّارِ بَعْظَامِ الْأَعْنَاقِ، وَنَشِبَتْ [١٦١] الْجَوَامِعُ [١٦٢] حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ [١٦٣]».

السؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا خاطب الإمام عليه السلام الشيخ المسن؟ لعل ذلك يعود إلى أن شمس عمره توشك على المغيب - وإن كان الموت يأتي كل أحد بغتة - وعليه أن يركز في الانتباه لنفسه، أو لأبنائه للكهول تأثيراً على أسرهم وأبنائهم وباستطاعتهم نصحتهم ووعظهم.

العبارة:

«قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ»

استناداً إلى أن

«لهز»

يعنى فى الأصل نفوذ الشىء واتساعه فى شىء آخر و

«قتير»

من مادة قتر بمعنى التضيق والتصعب فالعبارة تفيد أن الشيخوخة قد نفذت فى كل كيانهم فقد ضعفت العظام وبهت الدماغ والأعصاب وعجزت أعضاء البدن كافة.

وقد أشار الإمام عليه السلام إلى نوعين من العذاب الأليم الذى يحيق بأهل جهنم، أحدهما أطواق النار التى تطوق أعناق المجرمين وتتغلغل فى لحومهم حتى تبلغ عظامهم والآخر غل الجامعة التى تربط أيديهم إلى أعناقهم بحيث تجرح سواعد أيديهم، طبعاً هذا العذاب وإن كان شديد الألم إلا أنه يعتبر رحمة بفعل دوره فى حجزهم عن الذنب والمعصية.

ثم واصل كلامه عليه السلام موجهاً الخطاب لجميع العباد فقال:

«فَاللَّهُ اللَّهُ مَعَشَرَ الْعِبَادِ!

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٨٣

وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصَّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضُّيْقِ. فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا [١٦٤].»

فقد أشار الإمام عليه السلام هنا إلى نعمتين كبيرتين؛ إحداهما السلامة والعافية والأخرى إعداد الإمكانيات التى تمكن الإنسان من الإقدام على أى عمل. نعم فهو يحذر الجميع من استغلال هذه الفرص والخلاص من تبعات المسئولية.

وتشير العبارة

«فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ»

إلى سلسلة من التكاليف التى لا مناص للإنسان من القيام بها، فقد كان السائد لدى الأقسام السابقة أن الدائن يستعبد المدين مالم يتمكن من أداء دينه، ولا يعتق مالم يسدد ذلك الدين، فالعبارة المذكورة يمكن أن تكون كناية عن هذا المطلب.

والعبارة:

«مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا»

إشارة إلى أن الشخص المدين إن تخلف عن أداء الدين خرج عن ملكيته ما كان مرتهاً لدى المدين (طبعاً بمقدار الطلب) فقد أشار الإمام عليه السلام إلى ضرورة أداء الديون الإلهية والمراد بها الواجبات بغية تحرير رهائهم لديه والمراد به أنفسهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام بالخوض فى تفاسير العبارات التى ذكرها سابقاً بصورة كلية فركز على خمسة مواضع وقال:

«أَسْهَرُوا [١٦٥] عَيْونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا [١٦٦] بُطُونَكُمْ،

وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَبْخُلُوا بِهَا عَنْهَا.»

والمراد من

«أَسْهَرُوا عَيْونَكُمْ»

أسهروا عيونكم المناجاة فى الليل سيما صلاة التهجد.

«وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ»

إشارة إلى الصيام،

«وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ»

إشارة إلى قيام الليل أو السعى في قضاء حوائج الناس واغاثة الملهوفين،
«وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ»

إشارة إلى الخمس والزكاة الواجبة والصدقات المستحبة
«وَأَخَذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ»
إشارة إلى العبادة وتهذيب النفس والجهد في سبيل الله.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٨٤

ثم استدل الإمام عليه السلام على كلامه بالاستشهاد بآيتين من القرآن فقال:
«فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ:

«إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» [١٦٧].

وَقَالَ تَعَالَى: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ» [١٦٨].

وقال عليه السلام في شرحه لهذه الآيات:

«فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ؛ اسْتَنْصَرَكُمْ

«وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»

وَاسْتَقْرِضْكُمْ

«وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»

وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ

«لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

إشارة إلى أن الله اعتمد غاية اللطف في الكلام ليتعظ من كان له أدنى استعداد لطاعته بتلك التعبيرات المفعمة باللطف والمحبة فيحث الخطي على التسليم لله.

والحقيقة أن كلام الإمام عليه السلام جواب لسؤال هو هل يمكن لله تعالى الذي له جند السماوات والأرض أن يستعين بعبده الضعيف العاجز الذي لا يملك لنفسه سوى ما أفاض الله عليه؟ أم يستقرض عبده الضعيف الذي يرتع في نعمه وهو الذي بيده خزائن السماوات والأرض؟ فلو أراد الله اعانة ضعيف لما لا يعينه، ولو أراد اثراء فقير لما لا يقوم هو بهذا العمل؟ أشار الإمام عليه السلام إلى أن الهدف من كل هذه الأمور هو الامتحان والاختبار.

جدير بالذكر أن جميع ما ذكر اقتباس من القرآن الكريم، إذ قال تعالى في موضع «وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَيْنَاكُمْ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ بِيَغْضُ» [١٦٩].

وفي موضع آخر: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» [١٧٠] وآيات أخرى.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٨٥

القسم السادس

إشارة

فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِبْرَانَ اللَّهِ فِي دَارِهِ. رَافِقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارِ أَبَدًا، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوبًا وَنَصِيبًا: (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ). أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي

وَأَنْفُسِكُمْ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ!

الشرح والتفسير: الانتقال إلى جيران الله

خلص الإمام عليه السلام في ختام الخطبة إلى نتيجة واضحة وهي أن كان الأمر كذلك «فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللَّهِ فِي دَارِهِ».

ثم خاض عليه السلام في خصائص هؤلاء الجيران فقال:

«رَافِقٌ بِهِمْ رُسُلُهُ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتُهُ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ [١٧١] نَارٍ أَبَدًا، وَصَانَ [١٧٢] أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوبًا [١٧٣] وَنَصَبًا [١٧٤]:

«ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» [١٧٥].

فقد بين الإمام عليه السلام بهذه العبارات الرائعة أربع خصائص لجيران الله اثنان منها لهما

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٨٦

بعد معنوى والاثنان الآخران لهما بعد مادي؛ فمرافقة الأنبياء وزيارة الملائكة كرامتان معنويتان وكرامتان روحيتان لا مثيل لهما كما أن عدم سماع أدنى صوت لنار جهنم وصون الاجساد من أى تعب ونصب كرامتان ماديتان لا نظير لهما كذلك.

وليت شعري أى كرامة أسمى من أن يرافق الإنسان هؤلاء المقربين فى غرف الجنة ويشمل بهذه النعم المعنوية والمادية. ويؤكد الإمام عليه السلام ضمناً بالاستفادة من الآية الشريفة على أهميته هذه النعم الأخروية ويعدها من فضائل الله العظمى. والعبارة:

«وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ ...»

اقتباس من الآية: «لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ» [١٧٦].

والعبارة:

«وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ ...»

إشارة إلى الآية الشريفة: «لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ» [١٧٧].

وهنا يرد هذا السؤال: ترى من هم جيران الله الذين لهم هذه الكرامات؟

فالتعبير بجيران الله يشير إلى أنهم من خواص الله ومقربيه بحيث استحقوا اسم جيران الله ويتضح من زيارة الملائكة والأنبياء لهم أنهم ليسوا أنبياء ولا ملائكة، وعليه فلا بد أن يكونوا من الصديقين والشهداء والحواريين الذين تمحوروا حول الأنبياء والأولياء وأصبحوا على ما هم عليه فى ظل الورع والتقوى وتهذيب النفس ليشملوا بكل هذه العناية الإلهية، على غرار ما قال القرآن الكريم: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» [١٧٨].

والشاهد على هذا الموضوع ما ذكره الإمام عليه السلام فى الرسالة ٢٧ بشأن تلك الثلة

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٨٧

من المتقين الذى بلغوا درجة من الورع والتقوى ومنزلة رفيعة من الزهد وعدم الاعتناء بزخارف الدنيا واكتسبوا بحق اسم جيران الله.

ثم اختتم خطبته لإتمام الحجّة فقال:

«أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ!».

وعليه فقد أتمّ الحجّة عليهم من جانب ودعا لهم بالموقفية من جانب آخر وأفصح بالتالى عن توكله على الله فى جميع الأحوال.

تأمل

طريق السير والسلوك إلى الله

لقد كشف الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن أروع الدروس التي يمكن أن ينطوى عليها من سلك سبيل الحق بغية التربية والتهذيب كما تطرق بعبارات قصيرة وعميقة المعنى إلى منهج السير والسلوك إلى الله تعالى.

فقد أثار لديهم الشعور بخشية الله من خلال ذكره لجانب من العذاب الأليم لنار جهنم، ثم حذرهم من أن أعمارهم وعافيتهم إنما هي أمانة مستودعة وستعاد يوماً ما إلى صاحبها.

وعليه فلا بد من اغتنام الفرصة والمبادرة إلى العمل كما ورد في الحديث النبوي الشريف:

«إِغْنَمَ خَمْسًا قَبِيلَ خَمْسٍ؛ حَيَاتِكَ قَبِيلَ مَوْتِكَ وَصِحَّتِكَ قَبِيلَ سُقْمِكَ وَفِرَاعِكَ قَبِيلَ شُغْلِكَ وَشَبَابِكَ قَبِيلَ هَرَمِكَ وَغِنَاكَ قَبِيلَ فَقْرِكَ» [١٧٩].

ثم أشار إلى العبادة وتهذيب النفس فأوصى بإحياء الليل وقلة الطعام وتوظيف الجوارح في خدمة الخلق والسعى إلى الجهاد ومن ثم انفاق الأموال، وبالتالي الحد من الجسم لصالح الروح ليث الأمل في قلوب السالكين بوعد الله من خلال استشهاده ببعض الآيات القرآنية.

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٨٨

وأخيراً رسخ الدوافع المعنوية عن طريق ذكر الثواب العظيم الذي ينتظرهم جوار قرب الله. نعم فقد أدى معلم الإنسانية العظيم وقائد الغر المحجلين حقّ المطالب بعبارات قصيرة واضحة في اطار تعاليم متكاملة.

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٨٩

الخطبة ١٨٤

إشارة

قاله للبرج بن مُسهر الطائي، وقد قال له بحيث يسمعه:

«لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ»، وكان من الخوارج [١٨٠]

نظرة إلى الخطبة

نعلم أن الخوارج - تلك الفئة الجاهلة والمتعصبة التي ثارت على الإمام عليه السلام بعد التحكيم في صفين - وكان شعارهم

«لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ»

ومرادهم عدم ضرورة تعيين حكم يوم صفين، فلا حكم إلا لله؛ وقد استعمل هذا الشعار بصيغته منحرفة وخاطئة من قبل الخوارج،

وحين رفع بُرج بن مُسهر الطائي هذا الشعار عند الإمام عليه السلام، عنفه عليه السلام بكلمات لاذعة وعنيفة، حتى لا يجر واحداً غيره

على رفع هذا الشعار المضل (قدمنا شرحاً وافياً بشأن هذا الشعار الذي رفعته هذه الفئة الضالة في الخطبة ٤٠ من هذا الشرح)

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٩١
 اسْكُتْ قَبْحَكَ اللَّهُ يَا أَثْرَمُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتُ فِيهِ ضَمِيلاً شَخْصُكَ، خَفِيئاً صَوْتُكَ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ.

الشرح والتفسير: صه يا أحمق

في بداية الكلام أجبر الإمام عليه السلام هذا الخارجي على السكوت. ثم ليعرفه جيداً الناس ذكر صفاته السيئة وسابقته البشعة، فقال:
 «اسْكُتْ قَبْحَكَ اللَّهُ يَا أَثْرَمُ».
 كلمة «أثرم» التي تعنى الشخص الذى ضرب على فمه وكسرت أسنانه الإمامية إشارة إلى أن فمك واسنانك تشير إلى أن مخالفيك ضربوك لأنك بذىء اللسان، إضافة إلى ذلك فإن من كسرت أسنانه الإمامية لا يستطيع أن يتكلم بطلاقة والأفضل له أن يسكت.
 ثم واصل ذكر ماضيه السيء فقال:

«فَوَاللَّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتُ فِيهِ ضَمِيلاً» [١٨١]

شَخْصُكَ، خَفِيئاً صَوْتُكَ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمْتَ [١٨٢] نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ [١٨٣].

إشارة إلى أنك لم تحضر ولم تدافع عن الحق عند ظهور الإسلام حين بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو ظهور ولاية الحق لأmir المؤمنين على عليه السلام بل كنت شخصاً ضعيفاً لا يكثر لكلامك، أما الآن وقد صدع صوت الباطل فقد انضمت إليه لتطلق ذلك الشعار عن حماقة وجهل، ويتضح من خلال تأمل سوابق هذا الرجل ومن شاكلة

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٩٢

العقيدة والظروف التي كانت سائدة آنذاك أن هذه المواجهة العنيفة من قبل الإمام عليه السلام والعبارات المحقرة له كانت غاية في الحكمة، ولولا ذاك لكان يخشى انخداع الأفراد السطحين بزيغ ذلك الشعار.
 والخوارج فئة سطحية متعصبه جاهلة خلقت العديد من الإرباكات للمجتمع الإسلامى. كما أن قسوتهم وغلظتهم فاقت الوصف في تاريخ الإسلام، ولحسن الحظ فقد تعرفت عليهم المجتمعات الإسلامية طيلة التاريخ فاقصتهم عن الساحة ولعل هنالك القليل من سليلهم والذين لا يتظاهرون وبتلك العقيدة الباطلة.

تأمل

من هو بُرج بن مُسهر؟

اعتبر ابن أبى الحديد برج بن مسهر أحد شعراء الخوارج الذى ينتمى إلى يعرب بن قحطان؛ إلّا أن البعض يعتقد أن برج بن مسهر الشاعر هو شخص آخر، عاش فى العهد الجاهلى (ويحتمل أنه أدرك ظهور الإسلام) وقد روى أبو تمام أبياتاً من شعره فى الحماسة [١٨٤].

وبرج بن مسهر الطائى الخارجى الذى حقره الإمام عليه السلام شخص مجهول لم يرد اسمه فى كتب الرجال المعروفة، ويؤيد ذلك عبارة أمير المؤمنين عليه السلام حين خاطبه بأنك شخص ضئيل ومجهول ولا قدرة لك على الكلام.

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٩٣

الخطبة ١٨٥

إشارة

يَحْمَدُ اللَّهُ فِيهَا وَيُنَبِّئُ عَلَى رَسُولِهِ وَيَصِفُ خَلْقًا مِنَ الْحَيَوَانِ [١٨٥]

نظرة إلى الخطبة

تعدّ هذه الخطبة من الخطب الجامعة في نهج البلاغة والتي تسهب في المعارف الدينيّة وتتكون في الواقع من ستة أقسام، ففي القسم الأول- وعلى غرار أغلب خطب نهج البلاغة- جرى الكلام في حمد الله والثناء عليه وذكر أسمائه وصفاته بعبارة غاية في الدقة والروعة.

وتطرق القسم الثاني إلى رسالة الرسول صلى الله عليه وآله ومشاريعه العمليّة. وركز في القسم الثالث على خلق بعض الأحياء كنموذج حي لآيات علم الله وقدرته سيما بشأن النمل وخلق السماوات والأرض والشمس والقمر.

وخاض- في القسم الرابع- في نتائج ما قيل ليكشف عن عظمة الخالق التي تقف وراء هذه المشاهد العجيبة وحذر أولئك الذين يرون هذه الآيات وينكرونها عملياً.

نقحات الولاية، ج٧، ص: ٩٤

وتطرق في القسم الخامس ثانية إلى خلقه كائن عجيب آخر هو الجرادة وخاض في جزئيات خلقه.

واختتم الخطبة في القسم الأخير ليخلص في نتيجة جامعة لينهي خطبته ببحث كلى بشأن نظام الخلق وعظمة الخالق وخضوع جميع المخلوقات لذاته القدسيّة.

جدير ذكره أنّ تنظيم الخطب هنا يختل في أغلب شروح نهج البلاغة؛ فقد ذكر البعض هذه الخطبة بالرقم ٢٣١ (مثل ابن أبي الحديد وفيض الإسلام) بينما ذكروا بدلاً من هذه الخطبة التي وردت بالرقم ١٨٥ في نسخة صبحي الصالح خطبة همام؛ والبعض بالرقم ٢٢٧ (مثل نسخة بنياد نهج البلاغة وشرح ابن ميثم).

وذكرها المرحوم الشارح الخوئي بالرقم ١٨٤؛ ولكننا- كما يعلم الإخوة القراء- نتبع نسخة صبحي الصالح.

نقحات الولاية، ج٧، ص: ٩٥

القسم الأول

إشارة

الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي لَأْتَدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاطِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، الدَّالُّ عَلَى قَدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وَجُودِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَأَشْبَهَ لَهُ. الَّذِي صَدَقَ فِي مِعَادِهِ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ. مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ. وَاحِدٌ لِبَعْدِهِ، وَدَائِمٌ لِبَآمِدِهِ، وَقَائِمٌ لَأَبْعَدَهُ. تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لِبِمُشَاعَرَةٍ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لِبِمُحَاضَرَةٍ. لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا، وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا. لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النَّهَائِيَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجَسِّيمًا، وَلَا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجَسِّيدًا؛ بَلْ كَبَّرَ

شَأْنَا، وَعَظَمَ سُلْطَانًا.

الشرح والتفسير: معرفة الله الحقيقية

ما أن استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله والثناء عليه حتى خاض في صفاته التي تنفى عنه الجسمية والحدوث والشبيه والمثيل فقال عليه السلام:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاطِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ».

فما جاء في هذه الصفات الأربع أمور تنفى أى شائبة جسمية عن الله تعالى، فلا عين تراه ولا حواس تدركه ولا مكان يحويه ولا شيء يخفيه.

«شواهد»

جمع

«شاهدة»

بمعنى الحس و

«مشاهد»

جمع

«مشهد»

بمعنى

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٩٦

مكان الحضور والظهور.

«نواظر»

جمع

«ناظرة»

قوة الباصرة و

«سواتر»

جمع

«ساترة»

بمعنى الستر وكل ما يستر الأشياء.

فالصفات المذكورة والمقتبسة في الواقع من القرآن الكريم في عدد من الآيات تبطل عقيدة المجسمة (الفرقة التي تقول بجسمية الله) وتكشف مدى بعد أصحابها عن التعاليم الإسلامية.

ثم أشار عليه السلام إلى صفات أخرى ومنها صفة الأزلية وتنزيهه عن كل شبيه ومثيل فقال عليه السلام:

«الدَّالُّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وَجُودِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَأَشْبَهَ لَهُ».

تستند هذه الأدلة الثلاثة إلى هذه النقطة وهي استحالة مضي سلسلة العلل ومعاليل العالم إلى مالا نهائية، لأن التسلسل باطل، وعليه فحدوث الموجودات دليل على وجود العلة الأزلية والأبدية التي ينبع وجودها من ذاتها؛ فالكل حادث وهو القديم، والكل مخلوق وهو الخالق، لأن ذاته الطاهرة لا متناهية من جميع الجهات فليس له شبيه ولا مثيل، لاستحالة وجود وجودين لا متناهيين من جميع الجهات

ذلك أن كلاً منها يحد الآخر أما المخلوقات المحدودة من جميع الجهات بما فيها الزمان والمكان إنما تعددت أشباهها وأمثالها.

ثم تطرق عليه السلام إلى صفتين من صفات الذات وهما تعدان من صفات الفعل فقال:

«الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ».

نعم، فليس في وعوده غير الصدق، ذلك لأنّ التخلف في الوعد إما يعزى إلى العجز أو إلى الجهل أو الحاجة (مثلاً يعدّ الإنسان ثم يعجز ويتخلف عمداً وعد بعد القيام به، أو يعد ثم يفهم لاحقاً ما كان ينبغي عليه أن يعد مثل ذلك أو يعد ويرى أن خلف الوعد لصالحه) ومن الطبيعي أن أياً من الصفات الثلاث؛ العجز والجهل والحاجة ليست لها من سبيل إلى الذات القدسيّة ومنها يستحيل عليه خلف الوعد.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٩٧

وأشار في بيانه للصفة الثانية إلى سمو مقام الله عن الظلم، وهو ذات الأمر الذي يفرزه العجز والجهل أو الحاجة.

ثم ركز عليه السلام على جانبين من جوانب عدله أحدهما في عدم التمييز والآخر العدل في القضاء والعقاب والثواب، وعليه فالعبارات الثلاث

«وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ» «وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ» «وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ»

تشير جميعها إلى عدالة الله ونفى الظلم عنه في مختلف الجوانب.

ثم تطرق عليه السلام إلى صفات أخرى من صفات الجمال والجلال فقال:

«مُسْتَشْهَدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعُجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ».

فقد قال الإمام عليه السلام في العبارة الأولى: إن الله قد جعل حدوث الأشياء دليل على أزلتيته، ذلك لأننا نرى في هذا العالم مجموعة من الموجودات تنتهي إلى علل سابقة بصيغته سلسلة من العلل والمعاليل، فهل يمكن أن تستمر سلسلة العلل والمعاليل إلى ما لا نهاية؟ وكل علة معلولة لآخر وعبارة أخرى هل نقبل تسلسل العلة والمعلول إلى ما لا نهاية؟

الجواب عن هذا السؤال بالسلب قطعاً، لأن مفهوم ذلك أن المالا نهاية تتطلب التبدل إلى موجود غنى، أو بتعبير آخر تتبدل المالا نهاية الصفر إلى عدد، وعليه فإننا ندرک من حدوث الأشياء وجوداً أزلياً ووجوده من ذاته وهو واجب الوجود.

وأشار في العبارة الثانية إلى حقيقة هي أن في جبين كل موجود علامة على العجز، فالأعمار والقدرات والاستعدادات كلها محدودة، وهذا العجز يكشف أن وراءها يد القدرة المطلقة التي أفاضت القدرة على كل شيء بالمقدار الذي تطلبته حكمته.

وجرى الحديث في العبارة الثالثة عن فناء الكائنات، وهو الفناء الذي يسير طواعية وقد كمن لها الموت بالمرصاد شئت أم أبت، ومن الواضح أن هذه الكائنات الفانية ليست خالقة لنفسها كما أن وجودها لا ينبع من ذاتها وإلا لما آلت إلى الفناء،

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٩٨

وعليه فهناك قدرة تفوقها أزلية وأبدية والكل مستند في وجوده إلى الذات المقدسة، والذي نود بيانه هنا أنه ما الفارق بين العبارة

«مُسْتَشْهَدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْزَلِيَّتِهِ»

والعبارة السابقة

«الدَّالُّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ؟»

فهل العبارتان تفيدان إثبات أزلية الله عن طريق حدوث الموجودات؛ أي أنها صفة وضحت بعبارتين أم أن لكل منهما مفهوماً مستقلاً؟ طبعاً فصاحة وبلاغة الإمام عليه السلام تستلزم أن تختزن كل عبارة مفهوماً جديداً.

فلا يستبعد أن تكون العبارة السابقة إشارة إلى الدلالة التكوينية والعبارة الأخيرة إشارة إلى الدلالة التشريعية، أي كما يدل حدوث الموجودات على أزلية الله بلسان التكوين ففي الآيات القرآنية وروايات المعصومين وردت مثل هذه الاستدلالات بعبارات مختلفة.

قال القرآن الكريم: «كُلٌّ مِّنْ عَلَيَّهَا فَانٌ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» [١٨٦].

وقال في موضع آخر: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ» [١٨٧].

فالآية في الواقع إشارة لبرهان العلية الذي جاء في الفلسفة لاثبات وجود الله وهو أن العالم الذي نعيش فيه حادث لا شك، فهل وجد هذا الحادث بدون علته أم أنه علة لنفسه أم أنه معلول لعله أخرى معلولة لعله أخرى أو مخلوق لله تعالى واجب الوجود؟ الذي وجوده في ذراته ولا يبقى سوى الاحتمال الرابع بعد الالتفات إلى بطلان الاحتمالات الثلاثة الأولى.

ثم ذكر الإمام عليه السلام ثلاث صفات أخرى من صفات الله تعالى فقال:

«وَاحِدٌ لِّبَعْدَدٍ، وَدَائِمٌ لِّأَبَآمِدٍ، وَقَائِمٌ لِّبَعَمَدٍ».

والمراد من الواحد العددي الأشياء التي لها شبيهه ومثيل وثاني وثالث ولكن لم يوجد إلّا فرد منها؛ كالشمس في المنظومة الشمسية فهي واحدة فقط لا غير ولكن لها ثان.

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٩٩

فهذا المعنى لا يصح بالنسبة لله تعالى؛ لأن وجوده لا متناه من جميع الجهات ويستحيل عليه التعدد، ولذلك فوحدة الذات القدسية ليست وحدة عددية، بل بمعنى انعدام الشبيه والنظير والمثيل لها، وهو ذات المعنى الوارد في سورة التوحيد: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» [١٨٨].

وبعبارة أخرى يمكن التعدد في الواحد العددي؛ لكنه يستحيل في الواحد الذاتي.

وأشار في العبارة الثانية

«دَائِمٌ لِّأَبَآمِدٍ»

إلى أن دوام وجوده سبحانه ليس بدوام زمني لأن ذاته القدسية تفوق الزمان والمكان بل المراد منه الدوام الذاتي.

ومفهوم العبارة

«قَائِمٌ لِّبَعَمَدٍ»

أن قيامه بذاته؛ لا بمساعدة الآخر وبعبارة أخرى فإن القيام ذو مفهوم مادي وهو وقوف الشيء على قدميه أو بالاستعانة بعمود، كما له مفهوم يفوق المادة وهو أنه وجود مدير ومدبر لعالم الوجود ودون الاستناد إلى شيء آخر وهذا هو معنى قائمية الله تعالى. بعبارة أخرى فإن جميع الموجودات تعتمد على ذاته القدسية وهو قائم بهذه الذات.

ثم بلغ كلام الإمام عليه السلام ذروته ليخوض في تلك الذات المطلقة إلى الحد الذي يسعه الفكر البشري فشرح الذات المقدسة بأسلوب رائع ضمن عبارة قصيرة وعميقة المعنى بما يبعدها عن التشبيه ولا ينتهي إلى تعطيل المعرفة فقال:

«تَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لَابِمُشَاعِرَةٍ [١٨٩]، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي [١٩٠] لَابِمُحَاصِرَةٍ [١٩١]».

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١٠٠

دليل واضح إشارة إلى أن آثار عظمتهم وقدرتهم وعلمهم وحكمتهم التي ملأت العالم على وجوده؛ الوجود الكائن خلف حجب الغيب وما وراء الطبيعة وجعل كل شيء تجلياً لعلمه وقدرته.

وقال في مواصلته لكلامه عليه السلام:

«لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ [١٩٢]، بَلْ تَجَلَّى لَهَا [١٩٣] بِهَا، وَبِهَا

امْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا».

فالإمام عليه السلام طبق ما ورد أبطل مذهب التعطيل إلى جانب نفى التشبيه؛ أي أنه حذر من مغبة خطأ أولئك الذين يزعمون أنهم لا يفهمون من صفات الله تعالى سوى صفاته السلبية، إلى جانب أولئك الذين هبطوا بالله تعالى إلى درجة الممكنات فقالوا: له صفات

محدودة وممكنة، فقد تحدّث من جانب عن تلقى الأذهان وتجلي الصفات ومن جانب آخر عن عدم احاطة الأفكار بالذات القدسيّة وصفاتها وينتج من ذلك أنّ لدينا علماً إجمالياً بالنسبة لذاته وصفاته سبحانه رغم عجزنا عن الاستغراق في تفاصيلها وجزئياتها.

ثم قال عليه السلام:

«لَيْسَ بِيْذِي كِبَرٌ امْتَدَّتْ بِهِ النَّهَائِيَّاتُ فَكَبَّرْتُهُ تَجْسِيماً، وَلَا بِيْذِي عِظَمٌ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمْتُهُ تَجْسِيداً؛ بَلْ كَبُرَ شَأْنًا، وَعَظُمَ سُلْطَانًا.»

إشارة إلى أننا حين نقول:

«الله أكبر»

إنما يقتدح أحياناً إلى ذهن الأفراد غير المطلعين إلى أنّ أبعاده الوجودية ملأت شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه، وحين نقول:

«الله عظيم»

يتصورون أنّه كذلك بالنسبة لسائر الموجودات كالجبال والبحار والسموات، والحال ليس لكبره وعظمته من بعد جسمي، بل كبره وعظمته معنوي،

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١٠١

لأنّه إن كان الله جسماً كبيراً لا شتملاً حتماً على أجزاء ونهاية وزمان ومكان بينما هو أسمى وأرفع من كلّ ذلك وبأها من كلمات رائعة تلك التي ساقها الإمام الصادق عليه السلام لذلك الشخص الذي قال عنده: الله أكبر، فسأله عليه السلام:

«أَكْبَرُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟»

قال،

«مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.»

فأشار عليه الإمام عليه السلام:

«بِأَنَّكَ جَعَلْتَ لَهُ حُدُوداً فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ»

. فقال الشخص فماذا أقول: قال عليه السلام: قل:

«الله أكبر مِنْ أَنْ يُوصَفَ» [١٩٤].

إشارة إلى أننا لا نعدو صفات مخلوقاته في كلّ صفة نطبقها عليه ذلك لأنّ فكرنا محدود في الاستيعاب، وعليه فهو أسمى من كلّ الصفات وهذا ما أكدّه القرآن الكريم بقوله: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ» [١٩٥]. (الذين يصفونه بما يليق به).

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١٠٣

القسم الثاني

إشارة

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجُجِ، وَظُهُورِ الْفَلَاحِ، وَإِضْاحِ الْمَنْهَجِ؛ فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً بِهَا، وَحَمَلَ عَلَى الْمُحَجِّجَةِ دَالاً عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الْإِهْتِدَاءِ وَمَنَارَ الضِّيَاءِ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ الْأَسْلَامِ مَتِينَةً، وَعُرَى الْإِيمَانِ وَثِقَةً.

الشرح والتفسير: الأبعاد الوجودية للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان صفات الجمال والجلال خاض في الأصل الثاني للدين أي الشهادة بنبوّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فوصفه بتلك الصفات التي تكشف عن أبعاده الوجودية كافة فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ-».

حقاً إنَّ الله تعالى إن اصطفى شخصاً واعتبره أميناً وارتضاه من خلقه فذلك لكمال إخلاصه وطهارته على جميع المستويات، فهذه العبارات إشارة إلى عصمة النبي صلى الله عليه وآله من الذنب والخطأ.

ثم خاض عليه السلام في الأهداف المتوخاة من بعثته صلى الله عليه وآله وتعاليمه فقال:
«أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ، وَظُهُورِ الْفَلَجِ [١٩٦]، وَإِيضاحِ الْمُنْهَجِ».

وهكذا بين الإمام عليه السلام من خلال هذه العبارات الثلاث أهداف البعثة التي تتمثل في إتمام الحجية وانتصار الحق على الباطل وإيضاح سبيل السعادة. آنذاك تناول

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٠٤

المهام العملية للنبي صلى الله عليه وآله فقال:

«فَبَلَغَ الرَّسَالَهَ صَادِعاً [١٩٧] بِهَا، وَحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالاً

عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الْأَهْتِدَاءِ وَمَنَارَ الضِّيَاءِ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ [١٩٨] الْأَسْلَامِ مَتِينَةً، وَعُرَى [١٩٩]

نفحات الولاية؛ ج ٧؛ ص ١٠٤

الْإِيمَانِ وَثِيْقَةً».

فقد ورد الحديث بادئ الأمر عن الخوض في إبلاغ الرسالة بصورة كلية على غرار ما ورد في القرآن الكريم: «فَاصْبِرْ بِمَا تُوْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» [٢٠٠].

ثم خاض في الجزئيات في أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله دعا الناس إلى جادة الصواب وعرض لهم علامات لسير على هذا النهج ونصب لهم مصابيح الهدى حتى لا يضلوا الطريق في ظلمة الليل ولا يتخلفوا عن مواصلة السير، وبالتالي رسخ أسس الإسلام وشدَّ عرى الإيمان بشرح وافٍ وتديير محكم.

وقلما نجد كلاماً يستعرض هذا المطلوب بشأن أهداف النبي صلى الله عليه وآله وخططه في الدعوة بهذه العبارة القصيرة والعميقة.

العبارة:

«جَعَلَ أَمْرَاسَ الْأَسْلَامِ مَتِينَةً»

كأنه شبه الإسلام بالخيمة التي شددت بحبال متينة من كل جانب إلى الأرض لتحول دون إقتلاعها من قبل العواصف وليست هذه الحبال سوى بعض الأمور من قبيل الجمعة والجماعة والحج والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد التي حفظت على الدوام بيضة الإسلام وذادت عن كيانها، فالإسلام بخير ما طبقت هذه التعليمات الإسلامية فإنَّ ضعفت هيمن الأعداء على المسلمين.

والعبارة:

«وَعُرَى الْإِيمَانِ وَثِيْقَةً»

شبهت الإيمان بحبل له عدة عقد لابد من التمسك بها للنجاة من قعر البئر أو الخلاص من المطبات، ومن الطبيعي أن هذه العقد

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٠٥

إن كانت ضعيفة وخاوية فلا يتعذر على الإنسان النجاة فحسب بل يشرف على سقوط خطير فهذه العقد هي فروع الإسلام وتعليماته في مختلف مشاريعه العبادية والاجتماعية التي صرحت بها الأخبار والروايات، ومن ذلك ما ورد في الحديث النبوي الشريف أنه صلى الله عليه وآله سأل أصحابه يوماً:

«أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ أَوْثَقُ؟»

قالوا: «اللَّهُ ورسوله أعلم؟» وذكر البعض الصلاة أو الزكاة و... فقال صلى الله عليه وآله:

«بلى في ذلك فضلٌ، ولكن أوثق عرى الإيمان الحُبُّ في الله والبغضُ في الله وتولى أولياء الله والتبري من أعداء الله» [٢٠١].

طبعاً يمكن أن تكون المفاهيم الأخلاقية التي أشارت إليها الروايات من قبيل التوكل والتفويض والتسليم والرضا والصبر واليقين وما شابه ذلك من عرى الإيمان وليست هنالك أي منافاة مع بعضها البعض الآخر.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٠٧

القسم الثالث

إشارة

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجِسِيمِ النَّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَلَكِنَّ الْقُلُوبَ عَلِيلَةً، وَالْبَصِيرَةَ مَدْحُولَةً! أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَيْغِيرٍ مِمَّا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتَقَنَ تَرْكِيْبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصِيرَةَ، وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشْرَةَ! انظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِعْرٍ جُثَّتْهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لَاتَكَادُ تُنَالُ بِلِحْظِ الْبَصَرِ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكْرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصَبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُجْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسَدِّ تَقَرُّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبُرْدِهَا، وَفِي وَرْدِهَا لِصَدْرِهَا؛ مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَزْرُوقَةٌ بِوَفْقِهَا؛ لَا يُغْفَلُهَا الْمَنَانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدِّيَانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ! وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، فِي عُلوِّهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجُوفِ مِنْ شَرَّاسِيْفٍ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَبًا، وَلَقَيْتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَبًا! فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يَشْرِكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعْنَهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ. وَلَوْ صَرَّيْتُ فِي مَيَادِهِ فِكْرَكَ لَتَبَلَّغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّحْلَةِ، لِذَيْقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيْءٍ. وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالتَّقِيْلُ وَالْحَفِيْفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيْفُ، فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءً.

الشرح والتفسير: قدرته المطلقة في خلق الكائنات

عاد الإمام عليه السلام ثانية إلى موضوع معرفة الله الذي استهل به خطبته وعرج فيها

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٠٨

على معرفة النبي صلى الله عليه وآله ليخوض هنا في أدلة اثبات وجود الله وعلمه وقدرته المطلقة، فحذر أولئك الذين ضلوا الطريق فقال:

«وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجِسِيمِ النَّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ».

إشارة إلى أمرين: أنه لو استعمل الفكر لانتضحت آثاره عاجلاً على أعمال الإنسان؛ الأول التفكير في عظمة قدرة الله الذي خلق النجوم السماوية العظيمة ومليارات الكواكب في المجرة ومئات الملايين من المجرات بحيث لم يتضح لأحد سعة ملكه وعظمته، وكل ما نوره بشأن عظمة العالم إنما يقتصر على الأشياء التي لا تتجاوز دائرة علمنا القاصر، ولعل كل ذلك لا يعدو ورقة شجرة بلغت عنان السماء في وسط غابة كثيفة، فالتفكير بهذا الشأن يجعل الإنسان خاضعاً لهذه القدرة فيقبل على الله ويتعلق به قلبه فينير باسمه وذكره حياته.

والآخر التفكير في النعم كونها ملأت وجودنا وهي متصلة منذ لحظة انعقاد النطفة حتى ختام العمر؛ فقد سخر لنا لشمس والقمر والسماوات والأرض ومنحنا التصرف في السحب والرياح والأمطار، فقد بسط نعمته في كل مكان وجعل الجميع يتغذى على رزقه، والحق أن شكر النعمة المودع في فطرته كل إنسان يسوقه إلى معرفة المنعم.

ثم تساءل عليه السلام ترى ما العامل الذى يصد الإنسان عن السبيل ويسوقه إلى العذاب الأليم مع وجود كل هذه الدوافع القوية؟ فقال:

«وَلَكِنَّ الْقُلُوبَ عَلَيْهِ، وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ!» [٢٠٢].

فقد أشار الإمام عليه السلام هنا إلى سببين رئيسيين، لأن المراد من القلوب العقول التى تتعطل عن المعرفة أثر الهوى والهوس وسائر الآفات، والمراد من البصائر عيون البصيرة التى تطرح عليها حجب المعصية والتعصب وحب الذات. وبالطبع فإن هذه الأمور طارئه على أصل الخلق بل الغفلة والهوى والهوس

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١٠٩

والشهوة هى التى قادت إلى ذلك، فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارة القصيرة إلى موانع المعرفة التى أفصح عنها القرآن الكريم بقوله: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [٢٠٣]. وقوله:

«أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً» [٢٠٤].

كما تضمنت العديد من الآيات القرآنية دعوة الجميع إلى تأمل أسرار الخلق والتفكر فى قدرة الله ونعمه عليهم يعودون عن هذا الطريق إلى جادة الصواب.

ثم ركز الإمام عليه السلام على بعض الكائنات العجيبة فى هذا العالم بعد فراغه من بيان أسرار الخليفة بصورة كلية فقال:

«أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرٍ مَا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَاتَّقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَسَوَّى [٢٠٥] لَهُ الْعِظْمَ وَالْبَشْرَ!» [٢٠٦].

حيث أشار الإمام عليه السلام إلى ستة أمور بشأن الحيوانات والحشرات الغاية فى الصغر؛ الخلق المحكم، التركيب الصحيح، الإشتغال على الأذن والعين، والنظام الخاص فى العظام والجلد، نعم فهذه الحشرات تتمتع بالأعضاء والوسائل كافة التى تحتاجها رغم صغرها فقد أفاض الله عليها بقدر جسمها وحاجتها ما أفاضه على بعض الحيوانات العظيمة كالفيل والجمل وبالطبع يبدو خلق هذه الكائنات الصغيرة أعظم من تلك الكبيرة لما فيها من دقة وظرافة عجيبة.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى مرحلة أدق فى تفاصيل مخلوقين صغيرين غالباً ما لا يكثر الإنسان لخلقتهما بعبارات رائعة، فقال بادئ الأمر بشأن النملة:

«انظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لَأَنكَادُ تَنَالُ بِلِحْظِ الْبَصَرِ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكْرِ».

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١١٠

ثم قال عليه السلام:

«كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصِيَّبَتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى حُجْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِيُرْدَهَا، وَفِي وَرْدِهَا [٢٠٧] لِيَصْدُرِهَا» [٢٠٨].

نعم، فهذا المخلوق الضعيف على درجة من الفطنة بحيث يعرف كيف يمارس حياته، فهو يتجول بهذه اليد والرجل الصغيرة فى الجبل والصحراء ويتسلق الأشجار ويختار ذلك النوع من الطعام من بين مختلف الأطعمة والذى ينسجم مع طبيعته ومزاجه ويجلب إلى عشه الحبوب من الطرق القريبة والبعيدة فهو يختار حتى هذه الحبوب ويسلك بعض الطرق المتشعبة فى عشه كى لا يخلق بعض المتاعب لسائر جنسه فى الحركة والعبور ثم يضع هذه الحبوب فى مكان معين بغية الحيلولة دون فسادها، ويعمد فى فصل الصيف بإلهام ذاتى ودون أن يرى فصل الشتاء- أى ولد فى تلك السنة- لادخار بعض الحبوب والمواد الغذائية التى يحتاجها فى المستقبل خشية هطول الأمطار وتعذر الحركة فى فصل الشتاء فيلتقط ما يعينه على قضاء تلك المدّة.

ثم قال عليه السلام:

«مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا؛ لَا يُغْفَلُهَا الْمَنَانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدِّيَانُ ٢٠٩»، وَلَوْ فِي الصَّفَا [٢١٠] الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ! [٢١١].

أشار إلى أن الله سبحانه وتعالى قد عمّ لطفه هذه الموجودات الصغيرة التي تعيش في الجبال والصحارى والسهول فزودها بالطعام الذى يلائم طبعها وقد وفر لها ما تحتاجه من غذاء ورطوبة لازمة عن طريق الهواء حتى وإن كانت تعيش فى جوف صخرة صماء، والهمها قدرة التزود بالطعام لتلك التى تفتقد فيها هذه القدرة وهذا حقاً ما يذهل العقول.

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١١١

هل تدرى هذه الحشرة أنه يتعذر عليها الخروج من عشها فى بعض أيام الشتاء؟

وهل تفهم المقدار الذى تحتاجه من المواد الغذائية فى تلك المدّة؟ وهل تعي طبيعة المواد التى يمكن أن تبقى سالمة أو فاسدة خلال هذه المدّة؟ وهل تعلم أين هذه المواد وكيف يجب عليها الحصول عليها؟ نعم، إنها تعرف كل ذلك بعد أن علّمها خلقها.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى البنية العجيبة لهذا المخلوق الحى الصغير فقال:

«وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَعْيُنِهَا، فِي عُلُوقِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَّاسِيفِ [٢١٢]

بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنَيْهَا وَأُذُنَيْهَا، لَفَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَبًا، وَلَقَيْتَ مِنْ وَضْفِهَا تَعَبًا».

إشارة إلى أن الإنسان لو تأمل خلق هذا الموجود الصغير الذى لا يرى بسهولة لراى عالماً عجيباً حقاً فذلك الرأس الغاية فى الصغر يضم العين والأذن والفم وقرنان كأنهما هوائيان تستفيد منهما فى الارتباط بالعالم الخارجى وتحوى بطنها شىء أشبه بالمعدة والأمعاء واحاطت به أضلاع غاية فى الصغر والدقة كما لها أعصاب وعضلات ظريفة تتناسب مع حاجتها ويتولى دماغها الصغير إدامه حياتها المعقدة، ولأرجلها مفاصل مختلفة ولكل مفصل وظيفة معينة على غرار مفاصل الحيوانات الكبرى.

ثم خلاص الإمام عليه السلام ممّا سبق إلى هذه النتيجة فقال:

«فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يُشْرِكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنِّهِ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ».

فقد لفت الإمام عليه السلام فى هذه العبارة انتباه الجميع إلى موضوعين:

وهو أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الجسد الظريف على يد ورجل ظريفة تستطيع حمله بل أحياناً تحمل حملاً ثقيلاً يفوق دفعه أضعاف وزنها، والغريب أنّها

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١١٢

تتسلق الحائط الأملس بهذا الحمل وتلتصق أحياناً بالسقف وتواصل طريقها وهو العمل الذى يتعذر على أى إنسان بطل القيام به، أضف إلى ذلك فقد خلق لها جهازاً عظيماً يناسب طبيعتها والذى عبّر عنه الإمام عليه السلام بالدعائم، وهذا الجهاز ليس ثقيلاً بحيث يحدّ من حركتها ولا خفيفاً وظريفاً إلى الدرجة التى لا تستطيع حفظ حياتها وما بجوفها.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة مهمّة أخرى فقال:

«وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لَتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ، لِذَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ».

أى لا تعتقدوا أن بنية كائن كبير كالنخلة الضخمة أعقد من بنية موجود صغير كالنملة، لأنكم إن نظرتهم بدقّة فإنّ لكليهما بنية غاية فى التعقيد والدقّة وتحكم كل منهما قوانين معينة وتبدو عليهما الهداية الإلهية منذ الولادة حتى الممات بالإضافة إلى أنّ لتلك الشجرة الكبيرة أعضاء مختلفة صغيرة وكبيرة وقوية وضعيفة بحيث يؤدّى كل منهما وظيفة معينة تتناسب معه (وعلى هذا الضوء تتضح علاقة العلة والمعلول فى العبارات المذكورة).

وزبدة الكلام إن الإنسان يرى أحياناً آثاراً مختلفة من حيث الصغر والكبر لصانع اساعه التى لا يعدو حجمها سانتيمتراً واحداً وأخرى

التي تبلغ بضعة أمتار، أو كتاب من بضع صفحات وآخر ذو عشرة أجزاء، فإنَّ الإنسان حين يقارنها مع بعضها ويرى وحدة الأصول الكلية السائدة فيها ويقف على انسجام الآداب التي ضمها ذلك الكتاب الصغير وذلك الكبير يفهم أنَّ هذين الأثرين يعودان إلى مصدر واحد وأنَّ الذي أبدعهما واحد أيضاً.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة مهمّة أخرى لمواصله كلامه السابق فقال:

«وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءً».

إشارة إلى أنَّ الصغير والكبير والبسيط والمعقد إنما يتصور بالنسبة لموجود

نقحات الولاية، ج٧، ص: ١١٣

محدود القدرة ويمتنع عليه ما كان خارجاً عن استعداده ويصعب عليه ما كان بمنتهى استعداده ويسهل عليه ما كان دون قدرته، أمّا الله تبارك وتعالى اللامتناهي القدرة فالجميع لديه على حد سواء، فلا فرق عنده بين تسيير المنظومة الشمسية وتسيير ذرة من الغبار، وخلق نمل غايه في الصغر مع خلق شجرة غايه في الضخامة.

وحمل حية قمع بالنسبة لنملة يفرق عما عليه في حمل حبتين، فلعل حملها للأولى يبدو سهلاً بينما يشقّ عليها حمل الثانية والحال لا نشعر نحن البشر بأدنى فارق بين الحالتين.

كما أننا نستطيع في تصوراتنا الذهنية أن نتصور قطرة ماء كما نستطيع بنفس البساطة تصور بحر متلاطم من المياه.

لعل هذه الأمثلة تستطع إيضاح عمق البحث الذي ذكرناه بشأن قدرته المطلقة سبحانه.

تأمل

حياة النمل العجيبة

رغم أنَّ طبيعة النمل بفعل كثرتها وتنوعها وتواجدها في الجبال والصحراء وداخل البيوت بحيث لا تحصى باهتمام عامة الناس، لكنها تبدو عجيبة للغاية بالنسبة للعلماء الذين فكروا لأكثر من عقدين بشأن حياتها فالدراسات التي أجريت بشأن أسرار خلقه هذه الكائنات فتحت الباب على مصراعيه أمام الوقوف على عظمة الخالق ونشير هنا إلى جانب من تلك الدراسات:

١. إنَّ الحيوانات والحشرات التي تعيش بصورة جماعية ليست بالقليلة من قبيل:

الطيور والأسماك والغزلان بينما قليلة هي الحيوانات التي تستند حياتها الجماعية على أساس تقسيم الوظائف والأعمال وأبرزها النمل فلاتناث النمل وظيفه جمع

نقحات الولاية، ج٧، ص: ١١٤

الطعام وحفظ الفراخ وحتى حراسة ملكة النمل في عشها، ووظيفة الذكور تلقيح الملكة كما أنَّ وظيفة الملكة وضع البيوض، والغريب في الأمر أنَّ الذكور تموت بعد التلقيح، وهنالك طائفة منها تبدو كمجموعة مسلحة لها مجسات قوية تنبى للدفاع بها عن نفسها وصد هجمات الأعداء على لاعشاش.

٢. تقوم العاملات بوظيفه ثقب الأرض وإيجاد حفرة بالتدرج لتوفر لبعيتها الحياة تحت سطح الأرض إلّا أنَّ جميع النمل لا يعيش تحت الأرض فهنالك طائفة منها التي يطلق عليها «النجارة» تعتمد إلى ثقب الأخشاب لتصنع أعشاشها بداخلها

٣. تملك النملة - على الرغم من صغرها ودقّة هيكلها - جميع الأجهزة التي يملكها الحيوان الكبير بل لديها ما يفوق تلك الحيوانات من قبيل: الأرجل الإضافية والمجسات التي تمكنها من التعرف على الوسط الذي تعيش فيه.

٤. هناك نوع من النمل يتغذى على بعض الأحياء ومن ذلك النمل المعروف بالحنطى والذي يخدمه البرغوث النباتى، فهذه الحشرات تفرز سائلاً حلواً كالعسل يتغذى عليه النمل، كما يستفيد سائر النمل من بعض الحشرات التى تضع بيوضها على قشور الأشجار.

٥. إذا لا- يعترىكم العجب فإنّ بعض النمل يمارس الزراعة، فهناك نوع من النمل يدعى المظلى حيث يرتب مزرعة صغيرة حول أعشاشها ويزرعها بالفطريات الصغيرة وتقوم العاملات بفصل قطع صغيرة من الأوراق وتضعها على رأسها فتبدو وكأنّها مظلة وهذا سبب التسمية.

٦. هنالك نوع من النمل يدعى بالحرس الذى ينتقل كالبدو من مكان إلى آخر، وهو فى الواقع حشرات مفترسة تتجنبها حتى الفيلة وإلّا كبدتها خسائر جسيمة، وطائفة من هذه الحشرات التى تعيش فى المناطق الحارة تأكل اللحوم، فإن هاجمت حيواناً افترسته ونهشت لحمه وعضلاته ولا تبقى منه سوى العظام وخلال مدّة وجيزة.

نقحات الولاية، ج٧، ص: ١١٥

٧. للنمل عادة رأس كبير وخصر نحيف وجثّة قويّة فهى قادرة على حمل الحبوب التى تعادل بضعة أضعاف وزنها وتتسلق الجدران التى لا يقوى على تسلقها الأبطال من حملة الأثقال، نعم فالنملة وخلافاً لجثتها الصغيرة تحمل ما يبلغ عشرة أضعاف وزنها وتنقله من مكان لآخر.

٨. نظرة النملة للمستقبل وإدارتها رائعة جداً، فهى تفكر فى الصيف بمؤونة الشتاء والحال ربّما لم تكن شاهدت الشتاء طيلة عمرها، فتلتقط الحبوب وتخرجها أحياناً من عشّها لكى لا تفسد، وأحياناً أخرى تشطرها نصفين حتى لا تخضر وتنمو.

٩. للنمل خبرة عجيبة بالمكان فقد ذكر العلماء أنّهم جعلوا نملة وسط دائرة من النار فحاولت الخروج ولم تستطع حتى ماتت وكان ذلك فى مركز الدائرة، أى أبعد نقطة عن النار.

١٠. ذكر العلماء أنّ النمل أنواع ربّما يتجاوز الأربعة آلاف وأنّ عدده على الأرض عشرة أضعاف عدد الناس، وتفيد المطالعات الحديثه أنّ النمل سبق الإنسان فى التغلب على مشكلة الازدحام، فملايين النمل تتخذ أقصر الطرق لتبلغ مقصدها بأسرع وقت ودون أى تأخير.

إنّ عجائب عالم النمل ليفوق ما ذكرناه وقد سطرت العديد من المقالات والكتب بهذا الشأن، ومن هنا تتضح أهميّة المسألة التى ركز عليها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة من شرحه لخلق الله سبحانه [٢١٣].

نقحات الولاية، ج٧، ص: ١١٧

القسم الرابع

إشارة

وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَّاحُ وَالْمِيَاءُ. فَانظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّيَّاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمِيَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللَّغَاتِ، وَالْأَلْسِنِ الْمُخْتَلِفَاتِ. فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدَّرَ، وَجَحَدَ الْمُدَبَّرَ! زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَمَّا لاختلاف صورهم صيانع؛ ولم يلبجأوا إلى حُجَّةٍ فيما ادَّعوا، ولا تحقيق لما أوَّعوا، وهل يكون بناءً من غير بانٍ، أو جناناً من غير جانٍ!؟

الشرح والتفسير: نظرة إلى كائنات السموات والأرض

تحدّث الإمام عليه السلام فى القسم السابق من الخطبة عن عجائب خلق النمل وبغية دفع التوهم بأنّ العجائب التى تسلب العقول

وتخطف الأبصار ربّما تنحصر في هذه الموارد صرح مباشرة بأن تأمل مواضع هذا العالم الواسع في أرضه وسمائه إنّما ينطوى على مثل هذه العجائب أيضاً، فركز الإمام عليه السلام هنا على ست عشرة ظاهرة عجيبة في هذا العالم من السماء والأرض إلى بعض الأمور المرتبطة بالإنسان فقال:

«وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَّاحُ وَالْمَاءُ».

وواصل كلامه قائلاً:

«فَانظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالتَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِيَالِ [٢١٤] وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ، وَالْأَلْسِنِ الْمُخْتَلِفَاتِ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١١٨

فقد طرح الإمام عليه السلام هنا سلسلة من الموجودات المتنوعة في هذا العالم لكل منها مميزاتها العجيبة وخصائصها الجمّة، والمراد من السماء مجموعة العالم العلوي من الثوابت والسيارات إلى المجرات وعليه فالشمس والقمر في الجملة القادمة من قبيل ذكر الخاص بعد العام وأنا لنعلم أنّ السماء بهذا المعنى تنطوى على خلقه غاية في الدهشة كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» [٢١٥].

المراد من الهواء هو ذلك الهواء المحيط بالكرة الأرضية، الأكثر حيوية من كل شيء والأكثر من كل شيء.

والرياح (جمع ریح) والتي له عدّة وظائف في تسيير عجلة حياة الإنسان والكائنات الحية فهي تسوق السحب والغيوم إلى الأراضي الجافة والقاحلة فتخرج النباتات، وتبث الأمواج في البحار وتزود الكائنات البحرية بالأوكسجين وتنقل الهواء الملوث من مكان إلى آخر وتبعث إلى المدن بهواء الغابات النقي.

والماء هنا بقرينه الرياح إشارة إلى نزول الأمطار التي تبعث الحياة كما ذكر ذلك القرآن الكريم: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» [٢١٦].

ثم أمر الإمام عليه السلام بتأمل مختلف كائنات هذا العالم من الشمس والقمر إلى النباتات والأشجار والمياه والأحجار (يبدو أنّ المراد من الماء الذي ذكر هنا إلى جانب الحجر هو العيون والأنهار الجارية) واختلاف الليل والنهار إشارة إلى النظام الدقيق ذو النور والظلمة حيث يعقب كلّ منهما الآخر وينبثق من بركتهما الفصول الأربعة وتلك الليالي الساكنة والهادئة والأيام المفعمة بالحركة والتي أشارت إليها العديد من الآيات القرآنية.

العبارة:

«وَتَفَجُّرِ الْبِحَارِ»

يمكن أن تكون إشارة إلى ظهور البحار أو الحركة التي

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١١٩

تظهر تلك الأمواج العاتية ونعلم أنّ البحار مركز عجائب مخلوقات الله حيث ورد في دعاء الإمام السجاد عليه السلام:

«يَا مَنْ فِي الْبِحَارِ عَجَائِبُهُ» [٢١٧]

وأنها مصدر مهم للمواد الغذائية والمعدنية ووسيلة مناسبة للنقل بصورة واسعة جدا ومصدر ظهور السحب وهطول الأمطار.

وكثره الجبال إشارة إلى عددها الجم والذى جعلها تبدو كدرع يحيط بالكرة الأرضية وتكسر الرياح العواتي وتحفظ بالسحب لسقى الأراضي وتمنح الأرض الهدوء والاستقرار إزاء عمليّة المد والجزر الناشئة من الجاذبية الأرضية، كما أنّ سفوحها مرعى خصب للدواب والأنعام. كما أنّ استطالة القطعان تؤدّي إلى ادّخار المياه بصورة برد أو حبات ثلج على سفوحها فتتحدّر تدريجياً إلى الأراضي القاحلة فتسقيها بالمياه، كما تسقى الإنسان والحيوان، قال القرآن الكريم: «وَالْأَرْضَ بَعِيدَ ذَلِكَ دَحَاهَا» أخرج منها ماءها

وَمَرْعَاهَا* وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا* مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ» [٢١٨].

وأشار الإمام عليه السلام في النهاية إلى نقطة مهمة من حياة الإنسان والتي تتمثل في اختلاف اللغات واللهجات وكثرة الألسن، فكيف تعددت هذه اللغات وكيف كان لكل قوم لغتهم الخاصة مع أن الجميع ينحدر من ذات الأب والام؟ فالآن هنالك أكثر من ألف لغة في العالم بما فيها اللغات الرسمية والمحلية، وقد أفاض الله على الإنسان استعداداً لخلق اللغة بحيث تتمكن كل جماعة من اختراع لغة ووسيلة للتفاهم بينها ولعل ذلك لكي تنحصر أسرارهم بينهم دون أن يطلع عليها الآخرون، قال القرآن الكريم: «الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» [٢١٩].

وقال أيضاً: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ» [٢٢٠].

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١٢٠

ولما فرغ الإمام عليه السلام من استدلالاته الرصينة والمقنعة في إثبات وجود الله أتجه صوب من ينكر وجود الله ليفند دعواه الواهية بدليلين. (طبعاً قلما يرى في القرآن ونهج البلاغة كلام بشأن الماديين ومنكري الذات الإلهية القدسية، ذلك لأنهم كانوا قلماً قليلة آنذاك وكان أكثر الناس ممن يعتقدون بالأديان والمذاهب).

فقال عليه السلام:

«فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدَّرَ، وَجَحَدَ الْمُدَبِّرَ!».

إشارة إلى أن آثار التدبير في أرجاء عالم الخلق كافة على درجة من الوضوح بحيث لا يستحق منكر مدبر العالم سوى الويل واللعنة.

ثم قال عليه السلام:

«رَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُورِهِمْ صَائِعٌ».

طبعاً هذه العبارة بسبب النظرة الساذجة التي يبديها الإنسان عادة تجاه العلف المهمل والحال من وجهة نظر عالم النبات أن كل ورقة منها هي دفتر من معرفة الله تعالى وقد توصل العلماء المعاصرون اليوم إلى أن آلاف الأنواع من هذا النبات يخترن العديد من الخواص الطبية والعلاجية ولكل منها بنية معقدة، الجذور والسيقان والأوراق والبذور كل منها تبدو أعجب من الاخرى إذن يتضح من تأملها أن لها زارعاً وخالقاً عليمًا وقديرًا.

ثم فند الإمام عليه السلام قولهم بدليلين: فقال أولاً:

«وَلَمْ يَلْجَأُوا [٢٢١] إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا،

وَلَا تَحْقِيقَ لِمَا أُوْعُوا [٢٢٢]».

والدليل الثاني أن لكل بناء منظم ومبنى مرتب مهندس ومعمار فقال عليه السلام:

«وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ».

وتوجد اليوم العديد من الآثار والمباني هنا وهناك في الكرة الأرضية وقد مرّت عليها آلاف السنين وحفظت كآثار تراثية لما فيها من دقة وفنون وليس هنالك أحد

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١٢١

من عباد الله ولا أحد من الماديين من يدعى أن هذه المباني ظهرت بواسطة الأمطار والرياح والعواصف أو أنها رتبت من قبل أفراد جهال من عديمي الخبرة عن طريق الصدفة، بل يجمع الجميع دون استثناء على وجود الباني لها صاحب العقل والشعور ويشيد بهندسته وفنه في البناء.

والعبارة:

«أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ»

إشارة إلى أنه ليس فقط البناء بحاجة إلى علم وتدريب بل التخريب والجناية المتعمدة تحتاج إلى تخطيط الشخص العاقل الذي يتعين عليه انتخاب الزمان والمكان والوسيلة وكيفية ممارسة العمل لتحقيق الهدف.

ويستعان اليوم بذوى الخبرة والاختصاص فى هدم بعض المباني الضخمة بغية تفادى وقوع العوارض الجانبية، وعليه فالبناء والهدم المبرمج كلاهما يحتاج إلى العقل والتدبير.

والدليل على هذا الكلام ما سيرد فى القسم القادم من هذه الخطبة وكلام الإمام عليه السلام عن الجراد وبنيتة العجيبة وعمله التخريبي المنظم ضد النباتات.

تأمل

قِسات من برهان النظم

ما قاله الإمام عليه السلام فى العبارة الأخيرة من هذه الخطبة:

«وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بِنَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ»

إشارة لطيفة إلى البرهان المعروف ببرهان النظم الذى يعدّ من أهم الاستدلالات على معرفة الله. توضيح ذلك:

أنا حين نرد مبناً ضخماً ذا عدّة طبقات يحتوى على غرف متعددة، وصالة للاستقبال، ومطبخ وحمام، ومرافق صحية، ومصاعد وحين ننظر إلى الجدران والسقوف المزينة بالمرايا الجميلة والنقوش الظريفة الملونة ووسائل التكييف والتبريد ومد أنابيب المياه والغاز وخطوط الكهرباء والهاتف فترى كلّ شيء منظم ومرتب.

فهل هنالك من أحد - مهما كانت درجته من العقل والشعور - يحتمل أنّ الصدفة الناشئة من الحوادث الطبيعية المختلفة هي التى تقف وراءه؟ أم أنّ عدّة عمال أميين

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٢٢

جمعوا مقداراً من مواد البناء فبنوا هذا البناء الرائع دون أن يكون لديهم أدنى فن أو خبرة؟

قطعاً أنّ كلّ من يحتمل هذا الشئ إما أن يمزح أو أنّه فقد عقله، فالعقلاء كافّة يحكمون بأنّ بعض الأفراد الأذكياء أعدّوا خريطة مسبقة ثم تكاتف عدد من المهندسين البنائين المهرة والمختصين وذوى المهن المنزلية ليشيدوا معاً هذا المبنى.

ويصدق هذا الكلام على كلّ بناء وكل مصنع وكل كتاب علمي و... ويعبر عن ذلك ببرهان النظم ويقال إنّ النظم يدل دائماً على عقل وشعور من يأتى به، وكلّما كان النظم أدق وأعقد كان صاحبه أوعى عقلاً وشعوراً وعلماً.

ولو تأملنا بنية نملّة والتي يمكن أن نقضى عليها لحظة واحدة دون أن نلتفت إليها لوقفنا على أنّها أعظم وأهم من تلك المباني الشاهقة والضخمة، فبنية الأرجل، ومفاصلها والأيدى والمجسات والعين الغاية فى الصغر وجهاز الشامة القوى الذى يمكنها من الشّم من مسافات بعيدة والفم والأمعاء وجهاز الهضم وسلسلة الأعصاب والأهم من كلّ ذلك الدماغ الغاية فى الصغر والخارق للذكاء لكشف كلّ منها بمفرده خلقه من قبل خالق عالم وقدير.

أضف إلى ذلك فإنّ هذه الحشرة الصغيرة تتغذى وتنمو وتتجب بينما ذلك المبنى الضخم موجود جامد خالٍ من الروح لا يأكل ولا يشرب ولا ينمو ولا ينجب.

والحقّ أنّ إيماننا ليتعمق بذلك الخالق القادر والعالم إن اتجهنا صوب بنية الإنسان وأجهزته الغاية فى التعقيد كالقلب والدماغ

والأعصاب وألوف الكيلومترات من الشرايين والأوعية الدموية التي تغذى كل لحظة جميع ذرات البدن. أضف إلى ذلك فإننا نعلم أن العالم يحتوى على مئات الألوف من أنواع النباتات ومئات الألوف من أنواع الحيوانات والطيور والحشرات و... ولكل منها قصته العجيبة والمذهلة. والقرآن المجيد جعل كل واحدة منها آية من آياته فقال: «سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» [٢٢٣].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٢٣

القسم الخامس

إشارة

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ، وَجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، وَنَابَتَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ. يَرْهَبُهَا الزَّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلَا يَسِدُّ تَطْيَعُونَ ذَبَّهَا، وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّىٰ تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا، وَتَقْضِي مِنْهُ شَهَوَاتِهَا. وَخَلَقَهَا كُلَّهُ لِأَيْكُونَ إِصْبَعًا مُسْتَدِقَّةً.

الشرح والتفسير: صنع الجراد

يمكن تصنيف الحشرات إلى ثلاثة أنواع؛ الصنف الذى يخدم الإنسان كالنحل الذى يزودنا بالشهد وعامة النحل التى تنقل حبوب اللقاح وتنمى ثمار الأشجار.

والصنف الآخر الحشرات غير المؤذية (ظاهرياً) التى لا تعود على الإنسان بالنفع ولا تصيبه بضرر، والصنف الثالث الحشرات التى تعد من الآفات مثل الجراد.

وقد أسهب الإمام عليه السلام فى الأقسام السابقة من هذه الخطبة فى عجائب خلقه النمل فى أنها وجودات خالية من الأضرار غالباً ومجدة ومثابرة يمكن أن تكون نموذجاً للإنسان؛ لكنه تحدث هنا عن حشرة تعد من وسائل العذاب الإلهى وبإمكانها أن تجهز جيشاً لتتجهم به على الحقول والمزارع ولا- يسع قوة الحد من زحفها، وهكذا يفصح الله تعالى عن قدرته فى جميع الجهات ويرسخ لدى الإنسان شعور الخوف والرجاء.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٢٤

فقال:

«وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ [٢٢٤]، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ [٢٢٥]، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ [٢٢٦]. وَأَضَافَ قَائِلًا:

(وَجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، وَنَابَتَيْنِ [٢٢٧] بِهِمَا تَقْرِضُ، وَمِنْجَلَيْنِ [٢٢٨] بِهِمَا تَقْبِضُ».

صرح بعض العلماء بأن الجراد حشرة عجيبة يشبه كل عضو منها أحد الحيوانات، وبعبارة أخرى مع أنها تبدو حشرة ضعيفة لكنها تشبه عشرة حيوانات قوية، فوجهها كوجه الفرس، وعيونها كعيون الفيل ورقبتها كرقبة البقرة، ومجساتها كقرنى الضبى وصدرها كصدر الأسد وبطنها كبطن العقرب وأجنحتها كأجنحة العقاب وسيقانها كسيقان الجمل وأرجلها كأرجل النعامة وذيلها كذيل الحية، وقد

أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات إلى سبع خصائص عجيبة فيها؛ كالعيون والأحداق والأذن الخفية والقم والشعور القوى والأسنان الحادة والعضوين اللذين يشبهان منجلين على جانبي الفم (وسنعرض لها في التأمّلات).

ثم تطرق عليه السلام إلى الأخطار العظيمة لهذه الحشرة التي تبدو ضعيفة فقال:

«يَرْهَبُهَا الزَّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلَمَّا يَشِدُّ تَطْيَعُونَ ذَبَّهَا، وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرثَ فِي نَزْوَاتِهَا [٢٢٩]، وَتَقْضَى مِنْهُ شَهَوَاتُهَا. وَخَلَقَهَا كُلُّهُ لَأَيْكُونَ إِصْبَعًا مُسْتَدَقَّةً [٢٣٠].»

حقاً أنه لمن العجب أن كبار أبطال التاريخ كلما جهّزوا جيشاً لمقاومة هذه الحشرة الضعيفة فشلوا في التخلص منها؛ فأسرّاب الجراد تظهر كقطع السحب

نفعات الولاية، ج ٧، ص: ١٢٥

الكبيرة في السماء فتهاجم بغتة على البساتين والمزارع الواسعة، فتلتهم خلال مدّة قصيرة سيقان النباتات وأغصانها وأوراقها فتحيلها إلى أشجار عارية جرداء من الأوراق والثمار.

ويستعان اليوم بالطائرات التي ترش المبيدات الحشرية وسائر الوسائل لمواجهة خطر هذه الآفة مع ذلك لم تحرز سوى بعض التقدم وفي بعض الأحيان، وإن كانت حملة الجراد قوية، فإن الوسائل المعاصرة هي الأخرى تعجز عن مواجهتها.

تأمل

عجائب الجراد

إن إحدى الحشرات العجيبة هي الجراد، الحشرة التي تبدو بصورة عادية خالية من الضرر والأذى حيث تعيش هنا وهناك في المزارع والبساتين والوديان والجبال، ولكن ما أن تتلقى بعض الأوامر المشفرة حتى تتكاثر بسرعة وتتطاير كأسرّاب عظيمة بمثابة السحب في السماء لتحط على كلّ مزرعة وبستان فتحيله خراباً.

ويقول العلماء: إن بنية هذه الحشرة غاية في التعقيد والدهشة ومن ذلك لها عيانان مركبتان وثلاثة عيون بسيطة، وتتكون عيونها المركبة من أربعة آلاف قسم ولكل قسم بنيتة الخاصة وتتشكل من جميع هذه العيون المركبة رؤية واحدة.

أما العيون الثلاثة البسيطة فتقع في أعلى الرأس، ويتألف صدرها من ثلاث حلقات وبطنها من عشر حلقات تشبه بعضها البعض الآخر. لها زوجان من الأجنحة زوج أمامي بصيغته مقوسة لا يستعمل في الطيران ووظيفته حفظ أجنحة الطيران الظرفية التي تنطبق حين الاستراحة لتحفظ تحت الأجنحة الأمامية القوية.

وقد استطالت أرجلها الخلفية لتساعد في القفز والوثوب، تضع الجراد بيوضها في فصل الصيف أو الربيع، حيث تخرج هذه البيوض بواسطة نوع من المواد

نفعات الولاية، ج ٧، ص: ١٢٦

من ذيلها فتضعها في ثقب من الأرض تصنعها بنفسها، وتمتاز صغار الجراد التي تتفقس عن البيوض بشدّة النهم والحرص فتأكل كلّ ما يصادفها في طريقها، ومن هنا لا بدّ من التعرف على موضع بيوضها من أجل مكافحتها والتصدي لصغارها قبل تفقيسها من البيوض.

والجراد أنواع وأقسام منه الجراد البحري والجراد المراكشي والجراد الإيطالي الذي يسبب خسارة للمزارع أكثر من غيره من سائر الأنواع، ومن عجائب هذه الحشرة أنها تغير شكلها ست مرّات منذ تفقيسها من البيض إلى تكاملها كحشرة قادرة على الطيران.

وتبدو أسراب الجراد على درجة من السعة بحيث تغطي آلاف الكيلومترات المربعة من السماء [٢٣١].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٢٧

القسم السادس

إشارة

فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ (مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا)، وَيُعَفِّرُ لَهُ خَدًّا وَوَجْهًا، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ سَلْمًا وَضَعْفًا، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفًا! فَالطَّيْرُ مُسِيخْرَةٌ لِأَمْرِهِ؛ أَحْصَى عِيدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَالنَّفْسَ، وَأَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى وَالْيَبْسِ؛ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا. فَهَذَا غُرَابٌ وَهَذَا عَقَابٌ. وَهَذَا حَمَامٌ وَهَذَا نَعَامٌ؛ دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وَكَفَلَ لَهُ بَرِّزِقِهِ. وَأَنْشَأَ (السَّحَابَ الثَّقَالَ) فَأَهْطَلَ دِيمَهَا، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا. فَبَلَّ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا.

الشرح والتفسير: الله العظيم

بين الإمام عليه السلام في ختام الخطبة خلاصة عامة ليعتبر موجودات الأرض والسماء كافة وأنواع الطيور والسحب والرياح مؤتمرة بأمره سبحانه وتعالى فقال:

«فَتَبَارَكَ [٢٣٢]

اللَّهُ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ

«مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا» [٢٣٣]

، وَيُعَفِّرُ [٢٣٤] لَهُ خَدًّا [٢٣٥]

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٢٨

وَوَجْهًا، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ سَلْمًا وَضَعْفًا، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفًا!.

ربما يكون السجود هنا إشارة إلى الخضوع الإرادي للذات الإلهية المقدسة فاعله أصحاب العقول والذي يفهم من كلمة «مَنْ»، كما يحتمل أن يكون المراد من السجود الإرادي التشريعي والتكويني، إستناداً إلى أن مفردة «مَنْ» تشمل هنا ذوى العقول وغيرهم (أى لها حيثية تغليبية كما فى الاصطلاح).

ويمكن أن تكون العبارة

«طَوْعًا وَكَرْهًا»

إشارة إلى هذا المعنى، لأنَّ السجود التشريعي قائم على أساس الإرادة، بينما ليست هنالك مثل هذه الإرادة فى السجود التكويني، وعليه فربما تكون إشارة إلى الطائفة التى تسجد مختارة لله والآخرى التى تسجد حين البلاء والشدة كما ورد فى القرآن الكريم: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ» [٢٣٦].

كما أن العبارة

«يُعَفِّرُ لَهُ ...»

إن فسرت بمعناها الحقيقى فهى إشارة إلى السجدة الاعتيادية التى يضع فيها الإنسان جبهته على التربة، وإن فسرت بالمعنى المجازى فهى شاملة للخضوع التشريعي والتكويني.

كما أن العبارة

«يُلْقِي إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ ...»

واردة بهذا المعنى أيضاً في أن طائفة من العقلاء يخضعون لله إنطلاقاً من الرغبة والاختيار والشعور بالضعف والعجز بينما تعيش الموجودات غير العاقلة حالة التسليم لقوانين الخلق دون إرادة واختيار.

وتشير العبارة

«يُعْطَى لَهُ الْقِيَادَ...»

إلى مرحلة أبعد من مرحلة الطاعة لأن الإنسان يسمع أمر المولى في الطاعة فينهض ويباشر العمل، أما في القيادة فهو يسلم نفسه لمولاه ليأخذه حيث يشاء.

ثم وذهب بعض اللغويين إلى التمييز بين «الرهبنة» و«الخوف» في أن «الخوف» يعني مطلقه، بينما تعني الرهبنة الخوف المقرون بالاضطراب وضبط النفس.

ثم خاض الإمام عليه السلام ثانية في جانب من مخلوقات الله العجيبة هي الطيور التي

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٢٩

تمتاز حقاً بعالمها العجيب. فلا يقتصر الأمر على تحليقها إلى السماء باتجاه مضاد للجاذبية الأرضية فتنتقل هنا وهناك بسرعة فائقة، بل تمتاز بنيتها بعض الأشياء المعقدة من جميع الجهات والتي سنعرض إلى جانب منها في ختام هذا البحث فقال:

«فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ».

والعبارة اقتباس من الآية الشريفة: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [٢٣٧].

ثم أسهب الإمام عليه السلام في شرح هذه الطيور فأشار إلى بعض الأمور المهمة فقال:

«أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ [٢٣٨] مِنْهَا وَالنَّفْسَ، وَأَرْسَى [٢٣٩] قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى [٢٤٠] وَالْيَبْسِ؛ وَقَدَّرَ

أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا. فَهَذَا غُرَابٌ وَهَذَا عُقَابٌ. وَهَذَا حَمَامٌ وَهَذَا نَعَامٌ؛ دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وَكَفَلَ لَهُ بَرزُقِهِ».

أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات إلى أمور رائعة، فعَدَّ ريش الطيور من أغرب عجائبها فكل منها يشبه البرعم الجميل الذي غاصت جذوره بصورة سطحية في لحم بدنه وظهرت أغصانه وأوراقه بصورة منتظمة وتجمعت على بعضها بهيئة خاصّة على جوانب الرأس والعنق والجناح والصدر وما أن يسقط أحد منها حتى ينمو آخر غيره فلطافتها عجيبة وألوانها أعجب.

ثم أشار إلى أقدامها فقد صممت بعضها لليابسة فهي قصيرة ومحكمة، وأخرى للفائدة عند حافات البحار والأنهار فهي طويلة ومرتفعة وبرقبة طويلة لتمكن الطائر من تناول طعامه من داخل المياه.

ثم تطرق عليه السلام إلى موادها الغذائية حيث لكل حصته من الحبوب وما شابه ذلك

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٣٠

والطريف في الأمر أن أزياء من الطيور لا- يملك أسناناً لضم هذه الحبوب وبالمقابل زودت بمعدة (والتي يطلق عليها اسم القانصة) والتي تمتاز بحراراتها الشديدة فتفرز بعض السوائل التي تطحن الحبوب وتمتصها، وحيث لا تمتلك الوقت الكافي لالتقاط الحبوب خشية مهاجمتها من مختلف الأعداء فقد زودت بعضو آخر هو الحوصلة التي تشبه الكيس فتقوم عن طريقها بجمع سريع لتلك الحبوب ثم تهضمها وتمتصها.

ثم أشار إلى أنواع مختلفة ومتفاوتة للطيور حيث لكل بيتته الخاصّة وطريقته المختصة به كالغراب والعقاب إلى الحمام والنعامة والتي انطوت على العديد من العجائب والغرائب بما يبهت الإنسان فتعالى الله الملك الحق الذي أبدع كل هذا الخلق.

ولعل العبارة

«دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ»

تشير إلى هذا الموضوع حيث إنه سبحانه خلق كل طائر من هذه الطيور على ضوء ما أَرَادَهُ من خصائص والواقع هذه دعوة تكويته مع مجموعة الخصائص التي عبر عنها بالاسم وشبهه تلك العبارة التي وردت في القرآن الكريم بشأن خلق جميع الموجودات: «أَنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [٢٤١].

واختتم الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلى السحب التي تعد المصدر الأصلي بما تفيضه من مياه ضرورية لحياة جميع الموجودات فقال:

«وَأَنْشَأَ

«السَّحَابَ الثَّقَالَ» [٢٤٢]

فَأَهْطَلَ [٢٤٣] دِيمَهَا [٢٤٤]، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا. فَبَلَّ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا [٢٤٥].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٣١

وإننا لنعلم أن السحب على أنواع فهناك السحب المغطاة التي تخلو تقريباً من المياه وتلك التي تحمل قليلاً من الماء، والنوع الثالث السحب المتجمعة المليئة بالمياه والشديدة الرطوبة وكأنها بحار علقت في عنان السماء وتكون عادة في الطبقات السفلى من الجو والتي عبر عنها القرآن الكريم بالسحاب الثقيل فقال:

«وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَا لِيَلدَمَ مَيِّتٌ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمِيَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» [٢٤٦].

تأمل

دروس عظيمة بعبارات قصيرة

تعلمنا من هذه الخطبة عدّة دروس؛ ومن ذلك أن نتأمل أسرار عظمة الله حتى في أصغر موجودات هذا العالم، فما أكثر الموجودات الصغيرة والتي لا تبدو في ظاهرها مهمّة كالنمل والجراد بينما تختزن عجائب أسرار الخلق، فما علينا إلا أن نعيد النظر في رؤية كل شيء وكأننا نراه لأول مرّة لنقف على عجائبه فنستدل من خلالها على خالقها الحكيم والقادر العليم.

جدير ذكره أن الأسلاف ذكروا بعض الأمور عن أسرار خلق الموجودات ولا سيما الحيوانات والتي لا تخلو من الأساطير والخرافات والحال ما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة عن أسرار الخلق يخلو تماماً من أي إغراق وخرافة واسطورة.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٣٣

الخطبة ١٨٦

إشارة

فِي التَّوْحِيدِ وَتَجَمُّعِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ مِنْ أَصُولِ الْعِلْمِ

مَا لَا تَجْمَعُهُ خُطْبَةٌ [٢٤٧]

نظرة إلى الخطبة

تحدث الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن صفات الله تعالى ليشير إلى أكثر من سبعين صفة حيث لم يلاحظ ذكر هذا العدد من صفات الجلال والجمال في أي من سائر الخطب.

والواقع كشف الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن قدرات تفكيره الرباني في شرح وتوضيح أعقد المسائل العقائدية، فتطرق إلى تفاصيل صفاته تعالى الثبوتية والسلبية

نفحات الولاية، ج٧، ص: ١٣٤

والإضافية بنظام خاص ورائع، وما أحرانا أن نعد ذلك بمنزلة سورة التوحيد- التي اعتبرتها بعض الروايات أنها تعدل ثلث القرآن الكريم- في نهج البلاغة.

والخطبة في الحقيقة قسم واحد هو شرح أسماء الله وصفاته لكننا من باب المسامحة نقسمها إلى ثلاثة أقسام، قسم يتحدث عن صفات الله الثبوتية والقسم الآخر في صفاته السلبية وقسم ثالث في قدرته تعالى في مسألة المعاد وعودة الناس إلى الحياة الآخروية.

وبالتالي فإن كل من يتأمل هذه الخطبة ليقطع بأن أحداً من الفلاسفة الإلهيين في الماضي والحاضر لم يقدموا مثل هذه الصورة الرائعة والدقيقة والجليه بشأن الله تعالى؛ حتى أن من يطلع على هذه الخطبة من غير المسلمين لا يملك إلا الإشادة بقائلها.

نفحات الولاية، ج٧، ص: ١٣٥

القسم الأول

إشارة

مَا وَحَدَّهُ مِنْ كَيْفِهِ، وَلَمَّا حَقِيقَتُهُ أَصَابَ مِنْ مَثَلِهِ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مِنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صِيحَمَهُ مِنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَضِينُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَغْلُوبٌ. فَاعِلٌ لِابِاضِطْرَابِ آلِهِ، مُقَدَّرٌ لِابِجُؤْلِ فِكْرِهِ، عَنِيٌّ لَا بَاسَ تَفَادَهُ. لَا تَصِيحِبُهُ الْأَوْقَاتُ، وَلَا تَرْفُدُهُ الْأَدَوَاتُ؛ سَبَقَ الْأَوْقَاتُ كَوْنَهُ، وَالْعَدَمُ وَجُودُهُ، وَالْأَبْتِدَاءُ أَرْزُهُ. بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عَرَفَ أَنْ لَمْ شَعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عَرَفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عَرَفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ. ضَادُّ النُّورِ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحِ بِالْبُهْمَةِ، وَالْجُمُودِ بِاللَّبَلِ، وَالْحَزُورَ بِالصَّرْدِ. مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرَّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرَّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا.

الشرح والتفسير: أضواء مهمة في صفات الله

تتضمن هذه الخطبة الشريفه كما ورد سالفاً على مواضيع قيمة ومباحث هامة في علم الله والتي بينت بمنتهى الفصاحة والبلاغة وحسن الأسلوب وانسجام العبارات، فقد استهل الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى جانب من صفات الله السلبية فقال:

«مَا وَحَدَّهُ مِنْ كَيْفِهِ، وَلَا حَقِيقَتُهُ أَصَابَ مِنْ مَثَلِهِ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مِنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صِمَمَهُ [٢٤٨] مِنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ».

نفحات الولاية، ج٧، ص: ١٣٦

فقد أشار الإمام عليه السلام في أول صفة من صفاته السلبية إلى مسألة نفى الكيفية عن الله تعالى، تلك الحالة التي تعرض على

الجسم المادى أو الموجود الروحانى وبما أن طرو العوارض دليل على المخلوقية فإن الذات الإلهية الطاهرة لا تطرأ عليها الكيفية كونها أزلية وأبدية.

ثم نفى الإمام عليه السلام عن الله فى الصفة الثانية أى شبيه ومثيل، ذلك إن كان له مثل وكانت هذه المثلية فى جميع الجهات لأصبح عينه، وإن كانت فى بعض الجهات لزم منها التركيب (تركيب ما به الاشتراك وما به الامتياز) والتركيب لا ينسجم مع كونه واجب الوجود، ذلك لأن كل مركب يحتاج أى أجزائه ولا معنى للحاجة فى واجب الوجود، وبعبارة أخرى تكون الأجزاء فى المرتبة السابقة للكل، وعليه إن كان واجب الوجود لكانت تلك الأجزاء، لا (الكل) المولود من تلك الأجزاء، ومن جانب آخر فإن الذى يلزم من الأجزاء التعدد والتعدد محال فى واجب الوجود، لأن واجب الوجود لامتناه من جميع الجهات ويستحيل وجود لامتناهين من جميع الجهات.

ونفى الشبيه فى الصفة الثالثة عن الذات القدسية، فالذات اللامتناهية من جميع الجهات لا شبيه لها (الفارق بين المثل والشبيه أن المثل يلاحظ فى جميع الجهات أو أكثر الصفات بينما الشبيه يمكن فى بعض الجهات).

وقال فى الصفة الرابعة والخامسة: من أشار إلى الله أو توهمه لم يعرفه، لأن الإشارة الحسية دلالة على الجسمية والاشتمال على الجهة والمكان المنزه لله منها، وتوهمه يعنى جعل حدود لذاته اللامحدودة، وعلى هذا الأساس نقول ليس لأحد درك ذاته سبحانه وعلمنا به هو علم إجمالى فنقول مثلاً: الله خالق وخالق لهذا العالم.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين أخريين فقال:

«كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُومٌ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٣٧

قلنا كرراً أن الله وجود لا متناه من جميع الجهات ولا يستوعبه فكرنا المحدود، ولهذا فهو أسمى من الخيال والقياس والظن والوهم، فإن قيل: فكيف نعرف الله؟

نقول: عن طريقين رئيسيين؛ الأول الإشارة إلى آثاره وأفعاله التى ملأت عالم الوجود وكلما أمعنا النظر فى شىء رأيناه إجمالاً خلفه، والآخر عن طريق تحليل حقيقة الوجود التى تنتهى إجمالاً بواجب الوجود والذى يصطلح عليه (برهان الصديقين) والذى أشير إليه فى الأحاديث والأدعية بعنوان «يا مَنْ دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ»

وهو أيضاً علم إجمالى؛ لا علم بكنهه وحقيقته ذاته الخارجة عن متناول جميع الأفكار بما فيها أفكار الأنبياء والأولياء.

كما توضح هذه النقطة أن كل شىء قائم بآخر سواء بصورة عرض على ذلك الشىء أو بصورة وجود جوهرى متوقف عليه، على كل حال معلول آخر والله تعالى واجب الوجود ليس بمعلول؛ بل هو القيوم؛ أى القائم بذاته وقيام الآخرين به.

ثم أشار عليه السلام إلى أفعاله وتدييره وغناه فقال:

«فَاعِلٌ لِّابَاطِطِرَابِ آلِهِ، مُقَدَّرٌ لَّا بِجَوْلٍ [٢٤٩] فِكْرَهُ، غَنِيٌّ لِّابَاسْتِفَادَةٍ».

لأن الشخص إنما يستعين فى عمله بالوسائل والأدوات من حيث كانت قدرته محدودة ولا بد له من الاستفادة والاستعانة بتلك الوسائل ومن يحتاج فى تدييره الفكر والمطالعة فإنما يعزى ذلك لمحدودية علمه وهذا ما يدفعه لزيادة فكره ومطالعاته؛ أما من كان علمه وقدرته لامتناهين فهو غنى عن كل ذلك كما أن جميع الأغنياء غيره يصبحون أغنياء عن طريق كسب المال والمقام وأمثال ذلك من خارج وجودهم أما الله تعالى فهو الغنى بالذات.

قال تعالى فى القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» [٢٥٠].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٣٨

ثم واصل كلامه عليه السلام في بيان هذه الصفات فقال:

«لَا تَضَحُّهُ الْأَوْقَاتُ، وَلَا تَزْفُدُهُ [٢٥١] الْأَدْوَاتُ؛ سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالْأَبْدَاءَ أَزْلُهُ».

العبارة:

«لَا تَضَحُّهُ الْأَوْقَاتُ ...»

تشير إلى أن الزمان أمر حادث والله تعالى الأزلي والأبدى الذات لم ولن يقترن بالحوادث كما لم تكن الأدوات والآلات سنده ومعينه.

والفارق بين هذه العبارة والعبارة:

«فَاعِلٌ لِّأَبَاضِطِرَابِ آلِهِ»

يمكن أن تكون في أن الكلام في العبارة السابقة في أفعال الله التي لا تتطلب الآلات والأدوات؛ بينما تشير هذه العبارة إلى عدم استعانتها بهذه الأدوات في بقائه.

العبارة:

«سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ ...»

في الواقع، شرح للعبارة

«لَا تَضَحُّهُ الْأَوْقَاتُ»

لأننا حين نقر بأن وجوده أسمى من الزمان والمكان نخلص إلى نتيجة أن وجوده سبق الزمان وتقدم على العدم وأن أزليته مقدمة على كل بداية.

وهنا يرد هذا السؤال، وهو أن الإمام عليه السلام قال: وجوده سبق عدمه والحال العدم ليس بالشىء الذى يسبقه وجود الله والجواب يمكن القول إن المراد من العدم هنا هو انعدام المخلوقات أى أن الله تعالى كان موجوداً حين لم يكن أى من الموجودات. ويقال أحياناً هذه العبارة كناية عن كون الله واجب الوجود لأن الذات الواجبة الوجود كائنه وستكون على الدوام وتتغلب على العدم ولا يعرض لها العدم بأى شكل من الأشكال.

وتشير العبارة:

«وَالْأَبْدَاءَ أَزْلُهُ»

إلى أن الذات الأزلية والأبدية أسمى من أن يكون لها ابتداء.

ثم خاض عليه السلام في صفات أخرى كل واحدة منها أهم من الأخرى فقال:

نقحات الولاية، ج٧، ص: ١٣٩

«بِتَشْعِيرِهِ [٢٥٢] الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَمْ شَعَرَ لَهُ»

، لأن وجود الحواس من لوازم المخلوقات الممكنة الوجود ويتنزه عن ذلك واجب الوجود، أضف إلى ذلك أن الحواس من عوارض الموجودات، والعرض والمعروض شيان مختلفان بينما نعلم أن ليس للتركيب من سبيل إلى ذات الله.

بعبارة أخرى لقد دل الله تعالى بخلقه الحواس لعباده أن الاحساس والحواس عارضة ومنفصلة عن ذات الأشياء، وهنا فهم العباد أن ليس له حواس لأن ذاته ليست محلاً للعوارض.

ثم قال عليه السلام:

«وَبِمُضَادَّتِهِ بَيِّنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَأُضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيِّنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَأَقْرِبَنَّ لَهُ»

وتفسير هذا الكلام أن وجودين متضادين يكونان قطعاً محدودين ولهما حالتان مختلفتان، والحال الذات الإلهية ليست محدودة ولا شىء عارض عليها، كما أن الموجودين المقرونين محدودان ولهما عوارض مشابهة بينما الذات الإلهية لامحدودة من كل الجهات

وعارياً من كل العوارض.

وواصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى بعض المصاديق من الأمور المتضادة فقال:

«صَادَّ النَّوْرَ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ» [٢٥٣]، وَالْجُمُودَ بِالْبَلْبَلِ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرْدِ [٢٥٤].

طبعاً ينطوى هذا التضاد على فلسفته تتمثل في ايجاد التوازن وإزالة آثار السوء لكل شيء بآخر، فلو أشرقت الشمس على جانب من الكرة الأرضية دائماً وغط الجانب الآخر منها في ظلمة دائمة لزلت الحياة عاجلاً؛ فالجانب الذي يتعرض إلى الشمس يحترق بفعل شدة الحرارة ويهلك، كما يجمد ويزول ذلك الذي يعيش الظلمة: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلٍ تَسْمَعُونَ» [٢٥٥]؛ «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ

نفعات الولاية، ج ٧، ص: ١٤٠

الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَشْكُرُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلٍ تَسْكُرُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلٍ تَسْكُرُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلٍ تَسْكُرُونَ فِيهِ وَتَلْبَتُّوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [٢٥٧].

قد يقال هنا إن الظلمة أمر عدمي وليس بالشيء الذي خلقه الله أو يكون مضاداً للنور.

وهو ذات السؤال الذي ورد في الآية الشريفة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ» [٢٥٨].

ولكن بالإلتفات إلى هذه النقطة وهي أن ظلمة الليل وأمثالها ليست ظلمة مطلقة لتكون عديمة، بل ضعف شديد للنور ومن هنا حين تطفأ المصابيح في الليل فجأة لا نكاد نرى شيئاً مطلقاً، ولكن بالتدرج تعتاد عيوننا ذلك النور الضعيف في جوف الظلمة فنبداً برؤية الأشياء من حولنا، وعليه فالظلمة مخلوق من مخلوقات الله مضادة للنور.

ويمكن أن تكون العبارة

«وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ»

إشارة إلى اختلاف الألوان وفلسفته ذلك تمييز الأشياء عن بعضها البعض الآخر، فالوضوح إشارة إلى الألوان الفاتحة والبهمه إلى الألوان الغامقة والقائمة، أو إشارة إلى الحالات شبه المضيئة وشبه المظلمة بين الطلوعين والغروبين.

«وَالْجُمُودَ بِالْبَلْبَلِ»

أشار إلى اليابسة والبحار والأشياء الجامدة والمرطوبة والتي لكل منها فلسفته الوجودية المختصة به.

كما تشير

«وَالْحَرُورَ بِالصَّرْدِ»

إلى فصول السنة أو بصورة كلية الحرارة والبرودة والتي لكل منهما دوره في حياة ورشد الكائنات الحية.

ثم أشار عليه السلام إلى أربع صفات أخرى فقال:

«مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارَنٌ بَيْنَ

نفعات الولاية، ج ٧، ص: ١٤١

مُتَبَايَنَاتِهَا، مُقَرَّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرَّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا»

. حيث تطرق الإمام عليه السلام إلى أمور غاية في الأهمية اعتمدها الله سبحانه وتعالى في تدبير عالم الوجود، فقد جمع في أغلب الموارد بين الضدين فربط بين الروح هذا الجوهر اللطيف الذي يفوق المادة مع هذا الجسم الترابي وجعل عدده موجودات مختلفة إلى جانب بعضها البعض الآخر الأمر الذي نلاحظه في تركيب بدن الإنسان والحيوان والنبات حيث جعل عشرات الفلزات وأشباه الفلزات إلى جانب بعضها البعض الآخر ليخلق منها ذلك التركيب البديع، والعجيب أنه جعل الجاذبية والتناقض بين الضدين كالقطب الكهربائي الموجب والقطب السالب وبين القطبين المتشابهين أوجد حالة من التنافر كما في القطبين الموجبين أو القطبين السالبيين كما

جعل جاذبية بين الجنس المذكر والمؤنث والتنافر بين المتجانسين.

وهكذا فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة أقسام من موجودات العالم: قسم منها متضاد كالنور والظلمة والروح والجسم، وآخر متباين كأنواع النباتات والحيوانات المتباينة غير المتضادة وقد جعل الله بينها جميعاً نوعاً من الألفة. والقسم الثالث تلك المتباعدة وقد قربها الله كالأزواج من قومين منفصلين عن بعضهما البعض الآخر ويقترنان ببعضهما إثر الحب والموودة.

وأخيراً القسم الرابع الأمور القريبة من بعضها ذاتاً، وقد أبعداها الله عن بعضها بتدبيره لهذا العالم مثل كرات المنظومة الشمسية التي كانت مع بعضها البعض حسب النظرية المعروفة ففصلها الله تعالى وخلق المنظومة الشمسية.

رغم أن الأجزاء المركبة للنباتات وأوراقها تنفصل عنها بعد الجفاف وتتحول إلى عناصر فعالة لتنمية سائر الأشجار والنباتات كما أن سحب الغيوم أحياناً تتصل مع بعضها من مختلف المناطق بواسطة الرياح فتَهطل الأمطار الحيوية، كما يأمر الرياح بحملها إلى مناطق أخرى

نعم! فربوبيته وتدبيره تقتضى أحياناً أن يجمع بين الضدين وأحياناً أخرى للتقريب بين المتباينين وثالثه تقريب المتباعد وإبعاد المتقارب.

نقمة الولاية، ج ٧، ص: ١٤٢

تأمل

كيفية الجمع بين الضدين

يعتقد البعض أن العالم مؤلف من جمع الأضداد والتضاد سبب التكامل وحسب بعض الحكماء

«لَوْلَا التَّضَادُّ مَا صَحَّ الْفَيْضُ عَنِ الْمُبْدَأِ الْجَوَادِ»

. كما استدل البعض على هذا المطلب بعبارة الإمام عليه السلام الواردة في الخطبة:

«مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارَنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا...».

ويرى اتباع المدرسة المادية الديالكتيكية أن أحد المبادئ الأربعة يتمثل في الجمع بين الضدين ويزعمون أن كل موجود يحمل ضده في داخله وبظهور الضد يزول الموجود السابق ويضربون على ذلك مثال البيضة والدجاجة وأمثال ذلك ليخلصوا في النتيجة إلى أن المجتمع الرأسمالي يبلور مضطراً داخله ضده الذي يتمثل في المجتمع الاشتراكي والشيوعي وما تظهر حتى تزول الرأسمالية، وهكذا طرحوا مبادئهم الواهية الجوفاء على هذا الأساس بحيث اتضح ضعفهم وعجزهم عملياً على مستوى الظاهر، وقد لمسنا كيفية إنهيار هذه المدرسة.

ويجب الالتفات إلى أن الجمع بين الضدين (أو النقيضين) مصطلح فلسفي يعنى الجمع في محل واحد من جميع الجهات بمعنى أن يكون الشيء الواحد أسوداً وأيضاً في آن واحد، وهذا محال؛ أو يكون مكان معين في لحظة معينة ليلاً ونهاراً أو يكون الإنسان حياً وميتاً في زمن معين ومن الطبيعي أن الجمع بين هذين النقيضين محال بهذا المعنى، ولكن أحياناً يكون المراد الجمع العرفي: كأن يجتمع جسمان أبيض وأسود مع بعضهما في آن واحد أو في زمين متصلين، فأحياناً يكون الجسم أبيضاً وأخرى أسوداً.

وهذا المعنى ليس ممكناً فقط فحسب بل شمل جوانب عظيمة من هذا العالم وعلى ضوء هذه النقطة نعود إلى أصل الموضوع فنقول:

في العالم الذي نعيش فيه فإن مدبره هو الذات الإلهية القدسية التي أشاعت نظام الأضداد، وكما ورد في كلام

نقحات الولاية، ج٧، ص: ١٤٣

الإمام عليه السلام فقد مزج النور بالظلمة والحرارة والبرودة واليبوسة والبلل ووظف نظام الليل والنهار والفصول الأربعة والسحب والأمطار والشمس ببعض الأعمال المهمة، وأحياناً يلاحظ بين الأمثال أن عضواً من أعضاء الإنسان أو النبات ليس فقط لا يتضادان بل هما منسجمان مع بعضهما.

على كل حال فإن التضاد بالصيغة المذكورة من شأنه في أغلب المواقع أن يلعب دوراً مهماً في تطوير المجتمع البشرى وتكامل الكائنات؛ والتنافس البناء في كل مجتمع مدعاة للتطور وعادة ما يؤدي إلى القوة والمنعة في مختلف المجالات حتى أن وجود الشيطان أمام المؤمنين مدعاة لتأصل ورسوخ إيمانهم.

نقحات الولاية، ج٧، ص: ١٤٥

القسم الثاني

إشارة

لَا يُشْمَلُ بِحَدِّ، وَلَا يُحَسَّبُ بِعَدِّ، وَإِنَّمَا تَحْدُ الْأَدْوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الْأَلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا. مَنَعَتْهَا «مُنْدُ» الْقِدْمِيَّةُ، وَحَمَّتْهَا «قَدُ» الْأَزَلِيَّةُ، وَجَبَّتْهَا «لَوْلَا» التَّكْمِلَةُ! بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَنِ نَظَرِ الْعَيْنِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكََةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ! إِذَا لَتَفَاوَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهَهُ، وَلَامْتَنَعَ مِنَ الْأَزْلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءَ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلَالْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ التَّقْصَانُ. وَإِذَا لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الْأَمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ. الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأَفْوَلُ. لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُودًا. جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ، وَطَهَّرَ عَنِ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ.

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم إلى صفات أخرى من صفات الله السليبية فقال:

«لَا يُشْمَلُ بِحَدِّ، وَلَا يُحَسَّبُ بِعَدِّ، وَإِنَّمَا تَحْدُ الْأَدْوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الْأَلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا».

وتفسير العبارة الأولى والثانية واضح لأن الله وجود لا متناه من جميع الجهات ولو كان محدوداً لما كان واجب الوجود، بل لأصبح ممكن الوجود كذلك لو حسب بعدد لكان من الممكنات التي يمكن عدها، وقولنا إن الله واحد لا بمعنى الواحد

نقحات الولاية، ج٧، ص: ١٤٦

العددي بل بمعنى عدم وجود مثيل له: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [٢٥٩].

بينما اختلف شراح نهج البلاغة في تفسيرهم للعبارتين الثالثة والرابعة بسبب الإبهام الذي يسودها ولعل مفتاح حل المشكلة في تفسير هاتين العبارتين يكمن في هذا الأمر وهو أن القرائن تشير إلى أن المرحوم السيد الرضى قد حذف العبارات المرتبطة بهاتين العبارتين درجاً على عادته في الاقتطاف.

ورغم حرص المرحوم الرضى على عدم بتر العبارات المرتبطة مع بعضها إلا أن ذلك قد يقع سهواً ونسياناً أحياناً.

والشاهد على سقوط بعض العبارات في هذه الخطبة ما ورد في «تحف العقول» حيث قال الإمام عليه السلام:

«لَا تَفَوِّتُهُ مَتَى وَلَا تَدْنِيهِ قَدًّا وَلَا تَحْبُجُّهُ لَعْلًا وَلَا تُقَارِنُهُ مَعَ» وَلَا تَشْتَمِلُهُ «هُوَ» إِنَّمَا تَحَدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا وَتَشِيرُ الْأَلَّةُ إِلَى نَظَائِرِهَا». فهذه الكلمات (بعض العبارات مثل متى وقد ولعل ومع وهو) تحدد نفسها (أى تستعمل فقط حين يكون للزمان والمكان وعدم العلم إليها من سبيل) وهذه العبارات إنما تشير إلى نظائرها (النظائر الموجودة في عالم الممكنات لا الذات المقدسة التي لا نظير لها). ثم أكد عليه السلام هذا الكلام بقوله:

«مَعْتَهَا مُنْذُ الْقِدْمَةِ، وَحَمَّتْهَا قَدًّا، الْأَزَلِيَّةَ، وَجَبَّتْهَا لَوْلَا» [٢٦٠].

توضيح ذلك: أن المفردة «مُنْذُ»

تستعمل حيث السيرة التاريخية لوجود الشيء، وعليه واستناداً إلى استعمال هذه المفردة بشأن الممكنات يمكن التوصل بسهولة إلى أنها حادثة وليست قديمة، كما أن المفردة «قَدًّا»

حين تستعمل في الماضي تعنى

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٤٧

وقوع الشيء القريب من الزمن الحاضر وهذا أيضاً لا ينسجم مع الأزلية، كما تستعمل المفردة «لَوْلَا»

حيث المانع الذى يكمن فى طريق تكامل الشيء، كالقول الذى نقله القرآن الكريم على لسان الكافرين حين مخاطبتهم للمستكبرين: «لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ» [٢٦١]. واستناداً إلى أزليته وأبديته سبحانه وكماله المطلق فلا تستعمل بحقه هذه الأدوات والعبارات. ثم قال الإمام عليه السلام فى بيانه لصفات أخرى من صفات الله أنه تجلى للعقل بخلقه لمخلوقاته ومن هنا تعذرت رؤيته بهذه العيون: «بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَن نَّظَرِ الْعُيُونِ».

نعم، فأثاره واضحة فى كل زاوية من زوايا عالم الوجود ومنها ندرك وجوده المقدس؛ مع ذلك لا يمكن رؤيته بعين، لأن رؤية العين تختص بالأجسام ذات الزمان والمكان والأجزاء والجهة، والله منزّه عن كل هذه الأمور.

ثم تعرض الإمام عليه السلام لمسألة مهمة أخرى ليتحدث بشأن نفى السكون والحركة عن الذات القدسية فقال عليه السلام:

«وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَخَذَتْهُ!».

نعم، فالحركة والسكون من عوارض الممكنات، والحركة أن يكون للشيء موضعين أو حالتين فى زمانين، والسكون أن يكون له فى زمانين نفس المكان والحالة، وعليه فالسكون حادث والحركة كذلك؛ لأن كلا الصفتين بيان للحالة الثانية للشيء التى مضى عليها الزمان، بعبارة أخرى فى الحالة الأولى لا سكون ولا حركة بينما للسكون والحركة معنى فى الحالة الثانية، فإن كان فى المكان الأول سكون كان فى موضع آخر حركة.

أضف إلى ذلك إن كانت الحركة فى المكان والزمان والكييفية وما شابه ذلك فهى من عوارض الجسم وكذلك إن كانت الحركة فى الجوهر، وأتينا لنعلم أن الله ليس

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٤٨

بجسم ولا بجوهر.

والنتيجة هى أن الحركة والسكون من مخلوقات الله ومن الممكنات وليس لها من سبيل قط إلى الذات القدسية واجبة الوجود.

ثم خاض الإمام عليه السلام ليدكر ثمانية أدلة على هذا الموضوع فقال:

الأول: لوجرت عليه الحركة والسكون

«إِذَا لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ»

ونعلم أنه وجود ذوكمال مطلق وليس لأيّ تغيير من سبيل إلى ذاته الثابتة.

والثاني لزم أيضاً:

«وَلَتَجَزَأَ كُنْهَهُ»

لأن ما يلزم الحركة بلوغ الموجود نقطة لم تكن عنده، وعليه فوجوده مركب مما ما بالفعل وما بالقوة.

والثالث:

«وَلَا مَنَنْعَ مِنَ الْأَزْلِ مَعْنَاهُ»

، لأن الحركة والسكون كما قلنا حادثان وذاته سبحانه أزليته وقديمته ويستحيل الجمع بين الحادث والقديم.

والرابع: يلزم من الحركة

«وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءَ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ»

، لأن للحركة بأى اتجاه وبأى مفهوم لها جهة تعدّ أمامية وما يعاكسها جهة خلفية.

والخامس: يلزم من الحركة البحث عن الكمال، فمن عانى النقص يبحث عن الكمال

«وَلَا لَتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النَّقْصَانُ»

، لأن الحركة إما إلى النقص أو الكمال، ومهما كانت فهي تعنى عدم مطلقية الموجود المتحرك.

السادس: لو تخللت الحركة لظهرت فيه آية الخلق

«وَإِذَا لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ».

السابع: أنه لو كان كذلك لكان دليلاً على وجود خالق آخر، لا أن تكون المخلوقات دليلاً عليه:

«وَلَتَحْوَلَ دَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَذْلُولًا عَلَيْهِ».

الثامن: فسوف لن يؤثر عليه ما يؤثر على غيره بسبب قوته المطلقة

«وَحَرَجَ بِسُلْطَانِ الْأَمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثَّرَ فِيهِ مَا يُؤَثَّرُ فِي غَيْرِهِ»

. إشارة إلى أن سلطته المقتدرة وغير القابلة للتغيير إلا أن يكون في معرض الحوادث وما يؤثر في غيره لا يؤثر عليه، لأن ذاته القدسيّة

ليست قابلة للتغيير.

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١٤٩

وزبده الكلام فإن الحركة سواء كانت في العرض أو الجوهر، في الكمية (كنمو بدن الإنسان أو النبات) أو في الكيفية (كتغير الألوان

في عالم الطبيعة وزيادة ونقصان الحرارة والبرودة في فصول السنة) وسواء كانت نحو الكمال (كنمو الطفل) أو نحو النقصان (كالضعف

والعجز لدى الكهول) ليس لها من سبيل إلى الذات القدسيّة، واجب الوجود وكمال مطلق وتختص الحركة بالممكنات والوجودات

الناقصة.

أضف إلى ذلك فإن الحركة عبارة عن الجزئية والحدوث التي ليس لها من سبيل إلى الذات الأزلية.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى بيان سبع صفات أخرى ذات علاقة قوية بمسألة الحركة فقال:

«الَّذِي لَا يَحْوُلُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأُفُولُ».

فالتغيير والزوال والأفول والغروب كلها من عوارض الموجودات الممكنة والمحدودة والناقصة ولا تتصور هذه الصفات على الله.

ثم قال عليه السلام:

«لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُودًا. جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ، وَطَهَّرَ عَنِ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ».

لا- شك في أن كل هذه الأمور من قبيل الولادة والزواج والولد والابن من عوارض الوجودات الجسميّة، والله سبحانه ليس بجسم وليست له عوارض جسميّة، أضف إلى ذلك كل هذه الأمور من علامات الحدوث وكذلك الحاجة، وهو ليس بحادث ولا محتاج. والعبارة:

«لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا»

إشارة إلى الوضع المعروف لدى الكائنات الحيّة التي تولد من أحد ومن جانب آخر يولد منهم أولادهم، وعليه فلا يبدو النقص على آدم عليه السلام أنه صاحب ولد لكنه لم يولد من أحد لا يبدو وارداً لأن آدم عليه السلام كان فرداً استثنائياً، إضافة إلى أن آدم إن لم يولد من إنسان فقد ولد من التراب وهذا بحد ذاته نوع ولادة.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٥١

القسم الثالث

إشارة

لَا تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ فَتَقْدَرُهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطْنُ فَتَصَوِّرُهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتَحِسُّهُ، وَلَا تَلْمِسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسُّهُ. وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي الْأَحْوَالِ. وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ، وَلَا يُعَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظُّلَامُ. وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ. وَلَا يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ؛ وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتَقِلُّهُ أَوْ تُهْوِيهِ، أَوْ أَنَّ شَيْئًا يَحْمِلُهُ، فَيَمِيلُهُ أَوْ يُعَدِّلُهُ. لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بَوَالِجٍ، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ. يُخْبِرُ لَا يَلْسَانُ وَلَهَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ وَأَدْوَاتٍ. يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَظُ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ.

يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيُبْغِضُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ. يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: (كُنْ فَيَكُونُ)، لِأَصْوْتٍ يَقْرَعُ، وَلَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ؛ وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَلُهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَاتِنًا، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهًا ثَانِيًا.

الشرح والتفسير: جانب من صفاته المطلقة

إن من النقاط المهمّة الواضحة والمتجلية في كلمات الإمام عليه السلام في هذه الخطبة هي نفيه عليه السلام عن الله تعالى أي صفة من الصفات الماديّة والجسميّة بعبارات متنوعة؛ ذلك لأن أغلب الناس يعانون من التشبيه في معرفة الله ويصورون له في أذهانهم بعض صفات المخلوقات وهذا خطأ جسيم لا يغفر.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٥٢

وقد ركز هذا الموحد العارف بالله كراراً على هذه المسألة لينقذ مخاطبيه من هوة التشبيه بعبارات غاية في الجمال والروع والدفقة.

ومن هنا قال في مواصلته للأبحاث السابقة في هذا الجانب من الخطبة:

«لَا تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ فَتَقْدَرُهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطْنُ فَتَصَوِّرُهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتَحِسُّهُ، وَلَا تَلْمِسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسُّهُ. وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي الْأَحْوَالِ. وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ، وَلَا يُعَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظُّلَامُ.»

«أوهام»

جمع

«وَهُمْ»

بمعنى قوة الخيال التي تتعلق بالمادة والمحسوسات ولو أحاط الوهم بالله لكان له مكان وزمان وكيفية وكمية، بينما ذاته المقدسة منزّهة عن هذه الأمور فللجسم أجزاء والزمان والمكان والتغيير والحركة أمور ليست لها من سبيل إلى ذاته اللامتناهيّة.

«فَطْنٌ»

جمع

«فَطْنُهُ»

قوة العقل ويقال

«الْفَطْنُ»

وتنشط قوة العقل أيضاً بمساعدة الواهم والتصورات الذهنية المتعلقة بالأجسام، وعليه فلو أدرك بالعقل وبمساعدة الوهم لظهرت ثانية قضية العوارض الجسميّة.

العبارة:

«وَلَا تَلْمِئْهُ...»

بالنظر إلى أنّ اللمس يختلف عن المس، حيث يطلق المس على التماس بالأجسام بينما يطلق اللمس على الطلب والسعي للتماس - إشارة إلى أنّه مهما سعى الإنسان للمسّه تعالى بيده لما أمكن ذلك لأنه ليس بجسم فيلمس. وأما بالالتفات إلى ثبات ذاته فإنّ تغييره بمرور الزمان والحوادث كالنور والظلمة ليس بممكن؛ لأننا قلنا كراراً أنّه وجود كامل ولا متناهٍ من جميع الجهات ويفوق المكان والزمان والحركة، ومثل هذه الذات لا تتأثر بالحوادث والتغييرات كما لا يجرى عليها ليل ونهار ونور وظلمة.

ثم أردف ذلك عليه السلام بقوله:

«وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ».

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١٥٣

من الواضح أنّ جميع هذه الأمور أي الاشتمال على الأجزاء وأعضاء البدن وقبول العوارض - مثل الألوان والكمية المتفاوتة والكيفية - كلّها من خواص الجسم والجسمانيات والمادة والممكنات وكذلك التفاوت مع الأشياء الأخرى، لأنه يلزم من ذلك التركيب من قدر مشترك وما به الامتياز، وكل تركيب دليل على احتياج المركب إلى أجزائه والموجود المحتاج لا يكون واجب الوجود.

ثم بين الإمام عليه السلام صفات أخرى في مواصلته لبيان صفاته السليبيّة فقال:

«وَلَا يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلَا نَهَائِيَّةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ؛ وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فُتَقَلُّهُ [٢٦٢] أَوْ

تُهْوِيَهُ [٢٦٣]، أَوْ أَنَّ شَيْئًا يَحْمِلُهُ، فَيَمِيلُهُ أَوْ يُعَدِّلُهُ».

هذه الصفات الست (الحد والنهائية والانقطاع والغاية والاحاطة والحمل) كلّها من صفات الأجسام والله منزّه عن الجسميّة فليس لهذه الصفات من سبيل إلى ذاته المقدسة.

وعلى فرض أنّ بعض هذه الصفات صادقة على غير الموجودات الماديّة، فمما لا شك فيه أنّها من صفات ممكن الوجود المحدود من كلّ جهة دائماً، قلنا كراراً أنّ ذات واجب الوجود لامتناهيّة من جميع الجهات وعليه فلا- تجرى أي من هذه الصفات على تلك الذات.

أضف إلى ذلك فإنّ للصفات المذكورة لوازم هي الأخرى مرتبطة بعالم الأجسام، فالاحاطة بالشىء تؤدّى إلى رفعه أو خفضه، وحمل الشىء يسبب أحياناً ميله إلى جانب معين أو ثباته وكل ذلك من صفات الأجسام.

بل ذهب بعض الفلاسفة إلى أنه لا يمكن وصف الله تعالى باللانهاية لأنه قد يتداعى منه اللانهاية الجسمية، على كل حال سعى الإمام عليه السلام في جوانب هذه

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١٥٤

الخطبة لانتقال مخاطبيه من الوقوع في فخ التشبيه فنزه الله تعالى عن كل صفة من صفات مخلوقاته. ثم أردف حديثه عن الصفات بذكر صفات أخرى فقال عليه السلام:

«لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بَوَالِجٌ [٢٦٤]، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٌ».

قد يتصور البعض من هذه العبارات التي وردت بشأن إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء في هذه الخطبة وسائر الخطب والروايات أن هنالك شيئاً من التناقض فكيف يكون هنالك وجود لا داخل في الأشياء ولا خارج عنها، إلا أن هذه حقيقة واقعة، ففي تشبيه ناقص يمكن القول إن ذاته المقدسة هي روح عالم الوجود، وروح الإنسان في بدنه لا بمعنى أنها جزء من البدن كما أنها خارجة من البدن لا بصفتها غريبة عنه بل لها إحاطة تدبير وتصرف في الجسم، وإن خرجت هذه الروح من الجسم قطعت علاقتها بتدبيرها وتصرفها؛ فيموت. فالله تعالى بمنزلة عالم الوجود.

ثم خاض عليه السلام في بيان خمس صفات أخرى فقال:

«يُخْبِرُ لَأَلِيسَانَ وَلَهَوَاتٍ [٢٦٥]،

وَيَسْمَعُ لَأَبْخُرُوقٍ [٢٦٦] وَأَدَوَاتٍ. يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ».

إشارة إلى اطلاق بعض الصفات على الله تعالى كالسميع والحفيظ والمتكل والمريد؛ لكنه مجرد من العوارض الجسمية والأسباب المادية، لأنه ليس بجسم ولا- مادة، والسميع أو الحفظ بمعنى علمه بجميع الأقوال والكلمات وحفظه لجميع الحوادث الماضية وهي نتيجة للحفظ والسمع والإرادة، بعبارة أخرى فإن هذه العبارات من قبيل المجازات التي تفوق الحقيقة ولا ينبغي أبداً حين نسمع هذه

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١٥٥

الألفاظ التي ابتدعتها البشر لحياته اليومية وتتصف عادةً بالجسمية والمادية أن نتصور أنها تجري كذلك على الذات القدسية، بل لا بد من التخلص من الأغطية الجسمية والمادية كافة حين استعمال هذه الألفاظ بشأن الله تعالى، وهي بالتالي من قبيل:

«تُخَذِ الْغَايَاتِ وَاتْرُكِ الْمَبَادِيءَ»

ليمكن استعمالها بشأن الله تعالى.

احتمل بعض شراح نهج البلاغة أن المراد في العبارة

«يَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ»

أن الله تعالى يحفظ الموجودات من الحوادث وهو لا- يحتاج إلى حافظ، ولكن بالالتفات إلى سائر الصفات التي وردت قبل هذه الصفة يتضح أن المفهوم الصحيح لهذا الكلام ما ورد سابقاً بمعنى الإشارة إلى قوة الحافظة.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين فقال:

«يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضِبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ».

رغم أن البعض تصور معنيين مختلفين لـ

«يُحِبُّ وَيَرْضَى»

وكذلك

«يُبْغِضُ وَيَغْضِبُ»

غير أن سياق كلام الإمام عليه السلام يفيد أنهما ذات معنى واحد أو استعملتا بمعنى واحد.

على كل حال فهاتان الصفتان تشبهان الصفات المذكورة سابقاً، لأسبابهما بعد سماوى، لكن نتيجهما تصدق على الله فمحبتنا ورضانا ممزوجة برقة القلب ونوع من الرغبة الباطنية كما أن بغضنا وغضبنا لألم ومعاناة باطنية مقرونة بإثارة الأعصاب وارتفاع ضغط الدم، ومن البديهي أن هذه المعاني ليست صادقة على الله، ولذلك فسروا هذه الأوصاف بالنتيجة، فقالوا إن حب الله لعباده ورضاه عنهم بهذه الصيغة أنه يشملهم عملياً بنعمه وتوفيقاته وبغضه وغضبه على شخص في أن يسلبه النعمة والتوفيق والسعادة.

هذا النوع من التفسير بالنتيجة أحد المبادئ الأساسية الذي يستعمل بشأن العديد من صفات الله.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٥٦

ثم قال عليه السلام:

«يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ:

«كُنْ فَيَكُونُ» [٢٦٧]

نفحات الولاية؛ ج ٧؛ ص ١٥٦

، لَابْصُوتُ يَقْرَعُ، وَلَا يَنْدَاءُ

يُسْمَعُ؛ وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانُهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَلُهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِنًا، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهًا ثَانِيًا.

مراد الإمام عليه السلام من هذا الكلام أن العبارة

«كُنْ فَيَكُونُ»

وردت في الآيات القرآنية بمعنى الأمر اللفظي؛ ليس من قبيل أوامر الملوك والسلاطين لمن دونهم بحيث يجرون بعض الألفاظ على ألسنتهم ويسمعون مخاطبيهم، وربما يدفعهم الحرص أحياناً للصراخ حتى ليسمع صوتهم من مكان بعيد، بل أوامر الله تعالى هي أوامر تكوينية وبتعبير آخر هي فعل، فإن أراد شيئاً (الإرادة أيضاً بمعنى العلم بالنظام الأصلح) يوجد مباشرة، فلو أراد لوجدت الكائنات في لحظة واحدة كما توجد في تلك اللحظة السماء والأرض والنجوم والمجرات ولو أراد أيضاً لوجدت بصورة تدريجية خلال ألف سنة أو ملايين السنين دون زيادة أو نقصان.

وفعل الله هو خلق الموجودات ليس على سبيل شبيه سابق؛ لأن الأمر لو كان كذلك لزم تعدد الوجود الأزلي وتعدد الإله والمعبود، وكما ذكرنا في أبحاث التوحيد فإن التعدد في هذا المورد محال لأن الوجود اللامتناهي واللامحدود من جميع الجهات يأبى التعدد.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٥٧

القسم الرابع

إشارة

لما يُقَالُ: كَمَا بَعِيدٌ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجَرَى عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلَمَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُ فَضِيلٌ، وَلَمَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِي الصَّائِعُ وَالْمَصْبُوعُ، وَيَتَكَافَأُ الْمُتَبَدِّعُ وَالْبَرِيدُ. خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالِ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ. وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَى كَهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمٍ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوْدِ وَالْأَعْوِجَاجِ، وَمَنْعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَاللَّانْفِرَاجِ. أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وَضَرَبَ أَسِيدَاتِهَا، وَاسْتَفَاضَ عَيْونَهَا، وَخَدَّ أَوْدِيَّتَهَا؛ فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ. هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَالْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ. لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبُهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ

فَيْعَلِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيْسَبِقُهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَزُرُقُهُ. خَضَعَتِ الْأَشْيَاءُ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسِيئَتِكَيْنَهُ لِعَظَمَتِهِ، لَا تَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ، وَلَا كُفَاءَ لَهُ فَيُكَافِئُهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيَسَاوِيَهُ.

الشرح والتفسير: صفات أخرى في الجمال والجلال

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إلى صفات أخرى من صفات الله ليكمل ما تطرق إليه سابقاً، فاتجه بادئ الأمر صوب أزلية الله تعالى فقال عليه السلام:

«لَا يُقَالُ: كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجْرِي عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٥٨

فَضْلٌ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِي الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأُ الْمُبْتَدِعُ وَالْبَدِيعُ [٢٦٨].»

ثم خاض في شرح صفة أخرى من صفاته البارزة تعالى أي قدرته فتعرض لمسألة الابدع والخلق دون سابقة فقال:

«خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالِ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ»

. فحين نتأمل عالم الخلقه تطالعنا أنواع لا تحصى من المخلوقات في عالم الحشرات والنباتات والجمادات التي يمتاز كل منها ببنيتها البديعة وخلقها الرائع الخاص، وهي الموجودات التي ليس لها من سابقة وقد كساها الله سبحانه حلة الوجود من طيات العالم وساقها لمسيرتها التكاملية، والحال لو كان للإنسان بعض الصناعات لاكتسبها من الآخرين، فمثلاً تأمل الإنسان أجنحة الطيور وكيفية طيرانها ففكر في صنع طائرة غاية في البساطة، ثم جاء العلماء في زمان لاحق الواحد تلو الآخر ليستفيدوا من الاختراع السابق ويجدوا في إتمامه حتى بلغ الأمر ذروة تكامله في عصرنا الراهن.

وعلى هذا الأساس فإن علماءنا إما يستلهمون من الطبيعة في اختراعاتهم أو من الآخرين فهم لا يقومون بعمل دون سابقة ولا يقومون به دون الاستعانة بالآخرين والحال أعمالهم محدودة بينما الله تعالى وفي إيجاده لهذه المخلوقات المتنوعة كافة والتي لا تعد ولا تحصى ليس بحاجة إلى سابقة ولا لمعونة أحد.

ثم اتجه عليه السلام إلى جانب آخر من قدرته اللامتناهية فقال:

«وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَى كَهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمٍ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوْدِ [٢٦٩] وَالْأَعْوِجَاجِ، وَمَنْعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ [٢٧٠] وَالْأَنْفِرَاجِ [٢٧١].»

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٥٩

من المسلم به اليوم من قبل الجميع أن الكرة الأرضية تدور منذ ملايين السنين حول نفسها والشمس في مدار معين في الحركة وهذه الحركة على درجة من السرعة المنتظمة والهادئة بحيث لا يشعر بها سكان الأرض مما دفع العلماء السابقين لاعتبار الأرض ثابتة ومركز العالم، ترى ماهذه القدرة العظيمة التي حفظت ثبات الكرة الأرضية منذ ملايين السنين ورغم تعدد حركاتها دون دعائم وأعمدة، ودون أدنى تشقق وتحطم أجزاء رغم مضي كل هذه المدة الزمانية؛ وهل من قدرة غير القدرة الإلهية من شأنها القيام بهذا العمل؟ إننا لنعلم اليوم أن المسافة التي جعلت الأرض بهذا البعد عن الشمس وفي وضع طبيعي معلول للتعاقد بين قوة الجاذبة والدافعة، وعلى أساس الجاذبية فإن كل كتلتين تجذب إحداهما الأخرى بقوة تتناسب طردياً مع حاصل ضرب الكتلتين وعكسياً مع مربع المسافة بينهما. فهذه القوة تجعل الأرض تندفع بسرعة نحو الشمس فتجذب إليها وتتحول إلى بخار، ومن جانب آخر فإن الحركة الدورانية حول المركز تسبب فرار ذلك الجسم من المركز والتي تسمى قوة الطرد المركزي وكلما كانت الحركة أسرع كانت القوة الطاردة أكبر، ولذلك حين يدور القلاب الحجري بسرعة ويترك فجأة فإنه يقذف إلى نقطة بعيدة، وعليه وبغية دوران الأرض في مدارها لملايين السنين بصورة طبيعية لا بد من مساواة قوة الجاذبية للقوة الطاردة، وتختل لهذه المعادلة لو إزدادت أو قلت المسافة وكذلك

لوازدادت أو قلت الحركة ففتية الأرض في الفضاء أو تنجذب باتجاه الشمس.

وهنا يرد هذا السؤال: لم كل هذه العبارات المختلفة؟

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنها من قبيل العطف التفسيري؛ ولكن يبدو أن الإمام عليه السلام استعمل كل عبارة بمعنى معين ليوضح جوانب الموضوع كافة، توضيح ذلك إن أريد ثبات جسم فلا بد من موضع يستند إليه، ومن ثم حاجته لدعائم وأعمدة قوية ومحكمة، وقد قال الإمام عليه السلام إن الله أثبت الأرض دون الحاجة إلى

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٦٠

هذه الأمور، فهي تسبح في الفضاء بانتظام دون موضع وأعمدة، ثم أشار في العبارة اللاحقة إلى أن الله حال دون إعوجاج الأرض أو تهافتها وانفراجها وأودها، ولكل من هذه المفردات معنى معين، فالأود إشارة إلى الثقل والضغط الذي يؤدي إلى الإعوجاج، كما يوجب أحياناً التهافت أو الانفراج في البناء، والله حفظ الأرض من كل ذلك.

ثم تطرق عليه السلام إلى سائر عجائب الأرض والتدبير الإلهي لإعدادها للحياة البشرية فقال عليه السلام:

«أرسي أوتادها، وضرب أشدأدها» [٢٧٢]، واستفاض عيونها، وخد [٢٧٣] أوديتها؛ فلم يهن ما بناه، ولا ضعف ما قواه».

فالعبرة الأولى إشارة إلى العديد من الآيات القرآنية الواردة بشأن الجبال وأن الله وتد بها الأرض وجعلها كالمسامير، فقد جاء في سورة النبا: «وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا» [٢٧٤][٢٧٥] ولما كان أحد آثار الجبال أنها تكمن بصورة سد في مقابل السيول والعواصف فقد عبر عنها بالأسداد، وبالنظر إلى أن الخلل والشق في الجبال والمواقع الخالية في بعض أقسامها يؤدي إلى خزن الماء ومن ثم جريان العيون، وكذلك شقوق الجبال التي تؤدي إلى ظهور الأودية وانحدار مياه الأمطار إلى الأودية فقد ركز عليها الإمام عليه السلام في خطبته.

ولما أراد عليه السلام الإشارة إلى ربوبية الله وتدبيره والتي تعد من صفات أفعاله فقد تطرق إلى صفات الذات وأشار بعبارات غاية في الروعة والدقة إلى علم الله وقدرته ووحدانته فقال:

«هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَالْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ. لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ، وَلَا نَفَحَاتِ الْوَلَايَةِ، ج ٧، ص: ١٦١

يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فِعْلُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيْسَبِقُهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيُزْقَهُ».

أساس كل هذه الصفات في الواقع علمه وقدرته اللامتناهية، ومن له القدرة اللامتناهية يغلب كل شيء ويسمو على كل موجود، لا يغلبه شيء ولا يفر من قدرته وبالطبع غنى عن الكل، لأنه القادر على كل شيء.

كما أن من كان علمه لامتناهياً فهو عليم ببواطن الأشياء وظواهرها بل الظاهر والباطن لديه على حد سواء، كما يتساوى لديه القوى والضعيف والبعيد والقريب والأعلى والأسفل.

ولا يخفى الدور الذي يلعبه الإلتفات إلى هذه الصفات في تربية الإنسان وتزكيته بغض النظر عن الارتقاء بمستوى معرفته.

ثم واصل كلامه عليه السلام في شرحه لقدرة الله تعالى في عالم الوجود فقال:

«خَصَعَتِ الْأَشْيَاءُ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لَأَتَسَطِّعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعُ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ».

نعم فالعالم كله ملك الله وقوانينه حاكمه في كل مكان وأينما أتجهنا فإنما نحن خاضعين لسلطانه وليس خارج ذلك إلى العدم ولا معنى للفرار من سلطته.

وهنا يتساءل شراح نهج البلاغة أن الفرار من الضرر مما لا شك فيه؛ ولكن ما المراد بالهروب من المنفعة؟

فأجابوا: إن المراد بأن الشخص إذا لم يرد أن يكون مدينياً لآخر لكي لا يخضع له أو بعبارة أخرى يهرب من منفعه وعطاياه لكي لا يضطر للخضوع له؛ فإن مثل هذا العدد لا معنى له إزاء الله ولطفه وقهره.

قال تعالى: «قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً» [٢٧٦].

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١٦٢

ثم جرى الكلام هنا عن الامتناع عن قبول رحمة الله وعقابه فأشار عليه السلام إلى أن لا سبيل أمامكم سوى القبول سواء أراد بكم رحمة أو مصيبة إزاء رحمته؛ ففي كل الأحوال أنتم مدينون له.

ثم اختتم عليه السلام الخطبة بالتأكيد على وحدانيته سبحانه فقال:

«وَلَا كُفَّ لَهُ فَيْكَافِيَهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيْسَاوِيَهُ».

قلنا مراراً، إن الذات الإلهية لامتناهية من جميع الجهات، ومن الطبيعي أن تستحيل الأثنية في الوجود اللامتناهي، لأن التعدد إنما يقترن دائماً بالمحدودية، لأن كل واحد منهما فاقد لوجود الآخر، أو بعبارة أخرى فإن حد كل واحد منهما نقطة نهايته وهذا ما لا ينسجم مع الذات الإلهية اللامتناهية وغير المحدودة.

والجدير بالذكر أن هذا القسم ينطلق بالتوحيد ويختتم بالتأكيد عليه بعد ذكر سلسلة من صفات الذات وصفات الأفعال.

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١٦٣

القسم الخامس

إشارة

هُوَ الْمُفْنَى لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودَهَا كَمَفْقُودِهَا. وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ائْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ ائْتِدَاعِهَا وَاخْتِرَاعِهَا. وَكَيْفَ وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مَرَاكِهَا وَسَائِمِهَا، وَأَصْنَافِ أَسْنَاحِهَا وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَّمِهَا وَأَكْيَاسِهَا، عَلَى إِخْدَاتٍ بَعُوضَةٍ، مَا قَدَّرَتْ عَلَى إِخْدَاتِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى إِيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عَقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَفْقُودَةٌ، مُقَرَّةٌ بِالْعَجْزِ عَنِ ائْتِدَاعِهَا، مُدْعِنَةٌ بِالضَّعْفِ عَنِ ائْتِدَاعِهَا!

الشرح والتفسير: العجز عن خلق بعوضة

تحدّث الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة عن قضية فناء العالم وقدره الله المطلقة على خلق العالم وعدمه بعد أن فرغ من أبحاثه العميقة في الأقسام السابقة من هذه الخطبة بشأن خلق العالم ولا سيما الأرض وعجائبها فقال:

«هُوَ الْمُفْنَى لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودَهَا كَمَفْقُودِهَا».

ثم واصل كلامه فقال:

«وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ائْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ ائْتِدَاعِهَا وَاخْتِرَاعِهَا. وَكَيْفَ وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مَرَاكِهَا [٢٧٧] وَسَائِمِهَا [٢٧٨]، وَأَصْنَافِ أَسْنَاحِهَا [٢٧٩] وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ [٢٨٠] أُمَّمِهَا وَأَكْيَاسِهَا،

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١٦٤

عَلَى إِخْدَاتٍ بَعُوضَةٍ، مَا قَدَّرَتْ عَلَى إِخْدَاتِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى إِيجَادِهَا».

فهذا الكلام لا يعد حقيقة إبان صدوره من الإمام عليه السلام آنذاك، بل هو حقيقة واقعة اليوم، ذلك أنه لو اجتمع علماء العالم كافة لخلق بعوضة لعجزوا عن ذلك، لأن قضية بعث الحياة في الجمادات مستحيلة، أضف إلى ذلك فإن بنية البعوضة من حيث الأجنحة

والأرجل والدماغ والأعصاب وجهاز الهضم والانجاب على درجة من التعقيد والدقّة فغير الخالق سبحانه لا يستطيع المخلوق خلق بعوضة.

وتشير كلّ عبارة من العبارات:

«مَا قَدَرْتُ عَلَى إِحْدَائِهَا، وَلَا عَرَفْتُ كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى إِيجَادِهَا»

إلى نقطة معينة، فالعبارة الأولى تشير إلى عجز الإنسان والحيوان عن خلق بعوضة، بينما تشير العبارة الثانية إلى الجهل بتلك الأسباب والعوامل.

وقد ورد مثل هذا المعنى في القرآن الكريم بشأن خلق الذباب حيث قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ» [٢٨١].

ثم قال عليه السلام:

«وَلَتَحَيَّرْتُ عَقُولَهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجِزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ حَاسِنَةٌ [٢٨٢] حَسِيرَةٌ [٢٨٣]، عَارِفَةٌ بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةٌ بِالْعَجْزِ عَنْ إِثْنَائِهَا، مُدْعِنَةٌ بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا!».

نعم لو عزمت هذه البعوضة الصغيرة على أذى الإنسان وسائر الحيوانات ولم يحد الله من انجابها لتكاثرت بشكل يضيق الحياة على الإنسان ولعجزت كلّ المبيدات عن مواجهتها، وما نشاهده اليوم من القضاء عليها في بعض المناطق بفعل المواد السامة فذلك لأنها محدودة في انجابها وإلا لكانت كالجراد في خروجها عن

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ١٦٥

السيطرة ولشككت أسراباً عظيمة تملأ أركان الفضاء، وهذه البعوضة التي تبدو في ظاهرها ضعيفة قد كشفت في بعض الأحيان عن قدرتها- بإذن الله- لتهاجم أحياناً بصورة جماعية فيلما فتقضى عليه.

ويمتاز بعضها- في ظروف معينة- بنقلها للميكروبات الخطيرة أو السموم القاتلة فتشعر الإنسان بعجزه عن مواجهتها لتثبت له مدى قدرتها.

تأملان

١. المعاد الجسماني وإعادة المعدوم

تحدّث بعض شراح نهج البلاغة بشأن المعاد الجسماني عند العبارة

«هُوَ الْمُفْنَى لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا»

التي تصدر بها هذا الجانب من الخطبة واستشهدوا على ذلك بهذه الآية: «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» [٢٨٤].

ثم أضافوا أنّ جميع الأنبياء وخاصة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أخبر عن فناء هذا العالم، وأضافوا أنّ الفلاسفة خالفوا هذا الأمر لا على أساس عدم إمكانيّة فناء العالم، بل على أساس استحالة انعدام العالم مع بقاء العلة وهي الذات الإلهية المقدّسة.

ثم خاضوا في شرح مسألة امتناع إعادة المعدوم وأشاروا إلى شكّ البعض في مسألة المعاد الجسماني، والحقّ فناء العالم ليس بمحال، لأنّ الله فاعل مختار وإن رأى المصلحة خلق الشيء أو عدمه، كما ليس هنالك من شكّ في المعاد الجسماني، فقد صرح القرآن في

العديد من آياته بهذا الأمر، كما أنه ليس هنالك من دليل عقلي على امتناعه [٢٨٥].

وليست هنالك من علاقة بين مسألة استحالة إعادة المعدوم ومسألة المعاد، لأننا إن قلنا إعادة المعدوم مستحيلة؛ يعنى ذلك أن إعادة ذلك الشيء بجميع خصوصياته حتى الزمان والمكان محال وبالطبع ليست هنالك من عودة للزمان الذى مضى، إلا نفحات الولاية، ج٧، ص: ١٦٦

أن عودة الإنسان فى المعاد يوم القيامة لا تعنى عودة الزمان والمكان الماضيين، فليس هنالك من عاقل يزعم بعودة ذلك الزمان الذى عاشه فى الدنيا يوم القيامة، بل المراد عودة إنسان بجميع خصائصه فى زمان ومكان آخر، مثلاً حين يحيى المسيح عليه السلام ميتاً فسيكون ذلك الشخص السابق قطعاً وإن أحياء فى زمان ومكان آخر، وهكذا إحياء الأموات فى القيامة. وزبدة الكلام فما جاء فى هذه الخطبة هو بعينه ما ورد فى القرآن الكريم، بل شرح الإمام عليه السلام فى الواقع آيات المعاد هنا بعبارات رائعة وعميقة.

٢. الخلق العجيب للبعوض!

صرح الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة لواجتمعت الكائنات كافة لخلق بعوض لما استطاعت، ولواطق الله العنان للبعوض فى التكاثر لما كانت هنالك من قوة فى العالم قادرة على القضاء عليها وكما أسلفنا فإن هذا الكلام لا يبدو حقيقة على عهد نزول القرآن وعصر الإمام فحسب بل هو كذلك حتى فى عصرنا الراهن.

ف للبعوض خلقه معقدة؛ أغلبها لا تعيش سوى فى المياه الراكدة فى حافات الأنهار والمستنقعات وما شابه ذلك، وتضع انثى البعوض ما يقرب من ١٥٠ بيضة فى كل مرة لتفقس عن بعوضه ولكل بعوضه وليده انبوب تنفسى نحيف للغاية يرتبط بسطح المياه تتعلق به البعوضه، ثم تظهر بعد بضعة أيام قشرة على جوانبه كما يحدث الكثير من التغيرات فى بنيتها داخل القشرة التى تبدو ظاهراً عديمة الحركة، وبعد عدة أيام تخرج البعوضه غير الكاملة من تلك القشرة فتطير وتقضى سائر عمرها لتعيش فى الهواء. والتغيرات التى تطرأ خلال هذه المدّة القصيرة على بنية البعوضه وتحويلها من كائن مائى إلى طائر حقاً لمذهلة وعجيبه. يقول العلماء إن ذكور البعوض تتغذى على عصارة الفواكه وسوائل النباتات؛

نفحات الولاية، ج٧، ص: ١٦٧

بينما تتغذى الاناث على امتصاص الدم فهى تلسع الإنسان وتمتص دمه كمادة غذائية.

والبعوض حشرات صغيرة لها جناحان ولو وُضعت تحت المجهر لشهدت بنيتها الظريفه والعجيبه ويستحيل على الإنسان صنع مثلها فضلاً عن كائن حى قادر على التغذية والنمو والانجاب. والعجيب أن بعضها عديمة اللون بحيث لا ترى بالعين المجردة.

والبعوض العادى وإن كانت حشرات مؤذية قد تسلب الإنسان القوى والشديد البنية نومه ليله كاملة، لكنها غالباً ليست خطيرة، مع ذلك هنالك بعض البعوض خطير وسام بحيث يستطيع القضاء على أقوى الحيوانات [٢٨٦].

نفحات الولاية، ج٧، ص: ١٦٩

القسم السادس

وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، يُعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَخَدَهُ لَأَشَىٰ مَعَهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ، وَلَا حِينَ وَلَا زَمَانَ.

عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَجَالَ وَالْأَوْقَاتِ، وَزَالَتِ السُّنُونَ وَالسَّاعَاتُ. فَلَا شَيْءَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ. بِلَا قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِعَيْرِ امْتِنَاعِ مِنْهَا كَانَ فَنَائُهَا، وَلَوْ قَدَّرَتْ عَلَى الْأَمْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا.

لَمْ يَتَكَأَذْهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يُؤْذِهِ مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ، وَلَمْ يَكُونِهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانِ، وَلَا لِخَوْفِ مَنْ زَوَالَ وَتَقْصَانِ، وَلَا لِلْإِسْتِغْنَاءِ بِهَا عَلَى نَدِّ مُكَاتِرٍ، وَلَا لِلْإِخْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدِّ مُثَاوِرٍ، وَلَا لِلْإِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلَا لِلْمُكَاتَرَةِ شَرِيكَ فِي شِرْكِهِ، وَلَا لِوَحْشِهِ كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا.

الشرح والتفسير: الغنى عن الخلق

قال الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة ومواصلة لكلامه السابق بشأن وجود العالم وعدمه:

«وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، يُعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَخَدَهُ لَأَشَىٰ مَعَهُ. كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ، وَلَا حِينَ وَلَا زَمَانَ».

ثم واصل كلامه فقال:

«عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَجَالَ وَالْأَوْقَاتِ، وَزَالَتِ السُّنُونَ وَالسَّاعَاتُ».

ثم استنتج من ذلك:

«فَلَا شَيْءَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٧٠

الأمور. بِلَا قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِعَيْرِ امْتِنَاعِ مِنْهَا كَانَ فَنَائُهَا، وَلَوْ قَدَّرَتْ عَلَى الْأَمْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا».

إشارة إلى تسليم جميع عالم الخلق لإرادة الله سبحانه وتعالى، فليس له من اختيار في بداية خلقه ولا حين زواله ونهاية حياته، فلو كان خلقه وفناؤه بيده لعاش الخلود، فمما لا شك فيه كل كائن يسعى لبقائه.

طبعاً هذا الكلام لا يتنافى مع كون الإنسان مختاراً في أفعاله، لأن مراد الإمام عليه السلام بيان بداية الخلق وختامه الخارج عن الإرادة والاختيار والذي يتم وفق الحكمة والمصلحة.

ثم أشار عليه السلام إلى هذه النقطة فقال:

«لَمْ يَتَكَأَذْهُ [٢٨٧] صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ

يُؤْذِهِ [٢٨٨] مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ».

لأدب التعب والضعف والعجز من خصائص الإنسان المحدود القدرة، فإن أراد القيام بعمل يفوق طاقته فإنه يعجز، وإن كان بمستوى طاقته فإنه يشعر بالتعب أما بالنسبة لمن كانت قدرته مطلقة فحمل القشة من الأرض والجبل العظيم لديه على حد سواء فهو ليس بحاجة لوسيلة أو أداة ليستعين بها وإرادته تكفي في ذلك: «إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [٢٨٩].

وينسجم كلام الإمام عليه السلام هذا مع ما ورد في جانب من آية الكرسي: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا» [٢٩٠]:

وقال في موضع آخر بعد الإشارة إلى خلق السماء والأرض «وَلَمْ يَعْى بِخَلْقِهِنَّ» [٢٩١].

ثم خاض عليه السلام في بيان هذه النقطة المهمة في أن خلقه لعالم الخلق لم يكن ليجلب

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٧١

نفع أو دفع ضرر لأنه غنى بالذات ولا فناء بعد خلقه لتعب منه، وهكذا ينفي أي حاجة تحتاجها الذات القدسية في خلق العالم ومن ثم

في فئاته.

فقد أشار عليه السلام في القسم الأول إلى الأهداف السبعة التي يتطلع إليها الإنسان عادة في قيامه بأعماله ثم نفاها جميعاً عن الله تعالى كونها دلالات على الضعف والعجز والنقص فقال إنه لم يخلق الموجودات لتوطيد حكومته كونه وجوداً لا متناهي وغنى من جميع الجهات:

«وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ».

كما أنه واجب الوجود الذي ليس للزوال والنقصان من سبيل إليه
«وَلَا لِحُوفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ».

كما ليس له مثيل:

«وَلَا لِلْإِسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدِّ مُكَائِرٍ [٢٩٢]».

وبما أنه لا ضد له ولا عدو والكل خاضع لسيطرته

«وَلَا لِلْإِخْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدِّ مُتَأَوِّرٍ [٢٩٣]».

كما أنه ليس بحاجة لمخلوقاته ليقضى بها حاجته

«وَلَا لِلْإِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ».

وحيث له شريك ولا قرين

«وَلَا لِلْمُكَائِرَةِ شَرِيكَ فِي شِرْكِهِ».

وكذلك:

«وَلَا لَوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا».

لأن الوحشة حيث الشعور بالخطر من جانب العدو أو بروز المشاكل والمصائب ولا عدوله ولا مشكلة تجرى عليه، ومن الطبيعي أن هذه الأهداف السبعة إنما تعود لجلب المنفعة ودفع الضرر، لكن الإمام عليه السلام شرحها بأسلوب رائع وركز على جميع المصاديق بما لا يتصور أبلغ وأفصح منه ومن الواضح حين تنتفي كل هذه الأهداف يثبت أن الله خلق الخلق إفاضة ولطفاً بالمخلوقات لا لجلب منفعة، لأن جلب المنفعة ودفع الضرر من لوازم الممكنات وهو واجب الوجود.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٧٢

تأمل

هل هناك زمان دون مخلوق

ما ذكره الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة حول فناء الدنيا في البداية والنهاية حيث إن الله واحد أزلي أبدي ليس له بداية ولا نهاية، آثار سؤالاً لدى شراح نهج البلاغة وهو كيف مرت مدة لم يظهر فيها الفيض من الذات الإلهية الفياضة على الدوام وأجابوا بأن المراد ليس إنعدام وجود الأشياء بصورة مطلقة بل في مرحلة الذات الإلهية، أي كانت هنالك موجودات لكنها ليست مستقلة عنه (طبعاً هذا الجواب لا يبدو مقنعاً).

إن السؤال الأهم الذي نطرحه هنا هو: كيف ينسجم ما طرحه الإمام عليه السلام بشأن فناء العالم مع ظاهر الآيات القرآنية؟ فقد صرح القرآن في عدة آيات أن هذا العالم سيتعرض إلى الدمار في خاتمة المطاف لا أنه يعدم بالمرّة إذ قال: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ* وَإِذَا

النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعُشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ [٢٩٤].
وقال في موضع آخر: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ» [٢٩٥].

كما قال: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا» [٢٩٦].

إضافه إلى ذلك يقول إن الموتى يخرجون من قبورهم، ويعتقد أغلب العلماء أن الجنة والنار موجودتان الآن طبق ظاهر الآيات والروايات وأعمالنا هي التي تبلورهما، فكيف والحال هذه يصرح بانعدام جميع الأشياء بنهاية العالم ولا يبقى سوى الله فيزول حتى الزمان والمكان؟ كما ورد في الخطبة المذكورة، والذي يقال

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٧٣

في جواب السؤال الأول: كما أن الله فياض فهو حكيم على الاطلاق وفاعل ليس بمجبر فممكن أن تقتضى حكمته أن لا يكون شىء في البداية ثم يوجد، وعليه فإن فيضه لا يمنع من انعدام الأشياء قبل خلقها.

ويقال في الجواب على السؤال الثانى، إن العالم يتحطم فى البداية كما ورد فى الآيات المذكورة، لكنه يعدم بعد ذلك بصورة كلية بحيث لا يبقى سوى الذات القدسيه ثم يكتسب كل ما فنى - بطريقة إعادة المعدوم وبالطبع بشكلها المعقول [٢٩٧] - حله الحياة وكما كان فى السابق بالضبط من تلك الجنة والنار والإنسان والقبور وهذا أمر معقول وسنشير إلى هذا المطلب فى القسم القادم من الخطبة أيضاً.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٧٥

القسم السابع

إشارة

ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لِلْسَّامِ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلَا لِرَاحَةِ وَاصِلَهُ إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ. لَا يُمَلُّهُ طَوْلُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَثَقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا اسْتِعَانَةَ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ، وَلَا لِانْصِرَافِ مَنْ حَالَ وَحْشَهُ إِلَى حَالِ اسْتِئْثِنَاسٍ، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَعَمَى إِلَى حَالِ عِلْمٍ وَالتَّمَّاسِ، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنَى وَكَثْرَةٍ، وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعْفٍ إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ.

الشرح والتفسير: دوام الخلقه والفناء

لما فرغ الإمام عليه السلام من بيانه لأهداف عالم الخلق تحدّث فى هذا الجانب من الخطبة عن فناء العالم والهدف من ذلك فقال:

«ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لِلْسَّامِ [٢٩٨]

دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلَا لِرَاحَةِ وَاصِلَهُ إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ.

لَا يُمَلُّهُ طَوْلُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا».

فجميع هذه الأمور كالتعب والعجز والملاة وطلب الراحة، ناشئه من محدودية القوة وقدره الفاعل وليس لهذه الحوادث من سبيل إلى صاحب القدرة المطلق، فهذه كلها صفات الممكنات ومن توهم مثل هذه الصفات على الله فقد وقع فى هوة

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٧٦

التشبيه (الواجب بالممكن).

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا أو هنالك من يحتمل هذه الأمور على الله لينفيها الإمام عليه السلام؟

لا شك في أن أصحاب العقول السليمة لا يتصورون مثل هذا الاحتمال، إلا أن هذه الوسوسة قد تساور أذهان بعض الأفراد العاديين، أولئك الذين يرون الله جسمًا ويرون له أذنًا وعينًا ويدًا ورجلاً وظيفرة ويا له من وهم ساذج! والسؤال الآخر الذى يرد هنا أن الإمام عليه السلام يذكر هذه الأهداف لنفى فناء الدنيا إلا أنه لم يذكر بدل ذلك أى هدف ايجابى والجواب على هذا السؤال واضح: أن الله حكيم وكل أفعاله تستند إلى الحكمة والتي تعود آثارها وفوائدها على الإنسان وسائر الموجودات، لا إلى ذاته القدسيّة الغنيّة عن كل شىء، ولعل الهدف الأصلي من هذا الفناء حتى لا يشتهب الإنسان فيتصور وجوده من نفسه ويعتقد بأزليته وأبدية السماء والأرض وليعلم أن كل شىء متوقف على إرادة الله.

ثم قال عليه السلام فى مواصلته لكلامه وفى خلاصه للأبحاث السابقة:

«وَلِكِنَّهُ شُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتَقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا اسْتِعَانَةَ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيَّهَا، وَلَا لِإِنْصِرَافٍ مِنْ حَالٍ وَخَشَّةٍ إِلَى حَالٍ اسْتِثْنَاءً، وَلَا مِنْ حَالٍ جَهْلٍ وَعَمَى إِلَى حَالٍ عِلْمٍ وَالتَّمَّاسِ ٢٩٩]، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنَى وَكَثْرَةٍ، وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعْفٍ [٣٠٠] إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ».

فما بينه الإمام عليه السلام فى ختام هذه الخطبة وضمن ست عبارات نفى الأهداف التي لا تليق بذاته الطاهرة بالنسبة لخلق العالم؛ باختلاف طفيف مع الأهداف السبعة التي مضت فى الأقسام السابقة فذكرها الإمام عليه السلام هنا بصيغة خلاصة وبعبارات جديدة وخلصتها أنه لم تكن لديه من حاجة لإيجاد عالم الخلق ولا فى فوائده ولا فى

نفحات الولاية، ج٧، ص: ١٧٧

الخلق الجديد بعد الفناء.

وهنا يطرا هذا السؤال أيضاً: إن كان خلق الله للعالم ثم إنفاؤه ثم الخلق الجديد لا لنفع ولا حاجة ودفع نقص فماذا كان هدفه من ذلك ولماذا لم يشر الإمام عليه السلام إلى ذلك الهدف؟

والجواب على هذا السؤال هو ما ذكرناه سابقاً فهو وجود كامل من جميع الجهات، وليس هنالك لقيامه بأفعاله ما يعود إليه، بل يعود عادة على المخلوقات والممكنات دون أن يعود عليه بشىء، وبعبارة أخرى كل ما لدى مخلوقاته منه وليس لديهم من شىء فيهبوه لله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» [٣٠١].

نفحات الولاية، ج٧، ص: ١٧٩

الخطبة ١٨٧

إشارة

وَهِيَ فِي ذِكْرِ الْمَلَا حِمِ ٣٠٢

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة فى الواقع من قسمين، تطرق الإمام عليه السلام فى القسم الأول إلى قوم سيتصدون فى المستقبل للدفاع عن الحق والقيام من أجل بسط القسط والعدل فى عصر يُملأ فيه العالم بالمفاسد ويضيق فيه الناس والذى يتناسب مع ظهور المهدي عليه السلام وصحبه.

وفى القسم الثانى وعظ أصحابه وأهل زمانه فى اجتناب الفتن وعدم التفرق عن إمامهم.

وجدير ذكره أن المدائني - كما ورد في سند الخطبة - ذكر في كتابه (صفيين) أقسام أخرى من هذه الخطبة التي لم يذكرها المرحوم السيد الرضى وقال في

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٨٠

آخرها: إن رجلاً من أهل البصرة قال لرجل من أهل الكوفة إلى جانبه: أشهد أنه كاذب على الله ورسوله. قال الكوفي: وما يدريك؟ (فلم يجبه) ثم أضاف، قال الكوفي: والله ما نزل من المنبر حتى شلت يد الرجل البصرى ورجله فحملوه إلى بيته ومات في تلك الليلة [٣٠٣].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٨١

القسم الأول

إشارة

أَلَا يَا بِي وَأُمِّي، هُمْ مِنْ عِدَّةِ أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ وَفِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ. أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَإِنْقِطَاعِ وَصْلِكُمْ، وَاسْتِعْمَالِ صِهْرِكُمْ. ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدَّرْهِمِ مِنْ حِلِّهِ. ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَكْبَرَ مِنْ الْمُعْطَى. ذَاكَ حَيْثُ تَسْكُرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ، بَلْ مِنَ النَّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ. ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمْ الْبَلَاءُ كَمَا يَعَضُّ الْقَتْبُ غَارِبَ الْبُعَيْرِ. مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءَ، وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءَ!

الشرح والتفسير: الحوادث المربعة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة بالحديث عن طائفة من خواص الله تعالى الذين ينهضون بمهمته خاصة فقال:

«أَلَا يَا بِي وَأُمِّي [٣٠٤]، هُمْ مِنْ عِدَّةِ أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ وَفِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ».

والسؤال من هي هذه الطائفة وما مهمتها؟ مر ذلك مجملًا في متن الخطبة ومن هنا كان هنالك اختلاف بين شراح نهج البلاغة، فالبعض يعتقد أنهم الأحد عشر معصوماً من ولد علي عليه السلام الذين هم أسماؤهم في السماء معروفة، بينما لا يعرفهم في الأرض سوى طائفة معينة.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٨٢

وذكر بعض علماء أهل السنة أن المراد بهم طائفة من المؤمنين والأولياء الذين عبر عنهم بالقطب والأبدال، وهي العبارات التي عادة ما يستخدمها المتصوفة في كلماتهم، إلا أن العديد من القرائن تشير إلى أن المراد بهم الإمام المهدي عليه السلام وخواص أصحابه لأن الإمام عليه السلام، أخبر بعد هذه العبارة عن حوادث خطيرة تذكر الإنسان بعلامات آخر الزمان وظهور المهدي عليه السلام. أضيف إلى ذلك فقد ورد في جانب من الخطبة التي رواها المدائني في كتاب (صفيين) [٣٠٥] إشارة إلى الخسف في البيداء وهروب طائفة منها وأنا لنعلم أن الخسف في البيداء من علامات الظهور التي أشارت إليها الروايات [٣٠٦].

ويتضح منها أن مهمتهم هي تلك المهمة التي أشارت من الروايات في مصادر الفريقين ومنها

«يَمَلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا» [٣٠٧].

وطرح البعض هذا السؤال: كيف يقول الإمام عليه السلام (بأبي أتم وأمي) والحال أن المهدي أحدهم بينما البقية هم أصحابه؟ والجواب على هذا السؤال أنه صدرت مثل هذه العبارات من الأئمة عليهم السلام بشأن من لهم مهمات خاصة، ومن ذلك ما ورد ذيل

زيارة وارث

«بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي طِبْتُمْ وَطَابَتِ الْأَرْضُ الَّتِي فِيهَا دُفِنْتُمْ»

التي وردت عن بعض الأئمة عليهم السلام حين قرأوا هذه الزيارة على قبور شهداء كربلاء.

ونقل المرحوم الأربلي في كشف الغمة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: رأيت عمي الحمزة وأخي جعفر بن أبي طالب في المنام فقلت لهما:

«بِأَبِي وَأُمِّي أَنْتُمَا أَيُّ الْأَعْمَالِ وَجَدْتُمَا أَفْضَلُ؟»

فقالا: فديناك بآبائنا وأمهاتنا:

«وَجَدْنَا أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ وَسَقَى الْمَاءِ وَحَبَّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» [٣٠٨].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٨٣

ثم تنبأ الإمام عليه السلام بالحوادث الخطيرة مستقبلاً والتي تنتظر الناس، وهي الحوادث التي تشبه العلامات التي ذكرت في الظهور فقال عليه السلام:

«أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِذْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَإِنْقِطَاعِ وَصَلِكِكُمْ، وَاسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ».

ومن الطبيعي أن تبدأ مسيرة التخلف وتقطع الأواصر الاجتماعية حين يترجم بعض الأفراد قليلى الخبرة والسذج والذين يفتقرون إلى الكفاءة، لكن لماذا تتجه طائفة من الزعامات إلى الصغار وقليلى التجربة فى الإدارة والتدبير؟ لا شك فى كونهم فئة من المهزوزين والآذان الصاغية لكل أمر وهذا من أكبر عوامل البؤس والشقاء.

ثم خاض عليه السلام فى شرح هذه الحوادث الأليمة فقال:

«ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدَّرْهِمِ مِنْ حِلِّهِ. ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَعْظَمَ أَجْرًا مِنَ الْمُعْطَى».

فقد ذكر الإمام عليه السلام بادئ ذى بدئ فى هذا الجانب من الخطبة مسألة حلية وحرمة الأموال وذلك لتوقف المصير المادى والمعنوى للمجتمعات عليها حيث أشار عليه السلام إلى أن جمع الأموال الملوثة بالحرام والغصب والرشوة والغش إنما يبلغ درجة فى المجتمع بحيث يكون تحصيل الدرهم من الحلال أعقد من تحمل ضربة السيف فى المعركة، ومن هنا قلما يتعرض من ينفق أمواله فى سبيل الله آنذاك إلى الأجر والثواب لأنهم يعلمون أن أموالهم ليست طاهرة، إلا أن الآخذين لا يعلمون ذلك، أو أنهم يعلمون لكنهم يضطرون لأخذ تلك الأموال المشكوكه أو المحرمة، وعليه فلا مسؤولية عليهم أمام الله وأجرهم وثوابهم ثابت عنده بينما تبدو القضية معكوسة لو كان المجتمع سليماً وعلى ضوء الحديث النبوى المعروف:

«إِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» [٣٠٩]

فيكون أجر المعطى أعظم من المعطى له.

على كل حال فما ورد فى كلام الإمام عليه السلام بشأن كثرة الأموال الحرام فى آخر الزمان صرحت بها بعض الروايات ومن ذلك ما ورد فى الحديث النبوى الشريف:

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٨٤

«أَقْلُ مَا يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَحْ يُوْتَقُّ بِهِ أَوْدِرْهُمْ مِنْ حَلَالٍ» [٣١٠].

ويتضح ممّا ذكرنا آنفاً أن العبارة لا تنطوى على مفهوم معقد ومجهول كما ذهب إلى ذلك بعض شراح نهج البلاغة فقدموا عدّة احتمالات مستبعدة وضعيفة.

ثم خاض عليه السلام فى سائر المشكلات التى يعانى منها ذلك المجتمع الفاسد والذى ينتظره الناس بحكم الإجماع فقال:

«ذَاكَ حَيْثُ تَشْكُرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ، بَلْ مِنَ النَّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ».

فأى مجتمع إنما يؤول إلى الإنهيار إن شهد هذه البلايا الثلاث، الأثرياء يسكرون بالثروة فينسون الله وخلقه، وبالطبع فإن سكر النعمة أخطر من سكر الشراب، فسكر الشراب قد ينتهى بعد مرور ليلة بينما قد يستمر سكر النعمة طيلة العمر، كذلك القسم من غير اضطرار والذي يوهن من شأن الله تعالى، والكذب من دون احراج الذى يزيل الثقة والاطمئنان وبالتالي تتعقد الحياة فى ظل هذا المجتمع.

وقال عليه السلام فى اختتامه لهذا التكهن:

«ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمْ [٣١١] الْبَلَاءُ كَمَا يَعَضُّ الْقَتَبُ [٣١٢]

غَارِبَ [٣١٣] الْبَعِيرِ مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءَ، وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءَ!».

يعتقد أغلب الشراح أن هذه العبارة منفصلة عن العبارات السابقة فإن السيد الرضى - طبق عاداته - أسقط بعض العبارات حين اقتطافه لبعض العبارات الرائعة لخطب الإمام عليه السلام.

ولا يبدو هذا الكلام مستبعداً، لأنَّ

«ذَاكَ»

تشير ظاهراً إلى النجاة والفرج الذى سيحصل للمؤمنين بعد كل ذلك البلاء، والعبارة

«ما أطول هذا العناء وأبعد هذا الرجاء»

شاهد متين على هذا المعنى حيث قال عليه السلام: هنالك أمل فى النجاة بعد كل هذا البلاء.

نقائات الولاية، ج٧، ص: ١٨٥

كما تشير العبارة

«الآبَابِى وَأُمِّى»

أن الإمام عليه السلام كان ينتظر تلك الفئة التى تنتشل المجتمع الإسلامى من الشر والفساد، وعلى كل حال فإن أنسب تفسير لمجموع هذا البحث ما ذكر سابقاً وقلنا إنه ناظر لحوادث آخر الزمان المريرة ونجاة المجتمع البشرى منها بواسطة الإمام المهدي عليه السلام. وهنا لابد من الإشارة إلى نقطتين ضروريتين: الأولى أنه لماذا شبه الإمام عليه السلام البلاء بالقتب (خشبة توضع على الناقة لحل مشكلة سنامها الذى يؤذى ظهر الناقة)؟ لا يستبعد أن هذا التشبيه على أساس أن القتب يوضع لانقاذ الناقة من مشكلة بروز السنام، لكنه يخلق مشكلة أخرى فى أنه يؤذى ظهر الناقة ورقبتها ويجرحها أحياناً، والبلاء فى ذلك الزمان والحوادث هكذا فى أن التفكير بالسبيل للخلاص منها يخلق مشكلة أخرى للناس.

والسؤال الذى يطرح نفسه كيف يصرح عليه السلام باستبعاد الأمل بالنجاة بينما تورد الروايات قرب ذلك الأمل؟

والجواب أن ظهور الإمام عليه السلام مشروط بشرائط إن تحققت كان الفرج قريباً وإن لم تتحقق فهو بعيد؛ وعبارة أخرى يمكن للمؤمنين بتوفيرهم لشرائط الظهور من قبيل التزكية والتهذيب والاستعداد الكامل والأدعية المتواصلة أن يقربوا ظهور الإمام عليه السلام بينما إن تركت هذه الأمور تأخر الظهور، وعليه فالظهور قريب من جهة وبعيد من جهة والذى نأمل أن يكون قريباً بلطف الله ورحمته.

تأمل

الحوادث الأليمة آخر الزمان

وردت فى هذه الخطبة وبعض خطب نهج البلاغة وروايات النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بعض الأخبار عن المستقبل المظلم والمعقد الذى ينتظر المؤمنين.

ومن خصائص ذلك الزمان عدم إكتراث أغلب الناس بالحلال والحرام. فيرون

نفحات الولاية، ج٧، ص: ١٨٦

كل ما يقع في أيديهم حلالاً كيفما حصلوا عليه ومن أي شخص اقتنصوه وهذه القدارة تلوث جميع حياتهم.

الخاصية الأخرى سكر النعمة الذي يؤدي إلى نسيان المبدأ والمعاد فيعيش الإنسان في عالم من الجهل على غرار من يسكر من الشراب، كما أن الإبتعاد عن الأحكام والتمسك بالحجج الواهية لممارسة الأفعال غير المباحة والتعويل على الحيل الشرعية من الخصائص الأخرى لذلك الزمان وبالتالي تتحول البدع إلى سنن وتلبس السنن ثوب البدع.

جاء في الحديث النبوي الشريف:

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرَّبَا فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ» [٣١٤].

كما ورد في حديث آخر في وصايا الرسول صلى الله عليه وآله إلى ابن مسعود أنه يأتي على الناس زمان يتناولون فيه الأظعمة اللذيذة ويركبون المراكب الفارهة ويتزين الرجال لنسائهم وتخرج النساء دون حجاب ويشاركن في التجمعات حتى وصفهم النبي صلى الله عليه وآله بأنهم منافقو الأمة في آخر الزمان ثم قال:

«يَا بَنَ مَسْعُودُ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ عَلَى دِينِهِ مِثْلُ الْقَائِضِ عَلَى الْجَمْرَةِ بِكَفِّهِ» [٣١٥]

، وسائر الحوادث الأليمة التي يطول ذكرها.

هذه النبوءات وبالإضافة إلى جانبها الاعجازي هي تحذير للمسلمين المخلصين للإسلام في ضبط أنفسهم ويعلم أن هذا العصر سينتهي بظهور المهدي الموعود (أرواحنا فداء).

نفحات الولاية، ج٧، ص: ١٨٧

القسم الثاني

إشارة

أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هَذِهِ الْأَزِمَةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورَهَا الْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ، وَلَا تَصَدَّعُوا عَلَى سِلْطَانِكُمْ فَتَذُمُوا غِبَّ فِعَالِكُمْ. وَلَا تَفْتَحُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْزِ نَارِ الْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا: فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ. إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السَّرَاحِ فِي الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِي بِهِ مَنْ وَلَجَهَا. فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعَوَا، وَأَخْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا.

الشرح والتفسير: وصابا للنجاه من الفتنة

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من كلامه عن الحوادث الأليمة في المستقبل في الجانب السابق من هذه الخطبة حتى ذكر أصحابه هنا ببعض الوصايا التي تنجيهم من أخطار تلك الأحداث فقال عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هَذِهِ الْأَزِمَةَ [٣١٦] الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورَهَا الْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ».

هذه العبارة كناية عن أن الحوادث ستقع حولكم وتحمل آثار الفتنة والفساد فعليكم أن لا تتزعموها ولا تسهموا في تطورها، فالواقع أنه يذكرهم بما أمر به القرآن الكريم حين يقول: «وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ» [٣١٧].

نفحات الولاية، ج٧، ص: ١٨٨

ثم أضاف:

«وَلَا تَصَدَّعُوا [٣١٨] عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَدْمُوا غِبَ [٣١٩] فِعَالِكُمْ. وَلَا تَفْتَحُوا [٣٢٠] مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ [٣٢١] نَارِ الْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا [٣٢٢] عَنْ سَنَنِهَا [٣٢٣]، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ [٣٢٤] لَهَا».

هذا الكلام إشارة إلى أن الناس إن لم يسهموا في استفحال الفتن ولم يلجوها وابتعدوا عنها وقطعوا دابرها فسوف لن تنامي مخلفاتها والقضية بالضبط أشبه بسيل الماء العظيم الذى يعجز الناس عن السيطرة عليه، لكنهم إن فسحوا المجال لكى ينحدروا إلى الوديان والسهول فإن الأضرار التى تصيبهم ستكون أقل مما لو ولجوه وكانوا فى وسطه.

ثم ذكر عليه السلام علة ذلك فقال:

«فَقَدْ لَعِمْرَى يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ».

إشارة إلى أن موج الفتنة على درجة من القوة بحيث لو انبرى المؤمنون لمواجهة لهلكوا ولسلم غيرهم من نحي نفسه عنها، وعليه لا ينبغى تبديد الطاقات عبثاً فى مثل هذه الموارد، بل لابد من الحفاظ عليها والتربص حتى تحين الفرصة المناسبة وهذا بالضبط الفلسفة الأصلية للتقية فى المسائل الدينية والاجتماعية والسياسية التى تعنى ببساطة حفظ الطاقات وانتظار الفرصة.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى موقعه بغية فواق الغافلين والانتفاع بفيوضاته عليه السلام فقال:

«أَمَّا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السَّرَاحِ فِي الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِي بِهِ مَنْ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٨٩

وَلَجَّهَا. فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا [٣٢٥]، وَأَخْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا».

نعم، فالإمام عليه السلام حين يتكهن بحدوث المستقبل المريعة وظلمات الفتن يشير إلى سبيل النجاة فيقول: إنكم إنما تنجون من شر الأشرار والفتن التى يثيرها المفسدون إن سمعتم ما أقول لكم وحفظتموه وفكرتم فيه كما ينبغى.

وقد شبه الإمام عليه السلام نفسه هنا بالسراج المنير فى أمواج الظلمة ثم أمر الناس بالاستضاءة بنور هذا السراج، فقد أمر أولاً بسماع كلامه وحفظه ثم أردفه بالأمر للتعمق به وإدراك حقيقته (وهذا هو الفارق بين مفهوم العبارة

«فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا»

، والعبارة

«وَأَخْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا»

حيث الأولى سماع وإدراك وحفظ والأخرى دقة وتعمق).

تأمل

الانسحاب من الفتن

أحياناً تظهر فى المجتمعات البشرية بعض الفتن التى لا يقوى الأفراد المؤمنون على مواجهتها، كما لا يستطيعون تشكيل خلية للوقوف بوجهها وليس للأفراد الذين يقفون مباشرة إزاء هذه الفتن ويقتحمونها من مصير سوى الهزيمة والانسحاب.

فأفضل سبيل فى ظل هذه الظروف هو الانسحاب من أمام سيول الفتنة والتربص بالفرصة المناسبة بغية مواجهتها، وبالطبع فإن الاجراءات المتهورة لا- تنطوى على نتيجة سوى التضحية بالطاقات والقضاء على الفرص المستقبلية، وهذه هى فلسفة النهى عن النهضات فى عصر أئمة العصمة عليهم السلام وهذا فى الواقع فرع من فروع التقية التى تهدف إلى حفظ القوى واستغلالها فى الوقت

المناسب.

فقد أكد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة على هذه النقطة وأكد عليها مع أنه أشجع فرد في الأمة ومن ابطال مواجهة أعداء الإسلام وخصوم الدعوة.
نغمات الولاية، ج ٧، ص: ١٩١

الخطبة ١٨٨

إشارة

في الوصية بأُمور [٣٢٦]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى ثلاثة أمور مهمّة: أوصى أولاً بالورع والتقوى واجتناب المعصية وذكرهم بنعم الله لتكون لهم دافعاً نحو التقوى والطاعة.

ثم ذكرهم بالموت والانتقال من الدنيا وكيفيه هذا الانتقال بعبارة تهز النفس لتكون عاملاً نحو الطاعة وترك المعصية. وأخيراً حذر من سرعه انقضاء الأيام والليالي والساعات ولا بد من الجد والمثابرة للتزود للدار الآخرة.

نغمات الولاية، ج ٧، ص: ١٩٣

القسم الأول

إشارة

أوصيكم، أيها الناس، بتقوى الله وكثرة حمده على آلائه إليكم، ونعمائه عليكم، وبلائه لديكم. فكم خصكم بنعمه، وتداركم برحمته! أعوزتم له فستركم، وتعرضتم لآخذه فأمهلكم!

الشرح والتفسير: التوصية بالتقوى والحمد

دعا الإمام عليه السلام جميع مخاطبيه في هذا القسم من الخطبة كما أشرنا سابقاً إلى التقوى وشكر الله على نعمه فقال:

«أوصيكم، أيها الناس، بتقوى الله وكثرة حمده على آلائه إليكم، ونعمائه عليكم، وبلائه لديكم».

رغم أن

«آلاء» و «نعماء»

تستعمل في أغلب الموارد بمعنى واحد هو النعمة، إلما أن البعض يعتقد أن آلاء إشارة إلى النعم المعنوية ونعماء إشارة إلى النعم المادية؛ سيما إن وردت المفردتان مع بعضهما.

وتستعمل كلمة

«البلاء»

بمعنى الامتحان والاختبار أو بمعنى الحوادث السارة والأليمة وفي العبارة السابقة وبالنظر إلى تناسق العبارات فهي بمعنى الحوادث السارة، وقال البعض: المقصود هو الحوادث الأليمة التي يختبر الله الإنسان بها وتسبب ارتقاء رتبته وزيادة ثوابه عند الله وتعتبر نعمة بالنظر إلى هذا الأمر.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٩٤

على كل حال فكلام الإمام عليه السلام هذا شبيه ما إستند إليه علماء الكلام في بحث معرفة الله، وقالوا: الدافع الرئيسي لهذا البحث هو مسألة شكر المنعم، لأن الإنسان يرى نفسه غارقاً في النعم وحيث إن شكر منعم النعمة كامن في فطرة الإنسان فإنه يفكر في واهب النعمة فيتجه إليه ليتعرف عليه ومن شأن هذا الأمر أن يكون سبباً لطاعته وتركه للمعصية.

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح بعض هذه النعم فقال:

«فَكَمْ حَصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ، وَتَدَارَكُكُمْ بِرَحْمَةٍ! أَعْوَرْتُمْ [٣٢٨] لَهُ فَسْتَرَكُم، وَتَعَرَّضْتُمْ لِإِخْذِهِ [٣٢٩] فَأَمْهَلَكُم!».

فقد أشار الإمام عليه السلام بادئ الأمر إلى النعم والرحمة المختصة بهذه الأمة مثل خاتمية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكونها خير أمة وعدم نزول البلاء على الأمة ما دام النبي فيهم أو هم يستغفرون، ثم خاض عليه السلام بعد ذلك إلى مسألة ستر الله تعالى مقابل خرق هذا الستر من قبل العصاة وكذلك إعطاء المهلة الكافية من أجل التوبة والعودة إلى النفس وعدم العجلة في معاقبتهم وكل واحدة منها نعمة عظيمة للغاية.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٩٥

القسم الثاني

إشارة

وَأَوْصِيَكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَإِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ. وَكَيْفَ غَفَلْتُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفَلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ فِيَمَنْ لَيْسَ يُمَهَّلُكُمْ! فَكَفَىٰ وَاِعْظَاءً بِمَوْتِي عَايِنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عَمَّارًا، وَكَأَنَّ الْأَخْرَجَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَارًا. أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وَأَوْطِنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَاشْتَعَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا. لَاعَنُ قَيْحَ يَسِيحٍ يَسِيحُونَ انْتِقَالًا، وَلَا فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ اِزْدِيَادًا. أَنْسُوا بِالْدُّنْيَا فَعَرَّثَهُمْ، وَوَتَّفُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ.

الشرح والتفسير: أفضل الوعظ

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إلى نقطة مهمة من شأنها أن تكون دافعاً قوياً للتقوى آنفة الذكر؛ والتي تكمن في ذكر الموت، فأوصى بصورة عامة إلى ذكر الموت فقال:

«وَأَوْصِيَكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَإِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ. وَكَيْفَ غَفَلْتُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفَلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ فِيَمَنْ لَيْسَ يُمَهَّلُكُمْ!».

نعم! فليس هنالك من عقل يسوغ للإنسان الغفلة عن حادثه لا بد له من الوصول إليها، وعدم الإكتراث للشئ الذي لا أمل في الفرار منه، فالعقل من يقتر بهذه الحقيقة في أن الموت مصير حتمي لجميع الناس، بل الموجودات كافة، وما أعظم ما قال الشاعر:

كُلُّ ابْنِ انْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلِهِ حُدْبَاءٍ مَحْمُولٌ

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح دقيق يهز الأعماق في تفاصيل لحظات الموت خلال ١٢ عبارة صغيرة وعميقة المعنى فقال:

«فَكَفَىٰ وَاِعْظَاءً بِمَوْتِي عَايِنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ».

نعم! فقد حملوا على أكتاف الناس ليتجهوا بهم صوب موطنهم الأبدى دون رغبتهم وأوردوهم حفرة القبر دون إرادتهم.

ثم كشف عليه السلام عن مصيرهم بيانه لصفتين فقال:

«فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّارًا [٣٣٠]، وَكَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَارًا».

إشارة إلى أن كل شيء ينتهي في لحظة فيبلغ بهم البعد عن الدنيا درجة كأنهم لم يعيشوا فيها ويقتربوا من الآخرة وكأنهم عاشوا فيها منذ الأزل.

ثم قال عليه السلام:

«أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ».

أجل! كانوا يشعرون بالوحشة حين يمرون بتلك القبور الهامدة فيشبحون عنها بوجوههم، سيما إن كان مرورهم بالليل، بينما أصبحت الآن وطنهم ولو عادوا اليوم بهذه الحال إلى بيوتهم ومساكنهم لاستوحش منهم الناس وبالعكس سيعيشون هم أيضاً تلك الوحشة- إن كان لهم إدراك وشعور-.

من جانب آخر فإن مشكلتهم الرئيسيّة أنهم لم يعمروا دار الآخرة واستفرغوا كل طاقاتهم في عمران الدنيا حيث وصف ذلك الأمم عليه السلام في مواصلته لكلامه فقال:

«وَاشْتَغَلُّوا بِمَا فَارَقُوا، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا».

والأسوأ من ذلك لا مجال هنا لتلافي ما فرط منهم وهذا ما أكدّه الإمام عليه السلام بقوله:

«لَا عَنْ قَيْحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالَ، وَلَا فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَادًا».

فهل لثمار الشجرة إن انفصلت عنها من عودة إليها ومواصلة حياتها ناضجة كانت أم فاسدة؟ وهل الوليد الذي يخرج من بطن أمه سواء كان جنيناً كاملاً أم ناقصاً يستطيع العودة إلى رحمها ويواصل نموه؟ كلا، نعم هذا هو حال أصحاب الدار

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٩٧

الآخرة ليس لهم من سبيل إلى العودة ولذلك تغلق صحيفة أعمالهم وإلى الأبد، فلا يسعهم تلافى سيئته ولا إضافة حسنة، ولعل هذه أعظم مصيبة يفجع بها أصحاب الدنيا الآثمين، وإلّا فإن اقترن الموت بالأعمال الصالحة فلا يعدّ مصيبة فحسب بل سعادة ورحمة فهو لا يعنى سوى تحطيم القفص وانطلاق الروح الإنسانيّة وتحليقها في الفضاء العلوي، ومن هنا حين نزلت ضربه أشقى الأولين والآخرين عبد الرحمن بن ملجم على رأس مولى المتقين على عليه السلام قال:

«فُرْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ».

ثم تناول عليه السلام سبب ذلك البؤس والشقاء فقال:

«أَنْسُوا بِالْدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ، وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ [٣٣١]».

نعم! فالوثوق بالدنيا كالوثوق بالسراب الذي يدعو الإنسان في الصحراء المحرقة نحوه فلا- يزيده إلا عطشاً ويحيل أمله يأساً، أو كالاعتماد على الجدار الرخو الذي ينهار عاجلاً أم أجلاً فيبقى الإنسان تحت أنقاضه.

تأمل

ذكر الموت

لم يقتصر التأكيد على ذكر الموت ونهاية الحياة على أمير المؤمنين عليه السلام بل هذا ما أكدّه اساتذة الأخلاق والهداة إلى الصراط وفي مقدمتهم جميعاً القرآن الكريم بغية إيقاظ الغافلين الموتى في أن هذه الحياة زائلة وليست خالدة، فأطفال الأمس هم شباب اليوم

وشباب اليوم هم كهول الغد وكهول الغد كأوراق الخريف التي تتساقط بريح الأجل لتلتحق بصفوف الأسلاف. ويبدو الالتفات إلى هذه الحقيقة مدعاة لليقظة والاعتبار، فأغلب الناس يجدون في العمل وكأنهم مخلدون في هذه الدنيا، والحال ليس هنالك من طمأنينة لاستمرار هذه الحياة ولولساعة أخرى ويكفي الالتفات إلى هذه النقطة في انزال نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٩٨

الإنسان من مركب الغرور وفتح عينه على الحقائق وإنارة الطريق أمامه. ويبدو ذكر الموت وختام الحياة مفيداً نافعاً حين يتأمل الإنسان تلك الأحداث التي تواجهه حين الموت والانفتاح على العبارات والأمور التي ركز عليها أمير المؤمنين في هذه الخطبة؛ فالانفصال عن الأعرز، ومغادرة الثروة والقصور والمقامات، والإبتعاد عن الأعباء، ونزول تلك الحفرة تحت التراب، والأهم من كل ذلك غلق صحيفة الأعمال واستحالة تلافى الأخطاء كل هذه الأمور تعدد أعظم واعظ وأفضل ناصح.

ومن هنا جاء في الحديث النبوي الشريف:
«إِنَّ أَكْبَسَ الْمُؤْمِنِينَ، أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَشَدَّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا» [٣٣٢].

وفي حديث آخر أنه صلى الله عليه وآله سئل:
«هَلْ يَحْشُرُ مَعَ الشُّهَدَاءِ أَحَدٌ»

فقال:

«نَعَمْ مَنْ يَذْكُرُ الْمَوْتَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَشْرِينَ مَرَّةً» [٣٣٣].

ونختتم هذا البحث بحديث ينطوي على الدروس والعبر ورد بهذا الشأن عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال:
«إِنَّ ابْنَ آدَمَ إِذَا كَانَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَأَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ مَثَلٌ لَهُ مَالُهُ وَعَمَلُهُ وَوَلَدُهُ، فَيَلْتَفِتُ إِلَى مَالِهِ وَيَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي كُنْتُ عَلَيْكَ حَرِيصًا شَدِيدًا فَمَا لِي عِنْدَكَ؟ فَيَقُولُ: خُذْ مِنِّي كَفْنَكَ، قَالَ: فَيَلْتَفِتُ إِلَى وُلْدِهِ فَيَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي كُنْتُ لَكُمْ مُحِبًّا وَعَلَيْكُمْ مُحَامِيًّا فَمَاذَا لِي عِنْدَكُمْ، فَيَقُولُونَ:

تُؤَدِّيكَ إِلَى حُفْرَتِكَ وَنَوَارِيكَ فِيهَا، قَالَ فَيَلْتَفِتُ إِلَى عَمَلِهِ فَيَقُولُ: إِنِّي وَاللَّهِ كُنْتُ فِيكَ لَزَاهِدًا وَإِنْ كُنْتُ عَلَيَّ لِثَقِيلًا فَمَاذَا عِنْدَكَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا قَرِينُكَ فِي قَبْرِكَ وَيَوْمَ نَشْرِكَ حَتَّى أَعْرَضَ أَنَا وَأَنْتَ عَلَيَّ رَبِّكَ» [٣٣٤].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ١٩٩

القسم الثالث

إشارة

فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى مَنَازِلِكُمْ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا، وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا. وَاسْتَيْتَمُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْمَجَانِبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ غَدًا مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. مَا أَشِيرَعُ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَأَشِيرَعُ الْأَيَّامِ فِي الشَّهْرِ، وَأَشِيرَعُ الشُّهُورِ فِي السَّنَةِ، وَأَشِيرَعُ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ!

الشرح والتفسير: سبيل النجاة

كشف الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة سبيل النجاة بعد أن فرغ من التذكير بالموت ونهاية الحياة الدنيا والانتقال السريع إلى عالم الآخرة والحسرة على ما بدر من تقصير واسراف فقال عليه السلام:

«فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَىٰ مَنَازِلِكُمْ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا، وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا».

قطعاً المراد من المنازل منازل الآخرة التي ورد الحث في الآيات والروايات على إعمارها كما ورد الحث على الرغبة فيها والدعوة إليها، حيث قال الله تعالى في كتابه الكريم: «وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» [٣٣٥].

وقال في موضع آخر: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطِ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٠٠

مُسْتَقِيمٍ» [٣٣٦] وقال في سورة البقرة: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ» [٣٣٧].

ثم أشار عليه السلام إلى سبيل آخر من سبل النجاة فقال:

«وَأَسْتَبْتُمُوا نِعْمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، وَالْمُجَابَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ».

ويمكن أن يكون هذا الكلام إشارة إلى إكمال النعم المادية والدينية أو إتمام هذه النعم مع زيادة نعم الله الكبرى في القيامة، لأن الصبر على الطاعة والابتعاد عن المعصية بمقتضى الآية الشريفة: «لِئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» [٣٣٨] سبب زيادة النعم المادية والمعنوية والدينية والأخروية، ونعلم أن الشكر الحقيقي في أن يستعين الإنسان بنعم الله على طاعته ولا يستغلها أبداً ويتقوى بها على معصيته.

ونقرأ في حديث عن علي عليه السلام أنه قال:

«أَقْلُ مَا يَلْزِمُكُمْ اللَّهُ أَنْ لَا تَشْتَعِينُوا بِنِعْمَتِهِ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ» [٣٣٩].

ثم قال في الختام كدليل على ما ذكر:

«فِيَّانَ عَدَاً مِّنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. مِمَّا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّامِ فِي الشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورِ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمْرِ!» [٣٤٠].

والمراد من الغد في هذه العبارة إما الموت كما قال الشاعر:

عَلَى الْمَوْتِ إِعْدَادُ النَّفْسِ وَلَا أَرَىٰ بَعِيداً غَدَاً مَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ غَدٍ

أو المراد يوم القيامة كما ورد في الخطبة ٢٨:

«أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارُ وَغَدَاً السَّبَاقُ».

ولكن بالإلتفات إلى أن جانباً مهماً من هذه الخطبة ركز على الموت ونهاية

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٠١

الحياة الدنيا وعلق صحيفة الأعمال؛ فالمعنى الأول هو الأمل والعبارات الواردة بشأن سرعة مضي الأيام والشهور والسنوات والعمر شاهد آخر على هذا المعنى.

والطريف في الأمر أن الإمام عليه السلام ولتوضيح سرعة مضي العمر انطلق من أجزائه الصغيرة فأشار في البداية إلى سرعة مضي الساعات في اليوم ثم مضي الأيام في الشهر والشهور في السنة والسنوات في العمر ليوضح تماماً هذا المرور السريع والحق أن الأمر كذلك. فأغلب الكهول حين يسألون: كيف مضي عمركم؟ يجيبون:

أسرع من البرق أو كطرفه العين، كأننا بالأمس كنا نلعب مع الصبية في الأزقة ونسرح ونمرح مع الشباب، ولم نكد ننظر في المرآة حتى طالعنا علامات الكهولة وبدت واضحة على رؤوسنا ووجوهنا، فضعف البدن وثلت الأعضاء عن الحركة وانحنت القامة وتقطعت الأنفاس.

والحق أن الخطبة برمتها سيما الجانب الأخير منها تحذير غاية في التأثير لإيقاظ العقول النائمة، قال ابن أبي الحديد في ختام هذه الخطبة:

«كَلَامٌ شَرِيفٌ وَجِيزٌ بِالْغُفِّ فِي مَعْنَاهُ وَالْفُضْلُ كُلُّهُ نَادِرٌ لَا نَظِيرَ لَهُ» [٣٤١].

نفعات الولاية، ج ٧، ص: ٢٠٣

الخطبة ١٨٩

إشارة

في الإيمانِ ووُجُوبِ الهِجْرَةِ [٣٤٢]

نظرة إلى الخطبة

رغم قصر هذه الخطبة إلا أنها عظيمة المضامين ومؤلفه من أربعة أقسام، خاض القسم الأول في أقسام الإيمان (الإيمان الراسخ والمتقلب) وتطرق الثاني إلى مفهوم الهجرة في الإسلام على أنها من المفاهيم المستمرة والدائمة، وأشار في القسم الثالث إلى صعوبة إدراك بعض أحاديث المعصومين أو تعذر تحملها، وأخيراً أشار القسم الرابع إلى سعة علمه عليه السلام داعياً الجميع للانتهال من منبعه الفياض قبل فقده.

نفعات الولاية، ج ٧، ص: ٢٠٥

القسم الأول

إشارة

فَمِنَ الْإِيْمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتًا مُسْتَقِرًّا فِي الْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِيَّ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ، إِلَى أَجْلِ مَعْلُومٍ، فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَفِيهِ حَتَّى يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبَرَاءَةِ.

الشرح والتفسير: الإيمان الثابت والأجوف

كما أشير سابقاً فقد أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة إلى أقسام الإيمان الثابت منه وغير الثابت، فقال: «فَمِنَ الْإِيْمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتًا مُسْتَقِرًّا فِي الْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِيَّ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ، إِلَى أَجْلِ مَعْلُومٍ». فتقسيم الإيمان إلى ثابت ومستقر وأجوف ومتزلزل وبعبارة أخرى عارٍ مما وردت الإشارة إليه في الأخبار والروايات. فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية الشريفة: «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ» [٣٤٣]: «فَالْمُسْتَقَرُّ الْإِيْمَانُ الثَّابِتُ وَالْمُسْتَوْدَعُ الْمُعَارِ» [٣٤٤].

وفي حديث آخر عن أبي الحسن عليه السلام في تفسير الآية السابقة:

«مَا كَانَ مِنَ الْإِيْمَانِ الْمُسْتَقَرُّ فَمُسْتَقَرٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَبَدًا وَمَا كَانَ مُسْتَوْدَعًا سَلَبَهُ اللَّهُ قَبْلَ الْمَمَاتِ» [٣٤٥].

نفعات الولاية، ج ٧، ص: ٢٠٦

ورغم الاختلاف في تفسير الآية المذكورة؛ ومن ذلك ما قيل أن المراد من المستقر أولئك الذين قرؤوا في الدنيا من الرحم والمستودع أولئك الذين ما زالوا في الأرحام، إلا أن ذلك لا يمنع من أن يكون للآية عدة تفاسير.

على كل حال فإن كان للإنسان نفس مطمئنة ورسخ الإيمان في أعماقه كان إيمانه مستقراً ولا يتزلزل مهما تغيرت الظروف وتعرض للترغيب والترهيب؛ بينما يمكن زواله بسهولة إزاء المغريات ما لم يكن راسخاً. وأسباب تزلزل الإيمان متعددة؛ منها عدم الانفتاح على الأدلة المحكّمة واتباع الهوى وضعف النفس ومقارفة الذنوب والمعاصي، فكل من هذه الأمور قد يزلزل الإنسان وآخر عمره ليغادر الدنيا في خاتمة المطاف بلا إيمان. والعبارة:

«عَوَارِي بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ»

كناية عن أن الإيمان لم يتسلل لحدّ إلى قلب الإنسان وروحه ولذلك لم يستقر، أشبه بالإنسان الذي يبلغ جدار منزل ولا يدخله، فبالطبع ليس لهذا الشخص من استقرار.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فحذر من البراءة من الأفراد قبل اختتام عمرهم، ذلك لأن مصير الإنسان يتضح آخر عمره؛ فقال عليه السلام:

«فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَفُوقَهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبَرَاءَةِ».

وعلى هذا الضوء فلا يمكن إصدار الأحكام القطعية بحق أي شخص، لا بشأن الفرد المؤمن ولا غير المؤمن، لإمكانية عوده كل منهما آخر الطريق بفعل بعض العوامل المختلفة، وإن كان هنالك من حكم فهو حكم مرحلي ومؤقت.

تأمل

عناصر ثبات الإيمان

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة المذكورة آنفاً إلى تصنيف الإيمان إلى صنفين مستقر ومتزلزل، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما هي العناصر

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٠٧

التي تقف وراء زعزعة الإيمان وثباته؟

وتبدو الإجابة عن هذا السؤال واضحة إجمالاً، فالكبائر والاستخفاف بالوظائف الشرعية لمن دواعي زعزعة الإيمان وسوء العاقبة؛ إلّا أن الآيات والروايات أكدت على أمور معينة، منها:

مجالسة رفاق السوء والمنافقين؛ ففي الآية ٢٨ و ٢٩ من سورة الفرقان يُعرب بعض أصحاب النار يوم القيامة عن أسفهم لاتخاذهم بعض الأصدقاء فيقولون: «يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا» لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي».

وفي الآية ٥٦ و ٥٧ من سورة الصافات ينادى أحد أصحاب الجنة صاحبه الضال في جهنم: «تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُمْ لِتُزَيِّدُوا نَارَ آلِ عِيسَى مِنْ الْمَحْضَرِينَ».

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عما يثبت الإيمان في قلب الإنسان؟ فقال:

«الَّذِي يُثَبِّتُهُ فِيهِ الْوَرَعُ، وَالَّذِي يُخْرِجُهُ مِنْهُ الطَّمَعُ» [٣٤٦].

وروى عنه عليه السلام أنه قال:

«مَنْ كَانَ فِعْلُهُ لِقَوْلِهِ مُوَافِقًا فَأَثَبَتْ لَهُ الشَّهَادَةُ بِالنَّجَاهِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهُ لِقَوْلِهِ مُوَافِقًا فَإِنَّمَا ذَلِكَ مُشْتَوَدِّعٌ» [٣٤٧].

كما بين أمير المؤمنين على عليه السلام لكميل لسبيل ثبات الإيمان فقال:

«يَا كَمِيلُ! إِنَّمَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تَكُونَ مُسْتَقْرراً إِذَا لَرِمْتَ الْجَادَّةَ الْوَاضِحَةَ الَّتِي لَا تُخْرِجُكَ إِلَى عَوْجٍ وَلَا تُزِيلُكَ عَنْ مَنْهَجٍ مَا حَمَلْنَاكَ عَلَيْهِ»

وَهَدَيْنَاكَ إِلَيْهِ» [٣٤٨].

طبعاً لا تقتصر عناصر ثبات وزعزعة الإيمان على ما ذكر سالفاً، غير أنها تمثل أهم تلك العناصر.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٠٩

القسم الثاني

إشارة

وَالْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الْأَوَّلِ. مَا كَانَ لِلَّهِ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ الْأُمَّةِ وَمُغْلِنِهَا. لَا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ. فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقْرَبَ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ. وَلَا يَقَعُ اسْمُ الْأَسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَوَعَاَهَا قَلْبُهُ. إِنْ أَمَرْنَا صَعْبٌ مُسْتَضْعَبٌ، لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ ائْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ، وَلَا يَبْعِي حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وَأَخْلَامٌ رَزِينَةٌ. أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنْ بَطُرُقِ الْأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ تَشْعَرَ بِرِجْلِهَا فَتَنْتَهَ تَطُّاً فِي خِطَامِهَا، وَتَذْهَبَ بِأَخْلَامِ قَوْمِهَا.

الشرح والتفسير: سلوني قبل أن تفقدوني

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إلى ثلاثة أمور مهمّة: الأول تفسير واضح لمفهوم الهجرة، فنحن نعلم أنّ الهجرة كانت من علامات الإيمان أوائل الدعوة؛ أي أنّ من آمن وكان في سائر المناطق غير المدينة ومنها مكة وجب عليه الإلتحاق بالنبي صلى الله عليه وآله في المدينة؛ لينهل من تعاليم الإسلام ويشد بحضوره شوكة المؤمنين، إلّا أنّ الهجرة فقدت مفهومها كما يبدو بعد بسط الإسلام لنفوذه على الجزيرة العربية، وعليه فلم يعد من ضرورة لأنّ يلتحق بالنبي من آمن في سائر المناطق، غير أنّ الهجرة بمفهومها الواقعي أي جوهر الهجرة وروحها ما زال باقياً

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢١٠

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذا المعنى من الهجرة فقال:

«وَالْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الْأَوَّلِ. مَا كَانَ لِلَّهِ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ [٣٤٩] الْأُمَّةِ وَمُغْلِنِهَا» [٣٥٠].
«إِئْمَةٌ»:

بكسر الهمزة في العبارة المذكورة بمعنى (الحالة) وتشير هنا إلى الإيمان، أي الشخص الذي يكتفئ بإيمانه، إلّا أنّ البعض قرأها بضم الهمزة ليصبح معنى العبارة، أولئك الأفراد من الأمة الإسلامية الذين كتموا إيمانهم وأولئك الذين أعلنوه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام بعد هذا البيان الإجمالي إلى شرح معنى الهجرة بكلام رقيق فقال:

«لَا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ. فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقْرَبَ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ. وَلَا يَقَعُ اسْمُ الْأَسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَوَعَاَهَا قَلْبُهُ» [٣٥١].

وزبده كلام الإمام عليه السلام أنّ الهجرة باقية في كل زمان ومكان على غرار عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، لكن ليس بمعنى انتقال المؤمن من مكان إلى آخر، بل بمعنى معرفة حجة الله أي خليفه رسول الله الحق، وحسب تعبير الحديث النبوي الشريف معرفة إمام الزمان والإيمان به، سواء حصل هذا الأمر عن طريق الهجرة المكاتبية أو بدونها، فالمهاجر الحق من عرف إمام زمانه، لأنّ الهدف من الهجرة الذي يتمثل في معرفة حجة الله في الأرض قد حصل عليه، ومن لم يكن كذلك فهو مستضعف قد يكون معذوراً وقد لا يكون كذلك.

فأولئك الذين تعذر عليهم السبيل إلى المعرفة هم من الطائفة الأولى (معدورون) وأولئك الذين اتيح لهم سبيل المعرفة ولم يغتنموه فهم من الطائفة الثانية (غير معدورين).

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٢١١

ويطلق «المستضعف» في القرآن والروايات الإسلامية على معنيين: الأول:

الأفراد الذين يعانون من الضيق في الحياة المادية كما ورد في الآية ٥ من سورة القصص: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ». هذه الآية إشارة إلى قصة بني اسرائيل والفراعنة وتشير إلى أصل كلى في باب المستضعفين. الثاني: الأفراد الذين يعانون من الضيق من الناحية الدينيّة ولا يستطيعون الهجرة من مناطقهم وقد قال القرآن الكريم فيهم: «وَمَا لَكُمْ لَأَتَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا» [٣٥٢]. فهذه الآية تتحدث عن مسلمي مكة الذين تعذرت عليهم الهجرة وضيقت عليهم المشركون في أداء مناسكهم الدينيّة بحرية وقد شجع القرآن مسلمي المدينة على إنقاذهم من مخالبي المشركين واطلق عليهم اسم الاستضعاف.

ولهذه المفردة معنى ثالث في الروايات حيث يراد بها الشخص العاجز عن تحرى الحق ومعرفته؛ سواء بسبب الضعف الفكري أو بعده عن مصادر التحقيق.

ففي الخبر سئل الإمام الباقر عليه السلام عن المستضعف فقال:

«هُوَ الَّذِي لَا يَهْتَدِي حِيلَهُ إِلَى الْكُفْرِ فَيَكْفُرُ وَلَا يَهْتَدِي سَبِيلًا إِلَى الْإِيمَانِ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمِنَ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْفُرَ» [٣٥٣].

ومراد الإمام عليه السلام في الخطبة هو المعنى الثالث.

وسنقدم شرحاً وافياً في بحث التأملات بشأن حقيقة الهجرة.

ثم أشار عليه السلام إلى الأمر الثاني فقال:

«إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَضْعَبٌ [٣٥٤]، لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٢١٢

مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ، وَلَا يَبْعِي [٣٥٥] حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وَأَخْلَامٌ رَزِينَةٌ [٣٥٦].»

لقد ورد مثل هذا التعبير في سائر الروايات عن الأئمة المعصومين عليهم السلام وربما يكون إشارة إلى الروايات التوحيدية العميقة المتعلقة بصفات الله الجمالية والجلالية ومقامات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام وأفعالهم في عالم التكوين بإذن الله وشفاعتهم الواسعة لمذنبى الأئمة وعلمهم بالغيب وحوادث المستقبل بتعليم الله تعالى والتي لا يحتملها كل شخص؛ ذلك لأن أغلب الجهّال يرون صفات الله على غرار صفات المخلوق ويرون النبي والإمام المعصوم كسائر الناس العاديين، فمن الطبيعي أن لا يتحمل أمثال هؤلاء الأفراد استيعاب تلك الأحاديث، على غرار ما جاء في بعض خطب نهج البلاغة حيث إن أمير المؤمنين عليه السلام حين أشار إلى جانب من الأخبار الغيبية اتهمه بعض الجهّال الذين ضاق عليهم قبول ذلك الكلام بالكذب والعياذ بالله.

وستنطرق إلى جانب من هذه المقامات في آخر هذه الخطبة وبالتأكيد سوف لن يتحملة الجميع.

والعلاقة بين هذا القسم من الخطبة وما ذكره الإمام عليه السلام بشأن الهجرة أن من يهاجر لمعرفة إمام زمانه عليه أن يتحلى بصدر رحب وروح واسعة وفكر رصين ليتسنى له الانتهاال من فيض هذه العيون الربانية الجياشة.

ثم قال عليه السلام في الأمر الثالث:

«أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ [٣٥٧] بِرِجْلَيْهَا فِتْنَةً تَطَأُ فِي

خِطَامِهَا [٣٥٨]،

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٢١٣

وَتَذَهَبُ بِأَحْلَامِ [٣٥٩] قَوْمِهَا.

هذا الكلام هو الآخر من الأحاديث الصعبة والمستصعبه بشأن مقامات المعصومين التي لا يتحملها الجهال؛ إلاً أن علياً عليه السلام قالها كراراً وأجاب كل شخص بما سأل.

والجدير بالذكر أن هذا الكلام لم يقتصر على مصادر الشيعة بل رواه علماء العامة أيضاً، قال يحيى بن سعيد بن المسيب حسب نقل الاستيعاب:

«ما كان أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه» [٣٦٠].

كما روى في ذلك الكتاب عن أبي الطفيل قال: رأيت علياً عليه السلام خطب وقال:

«سَلُونِي فَوَاللَّهِ لَا تَسْأَلُونَنِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أُخْبِرْتُكُمْ؛ وَسَلُونِي عَنْ كِتَابِ اللَّهِ فَوَاللَّهِ مَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَبْلِيلُ نَزَلَتْ أُمُّ بِنَهَارٍ أُمُّ فِي سَهْلٍ أُمُّ فِي جَبَلٍ» [٣٦١].

كما ورد عن عبد الله بن عباس في كتاب الاستيعاب أنه قال:

«وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَى عَلِيٌّ بُنُّ أَبِي طَالِبٍ تِسْعَةَ أَغْشَارِ الْعِلْمِ وَأَيْمُ اللَّهِ لَقَدْ شَارَكَكُمْ فِي الْعَشْرِ الْعَاشِرِ» [٣٦٢].

ونختتم هذا الكلام بحديث آخر ذكره محمد بن يوسف البلخي في كتابه، فقد روى:

نفحات الولاية؛ ج٧؛ ص ٢١٣

علياً عليه السلام خطب الناس فقال:

«سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ...»

سلوني عن طرق السماوات فإني أعرف بها من طرق الأرض، فقام إليه رجل من وسط القوم وقال له:

أين جبرئيل في هذه الساعة. فرمق بطرفه إلى السماء ثم رمق بطرفه إلى المشرق ثم رمق بطرفه إلى المغرب فلم يجد موطناً فالتفت إليه وقال: يا هذا الشيخ أنت جبرئيل. فقال الرجل: بخ بخ لك يا علي بن أبي طالب إن الله يباهي بك ملائكته.

قال ذلك ثم صفق طائراً من بين الناس [٣٦٣].

وضمنياً فإن أعلميته عليه السلام بطرق السماء بالنظر لأهميتها بالنسبة للأرض.

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٢١٤

تأمل

الهجرة في الإسلام

نعلم أن التاريخ الإسلامي كتب على أساس الهجرة أي أن المسلمين لم يعتمدوا ميلاد النبي صلى الله عليه وآله كمبدأ للتاريخ ولا بعثته، بل جعلوا المبدأ عام الهجرة وهذا يدل على أن أهم فصل في حياة المسلمين كان الهجرة، والواقع أن الهجرة هي التي فتحت صفحة جديدة في تاريخ الإسلام لتكون انطلاقة للحكومة الإسلامية وتقدم المسلمين في جميع المجالات.

فالوسط المكي لم يستطع استيعاب الرسالة بصورة تامة رغم الدعوة النبوية التي استمرت ثلاث عشرة سنة، لأن زعماء قريش الطغاة سعوا للقضاء على كل حركة تهدد كيانهم في مهدها؛ حيث كانوا يرون الوثنية راعية لمصالحهم والتوحيد خطراً عليها؛ إلاً أن النبي

الأكرم صلى الله عليه وآله أعدّ خلال هذه الفترة طائفة من الفتية المخلصين فأوفدهم إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها ثم التحقت بهم صفوة من أهل المدينة فاتفقوا وتعاهدوا حتى قدم رسول الله فاستقبل هنالك وأخذ ينشر الإسلام بكلّ حرية وتمكن من بناء مسجد. واستمرت الهجرة كفريضة إلهية؛ أي أنّ كلّ فرد كان يعتقد الإسلام وأينما كان في الجزيرة العربية ينبغي عليه الإلتحاق بالمدينة وشد ظهور المسلمين، أما أولئك الذين لم يهاجروا فلم يشملوا بالولاية الإسلامية حسب النص القرآني الصريح «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا» [٣٦٤].

ويبدو أنّ موضوع الهجرة قد انتهى إبان فتح مكة وبسط نفوذ الإسلام على جميع المنطقة، ولم يُعتبر الأفراد الذين قدموا إلى المدينة من مكة بعد ذلك التاريخ من المهاجرين حيث ورد في الحديث النبوي الشريف:

«لَا هِجْرَةَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ» [٣٦٥].

نصائح الولاية، ج ٧، ص: ٢١٥

ثم اتسع مفهوم الهجرة فأصبح المهاجر من يغادر بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، كما يعتبر من زمرة المهاجرين من يهجر منطقة إلى أخرى لدفع شر خصوم الدعوة، لذلك جاء في الحديث النبوي الشريف:

«أَيُّهَا النَّاسُ هَاجِرُوا وَتَمَسَّكُوا بِالْإِسْلَامِ فَإِنَّ الْهَجْرَةَ لَا تَنْقُطُ مَا دَامَ الْجِهَادُ» [٣٦٦].

ثم تجاوزت الهجرة هذا المعنى لتشمل الهجرة الباطنية والمعنوية بالإضافة إلى الهجرة المكاتبة والخارجية، فقد ورد في الحديث النبوي الشريف:

«وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ» [٣٦٧].

كما ورد عن علي عليه السلام أنّه قال:

«يَقُولُ الرَّجُلُ هَاجِرْتُ وَلَمْ يُهَاجِرْ إِنَّمَا الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ يَهْجُرُونَ السَّيِّئَاتِ وَلَمْ يَأْتُوا بِهَا» [٣٦٨].

وعلى هذا الضوء فمن يهاجر من مكان إلى آخر دون أن تكون له هجرة معنوية وباطنية، أي لا يبتعد عن الذنوب والمعاصي، فهو ليس في زمرة المهاجرين الواقعيين.

ويبدو دليل هذا الاتساع في مفهوم الهجرة واضحاً، لأنّ روح الهجرة وجوهرها الانتقال من الكفر إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة. ومن هنا يدخل في دائرة الهجرة من عرف إمام كلّ زمانه ثم سارع إلى الإلتحاق به لنيل المعارف الدينة كما ورد في الخطبة.

نصائح الولاية، ج ٧، ص: ٢١٧

الخطبة ١٩٠

إشارة

يَحْمَدُ اللَّهُ وَيُثْنِي عَلَى نَبِيِّهِ وَيَعْطُ بِالتَّقْوَى [٣٦٩]

نظرة إلى الخطبة

تعدّ هذه الخطبة من أبلغ خطب أمير المؤمنين عليه السلام وتتكون من عدّة أقسام:

القسم الأول: في حمد الله والثناء عليه والشهادة للنبي صلى الله عليه وآله بالنبوة والرسالة وتطرق فيها لنصره صلى الله عليه وآله على أعدائه بلطف الله.

القسم الثاني: تضمّن التأكيد على مسألة التقوى، فقد دعى الجميع إلى الاستعداد لسفر الآخرة والحديث عن نهاية الحياة وخطورة الموت والحوادث التي تعقبه.

القسم الثالث: الحديث عن المصير المشرق للصالحين في الدار الآخرة ونعم الجنة العظيمة والسكينه التامة والثواب الأخرى العظيم الخالد ضمن التأكيد على

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢١٨

تقلب الدنيا وشرح العذاب الأخرى الذي ينتظر المجرمين في الآخرة.

القسم الرابع: عاد الإمام عليه السلام إلى ما بينه في القسم الثاني من الخطبة ليحث الجميع بعبارات جديدة على التأهب للرحيل إلى عالم الآخرة.

القسم الخامس وهو القسم الأخير من الخطبة: خاطب فيه الإمام عليه السلام أصحابه وحذرهم من التسرع والقيام بالنهضات غير المجديّة والقرارات الساذجة بغيه نيل الشهادة وأمثال ذلك، وصرّح بأن الشهادة ستكون من نصيب من سار على الطريق المستقيم وإن مات على فراشه.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢١٩

القسم الأول

إشارة

أَحْمَدُهُ شُكْرًا لِإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ، عَزِيزَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ.
وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَادًا عَنْ دِينِهِ؛ لِأَيْثِنِيهِ عَنْ ذَلِكَ اجْتِمَاعَ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَالْتِمَاسَ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ.

الشرح والتفسير: نبى الرحمة والجهاد

استهل الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبة بحمد الله والثناء عليه فقال:

«أَحْمَدُهُ شُكْرًا لِإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ؛ عَزِيزَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ [٣٧٠].»

التعبير بـ

«الوظائف والحقوق»

لعله إشارة إلى الواجبات الدينيّة كالصوم والصلاة والخمس والزكاة التي لا تتم بصورة كاملة إلا بتوفيق الله، ويمكن أن تكون إشارة إلى حقوق الله التي تفرزها نعمه كنعمة الأذن والعين والعقل والفتوة والمعافاة والتي يتطلب كل واحدة منها شكرًا.

ثم خاض في الشهادة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرسالة وبعض صفاته فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَادًا عَنْ دِينِهِ؛ لِأَيْثِنِيهِ [٣٧١] عَنْ ذَلِكَ اجْتِمَاعَ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَالْتِمَاسَ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ.»

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٢٠

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من خطبته إلى نقطتين مهمتين في سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؛ الأولى أنه منتصر دائماً في قتاله لأعدائه، وهذا دليل واضح على زعامته صلى الله عليه وآله وخططه في مواجهة الأعداء وخصوم الدعوة، إلى جانب الإمداد الغيبي والعناية الإلهية.

والأخرى أن اتحاد الأعداء ووقوفهم بوجهه لم يؤثر على عزمه وإرادته صلى الله عليه وآله ويصرفه عن دعوته، فكان يحث الخطي- بصبرٍ على المصاعب- نحو هدفه حتى بلغه.

ومن الحوادث التاريخية المعروفة عندما جاء رؤوساء قريش إلى أبي طالب وأرادوا أن يكلموا النبي صلى الله عليه وآله وقالوا له: يا محمّد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفّهت الأحلام، وفزقت الجماعة.. فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا التي يأتيتك رثياً تراه قد غلب عليك- وكان يسمون التابع من الجن رثياً- فربما كان ذلك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، فقال لهم:

«ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسلاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، مبلغكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» [٣٧٢].

وكذلك عندما جاء رؤساء قريش إلى أبي طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد آتيناك تقضى بيننا وبين ابن أخيك، فإنه سقّه أحلامنا، وشتم آلهتنا، فدعا أبو طالب

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٢١

رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك، فقال:

«ماذا يسألونني؟»

، قالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وآلهك، فقال:

«أعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم؟»

، فقال له أبو جهل: لله أبوك نعطيك ذلك عشر أمثالها، فقال:

«قولوا: لا إله إلا الله»

، فقاموا وقالوا: «أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب» [٣٧٣].

وروى أن النبي صلى الله عليه وآله استعبر ثم قال:

«يا عمّاه لو وضعت الشمس في يميني والقمر في شمالي ما ترك هذا القول حتى أنفذه أو أقتل دونه»

، فقال له أبو طالب:

امض لأمرك فوالله لا أخذلك أبداً [٣٧٤].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٢٣

القسم الثاني

فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلًا وَثِيقًا عَزُوتُهُ، وَمَعْقِلًا مَنِيعًا ذُرُوتُهُ.

وَبَادِرُوا الْمَوْتَ وَعَمَّرَاتِهِ، وَاْمْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نَزُولِهِ فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةَ؛ وَكَفَى بِذَلِكَ وَاعِظًا لِمَنْ عَقَلَ، وَمُعْتَبِرًا لِمَنْ جَهَلَ! وَقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضَيْقِ الْأَرْمَاسِ، وَشِدَّةِ الْإِبْلَاسِ، وَهَوْلِ الْمُطَّلَعِ، وَرُوعَاتِ الْفَزَعِ، وَاخْتِلَافِ الْأَضْلَاعِ، وَاسْتِكََاكِ الْأَسْمَاعِ، وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وَخِيفَةِ الْوَعْدِ، وَعَمَّ الضَّرِيحِ، وَرَدَمِ الصَّفِيحِ.

الشرح والتفسير: الأهوال القادمة

خاض الإمام عليه السلام بعد حمد الله والثناء عليه والشهادة للنبي صلى الله عليه وآله بالرسالة، في موضوع مهم ومصيري في حياة الإنسان ألا وهو التقوى فقال:

«فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلًا وَثِيقًا عَزُوتُهُ، وَمَعْقِلًا [٣٧٥] مَنِيعًا [٣٧٦] ذُرُوتُهُ [٣٧٧].»

فالواقع أن عالم الدنيا بمنزلة البئر الذي يتعذر الخلاص من مخاطره سوى من خلال التمسك بحبل متين ألا وهو التقوى، ثم شبه التقوى بالحصن الحصين حيث ينجو من تحصن فيه من الأخطار أو كقمة الجبل المنيعه وعلى هذا الأساس فإن التقوى وسيلة للنجاة من حضيض الذلة إلى ذروة السعادة والعزة كما أنها الدرع الذي يقي الإنسان عواصف الشهوات والهوى والهوس.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٢٤

ثم تعرض الإمام عليه السلام إلى أهم وسائل العبرة والعظة فرسمها بصورة دقيقة ومعبرة فقال:

«وَبَادِرُوا الْمَوْتَ وَعَمَّرَاتِهِ، [٣٧٨] وَاْمْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نَزُولِهِ:

فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةَ؛ وَكَفَى بِذَلِكَ وَاعِظًا لِمَنْ عَقَلَ، وَمُعْتَبِرًا لِمَنْ جَهَلَ!».

فمن الطبيعي أنه ينبغي للشخص المقبل على سفر مليء بالأخطار والذي لا عودة فيه، من التأهب التام له وتوفير جميع السبل التي تلزم للمسير إليه وهو السفر المعروف بسفر الآخرة الشاق، ومما لا شك فيه أنه ليس هنالك أي خشية أو قلق إن اتجه الإنسان إليه بصحيفة أعمال مليئة بالحسنات وخالية من السيئات، وهنا خاض الإمام عليه السلام في ذكر جانب من الحوادث المريرة للموت والقبر فقال:

«وَقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضَيْقِ الْأَرْمَاسِ [٣٧٩]، وَشِدَّةِ الْإِبْلَاسِ [٣٨٠]، وَهَوْلِ الْمُطَّلَعِ [٣٨١]،

وَرُوعَاتِ الْفَزَعِ [٣٨٢] وَاخْتِلَافِ الْأَضْلَاعِ [٣٨٣]، وَاسْتِكََاكِ [٣٨٤] الْأَسْمَاعِ، وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وَخِيفَةِ

الْوَعْدِ، وَعَمَّ الضَّرِيحِ [٣٨٥]، وَرَدَمِ [٣٨٦] الصَّفِيحِ [٣٨٧].».

بالإلتفات إلى أن الموت لا يعنى لنا انتهاء كل شيء حيث تبقى الروح بعد الموت تعيش الحياة الأخرى الخالدة، فإن القبور الضيقة والمظلمة مقارنة بالبيوت الواسعة والجميلة تبدو غاية في الوحشة إلى جانب القلق المتعلق بضغطة القبر والخوف من

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٢٥

المستقبل وفقد الأعزة والأحبة والشعور بالوحدة المطلقة وتآكل أعضاء الجسم تحت التراب وبالتالي الانتقال من الوسط الهادئ والمرفه إلى الوسط المرعب، كل ذلك من الأمور التي يهتز لها الإنسان لمجرد التفكير بها فيحذر الإمام عليه السلام من ضرورة التأهب لمثل هذا السفر الشاق والمليء بالأخطار.

جدير ذكره أن الإمام عليه السلام جسّد لمخاطبيه بهذه العبارات العشر الفصيحة والبليلة كل الأمور ذات الصلة بالموت والقبر وكأنهم يرونها عياناً؛ وهي الأمور التي ينتظرها الجميع دون استثناء والتفكير فيها يتنشل الإنسان من نوم الغفلة مهما كانت عميقة فيوقظه ويجبره على إصلاح أعماله وأقواله.

ولعل هذا هو السبب في ما ورد من الوصايا الإسلامية التي توصي بوضع الميت على الأرض قبل وضعه في قبره حين يحمل إليه والترث مدة ثم التقدم ووضع ثابته على الأرض والصبر مدة أخرى وهكذا حتى يرد ذاك الموضع الموحش [٣٨٨].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٢٧

القسم الثالث

إشارة

فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سِنِّنَ، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرْنٍ. وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا. وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلَالِهَا، وَأَنَاخَتْ بِكَلَالِهَا، وَأَنْصَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْمِ مَضَى، أَوْ شَهْرِ انْقِضَى، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثًا، وَسَدِّمِينُهَا غَثًا. فِي مَوْقِفِ ضَنْكِ الْمَقَامِ، وَأُمُورِ مُشْتَبِهَةِ عِظَامِ، وَنَارِ شَدِيدِ كَلْبِهَا، عَالِ لَجْبِهَا، سَاطِعِ لَهْبِهَا، مُتَعَيِّظِ زَفِيرِهَا، مُتَأَجِّجِ سَعِيرِهَا، بَعِيدِ حُمُودِهَا، ذَاكَ وَفُودِهَا، مَخُوفِ وَعِيدِهَا، عَمِ قَرَارِهَا، مُظْلِمَةِ أَقْطَارِهَا، حَامِيَةِ قُدُورِهَا، فَطِيعَةِ أُمُورِهَا. (وَسَيِّقِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا) قَدْ أَمِنَ الْعِدَابُ، وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ؛ وَزُخِرْ حُوا عَنِ النَّارِ، وَأَطْمَأْنَنْتَ بِهِمُ الدَّارُ، وَرَضُوا الْمَنُورَ وَالْفَرَارَ. الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَارًا، تَخَشُّعًا وَسِدِّيقَةً؛ وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا، تَوْحُّشًا وَانْقِطَاعًا. فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَأْبًا، وَالْجَزَاءَ ثَوَابًا، (وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) فِي مُلْكِ دَائِمٍ، وَنَعِيمٍ قَائِمٍ.

الشرح والتفسير: أهوال المحشر!

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من التذكير بالموت وشدائده حتى حث الجميع على الاستعداد والتأهب لهذا السفر الخطير والمرعب فتحدث بعبارات رائعة عن بداية القيامة واختتام الدنيا فقال:

«فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٢٨

سِنِّنَ [٣٨٩]، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرْنٍ [٣٩٠]. وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا [٣٩١]، وَأَزِفَتْ [٣٩٢] بِأَفْرَاطِهَا [٣٩٣]، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا. وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلَالِهَا، وَأَنَاخَتْ [٣٩٤] بِكَلَالِهَا [٣٩٥].

العبارة:

«وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرْنٍ»

وبالالتفات إلى أن القرن هو الحبل الذي يربط به البعيران، إشارة إلى أن المسافة بينكم وبين القيامة ليست بعيدة، كما يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى القيامة الصغرى أي الموت أو القيامة الكبرى بمعنى يوم القيامة، ذلك لأن عمر الدنيا مهما كان فهو قليل ولا بد أن

تحل القيامة، والفارق بين العبارة

«وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا»

والعبارة

«وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا»

هو أنه قال في العبارة الأولى قد جاءت علامات الآخرة بينما تطرق في العبارة الأخرى إلى توفر مقدماتها.

وذهب البعض إلى أن العبارة

«وَأَنَاخَتْ بِكَلَالِهَا»

إشارة إلى مصعب القيامة، فالبعير حين ينام ويلصق صدره بالأرض يقذف بثقله على الأرض، لكن لا يبعد أن تكون إشارة قضية الموت والقيامة كالناقة التي تنام على عتبة أبواب الجميع. كناية عن أن أحداً لا ينجو منه.

ثم قال بشأن أوضاع الدنيا:

«وَأَنْصَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا [٣٩٦]،

فَكَانَتْ كَيَوْمِ مَضَى أَوْشَهْرٍ انْقَضَى، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَتًّا [٣٩٧]، وَسَمِينُهَا غَنًّا [٣٩٨]».

نعم، فأولئك الذين كانت أعمارهم قصيرة كأنها بمثابة يوم ومن عمر طويلاً

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٢٩

فكانه عاش شهراً.

العبارة:

«أَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا»

إشارة إلى أن الدنيا أخذتهم مدّة بأحضانها ثم رمتهم إلى الموت وتشير العبارات

«صَارَ جَدِيدُهَا رَتًّا، وَسَمِينُهَا غَنًّا»

إشارة إلى تقلب جميع نعم الدنيا فالجديد يصبح قديماً ويذول والسمان يضعفون ويودعون هذا العالم.

ثم واصل عليه السلام كلامه عن وضع الإنسان في نهاية الدنيا ليخوض في مواقف القيامة وكان هنا كلام مقدر وربّما لم يورد السيد

الرضي بعض العبارات على طريقته في الاقتطاف لوصف العصاة الظلمة حين يردون المحشر ويرون ذلك المشهد المرعب فقال:

«فِي مَوْقِفِ صَنْكِ [٣٩٩] الْمَقَامِ، وَأُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ عِطَامٍ، وَنَارٌ شَدِيدٌ كَلْبُهَا [٤٠٠]، عَالٌ

لَجْبُهَا [٤٠١]، سَاطِعٌ لَهْبُهَا، مُتَعَيِّظٌ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّجٌ [٤٠٢] سَعِيرُهَا، بَعِيدٌ حُمُودُهَا، ذَاكٌ [٤٠٣] وَقُودُهَا،

مَخُوفٌ وَعِيدُهَا، عَمٌ [٤٠٤] قَرَارُهَا، مُظْلِمَةٌ أَقْطَارُهَا، حَامِيَةٌ قُدُورُهَا، فَطِيْعَةٌ أُمُورُهَا».

يشير التعبير بالموقف إلى مشهد القيامة أو مشهد جهنم، بقرينة الصفة التي جاءت بعد ذلك وجدير ذكره أن الإمام عليه السلام بين

بهذه العبارات والصفات الاثنتي عشرة التي وصف بها نار جهنم جميع هذه الاعجازات الإلهية بدقّة متناهية وفصاحة تامّة بحيث يقض

مضاجع الآثمين.

النار المحرقة والخطيرة، النار الشديدة اللهب والتي تتداعى منها تلك الأصوات الرهيبة بفعل ما يحدث فيها من انفجارات، فهي لا

تخمد أبداً ودخانها كثيف وقاتل تلتهم كلّ ما حولها بحيث تحيل النهار الواضح إلى ظلمة مطلقة.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٣٠

فالإمام عليه السلام يشير إلى هذه الصفات وكأنه يراها بأمر عينيه خلف حجب الغيب.

ثم خاض عليه السلام في أوضاع أهل الجنة فرسم لها صورة دقيقة بما يؤجج نيراناً من الشوق في قلوب المؤمنين فقال مستشهداً بالآية

الكريمة: «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا [٤٠٥]»

: قَدْ أَمِنَ الْعَذَابُ، وَأَنْقَطَعَ الْعِتَابُ؛ وَزُخْرِحُوا [٤٠٦] عَنِ النَّارِ، وَأَطْمَأْنَنْتْ

بِهِمُ الدَّارُ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ».

حيث أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيرة إلى خمسة امتيازات عظيمة لهذه الطائفة الورعة من أصحاب الجنة والتي يمكن

خلاصتها في السكينة والطمأنينة المطلقة حيث الأمان من العذاب وغياب العتاب وابتعاد عن النار والاستقرار التام في الجنة والرضا بهذه

العاقبة.

آنذاك خاض الإمام عليه السلام في شرح جانب من أعمال هذه الفئة فقال:

«الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيةً، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَارًا، تَحَشُّعًا وَاشْتِغْفَارًا؛ وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا، تَوْحُّشًا

وَأَنْقِطَاعًا».

حيث رسم الإمام عليه السلام بهذه الصفات الأربع مقامهم الرفيع بأجمل الصور ليعتبره العنصر الذي جعلهم من أصحاب الجنة. فمن جانب كانت أعمالهم في الدنيا طاهرة ونقية عن الرياء والعجب والفخر، وكانت أعينهم باكية من خشية الله وعلى مصاب المظلومين من عباد الله، ومن جانب آخر كانوا ينقطعون في الليل للتهجد والعبادة والخشوع والخضوع والاستغفار كما كان نهارهم ليلاً بسبب ابتعادهم عن أهل الدنيا والتنازع على المتع المادية فلا يعيشون سوى الانقطاع إلى الله، نعم هذه هي صفات أصحاب الجنة من ذوى المقامات الرفيعة والسعداء من أصحاب النجاة فاستحقوا بذلك تلك الدرجات، ومن هنا اختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول: «فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَأْبَأً، وَالْجَزَاءَ ثَوَابًا، وَكَانُوا

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٣١

أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا» [٤٠٧]

في مُلْكٍ دَائِمٍ، وَنَعِيمٍ قَائِمٍ».

وعلى هذا الضوء فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أهليتهم واستعدادهم بالإضافة إلى أجرهم وثوابهم العظيم، فقد حاربوا هوى أنفسهم مدّة قليلة وأثبتوا أهليتهم ورفعة مقامهم من خلال عبادتهم لربهم وخشيتهم منه وسهرهم الليلي بالعبادة وإخلاصهم لله تعالى فأفاض الله الجواد الكريم عليهم عظيم أجره وثوابه الذي يفوق تلك الأعمال والذي لا يعرف من معنى للزوال والفناء.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٣٣

القسم الرابع

إشارة

فَارْعَوْا عِبَادَ اللَّهِ مَا بَرِعَائِيهِ يَفُوزُ فَاثْرُكُمْ، وَيَاضَاعَتِهِ يَخْسِرُ مُبْطَلُكُمْ. وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مَزْتَهُنَّوْنَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَيِّدِينَوْنَ بِمَا قَدَّمْتُمْ. وَكَأَنَّ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْمَخُوفُ، فَلَا رَجْعَةَ تَنَالُونَ، وَلَا عَثْرَةَ تُقَالُونَ. اسْتَعْمَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير: الاستعداد للرحيل

تابع الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة في بيانه لمصير الطالحين والصالحين حين الموت وفي القيامة، مطلباً يؤدي إلى النجاة والتوفيق حين الموت والعرض على الله فقال:

«فَارْعَوْا عِبَادَ اللَّهِ مَا بَرِعَائِيهِ يَفُوزُ فَاثْرُكُمْ، وَيَاضَاعَتِهِ يَخْسِرُ مُبْطَلُكُمْ» [٤٠٨].

من الواضح أن عبارة الإمام عليه السلام البالغة هذه إشارة إلى التقوى والعمل الصالح الذي يدعو إلى الفلاح بينما يدعو التولى عنه إلى الفشل والخسران كما صرح القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً: «وَمِنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» [٤٠٩].

ثم واصل كلامه في الحديث عن قصر عمر الإنسان وذمّ التعويل على ما بقى منه

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٣٤

والإبهام الذي يحيط بلحظة الموت فدعى الجميع لادخار العمل الصالح والمسارعة للخيرات فقال:

«وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَدِينُونَ [٤١٠] بِمَا قَدَّمْتُمْ».

يا له من تعبير رائع (التعبير بالرهن والدين) بالنسبة للذنوب السالفة وكأن الذنوب تطوق عنق الإنسان كدين ليكون بمنزلة المرهون بكل كيانه إزاء هذا الدين فلا ينفك عنه ما لم يتب ويبادر إلى تلافى ما فرط منه بالعمل الصالح، الأمر الذي أكدته القرآن الكريم: «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» [٤١١].

ورد في الحديث النبوي الشريف (الخطبة الشعبانية في أهميته شهر رمضان):

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَنْفُسَكُمْ مَرْهُونَةٌ بِأَعْمَالِكُمْ فَفُكُّوْهَا بِاسْتِغْفَارِكُمْ» [٤١٢].

ثم حذر الجميع فقال:

«وَكَأَنَّ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْمُخَوْفُ، فَلَا رَجْعَةَ تَنَالُونَ، وَلَا عَثْرَةَ تُقَالُونَ [٤١٣]».

فالحقيقة هي أن الإمام عليه السلام يشير إلى هذه النقطة وهي أن الموت يمكن أن يأتي الإنسان في كل لحظة لا سيما أننا نرى موت الفجأة أثر السكنة القلبية أو سائر حوادث الموت الذي لا عودة فيه والتي تعجز أمامه جميع الأسباب الظاهرية، ثم اختتم الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبة بدعاء قصير وجامع فقال:

«اسْتَعْمَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ».

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٣٥

القسم الخامس

إشارة

إِلْزَمُوا الْأَرْضَ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ. وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّهُ لَكُمْ. فَإِنَّهُ مِنْ مَيَاتٍ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيدًا، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَقَامَتِ النَّيَّةُ مَقَامَ إِضْلَاتِهِ لِسَيِّفِهِ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلًا.

الشرح والتفسير: لكل شيء أجل ومدّة

خاطب الإمام عليه السلام في القسم الأخير من هذه الخطبة أولئك الذين يتطلعون إلى الشهادة بفارغ الصبر ودون تروٍ ويتعجلون في مواجهة العدو بعيداً عن تخطيط الإمام عليه السلام فقال:

«إِلْزَمُوا [٤١٤] الْأَرْضَ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ. وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّهُ لَكُمْ».

فكما أن هنالك من يتهرب من الجهاد في سبيل الله، هنالك من يتعجل ويبغى الشهادة قبيل أوانها، ورغم أن نيات هؤلاء الأفراد مقدسة لكن الأعمال التي لا تخضع للتخطيط وتسبق أوانها تنطوي على العديد من الأخطاء والانعكاسات السلبية.

ومن هنا نهى الإمام عليه السلام عن مثل هذه الأفعال ثم قال بصيغة دليل لما ذكر:

«فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٣٦

شَهِيدًا، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَقَامَتِ النَّيَّةُ مَقَامَ إِضْلَاتِهِ [٤١٥] لِسَيِّفِهِ».

واختتمها بالعبارة:

«فَأَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلًا».

وتبدو هذه العبارة مجدية في كل عصر وزمان وتشكل رداً حاسماً على المتسرعين من الأفراد من ذوى النيات الطاهرة الذين ربّما يعيشون الجهاد والشهادة لكنهم لا يميزون الوقت المناسب من غير المناسب فهم يتحرقون على الدوام ويمارسون بعض الضغوط على زعامتهم إلّا أنّ الزعيم الحكيم من لا يستجيب للضغوط ولا يتعجل النتائج، لكنه يبشرهم بأنّ الله سيثيبهم على تلك النيات إن كانوا صادقين في دعواهم وإيمانهم بالمبدأ والمعاد والنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام فسيحصلون لا شك على ثواب المجاهدين في سبيل الله والشهداء ولا- يصدق هذا الكلام على الجهاد والشهادة فحسب بل يشمل جميع أفعال الخير التي ينبغي ممارستها في وقتها المناسب، وقد وردت مثل هذه العبارة في الخطبة الخامسة من نهج البلاغة بتعبير آخر إذ قال:

«وَمُجْتَبَى الثَّمَرَةِ لِعَيْرِ وَقْتِ ائِنَاعِهَا كَالزَّرَارِعِ بَعْدَ اِرْضَائِهِ».

ويصدق هذا الكلام على عصرنا وزماننا إذ إنّ هنالك طائفة تسعى لمواجهة المنافقين في الداخل والأعداء في الخارج دون التطلع إلى الفرصة المناسبة والتخطيط الدقيق، أو تعيش حالة من الانتظار الممل لظهور الإمام المهدي عليه السلام والقتال بين يديه والذي يقال لجميع هؤلاء إنّ الله سيعطيكم أجر المجاهدين والشهداء إن صدقتم في إيمانكم وأخلصتم في نياتكم.

تأمل

الثورات المتعجلة

قد يضيق البعض ذرعاً في المجتمعات التي تعيش حالة من المعاناة بفعل العدو

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٢٣٧

الداخلي أو الخارجي فيعمد إلى القيام بالثورة في غير وقتها، الأمر الذي لا يؤدي إلى فشل تلك الثورة فحسب بل يوقظ العدو ويسلب زمام المبادرة في المستقبل، وهذه إحدى المعضلات التي تواجه القيادات الحكيمة.

وقد حفل تاريخ التشيع بالعديد من هذه الثورات المتعجلة عقب واقعه كربلاء والتي جوبهت بالنهي من جانب الأئمة عليهم السلام، مع ذلك فقد التحق بها بعض من اشياهم المخلصين.

والقضية المهمة هي أنّ الثورة ضد العدو بغية القضاء عليه تتطلب العديد من الشروط التي يسعى القائد الحكيم لتوفرها جميعاً لتفضي الثورة إلى نتائجها المتوخاة منها.

فالقائد عادة يرى ما لا يراه الفرد العادي ويتمتع بسعة افق تجعله يرى ويفكر في ما خلف هذا الواقع، والذي تفيده هذه الخطبة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ورغم كونه أعظم بطل ومجاهد في الإسلام قد عانى من مثل هؤلاء الأفراد إلى جانب أولئك المتقاعسين عن الجهاد.

فقد عانى في الواقع من افراط وتفريط هاتين الطائفتين.

فبعض الأفراد لا يكاد يسمع الآيات والروايات الواردة في مقام الشهداء وثواب الشهادة ودعوة الناس لهذا المضمار حتى يعيشوا حالة عجيبة من عشق الشهادة، إلّا أنّ الإمام عليه السلام يريهم أفضل سبيل والذي تلخص في نصحهم عدم الاستعجال واليقين بأنّ الله سيعطيهم أعظم الأجر والثواب إن صدقوا في إيمانهم وأخلصوا في نياتهم.

نقحات الولاية، ج٧، ص: ٢٣٩

الخطبة ١٩١

إشارة

يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَى نَبِيِّهِ وَيُوصِي بِالزُّهْدِ وَالتَّقْوَى [٤١٦]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في حمد الله والثناء عليه المقرون بذكر النعم وجانب من صفات الجلال والجمال، ثم الشهادة للنبي صلى الله عليه وآله بالرسالة وتوضيح الظروف التي بعث فيها النبي وهدايته الأمة.

القسم الثاني: الحديث عن التقوى وبركاتها والوصية بالتمسك بهذه العروة الإلهية في جميع شؤون الحياة.

القسم الثالث: تحذير أصحاب الدنيا من الغرور بها والكشف عن الدنيا وعيوبها ليعتبر بذلك الآخرون.

نقحات الولاية، ج٧، ص: ٢٤١

القسم الأول

إشارة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ، وَالْعَالِبِ جُنْدُهُ، وَالْمُتَعَالِي جَيْدُهُ أَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِهِ التَّوَامِ، وَالْأَلَاءِ الْعِظَامِ. الَّذِي عَظَّمَ جَلْمَهُ فَعَفَا، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى، وَعَلِمَ مَا يَمْضَى وَمَا مَضَى، مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ، بِلَا اِفْتِدَاءٍ وَلَا تَعْلِيمٍ، وَلَا اخْتِدَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعِ حَكِيمٍ، وَلَا إِصَابَةٍ خَطَأً، وَلَا حَضْرَةٍ مَلَأَ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ابْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرِهِ، وَيَمُوجُونَ فِي حَيْرِهِ. قَدْ قَادَتْهُمْ أَرْزَمَةُ الْحَيْنِ، وَاسْتَعْلَقَتْ عَلَى أَفْنَدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ.

الشرح والتفسير: بديع خلق الله

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة التي تعد من أفصح خطبه عليه السلام بحمد الله والثناء عليه ووصفه بثلاث صفات فقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي [٤١٧] فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ، وَالْعَالِبِ جُنْدُهُ، وَالْمُتَعَالِي جَيْدُهُ».

التعبير

«الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ»

التي تفيد سعة حمد الله في جميع مخلوقاته يمكن أن تشير إلى حمده من قبل الأقوام المؤمنة والثناء عليه، أو إشارة إلى الحمد والثناء التي تعيشه موجودات العالم كافة ولا سيما إزاء نعم الله بلسان الحال والقال فتسبح الله وتقدهس وتحمده، وغلبة جند الله تستند إلى أن

جند الله تعالى لا

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٢٤٢

يقتصرون على ملائكته سبحانه بل كل ما في العالم، وليس لأحد مقاومته والوقوف بوجهه: «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» [٤١٨].
والعبارة:

«وَالْمُتَعَالَى جَدُّهُ»

اقتباس من الآية الشريفة: «وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا» [٤١٩] وبالإلتفات إلى أن الجِدَّ هنا تعنى العظمة فإنها إشارة لعظمة الذات الإلهية المقدسة [٤٢٠].

ثم ركز الإمام عليه السلام على النعم المادية والمعنوية ليحمد الله ويشنى عليه إزاء تلك النعم فقال:
«أَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِهِ التُّوَامِ [٤٢١]، وَأَلَائِهِ الْعِظَامِ».

بالنظر إلى أن (توأم) على وزن (غلام) جمع (توأم) على وزن (جوهر) بمعنى الأشياء المقترنة مع بعضها فإنها تشير إلى النعم الإلهية التي تكون عادة متصلة ومتتالية، فمثلاً نعمة اللسان هي وسيلة للتكلم وكذلك عنصر لدفع الطعام تحت الأسنان بغية مضغه من جانب كونه وسيلة مهمية لابتلاع الطعام وتذوق الأطعمة وللإطلاع على سلامة الطعام من فساده وهكذا سائر النعم التي لا تعد ولا تحصى، وهل يطبق الإنسان احصاء نعم الله وأفضاله؟

ويمكن أن تكون «آلاء» مقابل «نعم» إشارة إلى النعم المعنوية في مقابل النعم المادية، ثم خاض في معرفة الله فحمده واثني عليه وذكره بخمس صفات من شأن كل واحدة منها أن تكون دافعاً لحمد الله والثناء عليه فقال عليه السلام:

«الَّذِي عَظَّمَ حِلْمَهُ فَعَفَا، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى، وَعَلِمَ مَا يَمْضِي وَمَا مَضَى، مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ».

فهذه الصفات الخمس التي تنطلق من سعة حلم الله تعالى وتنتهي بخلق الخلائق

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٢٤٣

وابداع الكائنات تعد أهم صفات الله التي تشمل العلم والقدرة والعدالة واللطف والرحمة.

ثم أشار إلى هذه الحقيقة أن خلق الله تعالى دون أدنى سابقة تعلم وتجربة ومشورة فقال عليه السلام:

«بَلَا أِفْتِدَاءَ وَلَا تَعْلِيمَ، وَلَا اخْتِدَاءَ [٤٢٢] لِمِثَالِ صَانِعِ حَكِيمٍ، وَلَا إِصَابَةَ

حَطَأٍ، وَلَا حَضْرَةَ مَلَأَ».

فالواقع إن الشخص الذي يستلهم من الآخرين في صناعته إنما يستند إلى ذلك في واحدة من طرق خمسة:

الأول: أن يقلد غيره، والثاني: أن يتعلم، والثالث: أن يرى صناعه عالم غيره فيستفيد منها في تحقيق غرضه، والرابع: الاستفادة من أخطائه السابقة والخروج بتجربة، والخامس: أن يستشير جماعة معينة ويتعاون معها، أما الله الصانع الحكيم فخلقه لا يستند إلى سابقة وغنى عن كل ما قيل سابقاً ومن هنا يطلق على خلقه الابداع (الخلق دون سابقة).

وتبدو هذه المسألة في غاية الأهمية إذ إن الإنسان مهما صنع ومهما ابداع وابتكر إنما شاهد نماذج ذلك في عالم الخلق؛ فمثلاً الذين اخترعوا الطائرة فمما لا شك فيه أنهم استفادوا واستلهموا تصميمها من الطيور، ومن هنا كان هنالك شبه كبير بين أنواع الطائرات وأنواع الطيور، وفي نفس الوقت وبغية تحقيق أهدافهم عليهم أن يستفيدوا من علوم السابقين وتجاربهم ويقوموا باختباراتهم الواسعة والمتكررة ليتمكنوا من تلافى أخطائهم عن طريق الاختبار والتجربة، وعادة ما يعمدون إلى تشكيل بعض المجالس وعقد المؤتمرات والندوات لهذا الغرض والحال فإن الصانع الحكيم ليس بحاجة إلى أي من هذه الأمور في خلقه الواسع والأنواع الخارجة عن الحدود من مخلوقاته.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من حمد الله والثناء عليه خاض في الشهادة للنبي صلى الله عليه وآله

نفعات الولاية، ج٧، ص: ٢٤٤

بالرسالة والأوضاع على عهد بعثته ليشرحها بعبارات قصيرة وعظيمة المعنى وليكشف النقاب عن مضمون تلك الدعوة فتبدو واضحة وجليه وملموسة، فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ ابْتَعْتَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةِ [٤٢٣]، وَيَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ. قَدْ قَادَتْهُمْ أَرْمَةُ الْحَيْنِ [٤٢٤]، وَاسْتَعْلَقَتْ عَلَيَّ أَفْدَانِيهِمْ أَقْفَالُ الرِّينِ [٤٢٥].»

فقد استعار الإمام عليه السلام عدة تشبيهات لرسم صورة واضحة لما كانت عليه الناس في العصر الجاهلي؛ فقد شبههم أحياناً بالشخص الذي وقع في ورطة مرعبة فهو لا ينفك عن الصراخ وطلب النجدة، وأحياناً أخرى شبههم بأن أزمهم انيطت بأيدي أفراد فاسدين مفسدين لا يقودونهم سوى إلى الهاوية، وأخيراً شبه قلوبهم بالمخازن المقفلة بحيث لم يلجها أى علم ومعرفة وفضيلة. حقاً، إن الإنسان ما لم يقف على وضع الناس في العصر الجاهلي من الناحية الفكرية والعقائدية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية لا يسعه إدراك عظمة النبي صلى الله عليه وآله وعظمة الدعوة الإسلامية، ومن هنا يذكر الإمام عليه السلام في العديد من خطب نهج البلاغة وبعبارات غاية في الروعة والجمال الوضع آنذاك للأجيال الذين لم يدركوا ذلك العصر أو أنهم أدركوا واقعه ولكنهم نسوه ومن ذلك ما قاله في الخطبة الثانية من النهج:

«أَرْسَلَهُ بِالَّذِينَ الْمَشْهُورِ ... وَالنَّاسُ فِي فِتْنٍ أَنْجَزَمَ فِيهَا جَعَلَ الدِّينَ ...».

ووقال عليه السلام في الخطبة ٢٦:

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ... وَأَنْتُمْ مَعْشَرُ الْعَرَبِ فِي شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ ...».

والخطبة ٥٩:

«بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضَلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ ...».

نفعات الولاية، ج٧، ص: ٢٤٥

والخطبة ١٩٥:

«أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَةٌ وَمَنَاهِيجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ ...».

حقاً لونظرنا إلى عبارات الإمام عليه السلام في هذه الخطب مع بعضها البعض الآخر لتجسدت أمامنا صورة غاية في الروعة عن الأوضاع في العصر الجاهلي والمشاكل التي كان يعانيها الناس منها آنذاك على الصعيد العقائدي والاجتماعي والأخلاقي وبالتالي سنقف على مدى أهمية الإسلام والجهود التي بذلها رسول الله صلى الله عليه وآله في الإرتقاء بذلك المجتمع وتحويله من مجتمع جاهلي ذي تقاليد متوحشة إلى مجتمع إسلامي ذي مبادئ إنسانية عالية.

نفعات الولاية، ج٧، ص: ٢٤٧

القسم الثاني

إشارة

عِبَادَ اللَّهِ! أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَالْمَوْجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقَّكُمْ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ: فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِزْبُ وَالْجَنَّةُ، وَفِي غَدِّ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ. مَسَلِكُهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ، وَمُسَدِّتُودُعُهَا حَافِظٌ. لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسِهَا

عَلَى الْأَمَمِ الْمَاضِيَيْنِ مِنْكُمْ وَالْغَابِرِينَ، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَدًا، إِذَا أَعَادَ اللَّهُ مَا أُبْدِيَ، وَأَخَذَ مَا أُعْطِيَ، وَسَأَلَ عَمَّا أُسْدَى. فَمَا أَقَلُّ مَنْ قَبَلَهَا، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أَوْلَيْكَ الْأَقْلُونَ عَدَدًا، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللَّهِ شُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).

الشرح والتفسير: التقوى كهف في الدنيا ونور في الآخرة

يشكل هذا الجانب من خطبة الإمام عليه السلام هدفها الأصلي وما مضى في القسم الأول يمثل في الواقع مقدمة وتمهيداً لهذا القسم، ذلك لأنه لا موضوعية للحديث عن الورع والتقوى ما لم يكن هناك إيمان بالله وإيمان بنبوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال عليه السلام:

«عِبَادَ اللَّهِ! أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَالْمَوْجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقَّكُمْ».

وهذا التعبير بشأن التقوى بديع، فهو يمثل حق الله من جانب على عباده ومن جانب آخر يجعل للعباد حقاً على الله تعالى، أما حق الله فدليل ذلك أن نتيجة الورع والتقوى هو طاعة جميع أوامر الله ونواهيهِ وطاعة حق الله لدى عباده، وأما حق العباد على الله فكونهم يستحقون على أثرها الأجر والثواب.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٤٨

وقد ذهب العديد من شراح نهج البلاغة إلى أن التقوى هنا تعنى الطاعة التامة لأوامر الله تعالى، والحال أن التقوى هي خشية الله الباطنية والالتزام بالمبادئ التي يكون أثرها طاعة أوامر الله.

فالتقوى تظهر في مراحلها الابتدائية بصورة العدالة وفي مراحل أروع بصورة العصمة وكل ذلك من الصفات الباطنية.

والشخص الذي يستخف بالطاعة ولا يكثر للذنب هو شخص عديم التقوى وذلك الشخص الملتزم بتعاليم الدين والعامل بها هو المتقى وتظهر آثار كل من الحالتين على الأعمال.

ثم قال عليه السلام في تحصيل هذه الجوهرة الثمينة:

«وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْنَا بِاللَّهِ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ».

نعم، فسلك سبيل التقوى، التقوى التي تحيط بحياة الإنسان، ليست ميسرة إلا بتوفيق الله، حتى أنبياء الله وأوليائه يفوضون أمورهم إلى الله ويسألونه الأخذ بأيديهم ويقولون: «وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» [٤٢٦].

وورد في الدعاء الذي ورد الحث عليه عقب زيارة الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام:

«كَلِمًا وَقَفَّتْ بِي خَيْرٌ فَأَنْتَ دَلِيلِي عَلَيْهِ وَطَرِيقِي إِلَيْهِ» [٤٢٧].

ثم أشار عليه السلام إلى معطين مهمين من معطيات التقوى كدليل عليها فقال:

«فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحَرِزُّ وَالْجُنَّةُ».

نعم! فمعظم الحوادث المريرة الفردية والاجتماعية التي تعكر صفو حياة الإنسان في هذا العالم معلولة للمعصية والخروج عن جادة العدل والانصاف؛ فالتقوى تنقذ الإنسان في هذا العالم من السقوط في مستنقع الذنب وعواقبه الخطيرة وتجعله يعيش حياة هانئة مقرونة بالسكينة والسعادة وفخير زاد يتزود به الإنسان

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٤٩

هي التقوى كما تقول الآية الشريفة: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» [٤٢٨].

التي تعنى دخول الجنة والتلذذ بنعمها الخالدة، فهل هناك من جوهره ثمينه أثن من التقوى بحيث تحفظ الإنسان في الدنيا وتنجيه في الآخرة.

ثم أشار في مواصلته لحديثه إلى ثلاثة أمور مهمة بشأن التقوى فقال عليه السلام في الأمر الأول:

«وَفِي غَدِّ الطَّرِيقِ إِلَى الْجَنَّةِ. مَسَلَكَهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَاحٍ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ».

إلا أن وضوح جادة التقوى ومسلكها كونها من جانب منسجمة بصورة تامة مع فطرة الإنسان، ومن جانب آخر قد بين مسار هذه الجادة في عالم التشريع في الكتاب والسنة النبوية المطهرة.

وأما ربح السالك لهذا الطريق كونها تسوق المتقين إلى الجنة وفق الآية القرآنية:

«تَلِكُ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» [٤٢٩] هذا من جانب، ومن جانب آخر تنقذ صاحبها في الدنيا من الدنس والدنائة والحياة المظلمة وتجعله سعيداً ذا عزة لدى الجميع، أما حفظها لمستودعها (إذا اعتبرنا مستودع بمعنى اسم المفعول) فسبب ذلك أن الله تعالى تعهد بمثوبة المتقين والورعين، وعليه فأمانه هؤلاء محفوظه لدى الله وملائكته الله حفظت أعمال المتقين، وإن اعتبرنا مستودع بمعنى اسم المكان فإن موضع التقوى هو القلب الذي يحفظها بعناء ويصونها من كل شىء، واعتبر البعض (حافظ) بمعنى المحفوظ وعليه يصبح معنى الجملة، المتقون محفوظون في ظل التقوى.

الأمر الثانى الذى أشار إليه الإمام عليه السلام هو أن التقوى حقيقة خالدة لا تتأثر بالزمان والمكان فقال:

«لَمْ تَبْرَحْ [٤٣٠] عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى الْأَمَمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٥٠

وَالْغَابِرِينَ [٤٣١]، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا عَدًّا، إِذَا أَعَادَ اللَّهُ مَا أُبْدِيَ وَأَخَذَ مَا أُعْطِيَ سَأَلَ عَمَّا أَشَدَى [٤٣٢]».

نعم فالتقوى كالقصر الجميل الفخم والهادئ الذى يدعو إليه الجميع والذى كان وما زال ماثلاً أمام أعين جميع الناس وقد دعى إليه الجميع من جانب الكتب السماوية وأنبياء الله وأوليائه، فقد صرح القرآن الكريم قائلاً: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ» [٤٣٣].

وقال الإمام عليه السلام فى الأمر الثالث:

«فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أُولَئِكَ الْأَقْلُونَ عَدَدًا، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ» [٤٣٤]».

والسؤال الذى يرد: لم كان طلاب التقوى قلائل مع ما لها من الأهمية؟ ولا يبدو الجواب على هذا السؤال صعباً، ذلك لأن التقوى تعنى مخالفة هوى النفس ومخالفة هوى النفس ليس بالأمر الهين، فسيل التقوى ينطوى على الكثير من المطبات والصعوبات وإن كانت عاقبته حلوة هنيئة، ذلك لأن جادة هوى النفس معبده وللسائرين ولكن عاقبتها فى غاية الخطورة.

إن الله تعالى لما خلق الجنة قال لجبرئيل: انظر إليها. فلما نظر إليها قال:

«يَا رَبِّ لَا يَتْرُكُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا»

فلما حَفَّهَا بالمكاره قال: انظر إليها. فلما نظر إليها قال:

«يَا رَبِّ أَحْشَى أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ»

ولما خلق النار قال: انظر إليها. فلما نظر إليها قال:

«يَا رَبِّ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ»

فلما حَفَّهَا بالشهوات قال: انظر إليها، فلما نظر إليها قال:

«يَا رَبِّ أَحْشَى أَنْ يَدْخُلَهَا كُلُّ أَحَدٍ» [٤٣٥]

. فهذا الحديث فى الواقع شرح لما ورد عن النبى

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٥١

الأكرم صلى الله عليه وآله وعن وعلى عليه السلام:
«حُقَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» [٤٣٦].

القسم الثالث

إشارة

فَأَهْطَعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا، وَأَلْطَوْا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا، وَاعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلْفٍ خَلْفًا، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقًا. أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ، واقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَأَشْعِرُوا قُلُوبَكُمْ، وَارْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ، وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ، وَبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ، وَاعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا. أَلْمَا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا، وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نَزَاهًا، وَإِلَى الْآخِرَةِ وُلَاهًا. وَلَا تَضَعُوا مِنْ رَفَعْتِهِ التَّقْوَى، وَلَا تَرْفَعُوا مِنْ رَفَعْتِهِ الدُّنْيَا. وَلَمَّا تَشِيمُوا بَارِقَهَا، وَلَمَّا تَشِمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلَا تُفْتِنُوا بِأَعْلَاقِهَا، فَإِنَّ بَرَقَهَا خَالِبٌ، وَنُطِقَهَا كَاذِبٌ، وَأَمْوَالُهَا مَحْزُوبَةٌ، وَأَعْلَاقُهَا مَسْلُوبَةٌ. أَلَا وَهِيَ الْمَتَصَدِّيقَةُ الْعُنُونُ، وَالْجَامِحَةُ الْحُرُونُ، وَالْمَائِنَةُ الْخُرُونُ، وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ.

الشرح والتفسير: سماع نداء التقوى

خاض الإمام على عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة في بحث واسع وعميق عن آثار التقوى على الإنسان صاحب البصيرة وتطرق إلى أبعادها المختلفة باثنتي عشرة عبارة قصيرة وعميقة المعنى فقال عليه السلام:

«فَأَهْطَعُوا [٤٣٧] إِلَيْهَا، وَأَلْطَوْا [٤٣٨] بِجِدِّكُمْ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٥٢

عَلَيْهَا، وَاعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلْفٍ خَلْفًا، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقًا.

وكانت التقوى قد دعت إلى نفسها جميع الناس وقد بينت للجميع آثارها الطيبة والمحمودة ولذلك قال الإمام عليه السلام سارعوا إليها بأذانكم لسماعها ثم انهضوا وجدوا واجتهدوا في تحصيل مقدماتها فإن كانت لكم تقوى فسوف لن تحزنوا على ما يفوتكم من حطام الدنيا واعلموا أن التقوى حافظتكم من مخالفكم.

ويمكن أن تكون

«مُخَالِفٌ»

في العبارة إشارة إلى الذنوب السالفة التي تزول آثارها بالتقوى، أو المراد اعداء الإنسان ومخالفوه، لأن الله وعد المتقين بالنصر والغلبة إذ قال تعالى في كتابه العزيز: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» [٤٣٩]، وقال: «وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لِمَا يَصُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا» [٤٤٠].

ثم نصحننا بست عبارات أخرى فقال:

«أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ واقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَأَشْعِرُوا قُلُوبَكُمْ، وَارْحَضُوا [٤٤١] بِهَا ذُنُوبَكُمْ، وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ».

وعبارة

«أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ»

يمكن أن تكون إشارة إلى النوم العادي، أي ينبغي في ظل التقوى قضاء جانب من الليل في العبادة والتفرغ لمناجاة الله تعالى:

«في مقابل واقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ

« كما يُحتمل أن يكون المراد، اليقظة من نوم الغفلة بالتقوى، والعبارة
«أشعروها قلوبكم»

بالنظر إلى أن (شعار هي الثياب الملاصقة للبدن) فيمكن أن تكون إشارة إلى تنوير القلب بالتقوى أو اجعلوا التقوى شعاركم
وعلامتكم أو ايقظوا قلوبكم بالتقوى (حيث إن أشعروا من مادة شعور).
والعبارة:

«دأبوا بها الأسقام»

إشارة إلى الأسقام الباطنية التي تعالج بواسطة التقوى.

وقال في العبارة التاسعة حتى الثانية عشرة:

«وبادروا بها الحِمَامَ [٤٤٢]، وَاَعْتَبِرُوا

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٥٣

بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا. أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا [٤٤٣] بِهَا».

وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: «سَيَأْتِيكُمْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» [٤٤٤] وقال تعالى في
موضع آخر: «وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ» [٤٤٥].

والعبارة

«واعتبروا...»

إشارة إلى أن عاقبة عدم التقوى واضحة لكم في هذه الحياة الدنيا وترونها بأمر أعينكم كما تقرأونها في التاريخ بشأن الأفراد
والمجتمعات التي سارت إلى ذلك المصير المشؤوم والأسود فما عليكم إلا الاعتبار بهم ولا تكونوا ممن يعتبر بهم الآخرون، وقد أشار
القرآن في قصة يوسف وإخوته وامرأة عزيز مصر إلى النتائج السلبية التي عمت البعض بسبب انعدام التقوى والبركات التي ساقتها
التقوى ليوسف فقال تعالى «لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ» [٤٤٦].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى عواقب الانغماس في الدنيا التي يفرزها انعدام التقوى فحذر من هذه الدنيا الغرور بتسع عبارات قال
فيها:

«وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نَزَاهًا [٤٤٧]، وَإِلَى

الْآخِرَةِ وُلَاهًا [٤٤٨]. وَلَا تَضَعُوا مَن رَفَعْتَهُ التَّقْوَىٰ، وَلَا تَزْفَعُوا مَن رَفَعْتَهُ الدُّنْيَا. وَلَا

تَشِيْمُوا [٤٤٩] بَارِقَهَا [٤٥٠] وَلَا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا [٤٥١]. وَلَا تَسْتَضِيْبُوا بِإِشْرَاقِهَا،

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٥٤

وَلَا تُفْتِنُوا بِأَغْلَاقِهَا [٤٥٢]».

ففي الواقع إن الإمام عليه السلام لفت الانتباه في هذه العبارات العميقة المعنى إلى طرق نفوذ الدنيا إلى فكر الإنسان وروحه ليحذر
منها جميعاً وضرورة الابتعاد عن زخارف الدنيا وزبرجها والتوجه إلى الآخرة واسناد المتقين وعدم الإكتراث لمقامات أصحاب الدنيا
وغض الطرف عن الأموال والثروات والقصور والزينة الظاهرية وصم الاسماع عن وساوس المتهافتين على الدنيا وتنحيتهم جانباً وعدم
الانخداع بمظاهر الدنيا البراقة والانقطاع عن جميع الأمور التي تذلل صاحبها.

والحق أن كل من امتثل هذه التحذيرات وسار على الدرب سوف لن يقع في شباك الشيطان وفتح طلاب الدنيا.

ثم تطرق عليه السلام إلى أدلة تحذيراته السابقة فقال:

«فَإِنَّ بَرَقَهَا خَالِبٌ [٤٥٣]، وَنُطِقَهَا كَاذِبٌ،

وَأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ [٤٥٤]، وَأَعْلَاقَهَا مَسْلُوبَةٌ».

فالواقع إن كل دليل من هذه الأدلة الأربعة إشارة إلى جانب من التعبيرات السابقة:

فبرق الدنيا خادع لا حقيقته له وليس وراءه مظهر وكلامها كاذب بدليل أنها لم تف لأحد من الناس في أى وقت من الأوقات، وأموالها منهوبة من قبل أصحاب الدنيا ينهبونها من غيرهم، وكونها مسروقة من غيرهم فى أن كل شخص يمتلك مالاً نفسياً على الظاهر يجعل صاحب الدنيا يتطلع إليه فيسلبه إياه فى الوقت المناسب.

ثم عاد الإمام عليه السلام ثانية ليحذر مخاطبيه من الوقوع فى ورطة الدنيا من خلال ذكره لست رذائل من رذائلها فقال عليه السلام:

«أَلَا وَهِيَ الْمَتَّصِدِيَّةُ [٤٥٥] الْعُنُونُ [٤٥٦]، وَالْجَامِحَةُ [٤٥٧]

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٥٥

الْحُرُونُ [٤٥٨]، وَالْمَائِنَةُ [٤٥٩] الْخُرُونُ [٤٦٠]، وَالْبُجُودُ الْكُنُودُ [٤٦١]، وَالْعُنُودُ الصَّدُودُ [٤٦٢]، وَالْحَيُودُ [٤٦٣] الْمَيُودُ [٤٦٤]».

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٥٧

القسم الرابع

إشارة

حَالُهَا انْتِقَالٌ، وَوَطْأَتُهَا زَلْزَالٌ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وَعُلُوُّهَا سُفْلٌ. دَارُ حَرْبٍ وَسَلْبٍ، وَنَهْبٍ وَعَطْبٍ. أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَّاقٍ، وَلِحَاقٍ وَفِرَاقٍ. قَدْ تَحَيَّرَتْ مِذَاهِبُهَا، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا؛ فَاسْتَلَمَتْهُمْ الْمَعَارِضُ، وَلَفَطَتْهُمْ الْمَنَازِلُ، وَأَعْيَتْهُمْ الْمَحَاوِلُ: فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ، وَشَلْمٍ مَذْبُوحٍ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ، وَعَاضٌ عَلَى يَدَيْهِ، وَصَافِقٌ بِكَفَيْهِ، وَمُرْتَفِقٌ بِخَدَيْهِ، وَزَارٌ عَلَى رَأْيِهِ، وَرَاجِعٌ عَنِ عَزْمِهِ؛ وَقَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيَلُ، وَأَقْبَلَتِ الْغِيْلَةُ، (وَلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ، وَمَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالٍ بِأَلْهَا، (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ).

الشرح والتفسير: عاقبة أصحاب الدنيا

بالنظر إلى أن حب الدنيا والتعلق الشديد بالأمر المادي هو أساس أنواع الذنوب والمعاصى والجنايات، وبالنظر إلى أن عصر الإمام عليه السلام شهد بسبب الفتوحات الإسلامية سعة الثروات التى عمّت البلاد الإسلامية وانغمس بعض الناس فى حالة من الدعة والرفاهية وبطر النعمة، فقد نهى الإمام عليه السلام فى خطبته الناس عن التكالب على الدنيا والانغماس فى لذاتها فكشف بعبارات قلما يرى نظيرها آثار السوء للتعلق بهذه الدنيا، ولذلك أكد الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة بخمس عبارات قصيرة على تفاهة النعم المادية فقال:

«حَالُهَا انْتِقَالٌ، وَوَطْأَتُهَا زَلْزَالٌ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ،

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٥٨

وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وَعُلُوُّهَا سُفْلٌ [٤٦٥]».

أما تغير حال الدنيا فليس بخافٍ على أحد؛ فما أكثر أولئك الذين تربعوا على عرش السلطة ليلاً ويفكرون فى الاستيلاء على البلدان، فلم يطلع عليهم الفجر حتى زالت عروشهم وفارقوا الحياةً بين لحظة وأخرى تنهاوى عروش الأقوياء ويحل محلهم الضعفاء فيصبح أعزّة الأمس أدلّة اليوم.

وأما زلزلة وطأتها وخطواتها فذلك لأنّ مقر الإنسان في هذا العالم متزلزل على الدوام، فعلى أى شىء إستند من قبيل المال والثروة والفتوة والصحة والسلامة فهي متقلبة وليست ثابتة، وأما أنّ عزّتها عين ذلّتها، فقد فسّر ذلك بعض الشّراح أنّ العزّة الماديّة واللامشروعته سبب الذلّة في الآخرة، وقال البعض الآخر إنّ سبب الإبتعاد عن الله في هذه الدنيا؛ إنّ التفسير الأنسب هو أنّ العزّة الماديّة تؤدّي إلى التعلق الشديد وهو التعلق الذى يسوقه إلى الذلّة ويجعله يعيش الخنوع مقابل كائن من كان بغيه حفظها، وأما أنّ جدّها هزل فسبب ذلك التقلب وسرعة الزوال وعدم الاستقرار، وأما علوها تسافل فلأنّ الأفراد من ذوى المقامات الرفيعة يخضعون للعديد من المطبات بغيه حفظ مناصبهم ومواقعهم ويستعينون من أجل حفظ تلك القدرة بالأفراد الفاسدين والطحالين.

ثم أكمل هذا الموضوع بذكره لصفّتين أخريين فى وصف الدنيا فقال:

«دَارُ حَرْبٍ وَسَلْبٍ، وَنَهْبٍ وَعَطْبٍ. أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَّاقٍ [٤٦٦]، وَلِحَاقٍ وَفِرَاقٍ [٤٦٧].»

المفردات

«حَرْبٍ وَسَلْبٍ، وَنَهْبٍ»

وإن كانت جميعها تشير إلى معنى أخذ أموال الآخرين؛ لكن يبدو هنالك اختلاف دقيق بينها،

«حَرْبٍ»

أخذ جميع أمواله لأنها

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٥٩

فسّرت لغويًا بهذه العبارة

«أَخَذُ جَمِيعِ مَالِهِ».

لكن

«سَلْبٍ»

غالبًا فسّرت بمعنى أخذ ثياب الأفراد وما فى أيديهم ولذلك ورد فى الحديث:

«مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ» [٤٦٨].

وأما

«نَهْبٍ»

التي وردت لغويًا بمعنى الغنيمة فربما تكون إشارة إلى الاغتنام الجماعى، وعليه يصبح معنى كلام الإمام عليه السلام أنّ الدنيا تسلب الإنسان جميع وجوده أو جانباً منه أو قد تأتى جماعة من السّلايين ليتحكموا بالأموال فيسلبوا الناس أموالهم.

نعم، فالدنيا لو نظرنا إليها يامعان لوجدناها ميداناً لصراع السّلايين والناهيين الذين يمارسون فيها السلب والنهب بصور مختلفة وهذا العمل لا ينتهى سوى إلى الهلكة والزوال، والحال يستعد جميع الناس إلى السفر نحو العالم الآخر وليس هنالك من يعلم بما يصيبه غداً، ثم أشار الإمام عليه السلام بثلاث عبارات أخرى إلى جانب آخر من مصائب الدنيا وعبوبها فقال:

«قَدْ تَحَيَّرْتُ مَذَاهِبُهَا، وَأَعْجَزْتُ مَهَارِبُهَا» [٤٦٩]،

وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا».

إشارة إلى أنّ الإنسان اليقظ كلّما حاول النجاة من مصائبها لم يكن الأمر عليه سهلاً فتشخيص سبيل الفرار منها يبدو متعذراً والأعقد منه الظفر بموضع الهروب.

وقد جربنا هذه المسألة عند الأفراد الذين يتعلقون بالدنيا ثم يصحون من غفلتهم وينوون الهروب فإنّ العديد من المشاكل تعرقل حركتهم وعليهم بذل قصارى جهدهم بغيه الوصول إلى سبيل الخلاص، ثم أشار عليه السلام إلى مصير أصحاب الدنيا حين يقفون

على أعتاب الموت فقال:

«فَأَسْلَمْتُهُمُ الْمَعَاوِلَ [٤٧٠]، وَلَفَظْتُهُمُ [٤٧١] الْمَنَازِلُ،
وَأَعَيْتُهُمُ الْمَحَاوِلَ [٤٧٢]».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٦٠

نعم! حين يفتح بهم الكيل ويتخلى عنهم كل شيء ويجعلهم وحيدين أمام الحوادث فلا يسع أقوى الأقوياء الدفاع عنهم حيث النتائج العكسية التي تنتهي بهم إلى الموت وحالهم كما يضرب به المثل: «إذا حل الموت أعيب الطيب».

وبالتالي سوف لن يكون مصير من اغتروا بالدنيا إلا كما قال الإمام عليه السلام:

«فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ [٤٧٣]، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ [٤٧٤]، وَشِلْوٍ [٤٧٥] مَذْبُوحٍ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ [٤٧٦]، وَعَاضٍ [٤٧٧] عَلَى يَدَيْهِ، وَصَافِقٍ [٤٧٨] بِكَفَيْهِ، وَمُرْتَفِقٍ [٤٧٩] بِخَدَيْهِ [٤٨٠]، وَزَارٍ [٤٨١] عَلَى رَأْيِهِ، وَرَاجِعٍ عَنِ عَزْمِهِ».

فقد بين الإمام عليه السلام عاقبة ومصير المغرورين بالدنيا فالصور التسع الواردة في الفقرة المذكورة لا تبقى مجالاً لما هو أفصح وأبلغ وأدق منها فهذه الأصناف التسعة يُشعر كل منها بنوع من ضربات الدنيا التي تهز كيان المغرورين بها والقدر الجامع بينهم جميعاً مصيرهم البؤس والشقاء والحسرة والندم؛ سواء أولئك الذي تلقوا ضربات ثقيلة وسيقوا نحو الموت أو أولئك الذين بقوا ولم تعد أمامهم سوى الحسرة.

وقد عكس التاريخ نماذج كثيرة لكل من هذه الأصناف التسعة ولعل الكثير منا

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٦١

قد رآها خلال مدة عمره القصيرة.

ثم اختتم الخطبة بالإشارة إلى هذه الحقيقة أنه حين حلول الحوادث الشاقة والموت الحتمي تغلق جميع السبل فقال:

«وَقَدْ أَذْبَرَتِ الْحِيلَةَ، وَأَقْبَلَتِ الْغِيلَةَ [٤٨٢]،

«وَلَاتَ [٤٨٣] حِينَ مَنَاصٍ [٤٨٤]».

وأضاف عليه السلام:

«هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ، وَمَضَّتِ الدُّنْيَا لِحَالٍ بِأَلْيَا [٤٨٥]،

«فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْتَظِرِينَ».

نعم! فأولئك الذي ركبوا يوماً موجة الغرور وعاشوا في تلك القصور الفارهة وضمنوا أنفسهم من امراء الأرض والسماء لم يجدوا بدأ حين أتاهم القضاء ونزل بهم المقدر سوى الاستسلام بكل ذلته ومغادرة الدنيا وكأنهم لم يكونوا فيها، فلم تبكهم عين ولم يصدع عليهم خاطر، ثم واصلت الدنيا من بعدهم مسيرتها وأعقبهم مجيئ الأقسام والأمم المقتردة والقوية الذين حلوا وفنوا فطواهم غبار النسيان ومحووا من صفحة التاريخ.

والعبارة: «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ» المقتبسة من القرآن المجيد [٤٨٦] أوردها الإمام عليه السلام بشأن طائفة من الأقسام السابقة التي عاشت غرور الاختلاف وظنت الخلود في الحياة الدنيا وحين حلّ بها عذاب الله تعالت أصواتها طالبة النجدة إلا أنّ وقت النجاة قد ولى ومضى.

والعبارة: «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ» آية قرآنية أخرى [٤٨٧] أشارت إلى حال الفراغ حين غرقوا جميعاً في البحر وخلفوا تلك القصور والعيون والنعم للآخرين وغادروها دون أن يبكيهم أحد.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٦٢

ولعل التعبير بعدم بكاء السماء عليهم والأرض كناية عن حقايرة ودناءة قرنائهم وأصحابهم في الحياة الدنيا، ذلك لأنّ المعروف عند

العرب أنهم حين يريدون الإشارة إلى علو منزلة شخص بعد أن فقدوه يقولون: لقد بكته السماوات والأرض وأظلم لفقده الشمس والقمر.

كما قيل إنه قد يكون المراد من بكاء أهل السماء والأرض ذلك لأن الملائكة أحياناً تبكى على المؤمنين والمقربين من الله تعالى، بينما لا تبكى على الظلمة والجبارين.

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٦٣

الخطبة ١٩٢

إشارة

تُسَمَّى الْقَاصِعَةُ

وهي تَنْصَمُنْ ذَمَّ إبليسَ لَعَنَهُ اللهُ، عَلَى اسْتِكْبَارِهِ وَتَوَكُّهِ الشُّجُودَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ الْعَصِيْبِيَّةَ وَتَبَعَ الْحَمِيَّةَ، وَتَحْدِيرِ النَّاسِ مِنْ سُلُوكِ طَرِيقَتِهِ [٤٨٨]

نظرة إلى الخطبة

قيل في شأن هذه الخطبة أن أهل الكوفة عاشوا حالة كبيرة من الفساد وآخر خلافة الإمام عليه السلام إثر ازدياد الثروات وانتقال الثقافة الفاسدة من بعض البلدان المجاورة للبلاد الإسلامية والمشاكل التي خلفتها فترة الخلافة في المجتمع

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٦٤

الإسلامي، وفي مقدمتها التفاخر والتعصب القبلي والنعرات الجاهلية حتى بلغ الأمر ببعض الفتيه الطائشين إلى التنازع فيما بينهم فإذا جرح أحدهم أو ضرب استعان بقبيلته فتهب دون أدنى تريث وتمحيص لنجدته ويراق المزيد من الدماء، فانبرى الإمام عليه السلام بهذه الخطبة بغية إطفاء الفتنة فعرض بالذم للكبير والعصبيَّة القبليَّة الجاهليَّة، فأدى حقَّ الكلام وبالغ في النصح والوعظ، فهي خطبة غاية في الفصاحة والبلاغة والإثارة ومن هنا سُميت بالقاصعة وإن لم ترد مفردة (القاصعة) في هذه الخطبة.

وذكر بعض شراح نهج البلاغة وجوهاً أخرى لسبب التسمية على ضوء تعدد معاني مفردة القاصعة؛ فقد ذكر المرحوم الشارح الخوئي سبعة وجوه في تسمية هذه الخطبة بالقاصعة إستند كل واحد منها إلى أحد معاني (القاصع) لغوياً ويبدو ما ذكرناه هو أنسب الجميع.

على كل حال تتألف هذه الخطبة من عدة أقسام صنفها كل من شراح نهج البلاغة حسب ذوقه وطريقته فقسمها البعض إلى خمسة أقسام وآخر إلى أحد عشر قسماً وثالث إلى تسعة عشر قسماً.

ومن الواضح أن جميع أقسام هذه الخطبة تدور حول محور واحد هو ذم التعصب الجاهلي والتكبر والفخر، ولا سيما التعصبات القبليَّة والعرقية التي تعد مصدرراً للعديد من الاختلافات والإرباكات والمفاسد الاجتماعيَّة وتتضح هذه الحقيقة من خلال التمعن في عموم الخطبة إلى جانب سبب إيرادها من قبل الإمام عليه السلام ونحن بدورنا نقسمها إلى عشرين قسماً:

القسم الأول: بعد حمد الله والثناء عليه أشار إلى طرد الشيطان لتعصبه وتكبره على آدم عليه السلام.

القسم الثاني: إشارة لخلق الإنسان من الطين والذي يبعث فيه روح التواضع، والتذكير ثانية بسوء عاقبة الشيطان بسبب كبره وتعصبه.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٦٥

القسم الثالث: تحذير الجميع من الوقوع في فخ الشيطان والسير في طريقه.

القسم الرابع: ذم الأفراد الذين سقطوا في شباك التكبر والفخر الجاهلي الموهوم.

القسم الخامس: تحذير الجميع من اجتناب طاعه وإتباع الحكام المتكبرين والمتعصبين.

نفحات الولاية؛ ج ٧؛ ص ٢٦٥

قسم السادس: الوصية بالاعتبار بالأقوام السابقة والعاقبة السيئة التي كانت بانتظار المتكبرين منهم والسعادة التي نالها المتواضعون وفي مقدمتهم أنبياءهم عليهم السلام.

القسم السابع: الحديث عن الحياة المتواضعة لموسى بن عمران وأخيه هارون عليهما السلام وما كانا يرتديان من ثياب بسيطة حين دخولهما على فرعون المتكبر المغرور وبالتالي تواضع أولياء الله في جميع شؤون حياتهم.

القسم الثامن: الإشارة إلى اختيار الأرض الجافة والمحرقه لبناء الكعبة بمواد البناء البسيطة ليطرده عنهم الكبر والغرور وتصوير الشعائر التي ترمز إلى البساطة والتواضع التام.

القسم التاسع: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى مختلف شباك الشيطان ولا سيما الظلم والجور واعتبر إمتثال الفرائض الديتية كالصوم والصلاة والزكاة وسيلة لمقاومة الشيطان.

القسم العاشر: يشير إلى مصادر التعصب والغرور.

القسم الحادي عشر: إشارة إلى التعصب الإيجابي وعلاماته وآثاره.

القسم الثاني عشر: اعتبر مصير الأمم السابقة درساً وعبرة ودعى الجميع للنظر في سيرة تلك الأقوام.

القسم الثالث عشر: الحديث عن الآثار المباركة للوحدة والألفة وعواقب سوء للفرقة والتشتت والاختلاف.

القسم الرابع عشر: أعاد مخاطبه ثانية إلى التاريخ الماضي والتذكير بالآثار السلبية لاختلاف أبناء اسماعيل واسحاق وبنى اسرائيل.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٦٦

القسم الخامس عشر: أشار عليه السلام إلى النعمة العظيمة في وجود النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وآثارها على المجتمع الإسلامي.

القسم السادس عشر: عرض فيه بالذم لتلك الطائفة من الناس التي عادت القهقري بعد الدعوة إلى عادات الجاهلية.

القسم السابع عشر: ركز فيه على الأفعال المشينة للناكثين والقاسطين.

القسم الثامن عشر: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى منزلته من النبي بصفته أول من آمن به من الرجال ولازمه تلك المدّة.

القسم التاسع عشر: تحدّث فيه الإمام عليه السلام عن معجزة الشجرة التي تحركت من مكانها نحو النبي بأمره صلى الله عليه وآله.

القسم العشرون: تحدّث فيه عن مناقب أهل البيت عليهم السلام واختتم به الخطبة بعنوانه «مسك الختام».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٦٧

القسم الأول

إشارة

أَلْحَمِدُ لِلَّهِ الَّذِي لَبَسَ الْعِزَّ وَالْكَبْرِيَاءَ؛ وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمِّيَّ وَحَرَمًا عَلَى غَيْرِهِ، وَاضْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ. وَجَعَلَ اللَّغْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ. ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيُمَيِّزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ، وَمَحْجُوبَاتِ الْعُيُوبِ: (إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ) اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَحَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعْصَبَ عَلَيْهِ لِاصْرِهِ. فَعَدُوا لِلَّهِ إِمَامُ الْمُتَعْصِبِينَ، وَسَيَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصِيَّةِ، وَنَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعْزِزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ. أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكْبِيرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرْفُعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُورًا، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ سَعِيرًا؟!

الشرح والتفسير: الشيطان رأس العصية

كما أشير في سبب الخطبة أن الهدف الأصلي من هذه الخطبة الطويلة والمفعمة بالمواعظ والإرشادات السامية التي تهذب الإنسان، مواجهة الكبر والغرور والعصية الجاهلية والطائفية التي كانت مصدر النزاعات القبلية الدموية على عهد الإمام عليه السلام، وعلى هذا الضوء استهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه، الله المتجلبب

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٦٨

بالعظمة والكبرياء التي لا تليق إلا بالذاته القدسية فقال:

«أَلْحَمِدُ لِلَّهِ الَّذِي لَبَسَ الْعِزَّ وَالْكَبْرِيَاءَ، وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمِّيَّ [٤٨٩] وَحَرَمًا عَلَى غَيْرِهِ، وَاضْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ. وَجَعَلَ اللَّغْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ».

لا شك في أن العزة والعظمة مختصة بالذات الإلهية المقدسة، ذلك لأن كل ما سواه كائنات ضعيفة وعاجزة أمامه، إضافة إلى أن كل ما لديها منه، متى ما شاء أفاضه عليها ومتى شاء سلبه منها.

والعبارات الخمس الواردة في هذه الخطبة من قبيل قوله عليه السلام: لبس العز والكبرياء والتي لا تليق بغيره وأنها صفتان مختصتان بالله تعالى ويعبر عنهما أحياناً بالحمى والحرم (المنطقة المحظورة التي لا يحق للغير الدخول فيها) كما يعبر عنها بأن الله تعالى اختارهما لنفسه وخص باللغن من سلك سبيل التكبر والفخر، كل هذه العبارات المختلفة تهدف إلى إيضاح حقيقة واحدة حيث تشير جميعها إلى أن لا سبيل لعباد الله أمام الذات الإلهية القدسية سوى التواضع تجاهها وتجاه بعضهم البعض الآخر.

والواقع هو إن الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى الكبر ولا بحاجة إلى أن يمدحه الآخرون به، فذاته القدسية عظيمة من جميع الجهات، ولكن لما كان الكبر والفخر لدى العباد مصدراً للبؤس والشقاء وظلم الناس لبعضهم البعض الآخر، فقد ورد هذا التحذير في العبارات السابقة من هذا الأمر ودعى الجميع للبساطة والتواضع.

وعلى هذا الأساس أشار الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه إلى أول امتحان للتواضع حين خلق الله آدم عليه السلام فقال:

«ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيُمَيِّزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ، وَمَحْجُوبَاتِ الْعُيُوبِ:

«إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٦٩

سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ».

وبالطبع فإن اختبار الله يختلف عن اختبار العباد؛ فإننا حين نختبر أحداً نريد أن نبدل جهلنا به إلى علم ولذلك يعبر عن هذا الامتحان بالاختبار؛ أمّا الله تعالى طبق ما ورد سابقاً، العالم بمكونات القلوب ومحجوبات الغيوب لا يريد قط بهذه الاختبارات إضافة شيء لعلمه، بل اختباره لتظهر النيات الباطنية والخلقية والأسرار الخفية لعباده بلباس الأفعال فيستحقوا الثواب والعقاب، ذلك لأن النية

لوحدها ليست كافية في هذا الأمر، والثواب والعقاب إنما يترتب على الأعمال.

وهذا ما ذكره الإمام عليه السلام في موضع آخر من نهج البلاغة إذ قال:

«إِنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِيَتَبَيَّنَ السَّخِطُ لِرِزْقِهِ وَالرَّاضَى بِقِسْمِهِ وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَكِنْ لِيُظْهِرَ الْأَفْعَالَ الَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ» [٤٩٠].

ثم خاض عليه السلام في شرح قضية إبليس وسبب تمرده على أمر الله تعالى فقال:

«اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَاقْتَحَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعْصَبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ. فَعِيدُوا لِلَّهِ إِمَامًا الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَيَلَفُ الْمُسِدِّ تَكْبِيرِينَ، الَّذِي وَضَعَ آسَاسَ الْعَصِيَّةِ، وَنَارَ اللَّهِ رِءَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَادَّرَعَ [٤٩١] لِيَأْسَ التَّعَزُّزِ [٤٩٢]، وَخَلَعَ فَنَاعَ التَّنَدُّلِ».

فالواقع أن السبب الرئيسي لتمرده إبليس عملياً على أمر الله تعالى هو تعصبه وغروره الذي أفرزه حسابه الخاطي والذي يستند إلى الفخر والأنانية حيث لم ير في خلق آدم سوى حيثية التراب ولذلك عد نفسه أفضل منه فقال: «خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» [٤٩٣] بينما أغفل تماماً الجانب المهم في وجود آدم إلا وهو الروح الإلهية: «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَفَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» [٤٩٤].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٧٠

نعم! فالعجب والأنانية أسوأ حجاب يصد الإنسان عن إدراك أوضاع الحقائق.

وقد التبس الأمر على إبليس حتى في تقييمه لأفضلية النار على التراب، لأنَّ التراب هو المصدر الأساس للحياة ونمو النباتات وتفتح الأزهار والثمار وأنواع البركات، وبينما تقتصر فاعليتها على بعض جانب من حياة الإنسان.

على كل حال فإنَّ تعبير الإمام عليه السلام إبليس بأنَّه عدو الله إشارة إلى أنه لم يكن عدواً لآدم فحسب، بل كان عدواً لخالق آدم ومتمرداً على أوامره فقد أرسى أولى لبنات العصبيَّة ومنهج التكبر والاستكبار، العمل الذي يعتبر في الواقع محاربة لله تبارك وتعالى؛ ذلك لأنَّ العزَّة والعظمة لا تليق إلا بآبائنا المقدَّسة وجمال عباد الله في تواضعهم فالتكبر والغرور حسب ما ذكر علماء الأخلاق من أمهات الرذائل.

روى أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنه سأله عن أدنى مراحل الكفر والإلحاد؟ فقال عليه السلام:

«إِنَّ الْكِبْرَ أَذْنَاهُ» [٤٩٥]

. كما ورد في الخبر عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام أنهما قالوا:

«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» [٤٩٦].

ثم اتجه الإمام عليه السلام إلى مخاطبته ليحذِّرهم من عاقبة الشيطان السيئة فقال:

«أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكْبِيرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرْفُوعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُورًا [٤٩٧]، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ سَعِيرًا؟».

فالعبرة إشارة لآيات القرآن الكريم حيث قال تعالى: «فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» [٤٩٨].

وقال تعالى في موضع آخر: «قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٧١

تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» [٤٩٩].

القسم الثاني

وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ، وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ رُؤَاؤُهُ، وَطِيبَ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَزْفُهُ، لَفَعَلَ. وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ الْبُلُوى فِيهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ. وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَتَّبِلَى خَلْقَهُ بِنِعْصٍ مَا يَجْهَلُونَ أَضْلَهُ، تَمَيِّزاً بِالْإِخْتِبَارِ لَهُمْ، وَنَفِيًّا لِلِاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَاداً لِلْخِيَلَاءِ مِنْهُمْ.

فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ، لَا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الْآخِرَةِ، عَنْ كِبَرِ سَاعَةِ وَاحِدَةٍ. فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلِمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ؟ كَلَّا، مَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخَلَ الْجَنَّةَ بَشَرًا بِأَمْرٍ أُخْرِجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكًا. إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ لَوَاحِدٌ. وَمَا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحِهِ حِمِّي حَرَمَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ.

الشرح والتفسير: الاعتبار بعاقبة إبليس

قال الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة في مواصلته لاختبار إبليس الذي ذكر سابقاً بعد أن أشار إلى قضية مهمة وهي أن الله تبارك وتعالى يختبر عباده بأمر تخفى فلسفتها عليهم وربما يشق عليهم تحملها:

«وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ ٥٠٠»

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٧٢

الْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ، وَيَبْهَرُ [٥٠١] الْعُقُولَ رُؤَاؤُهُ [٥٠٢] وَطِيبَ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَزْفُهُ [٥٠٣] لَفَعَلَ وَوَفَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ الْبُلُوى فِيهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ.

إشارة إلى أن الامتحان الإلهي إنما يفقد أثره إذا كان منسجماً مع رغبات العباد وميولهم؛ ذلك لأن الجميع سوف يعملون على أساسه؛ سواءً كانوا من عباد الله أو من عبدة الأهواء ولا ينطوى مثل هذا الامتحان على أية نتيجة، أما إن كان على خلاف رغباتهم فأنذاك تمتاز صفوف المؤمنين المخلصين من العاصين المتكبرين.

فامتحان أصحاب الغرور والتكبر ينبغي أن يكون في الأمور التي تستهدف غرورهم وتكبرهم على غرار الامتحان الذي حصل للملائكة وإبليس.

ومن هنا قال الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه:

«وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَتَّبِلَى خَلْقَهُ بِنِعْصٍ مَا يَجْهَلُونَ أَضْلَهُ، تَمَيِّزاً بِالْإِخْتِبَارِ لَهُمْ، وَنَفِيًّا لِلِاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَاداً لِلْخِيَلَاءِ [٥٠٤] مِنْهُمْ».

وعلى هذا الضوء تتضح عليه خفاء فلسفة الأحكام الشرعية، طبعاً تبدو واضحة لدينا فلسفة العديد من هذه الأحكام بحكم العقل والآيات والروايات الواردة بهذا الشأن، إلا أن جانباً مهماً من هذه الأحكام ما زال مبهماً، وذلك لمعرفة المطيع المخلص من المتمرد العاصي. جدير ذكره إن هنالك أدلة أخرى غير ما ذكر في خفاء أسرار هذه الأحكام.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى عاقبة فعل إبليس المتكبر والمتعصب ليعتبر بها الجميع فحذرهم من مغبة اتباع خطواته حتى لا يبتلوا بما ابتلى به من عاقبة سيئته فقال:

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٧٣

«فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ [٥٠٥] الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ، لَا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الْآخِرَةِ، عَنْ كِبَرِ سَاعَةِ وَاحِدَةٍ».

والعبارة

«لا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الْآخِرَةِ»

لا تعنى عدم علم الإمام بهذا الأمر، بل إشارة إلى أن الناس لا يعلمون بذلك، والمراد من سنوات الدنيا هذه السنوات التي نعيشها والمعلومة المقدر، كما أن سنوات الآخرة ما أشير إليه كراراً في القرآن الكريم ومن ذلك: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سِنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ» [٥٠٧].

وهنا يرد هذا السؤال: كيف يمكن زوال ستة آلاف سنة من العبادة بساعة من التكبر؟ والجواب واضح؛ فالبناء عمل شاق وطويل، أما الهدم فعمل بسيط وسريع، فقد يستغرق بناء بيت عدة سنوات إلا أن حريقاً يحيله خراباً خلال لحظات، كما يبنى السد العظيم في عدة سنوات بينما ينهار بطفرة عين بفعل الزلزال أو تفجيره بالديناميت والمواد المفجرة، ومسألة إحباط الأعمال بفعل بعض الذنوب لمن المطالب المهمة التي ستعرض إليها في مبحث التأملات.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فأشار إلى أن مصير المتكبرين من البشر هو ذات مصير إبليس فقال: «فَمَنْ ذَا بَعْدِ إِبْلِيسَ يَسَلِّمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ؟ كَلَّا، مَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَرًا بَأْمَرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكًا». ثم قال عليه السلام في التأكيد على هذا المعنى: «أَنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ لَوَاحِدٌ. وَمَا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ» [٥٠٨] في إِبَاحِهِ حِمِّي [٥٠٩] حَرَمَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ».

إشارة إلى أن جميع المكلفين سواسية أمام الله تعالى وليس لأي أحد أي امتياز على آخر، فليس لله مع أحد من قرابه، والمعصية من أي عبد صدرت هي معصية،
نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٧٤
والطاعة هي الطاعة فلا ينبغي أن يتصور البعض أن العقاب الأليم الذي شمل إبليس على تكبره يختص به والآخرين بمعزل عن ذلك إن ارتكبوا نفس الفعل.

تأملات

١. حبط الأعمال

جاء في هذا الجانب من الخطبة أن عبادة ستة آلاف سنة قد ذهبت هدرًا بفعل ساعة من الكبر ومسألة الاحباط والتكفير، وبعبارة أخرى زوال الأعمال الحسنه أو تدارك الأعمال السيئة بالتوبة والطاعة، لمن المسائل المهمة التي حظيت باهتمام المتكلمين والمفسرين وأرباب الحديث.

فالذي يستفاد من بعض الآيات القرآنية أن هناك سلسلة من الأعمال السيئة التي من شأنها القضاء على الأعمال الصالحة ومنها الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر الذي ورد في الآية ٨٨ من سورة الأنعام: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» والآية ١٤٧ من سورة الأعراف: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ» وصرحت الآية ٧ من سورة العنكبوت بشأن التكفير قائله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ».

طبعاً هذا لا يعنى جعل السيئات والحسنات أمام بعضهما البعض الآخر يوم القيامة بحيث لو كانت الحسنات أكثر لما اكرت السيئات أو لو كانت السيئات أكثر أهملت الحسنات بصورة كلية، فليس هنالك هذا النوع من الاحباط والتكفير وهو لا ينسجم مع الآيات القرآنية أيضاً فقد جاء في الآيتين ٧ و ٨ من سورة الزلزال: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».

وزبدة الكلام إن لكل عمل صالح وطالح آثاره الخاصية عند الله يوم القيامة، ولكن لهذا المطلب استثناءات فهناك بعض الأعمال

الصالحه التي تغطي الأخطاء، وبعض الأعمال القبيحة التي تزيل الحسنات [٥١٠].

نقحات الولاية، ج٧، ص: ٢٧٥

٢. هل إبليس من الملائكة؟

جاء في هذا القسم من الخطبة أن إبليس كان من الملائكة وقد طرده الله من الجنة ومن حضيرة الحق لتلك المعصية الكبيرة. ولعل هذه العبارة توحى بأن إبليس كان حقاً من الملائكة بينما يصرح القرآن علانية: «كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» [٥١١]. كما جاء في القرآن من جانب آخر أن الملائكة معصومون ولا يقارفون المعصية قط: «بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يُشْبِهُنَّ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ يَغْمَلُونَ» [٥١٢]. فكيف لملك معصوم أن يتمرد على أوامر الله ويسلك طريق الكفر ومخالفة الله تعالى؟! ومن هنا يتضح أن إبليس كان في مصاف الملائكة بفعل عبادته الكثيرة ولم يكن حقاً من الملائكة فهذه العبارة وإن كانت مجازية إلا أن القرائن الكثيرة والواضحة تزيل أي إبهام.

٣. كبر إبليس أساس كفره

يستفاد من الآيات القرآنية والروايات الإسلامية وهذه الخطبة أن كبر إبليس أدى بالتالي إلى كفره، أقصى درجات الكفر، ذلك لأنه اعترض على حكمه الله وعد أمره بالسجود لآدم منافياً للحكمة ولذلك عوقب بأشد العذاب وهو الطرد من حضيرة القدس وحبطت أعماله وعبادته التي استغرقت ستة آلاف سنة.

فالكلام يحمل رسالته واضحة للجميع هي عدم الاستخفاف بالكبر والعصبيّة، التي قد تقود أحياناً إلى الكفر واحباط الأعمال والطرده من القرب الإلهي، طبعاً كان بإمكان إبليس أن يرجع ويتوب، ولكن كان أول شرط في توبته طاعته أمر الله في نقحات الولاية، ج٧، ص: ٢٧٦

السجود لآدم عليه السلام، فقد جاء في الحديث المروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ إبْلِسَ سَجَدَ لِلَّهِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ وَالتَّكْبِيرِ عُمَرَ الدُّنْيَا، مَا نَفَعَهُ ذَلِكَ وَلَا قَبْلَهُ اللَّهُ مِنْهُ مَا لَمْ يَشْجُدْ لِأَدَمَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يَشْجُدَ لَهُ» [٥١٣].

٤. وحدة حكم الله في الجميع

إن أحد الدروس المهمة في هذا الجانب من الخطبة هي أن علاقة الخلق بالخالق علاقة الطاعة والعبودية وأن جميع مخلوقات الله سواسية في الأحكام في الشرائط المتساوية أو المتشابهة وما يعتقده طائفة من اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وخواصه وسوف لن ينالهم سوى جانب من العقاب على أعمالهم: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ» [٥١٤] إنما هي عقيدة خاطئة وفكرة باطلة.

وعليه فإن كل كبر وعصبيّة وعصيان سيؤدي إلى الطرد من رحمة الله وسوف لن يكون مصير كل من ارتكب هذه المعصية سوى مصير إبليس، وهذه القاعدة سارية على جميع العباد على اختلاف مراتبهم.

نقحات الولاية، ج٧، ص: ٢٧٧

القسم الثالث

إشارة

فَاخْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ عِدْوَاللَّهِ أَنْ يُعِدَّ بِكُمْ بَدَائِهِ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِهِ، وَأَنْ يُجَلِّبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجَلِهِ. فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَيِّئَهُمُ الْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّرْعِ الشَّدِيدِ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، فَقَالَ: (رَبِّ بِمَا أَعُوذُنِي لِأَزِيْنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغُوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)، فَذَفَا بِغَيْبِ بَعِيدٍ، وَرَجَمًا بَطْنٌ غَيْرِ مُصْتَبٍ، صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ الْعَصِيْبَةِ، وَفُرْسِيَانُ الْكِبَرِ وَالْحِيَاهِلِيَّةِ. حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ مِنْكُمْ، وَاسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَجَمَتِ الْحِيَالُ مِنَ السَّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ، اسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَفْحَمَكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ، وَأَحْلَوْكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ، وَأَوْطَوْكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحِيَّةِ، طَعْنَا فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزَا فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقَّا لِمَنَاخِرِكُمْ، وَقَصَدْنَا لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوَّقْنَا بِخَرَائِمِ الْقَهْرِ إِلَى النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ. فَأَضْرِبِحْ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَرْجًا، وَأَوْزَى فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحًا مِنَ الدِّينِ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وَعَلَيْهِمْ مُتَالِبِينَ. فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ، وَلَهُ جَدَّكُمْ.

الشرح والتفسير: أعدى أعداء الإنسان

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة في الاستنتاج من قصة ضلال الشيطان وطرده من الرحمة إثر كبره وعصبيته ليحذر الجميع من سوء العاقبة والمصير فقال:

«فَاخْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ عِدْوَاللَّهِ أَنْ يُعِدَّ بِكُمْ ٥١٥» بِدَائِهِ، وَأَنْ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٧٨

يَسْتَفِزَّكُمْ ٥١٦» بِنِدَائِهِ، وَأَنْ يُجَلِّبَ ٥١٧» عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجَلِهِ ٥١٨»

. وعبارة الإمام عليه السلام هذه اقتباس من القرآن الكريم حيث قال تعالى «وَاسْتَفِزُّوا مِنْهُمُ بِصَوْتِكُمْ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجَلِكَ» [٥١٩].

وخيل تعني الفرس وكذلك الفرسان وأريد بها هنا المعنى الثاني ورجل تعني المشاة وهي إشارة إلى كثرة الأعوان الذين يقفون إلى جانب الشيطان سواء من نوعه أو من البشر والذين يعينونه على إضلال الآخرين؛ فبعضهم سريع كالفرسان والآخر بطيء كالمشاة. وبالطبع فإن الصفات الرذيلة وعوامل المعصية ومراكز الفحشاء والدعايات السامة والمضلة ووسائل الذنوب تعد من أعوان الشيطان وجنوده حيث حذر الإمام عليه السلام الناس من كل هذه الأمور.

ثم أقسم الإمام عليه السلام بعمره لتأكيد هذا الكلام فقال عليه السلام:

«فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ ٥٢٠» لَكُمْ

سَهْمُ الْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ ٥٢١» إِلَيْكُمْ بِالنَّرْعِ الشَّدِيدِ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ».

ثم استشهد الإمام عليه السلام بقوله تعالى عن إبليس:

«فَقَالَ:

«رَبِّ بِمَا أَعُوذُنِي لِأَزِيْنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغُوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ».

أما قسم الإمام عليه السلام بعمره فيشير إلى أن القضية غاية في الجدية؛ وليت شعري أي

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٧٩

شيء أشرف من عمر الإمام وقوله عليه السلام إن الشيطان فوّق لكم سهم الوعيد واغرق إليكم الشديد إشارة إلى أن خطر

الشیطان قد أحاط بكم بأخدع صورته التي قلما تخطئ وقد دلکم على سبله وذلك من خلال المظاهر الماديّة للدنيا وتزيين نعمها الماديّة والغرق في مستنقع الشهوات واللذات.

وتعبير الإمام عليه السلام بأنّ الشیطان جند طاقاته وقواه كافة واستعد للهجوم علیکم وقد استهدفکم من مكان قريب فکنتم في مرماه من كل جانب، إشارة إلى كثرة عناصر الوسواس الشیطانيّة في باطن الإنسان وخارجة، فهوى النفس من جهة والعوامل الخارجيّة للمعصية من جهة أخرى

والعبارة «لَمَّا غَوِيَّتْهُمْ أَجْمَعِينَ» التي تبدأ بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة وتنتهي بالمفردة أجمعين، شاهد على أنه بمنتهى الجِد في تحقيق اهدافه المشؤومة، ومن هنا لا بد أن يعيش الناس اليقظة والحذر حتى لا يقعوا في شباك فخه ومصائده.

جدير ذكره أنّ العبارة:

«رَبِّ بِمَا أَعْوَيْتَنِي ...»

من أكاذيب الشیطان وافترائاته على الله تعالى والتي تشير إلى مدى تمرده ووقاحته بحيث يفترى على الله مثل هذا الكذب، الله الذي يهدى الجميع ويزودهم بعناصر الهدى، ولما كان كلام الشیطان واضح البطلان فالقرآن لا يرد عليه، فكيف يضله الله سبحانه وتعالى وهو الذي أمره والملائكة بقوله: «فَإِذَا نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» فالشرف الذي حظى به آدم عليه السلام على أساس روح الله التي نفخت فيه، إلّا أنّ الشیطان الحسود والأنانى تجاهل ذلك واكتفى بالنظر إلى خلقه من الطين! فهل الضلال كان من جانب الله أم من نفس الشیطان!؟

ثم قال عليه السلام في مواصلته لكلامه:

«قَدْ فَا بَغَيْبٍ بَعِيدٍ، وَرَجْمًا بِظَنٍّ غَيْرٍ مُصِيبٍ».

فقد وردت العبارة

«رَجْمًا بِظَنٍّ غَيْرٍ مُصِيبٍ»

بهذه الصيغة في أغلب نسخ نهج البلاغة والتي يظن أحياناً أنّها لا تنسجم مع الآية الشريفة: «وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٨٠

إِبْلِيسَ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ» [٥٢٣] والحال إنّ الآية الشريفة نازلة بشأن قوم سبأ لا بشأن جميع الناس وإلّا فالمؤمنون ليسوا بقله في أمم الأنبياء.

ورجحت طائفه من شراح نهج البلاغة النسخة الأخرى التي لا تتضمن كلمة «غير» وبصيغة:

«رَجْمًا بِظَنٍّ مُصِيبٍ»

لأنهم قالوا إنّ ظن الشیطان بشأن الناس مطابق للواقع حيث لم ينج من وساوسه سوى قلّة قليلة من الناس وهذا ما صرح به القرآن الكريم إذ قال: «وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ» [٥٢٤] وقال في موضع آخر: «أَلَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» [٥٢٥].

أضف إلى ذلك بأنّها أكثر انسجاماً مع العبارة التالية في هذه الخطبة التي قال فيها:

«صَدَقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ الْعَصِيَّةِ، وَفُرْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ».

فالعبارة:

«أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ»

كناية عن أنهم عجنوا بالكبر على درجة وكأنهم أصبحوا أبناءه كما أنّ التعبير إخوان العصبيّة كناية عن علاقتهم الوثيقة بالعصبيات القبليّة والقوميّة وما شابه ذلك.

والعبارة

«وَفُؤْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ»

كناية عن أنهم بلغوا درجة من الكبر والجهل والغرور وكأنهم اعتلوا مركباً من الجهل والكبر اندفعوا به إلى الأمام.

ثم قال الإمام عليه السلام:

«حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ [٥٢٦] مِنْكُمْ، وَاسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ [٥٢٧]

مِنْهُ فِيكُمْ، فَتَجَمَّتِ [٥٢٨] الْحَالُ مِنَ السَّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ. اسْتَفْحَلَ [٥٢٩] سُلْطَانُهُ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٨١

عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ [٥٣٠] بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ».

إشارة إلى أن إبليس يسعى بادئ الأمر إلى الهيمنة على الأفراد الذين يتمرّدون عليه ثم يرسخ قاعدته لديهم ثم ييسط نفوذه عليهم فيهجم عليهم بجنوده والحال فهم فقدوا قدرتهم الدفاعية وعانوا من أنواع المصائب المادية والمعنوية، كما أشار الإمام عليه السلام

بثمان عبارات قصيرة عميقة المعنى إلى آثار ذلك الهجوم الشيطاني الواسع فقال:

«فَأَقْحَمُواكُمْ [٥٣١] وَلَجَاتِ [٥٣٢] الذُّلِّ، وَأَخْلَوْكُمْ وَرَطَاتِ [٥٣٣] القَتْلِ، وَأَوْطُؤُوكُمْ [٥٣٤] إِثْخَانَ [٥٣٥]

الْجِرَاحَةِ، طَعَنَّا فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزَّ [٥٣٦] فِي حُلُوفِكُمْ، وَدَقَّا لِمَنَاخِرِكُمْ [٥٣٧]، وَقَصَدَّا

لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوَّقَّا بِخَرَائِمِ [٥٣٨] القَهْرِ إِلَى النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ».

فهذه العبارات الغاية في الدقة والبيان والمقرونة بمنتهى البلاغة والفصاحة تجسد عظم بؤس المهزومين أمام الشيطان، الذين إن هربوا من جنده وأعوانه ولجأوا إلى كهف فسوف لن يكون سوى كهف الذل والهوان وإن قاوموا فليس لهم من مصير سوى الموت والفناء كما أن موتهم سوف لن يكون هيناً بل ممزوج بالضرب والجرح وغرز السهام في العيون وقطع الحناجر وتحطيم الأنوف وبالتالي سوف يجرون إلى نار الغضب الإلهية.

ثم خلس عليه السلام إلى استنتاج قاطع فقال:

«فَأَضْبَحَ أَكْثَرَ فِي دِينِكُمْ حَزْجًا [٥٣٩]،

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٨٢

وَأَوْزَى [٥٤٠] فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحًا [٥٤١] مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مَنَاصِينِ [٥٤٢]، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّينِ [٥٤٣].

فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ [٥٤٤]، وَلَهُ حَدُّكُمْ [٥٤٥]».

إشارة إلى أن إبليس أعدى أعدائكم في الدين والدنيا وخطره أعظم من خطر كلِّ عدو فلا بد من تجنيد طاقاتكم لمواجهة.

وقد عبّر الإمام عليه السلام عن الفساد بالحرص يعني الصعوبة والمشقة (ووردت في بعض النسخ جرح والتي تبدو مناسبة للعبارة) وعن وساوس الشيطان المضلّة بالقدح (ما يشعل به النار)، لأنّ قداحة صغيرة يمكن لها أن تحرق بيتاً أو حياً، ووساوس الشيطان قد تقود أحياناً إلى تصدع مجتمعات وإنهيارها، ولا سيما العصبيات العمياء والكبر والغرور كما ذكر في الخطبة حيث تأجيج نيران القبليّة التي تدعو إلى مزيد من سفك الدماء واغراق الأرض بها من الأفراد الأبرياء.

والتعبير بالجد بفتح الجيم بمعنى القطع تشير إلى قطع العلاقة مع إبليس وعدم طاعة أو امره (وقد ورد الجد في بعض النسخ بكسر الجيم والذي يعني السعي والمثابرة والذي يبدو أنسب للعبارة السالفة) فالبعض يبذل قصارى جهده وسعيه في مجاهدته لإبليس وجنده.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٨٣

القسم الرابع

إشارة

فَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَىٰ أَصْلَابِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ، وَقَصَدَ بِرَجْلِهِ سَبِيلَكُمْ، يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ. لَأَتَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ، فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ، وَحَلَقَةِ ضَيْقٍ، وَعَرْصَةِ مَوْتٍ، وَجَوْلَةٍ بَلَاءٍ. فَأَطْفِنُوا مَا كَمَنَّ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصِيَّةِ وَاحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تَلْمِزُ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ، وَنَزَعَاتِهِ وَنَفَاتِهِ. وَاعْتَمِدُوا وَضَعَ التَّدَلُّلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءِ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعِ التَّكْبَرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَاتَّخِذُوا التَّوَاضِعَ مَسْلِحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ؛ فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُودًا وَأَعْوَانًا، وَرَجُلًا وَفُرْسَانًا، وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضَّلَ جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعَظْمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ، وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبَرِ الَّذِي أَعَقَبَهُ اللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَالزَّمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الشرح والتفسير: التحذير من التشبه بالشیطان أو قایل

عباً الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة الجميع للوقوف بوجه الشيطان ووساوسه وأشار إلى سوابقه السيئة وعداوته بعبارات تفيض فصاحة وبلاغه فقال:

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٨٤

«فَلَعَمْرُ اللَّهِ [٥٤٦] لَقَدْ فَخَرَ عَلَىٰ أَصْلَابِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ [٥٤٧]، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ وَقَصَدَ بِرَجْلِهِ سَبِيلَكُمْ».

وهذه العبارات العميقة المعنى هى اقتباس من الآيات القرآنية الشريفة؛ فالآية ٣٣ من سورة الحجر تشير إلى أن الشيطان حقر آدم بهذه الصيغة قائلاً: «لَمْ أَكُنْ لِلسَّيِّدِ لِشَرِّ خَلْقَتِهِ مِنْ صِلَافٍ مِّنْ حَمِيمٍ مَّسِينٍ» فغروره وحسده وتكبره جعله يتناسى العبارة: «نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» من كلام الله والتي تعد من أعظم مفاخر آدم عليه السلام، كما قال تعالى عن إبليس فى الآية ١٢ من سورة الأعراف: «أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» والحال لو تخلى عن كبره وغروره لأيقن أن التراب هو مصدر أنواع البركات وأساس حياة الموجودات وهو أفضل من النار، وصرحت الآية ٦٤ من سورة الإسراء أن الله تعالى قال له: «وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ» كما قال تعالى عن الشيطان فى الآية ١٦ من سورة الأعراف: «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ».

وهنا تكمن خطورة هذا العدو الذى ينبغى الحذر منه فهو لا يقتر بشخصية آدم الرفيعة ولا يسلم بنسبه وقد جند طاقاته كافة من أجل اغوائه واضلاله.

ثم قال عليه السلام فى مواصلته لكلامه:

«يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ

بَنَانٍ [٥٤٩]. لَأَتَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ. فِي حَوْمَةِ [٥٥٠] ذُلٍّ، وَحَلَقَةِ ضَيْقٍ، وَعَرْصَةِ مَوْتٍ، وَجَوْلَةٍ بَلَاءٍ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٨٥

والعبارة:

«وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ»

تشبه ما ورد فى القرآن الكريم بشأن هجوم الملائكة على الكفار يوم بدر: «وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» [٥٥١]. فإن قطع كل بنان إن كان بشأن الأيدي يؤدى بالإنسان إلى العجز عن الإتيان بأغلب الأعمال، ذلك لأن كل عمل وسيلة ووسائل الأعمال عادة الأصابع والأيدي، وإن كان المراد بنان الأرجل فذلك يؤدى إلى اختلال توازن الإنسان حين المشى والعبارة الواردة فى الخطبة إشارة إلى أن

الشياطين يهجمون عليكم ويعيقونكم عن العمل بحيث يسلبونكم زمام التفكير والقدرة على اتخاذ القرار.

ثم ركر الإمام عليه السلام على لب الموضوع فاستعار تشبيهات غاية في الجمال وبمنتهى الفصاحة والبلاغة ليحذر الجميع من الآثار

السيئة للعصبيّة العمياء والكبر الأجوف فقال عليه السلام:

«فَأَطْفُئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ وَاحْتِقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهَا تَلْمِكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَحْوَاتِهِ [٥٥٢]، وَنَزَغَاتِهِ [٥٥٣]

وَنَفَثَاتِهِ [٥٥٤].»

فقد شبه الإمام عليه السلام بهذه العبارات العصبيات الطائشة والأحقاد الجاهلية بالنار الكامنة في أعماق القلوب التي تقتدح فجأة وتلتهم جميع كيان الإنسان فتسرى إلى الخارج لتعم وتحرق أمم بأسرها، ويعدّ الإمام عليه السلام هذه الصفة الرذيلة من وساوس الشيطان والتي تنتقل من الخارج إلى بواطن المسلمين أي هي قريبة من المسلم الحق.

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَاعْتَمِدُوا وَضَعَ التَّنْذِيلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءِ التَّعْزِزِ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٨٦

تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلَعَ التَّكْبِيرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ؛ وَاتَّخِذُوا التَّوَاضِعَ مَسْلَحَةً [٥٥٥] بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِنْ لَيْسَ وَجُنُودِهِ.»

فقد شبه الإمام عليه السلام في هذه العبارات التواضع بالتاج والتعزز بما يلقي تحت الأقدام مما لا قيمة له وشبه التكبر بالغل الذي يوضع على العنق والبساطة بالمسلحة أو بالموضع الذي يحفظ الإنسان من مكائد العدو وكلّ منها يحمل رسالة واضحة للناس ولا سيما الأفراد المؤمنين منهم.

ثم بين الإمام عليه السلام دليلاً واضحاً لهذه الوصايا فقال:

«فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُودًا وَأَعْوَانًا، وَرَجُلًا وَفُرْسَانًا.»

طبعاً ليس جميع هؤلاء من الجن بل بعضهم من الناس الشياطين من الضالين والمضللين أعوان الشيطان وأنصاره وقد قال القرآن الكريم: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» [٥٥٦].

وهنا تطرق الإمام عليه السلام بعبارة قصيرة وعميقة المعنى إلى قصيدة قابيل الشخص الثاني بعد الشيطان الذي إعتراه الكبر والعصبيّة فارتكب جناية عظيمة وغاص في وحل الندم والشقاء فقال عليه السلام:

«وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضَّلَ جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعَظْمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ.»

العبارة

«ابن أمّه»

بدلاً من أخ إشارة إلى البعد العاطفي للموضوع، أي أنّ التكبر فعل فعله رغم تلك العلاقة العاطفية بينهما فدفعه لقتل أخيه ولعلنا نلمس شبيه هذا المعنى في قصة موسى وهارون حين نقم على عبادة بنى إسرائيل للعجل وقد أخذ برأس أخيه هارون فناداه على سبيل آثارة عواطفه: «يَبْنُوؤُمَّ لَاتَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي» [٥٥٧].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٨٧

والعبارة:

«سِوَى مَا أَلْحَقَتِ

من قبيل ما يصطلح عليه بالاستثناء المنقطع وقد وردت هنا لشدة الدم كأن نقول: «ليس لفلان من فضل سوى الكذب والخيانة».

والعبارة:

«عَدَاوَةُ الْحَسَدِ»

إشارة إلى أن الحسد يؤدي بالإنسان إلى العداوة والخصومة؛ العداة الذي من شأنه أن يكون مدعاة لقتل الأخ لأخيه.

ثم خاض الإمام عليه السلام في توضيح هذا الأمر فقال:

«وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِي أَعَقَبَهُ اللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ ٥٥٨ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

ويستفاد من هذه العبارات أن الانحرافات إنما تنطلق بادئ الأمر من باطن الإنسان ثم يعمقها الشيطان لتطال آثارها المشؤومة الإنسان وعليه فكل ما هنالك يعزى إلى باطن الإنسان الملوث وهذا رد حاسم على أولئك الذين يقولون لماذا يفعل الشيطان كل هذا ولماذا يبتلينا الله تعالى بكل تلك المصائب.

وقد نقل ابن أبي الحديد عند هذه العبارة حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله رواه المؤرخ المعروف الطبري أنه قال:

«مَا مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا وَذَلِكَ بِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».

وأضاف ابن أبي الحديد: إن كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة يؤيد ذلك [٥٥٩].

وقد وردت عدة أبحاث مطولة في الروايات الإسلامية بشأن إقامة السنة الحسنة والسنة السيئة وآثارهما سنتطرق إلى ذلك إن شاء الله في محله والذي يمكن قوله على نحو الخلاصة: إن كل من سن فعل خير وحث الناس على القيام به فهو شريك لهم في الأجر والثواب ومن سن سنة سيئة فهو شريك لهم في الذنب والمعصية بسبب انتهاكه للحرمات وتشجيعه الناس من ضعاف الإيمان على المعصية.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٨٩

القسم الخامس

إشارة

أَلَمْأَا وَقَدْ أَمَعْتُمْ فِي الْبَغْيِ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الْأَرْضِ مُصَارِحَةً لِلَّهِ بِالْمُنَاصِيحَةِ، وَمِيَّارَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمَحَارِبَةِ. فَاللَّهُ اللَّهُ فِي كِبْرِ الْحَمِيَّةِ وَفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلَأَ مَلَأَ السَّنَانَ، وَمَنَفَخَ الشَّيْطَانَ، الَّتِي خَدَعَ بِهَا الْأَمَمَ الْمَاضِيَةَ، وَالْقُرُونَ الْخَالِيَةَ. حَتَّى أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ، وَمَهَاوِي ضَلَالَتِهِ، ذُلًّا عَنِ سِيَاقِهِ، سُلْسًا فِي قِيَادِهِ. أَمْرًا تَشَابَهَتِ الْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتِ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وَكَبِيرًا تَضَايَقَتِ الصُّدُورُ بِهِ.

أَلَا فَالْحِذْرَ الْحِذْرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكِبْرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَتَرَفَعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَالْقَوَا الْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابِرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لِأَلَانِهِ. فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ اغْتِرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَانْقُوا اللَّهَ وَلَا تَكُونُوا لِنِعْمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَادًا، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَادًا. وَلَا تُطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصِفِّهِمْ كَدْرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ يَاطِلَهُمْ، وَهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ، وَأَخْلَاسُ الْعُقُوقِ. اتَّخَذْتُمْ إِبْلِيسَ مَطَايَا ضَلَالٍ. وَجُنْدًا بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِزَاقًا لِعُقُوبِكُمْ وَدُخُولًا فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثًا فِي أَسْمَاعِكُمْ. فَجَعَلَكُمْ مَرَمَى نَبَلِهِ، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ.

الشرح والتفسير: اجتناب تبعية المتكبرين

لما فرغ الإمام عليه السلام من تلك المقدمات في المقاطع السابقة بشأن مخاطر الكبر

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٩٠

والغرور والعصبيّة حذر مخاطبيه مباشرة من سوء عاقبة السير على هذا المسار الشيطاني وألقى باللائمة على أولئك الذين يثيرون الخلافات والنزاعات ويؤججون نيران الصراعات تحت ذرائع واهية تستند إلى العصبيّة القبليّة والتفاخر الذي تقوم به جماعة على أخرى فقال عليه السلام:

«أَلَا وَقَدْ أَمَعْتُمْ [٥٦٠] فِي الْبُعْيِ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الْأَرْضِ مُصَارَحَةً [٥٦١] لِلَّهِ بِالْمُنَاصَبَةِ [٥٦٢]، وَمُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمَحَارَبَةِ».

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنّ المخاطب بهذه العبارات هم جند الشام واتباع معاوية ولعلمهم إستندوا في ذلك إلى خطاب الإمام عليه السلام اللاذع والشديد الذي لم يكن مناسباً لما عليه أهل الكوفة والعراق، في حين يفهم من سبب هذه الخطبة وسائر الخطب أنّ مخاطبي الإمام عليه السلام هم طغاة الكوفة والعراق الذين كانوا يثيرون الصراعات بين القبائل وأدوا إلى المزيد من الفساد وإراقة الدماء انطلاقاً من التعصبات الجاهليّة والقبليّة؛ الأمر الذي يعتبر عداءً صريحاً لله من جانب وحرماً شعواء على المؤمنين من جانب آخر.

ثم اشتد كلام الإمام عليه السلام فخاطبهم قائلاً:
«اللَّهُ فِي كِبَرِ الْحَمِيَّةِ وَفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلَأَ قُحُ الشَّنَانِ، وَمَنَافِخُ الشَّيْطَانِ».

وبالنظر إلى أنّ

«ملاقح»

جمع

«ملقح»

على وزن مجرم، فإنّ مفهوم العبارة أنّ الكبر والتعصب سبب ايجاد البغض والعداوة وكذلك

«منافخ»

جمع

«منفخ»

على وزن «مصرف» وسيلة ينفخ بواسطتها ومفهومها أنّ الشيطان يوسوس في القلوب عن هذا الطريق ويسوقهم إلى الفساد.

ثم أشار عليه السلام إلى آثار ومخاطر هذه الوسوس والنفخات الشيطانيّة فقال:

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٩١

«الَّتِي خَدَعَ بِهَا الْأَمَمَ الْمَاضِيَةَ، وَالْقُرُونَ الْخَالِيَةَ. حَتَّى أَعْتَقُوا [٥٦٣] فِي حَنَادِسِ [٥٦٤]

جَهَالَتِهِ، وَمَهَاوِي [٥٦٥] ضَلَالَتِهِ، ذُلًّا [٥٦٦] عَن سِيَاقِهِ، سُلْسًا [٥٦٧] فِي قِيَادِهِ».

ثم أضاف عليه السلام قائلاً:

«أَمْرًا تَشَابَهَتْ الْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتْ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وَكَبِيرًا تَصَابَقَتْ الصُّدُورُ بِهِ».

في إشارة إلى أنّ مسألة الكبر والغرور وآثارها ومخاطرها الجمّة أمر متجدد في جميع الأمم والشعوب والذي كان مصدر الحروب

الدموية والنزاعات الواسعة ومختلف أنواع الجرائم والجنايات والحماقات.

فالتكبر والتعصب صفتان سودتا وجه التاريخ البشري واللتان تعتبران من أهم شباك الشيطان في العصور الماضيّة والحاضرة والقادمة.

نقل أحد شراح نهج البلاغة (المرحوم محمد جواد مغنیه) في شرحه أنّ الفيلسوف الانجليزي المعروف (راسل) قال: إنّ كلّ إنسان يحب أن يكون إلهاً والغريب قلّ من يعتقد أنّ هذا الأمر محال، ثم يضيف هذا الشارح العالم أنّ هذا الكلام صحيح إلّا أنّ أولئك الذي يتمنون أن يكونوا آلهة ولا يبلغون ذلك يعمدون لاشباع رغباتهم الباطنيّة إلى التكبر والفخر بالعظام الباليّة لآبائهم أو ما هم عليه

من مقام أو ذكر أسمائهم في الصحف.

ثم ركر الإمام عليه السلام على الموضوع الأصلي للقضية والذي يكمن في الطاعة العمياء لزعماء القبائل والمفسدين والمتكبرين الأنايين الذين يدعون الناس إلى أهوائهم وملذاتهم ويثيرون الفتن والمفاسد فقال عليه السلام:

«أَلَا فَالْحَدَرَ الْحَدَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٩٢

وَكِبْرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكْبَرُوا عَنْ حَسِبِهِمْ، وَتَرَفَعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقُوا الْهَجِينَةَ [٥٦٨] عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابِرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُعَالَبَةً لِآيَاتِهِ [٥٦٩].

فهذا الكلام في الواقع اقتباس من الآية القرآنية الشريفة التي يظهر فيها الناس ندمهم يوم القيامة على طاعتهم لكبرائهم وزعمائهم فيقولون: «رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَصَلُّونَا السَّيِّئَاتِ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُومُ لَعْنًا كَبِيرًا» [٥٧٠].

وإننا كلما تأملنا تاريخ البشرية الماضي نرى أن أحد العناصر الرئيسيّة في الحروب والصراعات وإراقة الدماء كان يكمن في التكبر والعصبيات القبليّة والقوميّة والتي ما زالت قائمة لحد الآن، وهي أحد العوامل المهمّة في نشوب الحرب العالميّة الأولى والثانية التي حطمت دولاً من العالم وأودت بحياة الملايين من الناس، والحال لو أمعن الإنسان النظر لأدرك أن أصله من التراب وأصله الآخر نطفة لا قيمة لها ونهايته جثة متعفنة، فقد نهى الإسلام عن الافتخار بالآباء والمناصب والتمسك ببعض الألقاب التي تفرز الغرور والغفلة، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف:

«حُبُّ الرَّجُلِ دِينَهُ، وَمُرُوتُهُ، خُلُقُهُ، وَأَصْلُهُ عَقْلُهُ» [٥٧١].

فقد قاله النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين حاول البعض الاستخفاف بسلمان الفارسي حين سأله عن نسبه، فرد عليهم بأن نسبه عتقه من العبودية بواسطة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

والعبارة:

«أَلْقُوا الْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ»

إشارة إلى أن هؤلاء رأوا أن نسبهم هو الأفضل ونسب الآخرين أدنى ثم نسبوا دناءة نسب الآخرين إلى الله تعالى، واعتقدوا أن الله تعالى خلق خلقاً فاضلاً وكانوا هم من ذلك الخلق، وخلق تعالى خلقاً أدنى هم الآخرون كما نسبوا لأنفسهم ما نالوا من النعم الإلهية على أنها تستند

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٩٣

إلى كفاتهم وجدارتهم وتنكروا لنعم الله وآلائه وألطفه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى ذكر السبب الذي يقف وراء ضرورة عدم تبعية مثل هؤلاء الأفراد فقال:

«فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ اغْتِرَاءِ [٥٧٢] الْجَاهِلِيَّةِ».

فقد شبه الإمام عليه السلام العصبيّة والفتنة بالبيت، وأعمدته دعاء الفساد، وأركانه المتكبرون الأنايون، وقد نهى الجميع عن السكن في هذا البيت، كما شبه عليه السلام الشعارات السائدة في زمان الجاهليّة لإثارة القبائل وتأليبها على بعضها البعض الآخر، بالسيوف الحادة، ثم شبه زعماء الفساد بهذه السيوف.

فقد كان السائد في العصر الجاهلي أن أية قبيلة من القبائل إذا ما تعرّضت لتهديد من الطرف الآخر عمد زعماءها بدلاً من اعتماد الفكر والمنطق في إصلاح الأمور وإرساء الصلح والسلام إلى تأليب الآخرين على اطلاق شعارات الحرب مستغلين جميع الوسائل من أجل إثارة عواطف الأفراد الجهال بغيّة تأجيج نار الحرب، سيما أن كل قبيلة كانت تنادي الأخرى بأسماء آبائها وأجدادها السابقين فزعماء القبائل في الواقع هنا بمنزلة السيوف.

ويشير التاريخ إلى أن الزعماء المتهافتين على المناصب والمقامات في العصور السابقة كانوا يعبئون الجماهير بمختلف الشعارات ويزجون بالجهال في أتون الحرب بغية الحفاظ على مصالحهم ومقاماتهم ولعلنا نلمس اليوم ما عليه وسائل الإعلام العالمية التي تعتمد شتى الأساليب وبصورة واسعة بغية الحفاظ على الحكومات الاستكبارية ومصالح كبار رؤساء الأموال، وكما قال القرآن الكريم: «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَظَ أَهْلِهَا آذِلَّةً» [٥٧٣]، وهذه هي الفئة التي وقفت على الدوام بوجه الأنبياء الذين بعثوا لتنوير عقول الناس وهدايتهم إلى

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٩٤

الصراف المستقيم وبسط القسط والعدالة الاجتماعية، فهبت لمعاداتهم ومواجهتهم:

«وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» [٥٧٤].

ثم أضاف عليه السلام:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكُونُوا لِنِعْمِهِ عَلَيْكُمْ أُضْدَادًا، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَادًا».

في الواقع إن هؤلاء الذين يكفرون بنعم الله ويسلكون سبيل الكبر والغرور بدلاً من توظيف هذه النعم في خدمة الخلق إنما يهبون لمناجزة نعمهم ويحسدون أنفسهم في ما أفاض الله عليهم ذلك لأن فعل هؤلاء بالنتيجة يتفق مع ما عليه الحساد والأعداء، فكلاهما ينشد سلب النعمة والفضل الإلهي من الآخرين.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى فقال:

«وَلَا تُطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ» [٥٧٥].

ذهب بعض الشراح إلى أن المراد بالأدعياء ذلك المعنى الأصلي (الأفراد الذين لا حسب لهم ولا نسب، أبناء الحرام) بينما فسرها البعض الآخر بأن المراد بها المنافقين، ذلك لأن النفاق إنما هو نتيجة دناءة النسب وخسة الجوهر، وأخيراً هناك من فسرها بالوضيعين. جدير ذكره أن التكبر الذي يعدّ الموضوع الأصلي لهذه الخطبة إنما يستند إلى عقدة الحقارة، وهذا ما صرحت به الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال:

«مَا مِنْ رَجُلٍ تَكَبَّرَ أَوْ تَجَبَّرَ إِلَّا لِدَلَّةٍ وَجَدَهَا فِي نَفْسِهِ» [٥٧٦].

ثم خاض عليه السلام في شرح أوصاف طائفة الأدعياء فقال:

«الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدْرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ».

إشارة إلى أن هؤلاء المنافقين المستكبرين إنما استغلوا حسن نياتكم وأنفذوا

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٩٥

إليكم نياتهم السيئة وأمراضهم النفسية وأعمالهم المريضة والمطالب الباطلة ورسخوها في أوساطكم؛ وعليه فما عليكم إلا التعرف عليهم والانسحاب من تبعيتهم وطرح أفكارهم الفاسدة وخططهم الشيطانية من أوساطكم.

ثم أفصح الإمام عليه السلام عن التعريف بهم فقال:

«وَهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ، وَأَخْلَاسُ» [٥٧٧]

الْعُقُوقِ [٥٧٨].

بالنظر إلى معنى الفسوق وهو الخروج عن الطاعة والعقوق الذي يطلق على مطلق العصيان، فإن المراد بالعبارة السابقة أن جميع المعاصي والمفاسد الاجتماعية إنما تنبع من المفسدين والمستكبرين حيث يقوم هؤلاء الأفراد باستقطاب الناس وشدهم إليهم كونهم مصداق للعبارة:

«النَّاسُ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِمْ».

ثم تحدّث الإمام عليه السلام عن العلاقة القائمة بين هذه الفئة وإبليس ومدى ارتباط افكارهم وخططهم بوساوسه فقال: «اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلَالٍ. وَجُنْدًا بِهِمْ يَصُولُ [٥٧٩] عَلَى النَّاسِ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقًا لِعُقُولِكُمْ وَدُخُولًا [٥٨٠] فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثًا [٥٨١] فِي أَسْمَاعِكُمْ».

فالواقع، إنّما يمتطى إبليس هذه الفئة بالدرجة الأولى لإضلال الناس وإغوائهم، ثم يستعين بها في هجومه عليهم فإن استسلموا لقنهم مطالبه بلسان زعماء هذه الفئة الضالة فيعطل لديهم جميع مصادر الفهم والإدراك بما فيها العقل والعين والاذن؛ فيسلبهم عقلهم بأمانيه البعيدة وأهوائه ورغباته ويزين لهم الدنيا، فيصادر بصيرتهم ويقرأ في آذانهم كلمات الخداع ويوسوس إليهم فلا تكون عاقبتهم إلّا تلك التي

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٢٩٦

أشار الإمام عليه السلام إليها في خطبته وعلى هذا الأساس فقد جعلكم أهدافاً لسهامه ووطأكم بقدمه واستحوذ عليكم: «فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبِيهِ [٥٨٢]، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ».

فمن الطبيعي أن يتيه الإنسان تحت أرجل الشيطان ويكون بدنه عرضة لسهامه ويحكم عليه قبضته إذا ما فقد عقله وبصيرته وإدراكه. وقد ذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى أنّ العبارة «وَمَا خَذَ» إشارة إلى الأسر في مخالب الشيطان، وعليه يكون مفهوم العبارات الثلاث أنّ الشيطان يقضى عليكم أو يذلّكم أو يأسركم، إلّا أنّ التفسير الذي أوردناه يبدو أنسب مع العبارات السابقة. والواقع أنّ هذه الكلمات العميقة للإمام عليه السلام بشأن نفوذ الشيطان في الإنسان اقتباس من القرآن الكريم إذ قال تعالى: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» [٥٨٣]. وقال تعالى في الآية ١١٢ من سورة الأنعام: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» وقد مرّ شبيه ما ورد في هذه العبارة في الخطبة السابعة حين قال: «اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِمَرِهِمْ مَلَاكًا وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكًا ... فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَكَرَبَ بِهِمُ الزَّلَّالَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ».

تأمل

التكبر والعصبية

«التكبر»

يعنى الشعور بالأفضلية من الآخرين، و

«العصب»

يعنى التعلق غير المنطقي بشخص والتفاني في الدفاع عنه بصورة عمياء، أو الغلو في الحب للقبيلة

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٢٩٧

وتمجيدها بحق وبغير حق، وتعصب من مادة عصب على وزن غضب بمعنى الأوعية الخاصية التي تربط عضلات الإنسان بدماعه وتشكل سلسلة الأعصاب.

ثم اطلقت على الفئة والجماعة المنسجمة فكرياً والمتعاضدة فيما بينها، ويطلق على هذه الجماعة

«عصبية»

على وزن

«سفرة»

وتطلق مفردة

«تعصب»

عادة على التبعية الهمجية المطلقة والتي يفرزها عادة الجهل وضيق التفكير والكبر؛ لأن الشخص الذي يريد أن يلصق بنفسه قيمة معينة يسعى لإكبار من يتعلق به أو يتعلق بهم، فيتجاهل نقط ضعفهم ويبالغ في تضخيم نقاط قوتهم إن وجدت فيهم.

وهذه الرذيلة الأخلاقية الجاهلية إذا انطلقت من التعصب العرقي والقبلي فإنها تؤدي إلى اندلاع النزاعات والحروب والعنف والصراعات الدموية التي حدثت في التاريخ القديم والتاريخ المعاصر.

ولعل أحداً لم يأمن مخاطر الكبر والعصبية منذ التاريخ الجاهلي حتى تاريخنا الراهن. فقد نشب في العصر الجاهلي قتالان عنيفان بين القبائل العربية باسم الفجار المعروفة في التاريخ. حيث حدثت فجار الأولى حين كان لفرد من قبيلة بنى كنانة دين بدمه رجل من قبيلة هوازن الذي ما كان يستطيع تسديد دينه؛ فشاهد الرجل الهوازي قرداً في سوق عكاظ (السوق الذي كان يعقد كل سنة قرب الطائف) وقال:

هل من رجل يبعني هذا القرد مقابل ديني من فلان الكناني ومراده من هذا الكلام تحقير الرجل الكناني الذي عجز عن تسديد دينه، وهنا قام رجل من كنانة فقتل القرد، فصرخ الهوازي بوجه الرجل واستنجد الكناني بقبيلته فاقتلت القبيلتان قتالاً شديداً.

وفجار الثانية التي حدثت بعد وفاة عبد المطلب، وسببها أن فتى من قبيلة بنى غفار جلس في زاوية من سوق عكاظ ومد رجليه وكان يقول: أنا أفضل العرب ومن لم يقبل ذلك فليقطع رجلي، فانبرى له فتى جاهل من قبيلة بنى قيس وسل سيفه وضربه على رجليه، فاقتلت قبيلتيهما قتالاً شديداً حتى تصالحا بعد مدة من

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٩٨

العداوة والخصومة [٥٨٤]، وما شهدته القرن العشرين متمثلاً في الحرب العالمية الثانية وكان سببها كما نعلم العصبية الألمانية النازية والتي خلفت عشرات الملايين من القتلى وعشرات الملايين من الجرحى والعديد من المفقودين وذلك الخراب العظيم الذي حل بأوروبا وسائر دول العالم، وحتى اليوم فإن العوامل الرئيسية التي تقف وراء اعتداءات المستكبرين والجنّة الاسرائيليين لا تستند إلى شيء سوى إلى الكبر والتعصب.

وبالنظر لما ذكرناه سابقاً نقف على عمق كلام الإمام عليه السلام في إظهاره لكل هذا القلق من النتائج الوخيمة للكبر والعصبية، وفي ذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وآله:

«مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ عَصَبِيَّةٍ، بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ أَغْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ» [٥٨٥].

كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«مَنْ تَعَصَّبَ أَوْ تَعَصَّبَ لَهُ فَقَدْ خَلَعَ رَبْقَ الْإِيمَانِ» [٥٨٦].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٢٩٩

القسم السادس

إشارة

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأَمَمَ الْمُسَيِّئِينَ مِنْ فَيْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلَاتِهِ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثَلَاتِهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ،

وَاسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيدُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ.

فَلَوْ رَحَّصَ اللَّهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَحَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ؛ وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرِهَ إِلَيْهِمُ التَّكَاثُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُّعَ، فَأَلْصِقُوا بِالْمَارِضِ خُدُودَهُمْ، وَعَقَرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ. وَخَفَّضُوا أَعْيُنَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْمًا مُسْتَضْعَفِينَ. قَسِدَ اخْتِيَارَهُمُ اللَّهُ بِالْمَحْمَصَةِ، وَابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وَامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ. فَلَا تَعْتَبِرُوا الرِّضَى وَالشُّحْطَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدَ جَهْلًا بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَالْاِخْتِيَارَ فِي مَوْضِعِ الْغِنَى وَالْاِقْتِدَارِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

(أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ نَسَارِعِ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ). فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتِيرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ.

الشرح والتفسير: آفة التكبر

لما فرغ الإمام عليه السلام من تحذيراته في المقطع السابق من هذه الخطبة من تبعية المستكبرين والعصاة المتعصين، أخذ في هذا الجانب من الخطبة بيد مخاطبيه ليغوص بهم في أعماق التاريخ ويوقفهم على مصير الأمم المستكبرة وأئمة الكبر

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٠٠

والغرور في التاريخ القديم فقال:

«فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَّمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلَاتِهِ، [٥٨٧] وَوَقَائِعِهِ وَمَثَلَاتِهِ [٥٨٨].»

فقد عرض لنا القرآن الكريم كيف كانت عاقبة الطغاة سيئة ومصيرهم أسود كفرعون وجنوده حيث هلكوا غرقاً في أمواج البحر وكانت أجسامهم طعمة لحيثان البحار، وطغاة مع أقوامهم هلكوا تحت الزلازل الشديدة ومنهم من أمطروا بالحجارة أو خسف بهم الأرض ومنهم من قلب الله بهم مدنهم فجعل عاليها سافلها كقوم لوط، وطائفة أخذهم بالطوفان والعواصف التي جعلتهم كأعجاز النخل الخاوية كقوم عاد، بينما أخذ البعض الآخر بالصاعقة ليحيلهم أجساداً خاوية بطرفة عين كما قال تعالى في محكم كتابه العزيز: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [٥٨٩].

ثم قال عليه السلام:

«وَاتَّعَظُوا بِمَثَاوِي [٥٩٠] خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، [٥٩١] وَاسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ

مِنْ لَوَاقِحِ [٥٩٢] الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيدُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ.»

يبدو أن الوصايا الثلاث التي ذكرها الإمام عليه السلام:

«اعتبروا» و «اتَّعَظُوا» و «اسْتَعِيدُوا»

إشارة إلى المراحل الثلاث التي تنتظر الإنسان اليقظ في مسيرته نحو الحق حين تأمله لسيرة الماضين: وأهمها مصير الأمم السابقة بما كانت تمتلكه من نعم وما كانت عليه من عزة وقدرة ثم الت إلى الزوال أثر الكبر والغرور، لكي يتعلم الدروس والعبر من تاريخ حياتهم ومماتهم فيستعيد بالله في خاتمة المطاف حتى لا

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٠١

يُصَابَ بِالْكَبْرِ وَالْغُرُورِ.

وتشير العبارة

«كَمَا تَسْتَعِيدُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ»

إلى آثار الكبر المشؤومة والتي تعد من الحوادث المريرة التي لا تقل عن الزلازل والعواصف والحوادث الطبيعية المفجعة الأخرى

ثم طرق هذا المعلم الرباني العظيم سبيلاً آخر بغية خلق النفرة في قلوبهم إزاء الكبر والغرور فقال عليه السلام: «فَلَوَرَّحَصَّ اللَّهُ فِي الْكِبْرِ لِأَخِيْدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَّحَصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ؛ وَلَكِنَّهُ سَيُجَانَهُ كَرَّةٌ إِلَيْهِمُ التَّكَاْبُرُ، وَرَضِيَ لَّهُمُ التَّوَاضُّعُ، فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا [٥٩٣] فِي التُّرَابِ وَجُوهَهُمْ. وَخَفَّضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْمًا مُسْتَضْعَفِينَ».

لعل بعض المتكبرين يعتقدون أن التكبر يكشف عن الشخصية وأنها بالتالي نعمة من نعم الله تعالى، فالإمام عليه السلام يشير إلى أن هذا العمل لو كان نعمة وكرامة لأنعم به تعالى على أنبيائه وأوليائه قبل كل شخص آخر؛ بينما نرى القضية معكوسة تماماً حيث كرهة تعالى إليهم الكبر والغرور، والتواضع بمثابة تاج وضع على رؤوسهم، وعلى هذا الأساس عاشوا الخضوع لله تعالى فكانوا يعرفون وجوههم بالتراب، كما عاشوا البساطة والتواضع للمؤمنين.

والعبارة:

«وَخَفَّضُوا أَجْنِحَتَهُمْ»

كناية لطيفة عن التواضع، لأن الطيور حين تريد أن تنحو على فراخها تضمها تحت أجنحتها بعد أن تفتحها لها.

والعبارة:

«وَكَانُوا قَوْمًا مُسْتَضْعَفِينَ»

لا- تفيد هنا معنى الضعف والعجز، بل تعني أنهم كانوا لا- يتكبرون على أبناء مجتمعهم فهم عباد بسطاء وأنهم يشاطرون الآخرين حياتهم.

ثم هم الإمام عليه السلام برفع الخطأ واللبس الذي شاب بعض المستكبرين الذين اعتقدوا بأن المال والأولاد علامات على القرب من الله تعالى، فخاض في بعض

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٠٢

التفاصيل من سيره وحياته خاصة أولياء الله وأنبيائه وما تعرضوا له من امتحانات واختبارات بعبارات فصيحة وبلغه ليركز على أربعة أنواع من الاختبارات فقال:

«قَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللَّهُ بِالْمَحْمَصَةِ [٥٩٤]، وَابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ [٥٩٥]، وَامْتَحَنَهُمُ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَخَضَّهُمْ [٥٩٦] بِالْمَكَارِهِ».

فطرق الله تعالى الامتحانية لا تحصي، فأحياناً بالنعمة وكذلك بالنقمة، وتارة بالمرض والسقم وأخرى بالصحة والعافية وثالثة بالعزة وأخرى بسلبها؛ لكن يمكن تقسيم هذه الاختبارات إلى أقسام متعددة؛ الضيق في المعيشة والجوع والعطش، الحوادث الشاقة والأليمة من قبيل المصائب التي تحملها المسلمون الأوائل في شعب أبي طالب حتى مختلف الغزوات وحالة اللاأمن التي كان يفرضها عليهم خصوم الدعوة، إلى جانب الأمراض والمعاناة التي سادت حياة جميع أنبياء الله، إنما تعدد دليلاً على هذه الامتحانات ومن ذلك حياة موسى بن عمران عليه السلام منذ ولادته حتى لجوئه إلى بيت النبي شعيب عليه السلام، وحين انبرى لدعوة الفراعنة وما أعقبها من حوادث أليمة والمصائب التي عاشها في بني اسرائيل، وكذلك مختلف المراحل التي شهدتها نبى الله إبراهيم عليه السلام في حياته من بابل حتى أرض مصر ثم مكة ولا سيما سيره النبى الأكرم محمد صلى الله عليه وآله والغنية عن التوضيح، كلها شواهد حية على هذا الأمر.

ثم خاض عليه السلام في دفع خطأ مهم بعد ذكره لهذه المقدمة والذي أصيب به العديد من الناس في الماضي والحاضر والذي يتمثل في ظنهم بأن كثرة الأموال والأولاد دليل على التوفيق والسعادة والقرب من الله تبارك وتعالى فقال عليه السلام:

«فَلَا تَعْتَبِرُوا

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٣٠٣

الرَّضَى والسُّخْطَ بِالمَالِ وَالوَلَدَ جَهْلًا بِمَوَاقِعِ الفِتْنَةِ، وَالاخْتِيارِ فِي مَوْضِعِ العَنَى وَالْفَتْدَارِ.

ثم استدل عليه السلام بآية قرآنية أشارت صراحة إلى هذا الأمر فقال:

«فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

«أَيَحْسُبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَّا يَشْعُرُونَ [٥٩٧]».

ثم خالص من الآية الشريفة إلى هذه النتيجة فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ».

فالعبارة

«فِي أَنْفُسِهِمْ»

بشأن المستكبرين إشارة إلى أنهم ليسوا على شيء من الفضيلة، بل هم عباد ضعاف وعاجزون يرون أنفسهم كباراً. والعبارة

«فِي أَعْيُنِهِمْ»

(استناداً لعودة الضمير للمستكبرين) تشير إلى أن عباد الله ليسوا ضعافاً وعاجزين قط، بل المستكبرون يظنونهم مستضعفين بفعل زهدهم وورعهم وتقواهم وطاعتهم لأوامر الله، ومن هنا يتضح اختلاف مفردة المستضعف هنا مع ما وردت في العبارة السابقة حيث قال عليه السلام الأنبياء مستضعفون إشارة إلى تواضعهم ووزهدهم وبساطة حياتهم، وقوله أولياء الله المستضعفين في عين المستكبرين إشارة إلى الضعف والعجز والذلة التي يظنونها.

تأمل

تصحيح خطأ

أشارت العديد من الآيات القرآنية إلى هذا الموضوع حيث إنه كان في الأقوام السابقة بعض الأفراد الذين يعتقدون بأن كثرة الاموال والأولاد دليل على القرب من الله تعالى، وقد دفع بهم هذا التصور الخاطيء لأن يعتقدوا لأنفسهم ببعض المقامات المعنوية بموازاة تلك الإمكانيات المادية الضخمة ليوردوا هذا الأمر بصيغة مغالطة

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٣٠٤

فيزعموا أن هذه نعم الله فمن شمله الله بهذه النعم فقد أحبه، ومن أحبه الله كان مقرباً منه، وعلى هذا الأساس كانوا ينظرون باستخفاف إلى المؤمنين على المستوى المادي والمعنوي.

وقد غفلوا عن أن إفاضة الإمكانيات المادية إنما يستند إلى عدة عوامل، فقد تكون نعمه من نعم الله، كما قد تكون للامتحان والاختبار أو الاستدراج للعذاب، أي أن الله سبحانه وتعالى إنما يتابع نعمه على بعض الأفراد الذين لا يمكن إصلاحهم فيسلبها تعالى منهم بغته ليكون ذلك أشد وقعاً على قلوبهم وأكثر إيلاماً. والقضية أشبه بالضبط بذلك المعتدى الذي يتسلق شجرة مثمرة ثم يأخذ بالتسلق شيئاً فشيئاً حتى يسقط فجأة فتتحطم جميع عظامه.

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٣٠٥

القسم السابع

إشارة

وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَىٰ بَنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ (عليهما السلام) عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ عِزِّهِ؛ فَقَالَ:

«أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وَبَقَاءَ الْمُلْكِ؛ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلَّا أَلْقَىٰ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَهُ مِنْ ذَهَبٍ؟ إِعْظَامًا لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاحْتِقَارًا لِلصُّوفِ وَبُئْسَهُ! وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَانْبِيَاءَهُ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذَّهَبَانِ، وَمَعَادِنَ الْعِيقَانِ، وَمَعَارِسَ الْجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الْأَرْضِ يَنْ لَفْعَلْ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبُلَاءُ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ، وَلَمَّا وَجِبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُتَبَلِّغِينَ، وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا لَزِمَتْ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيهَا. وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أَوْلَىٰ قُوَّةً فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَهُ فِيمَا تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَةِ تَمَلُّ الْقُلُوبِ وَالْعُيُونِ غِنَىٰ، وَخِصَاصَةِ تَمَلُّ الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ أَدَىٰ.»

الشرح والتفسير: درس وعبرة في قصة موسى عليه السلام

تابع الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة من خلال طريق آخر ينطوي على الدروس والعبر ذم الكبر والغرور والعصبيّة التي تشكل المحور الأصلي لهذه الخطبة، فأشار إلى قصّة موسى بن عمران عليه السلام حين دخل مع أخيه هارون على نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٠٦

فرعون وكانا يرتديان تلك الثياب البسيطة فتعرضا إثر ذلك لاستخفاف فرعون المتكبر فقال عليه السلام:

«وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَىٰ بَنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، [٥٩٩] فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ عِزِّهِ.»

فقد دخل موسى وهارون عليهما السلام بذلك اللباس البسيط وعصا الرعي على فرعون ليحطما كبريائه وطغيانه ويبيّن له ولحاشيته أنّ العزّة ليست في الأموال والكنوز وكثرة الخدم ليعلنا نهاية ذلك النوع من العيش وانطلاقة العهد الجديد في الحكومه الإلهية بواسطة المستضعفين.

ثم واصل عليه السلام حديثه فتطرق إلى ردود الفعل التي ابداهها فرعون إزاء دعوة موسى وهارون فقال عليه السلام:

«فَقَالَ: «أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وَبَقَاءَ الْمُلْكِ؛ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلَّا أَلْقَىٰ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَهُ [٦٠٠] مِنْ ذَهَبٍ؟ إِعْظَامًا لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاحْتِقَارًا لِلصُّوفِ وَبُئْسَهُ!».

نعم! فالنظام المادي للجهاز الفرعوني يدور حول هذا المحور في أنّ من كانت إمكاناته في الذهب والجواهر أكثر كانت شخصيته أسمى، وثياب الصوف البسيطة إنّما هي لباس الشخصيات الوضيعة في المجتمع؛ أي لم يكن هنالك أي دور للقيم الإنسانية في بيان شخصية الإنسان في ظل ذلك النظام، والقيم الاعتبارية والخيالية هي التي تحدد معيار الشخصية.

وقد تعرض الإمام عليه السلام لشرح هذه الحقيقة بعبارات غاية في الروعة والبيان والتي لم تكن لها آنذاك قيمة واقعية بينما كان يحسبها كذلك فرعون وحاشيته فقال:

«وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَانْبِيَاءَهُ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذَّهَبَانِ [٦٠١]، وَمَعَادِنَ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٠٧

الْعَقِيَانِ ٦٠٢]، وَمَعَارِسَ ٦٠٣] الْجَنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الْأَرْضِينَ لَفَعَلٌ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ، وَلَمَّا وَجِبَ لِلْقَائِلِينَ أَجُورُ الْمُتَبَلِّينَ، وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا لَزِمَتْ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيهَا.

إشارة إلى أن الحكيم تبارك وتعالى يستطيع أن يمد أنبياءه بجميع أسباب القوة ويزينهم بمختلف صنوف الذهب والمجوهرات والثروات ويغدق عليهم القصور ووسائل الراحة، بل يجعل أنبياءه أغنى الملوك والسلاطين - لأنه خالق السماوات والأرض ومالك كل شيء - لكنه حكيم فإن فعل ذلك سيزول الهدف الأصلي لبعث الأنبياء والدعوة إلى الله تعالى، بل ستكون النتيجة معكوسة وتتحول القيم والمثل إلى ما يضادها ويفسد الإيمان وتسوء الأخلاق والتربية.

ولذلك خاض الإمام عليه السلام في تفاصيل ست مفاصد في بيان الآثار السيئة لمثل هذا الأمر وهي:

١. انعدام معطيات الامتحان الإلهي للعباد في ظل هذه الظروف، ذلك لأن الأفراد غير المؤمنين وبسبب ما عليه الأنبياء من إمكانات وزينة سيندفعون إليهم دون الاقتناع بمنهجهم ودعوتهم.

٢. زوال ثواب المحسنين، ذلك لأن إيمانهم لا يكون خالصاً في ظل تلك الشرائط.

٣. لا يعدّ الوعد الإلهي وأخبار الوحي بشأن الحلال والحرام دافعاً لطاعة الناس، بل الدوافع المادية هي التي تحركهم، كما أن سيرتهم سوف لن تعدّ أسوة ونموذجاً للعباد.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٠٨

٤. سوف لن يحصل المؤمنون بالأنبياء على الأجر الجزيل الذي يناله المجاهدون في سبيل الله.

٥. لا يستحق المؤمنون المخلصون ثواب المحسنين ذلك لأنهم لم يتحملوا عناء.

٦. بعض الصفات المقدسة والأسماء من قبيل المؤمن والصالح والمجاهد والمخلص سوف تفقد مصاديقها الواقعية كما ستفقد بعض الصفات التي تنسب إلى الأنبياء من قبيل الزهد والورع والتقوى وعدم التعلق بالدنيا مفهومها ومعناها.

ثم قال الإمام عليه السلام في توضيحه لهذا المعنى:

«وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أَوْلَى قُوَّةً فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعْفَةً فِيمَا تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمَلُّ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنَى، وَخَصَاصَةً [٦٠٤] تَمَلُّ الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعَ أذَى».

فالواقع إنهم كانوا رجالاً أشداء باستطاعتهم اقتناء الذهب والمجوهرات ووسائل الزينة، إلّا أنهم جعلوا كل أسباب الترف ومباهج الدنيا التي تعدّ مصدراً للكبر والغرور والفخر والعجب والأنانية وراء ظهورهم، وجعلوا الهدف الرسالي أمام عيونهم.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٠٩

القسم الثامن

إشارة

وَلَوْ كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَأْتَرَامُ، وَعِزَّةٍ لَأَتَضَامُ، وَمُلْكٍ تَمِيدُ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرَّجَالِ، وَتُسَدُّ إِلَيْهِ عَقْدُ الرَّحَالِ، لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْإِعْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الْإِسْتِكْبَارِ، وَلَأَمْنُوا عَنْ رَهْبَةِ قَاهِرَةٍ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَةَ مَائِلَةٍ بِهِمْ، فَكَانَتْ النَّيَاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً. وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْإِتْبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَالتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ، وَالْخُشُوعُ لَوَجْهِهِ، وَالْإِسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ، وَالْإِسْتِسْلَامُ لَطَاعَتِهِ، أُمُوراً لَهُ خَاصَّةٌ لَأَتَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ. وَكَلَّمَا كَانَتْ الْبُلُوى وَالْإِخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتْ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ.

الشرح والتفسير: زهد الأنبياء

أشار الإمام عليه السلام في القسم السابق من الخطبة بوضوح إلى الحياة المتواضعة للأنبياء ومنهم موسى بن عمران عليه السلام، ثم واصل كلامه في هذا الجانب من الخطبة لبيان الآثار المعنوية والتربوية للبطالة والتواضع فقال:

«وَلَوْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَأُتْرِمُوا [٦٠٥]، وَعِزَّةً لَأَتَضَامُوا [٦٠٦]، وَمُلْكًا تَمُدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرَّجَالِ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ [٦٠٧] الرَّجَالِ [٦٠٨]، لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْإِعْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الْإِسْتِكْبَارِ،

نفحات الولاية؛ ج ٧؛ ص ٣٠٩

نفحات الولاية؛ ج ٧؛ ص: ٣١٠

وَلَا مَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ، فَكَانَتِ النَّيِّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً».

نعم، فالمحور الأصلي الذي حظى باهتمام الأنبياء هو الإخلاص وطهارة النية، والحق أن الأنبياء عليهم السلام لو كانوا ذوي قوّة قاهرة وملكوا كنوز الأرض وعاشوا حياتهم في القصور مترفين كالسلطين لما اعتبر بهم الناس، وإذا آمن بهم البعض فإيماء عن خوف من سلطانهم، وإما عن طمع في ملكهم، حيث

«النَّاسُ عبيدُ الدُّنْيَا».

ثم قال عليه السلام مؤكداً هذا الكلام:

«وَلِكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْإِتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَالتَّصَدِيقُ بِكُتُبِهِ، وَالتَّخَشُّعُ لَوَجْهِهِ، وَالتَّسْتِكَانَةُ [٦٠٩] لِأَمْرِهِ، وَالتَّسَلُّمُ لِطَاعَتِهِ، أَمْوَرًا لَهُ خَاصَّةٌ لِاتِّشَوُّبِهَا [٦١٠] مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى خمسة أشياء ينبغي أن تتم جميعها على أساس الإخلاص في النية وهي: ١. قبول دعوة الأنبياء، ٢. التصديق بالكتب السماوية، ٣. الخشوع العملي للذات الإلهية القدسية، ٤. التسليم القلبي لأوامر الله، ٥. التسليم العملي وإمتثال الأوامر، وعلى هذا الأساس ينبغي أن ينطلق الإيمان والعمل والأخلاق من قاعدة الإخلاص؛ فقد قال تعالى في القرآن الكريم:

«أَلَا اللَّهُ الدِّينُ الْخَالِصُ» [٦١١] وقال تعالى في موضع آخر: «وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» [٦١٢].

ثم أشار عليه السلام في مواصلته لكلامه إلى هذه النتيجة فقال:

«وَكُلَّمَا كَانَتِ الْبُلُوى وَالْإِخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتِ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ».

نفحات الولاية؛ ج ٧؛ ص: ٣١١

إشارة إلى أن بساطة حياة الأنبياء وانصرافهم عن زخارف الدنيا وزبرجها جعل المؤمنين إزاء امتحان أشدّ صعوبة، وبالطبع كلّ ما كان الامتحان أشق وأصعب كان الأجر والثواب أعظم وأبلغ وهذا في الواقع درس عظيم في الإخلاص لجميع الأفراد الذين يسعون إلى السير على خط الأنبياء حيث ينبغي أن يسيروا على نفس النهج ليستطيعوا إعداد الأتباع المخلصين.

نفحات الولاية؛ ج ٧؛ ص: ٣١٣

القسم التاسع

أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الْأُولِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ؛ بِأَحْجَارٍ لَاتَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ.

فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ «الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا». ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا، وَأَقْلَّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدْرًا، وَأَضْيَقَ بَطُونِ الْأُودِيَةِ قُطْرًا. بَيْنَ جِبَالِ حَشِيَّتِهِ، وَرِمَالِ دَمَشْتِهِ، وَعُيُونِ وَشَيْلَتِهِ، وَقَرَى مُنْقَطِعِيهِ؛ لَأَيِّزُ كُوبِهَا حُفٌّ، وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظَلْفٌ. ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَمَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَنَابِئُهُ لِمُنْتَجِعِ أَشْفَارِهِمْ، وَغَايَةُ لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ. تَهْوَى إِلَيْهِ تِمَارُ الْأَفْتَدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارِ سَحِيقَتِهِ وَمَهَاوِي فِجَاجِ عَمِيقَتِهِ، وَجَزَائِرِ بَحَارِ مُنْقَطِعِيهِ، حَتَّى يَهْزُؤُوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلًّا يَهْلُلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ، وَيَزْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْنًا غُبْرًا لَهُ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوْهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ابْتِلَاءً عَظِيمًا، وَامْتِحَانًا شَدِيدًا، وَاخْتِبَارًا مُبِينًا، وَتَمَحِيصًا بَلِيغًا، جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَبًا لِرَحْمَتِهِ، وَوُضْعَةً إِلَى جَنَّتِهِ.

الشرح والتفسير: الدروس والعبر في بيت الله

سلك الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة سبيلًا آخر لمتابعة الغاية الأصلية التي تتمثل في القضاء على التكبر والدعوة للبساطة والتواضع ليشرحه بعبارات غاية في الروعة والجمال والبلاغة بحيث عجز البلغاء والفصحاء أن يأتوا بمثلتها فقال:

«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الْأُولِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣١٤

هَذَا الْعَالَمِ؛ بِأَحْجَارٍ لَاتَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ. فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ
«الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا».

فالذي يستفاد من هذه العبارة أن الكعبة التي هي أقدم معبد في العالم قد بنيت لأول مرة في زمن آدم عليه السلام (ثم جدد بناؤها على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام) كما يفهم أن بساطتها ومواد بنائها البدائية تهدف إلى عدم لفت انتباه الآخرين إلى جانبها وبعدها المادى، بل الاستغراق في أبعادها المعنوية حيث بين عليه السلام: أن الكعبة تحظى بمركزية يتوجه إليها الجميع ليأتوا كل سنة لأداء شعائر الحج ومناسكه بما يؤدي إلى تنامي شوكة المسلمين وقوتهم وعزتهم ووحدتهم وسموهم وعلو شأنهم ومبادئهم في مختلف الاتجاهات.

فالعبرة الواردة في كلام الإمام عليه السلام اقتباس من الآية الشريفة: ٩٧ من سورة المائدة التي تقول: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُرْبَةَ لِلنَّاسِ قِيَامًا لِلنَّاسِ».

وقد ورد

«القيام»

هنا كمصدر بمعنى اسم الفاعل أى تقويم حياة الناس من الناحية المادية والمعنوية، على غرار الدعائم القوية التي يقوم عليها البيت والخيمة.

فبيت الله هو رمز الوحدة وقوة المسلمين ورفعتهم وعظمتهم من جانب ومن جانب آخر فإنه ينطوى على المناسك التي تطهر القلب من دنس المعصية وتفيض عليه نور الهدى وتغمره بالرحمة الإلهية.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من ذكر بساطة الكعبة، عرج على التعرض لخصائص الأرض التي تضم البيت وهي مكة فقال:

«ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ [٦١٣] بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا،

وَأَقْلَّ نَتَائِقِ [٦١٤] الدُّنْيَا مَدْرًا [٦١٥]. وَأَضْيَقَ بَطُونِ الْأُودِيَةِ قُطْرًا [٦١٦]. بَيْنَ جِبَالِ حَشِيَّتِهِ، وَرِمَالِ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣١٥

دَمِيمَةٌ [٦١٧]، وَعُيُونٌ وَشِلَّةٌ [٦١٨]، وَقُرَى مُنْقَطَعَةٌ؛ لَأَيِّزُ كَوْ [٦١٩] بِهَا خُفٌّ [٦٢٠]، وَلَا حَافِرٌ [٦٢١] وَلَا ظَلْفٌ [٦٢٢].

فقد كشف الإمام عليه السلام بهذه الصفات الثمان لأرض مكة عن محرومية هذه الأرض من مختلف الجهات؛ فقد تحدّث بادئ الأمر عن وعورتها وصعوبتها بحيث يرى كلّ من تشرف بها أنّ بيت الله واقع في واد ضيق بين الجبال الشامخة والقاحلة والتي يصعب تسلقها، حتى استطاعوا اليوم حفر العديد من الأنفاق والمنعطفات لشقّ الشوارع التي يمكنها اختراق تلك الجبال بغية مرور الناس عليها.

ثم أشار عليه السلام إلى قلة التربة الصالحة للزراعة؛ والحقّ أن كذلك، حيث يضطرون اليوم لحمل التربة من المناطق القريبة والناحية إليها بغية غرس بعض الأشجار، ثم تطرق عليه السلام إلى ضيق وديانها، فنحن نعلم أنّ الوديان الواسعة التي تضم الأراضي الزراعية الصالحة للزراعة تعدّ من أفضل البقاع لمعيشة الإنسان، والعديد من المدن الكبيرة إنّما تقع في مثل هذه الوديان، بينما تتعذر الحياة والعيش بأى شكل من الأشكال في الوديان الضيقة.

ثم أشار عليه السلام إلى جبال مكة الوعرة التي قلما ينمو فيها نبات والرمال الناعمة التي يصعب السير عليها، وتنقلها الرياح من مكان إلى آخر وعيونها قليلة المياه، والمناطق المعمورة المتفرقة على تلك الصحارى الجرداء والتي تتوسطها، ليتطرق بالتالي إلى عدم صلاحية تلك الأرض لتربية الحيوانات الأليفة كالجمال والبقر والشاة. حقاً لولم يكن بيت الله وسط تلك الجبال فإنّ أحداً سوف لن يفكر أن تكون مكة موضع سكنها إلا أنّ الله تبارك وتعالى اختار هذه المنطقة كأفضل موضع للعبادة

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣١٦

ودعى المستطيعين كافة إلى التوجه إليها للايمان بمناسك الحج بهدف تهذيب النفوس والقضاء على آثار الكبر والغرور. وهذه هي الحقيقة التي أذعن لها خليل الله إبراهيم عليه السلام الذي أمر بإعادة بناء الكعبة حيث قال: «رَبَّنَا إِنِّي أَسِيَكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ» [٦٢٣].

وحين فرغ الإمام عليه السلام من ذكر موضع البيت وخصائص أرض مكة، تطرق إلى شعيرة الحج وزيارة بيت الله الحرام الذي بدأ منذ خلق آدم وسيستمر حتى نهاية الخليقة فقال:

«ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَتَّبِعُوا [٦٢٤] أَعْطَاهُمْ [٦٢٥] نَحْوَهُ، فَصَارَ

مَثَابَةً [٦٢٦] لِمُنْتَجِعِ [٦٢٧] أَسْفَارِهِمْ، وَعَايَةً لِمَلَقَى رِحَالِهِمْ [٦٢٨]. تَهْوَى إِلَيْهِ ثَمَارُ الْأَفْتَدَةِ مِنْ

مَفَاوِزِ [٦٢٩] قِفَارِ [٦٣٠] سَحِيقَهُ [٦٣١] وَمَهَاوِي [٦٣٢] فِجَاجِ [٦٣٣] عَمِيقَهُ، وَجَزَائِرِ بَحَارِ مُنْقَطَعَةٍ.»

فهذه العبارات الرائعة للإمام عليه السلام اقتباس من الآيات القرآنية الشريفة، حيث اعتبر الإمام عليه السلام مكة بصفتها «مثابة» على غرار ما صرّح به القرآن الكريم: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا» [٦٣٤]. كما عبّر عنها بالمنتجع (الموضع الذي يقصد لتحقيق المنافع) كما جاء في الآية القرآنية الشريفة: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ» [٦٣٥]. والعبارة

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣١٧

«تهوى إليه ثمار الأفتدة»

اقتباس من الآية الشريفة: «فَجَعَلَ أَفْتَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ» [٦٣٦].

وتنسجم العبارة

«من مفاوز قفار»

مع الآية الشريفة: «وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» [٦٣٧].

وهكذا تحدّث عن توجّه مختلف الأقسام من مناطق العالم إلى مكة وأردفها بالإشارة إلى مناسك الحج والأعمال التي تختزن الدروس والعبر فقال:

«حَتَّى يَهْزُؤُوا [٦٣٨] مَنَاكِبَهُمْ ذُلًّا يُهَلِّلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ، وَيَزْمُلُونَ [٦٣٩] عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُغْتًا [٦٤٠] غُبْرًا [٦٤١] لَهُ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ [٦٤٢] وَرَأَى ظُهُورِهِمْ، وَشَوْهُوا [٦٤٣] بِإِعْفَاءِ [٦٤٤] الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيرة إلى جانب من مناسك الحج من قبيل ارتداء ملابس الإحرام وترك ما يحرم على المحرم من الزينة، وكذلك الطواف حول البيت والسعى بين الصفا والمروة وفق آداب معينة ينطوى كل واحد منها على تعليمات تربوية من دروس الحج، والحق لا يسع الإنسان الوقوف على عمق تأثير هذه التعليمات ما لم يؤدي الإنسان تلك المناسك ويطلع عن كتب على هذا المشروع التهذيبي. ثم قال عليه السلام في مواصلته لكلامه:

«إِبْتِلَاءٌ عَظِيمًا، وَامْتِحَانًا شَدِيدًا، وَاخْتِبَارًا مُبِينًا، وَتَمَحِّصًا بَلِيغًا، جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَبًا لِرَحْمَتِهِ، وَوُضْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣١٨

فالتعبير بالابتلاء والامتحان والاختبار يدل جميعاً على الامتحان، إلا أنها ذكرت مرّة بوصف عظيم وأخرى شديد وثالثة مبين، والمراد الامتحان المهم للغاية الذي يكون كبيراً وشديداً وواضحاً، وامتحان الحج ينطوى على هذه الصفات الثلاث.

والعبارة

«تَمَحِّصًا بَلِيغًا»

إشارة إلى نتيجة هذا الامتحان الذي يترك بصماته العميقة في تطهير القلوب وإخلاص النيات، حيث ورد في الخبر أن زائر بيت الله بعد إتيانه بتلك المناسك العظيمة يعود كما ولدته أمه، حيث قال الإمام الصادق عليه السلام: قال أبي:

«مَنْ أَمَّ هَذَا الْبَيْتَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا مَبْرَأً مِنَ الْكِبْرِ، رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَهَيْئَةِ يَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» [٦٤٥].

وبالطبع فإن كل هذه الكلمات في إطار تحقيق هدف الخطبة المتمثل بمكافحة الكبر والغرور والعجب والأنانية، لأن الحج يخلع عن الإنسان ثوب الغرور والكبر ويلقنه درس التواضع والإخلاص.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣١٩

القسم العاشر

إشارة

وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَسَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ الْأَشْجَارَ، دَانَى الثَّمَارِ، مُلْتَفِّ الثُّبَى، مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرْهٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحَدِّقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُعَدِّقَةٍ، وَرِيَاضٍ نَاصِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ. وَلَوْ كَانَ الْأَسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْأَخْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرَدَةٍ خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءَ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُضَارَعَةَ الشُّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوْضَعَ مُجَاهِدَةً إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلِجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَتَّبِلِيهِمْ بَضْرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجًا لِلتَّكْبِيرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسِيكَانًا لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَابًا فَتْحًا إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَابًا ذُلًّا لِعَفْوِهِ.

الشرح والتفسير: الكعبة المقدسة

واصل الإمام عليه السلام هنا ما ذكره في المقطع السابق من الخطبة، فأشار إلى هذه النقطة وهي أن الله كان قادراً على أن يجعل البيت في أروع البقاع مناخاً، ويشيدها ويزينها بالأحجار الكريمة؛ إلا أنه لم يفعل ذلك خشية إلتفات الناس وتركيزهم على الجوانب المادية فيقل أجراً وثوابهم، فأشار عليه السلام لهذا الأمر بعبارات بمنتهى الروعة والجمال بما يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله فقال عليه

السلام:

«وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٢٠

بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَسَاعِرُهُ [٦٤٦] الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ [٦٤٧] الْأَشْجَارِ،
 دَانِي الثَّمَارِ، مُلْتَفَ [٦٤٨] النَّبِيِّ، [٦٤٩] مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ [٦٥٠] سَمَرَاءَ، [٦٥١] وَرَوْضَةَ خَضْرَاءَ،
 وَأَزْيَافَ [٦٥٢] مُحَدِّقَةَ [٦٥٣]، وَعِرَاصَ [٦٥٤] مُغَدِّقَةَ [٦٥٥]، وَرِيَاضَ نَاصِرَةَ [٦٥٦]، وَطُرُقَ عَامِرَةَ، لَكَانَ قَدْ
 صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَيَّ حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ».

فقد رسم الإمام عليه السلام صورة رائعة ودقيقة لمنطقه نصره من خلال اثنتي عشرة صفة مختلفة.

فذكر الإمام عليه السلام كلما ينبغي ذكره بهذا الخصوص فأشار عليه السلام بدقته متناهية إلى جميع مواضع الجمال التي تتصف بها
 الأرض الجميلة والمعمورة فبلغ بها منتهى الفصاحة والبلاغة والبديع والبيان، فالواقع لو كان البيت في منطقته نظرة حسنة جميلة المناخ،
 لتبدل إلى مُتَنَزِّهٍ لطيف يقصده الناس من أجل الاستجمام والرفاهية، ولزالت الدروس التربوية والأخلاقية للحج.

ثم قال عليه السلام بشأن بِنَانِ الْكَعْبَةِ:

«وَلَوْ كَانَ الْأَسَاسُ [٦٥٧] الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْأَحْجَارُ

الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمْرَةِ خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَةَ حَمْرَاءَ، وَنُورَ وَضِيَاءَ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٢١

مُصَارَعَةَ [٦٥٨] الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوْضَعَ مُجَاهِدَةً إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ [٦٥٩]

الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ».

قطعاً أنّ فلسفة الحج تهدف إلى دفع الإنسان إلى مقاومة هوى النفس والوساوس الشيطانية، وتصبح هذه المقاومة ضعيفة إن كانت
 لهذه المناسك مسحة جمالية، بينما تصبح مقاومة الوسوس الشيطانية والأهواء النفسية أقوى حين تقام هذه المناسك بنوع من الصعوبة
 والمشقة في ذلك الوسط الجاف والبسيط؛ وعلى هذا الأساس تشتد مقاومة عباد الله ويصبح إيمانهم أقوى وأرسخ وتنفعهم الآثار
 التربوية للحج.

والمراد من

«مُصَارَعَةَ الشَّكِّ»

مبارزة وساوس الشك والهواجس التي تخطر على قلب المؤمن وهي الوسوس الباطنية، والمراد من «مجاهدة إبليس» وساوسه
 الخارجية، ومفهوم العبارة

«مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ»

تلاطم أمواج الشكوك التي تطغى على المؤمنين في التكليف الديني الشاق، و

«شك» و«ريب»

وإن فسرت بمعنى واحد إلا أنّ بعض أرباب اللغة ذهب إلى أنّ الريب بمعنى الشك والترديد الذي يرفع عنه الغطاء لاحقاً، بينما يمكن
 أن يكون الشك باقياً.

ثم خلاص الإمام عليه السلام إلى نتيجة كلية فقال:

«وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكْبِيرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً
 لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً مُفْتَحاً [٦٦٠] إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً

دُلًّا [٦٦١] لِعَفْوِهِ.

إشارة إلى أن الواجبات الشرعية كالصوم والصلاة والحج والزكاة والخمس

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٢٢

والجهاد في سبيل الله وكذلك بعض النواهي وترك الأهواء والرغبات غالباً ما تكون ثقيلة وشاقّة، لتمييز صفوف المطيعين والمتواضعين إزاء أوامر الله من العصاة والمتكبرين عبدة الأهواء، ولولا ذاك لما إمتازت هذه الصفوف عن بعضها البعض الآخر.

والمفردات

«شدائد» و «مجاهد» و «مكاره»

وإن كانت متقاربة المفهوم والمعنى وأنها تشير جميعاً إلى الأعمال الشاقّة والصعبة، لكنها تستند إلى ثلاث رؤى؛ الشدّة التي تتطلب الصبر والمشقّة التي تستلزم التحمل والحلم والكرهية التي تقتضى الصبر والاستقامة.

جدير ذكره أن الإمام عليه السلام قد بين أربع نتائج من قبيل اللازم والملزوم لهذا الأمر وهي: ١. إزالة الكبر من القلوب. ٢. استبداله بالتواضع الذي يمثل الهدف الأصلي للخطبة. ٣. فتح أبواب الجنّة. ٤. شمول العفو والرحمة.

تأمل

«أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا!»

ما ورد آنفاً في كلام الإمام عليه السلام هو عين ما صرحت به الروايات

«أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا» [٦٦٢]

ويشير هذا الحديث المروي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى أن الطاعة وأعمال الخير تختزن أجراً وثواباً أعظم كلما كانت الطاعة وأعمال الخير شاقّة على الجسم عند الإمتثال.

«أَحْمَرًا»

من مادة

«حَمَرًا»

تعني لغوياً الشدّة والصعوبة والمشقّة، ويفيد هذا التعبير أن للأعمال الشاقّة والثقيلة والمجهدّة قيمة عظيمة عند الله تعالى. وسبب ذلك واضح فهي تتطلب قوّة وطاقه أكبر على مستوى الروح والجسم بغية الإتيان بها، ونعلم جميعاً أن أجر الأعمال وثوابها على قدر مشقّتها والقوّة اللازمة للإتيان بها.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٢٣

ولا تقتصر هذه القوّة على الجانب البدني (مثل حج بيت الله مشياً على الأقدام في ظلّ ظروف تشير إلى عظمه هذه السنه) فغالباً ما تتعداها إلى الجانب الروحي والمعنوي؛ فمثلاً «إخلاص النيّة» بحيث لا يقارفها أي شائبة في التوجه لغير الله لا تبدو عملية سهلة وبالأمر الهين، وكذلك يبدو التواضع والخشوع الذي لا ينسجم مع روحية الإنسان المتمردة أمراً في غاية الصعوبة، ومن هنا شق على إبليس تحمله فشق على نفسه عصي الطاعة والعبودية وإلى الأبد.

فكلّ مشقّة من هذه المشقّات توجب عظيم الثواب والأجر من جهة وتهذب النفس البشريّة وعلى هذا الضوء كانت الرياضات مدعاة لصفاء النفس وقوتها واقتدارها.

وبالطبع فإن مكافحة الكبر والعصبيه التي تعدّ الموضوع الأصلي لهذه الخطبة لمن أبرز مصاديق الحديث الشريف «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا»

كما أنّ حج بيت الله الحرام في تلك البقعة الصعبة والوعرة والمحرقه وطبق آدابها المعروفة لتشق على النفس البشريّة؛ من قبيل الإحرام والسعى بين الصفا والمروة وطواف بيت الله والوقوف بصحراء عرفه والمشعر ومنى وحلق الرأس وهي من المصاديق الأخرى الواضحة للحديث الشريف.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٢٥

القسم الحادي عشر

إشارة

فَاللَّهُ اللَّهُ فِي عَاجِلِ الْبُغْيِ، وَآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ، وَسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ، فَإِنَّهَا مَصِيدَةٌ إِبْلِيسَ الْعُظْمَى، وَمَكِيدَتَهُ الْكُبْرَى، الَّتِي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوِرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فَمَا تُكْدِي أَيْدَاءً، وَلَا تُشْوِي أَحْدَاءً، لَا عَالِمًا لِعِلْمِهِ، وَلَا مُقَلًّا فِي طَمَرِهِ. وَعَنْ ذَلِكَ مَا حَرَسَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَّاتِ، وَمُجَاهِدَةِ الصِّيَامِ فِي الْأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ، تَشْيِكِنًا لِأَطْرَافِهِمْ، وَتَخَشِيْعًا لِأَبْصَارِهِمْ، وَتَذَلِيلًا لِنُفُوسِهِمْ، وَتَخْفِيزًا لِقُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَابًا لِلْخَيْلَاءِ عَنْهُمْ، وَلِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَغْيِيرِ عِتَاقِ الْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضِعًا، وَالتَّصَاقِ كَرَائِمِ الْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاغِرًا، وَلُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلًا؛ مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَشْكَنَةِ وَالْفَقْرِ. انظُرُوا إِلَى مَا فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ مِنْ قَمَعِ نَوَاجِمِ الْفَخْرِ، وَقَدْحِ طَوَالِعِ الْكِبْرِ.

الشرح والتفسير: آفة الكبر والغرور

واصل الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة متابعة الهدف الأصلي لهذه الخطبة والذي يتمثل بدم الكبر والغرور واستعراض سوء آثاره، غير أنه سلك طريقاً رائعاً بهذا الخصوص فاتجه صوب الفرائض والعبادات والواجبات لبيان مدى تأثيرها في القضاء على آثار الكبر والغرور.

فحذر بادئ الأمر وبصورة كلية من العواقب السيئة للبغي والظلم فقال:

«فَاللَّهُ اللَّهُ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٢٦

فِي عَاجِلِ الْبُغْيِ، وَآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ، وَسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ».

ثم تطرق عليه السلام إلى السبب الجلي على هذا التحذير فقال:

«فَإِنَّهَا مَصِيدَةٌ [٦٦٣] إِبْلِيسَ

الْعُظْمَى، وَمَكِيدَتَهُ الْكُبْرَى، الَّتِي تُسَاوِرُ [٦٦٤] قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوِرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ،

فَمَا تُكْدِي [٦٦٥] أَيْدَاءً، وَلَا تُشْوِي [٦٦٦] أَحْدَاءً، لَا عَالِمًا لِعِلْمِهِ، وَلَا مُقَلًّا [٦٦٧] فِي طَمَرِهِ [٦٦٨].».

فالأمر الثلاثة التي حذر منها الإمام عليه السلام في بداية كلامه والتي تتمثل بالبغي والظلم والكبر من قبيل اللازم والملزوم لبعضها البعض الآخر.

فالأفراد المتكبرون لا يرون سوى أنفسهم ولذلك فهم لا يرون من أهميّة لحقوق الآخرين فيرتكبون أنواع الظلم والجور والذي يعد من الشباك الخبيثة والخطيرة للشيطان والتي لا ينجونها سوى أولياء الله والصالحين من الأفراد المؤمنين.

والعبارة:

«فَمَا تُكْدِي أَبَدًا...»

إشارة إلى عمومية هذا التحذير؛ فلا يتصور العالم أن بإمكانه النجاة من هذه المصيدة بما لديه من علم ومعرفة فقط، أو ينجو من آثاره شخص فقير بفقره، فكل شخص بدون استثناء معرض للتلوث بالبغي والظلم والكبر ستكون عاقبته سيئة ومريرة.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى العبادات الإسلامية ليركز على جانب مهم منها فشرح الانعكاسات الإيجابية لهذه العبادات في القضاء على آثار الكبر والغرور وإحياء روح التواضع والبساطة فقال:

«وَعَنْ ذَلِكَ مَا حَرَسَ اللَّهُ [٦٦٩] عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٢٧

وَالزَّكَّاتِ، وَمُجَاهِدَةَ الصِّيَامِ فِي الْأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ، تَشْكِينًا لِأَطْرَافِهِمْ [٦٧٠]،

وَتَخْشِيَةً لِأَبْصَارِهِمْ، وَتَذَلِيلًا لِنُفُوسِهِمْ، وَتَخْفِيزًا [٦٧١] لِقُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَابًا لِلْخِيَلَاءِ [٦٧٢]

عَنْهُمْ».

إشارة إلى أن أحد الجوانب الفلسفية المهمة لهذه العبادات تحطيم دوافع الكبر والغرور الذي يفضى إلى البغي والظلم، فأداب الصلاة وأركانها تدعو الإنسان بصورة كاملة إلى التواضع من قبيل الوقوف كالعبد الخاضع لله ومن ثم الركوع والأهم من كل ذلك السجود يربي في الإنسان روح التواضع من جهة ومن جهة أخرى يصدّه عن الذنب والمعصية: «أَنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» [٦٧٣].

كما أن الزكاة تعدّ في الواقع نوعاً من التقدير والاحترام للمحتاجين، فتعمل بدورها على إزالة الكبر والغرور عن روح الاثرياء والتمكّنين، وهكذا الصوم الذي يجعل الإنسان في مصاف الفقراء والمحتاجين بما يشعر به الإنسان من جوع وعطش والذي يحطم بالتالي كبره وغروره؛ طبعاً لا تنحصر فلسفة هذه العبادات بما ذكرناه آنفاً، إلّا أنّ ما مضى كان جانباً من فلسفتها والتي أشار إليها الإمام عليه السلام في هذه الخطبة.

وقد أشير إلى هذا المعنى في عدد من الروايات والأحاديث؛ فقد جاء في الحديث المروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال:

«إِنَّ عِلَّةَ الصَّلَاةِ أَنَّهَا إِقْرَارٌ بِالرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَخَلْعُ الْأَنْدَادِ وَقِيَامُ بَيْنِ يَدَيْ الْجَبَّارِ جَلَّ جَلَالُهُ بِالذَّلِّ وَالْمَسْكِنَةِ وَالْخُضُوعِ وَالْإِعْتِرَافِ...» [٦٧٤].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٢٨

كما قال عليه السلام في فلسفة الزكاة:

«وَهُوَ مَوْعِظَةٌ لَأَهْلِ الْغِنَى وَعِبْرَةٌ لَهُمْ لِيَسْتَذَلُّوا عَلَى فُقَرَاءِ الْأَخْرَجَةِ بِهِمْ» [٦٧٥].

كما روى عنه عليه السلام في فلسفة الصوم:

«عِلَّةُ الصَّوْمِ عِزْفَانُ مَسِّ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ لِيَكُونَ ذَلِيلًا مُسْتَكِينًا...» [٦٧٦].

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح ما ذكره في العبارات السابقة بصورة إجمالية حول فلسفة الصوم والصلاة والزكاة فقال:

«وَلَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ تَغْفِيرِ [٦٧٧] عِتَاقِ [٦٧٨] الْوُجُوهِ

بِالْتُّرَابِ تَوَاضِعًا، وَالتَّصَاقِ كَرَائِمِ [٦٧٩] الْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاعُرًا [٦٨٠]، وَلُحُوقِ الْبُطُونِ

بِالْمُتُونِ [٦٨١] مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلًا؛ مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ

إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ».

حقاً إن ما ورد هنا، هو جانب من الجوانب الفلسفية لهذه العبادات الإسلامية المهمة، ذلك لأن العبادات تنطوي على العديد من الجوانب ذات الأهمية وفي مقدمتها تفعيل روح التواضع والبساطة ومناهضة الكبر والغرور، وفلسفة النهي عن الفحشاء والمنكر للصلاة وكونها معراج المؤمن إلى جانب تربيته روح التقوى والإخلاص في ظل الصوم ونبذ آفة التمايز الطبقي في الزكاة وغيرها من العبادات مما لا يسع الإنسان التكرار لدوره وجدواه.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٢٩

وقد وردت إشارات واضحة في الأخبار والروايات إلى هذه الأمور، من ذلك ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعَلِمَ لِمَ اخْتَرْتُكَ مِنْ بَيْنِ خَلْقِي؟ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا، فَقَالَ تَعَالَى «يَا مُوسَى إِنِّي قَلَّبْتُ عِبَادِي ظَهراً وَبَطْناً فَلَمْ أَجِدْ أَحَداً أَذِلَّ لِي نَفْساً مِنْكَ يَا مُوسَى إِنَّكَ إِذَا صَلَّيْتَ وَضَعْتَ خَدَّيْكَ عَلَى التُّرابِ» [٦٨٢]. ثم خلص عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«انظُرُوا إِلَى مَا فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ مِنْ قَمَعٍ [٦٨٣]

نَوَاجِمٍ [٦٨٤] الْفَخْرِ وَقَدَحٍ [٦٨٥] طَوَالِجِ الْكِبَرِ»

. جدير ذكره أن بعض هذه العبادات تتكرر كل يوم حتى لا يشهد الإنسان يوماً يخلو فيه من مفهوم نبذ الكبر.

تأمل

فلسفة العبادات

لاشك في أن الله تبارك وتعالى غني عن عبادتنا وعبادة الملائكة ولو سلك جميع من في السموات والأرض طريق الإيمان أو الكفر لما أضاف ذلك إلى جلاله شيئاً أو انتقص منه: «أَنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ» [٦٨٦]. وكذلك قال: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» [٦٨٧].

وكل إنسان مهما كان له من شيء فمن الله تعالى ونفحة من نفحاته سبحانه، وعليه فلا يستطيع هذا المخلوق أن يقوم بفعل من شأنه زيادة عظمة الله، ومن هنا يمكن الاستنتاج أن فلسفة الأحكام وفائدتها ولا سيما العبادات إنما تعود على الإنسان نفسه، وللعبادات فلسفة مشتركة وفلسفة خاصية؛ فالفلسفة المشتركة للعبادات تتمثل في الخضوع والتواضع لله وتحطيم صنم الكبر والغرور والطغوى والعصيان، أضف إلى ذلك فإن العبادة تذكّر الإنسان بالله وتبث الروح في قلبه ونفسه

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٣٠

وتزيل عنه آثار الغفلة، وهكذا فإن العبادات تأخذ بالإنسان دائماً إلى مسير العبودية والطاعة.

ناهيك عن أن لكل عبادة فلسفتها المختصة بها؛ فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والصوم يشد من عزم الإنسان في مواجهة هوى النفس، والزكاة تحد أو تقضي على التمايز الطبقي، والحج يؤدي إلى وحدة المسلمين وتنامي قدرة الإسلام وشوخته، وقد وردت الإشارات لكل هذه الأمور في الروايات الإسلامية بشأن فلسفة الأحكام [٦٨٨].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٣١

القسم الثاني عشر

إشارة

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ عَلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيَةَ الْجُهَلَاءِ، أَوْ حُجَّةً تَلِيْطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرِكُمْ. فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ. أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَضْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خَلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ.

وَأَمَّا الْأَعْتِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الْأَمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لِأَنَارِ مَوَاقِعِ النَّعْمِ، فَقَالُوا: (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ).

الشرح والتفسير: العصبية الطائشة

خاض الإمام عليه السلام هنا في بيان نقطة أخرى لمواجهة الكبر والغرور والعصبية الجاهلية وخلصتها أن للأفراد المتعصبين أدلتهم على ذلك وإن كانت ضعيفة وواهية وخاطئة؛ إلا أن تعصبكم القبيح أدى إلى هذه النزاعات وسفك الدماء بما ليس له مبرر، وهذا يعني أن تعصبكم أسوأ وأقبح من ذلك التعصب.

فقال عليه السلام:

«وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ عَلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيَةَ [٦٨٩] الْجُهَلَاءِ، أَوْ حُجَّةً تَلِيْطُ [٦٩٠] بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرِكُمْ. فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٣٢

إشارة إلى أنه كلما تأملنا تاريخ الأسلاف والأقوام المعاصرة نخلص إلى هذه النتيجة أنهم كانوا يمتلكون ذريعة لتعصبهم من قبيل إخفاء الحقيقة على الجهال أو اختراق أفكار السفهاء والسذج وبالنتيجة تحقيق سلسلة من المنافع المادية، بينما ليس لتعصبكم أى أثر أو فائدة ويفتقر إلى أى دليل، سوى الكلمات البديئة والجنونية والافتتال الطائش الذى ينتهى إلى سفك الدماء، والفارق بين الجهال والسفهاء هو أن الجهال يفتقرون إلى أدنى علم بينما للسفهاء حض من علم، ومن شأن بعض الأسباب الواهية أن تسوق الطائفتين لتحقيق أهداف ومنافع المتعصبين والمستكبرين.

طبعاً ليس مراد الإمام عليه السلام أن تعصبكم معلول لعدم وجود علة، ذلك لأن لكل شىء فى العالم على ضوء النظرة الفلسفية علة، بل المراد أنه كان لمن سبقكم من المتعصبين بعض الذرائع الظاهرية الخادعة، وأنكم لتفتقرون حتى إلى هذه الذرائع، فالمتعصبين الذين خاطبهم الإمام عليه السلام كانوا يتصفون بضحالة ثقافتهم وعقائدهم الجاهلية التى أفرزت ذلك التعصب والتى لا تصلح أن تكون ذريعة أبداً.

ثم أشار عليه السلام إلى نموذجين من التعصبات التى يبدو أنها كانت معززة ظاهرياً ببعض الأدلة وإن لم تكن صائبة؛ أحدهما تعصب إبليس واستكباره والآخر تعصب الأثرياء المستكبرين أصحاب الثروة فقال:

«أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَضْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خَلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ».

لا شك فى أن إبليس خلق من النار، حيث كان ينحدر من الجن الذين خلقوا من النار بينما خلق آدم من الطين والتراب، وللنار ظاهرياً نور وشعاع، بينما يمتاز الطين بالظلمة، الأمر الذى يمكن أن يكون ذريعة لإبليس فى الكبر، والحال تمتاز النار بأنها محرقة والطين باعث الحياة، أضف إلى ذلك فإن فضيلة آدم بفعل الروح الإلهية التى ولجت فيه حيث قال تعالى: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ»

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٣٣

ساجدين» [٦٩١] لكن إبليس وبفعل أنانيته وتعصبه لم يشأ إدراك تلك الحقيقة.

ثم خاض عليه السلام في الطائفة الثانية وهم الأثرياء المتكبرون من الأمم السابقة الذين ابترتهم النعمة وكثرة عددهم حيث كانوا يتباهون بذلك والحال ليست لديكم حتى هذه الذرائع في تعصبكم فقال:

«وَأَمَّا الْأَعْيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةٍ [٦٩٢] الْأَمَمِ، فَتَعْصَبُوا لِأَثَارِ

مَوَاقِعِ [٦٩٣] النَّعْمِ، فَقَالُوا:

«نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ» [٦٩٤].

إشارة إلى أنهم جعلوا نعم الله في الجوانب المادية التي تشمل القوة البشرية والأموال الطائلة وسيلة للكبر والتعصب وتمردوا على دعوة الأنبياء حتى شملهم العقاب الإلهي، أميا تعصب مخاطبي الإمام عليه السلام فقد دفعهم إلى الاقتتال والنزاع تحت طائلة ذراع واهية وطفولية، فهي لا تشبه تعصب الشيطان ولا تعصب المترفين المستكبرين السابقين، بل تدور حول محور بعض الأمور التي لا تصلح لأن تكون حجة قط، وهذا أسوأ أنواع التعصب.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٣٥

القسم الثالث عشر

إشارة

فَإِنْ كَانَ لَأَبَدٍ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعْصِبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الْأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجْدَاءُ وَالنُّجْدَاءُ مِنْ بَيُوتَاتِ الْعَرَبِ وَيَعَاسِيِبِ الْقَبَائِلِ؛ بِالْأَخْلَاقِ الرَّغِيْبَةِ، وَالْأَخْلَامِ الْعَظِيْمَةِ، وَالْأَخْطَارِ الْجَلِيْبَةِ، وَالْأَثَارِ الْمُحْمُودَةِ. فَتَعْصَبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجَوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذَّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبَرِّ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكَبْرِ، وَالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبُغْيِ، وَالْأَعْظَامِ لِلْقَتْلِ، وَالْأَنْصَافِ لِلْخَلْقِ، وَالْكَظْمِ لِلغَيْظِ، وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

الشرح والتفسير: العصبية الممدوحة

التعصب كما ذكرنا سابقاً بمعنى التعلق الشديد بالشئ والذي يظهر بصورتين؛ بصورة سلبية ويراد بها التعلق الشديد الهمجي البعيد عن المنطق بالمسائل ذات القيمة الدنيئة وربما العديمة القيمة والوهمية والتي تفضي إلى العديد من الخلافات والنزاعات الدموية. والصورة الإيجابية والمراد بها الصمود والإصرار على الأمور ذات المثل والقيم الإنسانيَّة والأخلاقية والاجتماعية الرفيعة، وهذا التعصب ليس فقط منزّه عن العيب والذنب، بل يعتبر من نقاط القوة والإيجابية، من قبيل من يصمد لحفظ الدين والإيمان أو حفظ الوطن والعرض والشرف.

ومن هنا سعى الإمام عليه السلام لدفع مخاطبيه المتعصبين للنجاة من تعصباتهم السلبية

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٣٦

والقيحة فاقترح عليهم العصبية الإيجابية ليشع تطلعهم العاطفي ويسوق قواهم الباطنية نحو المشروع الإيجابي، وهذه هي الخطة التي ينبغي أن يمارسها جميع الزعماء الحكماء في مجتمعاتهم بغية إصلاح المفاسد الاجتماعية، فبدلاً من الوقوف بوجه الأمواج العاتية للدوافع السلبية لابد من السعي إلى تغيير مسارها ودفعها باتجاه القنوات الإيجابية ولذلك قال عليه السلام:

«فَإِنْ كَانَ لَأَبَدٍ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعْصِبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الْأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجْدَاءُ [٦٩٥]

وَالنُّجْدَاءُ [٦٩٦] مِنْ بَيُوتَاتِ الْعَرَبِ وَيَعَاسِيِبِ [٦٩٧] الْقَبَائِلِ».

أى لا ينبغي أن يكون مثلكم فى هذه الأمور الجهال الذين يفتقرون إلى المنطق، بل عليكم الإقتداء والتأسى بالعقلاء والأفراد الواعين الذين يتسابقون فى كسب الفضائل ونيل مكارم الأخلاق ويوظفون إمكانياتهم كافة فى ميدان هذا السباق الإنسانى.

ثم خاض عليه السلام فى شرح ذلك ببضع عبارات قصيرة فقال:

«بِالْأَخْلَاقِ الرَّغِيْبَةِ، وَالْأَخْلَامِ الْعَظِيْمَةِ، وَالْأَخْطَارِ الْجَلِيْلَةِ، وَالْأَثَارِ الْمَحْمُوْدَةِ».

فالواقع إن هذه الصفات الأربع التى وردت فى كلام الإمام عليه السلام تبين أبعاد شخصيَّة الإنسان، التى تتمثل فى الأخلاق الكريمة والفكر الحر والمقام الرفيع والآثار الحميدة (كالآثار العلميَّة والخدمات الاجتماعيَّة) وبالطبع فإنَّ الشخص الذى ينال هذه الصفات هو إنسان فاضل يسعه أن يكون قدوةً وأسوةً للآخرين.

ثم ركز الإمام عليه السلام فى مواصلته لكلامه على جزئيات وتفصيل المسائل الأخلاقيَّة ليشير إلى عشرة نماذج من مكارم الأخلاق والصفات الإنسانيَّة البارزة داعياً الجميع إلى التمسك بها فقال:

«فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجَوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذَّمَامِ، [٦٩٨] وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكَبْرِ، وَالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٣٧

الْبُغْيِ، وَالْأَعْظَامِ لِلْقَتْلِ، وَالْأَنْصَافِ لِلْخَلْقِ، وَالْكَظْمِ لِلْعِيْظِ، وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ».

ومما لا شك فيه أن الإنسان الجامع لهذه الصفات العشر هو إنسان ماجد كما أن المجتمع الذى تسوده هذه الخصال هو مجتمع سليم وسعيد ومتطور من جميع الجهات.

جدير ذكره أن الصفات المذكورة على صنفين؛ فبعضها تشير إلى اجتناب المفساد الفرديَّة والاجتماعيَّة مثل اجتناب القتل ومخالفة الكبر والإبتعاد عن الفساد فى الأرض، والبعض الآخر يشير إلى الأفعال النافعة والبناءة مثل حفظ الحقوق والوفاء بالعهد والإتيان بالخيرات والبذل والجود.

أمَّا حفظ الجوار فيعنى رعاية حقوق الجار التى ورد التأكيد عليها فى الشريعة الإسلاميَّة، فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«حُسْنُ الْجَوَارِ يَعْمُرُ الدِّيَارَ وَيَزِيدُ فِي الْأَعْمَارِ» [٦٩٩].

وبالطبع فإنَّ

«حُسْنُ الْجَوَارِ»

لا يقتصر على كف الأذى عن الجار فحسب، بل لابد من نجدته ومدِّ يد العون إليه، وإن تعرض للأذى منه جابهه بكلِّ رفق وود، والحق لو التزم الجميع بهذه التعاليم الإسلاميَّة لسادت المحبَّة جميع ربوع العالم.

والوفاء بالذمام إشارة إلى الالتزام بالعهود التى تحظى بفائق الأهميَّة فى الشريعة السمحاء. وانصاف الخلق إشارة إلى عدم التفریط بحقوق النفس والآخرين والنظر بعين واحدة، فينبغى أن يريد للآخرين ما يريد لنفسه ويرفض للآخرين ما يرفضه لنفسه.

تأمل

العصبية الإيجابية والسلبية

يختزن الإنسان العديد من الدوافع المعقدة التى لو ترك لها العنان وانطلقت من

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٣٨

مصادر الجهل لأدّت إلى نتائج سلبية للغاية وأحياناً تكون قاتلة، ويتوجب على قادة المجتمع في مثل هذه الحالات أن لا ينيروا لمواجهه هذه الدوافع بغية القضاء عليها فحسب، بل لابدّ من تصحيح مسيرتها وإعادتها إلى الطريق الصحيح، وبعبارة أخرى لابدّ من توظيفها من خلال اختيار البدائل الإيجابية دون الاقتصار على مواجهتها.

فالسيل العظيم ربّما يؤدّي إلى القضاء على أموال الناس وهدر طاقاتهم ما لم تتمّ السيطرة عليه، غير أنّه يكون سبباً للعمّان والبناء من قبيل إنتاج الطاقة الكهربائية وتشغيل المصانع الكبيرة وخرن المياه طيلة السنّة وانعاش قطاع الزراعة لو بوشر ببناء سدّ عظيم بغية السيطرة على ذلك السيل.

ويبدو هذا المطلب واضحاً جلياً في النصوص الدينيّة؛ فقد ورد على سبيل المثال في خطبة النكاح:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحَلَّ النِّكَاحَ وَحَرَّمَ الزَّنا وَالسَّفَاحَ»

فالله تبارك وتعالى لم يأمر قط بقمع و كبت الغريزة الجنسيّة، بل طرح موضوع النكاح الشرعي كي لا يؤدّي الأمر إلى الأعمال التي تتنافى مع العفة، وحين نصّح نبي الله لوط عليه السلام قومه ونهاهم عن إتيان الفاحشه اقترح عليهم الزواج من بناته فقال: «هُؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ» [٧٠٠].

وجاء في سورة النور بشأن حدّ الزنا: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً» [٧٠١] ثم رافقته دعوة عامّة لأبناء المجتمع إلى الزواج والتكافل الاجتماعي بهذا الشأن فقال: «وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» [٧٠٢].

كما صرّحت بعض الروايات الإسلاميّة:

«فَأَمَّا سُؤْمُ الْمَرْأَةِ فَكَثْرَةُ مَهْرِهَا...» [٧٠٣].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٣٩

كما ورد في البعض الآخر:

«وَمِنْ سُؤْمِهَا شِدَّةُ مَوْتِهَا» [٧٠٤].

فقد تعارف بين الناس وجود بعض الأمور من قبيل الشؤم والتفائل ولكن بصورة خرافية وغاية في الضرر؛ فما كان من الإسلام إلّا أن كساها ثوب المنطق دون أن ينبري لاقتلاعها.

والقضية هذه جارية عينها على التعصب؛ فهناك بعض الدوافع الباطنية للإنسان التي تسوقه نحو التعصب فإن خلى بينه وبينها ساقته إلى الجوانب السلبية التي تؤدّي إلى الكبر والغرور وربّما الاختلاف والنزاعات الدموية؛ إلّا أنّ الإمام عليه السلام سعى توجيهه باتجاه الجوانب الإيجابية فصرح أنّه إن كان ولا بدّ لهؤلاء الأفراد والقبائل من التعصب فيمكن هذا التعصب في مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال والدفاع عن المظلومين ومواجهة الظالمين ومدّ يد العون إلى المعوزين والمحتاجين.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٤١

القسم الرابع عشر

إشارة

وَاحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأَمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثَلَاتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ.

فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ.

فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَيَاتِهِمْ، فَالزُّمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وَزَاحَتِ الْأَعْيَادُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمِيدَتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَانْقَادَتِ

النَّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتْ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلُهُمْ مِنَ الْاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلْإِلْفَةِ، وَالتَّحَاضُّ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا، وَاجْتَنَبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وَأَوْهَنَ مُنْتَهَهُمْ؛ مِنْ تَضَاعُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاخُنِ الصُّدُورِ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِي.

الشرح والتفسير: الاعتبار بالماضين

دعا الإمام عليه السلام في هذا القسم وبعض الأقسام القادمة مخاطبيه إلى تأمل أحوال الأمم السابقة فاستعرض عناصر ضعفهم وقوتهم وعرفهم بالأسباب التي تقف وراء نجاحهم وفشلهم في مختلف زوايا حياتهم، حتى ينفثوا على تجاربهم ويشقوا طريقهم الصائب في حياتهم في ظل الاستفادة من التاريخ، وهذا النوع من التعليم والتعلم عن طريق النظر في تاريخ الأمم السالفة) مما أكد القرآن الكريم في أكثر السور القرآنية والذي لا يخفى مدى تأثيره ودوره.

فقال عليه السلام:

«وَاجْتَنَبُوا مَا نَزَلَ بِالْأَمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثَلَاتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ. فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْيَاوَالَهُمْ، وَاجْتَنَبُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٤٢

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى مصير بعض الأقوام مثل قوم عاد، وثمود وقوم نوح وقوم لوط وعاقبة الفراعنة وأمثالهم وما أصابهم من العذاب بفعل أعمالهم القبيحة فحذّرهم من مغتة الإبتلاء بذات المصير. والعبارة:

«سُوءِ الْأَفْعَالِ وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ»

يمكن أن تكون تأكيداً لمعنى معين هو الأفعال القبيحة والذميمة، وهنالك احتمال آخر أن سوء الأفعال إشارة إلى الأعمال السيئة وذيمة الأعمال، الأفعال المستهجنة وإن لم تبلغ مرحلة الذنب مثل الغفلة عن المحرومين وترك الانصاف والبذل والعطاء والأثرة. ولما فرغ الإمام عليه السلام من هذا البيان الإجمالي خاض في التفاصيل ليستفيد من ذات الأسلوب القرآني الذي طرح كراراً بغيه بيان المسائل المهمة فقال:

«فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَيَاتِهِمْ، فَالزُّمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتْ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وَزَاخَتْ الْأَعْيَادُ لَهُ عَنْهُمْ، وَوَيْدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَانْقَادَتِ النَّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتْ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلُهُمْ».

ثم تطرق عليه السلام إلى بيان العناصر التي تقف وراء هذه الأمور الخمسة (العزة ودحر العدو والعافية والنعمة والكرامة) فقال:

«مِنَ الْاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلْإِلْفَةِ، وَالتَّحَاضُّ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا».

ورغم أن هذه العناصر الأربعة تعود جميعاً إلى مسألة الاتحاد والوحدة، غير أن كل واحد يعالج نقطة معينة: فاجتناب الفرقة ناظر لنفي عناصر التفرقة والاختلاف ولزوم الإلفة لترسيخ عوامل الوحدة، والتحاظ إشارة إلى الحظ والتشجيع (ربما التشجيع العلمي) والتواصي المراد به عن طريق البيان والحوار.

ثم أشار عليه السلام إلى الجانب السلبي لهذه المسألة؛ أي التفرقة وعناصرها فحذّرهم بعبارات عميقة المعنى من ضرورة نبذ عوامل الفرقة والاختلاف فقال:

«وَاجْتَنَبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ [٧٠٥]، وَأَوْهَنَ مُنْتَهَهُمْ [٧٠٦]».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٤٣

آنذاك ركز الإمام عليه السلام على العوامل الخاصة بعد ذكره لهذا المبدأ الكلي فقال:

«مِنْ تَضَاعُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاخُنِ الصُّدُورِ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِي».

فهذه العناصر الأربعة هي العوامل الرئيسية للاختلاف والتي لبعضها جانب باطنى من قبيل الأحقاد الكامنة فى الصدور والحسد والبخل بينما لبعضها الآخر جانب ظاهرى من قبيل تولى البعض عن البعض الآخر وترك الأخوة والمؤمنين عند الحوادث والشدائد، نعم! لوسادت هذه الأمور أية أمة لكسرت فقرتها وسلبتها قوتها وقدرتها.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٤٥

القسم الخامس عشر

إشارة

وَتَدَبَّرُوا أحوالَ المَاضِيينَ مِنَ المَؤْمِنِينَ قَبْلَكُم، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمَجِيسِ والبَلَاءِ. أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الخَلَائِقِ أَعْبَاءً، وَأَجْهَدَ العِبَادِ بَلَاءً، وَأَضْيَقَ أَهْلَ الدُّنْيَا حَالًا. اتَّخَذَتْهُمُ الفِرَاعِنَةُ عَيْدًا فَسَأَمُوهُمْ سُوءَ العَذَابِ، وَجَزَّ عُوهُمُ المَرَارِ، فَلَمْ تَبْرَحِ الحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الهَلَكَةِ وَقَهْرِ العَلْبَةِ، لِأَيِّجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعِ، وَلَمَّا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعِ. حَتَّى إِذَا رَأَى اللّهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَالْأَحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَائِقِ البَلَاءِ فَرَجًا، فَأَبْدَلَهُمُ العِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالأَمْنَ مَكَانَ الخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكًا حُكَّامًا، وَأَيْمَّةً أَعْلَمًا، وَقَدْ بَلَغَتِ الكِرَامَةُ مِنَ اللّهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الأَمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

الشرح والتفسير: عناصر انتصار المؤمنين الأوائل

بالنظر إلى أن الموضوع الأصلي لهذه الخطبة يتمثل فى مواجهة الكبر والغرور والعصبيات السلبية وقد بين الإمام عليه السلام ذلك فى الفصل السابق ولفت انتباه مخاطبيه إلى أحوال الأمم السالفة وانتصاراتهم ونجاحهم فى ظلّ وحدتهم وإفتهم، وعاد ثانية ليلفت أنظارهم إلى التأمل فى سيرة الأمم السابقة وما عانوه من امتحانات شاقّة وعسيرة ليستعرض لهم كيفية نجاحهم فى تلك الامتحانات وتسلطهم على العدو، فأفاض الله عليهم العزة والعظمة ومنحهم الأمن فقال:

«وَتَدَبَّرُوا أحوالَ المَاضِيينَ مِنَ المَؤْمِنِينَ قَبْلَكُم، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمَجِيسِ والبَلَاءِ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٤٦

ثم تطرق عليه السلام إلى توضيح تلك الامتحانات الصعبة فقال:

«أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الخَلَائِقِ أَعْبَاءً [٧٠٧]، وَأَجْهَدَ العِبَادِ بَلَاءً، وَأَضْيَقَ أَهْلَ الدُّنْيَا حَالًا».

ثم غاص أكثر فى التوضيح بهذا الشأن ليركز على ما واجهتهم من صعوبات فى حياتهم فقال:

«اتَّخَذَتْهُمُ الفِرَاعِنَةُ عَيْدًا فَسَأَمُوهُمْ [٧٠٨] سُوءَ العَذَابِ، وَجَزَّ عُوهُمُ

المَرَارِ [٧٠٩]، فَلَمْ تَبْرَحِ الحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الهَلَكَةِ وَقَهْرِ العَلْبَةِ، لِأَيِّجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعِ،

وَلَمَّا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعِ».

ورغم أن خطوب حياة الأقسام السابقة وامتحاناتهم الصعبة والشاقّة لا تقتصر على زمان الفراعنة، ولكن بما أن القرآن أشار كراراً إلى المصائب التى عانى منها بنو إسرائيل فى زمان فرعون والتى يعرفها جميع المسلمين، فقد أشار الإمام عليه السلام على وجه الخصوص إلى تلك الحقبة حيث تحول فيها الجميع إلى عبيد من جانب وكانوا يضطرونهم إلى أعقد الأعمال ويزودونهم بأدنى الإمكانيات وحين يشعرون بالخطر يعمدون إلى قتل رجالهم واستحياء نسائهم واستعمالهن للخدمة، وقد مضت عليهم عدّة سنين ولم يكن لهم من

سبيل للنجاة حتى تطف الله عليهم فكانت معجزة الله في انتصارهم على عدوهم بهلاك الفراعنة وأعاونهم، حيث قال عليه السلام في مواصلته لكلامه

«حَتَّى إِذَا رَأَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَالْأَحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَصَائِقِ الْبَلَاءِ فَرَجًا». نعم! فحين يجتاز الإنسان الامتحان يبعث الله عليه ما يفرج عنه مشكلاته وفُتِّشَ عليه شمس النصر والغلبة، الأمر الذي لمسناه في موسى عليه السلام وقومه.

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى نصرهم بصورة كليته، ثم خاض في التفاصيل فقال:

«فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الدُّلِّ، وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكًا

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٤٧

حُكَّامًا، وَأَيْمَةً أَعْلَامًا، وَقَدْ بَلَغَتِ الْكِرَامَةَ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الْأَمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ».

وقد ورد المزيد من التوضيح في القرآن المجيد بشأن بنى إسرائيل والفراعنة بهذا الخصوص والذي يكشف النقاب عن دقائق هذا النصر فقال تعالى «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَسَاهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ» [٧١٠].

وقال تعالى في موضع آخر: «وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ» [٧١١].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٤٩

القسم السادس عشر

إشارة

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الْأَمْلاءُ مُجْتَمِعَةً، وَالْأَهْوَاءُ مُؤْتَلَفَةً، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالْأَيْدِي مُتْرَادِفَةً، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً. أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ بَيْنَ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ! فَانظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتِ الْأَلْفَةُ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفْعَالُ، وَتَشَجَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كِرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَحْبَابِهِمْ فِيكُمْ عِبْرًا لِلْمُعْتَبِرِينَ.

الشرح والتفسير: الوحدة والفرقة، والنصر والهزيمة

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من كلامه السابق بشأن الأقوام السابقة ومصيرهم الذي يختزن الدروس والعبر، خلص في هذا المقطع من الخطبة إلى نتيجة ليركز على العنصر الرئيسي للنصر المتمثل باتحاد الصفوف والعنصر الرئيسي للفشل المتمثل بتفريق الصفوف ليشير إلى أبعاد وحدة الكلمة من خلال عدّة عبارات بسبع جمل فقال:

«فَانظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الْأَمْلاءُ [٧١٢] مُجْتَمِعَةً، وَالْأَهْوَاءُ مُؤْتَلَفَةً، وَالْقُلُوبُ

مُعْتَدِلَةً، وَالْأَيْدِي مُتْرَادِفَةً، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً.

أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِينَ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ».

فالإمام عليه السلام أشار بهذه العبارات الغاية في الروعة والعميقة المعنى إلى الاتحاد

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٥٠

والاتفاق في جميع مظاهره ليعده عنصر الإقتدار والرفعة، الاتفاق في التطلعات والرغبات والخطط والمشاريع والاتفاق في العمل

والاتفاق عند الصلح والقتال وبالتالي وحدة الصفوف في جميع مظاهر الحياة.

ويبدو الدليل على هذا الكلام واضحاً تماماً؛ ذلك لأنه ليس للأفراد بمفردهم من قدره كبيرة وكل واحد منهم كالقطرة بحيث لو كانت في صحراء وأشرفت عليها أشعة الشمس أو هبت عليها الريح لحولتها إلى بخار، غير أن هذه القطرات أن اجتمعت مع بعضها البعض شكلت تلك البحار العظيمة التي من شأنها أن تكون مصدر لكل خير وبركة، فخيطة العنكبوت بمفرده ضعيف وايل للزوال ولا يسعه الصمود أمام أدنى نسيم، غير أنهم اليوم يلفونها مع بعضها ليصنعوا منها بدلة مضادة للرصاص والتي تفوق مقاومتها جميع المقاومات وهذا هو دور الاتحاد والاتفاق.

ولعل هذه العبارات واردة بشأن بنى إسرائيل حين نهض موسى بن عمران عليه السلام بالأمر ووحد صفوفهم فشملتهم العناية الإلهية والألطف الربانية فورتوا حكومة مصر والبلدان المجاورة لها، حتى تشكلت بعد موسى عليه السلام حكومات مقتدرة كحكومة داود وسليمان عليهما السلام، وربما يكون أصلاً كلياً وعماماً حصل كراراً في تاريخ الأمم السابقة، وكلما كان هنالك اتحاد واتفاق ووحدة قرار وخطه حكيمة كان هنالك الانتصار والغلبة، على كل حال فإن شرح الإمام عليه السلام يكشف النقاب عن هذه الحقيقة أنه وإن كانت عدّة عوامل ضرورية للنصر والتقدم إلّا أنّ أهمها مسألة الاتحاد والاتفاق.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فذكر العنصر الرئيسي في الفشل والهزيمة وهو الاختلاف؛ الاختلاف في وجهات النظر وتشنت الصفوف، ثم أشار إلى أبعاده المختلفة بخمس عبارات فقال:

«فَانظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتِ الْآلِفَةُ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفِيدَةُ، وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ،

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٥١

وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ [٧١٣] نِعْمَتِهِ، وَبَقِيَ قِصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبْرًا لِلْمُعْتَبِرِينَ».

نعم، فحين تتجه طاقات أمّة نحو الاختلاف، وتستبدل الإلفة والمحبة بالنفرة والعداوة وتتصاعد فيها ألسنة لهيب اختلاف الكلمة وتفرق الأفكار إنّما تخوض حربها ضد نفسها وتهدر طاقاتها بدلاً من تصديها لعدوها الذي ينوي القضاء عليها، والله سبحانه وتعالى ينزع عنها لباس العزة ويكسيها لباس الذل والهوان.

ويمكن أن يكون هذا الجانب من كلام الإمام عليه السلام إشارة إلى قصية بنى إسرائيل بعد تلك الانتصارات المتتالية حين فقدوا مجدهم وعزّتهم إثر الاختلاف والتشتت فتفرقوا في الأرض، وربما يكون إشارة إلى جميع الأقسام التي تعيش حالة السقوط بسبب كفران النعمة والاختلاف والتشتت عقب الانتصارات الباهرة التي تحققت في ظلّ الاتحاد ووحدة الكلمة.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٥٣

القسم السابع عشر

إشارة

فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ (عليهم السلام). فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الْأَحْوَالِ، وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهِ الْأَمْثَالِ!
تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّبِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ، لِيَأْتِيَ كَانَتِ الْأَكَاسِرَةُ وَالْقِيَاصِرَةُ أَرْبَابًا لَهُمْ، يَحْتَارُونَ عَنْ رِيْفِ الْآفَاقِ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ، وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشَّيْحِ، وَمَهَيَا فِي الرَّيْحِ، وَنَكَدِ الْمَعْيَاشِ، فَتَرَكُوهُمْ عَالِمَهُ مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبْرٍ وَوَبْرٍ، أَذَلَّ الْأَمَمِ دَارًا، وَأَجِيدَ بِهِمْ قَرَارًا، لَيَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَلَا إِلَى ظِلِّ أَلْفَةٍ يَعْتمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا. فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ؛ فِي بِلَاءِ أَرْزَلٍ، وَأَطْبَاقِ جَهْلٍ! مِنْ بَنَاتِ مَوْوُودَةَ، وَأَصْنَامِ مَعْبُودَةَ، وَأَرْحَامِ مَقْطُوعَةَ، وَعَارَاتِ مَشُونَةَ.

الشرح والتفسير: الاعتبار بولد إسماعيل وإسحاق

تابع الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة ما ذكره في المقاطع السابقة بشأن العناصر التي تقف وراء انتصار وفشل الأمم السابقة فركز على المصاديق العينية لهذا الموضوع وأخذ بيد مخاطبيه ليغوص بهم في أعماق التاريخ فيكشف لهم النقاب عن قصة ولد إسماعيل وإسحاق عليهما السلام وبنى إسرائيل ليعتبروا بهم فقال:

«فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ [٧١٤] الْأَحْوَالِ،
نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٥٤
وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهِ [٧١٥] الْأَمْثَالِ!».

وعلى هذا الضوء فقد دعاهم الإمام عليه السلام لمقارنته أنفسهم بمن سبقهم ليتعرفوا على عناصر نجاحهم وإخفاقهم لكي لا يقعوا في شباك الشيطان ويعيشوا هوى النفس والغرور والتعصب.

وهنا لابد من الالتفات إلى أن ولد إبراهيم عليه السلام ينقسمون إلى ثلاث طوائف؛ طائفة هم بنو إسماعيل الذين يعدون أجداد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وبنو إسحاق الذين يتفرعون إلى فرعين؛ فرع هم بنو يعقوب الذين يشكلون قوم بنو إسرائيل وفرع آخر هم بنو «عيسو» ومن نسلهم «الأدوميون» (قوم من أولى القوة كانوا يقطنون في منطقة «أدوم» التي تمتد من جنوب البحر الميت إلى شمال الحجاز).

ويحتمل أن يكون المراد بالعبارات السابقة قد أشار إلى قانون كلي في أن التاريخ يعيد نفسه باستمرار وعادة ما تعيش الشعوب والأمم ظروفًا متشابهة تستطيع من خلالها كل أمة أن تحدد معالم مصيرها.

ثم تطرق عليه السلام إلى شرح هذا الكلام بأسلوب الاجمال والتفصيل الذي يلعب دوراً في بيان الحقيقة فقال:
«تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشْتِيهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ، لِيَأْتِيَ كَأَنَّ الْأَكَاثِرَةَ [٧١٦] وَالْقِيَاصِرَةَ [٧١٧] أَرْبَابًا لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ [٧١٨] عَنِ رِيْفِ [٧١٩] الْأَفَاقِ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ،

وَحُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشَّيْخِ [٧٢٠]، وَمَهَافِي الرِّيْحِ، وَنَكَدِ الْمَعَاشِ [٧٢٢]».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٥٥

إشارة إلى أنهم سلبوهم حياة القرى والمدن المباركة وهجروهم إلى الصحارى والمناطق الجرداء الفاحلة.

ثم قال عليه السلام:

«فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً [٧٢٣] مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبْرٍ [٧٢٤] وَوَبْرٍ [٧٢٥]، أَدَلَّ الْأَمَمَ دَارًا،
وَأَجْدَبَهُمْ قَرَارًا لَيَأْوُونَ [٧٢٦] إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَلَا إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ
عَلَى عَزِّهَا».

انذاك خاض عليه السلام في شرح معطيات هذا الوضع فقال:

«فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ، فِي بِلَاءِ أَرْلٍ [٧٢٧]، وَأَطْبَاقِ جَهْلٍ! مِنْ بَنَاتِ
مَوْوُودَةَ [٧٢٨]، وَأَصْنَامِ مَعْبُودَةٍ، وَأَرْحَامِ مَقْطُوعَةٍ، وَغَارَاتِ [٧٢٩] مَشْنُونَةٍ [٧٣٠]».

إشارة إلى أن اختلاف الآراء وتششت الأفكار، إنما تفرز على الدوام المحن والخطوب التي تصيب المجتمعات البشرية فتظمرها في وادي الجهل، كما يشير تاريخ الجاهلية إلى أنهم كانوا يمارسون الأعمال الهمجية والبربرية، وقد أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة نماذج منها؛ فكانوا يعمدون إلى وأد بناتهم أحياء تحت ذريعة حفظ الحرمه وابرار الغيرة والنجاه من الفضيحة والعار، ويعبدون الأحجار التي كانوا يصنعونها بأيديهم فكان لكل قبيلة صنمها ووثنها، فقريش وبنو كنانة والأوس

نقحات الولاية، ج٧، ص: ٣٥٦

والخزرج كانوا يعبدون «مناة»، وبنو ثقيف «اللاء والعزى» وهذيل «سواع» وبنو كلب «ود» وسائر الطوائف كانت تعبد سائر الأصنام، وقد نصب «هبل» كأعظم صنم لهم في الكعبة بينما كان «اساف» و «نائلة» على الصفا والمروة فكان الجميع يعظم هذه الأصنام الثلاثة فتحولت الكعبة مركز التوحيد والعبودية إلى أكبر معبد وثني للأصنام.

وقطع الرحم الوارد في كلام الإمام عليه السلام يمكن أن يكون إشارة إلى قتلهم أولادهم خشية الفقر أو بصفته عبادة يتقربون بها لأصنامهم، وتشير «الغارات المشنونة» الحروب المتعددة التي كانت تنشب بين القبائل العربية في العصر الجاهلي تحت مختلف الذرائع، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى أن نار تلك الحروب لم تكن تطفأ حتى ظهر الإسلام فوضع حداً للاقتتال القبلي وقتل الأولاد وواد البنات وعبادة الأوثان.

وهذا هو مصير من يقطع أواصر الوحدة ويقبل على الاختلاف والتشتت والنفاق والذي يتجلى بصيغته معينه في كل أمه ولا يقتصر على العصر الجاهلي.

تأمل

القطرة والبحر

لعلنا سمعنا كراراً هذا الكلام في أن قطرات الأمطار ليس لها من قيمة تذكر بمفردها، غير أنها إن اتصلت بسائر القطرات وشكلت نهراً عظيماً وتراكت مع بعضها البعض الآخر ألفت كتلة عظيمة من شأنها القيام ببعض الأعمال الكبيرة ومن ذلك إنتاجها للقوة الكهربائية التي تشغل المصانع والمعامل الضخمة، وتضيئ المدن والقرى وتسقي قطاعات واسعة من المزارع والحقول، وبالتالي يمكنها إضفاء الحياة والحيوية.

ويبدو أن الناس كذلك، فكل إنسان مهما كانت قدرته وطاقته لا يمكنه القيام ببعض الأعمال بمفرده، على غرار قطرة المطر، ولكن ما أن تتضافر هذه الجهود الصغيرة حتى يكون لها تأثيراتها الواضحة في هذا العالم، فهي لا تشكل درعاً

نقحات الولاية، ج٧، ص: ٣٥٧

حصيناً العدو فحسب، بل تلعب دورها في عالم الاقتصاد والعلم والمعرفة فتؤدي إلى كل ذلك الرقي والتقدم والإزدهار، والحق لولا تلاقح قطرات علم العلماء طيلة التاريخ وفي المجتمعات البشرية لما شهدنا ليوم كل هذا التقدم العلمي الهائل ولما كان التمدن يفوق مدينة العصور الحجرية.

وإذا دب الاختلاف في صفوف المجتمعات البشرية فلا تتوقف عجلة الرقي والتقدم فحسب، بل تنعدم كل القدرات والقوى في اتون الاقتتال الداخلي والذي لا يفضي سوى إلى الدمار والخراب والتخلف.

وقد أكد الإمام عليه السلام مراراً في هذه الخطبة الشريفة على هذا المعنى، فأخذ بيد مخاطبيه إلى أعماق التاريخ البشري ليريه عن كتب نتائج الاتحاد والفرقة.

من جانب آخر فقد ورد مثل هذا التأكيد في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية؛ ولكن ما تجدر الإشارة إليه أن الظفر بوحدة الصفوف لا يبدو بالأمر الهين بل يحاط بالعديد من الصعوبات والعوائق، ومنها التعصب والكبر والفخر وترجيح المصالح الذاتية الضيقة والقصيرة الأمد على المنافع العامة والبعيدة الأمد، وقد عدّها الإمام عليه السلام في هذه الخطبة من العقبات التي تعترض سبيل الوحدة.

وقد أكد الإمام عليه السلام هذا المعنى في سائر خطب نهج البلاغة أيضاً؛ ومن ذلك ما ورد في الخطبة ١٢٧ أنه قال:

«وإياكم والفرقة فإن الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب».

كما وردت إشارة رائعة إلى هذا المعنى في الخطبة ٨٦:

«ولا تباعضوا فإنها الحالقة».

ونختتم هذا الكلام بالرسالة المهمة التي صرح بها القرآن الكريم في قوله تعالى

«وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» [٧٣١].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٥٩

القسم الثامن عشر

إشارة

فَانظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ: كَيْفَ نَشَرَتِ النُّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا، وَالتَّفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وَفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ. قَدْ تَرَبَّعَتِ الْأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانِ قَاهِرٍ، وَأَوْتَهُمُ الْحَيَالُ إِلَى كَنْفِ عِزِّ غَالِبٍ، وَتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ. فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِينَ. يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُمْضُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمَضِّتُ بِهَا فِيهِمْ! لَا تُغَمَّرُ لَهُمْ قَنَاءٌ، وَلَا تُفْرَعُ لَهُمْ صَفَاءٌ.

الشرح والتفسير: عزتكم بالاسلام

بعد كلام الإمام عليه السلام في القسم السابق من هذه الخطبة بشأن خطوب العصر الجاهلي والمشاكل والإرباكات والفقر وعدم الاستقرار التي اتصف بها، تناول هنا شرح المعطيات المباركة التي حصلوا عليها في ظل انبثاق دعوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وما أصبحوا عليه من اتحاد وإلفة ومحبة، ليشرح هذا الأمر بعبارات غاية في الجمال والبلاغة فقال:

«فَانظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ».

نعم؛ فقد كان كل قوم وقبيلة بل كل فرد في العصر الجاهلي يلهث خلف مصالحه ورغباته الضيقة حتى سادهم جو من الفرقة والاختلاف والتشتت، فجمعهم الله

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٦٠

تبارك وتعالى تحت رايه واحده في ظل الإسلام والتوحيد فانقلب كل شيء رأساً على عقب.

ثم تطرق عليه السلام إلى بيان هذه النعم من خلال تشبيهات واستعارات رائعة ليتطرق إلى الواحدة تلو الأخرى فقال:

«كَيْفَ نَشَرَتِ النُّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا، وَالتَّفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وَفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ» [٧٣٣].

فقد شبه الإمام عليه السلام هذه النعم بالطيور التي تفتح اجنحتها لتضم إليها صغارها فتمنحها الدفء والحنان والأمان، ثم شبهها ثانية بالماء العذب الفرات الذي ينحدر نحو الحقول والمزارع فيجعلها خضراء نضرة، ونتيجة ذلك الغرق في النعم والعيش بأمان في ظل حياة هانئة وديعة.

ثم واصل كلامه عليه السلام ليشير إلى نعمة الحكومة الإسلامية، الحكومة العزيزة والمقتدرة فقال:

«قَدْ تَرَبَّعَتِ [٧٣٤] الْأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانِ قَاهِرٍ، وَأَوْتَهُمُ الْحَالُ إِلَى

كَتَفِ عِزُّ غَالِبٍ، وَتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى [٧٣٥] مُلْكِكَ ثَابِتٌ».

والتاريخ الإسلامي أفضل شاهد على جميع ما ذكره الإمام عليه السلام بهذه العبارات حيث انتصار العرب بالخصوص والمسلمين بصورة عامة في ظل الإسلام، الأمر الذي يقره مؤرخو الشرق والغرب.

ثم أشار في ختام هذا الكلام إلى النصر المطلق للمسلمين على خصومهم بعبارة بليغة فقال:

«فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِينَ. يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَتْ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُمِضُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمِضُهَا فِيهِمْ! لَا

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٦١

تُعَمَّرُ [٧٣٦] لَهُمْ قَنَاءٌ [٧٣٧]، وَلَا تُفْرَعُ [٧٣٨] لَهُمْ صَفَاءٌ [٧٣٩]».

إشارة إلى سطوة الحكام والسلاطين في العهود السابقة عليهم إثر اختلافهم وافتراقهم وضعفهم وعجزهم حتى استعبدوهم بينما بث فيهم الإسلام روح الاتحاد والقدرة والعزة فانحنوا لهم حيث تحولوا إلى قوة لا تقهر.

قال أحد المستشرقين: بلغ المسلمون درجة من القوة بحيث يوصف بالجنون كل من يفكر في مواجهتهم.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٦٣

القسم التاسع عشر

إشارة

أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعِيَةِ، وَتَلَمَّثْتُمْ حِصْنَ اللَّهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَدْ ائْتَنَّ عَلَى جَمَاعِيهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأَلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا، وَيَأْوُونَ إِلَى كَنْفِهَا، بِنِعْمَةٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيَمَةً، لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهَجْرَةِ أَعْرَابًا، وَبَعْدَ الْمَوَالَةِ أَحْرَابًا. مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْأَسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ. تَقُولُونَ: النَّارُ وَلَمَّا الْعَارِ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِتُوا الْأَسْلَامَ عَلَى وَجْهِهِ انْتِهَاكَ لِحَرِيمِهِ، وَنَقْضًا لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ حَرَمًا فِي أَرْضِهِ، وَأَمَّا بَيْنَ خَلْفِهِ. وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ، ثُمَّ لَأَجْبُرَائِيلُ وَلَا مِيكَائِيلُ وَلَا مُهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارٌ يُنْصِرُونَكُمْ إِلَّا الْمَقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ.

وَإِنَّ عِنْدَكُمْ الْأَمْثَالَ مِنْ بَيَاسِ اللَّهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَوَقَائِعِهِ، فَلَا تَسْتَبْطِئُوا وَعَيْدَهُ جَهْلًا بِأَحْدِهِ، وَتَهَاوُنًا بِبَطْشِهِ، وَيَأْسًا مِنْ بَأْسِهِ. فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقُرْنَ الْمَاضِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَالْعَنَ اللَّهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِي.

أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْأَسْلَامِ، وَعَطَلْتُمْ حُدُودَهُ، وَأَمَّتُمْ أَحْكَامَهُ.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٦٤

الشرح والتفسير: اجتناب الفرقة

أشار الإمام عليه السلام في المقاطع السابقة إلى شؤون بني إسرائيل وضعفهم قبل قيام موسى عليه السلام ومن ثم قوتهم واقتدارهم في ظل حركة موسى التي وحدت صفوفهم وبالتالي ضعفهم وذلتهم ثانية حين تولوا عن الدين الجديد ودعوة موسى، فذكر المسلمين بهذه المراحل الثلاث، المرحلة الأولى المتعلقة بالعصر الجاهلي، والمرحلة الثانية المرتبطة بانبثاق الدعوة الإسلامية وما انطوت عليه من

انتصارات باهرة والذي مر علينا في الأقسام السابقة، وخاض هنا في تفاصيل المرحلة الثالثة التي انطوت على تخلف المسلمين عن الوحدة والانتصارات السابقة فقال:

«أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ [٧٤٠] أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وَتَلَمَّتُمْ [٧٤١] حِصْنَ اللَّهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ».

ثم خاض عليه السلام في شرح هذا الكلام فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ سَيَبْحَانَهُ قَدْ امْتَرَّتْ عَلَى جَمَاعِيهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأَلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا، وَيَأْوُونَ إِلَيَّ كَنَفِهَا [٧٤٢]، بِنِعْمَةٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيَمَةً، لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَأَجْلُ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ».

فكل هذه العبارات تشير إلى أهميته الاتحاد والإلفة، الأمر الذي أكدته القرآن الكريم في عدة مواضع في قوله تعالى «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا [٧٤٣]» [٧٤٤].

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٦٥

فكشف النقاب أكثر عن الموضوع ليقول صراحة:

«وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهَجْرَةِ أَعْرَابًا وَبَعْدَ الْمَوَالَةِ أَخْرَابًا. مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْأَسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ».

فقد أفصح الإمام عليه السلام في هذه العبارات عن مدى قلقه على أوضاع المسلمين آنذاك وكيف بدت عليهم آثار العصبية القبلية التي جهد النبي صلى الله عليه وآله على إزالتها في ظلّ التعاليم الإسلامية السمحاء، فكانت هذه العصبية أساس الاقتتال وسفك الدماء ولذلك صرح لهم الإمام عليه السلام: (أنكم لتتحدثون عن الإسلام والإيمان بينما لا تحسنون من الإسلام سوى اسمه ومن الإيمان سوى شكله)، نعم! إنكم لتتظنون بالشهادتين وتأتون ظاهرياً بالصوم والصلاة لكنكم غافلون عن تعاليم هذا الدين.

ثم شرح الإمام عليه السلام هذه العبارة فقال:

«تَقُولُونَ: النَّارَ وَلَا الْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تَرِيدُونَ أَنْ تُكْفِنُوا [٧٤٥] الْأَسْلَامَ عَلَيَّ وَجْهِي أَنْتَهَا كَأَنَّ حَرِيمِي، وَنَقْضًا لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ حَرَمًا فِي أَرْضِهِ، وَأَمْنًا بَيْنَ خَلْقِهِ».

عبارة هذه الشعار

«النَّارَ وَلَا الْعَارَ»

أطلقت حسب بعض الشراح لأول مرّة من قبل «أوس بن حارثة» [٧٤٦] وهو من الشعارات التعصبية البعيدة عن الإسلام. فهؤلاء يزعمون أنهم مستعدون لدخول النار، لكنهم ليسوا مستعدين لأنّ تظهر عليهم القبيلة الفلانية، أو يراق لهم دم ولا يردون الصاع صاعين. فالإمام عليه السلام يصف هذا الكلام بأنّه نقض العهود والتراجع عن الإسلام.

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٦٦

وقال جمع من شراح نهج البلاغة إنّ العبارة

«النَّارَ وَلَا الْعَارَ»

عظيمة إن كانت في الأهداف القدسيّة، بينما تعدّ قبيحة ومذمومة إن كانت في المفاخر القبلية الواهية.

إنّما يصح هذا الكلام إن لم تكن النار بمعنى جهنم، بل كانت بمعناها الواسع الذي يشمل نار المشاكل الدنيوية أيضاً، مثلاً يقال (نتحمل جميع المحن وحتى الموت لكننا لا- نقبل بسيطرة الكفار على البلاد الإسلامية) فالشعار بالطبع صحيح؛ أمّا أن يقال (نحن مستعدون لدخول النار لكننا لا نتحمل أفضلية القبيلة الفلانية) فالشعار هنا خاطئ وينسجم مع العصبية الجاهلية.

وعليه فلا يبدو صحيحاً ما ذكره المحقق التستري في شرحه لنهج البلاغة حيث صرح بأنّ هذا التقسيم مضحك، ذلك لأنّ من قال بهذا

التقسيم إنما فسّر النار بمعناها الواسع، رغم إن ما ورد في كلام الإمام عليه السلام على لسان المتعصبين آنذاك يراد به الجانب السلبي لذلك الشعار.

ثم أشار عليه السلام إلى العاقبة السيئة لهذا الأسلوب فقال:

«وَأَنْتُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ [٧٤٧]

حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ، ثُمَّ لَجَجْتُمْ إِلَى وَلَا مِيكَائِيلُ وَلَا مَهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارُ [٧٤٨]

يَنْصُرُونَكُمْ إِلَّا الْمُقَارَعَةَ [٧٤٩] بِالسَّيْفِ [٧٥٠] حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ».

إشارة إلى أنكم حين كنتم متمسكين آنذاك بالإسلام فقد أمدكم الله بنصرته بملائكته وعنايته الغيبية التي عمت الأنصار والمهاجرين، فدحرتهم الأعداء وثلثتم

نفحات الولاية؛ ج ٧؛ ص ٣٦٦

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٦٧

النصر وعشتم العزة والكرامة والأمن، ولكن ستسلبون كل ذلك إذا وليتم ظهوركم للإسلام وعليه فما لكم إلا العودة إلى الإسلام الأصيل واطردوا عن أنفسكم الكبر والغرور والعصبية الجاهلية واطفئوا نيران الفرقة لتشملكم عناية الله وأطافه.

ثم حذرهم الإمام عليه السلام ودعاهم لمقارنته أوضاعهم بما أصاب الأمم الظالمة من قبلهم، فاستعرض لهم نماذج العقاب الإلهي كما ورد في القرآن الكريم فقال:

«وَإِنَّ عِنْدَكُمْ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَقَائِعِهِ».

والعبارات الأربع

«بأس» و «قوارع»

و

«أيام»

و

«وقائع»

كلها إشارة إلى العاقبة الثقيلة والصعبة للأمم المذنبة السالفة، ولكن لكل من هذه العبارات مفهومها الخاص؛ فالبأس تعنى القتال والعذاب والقوارع إشارة إلى العقوبات الشاقة من قبيل طوفان نوح والزلزلة التي أصابت قوم لوط وصاعقة قوم عاد وثمود، والأيام إشارة إلى مجموع الأيام التي تشهد وقوع هذه الحوادث، والوقائع هي هذه الحوادث بما فيها المقدمة وذى المقدمة وآثارها ونتائجها.

و

«أيام الله»

هنا إشارة إلى أيام الأمم السابقة الصعبة والمرعبة، فقد جاء في القرآن المجيد بشأن قوم عاد: «أَنَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِيرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ» [٧٥١]. وقال إثر ذلك: «تَنْزِعُ النَّاسَ كَمَا أَنْتَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» [٧٥٢]. وسائر الآيات الكثيرة الواردة بشأن قوم فرعون ونوح وأمثالهم.

ثم قال عليه السلام:

«فَلَا تَسْتَبِطُوا [٧٥٣] وَعِيدُهُ جَهْلًا بِأَخْذِهِ، وَتَهَاوُنًا بِبَطْشِهِ [٧٥٤]، وَيَأْسًا مِنْ

بَأْسِهِ».

أى إن تأخر عقاب العصاة لبضعة أيام أو بضعة شهور فلا تظنوا باستحاله وقوعه،

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٦٨

فقد اثبت التاريخ وقوع هذا العذاب رغم تأخيره، وبالطبع فليس لهذا التأخير من أهميته مقارنة بعمر العالم.

ثم خاض عليه السلام فى أسباب هذا الموضوع (التشابه فى المصير) ليركز على أهمها فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقُرْنَ الْمَاضِيَةَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِإِمْتَرِكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَعَنَ اللَّهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْحُلَمَاءَ [٧٥٥] لِتَرْكِ النَّهْيِ».

والكلام إشارة إلى الآية القرآنية الشريفة التى تقول: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ» * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» [٧٥٦].

وبالطبع وردت إشارات إلى سائر عوامل سقوطهم فى القسم القادم من الخطبة؛ إلا أن عبارة الإمام عليه السلام تشير إلى أن أفدح أخطائهم تركهم فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأن تطبيق جميع الأحكام الشرعية يتوقف على إحياء هاتين الفريضتين، فإن أقيمتا أقيمت جميع الفرائض وإن تركتا تعطلت سائر الفرائض والت إلى الفناء والزوال، ولذلك ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ... فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا تُقَامُ الْفَرَايِضُ» [٧٥٧].

وستتطرق إن شاء الله فى الخطب القادمة إلى الأهمية الفائقة لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فى الإسلام فى الموضوع الذى ورد الحديث فيه صراحة عن هذه الفريضة.

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه فى هذا الجانب من الخطبة بالقول:

«أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْأَسْلَامِ، وَعَطَلْتُمْ حُدُودَهُ، وَأَمْتَمْتُمْ أَحْكَامَهُ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٦٩

هذه الكلمات تشير إلى أن الاكتفاء بظاهر الإسلام وبعض الطقوس الظاهرية ليس مدعاة للنجاة، بل لابد من الالتزام بأحكامه وتعاليمه وإقامه حدوده وتحكيم الإسلام فى جميع المجالات وأنتم لستم كذلك، فأنتم تتشدقون باسم الإسلام وتتصرفون تصرف الجاهلية، ومع ذلك تتوقعون العزة والإقتدار.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٧١

القسم العشرون

إشارة

أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنُّكْثِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُمْ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُمْ، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُمْ، وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّذْهِةِ فَقَدْ كَفَيْتُهُ بِصِعْقِهِ سَمِعَتْ لَهَا وَجْبُهُ قَلْبِهِ وَرَجَّحُهُ صَدْرِهِ، وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ. وَلَئِنْ أَدِنَ اللَّهُ فِي الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ لَادِيلَنْ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَدَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَدُّرًا.

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى معاركة المعروفة ضد الفئات الظالمة في الجمل وصفين والنهروان وكيف كشف لهم عن قدرته وقوته، وكأنه أراد بهذا الكلام أن يلوح بقوته لبعض القبائل المتمردة التي عاشت الاقتتال مع بعضها بفعل العصبية القبليّة ويلقّمها حجراً ويفهمها أنّها إن واصلت هذه المسيرة الخاطئة ستجابه بأشدّ العذاب فقال:

«أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبُغْيِ وَالنَّكَثِ [٧٥٨] وَالْفَسَادِ

فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ [٧٥٩] فَقَدْ جَاهَدْتُ، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ [٧٦٠]

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٣٧٢

فَقَدْ دَوَّخْتُ [٧٦١].»

إشارة إلى أن قتالي لهذه الفئات الثلاث كان بأمر الله تعالى، ويستند هذا الكلام إلى الرواية الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لأمر المؤمنين على عليه السلام:

«وَأَنَّكَ سَتَقَاتِلُ بَعْدِي النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ» [٧٦٢].

وقد ورد هذا الكلام في (أسد الغابة) أنه عليه السلام قال:

«عَهْدُ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ» [٧٦٣]

. هذا أولاً.

ثانياً: إشارة إلى أنني هزمت الفئات الثلاث، أما أصحاب الجمل فقد تفرّقوا أيادي سباً وكسرت شوكة خوارج النهروان، كما تحطم معاوية وصحبه يوم صفين، غير أن حيلة ابن النابغة عمر بن العاص قد أنقذته من الهزيمة المطلقة.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليركز على زعيم الخوارج حرقوص بن زهير وكنيته ذوالثديّة، الذي قتل شر قتله يوم النهروان فقال:

«وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّذْهَةِ [٧٦٤] فَقَدْ كَفَيْتُهُ

بِصَغْفَةٍ [٧٦٥] سَمِعَتْ لَهَا وَجْبَةٌ [٧٦٦] قَلْبِهِ وَرَجَّةٌ [٧٦٧] صَدْرِهِ.»

وهناك خلاف بين شراح نهج البلاغة بشأن هذه الصاعقة، فقد ذهب البعض إلى أن صاعقة من السماء نزلت حقاً على زعيم الخوارج ذوالثديّة فأهلكته وقذفت بجسمه في تلك الحفرة (ردهة بمعنى حفرة ماء) بينما يعتقد البعض الآخر أن تلك الصاعقة هي الصراخات الشجاعة المدوية التي كانت تنطلق من الإمام عليه السلام في بداية المعركة، فكانت هذه الصراخات تقض مضاجع البعض ومنهم ذو الثديّة الذي إعتراه

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٣٧٣

الربع فصعق وصرع أرضاً لينحدر إلى تلك الحفرة، ثم هدد ما تبقى من أولئك الأوغاد العتاة فقال:

«وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبُغْيِ. وَلَئِنْ أَدْنَى اللَّهُ فِي الْكُرَّةِ عَلَيْهِمْ لِأَدِلْنَ [٧٦٨] مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَدَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشُدُّرًا [٧٦٩].»

وتشير العبارة:

«أَهْلِ الْبُغْيِ»

إلى ظلمة الشام وأصحاب معاوية الذين كانوا سيهلكون لولا قضية التحكيم يوم صفين، فالإمام عليه السلام يقول: لو أُتحت لى الفرصة لقصيت عليهم وأرسيت حكومة العدل والقسط في ربوع البلاد الإسلاميّة كافة.

ولعل ذكر هذا المعنى بصيغة الجملة الشرطية يشير إلى أن الإمام عليه السلام سوف لن يُوفّق لشن هجومه الكاسح عليهم، فقد طالته المنية قبل أن يقوم بهذا العمل؛ ولكن على كلّ حال أعلن عن استعداده التام لمواجهةهم مادام فيه عرق ينبض ويعلم ضمناً صحبه خططه المستقبليّة.

تأمل

من هو ذو الثدية؟

اسمه حرقوص بن زهير السعدى التميمى المعروف بذى الخويصرة، ذى الثدية ومُخدج، ولا يعلم وجه تسميته بذى الخويصرة؛ ولكن بالنظر إلى اللحم الزائد فى عضده كالثدى فى الصدر لقب بذى الثدية، كما عرف بالمخدج اليد لنقص فى يده.

جاء فى التفاسير فى ذيل الآية ٥٨ من سورة التوبة: «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسِيخُطُونَ». والمصادر التاريخية تؤكد أنه لما انتهت غزوة حنين وقف رسول الله صلى الله عليه وآله فى موضع اسمه «جعرانة» لتوزيع الغنائم فطلب أبو سفيان وبعض المسلمين من قريش المزيد من الغنائم؛ فمنحهم رسول الله صلى الله عليه وآله أموالاً كثيرة لتأليف قلوبهم، فنهض ذو الثدية وخاطب

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٣٧٤

رسول الله قائلاً: «إعدل يا محمد!».

فقال صلى الله عليه وآله:

«ويحك! فمن ذا يعدل إن لم أعدل؟»

. فاستأذنه عمر أن يضرب عنقه، فنهاه النبي صلى الله عليه وآله وقال:

«دَعُهُ، فَسَيَخْرُجُ مِنْ ضِيضَتِي هَذَا قَوْمٌ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ... تُحْتَقَرُ صِيْلَاتُكُمْ فِي جَنْبِ صِيْلَاتِهِمْ، وَصَوْمُكُمْ عِنْدَ صَوْمِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَأَيِّجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدٌ مُّخَدَّجُ الْيَدِ، إِحْدَى يَدَيْهِ كَأَنَّهَا تَدَى امْرَأَةً أَوْ بَضْعَةً تَدْرُدَرُ» [٧٧٠]. وعلى ضوء هذه النبوءة فقد ظهرت فئة فى الأُمِيَّة الإسلامية تقرأ القرآن وتعبد الله، ولكن حقيقة الأمر أنهم خارجون عن الدين ولا يعرفون حقيقته.

وهذه الحقيقة معروفة بين المسلمين حتى أن عائشة المعروفة ببغضها لعلى عليه السلام قالت بعد النهروان وقتل ذى الثدية: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«يَقْتُلُهُ خَيْرُ أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي» [٧٧١].

وقد تحققت هذه النبوءة بعد صفيين وقضية التحكيم، حيث اجتمع الخوارج عند عبدالله بن وهب الراسبي، فخطبهم ذوالثدية ودعاهم للقتال وكان زعيمهم عبد الله بن وهب (وإن كانت الزعامة الفكرية والعقائدية لذى الثدية) [٧٧٢].

يذكر أن أمير المؤمنين عليه السلام أخبرهم أن قوماً يخرجون من الدين ويقاتلون المسلمين وعلامتهم رجل (مُخدج اليد) [٧٧٣]. وكان الناس يبحثون عن ذى الثدية، لكنهم لم يعثروا عليه، فطعنوا فى على عليه السلام وقالوا: خدعنا ابن أبى طالب لئقاتل إخواننا [٧٧٤].

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٣٧٥

وكان على عليه السلام يقول:

«مَا كَذِبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ».

فطلب ذى الثدية طلباً شديداً وقلب القتلى ظهراً لبطن فلم يعثر عليه، ثم قال:

اطلبوا الرجل وأنه لفى القوم، فلم يزل يتطلبه حتى وجده وهو رجل مخدج اليد كأنها ثدى فى صدره، فكبر على عليه السلام وسجد شاكراً [٧٧٥].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٧٧

القسم الحادي والعشرون

إشارة

أَنَا وَصَعْتُ فِي الصَّغَرِ بِكَلِمَاتٍ الْعَرَبِ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونٍ رِبِيعَةً وَمُضَرَ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ. وَضَعْنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمْسِنِي جَسَدَهُ، وَيُسَبِّحُنِي عَزْفَهُ. وَكَانَ يَمْضِغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ.

وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيمًا أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا، وَيَأْمُرُنِي بِالْأَقْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَرَاءِ فَارَاهُ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي. وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَتْ وَاحِدٌ يَوْمًا فِي الْأَسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا تَالِثُهُمَا. أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشْمُ رِيحَ النُّبُوَّةِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: «هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ آيَسَ مِنْ عِبَادَتِهِ.

إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلَكِنَّكَ لَوْزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ».

الشرح والتفسير: التريبة في كنف النبي صلى الله عليه وآله

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى أمرين مهمين بغية تقوية معنويات

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٧٨

أصحابه في مقابل الأعداء والأوباش ومثري الفتن القبليين؛ فتطرق إلى موقفه في الغزوات الإسلامية أمام صناديد العرب والضربات الموجهة التي كان يسدها لهم، ليرعب ذلك الخصم العنيد، ومن ثم عرج على قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تنحصر به دون غيره، ليندفع المؤمنون بكل قوة وإخلاص لطاعة أوامره، وعليه فلا ينبغي التصور بأن الإمام عليه السلام خاض في الإشادة بنفسه في هذا الجانب من الخطبة؛ الأمر الذي يتناقض والجوانب السابقة من الخطبة، بل الإمام يتابع هدفًا أسمى من هذه التصورات. فقال بادئ الأمر:

«أَنَا وَصَعْتُ فِي الصَّغَرِ بِكَلِمَاتٍ الْعَرَبِ وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ [٧٧٦] قُرُونٍ رِبِيعَةً وَمُضَرَ».

والتعبير بالصغر في العبارة السابقة والذي يقابل الكبر إشارة إلى شبابه عليه السلام؛ لا الطفولة، فالعبارة سائدة لدى الجميع إذا إن الأفراد الذين تقدم بهم العمر حين يريدون الإشارة إلى عصر الفتوة يقولون: (لقد فعلت كذا وكذا في الصغر).

على كل حال تتداعى في عبارة الإمام عليه السلام هذه الخواطر الرائعة للانتصارات التي تحققت في المعارك الإسلامية؛ سيما الضربات التي سددها في ميدان «بدر» إلى «عتبة» و «الوليد» و «حنظلة» وحين دفاعه المستميت في ميدان «الحُد» عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أمام حشود الأعداء والضربة المهلكة التي سددها يوم الأحزاب إلى أشجع شجعان العرب «عمرو بن عبدود» وذاع صيته في أرجاء الجزيرة العربية كافة، ثم بطولاته في فتح «مكة» وغزوة «حنين» وسائر الغزوات الإسلامية والتي تكشف برمتها عن مدى إقتدار الإمام عليه السلام وشجاعته وصموده في الحروب دفاعاً عن الإسلام ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله وتكشف عن الجانب المعنوي والروحي، وبالطبع فإن استعراض هذه الأمور يثبت حالة الرعب والذعر في صفوف الأعداء ويدفع المؤمنين لخوض الجهاد.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٧٩

وذكر بعض شراح نهج البلاغة كلاماً رائعاً بهذا الخصوص فبينوا أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أمضى ثلاثة عهود بعد البعثة؛ الأول: العهد الذي استغرق ثلاث عشرة سنة في مكة والذي اكتفى فيه بإعداد صحبه لمقاومة الأعداء دون اللجوء إلى السيف. والثاني: الذي يبدأ منذ الهجرة حتى معركة الأحزاب والذي كان موقف المسلمين فيها يقتصر على الدفاع. والثالث: عهد فتح مكة وغزوة حنين والذي تميز بالهجوم وإن كان الهدف إطفاء نار الفتنة.

وقد كان على عليه السلام إلى جانب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يضحى بنفسه طيلة هذه العهود، حيث بات على فراش النبي ليفديه بنفسه في الفترة الأولى ولا تنسى مواقفه في الفترة الثانية يوم بدر وأحد والأحزاب، كما تقدم الصفوف في فتح مكة وحنين في الفترة الثالثة [٧٧٧].

وقال بعض الكتاب إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يدافع عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى قبل البعثة وأشار إلى قصة حدثت حين كان عليه السلام في الثامنة من عمره فقد كان يقول:

إن النبي لا يتحدث في بيته عن العبيد ويخاطب الغلمان بالشباب ولا يغضب عليهم ولم يقل لأحدهم اف [٧٧٨].

والتعبير

«بكلّا كل»

(جمع كلكل بمعنى عظام الصدر) إشارة إلى الأبطال والزعماء في المجتمع آنذاك، و«قرون» جمع «قرن» كناية عن المقتدرين من الأفراد وأن قرن الحيوان من أعضائه القوية.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الأمر الثاني من هذا القسم؛ وهو علاقته الحميمة بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله والتي ابتدأت منذ الطفولة حتى آخر عمره حيث تربى عليه السلام في كنفه صلى الله عليه وآله فقال:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٨٠

ثم قال لمزيد من الايضاح:

«وَصَعْنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يُضْمَنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمَسِّنِي جَسَدَهُ، وَيُسْمِنِي عَرْفَهُ [٧٧٩]. وَكَانَ يَمْضِعُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ».

فالعبرة تفيد أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يفرق قط بينه وبين ولده، وقد احتضن الإمام عليه السلام منذ كان صغيراً وأفاض عليه من أخلاقه السامية وغمره بالحب والحنان، وأضاف عليه السلام:

«وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً [٧٨٠] فِي فِعْلٍ».

إشارة إلى أنه تربى في حضن النبي صلى الله عليه وآله بحيث كان بمنتهى الصدق والإخلاص في القول والفعل والسير على الحق دون أدنى انحراف.

ثم تطرق عليه السلام إلى بيان هذه النقطة وهي: إنني إن اتبعت النبي صلى الله عليه وآله قبل البعثة واعتزرتك الفترة وافتخرت بتلك الفرصة، فذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله كان يتمتع منذ نعومة أظفاره بهدى الله والطافه فقال:

«وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً [٧٨١]

أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارُهُ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيحِ يَلِ [٧٨٢] أَثَرُ أُمَّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ

عَلِماً، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ».

أى أن رعاية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم تكن مقتصرة على الجوانب الظاهرية فحسب، بل كان يعلمنى كل يوم درساً فى الأخلاق والكمال والفضيلة وكنت أعى ذلك.

وتشير العبارة

«علماً»

إلى العلامات التى كانت توضع سابقاً على الطرق فى الصحارى حتى يهتدى بها المسافرون فى مسيرتهم فلا يضلون الطريق فيتجهون بكل ثقة إلى مقصدهم، وقد كانت لعلى عليه السلام هذه الهداية إلى الحق.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٨١

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أحد الفصول المهمة فى حياة النبي صلى الله عليه وآله قبل البعثة؛ أى عبادته فى غار حراء فقال: «وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَرَاءِ فَأَرَاهُ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي. وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يُؤْمِنُ فِي الْأَسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا تَالِثُهُمَا. أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، وَأَشْمُ رِيحَ النُّبُوَّةِ».

فالعبرة تشير إلى أن عبادته صلى الله عليه وآله فى غار حراء كانت تتكرر لسنوات حيث قال الإمام عليه السلام:

«وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَرَاءِ»

كما تشير إلى أن علياً فقط كان يراه.

أضف إلى ذلك فقد مضت على الدعوة الإسلامية سنوات ولم يؤمن بها إلا ثلاثة:

النبي وخديجة وعلي (صلوات الله وسلامه عليهم).

وأما بشأن رؤية نور الوحي واستشمام ريح النبوة فقد حملها بعض شراح نهج البلاغة على الجوانب المعنوية بينما ذهب البعض الآخر إلى عدم المانع على حملها على الجوانب الظاهرية والمادية، أى أنه حين نزول الوحي كان هنالك نور يسطع منه لا يراه سوى النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام كما كان الجو يتعطر برائحة زكية لا يشمها سواهما ولا مانع من وجود بعض الكائنات المادية التى يدرکها الأفراد من ذوى الشعور القوى بينما يتعذر إدراكها على الآخرين، فمثلاً يقال: إن بعض الطيور ذات الحاسة القوية بإمكانها إدراك الأشعة فوق البنفسجية أو الأشعة الحمراء التى يتعذر إدراكها علينا نحن البشر وسنتحدث فى مبحث التأملات عن عبادة النبي صلى الله عليه وآله فى غار حراء وإيمان خديجة عليها السلام وعلي عليه السلام بصفتها أول من آمن بالله وصدق بالنبي. ثم أشار عليه السلام إلى أمر آخر بشأن علاقته بالنبي فقال:

«وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ [٧٨٣] الشَّيْطَانِ

حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ:

«هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيْسَ مِنْ عِبَادَتِهِ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٨٢

وأضاف عليه السلام فقال لى رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَنْتَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنْتَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلَكِنَّكَ لَوْزِيْرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ».

لعل هنالك من يقول: هنالك من لا يزال يعبد الشيطان فكيف التوفيق بين هذا الكلام وما جاء فى هذه الخطبة؟ والجواب واضح فى أن عرى الطاعة المطلقة للشيطان وعلى جميع المستويات التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى التى تشمل الوثنية وعبودية الأصنام والانحرافات الأخلاقية والمظالم الاجتماعية الشديدة قد انهارت بظهور الإسلام وظهرت الفئات الخيرة الكثيرة المؤمنة فى كل قرن وإن لم تكن أكثر عدداً وعدة من اتباع الشيطان فإن كفيتهم الوجودية ومقاماتهم لأرفع وأسمى.

بعبارة أخرى فقد صرح الشيطان منذ اليوم الأول قائلاً: «وَلَاغَوِيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» [٧٨٤]. وقد زال هذا المعنى

بانثاق الدعوة الإسلامية، فطائفة كبيرة من المؤمنين من ذوى الإيمان القوى والعمل الصالح قد خرجوا من تبعية الشيطان بالإضافة إلى المخلصين والمراد بهم خاصة أولياء الله.

على كل حال فإن هذه العبارة من قبيل العديد من الروايات التى سنشير إليها لاحقاً، والتى تشير إلى مدى عظم منزلة على عليه السلام بالنسبة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقد كان صنوه فى كل شىء سوى النبوة، وهذه هى الحقيقة التى وردت فى حديث المنزلة الذى ورد مفصلاً فى كتب الفريقين، حيث إن النبي صلى الله عليه وآله استخلف علياً عليه السلام على المدينة فى غزوة تبوك فلما سأله الإمام أخبره صلى الله عليه وآله بحديث المنزلة.

والحديث حسبما رواه ابن عباس ونقلته مصادر العامة المعتبرة كحديث صحيح السند أن علياً عليه السلام بكى لما استخلفه رسول الله صلى الله عليه وآله على المدينة حين انطلق إلى تبوك فقال له صلى الله عليه وآله:

«أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس بعمى نبي»

. ثم قال:

«إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٨٣

رواه الحاكم فى المستدرک وقال حديث صحيح السند، كما رواه الذهبى فى تلخيص المستدرک وصرح بصحته؛ كما ورد فى سائر المصادر مثل: مسند أحمد، ذخائر العقبى، مناقب الخوارزمى، الإصابة لابن حجر عسقلانى وسائر المصادر التى يضيق المقام عن ذكرها [٧٨٥].

تأملات

١. العلاقة الحميمة بين على عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله

لقد كانت هذه العلاقة منذ كان على عليه السلام فى طفولته حين تعرضت مكة لتلك الأزمة الاقتصادية والقحط الشديد الذى أصابها، وكان لأبى طالب أولاد كثيرون فشق عليه ذلك فطلب النبي صلى الله عليه وآله - وذلك قبل نبوته - من العباس الذهاب معه إلى بيت أبى طالب على أن يكفل أحد أبنائه، ويكفل النبي آخر فأتيا أباً طالب فقال لهما: اتركنا لى عقيلًا واحملا من تريدان، فاختر النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام والعباس جعفرًا، ومنذ ذلك الحين لازم على عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله حتى بعث فآمن به وصدقه [٧٨٦].

وكانت اليد الغيبية وراء تلك الحادثة ليكون على عليه السلام منذ نعومة أظفاره إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله فيتربى على يديه وقد تتلمذ على يد رسول الله صلى الله عليه وآله حتى رأى نور الوحي وشم رائحته وسمع صوت جبرئيل، بل سمع حتى رنة الشيطان حين المبعث وبالتالي كانت له علاقة تامة بعالم الغيب حتى خاطبه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«أَنْتَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى إِلَّا أَنْتَ كَسْتِ بِنَبِيِّ» [٧٨٧].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٨٤

٢. غار حراء

يقع غار حراء على سفح جبل يعرف اليوم بجبل النور، وكان هذا الجبل خارج مكة أما اليوم وبسبب اتساع مكة فإن جبل النور وغار حرا أصبحا داخلها، ويستغرق صعود هذا الجبل ما يقارب الساعة.

والغار المذكور غار صغير يستوعب شخصين في حال الوقوف للعبادة واثنان أو ثلاثة عند الجلوس، ولكن إلى جانبه موضع واسع يستوعب الكثير، والجدير بالذكر أن جانبي الغار مفتوحان ليدخله هواء لطيف، بحيث لا يشعر الإنسان بالحرارة الشديدة في فصل الصيف، وبغض النظر عما سبق فهو موضع للاختلاء والمليء بالمعنويات.

وكان صلى الله عليه وآله قبل البعثة وأحياناً حتى بعد البعثة يذهب إلى غار حراء بعيداً عن ضوضاء الجاهلية وعبادة الأصنام والخرافات السائدة في ذلك العصر، فيناجي الله ساعات وأياماً في ذلك الغار، ويفكر في خلق السماوات والأرض؛ والغريب أن من يدخل الغار ويتجه إلى الشمال فإنه يستقبل الكعبة وبيت المقدس.

ويستفاد من بعض الروايات أنه صلى الله عليه وآله كان يذهب إلى غار حراء حتى بعد النبوة لئبتعد عن أذى المشركين ويخوض في عبادة الله ومناجاته وكان معه أحياناً على عليه السلام وخديجة عليها السلام، ونعلم أن الوحي كان أول نزوله عليه هناك.

قال ابن أبي الحديد في شرحه: وأما حديث مجاورته صلى الله عليه وآله بحراء فمشهور وقد ورد في كتب الصحاح أنه كان يجاور في حراء من كل سنة شهراً، وكان يطعم في ذلك الشهر من جاءه من المساكين فإذا قضى جواره من حراء كان أول ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتي باب الكعبة فيطوف سبعمائة ثم يرجع إلى بيته، حتى جاءت السنة التي أكرمه الله فيها بالرسالة، فجاور في حراء ومعه أهله وخديجة وعلي ابن أبي طالب وخادم له. فجاءه جبرئيل بالرسالة.

(إن هذا الحديث يبدو إشارة إلى النزول الدفعي للقرآن على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في شهر رمضان؛ ولا ينافي النزول التدريجي في ٢٧ من رجب) [٧٨٨].

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٨٥

٣. النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قبل البعثة

كثيراً ما يتساءل الناس عن الدين الذي كان يعتنقه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قبل البعثة؛ ولم ينزل آنذاك الدين الإسلامي الحنيف؟

يقال أحياناً إنه كان على دين شيخ الأنبياء، إبراهيم الخليل عليه السلام، وهذا الكلام صائب من جانب حيث كان صلى الله عليه وآله موحداً عابداً لله، والتوحيد من أبرز خصائص دين إبراهيم عليه السلام، ورغم أن جميع الأنبياء كانوا موحدين، إلا أن ذلك ليس دليلاً على أن النبي صلى الله عليه وآله كان متعبداً بشريعة إبراهيم في فروع الدين كافة.

ويفهم من كتاب المرحوم ابن زهرة (غنية) أن هذا السؤال كان مطروحاً منذ ذلك الوقت، وقد أفرد فصلاً في كتابه لهذا الموضوع؛ وهو: هل كان النبي صلى الله عليه وآله متعبداً بشريعة سالف الأنبياء، ورغم أنه ذكر كلاماً مختصراً بهذا الخصوص، لكنه اكتفى بأن النبي صلى الله عليه وآله ربما عمل بدينه دون أن يذكر أي دليل على ذلك.

وورد في حاشية الطبعة الأخيرة لهذا الكتاب أن هذا السؤال كان مطروحاً منذ عهد السيد المرتضى والشيخ الطوسي، حيث صرح البعض بصورة كلية: أنه صلى الله عليه وآله كان يتبع ما سبقه من أديان، ونفى البعض الآخر ذلك، وأمسك آخرون عن الكلام، وروى عن الشيخ الطوسي أنه قال: إنه صلى الله عليه وآله كان على شرعة خاصة قبل النبوة نزلت عليه عن طريق الوحي دون أن يتبع الأنبياء السابقين.

ويعتقد العلماء المجلسي أنه كان للنبي هذا المقام قبل البعثة، فكانت تحدّثه الملائكة فيسمع كلامهم وكان أحياناً أخرى يلهم في

الرؤيا الصادقة، وبلغ مقام النبوة في الأربعين من عمره حيث نزل عليه القرآن والشريعة الإسلامية؛ ثم استدل على ذلك بسته أدلة [٧٨٩].

وما أجدر علمائنا الأعلام أن يلتفتوا إلى الخطبة القاصعة وكلام أمير المؤمنين عليه السلام بشأن ما كان عليه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله من خلال أعظم ملائكته حيث قال:

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٨٦

«وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيمًا أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ».

فهذا الكلام يشير صراحة إلى أن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله لم يكن متبعاً لما سبقه من أديان، بل كانت له منهجيته الخاصة التي بلغته عن طريق الإلهام من ذلك الملك العظيم وكان صلى الله عليه و آله ملتزماً بها.

فكيف يعلمه هذا الملك العظيم سبل مكارم الأخلاق، ولا يلهمه الواجبات، وهكذا يتضح الجواب عن السؤال بشأن تعبد النبي صلى الله عليه و آله قبل البعثة بما سبقه من أديان، من عدمه [٧٩٠].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٨٧

القسم الثاني والعشرون

إشارة

وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا آتَاهُ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيمًا لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَنِيكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْرًا إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَاهُ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «وَمَا تَسْأَلُونَ؟» قَالُوا:

تَدْعُونَنَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرْوِقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ، «فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَأِنِّي سَأَرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيضُونَ إِلَيَّ خَيْرٍ، وَإِنْ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْ يُحَرِّبُ الْأَحْزَابَ». ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «يَأَيُّهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَانْقَلِعِي بِعُرْوِقِكَ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ يَا ذَنُ اللَّهِ». فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَأَنْقَلَعَتْ بِعُرْوِقِهَا، وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيُّ شَدِيدٍ، وَقَصِفُ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ؛ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرْفَرَفَةً، وَأَلْقَتْ بَعْضَ نِهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَبَعْضَ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي، وَكُنْتُ عَنِ يَمِينِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ قَالُوا عَلُواً وَاسْتِكْبَاراً: فَمَرَّهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَبِئْتِي نِصْفُهَا، فَأَمَرَهَا بِذَلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيّاً، فَكَادَتْ تَلْتَفُ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَقَالُوا - كُفْرًا وَعُتُوّاً: فَمَرَّ هَذَا النِّصْفُ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِ فِيهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ؛ فَقُلْتُ أَنَا: لَأِلَهُ إِلَّا اللَّهُ؛ إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَنْ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٨٨

أَقْرَبُ بَنَانِ الشَّجَرَةَ فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصِيدِقاً بِبُتُوتِكَ، وَإِجْلَالاً لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السَّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا! يَعْغُونَنِي.

الشرح والتفسير: معجزة حركة الشجرة

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة الذي يعدّ من أهم جوانبها إلى إحدى معجزات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في مكة وقد شهدها الإمام عليه السلام ليؤكد علاقته الحميمة به صلى الله عليه وآله وسبقه إلى الإيمان، وهي المعجزة التي قل من رآها من المسلمين آنذاك فقال عليه السلام:

«وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا أَتَاهُ الْمَلَأُ [٧٩١] مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدْ ادَّعَيْتَ عَظِيمًا لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْرًا إِنْ أَنْتَ أَحْبَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَا، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ.»

العبارة:

«الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ»

تشير إلى أنّ هذه المعجزة حدثت في مكة وحين جهر النبي صلى الله عليه وآله بدعوته وسمعها الكثير من الناس، ولكن لم يكن يتمتع المسلمون بقوة وقدره، وإلا لما تجرّأ خصوم الدعوة بالتحدّث معه بهذه الطريقة الفظة.

على كلّ حال ظن أولئك أنّهم يختبرون النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وقد سنحت الفرصة لرسول الله صلى الله عليه وآله، لأنّ يثبت لهم حقايقه دعوته من خلال المعجزة التي طلبوها (لا التي يريدونها) ولذلك جاء في هذه الخطبة:

«فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «وَمَا تَسْأَلُونَ؟» قَالُوا: تَدْعُونَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرْوِقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ.»

فما كان منه صلى الله عليه وآله

: «فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟» قَالُوا: نَعَمْ.»

جدير ذكره أنّه صلى الله عليه وآله قال:

«فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ»

ولم يقل:

«فَإِنْ فَعَلْتُ»

إشارة إلى أنّ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٨٩

المعجزة بيد الله وإن ظهرت على يد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

والعبارة:

«أَتُؤْمِنُونَ» و «تَشْهَدُونَ»

إشارة إلى الإيمان القلبي بالإضافة إلى الشهادة بالحق ظاهرياً.

على كلّ حال فلم يقرّوا بالأمرين فما كان منه صلى الله عليه وآله إلّا أن:

«قَالَ: «فَإِنِّي سَأْرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَيَّ خَيْرًا، وَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلْبِ [٧٩٢]، وَمَنْ يُحَرِّبُ الْأَحْزَابَ.»

والعبارة:

«وَإِنَّ فِيكُمْ...»

إشارة إلى أبي جهل وعتبه وشبيهه وأميته بن خلف الذين قتلوا يوم بدر ورمى بأجسادهم في بئر كانت هناك.

والعبارة:

«مَنْ يُحَرِّبُ الْأَحْزَابَ»

إشارة إلى أبي سفيان. فالواقع أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أكمل طلبهم المعجزة بثلاثة أخبار غيبية يعد كل منها معجزة، عدم إيمانهم وطرح بعضهم في البئر ومعركة الأحزاب التي حدثت بعد سنوات عديدة لاحقاً.

ثم إنفتحت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى أصل سؤالهم وإنفتحت إلى الشجرة «ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «يَأْتِيَتُهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، فَأَنْقَلِعِي بِعُرْوَتِكَ حَتَّى تَقْفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ».

وخطاب النبي صلى الله عليه وآله لتلك الشجرة يفيد أن للنباتات والجمادات نوعاً من الإدراك والشعور الذي أفاضه عليها الله، كما تفيد العبارة القادمة أنها مؤمنة أيضاً بالله واليوم الآخر ولكن ما حقيقة هذا الإيمان وكيفيه ذلك الشعور والإدراك، وهل لها بعد اختياري أم إجباري، فذلك من الأمور التي ليست واضحة لدينا على وجه الدقة.

ولدينا العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى ذلك الإيمان والشعور والإدراك لدى جميع الأشياء بما فيها الجمادات وتفيد أنها تسبح الله وتقده، وقد أسهب المفسرون بهذا الشأن [٧٩٣].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٩٠

فاستطرد أمير المؤمنين على عليه السلام وقال:

«فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَأَنْقَلَعَتْ بِعُرْوَتِهَا، وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوَى [٧٩٤] شَدِيدٌ، وَقَصِفُ [٧٩٥] كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ؛ حَتَّى وَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرْفِرَفَةً [٧٩٦]، وَأَلَقْتُ بَعْضُهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَبِغَضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكَبِي، وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

فالذي يستفاد من هذه العبارة أن تلك الشجرة كانت ضخمة بحيث صاحبت حركتها أصوات عالية كانت مدوية، فألقت ببعض أغصانها على النبي صلى الله عليه وآله وباللبعض الآخر على علي عليه السلام، فكانت تلك معجزة كبيرة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وآله ياذن الله في إقتلاع تلك الشجرة ووقوفها بين يديه صلى الله عليه وآله.

ولكن هل أدت تلك المعجزة الباهرة إلى إيمان المشركين المتعصبين؟ كلا! بل كعادة المتعصبين المعاندين أخذوا يفتشون عن الذرائع وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام

«فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ قَالُوا عَلُوًّا وَاسْتِكْبَارًا: فَمَرَّهَا فُلْيَاتُكَ نَضِيْفُهَا وَيَبْقَى نَضِيْفُهَا، فَأَمَرَهَا بِبَدْلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نَضِيْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالِ وَأَشَدِّهِ دَوِيًّا، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

والذي يستفاد من العبارة أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وآله أراهم معجزتين أخريين؛ الأولى أنه أمر الشجرة بالرجوع إلى مكانها، والثانية أنه أمرها بأن يأتيه نصفها ياذن الله.

وهل اقتنع القوم المشركون المتعصبون بذلك؟ للأسف كلا! كما ورد في كلام الإمام عليه السلام:

«فَقَالُوا كُفْرًا وَعُتُوًّا: فَمَرَّ هَذَا النَّضْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَيَّ نَضْفِهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٩١

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَزَجَعَ؛ فَقُلْتُ أَنَا: لِمَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِحُكِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلْتَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصْدِيقًا بِبُيُوتِكَ، وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ».

وهل آمن أولئك بعد مشاهدتهم لهذه المعجزات الأربعة العجيبة والخرافة للعادة والتي حصلت جميعاً استجابة لاقتراحهم وليس لاقتراح رسول الله صلى الله عليه وآله وآله؟ كلا! وليتهم اقتصروا على عدم الإيمان بل رموه صلى الله عليه وآله بكلمات كافرة وطائشة وبعيده عن المنطق كما أشار إلى ذلك الإمام:

«فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السَّحْرِ خَفِيفٌ [٧٩٧] فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا! يَعْزُونَئِي».

إشارة إلى أننا شهدنا العديد من السحرة طيلة أعمارنا ونعلم أن فعلك كفعالهم، بل أمهر منهم ولا يصدقك في ذلك سوى أمثال هذا الصبي السريع التصديق!

والعجيب أن صدر كلامهم يناقض تماماً عجزه! فقد اقترحوا المعجزة وصرحوا باقتناعهم وإيمانهم بمجرد حصولها، ولكن حين تكررت المعجزة أربع مرات رموه بالسحر وهنا يرد هذا السؤال: إن هؤلاء لولم يكونوا يعرفون السحر من المعجزة ويحتملون السحر على النبي، فما بالهم اقترحوا عليه المعجزة منذ البداية؟ فقد كان لهم أن يرموه منذ البداية بالسحر. نعم، فالأفراد المتعصبون إنما يفتقرون على الدوام إلى المنطق والوجدان والانصاف.

تأملان:

١. معجزة الشجرة في الروايات الإسلامية

كان للنبي صلى الله عليه وآله عدة معجزات، والمعجزة المذكورة كانت أبرزها ولم تختصر الإشارة إليها في هذه الخطبة فحسب، بل وردت هذه المعجزة في أغلب التواريخ
نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٩٢
والروايات الإسلامية.

ويكفي هنا الإلتفات إلى ما ذكره ابن أبي الحديد في شرحه لهذه الخطبة فقد قال: وأما أمر الشجرة التي دعاها رسول الله صلى الله عليه وآله فالحديث الوارد فيها كثير مستفيض قد ذكره المحدثون في كتبهم والمتكلمون في معجزات النبي، وقد وردت في أغلب الروايات كما جاء في الخطبة القاصعة (التي نحن بصددتها) وإن اختصرها البعض وقال:

«إِنَّهُ دَعَا شَجْرَةً فَأَقْبَلَتْ تَخْدُّ إِلَيْهِ الْأَرْضَ خَدًّا».

ثم أضاف: وقد ذكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة حديث الشجرة ورواه أيضاً محمد بن اسحاق بن يسار في كتاب السيرة والمغازي [٧٩٨].

وقال المرحوم العلامة التستري في شرح نهج البلاغة: رواها ابن أثير في كتاب الكامل وفي أسد الغابة والبلاذري في أنساب الأشراف والكراچكي في كنز الفوائد [٧٩٩].

طبعاً يعلم من له معرفة بمعجزات الأنبياء بصورة عامة ومعجزات رسول الله خاصة أن مثل هذه المعجزات ليست عجيبة في إثبات حقايق دعوة النبي، كما أن أصرار الأفراد الجهال والمتعصبين على إنكار الدعوة ليست بالشيء الجديد.

٢. الفارق بين السحر والمعجزة

كما ورد سابقاً فمما لا شك فيه فقد كانت لأنبياء الله والأئمة المعصومين عليهم السلام أفعال خارقة للعادة تتعذر على الإنسان العادي، أي الأمور التي تجرى خلافاً للقوانين الطبيعية السائدة ولا تتم إلا من خلال الاستمداد من قوة تفوق القوة الطبيعية من قبيل إحياء الموتى وشفاء المرضى الذي لا علاج لهم والإخبار عن الغيب الذي ورد في القرآن الكريم بشأن المسيح عليه السلام ومعجزة العصا واليد البيضاء لموسى عليه السلام وناقفة صالح عليه السلام واطفاء نار نمرود على إبراهيم لتصبح عليه برداً وسلاماً

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٩٣

ومعجزة شق القمر والأهم من كل ذلك معجزة القرآن الكريم التي خُصَّ بها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. ومن الواضح أن المعجزات لا تعنى تحقق معلول دون علمه لينكر ذلك بعض الأفراد، بل بمعنى الاستبداد من العلل غير الطبيعية المجهولة، والزعم بأننا عارفون بجميع العلل الطبيعية والتي تفوق الطبيعة هو زعم لا يقره أحد.

ومن جانب آخر فإنَّ السحر حقيقة وإن امتزجت بالعديد من الخرافات، والسحرة عادة ما يستفيدون من العلل الطبيعية، لكنها علل وأسباب لم يلمَّ بها الناس العاديون فمثلاً قيل بشأن سحر السحرة على عهد موسى عليه السلام أنهم صنعوا شيئاً شبيه الحية وسكبوا داخله «الزئبق» الذي جعل ذلك الشيء الذي يشبه الحية يتحرك حين واجه أشعة الشمس بفعل «تطاييره»، وعليه ففعلهم لم يكن خارقاً للعادة؛ لكنهم استغلوا بعض الأسباب التي لم تكن معروفة لدى عوام الناس.

وهنا يرد هذا السؤال: كيف يتسنى للناس التمييز بين السحر والمعجزة ليتعرفوا على الأنبياء ويكتشفوا كذب السحرة؟ ويبدو الفرق بينهما واضح؛ ومن ذلك؛ أولاً: إنَّ سحر السحرة محدود لأنه يستند العلوم البشريَّة المحدودة، ولذلك يقوم السحرة بما يريدون من خرق العادة لا تلك التي يقترحها عليهم الآخرون، ذلك لأنَّ عملهم ينطلق من تجاربهم وتمريناتهم ورياضاتهم السابقة. أمَّا بشأن الإعجاز فإنَّ الأنبياء يتجهون صوب الأمور التي يقترحها عليهم الناس كالمعجزة آنفة الذكر ومعجزة شق القمر وسائر المعجزات التي طلبها قوم موسى من نبيهم عليه السلام رغم ما كان عليه الأنبياء من معجزات منذ انطلاقتهم مثل معجزة القرآن والعصا واليد البيضاء.

ثانياً: تقترن معجزات الأنبياء بادعاء النبوة والحال ليس للسحرة مثل هذا الادعاء في خرقهم للعادة، فالحكمة الإلهية لم تسمح بحصول ما يخرق العادة بيد

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٩٤

الكذابين والمفترين ليدعى النبوة فيقود الناس إلى الضلال والغواية، بل تقتضى الحكمة الإلهية فضح هؤلاء السحرة، ومن هنا فقد افتضح كل ساحرهم بهذا الادعاء.

ثالثاً: لما كان السحر أمر منحرف، فلا يتجه إليه إلا الأفراد المنحرفون، أى الأفراد الذين تشهد أقوالهم وأولادهم على انحرافهم. وعلى هذا الأساس إن بدرت من شخص قضية خارقة للعادة فلا بد من تأمل سيرته، فإنَّ كانت سيرته حسنةً صالحه كان ذلك علامة على كون تلك القضية الخارقة للعادة معجزة، وإن كانت سيرته طالحةً وأعماله مشينهة كان ما بدر منه سحراً، ذلك لأنَّ السحرة من المصاديق البارزة للكذابين من الأفراد والغشاشين.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٩٥

القسم الثالث والعشرون

إشارة

وَإِنِّي لَمِنَ قَوْمٍ لَاتَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، سَيَمَاهُمْ سَيَمَا الصَّادِقِينَ، وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَبْرَارِ، عَمَّارُ اللَّيْلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ. مُتَمَسِّكُونَ بِجَبَلِ الْقُرْآنِ، يُحْيُونَ سُنْنَ اللَّهِ وَسُنْنَ رَسُولِهِ؛ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَغْلُونَ، وَلَا يَغْلُونَ وَلَا يُفْسِدُونَ. قُلُوبُهُمْ فِي الْجَنَانِ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ.

الشرح والتفسير: أولياء الله

خاض الإمام عليه السلام في ختام الخطبة في التعريف بنفسه ليكمل ما ذكره في السابق من التعريف بمنزلته وموقعه ليمنح ما ورد في هذه الخطبة قوة وعمقاً واتقاناً أكثر، من جهة، لأن الإيمان بالمتكلم والوقوف على مدى علمه وتقواه يدفع بالمخاطب لأن يحمل خطابه محمل الجد، ومن جهة أخرى ولتعريف عليه أولئك الشباب وسط أصحابه الذين لم يعلموا بمواقفه، إلى جانب ضرورة أن يعرف الجميع أن هذه الكلمات لم يكن هدفها الدنيا ولا ترسيخ دعائم الحكومة بل الهدف منها هداية الأمة إلى الصراط المستقيم، فقد أشار عليه السلام إلى تسع عشرة صفة من صفاته والتي تعد كل واحدة منها فضيلة ومنقبة عظيمة فقال:

«وَأِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لَأَتَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً».

فالقيام بالوظيفة أحياناً يكون مخالفاً للأفكار ورغبات طوائف معينة في المجتمع وهنا يتخلى بعض الأفراد الانتهازيين وأصحاب الدعوة والراحة أو الجبناء عن أداء وظائفهم خشية التعرف لملامة الآخرين وتقريعهم، وولى الله من يواصل

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٩٦

طريقه إن رآه صحيحاً ولو انتهج عامة الناس طريق الخطأ دون أن يشعر بأدنى خشية أو خوف ويقدم رضا الله على رضا الخلق، وقد كان الإمام على عليه السلام رائد هذا الطريق بعد النبي صلى الله عليه وآله وهي الصفة التي امتاز بها جميع أئمة أهل البيت عليهم السلام وأبرز مصداق على ذلك الإمام الحسين عليه السلام وشهادته في كربلاء.

وقد أثنى الله في كتابه الكريم على المجاهدين الذين يتسمون بهذه الصفة فقال:

«يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمَةٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» [٨٠٠].

وقال في الصفة الثانية والثالثة: «سَيِّمَاهُمْ سَيِّمَاتِ الصَّادِقِينَ، وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَبْرَارِ».

و «الصادقين»:

هم الصادقون والمصدقون بأبياء الله الذين كانوا يصدقونهم في أقوالهم وأفعالهم وقد جعلهم الله تعالى في الآية ٦٩ من سورة النساء في مصاف أنبيائه فقال: «فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ...».

و «الأبرار»:

من ذكر لهم القرآن ثمانى عشرة صفة في سورة الدهر، وهي الصفات التي ترفع صاحبها إلى أسمى مقام في القرب من الله، ونعلم أن هذه الصفات نعت بها (على وفاطمة الزهراء والحسن والحسين عليهم السلام).

ثم قال في الصفتين الرابعة والخامسة:

«عَمَّارٌ اللَّيْلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ».

والعبارة:

«عَمَّارٌ»

جمع (عامر) إشارة إلى التهجد وإحياء الليل وعبادات اليوم والنهار التي تعمر روح الإنسان وقلبه وتضفي عليه معاني الصفاء والجمال وتحيي القلوب الميتة وتغسل الذنوب بماء حياة التوبة، والعبارة «منار» إشارة إلى الأبراج العالية التي كانت توضع سابقاً في مسير الطرق الصحراوية وتنصب عليها المصابيح حتى لا يضل المسافر الطريق (تشبه العلامات المرورية التي تنصب اليوم في الشوارع). فهؤلاء الأفراد كتلك المصابيح في هداية الناس إلى الله والسعادة والخير والنجاة من الضلال والغواية.

ثم قال في الصفتين السادسة والسابعة:

«مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ؛ يُحْيَوْنَ سُنَنَ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٩٧

اللَّهِ وَسُنَنَ رَسُولِهِ».

المراد من التمسك بحبل القرآن التوسل به ليخرج الإنسان من مستنقع الطبيعة وهوى النفس ويعرج إلى ساحة القرب الإلهي، أو خروج ماء الحياة من باطن أرض الوجود الإنساني بواسطته أو التمسك بحبل القرآن في المعابر الخطيرة بغيه عدم السقوط في أودية الضلال.

قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في أهميته القرآن الكريم الوارد في حديث الثقلين:

«كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ» [٨٠١].

وإحياء سنة الله وسنة النبي العمل بالفرائض الواردة في القرآن والواجبات التي فرضها النبي صلى الله عليه وآله، لا العمل لوحده فحسب بل لابد من دعوة الآخرين إلى ذلك.

ثم قال في الصفات الثامنة والتاسعة والعاشره والحادية عشرة:

«لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَغْلُونَ، وَلَا يَغْلُونَ [٨٠٢] وَلَا يُفْسِدُونَ».

وهذه الصفات في الواقع مرتبطة مع بعضها، فالتكبر والشعور بالعلو وحمل الغل والإفساد من صفات الطغاة المستكبرين بغيه تحقيق أهدافهم اللامشروعة، قال القرآن الكريم: «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا» [٨٠٣]، وقال أيضاً: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا» [٨٠٤].

وبالنظر إلى أن كلمتي الفساد والخيانة وردت هنا بصورة مطلقة فإنهما تشملان في العقائد والأخلاق والأموال وجميع شؤون الحياة.

وأخيراً قال في الصفة الثانية عشرة التي تمتاز بشموليتها:

«قُلُوبُهُمْ فِي الْجَنَانِ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٩٨

إشارة إلى أن هدفهم نبيل للغاية فهم لا يفكرون سوى برضا الله وجنانه الخالدة، ومن هنا فأبدانهم تعيش على الدوام طاعة الحق والعمل بالواجبات الإلهية والواجبات الإنسانية، جدير بالذكر أن الخطبة ابتدأت بنفى الكبر والاستكبار واختتمت به وهذه إحدى شؤون الفصاحة والبلاغة في إرتباط النهاية بالبداية.

حقاً إن الذين يتصفون بهذه الصفات الإثنتي عشرة هم المؤمنون المخلصون الذين ينتظرهم الجنة بشوق، وهم القدوة الحسنة لعباد الله في الحياة الدنيا.

اللهم اجعلنا من السائرين على دربهم، ووفقنا لاتباع تعاليمهم ولا تفرق بيننا وبينهم في الدنيا والآخرة طرفه عين أبداً!

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٣٩٩

الخطبة ١٩٣

إشارة

يَصِفُ فِيهَا الْمُتَّقِينَ [٨٠٥] رَوَى أَنَّ صَاحِبًا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقَالُ لَهُ هَمَّامٌ كَانَ رَجُلًا عَابِدًا، فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، صِفْ لِي الْمُتَّقِينَ حَيْثِي كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ. فَتَأَقَّلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ جَوَابِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا هَمَّامُ! اتَّقِ اللَّهَ وَأَحْسِنْ: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ

مُحْسِنُونَ». فَلَمْ يَقْنَعْ هَمَامٌ بِهَذَا الْقَوْلِ حَتَّى عَزَمَ عَلَيْهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

نظرة إلى الخطبة

تتابع الخطبة مطلباً معيناً وهو صفات المتقين حيث ذكر الإمام عليه السلام مائة وعشر

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٠٠

صفات للمتقين، لكننا إن تأملنا تفاصيل الخطبة لرأينا أن هذه الصفات تعالج أبعاداً مختلفة من حياة المتقين.

فبعضها يتحدث عن سجايهم الأخلاقية الفردية، بينما يبحث البعض الآخر في أخلاقهم الاجتماعية.

ويكشف جانب آخر من الخطبة علو شأنهم في القضايا العقائدية والمعارف الدينية بينما يشير جانب آخر منها إلى منزلته تقواهم وورعهم من حيث الأقوال والأفعال.

كما تطرق جانب آخر من الخطبة إلى سيماهم وعلاماتهم التي ترشدنا إلى التعرف على المتقين الورعين في جماعة معينة من خلال هذه الصفات.

واختتمت الخطبة بحادثه عجيبة لهمام - السائل الذي أصر على بيان صفات المتقين - حيث صعق صعقة فارق على أثرها الحياة الدنيا؛ فقال الإمام عليه السلام: هكذا تفعل المواعظ البالغة بأهلها، فقام إليه رجل فقال: فما بالك يا أمير المؤمنين؟ فأجابه الإمام بجواب مقنع.

ويستفاد من بعض الطرق الروائية أن الإمام خطب بهذه الخطبة بعنوان صفات الشيعة [٨٠٦].

إجابة عن سؤال

طبق لما ورد في صدر الخطبة فإنه يرد هذا السؤال: لم تحفظ الإمام عليه السلام عن بيان صفات المتقين بادئ الأمر ثم شرحها أثر إصرار السائل؟

وردت عدة وجوه في سبب تأمل الإمام عليه السلام بشأن الجواب منها:

١. إن الإمام عليه السلام كان يعلم بأن ذلك الرجل من أهل المواعظ والنصح ويخشى عليه من شعوره المرهف وحساسيته المتزايدة، ومن هنا اكتفى الإمام عليه السلام بجواب

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٠١

إجمالي يدل عليه ذيل الخطبة.

٢. شهد المجلس آنذاك بعض الأفراد الغرباء الذين لم ير الإمام عليه السلام من مصلحة في سماعهم لتلك الكنوز والجواهر الثمينة، ولعل ذيل الخطبة شاهد على ذلك، فسؤال السائل وجواب الإمام عليه السلام يدل على وجود غير المؤهلين في ذلك الوسط.

٣. أثار الإمام عليه السلام اهتمام همام بصورة أعمق لسماع الجواب بذلك التأمل والسكوت لتأخذ تلك المواعظ مأخذها المطلوب منه.

٤. إن أدب السؤال والجواب يقتضى ألا يتعجل المجيب بجوابه، بل يتأمل في بداية الحديث ليعرف السائل بأهمية المطلب، الأمر هل الذي ذكر بشأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يترث في الجواب حتى يسئل عن ذلك التريث هو تفكير في الجواب؟ فيرد صلى الله عليه وآله لا، بل إكرام للعمل [٨٠٧].

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٠٣

القسم الأول

إشارة

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَيِّبًا عَنِ طَاعَتِهِمْ، آمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاةٍ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعَةٍ. فَفَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ.

فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الْاِقْتِصَادُ، وَمَشِيَّتُهُمُ التَّوَاضُعُ. عَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نُزِلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِلَتْ فِي الرَّخَاءِ. وَلَوْلَا الْأَحْيَالُ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَتِرْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقًا إِلَى التَّوَابِ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ. عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهَمُّ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهَمُّ فِيهَا مُنْعَمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهَمُّ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةٌ مَرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ. أَرَادَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسْرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

الشرح والتفسير: صفات المتقين

قبل أن نخوض في شرح هذا القسم من الخطبة علينا أن نبين هذه النقطة وهي ما كيفية العلاقة بين جواب الإمام عليه السلام المقتضب بداية الأمر وسؤال همام؟ فقد طلب السائل بيان صفات المتقين، فأمر الإمام عليه السلام بالتقوى والإحسان بدلًا من بيان

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٠٤

الصفات، ثم تطرق إلى فوائد التقوى ويبدو للوهلة الأولى أن الأمر بالتقوى ليس جواباً عن سؤال همام ولا ذكر الفوائد. الظاهر أن الإمام عليه السلام أراد بهذا الكلام أن يفهمه بأن التقوى مفهوم واضح بالإجمال وعليك بالعمل، ثم تطرق عليه السلام لنتائج التقوى لحثه عليها، على كل حال فقد خاض الإمام عليه السلام في بداية الخطبة في بيان هذه النقطة المهمة حيث بين أن الله تعالى غنى عن الجميع فإن وردت بعض الوصايا الثقيلة والعديدة بشأن التقوى في هذه الخطبة فهي لا تضيف لله شيئاً من الجلال والجاه، بل ليطوى الإنسان مسيرة التكامل فقال عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَيِّبًا عَنِ طَاعَتِهِمْ، آمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاةٍ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعَةٍ».

ودليل ذلك واضح، فأولاً: الله تعالى وجود لامتناه من جميع الجهات وكمال مطلق وليس للنقص من سبيل إلى هذا الوجود ليرقى به إلى كمال عن طريق الطاعة والعبودية ولو كفر من في الأرض كلهم جميعاً لما نال ذلك من كبرياء الله شيئاً، إذ إن المخلوقات أعجز من أن يلحقوا ضرراً بذاته القدسيّة.

وثانياً: كل ما لدى المخلوقات من الله وفيوضاته ولا معنى لإعادة الفيض عليه، كل خلق يتغذى على مائدته، بل حياتهم بلطفه ورحمته ولو أو كلهم الله إلى أنفسهم طرفه عين لهلكوا.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أوضاع الناس الدنيوية كمقدمه في الواقع لبيان الجوانب المعنويّة التي ذكرت لاحقاً، فبين بعبارتين الأمور كافّة في جوانب حياتهم الماديّة وقال:

«فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ».

إشارة إلى أن الله بيده جميع حوائج الخلق الماديّة وهو يفيض عليهم من لطفه بقدر كل حسب موقعه. وهذا ما ورد في القرآن الكريم

في الآية ٣٢ من سورة الزخرف:

«نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٠٥

طبعاً تقسيم المعيشة لا يعنى وصول كل شىء للإنسان فى داره دون سعى ومثابرة، ولكن الرزق يأتى بالسعى والجهد فقد خلق الله جميع الموارد ودعى الجميع للسعى والعمل، وهكذا المقامات الظاهرية التى افاضها الله على العباد لا تتحصل هى الأخرى دون السعى والجد والاجتهاد.

جدير ذكره أننا أن شاهدنا موت البعض فى العصر الراهن بسبب الجوع، فذلك ليس معلولاً لشحة المواد وقتها، بل يعزى ذلك إلى ظلم وجور الطبقة الأنانية النفعية المستغلة، فلو كان هنالك تقسيم عادل فى الأرزاق لما جاع أحد حتى فى ظل أصعب السنين قحطاً. ولم يوفر الله تعالى الرزق للإنسان فحسب دون الكائنات، بل وفر ذلك بصورة مذهلة لجميع الأحياء والحيوانات، فلم يغفل عن نطفة فى جنين ولا يرقه فى بيضة طائر أو بذرة نبات ووفر للجميع ما يحتاجون إليه، وتبدو قصة تقسيم الأرزاق فى مختلف أساليبها وطرقها لمن القصص العجيبة التى ينبغى أن تؤلف فيها الكتب.

ثم خاض عليه السلام فى بيان السجايا البارزة للمتقين فاستهلها بثلاث صفات بارزة وقال:

«فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الْاِقْتِصَادُ، وَمَشِيهِمُ التَّوَاضُّعُ».

العبارة:

«مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ»

إشارة إلى الخطوة الأولى فى تهذيب الإنسان وتربيته التى تتمثل فى صون لسانه ومنطقه؛ اللسان الذى تصدر بواسطته الكبائر، كما تحقق بواسطته أفضل العبادات، فإن صلح صلح كل ما فى الإنسان وإن فسد فسد كل شىء فيه.

ولمفردة

«صواب»

، هنا مفهوم غاية فى السعة يشمل كل كلمه حق وحكمة، نعم فالمتقون ينبرون قبل كل شىء لصون ألسنتهم ومنطقهم، ومن هنا يعتقد أصحاب السير والسلوك أن صون اللسان يعد الخطوة الأولى فى إصلاح الذات، ذلك لأن صلاحه يعنى صلاح سائر الأعضاء، قال تعالى فى كتابه العزيز: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٠٦

اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» [٨٠٨].

وإصلاح الأعمال وغفران الذنوب أثر التقوى والقول السديد، قرينه حسنه على إرتباطهما ببعضهما.

والتعبير بالملبس فى العبارة

«وَمَلْبَسُهُمُ الْاِقْتِصَادُ» [٨٠٩]

والتي ذكرت ثانى صفة وفضيلة للمتقين إن وردت بمعناها الحقيقى فهى إشارة إلى اللباس الظاهرى الذى ينبغى أن يكون بعيداً عن الاسراف والتبذير وكذلك التقير والبخل كما روى ذلك بعض الشراح.

أما إن كان اللباس بالمعنى الكنائى الواسع بقرينه بعض الآيات مثل

«وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ» [٨١٠]

و «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لِبَاسًا» [٨١١] و «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ» [٨١٢] فلا ينبغى الاقتصار به على معنى الارتداء الظاهرى

بل يكون معناه واسع يشمل جميع حياة الإنسان، أى إعتدال الحياة برمتها فىكون بمثابة اللباس على أجسادهم، كما عبر فى الجملة

الثالثة:

«مَشِيَهُمُ التَّوَّاضِعُ»

فهى لا- تقتصر على المشى الظاهرى، ذلك لأن المشى المتواضع وإن كان حسناً لكنه لا يصلح فى مصاف أولى الصفات البارزة للمتقين، ولكن إن كان إشارة لمعنى المشى الواسع فمعناه أن سلوكياتهم كافة مقرونة بالتواضع.

فقد أشار الإمام عليه السلام فى الواقع بداية الخطبة إلى ثلاثة مبادئ أساسية: الصواب والاعتدال والتواضع التى تسود حياة المتقين فى جميع جوانبها.

وقد وردت عدّة تأكيدات على هذه المبادئ الثلاث فى الأخبار والروايات، فقد ورد فى الخبر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ هَذَا اللِّسَانَ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ وَشَرٍّ»

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٠٧

فَيَبْغَى لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَخْتِمَ عَلَى لِسَانِهِ كَمَا يَخْتِمُ عَلَى ذَهَبِهِ وَفَضَّتِهِ» [٨١٣].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَا عَالَ مَنْ اقْتَصَدَ» [٨١٤].

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«فِيمَا أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا دَاوُدُ كَمَا أَنَّ أَقْرَبَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْمُتَوَاضِعِ - مَعُونَ كَذَلِكَ أُبْعِدُ النَّاسَ مِنَ اللَّهِ الْمُتَكَبِّرُونَ» [٨١٥].

ثم بين عليه السلام هاتين الصفتين فقال:

«غَضُّوا [٨١٦] أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا

أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ».

«غَضُّوا»:

من مادة

«غَضَّ»

تعنى فى الأصل (التقليل) وحين تستعمل فى العين تعنى الخفض أى خفض الرأس إلى الأسفل أو إسدال الجفنين على العينين.

«وَقَفُوا»:

من مادة

«وقف»

تعنى لغوياً التوقف بينما تعنى فى الاصطلاح الفقهى وقف شىء لآخر أو تستعمل بمعنى أوسع بمعنى خص الشىء بآخر. وعليه فإن أخذنا المعنى الحقيقى للكلمة فى العبارتين المذكورتين كان المفهوم أنهم لا ينظرون إلى الحرام ولا يسمعون سوى العلم النافع، وإن أخذنا بنظر الاعتبار المعنى الكنائى الواسع فمفهوم العبارة الأولى أنهم يخفضون بصرهم عن جميع المحرمات ويوقفون سمعهم على العلم النافع فقط.

والمراد من

«الْعِلْمِ النَّافِعِ»

فى الدرجة الأولى العلوم الدينية المفيدة والقيم المعنوية والحياة السعيدة فى العالم الآخر، وبالدرجة الثانية كل العلوم الضرورية للعزة والمجد والاستقرار والرفعة للبشرية فى هذه الدنيا، بما فيها العلوم المرتبطة بصحة الإنسان وسلامته أو الصناعة والزراعة أو العلوم

السياسية وما شابه ذلك.

لا شك في أن علاقة الإنسان بالعالم الخارجي والعالم المعاصر والسابق بصورة

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٠٨

رئيسية عن طريق هاتين النعمتين أي العين والأذن، فالإنسان يرى الحقائق بعينه وبها يقرأ التاريخ، ويسمع بأذنه رسالته السماء وأئمة الدين وتفصيل تجارب العظماء السابقين. فهو يرتبط بجميع الأشياء من حوله بهاتين الوسيلتين بحيث لو سلبتا منه لما بقي لديه شيء ولكن عقله وشعوره كعقل وشعور الصبي غير المميز، بل حتى لسانه وسائر حواسه إنما تنشط في ظل سلامة هذين العضوين ومن هنا فإن الفرد الأصم والأعمى أخرس على الدوام وإن كان لسانه سالماً.

ورد في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«كُلُّ عَيْنٍ بَاكِئَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَيْرُ ثَلَاثٍ؛ عَيْنٌ سَهَرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ فَاضَتْ مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ» [٨١٧].

وفي حديث آخر عن الإمام الحسن عليه السلام قال:

«أَنْ أَبْصَرَ الْأَبْصَارَ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ مَذْهَبَهُ وَأَسْمَعَ الْأَسْمَاعَ مَا وَعَى التَّذْكَيرَ وَانْتَفَعَ بِهِ» [٨١٨].

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى صفة أخرى من صفات المتقين والتي تتمثل بالرضا والتسليم فقال:

«نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نَزَلَتْ فِي الرَّخَاءِ» [٨١٩].

فالنعمة لا تسكرهم ولا تبطرهم، والمصائب والخطوب لا تحزنهم ولا تجزعهم؛ فهم راضون برضا الله مسلمون لإرادته في جميع الأحوال. طبعاً أنهم لا يتوانون في السعي لمواجهة المحن والخطوب وتوفير أسباب النعم والعيش الكريم لكنهم لا يعيشون سوى الرضا والتسليم بالنسبة لما كان خارجاً عن إرادتهم؛ ذلك لأنهم يعلمون من جانب أن الله حكيم ورحيم وأرحم من الأم بولدها ولا يقدر سوى ما فيه مصلحة عبده المؤمن.

ويعلمون من جانب آخر أن الجزع إزاء الحوادث الأليمة ليس فقط لا يحل

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٠٩

الأزمة بل يحبط الأجر والثواب وأحياناً يضاعف من شدة الخطب ويوجب بالتالي اليأس والقنوط إزاء كل حادثة.

وقد وردت عدّة روايات عن المعصومين عليهم السلام بشأن مقام الرضا والتسليم ومنها ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «رَأْسُ طَاعَةِ اللَّهِ الصَّبْرُ وَالرِّضَا عَنِ اللَّهِ فِيمَا أَحَبَّ الْعَبْدُ أَوْ كَرِهَ، وَلَا يَرْضَى عَبْدٌ عَنِ اللَّهِ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ» [٨٢٠].

وقد روى المرحوم الكليني بعد نقله لهذه الرواية اثنتي عشرة رواية في الرضا والتسليم ومقامات المؤمن الراضى والمسلم لإرادة الله تبارك وتعالى.

ثم تطرق عليه السلام إلى صفة بارزة أخرى للمتقين والتي تدل على الإيمان القوى والثقة بوعده الله فقال:

«وَلَوْ لَأَجَلَ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَشْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ».

فأرواحهم أشبه بالطير المسجون في القفص فهو يرى نفسه من جهة إزاء الحداثق النضرة المفعمة بأنواع الزهور والنباتات والفواكه والثمار، ومن جانب آخر يرفرف بأجنحته إزاء النار المحرقة داخل القفص فيحنو إلى الحرية ليحلق إلى تلك الحداثق ويتخلص من تلك النار المحرقة.

والمثقفون على هذه الشاكلة، فعشقهم للثواب من جانب وخوفهم من العقاب (أثر سوء العاقبة) من جانب آخر يشد أرواحهم المرهفة إلى العالم الآخر، بينما يحول عنهم دون ذلك الأجل الذي ضربه الله لهم.

ويكشف هذا التعبير ضمناً سيادة الخوف والرجاء في وجودهم، فهم راجون من جانب لثواب الله ولطفه، ويخشون من جانب آخر أن

تزل أقدامهم في هذه الدنيا فيقعون في فخ الشيطان وهوى النفس فيغادرون الدنيا وقد ساءت عاقبتهم.

جاء في الحديث أن لقمان الحكيم خاطب ولده فقال له:

«يَا بُنَيَّ خَفِ اللَّهَ خَوْفًا

نفعات الولاية، ج ٧، ص: ٤١٠

لَوَأْتَيْتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيْرِ الثَّقَلَيْنِ خَفْتَ أَنْ يُعَذَّبَكَ وَارْجُ اللَّهَ رَجَاءً لَوْ أْفَيْتَ الْقِيَامَةَ يَأْتِمِ الثَّقَلَيْنِ رَجَوْتَ أَنْ يُغْفَرَ اللَّهُ لَكَ» [٨٢١].

وذكر الإمام عليه السلام صفة بارزة جداً في المتقين فقال:

«عَظَمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ».

فكل شخص يبدو له النهر الكبير ضئيلاً حين يكون إلى جانب المحيط المتلاطم الأمواج، وحين ينظر الإنسان إلى الشمس التي تضيئ العالم لا يرى من وجود لضوء أكبر وأكبر مصابيح العالم ضياءً، نعم، فقد تعرّف المتقون على القدرة المطلقة والعلم اللامتناهي لخالق عالم الوجود فأدركوا بقدر استعدادهم عظمة ذاته المقدسة، فكان من الطبيعي أن يصغر كل ما سواها في أعينهم، وهذه هي إحدى العوامل التي تقف وراء تقوى المتقين وورعهم وأعظم من ذلك عصمتهم من الذنب والمعصية، فكلما عظمت معرفة الإنسان بالله صغر ما سواه في نظره فلم يعد يتعلق بهذه الأشياء الحقيرة والتافهة ولذلك لا يقارف الذنب.

ومن هنا نفهم ما قاله الإمام على عليه السلام:

«وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيَ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتِ أَفْلَاحِهَا عَلَى أَنْ أُعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمَلَةٍ أَشْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ» [٨٢٢].

وقال في مواصلته لكلامه:

«وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَاهُونَ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضِيهَا».

فإن ذلك يعزى ذلك إلى عرفانه عليه السلام بالله تبارك وتعالى. نعم، كلما ازدادت معرفة الله لدى الإنسان صغرت الدنيا في عينيه وضعفت لديه أسباب الذنب واستشعر المزيد من الطمأنينة والسكينة، وبالطبع فإن أحد آثارها حضور القلب في العبادة والصلاة، بحيث لا يلتفت إلى الألم حين تُسَل السهام من جسده.

ثم اتجه عليه السلام إلى صفة بارزة أخرى تتمثل في مقام المتقين اليهودي فقال:

«فَهُمْ

نفعات الولاية، ج ٧، ص: ٤١١

وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ».

للإيمان واليقين مراحل، فإيمان البعض تفرزه الأدلة العقلية وسائر الأدلة الكافية والشافية عليه، وقد عبّر العرفاء وأساتذة الأخلاق وبالاستناد إلى الآيات القرآنية عن هذه المرحلة بمرحلة (العلم اليقيني)، والمرحلة الأسمى هي (مرحلة الشهود) حيث يتجاوز الإنسان في هذه المرحلة الأدلة العقلية ليلبغ مقام الشهود فيرى الله ويشاهد عظمته ببصيرته وتزول عنه جميع الشكوك والوسوس التي تترتب أحياناً على الأدلة العقلية وهذا ما يصطلح عليه بمقام (عين اليقين).

والمرحلة الثالثة وهي مرحلة (حق اليقين) المختصة بخواص الله ومقربيه حيث يصل الإنسان في ظلها إلى مرتبة تذوب فيها ذاته فلا يرى سوى الله ويغيب عن ناظره كل ما سواه.

فالواقع أن المرحلة الأولى عامة وتشمل جميع المؤمنين الصادقين، بينما تختص المرحلة الثانية بالمتقين المخلصين والمجاهدين، وتختصر المرحلة الثالثة على صفوف معينة من أولياء الله كالمعصومين عليهم السلام، ولكل مرحلة آثارها ومعطياتها وأحد آثار مرحلة الشهود التي أشير إليها في هذه الخطبة بشأن المتقين أنهم يرون أنفسهم حاضرين على الدوام أمام الحق ولا ينفكون عن طاعته وإمتثال أوامره، وبالطبع فإن قدسية حياتهم خير شاهد على إيمانهم اليهودي فقد جاء في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: إن

رسول الله صلى الله عليه وآله بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوى [٨٢٣] برأسه، مصفراً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله:

«كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا فُلَانٌ؟»

قال:

«أَصْبَحْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُوقِنًا»

. فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله، وقال صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ لِكُلِّ يَقِينٍ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ يَقِينِكَ؟».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤١٢

فقال:

«إِنَّ يَقِينِي يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الَّذِي أَحْزَنَنِي وَأَسَهَّرَ لَيْلِي وَأَظْلَمَ هَوَاجِرِي فَعَرَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا حَتَّى كَأَنِّي إِلَى أَنْظُرَ عَرْشَ رَبِّي وَقَدْ نُسِبَ لِلْحِسَابِ وَحُشِرَ الْخَلَائِقُ لِدَلِّكَ وَأَنَا فِيهِمْ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ فِي الْجَنَّةِ وَيَتَعَارَفُونَ، عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ مُضْطَرِّحُونَ وَكَأَنِّي الْآنَ أَسْمَعُ زَفِيرَ النَّارِ يَدُورُ فِي مَسَامِعِي».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه:

«هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ»

. ثم قال صلى الله عليه وآله له:

«إِلْزَمِ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ».

فقال: يا رسول الله ادع لي أن أرزق الشهادة معك. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وآله فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر [٨٢٤].

وقد وردت العديد من الأخبار التي تشبه ما ورد سابقاً بشأن المتقين طيلة التاريخ والذين بلغوا مقام الشهود والتي تؤكد كلام الإمام عليه السلام.

ثم واصل كلامه عليه السلام فذكر خمس صفات أخرى من صفات المتقين فقال:

«قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ».

فهذه الصفات سلسله من صفات المتقين، ذلك لأن حزنهم الذي ورد في صفتهم الأولى يشير إلى خوفهم من الله والتقصير في الإتيان بالوظائف، قال الإمام الصادق عليه السلام:

«الْحُزْنُ مِنْ شِعَارِ الْعَارِفِينَ»

. وواصل كلامه قائلاً:

«وَلَوْ حَجَبَ الْحُزْنَ عَنْ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ سَاعَةً لاسْتَعَاثُوا» [٨٢٥].

نعم، فهم وجلون دائماً إزاء وظائفهم، ومن هنا خيم الحزن على قلوبهم خشية

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤١٣

التقصير في حق مظلوم أو صدور ظلم منهم أو أنهم فكروا في ما سوى الله، أضف إلى ذلك لا يفارقهم غم العشق وحزن الإبتعاد عما يرجونه من قرب الله، على كل حال فهم لا يعيشون هم الدنيا أبداً، لأنهم لا يعيشون الدنيا.

وعليه فإن قال القرآن: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَأَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» [٨٢٦]. فهذا لا ينافي ما ورد في هذه الخطبة، لأن الخطبة متعلقة بالخوف عما سوى الله والحزن على الدنيا المادية وقوله في الصفة الثانية أن الناس منهم في أمان إشارة إلى أن وجودهم لا يختزن

سوى الخير والبركة للجميع ولا يفرز أى عناء وعذاب. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَخَافُ النَّاسَ شَرَّهُ» [٨٢٧].

وقال عليه السلام فى الصفة الثالثة إن أجسامهم نحيفة ولا يراد به النحافة المتعارفة اليوم فى المجتمع، بل تعنى الضعف الذى يفيد الزهد من جانب والتقوى والصوم ويدل من جانب آخر على الخفة والاستعداد فى إتيان الوظائف الشرعية، على كل حال فإن هذه الصفة كـبعض الصفات الأخرى لها استثناءات حيث إن البعض من الأفراد ليس بنحيف بحسب بنيتة الجسمية لكنه فى صف المتقين. وأشير فى الصفة الرابعة إلى حاجاتهم المحدودة لا على غرار أصحاب الدنيا كانزى الذهب والفضة الذين يشبهون جهنم كلما أعطوا شيئاً نادوا «هل من مزيد»، والحق أن القناعة والحاجات الخفيفة لتصون الإنسان من العديد من الذنوب وتريح فكره لسلوك سبيل الحق، كما ذكر الإمام عليه السلام فى إحدى كلماته القصار حيث قال:

«تَخَفُّوا تَلَحُّفُوا» [٨٢٨].

وجاء فى الخبر أن الإمام الصادق عليه السلام دخل حماماً فقال له صاحب الحمام:

نخليه لك؟ فقال عليه السلام:

«لا، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خَفِيفُ الْمُؤُونَةِ» [٨٢٩].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤١٤

وأشار فى الصفة الخامسة إلى مقام العفة فى أن أرواحهم عفيفة، تلك العفة التى تسوق الإنسان إلى غض الطرف عن الهوى والمعصية، وبعبارة أخرى لم يعد للأهواء والمعاصى من سبيل إليهم بحيث ينفرون من رؤية المناظر القبيحة والفاحشة.

قال عليه السلام فى إحدى كلماته القصار:

«مَا الْمُجَاهِدُ الشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَعْظَمِ اجْرَاءٍ مِمَّنْ قَدَرَ فَعَفَّ؛ لِكَأَدِ الْعَفِيفِ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ» [٨٣٠].

وكيف لا يكونون كذلك وقد انتصروا فى ميدان الجهاد الأكبر على عدوٍ خطر هو هوى النفس والشيطان.

ثم قال فى ذكر صفة أخرى من صفاتهم:

«صَبْرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةٌ طَوِيلَةٌ. تِجَارَةٌ مَرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ»

. فالصبر سواء على الطاعة أو إزاء وساوس المعصية أو على المصيبة لمن الصفات البارزة للمتقين.

ولا يسع أحد الظفر بأى هدف معنوياً كان أم مادياً ما لم يتحل بالصبر والاستقامة ولو فقد الإنسان هذه الصفة فإنه يخاطر بدينه وإيمانه وعزته وشرفه ومن هنا جاء فى حديث عن الإمام عليه السلام أنه قال:

«وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ» [٨٣١].

ونقل المرحوم الكليني فى الكافى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«الْجَنَّةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ وَالصَّبْرُ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمَكَارِهِ فِي الدُّنْيَا دَخَلَ الْجَنَّةَ؛ وَجَهَنَّمَ مَحْفُوفَةٌ بِاللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ فَمَنْ أَعْطَى نَفْسَهُ لَذَّتَهَا وَشَهَوَاتَهَا دَخَلَ النَّارَ» [٨٣٢].

واعتبر الإمام عليه السلام كما ورد فى العبارة أن هذا العمل؛ أى الصبر مدّة قليلة إزاء نيل تلك السعادة الخالدة تجارة مربحة يسرها الله لهم.

قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤١٥

وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ» [٨٣٣].

وقال فى موضع آخر إن الملائكة تتلقى الصالحين من المؤمنين حين يرومون دخول الجنة بالسلام: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ» [٨٣٤].

ثم تطرق عليه السلام إلى صفتين من صفات المتقين فقال:

نفعات الولاية؛ ج ٧؛ ص ٤١٥

«أَرَادَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُواهَا، وَأَسْرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا».

إشارة إلى اقبال الدنيا بجميع متعها ولدائنها إلى الجميع لتستقطب إليها النفوس البشرية، ولكن لا يقع في شباكها سوى أولئك الجهال أو أصحاب الأهواء، بينما لا يغتر بها المتقون الذين يعلمون أن حقيقتها سراب، وهنالك البعض الذي يغتر بالدنيا عن طريق المال والثروة والجاه والمقام والشهرة، بينما لا يخفى هذا المعنى على المتقين.

والحق أننا لنرى الكثير من الناس الذين يصبحون اسارى المقام بحيث يدفعهم الحفاظ عليها إلى عدم التورع عن ارتكاب كل موبقة وجناية، وهناك البعض الذى يأسره المال والشهوات بحيث يضحي من أجل ذلك بكرامته الإنسانيّة، أمّا المتقون السائرون على خطى المعصومين يتجاوزون ذواتهم وشعارهم فى ذلك «هَيْهَاتَ مِنَّا الدَّلَّةُ».

تأمل

محاوّر هذا الجانب من الخطبة

تدور محاور هذا الجانب من الخطبة الذى تضمن عشرين صفة من صفات المتقين حول عدة أمور، إيمان المتقين الراسخ وهو الإيمان الذى بلغ حد الشهود ومشاهدة عالم ما وراء الطبيعة، مسألة التولى عن متع الدنيا ولذاتها وعدم الانخداع

نفعات الولاية، ج ٧، ص: ٤١٦

بالأهواء والشهوات وتحرى العلم والمعرفة واجتناب الذنوب والمعاصى سيما معاصى اللسان والتواضع وكف الشر عن الخلق تمثل معظم تلك الأمور.

وإن لم يكن للمتقين سوى هذا الجانب المذكور فى الخطبة لكفاه أن يصنع منهم أناساً كمل فضلاً عن الجوانب القادمة من الخطبة التى تشير إلى هذه الصفات.

والصفات السابقة ليست منفصلة عن بعضها البعض الآخر، بل هى سلسلة متصلة ومشروع جامع للسالكين إلى الله والذين ينشدون القرب منه تعالى.

فذلك الشخص الذى بلغ به الأيمان درجة كأنه يرى حجب النور وينظر من خلف حجب الطبيعة الضخمة إلى الجنة والنار من الطبيعى أن يصغر فى عينه كل ما سوى الله ولا تخدعه مفاتن الدنيا وزخارفها ويعيش الواقع إزاء خلق الله ويكف عنهم أذاه.

وهنا يطرح هذا السؤال: كيف يتحصل هذا الإيمان الشهودى ولمن سيكون نصيب هذه السعادة؟

وتتضح الاجابة عن هذا السؤال من خلال بعض التشبيهات، فالصورة الحقيقية لا تنعكس فى مرآة القلب مادام ملطخاً بقذارة الأهواء، ولا يسع الإنسان التحليق إلى سماء الحقيقة مادام مسجوناً فى زنانه الطبيعة.

نفعات الولاية، ج ٧، ص: ٤١٧

القسم الثاني

إشارة

أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَشِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ. فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصِبَ أَعْيُنِهِمْ. وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْعَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي أَصُولِ آذَانِهِمْ، فَهَمَّ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكْفَهُمْ وَرُكْبِهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ.

الشرح والتفسير: ليل المتقين

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة في حال المتقين في الليل ليركز على التفاصيل ويمهد السبيل أمام الجميع فقال: «أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَشِيرُونَ [٨٣٥] بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ». ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى تلاوة القرآن في صلاة الليل، ذلك لأنهم يرتلون القرآن حين القيام بعد سورة الحمد في الصلاة؛ كما يمكن أن يكون الأمران منفصلين، أي أنهم ينهضون في الليل للصلاة وتلاوة القرآن أيضاً. جدير ذكره أن الإمام عليه السلام بين أسلوب قراءة المتقين للقرآن بعبارة قصيرة عميقة

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤١٨

المعنى فهم يقرأون القرآن بصيغته الترتيل الذي يعنى التأمل والتدبر في مفاهيم القرآن أضف إلى ذلك قال: إنهم يرون أنفسهم مخاطبين بالقرآن فإن مرّوا بآية فيها تشويق تطلّعوا إليها طمعاً وإن مرّوا بآية فيها تخويف، استشعروا منها الحزن، كما أنهم يبحثون عن دواء دوائهم الأخلاقي والمعنوي في زوايا الآيات القرآنية فهو الطيب وهو الدواء. ثم قال في شرحه لهذا المعنى:

«فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا، وَتَطَلَّعَتْ [٨٣٦] نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصِبَ أَعْيُنِهِمْ».

نعم! فهؤلاء لا يطالعون القرآن بصورة سطحية بل يرون أنفسهم مخاطبين به فتأجج في قلوبهم نيران الشوق حيث البشارة الإلهية ويرون ببصائرهم ما وهم فيه في هذه الحياة الدنيا، وهذا ما يدفعهم إلى السير والسلوك إلى الله تعالى.

«وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْعَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ [٨٣٧] جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي أَصُولِ آذَانِهِمْ».

فقد بلغ إيمانهم مرحلة الشهود فأخذوا يرون حقائق عالم الغيب وكأنها تعيش معهم، وبالطبع إن كانت قراءة القرآن بهذه الصيغة كانت أفضل وسيلة في التهذيب والتربية.

ورد في إحدى كلمات الإمام عليه السلام أنه قال:

«أَلَا خَيْرٌ فِي قِرَاءَةِ لَيْسَ فِيهَا تَدَبُّرٌ أَلَا خَيْرٌ فِي عِبَادَةِ لَيْسَ فِيهَا تَفَقُّهُ» [٨٣٨].

وروى عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال:

«آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنٌ فَكَلَّمَا فَتَحَتْ خَزِينَتَهُ يَتَبَغَى لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِيهَا» [٨٣٩].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤١٩

ولما فرغ الإمام عليه السلام في العبارات السابقة من بيان كيفية صلاة المتقين المقرونة بتلاوة الآيات القرآنية والمترامنة مع الخضوع

والخشوع والتدبر وحضور القلب أرفدها في العبارة التالية ببيان ركنين آخرين هما الركوع والسجود فقال:
 «فَهُمْ حَانُونَ [٨٤٠] عَلَى أَوْسَاطِهِمْ [٨٤١]، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ [٨٤٢] وَأَكْفُهُمْ وَرُكْبِهِمْ، وَأَطْرَافِ [٨٤٣]
 أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ [٨٤٤] رِقَابِهِمْ».

فالعبارات التي ذكرها الإمام عليه السلام بشأن الركوع والسجود تعبيرات بمنتهى الروعة والجمال والتي تُطلع الإنسان على عمق هذه العبادات، فالإنحاء أمام الله وافتراش الجبين وبسط الأرجل على الأرض إزاء عظمة الله بالتوجه وحضور القلب ينطوي على عالم من المعنويات، والطريف أن الهدف النهائي لذلك تحرير رقبته الإنسان من قيد الأسر، ولكن هل المراد تحريرها من مخالف نار جهنم أم من كل قيد من قيود هوى النفس والشيطان والأشعار من الناس؟ يبدو أن عبارة الإمام عليه السلام مطلقة تشمل الجميع رغم تظافر الروايات التي وردت فيها العبارة

«مِنَ النَّارِ»

بعد

«فَكَاكِ الرَّقَبَةِ».

نعم! فحرية الإنسان مرهونة بعبوديته لله في الدنيا وفي الآخرة وسوى المتقين أسرى الأهواء والرغبات والأموال والثروات والمقامات والشياطين.

وما بينه الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة بشأن المتقين إقتباس في الواقع من الصفات التي ذكرها القرآن الكريم للمتقين في آواخر سورة الفرقان عن
 «عِبَادُ الرَّحْمَنِ»

« فَقَدَ قَالَ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا* وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا» [٨٤٥].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٢٠

تأمل

١. خاض الإمام عليه السلام بعد بيانه لصفات المتقين في مستهل الخطبة في انشطتهم في الليل والنهار والتي تغص بدروس السعادة.

فشرح بادئ الأمر نشاطهم بالليل حيث يسرون فيه بصورة كاملة باتجاه التربية والتهذيب والقرب الإلهي.

ويستند أساس هذا النشاط إلى أمرين: ١. الصلاة بحضور قلب تام، وهي الصلاة الموصلة لكل سمو

«قُوبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ»

وهي الطريق المتقين للقرب من الله والناهي عن كل فحشاء ومنكر.

٢. تلاوة القرآن في الصلاة وخارجها في غسق الليل حيث الصمت المطلق والشرايط التي تنفي الموانع كافة من الحضور بين يدي

القرآن والمقرونة بالتدبر في الآيات بحيث يرى المؤمن نفسه مخاطباً بآيات الثواب والعقاب فيرى بأم عينيه مصير أصحاب الجنة وأصحاب النار في خضم الآيات وينفتح على معارفها ويتعظ بمواعظها ويمثل في حياته لأحكامها.

حقاً إن مثل هذه الصلاة والتلاوة القرآنية في جوف الليل إنما تربيتهم بحيث يستطيعون في النهار القيام بوظائفهم بأحسن نحو، وسيرد الحديث عن نشاطهم في النهار في القسم القادم من الخطبة.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٢١

القسم الثالث

إشارة

وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءَ، أَبْرَارٌ أَتَقِيَاءُ. قَدْ بَرَاهُمْ الْخَوْفُ بَرَى الْقِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَحْسِبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ؛ وَيَقُولُ: لَقَدْ خَوْلَطُوا!

وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لَا يَرِضُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْتِرُونَ الْكَثِيرَ. فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مَتَّهَمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ إِذَا زُكِيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي! اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ!

الشرح والتفسير: نهار المتقين

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة في نشاط المتقين في النهار (على غرار القسم السابق الذي شرح فيه نشاطهم في الليل) فأشار بادئ الأمر إلى خمس صفات من صفاتهم فقال:

«وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءَ، أَبْرَارٌ أَتَقِيَاءُ. قَدْ بَرَاهُمْ [٨٤٦]

الْخَوْفُ بَرَى الْقِدَاحِ [٨٤٧] يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَحْسِبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ؛ وَيَقُولُ: لَقَدْ خَوْلَطُوا [٨٤٨]! وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ!».

والصفات الخمس التي ذكرها الإمام عليه السلام بشأن نشاط المتقين في النهار دلالة

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٢٢

واضحة على هذه الحقيقة وهي أن تقوى هؤلاء المتقين ليست منفصلة عن المجتمع قط، بل تقواهم مقرونة بالعلم والمعرفة والإدارة وتحمل المسؤولية والإحسان والعيش في وسط المجتمع.

«حُلَمَاءُ»:

من مادة «حلم» التي تعنى حسب (الراغب) ضبط النفس حين الغضب، ولما كانت هذه الحالة نابعة من العقل فإن مفردة الحلم تستعمل أحياناً بمعنى العقل ومن هنا تطلق كلمة الحلم على من يتمالك نفسه عند الغضب وعلى العالم أيضاً.

وقال علماء الأخلاق أن صفة الحلم تمثل حالة الاعتدال بين الصفتين الرذيلتين؛ إحداهما الذلّة والأخرى المفرطه وهي الغضب.

على كل حال فإن هذه الصفة غالباً ما تظهر حين التعامل مع الجهال فيضطر الحليم إلى مداراتهم بحيث لا يُستغل علمهم يفتقون إلى أنفسهم ويكفون عن جهلهم.

والتعبير بالعلماء لا يقتصر على أولئك الذين انفتحوا على العلوم المعروفة بل يشمل الأفراد ممن لهم اطلاع ومعرفة واسعة وقدرة على إدراك الحقيقة.

والعبارة:

«قَدْ بَرَاهُمْ الْخَوْفُ بَرَى الْقِدَاحِ»

ليس المراد منها أن المتقين ضعيفو البنية خشية المسؤولية، بل المراد أن تلك الخشية جعلتهم أكثر فاعلية وحسماً في القيام بوظائفهم، ذلك لأن السهم حين يبرى ليصيب الهدف يكون انطلاقه أفضل وحدثه أعظم.

والتعبير

«يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرَضَى

» إشارة إلى أن العلماء الحكماء والملتزمين الأبرار يبدون في أعين السذج من الناس كأفراد ضعيفي الإرادة وغير جادين في قراراتهم. ومن هنا نرى رمى الأنبياء من قبل أممهم بتهمه الجهل والجنون، سيما أنهم لا يشابهون سائر قومهم، فمن لم يكن مثلهم يرونه مجنوناً لأنه يخالف عاداتهم وعقائدهم بينما الواقع هم المجانين.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٢٣

قال القرآن بشأن السابقين في الخيرات: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ» [٨٤٩].

جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد في ذيل الآية الشريفة أنه سئل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: هل المراد من الآية من يذنب ويخشى الذنب؟ فقال صلى الله عليه وآله:

«لَا، بَلِ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْهُ» [٨٥٠].

ثم خاض الإمام عليه السلام في بيان علو همة الملتزمين فقال:

«لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْتَرُونَ الْكَثِيرَ. فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهَمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ» [٨٥١].

فعلو همتهم وسمو معرفتهم لا تدعهم يرضون بالأعمال القليلة أو يستكثرون تلك الأعمال على خلاف المغرورين ضيقى النظر الذين يرضون من أنفسهم بالقليل من العمل وكأنهم أشرف خلق الله، وبغض النظر عن ذلك فهؤلاء يتمتعون بصفة بارزة هي نقد الذات التي يفر منها أغلب الأفراد والذين لا يقبلون النقد من الآخرين وبطريق أولى لا ينتقدون أنفسهم وبذلك يهجرهم الأمر الذي يؤدي إلى سموهم وتكاملهم.

فهؤلاء يشعرون بالخشية دائماً وكأنهم لم يؤدوا حق نعمه الله وهجروا طريقه عبودية الله وأنهم مسؤولون أمام خلق الله.

وقد فسّر بعض شراح نهج البلاغة الأعمال الواردة هنا بالعبادات فقط واستشهدوا بالروايات الواردة في كثرة عبادات النبي صلى الله عليه وآله وأمر المؤمنين عليه السلام والإمام السجاد عليه السلام. صحيح أن العبادات تعدّ إحدى الوظائف المهمة للعباد، ولكن ليس لدينا أى دليل على حصر الأعمال الواردة في العبارة المذكورة بالعبادة وعدم شمولها

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٢٤

للمسؤوليات الاجتماعية.

وقد كان أتمتنا عليهم السلام يقرون بذلك لله تعالى مع ما كانت لديهم من أعمال ضخمة واسعة ورغم قدسيتهم وطهارتهم، فقد ورد عن الإمام السجاد عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي تضرعه قائلاً:

«وَمَا قَدَرُ أَعْمَالِنَا فِي جَنْبِ نِعْمِكَ وَكَيْفَ نَسْتَكْتَرُ أَعْمَالًا تُقَابِلُ بِهَا».

وجاء في كتاب الغارات عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أن أحدهم تعجب من كثرة ما ينفق ويتصدق في سبيل الله فقال له عليه السلام:

«لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَبِلَ مِنِّي فَرْضًا وَاحِدًا لِأَمْسَكْتُ، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَقْبَلَ اللَّهُ مِنِّي شَيْئًا أَمْ لَا؟» [٨٥٢].

وهذا في الواقع درس لعامة الناس في عدم الاغترار بأعمالهم العبادية والخيرية مهما كانت كثيرة ذلك لأن مسألة الإخلاص صعبة ومعقدة.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«ثَلَاثُ قَاصِمَاتُ الظَّهْرِ؛ رَجُلٌ اسْتَكْتَرَ عَمَلَهُ، وَنَسِيَ ذُنُوبَهُ، وَأَعْجَبَ بِرَأْيِهِ» [٨٥٣].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى في إطار حديثه عن مسألة نقد الذات فقال:

«إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي! اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ،

وَأَجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَأَغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ!».

وإننا لنعلم أن من موانع الرقى والتقدم نحو الله وفي المجتمع البشرى هو مدح المداحين وتملق المتملقين الذى قذف بأغلب زعماء العالم فى أودية الخطأ والضلال، والمتقون يشعرون بالخوف دائماً من مدح الآخرين حذراً من أن يسوقهم إلى الغرور والعجب فيتعرضون لسخط الله، فهم يسألون الله أن يكونوا أعظم من ذلك المديح وإن كانت لديهم معصية خفية سألوه غفرانها.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٢٥

تأمل

إشفاق المتقين من أعمالهم

يتصف نشاط المتقين نهاراً بالصبغة الشعبية والاجتماعية المحضه رغم نشاطهم الليلي فى تهذيب النفس فى ظل المناجاة والعبادة والتضرع إلى الله، والاستناد إلى العلم والحلم والإحسان والخوف فى تحمل المسؤولية لأفضل دليل على هذا المعنى. فهم علماء يوظفون العلم لهداية وإرشاد المجتمع.

وحلماء يتحملون الصبر إزاء تعصب ولجاجة الجهال من الأفراد، ومحسنون يمدون يد الخدمة بقدر استطاعتهم إلى المحتاجين. خائفون ووجلون من القيام بالمسؤوليات الكبيرة، فخوفهم خوف إيجابى ليكون الدافع للعمل أسمى وأعظم لا خوف سلبى يدعو إلى التوقع وترك النشاط، ولذلك قال عليه السلام: إنَّ الخوف لم يضعفهم بل جعلهم أكثر عملاً على غرار السهم الذى يبرى ليعد لإصابة الهدف.

ومن صفاتهم أنهم ليسوا كأصحاب الدنيا الذين ينتهزون الفرص والنفعيين الذين يتأقلمون مع كل شخص ومع جميع الظروف بغية تحقيق أهدافهم المادية، ومن هنا يتهمهم مثل هؤلاء الأفراد بخفة العقل والسداجة، وزبده الكلام فإنهم مشفقون من أعمالهم سباقون للنظر فيها قبل أن يتعرض لها الآخرون.

حقاً مثل هؤلاء الأفراد يستطيعون انقاذ المجتمع البشرى من الظلم والجور وإيصال الحقوق إلى أصحابها.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٢٧

القسم الرابع

إشارة

فَمِنْ عَلَامَتِهِ أَحَدِيهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحِزْمًا فِي لِينٍ، وَإِيمَانًا فِي يَقِينٍ، وَحِرْصًا فِي عِلْمٍ، وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ، وَقَصِيدًا فِي غِنَى، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ، وَتَجُمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْرًا فِي شِدَّةٍ، وَطَلَبًا فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطًا فِي هُدًى، وَتَحَرُّجًا عَنِ طَمَعٍ. يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَحِيلٍ. يُمَسِّي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُضَيِّحُ وَهَمُّهُ الدُّكْرُ. يَبِيْتُ حَيْذِرًا وَيُضَيِّحُ فَرِحًا؛ حَيْذِرًا لَمَّا حَيْذَرَ مِنَ الْعُفْلَةِ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنْ اسْتَضَعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكَرَّرَ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْرُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ.

شرح وتفسير

اثنا عشره صفة أخرى

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى اثني عشره صفة أخرى من صفات المتقين بعبارات قصيرة عميقة المعاني ليستهلها بقوتهم في الدين وبعدهم عن الطمع فقال عليه السلام:

«فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْمًا [٨٥٤] فِي لَيْنٍ، وَإِيمَانًا فِي يَقِينٍ، وَحِزْصًا فِي عِلْمٍ، وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ، وَقَصِيدًا فِي غِنَى، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً [٨٥٥] فِي فَاقَةٍ، وَصَبْرًا فِي شِدَّةٍ، وَطَلْبًا فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطًا [٨٥٦] فِي هُدَى،

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٢٨

وَتَحَرُّجًا [٨٥٧] عَنْ طَمَعٍ».

والعبارة:

«قُوَّةً فِي دِينٍ»

تشير إلى عدم استطاعة المشككين والمنافقين النفوذ إليهم وليس بإمكان خطوب الدنيا ومصاعب الحياة زعزعة إيمانهم.

وتشير العبارة

«وَحَزْمًا فِي لَيْنٍ»

إلى أنهم رغم إشراقتهم الفكرية التي تستلزم عادة الحزم - خلاف العادات اليومية التي تسهل العمل - لا ينسون الليونة والمرونة ويعاملون من يرافقتهم في تحقيق الأهداف الاجتماعية بالرفق والمحبة على ضوء المثل القائل:

«لَا تَكُنْ حُلُومًا فَتَسْتَرْطُ وَلَا مَرًّا فَتُلْفَظُ».

والعبارة:

«وَإِيمَانًا فِي يَقِينٍ»

تشير إلى أن للإيمان درجات أعلاها درجة علم اليقين وحق اليقين التي تحصل أحياناً عن طريق الاستدلالات القوية والتمتية، وأخرى عن طريق الشهود من خلال ذلك السمو.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ الْإِيمَانَ أَفْضَلُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَإِنَّ الْيَقِينَ أَفْضَلُ مِنَ الْإِيمَانِ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَعَزُّ مِنَ الْيَقِينِ» [٨٥٨]

. نعم فقد بلغ المتقون هذه المرتبة السامية والنادرة.

والعبارة:

«حِزْصًا فِي عِلْمٍ»

رغم أن مفردة الحرص تحمل الجانب السلبي عادة لكنها هنا تشير إلى أنهم بمنتهى الجدية في كسب العلم، ذلك لأنه لا أصالة للتعوي ولا عمق دون العلم.

والعبارة:

«وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ»

تشير إلى أن العالم لا ينبغي أن يغضب وينفعل إزاء جهل الجاهلين بل ينفذ إليه بحلمه بصورة تدريجية فيزيل جهله.

ونقرأ مانقله المرحوم العلامة المجلسي في حديث مفصل حوار الإمام الصادق عليه السلام مع البصري الذي جاء إلى الإمام الصادق

عليه السلام لتحصل العلم، فقال له في شأن الحلم:

نقحات الولاية، ج٧، ص: ٤٢٩

«فَمَنْ قَالَ لَكَ إِنَّ قُلْتَ وَاحِدَةً سَمِعْتَ عَشْرًا فَقُلْ إِنَّ قُلْتَ عَشْرًا لَمْ تَسْمَعْ وَاحِدَةً».

وقال بشأن العلم:

«فَأَسْأَلِ الْعُلَمَاءَ مَا جَهِلْتُ وَإِيَّاكَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ تَعْتَنَّا وَتَجْرِبُهُ وَإِيَّاكَ أَنْ تَعْمَلَ بِرَأْيِكَ شَيْئًا» [٨٥٩].

العبارة:

«قَصْدًا فِي غِنَى»

إشارة إلى أنهم إن أصبحوا أغنياء وأثرياء لا يتخلون عن الاعتدال ويجتنبون الإسراف والتبذير ويعينون الفقراء بما لديهم من أموال فائضة عن الحاجة.

والعبارة:

«وُخْشوعًا فِي عِبَادَةٍ»

إشارة إلى أن عبادتهم ليست سطحية جوفاء خالية من الروح، بل تصدح عباداتهم بالخضوع والخشوع وحضور القلب الذي يمثل روح العبادة في أعمالهم العبادية وكل صلاة من صلواتهم معراج للقرب الإلهي، ومن هنا قال القرآن الكريم في وصفه للمؤمنين المفلحين:

«الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» [٨٦٠].

والعبارة:

«تَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ»

التي تقابل في الواقع

«قَصْدًا فِي غِنَى»

إشارة إلى أن المتقين ولا يشكون حين الفقر والفاقة.

وتفيد مفردة

«تَجَمُّلٌ»

أنهم رغم فقرهم وعوزهم يحافظون على ظاهريهم، كما يصفهم القرآن: «يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ» [٨٦١].

والعبارة:

«صَبْرًا فِي شِدَّةٍ»

تشير إلى استقامتهم وصبرهم إزاء مكاره الدهر والحوادث الأليمة وكمصداق لقوله تعالى: «إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ

رَاجِعُونَ» [٨٦٢].

حيث يرون أنفسهم راجعين إلى الله ودار الأمن والأمان والروح والريحان دون الإكتراث لهذه الدنيا فقد قال النبي صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ الصَّبْرَ نِصْفُ الْإِيمَانِ» [٨٦٣]

. وقال:

نقحات الولاية، ج٧، ص: ٤٣٠

«الْإِيمَانُ نِصْفَانِ؛ نِصْفٌ فِي الصَّبْرِ وَنِصْفٌ فِي الشُّكْرِ» [٨٦٤].

والعبارة:

«طَلَبًا فِي حَلَالٍ»

تشير إلى أن المتقين ليسوا أفراداً متوقعين ومعتزلين للأنشطة الحيوية، بل يسعون ويجدون من أجل المعاش والنهوض بالمجتمع الإسلامي الذي يشكل أحد أهدافهم الأساسية، مع هذا الفارق وهو أن أصحاب الدنيا لا يهتمون للحلال والحرام بينما يعيش هؤلاء هم الكسب الحلال ويهربون من العمل مهما كان دخله كثيراً إن شئوا منه رائحة الحرمة، قال النبي صلى الله عليه وآله: «العبادة سبغون جزءاً أفضلها طلب الحلال» [٨٦٥].

وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً» [٨٦٦]. ويمكن أن تكون العبارة دلالة على أن العمل الصالح وليد الغنى الحلال والطيب.

والعبارة:

«نَشَاطًا فِي هُدًى»

تفيد أن طي طريق الهدى بالنسبة لهؤلاء وخلافاً لما يعتقد الأفراد ضيقى الفكر وقليل المعرفة منطلقاً للنشاط والحيوية، فهم لا يكفون قط من السير على هذا الدرب وسلوك هذا الطريق يضاعف من نشاطهم وفاعليتهم.

المراد من العبارة

«وَتَحَرُّجاً عَنِ طَمَعٍ»

أن المتقين بعيدون كل البعد عن الطمع، الطمع نتيجة التعلق الشديد بالدنيا بسبب التوجه لغير الله والذي يؤدي إلى العديد من المفسد ومنها أنه أحد عناصر الذلّة والبغض والعداوة والحقد والحسد؛ فالطماع لا يشبع قط من مال الدنيا ويسعى للحصول عليه بالطرق والوسائل كافة فهو في الواقع يعيش أسر هذا القيد على الدوام كما قال الإمام عليه السلام في إحدى كلماته القصار: «الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ» [٨٦٧].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٣١

أضف إلى ذلك فالطمع يعطل الفكر والعقل ويعرض الإنسان للتذبذب والحيرة، كما قال عليه السلام في إحدى كلماته القصار: «أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ» [٨٦٨].

ثم تطرق عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى من صفات المتقين فقال:

«يَعْمَلُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ [٨٦٩]. يُمَسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذُّكْرُ».

نعم! فلو أتى أولياء الله بكل الأعمال الصالحة لظلوا يخشون عدم أدائهم حق العبودية لله والتقصير في إمتثال التكليف، كما ورد في الحديث الشريف عن الحارث بن المغيرة أو أبيه، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: ما كان في وصية لقمان؟

قال عليه السلام:

«كَانَ فِيهَا الْأَعَاجِبُ وَكَانَ أَعْجَبُ مَا كَانَ فِيهَا أَنْ قَالَ لِإِبْنِهِ: خِيفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خِيفَةً لَوْ جِئْتَهُ بِبِرِّ الثَّقَلَيْنِ لَعَذَّبَكَ، وَارْجُ اللَّهَ رَجَاءً لَوْ جِئْتَهُ بِذُبُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَرَحِمَكَ...» [٨٧٠].

وللقرآن الكريم تعبير مختلفه ورائعه بهذا الخصوص في وصفه للسابقين في الخيرات: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ» [٨٧١].

والعبارة:

«يُمَسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذُّكْرُ»

إشارة إلى أن هؤلاء يتدثون يومهم الذي يستأنفون فيه العمل والنشاط باسم الله وفي آخر اليوم حيث انفتحوا على تلك النعم الإلهية واستغلوها في مرضات الله فيندفعون في الحمد والشكر، بالضبط كالجلوس على مائدة الطعام، فهم يشرعون بتناول الطعام باسم الله ويتنهون بشكره حين يرفعون أيديهم عن الطعام، رغم ما ذهب إليه بعض الشراح [٨٧٢] أن الاختلاف في التعبير من باب التنوع في

العبارة والمراد أنهم ذاكرون وشاكرون في الصباح والمساء وفي جميع الأحوال، إلا أن الأنسب ما ذكرناه. وقد وردت عبارات عميقة المعنى في الآيات والروايات بشأن أهمية ذكر الله.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٣٢

فقد ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«ثَلَاثَةٌ مَعْصُومُونَ مِنْ إبْلِيسَ وَجُنُودِهِ:

الذَّاكِرُونَ لِلَّهِ، وَالْبَاكُونَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَالْمُسْتَغْفِرُونَ بِالْأَسْحَارِ» [٨٧٣].

كما وردت عدّة آيات وروايات في الشكر منها: ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام في غرر الحكم أنه قال: «شُكْرُ النِّعْمَةِ أَمَانٌ مِنْ حُلُولِ النِّقْمَةِ» [٨٧٤].

ثم أشار إلى صفتين مهمتين من صفات هؤلاء الأولياء فقال:

«يَبِيتُ حَذِرًا وَيُصْبِحُ فَرِحًا؛ حَذِرًا لَمَّا حُذِرَ مِنَ الْعَقْلِ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ».

طبعاً ليس مفهوم العبارة تقسيم الوقت في الخوف والرجاء، فالخوف والرجاء راسخ في قلوب المتقين في كل زمان، وعلى كل حال ولكن لما كان المتقون يخلون إلى أنفسهم بعد نهاية يومهم للحساب يشعرون بالقلق إن كان بدر منهم زلة أو خطأ ومن هنا ورد الحث على الاستغفار عند الليل قبل النوم فقد روى عن الصادق عليه السلام أنه قال:

«... مَنْ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ حِينَ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ تَحَاتَّتْ ذُنُوبُهُ كَمَا يَشْقُطُ وَرَقُ الشَّجَرِ» [٨٧٥].

ولما كان النهار انطلاقة فعالية وأعمال صالحة جديدة، الفعالية التي ينبغي أن تستهل بالأمل والرجاء فقد أصبح تجلياً لصفة الرجاء والأمل.

وللمفسرين عدّة أقوال بشأن الفارق بين الفضل والرحمة ذيل الآية الشريفة: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ» [٨٧٦] فقد ذهب البعض إلى أن الفضل الإلهي هو النعم الظاهرية والمادية والرحمة النعم الباطنية والمعنوية، بينما ذهب البعض الآخر إلى أن الفضل بداية النعمة والرحمة دوامها، كما احتجّل أن يكون الفضل إشارة إلى نعم الله العاقية على جميع الناس والرحمة إشارة إلى رحمته الخاصة بالمؤمنين. وبالطبع ليس هنالك من تناقض في هذه التفسير ويمكن الجمع بينها جميعاً.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٣٣

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى بيان صفة أخرى من صفات المتقين ذات الصلة بالتربية وتهذيب النفس فقال:

«إِنْ اسْتَضَعَبَتْ [٨٧٧] عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكَرَّرَ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ».

هذا في الواقع أحد مراحل السلوك إلى الله والذي يصطلح عليه بمرحلة «المعاقبة» التي تأتي بعد مراحل «المشاركة» و «المراقبة» و «المحاسبة» أي يشترط على نفسه منذ الصباح حين ينطلق في يومه الجديد على عدم مقارفة أي ذنب، ثم يعيش المراقبة طيلة يومه ومن ثم يتفرغ ليلاً لحساب ما أتى به من عمل في النهار، فإن ظفر بمخالفة هب لمعاقبة نفسه كأن يمنع نفسه ما ترغب فيه، مثلاً يحرم نفسه من الطعام اللذيذ والفراش المريح والنوم الكافي وما شاكل ذلك ليؤدب نفسه الجامحة فتعيش طاعة الله في الأيام القادمة، وهذا البرنامج مؤثر وعملي لتهذيب النفس وبالطبع أن كل من داوم عليه سيلمس آثاره وبركاته بعد مدة ليست طويلة.

ثم أشار إلى أربع صفات مهمّة أخرى فقال:

«قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْرُجُ الْجِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ».

والعبارة

«قُرَّةُ عَيْنِهِ»

بالنظر إلى أن «قرّة» من مادة «قر» (على وزن حرّ) تعنى فى الأصل البرودة والعرب تعتقد أنّ دموع الشوق باردة دائماً ودموع الحزن حارة ومحرقة، فإنّ هذه العبارة تقال حيث السرور والفرح، وعليه فمفهوم العبارة المذكورة أنّ عين المتقين مسرورة بعالم الآخرة، ذلك لأنّه عالم خالد ودائم، كما قال القرآن عن أصحاب الجنة: «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ» [٨٧٨] وقال أيضاً: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [٨٧٩] وبالنظر إلى أنّه وحسب ما ورد فى الأقسام السابقة من الخطبة فإنّ هؤلاء يرون بأعينهم فى هذه

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٣٤

الدنيا الجنة ونعمها، وتحصل لهم حالة السرور وقرّة العيون، وبالعكس حيث ايقنوا أنّ الدنيا متقلبة فلم يتعلقوا بها قط، ومزجهم الحلم بالعلم والقول بالعمل كان من أهم نقاط قوتهم، ذلك لأنّ العالم إن لم يكن حليماً إزاء جهل الجهال تعذر عليه هدايتهم وإرشادهم وإن لم يقترن قوله بفعله لم يعد لكلامه من تأثير، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ الْعَالِمَ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُهُ عَنِ الْقُلُوبِ كَمَا يَزِلُّ الْمَطْرُ عَنِ الصَّفَا» [٨٨٠].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٣٥

القسم الخامس

إشارة

تَرَاهُ قَرِيْبًا أَمَلُهُ، قَلِيْلًا زَلْلُهُ، خَاشِعًا قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنزُورًا أَكْلُهُ، سَهْلًا أَمْرُهُ، حَرِيْرًا دِيْنُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْطُومًا غَيْظُهُ. الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِيْنَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِيْنَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِيْنَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِيْنَ. يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيدًا فَحْشُهُ، لَيْسًا قَوْلُهُ، غَائِبًا مُنْكَرُهُ، حَاضِرًا مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلًا خَيْرُهُ، مُدْبِرًا شَرُّهُ. فِي الرِّزَالِ وَقُوْرٍ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُوْرٍ، وَفِي الرِّخَاءِ شَكُوْرٍ. لَا يَحِيْفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْتِمُّ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لَا يُضْتَبِعُ مَا اسْتِخْفِظَ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِرَ، وَلَا يُنَابِزُ بِاللِقَابِ، وَلَا يُصَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ. إِنْ صِيَمَتْ لَمْ يَغْمَهُ صِيَمَتُهُ، وَإِنْ صَحَّكَ لَمْ يَغْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ. وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتَعَبَ نَفْسَهُ لِاحْتِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُغِيْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهَيْدٌ وَنَزَاهِيْدَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِيْنٌ وَرَحْمَةٌ. لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبَرٍ وَعَظْمَتِهِ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيْعَةٍ.

الشرح والتفسير: تسع صفات أخرى

إشارة

تطرق الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى تسع من صفات المتقين فقال:

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٣٦

«تَرَاهُ قَرِيْبًا أَمَلُهُ، قَلِيْلًا زَلْلُهُ، خَاشِعًا قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنزُورًا [٨٨١] أَكْلُهُ، سَهْلًا أَمْرُهُ، حَرِيْرًا [٨٨٢] دِيْنُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْطُومًا [٨٨٣] غَيْظُهُ».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارة إلى قصر الأمل، لأنّ طول الأمل - كما ورد فى الروايات - ينسى الآخرة ونسيان الآخرة طامة كبرى تفرز مختلف المعاصى والذنوب.

صحيح أن وجود الأمل لدى الإنسان مدعاة للحركة والنشاط، كما جاء في الحديث النبوي الشريف:

«الْأَمَلُ رَحْمَةٌ لِمَتَى وَلَوْ لَا الْأَمَلُ مَا رَضَعَتْ وَالِدَةٌ وَلَدَهَا وَلَا عَزَسَ غَارِسٌ شَجْرًا» [٨٨٤]

. ولكن إن تجاوز هذا الأمل الحد وتبدل إلى أمل طويل فإنه يدفع جميع قوى الإنسان وأفكاره نحو الدنيا وينسيه كل شيء، بل يتعذر حتى على الإنسان في ظل هذه الحالة أن يستثمر دنياه.

وإننا لنرى أن قلبه زلات المتقين كونهم يبعدون أنفسهم عن مطبات الذنب وذكروهم الدائم لله تبارك وتعالى. وخشوع قلوبهم نتيجة لعرفانهم بالله، لأن الإنسان كلما ازداد إدراكه لعظمة المعبود ازداد خضوعه له، وقناعة المتقين معلولة لسعة أفقهم إزاء النعم المادية للدنيا ومتاعها وزخرفها، وبما أنهم يؤمنون بفنائها وزوالها فهم لا يجازفون في السعي للحصول عليها فيقتنعون منها بذلك المقدار اللازم، وقلبه طعامهم لعلمهم بأن كثرة الأكل - وبغض النظر عما تفرزه من أنواع الأمراض - فإنها تسلبهم حيوية العبادة ومناجاة الله، أضف إلى ذلك فإنها تجعلهم يغفلون عن ذكر المعوزين من أهل الفاقة.

وجاء في الحديث عن الإمام عليه السلام في غرر الحكم:

«مَنْ اقْتَصَدَ فِي أَكْلِهِ كَثُرَتْ صِحَّتُهُ وَصَلَحَتْ فِكْرَتُهُ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٣٧

العبارة:

«سَهْلًا أَمْرُهُ»

إشارة إلى أنه سهل لين في أعماله الشخصية، كما أنه سهل المؤونة إزاء الناس، وأنا لنرى بعض الأفراد الذين يعيشون حالة من التكلف القسوى بشأن سفر أو ضيافة ويزجون بأنفسهم في أتون عذاب أليم، أو يخوضون صراعاً قد يستغرق أشهراً وربما سنوات تجاه الناس لانتزاع حق بسيط، والحال يعيش المتساهلون حياة وادعة مريحة على المستوى الشخصي إلى جانب الراحة في علاقاتهم مع الآخرين.

العبارة:

«حَرِيْرًا دِيْنُهُ»

إشارة إلى أنه يهتم قبل كل شيء بحفظ إيمانه وعقيدته ومبادئ دينه، ولا يضحي بها من أجل المال والمقام والشهوة.

والعبارة:

«مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ»

لا- تعنى أنهم يفتقرون إلى الشهوات، بل يسيطرون بعقولهم وإيمانهم على تهذيب هذه الشهوة، وهوذات التعبير الرائع الذي ساقه

القرآن الكريم بشأن يوسف عليه السلام: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» [٨٨٥].

وأما العبارة:

«مَكْظُومًا غَيْظُهُ»

بعد الصفات السابقة إشارة إلى أن حفظ الدين وأداء الوظائف قد يؤدي أحياناً إلى ردود فعل طائشة من قبل بعض الجهال والذي يثير

الغضب لدى المتقين، لكنهم مسلطون على أنفسهم ويكظمون غيظهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فأشار إلى أربع صفات من صفات المتقين البارزة فقال:

«الْحَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ».

ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«أَلَا أُبَيِّنُكُمْ لِمَ سُمِّيَ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا؟»

لَا يُؤْمِنُ النَّاسَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، أَلَا أَتَيْتُكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِ؟ الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ» [٨٨٦].

فإن كان هذا هو حال العابدين من المسلمين والمؤمنين، فمن الأولى أن يكون

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٣٨

كذلك الوضع بالنسبة للمتقين الذين يمثلون نخبة المؤمنين والمسلمين، فهؤلاء مصدر الخيرات والبركات ولا يتلقى الناس منهم أى شر.

وجاء فى الحديث النبوى الشريف:

«أَنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ النَّحْلَةِ إِنْ صَاحَبْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ شَاوَرْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ جَالَسْتَهُ نَفَعَكَ وَكُلُّ شَأْنِهِ مَنَافِعٌ وَكَذَلِكَ النَّحْلَةُ كُلُّ شَأْنِهَا مَنَافِعٌ» [٨٨٧].

قال بعض الأعلام: إن وجه المشابهة بين المؤمن والنحل حذق النحل وفطنته وقلبه أذاه ومنفعته وقناعته وسعيه فى النهار وتنزهه عن الاقذار وطيب أكله، وأنه لا يأكل من كسب غيره [٨٨٨]، أضف إلى ذلك فإن النحلة تنتج الشهد العظيم الفائدة، بالإضافة إلى أن دورانها حول الأزهار يؤدى إلى تلقيح مختلف أنواع النباتات، ناهيك عن لسعتها التى تعد وسيلة للدفاع عن نفسها من العدو ذات فائدة عظيمة فى علاج بعض الأمراض ومفردة الخير والشر مفهوم غاية فى السعة تشمل الخيرات المادية والمعنوية وجميع الشرور المادية والمعنوية كذلك.

والعبارة:

«أَنَّ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ»

إشارة إلى أنه لا يتأثر حين يكون وسط بعض الغافلين من الأفراد فهو لا ينفك عن ذكر الله واليوم الآخر، كما لا يعيش حالة الغفلة حين يكون وسط الذاكرين.

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات مهمة أخرى والتي تعد من كرامات المتقين فقال:

«يَغْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطَى مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ».

يرد الإنسان بالمثل أحياناً على ما يواجهه من إساءات من الآخرين والتي غالباً ما تفرزها حالة الثأر والانتقام؛ ولكن لا تمارس أحياناً مثل هذه المعاملة وهذا بالطبع الأسلوب الذى يطبع سيرة أولياء الله والمتقين، فهم يتجاوزون ويعفون عن ظلم الظلمة فى الوقت الذى يتمكنون فيه من الانتقام والرد بالمثل، وهذا بحد ذاته

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٣٩

شجاعاً لأنه ينبع من موقع القوة وليس من قبيل الاستسلام تجاه الظلم، ويعتمد البذل والعطاء تجاه من حرمه ومنعه، وهذا دليل على جوده وكرمه.

وبالتالى فهو يمد يد المصالحة والسلام لمن يقاطعه ويشمله بعونه ونجدته وهذا شجاعاً وكرماً.

جاء فى الخبر المروى عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال:

«إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ أَيْنَ أَهْلُ الْفَضْلِ؟ فَيَخْرُجُ عَنْكُمْ مِنَ النَّاسِ. فَتَسْأَلُهُمُ الْمَلَائِكَةُ: وَمَا كَانَ فَضْلُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: «كُنَّا نَصِلُ مَنْ قَطَعَنَا وَنُعْطَى مَنْ حَرَمَنَا وَنَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَنَا».

فَيَقُولُونَ لَهُمْ: «صَدَقْتُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» [٨٨٩].

وقد أمرنا الله تعالى فى القرآن الكريم بصورة عامة وشاملة بهذا الخلق، حيث خاطب النبى صلى الله عليه وآله قائلاً: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ» [٨٩٠].

ثم أشار الإمام عليه السلام فى عبارات قصيرة وعميقة المعنى إلى ست صفات بارزة أخرى فى المتقين فقال:

«بَعِيداً فُحْشُهُ [٨٩١]، لَيْناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ».

والصفات الست التي يقابل كل زوج فيها الآخر وتفسر بعضها البعض الآخر تشير إلى سلوكيات وتصرفات المتقين الاجتماعيه.

والعبارة:

«بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيْناً قَوْلُهُ»

إشارة إلى أن معاملتهم لجميع الناس تنطلق من اللسان الجميل والكلمات المفعمه بالخير والمحبه وليس في أقوالهم وأعمالهم أى نوع من العنف والغلظة، فهم ليسوا بعيدين غاية البعد عن الفاحش من القول فحسب بل هم أبعد ما يكونون عن الفاحشين. وقد ورد فى الروايه عن الإمام الصادق عليه السلام حين سئل عن حد حسن الخلق أنه

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٤٤٠

قال:

«أَنْ تُلِينَ جَنَاحَكَ، وَتُطِيبَ كَلَامَكَ، وَتَلْقَى أَخَاكَ بِبِشْرِ حَسَنٍ» [٨٩٢].

والعبارة:

«غَائِباً مُنْكَرُهُ»

تشير إلى انعدامه؛ أى لا يبدر منه أى منكر إزاء الآخرين. ويحتمل أن يكون المراد أنه لو بدرت منهم زلة، فهى ليست بزلة عليته على الأقل لتلوث المجتمع.

والعبارة:

«حَاضِراً مَعْرُوفُهُ»

إشارة إلى جميع المحاسن التي يقرها العقل والوجدان والشرع وليست غريبه عليها (من مادة عرفان بمعنى المعرفة).

والمراد من

«مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ»

أنهم مندفعون على الدوام فى الإتيان بأفعال الخير، وإن كانت لهم من أعمال سيئه فى الماضى فهم يسعون إلى هجرانها والإبتعاد عنها. ثم أشار إلى ثلاث من صفاتهم الحميده فقال:

«فِي الزَّلَازِلِ [٨٩٣] وَقَوْرٍ [٨٩٤]، وَفِي

المَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرِّخَاءِ شُكُورٌ».

والمراد من

«زلازل»

الحوادث الأليمه والفتن العظيمة التي تهز القلوب. فالمتقون يربطون جأشهم إزاء هذه الخطوب ولا يفقدون معنوياتهم ويقفون إزاءها كالجبل الأصم الذي لا تحركه الرياح العاتية،

«المؤمنُ أَصْلَبُ مِنَ الجَبَلِ» [٨٩٥]

فهم صامدون وهذا يدل على أن التقوى لا تعنى الإعتزال عن المجتمع والخلود إلى الدعة والراحة، بل المتقون الحقيقيون هم أولئك الذين يتصدون للأحداث الصعبة ويسعون جاهدين وبكل شجاعة لإنقاذ أنفسهم ومجتمعاتهم ممّا يعصف بها من خطوب.

والصبر على المكاره يمثل أحد فروع الصبر الذى يشمل كل مصيبة وحادثه أليمه. فالمتقون ثابتون وصامدون فى هذا الميدان، ذلك لأن الجزع إزاء المصائب

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٤١

يقود الإنسان إلى المعصية والسيء من القول من جهة، ومن جهة أخرى يغلق على الإنسان السبيل لمعالجة الموقف. وشكرهم عند النعمة ناشيء من تواضعهم لله والخلق، فهم ليسوا على غرار المتكبرين الذين تنسيهم النعمة والمال والمقام والثروة كل شيء فيتمردون على الخالق والمخلوق.

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى للمتقين فقال:

«لَا يَحِيفُ [٨٩٦] عَلَى مَنْ يُبْغِضُ،

وَلَا يَأْتُمُّ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ».

فهذه الصفات الثلاث تنطلق من روح المتقين الداعية إلى الحقّ والساعية للعدالة، والعاقل من ينصف حتى عدوه في إيصال حقه، كما قال تعالى في القرآن: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا» [٨٩٧].

ولا يهب صحبه أكثر من حقهم بما يؤدي لتضييع حقوق الآخرين، كما قال القرآن الكريم: «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ» [٨٩٨].

وهذا هو سرّ اعترافهم بالحقّ قبل إقامة الشهود عليه، ذلك لأنّ الذين يسلمون إزاء الشهود لا يعتبرون ممن يسلم للحقّ، وإقامة الشهود هي التي اضطرتهم للتسليم؛ أما من ينشد الحقّ والعدل فهو ذلك الفرد الذي ينطلق إلى صاحب الحقّ ليعثر عليه ويؤدي حقه ويفك رقبتة من ظلامه الآخرين، وعلى هذا الضوء لا بدّ أن ينطلق المدين إلى الدائن ويفتش المؤمن عن صاحب الأمانة، على العكس ممّا تشهد المجتمعات المجانبه للتقوى.

نعم، فالمتقون من لا يقصرون في أداء الحقوق وليسوا بحاجة للقضاء والمحاكم كما أنّ العداوة والصداقة لا تخرجهم من حدود الحقّ والعدل.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٤٢

قال النبي صلى الله عليه وآله:

«أَتَقَى النَّاسَ مَنْ قَالَ الْحَقَّ فِيمَا لَهُ وَعَلَيْهِ» [٨٩٩].

ثم واصل عليه السلام كلامه ليشير إلى سبع صفات بارزات أخرى من صفات المتقين بعبارات منسجمة فقال:

«لَا يُضِيعُ مَا اسْتَحْفِظَ، وَلَا يَنْسَىٰ مَا ذُكِّرَ، وَلَا يَنَابِزُ [٩٠٠]

بِالْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْتُمُ [٩٠١] بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا

يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ».

للعبارة:

«لَا يُضِيعُ مَا اسْتَحْفِظَ»

معنى واسع يشمل جميع الأمانات الإلهية والاجتماعية، من الصلاة التي قال فيها القرآن: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ» [٩٠٢]. حيث يحافظون عليها من خلال أدائها بإخلاص بعيداً عن السمعة والرياء، وكذلك سائر الأمانات، كالقرآن الكريم وأحكام الشريعة والأولاد الذين وهبهم الله تعالى ومختلف الأمانات التي يأتمنهم عليها الآخرون، فهم يسعون حثيثاً للحفاظ عليها ولا يفرطون بها بسبب التساهل والغفلة والتقصير.

العبارة:

«لَا يَنْسَىٰ مَا ذُكِّرَ»

إشارة إلى جميع ما يذكر به من الأمور المفيدة من جانب الله تعالى وأولياء الله والمخلصين من الأساتذة والمعلمين والأصحاب والأصدقاء، فهؤلاء ليسوا من أهل النسيان الذين يتغاضون عن دروس الهدى والحقّ ولا يلتزمون بها، وإذا ما اعتراهم شيء من وساوس

الشيطان تذكروا الله وإرشادات أوليائه فيعودون إلى رشدهم وهداهم، قال الله تعالى في القرآن: «أَنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» [٩٠٣].

والعبارة:

«وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ»

إشارة لما ورد في القرآن الكريم: «وَلَا تَنَابَرُوا

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٤٣

بِالْأَلْقَابِ» [٩٠٤]. لأن ذكر هذه الألقاب يؤجج في القلوب نيران العداوة والبغضاء فيضطر الطرف المقابل إلى ممارسة ردود الأفعال الطائشة، الأمر الذي يلوث أجواء المجتمع ويحطم شخصية الأفراد.

وعدم أذى الجار والشماتة بالمصائب التي وردت بعد مسألة التنازع بالألقاب تشير إلى رعايتهم للحقوق الاجتماعية واحترام الآخرين في الجوانب كافة. وقد ورد الحث على رعاية حقوق الجار في القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وروايات الأئمة المعصومين عليهم السلام فقد روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال:

«اللَّهُ اللَّهُ فِي جيرانِكُمْ فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُورَثُهُمْ» [٩٠٥].

من جانب آخر فإننا نعلم أن من أصابته مصيبة فهو كالإنسان المجروح المحتاج إلى من يخفف عنه ويطب جرحه، والشماتة هنا كذر الملح على جروحه، وليس هنالك من إنسان حتى يسمح لنفسه أن يقوم بهذا العمل. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«مَنْ شَمَتَ بِمُصِيبَةٍ نَزَلَتْ بِأَخِيهِ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُفْتَنَ» [٩٠٦].

وآخر الصفات التي وردت في العبارة المذكورة عدم دخول المتقين في الباطل وخروجهم من دائرة الحق والتي تنطوي على معانٍ عميقة جداً، يأبى المتقى - على ضوء ما ذكر - الدخول في الأفكار الباطلة والتصرفات الباطلة والخوض في الأقوال الباطلة ولا يتبع سوى الحق المطلق ولا يجيد عنه في مطلقاً وأينما كان وتجاه كل شخص وازاء كل عمل.

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى من صفاتهم فقال:

«أَنْ صَمَتَ لَمْ يُعَمِّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَغْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُعِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ».

فالمتقى لا يغتم في سكوته، مع أن السكوت في أغلب الأحيان يؤدي إلى حالة

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٤٤

من الكآبة والحزن، ذلك لأن السكوت أساس نجاه اللسان من أغلب الآفات، بالإضافة إلى كونه يدعو إلى التفكير في أمور الدين والدنيا، جاء في الحديث النبوي الشريف:

«طُوبَى لِمَنْ ... أَنْفَقَ الْفُضْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفُضْلَ مِنْ قَوْلِهِ» [٩٠٧].

كما أن المتقى لا يضحك بصوت عال ويقهقهه في ضحكه، لأن القهقهة من عادات الأثرياء المغرورين والأفراد الفارغين، قال أمير المؤمنين عليه السلام في غرر الحكم:

«خَيْرُ الضَّحِكِ التَّبَسُّمُ».

والعبارة:

«وَإِنْ بُعِيَ عَلَيْهِ ...»

إشارة إلى أنه أحياناً قد يمارس بعض الأصدقاء والقرباء وربما حتى الاخوة ظلماً بحق الإنسان بحيث لوهب للانتقام لنشبت نزاعات مستمرة قد تنتهي إلى ما لا يحمد عقباه، فإن إعتد الإنسان في ظل هذه الظروف التحمل واستيعاب الآخر وسلم الطرف المقابل لله يكون قد أنقذ نفسه من الوسواس الشيطانية الخطيرة، كما يكون قد حافظ على حالة الهدوء والاستقرار في المجتمع، طبعاً ليس

المراد من هذا الكلام العدو الغادر والقاسى، ذلك لأنّ مثل هذا التحمل والسكوت يدعوه لمزيد من الظلم والطغيان. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى أربع صفات أخرى تكمل كلّ واحدة منها الأخرى فقال:

«نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ. وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ»

. أى أنّه يتحمل المزيد من العناء بغيّة استقرار المجتمع، مثلاً لو ظهرت بعض المشاكل فى المجتمع جهد نفسه وتحمل بعض المشاق لحل تلك المشكلات بغيّة إراحة المجتمع فالواقع أنّ هذا نوع من الإيثار والتضحية يعمد بموجه الإنسان إلى تحمل بعض المشاكل الاجتماعية من أجل راحة خلق الله.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنّ العبارة الثالثة والرابعة «أَتَعَبَ نَفْسُهُ...»

بمثابة الدليل على العبارتين السابقتين؛ أى إن كانت نفسه فى عناء من جانبه فذلك لأنّه يسعى دائماً للاستعداد والتزود للدار الآخرة، وإن كان الناس منه فى راحة

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٤٥

فذلك لأنّه قرر ذلك.

كما يحتمل أن تكون العبارتان واردتين بشأن مسألة أخرى فالعبارتان السابقتان إشارة إلى الأمور المادية، وهاتان العبارتان إشارة للأمور المعنوية.

قال الإمام عليه السلام:

«مَنْ عَمَّرَ دَارَ إِقَامَتِهِ فَهُوَ الْعَاقِلُ» [٩٠٨]

. وقال تعالى: «وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ» [٩٠٩].

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بأربع صفات أخرى من الصفات البارزة للمتقين الاختتام الذى ربّما لم يكن آخر الخطبة لولا تلك الحادثة التى وقعت لهمام ولعله أشار لمطالب مهمة أخرى بهذا الشأن) فقال:

«أَتَعَبَ نَفْسُهُ إِخْرَجَتْهُ، وَأَرَاخَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعِيدَهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهَيْدٌ وَنَزَاهِرَةٌ؛ وَدُنُوهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لَيْنٌ وَرَخِمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكَبِيرٍ وَعَظْمُهُ، وَلَا دُنُوهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى ذكره لهذه الصفات إلى نقطة مهمة وهى: أنّ المتقين فى صلاتهم الاجتماعية وتعاملهم مع الأصدقاء والأعداء واقامتهم للعلاقات أو قطعها مع هذا أو ذاك وبالتالى التعامل مع جميع الأمور إنّما ينشدون أهدافاً مقدّسة؛ فإن بعدوا عن شخص فإنّما ذلك بسبب تلوثه بالمعاصى أو أنّ الاقتراب منه يجعلهم عرضة للافتتان بزخارف الدنيا التى ابتلى بها هذا الفرد، وبالطبع فإنّ اقترابهم من الأفراد يستند إلى دورهم فى هداية الجهال وتنبيه الغافل ومساعدة الضعيف والفقير، أمّا أصحاب الدنيا فإنّما يتعدون عن هذا الفرد أو ذاك بسبب كبرهم وغرورهم ويقتربون من هذا أو ذاك بغيّة تحقيق مصالحهم المادية والخداع والتضليل.

مسير همام بعد سماع الخطبة

صرّح الراوى بعد نهاية الخطبة التى ذكرها الإمام عليه السلام حين بلغ هذا الموضع من

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٤٦

الخطبة

«قَالَ: فَصَبَقَ هَمَامٌ صَعَقَةً كَانَتْ نَفْسُهُ فِيهَا».

«فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: أَهَكَذَا [٩١٠] تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا».

«فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: فَمَا بِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ!».

«فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيَحْكُ، إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتًا لَا يَعْدُوهُ، وَسَبَبًا لَا يَتَجَاوَزُهُ».

ثم أضاف الإمام عليه السلام:

«فَمَهْلًا! لَا تَعُدُّ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!».

وهنا يرد هذا السؤال: لم كانت عاقبة همام تلك الصعقة بينما لم تحدث للإمام عليه السلام الذي ساق هذا الكلام؟

لا بد من الالتفات في الجواب عن هذا السؤال إلى نقطة مهمّة وهي أنّ همام وإن كان رجلاً عابداً وزاهداً كما ورد في مستهل الخطبة «كَانَ رَجُلًا عَابِدًا»

وقبله يفيض حكمه ومعرفة وروحه مفعمة بالصفاء والنقاء (كما يتجلى ذلك من سؤاله) ولكن مهما كانت روحه سامية لا يمكن مقارنتها بروح أمير المؤمنين عليه السلام التي تمثل بحراً من السمو والكمال، ومن هنا لم يسع قلب همام تحمل كل تلك المفاهيم والمعارف، وهل يمكن سكب البحر في جدول صغير؟ وعليه فليس من العجب أن يصعق همام صعقة تكون نفسه فيها ويفارق الدنيا. فقد ورد في القرآن الكريم بشأن قصة موسى وبنى اسرائيل وتجلي النور الإلهي للجبل: «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا» [٩١١].

فلم يقتصر الأمر على عدم تحمل موسى، بل إنهار ذلك الجبل بعظمته.

نعم! فالمواعظ التي تنطلق من القلب تستقر هكذا في القلب، والمهم أن يكون الإنسان من ذوى «الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ»

وإلا فالعتاة من الأفراد من ذوى القلوب

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٤٧

القاسية والملوثة والواقعة في شباك الشيطان لا تمتلك الآذان الصاغية لسماع المواعظ ولا القلب الوداع لاستيعابها.

بعبارة أخرى أنّ همام وإن كان متقياً عالي الهمة، لكنه لم ير في نفسه ذلك السمو الذي بينه الإمام عليه السلام في هذه الخطبة، فاشتعلت في أعماقه نيران الحسرة وصعقت نفسه كمداً.

ويشهد التاريخ الإسلامى على وجود العديد من هذه النماذج من الآثمين أحياناً الذين عادوا إلى رشدهم وعدد من المتقين الذين سمعوا مثل هذه المواعظ فلم يتحملوها وفارقوا الحياة [٩١٢].

وهناك احتمال ثالث وهو أنّ همام لما سمع البشائر التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام للمتقين حلقت روحه شوقاً إلى ديار المعبود لتعانق الجنان.

وجاء في الخبر أنّ «ربيع بن الخثيم» كان في ذلك المجلس فلما صعق همام جرت دموعه على خديه وقال لأمر المؤمنين عليه السلام ما أسرع أثر وعظك في ابن أخى ليتنى كنت مكانه، فقال عليه السلام:

«هَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا!» [٩١٣].

والجواب عن السؤال الثانى هو ما ذكره الإمام عليه السلام أنّ لكلّ إنسان أجلاً فلا يفارق الدنيا حتى يحلّ أجله، ولكن حين حلول الأجل يمكن أن يكون العامل النهائى بعض الأمور المختلفه، والعامل النهائى هنا العبارات العميقة لأمر المؤمنين عليه السلام، أضف إلى ذلك لا يمكن مقارنة روح الإمام عليه السلام بروح همام، فروح الإمام بحر متلاطم من الأمواج وليس من قبيل البركة التي تتغير أوضاعها بفعل التلاطم الشديد للمياه.

ويتضح ممّا تقدم جواب السؤال الثالث وهو لم قبل الإمام عليه السلام طلب همام وبين له تلك المواعظ الشافية والكافية والسامية، بينما قال عليه السلام كنت أخشى عليه هذه

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٤٤٨

الحادثة؟! لأنّ العامل النهائي حين حلّ أجله يمكن أن يكون تغييراً لمختلف أجهزة البدن أو الأمواج المعنوية العاتية داخل الروح. أمّا قول الإمام عليه السلام للمعترض: (لا تعدّ لمثلها فإنّما نفث الشيطان على لسانك) فذلك لأنّه لم يطرح السؤال بغية التحقيق لفهم الموضوع بل كان هدفه نقض كلام الإمام عليه السلام وبعبارة أخرى إبطاله حسبما يظن، والحقّ أنّ سؤالاً بهذا الشكل ولأجل هذا الهدف لهو سؤال شيطاني.

تأمل

نظرة أخرى لخطبة همام

هذه الخطبة في الواقع دورة متكاملة في الأخلاق الإسلامية التي تسلط الضوء على جميع زوايا الحياة الفردية والاجتماعية والمادية والمعنوية للإنسان، كما أنّها نظام متكامل لأولئك الذين يرومون السير والسلوك إلى الله.

فقد بينت صفات المتّقين بأسلوب بدیع خلال أكثر من مائة وعشر صفات (وكانه عليه السلام اختار العدد الذي يمثل اسمه المبارك) فانطلق بها من إصلاح اللسان واختتمها بالتدين الاجتماعي واحترام حقوق الآخرين، فهناك بعض الأفراد الذين ينسحبون من الميدان منذ الخطوة الأولى أثر ضعف إيمانهم وخواء إرادتهم، لكن غيرهم من الأفراد مثل همام وباجتيازه لهذه الخصال يحث الخطي للقاء المعبود.

ومن المزايا التي تتصف بها هذه الخطبة أنّها تنتشل التقوى من صيغتها السلبية التي تراود أذهان البعض وتعرضها بصيغتها الإيجابية كما وردت في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية.

وهذه الخطبة لا تقول لك عليك باعتزال عن المجتمع والانقطاع عن كلّ شيء في الدنيا لتبقى محافظاً على طهرك، بل ترشد إلى الإندكاك في وسط المجتمع ووسط الأمواج العاتية لحياة أصحاب الدنيا بحيث لا يترك ذلك بصماته السيئة عليك، على

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٤٤٩

غرار الإنسان القوى البنية الذي يبقى محافظاً على سلامته وسط المرضي ويقاوم كافة الميكروبات والجراثيم.

وقد صنف المرحوم العلامة الشهيد المطهرى التقوى إلى قسمين في كتابه (عشر مقالات): تقوى الضعف وتقوى القوّة، وقال عن تقوى الضعف: إنّ الإنسان وبغية صون نفسه من المعاصي يهرب من أسبابها، وتقوّة القوّة: أن يخلق في روحه قوّة وقدره بحيث تمنحه حصانه روحية وأخلاقية.

ويضيف: يشاهد في أذنا البشرية والنشوية بعض التعليمات التي تعكس التقوى بصورتها الأولى والتي ينبغي التعامل معها بحذر، ثم يتطرق إلى شرح تقوى القوّة ويقول: «إنّ التقوى في النصوص الدينيّة سيما نهج البلاغة تعنى تلك الملكة المقدّسة التي تمد الروح بالقوّة والإقتدار وتلجم النفس الأمّارة وتكبح جماح العواطف الجامحة» [٩١٤].

نعم فالتقوى والإعتزال لا يعدّ فخراً، والفخر إنّما يحقّ ليوسف عليه السلام الذي صان نفسه عن تلك الرغبات الجنسية الشديدة وحفظ نفسه من الفحشاء ببرهان ربّه وذلك مثل التقوى في أعلى مستوياتها.

طبعاً لا ننكر أنّ البعض لم يبلغ هذه المرحلة من التقوى (تقوى القوّة)، وما أكثر من يضطر لانتخاب الصنف الأوّل (تقوى الضعف).

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٤٥١

الخطبة ١٩٤

إشارة

يَصِفُ فِيهَا الْمُنَافِقِينَ [٩١٥]

نظرة إلى الخطبة

الخطبة كما يبدو من عنوانها في المنافقين حيث تتحدث عن صفاتهم وتتكون من قسمين: القسم الأول: يبتدئ بحمد الله والثناء عليه والشهادة بالرسالة للنبي صلى الله عليه وآله وتركزت خاتمته على المحن العظيمة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وما حاكه المنافقون وخصوم الدعوة الإسلامية ضده من مؤامرات خطيرة، وحيث تواصل خط النفاق واشتد بعد النبي صلى الله عليه وآله على عهد الإمام عليه السلام فقد حذر عليه السلام في القسم الثاني من الخطبة من خطورة المنافقين وذكر بالأدلة والبراهين للمجتمع الإسلامي خصائصهم الواحدة تلو الأخرى ليتعرف عليهم جميع المسلمين ويقبروا مؤامراتهم في مهدها.

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٤٥٣

القسم الأول

إشارة

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ الْمُعْصِيَةِ، وَنَسَأَلُهُ لِمَنْتِهِ تَمَامًا، وَبِحَيْلِهِ اغْتِصَامًا. وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاصَّ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ كُلِّ غَمْرَةٍ، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ. وَقَدْ تَلَوْنَ لَهُ الْأَذْوَانَ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصُونَ، وَخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعْنَتَهَا، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بَطُونَ رَوَاجِلِهَا، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أْبْعَدِ الدَّارِ، وَأَسْحَقِ الْمَرَارِ.

الشرح والتفسير: محن الرسالة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة كسائر الخطب بحمد الله والثناء عليه والشهادة للنبي صلى الله عليه وآله بالرسالة، وقرن الحمد والثناء هنا بالتضرع والدعاء فقال:

«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ [٩١٦] عَنْهُ مِنَ الْمُعْصِيَةِ، وَنَسَأَلُهُ لِمَنْتِهِ تَمَامًا، وَبِحَيْلِهِ اغْتِصَامًا».

ولما كان أعظم فخر للإنسان هو التوفيق للطاعة وترك المعصية، فقد ركز الإمام عليه السلام هنا على هاتين النقطتين، والمراد من التوفيق هنا توفير أسباب الطاعة وترك المعصية، ذلك لأن الله أفاض علينا العقل والفتنة والضمير الحي وبعث الأنبياء والرسول وأنزل الكتب السماوية التي تقربنا جميعاً من الطاعة وتبعدنا عن المعصية، ولولا هذه الأسباب لغرقنا في مستنقع المعصية، وعليه يجدر بنا حمد الله وشكره على الدوام على هذه النعم العظيمة.

أما الدعاء الذي ذكره الإمام عليه السلام في عبارتين عقب هذا الحمد والثناء؛ فهو يتعلق

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٤٥٤

يطلب إكمال هذه النعم والتوفيق للاعتصام بحبل الله، والمراد منه دين الله كما يفهم من الآية الشريفة: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» [٩١٧].

أو المراد القرآن الكريم كما يستفاد من حديث الثقلين حيث قوله:

«كِتَابَ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ» [٩١٨]

أو المراد كلاهما حيث ليس هنالك من فارق بينهما.

الحق سنصبح أسعد الناس إن شملنا هذا التوفيق الإلهي بحيث تتم نعمه علينا ويقوى تمسكنا بحبل الله.

وقد طرح بعض شراح نهج البلاغة إشكالاً مفاده: كيف يطلب الإمام عليه السلام إتمام النعمة، بينما صرح القرآن الكريم قائلاً: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا» [٩١٩] في إشارة إلى أن نعم الله خارجة عن حدود العد والإحصاء؟

ولكن ما ينبغي الالتفات إليه هو أن لإتمام النعم مراحل ودرجات؛ فإن تعذر على الإنسان بلوغ المرحلة النهائية فإنه يستطيع الوصول إلى سائر مراحلها الأخرى وهذا ما سأله الإمام عليه السلام الله تبارك وتعالى.

ثم شهد عليه السلام بنبوّة النبي صلى الله عليه وآله بذكر بعض الصفات البارزة من صفاته فقال:

«وَنَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ كُلَّ غَمْرَةٍ [٩٢٠]، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ [٩٢١].»

وهاتان الصفتان التي بينهما الإمام عليه السلام بشأن النبي صلى الله عليه وآله جامعتان لكل صفات الخير؛ فالوقوف بوجه المحن والجلد على المصائب مالم يقترن بتلك المقاومة والتحمل فإنه لن يتمخض عن تبلور الأعمال ذات الأهمية.

وتشير العبارة:

«تَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ»

إلى أن المحن والخطوب التي تحملها رسول الله صلى الله عليه وآله لم تكن واحدة أو اثنتين بل كان يتجرعها الواحدة تلو الأخرى

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٤٥٥

فقد تحمل من أعداء الإسلام أشد المصاعب، صابراً حيث زرعو طريقه بالأشواك والعقبات، لكنه تخطاها جميعاً، وهذا بحد ذاته درس لجميع الأفراد الذين يرومون مواجهة الطاعوت وإصلاح مجتمعهم.

ثم بين الإمام عليه السلام جانباً من بعض المصائب العظيمة التي واجهها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إبان الدعوة إلى الله بعبارات قصيرة وعميقة المعنى فقال:

«وَقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الْأَذْنُونَ [٩٢٢]،

وَتَأَلَّبَ [٩٢٣] عَلَيْهِ الْأَقْصُونَ، وَخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعْتَبَهَا [٩٢٤]، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بَطُونَ

رَوَاجِلَهَا [٩٢٥]، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أْبْعَدِ الدَّارِ، وَأَشْحَقِ [٩٢٦] الْمَرَارِ.»

والعبارة:

«تَلَوَّنَ لَهُ الْأَذْنُونَ»

إشارة إلى أن البعض من قرابة النبي صلى الله عليه وآله كالعباس الذي كان يرغب في دعمه وإسناده لم يكن جاداً بهذا الخصوص.

والعبارة:

«تَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصُونَ»

إشارة إلى سائر القبائل البعيدة عن قريش والتي اتحدت مع بعضها وألبت سائر القبائل للوقوف بوجه النبي صلى الله عليه وآله ودعوته بحيث لم يكن يجرأ أحد من قرابته للدفاع عنه بشجاعه في ظل تلك الظروف كما كانت وتيرة العداء تتصاعد بالشكل الذي يصعب

معه مواجعتها.

والعبارة:

«خَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعْتَبَتَهَا، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا»

إشارة إلى سرعة وجدية الخصوم في معاداته صلى الله عليه وآله، ذلك لأنهم حين يريدون للراحلة أن تسير بسرعة يسلسون قيادها ويضربون بطنها واضلاعها. والتاريخ الإسلامى بكل فصوله وصفحاته ليشهد على هذه الحقيقة، حيث إن الأعداء لم يتورعوا عن القيام بأى فعل كانوا يعتقدون أن من شأنه القضاء على الإسلام والنبي صلى الله عليه وآله والدعوة؛ لكن الله أراد لهذا النور أن يتم ولا يطفأ وأن يزداد إشراقاً يوماً بعد آخر، وفقد أفضل

نفحات الولاية؛ ج ٧؛ ص ٤٥٥

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٥٦

خططهم واطفاً بمطر لطفه ورحمته نيران فتنهم ومؤامراتهم فخرج النبي صلى الله عليه وآله من هذه الأحداث الخطيرة منتصراً مرفوع الرأس وبسط نفوذ الإسلام ونشر راياته في غرب العالم وشرقه.

ولكن حيث كان للمنافقين فى الداخل - أولئك الذين أظهروا إسلامهم وإلتحقوا ظاهرياً بركب المسلمين بينما كانت قلوبهم مع الأعداء وتختزن البغض والعداء - دور مهم وخطير تواصل حتى عهد الإمام عليه السلام وتغلغل بين صفوف المسلمين، فقد حذر المسلمين تحذيرات جدية بشأن خط النفاق وشرح - كما سيأتى - فى القسم القادم خصائص المنافقين وأخطارهم وسلط ابن أبى الحديد الضوء هنا على المخاطر والصعوبات التى تخطاها رسول الله إبان الدعوة وقال:

«من قرأ وكتب السيرة علم ما لاقى رسول الله صلى الله عليه وآله فى ذات الله من المشقة واستهزاء قريش به فى أول الدعوة ورميهم إياه بالحجارة حتى أدموا عقيبته وصياح الصبيان به وفرث الكرش على رأسه وقتل الثوب فى عنقه وحصره وحصر أهله فى شعب بنى هاشم سنين عدده محرمة معاملتهم ومبايعتهم ومناكحتهم وكلامهم حتى كادوا يموتون جوعاً لولا أن بعضاً ممن كان يحنو لرحم أو لسبب غيره فهو يسرق الشىء القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلاً، ثم ضربهم أصحابه وتعذيبهم بالجوع والوثاق فى الشمس وطردهم إياهم عن شعاب مكة حتى خرج من خرج منهم إلى الحبشة وخرج عليه السلام مستجيراً منهم تارة بثقيف وتارة بنى عامر وتارة ببيعة الفرس وبغيرهم، ثم اجمعوا على قتله والفتك به ليلاً حتى هرب منهم لائئداً بالأوس والخزرج تاركاً أهله وأولاده حتى وصل المدينة فناصره الحرب ولم يزل منهم فى عناء شديد وحروب متصلة حتى أكرمه الله تعالى ونصره وادى دينه، ومن له أنس بالتواريخ يعلم من تفاصيل هذه الأحوال ما يطول شرحه» [٩٢٧]. (هذه هى الأمور التى أشار إليها الإمام عليه السلام فى هذه العبارات القصيرة والعميقة المعنى).

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٥٧

القسم الثانى

إشارة

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذَرُكُمْ أَهْلَ النَّفَاقِ، فَإِنَّهُمْ الضَّالُّونَ الْمُضْطَلُّونَ، وَالزَّالُونَ الْمُرْتَلُونَ، يَتَلَوْنُونَ أَلْوَانًا، وَيَفْتَنُونَ أَيْتَانًا، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ، وَيُضِيدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ. قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ، وَصِدْقُهُمْ نَقِيَّةٌ. يَمْسُونَ الْخَفَاءَ، وَيَدْبُونَ الصَّرَاءَ. وَصِدْقُهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفِعْلُهُمْ الدَّاءُ الْعَيَاءُ. حَسَدَةُ الرَّحَاءِ، وَمُؤَكَّدُ الْبَلَاءِ، وَمُقْنِطُ الرَّجَاءِ.

لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيحٌ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ، وَلِكُلِّ شَجْوَدٍ مُوَعٌ. يَتَقَارَضُونَ النَّشَاءَ، وَيَتَرَاقِبُونَ الْجَزَاءَ إِنْ سَأَلُوا الْحَفْوَا، وَإِنْ عَدَلُوا كَشَفُوا، وَإِنْ حَكَّمُوا أَسْرَفُوا.

الشرح والتفسير: خطر المنافقين

كما ذكرنا في آخر القسم السابق فإن الإمام عليه السلام أشار هنا إلى صفات المنافقين ليحذر المسلمين من خطرهم فذكر أوصافهم بمنتهى الدقة بحيث يعجز غيره بالخوض في صفات المنافقين بهذا العمق والدقة.

واستهل كلامه بست من صفاتهم فقال:

«أَوْصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذَرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُمْ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، وَالزَّالُونَ [٩٢٨] الْمُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَانًا، وَيَفْتَنُونَ [٩٢٩] افْتِنَانًا».

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٥٨

فالصفة الأولى التي ذكرها الإمام عليه السلام للمنافقين تتمثل في ضلالهم؛ ليس ضلالهم فحسب بل إصرارهم على إضلال وإغواء الآخرين، أضف إلى ذلك فهم خاطئون يسعون إلى قذف الآخرين في لهوات الخطأ والزلل.

ويبدو الفارق بين الضالين والزالين واضحاً، فالأولى إشارة إلى السير عن عمد وعلم في طريق الضلال والغواية، وتشير الثانية إلى كثرة زلاتهم وأخطائهم.

نعم! فزلاتهم جمّة كثيرة وكيف لا تكون كذلك ولم يستضيئوا بنور العلم والإيمان.

وبغض النظر عن هذه الخصال الذميمة الأربع فهم أفراد متلونون يخرجون كل يوم بلون معين ويلبسون شكلاً آخر في كل زمان ليحققوا أغراضهم الدنيئة من خلال ذلك فإذا كانوا بين المصلين وقفوا للصلاة، وإن خالطوا أهل الخمر والفجور انغمسوا في تعاطيها، بالضبط كما وصفهم القرآن: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ» [٩٣٠].

وربما يكون الفارق بين

«يتلونون» و «يفتنون»

أن الأولى تشير إلى جوانبهم وأبعادهم الظاهرية حيث يكتسبون كل يوم لونا، والثانية إشارة إلى خططهم الخفية بحيث يعمدون كل يوم لخطئة مشبوهة، فطبيعة النفاق تتمثل في أقوالهم وأفعالهم وخططهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه في هذا الإطار فأشار إلى ست صفات أخرى من الصفات الخطيرة التي يتصف بها المنافقون بعبارة قصيرة عميقة المعنى فقال:

«وَيَعْمِدُونَكُمْ [٩٣١] بِكُلِّ عِمَادٍ، وَيَرُضُّدُونَكُمْ [٩٣٢] بِكُلِّ مِرْصَادٍ. قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ [٩٣٣]،

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٥٩

وَصِفَاحُهُمْ [٩٣٤] نَقِيَّةٌ. يَمْسُونَ الْحَفَاءَ، وَيَدْبُونَ [٩٣٥] الضَّرَاءَ [٩٣٦]، وَصَفُّهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ،

وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعِيَاءُ [٩٣٧]».

والعبارة:

«وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ»

إشارة إلى أنهم لا يتورعون عن التشبث بكل وسيلة للقضاء عليكم، من قبيل بثّ الشائعات وإثارة الشكوك في صفوف المؤمنين وبث الفرقة والعداوة والبغضاء والفساد و....

والعبارة:

«وَيَرُودُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ»

إشارة إلى أنهم لا يغضون الطرف عن أدنى فرصة بغية تسديد الضربات إلى السلمين والانقضاض عليهم. فهم متربصون فإذا ما سنحت أدنى فرصة وثبوا عليكم.

وجميع العبارات القادمة تعكس ازدواج شخصيته المنافقين واختلاف ظاهريهم عن باطنهم فقال إن قلوبهم مريضة وظاهرهم سليم، أقوالهم تبدو شافية، غير أن تصرفاتهم سقيمة لا علاج لها، فجميع أعمالهم مقرونة بالمؤامرات السرية والخطط الشيطانية الخفية.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليبين ثلاث صفات أخرى فقال:

«حَسَدَةٌ [٩٣٨] الرَّحَاءِ، وَمُؤَكَّدٌ

وَالْبَلَاءِ، وَمُقْنَطُوا الرَّجَاءِ».

قال تعالى في القرآن المجيد: «أَنْ تَمَسُّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا» [٩٣٩] وهذه هي طبيعة المنافقين في كل عصر ومصر.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٦٠

إن بث اليأس والتشاؤم بغية إضعاف الإرادة والقضاء على قوة الجهاد والمقاومة، هي إحدى الحيل الخطيرة للمنافقين بحيث لو نجحت لانطوت على آثار غايه في الخطورة، ويبدو هذا الموضوع أعظم خطورة في العصر الراهن حيث تخيم فيه وسائل الإعلام على جميع أرجاء المعمورة، وقد وُصف المنافقون هذه الوسيلة في داخل وخارج البلدان الإسلامية لإدخال اليأس في قلوب المسلمين وصددهم عن الرقى والتقدم والتطور وتمهيد السبيل للقضاء عليهم. ولا بد هنا من الصمود لمواجهة هؤلاء الشياطين بكل ما أوتى المسلمون من قوة والتذكير بالألطف الإلهية والعنايات الخفية وخلق الأمل هنا وهناك والجهر بهذا المبدأ: «أَنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» [٩٤٠]، «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» [٩٤١].

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات من صفاتهم فقال:

«لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيحٌ [٩٤٢]، وَإِلَى

كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ [٩٤٣] دُمُوعٌ».

العبارة الأولى كناية عن كثرة الأفراد الذين يذهبون ضحية مؤامراتهم وخططهم أو يتعرضون للأذى والضرر.

وتشير العبارة الثانية إلى أن المنافقين يسعون بمختلف الحيل وأساليب الخداع والتلق للنفوذ إلى القلوب والإيحاء إلى الآخرين بأنهم من أصدقائهم.

وتشير العبارة الثالثة إلى أساليبهم المضملة في الخداع وذرف دموع التماسيح على مصائب المؤمنين ليغطوا من خلال ذلك على بغضهم الباطني وعداوتهم

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٦١

المتأصلة في قلوبهم فيخدعون الناس ويستقطبونهم إلى أودية الضلال فيجعلونهم يعيشون ذلك البؤس والشقاء.

والعبارة الرابعة إشارة إلى كثرة الأفراد الذين خدعوا بهم وهلكوا بفعل ضرباتهم الموجهة، وإشارة إلى أن ضحاياهم ليسوا قلائل بحيث يمكن تجاوزهم بسهولة، فهم على درجة من الكثرة وكان كل زقاق وشارع فقد ضحية لمؤامراتهم ومخططاتهم، وبناء على ما تقدم فلولم يتصد المسلمون لإفشال خططهم فسوف لن يسلم أحد من ضرباتهم المهلكة.

والعبارة الخامسة تخبر عن ألامعيبهم بغية اختراق القلوب، فهم على الدوام شركاء مع اللصوص ورفاق قطاع الطرق والذين يزودون السراق بكل المعلومات عن القوافل ويتعاونون معهم جنبا إلى جنب، ولذلك فهم يسعون ليوحوا لكل من يصادفونه أنهم من خلص

أصدقائه.

والعبارة السادسة هي إكمال وتأکید لما ورد في العبارة السابقة؛ فهؤلاء يصوّرون للآخرين أنهم يشاطرونهم أحزانهم ويذرفون دموع التماسيح على مصائبهم بينما يضحكون في باطنهم ويشعرون بالسرور والفرح، نعم هذا هو ديدن النفاق. وأشار عليه السلام في مواصلته لكلامه إلى صفتين قبيحتين وذميتين من صفات المنافقين فقال: «يَتَقَارِضُونَ الثَّنَاءَ، وَيَتَرَاقِبُونَ الْجَزَاءَ».

نعم فكل واحد منهم يخوض في المجلس في مدح الآخر والاشادة به وينسب له بعض الصفات الحميدة التي ليس لها من صلة بشخصيته، على أساس أنه يطالبه أن يعامله بالمثل فيمدحه ويثنى عليه في مجلس آخر، فمدحهم وثنائهم لا ينطلق من الحق قط وتقدير المحسنين والأخيار، بل الهدف سماع المزيد من الكذب المشابه لما يورد بحقه.

والعبارة:

«يَتَرَاقِبُونَ الْجَزَاءَ»

هي الأخرى تأكيد على هذا الموضوع وتعبير آخر عن هذه الصفة الذميمة والمريضة، أي أنهم لا يقدمون خدمة مجانية بعيدة عن الرياء لكائن من كان، بل يتوقعون مقابلها خدمة لهم، ولا يقتصر ذلك على الثناء فحسب بل في كل أمر وحيثما ما كان.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٦٢

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام هذا القسم ببيان ثلاث رذائل أخلاقية ذميمة للمنافقين فقال: «إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا [٩٤٤]، وَإِنْ عَدَلُوا [٩٤٥] كَشَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا».

إن حاجة الناس لبعضها البعض ممّا لا يمكن إنكاره وقد توجب هذه الحاجة أحياناً أن يلجأ أحد للآخر لمساعدته في حلّ مشكلته، إلّا أنّ الإلحاح عمل قبيح، فذلك الطرف المقابل ربّما لا يريد أو يتعذر عليه القيام بذلك العمل أو قبول ذلك الطلب فيشعر بحالة من الخجل والانزعاج من ذلك الإلحاح.

قال القرآن الكريم في بيان صفة المؤمن حين الحاجة: «لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا» [٩٤٦] إلّا أنّ المنافقين يريدون نيل أهدافهم وإن أخذ الطرف المقابل حياءً واضطر للعمل خلاف رغبته وميله؛ وكذلك إن إرادوا نصح شخص وأمره بالمعروف كما يزعمون ذهبوا بماء وجهه وسط الآخرين، بينما صرحت التعاليم الإسلامية بأنّ هذا العمل ينبغي أن يتمّ بمنتهى الدقة واللطافة؛ بما يحفظ ماء وجه المسلم ولا يكدره ويجعله يعيش حالة من الحزن والغم.

وتشير العبارة:

«وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا»

إلى أنّ المنافقين إن بلغوا منصباً فإنهم ليس فقط لا- يؤدّون حقّ ذلك المنصب، بل يسلكون طريق الاسراف فيغضبون الله والناس لضمان مصالحهم اللامشروعة، قال القرآن الكريم بشأن بعض المنافقين:

«وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ» [٩٤٧].

ويحتمل أن يكون المراد من قوله

«إِنْ حَكَمُوا»

أنهم إن تصدّوا للحكم في مسألة معينة فإنّ حكمهم لا يستند إلى العدل قط وأنهم ينتهكون حدود العدل والقسط، ولا مانع من الجمع بين التفسيرين.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٦٣

إشارة

قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقِّ بَاطِلًا، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلًا، وَلِكُلِّ حَقٍّ قَاتِلًا، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحًا، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِضْرِبًا حَاحًا. يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِتُقِيمُوا بِهِ أَسْوَأَهُمْ، وَيُنْفِقُوا بِهِ أَغْلَاقَهُمْ، يَقُولُونَ فَيْشَبُّهُونَ، وَيَصْرَفُونَ فَيَمُوتُوهُونَ. قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وَأَضْلَعُوا الْمَضْرِبَ، فَهُمْ لِمَةُ الشَّيْطَانِ، وَحَمَّةُ النَّيِّرَانِ: (أَوْلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ).

الشرح والتفسير: التخطيط الدقيق للمنافقين

أشار الإمام عليه السلام في هذا الحانب من الخطبة الذي يمثل ختامها إلى أن المنافقين يندفعون نحو تنفيذ مآربهم وفق خطط جهنمية متكاملة، واستنفروا أفكارهم لحل كل معضلة تعرض عليهم وأعدوا البرامج اللازمة للقضاء على معارضيهم فقال عليه السلام: «قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقِّ بَاطِلًا، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلًا، وَلِكُلِّ حَقٍّ قَاتِلًا، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحًا، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِضْرِبًا حَاحًا».

فقد كشف الإمام عليه السلام عن حقيقة في هذه العبارات الخمس واستناداً لمفردة «أَعَدُّوا»

أن المنافقين يلمون بجميع الشؤون الإيجابية للمجتمع ويخططون لمواجهتها والقضاء عليها، وقد انطلقوا من بعض الحلول حتى في المواقف الصعبة التي تواجههم ليتمكنوا من خلال ذلك من فتح ما أغلق عليهم من أبواب وإزالة ما يعترض طريقهم من عقبات، فهم يحملون سراجاً في الليالي الظلماء لتحقيق مآربهم.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٦٤

وكثيراً ما تلاحظ الشواهد الحية لهذه العبارات العميقة المعنى في كلام الإمام عليه السلام طيلة التاريخ ولا سيما القرون الإسلامية الأولى ومن ذلك الحجج والذرائع لتنجية الإمام عليه السلام عن الخلافة (كونه شاباً أو فيه دعابة) وإحراق بيت الوحي بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بذريعة المخالفة لإجماع المسلمين (الإجماع الذي ليس له من وجود خارجي) والمطالبة بدم عثمان ومن جانب أولئك الذين تلطخت أيديهم بدمه، ورفع القرآن على أسنه الرماح حين الأشراف على الهزيمة وما شابه ذلك.

والطريف أنهم يتشبثون أحياناً ببعض الأمور التي تثير الدهشة لدى كل إنسان مطلع؛ مثلاً حين قيل لجيش معاوية إنكم أنتم «الفئة الباغية» التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله في حديثه المعروف بشأن عمار حين خاطبه قبل ثلاثين سنة وقال له: «يَا عَمَارُ تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ»

فردوا على ذلك: إن قاتل عمار هو علي، لأنه هو الذي أتى به! ونحن لم نقتله [٩٤٨].

ثم أشار عليه السلام إلى حيلة أخرى من حيلهم في النفوذ إلى القلوب فقال:

«يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِتُقِيمُوا بِهِ أَسْوَأَهُمْ، وَيُنْفِقُوا بِهِ أَغْلَاقَهُمْ [٩٤٩].»

فهم نفعيون مشبهون رأس مالهم الكفر والنفاق والضلال وزبائنهم السذج من الأفراد وثمان هذه المعاملة فقدان الدين والإيمان، على غرار بعض التجار الذين لا يهتمون للمشتري حين الشراء بغية استقطاب الآخرين لشراء بضائعهم على أساس أن:

«الإنسان حريص على ما مُنِعَ»

فيثيروا الرغبة لدى الطرف المقابل ليقبل على متاعهم الفاسد والتالف فيشتريه بأعلى الأثمان.

ثم قال عليه السلام:

«يَقُولُونَ فَيَسْتَبْهُونَ، وَيَصِفُونَ فَيَمُوهُونَ [٩٥٠]».

نعم! فهؤلاء دائماً ما يبدون النفاق والضلال بصيغة الحق ليقبله منهم الناس

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٤٦٥

الذين ينشدون الحق بفعل فطرتهم وطبيعتهم فيغوصوا في مستنقع من الضلال.

وقال في صفة أخرى

«قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وَأَضَلُّوا [٩٥١] الْمَضِيقَ».

ونحن نجد هذا الأسلوب عند منافق عصرنا الذين يستقطبون العديد من الناس بسهولة ويلحقونهم بهم، ثم يقطعون العديد من التعهدات والمواثيق التي يبدو من الصعوبة بمكان الخروج منها كما يقوم الاستكبار العالمي الناهب وبغية توريط الأمم والشعوب بمنحها بعض القروض وبشروط غاية في السهولة بادئ الأمر، فإذا ما وقعت في شباكهم وخذعت بألاعيبهم مارسوا معها مختلف الضغوط وبشتى الوسائل ليفرضوا عليها رغباتهم وأغراضهم في حين تكون هذه الشعوب قد غاصت في مأزق يصعب عليها الخروج منه.

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام خطبته بهذا التحذير قائلاً:

«فَهُمْ لُْمَةٌ [٩٥٢] الشَّيْطَانِ، وَحُمَةٌ [٩٥٣]

النَّيْرَانِ:

«أُولَئِكَ حَزْبُ الشَّيْطَانِ، أَلَا إِنَّ حَزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [٩٥٤].

تأمل

النفاق والمنافقون طيلة التاريخ

لا يسع أحد تحديد الانطلاقة التاريخية للنفاق والمنافقين. فهناك العديد من الأفراد الفاسدين والمفسدين في المجتمعات البشرية الذين ينبرون للمواجهة حين يمتلكون القوة والقدرة اللازمة لها؛ ولكنهم حين يتجرعون الهزيمة، يعمدون إلى إرتداء ثوب النفاق ليتحولوا إلى خلايا سرية ويواصلوا من خلال ذلك العمل لتحقيق أهدافهم المشبوهة، ويبدو أنهم يستسلمون في الظاهر ويعربون عن إخلاصهم وإلتحاقهم بالجماهير لكنهم يعتمدون سرياً مختلف الخطط والمشاريع لتحقيق

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٤٦٦

مآربهم وأهدافهم المُغرِضة.

ولعل من أبرز خصائص المنافقين الإزدواج في الشخصية، الإزدواج في الظاهر والباطن والقول والفعل والمجالس الخاصة والعامة وبالتالي الإزدواج في كل شيء والذي شرحه الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بعبارات بمنتهى العمق والدقة، فهؤلاء يزعمون أنهم مصلحون بينما في الواقع هم مفسدون حقيقيون، ويحسبون أنفسهم أذكياء وعقلاء والآخريين حمقى وأغبياء، والحال هم الحمقى والبلهاء.

وهؤلاء شركاء اللصوص وأصحاب القوافل ورفاق الناس وعملاء الأجانب الذين يعتاشون على البلد ويعيشون التبعية للاستعمار.

وإذا ما برزت عاصفة وجدّ الجدّ وحان وقت التضحية والفداء التمسوا الذرائع الواهية وصرخوا «إِنَّ بَيُّوتَنَا عَوْرَةٌ» [٩٥٥] وانسحبوا من الميدان، وهنا بالضبط تتكشف أوجه النفاق ويماط اللثام عنها أثر بروز الأحداث والصعوبات.

وخلافاً لما يعتقد بعض السذج من أبناء العامة من أن كل من رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسمع كلامه أو وقعت عيناه عليه اكتسب هالة من القدسية واصطلح عليه بالصحابي وأحرزت عدالته وصدقه، فإن هنالك العديد من المنافقين الخطرين بين معاصرين لرسول الله صلى الله عليه وآله والذين أشارت إليهم سورة المنافقين وكما أشارت بصورة أوضح وأعمق سورة التوبة وسورة الأحزاب وسائر السور القرآنية، وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله موقفه الشديد منهم، ومن يتأمل هذه السور القرآنية ويتمعن فيها يدرك شدة موجة النفاق حتى في آواخر عمر النبي صلى الله عليه وآله إلا أن نفوذ النبي وقدرته والانتصارات الباهرة للمؤمنين سلبتهم زمام المبادرة.

فقد نشطوا عقب رحيل النبي صلى الله عليه وآله وأعدوا مختلف الخطط المشبوهة وبلغ سعيهم درجة بحيث اعتلوا على عهد بنى أمية منبر رسول الله صلى الله عليه وآله بعنوان خلفاء النبي صلى الله عليه وآله حيث شغله من اعتنق الإسلام آواخر عهد النبي صلى الله عليه وآله و آل و ابن أعدى أعداء النبي ألا وهو

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٦٧

معاوية «خال المؤمنين» وهذه قصة لا مجال لبحثها.

وكثيراً ما يشاهد اليوم النفاق في عالمنا المعاصر أكثر من أى وقت مضى، حيث ينشط فيها المنافقون بإعداد مختلف الخطط التآمرية وبوسائل وأدوات وإمكانات هائلة والكثير من العملاء في مختلف بقاع العالم والاستفادة من جميع الوسائل الحديثة والمتطورة والمشاريع الشيطانية.

كما تمارس البلدان الاستعمارية التي تتوقف حياتها على إمتصاص دماء الآخرين مختلف الجرائم والجنایات تحت غطاء بعض العناوين البراقة من قبيل حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية، سيما في البلدان التي لا تتماشى مع سياستهم، حيث تتعالى أصواتهم لممارسة أدنى عنف بحق سجين بينما تخرس ألسنتهم حيال ما يجرى في سائر السجون كسجن «أبو غريب» في العراق و «غوانتانامو» حيث ترتكب أشنع الجرائم التي قل نظيرها في التاريخ والتي دوت فضائحها في مختلف أرجاء العالم.

فهم يسعون في ظل هذه الحرية لسلب حرية العمل والعقيدة جميع معارضيهم ويسعون لترسيخ وتأسيس الحكومات العميلة لهم، بل لا يتورعون أحياناً من التصريح علناً بأن أفضل خيار لنا هي الحكومات التي ترعى مصالحنا.

وبالتالى يتحدث هؤلاء عن الحكومات الشعبية، بينما يسعون جاهدين لإسقاط أى حكومة يقف ورائها الشعب لكنها لا تضمن مصالحهم.

ولعل إحدى طرقهم الخبيثة ما يقدمونه أحياناً كمساعدات أو قروض دون مقابل وأخرى مع مقابل وفائدة، والهدف غير المعلن بالطبع هو خلق التبعية في تلك الدول والبلدان، ذلك لأنها إن أصبحت تابعة كان عليها أن تقبل مكرهه كل ما يملى عليها؛ وهذه قصة عميقة الفصول كثيرة الشعب يتطلب شرحها العديد من الكتب والمجلات وليس هنالك من سبيل للخلاص من مخالب هؤلاء المنافقين المتغترسين والمتسلطين والمتلونين سوى وحدة الشعوب المظلومة والمقهورة

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٦٨

فتقوم بالدرجة الأولى بكشف النقاب عنها وكشف حقيقتها ليعرفها الجميع، ثم تهب وفق خطة مدروسة لمقاومتها، والحق بما أن المنافقين يقتصرون على تحقيق أهدافهم المادية فإنهم يفتقرون إلى روح الفداء والتضحية وبالتالي فهم محكومون بالهزيمة والفشل.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٦٩

إشارة

يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَى نَبِيِّهِ وَيَعِضُ [٩٥٦]

نظرة إلى الخطبة

يمكن تصنيف الأبحاث التي بينها الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى ثلاثة أقسام:
القسم الأول: حمد الله والثناء عليه مع ذكر بعض آثار الذات القدسيّة والتي تعدّ من عجائب عالم الوجود، ثم الشهادة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرسالة والإشارة إلى بعض الصفات البارزة من صفاته.
والقسم الثاني: إشارة إلى الهدف من خلق الإنسان ومراقبه الله له وشرحها بعبارات غاية في الروعة والجمال.
والقسم الثالث: الوعظ بالتقوى والاستعداد لحساب الآخرة وحضور محكمة العدل الإلهية.
نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٧١

القسم الأول

إشارة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَجَلَالَ كِبَرِيَّائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَّ الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِزْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ.
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ، وَإِخْلَاصٍ وَإِدْعَانٍ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلَمَ الْهُدَى دَارِسَةً، وَمَنَاهِجَ الدِّينِ طَامِسَةً، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ؛ وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

الشرح والتفسير: البعثة النبوية والظروف الصعبة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة - كسائر الخطب - بحمد الله والثناء عليه، ولكن بعبارات جديدة وتشبيهات مريبة للنفوس ومهذبة لها.
فقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَجَلَالَ كِبَرِيَّائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَّ [٩٥٧]

الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ [٩٥٨] النُّفُوسِ عَنْ عِزْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ».

حقاً لو أمعن الإنسان النظر في عالم الخلق من الذرة حتى المنظومات السماوية والمجرات وأنواع النباتات والأزهار والثمار مروراً بالأصناف العجيبة للحيوانات

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٧٢

والطيور والسباع وحياتان البحار ووحوش الصحارى والأنواع المذهلة للحشرات والأحياء الدقيقة لتعرف كل يوم على عجائب جديدة وغرائب شتى فيها؛ والتي يكشف عنها كل يوم تطور العلم البشري ويعكس عجائب خلقتها بما يجعل الإنسان يعيش حالة من الدهول إزاء قدرة الخالق الحكيم، وهذه هي الحقيقة التي تتضح يوماً بعد آخر في أنه أسمى من الخيال والقياس والوهم، بل أسمى من كل ما

رأينا وقرأنا وكتبنا.

ثم اتجه عليه السلام صوب الاقرار بالشهادتين ليبيّن كلّ واحدة منهما بعبارات جديدة فقال:
«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ، وَإِخْلَاصٍ وَإِذْعَانَ [٩٥٩]».

فهذه العبارات الأربع (إيمان وإيقان وإخلاص وإذعان) تشير إلى أربع مراحل من العقائد الدينيّة، فالإيمان هو المرحلة الأولى حيث يقرّ الإنسان بشيء ثم يؤمن به رغم ما يثار حوله من شكوك وشبهات جزئية؛ ولكن مرحلة الإيقان هي المرحلة التي يزول فيها تلك الشبهات والشكوك ويضحى فيها الإيمان القلبي شفافاً ومشرقاً.

ومرحلة الإخلاص مرحلة نفى كلّ ما سوى الله فلا يرى المؤمن سواه فيعشقه ويناجيه ويطلب منه ولا يلتفت إلى أحد غيره، وأخيراً ترد مرحلة الإذعان التي تعنى حسب أرباب اللغة الإقرار المقرون بالخضوع، أي يظهر إيمانه في جميع أعماله وأقواله وتصرفاته، فتصطبغ حياته بالصبغة الربانيّة فيصبح مصداقاً لقوله تعالى «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً» [٩٦٠].

ومن الطبيعي أن الإيمان واليقين والإخلاص كلّما تجذر في الإنسان كانت ثمرته النهائيّة تلك الأعمال.

ولما فرغ عليه السلام من الشهادة لله بالوحدانيّة خاض في الشهادة بالرسالة مع ذكر بعض

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٧٣

الصفات البارزة للنبي صلى الله عليه وآله وأهدافه؛ فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلَمَ الْهُدَى دَارِسَةً [٩٦١]، وَمَنَاهِجَ الدِّينِ طَامِسَةً [٩٦٢]، فَصَدَعَ [٩٦٣] بِالْحَقِّ؛ وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ».

والعبارة:

«أَعْلَمَ الْهُدَى»

تعنى العلامات التي توضع في طريق المسافرين حتى لا- يضلوا الطريق (كالإشارات الضوئية التي تنصبها إدارة المرور في الطرق والشوارع ليتعرف الناس على تلك الطرق) وتشير هنا إلى تعاليم أئمة الدين وإرشادات الكتب السماوية.

والعبارة:

«وَمَنَاهِجَ الدِّينِ طَامِسَةً»

إشارة إلى قوانين السماء التي اعترها النسيان على عهد الجاهليّة.

نعم فقد نهض رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمر وحمل لواء الدعوة في ظلّ هذه الظروف وذلك الوسط الذي خيمت فيه ظلمات الكفر على كلّ مكان فقام بأربعة أمور: الأول أنه بين الحقّ في المعارف الدينيّة بصورة جليّة، ثم هب لابتغاء الخير للناس ودعاهم بإرشاداته ومواعظه إلى ترك الذنوب والفساد والآثام وإمتثال الأوامر والطاعة لله ورسوله، وهداهم في المرحلة الثالثة إلى كلّ ما فيه سموهم وتكاملهم، وأخيراً أوصاهم بالعدل والقسط والاعتدال في جميع الأمور (صلوات الله وسلامه عليه)، فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى أركان الدعوة الإسلاميّة إلى جانب رسمه صورة واضحة للاوضاع في عصر الجاهليّة.

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٧٥

القسم الثاني

إشارة

وَاعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَمْ يُزْسِلْكُمْ هَمَلًا، عَلِمَ مَبْلَغَ نِعْمِهِ عَلَيْكُمْ، وَأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ، فَاسْتَفْتَحُوهُ، وَاسْتَنْجَحُوهُ،

وَاطْلُبُوا إِلَيْهِ وَاسْتَسْتَفِحُوا، فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلَمَا أَغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ، وَإِنَّهُ لَبِكَلِّ مَكَانٍ، وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَحِرَانٍ؛ لَمَا يَتَلَمَّهُ الْعَطَاءُ، وَلَمَا يَنْفُضُهُ الْحَبَاءُ، وَلَا يَشْتَفِدُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَسْتَفِضِيهِ نَائِلٌ، وَلَا يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، وَلَا يُلْهِبُهُ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ، وَلَا تَحْجُزُهُ هَبِيَّةٌ عَنْ سَيْلٍ، وَلَا يَشْعَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلَا تُولِيهِ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ، وَلَا يُجِئُهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ. قُرْبَ فَنَائِي، وَعَلَا فَدَنَائِي، وَظَهَرَ فَبَطْنِي، وَبَطَنَ فَعَلْنِي، وَدَانَ وَلَمْ يَدُنْ. لَمْ يَذَرِ الْخَلْقَ بِاخْتِيَالٍ، وَلَا اسْتِعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ.

الشرح والتفسير: الموائد الإلهية المطلقة

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاث مسائل رئيسية: الأولى هدف الخليفة، ثم النعم الجمّة التي تفاض على جميع العباد، وأخيراً التأكيد على المراقبة الدائمة والحضور الإلهي في كل مكان وعلى كل حال. فقال في الأمر الأول: «وَاعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلًا [٩٦٤]». وهذا هو اقتباس من الآية الشريفة: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٧٦

لَا تُرْجَعُونَ» [٩٦٥].

ومن المفروغ منه أنّ الله عليم وحكيم لا يفعل العبث قط، رغم أنّ منافع الأفعال وفوائدها لا تعود عليه بشيء؛ لأنّه غني مطلق، ولكن بالطبع لأفعاله آثار وبركات تعود على عباده.

وبما أنّ الشرط الأول لبلوغ الهدف يتمثل في وجود الهدى والمرشد فقد وردت العبارة:

«لَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلًا»

عقب العبارة

«لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا»

، لأنّ الإرسال في مثل هذه الحالات بمعنى الترك والهمل تقال في الأصل للقطيع دون راعٍ، وعلى هذا الضوء تتضح مسؤولية الإنسان إزاء أهداف الخليفة وهداياه الأولياء.

وقال عليه السلام في المسألة الثانية:

«عَلِمَ مَبْلَغَ نِعْمِهِ عَلَيْكُمْ، وَأَخْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ».

والنعمة والإحسان تشمل جميع النعم المادية والمعنوية بالإضافة إلى مختلف القابليات والاستعدادات الباطنية، وهذا يعني أنّ الناس يتمتعون بنعمة فلا يسلكون طريق الجحود ولا يهدرون نعم الله ويجتنبون الكسل والتعاس في الانتفاع بهذه النعم وليعلموا أنّ جميع الأسباب والوسائل متوفرة للوصول إلى الهدف المنشود والكمال المطلوب.

ثم انتقل إلى المسألة الثالثة فقال عليه السلام:

«فَاسْتَفِحُوا [٩٦٦]، وَاسْتَسْتَفِحُوا [٩٦٧]، وَاطْلُبُوا إِلَيْهِ

وَاسْتَسْتَفِحُوا [٩٦٨]، فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلَا أَغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ».

إشارة إلى أنّ الفيض جاهز من المبدى الفياض، وقد جاء الآن دوركم لتمدوا إلى خزائن لطفه يد العوز والحاجة وتفتحوا أبواب رحمته وتسالوه التوفيق والفلاح، وأنا لنعلم بالطبع أنّ النتيجة ستكون قطعية وحتمية حين تقترن قابلية

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٧٧

القابل بفاعلية الفاعل.

وخلافاً لما يظنه الوثنيون وعبدة الأصنام والمشركون وأتباعهم في عصرنا الراهن من أنّه لا ينبغي التوجه مباشرة إلى الله ولا بد من

عبادة غيره ليفتح لهم الطريق إليه تعالى فقد صرح الإمام عليه السلام أن ليس هنالك من مانع ولا رادع في الطريق ولكل العباد طرق بابيه وإن استعانوا أحياناً بوجهة الشفعاء فهذا تأكيد آخر على الاتصال المباشر بالذات القدسية وإمثال أوامره. ثم خاض في توضيح هذا الكلام من خلال الإشارة إلى ثلاث نقاط أخرى ليوضح من خلالها الفارق بين عطاء الله وبذل الآخرين فقال:

«وَإِنَّهُ لِكُلِّ مَكَانٍ، وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍّ؛ لَأَيُّمُهُ [٩٦٩] الْعَطَاءُ، وَلَا يَنْقُصُهُ الْجَبَاءُ [٩٧٠]، وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ.»

حيث إن الله الرحيم حاضر في كل مكان وتمد إلى ساحة كبريائه أعناق وأيدي جميع المحتاجين، بل هو مع كل شخص أينما كان، ومن جانب آخر فإنه ليس لعطائه من حدود، وهو دائم لا ينضب ولا ينفد ولا يخشى عليه التقدير على الآخرين إن منح البعض الآخر، لأنه وجود لامتناه من جميع الجهات ومن هنا فإن جوده وكرمه لا متناه ونعمته وعطاءه لامتناهين أيضاً، بل كما ورد في دعاء الافتتاح: «وَلَا تَزِيدُهُ كَثْرَةُ الْعَطَاءِ إِلَّا جُوداً وَكَرَمًا»

، إشارة إلى أنه كلما أفاض أكثر كلما ازداد أمل الناس بجوده وكرمه.

ثم خاض في المسألة الثالثة:

«وَلَا يَلْوِيهِ [٩٧١] شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، وَلَا يُلْهِمِيهِ صَوْتٌ

عَنْ صَوْتٍ، وَلَا تَحْجُزُهُ هَيْبَةٌ عَنْ سَلْبٍ، وَلَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلَا تُؤْلِيهِ [٩٧٢]

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٧٨

رَحْمَةً عَنْ عِقَابٍ، وَلَا يُجِنُّهُ [٩٧٣] الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ.»

فهذه العبارات السبع تشجع من جانب للعباد في أن يسألوه كل ما يريدون، ويعلموا أنه لو تزامنت مع طلبات طلبات الخليقة كافة فإنه عليم بكل هذه الطلبات خبير بها، الأمر الذي لا يدركه إطلاقاً سوى الله تبارك وتعالى وكل ما سواه قد يشغله سؤال شخص عن الالتفات إلى سؤال آخر.

ومن جانب آخر تحذير لجميع العباد في مراقبة حضور الله تبارك وتعالى في جميع الأحوال وليدرخوا كما أن نعمه وعطاياه لامتناهية وأنه لا يخيب أحداً في سؤاله وطلبه وأن رحمته سبقت ومنعت غضبه وأن نعمه لا تحول دون مؤاخذه الظلمة والطغاة وأنه عالم بكل ما يفعلونه في خلوتهم وعلانيتهم، والحق ليس هنالك من معنى للغيب والشهادة والبعيد والقريب على الذات القدسية ولا تجرى هذه الأمور سوى على مخلوقاته المحدودة التي تشعر بالقرب والبعد والخفاء والعلانية.

ثم شرح وأكد ما ذكره في العبارات السابقة سبع عبارات أخرى تتعلق بصفات الله تبارك وتعالى فقال:

«قَرَبَ فَنَأَى، وَعَلَا فَدَنَا، وَظَهَرَ فَبَطَنَ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ، وَدَانَ [٩٧٤]

وَلَمْ يَدُنْ. لَمْ يَدْرَءِ [٩٧٥] الْخَلْقَ بِاخْتِيَالٍ، وَلَا اسْتِعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ [٩٧٦].»

والواقع أن جميع هذه الصفات السبع تستند إلى حقيقة واحدة وهي: أنه وجود لامتناه من جميع الجهات، ولذلك فهو حاضر في كل مكان وفي نفس الوقت فإن كنه هذه الذات اللامتناهية خارج عن متناول الأفكار، والظاهر والباطن والقريب

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٧٩

والبعيد لديه على حد سواء، واستناداً إلى علمه اللامتناهية فهو غني عن الحاجة للتفكير حين الخلق ولهذا السبب فليس للتعب والكلل والملل من سبيل إلى ذاته القدسية، لأن هذه صفات المخلوقات ذات القدرة المحدودة، فيشعرون بالتعب حين تنفذ طاقتهم وقدرتهم والحق أن الإمام عليه السلام قد اعتمد منتهى الفصاحة والبلاغة في هذه الخطبة ليصور حقيقة واحدة بأوجه مختلفة وبعبارة متنوعة غاية في الجمال والروعة.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٨١

القسم الثالث

إشارة

أَوْصِيَكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهَا الرِّمَامُ وَالْقَوَامُ، فَتَمَسَّكُوا بِوَتَائِقِهَا، وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا، تَوَلُّ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ وَأَوْطَانِ السَّعَةِ، وَمَعَاقِلِ الْحِزْزِ وَمَنَازِلِ الْعِزِّ، (يَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)، وَتُنْظَلِمُ لَهُ الْأَفْطَارُ، وَتُعْطَلُ فِيهِ صُرُومُ الْعِشَارِ. وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَتُزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ، وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ، وَالضُّمُّ الرِّوَاسِخُ، فَيَصِيرُ صَيْلُهَا سَيْرَابًا رَفْرَقًا، وَمَعْهَدُهَا قَاعًا سَيْمَلَقًا، فَلَا شَفِيعَ يَشْفَعُ، وَلَا حَمِيمٍ يَنْفَعُ، وَلَا مَعْدِرَةَ تَدْفَعُ.

الشرح والتفسير: أهوال القيامة

أوصى الإمام عليه السلام الجميع هنا بالورع والتقوى وعدد آثار التقوى المهمة فقال:
«أَوْصِيَكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهَا الرِّمَامُ وَالْقَوَامُ».

والتعبير

«بزمام»

إشارة إلى قوة التقوى المانعة والتي تحول دون الإنسان وإرتكاب المعصية وتصده عن السقوط في مستنقع الفساد والذنب والانحدار في فخ الشيطان وهوى النفس، و

«قوام»

إشارة إلى أسس الحياة الطيبة والمقرونة بالسعادة، وبعبارة أخرى أن للتقوى بعد الحيلولة من جانب والبناء من جانب آخر، فإن امتزج الجانبان كملت سعادة الإنسان ونجاته، وبكلمة موجزة فإن سعادة الإنسان تتكامل مادياً ومعنوياً بوجود التقوى.

واعتبر بعض شراح نهج البلاغة أن

«الرِّمَامُ وَالْقَوَامُ»

يتعلقان بالعبادات، والحال أن العبارة من قبيل حذف المتعلق الذي يهب المفهوم شمولية، والآيات القرآنية

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٨٢

شاهد على ذلك أن التقوى سبب النجاة في الآخرة ومصدر البركة في الحياة المادية الدنيوية حيث صرح تعالى من جانب: «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» [٩٧٧].

ومن جانب آخر: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» [٩٧٨].

ثم قال في مواصلة كلامه كتوضيح وتأکید:

«فَتَمَسَّكُوا بِوَتَائِقِهَا» [٩٧٩]، وَاعْتَصِمُوا

بِحَقَائِقِهَا [٩٨٠]، تَوَلُّ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ [٩٨٣] وَأَوْطَانِ السَّعَةِ، وَمَعَاقِلِ الْحِزْزِ وَمَنَازِلِ الْعِزِّ.

والتعبير

«بوثائق»

جمع وثيقة بمعنى العروة المحكمه إشارة إلى الأبعاد الظاهرية للتقوى، والتعبير

«بالحقائق»

جمع حقيقة إشارة إلى جوانبها الواقعية.

والعبارات الأربع التي ذكرت في العبارة المذكورة كنتيجة (وجزاء الشرط مقدر) تشير إلى أن التمسك بالتقوى سبب الهدوء والسكينة وكذلك الفتح والحفظ من الأخطار والتمتع بالعهزة والكرامة.

نعم! حين تسود التقوى في المجتمع بصفاتها شعور بالمسؤولية الربانية فإنه قل من يتجاوز على حقوق الآخرين ويمارس الظلم والجور ونتيجة ذلك الاستقرار والسكينة، وإن سادت التقوى بصفاتها وظيفة فإن المجتمع يأخذ بالرقى والاتساع

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٨٣

شيئاً فشيئاً، وإن برزت التقوى بصفاتها سداً منيعاً أمام العدو فإن المجتمع سيصان من شره ومجموع هذه الأمور هي أساس العزة والرفعة والسمو.

ثم قال عليه السلام: إن هذه الآثار الأربعة إنما تتحقق بصورة كاملة في الآخرة؛ ليس بمعنى إنعدام هذه الآثار في الحياة الدنيا بل

المعنى: أن الهدف الأصلي والنهائي هناك:

«يَوْمَ تَشْخَصُ ٩٨٥] فِيهِ الْأَبْصَارُ»

وَتُظَلِّمُ لَهُ الْأَقْطَارُ، وَتُعْطَلُ فِيهِ صُرُومٌ ٩٨٦]

الْعِشَارِ ٩٨٧]».

فهذه الصفات الثلاث تتعلق بالصيحة الأولى وزلزلة نهاية العالم، لأنها على درجة من الرعب والهول وإثارة الدهشة بحيث تنسى الإنسان كل شيء سوى نفسه، كما رسم هذه الصورة القرآن الكريم فقال: «يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» [٩٨٨].

ثم تطرق الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه ليشرح جوانب أخرى من بداية القيامة والتي تهز القلوب وتذهل الأفكار فقال:

«وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَتَرْهَقُ ٩٨٩] كُلُّ مُهْجَةٍ ٩٩٠]،

وَتَبْكُمُ ٩٩١] كُلُّ لَهْجَةٍ، وَتَذِلُّ الشُّمُ ٩٩٢] الشَّوَامِخُ ٩٩٣]، وَالصُّمُ ٩٩٤] الرِّوَاسِخُ ٩٩٥]، فَيَصِيرُ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٨٤

صَلْدُهَا ٩٩٦] سَرَابًا رَفْرَقًا ٩٩٧]، وَمَعْهَدُهَا ٩٩٨] قَاعًا ٩٩٩] سَمْلَقًا ١٠٠٠]».

والذي يستفاد من الآيات القرآنية أن تغييرين شديدين وعظيمين يحدثان في نهاية العالم وعلى أعتاب القيامة والتي عبر عنها بالنفخ في الصور، ذلك لأنهم في الماضي كانوا يعمدون إلى النفخ في بوق الحركة أو بوق الحرب وبعده أصوات مختلفة لتبلغ مسامع الآخرين حين يراد تحريك الجيش أو إعلان الحرب أو إيقافه من النوم، وعليه فالنفخ في الصور هذا يعنى بداية تغيير عظيم.

كما يستفاد من الآيات القرآنية حدوث زلزلة عظيمة تتزامن مع النفخة الأولى وبموجبها تذهل الكائنات الحيّة كافة من شدتها وهذه نفخة الموت، وإلى ذلك أشارت الآية الشريفة: «أَنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا ...» [١٠٠١]. وكذلك الآية:

«وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ...» [١٠٠٢].

وفي النفخة الثانية أي إعادة الحياة يحدث تغيير آخر يظهر فيه عالم جديد على إنقراض العالم السابق فينطلق الأموات من القبور للحساب، وقد وردت الإشارة في سورة الزلزلة إلى النفخة الثانية: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ

مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا». كما ورد في الآية ٦٨ من سورة الزمر إشارة لذلك: «ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ». وما ذكره

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٨٥

الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إشارة إلى النفخة الأولى التي تؤدي إلى خراب العالم ونسف الجبال ومحو آثارها وذهول الإنسان وبالتالي موته.

وما ورد في ذيل هذه الخطبة إشارة للأحداث التي تعقب النفخة الثانية حيث قال:

«فَلَا شَفِيعَ يَشْفَعُ، وَلَا حَمِيمَ يَنْفَعُ، وَلَا مَعْدِرَةَ تَدْفَعُ»

. وهذا الكلام اقتباس من الآية القرآنية الشريفة: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» [١٠٠٣]. والآية: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْدِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» [١٠٠٤].

ومن الطبيعي أن عدم قبول المعذرة كما يفهم من الآيات المذكورة يختص بأولئك الذين حطموا الجسور الموصلة للشفاعة بأعمالهم وأفعالهم؛ وإلا فإن أولئك الذين أبقوا السبل الموصلة إليها فسيشملون بتلك الشفاعة، قال تعالى في القرآن الكريم بهذا الخصوص: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ» [١٠٠٥].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٨٧

الخطبة ١٩٦

نظرة إلى الخطبة [١٠٠٦]

يفيد ترتيب هذه الخطبة أنها جزء من خطبة مفصلة وقد اختار المرحوم السيد الرضى هذا القسم حسب منهجه في الاقتطاف، وقد اقتطع هذا القسم من سائر الأقسام وذكره بصورة مستقلة. على كل حال تتكون هذه الخطبة من ثلاثة أقسام: تضمن القسم الأول إشارات قصيرة وعميقة المعنى إلى بعثه النبي صلى الله عليه وآله وبالنتيجة فضله العظيم على البشرية برمتها سيما المجتمع العربي.

وحذر في القسم الثاني من الخداع والاعتزاز بزخارف الدنيا بعد الوصية بالورع والتقوى، ثم أوضح تفاهة الدنيا بعبارات غاية في الروعة والمعنى وبتشبيهات رائعة.

وكشف في القسم الثالث عن سبيل النجاة وأكد على ضرورة المبادرة إلى استغلال الفرص ما دامت سانحة قبل فوات الأوان وحلول الموت.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٨٩

القسم الأول

إشارة

بَعَثَهُ حِينَ لَاعَلِمَ قَائِمٌ، وَلَا مَنَارٌ سَاطِعٌ، وَلَا مَنَهْجٌ وَاضِحٌ.

أَوْصِيَكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْيِدْكُمْ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ شُحُوصٍ، وَمَحَلَّةٌ تَنْغِيصُ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وَقَاطِنُهَا بَائِنٌ، تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مِيدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ، فَمِنْهُمْ الْعَرِيقُ الْوَبِيقُ، وَمِنْهُمْ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الْأَمْوَاجِ، تَحْفِرُهُ الرِّيَّاحُ بِأَذْيَالِهَا، وَتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا، فَمَا عَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ، وَمَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلِكِكَ!

الشرح والتفسير: أهوال الدنيا

قال الإمام عليه السلام في المقطع الأول من هذه الخطبة حيث أراد كشف النقاب عن العصر الذي انطلقت فيه الدعوة النبوية والمراد به العصر الجاهلي ومن خلال ثلاث عبارات قصيرة:

«بَعَثَهُ حِينَ لَاعَلَمَ قَائِمٌ، وَلَا مَنَارٌ سَاطِعٌ [١٠٠٧]، وَلَا مَنَهْجٌ وَاضِحٌ».

فالطرق الصحراوية والجبليّة لم تكن واضحة في الأزمنة السابقة كما هي عليه اليوم، طبعاً الطرق الرئيسيّة كانت معروفة بفعل كثرة التردد عليها والعبور والمرور، غير أنّ الطرق الفرعيّة لم تكن كذلك، وبغية إرشاد المسافرين كي لا يضلوا الطرق كانوا ينصبون في النهار بعض العلامات بصيغته أعمده وما شابه ذلك في أغلب الطريق منذ بدايتها حتى نهايتها والتي يصطلح عليها بـ «العلم» وكانوا يشعلون السراج على سطوحها والتي يصطلح عليها بـ «المنار»، وعليه لولا أعلام النهار

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٩٠

وأسرجة الليل ووضوح الطرق الرئيسيّة لتزايد احتمال ضلال سالكي الطريق.

فقد شبه الإمام عليه السلام حياة الناس في الجاهليّة بالطرق العشوائية التي لم تنصب عليها أية علامة وسراج يضيء الدرب، وليس لذلك من نتيجة سوى الضلال المبين للناس والذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» [١٠٠٨].

ثم واصل عليه السلام كلامه فخطب الجميع قائلاً:

«أَوْصِيكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذَرُكُمْ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارٌ شُحُوصٌ، [١٠٠٩] وَمَحَلَّةٌ تَنْغِيصُ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وَقَاطِنُهَا بَائِسٌ».

وتشير هذه العبارات الأربع جميعاً إلى تقلب أحوال الدنيا وعدم استقرارها، مع إقترانها بالألم والمعاناة، والعجيب مع إتضاح دلالات تقلبها وتصرم أحوالها وكثرة خطوبها ومحنها في جميع مواضعها إلّا أنّ هنالك طائفة من الناس تراها خالدة من الناحية العمليّة وتسعى إليها بكلّ ما أوتيت من قوّة.

وعلى هذا الأساس تطرق الإمام عليه السلام إلى بيان مثال بليغ ومثير بشأن هذه الدنيا الغرور بحيث لا يمكن الإتيان بصورة أفضل منه فقال:

«تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مِيدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا [١٠١٠] الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ [١٠١١] الْبِحَارِ، فَمِنْهُمْ الْغَرِقُ الْوَبِقُ [١٠١٢]، وَمِنْهُمْ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الْأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ [١٠١٣] الرِّيَّاحُ بِأَذْيَالِهَا، وَتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكَ، وَمَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلَكَ!».

وتشبيه الدنيا بالبحر وسكنتها بركاب السفينة وإبان العواصف الشديدة التي لا تفضي سوى إلى الغرق قد ورد قبيل هذه الخطبة للإمام عليه السلام في مواضع لقمان الحكيم، فقد ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام في ما روى عن لقمان الحكيم أنّه وعظ ابنه

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٩١

قائلاً:

«يَا بُنَيَّ إِنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ قَدْ غَرِقَ فِيهَا عَالَمٌ كَثِيرٌ فَلْتَكُنْ سَيِّفِيَّتِكَ فِيهَا تَقْوَى اللَّهِ وَحَشْوُهَا الْإِيمَانُ وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلُ وَقِيمُهَا الْعَقْلُ وَدَلِيلُهَا الْعِلْمُ وَسُكَّانُهَا [١٠١٤] الصَّبْرُ» [١٠١٥].

وقد أشار الإمام عليه السلام في مواصلته لهذه الخطبة إلى سبيل النجاة من هذا البحر المرعب.

على كلّ حال فما بيّنه الإمام عليه السلام في هذا التشبيه البليغ والرائع هو أنّه رسم صورة لأهل الدنيا كيف يتبدل أمنهم إلى خوف وصحتهم إلى مرض وغناهم إلى فقر وتجمعهم إلى فرقة حين يتعرضون لمختلف أنواع المصائب والمحن والخطوب، وكيف تقضى عليهم هذه الدنيا من خلال أحداثها وعلى هذا الأساس يبدو من العجيب كيف يتعلق الناس بها ويطمأنون إليها.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٩٣

القسم الثاني

إشارة

عِبَادَ اللَّهِ، الْآنَ فَاعْلَمُوا، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةً، وَالْأَبْدَانُ صِيحِيحَةٌ، وَالْأَعْضَاءُ لَدْنَهُ، وَالْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ، وَالْمَجَالُ عَرِيضٌ، قَبْلَ إِزْهَاقِ الْفُوتِ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ. فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نَزْوَلَهُ، وَلَا تَتَنَطَّرُوا قُدُومَهُ.

الشرح والتفسير: اغتنام الفرصة

كشف الإمام عليه السلام بوضوح في شرحه لهذا الجانب من الخطبة- كما أشرنا سابقاً- النقاب عن سبيل النجاة من تلك المحن الخطيرة التي أشار إليها في القسم السابق، حيث تبدو النجاة من الخطوب الخطيرة لهذه الدنيا المزخرفة والغرور حتمية إذا ما طبقت هذه الوصايا والتعاليم فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، الْآنَ فَاعْلَمُوا، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةً، وَالْأَبْدَانُ صِيحِيحَةٌ، وَالْأَعْضَاءُ لَدْنَهُ» [١٠١٦]، وَالْمُنْقَلَبُ [١٠١٧] فَسِيحٌ [١٠١٨]، وَالْمَجَالُ عَرِيضٌ، قَبْلَ

إِزْهَاقِ [١٠١٩] الْفُوتِ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ. فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نَزْوَلَهُ، وَلَا تَتَنَطَّرُوا قُدُومَهُ».

فقد حذر الإمام عليه السلام في هذه العبارات العميقة المعنى الجميع، ولاسيما الشباب والكهول من ضرورة اغتنام الفرصة والمبادرة إلى العمل كونه أفضل وسيلة للنجاة قبل فوات الأوان وحلول عهد الشيخوخة والعجز حيث تتباطى فيه الألسن ويضعف

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٩٤

فيه البدن ويمرض وتذبل الأعضاء ويضيق الميدان وتسلب الفرصة، نعم لابد من المبادرة للعمل الصالح قبل حلول هذه العقبات. كما أكد على عدم الظن ببعد الأجل مهما كان عمر الإنسان، فلا ينبغي الغفلة حتى لمن كان في سنى الشباب والفتوة والشعور بالقوة والنشاط والصحة والسلامة، والإبتعاد عن الغرور بحيث لو قيل له: كفاك ذنباً ومعصية فعد إلى الله وتب إليه، قال مازالت الفرصة سانحة، وسيأتي يوماً وقت التوبة والعمل الصالح فيما بعد، فهل هنالك من يعلم ماذا سيحصل غداً، وهل هناك من يضمن ماذا سيحل بعد ساعته، ومن منّا سيبقى حياً ومن منّا سيموت؟ وقد ورد مثل هذا المعنى في مستهل الخطبة ٢٣٧ حيث قال عليه السلام:

«فَاعْلَمُوا وَانْتَمِ فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ».

جدير ذكره أن أغلب نسخ نهج البلاغة ذكرت في مستهل هذه الخطبة العبارة

«الآنَ فَاعْلَمُوا»

بدلاً من (فاعلموا) وتشهد القرائن، على صحة هذه النسخة، أضف إلى ذلك فإن انسجام المطالب وتناسب المواعظ تفيد ضرورة العمل، والخطبة ٢٣٧ شاهد على ذلك.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٩٥

الخطبة ١٩٧

إشارة

يُنَبِّئُهُ فِيهِ عَلَى فَضِيلَتِهِ لِقَبُولِ قَوْلِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ [١٠٢٠]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من ثلاثة أقسام:
أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول إلى طاعته الخالصة ودفاعه المطلق عن النبي واستدل على ذلك بعلم صحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وشهادتهم.
وتطرق في القسم الثاني إلى الأحداث المهمة منذ احتضار النبي ووفاته حتى غسله ودفنه والصلاة عليه والتي تفيد أنه عليه السلام أقرب من غيره للنبي صلى الله عليه وآله.
وخلص في القسم الثالث إلى نتيجة واضحة تتمثل في وجوب طاعته من قبل الجميع بدليل كل سوابقه وفضائله ومناقبه، ثم دعا مخاطبيه لمواكبته في حفظ بيضة الدين وإرث النبي صلى الله عليه وآله وإمتثال أوامره في جهاد العدو (معاوية وجند الشام) وأن لا يشعروا بأدنى شك في أنهم على الحق وأن أعداءهم على الباطل.
نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٩٧

القسم الأول

إشارة

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا.

الشرح والتفسير: طاعتي المطلقة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة بالإشارة إلى أمرين مهمين؛ الأول أنه كان دائماً وفي جميع المواطن مطيعاً مطلقاً لله ولرسوله، بينما كان هنالك بعض الأفراد من هذه الأمة وبعض الصحابة ممن ينبرى بين حين وآخر للرد على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«وَلَقَدْ [١٠٢١] عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ.»

«مستحفظون»:

(بفتح الفاء صيغته اسم مفعول) إشارة إلى تلك الطائفة التي استودعها رسول الله أمانة سره والتاريخ الإسلامي الصحيح، وهذا يدل على وجود

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٩٨

ثَلَّة من صحبه الذين حفظت سره بدقَّة بعيدة عن أى غرض وسوء نيَّة، فهم حفظة الأسرار الإسلاميَّة والحوادث التاريخيَّة والذين كان يعرفهم الناس بالإخلاص والأمانة.

فى مقابل تلك الزمرة على عهد معاوية التى باعت دينها بالدنيا ووضعت الأحاديث والروايات وانبرت للقضاء على فضائل على عليه السلام ونسبت النقص والكذب له عليه السلام لتعمر دنياها بهذه المعاصى.

وهذه العبارة تمثِّل فى الوقت ذاته إشارة إلى أولئك الذين تنطلق ألسنتهم أحياناً بالردِّ والإعتراض على رسول الله صلى الله عليه وآله، كما ورد فى القرآن الكريم: «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ» [١٠٢٢]. وإشارة إلى بعض الأفراد المعروفين مثل عمر والذى ورد بشأنه فى روايات العاميَّة أنه اعترض يوم الحديبية - طبق نقل المصنَّف عبدالرزاق الصنعاني، العالم المعروف لدى العامة على النَّبى الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال له: أَلست رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله:

بلى. قال عمر: ألسنا على الحقِّ وعدونا على الباطل؟ قال صلى الله عليه وآله: بلى. فقال عمر:

فعلام نعطي الدنيَّة فى ديننا (ونمضى صلحاً مع العدو أشبه بالاستسلام؟) فردَّ عليه النَّبى صلى الله عليه وآله بأنه رسول الله ويتبع أمر الله وأنه سينصره، فواصل عمر إعتراضه وقال: أو لم تقل إننا سنحج البيت؟ فقال صلى الله عليه وآله: نعم سنحج البيت ولم أقل سنحجه هذا العام [١٠٢٣].

ويفهم من الرواية أنه لم يكن الخليفة الثانى فقط من يعترض على رسول الله صلى الله عليه وآله بل كانت معه طائفة ممن تعترض أيضاً.

إلَّا أننا لا نلمس فى أى من صفحات التاريخ أن عليناً عليه السلام اعترض على فعل من

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٤٩٩

أفعال النَّبى صلى الله عليه وآله بل كان يتبعه فى الأمور كافَّة ويمثل لأوامره دون نقاش.

ثم واصل عليه السلام كلامه مشيراً إلى تضحياته فى سبيل الإسلام والنَّبى صلى الله عليه وآله فقال:

«وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ [١٠٢٤] بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ [١٠٢٥] فِيهَا الْأَبْطَالُ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا».

هذه العبارات القصيرة إشارة إلى تضحياته عليه السلام فى الغزوات الإسلاميَّة كأحد وخير والأحزاب وحين.

وإننا لنعلم حسب تصريح المؤرخين بشأن معركة أحد أن خصوم الدعوة لما بثوا شائعة قتل النَّبى صلى الله عليه وآله فى المعركة وقتل العديد من المسلمين انفرج سائر المسلمين عن المعركة ولم يبق حول النَّبى سوى على عليه السلام الذى دافع بكلِّ صبر وثبات [١٠٢٦].

كما نعلم أن أحداً لم ينبر فى يوم الأحزاب ل «عمرو بن عبدود» وبيارزه سوى أمير المؤمنين على عليه السلام حين تخلف جميع المسلمين [١٠٢٧].

وفى معركة خيبر كان رسول الله صلى الله عليه وآله يسلم الراية كلَّ يوم لمن يزعم القتال لكنهم لم يحققوا شيئاً حتى كان آخر يوم فسلم الراية لعلى عليه السلام ففتح حصون خيبر الواحدة تلو الأخرى [١٠٢٨].

ولقد فرَّ أغلب المسلمين يوم حنين حين تعرضوا لهجوم العدو المباغت لما شعروا بالخوف والرعب وكان على رأس من ثبت وصمد فى الدفاع عن النَّبى صلى الله عليه وآله هو على عليه السلام [١٠٢٩].

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٠٠

وبالطبع فإنَّ تضحيات على عليه السلام لا تقتصر على ميادين القتال، بل اقتحم عليه السلام سائر الميادين بكلِّ شجاعة سيما تلك التى يتخاذل فيها الأبطال، فقد بات عليه السلام على فراش رسول الله حين همَّ الكفار والمشركون بالقضاء على رسول الله صلى الله عليه وآله

آله ففداه بنفسه.

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٠١

القسم الثاني

إشارة

وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَزْتُهَا عَلَى وَجْهِهِ. وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُشِيْلَهُ صَيْلَى اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْتِيَةُ. مَلَأَ يَهَيْطُ، وَمَلَأَ يَعْجُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةً مِنْهُمْ. يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرْبِيهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا؟ فَانْفُذُوا عَلَيَّ بِصَائِرِكُمْ، وَلْتَصُدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ. فَوَالَّذِي لَأِإِلَهِ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ!

الشرح والتفسير: أولى الناس بالنبي صلى الله عليه وآله

إشارة

لما فرغ الإمام عليه السلام من بيان رابطة الحميمة والقائمة على أساس الإخلاص والطاعة مع النبي صلى الله عليه وآله في حياته ذكر علاقته به بعد وفاته والتي تفيد أنه لم يكن لأحد من المسلمين غيره مثل هذه العلاقة بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَزْتُهَا عَلَى وَجْهِهِ».

والعبرة:

«إِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي»

يمكن أن تشير إلى أن أمير المؤمنين على عليه السلام رفع رأس النبي صلى الله عليه وآله وضمه إلى صدره في تلك اللحظة والتي كانت سكينه للنبي صلى الله عليه وآله وآله وعلى عليه السلام بالإضافة إلى أن هذه الوضعية تسهل من التقاط الأنفاس، كما يحتمل أن

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٠٢

يكون رأس النبي كان في حجر الإمام عليه السلام وقد انحنى فمس صدره عليه السلام رأس النبي صلى الله عليه وآله، إلّا أن هذا الاحتمال لا ينسجم مع قوله

«عَلَى صَدْرِي»

. وقد اختلف الشراح في المراد من النفس في العبارة

«سَأَلْتُ نَفْسَهُ»

حيث دارت أقوالهم حول محورين:

الأول: أن المراد من النفس الدم الذي ورد في أغلب عبارات الفقهاء والأدباء والتي أشارت إلى هذا المعنى، ومن ذلك

«النفس السائلة»

في الكتب الفقهية كما ورد مثل هذا الاستعمال في الأشعار العربية حيث قيل: ثم سيلان نفسه في كفه، وإمرارها على وجهه، وأراد

بنفسه دمه يقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قاء وقت موته دماً يسيراً، وأن علياً عليه السلام مسح بذلك الدمه وجهه [١٠٣٠].
 والتفسير الآخر هو أن النفس تلك الروح البشرية القدسية التي وردت الإشارة إليها كراراً في القرآن الكريم «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا» [١٠٣١]. وعليه فمفهوم العبارة أن روح النبي الطاهرة فاضت على يد علي حين فارقت بدنه الطاهر فمسح بها وجهه [١٠٣٢].
 إلا أن العبارة التي بقيت مبهمه على أغلب الشراح والمترجمين هي قوله عليه السلام:
 «أَمَرْتُهَا عَلِيَّ وَجْهِي»

فقالوا: وهل الروح شيء يمكن مسح الوجه بها؟!
 ولحل هذا الإشكال يمكن أن يقال إن

«الكف»

مؤنثة لأن الأعضاء الثنائية في البدن مؤنثة بينما الأعضاء المفردة مذكرة، قال الشاعر العربي:
 «وَكَفٌّ خَضِيبٌ زُيْنَتْ بِنَانِي»

، وعليه فمعنى العبارة أن كفى لامست الروح القدسية للنبي صلى الله عليه وآله ثم مسحت وجهي بتلك الكف للبركة، وهكذا يحل إشكال تفسير العبارة المذكورة.

ثم خاض عليه السلام في سائر مراسم وفاة النبي صلى الله عليه وآله كالغسل والدفن فقال:
 «وَلَقَدْ وُلِّيتُ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٠٣

غُسِّلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْتِيَةُ [١٠٣٣]. مَلَأَ يَهْبِطُ، وَمَلَأَ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقْتُ سَمْعِي هَيْئَةً [١٠٣٤] مِنْهُمْ. يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارِثَانَهُ [١٠٣٥] فِي ضَرِيحِهِ».

والعبارة:

«وُلِّيتُ غُسْلَهُ»

يمكن أن تكون إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وآله كلفني بالقيام بهذا العمل، ومعونه الملائكة بهدف إكرام النبي صلى الله عليه وآله وتعظيمه وإجلاله، وضجيج الدار والأفنية الوارد في العبارة يمكن أن يراد به المعنى الحقيقي، من قبيل ما ذكره بشأن تسبيح الجمادات في تفسير آيات التسبيح الواردة في القرآن الكريم، كما يمكن أن يكون المراد به المعنى المجازي ليشير إلى الحزن والأسى العظيم الذي خيم على بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وهنالك احتمال أن تكون الملائكة محذوفة والعبارة تدل على ذلك، وعليه فمعنى العبارة
 «ضجت ...»

هو ضجيج الملائكة الذين كانوا في بيته صلى الله عليه وآله، ولكن يبدو هذا الاحتمال بعيداً.

والاحتمال الرابع هو أن هذا الضجيج كان من قبل الناس الحاضرين حول البيت.

والعبارة هبوط وعروج الملائكة إشارة إلى أن الملائكة كانت تأتي جماعات جماعات تصلي على النبي وتعرج، وكان الإمام عليه السلام يسمع بأذنه الشريفة أصواتهم حين الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وآله وقد تواصلت هذه الصلوات والتحيات على النبي صلى الله عليه وآله حتى دفنه.

والتعبير بالضريح إشارة إلى الحفرة التي أعدت لدفن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؛ لأن هذا هو المعنى اللغوي للضريح، وإن كان الضريح اليوم يطلق على ما يوضع على القبر.

وقد تواترت روايات الفريقين على أن علياً عليه السلام تولى لوحده غسل النبي ودفنه فقد روى المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار عن كتاب الوصية للشيخ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٠٤

«عيسى الضرير» عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال:

«قَالَ رَسُولُ اللَّهِ يَا عَلِيُّ! أَضْمَنْتَ دِينِي تَقْضِيهِ عَنِّي! قَالَ نَعَمْ. قَالَ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ. ثُمَّ قَالَ يَا عَلِيُّ تَغْسِلْنِي وَلَا يَغْسِلْنِي غَيْرُكَ فَيَعْمَى بَصْرُهُ ... قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَيْفَ أَقْوَى عَلَيْكَ وَحْدِي؟ قَالَ يُعِينُكَ جِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ» [١٠٣٦].

ثم خاض الإمام عليه السلام في استنتاج من مجموع الأبحاث السابقة ليعتبر قربه من النبي صلى الله عليه وآله في حياته ووفاته دليلاً واضحاً على أولويته بأمر الخلافة، فقال:

«فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا؟»

وأثر ذلك عبء الجميع للجهاد ضد العدو.

لعل هنالك من يتساءل وما علاقة هذه الأمور بقضية الخلافة؟ وتبدو الإجابة عن هذا السؤال واضحة؛ ومراد الإمام علي عليه السلام لو كانت خلافة النبي - على فرض - أنه غير منصوص عليها فلا بد أن تسند إلى أقرب الأفراد منه وأولاهم به صلى الله عليه وآله، وأوليس ذلك الشخص الذي عاش التسليم المطلق لأوامر النبي وأعظمهم تضحياً وجهاداً في الغزوات الإسلامية ومن كان يرى هبوط الملائكة وعروجها ولا- تفارق سمعه هينمة من أصواتها ومن تولى غسل النبي وتكفينه ودفنه كما عهد إليه أولى من غيره بهذا الأمر؟ فعلمه ومعارفه من جانب وتضحياته الجسام من جانب آخر وقربه من رسول الله من جانب ثالث والوصية له بغسل النبي ودفنه وتكفينه من الجانب الرابع فكل هذه الامتيازات لو وضعت في كفة ميزان لرجحت على الكفة الأخرى مهما كانت ثم خلس عليه السلام إلى نتيجة فقال:

«فَانْفُذُوا عَلَيَّ بِصَائِرِكُمْ، وَتَصَدَّقُوا نِيَّاتِكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ. فَوَالَّذِي لَأِلَهِ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلِّي جَادَّةُ الْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلِّي مَزَلَّةٌ» [١٠٣٧]

الباطل».

فقد اعتمد الإمام عليه السلام في الواقع منطقاً منظماً بصيغته علّة ومعاليل متسلسلة في هذه الخطبة، فقد أثبت بادئ الأمر قربه من النبي وتضحياته في حياته ثم قربه منه

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٠٥

بعد وفاته، وأثر ذلك خلس إلى أولويته في إحراز مقام الخلافة. ثم تطرق إلى نتيجة كئيبة فدعى الجميع إلى جهاد العدو [١٠٣٨].

والعبارة:

«جَادَّةُ الْحَقِّ وَمَزَلَّةُ الْبَاطِلِ»

هي عبارة رائعة ودقيقة، ذلك لأن الحق كالجادة المستقيمة والواضحة التي توصل الإنسان إلى مقصده المطلوب، إلّا أنّ الباطل ليس بطريق بل مزلة وهاوية.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بعبارتين فقال:

«أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلكُمْ!».

فقد أتم الإمام عليه السلام على الناس الحجة بهذه العبارة وأكد ضرورة العمل بتعاليمه ووصاياه ثم سأل الله كحسن ختام للخطبة المغفرة للجميع ليشمل الله صحبه بلطفه ورحمته إن ارتكبوا بعض الأخطاء.

الحوادث الأليمة إبان وفاة النبي صلى الله عليه وآله وبعدها

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى الفاجعة الأليمة لرحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وضجيج الملائكة التي تكشف عن عظم هذا المصائب الجلل.

وتبدو هذه الحادثة أعظم خطورة حين تتزامن مع سائر الرزايا والأحداث والتي تكشف دراستها عن مدى عمق تلك الفاجعة. وقد خاض جمع من شراح نهج البلاغة هنا في ذكر بعض هذه الأحداث؛ لكننا رأينا من الأفضل أن نترك العنان لقلم «الشهرستاني» أحد علماء القرن السادس صاحب كتاب الملل والنحل والمعروف بتعصبه للعامة لئلا نرى ما ذكره بهذا الخصوص فقد أشار إلى عشرة اختلافات مهمّة كلّ واحدة منها تعدّ مصيبة للعالم، وإن سعى لتبريرها تحت ذريعة اجتهاد الصحابة، ولكن تلك الأعمال كانت على درجة من

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٠٦

الوضوح في شاعتها بحيث تأبى التبرير بالاجتهاد أو الخطأ.

الاختلاف الأول في النزاع الذي حدث عند النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في مرضه حيث روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله قال حين اعتل:

«إِيْتُونِي بِدَوَاءٍ وَقِرْطَاسٍ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدِي».

قال عمر:

«إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَجَعُ (وما يقوله خارج عن الوعي) حسبنا كتاب الله».

فاشتمد نزاع الصحابة فقال صلى الله عليه وآله:

«قَوْمُوا عَنِّي لَا يَتَّبِعُنِي عِنْدِي التَّنَازُعُ».

قال ابن عباس بعد نقله لهذا الحديث:

«الرَّزِيَّةُ كُلُّ الرَّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ» [١٠٣٩].

ثم تطرق إلى الاختلاف الثاني في مرض رسول الله أيضاً حين قال صلى الله عليه وآله:

«جَهَّزُوا جَيْشَ أُسَامَةَ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ»

. فقال البعض علينا إمتثال أمر النبي، وكان أسامة خارج المدينة يتأهب للحركة نحو الشام للقضاء على فتنهم، وقال البعض الآخر غلب الوجع على النبي ولا نطبق مفارقتة.

والاختلاف الثالث حين وفاة النبي صلى الله عليه وآله حيث قال عمر:

«مَنْ قَالَ أَنْ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ قَتَلْتَهُ بِسَيْفِي هَذَا وَإِنَّمَا رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ كَمَا رُفِعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ».

وقال أبو بكر: من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد رباً محمداً فإنه حي لا يموت ثم تلى هذه الآية: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ...» [١٠٤٠].

فقبل الناس منه وقال عمر: كأني لم أسمع هذه الآية إلا الآن [١٠٤١].

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٠٧

والاختلاف الرابع في موضع دفن النبي حيث أراد المهاجرون دفنه في مكة، بينما أراد الأنصار دفنه في المدينة لأنها دار الهجرة، ورغبت فئة ثالثة بدفنه في بيت المقدس حيث الأنبياء ثم اتفقوا جميعاً على دفنه في المدينة، ويعتقد البعض أن هدف عمر من هذا الكلام هو اشغال الناس حتى يحضر أبو بكر وتتم له الخلافة.

حيث روى عنه صلى الله عليه وآله أنه قال:

«الأنبياءُ يُدْفَنُونَ حَيْثُ يَمُوتُونَ» [١٠٤٢].

وبرز الاختلاف الخامس في الخلافة والذي عدّه الشهرستاني من أهم الخلافات حيث قال:

«أذ ما سُلَّ سيفٌ في الأسلامِ على قاعِدهِ دِيبِيَّةٌ مِثْلَ ما سُلَّ على الأمامِ في كُلِّ زَمَانٍ».

ثم نقل قصه سقيفه بنى ساعده و ما حدث فيها من اختلافات وبالتالي بيعه أبي بكر.

واعتبر الخلاف السادس قضية فدك وأشار فيه إلى خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام حيث طالبت بها كهبة من النبي أو ميراث، فاحتج

عليها أبو بكر بالحديث (الموضوع)

نفحات الولاية؛ ج ٧؛ ص ٥٠٧

«نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ، ما تَرَكَناه صَدَقَةٌ».

ثم أشار إلى الاختلاف السابع بشأن مانعي الزكاة الذي اعتبرهم البعض كفره بينما لم يكفرهم البعض الآخر والاختلاف الثامن نص

أبو بكر على خلافة عمر حين وفاته فقال له الناس:

«وَلَيْتَ عَلَيْنَا فُظًّا غَلِيظًا»

؛ بينما استجاب له سائر الناس.

والاختلاف التاسع في الشورى التي نصبها عمر لتعيين الخليفة من بعده، والاختلاف العاشر الذي حدث على عهد أمير المؤمنين على

عليه السلام بعد أن بايعته الأمة على الخلافة، فأثار طلحة والزبير وعائشة، فتنة الجمل، ومعاوية، صفين، والخوارج، النهروان [١٠٤٣].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٠٩

الخطبة ١٩٨

إشارة

يُبَيِّنُهُ عَلَى إِحْاطَةٍ عِلْمِ اللَّهِ بِالْجَزْئِيَّاتِ، ثُمَّ يَحْتُّ عَلَى التَّقْوَى،

وَيُبَيِّنُ فَضْلَ الْأَسْلَامِ وَالْقُرْآنِ [١٠٤٤]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من عدة أقسام:

تحدّث الإمام عليه السلام في القسم الأول بعبارات رائعة عن العلم الإلهي المطلق وشهد للنبي صلى الله عليه وآله بالرسالة، ليكمل في

الواقع الشهادتين بعبارات جديدة.

وأوصى عليه السلام في القسم الثاني بالتقوى وأنها دواء كل داء والشفاء من جميع الأمراض والوسيلة لإصلاح المفساد كافة وطهارة

الروح وقره العين، وقد تضمنت إشارات إلى التقوى من خلال ذكر بعض النقاط التي قلّما ذكرت في سائر الخطب.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥١٠

وتطرق في القسم الثالث إلى أهميّة الإسلام ومزاياه بعبارات مشوقة تستقطب القلوب.

وتحدّث في القسم الرابع عن النبي صلى الله عليه وآله وخدماته الجليلة في ذلك العصر المظلم الجاهلي وزعامته للنهضة الإسلاميّة.

واختتم الخطبة بالحديث عن القرآن الكريم من خلال ذكره لأربعين صفة من صفاته التي يمكن القول إنها أشمل إشادة وتمجيد للقرآن، عليه آلاف التحية والثناء.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥١١

القسم الأول

إشارة

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ، وَمَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَاخْتِلَافَ النَّيَّانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ، وَتَلَاظِمَ الْمَاءِ بِالرِّيَّاحِ الْعَاصِفَاتِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيبُ اللَّهِ، وَسَفِيرٌ وَحِيهِ، وَرَسُولٌ رَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير: احاطة الله العلمية

بما أن هذه الخطبة تتحدث حول الإسلام والقرآن، فقد استهلها الإمام عليه السلام بالحديث عن الإيمان بالمبدأ والمعاد؛ الإيمان الذي يشكل الدافع لجميع الخيرات والوسيلة لجميع البركات، حين يريد التحدث عن معرفة الله فإنه يركز على العلم الإلهي المطلق الذي يعد من أهم صفات الحق تعالى فقال:

«يَعْلَمُ عَجِيجَ [١٠٤٥] الْوُحُوشِ

فِي الْفَلَوَاتِ [١٠٤٦]، وَمَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَاخْتِلَافَ النَّيَّانِ [١٠٤٧] فِي الْبِحَارِ

الْغَامِرَاتِ [١٠٤٨]، وَتَلَاظِمَ الْمَاءِ بِالرِّيَّاحِ الْعَاصِفَاتِ [١٠٤٩].»

فقد ركز الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة على أربع ظواهر مختلفة عن بعضها البعض الآخر في هذا العالم ولا تحصى بالاهتمام، ليشير إلى علم الله تعالى بها:

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥١٢

الأولى وكما نعلم فإن الصحارى المترامية الأطراف في العالم تضم العديد من الحيوانات الوحشية التي لا يطرق سمعنا ضجيجها وعجيجها، لكن الله تعالى عالم بها ويعلم كل حيوان فيها ومتى يضح بصوته وما طبيعة ذلك الضجيج.

والظاهرة الثانية: كثرة الذنوب التي تمارس في الخلوات والبعيدة عن أنظار الناس والتي تخفى علينا جميعاً، لكن الله يعلم بكل إنسان في كل مكان وكل زمان والذنب الذي يرتكبه.

والظاهرة الثالثة: أنه يعلم بحركات وسكنات الحيتان في أعماق البحار والغائبة عن عيون الناس.

وأخيراً يعلم الأمواج في المحيطات والبحار وحرركاتها في الليل والنهار والتي لا ندرك سوى جزء يسير منها، فهو العالم متى تتحرك واين تتحرك وكيف تتوقف.

ولو أضفنا لكل هذه الأمور أن علم الله تعالى بهذه الأمور لا يقتصر على اليوم والامس، بل منذ الأزل الذي شهد وقوع هذه الحوادث ليل نهار (ما عدا الذنوب البشرية المحددة بزمان معين) فالله يعلم كيف تحققت كل واحدة من هذه الظواهر واين وكيف.

وكذلك لو أضفنا أن الأمور المذكورة لا تقتصر على الكرة الأرضية، التي تعد مركز مختلف الحوادث، بل مليارات الكواكب في مجرتنا والتي تعتبر مركزاً للعديد من الحوادث الدائمة بالإضافة إلى سائر المجرات الأخرى والتي يتجاوز عددها المليارات.

نعم! كل هذه الأمور حاضرة في علم الله وهنا نوقن بما ذكره القرآن الكريم في الآية ٢٧ من سورة لقمان اذ قالت: «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». في أنه عين الواقع وهي ليست من قبيل الاستغراب فحسب، بل لا تعد بشيء بالنسبة لدائرة علم الله المطلق.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥١٣

ثم واصل كلامه عليه السلام بعد بيان علم الله تعالى بعالم الخلق بالشهادة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرسالة واثني عليه بثلاث صفات مهمّة من صفاته فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيبٌ [١٠٥٠] اللَّهُ، وَسَفِيرٌ وَحِيهِ، وَرَسُولٌ رَحْمَتِهِ».

نعم! فهو إنسان غاية في النجابه والسمو انتجبه الله للنبوة وأنزل عليه وحيه وجعله موضع رحمته.

وقد تجلت هذه الرحمة بعده صور ووجوه، فتارة عن طريق بيان المعارف الدينيّة الساميّة، وتارة أخرى بواسطة شرح التعاليم وثالثة بطلب الرخصة من الله للأمة، وبالتالي ستظهر هذه الرحمة بصيغته الشفاعه يوم القيامة؛ نسأل الله أن يشمل بها جميعاً
جاء في الحديث النبوي الشريف أنه لما نزلت الآية الشريفة: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» [١٠٥١] أنه صلى الله عليه وآله قال لجبرئيل عليه السلام لما نزلت هذه الآية:

«هَلْ أَصَابَكَ مِنْ هَذِهِ

الرَّحْمَةَ شَيْءٌ؟ قال: نعم إنني كنت أخشى عاقبة الأمر، فأمنت بك لما أتني الله عليّ بقوله:

«ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ» [١٠٥٢]

وَقَدْ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَأَةٌ» [١٠٥٣].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥١٥

القسم الثاني

إشارة

أَمَا بَعِيدٌ، فَإِنِّي أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، وَنَحْوُهُ فَصِيدٌ سَبِيلِكُمْ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْرَعِكُمْ. فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءٌ دَاءٌ قَلْبِي بَكُمْ، وَبَصِيرَةٌ عَمَى أَفْتَدِيَتْكُمْ، وَشِفَاءٌ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصِدٌّ لِمَاحِ فَسَادِ صِدُورِكُمْ، وَطَهْرٌ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وَجَلَاءٌ عَشَا أَبْصَارِكُمْ، وَأَمْنٌ فَرَعَ جَأَشَكُمْ، وَصِيَاءٌ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ. فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللَّهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ، وَدَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْمَاعِكُمْ، وَأَميراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ، وَمَنْهَلاً لِحِينِ وَرُودِكُمْ، وَشَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ، وَجَنَّةً لِيَوْمِ فَرَعِكُمْ، وَمَصَابِيحَ لِطُورِ قُبُورِكُمْ، وَسِكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، وَنَفْساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ. فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ حِزْبٌ مِنْ مَتَالِفِ مُكْتَنِفَةٍ، وَمَخَافٌ مُتَوَقِّعَةٍ، وَأَوَارٍ نِيرَانِ مُوقَدَةٍ. فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعِيدٌ دُنُوبُهَا، وَاحْلَوْلَتْ لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا، وَانْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأُمُوجُ بَعْدَ تَرَكَمِهَا، وَأَشِيهَلَتْ لَهُ الصُّعَابُ بَعِيدٌ أَنْصَابِهَا، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكِرَامَةُ بَعْدَ فُحُوطِهَا، وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النَّعْمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا، وَوَبَلَّتْ عَلَيْهِ الْبُرْكَةُ بَعْدَ إِرْدَادِهَا.

فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَوَعَّظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ، وَآمَنَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ. فَعَبَّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ.

الشرح والتفسير: التقوى مصدر الخيرات

بعد أن أشار الإمام عليه السلام إلى علم الله المطلق والشهادة بالنبوة في القسم السابق

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥١٦

والذى كان يمثل فى الواقع مقدمه، خاض فى هذا القسم فى ذى المقدمه والذى تمثل فى الدرجه الأولى فى الوصيه بالتقوى وقرنها ببعض صفات الله ليؤجج فى قلوبهم نيران عشق التقوى والورع فقال:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّى أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِى ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وَبِهِ نَحْرَاحُ طَلَبَتِكُمْ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، وَنَحْوَهُ قَصِيدُ سَبِيلِكُمْ، وَإِلَيْهِ مَرَامِى مَفْرَعِكُمْ [١٠٥٤].»

كما قال القرآن الكريم: «وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ» [١٠٥٥]. وقال أيضاً: «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوُونَ» [١٠٥٦].

ثم خاض عليه السلام إثر الوصيه بالتقوى إلى ذكر آثارها بشمان عبارات قصيرة وعميقه المعنى فقال:

«فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءٌ دَاءٌ قُلُوبِكُمْ، وَبَصْرٌ عَمَى أَفْنِدَتِكُمْ، وَشِفَاءٌ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصَلَاحٌ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَطُهُورٌ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وَجَلَاءٌ عَشَا [١٠٥٧] أَبْصَارِكُمْ،

وَأَمْنٌ فَرَزَ جَأَشِكُمْ [١٠٥٨]، وَضِيَاءٌ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ.»

العباره الأولى إشارة إلى الأمراض الفكرية والروحية فى الغواية والضلال، والعباره الثانية إشارة إلى إزالة الموانع وحجب المعرفة فى ظل التقوى، وتشير العباره الثانية إلى قلبه الطعام ورعايه الاعتدال فى تناول الأغذية فى ظل التقوى؛ ذلك لأننا نعلم وكما ورد فى الحديث النبوى الشريف:

«الْمِعْدَةُ رَأْسُ كُلِّ دَاءٍ وَالْحَمِيَّةُ رَأْسُ كُلِّ دَوَاءٍ» [١٠٥٩].

والذى أيدته الأطباء المعاصرون قاطبة أن قسماً مهماً من الأمراض معلول لكثرة

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥١٧

الطعام، والصحة وطول العمر فى قلبه الطعام، والعبارتان الرابعة والخامسة كلاهما إشارة إلى تطهير الباطن من الرذائل الأخلاقية كالكبر والحسد والبغض والعداء وما شابه ذلك، غير أن العباره الرابعة واردة بشأن الصفات القبيحة التى ترسخ فى باطن الإنسان بحيث تقوده إلى الفساد، بينما تشير العباره الخامسة إلى الانحراف السطحى والبسيط والذى يغسل بماء التقوى.

والعباره السادسة إشارة إلى أن التقوى تجعل رؤية الإنسان الباطنية أعظم حدة وعينه أشد بصيرة، ويبدو أن الفارق بينها وبين العباره «وَبَصْرٌ عَمَى أَفْنِدَتِكُمْ»

أن الكلام فى تلك العباره عن العمى المطلق بالتقوى وهنا إشارة إلى قلبه نور البصيرة الذى يزداد فى ظل التقوى.

والعباره السابعة إشارة إلى الاضطرابات التى يعيشها الإنسان أثر مقارفة الذنب والمعصية؛ فالخوف من عذاب الله فى الدنيا والآخرة وتأنيب الضمير الموجود فى طبيعة الذنب كلها تزال بالتقوى.

قال القرآن الكريم «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» [١٠٦٠].

والعباره الأخيرة تشير إلى تأثير التقوى فى القضاء على ظلمات الجهل وإنهيار العدالة والظلم والجور. وعلى هذا الضوء فإن التقوى تجلب للإنسان خير وسعادة الدنيا والآخرة.

ثم تطرق الإمام عليه السلام بعد ذكره للتقوى وآثارها المهمية فى الحياة المادية والمعنوية البشرية إلى طاعة الله التى تعد من المعطيات الهامة للتقوى ليوضح بعشر عبارات قصيرة وعميقه المعنى أهميه الطاعة فى حياة الأفراد المؤمنين فقال:

«فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللَّهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ، وَدَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ، وَأَميراً فَوْقَ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥١٨

أُمُورِكُمْ، وَمَنْهَلاً [١٠٦١] لِحِينِ وُرُودِكُمْ [١٠٦٢]، وَشَفِيعاً لِدَرْكِ [١٠٦٣] طَلَبَتِكُمْ، وَجَنَّةً لِيَوْمِ فَرَعِكُمْ،

وَمَصَابِيحَ لِطُيُونِ قُبُورِكُمْ، وَسَكناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، وَنَفْساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ.»

فقد شخص الإمام عليه السلام في العبارات الثلاث الأولى منزلة طاعة الله في وجود الإنسان، فشبها بادية الأمر بالشعار الذي يعنى مايلي البدن من الثياب لا-الدثار الذي يعنى الثياب الخارجية التي تقتصر على الرياء والاهتمام بالظاهر، ثم غاص أبعد من ذلك ليسحبها إلى باطن الجسم على أنها اعمق من الشعار، ثم تعمق أكثر ليرى موضعها في القلب. وهنا لابد من الالتفات إلى أن العبارة «بين اضلاع» إشارة لطيفة إلى القلب، ذلك لأن القلب داخل الصدر وقد احيط من جميع جوانبه بالاضلاع.

جدير ذكره أن القلب ليس مركز الإدراكات، إلبأنه على صلة وثيقة بدماع الإنسان وروحه، وكل ظاهرة تطرأ على الروح إنما تظهر آثارها بادية الأمر في القلب.

العبارة:

«أَمِيرًا فَوْقَ أُمُورِكُمْ»

إشارة إلى ضرورة سيادة أوامر الله في جميع شؤون الحياة الفردية والاجتماعية والسياسية.

والعبارة:

«وَمَنْهَلًا لِحَيْنٍ وَرُودِكُمْ...»

تشير إلى أن المعطيات الإيجابية والبركات الجملة لطاعة الله على الحياة المادية والمعنوية للإنسان إنما تغذى روحه، وتوصله إلى أهدافه السامية وتحميه مما يتعرض له من مشاكل، وتعد مصدر السكينة والطمأنينة في عالم البرزخ والقبر ويوم القيامة.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالتطرق إلى علة لزوم الطاعة فقال:

«فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ حِزْبٌ مِنْ مَتَالِفٍ مُكْتَنَفَةٍ، وَمَخَافٍ مُتَوَقَّعَةٍ، وَأَوَارٍ [١٠٦٤] نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥١٩

فالعبارتان الأولى والثانية في الواقع إشارة إلى معطيات الطاعة في الحياة الدنيا، والعبارة الثالثة ترمز إلى آثارها في الآخرة؛ فهي تحفظه في الدنيا من المخاطر الحاضرة والمستقبلية، وفي الآخرة من العذاب الأليم لنار جهنم.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بهذه الأخطار، المفسدات الأخلاقية والباطنية والتي تؤدي إلى البعد عن هدى الله، والحال من شأن هذه الأخطار أن تشمل المخاطر المادية، ذلك لأن الطاعة الإلهية تفيض الأمن الاستقرار على المجتمع البشري وتنزل عليه بركات السماء والأرض وتحد من نسبة الوفيات، كما أشير إلى ذلك في الآيات الشريفة من سورة نوح: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا» [١٠٦٥].

ثم عاد الإمام عليه السلام ثانية إلى مسألة التقوى والورع ومعطياتها وآثارها، على أن الطاعة والتقوى من قبيل اللازم والملزوم، فالتقوى تؤدي إلى الطاعة، كما أن الطاعة عنصر بلورة التقوى في باطن الإنسان؛ حيث أشار عليه السلام إلى ثمانية من آثار التقوى بعبارات مقتضبة عميقة المعنى فقال:

«فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ [١٠٦٦] عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ

دُنُوبِهَا، وَاخْلُوتْ [١٠٦٧] لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَاتِبِهَا، وَأَنْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَكَمِهَا،

وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصَّعَابُ بَعْدَ أَنْصَابِهَا [١٠٦٨]، وَهَطَلَتْ [١٠٦٩] عَلَيْهِ الْكِرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا [١٠٧٠]،

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٢٠

وَتَحَدَّبَتْ [١٠٧١] عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النُّعْمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا [١٠٧٢]، وَوَبَلَّتْ [١٠٧٣]

عَلَيْهِ الْبَرَكَهُ بَعْدَ إِزْدَاذِهَا [١٠٧٤]».

فتتضح قيمة التقوى على صعيد الحياة المادية والمعنوية للإنسان من خلال هذه الآثار التي بينها الإمام عليه السلام للتقوى.

نعم! فالشدائد تزول في ظل التقوى وتفاض أقطار الرحمة الإلهية على التقاة والمجتمعات التقية، ويغيب الفساد والانحراف. قال القرآن الكريم بهذا الخصوص:

«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» [١٠٧٥]. وقال:
«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» [١٠٧٦].

ولا تختصر علاقة التقوى بهذه الأمور على الجانب المعنوي، بل هي كذلك حتى من وجهه نظر التحليلات العقلية والمنطقية، فإننا نرى المجتمعات التي استطاعت من خلال انطلاقتها من التقوى والثقة بين أبنائها وتعاونهم مع بعضهم من التغلب على العديد من المحن والمخاطر وحدت من حجم الاختلافات والنزاعات والقضايا الجزائية والعقائية إلى أدنى ما يمكن. والطريف في الأمر أن شهر رمضان المبارك الذي يتمتع فيه الصائمون بمزيد من التقوى بمقتضى الآية الشريفة: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [١٠٧٧]

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٢١

شهد هبوطاً ملحوظاً للجرائم والجنايات، كما أن العديد من المشاكل الاجتماعية التي تفرزها المشاكل الأخلاقية تزول بأقصى ما يمكن من السرعة أبان مزاولة الناس للأسفار المعنوية كالسفر لحج بيت الله الحرام، ذلك لأن التقوى ملكة مانعة إزاء كل هذه المشاكل، والأفراد الذين يشعرون بثقل حقوق الآخرين التي تنقل رقابهم إنما يبحثون عما ينجيهم من هذا الثقل، وعلى هذا الضوء هنالك تفسير مادي إلى جانب التفسير المعنوي للعلاقة بين التقوى وغياب المشاكل ومضاعفة البركات.

ثم اختتم الإمام عليه السلام هذا القسم من الخطبة بالعودة إلى مسألة التقوى ليؤكد ثانية على ما استهل به هذا الجانب من الخطبة فقال:
«فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَوَعَّظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ، وَامْتَنَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ».

وهذه الصفات الثلاث التي ذكرها الإمام عليه السلام لله تبارك وتعالى تمثل جميعاً دوافع لسلوك سبيل التقوى، لأنها تشمل جميع النعم المادية والمعنوية والمواعظ الإلهية وهي المواعظ التي تفاض على جميع أهل الإيمان عن طريق رسالات الأنبياء سيما النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر أنواع النعم المادية والمعنوية التي تمنح للإنسان والتي يمكن من خلالها بلوغ ذروة العبودية والورع والتقوى والكمال المعنوي والمادي تثير لدى الإنسان الشعور بالشكر والحمد لواهب هذه النعم وتنتهي به إلى تقوى الله وطاعته وإمثال أوامره.

وقال في العبارة الأخيرة:

«فَعَبُدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ».

«عبدوا» وإن أخذت من مادة عبادة إلّا أنها تعنى في هذه الموارد الأعداد والتسليم ومن ذلك قولهم «عبد الطريق».

ومن الواضح أن إعداد النفس لعبودية الله مقدمة لأداء حق الطاعة، ولا يتيسر هذا الإعداد إلّا عن طريق الإيمان والمعارف الإلهية وتزكية النفس وتهذيبها والانفتاح على أسرار العبادات.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٢٣

القسم الثالث

إشارة

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْأَسْلِمَامَ دِينَ اللَّهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَاصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، وَأَضْفَاهُ خَيْرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ. أَذَلَّ الْأَذْيَانَ بِعِزَّتِهِ،

وَوَضَعَ الْمَلَلَ بِرَفْعِهِ، وَأَهَانَ أَعْيَادَهُ بِكَرَامَتِهِ، وَخَذَلَ مُحَادِيهِ بِنَصِيرِهِ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ. وَسَقَى مَنْ عَطَشَ مِنْ حِيَاضِهِ، وَأَتَقَّ الْحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ. ثُمَّ جَعَلَهُ لَأَنْفِصِ امَّ لِعُرْوَتِهِ، وَلَمَّا فَكَّ لِحَلْقَتِهِ، وَلَمَّا نَهَدَمَ لِاسَاسِهِ، وَلَمَّا زَوَالَ لِتَدْعَائِمِهِ، وَلَمَّا انْقَلَاعَ لِشَجَرَتِهِ، وَلَمَّا انْقِطَاعَ لِمِدَّتِهِ، وَلَمَّا عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ، وَلَمَّا حَيَّدَ لِفُرُوعِهِ، وَلَمَّا ضَمَّنَكَ لِطُرُقِهِ، وَلَمَّا وُعُوْتَهُ لِسِهْوَلَتِهِ، وَلَمَّا سَوَّادَ لَوْضَحِهِ، وَلَمَّا عَوَجَ لِانْتِصَابِهِ، وَلَمَّا عَصَلَ فِي عُودِهِ، وَلَمَّا وَعَثَ لِفَجْحِهِ، وَلَمَّا انْطَفَأَ لِمَصَابِيحِهِ، وَلَمَّا مَرَّاهُ لِحَلَاوَتِهِ. فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاحٍ فِي الْحَقِّ أَسِيْنَاخَهَا، وَتَبَّتْ لَهَا أَسَاسِيهَا، وَيَنَابِيغُ عَزْرَتْ عُمُوقِيهَا، وَمَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانِيهَا؛ وَمَتَارٌ اقْتَدَى بِهَا سِفَارِيهَا، وَأَعْلَامٌ قَصِدَ بِهَا فِجَاجِيهَا، وَمَنَاهِلٌ رَوَى بِهَا وُرَادِيهَا. جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ، وَذُرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وَسَيَامَ طَاعَتِهِ؛ فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَثِيقُ الْأَرْكَانِ، رَفِيعُ الْبُتْيَانِ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ، مُضِي النُّيْرَانِ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُعَوِّذُ الْمَثَارِ. فَشَرَّفُوهُ وَاتَّبِعُوهُ، وَأَدُوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ.

الشرح والتفسير: فضل الإسلام

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة في بيان أهمية الإسلام وعظمته هذا الدين الحنيف، حيث أكمل بهذا القسم ما أورده في القسم السابق بشأن التقوى

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٢٤

والطاعة، ذلك لأن الطاعة والتقوى إنما تتحصل في ظل التبعية لهذا الدين. فتحدث بادئ الأمر عن إحدى عشرة صفة من صفات الإسلام العظيم فقال:

«ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْأِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَاصْطَنَعَهُ [١٠٧٨] عَلَى عَيْنِهِ، وَأَصْفَاهُ خَيْرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ».

فقد بين في هذه الصفات الخمس الأولى الأركان الأصلية لهذا الدين المقدس والذي انفرد الله تعالى بتشريعه بمنتهى الدقة، وتولى إبلاغه أفضل خلق الله النبي الأكرم صلى الله عليه وآله واستندت دعائمه على أساس حب الله.

العبارة:

«اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ»

إشارة إلى أن الطريق الذي يؤدي إلى القرب الإلهي يقتصر على الدين الإسلامي الحنيف: «وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْأِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» [١٠٧٩].

والعبارة:

«وَاصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ»

تقال في الأمور التي يكون الشخص حاضراً وناظراً حين الإتيان بها وبعبارة أخرى تتم أمام عينيه. وأما بشأن الله فهي كناية عن نهاية عنايته ومراقبته له، قال القرآن الكريم بشأن موسى عليه السلام: «وَلْتَضَعْ عَلَى عَيْنِي» [١٠٨٠].

والعبارة:

«أَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ»

(بالنظر إلى عودة الضمير في محبته إلى الله) إشارة إلى أن الإسلام بني على المحبة وهذه إحدى افتخاراتنا في أن ديننا بني على أساس الحب، ولذلك جاء في الرواية:

«هَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:

«قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» [١٠٨١].

وعلى هذا الضوء فإن أساس هذا الدين محبة العباد لله من جانب، وحب الله للعباد من جانب آخر، ثم واصل كلامه بالإشارة إلى ست

صفات أخرى فقال:

«أَذَلَّ الْأَذْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمِلَالَ بِرَفْعِهِ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ، وَخَذَلَ مُحَادِّبِهِ [١٠٨٢] بِنَضْرِهِ،

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٢٥

وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ. وَسَقَى مَنْ عَطَشَ مِنْ حِيَاضِهِ، وَأَتَقَّقَ [١٠٨٣] الْحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ [١٠٨٤].»

والعبارتان:

«أَذَلَّ الْأَذْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمِلَالَ بِرَفْعِهِ ...»

(بالنظر إلى أن الضمير في العبارات يعود إلى الإسلام) إشارة إلى ما ورد في القرآن الكريم: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» [١٠٨٥].

وجاء في الآية التي سبقتها: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» [١٠٨٦].

وقد انتصر الإسلام على سائر الأديان في جبهتين؛ إحداهما الجبهة الظاهرية من الناحية السياسية والعسكرية، والأخرى الجبهة الباطنية من حيث المنطق والدليل والبرهان، فقد أقام القرآن الكريم أقوى الأدلة لإثبات المعارف الدينية الحقة التي تسوق كل منصف إلى تقبلها، وكما قال الإمام عليه السلام في العبارة المذكورة فقد سقى كل من عطش من معين فيضه وملاً حقول العلم والمعرفة بأدلته وبراهينه.

ثم تطرق عليه السلام إلى سائر الامتيازات المهمة التي اتّصف بها الإسلام ليركز بادئ ذي بدئ على خلود هذا الدين المقدّس، فأماط اللثام عن حقيقة هذا الخلود بثمان عبارات عميقة المعنى وبرسم صورة غاية في الوضوح والروعة فقال:

«ثُمَّ جَعَلَهُ لَا انْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ، وَلَا فَكَّ لِحَلْقَتِهِ، وَلَا أَنْهَادًا لِأَسَاسِهِ، وَلَا زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ، وَلَا انْقِلَاعَ لِشَجَرَتِهِ، وَلَا انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَلَا عَفَاءَ [١٠٨٧] لِشَرَائِعِهِ، وَلَا جَذَّ لِفُرُوعِهِ.»

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٢٦

وهو ذات الأمر الذي قال فيه القرآن بشأن النبي: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ..» [١٠٨٨].

وقد نظمت أصول الإسلام وأركانها من جانب الحكيم بما يبعدها عن التزلزل مهما تقادم الزمان وقد تكهن بمتطلبات كل زمان ومكان في ظل أحكامه الثابتة والمتغيرة (بتغير الموضوعات) وهذه الشمولية هي التي جعلته خالداً.

ثم خاض الإمام عليه السلام بعد فراغه من إثبات خلود الإسلام في بيان سائر صفاته من قبيل سهولته ووضوحه واستقامته ووضوح قوانين الدين من خلال ثمان عبارات فقال:

«وَلَا ضَنْكَ [١٠٨٩] لِطُرُقِهِ، وَلَا وُعُوثَةٌ [١٠٩٠] لِسُهُولَتِهِ، وَلَا سَوَادٌ لَوْضَحِهِ [١٠٩١]، وَلَا عَوْجٌ لِانْتِصَابِهِ [١٠٩٢]، وَلَا عَصَلٌ [١٠٩٣] فِي عُودِهِ، وَلَا وَعَثٌ لِفَجِّهِ [١٠٩٤]، وَلَا انْطِفَاءٌ لِمَصَابِيحِهِ، وَلَا مَرَارَةٌ لِحَلَاوَتِهِ.»

والعبارة الأولى

«وَلَا ضَنْكَ لِطُرُقِهِ»

إشارة إلى ما ورد في الحديث النبوي الشريف

«بُعِثْتُ بِالْحَنْفِيَةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ» [١٠٩٥]

. الشريعة التي لا تختزن أي صعوبة أمام السالكين إلى الله وقوانينها سهلة مستساغة، ولما كان الإفراط في السهولة قد يؤدي إلى

الضعف فقد قال في العبارة اللاحقة:

«وَلَا وُعُوْتَهُ لِشُهُوَلَتِهِ»

أى أن هذه السهولة واليسر والسماحة للشريعة لا تسير نحو الإفراط قط، بل ضمن إطار الاعتدال، وتشير العبارة الثالثة إلى هذه الحقيقة في أن وضوح جادة الإسلام دائمى
نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٢٧

وليس ممّا يتخلله الظلام أحياناً والفارق بين العبارتين الرابعة والخامسة أنّ كليهما إشارة إلى استقامة الشريعة الإسلامية وخلوها من الاعوجاج، في حين أنّ العبارة الرابعة أشارت إلى استقامة المسيرة، بينما أشارت العبارة الخامسة إلى استقامة أعمده وأسس بناء هذا الصرح العظيم.

وتشير العبارة السادسة:

«وَلَا وَعَتْ لِفَجِّهِ»

إلى أنّ سطح هذه الجادة محكم وراسخ والسير عليه سهل يسير، وليس من قبيل الطرق المليئة بالتراب والرمل والتي تغوص فيها أرجل السالك وبالتالي يصعب المشى والسير عليها.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالعبارة السابعة

«وَلَا انْطَفَاءً لِمَصَابِيحِهِ»

هو وجود العلماء فى كلّ عصر وزمان حيث تطفى الله بهؤلاء الأدلاء فى كل زمان والذين يضيئون الطريق لجميع السالكين، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بهم الأئمة المعصومين عليهم السلام الذين لا تخلو الأرض منهم. كما يمكن أن تكون إشارة إلى مفهوم عام يشمل الأدلة الواضحة وعلامات الحق وآثار العظمة فى كلّ عصر ومصر.
والعبارة الأخيرة:

«وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ»

إشارة إلى المرارة التى تشوب العديد من حلوات الدنيا، أو التى تختتم بها، من قبيل المال والثروة والمقام والانتفاع باللذات التى عادة ماتستبطن القلق والإرباك؛ غير أنّ حلاوة الإسلام ممّا لا تشوبها مرارة قط.
ولما فرغ الإمام عليه السلام من بيان خلود الإسلام وسهولة أحكامه أشار إلى قوته وإقتداره ليؤدى حقّ الكلام بسبع عبارات قصيرة من خلال هذا الاستنتاج فقال:

«فَهُوَ دَعَائِمٌ أَسَاحٌ [١٠٩٦] فِى الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا [١٠٩٧]، وَتَبَّتْ لَهَا أَسَاسَهَا [١٠٩٨]، وَيَنَابِيغٌ غَزْرَتْ [١٠٩٩]

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٢٨

عُيُونُهَا، وَمَصَابِيحٌ شَبَّتْ نَيْرَانُهَا؛ وَمَنَارٌ اقْتَدَى بِهَا سَفَارُهَا [١١٠٠]، وَأَعْلَامٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، وَمَنَاهِلٌ رُوِيَ بِهَا وُرَادُهَا».

وعلى هذا الأساس فقد شبه الإسلام بقصر عظيم الأسس والدعائم وراسخ القوائم وإلى جانبه الحقول والبساتين والعيون المليئة بالمياه وقد يسر الوصول إليه من خلال ملء طريقه بالمصابيح فى الليالى المظلمة والعلامات الواضحة فى النهار، بحيث لا يعيش سالك هذا الطريق أى ضلال فى ليل أو نهار، كما شقت العيون فى ذلك الطريق لتروى ضما العطاشى المسافرين.

ويمكن أن تكون هذه الأسس والدعائم إشارة إلى ما ورد فى الحديث الشريف:

«بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ؛ عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَالْوَلَايَةِ وَلَمْ يُنَادَ بِشَيْءٍ كَمَا نُودَى بِالْوَلَايَةِ» [١١٠١].

أمّا العيون التى أُشير إليها فى العبارة الثالثة فيمكن أن تكون إشارة إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وائمة العصمة عليهم السلام والمصابيح والمناير إشارة إلى ما ظهرت منهم عليهم السلام من إعجازات وكرامات، ومناهل الرى إشارة إلى علوم المعصومين عليهم

السلام والتي تسقى الجميع.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى ثلاث خصائص من خصائص الإسلام فقال:

«جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وَسَنَامَ طَاعَتِهِ».

فالعبرة الأولى إشارة إلى ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: «وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» [١١٠٢].

كما يمكن أن تكون العبرة الثانية إشارة إلى الآية الشريفة: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٢٩

الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» [١١٠٣].

والعبرة الثالثة إشارة إلى الجهاد طبق بعض الروايات، فقد جاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه:

«أَلَا أَخْبِرُكَ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ وَفَرْعِهِ وَذَوْرَةَ سَنَامِهِ»

. قال: بلى! جعلت فداك. فقال عليه السلام:

«أَمَّا أَصْلُهُ الصَّلَاةُ وَفَرْعُهُ الزَّكَاةُ وَذَوْرَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ» [١١٠٤].

ثم أشار عليه السلام في ختام هذا القسم إلى سبع صفات أخرى من صفات الإسلام بعبارات قصيرة وعميقة المعنى فقال:

«فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَثِيقُ الْأَرْكَانِ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ، مُبِيرُ الْبُرْهَانِ، مُضِي النَّيْرَانِ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُعْوِذُ [١١٠٥] الْمَثَارِ».

وتشير العبرة الأولى

«فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ...»

إلى أن الإسلام بنى على أسس محكمة من الأدلة العقلية والمنطقية والمعجزات الواضحة للنبي الأكرم صلى الله عليه و آله.

كما تشير العبرة:

«رَفِيعُ الْبُنْيَانِ»

إلى سعة وعظمة الخطط الإسلامية التي تشمل جميع أصول وفروع حياة الناس المادية والمعنوية.

والعبرة الثالثة:

«مُبِيرُ الْبُرْهَانِ»

يمكن أن تكون إشارة إلى الأدلة والبراهين التي تثبت حقايق الدين الإسلامي الحنيف.

والعبرة الرابعة:

«مُضِي النَّيْرَانِ»

بشأن العلوم والمعارف الحقة التي تنبع من الإسلام، كما جاء في التاريخ: من أن الإسلام خلق حركة في القرون الوسطى المظلمة

ليحقق إنجازات وتطوراً هائلاً في جميع العلوم البشرية والتجريبية وقد صدر المسلمون من خلالها نتاجاتهم العلمية إلى جميع أكناف

العالم وكان كما صرح بعض علماء الغرب بمنزلة الشمعة التي أضاءت ظلمات القرون الوسطى لأوروبا.

ويمكن أن تكون العبرة الخامسة:

«عَزِيزُ السُّلْطَانِ»

إشارة إلى منعة وإقتدار حاكمية الإسلام الذي لا يقهر، أو منعه أدلته وبراهينه القوية والمتقنة وحصانتها من الإنهيار.

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٣٠

والعبرة السادسة:

«مُشْرِفُ الْمَنَارِ»

واستناداً إلى أنّ «منار» أعمدة مرتفعة كانوا يضعون عليها المصابيح المضيئة لكي لا يضلّ المسافرون طريقهم في الصحارى والفلوات، وكلّما كان هذا المنار أرفع وأعلى كان أعظم هداية وإرشاداً للآخرين- إشارة إلى أنّ هدى القرآن والإسلام على درجة من القوة بحيث يدعو إليه جميع النائن من مختلف البقاع.

والعبارة السابعة:

«مُعَوِّذُ الْمَنَارِ»

بالنظر إلى أنّ «منار» مصدر ميمي وبمعنى الحمل على الحركة والإثارة والطرْد- فهي إشارة إلى أنّ أي قدرة وقوة لا يسعها مواجهتها الإسلام الأصيل.

ثم أصدر عليه السلام أثر ذكره لهذه الصفات أربع وصايا تمثّل في الواقع لوازم تلك الصفات فقال:

«فَشَرُّ قُوَّةٍ وَاتَّبَعُوهُ، وَأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَصَعُّوهُ مَوَاضِعَهُ».

ومن البديهي أن يكون عظيمًا من يتصف بهذه الصفات وعلى العاقل أن يعزه ويكرمه ولا بدّ من اتباع هذا الدين الذي يمتاز بهذه الأدلة القوية والواضحة والائتمار بأوامره ويعطيه ما يستحقه من منزلة بأن يجعله أسوة لحياته في جميع شؤونه.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٣١

القسم الرابع

إشارة

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْأَنْقِطَاعُ، وَأَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْأَطْلَاعُ، وَأَظْلَمَتْ بِهَجَّتِهَا بَعِيدَ إِشْرَاقٍ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سِيَاقٍ، وَخَسَنَ مِنْهَا مَهَادٌ، وَأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ، فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مِيدَتِهَا، وَأَقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَتَصَيَّرُ مِنْ أَهْلِهَا، وَأَنْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا، وَأَنْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا، وَعَفَاءٍ مِنْ أَعْلَامِهَا، وَتَكْشِفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا، وَقِصْرٍ مِنْ طُولِهَا. جَعَلَهُ اللَّهُ بَلَاغًا لِرِسَالَتِهِ، وَكَرَامَةً لِمَاتِهِ، وَرَبِيعًا لِأَهْلِ زَمَانِهِ، وَرِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ، وَشَرَفًا لِأَنْصَارِهِ.

الشرح والتفسير: ربيع الإسلام

إشارة

بين الإمام عليه السلام في الفصل السابق ببحث رائع عظمة الإسلام وبعض خصائصه وامتيازاته من خلال عبارات عميقة وبلغية. ثم تطرق هنا بشأن من بعث بذلك الدين أي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولا سيما تلك الظروف المعقدة التي انبثقت في ظلها دعوته الشريفة. وسيتطرق في الفصل القادم إلى أهمية القرآن الكريم بصفته أهم معجزة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ودستور الشريعة الإسلامية.

وركز في هذا الفصل - كما ورد انفاً- إلى الظروف المعقدة للعصر الجاهلي والفترة التي انطلقت فيها الدعوة الإسلامية من خلال أربع عشرة عبارة قصيرة وعميقة المعنى في كشف ملابسات ذلك الزمان فقال:

«ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٣٢
 مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَيِّمَ بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْأَنْقِطَاعُ، وَأَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْأَطْلَاعُ [١١٠٦]، وَأَظْلَمَتْ بِهَجَّتِهَا بَعْدَ إِشْرَاقِ،
 وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقِ [١١٠٧].
 وأضاف:

«وَحَسَنَ مِنْهَا مَهَادٌ [١١٠٨]، وَأَزِفَ [١١٠٩] مِنْهَا قِيَادٌ [١١١٠]، فِي انْقِطَاعِ مِنْ مُدَّتِهَا،
 وَاقْتِرَابِ مِنْ أَشْرَاطِهَا [١١١١].»

ثم قال:

«وَتَصَرُّمٌ [١١١٢] مِنْ أَهْلِهَا، وَأَنْفِصَامٌ مِنْ حَلَقَتِهَا، وَأَنْتِشَارٌ مِنْ سَبَبِهَا، وَعَقَاءٌ [١١١٣]
 مِنْ أَعْلَامِهَا، وَتَكْشُفٌ مِنْ عَوْرَاتِهَا، وَقِصْرٌ مِنْ طُولِهَا.»

وهذه العبارات الأربع عشرة تشير جميعاً إلى أن العالم آيل إلى الزوال، وأنا لنعيش أواخره. فالنعم والإمكانات والمواهب
 والاستعدادات في جميع الجوانب تسير نحو الفناء.

ثم قال عليه السلام:

«جَعَلَهُ اللَّهُ بَلَاغًا لِرِسَالَتِهِ، وَكَرَامَةً لِأُمَّتِهِ، وَرَبِيعًا لِأَهْلِ زَمَانِهِ، وَرَفْعَةً لِأَعْوَانِهِ، وَشَرَفًا لِأَنْصَارِهِ.»

نعم! فهذا النبي العظيم صلى الله عليه وآله قد خلق ربيعاً مفعماً بالنضارة والحيوية آخر الدنيا وبلغ باتباعه قمة الفخر وذروة الانتصار
 وأغنى الجميع ببركة وجوده وأشرقت بطلعته تلك الشمس الساطعة في ذلك الوسط المعتم.

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٣٣

اجابة عن سؤال

بالنظر إلى ما ورد سابقاً فإن القسم الأعظم من هذه الدنيا قد مضى ولم يبق من عمرها سوى القليل، وهذا ما يستفاد بصورة جلية من
 الآيات القرآنية، فقد جاء في الآية الشريفة الأولى من سورة الأنبياء: «أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ».
 كما جاء في الآية الأولى من سورة القمر: «أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ».

وفي الآيتين السادسة والسابعة من سورة المعارج: «أَنَّهُمْ يَرْزَوْنَهُ بَعِيداً* وَنَرَاهُ قَرِيباً» وسائر الآيات.

وهنا يرد هذا السؤال: وكم هو عمر الدنيا ليقال ولّى شطرها الأعظم؟ لقد مضى ١٤ قرناً على الدعوة الإسلامية ويمكن أن تمضي قرون
 طويلة أخرى والحال لا نشعر بأثر على زوال الدنيا وبداية القيامة.

وردت عدّة أقوال لشراح نهج البلاغة بهذا الشأن وكأنهم بلغوا طريقاً مسدوداً وأخذ كلٌّ يبحث عن سبيل للخروج منه، وأعرب البعض
 الآخر بعد كثرة الكلام عن عجزه ورأى من الأنسب الصمت والسكوت.

والطريف في الأمر أن كلّ شارح ذكر شيئاً بشأن عمر الدنيا؛ فقليل ٥ آلاف سنة وقليل ٧ آلاف سنة وقليل ١٢ ألف سنة، بينما عدّها
 البعض الآخر أكثر من ذلك، والأعجب من ذلك أن البعض أضاف مقداراً من الشهور والأيام إلى ما ذكره من سنوات، ويبدو أن
 أحداً منهم لم يعزز كلامه بدليل معتبر بل مجرد استناد الكلام إلى الحدس والظن؛ أو كإطلاق السهم في الليل كما يقولون. ونرى من
 الأفضل قبل أن نخوض في تعيين عمر الدنيا بالسنوات والأشهر والأيام؛ أن نتجه صوب الإجابة عن السؤال المذكور لنرى كيف أن ما
 تبقى من عمر الدنيا أقل مما تصرم منها.

ذكرت هنا عدّة أجوبة والجواب الآتي يعدّ أفضلها.

فالعالم المعاصر وكذلك الروايات الإسلامية ترى للحياة البشرية تاريخاً طويلاً

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥٣٤

على الكرة الأرضية وبمقارنته بما بقي من عمر الإنسان على وجه الأرض يمكن أن يكون قصيراً.

فقد جاء في بعض الروايات:

«أوتننون أن الله لم يخلق خلقاً غيركم، إن الله خلق ألف ألف آدم قبل آدمكم هذا» [١١١٤].

وعليه فليس هنالك من مشكلة في ما ورد في هذه الخطبة وكذلك الإشارات التي تضمنتها مختلف الآيات القرآنية إلى هذه المسألة والتي تشير إلى قصر عمر ما تبقى من الدنيا.

والتفسير الآخر للعبارة المذكورة أن المراد من انقطاع الدنيا واقبال الآخرة هو نهاية حياة الناس أو الأمم، لأن مدة عمر الإنسان قصيرة ولا يكاد يعيش فترة حتى يحل أجله.

ولو أمعنا النظر في العبارات الأربع عشرة المذكورة لرأينا أن هذا التفسير لا ينسجم مع تلك العبارات.

تأمل

ربيع النبوة

أشار الإمام عليه السلام في ختام هذا القسم إلى الافتخار بخلق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لاتباعه، ليعتبره بمنزلة فصل الربيع لأهل زمانه وشرف ورفعة وعزة أعوانه وأنصاره.

وإننا لندرك حقيقة هذه العبارات التي وردت في الخطبة كلما تأملنا تاريخ العصر الجاهلي ثم تلك النهضة والثورة العظيمة التي أحدثتها البعثة النبوية الشريفة، فقد كان أعراب الجاهلية يعتبرون الإنسان فاقداً لأية منزلة اجتماعية وتاريخية تذكر، بينما حظى بمكانة قل نظيرها أو انعدم في التاريخ البشري في ظل البعثة النبوية،

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥٣٥

فلم يكتف أتباع نبي الإسلام صلى الله عليه وآله من العرب والعجم بتشكيل تلك الحكومة الواسعة الأطراف آنذاك في معظم مناطق العالم، بل بلغوا ذروة العلم والمعرفة والمدنية مما جعل العلوم الإسلامية في خاتمة المطاف تعد بؤرة وانطلاقاً لتلك الثورة العلمية التي شهدتها أوروبا في العصر الحديث، ولو عاد المسلمون اليوم لأمجادهم السابقة وأحيوا تلك القيم الإسلامية والمثل الدينية لاحتلوا الصدارة ثانية في المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية.

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥٣٧

القسم الخامس

إشارة

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُورًا لَا تَطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجًا لَا يَحْبُو تَوَقُّدُهُ، وَبَحْرًا لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَا جَا لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعَاعًا لَا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ،

وَفُرْقَانًا لَيُخَمِّدُ بُرْهَانَهُ، وَتَبَيَانًا لَاتُّهِّدُمْ أَرْكَانَهُ، وَشِفَاءً لَاتُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزًّا لَاتُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقًّا لَاتُخْذَلُ أَعْوَانُهُ. فَهُوَ مَعْرِدٌ الْإِيمَانَ وَبُخْبُوحَتُهُ، وَنَبِيَّاعِ الْعِلْمِ وَبُخُورُهُ، وَرِيَّاضِ الْعِدْلِ وَغُدْرَانُهُ، وَأَثَافِي الْأَسْلَامِ وَبُنْيَانُهُ، وَأَوْدِيَةَ الْحَقِّ وَغِيظَانَهُ. وَبَحْرٌ لَاتِنَزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُونٌ لَاتُيَضُّ بِهَا الْمَاتِحُونَ وَمَنَاهِلٌ لَاتُغِيضُ بِهَا الْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلٌ لَاتُيَصِلُ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وَأَعْلَامٌ لَاتُيَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَأَكَامٌ لَاتُجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ.

جَعَلَهُ اللَّهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَمَحَاجٍ لَطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، وَنُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَحَبْلًا وَثِيقًا عَزُوتُهُ، وَمَعْقَلًا مَبِينًا ذُرُوتُهُ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وَسَلْمًا لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهُدًى لِمَنْ اتَّمَّ بِهِ، وَعِزْدًا لِمَنْ اتْتَحَلَّهُ، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَفَلْجًا لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَحَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَهَا، وَجَنَّةً لِمَنْ اسْتَلَامَ. وَعِلْمًا لِمَنْ وَعَى، وَوَحْدِيثًا لِمَنْ رَوَى، وَحُكْمًا لِمَنْ قَضَى.

الشرح والتفسير: خصائص القرآن الكريم

كما قيل سابقاً فقد استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة البليغة بالحديث عن أهميته

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٣٨

التقوى، ثم شرح سبيل التقوى الذى يتمثل فى تبعيته هذا الدين الحنيف، وخاض فى المرحلة التالية فى أهميته الدعوة النبوية وحامل الرسالة الإسلامية، وتعرض فى القسم الأخير من الخطبة إلى خصائص وإمميزات القرآن معجزة النبي الخالدة ودستور الشريعة الإسلامية السمحاء، والذى يجدر ذكره أن الإمام عليه السلام أشار ب ٤٢ عبارة قصيرة وعميقة المعنى إلى ٤٢ امتيازاً مهماً من امتيازات القرآن وشرح خصائصه بأسهاب بحيث لا يمكن تصور ما هو أفضل منه.

فتطرق فى البداية إلى عشر فضائل وامتيازات فقال:

«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُورًا لَّا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجًا لَيُجْبُو [١١١٥] تَوَقُّدُهُ، وَبَحْرًا لَيُدْرِكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَاجًا [١١١٦] لَيُضِلُّ نَهْجُهُ، وَشِعَاعًا لَيُظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفُرْقَانًا لَيُخَمِّدُ بُرْهَانَهُ، وَتَبَيَانًا لَاتُّهِّدُمْ أَرْكَانَهُ، وَشِفَاءً لَاتُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزًّا لَاتُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقًّا لَاتُخْذَلُ أَعْوَانُهُ».

والعبارتان الأولى والثانية فى الواقع اقتباس من الآيات القرآنية التى شبهت القرآن بالنور ومن ذلك الآية ١٥ من سورة المائدة: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ»، فالقرآن الكريم أضواء بنوره طرق الحياة المظلمة وكشف السبل القويم من بين سبل الضلالة والحيرة، وأرشد قوافل المجتمعات الإنسانية فى صحارى وفلوات هذا العالم إلى هدفها المنشود ألا وهو سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

وتشير العبارة الثالثة:

«وَبَحْرًا لَيُدْرِكُ قَعْرُهُ»

إلى الأسرار الخفية ودقائق العلوم المودعة فى القرآن الكريم والتى تسمو على الأفكار ولا يبلغها سوى خاصة أولياء الله، وقد أشارت بعض الروايات الإسلامية إلى بطون القرآن المتعددة.

والتعبير بالمنهاج الوارد فى العبارة الرابعة بشأن القرآن الذى يعنى الطريق الواضح والمستقيم الذى لا يضل فيه السالكون إشارة إلى الأفراد الذين انتفعوا بهذا الطريق الواضح والصراط الإلهى المستقيم ولا يعترهم الضلال قط.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٣٩

كما تصممت العبارة الخامسة: إشارة أخرى إلى نور القرآن حيث إن ضيائه خالد لا يزول أبداً كما وصف القرآن نفسه فقال: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» [١١١٧].

وأشارت العبارة السادسة إلى نقطة مهمة أخرى وهى أن القرآن فرقان؛ أى حين يمتزج الحق بالباطل أحياناً، فما كان مطابقاً للقرآن

فهو حقّ وما خالفه فهو باطل، وعليه فهو يفرق الحقّ عن الباطل، وقد ورد التعبير عن القرآن بالفرقان في الآية الأولى من سورة الفرقان إذ قالت: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» والأهم من كلّ ذلك أنّ هذه الصفة للقرآن لا تؤول إلى الخمود والانطفاء والاختفاء أبداً.

وفي العبارة السابعة شبه القرآن بالبناء الراسخ الأركان والأسس بحيث لا يهدم أبداً، وهذه إشارة إلى خلود التعاليم القرآنية [١١١٨].
ويطالعنا تشبيه آخر في العبارة الثامنة؛ حيث شبه القرآن بالدواء الشافي الذي ليس بعده سقم، ذلك لأننا نعلم

«لَيْسَ مِنْ دَوَاءٍ إِلَّا وَيُهَيِّجُ دَاءً» [١١١٩]

فإنّ هنالك آثاراً مختلفة سليمة للدواء أحياناً، غير أنّ القرآن لا ينطوي سوى على المنافع والآثار الإيجابية.
وقد ورد التعبير بالشفاء عن القرآن في ذات القرآن في الآية ٥٧ من سورة يونس: «قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ».

وفي الآية ٨٢ من سورة الاسراء: «وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

حتى أنّه ليستفاد من أغلب روايات المعصومين أنّ القرآن الكريم شفاء

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٤٠

للأمراض البدنية بالإضافة إلى الأمراض العقائدية والأخلاقية، ومن تلك الروايات ما أكدت على فائدة سورة الحمد في علاج الأمراض البدنية.

وقد جاء تفسير سورة الحمد في العديد من الروايات، وكذلك في سائر التفاسير، ومنها تفسير كثر الدقائق، كما ذكر المرحوم الكليني في الجزء الثاني من كتابه أصول الكافي في باب فضل القرآن العديد من هذه الروايات الواردة بهذا الخصوص.
كما ورد الكلام في العبارتين التاسعة والعاشر من عبارات الخطبة في أنصار القرآن وأعوانه الذين كتبت لهم الغلبة على الأعداء دائماً فلا يعيشون الفشل والهزيمة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى احدى عشرة فضيلة أخرى بعبارات قصيرة ومتتابعة، حيث شبه القرآن بالبحر والعين الصافية والبناء المتقن والمعدن الثمين والمنهج الواضح فقال:

«فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ [١١٢٠]، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ

وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضُ [١١٢١] الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ [١١٢٢]، وَأَتَافِي [١١٢٣] الْأَسْلَامِ وَبُيُوتُهُ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ

وَعِيَانُهُ [١١٢٤]. وَبَحْرٌ لَا يَنْزِفُهُ [١١٢٥] الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُونٌ لَا يُنْضِبُهَا [١١٢٦] الْمَاتِحُونَ [١١٢٧]، وَمَنَاهِلٌ لَا

يُغِيضُهَا [١١٢٨] الْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلٌ لَا يَصِلُ نَهْجُهَا الْمَسَافِرُونَ، وَأَعْلَامٌ لَا يَغْمَى عَنْهَا

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٤١

السَّائِرُونَ، وَآكَامٌ [١١٢٩] لَا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ».

العبارة:

«مَعْدِنُ الْإِيمَانِ»

إشارة إلى أنّ أدلة المعارف الإسلامية من التوحيد واثبات وجود الله حتى مسألة المعاد وإعجاز القرآن والولاية؛ إنّما ذكرت جميعاً وبصورة واسعة في القرآن الكريم وهي الأدلة التي تشكل مصادر الأدلة الأخرى ذلك لأنّ المعدن يطلق على المصدر والمنبع والمركز الأصلي للأشياء الثمينة.

كما ذكر هذا المطلب بتعبير آخر في العبارة الثانية، اعتبر فيها القرآن عيناً فياضة وبحراً من العلم، بل عيون متدفقة وبحار يستطيع أهل الإيمان انتهاز مختلف العلوم منها، وإننا لنعلم اليوم أنّ مصدر علم الكلام والفقه والأخلاق وتاريخ الأنبياء وتاريخ الإسلام والعلوم

الأخرى هو القرآن الكريم.

وأشار في العبارة الثالثة إلى مسألة مهمّة أخرى ليصف فيها القرآن على أنّه حدائق ورياض العدل وغدرانه ومنابعه، فقد خاطب القرآن الكريم جميع المؤمنين قائلاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ» [١١٣٠]؛ أي أنّه لا يرى القيام بالعدل كافياً ويرى ضرورة القيام بالقسط حيث القوام صيغته مبالغته وتأكيد، حتى أنّه ليصرح بأنّ العداوة والبغضاء والقرب والصدقة لا ينبغي أن تحول دون إجراء العدالة: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ» [١١٣١].

كما أوصى في ذيل الآية الأولى بعدم التواني في إجراء العدالة حتى تحت طائلة إسناد الأب والام والأقرباء.

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام شبه العدالة بالروضة والغدير الذي يسقى الروضة، وبالطبع فإنّ المجتمع الذي تطبق فيه العدالة بمثابة جمال الحديقة والروضة والحركة والحيوية الناشئة من السقى الكافي، في حين أنّ المجتمع الذي يسوده الظلم

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٤٢

والتمييز الطبقي أشبه بالصحراء القاحلة والمحرقّة الخالية من الماء والزرع.

والكلام في العبارة الرابعة عن أساس وبنیان الإسلام الذي ورد في القرآن الكريم، لأنّ «أثافي» و «بنیان» تعني الأسس والجذور، وحسب رواية الإمام الباقر عليه السلام:

«بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسَةِ أَشْيَاءٍ؛ عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَالصَّوْمِ وَالْوَلَايَةِ» [١١٣٢]

ونعلم أنّ أصول هذه الفرائض وردت بصورة موسعة في القرآن الكريم.

وجرى الكلام في العبارة الخامسة عن الحقّ (الحقّ بمعناه الجامع الواسع الذي يشمل جميع الحقوق الإلهية والإنسانية والاجتماعية) حيث قال الإمام عليه السلام:

«وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيَطَانُهُ».

وجرى الكلام في العبارات السادسة والسابعة والثامنة عن عدم نفاذ المعارف والعلوم القرآنية التي لا تتناقص مهما اغترف منها، وتمد العلماء والباحثين والسالكين بالجديد من الحقائق حتى يوم القيامة، والدليل على ذلك واضح، فالقرآن كلام الله وكلام الله كذاته لا متناه، على غرار ما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«لَا تُحْصَى عَجَائِبُهُ وَلَا تُبْلَى غَرَائِبُهُ» [١١٣٣].

ويحمل هذا الكلام رسالة واضحة لجميع مفسري القرآن وهي أن لا يتصوروا أنّ ما قالوه بشأن القرآن هو آخر الكلام وليس هنالك ما هو جديد غيره.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام بشأن من سأله عن القرآن الكريم، قائلاً: ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلّا غصاصة؟ فقال عليه السلام:

«لَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْهُ لِرَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ وَلَا لِنَاسٍ دُونَ نَاسٍ، فَهُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ جَدِيدٌ وَعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [١١٣٤].

والعبارات التاسعة والعاشر والحادية عشرة إشارة إلى وضوح منهج القرآن

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٤٣

وضمائه الهدى لسالكى هذا الطريق، فلا يضل من سلك ولا تخفى علاماته على من سار عليه كما لا تغيب عنهم منازل الآمنة.

ثم أشار عليه السلام في مواصلته لذكر هذه الصفات الرفيعة للقرآن إلى خمس صفات أخرى فقال:

«جَعَلَهُ اللَّهُ رِيًّا [١١٣٥] لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيْعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَمَحَاجٍ [١١٣٦] لِطُرُقِ

الصُّلَحَاءِ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، وَنُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ».

والعبارة الأولى

«جَعَلَهُ اللَّهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ»

إشارة إلى أن كل عالم أكثر عطشاً للعلم، ذلك لأنه ذاق طعم العلم والمعرفة، وبما أن علوم القرآن الكريم ومعارفه غاية في السعة وليست محدودة فإن العلماء يستطيعون رى عطشهم العلمى بالقرآن.

جاء فى الكلمات القصار للإمام عليه السلام فى نهج البلاغة:

«مَنْهُمَا مَنْ لَا يَشْبَعَانِ؛ طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا» [١١٣٧].

والعبارة الثانية:

«وَرَبِيعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ»

إشارة إلى أن عالم الطبيعة يستأنف حياته فى فصل الربيع، فتظهر النباتات والأزهار والثمار، وللقرآن مثل هذا الأثر فى القلوب الواعية، فأزهار الفضيلة وثمار الإيمان اللذيذة والأخلاق والمعرفة وبالتالي القرب الإلهى إنما يتيسر فى ظل القرآن الكريم.

واعتبر القرآن فى العبارة الثالثة جادة واسعة وواضحة لسالكى الحق، لأن الصلحاء هم أولئك الذين يحثون الخطى فى السير والسلوك إلى الله وأن أفضل جادة وطريق يُمكنهم من بلوغ المقصد هى جادة القرآن الكريم.

وأشار فى العبارة الرابعة إلى نقطة جديدة وهى أن الأدوية قد يكون لها أحياناً تأثير فى التسكين فقط، كما تكون أحياناً أخرى علاجاً مؤقتاً وثالثة علاجاً تاماً،

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٤٤

لكنها تستبطن عوارض سلبية وأمراضاً عرضية، أمّا القرآن فهو الدواء المنزه عن هذه الأمور فهو العلاج التام الخالى من العوارض السلبية، كما أشار فى العبارة الخامسة إلى أمر جديد وهو أن أنوار عالم المادة تمتزج أحياناً بالظلمة (كالنور بين الطلوعين وبين الغروبين) وإن لم تخالطه ظلمة فإن له خسوفاً وكسوفاً أو غروباً وافولاً أما نور القرآن فلا غروب ولا أفول فيه ولا خسوف ولا كسوف، لأنه ينبعث من نور علم الحق وليس هناك من سبيل إلى الظلمة: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...» [١١٣٨].

ثم أشار عليه السلام إلى أربعة امتيازات أخرى من امتيازات القرآن فقال:

«وَحَبْلًا وَثِيقًا عَزُوتُهُ، وَمَعْقِلًا [١١٣٩] مَنِيعًا ذُرُوتُهُ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وَسِلْمًا لِمَنْ دَخَلَهُ».

فالإمام عليه السلام بيانه لهذه الصفات الأربع إنما شبه فى الواقع سعادة الإنسان بالقلعة الحصينة الواقعة على سفح الجبل، وعلى سالكى هذا الطريق - على غرار متسلقى الجبال - أن يتمسكوا بجبال قوية مربوطة أعلى الجبل ويتمسكوا بعدة عروات وثيقة ليتمكنوا من الوصول إلى تلك القلعة وتلك القلعة فى موضع لا يبلغها العدو وكل من دخلها كانت له قدرة لا تقهر وعاش فيها سليماً معافى

ومن هنا يفرز العدو الأسمى للإنسان هوى النفس والشيطان وعدم الاستقرار، ومن يستظل بالقرآن سيبلغ ذروة السلامة والسعادة والكرامة والأمن.

ثم أشار عليه السلام إلى خمس صفات منسجمات آخر من صفات القرآن فقال:

«وَهُدًى لِمَنْ اتَّبَعَهُ، وَعُدْرًا لِمَنْ انْتَحَلَهُ [١١٤٠]، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ،

وَفَلْجًا [١١٤١] لِمَنْ حَاجَّ بِهِ».

المراد من الهدى فى العبارة الأولى واضح، والمراد من العذر فى العبارة الثانية

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٤٥

يمكن أن يكون إتمام الحجية، حيث أتم القرآن الحجية على جميع الأفراد بشأن الإيمان والإيتان بالواجبات الإلهية، كما يمكن أن يكون إشارة إلى أن القرآن سيكون معذوراً أمام الله تعالى فى القيامة، بمعنى كل من كان عمله وفق تعاليم القرآن سيكون معذوراً عند الله، ويبدو المعنى الثانى أصوب من الأول.

والعبارة:

«بُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ»

إشارة إلى أن الإنسان لا يستطيع الاستدلال بالقرآن في عقائده وأعماله فحسب، بل البراهين القرآنية أفضل برهان في دحر حجة المخالفين سواء في المبدأ والمعاد أو في الإرشادات الدنيوية.

والعبارة:

«شَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ»

تأكيد أكثر على هذا المعنى إذ إن كل من جعل القرآن شاهده على خصمه كان أعظم شاهد له ونتيجة ذلك ما ورد في العبارة الخامسة من أن الاستدلال والاستشهاد بالقرآن سبب التغلب والانتصار على الخصم.

ثم قال الإمام عليه السلام في آخر سبع صفات اختتم بها هذه الخطبة:

«وَحَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيئَةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ [١١٤٢]، وَجُنَّةً لِمَنْ اسْتَلَامَ [١١٤٣]، وَعِلْمًا لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثًا لِمَنْ رَوَى، وَحُكْمًا لِمَنْ قَضَى».

فقد شبه المؤمن بالقرآن في العبارة الأولى والثانية بالشخص الذي ركب مركباً يحلق به إلى سماء السعادة.

واعبر القرآن في العبارة الثالثة وسام شرف لجميع الأفراد الذين جعلوه دلالة حياتهم، فأيات القرآن أفضل شعار وعلاماته ودلالاته أفضل العلامات والدلالات.

وعده في العبارة الرابعة كدرع يقى الإنسان مكاره الحوادث في مواجهته للأعداء، العدو الظاهري المخالف للإسلام والعدو الباطني، أى هوى النفس والعدو

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٤٦

الخفى أى الشيطان.

وأشار في العبارات الخامسة والسادسة والسابعة إلى العلوم الحاصلة من القرآن، ويمكن أن تكون العبارة

«وَعِلْمًا لِمَنْ وَعَى»

إشارة إلى استدلالات القرآن المنطقية والعبارة

«حَدِيثًا لِمَنْ رَوَى»

إشارة إلى الأحاديث النقلية والأحاديث التى بلغتنا من جانب الوحي.

وأشار عليه السلام في العبارة الأخيرة إلى تطبيقه العملى فى مسألة القضاء وإصدار الأحكام، بناءً على أن القضاء فى العبارة بمعنى الأحكام فى الخصومات، وإن كان القضاء يشمل الأحكام كافة، فهو إشارة إلى جميع الأحكام الفقهية والعقائدية.

تأملان

١. عظمة القرآن لدى أمير المؤمنين عليه السلام

ورد البحث بشأن عظمة القرآن فى عدة خطب من نهج البلاغة، ولكن لم يرد أى بحث بهذه السعة والشمولية، وما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة (إثنا وأربعين امتيازاً للقرآن) من مطالب يمكن أن تجعل المراقب غير الواعى يظنها من قبيل الادعاء الذى يفتقر إلى الدليل، إلا أن الدقة فى الآيات القرآنية تفيد وجود العديد من الشواهد والأدلة الكافية على هذا الأمر.

فمثلاً حين عد الإمام عليه السلام القرآن معدن الإيمان ومصدر العلم فذلك لأن القرآن ذكر عدّة أدلّة بشأن أهم المسائل العقائديّة أى المبدأ والمعاد بحيث فتح أبواب الإيمان بالله والمعاد بوجه كلّ إنسان منصف.

وبشأن مسألة معرفة الله، فهو يأخذ بيد الإنسان فى أعالي السماء وأعماق الأرض ليريه الحركة المنظمة لتعاقب الليل والنهار وحركة الرياح [١١٤٤]، وخلق أنواع

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٤٧

الحيوانات والنباتات والثمار، [١١٤٥] وتحليق الطيور فى السماء [١١٤٦]، وحركة الغيوم وامتلاء الأرض العطشى بالمياه أثر نزول الأمطار [١١٤٧] والتي تعكس كلّ واحدة منها نظام عالم الخليفة ليقف أنّ وراء ذلك مبدأ علم وقدره صاغه بهذا الشكل. وبشأن مسألة المعاد فقد أخذ بيد الإنسان الطالب للحقيقة إلى بدايه الخليفة [١١٤٨] وليريه مشاهد المعاد فى عالم النباتات [١١٤٩] وقدره الله على إحياء العظام البالية للموتى [١١٥٠].

وأما بشأن العدالة فقد أولاهها أهميّة بحيث اعتبرها من وظائف المؤمنين القطعية [١١٥١] وتطبيقها حتى بشأن العدو [١١٥٢] وعدّ الانحراف عنها كبيرة من الكبائر.

وإن عدّ أمير المؤمنين عليه السلام القرآن كعين فياضة لرى قلوب العلماء وربيع قلوب الفقهاء فدلّل ذلك فى ذات القرآن، ذلك لأنّه وإن كتبت آلاف التفاسير للقرآن فما زال العلماء يكتشفون كلّ يوم ما هو جديد فيه.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٤٨

وإن قال الإمام عليه السلام: إنّ القرآن سبب عزّة المسلمين واقتدارهم فدلّل ذلك وقد ورد فى عدّة آيات قرآنيّة فى أنّه يدعو إلى وحدة الكلمة وعدم التفرقة ويرى الإخوة هى رابطة المؤمنين ونتيجة ذلك عزّة المؤمنين فى ظلّ عزّة الله [١١٥٣].

كما أنّ جذور جميع المواضيع التى ذكرها الإمام عليه السلام بصفتها ٤٢ إمتيازاً للقرآن فى هذا الجانب من الخطبة موجودة فى القرآن الكريم، ولو جمعت لأصبحت كتاباً ضخماً، ولو عمل بهذه الأوامر والتعاليم لحصلت منها كلّ هذه الآثار.

٢. العلماء الأجانب والقرآن

إنّ عظمة القرآن لم تقتصر على الإشادة به بهذه الصفات العظيمة من قبل المسلمين وكبار العلماء الأعلام، بل أذعن لهذه العظمة حتى أولئك الأبعد الذين غاصوا فى تأمل آيات هذا الكتاب السماوى فذكروا بعض العبارات الجديرة بالتأمل والاهتمام.

كتب «آلبرماله» المورّخ والعالم الفرنسى المعروف فى كتابه «التاريخ العام» حول القرآن:

«إنّ القرآن ممتاز بمعنى الكلمة، البديل عن سائر الكتب القيمة والذى يضم جميع العلوم (الإنسانيّة) وهو الكتاب الذى يحتوى على التعاليم الدينيّة والقوانين المدنيّة المعاصرة، ونسخة مرشدة للقاضى وكمال تام للزعيم الروحانى» [١١٥٤].

وكتب «ويل ديورانت» العالم والفيلسوف المعروف المعاصر فى كتابه تاريخ الحضارة:

«إنّ القرآن يخلق عقائد سهلة وبعيدة عن الغموض فى القلوب المتواضعة، منزّهة

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٤٩

من طقوس العادات الهجينة ومن سنن الوثنيّة والكهنه، وببركته بلغ المسلمون ذلك الرقى الأخلاقى والثقافى ورسخ بينهم النظم الاجتماعيّة وأسس الوحدة.

وأضاف: إنّ حزر عقولهم من العديد من الأوهام والخرافات والظلم والعنف وأكسبهم عزّة وكرامة، وقد غرس فى المجتمع الإسلامى حالة من الاعتدال والتقوى ليس لها مثيل فى أىّ من مناطق العالم التى قطنها الإنسان الأبيض... [١١٥٥].

وكتب «رولف لين تون» صاحب (سير الحضارة):

«لقد مهدت المدرسة القرآنية سبيل الرقي والتطور لكل فرد مهما كان انتماءه، بحيث أمكن حتى لابن العبد أن يبلغ المقامات الرفيعة والعالية في المجتمع الإسلامي» [١١٥٦].

وقال البروفسور «درابرز اروب»: «

القرآن سلسلة من الوصايا والتعاليم الأخلاقية والذي يتكون من مفاهيم يقبلها الجميع. وهذه الوصايا والتعاليم بليغة وكاملة وهي ضرورية ولازمة لتنظيم شؤون الناس» [١١٥٧].

وقال «جان ديون بورت» مؤلف كتاب «الاعتذار إلى القرآن ومحمد من التقصير»: «

إن القرآن منزّه عن كل عيب ونقص بحيث لا- يتطلب أدنى إصلاح، ولا- يشعر الإنسان بأى ملل إذا ما تصفحه من أوله إلى آخره» [١١٥٨].

وقال الشاعر الألماني المعروف والعالم «جيته»: «

لسنين طويلة، أبعدا القساوسة عن فهم حقائق القرآن المقدس وعن عظمة النبي محمّد، ولكن كلما خطونا على طريق فهم العلم تنزاح من أمام أعيننا حُجُب

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥٥٠

الجهل والتعصب المقيت، وقريباً سيلفت هذا الكتاب الفريد أنظار العالم، ويصبح محور أفكار البشرية» [١١٥٩].

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥٥١

الخطبة ١٩٩

إشارة

كان يُوصى به أصحابه [١١٦٠]

نظرة إلى الخطبة

أوصى الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بأربعة أمور مهمّة من التكاليف الإسلامية والتي تشكل جانباً من الخطبة.

فقد تطرق في القسم الأول إلى الصلاة وأهميتها وأشار إلى الإكثار منها والمحافظة على كفيّتها ليعتبرها وسيلة النجاة في الآخرة وسبب التطهر من المعاصي في الدنيا وغسل الروح والقلب من الرذائل الأخلاقية، ثم ذكر باهتمام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمؤمنين بالصلاة.

وخاض في القسم الثاني في مسألة الزكاة التي تعدّ من أهم أركان الإيمان بعد الصلاة وعدّها من كفّارات الذنوب وحجاباً من نار جهنم، وأن أدائها مفخرة عظيمة، وعرض بالذم لمن يغفل عنها.

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥٥٢

وانتقل في القسم الثالث إلى موضوع غاية في الأهمية والذي يتمثل بأداء الأمانة ليعتبر المؤمن سعيداً وخائن الأمانة مهزوماً وآيساً من رحمة الله وخاض في تفسير مختصر للآية الشريفة: «أَنَا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ...» [١١٦١].

وتحدّث في القسم الرابع عن موضوع مهم يضمن إجراء جميع التكاليف والأحكام الإلهية وهو مراقبة الله واحاطته العلميّة بجميع

أعمال الإنسان، وكذلك أعضاء الإنسان وجوارحه وضميره هي الأخرى مراقبة ومحيطه بأعماله.

وتفيد العبارة

«كَانَ يُوصَى بِهِ أَصْحَابُهُ»

أن الإمام عليه السلام كان يكرر هذا الكلام كلما سنحت الفرصة ليحذر صحبه من خطورة هذه الأصول الأربعة المهمة، ويجدر بالسالكين لخط الإمام عليه السلام أن يواصلوا وينفذوا هذه الوصايا ويتواصوا بعضهم البعض بهذه المبادئ الأربعة المنجية.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٥٣

القسم الأول

إشارة

تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَاسْتَكْبِرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا (كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا). أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: (مَا سَأَلَكُمُ فِي سِقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ). وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ، وَتُطْلَقُهَا إِطْلَاقَ الرَّبْقِ، وَشَبَّهَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهِيَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ؟ وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ، وَلَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلَا مَالٍ. يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: (رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ). وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصَبًا بِالصَّلَاةِ بَعْدَ التَّبَشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)، فَكَانَ يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ وَيَصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسُهُ.

الشرح والتفسير: الأهمية القصوى للصلاة

إشارة

أشار الإمام عليه السلام كما ذكرنا في مبحث «نظرة إلى الخطبة» إلى أربعة أمور مهمّة وأكد على أنها من الأركان، تتعلق ثلاث منها بفروع الدين (الصلاة والزكاة وحفظ وأداء الأمانة) والرابع من آثار أصول الدين وهو الإيمان بحضور الله في كل مكان وعلمه بمضمرة القلوب وأعمال الجوارح، وأشار في القسم الأول المتعلق بالصلاة إلى آثار الصلاة المعنوية والتربوية والعاقبة السيئة لتاركى الصلاة والمستخفين بها

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٥٤

وقد عرّف من خلال ذلك بالمصلى الحقيقى فقال بادئ الأمر:

«تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَاسْتَكْبِرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا (كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا)» [١١٦٢].

فقد تضمنت العبارة القصيرة أربعة أوامر بشأن الصلاة هي: تعاهدها، والمحافظة عليها، والإكثار منها، والتقرب بها إلى الله.

والمراد من التعاهد المراقبة والإصلاح، ويطلق هذا التعبير على الشخص الذى يتفقد أملاكه ومزارعه ويجد ويجتهد فى إصلاحها، وعليه فالعبارة المذكورة إشارة إلى مواصلة المذاكرة بشأن واجبات الصلاة ومستحباتها ومكروهااتها، بحيث يكون كل يوم أفضل من سابقه فى الصلاة.

والمراد من المحافظة ما أشير إليه فى الآية ٢٣٨ من سورة البقرة: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى» والمتمثل بحفظها من

الموانع والرياء والسمعة وامثال ذلك.

كما ذهب البعض إلى أن المراد حفظ أوقات كل صلاة وأدائها في وقت الفضيلة.

ويشير التعبير «استكثروا» لما ورد في الحديث النبوي الشريف:

«الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ فَمَنْ شَاءَ اسْتَقَلَّ وَمَنْ شَاءَ اسْتَكْتَر» [١١٦٣].

كما ورد في الرواية:

نفحات الولاية؛ ج ٧؛ ص ٥٥٤

«إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الصَّلَاةُ وَالْبِرُّ وَالْجِهَادُ» [١١٦٤].

وقال في العبارة الرابعة التي تمثل في الواقع نتيجة للعبارات الثلاث السابقة:

«وَتَقَرَّبُوا بِهَا».

جاء في الحديث المروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام أنه قال:

«الصَّلَاةُ

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٥٥

قُرْبَانٌ كُلُّ تَقِيٍّ» [١١٦٥].

ثم تطرق عليه السلام إلى الدليل على الوصايا الأربع بشأن الصلاة، فأشار إلى سبعة واستشهد ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية

فقال في البداية: «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا» [١١٦٦].

وقد ذكر المفسرون تفسيرين لهذه الآية فقالوا: إن المراد من «موقوت» الوجوب حيث يستعمل هذا التعبير بدل الوجوب؛ والثاني إنه

إشارة إلى أوقات الصلاة التي ينبغي مراقبتها بدقة من قبل المؤمنين فيأتون بكل صلاة في وقتها.

ثم خاض في الدليل الثاني فقال عليه السلام:

«أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا:

«مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ» [١١٦٧] * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ» [١١٦٨].

طبعاً أشير في مواصلة الآية الشريفة المذكورة إلى سائر الذنوب التي أدت إلى دخولهم النار من قبيل: عدم إطعام المسكين ومسايرة

أهل الباطل والتكذيب بيوم القيامة: «وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ» [١١٦٩]؛ إلّا أن

المهم هو أن القرآن أشار إلى تقديم ترك الصلاة على كل تلك الأمور، وهذه دلالة واضحة على أهمية الصلاة ودورها في سعادة

الإنسان.

وهذه الآيات هي أدلة واضحة على عقاب الكفار على ترك فروع الدين أكثرهم لأصول الدين.

وقال الإمام عليه السلام في بيان الدليلين الثالث والرابع لإثبات أهمية الصلاة:

«وَأَنَّهَا

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٥٦

لَتَحْتُ الذُّنُوبَ حَتَّ [١١٧٠] الْوَرَقِ، وَتُطَلِّقُهَا إِطْلَاقَ الرَّبِّقِ [١١٧١].

نعم؛ فكما أن الصلاة تحول دون الذنوب في المستقبل بمضمون الآية الشريفة:

«إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» [١١٧٢]، فإنها تؤثر مثل ذلك في الذنوب السابقة عن طريق التوبة والإنباء إلى الله والتي تعد

الصلاة مصدره فتقضى على المعاصي التي هي كالقيد على رقبة الإنسان وتصده عن الرقي والكمال؛ وتحرره من تلك القيود.

روى عن سلمان الفارسي قال: كنت مع رسول الله إذ جلسنا عند شجرة فهزها رسول الله فتساقطت أوراقها، ثم قال صلى الله عليه وآله:

«أَلَا تَسْأَلُونَنِي عَمَّا صَنَعْتُ؟»

قالوا:

فأخبرنا يا رسول الله قال:

«أَنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتَّتْ وَرَقَ هَذِهِ» [١١٧٣].

ثم استشهد الإمام عليه السلام في استدلاله الخامس بكلام رسول الله بشأن أهمية الصلاة فقال:

«وَشَبَّهَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ [١١٧٤]؟» [١١٧٥].

ويتضح من خلال ما ورد في متن الخطبة من كلمة «الحمّة» (عين المياه الحارة التي يستفاد منها في علاج المرضى) أن الصلاة ليست كعين الماء العادية، بل عين خاصة لها آثار عجيبة في القضاء على الأذناس، ولكن لا بد من الإلتفات إلى أن هذا

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٥٧

التعبير حسب تحقيقنا وبحثنا إنما جاء فقط في كلام الإمام عليه السلام وفي هذه الخطبة.

ويمكن أن يكون هذا التأثير نابع من كون الصلاة تحيي في الإنسان روح التقوى وبمقتضى الآية الشريفة: «أَنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» فهي تصده عن الفحشاء والمنكرات في المستقبل وتدعوه بالطبع إلى التوبة بالنسبة لما سلف منه.

ثم واصل كلامه عليه السلام ليستدل في دليله السادس بآية قرآنية أخرى تكشف عن عظم منزلة المصلين فقال:

«وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ، وَلَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلَا مَالٍ. يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: «رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ» [١١٧٦].»

جدير ذكره أن الآية المذكورة وردت بعد آية من تلك التي أعقبت آية النور في القرآن وجرى الحديث في الآية التي سبقتها عن تلك البيوت الرفيعة التي أشرق فيها نور الله وانشغلت بتسييح الله ليل نهار والرجال الذين أشير إليهم في الآية التي نحن بصدددها هم امناء نور الله الذين لم تستهوههم زخارف الحياة الدنيا أو تصدهم عن ذكر الله والإحسان إلى خلقه ومعونتهم.

وأخيراً أشار عليه السلام في آخر دليل على أهمية الصلاة إلى سيرة النبي المقتبس من القرآن الكريم فقال:

«وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصِيبًا [١١٧٧] بِالصَّلَاةِ بَعْدَ

التَّشْبِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ:

«وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا» [١١٧٨]

، فَكَانَ

يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ وَيَصْبِرُ [١١٧٩] عَلَيْهَا نَفْسَهُ.»

وتشير هذه الأدلة السبعة التي ذكرها أمير المؤمنين على عليه السلام بشأن أهمية الصلاة والتي استلهمها من القرآن والسنة وعشرات

الأدلة الأخرى التي لم يكن عليه السلام في مقام

نقحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٥٨

التطرق إليها، تشير إلى مدى أهمية الصلاة وكونها جوهره ثمينه ومدى تأثيرها ودورها في تهذيب الإنسان وسعادته إلى جانب المخاطر التي يستبطنها الإبتعاد عن الصلاة والحرمان من بركاتهما.

تأمل

دور الصلاة في تربية الإنسان

الإنسان موجود رصيده النسيان؛ فهو لا ينسى الآخرين فحسب، بل غالباً ما يعاني من نسيان ذاته، وهذا النسيان الذاتي من أعدى أعداء سعادة الإنسان.

وهناك عنصران مهمان يسهمان في هذا النسيان الذاتي؛ الأول: المتطلبات الواقعية لحياته اليومية سيما في العصر الذي تعقدت فيه الحياة وكثرت مشاكلها، والثاني: الحاجات الكمالية والخيالية والظاهرية والمقرونة بالهوى وحب المال والجاه والشهوة، فهي أشبه بالمسافر الذي تطالعه على جانبي الطريق القصور الفخمة والشواهد الجميلة التي تصده فجأة عن مساره الرئيسي وتقذف به إلى الهاوية. ولعل أهم آثار الصلاة إيقاظ الإنسان من سباته ووضعها حداً لنسيانه، ذلك لأنه إن ذكر الله انقلب الوضع رأساً على عقب، فلسفة الصلاة حسب الآية الشريفة: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» [١١٨٠] هي ذكر الله والتي جاءت بعد الآية الشريفة: «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» [١١٨١] والتي أعقبت هذه الآية الشريفة: «أَنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» تشير إلى أن الجذور الأصلية لفلسفة الصلاة إنما تكمن في ذكر الله، لأنَّ حبَّ الدنيا رأس كل خطيئته، وحبَّ الدنيا هو الذي يصد الإنسان عن ذكر الله، كما ورد في الآية ٢٩ من سورة النجم: «فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَم يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٥٩

وتفيد سائر الآيات القرآنية أن الشيطان إنما يطوف حول قلب الإنسان فإذا ما ذكر الله هرب منه: «أَنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ» [١١٨٢].

وهذا هو دليل ما صرحت به الروايات الإسلامية من أن الصلاة عمود الدين وعين ماء صافية، سيما إن أوتى بهذه الصلاة في جماعة وأقبل فيها المؤمنون زمراً على الله تبارك وتعالى، جاء في الحديث عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله: «مَنْ صَلَّى الصَّلَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَظَنُّوا بِهِ كُلَّ خَيْرٍ وَاقْبَلُوا شَهَادَتَهُ» [١١٨٣].

ولو تأملنا مقدمات الصلاة (الطهارة والوضوء والغسل) التي تدعو الإنسان إلى طهارة الروح والبدن وسائر شرائطها من قبيل حلية لباس المصلي والتوجه إلى المسجد، أقدم مركز للتوحيد، وسائر الأركان ومضامين الآيات والأذكار والتعقيبات، فإنها تعمق فهم الإنسان لمدى أهميته هذه العبادة العظيمة والاستثنائية، والذي يشير إلى مدى الدور الذي تلعبه الصلاة في تربية الإنسان وإيصاله إلى القرب الإلهي والسير والسلوك المعنوي والعرفاني.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٦١

القسم الثاني

إشارة

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَانًا لِأَهْلِ الْأَسْلَامِ، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا، فَانْهَى تَجَعُّلَ لَهُ كَفَّارَةً، وَمِنَ النَّارِ حِجَازًا وَوَقَايَةً. فَلَا يُتْبَعُهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَلَمَّا يُكْتَبَرَنَّ عَلَيْهَا لَهْفُهُ، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا، يَزُجُّ بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا، فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ، مَعْتَبُونُ الْأَجْرِ، ضَالُّ الْعَمَلِ، طَوِيلُ النَّدَمِ.

الشرح والتفسير: بركات الزكاة

كما أشير في مستهل الخطبة أنّ الإمام عليه السلام أشار فيها إلى أربعة أمور غاية في الأهمية كان أولها الصلاة وقد مر بحثها بصورة وافية، والأمر الثاني الزكاة حيث قال عليه السلام: «تَمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَانًا لِأَهْلِ الْأَسْلَامِ». و «القربان»:

هنا يعنى ما يوجب التقرب إلى الله تعالى ونعلم أنّ الصلاة هي رابطة الخالق بالخلق والزكاة رابطة الخلق بسائر عباد الله والتي تعدّ نوعاً من الإرتباط بالله. جدير ذكره أنّ الصلاة والزكاة ذكرتا مع بعضهما في سبع وثلاثين آية من الآيات القرآنية، وهذا يدل على أنّهما لازم وملزوم في تحقيق سعادة الفرد والمجتمع.

ثم عدد الإمام عليه السلام بعض الآثار المهمة للزكاة وشرايطها فقال: «فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا، فَانْهَى تَجَعُّلُ لَهُ كَفَّارَةً، وَمِنَ النَّارِ حِجَازًا وَوَقَايَةً». فالشرط الأول لقبول الزكاة حسب ما ذكر الإمام عليه السلام في هذه العبارة أن تؤدى نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٦٢

عن طيب نفس ورغبة وبصفتها إمتثال لأمر الله ونيل رضاه لتطوى في ظل هذه الحالة على أثرين مهمين؛ أحدهما أنّها كفارة للذنوب السابقة، والآخر حجاب من نار جهنم.

طبعاً، من يؤدى الزكاة مكرهاً ولا- يسعه طرح حب المال من قلبه يكون قد أدى التكليف، ولكن لا- حظ له من بركات المعنوية والروحية والأخلاقية.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَرْضُ الْقِيَامَةِ نَارٌ مَا خَلَا ظِلُّ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّ صَدَقَتَهُ تُظِلُّهُ» [١١٨٤].

وقد صرح القرآن بأنّ إحدى صفات المنافق أنّه إن انفق شيئاً إنّما ينفقه كراهة ولذلك فهو لا يحظى بقبول الله تعالى «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ... وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ» [١١٨٥].

ثم خلاص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«فَلَا يُتَبَعْنَ أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَلَا يُكْتَبَرَنَّ عَلَيْهَا لَهْفُهُ» [١١٨٦].

نعم! فالناس صنفان؛ صنف يؤدى زكاته وسائر صدقاته في سبيل الله بمنتهى الرضا، وليس له هم سوى الفوز برضا الله دون توقع أدنى شكر أو جزاء ممن يأخذ الزكاة والصدقة «أَتَمَّا تُطْعِمُكُمْ لِرُوحِهِ اللَّهِ لَأْتَرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً» [١١٨٧]؛ أمّا الصنف التالى فذلك الذى يكون أداء الزكاة عنده كحالة الاحتضار، وهولا ينفك يعيش حالة من القلق، ليقول على الدوام: كم كان ثمين ذلك المال الذى زكيتته وكم جهدت من أجل الحصول عليه، ولو كان عندى اليوم لفعلت به كذا وكذا، فهذا الصنف مصداق لما ذكره الإمام عليه السلام في العبارة المذكورة، ولا بد أن نرى هنا كيف يبين الإمام عليه السلام الآثار السلبيّة لذلك، فقال:

«فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا، يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا، فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ، مَعْتَبُونُ الْأَجْرِ، ضَالُّ الْعَمَلِ، طَوِيلُ النَّدَمِ».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٦٣

ذهب بعض شراح نهج البلاغة في تفسيرهم لهذه العبارة

«يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا»

: إلى أنّ المراد أنّ الإنسان المؤمن لا يتوقع حتى بركة المال والحصول على المزيد من النعم في أدائه للزكاة وسائر القربات، بل هدفه رضا الله، إلّا أنّ هذا التفسير لا يبدو منسجماً مع العبارة

«جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ»

و

«صَالَ الْعَمَلِ»

، ذلك لأنَّ المستفاد من الروايات الإسلامية أنَّ انتظار الفضل الإلهي والعناية ليس ممنوعاً في هذه الموارد، بل مرغوب فيه. فقد جاء في الرواية أنَّه يستحب التوجه لله وطلب سعة الرزق حين الحاجة عن طريق التصدق [١١٨٨] وقد قال القرآن بهذا الخصوص: «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ» [١١٨٩].

إلا أنَّ التفسير الثاني الذي يمكن قوله بشأن هذه العبارة والذي ينسجم مع سائر العبارات، الأول أنَّ هذه العبارة استمرار للعبارة «غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا»

؛ أي أنَّه لا يُعطى الزكاة عن نفس طيبة ولا يأمل بما هو أفضل منها، ومن الطبيعي أنَّ مثل هذا الشخص قد عمل خلاف السنة وانحدر إلى الضلال. والآخر أنَّ المراد الشخص الذي لا يعيش الرضا الباطني حين أداء الزكاة ويطلب من الله ما هو أفضل منها، فهو شخص خاطئ وجاهل بالسنة.

تأمل

الزكاة؛ ركن مهم في المجتمع الإسلامي

الزكاة من أهم الفرائض بعد الصلاة؛ فالكلام في الصلاة عن الرابطة بالخالق، وفي الزكاة عن الرابطة بخلق الله. والواقع أنَّ صدق الإنسان وجديته في موضوع الارتباط بالخالق إنما يثبت حين تكون رابطة قوية بالخلق، فيحيط بمشاكلهم

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٦٤

ويسعى لحلها ويعتبر عن مواساته للمحتاجين والمساكين والمحرومين ويسعى بكلِّ ما أوتي من قوَّة لمساعدتهم، وبالطبع فإنَّ أهم مظاهر ذلك هو أداء الزكاة، ومن هنا وكما أشير سابقاً فقد ذكرت الزكاة إلى جنب الصلاة في ٣٧ آية من الآيات القرآنية. من جانب آخر فإنَّ التمايز الطبقي يعدُّ من أخطر الظواهر الاجتماعية في أن تكون هناك طبقة مرفهة مهيمنة على كلِّ شيء وأخرى محرومة تفتقر إلى أبسط المقومات الأساسية للحياة، الأمر الذي يترك آثاره السلبية على هذه الطبقة المعدمة، كما تعاني الطبقة المرفهة من بعض الضغوط بفعل ردود الفعل التي تمارسها تلك الطبقة وهذا ما يؤدِّي بالتالي إلى سلب الأمن عن المجتمع. قال القرآن الكريم في الآية ١٩٥ من سورة البقرة: «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» والمراد إذا أردتم النجاة من الهلكة فلا تنسوا الانفاق في سبيل الله.

وهي الحقيقة التي وردت إشارة لطيفة إليها في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال بعد تصنيفه أبناء المجتمع إلى عالم وجاهل وغني وفقير:

«وَإِذَا بَخِلَ الْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ»

أي حين يبخل الأغنياء بالفضل على الفقراء والمحرومين فإنَّ هؤلاء المحرومين يبيعون آخرتهم بدنياهم وبالتالي يثرون ويحطمون جميع القوانين الاجتماعية.

ومن جانب ثالث هنالك الصفات الرذيلة بالفعل والقوَّة في أغلب الأفراد والتي لا يمكن استئصالها إلا بأداء الزكاة، قال القرآن الكريم: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...» [١١٩٠].

نعم! هنالك تأثيرات عظيمة لأداء الزكاة في تهذيب النفس وتهذيب صفاته الإنسانية.

نفعات الولاية، ج٧، ص: ٥٦٥

القسم الثالث

إشارة

ثُمَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا. إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمُنْبِيَّةِ، وَالْأَرْضِ مِنَ الْمَدْحُورَةِ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ الْمَنْصُوبَةِ فَلَمَّا أَطْوَلَ وَلَا أَعْرَضَ، وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا. وَلَوْامْتَنَعَ شَيْءٌ بِطَوْلٍ أَوْ عَرِضٌ أَوْ قُوَّةٌ أَوْ عَزٌّ لَامْتَنَعَنَ؛ وَلَكِنْ أَشْفَقْنَا مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَعَقَلْنَا مَا جَهَلْنَا مَنْ هُوَ أَوْضَعُفُ مِنْهُمْ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ، (إِنَّهُ كَانَ ظُلُومًا جَهُولًا).

الشرح والتفسير: أداء الأمانة

طرح الإمام عليه السلام في القسم الثالث من الخطبة- بعد بيان أهمية الصلاة والزكاة- مسألة أخرى غاية في الأهمية هي «أداء الأمانة». والأمانة إن لم تؤدى فقدت سائر المشاريع الإسلامية أثرها ومعطياتها، فقال:

«ثُمَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا».

وقد اختلف شراح نهج البلاغة في المراد (بأداء الأمانة) الوارد في هذه العبارة؛ فقد ضيقه البعض ليراه معنى الولاية والإمامة أو ما شابه ذلك، والحال أن مجيء أداء الأمانة بعد الصلاة والزكاة يفيد أن المراد به مفهوم عام وشامل، ذلك لأن أداء الأمانة أساس ودعامة جميع الأنشطة الاجتماعية والإيجابية بحيث لو تسللت الخيانة إلى أداء الأمانة لانعدمت الثقة بين الجميع ولزال التعاون الاجتماعي ولساد سوء الظن بين الناس مما يؤدى إلى إرباك المجتمع، ولذلك جاء في الرواية أن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ

نفعات الولاية، ج٧، ص: ٥٦٦

البرِّ والفاجر» [١١٩١].

كما ورد في الحديث النبوي الشريف:

«الْأَمَانَةُ تَجْلِبُ الْغِنَى وَالْخِيَانَةُ تَجْلِبُ الْفَقْرَ» [١١٩٢].

جدير ذكره أن للأمانة معنيين؛ معنى خاص يشمل أمانات الناس المالية التي يستودعها بعضهم البعض الآخر وحفظها من أوجب الواجبات، ومعنى عام يشمل جميع المسؤوليات الإلهية، وعلى هذا الأساس فإن عمرنا وأولادنا وبلدنا ومراكزنا الاجتماعية والحكومات الإلهية كلها أمانات أودعت لدينا ولا ينبغي خيانتها.

والمفهوم العام يشمل أمانات الناس المادية وكذلك الأمانات الإلهية والمعنوية وحفظها من أركان الدين كما أشار الإمام عليه السلام إليها بعد الصلاة والزكاة، وتفيد العبارات اللاحقة بعدها إلى أن الهدف من ذكر الأمانة هنا هو المفهوم العام، ذلك لأن الإمام عليه السلام قال عقب هذه العبارة:

«أَنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمُنْبِيَّةِ» [١١٩٣]، وَالْأَرْضِينَ

الْمَدْحُورَةَ [١١٩٤]، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ الْمَنْصُوبَةِ، فَلَمَّا أَطْوَلَ وَلَا أَعْرَضَ، وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا».

ثم قال عليه السلام:

«وَلَوْامْتَنَعَ شَيْءٌ بِطَوْلٍ أَوْ عَرِضٌ أَوْ قُوَّةٌ أَوْ عَزٌّ لَامْتَنَعَنَ؛ وَلَكِنْ أَشْفَقْنَا مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَعَقَلْنَا مَا جَهَلْنَا مَنْ هُوَ أَوْضَعُفُ مِنْهُمْ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ»

«إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا».

هذا الكلام إشارة لما ورد في الآية ٧٢ من سورة الأحزاب: «أَنَا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٦٧

تأملان

١. نقطة مهمة

هنالك نقطة مهمة في هذه الآية الشريفة: وهي: ما المراد بهذه الأمانة الإلهية التي بلغت هذا القدر من الثقل بحيث عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال؟

وقد ذهب أغلب المفسرين إلى أن المراد بها التكليف الشرعية والأوامر والنواهي والإيمان ومنها ولاية المعصومين عليهم السلام وأن عدم تحملها من قبل السماء والأرض والجبال دليل على عدم استعدادها لقبول هذه المسؤولية، وعليه فعرض هذه التكليف الإلهية عليها كان بلسان الحال، رغم ما ذهب إليه البعض من أن الله أفاض عليها آنذاك ما يكفيها من العقل والشعور لتخاطب بذلك الخطاب، ولكن على كل حال فقد حملها وقبلها الإنسان بفضل ما أودع من استعداد رباني شامل.

حقاً أن هذا لوسام شرف عظيم للإنسان لأن يخاطب بأوامر الله ونواهيه ولذلك فهو يحتفل في اليوم الذي يبلغ فيه التكليف. وعلى هذا الضوء فسر «الظلم والجهول» بعاقبة العمل، أي أنه لم يكن ظلوماً في قبول هذه الأمانة بل ظلم نفسه في أداء حقها ولم يلتفت إلى قدر نفسه ومقامه وكان جاهلاً به.

فهذا أوضح تفسير يمكن ذكره للآية الشريفة، لكنه لا- ينسجم مع ما ورد في الخطبة التي نحن بصددتها من جهتين، الأولى إن السماوات والأرض والجبال إنما لم تتحمل هذه الأمانة بسبب ما هي عليه من عقل وفطنة، والثانية: إن الإنسان كان أضعف منها وقد ظلم نفسه إثر جهله وحمل تلك الأمانة، ومن هنا فإن النهوض بهذه الأمانة والتكليف يعد نقطة ضعف في الإنسان، وعدم قبولها من قبل السماوات والأرض يعد نقطة قوة لها.

وهذا المعنى وبغض النظر عن عدم انسجامه مع الآية الشريفة، فهو لا يتفق أيضاً مع سائر الآيات القرآنية، فالله جعل الإنسان أفضل خلقه فقال: «لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ...

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٦٨

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا» [١١٩٥] وقد أمر جميع ملائكته بالسجود له وجعله خليفته في أرضه وقال بحقه: «أَنْتَى جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» [١١٩٦]. فهل يمكن أن يقال بعد كل هذه الافتخارات إن الإنسان أضعف واحط من الجمادات كالأرض والسماء والجبال؟!

حقاً إن هذه مسألة معقدة ولا يبدو من السهل الجمع بين مضمون هذه الخطبة وما جاء في الآية الشريفة، ولم يتجه شراح نهج البلاغة صوب حل هذه المشكلة، والحل الوحيد هو أن نعتبر الآية قضية كلية ونحمل كلام الإمام عليه السلام على قضية جزئية فنقول: إن الإمام عليه السلام تطرق إلى فئة من الناس، فئة بحكم الآية الشريفة:

«أُولَئِكَ كَالْإِنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ» [١١٩٧] ممن ليس لهم حظ من عقل ومعرفة ويعيشون في دوامة من الجهل والغرور والغفلة واتباع الهوى الذي تسلل إلى أفكارهم فكان قبول هذه الأمانة سبب يؤسهم وشقائهم بدلاً من أن يكون أساس إعترازهم وفخرهم؛ ولعلنا

نلمس شبيه ذلك في القرآن الكريم بشأن المنافقين ومرضى القلوب: «وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أُيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ» [١١٩٨]. ومن هنا يجدر بالباحثين التركيز والتعمق في هذه المسألة.

٢. أفضل علامات الإيمان

إنّ حفظ الأمانة، سواء بالمعنى الخاص الذى يعنى حفظ ثروات الآخرين المالىة، أو بمعناها العام فى حفظ وصون المسؤوليات الإلهية والمعنوية والمادية

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٦٩

والفردية والاجتماعية، لمن المبادئ الأساسية لجميع الأنبياء عليهم السلام، والدليل على ذلك الحديث النبوى الشريف: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ».

وحفظ هذه الأمانة على درجة من والعظمة بحيث أبت حمله تلك السماوات المرفوعة والجبال الشامخة، وحملها الإنسان أشرف مخلوقات الله بما أفاض الله عليه من استعداد، وقد صانها وحملها الأنبياء والأولياء ومن سار على دربهم ليفوزوا بهذا الشرف، رغم عدم أداء تلك الأمانة من قبل طائفة جاحدة من الظلمة والجهال، والنقطة المهمة هي أن المصادر الإسلامية ذكرت المزيد من الحقوق للمسلمين بالنسبة لبعضهم البعض الآخر؛ إلا أنّ حفظ الأمانة أهمها جميعاً والتي تعتبر جزءاً من حقوق الإنسان. ومن هنا جاء فى الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام أن أحد وصاياه كانت بهذا الخصوص:

«إِعْلَمَنَّ أَنَّ ضَارِبَ عَلِيٍّ بِالسَّيْفِ وَقَاتِلَهُ لَوْ إِتْمَنَى وَاسْتَنْصَحَنِي وَاسْتَشَارَنِي ثُمَّ قَبِلْتُ ذَلِكَ مِنْهُ لِأَدَيْتُ إِلَيْهِ الْأَمَانَةَ» [١١٩٩].

وتبدو هذه المسألة على درجة من الأهمية بحيث اعتبرت من أفضل الدلالات على شخصية الإنسان وإيمانه حتى أنها لتفوق الصلاة والصوم والحج.

جاء فى الحديث النبوى الشريف:

«لَا تَنْظُرُوا إِلَى كَثْرَةِ صِيْلَتِهِمْ وَصِيْلَتِهِمْ وَكَثْرَةِ الْحَجِّ وَالْمَعْرُوفِ وَطَنَطَنَتِهِمْ بِاللَّيْلِ وَلَكِنْ انظُرُوا إِلَى صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ» [١٢٠٠].

والدليل الواضح على صدق هذا الحديث الشريف، التجارب التى عشناها طيلة حياتنا، فما أكثر الأفراد الذين يعيشون حالة من الجِدِّ والاجتهاد والالتزام بالمسائل العادية، ولكن ما أن ترد بعض المسائل المهمة سيما الأموال الطائلة حتى تنزل أقدامهم وتهتز شخصيتهم.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٧١

القسم الرابع

إشارة

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ. لَطِيفٌ بِهِ خُبْرًا، وَأَخِاطٌ بِهِ عِلْمًا. أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ.

الشرح والتفسير: عالم الغيب والشهادة

أشار الإمام عليه السلام في الأقسام السابقة من هذه الخطبة إلى ثلاثة مواضيع مهمّة تعدّ من أركان الأوامر الإلهية وهي الصلاة والزكاة وأداء الأمانة، ثم تطرق الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إلى أمر بمثابة العنصر الإجرائي لهذه الأوامر المهمّة والذي يتمثل بإحاطة الله تعالى العلمية بالإنسان في أحواله كافة.

وبعبارة أخرى أنّ الإنسان حين يهتم بطاعته هذه الأوامر يشعر بأنّه حاضر على كلّ حال عند الله وأنّ علمه محيط به على غرار العيون التي تبث داخل الطرق والمدن بغية رعاية الناس للقوانين السائدة فقال:

«أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَأَيُّخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ. لَطْفَ بِهِ خُبْرًا، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْمًا».

والتعبير بالعباد تعبير واسع يشمل جميع الناس بما فيهم المسلم والكافر والصغير والكبير والعالم والجاهل، وتقديم الليل على النهار لأنّ الليل موضع خفي لأغلب العصاة.

والعبارة:

«لَطْفَ بِهِ خُبْرًا»

بالنظر إلى أنّ اللطيف أحد أسماء الله الحسنى ويطلق على من يلم بأظرف الأمور وأدقّها، إشارة إلى عدم غياب أصغر أعمال العباد وأخفاها عن علمه تبارك وتعالى: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» [١٢٠١].

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٧٢

وكل هذه الأمور تستند إلى كون علمه سبحانه وتعالى بجميع الأشياء علماً حضورياً فهو حاضر في كلّ مكان والكون برمته حاضر لديه، فلا يخفى عليه شيء ولا يعزب عن علمه شيء.

وقد تمسك البعض بمثال فقال: لو كان في يدنا شيء ننظر إليه فهل يخفى علينا شيء منه، وبالطبع فإنّ علم الله لأعمق وأسمى من ذلك بالنسبة لجميع الكائنات.

وقال في مواصلته لكلامه ولإثبات شدّة الرقابة الإلهية على الإنسان:

«أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وَضَمَائِرُكُمْ عِيُونُهُ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ».

ولمفردة الأعضاء (جمع عضو) معنى عام يشمل الأعضاء التي بها يقوم الإنسان بأعماله، مثل الأيدي والأرجل، وكذلك الأعضاء التي يبدو ظاهرياً لا يقوم بها بعمل كالأضلاع والعظام؛ أمّا الجوارح (جمع جارحة) واستناداً إلى مادتها اللغوية جرح التي تعني الاكتساب فهي تقتصر على الإشارة إلى تلك الأعضاء التي يقوم بواسطتها الإنسان ببعض الأعمال ويحسن بها أو يسيء بها، وعليه فذكر الجوارح بعد الأعضاء من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

و «ضمائر» جمع «ضمير» بمعنى باطن الإنسان وتشير هنا إلى وجدان الإنسان الذي يمثل القاضي الباطني.

و «خلوات»: و

جمع «خلوة» تعني الموضع الذي لا يتواجد فيه عامة الناس، ولما كانت أغلب الذنوب إنّما ترتكب في الخلوات، فقد ركزت عليها العبارة السابقة.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنّ (خلوات) تعني ما يرتكب من أعمال في الخلوة وستكون من قبيل حذف المضاف، على كلّ حال فإنّ هدف الإمام عليه السلام من بيان هذه العبارات الأربع الأخيرة أن يقول ليس لعلم الله إحاطة بجميع أعمال الإنسان فحسب، بل أعضاء الإنسان وجوارحه ووجدانه شهوده وجنوده وعيونه، وإنّ كلّ بقعة من مكان حتى الخلوات لتشهد على أعمال الإنسان.

الخطبة ٢٠٠

إشارة

في معاوية [١٢٠٢]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى سياسة معاوية المؤسسه على الكذب والخداع والمكر والحيلة، وذكر عليه السلام أنه أعرف بهذه الفنون من السياسة إلا أن الورع والتقوى وخشية الله لا تدعه أبداً يمارس هذا الأسلوب الرخيص، وصرح في آخر كلامه بأنه ممن لا تنطلي عليه هذه السياسة فيستغفل ولا يبدى مقاومة.

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٧٥

وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَذْهَى مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ. وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَذْهَى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غُدْرَةٍ فُجْرَةٌ، وَكُلُّ فُجْرَةٍ كُفْرَةٌ. «وَلِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وَاللَّهِ مَا أُسْتَعْفِلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلَا أُسْتَعْمَرُ بِالشَّدِيدَةِ.

الشرح والتفسير: السياسة الآئمة

إن بعض السذج والجهال في عصر أمير المؤمنين يرون حين مقارنتهم للإمام على عليه السلام بمعاوية أن هذا الأخير كان أعظم سياسة منه، وهو ذات الكلام الذي سمع في القرون اللاحقة من قبل البعض وما زال يكرره اليوم بعض الجاهلين، وعبارات الإمام عليه السلام تعدد رداً منطقياً يلجم مثل هؤلاء الأفراد حجراً، حيث قال عليه السلام:

«وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَذْهَى [١٢٠٣] مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ». و «يَغْدِرُ»:

من «غدر» بمعنى الخدعة ونقض العهد و

«يَفْجُرُ»

من «فجور» بمعنى الإثم والمعصية، والواقع أن هذا الفجور نتيجة لذلك الغدر، لأن الغدر يمهد السبيل للمعصية. ثم قال عليه السلام:

«وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَذْهَى النَّاسِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى نقطة مهمّة وهي أن السياسة على نوعين: سياسة طائشة ومقرونة بأنواع المعاصي، وبالتالي فهي سياسة شيطانية، وسياسة عن

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٧٦

تدبير مفعم بالورع والتقوى، وبالتالي فهي سياسة رحمانية، وفي الواقع تتفاوت السياستين وتبعاً لذلك تتفاوت نتائجهما. والسياسة بالمعنى الأول لا تعرف من حد خلقي وديني وإنساني ووجداني، وتقضى على كل قانون أو مبدأ أو ضابطة تشكل خطراً عليها، على غرار ما نلاحظه اليوم في عالم السياسة الذي يحكم الشرق والغرب.

أمّا الصنف الثاني فتخضع فيه السياسة لأطر معينة حدودها القيم والمثل الدينيّة والإنسانيّة والوجدان والضمير؛ فهي لا تعتمد الظلم

والجور والمعصية قط سيما تجاه العزل من الأفراد الأبرياء؛ ولا- تسمح بالغدر والخيانة والفجور ونقض العهود والمواثيق، وترفض التسلط والتوسع وبالتالي ترى وجود بعض الخطوط الحمراء التي لا يمكن تجاوزها.

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه إلى أولئك الأفراد الذين انتهجوا الغدر والفجور ليعتمدوهما كوسيلة لسياساتهم فقال:

«وَلَكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فُجْرَةٌ، وَكُلُّ فُجْرَةٍ كُفْرَةٌ. (وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِيُؤَاءَ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)».

والعبارة:

«وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِيُؤَاءَ...»

حديث معروف عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله روته أغلب المصادر، ومنها: الشوكاني في نيل الأوطار، والبخارى في صحيحه، وقال الشوكاني:

متفق عليه [١٢٠٤].

ثم قال عليه السلام في اختتامه لهذا الكلام وحتى لا يتصور أحد أن الإمام عليه السلام بما هو عليه من نقاء القلب تنطوى عليه سياسة الغدر والمكر:

«وَاللَّهِ مَا أُسْتَعْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلَا أُسْتَعْمَزُ [١٢٠٥] بِالشَّدِيدَةِ».

وهذا الكلام في الواقع رد على أولئك الذين يزعمون أنه لا- يمكن مواجهة أولئك الفجرة سوى من قبل أمثالهم وليس أمام الفرد المتدين سوى الوقوع في مخالبتهم،

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٧٧

فمضمون كلام الإمام عليه السلام هو إن الإنسان قد لا- يكون من أهل الخداع والفجور والخيانة ولكن يعرف طريقه أهل الغدر والخيانة حتى لا يقع في شباكتهم ويخدع بالأعييبهم.

تأمل

السياسة الإنسانية والسياسة الشيطانية

حقيقة السياسة هي التدبير وإدارة الحكومة ورعاية شؤون الناس، وهو أمر متعارف عليه منذ قديم الزمان في المجتمعات البشرية، وقد حكمت تلك المجتمعات من قبل بعض الساسة طالحين كانوا أم صالحين.

والسياسة على صنفين: سياسة طائشة وأخرى حكيمة، أما السياسة الطائشة فهي تلك السياسة التي لا تؤمن بأى مانع أو رادع من أجل تحقيق أهدافها فتبيح كل شيء فهي تقتل المتهم والبريء وتهدم البيوت العامرة والخالية، وتتشبث بكل حيلة وكذب وغش، وإذا ما عقدت اتفاقية وتعاضت مستقبلاً مع أهدافها نقضتها، وبالتالي فهي لا ترحم الولد والأب والام، ومن هنا قيل: إن السياسة لا تعرف من معنى للأب والام.

وقد قرأنا في التاريخ أن الخليفة العباسي هارون الرشيد قال لابنه المأمون: «لو نازعتني الملك لأخذت الذي فيه عيناك»، كما استقبل المأمون جسد أخيه الأمين بفرح وسرور، وما أكثر أمثال هذه الحوادث في تاريخ العرب والعجم والشرق والغرب والتي أشار القرآن الكريم إلى نماذجها بشأن فرعون فقال: «أَنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» [١٢٠٦].

أما السياسة الحكيمة والإنسانية فهي السياسة التي تعتمد الأسس المشروعة

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥٧٨

بغية الوصول إلى الهدف ولا تنتهك قط حدود الأحكام الشرعية والمبادئ الإنسانيّة، وتجرى العدل بحقّ العدو والصدّيق؛ وترعى الأمانة، وتلتزم بالعهود والمواثيق وتنظر بعين الاعتبار إلى الإنسان وكرامته وعزته.

وإنّ أصحاب السياسة الحكيمه والإنسانيّة مهما كانوا قلائل مقارنة بأصحاب السياسة الشيطانيّة، قد يعانون من المشاكل والمعضلات، إلّا أنّهم ظلّوا ناصعي الجبين في التاريخ وأضحّت سياستهم قدوة للبشريّة برمتها.

والنموذج البارز للصنف الأوّل من السياسة، معاوية ورهطه في الشام، والنموذج الجلي الواضح للسياسة بصنفها الثاني أمير المؤمنين علي عليه السلام، وهو ما أذعن له العدو والصدّيق سوى تلك الثلّة المتعصبة.

ابن أبي الحديد واستناداً إلى مبادئ مذهبه قارن بين سياسة أمير المؤمنين عليه السلام في إدارة البلاد والسياسة التي انتهجها عمر، فقال: «زعموا أنّ عمر كان أسوس من أمير المؤمنين وإن كان هو أعلم منه».

ثم خاض في الرد على هذه النظرية فقال: «إنّ سياسة علي هي سياسة النبي صلى الله عليه وآله». وروى عن استاذه أبو جعفر النقيب أنّه قال: «كانت سياسة علي عليه السلام هي ذاتها سياسة رسول الله صلى الله عليه وآله».

ثم تطرق إلى شرح كلمات الجاحظ (العالم السني المعتزلي) في مقارنة سياسة علي عليه السلام ومعاوية وإليك خلاصه كلامه: زعم البعض أنّ معاوية كان أسوس من علي عليه السلام وهذا خطأ كبير، ثم واصل كلامه في إبطال هذا الكلام حيث صرح بأنّ عليّاً عليه السلام لم يعمل في الحروب سوى بما وافق القرآن والسنة، بينما كان معاوية يخالف القرآن. فكان عليه السلام يوصي الجيش بعدم البدء بالقتال وتعقيب الهاربين والإجهاز على المجروحين (والحال لم يكن معاوية يرضى أيّاً من هذه الوصايا).

ولما فرغ ابن أبي الحديد من نقل هذا الكلام أتجه صوب بعض الإشكالات التي

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥٧٩

أوردها البعض على سياسة علي عليه السلام ومنها:

١. لو كان علي عليه السلام حين بويج له بالخلافة في المدينة أقر معاوية على الشام إلى أن يستقر الأمر له ثم يعزله، وقال في الجواب: إنّ أمير المؤمنين كان يعلم أن إقراره أقوى لحال معاوية وأكّد في الامتناع من البيعة، فلا يبقى بعد ذلك من عذر لعزله.
٢. إنّ حين ملك شريعة الفرات في صفين هلاً منعها عن معاوية وأهل الشام، فكان يأخذهم قبضاً بالأيدي بعد أن ملكها معاوية فمنعها عنه وعن أهل العراق؟

وقال في الجواب: إنّ لم يكن يستحل ما استحلّه معاوية من تعذيب البشر بالعطش؛ فإنّ الله تعالى ما أمر أحداً بذلك.

٣. إنّ عليه السلام أخطأ حين محى اسمه من الخلافة فقوى الشبهة في نفوس أهل الشام.

وقال في الجواب: إنّ عليه السلام احتذى في ذلك لما دعي إليه واقترحه الخصم عليه، فعل رسول الله صلى الله عليه وآله في صلح الحديبية، حين أصر زعماء الشرك على محو اسمه من النبوة (وحيث لم يرض ذلك أحد) فقد أقدم عليه بنفسه، وأخبره النبي صلى الله عليه وآله بذلك سابقاً.

٣. إنّ عليه السلام كان غير مصيب في ترك الاحتراس، فقد كان يعلم كثرة أعدائه؟

وقال في الجواب: إنّ هذا إن كان قادحاً في السياسة والتدبير فليكن قادحاً في سياسة رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لم يكن يرضى بذلك [١٢٠٧].

ولابن أبي الحديد كلمات أكثر من ذلك حيث أفرد أكثر من ٥٠ صفحة في شرح ذيل هذه الخطبة للبحث المذكور ولا يسعنا ذكرها هنا.

والجدير ذكره ما ذكره في آخر كل هذه الأبحاث، حيث قال: فقد بان بما أوضحناه فساد قول من قال إن تدبيره عليه السلام وسياسته لم تكن صالحة:

«أَنَّ أَصْحَ النَّاسِ تَدْبِيرًا وَأَحْسَنُهُمْ سِيَاسَةً وَإِنَّمَا الْهُوَى وَالْعَصْبِيَّةُ لَا حِيلَةَ فِيهِمَا».

نفحات الولاية، ج ٧، ص: ٥٨٠

إلى هنا تم وبحمد الله الخطبة ٢٠٠ من خطب أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة ومن الجزء السابع لهذا الكتاب القيم، نشكر الله تعالى على توفيقه ومنه أن يسر لنا هذا الطريق، ونسأله أن يظللنا بغمام لطفه وكرمه كي نتم الأجزاء الآتية من هذا السفر المبارك إن شاء الله تعالى.

وكذلك نحمده أن نال هذا الشرح إعجاب ورضا الطوائف المختلفة من الناس انتخب بعنوان أفضل كتاب لسنة ٢٠٠٢ م ونأمل أن يفتح هذا الشرح فصلاً جديداً بين الشروح المطروحة لنهج البلاغة.

ولا يخفى أننا تلقينا ببالغ الأسى والحزن رحيل وفقدان أحد الإخوة العاملين الأعزاء معنا، ألا وهو العالم الفاضل والمتتبع المتبحر المغفور له المرحوم حجة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ إبراهيم البهادري (قدس سره).

كان المرحوم رجلاً فاضلاً، جاداً، منظماً، مخلصاً، متقياً، ومحققاً بارعاً، حيث أقدم على تحقيق أكثر من عشرين كتاباً من كتب العلماء الكبار، وترك من بعده تراثاً قيماً، نسأل الله تعالى أن يعمده برحمته الواسعة إنه قريب مجيب.

«رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»

نهاية الجزء السابع لنفحات الولاية في شرح نهج البلاغة لأmir المؤمنين عليه السلام

٢٧/ شعبان المعظم / ١٤٢٦ هـ ق، الموافق ٢٠٠٤ م

[١] (١). «قطنوا»، من مادة «قطن» على وزن «فنون» بمعنى الإقامة الإستيطان.

[٢] (٢). «ظعنوا» من مادة «ظعن» على وزن «رهن» في مقابل قطن وبمعنى الرحيل والانتقال.

[٣] (٣). سند الخطبة:

مع الإلتفات إلى اتصال هذه الخطبة بالخطبة ٤٤، فأورد صاحب المصادر أسنادها في ذيل الخطبة ٤٤ ويقول: «تضمنت كتب السير قصة بنى ناجية هذه، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا قبل أن تلد الرضى أمه، منهم أبو جعفر الطبرى في تاريخه المعروف في حوادث سنة ٣٨ هجرى، وإبراهيم بن هلال الثقفى في كتاب «الغارات»، والبلاذرى في «أنساب الاشراف»، وكما رواه آخرون مثل ابن عساكر فى «تاريخ دمشق»، وأبو الفرج الاصفهانى فى «الأغانى» فى شرح حال مثقلة بن هبيرة، (مصادر نهج البلاغة، ج ١، ص ٤٥١ و ٤٥٢؛ ج ٢، ص ٤٤١).

[٤] (١). تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٧٦؛ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٣، ص ١٢٨ وقد ذكرنا شرحاً مسهباً بهذا الشأن فى الخطبة ٤٤.

[٥] (١). «بُعِدًا» مفعول مطلق لفعل محذوف جاء للتوكيد وتقديره «أبعدهم الله بُعداً».

- [٦] (٢). سورة هود، الآية ٩٥.
- [٧] (١). «أشعرت» من مادة «شع» تعنى فى الأصل الذهاب إلى بركة الماء، أو شقّ الطريق إلى الماء، ومتى ما استعملت هذه المفردة فى «الرماح» تأتي بمعنى سُدّدت وصوّبت نحوهم.
- [٨] (٢). «هامات» جمع «هام» بمعنى الرأس.
- [٩] (٣). «استقل» من مادة «قلّ» على وزن «شل» بمعنى التفرقة والتشتت.
- [١٠] (٤). انظر: سورة العنكبوت، الآية ٦٥.
- [١١] (٥). انظر: سورة الحشر، الآية ١٦.
- [١٢] (٦). انظر: سورة البقرة، الآيتان ١٦٦ و ١٦٧.
- [١٣] (٧). «ارتكاس» من مادة «ركس» على وزن «مكث» بمعنى الانقلاب وعوده الشيء.
- [١٤] (٨). «جماح» و «جموح» بمعنى الطغيان.
- [١٥] (١). جعدة بن هبيرة المخزومي: ابن اخت أمير المؤمنين عليه السلام وأمه أم هانى بن أبى طالب، كان رجلاً شجاعاً وعالمًا أدرك عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وولاه الإمام على عليه السلام على خراسان (أسد الغابة، ج ١، ص ٢٨٥).
- [١٦] (٢). «مدرعة» «جُبّه» من مادة «درع»، ثوب يعرف عند بعض العامة بالدراعية، قميص ضيق الأكمام.
- [١٧] (٣). «ثفنة» تعنى فى الأصل ما يمسّ الأرض من رُكبتى البعير بعد البروك ويكون فيه غلظة من ملاطمة الأرض.
- [١٨] (٤). سند الخطبة:
- هذه آخر خطبة خطبها أمير المؤمنين عليه السلام (وقتل بعدها بأسبوع). ذكرها الزمخشري فى كتابه ربيع الأبرار، كما روى بعضها أبو شاكر الليثى فى عيون الحكم والمواعظ، وفسيّر ابن الأثير بعض كلماتها وبالنظر لاختلاف كلماتهم مع ما ورد فى نهج البلاغة يبدو أنها ذكرت من مصدر آخر غير نهج البلاغة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٥١).
- [١٩] (١). «مصائر» جمع «مصير» بمعنى موضع الرجوع.
- [٢٠] (٢). «نوامى» جمع «نامية» من مادة «نمو» بمعنى الشيء الزائد.
- [٢١] (١). «الطول» بمعنى الفضل والنعمه، وأصلها من طول على وزن «نور» بمعنى ما يحفظ للإنسان قوته وبقاءه وإمكان استمراره فى الوجود، مادة «طُول» على وزن «قُول» وعليها اطلقت هنا.
- [٢٢] (٢). «مدعن» من مادة «إذعان» بمعنى التصديق والطاعة.
- [٢٣] (٣). «خنع» من مادة «خنوع» بمعنى الخضوع والتواضع.
- [٢٤] (١). «يتعاور» من مادة «تعاور» بمعنى تبادل الشيء والقيام بعمل بصورة متناوبة، والمراد منها فى العبارة عدم طرو الزيادة والنقصان على الذات القدسيّة، وأنّ هذه الذات منزّهة عن الحوادث.
- [٢٥] (١). اعتبر بعض شراح نهج البلاغة أنّ الوقت يرادف الزمان، بينما عدّه البعض الآخر بالزمن المعين وأنّ للزمان مفهوماً عاماً، والتفسير الثانى يبدو أصح. كما ورد فى القرآن الكريم فى الآية ١٠٣ من سورة النساء بشأن الصلاة، «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا».
- [٢٦] (٢). سورة آل عمران، الآيتان ١٩٠ و ١٩١.
- [٢٧] (٣). «موطدات» من مادة «وطد» على وزن «وقت» بمعنى التثبيت والإحكام.
- [٢٨] (٤). «عمد» جمع «عماد» بمعنى العمود.
- [٢٩] (٥). «سند» بمعنى ما يستند عليه.

- [٣٠] (١). «متلكنات» من مادة «تلكؤ» على وزن «تكلّم» بمعنى التباطؤ.
- [٣١] (٢). «طواعية» بمعنى الطاعة والانقياد.
- [٣٢] (٣). «مصعد» موضع الصعود.
- [٣٣] (١). «فجاج» جمع «فج» على وزن «حج» بمعنى الفاصلة بين جبلين.
- [٣٤] (٢). «أقطار» جمع «قطر» على وزن «قفل» بمعنى الناحية.
- [٣٥] (١). سورة النحل، الآية ١٦.
- [٣٦] (٢). سورة الأنعام، الآية ٩٧.
- [٣٧] (٣). «ادلهمام» بمعنى شدة الظلمة.
- [٣٨] (٤). «سجف» جمع «سجاف» حسب أرباب اللغة بمعنى الستر.
- [٣٩] (٥). «جلايب» جمع «جلباب» بمعنى ثوب واسع تلبسه المرأة فوق ثيابها وتغطي به رأسها وهو أقصر من العباءة.
- [٤٠] (٦). «حنادس» جمع «حنس» على وزن «قبرص» بمعنى الليل المظلم.
- [٤١] (١). «غسق» الظلمة التي تقع عادة منتصف الليل.
- [٤٢] (٢). «داج» من مادة «دجو» على وزن «غلو» بمعنى الشديد الظلام.
- [٤٣] (٣). «ساج» من مادة «سجو» على وزن «غلو» السكون والهدوء.
- [٤٤] (٤). «متطأطات» جمع «متطأطي» المنخفضات.
- [٤٥] (٥). «يفاع» التل وكل شيء مرتفع.
- [٤٦] (٦). «سفع» جمع «سفعة» على وزن «سفرة» الحمرة المائلة للسواد.
- [٤٧] (٧). «يتجلجل» من «جلجلة» صوت الرعد ثم اطلقت على كل صوت شديد.
- [٤٨] (٨). «تلاشت» من «تلاشى» بمعنى الاضمحلال. ويرى البعض أن مادتها لا شيء.
- [٤٩] (٩). «عواصف» جمع «عاصف» و«عاصفة» الرياح الشديدة.
- [٥٠] (١٠). «أنواء» جمع «نوء» على وزن «نوع» غروب النجم في جهة المغرب، وللعرب عقيدة في الأنواء سنعرض لها في مبحث التأملات بمعنى الطوفان.
- [٥١] (١١). «انهطال» نزول المطر كما تطلق على إنهمار الدموع.
- [٥٢] (١٢). «مسحب» اسم مكان من مادة «سحب» على وزن «سهو» الجذب نحو الشيء.
- [٥٣] (١٣). «مجر» اسم مكان من مادة «جر»؛ السحب والجر.
- [٥٤] (١). سورة الرعد، الآية ٨.
- [٥٥] (٢). سورة لقمان، الآية ٣٤.
- [٥٦] (١). بحار الأنوار، ج ٥٥، ص ٣١٥.
- [٥٧] (١). «نائل» له معنى اسم الفاعل والمصدر بمعنى العطاء أو البذل أو طالب البذل أو المعنيان هنا مناسبان.
- [٥٨] (١). جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسيكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئاً إلا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر» (صحيح مسلم، ج ٨، ص ١٧؛ كنز العمال، ج ١٥، ص ٩٢٤).
- [٥٩] (٢). «أين» بمعنى المكان.

[٦٠] (٣). «أزواج» جمع «زوج» لها معنى واسع يشمل كل قرين ومثيل.

[٦١] (٤). لا بدّ من الإلتفات إلى أنّ كلمة «يخلق» وردت بصيغة المجهول في متن نهج البلاغة لصبحي الصالح ولا يبدو لها أي مفهوم صحيح، بينما ذكرها أغلبية الشراح مثل المرحوم ابن ميثم ومغنية وعبدہ والتستري والخوئي والجعفرى بصيغة المعلوم والحق ما ذكره، أمّا العبارة «وَلَا يَنْظُرُ بَعَيْنٍ» وإن كانت ذات معنى بصيغة المعلوم إلّا أنّها أنسب مع العبارة اللاحقة بصيغة المجهول.

[٦٢] (٥). سورة يس، الآية ٨٢.

[٦٣] (١). «لهوات» جمع «لهاء» بمعنى اللحمه المشرفة على الحلق في أقصى الفم، ويقال لها اللسان الصغير، ولكن يبدو معناها في الخطبة الحنجره بقرينه المجاوره.

[٦٤] (٢). المراد من الآيات التسع ما وردت الإشارة إليها في آيات مختلفه من القرآن الكريم، وهي عبارة عن الجراد والقمل والضفادع والدم والرياح العاصفة والعصا واليد البيضاء والقحط الشديد الذي أصاب الفراعنة وآفات الفاكهه.

[٦٥] (١). «متكلف» تطلق على الشخص الشديد التعرض لما لا يعنيه.

[٦٦] (٢). «مرجحين» من الفعل الرباعي «رجح» على وزن «درج» بمعنى المائل لثقله والمتحرك يميناً وشمالاً ووردت في الخطبة بمعنى الخضوع والتواضع.

[٦٧] (٣). «متولّهة» من مادة «وله» بمعنى الحائرة أو متخوفه من شدّة الحب.

[٦٨] (١). كتاب الوافي، ج ١، ص ٤٠٥، الباب ٤٠.

[٦٩] (٢). نفحات الولاية، ج ١، ص ١٠٥.

[٧٠] (١). سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

[٧١] (٢). روى المرحوم العلامة المجلسي في ج ٥٥ من بحار الأنوار عدّه أقوال وروايات بشأن العرش والكرسى.

[٧٢] (١). «رياش» جمع «ريش» تعني في الأصل ريش الطائر ثم اطلقت على كل نوع من الثياب، ولما كان ريش الطيور بألوان مختلفه وجميلة فهذه المفردة تختزن مفهوم الجمال والزينة، ويطلق الرياش على الثياب الفاخرة.

[٧٣] (١). «زلفه» و«زلفي» بمعنى القرب والمنزلة.

[٧٤] (٢). «قسي» جمع (قوس).

[٧٥] (٣). «نبال» جمع «نبل» بمعنى السهم.

[٧٦] (١). سورة الأعراف، الآية ٣٤.

[٧٧] (٢). «هزموا» من مادة «هزيمة» بمعنى الغلبة.

[٧٨] (١). التوراة: الكتاب الأول للملوك والسلاطين.

[٧٩] (١). بحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٣٦ و ١٣٧ (بتلخيص كما ورد هذا المطلب مختصراً في القرآن الكريم في الآية ١٣ و ١٤ من سورة سبأ).

[٨٠] (١). راجع دائرة المعارف لفريد وجدى، قاموس دهخدا والتفاسير ذيل الآية «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ» سورة المائدة، الآية ٢٢.

[٨١] (١). راجع بحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٤٨ فما فوق، وتفسير الميزان، ج ١٥؛ التفسير الأمثل، ج ١٥ ذيل الآية ٣٨ من سورة الفرقان، والآية ١٢ من سورة ق.

[٨٢] (١). «جنه» من مادة «جن» على وزن «فن» بمعنى تغطية الشئ وتطلق على المجنون وكأنّ ستره غطى عقله. والجن كائن لا يرى والجنين أيضاً مستور في الرحم كما تطلق الجنه على البستان كونه مغطى بالأشجار وجنان على وزن «زمان» تطلق على القلب المستور

فى الصدر ووردت الجنة فى الخطبة بمعنى الدرء الذى يلبسه الإنسان فى الدفاع عن نفسه.

[٨٣] (١). عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٤٩، ح ٣٢١.

[٨٤] (٢). بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٢٨، ح ٤٧.

[٨٥] (١). «اغترب» من مادة «اغتراب» بمعنى الهجرة.

[٨٦] (٢). «عسيب» يقال للعظم فى مؤخرة ذيل الدابة أو الفرس.

[٨٧] (٣). «الذنب» من مادة «ذنب» على وزن «ضرب» بمعنى متابعه الشيء، وبما أن للذنب آثار وتبعات لا تفارق الإنسان لذلك قيل

له ذنب على وزن «ضرب» وذنب على وزن «هدف» الذى ورد فى هذه الخطبة بمعنى ذيل الحيوان وذيل كل شيء.

[٨٨] (٤). «جران» يقال لمقدم عنق البعير والعبارة (ضرب بجرانه) كناية عن الإطراق فى مكان.

[٨٩] (٥). بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٣٦.

[٩٠] (١). سورة طه، الآية ١١٤.

[٩١] (١). «بثت» من مادة «بث» على وزن «نص» بمعنى النشر.

[٩٢] (٢). «حدوتكم» من مادة «حدو» على وزن «محو» و«حُدِي» على وزن «دعا» تعنى فى الأصل سير الدابة بصوت مخصوص من

قبل الجمال ثم اطلقت على كل سوق وسير.

[٩٣] (٣). «تستوسقوا» من «سوق» بمعنى الاجتماع والانضمام إلى بعض.

[٩٤] (١). «أزمع» من مادة «زعم» على وزن «شمع» فى الأصل بمعنى التصميم على الشيء.

[٩٥] (٢). «ترحال» من مادة «رحله» بمعنى السفر والحركة.

[٩٦] (١). «يسيعون» من مادة «سوغ» على وزن «فوق» وسيع، على وزن «سيل» بمعنى الهنبيء.

[٩٧] (٢). «رنق» بمعنى الكدر.

[٩٨] (١). «أبرد» من مادة «برود» و«برودة» بمعنى البرودة وتستعمل هذه المفردة بشأن يرد مكاناً آخر النهار وكذلك بشأن الرسالة

التي تنقل من مكان إلى آخر وتطلق اليوم على دائرة البريد والمراد هنا ارسلت مع البريد بعد قتلهم إلى معاوية.

[٩٩] (١). روى ابن عبد البر عن عبد الرحمن بن أبى أن ثلاثمائة ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وآله فى بيعه الرضوان شهدوا

صفين مع على عليه السلام فقتل منهم ثلاثة وستون، ومنهم عمار بن ياسر (الاستيعاب، ج ٢، ص ٧٠ عمار بن ياسر).

[١٠٠] (٢). «أوه» بفتح الهمزة وكسر الواو وتشديدها وكسر الهاء كلمة توجع.

[١٠١] (١). بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٦٩.

[١٠٢] (١). سورة النحل، الآية ١٠٦.

[١٠٣] (٢). الاستيعاب، ج ٢، ص ٦٨ (سيرة عمار).

[١٠٤] (٣). كامل ابن الأثير، ج ٣، ص ٣٥٣، فى حوادث سنة ٣٨ هجرى.

[١٠٥] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٠، ص ١٠٧ و ١٠٨.

[١٠٦] (٢). اسد الغابة، ج ٢، ص ١١٤ (سيرة خزيمه).

[١٠٧] (٣). الاستيعاب، ج ١، ص ٢٦٨ (سيرة خزيمه بن ثابت).

[١٠٨] (٤). أسد الغابة، ج ٤، ص ٢١٥؛ الاستيعاب، ج ٢، ص ١٥٩ (سيرة قيس بن سعد).

[١٠٩] (١). الاستيعاب، ج ١، ص ٢٥٣؛ ج ٢، ص ٣٦٨.

[١١٠] (١). سند الخطبة:

روى هذه الخطبة بعض الأفراد بعد السيد الرضى وإن لم نعرث عليها فى كتب الحديث قبله، فذكروها بما يفيد أنهم عثروا عليها فى مصدر آخر غير نهج البلاغة، وممن روى هذه الخطبة الزمخشري فى كتاب ربيع الأبرار فذكر بعض هذه الخطبة الذى يرتبط بأنواع نار جهنم، كما فسّر ابن الأثير كلماتها فى كتابه النهاية، وكما ذكر السيد هاشم البحرانى فى كتابه البرهان جانباً منها مع اختلاف وما ورد فى نهج البلاغة، وهذا يدل على أنه استقاها من مصدر آخر (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٥٩).

[١١١] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٠، ص ١٢٦.

[١١٢] (١). «منصبه» مصدر ميمى من مادة «نصب» على وزن «غضب» بمعنى التعب، وللمصدر هنا معنى اسم المصدر.

[١١٣] (٢). «يهجموا» من مادة «هجوم» بمعنى الدخول أو الحملة غفلة ويراد بها فى بعض الموارد القوة.

[١١٤] (١). «معتبر» اسم مفعول من مادة «عبر» تعنى فى الأصل العبور من شىء، ويقال العبرة للحوادث التى يعتبر بها الإنسان كونها تعبر الإنسان من شىء إلى آخر، وعليه فالمعتبر يطلق على كل أساس لعبرة واتعاظ.

[١١٥] (٢). «مصاح» جمع «مصحة» بمعنى اسم المصدر من مادة «صح» تعنى الصحة والعافية.

[١١٦] (٣). كثرت أقوال شراح نهج البلاغة التى لا تخلو من تكلف فى تفسيرهم لهذه العبارات والمعطوف عليه فى العبارة (حلالها وحرامها...) والأنسب أن تكون العبارة (حلالها... وما أعد الله...) عطف على (بمعتبر) ليكون المعنى أن للأنبياء ثلاثة وظائف أخرى والتى شرحناها آنفاً.

[١١٧] (٤). المعجم الوسيط، مفردة «حمد».

[١١٨] (١). سورة المدثر، الآية ٣٨.

[١١٩] (٢). سورة المائدة، الآية ٣.

[١٢٠] (١). «بادياً» من مادة «بدو» على وزن «جبر» بمعنى الايضاح ولها حيثية وصفية.

[١٢١] (٢). الكافي، ج ١، باب البدع والرأى والمقاييس، ح ١٩.

[١٢٢] (١). سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

[١٢٣] (٢). سورة الجاثية، الآية ١٣.

[١٢٤] (٣). سورة البقرة، الآية ٢٩.

[١٢٥] (٤). سورة الرعد، الآية ٢٨.

[١٢٦] (٥). سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

[١٢٧] (١). «أحمر»، إشارة إلى حمرة الوجه، أو كونه حنطاوياً، لأنّ بيض الوجوه كانت فى ذلك المحيط ألوانهم بلون الحنطاوى.

[١٢٨] (٢). تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦١ و ٦٢.

[١٢٩] (١). بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٤٨.

[١٣٠] (٢). المصدر السابق، ص ٣٥٠.

[١٣١] (١). سورة الحجرات، الآية ٩.

[١٣٢] (١). سورة الحجرات، الآية ١٣.

[١٣٣] (٢). سورة البقرة، الآية ١٩٧.

[١٣٤] (٣). سورة مريم، الآية ٦٣.

[١٣٥] (٤). «نواصى» جمع «ناصية» بمعنى شعر مقدمة الرأس وهى إشارة لقدرة الله وكناية عن هيمنته على كل شىء.

[١٣٦] (٥). «تقلب» هنا بمعنى التصرف وكل تغيير إشارة إلّا أنّ بيده كل حركاتكم.

- [١٣٧] (٦). سورة الملك، الآية ١٣.
- [١٣٨] (٧). سورة الانفطار، الآيات ١٠-١٢.
- [١٣٩] (١). سورة الطلاق، الآية ٢.
- [١٤٠] (٢). تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٠٦.
- [١٤١] (٣). سورة الانفال، الآية ٢٩.
- [١٤٢] (٤). «اصطنع» من مادة «صنع».
- [١٤٣] (١). سورة النساء، الآية ٦٩.
- [١٤٤] (٢). سورة الحديد، الآية ٢١.
- [١٤٥] (٣). سورة الرعد، الآيتان ٢٣ و ٢٤.
- [١٤٦] (٤). «يرهق» من مادة «رهق» على وزن «شفق» في الأصل من تغطية شيء بالقهر والغلبة وتعني هنا الغلبة وتسلط الموت على الإنسان.
- [١٤٧] (١). سورة المؤمنون، الآيتان ٩٩ و ١٠٠.
- [١٤٨] (٢). سورة غافر، الآية ٣٩.
- [١٤٩] (٣). سورة البقرة، الآية ١٩٧.
- [١٥٠] (١). «شوكة» تطلق على حراب الجنود والأسلحة كافة، لأن السلاح علامة القدرة والشدة وتطلق الشوكة على كل قدرة، وتطلق على التنوء المدبب كالإبرة في النبات الشائك.
- [١٥١] (٢). «تدميه» من مادة «إدماء» بمعنى إخراج الدم من البدن.
- [١٥٢] (٣). «رمضاء» بمعنى شدة الحرارة وكذلك الأرض والحجر المحرقة بفعل أشعة الشمس.
- [١٥٣] (٤). «طابقين» تثنية «طابق» بكسر وفتح الباء بمعنى طبقة البناء ويطلق على ما يخبز عليه.
- [١٥٤] (١). «حطم» من مادة «حطم» على وزن «حتم» بمعنى هدم وكسر الشيء ويطلق على الأشياء التي تتهشم بقوة ومن هنا كان أحد أسماء جهنم الحطمة.
- [١٥٥] (٢). «توثبت» من مادة «وثوب» بمعنى القفز.
- [١٥٦] (٣). في ظلال نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٦ (باقتباس).
- [١٥٧] (١). «يفن» بمعنى الشيخ المسن.
- [١٥٨] (١). «لهز» من مادة «لهز» على وزن «محض» المخالطة والنفوذ في شيء.
- [١٥٩] (٢). «قتير» تعني في الأصل رؤوس المسامير في حلقات الدرع ثم اطلق على كل أمر صعب ومرهق وبما أن فترة الكهولة تعد إحدى المشاكل الشديدة فقد اطلق القتير على الكهل وهذا هو المعنى المراد بها في الخطبة.
- [١٦٠] (٣). «التحمت» من مادة «لحم» على وزن «فهم» بمعنى اندكت واستحكمت وتعني في العبارة المذكورة أن أطواق النار تلتصق بعظام الرقبة.
- [١٦١] (٤). «نشبت» من مادة «نشب» على وزن «رجب» التعلق.
- [١٦٢] (٥). «جوامع» جمع «جامعة» الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق.
- [١٦٣] (٦). «سواعد» جمع «ساعد».
- [١٦٤] (١). «رهائن» جمع رهينة.

- [١٦٥] (٢). «اسهروا» من مادة «سهر» على وزن «سفر» بمعنى اليقظة في الليل.
- [١٦٦] (٣). «اضمروا» من مادة «ضمور» على وزن «عبور» بمعنى الضعف وتعدى في باب الأفعال.
- [١٦٧] (١). سورة محمد، الآية ٧.
- [١٦٨] (٢). سورة الحديد، الآية ١١.
- [١٦٩] (٣). سورة محمد، الآية ٤.
- [١٧٠] (٤). سورة الملك، الآية ٢.
- [١٧١] (١). «حسيس» من مادة «حس» تعنى الصوت الخفيف أو الضعيف.
- [١٧٢] (٢). «صان» من «صيانة» بمعنى المحافظة.
- [١٧٣] (٣). «لغوب» مصدر بمعنى شدة العياء.
- [١٧٤] (٤). «نصب» بمعنى التعب. وذهب البعض إلى أن لغوب بمعنى التعب الروحي والنصب التعب البدني. وعلى هذا الأساس فليس في الجته ومجاورة الله من تعب روي ولا بدني.
- [١٧٥] (٥). سورة الحديد، الآية ٢١.
- [١٧٦] (١). سورة الأنبياء، الآية ١٠٢.
- [١٧٧] (٢). سورة فاطر، الآية ٣٥.
- [١٧٨] (٣). سورة النساء، الآية ٦٩.
- [١٧٩] (١). كنز العمال، الحديث رقم ٤٣٤٩٠؛ بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٥ مع اختلاف طفيف.
- [١٨٠] (١). سند الخطبة:
- ذكر صاحب مصادر نهج البلاغة أن أبا هلال العسكري ذكر هذا الكلام في كتابه الصناعتين قبل أن يجمع المرحوم السيد الرضى نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٦١).
- [١٨١] (١). «ضئيل» من مادة «ضئولة» على وزن «كهولة» تعنى النحيف المهزول.
- [١٨٢] (٢). «نجمت» من مادة «نجم» بمعنى الظهور والبروز ويقال للكواكب نجوم كونها تظهر في السماء.
- [١٨٣] (٣). «ماعرز»، الشاء.
- [١٨٤] (١). أعلام الزركلى، ج ٢، ص ٤٧.
- [١٨٥] (١). سند الخطبة:
- ذكر هذه الخطبة جمع من الأعلام ممن عاش بعد السيد الرضى كالمرحوم الطبرسى في الاحتجاج والزمخشري في ربيع الأبرار بالإضافة إلى آخرين ويتضح من الاختلاف بين ما ذكره وما ذكره السيد الرضى أنهم رووها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٦٧).
- [١٨٦] (١). سورة الرحمن، الآيتان ٢٦ و ٢٧.
- [١٨٧] (٢). سورة طور، الآية ٣٥.
- [١٨٨] (١). أشرنا في شرحنا للخطبة ٦٥ في الجزء الثالث من هذا الشرح إلى حديث عميق المعنى والذي بينه أمير المؤمنين عليه السلام في رده على السائل الذي سأله عن وحدانية الله تعالى، فذكر عليه السلام للواحد أربعة معانٍ يستحيل اثنان منهما على الله بينما يصح الآخران (راجع نفحات الولاية، ج ٣، ص ٤١).
- [١٨٩] (٢). «مشاعرة» تعنى الإدراك بواسطة الحواس ومادته شعور بمعنى الاحساس.

[١٩٠] (٣). «مرائى» جمع مرءاءة تطلق أحياناً على العين حيث تنعكس فيها صور الموجودات.

[١٩١] (٤). «محاضرة» بمعنى الحضور والمجالسة.

[١٩٢] (١). «أوهام» جمع «وهم» على وزن «فهم» تعنى لغوياً ما يخطر على القلب ولكن تشير القرائن إلّا أنّها وردت فى هذه الخطبة وسائر الخطب بمعنى الأفكار الخيالية.

[١٩٣] (٢). «تجلى لها» تعود الضمائر الست فى هذه العبارة والعبارتين التاليتين إلى الأوهام ومفهومها فى العبارة الأولى أنّ الله تعالى تجلى للعقول عن طريق الإدراكات العقلية وللأنظمة التى يراها العقل فى عالم الخلقه وسلم عن طريق الإدراك العقلى باستحالة إدراك ذاته على العقول. وحوكم العقل بادعائه درك كنه ذاته من قبل العقل نفسه (عليك بالدقة). أمّا ما ذكره البعض من احتمالات أخرى لعودة الضمائر فلا يبدو صحيحاً.

[١٩٤] (١). الكافى، ج ١، ص ١١٧، ح ٨.

[١٩٥] (٢). سورة الصافات، الآيتان ١٥٩ و ١٦٠.

[١٩٦] (١). «فلج» بمعنى الظفر سواء فى الاستدلال أو العمل.

[١٩٧] (١). «صادع» من مادة «صدع» على وزن «صبر» تعنى فى الأصل الشقّ ولما كان شق الأرض يدعو إلى ظهور النباتات فإنّ الصدع يستبطن معنى الظهور والجهر.

[١٩٨] (٢). «أمراس» جمع «مرس» على وزن «مرض» يعنى الحبل.

[١٩٩] (٣). «عرى» جمع «عروء» بمعنى العقدة.

[٢٠٠] (٤). سورة الحجر، الآية ٩٤.

[٢٠١] (١). الكافى، ج ٢، ص ١٢٦، ح ٦.

[٢٠٢] (١). «مدخولة» من مادة «دخل» على وزن «دغل» بمعنى الفساد.

[٢٠٣] (١). سورة المطففين، الآية ١٤.

[٢٠٤] (٢). سورة الجاثية، الآية ٢٣.

[٢٠٥] (٣). «سوى» من مادة «تسوية» بمعنى التنظيم والترتيب.

[٢٠٦] (٤). «بشر» جمع «بشرة» بمعنى ظاهر جلد البدن وتأتى بمعنى الإنسان.

[٢٠٧] (١). «الورد» بمعنى العطش وهنا كناية عن القدرة.

[٢٠٨] (٢). «صدر» الرجوع بعد الورد وهى هنا كناية عن العجز والفقدان.

[٢٠٩] (٣). «ديان» بمعنى المفيد والحاكم والمدبر.

[٢١٠] (٤). «صفا» بمعنى الحجر الأملس لا شقوق فيه.

[٢١١] (٥). «جامس» جامد.

[٢١٢] (١). «شراسيف» جمع «شُرُوف» بمعنى الاضلاع التى تشرف على البطن.

[٢١٣] (١). راجع دائرة المعارف لموريس باركر وحياء الحيوان للدميرى.

[٢١٤] (١). «القالل» جمع «قلء» بمعنى قمة الجبل.

[٢١٥] (١). سورة غافر، الآية ٥٧.

[٢١٦] (٢). سورة الحجر، الآية ٢٢.

[٢١٧] (١). دعاء أبو حمزة الشمالى.

- [٢١٨] (٢). سورة النازعات، الآيات ٣٠-٣٣.
- [٢١٩] (٣). سورة الرحمن، الآيات ١-٤.
- [٢٢٠] (٤). سورة الروم، الآية ٢٢.
- [٢٢١] (١). «يلجأوا» من مادة «لجؤ» على وزن «غروب».
- [٢٢٢] (٢). «اوعوا» من مادة «وعى» على وزن «سعى» تعنى فى الأصل حفظ الشىء فى القلب ومنه الوعاء.
- [٢٢٣] (١). سورة فصلت، الآية ٥٣.
- [٢٢٤] (١). «الجرادة» من مادة «جرد» على وزن «فرد» بمعنى إزالة القشور ويبدو أنّ هذه المفردة اقتبست منها.
- [٢٢٥] (٢). «قمرأوين» تثنية «قمرأ» من مادة «قمر» و«القمرأ» مفردة وصفية تعنى المضىء.
- [٢٢٦] (٣). «سوى» بمعنى الكائن الكامل الذى لا عيب فيه.
- [٢٢٧] (٤). «نايين» تثنية «ناب» السن الأمامى.
- [٢٢٨] (٥). «منجلين» تثنية «منجل» كناية هنا عن أرجل الجراد أو أيديها القوسية الشكل وتمسك بهما الأوراق والسيقان.
- [٢٢٩] (٦). «نزوات» جمع «نزوة» بمعنى الوثوب.
- [٢٣٠] (٧). «مستدقة» من مادة «دق» بمعنى النحافة ومستدقة بمعنى نحيفة.
- [٢٣١] (١). انظر: الزلجى الحديث تأليف وترجمته محمد كاظم المالكي، ج ٢، ص ٣٢٩؛ قاموس معين، كلمة الجراد.
- [٢٣٢] (١). «تبارك» من مادة «برك» فى الأصل من «البرك» على وزن «الفرک» بمعنى صدر الناقة ولما كانت الجمال تلصق صدرها بالأرض حين الاستقرار فقد استعملت هذه المفردة بمعنى ثبات الشىء واستقراره ومنه البركة لبقاء الماء مدّة فيها، ويقال للشىء مبارك إن ثبت واستقر خيره، وعليه فإن استعملت هذه المفردة بشأن الله عنت كثرة بركته وخلودها.
- [٢٣٣] (٢). سورة الرعد، الآية ١٥.
- [٢٣٤] (٣). «يعفر» من مادة «عفر» و«عفر» على وزن «فقر» و«سفر» بمعنى التراب والتعفير بمعنى التمرغ بالتراب.
- [٢٣٥] (٤). «خد» تعنى فى الأصل الشق ثم اطلق على ما فى الوجه ووردت هنا بمعنى جانبى الوجه.
- [٢٣٦] (١). سورة العنكبوت، الآية ٦٥.
- [٢٣٧] (١). سورة النحل، الآية ٧٩.
- [٢٣٨] (٢). «الريش» معروف لدى الطيور وبما أنّ الريش غالباً ما يكون للزينة فقد اطلقت هذه المفردة على الثياب المزينة.
- [٢٣٩] (٣). «أرسى» من مادة «رسو» على وزن «رسم» بمعنى الثبات وأرسى بمعنى أثبت.
- [٢٤٠] (٤). «الندى» و«نداوة» بمعنى الرطوبة والبلل.
- [٢٤١] (١). سورة يس، الآية ٨٢.
- [٢٤٢] (٢). سورة الرعد، الآية ١٢.
- [٢٤٣] (٣). «اهطل» من مادة «هطل» على وزن «حتم» بمعنى تتابع المطر.
- [٢٤٤] (٤). «ديم» جمع «ديمة» مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق.
- [٢٤٥] (٥). «جدوب» و«جدب» على وزن «جم» بمعنى اليبس الناشىء من عدم نزول المطر.
- [٢٤٦] (١). سورة الأعراف، الآية ٥٧.
- [٢٤٧] (١). سند الخطبة:

قال صاحب مصادر نهج البلاغة أنّ السيد المرتضى (رحمه الله) قال: «إنّ شرح أصول التوحيد والعدل اقتبست من كلمات أمير

المؤمنين عليه السلام وخطبه وكل ما قاله المتكلمون هنا هو شرح لهذه الكلمات». وأضاف: «إنَّ الطبرسى ذكر هذه الخطبة مع اختلاف يفيد أنه أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغة، كما روى المرحوم الكليني قبل السيد الرضى بعض هذه الخطبة فى الجزء الأول من اصول الكافى». (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٧٧) ومن جانب آخر فإنَّ مضامين الخطبة على درجة من الرفعة والسمو بحيث يستحيل صدورها من غير الإمام المعصوم وحبَّ الله وأنا لنعلم أنَّ أحد أدلَّة صحَّة استناد الروايات إلى المعصومين عليهم السلام هو علو مضمونها.

[٢٤٨] (١). «صمد» من مادة «صمد» تعنى أحياناً العظمة وأحياناً أخرى الصلابة والاستحكام كما تعنى الطهارة والتنزّه وهذا هو المعنى المراد بها فى هذه العبارة.

[٢٤٩] (١). «جول» و«جولان» بمعنى الحركة فى كل اتجاه وجولان الفكر بمعنى التفكير.

[٢٥٠] (٢). سورة فاطر، الآية ١٥.

[٢٥١] (١). «ترفده» من مادة «رfd» بمعنى المعونة و المساعدة.

[٢٥٢] (١). «تشعير» من «شعور» بمعنى العلم والمعرفة وتعنى هنا العلم بالشى عن طريق الحواس.

[٢٥٣] (٢). «بهمه» بمعنى السواد والليالى الظلماء والمعنى الأول هو المطلوب.

[٢٥٤] (٣). «صرد» بمعنى البرد وقيل إنَّها مفردة فارسية.

[٢٥٥] (٤). سورة القصص، الآية ٧١.

[٢٥٦] (١). سورة القصص، الآية ٧٢.

[٢٥٧] (٢). سورة القصص، الآية ٧٣.

[٢٥٨] (٣). سورة الأنعام، الآية ١.

[٢٥٩] (١). سورة الشورى، الآية ١١.

[٢٦٠] (٢). لا بدّ من الإلتفات إلى أن الكلمات (منذ وقد ولولا) فى العبارات الثلاث فاعل للأفعال منعت وحمد وجنبت ومفعولها قدمه وأزلية وتكمله، وتعود الضمائر المؤنثة فى منعتها وحميتها وجنبتها إلى المخلوقات.

[٢٦١] (١). سورة سبأ، الآية ٣١.

[٢٦٢] (١). «تقل» من مادة «قل» على وزن «ذل» بمعنى الرفع ولهذا اطلقت القلة على قمة الجبل حيث تقع فى ارفع نقطة منه.

[٢٦٣] (٢). «تهوى» من مادة «هوى» على وزن «تهى» بمعنى السقوط من شاهق، و«هوا» على وزن «قفا» تطلق على الحب والرغبة.

[٢٦٤] (١). «والج» من مادة «لوج» تعنى الدخول.

[٢٦٥] (٢). «لهوات» جمع «لهاء» اللحمه فى سقف أقصى الفم وقيل معلقة بالحلق ومن هنا فهى تطلق على الحلق وقدوردت فى هذه الخطبة بهذا المعنى.

[٢٦٦] (٣). «خروق» جمع «خرق» على وزن «برق» بمعنى الشق الذى يوجد فى الحائط أو فى غيره وتعنى هنا ثقب الأذن.

[٢٦٧] (١). سورة التوبة، الآية ١١٧.

[٢٦٨] (١). من الواضح أن الضمائر فى بينها وعليها تعود إلى المحدثات، وأن قراءة صفات المحدثات بصيغة الإضافة وبدون الألف واللام (كما وردت فى بعض النسخ) لأصبح المطلب أكثر وضوحاً، كما يصبح مفهوم العبارة أوضح إن استبدلت المبتدع بالمبتدع كما فى بعض النسخ لأنَّ المبتدع يعنى الخالق والمبتدع فى هذه الحالة يعنى المخلوق والذى له معنى اسم المفعول.

[٢٦٩] (٢). «أود» بمعنى الثقل الذى يوجب الاعوجاج.

[٢٧٠] (٣). «التهافت» يعنى التساقط.

- [٢٧١] (٤). «الانفراج» يعنى الانشقاق.
- [٢٧٢] (١). «أسداد» جمع «سد».
- [٢٧٣] (٢). «خد» أخذ فى الأصل من خد الإنسان الواقع على طرفى الوجه ثم اطلق على الشقوق الواسعة والعميقة فى الأرض. وذكر فى الخطبة بمعنى الشق.
- [٢٧٤] (٣). سورة النبأ، الآية ٧.
- [٢٧٥] (٤). راجع شرح هذا الموضوع فى التفسير الأمثل ذيل الآية ٣ من سورة الرعد والآية ١٥ من سورة النحل.
- [٢٧٦] (١). سورة الأحزاب، الآية ١٧.
- [٢٧٧] (١). «مراح» من مادة «روح» مأوى الحيوانات.
- [٢٧٨] (٢). «سائم» من «سوم» على وزن «قوم» الراعى وتعنى فى الأصل الذهب خلف الشىء.
- [٢٧٩] (٣). «اسناخ» جمع «سنخ» تعنى الأصول والجذور وهنا تعنى أنواع الحيوانات.
- [٢٨٠] (٤). «متبلدة» من مادة «بلادة» بمعنى الغباء مقابل الذكاء.
- [٢٨١] (١). سورة الحج، الآية ٧٣.
- [٢٨٢] (٢). «خاسئة» من مادة «خسا» على وزن «مدح» تعنى فى الأصل الذلّة وخاسىء بمعنى الذليل والعاجز.
- [٢٨٣] (٣). «حسير» من «حسر» على وزن «حبس» تعنى فى الأصل العرى ورفع غطاء شىء ثم استعملت بمعنى الضعف والتعب.
- [٢٨٤] (١). سورة الأنبياء، الآية ١٠٤.
- [٢٨٥] (٢). انظر: هذا الموضوع فى الجزء الأول من نفحات الولاية بحث المعاد الجسماني.
- [٢٨٦] (١). القاموس.
- [٢٨٧] (١). «يتكأده» من «كاد» على وزن «وعد» بمعنى المشقّة والعبارة هنا تعنى لا يشق عليه وكؤود: كثير المشقّة.
- [٢٨٨] (٢). «يؤده» من مادة «أود» على وزن «قول» بمعنى الثقل ولم يؤده بمعنى لم يثقل عليه.
- [٢٨٩] (٣). سورة يس، الآية ٨٢.
- [٢٩٠] (٤). سورة البقرة، الآية ٢٥٥.
- [٢٩١] (٥). سورة الاحقاف، الآية ٣٣.
- [٢٩٢] (١). «مكاثر» من «الكثرة» كما تطلق على من يطلب الكثرة.
- [٢٩٣] (٢). «المثاور» من مادة «ثور» على وزن «غور» تعنى المهاجم.
- [٢٩٤] (١). سورة التكوير، الآيات ١-٦.
- [٢٩٥] (٢). سورة ابراهيم، الآية ٤٨.
- [٢٩٦] (٣). سورة طه، الآيات ١٠٥-١٠٧.
- [٢٩٧] (١). لإعادة المعدوم صيغتان؛ صيغة غير معقولة وأخرى معقولة، والصيغة غير المعقولة أن يعود الموجود الذى فنى بجميع خصائصه بما فيه الزمان إلى ما كان عليه فى السابق وهذا محال حيث لا معنى لعودة الزمان ثم إنه تناقض، أما الصيغة المعقولة فهى أن يعاد كل شىء بصورته السابقة ما عدا الزمان، ولعل عدم الالتفات إلى هذا الفارق أدى إلى ذلك النزاع اللفظى بين العلماء بشأن إعادة المعدوم فرآها البعض محالة بينما رآها البعض الآخر ممكنة.
- [٢٩٨] (١). «سأم» بمعنى التعب والملل ونفى الممل فى العبارات التالية ليس تكراراً بل نفى فى العبارة الأولى الممل الناشىء من تدبير العالم من الذات القدسيّة، وفى العبارة التالية الممل الناشىء من طول بقاء العالم.

- [٢٩٩] (١) «التماس» من لمس بمعنى الطلب.
- [٣٠٠] (٢) «ضعة» من مادة «وضع» بمعنى الخسة.
- [٣٠١] (١) سورة الحجر، الآية ٢١.
- [٣٠٢] (١) سند الخطبة:
- روى هذه الخطبة أبو الحسن المدائني من علماء القرن الثالث في كتاب (صفيين) وتبدأ الخطبة التي رواها «إذا كثرت فيكم الاخلاط...» ثم ذكر الخطبة بعد عبارات مفصلة مع اختلاف وإضافات بما يفيد أنه أخذها من مصدر آخر لأنه أولاً عاش لفترة مديدة قبل السيد الرضى، وثانياً ما نقله يحتوى على إضافات بالنسبة لما نقله السيد الرضى كما ذكر جانب منها الزمخشري في ربيع الابرار (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٧٨).
- [٣٠٣] (١) مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٧٩؛ كما رواه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، ج ٦، ص ١٣٦.
- [٣٠٤] (١) ذكر بعض شراح نهج البلاغة (الخوئي) في تركيب العبارة المذكورة أن (هم) مبتدأ و (بأبى وأمى) فى محل خبر و (من) بياتية وهذه العبارة تشبه العبارة (بأبى أنتم وأمى) والتي استخدم فيها هنا بدل الضمير المخاطب ضمير الغائب فى آخر الجملة.
- [٣٠٥] (١) مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٧٨.
- [٣٠٦] (٢) انظر: بحث علامات الظهور فى كتاب سفينة البحار مادة «هدى»؛ بحار الأنوار، ج ٢، ص ١١٩ و ١٨١.
- [٣٠٧] (٣) وردت هذه الروايات فى جميع الكتب المؤلفة بشأن المهدي عليه السلام بما فيها كتب الفريقين.
- [٣٠٨] (٤) كشف الغمّة، ج ١، ص ٩٥؛ بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٢٨٤.
- [٣٠٩] (١) ميزان الحكمة، ج ١، ص ٤٣ مادة «اخ».
- [٣١٠] (١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٥٧.
- [٣١١] (٢) «عَصَّ» من مادة «عَصَّ» على وزن «خَزَّ» تستعمل كناية عن الحوادث التي تزعج الإنسان.
- [٣١٢] (٣) «قَبَّ» جهاز الناقة (اطار صغير أصغر قليلاً من سنام الناقة يوضع عليها ليجلس عليها الراكب).
- [٣١٣] (٤) «الغارب» موضع بين العنق والسنام.
- [٣١٤] (١) مستدرک الوسائل، ج ١٣، الباب ١ من أبواب الربا، ح ١٨.
- [٣١٥] (٢) سفينة البحار، مادة زمان.
- [٣١٦] (١) «ازمته» جمع «زام»، معروفة.
- [٣١٧] (٢) سورة المائدة، الآية ٢.
- [٣١٨] (١) «تصدعوا» من مادة «صدع» على وزن «صبر» تعنى فى الأصل التشقق ثم جاءت بمعنى التفرق والاختلاف أو افشاء الشىء وأريد بها التفرق.
- [٣١٩] (٢) «غَبَّ» عاقبة الشىء كما جاء بمعنى بين يوم ويوم وأريد به هنا المعنى الأول.
- [٣٢٠] (٣) «تقحموا» من مادة «اقحام» الإلقاء بالنفس دون روية.
- [٣٢١] (٤) «فور» و «فوران» معروف.
- [٣٢٢] (٥) «اميطوا» من مادة «ميط» على وزن «صيت» بمعنى الإبتعاد ومعنى الابعاد فى باب الأفعال.
- [٣٢٣] (٦) «سنن» بمعنى الطريق و «سَنَنَ» على وزن «كهن» جمع «سنّة» بمعنى الأساليب.
- [٣٢٤] (٧) «قصد السبيل» يعنى وسط الطريق سواء طريق الحقّ أم الباطل ولكن غالباً ما تطلق على السبيل الوسط للحقّ قال القرآن: «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» (النحل، الآية ٩) وأريد بها فى الخطبة المعنى الأوّل.

[٣٢٥] (١). «وعى من مادة «وعى» على وزن «سعى» بمعنى الفهم والحفظ وتحذف منها الواو حين ترد بصيغة فعل الأمر والفعل المضارع.

[٣٢٦] (١). سند الخطبة:

لم يرد فى كتاب مصادر نهج البلاغة مصدر آخر لهذه الخطبة غير نهج البلاغة سوى كتاب الإعجاز والإيجاز للثعالبي ويتضح من كثرة الاختلافات مع ما جاء فى نهج البلاغة أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٧). طبعاً مضمون الخطبة على درجة من الرفعة بحيث يبدو من المستبعد جداً صدورها من غير الإمام المعصوم.

[٣٢٧] (١). «بلاء» أحياناً من مادة «بلو» ناقص واوى وأخرى من مادة «بلى» ناقص يائى والأولى بمعنى الاختبار والامتحان، فالامتحان بوفور النعمة أحياناً وندرتها، وأحياناً بسلب النعم والآفات. قال الله تعالى «بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً» (الأنبياء، الآية ٣٥) والثانية تعنى الكبر ثم وردت بمعنى الغم والحوادث الأليمة التى تنهك الإنسان، كما وردت هذه المفردة بمعنى اختبار، لأنها ثقيلة على جسم الإنسان وروحه.

[٣٢٨] (١). «أعورتهم» من مادة «عار» بمعنى العيب وكل شىء يعدّ اظهارها عيباً يطلق عليه العورة وحين يرد فى باب الأفعال كما ورد فى العبارة فهو يعنى إظهار العيب.

[٣٢٩] (٢). «أخذ» وردت هذه الكلمة بمعنى العقاب.

[٣٣٠] (١). «عمار» جمع «عامر» من مادة «عمارة» و«عمران» معروفة.

[٣٣١] (١). «صرعت» من مادة «صرع» على وزن «فرع» بمعنى التمرغ بالتراب.

[٣٣٢] (١). بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ١٦٧.

[٣٣٣] (٢). المحجة البيضاء، ج ٨، ص ٢٤٠.

[٣٣٤] (٣). الكافى، ج ٣، ص ٢٣١، ح ١.

[٣٣٥] (١). سورة آل عمران، الآية ١٣٣.

[٣٣٦] (١). سورة يونس، الآية ٤٥.

[٣٣٧] (٢). سورة البقرة، الآية ٢٢١.

[٣٣٨] (٣). سورة ابراهيم، الآية ٧.

[٣٣٩] (٤). نهج البلاغة، الكلمة ٣٣٠.

[٣٤٠] (٥). «عمر» على وزن «دهل» وعمر على وزن «ظهر» كلاهما بمعنى واحد أى مدّة الحياة، وقال البعض يطلق العمر على الأربعين سنة الأولى والعمر بضمّتين على جميع العمر أو الشق الثانى منه.

[٣٤١] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٣، ص ١٠٠.

[٣٤٢] (١). سند الخطبة:

روى هذه الخطبة عدد من الأعلام ممّن عاش قبل وبعد السيد الرضى. كما روى بعضها كلّ من المرحوم محمد بن حسن الصفار المتوفى عام ٢٩٠ فى بصائر الدرجات والمرحوم الصدوق المتوفى عام ٣٨١ فى عيون الأخبار والخصال. ورواها الأمدى فى غرر الحكم والثعالبي فى الإيجاز والإعجاز باختلاف (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٩).

[٣٤٣] (١). سورة الأنعام، الآية ٩٨.

[٣٤٤] (٢). ميزان الحكمة، ج ١، ص ٢٦٥، ح ١٣٥٠.

[٣٤٥] (٣). تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٥١، ح ٢٠٧.

- [٣٤٦] (١). ميزان الحكمة، ج ١، ص ١٣٥٩.
- [٣٤٧] (٢). الكافي، ج ٢، ص ٤٢٠.
- [٣٤٨] (٣). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٢٧٢.
- [٣٤٩] (١). «مستسر» من مادة «سر» بمعنى الشخص الذي يكتم شيئاً.
- [٣٥٠] (٢). طبقاً لما ورد في العبارة فإنّ (ما) في العبارة (ما كان لله...) نافية، إلّا أنّ بعض شراح نهج البلاغة اعتبروها زمانية بمعنى (ما دام) وقالوا إنّ مفهوم العبارة هو أنّ الهجرة باقية ما دام الله بحاجة إلى إيمان الناس والحاجة هنا بمعنى الطلب والمراد منها أوامر الله ونواهيها للناس، ولكن يبدو المعنى الأوّل أنسب.
- [٣٥١] (٣). لا بدّ من الالتفات إلى أنّ (إلّا) محذوفة في بعض نسخ صبحى الصالح لكنّها موجودة في النسخ المصححة وليس للعبارة من معنى صحيح بدون (إلّا).
- [٣٥٢] (١). سورة النساء، الآية ٧٥.
- [٣٥٣] (٢). الكافي، ج ٢، ص ٤٠٤، باب المستضعف، ح ١.
- [٣٥٤] (٣). «مستعصب» من مادة «صعب» بمعنى المشكل وصعوبة فهم الشيء ومجيء المفردتين صعب ومستعصب مع بعضهما، للتأكيد.
- [٣٥٥] (١). «يعى» من مادة «وعى» على وزن «سعى» بمعنى الفهم والحفظ.
- [٣٥٦] (٢). «رزينه» من «رزانة» بمعنى الوقار ورزين بمعنى الشخص الوقور.
- [٣٥٧] (٣). «تشغر» من «شغور» على وزن «شعور» لها عدّة معان ومنها الهجوم الذي يناسب العبارة المذكورة ومن معانيها الرفع ورفع الرجل بمعنى شروع الحركة أى قبل حركة الفتنة.
- [٣٥٨] (٤). «خطام» بمعنى «زمام» والعبارة «تطأ في خطامها» كناية عن كون الفتنة كاللدابة في ارسالها وطيشها ولا قائد لها.
- [٣٥٩] (١). «أحلام» جمع «حلم» على وزن «نهم» بمعنى العقل كما وردت بمعنى النوم والرؤيا والمعنى الأوّل هو المراد.
- [٣٦٠] (٢). الاستيعاب، ج ٢، ص ٥٠.
- [٣٦١] (٣). المصدر السابق، ص ٥٢.
- [٣٦٢] (٤). المصدر السابق، ص ٥٠.
- [٣٦٣] (٥). احقاق الحق، ج ٧، ص ٢٦١ وجاءت هذه الرواية مع اختلاف طفيف في بحار الأنوار (من كتاب فضائل شاذان بن جبرئيل) ج ٣٩، ص ١٠٨، ح ١٣.
- [٣٦٤] (١). سورة الانفال، الآية ٧٢.
- [٣٦٥] (٢). كنز العمال، ح ٤٦٢٥١.
- [٣٦٦] (١). كنز العمال، ح ٦٤٢٦٠.
- [٣٦٧] (٢). ميزان الحكمة، ج ١١، ح ٢١٠٦٥.
- [٣٦٨] (٣). سفينة البحار، مادة هجرة.
- [٣٦٩] (١). سند الخطبة:

قال ابن أبى الحديد: وأعلم أنّ هذه الخطبة من أعيان خطبه ومن ناصح كلامه ونادره، وفيها من صناعة البديع الرائعة المستحسنة البريئة من التكلّف ما لا يخفى. وقد أخذها ابن نباتة فأودعها خطبه وشذر بها كلامه. وقال صاحب مصادر نهج البلاغة بعد نقله لهذا الكلام: فلو لم يكن ابن أبى الحديد اطلع عليها في غير نهج البلاغة لم يقل إنّها من أعيان خطبه مع ملاحظة أنّ ابن نباتة توفي سنة ٣٧٤ هجرى

- أى قبل صدور نهج البلاغة. وروى الآمدى من هذه الخطبة فى غرر الحكم. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٣).
- [٣٧٠] (١). «مجد» بمعنى الشرف والجلال والوقار والعظمة، وهذه الصفة تختص بصورة تامة بالله تعالى.
- [٣٧١] (٢). «يثنيه» من مادة «ثنو» على وزن «سعى» تعنى فى الأصل طى الخبر وحين تقترن بالعطف على وزن «كتف» بمعنى طى الضلع وهى كناية عن الانصراف عن الشىء وعدم الاهتمام به.
- [٣٧٢] (١). سيره ابن هشام، ج ١، ص ٣١٧.
- [٣٧٣] (١). سورة ص، الآية ٥.
- [٣٧٤] (٢). انظر: بحار الأنوار، ج ٩، ص ١٤٣؛ تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٦٧.
- [٣٧٥] (١). «معقل» بمعنى الملجأ والجبل المرتفع من العقل بمعنى المنع.
- [٣٧٦] (٢). «منيع» من «منع» بمعنى الأضم الصعب المنال والبرج العالى.
- [٣٧٧] (٣). «ذروته» تطلق على قمة الجبال والجانب المرتفع من كل شىء.
- [٣٧٨] (١). «غمرات» جمع «غمرة» على وزن «ضربة» بمعنى إزالة آثار الشىء، ثم اطلقت هذه المفردة على ما يغطى تمام وجه الأرض، ووردت فى هذه الخطبة بمعنى غمرات الموت وشدائده التى تستولى على تمام وجود الإنسان.
- [٣٧٩] (٢). «أرماس» جمع «رمس» بمعنى القبر والتراب وهذا هو المعنى المراد بها أى القبر.
- [٣٨٠] (٣). «إبلاس» تعنى فى الأصل الحزن الذى يصيب الإنسان فى أوقات الشدة.
- [٣٨١] (٤). «مطلع» تعنى فى الأصل الموضع المرتفع ثم اطلق على مواقف يوم القيامة أو عالم البرزخ الذى يطلع فيه الإنسان على نتيجة أعماله.
- [٣٨٢] (٥). «روعات» جمع «روع» بمعنى الخوف.
- [٣٨٣] (٦). «اضلاع» جمع «ضلع» المواضع جوانب الصدر.
- [٣٨٤] (٧). «استكاك» من مادة «سك» بمعنى سدّ الشىء واستكاك الاسماع صممها على أعتاب الموت.
- [٣٨٥] (٨). «ضريح» القبر أو اللحد فى وسط القبر.
- [٣٨٦] (٩). «ردم» غلق الشىء كما تطلق على السد الكبير ومل الحفرة بالتراب.
- [٣٨٧] (١٠). «الصفيح» الحجر العريض.
- [٣٨٨] (١). وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٨٣٨، وكتاب الطهارة، أبواب الدفن، باب ١٦، ح ٦.
- [٣٨٩] (١). «سنن» بمعنى الطريق والأسلوب وتطلق على الجادة أيضاً.
- [٣٩٠] (٢). «قرن» ما يقرون به البعيران.
- [٣٩١] (٣). «اشراط» جمع «شرط» على وزن «شرف» بمعنى العلامات.
- [٣٩٢] (٤). «ازفت» من مادة «ازف» على وزن «شرف» بمعنى قربت.
- [٣٩٣] (٥). «افراط» جمع «فرط» على وزن «شرط» جبل صغير وعلامة والمراد بها هنا المعنى الثالث.
- [٣٩٤] (٦). «أناخت» من «أناخ» بمعنى نوم الدابة.
- [٣٩٥] (٧). «كلاكل» جمع «كلكل» بمعنى الصدر.
- [٣٩٦] (٨). «حضن» بمعنى الصدر.
- [٣٩٧] (٩). «رث» بمعنى قديم.
- [٣٩٨] (١٠). «غث» بمعنى المهزول ويقابل السمين.

- [٣٩٩] (١) «ضنك» بمعنى الشدة والضيق.
- [٤٠٠] (٢) «كلب» بمعنى عصاة الكلب ثم استعملت في كل انزعاج وشدة.
- [٤٠١] (٣) «لجب» بمعنى اضطراب الأمواج.
- [٤٠٢] (٤) «متأجج» من مادة «أجيج» بمعنى إشعال النار المقرون بالصوت.
- [٤٠٣] (٥) «ذاك» من مادة «ذكاء» على وزن «دواء» بمعنى اشتد لهيبها وحرارتها.
- [٤٠٤] (٦) «عم» صفة مشبهة تعني العمى من مادة «عمى» على وزن «جفا».
- [٤٠٥] (١) «زمر» جمع «زمره» على وزن «عمره» طائفة صغيرة.
- [٤٠٦] (٢) «زحزحوا» من مادة «زحزح» على وزن «قهقهه» بمعنى الإبعاد.
- [٤٠٧] (١) سورة الفتح، الآية ٢٦.
- [٤٠٨] (١) «مبطل» من مادة «بطلان» بمعنى إبطال الحق.
- [٤٠٩] (٢) سورة النور، الآية ٥٢.
- [٤١٠] (١) «مدينون» من مادة «دين» بمعنى الجزاء ويقال المدينون لمن جُوزوا على عمل قاموا به.
- [٤١١] (٢) سورة المدثر، الآية ٣٨.
- [٤١٢] (٣) وسائل الشيعة، ج ٧، ص ٢٢٧، ح ٢٠، الباب ١٨ من أبواب حكم شهر رمضان.
- [٤١٣] (٤) «تقالون» من مادة «إقاله» بمعنى الإعادة وتعني هنا قبول العذر.
- [٤١٤] (١) «الزموا» من «لزوم» بمعنى الملازمة والعبارة إلزموا الأرض الأمر بالتوقف والسكون.
- [٤١٥] (١) «اصلات» بمعنى سل السيف.
- [٤١٦] (١) سند الخطبة:
- ذكر ابن أبي الحديد اختلاف الرواية في بعض كلماتها، مما يدل على أنه رآها في غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٨).
- [٤١٧] (١) «الفاشى» من مادة «فشو» على وزن «كشف» بمعنى الانتشار والاتساع.
- [٤١٨] (١) سورة الفتح، الآية ٧.
- [٤١٩] (٢) سورة الجن، الآية ٣.
- [٤٢٠] (٣) فالتعبير عن الجذ بهذا الأسم لعظم مقامه.
- [٤٢١] (٤) «تؤام» على وزن «غلام» جمع «توأم» على وزن «جوشن» تعني في الأصل المولود مع غيره في بطن واحدة ويقال لهما التوأم، ثم اطلق على كل شيء يقترب بآخر ويشير في العبارة المذكورة إلى أن نعم الله سبحانه وتعالى ليست مفردة بل مقرونة عادة بالعديد من النعم.
- [٤٢٢] (١) «الاحتذاء» يعنى التنسيق من مادة «حذو» على وزن «جذب» بمعنى التنسيق والانسجام.
- [٤٢٣] (١) «غمرة» الماء الكثير الذى يغطى كل شيء ثم اطلق على كل شدة.
- [٤٢٤] (٢) «حين» بفتح الحاء تعنى الموت والهلكة واستعمل بمعنى الغم والهم الشديد الذى يؤدى بالإنسان إلى الموت وحين بكسر الحاء بمعنى الزمان وقد وردت في هذه الخطبة بالمعنى الأول.
- [٤٢٥] (٣) «رين» بفتح الراء تعنى الصدأ الذى يصيب المعادن والذى يفيد الفساد والتلف أو ضياع شفافية المعدن ولمعانه.
- [٤٢٦] (١) سورة هود، الآية ٨٨، ورد هذا الكلام فى القرآن على لسان النبى شبيب عليه السلام تجاه قومه الطاعين.

- [٤٢٧] (٢). بحار الأنوار، ج ٩٩، ص ٥٥.
- [٤٢٨] (١). سورة البقرة، الآية ١٩٧.
- [٤٢٩] (٢). سورة مريم، الآية ٦٣.
- [٤٣٠] (٣). «تبرح» من مادة «برح» بمعنى الإبتعاد لكنها تعطي معنى الإيجاب حين تقترن بكلمة النفي.
- [٤٣١] (١). «الغابرين» جمع «غابر» من غبور على وزن «عبور» تعني بقاء الشيء وعليه فغابرين تعني الباقين.
- [٤٣٢] (٢). «اسدى» من مادة «سدى» على وزن «عبا» بمعنى الإحسان والعطاء.
- [٤٣٣] (٣). سورة النساء، الآية ١٣١.
- [٤٣٤] (٤). سورة سبأ، الآية ١٣.
- [٤٣٥] (٥). بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٧٢.
- [٤٣٦] (١). بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٧٢؛ نهج البلاغة، خطبة ١٧٦.
- [٤٣٧] (٢). «اهطعوا» من مادة «هطوع» على وزن «طلوع» بمعنى الاندفاع سريعاً نحو الشيء.
- [٤٣٨] (٣). «ألطوا» من مادة «لظ» على وزن «خط» بمعنى الإلحاح على الشيء.
- [٤٣٩] (١). سورة النحل، الآية ١٢٨.
- [٤٤٠] (٢). سورة آل عمران، الآية ١٢٠.
- [٤٤١] (٣). «ارحضوا» من «رحض» على وزن «محض» بمعنى الغسل.
- [٤٤٢] (٤). «الحمام» بكسر الحاء الموت.
- [٤٤٣] (١). «تصونوا» من مادة «صون» على وزن «قوم» بمعنى الحفظ وتصون بالتشديد بمعنى حفظ النفس.
- [٤٤٤] (٢). سورة الحديد، الآية ٢١.
- [٤٤٥] (٣). سورة الأعراف، الآية ٢٦.
- [٤٤٦] (٤). سورة يوسف، الآية ١١١.
- [٤٤٧] (٥). «نزاه» جمع «نازه» بمعنى عفيف النفس.
- [٤٤٨] (٦). «ولاه» جمع «واله» بمعنى المشتاق.
- [٤٤٩] (٧). «لا تشيموا» من مادة «شيم» على وزن «غيب» نظر إليه أين يمطر.
- [٤٥٠] (٨). «بارق» السحاب الذي يقدر منه البرق و جاء أيضاً بمعنى السيف البراق.
- [٤٥١] (٩). «ناعق» من مادة «نعق» على وزن «برق» بمعنى مناداة الحيوانات ثم اطلقت على المناداة بصورة عامة.
- [٤٥٢] (١). «اعلاق» جمع «علقة» على وزن «فتنة» بمعنى الشيء النفيس (وإن كانت له حيثية ظاهرية) وتوجب تعلق النفس بها.
- [٤٥٣] (٢). «خالب» من «خلابه» بمعنى الخادع.
- [٤٥٤] (٣). «محروبه» بمعنى منهوبه.
- [٤٥٥] (٤). «المتصدية» بمعنى المرأة تتعرض إلى الرجال وتميلهم إليها من مادة تصدى بمعنى التعرض.
- [٤٥٦] (٥). «عنون» من مادة «عن» على وزن «ظن» بمعنى الظهور.
- [٤٥٧] (٦). «جامحة» من «جموح» على وزن «فتوح» الصعبة على ركبها.
- [٤٥٨] (١). «حرون» بمعنى «الجامحة» أيضاً مع هذا الفارق أن الجموح، حيوان يركض هنا وهناك مضطرباً، وعنون، حيوان معاند متمرّد يقف ولا يتحرك.

[٤٥٩] (٢). «مائه» أى كاذبه من مادة «مين» على وزن «عين» بمعنى الكذب.

[٤٦٠] (٣). «خؤون» المبالغة فى الخيانة.

[٤٦١] (٤). «الكنود» الجحود والبخل وتعنى فى الأصل الأرض التى لا يظهر عليها شىء.

[٤٦٢] (٥). «صدود» أى المعترض والمانع من مادة «صد» وتستعمل بمعنيين الاعراض والمنع.

[٤٦٣] (٦). «حيود» من مادة «حيد» على وزن «صيد» تعنى الميل عن الطريق.

[٤٦٤] (٧). «ميود» بمعنى المنحرف والمضطرب من مادة «ميدان» على وزن «ضربان» بمعنى الانحراف والاضطراب.

[٤٦٥] (١). «علو وسفل» بمعنى الأعلى والأسفل التى تلفظ أحياناً بضم الحرف الأول وكسره.

[٤٦٦] (٢). «ساق» بمعنى «ساق» الرجل. والعبارة «على ساق» تطلق على من يقف على رجل ويستعد للقيام بعمل. وسياق من مادة

سوق بمعنى التقدم والاندفاع وعليه فالعبارة على ساق وسياق أن أهل الدنيا يتأهبون للحركة للعالم الآخر.

[٤٦٧] (٣). «لحاق وفراق» نقطتان متقابلتان بمعنى الالتحاق والانفصال.

[٤٦٨] (١). بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٧٣، كما ورد هذا الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى سنن البيهقى، ج ٦، ص ٣٠٧

و ٣٠٩.

[٤٦٩] (٢). «مهارب» جمع «مهرب» على وزن «مطلب» بمعنى مكان الهروب.

[٤٧٠] (٣). «معائل» جمع «معقل» على وزن «مجلس» بمعنى القلعة الحصينة والملجأ.

[٤٧١] (٤). «لفظت» من مادة «لفظ» على وزن «حلف» بمعنى رمت ويقال لهذه الألفاظ كأنها ترمى من الفم.

[٤٧٢] (٥). «محاوّل» جمع «محال» على وزن «حوال» تعنى الحذق وحسن التدبير والتصرف.

[٤٧٣] (١). «معقور» من مادة «عقر» على وزن «فقر» يعنى مجروح وقتل أو قطع يد الناقة ورجلها.

[٤٧٤] (٢). «مجزور» من مادة «جزر» بمعنى المسلوخ.

[٤٧٥] (٣). «شلو» بعض لحم الحيوان المذبوح.

[٤٧٦] (٤). «مسفوح» يعنى «مسفوك» من مادة «سفح» على وزن «صبر» بمعنى السفك وتستعمل عادة فى سفك الدماء.

[٤٧٧] (٥). «عاض» من مادة «عض» على وزن «سد» ويطلق هذا اللفظ عادة على أولئك الذين يعضون أيديهم بأسنانهم من شدة

الندم.

[٤٧٨] (٦). «صافق» من مادة «صفق» على وزن «دفع» تعنى ضرب اليدين ببعضها مع الصوت وتشير هنا إلى الأشخاص الذين يضربون

أيديهم ببعضها من شدة الحسرة.

[٤٧٩] (٧). «مرتفق» بمعنى الشخص الذى يستند على يديه ووردت فى العبارة كناية عن الشخص الحائر الذى وضع رأسه على يديه

وغرق فى التفكير، وارتفاق يعنى الاستناد.

[٤٨٠] (٨). «خديه» مثنى «خد» لدى الإنسان وهو معروف.

[٤٨١] (٩). «زار» بمعنى اللوم والتوبيخ من مادة «زرى» ولذلك وردت بمعنى الاستصغار والاستحقار.

[٤٨٢] (١). «الغيلة» بمعنى الشر والقرار الخطير الخفى وتطلق هذه المفردة على الاغتيال.

[٤٨٣] (٢). «لات» أداة نفى كانت فى الأصل لانا فية أضيفت إليها التاء للتأكيد بينما قيل إنها زائدة وللمبالغة.

[٤٨٤] (٣). «مناص» بمعنى من مادة «نوص» الفرار.

[٤٨٥] (٤). «بال» بمعنى القلب والخاطر.

[٤٨٦] (٥). سورة ص، الآية ٣.

[٤٨٧] (٦). سورة الدخان، الآية ٢٩.

[٤٨٨] (١). سند الخطبة:

قال صاحب مصادر نهج البلاغة بعد أن ذكر أن هذه أطول خطب أمير المؤمنين عليه السلام على ما ذكره الشارحون وهي في عدة فصول في المواعظ والزواجر وأن طائفه ممن عاشوا قبل السيد الرضى ذكروها في كتبهم وكانت نسخة خطية عند السيد ابن طاووس ذكرها في كتابه (اليقين) وقال رأيت هذه النسخة مع أخبار في فضائل أهل البيت عليهم السلام وردت عن الأعلام السابقين ويعود تاريخها إلى سنة ٢٨٠ هجرى، كما روى المرحوم الكليني فضلاً من هذه الخطبة في الجزء الرابع من كتابه الكافي كما روى المرحوم الصدوق بعضها في كتابه (من لا يحضره الفقيه) ورواها بعد السيد الرضى؛ الزمخشري في (ربيع الأبرار) وروى الماوردى في (أعلام النبوة) المعجزة التي رواها أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في حركة الشجرة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٥٦).

[٤٨٩] (١). «حمى» بمعنى المنطقه الممنوعه من ماده «حمية» بمعنى الممانعة والدفاع عن الشيء ومن هنا تطلق الحمية على وزن «جزية على» المريض الذي يجتنب ما يضر به.

[٤٩٠] (١). نهج البلاغة، الكلمة ٩٣.

[٤٩١] (٢). «ادرع» من «درع» على وزن «فكر» بمعنى الثوب ويستعمل أحياناً بمعنى لبس الثوب.

[٤٩٢] (٣). «تعزز» بمعنى افتخر ورأى نفسه عزيزاً.

[٤٩٣] (٤). سورة ص، الآية ٧٦.

[٤٩٤] (٥). سورة ص، الآية ٧٦.

[٤٩٥] (١). الكافي، ج ٢، ص ٣٠٩، ح ١، باب الكبير.

[٤٩٦] (٢). المصدر السابق، ص ٣١٠.

[٤٩٧] (٣). «مدحور» بمعنى مطرود من ماده «دحر» على وزن «دهر».

[٤٩٨] (٤). سورة الحجرات، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

[٤٩٩] (١). سورة ص، الآيتان ٨٤ و ٨٥.

[٥٠٠] (٢). «يخطف» من «خطف» على وزن «عطف» بمعنى الأخذ بسرعة.

[٥٠١] (١). «يبهر» من ماده «بهر» على وزن «بحر» بمعنى الحيرة والبهت.

[٥٠٢] (٢). «رواء» بمعنى حسن المنظر.

[٥٠٣] (٣). «عرف» بمعنى الرائحة الطيبة.

[٥٠٤] (٤). «خُيلاء» بمعنى التكبر.

[٥٠٥] (١). «جهد» على وزن «مهد وجهد» على وزن «كفر» كلاهما يعنى السعى الجاد وجهيد على وزن «فعل» من هذه المادة يذكر للتأكيد وعليه فجهد وجهيد تعنى منتهى السعى.

[٥٠٦] (٢). «سنى» هى سنين فى الأصل وحذفت النون للإضافة.

[٥٠٧] (٣). سورة الحج، الآية ٤٧ وقريب من هذا المعنى سورة السجدة، الآية ٥.

[٥٠٨] (٤). «هوادة» بمعنى اللين والرخصة.

[٥٠٩] (٥). «حمى» بمعنى المنطقه المحظورة من حمى على وزن «نفى» بمعنى المنع والاعراض.

[٥١٠] (١). للوقوف على المزيد بهذا الشأن انظر: التفسير الأمثل ذيل الآية ٢١٧ من سورة البقرة.

- [٥١١] (١). سورة الكهف، الآية ٥٠.
- [٥١٢] (٢). سورة الأنبياء، الآيتان ٢٦ و ٢٧.
- [٥١٣] (١). الكافي، ج ٨، ص ٢٧١.
- [٥١٤] (٢). سورة المائدة، الآية ١٨.
- [٥١٥] (١). «يعدى» من «عدو» على وزن «صبر» تعنى فى الأصل التجاوز والعدوان والعداوة معروفة و «عدوى» بمعنى الرخص وكذلك بمعنى انتقال المرض من شخص لآخر وهذا هو المراد فى العبارة أى أن الشيطان ينقل إليكم مرضه فى التعصب والغرور.
- [٥١٦] (١). «يستفز» من «استفزاز» بمعنى الاستنهاض والإثارة.
- [٥١٧] (٢). «يجلب» من «جلب» بمعنى الصراخ بشخص أو نقله من موضع إلى آخر.
- [٥١٨] (٣). «رجل» جمع «راجل» بمعنى المشاة.
- [٥١٩] (٤). سورة الاسراء، الآية ٦٢.
- [٥٢٠] (٥). «فوق» من «فوق» موضع الوتر من السهم، إشارة إلى أن الشيطان استعداد لإطلاق سهمه عليكم والمفردة تشير إلى هذا المعنى.
- [٥٢١] (٦). «اغرق» من مادة «اغراق» و «غرق» على وزن «ورق» استوفى مد قوسه ويطلق أيضاً على كل عمل بمنتهى السعى.
- [٥٢٢] (٧). «نزع» بمعنى استئصال الشيء أو جره مثل مد القوس.
- [٥٢٣] (١). سورة سبأ، الآية ٢٠.
- [٥٢٤] (٢). سورة سبأ، الآية ١٣.
- [٥٢٥] (٣). سورة ص، الآية ٢٤.
- [٥٢٦] (٤). «جامحة» بمعنى الحيوان الجامح. من «جموح» على وزن «فتوح».
- [٥٢٧] (٥). «الطماعية»، «طماعية» و «طمع» بمعنى واحد.
- [٥٢٨] (٦). «نجمت» من «نجوم» بمعنى ظهرت كما يطلق على النبات بدون ساق لأنه يظهر من الأرض و يطلق على النجوم لأنها تظهر فى السماء.
- [٥٢٩] (٧). «استفحل» من مادة «استفحال» ومن «فحل» على وزن «نخل» بمعنى العظيم البارز و «استفحال» الثقيل والمتعب.
- [٥٣٠] (١). «دلف» من «دلوف» بمعنى المشى ببط و رفع الخطوات القصيرة وتشير هنا إلى التقدم التدريجى للشيطان.
- [٥٣١] (٢). «اقحموكم» من مادة «قحوم» بمعنى العمل دون تروى و «اقحام» يعنى حمل شخص بالقوة على عمل معين.
- [٥٣٢] (٣). «ولجات» بمعنى الملاجئ والكهوف جمع «ولجة» على وزن «درجة» ما يلجا إليه المارة عند المشاكل.
- [٥٣٣] (٤). «وَرَطَات» بمعنى المشاكل والمهالك جمع «وَرَطَه» على وزن «غفله».
- [٥٣٤] (٥). «اوطأوكم» من مادة «وَطَى» بمعنى الوطئ بالارجل.
- [٥٣٥] (٦). «اثخان» من «ثخونة» تعنى فى الأصل الضخامة والغلظة و «اثخان» المبالغة فى قتل العدو.
- [٥٣٦] (٧). «حَزَّ» بمعنى القطع.
- [٥٣٧] (٨). «مناخر» جمع «منخر» الانف أو خرم الانف.
- [٥٣٨] (٩). «خزائم» جمع «خزامة» على وزن «كتابة» حلقة توضع فى أنف البعير فيشد فيها الزمام ويسحب عند الجماع.
- [٥٣٩] (١٠). «حرج»، على وزن «خرج» و «حَرَج» على وزن «حرم» بمعنى الانزعاج والمحدودية الشديدة وتعنى فى الأصل اجتماع الأشجار والتفافها.

- [٥٤٠] (١). «أورى» من مادة «ورى» على وزن «نفي» تعنى فى الأصل الاخفاء ويطلق الورى على النار الكامنة فى الوسائل النارية وتقتدح عن طريق الجدحة وتعنى فى هذه العبارة اشعال النار.
- [٥٤١] (٢). «قَدَح» اخراج النار من الآلة (شئ أشبه بالكبريت).
- [٥٤٢] (٣). «مناصبين» جمع «مناصب» بمعنى المجاهر بالعداوة من مادة نصب بمعنى العداوة.
- [٥٤٣] (٤). «متألبين» طائفة تجتمع على القيام بعمل من مادة «ألب» على وزن «سلب» بمعنى الاجتماع.
- [٥٤٤] (٥). «حدّ» و«حدّت» بمعنى الشدّة والغضب، وفى الأصل بمعنى الحدّة.
- [٥٤٥] (٦). «جدّ» يعنى القطع. ولما كان كلّ موجود عظيم يمتاز عن الآخرين فقد اطلق على الجد وورد فى الآية الشريفة «وأنته تعالى جدّ ربّنا» إشارة إلى عظمته الله والمعنى المراد بها قطع العلاقة.
- [٥٤٦] (١). «لعمر الله» «عَمَّر»، بفتح «العين» بمعنى العمر، بضم «العين» يستعمل فى القسم وعليه فالعبارة لعمرى تعنى أقسم بنفسى و«لعمر الله»؛ تعنى ببقاء ذات الله تعالى.
- [٥٤٧] (٢). «حسب» تذكر هذه العبارة عادة مقرونة بالنسب لكنهما مختلفان فى المعنى. فالحسب فى الأصل قدر الشئ ومنزلته وشرفه وبما أنّ الأصل والنسب يؤثر على منزلة الإنسان وقدره فإنّ هذه المفردة تشمل أيضاً النسب الرفيع والعزیز فيقال الحسب لمقدار كلّ شئ، والواقع أنّ هذه المفردة أخذت من مادة حساب لأنّ الأفراد يحسبون مفاخرهم ومفاخر آبائهم عند ذكر الحسب.
- [٥٤٨] (٣). «يقتنصون» من مادة «قنص» على وزن «حبس» بمعنى يصيدون.
- [٥٤٩] (٤). «بنان» جمع «بنانة» تعنى لغوياً الأصابع ورؤوس الأصابع والشخص الذى تقطع بنانه لا يقوى على العمل.
- [٥٥٠] (٥). «حومة» بمعنى أهم موضع فى الشئ وتطلق الحومة على القسم الرئيسى من القتال أو الذل.
- [٥٥١] (١). سورة الأنفال، الآية ١٢.
- [٥٥٢] (٢). «نخوات» جمع «نخوة» بمعنى الكبر.
- [٥٥٣] (٣). «نزغات» جمع «نزغة» بمعنى الفساد من مادة «نزغ» على وزن «وضع» بمعنى الدخول فى فعل بقصد الافساد.
- [٥٥٤] (٤). «نفثات» جمع «نفثة» بمعنى ما يخرج من الفم من اللعاب وفى الأصل من مادة «نفث» على وزن «حبس» بمعنى النفخ واستعملت هنا لخروج مقدار من اللعاب حين النفخ على الشئ وهى كناية عن وساوس الشيطان فى العبارة، السائد بين السحرة أنّهم يقرأون بعض الأوراد عند السحر وينفخون على الشخص المطلوب فهى كناية عن الوسوسة.
- [٥٥٥] (١). «مسلحة» بمعنى موضع الجمع وعبارة أخرى يطلق على المواضع ومخازن السلاح لأنّهم يجمعون عادة مقداراً من الأسلحة فى الموضع وقد وردت بهذا المعنى فى العبارة السابقة.
- [٥٥٦] (٢). سورة الأنعام، الآية ١١٢.
- [٥٥٧] (٣). سورة طه، الآية ٩٤.
- [٥٥٨] (١). «آثام» جمع «إثم» بمعنى الذنب وتعنى فى الأصل تلك الحالة التى يصل إليها روح وعقل الإنسان ويمنعه من الوصول الى الكمال والحسنات.
- [٥٥٩] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٣، ص ١٤٦.
- [٥٦٠] (١). «أمعنتم» من مادة «إمعان» بمعنى المبالغة فى القيام بشئ مشتقة فى الأصل من مادة «معن» على وزن «دهن» بمعنى ارتواء الأرض بالماء.
- [٥٦١] (٢). «مصارحة» من مادة «صرح» بمعنى الوضوح والظهور ومصارحة تعنى مواجهة الشخص بصورة علنية.
- [٥٦٢] (٣). «مناصبه» من مادة «نصب» على وزن «نسب» بمعنى التعب والمشقة كما تعنى المناصبه التظاهر بالعداوة التى تؤدى إلى

تعب ومعاناة الطرفين.

[٥٦٣] (١). «أعنقوا» من مادة «عنق» بمعنى الرقبه و«عناق» الاسراع فى الذهاب خلف الشىء.

[٥٦٤] (٢). «حنادس» جمع «حناس» على وزن «قبرص» بمعنى الظلام ومن هنا يقال حنادس لليالى الثلاثة الأخيرة فى الشهر لشدة ظلمتها وامتراجها بالمحاق.

[٥٦٥] (٣). «مهاوى» جمع «مهاوة» يعنى الحفرة كما تعنى الحفرة العميقة التى يقع فيها السيل وليس له من سبيل.

[٥٦٦] (٤). «ذلل» جمع «ذلول» بمعنى الشخص المنقاد والمستسلم للحيوان الهادى.

[٥٦٧] (٥). «سلس» جمع «سلس» على وزن «خشن» بمعنى السهل والمنقاد.

[٥٦٨] (١). «هجينه» بمعنى الفعله القبيحه والمستهجنه من مادة هجونه.

[٥٦٩] (٢). «آلاء» جمع «آلاء» على وزن «جفا» أو إلا على وزن «فعل» بمعنى النعم وقيل بمعنى خصوص النعم المعنوية خاصة حين تأتى مع مفردة النعمة، ويقال: «النعم والآلاء».

[٥٧٠] (٣). سورة الأحزاب، الآيتان ٦٧ و ٦٨.

[٥٧١] (٤). بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٣٨١، ح ١٦.

[٥٧٢] (١). «اعتزاء» بمعنى النسب من مادة «عزو» على وزن «رزم».

[٥٧٣] (٢). سورة النمل، الآية ٣٤.

[٥٧٤] (١). سورة سبأ، الآية ٣٤.

[٥٧٥] (٢). «أدعياء» جمع «دعى» على وزن «جلى» تعنى فى الأصل المتبنى أى الولد من أب آخر ومن ينسب نفسه لآخر، وبما أن مثل هؤلاء الأفراد لا يمتلكون نسباً واضحاً يطلق عليهم الأدعياء ووردت بمعنى عديم النسب أو ابن الزنا.

[٥٧٦] (٣). الكافى، ج ٢، ص ٣١٢.

[٥٧٧] (١). «أحلاس» جمع «حلس» على وزن «حرص» بمعنى كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له، ثم اطلق «الحلس» على كل شىء ملازم لآخر ولذلك يقال للأفراد الذين يلازمون البيوت «أحلاس البيوت».

[٥٧٨] (٢). «عقوق» تعنى فى الأصل التقطيع والتمزيق ثم اطلقت هذه الكلمة على مخالفة الأب والأم والآخرين و«أحلاس العقوق» بمعنى الأفراد الملازمين للطغيان والعصيان.

[٥٧٩] (٣). «يصول» من مادة «صوله» بمعنى الهجوم.

[٥٨٠] (٤). «دخول» معروف المعنى ولكن يأتى بمعنى الفاسد أيضاً وهذا ما أريد به فى العبارة.

[٥٨١] (٥). «نفث» تعنى فى الأصل طرح مقدار من لعاب الفم وحيث يقترن بالنفخ فقد وردت بمعنى النفخ أيضاً.

[٥٨٢] (١). «نبل»، السهام.

[٥٨٣] (٢). سورة الأنعام، الآية ١٢١.

[٥٨٤] (١). الكامل، لابن الأثير، ج ١، ص ٥٨٨ و ٥٨٩.

[٥٨٥] (٢). منهاج البراعة، ج ١١، ص ٣٠٩.

[٥٨٦] (٣). المصدر السابق.

[٥٨٧] (١). «صولات» جمع «صول» على وزن «قول» بمعنى التسلط والغلبة.

[٥٨٨] (٢). «مثلات» جمع «مثله» على وزن «عضله» بمعنى العقوبة ومن ذلك العذاب الذى نزل على الأمم السابقة والذى اصبح يضرب به المثل.

- [٥٨٩] (٣). سورة العنكبوت، الآية ٤٠.
- [٥٩٠] (٤). «مئاوى جمع «مئوى» من مادة «ثواء» بمعنى الإقامة فى موضع، وعليه فالمئوى بمعنى المنزل والمكان.
- [٥٩١] (٥). «جنوب» جمع «جنب» على وزن «جمع» بمعنى الجهة والجانب.
- [٥٩٢] (٦). «لواقح» جمع «لاقح» من مادة «لقاح» تشير فى العبارة إلى عوامل ظهور الكبر والغرور.
- [٥٩٣] (١). «عفروا» من مادة «عفر» بمعنى التمرغ بالتراب.
- [٥٩٤] (١). «مخمصة» بمعنى الجوع وخلو البطن من الطعام، ومن مادة «خمص» على وزن «لمس» بمعنى الجوع الشديد الذى يدعو إلى خسف البطن.
- [٥٩٥] (٢). «مجهدة» مصدر ميمي بمعنى المشقة من «جهد» على وزن «مهد» و«جهد» على وزن «كفر» بمعنى التعب الناتج من السعى والحركة.
- [٥٩٦] (٣). «مَخَصَّ» من مادة «مخص» على وزن «خفض» تعنى فى الأصل، تحريك اللبن ليخرج زبده، ثم أُطلقت على كل حركة شديدة وشاقة.
- [٥٩٧] (١). سورة المؤمنون، الآيتان ٥٥ و ٥٦.
- [٥٩٨] (١). «مدارع» جمع «مدرع» على وزن «منبر» بمعنى الجبة.
- [٥٩٩] (٢). «عصى» جمع «عصا».
- [٦٠٠] (٣). «أساور» و«أساور» جمع «أسورة» وجمع «سوار»، على وزن «غبار» أو «سوار» على وزن «كتاب» وهى فى الأصل كلمة فارسية (دستور) بمعنى السوار الذى يوضع فى اليد للزينة.
- [٦٠١] (٤). «ذهبان» جمع «ذهب» معروف.
- [٦٠٢] (١). «عقيان» مفردة وهو نوع من الذهب الخالص.
- [٦٠٣] (٢). «مغارس» جمع «مغرس» يعنى محلّ غرس الأشجار.
- [٦٠٤] (١). «خصاصه» من «خصاص» على وزن «أساس» تعنى فى الأصل الشق الذى يظهر فى جدار البيت ثم اطلق على الفقر والحاجة التى توجب الشدة فى العيش.
- [٦٠٥] (١). «ترام» من مادة «روم» على وزن «قوم» تعنى الطلب.
- [٦٠٦] (٢). «تضام» من مادة «ضيم» بمعنى الذلّة.
- [٦٠٧] (٣). «عقد» جمع «عقدة».
- [٦٠٨] (٤). «رحال» جمع «رحل» ما يوضع على ظهر البعير ويجلس عليه و«شدّ الرحال» تعنى الاستعداد للسفر أو السفر.
- [٦٠٩] (١). «استكانة» تعنى الخضوع.
- [٦١٠] (٢). «تشوب» من «شوب» على وزن «شوق» تعنى الخدعة وخلط شىء مع آخر للخداع.
- [٦١١] (٣). سورة الزمر، الآية ٣.
- [٦١٢] (٤). سورة البينة، الآية ٥.
- [٦١٣] (١). «أوعر» من «وعر» على وزن «فعر» تعنى الأرض الوعرة والشديدة.
- [٦١٤] (٢). «نتائق» جمع «نتيقة» بمعنى البقاع المرتفعة من مادة «نتق»، على وزن «فتق» بمعنى الحفر والارتفاع.
- [٦١٥] (٣). «مدر» بمعنى الطين اليابس.
- [٦١٦] (٤). «قطر» بمعنى البلد والمنطقة.

- [٦١٧] (١). «دمثة» من مادة «دماثة» بمعنى اللينة.
- [٦١٨] (٢). «وشلة» بمعنى قليل الماء من «وشل» على وزن «حشر».
- [٦١٩] (٣). «يزكو» من «زكاة» بمعنى النمو.
- [٦٢٠] (٤). «خف» تعنى فى الأصل النعل وهى هنا كناية عن الدابة لأن أسفل قدمها كالحذاء.
- [٦٢١] (٥). «حافر» من الحفر وتعنى قدم الفرس.
- [٦٢٢] (٦). «ظلف» كناية عن البقر والغنم.
- [٦٢٣] (١). سورة إبراهيم، الآية ٣٧.
- [٦٢٤] (٢). «يثنوا» من مادة «ثنى» بمعنى طوى الشيء، أو تقريب شيء من آخر.
- [٦٢٥] (٣). «اعطاف» جمع «عطف» على وزن «كتف» بمعنى كتف الانسان.
- [٦٢٦] (٤). «مثابة» مكان الرجوع «ثوب» على وزن «فوق» بمعنى العودة.
- [٦٢٧] (٥). «منتجع» يعنى محل الفائدة من «نجوع» بمعنى المنفع ولذلك يقال منتجع لمكان الراحة والمنتزه أيضاً.
- [٦٢٨] (٦). «ملقى رحالهم» يعنى محط رحالهم، من الأصل «إلقاء» و«رحال» جمع «رحل».
- [٦٢٩] (٧). «مفاوز» جمع «مفازة» بمعنى الصحراء.
- [٦٣٠] (٨). «قفار» جمع «قفر» بمعنى خلو المكان من السكن.
- [٦٣١] (٩). «سحيقة» بمعنى البعيدة من «سحق» على وزن «سقف» بمعنى التلين والتبعيد.
- [٦٣٢] (١٠). «مهاوى» جمع «مهوى» منخفضات الأراضى من «هُوى» على وزن «حُلِي» بضم «حاء» وتشديد «ياء» بمعنى السقوط والوقوع.
- [٦٣٣] (١١). «فجاج» جمع «فج» بمعنى الطرق الواسعة بين الجبال من «فج» على وزن «حج» بمعنى فتح الساقين وتبعيدهما عن بعضهما.
- [٦٣٤] (١٢). سورة البقرة، الآية ١٢٥.
- [٦٣٥] (١٣). سورة الحج، الآية ٢٨.
- [٦٣٦] (١). سورة إبراهيم، الآية ٣٧.
- [٦٣٧] (٢). سورة الحج، الآية ٢٧.
- [٦٣٨] (٣). «يهزوا» من مادة «هز» على وزن «حظ» بمعنى التحريك.
- [٦٣٩] (٤). «يرملون» من مادة «رمل» على وزن «عمل» بمعنى الهرولة.
- [٦٤٠] (٥). «شعث» جمع «أشعث» بمعنى الشعر مع تلبذ فيه.
- [٦٤١] (٦). «غبر» جمع «اغبر»: من علا بدنه الغبار.
- [٦٤٢] (٧). «سرايل» جمع «سربال»: الثياب.
- [٦٤٣] (٨). «شوها» من مادة «شوه» على وزن «قول» بمعنى أن مناظرهم مشوهة.
- [٦٤٤] (٩). «إعفاء» بمعنى الترك و«اعفاء الشعور» يعنى ترك الشعر بلاقص.
- [٦٤٥] (١). الكافي، ج ٤، ص ٢٥، باب فضل الحج والعمرة، ح ٢.
- [٦٤٦] (١). «مشاعر» جمع «مشعر» موضع تقام فيه بعض مناسك الحج ويقال له «مشعر» حيث تجرى فيه الشعائر الإسلامية.
- [٦٤٧] (٢). «جم» كثير.

- [٦٤٨] (٣). «ملتف»: مجتمع ومتراكم من مادة «لف» على وزن «كف».
- [٦٤٩] (٤). «بنى» جمع «بنية» يعنى بناء.
- [٦٥٠] (٥). «بزة» و«بُر» بمعنى الشعير.
- [٦٥١] (٦). «سمراء» معروفه اللون.
- [٦٥٢] (٧). «أرياف» جمع «ريف» تعنى القرية.
- [٦٥٣] (٨). «محدقة» يعنى الموضوع الذى تكثر فيه البساتين.
- [٦٥٤] (٩). «عراص» جمع «عرصة» فناء الدار.
- [٦٥٥] (١٠). «مغدقة» يعنى كثيرة وفى الأصل من «غدق» على وزن «شقق» بمعنى الماء الوفير.
- [٦٥٦] (١١). «ناضرة» الخضراء من مادة «نضرة» الرفاهية الحاصلة بسبب وفور النعمة.
- [٦٥٧] (١٢). «أساس» بكسر الهمزة جمع «أس» (بفتح أو بكسر أو بضم الهمزة) دعامة.
- [٦٥٨] (١). «مصارعة» من «صرع» على وزن «فرع»: الصرع فى الأرض و يقال المصروع على من أصيب بمرض الصرع لأنه يطرحه أرضاً.
- [٦٥٩] (٢). «معتلج» تعنى «التلاطم» من مادة «اعتلاج» يعنى نزاع أحدهما للآخر.
- [٦٦٠] (٣). «فتحاً» بمعنى «الفتح» معروفه.
- [٦٦١] (٤). «ذلل» جمع «ذلول» بالمعنى التسليم والانقياد.
- [٦٦٢] (١). بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٩١.
- [٦٦٣] (١). «مصيده» (بسكون الصاد وفتح الياء) وقرأها البعض بكسر الميم وتعنى الفخ.
- [٦٦٤] (٢). «تساور» من «سور»، على وزن «غور» بمعنى الوثوب والمقاتلة وتعنى هنا نفوذ السموم فى القلوب.
- [٦٦٥] (٣). «تكدى» من مادة «كدى» على وزن «كسب» بمعنى البخل والحبس والتعطيل.
- [٦٦٦] (٤). «تشوى» من مادة «شوى» على وزن «شَرَّ» تاتى بمعنى الطبخ أحياناً وأخرى بمعنى اليد والقدم وأطراف الجسم وإن وردت فى باب الأفعال عنت تخطيء المقتل.
- [٦٦٧] (٥). «مقل» تعنى الفقير من مادة «قليل».
- [٦٦٨] (٦). «طمر» الكساء البالى.
- [٦٦٩] (٧). اختلف الشراح والمفسرون فى تركيب هذه الجملة «عَنْ ذَلِكَ مَا حَرَسَ اللَّهُ». قال ابن أبى الحديد: إن «ما» زائدة و«ذلك» إشارة إلى الظلم والتكبر، وعلى هذا الضوء يصبح مفهوم الجملة أن الله حفظ عباده من هذه الأمور الثلاثة بواسطة الصوم والصلاة والزكاة، وقال المرحوم الشارح الخوئى: إن «عن» هنا سببية وما مصدرية ومعنى الجملة إن الله لهذا السبب حفظ عباده عن الكبر والغرور والظلم بواسطة الصلاة والصوم والزكاة.
- [٦٧٠] (١). «أطراف» من مادة «طرف» على وزن «هدف» بمعنى قطعة من أى شىء وأطراف الجسم هى الأيدي والأرجل.
- [٦٧١] (٢). «تخفيض» من «خفض» على وزن «لفظ» تعنى السهولة واللين والتنزيل.
- [٦٧٢] (٣). «خيلاء» بمعنى التكبر والأنانية.
- [٦٧٣] (٤). سورة العنكبوت، الآية ٢٥.
- [٦٧٤] (٥). وسائل الشيعه، ج ٣، ص ٤، كتاب الصلاة، أبواب أعداد الفرائض ونوافلها، ح ٧.
- [٦٧٥] (١). وسائل الشيعه، ج ٦، ص ٥، كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه الزكاة وما تستجب فيه، باب ١، ح ٧.

[٦٧٦] (٢). من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٧٣، ح ١٧٦٧.

[٦٧٧] (٣). «تعفير» تعنى التمريغ فى التراب من «عفر» بمعنى التراب والغبار.

[٦٧٨] (٤). «عتاق» جمع «عتيق» بمعنى الشئ الثمين والقيم، و«عتاق الوجوه» إشارة إلى القسم المهم من وجه الإنسان، هى الجبهة.

[٦٧٩] (٥). «كرائم» جمع «كريمة» نفيس، ثمين، شريف.

[٦٨٠] (٦). «تصاغر» من مادة «صغر» معروفة.

[٦٨١] (٧). «متون» جمع «متن» بمعنى الظهر ويأتى بمعنى الأصل والمراد المعنى الأول.

[٦٨٢] (١). من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٣٦٣.

[٦٨٣] (٢). «قمع» بمعنى القهر.

[٦٨٤] (٣). «نواجم» جمع «ناجمة» كلما يطلع ويظهر. من «نجم» على وزن «حجم» بمعنى الطلوع والظهور.

[٦٨٥] (٤). «قدع» تعنى الكف والمنع.

[٦٨٦] (٥). سورة إبراهيم، الآية ٨.

[٦٨٧] (٦). سورة آل عمران، الآية ٩٧.

[٦٨٨] (١). راجع كلمات نهج البلاغة القصار، الكلمة ٢٥٢.

[٦٨٩] (١). «تمويه» يعنى الخداع وتعنى فى الأصل طلى النحاس بالذهب لخداع الآخرين.

[٦٩٠] (٢). «تليط» من مادة «لوط» على وزن «موت» بمعنى الالتصاق وتستعمل عبارة «لاط بقلبي» لمن تعلق بشئ لا يفارقه وكأنه

لصق به. وتستعمل هذه المفردة بصيغة أجوف واوى وأجوف يائى.

[٦٩١] (١). سورة الحجر، الآية ٢٩.

[٦٩٢] (٢). «مترفة» و«مترف» كما ورد فى لسان العرب من مادة «ترف» على وزن «هدف» بمعنى التنعم ويقال عادة للشخص أغرته

وفرة النعمة وساقته للطغيان.

[٦٩٣] (٣). «مواقع» جمع «موقع» بمعنى المحلّ و مواقع النعم إشارة إلى النعم التى يستفاد منها والمراد من الآثار اللذات التى تتوفر

لأصحاب النعم.

[٦٩٤] (٤). سورة سبأ، الآية ٣٥.

[٦٩٥] (١). «مجداء» جمع «مجيد» بمعنى العزيز والعظيم.

[٦٩٦] (٢). «نجداء» جمع «نجيد» بمعنى الشجاع من «نجد» بمعنى الأرض المرتفعة.

[٦٩٧] (٣). «يعاسيب» جمع «يعسوب» وهو أمير النحل. ويستعمل مجازاً بمعنى رئيس القوم كما هنا.

[٦٩٨] (٤). «ذمام» يعنى العهد.

[٦٩٩] (١). الكافى، ج ٢، ص ٦٦٧، ح ٨.

[٧٠٠] (١). سورة هود، الآية ٧٨.

[٧٠١] (٢). سورة النور، الآية ٢.

[٧٠٢] (٣). سورة النور، الآية ٣٢.

[٧٠٣] (٤). وسائل الشيعة، ج ١٥، الباب ٥ من أبواب المهور، ح ١١.

[٧٠٤] (١). وسائل الشيعة، ج ١٥، الباب ٥ من أبواب المهور، ح ١٠.

[٧٠٥] (١). «فقرة» وجمعها «فقرات» بمنزلة العمود الذى يشد ظهر الإنسان ويجعله يستقيم وينحنى.

- [٧٠٦] (٢). «مُنَّة» بمعنى القوَّة و «مِنَّة» على وزن «عِزَّة» بمعنى النعمة العظيمة التي توجب القدرة والقوَّة وقال الراغب في المفردات إنها مشتقة في الأصل من «مَن» وحدة الوزن.
- [٧٠٧] (١). «أعباء» جمع «عِبء» على وزن «فكر» بمعنى الحمل الثقيل.
- [٧٠٨] (٢). «ساموا» من مادة «سوم» على وزن «قوم» بمعنى البحث عن شيء أو إجبار الآخرين على العمل وكذلك الاستمرار أى أنّ العبارة «ساموهم...» تعنى استمرارهم فى عذاب بنى اسرائيل.
- [٧٠٩] (٣). «مرار» نوع من الشجرة المرة المذاق. ثم اطلقت على كلّ حادث مرير.
- [٧١٠] (١). سورة الدخان، الآيات ٢٥-٢٨.
- [٧١١] (٢). سورة القصص، الآية ٥.
- [٧١٢] (١). «أملاء» جمع «ملا» بمعنى الجماعة و القوم وأحياناً بمعنى الأيادى المتعاونة مثل أشرف القوم.
- [٧١٣] (١). «غَضَارَةٌ» بمعنى السعة.
- [٧١٤] (١). «اعتدال» الحد الوسط بين الافراط والتفريط وأيضاً المساواة بين الشئيين وتشابهما (كل واحدة عدل الأخرى) وهو المعنى المراد فى العبارة.
- [٧١٥] (١). «اشتباه» لها معنيان؛ الأول الخطأ فى الفهم أو العمل و الثانى تشابه شئيين والمعنى الثانى هو المراد فى العبارة أيضاً.
- [٧١٦] (٢). «أكاسرة» جمع «كسرى» (بكسر وفتح الكاف) لقب عام لملوك ايران قبل الإسلام.
- [٧١٧] (٣). «قياصرة» جمع «قيصر» على وزن «حيدر» لقب عام لملوك الروم.
- [٧١٨] (٤). «يحتازونهم» من مادة «حيازة» بمعنى التملك والمعنى المراد فى هذه العبارة أنّهم يقبضونهم عن الأرضى الخصبة.
- [٧١٩] (٥). «ريف» الأرض الخصبة والزراعية.
- [٧٢٠] (٦). «شبح» نبات مر ذات ريحة طيبة.
- [٧٢١] (٧). «مهافى» جمع «مهفى» المواضع التى تهفّ فيها الرياح أى تهب.
- [٧٢٢] (٨). «نكد» بمعنى الشىء القليل.
- [٧٢٣] (١). «عالة» جمع «عائل» الفقير و «عيلولة» قضاء حوائج الآخرين.
- [٧٢٤] (٢). «دبر» جمع «دبرة» على وزن «شجرة» القرحة فى ظهر الدابة.
- [٧٢٥] (٣). «وبر» شعر الجمال والمراد فى العبارة أنّهم رعاة.
- [٧٢٦] (٤). «ياوون» من مادة «إواء» على وزن «كتاب» بمعنى الدخول والسكن فى مكان.
- [٧٢٧] (٥). «أزل» بمعنى الشدّة؛ وتأتى بمعنى الحبس أيضاً.
- [٧٢٨] (٦). «موؤودة» من «وَأد» على وزن «رعد» تعنى فى الأصل الثقل، ثم اطلقت على البنت التى كانت تدفن وهى حيّة فى عصر الجاهلية أيضاً، لأنّهم كانوا يخفونها تحت التراب ويضعون فوقها الكثير من التراب.
- [٧٢٩] (٧). «غارات» جمع «غارة» تعنى فى الأصل الهجوم، وحين يكون الهجوم من كلّ جانب يقال له «غارات مشنونة».
- [٧٣٠] (٨). «مشنونة» من «شَنّ» على وزن «ظنّ» الهجوم من كلّ جانب.
- [٧٣١] (١). سورة الأنفال، الآية ٤٦.
- [٧٣٢] (١). «جداول» جمع «جدول» بمعنى مجرى النهر.
- [٧٣٣] (٢). «فكهين» جمع «فكه» على وزن «خشن» بمعنى الراضين والفرحين فى الأصل من «فكاهة» على وزن «قبالة» بمعنى المزاح والضحك، يقول البعض أنّ أصلها «فاكهة» أى أنّ المزاح حلو كالفاكهة الحلوة.

[٧٣٤] (٣). «تربعت» من «تربيع» بمعنى الإقامة باطمئنان في مكان.

[٧٣٥] (٤). «ذرى» جمع «ذروة» (بضم الذال وكسرها) فوق كل شيء مثل قله الجبال.

[٧٣٦] (١). «تغمز» من مادة «غمز» على وزن «همز» تعنى الإشارة بالعين واليد للتعييب وتأتى بمعنى الانحناء وهنا المراد هو المعنى الثانى.

[٧٣٧] (٢). «قناة» به بمعنى الرمح وتأتى بمعنى العصا أيضاً، ويقال لمسير الماء المستقيم أيضاً وهنا المراد هو المعنى الأول.

[٧٣٨] (٣). «لا تفرع» من مادة «فرع» على وزن «فرع» يعنى صدم شيء بآخر بحيث يصدر عنهما صوت عالٍ.

[٧٣٩] (٤). «صفاء» بمعنى الحجر الصلد وفى العبارة كناية عن القوّة.

[٧٤٠] (١). «نفضتم» من مادة «نفض» على وزن «نفض» بمعنى تحريك الشيء لإخراج ما فى داخله والمراد فى العبارة تقطع عرى الطاعة.

[٧٤١] (٢). «ثلتم» من مادة «ثلم» على وزن «عزم» بمعنى الخرق والكسر.

[٧٤٢] (٣). «كنف» بمعنى الحماية.

[٧٤٣] (٤). سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

[٧٤٤] (٥). وشاهدنا آثار هذا الأمر القرآنى وتعليمات الإمام فى أيامنا هذه، وقد أعدّ أعداء الإسلام والاستعمار الغربى خططاً جهنميةً ضد البلدان الإسلامية ولبنان ليسيطروا عليها بواسطة عملائهم فى المنطقة، لكى تضمن حماية إسرائيل من جانب ولتكون قاعدة من جانب آخر للتداول على سائر البلدان الإسلامية غير أنّ الشعب اللبنانى عبّر عن وحدته فى ذلك اليوم التاريخى (يوم ٢٦ محرم الحرام ١٤٢٦) ليخرج بتلك المسيرات المليونية ويطلق الشعارات المعادية للامبريالية فأفضل تلك الخطط: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».

[٧٤٥] (١). «تكفؤوا» من مادة «اكفاء» بمعنى الانقلاب.

[٧٤٦] (٢). عاش فى عصر الجاهلية؛ وروى حفيده «حميد بن منهب» أنّ جده أوس بن الحارثة قدم على النّبى صلى الله عليه وآله وباعه مع سبعين نفر من قبيلة «طى». (أسد الغابة، ج ١، ص ١٤١).

[٧٤٧] (١). مرجع الضمير فى «غيره» هو الإسلام الذى سبق ذكره، كما احتمال البعض أن يكون المراد الله.

[٧٤٨] (٢). جاءت مفردة «لا» فى أربعة موارد وردت فى هذه الجملة ولو كانت «لا» نافية للجنس لابد أن يراد جبرائيل وميكائيل والمهاجرون والأنصار بالنصب، كما جاء فى بعض النسخ. وإن اعتبرناها «لا» نافية (اللام المشبهة بليس) فلا بد أن تقرأ الكلمات الأربع المذكورة بالرفع كما جاءت فى النسخة الموجودة.

[٧٤٩] (٣). «المقارعة» النزاع والقتال والضرب.

[٧٥٠] (٤). العبارة «إِلَّا الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ» يحتمل أن تكون من قبيل الاشتناء المنقطع، إشارة إلى أنه سوف لن يكون لكم من نصير ومعين سوى الضرب بالسيف والذى لا يسعها أن تؤدى إلى النصر مع ما أنتم عليه من الفرقة، وعليه ستهزمون، كما ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن العبارة المذكورة استثناء متصل، أى أن معينكم الوحيد سيوفكم التى فيها نصركم، ولكن يبدو أن هذا الاحتمال لا ينسجم مع سياق عبارات الإمام عليه السلام.

[٧٥١] (١). سورة القمر، الآية ١٩.

[٧٥٢] (٢). سورة القمر، الآية ٢٠.

[٧٥٣] (٣). «تستبطئوا» من مادة «استبطاء» «بُطِئ» على وزن «فعل» ضد السرعة.

[٧٥٤] (٤). «بطش» تعنى فى الأصل الحصول على شيء بالقوّة، وردت بمعنى العقاب لأنهم يقبضون على المجرم بالقوّة حين العقوبة.

- [٧٥٥] (١). «الحلماء» جمع «حليم» بمعنى العاقل ومن مادة «حلم» على وزن «سُبُل» بمعنى العقل.
- [٧٥٦] (٢). سورة المائدة، الآيتان ٧٨ و ٧٩.
- [٧٥٧] (٣). الكافي، ج ٥، ص ٥٦.
- [٧٥٨] (١). «نكث» بمعنى نقض العهد. وأهل النكث إشارة إلى طلحة والزبير وأمثالهما ممن بايع الإمام عليه السلام ثم نقضوا البيعة وقاتلوا الإمام عليه السلام فى معركة الجمل وأخيراً قتلوا ويقال لهم الناكثون.
- [٧٥٩] (٢). «قاسطون» من مادة «قسط» تأتى بمعنى الظلم والعدالة، وتشير هنا إلى أصحاب معاوية الذين كانوا جائرين عن الحق وظالمين بحق الناس.
- [٧٦٠] (٣). «مارقة» من مادة «مروق» على وزن «غروب» بمعنى الخروج من شىء وغالباً هو السهم حين يطلق من القوس ويتجاوز الهدف، وقيل المارقة للخوارج فى النهروان بسبب إفراطهم وتعصبهم وتحجرهم وأنهم كفروا بجميع غيرهم (كالوهابية).
- [٧٦١] (١). «دوخت» من مادة «دوخ» على وزن «فوق» بمعنى أضعف وأذل.
- [٧٦٢] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٦، ص ١٣٠.
- [٧٦٣] (٣). أسد الغابة، ج ٤، ص ٣٣.
- [٧٦٤] (٤). «ردهة» النقرة التى يتجمع فيها الماء، ويقال للغرف والصالات الواسعة فى البيوت.
- [٧٦٥] (٥). «صعقة» أخذت فى الأصل من الصاعقة التى تسبب الهلاك. ثم أطلقت على الهلاك أو الخوف الذى يصيب قلب الإنسان.
- [٧٦٦] (٦). «وجبة» بمعنى السقوط والخفقان والعطل والسكوت، ومفردة «وجبة» تطلق على وقت الطعام.
- [٧٦٧] (٧). «رجة» من مادة «رج» على وزن «حج» بمعنى الاهتزاز والارتعاد.
- [٧٦٨] (١). «اديلن» من مادة «دولة» تعنى الانتقال وتأتى أحياناً بمعنى الضعف والمراد هنا هو المعنى الأول؛ أى لأمحقنهم.
- [٧٦٩] (٢). «يتشذر» من «تشذر» أى يتفرق.
- [٧٧٠] (١). جاء هذا الحدث وتتبأ رسول الله صلى الله عليه وآله فى كتب السنة المعتمدة (مع اختلاف طفيف) من قبيل: صحيح البخارى، ج ٧، ص ١١١ و ج ٨، ص ٥٢؛ صحيح مسلم، ج ٣، ص ١١٢؛ مسند أحمد، ج ٣، ص ٥٦ و ٦٥؛ مصنف ابن أبى شيبة، ج ٨، ص ٧٤١؛ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٢، ص ٢٦٦؛ تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٣٦٠؛ أسد الغابة، ج ٢، ص ١٣٩ وكنز العمال، ج ١١، ص ٣٠٧ فما فوق.
- [٧٧١] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٢، ص ٢٦٧ و ٢٦٨؛ البداية والنهاية، ج ٧، ص ٣٣٧.
- [٧٧٢] (٣). راجع، تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٥٤ و ٥٥.
- [٧٧٣] (٤). مصنف ابن أبى شيبة، ج ١٠، ص ٧٤٠.
- [٧٧٤] (٥). المصدر السابق، ص ٧٣٧.
- [٧٧٥] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٢، ص ٢٧٥-٢٧٧.
- [٧٧٦] (١). «نواجم» جمع «ناجمة» من «نجم» على وزن «حجم» بمعنى الطلوع والظهور ويقال نواجم القرون وهى من قبيل الحاق الصفة بالموصوف.
- [٧٧٧] (١). فى ظلال نهج البلاغة (شرح محمّد جواد مغنية لنهج البلاغة)، ج ٣، ص ١٥١-١٥٥.
- [٧٧٨] (٢). المصدر السابق، نقلت هذه العبارة عن عبدالرحمن الشرقاوى.
- [٧٧٩] (١). «عرف» بمعنى الرائحة الزكية.

- [٧٨٠] (٢). «خطلة» من مادة «خطل» على وزن «خطر» بمعنى الخطأ الذي ينشأ عن عدم الرؤية.
- [٧٨١] (٣). «فطيم» من «فطام» معروفة.
- [٧٨٢] (٤). «فصيل» ولد الناقة الفطيم.
- [٧٨٣] (١). «رئة» بمعنى العويل والصوت الحزين ويطلق أحياناً على الصراخ الشديد.
- [٧٨٤] (١). سورة الحجر، الآيتان ٣٩ و ٤٠.
- [٧٨٥] (١). أشار المرحوم السيد شرف الدين في كتابه «المراجعات» إلى هذه الحديث وكذلك ومحققو كتاب المراجعات في هوامشهم إلى مصادر عديدة لهذا الحديث. (المراجعات، ص ٢٦١، مراجعة ٢٦). وذكر في كتاب إحقاق الحق أكثر من مئة صفحة حول هذا الحديث ومصادره من كتب السنة (إحقاق الحق، ج ٥، ص ١٣٢-٢٣٨).
- [٧٨٦] (٢). انظر: تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٧ و ٥٨.
- [٧٨٧] (٣). أشار إلى أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان أول الناس إسلاماً بصورة مفصلة في الجزء الثالث من هذا الكتاب.
- [٧٨٨] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ٢٠٨.
- [٧٨٩] (١). بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٧٧ فما فوق.
- [٧٩٠] (١). للمرحوم العلامة المجلسي بحث بهذا الخصوص في كتاب بحار الأنوار حيث يعتقد أنه صلى الله عليه وآله كان نبياً قبل البعثة لكنه لم يكن رسولاً. (ج ١٧، ص ٢٧٧-٢٨١) وللфخر الرازي بحث بهذا الشأن في كتاب المحصول (ج ١، ص ٤٢٦، طبعة دارالكتب العلمية).
- [٧٩١] (١). «ملاً» يقال لما يملأ العين ويشير التعجب، ولذلك قيل «ملاً» لرؤساء وكبار القوم.
- [٧٩٢] (١). «قلب» من مادة «قلب» تعنى التغيير كما وردت بمعنى البشر.
- [٧٩٣] (٢). للاطلاع أكثر راجع التفسير الأمثل، ج ١٢، ذيل الآية ٤٤ سورة الاسراء «تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّا تُفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا».
- [٧٩٤] (١). «دوى» بمعنى الصوت القوي والصدى.
- [٧٩٥] (٢). «قصف» تعنى فى الأصل الكسر، ويقال «قاصف» للرياح العاتية وكذلك تعنى الصوت الشديد بسبب الأصوات التى تسمع فى العواصف و
- [٧٩٦] (٣). «مرفرف» من مادة «ررفر» تعنى فى الأصل أوراق الأشجار العريضة وكذلك يقال «ررفر» للأقمشة الجميلة والملونة و«مرفرفة» هو الطائر الذى يحرك أجنحته، وكان مراد الإمام فى العبارة أن الشجرة عندما اقتربت للرسول صلى الله عليه وآله كانت أغصانها تتحرك كأنها أجنحة الطائر.
- [٧٩٧] (١). «خفيف» يعنى فى الأصل القليل (كمية أو وزناً أو ...) وكذلك يقال خفيف لمن يجرى حركات سريعة بمهارة.
- [٧٩٨] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ٢١٤.
- [٧٩٩] (٢). شرح نهج البلاغة للعلامة التستري، ج ٢، ص ٤٦٩.
- [٨٠٠] (١). سورة المائدة، الآية ٥٤.
- [٨٠١] (١). مجمع البيان، ذيل الآية ١٠٣ من سورة آل عمران: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا».
- [٨٠٢] (٢). «يغلون» من «غلل» على وزن «أجل» أو «غلول» على وزن «غروب» بمعنى الخيانة، وتعنى فى العبارة أنهم لا يخونون.
- [٨٠٣] (٣). سورة النمل، الآية ٣٤.
- [٨٠٤] (٤). سورة القصص، الآية ٨٣.

[٨٠٥] (١) . سند الخطبة:

هذه الخطبة من الخطب المعروفة والمعتبرة وردت بأسانيد مختلفة عن غير نهج البلاغة، عاش طائفة من رواها قبل السيد الرضى وطائفة بعده.

قال صاحب مصادر نهج البلاغة: فمن رواها قبل الشريف الرضى المرحوم الشيخ الصدوق فى «الأمالى»، وابن شعبة المعاصر للشيخ الصدوق فى «تحف العقول»، وسليم بن قيس فى كتابه، ونقل ابن قتيبة (المتوفى فى القرن الثالث) قسماً من هذه الخطبة فى كتابه «الزهد» وكتاب «عيون الأخبار» وغيرهم.

هذا قبل السيد الرضى، فقد رواها جماعة من العلماء باسانيد وصور يعرف منها على أنهم لم يأخذوها عن نهج البلاغة، منهم سبط ابن الجوزى «فى تذكرة الخواص»، وابن طلحة الشافعى فى «مطالب السؤل»، والكراچكى فى «كنز الفوائد» مع اختلاف يسير فى نقلهم. مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٦٥.

[٨٠٦] (١) . راجع مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٦٥.

[٨٠٧] (١) . مستدرک سفينة البحار، باب التدبير، ج ٣، ص ٤٢١.

[٨٠٨] (١) . سورة الأحزاب، الآيتان ٧٠ و ٧١.

[٨٠٩] (٢) . «اقتصاد» من مادة «قصد» بمعنى الاعتدال وتشمل الاعتدال فى كل شىء.

[٨١٠] (٣) . سورة الأعراف، الآية ٢٦.

[٨١١] (٤) . سورة الفرقان، الآية ٤٧.

[٨١٢] (٥) . سورة البقرة، الآية ١٨٧.

[٨١٣] (١) . تحف العقول، قسم كلام الإمام الباقر عليه السلام، ص ٢١٨.

[٨١٤] (٢) . نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٤٠.

[٨١٥] (٣) . وسائل الشيعة، كتاب الجهاد، الباب ٢٨ أبواب جهاد النفس، ح ٢.

[٨١٦] (٤) . «غضّوا» من مادة «غضّ» على وزن «خزّ» كما ورد فى الخطبة تعنى التقليل، وإن استعملت فى العين عنت الخفض أى خفض الرأس بغيه عدم النظر. «غمض» تعنى غلق العين.

[٨١٧] (١) . الكافى، ج ٢، ص ٨٠، باب اجتناب المحارم، ح ٢.

[٨١٨] (٢) . ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٥٥١ نقلًا عن بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ١٠٩.

[٨١٩] (٣) . «رخاء» و«رخوه» تعنى فى الأصل اللين والضعف وإن استعملت بشأن الحياة فإنّها تعنى الحياة الهانئة.

[٨٢٠] (١) . الكافى، ج ٢، ص ٦٠، باب الرضا بالقضاء، ح ١.

[٨٢١] (١) . بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٤١٢.

[٨٢٢] (٢) . نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

[٨٢٣] (١) . يقال خفق برأسه إذا أخذته سنة من الناس فمال رأسه دون سائر جسده.

[٨٢٤] (١) . نقل المرحوم الكلينى هذا الحديث فى باب حقيقة الإيمان (الكافى، ج ٢، ص ٥٣) وكذلك نقله المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٧٤ عن كتاب المحاسن.

[٨٢٥] (٢) . بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٧٠.

[٨٢٦] (١) . سورة يونس، الآية ٦٢.

[٨٢٧] (٢) . كنز العمال، ج ٣، ص ٥٠٢، ح ٧٦١٣.

- [٨٢٨] (٣). نهج البلاغة، خطبة ٢١.
- [٨٢٩] (٤). وسائل الشيعة، ج ١، الباب ٢٢، أبواب آداب دخول الحمام، ح ٣.
- [٨٣٠] (١). نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ص ٥٧٤.
- [٨٣١] (٢). المصدر السابق، الكلمة ٨٢.
- [٨٣٢] (٣). الكافي، ج ٢، ص ٨٩، باب الصبر، ح ٧.
- [٨٣٣] (١). سورة فاطر، الآية ٢٩.
- [٨٣٤] (٢). سورة رعد، الآية ٢٤.
- [٨٣٥] (١). «يستثيرون» من مادة «ثور» على وزن «غور» و«ثوران» على وزن «فوران» بمعنى الهياج و«استثارة» بمعنى التهيج ويعنى فى العبارة المذكورة البحث فى الآيات القرآنية لشفاء الأمراض الأخلاقية والمعنوية.
- [٨٣٦] (١). «تطلعت» من طلوع «تطلع» بمعنى البحث عن شىء.
- [٨٣٧] (٢). «زفير» و«شهيق» «زفير» فى الأصل إخراج الهواء من الرئة و«شهيق» بمعنى إدخال الهواء إلى داخل الرئة؛ لكن صرح البعض أن «زفير» هو إخراج الهواء مع صراخ و«شهيق» هو إدخال الهواء مع وأنين.
- [٨٣٨] (٣). بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٢١١.
- [٨٣٩] (٤). الكافي، ج ٢، كتاب فضل القرآن، باب فى قراءته، ح ٢.
- [٨٤٠] (١). «حانون» من مادة «حنو» بمعنى الانعطاف، اذن «حانون» جمع «حانى» بمعنى الشخص الذى ينحنى.
- [٨٤١] (٢). «أوساط» جمع «وسط» بمعنى الظهر.
- [٨٤٢] (٣). «جابه» جمع «جبهة» بمعنى الجبين.
- [٨٤٣] (٤). «أطراف» جمع «طرف» بمعنى رأس كل شىء وتعنى هنا رأس البنان الذى يوضع على الأرض فى السجود.
- [٨٤٤] (٥). «فكاك» و«فك» بمعنى التحرير والتفريق.
- [٨٤٥] (٦). سورة الفرقان، الآيتان ٦٤ و ٦٥.
- [٨٤٦] (١). «براهم» من مادة «برى» على وزن «سعى» بمعنى نحت القلم أو الخشب وتعنى هنا التصغير.
- [٨٤٧] (٢). «قداح» جمع «قدح» على وزن «قشر» بمعنى السهم قبل أن يراش.
- [٨٤٨] (٣). «خولطوا» من «خلط» أى مزجوا وتعنى هنا الأمر الذى خالط عقولهم، وكما يقال إلتبس عليه الأمر.
- [٨٤٩] (١). سورة المؤمنون، الآية ٦٠.
- [٨٥٠] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٠، ص ١٤٦.
- [٨٥١] (٣). «مشفقون» من «اشفاق» بمعنى الرغبة المقرونة بالخوف؛ يعنى خائفون من التقصير فى اعمالهم، كما تعنى من يخشى على آخر يحبه تعرضه لبعض الحوادث.
- [٨٥٢] (١). الغارات، ج ١، ص ٩٠.
- [٨٥٣] (٢). وسائل الشيعة، ج ١، ص ٧٣، الباب ٢٢ من أبواب مقدمات العبادات، ح ٦.
- [٨٥٤] (١). «حزم» الإحكام والاتقان ومادته الأصلية «حزام»، رباط الحيوان (رباط محكم يربط به سرج الحيوان إلى بطنه وورد بمعنى مطلق الربط المحكم).
- [٨٥٥] (٢). «تجمل» من «جمال» التظاهر بالجمال و«تجمل» التظاهر باليسر عند الفقر والفاقة.
- [٨٥٦] (٣). «نشاط» العمل الصادق و«نشاطات» علمية بمعنى الأعمال العلمية.

- [٨٥٧] (١) «تحرّج» من مادة «حرج» المشقّة. وعندما تتعدى هذه المفردة بالحرف «عن» تعنى الابعاد.
- [٨٥٨] (٢) الكافي، ج ٢، ص ٥١، باب فضل الإيمان على الإسلام، ح ١.
- [٨٥٩] (١) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٦.
- [٨٦٠] (٢) سورة المؤمنون، الآية ٢.
- [٨٦١] (٣) سورة البقرة، الآية ٢٧٣.
- [٨٦٢] (٤) سورة البقرة، الآية ١٥٦.
- [٨٦٣] (٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٣١٩؛ بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ١٣٧، ح ٢٢.
- [٨٦٤] (١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٥١.
- [٨٦٥] (٢) الكافي، ج ٥، ص ٧٨.
- [٨٦٦] (٣) سورة المؤمنون، الآية ٥١.
- [٨٦٧] (٤) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٨٠.
- [٨٦٨] (١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢١٩.
- [٨٦٩] (٢) «وجل» بمعنى الخوف و«وَجَلَّ» على وزن «خجل» بمعنى الشخص الخائف.
- [٨٧٠] (٣) الكافي، ج ٢، ص ٦٧، كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء، ح ١.
- [٨٧١] (٤) سورة المؤمنون، الآية ٦٠.
- [٨٧٢] (٥) فى ظلال نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٦٩.
- [٨٧٣] (١) مستدرک الوسائل، ج ١٢، الباب ٩٣ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ح ٥.
- [٨٧٤] (٢) غرر الحكم، ٥٦٦٤.
- [٨٧٥] (٣) وسائل الشيعة، ج ٤، الباب ١٢ من أبواب التعقيب، ح ٧.
- [٨٧٦] (٤) سورة يونس، الآية ٥٨.
- [٨٧٧] (١) «استصعب» من «صعوبة» مأخوذة من «استصعب» بمعنى التصعب وعدم الخضوع.
- [٨٧٨] (٢) سورة هود، الآية ١٠٧.
- [٨٧٩] (٣) سورة السجدة، الآية ١٧.
- [٨٨٠] (١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٩، ح ٦٨.
- [٨٨١] (١) «منزور» من مادة «نزر» على وزن «نذر» قليل.
- [٨٨٢] (٢) «حريز» من مادة «حزّز» على وزن «قرض» الحفظ و«حريز» الشيء المحفوظ.
- [٨٨٣] (٣) «مكظوم» من مادة «كظم» على وزن «هضم»، ويقال «مكظوم» للشخص الغاضب والذى يتمالك نفسه.
- [٨٨٤] (٤) سفينة البحار، ج ١، ص ٣٠، مادة «أمل»؛ بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٣.
- [٨٨٥] (١) سورة يوسف، الآية ٢٤.
- [٨٨٦] (٢) بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٦٠، ح ٣.
- [٨٨٧] (١) بحار الأنوار، ج ٦١، ص ٢٣٨.
- [٨٨٨] (٢) المصدر السابق.
- [٨٨٩] (١) الكافي، ج ٣، ص ١٤٩.

- [٨٩٠] (٢). سورة المؤمنون، الآية ٩٦.
- [٨٩١] (٣). «فحشه» يقال لكل من تجاوز حد الاعتداء وبلغ الحد الفاحش. ولذا يقال فحشاء للأعمال والأقوال القبيحة والمنكرة، وأخذت المفردتان فاحشة وفحشاء من هذا أيضاً.
- [٨٩٢] (١). الكافي، ج ٢، ص ١٠٣.
- [٨٩٣] (٢). «زلزل» جمع «زلزلة» و«زلزال» بمعنى الحركة الشديدة والصعبة. ويقال الزلازل للشدائد من الأحداث.
- [٨٩٤] (٣). «وقور» من «قر» على وزن «فقر» تعني في الأصل الثقل ويقال الوقور للشخص الذي لا يضطرب.
- [٨٩٥] (٤). الكافي، ج ٢، ص ٢٤١.
- [٨٩٦] (١). «يحييف» من مادة «حيف» تعني الظلم في الأصل و«لا يحييف» أي لا يظلم.
- [٨٩٧] (٢). سورة المائدة، الآية ٨.
- [٨٩٨] (٣). سورة الأنعام، الآية ١٥٢.
- [٨٩٩] (١). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١١٢.
- [٩٠٠] (٢). «ينابز» من مادة «نبز» على وزن «نبض» نعت الآخرين بلقب سييء و«التنابز بالألقاب» أن يدعو الآخرين ويذكرهم بألقاب سيئة.
- [٩٠١] (٣). «يشمت» من «شماتة» بمعنى التفرغ والفرح لحزن الآخرين.
- [٩٠٢] (٤). سورة المؤمنون، الآية ٩.
- [٩٠٣] (٥). سورة الأعراف، الآية ٢٠١.
- [٩٠٤] (١). سورة الحجرات، الآية ١١.
- [٩٠٥] (٢). نهج البلاغة، الرسائل، ٤٧.
- [٩٠٦] (٣). الكافي، ج ٢، ص ٣٥٩.
- [٩٠٧] (١). الكافي، ج ٢، ص ١٤٤.
- [٩٠٨] (١). غرر الحكم.
- [٩٠٩] (٢). سورة غافر، الآية ٣٩.
- [٩١٠] (١). جاءت في النسخة علامة الاستفهام على رأس «هكذا»؛ لكنها لم تذكر في الكثير من النسخ القديمة وشرح نهج البلاغة وهو الأنسب.
- [٩١١] (٢). سورة الأعراف، الآية ١٤٣.
- [٩١٢] (١). ذكر المرحوم العلامة التستري في شرحه نهج البلاغة، ج ١٠، ص ٤٥٩ نماذج منها.
- [٩١٣] (٢). شرح نهج البلاغة للتستري، ج ١٢، ص ٤٦٢.
- [٩١٤] (١). راجع الأقوال العشرة، ص ٧-١١.
- [٩١٥] (١). سند الخطبة:
- أشار صاحب مصادر نهج البلاغة إلى مصدرين لإثبات نقل الخطبة من أشخاص غير السيد الرضى؛ الأول: ما رواه المير يحيى العلوى في كتاب الطراز الذي ذكر جوانب من الخطبة مع بعض الاختلافات ما يدل على أنه أخذها من غير نهج البلاغة. والثاني: ما ذكره الآمدى في غرر الحكم. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٦٩).
- [٩١٦] (١). «زاد» من مادة «زود» على وزن «ذوق» الدفع والطرود.

- [٩١٧] (١). سورة آل عمران، الآية ١٠٣.
- [٩١٨] (٢). مجمع البيان، ذيل الآية ١٠٣، سورة آل عمران، رواه أبو سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وآله.
- [٩١٩] (٣). سورة إبراهيم، الآية ٣٤.
- [٩٢٠] (٤). «غمرة» من «غمر» على وزن «خمر» إزالة أثر الشيء ثم أطلقت الغمرة والغامر على ما ازدحم وكثر من الماء.
- [٩٢١] (٥). «غصة» تعنى فى الأصل الماء والغذاء وكل ما يحشر فى الحلقوم وحيث يشعر الإنسان بأن شيئاً يحشر فى حلقه عند الغم فقد عبر عن ذلك بالغصة.
- [٩٢٢] (١). «أدنون» جمع «أدنى» بمعنى القريب، وعليه «أدنون» يعنى الأقرباء فى مقابل «أقصون» الأبعد.
- [٩٢٣] (٢). «تألب» من مادة «ألب» على وزن «أمر» بمعنى التجمع من كلّ حذب وصوب كما تستعمل بمعنى تعبئة الآخرين وحشدهم ضد شخص معين أو جماعة.
- [٩٢٤] (٣). «أعنة» جمع «عنان» وهو جبل اللجام.
- [٩٢٥] (٤). «رواحل» جمع «راحلة» بمعنى المركب وغالباً ما تعنى الناقة.
- [٩٢٦] (٥). «أسحق» من مادة «سحق» على وزن «قفل» بمعنى أقصى كما تعنى اسحق أقصى نقطة.
- [٩٢٧] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٠، ص ١٦٥.
- [٩٢٨] (١). «الزأون المزؤون» من مادة «زلة» بمعنى الخطأ والزلل.
- [٩٢٩] (٢). «يفتون» من «افتنان» من مادة «فن» بمعنى التزين «يفتون افتناناً» بمعنى تزيينهم لأعمالهم بأشكال مختلفة لخداع الآخرين.
- [٩٣٠] (١). سورة البقرة، الآية ١٤.
- [٩٣١] (٢). «يعمدونكم» من مادة «عمد» المراد أنهم يعتمدون كل وسيلة للقدح بكم.
- [٩٣٢] (٣). «يرصدونكم» من «رصد» على وزن «صدف» بمعنى الاستعداد للمراقبة وبمعنى التربص والارتقاب.
- [٩٣٣] (٤). «دوية» من مادة «دوى» من «دوا» بمعنى المرض ودوى (صفة مشبهة على وزن فعيل) بمعنى المريض ومؤنثه دوية ولكن «دواء» على وزن دمار من هذه المادة بمعنى ما يعالج به المرض.
- [٩٣٤] (١). «صفاح» جمع «صفح» بمعنى صفحة الوجه أو الورقة وأمثال ذلك وتشير هنا إلى أنّ ظاهر المنافقين طاهروباطنهم سيء.
- [٩٣٥] (٢). «يدبون» من «ديب» أى يمشون على هيئة الدبيب ببطء وتأنى وشمل كل متحرك من حيث المفهوم اللغوى سواء كان يمشى سريعاً أم بطيئاً.
- [٩٣٦] (٣). «ضراء» يعنى الأرض الواسعة التى تلتف فيها الأشجار وتلجأ إليها الحيوانات الصحراوية للاختفاء.
- [٩٣٧] (٤). «عياء» من «عى» بمعنى العجز و«داء العياء» يراد بها هنا المرض الذى أعجز الأطباء علاجه (العياء هنا مصدر له معنى الصفة).
- [٩٣٨] (٥). «حسدة» جمع «حاسد» مثل «قتلة» جمع «قاتل» بمعنى الشخص الذى يحسد.
- [٩٣٩] (٦). سورة آل عمران، الآية ١٢٠.
- [٩٤٠] (١). سورة محمد، الآية ٧.
- [٩٤١] (٢). سورة آل عمران، الآية ١٣٩.
- [٩٤٢] (٣). «صرع» من «صرع» على وزن «فرع» بمعنى المطروح على الأرض وله معنى اسم المفعول بمعنى المطروح.
- [٩٤٣] (٤). «شجو» بمعنى الحزن.
- [٩٤٤] (١). «أحفوا» من «الحاف» بمعنى الإصرار والإلحاح فى الطلب.

[٩٤٥] (٢). «عذلوا» من «عذل» على وزن «هزل» بمعنى لاموا.

[٩٤٦] (٣). سورة البقرة، الآية ٢٧٣.

[٩٤٧] (٤). سورة البقرة، الآية ٢٠٥. والتفسير فوق أحد تفاسير هذه الآية.

[٩٤٨] (١). صحيح مسلم، ج ٨، ص ١٨٥ وسفينه البحار، مادة «عمر» وسائر مصادر الفريقين.

[٩٤٩] (٢). «إعلاق» جمع «علق» على وزن «حزب» الأشياء المحببة أو الشيء النفيس.

[٩٥٠] (٣). «يموهون» من «تمويه» بمعنى تزيين الشيء للاضلال ومزج الحق بالباطل.

[٩٥١] (١). «أضلعوا» في الأصل من مادة «ضلع» وبسبب عوج الاضلاع فإن «اضلاع» يعنى يجعلونها معوجة.

[٩٥٢] (٢). «لمة» تعنى الجماعة من النساء والرجال من ثلاثه إلى العشرة وتشير هنا إلى قلة عددهم وكثرة خطرهم.

[٩٥٣] (٣). «حمة» تعنى السم ويقال «حمة» لكل ما يلسع، مثل حمة وحرارة الشمس.

[٩٥٤] (٤). سورة المجادلة، الآية ١٩.

[٩٥٥] (١). سورة الأحزاب، الآية ١٣.

[٩٥٦] (١). سند الخطبة:

هذه الخطبة من خطب نهج البلاغة المحدودة التي لا مصدر لها سوى نهج البلاغة.

[٩٥٧] (١). «مقل» جمع «مقله» على وزن «غرفة» الجانب المحيط بالعين الذى يشمل السواد والبياض وقد شبه الإمام عليه السلام العقل

هنا بالإنسان الذى له عين باصرة تطلع إلى الأشياء العجيبة فتندesh لها.

[٩٥٨] (٢). «هماهم» جمع «همهمة» بمعنى الصوت الخفى الذى يطرق الأذن ولكن لا تدرك معناه.

[٩٥٩] (١). «إذعان» من «ذعن» على وزن «وطن» بمعنى الخضوع والإنقياد والطاعة، ومن هنا كان فى المرحلة الرابعة التى ذكرها الإمام

عليه السلام فى العبارة، الإيمان واليقين والإخلاص ونتيجة ذلك الطاعة والإنقياد.

[٩٦٠] (٢). سورة البقرة، الآية ١٣٨.

[٩٦١] (١). «دارسة» من مادة «دراسة» تعنى تكرار الشيء وبما أن الاستاذ يكرر المطلب حين التعلم لذلك يقال درس كما ترد هذه

المفردة بمعنى التآكل والاندفاع وهذا هو المعنى المراد فى الخطبة حيث إن الحوادث المتتالية والرياح والأمطار تؤدى إلى إندثار المباني فقد استعملت بهذا المعنى.

[٩٦٢] (٢). «طامسة» من «طمس» على وزن «شمس» بمعنى محو زوال آثار الشيء، كما وردت بمعنى الإزالة.

[٩٦٣] (٣). «صدع» من مادة «صدع» على وزن «صبر» مطلق الشق أو شق الأجسام القوية كما وردت بمعنى الاتضح حيث يتضح باطن

الشيء بشقه وهذا هو المعنى الذى أريد بها فى الخطبة.

[٩٦٤] (١). «همل» من مادة «همل» على وزن «حمل» تعنى فى الأصل ترك الجمال دون راع، ثم اطلقت على كل شخص أو عمل

دون مشرف.

[٩٦٥] (١). سورة المؤمنون، الآية ١١٥.

[٩٦٦] (٢). «استفتحوا» من مادة «فتح» تعنى فى الأصل الفتح، وعليه فالاستفتاح طلب الفتح والعون.

[٩٦٧] (٣). «استنجحوا» من «نجاح» السهولة والوصول إلى المطلوب.

[٩٦٨] (٤). «استمنحوا» من مادة «منح» على وزن «منع» تعنى فى الأصل اعطاء لبن الحيوان للحيوان ثم اطلقت على مطلق البذل والعطاء،

وعليه استمنح تعنى التماس العطاء.

[٩٦٩] (١). «يثلم» من مادة «ثلم» على وزن «صبر» و«ثلمة» على وزن «ضربة» تعنى فى الأصل كسر جانب الشيء، ثم اطلق على كل ما

يسبب كسراً لشخص أو شيء.

[٩٧٠] (٢). «حباء» من مادة «حبو» على وزن «ختم» تعنى فى الأصل العطاء دون مكافأة وهذا هو المعنى المراد.

[٩٧١] (٣). «يلوى» من مادة «لوى» على وزن «حوى» بمعنى الاعراض والانحراف والميل.

[٩٧٢] (٤). «توله» من «وله» على وزن «فرح» بمعنى الذهول من شدة الهم والغم ولذلك يقال الواله للعاشق المغموم.

[٩٧٣] (١). «يجن» من مادة «جنّ» على وزن «فنّ» أى يستره ولذا يقال لمن ستر عقله مجنون وكذلك يقال لطائفة الجن بسبب

سترهم؛ ويقال كذلك للجنين فى رحم أمه، ويقال «جنّة» للساتين التى سترت أرضها بالأشجار والنباتات.

[٩٧٤] (٢). «دان» من مادة «دين» على وزن «غير» تعنى أحياناً القرض وأحياناً الجزاء والحساب وهو المعنى المطلوب.

[٩٧٥] (٣). «لم يذراً» من «ذراً» على وزن زرع؛ بمعنى الخلق.

[٩٧٦] (٤). «كلال» له معنى المصدر واسم المصدر ويعنى التعب.

[٩٧٧] (١). سورة مريم، الآية ٦٣.

[٩٧٨] (٢). سورة الأعراف، الآية ٩٦.

[٩٧٩] (٣). «وثائق» جمع «وثيقة» ما يعتمد عليه.

[٩٨٠] (٤). «حقائق» جمع حقيقة، معناه معروف، ولكن أخذه بعض شراح نهج البلاغة (ابن أبى الحديد) بمعنى الرأية الذى لم يعثر

عليه فى أى قاموس لغوى.

[٩٨١] (٥). «تؤل» التى كانت فى الأصل «تؤول» وجزمت لأنها وقعت جزاء لشرط مقدر، فأصبحت تؤل) من مادة «أول» على وزن «

قول» بمعنى العودة، وعلى هذا الأساس فإنّ العبارة «تؤل بكم» تعنى أنها تعيدكم.

[٩٨٢] (٦). «أكنان» جمع «كنّ» على وزن «جنّ» بمعنى الستر والحاجز.

[٩٨٣] (٧). «دعه» بمعنى الاستراحة والهدوء.

[٩٨٤] (٨). «معقل» جمع «معقل» على وزن «مسجد» بمعنى الملجأ والحصن ويقال أحياناً للجبال العالية التى تحمى الناس من

الفيضانات وغيرها.

[٩٨٥] (١). «تشخص» من مادة «شخوص» بمعنى تركيز العين على نقطة معينة وإمتناعها عن الحركة، وهذه العبارة فى الغالب كناية عن

الربح والخوف.

[٩٨٦] (٢). «صروم» جمع «صرم» على وزن «فعل» وهو القاطع من الناقة وقيل فيما بعد لمجموعة الناس أو غيرهم أيضاً.

[٩٨٧] (٣). «عشار» جمع «عشراء» على وزن «وكلا» وهى الناقة مضى لحملها عشرة أشهر وهى نفيسة من حيثها وابنها الكامل فى بطنها

وهذه المفردة كناية عن الشيء الغالى والنفيس.

[٩٨٨] (٤). سورة الحج، الآية ٢.

[٩٨٩] (٥). «تزهق» من «زهوق» على وزن «غروب» بمعنى الهلاك.

[٩٩٠] (٦). «مهجة» تعنى فى الأصل الدم الموجود فى القلب والذى ترتبط ب حياة الإنسان، ثم اطلقت هذه المفردة على القلب.

[٩٩١] (٧). «تبكم» من «بكم» على وزن «قلم» بمعنى الخرس وعدم تحرك اللسان و «بكم» على وزن «قفل» جمع «أبكم» تعنى الفرد

الأصم والأبكم.

[٩٩٢] (٨). «شتم» جمع «أشتم» أى الرفيع.

[٩٩٣] (٩). «شوامخ» جمع «شامخ» بمعنى العالى. وعلى هذا الأساس «الشّم الشوامخ» على سبيل التأكيد على علو الجبال.

[٩٩٤] (١٠). «صمّ» جمع «أصم» تأتى بمعنى الأصم وكذلك الضخور الثقيلة وهو المراد فى العبارة.

[٩٩٥] (١١). «رواسخ» جمع «راسخ» بمعنى الثابت والصلد.

[٩٩٦] (١). «صلد» يقال للصحخ الصلب الأملس الذى لا يثبت عليه شىء، وتأتى أيضاً بمعنى الصعب البخيل أيضاً والمراد هنا هو المعنى الأول.

[٩٩٧] (٢). «رفرق» بمعنى الدمع الذى يحيط بالعين ويلمع ولا يخرج منها، ثم اطلق على كل قليل وخفيف وكذلك تعنى اللمعان والبريق.

[٩٩٨] (٣). «معهد» المكان الذى يرجع إليه وتطلق هذه المفردة اليوم على المدارس. و«معهدا» تعنى محل الجبال.

[٩٩٩] (٤). «قاع» تعنى الأرض المستوية.

[١٠٠٠] (٥). «سملق» الأرض المستوية التى لا يوجد فيها مكان أعلى من الآخر.

[١٠٠١] (٦). سورة الحج، الآيتان ١ و ٢.

[١٠٠٢] (٧). سورة الزمر، الآية ٦٨.

[١٠٠٣] (١). سورة غافر، الآية ١٨.

[١٠٠٤] (٢). سورة الروم، الآية ٥٧.

[١٠٠٥] (٣). سورة الأنبياء، الآية ٢٨.

[١٠٠٦] (١). سند الخطبة:

روى الآمدى بعضها (فى غرر الحكم فى حرف الالف) كما روى بعض ممّا فى الخطبة ١٩٢ مع جوانب من هذه الخطبة والخطبة ١٩١ وهذا يدل على أنّ الخطبتين خطبة واحدة (وأنّ الآمدى أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغة) (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٧٤).

[١٠٠٧] (١). «سطوع» بمعنى الصعود والاتساع والنور الساطع الذى يضيء ما حوله.

[١٠٠٨] (١). سورة الجمعة، الآية ٢.

[١٠٠٩] (٢). «شخوص» بمعنى الظهور والطلوع أو الانتقال من محل إلى آخر وهذا هو المعنى المراد بهذه العبارة.

[١٠١٠] (٣). «تقصفها» من مادة «قصف» على وزن «حذف» بمعنى الكسر.

[١٠١١] (٤). «لجج» جمع «لجج» البحر العميق.

[١٠١٢] (٥). «وبق» من مادة «وبق» على وزن «فقر» بمعنى الهالك صيغة «وبق» على وزن «خشن» له معنى الصفة.

[١٠١٣] (٦). «تحفزه» من مادة «حفز» على وزن «لفظ» بمعنى الدفع قدماً والطرء.

[١٠١٤] (١). «سكان» ما يشبه مقود المركبة الذى يقود السفينة إلى اليمين واليسار.

[١٠١٥] (٢). الكافى، ج ١، ص ١٦.

[١٠١٦] (١). «لدنة» من مادة «لدانة» على وزن «شبانة» يعنى اللين قبل حلول الشيخوخة والذبول وقلة الحركة.

[١٠١٧] (٢). «منقلب» محل الرجوع وهو إشارة هنا إلى ميدان العمل.

[١٠١٨] (٣). «فسيح» من مادة «فسح» على وزن «مسح» بمعنى الواسع.

[١٠١٩] (٤). «ارهاق» من «رهق» على وزن «شفق» بمعنى الضغط على شخص، كما وردت بمعنى الإقتراب، وعليه «ارهاق الفوت»

يمكن أن تكون إشارة إلى الضغط من حيث الموت أو إقتراه.

[١٠٢٠] (١). سند الخطبة:

رواها المرحوم الشيخ المفيد قبل السيد الرضى مع اختلاف طفيف فى كتاب المجالس، كما ذكر أغلبها الآمدى فى غرر الحكم فى حرف الواو. وفى رواية الآمدى إضافات تفيد أنه استقاها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٧٥ و ٧٦).

- [١٠٢١] (١). ورد في هذه الخطبة الكلمة «ولقد» خمس مرات حيث تؤكد كل واحدة منها موضوعاً معيناً، ويرى بعض شراح نهج البلاغة أنّ الواو هنا هي واو القسم، بينما ذهب بعض اساتذة العربية إلى أنّ الواو استثنائية واللام جواب القسم، ويعتقدون أنّ القسم محذوف تقديره «وأقسم بالله لقد...». وجاء في كتاب معنى اللبيب المشهور أنّ اللام في هذه الموارد هي لام القسم؛ لكن قال أبوحيان: إنّ اللام في الآية (ولقد علمتم...) لام الابتداء للتأكيد، وربما سبقت بقسم محذوف، (معنى اللبيب، حرف «لام») ويحتمل أن لا يكون قسم في العبارة، بل «لام» و«قد» كلاهما للتأكيد، ولذلك لم يذكر أغلب المترجمين معنى القسم هنا في الترجمة.
- [١٠٢٢] (١). سورة التوبة، الآية ٥٨.
- [١٠٢٣] (٢). انظر: المصنّف عبدالرزاق الصنعاني، ج ٥، ص ٣٣٩. وكذلك نقل هذا الحديث السيوطي في الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٧٧ ذيل الآية ٢٦ سورة الفتح، والطبري في تاريخه المعروف في ج ٢، ص ٢٨٠ حوادث سنة ٦ للهجرة.
- [١٠٢٤] (١). «واسيت» و«آسيت» كلاهما من مادة واحدة ولهما معنى واحد؛ كلاهما من «أشى» على وزن «سعى» بمعنى الاشتراك في الشيء و«مواساة» بمعنى إشراك الآخرين في المال والإمكانات الدنيوية.
- [١٠٢٥] (٢). «تنكص» من مادة «نكص» على وزن «عكس» يعني العودة إلى الوراء وتطلق على انسحاب الجيش من المعركة و«نجدة» بمعنى الشجاعة والصمود مقابل العدو.
- [١٠٢٦] (٣). انظر: تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٩ (حوادث السنة الثالثة).
- [١٠٢٧] (٤). المصدر السابق، ص ٢٣٩ (حوادث السنة الخامسة).
- [١٠٢٨] (٥). المصدر السابق، ص ٣٠٠ (حوادث السنة السابعة).
- [١٠٢٩] (٦). المصدر السابق، ص ٣٤٧ (حوادث السنة الثامنة).
- [١٠٣٠] (١). انظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم وابن أبي الحديد؛ وفي ظلال القرآن للشيخ محمد جواد معني، (ذيل الخطبة).
- [١٠٣١] (٢). سورة زمر، الآية ٤٢.
- [١٠٣٢] (٣). منهاج البراعة، للمحقّق الخوئي ونهج الصباغة للمحقّق التستري (ذيل خطبة).
- [١٠٣٣] (١). «أفنية» جمع «فناء» على وزن «غناء» ما اتسع أمام الدار وجوانبه.
- [١٠٣٤] (٢). «هينمة» تعني الصوت الخفي.
- [١٠٣٥] (٣). «وارينا» من مادة «موراة» ومن مادة «ورى» على وزن «نقى» بمعنى الكتمان والتغطية وتعني هنا الدفن.
- [١٠٣٦] (١). بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٩٢.
- [١٠٣٧] (٢). «مزلّة» من مادة «زلل» على وزن «ضرر» مكان الزلل الموجب للسقوط في الهلكة.
- [١٠٣٨] (١). كتب المرحوم العلامة التستري في شرحه نهج البلاغة: ج ٤، ص ٨٨ هذه الخطبة من الخطب التي ألقاها أمير المؤمنين عليه السلام في صفين حسب نقل نصر بن مزاحم في كتاب صفين.
- [١٠٣٩] (١). صحيح البخاري، كتاب العلم، ح ١١٤ وكتاب المرضى، ح ٥٦٦٩.
- [١٠٤٠] (٢). سورة آل عمران، الآية ١٤٤.
- [١٠٤١] (٣). جاء في تاريخ الطبري أنّه لما حضرت رسول الله صلى الله عليه وآله الوفاة، كان أبو بكر في موضع «سُبخ» في أحد أطراف المدينة، وحين توفي صلى الله عليه وآله نهض عمر وقال: يظن بعض المنافقين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات، والله إنّّه لم يمت وإنما رفعه الله إليه، كما غاب موسى عن قومه أربعين ليلة ثم عاد (وسوف يعود رسول الله صلى الله عليه وآله) فلما علم أبو بكر ذهب إلى بيت النبي فعلم بوفاة النبي صلى الله عليه وآله ورجع إلى المسجد وكان عمر ما زال يحدث الناس فقاطعه أبو بكر وقال ما ورد سابقاً. (تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٤٢ حوادث سنة ١١).

- [١٠٤٢] (١). ورد فى المصادر الروائية لأهل البيت عليهم السلام أن علياً عليه السلام قال: إن أشرف موضع هو الموضع الذى قبض فيه الله نبيه صلى الله عليه وآله؛ ومن هنا دفن فى بيته. (الكامل البهائى، ج ١، ص ٢٨٥، تأليف عماد الدين الطبرى).
- [١٠٤٣] (٢). الملل والنحل للشهرستانى، ص ١٦-١٩، طبعه دار الفكر بيروت، (بتلخيص).
- [١٠٤٤] (١). سند الخطبة:
- قال صاحب مصادر نهج البلاغة: ما ذكره السيد الرضى هنا فى الخطبة ١٠٤ (الخطبة ١٠٦ حسب التسلسل فى هذا الكتاب) واحد كما يتضح من التأمل فى العبارات (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٨٢)؛ لكنه لم يذكر لذلك مصدراً آخر غير نهج البلاغة، وتفيد سائر الدراسات والتحقيقات عدم وجود مصدر آخر غير نهج البلاغة. وللأسف فقد ذكرت فى بعض الكتب (مثل نهج البلاغة نسخة المعجم المفهرس للنشر الإسلامى التابع لجماعة المدرسين) ستة مصادر غير نهج البلاغة لهذه الخطبة وليس فيها حتى مصدر صحيح واحد؛ إلا أن مضمون الخطبة ورفعتها لا يمكن أن تصدر من غير الإمام، وهذا دليل على قوة سندها.
- [١٠٤٥] (١). «عجيج» من مادة «عجج» على وزن «حجج» بمعنى الصراخ وتستعمل غالباً للحيوانات.
- [١٠٤٦] (٢). «فلوات» جمع «فلاة» بمعنى الأرض الواسعة والقاحلة ويقال أحياناً للصحراء.
- [١٠٤٧] (٣). «نينان» جمع «نون» تعنى السمكة الكبيرة ويقال أيضاً للحوت.
- [١٠٤٨] (٤). «غامرات» من مادة «غمر» على وزن «عمد» بمعنى محوشىء. ثم اطلقت على المياه التى تغطى الأرض أو موجوداته، والبحر الغامر هو البحر العميق.
- [١٠٤٩] (٥). «عاصفات» جمع «عاصفه» من مادة «عصف» على وزن «حذف» تعنى القشَّة و«عاصف» الرياح الشديدة التى تفرق القش والأوراق اليابسة أو تفرق الأشياء كالقشَّة.
- [١٠٥٠] (١). «نجيب» من «نجابة» تعنى المختار المصطفى وكل غال ونفيس.
- [١٠٥١] (٢). سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.
- [١٠٥٢] (٣). سورة التكوير، الآية ٢٠.
- [١٠٥٣] (٤). مجمع البيان، ذيل الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.
- [١٠٥٤] (١). «مفزع» من مادة «فرع» بمعنى الخوف وتعنى مفردة (مفزع) الملجأ، لأنَّ الإنسان يلجأ إليها فى خوفه.
- [١٠٥٥] (٢). سورة يونس، الآية ١٠٧.
- [١٠٥٦] (٣). سورة النحل، الآية ٥٣.
- [١٠٥٧] (٤). «عشا» من «عشو» على وزن «نشر» بمعنى ضعف العين أو البحث عن شىء بعين ضعيفة و«عشا» اسم مصدر تعنى ضعف البصر.
- [١٠٥٨] (٥). «جأش» بمعنى ما يضطرب فى القلب عند الفزع ومن حيث إنَّ القلب (الروح) هو مركز هذه الأمور فيقال أحياناً جأش للقلب أيضاً ويمكن للثان أن يكونا المعنى المراد.
- [١٠٥٩] (٦). بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٢٩١.
- [١٠٦٠] (١). سورة النمل، الآية ٨٩.
- [١٠٦١] (١). «منهل» بمعنى المكان الذى يصلون منه إلى الماء ومن مادة «نهل» على وزن «محل» بمعنى ابتداء شرب الماء.
- [١٠٦٢] (٢). «ورود» تعنى فى الأصل الذهاب قرب الماء، ثم اتسع معناها ليشمل الدخول فى كل شىء.
- [١٠٦٣] (٣). «درك» على وزن «سَمَك» بمعنى اللحاق والوصول والتعويض عن شىء.
- [١٠٦٤] (٤). «أوار» على وزن «غبار» بمعنى حرارة الشمس ولهيبها وتطلق أحياناً على العطش الناتج منه.

- [١٠٦٥] (١). سورة نوح، الآيات ١٠-١٢.
- [١٠٦٦] (٢). «عزبت» من مادة «عزوب» على وزن «غروب» تعنى فى الأصل الغياب والبعد عن العائلة لايجاد مرتع للبهائم ثم اطلقت على كل غياب وابتعاد. ويقال كذلك للرجال والنساء البعيدين عن أزواجهم، أو يقال «عزب» على وزن «عرب» لمن لم يختر زوجة بعد.
- [١٠٦٧] (٣). «احلوت» فى الأصل من «حلو» على وزن «حكم»، معروف و«احلوت» التى من باب المزيد فيه أخذت معنى الكثرة؛ وعلى هذا الأساس فإن «احلول» يعنى الكثير الحلاة، مثل «اعشوشب» بمعنى الكثير العشب.
- [١٠٦٨] (٤). «انصاب» مصدر باب الأفعال بمعنى الاتعاب من مادة «نصب» على وزن «نَسَب» بمعنى التعب.
- [١٠٦٩] (٥). «هطل» بمعنى نزول المطر المتواصل.
- [١٠٧٠] (٦). «قحوط» بمعنى المجاعة.
- [١٠٧١] (١). «تحدثت» من مادة «حدب» على وزن «أدب» تعنى فى الأصل الأراضى العالیه بين الأراضى الواطئة، وكذلك يقال «حدب» للبروز فوق الجسم وكذلك يقال للشىء الذى يحيط بآخر وهو المعنى المقصود فى العبارة.
- [١٠٧٢] (٢). «نضوب» تعنى فى الأصل ذهاب الماء فى الأرض، ثم اطلقت على القضاء على كل شىء.
- [١٠٧٣] (٣). «وبلت» من مادة «وبل» على وزن «جبل» بمعنى المطر الشديد ذى القطرات الكبيرة وهنا تعنى سقوط البركات الإلهية بكثرة.
- [١٠٧٤] (٤). «إرذاذ» بمعنى سقوط المطر الخفيف.
- [١٠٧٥] (٥). سورة الأعراف، الآية ٩٦.
- [١٠٧٦] (٦). سورة الطلاق، الآيتان ٢ و ٣.
- [١٠٧٧] (٧). سورة البقرة، الآية ١٨٣.
- [١٠٧٨] (١). «اصطنع» من مادة «اصطناع» على وزن افتعال بمعنى التحضير والتنمية والتكبير لشيء.
- [١٠٧٩] (٢). سورة آل عمران، الآية ٨٥.
- [١٠٨٠] (٣). سورة طه، الآية ٣٩.
- [١٠٨١] (٤). بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٣٧، ح ٥. والآية الواردة فى النص هى، الآية ٣١ سورة آل عمران.
- [١٠٨٢] (٥). «محادى» من «محاداة» بمعنى المخالفة والعداوة ومادته الأصلية «حدّ» التى تعنى نهاية وطرف كل شىء وذلك لأن العدو يكون فى الطرف الآخر. «محاداة» بمعنى المخالفة) جدير ذكره أن «محادى» فى الأصل «محادين» اسم فاعل صيغته الجمع وحذفت النون للإضافة).
- [١٠٨٣] (١). «أتأق» من مادة «تأق» بمعنى الامتلاء وإن وردت فى باب الأفعال عنت الملىء.
- [١٠٨٤] (٢). «مواتح» جمع «ماتح» بمعنى من يسحب الماء من البئر.
- [١٠٨٥] (٣). سورة الصف، الآية ٩.
- [١٠٨٦] (٤). سورة الصف، الآية ٨.
- [١٠٨٧] (٥). «عفاء» بمعنى القدم والانداس وهى فى الأصل من عفوية معنى صرف النظر عن شىء ولأن صرف النظر يؤدى إلى قدم وانداس الشىء استخدمت هذه المفردة فى العبارة فوق.
- [١٠٨٨] (١). سورة الأحزاب، الآية ٤٠.
- [١٠٨٩] (٢). «ضنك» بمعنى الضيق وهى تستخدم دائماً مفردة.

- [١٠٩٠] (٣). «وعوثة» بمعنى المشقة والعسر.
- [١٠٩١] (٤). «وضح» من مادة «وضوح» بمعنى الظهور والبيان.
- [١٠٩٢] (٥). «انتصاب» من مادة «نصب» يعنى الوقوف.
- [١٠٩٣] (٦). «عصل» بمعنى الاعوجاج.
- [١٠٩٤] (٧). «فج» تعنى فى الأصل الوادى؛ أى الطريق الواسع بين جبلين. ثم اطلقت على الطرق العامة بصورة عامة.
- [١٠٩٥] (٨). ورد هذا الحديث فى العديد من كتب الشيعة والسنة منها فى المحصول للفخر الرازى ج ٥، ص ١٧٥، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ١٤٤؛ الكافى، ج ٥، ص ٤٩٤.
- [١٠٩٦] (١). «أساخ» من مادة «سوخ» على وزن «صوت» بمعنى الغوص فى شىء ما وإن وردت فى باب الأفعال عنت الغوص والخوض.
- [١٠٩٧] (٢). «أسناخ» جمع «سنخ» على وزن «صبر» بمعنى الأصل.
- [١٠٩٨] (٣). «أساس» جمع «أساس» بمعنى عمود البناء.
- [١٠٩٩] (٤). «غزرت» من مادة «غزارة» بمعنى الكثرة.
- [١١٠٠] (١). «سفار» جمع «سافر» بمعنى المسافر.
- [١١٠١] (٢). الكافى، ج ٢، ص ١٨، باب دعائم الإسلام، ح ١.
- [١١٠٢] (٣). سورة المائدة، الآية ٣.
- [١١٠٣] (١). سورة آل عمران، الآية ٨٥.
- [١١٠٤] (٢). منهاج البراعة، ج ١٢، ص ٢٩٤.
- [١١٠٥] (٣). «معوز» من مادة «اعوزاز» بمعنى الازمة والقلّة.
- [١١٠٦] (١). «اطلاع» من مادة «طلوع» بمعنى الظهور والإتيان والاشراف والعلم بشىء.
- [١١٠٧] (٢). «ساق» تعنى فى الأصل ساق الإنسان ولأنّ الإنسان يقف على ساقه فى الأعمال الصعبة والمعقدة، لذا أصبحت هذه المفردة كناية عن الشدة والمشقة.
- [١١٠٨] (٣). «مهاد» تعنى فى الأصل الفراش، ثم اطلقت على الأراضى المستوية بصورة عامة.
- [١١٠٩] (٤). «أزف» من مادة «ازوف» على وزن «وقوف» بمعنى التقرب.
- [١١١٠] (٥). «قياد» من «قيد» تعنى القبض و«قياد» هو الحبل الذى يوضع حول رقبة الحيوانات والعبارة «ازف منها قياداً» تعنى كأنهم وضعوا حبلاً حول رقبة الدنيا وسحبوها إليهم.
- [١١١١] (٦). «اشراط» جمع «شرط» على وزن «شرف» بمعنى العلامة.
- [١١١٢] (٧). «تصرّم» من مادة «صرم» على وزن «سرو» بمعنى القطع و«تصرّم» بمعنى الانتهاء.
- [١١١٣] (٨). «عفاء» تستعمل بالمعنى المصدرى والاسم المصدرى؛ يعنى الزوال والاضمحلال، واقتبس العفو من هذا المعنى؛ لأنّ الذنوب تضحل على أثر العفو.
- [١١١٤] (١). بحار الأنوار، ج ٥٤، ص ٣٣٦. وذكر المرحوم العلامة الطباطبائى فى الجزء الرابع من الميزان فى ذيل الآية الأولى من سورة النساء بحث جامع.
- [١١١٥] (١). «يخبو» من مادّه «خبو» على وزن «سرو» بمعنى الانطفاء.
- [١١١٦] (٢). «منهاج» تعنى الطريق الواسع الواضح و«نهج» تعنى السير فى مثل هذا الطريق.

- [١١١٧] (١). سورة فصلت، الآية ٤٢.
- [١١١٨] (٢). جاء في نسخه نهج البلاغة «لصبحي الصالح» «تبيان» بدل «بيان»؛ ولكن ذكر مجموعة من الشراح كلمة «بيان» وهي المتناسبة مع «لا تهدم أركانه».
- [١١١٩] (٣). الكافي، ج ٨، ص ٢٧٣، ح ٤٠٩.
- [١١٢٠] (١). «بحبوحه» بمعنى مركز ووسط كل شيء.
- [١١٢١] (٢). «رياض» جمع «روضه» بمعنى البستان.
- [١١٢٢] (٣). «عذران» جمع «عذير» بمعنى البركة والنهر وهي في الأصل حفرة تتجمع فيها المياه من السيول.
- [١١٢٣] (٤). «أثافي» جمع «أثفيّة» على وزن «أضحية» من ماده «أثف» على وزن «أنف» بمعنى الثبات والاستقرار ويقال «أثفيّة» للصخور الثابتة التي يوضع عليها الإناء.
- [١١٢٤] (٥). «غيطان» جمع «غيط» على وزن «زيد» بمعنى الشدة والأرض الوسيعة.
- [١١٢٥] (٦). «ينزف» من ماده «نزف» على وزن «نظم» بمعنى اخراج الماء من شيء (و كذلك بمعنى أخذ الدم) ويقال «مستنزون» لمن يخرجوا الماء من الحفرة أو البئر بحيث ينفذ.
- [١١٢٦] (٧). «ينضب» في الأصل من ماده «نضوب» بمعنى غوص الماء في الأرض وعبارة «لا ينضبها» أن الماء لا ينفذ تلك العيون.
- [١١٢٧] (٨). «ماتحون» جمع «ماتحة» من ماده «متح» على وزن «مدح» بمعنى سحب الماء من البئر أو العين.
- [١١٢٨] (٩). «يغيض» من ماده «غيض» على وزن «غيب» تعني في الأصل الغوص أو السحب (اللازم والمتعدى) وتعني في هذه العبارة التقليل.
- [١١٢٩] (١). «آكام» جمع «أكمة» على وزن «طلبه» بمعنى المرتفع الذي صنع من الصخر أو الرمل.
- [١١٣٠] (٢). سورة النساء، الآية ١٣٥.
- [١١٣١] (٣). سورة المائدة، الآية ٨.
- [١١٣٢] (١). الكافي، ج ٢، ص ١٨، باب دعائم الإسلام.
- [١١٣٣] (٢). المصدر السابق، ص ٥٩٩.
- [١١٣٤] (٣). بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٢١٣، ح ١٨.
- [١١٣٥] (١). «رى» (بكسر الراء وفتحها) بمعنى الارتواء.
- [١١٣٦] (٢). «محايج» جمع «محيجة» بمعنى الطريق الواسع والواضح.
- [١١٣٧] (٣). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٤٥٧.
- [١١٣٨] (١). سورة النور، الآية ٣٥.
- [١١٣٩] (٢). «معقل» بمعنى الملجأ والموضع من ماده «عقل» بمعنى المنع، لأن الملاجيء تقى الإنسان من الحوادث.
- [١١٤٠] (٣). «انتحل» تعني قبول مذهب ودين من ماده «نحلة» على وزن «خرقة» تعني الإيمان.
- [١١٤١] (٤). «فلج» بمعنى الظفر والفوز.
- [١١٤٢] (١). «توسم» من «وسم» على وزن «وصل» بمعنى نصب العلامة وتعني أحياناً الجمال.
- [١١٤٣] (٢). «استلام» من ماده «لثم» على وزن «لعن» بمعنى التجميع والالتيام وتناسب شيئين و«استلام» تعني لبس الآلات الحربية والدروع، أي كما أنهم قد ناسبوا بين أجسامهم ولبس هذه الأشياء.
- [١١٤٤] (١). «ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من

السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (سورة البقرة، الآية ١٦٤).

[١١٤٥] (١). «وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِهْنُونَ وَعَيْرٌ صِهْنُونَ يُشْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَّضٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (سورة الرعد، الآية ٤).

[١١٤٦] (٢). «الْمُ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». (سورة النحل، الآية ٧٩).

[١١٤٧] (٣). «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُنْسِطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَيْفَ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ»، «فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا». (سورة الروم، الآيتان ٤٨ و ٥٠).

[١١٤٨] (٤). «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ». (سورة الأعراف، الآية ٢٩).

[١١٤٩] (٥). «وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا». (سورة الكهف، الآية ٤٥).

[١١٥٠] (٦). «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ». (سورة يس، الآيتان ٧٨ و ٧٩).

[١١٥١] (٧). «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ». (سورة النساء، الآية ١٣٥).

[١١٥٢] (٨). «وَلَمَّا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَايُنَا قَوْمَ عَلِيٍّ أَلَّا تَعِيدُوا أَعِيدُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». (سورة المائدة، الآية ٨).

[١١٥٣] (١). «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا». (سورة آل عمران، الآية ١٠٣).

«وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ». (المنافقون، الآية ٨).

[١١٥٤] (٢). ثقافة المستشرقين المسلمين، تأليف حسين عبد الله خروش، ج ١، ص ١٥.

[١١٥٥] (١). عصر الإيمان، القسم الثاني، الحضارة الإسلامية، ص ٥٢.

[١١٥٦] (٢). ثقافة المستشرقين المسلمين، ج ١، ص ١٥.

[١١٥٧] (٣). المصدر السابق، ص ١٤.

[١١٥٨] (٤). من مقدمة منظمات المدينة للإمبراطورية الإسلامية، ص ١١١.

[١١٥٩] (١). التفسير الأمثل، ج ١، ذيل تفسير الآية ٢٣ و ٢٤ من سورة البقرة.

[١١٦٠] (١). سند الخطبة:

روى المرحوم الكليني قبل السيد الرضى قسماً رئيسياً من هذا الكلام فى الكافي، كتاب الجهاد (الكافي، ج ٥، ص ٣٦). ولم يرد أكثر من هذه فى مصادر نهج البلاغة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٨٥).

[١١٦١] (١). سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

[١١٦٢] (١). سورة النساء، الآية ١٠٣.

[١١٦٣] (٢). بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٣٠٨، ح ٩.

[١١٦٤] (٣). وسائل الشيعة، ج ٣، باب ١٠، أبواب اعداد الفرائض، ح ٧.

[١١٦٥] (١). الكافي، ج ٣، ص ٢٦٥، ح ٦.

- [١١٦٦] (٢). سورة النساء، الآية ١٠٣.
- [١١٦٧] (٣). «سقر» في الأصل من «سقر» على وزن «فقر» بمعنى التغيير والتدوب وتغير اللون والأذى من أشعة الشمس ولأنها من آثار جهنم اطلق عليها «سقر». ويستفاد من بعض الروايات أن «سقر» يطلق على قسم خاص من جهنم هو مكان المتكبرين.
- [١١٦٨] (٤). سورة المدثر، الآيتان ٤٢ و ٤٣.
- [١١٦٩] (٥). سورة المدثر، الآيات ٤٤-٤٦.
- [١١٧٠] (١). «حَتَّ» تعني في الأصل فصل الورقة عن الشجرة، واطلقت فيما بعد على فصل الأشياء عن بعضها.
- [١١٧١] (٢). «ربق» على وزن «عنب» جمع «ربق» على وزن «فعل» تعني الحبل الذي يتضمن عقد عديده وعندما يريد الشخص أن يضعها في صف يشد كل واحدة بإحدى العقد.
- [١١٧٢] (٣). سورة العنكبوت، الآية ٤٥.
- [١١٧٣] (٤). وسائل الشيعة، ج ٣، الباب ٣٢ من أبواب أعداد الفرائض، ح ٣.
- [١١٧٤] (٥). «درن» على وزن «لجن» بمعنى الوسخ والقذارة.
- [١١٧٥] (٦). نقل هذا الحديث المرحوم الشيخ الحرّ العاملي في وسائل الشيعة، ج ٣، الباب الثاني من أبواب أعداد الفرائض، ح ٣، مع هذا الفارق أنه نقل بدل «حمّه» «نهر» و«النهر الجاري». وهذا المتن ورد في مسند أحمد، ج ١، ص ٧٢، طباعة دار الصادر بيروت وصحيح مسلم، ج ٢، ص ١٣٢ طبعة دار الفكر أيضاً.
- [١١٧٦] (١). سورة النور، الآية ٣٧.
- [١١٧٧] (٢). «نصب» على وزن «خجل» بمعنى التعب (بكسر العين) والصفة المشبهة «نَصَب» على وزن «حسب» التعب.
- [١١٧٨] (٣). سورة طه، الآية ١٣٢.
- [١١٧٩] (٤). «يصبر» من «صبر» معروفه وهو غالباً ما يكون فعلاً لازماً؛ ولكن يمكن أن يكون متعدياً أحياناً؛ أي اجبارهم على الصبر وهو المعنى المراد في العبارة.
- [١١٨٠] (١). سورة طه، الآية ١٤.
- [١١٨١] (٢). سورة العنكبوت، الآية ٤٥.
- [١١٨٢] (١). سورة الأعراف، الآية ٢٠١.
- [١١٨٣] (٢). بحار الأنوار، ج ٨٥، ص ١٦.
- [١١٨٤] (١). الكافي، ج ٤، ص ٣، ح ٦.
- [١١٨٥] (٢). سورة التوبة، الآية ٥٤.
- [١١٨٦] (٣). «لهف» بمعنى التأسف والندم والحزن.
- [١١٨٧] (٤). سورة الدهر، الآية ٩.
- [١١٨٨] (١). «إِذَا أَمْلَقْتُمْ فَتَاجِرُوا اللَّهَ بِالصَّدَقَةِ» (نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٥٨).
- [١١٨٩] (٢). سورة البقرة، الآية ٢٧٦.
- [١١٩٠] (١). سورة التوبة، الآية ١٠٣.
- [١١٩١] (١). الكافي، ج ٢، ص ١٠٤.
- [١١٩٢] (٢). بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١١٤.
- [١١٩٣] (٣). «مبتيّة» من مادة «بناء» ولأنّ وجود البناء في تركيب السماء والأرض أمر بديهي فلذلك أشارت هذه المفردة إلى مفهوم

أهم وهو الارتفاع والعظمة في البناء.

[١١٩٤] (٤). «مدحوة» من مادة «دحو» على وزن «محو» أى البسط والمراد من «دحو الأرض» هو أنه في بادئ الأمر - كما تؤكد علوم الأرض - كانت الأرض مغطاة من قبل الأمطار والفيضانات، ثم تجمعت هذه المياه في أخاديد الأرض وظهرت اليابسة من تحت الماء فأصبحت الأرض مهيتة لسكن.

[١١٩٥] (١). سورة الإسراء، الآية ٧٠.

[١١٩٦] (٢). سورة البقرة، الآية ٣٠.

[١١٩٧] (٣). سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

[١١٩٨] (٤). سورة التوبة، الآيتان ١٢٤ و ١٢٥.

[١١٩٩] (١). الكافي، ج ٥، ص ١٣٣، ح ٥.

[١٢٠٠] (٢). بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١١٤.

[١٢٠١] (١). سورة غافر، الآية ١٩.

[١٢٠٢] (١). سند الخطبة:

روى المرحوم الكليني هذه الخطبة (بعبارة مختصرة ومشابهة) في الجزء الثاني من أصول الكافي ص ٣٣٦ و ٣٣٨ بسندين أحدهما عن الإمام الصادق عليه السلام والآخر عن الأصبع بن نباتة عن أمير المؤمنين على عليه السلام. وبالنظر لما ذكره ابن نباتة من أن الإمام ألقى هذه الخطبة على منبر الكوفة فإنها جانب من خطبة طويلة أكتفى المرحوم الشريف الرضى منها بهذا المقدار. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٨٥).

[١٢٠٣] (١). «أدهى» من مادة «دهى» على وزن «وحى» بمعنى شدة الفطنة وتأتى أيضاً بمعنى الكارثة والمصيبة، والمراد في العبارة هو المعنى الأول.

[١٢٠٤] (١). نيل الأوطار، ج ٨، ص ٧٩؛ وصحيح البخارى، ج ٨، ص ٦٢ (كتاب الحيل).

[١٢٠٥] (٢). «استغمز» من مادة «غمز» على وزن «رمز» بمعنى الإضعاف وأيضاً بمعنى الضغط والكلام البدىء والمراد هنا هو المعنى الأول.

[١٢٠٦] (١). سورة القصص، الآية ٤.

[١٢٠٧] (١). انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٠، ص ٢١٢ - ٢٦٠.

الجزء الثامن

الخطبة ٢٠١

إشارة

يَعِظُ بِسُلُوكِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ [١]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة القصيرة إلى ثلاثة أمور مهمة تشكل كل واحدة منها جزءاً من هذه الخطبة:

١. إنها تدعو السائرين على طريق الحق إلى الثقة بالنفس بحيث وألاً يشعروا بوحش من هذا الطريق رغم قلّة سالكيه.

٢. أشارت إلى أصل اسلامى مهم وهو أن الرضا بأعمال الآخرين يجعل الإنسان شريكاً لهم في تلك الأعمال، وإن لم يكن له من تدخل في تلك الأعمال.

٣. يوصى بانتخاب طريق الحق الواضح والشفاف واليّن من أجل الوصول

نفعات الولاية، ج ٨، ص: ٦

إلى الهدف والحذر من سلوك الطرق المظلمة الملتوية التي تنتهى إلى الغي والضلال.

نفعات الولاية، ج ٨، ص: ٧

أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلْبِهِ أَهْلِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شَبَعَهَا قَصِيرٌ، وَجُوعَهَا طَوِيلٌ.
أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَى وَالسُّخْطُ. وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَهُ تَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمَّوهُ بِالرِّضَى، فَقَالَ سُبْحَانَهُ:
«فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ» [٢] فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخُسْفَةِ خَوَارَ السَّكَّةِ
الْمُحَمَّاهُ فِي الْأَرْضِ الْخَوَارَةَ.

أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَّ الْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التَّيِّهِ!

الشرح والتفسير: سبيل النجاة

يواسى الإمام عليه السلام- في هذا الموضوع العميق المعنى- السائرين على النهج أن لا يشعروا قلوبهم أدنى تردد بسبب قلّة سالكيه، فيقول: «أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلْبِهِ أَهْلِهِ».

ثم يشير إلى تبرير ذلك فيقول: «فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شَبَعَهَا [٣] قَصِيرٌ، وَجُوعَهَا طَوِيلٌ». في إشارة إلى أن أهل الطريق القويم إن كانوا قلّة فإنما يعزى ذلك إلى مغريات الدنيا، فقد شبه الإمام عليه السلام الدنيا في هذا الكلام العميق المعنى نفعات الولاية، ج ٨، ص: ٨

بمائدة الطعام الغناء التي ملئت بالأطعمة ذات القيمة القليلة أو العديمة القيمة من الناحية الغذائية؛ ولكنها زينت بالبهرجة والزخرف، وقد اجتمع حولها طلاب الدنيا متناسين أن أطعمتها إنّما تشبعهم لأمد قصير يتبعه جوع طويل.

ولعل هذا «الجوع الطويل» إشارة إلى الحزن والحسرة الأبدية التي تطال المتهاوتين على الدنيا عند الموت وبعده وفي مشهد القيامة، ومدى الأسى الذي يعتريهم على تقصيرهم في هذه الدنيا.

والواقع أن عبارة الإمام عليه السلام هذه العظيمة المعنى هي اقتباس من آيات القرآن الكريم، فقد جاء في الآية ١٠٠ من سورة المائدة: «قُلْ لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ».

بالإضافة إلى الآيات التي تتحدّث عن الأكريّة الجاهلة، عديمة الإيمان، غير العاقلة، الفاسقة، الجاحدة وأمثال ذلك.

ثم ذكر الأمر الثاني؛ الأمر الذي من شأنه حلّ الكثير من المسائل العقائدية والاجتماعية تكمن في أن الذي يميز الجماعات البشرية، الاتجاهات الفكرية ونوازع القلوب، وإن كانوا أفراداً معينين في ظرف معين؛ حيث ينضوى معهم كلّ من تضامن معهم فكراً وارتضاهم قلبياً.

قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَى وَالسُّخْطُ» [٤].

وعليه فليس سبب الاشتراك في النتيجة مجرد الاشتراك في العمل أو إعداد مقدماته والإعانة على الإثم فحسب؛ بل يترتب هذا الاشتراك على الرضى القلبى، ومن هنا وردت صراحة هذه العبارة في الزيارة: «وَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً سَمِعَتْ بِذَلِكَ فَرَضِيَتْ بِهِ» [٥].

وقد مرّ علينا في الخطبة الثانية عشرة التي مضى شرحها في الجزء الأول أن

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٩

عليّاً عليه السلام لما سمع أحد أصحابه بعد معركة الجمل وقد تمنى أن يكون أخوه شهد معهم المعركة فيشترك معهم في تحقيق ذلك النصر. فقال له عليه السلام: «فَقَدْ شَهِدْنَا، وَ لَقَدْ شَهِدْنَا فِي عَسْكَرِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَ أَرْحَامِ النِّسَاءِ، سَيَرَعَفُ بِهِمُ الرِّمَانُ وَ يَقْوَى بِهِمُ الْإِيمَانُ».

ولعل هذا الكلام يفتح لنا افقاً جديداً في المطالعات الإسلامية ويحث الجميع على ضرورة مراقبة الروابط القلبية والرضى والسخط الباطني.

ويحظى هذا المطلب بدرجة من الأهمية بحيث أشارت إليه العديد من روايات المعصومين عليهم السلام؛ فقد ذكر المرحوم الشيخ الحر العاملي في كتاب «الوسائل» في أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باباً تحت عنوان: «وَجُوبُ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِالْقَلْبِ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَ تَحْرِيمُ الرِّضَا بِهِ وَوَجُوبُ الرِّضَا بِالْمَعْرُوفِ» أورد فيه سبعة عشر حديثاً بهذا الخصوص؛ ومنها حديث مفصل عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَتَلَ بِالْمَشْرِقِ فَرَضِيَةً بِقَتْلِهِ رَجُلًا بِالْمَغْرِبِ لَكَانَ الرَّاظِي عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شَرِيكَ الْقَاتِلِ» [٦].

وزبدة القول، ليس مجرد العمل أو التعاون في مقدماته سبب الاشتراك في النتائج المترتبة على ذلك العمل في الشريعة الإسلامية فحسب؛ بل للرضا القلبي مثل هذا الأثر.

ثم استشهد الإمام عليه السلام بدليل محكم من القرآن المجيد لإثبات هذه الحقيقة فقال:

وَإِنَّمَا عَقَرْنَا نَاقَةَ ثَمُودَ وَاحِدٍ بَيْنَمَا عَمَّ الْعَذَابُ جَمِيعَ قَوْمِ ثَمُودَ كَوْنَهُمْ رَضُوا جَمِيعاً بِعَمَلِ ذَلِكَ الْفَرْدِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «فَعَقَرُوهَا فَاصْبِرُوا نَادِمِينَ» عقر القوم الناقة فلما نزل العذاب ندم الجميع «وَإِنَّمَا عَقَرَ [٧] نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمَّوهُ بِالرِّضَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «فَعَقَرُوهَا فَاصْبِرُوا نَادِمِينَ» [٨] فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٠

خَارَتْ [٩] أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفِ خَوَارَ السُّكَّةُ [١٠] الْمُحَمَّاءُ [١١] فِي الْأَرْضِ الْخَوَارَةِ».

يشير كلام الإمام عليه السلام إلى معجزة صالح عليه السلام، نبي قوم ثمود، فلما طلب منه قومه معجزة، خرجت بقدره الله ناقة من صخرة فآمنت طائفة بينما أنكر ذلك أغلب القوم، وأوصاهم نبيهم ألا يتعرضوا لتلك الناقة بسوء فيأخذهم العذاب، فلم يأبهوا بقول النبي وعمدوا إلى الناقة فعقروها، فأتتهم زلزلة عظيمة فانشقت الأرض وابتلعت الكفار وبيوتهم.

والمعروف أن قاتل هذه الناقة شقى يدعى «غدار بن سالف»؛ إلا أن العبارة وردت في الآية القرآنية بصيغة الجمع «فَعَقَرُوهَا»، لأنهم رضوا جميعاً بعمله وقد عبروا عن هذا الرضى من خلال دعوته وتشجيعه على الإتيان بذلك العمل الشنيع كما ورد ذلك في الآية ٢٩ من سورة القمر: «فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ».

العبارة «خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفِ فَخَوَارَ السُّكَّةُ الْمُحَمَّاءُ» إشارة إلى أن حديدة المحراث إذا احميت في النار انعمت سريعاً في الأرض لاسيما في الأرض الرخوة، نعم، فقد انعمت منطقتهم وما عليها بهذه السرعة في جوف الأرض إثر ذلك الزلزال العظيم.

ثم حذر الإمام عليه السلام في القسم الثالث من هذه الخطبة، عامّة الناس فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَّ الْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي النَّيِّ [١٢]!».

المراد من «الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ» الطريق الذي عرضه القرآن والسنة والدليل العقلي والذي يهدي الناس إلى ماء الحياة المعنوية وأولئك الذين يضلون الطريق إنما يحرمون من الهدى ويموتون على الكفر والإلحاد.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١١

ومما لا شك فيه أن منهج وطريق الإمام عليه السلام أحد مصاديق «الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ» والبينة الواضحة، ذلك لأنه بمنزلة نفس النبي وأعلم الأمة بمنهجه وطريقه، وهذا ما صرح به الإمام عليه السلام في الخطبة ٩٧ إذ قال: «وإني لعلی بينة من ربي ومنهاج من نبي وإني لعلی الطريق الواضح».

ومن البديهي أن الإنسان الذي يسير على الطريق القويم المعلوم إنما يبلغ اثناء الطريق بعض المنازل ذات المياه الوفيرة، ومن يزل عن الطريق عادة ما يجد نفسه في الصحارى الجرداء القاحلة فيهلكه العطش.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٣

الخطبة ٢٠٢

إشارة

رُوي عنه أنه قاله عند دفن سيده النساء فاطمة عليها السلام،
كالمناجى به رسول الله صلى الله عليه وآله عند قبره [١٣] و [١٤]

نظرة إلى الخطبة

كلام الإمام عليه السلام هذا يبلغ إلى درجة؛ الكلام الذي يعكس حرقه قلب الإمام عليه السلام

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٤

حين دفنه الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، والذي يتضمن بث الشكوى الأليمة والمفجعة ولوعه الفؤاد التي تعكس شكوى الإمام عليه السلام للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن مصائب فاطمة الزهراء عليها السلام من جهة ومصابه بسبب فراق الزهراء عليها السلام من جهة أخرى، وجانب من الحقائق التاريخية المهمة في صدر الإسلام بصورة غير مباشرة؛ لكنه يعكسها بصيغته بليغة وعميقة وسيرد شرح ذلك في ختام تفسير هذا الكلام.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٥

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي، وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جَوَارِكِ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ، قَلِّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَن صِيْفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنهَا تَجَلُّدِي، إِلَّا أَنْ فِي النَّأْسِي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزُّ، فَلَقَدْ وَسَدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ، «فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!» [١٥] فَلَقَدْ اسْتَرْجَعَتِ الْوَدِيعَةَ، وَأَخَذَتِ الرَّهِيْنَةَ! أَمَّا حُرْنِي فَسَوْمُدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ. وَسَتَبَيْتُكَ ابْتِثَاكَ بِتَصَافِرِ أُمَّتِكَ عَلَي هَضْمِهَا، فَأَحْفَهَا السُّؤَالَ، وَاسْتَحْبَرَهَا الْحَالَ؛ هَذَا وَلَمْ يَطَّلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَحُلْ مِنْكَ الذُّكْرُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامٌ مُودَعٍ، لَأَقَالَ وَلَا سَمٍ، فَإِنْ أَنْصَرَفَ فَلَا عَن مَلَالَةٍ، وَإِنْ أَقِمَ فَلَا عَن سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ.

الشرح والتفسير: لوعة على عليه السلام عند قبر الزهراء عليها السلام

قال الإمام عليه السلام هذا الكلام الأليم والمفجع حين وسد بيده الشريفه البدن الطاهر لسيدة النساء الزهراء البتول عليها السلام فى القبر، وهو الكلام الدال - من جهة - على عظمة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام ومن جهة أخرى مدى لوعه على عليه السلام على فراقها الأليم.

اختار الإمام عليه السلام أروع وأفضل مخاطب فى بيان هذه العبارات؛ أى رسول الله صلى الله عليه وآله ليشكو له ذلك المصاب، فابتدأ كلامه قائلاً: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي، وَعَنْ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٦

إِبْنَتِكَ النَّازِلَةُ فِي جَوَارِكَ، وَالسَّرِيعَةُ اللَّحَاقُ بِكَ».

ورغم أن مضمون كلام الإمام عليه السلام، شكوى أليمة ومفجعة؛ إلا أن أدب الخطاب يقتضى أن يستهله بتحية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والسلام عليه.

تفيد العبارة: «النَّازِلَةُ فِي جَوَارِكَ» أن قبر سيده النساء عند قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهذا يدعم نظريته من يرى أن الزهراء عليها السلام إنما دفنت فى بيتها.

طبعاً يمكننا أن نعتبر الدفن فى البقيع على أنه إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وآله أو أن نعتبر المراد بالجوار هو الجوار الروحي والمعنوي فى الجنة؛ غير أن المعنى الأول أنسب لظاهر العبارة ويؤيد ذلك العديد من الروايات.

أورد المرحوم الكليني روايته تقول: إن أحد الصحابة أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: سألت الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام عن قبر فاطمة عليها السلام فقال: «دُفِنَتْ فِي بَيْتِهَا فَلَمَّا زَادَتْ بُنُو أُمَّيَّةَ فِي الْمَسْجِدِ صَارَتْ فِي الْمَسْجِدِ» [١٦].

العبارة: «السَّرِيعَةُ اللَّحَاقُ بِكَ» إشارة عميقة المعنى لهول مصائب الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام التى ساقتها فى ربيع عنفوان شبابها إلى الدار الأبدية فتكون المدة التى أعقبت التحاقها بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله طبق بعض الروايات ٤٥ يوماً وطبق البعض الآخر ٧٥ يوماً وطبق رواية أخرى ٩٥ يوماً، كما قيل حسب بعض الروايات غير المشهورة ٤ أشهر و ٦ أشهر وهذا ما سنتطرق له فى مبحث التأملات بالإضافة إلى موضع قبرها.

ثم واصل الإمام عليه السلام خطابه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله قائلاً: «قُلْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ صِدْقِيَّتِكَ [١٧] صِدْقِيَّيْ، وَرَقَّ عَنَّا تَجَلُّدِي [١٨]، إِلَّا أَنْ فِي التَّاسِي [١٩] لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ،

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٧

وَفَادِحِ [٢٠] مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزُّ [٢١]».

يشير إلى أن مصيبة الزهراء عليها السلام وإن كانت أليمة للغاية؛ لكن ألم مصيبتك كان أعظم وأعمق وتحملها هون احتمال هذه المصيبة، قطعاً كان مصاب على عليه السلام برحيل النبي أعظم، وإن كانت فاطمة الزهراء زوجة عظيمة المنزلة انعدم مثلها؛ فقد كان النبي بمنزلة أبي على عليه السلام وإضافة إلى ذلك، كان بالنسبة لعلی القائد والمرشد والمعلم والأستاذ وبالتالي كل شيء لعلی، ومن هنا ورد فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلی عليه السلام: «يا أبا الرِّيحَاتَيْنِ ... عَنْ قَلِيلٍ يَنْهَدُ رُكْنَاكَ».

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وآله قال على عليه السلام: «هَذَا أَحَدُ رُكْنِي الَّذِي قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ».

وقال حين استشهدت الصديقة الطاهرة الزهراء عليها السلام: «هَذَا الرُّكْنُ الثَّانِي الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ» [٢٢].

ثم أضاف الإمام عليه السلام فى شرحه لهذا الكلام قائلاً: «فَلَقَدْ وَسَدْتُكَ [٢٣] فِي مَلْحُودَةٍ [٢٤] قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصِدْرِي نَفْسُكَ، فَ «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»!».

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن «نفس» هنا تعنى الدم (لأن أحد معانى النفس هو الدم) وقالوا: إن قليلاً من الدم خرج من فم النبي عند وفاته وجرى على صدر على عليه السلام؛ ولكن هذا المعنى يبدو مستبعداً، على كل حال تفيد القرائن (كما تدل الخطبه

(١٩٧) أن رأس النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين وفاته كان في حجر علي عليه السلام ففاضت روحه الطاهرة فمرت على صدر علي عليه السلام ونحره، رغم ما ذكره بعض

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٨

محدثي العامة من أن عائشة قالت: «كان رأس رسول الله صلى الله عليه وآله في حجرى لما فاضت روحه» [٢٥]؛ فليس هنالك من دليل معتبر على هذا الكلام ولعله من قبيل العديد من الروايات التي سعوا من خلالها لنسب فضائل علي عليه السلام الواحدة تلو الأخرى لغيره.

آنذاك عاد الإمام ثانياً لشرح مصيبة الزهراء عليها السلام فخطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قائلاً؛ «فَلَقَدْ اسْتَرْجَعَتِ الْوَدِيعَةَ، وَأَخَذَتِ الرَّهْيَنَةَ! أَمَا حُزْنِي فَسَرَمْتُ [٢٦]، وَأَمَا لَيْلِي فَمَسَّهْتُ [٢٧]، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ».

هذه العبارة التي تعكس مدى لوعة علي عليه السلام إزاء حادثه شهادة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام تشير بوضوح إلى مدى قيمة سيده النساء لدى علي عليه السلام وعمق الإرتباط العاطفي والمعنوي والروحي بينهما.

التعبير ب «وديعه» إشارة إلى ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله علي أعتاب وفاته حين أخذ بيد فاطمة ووضعها بيد علي عليه السلام وقال: «يَا أَبَا الْحَسَنِ هَذِهِ وَدِيعَةُ اللَّهِ وَوَدِيعَةُ رَسُولِهِ عِنْدَكَ فَاحْفَظْ اللَّهَ وَاحْفَظْنِي فِيهَا وَإِنَّكَ لِفَاعِلُهُ» [٢٨].

ويرى البعض أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال ذلك ليله زفاف الزهراء عليها السلام، وذهب بعض الشراح إلى أن التعبير بالوديعه هنا يشير إلى أن أرواح الناس في الأبدان شبيهة بالوديعه والأمانة التي تسترد عند الوفاة، إلّا أن هذا التفسير يبدو مستبعداً هنا. ويمكن أن يكون التعبير ب «الرهينة» حيث إن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أخذ من علي عليه السلام عهد الخلافة والوصاية والوفاء وكانت كريمته الزهراء عليها السلام رهينة إزاء ذلك.

وقد استعمل هذا التعبير كون الصديقة أعظم نعمة من الله على علي عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٩

وتفسير العبارة: «أَمَا حُزْنِي فَسَرَمْتُ» واضح، فالإمام عليه السلام لا يكاد يذكر البتول حتى تتجدد أحزانه وآلامه وهو الحزن الذي خيم على جميع تفاصيل حياة الإمام علي عليه السلام.

والعبارة: «وَأَمَا لَيْلِي فَمَسَّهْتُ» كناية عن أنني أعيش أغلب الليالي على ذكر تلك الصديقة الطاهرة، وأن ذكرها ليسلب من عيني النعاس، وخير شاهد على ذلك الأشعار التي أنشدها بعد فراق فاطمة الزهراء عليها السلام:

نَفْسِي عَلَى زَفْرَاتِهَا مَحْبُوسَةٌ يَا لَيْتَهَا خَرَجَتْ مَعَ الزَّفْرَاتِ

لَا خَيْرَ بَعْدَكَ فِي الْحَيَاةِ وَإِنَّمَا أَبْكِي مَخَافَةَ أَنْ تَطُولَ حَيَاتِي [٢٩]

آنذاك أشار الإمام عليه السلام إلى جانب من مصائب فاطمة الزهراء عليها السلام المفجعة فقال:

«وَسَتَّبِعُكَ ابْتِئَاكُ بِتَضَافُرٍ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا، فَأَخْفِيهَا [٣٠] السُّؤَالَ، وَاسْتَخْبِرُهَا الْحَالَ؛ هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَحُلْ مِنْكَ الدُّكْرُ».

الظاهر أن هذه العبارات المقتضبة من أمير المؤمنين علي عليه السلام بغيه رعاية الأدب عند قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولا يخوض فيها ولا يشرحها، والتي تشير إلى الأحداث المأساوية التي أعقبت رحيل النبي؛ من قبيل الهجوم على بيت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، وإضرام النار في البيت، وإسقاط جينها المحسن وحمل الإمام علي عليه السلام إلى المسجد بالقوة من أجل البيعة وهذا ما سنتناوله في ختام هذا البحث، وهي الأحداث التي لم ترد بصيغة مركزة في مصادر الإمامية والعجيب أنها ذكرت صراحة في مصادر العامة.

والمفردة «تضافر» من مادة «ضفر» (على وزن ضعف) تعني التعاون والتعاقد للقيام بعمل، إشارة إلى أن فئة من الامّة كانت شريكه في ارتكاب تلك الجرائم، ولما كان الأعم الأغلب قد لاذ بالصمت الذي يعني تأييد ذلك الفعل نسب إلى جميع

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٠

الأمة، و «هضم» تعنى فى الأصل الظلم والكسر، والمفردة «عهد» هنا بمعنى الزمان ولها معانٍ أخرى. كما يحتمل أن يكون المراد من هذا العهد هو العهد الذى أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله بشأن خلافة على عليه السلام وحفظ حرمة أهل البيت عليهم السلام ولاسيما ابنته الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام وجعلهم عدل القرآن بمقتضى حديث الثقلين وأمثال ذلك؛ أى لم تمض مدة طويلة على تلك العهود حتى نسيت طائفة من الأمة كل شىء وإرتكبت أفظع الجرائم التى تذهل العقول.

ثم اختتم خطبته مخاطباً النبى الأكرم صلى الله عليه وآله و فاطمة الزهراء عليها السلام قائلاً: «وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامٌ مُودَعٌ، لَأَقَالَ [٣١] وَلَا سَمِيمٌ [٣٢]، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ، وَإِنْ أُقِمَّ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ».

ورد فى رواية «الكافى» فى ذيل هذا الكلام: «واه واهاً وَالصَّبْرُ أَيْمُنٌ وَأَجْمَلٌ وَلَوْ لَا غَلَبَةُ الْمُسْتَوَلِينَ لَجَعَلْتُ الْمَقَامَ وَاللَّبْتَ لِرَاماً مَعَكُوفاً وَلَاغَوْلُتْ إِعْوَالَ الثُّكْلَى عَلَى جَلِيلِ الرَّزِيَةِ فَبَعَيْنِ اللَّهِ تُدْفَنُ ابْنَتُكَ سِرّاً وَتُهَضَّمُ حَقّاً وَتُمنَعُ إِرْثَهَا وَلَمْ يَتَبَاعَدِ الْعَهْدُ وَلَمْ يَخْلُقْ مِنْكَ الذُّكْرُ وَإِلَى اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُشْتَكَى وَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْسَنَ الْعَزَاءِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَيْهَا السَّلَامُ وَالرِّضْوَانُ» [٣٣].

ويتضح بجلاء من هذه العبارات وما ورد فى «نهج البلاغة» مدى شدة المصائب التى جرّعها الفسقة أهل البيت عليهم السلام وبضعة النبى صلى الله عليه وآله عقب تلك المدة الوجيزة بعد رحيل النبى صلى الله عليه وآله التى هزّت علياً عليه السلام بصفته جبل الحلم والصبر وجعلته يبكى بكاء الثكلى، والعجيب أن أسناد ذلك الهجوم البربرى على بيت الرسالة ورد فى مصادر العامية بصورة مستفيضة.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢١

تأملات

إشارة

برغم قصر المدة التى عاشتها فاطمة الزهراء، الصديقة الطاهرة سيده نساء العالمين؛ غير أن سيرتها وفضائلها ومناقبها ومصائبها طويلاً للغاية، وقد أشار بعض شراح نهج البلاغة إلى جانب من ذلك حين تعرضوا لشرح هذه الخطبة، ومن الضرورى أن نشير بدورنا إلى بعض الأمور:

١. فاطمة الزهراء عليها السلام على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله

تتمتع الصديقة الطاهرة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة رفيعة، وتتضح عصمتها من الذنوب من خلال ما ورد فيها من أحاديث النبى الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال فيها:

«فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي» [٣٤].

ومن الواضح أن غضب رسول الله صلى الله عليه وآله مدعاة لأذاه وقد صرح القرآن الكريم بشأن من يؤذيه قائلاً:

«وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [٣٥].

وليت شعرى أى دليل أدل على فضيلتها وعصمتها من حديث النبى الأكرم صلى الله عليه وآله الذى نص على أن رضاها رضى الله وغضبها غضبه سبحانه فقال:

«يَا فَاطِمَةُ إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ لِعْضَبِكَ وَيَرْضَى لِرِضَاكَ» [٣٦].

ولتمتعها بهذه المنزلة العظيمة فهي سيده نساء العالمين فقال لها النبي صلى الله عليه وآله: «يا فاطمة! ألا تزفين أن تكوني سيده نساء العالمين، وسيده نساء هذه الأمة وسيده نساء المؤمنين» [٣٧].

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٢

٢. حرمة بيت الزهراء عليها السلام في القرآن والسنة

قال المحدثون: لما نزلت الآية المباركة: «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه» [٣٨]. قرأ رسول الله هذه الآية: «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه» فقام إليه رجل: فقال: أئى بيوت هذه يا رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: بيوت الأنبياء. فقام إليه أبو بكر، فقال يا رسول الله صلى الله عليه وآله: أهدا البيت منها، مشيراً إلى بيت علي وفاطمة عليها السلام. قال صلى الله عليه وآله: نعم، من أفاضلها [٣٩].

كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمر تسعة أشهر على بيت فاطمة فيسلم عليها وعلى علي عليه السلام [٤٠] ويقرأ هذه الآية: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» [٤١].

البيت الذى كان مركز النور الإلهي وقد أمر الله أن يرفع إنما يتمتع بحرمة عظيمة. نعم البيت الذى يضم أصحاب الكساء ويشي الله تبارك وتعالى عليه لا بد أن يحظى باحترام قاطبة المسلمين. وهنا لا بد أن نرى كيفية التعامل مع حرمة ذلك البيت عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وكيف هتكت حرمة ذلك البيت، وقد اعترفوا أنفسهم بذلك صراحة؟ ومن هم أولئك الذين انتهكوا الحرمات، وماذا كان هدفهم؟

٣. انتهاك حرمة بيت الزهراء عليها السلام

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٣

للأسف رغم كل هذه الوصايا والتأكيدات فإن البعض تجاهل هذه الحرمة وانتهكها، وهذه ليست بالمسألة الهينة التى يمكن التغاضى عنها.

وسنذكر هنا نصوصاً من مصادر العامة ليتضح من خلالها أن انتهاك حرمة بيت الزهراء عليها السلام وما تبعه من أحداث، قضية تاريخية ومسلمة؛ وليست خرافة! ورغم الضغوط الشديدة فى عصر الخلفاء إزاء ذكر وتدوين فضائل ومناقب أهل البيت عليهم السلام إلما أن «الشمس لا تحجب بالغربال» فلم تحجب هذه الحقيقة التى بقيت حية فى بطون كتب التاريخ والحديث، وسنراعى الترتيب الزمانى فى عرض الوثائق منذ القرون الأولى حتى العصر الحاضر.

الف) ابن أبى شيبه، المحدث المعروف لدى العامة فى كتاب «المصنف»

قال أبو بكر بن أبى شيبه (١٥٩-٢٣٥) مؤلف كتاب «المصنف» بسند صحيح:

«إنه حين بويع لأبى بكر بعيد رسول الله صلى الله عليه وآله كان علي والزبير يدخلان على فاطمة بنت رسول الله، فيشاورونها ويترجعون فى أمرهم. فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب خرج ودخل على فاطمة، فقال: يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله والله ما أحببنا من أبىك وما من أحد أحببنا بعد أبىك منك، وأيم الله ما ذاك بمانع إن اجتمع هؤلاء النفر عندك أن أمرتهم أن يخرق عليهم البيت.»

قال: فلما خرج عمر جاؤوها، فقالت: تعلمون أن عمر قد جاءنى، وقد حلف بالله لئن عدتكم ليحرقن عليكم البيت، وأيم الله ليمضين لما

حَلَفَ عَلَيْهِ» [٤٢].

وقد وردت هذه الحادثة بسند صحيح في كتاب «المصنّف».

(ب) البلاذري، المحدث الكبير عند العامة في كتاب «أنساب الاشراف»

روى أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي البلاذري (م ٢٧٠) صاحب التاريخ المعروف، هذه الحادثة التاريخية في كتابه «أنساب الأشراف» قائلاً:

«إِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ يُرِيدُ الْبَيْعَةَ فَلَمْ يُبَايِعْ، فَجَاءَ عُمَرُ وَمَعَهُ فَيْلَةٌ فَتَلَقَّتْهُ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٤

فَاطِمَةُ عَلَى الْبَابِ.

فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَتَرَكَ مُحْرِقًا عَلِيَّ بَابِي؟ قَالَ: نَعَمْ، وَذَلِكَ أَقْوَى فِيمَا جَاءَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ...» [٤٣].

(ج) ابن قتيبة وكتاب «الإمامة والسياسة»

المؤرخ الشهير عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٢-٢٧٦) من أساطين الأدب، وكتاب التاريخ الإسلامي ومؤلف كتاب (تأويل مختلف الحديث)، (أدب الكاتب) و... [٤٤] قال في كتاب «الإمامة والسياسة»:

«إِنَّ أَبَا بَكْرٍ (رض) تَفَقَّدَ قَوْمًا تَخَلَّفُوا عَنِ بَيْعَتِهِ عِنْدَ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عُمَرَ فَجَاءَ فَنَادَاهُمْ وَهُمْ فِي دَارِ عَلِيٍّ، فَأَبَوْا أَنْ يَخْرُجُوا فَدَعَا بِالْحَطَبِ وَقَالَ:

وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَتَخْرُجَنَّ أَوْ لَأَحْرِقَنَّهَا عَلِيٌّ مَنْ فِيهَا، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا حَفْصٍ إِنَّ فِيهَا فَاطِمَةَ. فَقَالَ: وَإِنْ!» [٤٥].

وأضاف ابن قتيبة عقب ذكره لهذه الحادثة البشعة والمؤلمة فقال:

«ثُمَّ قَامَ عُمَرُ فَمَشَى مَعَهُ جَمَاعَةٌ حَتَّى أَتَوْا فَاطِمَةَ فَدَقُّوا الْبَابَ فَلَمَّا سَمِعَتْ أَصْوَاتَهُمْ نَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا يَا أَبَتَاهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاذَا لَقِينَا بِعَيْدِكَ مِنْ ابْنِ الْخَطَّابِ وَابْنِ أَبِي قُحَافَةَ فَلَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ صَوْتَهَا وَبُكَاءَها انْصَرَفُوا وَبَقِيَ عُمَرُ وَمَعَهُ قَوْمٌ فَأَخْرَجُوا عَلِيًّا فَمَضَوْا بِهِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا لَهُ: يَا بَايِعْ، فَقَالَ: إِنَّ أَنَا لَمْ أَفْعَلْ فَمَه؟

فَقَالُوا: إِذَا وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ نَضْرِبُ عُقُوكَ...!» [٤٦].

طبعاً يصعب جداً هضم هذه الحقبه من التاريخ على بعض الموالين للشيخين، لذلك سعى البعض للتشكيك في نسب هذا الكتاب لابن قتيبة، في حين يراه ابن

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٥

أبي الحديد الأستاذ البارح في التاريخ، أنه من كتبه وقد روى منه العديد من المطالب، والمؤسف أن هذا الكتاب طالته يد التحريف وحذفت بعض مواضعه عند الطباعة، بينما وردت نفس تلك المطالب في «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد المعتزلي.

وعده الزركلي في كتاب «الأعلام»، من آثار ابن قتيبة وقال: هنالك رأى للعلماء في هذه النسبة؛ أي أنه ينسب الشك إلى الآخرين وليس لنفسه، كما يراه إلياس سركيس من كتب ابن قتيبة [٤٧].

(د) الطبري وتاريخه

ذكر محمد بن جرير الطبري (م ٣١٠) في تاريخه حادثة هتك حرمة بيت الوحي فقال:

«أَتَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَنْزِلَ عَلِيٍّ وَفِيهِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَرِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَحْرِقَنَّ عَلَيْكُمْ أَوْ لَتَخْرُجَنَّ إِلَى الْبَيْعَةِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ الزُّبَيْرُ مُصَلِّيًا بِالسَّيْفِ فَعَثَّرَ فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَوَثَبُوا عَلَيْهِ فَأَخَذُوهُ» [٤٨].

تفيد هذه الحقبه التاريخية أن أخذ البيعة للخليفة تم في ظل التهديد والوعيد وأما قيمة مثل هذه البيعة فمتروكة لإنصاف القراء الأعزاء.

(ه) ابن عبد ربه وكتاب «العقد الفريد»

أورد شهاب الدين أحمد المعروف ب (ابن عبد ربه الأندلسي) مؤلف كتاب (العقد الفريد) (م ٤٦٣) بحثاً مسهباً في كتابه بشأن تاريخ السقيفة، فقد قال في فصل من تخلف عن بيعه أبي بكر:

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٦

«فَأَمَّا عَلِيٌّ وَالْعَبَّاسُ وَالزُّبَيْرُ فَفَعِدُوا فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ حَتَّى بَعَثَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ بَيْتِ فَاطِمَةَ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَبَوَا فَاقَاتِلُهُمْ، فَأَقْبَلَ بِقَبْسٍ مِنْ نَارٍ أَنْ يُضْرِمَ عَلَيْهِمُ الدَّارَ، فَلَقِيَتْهُ فَاطِمَةُ فَقَالَتْ لَهُ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَجِئْتَ لِتُحْرِقَ دَارَنَا؟! قَالَ: نَعَمْ، أَوْ تَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلْتُ فِيهِ الْأُمَّةُ!» [٤٩].

تم إلى هنا الفصل الذي صرح فيه بالعزم على انتهاك الحرمه، ونخوض الآن في الفصل الثاني الذي يفيد التطبيق العملي لتيه السوء المبيته، والحذر من الاعتقاد بأن تيه القوم كانت تقتصر على التهديد والوعيد ليجبروا علياً عليه السلام وصحبه على البيعه وأنهم لم يكونوا يفكرون بتفعيل ذلك التهديد.

وقوع الهجوم

انتهى إلى هنا كلام تلك الطائفة من المؤرخين الذين اقتصروا على الإشارة إلى سوء تيه الخليفة وبطانته، الطائفة التي لم ترد أو لم تستطع عكس الفصول القادمة لتلك الفاجعة بصورة واضحة، في حين أشار البعض الآخر إلى أصل الجريمة؛ أي الهجوم على البيت و... وإليك الآن وثائق الهجوم وانتهاك حرمه بيت الرسالة والوحى، بيت فاطمه الزهراء عليها السلام: (وسنراعى في هذا الفصل أيضاً الترتيب الزماني في نقل المصادر).

(و) أبو عبيد وكتاب «الأموال»

قال أبو عبيد، قاسم بن سلام (م ٢٢٤) في كتابه (الأموال) الموثق عند العامة:

«قال عبد الرحمن بن عوف: عدت أبا بكر في مرضه في بيته، فقال بعد كلام طويل: وددت أنى لم أفعل ثلاثاً كنت فعلتهن، كما وددت أنى سألت النبي عن ثلاث؛ وإحدى الثلاث التي فعلتها وددت أنى لم أفعلها: «وَدَدْتُ أَنَّى لَمْ أَكْشِفْ»

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٧

بَيْتِ فَاطِمَةَ وَتَرَكْتُهُ وَإِنْ أُغْلِقَ عَلَيَّ الْحَرْبُ» [٥٠].

قال أبو عبيد لما بلغ هذا الموضوع بدلاً من العبارة: «لم أكشف بيت فاطمة وتركته...»: «كذا وكذا» وقال، لا أود ذكره!

ورغم امتناع أبي عبيد، عن ذكر الحقيقة بسبب تعصبه المذهبي أو لعله أخرى؛ غير أن المحققين لكتاب الأموال قالوا في الحاشية: وردت العبارة المحذوفة في كتاب ميزان الاعتدال، كما ذكر الطبراني تلك العبارة في معجمه وابن عبد ربه في العقد الفريد، وغيرهم من المؤرخين. (لابد من الدقة!).

(ز) الطبراني و «المعجم الكبير»

أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ - ٣٦٠) الذي عدّه الذهبي في ميزان الاعتدال ثقة [٥١]. حيث تحدّث في كتاب (المعجم الكبير) الذي طبع كراراً عن أبي بكر ووفاته:

ود أبو بكر عند وفاته أموراً فقال: وددت أنى لم أفعل ثلاثاً وفعلت ثلاثاً وسألت رسول الله عن ثلاث: «أما الثلاث اللّائى وددت أنى لم أفعلهنّ، فوددت أنى لم أكن أكشف بيت فاطمة وتركته...» [٥٢].

تفيد هذه العبارات أن تهديدات عمر دخلت حيز التنفيذ وفتح باب الدار بالقوة (أو بالنار).

(ح) أيضاً ابن عبد ربه و «العقد الفريد»

روى ابن عبد ربه الأندلسي مؤلف كتاب العقد الفريد (م ٤٦٣) في كتابه عن

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٨

عبدالرحمن بن عوف:

«دَخَلْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فِي مَرَضِهِ فَقَالَ: وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ ثَلَاثًا إِحْدَاهَا:

وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكْشِفْ بَيْتَ فَاطِمَةَ عَنْ شَيْءٍ وَإِنْ كَانُوا أَعْلَقُوهُ عَلَى الْحَرْبِ» [٥٣].

وسيرد علينا أسماء وعبارات سائر الشخصيات الذين نقلوا هذا القسم من كلام الخليفة.

(ط) كلام النّظام في كتاب «الوافي بالوفيات»

إبراهيم بن سيار النّظام المعتزلي (١٦٠-٢٣١) الذي لقب بالنّظام لجمال كلامه في النظم والنثر، نقل في عدّة كتب تفاصيل الواقعة بعد

الوقوف على بيت فاطمة الزهراء عليها السلام. فقال:

«إِنَّ عُمَرَ ضَرَبَ بَطْنَ فَاطِمَةَ يَوْمَ الْبَيْعَةِ حَتَّى أَلْقَتِ الْمُحْسِنَ مِنْ بَطْنِهَا» [٥٤].

(ي) المبرّد في كتاب «الكامل»

كتب ابن أبي الحديد: روى الأديب المعروف صاحب المؤلفات المشهورة محمد بن يزيد بن عبدالأكبر البغدادي (٢١٠-٢٨٥) في

كتاب «الكامل» عن عبدالرحمن بن عوف، قصّة أمانى الخليفة فقال:

«وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ كَشَفْتُ عَنْ بَيْتِ فَاطِمَةَ وَتَرَكْتُهُ وَلَوْ أُعْلِقَ عَلَى الْحَرْبِ» [٥٥].

(ك) المسعودي و «مروج الذهب»

كتب المسعودي (م ٣٢٥) في «مروج الذهب»: لما حضرت أبا بكر الوفاة قال:

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٩

فعلت ثلاثاً تمنيت أني لم أفعلها:

«فَوَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ فَكَشْتُ بَيْتَ فَاطِمَةَ» وَذَكَرَ فِي ذَلِكَ كَلَامًا كَثِيرًا!!! [٥٦].

ورغم اعتقاد المسعودي بأهل البيت؛ لكنه امتنع هنا عن التعرض لكلام الخليفة ومرّ عليه على نحو الكناية، وبالطبع فإنّ الله يعلم السبب

وعباد الله أيضاً يعلمونه إجمالاً!

(ل) الذهبي وكتاب «ميزان الاعتدال»

روى الذهبي في كتاب «ميزان الاعتدال» عن الحافظ محمّد بن أحمد الكوفي أنّه قرأ هذا الخبر على أحمد بن محمّد المعروف بـ

(ابن أبي دارم)، المحدث الكوفي (م ٣٥٧):

«إِنَّ عُمَرَ رَفَسَ فَاطِمَةَ حَتَّى أَشَقَطَتْ بِمُحْسِنٍ!» [٥٧].

(م) عبدالفتاح عبدالمقصود وكتاب «الإمام علي»

فقد ذكر الهجوم على بيت الرسالة في موضعين من كتابه ونكتفي بنقل أحدهما:

قال عمر: «وَأَلْمَذَى نَفْسِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لِيُخْرِجَنَّ أَوْ لَأُحْرِقَنَّهَا عَلَى مَيِّنٍ فِيهَا...! قَالَتْ لَهُ طَائِفَةٌ خَافَتْ اللَّهَ وَرَعَتْ الرِّسُولَ فِي عَقْبِهِ: يَا

أَبَا حُفْصٍ، إِنَّ فِيهَا فَاطِمَةَ...!»!

فَصَاحَ لِأَيُّبَالِي: وَإِنْ...! وَأَقْتَرَبَ وَقَرَعَ الْبَابَ، ثُمَّ ضَرَبَهُ وَأَقْتَحَمَهُ... وَبَدَأَ لَهُ عَلَى... وَرَنَّ حَيْذَاكَ صَوْتُ الزَّهْرَاءِ عِنْدَ مَدْخَلِ الدَّارِ... فَإِنَّ

هِيَ لِلطَّائِبِينَ اسْتِغَاثَةٌ...!» [٥٨].

ونختتم هذا البحث برواية أخرى عن مقاتل بن عطية في كتاب الإمامة والخلافة (وإن كان هنالك الكثير الذي يقال!).

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٠

حيث ذكر في هذا الكتاب:

«إِنَّ أَبَا بَكْرٍ بَعْدَ مَا أَخَذَ الْبَيْعَةَ لِنَفْسِهِ مِنَ النَّاسِ بِالْإِرْهَابِ وَالسَّيْفِ وَالْقُوَّةِ أَرْسَلَ عُمَرَ وَقُنُودًا وَجَمَاعَةً إِلَى دَارِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ

وَجَمَعَ عُمَرُ الْحَطَبَ عَلَى دَارِ فَاطِمَةَ وَأَحْرَقَ بَابَ الدَّارِ!...» [٥٩].

وردت في ذيل هذه الرواية عبارات يعجز القلم عن بيانها.

النتيجة

بالرغم من كل هذه الوثائق الواضحة وأغلبها من مصادر العامة مازال هناك البعض الذى يستعمل عبارة «اسطورة الشهادة» ويؤمن بأن هذه الحادثة المريرة مصطنعة! ولولا إصرار هذا البعض على نفي هذه الحقائق لما أسهنا إلى هذا الحد فى البحث.

٤. القبر الطاهر لفاطمة الزهراء عليها السلام

إن إحدى المصائب العظيمة لبضعة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أن قبرها الشريف مازال مجهولاً لحد الآن؛ ويرى البعض وحسب طائفة من الروايات أنها دفنت فى البقيع، والبعض الآخر أنها دفنت فى بيتها إلى جانب مسجد النبى، وآخرون أنها دفنت فى الروضة (المسافة الواقعة بين قبر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ومنبره الشريف).

وهذا المطلب يحمل كل محقق على التفكير، ترى، ما العاصفة التى اعترت الامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ليخفى القبر الطاهر لبضعة النبى الوحيدة؟ وإن دلت أغلب القرائن على دفنها فى بيتها، فالدفن فى الروضة لم يكن حيناً آنذاك ومن المستبعد أن يرضى على عليه السلام بهذا العمل، كما لا ينسجم دفنها فى البقيع وما ورد فى هذه الخطبة، لأن

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣١

العبارة: «النَّازِلَةُ فِي جَوَارِكِ» تشير إلى أن قبرها عليها السلام كان جوار قبر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

روى المرحوم العلامة المجلسى عن إبراهيم بن محمد الهمداني أنه قال: كتبت للإمام الهادى (على بن محمد النقى عليهما السلام) أخبرنى عن قبر فاطمة عليها السلام! فكتب إلى:

«هِيَ مَعَ جَدِّى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ» [٦٠].

قال المرحوم الصدوق: الصحيح عندي أنها دفنت فى بيتها وحين زاد بنو امية فى المسجد أصبحت جزءاً منه [٦١].

ورغم أن قبر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر القبور هى داخل المسجد؛ ولكنه عزل عن المسجد بواسطة الجدران والشبابيك.

روى فى كتاب «عيون أخبار الرضا عليه السلام» عن البيهقي قال: «سألت الرضا عن قبر فاطمة؛ قال:

«دُفِنَتْ فِي بَيْتِهَا فَلَمَّا زَادَتْ بَنُو أَمِيَّةَ فِي الْمَسْجِدِ صَارَتْ فِي الْمَسْجِدِ» [٦٢].

وعليه فكل من يقف عند قبر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى الروضة المقدسة ويزور فاطمة الزهراء عليها السلام فإنه ينال إن شاء الله فضيلة زيارتها عن قرب، كما يمكن زيارتها فى البقيع برعاء المطلوبة.

٥. زمان شهادة بضعة النبى

لم يقتصر الخلاف على موضع دفن بضعة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فحسب، بل هنالك خلاف حتى فى تاريخ وفاتها.

فى الرواية المعروفة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٢

«إِنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ مَكَثَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خَمْسَةَ وَسَبْعِينَ يَوْمًا».

وورد فى ذيل هذه الرواية:

«كَانَ سَبَبُ فَوْتِهَا أَنْ قُنْفُذَ مَوْلَى عُمَرَ لَكَرَّهَا بِنَعْلِ السَّيْفِ بِأَمْرِهِ فَأَسْقَطَتْ مُحْسِنًا وَمَرِضَتْ مِنْ ذَلِكَ مَرَضًا شَدِيدًا» [٦٣].

وبالنظر إلى أن وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كانت في ٢٨ صفر فإن شهادتها لا بد أن تكون في أحد هذه الأيام الثلاثة؛ الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر من جمادى الأولى (مع الأخذ بنظر الاعتبار احتمال تمامية أو نقصان الأشهر الوسط).
 وورد في رواية أخرى أن الصديقة الطاهرة فاطمة عليها السلام توفيت يوم الثلاثاء الثالث من جمادى الآخرة السنة الحادية عشرة للهجرة [٦٤] وتنسجم هذه الرواية مع الرأي القائل أن فاطمة الزهراء عليها السلام عاشت بعد أبيها ٩٥ يوماً.
 وعدّ المرحوم العلامة المجلسي في «زاد المعاد» هذا القول بشأن زمان وفاة الزهراء عليها السلام، معتبراً وقال: وهذا مقبول الشيخ الطوسي والسيد ابن طاووس وآخرين، ورغم منافاة هذه الرواية مع رواية الـ ٧٥ يوماً؛ ولكن حيث تعززها رواية مشهورة ومعتبرة، فلا بد من إقامة مراسم العزاء على الصديقة الطاهرة في اليوم الثالث من جمادى الثانية [٦٥].
 كما ورد في رواية غير مشهورة أنها عاشت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ٤٠ يوماً [٦٦].
 نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٣

الخطبة ٢٠٣

إشارة

في التزهيد من الدنيا والتزويج في الآخرة [٦٧]

نظرة إلى الخطبة

- أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة القصيرة والعميقة المعاني إلى بضعة أمور:
١. أن الدنيا دار ممر ليس أكثر وأن الآخرة هي مقر الإنسان الأبدى ولا بد من التزود من الممر لدار المقر.
 ٢. ينبغي للإنسان أن يخلق بروحه خارج الدنيا قبل أن يزول جسده.
 ٣. الدنيا دار امتحان ومسرح ابتلاء.
 ٤. إن الناس ينظرون إلى أموال الإنسان التي يخلفها حين يغادر الدنيا بينما تنظر الملائكة إلى أعماله.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٥

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارٌ مَّجَازٌ، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَيْدِيكُمْ، ففِيهَا أُخْتَبِرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِفْتُمْ. إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَمَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟ لِلَّهِ آبَاؤُكُمْ! فَفَدِّمُوا بَعْضًا يَكُنْ لَكُمْ قَرْضًا، وَلَا تُخْلِفُوا كُلًّا فَيَكُونَ قَرْضًا عَلَيْكُمْ.

الشرح والتفسير الدنيا ممر

أشار الإمام عليه السلام في بداية هذه الخطبة إلى مسألة مهمة بشأن حقيقة الدنيا والآخرة حيث تعدّ الغفلة عنها مصدر شقاء الإنسان وتعاساته، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارٌ مَّجَازٌ» [٦٨]، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ». إن أغلب المشاكل تنبع من كون الإنسان يرى الدنيا دار بقاء، ومن هنا ينهمك بجمع المال والثروة عن أى طريق ومهما كلف الأمر، ويبخل بها إزاء صرفها في الأمور الخيرية، ولذلك يرتكب العديد من الأفعال السيئة ويسوّف التوبة، وقد وردت هذه الحقيقة بعدة تعبيرات في الروايات لتعتبر الدنيا أحياناً:

«الدنيا قطرة» [٤٩]، وأخرى: «مَتَجَرَّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ» [٧٠]، وتارة «الدُّنْيَا مَرْزَعَةٌ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٦

الْآخِرَةُ» [٧١] والتي تفيد جميعاً ذات المعنى.

ثم أشار في هذا السياق إلى أمر آخر فقال: «وَلَا تَهْتَكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ».

يرى أغلب الشراح أنّ هذه العبارة تشير إلى عدم التجاهر بالمعصية، لأنّ المعصية الخفية في الواقع معصية واحدة، بينما تعتبر المعصية العلنية مضاعفة كونها انتهاك للستار وتلويث للبيئة الاجتماعية؛ إلّا أنّ بعض الشراح اعتبرها إشارة إلى أعمال الخير فإنّها أفضل أن يؤتى بها في الخفاء، والحال العبارة (وَلَا تَهْتَكُوا) لا تتناسب مع هذا المعنى.

على كلّ حال فإنّ الله ستار العيوب وغفار الذنوب؛ فمادام العبد لا يهتك الستار فإنّ الله يستر العيب والذنوب.

فقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «ما مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ أَرْبَعُونَ جُنَّةً حَتَّى يَعْمَلَ أَرْبَعِينَ كَبِيرَةً فَإِذَا عَمَلَ أَرْبَعِينَ كَبِيرَةً انْكَشَفَتْ عَنْهُ الْجُنُنُ». ثم قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «فِيُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِمْ أَنْ اسْتُرُوا عَلَى عَبْدِى بِأَجْنِحَتِكُمْ فَتَسْتُرُهُ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا، قَالَ: فَمَا يَدْعُ شَيْئاً مِنَ الْقَبِيحِ إِلَّا قَارَفَهُ حَتَّى يَمْتَدِّحَ إِلَى النَّاسِ بِفِعْلِهِ الْقَبِيحِ، فَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ هَذَا عَبْدُكَ مَا يَدْعُ شَيْئاً إِلَّا بَارَكَبَهُ، وَإِنَّا لَنَسْتَحِي مِمَّا يَصْنَعُ، فَيُوحِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ أَنْ ارْفَعُوا أَجْنِحَتَكُمْ عَنْهُ فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ أَخَذَ فِي بُغْضِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْهَتُكَ سِتْرُهُ فِي السَّمَاءِ وَسِتْرُهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ هَذَا عَبْدُكَ قَدْ بَقِيَ مَهْتُوكَ السِّتْرِ، فَيُوحِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ: لَوْ كَانَتْ لِلَّهِ فِيهِ حَاجَةٌ مَا أَمَرَكَمْ أَنْ تَرْفَعُوا أَجْنِحَتَكُمْ عَنْهُ» [٧٢].

ولعل إرتباط هذه العبارة بالعبارة السابقة أنّ من أسوأ الذنوب التي تخرب الدار الآخرة للإنسان يكمن في التجاهر بالمعصية.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٧

ثم واصل الإمام عليه السلام حديثه عن الزهد في الدنيا مشيراً إلى نقطة ثالثة فقال:

«وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ».

إخراج القلوب، كناية لطيفة عن ترك التعلقات الدنيوية والتهافت على متاعها وحطامها، والتعبير «مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ...» تحذير من تقلب هذا العالم بمعنى أيقوا فإنّ هذه الأجساد ستصبح تراباً فاسعوا لإخراج قلوبكم من هذه الدنيا قبل الأوان فحبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة.

طبعاً لا- يعني هذا أن لا- يتمتع المسلمون بحوائج الحياة أو أن تتخلف المجتمعات الإسلامية عن التقدم الاقتصادي ويحتاجون إلى غيرهم، بل المراد التبعية الشديدة التي تضطر الإنسان لخرق القانون ومن هنا عدّ الشراح هذه العبارة إشارة لترك الأموال الحرام.

ثم قال في رابع نقطة واكمال ما سبق فقال: «فَفِيهَا اخْتَبَرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ».

فهاتان العبارتان الموجزتان توضحان كلّ شى ويشير الالتفات إليهما إلى المسار السعيد لحياة الإنسان، نعم فالدنيا دار امتحان والآخرة دار الخلود، قال تعالى:

«أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُؤْتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» [٧٣]، فالامتحان الإلهي كوسيلة لتكامل الإنسان وتهذيبه أمر قطعي لا مفرّ منه وعبارة أخرى من أهداف خلق الإنسان الذي لا استثناء فيه ولا بدّ من التعرض لها في الليل والنهار والسر والعلانية والكهولة والشباب.

ثم أشار إلى ثلاثة أمور مهمّة أخرى وقال: «إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟».

المراد من الناس هنا المتعلقين بالدنيا الذين غالباً ما يسألون عن أموال و ثروات من يموت، والحال انقطعوا نهائياً عن تلك الأموال وعليهم أن يجيبوا عن طرق تحصيل هذه الأموال يوم القيامة والطريف أنّه جعل مقابلهم الملائكة الذين يقتصر

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٨

تركيزهم على الأمور والمسائل المعنوية.

ثم قال في الأخير: «لله آباؤكم! فقدّموا بعضاً يكن لكم قرضاً، ولا تخلفوا كلًّا فيكون قرضاً عليكم».

الجملة «لله آباؤكم!» تذكر عادةً للتعجب المقرون بالاحترام [٧٤] والمراد من الجملة «فقدّموا بعضاً...» أن الإنسان مادام حيًّا ينفق من أمواله في سبيل الله على الفقراء أو الأمور الخيرية بمقتضى «وما عند الله باق» [٧٥] و«من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً» [٧٦] والتعبير بـ «بعض» حتى لا ينبغى للإنسان أن يحرم ورثته المحتاجين غالباً فذلك بعيد عن الانصاف، وقد ورد الذم في الروايات على من ينفق أمواله في حياته ولا يترك شيئاً للورثة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله في أحد الأنصار الذي أنفق جميع أمواله قبل موته ولم يبق شيئاً لأولاده: «لَوْ أَعْلَمْتُمُونِي أَمْرَهُ مَا تَرَكْتُكُمْ تَدْفِنُوهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ يَتْرُكُ صَبِيَّتَهُ صِغَارًا يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ» [٧٧]. طبعاً هذا النهي في من له ورثة محتاجون. من جانب آخر ورد الذم بشدة لمن لا ينفق شيئاً من أمواله في سبيل الله ويبقيه جميعاً للورثة.

قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية «كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ» [٧٨]: «هُوَ الرَّجُلُ يَدْعُ مَالَهُ لَا يَنْفِقُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ بُخْلًا ثُمَّ يَمُوتُ فَيَدَعُهُ لِمَنْ يَعْمَلُ فِيهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ أَوْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنْ عَمِلَ بِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ رَأَهُ فِي مِيزَانٍ غَيْرِهِ فَرَأَهُ حَسْرَةً وَقَدْ كَانَ الْمَالُ لَهُ وَإِنْ كَانَ عَمِلَ بِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ قَوَاهُ بِذَلِكَ الْمَالِ حَتَّى عَمِلَ بِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» [٧٩].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٩

الجملة «قرضاً عليكم» إشارة إلى أنه إن خلف كل أمواله للورثة فحسابها عليه في القيامة ومنافعها للآخرين.

وهنا لطيفة أدبية أن الإمام على عليه السلام استفاد في هاتين العبارتين من أربعة أشياء، «قدّموا» في مقابل «لا تخلفوا» و «بعض» إزاء «كل» و «قرض» مقابل «فرض» و «لكم» في مقابل «عليكم» وهي دلالة على فصاحته وبلاغته كلام الإمام عليه السلام.

تأمل: الإكثار من هذه العبارة

الأجدر بكل إنسان أن يتلو كل صباح هذه العبارة، فالغفلة والإنهماك طبيعته الدنيا؛ الغفلة التي غالباً ما تؤدي إلى المعصية التي تبعد العبد عن الله.

فالعبارة المذكورة وضحت موضع الدنيا وتضمنت وصايا بشأن الاستعداد والتأهب لذلك السفر المصيري.

طبعاً كلمات الإمام عليه السلام لا تعنى أن يكف الإنسان عن السعي من أجل الحياة المادية، فذلك مدعاة للفقر والعوز، فالفقر هو الأساس لأنواع المعاصي والتغرب عن الإسلام وهي التبعية التي تقضى على عزّة الإسلام وتكسر شوكتها؛ بل المراد تغيير النظرة إلى الدنيا؛ التمتع بجميع النعم ولكن شريطة الاستفادة من الأموال في سبيل قضاء الحوائج واستثمارها من أجل نيل السعادة في الدار الآخرة وتسكين أنين المحرومين، والابتعاد عن كثر الأموال والثروة وإنفاق قسم من الأموال حال الحياة وآدخارها للمعاد.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤١

الخطبة ٢٠٤

إشارة

كَانَ كَثِيرًا مَا يُنَادِي بِهِ أَصْحَابَهُ [٨٠]

نظرة إلى الخطبة

يستفاد من العنوان الذي اختاره السيد الرضى للخطبة أن الإمام عليه السلام خاطب صحبه كراراً وكثيراً ما كرر هذا الكلام، كما يفهم من روايته وردت في «مصادر نهج البلاغة» أنه عليه السلام نادى الناس ثلاثاً بعد صلاة العشاء لیسمع الجميع ويطلق سمعهم هذا الكلام، والخطبة في الواقع موعظة لجميع الناس أن الحياة الدنيا قصيرة ولا بد من الاستعداد للمنازل المرعبة بعدها كالقبر والبرزخ والقيامة، تحذير بقطع التعلق العميق بالدنيا وأن عمرها قصير ونهايتها وشيكة، تحذير بغية التزود لذلك السفر الطويل والخطير.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٣

تَجَهَّزُوا، رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقْلُوا العُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا، وَأَنْقَلِبُوا بِصَالِحٍ مَا بَحَضَرَتْكُمْ مِنَ الزَّادِ، فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَوُودًا، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً، لَا بَدَّ مِنَ الوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَلَا حِطَّ المَيْتَةَ نَحْوَكُمْ دَائِيَةً، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِهَا وَقَدْ نَسِبَتْ فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ فِيهَا مُفْطِعَاتُ الْأُمُورِ، وَمُعْضَلَاتُ المَحْذُورِ. فَقَطِّعُوا عِلَاقَ الدُّنْيَا وَاشْتَظَّهُرُوا بِزَادِ التَّقْوَى.

الشرح والتفسير: الابتعاد عن طلب الدنيا

تشبه هذه الخطبة السابقة وتدر في فلكها، فهي تحذير لأهل الدنيا بأن لا ينسوا مكانهم منها وأن يلتفتوا لما ينتظرهم من أيام ويستعدوا لها، فيقول:

«تَجَهَّزُوا، رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقْلُوا العُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا».

فقد شبه الإمام عليه السلام المجتمع البشري بقافلة ينتظرها مقصد عظيم، وبصفته زعيم القافلة ينادى الجميع بالتأهب للحركة. و «الرحيل» بمعنى السفر وقد ورد لها معنيان لدى الشراح، الحركة نحو الآخرة والسير والسلوك إلى الله، ولا مانع من مناداة الناس بالتأهب والحركة باتجاه القيامة ودعوة الخواص إلى السير والسلوك إلى الله.

ورد في بعض الروايات الاستعداد للموت بدل التجهز لسفر الآخرة، فقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام: «مَا الِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ؟» قال عليه السلام: «أداء الفرائض واجتناب

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٤

المحارم والاشتمال على المكارم ثم لايبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه» [٨١].

وقد وردت عدّة احتمالات بشأن المنادى، فقيل: ملك من الملائكة كما ورد في إحدى الكلمات القصار لنهج البلاغة [٨٢] كما نظمه البعض بصيغة شعرية:

لَهُ مَلِكٌ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ لِدَوَا لِلْمَوْتِ وَابْتُوا لِلْخَرَابِ

أو أن المنادى هو الحوادث والبلايا كالعواصف التي تجتاح حياة الناس كل يوم، أو إشارة إلى آثار الشيخوخة التي تتبلور في ذبول الجسد ومشيب الشعر وانحناء القامة والتي تنادى بالرحيل بلسان الحال، وإن اعتبرنا الرحيل بمعنى السير والسلوك إلى الله وتهذيب النفس، فالمنادى هو الله في القرآن، وأئمة العصمة في الروايات، الذين يهتفون بنداء الموت ومغادرة الدنيا.

ومفهوم العرجة على ضوء معنى الإقامة، هو الحد من التعلق بالإقامة في الدنيا وعدم عدها خالدة، كحال المتهافتين عليها.

ثم بين أسلوب الاستعداد لسفر الآخرة فقال: «وَأَنْقَلِبُوا بِصَالِحٍ مَا بَحَضَرَتْكُمْ مِنَ الزَّادِ» [٨٣].

«انقلبوا» عبارة، لطيفة تشير إلى التحول الباطني، أي حولوا انتباهكم عن الانغماس في الدنيا إلى إعداد الزاد والمتاع الأخروي. «بحضرتكم» إشارة لما يتمتع به الإنسان من قدرات وفرص.

ثم خاض الإمام عليه السلام في الدليل على لزوم تحصيل الزاد والمتاع فقال: «فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَوْوَدًا [٨٤]، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً [٨٥]، لَأَبْدُ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٥

وقد ورد في الخبر المروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ فِي الْقِيَامَةِ خَمْسِينَ مَوْقِفًا كُلُّ مَوْقِفٍ كَأَلْفِ سِنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» [٨٦].

وروى ما يشبه هذا المعنى بصورة أسهب عن الإمام عليه السلام [٨٧] ويحتمل أن هناك أحد الأعمال الواجبة في كل موقف من المواقف كالصلاة والصوم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو السؤال عن الكبائر والتي يتطلب من أصحابها إجابة في ظل الظروف الصعبة والمخيفة فإن عبورها بسلام كانوا موضع رحمة الله والجنة وإلا عرضوا للبلاء.

وبعبارة أخرى كما قال المرحوم الشيخ المفيد: إن المراد من هذه العقبات، الأعمال الواجبة التي تشبه كل منها بالعقبة، وكما يصعب عبور هذه العقبات تصعب الإجابة عن هذه الأعمال.

قال تعالى في سورة البلد: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكَّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مَسَّكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ» [٨٨].

طبعاً لا فرق بهذا الشأن بين الدنيا والآخرة في ما المراد من هذه العقبات؟ سيما ورد بشأن القيامة: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا» [٨٩].

وعليه لا يبدو وارداً اعتراض المرحوم العلامة المجلسي على الشيخ المفيد في ضرورة عدم حمل الألفاظ على معانيها المجازية دون الأصلية [٩٠]، فهذا الإشكال

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٦

يرد حين لا تكون هناك قرائن ويكفي في هول القيامة قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرُؤُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» [٩١].

ثم تعمق الإمام عليه السلام في شرح هذا الأمر فوعظ الجميع قائلاً: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَلَا حِظَّ [٩٢] الْمَيِّتِ [٩٣] نَحْوَكُمْ ذَائِبَةٌ [٩٤]، وَكَأَنَّكُمْ بِمَحَالِبِهَا [٩٥] وَقَدْ نَسِبَتْ [٩٦] فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ [٩٧] فِيهَا مُفْطَعَاتُ [٩٨] الْأُمُورِ، وَمُعْضَلَاتُ [٩٩] الْمُحْذُورِ».

ويشير هذا الكلام إلى عدم وجود مسافة بين الإنسان والموت مهما كان عمره، ففي كل آن يمكن وقوع حادثة مفاجئة ويصيبه مرض في كل حين أو يباغته عدو في الهجوم، ولعل حياة الإنسان تزول إذا غص بلقمة، أو يلاقى حتفه إذا انسدت شرايين قلبه أو أصيب بسكتة دماغية أو أن يقطع نخاعه أثر ضربة مفاجئة فيعيش طريح الفراش طيلة حياته.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبة باستنتاج بين وبلغ فقال: «فَقَطُّعُوا عِلَاقَ الدُّنْيَا وَاسْتَظْهِرُوا [١٠٠] بِرِزَادِ التَّقْوَى».

والمراد من علائق الدنيا هو التعلق المفرط بالمال والجاه والزوج والولد، بالشكل الذي يغفل الإنسان عن الله ويسهل عليه مقارفة المعصية لنيل الدنيا ويزين له مفاتها

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٧

وعبارة الاستظهار بزيادة التقوى إشارة إلى أن آخره الإنسان تتطلب في هذا السفر الخطير والمخيف نقاط ارتكاز تسهل عليه اجتياز الطريق وليس هنالك من مرتكز أفضل من زاد الورع والتقوى.

وحين بلغ المرحوم السيد الرضي هذا الموضوع قال: «وَقَدْ مَضَى شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ فِيمَا تَقَدَّمَ بِخِلَافِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ».

والظاهر أن مراده، الخطبة ٨٥ التي تشترك ببعض العبارات مع الكلام المذكور.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٩

الخطبة ٢٠٥

إشارة

كَلَّمَ بِهِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ بَعْدَ بَيْعَتِهِ بِالْخِلَافَةِ وَقَدْ عَتَبَا عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِ مَشُورَتَيْهِمَا، وَالِاسْتِعَانَةَ فِي الْأُمُورِ بِهِمَا [١٠١]

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في عنوان الخطبة فإن هذا الكلام ردّ على بعض إشكالات طلحة والزبير اللذين كانا يتوقعان أن يجعل لهما الإمام عليه السلام نصيب كبير من الحكومة واستشارتهما في جميع الأمور، فذكر لهما الإمام عليه السلام بعض الأمور التي تبين بوضوح مسيرة حكومته وتضع حدّاً لتوقعاتهما الخاطئة:

الأول: إن هؤلاء يعتبرون من هذا الباب، لم كلّ هذا الغضب على شيء يبدو بسيطاً وقد نسيت العديد من المحاسن.

ثم بين في جانب آخر أن ليست هنالك من مشكلة مستجدة بشأن الحكومة

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٥٠

ليستشيرهما بخصوصها؛ بل سيقود الدولة على هدى الكتاب والسنة، وبالطبع لو استجد أمر يدعو إلى المشورة فإنه لن يمتنع عنها قط.

وأجاب في القسم الثالث عن الإشكال الذي يرد عليه على التسوية في العطاء من بيت المال والذي يستند أيضاً إلى السنة النبوية.

وخاض في ختام الخطبة في دعاء عظيم المعنى سائلاً الله الرحمة لكل من رأى حقاً وأعان عليه ووقف بوجه الباطل.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٥١

القسم الأول

لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيرًا، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيرًا. أَلَا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُمَا عَنْهُ؟ أَمْ أَيُّ قِسْمٍ اسْتَأْثَرْتُمْ عَلَيْنَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعَفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهَلْتُمْ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!

وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِزْبَةٌ، وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَنْتَ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذَلِكَ إِلَيَّ رَأْيَكُمْ، وَلَا رَأْيَ غَيْرِكُمْ، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهْلْتُمْ؛ فَاسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا، وَلَا عَنْ غَيْرِكُمْ.

الشرح والتفسير: حجج طلحة والزبير

لما تفاقمت الأوضاع ومشاكل المسلمين على عهد عثمان وقام الناس عليه ناقلين على اغداقه المناصب على بطانته وقربته وتوزيع أموال بيت مال المسلمين عليهم وتجاهله للمحرومين والمحتاجين، هب عدد من الصحابة لنصرتهم وكان في مقدمتهم طلحة والزبير،

وهما اللذان أصرا على الإمام بقبول الحكومة، فكانا من السابقين لبيعة الإمام عليه السلام؛ إلا أنهما على غرار أولئك الذين يفكرون بطريقة سياسية وليست ربانية ورحمائية، فهم يتوقعون على الدوام نيل المناصب الحكومية؛ ويوردون ذلك صراحة تارة وأخرى عن طريق بعض الذرائع لئيبينا هدفهم من نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٥٢ خلال الكناية.

وهذا ما كان يتوقعه طلحة والزبير من الإمام عليه السلام؛ فكان طلحة يطمح في حكومة البصرة، والزبير في حكومة الكوفة، وقال البعض: إن طلحة كان يريد حكومة اليمن، والزبير حكومة العراق، ولما كانت مثل هذه الرشاوى السياسية تقود عادة إلى تجزئة الدولة بغض النظر عن مخالفتها لروح العدالة، ناهيك عن كون ذلك هو السبب الذي أدى إلى قيام المسلمين على عثمان فإن الإمام لم يستجب لتلك الطموحات.

وحين يئس طلحة والزبير من تحقيق غرضهما أخذوا بالنقد والإشكال على الإمام أولاً، ثم أشعلا نار الجمل؛ النار التي احترقا في أتونها فقال عليه السلام: «لَقَدْ نَقَمْتُمَا [١٠٢] يَسِيرًا، وَأَزَجْتُمَا [١٠٣] كَثِيرًا».

والمراد من اليسير ترك مشورتهم، والمراد من الكثير مصالح المسلمين، فطلحة والزبير استعانا بذرائع واهية بغية تحقيق أهدافهما وأدارا ظهرهما لمصالح المسلمين التي تفرزها وحدة الصف والوقوف خلف الإمام عليه السلام، وهذا هو أسلوب الباحثين عن العيوب ضيقى الاق الذين يضحون بمصالح الائمة من أجل تحقيق أطماعهم.

ثم قال الإمام عليه السلام: «أَلَا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمْ فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُمَا عَنْهُ؟ أَمْ أَيُّ قَسَمٍ اسْتَأْتَرْتُمَا [١٠٤] عَلَيَكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفَتْ عَنْهُ، أَمْ جَهْلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!».

الواقع أن الإمام عليه السلام أراد بهذه العبارة أن يغلق جميع أبواب النقد والإشكال التي يمكن أن يلجها طلحة والزبير، فالانتقاد إما يرتبط بحقهما الشخصي أو بسائر المسلمين، ومطالباتهما الشخصية إما تتعلق بضياح حقهما أو التصرف فيه، وما يتعلق بسائر نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٥٣

المسلمين إما يكون تقصير في إحقاق الحقوق أو الجهل بحق أو الخطأ في التنفيذ.

والإمام عليه السلام يقول لهما: إن كان لديكما إشكال على أي من هذه الأمور قولاً لي صراحة، وحيث لم يستطيعا الإشارة إلى قضية عجزا عن الإتيان بإجابة، وهذا ديدن جميع المخطئين الانتهازيين الذين يرسلون الكلام على عواهنه ويشيرون الضجيج دون الإشارة إلى نقطة معينة.

ثم قدم الإمام عليه السلام جواباً واضحاً لإشكالهما بخصوص ترك المشورة فقال: «وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِزْبَةٌ [١٠٥]، وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرْنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَيْنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَخْتَجْ فِي ذَلِكَ إِلَيَّ رَأْيَكُمْ، وَلَا رَأْيَ غَيْرِكُمْ، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهْلْتُهُ؛ فَاسْتَشِيرْتُكُمْ وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمْ، وَلَا عَنْ غَيْرِكُمْ».

أشار الإمام عليه السلام في الواقع بهذه العبارة إلى أمرين؛ الأول: إنه لم يتخذ عضداً في قبول الخلافة الظاهرية وقد تمت الحجّة عليه بقبولها بفعل إصرار المسلمين ولاسيما بعضهم كطلحة والزبير، وعليه فليس هنالك من توقع من الإمام سوى رعاية حقوق الناس.

طبعاً أصحاب الدنيا الذين ينشدون المناصب يدعون هذا وذاك لدعمهم ويعدونهم ببعض المناصب قبل بلوغها إن وصلوا لسدة الحكم، لكن لا معنى لمثل هذا التوقع بالنسبة لأولياء الله الذين لا يرغبون في هذه المناصب سوى استجابة لرغبة الناس.

الثاني: إن مسألة المشورة صحيحة؛ ولكن «لكل مقام مقال ولكل حادثه حديث» حقاً ليس هنالك من مجال للمشورة في الأمور الإسلامية القطعية وأوامر الله والنبي صلى الله عليه وآله، بينما تبدو المشورة مفتوحة في الأمور التنفيذية التي تتنوع أساليبها.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٥٤

فالإمام عليه السلام يقول: لا تتوقعوا أن أشتشير كما في القضايا المهمة كالعدل وإعادة الأموال المغصوبة على عهد عثمان إلى بيت المال والتسوية في العطاء، وسوف لن اتردد في هذه المشورة إن كان إليها من سبيل.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٥٥

القسم الثاني

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأَسْوَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكَمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلَا وَلِيَّتُهُ هَوَىٰ مِنِّي، بَلْ وَحِيدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَدْ فُرِعَ مِنْهُ، فَلَمْ أَسْتَجِبْ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَعَ اللَّهُ مِنْ قَسَمِهِ، وَأَمْضَىٰ فِيهِ حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمَا، وَاللَّهُ، عِنْدِي وَلَا لِغَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُتْبَىٰ. أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَالْهَمْنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ.

ثم قال عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَى جَوْرًا فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْنًا بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ.

الشرح والتفسير: حكم الله

ركز الإمام عليه السلام هنا على أحد الإشكالات الرئيسية لطلحة والزبير وأمثالهما على الإمام في التسوية في العطاء من بيت المال فقال: «وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأَسْوَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكَمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلَا وَلِيَّتُهُ هَوَىٰ مِنِّي، بَلْ وَحِيدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَدْ فُرِعَ مِنْهُ».

المفردة «أسوة» وإن استعملت غالباً بمعنى الإقتداء والاتباع ولم تذكر لها المصادر اللغوية معنى آخر غير هذا المعنى [١٠٦]؛ إلا أن بعض اللغويين صرحوا بأن

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٥٦

أحد معانيها، المساواة، ومن هنا يقال لمن افلس: «المال أسوة بين الغرماء».

فإن اعتبرنا معنى «أسوة» حسب المتعارف (الإقتداء) فسيكون مفهوم العبارة أن طلحة والزبير وأمثالهما اعترضوا على الإمام عليه السلام: لم لم تقصد بسيرة عمر وعثمان؟

فأولئك كانوا يراعون شأن الشخص واسمه وعنوانه في العطاء ولم يسووا في العطاء بين المسلمين قط.

ثم قال: «فَلَمْ أَسْتَجِبْ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَعَ اللَّهُ مِنْ قَسَمِهِ، وَأَمْضَىٰ فِيهِ حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمَا، وَاللَّهُ، عِنْدِي وَلَا لِغَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُتْبَىٰ [١٠٧]».

واختتم الإمام عليه السلام كلامه بالدعاء له ولهم موصياً إياهم بالثبات على الحق والصبر عليه فتضرع قائلاً: «أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَالْهَمْنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ».

من الواضح أن الحق مرير في أغلب المواقع ويصعب تحمله، وهذا ما يجعل الإنسان أحياناً لا يرى الحق ولو رآه لا يحتمله، لذلك يطلب الإمام عليه السلام من الله شيئين؛ الأول أن يريه والآخرين الحق كما هو، ومن ثم يتلطف عليه بتحمل مرارته.

ورد في إحدى قصار كلمات «نهج البلاغة» أنه عليه السلام قال: «إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ» [١٠٨]. ثم قال عليه السلام: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَى جَوْرًا فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْنًا بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٥٧

١. علة التسوية في العطاء

لو ولى أمير المؤمنين على عليه السلام الخلافة الظاهرية عقب رسول الله صلى الله عليه وآله كما كانت هنالك من مشكلة، لأنه كان سيواصل سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله؛ إلا أن الطامة الكبرى أن الإمام تولّاها حين اعتاد المسلمون أنواع التمييز على عهد الخليفة الثاني وأعظم منها على عهد عثمان وكان من الصعب عليهم للغاية تغيير ما اعتادوا عليه وكانت جلّ جهود الإمام تتركز على القضاء على تلك السياسات العنصرية، والسبب الرئيسي للحروب كالجمل وصفين إنما يقف وراءها أنصار التمييز العنصرى. لا شك أن طلحة والزبير كانا من السابقين إلى الإسلام وكان لهما دور مهم في نصرته الدين، كما كانت لهما مواقفهما المعروفة في الدفاع عن النبي في أغلب الغزوات الإسلامية؛ إلا أن الانحراف عن المنهج النبوى الذى شهده عهد الخليفة الثانى والثالث وما رسدا من امتيازات خاصة لهذين وأمثالهما من بيت المال جعلهما يعتادان الابتزاز، ومن هنا تعالت أصواتهما منذ البداية حين وقف الإمام عليه السلام بحزم بوجه تلك الامتيازات، وعلى غرار الدهشة التى أصابت الناس فى العصر الجاهلى حين تبدلت الهتهم المتعددة إلى الإله الواحد القهار فقد اصيب هؤلاء بالذهول لتغير ذلك المنهج فاعتراضا على الإمام، لم يستشروهما، ولم يتوقعا هذه المشورة فى تقسيم أموال بيت المال، بل توقعاها فى توزيع المناصب والمقامات الحساسة، وبالتالي كانا يطمعان بحصّة ولم يصدقا أن الإمام بهذا الحزم سيعيد الامّة إلى منهج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله .

ولما طاشت احلامهما استعرت نيران الحقد فى قلوبهما واستحوذت عليهما الأفكار الشيطانية فأججا نيران الحروب التى احترقا بلهيبها. جدير بالذكر أن أموال بيت المال على نوعين؛ قسم منه كالزكاة الذى له عدّة مصارف ويمكن ترجيح البعض على البعض الآخر (بما يناسب جهودهم)؛ مثلا

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٥٨

«المؤلفه قلوبهم» و «العاملين عليهما» أو القضاة وأمثالهم كان كل يتسلم سهماً من الزكاة بما يتناسب وموقعه وجهده، كما كان النبي صلى الله عليه وآله يميز بين المشاة والفرسان فى الغنائم؛ إلا أن قسماً مهماً من الدخل كالخراج الذى يؤخذ من الأراضى الخراجية [١٠٩] والنّى تشكل مبالغ طائلة فلا بدّ من توزيعها بالسوية على المسلمين.

بالضبط كالشئى الموقوف على الأولاد والذين ينبغى أن يأخذوا منه بالتساوى كيفما كانوا وكالدعم الذى يدفع فى عصرنا من بيت المال الذى يتساوى فيه رئيس الجمهورية والإنسان العادى، وأدنى امتياز لشخص دون شخص مرفوض.

وقد شهد عصر الخليفة الأول، المنهج النبوى ومساواة الجميع؛ إلا أن التمييز بدأ منذ عهد عمر بشهادة التواريخ المعتمدة وبلغ ذروته على عهد عثمان واستمر ذلك ٢٢ سنة حتى أصبح هذا الفعل الشنيع بالتدرج سنة.

ولترك الكلام هنا لابن أبى الحديد الذى بين خفايا مهمّة بالاستناد إلى التواريخ والروايات فكشف النقاب عن أغلب أسرار عصر الخلفاء وحكومة أمير المؤمنين على عليه السلام، فقد أورد شرحاً مسهباً هذه خلاصته:

«ثم بويح - الإمام على عليه السلام - وصعد المنبر فى اليوم الثانى من يوم البيعة، وهو يوم السبت، لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر محمداً صلى الله عليه، ثم ذكر نعمة الله على أهل الإسلام، ثم ذكر الدنيا، فزهدهم فيها، وذكر الآخرة فرغبهم إليها، ثم قال:

أما بعد، فإنه قبض رسول الله صلى الله عليه ... ثم إنتفت عليه السلام يميناً وشمالاً، فقال: ألا يقولنّ رجال منكم غداً قد غرتهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارسة، واتخذوا الوصائف الزوقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التى يعلمون، فيقيمون ذلك،

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٥٩

ويستنكرون يقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا! ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته، فإن الفضل النير غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله، وأيما رجل استجاب لله وللرسول، فصدق ملتناً، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء، وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار، وإذا كان غداً إن شاء الله فاغدوا علينا، فإن عندنا مالاً نقيس به فيكم، ولا يتخلف أحد منكم، عربى ولا عجمى، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلّا حضر، إذا كان مسلماً حراً، أقول قولي هذا وأستغفر الله لى ولكم، ثم نزل.

فلما كان من الغد، غدا الناس لقبض المال، فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه: إبدأ بالمهاجرين فنأدهم، وأعط كل رجل ممن حضر ثلاثة دنانير، ثم نث بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك، ومن يحضر من الناس كلهم الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك. فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامى بالأمس، وقد أعتقته اليوم، فقال: نعطيه كما نعطيك، فأعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير، ولم يفضل أحد على أحد، وتخلف عن هذا القسم يومئذ طلحة والزبير، وعبدالله بن عمر، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، ورجال من قريش وغيرها.

قال: وسمع عبيد الله بن أبي رافع عبدالله بن الزبير يقول لأبيه وطلحة ومروان وسعيد: ما خفى علينا أمس كلام على، ما يريد؟ فقال سعيد بن العاص - والتفت إلى زيد بن ثابت: إياك أعنى وأسمعى يا جاره، فقال عبيد الله بن أبي رافع لسعيد وعبدالله بن الزبير: إن الله يقول فى كتابه: «ولكن أكثرهم للحق كارهون» [١١٠].

ثم إن عبيد الله بن أبي رافع أخبر علياً عليه السلام بذلك، فقال: «والله إن بقيت وسلمت»

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٦٠

لهم لأقيمهم على المحجة البيضاء، والطريق الواضح، قاتل الله ابن العاص! لقد عرف من كلامى ونظرى إليه أمس أنى أريده وأصحابه ممن هلك فيمن هلك.

فقال، فبينما الناس فى المسجد بعد الصبح إذ طلع الزبير وطلحة، فجلسا ناحية عن على عليه السلام، ثم طلع مروان وسعيد وعبدالله بن الزبير، فجلسوا إليهما، ثم جاء قوم من قريش فانضموا إليهم، فتحدثوا نجياً ساعة! ثم قام الوليد بن عقبه بن أبى معيط، فجاء إلى على عليه السلام، فقال: يا أبا الحسن، إتك قد وترتنا جميعاً، أما أنا فقتلت أبى يوم بدر صبراً، وخذلت أخى يوم الدار بالأمس، وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر فى الحرب - وكان ثور قريش - وأما مروان فسخت أباه عند عثمان إذ ضمه إليه، ونحن إخوتك ونظراؤك من بنى عبدمناف، ونحن نباعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال فى أيام عثمان، وأن تقتل قتلتة، وإنا إن خفناك تركناك، فالتحقنا بالشام.

فقال: أما ما ذكرتم من وترى إياكم فالحق وتركم، وأما وضعى عنكم ما أصبتم فليس لى أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم، أما قتلى قتله عثمان فلو لزمنى قتلهم اليوم لقتلهم أمس، ولكن لكم على إن خفتمونى أن أومنكم وإن خفتكم أن أسيركم.

فقام الوليد إلى أصحابه فحدثهم، فافترقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف، فلما ظهر ذلك من أمرهم، قال عمار بن ياسر لأصحابه، قوموا بنا إلى هؤلاء النفر من إخوانكم فإنه قد بلغنا عنهم ورأينا منهم ما نكره من الخلاف والظعن على إمامهم، وقد دخل أهل الجفاء بينهم وبين الزبير والأعسر العاق - يعنى طلحة.

فقام أبو الهيثم وعمار وأيوب وسهل بن حنيف وجماعة منهم، فدخلوا على على عليه السلام، فقالوا: يا أمير المؤمنين، انظر فى أمرك وعاتب قومك، هذا الحى من قريش، فإنهم قد نقضوا عهدك، وأخلفوا وعدك، وقد دعونا فى السر إلى رفضك، وهداك الله لرشدك! وذاك لأنهم كرهوا الاسوء، وفقدوا الأثرة، ولما آسيت بينهم وبين الأعاجم

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٦١

أنكروا واستشارك عدوك وعظّموا الطلب بدم عثمان فرقة للجماعة، وتألفاً لأهل الضلالة، فأريك.

فخرج على عليه السلام فدخل المسجد، وصعد المنبر مرتدياً بطاق، مؤترراً ببرد قطري، متقلداً سيفاً، متوكئاً على قوس، فقال:

أما بعد، فإننا نحمد الله ربنا وإلهنا وولينا، وولى النعم علينا، الذى أصبح نعمة علينا ظاهرة وباطنة، امتناناً منه بغير حول منا ولا قوة، ليلونا أنشكر أو نكفر، فمن شكر زاده ومن كفر عذبه، فأفضل الناس عند الله منزله، وأقربهم من الله وسيله أطوعهم لأمره وأعملهم لطاعته، وأتبعهم لسيته رسوله، وأحياهم لكتابه، ليس لأحد عندنا فضل إلا بطاعة الله وطاعة الرسول، هذا كتاب الله بين أظهرنا، وعهد رسول الله وسيرته فينا، لا- يجهل ذلك إلا جاهل عاند عن الحق، منكر، قال الله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» [١١١].

ثم صاح بأعلى صوته، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين.

ثم قال: يا معشر المهاجرين والأنصار، أتمنون على الله ورسوله بإسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين. ثم قال: أنا أبو الحسن - كان يقولها إذا غضب - ثم قال: ألا إن هذه الدنيا التي أصبحتتم تمنونها وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضكم، ليست بداركم ولا منزلكم الذى خلقتم له، فلا تغرنكم فقد خذرتموها، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر لأنفسكم على طاعة الله، والدل لحكمه، جل ثناؤه، فأما هذا الفى، فليس لأحد على أحد فيه أثره، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، عهد نبينا بين أظهرنا فمن لم يرض به فليتول كيف

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٦٢

شاء فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشه عليه.

ثم نزل عن المنبر، فصلّى ركعتين، ثم بعث بعمار بن ياسر، وعبدالرحمن بن حسل القرشى إلى طلحة والزبير، وهما فى ناحية المسجد، فأياهما فدعواهما، فقاما حتى جلسا إليه عليه السلام، فقال لهما: نشدتكما الله، هل جئتماني طائعين للبيعه، ودعوتماني إليها، وأنا كاره لها!

قالا: نعم.

فقال عليه السلام: غير مجبرين ولا مقسورين، فأسلمتما لى بيعتكما وأعطيتماني عهدكما!

قالا: نعم.

قال: فما دعاكما بعد إلى ما أرى.

قالا: أعطيناك بيعتنا على ألا تقضى الأمور ولا تقطعها دوننا، أن تستشيرنا فى كل أمر ولا تستبد بذلك علينا، ولنا من الفضل على غيرنا

ما قد علمت، فأنت تقسم القسم وتقطع الأمر، وتمضى الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا.

فقال: لقد نعتما يسيراً! وأرجأتما كثيراً! فاستغفرا الله يغفر لكم، ألا تخبرانى أدفعتكما عن حقّ وجب لكم فظلمتكما إياه؟

قالا: معاذ الله!

قال: فهل استأثرت من هذا المال لنفسى بشىء؟

قالا: معاذ الله!

قال: أفوقع حكم أو حق لأحد من المسلمين فجهلته أو ضعفت عنه؟

قالا: معاذ الله!

قال: فما الذى كرهتما من أمرى حتى رأيتما خلافى؟

قالا: خلافك عمر بن الخطاب فى القسم، أنك جعلت حقنا فى القسم كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى

علينا بأسيافا ورماحنا

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٦٣

وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا، وظهرت عليه دعوتنا، أخذناه قسراً قهراً، ممن لا يرى الإسلام إلّا كرهاً.

فقال: فأما ما ذكرتمناه من الاستشارة لكما فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة، ولكنكم دعوتموني إليها، وجعلتموني عليها، فخفت أن أردكم فتختلف الامة، فلما أفضت إلى نظرت في كتاب الله وسنته رسوله فأمضيت ما دلاني عليه وأتبعته، ولم أحتج إلى آرائكم فيه، ولا رأى غيركم، ولو وقع حكم ليس في كتاب الله بيانه ولا في السنة برهانه، واحتج إلى المشاورة فيه لشارتكم فيه، وأما القسم والأسوء، فإن ذلك أمر لم أحكم فيه باديء بدء! قد وجدت أنا وأنتما رسول الله صلى الله عليه وآله يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأما قولكم: جعلت فينا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا، فقد يما سبق الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم فلم يفضلهم رسول الله صلى الله عليه وآله في القسم، ولا آثرهم بالسبق، والله سبحانه مؤف السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكم والله عندى ولا لغيركم إلا هذا، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر، ثم قال: رحم الله امرأ رأى حقاً فأعان عليه، ورأى جوراً فردّه، وكان عوناً للحق على من خالفه.

ثم قال ابن أبي الحديد:

فإن قلت: فإن أبابكر قسم السواء، كما قسمه أمير المؤمنين عليه السلام ولم ينكروا ذلك، كما أنكروا أيام أمير المؤمنين عليه السلام، فما الفرق بين الحالتين؟

قلت: إن أبابكر قسم محتدياً لقسم رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما ولى عمر الخلافة وفضل قوماً على قوم ألفوا ذلك، ونسوا تلك القسم الأولى، وطالت أيام عمر، وأشربت قلوبهم حب المال... ولما ولى عثمان أجرى الأمر على ما كان عمر يجريه، فازداد وثوق القوم بذلك، ومن ألف امرأ شق عليه فراقه، وتغيير العادة فيه،

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٦٤

فلما ولى أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يرد الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وأبى بكر، وقد نسي ذلك ورفض، تخلل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة، فشق عليهم وأنكروه وأكبروه، حتى حدث ما حدث من نقض البيعة، ومفارقة الطاعة ولله أمر هو بالغه» [١١٢].

٢. مكانة المشورة

لا شك في أن المشورة من الأصول الإسلامية المسلمة ولدى عقلاء العالم والتي تشرك إلى العقل سائر العقول كما ورد في الخبر «من شاور الرجال شاركهم في عقولهم» [١١٣] إلا أن لها بعض الشروط والأركان إن لم تراعى فهي لا تفقد جدواها فحسب؛ بل تعطى أحياناً نتائج معكوسة، ومن ذلك أن المشورة لا بد أن تكون في الأمور التي تخضع للتردد والنفي والإثبات ولو أراد الناس التشاور في الأمور المسلمة والأحكام فلربما أدى ذلك إلى الريبة في أصل الأحكام الشرعية والوظائف العقلية المسلمة.

مثلاً لو أراد شخص المشورة في الحج أو الحجاب أو عرضها على الرأي العام فلربما انبرى من يقول: ما الضرورة لأن يرصد الناس في هذا العصر هذه الأموال الطائلة من أجل الذهاب إلى الحج أو إن الحجاب في المجتمع المعاصر قيد مضروب على المرأة!

ولكن إن سلمنا أن الحج أو الحجاب أمر شرعى مقبول لدى جميع المسلمين بل ضرورة دينية، يمكننا الجلوس في شورى كيف يمكن أن يقام الحج وكيف يكون ارتداء الحجاب أفضل؟ ولا بد من الإذعان إلى أن بعض المشاكل التي أصابت المسلمين بسبب كونهم نسوا المكانة الحقيقية للمشورة.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٦٥

وما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبة نموذج واضح لهذا المطلب، وما كان ينشده طلحة والزبير انحراف عن هذا الأمر؛ فقد أرادا المشورة في سنة النبي في التسوية بأموال الخراج فرفض الإمام عليه السلام ذلك.

٣. طلحة وحلم الخلافة

يستفاد من مختلف المصادر التاريخية أن طلحة والزبير كانا يتطلعان إلى الخلافة منذ أمد بعيد يعود إلى عهد أبي بكر. ذكر الطبري المؤرخ المعروف، طبق نقل ابن أبي الحديد في تاريخه أن طلحة كان يهيم بالخلافة حتى على عهد أبي بكر ويروم أن يجعلها فيه بشبهة أنه ابن عمه، وسخط خلافة عمر فقال لأبي بكر: وليت علينا فظاً غليظاً، وكان له في أيام عمر قوم يجلسون إليه ويحادثونه سرّاً في معنى الخلافة ويقولون له: لو مات عمر لباعناك بغتة، فبلغ ذلك عمر فخطب وهددهم بالقتل. وذكر ابن أبي الحديد في موضع آخر: إن طلحة والزبير أشادا بعمر الذي ميز المهاجرين والأنصار على سائر المسلمين (وأعطاهم سهماً أكثر من بيت المال).

وكان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين، الخروج في البلدان لأنه يرى أنهم إن خرجوا التفت حولهم الناس وحصلوا على الأموال وفيهم من يضمم الفرقة ويروم خلع الربة، قال الطبري طبق نقل ابن أبي الحديد: فملته قريش ذلك حتى أنه لم يأذن لهم بالمعارك وقال لهم كفاكم ما أبلتكم في الغزوات مع رسول الله، فلما ولي عثمان أجازهم، فخرجوا إلى البلاد وجمعوا الأموال، فكان ذلك أول وهن على الإسلام وأول فتنة كانت على العامة.

وقال ابن أبي الحديد: وكان عمر نقض هذا الرأي السديد بما فعله بعد طعن أبي لؤلؤة له من أمر الشورى، فإن ذلك كان سبب كل فتنة وقعت وتقع إلى أن تنقضي الدنيا [١١٤].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٦٦

ويتضح من هذه السابقة التاريخية لماذا انزعج طلحة والزبير من خلافة علي عليه السلام في حين بذلا قصارى جهدهما من أجل تأليب الناس على قتل عثمان، على أمل أن يأتي الدور لطلحة، ولما منعهما علي عليه السلام المنصب والمقام (لأنه يعلم أن ذلك مقدمة لتقسيم البلد الإسلامي) بل قطع امتيازاتهما من بيت المال وساوى بين المسلمين حذو النهج النبوي، تمردا عليه وتواطئا مع عائشة ضد أمير المؤمنين عليه السلام، في اشعال فتيل حرب الجمل، وبعد تلك الهزيمة ومقتلهما أثار أتباعهما معركة صفين لتسلم بنى أمية بالتالي مقاليد العالم الإسلامي، ثم خلفهم بنو مروان الذين أثاروا ذلك الفساد العظيم.

ومن هنا يتضح أن مشكلة طلحة والزبير لم تكن المشورة بل حتى التسوية في العطاء كانت قضية فرعية؛ كانت مشكلتهما الطمع في الخلافة، وماسبق لم يكن سوى حجج وذرائع.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٦٧

الخطبة ٢٠٦

إشارة

وَقَدْ سَمِعَ قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِهِ يَسُبُّونَ أَهْلَ الشَّامِ

نفحات الولاية؛ ج ٨؛ ص ٦٧

أَيَّامَ حَرْبِهِمْ بِصَفِينِ [١١٥]

نظرة إلى الخطبة

ورد في كتاب «مصادر نهج البلاغة» أن حجر بن عدى وعمرو بن الحمق وهما من أصحاب علي عليه السلام المعروفين كانا يسبان أهل الشام (في أيام صفين) فدعاهما الإمام ونهاهما، فقالا: يا أمير المؤمنين، ألسنا على الحق؟ قال: بلى! قالوا: أليسوا على الباطل؟ قال: بلى! قالوا: فلم تنهانا عن سبهم؟ قال: إنني أكره لكما أن تكونا سبائين، وواصل كلامه فأراهم السبيل الفصل بالدعاء لهم إلى الهدى ووحدة المسلمين واطفاء نار الحرب، ويشير هذا الكلام إلى أن الإمام عليه السلام في الوقت الذي كان فيه حازماً إزاء العدو كان ينهى عن العنف الطائش الذي يعكس ضعف الشخصية.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٦٩

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَائِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصَوَّبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُدْرِ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ:

اللَّهُمَّ احْقِنِ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْ جِهَلِهِ، وَيَرْعَوْى عَنِ الْغَىِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ بِهِ.

الشرح والتفسير: الدعاء بدل السب!

ما ورد في هذا الكلام درس أخلاقي واجتماعي عظيم يختزن آثاراً كثيرة وهو النهي عن سب العدو ولعنه الذي من شأنه إثارة غضبه وتعميق الكراهية.

وكما ذكر فإن الإمام قال ذلك لما سمع بعض أصحابه يسب أهل الشام أيام صفين فقال: «إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَائِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصَوَّبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُدْرِ».

«سبب» تطلق على من يكثر السباب، وحقيقة «السب» تتضمن الإساءة للطرف المقابل؛ من قبيل مخاطبة المقابل بكلمة أحق، رذل وأمثال ذلك.

واللعن أحد مصاديق «السب» و«القذف» من مراحل «السب» الشديدة وعليه الحد في أغلب الموارد، قطعاً ليس مراد الإمام في هذا الكلام هذا النوع من السب، لأن القذف حرام ومن الكبائر وليس من المكروهات.

والإمام عليه السلام ينهى أصحابه في هذه الخطبة عن هذا الفعل وإن كان لهم الحق في

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٧٠

مخاطبة العدو بهذا الخطاب ويأمرهم بدلاً من ذلك بنقد أعمالهم القبيحة وصفاتهم الذميمة وإتمام الحجّة عليهم ولتكون أبلغ في التأثير كما تسلب العدو ذريعة المعاملة بالمثل، ولدينا الكثير بخصوص السب واللعن نتركه لمبحث التأملات.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال بيان المصداق الواضح ليعلمهم كيفية التعامل مع العدو في مثل هذه الحالات فقال: «وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ: اللَّهُمَّ احْقِنِ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْ جِهَلِهِ، وَيَرْعَوْى [١١٧] عَنِ الْغَىِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ [١١٨] بِهِ».

فالإمام عليه السلام أورد بهذه العبارة العميقة ثلاثة أدعية أو عبارة أخرى كانت له ثلاث طلبات:

الأولى: إطفاء نار الحرب وحقن دماء الطرفين.

الثاني: إشاعة الصلح والسلام بالإضافة إلى وقف الحرب وأن يتحد المسلمون.

الثالثة: يبعد عنهم الضلال الذى أصابهم وحال دون بلوغهم الحق؛ فيتعرّف الجهل على الحقّ ويكفّ أهل الحق عن مناهضته.

وتكشف هذه الأدعية بجلال عن مدى سعة صدر الإمام عليه السلام ورأفته ورحمته حتى بأعدائه، ورغم كلّ تلك الجنايات التى

إرتكبوها بحقّ الإمام وأصحابه فلا ينطق بأدنى ما يكشف عن غضبه وانتقامه، وينهى حتى صحبه عن سبّ العدو والتعرض له.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٧١

تأمل: السبّ واللعن

صرح أغلب أرباب اللغة بأنّ «السبّ» هو الشتم، واعتبر البعض، اللعن من مصاديقه [١١٩].

طبعاً لا ينبغي سبّ أى مؤمن أو لعنه، والأولى تركه حتى بالنسبة للكفار والمخالفين، ذلك لأنه ينطوى على أمرين سلبيين: الأول: إنّ

الطرف المقابل يعمد إلى المعاملة بالمثل فيسبىء إلى المقدّسات، لذلك ورد فى الآية ١٠٨ من سورة الأنعام: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ».

الآخر: أنّ هذا السبّ ربّما يثير المقابل فيصّر على كفره وضلاله ويزداد كفراً وضلالاً.

ولكن لهذه القاعدة كما لغيرها من القواعد الكلية استثناءات، ومن هنا ورد بعض السبّ للمخالفين، فى «نهج البلاغة» أو عبارات سائر

المعصومين عليهم السلام كما لعن البعض فى القرآن الكريم.

مضى فى الخطبة ١٩ من نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام قال للأشعث بن قيس المناق الذى كلف الإمام بكلمات خارجة عن الأدب:

«عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ حَائِكَ ابْنُ حَائِكَ مُنَافِقٌ بَنُ كَافِرٍ».

كذلك حين أسر مروان فى المعركة وجىء به إلى الإمام عليه السلام شفع له الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام

عند أبيهما فأطلقه الإمام عليه السلام، فقال الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام: يا أمير المؤمنين! يبايعك مروان؟ قال

الإمام عليه السلام: ألم يبايعنى بعد قتل عثمان لا حاجة لى ببيعته «إِنَّهَا كَفَّ يَهُودِيَّةً» [١٢٠].

ولكن سبّ المؤمن التقى يعدّ من الكبائر؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ وَأَكْلُ لَحْمِهِ مَعْصِيَةٌ

وَحُرْمَةٌ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ» [١٢١].

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٧٢

وورد فى حديث آخر أنّ رجلاً قال للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله: أوصنى! فكان ممّا أوصاه النبى أن قال: «لَا تَسُبُّوا النَّاسَ فَتَكْسِبُوا

الْعَدَاوَةَ بَيْنَهُمْ» [١٢٢].

جدير ذكره أنّ أصحاب معاوية وإن كانوا من المنافقين والظلمة والمفسدين فإنّ الإمام عليه السلام نهى أصحابه عن سبّهم أيام صفين،

فالسبّ فى تلك الظروف العصبية ربّما كان يوسع دائرة الحرب.

أمّا بشأن اللعن فالذى يستفاد من آيات القرآن أنّ الله لعن البعض وأذن بلعنهم ولعن الشيطان فقال: «وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ

الدِّينِ» [١٢٣].

وقال فى المرتدين: «أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» [١٢٤].

وقال فى الظلمة: «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» [١٢٥].

وفى الناكثين وقاطعى الرحم والمفسدين فى الأرض: «أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» [١٢٦].

وفى الذين يكتمون الحق: «أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» [١٢٧].

لا شك في أن اللعن في اللغة بمعنى الطرد والإبعاد الذي يتم أحياناً بصيغة عملية وأخرى لفظية أو دعاء؛ كأن يقال مثلاً: «لعنة الله عليك».

من المسلم به أنه لا يمكن لعن أى مؤمن؛ أمّا الكفار والمنافقون والذين يرتكبون الكبائر كالظلم والجور والفساد فى الأرض وأمثال ذلك إنما يستحقون اللعن، وعليه فلا يختص اللعن بالكفار والمنافقين.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٧٣

الخطبة ٢٠٧

إشارة

فى بعض أيام صَفِينِ وَقَدْ رَأَى الْحَسَنَ ابْنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
يَتَسَرَّعُ إِلَى الْحَرْبِ [١٢٨]

نظرة إلى الخطبة

يختص هذا الكلام القصير لأمير المؤمنين على عليه السلام بحفظ الإمام الحسن والإمام الحسين من الأخطار ليدوم بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وقد تحقق هذا المعنى فيتصل اليوم نسب الملايين بواسطة الإمام الحسن أو الإمام الحسين عليهما السلام بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأن هذه الجذور المباركة لتتعمق فى العالم كل يوم.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٧٥

أَمَلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ لَا يَهْدِنِي، فَإِنِّي أَنفَسُ بِهِذَيْنِ (يَعْنِي الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) عَلَى الْمَوْتِ لِنَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

الشرح والتفسير: حفظ نسل النبي صلى الله عليه وآله

أوصى الإمام عليه السلام صحبه بالإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام يوم صفين بغية الحفاظ على هدف مهم فقال: «أَمَلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ لَا يَهْدِنِي» [١٢٩]، فَإِنِّي أَنفَسُ بِهِذَيْنِ (يَعْنِي الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) عَلَى الْمَوْتِ لِنَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

التعبير «أملكوا» من مادة «ملك» تأكيد للحيلولة عن مسارعه الإمام الحسن عليه السلام لميدان القتال، لأن الإنسان إن ملك شيئاً صار تماماً تحت تصرفه وهذا أعظم تأكيد يمكن استعماله بشأن صد الشخص عن أمر، ومن هنا قال المرحوم السيد الرضى رحمه الله فى ختام هذا الكلام: «هذا من أعلى الكلام وأفضحه».

العبارة «لا يهدنى» تأكيد آخر لهذا المعنى، كأنه عليه السلام يريد القول: لو قتل الحسن والحسين سيفنى وجودى.

وكى لا يتصور أن هذه التأكيدات من جانب الإمام عليه السلام تستند لمجرد عاطفة

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٧٦

الأبوة فقد بين عليه السلام: إني أنشد هدفاً عظيماً فى أن يبقى نسل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فى العالم عن طريقهما، وهذا بحد

ذاته أحد أسباب ديمومة الإسلام.

قال السيد الشريف: وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ «أَمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْعَلَامَ» مِنْ أَعْلَى الْكَلَامِ وَأَفْصَحِهِ.

مراد السيد الرضى رحمه الله أن العبارة «أَمْلِكُوا عَنِّي» تأكيد بليغ ولطيف لهذا المعنى أن سارعوا واجتهدوا واحفظوا هذا الفتى، لأن الإنسان يبذل قصارى جهده للمحافظة على أملاكه، وهذه أبلغ عبارة في الحفظ والاستعادة.

تأمل: شبهات وردود

١. لا شك في أن عمر الإمام الحسن المجتبي عليه السلام آنذاك كان أكثر من ثلاثين سنة، حيث ولد في السنة الثالثة للهجرة وحادثه صفيان كانت سنة ٣٧ الهجرة، فلم التعبير عنه بالغلام؟

لا بد من الالتفات إلى هذه النقطة في الجواب أن هذه المفردة وإن اطلقت على الحد الفاصل بين الطفل والشاب؛ لكنها تطلق كما صرح بعض أرباب اللغة [١٣١] على الكبار أيضاً. أضف إلى ذلك فإن الآباء يستعملون هذه المفردة على الأبناء في مختلف أعمارهم، كما تطلق العرب هذه المفردة على الخدم في مختلف سنن أعمارهم.

على كل حال فإن إطلاق كلمة الغلام من قبل الإمام عليه السلام على ولده الإمام الحسن عليه السلام مطلب ليس بمستبعد.

٢. كان للإمام الحسن وكذلك الإمام الحسين عليهما السلام حسبما ذكر آنفاً أكثر من

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٧٧

ثلاثين سنة (فالفارق بينهم كان سنة أو أقل) وقطعاً كان لهما زوج وأولاد، فكيف يخشى الإمام انقطاع نسل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؟

نقول في الجواب: كان المراد ليقيا وليبق أكثر عدد ممكن من نسل النبي، ذلك لأن نسل رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتعرض إلى مخاطر جديّة من عدّة جوانب.

٣. كيف ذهب الإمام عليه السلام إلى بقاء نسل النبي من خلال هذين الإمامين وذريتهما في حين تنسب العرب نسلها إلى ولدها وليس عن طريق البنت؟ وكلنا نعلم أن الحسن والحسين كانا ابني بنت النبي!

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من القول إن هذا التفكير يعود إلى الجاهلية الذين لم يروا أى شأن للنساء ولا يعتبرون أبناء بناتهم أبناءهم فأنشدوا في ذلك:

بُنُونَا بُنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا بَنَاتُنَاهُنَّ أَبْنَاءَ الرِّجَالِ الأَبَاعِدِ

لذلك حين نزلت آية المباهلة: «فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ» [١٣٢] أجمع المفسرون على أن المفردة «أبناءنا» في هذه الآية الشريفة إشارة إلى الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام و«نساءنا» فاطمة عليها السلام، وما أكثر الخطاب «يا ابن رسول الله» لأئمة أهل البيت عليهم السلام في الروايات.

وقد عدت الآية الشريفة ٨٥ من سورة الأنعام: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَ... عِيسَى» المسيح من ذرية إبراهيم عليه السلام، في حين ينتسب إليه من جانب امه (مريم).

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٧٩

الخطبة ٢٠٨

قَالَ لَمَّا اضْطَرَبَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ فِي أَمْرِ الْحُكُومَةِ [١٣٣]

نظرة إلى الخطبة

جاء في كتاب «مصادر نهج البلاغة» في مناسبة هذا الكلام: لما رفع عمرو بن العاص ورهطه المصاحف على أسنّة الرماح يوم صفين لخداع جيش على عليه السلام، وبدت أعلام النصر والفتح ولم يبق على تحقيق النصر الكامل سوى بضع خطوات، انقسم أصحاب الإمام عدّة فئات؛ فئة اعتقدت بأن أهل الشام لم يفعلوا ذلك خدعة؛ بل يريدون حقاً الإحتكام إلى القرآن، وفئة عظيمة أخرى سئمت القتال ولا يرون في أنفسهم القدرة على مواصلته، وكان هذا الموضوع ذريعة لاعتزال القتال والخلود إلى الدعة، وفئة ثالثة كانت من المنافقين التي تكنّ البغض والعداء للإمام عليه السلام وكانت تنتظر الفرصة، فلما رأت المصاحف على الرماح حدّثوا أنفسهم بأن الفرصة قد سنحت للتخلي عن نصره على عليه السلام فارتفعت أصواتهم مطالبين بوقف القتال وفئة

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٨٠

قليلة هي التي أصرت على مواصلة القتال وكان في مقدمتهم مالك الأشر الذي صرخ بهم، الويل لكم أتعزلون القتال وأوشكنا على النصر؟ أيها الجهال! ... ولكن الفئة التي اعتزلت القتال شتمته وهددته وصرخت «المصاحف المصاحف والرّجوع إليها لا نرى غير ذلك» وأجبرت الإمام عليه السلام على قبول التحكيم.

وهنا أورد الإمام عليه السلام هذا الكلام فقال ما ملخصه: كنتم تتبعونني وكنتم أميركم، أما الآن تريدون أن تكونوا أئمة الامراء وأنا المأمور، إنكم تريدون الحياة مهما كلف الأمر فكيف يسعني صدكم عن ذلك؟! *

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٨١

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أَحْبَبْتُ، حَتَّى نَهَكْتُمْ الْحَزْبُ، وَقَدْ، وَاللَّهِ، أَخَذْتُ مِنْكُمْ وَتَرَكْتُ، وَهِيَ لِعِدْوِكُمْ أَنْهَك. لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا، فَأَصِيبُحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِيًا، فَأَصِيبُحْتُ الْيَوْمَ مِنْهِيًا، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ.

الشرح والتفسير: رفاق السلاح الجهال

أورد الإمام عليه السلام هذا الكلام حين أصرّ عليه أغلب جيشه وخلافاً لرغبته لعدّة أسباب على إيقاف القتال والتسليم للتحكيم، حيث يجيب في الواقع عن هذا السؤال: لماذا استسلمتم لمؤامرة عمرو بن العاص في رفع المصاحف على الرماح وقبلتم بالتحكيم، حيث قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أَحْبَبْتُ، حَتَّى نَهَكْتُمْ الْحَزْبُ، وَاللَّهِ، أَخَذْتُ مِنْكُمْ وَتَرَكْتُ، وَهِيَ لِعِدْوِكُمْ أَنْهَك».

هذا الكلام في الواقع إجابة للصامدين في القتال الذين يرون عاقبته النصر، إلا أنهم كانوا للأسف أقلية، فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه الكلمات إلى عذره في قبول مقترح وقف القتال والتحكيم إزاء تلك الأقلية من جانب، ومن جانب آخر إلى يقينه بضرورة مواصلة القتال حتى النصر إزاء تلك الأكثرية التي أتعبها القتال وأنّ كثرة

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٨٢

القتلى لا تبرر الاستسلام لمطالب العدو اللامشروع.

ثم أوضح ذلك بالقول: «لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِيًا، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مِنْهِيًا، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ!».

وهذا أيضاً جواب لفتنين: الأقلية المطالبة بمواصلة القتال حتى النصر والمعتضة على قبول التحكيم وإيقاف القتال الذي أوشك على تحقيق النصر، فقال: ما عساني أفعل وقد سلبت المبادرة وتعثرت الإمرة وعصيتم وتمردتم، والأكثرية التي استجابت لطلب العدو فخطبها أنها لم تستجب لذلك الطلب حرمة للقرآن، بل بسبب حبّ البقاء والتنصل من التضحية في سبيل الله (فتأمل).

تأمل: التضحية بالفرصة الكبرى

رقة كلمات أمير المؤمنين عليه السلام إزاء معارضي مواصلة القتال تفيد مدى مرونته، والتي ربما تثير هذا السؤال: لماذا لم يدع الإمام مالك الأشر ليواصل المعركة التي أشرفت على تحقيق النصر وإنقاذ المسلمين من شرّ بني أمية وأتباعهم؟ والجواب عن هذا السؤال يكمن في تاريخ صفين.

فقد أشرنا في الأبحاث السابقة إلى أنّ معارضي القتال لم يقتصروا على أولئك الذين خدعوا بحيلة عمرو بن العاص في تعليق المصاحف على أسنة الرماح، بل هناك الفئة الخاوية الإرادة التي لم تكن مستعدة لمواصلة القتال، بالإضافة إلى المنافقين ومبغضي الإمام الذين رأوا الفرصة مؤاتية للاصطياد في الماء العكر، فاتحدوا جميعاً وأصروا على الإمام بإيقاف القتال.

قال ابن أبي الحديد: فأرسل إلى الأشر يأمره بالرجوع وترك الحرب، فأبى عليه فقال: كيف أرجع وقد لاحت إمارات الظفر! فقولوا له: «ليمهلني ساعة واحدة»، ولم

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٨٣

يكن علم صورة الحال كيف قد وقعت، فلما عاد إليه الرسول بذلك، غضبوا ونفروا وشغبوا، وقالوا: أنفذت إلى الأشر سرّاً وباطناً، تأمره بالتصميم، وتنهاه عن الكفّ، وإن لم تعد الساعة، قتلناك كما قتلنا عثمان، فرجعت الرسل إلى الأشر فقالوا له:

أتحبّ أن تظفر بمكانك وأمير المؤمنين قد سئل عليه خمسون ألف سيف! فقال: ما الخبر؟ قالوا: إن الجيش بأسره قد أحدق به، وهو قاعد بينهم على الأرض، تحته نطع، وهو مطرق، والبارقة تلمع على رأسه، يقولون: لئن لم تعد الأشر قتلناك! قال:

ويحكم! فما سبب ذلك؟ قالوا: رفع المصاحف، قال: والله لقد ظننت حين رأيتهما رفعت أنها ستوقع فرقة وفتنة.

ثم كثر راجعاً على عقبيه، فوجد أمير المؤمنين عليه السلام تحت الخطر، قد جعله أصحابه بين أمرين: إمّا أن يسلموه إلى معاوية، أو يقتلوه، ولا ناصر له منهم إلّا ولداه وابن عمه ونفر قليل لا يبلغون عشرة، فلما رآهم الأشر سبهم وشتمهم، وقال: ويحكم! أبعد الظفر والنصر صبّ عليكم الخذلان والفرقة! يا ضعاف الأحلام! يا أشباه النساء! يا سفهاء العقول! فشتموه وسبوه، وقهروه.

وقالوا: المصاحف المصاحف! والرجوع إليها، لا نرى غير ذلك! فأجاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى التحكيم، دفعاً للمحذور الأعظم بارتكاب المحذور الأضعف، فلذلك قال: «كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا...» [١٣٥].

تفيد بعض القرائن والشواهد أنّ رفع المصاحف على الرماح كانت من صنع المنافقين وبعض الأفراد في جيش أمير المؤمنين على عليه السلام وطائفة من أهل الشام بقيادة عمرو بن العاص والأشعث بن قيس، الذين لا ييغون انتصار الإمام عليه السلام [١٣٦].

أوردنا بحثاً مطولاً بشأن التحكيم والذي يعتبر مكماً لهذا البحث فمن أراد المزيد فليراجع ذيل الخطبة ٣٥، الجزء الثاني، الصفحة ٣٦٤.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٨٥

بِالْبَصْرَةِ، وَقَدْ دَخَلَ عَلَى الْعَلَاءِ بْنِ زِيَادِ الْحَارِثِيِّ - وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِهِ - يُعُوذُهُ، فَلَمَّا رَأَى سَعَةَ دَارِهِ قَالَ: [١٣٧]

نظرة إلى الخطبة

هذا الكلام كما ورد أعلاه إشارة لقصة عيادة على عليه السلام لأحد أصحابه في البصرة وهو علاء بن زياد الحارثي (رغم ما ذهب إليه أغلب شراح نهج البلاغة من أنه كان الربيع بن زياد وليس العلاء بن زياد) فقال عليه السلام ذلك لما رأى سعة داره فوعظه وسائر الناس ممن على غراره بموعظة بليغة ويتضمن هذا الكلام ثلاثة أقسام:
الأول: أنها موعظة حية للعلاء بن زياد.

الثاني: وعظ ونصح عميق لأخيه، أي عاصم بن زياد الذي عاش حياة على العكس تماماً من أخيه وكان يعيش حياة متقشفة.
الثالث: اجابه عن أسئلة عاصم بن زياد بشأن معيشة الإمام.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٨٧

القسم الأول

إشارة

مَا كُنْتُ تَصِيغُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ كُنْتُ أَحْوَج؟ وَبَلَى إِنَّ شِئْتُمْ بَلَّغَتْ بِهَا الْآخِرَةَ: تَقْرَى فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتَطَّلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَّغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ.

الشرح والتفسير: الدار الواسعة

رغم أن هذا الكلام ورد في قضية شخصية بشأن اثنين من أصحاب الإمام عليه السلام لكنه في الواقع مبدأ كلي وخطأ عامه في ضرورة الاعتدال في الاستعانة بالوسائل المعاشية، والأمة الإسلامية طيلة التاريخ مشمولة بهذا الخطاب، فالإمام لما شاهد دار العلاء بن زياد الواسعة الفارهة والمؤثثة بالتأكيد وبخه بادئ الأمر ثم نصحه مشفقاً فقال: «مَا كُنْتُ [١٣٨] تَصِيغُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ كُنْتُ أَحْوَج؟».

اعتاد الناس حين يعودون مريضاً على قول ما من شأنه إراحته والتخفيف عنه، إلا أن معلماً ربانياً كعلي عليه السلام حين يرى صاحبه طريح الفراش الذي ربما لا يعاود النهوض منه لا بد أن يوقظه ويشده إلى مصيره ويريه سبيل السعادة ويجرعه مرارة النصح المصحوب بالعتاب، عله يتماثل للشفاء الحقيقي، ثم أراه أسلوب استغلال تلك الثروة الهائلة لنيل سعادة الآخرة فقال: «وَبَلَى إِنَّ شِئْتُمْ بَلَّغَتْ بِهَا الْآخِرَةَ».

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٨٨

تَقْرَى [١٣٩] فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتَطَّلِعُ [١٤٠] مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَّغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ».

فقد أشار عليه السلام إلى حقيقة هي أن المال والثروة ليست مذمومة أو تتعارض مع القيم، بل المهم كيفية إنفاقها، فهي مذمومة إن أدت إلى الفخر والتكاثر والاحتكار.

لكنها تعتبر رصيد الآخرة إن وضع قسم منها تحت تصرف المعوزين والقراة والأصحاب، ومن هنا ذكر المال بصفة «خير» في القرآن: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ» [١٤١].

جاء في الخبر أن شخصاً ذم الأغنياء عند الإمام الصادق عليه السلام وأساء لهم فقال عليه السلام: «أَشْرِكْتُ فَإِنَّ الْغَنَى إِذَا كَانَ وَصُولًا لِرَحْمِهِ، بَارًا بِإِخْوَانِهِ أَضْعَفَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْأَجْرَ ضِعْفَيْنِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقْرَبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ امْتُونًا» [١٤٢]. وعليه فإن المال من شأنه أن يكون أفضل وسيلة للسعادة إن استغل بصورة صحيحة، كما يمكن أن يكون وسيلة للبؤس والشقاء إن اقترن بالبخل والإسراف والإحتكار.

تأمل: الدار الواسعة في الروايات

يستفاد من عدّة روايات أن إحدى علامات سعادة الإنسان، الدار الواسعة «مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ، الْمَسْكُنُ الْوَاسِعُ» [١٤٣].

ووردت في ذلك الباب من «الكافي» سبع روايات بهذا المضمون أو ما يقرب منه

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٨٩

عن المعصومين عليهم السلام، وأورد المرحوم العلامة المجلسي في الجزء ٧٣ من «بحار الأنوار» عدّة روايات بهذا الخصوص منها ما روى عن الإمام الرضا عليه السلام أنه اشترى داراً لأحد أصحابه وأشار عليه بالانتقال إليه كون داره صغيرة، فقال: إن والده اشترى تلك الدار (وأنا اتبعه) فقال عليه السلام: «إِنَّ أَبَاكَ كَانَ جَاهِلًا فَهَلْ تَكُونُ كَأَبِيكَ» [١٤٤].

طبعاً هذه الروايات لا تعنى أن يتجاوز الإنسان حالة الاعتدال ويقبل على الإسراف، بل تشير إلى ضرورة عدم قناعة الإنسان بالدار الضيقة والصغيرة ذريعة لترك صلة الرحم وعدم استقبال الضيوف. يقال: إن قصدنا دار الأرحام فسيأتون إلى دارنا وهي صغيرة، ومن هنا يتحفظون عن استقبال الضيف أساس الخير والبركة، وإن أحد أسباب شيوع ثقافة الدور الصغيرة في عصرنا بغض النظر عن المشاكل المادية يتمثل في هيمنة الثقافة الغربية الخالية من العواطف الإنسانيّة والتي لا تقيم وزناً لصلة الرحم ولا إقراء الضيف.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٩١

القسم الثاني

إشارة

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد. قال:

وَمَا لَهُ؟ قَالَ: لِبِسِ الْعِبَاءَةَ وَتَخَلَّى عَنِ الدُّنْيَا. قَالَ: عَلَيَّ بِهِ. فَلَمَّا جَاءَ قَالَ:

يَا عِدْدِي نَفْسِي! لَقَدْ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَيْثُ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ! أَتَرَى اللَّهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ!

قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ وَجُشُونَةِ مَا كَلِمِكَ!

قال: وَيَحْكُ، إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَيَّ أَنْ يَدْرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعْفِهِ النَّاسِ، كَيْلًا يَتَّبِعَ بِالْفَقِيرِ فَقْرَهُ!

الشرح والتفسير: ذم الهروب من الدنيا

لما وعظ الإمام عليه السلام العلاء بن زياد، عرض العلاء قضية أخيه الذي اختار طريقاً مغايراً له، «فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد. قال:

وما له؟ قال: لِسِ الْعِبَاءَةِ وَتَخَلَّى عَنِ الدُّنْيَا. قال: عَلَيَّ بِهِ. «فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: يَا عُمَيْدِي نَفْسِهِ! لَقَدْ اِسْتَهَامَ [١٤٥] بِبِكَ الْخَيْثُ! أَمَا رَحِمَتْ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ!».

«عدي» تصغير «عدو» وأراد الإمام عليه السلام بهذه الوسيلة أن يحفزه لخروجه من مسار الاعتدال من جهة ويعتبر عمله عدواناً على نفسه من جهة أخرى، ثم يتعرض لهذه القضية فيبين له أن أعمالك إنما تنطلق من وساوس الشيطان بالاضافة إلى نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٩٢

هو النفس والتي تؤدي إلى نوع من الازدواجية والارباك في المعيشة.

ثم ذكره عليه السلام بأنك تظلم أهل بيتك فضلاً عن نفسك دون حجة أو دليل، والسبب وراء كل هذا التفرغ المكرر رفض الإسلام للرهنبة ونسيان الدنيا بهذا الشكل والاقبال على العبادة ولا يرى ذلك سوى انحراف عن جادة الصواب كما سيرد تفصيل ذلك. ثم قال: «أَتَرَى اللَّهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ!».

هذا الكلام في الواقع إشارة إلى دليل لطيف وهو: أنك اعتمدت طريقه ظاناً استنادها لأمر الله، في حين أحل القرآن صراحة الطيبات والثياب الطاهرة والأطعمة للجميع «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [١٤٦].

الجملة «أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ!» ربما إشارة إلى أن هؤلاء الأفراد الذين يعيشون حياة خاصة ويعتزلون المجتمع الإسلامي، يرون أنهم مميزون للغاية ويظنون أن الاعتزال والإرتياض يميزهم عن الآخرين وكأن الله شرع منهاجاً خاصاً، إنك أهون على الله. أراد عاصم أن يبرر وضعه: «قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خُشُونِهِ مُلْبَسِكِ وَجُشُونِهِ» [١٤٧] ما كلك!».

فرد عليه الإمام عليه السلام قائلاً: «وَيَحْكُ، إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَيْمَةِ الْعِدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعْفِ النَّاسِ، كَيْلًا يَتَّبِعَ [١٤٨] بِالْفَقِيرِ فَقْرَهُ!».

وعلى ضوء هذا المنطق فإن عامة الناس أحرار في التمتع بلذات الحياة باعتدال

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٩٣

وبعيداً عن الإسراف والتبذير، أما أئمة الدين فلا بد أن يقنعوا بالحياة المتواضعة على غرار ضعفاء المجتمع ليواسوا الطبقات الفقيرة والمحرومة كيلا يشعروا بالهم والأسى.

قال ابن أبي الحديد: فما قام على عليه السلام حتى نزع عاصم العباءة، ولبس ملاءة.

وأكد ابن أبي الحديد أن موضوع البحث الأصلي لم يكن العلاء بن زياد، بل شخص معروف هو الربيع بن زياد، والربيع بن زياد هو الذي افتتح بعض خراسان، وفيه قال عمر: دلوني على رجل إذا كان في القوم أميراً فكأنه ليس بأمير، وإذا كان في القوم ليس بأمير فكأنه الأمير بعينه! وكان خيراً متواضعاً، وهو صاحب الوقعة مع عمر لما أحضر العمال فتوحش له الربيع، وتقشف وأكل معه الجشب من الطعام، فأقره على عمله، وصرف الباقي، وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم.

وكتب زياد بن أبيه إلى الربيع بن زياد، وهو على قطعة من خراسان: أن أمير المؤمنين معاوية كتب إليّ يأمرك أن تحرز الصفراء والبيضاء وتقسم الخرثي وما أشبهه على أهل الحرب.

فقال له الربيع: إنني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين (يعني لا بد من تقسيم الغنائم مثل رسول الله وعلي)، ثم نادى في الناس: أن اغدوا على غنائمكم، فأخذ الخمس وقسم الباقي على المسلمين، ثم دعا الله أن يميته، فما جمع حتى مات يوم الجمعة [١٤٩].

١. دم عموم الافراط والتفريط

الأمّة الإسلاميّة أمة معتدلة والمسلمون أتباع الإسلام والقرآن بعيدون عن مطلق الافراط والتفريط: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» [١٥٠].

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٩٤

لكن المؤسف أنّ بعض الجهّال أو المغرضين والمعارضين للإسلام يعتمدون الافراط والتفريط ويسعون أحياناً لمنحه صيغة إسلامية. والبعض وعلى ضوء أن الإسلام أباح الطيبات، فقد أقبل على الكماليات، ويستدل أحياناً بحياة سليمان وفخامة ملكه التي تحدث عنها القرآن.

والبعض الآخر سلك سبيل التفريط فأغلق الأبواب بوجهه وآثر العزلة والتفوق وحرم على نفسه الطيبات المحللة، وقد ابتعد الفريقان عن الصراط المستقيم حيث صرح القرآن بأن علماء بني اسرائيل قالوا لقارون: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ» [١٥١].

والحق لو إمتثل قارون وأمثاله هذه المواعظ الأربع ولم ينس نصيبه من الدنيا وجعل رصيده المادى وسيلة لئيل سعادة الآخرة وهب لمعونه المستضعفين بدل الافساد فى الأرض، لما طاله قط الغضب الربانى.

وفى حديث معروف عن الباقر عليه السلام قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ وَلَا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ» [١٥٢].

٢. التصوف ونتائج

اعتقد بأنّ بعض الأفراد فى اليونان والهند منذ آلاف السنين أنه بإمكانهم الإتيان بالخوارق أو نيل المراتب المعنوية من خلال الإرتياض والتشدد على النفس فى المملذات والأطعمة والأشربة والملبس، كونهم يعتقدون أنّ ترك اللذة سبب قوّة النفس وقدرتها. وحين انتشر الإسلام تسللت إليه هذه الأفكار من سائر البلدان فخلطه البعض بالزهد وبعض التعاليم الإسلاميّة فحملوا الدين أفكاراً منحرفة وشاذة كانت نتيجتها

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٩٥

«التصوف» ولعل الاسم يعود إلى أنّهم لبسوا فى البداية الثياب الصوفية الخشنة، رغم ما يزعمه بعض المتصوفة من أنّ مادة هذه المفردة هى الصفاء «صفاء النفس» والحال ليس هنالك أدنى صلة بين هذين اللفظين، فأحدهما أجوف واوى والآخر ناقص واوى، كما وقع فى هذا الخطأ من ذهب إلى أنّها مشتقة من مفردة «أصحاب الصفة» فصفة من مادة صفف «يعنى مضاعف» وصوفى من مادة «صوف» وعليه فهذه المفردة لا تعنى سوى لبس الصوف قطعاً.

على كلّ حال، لهذه الفرقة زعامات يطلق عليهم القطب والشيخ والمرشد وأمثال ذلك ويدعون أنّ لهم كرامات، وقد انقسموا فئات لكل فئة طريقتها واسلوبها على أثر الاختلافات الداخلية وأهواء الأقطاب، فهذه الفرقة تنظر إلى الأحكام الدينية التى تصطلح عليها بالشريفة أنّها قابلة للتوجيه والتغيير، والمحور هو السير الباطنى الذى يسمونه (الطريقة)، ومن هنا فهى ترتكب العديد من الذنوب وتفصح المجال لاتباعها لانتهاك الأحكام الشرعية، بعبارة أخرى، تؤمن بأنّ الشريعة قشر والطريقة لب، والحقيقة «لب اللب».

وعلى هذا الأساس فهى تستقطب الفاسدين والمفسدين والمتهتكين من الأفراد وتعقد حفلات الرقص وتناول المخدرات، وتصبر من الناحية العقائدية على «وحدة الوجود» بمعنى «وحدة الوجود» فيدعى أغلب زعمائها بين الفينة والأخرى اتحاده الوجودى باللّه، ويصطلحون على هذا الكلام الهجين بالشطحيات، يبدو أنّ هذه الفرقة ظهرت بالتدريج بين المسلمين منذ القرن الهجرى الثانى فأنكر

عليها ذلك بشدة أئمة أهل البيت عليهم السلام وحذروا المسلمين منهم وربما شدة تقريع الإمام عليه السلام لعمل عاصم بن زياد رؤيته عليه السلام أن ذلك مقدمة لظهور تلك الفئة في المستقبل.

ورد أن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام سأله: ما تقول في الصوفية التي ظهرت في زماننا، قال: «إنهم أعداؤنا فمن مال إليهم فهو منهم ويحشر معهم وسيكون أرقام يدعون

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٩٦

حُبنا ويميلون إليهم، ويتشبهون بهم ويلقبون أنفسهم بلقبهم، ويأولون أقوالهم إلا فمن مال إليهم فليس منا وإنا منه براء ومن أنكرهم ورد عليهم كان كمن جاهد الكفار بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله» [١٥٣].

وروى البزنطي وإسماعيل عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «من ذكر عنده الصوفية ولم ينكرهم بلسانه وقلبه فليس منا ومن أنكرهم فكأنما جاهد الكفار بين يدي رسول الله» [١٥٤].

تنطوي جميع الفرق الصوفية على انحرافات في القضايا العقائدية والفقهية والأخلاقية نوجز بعضها:

١. حيث يرون أنهم أهل الطريقة يعتقدون بأن الطريقة الكامنة في مسار الحقيقة وأحكام الشريعة مقدمة في الوصول إلى الطريقة والحقيقة، ولا يولون أهمية للمسائل الشرعية ويتخلون عن أكثرها من خلال بعض الحجج والاعذار الواهية.

٢. الوقوع غالباً في مطب التفسير بالرأى للكتاب والسنة فيحملون الكتاب والسنة آراءهم ويجيزون لأتباعهم مقارفة بعض الذنوب.

٣. يؤمنون بلزوم طاعة القطب والمرشد وينسبون لأقطابهم العديد من الكرامات الموضوعية التي تفوق أحياناً معجز الأنبياء والأئمة عليهم السلام، ومن هنا ينتهي بعض أتباعهم إلى الشرك فيرى القطب والمرشد كالمعبود فيعبده.

٤. ابتدعوا الكثير في الدين ولكل فرقة بدعتها من قبيل كيفية مجالس الأذكار والأوراد وسائر المجالس ومن هنا قلما يحضرون المساجد، فقد أقاموا لهم مراكز عبادية ليكونوا أحراراً في الإتيان بأعمالهم.

٥. يؤمن أغلبهم بالتعددية وكل دين سبيل إلى الله ولا يرون كساد متاع الكفر والدين.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٩٧

٦. من أهم انحرافاتهم، الإيمان بوحدة الوجود بمعنى وحدة الموجود، حيث يرون مجموعة موجودات العالم شيئاً والله عين ذلك الشيء ومن هنا يرون عبادة الأصنام نوعاً من عبادة الله شريطة عدم تحديد الله في ذلك الصنم.

وقد ألفت عدة كتب من قبل الأعلام والمحققين بشأن انحرافاتهم، وما ورد آنفاً مجرد إشارة [١٥٥].

القضية الأخرى الجديرة بالذكر أن التصوف باهت في وسط اتباع أهل البيت عليهم السلام وواسع للغاية في وسط أبناء العامة وينشط العديد من فئات هذه الفرقة وبعقائد مختلفه في البلدان الإسلامية.

والعنصر الرئيسي في هذا الفارق، الإيمان بولاية أهل البيت عليهم السلام ولاسيما الإيمان بوجود المهدي عليه السلام.

وهناك جذور تاريخية واجتماعية مختلفة للتصوف واعتناقه ومنها:

١. هوّل خلفاء بني العباس قضية التصوف بهدف صرف الأنظار عن أهل البيت عليهم السلام الذين يرونهم منافسيهم الحقيقيين للتقليل من أهميّة زهد أهل البيت عليهم السلام وكراماتهم من خلال أدعاء الصوفية وحيث إنّ الصوفية تؤمن بالسير الباطني فهي لا تهدد دنيا المتهافتين عليها، كما حظيت بدعم السياسات المستبدة في عصرنا، كونها تمنع اتباعها من التدخل في السياسة وتبعد الطريق للاستعمار والاستبداد.

٢. الوصول إلى المقامات العرفانية الصوفية- على العكس من بلوغ المقامات العلمية والفقهية كما يعتقدون بأن من ارتاض أربعين يوماً وداوم على قراءة بعض الأوراد وإن كان امياً ربّما يتحوّل إلى ولي من أولياء الله وينال مقامات رفيعة، بينما لا تكفي أحياناً أربعين سنة من الجهد لبلوغ المقامات العلمية الرفيعة.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٩٨

٣. بما أنهم ينظرون إلى الشريعة كوسيلة بسيطة ويفسحون المجال عملياً لاتباعهم لمخالفة بعض الأحكام الشرعية فإن أغلب الآثمين والمذنبين والساسة المحترفين الظلمة يتعاطفون معهم بغير حساب، أي أنهم يواصلون ظلمهم وإثمهم، كما يشبعون بصورة كاذبة حسهم الديني، بعبارة أخرى أن تساهلهم في أمور الدين وتركهم أي حزم يؤدي إلى التحاق الأفراد بهم. قال أحد الفضلاء: لما القى القبض على في عهد النظام المباد وحملت إلى رئيس جهاز السافاك في طهران قال لي: سمعت أنك رجل متدين وعالم، لكن قطعاً لست أقل منك تديناً فأنا درويش وألهج بذكر علي ويعطيني كل ما سألته، مع ذلك لا أطيع تحمل معارضة الشاه ولا أتردد في قتل مليون شخص دفاعاً عنه. ثم قال ذلك الفاضل: أدركت أن التصوف والدروشه تبيح حتى قتل مليون بريء دفاعاً عن الظالمين.

٣. الانتفاع بالطيبات

يعتقد البعض أن الزهد يناقض الانتفاع بالنعم الدنيوية وأن الإسلام يعتبر التشدد على النفس والإرتياض وهجران لذائد الدنيا حسناً، والحال ليس الأمر كذلك، وكما أشرنا سابقاً فقد قال تعالى في القرآن: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [١٥٦]. وقال تعالى في موضع آخر شارحاً أهداف البعثة النبوية وتعاليمها: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [١٥٧].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٩٩

وهناك العديد من الآيات والروايات التي لا يسمح المقام ذكرها، لكن لا بأس بذكر موردين: أحدهما: ما ورد في هذه الخطبة من ضرورة عيش أئمة العدل المعيشة المتواضعة ومواساة الطبقات الاجتماعية المحرومة بغية ذكرها والعمل على إزالة حرمانها إلى جانب كونها تضامن مع هذه الطبقات. والآخر: ضرورة القناعة بالقليل وبذل الكثير لإنقاذ المحرومين حين يتعرضون لبعض الأزمات الاجتماعية ويعانون من الضغوط. وزبدة الكلام الذي يفهم من الروايات أن الانتفاع بنعم الله ضمن الحدود المعقولة والبعيدة عن الإسراف والتبذير ليس مذموماً وتركها لا يعد فضيلة وإن كان تواضع العيش سيما حين فقر البعض وكذلك بالنسبة لأئمة العدل وزعماء المسلمين يعتبر فضيلة.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٠١

الخطبة ٢١٠

إشارة

وَقَدْ سَأَلَهُ سَائِلٌ عَنْ أَحَادِيثِ الْبِدْعِ، وَعَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ

من اختلف الخبر، فقال عليه السلام: [١٥٨]

نظرة إلى الخطبة

تشتمل هذه الخطبة التي تتحدث عن أقسام الحديث والرواه على ثلاثة أقسام:
القسم الأول: خاض فيه الإمام عليه السلام ببيان أقسام الأحاديث التي في أيدي الناس، وقال بينها حق وباطل وناسخ ومنسوخ و... ثم أشار إلى عقاب وضاع الأحاديث وبشرهم بنار جهنم على ضوء الحديث النبوي الشريف.
وذكر في القسم الثاني صفات رواة الحديث فصنفهم أربعة أصناف: المنافقين والخاطئين والجاهلين والحفظة الصادقين.
وخاض في القسم الثالث والأخير في بعض خصائص أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وأشار
نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٠٢

إلى كيفية فهمها، واختتمها بالإشارة إلى وعيه التام لأحاديث النبي صلى الله عليه وآله، جدير ذكره أنه ورد في «الكافي» بشأن هذه الخطبة:

عن سليم بن قيس الهلالي قال: قلت لأمير المؤمنين عليه السلام: إني سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله غير ما في أيدي الناس، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله أنتم تخالفوهم فيها، وتزعمون أن ذلك كله باطل، أفترى الناس يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدين ويفسرون القرآن بأرائهم؟ قال: فأقبل عليّ وقال: قد سألت فافهم الجواب، وذكر الخطبة عن عليه السلام مع شيء من الإضافات [١٥٩].

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٠٣

القسم الأول

إشارة

إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلًا، وَصِدْقًا وَكَذِبًا، وَنَاسِيحًا وَمَنْسُوحًا، وَعَامًّا وَخَاصًّا، وَمُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا، وَحِفْظًا وَوَهْمًا، وَلَقَدْ كَذَبَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَيَّ عَهْدِهِ، حَتَّى قَامَ حَظِييًّا، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

الشرح والتفسير: نقد الروايات

منعت الخلافة عقب وفاة النبي صلى الله عليه وآله لمدّة طويلة (أكثر من ١٠٠ سنة) تدوين السنّة لأسباب سترد في محلها، مع ذلك كانت الألسن تتناقل أخبار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فكانت تنسب له صلى الله عليه وآله بعض الأخبار المتناقضة، واستغل المنافقون والأعداء الخفيون والظاهرون تلك الظروف الذهبية فحاكوا بعض الأكاذيب لصالحهم أو لصالح زعمائهم ونسبوا للنبي صلى الله عليه وآله، وإن قام البعض في القرون اللاحقة لتهديب الأخبار ووضع معايير الصدق والكذب فانتعش تأليف كتب الحديث والرجال، لكن كما قيل فإن منع الكتابة حال دون تدوين الأحاديث.

فقد بين عليه السلام بعبارة قصيرة بليغة وعلى وجه الدقّة منيع اختلاف الأخبار ليجزه بسنة أمور فقال: «إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلًا، وَصِدْقًا وَكَذِبًا، وَنَاسِيحًا وَمَنْسُوحًا، وَعَامًّا وَخَاصًّا، وَمُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا، وَحِفْظًا وَوَهْمًا».

فأشار عليه السلام أولاً إلى السبب الأصلي المتمثل بوجود الحق والباطل التي ربّما تشير إلى عقيدة الحق والباطل، فأهل الحق يتابعون

أحاديث الحق وأهل الباطل يروّجون للباطل.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٠٤

والصدق والكذب الذي يمثّل نوعاً آخر للحق والباطل بلباس القول هو عامل آخر.

فالكاذبون وضعوا عمداً بعض الأخبار المختلفة ونسبوا للنبي صلى الله عليه وآله وكانوا يتلقون أحياناً أموالاً باهضة من الحكام مثل معاوية وهو السبب الثاني، والسبب الثالث الناسخ والمنسوخ، فالبعض سمع حكم المنسوخ فقط ورواه والبعض الآخر سمع الناسخ ورواه.

والسبب الرابع العام والخاص مثلاً سمع البعض أنّ الله أحلّ للناس المعاملات لكنه لم يسمع الحكم الخاص، أي بعض الاستثناءات، والبعض الآخر روى الاستثناء والذي يتناقض ظاهرياً مع الخبر العام.

المحكم والمتشابه هو السبب الخامس: فبعض الأخبار مثل بعض آيات القرآن تتحمل عدّة وجوه في التفسير ثم ترد لاحقاً بعض الأخبار وتزيل الإبهام، وعدم اطلاع الرواة على الحالتين أدى إلى الاختلاف في الرواية.

السبب السادس: الحفظ والوهم فبعض الرواة روى حديث النبي صلى الله عليه وآله بدقة تامّة، بينما رواها البعض الآخر على أساس الظن والوهم الذي لا يطابق الواقع، هذه هي الأسباب التي تشابكت مع بعضها وعكرت أجواء الروايات الإسلاميّة، ثم بدأت هذه الأجواء تظهر في ظل جهود علماء الحديث والرجال وإن ترسبت بعض الروايات الموضوعه.

ثم خاض عليه السلام في ذكر دليل واضح على كلامه فقال: «وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَيَّ عَهْدِهِ، حَتَّى قَامَ خَطِيْبًا، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا [١٦٠] مَقْعَدَهُ [١٦١] مِنَ النَّارِ»».

ورد في حديث آخر أنه صلى الله عليه وآله قال: «قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ الْكُذَابَةُ وَسَتَكُثُرُ بَعْدِي أَلْفَمَنْ

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٠٥

كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» [١٦٢].

وقد ورد هذا الحديث في مصادر العامّة، ومنها «مستدرک الحاكم» و«سنن ابن ماجه» مع اختلاف طفيف [١٦٣].

وأكد أغلب الشراح أنّ هذا الحديث يجعلنا نوقن بالكذب على النبي صلى الله عليه وآله لأنّ هذا الحديث إن صدق فمعناه كثرة الكذب على النبي صلى الله عليه وآله حتى خطب المسلمين واعداء الوضاعين بنار جهنم، وإن كان الحديث كاذباً فعلى الأقل أنّ هذا من الكذب الذي نسب للنبي صلى الله عليه وآله.

على كلّ حال، ممّا لا شك فيه أنّ بعض المنافقين والأعداء شهدوا عصر النبي صلى الله عليه وآله وقد أشار إليهم القرآن في عدّة سور، وقد اشتد خط النفاق عقب رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله؛ حيث كان هؤلاء أحد أسباب وضع الأحاديث، وطائفه أخرى خاضت في الوضع لجهلها بالناسخ والمنسوخ وعدم تمييزها بين المحكم والمتشابه والعام والخاص وهذا ما عكر صفو الأحاديث، واضطر علماء الحديث والرجال لبذل جهودهم ليعينوا معايير الحديث ويميزوا الصحيح من السقيم، وهذا ما سنشير له في ختام الخطبة.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٠٧

القسم الثاني

إشارة

وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ:

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإِيمَانِ، مُتَصَنِّعٌ بِالإِسْلَامِ، لَا يَتَأَثَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ، يَكْذِبُ عَلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُتَعَمِّدًا، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ

مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصِدِّقُوا قَوْلَهُ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَأَاهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِيَ عَنَّهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَّيْهُمْ بِمَا وَصَّيْهُمْ بِهِ لَكَ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَيْمَةِ الضَّلَالَةِ، وَالِدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ، فَوَلَّوهُمْ الْأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّامًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالِدُّنْيَا، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ، فَهَذَا أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ.

الشرح والتفسير: وضع المنافقين للحديث

كان ما مضى إشارة إجمالية عميقة المعنى لمختلف العناصر التي تقف وراء اختلاف وتعارض أحاديث النبي صلى الله عليه وآله، وقد خاض الإمام عليه السلام هنا في شرح ذلك الكلام فقسم الرواة إلى أربعة أصناف وشخص موقف كل صنف بصورة دقيقة. والواقع أن الإمام عليه السلام اعتمد في هذه الخطبة أحد فنون الفصاحة والبلاغة الذي يتمثل في أسلوب الإجمال والتفصيل والذي ورد كراراً في القرآن ليضع مخاطبيه بدقته في واقع الحدث، حيث خاطب عليه السلام السائل الذي استهل به الخطبة- وإن كان الخطاب للجميع- فقال: «وَأِنَّمَا أَتَاكَ بِالحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ حَامِسٌ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٠٨

ثم تحدث الإمام عليه السلام عن الطائفة الأولى بصفاتها العامل الأصلية للاختلاف فقال:

«رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإِيمَانِ، مُتَّصِعٌ [١٦٤] بِالإِسْلَامِ، لَا يَتَأَنَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ [١٦٥]، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُتَّعِداً. هبّ الأعداء لمواجهة الإسلام علانية حين لم يكن يتمتع بالقدرة الكافية غير أنهم هزموا بعد فتح مكة وسيطرة الإسلام، فارتدوا- كسائر المجتمعات البشرية- ثياب النفاق فالتحقوا ظاهرياً بصوف المسلمين وانهمكوا باطنياً بأعمالهم التخريبية، وكانت إحدى طرقهم التخريبية المهمة أن يكسوا أهدافهم ثياب أحاديث النبي صلى الله عليه وآله ليحرفوا المسلمين ويحققوا اغراضهم، وكان المسلمون- الذين يتقون بالمقابل- يسمعون كلامهم كونهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله فعاش المجتمع الإسلامي مشكلة كبرى- ولحسن الحظ فقد أفرط هؤلاء في وضع الروايات لصالح الحكام الظلمة كعواوية إلى درجة جعلت أغلب الناس يقفون على دجلهم وستابع في مبحث التأملات بعض النماذج.

ثم قال عليه السلام: «فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصِدِّقُوا قَوْلَهُ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَأَاهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِيَ عَنَّهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ».

يبدو أن أحد أساليب المنافقين أنهم اسبغوا قدسية على الصحابة وأنهم جميعاً مؤمنون صلحاء ومقدسون لينفذوا من ذلك لتحقيق مآربهم (وستعرض لذلك إن شاء الله).

ثم استشهد عليه السلام بالقرآن على صحة كلامه بحيث لا يبقى من مجال للشك في أذهان مخاطبيه فقال: «وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَّيْهُمْ بِمَا وَصَّيْهُمْ بِهِ لَكَ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٠٩

وهذا الكلام إشارة إلى آيات كثيرة وردت في سورة (المنافقون)، التوبة، الأحزاب، النساء، البقرة، وسائر السور القرآنية وكشفت النقاب عن وضع المنافقين وفضحت أساليبهم وذكرت حيلهم ومصاندهم.

ثم قال عليه السلام: «ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَيْمَةِ الضَّلَالَةِ، وَالِدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ [١٦٧] وَالْبُهْتَانِ، فَوَلَّوهُمْ الْأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّامًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ». وكانت النتيجة كما خلص إليها الإمام عليه السلام «فأكلوا بهم الدنيا». والمراد من أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالدرجة الأولى، حكام بنى أمية الذين استهتروا بجميع شؤون الإسلام بما فيها أحاديث النبي صلى الله عليه وآله ليتأمرؤا على الناس، فكانت أفضل وسائلهم تسخير منافق عصر النبي صلى الله عليه وآله و آله واذنابهم لتحقيق أهدافهم، وهكذا تكدرت أجواء الأحاديث.

والمؤسف أن أغلب الناس لهشوا خلفهم معصوبى العيون حيث قال عليه السلام: «وَأِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالذُّنْيَا، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ». العبارة المعروفة «النَّاسُ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِمْ» وإن لم ترد بهذه الصيغة في الروايات [١٦٨] إلا أنها حقيقية ورد مضمونها في الروايات وكلمات الأعلام حيث إن الطبقة الفاسدة المفسدة إذا وردت الميدان بخطئة مدروسة ووسائل إعلامية ودعائية واسعة أمكنها خداع الرأى العام واستقطاب العديد من الناس ولا تقتصر هذه الحقيقة على التاريخ الماضى وصدر الإسلام بعد النبى صلى الله عليه وآله بل نلمسها اليوم فى أغلب البلدان المتقدمة، حيث استحوذ الطغاة على الشعوب وخدعوا وتلاعبوا بأفكارها من خلال الاستعانة بوسائل الاعلام ومعونة المنافقين، ثم اختتم عليه السلام هذا القسم بقوله «فهذا أحد الأربعة».

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١١٠

تأملات

١. المنافقون على عهد النبى صلى الله عليه وآله

يعلم من له إلمام بالقرآن أن المنافقين ذموا بشدة فى مختلف السور والآيات ليدل هذا على أن المنافقين لم يكونوا عدّة معدودة، وقد انطلقت خططهم منذ قدم النبى صلى الله عليه وآله إلى المدينة واستقبل من قبل أكبر قبيلتين هما الأوس والخزرج وشكل الدولة الإسلامية، وهى الفئة التى شعرت بخطورة مصالحتها إبان ظهور الإسلام فأعلنت إسلامها فى حين كانت تكن العداء للنبى صلى الله عليه وآله والرسالة.

ورغم سعيها الجاد للتخفى، غير أنها كانت تفتضح فى الظروف العصيبة التى تشهد العواصف السياسية والاجتماعية، فتارة من خلال اعتزال القتال وأخرى ببناء مسجد ضرار، وأحياناً من خلال التجسس لصالح المشركين على هامش فتح مكة وأخرى عن طريق تهويل قضية الإفك التى كانت تكشف النقاب عن صورتهم الحقيقية.

وقد اتسع نطاق النقاب عقب فتح مكة؛ فأبو سفيان عدو الإسلام الأوّل وأتباعه اعتنقوا الإسلام لإنقاذ حياتهم، لكنهم كانوا يتحينون الفرص للانقضاض عليه.

٢. المنافقون بعد النبى صلى الله عليه وآله

فتح الباب على مصراعيه عقب وفاة النبى صلى الله عليه وآله و آله لاتساع أنشطة المنافقين، فلم يكن من يردعهم بعد انقطاع الوحي ووفاء النبى صلى الله عليه وآله ويحذر الناس منهم ويوجه لهم الضربة القاصمة كما يقول ابن أبى الحديد [١٦٩] من جانب آخر فإن الفتوحات وكثرة الغنائم شغلت أغلب المسلمين وجعلتهم يغفلون عن مؤامرات المنافقين، سيما أن أغلب المنافقين شغلوا مناصب حساسة فى البلاد الإسلامية على عهد الخلفاء، وإحدى مؤامراتهم الخطيرة وضع الروايات بما يناسب رغبة الخلفاء التى بلغت ذروتها على عهد معاوية بغية توجيه الضربة للإسلام من جهة والتقرب إلى الخلفاء

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١١١

من جهة أخرى.

وقد وردت هذه القضية فى أغلب المصادر حتى وصل الأمر بمعاوية أن يتواطأ مع بعض الصحابة، فمن وضع الرواية كذا فله كذا. فعمد المنافقون أحياناً إلى تحريف الحديث النبوى، وتغيير مضمونه تماماً، كالحديث المروى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِذَا رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ عَلَى مِثْبَرِي فَأَقْتُلُوهُ» [١٧٠].

قال الحسن البصرى قال أبو سعيد الخدرى: «فَلَمْ نَفْعَلْ وَلَمْ نَفْلَحْ» ولكن المنافقين الوضاعين حرّفوا الحديث بأنّه قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ عَلَى مِثْبَرِي فَأَقْبَلُوهُ فَإِنَّهُ أَمِينٌ مَأْمُونٌ» [١٧١].

قال ابن أبي الحديد: وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: أَلَّا يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه، فادنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم، واكتبوا لى بكل ما يروى كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك، حتى أكثروا من فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلوات والكساء والقطائع، ويفيضة في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية، فيروى في عثمان فضيلة أو منقبه إلا كتب اسمه وقربه وشفّعه، فلبثوا بذلك حيناً، ثم كتب إلى عماله: إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خيراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١١٢

إلّا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإنّ هذا أحبّ إليّ وأقرّ لعيني، وأدحض لحجّة أبي تراب وشيعته، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله [١٧٢].

إلّا أنّ المحدثين إنّما يطعنون فيما دون الصحابة ولا يتجاسرون في الطعن على أحد من الصحابة لأنّ عليه لفظ الصحبة [١٧٣].

٣. عدالة الصحابة

هناك رأيان مختلفان بشأن صحابة النبي صلى الله عليه وآله: الرأى القائل: إنهم أفراد صالحون وصادقون وعدول جميعاً ولهم قدسية خاصة، وعليه فروايتهم عن النبي صلى الله عليه وآله مقبولة ولا- يرد عليها شيء، وإن بدر منهم خلاف من قبيل التصرفات الخاطئة للخليفة الثالث في بيت المال وإثارة طلحة والزبير لفتنة الجمل وخروج معاوية على إمام المسلمين على عليه السلام وأمثال ذلك، فلا بد أن نبرره فنقول: أقصى ذلك أنهم كانوا مجتهدين وأخطأوا في الاجتهاد.

والرأى الآخر: رغم وجود العدول من بين الصحابة والأتقياء، لكن كان بينهم المنافق والطالح الذي تبرأ منه النبي صلى الله عليه وآله وذمه القرآن كراراً حتى لعن البعض منهم، ولا- يملك أصحاب نظرية التنزيه المطلق للصحابة من دليل، وكلماتهم تخالف صريح القرآن والتاريخ الإسلامى.

صحيح أن القرآن أشاد في بعض آياته بالمهاجرين والأنصار (رضى الله عنهم ورضوا عنه) لكننا إن قارنا ذلك بسائر الآيات التي ذمت بعض الصحابة ووصفتهم بأنهم أداة بيد الشيطان (سورة آل عمران، الآية ١٥٥) وعزّف بعضهم بالفساق (سورة حجرات، الآية ٦) واعترض بعضهم في تقسيم النبي صلى الله عليه وآله للغنائم وأنه لم يعمل بالعدالة (سورة التوبة، الآية ٥٨) وفرار البعض الآخر عن الجهاد (سورة الأحزاب،

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١١٣

الآية ١٢ و ١٣) يتضح لنا أنّ نظرية تنزيه جميع الصحابة لا تعدو كونها خرافة وكان فئته من موالى الخلفاء عزفت على هذا الوتر بغية قطع الألسن التي ربّما تنطلق بالاعتراض على أعمالهم ولاسيما حكام بنى أمية (معاوية وطائفة من رهطه الذين كانوا ظاهراً من الصحابة) تعصبوا لهذه النظرية أكثر من غيرهم ليبرروا من خلالها عظيم جناياهم، ولكن لحسن الحظ فإنّ محققى العامة أدركوا اليوم هذه الحقيقة فألّفوا العديد من الكتب في تفنيد نظرية التنزيه [١٧٤].

وخطبة الإمام عليه السلام هذه تدل أولاً: على إن هذه العقيدة (تنزيه الصحابة) كانت سائدة لدى البعض على عهده فترجم أن فلاناً صحابى وكلامه حجة.

وثانياً: أن الإمام عليه السلام رفض تلك النظرية على أن من بين الصحابة منافقين تسللوا إلى الإسلام.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١١٥

القسم الثالث

إشارة

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهَمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَّعَمِدْ كَذِبًا، فَهُوَ فِي يَدَيْهِ، وَيَزْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهَمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ! وَرَجُلٌ تَالَتْ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شَيْئًا يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمُنْسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ.

الشرح والتفسير: أحاديث الناسخ والمنسوخ

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى قسمين من أسباب اختلاف الأحاديث وتعارضها فقال:

«وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهَمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَّعَمِدْ كَذِبًا، فَهُوَ فِي يَدَيْهِ، وَيَزْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

فهذا الخطأ يعود تارة إلى التساهل والتسامح، وأخرى إلى الجهل بمفاهيم الألفاظ والعبارات، وأحياناً كون الإنسان ليس بمعصوم ويجوز عليه الخطأ والسهو والنسيان، ومهما كان السبب فالنتيجة واحدة وهي النقل الخاطئ للآخرين.

مثلاً ورد عن عبدالله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ لِيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ». فلما بلغ الحديث ابن عباس قال: أخطأ عبد الله في نقل الحديث، إنما مرَّ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١١٦

النبي صلى الله عليه وآله بقبر يهودى فقال «إِنَّ أَهْلَهُ لَيَبْكُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُعَذَّبُ» [١٧٥].

ومن هنا اشترط في علم الدراية ضبط الراوى في قبول الحديث حيث ينبغي أن يكون ملماً عالمًا بالمطلب فيرويه صحيحاً. القضية المهمة أيضاً أن أغلب الأعلام جوزوا النقل بالمعنى، أى أن الراوى ليس ملزماً برواية ذات ألفاظ، بل له صياغتها في قالب آخر وبيروها، ونعلم أن هذا العمل ليس هيناً وربما يخطئ الراوى في ذلك.

ثم قال عليه السلام: «فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهَمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ!».

وعليه فليس للراوى نية سيئة في هذه الموارد وإن أخطأ في فعله ولعله يضل الآخرين دون قصد، وأغلب هذه الأخطاء كون الراوى لم ينقل صدر الرواية وذيلها فيتغير مفهومها.

مثلاً قال أحدهم للإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: إن الناس يروون عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ». فقال عليه السلام: لعنهم الله فقد أسقطوا صدر الحديث، إنما مرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله برجلين يسب أحدهما الآخر فيقول له: «قَبَحَ اللَّهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ يُشْبِهُكَ».

فقال صلى الله عليه وآله: «يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَقُلْ هَذَا لِأَخِيكَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» [١٧٦]، أى على صورة أخيك هذا

الذي أنت تسببه الآن.

ثم قال الإمام عليه السلام في الطائفة الثالثة من الرواة: «وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شَيْئًا يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمُنْسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١١٧

مسألة النسخ من المسائل الإسلامية التي حصلت بصيغته محدودة في أصل نزول القرآن، أي أنه نزل حكماً لزمان معين ثم أزيل ليحل محله حكم دائم، مثلاً، أمر المسلمون بادئ الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس في الصلاة واستمر هذا الأمر مدة في مكة ثم المدينة وقد نسخ هذا الحكم لعله ربما لأن الكعبة تحولت آنذاك إلى معبد للأصنام، ولكن حين رسخ النبي دعائم التوحيد أمر المسلمون في السنة الثانية للهجرة بالتوجه إلى الكعبة، وورد هذا المعنى في الأحاديث النبوية فكان النبي يبين حكماً هو في الواقع مؤقت ولكن لم يبين زمانه ثم ينسخ ذلك الحكم بحكم دائم، على سبيل المثال قال النبي: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ ثَلَاثٍ؛ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، أَلَا فَرُّوْهُا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ إِخْرَاجِ اللَّحْمِ الْأَضْحَى مِنْ مَنِي بَعْدَ ثَلَاثِ أَفْكَالٍ وَأَدْخِرُوا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيدِ أَلَا فَاتَّبِدُوا وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ» [١٧٧].
وعليه يسع نقل الأحاديث الصحيحة للنبي لمن له إحاطة تامه بكل الأحاديث فيعرف النسخ والمنسوخ ويضع كلاً في محله، وموضوع العام والخاص كذلك حيث يقال أحياناً، حكم عام يشمل جميع الأفراد، مثلاً، قوله صلى الله عليه وآله: «النَّاسُ مُسَيِّطُونَ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ» [١٧٨].

ثم يقول في موضع آخر: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ فِي الْأَسْلَامِ» [١٧٩].

فمن سمع الحكم العام ولم يعلم الخاص يبلغه الآخرين بما يناقض الحكم الخاص، بينما يعلم بعدم التناقض كل من سمعها معاً، ثم قال عليه السلام: «فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ».

ومن هنا فإن بعض اختلاف الأحاديث ناشىء من عدم الإحاطة بروايات النسخ والمنسوخ دون سوء نيته من الرواة.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١١٨

تأمل: النسخ في أحكام الشرع

رغم أن موارد النسخ في آيات القرآن وروايات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله محدودة ومعدودة؛ إلا أن لهذه المسألة أهمية خاصة؛ من حيث ارتباطها بالمسائل العقائدية والمسائل المتعلقة بالنبوة والأحكام.

يتساءل البعض: كيف يمكن أن يوحى الله للنبي حكماً ظاهره أبدى ودائمي؛ لكنه ينسخ بعد مدة ويحل محله حكم آخر غالباً ما يناقضه، مع أن علم الله غير محدود وعلم النبي أيضاً يستند إلى الوحي؟ والنسخ كثير في الأحكام العرفية والوضعية وليس ذلك من العجب، لأنه يدرس الأمور ويضع الأحكام؛ إلا أن ضعفها وعجزها يتضح عند العمل فينسخها، ولو علم العيوب والمثالب منذ البداية ربما لم يضعها؛ إلا أن هذا الأمر لا يصدق على الأحكام الشرعية، فما معنى النسخ فيها؟

يتضح الجواب عن هذا السؤال من الالتفات إلى نقطة وهي: أن النسخ في الأحكام الشرعية من حيث تغيير الموضوع؛ بعبارة أخرى أن عمر ذلك الحكم كان محدوداً منذ البداية بزمان معين وإن لم يُشر إلى نفاذه لبعض المصالح.

مثلاً، حكم التصديق قبل النجوى الواردة في الآية ١٢-١٣ من سورة المجادلة كان لاختبار أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وتفهم هذه القضية أن أغلب مناجاة الأفراد للنبي لم تكن ضرورية ولا بد من تركها حتى لا يكون هنالك اساءة ظن، ومن هنا لما أمر بالتصدق قبل النجوى تركه جميع الأصحاب سوى على عليه السلام الذي تصدق وناجى النبي في أمر مهم ليفخر بأنه الوحيد الذي عمل بالآية.

ثم نزلت بعد ذلك آية نسخت التصديق قبل النجوى وعلم الجميع أن أغلب نجواهم لم تكن ضرورية فامتنعوا عنها، ومن هذا القبيل النسخ سواء في القرآن أو الحديث حيث يوضع حكم في ظروف معينة لمدة معينة ثم ينسخ بعد تغيير الشرائط.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١١٩

جدير ذكره أن النسخ حسب ما ورد هنا يقتصر على زمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين فتح باب الوحي ولم يقع أى نسخ بعد النبي [١٨٠].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٢١

القسم الرابع

إشارة

وَأَخْرَجُ رَابِعًا، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، وَتَعْظِيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَمْ يَهْمُ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، وَالْمُحْكَمَ وَالْمُتَشَابِهَ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ.

وَقَدْ كَانَ يُكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْكَلَامُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلَامُ خَاصٍّ، وَكَلَامُ عَامٍّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، بِهِ، وَلَا مَا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِيحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قُصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ، وَلَيْسَ كُلُّ أَضْيَاحِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِيءُ، فَيَسْأَلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ حَتَّى يَسْمَعُوا، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِى مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ، فَهَذِهِ وَجُوهٌ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ، وَعَلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ.

الشرح والتفسير: حفظة الحديث

تطرق الإمام عليه السلام هنا إلى الصنف الرابع من الرواة السالكين الصراط المستقيم وحمله أحاديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام الثقات والمبينين لأحكام الدين فقال:

«وَأَخْرَجُ رَابِعًا، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، وَتَعْظِيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٢٢

وعليه تغيب فيهم أولى مناشيء تضاد الأخبار: الكذب على الله ورسوله ووضع الأحاديث، حيث إن مجانبه الكذب جزء من ذاتهم وخوف الله وتعظيم النبي بغض إلى نفوسهم الكذب.

ثم قال: «وَلَمْ يَهْمُ [١٨١]، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ».

وهنا زال عنهم المصدر الآخر لاختلاف الأحاديث والذي يتمثل بتساهل الرواة، ثم بين عليه السلام صفة أخرى لرواة الصدق العارفين فقال: «فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ [١٨٢] عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، وَالْمُحْكَمَ وَالْمُتَشَابِهَ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ».

فهذه العبارة العميقة المعنى إشارة إلى الرواة الصادقين المحيطين إحاطة تامة بالأخبار المختلفة؛ ويعرفون الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمحكم والمتشابه، فيجعلون كلًا في موضعه لئبتعدوا عن التناقض والخطأ.

وكلام الإمام عليه السلام بشأن دراسة أساس اختلاف الأحاديث، ليس خاصاً يتعلق بالحديث فحسب، بل يعلمنا درساً أهم وأشمل

فلا بد من التوجه إلى الأسس والتعرف على العوامل المؤثرة في السعي لإزالة المعوقات وإلا فإن كل إصلاح يبقى سطحياً وعبثاً. ثم أشار إلى سبب آخر لاختلاف الأحاديث والذي يكمل المباحث السابقة، وهو اختلاف استعداد الأصحاب في تعلم الأحاديث وتفسيرها وفهم معناها فقال:

«وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْكَلَامُ لَهُ وَجَهَانٍ: فَكَلَامٌ خَاصٌّ، وَكَلَامٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنَى اللَّهُ، سُبْحَانَهُ، بِهِ، وَلَا مَا عَنَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قُصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ». نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٢٣

ليس المراد من الخاص والعام في هذه العبارة، الخاص والعام الاصطلاحيان في علم الفقه والأصول، بل المراد الخاص والعام اللغويان؛ أي الحكم الخاص بمورد معين والحكم العام، مثلاً ورد في بعض الروايات أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أمر المسلمين في السنة السابعة للهجرة بعد الحديبية حين أتوا إلى مكة لإتيان مناسك الحج، أن يسرعوا في الطواف حول البيت الحرام (ليشعر المشركون بالخوف من قوتهم وسرعة حركتهم) [١٨٣] والحال لم تكن سنة ثابتة ودائمة، وورد في الكلمات القصار من «نهج البلاغة» أنه سئل الإمام عليه السلام عن حديث النبي صلى الله عليه وآله حين قال: «عَيَّرُوا الشَّيْبَ وَلَا تَسْبَهُوا بِالْيَهُودِ».

قال عليه السلام: «إنما قال ذلك (الحكم الخاص) والدين قل، أما الآن وقد اتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرئ وما اختار» [١٨٤]. ثم خاض الإمام عليه السلام في مشكلة أخرى بشأن نقل الأحاديث وهي؛ «وَأَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْتِيهِمْ، حَتَّىٰ إِنْ كَانُوا لَيَحْجُبُونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِيءُ» [١٨٥]، فَيَسْأَلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّىٰ يَسْمَعُوا». الظاهر أن هذه العبارة إشارة إلى الأصحاب الذين لم يكونوا من أهل التحقيق ولا طرح الأسئلة المختلفة في أصول الدين والفروع ومن هنا لم يقفوا على ناسخ ومنسوخ وعام وخاص ومحكم ومتشابه ومجمل ومبين، فلا يسألون عنها ولا يلمون بالمسائل ولكن إن جاء أحد وسأل وتلقى الجواب المطلوب تفاعلوا معه.

وقد فسّر بعض الشراح، العبارة المذكورة أن بعض الصحابة لم يكن يسأل النبي لهيبته أو أن كثرة السؤال تحمل على إساءة الأدب فيمتنعون عن السؤال [١٨٦]؛ إلا أن هذا نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٢٤

الاحتمال لا- يتناسب والعبارة التي وردت في كلام الإمام حيث قال عليه السلام مواصلاً كلامه؛ «وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ».

وإن رأينا استعداد الإمام للاجابة عن كل سؤال وبغض النظر عن الامداد الغيبي والالهام الباطني والتأهب الذاتي فإن ذلك لملازمته الحميمة للنبي وروح السؤال للإحاطة بكل شيء من المسائل الإسلامية.

ثم قال في ختام الخطبة: «فَهَذِهِ وَجُوهٌ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ، وَعَلَيْهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ». وردت عدّة عبارات في ذيل هذه الخطبة في بعض المصادر ومنها «الكافي» حيث قال:

«وَقَدْ كُنْتُ أُدْخِلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ كُلَّ يَوْمٍ دَخَلَهُ وَكُلَّ لَيْلَةٍ دَخَلَهُ فَيَخْلِينِي فِيهَا أَدُورٌ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ وَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ ذَلِكَ بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ غَيْرِي ... فَمَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ آيَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَقْرَأْنِيهَا وَأَمْلَاهَا عَلَيَّ فَكَتَبْتُهَا بِخَطِّي وَعَلَّمَنِي تَأْوِيلَهَا وَتَفْسِيرَهَا وَنَاسِخَهَا وَمَنْسُوخَهَا وَمُحْكَمَهَا وَمُتَشَابِهَهَا وَخَاصَّهَا وَعَامَّهَا وَدَعَا اللَّهُ أَنْ يُعْطِيَنِي فَهَمَّهَا وَحَفِظَهَا ... وَمَا تَرَكَ شَيْئًا عَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ وَلَا أَمْرٍ وَلَا نَهْيٍ كَانَ أَوْ يَكُونُ وَلَا كِتَابٍ مُنْزَلٍ عَلَيَّ أَحَدٍ قَبْلَهُ مِنْ طَاعِيَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا عَلَّمَنِي وَحَفِظْتُهُ فَلَمْ أَنْسَ حَرْفًا وَاحِدًا ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي وَدَعَا اللَّهُ لِي أَنْ يَمْلَأَ قَلْبِي عِلْمًا وَفَهْمًا وَحِكْمًا وَنُورًا» [١٨٧].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٢٥

إشارة

في عَجِيبِ صَنَعَةِ الْكُونِ [١٨٨]

نظرة إلى الخطبة

تتناول الخطبة عجائب خلق السماء والأرض منذ انطلاقة الخليقة ولحد الآن وتشير إلى عدّة أمور منها:

١. قدرة الله العظيمة في خلق الكون.
٢. بداية خلق الأرض والسماء وأنها كانت بادئ الأمر كتلة ضخمة من مادة مذابة كالبحر المتلاطم.
٣. تشكيل كتلة جديدة على سطح هذا البحر المذاب ثم تكون الكرة الأرضية وسائر الكرات السماوية.
٤. ظهور التشققات الأرضية وتكون الجبال والقمم التي تمتد لعنان السماء.
٥. تمجيد الله وتسيحه على هذا الخلق العظيم والاعتبار بهذا الخلق العجيب.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٢٧

القسم الأول

إشارة

وَكَانَ مِنْ أَقْتِدَارِ جَبْرُوتِهِ، وَيَدِيعِ لَطَائِفِ صِنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّائِرِ الْمُتْرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ، يَبْسًا جَامِدًا، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقًا، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِقَاقِهَا، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَى حُدِّهِ. وَأَرَسَى أَرْضًا يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُتَعَنِّجُ، وَالْقَمَقَامُ الْمُسَخَّرُ، قَدْ دَلَّ لِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِحَشِيَّتِهِ.

الشرح والتفسير: بداية خلق الكون

حمل الإمام عليه السلام مخاطبيه إلى بداية خلق الكون ليريهم عظمة الخلق وعجائبه فقال: «وَكَانَ مِنْ أَقْتِدَارِ جَبْرُوتِهِ، وَيَدِيعِ لَطَائِفِ صِنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّائِرِ [١٨٩] الْمُتْرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ [١٩٠]، يَبْسًا جَامِدًا».

(اقتدار) من مادة قدره وجبروت صيغة مبالغة تفيد السلطة التامة، وعليه فانطلاقة الخلق العظيم للسماء والأرض هي قدرة الخالق العظيم من جهة وابداعه اللطيف والظريف من جهة أخرى، فالفرد ربّما يفقد الدقة والظرافة في فعل عظيم أو يتعذر عليه التوسع في هذا الفعل؛ إلّا أنّ القادر المتعال مزج ذلك في خلق الأرض والسماء، فهناك العظمة في فعله والدقة واللفظ.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٢٨

فقد ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة على غرار الخطبة الاولى والخطبة ٩١ من «نهج البلاغة» أنّ بداية الخلق كانت من المياه، وقطعاً ليس المراد المياه الطبيعية اليوم، بل الكتل العظيمة المذابة والمتلاطمة التي صنعها الله بقدرته، وقد تحولت هذه المادة المذابة بمرور الزمان إلى مواد جافة فكونت الأرض والكرات السماوية، ويتفق هذا الطرح مع النظريات العلمية المعاصرة بشأن ظهور الكون، جدير ذكره أنّ العبارة (من ماء البحر الزاخر) تفيد أنّ قسماً من هذا البحر الزاخر تحول إلى كرات سماوية وبقي قسم منها وهذا ما ينسجم أيضاً والاكتشافات العلمية التي تقول: ما زالت مواد عظيمة من الكتل الغازية المحرقة أو المواد المذابة في السماء لم تتحول

إلى كرات على غرار كرات المنظومة الشمسية.

ثم تحدّث عن ظهور السموات السبع فقال: «ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقًا [١٩١]، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِقَائِهَا [١٩٢]، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَى حُدِّهِ».

والكلام اقتباس مما ورد في الآية ٣٠ من سورة الأنبياء: «أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا».

ومن الواضح أنّ المشاهدة في هذه الآية ليست المشاهدة الحسية وبالعين، بل المشاهدة الباطنية من خلال العلم والمعرفة، ذهبت النظريات العلمية اليوم إلى أنّ السماء والأرض كانتا في البداية كتلة عظيمة من الغازات والمواد المذابة وقد انفصلت منها بعض القطع الواحدة تلو الأخرى اثر دورانها حول نفسها أو بفعل عوامل أخرى فقدفت في زاوية من الفضاء وكونت الكرات والمنظومات والمجرات.

ثم تطرق عليه السلام إلى خلق الأرض فقال: «وَأَرْسَى [١٩٣] أَرْضًا يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ [١٩٤]

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٢٩

الْمُتَعَجِّرُ [١٩٥]، وَالْقَمَقَامُ [١٩٦] الْمُسْحَرُ، قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ، وَأَذَعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِحُشْيَتِهِ».

ولعل الكلام إشارة إلى الأمطار الغزيرة التي اجتاحت الكرة الأرضية في بداية خلق الأرض بصيغته بحر عظيم وتخللت هذه المياه فجوات الأرض بمرور الزمان فشكلت اليابسة التي تكون ربع الكرة الأرضية، وهذات المياه لتذلل الأرض لكي يعيش عليها الإنسان وسائر الكائنات.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٣١

القسم الثاني

إشارة

وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا، وَنُشُوزَ مُتُونِهَا وَأَطْوَادِهَا، فَأَرَسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا. فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سِيْهُولِهَا، وَأَسَاحَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا، فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَارَهَا، وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَادًا، وَأَرَزَهَا فِيهَا أَوْتَادًا، فَسَكَنْتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ بِحَمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا. فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوْجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبِيَةِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِحَلْقِهِ مِهَادًا، وَبَسَّطَهَا لَهُمْ فِرَاشًا! فَوْقَ بَحْرِ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَيَجْرِي، وَقَائِمٍ لَيَسِيرِي، تُكْرِكِرُهُ الرِّيَّاحُ الْعَوَاصِفُ، وَتَمُخِّضُهُ الْعَمَامُ الدَّوَارِفُ؛ «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى».

الشرح والتفسير: خلق الجبال

خاض الإمام عليه السلام بعد بيانه لخلق السموات والأرض واستقرار الأرض في موضعها في شرح إحدى الظواهر الأرضية المهمة التي تلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان وسائر الكائنات الحية فقال: «وَجَبَلَ [١٩٧] جَلَامِيدَهَا [١٩٨]، وَنُشُوزَ [١٩٩] مُتُونِهَا [٢٠٠]

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٣٢

وَأَطْوَادِهَا [٢٠١]، فَأَرَسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا. فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ».

المفروغ منه علمياً أنّ سطح الكرة الأرضية لم تعلّهُ المرتفعات قبل أن يبرد، إلّا أنّ الشقوق تخللتها بعد برودتها (كالتفاحة التي تمر عليها مدّة فتتصلب) فكونت هذه الشقوق الجبال والوديان العظيمة، وكانت الجبال تنطلق إلى السماء وتغوص جذورها في المواد

المذابة في جوف الأرض فتكون سطح الأرض بصيغته الفعلية.

ثم وضع أكثر فقال: «فَأَنهَدَ [٢٠٢] جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ [٢٠٣] قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا [٢٠٤]، فَأَشْهَقَ [٢٠٥] قِلَالَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَارَهَا [٢٠٦]».

تفيد هذه العبارة أنّ جبال الأرض بغض النظر عن استوائها خارجياً فإن لها جذوراً عظيمة في أطناج الأرض وهي الجذور التي تشدها معاً من الداخل، بالضبط كالشجرة التي كلما امتد ساقها وأوراقها إلى الأعلى انغمرت جذورها أعمق في الأرض، فالامتداد والاستقرار يرسخ الجذور في الأرض.

ثم ذكر عليه السلام فوائد الجبال وأهمها حفظ استقرار الأرض وسكانها، فقال بعبارة دقيقة وعميقة: «وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً، وَأَرْزَاقاً [٢٠٧] فِيهَا أَوْتَاداً، فَسَكَنْتَ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ [٢٠٨] بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ [٢٠٩] بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٣٣

كيف تهب الجبال الأرض الاستقرار وتحول دون اضطرابها؟ وتوضح الاجابة عن هذا السؤال من خلال قضية هي أنّ نواة جوف الأرض مواد مذابة وغازات تسلط ضغطاً على الدوام على القشرة الخارجية وتظهر أحياناً كبراكين، إلّا أنّ الجبال لا تتحمل تلك الضغوط بفعل جذورها المحكمة والمتصلة فتحول دون الاضطراب فتصبح مصدراً لاستقرار القشرة الأرضية.

أضف إلى ذلك فإنّ الجبال تعتبر من العوامل المؤثرة في استقرار الأرض بفعل الضغوط الخارجية الناشئة من جاذبية الشمس والقمر وما يحصل منها من مد وجزر، من جانب آخر فإنّها ملاذات إزاء العواصف التي تصيب سطح الأرض ومن شأنها تهديد حياة الإنسان، ومن أراد المزيد بهذا الخصوص فليراجع الخطبة ٩١ من الجزء الرابع لهذا الشرح وتفيد العبارة «فسكنتا على حركتها» استناداً للعبارة «على» أنّ الإمام عليه السلام أشار بوضوح آنذاك إلى حركة الأرض التي كان يقول بسكونها آنذاك جميع علماء الهيئة حيث قال رغم حركة الأرض إلّا أنّها مستقرة ولا تعرض سكانها للاضطراب.

وقد أشار المرحوم العلامة شرف الدين صاحب كتاب (مؤلفو الشيعة في صدر الإسلام) إلى هذه النقطة الظريفة [٢١٠].

ثم قال عليه السلام: «فَسَيَبْحَانُ مَنْ أَمْسِكَهَا بَعِيدَ مَوْجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبِهَا أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً، وَبَسَّطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً! فَوْقَ بَحْرِ لُجِّي رَاكِدٍ لَيَجْرِي، وَقَائِمٍ لَيَسِيرِي، تُكْرِكُهُ [٢١١] الرِّيَّاحُ الْعَوَاصِفُ، وَتَمُخُّضُهُ [٢١٢] الْعَمَامُ الدَّوَارِفُ [٢١٣]؛ «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى»».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٣٤

تبدو للوهلة الاولى في هذه العبارة جملتان متناقضتان؛ فقد قال في الاولى: إن الله بسط الأرض على بحر عظيم ليجي راكدا لا يجرى وقال في ذيلها: تكرر الرياح العواصف، إلّا أنّ تأمل العبارة يوضح نفى أي تناقض، فالعبارة الاولى تتحدث عن استقرار طبيعة البحر، والثانية عن تأثير العوامل الخارجية، أي الرياح الشديدة على سطوح البحار.

وقوله: «وَتَمُخُّضُهُ الْعَمَامُ الدَّوَارِفُ» إمّا لأنّ هذه السحب مقترنة دائماً بالعواصف، أو أنّ سيول الأمطار تسقط على سطوح المحيطات تؤثر عليها وتجعلها متلاطمة.

والعبارة «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى» إمّا إشارة إلى سكون البحار وحركتها التي أشرنا إليها، أو إشارة لما ذكره عليه السلام في هذه الخطبة بشأن خلق الجبال وخلق الأرض والسماء، والآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى» [٢١٤] تصرّح بأنّ الخشية وليدة العلم والعلماء ممن يعتبرون بهذه الأمور كما قال في موضع آخر «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» [٢١٥].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٣٥

إشارة

كَانَ يَسْتَنْهَضُ بِهَا أَصْحَابَهُ إِلَى جِهَادِ أَهْلِ الشَّامِ فِي زَمَانِهِ [٢١٦]

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة في الواقع استغاثة بالله ممزوجة بالدعاء لنصرة جند الإسلام ومؤاخذه العناصر العاكفة عن نصره الحق واطمام الحجة عليهم أمام الله تعالى، ويشير الكلام إلى مدى امتعاض الإمام عليه السلام عن ضعف أهل الكوفة وعدم مبالاتهم بأمر جهاد طغام أهل الشام؛ الأمر الذي يستفاد من أغلب خطب «نهج البلاغة» ولولا الضعف والنكوص لنحا التاريخ الإسلامي منحى آخر ولكن للأسف ...!

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٣٧

اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةَ، وَالْمُضْلِحَةَ غَيْرَ الْمُفْسِدَةَ، فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا التُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ، وَالْأَبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْهَدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً، وَنَسْتَشْهَدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسِيكَتَهُ أَرْضُكَ وَسَمَاوَاتِكَ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدَ الْمُغْنَى عَنْ نُصْرِهِ، وَالْآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ.

الشرح والتفسير: جزاء المتخلفين

تفيد القرائن أن هذه العبارات العميقة المعنى المليئة بالأسى واللوعة كانت بعضاً من خطبة طويلة اقتطف منها المرحوم السيد الرضى هذا القسم وفصله عنها، ويرى البعض أنه ذيل الخطبة [١٩٨] [٢١٧].

والهدف الأصلي لأmir المؤمنين عليه السلام من هذه الخطبة تعبئة صحبه لجهاد أهل الشام الظلمة؛ لكن بصيغة شكوى إلى الله، شكوى من أولئك الذين يسمعون دعوته العادلة ويتمردون عليه في الجهاد، الشكوى التي تبين مدى مظلومية الإمام عليه السلام ومدى افتقار صحبه للشعور بالمسؤولية. فقال: «اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةَ، وَالْمُضْلِحَةَ غَيْرَ الْمُفْسِدَةَ، فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا التُّكُوصَ [٢١٨] عَنْ نُصْرَتِكَ، وَالْأَبْطَاءَ [٢١٩] عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْهَدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٣٨

الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً».

جدير ذكره أن الإمام عليه السلام أكد بهذه العبارات بشأن الدعوة إلى جهاد ظلمة أهل الشام على أربع أو على اعتبار على صفتين:

١. إن هذا الكلام كلام على مسار العدل.

٢. لا ظلم فيه قط.

٣. سبب إصلاح الناس.

٤. لا يترتب عليه أي فساد وآثاره الايجابية ظاهرة في دنيا الناس ودينهم.

والبداهة تحكم بضرورة إتباع هذا الكلام المليء بالحق والعدل والصلح والمصلحة وانحراف من يخالفه عن شرع الله والعقل. القضية الأخرى أن الإمام عليه السلام يقول: إن من يتمرد على دعوته لجهاد أهل الشام الظلمة إنما ينكص عن نصره الله واشتداد دينه دون أن يجنى الإمام عليه السلام نفعاً خاصاً من ذلك، كما أراد أن يذكر الإمام عليه السلام ضمناً بأن مسير أهل الشام مسير الظلم والجور وأساس الفساد في دين الناس وديانهم.

وواصل عليه السلام كلامه بإشهاد من في السماء والأرض إلى جانب إلهاد الله فقال:

«وَنَسْتَشْهَدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أُسْكِنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَاوَاتِكَ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدَ الْمُنْعَى عَنْ نَصْرِهِ، وَالْآخِذُ لَهُ بِدَنْبِهِ».

فقد أتم الإمام عليه السلام بهذه الشكوى إلى الله المنبعثة من قلب حزين ملتاع، الحجة على المتثاقلين عن الجهاد من جهة وتحذير من جهة أخرى لصحبه الأوفياء ألا يهنوا بسبب ضعف أولئك الأفراد ويعلموا أن الله ناصرهم وأولئك الناكسين سيلاقون جزاء أعمالهم، ويشهد التاريخ أنهم ابتلوا عقب شهادة الإمام عليه السلام وولّى عليهم ظلمة من ولاة بنى أمية فلم يراعوا فيهم ذمّة ولم يألوا جهداً فى اذقتهم العقاب.

ورد فى كتاب «صفيين» لنصر بن مزاحم أنه قام رجل من بنى فزارة فقال للإمام:

تريدنا أن نقاتل أهل الشام فنقتل إختونا كما قتلناهم فى البصرة يوم الجمل فلن

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٣٩

نفعل ذلك، فنهض مالك الأشرى وقال: أمسكوه (فهو من أفراد العدو) فنهضوا إليه فهرب إلى موضع لبيع الخيل فجعلوا يطأونه بأرجلهم ٢٢٠].

العبارة «جَمِيعَ مَا أُسْكِنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَاوَاتِكَ» تبدو إشارة إلى الملائكة والإنس والجن، لأن العبارة «اسكنتها» تناسب ذلك وعليه «ما» اطلقت هنا على العاقل وإشهادهم رغم إشهاد الله قبل ذلك تأكيد لهذا الأمر المهم، كما جعل الله إلى جانب ذاته القدسيه شهداء كثيرين على أعمالنا.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٤١

الخطبة ٢١٣

إشارة

فى تَمَجِيدِ اللَّهِ وَتَعْظِيمِهِ [٢٢١]

نظرة إلى الخطبة

يستفاد من تعبير المرحوم السيد الرضى أن ما ورد فى هذه الخطبة جانب من كلام الإمام عليه السلام اقتطفه السيد الرضى فى قسمين: القسم الأول: الذى جرى الكلام فيه عن صفات الله الجلالية والجمالية ولا سيما احاطته العلمية بجميع المخلوقات. وورد الكلام فى القسم الثانى عن صفات النبى وإمداده الغيبى وإزاله الموانع عن مسيرته وتطورها السريع، وبالتالي فإن الخطبة قبسات بشأن التوحيد والنبوة.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٤٣

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَيْبَةِ الْمَخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاطِرِينَ، وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ، الْعَالِمِ بِمَا اكْتَسَابَ وَلَا اِزْدِيَادَ، وَلَا عِلْمَ مُسْتَفَادَ، الْمُقَدَّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِمَا رَوِيَهُ وَلَا ضَمِيرٍ، الَّذِي لَا تَغْشَاهُ الظُّلْمُ، وَلَا يَسْتَضِيءُ بِالْأَنْوَارِ، وَلَا يَرْهَقُهُ لَيْلٌ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ لَيْسَ إِذْرَاكُهُ بِالْبَصَارِ، وَلَا عِلْمُهُ بِالْأَخْبَارِ.

ومنها فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله:

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَقَدَّمَهُ فِى الْأَصْطِفَاءِ، فَرْتَقَ بِهِ الْمَفَاتِقَ، وَسَاوَرَ بِهِ الْمُغَالِبَ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ، وَسَهَّلَ بِهِ الْحُزُونََ، حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ، عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالِ.

الشرح والتفسير: قياسات من صفات الله ورسوله

أشار الإمام عليه السلام في المقطع الأول من هذه الخطبة الذي ورد في صفات الله الجمالية والجلالية إلى اثنتي عشرة صفة، فقال في الصفات الأربع الأولى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ عَنِ شَبِّهِ الْمَخْلُوقِينَ، الْعَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاطِرِينَ، وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنِ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ [٢٢٢]».

وكما قيل آنفاً فإنَّ الذات الإلهية لامتناهية، ومن البديهي أن تعجز جميع نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٤٤

مخلوقاته المتناهية من جميع الجوانب عن درك كنه ذاته، وعليه إنَّما ندرك تلك الذات عن طريق آثاره العجيبة السائدة في عالم الوجود؛ ومن هنا فإن قلنا أوضح من كل شيء وأخفى من كل شيء فذلك ناظر لهذين البعدين؛ من حيث آثار علمه وقدرته ظاهراً تماماً، وخفى من حيث كنه ذاته.

ثم خاض في الصفة الخامسة والسادسة فقال: «العَالِمِ بِلَا اكْتِسَابٍ وَلَا اِزْدِيَادٍ، وَلَا عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ، الْمُقَدَّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ». لا شك في أن علم الله كذاته لا متناه، فلا يحتاج إلى اكتساب ولا تعلم من آخر، وهذا يقتصر على ذوى العلم المحدود والذين لهم الازدياد من خلال ثلاثة طرق:

التجربة وأمثالها، تأثير العلوم في بعضها والانتقال من مسألة لأخرى وأخيراً التلمذ والتعلم من الآخرين، أما مَنْ كان علمه لا متناه فغنى عن كل هذه الأمور، كما هو غنى عن إحالة الفكر في خلق الكائنات وتقدير كل مخلوق من حيث الكمية والكيفية والقوانين التي تحكمه، فلا حاجة للرجوع إلى الوجدان بخلاف الإنسان الذي يحاول اختراع شيء ربما يستغرق أحياناً لسنوات ويطلع ويستعين بمعلوماته وأفكاره لينجح في محاولته.

وقال في الصفة السابعة والثامنة: «الَّذِي لَا تَغْشَاهُ الظُّلْمُ، وَلَا يَسْتَضِيءُ بِالنُّورِ».

ثم تطرق إلى الصفة التاسعة والعاشرة لا يوضح هذا المطلب فقال: «وَلَا يَرْهَقُهُ [٢٢٣] لَيْلٌ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ». ولعل هذه العبارات تشير إلى أن ذاته القدسية جلية دائماً عن طريق الآثار ولا يعترها الليل والنهار، أو إشارة إلى غناه عن الضياء بخلاف الإنسان في المشاهدة والاحاطة بالاشياء.

وقال في الصفة الحادية عشرة والثانية عشرة المكملة والموضحة لما سبق من صفات «لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِالْبَصَارِ، وَلَا عِلْمُهُ بِالْأَخْبَارِ». فهذه الأمور مرتبطة بالجسم والجسمانيات وذوى العلوم الناقصة والمحدودة، هو ليس من قبيل الأجسام ولا

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٤٥

محدود في إحاطته العلمية.

وهنا يرد هذا السؤال: لم يركز الإمام عليه السلام في عدّة خطب على هذه المضامين ويؤكد عليها ويصر على غنى علم الله عن الأمور المذكورة، ما سرّ هذا التأكيد؟

نقول في الجواب: إنَّ إحدى أعظم المشاكل في معرفة الله، قضية مقايسته بالمخلوقات، كونه يتعامل طيلة حياته معها فيقيس بها كل شيء، المخلوقات المحدودة من جميع الجوانب، العلم والقدرة والزمان والمكان والإدراك والشهود والتقلب والزوال، فإذا دار الكلام عن معرفة الله استعان -عالمًا أو جاهلاً- بذلك القياس فيهوى في وادي التشبيه الخطير.

ومن هنا فإنَّ هذا المعلم الرباني يحذر كراراً من الانزلاق إلى الهاوية والمقايسة بين الله وأى من مخلوقاته التي تبعد عن معرفة الله وتخلق لديه أوهاماً يتعبد بها.

والحديث المروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «كُلُّ مَا مَيَّرْتُمُوهُ بِأَوْهَامِكُمْ فِي أَدَقِّ مَعَانِيهِ مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ مِثْلُكُمْ مَرْدُودٌ إِلَيْكُمْ» [٢٢٤]. إشارة رائعة لهذا المطلب.

ولذلك كان الأئمة عليهم السلام دائمى المراقبة لصحبهم وأتباعهم حذراً من السقوط فى مستنقع التشبيه أو التعطيل، فى حين سقط فيه العديد ممن لم يستر على نهجهم ويتبعهم، ومن نماذج هذا الانحراف الخطير، الإيمان بتجسم الله وتشبيهه بمخلوقاته والاعتقاد بإمكانية رؤيته ومشاهدته الحسية فى الدنيا أو على الأقل فى الآخرة والتي يلتزم بها الأعم الأغلب. وأورد الإمام عليه السلام كلمات قصيرة عظيمة المعنى بشأن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

فى القسم الآخر من هذه الخطبة الذى ذكره السيد الرضى تحت عنوان «ومنها فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله» فيبين عليه السلام سبباً من صفات النبى الأكرم صلى الله عليه وآله التى تشير إلى رفعه مقامه وسعة إصلاحاته فى المجتمع الإسلامى فقال: «أرسله بالضياء، وقدمه فى

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٤٦

الأصطفاء، فرّق [٢٢٥] به المفايق [٢٢٦] وساور [٢٢٧] به المغالب، ودلّل به الصعوبة، وسهّل به الخزونة [٢٢٨]، حتّى سرح [٢٢٩] الضلال عن يمين وشمال».

المراد من الضياء أحد الاحتمالات: نور الإيمان أو العلم أو القرآن أو الوحي أو جميعها، أى أن الله بعث النبى صلى الله عليه وآله بنور الوحي والقرآن والإيمان ليضىء بها الكون العبارة «قدمه فى الأصطفاء»، ربّما إشارة إلى خاتمية النبى صلى الله عليه وآله (لأنه لو لم يكن خاتماً سيرد ديناً أسمى من دينه) أو إشارة لأفضليته على جميع الأنبياء والخلق، المراد من «مفايق» الاختلافات الواسعة التى سادت مجتمع الجزيرة وقضى عليها النبى صلى الله عليه وآله، ووحدهم تحت لواء الإسلام.

العبارة «وساور به المغالب» إشارة إلى قطع أيدى الظلمة والطغاة عن المستضعفين والمحرومين والذى حصل ببركة ظهور الإسلام والذين سلموا جميعاً لقدرة الدين الجديد.

والعبارة «ودلّل به الصعوبة» يمكن أن تكون إشارة إلى حل المشاكل المعنوية والعقائدية والأخلاقية أو المشاكل المادية والاجتماعية أو جميع ذلك فى ظل ظهور الإسلام.

وتشير العبارة «حتّى سرح الضلال عن يمين وشمال» إلى نهاية جميع المفايد التى اشير إليها فى العبارات السابقة، أى زوال أنواع الضلال اليمين والشمال ومن جميع الجوانب بالنبى صلى الله عليه وآله ورسالته.

وربّما تشير العبارة «عن يمين وشمال» إلى الإفراط والتفريط أو إشارة لكل الطرق التى تؤدى إلى الفساد، قطعاً هذه الإصلاحات ليست مختصة بزمان ظهور

نفحات الولاية؛ ج ٨؛ ص ١٤٦

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٤٧

النبى صلى الله عليه وآله فلو عملنا اليوم بالتعاليم والوصايا الإسلامية لتحققت وحدة الأمة الإسلامية ولقطعت أيدى الطغاة والظلمة ولهانت جميع الازمات والمشاكل الاجتماعية، فكل ذلك من آثار التعاليم الإسلامية.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٤٩

الخطبة ٢١٤

إشارة

يَصِفُ جَوْهَرَ الرَّسُولِ، وَيَصِفُ الْعُلَمَاءَ، وَيَعْظُ بِالتَّقْوَى [٢٣٠]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة كما أشرنا من ثلاثة مقاطع: أشار عليه السلام في المقطع الأول عقب شهادته لله بالعدل إلى جانب من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله التي تشير إلى طهارة جوهر ذات النبي من جميع الجهات، وتطرّق ضمناً إلى لطف الله بالمطيعين من عباده وإمداده الغيبي لهم.

وتحدث في المقطع الثاني عن العلماء الربانيين وصفاتهم البارزة وكيفية تعاملهم مع الآخرين. وأورد في الختام مواضع كثيرة من شأن العمل بها تربية روح الورع والتقوى لدى الإنسان بعبارات موجزة بليغة. نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٥١

القسم الأول

إشارة

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلٌ، وَحَكَمٌ فَصَلٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ، كُلَّمَا نَسَخَ اللَّهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا، لَمْ يُسْهِمِ فِيهِ عَاهِرٌ، وَلَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ.
أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمًا، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا.
وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَيُبَيِّنُ الْأَفْئِدَةَ، فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ، وَشِفَاءٌ لِمُسْتَشْفٍ.

الشرح والتفسير: النسب الطاهر للنبي صلى الله عليه وآله

استهل الإمام عليه السلام خطبته - كسائر الخطب - بالشهادتين (وإن دلت الواو في «وأشهد» أنه كانت قبلها بعض المطالب) فقال: «وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلٌ، وَحَكَمٌ فَصَلٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ».

التعبير (عَدْلٌ) الذي له معنى مصدرى، للتأكيد، أى أن ذات الله عين العدل، والعبارة التي أتت به بصيغة الفعل الماضى (عدل) تأكيد آخر و (حكم) له معنى واسع يشمل حكم الله فى جميع الجوانب التكوينية والتشريعية، وأنه فصل وفرقان بين الحق والباطل على الدوام.

والعجيب أن ابن أبى الحديد نسب الضمير فى (أنه) إلى القضاء والقدر ويعتقد بأنه كان قبل هذه العبارة (وفصله السيد الرضى، ووافقه عدد من الشراح، فى حين تشير العبارة «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» إلى أن الشهادة السابقة شهادة نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٥٢

مرتبطة بالله، بالإضافة إلى أن «حكم عدل» من صفات الله لا صفات القضاء والقدر [٢٣١].

ويشير وصف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فى العبارة المذكورة بالعبودية قبل الرسالة إلى أن أعظم فخر للإنسان عبودية الله والعبارة «سَيِّدُ عِبَادِهِ» تأكيد آخر لهذا المعنى، نعم كل ما هنالك فى عبودية الله، ثم قال فى ذكر صفات النبي صلى الله عليه وآله: «كُلَّمَا نَسَخَ [٢٣٢] اللَّهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا».

إشارة إلى أن نوره صلى الله عليه وآله فى صلب آدم كان ينتقل من صلب لآخر ولما كان يظهر عدّة أبناء من نسله كان نوره

المبارك في الفرع الأفضل من ذلك النسل وما زال كذلك حتى انتقل من صلب عبد الله لرحم آمنه بنت وهب.

ثم أضاف: «لَمْ يُسِرْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ [٢٣٣]، وَلَمَّا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ». وهونفس المضمون الذي ورد في زيارة وارث في الإمام الحسين عليه السلام: «أَشْهَدُ أَنَّكَ كُنْتَ نُورًا فِي الْأَصِيلَابِ الشَّامِخَةِ وَالْأَرْحَامِ الْمُطَهَّرَةِ، لَمْ تُجَسِّكِ الْجَاهِلِيَّةُ بِأَنْجَاسِهَا وَلَمْ تُلْبَسِكَ مِنْ مُدْلِهَمَاتِ ثِيَابِهَا» [٢٣٤].

وهو ذات المعنى الذي ورد في النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «لَمْ يَزَلْ يَنْقُلُنِي اللَّهُ مِنْ أَصِيلَابِ الطَّاهِرِينَ إِلَى الْمُطَهَّرَاتِ حَتَّى أَخْرَجَنِي فِي عَالَمِكُمْ هَذَا لَمْ يُدْنِسْنِي بِدَنَسِ الْجَاهِلِيَّةِ» [٢٣٥].

والعبارة الواردة في هذه الخطبة والزيارة والرواية بالإضافة إلى بيان فضل النبي

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٥٣

الأكرم صلى الله عليه وآله تعلمنا جميعاً هذا الدرس وهو أن فترة تربية الإنسان بغية بلوغ المقامات الرفيعة تبدأ من أصلاص الآباء وأرحام الامهات وأن العامل الوراثي أحد عوامل تبلور شخصيته الإنسان، وإن لم يكن العامل الفريد، وهنالكَ الكثير الذي يقال بهذا الخصوص ستعرض له في الأبحاث القادمة على ضوء مناسبة الكلام إن شاء الله.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى السائرين على نهج رسول الله صلى الله عليه وآله الذي بين صفاته في العبارات السابقة ليشير إلى ضرورة تربية بعض الطوائف في كل عصر في ظل تعاليم النبي صلى الله عليه وآله وليواصلوا مسيرته، فقال: «أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمًا، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا».

إشارة إلى أن هذا الطريق لا يخلو في أي عصر ومصر من سالكيه ولا تتوقف خطط الخير والحق والطاعة؛ فهؤلاء من ذوى الإرادات الصلبة والنيات الطاهرة ولذلك شملتهم الطاف الله، العبارة «وَلِلْحَقِّ دَعَائِمًا، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا» ربما تشير إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام أو وصياء النبي صلى الله عليه وآله حماة الحق وامناء طاعة أوامر الله، كما ورد في الزيارة الجامعة: «وَالْحَقُّ مَعَكُمْ وَفِيكُمْ وَمِنْكُمْ وَإِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ وَمَعْدِنُهُ».

وما ورد في الحديث الذي روته مصادر الفريقين: «عَلَى مَعَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ مَعَ عَلِيٍّ يَدُورُ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ» [٢٣٦].

وربما تشير إلى القرآن وسنة المعصومين عليهم السلام أو العلماء ولا يبعد جمع هذه التفاسير الثلاثة في مفهوم العبارة، ثم بشر أولئك السائرين بأنهم ليسوا وحيدين إزاء زخم مشاكل الطاعة وأن نصره الله منجزه لهم دائماً، فقال: «وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ [٢٣٧] عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَيُثَبِّتُ الْأَفْئِدَةَ. فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ، وَشِفَاءٌ لِمُسْتَفٍ».

نعم، فالله لا يترك عباده المؤمنين فينطق ألسنتهم ويرسخ إرادتهم ويقوى

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٥٤

عزائمهم؛ وقد ورد هذا الأمر كراراً في القرآن: «إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى» [٢٣٨].

وقال في موضع آخر: «يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» [٢٣٩].

وهذا ما نلتمسه كل يوم في الصلوات اليومية ونسأل الله: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» [٢٤٠].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٥٥

القسم الثاني

إشارة

وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمُهُ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ. يَتَوَاصِلُونَ بِالْوِلَايَةِ، وَيَتَلَاقُونَ بِالْمَحَبَّةِ، وَيَتَسَاقُونَ بِكَأْسِ رَوِيَّةِ

وَيَصِدُّرُونَ بَرِيَّةً، لَمَّا تَشَوَّبُهُمُ الرِّيَّةُ، وَلَمَّا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيَّةُ. عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَقَهُمْ، فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَبِهِ يَتَوَاصِلُونَ، فَكَانُوا كَتَفَاضِلِ الْبُذْرِ يُنْتَقَى، فَيُؤَخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِصُ، وَهَدَّبَهُ التَّمْجِيسُ.

الشرح والتفسير: حفظة علم الله

تطرق الإمام عليه السلام بعد أن فرغ من ذكر جانب من أبرز صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى السائرين على نهجه أي العلماء والعرفاء وخلص المؤمنين فبين عشرين من صفاتهم، والحق أن من تحلى بهذه الصفات فهو من أولياء الله وخاصة أتباع النبي صلى الله عليه وآله فقال:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ [٢٤١] عِلْمَهُ، يَصُونُونَ مَصُونَةً، وَيَعَجَّرُونَ عُيُونَهُ».

تشير هذه الصفات الثلاث إلى أن هذه الطائفة من عباد الله تمكنوا بتوفيق الله وإلهاماتهم الباطنية من تحصيل العلوم وحرسوا هذه العلوم وبلغوها طالبها، فهم الحفظة والحارسون والناشرون لتلك العلوم وعلى غرار رى عيون الماء المتدفقة للأراضى العطشى وإنماء مختلف الأشجار والأزهار والنباتات فهم ينشرون الدين فى قلوب عطشى للمعارف ويغرسون فى نفوسهم الفضائل الإنسانية.

ولعل العبارة «يَصُونُونَ مَصُونَةً» تعنى ما ذكر آنفاً؛ أى أنهم يتحفظون على

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٥٦

العلوم الربانية عمن لا يستحقها، أو بمعنى أنهم صانوا هذه العلوم بأمانه وجهدوا فى إيصالها من جيل لآخر من خلال تأليف الكتب ونشرها.

وواصل كلامه بالإشارة إلى أربع صفات أخرى فقال: «يَتَوَاصِلُونَ بِالْوَلَايَةِ، وَيَتَلَقَّوْنَ بِالْمَحَبَّةِ، وَيَنَسَاقُونَ بِكَأْسِ رَوِيَّةِ [٢٤٢] وَيَصُدُّرُونَ بَرِيَّةِ [٢٤٣]».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى المقطع السابق إلى الأبعاد العلمية لأولئك العلماء الربانيين وتطرق هنا إلى جوانبهم العلمية؛ وربما كان المراد من «يَتَوَاصِلُونَ بِالْوَلَايَةِ» ولاية الله وأوليائه التى ربطت هذه الفئات مع بعضها؛ أو الولاية بمعنى الحب والمودة التى الفت قلوبهم.

وتشير العبارة «وَيَتَلَقَّوْنَ بِالْمَحَبَّةِ» إلى أن هذه المحبة القلبية تتجلى حين لقائهم بالفعل والقول.

وتشير العبارة الثالثة إلى أن جلساتهم مركز تبادل العلوم والمعارف؛ فكل منهم يملأ- إناء الآخر بعلمه كما ورد فى العبارة الرابعة «وَيَصِدُّرُونَ بَرِيَّةً» ثم قال فى بيان صفتين أخريين «لَمَّا تَشَوَّبُهُمُ الرِّيَّةُ، وَلَمَّا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيَّةُ». ولعل العبارة (ريبة) تشير إلى أن مبانيهم العقائدية وإيمانهم على درجة من الرسوخ بحيث لا يشوبه أدنى شك وارتياب أو أن حياتهم نقيه وطاهرة بحيث لا يشك أحد فى حسن سريرتهم ودقة أعمالهم كما يمكن أن تشير العبارة «وَلَمَّا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيَّةُ» أنهم لا يتلوثون بالغيبة أو أنهم على درجة من الطهر بحيث لا يسمح الآخرون لانفسهم باغتيالهم.

طبعاً لا تتنافى هذه التفسيرات المتعددة ويمكن جمعها معاً فى مفهوم العبارة السابقة.

ثم قال على سبيل التأكيد: «عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَقَهُمْ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٥٧

لا ينافى هذا التعبير الاختيار فى الأعمال لأن الإنسان إن انطلق مختاراً إلى الله أتمه الإمدادات الغيبية والعنايات الإلهية، وبغض النظر عن ذلك فإن الله أودع البشرية منذ البداية أرضية الصلاح والسعادة لتطوى بها مسيرة التكامل.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين من صفات أولئك العلماء الربانيين فقال: «فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَبِهِ يَتَوَاصِلُونَ».

نعم! حبهم لأحدهم الآخر لله وإرتباطهم ناشىء من علاقتهم المشتركة بالكمالات، أما المنافع المادية والصلوات الحيوانية والاشتراك

في المقامات الدنيوية ليست سبباً قط في إرتباطهم وحبهم لبعضهم البعض.

ثم بين في ختام هذه الفقرة بتشبيه رائع كيفية انتخاب هذه الفئة من بين سائر الناس وقال: «فَكَانُوا كَتَفَاضِلِ الْبُدْرِ يُتَّقَى [٢٤٤]، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِصُ، وَهَدَّبَهُ التَّمْحِصُ [٢٤٥]».

أجل! هؤلاء بذور عالم الخليفة المنتقى الذين اختارهم خالق عالم الوجود للتهذيب والكمال ليجعلهم بهيئة شجرة طيبة أكلها دائم بتوفيق الله ومدده الغيبي.

وزبدة الكلام أن هؤلاء الأعلام الذين يتصفون بهذه الصفات ويطوون مراحل التكامل في ظل عناية الله ويزدادون كل يوم قرباً من الله لم يبلغوا هذا المقام عبثاً، فقد جدوا واجتهدوا في إصلاح أنفسهم وجلاء قلوبهم من صدأ الأهواء وأخلصوا نياتهم واجتازوا الامتحان الإلهي الشاق فبلغوا ذلك المقام، وتلك عاقبة كل من سلك طريقهم.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٥٩

القسم الثالث

إشارة

فَلْيَقْبَلِ امْرَأَةً كَرَامَةً بِقَبُولِهَا، وَلِيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلِيَنْظُرَ امْرُؤٌ فِي قَصْرِ أَيَّامِهِ، وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلاً، فَلْيَصْنَعْ لِمَتْحَوَّلِهِ، وَمَعَارِفِ مُتَّقَلِهِ. فَطُوبَى لِمَنْ يَهْدِيهِ، وَأَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُزِدِيهِ، وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرٍ مِنْ بَصَرِهِ، وَطَاعَهُ هَادٍ أَمْرَهُ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقَطَعَ أَسْبَابُهُ، وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ.

الشرح والتفسير: المهتدون

خاطب الإمام عليه السلام هنا الجميع داعياً إياهم إلى سلوك سبيل العلماء الربانيين الذين بين صفاتهم في القسم السابق، والواقع أنه استعرض هنا مراحل السير والسلوك إلى الله فقال: «فَلْيَقْبَلِ امْرَأَةً كَرَامَةً [٢٤٦] بِقَبُولِهَا، وَلِيَحْذَرْ قَارِعَةً [٢٤٧] قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلِيَنْظُرَ امْرُؤٌ فِي قَصْرِ أَيَّامِهِ، وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلاً، فَلْيَصْنَعْ لِمَتْحَوَّلِهِ، وَمَعَارِفِ مُتَّقَلِهِ».

فالإمام عليه السلام لفت في الخطوة الأولى إنتباه الجميع إلى قصر عمر الدنيا وفناء الحياة

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٦٠

وحلول الموت حتى لا يكونوا كأصحاب الدنيا الذين نسوا الآخرة ورأوا الدنيا خالدة.

وهذه هي حالة اليقظة التي تمثل المرحلة الأولى في السير والسلوك إلى الله، وهل من عامل لليقظة أنجع من ذكر الموت وحلول الأجل؟

وواصل كلامه بالإشارة إلى طهاره واصطفاء دليل الطريق فقال: «فَطُوبَى لِمَنْ يَهْدِيهِ، وَأَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُزِدِيهِ [٢٤٨]».

وبالنتيجة فإنه يظفر بطريق السلامة بمعونه من يبصره ويطاعته للمرشد الهادي الذي يأتمر به فيبلغ الطريق قبل أن تغلق بوجهه أبوابه وتتقطع سبله «وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرٍ مِنْ بَصَرِهِ، وَطَاعَهُ هَادٍ أَمْرَهُ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقَطَعَ أَسْبَابُهُ».

وهكذا يوصي الإمام عليه السلام أتباعه أن يسلكوا الطريق فلا- يسيروا عليه دون دليل وهاد فيبلغوا الهدف في ظل هداية العلماء الربانيين والسائرين السابقين مادامت الفرصة سانحة وأبواب الهدى مشرعة.

واختتم الإمام عليه السلام كلامه بالدعوة إلى التوبة وجلاء صدأ الذنب عن القلب والذي يعد الشرط الأصلي لسلوك هذا الطريق فقال: «وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ [٢٤٩]، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ».

يفتح بهذا الطريق مسار القرب إلى الله بوجه الإنسان ويشمل بخاصة لطف الله.

تأمل: الحاجة إلى المرشد في السير والسلوك

تضمنت هذه الخطبة بعض الإشارات إلى نقطة وهي: هنيئاً لمن اقتفى آثار الهادي وواصل طريقه ببصيرة من يبصره بالطريق وأطاع من يهديه إلى الطريق القويم.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٦١

وتثير هذه الخطبة وماورد في أمثالها من «نهج البلاغة» هذا السؤال: هل طى المقامات المعنوية التي يعبر عنها بالسير والسلوك إلى الله تتطلب استاذاً خاصاً طوى هذا الطريق وخبر مطباته وآفاته فيأخذ بأيدي السائر الجدد ويوصلهم إلى الهدف؟

بعبارة أخرى: هل تكفي التعليمات الكلية التي وردت في الكتاب والسنة لسلوك هذا الطريق أم أن كل سالك لهذا الطريق بحاجة إلى استاذ بما يناسب استعداده وروحته ليعينه في تشخيص الجزئيات؟ وكما لا تكفي نصائح الاطباء لجميع المرضى، بل يحتاج كل مريض إلى فحص وتشخيص للمرض ليصف له العلاج، فهل بلوغ المقامات المعنوية كذلك؟

طبعاً سياق الآيات القرآنية والروايات الإسلامية أن لجميع المؤمنين من خلال الإتيان بما ورد في الكتاب والسنة والالتزام بالأحكام الشرعية والإلتفات إلى لطائف هذين المصدرين العظيمين، الوصول إلى ذروة الإيمان والمسارة إلى القرب الإلهي.

فإننا لا نجد في سيرة صحابة النبي الإكرم صلى الله عليه وآله وأصحاب الأئمة المعصومين عليهم السلام من انتخاب أستاذ خصوصي، حتى الروايات التي وردت كإجابة لسؤال بعض الأفراد مفيدة لعامة المؤمنين.

يستدل أنصار انتخاب الأستاذ الخاص أحياناً بهذه الأمور:

١. تشير قصة الخضر وموسى عليهما السلام إلى أن الله اصطفى مرشداً لموسى وكان مكلفاً بطاعة أو امره.

٢. ربما من هذا القبيل قصة موسى وشعيب عليهما السلام.

٣. يلمس مثل ذلك في قضية لقمان وابنه.

٤. آية السؤال في القرآن المجيد: «فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» [٢٥٠] تأمر الجهال بطرح مشاكلهم العلمية والفكرية على العلماء.

٥. مضى في الخطبة ١٠٥ من «نهج البلاغة» أن الإمام عليه السلام قال: «أَيُّهَا النَّاسُ

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٦٢

اسْتَضِيحُوا مِنْ شُعْلَةٍ مِصْبَاحٍ وَاِعْظِمْ مَتَّعْظِ».

٦. قال الإمام السجاد عليه السلام: «هَلَكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ حَكِيمٌ يُرْشِدُهُ وَذَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ سَفِيهٌ يَعْضُدُّهُ» [٢٥١].

٧. يمكن أن تكون العبارات الواردة في هذه الخطبة شاهد آخر على هذا المطلب؛ لكن أغلب ما ذكر كدليل على هذا المطلب لا يخلو من مناقشة، فالذي يفهم مما ورد في آيات القرآن بشأن موسى والخضر لا علاقة له بهذا المطلب.

فقد أمر موسى عليه السلام بأن يتعلم من الخضر بعض العلوم بخصوص العالم البشري أو عدم الاعتراض على بعض الحوادث التي يستهجن ظاهرها ومن هنا لما رأى موسى عليه السلام بعض الأمور انفصل عن الخضر وواصل طريقه ولا صلة لهذا الأمر بطى المقامات المعنوية والسير والسلوك إلى الله على هدى المرشد.

كما لا- يلمس أدنى شيء مما ذكر في القصة، طبعاً لا- يمكن إنكار أن الإنسان يسعه التعلم ممن لازم النبي وتعلم منه العديد من المطالب والتجارب.

كما يشاهد في قضية لقمان وولده سلسلة من المواعظ الكلية ذات الطابع العام وقد أوردها القرآن بهذه الصفة.

آية السؤال أيضاً بخصوص مسألة التقليد والرجوع إلى العلماء والمجتهدين، كما استدلل بذلك في كتب الأصول، بعبارة أخرى إشارة لبيان الأحكام بصورة كلية، لا الأحكام الخاصة والشخصية.

وقد اقتصرنا الإشارة إلى هذا المطلب في رواية «البحار» وبعض خطب «نهج البلاغة».

وزبدء الكلام إن أردنا التسليم بانتخاب الاستاذ المرشد كشرط ضروري في طي المقامات المعنوية، فإن ذلك لا ينسجم مع ظواهر الكتاب والسنة وسيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى عليهم السلام؛ ولكن إن أردنا التسليم به كمساعد لطي هذا الطريق،

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٦٣

فالأمر يبدو حسناً؛ إلا أنه لا ينبغي الغفلة عن قضية أساسية وهي أن هذا الموضوع استغل طيلة التاريخ وحتى في هذا الزمان من قبل الطالبين والمنحرفين، وفي بعض الموارد خلط بأفكار المتصوفة وتعاليمهم الشاذة لكي لا تبعد السالك عن مقام القرب فحسب، بل أبعدته عن الله تماماً.

فإن رأى الإنسان حقاً أنه بحاجة لمثل هذا الاستاذ، عليه أن يتشدد في اختياره خشية أن يسلم نفسه للشيطان ظاناً أنه الخضر والمرشد إلى الله، وإنما ننصح الجميع لاسيما الشبان الأتقياء الذين يفتشون عن الاستاذ أن يعكفوا بالدرجة الأولى على الكتب الحسنة التي ألفها العلماء الأتقياء الورعون المعروفون ومن ثم اصطفاء الاستاذ الذي ينشدون.

والجدير بالذكر أيضاً ما يراه البعض أن الاستاذ ضرورة في بداية الطريق فإذا ما سار على الدرب فلا حاجة لذلك الاستاذ ولا بد من الانفتاح على التعاليم الإسلامية الواردة في الكتاب والسنة.

يستفاد من الروايات والتواريخ الإسلامية أنه كان للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام أصحاب خاصين حملة أسرارهم كعلي عليه السلام بالنسبة للنبي صلى الله عليه وآله و «كميل» و «الأصبغ بن نباته» و «ميثم» و «رُشيد الهجري» وأمثالهم وكذلك سائر الأئمة؛ ولكن لا علاقة لهذا الموضوع بمسألة الاستاذ والتلميذ في أمر السير والسلوك بحيث يعين الاستاذ كل يوم درساً جديداً لطي الطريق ويكون لكل تلميذ دروسه الخاصة، بل كما قيل إن أولئك كانوا حملة أسرار المعصومين عليهم السلام وعلومهم التي يعجز عن إدراكها الآخرون.

على كل حال لا شك في أن وجود الأستاذ الخبير والعالم بالطريق يستفيد منه الإنسان في طي الطريق المعنوي، الأستاذ الثقة من جميع الجوانب لمن الأمور الحسنة، إلا أن الأمر ليس كما يذهب إليه من عدم إمكانية بلوغ هذه المقامات بالكتاب والسنة وما فيهما من تعاليم، والمهم أن يكون للإنسان عزم وإرادة على طي

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٦٤

هذا الطريق وإلا فالطريق واضح وسالك إن توكل الإنسان على الله فهو هاديه ومرشده.

وتؤكد في الختام ثانية أن هنالك العديد من الطالبين الذين أضلوا الكثير من الشبان بهذه العناوين الزائفة على أنه المرشد والدليل فلا بد من الاحتياط والحذر الشديد في التعامل مع هؤلاء الشياطين الذين يتلبسون بلباس الإنس.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٦٥

الخطبة ٢١٥

إشارة

كَانَ يَدْعُو بِهِ كَثِيرًا [٢٥٢]

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة في الواقع مركبة من سلسلة من الأدعية العميقة المعنى والقيمة للغاية كان الإمام عليه السلام يدعو بها في أغلب الأوقات وتتكون من قسمين:

القسم الأول: الحمد والثناء على الله الذي غذانا بهذه النعم المعنوية والمادية ولم يحجبها عنا. وسأل الإمام عليه السلام الله ثلاثاً من خلال ثلاثة أقسام قصيرة وعميقة تشرع كل منها بـ «اللهم»، وغالباً ما تنطوي هذه الأدعية على جانب معنوي، وإن لم تخل من بعض العبارات المادية، ومن المناسب التضرع بها عقب الصلاة أو القنوت وفي سائر الأوقات التي يقبل فيها الإنسان على الدعاء لينال بركاته وفضله.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٦٧

القسم الأول

إشارة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُضَيِّعْ بِي مَيْتًا وَلَا سَقِيمًا، وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوِقِي بِسُوءٍ، وَلَا مَأْخُودًا بِأَسْوَأَ عَمَلِي، وَلَا مَقْطُوعًا دَابِرِي، وَلَا مُزْتَدًّا عَن دِينِي، وَلَا مُنْكَرًا لِرَبِّي، وَلَا مُسْتَوْحِشًا مِنْ إِيْمَانِي، وَلَا مُلْتَبِسًا عَقْلِي، وَلَا مُعَذَّبًا بِعَذَابِ الْأَمَمِ مِنْ قَبْلِي. أَصْبَحْتُ عَبْدًا مَمْلُوكًا ظَالِمًا لِنَفْسِي، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلَا حُجَّةَ لِي. وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخَذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي، وَلَا أَتَقَى إِلَّا مَا وَفَيْتَنِي.

الشرح والتفسير: اللهم كل شيء لك

هذا القسم من كلام الإمام عليه السلام ليس خطبة، بل دعاء عميق المعنى جمع فيه جميع خير الدنيا والآخرة. فقد حمد الله واتى عليه على إنقاذه له من عشرة أشياء من شأن كل منها سلب رزق الدنيا والآخرة، فقال في أربعة أقسام منها: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُضَيِّعْ بِي مَيْتًا وَلَا سَقِيمًا، وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوِقِي [٢٥٣] بِسُوءٍ، وَلَا مَأْخُودًا بِأَسْوَأَ عَمَلِي، وَلَا مَقْطُوعًا دَابِرِي [٢٥٤]». العبارة «لَمْ يُضَيِّعْ» إشارة إلى أن الإنسان يمكنه النجاح في حياته حين يكون سليماً نشيطاً منذ تباشير الصباح ولا بد من شكر الله على هذه النعمة.

العبارة «وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوِقِي بِسُوءٍ» فسرها طائفة من شراح «نهج البلاغة»

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٦٨

بأنها إشارة إلى الأمراض التي تشوّه شكل الإنسان كالبرص والجذام، وذلك كناية عن هذا المعنى في عرف العرب، بينما فسر البعض العروق بمعنى الأعضاء وأن العبارة إشارة إلى سلامة أعضاء الإنسان التي تعد من أعظم النعم.

وفسر البعض الآخر العروق بمعناها الأصلية؛ يعني إشارة إلى أن خلّو العروق من الآفات، من النعم العظمى التي تستحق الحمد والثناء، ونعلم اليوم أن أحد الأمراض الشائعة والخطيرة انغلاق عروق القلب والدماغ الذي يعد العامل المهم للسكتة القلبية والدماعية.

النعمة الأخرى الكبرى هي بقاء نسل الإنسان ووجود الأولاد الصالحين الذين تعود أعمالهم الصالحة على آباؤهم وامهاتهم والتي أشير إليها بالعبارة «وَلَا مَقْطُوعًا دَابِرِي».

ثم أشار إلى ست نعم أخرى تستحق الحمد والشكر: «وَلَا مُرْتَدًّا عَنِّي دِينِي، وَلَا مُنْكَرًا لِرَبِّي، وَلَا مُسْتَوْحِشًا مِنِّي إِيْمَانِي، وَلَا مُلْتَبِسًا» [٢٥٥]

عَقْلِي، وَلَا مُعَذَّبًا بِعَذَابِ الْأَمَمِ مِنِّي قَبْلِي». ما أكثر أن يشمل الإنسان بداية أمره بالنعم الربانية العظيمة لكنه قد يفقدها في أثناء مواصلته الطريق: وهناك عدد من العبارات المذكورة إشارة إلى تداوم النعم؛ نعمه الدين والإيمان والعقل، وعليه فالشمول بالنعمة يستحق الحمد والثناء وبقاؤها ودوامها كذلك، فالنعم آيلة للزوال لولا لطف الله.

العبارة «وَلَا مُنْكَرًا لِرَبِّي» بعد العبارة «وَلَا مُرْتَدًّا عَنِّي دِينِي» من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

العبارة «وَلَا مُعَذَّبًا بِعَذَابِ...» إشارة إلى العذاب الأليم والشاق الذي أصاب بعض الناس كالصاعقة، العواصف الشديدة والزلازل العظيمة والآفات العصبية في بدن الإنسان وروحه.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٦٩

العبارة «وَلَا مُسْتَوْحِشًا مِنِّي إِيْمَانِي» إشارة إلى أن الإنسان يمتلك الإيمان أحياناً لكنه يخشى أن يلوّث بالمعاصي أو يخشى من زواله. تضرع الإمام عليه السلام: أحمداً وأشكرك على إفاضة الإيمان المقرون بالسكينة.

ولما كان أحد أهم مقامات العارفين والمقربين، التسليم لأمر الله والاعتراف بالنقص تضرع الإمام عليه السلام مواصلاً دعاءه: «أَصْبَحْتُ عَبْدًا مَمْلُوكًا ظَالِمًا لِنَفْسِي، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلَا حُجَّةَ لِي. وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخَذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي، وَلَا أَتَقِي إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي».

أعظم فخر للإنسان أنه عبد لله كما ورد على لسان الإمام: «إِلَهِي كَفَى بِي عِزًّا أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْدًا» [٢٥٦].

والتعبير «ظَالِمًا لِنَفْسِي» إشارة إلى أن الإنسان لا يسعه قط أداء حق العبودية حيث تضرع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «إِلَهِي مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ» [٢٥٧] فلا بد أن يكون الآخرون أولى بهذا الاعتراف بالتقصير.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٧١

القسم الثاني

إشارة

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أَضَامَ فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أَضْطَهَدَ وَالْأَمْرُ لَكَ!
اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَامِي، وَأَوَّلَ وَدِيْعَةٍ تَرْجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعْمِكَ عِنْدِي!
اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تَتَابَعِ بِنَا أَهْوَاؤَنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ!

الشرح والتفسير: النعم المكمل

حمد الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة، الله وأثنى عليه على ما يغذيه به من نعم كبرى ويتضرع هنا إلى الله ويسأله النعم المكمل لتلك النعم السابقة من خلال ثلاث عبارات استهلها ب «اللهم»: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أَضَامَ [٢٥٨] فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أَضْطَهَدَ [٢٥٩] وَالْأَمْرُ لَكَ!».

فهذه العبارات الأربع التي تعود جميعاً إلى التوحيد الأفعالي تشير إلى أن الغنى والهدى والنصر وغلبة الأعداء وجميع المشاكل ميسرة في ظل لطف الله؛ كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ» [٢٦٠].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٧٢

وقال تعالى «مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي» [٢٦١].

وقال تعالى «إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ» [٢٦٢].

ثم تضرع في الدعاء الثاني وطلب فقال: «اللهم اجعل نفسي أول كريمية تنتزعها من كرائمي، وأول وديعية تزججها من ودائع نعمك عندي!».

«كريمة» تعني في الأصل، الشخص القيم والأشياء النفيسة وهي هنا إشارة إلى أعضاء الإنسان المهمة كالعين والأذن واللسان التي تذكر كنعمة إلهية ووديعة ربانية لتكون إشارة إلى لطف الله ورحمته وإلى أن النعم ودائع تسترد في خاتمة المطاف.

على كل حال فمضمون هذا الدعاء ورد بصيغة أخرى في أدعية سائر المعصومين عليهم السلام؛ جاء في دعاء الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في أعمال ليلة النصف من شعبان: «اللهم أمتغنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا» [٢٦٣].

حقاً إن الإنسان إذا فقد أواخر عمره نعمة قدرة الروح والبدن والبصر والسمع فإنما يتحول إلى ميت متحرك تصبح حلاوة شهد الحياة مرارة على لسانه بحيث يتمنى الموت والخلاص من هذه الحالة في كل لحظة.

من البديهي أنه ليس المراد في هذه الأدعية أن الله يأخذ من الإنسان في البداية أواخر عمره، روحه ثم بصره وسمعه، بل المراد أن أعضاءه تبقى سليمة حتى أواخر عمره.

وتضرع في الدعاء الثالث: «اللهم إنا نعوذ بك أن نذهب عن قولك، أو أن نفتتن عن دينك، أو نتابع [٢٦٤] بنا أهواؤنا دون الهدى الذي جاء من عندك!».

تعوذ الإمام عليه السلام بالله في هذا الدعاء من ثلاث معاصي ودواهي عظمى:

١. أن ينسى الإنسان أوامر الله ونواهيه ويمر عليها غير مبالٍ.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٧٣

٢. أن تتسلل وساوس الشيطان إلى قلب الإنسان فتصدده عن الحق.

٣. أن تستولى أهواء النفس على الإنسان فتصدده عن هدى الله.

يقيناً، لو استجيبت هذه الأدعية الثلاث التي تبدأ ب (اللهم) لنال الإنسان جميع خير الدنيا وسعادة الآخرة فما أحرانا أن نستحضر هذه الأدعية فإذا شعرنا بحالة الدعاء أقبلنا على الله وطلبنا منه ذلك.

أورد الإمام عليه السلام الكلام في القسم الأول والثاني من هذا الدعاء، بصيغة المتكلم؛ لكنه ذكره في القسم الأخير بصيغة المتكلم مع الغير ليسأل الله صالحه وصالح جميع المسلمين.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٧٥

الخطبة ٢١٦

إشارة

خَطَبَهَا بِصَفَيْنِ [٢٦٥]

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة من خطب «نهج البلاغة» المهمة التي أوردها الإمام عليه السلام في يوم صفين، فاشتملت على مباحث مهمة تتمحور في أربعة أقسام:

١. الحقوق المتبادلة بين الوالى والرعية (الحاكم والشعب) تناول فيه القانون الكلى بشأن الحقوق فقال: الحق دائماً ذو حدين؛ فمن كان له حق على آخر فلآخر أيضاً حق عليه، وهذه مسألة مهمة سنتعرض لها إن شاء الله.

٢. شرح فى القسم الثانى حقوق الحاكم على الأمة وحقوق الأمة على الحاكم وأكد هنا استحالة صلاح الأمة دون صلاح الحاكم، والعكس، أى كل من هذين الأمرين يؤثر فى الآخر.

٣. القسم الثالث إجابة الإمام عليه السلام لأحد أصحابه حيث أثنى كثيراً على الإمام

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٧٦

وعبر له عن وفائه التام، فتواضع الإمام للغاية فى الردّ عليه وصرّح له: بأننى لا استسيغ أى مدح وثناء فالعظمة لله وحده.

٤. جرى الكلام فى القسم الرابع عن العلاقة الصحيحة بين الحاكم والشعب وأكد على ضرورة ابتعاد الحاكم عن التملق، والاستعداد لسماع النقد والمعارضة لينطلق المجتمع نحو الصلاح والسداد.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٧٧

القسم الأول

إشارة

أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيكُمْ حَقًّا بَوْلَايَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لَمَّا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ، وَلَمَّا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ. وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَلِكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفْضُّلاً مِنْهُ، وَتَوْسَعًا بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ.

الشرح والتفسير: سعة حجم الحقوق

دعا الإمام عليه السلام فى مستهل هذه الخطبة جميع صحبه إلى أداء وظائفهم من خلال بيان حقه على الأمة فقال: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيكُمْ حَقًّا بَوْلَايَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ».

فقد أشار عليه السلام إلى قضية مهمة فى باب الحكومة الإسلامية كانت تختلف فى الواقع عن جميع الحكومات آنذاك، فالحكومات المستبدة كانت ترى كل شىء لها والرعية كالعبيد ما عليهم إلا الطاعة العمياء وإن كان لها من شىء فهو منه وبالفضل وليس حقاً من حقوقهم عليه، بينما يصرّح الإمام عليه السلام، بأن الحكومة الإسلامية حقوق متبادلة؛ حق الحاكم على الأمة وحق الأمة على الحاكم وكلاهما ثقيل وذو مسؤوليته.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٧٨

ثم أشار إلى قاعدة كلية وشاملة فى الثقافة الإسلامية فقال: «فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ [٢٦٦]، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ [٢٦٧]، لِيَجْرِيَ لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ».

حيث أشار عليه السلام في الواقع إلى أمرين:

الأول: أن الجميع عارفون بالحق وكل يتحدث عنه ويتشدد به لحفظ مصالحه، بينما تراه في غاية التشدد حين العمل لأداء حقوق الآخرين، وكأنه يرى الحق أحادي الجانب.

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام في الأمر الثاني إلى هذا الأمر الأساسي وهو ليس هنالك من حق أحادي الجانب في أي مورد؛ فإن كان لأحد حق، كان عليه مثله؛ مثلاً، للأستاذ حق على تلميذه، كونه علمه ورباه، وللتلميذ قطعاً حق على أستاذه، فعليه أن لا يألو جهداً في تعليمه وتربيته، كونه وضع فكره وعمره وشبابه تحت تصرفه، وإن كان للدائن حق على المدين في ضرورة أداء الدين في وقته، فإن للمدين حقاً متبادلاً في أن يمهل إن تعذر عليه التسديد في الوقت المطلوب «وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة» [٢٦٨].

وإن كان للرجال حقوق على النساء، فللنساء مثل ذلك على أزواجهن: «ولهن مثل الذي عليهن» [٢٦٩].

بل للأبناء عليهما حقوق كثيرة، كما أن للأبناء حقوقاً على الآباء والامهات، ومن أراد الوقوف على سعة الحقوق المتبادلة للناس على بعضهم فليراجع رسالة الحقوق

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٧٩

للإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السلام [٢٧٠]، حتى الحيوان له حق على الإنسان إن كان مملوكه [٢٧١].

ثم أشار عليه السلام إلى حق الله على العباد حتى أن هذا الحق ليس أحادياً، وإن كانت عبارة حق العباد على الله ليست مناسبة من جوانب؛ إلماً أن هذا الحق يبدو بلباس التفضل: «ولو كان لا يحد أن يجري له ولا يجري عليه، لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه، لقدرتيه على عباده، ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه».

فالكلام إشارة إلى أن قدرة الله تقتضي من جانب أن لا يترك عباده ويلطف بهم من جميع الجهات وتقتضي عدالته من جانب آخر أن لا- يصيب الإنسان أدنى ظلم، سواء في عالم التشريع أم عالم التكوين، وعليه فهناك فارق بين الله وعباده؛ فلعن العباد يفرطون بحقوق الآخرين إثر عجزهم أو الحاجات التي تضطرهم لهجر العدالة، لكن كيف يرضى القادر المطلق والعاقل على الاطلاق بضياع حقوق عباده؟! ومن هنا يمكن استثناء الحق المتبادل بشأن الله واقتصار الحق عليه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «ولكنه سبحانه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه، وتوسعاً بما هو من المزيدي أهله».

وبعبارة أخرى أن الله جعل لعباده حقاً عليه إزاء حقه عليهم، وإن كان هذا الحق تفضل دون أن يكون لعباده دين عليه، كونهم لا يؤدون جزءاً من شكره مهما أطاعوه وعبدوه إزاء ما غمرهم به من نعم، ومن هنا لم يستثن حتى الله تعالى من هذا الأمر؛ أي كما له تعالى حق على العباد فهم كذلك لهم حق عليه، وإن كان هذا الحق من باب التفضل، لا الاستحقاق.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٨٠

تأمل: الثواب استحقاق أم تفضل؟

ورد هذا البحث لدى علماء الكلام منذ القدم، هل الثواب الإلهي استحقاق أم تفضل؟ بمعنى إن أطاع العباد أوامر الله فهل على الله إثابهم، وإلما كان ذلك قبيحاً عليه؟ أم ليس للعباد أي شيء على الله إن إمتثلوا أوامره وتركوا نواهيه، وإن أثابهم فمن باب اللطف والرحمة، وإلما كان عين العدل؟

قال بعض المتكلمين الذين يميلون لمذهب الأشاعرة بالتفضل بينما ذهب مذهب الاعتزال للقول بالاستحقاق.

يرى القائلون بالاستحقاق أن إلتزام العباد بالطاعة يتضمن مشقات، فإن كان الإلتزام هدفاً فهو ظلم وقبيح ولا يصدر من الحكيم، وإن كان له هدف فليس ذلك الهدف سوى الثواب الجميل، وعليه إن لم يعط الله الثواب استلزم القبح المحال على الله، أما القائلون

بالتفضل فيقولون: إنَّ الله غمرنا بالنعم لو فينا أعمارنا في طاعته لم نؤد شكر جزء من نعمه، وعليه فلا نستحق منه شيئاً ليلزم بإعطائه. إلَّا أنَّ المذهبين كأنهما غفلاً نقطة الالتفات إليها يكشف النقاب عن هذه المسألة ويجلي الحق، وهي أنَّ استحقاق الثواب حين يقدم أحد خدمة لآخر فيتوقع عليها الأجر والثواب، بعبارة أخرى، قال المذهبان بالثواب أو ما يشبهه على طاعة أوامر الله؛ فالمذهب الأول يقول: إنَّهم تلقوا أجرهم من قبل بصيغته نعم إلهية، والثاني يرى أنَّهم لابد أن يحصلوا عليه لاحقاً.

والحال نعلم أن لجميع الأوامر والنواهي مصالح تعود لنفس المكلفين، فالصوم والصلاة والحج والجهاد سبب صفاء الروح وتكامل النفس والعزة والرفعة وترك الذنب والغيبة والخمر والقمار ينقذهم من المفسد والانحرافات، وعلى هذا الأساس فإنَّ المكلفين إنما يخدمون أنفسهم في الطاعة وترك المعصية، فهل لهم أن يروا لأنفسهم أجراً على الله إزاء خدمتهم لأنفسهم؟!

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٨١

يبدو الأمر أشبه بالطبيب الرؤوف بمرضه فينصحه مجاناً ويزوده بالدواء فيلتزم بها المريض ويشفى من مرضه، فلو ذهب هذا المريض إلى الطبيب وطالبه بالأجر على طاعته لأوامره، ألا يتعجب منه الجميع ويضحكون عليه؟

وجميع الأوامر والنواهي كذلك، فالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله طيب دوار بطبه وكل ما ذكره لصالح المكلفين، وعليه فلا مجال لبحث قضية ثواب الناس إزاء الطاعة سواء استحقاقاً أم تفضلاً.

نعم كتب الله على نفسه الثواب ووعد به بلطفه وكرمه وحثاً لعباده على طاعته التي توجب كما لهم والله لا يخلف وعده لاستحاله خلف الوعد على الحكيم القادر والعالم، قال تعالى: «كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِي الرَّحْمَةَ» [٢٧٢].

وقال أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ» [٢٧٣].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٨٣

القسم الثاني

إشارة

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقًا افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يُشْتَرِطُ وَجِبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ. وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تَلَمُّكِ الْحُقُوقِ حَقِّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقِّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ، فَجَعَلَهَا نِظَامًا لِلْفَتَاهِمِ، وَعِزًّا لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصِلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصِلَاحِ الْوَلَاءِ، وَلَا تَصِلُحُ الْوَلَاءُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ، فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدِلَتْ مَعَالِمُ الْعِدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَدْلَالِهَا السُّنَنُ، فَصَلِحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطَمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَسَّتَ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ. وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالْيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجُورِ، وَكَثُرَ الْأَذْعَالُ فِي الدِّينِ، وَتَرَكَّتْ مَحَارِجُ السُّنَنِ، فَعَمَلٌ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلَمَّا يُسَدُّ تَوْحُشٌ لِعَظِيمِ حَقِّ عَطْلٍ، وَلَمَّا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فِعْلٍ! فَهُنَالِكَ تَذَلُّ الْأَبْرَارِ، وَتَعِزُّ الْأَشْرَارِ، وَتَعْظُمُ تَبَعَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ.

الشرح والتفسير: حق الوالي والرعية

أشار الإمام عليه السلام في المقطع السابق إلى حقِّ الله على الناس وتطرق هنا إلى حقِّ الناس على بعضهم وأهمها حقِّ الوالي على الأمة وحقِّ الأمة على الوالي فقال: «ثُمَّ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٨٤

جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقًا افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ».

جدير ذكره أن الإمام عليه السلام اعتبر حق الناس على بعضهم فرعاً من حق الله على الناس وناشئ من حقوقه، وبعبارة أخرى فإن حق الله وحق الناس ليسا في عرض بعضهما، بل في طول بعضهما.

ثم قال: «فَجَعَلَهَا تَكَافُؤًا [٢٧٤] فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يُسْتَوْجِبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ».

بعبارة أخرى لا حق أحادي الجانب من هذه الحقوق، بل هي ثنائية جميعاً كما ورد في القسم السابق، فإن كان لأحد حق على الآخر كان هناك حق لذلك الآخر عليه، وعليه فهذه الحقوق متساوية ومتلازمة؛ ليس بمعنى إن لم يلتزم أحد بوظيفته كان على الآخر عدم الالتزام بها؛ مثلاً، لو لم يقم الولد بطاعة والده يتمرد الأب على تربيته وأداء نفقته، أو إن لم تعمل طائفة من الرعية بوظيفتها يقطع الوالي عنها الخدمات، بعبارة أخرى، أن هذه من قبيل اللازم والملزوم في مقام الوجوب، لا في مقام التحقق والعمل؛ أي كلاهما واجب، سواء عمل الطرف المقابل بوظيفته أم لا.

ولمزيد من الإيضاح إليك هذا المثل، إن أدت الرعية ما عليها من ضرائب وخراج سوف لن يتقاعس الوالي عن وظيفته في توفير الأمن لهم وتعليم وتربية أولادهم ومعالجة مرضاهم وجراحهم، لأن كلاً من هاتين الوظيفتين مستقلة وليست مشروطة بالآخرى في مقام العمل، وإن تشابكتا كوجوبين في مقام التشريع.

وقال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ [٢٧٥]، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٨٥

ثم خاض الإمام عليه السلام في فلسفه هذين الحقيقتين فقال: «فَجَعَلَهَا نِظَامًا لِأَلْفَتِهِمْ، وَعِزًّا لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَالِي، وَلَا تَصْلُحُ الْوَالِيَةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ».

فرعاية هذه الحقوق لها في الواقع آثار مادية مهمة ومعنوية فالعبارة «فَجَعَلَهَا نِظَامًا لِأَلْفَتِهِمْ» إشارة لآثارها المادية والظاهرية والعبارة «عِزًّا لِدِينِهِمْ» لآثارها المعنوية والروحية، وإلى هذه الحقيقة أشارت العبارتان بعدها إلى صلاح الرعية والوالي وفسادهما تداخلاً مع بعضهما ولكل منهما أثره على الآخر، فالوالي الفاسد يسوق الرعية إلى الفساد والرعية الصالحة تضطر الوالي لقبول الحق والعدل، وإن صلحا معاً توفرت أفضل الظروف لرقى المجتمع وتطوره.

ثم خاض في الآثار السلبية لتقاعس الطرفين في أداء الحقوق، بعبارة أوضح وأبلغ عدّد هذه الآثار الواحد تلو الآخر فقال: «فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَآدَى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلِهَا [٢٧٦] السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَبَيَّسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ».

فقد بين الإمام عليه السلام هنا سبعة آثار مهمّة لأداء الحقوق المتبادلة بين الوالي والرعية؛ أولها: العزّة والافتقار، وثانيها: قيام مناهج الدين وضعف البدع، وثالثها: ارتفاع راية العدل في البلاد الإسلامية، ورابعها: إحياء السنّة، وخامسها: كنتيجة لما سبق، صلاح الوسط الاجتماعي، وسادسها: الطمع في بقاء الحكومة ودوامها، وسابعها: يأس الأعداء، وقد اتضح هذا الأمر على عهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث كان أعظم مؤد لحقوق الأمة وكانت أغلبيتها الساحقة تؤدي حق الطاعة فبدت واضحة تلك الآثار السبعة.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٨٦

وأما في عهد أمير المؤمنين عليه السلام وإن احييت السنن الإسلامية والعدل والقسط إلى حد معين، غير أن الانحرافات التي حدثت عقب وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله طيلة ٣٥ سنة الواحد تلو الآخر والتي أدت في الختام إلى الخروج على حكومة عثمان، وبالتالي قتله، جعلت من المتعذر إعادة المسيرة لما كانت عليه خلال المدّة القليلة لحكومة الإمام على عليه السلام وبقاء العناصر الخطيرة من الحكومات السابقة كعواوية وبنو أمية وبنو مروان، الحقيقة التي يعترف بها كلّ من تمعن بهذه الحقيقة من التاريخ

الإسلامى دون تعصب وباستطاعة المسلمين اليوم الظفر بعزتهم واقتدارهم بالاستلهاهم من كلمات الإمام عليه السلام وانسجام الولاية والرعايا والحكام والشعوب.

ثم تناول الإمام عليه السلام الآثار السيئة لتقاعس الوالى والرعية عن حقوق بعضها البعض وقال: «وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالْيَهَاءُ، أَوْ أَجْحَفَ [٢٧٧] الْوَالِي بِرِعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الْأَذْغَالُ [٢٧٨] فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجِجُ [٢٧٩] السُّنَنِ، فَعَمِلَ بِالْهَوَى، وَعَظَلَّتِ الْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ».

فبين الإمام عليه السلام أيضاً سبع مفاصد لعدم الانسجام بين الحاكم والشعب والذى لمسناه كراراً فى حكومات الجور؛ اختلاف الكلمة، الظلم والجور، البدعة والخداع، ترك المنهاج الواضح، العمل بالأهواء والاستبداد، ثم تطرق اثر ذلك إلى النتيجة النهائية لهذه الأوضاع المؤسفة فقال: «فَلَا يُسَيِّئُ تَوْحَشُ لِعَظِيمٍ حَقٌّ عَطَّلَ، وَلَا لِعَظِيمٍ بَاطِلٌ فَعِلَ! فَهُنَالِكَ تَذَلُّ الْأَبْرَارِ، وَتَعَزُّ الْأَشْرَارِ، وَتَعْظُمُ تَبَعَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ».

فهذه الأمور الخمسة نتيجة مباشرة وغير مباشرة لحكومات الجور، فالناس فى ظل هذه البيئة يعتادون على إبطال الحقوق ولا يكثر ثون لرواج الباطل فتصبح هذه

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٨٧

الأمور قضايا عادية لمسنا نماذجها طيلة التاريخ وفى عصرنا، فمن الطبيعى أن لا يشق طريقه صوت الأخيار والأطهار الذين يتبنون الحق ويناهضون الباطل وينحون من الميدان، وبالعكس تكون المناصب الحساسة بيد الأشرار والملوثين المسارين لذلك الجو، الأمر الذى حدث على عهد حكومة الخليفة الثالث؛ فنفى أبوذر وتسلط مروان وواصل أمثال معاوية ذلك الطريق فقتل من على شاكله عمار حتى بلغ الأمر يزيد وابن زياد فقتلا أطهر نسل النبى صلى الله عليه وآله وصحبه.

ومن البديهي أن يمسك الله لطفه فى هذه الظروف عن الرعية وواليتها ويؤاخذهم بتبعات أعمالهم.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٨٩

القسم الثالث

إشارة

فَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَّاصِحِ فِي ذَلِكَ، وَحَسَنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنْ اشْتَدَّ عَلَى رِضَى اللَّهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ بِبَالِغِ حَقِيقَتِهِ مَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ. وَلَيْسَ أَمْرٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنَزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَلَهُ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ. وَلَا أَمْرٌ وَإِنْ صَغُرَتْ النُّفُوسُ، وَافْتَحَمَتِ الْعُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ.

الشرح والتفسير: ضرورة التعاون فى أداء الحقوق

دعا الإمام عليه السلام هنا الجميع بما فيهم الوالى والرعية لما فرغ من الوصية بشأن حق الوالى والرعية بالتعاون مع بعض، ثم أشار إلى ثلاثة أمور اجتماعية مهمة فقال فى القسم الأول: «فَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَّاصِحِ فِي ذَلِكَ، وَحَسَنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ».

ثم اتجه صوب الأمور الثلاثة المهمة فقال بادئ الأمر – بغيه عدم اغترار الأفراد وأن لا يظنوا أنهم أتوا بوظيفتهم بهذا الخصوص بأحسن

وجهه ويتوقفوا بالنتيجة عن الحركة- «فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنْ اشْتَدَّ عَلَى رِضَى اللَّهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ بِبَالِغِ حَقِيقَةِ مَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ».

وهذا أصل كلّي أن الإنسان إن رضى تماماً عن عمله ولم ير فيه نقصاً وخللاً،

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٩٠

كف عن الحركة وتعثرت مسيرته نحو الكمال، والأمر كذلك فليس للسمو والتكامل وجلب رضى الله من حدود ليقنع بها الإنسان، فلا بد من الاعتراف بالتقصير دائماً وبذل الجهد على الدوام، وعليه فليس هنالك من يستغنى عن وعظ الآخرين، لأنّ النقص والتقصير يبدو أظهر للآخرين، بينما يحول حب الذات دون رؤيته.

ورد في حيث مفصل عن الزهري، قال: «دخلت مع علي بن الحسين عليهما السلام على عبد الملك بن مروان قال: فاستعظم عبد الملك ما رأى من أثر السجود بين عيني علي بن الحسين عليه السلام فقال: يا أبا محمد لقد بين عليك الاجتهاد، ولقد سبق لك من الله الحسنى وأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله قريب النسب وكيد السبب ... وأقبل يثنى عليه ويطريه، قال: فقال علي بن الحسين عليه السلام: كل ما ذكرته ووصفته من فضل الله سبحانه وتأييده وتوفيقه فأين شكره علي ما أنعم ...؟ كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقف في الصلاة حتى تورم قدماه، ويظماً في الصيام حتى يعصب فوه، فقيل له: يا رسول الله! ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول صلى الله عليه وآله: أفلا أكون عبداً شكوراً ..

والله لو تقطعت أعضائي وسالت مقتلتي على صدرى لن أقوم لله جلّ جلاله بشكر عشر العشر من نعمة واحدة من جميع نعمه التي لا يحصيها العادون، ولا يبلغ حد نعمة منها في جميع حمد الحامدين» [٢٨٠].

ثم قال في بيان ذانك الأمرين: «وَلَيْسَ امْرُؤٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنَزَلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَلَهُ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ. وَلَا امْرُؤٌ وَإِنْ صَغُرَتْهُ النُّفُوسُ، وَاقْتَحَمَتْهُ [٢٨١] الْعِيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ».

إشارة إلى ضرورة إدراك الجميع لهذه الحقيقة أن ليس أحد من الأقوياء ولا الضعفاء في المجتمع غنى عن الآخر، فالله لم يودع شخصاً كل شيء، فقد جعل في

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٩١

كل رأس فكرياً وفي كل بدن قوة وقدره؛ صغيراً كان أم كبيراً، وعليه فليس لمن كان مقتدرراً من حيث الفكر والإدارة والقوة البدنية أن يرى نفسه غنياً عن عون أضعف أفراد المجتمع، كما لا ينبغي للأفراد الضعفاء والعاجزين ظاهرياً أن يتصوروا أنهم ليس لهم دور في إدارة شؤون المجتمع.

روى عن الإمام الرضا عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «غريبان: كَلِمَةٌ حَكِيمَةٌ مِنْ سَفِيهِ فَاقْبَلُوهَا وَكَلِمَةٌ سَفِيهِ مِنْ حَكِيمٍ فَاعْفُوهَا فَإِنَّهُ لَا حَكِيمَ إِلَّا ذُو عَثْرَةٍ وَلَا سَفِيَهُ إِلَّا ذُو تَجْرِبَةٍ» [٢٨٢].

والتاريخ يحتفظ في ذاكرته بالعديد من مثل هذه الحوادث منها ماورد في المعتصم:

لما خرج ملك الروم، وفعل في بلاد الإسلام ما فعل بلغ الخبر المعتصم فاستعظمه وكبر لديه، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي اسيرة في أيدي الروم: وامعتصماه، فأجها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك، ونهض من ساعته وصاح في قصره:

النفير النفير، وبلغه أن عموريه عين النصرانية وأشرف عندهم من القسطنطينية، فتجهز بما لم يعهد من السلاح وحياض الأدم وغير ذلك، وفرق عساكر ثلاث فرق، فخرّبوا البلاد الروم وقتلوا كثيراً وأحرقوا ووصلوا إلى فانورية، ثم اجتمعوا في عموريه وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وكانت في غاية الحصانة.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين بن العربي في كتابه المسمى بالمسامرة فتح عمورية فقال: فتحها المعتصم في رمضان سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وسبب فتحها أن رجلاً وقف على المعتصم فقال: يا أمير المؤمنين كنت بعمورية وجارية من أحسن النساء أسيرة قد لطمها عالج

على وجهها، فنادت: وامعتصماه، فقال العلي: وما يقدر عليه المعتصم يجيء على أبلق ينصرك! وزاد في ضربها، فقال المعتصم: وفي نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٩٢

أى جهة عمورية، فقال له: الرجل هكذا، وأشار إلى جهتها، فردّ المعتصم وجهه إليها، وقال: لبيك أيتها الجارية، لبيك هذا المعتصم بالله أجابك، ثم تجهز إليها في اثني عشر ألف فرس أبلق وفي هذه التلبية يقول له في قصيدة أبو تمام حبيب الطائي:

لَيْتَ صَوْتًا رَطِيًّا قَدْ هَرَقْتَ لَهُ كَأْسَ الْكُرَى وَرَضَابَ الْحَرْدِ الْعَرَبِ

فلما حاصرهما وطال مقامه عليها، جمع المنجمين، فقالوا له: إنا نرى أنك ماتفتحتها إلأفى زمان نضج العنب والتين، فبعد عليه ذلك واغتم لذلك، فخرج ليله متجسساً في العسكر يسمع ما يقول الناس، فمرّ بخيمة حداد يضرب نعال الخيل، وبين يديه غلام أقرع قبيح الصورة بضرب نعال الخيل ويقول: في رأس المعتصم، فقال له معلمه: اتركنا من هذا، مالك والمعتصم فقال: ما عنده تدبير، له كذا وكذا يوماً على هذه المدينة على قوته ولايفتحها، لو أعطاني الأمر ما بتّ غداً إلا فيها، فتعجب المعتصم ممّا سمع وانصرف إلى خيامه وترك بعض رجاله موكلًا بالغلام، فلما أصبح جاءوا به فقال: ما حملك يا هذا على ما بلغنى عنك؟

فقال: الذى بلغك حقّ، ولكن ما وراء خبائك، وقد فتح الله عمورية فقال: قد وليتك، وخلع عليه وقدمه على الحرب، فجمع الرماة، واختار منهم أهل الإصابة وجاء إلى بدن من أبدان الصور وفي البدن من أوله إلى آخره خطّ أسود من خشب، عرضه ثلاثة أشبار أو أكثر، فحمى السهام بالنار وقال للرماة: من أخطأ منكم ذلك الخطّ الأسود ضربت عنقه، وإذا بذلك الخطّ خشب ساج، فعند ما حصلت فيه السهام المحميّة قامت النار فيه واحترق، فنزل البدن كما هو، وتحامى الرجال، ودخل البلد بالسيف، وذلك قبل الزمان الذى ذكره المنجمون، وفي ذلك يقول أبو تمام حبيب الطائي في قصيدته التى امتدح بها المعتصم عند فتح عمورية:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجَدِّ وَاللَّعِبِ

بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جِلَاءُ الشُّكِّ وَالزَّيْبِ [٢٨٣]

تأمل: الحكومات الشعبية

كثّر الكلام في عالمنا المعاصر عن الحكومات الجماهيرية؛ لكنها غالباً ما تنتهى إلى دكتاتوريات مرئية وغير مرئية تقتصر على حفظ مصالح الأقوياء والغاصبين، كونها تفتقر إلى العنصر المعنوى والورع السياسى.

وقلنا غير مرئية، كون الطغاة يستعينون بالوسائل الاجتماعية المتطورة وأبواق الدعاية فى غسل أدمغة الجماهير ويصادرون آراءهم بوعودهم المعسولة، والنموذج الواضح فى عصرنا: الديمقراطية الأمريكية

أضف إلى ذلك فإن آراء هذه الحكومات فى أفضل صورة حكومة النصف زائد واحد ونتيجة ذلك الاصطفاف بين الطبقة الحاكمة والنصف ناقص واحد، وقد رأينا فى عصرنا مراراً الحكومات التى تتسلم الحكم من خلال آراء الشعب وحيث لم يعملوا لصالح الجبارة فقد سعوا بشتى الوسائل لإسقاطهم، فنجحوا فى أغلب الحالات، وكل ذلك كونهم يفتقرون فى حكومتهم المادية للغاية للشرط الأساس المتمثل بالعنصر الروحى، وعدم شعورهم بالمسؤولية أمام الله.

وما ورد فى كلام الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة يشير إلى سيادة الشعب بأحسن صورها، فقد تطرق بادئ الأمر إلى العنصر المعنوى للحكومة وذكر الجميع أنكم تغرقون بنعم الله بحيث لا يسعكم شكر عشر أعشارها مهما اجتهدتم فى طاعته ثم يوصى الحكام أنكم لا تستغنون عن مساعده كل فرد فى المجتمع

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ١٩٤

مهما بلغتم من القوة والعلم والتجربة والفتنة، فلا بد لكم من إشراك الجميع والاستعانة بهم.

ثم ذكر الجماهير بعدم اعتزال المساهمة في إدارة شؤون المجتمع كيفما كانت أعمارهم ومستوى علومهم، فلا بد من تضافر الجهود والتركيز على عنصر التقوى في تشكيل الحكومة المرضية لله والمجتمع [٢٨٤].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٩٥

القسم الرابع

إشارة

فَأَجَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، يُكْتَبَرُ فِيهِ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ، وَيَذْكُرُ سَمْعَهُ وَطَاعَتَهُ لَهُ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظَّمَ جَلَالَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ لِعَظَمِ ذَلِكَ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَإِنْ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظَّمَتْ نِعْمَتُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظَمْ نِعْمَتُهُ اللَّهُ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أزدَادَ حَقُّ اللَّهِ عَلَيْهِ عَظْمًا. وَإِنْ مِنْ أَسْخَفِ حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ، وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أَحَبُّ الْأَطْرَاءِ، وَاسْتِمَاعِ الثَّنَاءِ؛ وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أَحَبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكَبَرِيَاءِ. وَرُبَّمَا اسْتَحَلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُشْتَوَى عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِأَخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقِ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَابُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا.

الشرح والتفسير: الشكر على الواجب

لما بلغ الإمام عليه السلام العبارة الأخيرة من القسم السابق «فَأَجَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، يُكْتَبَرُ فِيهِ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ، وَيَذْكُرُ سَمْعَهُ وَطَاعَتَهُ لَهُ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:».

لم يذكر شراح نهج البلاغة من كان ذلك الشخص، إلا أن المرحوم الكليني ذكر في «الكافي» كلاماً طويلاً بين أمير المؤمنين عليه السلام وذلك الرجل، ثم قال: ولم يشاهد

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٩٦

أحد ذلك الرجل بعد ذلك الكلام [٢٨٥].

ومن هنا احتمال المرحوم الكليني أن ذلك الرجل هو الخضر عليه السلام الذي كان يرد في بعض المواقع الحساسة على الإمام عليه السلام فيؤدى وظيفته ثم يختفى عن العيون:

على كل حال حسب رواية «الكافي» فإن ذلك الرجل قال:

«أنت أميرنا ونحن رعيتك، بك أخرجنا الله عز وجل من الذل وإعزازك أطلق عباده من الغل، فاختر علينا وأمض اختيارك وائتمر فأمض ائتمارك فإنك القائل المصدق والحاكم الموفق والملك المخول لا نستحل في شيء معصيتك ولا نقيس علماً بعلمك، يعظم عندنا في ذلك خطرنا ويحل عنه في أنفسنا فضلك».

فرد عليه الإمام عليه السلام فأستأنف مدحه وثنائه وتكررت هذه القضية مراراً ثم اختفى الرجل [٢٨٦].

على كل حال ما ورد في «نهج البلاغة» أن الإمام عليه السلام أجابه: «إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظَّمَ جَلَالَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ لِعَظَمِ ذَلِكَ كُلِّ مَا سِوَاهُ».

يبدو واضحاً تماماً هذا المعنى من خلال الالتفات إلى أن ذات الله وجود مطلق من جهة ولا متناهي من حيث العلم والقدرة وكل ما سوى الله، قطرة إزاء بحر عظيم متلاطم، كما ورد ذلك في خطبة همام في صفات المتقين: «عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي

أَعْيَنِهِمْ». فمن تطلع لقرص الشمس كان ضوء الشمعة لا شيء بنظره.

ثم أضاف عليه السلام: «وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَتُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَطَفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أزدَادَ حَقُّ اللَّهِ عَلَيْهِ عَظْمًا». هذا الكلام في الواقع جواب على مديح ذلك الرجل المحب للمولى عليه السلام، أي لا تظن أن

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٩٧

كلامك يسوقني للكبر والغرور، فأولاً: أنا عرفت الله بعظمته وما سواه صغير حقير بنظري. وثانياً: أنا مشمول بنعم جمه وعلى أن أخضع أكثر من الآخرين لولى نعمتي.

وقال مكملًا ومؤكداً هذا الكلام: «وَإِنَّ مِنْ أَشْخَفِ [٢٨٧] حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبَّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ، وَقَدْ كَرِهَتْ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أَحَبُّ الْأَطْرَاءِ [٢٨٨]، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ؛ وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ».

صحيح أنه طبق بعض الاحتمالات كان ذلك المادح هو الخضر عليه السلام ولم ينطق سوى بالحق وما أورده كان في الإمام، بل أكثر من ذلك، إلا أن الإمام أشار إلى أمر ضروري وهو أنني لا استحسن حتى الثناء بالحق فلعله يخلق انطباعاً لدى السامع فيظن أنه يحب هذا الكلام ويتصف بالكبر والفخر والعجب الذي يؤثر سلباً على علاقة الإمام بالامة.

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَلَوْ كُنْتُ أَحَبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكَبَرِيَاءِ». «وَرُبَّمَا اسْتَحَلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُشْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَأُبَدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا».

ورد في النسخة الموجودة في المتن المذكور «وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ» إشارة إلى تقوى الإمام عليه السلام وخشيته في أداء حقوق الناس، بينما ورد في بعض نسخ «نهج البلاغة» ومتن «الكافي» «بقية» ومعنى ذلك، ما زالت لكم على بقية حقوق لا بد أن أجد في أدائها، فقد أبان الإمام عليه السلام في هذه العبارة غاية رفعته، حيث بين عدم إكترائه بالمدح والثناء من جانب ومنتهى خضوعه لله من جانب آخر وبالتالي اعترافه بعدم أداء الحقوق بصورة كاملة، الأمر الذي قلما نجده في زعيم طيلة التاريخ.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٩٨

تأملان

١. المدح والثناء

مدح الآخرين والثناء عليهم على نوعين؛ نوع ايجابي وبناء وسبب حركة الخدام ويأس الخونة وركى المجتمع، والآخر مدعاة للخراب والتخلف وتقوية شوكة الظلمة، وللنوع الأول ثلاثة شروط: الأول، مدح من يستحق المدح، الثاني، عدم خروج المدح عن حده، والثالث، ألا يكون هدف المادح التقرب إلى الممدوح وتحقيق الاطماع.

قال النبي صلى الله عليه وآله: «إِذَا مَدِحَ الْفَاجِرُ اهْتَرَّتِ الْعَرْشُ وَعَظِبَ الرَّبُّ» [٢٨٩].

وورد في حديث آخر: «الثَّنَاءُ بِأَكْثَرِ مِنَ الْأَسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ وَالتَّقْصِيرُ عَنِ الْأَسْتِحْقَاقِ عَيٌّْ أَوْ حَسَدٌ» [٢٩٠].

ولا ينبغي الغفلة عن هذا الأمر في ضرورة الأخذ بنظر الاعتبار قابلية الممدوح؛ حذراً من أن يدعو المدح للغرور ويحرفه عن الحق، كما ورد في قصار كلمات الإمام على عليه السلام: «رَبِّ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ» [٢٩١].

لا شك في أن كل هذه الأمور مع أخذها بنظر الاعتبار فإن المدح والثناء دلالة على التقدير ومعرفة الحق ومدعاة لتشجيع الأخيار والصالحين.

وتعقد اليوم العديد من التجمعات لتكريم المهرة من خدمة المجتمع والعلماء الأعلام وأصحاب الكفاءات العالية وتقدم لهم الجوائز تقديراً لجهودهم مثلاً، للكتاب جراء أفضل كتاب للسنة والعمال والفلاحين النموذجيين ورسائل السلام والصدقة في العالم وتكريمهم وتقديرهم، والتي تلعب دوراً بناءً إن لم تكتسب صبغة سياسية وتقدم الروابط على الضوابط وحفظ الشرط الثالث المذكور في حسنة المشرفين.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ١٩٩

إلا أن النوع الثاني يناقشه تماماً؛ أي إذا مُدح الأشرار وغير المستحقين وأثنى عليهم أكثر من الحد وكانت دوافع ذلك العوامل السياسية والحب والبغض الشخصي تشجع الطالحون ويئس الفضلاء والخيرون، فينفرد المتملقون في الميدان والمجتمع ويتفوق الصادقون المخلصون.

قال على عليه السلام: «إِيَّاكَ وَالْمَلَقُ فَإِنَّ الْمَلَقَ لَيْسَ مِنْ خَلَائِقِ الْإِيمَانِ» [٢٩٢].

وقال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «أُحْتُوا فِي وُجُوهِ الْمُدَّاحِينَ التُّرَابِ» [٢٩٣].

والنقطة الأخيرة في هذه الرسالة ونرى من الضروري ذكرها أن للمدح أحياناً جانباً إيجابياً ويتصف بالشروط المذكورة، لكنه يخلق حالة شاذة لدى الرأي العام ويتهم الممدوح بحب المادح وهذا ما ينبغي أيضاً الابتعاد عنه، وأكثر ما ورد في هذه الخطبة من هذا القبيل.

٢. السنة التملق

التملق كما قيل، المدح والثناء الذي يتجاوز الحدود والكلام الجُزاف في فضائل الأفراد للتقرب منهم والاستفادة من منافعهم المادية، حتى ذكر الصفات الحقيقية لشخص دون الإشارة إلى نقاط ضعفه يعدّ نوعاً من التملق، وأبعد من ذلك ما يفعله بعض المتملقين ممن جعل نقاط الضعف كنقاط القوة والتملق عادة لأرباب القدرة والجاه والذي يعتبر من أعظم المخاطر التي تهدد الولاية والحكام والمدراء، لأن أول شرائط الإدارة المعرفة بالحقائق المتعلقة بحيز الإدارة والمتملقون يغطون الحقائق ويخفونها عن انظار المدراء والمسؤولين فيخلق ما لا يحصى من المفساد.

والعجيب أن الزعماء الضالين غير المؤهلين غالباً ما يشجعون المتملقين ويمتعظون من قول الحق ويشعرون بالهدوء الكاذب من تملق المتملقين.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٠٠

وقد عدّ الإمام عليه السلام التملق من أسوأ الأمراض أو مرض لا علاج له «أدوى الداء الصلف» [٢٩٤] واحد معاني الصلف التملق والآخر مدح الذات.

وقال في موضع آخر: «إِنَّمَا يُجِبُّكَ مَنْ لَا يَتَمَلَّقُكَ» [٢٩٥].

وقال: «لَيْسَ الْمَلَقُ مِنْ خُلُقِ الْأَنْبِيَاءِ» [٢٩٦].

ولا- ينبغي أن ننسى أن التملق يتم تارة بصورة مباشرة وأخرى غير مباشرة أو عن طريق النشر أو الشعر أو العمل وكل آثاره السيئة متساوية.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٠١

إشارة

فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةَ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمَصَانِعِ، وَلَا تَتَّظُنُّوا بِي اسْتِقَالًا فِي حَقِّ قِيلَ لِي، وَلَمَّا التَّمَّاسَ إِعْظَامَ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مِنْ اسْتِثْقَالِ الْحَقِّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعِدَلِ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. فَلَا تَكْفُؤَا عَنْ مَقَالِهِ بِحَقِّ، أَوْ مَشُورَةِ بَعْدِلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَنِي اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَيْبِدُ مَمْلُوكُونَ لِرَبِّ لَمَّا رَبِّ غَيْرُهُ؛ يَمْلِكُ مِنِّي مَا لَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلْنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالهُدَى، وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى.

الشرح والتفسير: لا تملقوا أمامي

جانب مهم من هذه الخطبة - كما أشرنا - في بيان حقوق الوالي والرعية وقد غير الإمام عليه السلام مسار الخطبة بعد أن أثنى عليه أحد الحاضرين إلى جانب خاص من حقوق الوالي والرعية وهو ترك المدح والثناء على الولاية والحكام. ثم خاض هنا آخر الخطبة في آفة أخرى من آفات الحكام والناس في أن إرتباطهم ببعضهم علاقة تملق وكتمان الحقائق المريرة لصعوبتها وترك النقد الصائب والبناء فقال: «فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةَ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ» [٢٩٧]، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمَصَانِعِ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٠٢

إشارة إلى أن العاديين من الأفراد حين يقفون بين يدي الجبابرة يخفون شخصيتهم الحقيقية ويتحفظون عن كل نقد وشكوى واعتراض حذراً من أن يغضبوا عليهم، ويسعون بالعكس إلى الأيمن من شرهم بالمدح والثناء والتملق، ومن هنا فلا تتضح لهم قط الحوادث الحقيقية في المجتمع فيغفون في وادي الضلالة والجهل.

يطمئن الإمام عليه السلام كل مخاطبيه بضرورة بث ما لديهم من شكوى ومشكلة فهم أحرار في ما يقولون بشأن الحكومة والمجتمع. نعم فهذه إحدى الفوارق البارزة بين حكام العدل والجور، ورد في «العقد الفريد»: وقام رجل إلى هارون الرشيد، وهو يخطب بمكة، فقال: «كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ» [٢٩٨]. فأمر به فضرب مائة سوط، فكان يئن الليل كله ويقول: الموت! الموت! فأخبر هارون أنه رجل صالح، فأرسل إليه واستحلّه فأحلّه [٢٩٩].

وجاء في نفس هذا الكتاب أيضاً: جلس الوليد بن عبد الملك على المنبر يوم الجمعة حتى اصفرت الشمس، فقام إليه رجل فقال: ...، إنَّ الوقت لا ينتظر، وإنَّ الربَّ لا يعذر، قال: صدقت: ومن قال مثل مقالتك، فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامك، من هاهنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضرب عنقه [٣٠٠].

بينما رأينا مراراً في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام أن عدداً من المنافقين تفوهوا بأسوأ الكلمات بحضرته كالأشعث بن قيس وبعض الخوارج، فلم يتعرض لهم قط.

ثم قال مواصلاً ذلك الكلام: «وَلَا تَتَّظُنُّوا بِي اسْتِقَالًا فِي حَقِّ قِيلَ لِي، وَلَا التَّمَّاسَ إِعْظَامَ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مِنْ اسْتِثْقَالِ الْحَقِّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعِدَلِ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ».

إشارة إلى أن الذين لا يطيقون سماع الانتقاد أعجز عن ممارسة الإصلاح، ومن هنا يوغلون كل يوم في مزيد من الظلم والفساد، وشجع الإمام عليه السلام في تأكيد هذا

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٠٣

الكلام جميع مخاطبيه ببيان الحق صراحة وذكر المشاكل الفردية والاجتماعية والتأكيد على العدالة الاجتماعية فقال: «فَلَا تَكْفُؤَا عَنْ

مَقَالِهِ بِحَقِّ، أَوْ مَشُورِهِ بِعَدَلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي».

الجملة «فإنني لست في نفسي بفوق أن أخطيء» كانت مبرراً لبعض مخالفي عصمة الأئمة وأكثرها الضجيج بشأنها، بينما العبارة «إلا أن يكفني الله من نفسي» تفسرها بصراحة، فمفهوم العبارة الأولى أتى كإنسان لا آمن الخطأ، ومفهوم العبارة الثانية لي وضع آخر في ظل رعاية الله، شبيه ما أورده القرآن بشأن النبي يوسف عليه السلام: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» [٣٠١]. إشارة إلى أن يوسف عليه السلام كإنسان يخشى عليه أن يتلوث بأهواء امرأة العزيز، إلا أن مشاهدته برهان الرب الذي يشير إلى مقام وعصمة يوسف ومعرفته الرفيعة بالله، حفظته من ذلك.

أضف إلى ذلك فإن الإمام عليه السلام في مقام تربيته وتعليم أصحابه فيرشدهم إلى احتمال الخطأ على أنفسهم مهما كانوا؛ لكنه يضع نفسه في زمرتهم تواضعاً، على كل حال لا ينبغي التذرع بهذه العبارة إزاء كل الأدلة على عصمة النبي والإمام. قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «ما منكم من أحدٍ إلَّا ولهُ شَيْطَانٌ. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلَّا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم» [٣٠٢].

والشاهد البالغ الآخر على ما قلنا ما أورده الإمام عليه السلام أواخر الخطبة ٩٧: «وَإِنِّي لَعَلِي بَيْنِيهِ مِنْ رَبِّي وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّ وَإِنِّي لَعَلِي الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الْقُطْبُ لَقُطًّا».

وعلى هذا الضوء فالإمام عليه السلام يؤيد أنه سائر على الصواب دائماً بلطف الله ولا سبيل للخطأ إليه.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٠٤

ثم قال في إكمال وتأيد الكلام المذكور: «فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربِّ لِمَا رَبَّ غَيْرُهُ؛ يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا تَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلْنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى، وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى».

وكما ذكر فإن رواية في «الكافي» حيث وردت هذه الخطبة أطول ممَّا ورد في «نهج البلاغة»، والسيد الرضي اقتطف في الواقع جوانب من الخطبة.

ونقرأ في رواية «الكافي» قسماً آخر من هذه الخطبة:

«يقال: لم ير الرجل بعد كلامه هذا لأمير المؤمنين، فأجابه وقد عال الذي في صدره فقال والبكاء يقطع منطقه وغصص الشجا تكسر صوته إعظاماً لخطر مرزئته ووحشته من كون فجيعة.

فحمد الله وأثنى عليه، ثم شكوا إليه هول ما أشفى عليه من الخطر العظيم والذل الطويل في فساد زمانه وانقلاب جدّه وانقطاع ما كان من دولته ثم نصب المسألة إلى الله عز وجل بالامتنان عليه والمدافعة عنه بالتفجع وحسن الثناء، فقال: يا ربَّانِي العباد ويا سكن البلاد أين يقع قولنا من فضلك وأين يبلغ وصفنا من فعلك أتى نبلغ حقيقة حسن ثنائك أو نحصى جميل بلائك فكيف وبك جرت نعم الله علينا وعلى يدك اتصلت أسباب الخير إلينا، ألم نكن لذلّ الدليل ملاذاً وللعصاة الكفار إخواناً فبمن إلّا بأهل بيتك وبك أخرجنا الله عز وجل من فضاة تلك الخطرات، أو بمن فرج عنا غمرات الكربات...» [٣٠٣].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٠٥

الخطبة ٢١٧

إشارة

فِي التَّظَلُّمِ وَالتَّشَكُّي مِنْ قُرَيْشٍ [٣٠٤]

نظرة إلى الخطبة

كما قيل في سند الخطبة فإن هذه الخطبة والخطبة ١٧٢ والخطبة ٢٦ تشترك مع بعضها في أقسام مختلفة وتبدو أنها رسالة كتبها الإمام عليه السلام أواخر حكومته في الرد على طائفة من أصحابه، فقد أصرت طائفة على الإمام أن يبين رأيه في الأحداث التي أعقبت عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعصر الخلفاء.

فكتب الإمام عليه السلام بناءً على إصرارهم هذه الرسالة وأمر بقراءتها على الناس حتى لا يتمكن المخالفون من تزييف الحقائق وتحريف التاريخ.

أشار الإمام عليه السلام إلى قضيتين أساسيتين في هذه الخطبة:

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٠٦

الأولى: إنه شكاً قريشاً لله أنهم اتحدوا على هضمه حقه وأنهم قالوا له صراحة عليك أن تتنازل عن حَقِّكَ في الخلافة!
الثانية: إن الإمام عليه السلام شرح علّة عدم قيامه لأخذ حقه لأنه لم يجد أعواناً على هذا الأمر وقد رأى الخطر محققاً بأرواح أهل بيته.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٠٧

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَأَكْفَرُوا إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي، وَقَالُوا:

أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَعْمُومًا، أَوْ مُتَّسِفًا. فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ، وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي؛ فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَيْتَةِ، فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَى، وَجَرَعْتُ رِيْقِي عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْعَلْقَمِ، وَالْمِ لَلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشَّفَارِ.

قال الشريف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَقَدْ مَضَى هَذَا الْكَلَامُ فِي اثْنَاءِ خُطْبَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ، إِلَّا أَنِّي ذَكَرْتُهُ هَاهُنَا لِاخْتِلَافِ الرُّوَايَتَيْنِ.

الشرح والتفسير: تحمل الصعاب

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَأَكْفَرُوا» [٣٠٥] إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي».

بالرغم من أن الإمام عليه السلام قال هذا الكلام أواخر عهد خلافته، لكن هنالك خلاف عند شراح «نهج البلاغة» والمؤرخين بشأن الزمان، فهل المراد قضية السقيفة والأحداث التي أعقبت وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أم الشورى التي تألفت من ستة

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٠٨

أشخاص أم الزمان الذي نكث فيه العهد طلحة والزبير واشعلا فتنه حرب الجمل؟

ويبدو الاحتمال الأول هو الأقوى من بينها ثم الثاني، بينما يستبعد الاحتمال الثالث فتمرد طلحة والزبير لا يعد من اجتماع قريش على الإمام.

العبارة «أَسْتَعْدِيكَ» من «الإستعداد» بمعنى الاستعانة أو الشكوى لأحد.

العبارة «إِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي» ربما تشير إلى أن غاصبي الخلافة استندوا إلى القرابة من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في حين كان

الإمام أقرب إليه من غيره.

العبارة «أَكْفُوُوا إِنَائِي» يمكن أن تكون إشارة إلى أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو الذي ملأ هذا الإناء وسلمه إلى الإمام وعرفهم به أنه الأولى بالخلافة من الجميع كراراً؛ لكنهم قلبوا إناء ماء الحياة رأساً على عقب. أمّا قوله إنه أولى بهذا الحق منهم جميعاً فهذا ممّا ثبت بالدليل العقلي والنقلي لكل منصف؛ فليس هنالك من يمتلك شجاعته أو ورعه وتقواه وزهده.

نقل ابن الحديد في شرح الخطبة ١٧٢ حين ذكر هذه العبارة، عبارات شبيهة أخرى تدل جميعاً على أن علياً عليه السلام كان يرى الخلافة حقه المسلّم وقد غصبه الآخرون، ثم قال: فسرت الإمامية والزيدية هذه العبارات حسب ظاهرها ولم يروا غير علي عليه السلام يليق بها، وأضاف قائلاً: رغم أن هذا هو الظاهر الذي ذهبوا إليه لكننا نعتبرها كالمتشابه من الآيات فلا نحملها على ظاهرها [٣٠٦]. هذا الكلام العجيب ناشىء عن نوع من التعصب والذهنية المريضة ومعنى ذلك أننا لا نقبل سوى ما نرغب فيه، يقول جزءاً من المتشابهات، في حين يرد المتشابه عندما يكون هنالك إبهام وإجمال في الكلام، لا مثل هذا الكلام الواضح الصريح. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى منطوق مخالفيه العجيب: «وَقَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَعْمُومًا، أَوْ مُتَّسِفًا».

حقاً هذا منطوق رهيب أن يعترف الإنسان ببعض الأمور أنها حق لكن لا بد من

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٠٩

التنازل عنها استجابةً للقوة والغطرسة فإمّا أن يصبر ويتحمل أو يموت كمدماً من القهر، وهذا هو الشعار الذي يهتف به الاستكبار العالمي خفية أو علانية: «الْمَلِكُ لِمَنْ غَلَبَ» ولا بد هنا من سؤال ابن أبي الحديد: هل هذه العبارة جزء من المتشابه وينبغي تأويلها وعدم حملها على الظاهر؟!

ثم قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ [٣٠٧]، وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي؛ فَضَنَنْتُ [٣٠٨] بِهِمْ عَنِ الْمَيْتَةِ».

تشير هذه العبارة إلى أن الناس انساق للحكومة آنذاك فهذا طمعاً وذاك خوفاً وثالث حقداً وبغضاً ورثه من المعارك الإسلامية السابقة، وأخيراً الغفلة الجاهلة، كان من الطبيعي أن يتعذر على الإمام في ظل تلك الشرائط أن ينهض ليشكل حكومة العدل الإسلامي وهي الامتداد لحكومة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ومن هنا قال إثر ذلك: «فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَى [٣٠٩]، وَجَرَعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا [٣١٠]، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْعَلَقَمِ [٣١١]، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ [٣١٢] الشُّفَارِ [٣١٣]».

إشارة إلى أنه لا ينبغي قط أن يفسر سكوتى على تلك الاوضاع بالدليل على الرضى، بل إنى أتأوه بشدة من الانحرافات التي أعقبت وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الحكومة الإسلامية؛ لكن لم يكن أمامى سوى الصبر والسكوت.

وعقب اختتام الخطبة: «قَالَ الشَّرِيفُ رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُ: وَقَدْ مَضَى هَذَا الْكَلَامُ فِي أَثْنَاءِ خُطْبِيهِ مُتَقَدِّمَةً، إِلَّا أَنِّي ذَكَرْتُهُ هَاهُنَا لِاخْتِلَافِ الرُّوَايَتَيْنِ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢١١

الخطبة ٢١٨

إشارة

فِي ذِكْرِ السَّائِرِينَ إِلَى الْبَصْرَةِ لِحَرْبِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ [٣١٤]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات القصيرة إلى الجرائم المتعددة التي إرتكبها أصحاب الجمل الذين انطلقوا برفقه عائشة وطلحة والزبير في طريقهم إلى البصرة ليمردوا على الإمام عليه السلام، ويبتوا التفرقة في صفوف أهل البصرة الذين كانوا متحدين على بيعه الإمام وطاعته، فقد نهب أصحاب الجمل بيت مال المسلمين ونحو خزانه وقتلوا طائفة من شيعة الإمام وفتنه ممن قاومتهم وإرتكبوا بعض الجنايات التي لا يأتيتها من كان له أدنى حظ من الإيمان.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢١٣

فَقَدِمُوا عَلَى عُمَالِي وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ، كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بَيْعَتِي؛ فَشَتُّوا كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَى جَمَاعَتِهِمْ، وَوَتَّبَعُوا عَلَى شِيعَتِي، فَفَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ عَدْرًا؛ وَطَائِفَةً عَضُوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللَّهَ صَادِقِينَ.

الشرح والتفسير: جنايات أصحاب الجمل في البصرة

كما ورد في سند الخطبة فإن هذا الكلام في الواقع جانب من رسالة طويلة كتبها الإمام عليه السلام لتسجل في التاريخ وعدم نسيان الحوادث المريرة التي حدثت بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

أشار الإمام عليه السلام في هذا الكلام القصير إلى الجنايات العظمى للناكثين الذين أثاروا فتنه حرب الجمل قال: «فَقَدِمُوا عَلَى عُمَالِي وَخُزَّانِ مَالِ بَيْتِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ».

ثم أضاف قائلاً: «وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ، كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بَيْعَتِي؛ فَشَتُّوا كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَى جَمَاعَتِهِمْ».

وأشار إلى جريمتهم الكبرى الثالثة وقال: «وَوَتَّبَعُوا عَلَى شِيعَتِي، فَفَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ عَدْرًا؛ وَطَائِفَةً عَضُوا [٣١٥] عَلَى أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللَّهَ صَادِقِينَ».

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢١٤

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيرة إلى ثلاث من جرائمهم البشعة: نهب بيت المال، بث الفرقة والنفاق في صفوف المسلمين وقتل عدد من الأبرياء من المسلمين الصالحين الصادقين.

ورد في حوادث الجمل [٣١٦]، عندما أقبلت عائشة- إلى البصرة- على جملها فنادت بصوت مرتفع: أيها الناس، أفلوا الكلام واسكتوا، فأسكت الناس لها، فقالت: إن أمير المؤمنين عثمان قد كان غير وبدل، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة.. ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته، فإذا ظفرتهم بهم فاقتلوهم، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان.

قال (الراوي): فماج الناس واختلطوا، فمن قائل: القول ما قالت، ومن قائل يقول:

وما هي وهذا الأمر، إنما هي امرأة مأمورة بلزوم بيتها، وارتفعت الأصوات وكثر اللغظ حتى تضاربوا بالنعال، وتراموا بالحصا.

ثم إن الناس تمايزوا وصاروا فريقين: فريق مع عثمان بن حنيف، وفريق مع عائشة وأصحابها [٣١٧].

هذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بشأن بث النفاق والفرقة بين المسلمين الذين كانوا متحدين من قبل الفتنة الباغية التي شقت عصا المسلمين وزرعت الفتنة بينهم إلى يوم القيامة.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢١٥

الخطبة ٢١٩

إشارة

لَمَّا مَرَّ بِطَلْحَةَ بِنِ عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَتَابِ بْنِ أُسَيْدٍ وَهُمَا قَتِيلَانِ يَوْمَ الْجَمَلِ [٣١٨]

نظرة إلى الخطبة

هذا الكلام القصير الذي اقتطفه المرحوم السيد الرضى من كلام طويل يبين في الواقع ثلاث نقاط: إحداها، إعرابه عن أسفه على قتل طلحة الذي ما كان ينبغي أن يسلك هذا الطريق الخاطئ وله تلك السوابق في الإسلام فيقتل تلك القتلة الغريبة تحت السماء. الأخرى، أن أمراء معركة الجمل الذين قتلوا خزان بيت مال المسلمين في البصرة وشيعة الإمام سينالون جزاءهم. والثالثة، أن أولئك (وأمثالهم) لم يكونوا مؤهلين لما كان يدور في أذهانهم.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢١٧

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيبًا! أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قَرِيشٌ قَتَلِي تَحْتَ بُطُونِ الْكُوكَابِ! أَدْرَكْتُ وَتَرَى مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَفَلَتَنِي أَعْيَانُ بَنِي جُمَحٍ، لَقَدْ أَتَلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَيَّ أَمْرٌ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوَقَّصُوا دُونَهُ!

الشرح والتفسير: المشهد المروع بعد الجمل

كما قيل، فإن الإمام عليه السلام قال هذا الكلام لما مرّ بعد حرب الجمل بجسد طلحة بن عبد الله وعبد الرحمن بن عتاب اللذين صرعا غريبين على التراب.

وطلحة بن عبد الله هو صاحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله المعروف الذي بايع الإمام بعد مقتل عثمان ولكن حين لم تتحقق آماله في الوصول إلى حكومة بعض الولايات الإسلامية، رفع لواء المعارضة واتحد مع الزبير وعائشة واشعل فتيل حرب الجمل واكتوى بنارها.

ولم يكن عبد الرحمن بن عتاب من الصحابة؛ ولكنه يعتبر من التابعين، وكان أبوه عتاب ممن أسلم في فتح مكة وولاه النبي صلى الله عليه وآله إمرة مكة، وكان لوالده آنذاك اثنتان وعشرون سنة وقال له النبي لو كان هنالك من هو أفضل منك لذلك الأمر لوليتيه، واستمر ذلك حتى عهد أبي بكر وتوفى مع أبي بكر في نفس اليوم، لكن للأسف فإن ابنه عبد الرحمن انحرف عن الجادة وأصبح العوبة بيد طلحة والزبير ووسيلة لتحقيق أطماعهما حتى قتل في حرب الجمل فكان جسده في العراء قرب جسد طلحة.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢١٨

قيل: لما قتل عبد الرحمن بن عتاب في الجمل حمل يده المقطوعة عقاباً وألقى بها في اليمامة وتعرف الناس على خبره من خاتمه الذي خط عليه اسمه.

على كل حال، أعرب الإمام عليه السلام في بداية الخطبة عن أسفه لقتل طلحة فقال:

«لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيبًا!».

التعبير (أبو محمد) دلالة على نوع من الاحترام والأسف على غربته لسوابق طلحة الحسنة في الإسلام، حيث كان ممن صحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن الأصدقاء في الذب عن بيضة الإسلام؛ ولكن للأسف فإن حب الجاه والمقام والحسد دفعه لشن حرب دموية ضد خليفة المسلمين الذي نصب من جانب الله والمبايع من قبل الأمة والتي خلفت أكثر من سبعين ألف قتيل.

ثم قال الإمام عليه السلام: «أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتَلِي تَحْتَ بُطُونِ الْكُؤَاكِبِ!».

صحيح أن طلحة والزبير وأمثالهما يستحقون ذلك العقاب، لكن الإمام عليه السلام أعرب عن امتعاضه بكلِّ حبِّ ورأفة وعاطفته الخاصة بالنظر لسوابقه في الإسلام ليته لم يقتل في هذا الطريق وتكون هذه العاقبة، فجميع الأنبياء والأوصياء وأولياء الله يرجحون كفَّ الخاطئين وحتى المجرمين الطغاة عن مسيرتهم والالتحاق بصفوف المؤمنين والصالحين.

ثم قال عليه السلام: «أَدْرَكْتُ وَثْرِي [٣١٩] مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَفْلَتَنِي [٣٢٠] أَعْيَانُ بَنِي جُمَحٍ».

هنالك خلاف بين الشراح بشأن المراد من «بنى عبد مناف» من هم؛ قال البعض:

إنَّ المراد بهم طلحة والزبير وعبدالرحمن الذين أشير إليهما آنفاً.

وأشكل ابن أبي الحديد على أن طلحة والزبير لم يكونا من بنى عبدمناف، واجيب أنهما يتصلان بعبد مناف من جانب الام وإن لم يتصلا به من طرف الأب.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢١٩

واعترض المرحوم العلامة التستري في شرحه لنهج البلاغة على هذا الكلام من جهتين: الأولى أن الانتساب إلى القبائل في عرف العرب عن طريق الأب؛ وليس الام، والأخرى أن أم الزبير وإن انتهى نسبها لعبد مناف كونها بنت عبدالمطلب إلّا أن أم طلحة كانت من اليمن. ولم يذكر العلامة التستري بعد هذين الاعتراضين، من الأفراد المرادون ببني عبد مناف.

وربما كان في أهل الجمل غير عبد الرحمن، بنو عبد مناف الذين إرتكبوا بعض الجرائم وقتلوا هناك؛ إلّا أن أسماءهم لم ترد في التاريخ لعدم شهرتهم.

فبنو جمح طائفة من قريش كانت في معسكر أهل الجمل؛ ولما رأوا المعركة ليست لصالحهم فروا ولم يقتل منهم سوى اثنان.

واختتم عليه السلام هذا الكلام قائلاً: «لَقَدْ أَتَلَعُوا [٣٢١] أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرِ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوْقِصُوا [٣٢٢] دُونَهُ!».

هذا الكلام إشارة إلى طلحة والزبير وأمثالهما الذين يفتقرون لأهلية الخلافة بوجود الإمام عليه السلام بل ليس لهم أهليتها حتى مع عدم وجود الإمام عليه السلام، فحبّ الجاه والتعلق بالدنيا يحول دون أهلية زعامة الأمة الإسلامية.

تأملان

١. حبّ دنيا وعواقبه المشؤمة

كان طلحة والزبير من السابقين إلى الإسلام الذين قاتلوا ببسالة دفاعاً عن النبي والإسلام، كما كانت لهما مكانتهما المميزة بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى درجة أن عمر لم يتمكن من تجاوزهما في الشورى التي شكّلها لانتخاب الخليفة من بعده؛ لكن حبّ الجاه والمقام والتعلق بالدنيا أخرجهما عن طريق الحق فغيرا مسارهما والتحقا

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٢٠

بصفوف المنافقين.

فمن جانب غارا على بيت مال المسلمين في البصرة وقتلا خزان بيت المال واستغلاه لإثارة معركة الجمل.

ومن جانب، آخر أجبجا نيران فتنة الجمل التي راح ضحيتها مئات الآلاف من المسلمين وأسساً للحروب الأهلية.

ومن جانب ثالث، أخرجوا زوج النبي صلى الله عليه وآله من بيتها وجعلوها مطية لأهوائهم السياسية فانتهاكوا من خلال ذلك حرمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ومن جانب رابع، كلاهما قتل في تلك المعركة ولم يحققا اطماعهما الشخصية، وبالطبع سيدوقا وبال أمرهما يوم القيامة بما سوّدا به

صحيفة أعمالهما.

هذه كلها نتائج حبّ الجاه وحبّ الدنيا، الأمر الذي عدّه جميع الأنبياء والأولياء مصدر جميع الذنوب فقد قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ» [٣٢٣].

وقد بين الإمام عليه السلام هذه الحقيقة بوضوح بعبارات موجزة عقب الجمل طبق رواية المرحوم الشيخ المفيد، قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة في قضية معركة الجمل: «مرّ الإمام عليه السلام بعد الجمل بطلحة قتيلاً فقال: أجلسوه، فأجلسوه، فقال: «لَقَدْ كَانَ لَكَ قَدَمٌ لَوْ نَفَعَكَ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ أَضَلَّكَ فَأَزَلَّكَ فَعَجَّلَكَ إِلَى النَّارِ» [٣٢٤].

٢. الكفاءة الشرط الأول لكل عمل

صرّح الإمام عليه السلام مختتماً خطبته المذكورة بأن طائفه اشترأت أعناقها لنيل الحكومة الإسلامية؛ وحيث لم تكن جديرة بها فقد كسرت رقبتها، إشارة إلى أن كل عمل ومشروع يتطلب كفاءة معينة ولا يكفي مجرد الرغبة بالشئ بغية الوصول إليه

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٢١

ولا يمكن شغل مواقع العظماء بالمجان إلّا أنّ يعدّ الإنسان الأسباب العظيمة.

صحيح أن البعض استند إلى تلك المواقع دون إعداد تلك الأسباب؛ ولكنهم واجهوا الهزيمة والخسران في خاتمة المطاف إثر سوء إدارتهم.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٢٣

الخطبة ٢٢٠

إشارة

في وصف السالك الطريق إلى الله سبحانه [٣٢٥]

نظرة إلى الخطبة

كما يتضح من عنوان الخطبة خاض الإمام عليه السلام في هذا الكلام الموجز البليغ، في التعريف بالسالك إلى الله والسائر على الطريق وعدّ سبب موفقيته إلى إحياء العقل وإماتة أهواء النفس وصرح أن بارقه من نور أطفاف الحق تقتدح في قلبه في ظل هذا العمل؛ الذي يضيء المسير ويوصله إلى مقام النفس المطمئنة ورضى الله.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٢٥

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمْرَاتِ نَفْسِهِ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطَفَ غَلِيظُهُ، وَبَرَقَ لَهُ لَمَاعِعُ كَثِيرُ الْبُرْقِ، فَأَيَّانَ لَهُ الطَّرِيقُ، وَسَيْلِكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَا فَعْتُهُ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارِ الْأَقَامَةِ، وَتَبَّتْ رِجْلَاهُ بِطَمَئِنِينَ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ.

الشرح والتفسير: سالك طريق الحق

طرح الإمام عليه السلام في هذا الكلام العميق المعنى، دورة عرفانية إسلامية من خلال عبارات موجزة واستعرض شرائط السير والسلوك إلى الله ونتائجه ومقاماته فقال:

«قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ [٣٢٦]، وَلَطَفَ غَلِيظُهُ [٣٢٧].»

إحياء العقل إشارة إلى الانفتاح على الأدلة العقلية لتكامل الإيمان والحسن والقبح العقليين لتكامل الفضائل الأخلاقية، وهكذا فإن مفردة العقل هنا تشمل العقل النظري والعقل العملي.

أما النفس فلا تعنى القضاء على الغرائز النفسانية، بل المراد تهذيبها بحيث لا يسعها القذف بالإنسان في مصائد الشيطان وتصده عن سبيل الله.

المفردة «جليل» في العبارة «دَقَّ جَلِيلُهُ» إشارة إلى الأبدان السمينه والتي أصبحت بهذه الصورة إثر كثرة الأكل والافراط في أكل الأطعمة الدسمة، ويخفف

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٢٦

الوزن بترك الشهوات.

والمفردة «غليظ» في «لَطَفَ غَلِيظُهُ» إشارة إلى أن الخلق الخشن والرذائل الأخلاقية تتلطف في ظل الرياضة النفسانية.

ثم اتجه الإمام عليه السلام صوب آثار هذه الحركة العقلانية والرياضة الشرعية ليعد ثمارها الطيبة في ثلاث فقال: «وَبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرٌ الْبُرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ.»

وهذا هو نور المعرفة والمعنويات التي تتجلى للإنسان إثر الرياضات العقلانية والنفسانية وتضيئ له الطريق كما يقول القرآن المجيد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ» [٣٢٨].

فقد شبه السائرين على الدرب بالسالكين لطريق صحراوي مظلم؛ ولكنهم يشملون بالعتايا الربانية، يبرق لهم بريق من السماء فينير لهم الطريق ليلج لهم عمق الصحراء. صرح بعض العارفين المسلمين بثلاث مراحل لأنوار الهداية الربانية التي تحصل إثر الرياضات النفسانية، المرحلة الأولى التي تسمى «اللوائح»؛ وهو نور يشرق في باطنهم؛ ولكنه لا يدوم طويلاً. المرحلة الثانية، التي تسمى «اللوامع» التي لا تزول بسرعة؛ ولكنها تنطفئ بالتالي، والمرحلة الثالثة، «الطوالع» التي تدوم مدة مديدة وتصون السالك إلى الله من الانحراف.

وقال في القسم الثاني من تلك الآثار: «وَتَدَافَعَتْهُ [٣٢٩] الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارَ الْأَقَامَةِ.»

على غرار ما ورد في القرآن الكريم: «لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [٣٣٠].

نفحات الولاية؛ ج ٨؛ ص ٢٢٦

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٢٧

وقال على لسان أهل الجنة: «إِنَّ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شُكُورٌ* الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ» [٣٣١].

ثم قال في القسم الثالث من تلك الآثار: «وَتَبَّتْ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينِهِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ.»

وكأنه ماورد في القرآن: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً* فَادْخُلِي فِي عِبَادِي* وَأَدْخُلِي جَنَّتِي» [٣٣٢].

نعم! الإنسان في مسير القرب إلى الله في كل زمان يكون عرضه لوساوس شياطين الجن والإنس ويهزه خوف الضلال حتى يبلغ ما يزيل عن سماء روحه غيوم وساوس النفس والشيطان، ويقدم في كيانه بريق معرفة الله فيعيش السكينة التامة ويستحق الخطاب «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي* وَأَدْخُلِي جَنَّتِي.»

ثم اختتم هذا الكلام بالتأكيد على هذه الحقيقة: «بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَىٰ رَبَّهُ.»

نعم! وهذا ما اشير له في الآيات المذكورة: «ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً.»

تأمل: مقامات السير والسلوك

إنّ رواج التعبير بالسير والسلوك في تعبيرات أهل العرفان في عصرنا والعصر القريب منه مقتبس في الواقع من القرآن حين قال: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ» [٣٣٣].

وآيات التوبة مثل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا» [٣٣٤]. (بالنظر إلى

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٢٨

أنّ التوبة في الأصل تعنى العودة). والآية الشريفة «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» [٣٣٥].

الواقع أنّ روح الإنسان كالغواص الذي وطئ عالم المادة واقترب بالجسم المادى ليغوص في أعماق بحار هذا العالم ويحمل معه الجواهر النفيسة هناك ويخرجها معه.

ويربط الغواصون أحياناً جسماً ثقيلاً بأرجلهم ليلبغ بهم أعماق البحار فإن أتموا بحثهم طرحوا ذلك الجسم الثقيل ثم يعودون إلى سطح الماء، والسعيد من يعلم اين هذه الجواهر النفيسة.

الهدف من هذا السير والسلوك إلى الله الذي يشرع بالتربية وتهذيب النفس والتوبة والإنابة والرياضات الشرعية، هو العبور من النفس الأمارة بالسوء إلى النفس اللوامة ومن هناك إلى النفس المطمئنة والوصول إلى رفعة مقام راضية مرضية. العبور الذي ينتهي بالتالي بالمكاشفات وإزالة الحجب عن عين الإنسان، حيث قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لذلك الشاب السعيد الذي رآه مواقيت الفجر في صلوات الجماعة وبدت عليه آثار قيام الليل: «هذا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ» [٣٣٦].

هناك مقامات ومراحل متفاوتة لهذا السير والسلوك يراها العرفاء والسالكون ويعتقد البعض بأنهم اقتبسوها من الآيات القرآنية وروايات المعصومين عليهم السلام.

فقد أوجز بعضهم النظام اليومي للسالكين إلى الله في أربعة أمور: المشاركة، المراقبة، المحاسبة والمعاينة أو المؤاخذه.

وعلى هذا الضوء يشترط السالك على نفسه في الصباح أن لا يتقدم خطوة في غير رضى الله؛ ثم يراقب أعماله طيلة النهار ويفرغ ليلاً للحساب فإن بدر منه خلاف عاقب نفسه بحرمانها من اللذائذ وما ترغّب فيه.

وورد اثنا عشر منزلاً ومقاماً لهذا النظام في رسالة السير والسلوك للفيقيه الكبير

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٢٩

المرحوم العلامة بحر العلوم، ثم يرد الإنسان بعد طيها عالم الإخلاص ومصادقه «بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» [٣٣٧].

وقد ذكرت في هذه الرسالة الآداب الخمسة والعشرون لبلوغ هذا المقام [٣٣٨].

المؤسف أنّ هذه المسألة استغلت كثيراً لاسيما في عصرنا وقد تشبث بها الصوفيون أساس الانحرافات في العقيدة والعمل ليجعلوه شماعه ويتصورون أنّهم سالكون إلى الله، بينما هم غالباً مصادق «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» [٣٣٩] ولكن هنالك بعض الأفراد الذين يتحركون على هدى الكتاب والسنة ولا يحدون عن مسير القرآن وقول المعصومين وهؤلاء هم السائرون والسالكون الحقيقيون.

وقد اعتبر أمير المؤمنين على عليه السلام إمام العارفين في كلامه الموجز كما بيناه أنّ أساس سلوكك طريق الحق هو إحياء العقل وإماتة النفس وإصلاح الأخلاق، ويبن الثمرات الثلاث المهمة لهذا السلوك بصيغته غاية في الروعة والجمال والبلاغة.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٣١

إشارة

قَالَ بَعْدَ تِلَاوَتِهِ: «أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» [٣٤٠]

نظرة إلى الخطبة

يمكن تقسيم هذه الخطبة إلى أربعة أقسام وإن كانت واردة في تفسير قوله تعالى: «أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» [٣٤١].
الحديث في القسم الأول عن جهل المتبقين، بمصيرهم كيف لا يتعظون بمن يتوسدون التراب وبين في القسم الثاني، كيفية أحوال
الماضين وكيف رقدوا تحت التراب وتوسدوا القبور الباردة المظلمة، لا يخبر بهم أحد، حلت بيوتهم ونسيت حياتهم.
القسم الثالث، كأن الإمام يحدثهم ويردون عليه بلسان الحال بما يهز ويوقظ.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٣٢

وتحدث الإمام عليه السلام في القسم الرابع عن أواخر أيام العمر كيف يبأس الأطباء عن العلاج ولا ينفع الدواء ويقترّب الإنسان كلّ
آن من نهايته ويتعد عن أهله وقربته ويتوقف لسانه ويفقد سمعه ويستحوذ الموت على كيانه، والتمعن في هذه الخطبة يؤثر في
الإنسان ويوقظه مهما كان قاسى القلب.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٣٣

القسم الأول

إشارة

يَا لَهُ مَرَامًا مِمَّا أَبْعَدَهُ! وَزُورًا مِمَّا أَغْفَلَهُ! وَخَطَرًا مِمَّا أَفْطَعَهُ! لَقَدْ اسْتَحْلَوْا مِنْهُمْ أَى مُدِّكَرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ! أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ
يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكِ يَتَكَاثَرُونَ! يَزْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَادًا حَوَتْ، وَحَرَكَاتٍ سَيَكُنْتُمْ وَلَانَ يَكُونُوا عِبْرًا، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَرًا؛
وَلَمَّا نَهَبُوا بِهِمْ جَنَابَ ذَلِّهِ، أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزِّهِ! لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي عَمْرِهِ جَهَالَتهِ، وَلَوْ
اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضَمَلًا، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَالًا، تَطُّوْنَ فِي
هَامِهِمْ، وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَزْتَعُونَ فِيمَا لَفْظُوا، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا؛ وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحٍ عَلَيْكُمْ.

الشرح والتفسير: التفاخر الفارغ بدل الاعتبار!

كما مضى فإن هذه الخطبة إحدى خطب أمير المؤمنين على عليه السلام الجامعة الشاملة والمؤثرة.
وقد أشاد ابن أبي الحديد إشادة عجيبة بهذه الخطبة وعدّها فريدة من حيث الفصاحة والبلاغة وقال: ومن تأمل هذا الفصل علم صدق
معاوية في على عليه السلام:
«وَاللَّهِ مَا سَنَّ الْفَصَاحَةَ لِقُرَيْشٍ غَيْرِهِ».

ثم قال: وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب في مجلس وتلى عليهم، أن يسجدوا له

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٣٤

كما سجد الشعراء في مواضع الشعر.

وأضاف: وإني لأطيل التعجب من رجل يخطب في الحرب بكلام يدل على أن طبعه مناسب لطباع الاسود، ثم يخطب في ذلك الموقف بعينه إذا أراد الموعظة بكلام يدل على أن طبعه مشاكل لطباع الرهبان لابسى المسوح الذين لم يأكلوا لحماً ولم يريقوا دماً فيكون كالمتبع في زهده. وأقسم لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة ما قرأتها قط إلا وأحدثت عندي روعه وخوفاً وعظه وأثرت في قلبي وجيباً وفي أعضائي رعدة وكم قال الواعظون والخطباء في هذا المعنى وكم وقفت على ما قالوه وتكرر وقوفى عليه فلم أجد لشيء منه مثل تأثير هذا الكلام [٣٤٢].

واستناداً لما قيل يجدر بنا أن نتوقف عند شرحنا لهذه الخطبة على عمق كلام الإمام عليه السلام فنستفيد منها بما فيه الكفاية ولنمس آثارها في أنفسنا وأرواحنا.

وكما ورد في عنوان الخطبة فإن هذا الكلام في الواقع تفسير لأول آيتين من سورة التكاثر «الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ».

ونلقى بادئ الأمر نظرة إجمالية على تفسير الآيتين:

ذكر المفسرون المعروفون تفسيرين لهما:

(الف) المراد أن تكاثركم أنساكم الله والقيامة حتى خرجتم من الدنيا وحللتهم القبور.

(ب) المراد أن تكاثركم وتفاخركم أنساكم الله والقيامة حتى زرتهم المقابر لإثبات أفضليتكم فعددتهم قبور موتاكم فخراً على من سواكم.

طبعاً الأصح التفسير الثاني، لأنه: أولاً زيارة القبور مستبعدة جداً بمعنى الدفن في القبور وثانياً، لو كان التفسير الأول صحيح فلا بد من القول: «تزوروا القبور» أي يكون الفعل بصيغة المضارع لا الماضي، لأن المخاطبين أحياء.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٣٥

يدور كلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبة حول المحور الثاني وهذا دليل واضح على ترجيح هذا التفسير.

فقال الإمام عليه السلام: «يَا لَهُ مَرَامًا [٣٤٣] مَا أَبْعَدَهُ! وَزُورًا [٣٤٤] مَا أَعْفَلَهُ! وَخَطَرًا [٣٤٥] مَا أَفْطَعَهُ! [٣٤٦]».

نعم، فالعظام البالية تحت التراب والأجساد المتفسخة ليس فيها ما يدعو للفخر، فما أحراهم بالاعتبار بدل هذا الافتخار وهم يرون بأعينهم أنهم سيحملون ليوسدوا هذا التراب وينقطعوا عن الأهل والقراة فيفقدون من هذا السبات العميق والنوم الويل. ومن هنا قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «لَقَدْ اسْتَخْلَوْا [٣٤٧] مِنْهُمْ أَيُّ مُدَّكِرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ [٣٤٨] مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ!».

فسر بعض الشراح العبارة «لَقَدْ اسْتَخْلَوْا»: «أنهم سذكروا من مات منذ مدة وأصبح تراباً ففي التفسير الأول «اسْتَخْلَوْا» وجدوهم خالين وفي التفسير الثاني بمعنى ذكر الأموات.

ثم وبخهم توبيخاً شديداً وذمهم فقال: «أَقْبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بَعْدِيدِ الْهَلْكِ يَتَكَاثَرُونَ!».

ترى مامدى جهل الإنسان الذي يريد أن يفخر بتلك العظام النخرة ويجعل أمواته في عداد الأحياء ويعدهم من الأدلة على كثرته. ثم قال: «يَزْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَادًا حَوَتْ [٣٤٩]، وَحَرَكَاتٍ سَكَنْتْ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٣٦

وأضاف: «وَلَمَّا يَكُونُوا عِبْرًا، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَرًا؛ وَلَمَّا يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ [٣٥٠] ذِلَّةٍ، أَحَجَى [٣٥١] مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ!».

فقد أكد الإمام عليه السلام في هذه العبارات على هذه النقطة أن نظرة هؤلاء للأموات مقلوبة تماماً وقد أخطأوا في مساهمهم حتى عاد القبيح لديهم حسناً، فعلى هؤلاء أن ينظروا إلى الأموات بعين الاعتبار؛ ويشاهدوا أوضاع أختيارهم تحت التراب ويتأملوا مصيرهم على

ضوء قانون الموت الذي لا استثناء فيه قط.

ورد في الخبر أنه لما سار على عليه السلام بصحبه إلى صفين بلغ سابط المدائن وأطرافه (الموضع الذي كان يوماً مركز أقوى الحكومات ولكن انتهى فيه كل شيء).

فالتفت أحد أصحابه إلى آثار كسرى فأنشد قائلاً:

جَرَّتِ الرِّيَاحُ عَلَى مَكَانِ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِعَادِ

ولم يكتف الإمام عليه السلام بهذا المقدار فقال هلاً قرأت هذه الآيات: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ [٣٥٢]» [٣٥٣].

وخاض الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه في بيان هذا الموضوع، لم هذا الفخر على الآخرين بهذه الأجساد الميتة الخاوية بدل الاعتبار «لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعُشُورَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي عَمْرَةِ جَهَالَةٍ».

ثم قال: «وَلَوْ أَسِيَتْ تَطُّوْنَ عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ [٣٥٤] الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُلْمًا [٣٥٥]، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَالًا، تَطُّوْنَ فِي

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٣٧

هَامِهِمْ [٣٥٦]، وَتَسْتَنْبِتُونَ [٣٥٧] فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَزْعَمُونَ [٣٥٨] فِيمَا لَفْظُوا [٣٥٩]، وَتَسِي كُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا؛ وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ [٣٦٠] وَنَوَائِحٍ [٣٦١] عَلَيْكُمْ».

العبارة «ضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي عَمْرَةِ جَهَالَةٍ» إشارة إلى غرقهم في بحر الجهل و «ضرب» تعطى معنى الغرق بقريته آخر هذه العبارة.

والجملة «تَطُّوْنَ فِي هَامِهِمْ» إشارة إلى أن أجسام الناس حين تتعفن وتصبح تراباً فإن ذلك التراب ينتقل إلى سطح الأرض بفعل بعض العوامل كالرياح والأمطار والسيول وتقلب التربة بواسطة الإنسان وهذا الإنسان الغافل يمر عليها ولا يدرى ماذا يفعل، وذكر «الهام» (أعلى الرأس) كون أهم شيء في جسم الإنسان جمجمته وإلا فإن الجسد بأكمله أصبح تراباً يطأه الآخرون.

الجملة «تَسِي تَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ» إشارة إلى أن المزارعين يلقون بذورهم على الأرض الممزوجة بتراب أجساد الماضين ومع ذلك هم غافلون.

الجملة «تَزْعَمُونَ فِيمَا لَفْظُوا» تعنى أحياناً ما ذكر وأخرى أنه تتناثر من أجسادهم قطع والمزارعون يلقون عليها بذورهم وينتفعون بشمارها.

الجملة «تَسِي كُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا» ربما هي إشارة إلى أنهم عاشوا مدّة في تلك البيوت فلما انتهوا ووسدوا التراب حللتهم في مساكنهم وذهب بعض الشراح إلى أن

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٣٨

العبارة «خربوا» تعنى الخلو من السكنة، وقيل المراد منه أنها خربة لتركها الذكر والعبادة على غرار العمران في الآية الشريفة «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ» [٣٦٢] الذي فسّر بذكر الله والعبادة.

نعم إن هؤلاء لم يؤدوا حق المساكن وخربوها عملياً بالغرور والغفلة ونسيان ذكر الله وإن كانت في الظاهر عامرة وورثوها للغفلة وارتحلوا.

الجملة «وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ» إشارة لطيفة إلى هذه النقطة أنكم تكونون وتتأوهون على الأموات؛ ولكن الدهر يبيكم وينوح عليكم على مدى غفلتكم وجهلكم بمصيركم وتنسون أنكم ملتحقون بهم عما قريب.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٣٩

إشارة

أُولئِكُمْ سَلَفٌ غَايَتِكُمْ، وَفُرَاطٌ مَنَاهِلِكُمْ، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ، مُلُوكًا وَسُوقًا. سَلِكُوا فِي بُطُونِ الْبُرْزَخِ سَبِيلًا سَلَّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ؛ فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَادًا لَا يَنْمُونَ، وَضَمَارًا لَا يُوجِدُونَ؛ لَمَّا يُفْزِعُهُمْ وَرُودُ الْأَهْوَالِ، وَلَمَّا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ، وَلَمَّا يَخْفَلُونَ بِالرَّوَاغِفِ، وَلَمَّا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ. غُيْبًا لَمَّا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُودًا لَمَّا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعًا فَتَشَتَّتُوا، وَآلِفًا فَافْتَرَقُوا، وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بَعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأَسَاءَ بَدَلْتُهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَسًا، وَبِالسَّمْعِ صَمَمًا، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُونًا، فَكَأَنَّهُمْ فِي أَرْتَجَالِ الصَّفَةِ صِرَعَى سُبَاتٍ. جِيرَانٌ لَا يَتَأَنُّونَ، وَأَجِبَاءٌ لَمَّا يَتَرَاوَرُونَ. بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْأَخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَاءٌ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَّيْلِ صَبَاحًا، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً.

أَيُّ الْجَدِيدِينَ طَعُنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا، شَاهَدُوا مِنْ أخطَارِ دَارِهِمْ أَفْطَعَ مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكَلَّمْنَا الْغَايَتِينَ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ، فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُوا بِصَفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَانُوا.

الشرح والتفسير: العالم العجيب بعد الموت

بعد أن وبَّخ الإمام عليه السلام بشدة أولئك الذين يزورون قبور موتاهم ويفخرون

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٤٠

بالأجساد البالية لأخبارهم، خاض في هذه النقطة أن مصيرهم من شأنه أن يكون عبرة ودرساً وموعظة قيمة لمن يخلفهم فقال: «أُولئِكُمْ سَلَفٌ غَايَتِكُمْ [٣٦٣]، وَفُرَاطٌ [٣٦٤] مَنَاهِلِكُمْ [٣٦٥]، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ [٣٦٦] الْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ [٣٦٧] الْفَخْرِ، مُلُوكًا وَسُوقًا [٣٦٨]». التعبير «سَلَفٌ غَايَتِكُمْ» إشارة إلى أن هؤلاء بلغوا آخر نقطة في حياتهم التي هي الموت الذي سبقكم إليه وعلى الخلف أن يعتبر بمصير سلفه.

العبارة «فُرَاطٌ مَنَاهِلِكُمْ» إشارة إلى أن الناس كأنهم في قافلة ينطلقون إلى الموت فهناك طائفة تتقدم القافلة وأخرى تسير خلفها.

التعبير «مَقَاوِمُ الْعِزِّ» إشارة إلى أن ذوى القدرة ينبغي عليهم أن يطؤوا هذا الطريق كالأخرين.

وشبهه الناس في العبارة «وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ» بالذين يشتركون في سلسلة من المسابقات العظيمة والواسعة لكسب مزيد من الفخر فقد قال الإمام عليه السلام: كل أولئك سيبلغون في الختام منزلاً اسمه القبر.

ثم قال بكلمة واحدة: «مُلُوكًا وَسُوقًا» الكل يذهبون الملوك والرعايا.

وقال لمزيد من الايضاح: «سَلِكُوا فِي بُطُونِ الْبُرْزَخِ سَبِيلًا سَلَّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ».

ورغم أن البرزخ يطلق عادةً الذي يتوسط الدنيا والآخرة كما ورد في القرآن

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٤١

المجيد: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» [٣٦٩] ولكن البرزخ هنا يعنى القبر بقريته العبارات التي أعقبتها كما ورد في الحديث

المروى عن الإمام الصادق عليه السلام: «الْبُرْزَخُ الْقَبْرُ» [٣٧٠] طبعاً أحياناً القبر بمعناه المادى من قبيل ما ورد في هذه الخطبة وأحياناً

أخرى بمعناه غير المادى من قبيل ماورد في الحديث المشهور: «الْقَبْرُ إِذَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّيْرَانِ» [٣٧١].

ثم قال موضعاً أكثر: «فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ [٣٧٢] قُبُورِهِمْ جَمَادًا لَا يَنْمُونَ، وَضَمَارًا [٣٧٣] لَا يُوجَدُونَ؛ لَمَّا يُفْزِعُهُمْ وَرُودُ الْأَهْوَالِ، وَلَا

يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ، وَلَا يَخْفَلُونَ [٣٧٤] بِالرَّوَاغِفِ [٣٧٥]، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ [٣٧٦]. غُيْبًا لَمَّا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُودًا لَمَّا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا

كَانُوا جَمِيعًا فَتَشَتُّوْا، وَآلَافًا [٣٧٧] فَافْتَرَقُوا».

ما ورد في هذه العبارات الملهبة إشارة بالظاهر لجسم الأموات، وإن كانت لأرواحهم في العالم الآخر احساس وخوف ورعب وهم وحزن.

نعم ففي لحظة يغمض الإنسان- اليقظ والضحك أو المهموم المحزون النشط أو الكسل- عينيه عن الدنيا وتنتهي عنده جميع ظواهر الحياة حتى يتحول إلى حجرة خالية من الروح.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى فقال: «وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بَعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَيَّمَتْ دِيَارَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأَسَا بَدَلْتَهُمْ بِالنُّطْقِ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٤٢

خَرَسَاءَ، وَبِالسَّمْعِ صَمَمًا، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُونًا، فَكَانَتْهُمْ فِي أَرْبَعِ جِوَالِ [٣٧٨] الصَّفَةِ صَرَعَى [٣٧٩] سُبَاتِ [٣٨٠]».

يالها من عبارات بليغة وموقظة وكلمات مؤثرة وعميقة! نعم! فقد نسوا حتى كأنهم ابتعدوا عنا قرونًا وانطفأت مساكنهم وكأنهم غادروها منذ سنين مديدة في حين ربما تجرعوا كأس المنون في لحظة وانتهى كل شيء.

وأضاف في عبارات أخرى عميقة المعنى وموقظة: «جِرَانٌ لَا يَتَأَنُّسُونَ، وَأَحْبَاءٌ لَا يَتَرَاوِرُونَ. بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَا [٣٨١] التَّعَارُفِ، وَأَنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَشْيَابُ الْأَخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَاءٌ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَّيْلِ صَبَاحًا، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً. أَيُّ الْجَدِيدِينَ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا».

نعم كل شيء لهؤلاء يختلف عن الأحياء؛ بيوت قبورهم الواحد يلاصق الآخر دون أن يخبر أحدهم بالآخر أو يزوره؛ إنهم مجتمعون مع بعضهم في الداخل مع ذلك كأنهم مقاطعون لأحدهم الآخر؛ إن غادروا الدنيا ليلاً فسوف لن يروا طلوع الشمس قط وإن غادروها نهاراً لم يروا ظلمة الليل أبداً وفي هذا أنشد الشاعر:

لَا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ بِلَا لَيْلَةٍ أَوْ لَيْلَةٍ تَأْتِي بِلَا يَوْمٍ

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى جانب آخر من أحوال الموتى وأرواحهم عند مشاهدة العذاب الإلهي والثواب العظيم فقال: «شَاهَدُوا مِنْ أَحْطَارِ دَارِهِمْ أَفْطَعَ [٣٨٢] مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكَلَّمْنَا الْغَايِبِينَ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءِ [٣٨٣]، فَاتَتْ مَبَالِغَ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٤٣

الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعُيُوا [٣٨٤] بِصَفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَانُوا».

الواقع أن ما بينه الإمام عليه السلام هنا ماجاء صراحة في الخطبة ١١٤ من «نهج البلاغة»: «كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سِجَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عَيَانِهِ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عَيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ».

ودليل ذلك واضح، فعالم الآخرة غاية في السعة والكبر وإذا ما قورن بالدنيا كان كالدينا بالنسبة لعالم الجنين في رحم أمه.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٤٥

القسم الثالث

إشارة

وَلَكِنَّ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ، وَأَنْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعَبْرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ، فَقَالُوا: كَلَحَتْ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ، وَخَوَتْ الْأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ الْبِلَى، وَتَكَاءَ دَنَا ضَيْقُ الْمَضْجَعِ، وَتَوَارَتْنا الْوُحْشَةُ، وَتَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ، فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُورِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوُحْشَةِ إِقَامَتُنَا؛ وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجًا، وَلَا

مِنْ ضَيْقِ مُتَسِّعًا! فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ بِعَقْدِكَ، أَوْ كَشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغَطَاءِ لَسَكَ، وَقَدِ ارْتَسَيْخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَيْكَتْ، وَاکْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَيْفَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَالَتِهَا، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقْظَتِهَا، وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحِهِ مِنْهُمْ جَدِيدٌ بَلَى سَمَّجَهَا وَسَهَّلَ طُرُقَ الْإِفَاءِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلَا قُلُوبَ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ، وَأَقْدَاءَ عُيُونٍ، لَهُمْ فِي كُلِّ فِطَاعَةٍ صِفَةٌ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ، وَغَمْرَةٌ لَا تَنْجَلِي.

الشرح والتفسير: أحوال الأموات!

شرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة، وضع الأموات ومتوسدى القبور بيان بليغ ومؤثر فقال: «وَلِئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ، وَأَنْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعَبْرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانَ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ».

ففي الواقع أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى أمرين: أن الاستخبار عنهم ليس

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٤٦

بالطرق العادية (كالبصر والسمع)، بل بطرق أعمق وأقوى من خلال بصيرة القلب وسمع العقل، كما أن تكلمهم ليس بلسان القال، بل بلسان الحال الأعمق آثاراً، فلسان القال قد يشوبه الكذب الذي لا مجال له للسان الحال.

ولنرى الآن ما يقولون بهذا اللسان؟ يشير الإمام عليه السلام إلى طبيعة كلامهم: «فَقَالُوا:

كَلَحَتْ [٣٨٥] الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ [٣٨٦]، وَخَوَتْ [٣٨٧] الْأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَبَسْنَا أَهْدَامَ [٣٨٨] الْبَلَى، وَتَكَأَدْنَا [٣٨٩] ضَيْقُ الْمَضْجَعِ، وَتَوَارَتْنا الْوُحْشَةُ، وَتَهَكَّمَتْ [٣٩٠] عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ [٣٩١]».

نعم! يتحدثون أحياناً عن مصير أبدانهم وأخرى عن مواضعهم. الأبدان الذابضة بديهة، الوجوه العابسة، ومن ثم تحللها، وبالتالي تفسخها واستحالتها إلى تراب، القبور الضيقة والمظلمة والباردة الساكنة وقد سيطرت عليهم أجواء الرعب فسادهم الصمت التام.

ثم قال: «فَأَنَمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُورِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوُحْشَةِ إِقَامَتُنَا؛ وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجًا، وَلَا مِنْ ضَيْقٍ مُتَّسَعًا!».

نعم! فالوجوه النظرة الجميلة والمعروفة والمسكن الواسعة والفارحة التي قلبت رأساً على عقب بحلول الموت، فتبدلت تلك المنازل الجميلة الفارحة إلى قبور مقفرة مظلمة، وتلك الوجوه الناعمة لم تفقد نضارتها وحيويتها فحسب؛ بل تحولت إلى أشباح موحشة.

ومن هنا قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في كلمة موجزة موقظة: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا إِلَّا وَالْقَبْرِ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٤٧

أَفْضَعُ مِنْهُ» [٣٩٢].

ثم سعى الإمام عليه السلام ليكشف لمخاطبيه أوضاعهم في القبور بعبارات حيية فقال:

«فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ بِعَقْدِكَ، أَوْ كَشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغَطَاءِ لَسَكَ، وَقَدِ ارْتَسَيْخَتْ [٣٩٣] أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ [٣٩٤] فَاسْتَيْكَتْ [٣٩٥]، وَاکْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَيْفَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَالَتِهَا [٣٩٦]، وَهَمَدَتِ [٣٩٧] الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقْظَتِهَا، وَعَاثَ [٣٩٨] فِي كُلِّ جَارِحِهِ مِنْهُمْ جَدِيدٌ بَلَى [٣٩٩] سَمَّجَهَا [٤٠٠] وَسَهَّلَ طُرُقَ الْإِفَاءِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلَا قُلُوبَ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ [٤٠١] قُلُوبٍ، وَأَقْدَاءَ [٤٠٢] عُيُونٍ».

صحيح بقبض الروح يتوقف كل شيء؛ لكنه مادام سالماً فإن له القابلية لاستعادة نشاطه لو فرض عودة الروح إليه؛ ولكن يفقد كل شيء بعد تعفنه وتلاشيته، ولذلك صرح الإمام عليه السلام: توقف الحشرات أسماعهم عن العمل والتراب أبصارهم وألسنتهم عن النظر

والنطق.

ثم أكمل كلامه بعبارة بصيغته خلاصة فقال: «لَهُمْ فِي كُلِّ فِطَاعَةٍ صِفَةٌ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ، وَغَمْرَةٌ [٤٠٣] لَا تَنْجَلِي».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٤٨

إشارة إلى أن مصيبتهم الكبرى أن هذه الأحوال لا تزول عنهم، بل تتشدد عليهم كل يوم؛ وتعاستهم أن ليس أمامهم من مستقبل واضح، وكلما تقادم عليهم الزمان كلما تأكلت أجسامهم أكثر وبلبت عظامهم.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٤٩

القسم الرابع

إشارة

فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدِي، وَأَنْبِقِ لَوْنٍ، كَانَ فِي الدُّنْيَا عَدِيَّ تَرْفِي، وَرَيْبِ شَرْفِي! يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعِيهِ حُزْنِهِ، وَيَفْرَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنَّا بَعْضَارَهُ عَيْشِهِ، وَشَحَاحَهُ بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ! فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشِ غَفُولٍ، إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ وَنَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ كَتَبٍ فَخَالَطَهُ بَثٌّ لَا يَعْرِفُهُ، وَنَجِيٌّ هَمٌّ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَدَتْ فِيهِ فَتْرَاتٌ عِلَلٌ، أَنْسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ، فَفَرَعَ إِلَى مَا كَانَ عَوْدَهُ الْأَطْبَاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوْرَ حَرَارَةٍ، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيْجَ بُرُودَةٍ، وَلَا اغْتَدَلَ بِمَمَازِجِ لَيْلِكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمِيدًا مِنْهَا كُلِّ ذَاتِ دَاءٍ؛ حَتَّى فَتَرَ مُعَلَّلُهُ، وَذَهَلَ مُمَرَّضُهُ، وَتَعَارَى أَهْلُهُ بِصَفَةِ دَائِهِ، وَخَرَسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبِرٍ يَكْتُمُونَهُ: فَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ لِمَا بِهِ، وَمَمَّنٌ لَهُمْ إِيَابُ عَافِيَتِهِ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أَسَى الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ. فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرْكِ الْأَحْبَبِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غَضَبِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ، وَبَيَسَتْ رُطُوبِيَّةُ لِسَانِهِ. فَكَمْ مِنْ مُهْمٍ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَاءِ مُؤَلِّمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَ عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظَّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ! وَإِنْ لِلْمَوْتِ لَعْمَرَاتٌ هِيَ أَفْطَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَعْرَقَ بِصِفَتِهِ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٥٠

الشرح والتفسير: عقبات الموت لاستتوعب في الالفاظ

أشار الإمام عليه السلام هذا المتكلم البليغ الفصيح الفريد، في آخر مقطع من هذه الخطبة إلى جوانب أخرى من قضية الموت ونهاية الحياة وعقباته ليوجزها في أربع مراحل فقال أولاً: «فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ [٤٠٤] جَسَدِي، وَأَنْبِقِ [٤٠٥] لَوْنٍ، كَانَ فِي الدُّنْيَا عَدِيَّ [٤٠٦] تَرْفِي، وَرَيْبِ [٤٠٧] شَرْفِي! يَتَعَلَّلُ [٤٠٨] بِالسُّرُورِ فِي سَاعِيهِ حُزْنِهِ، وَيَفْرَعُ إِلَى السَّلْوَةِ [٤٠٩] إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنَّا [٤١٠] بَعْضَارَهُ عَيْشِهِ، وَشَحَاحَهُ [٤١٢] بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ!».

وهذا الكلام إشارة دقيقة لمن اعتادوا الحياة الهانئة المرفهة والعيش الرغيد والنعمة الوافرة، الذين يسعون حين نزول المصائب الخروج من ذلك عن طريق أنواع اللعب وقد نسوا كل ما من شأنه إيقاظهم وهدايتهم وهذا بحد ذاته مصيبة عظيمة في أن يلوذ الإنسان بعوامل السكر والجهل والغفلة؛ لكن الأحداث المريرة لا تنساهم، وبالتالي فإن الأرض سوف تتلعثمهم.

نعم، «فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشِ غَفُولٍ [٤١٣]؛ إِذْ وَطِئَ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٥١

الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ [٤١٤] وَنَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ [٤١٥] مِنْ كَتَبٍ [٤١٦] فَخَالَطَهُ بَثٌّ [٤١٧] لَا يَعْرِفُهُ، وَنَجِيٌّ [٤١٨] هَمٌّ مَا

كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فِتْرَاتٌ عِلَلٌ، آتَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ».

إشارة إلى أن هؤلاء الجهال مهما سعوا للتناسي إزاء المصائب والضحك على الدوام على الدنيا فإن الدنيا هي الأخرى تضحك عليهم؛ ولكن سرعان ما يباغتهم الموت فتفنى قواهم وطاقاتهم الواحدة تلو الأخرى، فالعين تعشو وتضعف، والأذن تثقل والعظام تنحف والأعصاب تنهك وتعجز، وتهجم عليهم أنواع الأمراض فيدق العالم في آذانهم أجراس الموت. فقد أشار الإمام عليه السلام هنا في الواقع إلى انحلال قوى الإنسان أولاً، وظهور الأمراض إثر ذلك والتي تعدّ الخطوة الأولى نحو الموت.

ثم اتجه صوب الخطوة الثانية في رجوعه دائماً إلى الأطباء وتناول أنواع الدواء وانعدام تأثيرها فقال: «فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوْدَهُ الْأَطِبَاءُ مِنْ تَشْيِكِينَ الْحَارِّ بِالْقَارِ [٤١٩]، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِئْ بَبَارِدٍ إِلَّا تَوَرَّ [٤٢٠] حَرَارَةً، وَ لَسَا حَرَكَ بِحَارًّا إِلَّا هَيَّجَ بُرُودَةً، وَلَا اعْتَدَلَ بِمَمَازِجِ [٤٢١] لِنَلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٥٢

نعم! فإن حلّ الأجل زالت اسباب الصحة والسلامة ولم يعد هنالك من أثر للدواء، وعادة ماتكون نتيجته معكوسة فيعيى الأطباء وليس للمريض من سبيل سوى السير إلى الموت.

ما ورد هنا في عبارات الإمام الدقيقة إشارة للتقسيمات التي كانت متداولة في الطب القديم حيث كان الأطباء آنذاك يعتقدون بأربعة أنواع من الأمزجة: المزاج الحار، المزاج البارد، المزاج الرطب، والجاف، وهنالك أربعة أمزجة مركبة من زاوية أخرى: المزاج الحار والرطب (الذي يسمى الدموي) والمزاج الحار والجاف (الصفراوي) والمزاج البارد والرطب (البلغمي) والمزاج البارد والجاف (السوداوي).

طبعاً هذه الأمزجة إن كانت في حد الاعتدال لا تقدح بالصحة، ولأصحابها جميعاً باختلافهم الكثير حياة طيبة؛ ولكن إن غلبت إحدى هذه الأمزجة (الحرارة، البرودة، الرطوبة والجفاف) فلا مناص من التعامل بالعوامل المخالفة لإعادته إلى اعتدال المزاج؛ فالحرارة تسكن بالبرودة والبرودة تحرك بعوامل الحرارة والرطوبة توازن بالجفاف والجفاف يعدل بالرطوبة. كل هذا التأثير حين لا يختل الأمر وإلا فليس هنالك أدنى تأثير.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى المرحلة الثالثة وهي مرحلة اليأس من عودة السلامة وانتظار نهاية العمر عن قريب: «حَتَّى فَتَرَ مُعَلَّه [٤٢٢]، وَذَهَلَ مُمَرَّضُهُ [٤٢٣]، وَتَعَايَا [٤٢٤] أَهْلُهُ بِصَفَةِ دَائِهِ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ».

وكان الإمام عليه السلام كان حاضراً عند هؤلاء المرضى واسرهم فهو يتابع عن كتب حالاتهم فالطبيب يظهر عجزه والمرضى يبدى تبعه واسرته لا تدرى ما تقول للناس، إذا قالت: صحته أحسن، فذلك غير صحيح، وإذا قالت: أسوأ، فهذا متعب فلا مناص لها من الصمت وتجييب بنظرات العيون المليئة باليأس.

ثم قال عليه السلام: «وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِي [٤٢٥] خَيْرٍ يَكْتُمُونَهُ: فَفَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ لِمَا بِهِ،

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٥٣

وَمَمَّنْ لَهُمْ إِيَابٌ عَافِيَتِهِ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُدَكِّرُهُمْ أَسَى [٤٢٦] الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ».

وأخيراً بين الإمام عليه السلام رابع وآخر مرحلة حياة هذا المريض. حين يكون على اعتاب الموت والتأهب لسفر الآخرة ومغادرة هذا العالم فقال: «فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرَكَ الْأَجِنَّةَ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصْبِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِدُ فِطْنَتِهِ، وَبَيَسَتْ رُطُوبُهُ لِسَانِهِ».

ثم قال مواصلاً كلامه: «فَكَمَ مِنْ مُهَمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَاءِ مُؤَلِّمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَ [٤٢٧] عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعْظَّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ!».

نعم! وفي هذه الحالة حيث يعلم بحلول أجله ونهاية عمره يغط في التفكير في الأموال التي أخفاها أو الديون على الآخرين ويريد إبلاغها الورثة أو يريد أن يحدث أهله عن قضايا الدفن وموضع القبر فلا يسعه الكلام.

أشار ابن أبي الحديد هنا إلى قصة فيها عبرة حيث أنه شهدا آنذاك وهي أن أحدهم حضرته الوفاة فأراد الوصية فانعقد لسانه فأشار إلى القلم والدواة ليكتب فاضطربت يده فكتب كلاماً غير مفهوم حتى توفي [٤٢٨].

واختتم الإمام عليه السلام خطبته العظيمة الموقظة بهذه العبارة فقال: «وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَعَمْرَاتٍ [٤٢٩] هِيَ أَفْطَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَتَغْرَقَ بِصِفِّهِ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا».

نقل المرحوم العلامة التستري في شرحه لنهج البلاغة حديثاً عن كتاب «الكافي» عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إِنَّ فِتْيَةً مِنْ أَوْلَادِ مُلُوكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا مُتَعَبِّدِينَ وَكَانَتْ الْعِبَادَةُ فِي أَوْلَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِنَّهُمْ خَرَجُوا يَسِيرُونَ فِي الْبِلَادِ لِيَعْتَبِرُوا فَمَزُوا بِقَبْرِ عَلِيِّ ظَهْرِ الطَّرِيقِ قَدْ سَفَى عَلَيْهِ الشَّافِي، لَيْسَ يُبَيِّنُ مِنْهُ إِلَّا

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٥٤

رَسْمُهُ، فَقَالُوا: لَوْ دَعَوْنَا اللَّهَ السَّاعَةَ فَيُنْشِرُ لَنَا صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ، فَسَأَلْنَاهُ كَيْفَ وَجَدَ طَعْمَ الْمَوْتِ، فَدَعَا اللَّهَ ... فَخَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْقَبْرِ رَجُلٌ أَيْضُ الرَّأْسِ وَاللَّحْيَةِ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ التُّرَابِ فَرَعَا شَاخِصاً بَصْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا يُوقِفُكُمْ عَلَى قَبْرِي؟ فَقَالُوا: دَعَوْنَاكَ لِنَسْأَلَكَ كَيْفَ وَجَدْتَ طَعْمَ الْمَوْتِ، فَقَالَ: لَهُمْ لَقَدْ سَكَنْتُ فِي قَبْرِي تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سَنَةً مَا ذَهَبَ عَنِّي أَلْمُ الْمَوْتِ وَكَرْبُهُ وَلَا خَرَجَ مِرَارَةً طَعْمَ الْمَوْتِ مِنْ حَلْقِي ...» [٤٣٠].

تأمل: ممر يرده الجميع

قيل وقلنا كراراً إنَّ الإنسان إن شك في كل شيء ليس له أن يشك في أنه سيغادر يوماً هذه الدنيا ويشرب راغباً أو مرغماً كأس المنون. كما أن كل جنين مهما كان شكله وصورته لا بد أن يمر يوماً برحم الام ويطأ هذه الدنيا، وكل فاكهة لا بد يوماً أن تسقط من الشجرة وتقطف. والإنسان شاء أم أبي لا بد أن يشهد الموت.

فإن كان الأمر كذلك فلماذا لا يرغب البعض بسماع اسم الموت؟ لم يسعون لنسيان هذه الحقيقة التي لا تنساهم؟! والأهم من كل ذلك مقدمات الموت ونتائجه؛ فالحالات العجيبة التي رسمها المولى أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذه الخطبة بتلك الدقة كصورة حية، وصدى الموت الذي اسمعه كل إنسان مستعد لمغادرة هذه الدنيا ولاسيما من حوله، حيث يبدو أن الهدف الأصلي للإمام هو إيقاظ الغافلين وهز الثملين من الغرور والأناية والعجب والأهواء، والحق والإنصاف أن الإمام عليه السلام أعطى الكلام حقه بهذا الخصوص وقال كل ما ينبغي أن يقال بحيث لا يقرأه غافل أو جاهل إلا أيقظه وبلغ منه تأثيره.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٥٥

قال الإمام عليه السلام في حديث آخر: «مَا رَأَيْتُ إِيمَانًا مَعَ يَقِينٍ أَشْبَهَ مِنْهُ بِشَكِّ عَلَى هَذَا الْإِنْسَانِ، إِنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ يُودَّعُ إِلَى الْقُبُورِ وَيُشَيَّعُ، وَإِلَى غُرُورِ الدُّنْيَا يَرْجِعُ وَعَنِ الشَّهْوَةِ وَالذُّنُوبِ لَا يُقْلَعُ» [٤٣١].

بالمقابل نعرف أفراداً هبوا للقاء الموت وابتسموا للأجل ولم يكن لسكرات الموت عندهم من معنى وكانهم كمن يتطلع لعزير فكانت هذه حالتهم أو آخر عمرهم. والنموذج الواضح لذلك شخص الإمام عليه السلام الذي قال في كلامه المعروف في «نهج البلاغة»: «لَابُنْ أَبِي طَالِبٍ آتَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطُّفْلِ بِتَدْيِ امِّهِ» [٤٣٢].

جدير ذكره أنه ورد في الأحاديث الإسلامية أن موت المؤمن الصالح يختلف عن موت الآخرين. قال رجل للإمام الصادق عليه السلام: «صَفِّ لَنَا الْمَوْتَ» قال: «لِلْمُؤْمِنِ كَأَطْيَبِ طَيْبٍ يَشْمُهُ فَيَنْعَسُ لِطَيْبِهِ وَيَنْقَطِعُ التَّعَبُ وَالْأَلَمُ عَنْهُ وَلِلْكَافِرِ كَلْسَعِ الْأَفَاعِي وَلِبَدْعِ الْعُقَارِبِ وَأَشَدُّ» [٤٣٣].

لا شك في أن عدم تعلق المؤمن بزخارف الدنيا، وبالعكس تهافت الملحدين عليها هو الذي يؤدي إلى الاختلاف المذكور وإن كان هنالك تأثير في هذا الأمر لالطاف الله ومشاهدات المؤمن بالنسبة للنعم التي تنتظره وبالعكس مشاهدات الكافر والعذاب الذي ينتظره.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٥٧

الخطبة ٢٢٢

إشارة

قَالَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ: «يُسِّخَّ لَه فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ [٤٣٤]* رِجَالٌ لَّا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا يَنْتَعِعْنَ ذِكْرَ اللَّهِ [٤٣٥]» [٤٣٦].

نظرة إلى الخطبة

هنالك عدة أقسام مهمة في هذه الخطبة:

القسم الأول: بين الإمام عليه السلام أهمية ذكر الله في كل شيء وخاض في آثارها على روح للإنسان ونفسه ليشرحها بعبارات مؤثرة. وأشار في القسم الثاني إلى حملة الأذكار في كل عصر ومصر ومواعظه في كيفية انقاذ عباد الله من الانحراف ويضيء طرقهم بمصاييح نوره البينات.

وجرى الكلام في القسم الثالث عن صفاتهم وتوليهم عن زخارف الدنيا

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٥٨

واجتناب المعصية ومناصرة العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وشرح في القسم الرابع أحوالهم في القيامة عند نشر صحف الأعمال وحشر العباد للحساب والحديث عن حسن عاقبتهم والنتائج الباهرة لأعمالهم الصالحة.

وأمر في القسم الخامس مخاطبيه بحساب أنفسهم وإصدار الحكم على أعمالهم.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٥٩

القسم الأول

إشارة

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جَلَاءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمِعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمَعَانِدَةِ، وَمَا بَرِحَ اللَّهُ عَزَّتْ أَلَاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَرْزَمَانِ الْفَتَرَاتِ عِبَادًا نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْنِدَةِ، يُدْكِرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدْلَةِ فِي الْفَلَوَاتِ.

مَنْ أَخَذَ الْقَضِيَّةَ حَمِيدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَسَّرُوهُ بِالنَّجَاهِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِينًا وَشِمَالًا ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَدَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدْلَةً تِلْكَ الشُّبُهَاتِ.

الشرح والتفسير: أدلة السائرين على الطريق

لا بد بادئ الأمر من معرفة تفسير آية سورة النور ليتضح الكلام العميق للإمام عليه السلام في شرحه للموضوع. تحدث القرآن المجيد في الآية ٣٥ من سورة النور: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...» عن نور الله وشرحه بمثال لطيف يتضمن العديد من الأمور التعليمية ثم قال في الآيات التالية: «فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ أَنْ يُزْفَعُوا فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَاتُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» [٤٣٧].

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٦٠

من الواضح أن هؤلاء الرجال بالدرجة الأولى هم الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام ومن بعدهم المخلصين السائرين على نهجهم.

ونحوض بعد هذه الإشارة الاجمالية في شرح الخطبة، قال الإمام عليه السلام في مستهل هذه الخطبة: «إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ [٤٣٨] جِلَاءً [٤٣٩] لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ [٤٤٠]، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعُشُورَةِ [٤٤١]، وَتَنْفَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ».

نعم! هنالك آثار عجيبة للذكر إن اقترن بالفكر. فإذا ذكر الإنسان اسم الله بعظمه وعدد صفاته الجمالية والجلالية من علم وقدره وسمع وبصر ومقام الرحمانية والرحيمية ومراقبته بالنسبة لعباده، زالت عن بصيرته حجب الغفلة ورأى الحق واضحاً، وتخدم لجاجته الأهواء والشهوات فيسمع باذن روحه خطاب أولياء الله والدعاة إلى مرضاته ونتيجة ذلك الانقياد التام لأوامر الله.

ذهب بعض الشراح أو احتملوا أن المراد من الذكر في العبارة، القرآن المجيد بقرينه ما أورده القرآن بشأنه فقال: «وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ» [٤٤٢] ولكن الحق أن للذكر مفهوم عام، أحد مصاديقه البارزة الآيات الشريفة للقرآن.

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَمَا بَرِحَ [٤٤٣] اللَّهُ عَزَّتْ أَلَاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ [٤٤٤] بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٦١

أَزْمَانِ الْفِتْرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَمَتُهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بُنُورَ يَقْظَةٍ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْئِدَةِ، يُذَكَّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدْلَةِ فِي الْفَلَوَاتِ [٤٤٥].»

ربما هذا التعبير إشارة لأوصياء الأنبياء المتواجدين طيلة الفترات الزمنية ويستلهمون الحقائق الربانية عن طريق الإلهامات القلبية ويوصلونها إلى العباد.

كما يمكن أن تكون إشارة إلى الصالحين والمخلصين والعارفين والبصيرين غير الأنبياء والأوصياء الذين يعيشون بين الناس في كل زمان؛ فهؤلاء أيضاً يقفون على الصراط المستقيم بالإلهام الغيبي والتأييد الرباني ويسعون لهديته الآخرين، ولعلها تشمل الفريقين.

والتعبير «أدلة» جمع دليل إشارة إلى ما كان سائداً في الأسفار في الأزمنة الماضية، فلم تكن الطرق مشخصة آنذاك كما هي عليه اليوم، فيمر بها المسافر ويصل المقصد، ومن هنا فإن القوافل تحمل معها عارفين بالطريق حتى لا يضلوا الطريق ويطلق عليهم «الأدلة».

فهؤلاء الأولياء في الحياة الدنيا كأدلة الطريق الذين يهدون قافلة البشرية من الضلال وينقذونهم من الهلكة.

ثم قال عليه السلام: «مَنْ أَخَذَ الْقَصِيْدَ حَمِيْدُوا إِلَيْهِ طَرِيْقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيْنًا وَشِمَالًا دَمُوا إِلَيْهِ الطَّرِيْقَ، وَخَدَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ».

نعم! فهؤلاء يراقبون بنى جنسهم على الدوام؛ فيشجعون السائرين على الدرب ويشدون عزائمهم ويحذرون المنحرفين ويذمونهم ويصرخون بهم حتى لا يواصلوا طريق الانحراف فيهلكوا.

ثم قال في استنتاج لما ورد في العبارات السابقة: «وَكَاثُرًا كَذَلِكَ مَصَابِيْحُ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّةٌ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ».

نعم! فهناك الظلمات المعتمة في مسيرة الحياة الدنيا والطرق المضلة وكلاهما خطر على السالكين، ووجود أولئك الأولياء مصابيح

للدجى والأدلة على ذلك الطريق الخطير.

نغمات الولاية، ج ٨، ص: ٢٦٢

تأملان

١. ما المراد من أيام الله؟

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إلى أن أولياء الله يذكرون الناس بأيام الله. طبعاً كل الأيام هي أيام الله وكل موضع بيته وفي نفس الوقت ليس له يوم ولا بيت فهو اسمى من الزمان والمكان؛ ولكن كما سميت الكعبة كونها اعظم مركز للعبادة «بيت الله»، فإن هناك بعض الأيام الخاصة التي تلاأت لما تحمله من حوادث مهمة.

قال البعض: «أيام الله» إشارة إلى غلبة الأنبياء لجيوش الشرك والكفر. وقال البعض الآخر: أيام العبادة كأيام الشهر المبارك وأيام الحج، ما ورد في تاريخ بنى إسرائيل وموسى أنه أمر أن يذكر بنى إسرائيل بأيام الله في إشارة إلى يوم النصر على فرعون والنجاة من البحر وما شابه ذلك، ولكن جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير «أيام الله»: «يُرِيدُ بِأَيَّامِ اللَّهِ سُنَّتَهُ وَأَفْعَالَهُ فِي عِبَادِهِ مِنْ إِنْعَامٍ وَإِنْتِقَامٍ» [٤٤٦].

وطبق هذه الرواية فإن كل يوم يلمس فيه العبد نعمة من نعم الله أو ينتصف فيه من الأعداء إنما يعتبر من أيام الله.

على كل حال فإن ذكر أيام الله عامل تكامل الإيمان وآثاره حسن الشكر والتوجه إلى الله.

حتى أيام البلاء الرباني عدت في الرواية من أيام الله كما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «أَيَّامُ اللَّهِ نِعْمَاؤُهُ وَبَلَاؤُهُ وَمَثَلَاتُهُ سُبْحَانُهُ» [٤٤٧]. لا شك في أن لمفردة أيام الله في هذه الخطبة مفهوم عام يشمل كل ما ذكر سابقاً.

نغمات الولاية، ج ٨، ص: ٢٦٣

٢. الإلهامات الغيبية

العبارة «عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ وَكَلَمَتِهِمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ...» أشار فيها الإمام عليه السلام إلى رجال ألقى الله في قلوبهم نور الهدى عن طريق النجوى الفكرية والإلهامات القلبية وطرح عنهم حجب الجهل والظلمة فسعوا بما يتلقون من هدى لهداية الخلق وإرشاد ضالى سبيل الإيمان والتقوى.

فهل هؤلاء هم الأوصياء والأنبياء المعصومون عليهم السلام الذين يتلقون الحقائق من عالم الغيب عن طريق الإلهام في فترات بعثته الأنبياء، أم يشمل الصالحين من الأفراد الذين بلغوا قمة الورع والتقوى؟

أى أن قلوبهم مرتبطة بعالم الغيب كما هو به مضمون «إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا» [٤٤٨]. ومضمون «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» [٤٤٩].

والله لا يتركهم لوحدهم في الشدة كأمر موسى عليه السلام: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ...» [٤٥٠] حيث ألهمها مسير ولدها، فكيف يمكن أن يحرم من هذا الفيض سائر الصالحين، ومن هنا يعتقد بعض الأعلام بأن كل عمل مهم يصدر من تقى، أو اكتشاف يتوصل إليه عالم، إنما يتم في ظل هداية الله التكوينية والإلهامية.

فروح القدس الذى يعين بعض الأفراد مثل حسان بن ثابت والكميت حين إنشادهم لتلك الأشعار الرفيعة وينطق الشعر على ألسنتهم

[٤٥١] فليَم لا يمد سائر العشاق.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٦٥

القسم الثاني

إشارة

وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَاهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتَفُونَ بِالرَّوَاغِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقَسْطِ وَيَأْتِمُرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَكَأَنَّمَا أَطْلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبُزْخِ فِي طَوْلِ الْأَقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَانَتْهُمْ يَرُونَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ.

الشرح والتفسير: أولياء الله وأهل الذكر

لما فرغ الإمام عليه السلام من بيان آثار ذكر الله في جلاء القلوب وسعة معطياته على روح الإنسان، خاض في شرح أهل الذكر بالحق، وتطرق إلى صفاتهم الواحدة تلو الأخرى فقال «وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَاهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا».

إشارة إلى أن ذكر الله يعصم من الغرور بالماديات الزائلة للدنيا التي عبرت عن حبها الأحاديث الإسلامية أنها «رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ» [٤٥٢] ومصدر جميع المعاصي.

طبعاً هذا لا يعنى أن هؤلاء كالرهبان الملازمين للدير أو المقاطعين للدنيا الذين يولون أديارهم للحياة الاجتماعية (بقريئة العبارات القادمة) بل المراد أن هؤلاء لا تأسرهم مغريات الدنيا.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٦٦

أما ما المراد بـ «الذكر» و «الأهل»؟ هنالك تفسيران رئيسيان: أحدهما خاص والآخر عام؛ التفسير الخاص: أن المراد من الذكر، النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو القرآن وأهل الذكر «أهل البيت» والأئمة المعصومون عليهم السلام والصفات التي وردت بعد هذه العبارة في أهل الذكر تنطبق عليهم بصورة تامة.

ومفهومه العام يشمل جميع العلماء الأتقياء والمؤمنين الكمل، والصفات الواردة بعدها تنطبق عليهم.

وليس هنالك مانع من الجمع بين المعنيين؛ فمفهوم الجملة عام وأهل البيت من مصاديقها البارزة وأنصح نماذجها.

ثم بين الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه آثار ذكر الله لدى هؤلاء ضمن خمس صفات فقال: «فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ».

لا- أنهم لم يكن لديهم بيع وتجارة ولم يمارسوا الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، بل كانوا يخطون خطوات مؤثرة في هذا المجال؛ ولكن هذه الأنشطة الاقتصادية تجعلهم يغفلون عن ذكر الله ويتهاكون في الاقبال على الدنيا.

أمّا ما الفرق بين التجارة والبيع؟ يقال أحياناً النسبة بينهم العموم والخصوص المطلق وذكر البيع بعد التجارة من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأن البيع أحد أنواع الفعاليات الاقتصادية.

كما يحتمل أن تكون التجارة إشارة إلى الفعاليات الاقتصادية المستمرة ويشمل البيع الفعاليات المحدودة والزمانية؛ أى أن أهل الذكر لا يفقدون هذا ولا ذاك وفي نفس الوقت يتجلى فيها ذكر الله بصورة دائمة.

ثم أشار إلى باقى صفاتهم فقال: «يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتَفُونَ [٤٥٣] بِالرَّوَاغِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقَسْطِ وَيَأْتِمُرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٤٧

الجملة «يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ» إشارة إلى أن ذكر الله وآثاره المباركة ليست مرتبطة بيوم أو بضعة أيام من عمرهم، بل يشمل أيام حياتهم منذ الشباب حتى الكهولة والشيخوخة.

وتشير العبارات بعدها إلى أنهم لا يتخلون قط كالمتوقعين عن المسؤوليات الاجتماعية؛ بل نشطون للغاية في ميدان إرشاد الجاهل وتنبية الغافل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالنظر إلى أن العبارة وردت بصيغة الفعل المضارع والفعل المضارع يدل على الاستمرار، فهي إشارة إلى أن أعمالهم الصالحة هذه دائمة.

جدير ذكره أن الإمام بين هنا أنهم يأمرن بالمعروف ويأتمرون به وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، كما قال الإمام عليه السلام في الخطبة ١٧٥: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي، وَاللَّهِ، مَا أَحْتُكُم عَلَى طَاعَةِ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنهَاكُم عَنْ مَعْصِيَةِ إِلَّا وَأَتْنَاهِي قَبْلَكُمْ عَنْهَا». ثم خاض الإمام عليه السلام في مزيد من الشرح بخصوص أحوال أولياء الله وأهل الذكر فقال: «فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ».

نعم! فهؤلاء يرون هذا العالم بأعينهم الباصرة النافذة عالم ما بعد الموت والقيامة والبرزخ وشاهدون مصير الأخيار والأشرار.

ثم قال في إيضاح ذلك الكلام: «فَكَأَنَّمَا أَطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طَوْلِ الْأَقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا [٤٥٤]».

ثم بين نتيجة هذه المكاشفة الروحية: «فَكَشَفُوا غَطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرُونَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ».

لم يعجز أهل الدنيا العاديون عن إدراك أحوال البرزخ والآخرة بينما يشاهدنا

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٤٨

أولياء الله أهل الذكر بل يرون فيها أنفسهم؟

لأن أرواح أهل الدنيا معلقة بالدنيا فألقت حجاباً بينهم وبين العوالم الأخرى؛ أما أهل الذكر الأطهار المتحررون من تلك التعلقات

والذين جلوا أرواحهم بدوام التفكير والعبادة، أزيلت عن أعينهم تلك الحجب فانعكست فيها صور حقائق عالم البرزخ والقيامة.

هؤلاء حملة الرسائل الإلهية من ذلك العالم إلى هذا العالم، الرسائل التي تؤدي إلى يقظة الغافلين وإبصار المكفوفين.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٤٩

القسم الثالث

إشارة

فَلَوْ مَثَلْتُهُمْ لَعَقَلْتُكَ فِي مَقَامِهِمُ الْمُحْمُودَةَ، وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةَ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَابِينَ أَعْمَى إِلَيْهِمْ، وَفَرَعُوا لِمَحَاسِنِهِ أَنْفُسَهُمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أَمْرًا بِهَا فَفَضَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نُهَوُا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا، وَحَمَلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ طُهورَهُمْ، فَضَمَعُوا عَنِ الْأَسْرِ تَقْلَالَ بِهَا، فَشَجُّوا نَشِيْجًا، وَتَجَاوَبُوا نَحِيْبًا، يَعْجُونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ، لَرَأَيْتِ أَعْلَامَ هُدًى، وَمَصَابِيحَ دُجَى، قَدْ حَفَّتْ بِهَمِّ الْمَلَائِكَةِ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَفَتَحَتْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَأَعَدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدَ الْكِرَامَاتِ فِي مَقْعَدِ اطَّلَعِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَضَرَبَتْ سَعِيَّهُمْ، وَحَمِدَتْ مَقَامَهُمْ. يَنْتَسِمُونَ بِدُعَائِهِ رُوحَ التَّجَاوُزِ، رَهَائِنُ فَاقِهِ إِلَى فَضْلِهِ، وَأُسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طَوْلُ الْأَسَى قُلُوبَهُمْ، وَطَوْلُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ. لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٌ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيْقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ، وَلَا يَخِيْبُ عَلَيْهِ الرَّاعِبُونَ.

فَحَاسِبِ نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيْبٌ غَيْرُكَ.

الشرح والتفسير: مصير السائرين على الصراط

رسم الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة صورة دقيقة لحال أهل الذكر وأولياء الله، كيف يحاسبون أنفسهم ويتلافون ما بدر منهم فقال: «فَلَوْ مَثَلْتُهُمْ [٤٥٥] لِعَقَلِك فِي

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٧٠

مَقَاوِمِهِمْ [٤٥٦] الْمَحْمُودَةِ، وَمَجَالِسِهِمْ الْمَشْهُودَةَ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَائِنَ [٤٥٧] أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَّغُوا لِمَحَاسِنِهِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أَمْرًا بِهَا فَفَضَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نُهِوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا، وَحَمَلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ [٤٥٨] ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الْأَسْتِقْلَالِ بِهَا، فَنَشَجُوا نَشِيجًا [٤٥٩]، وَتَجَاوَبُوا [٤٦٠] نَحِيبًا [٤٦١]، يَعْجُونَ [٤٦٢] إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامٍ نَدَمَ وَاعْتَرَفَ».

ولما فرغ الإمام عليه السلام من ذكر حالات أولياء الله كيف يراقبون أنفسهم ويحاسبون أعمالهم وما يبذلون من ردود أفعال إزاء ما يبدر منهم من تقصير ويتأوهون إلى الله خلص إلى نتيجة ذلك فقال: «لَرَأَيْتَ أَعْلَامًا هُدًى، وَمَصَابِيحَ دُجًى [٤٦٣]، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ فِي مَقْعِدِ اطَّلَعِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِيَ سَعْيُهُمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ».

هذا القسم من كلام الإمام في الواقع جواب شرط للجمله السابقة: «فَلَوْ مَثَلْتُهُمْ...». ذكر الإمام عليه السلام هنا خمس صفات أو نتيجة مهمية لمراقبتهم تفيد الهدى وكشف الدجى. إشارة إلى أنهم ليسوا كالزهاد المعتزلين قط الذين لا يرون إلا أنفسهم، بل هم منقذو الغرقى الذين يسعون لإنقاذ الغرقى فى بحر المعاصى، وأنهم على درجة من العلو والرفعة من حيث المقام والمكانة بحيث تحفهم الملائكة وتقوم

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٧١

على خدمتهم كما ورد فى القرآن: «الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ» [٤٦٤]. وقد عمهم الأمن والسكينة بمضمون «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُذْذَبُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ» [٤٦٥]. وتنتظرهم بمضمون «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ» [٤٦٦] مقامات لا توصف من الفضل والرحمة الإلهية. حقاً حين يقرأ الإنسان هذه الكلمات العميقة المعنى كيف يبلغ أولياء الله فى ظل العبودية مقاماً لا يرى سوى الله يستغرق فى التفكير فى عظم الاستعداد الذى يملكه ولو عرف قدره وفجر استعداداه.

ثم خاض فى جانب آخر من أحوال أهل الذكر فى ارتباطهم بالله وعبادته فى الخلوات فقال عليه السلام: «يَتَنَسَّمُونَ [٤٦٧] بِدُعَائِهِ رُوحَ التَّجَاوُزِ، رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الْأَسَى [٤٦٨] قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ». إشارة إلى أنهم كلما جدوا فى الطاعة والعبودية شعروا بالتقصير أزاء عظمته الله، ومن هنا يتجهون إليه على الدوام ويلتمسون السكينة عن طريق العفو، ومن جانب آخر فإنهم لا يعولون قط على أعمالهم، بل يتكلمون على فضل الله فيثقل بهم قلوبهم ويكشف ذلك لهم عيونهم الباكية.

ثم قال عليه السلام: «لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٌ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ يَدُّ قَارِعَةٍ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَصِيْقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ [٤٦٩]، وَلَا يَخِيْبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ». إشارة إلى أنهم لا يتعلقون بأعمالهم وكل أملهم بكرم الله.

يقرعون كل باب ويأتون بكل عمل يعتقدون بأنه سبب لمرضاة الله واستئزال

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٧٢

رحمته.

إنهم يعيشون فى الواقع بين الخوف والرجاء دائماً وهو أفضل حالات المؤمن، الخوف من التقصير والأمل بفضل الله.

وفى الختام تغير لحن كلام الإمام عليه السلام عن شرح حالات أهل الذكر ليتطرق إلى موعظة عامة فقال: «فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِتَنْفِسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ».

إشارة إلى أنه ينبغي عليك أن تحاسب نفسك هنا قبل أن تحاسب في البرزخ والقيامة من جانب الملائكة فإن بدر منك خطأ تلافيته وإن كان لك عمل صالح حمدت الله عليه؛ وليس لك أن تدقق في أعمال الآخرين الصغيرة والكبيرة فإن لهم حسيباً غيرك. فهنالكَ في الواقع رسالتان في العبارة الأخيرة؛ إحداهما، رسالته الحديث المعروف «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا» [٤٧٠]. والأخرى، رسالته الآية الشريفة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» [٤٧١].

تأمل: ذكر الله والذاكرون

كل ما ورد في هذه الخطبة الغراء والعظيمة المضمون كان شرحاً لعبارة من آية في القرآن الكريم وهي أن أولياء الله لا يغفلون قط عن ذكر الله لمتاع الدنيا، فبور الله يسطع في بيوتهم وهم كالنجوم التي تهدي الخلق في ظلمات البر والبحر. بغض النظر عن أن للذكر ثلاث مراحل: الذكر القلبي، واللساني والذكر بالعمل، فهنالكَ مصاديق متفاوتة لكل مرحلة كالنور الذي يشمل نور الشمس ونور الشمعة.

ويكون أحياناً هذا الذكر محدوداً بحيث لا يضيئ أكثر من الوسط، وأخرى على

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٧٣

درجة من العمق والسعة بحيث يضيئ العالم.

وأولى القرآن أهمية فائقة للذكر والذاكرين. فقد خاطب الله تعالى موسى عليه السلام:

«أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» [٤٧٢].

وقال أيضاً: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ» [٤٧٣].

وقال بخصوص الخمر: إنه نهى عن الخمر كونه يصد عن ذكر الله: «وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» [٤٧٤].

كما يقول إن نفوذ الشيطان يبدأ حين يغفل الإنسان ذكر الله: «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» [٤٧٥].

وأوجز تعالى كل عظمة القرآن في عبارة فقال: «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» [٤٧٦].

وقال تعالى: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» [٤٧٧].

وأخيراً وصف ذكر الله أنه وسيلة لاطمئنان القلوب: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» [٤٧٨].

ورغم أن للذكر معاني مختلفة في هذه الآيات؛ لكنها تشترك جميعاً في أمر هو أنه يسوق الإنسان إلى الله، يجري من القلب على اللسان ويتسع من اللسان لجميع أعمال الإنسان. وكأن جميع الأعضاء تذكّر الله بصوت بليغ في كل الأعمال.

كما وردت الأهمية الفائقة للذكر والذاكرين في الروايات:

منها ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ حَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٧٤

إِلَّا الذِّكْرَ فَلَيْسَ لَهُ حَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ» [٤٧٩].

كما ورد عنه عليه السلام أيضاً: «مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي جَنَّتِهِ» [٤٨٠].

ويستفاد من بعض الروايات أن ذكر الله يدفع أنواع البلاء. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ الصَّوَاعِقَ لَا تُصِيبُ ذَاكِرًا» [٤٨١].

بل أبعد من ذلك أنه عليه السلام قال: «مَا مِنْ طَيْرٍ يُصَادُ إِلَّا بَتَرَكَ التَّشْبِيحِ وَمَا مِنْ مَالٍ يُصَابُ إِلَّا بَتَرَكَ الزَّكَاةِ» [٤٨٢].

زبدة الكلام أن الآيات والروايات في ذكر الله وأهميته وآثاره على الحياة المادية والمعنوية والدنيا والآخرة كثيرة، وما ورد سابقاً هو جانب من ذلك.

ونختتم هذا الكلام برواية عن الإمام الصادق عليه السلام التي بينها في تتمه حديث، عدم محدودية الذكر فقال: «كَانَ أَبِي كَثِيرَ الذِّكْرِ لَقَدْ كُنْتُ أَمْشِي مَعَهُ وَإِنَّهُ لَيَذْكُرُ اللَّهَ وَأَكُلُ مَعَهُ الطَّعَامَ وَإِنَّهُ لَيَذْكُرُ اللَّهَ وَلَقَدْ كَانَ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ وَمَا يَشْغُلُهُ ذَلِكَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...» [٤٨٣].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٧٥

الخطبة ٢٢٣

إشارة

قاله عند تلاوته:

«يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» [٤٨٤] [٤٨٥]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة الواردة في تفسير الآية الشريفة: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» من عدة أقسام: القسم الأول: تساءل الإمام ووبخ صحبه ومخاطبيه من أجل إيقاظهم وبث الوعي بين صفوفهم فإلى متى هم نائمون ولم لا يفتقون من هذا السبات؟ لم لا يرحمون أنفسهم وينقذونها ممّا تغط به في مستنقع الذنوب والمعاصي ويطلبون جروحهم وآلام قلوبهم التي أفرزتها الآثام.

ودعا في القسم الثاني هذا الإنسان الهارب لمحاكمة نفسه. فيذكرها بنعم الله فلو

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٧٦

تفرغ لمحاكتها لأدان نفسه قطعاً.

وتحدث في القسم الثالث عن تقلب أوضاع الدنيا والاعتبار بحياة الماضين ومماتهم. وحذّر في آخر قسم ببضع عبارات موجزة فناء الدنيا وقيام القيامة وحضور محكمة العدل الإلهي وغياب الأعداء هناك.

ثم جعل كل هذه التذكيرات والتحذيرات وسيلة لخرق حجاب الغرور الذي أشار إليه في الآية المذكورة.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٧٧

القسم الأول

إشارة

أَذْحَضُ مَسْئُولٍ حُجْبَةً، وَأَقْطَعُ مُعْتَرِّ مَعْدِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ.

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ، وَمَا أَنْسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ؟ أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقْظَةٌ؟

أَمَا تَزَحَّمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَزَحَّمُ مِنْ غَيْرِكَ؟ فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَى الْمُتَبَلِّئِي بِأَلَمِ يُمِضُ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ! فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ، وَجَلَّدَكَ عَلَى مُصَابِكَ، وَعَزَّاكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وَهِيَ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ! وَكَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مِدَارِجِ سَطَوَاتِهِ! فَتَدَاوِ مِنْ دَاءِ الْفُتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ، وَمِنْ كَرَى الْعُقْلَةِ فِي نَاطِرِكَ بِبِقْظَةٍ، وَكُنْ لِلَّهِ مُطِيعًا، وَبِدْرِكِهِ آنِسًا.

الشرح والتفسير: الرحمة بالنفس؟

قال الإمام عليه السلام في مستهل الخطبة على ضوء الآية المذكورة «أَدْحَضُ [٤٨٦] مَسْؤُولٍ حُجَّةً، وَأَقْطَعُ مُعْتَرٍّ مَعْدِرَةً، لَقَدْ أُبْرِحَ [٤٨٧] جَهَالَهُ بِنَفْسِهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى هذه النقطة وهي أن الله يصرح في هذه الآية:

لقد أفاض الله عليك كل هذا الكرم بالنعم المادية والمعنوية من رأسك إلى أخمص قدمك ومازلت مغروراً وعاصياً ومتمرداً؟! فليس لديك أدنى حجة وليس لديك من

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٧٨

عذر وعملك يدل على أنك لم تعرف نفسك.

ومن هنا يتضح خطأ من ذهب إلى أن صفة الكرم في الآية لتلقين المخاطب بأن يقول في الجواب: «عزني كرمك»، بل يريد أن يقول بالعكس رغم كل هذا الكرم واللطف مع كل هذا العصيان المخجل الذي يفتقر إلى العذر والحجة، لذلك ورد في الحديث النبوي أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لما تلا الآية قال: «عزّه جهلّه» [٤٨٨].

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح هذا الكلام ليسلط بهذه العبارات سوط ملامته وتوبيخه على جسد أرواحهم الهامدة عليهم فيقول ويعودوا عن غيهم فقال: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ، وَمَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ، وَمَا أَنْسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ؟».

إشارة إلى أن غريزة حب الذات في الإنسان أقوى الغرائز؛ فالإنسان بصورة طبيعية يحب نفسه أكثر من أي شخص آخر وإذا رأينا شخصاً يطعن صدره وعضده لدهلنا وتساءلنا مع أنفسنا: هل أصيب بالجنون، أو يرغب شخص عاقل بهلاك نفسه؟ فإن لم تكن للإنسان أدنى رغبة بهلاك نفسه فلم يتقبل الغرور والذنب والمعصية التي تؤدي إلى هلاكه؟!.

ثم قال عليه السلام: «أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ [٤٨٩]، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقْظَةٌ؟ أَمَا تَزَحَّمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَزَحَّمُ مِنْ غَيْرِكَ؟».

ثم أوضح هذه الحقيقة بذكر مثال فقال: «فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ [٤٩٠] مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَى الْمُتَبَلِّئِي بِأَلَمِ يُمِضُ [٤٩١] جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ! فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ، وَجَلَّدَكَ [٤٩٢] عَلَى مُصَابِكَ، وَعَزَّاكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وَهِيَ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ!».

إشارة إلى ما نراه من تناقض في فعل الآخرين وازدواج في أحكامهم فهم يبدون

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٧٩

أشد ردود الأفعال إزاء انزعاج الآخرين وسقم المرضى وأحياناً تسيل الدموع من أعينهم في حين مرضهم أشد ومصيبتهم أعظم ولا يبدون أي رد فعل.

أراد الإمام عليه السلام بهذا البيان المنطقي البليغ أن يوقظ هؤلاء الغافلين الجهال والسادجين ويلفت انتباههم إلى ما ينتظرهم من مصير خطير لعلمهم يتوبون وينيبون إلى الله.

ثم قال عليه السلام: «وَكَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ [٤٩٤] بِمَعَاصِيهِ مِدَارِجِ سَطَوَاتِهِ [٤٩٥]! فَتَدَاوِ مِنْ دَاءِ الْفُتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ، وَمِنْ كَرَى [٤٩٦] الْعُقْلَةِ فِي نَاطِرِكَ بِبِقْظَةٍ».

هنالك أمران ضروريان للخلاص من الخطر: اليقظة والحذر من جهة والإرادة والعزم الراسخ من جهة أخرى وقد أشار الإمام إلى

هذين الأمرين بهذه العبارة الموجزة فحذر الجهال بأن يفيقوا من سبات الغفلة ويعقدوا العزم مادامت الفرصة سانحة على خلاص أنفسهم من مخالب المعاصي التي توجب نيران الغضب الرباني.

التعبير «بَيَاتِ نِقْمَةٍ» كون ضحايا البلاء النازل ليلاً أكثر؛ من قبيل الزلازل والسيول والعواصف التي تحدث ليلاً ويغط الناس في النوم ولا يملكون من وسيلة للدفاع عن أنفسهم.

قال تعالى في القرآن المجيد: «أَفَأَمِّنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ* أَوْ أَمِّنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ» [٤٩٧].

وقال في ختام هذه الفقرة: «وَكُنْ لِلَّهِ مُطِيعًا، وَبِذِكْرِهِ آتِسًا».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٨١

القسم الثاني

إشارة

وَتَمَثَّلُ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهِ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلَىٰ عَفْوِهِ، وَيَتَعَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلِّئٌ عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَتَعَالَىٰ مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِي كَنْفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ. فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلُهُ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخُلْ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصِيرُفُهَا عَنْكَ! فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطْعَمْتَهُ! وَأَيُّمَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصَّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقِينَ فِي الْقُوَّةِ، مُتَوَازِينَ فِي الْقُدْرَةِ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حِرَاكِمٍ عَلَىٰ نَفْسِكَ بِبَدْمِيمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَسَاوِيءِ الْأَعْمَالِ.

الشرح والتفسير: رحمة الله ومعصية العبد!؟

دعا الإمام عليه السلام الناس في هذا الجانب من الخطبة إلى الحكم على أنفسهم وعدد أدلة إدانته، ومن ذلك أنه يحث الخطي دائماً في طريق العصيان من جهة ومن جهة أخرى يمطره الله بوابل فضله ورحمته فقال: «وَتَمَثَّلُ [٤٩٨] فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهِ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلَىٰ عَفْوِهِ، وَيَتَعَمَّدُكَ [٤٩٩] بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلِّئٌ عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ».

حقاً إنه لمن المؤسف والمخجل أن يكون مولى الإنسان كريماً يغذيه بأنواع النعم لكنه يتولى عنه دائماً؛ الأمر الذي لا يقبله أى وجدان.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٨٢

وهذا ما نقرأه في دعاء الافتتاح في شهر رمضان المبارك: «يَا رَبِّ، أَنْكَ تَدْعُونِي فَأَوْلَىٰ عَنكَ، وَتَتَحَبَّبُ إِلَيَّ فَاتَّبَعُضُ إِلَيْكَ، وَتَتَوَدَّدُ إِلَيَّ فَلَا أَقْبَلُ مِنْكَ، كَانَ لِي التَّطَوُّلُ عَلَيْكَ، فَلَمْ يَمْنَعْكَ ذَلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ لِي وَالْإِحْسَانِ إِلَيَّ، وَالتَّفَضُّلِ عَلَيَّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ». ثم قال: «فَتَعَالَىٰ مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِي كَنْفِ [٥٠٠] سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ!».

إشارة إلى أنه ليس من العجب أن يعتمد الأفراد الأقوياء أسلوب العنف. والعجب أن يسلك الفرد الضعيف والذليل العاجز هذا الطريق؛ إلا أن الله بكل تلك القدرة العظيمة هو منتهى الحب والرافة بينما يبدي هذا الإنسان بكل هذا الضعف والعجز كل هذه الجراءة على المعصية في حين لا يمسك عنه فضله ورحمته وهذا عجيب حقاً!

ثم قال عليه السلام: «فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلُهُ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخُلْ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ [٥٠١] فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئَةٍ يُحْدِثُهَا عَلَيْكَ».

يَسْتُرُّهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلَّيْتَهُ يَصْرِفُهَا عَنْكَ! فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ!».

إشارة إلى أن الإنسان لا يخلو من ثلاث حالات: إما مشمول بنعمة لا بد أن يؤدي شكرها، أو ارتكب معصية سترها الله وعليه أن يمتن لذلك الستر ويستغفر أو دفع عنه بلاءً وينبغي له أن يعرف قيمة هذه النعمة، هذا بينما من يسير في طريق العصيان لا يكثر لأوامر الله ونواهيها، فما عساه أن فكر بأن الله الرحيم والغايء في الكرم كيف سيجازيهم إن أطاعوه، وهذه هي مسألة «وجوب شكر المنعم» التي يمكنها أن تكون دافعاً لمعرفة الله كما يقول علماء العقائد.

آنذاك نظر الإمام إلى هذه المسألة من زاوية أخرى فخاض في بيان آخر لا يقاط

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٨٣

مخاطبيه فقال عليه السلام: «وَأَيْمُ اللَّهِ ٥٠٢] لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصَّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقِينَ فِي الْقُوَّةِ، مُتَوَازِينَ فِي الْقُدْرَةِ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِدَمِيمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَسَاوِيءِ الْأَعْمَالِ».

ذهب بعض شراح «نهج البلاغة» إلى أن العبارة السابقة بصيغته صغرى وكبرى من الشكل الأول من القياسات المنطقية؛ ولكن الظاهر أن سياق العبارة ناظر لقياس الأولوية؛ أى أن فردين متساكين لا يخشيان بعضهما عادة، مع ذلك إن كان أحدهما يحسن دائماً والآخر يسيئ فإن وجدان الفرد الثانى يدينه ويتهمه بسوء الخلق. فإن كانت هذه المسألة بين أحد غايئه فى العظمة وآخر غايئه فى الصغر بحيث ليست هنالك من حاجة وخوف وخشية فى لطفه ورحمته من جهة ومن جهة أخرى كله حاجة وخشية من العقاب على المعاصى، قطعاً على ذلك الفرد الصغير فى ظل تلك الظروف أن يلوم نفسه لِمَ الفعل المخجل إزاء كل هذا الكرم.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٨٥

القسم الثالث

إشارة

وَ حَقًّا أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلَكِنْ بِهَا اغْتَرَزْتَ، وَقَدْ كَاشَفَتْكَ الْعِظَاتِ، وَآذَنْتَكَ عَلَى سَوَاءٍ، وَلَهِيَ بِمَا تَعَدُّكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ، وَالنَّفْصِ فِي قُوَّتِكَ، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ، أَوْ تَعْرَكَ. وَلَرَبِّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ، صَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكْذَّبٌ، وَلَيْتَن تَعَرَّفَتْهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ، وَبَلَاغِ مَوْعِظَتِكَ، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ، وَالشَّحِيحِ بِكَ! وَلِعَمَّ دَارٌ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَارًا، وَمَحَلٌّ مَنْ لَمْ يُوطَّنْهَا مَحَلًّا! وَإِنَّ السُّعْدَاءَ بِالدُّنْيَا عَدَا هُمْ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ.

الشرح والتفسير: الدنيا أعظم واعظ

لما كان أغلب المتهافتين على الدنيا يحملون الدنيا مسؤوليه معاصيهم لإبراء أنفسهم ويعدون زخارف الدنيا ونعمها المادية سبب إثمهم فإن الإمام رد عليهم فى هذا الجانب من الخطبة فقال: «وَ حَقًّا أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلَكِنْ بِهَا اغْتَرَزْتَ».

ثم خاض فى بيان دليل ذلك الكلام فقال: «وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ الْعِظَاتِ ٥٠٣]، وَآذَنْتَكَ ٥٠٤] عَلَى سَوَاءٍ».

إشارة إلى أن الدنيا ليست غرارة فحسب، بل تقع فيها أحداث موقظة، والإمام

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٨٦

خاض فى العبارات الآتية فى شرحها قائلاً: «وَلَهِيَ بِمَا تَعَدُّكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ، وَالنَّفْصِ فِي قُوَّتِكَ، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ، أَوْ تَعْرَكَ. وَلَرَبِّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ، وَصَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكْذَّبٌ».

إشارة إلى أن الدنيا عندما تصيبك بأنواع البلاء والمصائب والأحداث الأليمة وتغير القدرة، وهى صادقة ولا يصح وصفها بالخداع كما

صدق من أخيرك من أولياء الله والصالحين عن غدر الدنيا وتقلب أحوالها وإن لم يكن كلامهم موافقاً لهوى نفسك؛ فلم تقبل لسان حال الدنيا ولا لسان حال أولياء الله واتهمت الجميع بالكذب، وعليه فهذا أنت من غرّ نفسه.

كما يحتمل أن يكون تفسير العبارة الأخيرة، أن الناصح هو الحوادث الأليمة وأخبار الصدق علامات غدر الدنيا التي يراها الإنسان بعينه ويسمعها بأذنه؛ ولكنّها حيث لا تتفق وأهوائه فإنّه يكذبها جميعاً ويقول هي مجرد حادثه صدفه فزالت ولن تتكرر.

ثم وضع أكثر هذه الحقيقه وجعلها معلومه للجميع فقال: «وَلَيْتَن تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ [٥٠٥]، وَالرُّبُوعِ [٥٠٦] الْخَالِيَةِ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذَكِيرِكَ، وَبَلَاغِ مَوْعِظَتِكَ، بِمَحَلِّهِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ، وَالشَّحِيحِ [٥٠٧] بِكَ!».

ثم قال في آخر عبارة: «وَلِنَعْمَ دَارٌ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَارًا، وَمَحَلٌّ مَنْ لَمْ يُوطَّئْهَا مَحَلًّا! وَإِنَّ السُّعْدَاءَ بِالدُّنْيَا غَدًا هُمْ الْهَارِيُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ». إشارة إلى أن الأفراد المؤمنين واليقظين يسعهم أن يجعلوا من هذه الدنيا المليئة بالشر والمفعمة بالغرور والخداع وسيلة لسعادتهم الأبدية وسلماً لبلوغ المقامات

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٨٧

الرفيعة، بحيث تكون نظرتهم إلى الدنيا بخلاف نظرة المتعلقين بها فهي نظرة إلى الممر أو السلم؛ فأولئك الذين يهربون من زخارفها ويتنفعون بطبيعتها للقرب من الله، ومن هنا يتضح الفارق بين الدنيا الممدوحة والمذمومة كما سيرد في مبحث التاملات.

تأمل: الدنيا الممدوحة والمذمومة

وصف الإمام عليه السلام الدنيا في العبارات السابقة بالواعظ الحريص والمخبر الصادق والوفى والتي أفصحت عن تقلبها من خلال تقلباتها السريعة وأحداثها وآفاتاها المختلفة وحذر الجميع من التعلق بها وإنما عليهم التزود منها.

نقحات الولاية؛ ج ٨؛ ص ٢٨٧

لأكثر صراحة من ذلك ما ورد في قصار كلماته بشأن الدنيا حيث قال:

«مَسَّ جِدُّ أَحِبَاءِ اللَّهِ» وَ«مَنْ جُرَّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ»، «وَمَهْبُطٌ وَحَى اللَّهِ»، «وَمُصَيَّمِي مَلَائِكَةِ اللَّهِ»، «دَارٌ عَاقِبِيَةٌ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا ... وَدَارٌ مَوْعِظَةٌ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا» [٥٠٨].

هذا في الوقت الذي ذمّت الدنيا بشدّة في خطب متعددة من «نهج البلاغة» والعديد من الروايات: «دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَخْضُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ» [٥٠٩]، «مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا وَالسَّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا» [٥١٠].

ثم حذر في عبارة أخرى من الدنيا فقال: «تَعُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ» [٥١١].

وطلاق الدنيا ثلاثاً من جانب الإمام عليه السلام لمساوئها وقبائحها، معروف اشير له في قصار الكلمات ضمن عبارات موقظة [٥١٢].

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٨٨

وأبعد من ذلك آيات القرآن المجيد التي ذمّت الدنيا بشدّة ومنها ما ورد في سورة الزخرف: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ» [٥١٣].

وإن رتبنا هذه الآيات والروايات مع بعضها لورد هذا السؤال: إن كانت الدنيا بكلّ هذا الحسن، فلم كانت سيئته لهذا الحد، وإن كانت سيئته فلم هذا الحسن؟

يكمن الجواب في عبارة: أن الاختلاف نتيجة لاختلاف الرؤى.

والذين يكتفون بالنظر الظاهري وأصحاب الدنيا من ذوى النظرة الضيقة والسطحية لا يرون سوى زخارف الدنيا وزينتها وملذاتها فيتعلقون بها، والدنيا خطيرة للغاية على هذه الفئة، ولما كانت هذه الفئة تشكل الأكثرية، كانت هنالك الكثير من الآيات والروايات

التي تدم الدنيا ولذلك يهتف القرآن: «فَلَا تَعْرُزْنَكَمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْزُّنَكُمُ بِاللَّهِ الْعَزُورُ» [٥١٤] الجدير بالذكر أن الدنيا الغرور في هذه الآية عدت في مصاف الشيطان المكار (لأن المراد من الغرور في هذه الآية هو الشيطان).

أمّا أهل البصائر والمؤمنون الصالحاء والعقلاء الذين ينظرون ببصرهم الحاد إلى باطن الدنيا ويرون بأفهامهم البعيد بدايتها ونهايتها وتتجسد لهم عاقبة الأسلاف وتاريخهم ويضعون مصير الفراعنة والعمالقة والأباطرة نصب أعينهم يسمعون بأذان أرواحهم رسائل الوعظ الديني المشفق ويعتبرون بتلك الدروس؛ فيستبدلون الدنيا بجماعة لكسب المعارف الربانية ومتاجر للتزود وحمل المتاع ومعد رائع للعروج إلى ساحة القرب الربوبي.

وزبدة الكلام فإن الدنيا حسب قول أمير المؤمنين علي عليه السلام في إحدى الخطب:

«مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصْرَتَهُ وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتَهُ» [٥١٥].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٨٩

القسم الرابع

إشارة

إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ، وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا الْقِيَامَةُ، وَلِحَقِّ بِكُلِّ مَنْسِكٍ أَهْلُهُ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عِبَادَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ فِي عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرَقَ بَصْرٍ فِي الْهُوَاءِ، وَلَا هَمْسٌ قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَكَمْ حُجَّةً يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةً، وَعَلَانِقٍ عُدْرٍ مُنْقَطِعَةً!

فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُدْرُكَ، وَتَثَبَّتْ بِهِ حُجَّتُكَ، وَخُذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ، وَتَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ؛ وَشِمَّ بَرَقَ النَّجَاهِ؛ وَارْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ.

الشرح والتفسير: الاستعداد لسفر الآخرة

أشار الإمام عليه السلام في آخر جانب من هذه الخطبة بالالتفات إلى الإشارة في العبارة السابقة إلى عالم الآخرة إلى محكمه العدل الربانية في عالم الآخرة فذكر بعض الأمور الدقيقة وقال: «إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ» [٥١٦]، وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا [٥١٧] الْقِيَامَةُ، وَلِحَقِّ بِكُلِّ مَنْسِكٍ [٥١٨] أَهْلُهُ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عِبَادَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ [٥١٩] فِي عَدْلِهِ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٩٠

وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرَقَ بَصْرٍ فِي الْهُوَاءِ، وَلَا هَمْسٌ [٥٢٠] قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ.

وكلام الإمام يؤكد على أمرين: الأول أن كل طائفة تلحق ذلك اليوم بإمامها ومعبودها ومطاعها وما كان في هذه الدنيا سيتجسم هناك قطعاً حتى ورد عن الإمام الرضا أنه قال: «فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا أَحَبَّ حَجْرًا لَحَسَرَهُ اللَّهُ مَعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [٥٢١] ومن قبل صرح القرآن قائلاً: «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ* مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ» [٥٢٢].

والآخر: أن حساب الله ذلك اليوم على درجة من الدقة والعدل المطلق بحيث لا يغادر ذرة من ذنب أو خطوة من باطل على الأرض فالويل للآثمين والظلمة والمدننين!

طرح هنا بعض شراح «نهج البلاغة» سؤالاً: إن لحق ذلك اليوم كل عابد بمعبوده ومطيع بمن أطاع، فلا بد أن تلحق النصارى بالمسيح، والغلاة بأمر المؤمنين وعبدة الملائكة بهم، وفي ذلك سرورهم طبعاً؟

أجاب القرآن المجيد عن هذا السؤال فقال: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ» * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا».

وقال إثر ذلك: «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا» [٥٢٣].

نعم! لعلهم يلحقون لولا أن تبرأ أئمتهم منهم؛ وعليه واستناداً لهذه البراءة فسوف

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٩١

لن يلتقوا بهم قط.

ثم حذر أولئك الذين يبرئون أنفسهم في هذه الدنيا بالأدلة الواهية والأعذار التافهة أن الأمر ليس كذلك في الآخرة فقال: «فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاخِضَةٌ [٥٢٤]، وَعَلَائِقُ [٥٢٥] عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ!».

إشارة إلى أنه يتضح ويظهر كل شيء في ذلك اليوم وليس هنالك من قيمة للأعذار الواهية في ظل تلك الأجواء.

قال القرآن المجيد بشأن المكذبين بآيات الله: «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» [٥٢٦].

ثم أشار في ختام الخطبة - بعنوان استنتاج عملي واضح - إلى سبيل الخلاص ضمن خمس عبارات موجزة وعميقة المعنى فقال:

«فَتَحَرَّ [٥٢٧] مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ، وَتَثَبَّتْ بِهِ حُجَّتُكَ».

وقال في السبيل الثاني: «وَحُذِّدْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ».

المراد من «مِمَّا يَبْقَى لَكَ» النعم الأبدية يوم القيامة أي الأعمال الصالحة، والمراد من «مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ» نعم الدنيا التي يتركها الإنسان ويمضي.

وقال في الثالث: «وَوَيْسَرْ لِسَفْرِكَ».

والذي قال فيه الله: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» [٥٢٨].

وقال في الرابع: «وَوَشِمْ [٥٢٩] بِزَقِ النَّجَاةِ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٩٢

وقال أخيراً: «وَأَرْحَلْ مَطَايَا [٥٣٠] التَّشْمِيرِ [٥٣١]».

وخلاصة الكلام فإن الإمام أبان سبيل النجاة من مخالب أخطار الدنيا والآخرة في هذا السفر المنتظر وذكر المواعظ بشأن زاد السفر

ومتاعه والالتفات إلى علائم الدليل ومن ثم إعداد أعذار التقصير وأسباب الزلل والخطأ، فمثل هذا المسافر لا يضل الهدف ولا يتوقف

حين يبلغ: «بلى يا زهري ليس ما ظننت ولكِنَّ المَوْتَ وَلَهُ كُنْتُ اسْتَعِدُّ وَإِنَّمَا الِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ تَجَنَّبِ الحَرَامِ وَبَدَّلِ النَّدَى وَالْخَيْرِ» [٥٣٢].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٩٣

الخطبة ٢٢٤

إشارة

يَتَبَرَّأُ مِنَ الظُّلْمِ [٥٣٣]

نظرة إلى الخطبة

قال بعض الشراح أن الإمام علياً عليه السلام قال هذا الكلام لما اعترض عليه بعض أصحابه قائلين: إن معاوية جمع الناس حوله بما

يبدل لهم من بيت المال فلو فعلت لرضى الناس وتوكلوك، فغضب الإمام وصرح بأننى ... هذا الكلام الذى يتألف فى الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذى استهله ببحث كلى جامع وقارع فى البراءة من الظلم والجور وقال لست مستعداً لأدنى ظلم وجور وإغصاب الله وإسخاطه.

وخاض فى القسم الثانى فى بيان أحد المصاديق الواضحة لذلك المطلب وبين فقر عقيل وما كان يطلب بغير حق من بيت المال وكيف أجابه بالحديدة المحمأة.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٩٤

وذكر فى القسم الثالث مصداقاً حياً آخر عن براءته من الظلم والجور فتطرق إلى قصة الأشعث بن قيس المناق والحلوى الملفوفة. واختتم الكلام بعبارات بليغة وفريدة فى إعلان براءته من الظلم والجور وهضم حقوق الآخرين.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٩٥

القسم الأول

إشارة

وَاللَّهِ لَئِنْ آيَّتْ عَلَى حَسْكَ السَّعْدَانِ مَسِيَّهَدًا، أَوْ أُجْرَ فِي الْأَغْلَالِ مُصِيدًا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِبًا لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَدًا لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبَلَى قُفُولَهَا، وَيَطُولُ فِي التَّرَى حُلُولَهَا؟!

الشرح والتفسير: إنكاتب الظلم

كما اشير فإن بعض أصحاب الإمام عليه السلام قالوا للإمام: إنك عمد العدالة وتساوى بين الصغير والكبير إلا أن جماعة نقموا عدالتك بينما يغدق عليهم معاوية الأموال والهدايا حتى التحق به جماعة كثيرة فهلا قربتهم بالأموال. فأجابهم الإمام عليه السلام بكلام بعضه هذه الخطبة موضوع البحث [٥٣٤].

يستفاد من هذا الكلام مدى نعمة الإمام عليه السلام من هذا الانحراف الفكرى الذى أصاب جماعة من خاصته، لذلك سعى لإزالة هذه الثقافة الجاهلية الفاشلة من أفكارهم التى يتبناها اليوم بعض الساسة المحترفين بايضاحات قاطعة وذكر الشواهد وأمثال ذلك ويستبدلها بثقافة القرآن والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله التى تشد بسط العدل والقسط تجاه الجميع فقال: «وَاللَّهِ لَئِنْ آيَّتْ عَلَى حَسْكَ [٥٣٥] السَّعْدَانِ [٥٣٦] مُسَهَدًا [٥٣٧]،

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٩٦

أَوْ أُجْرَ فِي الْأَغْلَالِ مُصِيدًا [٥٣٨]، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِبًا لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ [٥٣٩]». أسوأ العذاب بالنسبة للإنسان أن ينام على أشواك السعدان (الأشواك الثلاثية أطرافه على الأرض وطرفه الحاد إلى الأعلى) ويقيدون يده ورجله فى النهار ويجر فى السوق والشارع.

وقد أقسم الإمام عليه السلام بالله بكل حزم فقال: تحمل هذا العذاب أهون على من أن ألقى الله وأنا ظالم لبعض العباد وغاصب لشيء من حطام هذه الدنيا الزائلة فذلك العذاب ابدى وعذاب هذه الدنيا عابر مهما كان، فكيف تتوقعون أن أسلك طريق معاوية

الذى لا يقيم وزناً لحساب الآخرة. فأترك الشريعة وألجأ إلى الشرك والجاهلية.

ثم قال عليه السلام: «وَكَيْفَ أَظْلِمَ أَحَدًا لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبَلَى قُفُولُهَا» [٥٤٠]، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى [٥٤١] حُلُولُهَا؟!».

إشارة إلى أن أى عقل لا يقبل بهذا المنطق فى أن يضحى الإنسان بالسعادة الأبدية من أجل السعادة العاجلة وأولئك الذين لهم هذه الممارسات كمعاوية وبطانته على خطأ عظيم.

وهكذا يريق الإمام عليه السلام الماء الطاهر فى يد من اقترح عليه الظلم واعتقد بأن الغاية تبرر الوسيلة فقد يئس أولئك الذين يظنون أنهم قادرون على تغيير نهجه العادل الشاق للغاية.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٩٧

لا ينبغي أن ننسى أن عهد خلافة الإمام الظاهرية وبمنتهى الأسف، إنما ابتدأت حين اعتاد المسلمون بكرم عثمان على طريقه حاتم الطائي من بيت المال والتميز البغيض والذى أدى بالتالى إلى الخروج عليه وسار معاوية على نهجه، غير أن الإمام عليه السلام كان يسعى لإعادة الأمة إلى عصر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

ورغم عدم تحقيق هذا المشروع، النتيجة التامة؛ لكنه انطوى على فائدة مهمة حفظت الرسالة الإسلامية الأصلية وفضحت المنحرفين.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٩٩

القسم الثانى

إشارة

وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتَ عَقِيلًا وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِى مِنْ بُرْكُمْ صَاعًا، وَرَأَيْتَ صَبِيَانَهُ شُعْتَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُودَتْ وَجُوهُهُمْ بِالْعِظْلَمِ، وَعَاوَدَنِى مُؤَكِّدًا، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّدًا، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِى، فَظَنَّ أَنِّى أبيعُهُ دِينِى، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا طَرِيقَتِى، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَذْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيُعْتَبَرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيحٌ ذِى دَنْفٍ مِنْ أَلْمَهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مَيْسِمَهَا، فَقُلْتُ لَهُ: تَكَلَّمْتُكَ التَّوَكُّلُ، يَا عَقِيلُ! أَتَنْتُ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلْعَبِيهِ، وَتَجْرُنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَارُهَا لِعُصْبِهِ! أَتَنْتُ مِنَ الْأَذَى وَلَا أَتْنُ مِنَ لَظَى؟!»

الشرح والتفسير: قصة الحديدية المحماة

كان للإمام عليه السلام فى القسم السابق بحث كلى بشأن اجتناب الظلم والجور التى تشير إلى ذروة السلامة من الظلم والجور، وقد ركز هنا على مصداقين واضحين كشاهدى صدق على ما ذكر. فبين أولاً قصة عقيل والحديدية المحماة فشرح نموذجاً من عدله الذى ليس له مثل ربما فى تاريخ العالم فقال: «وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتَ عَقِيلًا وَقَدْ أَمْلَقَ [٥٤٢] حَتَّى اسْتَمَاحَنِى [٥٤٣] مِنْ بُرْكُمْ [٥٤٤] صَاعًا [٥٤٥]».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٠٠

ظاهراً، مراد عقيل «صاع» كحصه يومية منظمة لتؤمن بصورة كاملة هذه المادة الغذائية وإلا لو كان صاعاً ليوم فإنه لا يحل مشكلته وليس له قيمة أن يأتى عقيل من ذلك البعد لأخيه.

كما تجدر الإشارة إلى أن عقيلاً طلب طلباً آخر بأداء دين ثقيل عليه لكن الإمام اقتصر على الإشارة إلى الطلب الأول. ثم قال: «وَرَأَيْتُ صَبِيَانَهُ شُعْتَ [٥٤٦] الشُّعُورِ، غُبْرَ [٥٤٧] الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُودَتْ وَجُوهُهُمْ بِالْعِظْلَمِ [٥٤٨]».

وأضاف عليه السلام: «وَعَاوَدَنِى مُؤَكِّدًا، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّدًا، فَأَصْغَيْتُ [٥٤٩] إِلَيْهِ سَمْعِى، فَظَنَّ أَنِّى أبيعُهُ دِينِى، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا

طَرِيقَتِي».

شرح الإمام عليه السلام هنا جميع العوامل التي يراها اهل الدنيا تقتضى التمييز بالنسبة لأخيه.

فمن جانب لم يطلب كثيراً.

ومن جانب آخر كان أولاده فقراء ومعدمين.

وأخيراً كان يكثر من تكرار طلبه.

ولكن مع كل ذلك كان على الإمام أن يميز بين عقيل والآخرين من المحتاجين ويعطى لأخيه من بيت المال العائد لعامة المسلمين

ويضفى عليه ميزة خاصة.

قطعاً هذا العمل لا ينسجم مع العدالة الإسلامية وسمو روح الإمام عليه السلام، لذلك وبغية كف عقيل عن التكرار ليقنع بحقه من بيت

المال عامله بما يثبت له عملياً عاقبة الظلم فقال: «فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَذْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيُعْتَبَرَ بِهَا».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٠١

عقيل ظاهراً كان مكفوفاً آنذاك ومدد يده عله يحصل على درهم أو دينار ولم يكن يعلم ما الذى ينتظره فلما شعر بالحرارة تقترب من

يده: «فَضَحَّ ضَجِيحَ ذِي دَنْفٍ [٥٥٠] مِنْ أَلْمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مَيْسَمِهَا [٥٥١]».

ثم قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «فَقُلْتُ لَهُ: تَكَلَّثْتَكَ التَّوَاكُلُ [٥٥٢]، يَا عَقِيلُ! أَتَيْتُ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا [٥٥٣] لِلْعَبِيهِ،

وَتَجَرَّنِي إِلَى نَا سَجَرَهَا [٥٥٤] جَبَّارَهَا لِعَضْبِهِ! أَتَيْتُ [٥٥٥] مِنَ الْأَذَى وَلَا أُتِنُّ مِنْ لَطْيٍ؟! [٥٥٦]».

«تواكل» جمع «ثاكله» الام التي مات ولدها وإن اطلق على كل ام فى عزاء.

التعبير باللعب إشارة إلى أن نار الدنيا مهما كانت محرقة إلا أنها ليست أكثر من لعبة إزاء نار الآخرة فالنار الحقيقية هناك، لذلك عبّر

الإمام عليه السلام عن الاولى ب «أذى» والثانية «لظى».

يستفاد ضمناً من تعبيرات الإمام عليه السلام خلافاً لما يظنه بعض الجهال، فإن الإمام عليه السلام لم يضع قط حديدته محمأة فى يد

عقيل، بل قربها من يده وحيث كان أعمى خاف وصرخ.

انتشرت هذه القصة فى جميع الأوساط حتى وصلت إلى معاوية حسب بعض الروايات فأيقظت العديد من الغافلين وأفادت نهاية الكرم

العثمانى من بيت المال على القرابة والأفراد المقربين. فإذا كانت هذه معاملة الإمام لأخيه إزاء طلب صغير على خلاف العدالة فما بال

الآخرين، فما عليهم سوى عدم التفكير بأى امتياز.

وتطلق هذه المفردة أحياناً على جهنم كما ورد فى الآية ١٥ من سورة المعارج:

«كَلَّا إِنَّهَا لَطْيٌ».

بعبارة اخرى أن ذلك لم يكن درساً لعقيل فحسب، بل لعامة الناس فى العالم

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٠٢

الإسلامى فأفاد مساواة الجميع أمام العدالة، وليس لأحد طلب المزيد وإن كان أقرب المقربين إلى رئيس الدولة. الطريف ما ورد فى

ذيل بعض الروايات أن عقيلاً قال للإمام عليه السلام إذا كان الأمر كذلك فسأذهب إلى من يكثر من البذل والعطاء. ومراده (معاوية)

فرد عليه عليه السلام: «رَاشِدًا مَهْدِيًّا» [٥٥٧].

ولترك الكلام لعقيل يتحدث عن قصة الحديدية المحمأة: ثم تلا الآية: «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ» [٥٥٨].

فقال معاوية: «هِيَاهُ هِيَاهُ عَقِمَتِ النِّسَاءُ أَنْ يَلِدْنَ مِثْلَهُ» [٥٥٩].

وقد روى المرحوم العلامة المجلسى فى «بحار الأنوار» قصة مكملته لما سبق [٥٦٠].

على كل حال تشير القرائن إلى أن هدف الإمام عليه السلام لم يكن مجرد بيان قضية شخصية وتحذير عقيل، بل كان الهدف انتشار

هذه القضية في كل مكان وكان كذلك وأن يفكر أصحاب الامتيازات أن تكليفهم أصبح واضحاً بعد أن تصرف الإمام مع عقيل بهذه الطريقة فلا يفكرون قط في تلك الامتيازات، وبعبارة أخرى كان الهدف وضع حد لثقافة عهد عثمان في بيت المال وإعادة ثقافة العهد النبوي.

تأملان

١. نظرة إلى شخصية عقيل

هو عقيل بن أبي طالب وأخو أمير المؤمنين علي عليه السلام لأمه وأبيه وكان بنو أبي طالب أربعة وهو أسن من الإمام بعشرين سنة ويكنى أبا يزيد.

وكان أبو طالب يحبه كثيراً فلذلك قال له النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «يا أبا يزيد إنني أحبك حُبِّين؛ حُبّاً لِقْرَائَتِكَ مِنِّي وَحُبّاً لِمَا كُنْتُ أَعْلَمُ مِنْ حُبِّ عَمِّي إِيَّاكَ».

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٠٣

وورد في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «إِنَّ وَلَدَهُ لَمَقْتُولٌ فِي مَحَبَّةٍ وَلَمَدِكَ فَتَدْمَعُ عَلَيْهِ عُيُونُ الْمُؤْمِنِينَ وَتُصَلِّي عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ثُمَّ بَكَى حَتَّى جَرَتْ دُمُوعُهُ عَلَى صَدْرِهِ».

شهد عقيل كعمه العباس بن عبدالمطلب معركة بدر الكبرى مع المشركين مجبراً فاسر وعاد إلى مكة بفدية وأسلم بعد صلح الحديبية وهاجر ووصل إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله [٥٦١].

٢. التسوية بين المسلمين في بيت المال

لا شك في أن لبيت المال مصادر مختلفة؛ وأحد تلك المصادر، الزكاة، ونعلم أن المساواة ليست شرطاً في الزكاة، بل تصرف الزكاة على أساس الحاجة كما لا ضرورة لأن ننتظر محتاجاً آخر بحضور محتاج معين، بل لنا أن نعطي المحتاج الحاضر بما فيه الكفاية. المصدر الآخر: الخمس الذي كان يؤخذ في صدر الإسلام غالباً من غنائم الحرب، والخمس بيد الحاكم الإسلامي ليصل المحتاجين حسبما ورد في الفقه والروايات ولا يشترط فيه المساواة أيضاً.

الثالث: الغنائم الحربية التي توزع على المقاتلين بالسوية؛ لكن للمشاة سهم وللفرسان سهمان حيث كانوا آنذاك هم الذين يشتركون في الفرس، طبعاً كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أحياناً يستجيز أصحابه في دفع شيء من الغنائم إلى أفراد معينين لجلبهم إلى الإسلام.

المصدر الرابع والخامس والسادس، المداخل الخيرية وخمس غير الغنائم والأنفال التي لا يشترط في توزيعها المساواة أيضاً، ولا مجال لشرحها هنا.

المصدر السابع الذي كان أهم من الكل آنذاك والذي يشكل عمدة بيت المال

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٠٤

وهو دخل أراضي الخراج؛ أي مبالغ الاستئجار أو خراج الأراضي للمناطق المفتوحة والتي توضع في خزائن الدولة الإسلامية، فتلك الأراضي ملك لعامة المسلمين وليس الجيل القائم آنذاك، بل جميع الأجيال، وبالطبع فإن دخلها يعود إلى الجميع. بالضبط كالملك

المشاع الذى يتساوى فيه الجميع، ومن الطبيعى أن ليس للدولة الإسلامية أن تميز بين المسلمين فى هذا الدخل. وإن لم يلتزم اغلب الخلفاء بهذا الحكم وبل يتصرفون فى تلك الاموال حسب ما يشاؤون.

وماورد فى قصيدة عقيل فى هذه الخطبة يتعلق بهذا الأمر الذى يشكل أهم قسم فى بيت المال ولعل عقيلاً أعتقد أن تلك الاموال بيد الحاكم الإسلامى يتصرف بها كما يشاء ولاسيما أنه شاهد ما كان يفعله الخليفة الثالث بتلك الاموال.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٠٥

القسم الثالث

إشارة

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وَعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَبِثَتْهَا، كَأَنَّمَا عَجِنَتْ بِرَبِيقٍ حَيَّةٍ أَوْقَيْتُهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَّهُ، أَمْ زَكَاهُ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبْلَتِكَ الْهَبُولُ! أَعَنْ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمْ حَبِطُ أَنْتَ أَمْ ذُو جَنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟

وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتِ أَفْلَاكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمَلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَاهُونَ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمٍ جَرَادَةٍ تَقْضُمُهَا. مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلِلَّذِي لَا تَبْقَى! نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ. وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

الشرح والتفسير: قصة المنافق الأشعث بن قيس

بين الإمام عليه السلام فى القسم السابق كما رأينا القصة التاريخية لأخيه عقيل والحديده المحمأه لىأس أصحاب الامتيازات الطامعين فى بيت المال، القصة التى تتجلى فيها ثقافه العدالة الإسلاميه وتقديم الضابطه على الرابطه، ثم أشار هنا إلى مصداق آخر من هذا القبيل فذكر قضيه المنافق الأشعث بن قيس وقال: «وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ [٥٦٢] طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وَعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَبِثَتْهَا [٥٦٣]، كَأَنَّمَا عَجِنَتْ بِرَبِيقٍ حَيَّةٍ أَوْقَيْتُهَا».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٠٦

المعروف أن ذلك الطارق كان الأشعث بن قيس رأس النفاق فى الكوفه شبيه عبدالله بن أبى رأس النفاق على عهد النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى المدينه.

أمّا قول الإمام عليه السلام: «مَلْفُوفَةٍ فِي وَعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَبِثَتْهَا، كَأَنَّمَا عَجِنَتْ بِرَبِيقٍ حَيَّةٍ أَوْقَيْتُهَا» حيث كان هدف الأشعث أن يستعطف قلب الإمام لتحقيق غرض دنيوى. (يقال أحياناً إنه تنازع مع أحد المسلمين باطلاً على مياه وملك، ورفع الأمر إلى على عليه السلام، لعل هذا الرجل الأعمى البصيره أراد من خلال ذلك أن يستميل الإمام ويشتري رأيه؛ ولكن الإمام عليه السلام رأى بعينه الملكوتيه باطن تلك الحلوى الذى كان كسم الحيه، لأنها كانت بمثابة رشوه).

المفردة «مَلْفُوفَةٍ» رغم أنها من ماده «لف» لتشير هنا إلى طرف القماش الذى يلف به؛ ولكن حيث قال الإمام عليه السلام كانت تلك الملفوفه فى وعاء وعطف عليها مفردة معجونه فيحتمل أن تكون الملفوفه نوعاً من الحلوى التى كانت معروفه ومرغوبه فى الكوفه [٥٦٤].

احتمل بعض شراح نهج البلاغه أن المفردة «قىء» بمعنى سم الحيه لاقيتها، لأنها تطرحه من فمها كقيتها وهذا ما يقتضيه المقام والشائع

لدينا في الاستعمال بشأن الطعام. «فَقُلْتُ: أَصِلَّةٌ، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ». طبعاً الزكاة محرمة على جميع بنى هاشم والصدقة التي تشير إلى الإنفاق المستحب وهي ليست حرام حسب المشهور ولعل حرمتها كانت مختصة بأهل البيت عليهم السلام، واحتمل البعض أنها إشارة إلى الكفارات والصدقات الواجبة غير الزكاة، هذا أيضاً حرام على بنى هاشم.

أما «صلة» فربما تعني الرشوة التي يعبر عنها في مباحث رشوة القاضي ب «صِلَّة»

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٠٧

القضاء» ومن هنا يقال لها «صلة» التي يجعلها الراشي وسيلة للوصول إلى هدفه غير المشروع.

وقيل «صلة» تعني «هدية» أو جائزة ومنه في جائزة الشاعر، يقال «صلة شاعر» وعليه فالعبارة: «لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ» إشارة إلى نفى الزكاة والصدقة وإثبات كونها هدية.

كما احتمل أن تكون العبارة «لا ذا ولا ذاك» نفى للجميع؛ أي ليست رشوة ولا زكاة ولا صدقة، بل هدية.

ثم وجه الإمام عليه السلام أشد ضربات التوبيخ والتفريع للمناقق الأشعث بن قيس، وقال: «فَقُلْتُ: هَبْلَتِكَ الْهَبُولُ!» [٥٦٥] أَعَنَ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتُخَدَعَنِي؟».

إشارة إلى أنك كأغلب الشياطين تلبس طلبتك المنكرة لباس الشرعية لتحقيق غرضك فتسمى الرشوة هدية وتظن أنك تغر بهذا الظاهر من ترى عينه أعماق الوجود. ثم قال: «أَمْخَبْتُ أَنْتَ أَمْ دُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهَجَّرُ؟».

إشارة إلى أن عاقلاً لا يتصور أن أحداً يمكنه خداع شخص كعلى عليه السلام بهدية تفوح من باطنها رائحة الرشوة فإن جرب ذلك أحدهم فهو مجنون أو مختبط في عقله لمرض.

«مختبط» من مادة «خبط» بمعنى فقدان التوازن ويستعمل تارة في التوازن الظاهري وأخرى في التوازن الفكري، والمعنى الثاني هو المراد هنا والعبارة «دُو جِنَّةٍ» إما إشارة إلى وساوس الشيطان التي تعدد من الجنون ويختل إثرها عقل الإنسان، أو إشارة إلى المعروف بين الناس حيث البعض ممن أصابه الجن.

المفردة «تَهَجَّرُ» من مادة «هَجَّرَ» هذيان القول، وعليه فالفرق واضح بين هذه المفردات الثلاث؛ فالمختبط المختل العقل الذي يفقد توازنه العقلي، وذو جنه، الذي يعاني من نوع من الجنون لعامل باطنى، وتهجر تقال للمجنون ذاتاً ويصاب بالهذيان

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٠٨

اثر شدة المرض.

طبعاً حين تكون هذه المفردات مع بعضها تفيد المعنى المذكور بينما إن أتت كل مفردة لوحدها أفادت معانٍ أخرى.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى قضية بمنتهى الأهمية بشأن عدالته لعلها لم تسمع من غيره طيلة التاريخ ليفهمه مدى الخطأ الذي ارتكبه ولم يعرفه وهي تحذير إلى جميع الزعامات وحكام المجتمعات الإنسانية فقال: «وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيَتِ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ» [٥٦٦] بِمَا تَحْتَ أَفْلاكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَفْلِهِ أَشْلُبُهَا جُلْبَ [٥٦٧] شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ».

ثم تطرق عليه السلام إلى دليل ذلك فقال: «وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضِمُهَا» [٥٦٨].».

وأكد عليه السلام ذلك بالقول: «مَا لِعَلِّي وَلِنَعِيمِ يَفْنَى، وَلَذَّةِ لَا تَبْقَى!».

حيث صرح الإمام عليه السلام في هذه العبارات الصريحة والبلغية، لو أعطيت أعظم الرشاوى المتصورة في العالم بما فيها ما على الأرض والقصور والثروات والأموال، لأمارس أدنى ظلم وهو سلب غطاء حية شعير (لا حبة شعير) من فم نملة والتي تبدو أصغر المخلوقات، لما فعلت.

ما أكثر الأفراد الذين تستميلهم المبالغ البسيطة والمتوسطة في الرشوة أما إذا كان امتيازاً هاماً يعادل جميع حياته فذلك ما يهزه من

الأعماق.

وهل هنالك من يسعه الزعم أنه لن يمارس أدنى خلاف ولو أعطى أعظم امتياز

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٠٩

ولا يهتز لذلك؟ الإمام يقول أنا ذلك الشخص ويقسم عليه صراحة.

ويمكن توجيه الدليل الذي ذكره الإمام عليه السلام على هذا الأمر، فالامتيازات المادية إنما تحظى بأهميئة من الدنيا كبيرة وعظيمة لديه أما من كان في قمة معرفته الله وكل ما سواه لا شيء بالنسبة له والدنيا عنده كورقة نبات في فم جرادة، فليس هنالك من داع لأن يعصى الله ويرتكب الظلم.

فالإمام على عليه السلام كان ينظر إلى باطن الدنيا ببصيرته؛ حيث كان يرى كل تلك الملذات والنعم المادية آيلة إلى الفناء والزوال وليس هنالك ما يستحق التعلق به أو يفكر بالتعلق به.

ومن هنا إن أردنا أن نقطع دابر الرشوة والظلم والجور والتعدي على حقوق الآخرين لابد أن نجتهد من أجل رفع مستوى معرفة الإنسان بالله والدنيا.

يفهم ضمناً من هذه العبارات بالدلالة الالتزامية أن الظلم والجور والحكم بغير الحق لمن أسوأ المعاصي لا ينبغي إرتكابها حتى لو حصل على الدنيا برمتها.

ثم اختتم الإمام عليه السلام بعبارة موجزة وموقظة في الواقع ناظرة لكل مضمون الخطبة فقال: «نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ [٥٦٩] الْعَقْلِ، وَقَبِيحِ الزَّلَلِ. وَبِهِ نَسْتَعِينُ».

إشارة إلى أن العقل إن كان يقظاً واقترب بلطف الله لما قارف الإنسان الكبيرة وقلما يرتكب الصغيرة.

ونختتم هذا الكلام بنقل روایتين: قال الحافظ أبو نعيم الاصفهاني أحد علماء العامة في كتابه المشهور «حلية الأولياء»: «إن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام:

«يا علي! إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب إلى الله منها هي زينة الأبرار عند الله تعالى والزهد في الدنيا فجعلك لا تزوء من الدنيا شيئاً ولا تزوء منك

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣١٠

الدنيا شيئاً» [٥٧٠].

وورد في رواية أخرى أن امرأة شجاعه من شيعة علي عليه السلام تدعى «دارميّة الحجويّة» أحضرت عند معاوية فسألها:

هل رأيت علياً؟

قالت: أي والله رأيت.

قال: كيف رأيتيه؟

قالت: «رَأَيْتُهُ لَمْ يَفْتِنَهُ الْمُلْكُ الَّذِي فَتَنَكَ وَلَمْ تَشْغَلْهُ النُّعْمَةُ الَّتِي شَغَلَتْكَ» [٥٧١].

تأمل: من هو الأشعث بن قيس؟

ذكرنا في الجزء الأول عند تفسير الخطبة التاسعة عشرة أن «الأشعث» كان من المنافقين ثم أسلم ظاهراً على عهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ثم إرتد بعد وفاته واسر فندم عند أبي بكر فعفا عنه، ووقف إلى جانب أعداء أمير المؤمنين علي عليه السلام مثل عمرو بن العاص، لبث الفرقة والنفاق في صفوف أصحاب الإمام ليكون مصدراً لكثير من المفاسد والاضطرابات، وكان صاحب نفوذ في قبيلته فكان يستعين بهم لتحقيق مآربه، حتى قال بعض المحققين: إن أغلب مشاكل عصر خلافة أمير المؤمنين علي عليه السلام كانت من

هذا المنافق اللدود.

للمزيد يراجع الجزء الأول صفحة ٦٤٤ فصاعداً.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣١١

الخطبة ٢٢٥

إشارة

يَلْتَجِي إِلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتَبَهُ (٥٧٢)

نظرة إلى الخطبة (الدعاء)

الهدف الأصلي للإمام عليه السلام في هذا الدعاء كما يتضح من العنوان، طلب الغنى وعدم الحاجة إلى غيره، فالحاجة إلى الآخرين مدعاة أحياناً لممدح الآخرين، بينما لا يستحقون ذلك الممدح، أو ذم المانعين ولعلمهم لا يستحقون ذلك الدم، والأسوأ من ذلك مد اليد إلى شرار الخلق، فالدعاء في الواقع تعليم لجميع الناس ولاسيما الأتباع، وإلاً فالإمام عليه السلام أسمى مقاماً من أن يتجه صوب الأشرار أو يمدحهم.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣١٣

اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْأَقْتَارِ، فَاسْتَرْزِقْ طَالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسْتَعِظْ شِرَارَ خَلْقِكَ، وَأُبْتَلِي بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُفْتِنَنَّ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الْأَعْطَاءِ وَالْمَنْعِ؛ «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

الشرح والتفسير: الغنى عن شرار الخلق!

ذكر الإمام عليه السلام في هذا الدعاء القصير مطالب عميقة ضمن ثمان عبارات فهو دعاء ودرس في الأخلاق، فبين في البداية أصل الدعاء بعبارتين فقال: «اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ [٥٧٤]، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْأَقْتَارِ [٥٧٦]».

ليس المراد من «اليسار» الغنى بالمعنى السائد في العرف، بل المراد الغنى عن الآخرين المقترن بالكفاف والعفاف، وإلاً فالغنى بالمعنى المذكور يؤدي أحياناً إلى إراقة ماء الوجه، وهنالك تفسيران للعبارة «وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْأَقْتَارِ» بالنظر إلى أن «ولا تبذل» من مادة «بذل» و «بذل» له معنيان: أحدهما العطاء والفقدان، والآخر القدم والضياع: التفسير الأول اللهم لا- تتوفاني على الفقر، والآخر لا تبذل شخصيتي بالفقر.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣١٤

ثم خاض في أربع عبارات في آثار الفقر والحاجة إلى الآخرين فقال:

«فَاسْتَرْزِقْ طَالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسْتَعِظْ شِرَارَ خَلْقِكَ، وَأُبْتَلِي بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُفْتِنَنَّ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي».

وقال عليه السلام في الختام: «وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الْأَعْطَاءِ وَالْمَنْعِ؛ «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»».

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات الموجزة في أربعة آثار سيئة للفقر التي تتم في مرحلتين فقال أولاً: أدنى ما يترتب على ذلك أن أمد يد الحاجة إلى المحتاجين إليك والأسوأ من ذلك أن تقضى الحاجة من قبل السيئين، وحقاً أليمة للغاية هي الحياة في ظل تلك الشرائط بالنسبة للأفراد المؤمنين ذوي الشخصية.

في المرحلة الثانية: أى بعد الطلب فإن أجاب الطرف المقابل اضطر الإنسان إلى مدحه وإن تحفظ عن الاجابة انطلق لساني بدمه ولعل لديه حاجاته الكبيرة، ولكن حيث «صاحب الحاجة لا يرى إلا حاجته» [٥٧٨]، فبمجرد أنه لم يستجب لى اتهمته بالبخل، والحال ما أحرانى أن اتجه إلى الله فهو ولي المنع والعطاء وهو القادر على كل شىء!
من البديهي أن روح الإمام عليه السلام السامية لا تقبل هذه الأمور قط وإن أصابته الحاجة، فالإمام يريد بيان الآثار الطبيعية للفقير والتي تبدو على أغلب الناس ليجدوا ويواجهوا الفقر ولا يمدوا أيديهم إلى الآخرين أبداً.

تأمل: الآثار السيئة للفقير

رغم ما ورد في عدة روايات في مدح الفقر، كحديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «الْفَقْرُ نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣١٥

فَخْرَى وَبِهِ أَفْتَحْرَى». ورواية الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِذَا رَأَيْتَ الْفَقْرَ مُقْبِلًا فَقُلْ مَرْحَبًا بِشِعَارِ الصَّالِحِينَ وَإِذَا رَأَيْتَ الْغِنَى مُقْبِلًا فَقُلْ: ذَنْبٌ عَجَلْتُ عُقُوبَتَهُ» [٥٧٩]. وسائر الروايات، ولكن من الواضح أن الفقر بمعنى العوز ولاسيما الذى يحصل بفعل الكسل والتقصير وضعف الإدارة فانه ليس مدعاة للفخر ولا شعار الصالحين، بل مدعاة للذل والهوان والتلوث بأنواع المعاصى.

المدعاة إلى الفخر، الفقر إلى الله، فالكل محتاج إلى الله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» [٥٨٠] والذى يشبه ما ورد في حديث أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «كَفَى بِي عِزًّا أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْدًا وَكَفَى بِي فَخْرًا أَنْ تَكُونَ لِي رَبًّا» [٥٨١].
أو أن المراد بالفقر، الحياة البسيطة الخالية من التكلف والتعقيد إزاء الثراء الذى يؤدي إلى السكر والغرور والتناول.

والعبارة «شعار الصالحين» عن الفقر، والتعبير ب «العقاب المعجل» عن الغنى، شهادة واضحة على هذا المعنى، لأن شعار الصالحين قطعاً ما يوجب الصلاح والفلاح؛ كالزهد وبساطة العيش وعقوبة المعصية ترتبط بالأمر الملوث بالذنب.
كما يحتمل أن تكون بعض الروايات التى أثنت على الفقر تشير إلى الفقر المفروض الذى يطال الإنسان إثر القيام بالوظيفة، مثلاً، فى بداية الدعوة النبوية اضطر العديد من المسلمين إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ولم يتمكنوا من حمل ممتلكاتهم معهم فعانوا هناك من فقر شديد أو المسلمون الذين حاصرهم خصوم الدعوة اقتصادياً فأصبحوا فقراء، الفقر الذى أصابهم بسبب الإيمان بالله وطاعة أوامره وكان النبي صلى الله عليه وآله يواسيهم ويبين لهم أن الفقر مدعاة للفخر وشعار الصالحين.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣١٦

كما عانى خواص أهل البيت عليهم السلام فى العصور اللاحقة بمضمون المثل المعروف «الْبَلَاءُ لِلْوَالِيَةِ» من هذا الفقر المفروض واستمر ذلك حتى عصرنا الحاضر، وهذا الفقر ليس بعيداً عن العيب فحسب، بل هو فخر، والعيب أن يتخلى الإنسان عن الوظيفة من أجل الدنيا والاستسلام للعدو.

وإلى ذلك أشار الحديث الشريف «مَنْ أَحَبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلْيَعِدْ لِلْفَقْرِ جَلْبَابًا» [٥٨٢].

وعليه فالفقر الحاصل من الكسل والهروب من العمل أو سوء الإدارة ليس مطلوباً للإنسان قط.

ويشير كلام الإمام عليه السلام فى هذا الدعاء إلى أن سلسلة من الرذائل الأخلاقية التى يفرزها الفقر بمعنى العوز والحاجة، فالتواضع للأشرار ومدح وذم من لا يستحق، لمن تلك الرذائل الأخلاقية التى تنشأ من الفقر بمعنى العوز.

الجملة «لَا تَبْدُلْ جَاهِي بِالْأَقْتَارِ» دليل على أن الفقر الفردى يزيل ماء وجه الإنسان، والفقر الاجتماعى يزيل ماء وجه المجتمع وهذا ما لا ينسجم أبداً والعزة الناشئة من الإيمان: «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» [٥٨٣].

قال أمير المؤمنين على عليه السلام: «يَا بَنِي الْفَقِيرِ حَقِيرٌ لَا يُسْمَعُ كَلَامُهُ وَلَا يُعْرَفُ مَقَامُهُ لَوْ كَانَ الْفَقِيرُ صَادِقًا يُسْمَعُونَهُ كَاذِبًا وَلَوْ كَانَ

زاهداً يُسْمُونَهُ جَاهِلًا».

ثم أضاف عليه السلام: «يَا بُنَيَّ مِنَ ابْتِلَايَ بِالْفَقْرِ ابْتِلَايَ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ: بِالضَّعْفِ فِي يَقِينِهِ وَالتَّقْصَانِ فِي عَقْلِهِ وَالرَّقَّةِ فِي دِينِهِ وَقَلَّةِ الْحَيَاءِ فِي وَجْهِهِ، فَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفَقْرِ» [٥٨٤].

وإننا نرى اليوم بام أعيننا أن الفقر مصدر ما لا يحصى من المفاسد كالابتلاء بالمخدرات والفسحشاء والخيانة والسرقة وخدمته الأجانب وما شابه ذلك، ومن هنا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «غِنَى يَحْجُزُكَ عَنِ الظُّلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَقْرٍ يَحْمِلُكَ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣١٧

عَلَى الْإِثْمِ» [٥٨٥].

ولذلك قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «الْفَقْرُ سَوَادُ الْوَجْهِ فِي الدَّارَيْنِ» [٥٨٦].

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً: «كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا» [٥٨٧].

ومن الطبيعي أن تكون تلك العيوب التي اشير إليها أعظم خطورة إن عمَّ الفقر المجتمع، وإننا نرى اليوم المجتمعات الإسلامية الفقيرة كيف هوت في مخالب الأجانب وأعداء الإسلام بما يدعو الإنسان إلى مزيد من الأسى والأسف.

ونختتم هذا البحث بدعاء عن الإمام السجاد عليه السلام ضمن أحد أدعيته العميقة المعاني إذ تضرع: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَعِيشَةِ مَعِيشَةً أَقْوَى بِهَا عَلَى طَاعَتِكَ وَأَبْلَغُ بِهَا جَمِيعَ حَاجَاتِي وَأَتَوَسَّلُ بِهَا إِلَيْكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُتْرِفَنِي فِيهَا فَاطْغَى أَوْ تَقْتَرَهَا عَلَيَّ فَأَشْقَى» [٥٨٨].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣١٩

الخطبة ٢٢٦

إشارة

في التَّنْفِيرِ مِنَ الدُّنْيَا [٥٨٩]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام وكل قسم في مطلب مكمل لمطلب آخر: خاض الإمام عليه السلام في القسم الأول في التعريف بالدنيا أنها دار متقلبة مليئة بالأحداث الأليمة دائمة التغير وأهلها عرضة لسهام البلاء. وحذر في القسم الثاني من أن قبلكم كثير ممن عمّر الدنيا وكانوا أكثر منكم إمكانات وأقوى لكنهم رحلوا جميعاً وحلوا مساكن من التراب والطين والحجر بدل تلك القصور، هي قبورهم.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٢٠

وقال في القسم الثالث: إنكم سائرون على طريقهم وملاقون مصيرهم. وسيحل اليوم الذي تنتهي فيه حياتكم وتضم القبور أجسادكم وستبعثون من تلك القبور وتظهر لكم أعمالكم التي أسلفتم وعليكم تبعثها.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٢١

القسم الأول

إشارة

دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلَا يَسْلَمُ نَزْلُهَا. أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، وَالْأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ، تَزْمِيهِمْ بِسَهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا.

الشرح والتفسير: تقلب احوال الدنيا

تناول الإمام عليه السلام كما قيل في هذا الجانب من الخطبة تقلب الدنيا وغدرها فقال:

«دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ [٥٩٠] مَعْرُوفَةٌ، لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلَا يَسْلَمُ نَزْلُهَا [٥٩١]».

والبلاء الذي يصيب الحياة في هذه الدنيا كثير ومتنوع من قبيل الأمراض البدنية والنفسية والأحداث الاجتماعية الأليمة والعواصف والزلازل والسيول والغارات والحروب وما يؤدي إلى جرح الإنسان أو موته وفقدان الأثرة وأمثال ذلك.

والعبارة: «دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ» إشارة بليغة لكل ما ذكر، غدر الدنيا وربما يشير إلى أهلها الغدرة غالباً فإن أقبلت الدنيا على أحد أحيوه وإن ولت ولوا كأنهم لم يعرفوه. أو إشارة إلى غدر النعم الدنيوية بينما ترى الإنسان سالماً معافى ويظن أن وضعه سيستمر كذلك وإذا بحادث بسيط يقضى على سلامته، أو تراه جمع أموالاً وثروة طائلة فتفاجأ بحدث أفلسه. وتقلب الدنيا الممين في العبارة «لَا تَدُومُ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٢٢

أَحْوَالُهَا» نتيجة لتلك الحوادث المتنوعة والبلايا التي تصيب الإنسان من كل جانب، وعدم أمن سكنتها في العبارة «وَلَا يَسْلَمُ نَزْلُهَا» بسبب تلك الحوادث المريرة وتقلبات الدنيا.

ثم أكد عليه السلام ذلك بعبارة موقظة فقال: «أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ [٥٩٢] مُتَصَرِّفَةٌ [٥٩٣]، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، الْأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ». وتاريخ البشرية برمته شاهد حي على هذا الكلام العميق المعنى وأبعد من ذلك آيات القرآن التي تكشف الستار عن قصص الماضين، والصورة ذات العبرة التي رسمها القرآن أواخر سورة القصص عن حياة الثرى المعروف من بنى إسرائيل قارون الذي ظهر يوماً بين بنى إسرائيل بزيته وخدمته وحشمه ويستعرض قوته وثراءه أمام الجميع حتى انبرى البعض منهم ممن غرته زخارف الدنيا ليقولوا: «يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ» ولم يطلع الغد حتى ابتلعت الأرض بالزلزلة والخسف بكل ما يملك فأخذت أصحاب الدنيا الرهبة ليقولوا «لَوْ لَأَنَّ مَنْ اللَّهَ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا».

ولا تبدو هذه الحوادث قليلة في عصرنا، بل اتسعت للغاية وانتشرت لنرى كل يوم تلك المشاهد باعيننا.

ثم شبه الإمام عليه السلام في ختام هذا المقطع حوادث الدنيا وسكنتها تشبيهاً رائعاً فقال: «وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ [٥٩٤]، تَزْمِيهِمْ بِسَهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا [٥٩٥]».

نعم فالناس في هذا العالم أهداف فاقدة للدفاع أمام سهام البلاء المصوبة نحوها من اليمين والشمال والأعلى والأسفل؛ السهام التي قلما تخطى وتصيب كبد الهدف فتقضى عليه، وهل من أمن في الميدان الذي أحاط به الرماة ويستهدفون الإنسان

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٢٣

كل حين؟! أليست الحياة مذمومة قبيحة في هذا الوسط؟ لعل ذلك الميدان مليء بالجواهر والألبسة الفاخرة والأطعمة المتنوعة، لكن هل يسع هذه الأمور إسعاد الإنسان في ذلك الوسط؟! كلا. هنالك قصة معروفة من شأنها تجسيد غدر الدنيا.

تأمل: دار محفوظة بالبلاء

هذا العالم موضع المشاكل والمصائب والآلام والمحن. وإنما نعلم إجمالاً بهذا الموضوع، لكننا غالباً نتأمل في شرحه وتفصيله. والآفات التي تهدد سلامة الإنسان أكثر من أن تحصى. تتألف بنية الإنسان من أعضاء مختلفة لكل منها عدة شرائط للقيام بوظيفته، وأدنى تغير في تلك الشرائط بالنسبة للقلب والكليتين والعروق والأعصاب والعضلات والعظام يخلق أزمة. يعتقد بعض الأطباء بأن كبد الإنسان يدفع ثلاثمائة نوع من السموم ولو اختلف قليلاً لما وسعه دفع بعضها وهذه أولى الأزمات، وهكذا العين والأذن والأنف واللسان وأمثالها ولو تجاوزنا الآفات الباطنية فإن الآفات الظاهرية كثيرة للغاية ومتنوعة بحيث إن موت الإنسان كامن في عوامل حياته؛ فالمطر مصدر الحياة لو زاد عن حدّه لكون سيولاً عظيمة تأتي على كل شيء، والرياح المهمة للحياة لو ازدادت سرعتها لأصبحت عاصفه تجتث الأشجار وتقذف بسقوف المنازل بعيداً، والشمس الذي تفيض بأشعتها الحياة لو تركزت هذه الأشعة لأصيب الإنسان بضربة الشمس وهدده خطر الموت، والأرض التي يسكنها الإنسان ومنها جميع البركات لو طغت وحدثت الزلازل لأحالت مدناً عمرت بالبناء لسنوات إلى ركام من التراب خلال لحظة.

وآفات النباتات وطيغان البحار وهجوم الأمراض المعدية من الأرض والهواء والماء والطعام كل منها من شأنه تهديد حياة الإنسان، وإذا صدرت الأوامر لأسراب

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٢٤

الجراد بالهجوم وتقدمت بجيشها الجرار من كل مكان لأبادت أوراق الأشجار والسيقان والمحاصيل دون أن يسع أحد مواجهتها ولو بأقوى الوسائل المتطورة.

هذا ما يتعلق بالحوادث الطبيعية أما الآفات الاجتماعية فليست بأقل منها خطراً، فهالك الحروب الدموية كالبراكين التي تحدث كل يوم في منطقة من العالم والتي تهدد على الدوام حياة الإنسان، التنافس المحموم للاستيلاء على المناصب السياسية والقضايا الاقتصادية تمرغ كل يوم أنف جماعة في التراب أو تقضى على حياتها الاختلافات الاسرية التي تؤدي إلى الطلاق وتصدع كيان الأسرة وعقوق الأبناء وخيانة الشركاء وأصحاب السوء وضربات المنافقين كل منها عامل يهدد حياة الإنسان واستقراره. وعليه فلا بد أن نقبل بكل كياننا على كلام «دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٢٥

القسم الثاني

إشارة

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلٍ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا، وَأَعْمَرَ دِيَارًا، وَأَبْعَدَ آثَارًا؛ أَضْيَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَاهُنَا، وَرِيَا حُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسَادُهُمْ بِالْيَدِّ، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً. فَاسْتَبَدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشِيدَةِ، وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورَ وَالْإِحْجَارَ الْمُسْنَدَةَ، وَالقُبُورَ اللَّاطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ، الَّتِي قَدْ بَنَى عَلَى الْخَرَابِ فَنَاوَاهَا، وَشِيدَ بِالتُّرَابِ بِنَاوَاهَا؛ فَمَحَلُّهَا مُقْتَرَبٌ، وَسَاكِنُهَا مُعْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلِّهِ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَسَاعِلِينَ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالأَوْطَانِ، وَلَا يَتَوَاصِلُونَ تَوَاصِلَ الْجِيرَانِ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجَوَارِ، وَدُنُو الدَّارِ.

وَكَيفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَرَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبَلَى، وَأَكَلَتْهُمْ الْجِنَادِلُ وَالتَّرَى.

الشرح والتفسير: جيران متباعدون

أخذ الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة يد مخاطبيه ليحملهم إلى أعماق تاريخ الماضين ليريهم مصيرهم بعد ذلك العمر الطويل وتلك القوة والافتقار ويضع أمسهم مع يومهم فيلهم مخاطبيه وجميع عباد الله من كل ملّة ونحلّه أعظم وأعمق درس وعبرة فقال: «وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلٍ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ». ثم خاض عليه السلام في شرح هذا المجمل فقال: «مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا، وَأَعَمَّرَ نَفَحَاتِ الْوِلَايَةِ، ج ٨، ص: ٣٢٦»

دياراً، وَأَبْعَدَ آثَارًا؛ أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً [٥٩٦]، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وَأَثَارُهُمْ عَافِيَةً [٥٩٧]. وقد قدّم القرآن في مختلف السور نماذج واضحة لهؤلاء الأقوام، ومن ذلك قوم عاد وثمود كنموذج واضح فقال في سورة والفجر «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَتَمُودَ الَّذِينَ خَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ» [٥٩٨]. فقد ذكر عليه السلام ثلاث خصائص تفيد رجحان الأقوام السابقة عليهم؛ الاولى طول العمر (بحيث قيل إن بعضهم كان يعمر أربعمائه سنة) [٥٩٩] وعمارة المدن حتى قال فيهم القرآن: «وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ» [٦٠٠]. وكانت لهم أراضٍ عامرة وبساتين نضرة ونعمة وافرة وكانوا بارعين في الزراعة.

وأخرى كانت آثارهم أبقى، إشارة إلى أن مساكنهم وقصورهم وسائر أعمالهم العمرانية كانت على درجة من الإحكام بحيث بقيت لسنين عديدة، لكن كيف كانت عاقبتهم، سكنت الأصوات والضجيج وسيطر عليها الصمت وتعفنت أجسادهم تحت التراب وبليت عظامهم وطويت آثارهم.

والعبارة «وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً» بالنظر إلى أن رياح جمع ريح والريح هنا بمعنى الروح والقوة فمفهوم ركودها أنهم قعدوا تماماً عن العمل، وفسره البعض بمعنى سكون ريح الغرور. كما يحتمل أن يكون المراد بها الريح التي تطال رايات الملوك والمقتدرين.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٢٧

ثم أشار عليه السلام إلى قضية مهمّة بعد مغادرتهم لتلك القصور الفارهة والحياة المترفة وأين حلّوا فقال: «فَأَسِيَّتَبَدَّلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ [٦٠١]، وَالنَّمَارِقِ [٦٠٢] الْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورِ وَالْأَحْجَارِ الْمُسَنَّدَةِ [٦٠٣]، وَالْقُبُورِ اللَّاطِئَةِ [٦٠٤] الْمُلْحَدَةِ [٦٠٥]». حقاً ياله من أمر عظيم أن ينتقل الإنسان من ذروة القدرة وهو يعيش النعمة واللذة إلى النقطة المقابلة تماماً، فلا بيت ولا شمعة ولا سراج ولا فراش ولا نعمة وبطر. طبعاً هذا الأمر المؤلم بالنسبة لأولئك الذين اعتادوا الحياة المرفهة والمريحة، أما أولئك الذين عاشوا حياة الزهد والبساطة فلا يعانون من هذا الانتقال، لاسيما أن القبر بالنسبة لهم روضه من رياض الجنّة.

ثم خاض في بيان وضع قبورهم وسكنتها فقال: «الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ فَنَاوُهَا [٦٠٦]، وَشُيِّدَ بِالتَّرَابِ بِنَاوُهَا؛ فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ، وَسَاكِنُهَا مُعْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاعِلِينَ».

نعم، إن كانت قصورهم بنيت بمواد قيمة باهضة جمعت بجهد جهيد من مختلف المناطق فإن قبورهم بنيت بمواد لا قيمة لها فهي حفنة تراب، وسكنة هذه القبور في حالتين متناقضتين، القرب والبعد، قريون من حيث المكان وبعيدون من حيث الارتباط، أو أنهم منكمون بأنفسهم إلى درجة عدم الارتباط بالآخرين، أو لا يؤذنون لهم بالارتباط، ويبدو أن ذلك ليس مهماً لهم، لكنهم في الواقع متضجرون

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٢٨

لأنه وإن لم يكن هناك شيء من الأمور الدنيوية، لكنهم وجلون من أعمالهم بحيث لا يكثرثون لغيرهم (طبعاً يحدث كل هذا في

الحياة البرزخية).

ثم قال عليه السلام في مواصلة ذلك: «لَمَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ، وَلَمَا يَتَوَاصِلُونَ تَوَاصِلَ الْجِيرَانِ، عَلَيَّ مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجَوَارِ، وَدُنُو الدَّارِ».

العبارة «لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ» لعل العبارة لا يستأنسون بالأوطان إشارة إلى أنهم وإن ناموا سنين متمادية في قبورهم؛ لكن لا رغبة لهم بها ولا يأمنون بها، كما احتمال أن يكون المراد ترك إرتباطهم بأوطانهم في عالم الدنيا فهم لا يفكرون في الرجوع إليه، إلا أن المعنى الأول بقرينه العبارة (ولا يتواصلون...) أصوب.

وأشار عليه السلام في الختام إلى هذه النقطة، لم لا يسعهم الإرتباط مع بعضهم: «وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ [٦٠٧] الْبَلْبَى، وَأَكَلَتْهُمْ الْجِنَادِلُ [٦٠٨] وَالثَّرَى [٦٠٩]!»..

إشارة إلى أنهم كانوا متلاصقين في قبورهم، لكنهم فقدوا كل قدرتهم وتحولوا إلى قبضة تراب، وهل من تراور ولقاء من العظام البالية والأجساد الخاوية؟

غَرِيبٌ وَأَطْرَافُ النَّبِيِّاتِ تَحُوِّطُهُ أَلَا كُلُّ مَنْ تَحْتَ التُّرَابِ غَرِيبٌ [٦١٠]

تأمل: عاقبة الإنسان بعد الموت

ما ورد في الجمل المذكورة قرينه من الجمل التي جاءت بعدها والتي ترتبط بجسم الإنسان بعد الموت، لأن الأجساد تتحول إلى التراب وليس في مقدورها الترابط والتواصل بل تعيش الغربة تماماً.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٢٩

ولا شك أن الأرواح لها شأن آخر، فإن أرواح المسيئين في عذاب شديد كما أشار القرآن الكريم إلى نماذج منها مثل عاقبة آل فرعون حيث قال:

«النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» [٦١١].

وأما أرواح الأخيار في الجنة البرزخية وكما قال القرآن الكريم بشأن الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله: «فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» [٦١٢].

بل هذا ما يستفاد من بعض الروايات أن أرواح الأخيار في تلاقى وتزاور، بل هم في حلقات الانس والمؤانسة.

فقد روى المرحوم الكليني في الجزء الثالث من كتاب «الكافي» في باب أرواح المؤمنين عن حبة العرنى قال: خرجت مع أمير المؤمنين عليه السلام إلى الظهر، فوقف بوادي السلام كأنه مخاطب لأقوام، فقامت بقيامه حتى أعيتت ثم جلست حتى مللت، ثم قمت، حتى نالني مثل ما نالني أولاً، ثم جلست حتى مللت، ثم قمت وجمعت ردائي فقلت: يا أمير المؤمنين إني قد أشفقت عليك من طول القيام، فراحه ساعة! ثم طرحت الرداء ليجلس عليه، فقال لي: «يا حبيبة، إن هو إلا لمحادثة مؤمن أو مؤانسته». قال: قلت: يا أمير المؤمنين، وإنهم لكذلك؟ قال: «نعم، ولو كشف لك رأيتهم خلقاً خلقاً محبتين يتحادثون». فقلت: أجسام أم أرواح؟ فقال: «أرواح، وما من مؤمن يموت في بقعة من بقاع الأرض، إلا قيل لروحه: الحقى بوادي السلام، وإنها لبقعة من جنة عدن» [٦١٣].

وعلى هذا الأساس فإن الإمام على عليه السلام صرح في هذه العبارات إلى عدم انحصار الموت بالحياة الجسمانية للإنسان ولا بعالم الأرواح فقط، وذلك أن أغلب الناس

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٣٠

في هذه الحياة يقتضرون على الجانب المادي والملذات الجسمانية فقط، بل يحذرهم بأن هذه الأجساد إلى أين يكون مصيرها؟

فعلیکم أن تستیقظوا من سباتکم ولا تنغمسوا فی الملذات الجسمانية والمعاصی والذنوب فقط.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٣١

القسم الثالث

إشارة

وَكَأَنَّ قَدْ صَرُّتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَارْتَهَنَكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجِعُ، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ. فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ، وَبُعِثَتْ الْقُبُورُ: «هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

الشرح والتفسير: المصير المحتوم

طبق الإمام عليه السلام على مخاطبيه هنا ما أورده بشأن مصير الأسلاف كى لا يظنوا أن الوفاة ومغادرة القصور والثروات وإمكانات الحياة واللاحق بالموسدين تحت التراب الذين لم يحملوا معهم شيئاً ولا يتصلوا ببعضهم مقتصر على أولئك الأسلاف فقال: «وَكَأَنَّ قَدْ صَرُّتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَارْتَهَنَكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجِعُ [٦١٤]، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ».

نعم فهذا قانون لا استثناء فيه مع أن لكل عام ما يخصصه، إلا أن هذه الأمور لا تخصص (أى أن تلك القاعدة لها استثناء أنها لا تعرف الاستثناء فى بعض الموارد).

ثم أشار عليه السلام إلى قضية مهمة وهى أن مشكلة الإنسان لا تنتهى بالموت، والمشكلة حضوره محكمة القيامة ومسؤوليته عن صغار أعماله وكبارها فقال:

«فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ [٦١٥] بِكُمْ الْأُمُورُ، وَبُعِثَتْ [٦١٦] الْقُبُورُ: «هُنَالِكَ تَبْلُو [٦١٧]. كُلُّ نَفْسٍ مَا

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٣٢

أَسْلَفَتْ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

نعم هنالك بعض الأمور المهمة فى ذلك اليوم؛ فالجميع حاضرون بين يدى العدل الإلهى ويرون أعمالهم أمام أعينهم ولا تنفع جميع الأعذار الواهية والكذب لتبرير أسباب المعصية والانحراف وليس لأحد من سبيل للهروب من نتيجة أعماله.

حقاً لو تأمل الإنسان هاتين القضيتين سيرى أن الحياة آيلة للزوال وسيترك كل شىء ويلتحق بالنائمين تحت التراب ثم يعقب ذلك الحساب وجزاء الأعمال، الحساب الذى لا مفر منه؛ لو فكر فى هذين الأمرين لراقب أعماله قطعاً فى هذه الدنيا ولما بدر منه كل هذا الفساد والعصيان.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٣٣

الخطبة ٢٢٧

إشارة

يَلْجَأُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ لِيَهْدِيَهُ إِلَى الرَّشَادِ [٦١٨]

نظرة إلى الخطبة (الدعاء)

يتألف هذا الدعاء العميق المعنى ذو المضامين الرفيعة من قسمين:
القسم الأول في حبّ الله لعباده والمتوكلين عليه والعلم ببواطنهم.
ويستعيد عليه السلام في القسم الثاني بالله ليرشده في الحوادث المضلّة ويهديه لما فيه الخير ويعامله برحمته لا بعدله.
نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٣٥

القسم الأول

إشارة

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَالِيَّيْنِ لِأَوْلِيَائِكَ، وَأَخْضَرُهُمْ بِالْكَفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ. تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ. فَأَسِرَّارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ. إِنَّ أَوْحَشَتَهُمْ الْعُزْبَةُ أَنْسَهُمْ ذِكْرُكَ، وَإِنْ صَبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الْأَسْتِجَارَةِ بِكَ، عِلْمًا بِأَنَّ أَرْمَةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ.

الشرح والتفسير: انس العباد

تضرع الإمام عليه السلام إلى الله في مستهل هذا الدعاء المهذب للروح والمربى للإنسان قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْتَ [٦١٩] الْوَالِيَّيْنِ لِأَوْلِيَائِكَ، وَأَخْضَرُهُمْ بِالْكَفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ».
إشارة إلى أن من تحلى بهاتين الصفتين سيشمل بهذه النعمة العظيمة بالأنس بالله وقضائه لمشاكلة بأن يكون في عداد أولياء الله أو المتوكلين عليه، وهكذا يعطى الإمام عليه السلام درساً في تهذيب الإنسان ضمن مناجاته لربه. ولما كان حلّ المشاكل منوط بالعلم بهم قال مواصلاً دعاءه: «تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ. فَأَسِرَّارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ» [٦٢٠].

نعم، الله عالم بأسرارهم وبواطنهم، فهو أقرب إلينا من جبل الوريد: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا نَفْحَاتِ الْوَالِيَّةِ، ج ٨، ص: ٣٣٦

الْإِنْسَانَ وَتَعْلَمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» [٦٢١].

ولعل الفارق بين السرائر والضمائر أن السرائر تقال للحالات الخلقية والضمائر للنيات التي تساور قلب الإنسان ويتحرك إثرها. كما تستعمل هاتان المفردتان بنفس المعنى. وبصائر البشرية بالإضافة لآكمالها مفهوم هذا الدعاء تكمن في المراقبة التامة للظاهر والباطن والنية والعمل، فالله عالم بكلّ هذه الأمور، أسرارهم الخفية مكشوفة لله ونياتهم ظاهرة له.
والعبارة: «قُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ» نتيجة لإيمانهم بالله ومعرفتهم به وتوكلهم عليه.
فكلما ازداد الإيمان والعلم به ازداد شوقه لمبدأ الرحمة والحب والكرم.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة هي أن أولياء الله والمتوكلين عليه لا يركعون قط للمصائب ولا يفقدون ثقتهم بالله فقال: «إِنَّ أَوْحَشَتَهُمْ

الْغُرْبَةُ أَنْسَهُمْ ذِكْرَكَ، وَإِنْ صَبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الْأَسْتِجَارَةِ بِكَ، عِلْمًا بِأَنَّ أَرْزَمَةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِرُهَا عَنْ قَضَائِكَ». وفي الواقع أن كل هذه الصفات والحالات ناشئة من الإيمان بالتوحيد الأفعالي ويشير إلى أن هذا الغصن من التوحيد إن نما في روح الإنسان أفضى إلى ثمار جمّة، فلا يشعر بالوحدة إزاء المشاكل ولا يشعر بالغرّة في وحدته.

نغمات الولاية، ج ٨، ص: ٣٣٧

القسم الثاني

إشارة

اللَّهُمَّ إِنْ فَهِمْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طَلِبَتِي، فَدَلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي، وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلَا يَبْدَعُ مِنْ كِفَايَاتِكَ.

اللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَدْلِكَ.

الشرح والتفسير: الله كيف الوري

عقب بيان مقدمات الدعاء وإعداد القلب والروح للتضرع إلى الله الذي ورد سابقاً، خاض الإمام عليه السلام هنا في أصل الدعاء فذكر أصلاً كلياً أوجز فيه طلباته دون التركيز على كل واحدة فقال: «اللَّهُمَّ إِنْ فَهِمْتُ [٦٢٢] عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طَلِبَتِي، فَدَلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي، خُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلَا يَبْدَعُ مِنْ كِفَايَاتِكَ».

فهذا الدعاء ينطوي على منتهى الأدب أمام الله وتلاحظ فيه ضمناً شمولية لجميع الطلبات ويشير إلى هذه الحقيقة وهي أننا مهما علمنا بمصالحنا ومطالبنا مع ذلك تغيب عنا كثيراً من الأمور أو نخطئ في تشخيصها؛ إلا أن الله أعلم بمفاسدنا ومصالحنا، فنسأله إرشادنا لمصالحنا وما نسأله الله ما فيه خيرنا وصلاحنا ولا يستبعد ذلك قط من لطف الله.

وأود أن أذكر هنا حديثاً رائعاً عن الإمام زين العابدين عليه السلام أن الحسن البصري

نغمات الولاية، ج ٨، ص: ٣٣٨

قال: «لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ وَإِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا».

فقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا وَإِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ مَعَ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ» [٦٢٣].

ثم ابتهل عليه السلام في الختام: «اللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَدْلِكَ».

وكأنه عليه السلام عدّ العدل والعفو في هذه العبارة مطية، والعدل مطية مقلقة بينما العفو مطية سمحة فسأل الله أن يحمله على تلك المطية السهلة لنفوز بالقرب هائنين ومرتاحين من العقاب الأليم في ظل لطفك، وهذا مضمون العبارة التي تورد كدعاء في الصلاة وغيرها: «إِلَهْنَا عَامِلْنَا بِفَضْلِكَ وَلَا تُعَامِلْنَا بِعَدْلِكَ يَا كَرِيمٌ».

قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ نَاسٍ أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ».

فقال الأصحاب: «وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟».

فقال صلى الله عليه وآله: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فَوْقِ رَأْسِهِ وَطَوَّلَ بِهَا صَوْتَهُ» [٦٢٤].

تأمل: أدعية المعصومين عليهم السلام المهدبة

تختزن أديعة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأتية العصمة عليهم السلام جانباً مهماً من التعاليم الدينيّة، ولقراءة هذه الأديعة أثر عظيم في ترسيخ عرى الإيمان وتهذيب النفوس وتربية الفضائل بالاضافة إلى سوق الإنسان إلى القرب من الله وإبعاده عن الشيطان ووساوسه وتلطيف الروح. ولما كانت تلك الأديعة نابعة من الروح السامية للمعصوم فهي جميعاً في مستوى رفيع واحد وإذا تلاها الإنسان عالماً بمضامينها ساقته لذروة المعرفة والكرامة فإذا جمعت هذه الأديعة- وقد تصدى لذلك أخيراً بعض

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٣٩

المحققين [٦٢٥]- كانت خزائنه نفيسه من المعارف الدينيه والدروس الخلقية ومرآة السير والسلوك إلى الله. وقد وردت على هامش خطب نهج البلاغة والرسائل.

وقصار الكلمات ما يقارب ثلاثين دعاءً تؤيد بأجمعها ما ذهبنا إليه. فبعض الأديعة كدعاء الصباح وكميل وعرفة للإمام الحسين عليه السلام وأديعة الصحيفة السجادية وسائر الأديعة كالندبة وغيره التي وصلت عن المعصوم عليه السلام كل واحد منها شاهد آخر على هذه الدعوى، ولت اتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام سبقوا سائر المذاهب الإسلامية بهذا الخصوص وألزموا الشبان بحفظ مقاطع من هذه الأديعة (مع فهم معانيها) ليصانوا من هجوم أمواج المعصية التي تنامت في عصرنا.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٤١

الخطبة ٢٢٨

إشارة

يُرِيدُ بِهِ بَعْضُ أَصْحَابِهِ [٦٢٦]

نظرة إلى الخطبة

هذا الكلام الموجز تعريف بشخصية أدت وظائفها في عصرها ورحلت طاهرة وجهدت في حفظ سنّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وطاعة الله. هنالك خلاف بين الشراح في هذه الشخصية. فالشراح من أبناء العامة كابن أبي الحديد ومحمد عبده زعموا أنّها إشارة إلى الخليفة الثاني وزعموا أنّ عليّاً عليه السلام قال هذا الكلام بعد وفاة عمر، في حين لا ينسجم هذا الكلام مع سائر خطب «نهج البلاغة». فقد شكّا عليه السلام كثيراً في الخطبة الشقشقية من خلافة الثاني وبث شدة شكواه من غضب الخلافة في الخطب وبعض الرسائل، فكيف يمكن تجاهل كلّ ذلك واعتبار هذا الكلام المبهم والمجمل في الخليفة الثاني؟

والطريف أنّ الطبري [٦٢٧] الذي يراه في عمر إنّما رواه عن المغيرة بن شعبه وهو من

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٤٢

خصوم على عليه السلام.

العجيب ما قاله ابن أبي الحديد أنّه رأى في نسخة من «نهج البلاغة» بخط الرضى أنّه كتب «عمر» تحت كلمة فلان ويدل هذا على أنّ الرضى له مثل هذا الاعتقاد [٦٢٨]، والحال لا يستبعد أبداً أنّ تلك النسخة إنّ كانت أصلية تقلبت لسنوات بيد هذا وذاك فكتب بعضهم تلك الكلمة.

والأعجب من ذلك أنّ ابن أبي الحديد روى حديثاً عن ابن عباس (ج ١٢، ص ٢٠) ذكرناه سابقاً أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أراد أن يكتب بصراحة اسم على وصيته في مرضه الذي توفي فيه فمنعته.

فهل ينسجم هذا الكلام مع تفسير ابن أبي الحديد للخطبة التي تبحث؟

ولنفرض أن كلام علي عليه السلام كان في عمر، فلا يبعد هذا الاحتمال أنه لم يكن جدياً وكان تقياً، سيما طبق الرواية المذكورة أن المغيرة طرح هذا السؤال بعد وفاة عمر، بالنظر إلى أن المغيرة كان طالِحاً ولعله أراد بثّ الشر في صفوف المسلمين. فأورد الإمام عليه السلام هذا الكلام على أساس المصلحة الإسلامية، وإلا فأراه الصريح ما ورد في الشقشقية وسائر خطب «نهج البلاغة».

وقوله: فلان، بدل عمر من شأنه تأييد هذا المعنى، فهذا الإبهام علامة على التقي، يوقن للشرّاح الإمامية أن هذا الكلام ليس في الخليفة الثاني ويعتقدون بأنه إشارة إلى مالك الأشتر والبعض الآخر يرى أنه في سلمان الفارسي يبدو أن الاحتمال الأول أنسب وينسجم مع موقع مالك ودوره من بين أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وإمرته للجيش وفكره الرفيع وعزمه الراسخ.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٤٣

لِلَّهِ بِلَاءٌ فَلَانٍ فَلَقَدْ قَوْمَ الْأَوْدِ، وَدَاوَى الْعَمَدِ، وَأَقَامَ السُّنَّةَ، وَخَلَفَ الْفِتْنَةَ! ذَهَبَ نَقْيَ الثُّوبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ. أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا. أَدَّى إِلَى اللَّهِ طَاعَتَهُ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ، لَأَ يَهْتَدِيَ بِهَا الضَّالُّ، وَلَا يَسْتَتِيقَنَّ الْمُهْتَدِي.

الشرح والتفسير: مالك الأشتر

لقد اختلف شرّاح الفريقين كما قيل في تفسير هذه الخطبة والشخص المعنى بهذا الكلام. فقد ذهب أغلب الشرّاح من أبناء العامة (سوى صبحي الصالح) إلى أن المراد به الخليفة الأول أو الثاني في حين لا ينسجم هذا المدح البليغ مع ذلك الدم الشديد الذي أورده الإمام عليه السلام في مختلف خطب «نهج البلاغة» ولا سيما الخطبة الشقشقية، ولكلماته حين دفن الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام (الخطبة ٢٠٢) في ذمهما واستهجان أعمالهما.

ومن هنا أجمع الشرّاح الشيعة على أن الخطبة إشارة إلى أحد خواص أصحابه ولا سيما مالك الأشتر، خاصة وردت في بعض العبارات المروية عنه عليه السلام مثل ذلك المدح البليغ لمالك التي تشير إلى جدارته بهذا الكلام، ومن ذلك ما رواه ابن أبي الحديد في شرحه أنه عليه السلام قال:

«رَحِمَ اللَّهُ مَالِكًا فَلَقَدْ كَانَ لِي كَمَا كُنْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» [٦٢٩].

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٤٤

على كل حال، قال: «لِلَّهِ بِلَاءٌ فَلَانٍ فَلَقَدْ قَوْمَ ٦٣٠ [الأود] [٦٣١]، وَدَاوَى الْعَمَدِ [٦٣٢]، وَأَقَامَ السُّنَّةَ، وَخَلَفَ ٦٣٣ [الْفِتْنَةَ]». البلاء هنا الامتحان ويشير هنا إلى ثواب هذا الامتحان ويعنى أن الله امتحنه كثيراً وقد دعا الإمام عليه السلام ليوفيه أحسن الثواب على ذلك البلاء.

وردت في كثير من النسخ (بلاد) بدل (بلاء) جمع بلد، أي لله البلد التي ترعرع فيها حتى هذا الشخص وهو كلام شائع الاستعمال لدى العرب فيقال: «لله دُرُّ فلان» و «لله نادى فلان».

فقد بين عليه السلام في العبارة أربعاً من صفاته، الأولى أنه قوم الأود ولهذه العبارة معنى واسع يشمل المسائل العقائدية والأخلاقية والاجتماعية، والكلام في العبارة الثانية عن معالجة المرضى يشير قطعاً إلى الأمراض الأخلاقية والاجتماعية، وإقامة السنة بمعنى العودة إلى عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والتولى عن البدع الكثيرة التي ظهرت بعده صلى الله عليه وآله والعبارة «خَلَفَ الْفِتْنَةَ» إشارة إلى أنه ظهرت بعده العديد من الفتن والاختلافات بين المسلمين ومن توفيقاته أنه لم يتعرض لتلك الفتن.

ثم خاض في صفات مهمة أخرى فقال: «ذَهَبَ نَقْيَ الثُّوبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ. أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا».

هذه الصفات الأربع تأكيد لما ورد في الصفات الأربع السابقة. وبالطبع فإن من يقوم الأود ويداوى العمدة ويقوم السنة سيكون: «نَقْيَ

الثَّوبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ وَيُغَادِرُ الدُّنْيَا مَلِيئًا بِالْخَيْرَاتِ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٤٥

ثم اختتم عليه السلام الكلام بثلاث صفات أخرى فقال: «أَدَى إِلَى اللَّهِ طَاعَتَهُ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَجِّبَةٍ [٦٣٤]، لَا يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ، وَلَا يَسْتَقِينُ الْمُهْتَدِي».

هذا الكلام إشارة إلى الحوادث التي وقعت الواحدة بعد الأخرى بعد مالِك الأشر رحمة الله والتي كانت من آثار موقعة صفين والنهروان والتي يثيرها المنافقون وأعداء الإسلام، فلم يمر يوم دون ظهور فتنه ولا اسبوع وشهر دون قتال.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٤٧

الخطبة ٢٢٩

إشارة

فِي وَصْفِ بَيْعَتِهِ بِالْخِلَافَةِ [٦٣٥]

نظرة إلى الخطبة

مضمون الخطبة واضح. أكد الإمام على عليه السلام: إنني لم اطلبكم للبيعة وأنتم من انبريتم لها وتلهفتم عليها واندفتم حتى أسقطتم رداي وقطعتم نعلي وعمّ الفرح والسرور المجتمع برمته بهذه البيعة.

ترى لم أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة؟ الجواب يكمن في سائر عبارات الخطبة كون هذه الخطبة جانب من رسالة طويلة رواها الكليني في كتاب الرسائل حيث إن الإمام عليه السلام لما عاد من النهروان كتب كتاباً وأمر بأن يقرأ على الناس، حيث تحرك المنافقون وقصدت فته، الإمام وقالت: ما تقول في أبي بكر وعمر وعثمان؟

فأجاب الإمام عليه السلام: رغم هذه الظروف وقتالنا لأهل الشام فإنه سؤال حسن

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٤٨

وسأكتب جواباً شافياً وكافياً وليطلع عليه المسلمون.

ثم كتب ذلك الكتاب التاريخي في ما يقارب من عشرين صفحة وأمر بقراءته في صلاة الجمعة. فلما بلغ قضية مقتل عثمان وبيعته التي تضمنت ذلك الهجوم الفريد شرح ذلك بعبارات موجزة عميقة المعنى في هذه الخطبة، كما شرح ما حدث من وقائع عقب ذلك حتى يسلب المتذرعين الحجّة، وهنالك كلمات رائعة للإمام بشأن اندفاع الناس لبيعته ورد بعضه في الخطبة الشقشقية (الخطبة ٣) والخطبة ١٣٧.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٤٩

وَبَسَّطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُمَهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُمَهَا، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَكَ الْأَبْلِ الْهَيْمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وَرَدَهَا حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ، وَسَقَطَ الرَّدَاءُ، وَوُطِئَ الضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنْ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكِعَابُ.

الشرح والتفسير: الإندفاع العجيب لبيعة الإمام عليه السلام

ركز الإمام عليه السلام في كل هذا الكلام على قضية مهمّة هي أنّي لست طالباً قط للحكومة وأنتم الذين أصررتم عليّ، فأشار هنا إلى موضوعين: الأول اندفاع الناس المتلهفة لبيعتي، والثاني سرورهم الفائق وفرحهم الكبير بذلك العمل.

فقال في القسم الأول: «وَبَسَّ طُتْمَ يَدِي فَكَفَفْتُهَا، وَمَدَدْتُ مَوْهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ تَدَاكَ كُتْمَ [٦٣٦] عَلَيَّ تَدَاكَ الْإِبِلِ الْهِيمِ [٦٣٧] عَلَيَّ حِيَاضِهَا يَوْمَ وَرِدِهَا حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّغْلُ، وَسَقَطَ الرَّذَاءُ، وَوُطِيءَ الضَّعِيفُ».

حقاً ليس هناك من شبه بين بيعة الناس لعلي عليه السلام ومبايعة الخلفاء السابقين، فبيعتة تشبه بيعة المسلمين للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله في فتح مكة فقد سئمت الامة حكومة

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٥٠

عثمان وعانت الأمّين على عهده من غياب العدالة، ومن هنا كانت متعطشة للعدل وحيث رأتها في ينبوع على عليه السلام سارعت إليه بتلك اللهفة والشوق.

ذكر المرحوم مغنية في شرحه «في ظلال نهج البلاغة» قضية من شأنها ايضاح سبب هجوم الامة لمبايعة على عليه السلام فقال: قرأت اليوم وأنا أشرح هذه الخطبة نسخة من صحيفة أخبار اليوم المصرية في ٢١ / ١٠ / ١٩٧٢ مقالة بقلم الأستاذ سامي محمود عنوانها «شرح في خلافة المسلمين» يقول فيها: لما ولي عثمان الخلافة أسرف فيها وطغت بنى أمية لتفسد هنا وهناك: «الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ» [٦٣٨].

فسلطهم على المسلمين حتى غرقت الامة في الفتنة وقامت على عثمان فقتلته.

أمّا على عليه السلام وولده سبطى رسول الله صلى الله عليه وآله كان لهم أسلوب واضح وصحيح فلم يفكروا لحظة في الدنيا وزخارفها، فهجرتهم كانت منذ البداية لله ورسوله [٦٣٩].

وعليه فلا عجب أن تندفع الامة لبيعة الإمام على عليه السلام.

وقال في المرحلة الثانية: «وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِنَبِيِّهِمْ إِيَّائِي أَنْ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ [٦٤٠] إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ [٦٤١] نَحْوَهَا الْعَلِيلُ، وَحَسَرَتْ [٦٤٢] إِلَيْهَا الْكِعَابُ [٦٤٣]».

عادة ما يلتحق كبار السن للمشاركة في الأحداث العادية أو غير العادية، أمّا في الأحداث الفريدة النادرة التي تشهد حضوراً عظيماً فهناك حضور حتى للعجزة والمعذورين الذين لا يشتركون في أي تجمع. والإمام رسم بما عهد عنه من فصاحة فريدة حضور الامة في ذلك المشهد العظيم وتلك البيعة التاريخية بأسمى صورة

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٥١

وأشار إلى موجة الفرح والسرور العارمة التي اجتاحت جميع أفراد الامة بحيث خرج لها حتى الضعفاء والعجزة وشهدوا ذلك الحدث العظيم.

تأمل: البيعة الفريدة المطلقة

رغم أن نصب الأئمة المعصومين عليهم السلام زعماء الامة خاضع لانتخاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن جانب الله كما أن اصطفاء النبي لهذا المقام من جانب الله، لكن للبيعة: أي إعلان الوفاء والطاعة دور مهم في مسيرتهم، ومن هنا أخذ النبي صلى الله عليه وآله البيعة من الامة كراراً (بيعة العقبة الاولى والثانية والحديبية وبيعة المهاجرات في المدينة).

وعلى هذا الأساس سعى الخلفاء لأخذ البيعة من الناس؛ إلّا أنّ البيعة لم تكن كبيعة الإمام عليه السلام. فبيعة الخليفة الأول في الواقع

حصلت في السقيفة وشهدها عدد محدود جداً وأصبحت الائمة أمام أمر واقع فبايعت.

والخليفة الثاني نصب من جانب الخليفة الأول فجعل الائمة أمام فعل حاصل.

وحصلت بيعة الخليفة الثالث في الشورى المؤلفة من ستة أفراد التي شكلها عمر ولبنتها الأصلية التي صوتت لعثمان ثلاثة أفراد

(عبدالرحمن بن عوف، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص) ورأت الائمة أنها أمام أمر واقع.

أما أمير المؤمنين على عليه السلام- بغض النظر عن كونه منصب من جانب الله بواسطة النبي صلى الله عليه وآله- فقد انتخب من قبل

الأكثرية الساحقة ودون مقدمات فبيع بيعه غاية في النشاط ومفعمة بالفرح والسرور الذي بينه عليه السلام بدقة في هذه الخطبة، وعليه

قد قلنا بضرورة انتخاب الائمة والتعويل على آرائها وأسمينا ذلك بالديمقراطية الإسلامية فالحاكم الوحيد الذي حصل على هذه الآراء

هو أمير المؤمنين على عليه السلام دون من سواه.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٥٣

الخطبة ٢٣٠

إشارة

في مقاصد أخرى [٦٤٤]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة في الواقع من أربعة أقسام:

تحدث الإمام عليه السلام في القسم الأول عن أهمية الورع والتقوى وآثارهما.

وتناول في القسم الثاني بعد الفراغ من الوصية بإتيان العمل الصالح ضرورة ذكر الموت ونهاية الحياة وفقدان الفرص.

وأكد ثانية في القسم الثالث على بذل الجهد والسعي للتزود للدار الآخرة فأشار إلى خداع الدنيا مخاطباً المسلمين: احذروا أن تفتنكم

الدنيا واعتبروا بما آلت إليه حياة أسلافكم وقارنوا بمصيرهم مصيركم.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٥٤

كما أورد في القسم الرابع والأخير الذي يبدو منفصلاً عن الخطبة حسب ظاهر كلام السيد الرضى، كلمات موجزة عميقة المعنى في

صفات الزهاد وخصائص معيشتهم وشرح حقيقة الزهد.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٥٥

القسم الأول

إشارة

فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ، وَذَخِيرَةٌ مَعَادٍ، وَعِثَّةٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاءٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ. بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ.

الشرح والتفسير: سر السعادة والفلاح

بين الإمام عليه السلام في هذه الخطبة كسائر أغلب الخطب، أهمية التقوى وآثارها ليجزها في سبع عبارات قصيرة عظيمة المعنى، فقال في الأولى: «فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ [٦٤٥]».

فبالنظر إلى أن التقوى هي خشية الله الباطنية التي تصد الإنسان عن الفحشاء والمنكر وتسوقه للمعروف والإحسان فإنه يمكن القول: التقوى مفتاح أبواب السعادة؛ فكما توضع الفئاس في الخزائن وتقفل أبوابها ولا يمكن فتحها سوى بمفاتيحها فإن مفتاح التقوى من شأنه فتح خزائن السعادة بوجه الإنسان واستنزال رحمة الله المطلقة.

وقال عليه السلام في العبارة الثانية: «وَذَخِيرَةٌ مَعَادٍ». وهي إشارة في الواقع لذيل الآية الشريفة: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» [٦٤٦]. وقال في الثالثة: «وَعِثَّةٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ [٦٤٧]».

وسعة مفهوم هذه العبارة يشمل التحرر من عبودية الشيطان واهواء النفس

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٥٦

والظلمة. وقال عليه السلام في العبارة الرابعة: «وَنَجَاءٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ» فهلكة الإنسان في اتباع هوى النفس، فإذا كبح الإنسان هوى النفس بالتقوى نجا من الهلكة.

وقال عليه السلام في الخامسة: «بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ» فالتقوى هي الصراط المستقيم البعيد عن كل إفراط وتفريط وتقصير وعدوان، ومن الطبيعي أن يختزل الصراط المستقيم ليوصل الإنسان بأقل مدة إلى الهدف.

نفحات الولاية؛ ج ٨؛ ص ٣٥٦

ال عليه السلام في السادسة: «وَيَنْجُو الْهَارِبُ» فالعذاب الإلهي يطال عبدة الأهواء، والمتقون بعيدون عن الأهواء، وكما ورد في الآيتين ٧١-٧٢ من سورة مريم: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا» وقال عليه السلام في العبارة السابعة والأخيرة التي تعتبر عصاره العبارات السابقة «وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ [٦٤٨]»، لِمَ عَدَّ اللَّهُ الْأَتَقَى أَكْرَمَ إِنْسَانٍ عِنْدَهُ. «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ» [٦٤٩] ولم كانت التقوى مفتاح الجنة «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» [٦٥٠]، ولم لا ينفك الأنبياء وأئمة أهل البيت عليهم السلام وأولياء الله عن التأكيد على أن أهم شيء هو التقوى ولم كانت ضرورة في الوصية بالتقوى في كل صلاة جمعه وفي كلا الخطبتين؟

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٥٧

القسم الثاني

إشارة

فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِيَةٌ، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ. وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمْرًا نَاقِسًا، أَوْ مَرَضًا حَاسِبًا، أَوْ مَوْتًا خَالِسًا. فَإِنَّ الْمَوْتَ هَيَادِمٌ لَسَدَاتِكُمْ، وَمُكَدِّرٌ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدٌ طِيَابَتِكُمْ. زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ. قَدْ أَعْلَقْتُمْ حَبَائِلَهُ، وَتَكَنَّفْتُمْ غَوَائِلَهُ، وَأَقْصَيْدْتُمْ مَعَابِلَهُ. وَعَظَمْتُمْ فِيكُمْ سَيِّطُوتهُ وَتَتَابَعْتُمْ عَلَيْكُمْ عِدْوَتَهُ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبُوتهُ. فَيُوشِكُ أَنْ تَعْسَاكُمْ دَوَاجِي ظُلْمِهِ وَاحْتِدَامَ عِلَلِهِ، وَحَنَادِسُ غَمْرَاتِهِ، وَغَوَاشِي سَيِّكَرَاتِهِ، وَالْيَمِّ إِرْهَاقِهِ، وَدُجُوْ أَطْبَاقِهِ، وَجُشُوبِيَهُ مَدَاقِهِ. فَكَأَنَّ قَدْ أَتَاكُمْ

بُعْتَهُ فَأَسِيكَتَ نَجِيَّتَكُمْ، وَفَرَّقَ نَدِيَّتَكُمْ، وَعَفَى آثَارَكُمْ، وَعَطَلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وَرَثَتَكُمْ، يَقْتَسِمُونَ تَرَاثِكُمْ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعِ، وَفَرِيبٍ مَخْرُونٍ لَمْ يَنْفَعِ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ.

الشرح والتفسير: المعبر الذي لا مفر منه

أوصى الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة بضرورة استغلال الفرص المتاحة قبل حلول الأجل وأكد ذلك فقال: «فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالدُّعَاءُ يُشْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِيَةٌ» [٦٥١]، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ» [٦٥٢].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٥٨

حيث أشار عليه السلام في هذه العبارات الموجزة إلى أمر مهم: لديكم خمس فرص ما دمتم في الدنيا: أعمالكم الصالحة ترفع إلى الله ويسعكم أن تغسلوا المعاصي بماء التوبة. ودعاؤكم يسمع عند الله وأنتم وادعون فيمكنكم الإتيان بما تشاؤون من العمل الصالح وأخيراً الملائكة مستنفرون ليكتبوا صالح أعمالكم في صحيفة أعمالكم، لكن إن مرت هذه الفرصة وكنتم على أعتاب الموت ستسلبون هذه الفرص وليس لكم من زاد سوى الحزن والحسرة.

ثم قال عليه السلام موضحاً كلامه ومكملاً: «وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمْراً نَاقِساً» [٦٥٣]، أَوْ مَرَضاً حَاسِياً، أَوْ مَوْتاً خَالِيساً» [٦٥٤].

فالواقع أن الإمام عليه السلام شجع جميع مخاطبيه للسبق في هذه الأمور الثلاثة؛ مدّة الكهولة التي تفقد فيها جميع الأعضاء قوتها وقدرتها والتي أسماها القرآن الكريم «أرذل العمر» والأمراض التي تطول أحياناً وتسلب الإنسان نشاطه وحيويته فلا يقدر على الإتيان بالعبادات بصورة تامة ولا- خدمة المؤمنين وقضاء حوائجهم، والموت الذي شبّهه عليه السلام بالسارق الذي يسرق كل شيء من الإنسان خلصة.

ثم وضع حقيقة الموت من خلال ذكره لست من خصائصه، الموت الذي لا مهرب منه ولا مفر لأحد من ملاقاته فقال: «فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمٌ لِدَاتِكُمْ، وَمُكَدِّرٌ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدٌ طِيَّاتِكُمْ» [٦٥٥]. زَائِرٌ غَيْرٌ مَحْبُوبٍ، وَقِرْبٌ غَيْرٌ مَعْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرٌ مَطْلُوبٍ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٥٩

فقد حدّر عليه السلام من أن الزائر الذي يقدم على الجميع والرامي المصوب نحو الجميع والأشوس الذي يعجز عن مواجهته الجميع. فإن قدم حطم كل شيء فطوى بساط العيش وصادر اللذات والمتع وحمل معه الإنسان، والأهم من كل ذلك أنه لا يعرف من معنى للزمان والمكان. حقاً أن هذه العبارات البليغة العميقة المعنى موقظة ومحرّكة توقظ الغافلين وتفيق الثملين.

وكما خاض عليه السلام في ستة خصائص أخرى للموت ليكمل كلامه السابق فقال:

«قَدْ أَعْلَقْتُمْ حَيَاتِلَهُ، وَتَكَنَّفْتُمْ غَوَائِلَهُ» [٦٥٨]، وَأَقْصَيْدْتُمْ مَعَابِلَهُ» [٦٦٠]. وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَيِّطَوْتُهُ وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عِدَوْتُهُ» [٦٦١]، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبَوْتُهُ» [٦٦٢].

شبه الإمام عليه السلام الموت في هذه العبارات الرائعة بصياد رمى شبابه نحو جميع الناس وأخرى برام لا تطيش سهامه أو سيف قاطع بسيفه.

نعم، إن شك الإنسان في كل شيء فلن يشك في الموت ونهاية الحياة. يركع له صناديد أبطال العالم ويقع في شبابه أذكي الأذكياء وكفى به أنه لم يستثن حتى الأنبياء والأولياء وكما قال تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» [٦٦٣].

وأشار عليه السلام إلى سبعة أمور أخرى بشأن حملات الموت على الإنسان والعجز عن مواجهته فقال: «فَيُوشِكُ أَنْ تَعْشَاكُمْ دَوَاجِي» [٦٦٤]، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ، وَالْيَمِيمُ إِرْهَاقِهِ» [٦٦٩]، وَدُجُؤُ [٦٧٠] أَطْبَاقِهِ» [٦٧١]، وَجُشُوبُهُ» [٦٧٢] مَدَاقِهِ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٦٠

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٦٠

حيث بين عليه السلام بهذه الحملات السبع وبمختلف العبارات وبأدق وصف، اللحظات الرهيبة آخر العمر، لحظات مهولة وموحشة للغاية، لحظات مظلمة ودائمة وصف عليه السلام ظلمتها بأربع مفردات مختلفة (دواجي، حنادس، غواشي ودجو) تكشف مدى بلاغة الإمام عليه السلام وتنوع الألفاظ يضاعف فصاحة كلماته وبلاغتها.

ثم حذر عليه السلام مخاطبيه من نزول الموت المفاجئ وضرورة اليقظة في أن هذا الموت لا يقبل دائماً بعد مقدمات طويلة وأمراض، بل ما أكثر أن يحلّ ويفنى كل شيء بلحظة فقال: «فَكَأَنَّ قَدْ أَتَاكُمْ بَعِيَّةٌ فَأَسْرَبَتْ نَجِيَّتَكُمْ [٦٧٣]، وَفَرَّقَ نَدِيَّتَكُمْ [٦٧٤]، وَعَفَى [٦٧٥] آثَارَكُمْ، وَعَطَلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وُزْرَانَكُمْ، يَقْتَسِمُونَ تَرَاتِكُمْ».

وموت الفجأة الذي كان وما زال يفاجيء الناس، أعظم عبرة من غيره، حيث لا يعرف صغيراً أو كبيراً ويطال الإنسان كيفما كان، وقد ذكر المرحوم العلامة التستري في شرحه لنهج البلاغة عدداً من الأنبياء ومنهم موسى وداود وسليمان الذين ماتوا موت الفجأة، نعم، ظاهر القرآن بشأن سليمان يشهد أن ملك الموت توفاه واقفاً مستنداً على عصاه «فَلَمَّا قَضَىٰ بِنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ» [٦٧٦].

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٦١

حتى شوهد البعض وقد توفى وهو يتحدث، فذكر المبتدأ ولم يبلغ الخبر.

فقد بين عليه السلام في هذه العبارات آثار الموت في وسط المتبقين حيث لا ينقطع كلامه الظاهري فحسب، بل يخمد حتى الهمس؛ فيتفرق عنه الحاضرون فجأة وسرعان ما تزول آثار الإنسان ويفرغ بيته وينطفئ ضياؤه وإن كان هنالك من ضجيج فيبين الورثة الذين عادة ما يتنازعون على الميراث وكأنهم لا يدرون أنهم سيلتحقون بالموتى عن قريب.

ثم قسم عليه السلام الورثة في ختام هذه الفقرة إلى ثلاث؛ فته من خواص الإنسان؛ إلا أن مودتهم تزول آنذاك: «بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعِ».

والثانية، القرابة المحزونة والملتاعة التي لا يسعها دفع الموت «وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعِ». والثالثة، العدو الشامت الذي لا يجزعه موت «وَأَخْرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ».

وأشار الإمام عليه السلام في المقطع الأخير من كلامه إلى موت الفجأة؛ السكته القلبية أو الدماغية والحوادث الأليمة المتنوعة التي تفنى الإنسان في لحظة، الموت الذي لا يأبه بمكانة الأشخاص ولا بعمرهم فيطال كما مضى حتى الأنبياء، وبالها من عبرة يختزنها هذا الموت الذي يحدث كثيراً ويزداد يوماً بعد آخر، ففي لحظة آنية ينتهي كل شيء ويتفرق الجمع ويغتم الصديق ويفرح العدو- وبالهم من غافلين أولئك الذين يتجاهلون هذه الحوادث وينهمكون بالذنوب والمعاصي ويقارفون أنواع الآثام بغية الحصول على المال. نعم إن هؤلاء المغفلين ينسون طبيعة ظروف حياتهم.

ورد في كتاب «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة: فلما كانت سنة إحدى وخمسين، مرض الحسن بن علي مرضه الذي مات فيه، فكتب عامل المدينة الى معاوية يخبر بشكايه الحسن، فكتب إليه معاوية: إن استطعت ألا تمضي يوم يمر بي إلا يأتيني فيه خبره فافعل: فلم يزل يكتب إليه بحاله حتى توفي (الإمام الحسن عليه السلام)، فكتب إليه بذلك، فلما أتاه الخبر أظهر فرحاً وسروراً حتى سجد وسجد من كان معه، فبلغ ذلك عبدالله بن عباس وكان بالشام يومئذ، فدخل على معاوية، فلما جلس قال معاوية:

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٦٢

يا ابن عباس هللك الحسن بن علي، فقال ابن عباس: نعم، هللك «إِنَّا لِلَّهِ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» [٦٧٧] ترجيعاً مكرراً، وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته، أما والله ما سدّ جسده حفرتك، ولا زاد نقصان أجله في عمرك، ولقد مات وهو خير منك ولئن أصبنا لقد أصبنا بمن كان خيراً منه، جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله فجير الله مصيبتته، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة، ثم شهق ابن عباس وبكى، وبكى من حضر في المجلس، وبكى معاوية فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم [٦٧٨].

وجاء في «تاريخ الطبري»: عندما وصل خبر وفاة علي عليه السلام إلى معاوية فرح فرحاً شديداً، وكذلك لما انتهى الخبر إلى عائشة قتل علي عليه السلام وقالت:

فَأَلَقْتُ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرِ

فقال زينب بنت أبي سلمة: ألعلى تقولين هذا، فقالت: إني أنسى فإذا نسيت فذكروني [٦٧٩].

نعم، فمثل هؤلاء الأشخاص الغفلة ينسون ما هم عليه من العيش الدوني والانحراف وحب الدنيا والقدرة.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٦٣

القسم الثالث

إشارة

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُبِ وَالِاسْتِعْدَادِ، وَالتَّرْوُدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ.

ولما تعرّنتكم الحياة الدنيا كما عرّث من كان قبلكم من الأمم الماضية، والقرون الخالية، الذين احتلبوا درّتها، وأصابوا غرّتها، وأفنوا عدّتها، وأخلقوا جدّتها. وأصيّبحت مسابكهم أجداً، وأموالهم ميراثاً. لما يعرفون من آتاهم، ولا يحفلون من بكاهم، ولا يجيبون من دعاهم. فأخذروا الدنيا فإنها غدّارة غرّارة خدوع، معطيّة منوع، مليسة نزوع، لا يدوم رخاؤها، ولا ينقضي عناؤها، ولا يزكّد بلاؤها.

الشرح والتفسير: الدنيا الغرارة!

متابعة لبحث الإمام عليه السلام في شدائد الموت وفناء الحياة في المقطع السابق خاطب الجميع فأوصاهم بالتزود من الدنيا ما دامت الفرصة قائمة وعدم الاغترار بزخارفها ولذاتها والاعتبار بالماضيين فقال: «فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُبِ ٦٨٠] وَالِاسْتِعْدَادِ، وَالتَّرْوُدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ».

قال بعض الشراح في الفارق بين الجِدِّ والاجتهاد أنّ الجِدَّ يشير إلى مرحلة العزم على الإتيان بالفعل والاجتهاد مرحلته العملية، والتأهب إشارة إلى التيقن على الاستعداد والاستعداد جانبها العملي [٦٨١].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٦٤

لكن لم يذكر لذلك أي دليل من اللغة أو القرائن المتصلة والمنفصلة ولا يبعد أن يكون الجِدَّ حين يقترن بالاجتهاد إشارة إلى أنه ينبعث من الإنسان نفسه ولعل الفارق بين التأهب والاستعداد كذلك، طبعاً لا يستبعد احتمال التأكيد.

ثم قال: «وَلَا تَعْرَنْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا عَرَّثَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ».

نعم، يمكننا مشاهدة مصير حياتنا بصورة شفافة في مرآة حياة الآخرين وهذه حقيقة أكدها الإمام عليه السلام في عدّة خطب من «نهج البلاغة» فتأخذ بأيدينا لتضعنا في تاريخ الماضيين؛ التاريخ التكويني لا التدويني الذي يتجلى في أطلال قصورهم الخبرة والآثار الباقية من معيشتهم المترفة.

ولحسن الحظ فإنّ المتاحف التي تضم الكثير من آثار الماضيين يمكنها أن ترشدنا؛ فعرش الملك الفلاني وتاجه هنا والمهند المرصع وجواهر الأمر الكبير هناك وفي زاوية الأجساد المحنطة للفرعنة، مع أنّ طلاب الدنيا شوخوا هذا الموضوع المهم وأحالوه إلى صورة أخرى من الاستغراق في الدنيا؛ فأصبحت المتاحف وسيلة تدر الأرباح على أصحابها.

وقال الهيثم بن عدي، عن رجاله: بينا حذيفة بن اليمان وسلمان الفارسي يتذاكران أعاجيب الزمان، وتغيّر الأيام، وهما في عرصه أيوان كسرى، وكان أعرابي من غامد يرمى شويهاً له نهاراً، فإذا كان الليل صيرهنّ إلى داخل العرصه، وفي العرصه سرير رخام كان

كسرى ربّما جلس عليه، فصعدت غنيمات الغامدى على سرير كسرى، فقال سلمان: ومن أعجب ما تذاكرنا صعود غنيمات الغامدى على سرير كسرى ٦٨٢].

أَتَبْنِي بِنَاءَ الْخَالِدِينَ وَإِنَّمَا مَقَامُكَ فِيهَا لَوْ عَقَلْتَ قَلِيلٌ
لَقَدْ كَانَ فِي ظِلِّ الْأَرَاكِ كِفَايَةً لِمَنْ كَانَ يَوْمًا يَقْتَضِيهِ رَحِيلٌ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٦٥

ثم تناول عليه السلام حال الماضين بيضع عبارات موجزة فقال: «الَّذِينَ اخْتَلَبُوا [٦٨٣] دَرَّتْهَا [٦٨٤]، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا [٦٨٥]، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا، وَأَخْلَقُوا [٦٨٦] جَدَّتَهَا [٦٨٧]. وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَانًا [٦٨٨]، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثًا. لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ، وَلَا يَحْفَلُونَ [٦٨٩] مَنْ بَكَاهُمْ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ».

العبارات: «الَّذِينَ اخْتَلَبُوا دَرَّتْهَا، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا...» والعبارات... إشارة إلى الأشخاص الذين تمتعوا بجمع ملذات الدنيا. وكان لبناً فى ثدى الدنيا فحلبوه وشربوه إلى آخره واستغلوا كل متع الدنيا ولكنهم كأن لم يلبثوا فيها فكانوا طبق العبارة «وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَانًا».

ولهذه العبارة القيمة معنيان؛ الأول: انتقلوا من قصورهم إلى القبور، والآخر: إن قصورهم تهدمت عليهم بفعل بعض الحوادث المهولة كالزلزلة فأضحت قبورهم.

وبين عليه السلام بالدقة فى العبارات الخمس الأخيرة التى تبدأ ب (أصبحت) أنهم اغتربوا عن الدنيا بحيث لم يعودوا يعرفون من يزورهم ويبكيهم من قربتهم ومعارفهم ولا يسمعون صراخهم.

طبعاً هذا بخصوص أصحاب الدنيا الذين نسوا الله ولم تكن حصيلة أعمارهم سوى التهافت على الدنيا، أما المؤمنون الصالحون حسب ما ورد فى الرواية فيعرفون من يقف على قبورهم ويأنسون بهم ويغتمون لانصرافهم.

قال أحد أصحاب الكاظم عليه السلام إسحاق بن عمار: سألته عن المؤمن يعرف من يزوره فى قبره؟ فقال: «نَعَمْ وَلَا يَزَالُ مُسْتَأْنَسًا بِهِ مادامَ عِنْدَ قَبْرِهِ فَإِذَا قَامَ وَأَنْصَرَفَ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٦٦

مِنْ قَبْرِهِ دَخَلَهُ مِنْ إِنْصِرَافِهِ عَنِ قَبْرِهِ وَخَشَهُ» [٦٩٠]. ثم استنتج عليه السلام عقب ذلك «فَاخْذَرُوا الدُّنْيَا».

ثم أورد ثمان صفات للدنيا (أو عشرة على قول) كأدلة دامغة على الحذر من الدنيا فقال: «فَاتَّيَبَتْ غَدَارَةٌ غَرَارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مُنَوِّعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ [٦٩١]، لَا يَدُومُ رِخَاؤُهَا، وَلَا يَنْقُضِي عَنَاؤُهَا، وَلَا يَزُكُّدُ [٦٩٢] بِلَاؤُهَا».

والمفردات «غَدَارَةٌ غَرَارَةٌ خَدُوعٌ» وإن كانت متقاربة من حيث المعنى لكنها فى الواقع تختلف فى الدقة؛ غداره من مادة غدر نقض العهد، وغرارة من غرور، الخدوع من خدعة الحيلة وتعلم أنها متفاوتة وإن كانت غالباً من قبيل اللزوم والملزوم، نعم، فالدنيا لا تفى لأحد وزخارفها تغرّ العديد من الناس ومختلف مناظرها ومشاهدها خدعة، العبارة «مُعْطِيَةٌ مُنَوِّعٌ» تعود لصفة؛ أى لا تكاد تعطى الإنسان شيئاً حتى تسترده، فلا يمضى عهد الشباب حتى تحل الكهولة ولا يذوق السلامة حتى تطاله الأمراض.

وذهب بعض الشراح إلى أنّ هاتين الصفتين منفصلتان وقال: الدنيا تعطى الأشياء التافهة وتمنع الأشياء القيمة، فلا قيمة لعطائها ولا يطاق منعها.

كما هنالك تفسيران للعبارة «مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ»: الأول: إنه وصف مفهومه أنّ الدنيا تكسو الإنسان لباساً جميلاً من القدرة والعظمة وتنزعه بعد مدّة قليلة من قبل الآخرين، أو المراد أنها تلبس ثياباً تافهة وتنزع ثياباً قيمة والتفسير الأول يبدو أصح فى كلتا العبارتين.

وهنالك اختلاف واضح بين المفردات (رِخَاءٌ) و (وعناء) و (بلاء) فالرخاء، الهدوء الذى قلما يحصل فى الدنيا، والعناء، المتاعب والمصاعب التى تطال دائماً أهلها،

نفعات الولاية، ج ٨، ص: ٣٦٧

والبلاء، الحوادث الأليمة سواء الحوادث الطبيعية كالزلازل والسيول والعواصف أم البليات التي يصنعها الإنسان كالحروب، وزيادة الكلام: الدنيا دار لا تدوم.

نفعات الولاية، ج ٨، ص: ٣٦٩

القسم الرابع

إشارة

مِنْهَا فِي صِفَةِ الزُّهَادِ: كَانُوا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا، عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ، تَقَلَّبَ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِي أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَيَرُونَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعْظَمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَامًا لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ.

الشرح والتفسير: الزهاد الحقيقيون

قال الإمام عليه السلام في الجانب الآخر من هذه الخطبة الذي يشير تعبير السيد الرضى أنه مستقل عما سبق لأنه يقول (منها في صفة الزهاد). «كَانُوا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا».

هذه هي الصفة الأولى من الصفات الخمس التي ذكرها الإمام عليه السلام للزهاد في هذه العبارة. من الواضح أن لا تناقض قط في العبارة، فالمراد أن جسمهم في الدنيا لكن روحهم وقلوبهم معلق بالآخرة.

وقد جرب ذلك كل شخص في حياته أن قلبه حين ينشغل بقضية مهمة يكون فكره متعلق بموضوع آخر وإن كان وسط أي جماعة، وتؤدي هذه الصفة إلى اختلاف أعمال الزهاد مع أصحاب الدنيا، فهؤلاء يجدون في التزود من الدنيا وأولئك في التزود لها، ودليل ذلك واضح أن الزهاد لا يرون الدنيا سوى ممر والحياة الواقعية حسب القرآن هي الدار الآخرة «وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» [٦٩٣].

نفعات الولاية، ج ٨، ص: ٣٧٠

ثم أشار عليه السلام إلى الصفة الثانية «عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ».

ومن ثم قال عليه السلام: «وَبَادَرُوا [٦٩٤] فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ». فهؤلاء يرون ببصيرتهم سبل النجاة ويقفون على عناصر السعادة والفلاح، ومن هنا يلهثون وراءها دائماً، ويعرفون من جانب آخر عوامل البؤس والشقاء، لذلك يسعون للهروب منها وعدم التلوث بها.

وقال في الصفة الرابعة: «تَقَلَّبَ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِي [٦٩٥] أَهْلِ الْآخِرَةِ». نعم فهم يعيشون مع الجميع ظاهرياً؛ إلا أن معاشرتهم الحقيقيين أهل الآخرة، كونهم يعلمون أن معاشرتهم لأصحاب الدنيا تمت قلوبهم، فلا شيء في مجالسهم سوى الدنيا ولذاتها، فهم في الواقع أموات بصورة أحياء.

ثم قال في الصفة الخامسة والأخيرة: «وَيَرُونَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعْظَمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَامًا لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ».

يستفاد من الصفات الخمس المذكورة أن معنى الزهد وحقيقته ليس في كون الإنسان فقيراً ومعدماً أو يتخلى عن الحياة الاجتماعية والتفوق في زاوية للعبادة؛ بل حقيقة الزهد أن يرى الأولوية للدار الآخرة في كل شيء وحيثما كان ولا يكون أسير زخارف الدنيا والأهواء والشهوات، وجاء في خطبة أخرى للإمام عليه السلام.

«أَيُّهَا النَّاسُ الزَّهَادَةُ قَصْرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النَّعْمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ» [٦٩٦].

وقد بحثنا بما فيه الكفاية حقيقة الزهد في تلك الخطبة.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٧١

الخطبة ٢٣١

إشارة

خَطَبَهَا بَدِي قَار [٦٩٧] وَهُوَ مُتَوَجِّهُ إِلَى الْبُصْرَةِ، ذَكَرَهَا الْوَأَقْدِي [٦٩٨]

فِي كِتَابِ «الْجَمَلِ»: [٦٩٩]

نظرة إلى الخطبة

يفيد مستهل الخطبة أن ما ورد ذكره من جانب من خطبة مفصلة أوردها الإمام عليه السلام في ذى قار ولا يبدو مستبعداً أن تكون هذه الخطبة متممة للخطبة ١٠٤ والتي تبدو امتداداً للخطبة ٣٣ والتي قيلت في ذى قار.

على كل حال أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى أمرين مهمين؛ الأول: إن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أبلغ ما أمر به وأتى بوظيفته بأكمل وجه.

والآخر: إن إحدى المهام الرئيسية للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله توحيد الصفوف وتكوين المجتمع الإسلامى الموحد وحصد العداوات من الصدور.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٧٣

فَصَدَعَ بِمَا أُمِرَ بِهِ، وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، فَلَمَّ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَّقَ بِهِ الْفَتْقَ، وَ أَلْفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحَامِ، بَعْدَ الْعِدَاوَةِ الْوَاغِرَةِ فِي الصُّدُورِ، وَالصَّغَائِنِ الْقَادِحَةِ فِي الْقُلُوبِ.

الشرح والتفسير: النبي صلى الله عليه وآله حصد العداة من الصدور

قال الإمام عليه السلام بعد بيانه لمقدمات في خطبته بدي قار: «فَصَدَعَ بِمَا أُمِرَ بِهِ، وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ».

بالنظر إلى أن (صدع) من مادة (صدع) على وزن (صبر) تعنى لغة الشق أو الشق في الأجسام المحكمة أو شق الشيء فيظهر باطنه، فإن هذه المفردة تعنى الظهور والوضوح وقد استعملت هنا كون إبراز حقيقة التوحيد في ذلك الوسط الجاهلى المليئ بالشرك بمثابة شق تلك الحجب الضخمة للكفر والانحراف، والواقع انها اقتباس من الآية ٩٤ من سورة الحجر «فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ».

ولعل الفارق بين هذه العبارة والعبارة «وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ» أن فى «بلغ» مفهوم التأكيد والتكرار. وعليه فمفهوم العبارتين أن النبي أظهر الحق وأكد عليه.

ثم خاض عليه السلام فى إحدى أهم وأمثل خدمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال: «فَلَمَّ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَّقَ بِهِ الْفَتْقَ، وَأَلْفَ

بِهِ الشَّمْلَ [٧٠٠] بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحَامِ، بَعْدَ الْعِدَاوَةِ الْوَاغِرَةِ [٧٠١]

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٧٤

فِي الصُّدُورِ، وَالصَّغَائِنِ [٧٠٢] الْقَادِحَةِ [٧٠٣] فِي الْقُلُوبِ».

فقد ذكر الإمام عليه السلام في وحده الكلمة التي بثها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بين صفوف الائمة رغم كل تلك الاختلافات ثلاثة تعابير:

الأول: التعبير ب «لم» على وزن (غم) بمعنى الجمع أو الجمع المقرون بالإصلاح ويصبح مفهومه أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ردم تلك الهوة في ظل التعاليم الإسلامية بحيث لم يعد هنالك من أثر للماضي.

الثاني: التعبير ب «رتق» الذي يعنى ترقيع القطع الممزقة ولعله تأكيد على العبارة السابقة أو إشارة إلى الموارد التي كانت متصله سابقاً وانفصلت، ثم وصلها.

الثالث: التعبير ب «تأليف» الذي يعنى الجمع المقترن بالانس والإنسجام الذي ذكر بخصوص ذوى الأرحام، فكثيراً ما كان الأب والابن أو الأخ يتنازعون على بعض المصالح البسيطة في الجاهلية، وقد ألف بينهم رسول الله صلى الله عليه وآله على هدى الإيمان ومبادئ الإسلام.

النتيجة: إن الألفاظ الثلاثة يمكن أن تكون تأكيداً لبعضها البعض الآخر ويمكن أن يكون كل تعبير في نوع من الاختلاف في المجتمع. كما يحتمل أن تكون العبارة (تأليف الشمل) مرتبط باختلافات الاسرة والقراية، ورتق إشارة لزوال الاختلافات القبلية و (لم) إشارة لرفع الاختلافات عن المجتمع وتوحيد صفوفه.

على كل حال لم يكن يصدق أحد أن يتحول يوماً ذلك المجتمع الصغير في العصر الجاهلي رغم كل تلك الاختلافات العجيبة والرهيبه إلى مجتمع موحد كبير الذي قصم بوحدته ظهر الأعداء وكان بحق معجزة ربانية كما قال القران: «هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ» [٧٠٤].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٧٥

الخطبة ٢٣٢

إشارة

كَلَّمَ بِهِ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ [٧٠٥]، وَهُوَ مِنْ شِيعَتِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَيْهِ فِي خِلَافَتِهِ يَطْلُبُ مِنْهُ مَالاً، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ [٧٠٦]

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في عنوان هذا الكلام فإن عبد الله بن زمعة طلب مالاً من الإمام عليه السلام وكان من شيعته فلم يجبه، حيث كان المال من الغنائم الحربية ولا حق فيه سوى للمقاتلين ولم يكن له حق لأنه لم يشترك في القتال.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٧٧

إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ فِيَّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلَبُ أَسْيَافِهِمْ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلَّا فَجَنَاحُ أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَقْوَاهِهِمْ.

الشرح والتفسير: غنائم المقاتلين

رغم أن المراد بهذا الكلام شخص معين؛ أي عبد الله بن زمعة الذي اعتنق الإسلام وكان من شيعته على عليه السلام بخلاف أبيه وجدّه اللذين لم يعتنقا الإسلام وكانا من الأعداء، إلا أن مضمون الكلام موضوع يصدق على جميع المسلمين، وهو أن أي مال من بيت مال

المسلمين لا بد أن يصرف في الموارد التي عينها الشارع ولا ينبغي تقديم الروابط على الضوابط بهذا الشأن. وتشير قرائن الكلام إلى أن عبد الله طلب سهماً من الأموال التي كانت بين يدي الإمام وتعتبر من غنائم الحرب، إلا أن الإمام عليه السلام قال له: «إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ فِيَّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلْبُ أُسَيَافِهِمْ». لا بد من الالتفات رغم أن مفردة (الفيء) إن كانت مقابل الغنيمه فلها معنيان مختلفان؛ فالفيء يطلق على الأموال التي تقع في أيدي جند الإسلام دون قتال وتعلق حسب الموازين الشرعيه بيت المال؛ أما الغنيمه فهي الأموال التي يجنيها المقاتلون بواسطة القتال، لكن إن استعملت الفيء بمفردها أطلقت أحياناً على الغنيمه، وعليه فقوله عليه السلام: «هُوَ فِيَّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلْبُ أُسَيَافِهِمْ»، لا ينافي مفهوم الفيء.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٧٨

ثم قال عليه السلام: «فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلَّا فَجَنَاحُ [٧٠٧] أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِعَيْرِ أَقْوَاهِهِمْ». وقوله عليه السلام ليس لي من سهم في هذه الأموال ربّما يرتبط بالمعارك المحدوده التي يخوضها بعض قواد الإمام وليس الإمام عليه السلام، صحيح أن خمس الغنائم الحربية لبيت المال، وصحيح أن عبد الله بن زعمه كان من بني المطلب (المطلب أخو هاشم) وليس بني هاشم، ويرى البعض أن بني المطلب يستحقون الخمس [٧٠٨]. لكن ربّما لم يكن فقيراً ليعطيه شيئاً من الخمس، على كل حال يشير هذا الكلام إلى أن الإمام عليه السلام كان في غاية الدقه في الأموال ولا يسمح بإعطاء حق مسلم لآخر وإن كان من صحبه الأوفياء، بخلاف عهد عثمان الذي يعتقد المؤرخون بأن بيت المال لم يكن خاضعاً لحساب وكتاب، وما أجدد أن يكون كلام الإمام عليه السلام جدول عمل لجميع زعماء الامه الإسلاميه والالتزام بالحق والعدل في بيت المال حتى بالنسبه لحاشيتهم ومقربيههم. كما استفاد من الكلام أن عبد الله بن زعمه لم يكن تام المعرفة بالإمام ليطلب منه ذلك ولم يكن يعلم أن الإمام عليه السلام عامل أخاه عقيل كذلك وإلا لما طلب منه.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٧٩

الخطبة ٢٣٣

إشارة

بَعْدَ أَنْ أَقْدَمَ أَحَدُهُمْ عَلَى الْكَلَامِ فَحَصَرَ، وَهُوَ فِي فَضْلِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَوَصَفِ فَسَادِ الزَّمَانِ [٧٠٩]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من قسمين:

الأول: بشأن أهميه التكلم وحرمان البعض من هذه النعمة. ومن ثم أشار إلى تمامية هذه النعمة العظيمة في أهل البيت عليهم السلام. وشرح في القسم الثاني الوضع على عهده والذي انحدر فيه الناس إلى الفساد إثر توليهم عن تعاليم الإسلام فذل أصحاب الحق وكل أصحاب الصدق وساءت أخلاق الشبان وأثم الكهول وغدا عالمهم منافق والصديق خائن.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٨٠

ومن هنا حثهم على العودة إلى طريق الحق واليقظة قبل أن يصيبهم العذاب الإلهي.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٨١

القسم الأول

إشارة

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ،
وَلَا يُمَهِّلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ. وَإِنَّا لَأَمْرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَنْشَبَتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ عُصُونُهُ.

الشرح والتفسير: نحن امرء الكلام

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى أمرين:

الأول: يتلعمم البعض حين الخطابة وينطلق بها البعض الآخر فقال: «أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ [٧١٠] مِنَ الْإِنْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ،
وَلَا يُمَهِّلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ».

قطعة اللحم هذه المسماة باللسان من عجائب خلق الله، فبحركات سريعة للغاية ودقيقة ومنظمة يصنع الحروف الثمانية والعشرين أو
الاثنين والثلاثين فيصنفها خلف بعضها ليبيّن مجموعها جميع هواجسه ورغباته المادية والمعنوية، فيفصح بها عن المحاسن والمساوي
والجميل والقيح، والطريف أن لكل قوم لغتهم فهناك أكثر من ألف لغة في العالم، وقد منحت هذه النعمة للإنسان وحده ليحيد
الكلام فهي على درجة من الأهمية بحيث ذكرها الله في طليعة سورة الرحمن التي شرحت نعم الله:

«الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» [٧١١] طبعاً لا ينبغي أن ننسى أن

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٨٢

المهم إمرة الروح بالنسبة للسان، فإن كانت هذه الإمرة جاهزة انطلق اللسان بالفصاحة والبلاغة بسهولة وإن غابت هذه الجاهزية تلعمم
اللسان، والامتناع والاتساع الذي نسب في العبارة للسان المراد منه في الواقع امتناع واتساع روح الإنسان.

فالحق لقد بين الإمام عليه السلام سبب نجاح أو فشل الإنسان في الخطابة من خلال هذا الكلام ضمن إشارته لأهمية اللسان والنطق.

ثم قال عليه السلام: «وَإِنَّا لَأَمْرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَنْشَبَتْ [٧١٢] عُرُوقُهُ [٧١٣]، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ [٧١٤] عُصُونُهُ».

فقد شبه الكلام في هذه العبارة الرائعة بالشجرة الضخمة ذات الأغصان والجذور وأضاف أن هذه الشجرة المورقة متجذرة في أرض
وجودنا وازلتنا أغصانها ومن هنا سمي أهل بيت الوحي «امراء الكلام».

وكلنا نعلم أن ذلك ليس مجرد ادعاء، بل حقيقة يعترف بها العدو والصدیق فقد كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أفصح العرب،
وكيف لا- يكون كذلك وعلى لسانه جرى كلام الله الذي بلغت فصاحته الاعجاز، وفصاحه أمير المؤمنين عليه السلام أشهر من نار
على علم وخطب «نهج البلاغة» مما تتناقله الألسن، حتى كان الأساتذة يوصون تلامذتهم في الماضي إن أرادوا الفصاحة والبلاغة في
حديثهم بحفظ خطب «نهج البلاغة».

كما كانت خطب سيّدة النساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام من أفصح الخطب وأبلغها، وقد فعلت خطب ربيبي هذا البيت
الرسالي زينب وزين العابدين عليهما السلام فعلها في الكوفة والشام لتؤثر على العدو والصدیق.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٨٣

وعليه لا بدّ من الإذعان بأنّ التسمية بامراء الكلام تليق بأهل هذا البيت.

تأملان

١. عجائب اللسان

اللسان الظاهري أي هذه القطعة اللحمية في فم الإنسان وتتولى الأمور الهامة والمعقدة وكذلك اللسان الفكري الذي يعنى القدرة على أداء الكلمات وترتيب العبارات وبيان المطالب، لمن النعم الإلهية العظيمة، ومن هنا عدّ الفلاسفة والأعلام، النطق (اللساني والفكري) الفصل المميز وعرفوا الإنسان بأنه حيوان ناطق. وكلما أمعنا في هذين الأمرين واجهنا المزيد من العجائب. الطريف أنّ هذا اللسان ملاء تقريباً جميع فضاء الفم تحت الأسنان، وحين تناول الطعام يرسل المواد الغذائية بسرعة تحت الأسنان وينسحب بمهارة دون أن يصيبه أذى.

يقول الأطباء: هنالك أربعة أنواع من الهضم للطعام: الهضم الأول في الفم حيث يربط تماماً ويمزج بلعاب الفم فتجري عليه تغييرات فيزيائية وكيميائية شتى، ثم يتجه إلى المعدة وبالطبع فاننا ننتفع باللسان صباح مساء دون أن نقف على دوره المهم عند تناول الطعام. والوظيفة الأهم للسان صنع الكلمات ومقاطع الحروف وصف العبارات وبيان جميع المقاصد الصغيرة والكبيرة والبسيطة والصعبة والمعقدة للغاية التي تعد من عجائب الخليفة.

إلّا أنّ المهم عدم مهارة الجميع في ذلك، فالمهارة في الكلام تتوقف على عدّة عوامل أحدها وأهمها الممارسة والتدريب، والثقة بالنفس وعدم خشية الآخرين، ورباطة الجاش والايحاء إلى النفس من بين تلك العوامل المهمّة، ومن تلك العوامل أيضاً حضور مجالس أساتذة الكلام والانفتاح على تجاربهم واستخدامهم القضايا الطريفة إزاء مخاطبيهم.

طبعاً المطالعات المسبقة وإتلاك الرصيد العلمي من العوامل المهمّة وهذا ما

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٢٨٤

يفسّر براعة البعض في الخطابة في التجمعات الكبرى، وإعياء البعض الآخر في التجمعات الصغرى، كما أنّ حالات الإنسان الروحية من قبيل الحزن والسرور والعافية والسقم والهدوء والاضطراب لمن الأمور التي لها غاية التأثير في هذه القضية، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في الخطبة بعبارة الامتناع والاتساع.

وقد ذكر ابن أبي الحديد نماذج رائعة في الأشخاص الذي ارتقوا المنبر وتلثموا في الخطابة وعبوا في الألفاظ فهبطوا من المنبر، فنقل عن كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ موارد منها:

إنّ عثمان صعد المنبر وتوقف عن الكلام فقال هذا الكلام، ونزل: «أنتم إلى إمام عادلٍ أحوج منكم إلى إمام خطيب» (تركيز عثمان على مسألة العدالة رائعة للغاية).

وروى أنّ عدى بن أرطاة رقى المنبر ولم تكذ تقع عينه على الناس حتى توقف فقال: (الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويسقيهم) ثم نزل. كما صعد روع بن حاتم، المنبر فلما رأى الناس يتطلعون إليه نادى: إخفضوا رؤوسكم وأغمضوا أعينكم فركوب الدابة صعب أول الأمر فإن فتح الله شيئاً سهل.

وقيل: أراد مصعب بن حيان أن يلقي خطبة في النكاح فقال: لئنوا موتاكم لا إله إلا الله. فقامت له ام العروس وقالت: عجل الله موتك ألهذا دعوناك! وسائر الموارد من هذا القبيل [٧١٥].

٢. امراء الكلام

ما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الخطبة (وإننا لأمرء الكلام) حقيقة لا تنكر يعترف بها العدو قبل الصديق. وما خلفه هذا البيت من تراث خير شاهد على ذلك؛ كأحاديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله التي نشرت تحت عنوان (نهج الفصاحة، ونهج البلاغة) بأجزائه الثلاثة والأدعية كدعاء كميل والصبح الذي ينتهي سنده للإمام على عليه السلام وخطبتي

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٨٥

سيده نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام ودعاء عرفه المسند للإمام الحسين عليه السلام وخطب أهل بيته في الكوفة والشام ثم المدينة عقب واقعة كربلاء وأدعية الصحيفة السجادية كدعاء أبي حمزة الثمالي الذي ينتهي سنده للإمام السجاد عليه السلام وأمثال ذلك.

كما ينبغي الالتفات إلى إذعان الأعداء بهذه الحقيقة. وروى ابن أبي الحديد في الجزء الأول من شرحه لنهج البلاغة أن محقق بن أبي محقق دخل على معاوية فسأله من أين جئت؟

قال: «جئتك من عند أغيبى الناس». فقال له معاوية: «وَيَحْكُ كَيْفَ يَكُونُ أَعْيَى النَّاسِ فَوَاللَّهِ مَا سَنَّ الْفَصَاحَةَ لِقُرَيْشٍ غَيْرُهُ» [٧١٦].

وروى عن عبد الحميد الكاتب: حفظت سبعين خطبة من نهج البلاغة ففاضت ثم فاضت [٧١٧].

وروى المرحوم السيد الرضى في مقدمته الرائعة على نهج البلاغة قائلاً:

قال ابن أبي الحديد كما ذكرنا في الجزء الأول ذيل الخطبة ٢٢١ بعد شرحه لجانب من كلام المولى في عالم البرزخ: «لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس وتلى عليهم، أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدى بن الرقاع ومطلعها: «قلم أصاب...»، فلما قيل لهم في ذلك قالوا: نعرف مواضع السجود في الشعر كما تعرفون مواضع السجود في القرآن» [٧١٨].

ولمزيد من المعلومات بهذا الشأن يراجع كتاب «في رحاب نهج البلاغة» للشهيد المطهرى ومقدمة الجزء الأول من «نفحات الولاية».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٨٧

القسم الثاني

إشارة

وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنْكُمْ فِي زَمَانِ الْقَائِلِ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ. أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ، مُصِطَلِحُونَ عَلَى الْأَذْهَانِ، فَتَاهُمْ عَارِمٌ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ، وَعِيَالُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِنُهُمْ مُمَازِقٌ. لَا يُعْظَمُ صِغِيرُهُمْ كَبِيرُهُمْ، وَلَا يُعُولُ غَيْبُهُمْ فَقِيرُهُمْ.

الشرح والتفسير: خصائص البيئة الملوثة

تناول الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة، المفسدات التي ظهرت آنذاك إثر سياسات الخلافة السابقة والتي سرت تقريباً إلى جميع المجتمعات، ليرسم صورة واضحة لذلك المجتمع بإحدى عشرة عبارة موجزة غاية في الدقة بحيث لم ينس شيئاً (وهذا مفهوم الفصاحة والبلاغة والخطابة المعجزة) فقال: «وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنْكُمْ فِي زَمَانِ الْقَائِلِ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ» [٧١٩].

فقد شخّص عليه السلام بهذه الصفات الثلاث، الجذور الأصلية لفساد المجتمع، سكوت أهل الحق خشية المعارضين أو إزدباد

الأزمات، وصمت الصادقين بفعل ضغوط البيئة والهيئة الحاكمة أو مخافة زوال مصالحهم الشخصية أو التلوث بالكذب والإفتراف عوض الصدق وكذلك أولئك الذين ينشدون الحق ويطلبونه ينحون أو ينسحبون من المجتمع وليس هنالك من يسمع مقالتهم الحققة، وزبدة القول ينسى

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٨٨

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويهجر إرشاد الجاهل وتنبية العاقل.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين هما في الواقع نتيجة للصفات الثلاث السابقة فقال:

«أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعُضَيَّانِ، مُصْطَلِحُونَ [٧٢٠] عَلَى الْأَذْهَانِ [٧٢١].»

لا شك في أن هناك معاصٍ في كل مجتمع ومداهنة ومسايرة، إلّا أن البؤس والشقاء في حركة عامة نحو الذنب والمعصية وبصورة مستمرة ودائمة، كما أن المصيبة والتعاسة في اصطفا المداهنيين واتحادهم على هذا الأمر.

ثم قال عليه السلام في الصفة السادسة والسابعة: «فَتَاهُمْ عَارِمٌ [٧٢٢]، وَشَائِبُهُمْ [٧٢٣] آثِمٌ».

من البديهي في الوسط الذي يصمت فيه أصحاب الحق ويغيب فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تتلوث الأوساط الاسرية فينشأ الشبان في هذه الأوساط سيئ الخلق وفاقدى الأدب، كما أنه من الواضح أن هؤلاء الشبان حين يشيخون لا يفارقون الاعتقاد على المعصية ويغفلون عن أن عمرهم اقترب من نهايته وسيحل أجلمهم فيغطون في بحر المعاصي بسبب تلك الغفلة.

وقال في الصفة الثامنة والتاسعة: «وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِئُهُمْ مُمَازِقٌ [٧٢٤].»

نعم، فعلماء ذلك الوسط الذين أقبوا على الدنيا إنما يرون النفاق سبيلاً لنيلها، كما ورد في الخطبة ١٩٤: «وَصَفُّهُمْ دَوَاءٌ وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعِيَاءُ».

وردت المفردة «قارئهم» في أغلب نسخ «نهج البلاغة» وهذا ما رجحه أغلب الشراح كونه يناسب العبارة السابقة، فالكلام هناك عن العلماء وهنا عن قراء القرآن والعاشرين. بينما وردت في بعض النسخ (قارن) من مادة قرين بمعنى الصديق

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٨٩

ويصبح مفهوم العبارة أن الأصدقاء آنذاك منافقون؛ ولكن من الواضح أن النسخة الأولى أكثر تناسباً مع مجموع كلام الإمام عليه السلام.

وأخيراً قال في الصفتين العاشرة والحادية عشرة من صفات أهل ذلك الزمان:

«لَا يُعَظَّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرُهُمْ، وَلَا يَعُولُ [٧٢٥] غَيْبُهُمْ فَعِيرُهُمْ».

واضح أن الشبان واليافعين تربوا بعيداً عن الأدب والخجل والحياء لا يحترمون كبارهم، كما أن الكبار الذين غرسوا هذه البذور يتجرعون مرارة ثمارها.

ومن الواضح أيضاً أنه إن غابت الفضائل الإنسانية عن المجتمع وحل مكانها الفساد والتكالب على الدنيا فإن الأغنياء سوف لن يرحموا الفقراء وينسون حقيقة أن الله جعل للفقراء حقاً في أموالهم، ومن هنا يرون أن جميع تلك الأموال لهم فينفقونها في ملذاتهم. هذا إن كانت تلك الأموال جمعت من الحلال، وإلّا إن كانت من الحرام ولا يعلم أصحابها، فهي جميعاً للفقراء والمحتاجين.

وهنا يرد هذان السؤالان؛ الأول: لم عمّت كل هذه المفاسد المجتمع الإسلامي على عهد حكومة الإمام على عليه السلام؟ ولا تبدو الإجابة صعبة إن عدنا قليلاً إلى الوراء وتأملنا عصر الخليفة الثالث وماذا فعل وبطانته بيت المال والمناصب الحساسة الحكومية التي أغدقها على خاصته وقربائه، فالتاريخ يفيد أن الفساد بلغ درجة بحيث قام المسلمون على الخليفة وقتلوه بمرأى ومسمع المهاجرين والأنصار وقلما كان له ناصر.

السؤال الآخر: أين الجذور الأصلية لتلك المفاسد الإحدى عشرة؟ لو تأملنا بدقة لرأينا أن أغلبها إن لم نقل جميعها ناشئة من فساد

الخلافة، وكون الناس غالباً على دين حكامهم يواصلون تلك المسيرة، وأحياناً يترسخ الفساد بحيث يشق الإصلاح على من يخلفهم، كما شق على الإمام عليه السلام.

حقاً لو دعوا الإمام يتسلم زمام الأمور بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويقود المجتمع

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٩٠

الإسلامي بذلك العدل والزهد والدراية بالمسلمين لكان للإسلام والمسلمين مسار آخر. الطريف أننا لو نظرنا إلى البلدان المعاصرة التي تسودها حكومات فاسدة لرأينا بوضوح كل هذه المفاسد التي أشار لها الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٩١

الخطبة ٢٣٤

إشارة

رَوَى ذُعَلْبُ الْيَمَامِي [اليماني عَنْ أَحْمَدَ بْنِ قُتَيْبَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ دَحْيَةَ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَهُ اخْتِلَافُ النَّاسِ فَقَالَ ٧٢٦]:

نظرة إلى الخطبة

محور البحث في كلام الإمام عليه السلام عوامل اختلاف الناس مع بعضهم وظاهر هذا الكلام أن نقص الناس وكمالهم في العقول والغرائز مرهون بمدى طهاره طبيعتهم التي جبلت عليها طبيعتهم، وإن رأينا ظاهرياً تقارب البعض وانسجامهم أو تباعدهم وتفرقهم فبسبب قرب أرضهم (طبعاً يخترن هذا الكلام أسئلة متتالية سنخوض في طرحها والرد عليها باذن الله في الشرح والتفسير).

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٩٣

إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِيءُ طِينِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فُلُقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا، وَحَزَنَ تَرْبِيَهُ وَسَهْلَهَا، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَفَارِقُونَ، وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ، فَتَأْمُ الرُّوَاءِ نَاقِصُ الْعَقْلِ، وَمَادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهَمِّ، وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمُنْظَرِ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ، وَمَعْرُوفُ الضَّرْبِ مَكْرُ الْجَلِيَّةِ، وَتَائِهَ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللَّبِّ، وَطَلِيقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ الْجَنَانِ.

الشرح والتفسير: أساس الاختلاف

لا شك في أن الناس مختلفون من الناحية الجسمية وكذلك من الناحية الروحية والفكرية والأخلاقية كما لا ريب في أن هذا الاختلاف يمكن تغييره عن طريق التربية والتعليم. وعليه فالاختلاف لا يقود قط إلى سلب الاختيار ومسألة الجبر.

إلما أن الكلام في أصل هذه الاختلافات؟ لم البعض طويل القامة والآخر قصير، البعض جميل الوجه والآخر غير جميل، فئه ذات استعداد عالي واخرى ضعيفة وعاجزة، وطائفة كريمة واخرى بخيلة.

نسب الإمام عليه السلام هذه الاختلافات إلى مواد خلق منها جسم الإنسان وقال: «إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِيءُ ٧٢٧] طِينِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فُلُقَةً [٧٢٨] مِنْ سَبَخِ ٧٢٩] أَرْضِ

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٩٤

وَعَذْبَهَا [٧٣٠]، وَحَزَن [٧٣١] تَزْبِيَةً وَسَهْلَهَا [٧٣٢]، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ، وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ».

وعلى ضوء هذا الكلام فإن هذه الاختلافات ناشئة من تباين مواد الأرض المختلفة، وبالنظر إلى اختلاف بقاع الأرض والمواد التي تتركب منها واختلاف تركيب الناس من تلك المواد، والتأثير لاختلاف تلك المواد على اختلاف روحياتهم وأفكارهم وأخلاقهم كان هناك اختلافات بين الناس. وهنا يرد سؤالان: الأول: إن أبانا آدم عليه السلام خلق من التراب وولد الناس لاحقاً من نطفة آدم وأولاده، وليس من التراب.

والآخر: ألا يقوى هذا الكلام مذهب الجبر الذي يرغم أن كل إنسان مجبر على الأفعال ولا يمكن تغيير ذلك؟ ونترك الإجابة عن السؤال الثاني لمبحث التأمّلات في آخر الخطبة. وهناك سبيلان للإجابة عن السؤال الأول:

الأول: إن الناس وإن ولدوا بعد آدم من نطفته؛ إلا أن النطفة تتركب من مواد مختلفة تعود الجوانب الرئيسية فيها للأرض وتتغذى في رعرعتها على غذاء الام لتبلغ مرحلة الكمال حتى تلد، وغذاء الام مهما كان يتألف من مواد الأرض، فالنباتات تخرج من الأرض والحيوانات تتناول النباتات وعليه فممو الجنين منذ كونه نطفة حتى تحوله إلى الكمال يستند جميعاً إلى مواد الأرض.

وربما يتضح الموضوع أكثر بهذا المثال وهو أن الأشجار المثمرة التي تنمو في أراضٍ مختلفة وكذلك الحيوانات وبذور الأطعمة مختلفة تماماً؛ مثلاً، العنب الذي ينمو في بقعة أحلى وألطف من الآخر في بقعة أخرى وهكذا سائر الثمار، والناس كذلك، وحيث إن رابطة الجسم والروح بالنسبة لبعضها قريبة جداً فإن تفاوت هذه

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٩٥

المواد يؤثر في روحيات الإنسان وخلقياته.

الجواب الآخر: بغض النظر عما قيل، إن ركزنا على خلق جسم آدم من التراب فمن الممكن أيضاً أن تحصل عدّة نطف من المواد المركبة لوجود آدم حين تتكون النطفة، ففي بعض الحالات، المادة الفلانية ترد أكثر من النطفة وفي بعضها الآخر أقل، ومن هنا يختلف حتى الأولاد الذين يلدون من نفس الأب والام وفي مناخ واحد وحتى التغذية الواحدة للوالدين؛ فهذا أشجع وذاك أكرم وهذا أضعف وذاك أذكى، والقضية المهمة أيضاً أن المناخ يكون جانباً من وجود الإنسان؛ لكن الإمام عليه السلام ذكر هنا أساس الاختلاف ليقصره على اختلاف مواد الأرض ولم يتطرق إلى المناخ، إما لقلّة تأثيره على مواد الأرض أو أنه يتأثر بها أيضاً، فالماء مالح في الأراضي السبخة والهواء ملوث، بينما الماء حلو والهواء لطيف في الأراضي السهلة.

طبعاً لا يخفى التأثير الذي تلعبه أشعة الشمس، ولذلك ترى أغلب الأفراد في المناطق الاستوائية من ذوى البشرة السوداء وبعكسها في المناطق المعتدلة، وبالطبع لا يقتصر ذلك التأثير على لون البشرة، بل هناك تأثير خاص للموقع الجغرافي بسبب اختلاف أشعة الشمس أو المناخ والأرض.

على كلّ حال، استناداً لما قيل يمكن التسليم لكلام الإمام عليه السلام حسب دلالة ظاهرة والذي ينسجم تماماً مع القواعد العلمية المعاصرة، ولا حاجة إلى أن نقول المراد من (مبادئ طينهم) أرواح ونفوس الناس وتحمل سائر ألفاظ الإمام عليه السلام على اختلاف الأرواح؛ لا- على اختلاف الأجسام التي لها تأثيرها في تفاوت الأخلاق والروحيات كما يفهم من كلمات ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة.

ثم بين الإمام عليه السلام عدّة نماذج لتأثير الجسم على الأخلاق والفكر والفضائل النفسانية ليختتم هذا البحث بذكره لسبعة نماذج من العلاقة بين الجسم والروح والتركيب الظاهري بالخلق والطبع الباطني فقال: «فَتَأْمُ الرُّوَاءِ [٧٣٣] نَاقِصُ الْعَقْلِ، وَمَادُّ

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٩٦

الْقَامَةِ قِصَّةُ يِرْهِمِهِ، وَرَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمُنْظَرِ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ [٧٣٤] بَعِيدُ السَّبْرِ [٧٣٥]، وَمَعْرُوفُ الصَّرِيحِ مُنْكَرُ الْجَلِيْبِيِّ، وَتَائِهَةُ الْقَلْبِ

مُتَفَرِّقُ اللَّبِّ، وَطَلِيقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ الْجَنَانِ».

وما ورد بشأن العلاقات السبع بين الجسم والروح والمادة الجسمانية والأخلاق في كلام الإمام عليه السلام قطعاً بصيغته قاعدة كلية لا يطالها الاستثناء، بل واردة في أغلب الأفراد، ومن هنا لمسنا بأعيننا استثناءاتها.

العبارة «قَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ» وبالنظر إلى أن القعر هنا إشارة إلى قصر القامة، حيث ليست هناك من فاصلة بين الرأس والأقدام لديهم وكانت مفردة «وَقَرِيبُ الْقَعْرِ» مناسبة لهم، وبالنظر إلى أن السبر يعنى التعمق والاختبار فإن العبارة «بعيد السبر» إشارة إلى عمق الفكر وسعة الاطلاع.

كما يحتمل أن تكون العبارة «بَعِيدُ السَّبْرِ» إشارة إلى أن أولئك الأفراد يصعب معرفتهم. وهو المعنى الذى أقره ابن أبى الحديد وابن ميثم وبعض الشراح.

والعبارة «وَمَعْرُوفُ الضَّرِيَّةِ» بالنظر إلى أن الضريبة تعنى السجية والخصلة والطبيعة والجلية ما يقوم به الإنسان من عمل خلاف طبعه وكأنه يجلبه من الخارج، فإن المفهوم هو أن طائفة من أولئك الناس الطاهري الطبع يتعاملون خلاف طبعهم بفعل بعض العوامل الخارجية من قبيل التربية السيئة والوسط الملوث والدعاية السامة التى تفرز الدواعى الشيطانية.

والعبارة «وَتَائِهَةُ الْقَلْبِ» ذات مفهوم جريئه عادة فى حياتنا وحياء الآخرين وهو أن الأفراد الذين يعيشون الاضطراب إثر مختلف العوامل يفقدون قدرة التفكير المنظم فتضطرب بالطبع أفكارهم بحيث يتضح قلق قلوبهم من خلال اضطراب أفكارهم.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٩٧

والعبارة «وَطَلِيقُ اللِّسَانِ» ذات مفهوم مجرب هو أن الخطباء الماهرين هم الأفراد ذوو القلوب الصلبة الذين لا يهابون شيئاً ويتسمون بالشجاعة ومن هنا كانوا ماهرين فى الخطابة.

تأملان

١. صلة الروح بالجسم

صرح أغلب الأعلام والفلاسفة بأن لروح الإنسان صلةً بجسمه بحيث تنعكس خصائص كل منهما على الآخر، وعليه فليس من العجب أن تكون هنالك علاقة بين شكل الإنسان وقامته وسائر ميزاته البدنية وبين روحياته وأخلاقه.

وقد ذكر المفكرون منذ قديم الأيام ولحد الآن تلك الصلات فى مصنفاتهم حتى انشق علم معرفة الهيئة، لكنهم يعترفون بأن تلك الصلات (صلة الأخلاق بالهيئات الجسمانية المختلفة) ليست كلية، فهناك العوامل الأخرى المؤثرة فى روحية الإنسان وخلقه بحيث يغلب تأثيرها أحياناً ويربك العلاقة السابقة؛ مثلاً خلق الأب والأم وطبعهما، وتأثير المناخ المحلى والتعامل مع مختلف الأشياء حسب العمل والمهنة وأمثال ذلك، من شأنه التأثير فى خليات الإنسان فيربك أحياناً كلية صلوات علم معرفة الهيئة.

على كل حال، فما ورد فى كلام الإمام عليه السلام آنفاً إشارة إلى جانب من علاقة الروح بالجسد ذكره كرد على سؤال بعض أصحابه بشأن اختلاف روحيات الناس، وما مر علينا بالطبع مبدأ كلى ولا يخلو من استثناء.

ومن هنا يتضح ما يرى من مطالب فى بعض الروايات على خلاف ما ذكر، على أنه من تلك الاستثناءات كالحديث النبوى القائل «أُطْلِبِ الْخَيْرَ عِنْدَ حِسَانِ الْوُجُوهِ» [٧٣٧].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٩٨

فى حين ورد فى بعض الروايات ضمن خطبة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا كُمْ وَخَضْرَاءُ الدَّمَنِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا خَضْرَاءُ الدَّمَنِ؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي مَنَبَتِ السُّوءِ» [٧٣٨].

٢. الاختيار وصله الروح بالجسد

السؤال الآخر الذى يرد هنا: إننا إن قبلنا العلاقة بين ملوحة التربة وحلاوتها وطبيعة الإنسان وإرتباط الهيئات الجسمانية بخلقيات البشر، فنتيجة ذلك ليس للأخيار قدرة إتيان المساوىء، ولا السيئين إتيان المحاسن وهذا هو مذهب الجبرية، والمعلوم على هذا الأساس إنكار الثواب والعقاب وعبثية بعثة الأنبياء، وبالتالي نفى عدالة الله تبارك وتعالى.

ولا تبدو الاجابة على هذا السؤال صعبة، فليس هناك من يزعم أن الكيفيات الجسمانية علة تامه لتلك الخلقيات فى الطبيعة البشرية، وأنها مجرد أرضية مساعدة. ويمكن ايضاح ذلك بهذا المثال. فالكل يقول بتأثير الوسط الاسرى أو البيئه على أعمال الإنسان، إلّا أن ذلك لا يعنى سلب إرادة الإنسان، وما ذلك سوى أرضية، ومن هنا نرى الكثير ممن تربى فى اسره سيئه لكنهم كانوا اناساً صالحين ومؤمنين. وبالعكس نرى بعض الأفراد السيئين ممن تربى فى وسط صالح، بعبارة أخرى، فإنّ الجزء الأخير للعله التامه إرادة الإنسان التى تؤدى إلى التأثير الغائى.

كما تجدر الإشارة إلى أن من عاش وسطاً سيئاً وأجواء خلقية شاذة وسلك الطريق السليم فإنّ أجره وثوابه يفوق نظيره الذى يعيش وسطاً وبيئه صالحه.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٣٩٩

الخطبة ٢٣٥

إشارة

قَالَ وَهُوَ يَلِيْ غُسْلَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَتَجْهِيْزَهُ [٧٣٩]

نظرة إلى الخطبة

أورد الإمام عليه السلام كما قيل، هذا الكلام حين ولى غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه، كلمات ملتاعة تثير الحزن وتعكس غاية لوعة الإمام عليه السلام آنذاك، فى حين ترك الآخرون جسد النبى الأكرم صلى الله عليه وآله واجتمعوا فى سقيفه بنى ساعدة ليتأمروا على سلب خلافة النبى صلى الله عليه وآله.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٠١

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النَّبُوَّةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ. خَصَّصْتَ حَتَّى صَدَرَتْ مُسَيِّئاً عَمَّنْ سِوَاكَ وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سِوَاءً. وَلَوْ لَمَا أَنْكَرْتِ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتِ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّوْنِ وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً وَالْكَمْدُ مُحَالِفاً، وَقَلَّا لَكَ! وَلَكِنَّهُ مَا لَمْ يَمْلِكْ رُدُّهُ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ.

الشرح والتفسير: عظم مصيبة رحيل النبى صلى الله عليه وآله

خاطب عليه السلام الجسد الطاهر للنبى الأكرم صلى الله عليه وآله فقال: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النَّبُوَّةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ».

الجملة «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي». المتداوله لدى العرب عند ابداء الحب لأحد، إشارة إلى أتى أفديك بأبى وامى أعز أعزائى، لعل أب القائل

وامة ليسا على قيد الحياة حين قوله ذلك الكلام كما الأمر كذلك في هذه الخطبة، فذلك لا يقدح بمفهوم الكلام، فلهذه العبارة جانب كئابي ويشير إلى أن المخاطب عزيز إلى درجة أن الإنسان يفديه بأعز خاصته.

ورد في بعض الروايات أن هذه العبارة عقوق للوالدين إن كانا على قيد الحياة ومؤمنين [٧٤٠].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٠٢

إلما أن ظاهر هذه الرواية حين لا- يكون المخاطب النبي أو الإمام، لأن هذه العبارة إزاءهم مدعاة للفخر فضلاً عن أنها ليست إهانة وعقوق.

ومن هنا كثيراً ما تشاهد هذه العبارة في أغلب الزيارات، في حين أن أغلب والدي الزائرين أحياء.

المفردات «نبوة»، «إنباء» و «أخبار السماء» ذات مفاهيم مختلفة: فالنبوة إشارة إلى مقامه صلى الله عليه وآله، والإنباء أسلوب النبي العملي في إبلاغ الرسالة والوحي، وأخبار السماء تلك التي لا ترتبط بالمسائل الشرعية من قبيل الأخبار الغيبية والحوادث المستقبلية والملاحم.

على كل حال العبارات المذكورة أخبار صريحة في خاتمية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ودليل بين على عدم نزول الوحي بعد النبي صلى الله عليه وآله وقد انقطعت هذه النعمة العظيمة التي عمّت العالم في ظل وجود النبي برحيله، وهذا سرّ حزن أمير المؤمنين عليه السلام.

ثم أشار عليه السلام إلى أمرين فقال: «حَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً [٧٤١] عَمَّنْ سِوَاكَ وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سِوَاءً».

كيف لا تكون مصيبة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله شاملة وهو رحمة للعالمين ووسيلة نجاه البشرية من مختلف أنواع الانحرافات، فهو للجميع ويهتم بالجميع، فلا بد أن يبكيه الجميع في مصابه.

ومن جانب آخر أن المصاب يبدو أجلاً وأعزّ كلما كان الفقيد أعظم قدراً وأثراً، ولما كان النبي صلى الله عليه وآله أكرم إنسان وأعز مخلوق كانت مصيبته تفوق جميع المصائب، وبعبارة أخرى تهون سائر المصائب إزاء مصابه.

وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام حين مصابه بالزهراء عليها السلام فخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلْدِي إِلَّا أَنَّ فِي النَّاسِ لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزُّ [٧٤٢].»

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٠٣

قال الإمام الباقر عليه السلام: «إِنْ اصْتَبَتْ بِمُصِيبَتِهِ فِي نَفْسِكَ أَوْ فِي مَالِكَ أَوْ فِي وَلَدِكَ فَادْكُزْ مُصَابِكَ بِرَسُولِ اللَّهِ فَإِنَّ الْخَلَائِقَ لَمْ يُصَابُوا بِمِثْلِهِ قَطُّ» [٧٤٣].

ثم أشار عليه السلام إلى قضية أخرى فقال: «وَلَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْقَدْنَا [٧٤٤] عَلَيْكَ مَاءَ الشُّوْنِ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً وَالْكَمْدُ مُحَالِفاً، وَقَلَّا لَكَ!».

وبالنظر إلى أن شؤن، جمع شأن التي تعني هنا غدد الدموع فمراد الإمام عليه السلام لولا أنك نهيتنا عن البكاء والجزع لبكيناك حتى ينضب ماء عيوننا، لكننا تعلمنا منك الصبر والجلد، فقد بكيت ولدك إبراهيم حين توفي لكنك لم تجزع، وهذا ما فعلته بمصاب عمك حمزة ومن هنا علمتنا الصبر.

و «المماطل»: المدين الذي يؤخر أداء الدين، ويقال: داء المماطل للمرض الذي لا علاج له والذي يشبه ذلك المدين.

و «الكمد»: الحزن الباطني، والمخالف: من يعاهد غيره ويفي بالعهد، فكمد مخالفاً بإشارة إلى الحزن الباطني الثابت.

ويشير ضمير المشني في (قلاً لك) إلى ذلك الداء والكمد؛ أي أن ألم مصابك وحزنه الدائم لا شيء أيضاً إزاء عظمت مصيبتك.

ثم قال عليه السلام: «وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلِكُ رُدُّهُ، وَلَا يَسْتَطَاعُ دَفْعُهُ!». فالبكاء والجزع لا يجدي نفعاً ولا بد من الصبر والرضا برضى الله.

ثم عبر في الختام أيضاً عن حبه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وتعلقه به فقال: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ

بِالِك [٧٤٥].

ومفهوم هذه العبارة أن روحك الطاهرة عرجت إلى الملكوت الأعلى جوار الرب. فادع لنا هناك واسأل الله قضاء حوائجنا واستحضرنا على الدوام.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٠٤

تأملان

١. البكاء على الأعزّة

يستفاد من هذه الخطبة والروايات، عدم المنع من البكاء على مصاب الأعزّة.

والمنع يقتصر على الجزع والجحود، فقلب الإنسان بؤرة العواطف والتي تؤثر عليه سيما حين تشتد. فإذا فقد عزيزاً اضطرب القلب وجرت الدموع ويختنق الإنسان بعبرته وينطلق اللسان لبيان شوقه ولهفته للعزيز الفريد، هذه الأمور جميعاً ليست ممنوعة، بل ممدوحة شريطة اقترانها بالصبر، والممنوع أن يجزع الإنسان ويضرب رأسه بالجدار ويخمش وجهه وينطلق لسانه بالباطل.

ففي الخبر: لما بلغ النبي صلى الله عليه وآله استشهاده جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة (في موقعه مؤتة) بكاهما وقال: «إِنَّهُمَا كَانَا يُحَدِّثَانِي وَكُنْتُ آنَسُ بِهِمَا فَمَاتَا مَعًا» [٧٤٦].

كما ورد في غزوة احد أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يسمع كل بيت يبكي قتيله سوى بيت عمه حمزة، غضب وقال: «وَلَكِنْ حَمَزَةٌ لَابْوَاكِي لَهُ».

فلما سمع أهل المدينة ذلك أقسموا أن لا يبكوا أحداً حتى يبكوا على حمزة. وقد استمرت هذه السنّة حتى اليوم (حين حديث الإمام الباقر عليه السلام) [٧٤٧].

كما وردت عن المعصومين عليهم السلام عدّة روايات في النهي عن الجزع، ومنها أن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «إِنَّكَ إِنْ صَبَوْتَ جَزْتَ عَلَيْكَ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ وَإِنْ جَزَعْتَ جَزْتَ عَلَيْكَ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَعْدُورٌ» [٧٤٨].

لا ينبغي أن ننسى أن الجزع ناهيك عن كونه نوعاً من جحود الله، فهو ينطوي على آثار سيئة تصيب أعصاب الإنسان وتسوقه أحياناً إلى حدّ الجنون.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٠٥

٢. تجهيز النبي صلى الله عليه وآله

لا خلاف في يوم وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث أجمعوا على وفاته يوم الاثنين ومشهور مذهب أهل البيت عليهم السلام أنه دفن بعد ثلاثة أيام.

ورغم ما يستفاد من الروايات باستحباب التعجيل في دفن الميت؛ إلّا أنّ القضيّة تختلف حين يكون المتوفى شخص كرسول الله صلى الله عليه وآله ويريد المسلمون أن يصلّوا عليه فوجاً فوجاً ويودعوه.

وكما يستفاد من الأخبار أنهم كانوا يدخلون عليه عشرة عشرة ويصلّون عليه، ثم دفن هناك في حجرته، حيث كان لكلّ رأي في دفن النبي صلى الله عليه وآله فمنهم من قال: في مكة، وآخر المدينة (في البقيع أو في صحن المسجد) فقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْبِضْ نَبِيًّا إِلَّا فِي أَطْهَرِ الْبِقَاعِ فَيَتَّبِعِي أَنْ يُدْفَنَ فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي قُبِضَ فِيهَا».

فَاتَّفَقَتِ الْجَمَاعَةُ عَلَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدُفِنَ فِي حُجْرَتِهِ [٧٤٩]. كما قيل فيمن دخل القبر أنه دخل على عليه السلام والفضل ابن العباس وشخصان آخران [٧٥٠].

على كل حال، فمما لا شك فيه أن تجهيز النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بما في ذلك غسله وتكفينه والصلاة عليه كان على يد على عليه السلام بينما سارع الآخرون إلى سقيفه بنى ساعدة وانهمكوا بالحديث عن الخلافة حتى قيل إن معزى السقيفه لم يوقفوا للصلاة على النبي صلى الله عليه وآله. وللوقوف على المزيد بهذا الشأن يراجع كتاب بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ٥٠٤. نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٠٧

الخطبة ٢٣٦

إشارة

اقتُصَّ فِيهِ ذِكْرُ مَا كَانَ مِنْهُ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثُمَّ لِحَاقَهُ بِهِ [٧٥١]

نظرة إلى الخطبة

لا حاجة هنا لشرح الخطبة وفق نظرة كون كلامه عليه السلام غاية في القصر والايجاز.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٠٩

فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مَا خَدَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَطَأُ ذِكْرَهُ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرَجِ.

الشرح والتفسير: ذكر الحبيب

هذا الكلام كما ذكر المرحوم السيد الرضى جانب موجز من خطبة مفصلة للإمام عليه السلام فضله الرضى لما رأى فيه من ظرافة في عباراته من حيث الفصاحة والبلاغة. ويفهم من كتاب «تمام نهج البلاغة» أن هذا الكلام كان في خطبة بين فيها الإمام مكانته من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وشرح في كل جانب منها صلته الوثيقة بالنبي صلى الله عليه وآله ولطفه به والذي تتضح فيه تماماً مكانة أهل البيت عليهم السلام [٧٥٢].

وهذا الكلام - كما أشرنا آنفاً - في هجرة النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة بعد ليلة المبيت وبقاء الإمام في مكة لأداء ودائع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى الناس وانطلاقته خفية إلى المدينة بعيداً عن أنظار خصوم الدعوة الإسلامية.

فالإمام عليه السلام الذي عاش تلك المرحلة العصبية إبان فراق زعيمه وأستاذه العزيز كان يعاني من فراقه الذي شقَّ عليه وكلامه هنا يعكس ذلك حيث قال: «فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مَا خَدَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَطَأُ ذِكْرَهُ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرَجِ».

يشير هذا الكلام إلى مدى لوعة الإمام عليه السلام على فراق النبي صلى الله عليه وآله خلال تلك الفترة الوجيزة، فلا ينفك عن ذكره ويفصح عن مدى لوعته كمن فقد أعزَّ أعزَّته؛ لكن لا حيلة، فلا بد أن يبقى ويؤدي إلى الناس ودائعهم عند رسول الله صلى الله عليه وآله التي ائتمنوه

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤١٠

عليها، فانطلق بعيداً عن أعين الأعداء إلى المدينة، ويستفاد من التواريخ الإسلامية أن جروحاً بليغة أصابت جسد الإمام إثر إبطاره بالحجارة ليلة هجرة النبي وقد نام على فراشه؛ لكنّه تناسى كل تلك الجراح وكان لا يفكر سوى بحبيبه رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال المرحوم السيد الرضى فى ختام هذا الكلام:

إِنَّ قَوْلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ» مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي رَمَى بِهِ إِلَى غَايَتِي الْإِيْجَازِ وَالْفَصَاحَةِ، أَرَادَ أَنِّي كُنْتُ أُعْطِي خَبْرَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ بَدْءِ خُرُوجِي إِلَى أَنْ انْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، فَكُنِّي عَنْ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْكِنَايَةِ الْعَجِيبَةِ. فَلِإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَكْتَهُ ظَرِيفَةً وَدَقِيقَةً فِي الْعِبَارَةِ «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ» وَالَّتِي تَابِعَهَا السَّيِّدُ الرَّضِيُّ وَهِيَ أَنَّ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَعَلَ ذِكْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَالطِّيفِ الْجَمِيلِ السَّاحِرِ الَّذِي يَعْطُرُ الْأَجْوَاءَ، وَكَانَ الْإِمَامُ يَعِيشُ ذَلِكَ الْجَوْ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، كَمَنْ يَقُولُ لِآخَرٍ: إِنَّ ذِكْرَكَ هُوَ بَيْتِي وَحَيَاتِي، ذِكْرَكَ أَزْفَةُ مَدِينَتِي.

تأمل: قصّة الهجرة

إِنَّ قِصَّةَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ أَرْوَعِ الْقِصَصِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا أَحْسَ رُؤُوسَاءُ قَرِيْشٍ بِالْخَطْرِ الْمَغْدُوقِ بِهِمْ إِثْرَ دَعْوَتِهِ الشَّرِيفَةِ، وَخُصُوصاً لَوْ اسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ بَيْنَ أَوْسَاطِ النَّاسِ وَبِهَذِهِ الصُّورَةِ الْجَدِيدَةِ، فَيُؤَدِي لِشَكِّكَ إِلَى انْكَسَارِ شَوْكِنْتِهِمْ وَقُدْرَتِهِمْ وَتَحَطُّمِ أَوْثَانِهِمْ بَلْ وَتَتَحَوَّلُ مَكَّةَ إِلَى سَجْنٍ كَبِيرٍ لَهُمْ، وَعَلَيْهِ اخْتَارُوا طَرِيقَ الْقِضَاءِ عَلَيْهِ وَعَلَى دَعْوَتِهِ الرَّسَالِيَّةِ، اخْتَارُوا فِي التَّصَدَّى لِدَعْوَتِهِ أَحَدَ الطَّرِيقِ الثَّلَاثَةِ، إِمَّا يَسْجُنُوهُ، أَوْ يَنْفُوهُ مِنْ مَكَّةَ أَوْ يَقْتُلُوهُ وَهَذَا مَا أُشَارَتْ إِلَى الْآيَةِ ٣٠ مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ.

وَلَكِنْ أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ لِيَلَّا لَأَنْتَهُمْ مَحْصُوا هَذَا الرَّأْيَ وَاتَّفَقُوا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُمْ وَاجَهُوا مَشْكَلَةَ بَنِي عَبْدِمَنَافٍ فِي طَلْبِ الثَّأْرِ لَهُ وَبِذَلِكَ تَقَعُ فَتْنَةٌ عَظِيمَةٌ وَصِرَاعٌ كَبِيرٌ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤١١

بَيْنَ قَبَائِلِ مَكَّةَ، وَلهَذَا دَعَا جَمِيعَ الْقَبَائِلِ وَرُؤُوسَاءِ قَرِيْشٍ وَثَبَتَ رَأْيُهُمْ عَلَى عَلَى أَنْ يَضْرِبُوهُ بِأَسْيَافِهِمْ مِنْ أَيْدِي جَمَاعَةٍ مِنْ بَطُونٍ مُخْتَلَفَةٍ لِيَضِيْعَ دَمُهُ فِي بَطُونِ قَرِيْشٍ فَلَا- تَطْلُبُهُ نَبُو عَبْدِمَنَافٍ وَبِالتَّالِي يَرْضَوْنَ بِالْأَيْدِي، فَحَاصَرُوا بَيْتَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَانْتَظَرُوا الصَّبْحَ إِلَى أَنْ يَنْجَلِيَ ظِلَامُ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَحْمِلُونَهُ عَلَيْهِ حَمَلَةً رَجُلٌ وَاحِدٌ.

فَخَرَجَ النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ مَكَّةَ وَبِأَمْرٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ مَحَاصِرَةِ الْقَوْمِ بِصُورَةٍ إِعْجَازِيَّةٍ وَرَحَلَ لَيْلًا إِلَى الْمَدِينَةِ (وَلَكِنْ عَنْ طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ حَتَّى لَا تَسْتَطِيعَ الْأَعْدَاءُ اقْتِفَاءَ أَثَرِهِ) وَأَمَرَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَبِيْتُ فِي فِرَاشِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتْرَصِدُونَ الْبَيْتَ فَعَايَنُوا فِيهَا شَخْصاً مَسْجُوعاً بِالْبُرْدِ الْحَضْرَمِيِّ الْأَخْضَرَ، فَلَمْ يَشْكُوا أَنَّهُ هُوَ فَرِصَدُوهُ وَرَمَهُ بِبَعْضِ الْأَحْجَارِ لِيَطْمَئِنُوا عَلَى أَنَّهُ لَا زَالَ فِي فِرَاشِهِ.

وَلَمَّا أَصْبَحُوا دَخَلُوا عَلَيْهِ الدَّارَ وَسَلُّوا بِسُيُوفِهِمْ وَحَمَلُوا عَلَيْهِ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَحَاطُوا بِفِرَاشِهِ وَفَجَأَهُ وَجَدُوا عَلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي فِرَاشِهِ فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ عَرَفُوهُ فَقَالُوا لَهُ: أَيْنَ صَاحِبُكَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا أَدْرِي أَوْ رَقِيْباً كُنْتُ عَلَيْهِ؟

فَعِنْدَمَا فَشَلَتْ خَطَّتَهُمْ غَضِبُوا غَضَباً شَدِيداً لِأَنَّهُمْ انْتَظَرُوهُ إِلَى الصَّبَاحِ وَأَلْقُوا اللَّائِمَةَ عَلَى أَبِي لَهَبٍ الَّذِي مَنَعَهُمْ مِنَ الْهَجُومِ لَيْلًا (لِأَنَّ الْهَجُومَ لَيْلًا كَانَ عِنْدَهُمْ مَعَ وَجُودِ الْأَطْفَالِ وَالذَّرَارِيِّ عِيْباً كَبِيراً).

وَتَحَرَّكَ النَّبِيُّ مِنْ مَكَّةَ جِهَةَ الشَّمَالِ إِلَى الْمَدِينَةِ بَدَلًا عَنِ الْجَنُوبِ وَوَصَلَ إِلَى جَبَلِ غَارِ ثَوْرٍ وَاخْتَفَى فِيهِ حَتَّى لَا تَصِلَ إِلَيْهِ أَيْدِي الْأَعْدَاءِ وَالْمَشْرُكِينَ، فَخَرَجَ رِجَالُ قَرِيْشٍ تَبَحُّثَ عَنْهُ فِي أَطْرَافِ مَكَّةَ وَلَكِنَّهُمْ فَشَلُوا وَرَجَعُوا إِلَى مَكَّةَ دُونَ أَنْ يَعْتَرُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ [٧٥٣].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤١٣

إشارة

فِي الْمُسَارَعَةِ إِلَى الْعَمَلِ [٧٥٤]

نظرة إلى الخطبة

يستفاد من كتاب «تمام نهج البلاغة» أن هذه الخطبة - جانب من الخطبة الغزاة - تعدّ من عجائب خطب الإمام عليه السلام حيث شيع جنازة ووسد الميت في اللحد وكان أهله يبكوه فخطب تلك الخطبة [٧٥٥].
وتتألف الخطبة في الواقع من قسمين؛ الأول: عن المسارعة في العمل واستغلال الفرص، فلعل الموت يفاجئ الإنسان وتفوت الفرصة ويغلق باب التوبة.
والقسم الثاني: وصايا في مجاهدة هوى النفس وكيفية الانتفاع بفرص الحياة، فالخطبة بمجموعها ذات فائدة قصوى لسالكي سبيل السعادة.

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٤١٥

القسم الأول

إشارة

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ، وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى وَالْمُسَيءُ يُرْجَى، قَبِيلَ أَنْ يَخْمِدَ الْعَمَلُ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهْلُ، وَيَنْقَضِيَ الْأَجَلُ، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَضَعَدَ الْمَلَائِكَةُ.

الشرح والتفسير: اغتنام الفرصة

شجّع الإمام عليه السلام بهذه العبارات الموجزة العميقة المعنى جميع مخاطبيه على اغتنام الفرص وحذّر من أن هذه الفرص عابرة زائلة عاجلاً أم أجلاً، ولا بدّ من السعي قبل اليأس والحسرة.
فأشار في كيفية اغتنام الفرص إلى خمسة أمور:
قال في الأول: «فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ».
والعبارة «نَفْسِ الْبَقَاءِ» إشارة لطيفة إلى أن البقاء كأنما يشبه في الدنيا بالكائن الحي الذي يتنفس ولا بدّ من استغلاله قبل أن ينقطع نفسه.

وقال في الثاني: «وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ» [٧٥٦].

إشارة إلى إمكانية الإضافة والإصلاح والتعديل ما دامت الصحيفة مفتوحة.

وفي الثالث: «وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ».

إشارة إلى أن العودة قائمة ويمكن إطفاء نيران الذنوب المستعرة بماء التوبة مادامت أبوابها مفتوحة وتحصيلها واسع، فليجأ الإنسان إلى الله ويفصح عن ندمه

نقحات الولاية، ج ٨، ص: ٤١٦

ويسكب الدموع التي تفرزها التوبة النصوح والخالصة فيطفيء بها نيران الذنوب.

ورد في «الكافي» عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام أنه قال: «إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ يَارَبِّ سَلِّطْ عَلَيَّ الشَّيْطَانَ وَأَجْرِيَتْهُ مِنِّي مَجْرَى الدَّمِّ، مَا جَعَلْتَ لِي شَيْئًا، فَقَالَ: يَا آدَمُ جَعَلْتُ لَكَ أَنْ مَنْ هَمَّ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ، فَإِنَّ عَمَلَهَا كَتَبْتُ عَلَيْهِ سَيِّئَةً، وَمَنْ هَمَّ مِنْهُمْ بِحَسَنَةٍ فَإِنَّ لَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبْتُ لَهُ حَسَنَةً فَإِنَّ هُوَ عَمَلَهَا كَتَبْتُ لَهُ عَشْرًا، قَالَ: يَارَبِّ زِدْنِي، قَالَ: جَعَلْتُ لَكَ أَنْ مَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ سَيِّئَةً تُسَمُّ اسْتَغْفَرَ لَهُ غَفْرَتُ لَهُ، قَالَ: يَارَبِّ زِدْنِي، قَالَ: جَعَلْتُ لَهُ التَّوْبَةَ - أَوْ قَالَ بَسَطْتُ لَهُمُ التَّوْبَةَ - حَتَّى تَبْلُغَ النَّفْسُ هَيْدَهُ، قَالَ: يَارَبِّ حَسْبِي» [٧٥٧].

وقال في الأمر الرابع والخامس: «وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى وَالْمُسِيءُ يُزَجَّى».

إشارة إلى الدعوة والأمل الذي تضمنته الآية الكريمة، قال تعالى: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» [٧٥٨].

وقال تعالى: «وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ» [٧٥٩].

وقال في العبارة السادسة والسابعة والثامنة: «قَبْلَ أَنْ يَخْمَدَ [٧٦٠] الْعَمَلُ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهْلُ [٧٦١]، وَيَنْقَضِيَ الْأَجَلُ».

نعم، فما دام هنالك العمر فالعمل قائم والمهلة مبذولة والفرصة سانحة وكل ذلك يفنى حين مغادرة الإنسان لهذا العالم.

وقال في التاسعة والعاشر: «وَيُسَدُّ بَابَ التَّوْبَةِ، وَتَصْعَدُ الْمَلَائِكَةُ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤١٧

القسم الثاني

إشارة

فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَأَخَذَ مِنْ حَيِّ لِمَيِّتٍ، وَمِنْ فَنَانٍ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِتَدَائِمٍ. امْرُؤٌ خَافَ اللَّهَ وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَىٰ أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ إِلَىٰ عَمَلِهِ. امْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ.

الشرح والتفسير: كيفية اغتنام الفرصة

وعظ الإمام عليه السلام في المقطع السابق من هذه الخطبة بعشر عبارات موجزة وعميقة المعنى، الجميع باغتنام الفرص قبل فوات الأوان.

ثم ذكر في عشر أخرى طرق كيفية الاغتنام لتلك الفرص، فالقسم الأول في الواقع وعظ وتحذير والثاني أسلوب للعمل. قال: «فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ»، وَأَخَذَ مِنْ حَيِّ لِمَيِّتٍ وَمِنْ فَنَانٍ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِتَدَائِمٍ».

تكرر الفعل الماضي (أخذ) في هذه العبارات الأربع مرتين؛ لكنه عنى الأمر. فقد أمر عليه السلام في العبارة الأولى بضرورة الاستفادة كل إنسان من رصيده وجوده لإدخار الحسنات، حيث وهب الله الإنسان إمكانات وطاقات إن وظيفها في المسار الصحيح وقرت له أسباب السعادة.

ورد عنه عليه السلام في «غررالحكم» أنه قال: «إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا» [٧٦٢].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤١٨

وقد ورد نفس هذا المعنى في العبارة الثانية بصيغته أخرى، «وَأَخَذَ مِنْ حَيِّ لِمَيِّتٍ».

وأشار في العبارة الثالثة والرابعة إلى إمكانية التزود من هذه الدار الفانية إلى تلك الدار الباقية ومن هذه الحياة الزائلة إلى تلك الخالدة، ثم واصل كلامه قائلاً: «امْرُؤٌ خَافَ اللَّهَ وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ [٧٦٣] إِلَى عَمَلِهِ».

حيث بين عليه السلام في هاتين العبارتين ما ذكره في العبارات السابقة بصيغته أخرى ووعظ الجميع بالانتفاع بهذه المهلة التي منحهم الله ضرورة خشيته والابتعاد عن التقصير.

ثم قال: «امْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنِ مَعَاصِي اللَّهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ».

فقد شبه عليه السلام نفس الإنسان بالدابة الجموح إن لم يكن زمامها كما ينبغي أقحمته في وادي المعصية وحرفته عن مسار الطاعة عادة ما يستفاد من وسيلتين للسيطرة على الدابة الجامحة؛ إحداهما، اللجام وهو حبل يوضع في فم الدابة ويوثق ليكون بيد راكب الدابة، والزمام، الذي يوضع في أنفها ويمسكه الراكب بحبل، ولما كان فم الدابة وأنفها من المواضع الحساسة فإنه يمكن من خلالها إيقاف الدابة أو سوقها إلى جهة من خلال تحريكه إلى تلك الجهة.

والعبارة «لجام» و «زمام» إشارة إلى ضرورة تهيئة اللجام والزمام الذي يليق بالنفس الجامحة بحيث يمكن بواسطته صدها عن الذنب والمعصية وسوقها إلى طاعة الله، وما أكثر الأفراد الذين يلجمون أنفسهم بلجام ضعيف وهزيل بحيث يفقدون هذا اللجام حين إثارة الشهوات فيقارفون أنواع المعاصي.

ولكن ما هي الوسيلة اللازمة للسيطرة على النفس؟ يمكن الظفر بالجواب في ما ورد من كلمات الإمام على عليه السلام في «غررالحكم» و «بحار الأنوار». فقد ذكر عليه السلام أن

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤١٩

القناعة عامل إصلاح النفس فقال: «اعْوَنُ شَيْءٌ عَلَى صِلَاحِ النَّفْسِ الْقَنَاعَةُ» [٧٦٤].

وفي موضع آخر عدّ التعصب وسيلة لإصلاحها فقال: «إِذَا صَعِبَتْ عَلَيْكَ نَفْسُكَ فَاصْعَبْ لَهَا تَذَلُّ لَكَ» [٧٦٥].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٢١

الخطبة ٢٣٨

إشارة

في شأن الحكّمين وذمّ أهل الشام [٧٦٦]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة في الواقع من قسمين، ذم الإمام عليه السلام في القسم الأوّل أهل الشام وندمتهم بالجفاء القساء الذين ينبغي أن يؤذّبوا ويربّوا ويخضع القاصر منهم لولاية العالم، إنهم ليسوا من المهاجرين والأنصار (العارفين بتعاليم الإسلام والحريصين على بقائه).

وأشار عليه السلام في القسم الثاني إلى قضية التحكيم فبين أن أهل الشام اختاروا لهذه

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٢٢

القضية عمرو بن العاص وهو أفضل من يحقق أطماعهم وآربهم، واخترتم أبو موسى الأشعري أبعدهم عن هدفكم، وكان عليكم أن توجهوا قبضة ابن عباس إلى صدر عمرو بن العاص لا بواسطة الضعفاء كأبي موسى الأشعري.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٢٣

القسم أول

إشارة

جُفَاءً طَعَامًا، وَعَبِيدٌ أَقْرَامًا، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَتَلَقَّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَتَّبِعِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدْرَبَ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ.
لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ.

الشرح والتفسير: أتباع معاوية

خاض الإمام عليه السلام هنا كما ذكرنا في ذم أهل الشام وذكر صفاتهم التي تكشف عن مدى جهلهم وخبثهم فاستهل ذلك بخمس من صفاتهم قائلاً: «جُفَاءً [٧٦٧] طَعَامًا [٧٦٨]، وَعَبِيدٌ أَقْرَامًا [٧٦٩]، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ [٧٧٠]، وَتَلَقَّطُوا [٧٧١] مِنْ كُلِّ شَوْبٍ [٧٧٢]». ثم أضاف عليه السلام: «مِمَّنْ يَتَّبِعِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدْرَبَ [٧٧٣]، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ». واختتم عليه السلام قائلاً: «لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا [٧٧٤] الدَّارَ وَالْإِيمَانَ».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٢٤

وكما أشرنا سابقاً فإن هذا الكلام بعض كتاب كتبه الإمام عليه السلام ليطلع المسلمين على جميع الأحداث في عصره وما سبقه ليكون تعليمات تبعث لجميع المناطق والتعريف بأهل الشام وأتباع معاوية الذين توردوا على إمام المسلمين وأججوا نيران صفين وإيضاح سوء نيتهم وكيفية اجتماعهم.

تأمل: جهل أهل الشام

ما أورده الإمام عليه السلام بشأن جهل وحمق عسكر معاوية (رغم كثرة الأفراد الداعين في أهل الشام) لمن القضايا التي تؤيدها سيرة معاوية ومن ذلك هاتان الواقعتان اللتان نقلهما المسعودي في «مروج الذهب».

الواقعة الأولى: إن رجلاً من أهل الكوفة على بعير له قدم إلى دمشق في حال منصرفهم عن صفين فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت مني بصفين، فارتفع أمرهما إلى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينه يشهدون أنها ناقته فقضى على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه.

فقال الكوفي: أصلحك الله إنه جمل وليس بناقة.

فقال معاوية: هذا حكم قد قضى، ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن البعير فدفع إليه ضعفه وبرّ وأحسن إليه وقال له: أبلغ علينا أتى اقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل.

الواقعة الثانية: ولقد بلغ من أمرهم من طاعتهم له (لمعاوية) أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء وأعاروه رؤوسهم عند القتال. (وقبل الناس وصلوا الجمعة في يوم الأربعاء وهذا كان من جهل أهل الشام) [٧٧٥].

كما ورد في الحديث أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال لعمار: (تقتلك الفئة الباغية)، وقد

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٢٥

شهد عمار صفين مع على عليه السلام حتى قتل، فلما اجتمع بعض الصحابة عند قتل عمار، وأن معاوية هو وأصحابه هم الفئة الباغية الذين قتلوا عمار، قال عمرو بن العاص: إن علياً هو الذى قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته [٧٧٦].

والعجيب أن البعض قبل هذا الرأى.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٢٧

القسم الثانى

إشارة

أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِنَفْسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمْ اخْتَرْتُمْ لِنَفْسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ. وَإِنَّمَا عَاهَدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ: «إِنَّهَا فِتْنَةٌ، فَفَطَّعُوا أَوْ تَارَكُمُ، وَشِيمُوا سُيُوفَكُمْ». فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ، غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهْمَةُ.

فَادْفَعُوا فِي صِدْرِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَخُذُوا مَهَلَّ الْأَيَّامِ، وَحُوطُوا قَوَاصِي الْأَسْلَامِ. أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى، وَإِلَى صَفَاتِكُمْ تُزْمَى؟

الشرح والتفسير: أفضل اختيار وأسوأه

خاض الإمام عليه السلام فى القسم السابق فى التعريف بأهل الشام الذين اجتمعوا حول معاوية ليصفهم بأنهم جهال وأوباش وأشرار، وقال هنا رغم جهلهم وانحطاطهم لكنهم تفوقوا عليكم فى الجانب السياسى، فقد اختاروا للتحكيم من يضمن مصالحهم اللامشروعة (عمرو بن العاص) بينما اخترتم (أبو موسى الأشعري) من يتحرك ضد مصالحكم ومصالح المسلمين، فهلموا وتلافوا أخطاءكم: «أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِنَفْسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمْ اخْتَرْتُمْ لِنَفْسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ».

ثم خاض عليه السلام فى التعريف بأبى موسى الأشعري وركز على آخر فتنه دون الإشارة إلى سوابقه السيئة فقال: «وَأِنَّمَا عَاهَدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ:

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٢٨

«إِنَّهَا فِتْنَةٌ»، فَفَطَّعُوا أَوْ تَارَكُمُ [٧٧٧]، وَشِيمُوا [٧٧٨] سُيُوفَكُمْ».

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً: «فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهْمَةُ».

الطريف ما أورده المرحوم ابن ميثم فى شرحه لنهج البلاغة عن سويد بن غفلة أنه قال: كنت مع أبى موسى الأشعري على شاطيء الفرات فى خلافة عثمان فروى لى خبراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: سمعته يقول: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ اخْتَلَفُوا فَلَمْ يَزَلِ الْاِخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ حَتَّى بَعَثُوا حَكَمِينَ ضَالِّينَ ضَلًّا وَأَضَلًّا مِنْ أَتْبَعَهُمَا»، فقلت له:

احذر يا أبا موسى أن تكون أحدهما! قال: فخلع قميصه، وقال: أبرأ إلى الله من ذلك كما أبرأ من قميصى هذا [٧٧٩].

ويريد بذلك أنه لا يقبل التحكيم ويتبرأ منه، ولكنه قبل وحكم وأصل الناس مع عمرو ابن العاص، وبذلك صدق رسول الله صلى الله عليه وآله فى كلامه هذا وما تنبأ به بإعجاز عن قوله (ضالين ضللاً وأضلاً من أتبعهما).

وعقب كل هذا التحليل الدقيق اقترح على صحبه اقتراحاً نافعاً، وقال: «فَادْفَعُوا فِي صِدْرِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَخُذُوا

مَهَلَّ الْأَيَّامَ، وَحَوَّطُوا قَوَاصِيَ [٧٨٠] الْأَسْلَامِ.

ثم اختتم عليه السلام كلامه بهدف خلق الدافع لديهم وإثارة حسهم الديني والإنساني فقال: «أَلَمْ تَرَوْنَ إِلَيَّ بِلَادِكُمْ تُغْزَى وَإِلَيَّ صَفَاتِكُمْ [٧٨١] تُزَمَى؟».

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٢٩

حقاً لم يكن أبو موسى الأشعري الأبله من يسعه مواجهة الماكر عمرو بن العاص وكان أفضل من يسعه مواجهته رجل قوى وواع كابن عباس، إلا أن مؤامرات معاوية وبعض الخونة من بطانة الإمام عليه السلام حالت دون ذلك.

كتب الكاتب الإسلامي المصري عبدالكريم الخطيب في كتابه «على بن أبي طالب»: وكان الإمام قد أعد ابن عباس ليلقى عمرو بن العاص، ولكن أصحاب الإمام اختلفوا عليه، وكان الأشعث بن قيس (المنافق) رأس الجماعة التي نازعت في اختيار ابن عباس، والأشعث هو الذي مهّد التحكيم، وأكرهه هو وقومه علياً على قبوله .. ولا شك أن الصلة كانت قد توثقت بين معاوية والأشعث.

وهذا الذي سجله الخطيب يتفق تماماً مع ما نقلناه عن كتاب (على وبنوه) لطف حسين في شرح الخطبة ١٩، ج ١، ص ١٥٢: من أن الأشعث وابن العاص قد دبرا رفع المصاحف واختاروا الحكمين سلفاً [٧٨٢].

ثم ذكر المرحوم مغنية جانباً آخر من كلام عبدالكريم الخطيب في كتابه: «كان ابن العاص صاحب مصلحة في أي خير يصيبه معاوية من التحكيم، لأن الصك بملك مصر في يده .. وليس لابن عباس شيء أن خلصت الخلافة لعلي، وهل لأحد مع علي مطمع؟ إن كل الذين يعملون مع علي يعملون لله لا له، فليس لهم عنده يد يرجون المثوبة عليها ولا من الله، فماذا يخشى القوم من ابن عباس إذن؟ إنهم لا يخشون إلا أن يرفع ابن العاص عن كيد مارد لا يفتن إليه إلا رجل أوتى مثل ما أوتى ابن عباس من ألمعية وذكاء [٧٨٣]. نهاية معركة صفين عن طريق رفع المصاحف على أسنة الرماح على هامش هزيمة جيش معاوية ومن ثم قضية التحكيم، لمن أفجع حوادث التاريخ الإسلامي، وكانت معاناة الإمام عليه السلام ومصابه بذلك بما لا يمكن وصفه والذي حصل من قبل جماعة دنيوية بعيدة عن الإيمان والتقوى. [٧٨٤]

نفحات الولاية؛ ج ٨؛ ص ٤٢٩

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٣١

الخطبة ٢٣٩

إشارة

يَذْكُرُ فِيهَا آلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ [٧٨٥]

نظرة إلى الخطبة

الخطبة في الواقع قسم واحد ومحورها فضائل أهل البيت عليهم السلام ومكانتهم الرفيعة في الأمة الإسلامية وإدراكهم الصحيح للدين وبالتالي ضرورة إتباعهم وعدم مخالفتهم.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٣٣

هُم عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، وَصِيْمَتُهُمْ عَنْ حِكْمِ مَنْطِقِهِمْ، لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلَا

يَخْتَلِفُونَ فِيهِ.

وَهُمْ دَعَائِمُ الْأَسْلَامِ، وَوَلَا يَسُجُّ الْأَعْتِصِيَامَ. بِهِمْ عِيَادَ الْحَقِّ إِلَى نِصَابِهِ، وَأَنْزَاحَ الْبَاطِلِ عَنْ مَقَامِهِ، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ. عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلًا وَعَايَاهُ وَرِعَايَاهُ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرَوَايَةٍ. فَإِنَّ رِوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرِعَايَتُهُ قَلِيلٌ.

الشرح والتفسير: آل محمد أركان الدين

ذكر عليه السلام في هذه الخطبة الموجزة اثنتي عشرة فضيلة لأهل البيت عليهم السلام تثبت عظم منزلتهم وتسوق مخاطبيه لاتباعهم. وهي الصفات التي تستوعب فضائل الإنسانية وتنطوي على مواصفات القيادة.

قال في الصفة الأولى والثانية: «هُم عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ»، فقد شبه عليه السلام العلم والجهل هنا بكائنين حيين وأن آل محمد يهبون العلم الحياة ويميتون الجهل وبعبارة أخرى هم روح العلم وعنصر موت الجهل.

وهذا هو الحديث المعروف الذي ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَهْلُ بَيْتِي كَالنُّجُومِ بَأَيِّهِمْ أَقْتَدَيْتُمْ أَهْتَدَيْتُمْ» [٧٨٦].

كما ورد في رواية أخرى عن ابن عباس أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «النُّجُومُ أَمَانٌ

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٣٤

لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْعَزَقِ وَأَهْلُ بَيْتِي أَمَانٌ لِمَتِّي مِنَ الْأَخْتِلَافِ فَإِذَا خَالَفَتْهَا قَبِيلَةٌ مِنَ الْعَرَبِ اخْتَلَفُوا فَصَارُوا حِزْبَ إِبْلِيسَ» [٧٨٧].

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى فقال: «يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكْمِ مَنْطِقِهِمْ».

تشير العبارة «يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ» إلى علاقته وثيقته بين العلم والحلم، فالجاهل ليس حليماً وسرعان ما يغضب إزاء الأحداث

المختلفة وما يطرح عليه من سؤال؛ أما العالم فحليم إزاء ذلك، وكذلك العلاقة بين الظاهر والباطن حيث إن حسن الظاهر في الغالب

والسلوك والتصرف يدل على حسن الباطن، وهكذا علاقة الصمت الذي يكشفه المنطق الحكيم وقد دلت التجربة على أن من قل

كلامه كان أكثر دقة وصواباً في الكلام كما ورد في الحديث الشريف قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُؤْمِنَ صَيِّمُوتًا

فَادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلْقَى الْحِكْمَةَ» [٧٨٨].

ثم قال في الصفة السادسة والسابعة: «لَا يُخَالَفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ».

ودليل ذلك واضح، فلهم من جانب مقام العصمة ومن جانب آخر الإحاطة التامة بأحكام الله والوحي والسنة، ومن كان كذلك فلا

ينطلق خلاف الحق ولا يختلف فيه.

جاء في الحديث النبوي المعروف: «عَلَيْتُ مَعَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ مَعَهُ وَعَلَى لِسَانِهِ وَالْحَقُّ يَدُورُ حَيْثُ مَا دَارَ عَلَيٌّ».

وقرأ بتعبير آخر في نفس الحديث قال صلى الله عليه وآله: «عَلَيْتُ مَعَ الْحَقِّ وَالْقُرْآنِ، وَالْحَقُّ وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلِيَّ

الْحَوْضَ» [٧٨٩].

ونعلم أن أئمة العصمة من ولد علي عليه السلام ورثة علمه، ومن هنا فإنهم لا يحدون

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٣٥

قط عن الحق.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «كِتَابَ اللَّهِ فِيهِ تَبَأٌ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبْرٌ مَا بَعْدَكُمْ وَفَضْلٌ مَا بَيْنَكُمْ وَنَحْنُ نَعْلَمُهُ» [٧٩٠].

فكيف يمكنهم الاختلاف في الحق. فالاختلاف علامة الجهل، ومن كان عالماً بكل هذه الأمور يستحيل عليه الاختلاف.

ثم ذكر صفتهم الثامنة والتاسعة فقال: «وَهُمْ دَعَائِمُ الْأَسْلَامِ، وَوَلَا يُسُجُّ» [٧٩١] الأعتصام».

وهكذا فالدين كالخيمة وأوتادها آل محمد، وكما تنهار الخيمة إذا زالت الأوتاد، فإن نحينا آل محمد عن الإسلام وقرأناه دونهم،

إنهارت فروعه وأصوله.

وواصل عليه السلام كلامه ببيان الصفات الثلاث الأخيرة فقال: «بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ [٧٩٢]، وَأَنْزَاحَ [٧٩٣] الْبَاطِلَ عَن مَّقَامِهِ، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَن مَنِّيَّتِهِ».

تشير هذه العبارة إلى الانحرافات التي حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لاسيما على عهد الخليفة الثالث، فقد أصبح بيت مال المسلمين لعبة بيد فئة من المتكالبين على الدنيا ومن بنى أمة - ومنهم عدو الإسلام الأول، أي أبو سفيان - تسلّموا المناصب الحساسة في الحكومة الإسلامية ففعلوا كل ما استطاعوا فعله وكانت نتيجة ذلك الثورة على الخليفة والتي أطاحت به وببطانته [٧٩٤] بمرأى ومسمع المهاجرين والأنصار دون أن يدافعوا عنه.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٣٦

ولكن حين تسلّم الإمام على عليه السلام زمام الأمور عاد الحق إلى نصابه ونحى أتباع الباطل ولم يجرؤ أحد على الدفاع عن الوضع السابق ويصادر حقوق الطبقات المستضعفة والمحرومة ويغدهقها على طاماب الدنيا وذوى الأطماع. ولا يقتصر هذا الأمر على أمير المؤمنين عليه السلام بل لو تسلّم أئمة أهل البيت عليهم السلام مقاليد الأمور لاتبعوا ذلك النهج بفضل عصمتهم التي يستدل عليها بعدة أدلة ومنها حديث الثقلين.

ثم اختتم الكلام بذكر صفتهم الأخيرة فقال عليه السلام: «عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلًا وَعَايَةَ [٧٩٥] وَرِعَايَةَ، لَأَعْقَلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةَ. فَإِنَّ رِوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرِعَايَتُهُ قَلِيلٌ».

قطعاً العلم بالدين له مراتب كالعلم بأى أمر آخر، المرحلة الأولى سماع ونقل الألفاظ والمرحلة الثانية فهم المعنى وإدراك المضمون والمرحلة الثالثة الإيمان واليقين العميق الذى ينفذ فى جميع كيان الإنسان ويسوقه للعمل، وأهل البيت عليهم السلام فى ذروة المرحلة الثالثة ومن هنا أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وأكّد على الأئمة بالتمسك بالقرآن وأهل البيت من بعده ليؤمنوا الضلال والغى.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٣٧

الخطبة ٢٤٠

إشارة

قَالَ لِعَبِيدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ؛ وَقَدْ جَاءَهُ بِرِسَالَةٍ مِنْ عُثْمَانَ، وَهُوَ مَحْضُورٌ يَسْأَلُهُ فِيهَا الْخُرُوجَ إِلَى مَالِهِ يَبْتِيعُ، لِيَقْلَ هَتَفَ [٧٩٧] النَّاسِ بِاسْمِهِ خِلَافَةً، بَعْدَ أَنْ كَانَ سَأَلَهُ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ [٧٩٨]

نظرة إلى الخطبة

مضمون هذه الخطبة واضح. فلما حاصر المسلمون عثمان فى بيته سنة ٣٥ هـ وطالبوا بعزله من الخلافة، هتفت الجماعة أن الخلافة حق على بن أبى طالب، فرأى عثمان ابعاد على عليه السلام عن المدينة لمصادرة ذلك الهتاف، لذلك اقترحه على الإمام عليه السلام هذا فى الوقت الذى اقترحه سابقاً على الإمام عليه السلام ففعل.

ثم كتب للإمام عليه السلام بالعودة والدفاع عنه. فلما عاد اقترح عليه التوجه إلى ينبع

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٣٨

فقال عليه السلام هذا الكلام: ما يريد عثمان إلّا أن يجعلنى جملاً ناصحاً فأقدم إن كانت مصلحته فى ذلك أو أخرج.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٣٩

يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلًا نَاضِحًا بِالْعَرَبِ: أَقْبِلْ وَأَذِبرْ! بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ! وَاللَّهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى حَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِمًا.

الشرح والتفسير: خطأ آخر من أخطاء عثمان

قضية قيام المسلمين على عثمان، إحدى القصص المأساوية المؤسفة في صدر الإسلام. فكانت تلك الحركة طبيعية جداً خلافاً لما يظنه المتعصبون، فعثمان سلم جماعة من بنى أمية وقرابته الذين لم يكونوا من الصالحين، مناصب حساسة في الدولة الإسلامية، ومن جانب آخر تصرف في بيت المال كما يتصرف في أمواله الشخصية، فيهب بطانته ما يشاء، في حين كان أغلب المسلمين يعيشون الحرمان.

وقد عمّت أصداء هذين الفعلين المشينين كل مكان وأديا إلى تلك الانتفاضة العارمة على عثمان، وإن كان علم تلك الانتفاضة طائفة من المصريين وأهل الكوفة؛ إلّا أن أهل المدينة تضامنوا معهم وصمت المهاجرون والأنصار ولم يهتّب للدفاع عنه سوى على عليه السلام، فالإمام عليه السلام وإن كان من أشد الناقمين على أفعال عثمان، لكنه لا يرى في قتله مصلحة للأمة الإسلامية.

على كل حال، كتب عثمان عدة كتب متناقضة للإمام عليه السلام طلب منه أولاً الخروج من المدينة إلى ينيع، ثم طلب منه العودة، ثم كتب له أخيراً بالخروج من المدينة، وسبب ذلك التناقض أنه ظنّ بادی الأمر بأنّ بقاء الإمام عليه السلام في المدينة مدعاة

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٤٠

لتشجيع المسلمين على عزله ومبايعه الإمام عليه السلام للخلافة.

ثم خرج الإمام من المدينة، شعر عثمان أنه لا يسع أحد الدفاع عنه سوى على عليه السلام وينقذه من أيدي الناقمين ولذلك طلب منه الرجوع إلى المدينة، وحين بلغه أن المسلمين هتفوا بالبيعة للإمام عليه السلام استولى عليه الخوف، فطلب من الإمام عليه السلام الخروج مرة أخرى من المدينة، ولما كان حامل الكتاب هذه المرة ابن عباس، خاطبه الإمام عليه السلام قائل: «يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلًا نَاضِحًا [٧٩٩] بِالْعَرَبِ [٨٠٠]: أَقْبِلْ وَأَذِبرْ!».

ثم أضاف عليه السلام قائلاً: «بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ!».

وتشير هذه القضية إلى أن ضغوط المسلمين كانت على درجة من الشدة بحيث ارتبك عثمان وكان كل لحظة يتخذ قراراً وقد غفل فوات الأوان وقد انتهى عهد حكمه ولن يقبل المسلمون له عذراً فرأى نفسه مضطراً هنا للتعامل مع على الذي لا تخفى مكانته عند الله ورسوله والمسلمين.

الطريف أن عثمان لم يصدر مثل هذه الأوامر المتناقضة مع أحد آخر، فلم يكن للآخرين مثل ذلك الدور في الوسط الإسلامي فكان حضورهم وغيابهم سيان في التأثير.

ثم أشار عليه السلام في الختام إلى قضية مهمة في أنه بذل أقصى جهده في الدفاع عن عثمان؛ الأمر الذي لم يفعله غيره ولا يسعه فعله فقال: «وَاللَّهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى حَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِمًا».

لعل هذه العبارة إشارة إلى أن الدفاع أكثر من الحد عن ارتكب تلك الأفعال نوع من دعم الظلم وهو عمل غير جائز، هذا أفضل تعبير يمكن ذكره للعبارة السابقة

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٤١

وإن ذكر ابن أبي الحديد وابن ميثم في شرحهما احتمالين آخرين؛ الأول قوله عليه السلام:

(لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً)، لأنّ الوقوف بوجه أولئك الذين قاموا عليه ربّما يدعوهم للهجوم علىّ فينالون منّي وهذا ذنب، الآخر: أخشى أن يؤدي دفاعي إلى بثّ الفرقة والخلاف فيصاب البعض بالأذى وهذا ذنب أيضاً، ولكن من الواضح أن أيّاً من هذين الاحتمالين لا يناسب العبارة.

ورد في «العقد الفريد» أنّ ابن عباس قال: أرسل إليّ عثمان فقال لي: اكفني ابن عمّك، فقلت: إنّ ابن عمّي ليس بالرجل يرى له، ولكنّه يرى لنفسه، فأرسلني إليه بما أحببت، قال: قل له: فليخرج إلى ماله يبيع، فلا- أغمّ به ولا- يغمّ بي، فأتيته فأخبرته، فقال: ما اتّخذني عثمان إلّاناضحاً، ثم أنشد:

فَكَيْفَ بِهِ أَنِّي أَدَاوِي جِرَاحَهُ فَيَدْوِي فَلَا مَلَ الدَّوَاءُ وَلَا الدَّاءُ

إلى أن قال: فخرج على عليه السلام إلى يبيع، فكتب إليه عثمان حين اشتدّ عليه الأمر، أمّا بعد، فقد بلغ السيل الزبي وجاوز الحزام الطيبين، وطمع فيّ من كان يضعف عن نفسه، فأقبل إليّ، وكن لي أم عليّ صديقاً أم عدوّاً [٨٠١].
ويؤيد هذا الكلام ما ذكره السيد الرضى أنّ عثمان تناقض في أوامره حين أربكه قيام المسلمين الكبير عليه.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٤٣

الخطبة ٢٤١

إشارة

يُحْتُّ بِهِ أَصْحَابُهُ عَلَى الْجِهَادِ [٨٠٢]

نظرة إلى الخطبة

هدف الإمام عليه السلام كما يتضح من الخطبة حتّ أصحابه على الجهاد، لكنه أورد أموراً دقيقة بعبارات موجزة تعكس عمق تدبيره للقضايا المتعلقة بالحكومة والجهاد.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٤٥

وَاللّٰهُ مُسَيِّدٌ تَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ وَمُورِثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُمَهِّلُكُمْ فِي مَضْمَارٍ مَّحْدُودٍ، لِيَتَنَازَعُوا سَبْقَهُ، فَشُدُّوا عَقْدَ الْمَآزِرِ، وَأَطَوْوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ، وَلَا تَجْتَمِعْ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ. مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ، وَأَمَحَى الظُّلْمَ لِتَدَاكِيرِ الْهَمِّ!

الشرح والتفسير: شتموا واستعدوا للجهاد

صرّح صاحب «تمام نهج البلاغة» الذي أُلّف لجمع وإكمال الخطب التي جمعها المرحوم الرضى في «نهج البلاغة» أنّ الإمام عليه السلام خطبها يوم صفيين [٨٠٣] ومضمون الخطبة يناسب هذا المعنى.

على كلّ حال فقد وعظ الإمام عليه السلام مخاطبيه بثلاث عبارات قصيرة لسماع رسالة الجهاد فقال: «وَاللّٰهُ مُسَيِّدٌ تَأْدِيكُمْ ٨٠٤ شُكْرَهُ وَمُورِثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُمَهِّلُكُمْ ٨٠٥ فِي مَضْمَارٍ ٨٠٦ مَّحْدُودٍ، لِيَتَنَازَعُوا سَبْقَهُ ٨٠٧».

ورغم أنّ الشكر ذكر بصورة مطلقة في هذه العبارة ومنسجمة مع إطلاقاته في القرآن الكريم مثل: «وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ» [٨٠٨] ولكن يبدو هدف الإمام عليه السلام بيان

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٤٦

الشكر الحكومى الذى أودعه الله الصالحين فى عصره عليه السلام ويؤكد ذلك العبارة الثانية «وَمُورُّكُمْ أَمْرُهُ». فالأمر هنا بمعنى أمر الحكومة. ويتضح من هنا كيفية مناسبة الشكر للحث على الجهاد، لأن الجهاد الخالص والباسل تحفظه حكومة الصالحين وحفظ النعمة والانتفاع بها مساوٍ لشكرها. العبارة «وَمُهْلِكُمْ فِي مَضْمَارٍ مَحْدُودٍ...» إشارة لما ورد فى سائر خطب نهج البلاغة أنه عليه السلام قال: «أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ وَغَدًا السَّبَاقَ وَالسَّبَقُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ» [٨٠٩].

ثم اتجه الإمام عليه السلام صوب ذى المقدمه والنتيجة فقال: «فَشُدُّوا عُقْدَ [٨١٠] الْمَآزِرِ [٨١١]، وَأَطُؤُوا [٨١٢] فُضُولَ الْخَوَاصِرِ [٨١٣]». فالعبارتان «فَشُدُّوا عُقْدَ الْمَآزِرِ، وَأَطُؤُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ» كناية عن الاستعداد التام للقيام بالعمل، لأن الشخص الذى يحكم محزومه يقوى عموده الفقرى على الإتيان بالأعمال الشاقه، كما تسهل عليه الحركة والانتقال إن جمع ثوبه ووضع تحت حزامه والذى كان عريضاً آنذاك، حتى اليوم الذى غاب فيه الثوب الطويل عن الرجال ما زال القول المتداول أن فلاناً شمّر عن ثياب الهمة ليفعل كذا. كما لم يستبعد بعض شراح نهج البلاغة أن المراد من العبارة «وَأَطُؤُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ» ترك النهم فى الطعام وترهل البدن، إلا أن التفسير الأول أنسب.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٤٧

ثم حذر الإمام عليه السلام مخاطبيه بثلاث عبارات عميقة المعنى وفصيحة وبلغه وأوضح لهم سبيل الانتصار فقال عليه السلام بادي الأمر: «وَلَا تَجْتَمِعْ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ [٨١٤]».

وقال عليه السلام: «مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ».

وقال عليه السلام: «وَأَفْحَى الظُّلْمَ [٨١٥] لِنَذَاكِرِ [٨١٦] الْهِمَمِ!».

حيث أشار عليه السلام فى هذه العبارة الموجزة والعظيمة المضمون إلى بضعة أمور مهمة للموفقية فى الحياة والإدارة منها:

١. التحلى بالاستعداد على الدوام ومهما كانت الظروف أو حسب تعبير الإمام شدوا المآزر....

٢. مقاطعة الترف والدعة التى لا تؤدى سوى إلى الضعف والكسل.

٣. مواجهة دواعى النسيان التى تجعل الإنسان ضعيفاً وذليلاً ومسلوب المنهج.

٤. الارتقاء بمستوى الهمة ومكافحة كل ما يضعفها ويهبطها.

فإن راعى مدراء المجتمعات الإسلاميه هذه الوصايا الأربع سيتغلبون قطعاً على جميع المشاكل.

تأمل: آفات النهم والترف

ما ورد فى الخطبه بهذا الشأن مما ذكر مسهب فى الروايات. عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لَا تَمِيتُوا الْقُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ الْقُلُوبَ تَمُوتُ كَالزُّرُوعِ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهَا الْمَاءُ» [٨١٧].

كما قال صلى الله عليه وآله: «الْقَلْبُ يَمُجُّ الْحِكْمَةَ عِنْدَ امْتِلَاءِ الْبُطْنِ» [٨١٨].

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٤٨

وقال عليه السلام: «مَنْ قَلَّ أَكَلُهُ صَفَا فِكْرُهُ» [٨١٩].

وأخيراً قال فى الحديث الرابع: «إِيَّاكُمْ وَفُضُولَ الْمَطْعَمِ فَإِنَّهُ يَسِمُ الْقَلْبَ بِالقِسْوَةِ وَيُبْطِئُهُ بِالجَوَارِحِ لِلطَّاعِيَةِ وَيُصِمُّ الْهِمَمَ عَنِ سِيَاحِ الْمُوعِظَةِ» [٨٢٠].

وجاء فى رساله أمير المؤمنين على عليه السلام إلى عثمان بن حنيف حين قيل له: كيف تقوى على الأعداء وهذا طعامك؟ فقال: «أَلَا وَإِنَّ الشَّجْرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَضْلَبَ عُوداً وَالرَّوَاتِحَ الْخَضِرَةَ أَرْقُ جُلُوداً وَالنَّبَاتَاتِ الْعِدْيَةَ أَقْوَى وَقُوداً» [٨٢١].

وتعبير الإمام بالوليمة لا تقتصر على الطعام والشراب وهي كناية عن مطلق اللذة والمتعة، أنشد المتنبي بهذا الخصوص:

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَالِي وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَى سَهَرَ اللَّيَالِي

تَرْوَمُ الْعِزَّ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلًا يُعْوَضُ الْبُحْرَ مَنْ طَلَبَ اللَّثَالِي

وسيرة مختلف الأقوام تؤيد ما ورد في هذه الروايات والخطبة المذكورة، فالأقوام المثابرة والمجتهدة بلغت ذروة الاقتدار في العالم؛ أما تلك الكسله والمتقاعسه كانت متخلفة وفاشله.

وأخيراً حيث اختتمت الخطب بهذه الخطبة فقد قال الرضى: وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأَمَمِيِّ وَعَلَى آلِهِ مَصَابِيحِ الدُّجَى وَالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

ونحمد الله الذى وفقنا بعد أربع عشرة سنة من عمل دؤوب باختتام شرح خطب نهج البلاغه التى تعتبر أهم أجزاء نهج البلاغه بما يقارب ثلثيه.

نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٤٩

خصائص هذا الشرح

١. شرح وتفسير جميع فصول وفقرات كل خطبة خلافاً لما ورد في أغلب الشروح التى تقتصر على الأقسام المطلوبة.
 ٢. إرتباط عبارات وأقسام الخطبة وصلتها الوثيقة والمنطقية مع بعضها والتى اغمض عنها فى أغلب الشروح، ففسروا كل قسم بصورة مستقلة دون الالتفات لارتباطها بما قبلها وبعدها.
 ٣. التركيز على الروح الحاكمة لجميع الخطبة وجميع الأبحاث فى إطارها وغض النظر عن المطالب الهامشية غير المرتبطة بالخطبة وإن كان يثير الوسواس.
 ٤. إرساء التأسيس للأصل فى تفسير العبارات؛ أى، استفادة مفهوم مستقل لكل عبارة خلافاً لما يشاهد فى بعض الشروح، حيث يعتبرون العبارات المتشابهة تأكيداً وينحون اختلافاتها.
 ٥. إضافة مواضع تكميلية مرتبطة بالخطبة بصورة منفصلة تحت عنوان (تأملات) بما فيها المسائل التاريخية والأخلاقية والاجتماعية والعقائدية و....
 ٦. ذكر اسناد الخطبة بالاستفادة من المصادر التى بحثت اسناد نهج البلاغه.
 ٧. ذكر جوّ وخلاصة كل خطبة فى مستهلّ البحث تحت عنوان (نظرة إلى الخطبة).
 ٨. ذكر معانى المفردات الصعبة فى الحاشية بالاضافة إلى جذورها ومعانيها الأصلية والفرعية.
- نفحات الولاية، ج ٨، ص: ٤٥٠
٩. تناول الشرح بصورة مبسطة بما يخدم عامة الناس دون الهبوط بمستوى المواضيع.
 ١٠. الالتفات إلى المطالب المهمة التى وردت فى الشرح من خلال قبولها أو نقدها أو إكمالها.
 ١١. والغاية الأساسية من هذا الشرح، هى أن يكون قابلاً للاستفادة للجميع للخاص والعام والعالم والعامى، وكل يستفيد منه بحسب طاقته وقدرته العلميّة وفهم وإداركه.

[١] (١). سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة كثير من علماء الإسلام الذين عاشوا قبل وبعد السيد الرضى بشكل مرسل أو مسند، ويمكن ذكر أربعة أشخاص من الذين الذين عاشوا قبل السيد الرضى وهم:

(أ) نقل أحمد بن محمد بن خالد البرقى فى كتابه «المحاسن» قسماً من هذه الخطبة.

(ب) أوردها النعمانى فى كتابه «الغيبه» بسندين.

(ج) ذكرها الطبرى من علماء الإمامية فى كتاب «المسترشد».

(د) أوردها الشيخ المفيد فى كتابه «الإرشاد».

[٢] (١). سورة الشعراء، الآية ١٥٧.

[٣] (٢). «شيع» على وزن «علل» لها معنى مصدرى وتعنى الشيع بصورة تامة.

[٤] (١). «السخط» ضد الرضا بمعنى الغضب.

[٥] (٢). زيارة الأربعين للإمام الحسين عليه السلام.

[٦] (١). وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤١٠، ح ٤.

[٧] (٢). «عقر» من «العقر» على وزن «قفل» تعنى فى الأصل أساس الشىء وإن استعملت فى الحيوان عنت البقر قطع أسفل الرجل وصرعه، كما تعنى نحر الناقة.

[٨] (٣). سورة الشعراء، الآية ١٥٧.

[٩] (١). «خارت» من «الخوار» على وزن «غبار» صوتت كخوار الثور والناقة وماشابه ذلك وخواره صيغه مبالغتها.

[١٠] (٢). «السكّة» الحديدة والمحراث.

[١١] (٣). «محماء» اسم مفعول من مادة «احماء» وضع الشىء على النار وتطلق «محماء» على الشىء الذى يحمى بالنار.

[١٢] (٤). «تية» الوادى الجاف كما وردت بمعنى الحيرة.

[١٣] (١). سند الخطبة:

قال ابن أبى الحديد فى «شرح نهج البلاغة» أن تعبير السيد الرضى عن فاطمة الزهراء عليها السلام بـ «سيده نساء العالمين» اقتباس من خبر متواتر روى عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بهذه العبارة أو عبارة أخرى تفيد نفس المعنى.

وقال صاحب «مصادر نهج البلاغة» بعد نقله لهذا الكلام: إن هذا الحديث (حديث سيده نساء العالمين) متواتر عند علماء الإمامية؛ بل يعد جزءاً من عقائدهم. ثم روى عدّة روايات عن العامة بهذا الخصوص.

أمّا من روى هذه الخطبة من العلماء الذين عاشوا قبل السيد الرضى، فهم كلّ من المرحوم الكلينى فى الجزء الأوّل من كتاب «الكافي» (بعبارة أكثر ممّا أوردها السيد الرضى) والشيخ المفيد فى كتاب «المجالس» وروتها طائفة أخرى ممن عاش بعد السيد الرضى مع اختلافات تفيد أنّهم استقوها من مصادر أخرى غير «نهج البلاغة»؛ مثل الطبرى فى «دلائل الإمامة» والشيخ الطوسى فى «الأمالى» وسبط ابن الجوزى فى «تذكرة الخواص» الذين ذكروا دفن الزهراء والأشعار التى أنشدها على عليه السلام فى وداعها. ثم نقل الكلام المذكور مع بعض الاضافات. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٩٣-٩٨).

[١٤] (٢). الجدير بالذكر أن الضمير فى «عند قبره» ورد بصيغته المذكور حيث يعود إلى النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ويقول: إنّه قال هذا الكلام حين دفن فاطمة الزهراء عليها السلام، وهذا يعنى أن السيد الرضى يرى أن قبر الزهراء عليها السلام عند قبر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

- [١٥] (١). سورة البقرة، الآية ١٥٦.
- [١٦] (١). الكافي، ج ١، ص ٤٦١، باب مولد الزهراء عليها السلام، ح ٩.
- [١٧] (٢). «صفيئة» من مادة «صفو» على وزن «عفو» بمعنى الصافي والظاهر وصفي بمعنى المصطفى. وقد ذكر الإمام عليه السلام بنت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بصفتها صفيئة ليعكس علو شأنها وجلالة قدرها.
- [١٨] (٣). «تجلد» من مادة «جلد»، على وزن «بلد» و«جلادة» التي تعنى الصبر والاستقامة و«تجلد» هنا إشارة إلى التحمل والصبر على المصيبة.
- [١٩] (٤). «تأسي» تأتي أحياناً بمعنى الاقتداء وأحياناً أخرى بمعنى الاغتمام والمعنى الثاني هنا أنسب، لأن الكلام عن الهم والغم والحزن وليس الاقتداء، وإن ذهب بعض الشراح إلى المعنى الأول ويبدو أن سبب خطأهم ما تعارف عليه في الاستعمالات المتداولة.
- [٢٠] (١). «فادح» من مادة «فدح»، على وزن «فح» بمعنى المثقل وتعنى هنا المصيبة الجليلة.
- [٢١] (٢). «تعز» أو «تعزى» بمعنى الصبر على المصيبة ومادته «عزاء».
- [٢٢] (٣). بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٧٣، ح ١٤. كما ورد هذا الحديث في مصادر العامة؛ مثل كتاب فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، ج ٢، ص ٦٢٣، ح ١٠٦٧.
- [٢٣] (٤). «وسد» من «وسادة»؛ والتي تعنى هنا وضع الوسادة تحت الرأس.
- [٢٤] (٥). «ملحودة» من مادة «لحد» على وزن «عهد» بمعنى الشق الذي يجعل في جهة من القبر ويوضع داخله الميت حتى لا يصله التراب حين يمتلىء به القبر.
- [٢٥] (١). سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ١٤١؛ مجمع الزوائد، ج ٩، ص ٢٤١.
- [٢٦] (٢). «سرمد» دائم وطويل ويطلق السرمدي أحياناً على الشيء الذي له بداية وليس له نهاية.
- [٢٧] (٣). «مسهد» من مادة «سهد» على وزن «صمد» بمعنى السهر وعدم النوم. جدير ذكره أن «مسهد» وردت صفة للخبر «ليل» وقد قال الإمام عليه السلام أما ليلي فمسهد بدلاً من أن يقول أنا على هذه الحالة، وهذا في الواقع يشعر بالتأكيد.
- [٢٨] (٤). بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٨٤، ح ٣١.
- [٢٩] (١). بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٢١٣، ح ٤٤.
- [٣٠] (٢). «أحفها» من مادة «الإحفاء» بمعنى الإصرار في السؤال والاستخبار.
- [٣١] (١). «قال» من مادة «قلى» على وزن «وعى» بمعنى المبغض ويطلق «قال» على الشخص المبغض لشيء.
- [٣٢] (٢). «سثم» من «السامة» على وزن «فلاحة» بمعنى الكسل والضجر ويطلق «سثم» على من يتصف بهذه الحالة.
- [٣٣] (٣). الكافي، ج ١، ص ٤٥٩، باب مولد فاطمة الزهراء عليها السلام.
- [٣٤] (١). فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج ٧، ص ٨٤ وذكر البخاري هذا الحديث في قسم دلائل النبوة، ج ٦، ص ٤٩١، وأواخر المغازي، ج ٨، ص ١١٠.
- [٣٥] (٢). سورة التوبة، الآية ٦١.
- [٣٦] (٣). مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٥٤؛ مجمع الزوائد، ج ٩، ص ٢٠٣ وذكر الحاكم في كتاب المستدرک أحاديث جامعة الشرائط التي صرح بصحتها البخاري ومسلم.
- [٣٧] (٤). مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٥٦.
- [٣٨] (١). سورة النور، الآية ٣٦.
- [٣٩] (٢). الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٠٣؛ تفسير سورة النور، روح المعاني، ج ١٨، ص ١٧٤.

- [٤٠] (٣). الدر المنثور، ج ٦، ص ٦٠٦.
- [٤١] (٤). سورة الأحزاب، الآية ٣٣.
- [٤٢] (١). المصنف لأبن أبي شيبة، ج ٨، ص ٥٧٢، كتاب المغازي.
- [٤٣] (١). أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٨٦، طبع دار المعارف، القاهرة.
- [٤٤] (٢). الأعلام للزركلي، ج ٤، ص ١٣٧.
- [٤٥] (٣). الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ص ١٢، مطبعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
- [٤٦] (٤). المصدر السابق، ص ١٣.
- [٤٧] (١). معجم المطبوعات العربية، ج ١، ص ٢١٢.
- [٤٨] (٢). تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٤٣، طبعه بيروت.
- [٤٩] (١). العقد الفريد، ج ٤، ص ٩٣، طبع مكتبة الهلال.
- [٥٠] (١). الأموال، الحاشية ٤، نشر الكليات الأزهرية، كذلك ص ١٤٤، طبعه بيروت، كما روى ذلك ابن عبد ربّه في العقد الفريد، ج ٤، ص ٩٣ كما سيرد علينا.
- [٥١] (٢). ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ١٩٥.
- [٥٢] (٣). المعجم الكبير للطبراني، ج ١، ص ٦٢، ح ٣٤، تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي.
- [٥٣] (١). العقد الفريد، ج ٤، ص ٩٣، طبع مكتبة الهلال.
- [٥٤] (٢). الوافي بالوفيات، ج ٦، ص ١٧، رقم ٢٤٤٤؛ الملل والنحل للشهرستاني، ج ١، ص ٥٧، طبع دارالمعرفة، بيروت وللوقوف على ترجمة النظام راجع كتاب «بحوث في الملل والنحل»، ج ٣، ص ٢٤٨ - ٢٥٥.
- [٥٥] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٤٦ و ٤٧، طبعه مصر.
- [٥٦] (١). مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٠١، مطبعة دار الأندلس، بيروت.
- [٥٧] (٢). ميزان الاعتدال، ج ١، ص ١٣٩، العدد ٥٥٢.
- [٥٨] (٣). عبدالفتاح عبدالمقصود، علي بن أبي طالب، ج ٤، ص ٢٧٦ و ٢٧٧.
- [٥٩] (١). الإمامة والخلافة، ص ١٦٠ و ١٦١، تأليف مقاتل بن عطية مع مقدمة الدكتور حامد داود، استاذ جامعة عين شمس، الذي طبع بالقاهرة (مطبعة بيروت، مؤسسه البلاغ).
- [٦٠] (١). بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ١٩٨، ح ١٨.
- [٦١] (٢). من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٥٧٢.
- [٦٢] (٣). عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٧٨، ح ٧٦.
- [٦٣] (١). دلائل الإمامة، ص ١٣٤، ح ٤٣؛ بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٧٠، ح ١١. كتب المرحوم العلامة المجلسي في الشرح في الصفحة ٢١٥ بعد الحديث ٤٧: «في الخبر الصحيح أنها عاشت بعد أبيها خمسة وسبعين يوماً».
- [٦٤] (٢). بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٧٠، ح ١١.
- [٦٥] (٣). زاد المعاد، ص ٤٥٦.
- [٦٦] (٤). كشف الغمّة، ج ٢، ص ٧٧؛ بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٧، ح ٨.
- [٦٧] (١). سند الخطبة:

ذكر بعض العلماء قبل وبعد السيد الرضى، هذه الخطبة في كتبهم؛ فقد رواها قبل السيد الرضى، المرحوم الصدوق، في «الأمالى» و«

عيون أخبار الرضا عليه السلام»، والمرحوم الشيخ المفيد في كتاب «الإرشاد» (الأمالى للصدوق، ص ١٧٢، ح ١٧٤؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٦٧، ح ٥٦؛ الإرشاد، ج ١، ص ٢٩٦) ورواها من بعد السيد الرضى (بدون الاستناد لنهج البلاغة) المرحوم الطبرسى في «مشكاة الأنوار» وورام بن أبى فراس في «مجموعة ورّام» (مشكاة الأنوار، ص ٤٦٧؛ مجموعة ورّام، ج ٢، ص ١٦٥). مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٩٨.

[٦٨] (١). «مجاز» من مادة «جواز» بمعنى العبور وأريد بها هنا الممر والعبور (وإن كان لها معنى مصدرى). ومن هنا يطلق المجاز فى الكلام كون المتكلم يتجاوز المعنى الحقيقى ويظفر بمعنى آخر يناسبه.

[٦٩] (٢). بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣١٩، ح ٢١.

[٧٠] (٣). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٣١.

[٧١] (١). روى هذا الحديث فى عوالى اللتالى، ج ١، ص ٢٦٧، ح ٦٦ عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

[٧٢] (٢). الكافى، ج ٢، ص ٢٧٩، ح ٩.

[٧٣] (١). سورة العنكبوت، الآيتان ٢ و ٣.

[٧٤] (١). ظاهر هذه الجملة بصيغته مبتدأ وخبر، أى أن آباءكم لله ويلزم من ذلك رحمة الله عليهما.

[٧٥] (٢). سورة النحل، الآية ٩٦.

[٧٦] (٣). سورة البقرة، الآية ٢٤٥.

[٧٧] (٤). الكافى، ج ٥، ص ٦٧، ح ١.

[٧٨] (٥). سورة البقرة، الآية ١٦٧.

[٧٩] (٦). الكافى، ج ٤، ص ٤٢.

[٨٠] (١). سند الخطبة:

ذكر هذه الخطبة عدد من الضالعين فى العلوم الإسلامىة ممن عاش قبل السيد الرضى وبعده، ومنهم المرحوم الصدوق فى كتابه «الأمالى»، المجلس الخامس والسبعين (أمالى الصدوق، ص ٥٨٨، ح ٨١٠). كما رواها الشيخ المفيد فى «المجالس» مرفوعة للإمام الباقر عليه السلام (أمالى المفيد، ص ١٩٩، ح ٣٢) وبعض الإضافات فى كتاب «الإرشاد» (الإرشاد، ج ١، ص ٢٣٤)، ورواها المرحوم الطبرسى فى «المشكاة» (مشكاة الأنوار، ص ٥٢٤) وبالنظر لبعض الاختلافات مع ما نقله الرضى يتضح أنها اقتبست من طرق أخرى. مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٩٩.

[٨١] (١). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٣٨٢، ح ٧.

[٨٢] (٢). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٣٢.

[٨٣] (٣). «حضرت» بمعنى «الحضور» وهى هنا إشارة إلى الفرص التى تنتظر الإنسان. واستعمال هذه المفردة بشأن العظام كونه لا يريد خطابهم، بل يلتفت إلى حضورهم.

[٨٤] (٤). «كؤود» من مادة «كأد» بمعنى الشدة والصعوبة وعقبه «كؤود» صعبة العبور.

[٨٥] (٥). «مهولة» من مادة «هول» بمعنى الخوف و«مهول» اسم مفعول؛ يعنى مخيف.

[٨٦] (١). بحار الأنوار، ج ٧، ص ١٢٦، ح ٣.

[٨٧] (٢). المصدر السابق، ص ١١١، ح ٤٢.

[٨٨] (٣). سورة البلد، الآيات ١١-١٦.

[٨٩] (٤). سورة طه، الآيات ١٠٥-١٠٧.

[٩٠] (٥). للوقوف على كلام المرحوم الشيخ المفيد والعلامة المجلسي راجع كتاب بحار الأنوار، ج ٧، ص ١٢٩.

[٩١] (١). سورة الحج، الآيتان ١ و ٢.

[٩٢] (٢). «ملاحظ» جمع «ملحظ» مصدر ميمي، بمعنى النظر أو النظر بطرف العين.

[٩٣] (٣). «متية» من مادة «منى» على وزن «سعى» بمعنى التقدير وتطلق هذه المفردة على الموت كونه مقدرًا على مصير الإنسان.

[٩٤] (٤). «دانية» بمعنى قريبة من مادة «دتو» على وزن «علو».

[٩٥] (٥). «مخالب» جمع «مخلب» أظافر الحيوانات أو الطيور.

[٩٦] (٦). «نشت» من مادة «نشب» على وزن «غصب» بمعنى الانغماس.

[٩٧] (٧). «دهمت» من مادة «دهم» بمعنى باغتت.

[٩٨] (٨). «مفطعات» جمع «مفطعة» بمعنى الحادثة الشديدة أكثر من اللازم.

[٩٩] (٩). «معضلات» جمع «معضلة»؛ يعنى الشيء الذى يجعل الإنسان فى غاية الضيق كما يقال المعضلة للطريق الضيق.

[١٠٠] (١٠). «استظهروا» من «الاستظهار» بمعنى الاستعانة بالشخص أو الشيء، ومادته الأصلية «ظهر».

[١٠١] (١). سند الخطبة:

المصدر الوحيد الذى ذكر هذه الخطبة قبل السيد الرضى كما ورد فى «مصادر نهج البلاغة»، كتاب «نقض العثمانية» لأبى جعفر الاسكافى (م ٢٤٠) ويفهم من كلامه أنه لم يشاهد بنفسه هذا الكتاب؛ بل استفاده من كلام ابن أبى الحديد فى «شرح نهج البلاغة»، ج ٧، ص ٣٦-٤١. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٠٢) كما رواها المرحوم العلامة المجلسي فى بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٢١ عن «شرح نهج البلاغة» لابن أبى الحديد.

[١٠٢] (١). «نقمتما» من مادة «نقم» على وزن «قلم» تعنى فى الأصل الإنكار على الشخص أو الشيء؛ سواء باللسان أو بالعمل عن طريق العقاب ومنه الانتقام ووردت هنا بمعنى الإنكار اللفظى.

[١٠٣] (٢). «أرجأتما» من «الإرجاء» بمعنى التأخير ومادتها الأصلية «رجاء» بمعنى الأمل وقد استعملت بهذا المعنى كون الإنسان يؤخر العمل فى أغلب المواقع بغية تحقيق الهدف.

[١٠٤] (٣). «استأثرت» من «الاستئثار» يعنى خص النفس بالشيء الحسن. وفسرت أحياناً بالاستبداد والاحتكار ومادتها الأصلية «اثر» بمعنى العلامة.

[١٠٥] (١). «إربة» من مادة «أرب» على وزن «عرب» تعنى فى الأصل شدة الحاجة التى يجهد الإنسان من أجل قضائها.

[١٠٦] (١). راجع كتاب «العين» و«لسان العرب» و«مجمع البحرين» مادة «أسوء». قال المرحوم الطبرسي فى «مجمع البيان» فى ذيل الآية ٢١ من سورة الأحزاب: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»: أى قدوة صالحة يقال: لى فى فلان أسوء. أى لى به إقتداء... اسم وضع موضع المصدر» وطبق هذا البيان «اسوء» بمعنى الإقتداء وله وضع الاسم المصدرى، ويشهد على ذلك تعبير القرآن: «فى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ» ولم يقل: «رسول الله أسوء»، وكان الإقتداء بشخص يوجد نوعاً من المساواة به فقد وردت اسوء بمعنى المساواة وهذا المراد بها فى هذه العبارة.

ومن هنا قال الإمام إتما اقتديت برسول الله صلى الله عليه وآله وعملت بسيرته.

[١٠٧] (١). «عتبى» من مادة «عتب» على وزن «خطب» تعنى فى الأصل الانزعاج الباطنى وإذا وردت فى باب الأفعال عنت إزالته هذا الانزعاج وبما أن عتاب الطرف المقابل أحد أسباب إطفاء غضبه، فإن العتبي ترد بمعنى العتاب وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة. والإمام عليه السلام يقول لطلحة والزبير ليس لكما حق عتابى والإنكار على.

[١٠٨] (٢). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٣٧٦.

[١٠٩] (١). «الأراضى الخراجية» الأراضى التى تقع بيد المسلمين فى الفتوحات الإسلامية وتوضع تحت تصرف المزارعين ويؤخذ منهم بالمقابل ضرائب تدعى «الخراج» والذي يبدو كثيراً بالنظر لسعة تلك الأراضى.

[١١٠] (١). سورة الزخرف، الآية ٤٣.

[١١١] (١). سورة الحجرات، الآية ١٣.

[١١٢] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٧، ص ٣٨-٤٣.

[١١٣] (٢). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٦١.

[١١٤] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ١١-١٣.

[١١٥] (١). سند الخطبة:

رواه عدد من المحدثين والمؤرخين قبل السيد الرضى وبعده؛ مثل أبوحنيفة الدينورى فى كتاب «الاجبار الطوال» (ص ١٦٥) ونصر بن مزاحم فى كتاب «صفين» (ص ١٠٣) وسبط بن الجوزى فى «تذكرة الخواص» (ص ١٤٢) وغيرهم. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٠٣).

[١١٦] (١). «احقن» من «الحقن» على وزن «الحمم» تعنى فى الأصل حفظ الشئ وإذا استعملت بشأن الدماء عنت منع إراقة الدماء.

[١١٧] (٢). «يرعوى» من «رعوى» على وزن «رعد» بمعنى الامتناع والعودة عن الفعل. جدير ذكره أن المفردة «رعوى» تستعمل أحياناً بصيغة الرباعى (رعوى على وزن دعوى وتفيد نفس المعنى السابق وقال بعض أرباب اللغة المفردة: «ارعوى» من المفردات النادرة ولم يشاهد مثلها فى صيغ الأفعال المعتلة. للمزيد راجع «لسان العرب» مادة «رعوى».

[١١٨] (٣). «لهج» من مادة «لهج» على وزن «هرج» بمعنى التعلق والولع بالشئ والحرص عليه.

[١١٩] (١). راجع «المصباح المنير» و«لسان العرب». وروى هذا المعنى المرحوم المحقق الخوئى فى شرحه لنهج البلاغة.

[١٢٠] (٢). للوقوف على المزيد راجع الجزء الثالث من هذا الشرح.

[١٢١] (٣). الكافى، ج ٢، ص ٣٦٠، باب السباب، ح ٢ و ٣.

[١٢٢] (١). الكافى، ج ٢، ص ٣٦٠، باب السباب، ح ٢ و ٣.

[١٢٣] (٢). سورة ص، الآية ٧٨.

[١٢٤] (٣). سورة آل عمران، الآية ٨٧.

[١٢٥] (٤). سورة هود، الآية ١٨.

[١٢٦] (٥). سورة الرعد، الآية ٢٥.

[١٢٧] (٦). سورة البقرة، الآية ١٥٩.

[١٢٨] (١). سند الخطبة:

نقل الطبرى فى تاريخه فى حوادث سنة ٣٧ للهجرة عبارة عن أمير المؤمنين على عليه السلام تشبه عبارة بعض هذا الكلام؛ لكن ليس فى يوم صفين بل فى موضع آخر ويتضح من ذلك أن الإمام عليه السلام بين هذه العبارات فى عدة مواضع. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٠٣).

[١٢٩] (١). «لا يهدنى» من مادة «هد» على وزن «سد» تعنى فى الأصل الإنهدام والإنهيار المقرون بصوت شديد. ثم استعمل فى الأمور

المعنوية فاطلق على الحزن الذى يعكر روح الإنسان من قبيل ما ورد فى العبارة المذكورة.

[١٣٠] (٢). «أنفس» من مادة «نفس» على وزن «ففس» بمعنى الشح وحفظ الشئ وعدم فقدان الأشياء النفيسة التى لا يريد الإنسان

فقدانها بسهولة.

- [١٣١] (١) . لسان العرب، مادة « غلم».
- [١٣٢] (١) . سورة آل عمران، الآية ٤١.
- [١٣٣] (١) . سند الخطبة:
- كان ممن رواها قبل المرحوم السيد الرضى، نصر بن مزاحم فى كتاب « صفين» (وقعه صفين، ص ٤٨٤) وابن قتيبة الدينورى فى « الامامة والسياسة» (ص ١٠٤) والمسعودى فى « مروج الذهب» (ج ٢، ص ٤٠٠). (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٠٧).
- [١٣٤] (١) . « نهكتكم» من مادة « نهك» على وزن « سفك» تعنى فى الأصل التآكل والقدم وتستعمل فى الموارد التى يتعب فيها الإنسان ويرهق.
- [١٣٥] (١) . شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ٣٠ و ٣١.
- [١٣٦] (٢) . انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٢، ص ٢١٤.
- [١٣٧] (١) . سند الخطبة:
- وردت عدة مصادر ذكرت هذا الكلام ومنها الجزء الأول من أصول الكافى والجزء الأول من العقد الفريد والجزء الرابع من ربيع الأبرار واختصاص الشيخ المفيد وتليس إبليس لابن الجوزى وقوت القلوب لأبى طالب المكى (ورد جانب من هذه الخطبة فى بعض هذه الكتب). وقد التفت لهذه الخطبة العديد من العلماء وذكروها فى كتبهم لما تضمنته من جوانب تاريخية وأخلاقية وتربوية. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٠٨).
- [١٣٨] (١) . قال بعض شراح نهج البلاغة، إن الجملة « كنت» زائدة هنا، والحال ليس الأمر كذلك، بل مراد الإمام عليه السلام منها بيان الاستمرار، لأن مفهوم العبارة ما الذى استفدته من هذه الدار وكانت لك لحد الآن.
- [١٣٩] (١) . « تقرأ» من « قراء» على وزن « عبا» خدمة الضيف.
- [١٤٠] (٢) . « تطلع» من « الطلوع» بمعنى الظهور والبروز وتعنى الاظهار من باب الإفعال.
- [١٤١] (٣) . سورة البقرة، الآية ١٨٠.
- [١٤٢] (٤) . تفسير القمى، ج ٢، ص ٢٠٣؛ وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٤٧٦، ح ١٢٥٣٣.
- [١٤٣] (٥) . الكافى، ج ٤، ص ٥٢٦، ح ٧ (باب سعة المنزل).
- [١٤٤] (١) . بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٥٣، ح ٣٠.
- [١٤٥] (١) . « استهام» من مادة « هيم» على وزن « غيم» الحيرة والاضطراب والسير نحو العبث و « استهام بك الخبيث» أضلك الشيطان.
- [١٤٦] (١) . سورة الأعراف، الآية ٣٢.
- [١٤٧] (٢) . « جشوبة» الخشونة من مادة « جشب» على وزن « جسب» ويقال للخبز دون غيره « جشب».
- [١٤٨] (٣) . « يتبيغ» من مادة « بيغ» على وزن « بيع» يهيج، ويأتى أحياناً بمعنى الكثرة والمعنى الأول هو المراد فى العبارة.
- [١٤٩] (١) . شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ٣٦ و ٣٧.
- [١٥٠] (٢) . سورة البقرة، الآية ١٤٣.
- [١٥١] (١) . سورة القصص، الآية ٧٧.
- [١٥٢] (٢) . وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٧٦، كتاب التجارة، ابواب مقدماتها، باب ٢٨، ح ١.
- [١٥٣] (١) . مستدرک الوسائل، ج ١٢، ص ٣٢٣، ح ١٤٢٠٥.
- [١٥٤] (٢) . سفينة البحار، مادة « صوف».
- [١٥٥] (١) . انظر كتاب: « تجلى الحق» للمؤلف وكتاب « ما يقول العارف والصفوى» لآية الله الميرزا جواد الطهرانى رحمه الله وكتاب

- التعليم والتربية فى الإسلام» للشهيد العلامة مرتضى المطهرى رحمه الله وشرح نهج البلاغة للعلامة الخوئى رحمه الله «منهاج البراعة» ج ١٣) ذيل هذه الخطبة) من ص ١٣٢.
- [١٥٦] (١). سورة الأعراف، الآية ٣٢.
- [١٥٧] (٢). سورة الأعراف، الآية ١٥٧.
- [١٥٨] (١). سند الخطبة:
- ذكر صاحب «مصادر نهج البلاغة» أن هذا الكلام ورد بسند تام أو مرسل فى أغلب المصادر قبل «نهج البلاغة» ومنها كتاب «الكافى» و«تحف العقول» و«الخصال» للصدوق و«الغيبه» للنعمانى (الكافى، ج ١، ص ٦٢، ح ١؛ تحف العقول، ص ١٩٣؛ الخصال، ص ٢٥٥، ح ١٣١؛ الغيبه للنعمانى، ص ٨١، ح ١٠) وسائر الكتب وبعد السيد الرضى ونهج البلاغة كالتذكرو لسبط ابن جوزى و«الاحتجاج» للطبرسى و«أربعين الشيخ البهائى» (تذكرو الخواص، ص ١٣٣؛ الاحتجاج، ج ١، ص ٢٩٣؛ أربعين البهائى، ص ٢٨٩). (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١١٥).
- [١٥٩] (١). الكافى، ج ١، ص ٦٢.
- [١٦٠] (١). «فليتبوأ» من «بواء» على وزن «دواء» الرجوع والاطراق ويقال للموضع المستوى والمكان، والمعنى فليتهيا ويسكن.
- [١٦١] (٢). «مقعد» المكان والمحل وموضع الجلوس ويطلق أيضاً على الوسادة الصغيرة.
- [١٦٢] (١). الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٤٦.
- [١٦٣] (٢). مستدرک الحاكم، ج ١، ص ١١١ و ١١٣؛ سنن ابن ماجه، ج ١، ص ١٤.
- [١٦٤] (١). «مُتَصَنِّع» من مادة «صنع» على وزن «رُمح» من يحسن ظاهره ويبدى السى حسناً.
- [١٦٥] (٢). «يتحرّج» من مادة «حرج» الخشية من الوقوع فى الذنب، باب تفعل.
- [١٦٦] (٣). «لقف» من مادة «لقف» على وزن «وقف» أخذ الشىء بسرعة وتناوله.
- [١٦٧] (١). «زور» تعنى فى الأصل الميل عن الوسط إلى الطرف ولذلك يطلق على الكذب لأنه انحراف عن الحق.
- [١٦٨] (٢). ذكره والد المرحوم الشيخ البهائى فى كتاب «أصول الأخبار إلى أصول الأخبار»، ص ٣٠ بعنوان «المثل السائر» والمرحوم الملا صالح المازندرانى فى «شرح أصول الكافى»، ج ١٢، ص ٥٦٠؛ ولكن قال فى كتاب «كشف الغمّة»، ج ٢، ص ٢٣٠ بعد ذكر هذه الجملة: «كما ورد فى الحديث والمثل».
- [١٦٩] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ٤١.
- [١٧٠] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ١٧٦.
- [١٧١] (٢). شرح نهج البلاغة للمرحوم التسترى، ج ٧، ص ٢١٢؛ تاريخ بغداد، ج ١، ص ٢٧٥. وأضاف الخطيب البغدادى بعد نقله لهذا الحديث: لم أجد له إلبسند واحد وأغلب رجال هذا السند مجهولون.
- [١٧٢] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ٤٤-٤٦.
- [١٧٣] (٢). المصدر السابق، ص ٤٢.
- [١٧٤] (١). كان ممن انتقد هذه النظرية من علماء العامة «أحمد حسين يعقوب» فى كتاب نظرية عدالة الصحابة و«الشيخ محمود أبوريه» فى كتاب شيخ المضيرة، وأبوهريرة.
- [١٧٥] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ٤٧.
- [١٧٦] (٢). عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١١٠؛ بحار الأنوار، ج ٤، ص ١١.
- [١٧٧] (١). المراد من النبىذ الحلال أن المسلمين لما دخلوا المدينة أصيب البعض لبرودة الماء فأمر النبى أن يلقى فى الظرف تمر

لتزول برودة الماء ولم يكن بالمقدار الذي يحيله خمراً ومن هنا قال في ذيل الرواية: «وكل مسكر حرام».

[١٧٨] (٢). وسائل الشيعة، ج ١٠، باب ٤١ من أبواب الذبح، ح ٧.

[١٧٩] (٣). بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٧٢، ح ٧.

[١٨٠] (١). انظر المزيد في النسخ، نفحات الولاية، ج ١، ص ٢٣٩ و ٢٥٠ ذيل الخطبة الاولى وتفسير الأمثل، ج ١، ذيل الآية ١٠٦ من سورة البقرة، وأسهب من ذلك في كتاب أنوار الأصول، ج ١، ص ١٧٧.

[١٨١] (١). «لم يهيم» من مادة «وهم» مطلق الخيال والظن وتعني أحياناً الظن الباطل والخطأ وهذا هو المعنى المراد.

[١٨٢] (٢). «جَنَّب» من باب تفعيل ومادة «جنب تعني حسب بعض مصادر اللغة، الحفظ والإبعاد بالمعنى اللزوم والمتعدى والمعنى الثاني هو المراد.

[١٨٣] (١). شرح نهج البلاغة للتستري، ج ٧، ص ٢٨٠.

[١٨٤] (٢). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٧.

[١٨٥] (٣). «طارئ» من «طروء» على وزن «غروب» حادث والخروج المفاجئ ومن هنا يقال للشخص الذي يرد حديثاً والزائر بغتة.

[١٨٦] (٤). كانت هنالك عوامل أخرى تحول دون السؤال كالاكتغال بالعبادات ظناً منهم أنهم مأمورون بها فقط أو الانهماك في الدنيا التي تغفل الإنسان عن كل شيء.

[١٨٧] (١). الكافي، ج ١، ص ٦٤، ح ١.

[١٨٨] (١). سند الخطبة:

رواها الزمخشري في «ربيع الأبرار» ورغم اختلافها مع ما ورد في «نهج البلاغة» فيتضح أنه استقاهها من مصدر آخر. كما ذكرها ابن الأثير في كتابه اللغوي «النهاية» في مادتي (يعجز) و (ازر) ويفيد اختلافها مع «نهج البلاغة» أنه رواها من مصدر آخر (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١١٧) لا بد من الالتفات إلى أن ابن الأثير أشار لهذه الخطبة في مادة (ازر) و (يعجز) لكنه لم يُشر إليها - حسب المصادر - في مادة (ازر).

[١٨٩] (١). «زاخر» من «زخور» المملوء و «بحر زاخر» البحر الممتليء.

[١٩٠] (٢). «متقاصف» الجماعة التي يدفع بعضها الآخر من مادة «قصف» على وزن «عصف» بالكسر وفي العبارة إشارة إلى الأمواج المتلاطمة التي يضرب بعضها البعض.

[١٩١] (١). «اطباق» جمع «طَبَق» الطبقات على بعضها.

[١٩٢] (٢). «ارتقاق» الاتصال من مادة «رتق» و ضد ها «فتق».

[١٩٣] (٣). «أرسي» من مادة «رسو» على وزن «مسح» الثابت والراسخ.

[١٩٤] (٤). «اخضر» إشارة إلى عمق البحار التي تبدو لكثرة العمق بهذا اللون.

[١٩٥] (١). «متعنجر» المليء بالماء من مادة «تعجرة» على وزن «حنجرة» جريان الماء وما شابه.

[١٩٦] (٢). «قمقام» البحر العظيم في الأصل من مادة «قمقمة» على وزن «همهمة» بمعنى الجمع ومن هنا يقال قمقام للبحر العظيم والأحداث المهمة التي تجمع فيها المشاكل الكثيرة.

[١٩٧] (١). «جبل» من مادة «جبل» على وزن «جبر» الخلق ومنه الجبل المعروف.

[١٩٨] (٢). «جلاميد» جمع «جلمود» على وزن «خرطوم» الصخرة والجبل.

[١٩٩] (٣). «نشوز» جمع «نشر» على وزن «نشر» التل وما ارتفع من الأرض. ولهذه المفردة معنى مصدرى: الامتناع عن الإتيان بالوظيفة كنشوز الزوجة عن الزوج.

- [٢٠٠] (٤). «متون» جمع «متن» المحكم وتأتى بمعنى المستوى والمراد هنا المعنى الأول.
- [٢٠١] (١). «أطواد» جمع «طود» الجبل الشامخ.
- [٢٠٢] (٢). «أنهد» من «النهود» بمعنى الظهور والانفصال.
- [٢٠٣] (٣). «أساخ» من «السوخ» على وزن «قول» الغوص فى الماء.
- [٢٠٤] (٤). «انصاب» جمع «نصب» على وزن «كتب» الأجسام الأعلام وللنصب معنى المفرد أحياناً والجمع أخرى حسب ما ذكر المرحوم الطبرسى فى «مجمع البيان»، ج ١٠، ص ١٢٦.
- [٢٠٥] (٥). «أشهى» من «الشهوق» الارتفاع و«أشهى» يعنى رفع.
- [٢٠٦] (٦). «أنشاز» جمع «نشز» على وزن «مرض» من «النشوز» ذكرت سابقاً فى هذه الخطبة.
- [٢٠٧] (٧). «ارز» من مادة «رز» على وزن «حظ» بمعنى ثبت.
- [٢٠٨] (٨). «تميد» من «الميد» على وزن «صيد» الحركة والاضطراب.
- [٢٠٩] (٩). «تسيخ» من «سوخ» فسرت فى الخطبة.
- [٢١٠] (١). مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١١٧.
- [٢١١] (٢). «تكركر» من مادة «كركرة» على وزن «حنجرة» يرى البعض أنها من مادة والبعض الآخر أنها مادة مستقلة من الرباعى المجرد وتعنى التكرار.
- [٢١٢] (٣). «تمخض» من مادة «مخض» على وزن «قرض» تعنى فى الأصل حركة اللبن لاستخراج الزبدة ثم اطلقت على كل حركة شديدة.
- [٢١٣] (٤). «ذوارف» من مادة «ذرف» على وزن «حرف» سيلان الدمع من العين أو مطلق السيل و«ذوارف» جمع «ذارف» بمعنى الجارى والصابى.
- [٢١٤] (١). سورة النازعات، الآية ٢٦. جدير ذكره أن هذه الآية القرآنية وردت فى سياق الخلقة وخلق السماء والأرض.
- [٢١٥] (٢). سورة فاطر، الآية ٢٨.
- [٢١٦] (١). سند الخطبة:
- لم يذكر صاحب «مصادر نهج البلاغة» سنداً لهذه الخطبة؛ لكن يستفاد من كتاب «تمام نهج البلاغة» (وأشرنا لذلك فى المتن) أن هذا الكلام كان ذيل الخطبة ١٩٨ ولم يذكر هذا الكتاب سنداً آخر غير «نهج البلاغة».
- [٢١٧] (١). تمام نهج البلاغة، ص ٤٩١.
- [٢١٨] (٢). «نكوص» مصدر يعنى الانسحاب والتراجع.
- [٢١٩] (٣). «إبطاء» التأخير من مادة «بطؤ» على وزن «فقل».
- [٢٢٠] (١). صفين لنصر بن مزاحم، ص ٩٤ و ٩٥.
- [٢٢١] (١). سند الخطبة:
- لم يذكر سند هذه الخطبة فى المصادر المعروفة سوى «نهج البلاغة» وقد روى العلامة المجلسى قسمها الأول عن «نهج البلاغة» فى الجزء الرابع من بحار الأنوار.
- [٢٢٢] (١). «متوهمين» من مادة «وهم» الظن والخيال كما تعنى التفكير وهذا هو المعنى المراد والشاهد على ذلك كلمة الفكر قبل ذلك.
- [٢٢٣] (١). «يرهقه» من مادة «رهق» على وزن «شفق» غشى الشىء أو القهر والغلبة كما وردت بمعنى تسلط الشىء.

- [٢٢٤] (١). بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٩٣.
- [٢٢٥] (١). «رتق» من «رتق» على وزن «حتم» الاتصال.
- [٢٢٦] (٢). «مفاتق» المواضع المنشقة جمع «مفتق» على وزن «مكتب» من مادة «فتق» (ضد رتق).
- [٢٢٧] (٣). «ساور» من «المساورة» الغلبة والسيطرة من مادة «سور» على وزن «غور».
- [٢٢٨] (٤). «حزونة» ضد سهولة، الخشن والغلظ في الأرض.
- [٢٢٩] (٥). «سرح» من «التسريح» الترك والطرده ومن هنا يقال للطلاق تسريح ومادته الأصلية «سرح» و«سروح» الاطلاق والتحرير.
- [٢٣٠] (١). سند الخطبة:
- روى الآمدى في «غررالحكم» جانباً من هذه الخطبة مع اختلاف يدل على أنه اقتبسها من مصدر آخر غير «نهج البلاغة».
- [٢٣١] (١). «هنالك عبارات في كتاب «تمام نهج البلاغة» الذي أورد عبارات مكتملة لهذه الخطبة تشير بوضوح إلى أن الضمير في «إنه» يرجع إلى الله تعالى لا إلى القضاء والقدر (تمام نهج البلاغة، الخطبة ٢٢، ص ٢٩٩).
- [٢٣٢] (٢). «نسخ» من «النسخ» على وزن «مسخ» تعنى في الأصل انتقال الشيء ومن هنا يقال حين ينتقل الظل إثر حركة الشمس: «نسخت الشمس الظل» كما يقال لكتابه شيء على كتابه أخرى استنساخ، لأنها تنقل المطلب. ومنه النسخ في الأحكام لأن حكماً يحل محل آخر والنسخ في العبارة إشارة إلى انتقال النطفة من الأب إلى الأب الآخر والذي تنتقل عن طريقه الصفات من الآباء إلى الأبناء.
- [٢٣٣] (٣). «عاهر» الشخص الفاسق والفاجر.
- [٢٣٤] (٤). مصباح المتهجد، ص ٧١٧.
- [٢٣٥] (٥). بحار الأنوار، ج ١٥، ص ١١٧؛ مجمع البيان، ج ٣-٤، ص ٤٩٧.
- [٢٣٦] (١). بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٣٧٦؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٢٩٧.
- [٢٣٧] (٢). الضمير «يقول» يعود إلى «الله» الذي ذكر سابقاً والمعنى أن الله يجعل لسانهم ناطقاً ويجرى عليه الخير.
- [٢٣٨] (١). سورة طه، الآية ٤٦.
- [٢٣٩] (٢). سورة إبراهيم، الآية ٢٧.
- [٢٤٠] (٣). سورة الفاتحة، الآية ٥.
- [٢٤١] (١). «مستحفظين» من مادة «حفظ» من يحفظ ما يودع إليه.
- [٢٤٢] (١). «رويته» صفة مشتبهة من «رى» على وزن «حى» زوال العطش.
- [٢٤٣] (٢). «بريئة» تركيب من الباء الجازة و«ريته» اسم المصدر من «رى» على وزن «حى» الرى من العطش.
- [٢٤٤] (١). «ينتقى» من «النقاوة» بمعنى الطاهر والخالص، وتعنى الاصطفاء والاختيار حين تأتي في باب افتعال.
- [٢٤٥] (٢). «التمحيص» التطهير والإخلاص وورد بهذا المعنى أيضاً من مادة «محص» على وزن «فحص»، وإن تضمن التمحيص تأكيداً أكثر ولما كان الامتحان سبب التنقية والتطهير فقد وردت هذه المفردة بمعنى الامتحان.
- [٢٤٦] (١). «الكرامة» تعنى في الأصل الشرف، الشخصية، المثل، الاحترام والنعمة وما معناها في العبارة فيرى البعض أنها مفعول به فقال: مفهوم الجملة أنه ينبغي على كل إنسان أن يقبل الكرامة الإلهية والنعمة بقبول هذه الصفات البارزة، وعليه فالكرامة بمعنى كرامة الله وإشارة إلى نعمه، الاحتمال الآخر «كرامة» من قبيل المفعول له ومفهوم الجملة كل إنسان يقبل هذا الكلام للكرامة والمحبة.
- [٢٤٧] (٢). «قارعة» من مادة «قرع» بمعنى الضرب وقارعة تطلق على الحوادث المهيبة والصعبة؛ كالموت والزلازل. فأحد أسماء القيامة «القارعة» لأنها تقترن بحوادث صعبة.
- [٢٤٨] (١). «يردى» من مادة «ردى» على وزن «رعد» بمعنى الهلكة، أو السقوط المقرون بالهلكة و«يردى» (من باب أفعال) يعنى

يهلك.

[٢٤٩] (٢). «حوبه» تعنى فى الأصل الحاجة التى تسوق الإنسان إلى المعصية، ثم اطلقت على مطلق المعاصى أو الكبائر.

[٢٥٠] (١). سورة الأنبياء، الآية ٧.

[٢٥١] (١). بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٥٩.

[٢٥٢] (١). سند الخطبة:

ورد فى «مصادر نهج البلاغة» أنّ «السيد ابن باقى» معاصر «المحقق الحلى» ذكرها فى كتاب «الاختيار» كما فى «نهج البلاغة» سوى العبارة الأخيرة التى رواها بصيغة أخرى وأضاف لها سائر العبارات التى تشير إلى أنه استقاها من مصدر آخر غير «نهج البلاغة». وسترده إشارات أخرى بمصادر هذا الدعاء فى ذيل الخطبة ٢٢٥.

[٢٥٣] (١). «عروق» جمع «عرق» على وزن «حرص» مجارى الدم فى البدن واطلقت على أصل كل شىء وجذره.

[٢٥٤] (٢). «دابر» تعنى فى الأصل الظهر أو الشخص التابع ومن هنا يطلق على الأولاد والأجيال التى تعقب الإنسان «دابر».

[٢٥٥] (١). «ملتبس» من مادة «لبس» على وزن «حبس» بمعنى الخطأ و«ملتبساً عقلى» بمعنى إرتباك الفكر والعقل.

[٢٥٦] (١). خصال الصدوق، ج ٢، ص ٤٢٠، ح ١٤.

[٢٥٧] (٢). بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٣.

[٢٥٨] (١). «أضام» من «الضيم» على وزن «غيم» بمعنى الظلم والإذلال.

[٢٥٩] (٢). «أضطهد» من مادة «ضهد» على وزن «مهد» بمعنى قهر و«الاضطهاد» بمعنى التأكيد فى القهر.

[٢٦٠] (٣). سورة فاطر، الآية ١٥.

[٢٦١] (١). سورة الأعراف، الآية ١٧٨.

[٢٦٢] (٢). سورة آل عمران، الآية ١٦٠.

[٢٦٣] (٣). بحار الأنوار، ج ٩٥، ص ٤١٣، دعاء ليلة النصف من شعبان.

[٢٦٤] (٤). «تتابع» من مادة «تتابع» (مصدر باب تفاعل) بمعنى الحمل بسرعة نحو الشىء.

[٢٦٥] (١). سند الخطبة:

ورد فى «مصادر نهج البلاغة» ذيل هذه الخطبة رواها قبل السيد الرضى المرحوم الكلينى فى «روضه الكافى»: ج ٨، ص ٣٥٢ عن الإمام الباقر عليه السلام. وما ورد فى «الكافى» أكثر ممّا ورد فى «نهج البلاغة» وتختلف بعض عباراته عمّا فى «نهج البلاغة» دون تغيير فى المعنى (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٢٩).

[٢٦٦] (١). «تواصف» من مادة «وصف» بمعنى أن بعض الأشياء وصف لبعضها الآخر. وتعنى فى الخطبة أن الناس فى الكلام كل يؤدى بشأن الحق.

[٢٦٧] (٢). «تناصف» من مادة «نَصَفَ» على وزن «هدف» وعلى وزن «حرص» الانصاف ومعنى «تناصف» أن كل شخص يراعى الانصاف بحق الآخر.

[٢٦٨] (٣). سورة البقرة، الآية ٢٨٠.

[٢٦٩] (٤). سورة البقرة، الآية ٢٢٨.

[٢٧٠] (١). أورد المرحوم العلامة المجلسى رسالة الحقوق للإمام السجاد عليه السلام فى بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٠.

[٢٧١] (٢). ورد فى كتاب الحج من «وسائل الشيعة»، باب تحت عنوان «حقوق الدائبة الواجبة والمندوبة» وهو مهم للغاية واشير لهذا المعنى فى الخطبة ١٦٧.

[٢٧٢] (١). سورة الأنعام، الآية ١٢، وورد هذا التعبير في الآية ٥٤ مع إضافة كلمة «ربكم».

[٢٧٣] (٢). سورة آل عمران، الآية ٩.

[٢٧٤] (١). «تتكافأ» يعنى تتساوى من مادة «كفؤ» على وزن «كفر» التساوى فى المقام والمنزلة والقدر، ثم اطلقت على كل شبيه ومثيل.

[٢٧٥] (٢). «رعيّة» من مادة «رعى» على وزن «سعى» بمعنى الحفظ والمراقبة والمراعاة. ومنه «الرعى» لأنه يحفظ الماشية ويقال للحاكم «رعى» لأنه يرعى الناس ويطلق على الناس «رعية» لأنهم تحت رعايته وحفظ الحكومة.

[٢٧٦] (١). «اذلال» جمع «ذل» على وزن «ظلل» بمعنى جادة محكمة ومستقيمة وبسبب كثرة المرور عليه أصبحت قوية، وأصل هذه الكلمة مأخوذة من «ذلت».

[٢٧٧] (١). «اجحف» من «الإجحاف» هضم حقوق الآخرين ومادته الأصلية «جحف» على وزن «محو» بمعنى إزالة الشيء.

[٢٧٨] (٢). «ادغال» إدخال ما يفسد الشيء. من مادة «دغل» على وزن «دخل» الدخول فى مكان خفية لاغفال الصيد.

[٢٧٩] (٣). «محتاج» جمع «محنة» الجادة الواضحة والسوية من «الحج» بمعنى القصد فالإنسان يقصد دائماً الطريق الواضح.

[٢٨٠] (١). بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٥٦، ح ١٠.

[٢٨١] (٢). «اقتحمت» من «الإقتحام» الإخفاء أو الدخول فى عمل دون تروٍّ وتعنى الاحتقار والازدراء ومادته «قحم» على وزن «فهم».

[٢٨٢] (١). بحار الأنوار، ج ٢، ص ٤٤.

[٢٨٣] (١). الفتوحات الإسلامية، احمد بن زينى دحلان (٢ مجلد)، الطبع مؤسسة الحلبي القاهرة (١٣٨٧ ق - ١٩٦٨ م).

[٢٨٤] (١). تمر علينا حين كتابة هذه السطور حادثان مهمتان هزتا العالم الإسلامى: الاولى حادثة الإهانة الأليمة للنبي صلى الله عليه و آله بتلك الصور المستهجنة التى عكستها أجهزة الإعلام الغربية التى انطلقت من الدانمارك لتعم أكثر البلدان الأوربية وموجه استنكار المسلمين التى عمّت العالم وقاطعوا بضائع تلك الدول حتى اضطروا للتراجع ودخلوا مرحلة الاعتذار.

أما الحادثة الثانية فكانت الجريمة التى انتهكت حرمة ضريح العسكريين عليهما السلام حيث استيقظ المسلمون يوم الأربعاء عام ٢٠٠٦ ليروا أياذى الاستعمار والاستكبار والعملاء الرعاع قد أحالوا الضريح إلى ركام من التراب من خلال خطة مدبرة مسبقاً، فأجج مشاعر العالم الإسلامى برمته دون الاقتصار على الشيعة، مستنكرة تلك الجريمة التى سعت لبث الفرقة بين المسلمين وإثارة الحرب الأهلية، جدير ذكره أن كل هذه الأمور كانت تهدف إلى مواجهة الحكومات الشعبية التى تسلمت الأمور فى العراق وفلسطين. «اللهم فرّق جمعهم وشئت شملهم وحذهم أخذ عزيز مقتدر».

[٢٨٥] (١). الكافى، ج ٨، ص ٣٥٥.

[٢٨٦] (٢). المصدر السابق.

[٢٨٧] (١). «اسخف» من «السخف» على وزن «قفل» و«سخافة» ضعف العقل والجهل.

[٢٨٨] (٢). «إطراء» من «الطراوة» الجديد، وتعنى المدح والثناء من باب الإفعال.

[٢٨٩] (١). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٥٢.

[٢٩٠] (٢). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٣٤٧.

[٢٩١] (٣). المصدر السابق، الكلمة ٤٦٢.

[٢٩٢] (١). غرر الحكم، الحكمة ٢٦٩٦.

[٢٩٣] (٢). من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ١١.

[٢٩٤] (١). عيون الحكم والمواعظ، ص ١١٧.

[٢٩٥] (٢). المصدر السابق، ص ١٧٧.

- [٢٩٦] (٣). المصدر السابق، ص ٤٠٩.
- [٢٩٧] (١). «بادرة» من «البدور» على وزن «غروب» تعنى فى الأصل المسارعة إلى القيام بعمل و«بادرة» الحركات السريعة والخاطئة التى تصدر من الغاضب.
- [٢٩٨] (١). سورة يوسف، الآية ٣.
- [٢٩٩] (٢). العقد الفريد، ج ١، ص ٥٣، (طبق نقل شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري، ج ٦، ص ٤٤٧ و ٤٤٨).
- [٣٠٠] (٣). المصدر السابق.
- [٣٠١] (١). سورة يوسف، الآية ٢٤.
- [٣٠٢] (٢). بحار الأنوار، ج ٦٠، ص ٣٢٩.
- [٣٠٣] (١). الكافي، ج ٨، ص ٣٥٨، ح ٥٤٥. تنمة هذا البحث فى «الكافي» لطيفة للغاية فيمكن الرجوع إلى ما ذكر. فقد اغضضنا المواصلة حتى لانخرج عن اسلوبنا فى الشرح.
- [٣٠٤] (١). سند الخطبة:
- ورد جانب من هذه الخطبة فى الخطبة ١٧٢ وجانب آخر فى الخطبة ٢٦ وكما مضى فى سند الخطبة ١٧٢ يبدو أن هذه الخطبة جانب من رسالة كتبها الإمام أواخر خلافته وبين فيها باختصار الحوادث التى وقعت عقب وفاة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله حتى ذلك الزمان وأمر أن تقرأ على الناس.
- وأضاف صاحب كتاب «مصادر نهج البلاغة» أن المرحوم الكلينى فى كتاب «كشف المحجّة» (ص ١٨٠) طبق نقل السيد ابن طاووس فى كتاب الرسائل. ويحتمل أيضاً أن الإمام بين بعض هذه الخطبة فى مختلف المناسبات لأكثر من مرة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٣٢).
- [٣٠٥] (١). «اكفؤوا» من «الإكفاء» بمعنى قلب الإناء بحيث يسكب كل ما فيه، ومادته الأصلية «كفء» على وزن «دفع» بمعنى التولى.
- [٣٠٦] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٠٧.
- [٣٠٧] (١). «رافد» من مادة «رfd» على وزن «رطب» بمعنى المعونة والعطاء والمساعدة.
- [٣٠٨] (٢). «ضنتت» من مادة «ضنن» على وزن «فنن» تعنى فى الأصل البخل الشديد؛ لكنها هنا التحفظ الشديد عن الشىء المطلوب.
- [٣٠٩] (٣). «قذى» هذه المفردة تقابل تماماً الصفاء والإخلاص ويطلق القذى على الأشياء الملوثة التى تقع فى الماء والشوك الذى يدخل فى العين ويؤذيها.
- [٣١٠] (٤). «شجى» من مادة «شجو» على وزن «هجو» بمعنى الحزن والشدة كما يطلق على ما يعترض حجرة الإنسان.
- [٣١١] (٥). «علقم» نبتة مرّة للغاية ويطلق عليها أيضاً «حنظل» وتطلق هذ المفردة على كل شىء مر.
- [٣١٢] (٦). «وخز» بمعنى اللسع والثقب والأذى.
- [٣١٣] (٧). «شفار» جمع «شفرة» على وزن «دفعه» السكين.
- [٣١٤] (١). سند الخطبة:
- قال صاحب «مصادر نهج البلاغة»، مصادر هذا الكلام هى مصادر الكلام السابق، لأنّ كلاً منه فصل من رسالة كتبها الإمام عليه السلام وأمر بأن تقرأ على الناس (ليقفوا على ما حدث منذ وفاة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله حتى عصر خلافته). ثم قال: «لذلك ذكر هذا الكلام متصلًا بالكلام السابق فى بعض نسخ نهج البلاغة». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٣٣).
- [٣١٥] (١). «عَصُوا» من مادة «عَصَّ» على وزن «سَدَّ» تعنى فى الأصل العض بالأسنان ثم استعملت لمن يتابع عمله بجد والعبارتان «عَصُوا على أسيافهم» من هذا القبيل.

[٣١٦] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٣١٥.

[٣١٧] (٢). المصدر السابق.

[٣١٨] (١). سند الخطبة:

رواها أبو الفرج الاصفهاني في «الأغاني» والمبرد في «الكامل» وابن عبد ربه في «العقد الفريد» وابن الأثير في «النهاية». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٣٥).

[٣١٩] (١). «وثر» على وزن «سطر» و«وثر» على وزن «فطر» بمعنى الجناية أو الأذى ويطلق على القصاص ووردت بهذا المعنى في العبارة المذكورة.

[٣٢٠] (٢). «أفلتنتي» من «الإفلات» وردت بمعنى الخلاص والهروب وهي هنا الهروب.

[٣٢١] (١). «أتلعوا» من «الإتلاع» بمعنى مد العنق من مادة «تلع» على وزن «طرب» بمعنى رفع العنق.

[٣٢٢] (٢). «وقصوا» من «الوقص» على وزن «نقص» بمعنى الكسر.

[٣٢٣] (١). روى المرحوم الكليني في كتاب «الكافي» حديثاً مشهوراً قى شعب الذنوب ودوافعها عن الإمام زين العابدين عليه السلام جاء في آخره: «فَقَالَ الْأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ ذَلِكَ: حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ». (الكافي، ج ٢، ص ١٣١، ح ١١، باب ذنب حب الدنيا).

[٣٢٤] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٤٧.

[٣٢٥] (١). سند الخطبة:

نقل صاحب «مصادر نهج البلاغة» هذا الكلام عن «غرر الحكم» للآمدى باختلاف كبير يدل على أنه رآها في مصدر آخر غير «نهج البلاغة». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٣٦).

[٣٢٦] (١). «الجليل» بمعنى الكبير أو القيم من «الجلال» بمعنى العظمة وهو هنا إشارة إلى الجسم الإنساني القيم.

[٣٢٧] (٢). «غليظ» تعنى فى الأصل الخشن وتعنى هنا الغلظة الأخلاقية التى تزول فى ظل الرياضة النفسية وتتحول إلى لطافة خلقية.

[٣٢٨] (١). سورة الحديد، الآية ٢٨.

[٣٢٩] (٢). «تدافعت» من «التدافع» بمعنى الدفع والطرده وتعنى أحياناً التماس البدنى والمعنى الأول هو المراد هنا من مادة «دفع» على وزن «فخر» بمعنى الدفع.

[٣٣٠] (٣). سورة الأنعام، الآية ١٢٧.

[٣٣١] (١). سورة فاطر، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

[٣٣٢] (٢). سورة الفجر، الآيات ٢٧ - ٣٠.

[٣٣٣] (٣). سورة الانشقاق، الآية ٦.

[٣٣٤] (٤). سورة التحريم، الآية ٨.

[٣٣٥] (١). سورة البقرة، الآية ١٥٦.

[٣٣٦] (٢). الكافي، ج ٢، ص ٥٣، ح ٢.

[٣٣٧] (١). سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

[٣٣٨] (٢). راجع خلاصة هذه الرسالة وسائر المناهج التى اعتمدها بعض كبار عارفى عصرنا فى كتاب الأخلاق فى القرآن، ج ١، ص ١٣٣.

[٣٣٩] (٣). سورة الكهف، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤.

[٣٤٠] (١). سند الخطبة:

أورد هذا الكلام على بن محمد شاعر الليثي في كتاب «عيون الحكم والمواعظ» الذي ألفه سنة ٤٥٣ للهجرة وكان متأخراً عن السيد الرضي؛ ولكن الاختلافات والتعبيرات في عدة عبارات من الخطبة تشير إلى أنها اقتبست من مصدر آخر غير «نهج البلاغة». كما فسّر ابن الأثير مفرداتها الصعبة في كتابه «النهاية» (وإحتمالاً كان لديه مصدر آخر غير «نهج البلاغة»). (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٤٥ بتلخيص طفيف).

[٣٤١] (٢). سورة التكاثر، الآيتان ١ و ٢.

[٣٤٢] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ١٥٢ فصاعداً (بتلخيص).

[٣٤٣] (١). «المرام» بمعنى الهدف والمطلوب ومن مادة «روم» على وزن «قوم» بمعنى الطلب والقصد.

[٣٤٤] (٢). «الزور» بمعنى الزائر ويطلق على المفرد والجمع.

[٣٤٥] (٣). «الخطر» تعني أحياناً الأمر الخطير وأخرى الأمر المهم والمعنى الثاني هو المراد؛ أي أن هؤلاء كانوا يرون كثرة قبور موتاهم مهمة والحال هذا فخر بغيض وموهوم.

[٣٤٦] (٤). «أفضع» من مادة «فضاعة» بمعنى القبيح والبغيض.

[٣٤٧] (٥). «استخلوا» من مادة «خلو» على وزن «غلو» بمعنى الخلو والمضي.

[٣٤٨] (٦). «تناوشوا» من مادة «تناوش» ومن «نوش» على وزن «خوف» بمعنى تناول الشيء بسهولة أو بقوة والتناوش من مكان بعيد الأخذ عن بعد.

[٣٤٩] (٧). «خوت» من مادة «خوى» على وزن «هوا» تعني في الاصل خلت وتعني أحياناً تهدمت وهذا هو المراد بها في العبارة المذكورة.

[٣٥٠] (١). «جناب» من مادة «جَنَب» الضلع واستعملت بمعنى الجانب والناحية والطرف وجناب ذلّة في العبارة بهذا المعنى.

[٣٥١] (٢). «أحجى» من «حجا» على وزن «رضا» العقل، وأحجى أعقل.

[٣٥٢] (٣). سورة الدخان، الآيات ٢٥-٢٨.

[٣٥٣] (٤). بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٢٧.

[٣٥٤] (٥). «ربوع» جمع «ربع» على وزن «رفع» البيت والمسكن.

[٣٥٥] (٦). «ضلال» جمع «ضال».

[٣٥٦] (١). «هام» جمع «هامه» أعلى الرأس.

[٣٥٧] (٢). «تستبتون» من مادة «نبت» على وزن «ضبط» الإنبات وتعني الزراعة.

[٣٥٨] (٣). «ترتعون» من مادة «رتع»، على وزن «قطع» تعني في الاصل الرعي وكثرة اكل الحيوانات؛ ولكن تستعمل أحياناً بشأن الإنسان بمعنى اللعب والمرح وكثرة الاكل والمعنى الثاني هو المراد في العبارة.

[٣٥٩] (٤). «لَفْظُوا» من مادة «لفظ» لفظوا وطرخوا وغالباً ما تعني الطرح من الفم وبما أن الكلام يطرح من الفم فلذلك يطلق عليه اللفظ والمعنى الأول هو المراد في العبارة.

[٣٦٠] (٥). «بواك» جمع «باكية» تعني في الأصل بكاء النساء والعزاء.

[٣٦١] (٦). «نوائح» جمع «نائحة» المرأة التي تنوح والاختلاف بينهما أن النواح بكاء وصوت وألفاظ وذكر مطالب بينما البكاء مفهوم عام.

[٣٦٢] (١). سورة التوبة، الآية ١٨.

- [٣٦٣] (١). «الغاية» النهاية وتعنى هنا الموت.
- [٣٦٤] (٢). «فراط» من مادة «فرط» على وزن «شرط» السرعة والعجلة و«فراط» جمع «فارط» تطلق غالباً على متقدم القوم إلى الماء ثم اطلق على كل من يتقدم فى أمر.
- [٣٦٥] (٣). «مناهل» جمع «منهل» من مادة «نهل» على وزن «أهل» موضع الشربة الأولى و«منهل» يقال لموضع ما لشرب الشاربه من النهر.
- [٣٦٦] (٤). «مقاوم» جمع «مقام» وقيل جمع «مقامه» وكلاهما بمعنى مجلس.
- [٣٦٧] (٥). «حلبات» جمع «حلبه» على وزن «دفعه» الدفعه من الخيل فى الرهان.
- [٣٦٨] (٦). «سوق» جمع «سوقه» على وزن «كوفه» الرعيه والناس من «سوق» على وزن «فوق»؛ لأنّ الرعاه يسوقونهم إلى الأهداف المطلوبه.
- [٣٦٩] (١). سورة المؤمنون، الآية ١٠٠.
- [٣٧٠] (٢). بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢١٧.
- [٣٧١] (٣). المصدر السابق، ص ٢١٤؛ صحيح الترمذى، ج ٤، كتاب صفة القيامة، باب ٢٦، ح ٢٤٦٠.
- [٣٧٢] (٤). «فجوات» جمع «فجوة» الموضع الواسع ويعنى الفرجه وورد هنا بمعنى شق القبر.
- [٣٧٣] (٥). «ضمار» الغائب أو المال الذى لا يؤمل رجوعه ومن مادة «ضمر» على وزن «أمر» بمعنى الإخفاء.
- [٣٧٤] (٦). «يحفلون» من مادة «حفل» تجمع الأفراد وورد بمعنى اللامبالاه بالشىء و«لا يحفلون» هنا تعنى لا يباليون.
- [٣٧٥] (٧). «رواجف» جمع «راجفه» الزلازل ومن مادة «رجف» على وزن «ربط» بمعنى الاضطراب والزلازل الشديد.
- [٣٧٦] (٨). «قواصف» جمع «قاصف» بمعنى الرياح والعاصفه العاتيه ومن مادة «قصف» على وزن «وصف» الكسر.
- [٣٧٧] (٩). «آلاف» جمع «أليف» بمعنى من يتعلق بالشىء ومن مادة «إلفه».
- [٣٧٨] (١). «ارتجال» بيان مطلب بدون مطالعة مسبقه ومن مادة «رجل» على وزن «أجر» المشى على القدمين واطلقت بهذا المعنى على المبدع الذى يرتجل الكلام وكأنه يمشى على رجليه.
- [٣٧٩] (٢). «صرعى» جمع «صريع» الشخص أو الجنازه الملقاه على الأرض ومن جمع «صرع» على وزن «فرع» الالتقاء على الأرض.
- [٣٨٠] (٣). «سبات» من مادة «سبت» القطع والقص ثم وردت بمعنى الاستراحة بعد العمل ومن هنا يقال للنوم سبات.
- [٣٨١] (٤). «عرى» جمع «عروه» القبضه.
- [٣٨٢] (٥). «أفطع» من مادة «فطع» على وزن «جزع» بمعنى أخوف وأرهب.
- [٣٨٣] (٦). «مباءه» بمعنى المنزل تعنى فى الأصل الموضع الذى تعود إليه الجمال ومن مادة «بواء» على وزن «دواء» الرجوع والاطراق.
- [٣٨٤] (١). «عتيوا» من مادة «عتى» على وزن «حى» العجز.
- [٣٨٥] (١). «كلحت» من «الكلوح» على وزن «طلوع» الوجه العابس والمقطب.
- [٣٨٦] (٢). «نواضر» من «نضرة» على وزن «دفعه» الحسنه الباسمه المتفتحه.
- [٣٨٧] (٣). «خوت» من «خواء» بمعنى تهدمت وتلاشت.
- [٣٨٨] (٤). «اهدام» جمع «هدم» على وزن «حرص» الثوب البالى والمرقع.
- [٣٨٩] (٥). «تكاؤدنا» من «التكاؤد» المشقه ومادته «كأد» على وزن «رعد».
- [٣٩٠] (٦). «تهكمت» من «التهكم» السقوط فى بئر وما شابه ذلك أو التهديم.
- [٣٩١] (٧). «الصموت» السكوت وفى العبارة مصدر له معنى وصفى.

- [٣٩٢] (١). سنن الترمذى، ج ٣، ص ٣٧٩؛ ميزان الحكمة، مادة «قبر»، ح ١٦٢٥١.
- [٣٩٣] (٢). «ارتسخت» من «الارتساخ» المبالغة فى الرسخ ومن «الرسوخ» النفوذ.
- [٣٩٤] (٣). «هوام» جمع «هامئة» الحشرات السامة؛ كالحية وتطلق على كل نوع حشرة.
- [٣٩٥] (٤). «استكت» من مادة «سك» على وزن «حك» بمعنى صمت.
- [٣٩٦] (٥). «الذلاقة» الحدة؛ ثم استعملت بمعنى اللسان وسرعة النطق ويقال: خطيب ذلق للمتكلم الفصيح والبلوغ.
- [٣٩٧] (٦). «همدت» من «الهمود» على وزن «سجود» تعنى فى الأصل انطفاء النار. ثم استعملت بمعنى السكوت والسكون والتوقف عن العمل.
- [٣٩٨] (٧). «عاث» من مادة «عيث» على وزن «حيف» أفسد كما ورد بمعنى التبذير والمعنى الأول هو المراد فى العبارة.
- [٣٩٩] (٨). «جديد بلى» هنالك نوع من صناعة البديع فى العبارة من خلال كلمة جديد والتي تقابل البالى بصيغته مضاف ومضاف إليه ومعناه الفساد الجديد.
- [٤٠٠] (٩). «سَمَج» من «السماجة» القبيح والمنفر و«سمح» على وزن «خشن» تطلق على من ينشد شيئاً بطريقة قبيحة.
- [٤٠١] (١٠). «أشجان» جمع «شجن» على وزن «كفن» الهموم.
- [٤٠٢] (١١). «اقتاء» جمع «قذى» على وزن «سجى» ما يسقط قى العيون ويؤذيها من أجسام صغيرة والتي تظهر كل ساعة على جسد الميت.
- [٤٠٣] (١٢). «غمرة» تعنى فى الأصل الماء الجارف الذى يغطى الأشياء ثم اطلق على كل أمر شديد.
- [٤٠٤] (١). «العزيز» تعنى فى الأصل القوى والقادر ويلزمه نفي الذل عن الإنسان؛ ولكن لم يتضح لم فسرها بعض الشراح بالجمال.
- [٤٠٥] (٢). «أنيق» جميل والماء الحسن والطيب الطعم.
- [٤٠٦] (٣). «غذى» من «الغذاء» بمعنى الطعام و«غذى ترف» والمراد أنه تغذى بالنعمة على أساس «ترف» التي تعنى النعمة.
- [٤٠٧] (٤). «ريب» من مادة «رَبَّ» التريئة والتدبير، وعليه «ريب شرف» من تربي فى أحضان العزة والاحترام.
- [٤٠٨] (٥). «يتعلل» من «تعلل» يتناسى ويتشاغل.
- [٤٠٩] (٦). «سلوة» المعيشة الطيبة.
- [٤١٠] (٧). «ضنّ» البخل الشديد.
- [٤١١] (٨). «غضارة عيش» الحياة المفعمة بالنعمة.
- [٤١٢] (٩). «الشحاحة» البخل وقيل: أعلى درجة البخل. فالبخيل من يبخل عما فى يده، أمّا الشحيح فيبخل بما فى يده وما فى أيدي الناس.
- [٤١٣] (١٠). «غفول» من مادة «غفلت» الذى يغفل أو يوجب الغفلة.
- [٤١٤] (١). «حسكة» من مادة «حسك» على وزن «فدك» نبات ذو أشواك يؤذى الإنسان بشدة وورد بمعنى البغض والكره والمعنى الأول هو المراد هنا.
- [٤١٥] (٢). «حتوف» جمع «حتف» الموت.
- [٤١٦] (٣). «كتب» من مادة «كتب» على وزن «كسب» بمعنى الاقتراب.
- [٤١٧] (٤). «بثّ» الحزن الشديد. ووردت بمعنى السعة والتناثر والانتشار والمراد هنا المعنى الأول.
- [٤١٨] (٥). «النجى» الخفى والمستور ومن «نجوى الهمس فى الاذن.
- [٤١٩] (٦). «قار» بارد من مادة «قر» على وزن «حر» البرودة.

- [٤٢٠] (٧). «تور» من مادة «ثوران» الهيجان.
- [٤٢١] (٨). «ممازج» الأشياء التي تمزج مع بعضها.
- [٤٢٢] (١). «معلل» المعالج واخذت في الأصل من «عله» بمعنى المرض.
- [٤٢٣] (٢). «ممرّض» من مادة «مرض» المعالج.
- [٤٢٤] (٣). «تعايا» من مادة «عَيَّ» العجز.
- [٤٢٥] (٤). «شجبي» الغم من مادة «شجو» على وزن «هجو» الهم والغم.
- [٤٢٦] (١). «اسى» الغم والحزن ووردت في بعض النسخ «اسى» (بضم الهمزة) جمع «أسو» بمعنى الأسوة والمعنيان مناسبان في الخطبة.
- [٤٢٧] (٢). «فتصام» من مادة «صم» طرش الاذن و«تصام» تظاهر بالصمم.
- [٤٢٨] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ١٦٧.
- [٤٢٩] (٤). «غمرات» جمع «غمرة» مضى معناها في الفقرة السابقة.
- [٤٣٠] (١). الكافي، ج ٣، ص ٢٦٠، ح ٣٨ (بتلخيص).
- [٤٣١] (١). بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٣٧، ح ٤٠.
- [٤٣٢] (٢). نهج البلاغة، الخطبة ٥.
- [٤٣٣] (٣). بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٧٢، ح ٥٠.
- [٤٣٤] (١). «آصال» جمع «أصل» على وزن «رسل» وجمع أصيل من مادة أصل بمعنى العصر أو آخر النهار لأنه يعتبر أصل الليل.
- [٤٣٥] (٢). سورة النور، الآيتان ٣٦ و ٣٧.
- [٤٣٦] (٣). سند الخطبة:
- ذكر الآمدى في حرف الألف من «غررالحكم» المقطع الأول من هذه الخطبة باختلاف مع ما ورد في «نهج البلاغة»، ولم يرد مصدر آخر لهذا الجانب من الخطبة، ويدل الاختلاف على أنه أخذها من مصدر آخر غير «نهج البلاغة». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٥١).
- [٤٣٧] (١). سورة النور، الآيتان ٣٦ و ٣٧.
- [٤٣٨] (١). «ذكر» المراد به هنا ذكر الله وهو على ثلاثة أنواع: القلبى، اللسانى والعملى فيتذكر الله حين تتوفر مقدمات المعصية فيتركها. وقيل: الذكر يشمل ذكر الله وكذلك القيامة والنبوة والولاية.
- [٤٣٩] (٢). «جلاء» إزالة الصدأ والايضاح والإنارة. ويقال للكحل جلاء كونه ينور العين.
- [٤٤٠] (٣). «وقرة» من مادة «وقر» تعنى في الأصل الثقل، ومن هنا يقال لتعظيم الأفراد توقير، وقد استعمل الوقر في القرآن الكريم بمعنى ثقل السمع وهذا هو المعنى المراد هنا.
- [٤٤١] (٤). «عشوة» ضعف العين.
- [٤٤٢] (٥). سورة الأنبياء، الآية ٥٠.
- [٤٤٣] (٦). «ما برح» دائماً وأبداً.
- [٤٤٤] (٧). «برهة» الزمان الطويل أو مدّة من الزمان.
- [٤٤٥] (١). «فلوات» جمع «فلاة» الصحراء القاحلة أو الواسعة.
- [٤٤٦] (١). بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٣٢٧.
- [٤٤٧] (٢). المصدر السابق، ج ٦٧، ص ٢٠.

- [٤٤٨] (١). سورة الأنفال، الآية ٢٩.
- [٤٤٩] (٢). سورة العنكبوت، الآية ٦٩.
- [٤٥٠] (٣). سورة القصص، الآية ٧.
- [٤٥١] (٤). ورد في الحديث: لما دخل الكميت شاعر أهل البيت المعروف على الإمام الباقر عليه السلام وأنشد شعره المعروف: «مَنْ لَقِبَ مُتَيْمٍ مُسْتَهَامٍ» فلما فرغ قال له الإمام: «لَا تَرَالُ مُؤَيِّدًا بِرُوحِ الْقُدْسِ مَا دُمْتَ تَقُولُ فِينَا» (وسائل الشيعة، ج ١٠، باب ١٠٥، أبواب المزار، ح ٤). اقتبس الإمام هذا الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قاله لحسان بن ثابت لما أنشده «يُنَادِيهِمْ يَوْمَ الْغَدِيرِ نَبِيُّهُمْ». (بحار الأنوار، ج ٣٧، ص ١٥٠).
- [٤٥٢] (١). الكافي، ج ٢، ص ١٣١، ح ١١؛ الخصال، ص ٢٥، ح ٨٧.
- [٤٥٣] (١). «يهتفون» من مادة «هتف» على وزن «هتك» الصراخ بشخص.
- [٤٥٤] (١). «عدات» جمع «عدة» بمعنى الوعود وقوله عليه السلام: (وحققت القيامة عليهم عداتها) في الواقع نوع من المجاز، لأنّ الوعود الإلهية وعود الثواب والعقاب عالم تحققه هو عالم القيامة، وعليه فلا ينبغي تصور الحاجة إلى الحذف والتقدير.
- [٤٥٥] (١). «مثلتهم» من «التمثيل» على وزن «خليل» بمعنى التجسيد.
- [٤٥٦] (١). «مقاوم» جمع «مقام» المكانة المعنوية أو البدنية.
- [٤٥٧] (٢). «دواوين» جمع «ديوان» الدفتر وتعني هنا صحيفة العمل.
- [٤٥٨] (٣). «أوزار» جمع «وزر» على وزن «حرز» الحمل الثقيل وتعني هنا حمل المسؤوليات الثقال.
- [٤٥٩] (٤). «النشيج» الاحتناق بالبكاء وترجيع الصوت في الحنجرة إثر البكاء.
- [٤٦٠] (٥). «تجاوبوا» من «التجاوب» أجاب بعضهم بعضاً وتشير هنا إلى جماعة يجلسون في مكان ويكون معاً.
- [٤٦١] (٦). «النجيب» شدة البكاء.
- [٤٦٢] (٧). «يعجون» من مادة «عج» على وزن «حج» الصياح.
- [٤٦٣] (٨). «دُجى» جمع «دُجِيَّة» على وزن «لقمة» الظلمة وتستعمل هذه المفردة أحياناً بمعنى المفرد.
- [٤٦٤] (١). سورة فصلت، الآية ٣٠.
- [٤٦٥] (٢). سورة الفتح، الآية ٤.
- [٤٦٦] (٣). سورة القمر، الآيتان ٥٤ و ٥٥.
- [٤٦٧] (٤). «يتنسمون» من «النسيم» فالعبرة «يتنسمون» تعني أنهم ينتظرون النسيم و«التنسم» بمعنى التنفس.
- [٤٦٨] (٥). «الأسى» الحزن.
- [٤٦٩] (٦). «المنادح» جمع «مندوحة» الأرض الواسعة ثم اطلقت على كل نظام واسع فيه حرية.
- [٤٧٠] (١). وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٩٩، ح ٢١٠٨٢.
- [٤٧١] (٢). سورة المائدة، الآية ١٠٥.
- [٤٧٢] (١). سورة طه، الآية ١٤.
- [٤٧٣] (٢). سورة العنكبوت، الآية ٤٥.
- [٤٧٤] (٣). سورة المائدة، الآية ٩١.
- [٤٧٥] (٤). سورة يوسف، الآية ١٠٤.
- [٤٧٦] (٥). سورة الزخرف، الآية ٣٦.

- [٤٧٧] (٦). سورة الأنبياء، الآية ٧.
- [٤٧٨] (٧). سورة الرعد، الآية ٢٨.
- [٤٧٩] (١). الكافي، ج ٢، ص ٤٩٨، ح ١.
- [٤٨٠] (٢). المصدر السابق، ص ٥٠٠، ح ٥.
- [٤٨١] (٣). المصدر السابق، ح ٢.
- [٤٨٢] (٤). وسائل الشيعة، ج ٦، ص ١٥، كتاب الزكاة، باب تحريم منع الزكاة، ح ٢٠.
- [٤٨٣] (٥). الكافي، ج ٢، ص ٤٩٩، ح ٥.
- [٤٨٤] (١). سورة الانفطار، الآية ٦.
- [٤٨٥] (٢). سند الخطبة:
- ذكر في «مصادر نهج البلاغة» مصدرين يستفاد من القرائن أنهم استقوا هذه الخطبة من مصدر غير «نهج البلاغة»: الأول «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد الذي ذكر بعضها باختلاف مع ما ورد في «نهج البلاغة»، والآخر «غررالحكم» الذي أورد جانباً منها باختلاف مع ما ورد في «نهج البلاغة». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٥٥).
- [٤٨٦] (١). «أدحض» من «الإدحاض» ابطل وغلب ومن مادة «دحض» الغلبة.
- [٤٨٧] (٢). «أبرح» من مادة «برح» على وزن «حرف» الشدة كما وردت بمعنى الزوال والمعنى الأول هو المراد في العبارة.
- [٤٨٨] (١). تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ٦ من سورة الانفطار.
- [٤٨٩] (٢). «البلول» التحسن من المرض كما وردت بمعنى الغنى والنشاط.
- [٤٩٠] (٣). «الضاحي» الشخص المعرض لضوء الشمس، من مادة «ضحو» على وزن «محو» التعرض لأشعة الشمس ويقال «ضحى» حين تتسع أشعة الشمس على الأرض.
- [٤٩١] (٤). «يمض» من مادة «مض» على وزن «حض» يؤلم.
- [٤٩٢] (٥). «الجلد» من مادة «جلد» على وزن «بلد» القوة أو التحمل.
- [٤٩٣] (١). «بيات» إن وردت هذه المفردة مصدرًا عنت البقاء والمبيت ليلاً في مكان وإن كان لها معنى الاسم عنت الليل وهذا هو المعنى المراد في العبارة.
- [٤٩٤] (٢). «التورط» من مادة «ورط» على وزن «شرط» الإلقاء في المستنقع و«قد تورطت بمعاصيه» يعني القيت بنفسى في غضب الله بسبب المعاصى.
- [٤٩٥] (٣). «سطات» جمع «سطوه» القهر والغلبة والسلطة على الشىء.
- [٤٩٦] (٤). «الكرى» النوم والنعاس.
- [٤٩٧] (٥). سورة الأعراف، الآيتان ٩٧ و ٩٨.
- [٤٩٨] (١). «تمثل» كما اشير إليه في الخطبة السابقة من «المثول» على وزن «حلول» بمعنى التجسيد.
- [٤٩٩] (٢). «يتغمّد» فى الأصل من «الغمد» على وزن «هند» بمعنى غطاء السيف و«تغمّد» الوضع فى الغطاء. ثم استعملت بمعنى الشمول وارىد بها فى العبارة أن فضل الله عمّم.
- [٥٠٠] (١). «كنف» من مادة «كنف» على وزن «حرف» بمعنى محفوظ.
- [٥٠١] (٢). «مطرف عين» من مادة «طرف» على وزن «حرف» إغماض العين وفتحها و«مطرف» مصدر ميمي بالمعنى المذكور.
- [٥٠٢] (١). «أيم» فى الأصل «أيمن» حسب بعض أرباب اللغة جمع «يمين» بمعنى القسم سقطت نونه ومعنى العبارة أقسم بالله.

- [٥٠٣] (١) «عظات» جمع «عظة» بمعنى الموعظة والنصيحة وهي هنا كناية عن حوادث الدنيا المريرة التي تؤدي إلى اليقظة.
- [٥٠٤] (٢) «آذنت» من «الإيدان» بمعنى الإعلان المقرون بالتهديد وأحياناً تعني إعلان الحرب ثم وردت بمعنى الإعلان المطلق وإطلاق الأذان كونه يعلن الدخول في الصلاة.
- [٥٠٥] (١) «خاوية» اسم فاعل من مادة «خوى» بمعنى خالي ويعني أحياناً المتهدم.
- [٥٠٦] (٢) «ربوع» جمع «ربع» على وزن «رفع» البيت والسكن كما وردت بمعنى المنطقة أو الجماعة من الناس والمعنى الأول هو المراد هنا.
- [٥٠٧] (٣) «شحيح» من مادة «شح» على وزن «مخ» البخل مع الحرص الذي يصبح عادةً لذلك يطلق «شحيح» أحياناً على الفرد الحريص على صديقه وهذا هو المعنى المراد في العبارة.
- [٥٠٨] (١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٣١.
- [٥٠٩] (٢) المصدر السابق، الخطبة ٢٢٦.
- [٥١٠] (٣) المصدر السابق، الكلمات القصار، الكلمة ١١٩.
- [٥١١] (٤) المصدر السابق، الكلمة ٤١٥.
- [٥١٢] (٥) المصدر السابق، الكلمة ٧٧.
- [٥١٣] (١) سورة الزخرف، الآيات ٣٣-٣٥.
- [٥١٤] (٢) سورة فاطر، الآية ٥.
- [٥١٥] (٣) نهج البلاغة، الخطبة ٨٢.
- [٥١٦] (١) «راجفة» من مادة «رجف» على وزن «وقف» بمعنى الاضطراب والهزة الشديدة ولما كانت الأخبار التي تثير الفتنة مدعاة لاضطراب المجتمع لذلك يقال لها أراجيف. وتشير هذه المفردة في القرآن وهذه الخطبة إلى زلزلة الساعة.
- [٥١٧] (٢) «جلائل» جمع «جليله» كل صفة عظيمة وشديدة.
- [٥١٨] (٣) «منسك» بمعنى العبادة وتعني الدين والمعبد وهذا هو المراد بها في العبارة.
- [٥١٩] (٤) «لم يُجَزَّ» طبق ماورد في المتن من مادة «جزاء» بمعنى الثواب؛ ولكن وردت في بعض النسخ «لم يَجْر» من مادة «جريان»؛ يعني لا يجرى أدنى خلاف في عدالته وفي بعض النسخ الأخرى «لم يَجُزْ» من مادة «جور» إشارة إلى عدم جور الله في جزاء الأعمال وفي نسخ «لم يَجُزْ» من مادة «جواز»؛ يعني لا يجوز أدنى خلاف في مقام عدالة الله.
- [٥٢٠] (١) «هَمَس» بمعنى الصوت الخفي.
- [٥٢١] (٢) وسائل الشيعة، ج ١٠، ص ٣٩٣، ح ٥ من باب ٦٦ من أبواب المزار وورد هذا المضمون باختلاف طفيف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في كتاب «روضه الواعظين».
- [٥٢٢] (٣) سورة الصافات، الآيات ٢٢ و ٢٣.
- [٥٢٣] (٤) سورة الفرقان، الآيات ١٧-١٩.
- [٥٢٤] (١) «داحضة» من «الدَّحْض» على وزن «محض» بمعنى خاطئه ويقال «حجة داحضة» للدليل الضعيف الذي لا أساس له.
- [٥٢٥] (٢) «علائق» جمع «علاقة» (بفتح العين) الروابط والتعلق ومعنى العبارة المذكورة أن الروابط مقطوعة يوم القيامة، وكذلك جمع «علاقة» (بكسر العين) الحبل والشماعة وأمثال ذلك فيكون معنى العبارة أن حبال الأعداء مقطوعة يوم القيامة.
- [٥٢٦] (٣) سورة المرسلات، الآية ٣٦.
- [٥٢٧] (٤) «تحرَّ» من «التحري» البحث عن الأمر الأفضل.

- [٥٢٨] (٥). سورة البقرة، الآية ١٩٧.
- [٥٢٩] (٦). «شم» من مادة «شيم» على وزن «ذيم» التطلع إلى الشيء.
- [٥٣٠] (١). «مطايا» جمع «مطية» الدابّة.
- [٥٣١] (٢). «تشمير» من مادة «شمر» على وزن «تمر» تعنى فى الأصل رفع الكم والاستعداد لعمل ثم اطلق على مطلق الاستعداد والسعى.
- [٥٣٢] (٣). وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢٧٩، ح ٥ من الباب ١٤، أبواب الصدقات.
- [٥٣٣] (١). سند الخطبة:
- رواها المرحوم الشيخ الصدوق فى كتاب «الأمالى»، كما رواها بعد السيد الرضى، سبط ابن الجوزى فى كتاب «التذكرة» عن ابن عباس عن أمير المؤمنين على عليه السلام، والمخشبرى فى «ربيع الأبرار»، وابن شهر آشوب فى «المناقب»، ويستفاد من كلام الصدوق فى «الأمالى» أنّ ما أورده المرحوم السيد الرضى فى هذه الخطبة بعض ما ورد فى خطبة طويلة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٥٩).
- [٥٣٤] (١). تمام نهج البلاغة، ص ٦٧٩، الطبعة الثانية.
- [٥٣٥] (٢). «حسك»؛ يعنى الشوك. كما يطلق على شوك الصحراء أو داخل بدن السمكة.
- [٥٣٦] (٣). «سعدان» نبات رعاة الإبل له شوك تشبه به حلمة الثدي.
- [٥٣٧] (٤). «مسهد» من «السهاد» على وزن «رقاد» بمعنى السهر و«مسهد» من لا ينام الليل.
- [٥٣٨] (١). «مصفد» من مادة «صفد» على وزن «صيد» المقيد و«صفاد» على وزن «عناد» يقال للجلب والقيد.
- [٥٣٩] (٢). «حطام» من مادة «حطم» على وزن «حتم» بمعنى الكسر ويقال لمتاع الدنيا «حطام».
- [٥٤٠] (٣). «قفول» مصدر بمعنى الرجوع والعودة ومفهوم العبارة كما ورد سابقاً طبق هذا المعنى، ولكن احتمال البعض أنّ «قفول» جمع «قفل» ومعنى العبارة كيف أظلم شخصاً تتأكل بسرعة أفعال ووشائج بدنه.
- [٥٤١] (٤). «الثرى» التراب.
- [٥٤٢] (١). «أملق» من «الإملاق» بمعنى الفقر ومادته الأصلية «مَلَق» على وزن «شفق» النعومة ويقال الفرد المتملق كونه يتخذ حالة الذلة والنعومة واستعملت بحق الفقير لهذه الحالة.
- [٥٤٣] (٢). «استماحنى» من «الاستماحة» الاستعطاء.
- [٥٤٤] (٣). «الْبَر» القمح.
- [٥٤٥] (٤). «صاع» أحد الأوزان وهو أربعة امداد وكل مد أقل من نصف كيلو، سبعمائة وخمسون غراماً تقريباً.
- [٥٤٦] (١). «شعث» جمع «أشعث» المجعد الشعر.
- [٥٤٧] (٢). «عُثْر» جمع «أعبر» من علاه الغبار.
- [٥٤٨] (٣). «عظلم» نبت يصبغ به ما يراد إسوداده.
- [٥٤٩] (٤). «أصغيت» من «الإصغاء» السمع.
- [٥٥٠] (١). «دنف» السقم الشديد.
- [٥٥١] (٢). «ميسم» اسم آلة من مادة «وسم» الحرارة الشديدة؛ ولكن يبدو أنّها وردت هنا بصيغة المصدر بمعنى الحرارة.
- [٥٥٢] (٣). «ثواكل» جمع «ثاكلة» الام فى عزاء ابنها وتستعمل أحياناً المرأة المعزاة.
- [٥٥٣] (٤). «إنسانها» هنا بمعنى: صاحبها.
- [٥٥٤] (٥). «سجرها» من «السجور» تعنى فى الاصل اشعال نار التنور ثم اطلقت على كلّ اشعال.

- [٥٥٥] (٦). «تثن» من مادة «انن» الأئين والتألم.
- [٥٥٦] (٧). «لظى» شعله النار الخالصة والتي تكون شديدة الحرارة.
- [٥٥٧] (١). شرح نهج البلاغة للمرحوم مغنية، ج ٣، ص ٣١٦.
- [٥٥٨] (٢). سورة غافر، الآية ٧١.
- [٥٥٩] (٣). شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٢٥٣.
- [٥٦٠] (٤). بحار الأنوار، ج ٤١، ص ١١٣ و ١١٤ (روى المرحوم العلامة المجلسي هذا الحديث عن ابن شهر آشوب).
- [٥٦١] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٢٥٠؛ شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري، ج ٦، ص ٥٢٣.
- [٥٦٢] (١). «طارق» من «الطروق» و«طرق» بمعنى الدق ويقال الطارق لمن يذهب ليلاً إلى آخر حيث الباب مغلق عادة ولا بد أن يدقّه ليدخل.
- [٥٦٣] (٢). «سنتت» من «الشنتان» على وزن «غثيان» البغض والكرهية و«سنتت» كرهت.
- [٥٦٤] (١). أشار الشيخ محمد عبده إلى هذا المعنى في شرحه لنهج البلاغة (ج ٢، ص ٢١٨) وقال: كانت الملفوفة نوعاً من الحلواء أهدها إليه الأشعث بن قيس.
- [٥٦٥] (١). «هبول» صفة مشبهة، المرأة لا يبقى لها ولد فهي كثيرة البكاء.
- [٥٦٦] (١). الأقاليم السبعة، «أقاليم» جمع «إقليم» جزء من العالم أو البلد وقد قسم قدماء الجغرافيين العالم إلى سبعة أقاليم ولم تكن حدود تلك الأقاليم محددة لعدم وجود الخرائط الجغرافية الدقيقة عن العالم. على كل حال الأقاليم هي: الإقليم الأول، الهند. الثاني، بعض البلدان العربية والحبشة، الثالث، مصر والشام، الرابع، إيران. الخامس، الروم. السادس، الترك، السابع، الصين. (قاموس دهخدا، مادة إقليم). لعل هنالك تقسيماً آخر للجغرافيين وعلى كل حال مراد الإمام عليه السلام لو أعطيت كل مناطق الكرة الأرضية.
- [٥٦٧] (٢). «جلب» الغطاء الذي يحيط بحبة القمح أو الشعير كما يطلق «جلب» على ما يغطي به الجرح بعد أن يبرأ.
- [٥٦٨] (٣). «تقضمها» من مادة «قضم» على وزن «هضم» بمعنى العض والمضغ.
- [٥٦٩] (١). «سبات» من مادة «سبت» على وزن «وقت» التعطيل لأجل الاستراحة؛ ويطلق «سبات» على التوقف عن العمل وهذا هو المراد بها في العبارة وتسمية السبت لدى العرب كون هذه التسمية في الأصل جاءت من اليهود لأنهم يعطلون أعمالهم في يوم السبت.
- [٥٧٠] (١). شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئي، ج ١٤، ص ٢٩٧، الطبعة القديمة.
- [٥٧١] (٢). كتاب بلاغات النساء، ص ١٠٦ طبق نقل شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري، ج ٦، ص ٥٤١.
- [٥٧٢] (١). سند الخطبة (الدعاء):
- روى هذا الدعاء باضافات الراوندي في كتاب «الدعوات» وجاء بعد قوله: «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَرِعُهَا مِنْ كَرَامِي وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَزَجُّعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نَعْمِكَ» وتشير هذه الإضافة إلى أن الراوندي اقتبس الدعاء من مصدر آخر غير «نهج البلاغة». كما ذكره باختلاف صاحب كتاب «الطراز» (السيد اليماني) وهذا يدل على أنه أخذه من مصدر آخر. وضمنه الإمام السجاد عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق باختلاف طفيف يدل على أنه كان معروفاً عند أهل البيت (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٦٠).
- [٥٧٣] (١). «صن» من «الصيانة».
- [٥٧٤] (٢). «وجه» تعنى هنا الكرامة وإن كان معناها الأصلي هو الوجه.
- [٥٧٥] (٣). «اليسار» من «اليسر» السهولة والغنى وهو المعنى المراد في العبارة.
- [٥٧٦] (٤). «جاه» القدر والمقام والشرف.
- [٥٧٧] (٥). «اقتار» من «القتور» على وزن «فتور» المشقة في الإنفاق.

[٥٧٨] (١). وردت هذه العبارة في الروايات وتطلق بصيغته مثل معروف بتعابير مختلفة، مثل «صاحب الحاجة لا يؤوم إلاً قضاءها» أو «صاحب الحاجة أرعن لا يُريد إلاً قضاءها» أو «صاحب الحاجة أعمى ولو كان بصيراً». (كشف الخفاء، العجلوني، ج ٢، ص ١٨).

[٥٧٩] (١). الكافي، ج ٢، ص ٢٦٣، ح ١٢ من باب فضل فقراء المسلمين.

[٥٨٠] (٢). سورة فاطر، الآية ١٥.

[٥٨١] (٣). الخصال، ج ٢، ص ٤٢٠، ح ١٤.

[٥٨٢] (١). بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٦.

[٥٨٣] (٢). سورة المنافقون، الآية ٨.

[٥٨٤] (٣). بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٤٧، ح ٥٨، من باب فضل الفقر والفقراء.

[٥٨٥] (١). وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٧، ح ٧.

[٥٨٦] (٢). بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٣٠.

[٥٨٧] (٣). المصدر السابق.

[٥٨٨] (٤). المصدر السابق، ج ٨٧، ص ١٢.

[٥٨٩] (١). سند الخطبة:

روى هذه الخطبة الممتقى الهندى من فقهاء العامية فى كتاب «كنز العمال» (ج ١٦، ص ٢٠٠، ح ٤٤٢٢٤) وقال: روى الدينورى وابن عساكر عن عبد الله بن صالح العجلي عن أبيه أن على بن أبى طالب عليه السلام خطبنا يوماً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ثم قال: «عباد الله لا تغرركم الحياة الدنيا فإنها دارٌ بالبلاءِ مخفوفةٌ وبالعُدْرِ مَعْرُوفَةٌ...» ورواها بإضافات سبط ابن الجوزى فى «تذكرة الخواص» وقال: تعرف هذه الخطبة (لفصاحتها وبلاغتها) بـ «الخطبة البالغة». ثم قال: إن أبانعيم نقل بعضها فى كتاب الحلية. وأضاف عليها الخطيب الخوارزمى فى كتاب «المناقب». قال صاحب «مصادر نهج البلاغة» بعد الإشارة إلى هذه المطالب: ولا نرى حاجةً لذكر رواة الخطبة من علماء الإمامية بعد هذه الرواية الواسعة من كتب العامة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٦٧).

[٥٩٠] (١). «غدر» له عدّة معانٍ متقاربة المكر والخداع وعدم الوفاء.

[٥٩١] (٢). «نزال» جمع «نازل» الضيف أو من يدخل مكاناً.

[٥٩٢] (١). «تارات» جمع «تارة» على وزن «غارة» بمعنى الزمان وتأتى عادةً بمعنى مرّة.

[٥٩٣] (٢). «متصرفة» من «التصرف» التغير.

[٥٩٤] (٣). «مستهدفة» من مادة «هدف» التى يصب نحوها السهم.

[٥٩٥] (٤). «حمام» من مادة «حم» على وزن «غم» التقدير ومن هنا يراد به الموت الذى قدره الله ويعنى الطير بالكسر.

[٥٩٦] (١). «هامدة» من «الهمود» تعنى فى الأصل انطفاء النار وانخفاض الحرارة ثم اطلقت على انطفاء الصوت وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

[٥٩٧] (٢). «عافية» من مادة «عفو» زوال آثار الشىء كأن تهب الرياح وتزيل ذرات الرمل وتمحوها عن النظر ومنه العفو الذى يعنى إزالة آثار الذنب.

[٥٩٨] (٣). سورة الفجر، الآيات ٦-١٣.

[٥٩٩] (٤). شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئى، ج ١٤، ص ٢٣٠.

[٦٠٠] (٥). سورة الحجر، الآية ٨٢.

[٦٠١] (١). «مشيدة» من مادة «شيد» على وزن «صيد» جعل الشىء مرتفعاً و«شيد» على وزن «بيد» الجص وماشابه ذلك الذى يطلى به

البناء للزينة وعليه « اصول مشيدة » (بتشديد الياء) البناء المرتفع والمحكم و « مشيد » (على وزن شديد) أيضاً البناء المحكم وورد في القرآن المجيد، في سورة الحج، الآية ٤٥: « وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ».

[٦٠٢] (٢). «نمارق» جمع «نمرقة» على وزن «سنبلة» الوسادة الصغيرة التي يستند عليها.

[٦٠٣] (٣). «مسندة» من «السند» على وزن «قعود» الاستناد و «مسندة» في العبارة الشيء الذي يتكئ عليه.

[٦٠٤] (٤). «لاطئة» ملتصقة بالأرض من «اللطوء» على وزن «فروع» لصيقة بالأرض.

[٦٠٥] (٥). «ملحدة» من مادة «لحد» على وزن «مهد» دفن الميت وهو جعل الشق وسط القبر أو جانبه.

[٦٠٦] (٦). «فناء» الفناء المفتوح امام البيت وهكذا كانت بيوت الكبار.

[٦٠٧] (١). «كلكل» بمعنى الصدر.

[٦٠٨] (٢). «جنادل» جمع «جندلة» على وزن «مزرعة» الصخور.

[٦٠٩] (٣). «ثرى» التراب.

[٦١٠] (٤). البيت للإمام الحسين عليه السلام، لما وضع أخاه الحسن عليه السلام في لحدته، انظر: مناقب آل أبي طالب عليه السلام، ج

٣، ص ٢٠٥؛ بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ١٦٠، ح ٢٩.

[٦١١] (١). سورة غافر، الآية ٤٦.

[٦١٢] (٢). سورة آل عمران، الآية ١٧٠.

[٦١٣] (٣). الكافي، ج ٣، ص ٢٤٣، باب في أرواح المؤمنين، ح ١.

[٦١٤] (١). «مضجع» الفراش والمنام وتعني هنا القبر ومن مادة «ضجع» على وزن «ضرب» النوم على الجانب.

[٦١٥] (٢). «تناهت» من «التناهي» الوصول إلى الغاية.

[٦١٦] (٣). «بعثت» من «البعثرة» على وزن «مرتبة» تعني في الأصل القلب رأساً على عقب والاستخراج ولما كانت القبور تقلب يوم

القيامة عند إحياء الأموات ويظهر ما بداخلها فقد استعمل في القيامة.

[٦١٧] (٤). «تبلو» من مادة «بلاء» الامتحان وكون الامتحان سبب العلم فاستعملت بهذا المعنى.

[٦١٨] (١). سند الخطبة (الدعاء):

الكتاب الوحيد الذي ورد فيه هذا الدعاء ويشير إلى اقتباسها من مصدر آخر غير «نهج البلاغة» باضافات يتضح منها أنه استقها من

مصدر آخر جمعها في (الصحيفة العلوية الاولى) للعالم الفاضل السماهجي، كما وردت في مصباح الشيخ الطوسي أن الإمام السجاد

عليه السلام كان يدعو به بعد الركعة الثالثة عشرة والرابعة عشرة يوم الجمعة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٧٠) السماهجي هو الشيخ

عبدالله بن صالح بن علي أحمد البحراني من سماهج قرية في إحدى جزائر نواحي البحرين من علماء القرن الثاني عشر الهجري، كان

أمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر وله مؤلفات منها الصحيفة العلوية الاولى، توفي سنة ١١٣٥ (مصادر نهج البلاغة، ج ١، ص ٨١).

[٦١٩] (١). «آنس» صيغة افعال التفضيل من مادة «انس» تعني هنا أشد الانس وحقيقة الانس، الهدوء عند الشيء وقال البعض يقال

الإنسان: لأنسه بالروح الاجتماعية.

[٦٢٠] (٢). «ملهوفة» المشتاق أو المضطر ومن مادة «لهف» على وزن «كهف» والمعنى الأول أنسب.

[٦٢١] (١). سورة ق، الآية ١٦.

[٦٢٢] (١). «فَهَيْتُ» من «الفهاهة» على وزن «كرامة» العجز والنسيان.

[٦٢٣] (١). بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٥٣، ح ١٧.

[٦٢٤] (٢). المصدر السابق، ج ٧، ص ١١.

[٦٢٥] (١). جمعت وطبعت هذه المجموعة من قبل بعض المحققين في مؤسسة أبحاث الروضة الرضوية في خمسة أجزاء.

[٦٢٦] (١). سند الخطبة:

لم ينقل جانب من هذه الخطبة قبل السيد الرضى عن على عليه السلام سوى الطبرى ضمن قصة عن المغيرة بن شعبه. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٧١).

[٦٢٧] (٢). تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٢٨٥، حوادث السنة ٣٣ من الهجرة.

[٦٢٨] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٢، ص ٣.

[٦٢٩] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ٩٨.

[٦٣٠] (١). «قَوْم» من «القيام» الصواب.

[٦٣١] (٢). «أود» العوج من «الأود» على وزن «قول» الإحناء والإعوجاج.

[٦٣٢] (٣). «عمد» المرض وفي الأصل من مادة الجرح الذى يحصل فى ظهر الدابة من الركوب.

[٦٣٣] (٤). «خلف» تقال هذه العبارة حين يموت الإنسان قبل الحادثة من مادة «خلف».

[٦٣٤] (١). «متشعبة» مختلفة ولها شعب.

[٦٣٥] (١). سند الخطبة:

قال المرحوم العلامة التستري فى شرحه لنهج البلاغة إن الأصل فى هذه الخطبة ما ذكره المرحوم الكلينى فى رسائله ثم نقل هذه الخطبة مع إضافات وقال: ذكرها باختلاف طيف ابن قتيبة فى «الإمامة والسياسة» وابراهيم الثقفى فى «الغارات» وابن رستم الطبرى فى كتابه «المسترشد» (شرح نهج البلاغة للتستري، ج ٩، ص ٥١٧).

[٦٣٦] (١). «تداككتم» من مادة «دك» تعنى فى الأصل الأرض المنبسطة وحيث لا بد أن تدق بإحكام فهى تعنى الدق وإذا وردت فى باب الأفعال عنت الإزدحام الشديد الذى يسبب التدافع.

[٦٣٧] (٢). «هيم» جمع «هائم» الشخص أو الحيوان الشديد العطش وتطلق على العاشق الذى لا سبيل له للهروب.

[٦٣٨] (١). سورة الفجر، الآيتان ١١ و ١٢.

[٦٣٩] (٢). شرح نهج البلاغة للمرحوم مغنية، ج ٣، ص ٣٣٢.

[٦٤٠] (٣). «هدج» من مادة «هدج» على وزن «نهج» مشى الضعيف والمضطرب وتستعمل عادة فى الكهول العجزة.

[٦٤١] (٤). «تحامل» من مادة «تحامل» (مصدر باب تفاعل) القيام بعمل بالمشقة والتكلف.

[٦٤٢] (٥). «حسرت» من مادة «حسر» على وزن «حصر» تعنى هنا كشف النقاب عن الوجه؛ إلا أن المعنى الأصلى التحفى وأحياناً التعب.

[٦٤٣] (٦). «كعاب» و«كاعب» الناهدة وتشير إلى الفتيات.

[٦٤٤] (١). سند الخطبة:

ذكر بعضها مع بعض التغييرات عدد من العلماء بعد السيد الرضى بما يفيد أنها أخذت من مصدر آخر غير «نهج البلاغة»:

١. ابن الأثير فى عدّة موارد من كتاب «النهاية» ومنها فى مادة «جلس» و«عبل» و«حدم» و«دجى».

٢. أورد الأمدى جوانب كثيرة من هذه الخطبة فى كتاب «غررالحكم» مع اختلافات. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٧٥-١٧٦).

[٦٤٥] (١). «سداد» من مادة «سد» على وزن «حد» العمل الصحيح والكلام الصائب.

[٦٤٦] (٢). سورة البقرة، الآية ١٩٧.

[٦٤٧] (٣). «ملكة» تعنى هنا المعاصى التى تؤثر على الإنسان.

[٦٤٨] (١). «رغائب» جمع «رغيب» الطلب المهم من مادة رغبة.

[٦٤٩] (٢). سورة الحجرات، الآية ١٣.

[٦٥٠] (٣). سورة مريم، الآية ٦٣.

[٦٥١] (١). «هادئة» من مادة «هدوء» السكوت.

[٦٥٢] (٢). من عجائب الدهر أن المحقق الفاضل صاحب «منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة» المعروف بشرح الخوئي، المرحوم الحاج الميرزا حبيب الله هاشمي الخوئي، مرض وتوفي لما بلغ هذه الخطبة، والعبارة «والعمل يرفع» ويدل هذا التزامن على قبول عمله عند الله ورفعته إليه فواصل المحقق الجليل الشعراني الشرح من الجزء الرابع إلى الرابع عشر ثم واصل تلميذه حسن زادة الأملی شرح الجزء الخامس عشر حتى التاسع عشر وشرح الجزءين الآخرين العشرين والحادي والعشرين بقلم المرحوم الحاج محمد باقر الكمرئي حتى انتهى الشرح.

[٦٥٣] (١). «ناكس» من مادة «نكس» على وزن «حدس» قلب الشيء.

[٦٥٤] (٢). «خالس» الخاطف من مادة «خلس» على وزن «فلس» خطف الشيء بالحيلة والاختلاس بهذا المعنى.

[٦٥٥] (٣). «طيات» جمع «طية» الجانب والجهة والهدف. من مادة «طى» على وزن «حى» الجمع والترتيب وتستعمل أحياناً بمعنى العبور وطى الطريق.

[٦٥٦] (٤). «قرن» الكفو في الشجاعة.

[٦٥٧] (٥). «واتر» الجاني من مادة «وتر» على وزن «سفر» رامى السهم.

[٦٥٨] (١). «تكتف» من مادة «تكتف» الإحاطة بالشيء.

[٦٥٩] (٢). «غوائل» جمع «غائلة» الشر والداهية.

[٦٦٠] (٣). «معابل» جمع «معبل» على وزن «مدخل» النصل الحاد.

[٦٦١] (٤). «عدوة» العدوان.

[٦٦٢] (٥). «نبوة» الخطأ في الضربة بالسيف والسهم ونحوه.

[٦٦٣] (٦). سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

[٦٦٤] (٧). «دواجي» جمع «داجية» الظلمة من مادة «دجو» على وزن «غلو».

[٦٦٥] (٨). «ظلل» جمع «ظلة» على وزن «قلة» السحابة.

[٦٦٦] (٩). «الإحتدام» الاشتداد من مادة «حدم» على وزن «حتم».

[٦٦٧] (١٠). «حناس» جمع «حنس» على وزن «قبرص» الظلمة الشديدة.

[٦٦٨] (١). «غمرات» جمع «غمرة» على وزن «ضربة» الشدائد و«غمرات الموت» شدائد وصعاب الموت والاحتضار التي تصيب الإنسان فالغمرة تقال للماء الكثير الذي يأخذ الشيء.

[٦٦٩] (٢). «ارهاق» من مادة «رهب» على وزن «شفق» تغطية الشيء بالقهر والغلبة ويطلق على الأعمال الشاقة، جدير ذكره وردت في بعض النسخ بدل «ارهاق»، «ازهاق» من مادة «زهوق» الاضمحلال والهلكة و«ازهاق الروح» فصل الروح عن البدن.

[٦٧٠] (٣). «الدجو» الظلمة كما ورد أعلاه.

[٦٧١] (٤). «اطباق» جمع «طبق» وضع شيء على آخر كأن للظلمة طبقات تتراكم على بعضها.

[٦٧٢] (٥). «الجشوبة» الخشونة؛ سواء في الطعام أو الكلام وما شابه ذلك.

[٦٧٣] (٦). «النجي» المناجى والذي يهمس في الاذن من مادة «نجوى».

- [٦٧٤] (٧). «الندى» الجماعة الذين يجتمعون للمشورة أو الأحاديث المتعارفة.
- [٦٧٥] (٨). «عفى» أزال الأثر من مادة «عفى» له عدّة معانٍ بحكم باب التفعيل منها المحو.
- [٦٧٦] (٩). شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري، ج ١١، ص ٢٧٥.
- [٦٧٧] (١). سورة البقرة، الآية ١٥٦.
- [٦٧٨] (٢). الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ص ١٧٥.
- [٦٧٩] (٣). تاريخ الطبري، ج ٤، ص ١١٥.
- [٦٨٠] (١). «التأهب» الاستعداد للشئ من «الاهبة» وله أحياناً معنى المصدر والاسم الجامد.
- [٦٨١] (٢). شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئي، ج ١٤، ص ٤١٩.
- [٦٨٢] (١). البيان والتبيين، ج ٣، ص ١٤٨.
- [٦٨٣] (١). «احتلبوا» من «حلب» على وزن «طرب» و«حلب» على وزن «حرب» بمعنى استخراج الحليب.
- [٦٨٤] (٢). «درّة» اللبن أو الحليب الكثير.
- [٦٨٥] (٣). «غزّة» الغفلة والسهولة.
- [٦٨٦] (٤). «أخلقوا» من مادة «أخلاق» القدم من مادة «خلق» على وزن «ورق» التآكل.
- [٦٨٧] (٥). «جدّة» جديد ولهذه المفردة معنى الاسم.
- [٦٨٨] (٦). «أجدات» جمع «جدث» على وزن «هوس» القبر.
- [٦٨٩] (٧). «لا يحفلون» لا يبالون من مادة «حفل» على وزن «حرب» الاهتمام.
- [٦٩٠] (١). الكافي، ج ٣، ص ٢٢٨ باب زيارة القبور، ح ٤.
- [٦٩١] (٢). «نزوع» من مادة «نزع» على وزن «نذر» الفصل.
- [٦٩٢] (٣). «لايركد» من مادة «ركود» السكون وانعدام الحركة.
- [٦٩٣] (١). سورة العنكبوت، الآية ٦٤.
- [٦٩٤] (١). «بادروا» من «المبادرة» الاسراع فى العمل أحياناً وأخرى سبق (تتعدى الأولى بدون «الى» وتتعدى الثانية ب«إلى»).
- [٦٩٥] (٢). «ظهرانى» يعنى وسط شخصين أو أشخاص والأصل «ظهرين» تشبيه «ظهر» وكان للإنسان داعم من أمامه وخلفه إن كان وسط جماعة ثم أضيف له الألف والنون للتأكيد ونون التشبيه حذفت عند الاضافة لتصبح «بين ظهرانى» وعليه «بين ظهرانى» أن يكون الإنسان بين أفراد يحمونه. (راجع مادة ظهر فى لسان العرب).
- [٦٩٦] (٣). نهج البلاغة، الخطبة ٨١.
- [٦٩٧] (١). «ذى قار» منطقة قرب البصرة وقعت فيها الحرب بين العرب والفرس قبل الإسلام.
- [٦٩٨] (٢). محمّد بن عمر الواقدى من مفسرى ومؤرّخى القرن الهجرى الثانى والمتوفى سنة ٢٠٧ هجرية.
- [٦٩٩] (٣). سند الخطبة:
- رغم أن المرحوم السيد الرضى نقل هذه الخطبة من كتاب «الجمال» للواقدى إلّا أن صاحب «مصادر نهج البلاغة» ذكر أنه رواها ابن عبد ربه المالكي فى «العقد الفريد» والمرحوم المفيد فى «الإرشاد». ورواها ابن أبى الحديد بصورة مفصلة فى شرحه لنهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٧٦).
- [٧٠٠] (١). «الشمّل» الجمع وله أحياناً معنى اسم المصدر ويعنى الاجتماع.
- [٧٠١] (٢). «الواغرة» الحارة والساخنة من مادة «وغر» على وزن «فقر» شدة الحرارة وهى تستعمل بمعنى البغض والعداء الشديد.

[٧٠٢] (١) «الضغائن» جمع «ضغينة» العداوة الشديدة وتعنى فى الأصل التغطية المقرونة بالانحراف.

[٧٠٣] (٢) «القادحة» المشتعلة من مادة «قدح» على وزن «مدح» إشعال النار.

[٧٠٤] (٣) سورة الأنفال، الآيتان ٦٢ و ٦٣.

[٧٠٥] (١) عبد الله بن زمعة بن الأسود من أعدى أعداء النبى الأكرم صلى الله عليه وآله. عبد الله ابن اخت ام سلمة وصهرها وقد قتل الإمام عليه السلام أباه وعمه وأخاه فى بدر (راجع دائرة المعارف الشيعة للمرحوم الأعلمى: ج ١٢ ص ٣٠٥ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد: ج ١٣ ص ١٠؛ وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى، ج ٥، ص ١٩٢).

[٧٠٦] (٢) سند الخطبة:

المصدر الوحيد الذى عثر عليه صاحب كتاب المصادر فى هذه الخطبة غير نهج البلاغة، غرر الحكم للآمدى فى حرف الألف باختلاف يفيد أنه أخذها من مصدر آخر. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٧٨).

[٧٠٧] (١) «جنا» الثمار التى تقطف من الشجرة وهى مفرد من مادة «جنا» على وزن «جفا».

[٧٠٨] (٢) انظر: جواهر الكلام، ج ١٦، ص ١٠٦؛ المعبر المحقق الحلى، ج ٢، ص ٦٣١، كتاب الخمس.

[٧٠٩] (١) سند الخطبة:

لما بلغ ابن أبى الحديد هذه الخطبة فى شرحه لنهج البلاغة قال: اعلم أن هذا الكلام بينه أمير المؤمنين عليه السلام فى حادثه اقتضت ذلك حيث أمر ابن اخته جعدة بن هبيرة المخزومي أن يخطب بالناس، فصعد المنبر لكن (لجلالة الإمام وعظم الجماعة) لم يستطع الكلام ونزل. فصعد أمير المؤمنين عليه السلام المنبر وأورد هذه الخطبة الطويلة التى ذكر السيد الرضى هنا بعضها (ويتضح من هذا الكلام أنه أخذها من مصدر آخر). ورواها باختلاف المرحوم الكليني فى «روضة الكافي» والآمدى فى «غرر الحكم» كما رواها الزمخشري فى الجزء الأول من كتابه «ربيع الأبرار» (مصادر نهج البلاغة: ج ٣، ص ١٧٩).

[٧١٠] (١) «بضعة» (بفتح الباء) و«بضعة» (بكسر الباء) القطعة من كل شىء ويقال أحياناً حين يكون الشخص شديد القرب من آخر: «هو بضعة منى».

[٧١١] (٢) سورة الرحمن، الآيات ١-٤.

[٧١٢] (١) «تنشبت» من «النشوب» التثبت فى الشىء.

[٧١٣] (٢) «عروق» جمع «عرق» على وزن «صدق» أصل الشىء وأساسه.

[٧١٤] (٣) «تهدلت» من مادة «هدل» على وزن «جدل» المعلقة بضعف وتطلق على الغصون النازلة والمعلقة.

[٧١٥] (١) انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٣، ص ١٣ و ١٤.

[٧١٦] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١، ص ٢٤.

[٧١٧] (٢) السابق طبق نقل المرحوم العلامة المطهرى فى رحاب نهج البلاغة، ص ٢٨.

[٧١٨] (٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ١٥٣.

[٧١٩] (١) «كليل» من مادة «كل» على وزن «حل» التعب والعجز والضعف والكليل التعبان والعاجز والضعيف.

[٧٢٠] (١) «مصطلحون» اتفاق الأفراد على شىء، من مادة «صلح».

[٧٢١] (٢) «إدهان» تعنى فى الأصل التدهين. ثم استعملت فى الخداع والمساومة على أمر مرفوض.

[٧٢٢] (٣) «عارم» سبىء الخلق من «العرامة» الخشونة وسوء الخلق والسيول الجارفة والموانع التى تقام لصددها فى الوديان.

[٧٢٣] (٤) «شائب» الكهل والعجوز من مادة «شيب» على وزن «غيب» الكهولة.

[٧٢٤] (٥) «مماذق» المرائى من مادة «مذق» على وزن «حذف» مزج اللبن بالماء.

[٧٢٥] (١) «لا يعول» من مادة «عول» على وزن «قول» كفالة الشخص، ومنه العيال.

[٧٢٦] (١) . سند الخطبة:

رواه الزمخشري في الجزء الأول من كتاب «ربيع الأبرار». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٨١).

[٧٢٧] (١) «مبادئ» جمع مبدأ بداية كل شيء والمراد هنا العناصر التي تكون طبيعتهم.

[٧٢٨] (٢) «فلقة» القطعة من الشيء من مادة «فلق» على وزن «حلق» الشق وبما أن الشق يقسم القطع وردت فلقة بمعنى القطعة.

[٧٢٩] (٣) «سبخ» الأرض المالحة.

[٧٣٠] (١) «عذب» الحلو.

[٧٣١] (٢) «حزن» إن استعملت في الأرض عنت المتموجة و«حزن» تعنى الغم من هذه المادة.

[٧٣٢] (٣) «سهل» إن استعملت عنت المستوية المنبسطة ومنه أيضاً السهل أى البسيط.

[٧٣٣] (١) «رواء» من مادة «رى» على وزن «حى» تعنى فى الأصل الإرتواء ومن هنا يطلق رواء على الفرد الحسن المنظر كأنه كالنبات

الذى ارتوى من الماء وحسن منظره.

[٧٣٤] (١) «قعر» تعنى هنا الباطن ويطلق القعر على آخر نقطة فى الشيء.

[٧٣٥] (٢) «السبر» الاختبار والامتحان ويقال لمن يصعب الوقوف على أسراره بسهولة «بعيد السبر».

[٧٣٦] (٣) «التائه» الحيران من مادة «تیه» على وزن «سعى» و«تیه» على وزن «جيم» الحيرة والضلال.

[٧٣٧] (١) . وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٣٧، ح ٤.

[٧٣٨] (١) . بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٢٣٦، ح ٢٢.

[٧٣٩] (١) . سند الخطبة:

رواه عدد ممن عاش قبل السيد الرضى ومنهم: (أ) محمد بن حبيب (المتوفى سنة ٢٤٥) أى قبل ولادة السيد الرضى ب. ١١٤ سنة فى «الأمالى».

(ب) أبو اسحاق إبراهيم الزجاج (المتوفى سنة ٣١١ أى ٤٨ سنة قبل الرضى فى كتابه «الأمالى» عن بريد المبرد.

(ج) رواها الشيخ المفيد فى كتابه «الأمالى» بسنده عن ابن عباس. قال صاحب «مصادر نهج البلاغة»: لا شك أن هذا كلام على عليه

السلام وإن نسبت لغيره فى زهر الأداب فذلك من الوهم (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٨٢-١٨٣).

[٧٤٠] (١) . وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٦٥٣، ح ١.

[٧٤١] (١) «مسلياً» من مادة «سلو» على وزن «غلو» الهدوء بعد الشدة.

[٧٤٢] (٢) . نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٢.

[٧٤٣] (١) . الكافى، ج ٣، ص ٢٢٠، ح ٢.

[٧٤٤] (٢) «انفدنا» من «انفاد» انتهاء الشيء و«انفاد» مصدر باب افعال الانتهاء.

[٧٤٥] (٣) «البال» خاطر والقلب والحال.

[٧٤٦] (١) . من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ١٧٧، ح ٥٢٧.

[٧٤٧] (٢) . المصدر السابق، ص ١٨٣، ح ٥٥٣.

[٧٤٨] (٣) . مستدرک وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٤٣١، ح ٤٠.

[٧٤٩] (١) . تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٢-٣.

[٧٥٠] (٢) . بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٥٢٥.

[٧٥١] (١). سند الخطبة:

رواه ابن الأثير في «النهاية» في مادة «وطأ» مصادر نهج البلاغة» ج ٣، ص ٢٣٤.

[٧٥٢] (١). كتاب تمام نهج البلاغة، ص ٢٤٦، خطبه ١٩ (وردت هذه العبارة في تتمه الخطبة، ص ٢٤٩).

[٧٥٣] (١). انظر للمزيد من الاطلاع: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد في شرح ذيل الخطبة، وتفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام وكتاب «فروغ أبدية» لآية الله جعفر السبحاني.

[٧٥٤] (١). سند الخطبة:

كل ما ورد في كتاب «مصادر نهج البلاغة» بالإضافة إلى «نهج البلاغة» في سند الخطبة أن الآمدى روى العبارة الاولى من الخطبة في «غررالحكم» باختلاف ويفيد أنه كان لديه مصدر آخر ولو كان مصدره الوحيد «نهج البلاغة» لما كان ذلك الاختلاف (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٨٥).

[٧٥٥] (٢). شرح الخطبة الغراء طبق نقل السيد الرضى ذيل الخطبة ٨٣.

[٧٥٦] (١). المنشورة» الواسعة والمفتوحة من مادة «نشر» البسط.

[٧٥٧] (١). الكافي، ج ٢، ص ٤٤٠، ح ١.

[٧٥٨] (٢). سورة الزمر، الآية ٥٣.

[٧٥٩] (٣). سورة الزمر، الآية ٥٤.

[٧٦٠] (٤). «يخمد» من «الخمود» على وزن «جحد» تعنى في الأصل إنطفاء النار. ثم اطلقت على انتهاء كل شيء ومنهناية الحياة.

[٧٦١] (٥). «مهل» جمع «مهله» وتستعمل هذه الكلمة عادة في أمور الخير.

[٧٦٢] (١). غررالحكم، الرقم ٢٤٦٢.

[٧٦٣] (١). «منظور» الممهل من مادة «نظر» التي لها معنيان: الأول الالتفات إلى الشيء والثاني الامهال.

[٧٦٤] (١). غرر الحكم، ح ٨٩٨٤.

[٧٦٥] (٢). المصدر السابق، ح ٤٨٢٠.

[٧٦٦] (١). سند الخطبة:

قال صاحب كتاب «مصادر نهج البلاغة»: «ذكرنا مصادر هذه الخطبة في ذيل الخطبة ٢٦ والخطبة فصل من كتاب كتبه الإمام وأمر بقرائه في مختلف المناطق» وإذا عدنا إلى مصادر الخطبة (الخطبة ٢٦) نجده قال هناك: هذه الخطبة جزء من خطب طويلة اقتطف السيد الرضى بعضها وذكرها جماعة من قبل السيد بما يختلف مع ما ذكره ومنهم «إبراهيم بن هلال الثقفي» في كتاب «الغارات»، «ابن قتيبة» في كتاب «الإمامة والسياسة»، «الطبري» في كتاب «المسترشد» و«الكليني» في كتاب الرسائل وقال هناك: «الخطبة ٢٣٦ هي عندنا جزء من الخطبة ٢٣٨ والدافع من الرسالة أنه سئل عن سببه من الخلفاء. فكتب لهم هذه الرسالة وأوصاهم برص صفوفهم» (الغارات، ج ١، ص ٣١٢؛ الإمامة والسياسة، ص ١٣٥ و ١٧٦؛ المسترشد، ص ٤٢٦) (مصادر نهج البلاغة، ج ١، ص ٣٩٠).

[٧٦٧] (١). «جفاء» جمع «جاف» غليظ وفظ جاهل.

[٧٦٨] (٢). «طغام» جمع «طغامة» الأوغاد والأوباش والأشرار وترد أحياناً بمعنى المفرد.

[٧٦٩] (٣). «أقزام» جمع «قزم» على وزن «خشن» الأفراد الأراذل.

[٧٧٠] (٤). «أوب» الناحية.

[٧٧١] (٥). «تلقطوا» من مادة «تلقط» جمع الشيء من هنا وهناك.

[٧٧٢] (٦). «شوب» خلط الشيء بآخر. ولها معنى اسمي؛ أي الأشياء المخلوطة والمراد في العبارة معناها الاسمي.

[٧٧٣] (٧). «يدرّب» من «التدريب» التمرين والتعود لتعلم الشيء.

[٧٧٤] (٨). «تبوّأ» من «التبؤأ» السكن في مكان بقصد البقاء والدوام من مادة «بؤأ» بمعنى تساوى أجزاء المكان.

[٧٧٥] (١). مروج الذهب، ج ٢، ص ٧٢ مطابق لما نقله المرحوم العلامة الأميني في الغدير، ج ١٠، ص ١٩٥.

[٧٧٦] (١). الغدير، ج ١٠، ص ١٩٦.

[٧٧٧] (١). «أوتار» جمع «وتر» على وزن «سفر» السهم الذي يجمع طرفاه كالقوس فإذا سحب تقوس أكثر فإن اطلق قذف إلى الأمام وقطع الأوتار هنا كناية عن عدم الاطلاق.

[٧٧٨] (٢). «شيموا» من مادة «غيم» على وزن «عيب» سل السيف ووضعه في الغمد.

[٧٧٩] (٣). ذكر هذه الرواية أولًا ابن أبي الحديد في الجزء ١٣، ص ٢١٥ في شرح الخطبة، ثم ذكرها المرحوم ابن ميثم والعلامة التستري في شرحهما لهذه الخطبة.

[٧٨٠] (٤). «قواصي» جمع «قاصية» الطرف والناحية و«قواصي الإسلام» إشارة إلى أطراف العراق والحجاز ومناطق أخرى تابعة لحكومة أمير المؤمنين على عليه السلام.

[٧٨١] (٥). «صفاء» مفرد وتعني في الأصل الحجر الصلد وتستعمل كناية عن القوة وفسرت بأرض الحياة التي ينظمها الإنسان.

[٧٨٢] (١). شرح نهج البلاغة للمرحوم مغنية، ج ٣، ص ٣٦٢.

[٧٨٣] (٢). المصدر السابق.

[٧٨٤] (٣). ورد المزيد بشأن الحكمين في ذيل الخطب ١٢٥، ١٢٧، ١٧٧.

[٧٨٥] (١). سند الخطبة:

جاء في مصادر نهج البلاغة أنّ هذا الكلام جزء من الخطبة ١١٤٥ (حسب ترقيمنا ١٤٧) التي تبدأ بالعبارة (بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله حتى يقول: فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنهم عيش العلم وموت الجهل) وأوردها السيد الرضى منفصلة. ورواها الكليني في «الكافي» باختلاف طفيف في بعض الكلمات كما ذكرت في آخرها بعض العبارات في «محاضرات الادباء» للراغب الاصفهاني. مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٧٦ و ١٧٧.

[٧٨٦] (١). ورد هذا الحديث في مصادر الفريقين فقد رواه الذهبي في ميزان الاعتدال، ج ١، ص ٨٢؛ ابن حجر في لسان الميزان، ج ١، ص ١٣٦.

[٧٨٧] (١). مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٤٩.

[٧٨٨] (٢). بحار الأنوار، ج ١، ص ١٥٤.

[٧٨٩] (٣). روى المرحوم العلامة الأميني هذين الحدين بعبارات متفاوتة لكنها قريبة المعنى من مختلف مصادر العامة مثل: مناقب الخوارزمي؛ فرائد السمطين للحمويني؛ وربع الأبرار للزمخشري؛ والإمامة والسياسة لابن قتيبة. (الغدير، ج ٣، ص ١٧٨ وما بعدها).

[٧٩٠] (١). الكافي، ج ١، ص ٦١، ح ٩.

[٧٩١] (٢). «ولائج» جمع «وليجة» من «الولوج» الدخول وتطلق على حامل أسرار الشخص أو جامعها ولكن ليس من أهله. ويقال وليجة لكل من يرد قوماً من الخارج ويحمل أسرارهم وهي قريبة المعنى من مفردة البطانة.

[٧٩٢] (٣). «نصاب» الأصل وموضع الرجوع والمكان المناسب لكل شيء وأساسه وبدايته. ثم اطلق على المقدر في باب الزكاة وأمثال ذلك.

[٧٩٣] (٤). «انزاح» من مادة «زوح» على وزن «زوج» تعني في الأصل الرحيل من المكان. ثم اطلق على كل شيء يزال عن مكانه.

[٧٩٤] (٥). انظر: تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤٤٠ و ٤٤١.

- [٧٩٥] (١). لم ترد هذه المفردة بهذه الصيغة في المصادر اللغوية وصحيحها «وعاء» ظرف الشيء ويبدو أن النسخة الأصلية كانت وعاء التي تلائم السماع في العبارة اللاحقة.
- [٧٩٦] (٢). «رعاة» جمع «راعٍ» المراعى.
- [٧٩٧] (١). «هتف» المناداة والصراخ والمراد هنا أن الائمة كانت تنادى بخلافه على عليه السلام وقيل: «هتف» تعنى الصوت الذى يسمع ولا يعرف قائله.
- [٧٩٨] (٢). سند الخطبة:
- ذكر ابن عبد ربه بعض هذا الكلام فى «العقد الفريد» وكتب أن علياً عليه السلام خرج من المدينة وذهب إلى ينبع (ينبع موضع قرب المدينة قرب البحر الأحمر الذى كان آنذاك بعضه لعلى وأوقفه) لكن عثمان كتب كتاباً آخر بعد مدة قصيرة وطلب منه الرجوع إلى المدينة (ويدافع عنه) ثم قال صاحب كتاب نهج البلاغة: ذكر ذلك أيضاً المبرد فى «الكامل» وابن قتيبة فى «الإمامة والسياسة». مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٨٩.
- [٧٩٩] (١). «ناضح» الجمل الذى يحمل الماء من مادة «نضح» على وزن «نظم» رش الماء.
- [٨٠٠] (٢). «غرب» بمعنى الدلو العظيمة.
- [٨٠١] (١). شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري، ج ٩، ص ٢٥٤ (بتلخيص طفيف).
- [٨٠٢] (١). سند الخطبة:
- ذكر الآمدى فى «غررالحكم» بعض عبارات الخطبة بكلمات قصيرة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٩٠).
- [٨٠٣] (١). تمام نهج البلاغة، ص ٤٦٥.
- [٨٠٤] (٢). «مستأدى» الطالب من مادة أداء طلب أداء الشيء.
- [٨٠٥] (٣). «ممهله» معطى المهله.
- [٨٠٦] (٤). «مضمار» الميدان الذى تضم فيه الخيل للسباق كما وردت بمعنى اسم الزمان.
- [٨٠٧] (٥). «سبق» المال الذى يقرر للفائزين بالسباق.
- [٨٠٨] (٦). سورة البقرة، الآية ١٥٢.
- [٨٠٩] (١). نهج البلاغة، الخطبة ٢٨.
- [٨١٠] (٢). «عقد» جمع «عقدة» ما تربط به الأشياء.
- [٨١١] (٣). «مآزر» جمع «مئزر» على وزن منبر الثياب الداخلية.
- [٨١٢] (٤). «اطووا» من مادة «طى» معروف.
- [٨١٣] (٥). «خواصر» جمع «خاصرة» الضلع.
- [٨١٤] (١). «وليمة» الطعام الذى يعدّ فى العرس. ثم اطلقت على كل طعام يعدّ فى الدعوة للضيافة وهى هنا كناية عن الترف.
- [٨١٥] (٢). «ظلم» جمع «ظلمة» العتمة.
- [٨١٦] (٣). «تذاكير» جمع «تذكار» على وزن «منقار» التذكير.
- [٨١٧] (٤). بحار الأنوار، ج ٦٣، ص ٣٣١، ح ٧.
- [٨١٨] (٥). مجموعة ورام، ج ٢، ص ١١٩.
- [٨١٩] (١). غرر الحكم، ح ٧٤٠٢.
- [٨٢٠] (٢). بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٢٧، ح ٤٠.

[٨٢١] (٣). نهج البلاغة، الرسالة ٤٥.

[الجزء التاسع]

مقدمة

القسم الثاني من نهج البلاغة

القسم الثاني والمهم من نهج البلاغة يتضمن رسائل وكتب الإمام أمير المؤمنين إلى الأولياء، الأعداء، الامراء، قادة الجيش وبعض أبنائه، والتي تختزن في مضمونها مسائل في غاية الأهمية عن بناء الذات، التقوى، إدارة البلاد، النصيحة للأعداء وفتح المجال لهم للعودة إلى أحضان الحق، ومسائل مهمة أخرى من هذا القبيل.

ومحتوى هذه الرسائل بدرجة من الحيوية والحركة، كأنها صدرت من الإمام في هذا العصر ومن أجل المخاطبين في زماننا هذا. وهذه الرسائل، التي بإمكانها أن تكون درساً لمختلف شرائح المجتمع وينتفع بها جميع الأفراد، تعتبر من الكنوز الغالية للتراث الإسلامي ولسيره أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، وليت جميع السياسيين في العالم يلتفتوا إلى أهميتها ويعملوا على استثمارها لإصلاح الوضع العالمي والمجتمع البشري، وليت أن هذه الرسائل قد وصلت إلينا كلها.

ومما يجدر ذكره أن عهد الإمام لمالك الأشتر الوارد في نهج البلاغة «وهو الدستور العملي الذي أرسله الإمام علي عليه السلام لواليه على مصر مالك الأشتر وورد في

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٦

نهج البلاغة برقم (٥٣) من رسائل الإمام» قد ترجم إلى بعض اللغات الأجنبية وقد تم وضعه في هيئة الامم المتحدة كسند تاريخي، و وقع مورد إعجاب وثناء لنواب وممثلي الدول المختلفة في الامم المتحدة.

وهناك الكثير من أمثال هذه الرسالة التاريخية في نهج البلاغة من بين ٧٩ رسالة وكتاب للإمام علي عليه السلام، رغم أن كل واحدة منها تهدف لغرض خاص.

ومن الرسائل المهمة في هذا الصدد وصية الإمام عليه السلام لابنه الإمام الحسن المجتبي عليه السلام التي تتضمن مسائل عرفانية، أخلاقية، وتعاليم لتهديب النفس، وكذلك رسالة الإمام عليه السلام المعروفة لعثمان بن حنيف التي يعترض فيها الإمام عليه السلام على واليه لحضرة وليمة لطبة الأغنياء والأشراف، ورسالة الإمام عليه السلام المعروفة لشريح القاضي، ورسالة الإمام عليه السلام إلى «حارث الهمداني»، ورسالة الإمام عليه السلام لأهل مصر التي أرسلها مع مالك الأشتر، وهناك رسائل متعددة كتبها الإمام عليه السلام لمعاوية بن أبي سفيان وحذره من العواقب الوخيمة لأعماله الشنيعة، وجميع هذه الرسائل تعتبر من الوثائق التاريخية التي قل نظيرها في تراثنا الإسلامي.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٩

الرسالة ١

إشارة

إلى أهل الكوفة، عند مسيره من المدينة إلى البصرة [١]

نظرة إلى الرسالة

الحقيقة أن الغرض من كتابة هذه الرسالة يتمثل في ثلاثة أمور:

١. إن الإمام علي عليه السلام أراد في كتابه هذا أن يبين أن طلحة والزبير وعائشة الذين اتخذوا من قتل عثمان ذريعة لإثارة الناس ضده عليه السلام وتحركوا لتهيئة مقدمات حرب الجمل مع عائشة، أنهم شركاء في قتل عثمان، في حين أن الإمام عليه السلام كان قد دافع عنه بالمقدار الممكن.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٠

٢. إن جميع الناس قد بايعوا الإمام عليه السلام طواعية ورغبة وبدون أي شكل من أشكال الجبر والإكراه وإن المسلمين قد قبلوا بخلافته على الأمة الإسلامية.

٣. نظراً لما وقع من فتنة طلحة والزبير وعائشة، فإنهم يتوجب على أهل الكوفة أن يهتوا لنصرة الإمام وإطفاء نار الفتنة من خلال الالتحاق بجيش الإمام.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١١

القسم الأول

إشارة

مَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ، جَبْهَةَ الْأَنْصَارِ وَسَيَامِ الْعَرَبِ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعْيَانِهِ. إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَكْثَرَ اسْتِعْتَابَهُ، وَأَقْلُ عِتَابَهُ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ، وَأَرْفَقُ حِدَائِهِمَا الْعَنِيفُ.

وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةٌ غَضِبَ، فَأُتِيَ لَهَا قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ، وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُشْتَكِرِينَ وَلَا مُجْبِرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ.

الشرح والتفسير: حقيقة ما وقع في حادثة قتل عثمان

بدأ الإمام علي عليه السلام في هذه الرسالة، وطبقاً لما كان متداولاً في ذلك العصر، بالتعريف بكتاب الرسالة والمخاطبين له، حيث قال: «مَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ، جَبْهَةَ الْأَنْصَارِ [٢] وَسَيَامِ الْعَرَبِ».

ومن البين أن مراده من كلمة الأنصار هنا ليس أنصار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في المدينة الذين يقعون في مقابل المهاجرين، لأنه لم يكن هناك في الكوفة جهة للأنصار وأخرى للمهاجرين، بل المراد من الأنصار هنا أنصار الإمام علي عليه السلام والتعبير بـ «جبهة» إشارة إلى شرفهم وعلو مكانتهم، لأن الجبهة تعتبر من أشرف

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٢

أعضاء الإنسان.

كلمة «سنام» رغم أنها في الأصل بمعنى أعلى مكان في ظهر الجمل، إلا أنها تطلق على كل شيء متميز وكل شخص ذي مكانة عالية

فى المجتمع.

ثم إن الإمام عليه السلام قال فى رسالته: «أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي أَخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ».

هنا يثار هذا السؤال: لماذا اهتم الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة قبل كل شىء بالبحث عن جذور حادثه مقتل عثمان؟ من المعلوم أن الإمام عليه السلام قد كتب هذه الرسالة إلى أهل الكوفة فى زمن إرهابات معركة الجمل، ونعلم أن مسألة الطلب بئار عثمان كانت ذريعة استخدمها المخالفون وقوى التمرد «طلحة، الزبير، عائشة، وأنصارهم» وعندما يبين الإمام عليه السلام تفاصيل هذه المسألة بشكل واضح فإن ذلك من شأنه أن يدفع بأهل الكوفة للاشتراك مع الإمام من موقع الوضوح فى الرؤية.

ثم أضاف الإمام عليه السلام: «إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ».

وقد ذكر جميع المؤرخين وعامة المحققين تقريباً أن اعتراض الناس على عثمان يعود إلى أمرين: التقسيم غير العادل لبيت المال، والعطايا والمواهب الجزيلة لأقربائه وأرحامه، والآخر وضع المقاليد الحساسة للحكومة الإسلامية بيد أشخاص غير كفؤين من أقربائه وأتباعه.

ثم أضاف الإمام عليه السلام: «فَكُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَكْثَرَ اسْتِعْتَابَهُ [٣]، وَأَقْلُ عِتَابِهِ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنَ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ [٤]، وَأَرْفَقُ حَدَائِهِمَا الْعَنِيفُ [٥]. وَكَانَ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٣

مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةٌ [٦] غَضِبَ، فَأُتِيحَ [٧] لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ».

ويحتمل أيضاً فى تفسير عبارة «أكثر استعبابه» [٨] أننى كنت أطلب من عثمان دائماً أن يهتم بكسب رضا الناس.

ثم أضاف عليه السلام: «وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخْتَرِينَ».

وفى الحقيقة أن الإمام عليه السلام بهذه العبارة الوجيزة والعميقة المعنى أشار إلى ثلاث نقاط ليتيح للناس الحكم على المتمردين بوضوح:

١. إن الإمام عليه السلام كان من المدافعين عن عثمان وكان يريد له الصلاح والسير فى الطريق القويم واطفاء نار الفتنة.

٢. إن طلحة والزبير هما اللذان أشعلا نار الفتنة، وبالرغم من أن الانتفاضة ضد عثمان كانت عامة وشاملة، ولكن طلحة والزبير كانا ينفخان فى هذه النار ويمدونها بالوقود، وكذلك الحال مع عائشة التى أثارت المهاجرين والأنصار فى مسجد النبى على عثمان بجملته قصيرة عندما رفعت يدها قميص النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ونعله كما ورد فى الرواية: «وَلَمَّا بَلَغَ عَائِشَةُ مَا صَبَحَ عُثْمَانُ بِعَمَارٍ فَغَضِبَتْ وَأَخْرَجَتْ شَعْرًا مِنْ شَعْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَنَعْلًا مِنْ نَعَالِهِ وَثُوبًا مِنْ ثِيَابِهِ، وَقَالَتْ: مَا أَسْرَعَ مَا تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَهَذَا ثُوبُهُ وَشَعْرُهُ وَنَعْلُهُ لَمْ يَلْ بَعْدُ» [٩].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٤

٣. إن البيعة التى بايعنى فيها المسلمون «وخلافاً للبيعة مع الخليفة الأول والثانى والثالث» بيعة عامة وشاملة ولم يجبر أحد على بيعتى.

ومن هذا المنطلق بين الإمام عليه السلام معالم الحقيقة ليعلم الناس أنه على الحق وأن المتمردىن والمناوئين له فى معركة الجمل، على باطل.

تأملان

١. حكاية أبى موسى وتعبئة أهل الكوفة لنصرة الإمام عليه السلام

سبق وأن تعرّضنا في الأقسام السالفة وبشكل وافٍ إلى وقائع خلافة عثمان والأخطاء الكبيرة التي ارتكبها في مجال إدارة الحكومة الإسلامية والتي أدت بالتالي إلى ثورة الناس عليه وانتهت بقتله، وكذلك تقدّم الكلام عن نقض طلحة والزبير لبيعتهم للإمام عليّ عليه السلام وتمزّدهم على خلافته، وكذلك واقعة بيعه الناس العامة لأمير المؤمنين عليه السلام [١٠].

أمّا قصة كتابه رسالة إلى أهل الكوفة من قبل الإمام عليه السلام فهي ذات تفاصيل متشعبة وقد أشار ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة بشكل موجز إلى هذه الحكاية، ويمكن الإشارة إلى خلاصة ما ورد في كلامه:

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٥

ينقل ابن أبي الحديد عن محمد بن إسحاق أنّ الإمام عليّ عليه السلام أرسل محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر إلى الكوفة، ولما قدما الكوفة استنفرا الناس، فدخل جماعة منهم على أبي موسى الأشعري - وكان والياً على الكوفة في زمن خلافة عثمان، وبعد مقتل عثمان أبغاه الإمام في منصبه - ليلًا فقالوا له: أشتّر علينا برأيك في الخروج مع هذين الرجلين إلى عليّ عليه السلام، فقال أبو موسى الأشعري - والذي كان رجلًا خبيثًا في سريرته وقد تجلّى خبثه في هذا الموقع -: «أما سبيل الآخرة فالزموا بيوتكم، وأما سبيل الدنيا فاشخصوا معهما» فمنع بذلك أهل الكوفة من الخروج لنصرة الإمام عليه السلام.

وبلغ المحمّدين ذلك فأغظا لأبي موسى الأشعري، فقال أبو موسى: «والله إن يبعه عثمان لفي عنق عليّ وعنق وعنقكم، ولو أردنا قتالًا ما كنّا لنبدأ بأحدٍ قبل قتله عثمان»، فخرجا من عنده فلحقا بعليّ عليه السلام فأخبراه الخبر، فكتب الإمام عليه السلام رسالة لأبي موسى الأشعري، ولكنّ أبا موسى هدّد رسول الإمام بالقتل، وكتب الإمام رسالة أخرى لأبي موسى وأرسلها مع عبد الله بن عباس ومحمد بن أبي بكر وعزله من منصبه.

ولكنّ أبا موسى الأشعري استمرّ في مخالفته لأوامر الإمام عليه السلام، ثم إن الإمام عليّ عليه السلام أرسل مالك الأشتر، فشخص الأشتر نحو الكوفة، فأقبل حتى دخلها والناس في المسجد الأعظم، فجعل لا يمرّ بقبيلة إلّادعاهم وقال: اتبعوني إلى القصر، حتى وصل القصر، فافتحه وأبو موسى يومئذٍ يخطب الناس على المنبر ويثبطهم، وعمار يخاطبه، والحسن عليه السلام يقول: اعتزل عملنا وتنح عن منبرنا، لا أم لك! فصاح به الأشتر: «أخْرُجْ مِنْ قَصْرِنَا لَا أُمَّ لَكَ أَخْرَجَ اللَّهُ نَفْسَكَ فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَمِنْ الْمُنَافِقِينَ قَدِيمًا». فلما رأى أبو موسى الأشعري ضعف موقعه واهتزاز مكانته قال: أجلني العشيّة، قال: لقد أجلتلك ولا تبيتن في القصر.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٦

وفي هذه الواقعة استطاع رُسل الإمام عليه السلام من تعبئة اثني عشر ألف رجل من أهل الكوفة لنصرة الإمام عليه السلام وتوجّهوا إلى البصرة [١١].

٢. عند الإمتحان يكرم المرء أو يهان

من المعلوم أنّ غالبية أهل السنّة يذهبون إلى تنزيه الصحابة، يعني أنّ جميع الصحابة بدون استثناء هم أشخاص مؤمنون وعادلون وسيرتهم نقيّة، وقد أفرط البعض في هذا الأمر وسلّك سبيل المبالغة إلى درجة أنّه ذهب إلى أنّ المخالف لأحد الصحابة هو زنديق وكافر، ومن هؤلاء ما ذكره «ابن حجر العسقلاني» في كتابه «الإصابة» نقلًا عن أبي زرعة الرازي قال: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فاعلم أنّه زنديق وذلك أنّ الرسول حقّ والقرآن حقّ وما جاء به حقّ، وإنّما أدى إلينا ذلك كلّ الصحابة وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبتلوا الكتاب والسنّة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة» [١٢].

عندما يواجه هؤلاء المؤرّخون الحوادث التاريخية المسلّمة من قبيل واقعة الجمل وأنّ طلحة والزبير وعائشة قد أشعلوا نار الحرب أمام خليفة المسلمين الذي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار وقتل في تلك الواقعة أكثر من عشرة آلاف رجل وعلى رواية قتل

سبعة عشر ألف فسوف يصاب بالحيرة والتردد في الجواب لتبرير هذا العمل، وكذلك عندما يرى أن معاوية بن أبي سفيان وقف بوجه خليفته المسلمين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وما ترتب على ذلك من حرب صفين وتداعياتها المؤلمة ومقتل عشرات الاولوف من المسلمين وحتى قتل بعض الصحابة، كعمار بن ياسر على يد أتباع معاوية، فسوف يجد نفسه في ورطة ومتاهة عجيبة.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٧

هؤلاء لا يستطيعون إنكار الحقائق التاريخية المسلمة من جهه، ومن جهه أخرى لا يستطيعون التخلي عن مقولة تنزيه الصحابة، ولذلك يتمسكون بمنطق غريب.

فتارة يقولون: إننا لا ينبغي لنا أن نتحدث عن الصحابة لأنه «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت» [١٣] بهذه الطريقة يوصدون نوافذ الفهم والإدراك على عقولهم، فهل يستطيع أي إنسان عاقل أن يغض بصره أمام الحقائق التاريخية التي تتضمن بيان الكثير من المسائل التي نحتاجها في عالمنا المعاصر؟

وتارة أخرى يقولون: إن الصحابة مجتهدون كلهم، وإن كل فرد منهم قد عمل باجتهاده، فالإمام علي عليه السلام عمل باجتهاده وطلحة والزبير وعائشة ومعاوية عملوا أيضاً باجتهادهم ولذلك هم معذورون أمام الله تعالى.

هؤلاء غفلوا عن أن الاجتهاد يتعلق بالمسائل النظرية التي تقع مورد الشك والتردد، وأما المسائل البديهية والمسلمة فلا مجال للاجتهاد فيها، فهل يستطيع الشخص أن يقلب باجتهاده الليل إلى نهار أو النهار إلى ليل؟ إن مسألة حرب الجمل أو صفين والتي تعتبر ثورة ضد الحكومة الإسلامية المقبولة لدى المسلمين، وسفك دماء المسلمين بدوافع دنيوية ونوازع نفسانية وحب المقام والمنصب، لا مجال للشك والتردد في حرمة، فلا- يقال حينئذ أن مثل هذا الشخص مجتهد في ارتكاب هذا الفعل الشنيع، وإن أخطأ في اجتهاده فهو معذور ومغفور!

لماذا لا- يتخلى هؤلاء الإخوة عن التعصب ويعترفوا بأن صحابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حالهم حال سائر الناس من وجود الصالح والطالح فيهم؟

لقد تحدث القرآن الكريم في سورة البقرة، التوبة، الأحزاب، المنافقين وفي موارد عديدة، عن المنافقين وذمهم، فمن هؤلاء المنافقون؟ إن تعريف الصحابة المذكور ينطبق عليهم بشكل كامل، فلماذا يقول الإنسان شعراً يعجز عن الإتيان بالقافية كما يقول المثل؟

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٨

أليس من الأفضل القول بوجود جماعة في زمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من المنحرفين والفاستقين، وجماعة أخرى من الصالحين، والصالحون بدورهم على قسمين:

فجماعة منهم استقاموا في خط الصلاح والخير والإيمان حتى بعد رحلة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وجماعة منهم انحرفوا عن جادة الصواب والحق بسبب الأطماع الذاتية، وقد اصيب العالم الإسلامي من جراء ذلك بمصائب كبيرة، أجل هؤلاء لم ينجحوا في الامتحان الإلهي بعد النبي الأكرم عليه السلام وسقطوا في متاهات الضلالة وحب الدنيا.

وهكذا قيل: عند الامتحان يكرم المرء أو يهان [١٤].

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٩

القسم الثاني

وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهَجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمَرْجِلِ، وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ، فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

الشرح والتفسير

يستطرد الإمام في هذا القسم من الخطبة في بيان ماهية المتمردين في البصرة والموقدين لنار الفتنة ويطلب من أهل الكوفة أن يستعدوا لنصرة الإمام ومواجهة هذا العدوان وإطفاء نار الفتنة، ولذلك ومن أجل تحريضهم وإيجاد حافز لهم يقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهَجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ [١٥] جَيْشَ الْمَرْجِلِ [١٦]، وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ [١٧]». والإمام عليه السلام يشير هنا إلى اعتراضه على جلوسهم غير مكترئين بما يدور في عاصمة الإسلام المدينة المنورة التي عاشت الغليان والتقلبات الكبيرة وقد تحرّك المؤمنون في المدينة معى لإطفاء نار الفتنة التي أوقدها المناوئون في البصرة. ثم يضيف الإمام عليه السلام: «فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٠

وكما أسلفنا قبل قليل أن المراد من «دار الهجرة» المدينة المنورة التي كانت معروفة بهذا الاسم، وقد عاشت أكبر هجرة في تاريخ الإسلام وهي هجرة المسلمين والنبي من مكة إلى المدينة، وأمّا ما ذكره بعضهم من احتمال أن يكون المراد الكوفة أو كل بلاد الإسلام فهو احتمال بعيد جداً.

أمّا تشبيه المدينة بالقدر الموضوع على المرجل وفي حال الغليان فهو بسبب ما عاشته المدينة في تلك الظروف من حوادث عصبية وتداعيات خطيرة في أواخر خلافة عثمان وبعد مقتله.

والتعبير بكلمة «قامت الفتنة على القطب» إشارة إلى فتنة طلحة والزبير وعائشة، الذين خططوا لعزل الإمام عليّ عليه السلام عن مركز الخلافة أو تجزئة بلاد الإسلام بحيث تكون المدينة والحجاز بيد الإمام عليّ عليه السلام، ويكون العراق والكوفة والبصرة بيد طلحة والزبير وعائشة، والشام من حصّة معاوية، وهذه هي الفتنة العظيمة التي حذر منها الإمام عليّ عليه السلام في هذه الرسالة. إنّ هذه الرسالة القصيرة الغزيرة المعنى أثرت أثرها في أهل الكوفة فخرج منها أكثر من اثني عشر ألف رجل لنصرة الإمام عليه السلام في معركة الجمل وتوجهوا إلى البصرة، وكان لذلك دور مؤثر في انتصار جيش الحقّ على المنافقين والناكثين في معركة الجمل. واللافت أن الطبري ينقل في تاريخه عن أحد الرواة ويدعى أبو الطفيل قال: قال عليّ عليه السلام: «يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل، فقعدت على نجفة ذي قار وأحصيتهم فما زادوا رجلاً ولا نقصوا رجلاً» [١٨].

تأمل: مصير الناكثين

إنّ كلّ مؤرخ ومحقّق، بل كلّ إنسان عارف بوقائع معركة الجمل، يعلم أنّ الإمام

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢١

عليّ عليه السلام مضافاً إلى كونه منصوباً للخلافة بأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فإنّ جماهير المسلمين بايعوه للخلافة وقد استلم زمام الأمور ومقاليد الحكومة الإسلامية برصيد شعبي أقوى من الخلفاء السابقين، ولكن الطامعين بالثروة والمقام انتفضوا عليه وسفكوا في سبيل تحقيق نوازعهم الذاتية دماء كثيرة، ومعلوم أنّ جميع هؤلاء المتمردين على الإمام من العصاة والمدننين ولا يقبل لهم أيّ عذر في محكمة العدل الإلهي.

ولكن الملفت للنظر أنّ ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» يتحدّث في هذا المجال ويقول: «اختلف المتكلمون في حالها، أي

عائشة، وحال من حضر واقعة الجمل، فقالت الإمامية: كفر أصحاب الجمل كلهم الرؤساء والأتباع، وقال قوم من الحشوية والعامية: اجتهدوا فلا إثم عليهم ولا نحكم بخطئهم ولا خطأ على عليه السلام وأصحابه.

وقال قوم من هؤلاء: بل نقول: «أصحاب الجمل أخطأوا ولكنه خطأ مغفور، وكخطأ المجتهد في بعض مسائل الفروع عند من قال بالأشبه، وإلى هذا القول يذهب أكثر الأشعرية» [١٩].

وقال أصحاب المعتزلة «وابن أبي الحديد منهم»: «كل أهل الجمل هالكون إلا من ثبتت توبته منهم، قالوا: وعائشة ممن ثبتت توبتها، وكذلك طلحة والزبير، أما عائشة فإنها اعترفت لعلي عليه السلام يوم الجمل بالخطأ، وسألت العفو، وقد تواترت الرواية عنها بإظهار الندم، وأنها كانت تقول: ليتني كان لي من رسول الله صلى الله عليه وآله بنون عشرة كلهم مثل عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، وثكلتهم، ولم يكن يوم الجمل! وأنها كانت تقول:

ليتني مت قبل يوم الجمل، وأنها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكي حتى تبل خمارها.

وأما الزبير فرجع عن الحرب معترفاً بالخطأ، لما ذكره علي عليه السلام بما ذكره، وأما طلحة فحاله أيضاً حال الزبير...» [٢٠].

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٢

وهنا يطرح هذا السؤال على ابن أبي الحديد وأمثاله، وهو أنه إذا صدر عمل معين من شخص وأدى إلى سفك دماء جماعة المسلمين، فهل يكفي إظهار الندم والتوبة أمام حق الناس العظيم أو ينبغي جبران هذا الحق؟

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٣

الرسالة ٢

إشارة

إليهم، بعد فتح البصرة [٢١]

نظرة إلى الرسالة

تقدم آنفاً في بحث سند هذه الرسالة أنها تمثل مقطعاً صغيراً من رسالة مطولة كتبها الإمام علي عليه السلام بعد معركة الجمل، وتتضمن تقدير أتعابهم وما بذلوه للإسلام وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله في قبولهم دعوة الإمام واشتراكهم معه في قمع المتمردين من أصحاب الجمل والثناء عليهم من موقفهم واستقامتهم في هذا السبيل.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٥

وَجَزَاكُمْ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعَيْتُمْ فَأَجَبْتُمْ.

الشرح والتفسير: إظهار الإمام عليه السلام رضاه عن أهل الكوفة

يتبين من هذه العبارة أن الإمام يدعو بها لأهل الكوفة ويشكر قيامهم وأتعابهم ويشي على مواقفهم ويصفهم بعدة أوصاف مهمة

ويقول: «وَجَزَاكُمُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعَيْتُمْ فَأَجَبْتُمْ».

وبديهى أن المخاطب فى الرسالة هم أهل الكوفة كما ذكر ذلك المرحوم السيد الرضى فى عنوان هذه الخطبة وتؤيد ذلك القرائن الحالية أيضاً، فإن أهل البصرة انضموا فى غالبيتهم إلى جيش طلحة والزبير وقد ذمهم الإمام عليه السلام فى خطب أخرى فى نهج البلاغة [٢٢]، ولكن أهل الكوفة هم الذين استجابوا لدعوة الإمام عليه السلام ونصروه فى هذه المعركة الحاسمة وبذلك استحقوا الشكر والثناء.

أضف إلى ذلك أن المستوحى من مجموع الرسائل، كما سيأتى فى بحث الملاحظات نقلًا عن بعض مصادر أخرى، أن المخاطبين بهذه الرسالة هم أهل الكوفة.

وعبارة: «عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ» إشارة إلى أن قيامكم هذا لا يعتبر نصرة للإسلام والقرآن فحسب، بل نصرة لأهل البيت عليهم السلام أيضاً، وهذا يستوجب الثواب المضاعف لكم.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٦

ويصف الإمام عليه السلام أهل الكوفة فى هذه الرسالة بخمس صفات استحقوا على أثرها دعاء الإمام لهم:

الأولى: العمل بطاعة الله عز وجل.

الثانية: أداء شكر نعمائه.

والثالثة: الاستماع لأوامره.

والرابعة: إطاعه أمره.

والخامسة: إجابته دعوته، وهذه كلها فى الحقيقة تعبيرات مختلفة عن حقيقة واحدة.

تأمل: النص الكامل لرسالة الإمام عليه السلام لأهل الكوفة

لقد أورد المرحوم السيد الرضى، وطبقاً لمنهجه الانتقائى الذى اتبعه فى «نهج البلاغة»، مقطعاً صغيراً جداً من رسالة الإمام عليه السلام إلى أهل الكوفة، فى حين أن هذه الرسالة غزيرة المحتوى وعميقة المضمون، ومن الجدير أن يستعرضها كلها فى هذه الفقرة، لأنها تتضمن فنوناً من البلاغة إضافة إلى نكات حساسة ومصيرية للمسلمين.

وقد أورد المرحوم العلامة المجلسى فى «بحار الأنوار» نص هذه الرسالة نقلًا عن كتاب «الكافية فى ابطال توبة الخاطئة» (للشيخ المفيد) نقلًا عن أبى مخنف: ورد كتاب أمير المؤمنين عليه السلام مع عمر بن سلمة الأرجى (الأرحبى) إلى أهل الكوفة، فكبر الناس تكبيراً سمعها عامة الناس واجتمعوا لها فى المسجد، ونودى بالصلاة جامعة فلم يتخلف أحد وقرأ الكتاب و فيه:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى قُرْظَةَ بْنِ كَعْبٍ (والى الكوفة) وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٧

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّا لَقَيْنَا الْقَوْمَ النَّاكِثِينَ لِبَيْعَتِنَا وَالْمُفَارِقِينَ لِحِمَاةِنَا، الْبَاغِينَ عَلَيْنَا فِي أَمْتِنَا، فَحَجَجْنَاهُمْ فَحَاكَمْنَاهُمْ إِلَى اللَّهِ فَأَدَانَا عَلَيْهِمْ، فَقُتِلَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَقَدْ تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِمَا بِالْمَعِذَةِ وَأَقْبَلْتُ إِلَيْهِمَا بِالنِّصَةِ يَحَهُ وَاسْتَشْهَدْتُ عَلَيْهِمَا صِلْحَاءَ الْأُمَّةِ فَمَا أَطَاعَا الْمُرْشِدِينَ وَلَا أَجَابَا النَّاصِحِينَ.

وَلَاذِ أَهْلِ الْبَغْيِ بَعَائِثَةً فَقُتِلَ حَوْلَهَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ عَالَمٌ حَسِيمٌ وَضَرَبَ اللَّهُ وَجْهَ بَقِيَّتِهِمْ فَأَذْبَرُوا فَمَا كَانَتْ نَاقَةُ الْحَجْرِ بِأَشَامٍ عَلَيْهِمْ مِنْهَا عَلَى أَهْلِ ذَلِكَ الْمِصْرِ مَعَ مَا جَاءَتْ بِهِ مِنَ الْحُوبِ الْكَبِيرِ فِي مَعْصِيَتِهَا رَبِّهَا وَنَبِيِّهَا وَغَيْرِهَا فِي تَفْرِيقِ الْمُسْلِمِينَ وَسَفْكَ دِمَائِ الْمُؤْمِنِينَ

بِلا بَيِّنَةٍ وَلَا مَعْدِرَةٍ وَلَا حُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ.
فَلَمَّا هَزَمَهُمُ اللَّهُ أَمَرْتُ أَنْ لَا يُتَّبَعَ مُدْبِرٌ وَلَا يُجَازَ (وَلَا يُجَهَّزَ) عَلَى جَرِيحٍ وَلَا يُكْشَفَ عَوْرَةٌ وَلَا يُهْتَكَ سِتْرٌ وَلَا يُدْخَلَ دَارٌ إِلَّا بِإِذْنٍ وَأَمَنْتُ
النَّاسَ.

وَقَدْ اسْتَشْهَدَ مِنَّا رِجَالٌ صَالِحُونَ ضَاعَفَ اللَّهُ حَسَنَاتِهِمْ وَرَفَعَ دَرَجَاتِهِمْ وَأَثَابَهُمْ ثَوَابَ الصَّادِقِينَ الصَّابِرِينَ.
وَجَزَاكُمُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ جِزَاءِ الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ وَالشَّاكِرِينَ لِغِنَمَتِهِ فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ وَأَجَبْتُمْ إِذَا دُعِيتُمْ
فَنِعْمَ الْإِخْوَانُ وَالْأَعْوَانُ عَلَى الْحَقِّ أَنْتُمْ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ» [٢٣].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٩

الرسالة ٣

إشارة

لشريح بن الحارث قاضيه [٢٤] وَرَوَى أَنَّ شُرَيْحَ بْنَ الْحَارِثِ قَاضِيَّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، اشْتَرَى عَلَيَّ عَهْدِيهِ دَارًا بِثَمَانِينَ دِينَارًا،
فَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَاسْتَدْعَى شُرَيْحًا، وَقَالَ لَهُ:

نظرة إلى الرسالة

تعتبر هذه الرسالة فريدة في حد ذاتها، وتبين موقف الإمام علي عليه السلام من أحد قضاة المعروفين حين اشترى له داراً غالية الثمن
نسيباً، ومضمون الرسالة أن الإمام عليه السلام بعد أن يوبخ شريح على شرائه لهذه الدار، يكتب له سنداً ووثيقة لها، ولكن هذا السند
ليس كالأسناد المتداولة للدور والعقارات، بل سند زاخر بالعبر والدروس ويتضمن تغيير الدنيا وعدم الوثوق بها، ويشير إلى غفلة الناس
عن هذا الأمر واغترارهم بزخارفها وأنهم بعيدون عن حقيقة الأمر، ولو أن شريح القاضي

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٠

اطلع على هذا السند الأخلاقي قبل شرائه الدار كما يقول الإمام عليه السلام فسوف يصرف النظر عن شرائها.
والسؤال الذي يفرض نفسه: لماذا اتخذ الإمام عليه السلام هذا الموقف المتشدد من شريح القاضي؟ هل أن شريح قد اشترى تلك
الدار من مال الحرام ومن الرشاوى؟

نستبعد هذا الاحتمال في حين أن الإمام عليه السلام قد جعله قاضي الكوفة وهو بهذا الحال، أو يقال: إن الإمام علي عليه السلام في
هذه الرسالة يريد أن يقول أن الشخص إذا تولى منصب القضاء بما فيه من ولاية على نفوس وأموال وأعراض الناس، فلا بد أن يعيش
بعيداً عن زخارف الدنيا والتكالب على مطامعها، ويكون قدوة للناس في هذا المجال.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣١

القسم الأول

إشارة

بَلَّغْنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً.
فَقَالَ لَهُ شُرَيْحٌ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: فَنَظَرُ إِلَيْهِ نَظَرُ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ لَهُ:
يَا شُرَيْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيْتِكَ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيُسَلِّمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً.
فَانظُرْ يَا شُرَيْحُ لَا تَكُونُ ابْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ حَسَرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ!
أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ لَكَ كِتَاباً عَلَى هَذِهِ النُّسخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِدَرَاهِمٍ فَمَا فَوْقَ.

الشرح والتفسير: من أين لك هذه الدار!؟

بعد أن استدعى الإمام عليه السلام شريح القاضي قال له: «بَلَّغْنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً». فَقَالَ لَهُ شُرَيْحٌ: «قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ». قَالَ (الراوي): فَنَظَرُ إِلَيْهِ نَظَرُ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «يَا شُرَيْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيْتِكَ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيُسَلِّمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً». نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٢

وفى الحقيقة أن الإمام عليه السلام يريد أن يقول- فى كلامه هذا- لشريح: إنك وإن دعيت لتثيت هذه الدار باسمك ومن خلال السند والوثيقة لثلا يزاحمك عليها شخص آخر، ولكن عندما يأتى إليك ملك الموت فإنه لا يعنى بهذه الوثائق، بل يأخذك رغماً عنك ويخرجك من هذه الدار، لأن هذه الأسناد والمستمسكات إنما تنفعك فى أمور الدنيا لا فى أمر الآخرة، فلا تنفع الإنسان عندما يحين أجله ويتوجه إلى العالم الآخر.

وعبارة «شاخص» من الشخص، بمعنى المسافر، ومفهوم الجملة هو: أنك سوف تخرج من الدنيا إلى العالم الآخر كالمسافر. واحتمل البعض أن كلمة «شاخص» تعنى الشىء البين والظاهر للعيان، والإنسان عندما يرحل من هذا الدنيا يحمل على الأكف بشكل ظاهر للناس حيث يساق إلى قبره، ويحتمل أيضاً أن أحد معانى هذه الكلمة هو الشخص وترکز البصر على شىء معين، وهذا يشير إلى أن الكثير من الناس عندما يحين أجلهم تشخص أبصارهم وتبقى مفتوحة بدون حركة وكأنه ينظر إلى نقطة معينة، ولكن المعنى الأول أنسب من الجميع.

وجملة: «وَيُسَلِّمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً» إشارة إلى هذه الحقيقة وهى أن الإنسان لا يحمل من أمواله ودنياه إلى القبر سوى الكفن. وطبعاً هذا كله فى حال أنه قد اشترى الدار من ماله الحلال والطيب والطاهر، ولكن إذا كان قد اشتراها من مال حرام ومشبوہ، فإن المصيبة أعظم، ولذلك يشير الإمام على عليه السلام فى كلامه إلى هذه النقطة ويقول: «فَانظُرْ يَا شُرَيْحُ لَا تَكُونُ ابْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ [٢٥]، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ حَسَرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٣

وفى مقام الفرق بين جملة «مِنْ غَيْرِ مَالِكَ» وجملة «مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ» مع أنهما متحذان فى المعنى والمضمون ظاهراً، إلا أنه يمكن القول أن الجملة الاولى إشارة إلى المال الذى لا يعتبر من أموال الشخص ظاهراً، مثلاً يكون شريح قد اشترى هذه الدار ودفع ثمنها من بيت المال، وهذا المال ليس ماله ظاهراً وواقعاً، أما جملة: «مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ» فهى إشارة إلى الأموال التى تعتبر من ماله ظاهراً وتحت تصرفه، ولكنه قد اكتسبها من طريق الرشوة وغيرها من الطرق المشبوہة والمحرمه.

وجملة: «قَدْ حَسَرْتَ دَارَ الدُّنْيَا» ربما تشير إلى أن المال الحرام يترتب عليه آثار وضعيته خطيرة ويؤدى إلى شقاء الإنسان وإيقاعه فى المهالك، كما ورد هذا المعنى فى الكلمات القصار لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «الْحَجْرُ الْغَضْبُ فِي الدَّارِ رَهْنٌ عَلَى خَرَابِهَا» [٢٦] أو أنه إشارة إلى أنك يا شريح لو اشتريت هذه الدار من المال الحرام فإنك عما قريب سوف تفتضح وتخسر الدنيا مضافاً

إلى خسرانك الآخرة.

ثم إن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يشير إلى نقطة مركزية في هذا المقام ويقول:

«أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ لَكَ كِتَابًا عَلَى هَذِهِ النُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرَعَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِدَرَاهِمٍ فَمَا فَوْقُ». وجملة: «بِدَرَاهِمٍ فَمَا فَوْقُ» يمكن أن يقصد بها أن الثمن درهم أو أكثر منه في القلعة كما ورد في تفسير الآية الشريفة: «إِنَّ اللَّهَ لَيَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا» [٢٧]. فهنا يقصد من هذا المثل الموجودات الصغيرة ظاهراً كالبعوض وما هو أصغر منها.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٥

القسم الثاني

إشارة

وَالنُّسْخَةُ هَذِهِ:

«هَذَا مَا اشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ، اشْتَرَى مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ الْعُرُورِ، مِنْ جَانِبِ الْفَائِنِينَ، وَخِطَّةُ الْهَالِكِينَ. وَتَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارُ حِدُودَ أَرْبَعَةٍ: الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْأَفَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْمَصِيبَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّلَاثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى الْمُرْدِي، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي، وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هَذِهِ الدَّارِ. اشْتَرَى هَذَا الْمُعْتَرِّ بِالْأَمَلِ، مِنْ هَذَا الْمُرْعَجِ بِالْأَجَلِ، هَذِهِ الدَّارُ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ، وَالِدُخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ، فَمَا أَدْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرِيَ فِيمَا اشْتَرَى مِنْهُ مِنْ دَرَكٍ فَعَلَى مُبْلِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ، وَسَالِبِ نَفُوسِ الْجَبَابِرَةِ، وَمُزِيلِ مُلْكِ الْفَرَاغَةِ، مِثْلَ كِشْرَى وَقَيْصِرَ، وَتُبُعٍ وَحَمِيرَ، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَى الْمَالِ فَأَكْثَرَ، وَمَنْ بَنَى وَشَيْدَ، وَرَخْرَفَ وَنَجَدَ، وَادَّخَرَ وَاعْتَقَدَ، وَنَظَرَ بَرَعِمَهُ لِلْوَلَدِ، إِشْخَاصِهِمْ جَمِيعاً إِلَى مَوْفِقِ الْعُرْضِ وَالْحِسَابِ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ: إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَضْلِ الْقَضَاءِ «وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ» شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى وَسَلِمَ مِنْ عِلَاقِ الدُّنْيَا».

الشرح والتفسير: وثيقة عديمة النظر

في سياق ما ورد في القسم الأول من هذه الرسالة، وطبقاً لبعض الروايات فإن شريح القاضي طلب من الإمام عليه السلام وثيقة هذه

الدار فأوصاه الإمام عليه السلام بأن يكتب

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٦

هذه الوثيقة بهذه العبارة: «هَذَا مَا اشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ [٢٨] لِلرَّحِيلِ، اشْتَرَى مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ الْعُرُورِ، مِنْ جَانِبِ الْفَائِنِينَ، وَخِطَّةُ [٢٩] الْهَالِكِينَ».

والجدير بالذكر أن المتداول في تنظيم الأسناد والمستمسكات لزوم رعايته ست جهات:

١. اسم البائع والمشتري.

٢. عنوان الدار أو العقار مورد المعاملة.

٣. الحدود الأربعة لها وموقع الباب الرئيسي.

٤. الثمن والقيمة.

٥. تعيين المسؤول في حالة انكشاف الغش والخلل.

٦. الشهود.

هنا نرى أن الإمام علي عليه السلام في هذه الوثيقة التي كتبها لشريح يبدأ بذكر صفات المشتري والبائع ثم يشير إلى عنوان محل الدار

كما ذكر في العبارة أعلاه.

ثم إن الإمام عليه السلام أشار إلى الجهة الثالثة: يعنى تعيين حدود الدار الأربعة وقال:

«وَتَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارَ حُدُودُ أَرْبَعَةٍ: الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي [٣٠] الْآفَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْمُصِيبَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّلَاثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى الْمُرْدِي، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي [٣١]، وَفِيهِ يُشْرَعُ [٣٢] بَابُ هَذِهِ الدَّارِ».

وبما أن الإنسان يعيش في هذه الدنيا محاطاً بأربعة عوامل خطيرة: أحدها: ما يصيب الإنسان من آفات وبلايا، ومن السيل والأمراض والحروب التي تفرض على

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٧

الإنسان نفسها، والآخر: المصائب التي يبتلى بها الإنسان في داخله، من قبيل فقدان بعض أعضاء البدن أو موت الأعزّة والأقرباء وأمثال ذلك من مصائب الدنيا، ومن جهة ثالثة ورابعة، ما يواجهه الإنسان من إفرازات الأهواء والشهوات التي تضغط على الإنسان من داخله وتقوده إلى مهاوى الرذيلة، والشيطان الذي يوسوس للإنسان من خارجه كما يقول الإمام عليه السلام عنه: «الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي».

هذه العوامل الأربعة تحيط بالإنسان من كل الجهات، ويستطيع الإنسان من خلال تهذيب النفس والسيطرة على الأهواء والنوازع النفسانية وكبح جماح الشهوات وبالتصدى بحزم لوساوس الشيطان أن يخلص نفسه من هذين العاملين الآخرين، ولكن الآفات والمصائب التي تصيب جميع الناس بلا استثناء غير قابلة للاجتنا، ولذلك يقول الإمام عليه السلام في مورد آخر عن الدنيا أنها: «دارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْعَدْرِ مَعْرُوفَةٌ» [٣٣].

والتعبير «دَوَاعِي» فيما يخص الآفات والمصائب، إشارة إلى الأسباب التي تحيط بالإنسان وتنغص معيشته.

والتعبير «الْهَوَى الْمُرْدِي» إشارة إلى الأهواء والشهوات التي تقود الإنسان في خطّ الضلالة والهلكة المادية والمعنوية، لأن «ردى بمعنى الهلكة أو الأهواء والنوازع النفسانية التي تسوق الإنسان نحو هاوية السقوط، لأن اتباع هوى النفس يؤدى إلى أن يهوى الإنسان من مقام الإنسانية السامى ويسقط في أعماق جهنم».

وجملة: «وَفِيهِ يُشْرَعُ بِأَبْ هَذِهِ الدَّارِ» إشارة إلى أن طريق نفوذ الشيطان يكمن في باب هذه الدار الخطيرة، رغم أن سائر العوامل الأخرى تؤثر بدورها في زعزعة استقرار الإنسان وسوقه في خطّ الرذيلة والسقوط المعنوي.

وفي سياق هذا الكلام يبين الإمام عليه السلام القسم الرابع من هذه الوثيقة ويقرّر أن المشتري لهذه الدار من يتصف بالصفات التالية: «أَشْتَرَى هَذَا الْمُعْتَرِّ بِالْأَمَلِ، مِنْ هَذَا

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٨

الْمُرْعَجِ بِالْأَجَلِ، هَذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ، وَالْدُخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ» [٣٤].

أى أن ثمن الدار هو أن يخرج الإنسان من عزّ القناعة ويرتدى لباس الدّل والحرص وحبّ الدنيا.

إن عبارات الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة وأشكال التجانس والتضادّ الموجود في هذه الجمل مثيرة للإنتباه: «خروج» و «دخول»، «عزّة» و «ذلّة»، «قناعة» و «حرص».

وفي العبارات أعلاه نشاهد كلمات من الجنس المطلوب مثل: «آفات» و «مصيبات» و «مردى» و «مغوى».

ثم إن الإمام عليه السلام يشرع في بيان النقطة الخامسة المتعلقة بسند ملكية هذه الدار وتعيين المسؤول في مقابل كشف الخلل والضرر والخسارة الناشئة منها ويقول: «فَمَا أَدْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا اشْتَرَى مِنْهُ مِنْ دَرَكٍ فَعَلَى مُبْلِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ، وَسَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ، وَمُزِيلِ مُلْكِكَ الْفَرَاعِنَةِ، مِثْلِ كَشِيرَى وَفَيْصِرَى، وَبُجِّعٍ وَحَمِيرَى، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَى الْمَالِ فَأَكْثَرَ، وَمَنْ بَنَى وَشَيْدَ، زَخْرَفَ وَنَجَدَ، وَأَدَّخَرَ وَاعْتَقَدَ، وَنَظَرَ بِرَعْمِهِ لِلْوَلَدِ».

إن روح كلام الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة يقرّر أنه إذا اكتشف الإنسان غشاً وفساداً أو عيباً ونقصاً في المعاملة،

فينبغي أن يكون أحدهم مسؤولاً عن هذا الضرر والعيب، وكذلك إذا تبين أن المتاع أو البضاعة مغصوبةً ومن أملاك الغير، فيجب العمل طبقاً للعقد المكتوب في المعاملة، وهنا يقول الإمام عليه السلام: ينبغي التوجه بالمسؤولية وجبران هذه النقائص إلى عزرائيل ملك الموت الذي بيده قبض أرواح الملوك وهدم الحكومات، والمزِيل لملك الفراعنة والقيصرة وأمثالهم من الجبابرة الذين قصرُوا همتهم على جمع الأموال وبناء القصور وتشييد المنازل الفخمة

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٩

والإكثار من استملاك الضياع والعقار، فهؤلاء كلهم محكومون بالفناء والزوال من واقع الحياة.

«مبيل من مادة «بلبل» على وزن «مزرعة» ولها معانٍ متعدّدة، فأحياناً تأتي بمعنى التشويش والاضطراب، وأحياناً أخرى تأتي بمعنى الفرقة والتشردم، و «ثالثة» بمعنى الفساد، وفي هذه العبارة الأنسب هو المعنى الأخير وهو الفساد والمرض الذي يترتب على سلب النفوس من جراء زوال الملك الوارد في العبارة أعلاه.

وينبغي الالتفات إلى أنّ مفردة «كسرى» الواردة في كلام الإمام عليه السلام هي في الأصل من «خسرو»، ولها مفهوم عامّ يشمل جميع ملوك الفرس كما أنّ مفردة «قيصر» تستعمل لجميع ملوك الروم، أمّا «تبع» فتستعمل لملوك اليمن وحمير (وكذلك لبعض الملوك في اليمن) وكلّها تأتي بمعنى الملك والسلطان رغم تنوع التعبير لكل قوم من الأقوام.

وجملة: «مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ» يحتمل فيه معنيان نظراً لوجود كلمة «تشييد» التي تأتي معنى تقوية البناء وكذلك علوه وارتفاعه، ولا مانع من الجمع بينهما، أي الأشخاص الذين يشيدون الأبنية والعمارات المرتفعة والقوية.

وعبارة: «رَخِرْفَ وَنَجَدَ» كل واحدة منها تشير إلى نوع من أشكال الزينة، «زخرف» إشارة إلى تزيين البناء والعمارة، و «نجد» إشارة إلى تزيين الوسائل والأدوات من قبيل الفرش والأثاث والستائر وأمثال ذلك.

جملة: «اعتقد» التثبث والتركيز والاهتمام بدقّة في حفظ وتنظيم الأسناد والمدارك حيث يسعى طلاب الدنيا بوسواس كبير في حفظ ذخائرهم وأموالهم من خلال هذه الأسناد وحفظها من عدوان الآخرين وإبعادهم عن ممتلكاتهم وهم يظنون أنّها باقية لأبنائهم من بعدهم.

ثم إنّ الإمام عليه السلام في سياق هذه الوثيقة يقول: «إِشْخَاصُهُمْ [٣٥] جَمِيعاً إِلَى مَوْقِفِ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٠

الْعُرْضِ وَالْحِسَابِ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ: إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَضْلِ الْقَضَاءِ «وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ» [٣٦].

وكلمة: «إشخاصهم» طبقاً للتفسير أعلاه يقع مبتدأ، و «إلى مَوْقِفِ الْعُرْضِ» بمنزلة الخبر [٣٧] ولكن جمع من مفسرى «نهج البلاغة» ذهبوا إلى أنّ (إشخاص) مبتدأ مؤخر، وجملة: «فَعَلَى مُبْلَيْلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ ...» خبر مقدّم، وعلى ضوء ذلك يكون مفهوم الجملة: إنّ ملائكة الموت التي تنزل أجساد الملوك والسلاطين وتقبض أرواحهم وتزيل سلطانهم هم المسؤولون عن كشف الخلل والفساد في الأملاك الدنيوية يوم القيامة وعند موقف العرض والميزان الأعمال.

أجل، إنّ جميع أشكال القدرة والهيمنة معرضة للزوال، وجميع الثروات والأموال ستبقى بعد رحيل الإنسان من هذه الدنيا، «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...» [٣٨] ويحضرون إلى الحساب وينالون جزاءهم من الثواب والعقاب.

وفي ختام هذه الوثيقة يشير الإمام عليه السلام، كما في الأسناد والمدارك الدنيوية، إلى الشهود لهذه المعاملة المعنوية، ويقول: «شَهَدَ عَلَيَّ ذَلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى وَسَلِمَ مِنْ عِلَاقِ الدُّنْيَا».

وبما أنّ الشاهد يجب أن يكون عادلاً وثقة فإنّ الإمام عليه السلام يقول في هذا الصدد:

إنّ العقل يمكنه أن يكون شاهداً على هذا الأمر إذا خرج عن أسر الأهواء النفسانية وتخلّص من العلائق المادية والدنيوية التي من شأنها تكبيل العقل وحجبه عن درك الحقيقة.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤١

وعلى هذه الأساس يبين الإمام علي عليه السلام بأجمل صورة وأبلغ بيان، الأركان الستة لهذه السند المعنوي.

تأملان

١. الباعث لكتابة السند

هذا السند العجيب الذين كتبه الإمام علي عليه السلام لأحد قضاته يستحق الدراسة والتعمّن من عدّة جهات: الأولى: إنّ ثمانين ديناراً لهذه الدار لم يكن بالثمن الباهض للدار، ولكن بما أنّ المشتري لهذه الدار أحد القضاء، ومعلوم أنّ القاضي يقع دائماً في دائرة الاتهام والوساوس النفسانية، فمن هذه الجهة لم يرتض الإمام عليه السلام لشريح دفع هذا الثمن من المال للدار. أضف إلى ذلك فنحن نعلم أنّ عصر حكومة وخلافة الإمام عليه السلام جاءت بعد سنوات مريرة وخطيرة من خلافة عثمان التي اقترنت بمظاهر الإسراف والتبذير بشكل واسع لبيت المال، وتوجّه بعض رموز المجتمع الإسلامي للحياة المرفهة، والتوغّل في التجمل والثراء، ومن أجل أن يتصدّى الإمام لهذه الظاهرة الخطيرة ويوقف هذا التيار عند حدّه، كان يكثر في خطبه وكتبه الواردة في «نهج البلاغة» من التحذير من زخارف الدنيا وبريقها الخادع وأتخذ لنفسه أيضاً حياة الزهد والتقشف، وفي حين أنّه يقف على رأس الحكومة الإسلامية لم يكن مستعداً أبداً أن يعطى لأخيه عقيل شيئاً - ولو قليلاً - من بيت المال، وعندما أُخبر بأنّ واليه على البصرة (عثمان بن حنيف) استجاب لدعوة أحد أثرياء تلك المدينة وجلس على مائدة يستطاب فيها أنواع الأطعمة وقد دعى معه طبقه من الأشراف والأغنياء ولم يدع إليها الفقراء، اغتم لذلك بشدّة وكتب إليه رسالة شديدة اللهجة يوبّخه فيها على عمله واستجابته لدعوة الأغنياء.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٢

كلّ ذلك من أجل أن يغيّر الإمام علي عليه السلام تلك الثقافة الخاطئة والمنافية للتعاليم الإسلامية، ويعيد المسلمين إلى ثقافة الإسلام الأصيلة التي عاشوها في عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ومعلوم أنّ شراء القصور الفخمة والبيوت المجلّلة الباهضة الثمن والتي ربّما تكون أغلى بكثير من دار شريح، كان متداولاً بين الطبقة المترفة من المسلمين، ولكن هذه الرسالة كانت بمثابة إنذار للجميع أن يأخذوا حذرهم ويحسبوا حسابهم وخاصة من المنتسبين للحكومة الإسلامية ليكونوا على فاق تامّ مع توجهات الحكومة الإسلامية. ومعلوم أيضاً أنّ هذه الرسالة قد انتشرت في ذلك الوقت بين الناس من يد لأخرى وقد أطلع الكثير على مضمونها وأنّ الإمام عليه السلام كتب رسالة بهذه المضمون إلى شريح القاضي، وبالتالي انتبه البعض إلى تطلّعات الإمام عليه السلام وربّما أدّى بالبعض الآخر أن يوفّق مسيرته وسلوكياته مع تعاليم الإمام عليه السلام خوفاً من اعتراض الناس.

هذه الرسالة لا تخصّ ذلك العصر والزمان، بل تمتدّ بمضمونها وفحواها إلى عصرنا هذا والمستقبل، وتصدّق على جميع الأجيال والعصور ولا تختصّ بطائفة معيّنة أو شريحة خاصّة من الناس.

نحن اليوم نرى بعض الأشخاص يبدلون الكثير من الأموال لبناء الدور الفخمة ويتعبون أنفسهم في تشييدها بأغلى الزينة ويشترون لها الكثير من الأثاث وغير الأثاث واللوازم غير الضرورية ويجلبون لها من التحف والزخارف والأموال النفيسة من شتى بقاع العالم وأحياناً ينفقون عمرهم لبناء هذه الدار وربّما ينتهي عمرهم دون أن ينتهي البناء، وغنى عن البيان أنّ مثل هذه النفقات الباهضة لا يمكن للإنسان توفيرها من طريق مشروع، وبالتالي يكون وزرها وإثمها على عاتقه، بينما يستفيد منها الآخرون.

٢. من هو شريح؟

شريح بن الحارث، أبوامية من قبيلة «بنى كندة» وما ذكره البعض من كونه شريح

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٣

بن هاني فهو خطأ، ولكن هناك بحث بين المؤرخين هل أن شريح من الصحابة أم لا؟ فقد ورد في كتاب «اسد الغابة»: أن شريح أدرك عصر رسول الله صلى الله عليه وآله ولكنه لم يحض بلقائه، وقال بعضهم: إنه لقي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأسلم على يده وقال شريح:

يا رسول الله! أنا من اسرة كثيرة العدد في اليمن، فقال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: فات بهم.

ولكنه عندما أتى باسرتة إلى المدينة كان النبي قد رحل من هذه الدنيا.

يقول ابن الأثير في «اسد الغابة»: كان عمر بن الخطاب قد نصبه قاضياً للكوفة وبقى على هذا المنصب إلى زمان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد أبقاه الإمام في منصبه لسابقته في هذا العمل، ولكن طبقاً للرواية المعتبرة الواردة في كتاب «وسائل الشيعة»: أن الإمام عليه السلام اشترط عليه أن لا يصدر حكماً دون اطلاعه وإعلامه: «لَمَّا وَلِيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ شُرَيْحًا الْقَضَاءَ اشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُنْفِذَ الْقَضَاءَ حَتَّى يَعْرضَهُ عَلَيْهِ» [٣٩].

وبقى شريح في هذه المنصب إلى زمان الحجاج.

وذهب جماعة من المؤرخين أن شريحاً كان ذكياً وبارعاً، ولكن هذا لا يعني أنه لم يترك بعض الأخطاء الفاحشة في أمر القضاء والتي وردت موارد منها في كتب الحديث [٤٠].

كتب الدميري صاحب كتاب «حياة الحيوان»: قيل للشعبي (وهو من التابعين) يقال في المثل «إِنَّ شُرَيْحًا كَانَ أَذْهَى مِنْ الثَّغْلَبِ وَأَحْيَل»، فما هذا؟

فقال: خرج شريح أيام الطاعون إلى النجف، فكان إذا قام يصلي يجيء ثعلب فيقف تجاهه ويحاكيه ويخيل بين يديه ويشغله عن صلاته، فلما طال ذلك عليه نزع قميصه فجعله على قصبه وأخرج كميته وجعل قلنسوته عليها، فأقبل الثعلب فوقف بين يديه على عادته فأناه شريح من خلفه وأخذه بغتة فلذلك يقال: «إِنَّ شُرَيْحًا كَانَ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٤

أَذْهَى مِنْ الثَّغْلَبِ وَأَحْيَل» [٤١].

ويرى ابن خلكان أن شريحاً كان من التابعين رغم أنه أدرك عصر الجاهلية وقال ابن خلكان: إن شريحاً جلس على كرسي القضاء خمس وستين عاماً وفي طيلة هذه المدة لم يترك القضاء سوى ثلاث سنوات في زمن فتنه عبدالله بن الزبير، وقد استقال من منصبه في زمان الحجاج ولم يمارس القضاء إلى آخر عمره.

وذكر المؤرخون أنه كان أمرداً.

أمّا فيما يخص عمره فهناك خلاف، حيث ذهب بعض إلى أنه بلغ من العمر مائة وعشرين سنة، وذهب آخرون إلى عمره مائة وعشر سنوات، بينما ذكر آخرون أقل من هذا وأكثر.

ولا شك أن شريحاً قد أصيب في خاتمة عمره بسوء العاقبة، وأحد الشواهد على ذلك القصة التي يذكرها الطبري في تاريخه عن أبي مخنف، يقول: حدّثني الصقعب ابن زهير عن عبدالرحمن بن شريح قال: سمعته يحدث إسماعيل بن طلحة، قال:

دخلت على هاني بن عروة (في زمن إمارة ابن زياد على الكوفة) فلما رأني قال: يا لله، يا للمسلمين أهلكت عشيرتي فأين أهل الدين وأين أهل المصر، إيتاي يخلون وعدوهم وابن عدوهم، والدماء تسيل على لحيته، إذ سمع الرجّة على باب القصر، وخرجت واتبعني

فقال: يا شريح إنّي لأظنّها أصوات مذحج وشيعتى من المسلمين، إن دخل علىّ عشرة نفر أنقذونى، قال: فخرجت إليهم ومعى حميد بن بكر الأحمريّ- أرسله معى ابن زياد- وكان من شرطته وممّن يقوم على رأسه، وأيم الله لولا مكانه معى لكنت أبلغت أصحابه ما أمرنى به، فلمّا خرجت إليهم قلت: إنّ الأمير لمّا بلغه مكانكم ومقاتلكم فى صاحبكم أمرنى بالدخول إليه، فأتيته ونظرت إليه فأمرنى أن ألقاكم وأن اعلمكم أنّه حيّ وأنّ الذى بلغكم من قتله كان باطلاً، فقال عمرو وأصحابه: فأمّا إذ لم يقتل فالحمد لله، ثم انصرفوا [٤٢].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٥

فلمّا انصرف الناس أقدم ابن زياد على قتل هانى، وفى الحقيقة أنّ شريحاً كان يعلم أنّ هانى فى خطر، فلماذا أمر أصحابه وأنصار بالعودة والانصراف وقدم رضا ابن زياد على رضا الله عزّ وجلّ؟! إنّ المواقف غير المسؤولة أو السكوت المشبوه فى مقابل استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وأسر ذريته وأهل بيته والمجىء بهم إلى الكوفة، كلّها شواهد أخرى على خبث طبعه وضعف نفسه واهتزاز إيمانه، فلو أنّ شريحاً لم يأمر قبيلة بنى مذحج بالعودة عندما أحاطوا بدار الإمارة، فإنّه من الممكن أن تتغيّر أوضاع الكوفة وتنقلب الموازين ضدّ قوى الكفر والانحراف ويكون مصير ثورة الإمام الحسين عليه السلام بشكل آخر [٤٣].

يستفاد من رواية أبى مخنف فى كتابه (مقتل الحسين) أنّ المختار عندما ولى أمر الكوفة عزل شريحاً من منصبه بسبب تقصيره فى أمر نصرته الإمام الحسين عليه السلام [٤٤].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٧

الرسالة ٤

إشارة

إلى بعضِ أمراء جيشه [٤٥]

نظرة إلى الرسالة

إنّ مضمون هذه الرسالة بين وجلىّ، فالإمام علىّ عليه السلام يأمر فيها أحد قادة جيشه الذى كان يواجه فتنه من المنحرفين والعصاة أن يأخذهم بالنصيحة والعودة إلى خطّ الطاعة والإيمان، فإن لم يقبلوا فيجب عليه استخدام القوّة فى سبيل إسكات هذا التمرد وإطفاء نار الفتنة.

وكما سنشير لاحقاً أنّ المخاطب لهذه الرسالة هو عثمان بن حنف والى البصرة الذى كان فى ذلك الوقت قائداً لجيش الإمام عليه السلام فى تلك المنطقة، ومن هنا عبّر السيّد الرضىّ فى عنوان هذه الرسالة أنّها: «إلى بعضِ أمراء جيشه».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٩

فَإِنْ عِبَادُوا إِلَى ظِلِّ الطَّاعِيَةِ فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَوَافَتِ الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَى الشَّقَاقِ وَالْعِصْيَانِ فَانْهَوِمْ بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ، وَاسْتَعْنِ بِمَنْ انْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ، فَإِنَّ الْمُتَكَارَةَ مَعِيْبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ، وَقَعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهْوِضِهِ.

الشرح والتفسير: يجب إقالة الضعفاء

قبل البحث فى تفسير هذه الرسالة لابدّ من الالتفات إلى شأن صدورها، فقد ذكر المرحوم الشيخ المفيد فى كتاب الجمل:

«لَمَّا تَمَّ أَمْرُ الْبَيْعَةِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاتَّفَقَ عَلَى طَاعَتِهِ عَامِيَّةُ بَنِي هَاشِمٍ وَوَجُوهُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ، وَأَيْسَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِمَّا كَانَا يَرْجُو أَنَّهُ يَبْقَى عِثْمَانَ مِنْ بَيْعَةِ النَّاسِ لِأَحَدِهِمَا بِالْإِمَامَةِ، وَتَحَقَّقَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ تَمَامَ الْأَمْرِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَعَدُوِّ لَهُمْ عَنْ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَكَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَمِيلُ لَهَا لِمَكَانَتِهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَنَّهَا مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَ...»

ولَمَّا عَرَفَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِنْ حَالِهَا وَحَالَ الْقَوْمِ، عَمِلَا عَلَى اللَّحَاقِ بِهَا وَالتَّعَاوُذِ عَلَى شِقَاقِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَارَا إِلَى مَكَّةَ خَالِعِينَ الطَّاعَةَ وَمَفَارِقِينَ الْجَمَاعَةَ، فَلَمَّا وَرَدَا إِلَيْهَا فِيمَنْ تَبِعَهُمَا مِنْ أَوْلَادِهِمَا وَخَاصَتَهُمَا، طَافَا بِالْبَيْتِ طَوَافَ الْعِمْرَةِ وَسَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَبَعَثَا إِلَى عَائِشَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَقَالَا لَهُ: إِمَضِ إِلَى خَالَتِكَ فَاهْدِ
نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٠

إِلَيْهَا السَّلَامَ مَنَّا وَقُلْ لَهَا: إِنَّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ يَقْرَأُ بِكَ السَّلَامَ وَيَقُولَانِ لَكَ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِثْمَانَ قَتَلَ مَظْلُومًا، وَأَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ابْتَرَأَ النَّاسَ أَمْرَهُمْ وَغَلِبَهُمْ عَلَيْهِ بِالسَّفَهَاءِ الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَتْلَ عِثْمَانَ وَنَحْنُ نَخَافُ انْتِشَارَ الْأَمْرِ بِهِ، فَإِنْ رَأَيْتِ أَنَّ تَسِيرِي مَعَنَا، لَعَلَّ اللَّهَ يَرْتَقِ بِكَ فَتَقِ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَيَشْعَبُ بِكَ صَدْعُهُمْ وَيَلْمُ بِكَ شِعْثَهُمْ وَيُصَلِّحُ بِكَ أُمُورَهُمْ، فَأَتَاهَا عَبْدُ اللَّهِ فَبَلَّغَهَا مَا أُرْسَلَهَا بِهِ، فَأَظْهَرَتْ الْاِمْتِنَاعَ مِنْ إِجَابَتِهِمَا إِلَى الْخُرُوجِ عَنْ مَكَّةَ وَقَالَتْ: يَا بَنِي لَمْ آمُرْ بِالْخُرُوجِ لَكِنِّي رَجَعْتُ إِلَى مَكَّةَ لِأَعْلَمَ النَّاسَ مَا فَعَلَ بِعِثْمَانَ إِمَامِهِمْ....
فَقَالَ لَهَا عَبْدُ اللَّهِ: فَإِذَا كَانَ هَذَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ يَا أُمَّهُ، وَرَأَيْتِ فِي قَاتِلِي عِثْمَانَ فَمَا الَّذِي يَقْعُدُكَ عَنِ الْمُسَاعَدَةِ عَلَى جِهَادِ عَلِيٍّ وَقَدْ حَضَرَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ فِيهِ غَنَى وَكِفَايَةٌ فِيمَا تَرِيدِينَ! فَقَالَتْ: يَا بَنِي افْكُرْ فِيمَا قُلْتَ وَتَعَوَّدِ إِلَيَّ... وَلَمَّا كَانَ الْغَدُ أَجَابَتْ إِلَى الْخُرُوجِ
....

إِنَّ عَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ لَمَّا سَارُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْبَصْرَةِ أَغْدَوْا السَّيْرَ مَعَ مَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنْ بَنِي أُمَّيَّةَ وَعَمَالَ عِثْمَانَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ حَتَّى صَارُوا إِلَى الْبَصْرَةِ فَتَزَلُّوا حَفْرَ أَبِي مُوسَى فَبَلَغَ عِثْمَانَ بَنَ حَنِيفٍ وَهُوَ عَامِلُ الْبَصْرَةِ يَوْمَئِذٍ وَخَلِيفَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ». فكتب عثمان بن حنيف كتاباً لأمر المؤمنين عليه السلام يعلمه فيه بدخول عائشة وطلحة والزبير البصرة ويطلعه على مجريات الأمور فيها، فكانت هذه الرسالة - مورد البحث - جواباً على رسالة عامله عثمان بن حنيف، يأمره فيها والمخلصين له من أهل البصرة بالوقوف بوجه المتمردين وقتالهم [٤٦].

والآن نأتي إلى شرح هذه الرسالة، فالإمام يقول فيها: «فَإِنْ عَادُوا - أَيْ الْمْتَمَرِّدِينَ الَّذِينَ لَمْ يَمْتَثِلُوا الْأَمْرَ فِي جَيْشِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، فَعَلَيْكُمْ بِتَقْدِيمِ النَّصِيحَةِ لَهُمْ - إِلَى ظِلِّ الطَّاعَةِ فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَوَافَتْ [٤٧] الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَى
نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥١

الشَّقَاقِ وَالْعِصْيَانِ فَانْهَدْ [٤٨] بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ وَاسْتَعْنِ بِمَنْ انْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ [٤٩] عَنْكَ .
والتعبير بـ «ظِلُّ الطَّاعَةِ» تعبير لطيف ويشير إلى أن العصيان والتمرد ومخالفة أوامر الحاكم الإسلامي حالها حال الشمس المحرقة، بينما الطاعة والسكينة وامتثال أوامر القادة العدول بمثابة الظل الوارف الذي يعم خيره المجتمع الإسلامي.
والفرق بين الشقاق والعصيان، أن الشقاق بمعنى الفرقة والانفصال، وأما العصيان والتمرد فشيء أعلى وأشد من مجرد الافتراق عن جماعة المسلمين.

ثم إن الإمام عليه السلام يشير في ختام هذه الرسالة إلى الدليل على أمره هذا ويقول:

«فَإِنَّ الْمُنْكَارَةَ [٥٠] مَغِيْبُهُ [٥١] خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ، وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهُوضِهِ».

وهذا هو ما ذكر القرآن الكريم عن بعض المنافقين في سورة التوبة وقال: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا حِطْلًا لَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ» [٥٢].

فالعناصر الضعيفة التي تخاف من النزول إلى ساحة القتال وتكره مواجهة الأعداء لا تزيد الجيش الإسلامي إلا ضعفاً، وبالتالي فإن

غيابهم وعدم حضورهم أفضل من مشاركتهم في المواجهة الحاسمة.

تأملان

١. جرائم الناكثين في معركة الجمل

يستفاد من تاريخ الطبرى وبعض الكتب الأخرى وكذلك فى خطبة ١٧٢ التى
نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٢

سبق وأن شرحناها بالتفصيل أنّ عثمان بن حنيف بعد ورود طلحة والزبير وجيشهما إلى البصرة جاء إلى هذه المدينة ومعه أمر من الإمام على عليه السلام بمواجهة المتمردين وعناصر الشغب فى البصرة إلى أن يأتى إليها الإمام عليه السلام بنفسه، ولكن أهل البصرة انقسموا إلى فئتين: فئة تقول بوجوب نصره الإمام على عليه السلام ضد مناوئيه، وفئة أخرى تؤيد المخالفين والمتمردين وتقول بوجوب نصره عائشة زوجة النبى وأنصارها، وكانت هناك بعض المناوشات بين هاتين الفئتين، والجدير بالذكر أنّ (جارية بن قدامة) وهو أحد رؤساء قبائل البصرة جاء إلى عائشة فقال: يا أم المؤمنين، والله فإن قتل عثمان بن عفان من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، إنّه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكتى سترك وأبحتى حرمتك، إنّه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك، إن كنت أتيتنا طائعه فارجى إلى منزلك وإن كنت أتيتنا مستكرهه فاستعنى بالناس.

وعلى أية حال، فإن طلحة والزبير وأتباعهم كانوا قد لبسوا الدروع تحت لباسهم وجاؤوا إلى المسجد عند الفجر لإقامة صلاة الصبح، وجاء عثمان بن حنيف إلى المسجد وهو لا يعلم بمجريات الأمور ليصلى بالناس أيضاً، فجاء أنصار طلحة والزبير وسحبوه من رداءه وقدموا الزبير للصلاة، وكانت طائفة من حراس بيت المال يدعون «السبابجة» أخرجوا الزبير من المسجد ووضعوا عثمان مكانه، ولكن أنصار الزبير هجموا عليهم ودفعوا عثمان بن حنيف وأتباعه من موقعهم، واستمر هذا التدافع والمناوشات إلى طلوع الشمس، فصاحت جماعة: يا أصحاب محمد اتقوا الله فإن الشمس قد أوشكت على الطلوع فكيف الصلاة؟ وأخيراً تغلب الزبير وأنصاره وأقام الزبير صلاة الصبح بالناس، وبعد الصلاة هجم الزبير مع أنصاره المسلحين على عثمان بن حنيف وأتباعه وقبضوا عليه وضربوه حتى كاد أن يموت واتفقوا على رأسه ولحيته وأهدابه، وعدّبوها جماعة من أنصاره وقتلوه.

وقد أشار الإمام على عليه السلام فى الخطبة ١٧٢ إلى هذه القضية وقال: «فوالله لو لم

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٣

يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بَلَا جُزْمَ جَرَّةٍ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ، كُله [٥٣].

وطبعاً فإن هذه المناوشات غير ما حدث من تنازع واختلاف بين طلحة والزبير على مسألة إمامة الصلاة، حيث كان كل منهما يريد إمامة الجماعة فتوسّطت عائشة بينهما وتقرّر أن يصلى بالناس عبد الله بن الزبير.

وقد ارتكب أتباع طلحة والزبير وعائشة فى هذه المدة جرائم عجيبة، منها أنّهم قتلوا «السبابجة» الذين كان عددهم سبعين رجلاً وقيل: أربعة نفر، وقطعوا رؤوسهم بأمر من عائشة، وقد استمرت هذه الأوضاع الدامية إلى أن جاء الإمام على عليه السلام وجيشه وسحقوا المتمردون والناكثين فى معركة الجمل وقتل طلحة والزبير وأرسل الإمام عليه السلام عائشة مع جماعة من الحرس إلى المدينة، وعاد الهدوء والأمن إلى البصرة [٥٤].

٢. على من يمكن الاعتماد؟

وقد أشار الإمام على عليه السلام فى هذه الرسالة إلى نقطة مهمّة جدية بتدبر واهتمام جميع القادة والعسكريين، وهى أنه لا ينبغي

الاعتماد على العناصر المهزوزة وضعيفة الإرادة في حسابات المعركة، ولا ينبغي تحشيدهم لمجرد تكثير السواد في ميدان القتال، لأن ضررهم وخطرهم أكثر من نفعهم، فعدم حضور هؤلاء المزيّفين، في ميدان القتال يوجب السكينة والطمأنينة في قلوب المجاهدين وبالعكس فإن حضورهم ومشاركتهم تؤدي إلى اهتزاز الموقف وتشويش النوايا واضطراب الدوافع.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يشبه هذا المعنى كما أسلفنا في معركة تبوك (وكذلك معركة احد) وفي المورد الأول يقول القرآن الكريم: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٤

زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعُوهَا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ» [٥٥]. والفتنة هنا العمل على إيجاد الفرقة والنفاق وتمزيق الصف. وبالنسبة لغزوة أحد تقول الآية الشريفة بعدها: «لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ» [٥٦] أي أن هؤلاء كان قد سبق أن طلبوا الفتنة وتشويش الأمور في معركة احد.

وخلاصة الكلام، أن الآيات الشريفة أعلاه تبين لجميع المسلمين درساً مهماً وهو أنه لا ينبغي لهم الاهتمام بزيادة عدد الجيش وكثرة الجنود، بل ينبغي الاهتمام بكسب واختيار الأشخاص الذين يتمتعون بروح الإيمان والإخلاص مهما كان عددهم قليلاً، كما يظهر ذلك من الآيات الشريفة التي تتحدث عن قصة بني اسرائيل وطالوت وجالوت: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ» [٥٧].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٥

الرسالة ٥

إشارة

إلى الأشعث بن قيس عامل أذربيجان [٥٨]

نظرة إلى الرسالة

هذه الرسالة تشير في الأساس إلى نقطة واحدة، وهي أن المقامات والمناصب في الحكومة الإسلامية ليست وسيلة للوصول إلى المال والثروة وما إلى ذلك، بل هي أمانات إلهية يجب مراعاتها بدقة والالتزام بلوازمها من موقع الوعي والإيمان، ولهذا السبب لا ينبغي استخدام وسائل الإكراه ومنهج الاستبداد في إدارة الأمور وكذلك لزوم الاحتياط التام في التعامل مع بيت المال.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٧

وَإِنَّ عَمَلَك لَيْسَ لَكَ بِطَعْمَةٍ وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعَى لِمَنْ فَوْقَكَ. لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّتِهِ، وَلَا تُخَاطِرَ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَائِنِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَلَّا أَكُونَ شَرًّا وَلَا تَكَّ لَكَ، وَالسَّلَامُ

الشرح والتفسير: المناصب الحكومية في الإسلام أمانة إلهية

كما أشرنا آنفاً أن السيد الرضى الذي أورد هذه الرسالة نقل مقطعاً من رسالته مفصلة وردت في كتاب وقعه صفيين، ويستفاد من هذه الرسالة أن الأشعث بن قيس وبسبب السوابقه السيئة كان يشعر بالقلق على موقعه بعد استلام الإمام علي عليه السلام مقاليد الخلافة فربما عزله الإمام عليه السلام عن إمارة أذربيجان وبذلك اتخذ من معركة الجمل وقتل عثمان ذريعة للتمرد على حكومة الإمام عليه السلام، ومن أجل ذلك والحيلولة دون وقوع الفتنة، كتب له الإمام عليه السلام هذه الرسالة ليتدارك أمره وقد ذكر في بدايتها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ أَمَا بَعْدُ، فَلَوْ لَاهِنَاتُ وَهَنَاتُ كُنَّ مِنْكَ لَكُنْتَ الْمُقَدَّمُ فِي هَذَا الْأَمْرِ قَبْلَ النَّاسِ وَلَعَلَّ آخِرَ أَمْرِكَ يَحْمَدُ أَوْلَاهُ، وَيَحْمِلُ بَعْضُهُ بَعْضًا، إِنْ اتَّقَيْتَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ».

ثم إن الإمام عليه السلام، في سياق هذه الرسالة، أشار إلى قتل عثمان وبيعه الناس له وتمرد طلحة والزبير ونقضهم البيعة له وأضاف: أنهما أخرجا عائشة من بيتها إلى البصرة وأتى قد سرت إليهم مع ثلثة من المهاجرين والأنصار حتى اصطف الجيخان نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٨

وتقابل جيش الحق مع زمرة المتمردين والمخالفين وطلبت منهم الكف عن التمرد والعناد والعودة إلى البيعة والوفاء بالعهود، وقد أتمت عليهم الحجة ولكنهم لم يقبلوا إلا بالقتال، وما كان من أمر المعركة ما كان ودارت عليهم الدائرة وجرح بعضهم وفر الآخرون، وقد أمرت أن لا- يجهز على المجروحين ولا- يتم تعقيب الهاربين وكل من ألقى سلاحه على الأرض ورجع إلى داره وأغلق بابه عليه فهو آمن [٥٩].

ثم إن الإمام عليه السلام في هذه المقطع من الرسالة الذي ينقله السيد الرضى يقول محذراً بجمليتين ذات معنى عميق: «وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ [٦٠] وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعَى لِمَنْ فَوْقَكَ».

التعبير أعلاه يبين رؤية الإسلام للمناصب الحكومية والمسؤوليات التي تقع على عاتق أصحاب الشأن السياسي، ومن وجهة نظر الإسلام أن رئيس الحكومة، الوزراء، الامراء، والولاة، ليسوا سوى امانة يتولون إدارة أمور المجتمع الإسلامي ويتحملون الأمانة الإلهية في هذا الشأن، فلا ينبغي استخدام هذه المناصب وسيلة لاحتراز التفوق وتغليب المصالح الشخصية والتوصل إلى المآرب الذاتية والفئوية بل ينبغي مراعاة هذه المسؤولية كالشخص الأمين الذي يجب عليه إعادة الأمانة سالمة إلى أهلها.

وقد ورد هذا المعنى في روايات عديدة في تفسير الآية الشريفة: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا» [٦١]، فإن هذه الأمانة هي الولاية وحكومة الأولياء الصالحين [٦٢].

وطبعاً أن تفسير هذه الآية لا يعنى أن مفهوم الآية ينحصر في أمر الحكومة

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٩

والإمامة، بل هي من المصدايق البارزة والمهمة لهذا المفهوم الأخلاقي الواسع.

ثم إن الإمام عليه السلام بعد أن يتقدم للأشعث بهذا الإنذار يبين ثلاث وظائف له بوصفه والياً، فيقول أولاً: «لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ [٦٣] فِي رِعْيَةٍ [٦٤]».

بل يجب عليك العمل وفق الموازين الإلهية وما ورد في تعاليم الإسلام عن حقوق الله، لا أن تتصرف كما يحلو لك، وتتعامل مع الرعية كما يتعامل السيد مع عبيده.

ثم إن الإمام عليه السلام يقرر الأمر الثاني ويقول: «وَلَا تُخَاطِرُ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ». أى أنه لا ينبغي لك في الأعمال المهمة والخطيرة أن تتسرع وتقدم عليها بدون اطمئنان من النتائج.

ومع الالتفات إلى أن جملة «وَلَا تُخَاطِرُ» من مادة خطر، وأن كلمة خطير تستخدم للأمور المهمة بسبب الأخطار المترتبة عليها، فيكون مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة هو اجتناب الإقدام على أى عمل مصيرى للناس والمجتمع إلا بعد التأمل والدقة والمشورة، وإذا لزم الأمر يجب الاستئذان من الإمام والقائد الأعلى، لأنه من أجل حفظ الأمانات المهمة لا بد من الامتناع من أى عمل خطير، وعلى ضوء ذلك فإن مفردة «وثيقة» تستوعب في مضمونها التفكير والتأمل وكذلك المشورة والاستئذان من الإمام عند اللزوم.

وفي الأمر الثالث الذى أكد عليه الإمام عليه السلام فيما يتصل بحفظ الأموال وبيت المال،

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٠

قال عليه السلام: «وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَائِنِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ».

وفى نهاية هذه الرسالة يثير الإمام عليّ عليه السلام فى نفس واليه الطمأنينة بأنه إذا سار فى الخطّ السليم وحفظ هذه الأمانة الإلهية ورعى شؤون هذه المسؤولية فالإمام عليه السلام لا يتعرض له بأى مكروه وسيكون فى أمان من المؤاخذه، يقول: «وَلَعَلِّي أَلَّا أَكُونَ شَرًّا وَوَلَاتِكَ لَكَ وَالسَّلَامُ».

وبديهى أنّ هذا التعبير زاخر بالتواضع ومفعم بالابوة.

تأملات

١. دستور كامل

اللافت أنّ الإمام عليه السلام فى هذا المقطع القصير من الرسالة يبين جميع ما ينبغى عمله لمسؤول سياسى فى الحكومة الإسلامية، ففى البداية يبين حقيقة منصبه وماهية هذه المقام ليعيش الوالى الوعى الكامل بمقتضيات هذا المقام وأنه ليس سوى أمين لا حاكم متسلط على رقاب الناس.

ثم يلفت الإمام عليه السلام النظر إلى أول شىء يصيب الولاية فى عمليته الحكم وهو مسألة الاستبداد بالرأى وترجيح الرغبات الشخصية والرؤى الذاتية على منافع الناس ومصالح الامية، وخاصية أنّ الإمام عليه السلام استخدم فى هذه العبارة مفردة «الرعية» التى توحى بمفهوم ضرورة مراعاة هذه الطبقة ولزوم النظر فى مصالحهم وتقديم النفع الجمعى فى سلم الأوليات.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يأمر واليه بأن لا يحسب الأمور الاجتماعية المهمة كالأموال الشخصية، فلا ينبغى أن يتسرع فى اتخاذ التدابير الخطيرة بدون النظر إلى أبعادها وآثارها فى المجتمع، وأن لا يتصرف من دون الاطمئنان والنظر إلى عواقبها وتداعياتها.

وأخيراً أشار الإمام عليه السلام إلى أحد العوامل التى تؤدى إلى فساد وانهايار الحكومات وهى مسألة الأموال والثروات العامية واعتبر هذه الأموال «مال الله» وهذا هو التعبير

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٦١

الذى ورد فى القرآن الكريم عندما تحدّث عن العبيد الذين تحرّروا من ربقه الرّق والأمر الشرعى بإعطائهم المال الكافى لمزاولة العمل والكسب وأداء ديونهم فقال تعالى: «وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ» [٦٥].

ثم إنّ الإمام عليه السلام يأمر واليه بوصفه أميناً وخازناً لمال الله ويأمره بالمحافظة على هذا المال إلى أن يصل بيد الإمام ويتم توزيعه على مستحقيه.

وفى ختام الرسالة يثير الإمام عليه السلام الاطمئنان فى نفس واليه أنه لو لم ينحرف عن جادة الصواب ومسير الحق فإنه سيكون فى أمان من المؤاخذه والعقوبة، ولكن الإمام عليه السلام فى ذات الوقت يحذّر من مغية عدم العمل بالنصائح الثلاث المذكورة لهذه الرسالة وأنه ينبغى للأشعث أن ينتظر العواقب السيئة من جراء عدم امتثال الأوامر.

ومما يجدر ذكره أنّ نصر بن مزاحم يذكر فى كتاب «صفين»: «لما كتب عليه السلام إلى الأشعث مع ماضيه الأسود، قال الأشعث لأصحابه: قد أوحشنى وهو آخذنى بمال آذربايجان، وأنا لاحق بمعاوية، فقالوا: الموت خير لك من ذلك، أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام، فسار حتى قدم عليه عليه السلام». فاتبه الأشعث إلى خطئه وجاء أخيراً إلى الإمام عليه السلام وسكن فى الكوفة» [٦٦].

٢. من هو الأشعث بن قيس؟

تقدّم فى الجزء الأول من هذه الدورة وفى ذيل الخطبة ١٩ أنّ الإمام عليّ عليه السلام كتب رسالة شديدة اللهجة للأشعث بن قيس،

وكتبنا شرحاً وافياً عن حال الأشعث واسمه الحقيقي، معدى كرب وبسبب شعره الجعد سُمي بالأشعث بحيث غلب على اسمه الأصلي وبقى هذا الاسم الثاني متداولاً ومعروفاً بين الناس.

وللأشعث ماضٍ أسود وسوابق سيئة كثيرة، فقد ارتكب الكثير من الجرائم في نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٢

عصر الجاهلية وتم أسرهم من قبل أعداء قومه واضطر قومه إلى دفع مبلغ كبير كفدية لتحريره من الأسر.

أمّا تاريخه المظلم فيشير إلى أنه كان من المنافقين، وكان في زمان حكومة الإمام علي عليه السلام - كما يذكر ذلك بعض المؤرخين - الأساس والأصل لجميع المفسد والخلل في المجتمع الإسلامي، وقد عمل مع عمرو بن العاص في حرب صفين لإيجاد النفاق والبلبل في صفوف جيش الإمام عليه السلام.

وقد نُصّب الأشعث بن قيس والياً على آذربايجان، وبعد ذلك أبقاءه الإمام عليه السلام في منصبه - طبقاً لرواية - مداراه له لئلا يتوجه إلى الشام ويلتحق بمعاوية.

واللافت أن أبابكر زوج اخته ام فروة للأشعث ليأمن خطره، ولدت له هذه المرأة ثلاثة أبناء أحدهم محمد الذي كان أحد قادة جيش ابن زياد في كربلاء لمواجهة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، وكانت للأشعث بنت تسمى جعدة، ونعلم جميعاً أنها زوجة الإمام الحسن عليه السلام وقد أقدمت على قتل الإمام الحسن المجتبي عليه السلام بالسّم، ومعلوم أن الأشعث أيضاً كان من الأشخاص الذين اشتركوا في قتل أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام [٦٧].

ونختم هذا الكلام بحديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام حول الأشعث حيث قال عليه السلام مخاطباً الناس: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الْأَشْعَثَ لَا يَزِرُنْ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَإِنَّهُ أَقْلُ فِي دِينِ اللَّهِ مِنْ عَفْطَةِ عَنَزٍ» [٦٨].

والجدير بالذكر أن الأشعث أصبح والياً على آذربايجان في عهد خلافة عمر ابن الخطاب وبقى في هذا المنصب في عهد عثمان وكذلك بقي فيه لمدة معينة من خلافة الإمام علي عليه السلام.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٣

٣. آذربايجان في خارطة البلاد الإسلامية سابقاً

يستفاد من كتاب «فتوح البلدان» للبلاذري و«تاريخ الطبري» و«معجم البلدان» للحموي بشكل إجمالي أن منطقة آذربايجان تم فتحها في عام ٢٠ للهجرة تقريباً ودخلت في دائرة البلاد الإسلامية، ولكن لم تمض فترة وجيزة حتى قامت جماعة من الأقوام المعادية واستولت على تلك المنطقة، فبعث الخليفة الثاني الأشعث بن قيس واستطاع فتحها مرة ثانية وبقى الأشعث والياً على تلك المنطقة.

أمّا حدود آذربايجان في ذلك الوقت فكانت أوسع من آذربايجان الحالية حيث كانت تضم مضافاً إلى مدينة تبريز، خوي سلمان وارومية وأردبيل ومناطق من كيلان ومازندران أيضاً وكانت تمتد من جهة الغرب إلى الحدود الرسمية الحالية، يقول الحموي: «تعتبر هذه المنطقة مملكة عظيمة وتتمتع ببركات كثيرة وهي منطقة خضراء وفيرة المياه وفيها عيون كثيرة» ويقول اليعقوبي في تاريخه: «إن معاوية كان يستلم في كل عام ثلاثين ألف ألف درهم من خراج آذربايجان، وهذا يشير إلى وسع تلك المنطقة ووفرة خيراتها» [٦٩].

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٥

الرسالة ٦

إلى معاوية [٧٠]

نظرة إلى الرسالة

كان الإمام عليّ عليه السلام يهدف من خلال هذه الرسالة إلى إتمام الحجّة على معاوية من خلال عدّة أمور: الأول: إنّ بيعته من قبل المهاجرين والأنصار حالها حال بيعه الناس للخلفاء السابقين (بل أفضل منها من جهات معيّنة) وعلى هذا الأساس لا يحقّ لأيّ شخص مخالفة هذه الحكومة الشرعية ويجب على الجميع الامتثال والطاعة والعمل على التنسيق معها لإدارة الأمور. الثاني: إنّ الأشخاص الذين يقطنون في المناطق البعيدة من منطقة البيعة يجب عليهم حال وصول خبر بيعه المهاجرين والأنصار لشخص معيّن أن يبيعوا بدورهم

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٦

كما بايعوا في الماضي.

الثالث: إنّ كلّ شخص إذا أراد الخروج من دائرة هذه البيعة يجب إعادته إلى الطاعة، فإن امتنع وقاوم وتمرد على الحكومة الشرعية فيجب على المسلمين التصدي له ومقاتلته.

الرابع: إنّ جعل قتل عثمان ذريعة للتمرد وعدم البيعة أمر غير صحيح وغير معقول، لأنّ الإمام عليّ عليه السلام لم يتدخل إطلاقاً في قتل عثمان.

وفي الختام وطبقاً لما ورد في كتاب نهج البلاغة، يدعو الإمام عليّ عليه السلام معاوية أن يبيع رسوله ووكيله جرير بن عبد الله ويعمل على إطفاء نار الحرب والفتنة بهذا العمل.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٧

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَيَّمُوهُ إِمَامًا كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضًا، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بَطْعَنٍ أَوْ بَدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبِي قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَّاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى وَلَعَمْرِي، يَا مُعَاوِيَةَ، لَيْسَ نَظَرْتُ بِعَقْلِكَ دُونَ هَيَوَاكَ لَتَجِدُنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عَزْلِهِ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى فَتَجَنَّنَ مَا بَدَأَ لَكَ! وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير

تقدّم في بيان سند هذه الرسالة أنّ ما أورده السيّد الرضّي من هذه الرسالة يمثل مقطعاً من رسالة مطولة أرسلها الإمام عليّ عليه السلام بعد واقعة الجمل إلى معاوية بيد جرير بن عبد الله البجلي وهو من مشاهير الصحابة.

وفي بداية هذه الرسالة كما أوردها صاحب نهج البلاغة الكامل رقم الكتاب ٢٩ ولم ينقله السيّد الرضّي، جاء فيه أنّ الإمام بعد الحمد والثناء قال: «إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ».

واللافت أنّ الإمام عليه السلام لم يشر في هذا المورد لا إلى مسألة الغدير ولا إلى وصيّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في حقّه والروايات الكثيرة الواردة في إمامته وولايته على المسلمين، لأنّ معاوية يستطيع، إنكار كلّ هذه النصوص الجليّة، ولكنّ مسألة خلافة

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٨

الخلفاء السابقين لم تكن مسألة قابلة للانكار، وفي الحقيقة أن استدلال الإمام عليه السلام استدلال جدلي كما في الاصطلاح، حيث يتخذ المتكلم مسلمات ومقبولات الطرف المقابل ويستدل بها ضده، ومن هذا المنطلق بما أن معاوية كان يرى نفسه من ولاية الخلفاء السابقين أبوبكر، عمر، وعثمان، فإنه لا يستطيع إنكار مشروعية خلافتهم وكيفية وصولهم إلى سدة الحكم والخلافة، وهذا الأمر هو ما وقع أيضاً للإمام علي عليه السلام في خلافته بصورة أكمل وأتم، فإن عموم المهاجرين والأنصار بايعوا الإمام علي حتى طلحة والزبير اللذين نكثا البيعة بعد ذلك كانا من أوائل المبايعين للإمام في أمر الخلافة، وكانت السنة جارية في ذلك العصر أن المهاجرين والأنصار في المدينة إذا اختاروا شخصاً للخلافة فيجب على الغائبين والبعيد عن المدينة أن يتبعوا المهاجرين والأنصار في مركز الخلافة، وعلى هذا الأساس لا يمكن لمعاوية أن يعترض على استدلال الإمام عليه السلام في هذا الأمر.

ومن هنا فإن الإمام علي عليه السلام يقول في هذا السياق: «وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَيَمُّوهُ إِمَامًا كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضًا».

ثم إن الإمام عليه السلام يستنتج من ذلك ويقول: «فَإِنِ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بَطْعَنٍ أَوْ بَدْعِيَّةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنِ أَبِي قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَّاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى».

وكما أسلفنا أن هذا الاستدلال يتسم بالمنهج الجدلي والاستفادة من مسلمات الطرف المقابل في دحض حجته، فلا ينبغي استنباط هذا المفهوم وهو أن الإمام عليه السلام ترك مسألة الإمامة المنصوبة وذهب إلى أن الإمامة هي من اختيار الناس لا من شؤون الباري تعالى وليست بوسيلة التنصيب الإلهي كما تصوّر ذلك بعض شراح نهج البلاغة، بل إن الطريق الوحيد للاستدلال في مقابل معاوية لا يمكن بغير هذا المنهج الجدلي، ونرى كثيراً من قبيل هذا النحو من الاستدلال في القرآن الكريم فيما يخص المجادلة مع المشركين.

وفي مقطع آخر من هذه الرسالة يذكر الإمام عليه السلام مسألة قتل عثمان التي جعلها

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٩

معاوية ذريعة للتمرد في مقابل الإمام عليه السلام كما سبقه بذلك طلحة والزبير أيضاً، يقول الإمام عليه السلام: «وَلَعَمْرِي، يَا مُعَاوِيَةَ، لَئِنِ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَيَوَاكَ لَتَجِدَنِي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عَزْلِهِ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى [٧١]، فَتَجَنَّ [٧٢] مَا بَدَأَكَ، وَالسَّلَامُ».

إن من القضايا العجيبة في تاريخ صدر الإسلام أن جماعة كانوا في زمن خلافة عثمان قد رفعوا لواء المخالفة الشديدة له، وحتى كان لهم دور مباشر أو غير مباشر في قتله، ولكن بعد مقتل عثمان تغير مسارهم فجاء وأخذوا يطالبون بدمه وبالنار له ويذرفون عليه وعلى مظلوميته دموع التماسيح، ومثل هذا التغيير في المسار لا يعدّ أمراً عجيبيّاً في أمر السياسة، ولكن كيف يمكن تبرير مثل هذه السلوكيات عندما تصدر ممن يدعون الإسلام ويعتبرون أنفسهم من قادة المسلمين؟

إنّ حادثة قتل عثمان والعوامل التي أدت إلى إثارة الناس ضده وكذلك الحوادث التي وقعت في هذه القضية التاريخية، وكذلك مسألة إجبار الثوار عثمان على التوبة واعتزال الخلافة وقبول عثمان للتوبة وعدم قبوله الاعتزال عن مقامه وكذلك دفاع أمير المؤمنين عليه السلام عنه ومنع الثوار من قتله لئلا تتسع دائرة الفتنة وتعم جميع مناطق البلاد الإسلامية، وأيضاً كيفية قتل عثمان والحوادث التي وقعت بعد مقتله كلها تعدّ من المسائل المهمّة في تاريخ الإسلام، التي تستدعي الدقّة والتمعن لاكتشاف الحقائق الكامنة في طيات التاريخ لهذه الواقعة.

وقد أسلفنا في البحوث السابقة بعض الأمور عن حقيقة ما جرى في هذه الواقعة في الجزء الأول من هذه المجموعة في شرح الخطبة الشقشقية وكذلك الجزء الثاني ذيل الخطبة الثلاثين، وكذلك ذيل الخطبة ٤٣ أيضاً.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٧٠

تأمل: لماذا استدلل الإمام عليه السلام بالشورى والبيعة؟

نعلم أن المسلمين قد اختلفوا في مسألة الإمامة والخلافة بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على رؤيتين: فطبقاً لعقيدة الشيعة فإن الإمامة والخلافة بالنص، أي أن تعيين الإمام والخليفة بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يكون بالنص الإلهي من خلال بيان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وهناك آيات قرآنية تؤيد هذه الرؤية وكذلك الأحاديث الشريفة الواردة في هذه المجال من قبيل حديث الغدير، المنزلة، حديث الثقلين، مضافاً إلى أن الشيعة يقيمون أدلة عقلية على هذه المسألة ليس هنا مجال لاستعراضها [٧٣].

ولكن أهل السنة ذهبوا إلى مقولة الشورى حيث يعتقدون بأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ترك تعيين الخليفة بعده للأمة وقد تم تعيين الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وآله من خلال شورى المهاجرين والأنصار وبيعة المسلمين وقد اتخذ أبو بكر لهذا المقام في سقيفة بني ساعدة بحضور ثلثة قليلة من المهاجرين والأنصار، وأما عمر بن الخطاب فقد أصبح خليفة بتعيين من أبي بكر وانتخب عثمان بالخلافة بأربعة آراء من أعضاء الشورى السنة الذين اختارهم عمر لهذا الغرض، وأما الإمام علي عليه السلام فقد بويع بعد مقتل عثمان من قبل المهاجرين والأنصار وجمهور المسلمين عامة.

أما أنصار مدرسة الشورى فإنهم عندما يصلون إلى الخطبة الشقشقية التي تثير علامات استفهام على خلافة الخلفاء الثلاثة الأوائل، فإنهم يعترضون تارة على سند الرواية وأخرى على دلالتها، ولكن عندما يصلون إلى الرسالة السادسة المذكورة أعلاه، يشرحون صدرهم لها ويستقبلون ما ورد فيها ويعتبرونه دليلاً على حقايق مذهبهم ورأيهم في مسألة الخلافة في حين أن كلاً من هذه الرسالة وتلك الخطبة للإمام علي عليه السلام.

والنقطة المهمة هنا هي أنه لا بد من الأخذ بنظر الاعتبار المخاطب للكلام

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٧١

والنص، لأن عقائد المخاطب وأفكاره وتوجهاته مؤثرة كثيراً في كيفية بيان المتكلم، ففي الخطبة الشقشقية نرى أن المخاطب لها عموم الناس، ولكن المخاطب لهذه الرسالة هو معاوية نفسه.

كيف يمكن للإمام عليه السلام أن يستدل في هذه الرسالة على حقايقه في مقابل معاوية بالنص، وهذا هو الشيء الذي يخالفه معاوية من الأساس، لا بد من الاستفادة من دليل يعجز عن إنكاره، ويجد نفسه مضطراً للتسليم أمامه، وليس ذلك سوى مسألة الشورى، أي الشورى التي انتخب على أساسها الخلفاء السابقون الذين نصبوا معاوية في زمن خلافتهم على الشام.

وهذا هو الشيء الذي يعبر عنه في علم المنطق بفنّ الجدل، وهو بأن يتمسك المستدل بمسلمات الخصم ويستدل بها ضده وإن كان لا يعتقد بها أو ليست مسلمة لديه.

وهذا من قبيل أن نستدل بالتوراه والإنجيل الحاليين في مقابل اليهود والنصارى، وأنه طبقاً لما ورد في الآية الفلانية في السفر الفلاني من كتابكم المقدس فإن العقيدة التي تعتقدون بها في هذا الشأن باطله، مثلاً نقول: أنتم أيها المسيحيون تعتقدون بأن عيسى عليه السلام صلب ومات ودفن، وبعد عدة أيام بعث من قبره ورفع إلى السماء، وطبقاً لهذه العقيدة يجب القبول بمسألة رجعة الإنسان إلى هذه الحياة الدنيا رغم أننا لا نعتقد بمقتل المسيح عليه السلام.

وقد ورد في القرآن الكريم مثل هذا النمط من الاستدلال، من قبيل ما ورد في قصة إبراهيم عندما وقف أمام عبدة النجوم والقمر والشمس وقال لهم: «هذا ربي» أو «هذا ربي هذا أكبر» [٧٤]، فقد وافقهم ظاهراً على ما يعتقدونه وما هو من المسلمات لديهم، ولكن عندما أفلت هذه الكواكب استدلل إبراهيم عليه السلام من افولها وغروبها على أنها حادثه ومخلوقة، وبذلك أبطل حججهم وأجهض مزاعمهم.

ومن العجيب أن ابن أبي الحديد بالرغم من أنه سلك مسلك الاعتدل في الكثير

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٧٢

من المسائل، عندما يصل إلى هذه الرسالة يقول: «إعلم أن هذا الفصل دالٌّ بصريح العبارة على كون الاختيار طريقاً إلى الإمامة كما يذكره أصحابي المتكلمون (أهل السنة...) فأما الإمامية فتحمل هذا الكتاب منه عليه السلام على التقيّة وتقول: إنه ما كان يمكنه أن يصرح لمعاوية في مكتوبه بباطن الحال ويقول له: أنا منصوص عليّ من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومعهود على المسلمين أن أكون خليفه فيهم بلا فاصله، فيكون في ذلك طعن على الأئمة المتقدمين...» [٧٥].

إنّ خطأ ابن أبي الحديد هو أنّه أولاً: لم يلتفت إلى مخاطب هذه الرسالة أبداً، وهو معاوية.

وثانياً: أنّه خلط بين مسألة الجدل ومسألة التقيّة، فالشيعة لا يقولون إنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد سلك مسلك التقيّة في مقابل معاوية، بل يقولون: إنّ استدلال بما لا يمكن لمعاوية إنكاره ومخالفته، أي أنّ الإمام استدللّ بالأمر المسلّم لدى معاوية ضده، وقد ورد في نهج البلاغة عبارات أخرى شبيهة أيضاً بما ذكر أعلاه، ويتبيّن جواب الجميع ممّا قلنا آنفاً ولا حاجة للتكرار.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٧٣

الرسالة ٧

إشارة

إليه أيضاً [٧٦]

نظرة إلى الرسالة

تقدّم في بيان مدرّك هذه الرسالة أنّها وقعت جواباً على رسالة كتبها معاوية للإمام عليه السلام في أواخر معركة صفين وكانت رسالة معاوية تتضمن الوقاحة وعدم رعاية الأدب وتشير إلى نقاط مختلفة أهمها عدم الاعتراف ببيعة المسلمين للإمام عليه السلام بذريعة أنّ أهل الشام لم يحضروا هذه البيعة ولم يوافقوا عليها، وقد أجاب الإمام جواباً حاسماً على كلّ هذه التقولات والكلمات اللامسؤولة [٧٧].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٧٥

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَيْتَنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُؤَصِّلَةٌ، وَرِسَالَةٌ مُحَبِّزَةٌ، نَمَّقْتَهَا بِضَمِّكَ، وَأَمَضَّيْتُهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ، وَكَتَابُ امْرِئٍ لَيْسَ لَهُ بَصِيرٌ يَهْدِيهِ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاكَ الْهَوَى فَأَجَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ لَأَعِطًا، وَضَلَّ خَابِطًا.

وَمِنْهُ: لِأَنَّهَا بِيَعَةٌ وَاحِدَةٌ لَأَيْتَنِي فِيهَا النَّظْرُ، وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ.

الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَالْمُرَوِّى فِيهَا مَدَاهِنٌ.

الشرح والتفسير: موعظة الضالين!

بما أنّ معاوية قد تمسّك في رسالته للإمام عليه السلام ببعض الآيات القرآنية ليعض الإمام عليه السلام بالتقوى والورع!! منها قوله تعالى: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لِيُنذِرَ لِقَوْمٍ كَذَبَتْ أَسْرَكَتٌ لِيُحِبَطْنَ عَمَلَكُمْ وَتُكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» [٧٨] وهذه الآية كما هو معلوم

ليس لها أي إرتباط بادعاءات معاوية الباطلة، ولذلك يقول الإمام عليه السلام في مطلع رسالته له:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَيْتَنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُؤَصِّلَةٌ [٧٩]، وَرِسَالَةٌ مُحَبِّزَةٌ [٨٠]، نَمَّقْتَهَا [٨١] بِضَمِّكَ،

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٧٦

وَأَمَضَّيْتُهَا [٨٢] بِسُوءِ رَأْيِكَ».

والتعبير ب (مَوْصَلَةٌ) إشارة إلى عدم التجانس المشهود في رسالته معاوية حيث يتمسك ببعض الآيات القرآنية التي ليس لها أى علاقة بالمقصود، ومن جهة أخرى يتهم الإمام عليه السلام بشق عصا المسلمين وإيجاد الاختلاف بين الأئمة، في حين أن كلماته وعباراته تعتبر مصداقاً بارزاً لإثارة الخلاف وإيجاد الفتنة في المجتمع الإسلامي.

وعبارة (رِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ) (مع الالتفات إلى أن «مُحَبَّرَةٌ» تعنى التزيين والتنميق) إشارة إلى أن معاوية كان يسعى بأى وسيلة ممكنة إلى إظهار أن الحق بجانبه، فأحياناً يتحدث عن يوم القيامة والعذاب الإلهي، وأخرى عن مصالح المسلمين، وثالثه يتمسك بالآيات القرآنية للدفاع عن مواقفه المتمهنة.

وجملة: (نَمَقَّتْهَا بِضَمِّ مَالِكٍ) إشارة إلى أن العبارات الجميلة في الظاهر هي ذاتها العبارات والكلمات التي كان يتوصل بها المنافقون الضالون لإظهار إيمانهم في مقابل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وجملة (أَفْضَلَتْهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ) إما أن يكون المقصود بها أن إضفاء مثل هذه الرسالة لا يصدر إلا من الإنسان المنحرف والسائر في خط الضلالة والجهالة، أو يكون المعنى فيما لو أخذنا الإضفاء بمعنى الإرسال فيكون مفهومها أن فكرك المنحرف والباطل أجاز لك كتابة هذه الرسالة الوقحة للإمام وقائد المسلمين.

وفي سياق كلام الإمام عليه السلام في رسالته، يبين الإمام مضمون رسالة معاوية وشخصيته الانتهازية في عبارات قصيرة وزاخرة بالمعنى ويقول: «وَكِتَابٌ امْرِيٌّ لَيْسَ لَهُ بَصِيرٌ يَهْدِيهِ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَى فَاَجَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ [٨٣] لَأَغْطَأ [٨٤]، وَضَلَّ خَابِطاً [٨٥]».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٧٧

والملفت للنظر أن الإمام عليه السلام في هذه الجملة الثلاث استفاد من التجانس بين الثنائيات بشكل لازم وملزوم، فيقول في الجملة الأولى: (لَيْسَ لَهُ بَصِيرٌ يَهْدِيهِ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ) وقال في الجملة الثانية التي تعتبر نتيجة لما سبق: «قَدْ دَعَاهُ الْهَوَى فَاَجَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ» وفي الجملة الثالثة التي تعتبر نتيجة للجملة الثانية يقول: «فَهَجَرَ لَأَغْطَأ، وَضَلَّ خَابِطاً»، أى يتحدث في خبط وهذيان بسبب الضلالة والسير في متاهة الحيرة، والحقيقة كذلك، لأن نور الهداية إما أن ينبع من باطن الإنسان أو يحصل عليه الإنسان من خارجه من خلال التمسك بالقادة الإلهيين والمرشدين الصالحين، وفي غير هذه الصورة فإن الإنسان يعيش الظلمات الباطنية والضلالة الخارجية التي تنشأ بسبب مشورة الأشخاص المنحرفين والانتهازيين، وهكذا ينحدر الإنسان في هوة الضلالة ومنزلاقات الجهالة، فلا يملك حينئذ كلاً ما منطقياً ولا تسير أعماله وفق التخطيط العقلاني المدروس.

ثم إن الإمام عليه السلام يشير في رسالته الجوابية إلى أحد اشتباهاة معاوية الكبيرة التي ذكرها في رسالته، فقد كتب معاوية في رسالته أن بيعه المسلمين للإمام عليه السلام لم تكن صحيحة، لأن أهل الشام لم يقبلوا بها، فيقول الإمام في مقام الجواب: «لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لَأَيْتَنِي فِيهَا النَّظَرُ [٨٦]، وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ. الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَالْمُرَوِّى [٨٧] فِيهَا مُدَاهِنٌ [٨٨]»، يعنى أن بيعه الخلافة لا تقع سوى مرة واحدة غير قابلة للتعديل ولا للتجديد.

وفي الحقيقة أن الإمام عليه السلام استدلل في هذا المقطع بإحدى المسلمات في مسألة الخلافة عند معاوية، لأنه يعتقد بأن خلافة الخلفاء السابقين قامت على أساس آراء

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٧٨

المهاجرين والأنصار وأن الأشخاص الذين كانوا يعيشون بعيداً عن المدينة يجب عليهم احترام آراء المهاجرين والأنصار في المدينة وإتباعهم والقبول بمن اختاروه لهذه المقام، هكذا كانت سنة الخلفاء السابقين، والإمام عليه السلام يقول: كيف تقبل برأى المهاجرين والأنصار وأهل الحل والعقد بالنسبة لما يتصل بالخلفاء السابقين، ولكنك تشكك في بيعتهم الآن مع أنها أوسع وأشمل وأكثر امتداداً في الوسط الجماهيري من بيعه الخلفاء السابقين؟ أما عدم قبول أهل الشام فهذا يشير إلى أحد أمرين: إما أنك ترى بطلان منهج الخلفاء السابقين، أو حالك حال المنافقين الذين يقبلون أحياناً بشيء وينكرونه أحياناً أخرى حسب المصالح وما تمليه عليهم مطامعهم

الشخصية بعيداً عن واقع الإيمان وتعاليم الرسالة.

فلو وجب انتخاب جميع المسلمين في مختلف مناطق البلاد الإسلامية لقبول حكومة الإمام علي عليه السلام وتحقق مشروعيتها فيلزمك أن تعتقد ببطلان حكومة الخلفاء السابقين وبالتالي فإن حكومتك تقتبس مشروعيتها منهم فستكون باطلة أيضاً. وأشار الإمام عليه السلام في جملة «لَأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ...» إلى حقيقة حاسمة ومسلمة في التاريخ الإسلامي وهي أن البيعة كالبيع اللازم لا خيار فيه للفسخ ولا التكرار، فإذا وقعت البيعة فإنها تقع مرة واحدة وللأبد.

تأمل: رسالة معاوية لأُمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام

مع الالتفات إلى أن رسالة الإمام عليه السلام المذكورة آنفاً نازرة لرسالة سابقة أرسلها معاوية للإمام عليه السلام، ومن هنا لزم نقل نص رسالة معاوية المذكورة في كتب التاريخ رغم أنها وقحة جداً وخالية من الأدب، ولذلك نعتذر قبل ذلك للقراء الكرام وخاصة من الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام على إيراد مثل هذه الرسالة والكلمات اللامسؤولة فيها:

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٧٩

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ:

أَمَّا بَعِيدُ فَيَا بْنَ اللَّهِ تَعَالَى يَقُولُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» إِنِّي أَحْذَرُكَ اللَّهُ أَنْ تُحْبِطَ عَمَلُكَ وَسَابَقَتَكَ بِشَقِّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَتَفْرِيقِ جَمَاعَتِهَا فَاتَّقِ اللَّهَ وَادْكُرْ مَوْقِفَ الْقِيَامَةِ وَأَقْلَعْ عَمَّا أَسْرَفْتَ فِيهِ مِنَ الْخَوْصِ فِي دِمَائِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «لَوْ تَمَالَأَ أَهْلُ صَيْغَاءِ وَعَيْدِنِ عَلِيٍّ قَتِيلِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَأَكْبَهُمُ اللَّهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ» فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ قَتَلَ أَعْلَامَ الْمُسْلِمِينَ وَسَادَاتِ الْمُهَاجِرِينَ بَلْهُ مَا طَحَنَتْ رَحَى حَزْبِهِ مِنْ أَهْلِ الثَّوْرَانَ وَدَوَى الْعِبَادَةِ وَالْإِيمَانِ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ وَشَابٍّ غَرِيرٍ كُلُّهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى مُؤْمِنٌ وَلَهُ مُخْلِصٌ بِرَسُولِهِ مُقَرَّرٌ عَارِفٌ فَإِنْ كُنْتَ أَبَا حَسَنِ إِنَّمَا تُحَارِبُ عَلَى الْإِمْرَةِ وَالْخِلَافَةِ فَلَعَمْرِي لَوْ صَبَحَتْ خِلَافَتُكَ لَكُنْتَ قَرِيباً مِنْ أَنْ تُعَدَّرَ فِي حَزْبِ الْمُسْلِمِينَ وَلَكِنَّهَا مَا تَصَحَّحَ لَكَ أَنِّي بِصِحَّتِهَا وَأَهْلُ الشَّامِ لَمْ يَدْخُلُوا فِيهَا فَقَدْ وَاللَّهِ أَكَلْتُهُمُ الْحَرْبُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا كَالْتَمَدِّ فِي قَرَارَةِ الْعُدَيْرِ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانَ» [٨٩].

هذه الرسالة المسيئة وغير المؤدبة من جهة، والسخيفة من جهة أخرى، تبين سوء طويته معاوية وبتلان رأيه لأنها أولاً: تتمسك بآية حبط الأعمال بسبب الشرك، في حين أنه لا يوجد في الموضوع أدنى كلام عن الشرك، وبالنسبة لشق عصا المسلمين وإيجاد الفرقة بينهم على فرض أن يكون صحيحاً لا يرتبط بمسألة الشرك، وهذا هو ما وصفه الإمام عليه السلام بأنه: «مَوْعِظَةٌ مَوْصَلَةٌ» أي أنه كلام متشتم وغير متجانس في مضامينه وعباراته.

ثانياً: إن الإمام عليه السلام في جوابه على هذه الرسالة والذي لم يذكره السيد الرضي في نهج البلاغة يقول: إنك أمرتني بالتقوى وأنا أرجو أن أكون من أهل التقوى ولكنني

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٨٠

أعوذ بالله أن أكون ممن يأمر الناس بالتقوى وفي ذات الوقت يجزهم إلى المعصية وطلب الدنيا (وأنت من هؤلاء).

ثالثاً: يقول الإمام عليه السلام في مقام الجواب عن مسألة حبط الأعمال وسابقته في الإسلام: إذا كنت قد خرجت مع الخارجين على عثمان فجدد بك هذا التحذير لي، ولكنني أرى الله تعالى يقول: «فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» [٩٠]. فيجب عليك النظر بعقلك دون هواك لتعرف من هم أهل البغي هل نحن أم أنتم؟ وبديهي أن أهل البغي هم أنت وجماعتك، لأن بيعتي وقعت في المدينة من قبل المهاجرين والأنصار وهي ملزمة لكم في الشام، كما أن بيعة عثمان في المدينة كانت ملزمة لكم أيضاً، في حين أنك كنت والياً على الشام من قبل عمر بن الخطاب، وكما أنها- بيعة عمر- كانت ملزمة لأخيك يزيد في حين أنه كان والياً على الشام من قبل أبي بكر.

ثم إن الإمام عليه السلام يجيب عن هذه النقطة التي ذكرها معاوية، وهي من هو المسؤول عن شق عصا المسلمين؟ ويقول: يجب أن احذرك وأنهاك عن هذا العمل، فقد أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله بجهاد أهل البغي وخاطب أصحابه قائلاً: إن منكم من يجاهد على تأويل القرآن كما جاهد على تنزيله، وأشار إلي في كلامه هذا وكنت أول شخص أطاع رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الأمر.

ثم إن الإمام عليه السلام يستعرض الجواب عما تبقى من الرسالة وهو المقطع الذي ذكره السيد الرضوي في «نهج البلاغة» وسبق أن شرحناه.

وعلى ضوء ذلك يتبين صدق الإمام عليه السلام وصراحته في موقفه من معاوية وكذلك، تتبين وقاحة وحمق معاوية من جهة أخرى. وقد تمسك الطغاة على امتداد التاريخ بهذا المنطق المتلون، وقد أورد القرآن الكريم بيان جلي ذلك في قصة موسى عليه السلام وفرعون وذلك عندما دعا موسى عليه السلام الفرعنة للتوحيد وترك الظلم والجور وقال فرعون: «إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٨١

يُظهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ» [٩١]، في حين أن المفسد الحقيقي في الأرض هو فرعون نفسه الذي كان يقتل حتى الأطفال الأبرياء ويشق بطون الحوامل.

وفي ختام البحث يفرض علينا هذا السؤال نفسه، وهو أن معاوية مع علمه بكذبه في محتوى رسالته، وأنه هو الذي شق عصا المسلمين وأثار الغبار حول إجماع المسلمين على البيعة، وهو الذي سلك طريق الانحراف والتمرد والطغيان على الحكومة الإسلامية، وإن كان له عمل صالح في الماضي فقد أحبطه بما ارتكبه من حرب طاحنة ضد أمير المؤمنين عليه السلام، وأنه هو وأصحابه شركاء في قتل عثمان لا الإمام علي عليه السلام، إذن فلماذا يتخذ لنفسه شخصيته محقة ويكتب للإمام تلك الرسالة الزاخرة بالأكاذيب والدجل؟ ويتبين الجواب عن كل هذه الاستفهامات إذا عرفنا هذه الحقيقة، وهي أن معاوية لم يكتب في الواقع هذا الكتاب للإمام علي عليه السلام بل كتبه لاستغفال أهل الشام وخلق الأوراق، وبذلك يريد أن يقول لهم إنني إنسان صالح وأرفع لواء الصلح والعدالة، ولكن علي بن أبي طالب عليه السلام لا يستمع لكلامي ولا يرضخ لواقع العدل والحق، وفي الحقيقة أن عمله هذا يشبه ما قام به من رفع المصاحف على الرماح في معركة صفين، ولم يكن معاوية وأصحابه يريدون تحكيم القرآن قطعاً، بل كانوا يريدون أن يخدعوا أهل الشام من جهة، ومن جهة أخرى العمل على إيجاد الفرقة والنفاق في جيش الإمام علي عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٨٣

الرسالة ٨

إشارة

إلى جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله إلى معاوية [٩٢]

نظرة إلى الرسالة

إن مضمون هذه الرسالة بين وجلي تماماً، فالإمام عليه السلام يريد من رسوله جرير أن يتم الحجّة على معاوية وأخذ البيعة منه، إذا أراد البيعة للإمام عليه السلام، وإن لم يكن مستعداً للبيعة، فعليه أن يكون مستعداً لقتاله.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٨٥

أَمَّا بَعْدُ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْفَضْلِ، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ، ثُمَّ خَيَّرْهُ بَيْنَ حَزْبِ مُجَلِيَّةٍ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَّةٍ، فَإِنْ اخْتَارَ الْحَزْبَ فَانْبِذْ إِلَيْهِ، وَإِنْ اخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ بِيَعْتَهُ، وَالسَّلَامَ.

الشرح والتفسير: حلّ المشكل بآيات الصلح

جاء في المصادر التاريخية أنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أرسل جرير إلى معاوية لأخذ البيعة منه بهذا الكتاب، وقد أوصل جرير هذا الكتاب لمعاوية، أخذ معاوية يسوّف بالأمر ويتباطأ في الجواب إلى أن ظنّ أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام به سوءً واتهموه بالتعاطف والتعاون مع معاوية، حتّى قال الإمام عليه السلام عنه: إنّ جريراً لبث عند معاوية طيلة هذه المدّة فإمّا أن يكون مذنباً أو مخدوعاً.

ومن هنا كتب الإمام عليه السلام هذه الرسالة لجرير حتّى لا يطيل المسألة ويوصد بذلك باب المماطلة على معاوية وطلب منه أن يلزم معاوية بأحد أمرين: فإمّا البيعة أو الحرب، فالإمام يقول في هذه الرسالة:

«أَمَّا بَعْدُ - بعد الحمد والثناء الإلهي - فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْفَضْلِ [٩٣]، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ، ثُمَّ خَيَّرْهُ بَيْنَ حَزْبِ مُجَلِيَّةٍ [٩٤]، أَوْ سِلْمٍ

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٨٦

مُخْزِيَّةٍ [٩٥]، فَإِنْ اخْتَارَ الْحَزْبَ فَانْبِذْ [٩٦] إِلَيْهِ، وَإِنْ اخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ بِيَعْتَهُ، وَالسَّلَامَ».

وعندما وصلت هذه الرسالة لجرير في الشام سلّمها بيد معاوية ونهض من مكانه وخطب بالناس وذكّهم بقضية عثمان وأنّ جميع المسلمين بايعوا الإمام عليّ عليه السلام بدون تردّد، يعني أننا لو خيلنا ومسألة الخلافة لم نكن نختار غير الإمام عليّ عليه السلام.

تأمل: من هو جرير بن عبدالله؟

يعتبر جرير بن عبدالله من مشاهير الصحابة، ومن قبيلة بجيلة من قبائل اليمن، وبجيلة اسم امرأة معروفة في تلك القبيلة حيث سميت قبيلتها باسمها، وتارة يسمّى الشخص بجلياً لانتمائه إلى هذه القبيلة، وقد جاء جرير في السنة العاشرة للهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى رأس جماعة من مائة وخمسين رجلاً من قبيلة بجيلة، وأسلموا على يد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فاستقبله النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بكلّ احترام، وعندما مدّ يده للبيعة قال: أقبل بيعتك بشرط أن تشهد بالتوحيد وتؤمن بالنبوة وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحب، الخير للمسلمين وتصوم شهر رمضان وتطيع إمام المسلمين.

وسأله النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عن أوضاع منطقتهم، فقال جرير: لقد ظهر الإسلام في هذه المنطقة وكسر الناس الأوثان، فقال: وما حال صنم «ذوالخلصه»؟

فقال: هذا صنم كبير بقي لحاله.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٨٧

فأمر النبي الأمر بتحطيم هذا الوثن، فتوجه جرير مع مائتي نفر من قبيلته وبعد عدّة أيام رجع إلى النبي وقال: والله لقد حطّمته وأحرقته أمام أعين عابديه.

وقد اشترك جرير مع قبيلته بجيلة في معركة القادسية، وكان سهمه كبيراً ومؤثراً في الفتح، وبعد ذلك نصبه عثمان والياً على منطقة همدان، وبعد قتل عثمان ووصول كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إليه دعا جرير الناس للبيعة للإمام عليّ عليه السلام، وبعد مدّة جاء إلى الكوفة، ولمّا كان يتمتّع بشهرة لدى أهل الشام اختاره الإمام عليه السلام لإيصال رسالته إلى معاوية وبعثه إلى الشام، ولكنّه لم يستطع أداء مهمته بشكل صحيح وعاد إلى الكوفة فظنّ به أهل العراق سوءً واتهموه بالتواطؤ مع معاوية، فاستاء جرير من ذلك وعزم

على التوجه إلى جزيرة قرقيسا واختار العزلة هناك وترك النشاط السياسي والاجتماعي.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٨٩

الرسالة ٩

إشارة

إلى معاوية [٩٧]

نظرة إلى الرسالة

بما أن هذه الرسالة بمثابة جواب على رسالة معاوية الوقحة والمهينة والملينة بالخبث والشيطنة فإن رسالة الإمام عليه السلام هذه تجيب على شيطنة معاوية وخبثه وناظرة إلى الكشف عن زيف مدعياته وأباطيله. في أحد مقاطع هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة، وهي أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عندما قام بالدعوة ونشر الرسالة الإلهية همت جماعة من المشركين من قريش بقتل النبي، إلا أن الله تعالى أنقذه منهم ومنع عتاة قريش من إجهاض الرسالة،

نفحات الولاية؛ ج ٩؛ ص ٨٩

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٩٠

وأن قريش كانت تتصدر المتمردين والمخالفين لهذه الدعوة الجديدة.

وفي قسم آخر من الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى هذه الحقيقة وهي أن الرسول الأكرم عليه السلام كان يجعل أهل بيته في ميدان القتال في الخط الأول للمواجهة، وبذلك يحفظ أصحابه من الخطر من خلال تضحية وجهاد أهل بيته وأرحامه، والشاهد على ذلك استشهاد حمزة وجعفر وآخرين من بنى هاشم في ميادين الجهاد ضد قوى الكفر والباطل، وهذا الكلام في الحقيقة جواب على ادعاء معاوية في رسالته أن غير بنى هاشم كالخليفة الأول والثاني كانوا من أكثر الناس تحرقاً للدعوة الجديدة واستعداداً للتضحية والفداء في سبيل الإسلام.

وفي المقطع الثالث من الرسالة يظهر الإمام عجبه الشديد كيف أن الدهر جعله في صف معاوية الذي لم يقدم أي خدمة للإسلام ولا يملك أي سابقة في الدين؟

وأخيراً وفي القسم الرابع من الرسالة يتحدث الإمام عليه السلام عن عدم قبوله لطلب معاوية فيما يخص تحويل قتل عثمان، لأنه إذا تقرر محاكمة وإنزال العقوبة بقتله عثمان، فهذا من شأن الحكومة الإسلامية لا من شأن شخص متمرد على الحكومة. والجدير بالذكر أن لمعاوية في رسالته وجواب الإمام علي عليه السلام عليها حكاية مثيرة ولا بأس من استعراضها من أجل الكشف بشكل أفضل عن مضمون رسالة الإمام عليه السلام لمعاوية، والحكاية كالتالي:

«كان أبو مسلم الخولاني وهو من أهل اليمن قد أدرك عصر الجاهلية ولكنه لم يؤمن بنبي الإسلام أبداً وكان يعيش في الغالب في الشام، وقد جاء إلى معاوية مع جماعة من أهل الشام قبل حركة الإمام علي عليه السلام باتجاه صفين وطلب منه أن يجتنب قتال علي

بن أبي طالب الذي يتمتع بمقام شامخ ومنزلة كبيرة من جهة قرابته للنبي وسابقته في الإسلام وهجرته، وقال له بأنك لا تملك مثل هذا الموقع الاجتماعي والديني الممتاز.

وفي مقام الجواب عن كلامهم توصل معاوية بهذه الذريعة، وهي أن علي بن

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٩١

أبي طالب قد أجاز قتله عثمان فلو أنه دفعهم إليه ليقصص منهم فإنه سيمتنع من قتاله، فطلب أبو مسلم وأتباعه أن يكتب هذا الطلب إلى الإمام علي عليه السلام في رسالته ويبعثها إليه، فكتب معاوية رسالة بهذه المضمون وسلّمها إلى أبي مسلم ليوصلها إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

فجاء أبو مسلم بالرسالة إلى الإمام علي عليه السلام وسلّمها له بحضور جماعة من أصحابه ثم نهض واقفاً وتوجه للإمام بالقول: إنني لا أحب أن تكون ولاية أمور المسلمين بيد غيرك، ولكن عثمان قتل بغير حق، فادفع قتله إلينا، فإن خالفك أحد فنحن سنكون في اختيارك.

فأجابه الإمام عليه السلام: ائتنى غداً لتستلم جواب الكتاب، فجاء أبو مسلم في اليوم التالي لاستلام جواب الرسالة، فرأى المسجد حاشداً بالناس وكلهم ينادي: نحن جميعاً اشتر كنا في قتل عثمان.

واللافت أن اجتماع هذا الجمهور الغفير في المسجد كان بدافع أن الناس تصوّروا أن يقوم الإمام عليه السلام بتسليم قتله عثمان إلى معاوية ليزيل أية ذريعة يمكن لمعاوية التمسك بها، ومن هنا اجتمع أنصار الإمام عليه السلام وأتباعهم في المسجد ليؤكدوا أن قاتل عثمان لا يمثل شخصاً واحداً أو عدّة أشخاص معدودين، ومع أن الإمام عليه السلام لم يكن يقصد أبداً تسليم بعض الأشخاص لمعاوية، فإن مثل هذا العمل ليس بالأمر الممكن عملاً.

وفي هذا الموقع سلّم الإمام عليه السلام جواباً مكتوباً لأبي مسلم لينقله إلى الشام ويسلّمه إلى معاوية، فقال أبو مسلم في نفسه: «الآن طاب الصراب» [٩٨] أي حان الأوان للقتال طلباً للتأثر بدم عثمان.

وتبين من ذلك أن أبا مسلم وأتباعه كأنهم لم يكونوا قد أدركوا هذه الحقيقة وهي أولاً: أن قتل عثمان وقع بعد انتفاضة شعبية عارمة ضده بسبب أعماله وتصرفاته

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٩٢

السلبية في إدارة الأمور، فلم يكن عمل شخص واحد أو عدد من الأشخاص.

وثانياً: على فرض أن الحكومة الإسلامية أرادت محاكمة قتله عثمان والاقتصاص منهم، فإن هذه العمل لا يرتبط بشخص متمرد كمعاوية بل هو من شأن رئيس الحكومة الإسلامية الذي انتخب من قبل المهاجرين والأنصار وبايعه الناس.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٩٣

القسم الأول

إشارة

فَارَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا، وَاجْتِيَا حَاضِرِينَ، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ وَفَعَلُوا بِنَا الْأَفَاعِيلَ، وَمَنَعُونَا الْعَذْبَ، وَأَخْلَسُونَا الْخَوْفَ، وَاضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعُغْرٍ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ، فَعَزَمَ اللَّهُ لَنَا عَلَى الدَّبِّ عَن حَوْزَتِهِ، وَالرَّمِي مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ، مُؤْمِنِينَ يَبْغِي بِجَدْلِكَ الْأَجْرَ، وَكَافِرِينَ يُحَامِي عَنِ

الْأَصْلِ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَرِيْشٍ خَلَوْ مِمَّا نَحْنُ فِيْهِ بِحَلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيْرَهُ تَقُوْمُ دُوْنَهُ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانٍ أَمْنٍ.

الشرح والتفسير: بنو هاشم حماة الإسلام الأوائل

كما تقدّمت الإشارة إليه فإنّ هذه الرسالة تمثّل جواباً على رسالة معاوية، وبما أنّ معاوية في بداية رسالته قد ارتدى قناع الصلاح والإيمان وأخذ يتحدّث عن الإسلام وعظمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأعوانه وأنصاره، وسعى لرفع مكانة الخلفاء الثلاثة زيادة عن الحدّ من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ والد معاوية هو أبو سفيان العدوّ الأول للإسلام الذي أشعل نار الحروب ضد الإسلام والمسلمين، فالإمام في هذا المقطع من الرسالة يقول:

«فَأَرَادَ قَوْمُنَا - قَرِيْشٍ - قَتْلَ نَبِيِّنَا، وَاجْتِيَا حَ [٩٩] أَصْلِنَا، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُوْمَ [١٠٠] وَفَعَلُوا بِنَا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٩٤

الْأَفَاعِيْلَ [١٠١]، مَنَعُونَا الْعَذْبَ [١٠٢]، وَأَخْلَسُونَا [١٠٣] الْخَوْفَ، وَاضْطَرُّوْنَا إِلَى جَبَلٍ وَغَرٍّ [١٠٤]، وَأَوْقَدُوا [١٠٥] لَنَا نَارَ الْحَرْبِ».

هذه العبارات إشارة إلى مقطع مهمّ وعظيم من تاريخ الإسلام يبيّن فيها الإمام عليه السلام سلوك الأعداء وخاصة قبيلة قريش تجاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والرسالة الإلهية، فقد واجه النبي والمسلمون في مكة صنوف الأذى من قريش والقذف بالحجارة والاستهزاء والتعذيب بمختلف الأشكال، وأخيراً عندما شعروا بالخوف من تقدّم الإسلام وامتداده في القبائل العربية حوالى مكة، عزموا على محاصرة المسلمين الذين كانوا ثلّة قليلة، اجتماعياً واقتصادياً وكتبوا ذلك الكتاب المعروف بأن لا يتواصل أى شخص من قريش وسائر العرب مع المسلمين ولا- يبيعونهم شيئاً ولا- يشتروا منهم ولا- يتزوّجوا منهم ولا يزوّجهم، وختموا هذا العهد ووضعوه داخل الكعبة تأكيداً منهم على الالتزام بهذا الميثاق، والتجأ المسلمون إلى شعب أبي طالب [١٠٦] الذى كان وادياً موحشاً ومليناً بالأحجار وعاشوا هناك ثلاث سنوات من الحرمان الشديد تحت طائلة الحصار الاقتصادى، فكانت تلك الأيام من أصعب الأيام التى عاشها المسلمون مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى درجة أنّ أصوات بكاء الأطفال والجائعين كانت تسمع من خارج الشعب، وأخيراً عندما أخبرهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٩٥

بواسطة أبي طالب أنّ الأرضة قد أكلت وثيقة العهد فى الكعبة سوى كلمة البسملة، فشر الأعداء بالخوف الشديد واعتنق جماعة منهم الإسلام وطلب جماعة منهم أن يحزروا المسلمين من هذا الحصار الآثم، وهكذا كسر طوق الحصار المضروب على المسلمين. وجملة: «وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ إشارة إلى حياة المسلمين فى المدينة الذين خاضوا حروباً عديدة شنها كفّار قريش عليهم. وعلى رأس قوى الكفر والشرك كان أبو سفيان والد معاوية، وكان الإمام علىّ عليه السلام فى جميع هذه الحروب يمثّل أبرز المضحين والمجاهدين الذين دافعوا عن النبي والإسلام فى معركة بدر واحد والأحزاب وما إلى ذلك، وفى المقابل كانت اسرة معاوية لها النصيب الوافر فى إشعال نار هذه الحروب ضدّ النبي ورسالته السماوية، ومع كلّ ذلك يتحدّث معاوية عن عظمة الإسلام والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعن أعوانه وأنصاره ويثنى عليهم غاية الثناء ويذكر الإمام علىّ عليه السلام بوصفه حاسداً له ولأمثاله على مواقفهم المخزية.

وفى سياق هذه الرسالة يتقدّم الإمام عليه السلام لإبطال مزاعم معاوية الواهية فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين ويأخذ بيده إلى الماضى من تاريخ الإسلام والحوادث الواقعة فيه ويقول له: عندما تحرك أعداء الإسلام ضدّ النبي والرسالة وحشدوا جميع قواهم لإجهاض الدعوة الجديدة، فإنّ الله تعالى أراد الدفاع عن رسالته بواسطة «فَعَزَمَ اللَّهُ لَنَا عَلَى الدَّبِّ [١٠٧] عَنْ حَوْزَتِهِ، وَالرَّمِي مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ». (وفى ذلك الوقت كان بنو هاشم على مجموعتين وطائفتين، فطائفة منهم المؤمنون والأخرى الذين لم يلتحقوا بالإيمان والإسلام، وكلا الطائفتين هبوا للدفاع عن الدين الحنيف «مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِذَلِكَ الْأَجْرَ، وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ» أى يدافع عن عشيرته

وعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بخلفيات عشائرية وبدافع الرحم. وجملة: «وَالرَّؤْيُ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ كِنَايَةٌ عَنْ حِفْظِ حَرِيمِ الْإِسْلَامِ وَالنَّبِيِّ نَفَحَاتِ الْوِلَايَةِ، ج ٩، ص: ٩٦»

الأكرم صلى الله عليه وآله، لأن الرماء عادة يقفون خلف المتاريس للدفاع عن الجيش وحفظ أفرادها، وعلى حدّ تعبير العلّامة المجلسي كلمة «وراء» في هذا المورد ربّما تشير إلى معنى المقدم والأمام لأنّ الورا أحيانا تأتي بهذا المعنى، وربّما تأتي بمعنى الخلف كما أنّ الرماء بحسب اللزوم والموقع الذي يفرضه ميدان المعركة يقعون أحيانا خلف الجيش وأحيانا أخرى يتقدمون الجيش. وجملة «وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ مَفْسَرِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ أَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ إِشَارَةٌ إِلَى بَعْضِ رَمُوزِ بَنِي هَاشِمٍ مِثْلِ الْعَبَّاسِ، أَبُو طَالِبٍ، وَحَمْزَةُ وَأَمْثَالُهُمُ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا بِالِدِفَاعِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالنَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَتَّى قَبْلَ اعْتِنَاقِهِمُ الْإِسْلَامَ بِدِفَاعِ الْوَفَاءِ لِلْقِيَمِ الْقَلْبِيَّةِ وَعَوَاطِفِ الرَّحْمِ وَالقَرَابَةِ.»

والملفت للنظر أنّ بعض المحققين ذهب إلى أنّه عندما فرضت قريش الحصار الاقتصادي على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمسلمين في شعب أبي طالب كان بعض الأفراد من بني هاشم ممن لم يعتنق الإسلام لحدّ الآن كالعباس، وعقيل بن أبي طالب وأخيه طالب بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب وابنه الحارث وأخيه أبوسفیان بن الحارث بن عبدالمطلب (هو غير أبي سفیان بن حرب) كانوا يعيشون مع المسلمين في ذلك الشعب في حين لم يعتنقوا الإسلام بعد [١٠٨].

وطبعاً ذهب البعض إلى أنّ أبا طالب وحمزة كانوا قد اعتنقوا الإسلام قبل ذلك بمدّة إلّا أنّهما أخفيا إسلامهما لأسباب معيّنة. هذا كلّ في حين أنّ اسره معاوية وأبي سفیان ومن لفّ لقههم وكانوا يتآمرون على الإسلام والمسلمين جهاراً وخفية، وكانّ معاوية قد نسي أو تناسى كلّ هذه القضايا التاريخية المسلّمة في رسالته وأخذ يتبرّج بالدفاع عن الإسلام والمسلمين ويدّعي بأنّ بعض الأشخاص الذين لم يكونوا في ميدان الجهاد والدفاع أنّهم من زمرة المدافعين عن الإسلام والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله. نفعات الولاية، ج ٩، ص: ٩٧

ولذلك يضيف الإمام عليه السلام: أمّا سائر أفراد قريش من غير بني هاشم، ممّن أسلم فلم يكونوا في دائرة الخطر ولم يواجهوا ما واجهنا نحن من مصاعب لأنّهم كانوا يعيشون في إطار التحالفات والمعاهدات «وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلَافَ [١٠٩] مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانٍ أَمِّنٍ.»

وعلى هذا الأساس يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة المهمّة وهي أنّ حماة الإسلام الحقيقيين هم بنوهاشم الذين آمنوا بالله ورسوله ودافعوا بأرواحهم ونفوسهم عن الإسلام والنبي، وحتّى من لم يسلم منهم كان يذبّ عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله واحتراماً لمقامه ودفاعاً عن شرفه، أمّا سائر مكونات قريش من القبائل العربية ومنهم الخلفاء الثلاثة، الذين استعرض معاوية خدماتهم وتضحياتهم للإسلام، فلم يكونوا في صفّ المدافعين عن النبي والإسلام أبداً.

وطبعاً لم يكن معاوية غافلاً أو جاهلاً بتاريخ الإسلام، بل كان يتغافل عن الوقائع التاريخية لتبرير رؤاه وأفكاره. نفعات الولاية، ج ٩، ص: ٩٩

القسم الثاني

إشارة

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - إِذَا احْمَرَ الْبَأْسُ، وَأَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوْقَ بَيْتِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالْأَسِنَّةِ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ جَعْفَرُ يَوْمَ مُوتِهِ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ،

وَلَكِنَّ آجَالَهُمْ عَجَلَتْ، وَمَيَّتَهُ أُجَلَّتْ. فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ! إِذْ صَرَزْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لَأَيُّدِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا، إِلَّا أَنْ يَدْعَى مُدْعٍ مَا لَأَعْرِفُهُ، وَلَا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

الشرح والتفسير: حماء الإسلام الأوائل

يتحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة بالتفصيل ما أجمل بيانه سابقاً ويبين من هم الأشخاص من بنى هاشم الذين بذلوا نفوسهم دفاعاً عن الإسلام وشربوا كأس الشهادة في سبيل التصدي لقوى الكفر والشرك، في حين أن أشخاصاً ممن ذكرهم معاوية بوصفهم قادة الإسلام ومن رواد الدفاع عن الرسالة الإلهية لم يصلوا إلى هذا المقام، يقول:

«وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا أَحْمَرَ النَّبَأُ [١١٠] وَأَحْجَمَ [١١١] النَّاسُ قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوْقَى بِهِمْ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٠٠

أَصْحَابَهُ حَرَ السُّيُوفِ الْأَسِنَّةِ [١١٢].»

جملة: «أَحْمَرَ النَّبَأُ إشارة إلى اشتعال نار الحرب، وبما أن الحرب تشبه عادة بالنار التي تحمر في حال اشتدادها واستعارها، فلذلك استخدمت هذه الكناية، وقيل أيضاً أن الإحمرار هنا كناية عن كثرة سفك الدماء عند اشتداد المعركة والقتال.

إن العبارات المذكورة تشير إلى أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وخلفاءه للقادة العسكريين في عالمنا المعاصر الذين يحتفظون بأبنائهم وأقربائهم في الخطوط الخلفية عند مواجهه الخطر وبيعثون الغرباء إلى الصفوف الإمامية من المعركة، يقدم النبي أعز أرحامه وأقربائه إلى الصف الأول من جبهات الحرب والقتال ليثبت أنه على يقين من رسالته وأنه يسلك في هذا السبيل حالات الانسجام التام بين أهدافه وسيرته ومستعد دوماً للتضحية في سبيل الغايات الإلهية التي يصبو إليها ويهدف لتحقيقها في واقع الحياة والمجتمع.

ثم إن الإمام عليه السلام في سياق كلامه يذكر ثلاثة أشخاص من أقربائه وأرحامه الذين شاركوا في الحروب وتصدوا لقوى الكفر والانحراف ونالوا درجة الشهادة، أولهم «عبيدة بن الحارث» (وهو ابن عم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي استشهد يوم بدر)، والثاني «حمزة بن عبدالمطلب» عم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي استشهد يوم احد، والثالث «جعفر بن أبي طالب» ابن عم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً الذي نال وسام الشهادة في معركة مؤتة، يقول الإمام عليه السلام: «فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ وَقُتِلَ جَعْفَرُ يَوْمَ مُؤْتَةَ».

«بدر» اسم بئر تقع بين مكة والمدينة وهي أقرب إلى المدينة، وسميت بهذا الاسم لأنه اسم الحافر لها، وأما قصة استشهاد عبيدة بن الحارث على يد «عتبة ابن ربيعة» وأحد المشركين فهي:

عندما تقابل جيش المسلمين في معركة بدر مع جيش الكفر والشرك نزل للبراز

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٠١

ثلاثة أشخاص من شجعان المشركين، وفقاً لما كان متداولاً في ذلك الزمان كمقدمه للقتال والحرب، وهم عتبة وأخيه شيبه وابنه وليد، وطلبوا من المسلمين أن يبرز إليهم من يقاتلهم، فتطوع لهذه المهمة بعض الأنصار وتوجهوا إلى الميدان لمقابلته هؤلاء المشركين الثلاثة، ولكن المشركين قالوا: نحن نريد أكفأنا من قريش، فالتفت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى حمزة وعبيدة والإمام علي عليه السلام وقال: استعدوا وتوجهوا إلى هؤلاء الأعداء، فبرز عبيدة إلى عتبة وحمزة إلى شيبه وعلي إلى الوليد، أما الإمام علي عليه السلام فقد استطاع الإجهاز على الوليد بعد مناوشات قليلة، وأما حمزة فقد صرع شيبه، ولكن عبيدة الذي كان مسناً تقريباً بقي يقاتل عتبة، وأخيراً سقط عبيدة على الأرض وهو بالنزع الأخير وجيء به إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فعندما رأى النبي قال: هل أنا شهيد، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: نعم أنت شهيد في سبيل الله.

أما حمزة بن عبدالمطلب فقد استشهد في معركة احد التي وقعت بعد واقعة بدر في السنة الثالثة للهجرة، وقتله شخص يدعى «وحشي»

وهو اسم على مسمى وأما أسباب هذه المعركة فقد ذكر المؤرخون: إنَّ المشركين بعد هزيمتهم في معركة بدر رجعوا إلى مكة وأقسموا فيما بينهم (بقيادة أبي سفيان) أن يبيعوا بعض إبلهم ويجمعوا الأسلحة والعدَّة للهجوم مرَّة أخرى على المسلمين وكانت النتيجة أنَّ المشركين استطاعوا من تحشيد ثلاثة آلاف نفر داخل وخارج مكة ومعهم مائتي فرس وثلاثة آلاف بعير وسبعمائه درع واستعدوا للتوجه إلى المدينة لمواجهة جيش الإسلام.

وقصة هذه الحرب فيها تفاصيل كثيرة، وإجمالاً نعلم أنه بسبب اشتباه بعض المسلمين وتمردهم على أوامر النبي الأكرم صلى الله عليه و آله انتهت هذه المعركة بانكسار وهزيمة الجيش الإسلامي وجرح فيها النبي وكسرت رباعيته بحجر رماه به «عتبة ابن أبي وقاص» واستشهد حمزة بطل الإسلام وعم النبي الأكرم صلى الله عليه و آله، وجاءت هند زوجة أبي سفيان وام معاوية ومعها جماعة من النسوة إلى الميدان في نهاية المعركة

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٠٢

وأخذت تمثّل بشهداء المسلمين، فكانت تقطع آذان وانوف هؤلاء الشهداء وتجعل منها عقداً لها، ثم إنَّها جاءت إلى جسد حمزة وبقرت بطنه وأخرجت كبده ولا-كته بأسنانها بقصد أكله ولكنَّها لم تتمكن من ذلك، فقذفت به خارجاً، ومن هنا كان المسلمون يطلقون على هند «آكلة الأكباد» ويسمّون معاوية «ابن آكلة الأكباد».

أما «جعفر بن أبي طالب فقد استشهد في غزوة مؤتة، وهذه المعركة وقعت في منطقة مؤتة على مقربة من الشام (الحدود الشمالية من جزيرة العرب) في السنة الثامنة للهجرة وكانت بداية هذه الحرب أن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله أرسل رسولاً من قبله يدعى «الحارث بن عميرة» إلى حاكم «بصري» ودعاه إلى الإسلام، فعندما وصل منطقة مؤتة أمر حاكم بصرى بقتله، وهذا العمل يمثّل خرقاً للتقاليد الموجودة والعرف المتداول في ذلك الوقت بالنسبة للرسول والمبعوثين، وهذه السنّة جارية لحدّ الآن في الثقافات البشرية، وهذه المصيبة ثقلت على المسلمين بحيث أن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله جهّز جيشاً من ثلاثة آلاف رجل بقيادة زيد بن حارثة وأمره بمواجهة أهل الشام.

وقد أمر النبي الأكرم صلى الله عليه و آله أنه إذا استشهد زيد بن حارثة فإنَّ جعفر هو الذي يتولى قيادة الجيش ويكون صاحب اللواء، وإذا استشهد جعفر بن أبي طالب، فصاحب اللواء عبدالله بن رواحة، وإذا استشهد عبدالله بن رواحة فإنَّ على المسلمين أن يختاروا من بينهم رجلاً لقيادة الجيش.

وتحرّك الجيش الإسلامي حتّى وصل المحلّ الذي قتل فيه رسول النبي الأكرم صلى الله عليه و آله ودعوا اولئك القوم إلى الإسلام، ولكن عندما أطلع الأعداء على مجيء جيش الإسلام قاموا بتحشيد جيش عظيم بلغ عدده مائة ألف رجل، ولكن المسلمين لم يتردّدوا أو يجبنوا أمام هذا العدد الكبير من جيش الأعداء الذي لا يقارن مع قلة عدد المسلمين، وبدأت الحرب، وخاض المسلمون معركة صعبة في هذه المنطقة، وكما توقّع النبي الأكرم صلى الله عليه و آله فقد استشهد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة واحداً بعد الآخر وقطع الأعداء يدي جعفر، ولذلك

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٠٣

عندما أخبروا النبي الأكرم صلى الله عليه و آله بالحدث بعد ذلك قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَوَّضَهُ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ» فسَمَّى جعفر الطيار.

وأخيراً أخذ المسلمون يتداركون الأمر وأظهروا للأعداء أن هذا العدد من الجيش الإسلامي وهو ثلاثة آلاف رجل ما هو إلّا مقدّمة لجيش الإسلام العظيم الذي سيصل عمّا قريب، وعلى ضوء ذلك رأى الأعداء أن الانسحاب أفضل وعاد المسلمون بخسائر محدودة إلى المدينة من دون أيّة هزيمة تفرض عليهم من الأعداء، وفي الحقيقة أن هذه الحرب انتهت بدون انتصار العدو على المسلمين.

ومما تقدّم أعلاه يتبيّن بجلاء صدق كلمات الإمام عليه السلام في رسالته، وكيف أن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله كان يقدم أهل

بيته وأرحامه من بنى هاشم في المعارك الطاحنة بين قوى الإيمان وقوى الكفر والشرك، بينما كان يعيش الآخرون في الصفوف المتأخرة خلافاً لما ذكره معاوية في رسالته.

ويستمر الإمام عليه السلام في رسالته مستخدماً أسلوب الكناية، والكناية أبلغ من التصريح في إشارة إلى نفسه المباركة وأنه أيضاً مشتاق إلى الشهادة في سبيل الإسلام، ولكن الله تعالى لم يشأ له ذلك ولم يحن أجله ويقول: «وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ وَلَكِنَّ آجَالَهُمْ عَجَّلْتُ وَمَتَيْتُهُ أُجَلَّتْ».

وهذه العبارة تؤكد على الأمر الذي كثيراً ما ذكره الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأنه يشاق إلى الشهادة كشوق الطفل الرضيع إلى لبن أمه كما قال: «وَاللَّهِ لَأَبْنُ أَبِي طَالِبٍ آتَسُّ بِالْمَوْتِ مِنَ الطُّفْلِ بِشَدِيٍّ أُمَّهُ» [١١٣]. أو ما ورد في الأحاديث الشريفة بعد انتهاء معركة احد عندما جاء الإمام علي عليه السلام للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهو مهموم وقال: لقد استشهد جماعة من المسلمين (ومنهم عمي حمزة) ولكني حرمت من الشهادة فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «يَا عَلِيُّ أَبَشِرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ» [١١٤].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٠٤

وبعد أن بين الإمام عليه السلام بأدلة وشواهد قوية دفاعه - هو وأهل بيته - المستميت عن الإسلام والنبي وأفضليتهم على الآخرين، شرع بإظهار التعجب مما أوقعه فيه الدهر، بمعنى أهل الدهر والناس الذين لم يدركوا هذه الحقائق وأنه هو وأهل بيته مع كل هذه الفضائل قد جعلوه في عرض من ليست له مثل تلك الامتيازات والسوابق في تاريخ الإسلام، ولم يكن يملك أدنى امتياز في الشخصية والإيمان والجهاد: فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لَا يَدُلِّي [١١٥] أَحَدٌ بِمِثْلِهَا».

وقد تصوّر البعض من هذه العبارة أنها إشارة إلى أن الناس كانوا يقارنون بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية في حين أن مقصود الإمام عليه السلام يختلف عن هذا المعنى، فمراده في الحقيقة ناظر إلى رسالته معاوية وما ذكره من أن الخلفاء الثلاثة السابقين كانت لهم من الفضائل والسوابق في الإسلام حيث أخذ معاوية يتبجح ويتفاخر بفضائل هؤلاء الخلفاء في مقابل الإمام عليه السلام، والآن فإن معاوية لم يشر في رسالته إلى سوابقه الإسلام، لأنه أساساً لم يكن يملك أية سابقة حسنة في تاريخ الإسلام وإن كانت له سابقة فهي سابقة سوء في العداة للإسلام والمسلمين هو وقبيلته وآل بيت أبي سفيان.

وعلى أية حال فإن الإمام عليه السلام أبدى تعجبه من أهل زمانه ومنهم معاوية كيف أنهم يقرونه مع الخلفاء السابقين عليه، وهذا الكلام في الحقيقة يتناغم مع ما ورد في الخطبة الشقشقية حيث يقول: «مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِي مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَيْذِهِ النَّظَائِرِ». أي أعضاء شوري عمر بن الخطاب الذين جعلهم عمر بعده لاختيار الخليفة وجعل معهم الإمام علي عليه السلام كواحد من الشوري.

ولعل الأشخاص، الذين تصوّروا أن كلام أمير المؤمنين عليه السلام هنا ناظر إلى مقارنته

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٠٥

مع معاوية، كانوا تحت تأثير عبارة أخرى من كلام الإمام عليه السلام وردت في مورد آخر، ولكن إذا تمعنوا في هذه النقطة اللطيفة، وهي أن رسالته الإمام عليه السلام في الواقع جواب على رسالته معاوية له، وفي تلك الرسالة تحدّث معاوية عن أفضليته الخلفاء السابقين على الإمام عليه السلام، لزال هذا التوهّم، ومن هذا المنطلق يتبين أن مقصود الإمام عليه السلام هو ما ذكرناه آنفاً.

ثم إن الإمام عليه السلام يستمر في كلامه بالكناية البليغة أيضاً ويقول: «إِلَّا أَنْ يَدْعِيَ مُدْعٍ مَا لَا أَعْرِفُهُ، وَلَا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ»، أي أن يدعى أحد بعض الفضائل لهؤلاء لا توجد لديهم في الواقع ولست مطلعاً عليها ولا أتصوّر أن الله تعالى أيضاً مطلع عليها لأنها أساساً غير موجودة لديهم.

وهذا يشبه ما ورد في الآية الشريفة ١٨ من سورة يونس حيث يقول تعالى: «أَقُلُّ أَتَتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَمْ يَعْلَمُوا فِي السَّمَوَاتِ وَلَمَّا فِي الْأَرْضِ تُسَبِّحُانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»، أي أن المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى، ما لا يضربهم ولا ينفعهم يقولون:

هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فیرد عليهم القرآن الكريم بأن الله تعالى لا يعلم أن له مثل هؤلاء الشفعاء، لا في السموات ولا في الأرض. ثم إن الإمام عليه السلام في خاتمة الرسالة وبعد أن بين سوابق أهل البيت ومخالفهم، يشكر الله تعالى ويقول: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

وجملته: «فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ» لا تعنى أن الإمام عليه السلام يعلم بمصائر الناس وبأن الدهر يملك تأثيراً في الحوادث الواقعة كما يعتقد الدهريون، بل مراده من الدهر هنا هو أهل الدهر الذين لم يعرفوا ولم يقدروا مقام الإمام عليه السلام وما يقتضيه ويفرضه عليهم، حيث جعلوه قريباً لأشخاص لم يقدموا أى شىء في سبيل الإسلام ولم يكن لديهم أى امتياز في تاريخهم، وعلى هذا الأساس كان عتب الإمام عليه السلام ناظر إلى أهل الزمان والدهر وإن كان الكلام متوجهاً ظاهراً إلى الدهر نفسه. وبعبارة أخرى أن حسن الدهر وقبحه يتم تشخيصه من خلال حسن الناس

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٠٦

وسوء أخلاقهم وسلوكهم كما يقول الشاعر:

يَعِيبُ النَّاسُ كُلَّهُمْ زَمَانًا وَمَا لِي زَمَانًا عَيْنًا سَوَانًا

نَعِيبُ زَمَانًا وَالْعَيْبُ فِينَا وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ بِنَا هَجَانًا

ومفهوم جملة: «مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي أَنْ مِثْلَ هَؤُلاءِ الْأَشْخَاصِ لَمْ يَتَقَدَّمُوا بِخَطْوَةٍ كَمَا تَقَدَّمْتُ أَنَا فِي خَطِّ الرِّسَالَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْحَقِّ، وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ الْأَخْرَيْنِ لَمْ يَقْدَمُوا أَيْئَهُ خِدْمَةً لِلْإِسْلَامِ كَمَا قَدَّمْتُ مِنْ تَضَحِيَّاتٍ فِي سَبِيلِ الدِّفَاعِ عَنِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالرِّسَالَةِ».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٠٧

القسم الثالث

إشارة

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتْلِهِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَيَّ غَيْرِكَ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنِّي غَيْبَكَ وَشِدْقَكَ لَتَعْرِفَهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ، لَأَيْكُلُنَّكَ طَلْبُهُمْ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ، وَلَا جَبَلٍ لَّا سَهْلٍ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُكَ وَجِدَانُهُ، وَزُورٌ لَأَيْسُرُكَ لُقْيَانُهُ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ.

الشرح والتفسير: ما أنت وقتله عثمان؟!

نعلم أن معاوية كان قد طلب في كتابه من الإمام عليه السلام أن يسلم إليه قتله عثمان، وهذا الطلب غير معقول وبعيد عن المنطق، لأنه لو تقرّر أن يقدم شخص إلى المحاكمة والقصاص بسبب قتله لإنسان برىء فإن هذا العمل من شأن إمام المسلمين وخليفتهم الشرعي، ويتم ذلك بموافقة أولياء الدم، لا شخص متمرد ولا يعتبر من أولياء الدم، هذا في صورة ما إذا ثبت أن المقتول كان بريئاً وأن القاتل أو القتلة مذنبون، ولذلك يقول الإمام في مقابل طلب معاوية هذا: «وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتْلِهِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي [١١٦] دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَيَّ غَيْرِكَ»، لأنه لا علاقة لك بهذا الأمر، فلا أنت ولي الدم ولا الحاكم الإسلامي ليكون طلباً مشروعاً ومعقولاً.

وبيديه أن مسألة طلب الثأر بدم عثمان لم تكن سوى ذريعة لرفع لواء الفرقة والشقاق ضد الإمام عليه السلام والإمتناع من البيعة له، وهذه المسألة من ناحية تاريخية إلى

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٠٨

درجة من الوضوح بحيث كان يضرب بها المثل بين الناس عندما يريدون أن يقولوا بأن فلاناً يتمسك بشيء لتبرير سلوكه أو لدعم وجهة نظره في مقابل المخالف، فيقال: «إن فلان جعل من القضية كميص عثمان» ومعلوم أن الإمام علي عليه السلام لو سلم لمعاوية بعض الأشخاص المتهمين بقتل عثمان فإن معاوية لم يكن يقنع بذلك، بل سيستمر بالمطالبة بآخرين ويتذرع دوماً بمثل هذه الذريعة والحجة لدعم وتقوية أركان حكومته في الشام، وهذه الحالة تمثل منتهى الخسة والانتهازية في مقابل إمام المسلمين.

أضف إلى ذلك فهناك الكثير من الأدلة والشواهد التي تدل على أن معاوية ليس له الحق بأن يطلب من الإمام عليه السلام مثل هذا الطلب، والإمام عليه السلام بدوره لا ينبغي أن يهتم بمثل هذه الطلب، وعلاوة على ذلك أن مثل هذا الطلب لا يمكن أن يتحقق على أرض الواقع لأن انتفاضة المسلمين ضد عثمان كانت انتفاضة عامة وشاملة والشاهد على هذا الكلام القصيدة التي يرويها الشارح البحراني في «شرح نهج البلاغة» حيث يقول:

«كما روى أن أبا هريرة وأبالدرء أتيا معاوية فقالا له: علام تقاتل علياً وهو أحق بالأمر منك لفضله وسابقته، فقال معاوية: لست اقاتله لأنني أفضل منه ولكن ليدفع إلي قتل عثمان، فخرجا من عنده وأتيا علياً، فقالا له: إن معاوية يزعم أن قتله عثمان عندك وفي معسكرك، فادفعهم إليه فإن قاتلك بعدها علمنا أنه ظالم لك، فقال علي عليه السلام: إنني لم أحضر قتل عثمان يوم قتل ولكن هل تعرفان من قتله؟ فقالا: بلغنا أن محمداً بن أبي بكر وعمار بن ياسر وعدي بن حاتم وعمر بن الحمق وفلاناً وفلاناً ممن دخل عليه. فقال علي عليه السلام: فامضيا إليهم فخذوهم.

فأقبلا إلى هؤلاء النفر وقال لهم: أنتم من قتله عثمان وقد أمر أمير المؤمنين بأخذكم. قال: فوفقت الصيحة في المعسكر بهذا الخبر فوثب من عسكر علي أكثر

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٠٩

من عشرة آلاف رجل في أيديهم السيوف وهم يقولون: كلنا قتلته، فبهت أبو هريرة وأبالدرء، ثم رجعا إلى معاوية وهما يقولان: لا يتم هذا الأمر أبداً، فأخبراه بالخبر، فإذا كان القائلون والمتعصبون لهم بهذه الكثرة فكيف يمكنه عليه السلام تسليمهم وتمكين أحد منهم؟» [١١٧].

عندما يكون قتله عثمان بهذا العدد من الكثرة فهل يستطيع الإمام عليه السلام أن يسلمهم جميعاً أو يسلم أحدهم إلى معاوية على فرض أن معاوية ولي دم عثمان وأنه يريد إقامة الحق والعدالة؟

ولكن بما أن معاوية في ختام رسالته هدد الإمام عليه السلام بالقتال والحرب، فقد أجابه الإمام عليه السلام على هذا التهديد بالمثل وكتب في ختام رسالته عبارة شديدة اللهجة زاخرة بأنواع الفصاحة والبلاغة وقال: «وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنِّي عَيْكَ [١١٨] شِقَاقِكَ [١١٩] لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَن قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ، لَأَيُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ، لَأَجْبَلٍ وَلَا سَهْلٍ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبُ يَسْوءِكَ وَجِدَانُهُ، وَزَوْرٌ [١٢٠] لَأَيَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ [١٢١]، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ».

وهنا يذكر الإمام عليه السلام بهذه العبارة الحكيمه معاوية بأن قتله عثمان ليس كما تحسب أنهم نفر قليل (على فرض أن يكونوا في جيشي) بل هم جماعة عظيمة سيأتونك سراعاً فلا تكلف نفسك جهد البحث عنهم، أجل فعماً قليل سيأتونك تبعاً وسيواجهونك في ميدان القتال وستعرف منهم ضربات السيوف والرماح وسوف تدور الدائرة عليك فلا تستطيع أن تتمسك بعد ذلك بهذه الذريعة الواهية.

والواقع أثبت صحة هذا الكلام ولولا بعض السذج والمخدوعين في جيش

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١١٠

الإمام علي عليه السلام الذين انطوت عليهم حيلة عمرو بن العاص في رفع المصاحف على الرماح؛ لكان الإمام عليه السلام قد انتهى من معاوية وحكومته في الشام وأزاح هذه الفتنة من واقع الأمة الإسلامية وأراح المسلمين منها.

تأمل: كلام عن قتل عثمان

بالرغم من أننا بحثنا أكثر من مرة عن واقعة قتل عثمان والعوامل التي أدت إلى انتفاضة المسلمين ضده، نرى من اللازم أيضاً الإشارة إلى نقطة أخرى في هذا المجال بشكل موجز.

إن من بين أصحاب الإمام علي عليه السلام من شهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لهم بالجنة، وكانوا ممن يرون أن عثمان يستحق القتل بسبب البدع التي اختلقها في أيام خلافته.

يقول نصر بن مزاحم في كتابه (صفين): إن عمار بن ياسر وقف في أحد الأيام في معركة صفين بين أصحابه وقال: امضوا معي عباد الله إلى قوم يطلبون فيما يزعمون بدم الظالم لنفسه، الحاكم على عباد الله بغير ما في كتاب الله، إنما قتله الصالحون المنكرون للعدوان، الأمرون بالإحسان، فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم ولو درس هذا الدين: لم قتلتموه؟ فقلنا: لإحداثه، فقالوا: إنه ما أحدث شيئاً، وذلك لأنه مكنهم من الدنيا، فهم يأكلونها ويرعونها ولا يبالون لو سقطت عليهم الجبال، والله ما أظنهم يطلبون دمه إنهم ليعلمون أنه الظالم، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرأوها وعلموا لو أن صاحب الحق لزمهم لحال بينهم وبين ما يأكلون ويرعون فيها، ولم يكن للقوم سابقه في الإسلام يستحقون بها الطاعة والولاية، فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قتل إمامنا مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً، وتلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون» [١٢٢].

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١١١

وعندما يقر مثل هذا الرجل العظيم وهو عمار بن ياسر الذي هو من أهل الجنة بمشاركته بقتل عثمان ويستدل لذلك بما اختلقه عثمان من البدع الخطيرة في الإسلام، فمن البديهي أن الإمام عليه السلام لا يسمح لنفسه بتسليم مثل هؤلاء الأشخاص من المهاجرين والأنصار والتابعين، إلى معاوية ليقتلهم.

إن الباعث على ثورة الناس ضد عثمان يمكن بيانه في خمسة أمور:

١. تعطيل الحدود والموازن الإلهية في أيام خلافة عثمان.

٢. تقسيم بيت المال بين بني امية.

٣. تعيين أفراد من بني امية في المناصب الحساسة في الحكومة الإسلامية.

٤. ضرب وجرح أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كعبدالله بن مسعود وعمار بن ياسر.

٥. تباعد ونفي الشخصيات الإسلامية الكبيرة كأبي ذر، مالك الأشتر، صعصعة ابن صوحان وأخيه، وعمرو بن الحنظل الخزاعي.

إن أمواج المخالفة والاعتراض ضد عثمان اتسعت واشتدت إلى درجة أن أفراداً كعبدالرحمن بن عوف الذي كانت له يد الطولي في نصب عثمان واستلامه الخلافة في مسألة الشورى الستة الذين نصبهم عمر بن الخطاب لتعيين الخليفة من بعده، اعترض عليه وأصبح من مناوئيه، وينقل المؤرخون أن عبدالرحمن - لهذا الأسباب المتقدمة - قطع علاقته مع الخليفة الثالث ولم يتحدث معه إلى نهاية عمره، وحتى عندما جاء عثمان لعيادته وهو في حال مرضه أعرض بوجهه عن الخليفة ولم يتحدث معه بكلمة [١٢٣].

ومن بين هؤلاء المعترضين على عثمان كانت عائشة زوجة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله تعترض أكثر من الآخرين على أعمال عثمان، وعندما أمر عثمان بضرب عمار ابن ياسر أخرجت عائشة ثوب النبي ونعله وقالت: أيها الناس! هذا ثوب النبي ونعله لم

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١١٢

يجفًا بعد وقد نسيتم سنته.

وقد ذكر المؤرخون عبارة مشهورة لعائشة في حق عثمان حيث كانت تقول:

«أَقْتُلُوا نَعْتًا قَتَلَ اللَّهُ نَعْتًا» [١٢٤] وتقصد به عثمان بن عفان.

ومن جملة المعترضين والمخالفين لعثمان، طلحة والزبير اللذان كانا ينتقدان سياسة عثمان وتصرفاته كثيراً، ومن العجيب أن هذين الرجلين خرجا بعد ذلك ومعهما عائشة للطلب بدم عثمان في مواجهة الخليفة الحق يعنى أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي بايعاه قبل ذلك وكان من أمر خروجهما ومعركة الجمل ما كان.

على أية حال فإن الأشخاص الذين حرّكوا الناس ضد عثمان بأقوالهم وبتحريضهم وبذلك مهّدوا الأرضية لقتل عثمان؛ أكثر من أن نحصيهم في هذا المقال.

إن العوامل الخمسة المذكورة أعلاه جعلت الكثير من المسلمين في المراكز الإسلامية كالكوفة والبصرة ومصر يتوجهون إلى المدينة لأداء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجمعون إلى أنصارهم ومؤيديهم لبحث الأزمة في مركز الخلافة ويجبروا الخليفة على التوبة والعودة إلى تعاليم الإسلام أو يعتزل سدة الحكم ويفوض أمر الخلافة إلى غيره، وبذلك حاصرت الجماهير بيت الخليفة وطلبوا منه التوبة بإرسالهم رسالة إليه.

وقد سعى عثمان الذي لم يكن يعلم بعمق الاعتراض الجماهيري والسخط الشعبي إلى إنهاء الاضطرابات من خلال تعيين بعض الأشخاص من ذوى السعة كالمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص في مركز الخلافة والقرار، ولكن الناس لم يقبلوا بهما ورفعوا نداء الاعتراض ضدهما.

وبعد اشتداد الأزمة بدأ عثمان يتوسط لدى أمير المؤمنين عليه السلام لتخفيف وتهدئة الأوضاع المضطربة، وكان الإمام عليه السلام في كل مرة يعمل على تهدئة الأوضاع بتدابيره الحكيمه، ولكن للأسف كان عثمان فاقداً للإرادة القوية وكان خاضعاً بشكل تام

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١١٣

لإرادة عناصر فاسدة في جهاز الحكومة كمروان بن الحكم حيث كان يستشير في كل مرة ولا يعمل بنصائح أمير المؤمنين عليه السلام ولا يقيم لسعيه الإصلاحى وزناً.

وأخيراً قام المعترضون والثوار بمحاصرة دار الخليفة ومنعوا عنه الماء في هذه المرة، وفي هذه الأثناء قام أمير المؤمنين عليه السلام وبطلب من الخليفة ومساعدة بنى هاشم بنقل الماء بالقرب إلى دار الخليفة عثمان، حتى أن بعض أفراد بنى هاشم في خضم هذا الصراع أصيبوا بجراح من قبل الثوار والجمهور الذي يحاصر دار عثمان.

وقد كتب عثمان في أيام الحصار هذه رسالة إلى معاوية وطلب منه أن يرسل له المدد والعون ولكن معاوية لم يهتم لرسالة عثمان ولم يرتب عليها أثر يذكر وكان يقول: إننى لا اخالف صحابة النبى، ولم يكن هدف المحاصرين بيت الخليفة قتله، بل كانوا يريدون استسلام عثمان وأعوانه ورضوخهم لمطالبهم من خلال منع الماء والطعام عنهم، ولكن سوء تدبير مروان بن الحكم الذى قتل أحد الثوار أدى إلى تفاقم الأزمة وهجومهم على دار الخليفة.

وكانت شدة الهجوم إلى درجة بحيث إن بنى امية الذين كانوا يحرسون الدار ويدافعون عن الخليفة وأعوانه، فضّلوا الهرب من الميدان، حيث قامت ام حبيبة زوجة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وبنت أبى سفيان «وكانت أيضاً من بنى امية ياخفائهم فى دارها»، ولكن ثلاثة أشخاص من أعوان الخليفة الذين لم يتمكنوا من الفرار قتلوا على يد المهاجمين، وأخيراً قتل عثمان أيضاً على أيديهم، وفى هذا المجال كان لبعض الأفراد دور كبير فى هذه النهاية الدامية ومنهم: محمد بن أبى بكر وكنانة ابن بشر التجيبى وسودان بن حمران المرادى وعمرو بن الحقيق الخزاعى وعمير ابن الصابى [١٢٥].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١١٥

الرسالة ١٠

إشارة

إِلَيْهِ أَيْضاً [١٢٦]

نظرة إلى الرسالة

تتألف هذه الرسالة من أربعة أقسام:

القسم الأول ينصح الإمام عليّ عليه السلام معاوية ويحذّره من المصير الأليم يوم القيامة والعواقب الوخيمة المترتبة على تصرّفاته المعادية والمغرضة، رغم أنّ الإمام عليه السلام يعتبره أسير الشيطان وأنه لا أمل في هدايته.

والقسم الثاني يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة، وهي أنّ معاوية كيف يستطيع إدارة أمور الأمة الإسلامية وتولّي شؤونها في حين أنّه لا يملك أيّة سابقة محمودة في تاريخ الإسلام ولا ينتمي إلى اسرة شريفة ومؤمنة؟!

وفي القسم الثالث منها يبيّن الإمام عليه السلام هذه الحقيقة وهي أنّه يدعو معاوية إلى

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١١٦

ترك الناس وعدم إقحامهم في الحرب وأن يأتي هو بنفسه إلى الميدان ليواجه الإمام عليه السلام بمفرده ويحسم بذلك مصير الأمة ويعيد إلى الأذهان ما مضى من تاريخ الإسلام حيث كان المسلمون يقاتلون إخوانهم وآباءهم وبنى عمومهم على الإسلام والإيمان. وأخيراً في القسم الرابع من هذه الرسالة يطرح الإمام عليه السلام ذريعة معاوية في الطلب بدم عثمان ويقول: إنك تعلم جيداً من هو القاتل لعثمان، فلماذا لا- تتوجّه إليه وترك المسلمين وشأنهم؟ وفي نهاية الرسالة يقول: إنني أرى عمياً قريب صراخك وصراخ جيشك في ميدان الحرب وسوف تلحق بك الهزيمة بعد الهزيمة وتضطرّ أخيراً إلى اللجوء إلى كتاب الله في حين أنّك لا تؤمن به.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١١٧

القسم الأول

إشارة

وَكَيْفَ أَنْتَ صَائِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا، وَخَدَعَتْ بِلَمَدَّتِهَا. دَعَاكَ فَأَجَبْتَهَا، وَقَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا، وَأَمَرْتَكَ فَأَطَعْتَهَا. وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقْفَكَ وَأَقِفْ عَلَى مَا لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ مَجْنٌ، فَاقْعَسْ عَنِ هَذَا الْأَمْرِ، وَخُذْ أَهْبَةَ الْحِسَابِ، وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ، وَلَا تُمَكِّنِ الْغَوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ أُغْلِمَكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَا أَخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلُهُ، وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالْدَّمِ.

الشرح والتفسير: نظرة إلى الافق الغائم

رأينا آنفاً أنّ هذه الرسالة تتبدىء بكلمات لم يذكرها السيد الرضوي في «نهج البلاغة»، فالإمام عليه السلام في بداية هذا الكتاب بعد

الحمد والثناء على الله تعالى أشار إلى سرعة انقضاء الدنيا وزوال الحياة وخاطب معاوية بالقول: يا معاوية أنت تدعى شيئاً لست من أهله، لا في الماضي ولا في الحاضر، ولا تملك الدليل على إثبات مدّعاك (جدارتك بالحكومة والخلافة على المسلمين) وليس لديك شاهد من القرآن الكريم أو من الأحاديث النبوية الشريفة، ثم إن الإمام عليه السلام أخذ يثبه معاوية على عواقب التكالب على الدنيا وزخارفها ويحذّره من الوقوف أمام الله تعالى يوم القيامة لعله ينتبه لخطئه ويرعوى عن سلوكه ويتحرّك في الصراط المستقيم، يقول الإمام عليه السلام: «وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ [١٢٧] مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١١٨

تَبَهَّجَتْ [١٢٨] بِزِينَتِهَا وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا».

ثم يضيف الإمام عليه السلام: إن هذه الدنيا هي التي دعوتك وخذعتك إلى بريقها وزخارفها وقد أجبته وأسرعت إليها وسلّمت إليها قيادك وعقلك: «دَعَّتْكَ فَأَجَبْتَهَا، فَادَّتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا، وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا».

والإمام عليه السلام في هذه العبارات يطرح تشبيهات رائعة للدنيا وبريقها ويشبّهها بالملابس البراقة والملونة التي يلبسها المرء ويزهو بها أمام الآخرين، أو بمثابة الجلباب الذي يغطى به الإنسان رأسه، وزخارف الدنيا تخدع الإنسان ولذتها تجذبه إلى خطّ الهاوية والضلالة، فالأشخاص الذين يتحرّكون في خطّ الأهواء والشهوات والذين لا يعرفون حقيقة الدنيا سيقعون في فخاخها سريعاً ومن أجل الاستفادة من زينتها ولذاتها سيجدون أنفسهم مضطّرين لاتباع أوامرها والامتثال لمطالبها، وبذلك يتعدون عن طريق الحق والإيمان ويتحرّكون في متاهات الضلالة ومنزقات الخطيئة.

ثم إن الإمام عليه السلام يشير إلى عاقبة هذا المسار المنحرف ويقول: «وَإِنَّهُ يُوشِكُ [١٢٩] أَنْ يَقْفِكَ وَأَقِفْتُ عَلَى مَا لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ مِجْنُ [١٣٠]، فَاقْعَسَ [١٣١] عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَخَذَ أُهْبَةً [١٣٢] الْحِسَابِ، وَشَمَّرَ [١٣٣] لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ، وَلَا تُمَكِّنِ الْعُوَاةَ [١٣٤] مِنْ سَمْعِكَ».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١١٩

ويتحدّث الإمام عليه السلام في هذه العبارات عن جذور الإنحرافات التي وقع فيها معاوية وكذلك يشير إلى طريق الحلّ والعلاج حيث يقول: إن أفضل طريق لنجاتك من هذه المتاهة هو أن تعزل حكومة الشام وتأخذ الأهبة للحساب الإلهي.

وجمله «شَمَّرَ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ» إما إشارة إلى الحوادث الأليمة والوخيمة التي ستصيب معاوية وأعوانه في هذه الدنيا، أو إشارة إلى الحوادث والعاقبة الأليمة التي ستلحق بهم في الآخرة (والاحتمال الثاني أنسب في المقام) وعلى أية حال بما أن هذه الحوادث حتمية الوقوع فإن الإمام عليه السلام ذكرها بصيغته الماضي.

ثم إن الإمام عليه السلام في سياق كلامه لمعاوية يستعمل لغة التهديد ببعض الأمور المعنوية ويقول: إنك إن لم تعمل بما أمرتك به وأرشدتك إليه فذلك لأنك تعيش الغفلة عن العاقبة الوخيمة التي تنتظرك، وأن السبب في ذلك طغيانك وغرورك بالنعمة «وَالأَّ تَفْعَلُ أَعْلَمِيكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ [١٣٥] قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَا أَخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلُهُ، جَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالْدَّمِ».

وقد ذهب بعض المحقّقين إلى أن «إِلَّا تَفْعَلْ...» إشارة إلى أن الإمام عليه السلام يهدد معاوية في هذه العبارة بالحرب، ومراده من إعلامه هو الإعلام العملي، ولكن مثل هذا المفهوم لا يستوحى من أيّ من العبارات والجمل المذكورة قبل هذه الجملة وبعدها، بل إن مجموعته هذه الكلمات والعبارات توحى بالنصيحة وتثير في المخاطب اليقظة والانتباه.

واللافت أن معاوية قد هدّد الإمام عليه السلام في رسالته بالحرب، ولكن الإمام عليه السلام هدّده بسيطرة الشيطان عليه ووقوعه في شباكه وحذّره من هذا المصير السيء.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٢١

إشارة

وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةَ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ، وَوَلَاءَ أَمْرِ الْأُمَّةِ؟ بَعِيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ، وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ، وَتَعُوْذُ بِاللَّهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ. وَأَحْذَرُكَ أَنْ تَكُونَ مَتَمَادِيًّا فِي غِرَّةِ الْأُمَّةِ، مُخْتَلِفِ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيْرَةِ.

الشرح والتفسير: حذار من الغفلة

في هذا المقطع من الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى حقيقة عدم صلاحية معاوية وبنى امية لاستلام أمر الحكومة ومقاليد السلطة على الأمة الإسلامية حتى الحكومة على جزء من البلاد الإسلامية، لأنه يعلم أن مسألة الطلب بدم عثمان وأمثالها ليست سوى ذريعة بيد معاوية لإيهام الناس واستغفالهم، بينما الغرض الأصلي منها أن يفرض حكومته وسيطرته على أهل الشام بوصفه حاكماً إسلامياً، يقول الإمام عليه السلام:

«وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةَ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ، وَوَلَاءَ أَمْرِ الْأُمَّةِ؟ بَعِيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ، وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ [١٣٦].»

صحيح أن اسره بنى امية وأسلافهم كانوا حكماً في ما مضى على قريش، ولكن هذا الأمر يتعلق بزمان الجاهلية وعصر الكفر والشرك، وعبارة «وَلَاءَ أَمْرِ الْأُمَّةِ» تبين أن مقصود الإمام عليه السلام هو عصر ظهور الإسلام، لأننا نعلم أن بنى امية وعلى رأسهم أبي سفيان كانوا عند ظهور الإسلام يقفون في الجبهة المخالفة للرسالة الجديدة وكانوا يدافعون عن الشرك والكفر ويسيروا في خط الضلالة.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٢٢

وعبارة «سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ» و «وَلَاءَ أَمْرِ الْأُمَّةِ» يمكن أن تكون من قبيل العطف والتفسير وأن كلاهمايتين الجملتين إشارة إلى الحكومة الإسلامية، ولكن يحتمل أيضاً أن عبارة «سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ» تتعلق بمرحلة ما قبل الإسلام، وعبارة «وَلَاءَ أَمْرِ الْأُمَّةِ» تتعلق بما بعد ظهور الإسلام في جزيرة العرب، لأن بنى امية قبل الإسلام لم يكونوا سوى ولاء أمر قبيلتهم فقط، في حين أن كلمة الرعية توحى بالمعنى الواسع للكلمة، وبعبارة أخرى إن أهل مكة كانوا تحت زعامة عبدالمطلب وبعده تحت زعامة أبي طالب.

والإمام عليه السلام في عبارته «بَعِيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ...» يشير إلى هذه الحقيقة، وهي أن الحكومة ومسألة قيادة وزعامة الأمة الإسلامية تستلزم توفر الشروط والضوابط ومنها أن يكون الشخص ذا سابقة في الإسلام ويكون شريف النسب، في حين أن معاوية هو ابن أبي سفيان الذي كان يقف في خط المواجهة مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى آخر لحظة، وقصه تلوث ام معاوية معروفه ومشهوره في كتب التاريخ.

ثم إن الإمام عليه السلام يحذر معاوية في ثلاث جمل ويقول أولاً: «وَتَعُوْذُ بِاللَّهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ».

هذه الجملة يحتمل كونها إشارة إلى أن معاوية، وبسبب العوامل الوراثية السلبية الصالحة التي انتقلت إليه من أبيه وامه، (أبي سفيان وهند آكلة الأكباد) وحركته في خط الباطل والشرك ومواجهة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والرسالة الإلهية مع أبيه، قد وفر الأرضية لنفسه للشقاء والانحراف والتوغل في خط الضلالة، وهذا ما لا يمكن الخلاص منه إلا بتهديب النفس والسعي الجاد في تغيير المسار.

ثم إن الإمام عليه السلام يذكر في الجملة الثانية «وَأَحْذَرُكَ أَنْ تَكُونَ مَتَمَادِيًّا فِي غِرَّةِ [١٣٧] الْأُمَّةِ [١٣٨]»، أي أن الغفلة الناشئة من الآمال والطموحات الموهومة تقود صاحبها في

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٢٣

طريق الشيطان والتمرد على الحق.

وهذه الجملة ناظرة إلى ما أشارت إليه الروايات الإسلامية مراراً، وهو أن الآمال العريضة والطموحات البعيدة من شأنها إبعاد الإنسان عن طريق الحق وعن الإيمان بالله واليوم الآخر بحيث يغفل الإنسان حتى عن واقعه وما يصلحه في هذه الدنيا: «وَأَمَّا طَوْلُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْأَخْرَةَ» [١٣٩].

وفي الجملة الثالثة يقول الإمام عليه السلام: إني احذرك أن تكون ممن يختلف ظاهره عن باطنه، وتظهر للناس الإسلام والإيمان، ولكنك تبطن الشرك وعقائد الجاهلية (مُخْتَلِفَ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ).

وهذه الجملة إشارة إلى نفاق معاوية الذي يطالب بدم عثمان ويدافع عن مقام الخلافة في الظاهر ولكنه في الباطن ليس له هدف سوى الحكومة على الشام، ونعلم أن حالة النفاق والازدواجية في الشخصية لدى المنافقين هي أشد خطراً من الشرك، لأن المسلمين يعرفون تكليفهم الشرعي في مقابل المشركين وأعداء الإسلام في حين أنهم لا يعرفون الموقف الصحيح من المنافقين بسبب تسترهم بقناع الإسلام والإيمان الظاهري وطمعهم الإسلام من ورائه.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٢٥

القسم الثالث

إشارة

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِبًا وَاخْرُجِ إِلَيَّ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ وَالْمُعْطَى عَلَى بَصِيرِهِ! فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ قَاتِلُ جِدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخًا يَوْمَ بَيْدَرٍ، وَذَلِكَ السَّيْفُ مَعِي، وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْفَى عِدُوِّي، مَا اسْتَبَدَلْتُ دِينًا وَلَا اسْتَحَدْتُ نَبِيًّا. وَإِنِّي لَعَلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ، وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرِهِينَ.

الشرح والتفسير: أنا أنحزك دوماً في خط الحق والهداية

يبين الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة جواباً آخر على ما ذكره معاوية في رسالته، حيث هدّد معاوية الإمام عليه السلام بكلمات وقحة وغير مسؤولة بالحرب وأتهم الإمام عليه السلام بأنه قد غطى على عينه بحجاب الأنانية وأما قلبه قد أصابه الصدا والرين!! وما يثير العجب أن شخصاً من بقايا عصر الجاهلية وابن لأشد أعداء الإسلام والمسلمين يتحدث بهذا الكلام مع من قد ملأ الإيمان قلبه وعاش منذ طفولته إلى نهاية عمره في خدمة الإسلام والدفاع عن المسلمين ويعدّ أشجع العرب على الإطلاق. وعلى أية حال، يقول الإمام عليه السلام: «وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِبًا وَاخْرُجِ إِلَيَّ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ، وَالْمُعْطَى عَلَى بَصِيرِهِ».

وهكذا نرى الإمام عليه السلام في هذه العبارة بدون أن يخاطب معاوية بمثل العبارات التي خاطبه بها، يجب على تهديد معاوية جواباً حاسماً وقاطعاً بأنك إذا كنت

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٢٦

صادقاً في تهديدك بالحرب، فبدلاً من سفك دماء المسلمين من كلا الطرفين ينبغي عليك أن تأتي إلى الميدان بمفردك وتقف أمامي للنزال، ومعلوم أن معاوية لا يجد جواباً على مثل هذه الاقتراح، لأنه لم يكن يوم من الأيام رجل الميدان ولا يجد في نفسه الشجاعة الكافية لمواجهة الإمام عليه السلام في مواقع الخطر.

ويذكر الشيخ مغنية في كتابه الإمامة والسياسة نقطة ملفتة للنظر، وهي أن هذه الرسالة عندما وصلت معاوية قال عمرو بن العاص

لمعاوية: هل تخشى على نفسك من مواجهة علي بن أبي طالب، فوالله لأذهب إليه حتى لو قتلت ألف مرّة، وبذلك برز عمرو بن العاص في حرب صفين في مقابل الإمام عليه السلام فما كان من الإمام إلّا أن ضربه بقناته فسقط على الأرض ولم يجد عمرو بن العاص شيئاً ينقذه من الهلكة المحتومة سوى أن ينزع عنه لباسه ويبدى عورته، لأنّه يعلم أنّ الإمام يستحي من ذلك ويعود من حيث أتى، ويسلم بذلك عمرو من الهلكة.

ولهذا السبب قال معاوية بعد ذلك لعمرو بن العاص: أمران قد أنقذاك من الهلكة، الأول عورتك، والثاني حياء علي بن أبي طالب. ثم إن الإمام عليه السلام قال تأييداً لكلامه «فَأَنَا أَبُو حَسَنِ قَاتِلُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخًا يَوْمَ بَدْرٍ، وَذَلِكَ السَّيْفُ مَعِيَ، وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي».

ونعلم أنّ «عتبة بن ربيعة» والد هند أم معاوية قتل في غزوة بدر في مقابل «عبدة بن الحارث» ابن عم الإمام علي عليه السلام، فقد هب الإمام لمساعدة عبدة في هذه الواقعة وقتل عتبه، وكان «شيبه بن أبي سفیان» أخو معاوية قد بارز في هذه المعركة حمزة عم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وقد أعان الإمام عليه السلام حمزة على قتله، وأمّا خال معاوية «الوليد بن عتبة» فقد بارز الإمام عليه السلام في هذه الواقعة وقتله الإمام عليه السلام.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ كلمة «شدخ» بمعنى كسر الشيء الأجوف، فتعبير الإمام عليه السلام هذا يبين هذه الحقيقة، وهي أنّ جدّ وخال وأخا معاوية قتلوا في معركة بدر وأنّ جماجمهم كانت فارغة من العقل والتفكير السليم.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٢٧

وبالرغم من أنّ معاوية استخدم في رسالته كلمات نابية وشديدة إلّا أنّها كانت خاوية وفاقدة للمحتوى، بينما استخدم الإمام علي عليه السلام عبارات أكثر انسجاماً وقوّة، وعميقة المعاني، وبينما كان معاوية يدعو إلى الحرب بين طائفتين، كان الإمام علي عليه السلام يدعو إلى القتال منفردين، أي يطلب المبارزة بينه وبين معاوية وجهاً لوجه.

ورأينا أنّ معاوية يتحدّث في رسالته عن مدّعات خاوية دون إسنادها بالمدارك التاريخية، بينما نرى أنّ الإمام علي عليه السلام أخذ بيد معاوية إلى الماضي من صدر الإسلام وبيّن له سوابقه التاريخية في معركة بدر وأنّه هو علي بن أبي طالب الذي قتل جدّه وأخاه وخاله وأئمّة الكفر والشرك من قبيلته، وأنّ سيفه هو ذلك السيف الذي مرّغ به انوف عتاة المشركين والمردة من قوى الكفر، وأنّ قلبه هو ذلك القلب الشجاع الذي كان يقاتل به المشركين في معارك صدر الإسلام.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى نقطة أخرى وهي ثباته واستقامته في خط الإسلام والإيمان ويقول: لم أبتدع في الدين شيئاً ولا اخترت نبياً غير نبي الإسلام صلى الله عليه وآله فأنّا أتحرّك في الطريق القويم والصرراط المستقيم: «مَا اسْتَبَدَلْتُ دِينًا، وَلَا اسْتَحَدْتُ نَبِيًّا».

وَإِنِّي لَعَلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ، وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ».

وهذه إشارة إلى أنّ أباسفيان وأذنابه وأعوانه دخلوا الإسلام مكرهين يوم فتح مكة والشواهد التاريخية الإسلامية تشير إلى أنّهم لم يعتنقوا الإسلام أبداً، ولم يؤمنوا طواعية، ولذلك بعد استلام بني امية أزمنة الحكم ومقاليد السلطة في زمان الخليفة الثالث، سحق الكثير منهم أصول الإسلام وسنّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله تحت أقدامهم ونهبوا بيت مال المسلمين واستأثروا بفيئتهم وحرّموا بذلك الطبقة المستضعفة والمحرومة ممّا يستحقونه من هذه الأموال.

وقد تبين ممّا ذكر آنفاً أنّ مراد الإمام عليه السلام من قوله: «الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ»، يتعلّق بموقفهم بعد قبولهم الإسلام ظاهراً، أي أنّهم في البداية قبلوا بالإسلام مكرهين، ثمّ عندما استلموا مقاليد السلطة نقضوا سنن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله واحدة بعد

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٢٨

الأخرى، والشاهد على هذا الكلام أنّ الإمام عليه السلام قال: «مَا اسْتَبَدَلْتُ دِينًا، وَلَا اسْتَحَدْتُ نَبِيًّا» أي أنّي لم أغير ولم أبتدع في

الدين شيئاً، وعلى ضوء ذلك فإن ما ذهب إليه جمع من شراح نهج البلاغة في جملة «تَرَكَتُمُوهُ طَائِعِينَ» وأنها تعود إلى عدم قبولهم للإسلام قبل فتح مكة، لا يبدو تفسيراً صحيحاً نظراً لما ذكره الإمام عليه السلام عن نفسه، وخاصة أن مفردة «ترك» تقال في مورد يكون الإنسان قد قبل شيئاً قبل ذلك أو ذهب إلى مكان معين وتركه بعد ذلك.

تأملان

١. مقارنة شجاعة الإمام عليه السلام بالأعداء

من النقاط الملفتة للنظر ما ذكره أصحاب السير والتواريخ عن مقدار شجاعة معاوية وعمرو بن العاص، فالمؤرخ المعروف «الواقدي» وطبقاً لما نقله ابن أبي الحديد عنه في شرح نهج البلاغة يقول:

«قال معاوية يوماً- بعد استقرار الخلافة له- لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله لا أراك إلا ويغلبني الضحك، قال: بماذا؟ قال: أذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفين فأزريت نفسك فرقاً من شبا سنانه، وكشفت سوءتك له. قال عمرو بن العاص: أنا منك أشدّ ضحكاً، إنني لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سحررك وربا لسانك في فمك، وغصصت بريقك، وارتعدت فرائصك، وبدا منك ما أكره ذكره لك، فقال معاوية: لم يكن هذا كله، وكيف يكون ودوني عكّ والأشعريون! قال: إنك لتعلم أن الذي وصفت دون ما أصابك، وقد نزل ذلك بك ودونك عكّ والأشعريون، وكيف كانت حالك لو جمعكما مآقط الحرب. فقال: يا أبا عبد الله خض بنا الهزل إلى الجدّ «إِنَّ الْجَبْنَ وَالْفِرَارَ مِنْ عَلِيٍّ لَا عَارَ عَلَيْهِ لَوْ أَحَدٌ فِيهِمَا» [١٤٠].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٢٩

٢. هل كان معاوية حاضراً في معركة بدر؟

يقول ابن أبي الحديد: سألت النقيب أبا زيد (استاذة) عن معاوية، هل شهد بدرًا مع المشركين؟ قال: نعم، شهدها ثلاثة من أولاد أبي سفيان: حنظلة، عمرو ومعاوية، قتل أحدهم واسر الآخر، وأفلت معاوية هارباً على رجليه وقد انتفخ رجلاه وورمت ساقاه، فعالج نفسه شهرين حتى برىء.

قال النقيب أبو زيد: ولا خلاف عند أحد أن علياً عليه السلام قتل حنظلة وأسر عمراً أخاه ولقد شهد بدرًا وهرب على رجليه من هو أعظم منهما ومن أخيهما، عمرو ابن عبدود فارس يوم الأحزاب، شهدها ونجا هارباً على قدميه وهو شيخ كبير وارتت جريحاً، فوصل إلى مكة وهو وقيد فلم يشهد احداً، فلما برىء شهد الخندق فقتله قاتل الأبطال، والذي فاته يوم بدر استدركه يوم الخندق.

ثم قال لى النقيب «رحمه الله»: أما سمعت نادرة الأعمش ومناظرته فقلت: ما أعلم ما تريد؟ فقال: سألت رجل الأعمش وكان قد ناظر صاحباً له: هل معاوية من أهل بدر أم لا؟ فقال له: أصلحك الله، هل شهد معاوية بدرًا، فقال: نعم من ذلك الجانب.

ويشير الإمام عليه السلام أيضاً في أحد كتبه إلى قصبة فرار معاوية ويقول: واذكر ما لست له ناسياً يوم قتلت أخاك حنظلة وجرت برجله إلى القلب، وأسرت أخاك عمراً وجعلت عنقه بين ساقيه رباطاً، وطلبتك، ففررت ولك حصاص فلولا- أنى لا- أتبع فازاً، لجعلتك ثالثهما [١٤١].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٣١

إشارة

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِرًا بِدَمِ عُثْمَانَ. وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِبًا، فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِحُّ مِنْ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَجِيجَ الْجَمَالِ بِالْأَثْقَالِ، وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعًا مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ، وَالْقَضَاءِ الْوَاقِعِ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ، إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاهِدَةٌ، أَوْ مُبَايَعَةٌ حَائِدَةٌ.

الشرح والتفسير: المستقبل المظلم والافق المشؤوم للعدو!

وفى آخر قسم من رسالة الإمام عليه السلام لمعاوية يتحدث الإمام عليه السلام مرّة أخرى عن قصّة قتل عثمان التي جعلها معاوية ذريعة لتمرده ومخالفته للإمام على عليه السلام وطلب بالتأثر لدم عثمان فيقول الإمام: «وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِرًا [١٤٢] بِدَمِ عُثْمَانَ. وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِبًا».

وهذا إشارة إلى أنه إذا أردت من شارك بدم عثمان فاطلبه من أصدقائك طلحة والزبير، وإذا كنت تطلب الأشخاص الذين تركوه وحيداً ولم يمدوا له يد العون ويغيثوه، فأنت الذي كتب إليك عثمان يطلب منك ولم تجبه، لم تتقدّم خطوة في هذا السبيل، وعليه فأنت لست صادقاً بدعواك بطلب الثأر لدم عثمان، وإن كنت صادقاً لزمك أن تسلك غير هذا المسلك.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٣٢

ثم إن الإمام عليه السلام يرسم مستقبل معاوية وأعوانه والحرب ضدّهم ويتبأ له بالافق المظلم ويقول: «فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِحُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ [١٤٣] ضَجِيجَ الْجَمَالِ [١٤٤] بِالْأَثْقَالِ».

وكما هو معلوم فإنّ هذه النبوءة قد تحققت على أرض الواقع في معركة صفين عندما ضيق جيش الإمام الخنق على جيش معاوية، ووصل مالك الأشتر على مقربة من سرادق معاوية، ولم يبق إلّا القليل ليصل إليه ويقتله، وفي ذلك الوقت ارتفع صراخ معاوية وأتباعه طالبين إنهاء القتال برفع المصاحف.

وفى تتبؤ آخر يقول الإمام عليه السلام: «وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعًا مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ، وَالْقَضَاءِ الْوَاقِعِ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ، إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاهِدَةٌ، أَوْ مُبَايَعَةٌ حَائِدَةٌ [١٤٥]».

وهذا التنبؤ وقع أيضاً بشكل كامل عندما رأى جيش الشام أنّهم عاجزون عن مجابهة أنصار الإمام على عليه السلام وعاشوا المحنة والقتل المتتابع في صفوفهم، رفع جماعة منهم مع عمرو بن العاص المصاحف على رؤوس الرماح وقالوا: إننا نسلم أمرنا إلى كتاب الله ونحتكم إليه في هذا الأمر، في حين أنّ هذه الجماعة من أهل الشام لا يعتقدون بكتاب الله ويكفرون بما أنزل الله، لأنّهم لم يبايعوا إمام الحق، وفيهم جماعة أخرى ممّن بايع الإمام عليه السلام ولكنهم نكثوا بيعتهم خلافاً لجميع الأصول والمبادئ الإسلامية المعروفة والتقاليد العربية، والتحقوا بمعاوية وأعداء الإمام في هذه الواقعة.

وطبعاً ربّما يثير البعض هذا السؤال، وهو أنّ تعبير الإمام عليه السلام هذا يفتح المجال أمام استغلال الأعداء لكتاب الله عندما يشاهدوا نهايتهم المخزبة على الأبواب،

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٣٣

ولكنّ هذا الكلام غير صحيح، لأنّ الإمام عليه السلام أشار بشكل مجمل إلى هذه الواقعة بحيث لم تكن هذه الإشارة المجملّة مفهومة لدى معاوية وأتباعه، لأنّ هذا الكلام يتحدث عن الدعوة إلى كتاب الله فقط، رغم أننا اليوم نعرف تفاصيل الواقعة التاريخية وما حدث في معركة صفين من استغلال المصاحف لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من فلول جيش الشام، فهذه الإشارة في كلام الإمام تعتبر إشارة معبرة.

تأمل: التنبؤات الواقعة

إنّ تنبؤات الإمام عليّ عليه السلام في هذه الرسالة التي كتبها لمعاوية قد تحققت على أرض الواقع بشكل تام، لأنّ القتال بدأ على أشده في صباح يوم الثلاثاء من العاشر من شهر صفر سنة ٣٧ للهجرة بعد صلاة الصبح، فتقاتل الجيشان ودارت بينهما رحى الحرب، فكانت الدائرة على جيش الشام الذين تزعزعت مواقعهم وأحسوا بالضعف والانهيار أمام جيش الإمام عليه السلام الذي كان يتقدم بقيادة مالك الأشتر في أرض المعركة، ولم يبق من انهيار جيش الشام وقتل معاوية أو أسره إلّا القليل، يقول عمّار بن ربيعة: كان مالك الأشتر واقفاً بين أنصاره وأتباعه ويقول: «فداكم امي وأبي وجميع عشيرتي، اهجموا عليهم هجمة واحدة ويفرح الله لكم واعزّوا بذلك دينه، فانظروا إليّ حين أهجّم عليهم فاهجموا بدوركم معي».

وهكذا كان مالك الأشتر غارقاً في صفوف الأعداء يقاتل ببسالة وهو حاسر الرأس وقد وضع مغفره على قربوس السرج، وهو ينادي: اصبروا يامعشر المؤمنين فقد حمى الوطيس ... يقول ابن أبي الحديد: لله من أمّ قامت عن الأشتر لو أنّ إنساناً يقسم أنّ الله تعالى ما خلق في العرب ولا في العجم أشجع منه إلّا استأذنه عليّ عليه السلام لما خشيت عليه الإنث.

وأخيراً استطاع مالك الأشتر وأنصاره من تدمير صفوف جيش الشام وتحطيم

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٣٤

كلّ مقاومة أمامهم وقتلوا حملة الألوية، فوصلوا إلى الخيام، وقد استمرّ القتال حتّى تلك الليلة التي سمّيت «ليلة الهرير» [١٤٦].

وفي هذه المعركة كان مالك الأشتر قائداً على ميمنة الجيش، وابن عباس على الميسرة، والإمام عليّ عليه السلام بالقلب وقد لاحت بوادر النصر المؤزّر على ضدّ جيش الشام، وبلغ معاوية الخبر فطلب عمرو بن العاص وقال له: يا عمرو إنّما هي الليلة حتّى يغدو عليّ علينا بالفيصل، فماترى؟ قال: إنّ رجالك لا يقومون لرجالها، ولست مثله، هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافونك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون عليّاً إن ظفر بهم، ولكنّ إلقي إلى القوم أمراً إن قبلوه اختلفوا، وإن ردّوه اختلفوا، إدعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم، فإنّك بالغ حاجتك في القوم، وإنّي لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه.

فعرف معاوية ذلك وقال له: صدقت.

وهكذا وقع ما كان يخشى منه ممّا أسلفنا بيانه [١٤٧].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٣٥

الرسالة ١١**إشارة**

وَصِي بِهَا جَيْشاً بَعَثَهُ إِلَى الْعَدُوِّ [١٤٨]

نظرة إلى الرسالة

نقرأ في شرح سند هذه الرسالة أنّها تمثّل قسماً من رسالة أرسلها الإمام عليه السلام إلى رجلين من قادة جيشه عندما تحرّك الجيش نحو صفّين، وتقدّم أنّ الإمام عليه السلام جعل مالك الأشتر أميراً على هذين الرجلين.

ويتحدّث الإمام عليه السلام في هذه الرسالة عن جميع الأمور الهامّة التي تتعلّق بأساليب القتال والدفاع في مواجهة العدو وكيفية

الاستفادة من الفرص وتجنب الوقوع في كمين الأعداء وكيفية حماية أفراد الجيش في الليل عند استراحة المقاتلين، وغير

نفعات الولاية، ج ٩، ص: ١٣٦

ذلك من المسائل الدقيقة التي تتصل بمسؤوليات القيادة العسكرية، والحقيقة أن دقة نظر الإمام عليه السلام هنا إلى درجة من العمق بحيث أن هذه التوصيات والتعليمات للإمام عليه السلام يمكن الاستفادة منها في الجيش الإسلامي في كل عصر وزمان.

نفعات الولاية، ج ٩، ص: ١٣٧

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعِدْوٍ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ، فَلْيَكُنْ مَعَكُمْ كَرُّكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ، أَوْ سَفَاحِ الْجِبَالِ، أَوْ أَتْنَاءِ الْأَنْهَارِ، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رَدَاءٌ، وَدُونَكُمْ مَرَدًّا. وَلْتَكُنْ مَقَاتِلَتُكُمْ مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ أَوْ اثْنَيْنِ، وَاجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي الْجِبَالِ، وَمَنَاكِبِ الْهَضَابِ، لِنَلَّا يَأْتِيَكُمْ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانٍ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ. وَاعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عَيْرُهُمْ، وَعَيْرُونَ الْمُقَدِّمَةِ طَلَائِعُهُمْ. وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ: فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانزِلُوا جَمِيعًا وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعًا، وَإِذَا غَشِيَكُمْ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرَّمَاحَ كِفَّةً، وَلَا تَدُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غَرَارًا أَوْ مَضْمَضَةً.

الشرح والتفسير: الاستعداد الصحيح للجيش

يبين الإمام عليه السلام في هذه الرسالة والتوصية العسكرية سبعة تعاليم وتوصيات عسكرية مهمة، وكيفية المواجهة الدقيقة لجيش الأعداء، وضمان النصر على العدو، وهذا يبين دقة نظر الإمام عليه السلام في المسائل التي تتصل بقيادة الجيش وترتيب وضعه العسكري في ميادين القتال. يقول الإمام عليه السلام: «فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعِدْوٍ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ فَلْيَكُنْ مَعَكُمْ كَرُّكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ [١٤٩]، أَوْ سَفَاحِ الْجِبَالِ [١٥٠] أَوْ أَتْنَاءِ [١٥١] الْأَنْهَارِ، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ

نفعات الولاية، ج ٩، ص: ١٣٨

رَدَاءٌ [١٥٢]، وَدُونَكُمْ مَرَدًّا [١٥٣]».

ويبين الإمام عليه السلام الغرض من هذه التوصية ويقول بأن الجيش إذا كان يتخذ مواقع إلى جانب مرتفعات أو سفوح الجبال أو شواطئ الأنهار، فمن البعيد أن يستطيع العدو محاصرة الجيش الإسلامي أو يباغته بالهجوم عليه من الخلف، وبذلك يستطيع الجيش المحافظة على استعداده الكامل وعدم حدوث الخلل والاهتزاز في صفوفه.

ويبين الإمام عليه السلام في هذا التوصية نقطتين في مقام الاستدلال، الأولى أن مثل هذا الموقف يساهم في تقويتكم وحرص صفوفكم، والأخرى أنه يعيق هجوم العدو عليكم، ومفهوم الجملة الثانية واضح لأن العدو في مثل هذه الظروف لا يستطيع أن يهجم على الجيش من الخلف، وأمّا مفهوم الجملة الأولى فربما يكون المراد أن الجيش إذا اتخذ موقعاً إلى جانب المرتفع وسفوح الجبل، فإن حركته باتجاه العدو ستكون أسهل وأيسر، وحركة العدو باتجاه الجيش الإسلامي ستكون أصعب وأعسر، وطبعاً مثل هذا الكلام إنما يصدق في موارد الأراضي الجبلية والتي تكثر فيها المرتفعات.

ويحتمل أيضاً في معنى كلمة «مردًا» أن يكون المراد منها محل العودة إذا أرادت مجموعة منكم العودة والتقهقر أمام العدو لفترة معينة لغرض الاستراحة واستعادة القوة فإن سفوح الجبال وأمثالها سيكون محللاً مناسباً لهذا الغرض والتهيؤ للهجوم مرة أخرى على العدو.

ولا ينبغي الغفلة عن هذه النقطة، وهي أن اتخاذ مثل هذا الموضع العسكري يتمتع بميزة ثالثة، وهي أن الأفراد الجبناء من الجيش قلما يستطيعون العثور على مهرب للفرار من الزحف لوجود المانع الطبيعي خلفهم، فلا يجدون بداً من الصمود والمواجهة.

نفعات الولاية، ج ٩، ص: ١٣٩

ثم إن الإمام عليه السلام يشير إلى التوصية الثانية، ويقول: «وَلْتَكُنْ مَقَاتِلَتُكُمْ مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ أَوْ اثْنَيْنِ».

فتعدّد الجهات ومحاور القتال من شأنه إضعاف قوّة الجيش وبعثرة طاقاته فيكون من اليسير إيجاد ثغرة في صفوفه، ولهذا السبب فإنّ أحد فخاخ العدو في الماضي والحاضر لكسر مقاومة المخالفين، السعى لإيجاد جبهات متعدّدة في الميادين العسكرية أو السياسية لإضعاف قوّة الخصم وتشتيت طاقاته، وربما لا يكون المراد من جبهتين مختلفتين بأن تكون جبهة واحدة إلى الشرق أو إلى الغرب مثلاً، بل يتمّ التحرك على جبهتين بشكل دائرة تذهب مجموعته من جهة يمين العدو ومجموعه أخرى من جهة الشمال لمحاصرة العدو بشكل تامّ.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى التوصية الثالثة ويقول: «وَأَجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي [١٥٤] الْجِبَالِ، وَمَنَاقِبِ [١٥٥] الْهَضَابِ، لِنَلَّا يَا أَيُّكُمْ الْعَدُوَّ مِنْ مَكَانٍ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ».

يشير الإمام عليه السلام في هذه التوصية إلى أمرين مهمين لابدّ من الأخذ بهما بالحسبان، أحدهما قمم الجبال والأخرى أعالي الهضاب والمرتفعات، لأنّ هذه المواقع تتمتع بإشراف كامل على جميع الجهات، فالشخص الناظر من هذا الموقع يستطيع رؤية جميع النقاط التي يتحرّك فيها الجيش.

والتعبير بـ «مَكَانٍ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ» ناظر إلى احتمال هجوم الأعداء بغتة، ويكون من المنطقة المتوقعة منها، وعلى ضوء ذلك يجب على المراصد أن ترى جميع هذه النقاط.

ويشير الإمام عليه السلام في التوصية الرابعة إلى إحدى التقسيمات المهمّة للجيش التي

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٤٠

تشكّل المكونات الأساسية له، يقول: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَقَدَّمَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ، وَعُيُونَ الْمُقَدَّمَةِ طَلَائِعُهُمْ».

وقد كان متداولاً في الماضي أنّ الجيش لا يتحرّك كلّ مرّة واحدة، بل تتحرّك مجموعة من الصفوة أمام الجيش بوصفها مقدمة له، ومن بين أفراد هذه المجموعة الشجعان وأكثر القوم خبرة بأمور الحرب، وأطّالاً على مسيرة الجيش بوصفهم مخبرين وطلائع الجيش الذين يمثلون في الواقع القوى المعلوماتية والاستخباراتية لمركز القيادة، وبمجرد الاطلاع على وضع العدو ومكان تواجده يخبرون القيادة بذلك لاتخاذ الموقف المناسب.

وفي التوصية الخامسة يحذّر الإمام عليه السلام بشدّة من الفرقة والاختلاف ويقول:

«وَأَيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ: فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَأَنْزِلُوا جَمِيعاً، وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَأَرْحَلُوا جَمِيعاً».

وبما أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه التوصيات والتعاليم العسكرية إلى «زياد بن النضر الحارثي» و«شريح بن هانئ» اللذين يمثلان مقدّمة الجيش وطلائعه، فمراده من هذا الكلام هو أنّ مقدّمة الجيش يجب عليها اجتناب التسرّع ولزوم العمل من موقع الانسجام والتجانس لئلا يبدّب فيهم الضعف والفتور.

ويبيّن الإمام عليه السلام في التوصية السادسة نمط وكيفية الاستراحة الليلية للجيش ويقول: «وَإِذَا غَشِيَكُمْ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً [١٥٦]» أي بصورة دائرية حول الجيش بحيث يكون الجيش في الوسط.

وهذا هو الشيء المتداول في التعاليم العسكرية في العالم المعاصر، سواء في ميدان القتال أو في غيره، بحيث يستدعى بعض أفراد الجيش ليقوم بواجب الحماية الليلية ومهمّة الخفر والعمل على مراقبة الأوضاع بالتناوب، سواء في المعسكرات أو في الأماكن الحساسة والمراكز المهمّة داخل المدن، وبمحض الإحساس بالخطر،

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٤١

يجب عليهم إنذار القيادة وإخبارها بتفاصيل الحدث، وهذا هو ما يطلق عليه في هذا العصر بقوى الحراسة.

وفي التوصية السابعة والأخيرة يوجّه الإمام عليه السلام خطابه إلى جميع أفراد الجيش بأن لا يغرقوا أثناء الاستراحة الليلية في نوم عميق كما هو حال النائم في بيته، ويقول: «وَلَا تَدُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غَرَاراً أَوْ مَضْمَضَةً» كما يتمضمض الإنسان بالماء جرعة بعد جرعة.

وهذا بالضبط كما ينتظر الشخص مسافراً أو ضيفاً عزيزاً يريد القدوم عليه ليلاً، فنراه لا ينام بشكل عميق، بل تأخذه سِنَّه وينتبه، ثم يعود إلى النوم بشكل خفيف، ثم ينتبه أيضاً، فينبغي على جيش الإسلام أن يكون كذلك في استراحته الليلية في مقابل العدو لئلا يباغته العدو ويُغير عليه ويستطيع إنزال أكبر الضرر والخسائر في صفوف الجيش، وهذا هو معنى تشبيه النوم بالغرار أو المضمضة حيث يدير الشخص الماء في فمه ولا يرتوى منه تماماً.

وطبعاً إن هذه النقاط السبعة الدقيقة في بيان الإمام عليه السلام تمثل توصيات لمقدمة الجيش وكيفية حركته باتجاه المواجهة، وأما التوصيات والتعاليم التي تتصل بميدان الحرب والقتال، فقد سبق أن بينها الإمام عليه السلام في الخطب والرسائل السابقة (انظر الخطبة ١١ في الجزء ١، ص ٤٨٧، والخطبة ٦٦ في الجزء ٣، ص ٩١ فصاعداً، والخطبة ١٢٤، الجزء ٥، ص ٢٥٧ فصاعداً).

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٤٣

الرسالة ١٢

إشارة

وَصَّى بِهَا مَعْقِلِ بْنِ قَيْسِ الرِّبَاحِيِّ حِينَ أُنْفَذَهُ إِلَى الشَّامِ
فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مُقَدَّمَةً لَهُ [١٥٧]

نظرة إلى الرسالة

هذه الرسالة التي كتبها الإمام عليه السلام لأحد قواد جيشه بتبديء كما في سائر الرسائل الأخرى لقادة الجيش، في التوصية بالتقوى والورع، والتأكيد على التقوى التي تمثل أصلاً وأساساً لسعادة الإنسان ومسيرته المعنوية في الحياة، ثم يبين الإمام بعض التوصيات فيما يتصل بتعبئة القوى وكيفية حركة الجيش باتجاه العدو وبداية الإلتحام معه في الميدان.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٤٤

ثم يؤكد الإمام عليه السلام في هذه الرسالة كراراً أن لا يبتدىء جيش الإسلام بالقتال وأن لا يقتربوا من العدو بحيث يتصورون أنهم يريدون أن يهجموا عليهم ولا يبتعد عنهم بحيث يتبادر إلى ذهن العدو أن هذا التباعد ناشىء من الضعف والجبن، ويوصى أيضاً بعدم إنهاك الجنود في المسير، فلا بد من أخذ قسط من الراحة في بداية الليل وفي أوقات السحر، وكذلك القيلولة في وسط النهار حيث ترتفع درجات الحرارة و...، وهناك وصايا أخرى في هذه الرسالة كلها تشير إلى الروح العالية للإمام عليه السلام وحبّه للصالح واستتباب الأمن وضرورة رعاية الأخلاق الإسلامية حتى في مقابل العدو الغاشم.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٤٥

اتَّقِ اللَّهَ الَّذِي لَا يُدِّدُ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ. وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ. وَسِرِّ الْبُرْدَيْنِ، وَعَوِّزِ بِالنَّاسِ، وَرَفِّهِ فِي السَّيْرِ، وَلَا تَسْرُ
أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ سَيِّكُنًا، وَقَدَّرَهُ مَقَامًا لَاطْعُنًا، فَأَرِحْ فِيهِ يَدَيْكَ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ. فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحْرُ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ

الْفَجْرِ، فَسِرُّ عَلَى بَرَكَهَ اللَّهِ. فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَضِحَابِكَ وَسَيْطًا، وَلَا تَدُنْ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوًّا مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ. وَلَا تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ النَّاسَ، حَتَّى يَأْتِيكَ أَمْرِي، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَأْنُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ، قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ.

الشرح والتفسير: تعليمات ضرورية قبل التوجه إلى الميدان

في بداية هذه الرسالة يوصي الإمام عليه السلام قائد جيشه «معقل بن قيس» بتقوى الله تعالى ويقول: «اتَّقِ اللَّهَ الَّذِي لَأَبْدُ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ».

وهذه العبارات في الحقيقة مقتبسة من التعاليم القرآنية حيث يقول تعالى:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ» [١٥٨] ويقول في آية أخرى: «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى [١٥٩].

أجل، فأينما تكونون ومن تكونوا فإنه لا بد أن تكون العاقبة لقاء الله عز وجل والحضور في محكمة العدل الإلهي حيث يحاسب الإنسان على ما قدم وأخر في حياته من أعمال وأقوال وسلوكيات في حركة الحياة.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٤٦

وعندما يتدلى الإمام عليه السلام رسالته بالتوصية بتقوى الله والتفكير بالمعاد، فإنه يترتب على ذلك آثار مختلفة، فإنه من جهة يؤدي إلى تطبيق وترجمة التعاليم والتوصيات الواردة في هذه الرسالة بدقة، ومن جهة أخرى، بما أن محتوى هذه الرسالة والبرنامج العسكري للجيش هو الجهاد في سبيل الله والسير إلى الله، فإن التوصية بالتقوى من شأنها أن تبعث الروح المعنوية في أفراد الجيش ويكونوا على استعداد تام لمقاتلة العدو والتصدي لقوى الانحراف والضلالة بشكل أقوى.

ثم إن الإمام عليه السلام يشير إلى عشر نقاط عسكرية فيما يتصل بإرسال القوات إلى ميدان القتال وكيفية مقاتلة الأعداء ومجاهاة قوى الباطل والتي هي في الحقيقة تعتبر من مقدمات النزال فيما يخص الاستعداد للحرب، ويقول في البداية: «وَلَا تَقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ».

هذا هو الدستور الأول في تعاليم الإسلام العسكرية، وبيّن روحية الصلح وطلب السلم للإنسان المسلم الذي لا يحب البدء بالقتال، فما لم يبدأ العدو بالحرب والقتال فلا ينبغي للمسلمين أن يسبقوهم بالقتال، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» [١٦٠].

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الدستور الثاني والثالث والرابع ويقول: «وَسِرِّ الْبُرْدَيْنِ [١٦١]، وَعَوِّزْ [١٦٢] بِالنَّاسِ، رَفِّهْ [١٦٣] فِي السَّيْرِ»، أي أن المسير بالجيش ينبغي أن يتزامن مع الأجواء المناسبة في وقت الصباح والعصر حيث يبرد الهواء نسبيًا في هذين الوقتين، فيما تكون الاستراحة عند وقت الظهيرة حيث ترتفع حرارة الجو، ومن

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٤٧

البديهي أن السير السريع والاستعجال في لقاء العدو بدون ملاحظة حرارة الجو وبرودته ووقت الاستراحة من شأنه أن يثير في أفراد الجيش التعب والضعف وبالتالي عدم مقاومة العدو ومجالدته بالشكل المطلوب.

ثم إن الإمام عليه السلام يشير إلى الدستور الخامس والسادس من هذه التوصيات ويقول: «وَلَا تَسِرُّ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ سَكَنًا، وَقَدَرَهُ مَقَامًا لَاطْعًا، فَأَرِخْ فِيهِ بَدَنَكَ، رَوْحَ ظَهْرِكَ. فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَبْطِئُ [١٦٤] السَّحْرُ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَهَ اللَّهِ».

وهذا الكلام إشارة إلى ما ذكره القرآن الكريم في أكثر من مورد حيث يؤكد على أن الله تعالى جعل الليل مصدرًا للسكون والدعة والراحة: «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا» [١٦٥]، ومثل هذا المضمون ورد في سورة يونس في الآية ٦٧، وسورة القصص، الآية ٧٣، وسورة غافر، الآية ٦١ وغير ذلك من الآيات الشريفة.

وهنا ربما يفرض هذا السؤال نفسه وهو أن القرآن الكريم ذكر حقيقة أن الليل مصدر السكون والراحة للإنسان، في حين أن الإمام عليه السلام تحدّث عن بداية الليل واستثنى وقت السحر.

والجواب على هذا السؤال يتبين من خلال الإلتفات إلى هذه الحقيقة وهي أن المراد من الليل جميع ساعاته باستثناء السحر وهو الوقت القليل من آخره، ويستفاد من التعاليم الإسلامية في العبادات فيما يتصل بصلاة الليل أن آخر الليل مستثنى من هذا الوقت، وهو وقت التنبه واليقظة والحركة والجدية والاستغفار والتوبة، فلا يشمل مفهوم الليل الذي جعله الله سكناً كما ورد في الآية الشريفة: «وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ» [١٦٦].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٤٨

وعندما يؤكد الإمام عليه السلام على أول الليل، فالظاهر أن الكثير من الناس عندما يتدثون بعمل معين وقت العصر، فإنهم يستمرون بالعمل إلى ساعات من الليل، فيقول الإمام عليه السلام: عندما يبتدىء الليل توقّف عن المسير، وقف للصلاة، ثم عليك بأخذ قسط من الراحة.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن جملة «رَوْحٌ ظَهَرَكَ إِشَارَةٌ إِلَى لُزُومِ إِرَاحَةِ الْخَيْلِ وَالْجَمَالِ الَّتِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا بِالظَّهْرِ لِمُنَاسَبَةِ الرُّكُوبِ، وَذَهَبَ الْبَعْضُ الْآخِرُ إِلَى أَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى الْجَمَالِ الْمَحْمَلَةِ بِمَا يَحْتَاجُهُ الْجَيْشُ مِنَ الْمُؤْنِ وَلِوِازِمِ السَّفَرِ، وَلَكِنْ لَا مَانِعَ مِنْ أَن يَكُونَ الْمُرَادُ كِلَا هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ.

وينبغي الالتفات إلى أن أحد معاني «الظهر» الحيوانات التي يحمل عليها الإنسان لوازمه وحاجاته أو يستخدمها للركوب أيضاً، وأما ما ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن معنى الظهر يختص بالإبل التي تحمل المؤن، أو بالخيال التي يركب عليها الإنسان، فلا وجه له.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الأمر السابع والثامن والتاسع من هذه التوصيات ويقول:

«فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَفَقِّفْ مِنْ أَضِحَابِكَ وَسَيْطًا، وَلَا تَدُنْ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوًّا مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ [١٦٧] الْحَرْبَ. وَلَا تَبَاعِدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ النَّاسَ، حَتَّى يَأْتِيكَ أَمْرِي».

عندما يقف قائد الجيش في الوسط والمحور من القوات العسكرية فإن ذلك من شأنه أن يمنح أفراد الجيش قوة وعزماً واستقامة في مواجهة العدو، ومن جهة أخرى يتيح له إيصال أوامره وتوصياته إلى أفراد الجيش كافة.

وفي الدستور العاشر يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَأْنُهُمْ [١٦٨] عَلَى قِتَالِهِمْ، قَبْلَ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٤٩

دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ [١٦٩] إِلَيْهِمْ»، أي أن حالة العدا والبغض والكراهية للعدو لا ينبغي أن تكون الدافع على قتالهم قبل الإعداد ودعوتهم للصلاح وإتمام الحجّة عليهم.

تأمل: من هو معقل بن قيس؟

ذكر بعض المؤرخين أن معقل كان رجلاً شجاعاً من أهل الكوفة، وكان قائداً لأحد جيوش الإسلام في زمن عمر بن الخطاب، وكان من شيعة أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام، وقد اختاره الإمام ليكون قائداً على إحدى الكتائب في الجيش وفي معركة الجمل كان أحد امراء الجيش أيضاً، وأمياً بالنسبة لإيمانه وإخلاصه فيكفي أن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عندما اجتمع بالجيش قبل معركة صفين في منطقة النخيلة في منزل (على مقربة من الكوفة) ألقى الإمام عليه السلام خطبةً بجيشه فيما يتصل بالجهاد ضد المتمردين من أهل الشام، فقال معقل: «وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْكَ إِلَّا ظَنِينٌ وَلَا يَتَرَبَّصُ بِكَ إِلَّا مُنَافِقٌ».

وورد في بعض الروايات أن أحد الخوارج ويدعى «مستورد» برز لمعقل في إحدى المعارك وكان بيد هذا الخارجى رمح وبيد معقل سيف، فطعن مستورد معقلاً برمحه، لكن معقل استطاع ضربه بالسيف على رأسه، وسقط الرجلان على الأرض صريعين، وفاز معقل بالشهادة وذهب مستورد إلى جهنم وبئس المصير.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٥١

الرسالة ١٣

إشارة

إلى أميرين من أمراء جيشه [١٧٠]

نظرة إلى الرسالة

تبين هذا الرسالة في الحقيقة أمرين: الأول: التوصية التي أمر بها الإمام هذين القائدين في الجيش في اتباع مالك الأشتر والحركة ضمن أوامره وقيادته، والآخر: تبين بعض صفات مالك الأشتر التي جعلته جديراً ولائقاً لقيادة الجيش.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٥٣

وَقَدْ أَمَرْتُ عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ فِي حَيْزِكُمْ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْتَرِ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا، وَاجْعَلَاهُ دِرْعًا وَمِجْنًا، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَا يُخَافُ وَهُنُّهُ وَلَا سَقَطُتُهُ وَلَا بُطُؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَيَّ مَا الْبُطُءُ عَنْهُ أَمْثَلُ.

الشرح والتفسير: مالك الأشتر القائد الفذ

يشير الإمام عليه السلام في هذه الرسالة التي كتبها إلى زياد بن النضر و شريح بن هانيء أن الوظيفة الاولى والمهممة لهما هي اتباع مالك الأشتر وأنه منصوب من قبل الإمام عليهما وعلى سائر أفراد الجيش، ويقول: «وَقَدْ أَمَرْتُ عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ فِي حَيْزِكُمْ» [١٧١] مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْتَرِ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا».

ثم يضيف عليه السلام: «وَاجْعَلَاهُ دِرْعًا وَمِجْنًا» [١٧٢]، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَا يُخَافُ وَهُنُّهُ وَلَا سَقَطُتُهُ [١٧٣] وَلَا بُطُؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ [١٧٤]، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَيَّ مَا الْبُطُءُ عَنْهُ أَمْثَلُ [١٧٥]».

يستفاد من تعبير الإمام عليه السلام أعلاه أن قائد الجيش ينبغي أن يكون مطلعاً محافظاً بشكل تام على أفراد جيشه كما يكون الدرع حافظاً لصاحبه من ضربات الحديد، وبذلك يتمكن الجيش من التقليل من خسارته للحد الأدنى في القتلى والجرحى.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٥٤

والنقطة الأخرى في هذه توصية أن الإمام عليه السلام ذكر فيها أربع خصوصيات يتمتع بها مالك الأشتر، بحيث إن القائد العسكري لو اجتمعت فيه هذه الخصال فإنه يكون جديراً بالقيادة ولائقاً بإمرة الجيش:

١. أن لا- يشعر بالضعف والوهن في مقابل هجوم العدو والظروف الصعبة التي يفرضها الواقع العسكري عليه، بل يتحلّى بالجرأة والاستقامة كالجبل الراسخ أمام العواصف العاتية.

٢. أن لا- يخطيء في الحسابات العسكرية بل يأخذ بنظر الاعتبار جميع المواقع لقواته وقوات العدو ويتحرك وفقاً لما يمليه عليه الواقع الميداني لإحراز النصر على العدو.

٣. إن الدقائق وحتى اللحظات ربما تكون مصيرية في حسم المعركة وإحراز النصر، وينبغي للقائد أن يتحرك بدقه وبسرعة تامه في الوقت المناسب دون أدنى تأخير أو استعجال، فالقائد الفذ يجب أن يعرف هذه اللحظات والدقائق المصيرية ويتحرك وفقاً لهذه الخبرة والتجربة الميدانية.

٤. وقد تأتي لحظات في ميدان القتال يكون فيها التباطؤ والتهمل أفضل من العجلة والتسرع، مثلاً عندما يتربص أفراد الجيش في

الكمين لإيقاع العدو في المصيدة، فلو تسرعوا في إيقاعه فربما يفلت من المصيدة ويحس بوجود كمين له، ففي مثل هذه الموارد ينبغي التعامل مع الحدث بأعصاب باردة.

ومعلوم أن القائد الذي يتمتع بهذه السمات الأربع هو قائد فذ ولائق لتسبم قيادة الجيش وإحراز النصر، وهذه هي الصفات التي كان مالك الأشتر يتمتع بها مضافاً إلى الصفات الأخرى أيضاً.

تأملان

١. مالك الأشتر المدير والمدبر الشجاع

بالنسبة لمالك الأشتر وسيرته وحالته فستحدث عنه بإذن الله في شرح الكتاب

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٥٥

المرقم ٥٣ من نهج البلاغة وهو الكتاب المعروف بعهد مالك الأشتر، وهنا نشير فقط إشارة موجزة إلى بعض صفاته وخصائصه الكريمة.

يتحدث ابن أبي الحديد في نهاية هذه الرسالة تحت عنوان «تَبْدُ مِنَ الْأَقْوَالِ الْحَكِيمَةِ» عن بعض المسائل المتعلقة بالإدارة وتدير أمور المجتمع، ونقل في هذا المجال كلمات عن شخصيات متعددة، ثم قال في ختام كلامه: لقد جمع أمير المؤمنين عليه السلام من أصناف الثناء والمدح ما فرقه هؤلاء في كلماتهم بكلمة واحدة في الأشتر وهي قوله: «لَا يُخَافُ وَهُنَّهْ وَلَا سَيْقُطُهُ وَلَا بُطُوهَ عَمَّا الْإِسْرَاعِ إِلَيْهِ أَحْزَمٌ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَيَّ مَا الْبُطُءُ عَنْهُ أَمْثَلُ».

وفي ذيل هذا الكتاب يقول: وقد روى المحدثون حديثاً يدل على فضيلة عظيمة للأشتر رحمه الله، وهي شهادة قاطعة من النبي بأنه مؤمن. وذلك عندما كان أبوذر في الربذة وقد حان أجله وكانت زوجته قد احتارت في أمر موته وتجهيزه وغسله ودفنه وهي ترى نفسها وحيدة في الصحراء القاحلة، فقال أبوذر لها: ما يبكيك، فقالت: ما لي لا أبكي وأنت تموت في فلاة من الأرض.. فقال: أبشري ولا تبكي فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «لا يموت بين امرأين مسلمين ولدان أو ثلاثة فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبداً» وسمعت أيضاً رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ليموتن أحدكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين، وليس من أولئك نفر أحد إلا وقد مات في قرية وجماعه وأنا لا أشك في ذلك الرجل، والله ما كذبت ولا كُذبت، فانظري الطرق.

قالت ام ذر: قلت: أتى وقد ذهب الحاج وتقطعت الطرق! فقال: اذهبي فتبصري، قالت: فكنت أشتد إلى الكتيب، فأصعد فانظر، ثم أرجع إليه فأمرضه، فبينما أنا وهو على هذه الحال إذ أنا برجال على ركبهم كأنهم الرّخم تخبّ بهم رواحلهم، فأسرعوا إليّ حتى وقفوا عليّ وقالوا: يا أمه الله! ما لك؟ فقلت: امرء من المسلمين يموت تكفّنونه؟ قالوا: ومن هو؟ قلت: أبوذر، قالوا: صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله؟

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٥٦

قلت: نعم، ففدّوه بأبائهم وامهاتهم، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه، فقال لهم:

أبشروا، فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لنفر أنا فيهم: ليموتن أحدكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين، وليس من أولئك نفر أحد إلا وقد هلك في قرية وجماعه، والله ما كذبت ولا كُذبت، ولو كان عندي ثوب يسعني كفناً أو لامرأتى لم اكفنن ألفي ثوب لي أو لها، وأني أنشدكم الله ألا يكفّنني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً!

قالت: وليس في أولئك نفر أحد إلا وقد قارف بعض ما قاله، إلأفتي من الأنصار قال: أنا اكفّنك ياعم في ردائي هذا، وفي ثوبين معي في عييتي من غزل امي، فقال أبوذر: أنت تكفّنني، فمات فكفّفنه الأنصارى وغسله نفر الذين حضروه وقاموا عليه ودفنوه

ثم ينقل ابن أبي الحديد عن ابن عبد البر في كتاب «الاستيعاب»، أن تلك الجماعة حضروا فجأة بعد وفاة أبي ذرّ وكان من جملتهم «حجر بن عدى» و «مالك الأشر» وحجر بن عدى هو الذى قتله معاوية وكان من كبار رموز الشيعة ورجالهم [١٧٦]. وهذا الحديث الشريف يدلّ دلالة واضحة على عظمة أبي ذرّ وكذلك مالك الأشر، وسيأتى لاحقاً تفصيل أكثر عن هذه الشخصية الإسلامية العظيمة والذى يعدّ من أخلص أصحاب الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام وقد ذكره الإمام فى أربعة مواضع أخرى من «نهج البلاغة»، منها ما ورد فى الكتاب ٣٤ و ٣٨ و الكلمات القصار ٤٤٣ وذيل الكتاب ٥٣ (عهد مالك الأشر) الذى سوف يأتى تفصيل ذلك لاحقاً إن شاء الله.

٢. شريح بن هانىء الحارثى وزباد بن النضر

سبق وأن ذكرنا أن الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة الموجزة والزاخرة بالمعاني لرجلين من قادة جيشه عندما أرسلهما إلى ميدان معركة صفين، بالنسبة للشخصى نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٥٧

الأول، يعنى شريح بن هانىء، يقول ابن عبد البر فى «الاستيعاب»: كان من الأشخاص الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وهو من صحابة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ومن كبار أصحاب الإمام على صلى الله عليه وآله وأنصاره المقربين الذين رافقوا الإمام فى جميع ميادين الحرب [١٧٧].

وذكر الذهبى فى تاريخه: وفى سنة ثمان وسبعين ولى الحجاج عبيد الله بن أبى بكره سجستان فوجه أبا بردعة، فأخذ عليه (على شريح) المضيق، وقتل شريح بن هانىء، وقال القاسم بن مخيمرة: ما رأيت حارثياً أفضل من شريح بن هانىء [١٧٨].

أمياً بالنسبة لزباد بن النظر القائد الثانى من قادة جيش الإمام عليه السلام فالمرحوم المحقق النمازى الشاهرودى يقول عنه فى «مستدرک علم رجال الحديث»: كان من أركان أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أمره أمير المؤمنين على مذبح والأشعريين وأوصاه بوصايا، فقال: أوصيت يا أمير المؤمنين حافظاً لوصيتك مؤدباً بأدبك، يرى الرشد فى نفاذ أمرك والغنى فى تضييع عهدك، فبعث أمير المؤمنين مع شريح ابن هانىء اثنى عشر ألفاً على مقدمته، فلما سارا اختلفا وكتب كل منهما إليه يشكو صاحبه.

ويقول الطبرى فى تاريخه أنه عليه السلام قال للأشر: اجعل على ميمنتك زياداً، وعلى ميسرتك شريحاً.. وارسال أمير المؤمنين عليه السلام إياه للاحتجاج مع الخوارج. وأضاف:

ويستفاد من ذلك كله علمه وكماله وديانته وعدالته [١٧٩].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٥٩

الرسالة ١٤

إشارة

لِعَسْكَرِهِ قَبْلَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ بِصَفِينِ [١٨٠]

نظرة إلى الرسالة

هذه الرسالة حالها حال الرسائل السابقة تتضمن سلسلة من التعاليم الأخلاقية والمثل الإنسانية فيما يتصل بالحرب مع العدو، والتعاليم

المذكورة هنا تبين روح العطف الإنساني والرفقة الإسلامية، وتدلّ على أنه لا ينبغي الغفلة عن القيم الأخلاقية في جميع الموارد، حتى في ميدان الحرب، والتوصيات المتداولة في العالم المعاصر بعد مرور أربعة عشر قرناً تعدّ بداية المسير في طريق الأخلاق

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٦٠

والمعنوية، وتتضمن بعض ما ورد في هذه الرسالة القيمة من توصيات أخلاقية، مع أنّ هذه التعاليم المعاصرة لم تترجم على أرض الواقع العملي إطلاقاً.

وسنلاحظ أنّ الإمام عليه السلام يؤكد كثيراً على رعاية النساء وأن لا يلحق بهنّ أيّ ضرر أو أذى حتى لو شتمن أفراد الجيش الإسلامي، ونطقن بكلمات لا مسؤولة عن قادة الإسلام، وفي هذه التوصيات والإرشادات نرى أنّ أول ما يؤكد الإمام عليه السلام عليه هو أن لا يبتدىء أصحابه بالقتال والحرب، وهذه التوصية نراها في توصيات الإمام عليه السلام لأصحابه وأتباعه.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٦١

لَمَّا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدُؤَكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى حُجَّتِهِ، وَتَزَكُّكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدُؤَكُمْ حُجَّةً أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ. فَإِذَا كَانَتْ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا، وَلَا تَصْطَبُوا مُعُورًا، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلَا تَهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَ كُمْ، وَسَرَّيْنَ أَمْرَاءَ كُمْ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالنَّفْسِ وَالْعُقُولِ؛ إِنْ كُنَّا لَنُؤَمِّرُ بِمَا لَكُنَّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ؛ وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ أَوْ الْهَرَاوَةِ فَيَعْتَرِّ بِهَا وَعَقْبُهُ مِنْ بَعْدِهِ.

الشرح والتفسير: فصل آخر من القيم الأخلاقية في الحرب

ثمّة خلاف بين شراح «نهج البلاغة» والمؤرخين في المخاطبين لهذه الرسالة هل هم أتباعه في معركة الجمل أم في صفين، المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار [١٨١] يرى أنّ هذه الوصية ترتبط بمعركة الجمل رغم أنّه نقلها في مورد آخر في ما يتصل بمعركة صفين، ويرى المسعودي في مروج الذهب أنّ هذه الرسالة تعود إلى معركة الجمل.

وقد ذهب ابن ميثم في شرح نهج البلاغة لإيجاد حلّ لهذه المشكلّة وقال:

«إنّه عليه السلام كان يوصي أصحابه في كلّ موطن يلقون العدو فيه بهذه الوصية».

وذكر نصر بن مزاحم في كتاب صفين والطبري في تاريخه قبل ابن ميثم هذا المعنى أيضاً، وبما أنّ محتوى هذه الرسالة يمثّل دستوراً عاماً للجيش الإسلامي،

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٦٢

فلا يبعد أن يكون هذا الكلام صحيحاً.

وعلى أيّة حال فالإمام عليه السلام في هذه الرسالة يؤكد على خمسة أمور:

الأول: يقول عليه السلام: «لَمَّا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدُؤَكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى حُجَّتِهِ، وَتَزَكُّكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدُؤَكُمْ حُجَّةً أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ»، فأنتم من أتباع إمام يتفق على مشروعيته وحقانيته الباري تعالى وجميع المؤمنين، فلا يكون بدؤكم بالقتال حجّة لهم ضدكم، وترككم لهم حتى يكون البادىء هو العدو يمثّل حجّة أخرى تدعم موقفكم ومشروعيتكم وحقانيتكم.

وهذه التوصية قد تقدّم بها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً لجيش الإسلام وكانت نتيجة ذلك كما بيّنه الإمام عليه السلام في هذا الكلام أنّ جيش الإسلام يمتلك حجّتين وبرهانين ضدّ العدو، الأوّل أنّه تابع للنبي الأكرم أو الإمام الذي يتمتّع بمشروعية وحقانية تقوم على أساس الموازين الصحيحة والمنطقية، والآخر أنّ العدو عندما يبتدىء الحرب والقتال يقدم عملياً دليلاً آخر ضدّه، لأنّه يكون

سبباً في قتل الأبرياء والسعى في إشعال نار الفتنة وإيجاد الفساد في الأرض وبالتالي يكون مصداقاً لمن حارب الله ورسوله، لأن كل شخص جرد السلاح على الأبرياء من الناس وسفك الدماء، فهو محارب، وحينئذ سيكون مشمولاً للآية الشريفة: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً...» [١٨٢].

ومضافاً إلى ذلك يكون مصداقاً للآية الشريفة: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» [١٨٣].

ثم إن الإمام عليه السلام يتحدث عن ثلاث توصيات مهمّة في هذه المجال ويقول:

«فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا، وَلَا تُصَيِّبُوا مُعَوِّزًا» [١٨٤]، وَلَا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٦٣

تُجْهِزُوا [١٨٥] عَلَى جَرِيحٍ.

إن هذه التوصيات الثلاثة تتسم بالطابع الأخلاقي بشكل كامل لأن الغرض من الحرب هو كسر مقاومة العدو والتصدي لحركته، لا مجرد الانتقام، فالشخص الذي فر من الميدان وترك القتال فلا معنى لقتله، وكذلك الشخص العاجز الذي عجز عن المقاومة فإن الاجهاز عليه وقتله يتنافى مع المثل الإنسانية والقيم الأخلاقية، كالشخص الذي فقد سلاحه في المعركة أو عجز عن القتال وحمل السلاح ضد الجيش الإسلامي، فلا يمثل خطراً على أفراد الجيش، ومن هذا القبيل الجريح الذي سقط ولم تق له قدرة على المقاومة والقتال، فالاجهاز على مثل هؤلاء يتقاطع مع المبادئ الإنسانية.

ويشير العلامة التستري في شرح نهج البلاغة هذا السؤال هنا، وهو أنه يستفاد من بعض الروايات كالرواية التي ينقلها الكليني في الجزء الخامس من الكافي) أن الإمام علي عليه السلام أصدر مثل هذا الأمر في معركة الجمل وأصدر أمراً بخلافه في معركة صفين وأذن بقتل الهاربين والمجروحين.

ولكن ورد في رواية أخرى الجواب عن هذا السؤال، فالإمام الصادق عليه السلام يقول:

«لَيْسَ لِأَهْلِ الْعَدْلِ أَنْ يَتَّبِعُوا مُدْبِرًا وَلَا يَقْتُلُوا أَسِيرًا وَلَا يُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ وَهَذَا إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْ أَهْلِ الْبُغْيِ أَحَدٌ وَلَا يَكُنْ لَهُمْ فَتْنَةٌ يَزْجَعُونَ إِلَيْهَا، فَإِذَا كَانَ لَهُمْ فَتْنَةٌ يَزْجَعُونَ إِلَيْهَا فَإِنَّ أَسِيرَهُمْ يُقْتَلُ وَمُدْبِرُهُمْ يُتَّبَعُ وَجَرِيحُهُمْ يُجْهِزُ عَلَيْهِ» [١٨٦].

وخلاصة الكلام أن رعاية هذه المبادئ الإنسانية والقيم الأخلاقية في الحرب، ترتبط في موارد يكون جيش العدو قد منى بالهزيمة وتبعثت قواه وقدراته القتالية

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٦٤

ولا يحتمل في شأنه العودة إلى الحرب والهجوم مرة أخرى، ونعلم أن العدو في معركة الجمل كان قد منى بالهزيمة بحيث لا يحتمل أن يعود للقتال مرة أخرى.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه ويتعرض لبيان التوصية الخامسة حيث يقول: «وَلَا تَهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَدَى، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَّيْنَ أُمَّرَاءَكُمْ».

ويبين الإمام عليه السلام بعد ذلك هذه التوصية ويقول: «فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ».

بما أن النساء يفقدن القدرة على القتال والمواجهة العسكرية، فذلك من شأنه أن يكرس الحقد في قلوبهن فينطلقن بالسب والشتم للتفيس عن هذا الحقد وإبراز العداوة للطرف المقابل، وبما أن النسوة يتمتعن بنفس ضعيفة وعقل ضعيف فستكون ترجمته انتقامهن من خلال السب والشتم والكلمات البذيئة، ولذلك لا ينبغي على ذوى العقل والحجى أن يردوا عليهن بالمثل ويطلقوا ألسنتهم بالسب والشتم أيضاً، والمفروض أن يسمحوا لهن بتفريغ شحنات الغضب والحقد المكبوت من خلال السب والشتم حتى تهدأ نفوسهن وتسكن عواطفهن، ومعلوم أن مواجهة مثل هذه النسوة بكلام مماثل في مقابل كلماتهن من شأنه أن يثير في أنفسهن العداوة والبغضاء أكثر ويهيج انفعالهن ضدهم وربما يدفعهن إلى الكفر.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسنته في مقابل نساء المشركين ويقول: «إِنَّ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ» أي في زمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة ثالثة في هذا المجال ويقول: «وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَتَنَاوَلَ الْمَرْءَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِأَلْفِهِ [١٨٧] أَوْ الْهَرَاوَةَ [١٨٨] فَيَعْبُرُ بِهَا وَعَقْبُهُ [١٨٩] مِنْ بَعْدِهِ».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٦٥

فإذا كان الناس في عصر الجاهلية يقفون هذا الموقف من المرأة، وعندما يؤمر المسلمون بحفظ النفس وعدم الانفعال في مقابل المشركين، ففي عصر ظهور الإسلام وفي مقابل النسوة المسلمات الجاهلات يكون من الضروري ضبط النفس واللسان بطريق أولى. وعندما يأمر الإمام عليه السلام أفراد جيشه بهذا الأمر الأخلاقي في مقابل النساء، فإنه بنفسه قد سبق الآخرين بالعمل بهذه التوصية وتجسيدها على أرض الواقع، فقد ورد في تاريخ معركة الجمل أنه عندما انتصر الإمام على عليه السلام وجيشه على المتمردين والناكثين، وبينما كان عليه السلام يسير في أزقة البصرة، كانت زوجته عبدالله بن خلف (أحد رجال البصرة المعروفين) واقفة أمام باب بيتها فالتفت للإمام وقالت: «يا قاتل الأحياء لا مرحباً بك أيتم الله منك ولدك كما أيتمت بنى عبدالله بن خلف» فلم يرد عليه السلام عليها، ولكنه وقف وأشار إلى ناحية من دارها، ففهمت إشارته، فسكت وانصرفت، وكانت قد سترت عندها عبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم، فأشار إلى الموضوع الذي كانا فيه، أي لو شئت أخرجتهما! فلتمها ففهمت انصرفت، وكان الإمام عليه السلام حليماً كريماً [١٩٠].

تأملان

١. مكانة المرأة في نهج البلاغة

يلاحظ القارئ لكتاب نهج البلاغة أن الإمام عليه السلام يذم النساء في عدة موارد من الخطب والرسائل والكلمات القصار، وقد فسّر بعض الجهلاء ذلك على أساس الضدية للنساء وأن الإمام عليه السلام يتخذ موقفاً سلبياً منهن، في حين أن الشواهد والقرائن التي تقترن مع كلمات الإمام عليه السلام تشير إلى أن الإمام كان ناظراً لمجموعة خاصة من النسوة، مثلاً وردت بعض هذه العبارات بعد معركة الجمل حيث كانت إحدى

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٦٦

زوجات النبي قد عملت على إشعال نيران هذه الحرب الضروس، وهذا يشير إلى أن الإمام عليه السلام كان ناظراً لمثل هذه المرأة التي انحرفت عن مسارها الصحيح وأضحت آله بيد الانتهازيين والعاملين في الشأن السياسي كطلحة والزبير وهو الأمر الذي أدى إلى سفك دماء آلاف المسلمين، وبعد أن خمدت نيران الحرب قام الإمام عليه السلام بإرسال هذه المرأة بغاية التكريم احتراماً للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله مع أخيها وجماعة من الحرس إلى المدينة.

وفي الرسالة مورد البحث أيضاً يتحدث الإمام عليه السلام عن النسوة اللاتي يفتحن أفواههنّ بالسب والشتم وينطلقن من مواقع الانفعال ومواجهته جنود الإسلام بكلمات بذيئة، ويصفهنّ بأنهن ضعاف العقول والنفوس.

فلو أخذنا بنظر الاعتبار القرائن الحالية والمقالية في مثل هذه الموارد، فسوف يتبين الجواب عن هذه الإشكالات وعلامات الاستفهام. ولذلك ورد في الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام في كتاب أصول الكافي أنه قال بعد الإشارة إلى وجود العيب والنقص في طائفة من النسوة: «إِلَّا الْمُسْلِمَاتُ مِنْهُنَّ» [١٩١].

وفي آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ غَيْرِ صَالِحٍ» [١٩٢].

وجاء في حديث مفصل عن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب الكافي تقسيماً جلياً للنساء، حيث يقرّر الإمام الصادق عليه السلام أنّ فئته من النسوة سبب لسعادة الرجال، وفئته أخرى منهنّ يورثن الندم والخسران يقول: «فَمَنْ يَطْفُرُ بِصَالِحِهِنَّ يَسْرِعُدْ وَمَنْ يُعَيْنُ فَلَيْسَ لَهُ انْتِقَامٌ» [١٩٣].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٦٧

وهذه الروايات الثلاث المذكورة أعلاه، وكذلك روايات أخرى في هذا الباب من كتاب الكافي (باب أصناف النساء) تشكل قرينه واضحة على ما اخترناه من تفسير كلام الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة فيما يتصل بخصال النساء وأخلاقهنّ.

٢. الخلق الإسلامي في مقابل العدو

إنّ ما ورد في الرسالة أعلاه وبعض الرسائل السابقة واللاحقة أيضاً يبيّن بوضوح منهج الإسلام في مواجهته العدو والأخلاق التي ينبغي للمجاهد المسلم أن يتحلّى بها في ميدان المعركة، وهذا المنهج الذي يؤكّد على المعايير السليمة والقيم الأخلاقية في مقاتلة الأعداء يتقاطع مع ما نراه في المناهج الماديّة ومنهج أعداء الإمام عليه السلام الذين لا يراعون أيّ قيد وشرط في ميدان القتال، ولا يلتزمون بأية قيمة أخلاقية في ساحة المواجهة، فتراهم يستخدمون أسوأ الوسائل ويرتكبون أشنع الأعمال من أجل الوصول لغاياتهم وتحقيق أهدافهم، ويسحقون أعلى المثل الإنسانية والأخلاقية تحت أقدامهم إذا لم تتحقّق لهم طموحاتهم، وهذا التباين والتفاوت يمكن ملاحظته بوضوح من خلال نمط واسلوب الإمام عليّ عليه السلام واسلوب معاوية في السجال التاريخي بينهما.

وقد ذهب بعض المحلّين في الماضي والحاضر من الذين تأثروا بالمذاهب المادية والمصلحيّة أنّ هذا التفاوت يعدّ دليلاً على أفضليّة سياسة معاوية على سياسة الإمام عليه السلام.

وهنا لا بأس بالإشارة إلى كلام للجاحظ في هذا المجال حيث يقول: ربّما رأيت بعض من يظنّ بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتمييز وهو من العامة، ويظنّ أنّه من الخاصّة، يزعم أنّ معاوية كان أبعد غوراً من عليّ عليه السلام وأصحّ فكراً وأجود رؤية وأبعد غايه وأدقّ مسلّكاً، وليس الأمر كذلك وسأرمي إليك بجملة تعرف بها موضع غلظه والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله، كان عليّ عليه السلام لا يستعمل في حروبه

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٦٨

إلّا ما وافق الكتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة كما يستعمل الكتاب والسنة، ويستعمل جميع المكائد حلالها وحرامها، ويسير في حروبه بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وسيرة خاقان إذا لاقى رتييل، وعليّ يقول في حروبه: «لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم، ولا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا باباً مغلقاً» هذه سيرته في ذى الكلاع وأبي الأعور السلمي وعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وفي جميع الرؤساء، كسيرته في الحاشية والحشو والاتباع والسفلة، وأصحاب الحروب إن قدروا على البيات يتتوا وإن قدروا على رضخ الجميع بالجنّال وهم نيام فعلوا، وإن أمكن ذلك في طرفه عين لم يؤخروه إلى ساعة، وإن كان الحرق أعجل من الغرق لم يقتصروا على الغرق ولم يؤخروا الحرق إلى وقت الغرق، وإن أمكن الهدم لم يتكلّفوا الحصار، ولم يدعوا أن نصبوا المجانيق والعرادات، والنقب والتسريب والدبابات والكمين، ولم يدعوا دسّ السموم ولا التضريب بين الناس بالكذب وطرح الكتب في عساكرهم بالسعايات وتوهيم الأمور ويجاش بعض من بعض وقتلهم بكلّ آله وحيله، وكيف وقع القتل، وكيف دارت بهم الحال، فمن اقتصر من التدبير على ما في الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير وما لا يتناهى من المكائد، والكذب أكثر من الصدق، والحرام أكثر من الحلال.

فعليّ عليه السلام كان ملجماً بالورع عن جميع القول إلى ما هو لله رضى، وممنوع اليدين من كلّ بطش إلّا ما هو لله رضى، ولا يرضى الرضا إلّا فيما يرضاه الله ويحبّه، ولا يرى الرضا إلّا فيما دلّ عليه الكتاب والسنة، دون ما يقول أصحاب الدهاء والنكراء والمكائد والآراء،

فلما أبصرت العوام كثرة غرائب معاوية ظنوا بقصر عقولهم وقلة علومهم أن ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند علي عليه السلام [١٩٤].

والنقطة المهمة هنا والتي لا ينبغي الغفلة عنها، هي أن الإمام علي عليه السلام وجميع

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٦٩

الأولياء الإلهيين كانوا يهدفون في سلوكياتهم في الشأن السياسي والاجتماعي إلى حفظ القيم والمثل الإنسانية، ويرجحونها حتى على النصر في ميدان القتال، لأن مثل هذا النصر على العدو مؤقت، بينما القيم والمثل الإنسانية باقية، فلو نظرنا من هذه الزاوية إلى منهج الأنبياء والأولياء فسيبين الجواب عن الكثير من الأسئلة وعلامات الإستفهام في هذا المجال.

على سبيل المثال يتساءل البعض: لماذا لم يقتل الإمام علي عليه السلام عمرو بن العاص وبسر بن أرطاة عندما تمكن منهما وكان قادراً على أن يخلص المجتمع الإسلامي من وجودهما، لمجرد أن هذين الرجلين كشفا عن عورتهما؟

الجواب: إن الإمام علي عليه السلام يرى أن حفظ القيم الأخلاقية في هذه الأمور أولى من قتل العدو، وربما لا يستطيع الكثير من الناس تحمّل مثل هذا الموقف وحفظ التعاليم الإلهية والإنسانية من موقع الوعي والالتزام.

وفي عالمنا المعاصر نسمع الكثير من لزوم حفظ القيم والمبادئ الإنسانية في ميادين الحرب، ولكن الكثير من الأسلحة التي تعتبر من جملة الأسلحة الممنوعة والمحرمة دولياً، وقد صدر المنع من استخدامها ضد المدنيين ومنع التعامل غير الإنساني مع الأسرى، ولكننا نرى مراراً في تاريخنا المعاصر عدم الالتزام بأي من هذه القوانين في حالات الحرب من قبيل استخدام أسلحة الدمار الشامل كالقنابل الذرية والأسلحة الكيماوية ضد المدنيين والعزل من الناس وتعذيب الأسرى بمختلف صنوف العذاب، ويمكن القول إن مثل هذه الأعمال تصدر من قبل الفئات والجهات التي تدعى الدفاع عن حقوق الإنسان أكثر من الفئات التي لا تعترف بها، وهذا بذاته يعتبر عملاً شنيعاً ومنكراً، لأن الإنسان عندما يدعى الدفاع عن القيم وحقوق الإنسان ثم يرتكب خلاف ذلك على مستوى العمل والطبق، فهذا يعنى النفاق، وأن مثل هؤلاء الأشخاص هم منافقون.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٧١

الرسالة ١٥

إشارة

كَانَ يَقُولُ إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ مُحَارِبًا [١٩٥]

نظرة إلى الرسالة

يتحدّث الإمام علي عليه السلام في هذا الدعاء عن خلجات روحية تجاه الحرب ويبرز استيائه الشديد منها، ويشكو إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله من كثرة الأعداء وتفريق المسلمين عن حقهم، وأخيراً يسأل الله تعالى إقامة الصلح والعدالة وإنهاء الحروب والقتال.

هذا كله يشير إلى أن الإسلام لا يؤيد الحرب إطلاقاً، ويعتبر أن الحرب أمر مفروض على البشر، لأن الأضرار والخسائر الوخيمة للحرب

ربما تمتد لتتال الأجيال اللاحقة أيضاً، وخاصةً في الحروب المعاصرة التي تتسع آثارها المدمرة

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٧٢

إلى مديات قصوى أكثر بكثير من الماضي.

على سبيل المثال؛ نرى أن الحرب العالمية قد انتهت قبل عقود من الزمان ولكن لحد الآن يوجد الملايين من المعلولين والمتضررين من هذه الحرب في مختلف بلدان العالم.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٧٣

اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ، وَمُيِّدَتِ الْأَعْيَاقُ، وَشَخَّصَتِ الْأَبْصَارُ، وَنُقِلَتِ الْأَقْدَامُ، وَأَنْضِيَتِ الْأَيْدَانُ. اللَّهُمَّ قَدْ صِرَّحَ مَكُونُ الشَّنَانِ، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ الْأَضْغَانِ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غِيْبَةَ نَبِينَا، وَكَثْرَةَ عِدُوْنَا، وَتَشَدُّتِ أَهْوَانِنَا «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ».

الشرح والتفسير: دعاء جامع في ساحة القتال

كما تقدمت الإشارة إليه أن الإمام عليه السلام كان يقرأ هذا الدعاء عندما يواجه العدو في ميدان الحرب، وهذا يدل على أن الإمام عليه السلام يهدف من ذلك لفت نظر أتباعه إلى هذه الحقيقة، وهي أن الغرض من الحرب ليس تحقيق الغلبة والنصر على العدو للتوصيل إلى الثروة والمقام ونيل المطامع الدنيوية، بل هو جهاد في سبيل الله ومن أهم العبادات الدينية، وينبغي أن يتبدى المجاهد في حركته في ميدان القتال باسم الله عز وجل ويطلب منه النصر على العدو، ويخطو في هذا السبيل بنية خالصة وقلب مفعم بالعشق الإلهي، ويهجم على العدو من موقع الاستقامة والإيمان والإخلاص.

يقول الإمام عليه السلام في مطلع الدعاء: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ وَمُيِّدَتِ الْأَعْيَاقُ وَشَخَّصَتِ الْأَبْصَارُ وَنُقِلَتِ الْأَقْدَامُ وَأَنْضِيَتِ الْأَيْدَانُ».

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٧٤

وهذا إشارة إلى أن الهدف النهائي للحرب مع قوى الباطل هو طلب رضا الله تعالى، وأنها في كل خطوة نخطوها في هذا الطريق، فهي من أجلك وبتجاهك.

أجل، فالمجاهدون المسلمون يهدفون من جميع أعمالهم وبرامجهم نيل رضا الله تعالى وامتثال أمره، ولذلك يقول القرآن الكريم: «ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يزعموا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يعيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين* ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون» [١٩٩].

ثم إن الإمام عليه السلام في سياق هذا الدعاء يشير إلى الباعث لهذه الحرب لدى العدو ليعلم أفراد الجيش الإسلامي بحقيقة الأمر فيكونوا على بينة من مواقعهم وغاياتهم ويقول: «اللَّهُمَّ قَدْ صِرَّحَ مَكُونُ الشَّنَانِ، وَجَاشَتْ [٢٠٠] مَرَاجِلُ [٢٠١] الْأَضْغَانِ [٢٠٢]».

وهذا إشارة إلى أن عناصر الحقد والبغضاء لدى هؤلاء الأعداء، والتي بقيت مكبوتة منذ زمان الجاهلية وصدر الإسلام بسبب ما حققه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من النصر المؤزر عليهم، قد تجلت وظهرت في هذا الوقت، لأنهم وإن أظهروا الإسلام وادعوا الإيمان حسب الظاهر، ولكنهم مازالوا يخفون الحقد والعداوة في قلوبهم وقد وجد هؤلاء المنافقون الأرضية الخصبة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لإبراز حقدهم الدفين وإظهار ضغائنهم ضد الإسلام والمسلمين.

فمن ينكر أن معاوية وهو ابن أبي سفيان العدو الأول للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وابن هند

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٧٥

المعروفة بأكلة الأكباد، وأنصاره وأتباعه من المنافقين وأعداء الإسلام كانوا في عصر ظهور الإسلام يواجهون الرسالة الإلهية من موقع الحقد والعداء الشديد وقد خلفت المعارك فيهم أحقاداً بدرية وحنينية وغيرها.

وهذه الحقيقة بمثابة الدرس لأصحاب وأنصار الإمام عليه السلام ليعلموا من يقاتلون ولأى غرض يجاهدون.

وفي ختام هذا الدعاء يلتجئ الإمام عليه السلام مرة أخرى إلى رحمة الله ولطفه ويعكس ذلك صفاء قلبه ونورانية باطنه وحبّه لجميع الخلائق حتى الأعداء منهم، ويقول: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عِدْوَانَا، وَتَشْتِئْتْ أَهْوَانَنَا» [رَبَّنَا افْتِيحْ ٢٠٣] بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ [٢٠٤].

وهذه العبارات تعتبر غاية ما يعيشه الإمام على عليه السلام من حالات اللطف والمحبة حتى بالنسبة للأعداء والمنحرفين والضالين حيث يعبر عنهم: «قَوْمِنَا» وقوله: «غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَتَشْتِئْتْ أَهْوَانَنَا» بدلاً من قوله «ربنا انصرنا» وكذلك ما ورد من هذه العبارات «غَيْبَةَ نَبِيِّنَا» و«وَكثْرَةَ عِدْوَانَا» و«وَتَشْتِئْتْ أَهْوَانَنَا» كلها تشير إلى أن الغرض الأقصى للإمام على عليه السلام يتلخص إلى جذبهم إلى طريق الحق والصواب وأن يتحد المسلمون صفواً واحداً في مقابل الأعداء.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٧٧

الرسالة ١٦

إشارة

لأصحابه عند الحرب [٢٠٥]

نظرة إلى الرسالة

إنّ هذه الرسالة، والأصحّ هذا الكلام، لأمر المؤمنين عليه السلام الذي تحدّث فيه لأصحابه في ميدان الحرب يهدف لبيان فنون القتال وأسرار المجابهة والنصر على العدو لأصحابه وأنصاره، وقد رأينا فيما تقدّم من التوصيات العسكرية أنّها تمثل تعاليم لكيفية الحركة والتوجّه إلى ميدان القتال واتخاذ المواقع الحساسة في مقابل العدو، والإمام في هذه الكلام يبين فنون الحرب والقتال لأنصاره وجنوده، وفي المقطع الأخير من هذا الكلام يطرح الإمام عليه السلام في الحقيقة جواباً عن سؤال ربّما يثيره البعض من أصحابه أو يدور في خلجات قلبه، ويجب عنه بأننا عندما نقاتل معاوية وأعوانه وأنصاره فإنّ ذلك لا يعتبر حرباً ضدّ المسلمين، فلو أنّ بنى امية

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٧٨

وعلى رأسهم أبا سفيان أظهروا الإسلام في الماضي فإنّهم في الحقيقة يتظاهرون بالإسلام ويتقنعون بالإيمان، ولذلك عندما وجدوا أعواناً وأنصاراً لإظهار الكفر والشرك ونزع رداء الإسلام لم يمتنعوا من الإعلان عن نواياهم والبوح بمكنوناتهم.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٧٩

لَمَا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعِيدًا كَرَّةً، وَلَمَا جَوْلَهُ بَعِيدًا حَمْلَةً، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا، وَوَطَّئُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا وَادْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى

الطَّعْنَ الدَّعْسِيَّ، وَالضَّرْبَ الطَّلْحِيَّ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرُدُ لِلْفَشْلِ. فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسِيمَةَ، مَا أَشِيَلُمُوا وَلَكِنْ اسْتَشِيَلُمُوا، وَأَسْرُوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ.

نفحات الولاية؛ ج ٩؛ ص ١٧٩

الشرح والتفسير: تقوية عزائم الجند

يبين الإمام عليه السلام في هذا الكلام الدقيق والزاهر بالمضامين العميقة، ست توصيات عسكرية مهمة وبعبارات بليغة ومقتضبة. يقول الإمام عليه السلام في التوصية الأولى والثانية: «لَا تَشْتَدَنَّ عَلَيْكُمْ فِرَّةُ [٢٠٦] بَعْدَهَا كَرَّةُ [٢٠٧]، وَلَا جَوْلَةٌ [٢٠٨] بَعْدَهَا حَمْلَةٌ». والمقصود من الجملة الأولى أن المقاتلين أحياناً تفرض عليهم الظروف والتحديات الصعبة التراجع والانسحاب المؤقت فيتوهم العدو وجود ثغرة وضعف فيكم فيسارع في ملاحقتكم، و فجأة يعود أفراد الجيش إلى تماسكهم ويحملوا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٨٠

حملة واحدة على العدو ويحطموا قواه ويبعثوا صفوفه، وهذا في الحقيقة نوع من الانسحاب التكتيكي المتداول في الحروب المعاصرة، وأحياناً يكون الإصرار على المقاومة والثبات في أرض المعركة يكلف الجيش غالباً ولذلك يقول الإمام عليه السلام: لا تأسفوا على مثل هذا الفرار والتراجع الذي يستتبع الهجوم الصولة على العدو، ويشير الإمام عليه السلام في الجملة الثانية إلى حالات الجولة من هذه الجهة قبل ابتداء الهجوم، لأن الفارس الشجاع أحياناً يضطر لتغيير موقعه في ميدان القتال للعثور على موقع مناسب للهجوم على العدو، فيعثر على المنفذ المناسب للحملة أو يتراجع لغرض إنهاك العدو واستنزاف طاقاته وأتاعبه، وعلى ضوء ذلك فلا إشكال في الفرار الذي يتبعه هجوم، ولا في الجولات وتغيير المواقع التي تستتبع إيجاد ثغرة في صفوف العدو والنفوذ منها لتحطيم قواه وقدراته الدفاعية.

وبعبارة أخرى أن بعض الأشخاص المغرورين تصوّروا أن الفرار يعدّ عيباً ونقصاً كيف ما كان، وكذلك تأخير الهجوم على العدو بجولات متعددة، في حين أن كلاً من هذه الأمور لا يعدّ عيباً أو نقصاً، بل هو نوع من أساليب المواجهة التي تضمن في الكثير من الموارد النصر على العدو.

ثم إن الإمام عليه السلام يأمر في التوصية الثالثة والرابعة ويقول: «وَأَعْطُوا الشُّيُوفَ حُقُوقَهَا، وَوَطَّئُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا [٢٠٩]». يعدّ السيف أهم سلاح يستخدم في ميدان القتال في ذلك العصر، فعندما يواجه الفارس العدو بسيفه فينبغي الاستفادة القصوى من هذا السلاح وأداء حقه في الضرب والطعن.

وجملة «وَوَطَّئُوا لِلْجُنُوبِ...» إشارة إلى أن ضرباتكم للعدو يجب أن تكون من الشدة بدرجة تستتبع سقوط العدو على الأرض في الضربات الأولى وكأنكم بهذا الضرب المتوازي والشديد قد أعددتهم سلفاً مصارع أفراد العدو وأماكن سقوطهم

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٨١

على الأرض صرعى.

واحتمل البعض أن هذا الكلام إشارة إلى مواطن أفراد الجيش الإسلامي، يعني أنكم في الوقت الذي ترومون تحقيق النصر على العدو ينبغي أن تكونوا مستعدين للشهادة في سبيل الله وتوطئوا لأنفسكم مكاناً لمصرعكم وسقوطكم على الأرض شهداء في سبيل الله. ولكن مع الالتفات إلى ما ورد في الجملة السابقة والجملة اللاحقة فإن هذا المعنى بعيد، لأن كلتا الجملتين تدعوان الجند إلى بانزال ضربات قاصمة بالعدو.

وفي التوصية الخامسة والسادسة، التي تقع أيضاً في سياق الحديث عن الضربات القاصمة على العدو يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَذْمُرُوا [٢١٠] أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّغْنِ [٢١١] الدَّعْسِي [٢١٢]، وَالضَّرْبِ الطَّلْحَفِيِّ [٢١٣].»

الواقع أن الإمام عليه السلام في هذه العبارة يدعو المقاتلين للاستفادة من جميع الأدوات المتداولة في ذلك الزمان فتطعنوا بالرمح جسد العدو بحيث ينهار تماماً ويسقط على الأرض مضرّجاً بدمه وتضربوا بسيفكم على هامات القوم بحيث يلفظوا أنفاسهم معها، ومن أجل تحقيق هذا الغرض لابد من تهييج أحاسيسكم وتوفير مشاعرهم من خلال الاستعانة بالله تعالى لأن النصر الحاسم إنما يكون من نصيب الجماعة التي تقاتل بشده وتتنزل ضربات سيوفها ورمحها على العدو بأشد قوة.

وفي التوصية السابعة والأخيرة يقول: «وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرُدُ لِلْفَشْلِ».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٨٢

الأشخاص الذين يمارسون الصراخ والصرائح في ميدان القتال ربما يتبادر إلى ذهن العدو أن ذلك ناشىء من خوفهم ووحشتهم، وبالتالي يؤدي ذلك إلى رفع معنويات العدو من جهة، ومن جهة أخرى ربما يفضي الصياح إلى استنزاف القوى الجسمية والفكرية لهؤلاء الرجال ويقلل من قدرتهم على مقاومة العدو، ولهذا السبب يأمر الإمام عليه السلام بعدم صرف الطاقات في الصياح والصرائح والاتلفات بشكل كامل إلى مواجهة العدو في ميدان العمل والممارسة.

وطبعاً هذا العمل لا يتنافى مع رفع الأصوات بالتكبير عند تحقق النصر، وحتى التكبير ينبغي أن يكون محدوداً ومحسباً ولا ينبغي الإفراط فيه لأن ذلك مخالف لهذا التوصية.

ولهذا السبب ورد في كتب التاريخ عن واقعة بدر أن المشركين عندما شاهدوا جيش الإسلام بعددهم القليل في مقابل جيش الكفر والشرك، تصوّروا أن مجموعة من المسلمين تكمن لهم خلف التلال حتى تسنح لهم الفرصة المناسبة ويهجموا على قوى الشرك، ولذلك أرسلوا عمر بن وهب للتحقق في هذا الأمر والبحث عن الكمين في نواحي المنطقة، فتوجه عمر بن وهب لاستطلاع الموقف ورأى أن مواقع جيش الإسلام مستحكمة وحصينة فرجع إلى موقعه وقال لقادة جيش الشرك: إن المسلمين ليس لديهم أي كمين أو مدد غير الثلة الحاضرة في الميدان، ولكنني أظن أن إبل يثرب المحملة ستحمل الموت لكم، ثم أضاف: «أَمَا تَرَوْنَهُمْ خُرْسٌ لَا يَتَكَلَّمُونَ يَتَلَمَّظُونَ تَلَمَّظَ الْأَفَاعِي مَا لَهُمْ مَلْجَأٌ إِلَّا سُيُوفُهُمْ وَمَا أَرَاهُمْ يُوَلُّونَ حَتَّى يُقْتَلُوا وَلَا يُقْتَلُونَ حَتَّى يَقْتُلُوا بِعَدِهِمْ فَارْتَوُوا رَأْيَكُمْ» [٢١٤].

ثم يبين الإمام عليه السلام في ختام هذا الكلام نقطة أخرى وهي في الواقع تعتبر جواباً عن سؤال مقدر أو مذكوراً في كلمات أصحابه عندما تصوّروا أن معاوية وأتباعه هم

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٨٣

من المسلمين، فكيف نقاتل المسلمين؟ فيقول الإمام عليه السلام: «فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ [٢١٥]، مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنْ اسْتَسَلَمُوا، وَأَسْرُوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ».

وعندما يختم الإمام عليه السلام بصفات الله تعالى ويؤكد على انشقاق الحب تحت التراب وخلق الإنسان، ذلك يعود إلى أن هذه المظاهر في عالم الخلق تعتبر من أعجب الأفعال الإلهية، فالحبوب عندما توضع تحت التراب وهي مغلفة بقشرة قوية وصلبة وتصل إليها رطوبة التراب، فيكفي ذلك لأن تبعث فيها الروح والحركة في داخلها حيث تبدأ النطفة بالنمو وتظهر بعد ذلك السيقان الناعمة للنبات، هذه الساق اللطيفة عندما واجهت الضيق في داخل إطار الحبيبة كسرت هذا الإطار والقشرة وأخرجت رأسها من التراب وانفصلت عن أمها وأصلها واتخذت سبيلها للنمو والارتفاع إلى أن تصير بعد ذلك شجرة باسقة، وهكذا الحال في نطفة الإنسان في رحم الام، حيث يعيش الجنين خلقاً آخر ويتكامل تدريجياً ويتخذ لنفسه شكلاً جديداً من خلال سلسلة من التحويلات المعقدة والدقيقة والسريعة في ذات الوقت ويتبدل الجنين إلى إنسان كامل، وعندما يجد الجنين أن رحم الام لا يكفي في استمرار حياته ورشده ونموه فإنه يعزم على الخروج من الرحم ويغادر رحم أمه بهيجان ويخطو الخطوة الأولى نحو الولادة والمجيء إلى الدنيا.

إن التمعن في ظاهرة نمو النباتات وولادة البشر من شأنها أن تعرّف الإنسان أكثر على عظمة الله وقدرته اللامتناهية، ومن هنا نرى أن

النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام يقسمون أحياناً بهذه الصفات الإلهية، ولا ينبغي الغفلة عن أن هذه العبارات وردت في زمن لم يتولد علم النبات وعلم الإجنه.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٨٤

تأملان

١. شواهد حية على عقائد بني امية الواقعية

في آخر كلمة من كلام الإمام عليه السلام مورد البحث يصرح الإمام عليه السلام بأن مخالفه (معاوية وأتباعه)، لم يقبلوا بالإسلام طرفه عين، بل خضعوا له من موقع الإجبار والإكراه، ولذلك عندما وجدوا أنصاراً وأعاوناً أظهرها كفرهم الباطني. وربما يكون قبول هذا الكلام صعباً بالنسبة لبعض المسلمين من أهل السنة، ولكن إلقاء نظرة إلى كتب الصحاح وسائر المصادر لأهل السنة يدل على هذه الحقيقة الحاسمة، ونحن هنا نستعرض بعض الروايات المذكورة في مصادرهم المعروفة عن عقائد معاوية وأعماله دون أن نضيف إليها شيئاً، ونترك الحكم عليها بعهد القراء الأعزاء:

١. ورد في صحيح مسلم أن عبدالرحمن بن عبد رب الكعبة يقول: «دخلت المسجد (المسجد الحرام) فإذا عبدالله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلست إليه، فقال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في سفر، فنزلنا منزلاً، فمنا من يصلح خبائه... فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، ونقتل أنفسنا والله يقول: «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل...» وقال: «ولا تقتلوا أنفسكم...» [٢١٦] قال فسكت ساعة ثم قال: إطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله [٢١٧].

٢. ورد في تاريخ الطبري أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وآله رآه (أباسفيان) مقبلاً على حمار ومعاوية يقود به ويزيد (أخو معاوية) يسوقه به، قال صلى الله عليه وآله: «لَعَنَ اللَّهُ الْقَائِدَ وَالرَّائِبَ وَالسَّائِقَ» [٢١٨]. (وفي رواية أخرى أن الذي كان قابضاً على زمام الدابة هو عتبه أخو

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٨٥

معاوية ومعاوية كان يسير خلفهم).

٣. وكذلك ورد في تاريخ الطبري أن رسول الله صلى الله عليه وآله أشار يوماً إلى مكان وقال:

يطلع من هذا الفج، رجل من امتي يحشر على غير ملتي، فطلع معاوية [٢١٩].

٤. نقل ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن كتاب أخبار الملوك: إن معاوية سمع مؤذناً يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله فقالها ثلاثاً، فقال المؤذن: «أشهد أن محمداً رسول الله قال معاوية: لله أبوك يا ابن عبدالله! ولقد كنت على الهمة، ما رضيت لنفسك إلا أن يقرن اسمك باسم رب العالمين [٢٢٠].

٥. ويروي أحمد بن حنبل في مسنده عن عبدالله بن بريدة أنه قال: «دخلت أنا وأبي على معاوية فأجلسنا على الفرش ثم أتينا بالطعام فأكلنا ثم أتينا بالشراب، فشرب معاوية ثم ناول أبي (ثم قال: ما شربته منذ حرّمه رسول الله صلى الله عليه وآله) [٢٢١].

٦. يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: «قد طعن كثير من أصحابنا في دين معاوية ولم يقتصر على تفسيقه وقالوا عنه: إنه كان ملجداً لا يعتقد النبوة ونقلوا عنه في فلتات كلامه وسقطات ألفاظه ما يدل على ذلك» [٢٢٢].

٧. ولم تقتصر إشكالية إيمان معاوية وأعماله على هذا الحد، فطبقاً لما ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد أن الحسن البصري قال: «علم معاوية والله إن لم يبايعه عمرو لن يتم له أمر، فقال له: ياعمرو، اتبعني، قال: لماذا؟ للآخرة؟ فوالله ما معك آخرة، أم للدنيا فوالله لا

كان حتى أكون شريكك فيها، قال: فأنت شريكى فيها. قال:

فاكتب لى مصر وكورها، فكتب له مصر وكورها، وكتب فى آخر الكتاب: وعلى عمرو السمع والطاعة. قال عمرو: إنَّ السمع والطاعة لا ينقصان من شرطه شيئاً، قال معاوية: لا ينظر الناس إلى هذا، قال عمرو: حتى يكتب، قال فكتب، واللّه ما يجد بدأً
نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٨٦
من كتابتها.

ودخل عتبة بن أبى سفيان على معاوية وهو يكلم عمراً فى مصر، وعمرو يقول له: إنّما ابايحك بها لدينى، فقال عتبة: ائتمن الرجل بدينه فإنّه صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم» [٢٢٣].

٨. وينقل ابن الأثير أيضاً فى كامل التواريخ عن الحسن البصرى أنّه قال:

أربع خصال كنّ فى معاوية، لو لم تكن فيه إلّا واحدة لكانت موبقة: انتراؤه على هذه الأمة بالسيف حتى أخذ الإمرة من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده ابنه سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»! وقتله حجراً [٢٢٤] ٩. وطبقاً لما أورده البيهقى فى كتاب المحاسن والمساوى أنّ رجلاً من أهل الشام سأل ابن عباس وقال: من الناكثون، قال: الذين بايعوا عليّاً بالمدينة ثم نكثوا، فقاتلهم بالبصرة وهم أصحاب الجمل، والقاسطون معاوية وأصحابه والمارقون أهل النهروان ومن معهم، فقال الشامى: يا ابن عباس ملأت صدرى نوراً وحكمة وفرجت عنى فرج الله عنك، أشهد أنّ عليّاً رضى الله عنه مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة [٢٢٥].

١٠. ونختم هذا المقطع من البحث بكلام عجيب أورده المسعودى فى مروج الذهب ونقله الزبير بن بكار فى الموفقيات وابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة (والملاحظ من بين هؤلاء الثلاثة نرى أنّ الزبير بن بكار لا يوافق الشيعة فى عقائدهم فحسب بل من المخالفين لهم) أنّ مطرف بن المغيرة بن شعبة يقول: دخلت مع أبى على معاوية وكان أبى يأتىه، فيتحدّث معه ثم ينصرف إلّى ويذكر معاوية

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٨٧

وعقله ويعجب ممّا يراه منه، إذ جاء ذات ليلة وأمسك عن العشاء ورأيتة مغتماً فانتظرت ساعة وظننت أنّه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لى أراك مغتماً منذ الليلة؟

فقال: يا بنى جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: ماذا؟ قال: قلت له وقد خلوت به: إنّك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وطففت خيراً، إنّك قد كبرت ولو نظرت إلى إخوتك من بنى هاشم، فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شىء تخافه، وإن ذلك ممّا يبقى لك ذكره وثوابه، فقال: هيهات هيهات، أى ذكر أرجو بقاءه، ملك أخو تيم فعدل، وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: قال أبو بكر، ثم ملك أخو عدى فاجتهد وشمر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: عمر، وإنّ ابن أبى كبشة ليصاح به كلّ يوم خمس مرات: (أشهد أنّ محمداً رسول الله) فأى عمل يبقى؟ وأى ذكر يدوم بعد هذا لا أبأ لك «أ واللّه إلّا دفناً دفناً» [٢٢٦]، (أى لابدّ من العمل لدفن هذا الاسم أو لدفن بنى هاشم إلى الأبد).

ومرّة أخرى نعيد القول أنّ جميع هذه الموارد المذكورة أعلاه ليست من مصادرنا، بل هى عين عبارات علماء أهل السنة فى شأن معاوية ولم نضف أى شىء عليها.

٢. فضائل الامام على عليه السلام على لسان أعدائه

بالرغم من أنّ عمرو بن العاص كان مؤيداً لمعاوية بشكل كامل ولولا حيلته الشيطانية لم ينتصر معاوية فى حربه مع الإمام عليه السلام

قطعاً، ولكنه مع ذلك كان أصرح منه في الكلام، وفي بعض المواقع يذكر بشكل صريح أفضلية الإمام علي عليه السلام على معاوية ويتحدث عن شجاعة جيش الإمام عليه السلام في أكثر من مورد.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٨٨

ينقل نصر بن مزاحم في كتابه صفين أشعاراً عجيبة لعمر بن العاص يحقر فيها معاوية بشدة ويتحدث فيها عن جيش الإمام علي عليه السلام يقول:

فَإِنْ وَرَدَتْ فَأَوْلُهَا وَرُودَ فَإِنْ سَدَّتْ فَلَيْسَ بِذِي صُدُودِ

أي أن فرسان جيش معاوية عندما يردون ميدان المعركة فسوف نجدهم في المقدمة، فإذا تصدوا لجيش العدو فلا أحد يستطيع مواجهتهم والوقوف أمامهم.

ثم يضيف:

وَمَا هِيَ مِنْ أَبِي حَسَنِ بِنُكْرٍ وَلَا هُوَ مِنْ مَسَائِكَ بِالْبَعِيدِ

أي أن فضائل علي ليست بالشيء المجهول وغير المعروف ونقاط ضعفك ليست بالبعيدة عن الأنظار.

ثم يشير عمرو بن العاص إلى طلب معاوية من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فيما يتصل بحكومة الشام ويقول:

وَقُلْتَ لَهُ مُقَالَهَ مُسْتَكِينٍ ضَعِيفِ الرُّكْنِ مُنْقَطِعِ الْوَرِيدِ

دَعَنَّ الشَّامَ حَسْبِكَ يَا ابْنَ هِنْدٍ مِنَ السُّوءَاتِ وَالرَّأْيِ الزَّهِيدِ

وَلَوْ أَعْطَاكَهَا مَا أَزْدَدَتْ عِزًّا وَلَا لَكَ لَوْ أَجَابَكَ مِنْ مَزِيدِ

فلما بلغ معاوية قول عمرو دعاه فقال: يا عمرو، إنني قد أعلم ما أردت بهذا، قال:

ما أردت؟ قال: أردت تقييح رأيي، وإعظام علي، وقد فضحك، قال: أما تقيح رأيك فقد كان، وأما إعظامي علياً فإنك بإعظامه أشد معرفة مني، ولكنك تطويه وأنا أنشره، أما فضيحتي فامرؤ لقي أبا الحسن [٢٢٧].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٨٩

الرسالة ١٧

إشارة

إلى معاوية جواباً عن كتاب منه إليه [٢٢٨]

نظرة إلى الرسالة

روى نصر بن مزاحم في كتاب صفين، إن الإمام علي عليه السلام قال يوماً: سأ توجه غداً إلى الميدان وأقاتل هؤلاء القوم، فانتشر هذا الكلام في صفوف جيش معاوية واستولى عليهم الخوف والذعر.

فكتب معاوية إلى علي عليه السلام مع رجل من السكاسك، يقال له: عبدالله بن عقبه وكان من ناقلة أهل العراق:

«أما بعد فإنني ما أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا لم يحبها بعضنا على بعض، وإن كنا قد غلبنا على قولنا

فقد بقي لنا منها ما نندم على

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٩٠

ما مضى ونصلح به ما بقى، وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمنى لك طاعة ولا بيعه فأبيت ذلك على، فأعطاني الله ما منعت، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإنى لا أرجو البقاء إلّما ترجو، ولا أخاف من الموت إلّما تخاف وقد والله فارقت الأجناد وذهبت الرجال، ونحن بنوعبدمناف فضل الأفضل لا يستدل به عزيز، ولا يسترق به الحرّ، والسلام».

فلما انتهى كتاب معاوية إلى على عليه السلام قرأه ثم قال: العجب من معاوية وكتابه، ثم دعا عبيد بن أبى رافع كاتبه وقال له: اكتب إلى معاوية... [٢٢٩].

وطبعاً فإن السيد الرضى كما هو دأبه وعادته لم يذكر مطلع هذه الرسالة، ولكنّه أورد القسم المهم منها [٢٣٠].

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٩١

القسم الأول

إشارة

وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَى الشَّامِ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأَعْطِيكَ الْيَوْمَ مِمَّا مَنَعْتُكَ أَمْسٍ. وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ إِلَّا حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ، أَلَمْ وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَمَا لِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَمَا لِي النَّارِ. وَأَمَّا سِيَتَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَالرَّجَالِ فَلَسْتُ بِأَمْضَى عَلَى الشُّكِّ مِنِّي عَلَى الْبَقِيَّةِ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ، وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ، وَلَكِنْ لَيْسَ أُمَّتِي كَهَاشِمٍ، وَلَمَّْا حَزِبْتُ كَعْبِدِ الْمُطَّلِبِ، وَلَمَّْا أَبُو سَيْفِيَّانَ كَأَبِي طَالِبٍ، وَلَمَّْا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيْقِ، وَلَمَّْا الصَّرِيْحُ كَاللَّصِيْقِ، وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ. وَلَيْسَ الْخُلْفُ خُلْفٌ يَتَّبِعُ سَلْفًا هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

الشرح والتفسير: المدين في هيئة الدائن

سبق أن ذكرنا أن هذه الرسالة تعدّ جواباً لرسالة كتبها معاوية للإمام عليه السلام وتحدّث فيها عن بعض مطالبه، وحسب القاعدة فإن معاوية بقرأة مثل هذه الرسائل على المنابر أو على الجند إنّما يبغي تبرئه نفسه من الإثم الذي ارتكبه بحقّ المسلمين، وكذلك حسب القاعدة أن هذه الرسالة إن وصلت لأصحاب الإمام عليه السلام أيضاً ربّما يتأثر بها بعض السذج من الناس، ومن هنا لم يجد الإمام عليه السلام بداً من كتابه رسالة جوابية للردّ على ما جاء فيها بشكل حاسم.

ولذلك نرى أن الإمام عليه السلام أشار في هذه الرسالة إلى أربعة أمور محورية في

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ١٩٢

مقابل أربعة ادّعاءات لمعاوية.

في البداية يقول الإمام عليه السلام: «وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَى الشَّامِ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأَعْطِيكَ الْيَوْمَ مِمَّا مَنَعْتُكَ أَمْسٍ»، وكما هو معلوم أن معاوية طلب الشام دون أن يبايع أو يلتزم بطاعة أوامر الإمام عليه السلام.

ومنع الإمام عليه السلام بدوره يقوم على أساس الحكم الإلهي الذي يقرر منع الظالمين والمفسدين من تولّى أمور البلاد الإسلاميّة، وأنّه لا ينبغي أن تكون أى منطقة أو إمارة في الحكومة الإسلاميّة بيد المنحرفين وقوى الفسق والجور، وهذا الحكم الشرعي لا زال باقٍ على قوّته، فليست هذه المسألة من المسائل السياسيّة التي تتغيّر وفقاً لتغيّر الظروف وتبدل المصالح.

وهذا الكلام في الواقع يعدّ جواباً للأشخاص الذين يقولون: ألم يكن الأفضل أن يدع الإمام الشام بيد معاوية بشكل مؤقت ثم يعزله عن هذا المقام بعد استقرار حكومته واستتباب الأمن فيها؟

إنّ هؤلاء لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة، وهي أن الإمام عليه السلام إذا أذعن لطلب معاوية وأوكل حكومة الشام إليه، (وطبقاً لبعض

الروايات أن معاوية طلب حكومة مصر أيضاً) وفسح المجال لمعاوية لتقوية أركان سلطته وسيطرته على منطقة الشام فإن إزاحته بعد ذلك ستكون مستحيلة، والحال نرى أن الإمام عليه السلام في حرب صفين كان قد اقترب من النصر الحاسم على جيش معاوية وشارف على دفع هذه الفتنة والشر من البلاد الإسلامية لولا سلوك بعض الجهلاء والانتهازيين ممن كانوا في جيش الإمام عليه السلام ظاهراً.

ثم يتحدث الإمام عليه السلام في المقطع الثاني من هذه الرسالة جواباً عن كلام معاوية الآخر ويقول: «وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ ٢٣١] إِلَّا حُشَاشَاتِ ٢٣٢] أَنْفُسٍ بَقِيَتْ،

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٩٣

أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ».

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الجواب الثالث لمعاوية الذي قال في رسالته: أنا وأنت في هذه الحرب سيان (وأنا كلينا نتبع هدفاً واحداً ونطلب أمراً واحداً، يقول الإمام في مقام الجواب: «وَأَمَّا اسْتِثْوَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَالرَّجَالِ فَلَسْتُ بِأَمْضَى ٢٣٣] عَلَى الشَّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ».

وهذا الكلام إشارة إلى وجود أمرين مختلفين بين أصحابي وأصحابك، فأصحابي يسيرون مع إمام عادل وعالم بتكليفه الشرعي وأنهم يسيرون على بصيرة من حركتهم ودينهم، في حين أنك لا تملك هدفاً واضحاً سوى التوصل إلى المال والمقام.

والآخر أن أصحابك حريصون على الدنيا وأنك استطعت جرهم إلى الميدان بالوعود المادية والمغريات الدنيوية عسى أن يصيبوا من الغنائم في هذه المعركة، في حين أن قادة جيشي لم يتحركوا طمعاً بالجائزة ولم يفكروا في هذا الأمر أيضاً.

وبتعبير آخر، أنك لا تملك اليقين على استحقاقك للخلافة والرئاسة على الناس، في حين أنني على يقين من ذلك، وأن أتباعك يقاتلون طلباً للدنيا، في حين أن أتباعي لا يهدفون من قتالك سوى نيل رضا الله تعالى وإقامة الحكومة الإلهية العادلة على الأرض، ولهذين السببين نحن أكثر عزمًا وأمضى سعيًا منكم في هذا المسير المعنوي، في حين أنك وأتباعك لا تملكون هذه الروحية والمعنوية، ونتيجة ذلك أننا لسنا سواء في هذا الأمر وأن النصر النهائي سيكون من نصيبنا قطعاً، وهكذا تحققت نبوءة الإمام عليه السلام ووصل جيش الإمام إلى مشارف النصر النهائي، ولكن للأسف فإن جماعة من الجهلة ومن بينهم ثلث من المنافقين أجهضوا هذا النصر ولم يتحقق ما كان الإمام يصبو إليه.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٩٤

ثم إن الإمام عليه السلام يتعرض للجواب عن الإدعاء الرابع لمعاوية ويقول: «وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَزِيدٍ مَنَافٍ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ»، فهنا يتعرّف الإمام بهذه الحقيقة، وهي أننا جميعاً أبناء عبدمناف وهذا صحيح لا ريب فيه.

ثم إن الإمام عليه السلام يتعرض للفوارق بينه وبين معاوية ويذكر منها خمسة أمور.

ففي البداية يشير إلى الشرف في النسب، ويقول: «وَلَكِنْ لَيْسَ أُمِّيَّةُ كَهَاشِمٍ، وَلَا حَرْبُ كَعْبِدِ الْمُطَّلِبِ، وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ».

وهذا إشارة إلى أن جدك الأعلى هو امية وجدك الأدنى هو حرب، وأباك أبو سفيان، وكلهم معروفون بين العرب بالشر والدناءة والخساسة، في حين أن جدّي الأعلى هاشم وجدّي الأدنى عبدالمطلب وأبي أبو طالب، وكلهم من سادات العرب ومن كرمائهم وأشرفهم، فكيف يمكن مقايضة هؤلاء بأولئك، والحال أنهم ليسوا سواء.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى التفاوت الثاني والثالث، ويقول: «وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ ٢٣٤]، وَلَا الصَّرِيحُ ٢٣٥] كَاللَّصِيقِ ٢٣٦]».

وهو إشارة إلى أنني كنت من أوائل المهاجرين من مكة إلى المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وآله ولكنك وأبا سفيان كنتما تعيشان في ظلمات الشرك والكفر في مكة إلى أن فتحها جيش الإسلام وحكم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بإطلاق سراحك وسائر الأسرى من قومك عندما قال: «إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ».

ومن جهة أخرى، فإنَّ نسبنا معروف وصریح، ولكن نسبك غامض وفيه الكثير من الكلام، فبعض لا يرى أنك ابن أبي سفيان بل الابن غير المشروع لمسافر بن أبي عمرو وهو من عبيد أبي سفيان، وطبعاً هذا الكلام لا يتنافى مع ما ذكره الإمام عليه السلام من أبي معاوية يعنى أبا سفيان لأنَّ تلك الجملة قالها الإمام عليه السلام وهو يتماشى مع

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٩٥

الامور بحسب الظاهر، وهذه الجملة إشارة إلى أنه لو تمَّ البحث والتدقيق في نسبك، فهناك كلام كثير في ذلك. ومع هذا فإنَّ ابن أبي الحديد لا يرى هذا التفسير منسجماً مع الجملة الأخيرة وذهب لتفسير آخر لهذا العبارة وقال: المراد من الصريح هو الشخص الذي اعتقد بالإسلام اعتقاداً راسخاً، واللصيق هو الشخص الذي اعتنق الإسلام خوفاً من السيف أو بدافع حبِّ الدنيا [٢٣٧]. وهذا التفسير وإن كان خلاف ظاهر العبارة، ولكن على فرض أن يكون صحيحاً فذلك يعنى أيضاً وجود تفاوت جلي بين الإمام عليه السلام ومعاوية في هذا المجال.

ثمَّ تعرَّض الإمام عليه السلام لذكر الفرق والاختلاف في الصفات والأفعال الدينيَّة والإنسانيَّة بين الطرفين ويقول: «وَلَمَّا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ [٢٣٨]».

وهذا إشارة إلى أنَّ الاختلاف بيننا لا ينحصر بانتسابنا إلى بني هاشم وانتسابك إلى بني امية، فإنَّ صفاتنا وأفعالنا أيضاً لا تقبل القياس والمقارنة، فنحن نسير دوماً في خطِّ الحقِّ والخير والإيمان، بينما بنو امية يسرون في خطِّ الباطل والشرِّ، ونحن آمنَّا بالإسلام والنبیِّ الأكرم صلى الله عليه و آله من موقع الإخلاص، ولكنكم أظهرتم الإيمان والإسلام من موقع النفاق (والحوادث التاريخيَّة تثبت ذلك). ويقول الإمام عليه السلام في نهاية هذه الفقرة: «وَلَبِئْسَ الْخَلْفُ خَلْفٌ يَتَّبِعُ سَلْفًا هَوَى [٢٣٩] فِي نَارِ جَهَنَّمَ».

والجدير بالذكر أنَّ الإمام عليه السلام لا يذمُّ معاوية على انحراف أسلافه وجدَّه وأبيه فقط، بل يؤكِّد في كلامه على أنَّ هذا الابن يسير في طريق آباءه الضالِّين الذين ينتهى مصيرهم إلى النار.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٩٧

القسم الثاني

إشارة

وَفِي أَيَّدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النَّبُوَّةِ الَّتِي أَدَلَّلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ، وَنَعَشْنَا بِهَا الدَّلِيلَ.
وَلَمَّا أَدْخَلَ اللَّهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجًا، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعًا وَكَرْهًا، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ: إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً، عَلَى حِينٍ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوْلُونَ بِفَضْلِهِمْ. فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيبًا، وَلَا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا، وَالسَّلَامَ.

الشرح والتفسير: النبوة افتخار كبير.

ويشير الإمام عليه السلام في هذا القسم من كتابه إلى ما ذكره معاوية في رسالته حيث قال: «لِيُعْضِتَنَا فَضْلُ عَلَى بَعْضٍ»، وأنه لا فضل لأحدنا على الآخر، وعلى فرض وجود فضيلة فهي جزئية لا تعزِّز الدليل ولا تذللَّ العزيز، فيجيبه الإمام عليه السلام جواباً حاسماً ويقول: «وَفِي أَيَّدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النَّبُوَّةِ الَّتِي أَدَلَّلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ، وَنَعَشْنَا [٢٤٠] بِهَا الدَّلِيلَ».

وهذا إشارة إلى أنَّ الإسلام عندما انتشر في الجزيرة العربيَّة كان أمثال أبي سفيان وأبي جهل الذين حكموا الناس سنين متمادية من موقع الظلم والجور، أضحوا أذلاء، بينما أعزَّ الإسلام أمثال سلمان والمقداد وعمَّار وياسر وبلال الذين

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٩٨

كانوا غالباً يعيشون أجواء الأسر والذلة والعبودية، فرفعهم الإسلام إلى أوج العزة، وبذلك كيف تقول أن نبوة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله لم تؤثر أثراً في هذا المجال.

ثم إن الإمام عليه السلام أخذ بيد معاوية وأرجعه إلى عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكيف كان اعتناقهم للإسلام هو وأهل بيته، وقال: «وَلَمَّا أَدْخَلَ اللَّهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجًا، وَأَسْلِمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعًا وَكَرْهًا، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ: إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً».

وهو إشارة إلى فتح مكة كما يتحدث القرآن الكريم عن ذلك ويقول: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَبْفِئْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا» [٢٤١]، في ذلك اليوم دخل الكثير من الناس الإسلام بدافع الإخلاص والإيمان وطهروا قلوبهم من لوث عبادة الأصنام، ولكن المشركين المتعصبين والانتهازيين الذين كانوا يحاربون الإسلام والدعوة الإلهية سنين متمادية اضطروا إعتناق الدين الجديد ظاهراً وأذعنوا مكرهين لهذه الحقيقة، فأبوسفیان وهو العدو الأول للإسلام وأبو معاوية كان من الأشخاص الذين اعتنقوا الإسلام ظاهراً، وكذلك أظهر أهل بيته وأقربائه الإسلام من موقع الإكراه ولم تؤمن قلوبهم.

ومنذ ذلك اليوم تغيرت الخارطة وأخذ أعداء الإسلام يفكرون في إيجاد ثغرة في صفوف المسلمين، والنفوذ من خلالها إلى مواقع القرار والحكم، وليجلسوا في مجلس النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وعبارة «رغبة» المذكورة أعلاه إشارة إلى هذا المعنى، وهذه الرغبة لا تتنافى مع وجود «الرغبة» يعني أن قبولهم للإسلام اقترن فيه الخوف مع الأمل والرغبة في الوصول إلى المقام وسدّة الحكم في المستقبل.

فهل يمكن مقارنة مثل هذا الإسلام بإسلام أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام الذي أسلم منذ بداية بعثته النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وآله وتصدى للدفاع عن الرسالة والرسول في تلك الظروف الصعبة وصاحب النبي صلى الله عليه وآله في أيام الوحدة والغربة؟

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ١٩٩

وعلى هذا الأساس يقول الإمام عليّ عليه السلام بعد ذلك: «عَلَى حِينٍ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوْلُونَ بِفَضْلِهِمْ». وهذا الكلام يشير إلى تقسيم المسلمين إلى عدّة طوائف كما ورد ذلك في القرآن الكريم: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ وَمِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» [٢٤٢]، فهناك طائفة من السابقين في اعتناق الإسلام، والإمام عليه السلام من بين هؤلاء يعتبر من أسبق السابقين، وطائفة أخرى اعتنقوا الإسلام وهاجروا من مكة إلى المدينة، والطائفة الثالثة من أهالي المدينة الذين نصرروا الدين والنبي واعتنقوا الإسلام وساروا في خط الرسالة، والطائفة الرابعة هم الجيل اللاحق الذين التحقوا بالمسلمين الأوائل عن رغبة وطواعية، وهنا أين نجد مكان معاوية في هذا الطوائف الأربع؟ نقول في مقام الجواب: لا مكان له إطلاقاً، والعجيب أن معاوية مع هذا الحال يقيس نفسه مع الإمام عليه السلام وبنى هاشم ويرى نفسه في الإسلام في عرض الإمام عليّ عليه السلام! ولكن تاريخ الإسلام ملئ بأمثال هذه العجائب والغرائب.

وفي الختام يحذر الإمام عليه السلام معاوية ويقول: «فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيبًا، وَلَا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا، وَالسَّلَامُ». وهذا إشارة إلى أنك بهذا الكلام تخدع نفسك، وأنتك بهذا القياس وبهذه المقارنة غير السليمة تفتح الباب للشيطان ليتسلط على نفسك، وبالتالي تعيش الغفلة عن حقيقة موقعك، وتريد أن تنصب نفسك بمكان رسول الله صلى الله عليه وآله وبذلك تخسر دنياك وآخرتك.

تأمل: أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله

يستفاد من الآية الشريفة ١٠٠ من سورة براءة أن أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله على عدّة طوائف:

الطائفة الأولى: السابقون، وهم الذين سبقوا للإيمان واعتنقوا الإسلام والذين

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٠٠

آمنوا بالنبى الأكرم صلى الله عليه وآله أيام وحدته وغربته فى بداية الدعوة، وبايعوه على ذلك، ومن بين الأوائل من هؤلاء السابقين من النسوة خديجة الكبرى عليها السلام، ومن بين الرجال على بن أبى طالب عليه السلام، ثم التحق بهم جماعة آخرون، وهذا العنوان يعد افتخاراً كبيراً للإنسان لأنه قدّم نفسه على طبق الإخلاص للإسلام والنبى صلى الله عليه وآله فى الظروف الصعبة التى عاشها المسلمون الأوائل.

الطائفة الثانية: المهاجرون، وطبعاً فى السابقين من هم من المهاجرين أيضاً، وهؤلاء هم المسلمون الذين آمنوا بالنبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى مكة وعندما ضاق عليهم الخناق ومارس المشركون فى حقهم أنواع التعذيب والتضييق حتى بات الخطر يهدد النبى صلى الله عليه وآله، هاجروا مع النبى إلى المدينة، وهذا يعنى أنهم تركوا جميع ما لديهم من أموال ودور ولوازم المعيشة والحياة وهاجروا مع أهلهم إلى المدينة التى ليس لهم فيها بيت ولا وسائل المعيشة بقوا هناك لسنين عديدة وهم يواجهون المشكلات والتحديات إلى أن فتح الله عليهم وسارت الأمور على ما يرام.

وطبعاً هناك جماعة أخرى من المسلمين هاجروا إلى الحبشة قبل هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة هرباً من بطش قريش والمشركين، وبعد استقرار الإسلام فى المدينة عادوا من الحبشة والتحقوا بالنبى الأكرم صلى الله عليه وآله والمسلمين فى المدينة المنورة.

الطائفة الثالثة: الأنصار، وهم أهل المدينة الذين أسلموا واستقبلوا المهاجرين برحابة صدر وأسكنوهم فى بيوتهم رغم الحياة الصعبة التى كانوا يعيشونها غالباً فى المدينة وتواصلوا مع المهاجرين من موقع المواساة واقتسموا معهم كل ما لديهم من شؤون الحياة. وطبعاً يوجد فى الأنصار سابقون وغير سابقين، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة ويقول: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ» [٢٤٣]، يعنى أن الأنصار الذين آمنوا بالنبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى البداية أو آمنوا به قبل ذلك فى مكة وفى منطقة

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٠١

تسمى «العقبة» على مقربة من مكة، وبايعوه صلى الله عليه وآله قبل الهجرة، وهؤلاء الطوائف من المهاجرين والأنصار والسابقين يطلق عليهم عنوان: الصحابة.

الطائفة الرابعة: الأشخاص الذين لم يروا النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وفى الحقيقة يمثلون الجيل اللاحق من المهاجرين والأنصار، وهذا الجيل يطلق عليه فى المصطلح «التابعين» وهم الذين اتبعوا الأنصار والمهاجرين فى الإيمان والإسلام، وذكرهم القرآن الكريم بقوله: «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ» [٢٤٤] وبقوله: «وَأَخْرَجْنَا مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ» [٢٤٥] وبقوله أيضاً: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» [٢٤٦]، وأفراد هذه الطائفة - كما ذكرنا آنفاً - لم يدركوا النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ولم يروه، ولكنهم أدركوا الصحابة.

الطائفة الخامسة: تابعو التابعين؛ وهم الأشخاص الذين لم يدركوا الصحابة ولم يشاهدوا أحداً منهم، ولكنهم فى الحقيقة تلامذة التابعين.

وهناك كلام كثير فى أن أفراد هذه الطوائف الخمس هل هم صالحون وعدول جميعاً، أو أن البعض منهم كان فى بداية الأمر من الصالحين والأخيار ولكنه لم يستقم فى هذا المسار بعد ذلك وخاصية بعد رحلة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله؟ وقد بحثنا هذا الموضوع فى تنزيه الصحابة.

ومن المعلوم وجود أشخاص من هؤلاء المسلمين الأوائل كانوا فى وقت قد بلغوا ذروة الفضيلة والإيمان والالتزام بالمبادئ الإسلامية، ولكنهم بعد ذلك اتبعوا هوى النفس وساروا فى خط الضلالة وحب الدنيا وسقطوا فى وحل الانحراف وشرك الشيطان [٢٤٧].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٠٣

إشارة

إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى الْبَصْرَةِ [٢٤٨]

نظرة إلى الرسالة

يقول المرحوم ابن ميثم في مقدمته شرحه لهذه الرسالة أن ابن عباس بعد أن عينه أمير المؤمنين عليه السلام على البصرة، أخذ يتعامل مع بنى تميم بأسلوب العنف والغلظة، لأنه كان يتذكر عداوتهم للإمام عليه السلام وجيش الإمام عليه السلام في يوم الجمل، فقد كانوا من أتباع طلحة والزبير وعائشة في ذلك اليوم، وقد هجم عليهم ابن عباس وأبعدهم عن البصرة، وكان يطلق عليهم أنهم أتباع الجمل وأنصار عسكر (عسكر اسم جمل عائشة) وحزب الشيطان، ولكن هذا التعامل السيء من ابن عباس ثقل على جماعة من الشيعة من بنى تميم، ومنهم جارية بن قدامة الذي كتب إلى الإمام عليه السلام رسالة

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٠٤

يشكو فيها ابن عباس، وهذا هو الذي دعا الإمام عليه السلام أن يكتب لابن عباس هذه الرسالة مورد البحث. وقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الرسالة إلى عدة أمور:

الأول: أن بنى تميم قبيلة معروفة بالرجال الشجعان الذين كانوا من الشجاعة والجرأة بحيث لم يسبقهم إليها أحد لا في زمان الجاهلية ولا في صدر الإسلام.

والآخر: يقول الإمام عليه السلام أنهم يتصلون معنا بالرحم والقراءة، وصله الرحم توجب علينا الإحسان إليهم والتعامل معهم من موقع الإكرام والاحترام.

ثم إن الإمام عليه السلام يشير إلى هذه النقطة، وهي أن ما يصدر منك على لسانك ويدك من خير وشر وما يترتب عليها من نتائج حسنة وسيئة، فإنه سيمتد إلي أيضاً لأننا شريكان في ذلك، وعلى ضوء ذلك لابد من التعامل بآليات الأخلاق الكريمة مع بنى تميم.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٠٥

وَاعْلَمَ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبُطُ إِبْلِيسَ، وَمَغْرَسُ الْفِتَنِ، فَحَادِثُ أَهْلِهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَاحْتُلُّ عَقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ، وَعَظَمْتُكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخِرٌ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُشَبِّقُوا بَوَعْمٍ فِي حِجَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، وَإِنَّ لَهُمْ بَنًا رَحِمًا مَاسَّةً، وَقَرَابَةً خَاصَّةً، نَحْنُ مَا جُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا وَمَأْزُورُونَ عَلَى قَطِيعَتِهَا، فَارْبِعُ أَبَا الْعَبَّاسِ، رَحِمَكَ اللَّهُ، فِيمَا جَرَى عَلَى لِسَانِكَ وَيَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ، وَلَا يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: إطفاء نار الفتنة بماء المداراة

عندما جاء طلحة والزبير ومعهم عائشة إلى البصرة مع جماعة من الفاسدين والانتهازيين، ورفعوا هناك لواء التمرد والمخالفة ضد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، استقبلهم أهل البصرة وانضموا إليهم وشكلوا معهم جيشاً كبيراً لمحاربة أمير المؤمنين عليه السلام وأشعلوا نار الفتنة، ولكنهم اندحروا وهزموا على يد جيش الإمام على عليه السلام في واقعة الجمل، ولعلهم كانوا يتوقعون من الإمام بعد تحقيق النصر أن يأمر بقتل جماعة منهم، ولكن الإمام تعامل معهم بمنطق الحب والمودة كما سبق أن تعامل النبي الأكرم عليه

السلام مع قريش في فتح مكة، وهذا الأمر هو الذي أدى إلى عودة الاستقرار والهدوء لمدينة البصرة، وفي بداية هذه الرسالة التي كتبها الإمام لواليه على البصرة ابن عباس يشير الإمام عليه السلام إلى هذه الحقيقة. «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبُطٌ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٠٦

إِبْلِيسَ، وَمَغْرَسٌ [٢٤٩] الْفِتْنِ، فَحَادِثٌ [٢٥٠] أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَاخْلُلْ عَقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ».

أما قوله: «أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبُطٌ إِبْلِيسَ، وَمَغْرَسٌ الْفِتْنِ» فهو إشارة إلى وجود أقوام من مختلف الأنحاء تعيش في البصرة وتوجد بينهم مشاكل، وكذلك يواجهون مشاكل من القادمين إلى هذه المنطقة، ولعل لهذا السبب اختار طلحة والزبير وعائشة البصرة لإشعال نار الفتنة ضد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وخاصة أن البصرة تعد أهم ميناء للعراق، والموانئ عادة تكون مستقر أقوام ومجاميع مختلفة ممن يأتون إلى هذه المدينة من مناطق مختلفة، وهذا بدوره يؤدي إلى وجود بعض الخلل والاشكاليات في أجواء هذه المناطق من الناحية الثقافية والاجتماعية، إلا أن يخضع أهالي هذه المناطق إلى التعليم الأخلاقي والثقافي المستمر، وقد ذهب البعض إلى أن إبليس عندما هبط إلى الأرض كانت البصرة أول محل حظ فيه قدمه، ولكن لا يوجد لدينا دليل لإثبات صحة هذا المطلب.

المهم أن الإمام عليه السلام أمر ابن عباس أن يتخذ أفضل الطرق لإعادة الهدوء والاستقرار انطلاقاً من مضمون الآية الشريفة: «ادْفَعْ بِالنِّبْتِ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» [٢٥١]. وهذا يعني أن ابن عباس ينبغي له أن يستخدم أسلوب الإحسان معهم في مقابل موقفهم السيء يوم الجمل، لكي يغسل درن الأحقاد والكراهية ويجعلهم يعيشون الندم والخجل على ما بدر منهم، وربما كانت مخالفتهم له بسبب خوفهم من العقوبة والانتقام، فعندما يتعامل معهم ابن عباس بالرفقة والرحمة، فهذا من شأنه أن يعيد إليهم روح الهدوء والطمأنينة ويزيل حالات الخوف والقلق.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٠٧

ويقرّر الإمام عليه السلام هذا المعنى في كلماته القصار، في إشارة إلى أصل كلى حيث يقول: «عَاتِبَ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَارْزُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ» [٢٥٢].

ثم يدخل الإمام عليه السلام بعد ذكر هذه المقدمة إلى أصل المطلب ويقول: «وَقَدْ بَلَّغْنِي تَنْمُرَكَ [٢٥٣] لِبْنِي تَمِيمٍ، وَغَلَّظْتُكَ عَلَيْهِمْ».

ثم يذكر الإمام عليه السلام بعض الصفات والخصال لقبيلة بنى تميم تدل لياقتهم للعفو والصفح والاحترام.

يقول الإمام في بيان الصفة الأولى منهم: «وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخِرٌ».

والتعبير بالنجم إشارة إلى أنهم يتمتعون دوماً بوجود شخصيات كبيرة وجديرة بالاحترام بحيث إنه لو مات أحد فسيحل نجم آخر محله، ولهذا تتوفر في القبائل العربية دوماً رجال مدراء ومفكرون.

وفي الخصلة الثانية يشير الإمام عليه السلام إلى شجاعتهم ويقول: «وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسَبِّقُوا بَوْغَمَ [٢٥٤] فِي جَاهِلِيَّتِهِ وَلَا إِسْلَامًا».

ومع الالتفات إلى أن كلمة «بَوْغَمٌ» تعنى في اللغة الحرب، وكذلك تعنى الحقد والحسد، فهذا الاحتمال الأخير وارد في تفسير الجملة المذكورة وأنهم جماعة تستبطن الحقد، ولو تصدى لهم من يثير أمامهم الأذى والضرر فإنهم يواجهونه بالمثل ويشيرون الفتنة حينئذ، ولكن بالنظر إلى ما تقدم من كلام الإمام عليه السلام في مدحهم فإن هذه التفسير بعيد عن سياقات الكلام.

وفي الخصلة الثالثة والأخيرة لهم يقول الإمام عليه السلام: «وَإِنَّ لَهُمْ بَنًا رَحِمًا مَأْسَةً [٢٥٥]، وَقَرَابَةً خَاصَّةً، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا، وَمَأْزُورُونَ [٢٥٦] عَلَى قَطِيعَتِهَا».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٠٨

وقد ذهب شراح نهج البلاغة إلى أن العامل للقرابة النسبية والرحم بين بنى تميم وبنى هاشم أنهما يشتركان في الجد الأعلى وهو (إلياس بن مضر)، وطبقاً لهذا الكلام فإن هاشم يصل إلى إلياس بثلاثة عشر واسطه، وكذلك بنى تميم أيضاً يصلون إليه بوسائط كثيرة، ولكن بما أن الرحم في الإسلام تحظى بأهمية بالغة، فالإمام عليه السلام يؤكد على أن هذا المقدار من الوسائط الكثيرة بيننا

وبينهم لا يمنع من اعتبارهم من الأرحام والأقرباء، أضف إلى ذلك أن البعض ذهب إلى وجود رابطة سببية بين هاشم وتميم من طريق الزواج العائلي، وذهب بعض أيضاً إلى أن أحد زوجات الإمام علي عليه السلام واسمها ليلي بنت مسعود الحنظلية من بني تميم؛ ولكن مع الالتفات أن الارتباط السببي لا يسمى رحماً بل يقتصر الرحم على الرابطة النسبية، فإن هذين التفسيرين يتعدان عن الحقيقة. ويرى ابن أبي الحديد وبعض آخر من المؤرخين فضائل الأخرى لبني تميم حيث يستفاد من مجموعها أن هذه القبيلة تحظى بامتيازات كبيرة في الواقع الاجتماعي العربي.

ويستفاد من سياق كلام أمير المؤمنين عليه السلام أن مسألة صلة الرحم تحظى بأهمية كبيرة في الإسلام بحيث إن هذا الحكم الإسلامي يمتد من الأرحام ويتناول حتى من كان يرتبط بفصله بعيدة من الآباء والأجداد، يقول الإمام عليه السلام: إنك لو لم تحفظ هذه القرابة والرحم فستكون أمام الله مسؤولاً ومحكوماً وإن وصلتها فستكون مصدر الخير والبركة.

وفي ختام هذه الرسالة يأمر الإمام عليه السلام ابن عباس بمداراة المخالفين بشكل عام وبني تميم بشكل خاص ويقول: «فَارْبَعِ [٢٥٧] أَبَا الْعَبَّاسِ، رَحِمَكَ اللَّهُ، فِيمَا جَرَى عَلَى لِسَانِكَ وَيَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ، وَلَا يَفِيلَنَّ [٢٥٨] رَأْيِي فِيكَ، وَالسَّلَامُ».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٠٩

ويراد من الخير والشر: النفع والضرر، وهي الأعمال التي يمكن أن يترتب عليها الظلم أو الضرر، فالشر هنا ليس بمعنى الظلم والجور لأن ابن عباس لم يكن الوالي الظالم الذي يتعامل مع الناس بالظلم وسحق الحقوق.

واللافت للنظر أن الإمام عليه السلام في هذه التوصية بمداراة المخالفين ورعايتهم يشير إلى هذه الحقيقة وهي أنك وكيل عني، وأن كل عمل يصدر منك فسوف يكتب عليّ فكأنه صدر مني، وعلى هذا الأساس ينبغي الاحتياط والتدبر في الأمر، وهذا الكلام من قبيل أن يقال لعلماء الدين: انتبهوا إلى أعمالكم وتصرفاتكم لأن كل عمل يصدر منكم سيكون منسوباً للدين والإسلام أيضاً. وفي الجملة الأخيرة يحذّر الإمام عليه السلام ابن عباس أيضاً ويقول أنك لو لم تسلك سبيل المداراة والمراعاة فربما يتغير نظر إمامك عنك، وهذا دليل آخر على ضرورة العمل بتوصيات الإمام عليه السلام.

في العبارة الواردة أعلاه يخاطب الإمام عليه السلام ابن عباس بكلمة «أبو العباس» واستخدام الكنية متداول عند العرب وأنهم إذا أرادوا أن ينادوا شخصاً باحترام فإنهم لا يذكرون اسمه الأصلي بل ينادونه بكنيته أو بلقبه، فهنا راعى الإمام عليه السلام هذا الجانب في احترام ابن عباس وخاطبه بكنيته.

تأمل: خصائص أهل البصرة

ورد في الخطب المتعددة من نهج البلاغة ومنها الخطبة ١٣ و ١٤، توبيخ وذم شديد لأهل البصرة، وكما رأينا في الرسالة أعلاه أن أمير المؤمنين عليه السلام يتحدث عن البصرة بأنها معقل الشيطان ومحل نزول إبليس ومكان إثارة الفتن، ولكن بقرينة ما ورد في بعض الروايات التي تمدح أهل البصرة كثيراً أعم من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، فكلام الإمام عليه السلام هنا ناظر لمقطع خاص من الزمان، وهو الزمان

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢١٠

الذي وقعت فيه معركة الجمل وسارع أهل البصرة لحماية الناكثين والمتمردين بقيادة طلحة والزبير، وأسفر ذلك عن مقتل الكثير من المسلمين.

وعلى ضوء ذلك فإن هذا الذم المذكور لا يدل على كل من دخل تلك المدينة أو كان من أهالي البصرة، فإنه يملك تلك الصفات

الذميمة على امتداد التاريخ وأنه ليس من أهل الفلاح والسعادة، وخاصة عندما نرى وجود الكثير من العلماء والعرفاء والقراء والموالين لأهل البيت عليهم السلام في هذه المدينة. وللتوضيح أكثر راجع الجزء الأول، ذيل الخطبة ١٣.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢١١

الرسالة ١٩

إشارة

إلى بعض عماله [٢٥٩]

نظرة إلى الرسالة

يستفاد من تاريخ اليعقوبي و تاريخ البلاذري أن المخاطب بهذه الرسالة هو عمر بن أبي سلمة (مسلمة) الأرحبي الذي قيل إنه كان والياً على فارس والبحرين [٢٦٠]، وأنه كان يستخدم اسلوب العنف والشدة مع بعض الفئات التي تحت ولايته من طائفة المجوس، وهؤلاء كتبوا رسالة يشكون فيها هذا الوالي، فاستاء الإمام عليه السلام من ذلك وكتب هذه الرسالة مورد البحث ودعا لرعاية الاعتدال وترك اسلوب الشدة معهم.

واللافت أن توصية الإمام عليه السلام في هذه الرسالة تخص غير المسلمين وهم الذين يطلق عليهم «أهل الذمة» الذين يعيشون داخل البلاد الإسلامية بصورة سلمية، فينبغي أن يتعامل معهم الوالي والمسلمون من موقع الرأفة والمحبة الإسلامية

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢١٢

ويحفظوا لهم نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، فالإمام عليه السلام لا يقبل أى شكل من أشكال العنف والشدة في التعامل معهم. ولكن بما أن الاقتراب منهم والتواصل معهم أكثر من اللازم ربما يثير مشاكل أخرى في الجو الثقافي والاجتماعي فإن الإمام عليه السلام أمر هذا الوالي بضرورة التعايش بالاعتدال في هذا الشأن.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢١٣

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَّوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً، وَاحْتِقَارًا وَحِفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلًا لِأَنْ يُدْنَوْا لِشَرِكِهِمْ، وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ، فَالْبَسَ لَهُمْ جِلْبَابًا مِنَ اللَّيْنِ تَشْوِبُهُ بَطْرَفٌ مِنَ الشَّدَّةِ، وَدَاوِلٌ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَأَمْرٌجٌ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ، وَالْإِبْعَادِ وَالْإِقْصَاءِ.

إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: شمول الرأفة الإسلامية لجميع الناس

رأينا فيما تقدم آنفاً أنّ المخاطب بهذه الرسالة والى الإمام عليه السلام على فارس والبحرين وأنه كان يستخدم اسلوب الشدة والقسوة مع جماعة من المجوس الذين كانوا يعيشون فى تلك المنطقة، وبما أنّ هؤلاء كانوا يعتقدون بعدالة الإمام عليه السلام وأخلاقه الحسنة، فلذلك كتبوا إليه هذه الرسالة يشكون من سوء معاملته الوالى، وفى هذه الرسالة العميقة المضمون والى تعتبر دستوراً لجميع الولاة والامراء، يقول الإمام عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَائِنَ [٢٤١] أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَّوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً، وَاحْتِقَارًا وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلًا لِأَنَّ يُدَنِّوْا لِشِرْكِهِمْ، وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ».

وقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات إلى أربع نقاط تتصل بأعمال الوالى السيئة

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢١٤

وسوء معاملته للرعية، فى البداية أشار الإمام عليه السلام إلى العنف، والأخرى إلى القساوة وعدم الشفقة، والثالثة تحقير هؤلاء الرعية، والرابعة سوء معاملته لهم، وبالرغم من أنّ هذه المفاهيم تتماثل وتقترب فى المضمون، لكن هناك فروق دقيقة بينها، ولذلك أشار الإمام عليه السلام إلى جميع هذه الأمور وأعلن بعد ذلك عن رأيه المبارك فى القضية، وهو أنّه من جهة ينبغى الالتفات إلى أنّ هؤلاء مشركون، لأنّ المجوس يعتقدون بالثنوية والمصدرين للخلق، وهما يزدان وأهريمن مصدرى الخير والشر، ورغم أنّ الزرادشتين فى هذا العصر يدعون أنّهم موحدون وغير مشركين، ولكن المنابع الدينية لهم تقرّر خلاف ذلك، وعلى أيّة حال فالإمام عليه السلام مع ملاحظة التفاوت الاعتقادى بينهم وبين المسلمين، ينهى عن الاقتراب منهم أكثر من الحدّ اللازم، وفى ذات الوقت يذكر الوالى بهذه النقطة، وهى أنّ هؤلاء من أهل الذمّة يعنى أنّهم يعيشون مع المسلمين من موقع الصلح والسلم ويتعهدون باحترام الإسلام وأحكامه الإلهية، والحكومة الإسلامية بدورها تتعهد بالدفاع عنهم وعن أعراضهم وأموالهم وتتعامل معهم بلغة العطف والإحسان، وعلى هذا الأساس فإنّ استخدام القسوة وسوء التعامل معهم يعتبر منافياً للشرع والخلق الإسلامى.

ثم يبيّن الإمام عليه السلام هذه الحقيقة ويقول: «فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَابًا [٢٤٢] مِنَ اللَّيْنِ تَشْوِبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشَّدَّةِ، وَدَاوِلْ [٢٤٣] لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَامْتُرِجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالِإِدْنَاءِ، وَالِإِبْعَادِ الْإِقْصَاءِ. إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

وبديهى أنّ مثل هذا الأسلوب فى التعامل مع غير المسلمين الذين يعيشون فى

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢١٥

ظلّ الحكومة الإسلامية بصلح وسلام يعتبر من أفضل أساليب المعاملة، ومن جهة يثير فى نفوسهم الطمأنينة والأمن ويزيح من أذهانهم أىّ تفكير فى التمرد والطغيان، ومن جهة أخرى فإنّ هذا الأسلوب فى التعامل من قبل الحاكم الإسلامى لا يمكن حمله على الضعف والعجز فى مواجهة المشاكل والتحديات التى ربّما تكون مصدراً لإثارة القلاقل وتفعيل روح المشاكسة، ومن هذا المنطلق يرسم الإمام عليه السلام الأسلوب الأمثل فى التعامل مع الأقليات الدينية فى المجتمع الإسلامى.

ومن المعلوم أنّ ما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة لا- ينحصر بأشخاص معينين ولا- يختصّ بزمان ومكان، بل هو منهج مدروس ويمكن ترجمته على أرض الواقع الاجتماعى فى كلّ مورد ومجتمع إسلامى، بل يمكن القول إنّ الحكومة يجب أن تتعامل مع المسلمين أيضاً بمثل هذه المعاملة، فلو أظهرت فى مقابل الرعية الكثير من الليونة والتساهل أكثر من الحدّ، فربّما يحمل ذلك على ضعف هذه الحكومة، وبالتالي يتجرأ جماعة على القانون ولا يلتزموا بالمقررات الرسمية، ولو كان تنفيذ القوانين وإجراؤها بأسلوب الشدة والعنف، فإنّ ذلك ربّما يثير فى الناس الاعتراض والنفرة من الحكومة، وتنقطع بالتالى طبيعة التواصل بين الناس وبين الحكومة الإسلامية، وعلى أيّة حال فإنّ الاعتدال بين الرأفة والقسوة يعتبر أحد الأصول الثابتة للإدارة الناجحة وقيادة المجتمع.

بل نرى مثل هذا الأصل حتى بالنسبة للذات المقدّسة والسياسة الإلهية مع العباد، حيث أنّه تعالى قد جعل الناس يعيشون بين الخوف والرجاء، يقول القرآن الكريم:

«تَبَّىٰ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ» [٢٤٤].

ونقرأ في دعاء الافتتاح المعروف: «وَأُيْقِنْتُ أَنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فِي مَوْضِعِ الْعَفْوِ وَالرَّحْمَةِ وَأَشَدُّ الْمُعَاقِبِينَ فِي مَوْضِعِ النَّكَالِ وَالنَّقِمَةِ». وأثار بعض شراح نهج البلاغة هنا هذا السؤال، وهو كيف أن الإمام عليه السلام أصدر

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢١٦

مثل هذا الأمر بالنسبة لغير المسلمين وأنه لا ينبغي تقييدهم أكثر من اللازم في حين أن القرآن الكريم يقول بصراحة: «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ» [٢٦٥].

والجواب عن هذا الإشكال واضح، وهو أن الإمام علي عليه السلام لا ينهى عن الإحسان إليهم، بل يأمر برعاية الاعتدال فيهم والتعامل معهم، فلا يقتربوا من الحاكم أكثر من الحد ويتجزأوا على المخالفة، ولا يبعدهم عنه إلى حد يتسبب في امتعاضهم وطغيانهم.

تأمل: الإسلام وأهل الذمة

يمكننا تلخيص علاقة الإسلام والمسلمين بغير المسلمين في أربع صور:

١. أهل الذمة: وهم أصحاب الكتب السماوية الذين يعيشون داخل البلاد الإسلامية على شكل أقليات دينية، وهؤلاء إذا لم يتظاهروا بالأمر المخالف للقوانين الإسلامية، وتعاملوا مع المسلمين من موقع الاحترام، فيجب على المسلمين أيضاً أن يعاملوهم باحترام كذلك، الحكومة الإسلامية أيضاً مكلفة بحفظ نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، والذمة تعني العهد والميثاق، وهو في الحقيقة عهد منهم أن يعيشوا مع المسلمين بصلح وسلام، وأحد شروط الذمة دفع ضرائب وجيزة تدعى بـ «الجزية» وفي مقابل هذه الضريبة القليلة فإن الحكومة الإسلامية تقدم لهم خدمات هامة وجليّة كما تقدم في الرسالة أعلاه، ورأينا أن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام يكتب إلى أحد ولاته رسالة يعترض بها عليه من سوء معاملته لأهل الذمة ويدعوه لتحسين سلوكه ومعاملته لهم.

وقد وردت أحكام أهل الذمة في الكتب الفقهية ذيل كتاب الجهاد بشكل مفصل.

٢. الكفار الحربيون: وهؤلاء كما يتبادر من اسمهم، الأشخاص الذين يعيشون

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢١٧

حالة الحرب ضد المسلمين، ولهذا السبب ليس فقط لا يجب احترامهم، بل إن المسلمين مأمورون بجهادهم والتصدي لهم ومقاتلتهم. وقد وردت أحكام الكفار الحربيين أيضاً في الفقه الإسلامي في كتاب الجهاد بشكل مفصل أيضاً.

٣. الكفار المعاهدون: وهم الذين لا يعيشون داخل البلاد الإسلامية، ولكنهم تربطهم علاقات تجارية وسياسية وغير ذلك مع المسلمين، حيث يحترم كل طرف حقوق الطرف الآخر، والمصداق البارز لهؤلاء ما نراه في الحال الحاضر من وجود علاقات سياسية بين المسلمين وبين جميع البلدان الأخرى في العالم، حيث يتبادلون السفراء والخبراء وأمثال ذلك، وهؤلاء ينبغي التعامل معهم من موقع الاحترام أيضاً، سواء سافروا إلى داخل البلاد الإسلامية أو كانوا في الخارج.

وقد وردت أحكام هذه الطائفة أيضاً في كتاب الجهاد وفي كتب التفسير، وخاصة في تفسير سورة براءة.

٤. الكفار المهادنون: وهم الأشخاص الذين يعيشون خارج البلاد الإسلامية ولا تربطهم مع المسلمين رابطة سياسية خاصة أو معاهدة معينة، ولكن في ذات الوقت لا يواجهون المسلمين بالحرب والقتال، وقد أمر الإسلام بالنسبة لهؤلاء أن يتعامل معهم المسلمون بالإحسان وحسن الخلق، ومن ذلك ما ورد في الآية ٨ من سورة الممتحنة حيث أكد القرآن الكريم على أن الله لا ينهى عن الإحسان لمثل هؤلاء الكفار الذين لا يقاتلونكم ولا يخرجوكم من دياركم.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢١٩

الرسالة ٢٠

إشارة

إلى زياد بن أبيه وهو خليفته عامله عبد الله بن عباس على البصرة، وعبد الله عامل أمير المؤمنين عليه السلام يؤمئذ عليها وعلى كور الأهواز وفارس وكerman وغيرها [٢٦٦]:

نظرة إلى الرسالة

يستفاد من هذه الرسالة الواردة في تاريخ يعقوبى، وخاصة مع الالتفات إلى ما ورد في مطلعها، أن «زياد» كان قد قصد خيانة بيت المال والامتناع من دفع جميع الخراج، فاطلع الإمام عليه السلام على هذه القضية من خلال بعض جواسيسه وعيونيه وكتب له هذه الرسالة الشديدة وأمره بدفع الخراج لبيت المال بشكل كامل وإرساله إلى الإمام عليه السلام وقد هدده الإمام عليه السلام بأنه إذا امتنع عن هذا العمل فإنه سيواجه عقوبة شديدة.

وهذه الرسالة وأمثالها تبين أن الإمام عليه السلام قد جعل عمال ومراقبين على جميع

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٢٠

الولاية والمسؤولين في الحكومة حيث ينقلون له باستمرار ما يجرى في الولايات من مسائل مهمة، فلو أن أحد المسؤولين تجاوز حدود صلاحيته فإن الإمام سيتولى تنبيهه.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٢١

وَإِنِّي أَقْسِمُ بِاللَّهِ قَسَمًا صَادِقًا، لَئِن بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شِدَّةً تَدْعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ، تَقِيلَ الظَّهْرَ، ضَمِيلَ الْأَمْرِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: إنذار شديد للمتخلفين

يستفاد من تاريخ يعقوبى أن الإمام عليه السلام في بداية هذه الرسالة كتب إلى واليه زياد يقول: «إِنَّ رَسُولِي أَخْبَرَنِي بِعَجَبٍ، زَعَمَ أَنَّكَ قُلْتَ لَهُ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ: إِنَّ الْأَكْرَادَ هَاجَتْ بِكَ فَكَسَرْتَ عَلَيْكَ كَسِيرًا مِنَ الْخَرَاجِ وَقُلْتَ لَهُ: لَا تُعْلِمَ بِذَلِكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ».

ويستفاد جيداً من هذا المقطع من الرسالة أن زياداً تواطأ مع بعض الأكراد على تقليل الخراج، وكان يريد - من خلال الادعاء بأن الأكراد قد امتنعوا من دفع الخراج بشكل كامل - أن يختلس بعض الخراج لحسابه الخاص ولا يرسله إلى بيت المال، فعلم الإمام عليه السلام بهذه المؤامرة وكتب له هذه الرسالة الشديدة وقال: «وَإِنِّي أَقْسِمُ بِاللَّهِ قَسَمًا صَادِقًا، لَئِن بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شِدَّةً تَدْعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ، تَقِيلَ الظَّهْرَ ضَمِيلَ الْأَمْرِ، وَالسَّلَامُ».

إن تعبير الإمام عليه السلام في مطلع هذا القسم حيث يقسم بالله قسماً صادقاً، لا يعنى أنه ربما يصدر قسم غير صادق من الإمام عليه السلام بل هو نوع من التأكيد على جدية الإمام عليه السلام في هذا الأمر.

والملاحظة الأخرى أن الإمام عليه السلام لم يصرح له في هذه الرسالة بأنك ارتكبت

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٢٢

الخيانة، بل ذكر كلاماً مشروطاً بهذا المضمون، وهو أنه إذا بلغنى أنك ارتكبت مثل هذه الخيانة...، لأنه إذا أراد كشف الحجاب في مثل هذه الموارد عن عمل الشخص المتخلف، فإن ذلك يدعو للجرأة أكثر، فبلاغه الكلام تستدعى أن يكشف قليلاً عن الستار ويذكر الموضوع بشكل مشروط لئلا يتجرأ أكثر، ويعزم على الفرار بالأموال من تلك المنطقة.

وهنا نقطة جديدة بالالتفات في كلام الإمام عليه السلام حيث يقول: إننى ساعاقبك عقوبة شديدة بحيث يترتب عليها ثلاث بلايا: الاولى: أنك ستعيش في حياتك قليل الوفرة من المال، والآخر ستكون سيء السمعة فلا يأتى منك أحد على عمله وماله.

الثالث: أن تكون ثقیل الظهر، وربما يكون مقصوده عليه السلام من ذلك ثقل المسؤولية في الدنيا، أي أنه يحمل على ظهره مسؤولية الخيانة وما يترتب عليها من عقوبة، أو أن يعيش بصعوبة بالغة بسبب الفقر فلا يستطيع إدارة أموره الشخصية والمعاشية، واحتمل بعض الشراح أيضاً أن المراد من ثقل الظهر هنا المسؤولية الاخروية، كما ورد هذا المضمون في قوله تعالى: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» [٢٦٧].

والظاهر أن هذا الاحتمال بعيد عن المقصود، لأن الإمام عليه السلام يقول: إننى ساعاقبك بما يترتب عليه هذه العواقب الثلاث، ونعلم أن المسؤولية يوم القيامة بسبب الخيانة حتمية ولا تحتاج لتشديد الإمام عليه السلام ولا ترتبط بإنزال العقوبة بحقه.

وجملة «ضئيل الأمر» مع الالتفات إلى أن كلمة «ضئيل» تأتي بمعنى الحقير والضعيف والمهين، فإن مفهومها هو أنك إذا ارتكبت الخيانة وعرف الناس منك ذلك، فسوف تعيش بعد ذلك بين الناس حقيراً ومهيناً وذليلاً.

وأساساً فإن الخيانة، لاسيما الخيانة في الأموال وخاصة في بيت المال، منشأ الفضيحة في الدنيا والآخرة، وهذه الحقيقة لا تنحصر بزياد بن أبيه في صورة خيانتة

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٢٣

لبيت المال وما يترتب على ذلك من العواقب الثلاث التي ذكرها الإمام عليه السلام له في رسالته، بل هي المصير الذي ينتظر جميع الخائنين وخاصة خونه بيت المال، فإن ظهورهم ستكون مثقلة بوزر الذنب والمسؤولية والعقوبة، وأن انتفاعهم في هذا الحياة سيكون ضئيلاً وستكون شخصيتهم حقيرة ويعيشون الذلة والمهانة بين الناس.

تأمل: لماذا اختار الإمام عليه السلام زياداً لهذا المنصب

بالنسبة لسيرة «زياد بن أبيه» وتاريخ حياته، تطرح عدّة أسئلة وعلامات استفهام، الاولى: لماذا يقال عنه: زياد بن أبيه، والذي يحكى عن عدم مشروعية ولادته ونسبه، والآخر: لماذا اختاره الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لهذا المنصب في أيام خلافته، أو على الأقل اختاره عبدالله بن عباس لمثل هذا المقام مع معرفته بشخصيته معرفة دقيقة، بحيث انتهى به الأمر إلى ما انتهى إليه، وكان له ولأسرته دور تخريبي في تاريخ الإسلام؟

والجواب عن هذه الأسئلة سيأتى إن شاء في ذيل الرسالة ٤٤ حيث يتناسب هذا الموضوع معه أكثر.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٢٥

الرسالة ٢١

إشارة

إلى زياد أيضاً [٢٦٨]

نظرة إلى الرسالة

يستفاد من صدر هذه الرسالة الواردة في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري، أن بعض الأشخاص كتب إلى الإمام عليه السلام أن زياداً ارتكب أعمالاً مخالفة، ومن ذلك أنه كان يجلس على موائد تكثر فيها أنواع الأطعمة وأنه كان يتعامل مع الآخرين من موقع التكبر والغرور، والإمام عليه السلام في هذه الرسالة حذره من الإسراف والتكبر وطلب الدنيا وأكد له أن يهتم في حياته بالآخرة.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٢٧

فَدَعَ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِدًا، وَادُّكَّرَ فِي الْيَوْمِ غَدًا، وَأَمْسَكَ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدَّمَ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ. أَمْ تَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ! وَتَطْمَعُ - وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ؛ تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَالْأَرْمَلَةَ - أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ؟ وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: الإمام عليه السلام يحذر «زياد» مرة أخرى

تقدم آنفاً أن لهذه الرسالة مقدمة يمكن من خلالها فهم ما أورده المرحوم السيد الرضي لشرحها وتفسيرها، فقد ورد في مقدمته هذه الرسالة، أنه كان بين سعد وزياد ملاحاةً ومنازعةً، وعاد سعد فشكاه إلى علي عليه السلام وعابه، فكتب علي عليه السلام إليه، أما بعد فإن سعداً ذكر أنك شتمته ظلاماً وهددته وجهته تجبراً وتكبراً، فما دعاك إلى التكبر وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الكبر رداء الله فمن نازع الله رداءه فصيمه»، وقد أخبرني أنك تكثر من الألوان المختلفة في الطعام في اليوم الواحد، وتدهن كل يوم، فما عليك لو صمت لله أياماً، وتصدقت ببعض ما عندك محتسباً، وأكلت طعامك مراراً قفاراً، فإن ذلك شعار الصالحين! أفتطمع وأنت متمرغ في النعيم، تستأثر به على الجار والمسكين والضعيف والفقير والأرملة واليتيم، أن يحسب لك أجر المتصدقين! وأخبرني أنك تتكلم بكلام الأبرار، وتعمل عمل الخاطئين، فإن كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت، وعملك أحبطت، فتب إلى ربك يصلح لك عملك، واقتصد في أمرك

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٢٨

وقدم إلى ربك الفضل ليوم حاجتك، وادهن غباً، فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ادهنوا غباً ولا تدهنوا رفهاً» [٢٦٩].

ثم يأمره الإمام عليه السلام بالتصدق في سبيل الله على الفقراء والمحرومين ويقول له أيضاً: إن كلامك كلام المحسنين ولكن عملك عمل المذنبين والعاصين، فلو كان هذا الأمر حقيقة فإنك قد ظلمت نفسك وأحبطت عملك [٢٧٠].

ومع الالتفات إلى ما تقدم أعلاه، نصل إلى شرح الرسالة طبقاً لما ذكره السيد الرضي، فالإمام عليه السلام يأمر زياد بن أبيه بأربعة أمور في عبارة موجزة وزاخرة بالمعنى، فيقول في البداية: «فَدَعَ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِدًا».

وهو إشارة إلى ما كان زياد يهتم به من جلب ألوان الأطعمة على مائدته ويتخذ سبيل المترفين، وهذا الأمر يعتبر مذموماً لجميع المسلمين ولا سيما للحكام والولاة المنصوبين من قبلهم.

وطبعاً فإن الإسراف لا ينحصر بالإكثار في الأطعمة وأمثالها، بل الإسراف في كل شيء مذموم في الإسلام حتى في العبادات، حيث توجب أحياناً التعب والملل وزوال الرغبة في العبادة والطاعة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «وَإِنَّ الْقَصِيدَ أَمْرٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّ السَّرْفَ أَمْرٌ يُبْغِضُهُ اللَّهُ حَتَّى طَرَحَكَ النَّوَاءُ فَإِنَّهَا تَصْلُحُ

لِلشَّيْءِ وَحَتَّى صَبَّكَ فَضَلَ شَرَابِكَ» [٢٧١].

ثم يذكر الإمام عليه السلام التوصية الثانية ويقول: «وَأَذْكُرُ فِي الْيَوْمِ غَدًا». وهذا هو ما ورد في القرآن الكريم مراراً كقوله تعالى: «وَمَا تَقْدُمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٢٩

خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ» [٢٧٢].

ومورد آخر يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» [٢٧٣].

ومعلوم أن الإنسان إذا اعتقد بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة وأن احتياجه إلى الأموال والثروات في ذلك الوقت أشد بكثير من حاجته في الدنيا، من الواضح أنه سترك حالات الإسراف والتبذير والتجمل، وينعطف على أعمال الخير ولا ينفق من هذه الأموال أكثر من الحد اللازم في هذه الدنيا ويقوم بإرسالها أمامه إلى ذلك اليوم.

ثم يوصي الإمام عليه السلام بالأمر الثالث والرابع ويقول: «وَأَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ وَقَدِّمِ الْفُضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ».

والواقع أن ما أشار إليه الإمام عليه السلام في جملة: «وَأَذْكُرُ فِي الْيَوْمِ غَدًا» بشكل إجمالي، قد فصيله في الجملتين الأخيرتين، وفسير جملة ذكر الغد في هذه العبارة يماسك المال إلى البقصدار الضرورة والحاجة ولزوم إرسال الفضل إلى آخرتك، وهو اليوم الذي تحتاج فيه إلى هذا المال بشدة، وخاصة أن الثروة ستعرض للفناء في حياته، وإن لم يصبها شيء من النقصان والفناء، فإن الإنسان ستركها عند الموت ولا يمكنه أن ينتفع بها بأدنى شيء ولا يستطيع أن يحملها معه إلى القبر، وحتى أن بعض الأقسام الماضية الذين كانوا يدخرون الكثير من الأموال النفيسة للسلطين والملوك ويدفونها معهم، فإنهم في الواقع يدخرون كنوزاً من هذه الثروات للأجيال اللاحقة دون أن تعود بالنفع على أصحابها الموتى.

ومثل هذا المضمون ورد بتعبيرات شتى وعميقة المعنى في وصية الإمام علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام (الكتاب ٣١ من

نهج البلاغة) حيث يقول: «فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَيَّ ظَهْرَكَ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٣٠

فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثَقْلٌ ذَلِكُكَ وَبَالًا عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُؤَافِيكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَأَعْتِنْمُهُ وَحَمَلُهُ إِيَّاهُ».

إن ما ورد من الصفات الأربع أعلاه هو في الواقع إشارة إلى ما ذكره بعض المطلعين عن إسراف زياد بن أبيه وخيانتة لبيت المال.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى من نقاط ضعف زياد، وهي التكبر والغرور في مقابل المحرومين والمستضعفين من الناس ويقول: «أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ!».

وبديهى أن الشخص الذي يتوقع أن ينال ثواب المؤمنين، يجب عليه أن يعمل عملهم ولا يعيش التناقض والازدواجية في السلوك والميول الباطنية، وهذا بالضبط كالمزارع الذي يطمع بالحصول على محاصيل وفيرة من أرضه الزراعية في حين أنه لم يبذر فيها ولم يسقها الماء.

وهنا يضع الإمام عليه السلام اصبعه على نقطة حساسة جداً، وهذا هو ما ورد في كلامه عليه السلام في كتاب غرر الحكم حيث قال:

«الْحَذَرِ الْكِبْرِ فَإِنَّهُ رَأْسُ الطُّغْيَانِ وَمَعْصِيَةُ الرَّحْمَنِ» [٢٧٤].

وفي كلام آخر للإمام عليه السلام يقول: «أَقْبِحُ الْخُلُقِ التَّكَبُّرُ» [٢٧٥].

وقد ورد في رواية أخرى عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام قالوا: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَزْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ» [٢٧٦].

ثم يعود الإمام عليه السلام ليتحدث مرّة أخرى عن مسألة الإنفاق في سبيل الله ويقول:

«وَتَطْمَعُ - وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ [٢٧٧] فِي النَّعِيمِ، تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَالْأَرْمَلَةَ [٢٧٨] - أَنْ يُوجِبَ لَكَ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٣١

تَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ؟».

وهذه الحالة لا تختص بزياد بن أبيه فقط، فالكثير من الأشخاص عندما يدعون الله تعالى فإنهم يسألونه ثواباً جزيلاً، ولكنهم في مجال العمل الذي ينتج مثل ذلك الثواب نراهم مقلين ولا شيء لديهم في مقابل هذا الطلب الكبير، وفي الحقيقة أن مثل هذا الطلب والدعاء هو نوع من التفاق والازدواجية بين الرغبات والأعمال، وينبغي قلع هذه الحالة من وجود الإنسان للتوصل إلى السكينة والانسجام الروحي التام، فعندما تكون رغبات الإنسان متجانسة ومتناغمة مع سلوكياته وأعماله، يستطيع أن يكون الدعاء حينئذ مقبولاً حتى لو طلب من الله أكثر من ذلك.

ثم إن الإمام عليه السلام يختم هذه الرسالة ببيان قاعدة كلية تستوعب جميع التوصيات السابقة وتزيد عليها، ويقول: «وَأِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْرِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ وَقَادِمٌ عَلَيَّ مَا قَدَّمَ، وَالسَّلَامُ».

تأملان

١. العلاقة بين الأعمال والجزاء

يستفاد من التعاليم القرآنية ومفاهيم الوحي أن الأصل في يوم القيامة والحساب هو العلاقة الموجودة بين الأعمال وما يترتب عليها من الثواب والعقاب أو مشاهدة الأعمال ونتائجها: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» [٢٧٩] في حين أن الكثير من الناس يعتقدون بأن الأصل في ذلك اليوم هو العفو الإلهي والشفاعة، ولهذا السبب لا يهتمون بالأعمال كما ينبغي، وهذا النمط من التفكير يقودهم أحياناً إلى ترك الواجبات وارتكاب المحرمات والتساهل في

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٣٢

الالتزام الواعي بمقتضيات الرسالة والمسؤولية، فالشفاعة حق وأن العفو الإلهي حقيقة لا ريب فيها، ولكن هذه الأمور لا تمثل أصلاً وأساساً للنجاة يوم القيامة، فذلك اليوم يسمى يوم الدين، أي يوم الجزاء واستلام نتائج الأعمال.

والإمام عليه السلام في الرسالة مورد البحث يؤكد على هذه المسألة أيضاً ويقول: إن الإنسان يرى جزاء الأعمال التي قدمها لهذا اليوم في الماضي، ويرد على أمور كان قد أذخرها له في الدنيا.

فلو أننا جعلنا هذا المعنى أساساً وأصلاً في حركة الحياة والفكر الديني، فمن البديهي أن أعمالنا ستكون أنقى وأطهر بكثير.

٢. زياد ابن أبيه الانتهازي

لقد تحدت المؤرخون كثيراً عن زياد وابنه عبيدالله وعقائدهما المنحرفة وأعمالهما السيئة، وسيأتي بعض التفصيل عن سيرتهما في ذيل الكتاب ٤٤ إن شاء الله، ولكن من المناسب هنا أن نشير إشارة مقتضبة إلى ما أورده ابن أبي الحديد في هذا المورد، يقول:

«قلت: قبح الله زياداً، فإنه كافأ إنعام علي عليه السلام وإحسانه إليه واصطناعه له بما لا حاجة إلى شرحه من أعماله القبيحة بشيعته ومحبيه والإسراف في لعنه، وتهجين أفعاله، والمبالغة في ذلك بما قد كان معاوية يرضى باليسير منه، ولم يكن يفعل ذلك لطلب رضى معاوية، كلاً، بل يفعله بطبعه، ويعاديه بباطنه وظاهره، وأبى الله إلا أن يرجع إلى أمه ويصحح نسبه، وكل إناء ينضح بما فيه، ثم جاء ابنه بعده فحتم تلك الأعمال السيئة بما حتم، وإلى الله ترجع الأمور» [٢٨٠].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٣٣

الرسالة ٢٢

إشارة

إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ:
«مَا انْتَفَعْتُ بِكَلَامٍ بَعْدَ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، كَأَنْتِفَاعِي بِهَذَا الْكَلَامِ!» [٢٨١]

نظرة إلى الرسالة

الغرض الأصلي من كتابة هذه الرسالة هو أن الإمام عليه السلام يلفت نظر مخاطبه ابن عباس، وبعبارة أخرى جميع السائرين في طريق الحق، إلى هذه النقطة المهمة وهي أن الإنسان لا ينبغي أن يفرح بما حصل عليه من مواهب مادية وخيرات دنيوية عاجلة، ولا ينبغي أن يحزن على ما فقده منها، بل ينبغي أن يكون فرحه وسروره في نيل المواهب المعنوية والأخروية، ويكون أسفه وحزنه على ما فقده من هذه

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٣٤

الأمر المعنوية.

إن روح هذه الرسالة هي انعكاس لما ورد في القرآن الكريم في سورة الحديد:

«لِكَيْلِمَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ» [٢٨٢]، وعلى ضوء ذلك فإذا تحرك الإنسان في واقع الحياة على مستوى تجسيد هذه التوصية الغالية والعمل بها، فإن ذلك سيمنحه القدرة والثبات والاستقامة، بحيث لا يتزلزل ولا يصيبه الاهتزاز أمام العواصف العاتية والتحديات الصعبة التي يفرضها الواقع.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٣٥

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسْرُرُهُ دَرَكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فَلْيَكُنْ سُرُورَكَ بِمَا نَلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسْفُكَ عَلَىٰ مَا فَاتَكَ مِنْهَا، وَمَا نَلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرْحًا، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعًا، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ.

الشرح والتفسير: السرور والحزن الموهومان

في هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام في مطلعها إلى نقطتين مهمتين ومصيريتين في حياة الإنسان ويقول: «أَمَّا بَعْدُ- أي بعد الحمد والثناء-، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسْرُرُهُ دَرَكُ [٢٨٣] مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ».

إن مواهب الدنيا على نحوين، فبعضها يحصل عليها الإنسان بسعيه وعمله ويفقدها بتكاسله وتماهله، والنحو الآخر، يحصل عليه الإنسان بدون سعي وبذل جهد، وأحياناً يفقد الإنسان مثل هذه المكاسب الدنيوية حتى لو سعى وبذل الجهد في سبيل تحصيلها والاحتفاظ بها.

والقسم الأول يدخل في دائرة اختيار الإنسان: والآية الشريفة: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [٢٨٤] ناظرة إلى هذا المعنى، ولكن القسم الآخر يدخل في دائرة القضاء والقدر الحتميين، وهو خارج عن دائرة اختيار الإنسان.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٣٦

والواقع أن الإمام عليه السلام يشير إلى هذه الحقيقة الحاسمة، وهي أن الكثير من الأمور التي توجب السرور والفرح للإنسان هي من القسم الثاني، وعلى أي حال، فالإنسان يحصل عليها وفقاً لما قدر له في دائرة القضاء والقدر الإلهيين، وعلى هذا الأساس فالفرح

والحرص عليها لا مبرر له، كالشخص الذى يفرح بطلوع الشمس، وفى النقطة المقابلة هناك أمور لا يحصل عليها الإنسان مهما بذل من جهد وسعى فى سبيل ذلك، فلو أن الشخص عاش الحزن والغم بسبب ذلك فإن حزنه سيكون موهوماً ولا مبرر له، كالشخص الذى يحزن لغروب الشمس واختفائها فى الافق.

والمواهب المادية أعم من الأموال، والثروات، والمقامات والمناصب، والنجاحات والإخفاقات، فقدان بعض الإمكانيات والحصول عليها؛ هى من هذا القبيل غالباً، فلا يكون نيلها والحصول عليها اختيارياً ولا فقدانها وزوالها، ومن هنا لا ينبغي أن يكون الحصول عليها سبباً للفرح والسرور ولا فقدانها سبباً للتأسف والحزن.

عندما ننظر إلى الحياة الدنيا بهذا المنظار ونرى النجاحات والإخفاقات من هذه الزاوية، فسوف لا تكون تلك النجاحات موجبة للفرح والسرور، ولا تكون الإخفاقات والفشل مصدرراً للحزن والهم.

ثم يستمر الإمام عليه السلام فى بيان هذه الحقيقة ويقول: «فَلْيَكُنْ سُورُوكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسْفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا». والدليل على ذلك واضح، فالمواهب المادية، الاختيارية منها أم غير الاختيارية، تسير بسرعة نحو الزوال والفناء، ولا يمكن الاعتماد عليها فى زمان وجودها، فهى معرضة دوماً للآفات والنقصان وكذلك الحرمان منها معرض للانهاء وسرعة الزوال، فما يبقى للإنسان فى واقع الحياة هو المواهب الأخروية والمعنوية، ولذلك ينبغي أن يتأسف على فقدانها ويحرص على نيلها واكتسابها.

ويقول الإمام عليه السلام فى ختام هذا الكلام وكنيته جليئة لما تقدم: «وَمَا نِلْتَ مِنْ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٣٧

دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرْحًا، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعًا، وَلْيَكُنْ هُمُكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ».

وفى الختام ينبغي الالتفات إلى هذه الحقيقة وهى أن مواهب الدنيا على قسمين، وأما مواهب الآخرة فنوع واحد لا أكثر، فأما مواهب الدنيا فتارة يحصل عليها الإنسان بالسعى وبذل الجهد، وأحياناً بدون سعى وعمل، وعلى حدّ تعبير البعض:

«بما أن الإنسان عندما يحصل على نعم ومواهب أو يفقد هذه النعم فلا يعلم أنها من أى القسمين هى، هل هى من القسم الأول أم الثانى، ولهذا السبب يقول الإمام عليه السلام:

«وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرْحًا»، فربما تكون هذه النعم والمواهب من الأمور غير الاختيارية التى لا يحرم منها الإنسان أبداً، وكذلك «وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعًا» فلا خوف على حرمانك منها فربما تكون من النوع الذى سيبقى معك إلى الأبد، ولكن ليكن همّك واهتمامك لما تقدمه لآخرتك من سعى وعمل صالح، ففى ذلك اليوم لا تحصل على شىء إلا من خلال ما تقدمه لنفسك، فإن ليس للإنسان إلا ما سعى، وكما يقول الإمام عليه السلام فى موضع آخر من نهج البلاغة: «لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ» [٢٨٥].

تأملان

١. الجواب عن سؤال

ورد فى كلام الإمام عليه السلام فى الرسالة مورد البحث أن فرح الإنسان ينبغي أن يكون منصباً على ما يحصل عليه فى الآخرة، فى حين أننا نعلم أن الآخرة ستقع فى المستقبل لا فى الدنيا، ولكن ينبغي الالتفات إلى أنه، أولاً: إن الكثير من الأمور المعنوية يحصل عليها الإنسان فى الحياة الدنيا وتمثل نوعاً من الأمور الأخروية، من قبل النجاح والتوفيق فى مسيرته المعنوية فى السلوك إلى الله.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٣٨

ثانياً: إن هذه العبارة ناظرة إلى الأسباب والعوامل التى تؤدى إلى الحصول على المواهب الأخروية، فالشخص الذى قدّم أعمالاً صالحة

وتحلّى بصفات محمودة في هذه الدنيا يمكن القول أنّه قد حصل على المواهب الاخروية، كأنّه وقر أسبابها في هذه الدنيا، وبعبارة أخرى قد حصل على أسباب تلك المواهب الاخروية، وتحصيل الأسباب هو نوع من نيل المسببات.

٢. الإنسان فاعل مختار

لقد ثبت في بحث الجبر والاختيار، وطبقاً للأدلة العقلية والآيات الكثيرة الواردة في القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام، أنّ الإنسان فاعل مختار في أعماله، ومن المحال أن يكون الإنسان مجبوراً على المعصية والإثم، وأنّ الله تعالى عادل في حكمه وسيجزيه الجزاء العادل على ما قدّم من أعمال وسلوكيات، ولا يمكن أن يجبر الإنسان على الأعمال الصالحة، ثمّ يشبه عليها بوصفه مستحقاً للثواب، ولكن لا شكّ في وجود بعض الأمور في حياة الإنسان خارجة عن اختياره، والله تعالى لا يعاقبه ولا يشبه عليها بسبب ذلك، من قبيل الخصوصيات البدنية في الإنسان ومنشأ ولادته ومن هو أبوه وامه وفي أيّ زمان ومكان يولد، وأمثال ذلك، فهذه الأمور ربّما تؤثر في صياغة عمل الإنسان وشخصيته، ولكنّ هذا التأثير لا يكون حتمياً وغير قابل للاجتنا، وبعبارة أخرى أنّ هذه الأمور ربّما تؤثر للإنسان الأرضية المناسبة للأعمال الصالحة والطالحة ولكن الإنسان هو الذي سيفرض إرادته في النهاية ويقوم بعمل معين أو يختار سلوك خاص بإرادته واختياره.

وبديهي أنّ الأشخاص الذين تتوفر فيهم الأرضية المناسبة للأعمال الصالحة سيكون ثوابهم أقلّ من الأشخاص الذين لم تتوفر لهم مثل هذه الأرضية، والعكس صحيح، فالأشخاص الذين تتوفر فيهم الأرضية المساعدة لارتكاب الذنب إلّا أنّهم يجتنبون التورط بالإثم ويعصمون أنفسهم من الذنب، فإنّهم يستحقّون الثواب أكثر

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٣٩

من الأشخاص الذين لم تتوفر فيهم هذه الأرضية، ولتوضيح هذا المعنى يمكننا الاستعانة بمثالين في هذا المجال، فالكثير من الناس يتوجّهون إلى المساجد، ولكنّ جار المسجد ليس على حدّ سواء من الثواب مع الشخص الذي يتعد عن المسجد مسافة بعيدة. المسلمون يصومون رمضان، ولكن ثواب الشخص الذي يملك مزاجاً قوياً وبنية مساعدة ليس على حدّ سواء مع الشخص الذي يملك بنية ضعيفة، وقد وردت تفاصيل هذا الموضوع في الكتب الدينية المختصة.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٤١

الرسالة ٢٣

إشارة

قاله قبل موته على سبيل الوصية لما ضربته ابن ملجم لعنه الله [٢٨٦]

الوصية في نظرة عامة

هذه الوصية تتضمن مع كونها موجزة، على أربعة أقسام:

القسم الأول: يوصي الإمام عليه السلام بالتمسك بركنى الإسلام الأساسيين، وهما التوحيد والنبوة ويقول: لا تسمحوا للشرك أن ينفذ

في ثنايا حياتكم، ولا تغفلوا العمل بسنة نبيكم.

القسم الثاني: يتحدث الإمام عليه السلام عن مسيرته في هذه الحياة ويقسمها إلى ثلاث مراحل، كل مرحلة منها تمثل عبرة ودرساً للمخاطب، ويقول: في الماضي كنت
نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٤٢

أعيش بينكم سالماً، واليوم أنام في فراش المرض، وغداً أفارقكم، فهذه الأيام الثلاثة عبرة لكم.

القسم الثالث: يشير الإمام عليه السلام إلى كيفية التعامل مع قاتله وأنه ينبغي أن يقترب ذلك بكامل المحبة والعطف، فلو أن الإمام عليه السلام بقي حياً فسيكون العفو لقاتله قرينة له، وإذا نال الشهادة فإن أولياء الدم يمكنهم الاقتصاص من القاتل ومع ذلك يوصي الإمام عليه السلام بالعفو عنه.

وفي القسم الرابع: يبين الإمام عليه السلام كيفية مواجهته للموت ويقول: إنني لم أكره الموت أبداً بل كنت متعظاً له وفرحاً باستقباله.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٤٣

وَصِيَّتِي لَكُمْ: أَنْ لَأْتَشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً؛ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ.
أَقِيمُوا هَدْيَيْنِ الْعُمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هَدْيَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ دَمًا أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبِكُمْ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ. إِنْ أَبَى فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفَى فَالْفَنَاءُ مِعْيَادِي، وَإِنْ أَعْفَى فَالْعَفْوُ لِي قُرْبِي، وَهُوَ لَكُمْ حَسْبُهُ، فَاعْفُوا: «أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ» وَاللَّهُ مَا فَجَانِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ، وَلَا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ؛ وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَّ، وَطَالِبٍ وَجَدَ؛ «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ».

الشرح والتفسير: وصايا مهمة

كما أشرنا في ما سبق أن ما ذكره المرحوم السيد الرضى هنا يمثل مقطعاً من كلام مفصل تحدث به الإمام عليه السلام في آخر ساعة من عمره الشريف، حيث تمثل هذه الوصية رأسمال معنوي وفكري ثمين لجميع أفراد الأمة الإسلامية، ففي القسم الأول من هذه الوصية يقول عليه السلام: «وَصِيَّتِي لَكُمْ أَنْ لَأْتَشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً؛ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هَدْيَيْنِ الْعُمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هَدْيَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ دَمًا!».

ومع الالتفات إلى أن الإمام عليه السلام يؤكد في هذه الوصية اجتناب الشرك مطلقاً، فإن ذلك يشير إلى نفى جميع مظاهر وحالات الشرك، سواء الشرك في الذات والصفات والأفعال، أو الشرك في العبادة وغيرها، فلو أن الإنسان عاش التوحيد الخالص من جميع أشكال الشرك، فإن ذلك من شأنه إضاءة وتنوير جميع أركان روحه

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٤٤

وشخصيته، بحيث يكون وجوده ملكوتياً وروحانياً بكل ما في الكلمة من معنى.

وفي الوصية الثانية يؤكد الإمام عليه السلام على ضرورة عدم تضييع سنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولزوم العمل بجميع ما ورد فيها، خلافاً للأشخاص الذين يتعاملون مع سنة النبي من موقع الانتقاص، يأخذون ببعض ويتركون بعضاً، فهم في الواقع يخذعون أنفسهم، مثلاً لا يلتزمون بحكم الجهاد الواجب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنهم يقيمون صلاة الليل ويلتزمون بالنوافل، ولا يتوزعون عن ارتكاب المحرمات والمنكرات، ومع ذلك يقيمون العزاء على سيد الشهداء.

واللافت أن الإمام عليه السلام يشبه هذين الأصلين الأساسيين أحياناً بعمود الخيمة، وأخرى بأنهما سراجان يضيئان طريق الحق أمام الإنسان، فالخيمة الصغيرة تحتاج عادة إلى عمود واحد، ولكن الخيمة الكبيرة ربما تحتاج إلى أكثر من عمود وعلى كل عمود ينصب

سراج للإنارة، وكما يقول البعض أن النور يخرج من تلك الأعمدة، وعلى أية حال فإن خيمة الدين لا يمكن إقامتها بدون هذين الأصلين والعمودين، ولا يمكن إنارة أجواء الحياة المعنوية للإنسان بدون هذين السراجين.

أما عبارة: «خَلَأَكُمْ ذَمًّا وَكَمَا ذَكَرْنَا فِي الْخُطْبَةِ ١٤٩ مِنْ الْجُزْءِ الْخَامِسِ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَ يَضْرِبُونَ الْمَثَلَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ وَمَفْهُومَهَا، أَنَّهُ لَا ذَمَّ وَلَا لَوْمَ عَلَيْكُمْ لِأَنَّكُمْ أَذَيْتُمْ تَكْلِيفَكُمْ وَأَنْجَزْتُمْ وَظَيْفَتَكُمْ، يَعْنِي أَنَّكُمْ عَمَلْتُمْ بِمَا أَوْصَيْتَكُمْ بِهِ، فَلَا إِشْكَالَ يَرُدُّ عَلَيْكُمْ، وَأَمَّا الْقَائِلُ الْأَوَّلُ لِهَذِهِ الْعِبَارَةِ وَلِهَذَا الْمَثَلُ مِنْ هُوَ؟ فَقَدْ ذَكَرْنَا تَفْصِيلَ الْكَلَامِ فِي الْجُزْءِ الْمَذْكُورِ.

ثم إن الإمام عليه السلام يتعرض في القسم الثاني من هذه الخطبة وفي عبارات موجزة وعميقة المعنى، لبيان سيرة حياته وأنها تعدّ درساً وعبرة لكم ويقول: «أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَالْيَوْمَ عِزَّةٌ لَكُمْ، وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ».

يعنى أنا الذى فتحت خيبر وخضت معركة بدر والأحزاب وكنت فى ذلك الوقت رجلاً قوياً أذب عن الإسلام والمسلمين، وادافع عنكم، ولكن مرور الزمان قد أثر

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٤٥

فى وغيرنى، واليوم أرقد فى فراش الموت برأس دام من ضربة ابن ملجم، وهذا الرأس المصاب يعتبر درساً لكم على عدم وفاء الدنيا، وغداً عندما ترون مكانى خالياً بينكم ستشعرون بحقيقته هذه الدنيا وتلمسون عدم اعتبارها، فإنها أعرضت بكل سهولة عن ذلك الرجل الشجاع والبطل المقدم وسلمته إلى أجله.

التاريخ البشرى نرى فيه الكثير من هذه الوقائع، وأن شخصيات كبيرة أو مجاميع قوية تغيرت بمرور الزمان وبمدة قليلة كلياً، ولم يبق لديهم من إمكانات وقدرات إلا القليل الذى لا يفى بشيء، ويتحدث لنا التاريخ أن نادر شاه كان فى ذروة العظمة عندما قصد الهجوم على بعض البلدان، فنام فى فراشه فجاءه الطباخ الذى كان مستاءً من نادر بشدة ومعه سكين فقطع به رأسه وذبحه على فراشه وانتهى كل شيء فى الصباح الباكر.

والأوضح من الجميع تاريخ الأقوام السالفة الذى تحدث عنه القرآن الكريم كراراً كالفراعنة ونمرود وقوم عاد وثمود، حيث عاشوا العظمة والقدرة إلا أن ذلك لم يمنع من وقوعهم مورد الغضب الإلهى، وفى لحظات أصبحوا أثراً بعد عين ودفنتهم أمواج المشيئة الإلهية وسحقتهم الصيحة السماوية أو تحطمت عروشهم وقصورهم بالزلزلة وأمثال ذلك.

وهذه المسألة لا تنحصر بالأشرار من هذا العالم، بل إن الأخيار والأبرار مشمولون لهذه السنّة الإلهية على السواء، وأن الدنيا لا تمثل للجميع سوى وهماً زائلاً وهباء منثوراً.

ثم يتحدث الإمام عليه السلام فى القسم الثالث عن نظرتة لقاتله ويوصى أبناءه وأصحابه وصيّه مفعمه بالمحبة والشهامه ويقول: «إِنْ أَبَقَ فَنَا وَلِي دَمِي، وَإِنْ أَفَنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبِي، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَاعْفُوا «أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ» [٢٨٧].»

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٤٦

وما ذكره الإمام عليه السلام فى الجملة الأخيرة مقتبس من الآية الشريفة من سورة النور، الواردة فى ذيل الآيات «الإفك» عندما اتهمت جماعة من المنافقين زوجة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وتصدى القرآن الكريم لتبرئة ساحتها من التهمة الشنيعة، فكان أن أقسم بعض أثرياء الصحابة أنهم لا يمدون يد العون بعد الحادث إلى الأشخاص الذين ساهموا فى نشر هذه الشائعة الموهنة، فنزلت الآية الشريفة وأمرتهم بما ذكر آنفاً:

«أَلَا- تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ»، يعنى أنكم كما تتوقعون من الله العفو والصفح فإن الآخريين أيضاً يتوقعون منكم العفو والصفح فى مقابل العمل السىء الذى ارتكبهوه فى حق زوجة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

ومعلوم أن القصاص فى الإسلام يعدّ أصلاً فى الأحكام والتعاليم السماوية على حدّ تعبير القرآن الكريم وأنه بمثابة الحياة للمجتمع: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [٢٨٨]، ولكن فى ذات الوقت ترك القصاص والعفو عن الجانى الذى يستحقّ

العفو، يعتبر فضيلة كبيرة ومرتبته عالية من السموم الأخلاقية والإنسانية.

وأخيراً يتحدث الإمام عليه السلام، في القسم الرابع والأخير من وصيته، عن موقفه من الموت والشهادة، وهذا هو الموقف الذي انعكس في موارد عديدة من نهج البلاغة أيضاً وهو أنني ليس فقط لا أخشى من الموت بل أنني أعيش العشق للشهادة في سبيل الله ويقول: «وَاللَّهِ مَا فَجَّأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ، وَلَا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ، وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدٍّ، وَطَالِبٍ وَجَدٍّ؛ «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ»». والعبارة الأخيرة مقتبسة من الآية الشريفة ١٩٨ من سورة آل عمران، حيث يتحدث القرآن الكريم في مطلع الآية عن ثواب المتقين ويختمها بالجملة المذكورة آنفاً.

وما جاء في المقطع الأخير من هذه الوصية هو ما تحدت عنه أمير المؤمنين

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٤٧

علي عليه السلام مرات عديدة كما في نهج البلاغة وغيره، وهذا ليس شأن الإمام عليه السلام فحسب بل المؤمنين العاديين أيضاً لا يخافون الموت، وخاصة إذا كان الموت مقترن بالشهادة، والأشخاص الذين يخافون من الموت إما أنهم لا يؤمنون بالحياة بعد الموت ويتصورون أن الموت يعني الفناء وزوال كل شيء ولذلك يخافون منه، أو يؤمنون بالحياة بعد الموت لكن صحيفه أعمالهم إلى درجة من الظلمة والتلوث بحيث يعلمون أن مصيرهم بعد الموت هو بداية العذاب والألم، وأما الأشخاص الذين يؤمنون بالآخرة ويملكون صحيفه أعمال بيضاء ونقية، فلا مبرر لخوفهم من الموت، بل على حد تعبير الإمام عليه السلام في الخطبة ٥ من نهج البلاغة تكون علاقتهم بالموت أشبه بعلاقة الطفل الرضيع بثدي أمه، أو أكثر: «وَاللَّهِ لَأَبْنُ أَبِي طَالِبٍ آتَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطُّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ». وطبقاً لما ورد في الرواية المشهورة أن عبد الرحمن بن ملجم المرادي عندما ضرب الإمام عليه السلام في محراب العبادة على أم رأسه، قال الإمام عليه السلام: «فُزْتُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ».

ومع الالتفات إلى أن كلمة «قارب» كما ورد في لسان العرب وبعض الكتب اللغوية تعني الشخص الذي يبحث عن الماء ليلاً أو الشخص الذي تفصله عن عين الماء مسير ليلة واحدة، فيستفاد من جملة «كَقَارِبٍ وَرَدٍّ وَطَالِبٍ وَجَدٍّ» الإشارة إلى أنني بالنسبة للموت والشهادة كالضمان الذي يريد الوصول إلى منهل الماء أسرع، وقد نلت بغيته ووجدت ضالتي التي كنت أنتظرها سنين متتالية. وما أشد التفاوت بين هذا الكلام وكلام المستكبرين الذين يعيشون بعيداً عن الله عز وجل والآخرة عندما يحين أجلهم ويقعون في شباك الموت، فراهم يرتجفون خوفاً ويصرخون هلعاً ويتمنون العودة إلى الدنيا وهم في حالة الذلة والمهانة.

يقول السيد الرضي في ختام هذه الرسالة: «قَالَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ:

أقول: وَقَدْ مَضَى بَعْضُ هَذَا الْكَلَامِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْخُطْبِ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ هَاهُنَا زِيَادَةٌ أَوْجَبَتْ تَكَرُّرَهُ».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٤٨

تأملان

١. القصص أو العفو؟

رأينا آنفاً أن تشريع حكم القصص في الإسلام من أجل حفظ المجتمع البشري من شر الأشرار، وكما ورد في القرآن الكريم: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ» [٢٨٩] والأشخاص الذين يعيشون في زماننا هذا ويخالفون حكم القصص فهم في الواقع يترحمون على الذئاب العاوية، ويسمحون للأبرياء أن يقعوا في مصائد هذه الذئاب والوحوش الكاسرة ولا يهتمون بذلك، فهناك أفراد من الأشرار في المجتمع إذا شعروا بالأمن من القصص فلا أحد يستطيع منعهم من ارتكاب أيه جريمة في حق الأبرياء، وأحد عوامل زيادة نسبة القتل في بعض المجتمعات البشرية يعود إلى إلغاء حكم القصص في تلك المجتمعات.

ولكن الإسلام، ومن أجل التصدي للعنف والعداوان بالمقدار الممكن، يمنح الأشخاص الذين ارتكبوا جريمة القتل بدافع من الانفعال العفوي أو الغرور فرصة أخرى، حيث ضمّ إلى جانب حكم القصاص حكم العفو، وخير أولياء الدم بين القصاص والعفو، ولكن أولياء الله يختارون دائماً الخيار الثاني، ولهذا السبب فقد أوصى الإمام عليه السلام أبناءه وأصحابه في وصيته مورد البحث العفو عن القاتل، ونعلم أن القاتل هو ابن ملجم.

وهنا يفرض هذا السؤال نفسه، وهو أن أولاد الإمام عليه السلام بعد توصية الإمام عليه السلام بالعفو عن القاتل لماذا رجحوا خيار القصاص؟

الجواب عن هذا السؤال يتبين من خلال الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن مشاعر الناس وعواطفهم الجياشة في مقابل هذه الجريمة كانت إلى درجة من الشدة بحيث أن العفو عن ابن ملجم سيتسبب في إثارة الاضطراب في ذلك المجتمع، وعشاق الإمام عليه السلام لا يملكون القدرة على تحمّل مثل هذا العفو، أضف إلى ذلك أنهم

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٤٩

لو سجنوا ابن ملجم فإن الجماهير ستتهجم حينئذ على السجن، وإذا أطلقوا سراحه فسيقطعونه إرباً إرباً، إذن فالأفضل إجراء حكم القصاص عليه ليعود الهدوء إلى المجتمع.

٢. معنى «لا تُصَيِّعُوا سُنَّةَهُ»

إن أساس الإسلام يتمثل في ما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الوصية مورد البحث، حيث أكد على التوحيد وحفظ سنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فالالتزام الواعي بمتطلبات التوحيد في جميع أبعاده وخاصة التوحيد في العبودية والأفعال، من شأنه أن يكون مصدراً لجميع الخيرات والبركات، فاللجوء إلى ساحة كبريائه ورحمته الواسعة من شأنه أن يفعل شفاعته الشفاعة أيضاً، فالله تعالى هو الذي بيده مصائر العباد وأرزاقهم وموتهم وحياتهم، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، وهو على كلّ شيء قدير.

وأما حفظ سنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كذلك لا يكون بالكلام فقط، بل لابد من تجسيدها على أرض الواقع والممارسة، ولكن للأسف الشديد فإن جماعة من المسلمين اكتفوا باسم الإسلام وغفلوا عن سنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله تماماً.

وجماعة أخرى فرضوا آراءهم وما توحى إليهم أهواؤهم على السنة الشريفة من خلال القراءات الجديدة وأنماط التفسير بالرأى، ووضعوا أنفسهم وأفكارهم مكان السنة النبوية، حتى أن الإمام عليه السلام في وصية أخرى له وهو على فراش الشهادة يقول:

«وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، لَا يُشْرِكُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ» [٢٩٠]، فأنتم قد تربيتهم في ظل القرآن الكريم والتعاليم السماوية، فلا ينبغي الغفلة عنها ويعمل بها غيركم، ويتحلّى الآخرون بالأمان والصدق وتتلوثون أنتم بالخيانة والكذب، وغيركم متحدون فيما بينهم على أمر الدنيا، وأنتم مختلفون ومتفرقون في أمر دينكم.

ومن هنا فنحن نخشى أن يأتي ذلك اليوم الذي «لا يبقى من الإسلام إلا إسمه ولا يبقى من القرآن إلا رسمة» [٢٩١].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٥١

الرسالة ٢٤

إشارة

بما يُعْمَلُ فِي أَمَوَالِهِ، كَتَبَهَا بَعْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ صَفِينِ [٢٩٢]:

نظرة إلى الرسالة

يتبين من هذه الرسالة أن القسم الأكبر منها، - كما يفهم من سياقها، - وقف لا وصية، والوصية تشكل قسماً صغيراً منها، وخلاصة ما ورد فيها أن متولى الوقف هم أبناء أمير المؤمنين علي عليه السلام الإمام الحسن المجتبي عليه السلام وبعده الإمام الحسين الشهيد عليه السلام، وبيان صارف الموقوفه وكيفية تقسيمها وإدارة بساتين النخيل ويستفاد من مجموع هذه الوصية أن الإمام عليه السلام كان يملك بساتين نخل عديده في مناطق مختلفه، وامتلكها إما من خلال نصيبه من الغنائم الحربيه أو بسعيه وجهده، وقد أوقفها جميعاً في موارد الوقف العام ليتسنى للجميع الاستفادة منها.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٥٢

ويشير الأخير منها إلى الجوارى وكيفية فتح الباب أمام تحريرهن وعتقهن.

ويستفاد أيضاً من كلام السيد الرضى في ذيل هذه الرسالة أنه كان شديد الاهتمام بهذه الرسالة حيث تتضمن فصاحة عالية وبلاغة رائعة.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٥٣

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، لِيُولَجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ. مِنْهَا: فَإِنَّهُ يَقُومُ بِبَدَلِكَ الْحَسَنِ ابْنِ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنِ حَدَثٌ وَحَسِبْتُ حَتَّى، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ، وَأُضِدَرَهُ مَضِيدَرَهُ. وَإِنَّ لَابْنِي فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبْنِي عَلِيٍّ، وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِبَدَلِكَ إِلَى ابْنِي فَاطِمَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، وَقُرْبَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لَوْصِلَتِهِ. وَيَشْتَرِطُ عَلَى الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَ التِّمَالَ عَلَى أُصُولِهِ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أَمَرَ بِهِ وَهَدَى لَهُ، وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِهِ نَخِيلَ هَذِهِ الْقُرَى وَدِيَّهَ حَتَّى تُشَكَلَ أَرْضُهَا غِرَاساً. وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي - اللَّاتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَ - لَهَا وَوَلَدٌ، أَوْ هِيَ حَامِلٌ، فَتَمَسَّكَ عَلَى وَوَلَدَهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ، فَإِنْ مَاتَ وَوَلَدَهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ، قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا الرَّقُّ، وَحَرَّرَهَا الْعَتَقُ.

الشرح والتفسير: توصيات مدروسة لإدارة الموقوفات

سبق وأن أشرنا آنفاً إلى أن هذه الوصية تتخذ شكل الوقف في الأصل، ولذلك ورد فيها أركان الوقف، الموقوف عليهم، المتولى و... واحداً بعد الآخر.

بداية يتحدث الإمام عليه السلام عن الوقف والغرض من الوقف، ويقول: «هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، لِيُولَجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ».

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٥٤

ويستفاد جيداً من هذه العبارة أن أحد شروط الوقف قصد القرية حيث ذكر هذا الشرط في سند الوقف، وبعد ذلك مباشرة ذكر اسم الواقف.

أما الوصف بكلمة أمير المؤمنين بعد أن ذكر الإمام عليه السلام اسمه المبارك، فهذا يشير إلى أن كتابه هذا السند من الوقف كان في أيام حكومته وخلافته رغم أن الإمام علي عليه السلام كان يعرف بأمر المؤمنين من قبل المطلعين واولوالألباب بعد رحلة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثم إن الإمام عليه السلام يبين في قسم آخر من هذه الوصية «سند الوقف» أربع نقاط، والسيد الرضى فصّلها بعبارة، «منها»: بيان الشخص المتولّى وحقّ التولية ومصارف الوقف والأشخاص الذين يتولّون الوقف بعد وفاة أو استشهاد المتولّى الأول وهو القائم مقامه ويقول: «منها: فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذَلِكَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحَسَيْنٌ حَيٌّ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ».

وجملة: «يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ» يمكن أن يكون إشارة إلى حقّ التولية وربما تكون إشارة إلى استفادة الموقوف عليهم منها، ولكن الاحتمال الأول أقرب إلى سياق العبارة مع الالتفات إلى أن الأفعال في الجمل المذكورة للمستقبل.

وجملة: «وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ» أنّ هذه الموقوفة تتمتع بجهة الوقف الخاص والوقف العام أيضاً، فبعضها يتعلّق بأبناء الإمام عليه السلام والقسم الآخر يتعلّق بجميع المحتاجين والمسلمين.

وجملة: «وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ» إذا كان ضمير «مصدره» يعود إلى الموقوفة فإنّ مفهومها أنّ الإمام الحسين عليه السلام يعمل في منتج ومحصول هذه الموقوفة عمل الإمام الحسن عليه السلام، وإذا كان الضمير يعود إلى الإمام الحسن عليه السلام فإنّ مفهومه أنّ الإمام الحسين عليه السلام يتبع سيرة الإمام الحسن عليه السلام فيها، ورغم أنّ نتيجة كلا هذين الاحتمالين واحدة، إلّا أنّهما مختلفان في المفهوم من السياق، وعلى أيّة حال فالاحتمال الأول

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٥٥

يبدو أقوى من الثاني [٢٩٣].

ثم يبين الإمام عليه السلام شرحاً أوفى للموقوف عليهم ويقول: «وَإِنَّ لِبَنِي فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ».

ولهذه العبارة تفسيران: الأول، كما أشرنا إليه آنفاً أنّ انتفاع الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام من حقّ التولية لا يمنع انتفاعهما من محصول تلك الموقوفة على أنّهما من الموقوف عليهم، فالحسن والحسين عليهما السلام هما المتولين للوقف وكذلك من زمرة الموقوف عليهم.

التفسير الثاني: أنّه لا يوجد أيّ امتياز وخصوصية للاستفادة من الموقوفة من أبناء الإمام عليّ عليه السلام، سواء كانوا من أبناء فاطمة عليها السلام أم من نسل الزوجات الاخريات لأئمة المؤمنين عليه السلام.

فالإمام عليه السلام في هذه الجملة لم يقل: «أبنائي من نسل فاطمة» بل قال: ابني فاطمة عليها السلام وهذا يشير إلى غاية الاحترام للمقام الشامخ للزهراء عليها السلام.

وبعد ذلك يبين الإمام عليه السلام هذه النقطة، وهي أنّه لماذا جعل تولية الموقوفة بيد أبناء فاطمة لا سائر أبنائه الآخرين: «وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِذَلِكَ إِلَى ابْنِي فَاطِمَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، وَقُرْبَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لَوْصَلَتِهِ». والحقيقة أنّ الإمام عليه السلام يبين في هذه العبارة أربعة أدلّة مرتبطة ببعضها على هذا الاختيار: ابتغاء وجه الله، التقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، إكراماً واحتراماً له ولحرمته، والتشريف بقربته.

وعلى حدّ قول ابن أبي الحديد أنّه عندما يتم تسليم الأمور إلى أقرب المقرّبين من الأشخاص الذين يتمتّعون باللياقة والجدارة الكاملة، فإنّ قبول ذلك من قبل

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٥٦

سائر الناس سيكون أقرب وأيسر، لأنّ الأقربون أكثر من أيّ شخص آخر على معرفة بسنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ودينه وسنته وأنهم أجدر من الآخرين لحفظ هذه الرسالة والقيام بمتطلباتها والدفاع عنها.

يقول ابن أبي الحديد في شرح هذا الكلام: «ثم قال: إنّما فعلت ذلك لشرفهما برسول الله صلى الله عليه وآله، فتقرّبت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، بأن جعلت لسبب هذه الرئاسة، وفي هذا رمز كناية إلى من صرف الأمر عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله و

آله، مع وجود من يصلح للأمر، أى كان الأليق بالمسلمين والأولى أن يجعلوا الرئاسة بعده لأهل قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وتكريماً لحرمة، وطاعة له، وتعظيماً لقدرة صلى الله عليه وآله أن تكون ورثته سوقة يليهم الأجانب، ومن ليس من شجرته وأصله، الأترى أن هيبه الرسالة والنبوة فى صدور الناس أعظم إذا كان السلطان والحاكم فى الخلق من بيت النبوة، وليس يوجد مثل هذه الهيبة والجلال فى نفوس الناس للنبوة إذا كان السلطان الأعظم بعيد النسب من صاحب الدعوة عليه السلام» [٢٩٤].

وهنا ربّما يثير البعض هذا السؤال، وهو: لماذا لم يعين الإمام عليه السلام المتولين للوقف بعد الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام؟

الجواب: إنّ الإمام عليه السلام بين ذلك فى الروايات التى تذكر جميع هذه الوصية بشكل مفصل، ولكن السيد الرضى الذى انتهج منهج الانتقاء فى نقل كلمات الإمام عليه السلام حذف هذا القسم من الوصية، والخلاصة أنّ الإمام على عليه السلام جعل تولية الوقف بعد الإمام الحسن والإمام الحسين صلى الله عليه وآله بيد سائر أبنائه، ولو لم يوجد بينهم شخص مناسب لهذا الأمر، فإنه ينبغى أن يتولى هذه الموقوفة رجال آخريين من آل أبى طالب، وإنّ فقد من بينهم الشخص المناسب لتولى هذا الأمر فتنقل التولية إلى شخص آخر من بنى هاشم [٢٩٥].

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٥٧

وفى المقطع الأخير من هذا السند والوصية بالوقف يتحدّث الإمام عليه السلام عن كيفية حفظ هذه الموقوفات ورعاية أمورها، ويأمر بأمرين فى هذا المجال، فيقول أوّلاً:

«وَيَشْتَرِطُ عَلَى الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَ الْمَالَ عَلَى أَصُولِهِ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أَمَرَ بِهِ وَهُدَى لَهُ».

ويعتبر ما ذكره الإمام عليه السلام هنا قاعدةً كليّةً فى جميع الموقوفات، فينبغى أن يبقى أصل المال سالمًا ويتمّ الانتفاع فقط من محصوله وثمرته فى الوقف، وهذا التعبير أحياناً يقال عند إجراء صيغة عقد الوقف، فيقال: «أَنْ لَا يَبَاعَ وَلَا يُوهَبَ»، ويقول كذلك فى تعريف الوقف: «الْوَقْفُ حَبْسُ الْعَيْنِ وَتَسْبِيلُ الثَّمَرَةِ»، ولكن الإمام عليه السلام بين هنا هذا المطلب للتأكيد ولئلا يفكر الأشخاص من الموقوف عليهم بيع أصل النخيل وينتفعوا من أثمارها.

التوصية الثانية يقول الإمام: «وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَدِيَّةً حَتَّى تُشَكَلَ أَرْضُهَا غَرَسًا».

كلمة: «وَدِيَّةً» تعنى الفسائل الصغيرة التى تنمو إلى جانب النخلة وتمد جذورها تدريجياً وتشتد وتتمو حتى يتم فصلها واقتطاعها من الأصل وغرسها فى مكان مناسب آخر، ولذلك ورد التعبير عنها بـ «أَوْلَادِ نَخِيلِ»، وهذا العمل له فائدتان، الأولى: أن يتم إشغال الفضات الفارغة من بساتين النخيل بهذه الأغراس كما يقول الإمام عليه السلام: «تُشَكَلَ أَرْضُهَا غَرَسًا».

ومفهوم هذه العبارة، كما بين ذلك المرحوم السيد الرضى فى ختام هذه الوصية، أنه يستفاد من هذه الأغراس الجديدة للنخيل بحيث يتم اشغال جميع أراضي بساتين النخيل بحيث يشكل تشخيصها على الناظر وهل أنها هى النخيل السابقة، أم نخيل جديد؟ وعلى أية حال فإنّ تأكيد الإمام عليه السلام لإعمار هذه الموقوفات واتساع رقعة الأراضي الزراعية جدير بالالتفات.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٥٨

والفائدة الأخرى، ما يقال من أن فسيل النخيل لو لم تقطع وتفصل من أصلها فى الوقت المناسب ويتم بيعها، فإنها ربّما تسبب ضرراً للنخلة نفسها، ومن هذا المنطلق ينبغى حفظ هذه الأغراس إلى زمن معين ثم يتم اقتطاعها طبقاً لتوصية الإمام عليه السلام ومفاد سند الوقف وغرسها فى الأرض الزراعية ويتم الاستفادة منها فى ذلك البستان الموقوف.

وهذه التوصية لا تختص بموقوفات الإمام عليه السلام فقط، بل تشمل جميع الموقوفات من هذا القبيل، رغم أن المتولين النفعيين وللأسف يتصرفون خلاف ذلك ويعرضون بساتين النخيل للأضرار والآفات، لأنّ بساتين النخيل لو لم تمتلىء من النخيل فإن الحرارة والبرودة فى الفصول المختلفة من شأنها أن تعرّض النخيل للضرر أسرع، ولكن عندما تمتلىء بساتين النخيل من أشجار النخيل فإنها

قلما تصاب بالآفات وأشكال الضرر الأخرى.

وهذا الكلام لا يعنى غض النظر عن إيجاد فواصل لازمة بين أشجار النخيل فرّما يتسبب عدم رعايه الفاصله أيضاً إلى إضعاف النخيل والإضرار بهذه البساتين.

وضمناً ينبغى الالتفات إلى هذه النقطة، وهى أن أغراس النخيل يمكن أن تعدّ جزءاً من المنافع، فلا تشملها حرمة بيع الوقف، ولكن مع ذلك فالإمام عليه السلام يقول: إن بستان النخيل مادام يحتاج إلى هذه الأغراس فلا ينبغى بيعها إلى خارج البستان.

وفى ختام هذه الوصية، وبعد بيان المسائل المتعلقة بالموقوفات، تعرّض الإمام عليه السلام للمسائل المتعلقة بزوجاته من الجوارى، ويتحدّث عن بيان وضعهنّ ومصيرهنّ، بحيث يتمّ تحريرهنّ بعد وفاته، يقول: «وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي - اللَّائِي أُطُوفُ عَلَيْنَهُنَّ ٢٩٦ - لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِيَ حَامِلٌ، فَتُمْسِكُ عَلَيَّ وَلَدَهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ، فَإِنْ مَاتَ

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٥٩

وَلَدَهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ، قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا الرِّقُّ، وَحَرَّرَهَا الْعِتْقُ».

وفى ذلك الزمان كان للإمام عليه السلام عدّة جوارى بحكم الزوجات، وكان له منهنّ أبناء أيضاً، ولعلّ غرض الإمام عليه السلام من زيادة الأبناء وكثرة النسل أن يزداد آل عليّ وبنو هاشم، وبذلك يتمّ الوقوف أمام تهديد الأعداء لهذا النسل المبارك ولا تتسبب مؤامرات الأعداء فى انقراض هذه الذرية الطاهرة.

وعلى أريّة حال فالإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الوصية يبيّن حكم الجوارى اللاتي لهنّ ولد منه أو حاملات منه، وطبقاً للقاعدة الفقهية المعروفة التى يتفق عليها جميع الفقهاء أنّ مثل هذه الجوارى والإماء يتمّ عتقهنّ من سهم الأولاد، أو بتعبير آخر إنهنّ جزء من نصيب الأبناء من الإرث فيتمّ عتقهنّ مباشرة بعد موت المالك، لأنه لا يحقّ لأحد أن يملك أباه أو أمه.

وأما بالنسبة للإماء اللاتي ليس لهنّ ولد، فلم يذكر لهنّ حكم فى هذه الوصية، ولكن ورد حكمها أيضاً فى روايات أخرى ذكرت هذه الوصية بشكل مفصل كما وردت فى كتاب الكافي، وأنّ الإمام عليه السلام أمر بعتقهنّ جميعاً، ولكنّ السيد الرضى وبسبب منهجه فى التلخيص والانتقاء اكتفى بهذا المقطع من الوصية.

وهذا يشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان يهتمّ بتحرير والعبيد والجوارى، وأنّه كان طيلة تاريخ حياته المباركة، وطبقاً لما ورد فى بعض الروايات اشترى وأعتق من كدّ يده ألف عبد «أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْتَقَ أَلْفَ نَسَمَةٍ مِنْ كَدِّ يَدِهِ» [٢٩٧].

وهذه المسألة، أى اهتمام الإسلام فى تحرير العبيد تدريجياً، تعتبر مسألة كثيرة الأبعاد والتفاصيل، وتشير إلى أنّ الإسلام يرى أنّ الأصل فى الإنسان الحرية حتّى فى المجتمع الذى يعيش ثقافة العبودية والرّق، ولكن من اللازم إيجاد برنامج

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٦٠

مدرّوس وطويل الأمد للوصول إلى هذا الهدف وتحقيق هذه الغاية الإنسانية، لأنّ الإعلام الفورى عن عتق جميع العبيد والإماء من شأنه إيجاد الخلل وخلق جوّ من الأزمة فى مفاصل المجتمع، وربّما يتسبب أيضاً فى الإضرار وإهلاك الكثير من العبيد [٢٩٨].

وجملة: «فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا» إشارة إلى هذه الحقيقة، وهى أن لا يتصوّر أحد أنّ الجارية الحامل أو ذات الولد التى مات ولدها بعد موت المولى، فإنّ تلك الجارية تعود إلى حالتها السابقة من الرّق والعبودية، فالإمام عليه السلام يقول: (فإن مات ولدها وهى حية فهى عتيقة قد أفرج عنها وحرّرها العتق) يعنى أنّه لا يمكنها العودة إلى الحالة السابقة.

وفى ختام هذه الوصية يقول المرحوم السيّد الرضى: «قَالَ الشَّرِيفُ: قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ: «وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ نَخْلِهَا وَدِيَّةً»، الْوُدِيَّةُ: الْفَسِيلَةُ، وَجَمْعُهَا وَدَى».

وقوله عليه السلام: حتّى تُشكّل أرضها غراساً هو من أفصح الكلام، والمراد به أنّ الأرض يكثر فيها غراس النخل حتّى يراها الناظر

عَلَى غَيْرِ تِلْمَكِ الصَّفَةِ الَّتِي عَرَفَهَا بِهَا فَيُشَكِّلُ عَلَيْهِ أُمْرُهَا وَيَحْسِبُهَا غَيْرُهَا». وتعبير الإمام عليه السلام بكلمة «وَدَّيَّة» تعني غرس النخلة وجمعها «وَدَى» (على وزن على).

وأما العبارة الأخرى للإمام عليه السلام وهي قوله: «حَتَّى تُشَكِّلَ أَرْضُهَا غِرَاسًا» فهي من أفصح الكلام، ومفهومها أن الأغراض والنخيل ينبغي أن تكون بدرجته من الكثرة بحيث تغطى أجواء بستان النخيل، فكل شخص قد شاهد هذا البستان في السابق يصعب عليه تشخيص هذه النخيل والبستان ويتصور أنه يشاهد بستاناً آخر ويسير في حقل آخر.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٦١

تأملان

١. الجواب عن سؤالين

قد تثار بعض الأسئلة وعلامات الاستفهام على هذه الوصية ويقال:

١. يستفاد من التعبير بالوصية أن الإمام عليه السلام كان يملك أموالاً طائلة بحيث أنه وقفها في حياته، ولكن مع الالتفات إلى زهد الإمام عليه السلام المعروف، فمن أين حصل على مثل هذه الأموال؟
وكما أشرنا قبل قليل أن الإمام عليه السلام كان يملك ثلاثة مصادر مائية، أحدها: حصته من الغنائم التي تعود لجميع جنود الإسلام وأحياناً تشكل مبلغاً كبيراً، الآخر: خراج الأراضي الخراجية الذي يتعلق بعامته المسلمين ولا يختص بالمحاربين، ومقدار هذا الخراج بعد الفتوحات الإسلامية ازداد بشكل كبير، وللإمام عليه السلام حصته من هذا المورد المالي.

نفحات الولاية؛ ج ٩؛ ص ٢٦١

ثالث: أن الإمام عليه السلام كان يعمل سنين متمادية بزراعة الأشجار وغرس النخيل وقد أوجد بساتين عديدة بذلك، ثم جعله وقفاً خاصاً وعماماً، فبعض هذه البساتين والحقول أوقفها على أبنائه وذريته من آل أبي طالب وبنى هاشم، وبعضها الآخر أنفقه في سبيل الله، وما تبقى من مال للإمام عليه السلام بوصفه ميراثاً له يعد مبلغاً ضئيلاً.

وقد ورد في الروايات أيضاً أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان يملك أموالاً وبساتين جعلها الخلفاء من جملة أموال بيت المال بذريعة أن الأنبياء لا يورثون.

يقول ابن عبدبره في الاستيعاب: «قُتِلَ عَلِيُّ وَلَا مَالَ اخْتَجَبَهُ وَلَا دُنْيَا أَصَابَهَا» [٢٩٩].

وينقل ابن أبي الحديد أيضاً عن بعض المخالفين الذين اعترضوا على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقالوا: «إن أبا بكر رحل من الدنيا دون أن يترك ديناراً ولا درهماً، ولكن الإمام عليّ عندما غادر الدنيا ترك الكثير من بساتين النخل، ثم يجيب ابن أبي الحديد عن قولهم هذا ويقول: قد علم كل أحد أن علياً عليه السلام قد أخرج عيوناً

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٦٢

بكدّ يده في المدينة وينع وأحى بها مواتاً كثيرة، ثم أخرجها عن ملكه وتصدق بها على المسلمين، ولم يمت وشيء منها في ملكه، ألا ترى إلى ما تتضمن كتب السير والأخبار من منازعة زيد بن عليّ وعبدالله بن الحسن في صدقات عليّ عليه السلام ولم يورث عليّ عليه السلام بنيه قليلاً من المال ولا كثيراً إلا عبيده وإماءه وسبعمائته درهم من عطائه، تركها ليشتري بها خادماً لأهله قيمتها ثمانية وعشرون ديناراً» [٣٠٠].

٢. السؤال الآخر: كيف يقول الإمام عليّ عليه السلام: إنّي جعلت الحسن متولياً على الوقف فإذا مات وكان الحسين عليه السلام لا يزال

على قيد الحياة فيقوم مقامه، فهل أن الإمام عليّ عليه السلام لم يكن يعلم عن طريق الغيب أن شهادة الإمام الحسين عليه السلام تقع بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام بعدة سنوات؟

والجواب عن هذا السؤال وأسئلة كثيرة أخرى من هذا القبيل يمكن اختصاره بجملة واحدة، وهي أن الأئمة في أعمالهم العادية كانوا يعتمدون على علمهم الشخصي الذي يكتسبونه من الوسائل الطبيعية لا- من علم الغيب، كما كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يعيش حياته الطبيعية كذلك، وكان أصحابه يعتمدون على العلم الحاصل من القنوات العادية، ولم يكن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو الإمام يستخدم علم الغيب سوى في بعض الموارد الاستثنائية.

٢. أهمية الوقف في الإسلام

إن اهتمام الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بأمر الوقف، وسبقه الآخرين في هذا العمل الخير، يشير بوضوح إلى الأهمية البالغة للوقف في الإسلام.

ورغم أن الإسلام لم يبتدع مسألة الوقف، حيث كانت موقوفات كثيرة قبل الإسلام في المذاهب والأديان الأخرى، ولكن الإسلام أولى أهمية لهذه المسألة وأكد عليها بوصفها صدقات جارية.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٦٣

ونقرأ في حديث عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ برجل يغرس غرساً في حائط له فوقف عليه فقال: «ألا أدلك على غرس أثبت أصلاً وأسرع إيناعاً وأطيب وأنقى قال: بلى فذاك أبي وامى يارسول الله، فقال صلى الله عليه وآله: إذا أصيبت وأمسيت فقل: شُيْحَانِ اللَّهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّ لَكَ بِذَلِكَ إِنْ قُلْتَهُ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ عَشْرَ شَجَرَاتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَاكِهَةِ وَهِنَّ مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ».

قال الراوي: فقال الرجل: أشهدك يارسول الله أن حائطي هذا صدقة مقبوضة على فقراء المسلمين من أهل الصفة، فأنزل الله تبارك وتعالى: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى» [٣٠١]. وعلى ضوء ذلك فإن الوقف يعتبر سنة إسلامية حسنة لمجمل الأعمال والأحكام الدينية.

وجاء في بعض الروايات عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن بعض الصحابة الصحابة كانوا يملكون أموالاً، تركوها وقفاً لهم بعد موتهم. ونقل الشيخ الطوسي في الأمالي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «خَيْرٌ مَا يُخْلَفُهُ الرَّجُلُ بَعْدَهُ ثَلَاثَةٌ: وَلَدٌ بَارٌّ يَسْتَغْفِرُ لَهُ وَسُنَّةٌ خَيْرٌ يُفْتَدَى بِهَا وَصَدَقَةٌ تَجْرَى مِنْ بَعْدِهِ» [٣٠٢].

والأحاديث الشريفة في هذا المجال كثيرة، وينبغي الالتفات إلى أن أحد الطرق للحيلولة دون تراكم الثروات وتكدس الأموال، الاهتمام بإشاعة ثقافة الوقف، لأن الوقف من شأنه إخراج الأموال من قبضة أفراد معدودين ووضع منافعها وخيراتها تحت اختيار المحرومين والمحتاجين من الناس.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٦٥

الرسالة ٢٥

إشارة

كَانَ يَكْتُبُهَا لِمَنْ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى الصَّدَقَاتِ

قال الشريف: وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هُنَا جُمْلًا لِيُعْلَمَ بِهَا أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُقِيمُ عِمَادَ الْحَقِّ، وَيَشْرَعُ أَمْثَلَهُ الْعِيدَلِ، فِي صَغِيرِ الْأُمُورِ وَكَبِيرِهَا وَدَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا [٣٠٣]

نظرة إلى الرسالة

هذه الوصية التي كان الإمام عليه السلام يقدمها عادة للعاملين على جمع الزكوات وتشتمل على نكات دقيقة ونقاط مدروسة تشير إلى رعاية الأدب الإسلامي ورعاية العدالة القصوى في شأن جميع أفراد المجتمع الإسلامي، بل تمتد لتشمل حتى الحيوانات أيضاً. في المقطع الأول من هذه الوصية، يأمر الإمام عليه السلام العاملين على الزكاة أن

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٦٦

يتحرّكوا في عملهم بتيّة خالصة ومن موقع الالتزام بالتقوى، ولا يستخدموا أسلوب التهديد والإرعاب في جباية الحقوق الشرعية، ولا يأخذوا من أي شخص أكثر من الحقّ الإلهي المفروض عليه.

وفي القسم الثاني من الوصية يشير الإمام عليه السلام إلى نقاط دقيقة فيما يتصل بتعاملهم مع الأشخاص الذين وجب عليهم دفع الزكاة من أموالهم، وأن يكون تعاملهم معهم في غاية اللطف والمحبة ورعاية الأدب الإسلامي.

وفي القسم الثالث يتحدّث الإمام عليه السلام عن كيفية فرض حقّ الله من أموال الناس عن طريق القرعة حتى لا يقع أي إجحاف لأحد من الناس في شأن.

وفي القسم الرابع يذكر الإمام عليه السلام توصيات متعدّدة بشأن حكم المعاملة مع الحيوانات التي أخذت من المالكين بوصفها زكاةً، وهذه التوصيات كما سنرى، أعلى وأسمى ممّا تدعيه منظمات حقوق الحيوان في حماية الحيوانات.

ويضيف المرحوم الكليني بعد نقل هذه الرسالة عن الإمام الصادق عليه السلام عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّ الإمام الصادق عليه السلام بكى، ويقول الراوى بريد بن معاوية: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: بعث أمير المؤمنين عليه السلام صلوات الله عليه صدقة من الكوفة إلى باديتها، فقال له: «انطلق على تقوى الله وحده لاشريك له، ولا تروعن مسلماً ولا تجتازن عليه كارهاً، ولا تأخذن منه أكثر من حقّ الله في ماله...»، ثم بكى أبو عبد الله عليه السلام وقال: «يا بريد والله ما بقيت لله حرمة إلا انتهكت، ولا عمل بكتاب الله، ولا بسنة نبيه في هذا العالم، ولا اقيم في هذا الخلق حدّ منذ قبض أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه، ولا عمل شيء من الحقّ إلى يوم الناس هذا».

واللافت للنظر أنّ كاتب المصادر بعد أن ذكر هذا المقطع من كلام الإمام الصادق عليه السلام يقول: اقسام بالله تعالى أنّي بكي أكثر من مرّة عندما قرأتها في نهج البلاغة قبل أن أطلع على ما رواه صاحب الكافي من بكاء الإمام الصادق عليه السلام عند روايتها، والحمد لله رب العالمين [٣٠٤].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٦٧

القسم الأول

إشارة

انطلق على تقوى الله وحده لاشريك له، ولما تروعن مسلماً ولما تجتازن عليه كارهاً، ولما تأخذن منه أكثر من حقّ الله في ماله، فإذا قدمت على الحيّ فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبايتهم، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار؛ حتى تقوم بينهم فتسليم عليهم، ولا تخدج بالتحية لهم، ثم تقول: عباد الله، أرسلني إليكم ولئى الله وخليفته، لأخذ منكم حقّ الله في أموالكم، فهبل لله في أموالكم من حقّ

فَتَوَدُّهُ إِلَىٰ وَإِيَّهِ؟ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَأ، فَلَا تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تُعَسِّفَهُ أَوْ تُرْهِقَهُ فَخُذْ مَا أُعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ.

الشرح والتفسير: الثقة بالجمهور في جمع الضرائب الإسلامية

يقدم الإمام علي عليه السلام في هذه الرسالة دستوراً كلياً وشاملاً في البداية وفي عبارات موجزة للعاملين على جمع الزكوات، ثم يتطرق إلى الجزئيات والتفاصيل، وهذا بذاته أحد أساليب الفصاحة والبلاغة، يقول: «انْطَلِقْ عَلَىٰ تَقْوَىٰ اللَّهِ وَخَدَةَ لَأ شَرِيكَ لَهُ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ [٣٠٥] مُسْلِمًا وَلَا تَجْتَازَنَّ [٣٠٦] عَلَيْهِ كَارِهًا، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٦٨

يتحدث الإمام عليه السلام في هذا العبارات، مضافاً إلى الأمر بتقوى الله، عن ثلاثة أمور مهمّة، الأول: إن العاملين على الزكاة لا ينبغي لهم ترويع الناس واستخدام أساليب العنف والغلظة، لأنّ المأمورين على أخذ الضرائب في الماضي كانوا عندما يدخلون إلى منطقة معينة فإن أهالي تلك المنطقة يصيبهم الخوف والوحشة لئلا يطلب منهم المأمورون مبالغ باهظة يعجزون عن دفعها ولا يطيقونها، ولكن عندما يستخدم المأمور أسلوب الرفق ويتعامل معهم بحسن الخلق، فليس فقط لا يخافون منه بل يستقبلونه بكل رحابة صدر.

وفي التوصية الثانية يقول الإمام عليه السلام ليس فقط عدم ترويعهم، بل أن تتصرّف بشكل يفرحون بقدمك، فأنت مأمور من قبل أمير رحيم ورؤوف، جواد وكريم، ومن هذا الموقع يفتحون لك صدورهم وقلوبهم ويكرمون قدومك إليهم.

وفي الجملة الثالثة يتحدث الإمام عليه السلام، قبل أن يأمره بأخذ حقّ الله منهم بشكل كامل، يقول: لا تأخذ منهم أكثر من حقّ الله من أموالهم، وهذا تأكيد على الالتزام بالتقوى واجتناب أخذ أموال الناس بدون مبرر شرعي.

ثم إن الإمام عليه السلام بعد أن بين هذا الدستور الكلي يتطرق إلى التفاصيل، ويتحدث عن كيفية تعامل العاملين على الزكاة مع الناس في جباية الحقوق الإلهية وكيفية التعامل معهم في هذا المجال ويقول: «فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَىٰ الْحَيِّ [٣٠٧] فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَيْبَاتَهُمْ».

وهذه إشارة إلى أنه ينبغي لك أن لا تفرض نفسك على الناس وتكلّفهم بما ليس من واجبهم، فربما لا يكونوا في سعة من الحال بحيث يتقبلون استضافتك، في حين أن طبيعتهم استقبال الضيف حتى لو لم يكن لديهم ما يقدمونه، أو ربما لا يريدون أن تطّلع على وضعهم المالي عن قرب، أو أنك لو دخلت على أحدهم ضيفاً فربما

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٦٩

يفضى ذلك إلى امتعاض الآخرين ويتصوّرون أن مبعوث الإمام عليه السلام تربطه مع صاحب الدار رابطة خاصية ولذلك ترك القدوم عليهم والدخول إلى بيوتهم، وعلى ضوء ذلك يأمر الإمام عليه السلام عامله أن ينزل إلى جانب عيون الماء أو الآبار ويختار منها ما يقع في طريقهم ومورد عبورهم، والواقع أن هذا المكان يمثل مركزاً لالتقاء جميع أفراد الحي، والظاهر أن المأمور على جمع الصدقات لا يتوجّه إلى هذه المناطق منفرداً، بل يصطحب معه بعض الأفراد الذين يعينونه على أموره ويحملون معه الخيمة ولوازمها، والعلف وما إلى ذلك، فينصبونها إلى جانب غدير الماء أو العين ويقيمون في ذلك المكان.

ثم يضيف الإمام عليه السلام: «ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ؛ حَتَّىٰ تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تُخْدِجَ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ».

ومعلوم أن التوجّه إلى القوم بسكينته ووقار وإلقاء السلام والتحية عليهم يثير في قلوبهم الطمأنينة ويتسبب في شرح صدورهم وزوال كلّ أشكال الخوف والرهبنة من قلوبهم.

والغرض من هذه التوصيات تطهير الذهن في العرف العام من الرسوبات التي اخترنتها الذاكرة عن العشارين وجباة الضرائب في عصر الملوك وامراء الظلم والجور، حيث يأمرهم بجباتهم وأزلامهم بأخذ الضرائب والعشور والخراج من الناس بأساليب خشنة، فكان الناس

يتصوّرون أنّ وجود هؤلاء الجبّاء والعشّارين بمثابة البلاء السماويّ عليهم.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار جملة «لما تُخَدِّجُ من «الخداج» (على وزن علاج) تعنى فى الأصل الجمل الذى يولد ناقص الخلقه أو قبل موعده، ثم اطلقت هذه الكلمة على كلّ أمر ناقص، ويستفاد من هذه العبارة أنّ الإمام عليه السلام يروم التأكيد على هذه الحقيقة، وهى أن لا- يقصّر مبعوثه فى التحيّة والسلام وحسن الخلق فى التعامل مع المواطنين ولا- يتعامل مع الناس كما يتعامل الكثير من المأمورين والمسؤولين

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٧٠

الحكوميين مع الجمهور من موقع الفوقية والتعالى وحتى أنّهم لا يردون عليهم جواب سلامهم، وعبارة أخرى أنّ تعامل المأمورين مع الناس يجب أن ينطلق من موقع الودية والصدقة وعلى مستوى واحد بينهما.

ثم ينطلق الإمام عليه السلام لبيان الجزئيات المتعلقة بكيفية المطالبة بالزكاة بطريقة شيقة فيقول فى البداية: «ثُمَّ تَقُولُ: عِبَادَ اللَّهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيَّ اللَّهُ وَخَلِيفَتُهُ، لِأَخْذِ مِنْكُمْ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتَوَدُّوهُ إِلَيَّ وَلِيِّهِ».

واللافت أنّ الإمام عليه السلام يؤكد فى هذه العبارة على ثلاثة أمور: أحدها: أنّ الناس هم عباد الله، الثانى: إنّ العاملين على جمع الزكوات هم مبعوثون من قبل وليّ الله وخليفته الله، الثالث: أنّ ما يطلبونه من الناس هو حقّ الله الموجود فى أموالهم.

إنّ مثل هذه العبارات من شأنها تحريك عواطف الإنسان وتجعلهم مستعدين لدفع الزكاة، بل يتحرّك المستمع تحت تأثير هذه العبارات لدفع ما عليه من الزكاة والضريبة من موقع العشق والشوق، ويفكر فى نفسه أنّ مبعوث وليّ الله قد جاء إلينا ودعانا بوصفى عبد الله ولم يطلب منى شيئاً سوى حقّ الله فى مالى.

وجملة: «فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ» مع العبارات اللاحقة تعتبر بحدّ ذاتها أحد الأساليب الراقية فى أخذ الضرائب، وأحياناً نرى فى بعض المناطق فى العالم المعاصر الإشارة إلى هذا الأسلوب المتحصّر، ويتلخّص فى الثقة بالناس والاعتماد على صدقهم، يعنى أنّ الجمهور يتعامل مع المسؤولين بصدق وأمانه ولذلك يسأل المأمور أفراد الشعب عن وجود زكاة فى أموالهم دون المطالبة بها مع إنكارهم، والتجربة أثبتت أنّ مثل هذا الاعتماد والثقة المتبادلة لها أثر مهمّ فى توطيد العلاقة بين الجمهور والمسؤولين، وعلى العكس من ذلك إذا افترض المسؤول الحكومى أنّ الناس يتعاملون معه بآليات الكذب والتزوير وبالتالي يتعامل معهم كالدائن فى مطالبته من المدين، فإنّ ذلك من شأنه تقويض الثقة والعلاقة بين الطرفين ويتسبب فى دفع الناس لإخفاء أموالهم والتنمية على المسؤولين فى محاسباتهم لكي يتهزّبوا

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٧١

من دفع مستحقّاتهم المالية للحكومة، وعبارة معاصرة: ينبغى أن يفتحوا لهم دفترين:

دفتر لمحاسبة الأموال بمقدارها الحقيقى، ودفتر لمحاسبة المبالغ التى يدفعونها للمأمورين والعاملين على الزكاة.

وممّا يجدر ذكره أنّ الأعوام الأخيرة فى بلدنا (إيران) وفى عصرنا الحالى شهدت هذه التجربة الحضارية لأخذ الضرائب من قبل العاملين، وكانت النتيجة تضاعف حجم الدخل السنوى لبيت المال من الضرائب.

وفى الأسلوب التقليدى الذى يتبع فى مسألة الخمس يتمّ مراعاة هذا المطلب بشكل دقيق، وهو أنّ المؤمنين يتوجّهون لعلماء الدين بدوافع إلهية ونوايا صادقة ويقدمون لهم ورقة حساب أموالهم ليعيّنوا لهم مقدار الخمس الواجب دفعه منها بدون أى إكراه وإجبار.

وطبعاً فإنّ ما قيل آنفاً، يعتبر أصلاً عامّاً بالنسبة لجميع من وجب عليه دفع الزكاة فى أموالهم، ولكن ربّما توجد بعض الاستثناءات فى الموارد أيضاً، فبعض الإنتهازيين وأصحاب النفوذ والقوّة ربّما يواجهون الحكومة الإسلامية من موقع الرفض ويمتنعون عن دفع زكاتهم، وفى مثل هذه الموارد يجب على الحكومة التصدّى لهم وأخذ حقّ الله منهم بالقوّة لئلا يتجرّأ الآخرون على الاقتداء بهم ويرفعوا لواء المعارضة، ولكن كما قلنا آنفاً فهذه تعدّ استثناءً من القاعدة.

ويستمر الإمام عليه السلام في كلامه عن كيفية أخذ الزكاة: «فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَأَ، فَلَا تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ [٣٠٨] لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تُعَسِّفَهُ [٣٠٩] أَوْ تُرْهِقَهُ [٣١٠]».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٧٢

والأمر الجميل هنا أن الإمام عليه السلام يتحدث بغاية اللطف والمحبة عن الشخص الذي يعترف بوجود زكاة في أمواله ويبين كيفية التعامل معه في أربع جمل قصيرة تتضمن توصيات للعامل على جباية المال، الأولى يقول: إنه لا ينبغي لك أن تخيفه، مثلاً تقول له: إذا لم تدفع زكاتك بشكل كامل فسوف تتعرض للعقوبة، والآخرى أن لا تأخذ منهم شيئاً بأسلوب التهديد، والثالثة: أن لا تتشدد في أمر جباية الزكاة، والرابعة: أن لا تثير له مشاكل ولا ترهقه في المطالبة والحساب، يعني يجب عليك أن تتعامل معه كالشريك الودود الذي يتعامل مع شريكه بأية الصفح ورض الطوق، فعندما يعترف الطرف المقابل بوجود حق الله في أمواله فإن هذا الاعتراف منه يستحق كل احترام ويعتبر بحد ذاته قيمة أخلاقية وإنسانية ينبغي الرد عليها والتعامل معها بالمثل.

تأمل: آداب جمع الزكاة وحقوق بيت المال

إن ما ورد أعلاه يمثل جانباً من تعاليم الإسلام في ما يتصل بجمع الزكاة وأموال بيت المال وكيفية التعامل مع أصحاب الأموال. ونقرأ في الآيات شريفه أن القرآن الكريم الذي أسس لهذا مفهوم، يأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بأن يأخذ من المئتمولين صدقة وزكاة تطهرهم وتركيهم من لوث حب الدنيا والتكالب على الأموال والثروات، ثم يأمره بعد دفع الزكاة أن يصلّي عليهم ويدعو لهم لتكون صلاته ودعائه لهم سكوناً لنفوسهم: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صِلَاةَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ» [٣١١].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٧٣

وفي هذا المجال وردت في المصادر الحديثية روايات عديدة تبين جزئيات وتفصيل أخرى لآداب أخذ الزكاة، منها ما أورده العلامة المجلسي في (الجزء ٩٣ من بحار الأنوار في الباب ٩ تحت عنوان أدب المصدق) وفيها أحاديث كثيرة في عشر صفحات (٨٠ إلى ٩٠). ومن ذلك أنه ينقل: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَهَى أَنْ يُخْلَفَ النَّاسُ عَلَى صَدَقَاتِهِمْ وَقَالَ: هُمْ فِيهَا مَأْمُونُونَ يَعْنِي أَنَّهُ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَالٌ تَجِبُ فِيهِ زَكَاةٌ وَلَمْ يُوْجَدْ ظَاهِراً عِنْدَهُ لَمْ يُسْتَحْلَفْ» [٣١٢].

وفي حديث آخر يرويه عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث أمر أحد أصحابه والمسؤول عن جمع الزكاة بتوصيات متعددة منها أنه قال: «أَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِبَسِطِ الْوَجْهِ وَلِينِ الْجَانِبِ وَأَمْرِهِ أَنْ يَلْزَمَ التَّوَّاضِعَ وَيَجْتَنِبَ التَّكْبِيرَ» [٣١٣].

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً أنه قال: «وَإِذَا كَانَ الْجَدْبُ أَخْرَوْا حَتَّى يُخْصِبُوا» [٣١٤].

ونقل المرحوم الشيخ الحرّ العاملي أيضاً في كتابه وسائل الشيعة الجزء ٦ في كتاب الزكاة الباب ١٤ أحاديث متعددة في هذا المجال، ويستفاد من مجموع هذه الأحاديث أن الإسلام ينهى عن استخدام أي شكل من أشكال القوة والإكراه في عملية جمع الضرائب والزكاة، ويوجب على العاملين استخدام أسلوب الرفق والمداراة لمن تجب عليهم الزكاة في أموالهم، وبعبارة أخرى أن دفع الزكاة في الإسلام يدخل في إطار المسألة الإنسانية والأخلاقية، حيث يتسابق في دفعها وأدائها المؤمنون ليتنفعوا من بركاتهما المادية والمعنوية، لا أن الزكاة تمثل ديناً يتم أخذه من المدين بأي نحو من الأنحاء.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٧٤

وطبعاً يتسبب هذا النمط من التعامل الودود والإنساني ببعض الأضرار، وقد أساء الاستفادة منه بعض الأشخاص الانتهازيين الذين لا يروق لهم دفع الحقوق المالية، ولكن التجربة أثبتت أن البركات المادية والمعنوية في هذا الأسلوب الإنساني في التعامل أكثر من ضرره ولاسيما أننا نعلم أن دفع الزكاة وأمثالها يعتبر في الإسلام نوعاً من العبادة حيث يعتبر الإسلام قصد القربة وهذا القصد إنما

يتحقق في واقع الإنسان إذا اندفع الإنسان في هذه العبادة من موقع الاختيار والرغبة وأسداها طواعية.

ينقل المرحوم الكليني في الجزء الثالث من الكافي في باب «أدب المصدق» ثمان روايات في هذا المجال تعكس في مضامينها الرحمة والرأفة الإسلامية، ومن ذلك أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما نصب رجلاً من قبيلة بنى ثقيف والياً على منطقة في ضواحي الكوفة، أمره بمحضر من الناس أن لا يقصير في جمع الخراج ولا يترك منه ولو درهماً واحداً، ثم قال له: إذا أردت التوجه إلى تلك المنطقة أن تقدم عليّ. يقول ذلك الرجل: عندما ذهبت إليه قال لي: إن ما قلته لك فيما يخص الخراج إنما هو لحفظ الظاهر: «إياك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً في درهم خراج أو تبع دابة عمل في درهم، فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو» [٣١٥].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٧٥

القسم الثاني

إشارة

فَخُذْ مِمَّا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنْ أَكْثَرَهَا لَهُ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ وَلَا عَنِيفٍ بِهِ. وَلَا تُنْفِرَنَّ بِهِمَهُ وَلَا تُفْرِعَنَّهَا، وَلَا تُسَوِّأَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا، وَأَصْدَعِ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيْرَهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. ثُمَّ اصْدَعِ الْبَاقِيَ صِدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيْرَهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءً لِحَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ؛ فَاقْبِضْ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ. فَإِنْ اسْتَفَالَكَ فَأَقْلُهُ، ثُمَّ اخْلِطْهُمَا ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلًا حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ. وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْدًا وَلَا هَرَمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً، وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ، وَلَا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ، رَافِقًا بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَيْهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، وَلَا تُوَكِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحًا شَفِيقًا وَأَمِينًا حَفِيزًا، غَيْرَ مُعْنِفٍ وَلَا مُجْحِفٍ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُنْعَبٍ.

الشرح والتفسير: غاية الاحترام لمطالب الدافعين للزكاة

ثم يضيف الإمام عليه السلام إذا كانت الزكاة، على الذهب والفضة أى الدرهم والدينار أو قيمة زكاة الغلات منها، فخذ منها ما أعطاك ولا تناقشه في زيادة أو نقيصة في المقدار، لأنه قد وثق بك، فينبغي عليك أيضاً أن تثق به: «فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة».

وإن كان يملك ماشية وبقراً وإبلًا فلا تدخل عليها إلا بعد أن تستأذنه في ماله،

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٧٦

لأن أكثر هذه الأنعام ملك له سوى ما تعلق به الزكاة وهو قليل: «فإن كان له ماشية [٣١٦] أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه فإن أكثرها له». ثم يضيف الإمام عليه السلام: «فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف [٣١٧] به، ولا تنفرن بهيمه ولا تفرعنها [٣١٨]، ولا تسوأن صاحبها فيها».

والمقصود من هذه العبارة ضرورة احترام ملكية المالكين لهذه الأنعام، فلا تدخل على مكان الشياه أو الإبل بشكل عنيف بحيث تنفر هذه البهائم وتفرع منك، بل يجب عليك مداراتها ورعايتها فلا تتحرك بشكل يبعث على خوفها وضررها، لأن هذه الحيوانات وكذلك أصحابها يمكن أن يستاءوا من هذا الأسلوب، وهذا كلام يعبر عن غاية الأدب والخلق الذى ورد في توصية الإمام عليه السلام لعَمَّاله، بحيث إنه لا يهمل حتى حقوق الحيوانات عند جمع الزكاة، فكيف الأمر فيما يتصل بحقوق الإنسان واحترام مشاعره وعواطفه؟!

ثم إن الإمام ومن أجل أن يقع التقسيم عادلاً في اختيار الأغنام أو الإبل للزكاة ولا يثير اعتراض أصحاب الأموال، يوصى عامله بأن

يستخدم القرعة في انتخاب مورد الزكاة حتى لا يكون هناك إجحاف على المالك ولا على بيت المال وعندما يقترح على الشياه أو الإبل يخير صاحب المال في هذا المال ويقول: «وَاصِدِعَ [٣١٩] الْمَالِ صِدْعَيْنِ ثُمَّ خَيَّرَهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. ثُمَّ اصِدِعِ الْبَاقِيَ صِدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيَّرَهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٧٧

فِيهِ وَفَاءً لِحَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ؛ فَاقْبِضْ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ».

ثم يضيف الإمام عليه السلام: فإذا طلب صاحب المال أن تقيله حتى يجرى اقتراح جديد، فاقبل طلبه وأعد القرعة بعد أن تخطط الأنعام وتجري عليها مرة أخرى التقسيم والاقتراح حتى تأخذ منها حق الله: «فَإِنْ اسْتَقَالَكَ [٣٢٠] فَأَقْلُهُ، ثُمَّ اخْلِطْهُمَا ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلًا حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ».

وهنا ينبغي الالتفات إلى نقطتين هامتين: الأولى: أن مفهوم العبارة أعلاه لا يعني أنك في حال التقسيم تعمل على فصل الأغنام أو الإبل وتجعل الجيدة منها في جانب والمتوسطة في جانب آخر ثم تخير المالك بانتخاب أحدهما لأن الأغنام أو الإبل من جهة متداخلة ومخلوطة في الظروف العادية، ومن الطبيعي أنه عند تقسيمها سيكون قسم منها إلى جانب والقسم الآخر في جانب آخر، ومن جهة أخرى أن هذا العمل نوع من الاقتراح، وتدخل في مفهوم القرعة هذه الحقيقة، وهي أن التقسيم ينبغي أن يكون عادلاً، فلا بد من إختيار إحدى الجهتين من خلال القرعة.

والنقطة الأخرى، أننا نعلم أن عمر الإبل دخيل في مقدار زكاتها، وليست زكاة الأغنام، وعلى هذا الأساس يجب مراعاة عمرها في عملية التقسيم، أو نقول أن هذا التقسيم ناظر إلى الأغنام والبقر.

ضمناً يستفاد من مجموع هذا الكلام أن دفع الزكاة يمكن أن يتم حسابه على أساس القيمة (بقرينة التعبير بالذهب والفضة في مطلع هذا الكلام)، لأن هذا الكلام لا يتحدث فقط عن زكاة الدرهم والدينار بل ناظر إلى مطلق الزكاة، ويمكن أن تؤخذ الزكاة من عين المال الذي تعلق به الزكاة.

ولابد من الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أن الوارد في الروايات الإسلامية

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٧٨

وكلمات الفقهاء أن الحيوانات الممتازة كالغنم والإبل والغالية والأنعام الحامل والذكر منها الخاص بعملية التلقيح مستثناء من ذلك، يعني أن العاملين على جمع الزكاة لا ينبغي أن يستثنوا هذه الأنعام من الزكاة لكسب رضا أصحاب هذه الحيوانات، بل يفوضون أمرها لهم ليدفعونها عن طيب خاطر [٣٢١].

ثم إن الإمام عليه السلام يوصي عامله على الزكاة أن لا يأخذ من الحيوانات من تشكو عيباً ويختار الناقص والزهيد منها ويقول: «وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْدًا وَلَا هَرْمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً» [٣٢٢]، وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ [٣٢٣].

ومع الالتفات إلى أن كلمة «عَوْد» و«هَرْم» مترادفتان في المعنى ويقصد بهما الحيوان المسنن، ولكن «عَوْد» تعني الحيوان الذي تقدم في السن، و«هَرْم» بمعنى المتقدم في السن إلى درجة كبيرة بحيث لا يصلح لشيء.

أما «مهلوسة» فتارة تأتي بمعنى الحيوان المريض والمسلول وأخرى بمعنى كل حيوان مريض، والأنسب المعنى الثاني، أما «ذات عوار» فتعني الحيوان الذي يشكون عيباً ونقصاً، بأن يكون فاقداً للعين أو الاذن وما إلى ذلك.

والجدير بالذكر أن الفقهاء ذهبوا إلى أن المقصود من هذا الحكم أنه لو كان النصاب سالماً بأجمعه، فلا يمكن أخذ حيوان غير سليم من مكان آخر للزكاة بدل السليمة، ولكن إذا كان جميع النصاب مريضاً أو معيباً فلا مانع من أخذ الزكاة منها، ولا يشترط أن يأخذ للزكاة حيواناً سالماً، وكذلك إذا كان بعض النصاب معيباً

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٧٩

والبعض الآخر سالماً فتؤخذ الزكاة من السالم والمعيب، وهذا يدل على رعاية العدالة الإسلامية في المسائل المتعلقة بأمور الزكاة [٣٢٤].

ومن المناسب أن نذكر هنا أن الإسلام من جهة ينهى عن أخذ الحيوانات المعيبة والمسنة والمريضة للزكاة، لأن ذلك يتنافى مع كون الزكاة أمراً عبدياً وبمقتضى قوله تعالى: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» [٣٢٥]، ينبغى على الإنسان المسلم أن يخرج لركاته الشيء الطيب والسليم، ومن جهة أخرى يأمر الإسلام بوضع الأموال النخبة والممتلكات الثمينه بيد أصحابها ولا يؤخذ منها شيء للزكاة، لأن الكثير من الناس ربما يمتعضون ويستأوون من هذا العمل ويكونون مصداقاً لقوله تعالى: «إِنْ يَسْأَلُكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَخْفُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ» [٣٢٦]، وعلى هذا الأساس يراعى الحكم الإسلامى عملية التعادل والتوازن فى مسألة دفع الزكاة بشكل كامل.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٨١

القسم الثالث

إشارة

وَلَمَّا تَأَمَّنَّ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَتَّقُ بِدِينِهِ، رَافِقًا بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوصَلَّهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، وَلَا تُؤْكَلُ بِهَا إِلَّا نَاصِحًا شَفِيقًا وَأَمِينًا حَفِيفًا، غَيْرَ مُعْنِفٍ وَلَا مُجْحِفٍ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتْعِبٍ. ثُمَّ اخْتَرْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ نُصِيْرُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعَزْ إِلَيْهِ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقِهِ بَيْنَ فَصِّ يَلِيهَا، وَلَا يَمْضِيَ رَ لَبْنَهَا فَيَضُرَّ ذَلِكَ بَوْلِدِهَا؛ وَلَا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوبًا؛ وَلْيُعِدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا، وَلْيُرِفِّهْ عَلَى اللَّاعِبِ، وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّبِيبِ الطَّالِعِ، وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْعُدْرِ، وَلَا يَعِدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطَّرْقِ، وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّعَاتِ، وَلْيُمَهِّلْهَا عِنْدَ النَّطَافِ وَالْأَعْشَابِ، حَتَّى تَأْتِيْنَا بِإِذْنِ اللَّهِ بُدْنًا مُنْقِيَاتٍ، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ، لِنُقْسِمَ بِهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: الرأفة الإسلامية بالحيوانات

سبق أن رأينا أن الإمام على عليه السلام ذكر بعض التوصيات اللازمة فى كيفية أخذ الزكاة من الأشخاص الذين تعلقت الزكاة فى أموالهم، وفى هذا المقطع من الرسالة يتحدث الإمام عليه السلام عن كيفية حفظ هذه الأموال وشكل التعامل مع الحيوانات التى اخذت بعنوان الزكاة.

بداية يطرح الإمام عليه السلام صفات الأشخاص المأمورين بنقل الزكاة إلى بيت المال، ويستعرض عدده خصال لهم، فى الخصلة الأولى والثانية يقول الإمام عليه السلام «وَلَا تَأْمَنَنَّ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٨٢

عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَتَّقُ بِدِينِهِ، رَافِقًا بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوصَلَّهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ».

وعلى ضوء ذلك فإن أهم شرط فى مثل هذا الموارد رعاية الأمانة وأن يكون العامل موثقاً بدينه، والشرط الثانى أن يعيش الرفق والمداراة بهذه الأنعام، فإذا توفّر فى المتصدى لبيت المال والخزانة هذان الشرطان، فلا مجال لظهور مشكلة فى الأمور المالية، ولا يتوقع خيانه، ولا حدوث حيف وإفراط وتفریط فى مال المسلمين.

يوصل الإمام عليه السلام استعراضه لصفات المسؤولين والمأمورين لنقل هذه الأمور فيطرح ثمانية أوصاف لهم، ويقول: وَلَا تُؤْكَلُ بِهَا إِلَّا نَاصِحًا شَفِيقًا وَأَمِينًا حَفِيفًا، غَيْرَ مُعْنِفٍ [٣٢٧] وَلَا مُجْحِفٍ [٣٢٨]، وَلَا مُلْغِبٍ [٣٢٩] وَلَا مُتْعِبٍ [٣٣٠].

وبديهى أن هذه الصفات الثمانية منسجمة فيما بينها ومقتربة المعنى، فالراعى الناصح والمشفق لا يشد على الحيوانات فى المسير ولا

يتبعها، لأنه من جهة ستصيب هذه الأنعام مشقة، ومن جهة أخرى فإن هذا الاسلوب مخالف للعدالة الإسلامية وربما يؤدي إلى التقليل من وزنها أو مرضها وبالتالي سيلحق الضرر بالمستهلكين أيضاً.

والجدير بالذكر أن هذه التوصيات من قبل الإمام عليه السلام قد صدرت في وقت لم يكن هناك أي كلام عن حقوق الحيوان بين العلماء والمفكرين في العالم، ولا كلام عن حقوق الإنسان أيضاً، ولكن الإسلام بوصفه ديناً زاخراً بالقيم الأخلاقية والمثل المتعالية فإنه قرّر لزوم رعاية حرمة الحيوانات وحقوقها في أحكامه وتعاليمه وأكد على لزوم الرأفة بها (وسياتى توضيح أكثر في هذا المجال في بحث التنبهات).

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٨٣

ثم إن الإمام عليه السلام يتعرض لبيان توصية أخرى ويقول: «ثُمَّ اخْدُرْ [٣٣١] إِيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ نُصِيْرُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللّٰهُ بِهِ».

وتنطلق هذه التوصية من دليلين: الأول: أنه ربما يوجد بعض المحتاجين والمحرومين الذين ينتظرون المساعدة من بيت المال، فلو أبطأ إيصال حقهم إليهم فسواجوهون العسر والضيق ولا يمكنهم حل مشاكلهم، والآخر: أن تأخير إيصال هذه الأموال سيعرضها للآفات، ومن أجل وقايتها من تلك الآفات لابد من الإسراع في حملها إلى بيت المال وإيصالها إلى ولي أمر المسلمين.

وذهب بعض الشراح لنهج البلاغة إلى أن الاستفادة من هذه العبارة عدّة أحكام فقهية، الأول، جواز نقل الزكاة من مدينه إلى أخرى، والآخر: أنه لا يحق للمأمورين والعاملين على جمع الزكوات تقسيمها برأيهم، والثالث: أن الزكاة يجب إيصالها إلى ولي أمر المسلمين ويتم تقسيمها تحت نظره وإشرافه.

وبديهى أن هذا الحكم يتعلّق بالمناطق القريبة من مركز الحكومة والخلافة، وأما المناطق البعيدة التي لا يمكن نقل مال الزكاة إلى المركز إلا بصورة نقود، فلها حكم آخر، يعنى أن وكلاء الإمام عليه السلام يستطيعون جمع تلك الأموال وتقسيمها في مراكزهم ومحل ولايتهم.

ثم يبين الإمام عليه السلام كيفية نقل حيوانات الزكاة ويأمر عامله على الزكاة بعشرة أوامر دقيقة ويقول:

«فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ [٣٣٢] إِلَيْهِ أَلَّا يَحْوَلَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا [٣٣٣]، وَلَا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٨٤

يَمْصُرْ [٣٣٤] لَبْنَهَا فَيَضُرَّ ذَلِكَ بَوْلِدَهَا؛ وَلَا يَجْهَدْنَهَا رُكُوبًا، وَلَا يَعْدِلُ بَيْنَ صَوَابَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا، وَلْيُرْفَهُ عَلَى اللَّاغِبِ، وَلْيَسْتَأْنِ [٣٣٥] بِالنَّبِ [٣٣٦] وَالظَّالِعِ [٣٣٧].»

ما ذكر أعلاه من كلام الإمام عليه السلام يتضمّن ستّة أقسام من توصيات الإمام عليه السلام فيما يتّصل برعاية حال حيوانات الزكاة، وهى توصيات إنسانية وأخلاقية وتدلّ على أن الإسلام يرى لزوم مراعاة حال الحيوانات أيضاً، فهذه الحيوانات لا تملك لساناً لبيان حالها، ولا قدرة على الدفاع عن نفسها.

ثم بين الإمام عليه السلام عدّة توصيات أخرى في هذا المجال ويقول: «وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْعُدْرِ [٣٣٨]، وَلَا يَعْدِلُ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَى جَوَادٍ [٣٣٩] الطُّرُقِ، وَلْيُرَوْحَهَا فِي السَّاعَاتِ وَلْيُمْهَلْهَا عِنْدَ النَّطَافِ [٣٤٠] وَالْأَعْشَابِ [٣٤١]، حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللّٰهِ بِإِدْنًا [٣٤٢] مُنْقِيَاتٍ [٣٤٣]، غَيْرِ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ».

في هذه التوصيات الأربع الأخيرة يتحدّث الإمام عليه السلام عن مأكّل ومشرب هذه الحيوانات، والغرض من ذلك أن لا تشعر هذه الحيوانات بالعطش والجوع في مسيرها إلى مركز الخلافة وبيت المال، فينبغى أن تشرب في مسيرها من الماء

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٨٥

بالمقدار الكافى ويسار بها فى الطرق التى تكثر فيها الأعشاب والنباتات لتأكل منها.

وهذه التوصيات مضافاً إلى الطابع الأخلاقى والإنسانى لها، تعود بالنفع إلى بيت المال والمحتاجين والمستحقين لهذه الحقوق المالىة،

ولذلك يقول الإمام عليه السلام في نهاية هذا الكلام: «حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللَّهِ بُيُودًا مُنْقِيَاتٍ، غَيْرِ مُنْعِيَاتٍ وَلَمَّا مَجْهُودَاتٍ»، أى تأتى هذه الحيوانات سالمة ونشطة وغير مجهدة من تعب الطريق.

وفى ختام هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى الغرض النهائى من هذه التوصيات، ويقول: «لِنَفْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»، بين المحرومين والمستضعفين دون تدخل المنافع الشخصية فى هذه العملية. ثم يضيف الإمام عليه السلام: «فَإِنَّ ذَلِكَ أَكْبَرُ لِأَجْرِكَ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

تأملان

١. التأكيد على إيصال أموال الزكاة إلى المحرومين

يؤكد الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة النورانية ثلاث مرات على هذا الأمر، وهو أن أموال الزكاة بعد جمعها يجب تقسيمها بين المحرومين والمستضعفين، ففى مورد يقول الإمام عليه السلام: «مَالُ الْمُسْلِمِينَ، وَفِي مُورد آخر يقول: «فَيُقَسَّمُ بَيْنَهُمْ وَفِي مُورد ثالث يقول: «نُصِيْرُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ، فى ختام هذه الرسالة يقول: «نَفْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ. وهذا التكرار، وإن كان على حد قول ابن أبى الحديد: مخالف ابتداءً لمقتضيات البلاغة والفصاحة، ولكن نظراً إلى أن الناس كانوا يعيشون فى ذلك الوقت ذكريات زمان عثمان الذى كان يوزع بيت المال على فئة معينة من الأشخاص ويحرم منه المحتاجين والمعوزين، وأدى ذلك إلى اشتعال نار الفتنة والثورة عليه، فالإمام عليه السلام فى هذا المورد يكرس حالة الطمأنينة والثقة فى قلوب الناس بتكرار هذه العبارة ثلاث مرات فى هذه الرسالة وأن غرضنا من ذلك و تقسيم مال المسلمين بينهم وإيصال حقوق المستحقين إليهم.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٨٦

٢. حماية الحيوانات فى الإسلام

إن المجتمعات البشرية كانت منذ قديم الأيام تتعامل مع الحيوانات التى تنتفع منها من موقع الاحترام ومراعاة بعض الأصول والآداب فى ذلك، وفى بعض الموارد ربما تصل هذه العلاقة والتعامل إلى حد الإفراط وتتخذ شكلاً من أشكال العبادة كما يلاحظ ذلك فى هذا الزمان بين جماعة من الهندوس، حتى تشكّلت فى هذا العصر جمعيات الدفاع عن حقوق الحيوانات وقرروا لذلك قوانين ومقررات لضمان عدم تجاوز هذه الحقوق ضد الحيوانات، والأشخاص الذين لا يراعون هذه المقررات يتم الاعتراض عليهم، وبالرغم من أن هذا الموضوع حاله حال سائر المواضيع التى تتعلق بحقوق الإنسان أو الدفاع عن المعتقلين أو الأطفال وأمثال ذلك، اتخذت فى الكثير من الموارد صبغة سياسية وتبدلت إلى عصا غليظة لتخويف المعارضين السياسيين، وأحياناً نراهم يغضبون حقوق آلاف الأبرياء من الناس وينفقون مليارات من الدولارات على صناعة وتطوير أسلحة الدمار الشامل، ولا يرتفع أى صوت بالاعتراض عليهم، ولكنهم عندما يتعرض حيوان للأذى مثلاً فإنهم يرفعون عقيرتهم بالصراخ والعويل.

ولكن الإسلام راعى فى هذه المسائل حد الاعتدال منذ البداية وأكد على توصيات دقيقة بالنسبة للحيوانات، بحيث أن كل إنسان منصف يرى فى هذه التوصيات والمقررات جمالية وتعامل أخلاقى فى غاية اللطف.

وقد ورد فى كتبنا الروائية، أحاديث كثيرة فى هذا الباب، منها ما ورد فى الأبواب المتعلقة بالحج فيما يتصل بكيفية الاستفادة من الحيوانات للركوب فى مسير الحج تحت عنوان «أبواب أحكام الدواب فى السفر وغيره».

وقد أورد المرحوم الشيخ الحر العاملي في كتاب وسائل الشيعة في الجزء الثامن تحت هذا العنوان روايات كثيرة في أكثر من خمسين باباً، وفيما يلي نستعرض بعض هذه الروايات التي أوردها في الباب الأول:

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٨٧

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا خِصَالٌ: يَبْدَأُ بِعَلْفِهَا إِذَا نَزَلَ وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ إِذَا مَرَّ بِهِ وَلَا يَضْرِبُ وَجْهَهَا فَإِنَّهَا تُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا وَلَا يَقِفُ عَلَى ظَهْرِهَا إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يُحْمَلُهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا وَلَا يُكَلِّفُهَا مِنَ الْمَشْيِ إِلَّا مَا تُطِيقُ» [٣٤٤].

وهذا إشارة إلى أن بعض الأشخاص الذين يركبون هذه الدواب عندما يتقابلون فيما بينهم أو يمرّون على أحد المشاة يتوقّفون للسلام والتحية والحديث مع بعضهم، فينبغي للراكب أن ينزل عن ظهر الدابة إلى أن ينتهي من كلامه مع صاحبه ثم يركب دابته ويكمل مسيرته، لأنّ مثل هذا التكليف إتعاب للدابة في حال توقّف الراكب بدون مبرّر، ولكن مثل هذا التوقّف وعدم نزول الفارس إذا كان في ميدان القتال، له ما يبرّره لوجود الخطر في نزول الفارس من مركبه.

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال بما يشبه هذا المضمون: «لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا سِتَّةُ حُقُوقٍ» [٣٤٥] وفي رواية أخرى ذكر سبعة حقوق.

إنّ العبارات الدقيقة الواردة في هذه الرواية تعكس هذا الحقيقة الحاسمة، وهي أنّ الإسلام لم يغفل عن أدقّ التفاصيل وجزئيات المسائل في هذا الموضوع، وأنّه قدّم أفضل التوصيات والتعاليم الإنسانية في هذا المجال، والكثير من الأشخاص عندما يواجهون بعض القصور من دوابهم فإنهم يسارعون في ضربها بالسوط، ولكنّ الإسلام أكّد على لزوم التعامل مع الدواب بأسلوب حسن وعدم إلحاق الضرر والأذى بها، فنقرأ في حديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه توجّه أربعين مرّة من المدينة إلى مكة لزيارة بيت الله الحرام وكان يركب الناقة، وفي طيلة هذه المدة لم يضرب ناقته ولا سوطاً واحداً [٣٤٦].

وفي حديث معروف ومذكور في مصادر الشيعة وأهل السنة: «إِنَّ امْرَأَةً عُدَّتْ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٨٨

فِي هِرَّةٍ قَدْ رَبَطْتَهَا حَتَّى مَاتَتْ عَطْشًا» [٣٤٧].

بل يستفاد من بعض الروايات أنّه لا ينبغي سب الحيوانات وشتمها [٣٤٨] وهذا يدلّ على أنّ الحيوانات تملك شعوراً وفهماً بحيث تتألم من السب والشتم، مضافاً إلى أنّ هذا الكلام البديء من شأنه تلوّث لسان الإنسان وفمه وربّما يصير تدريجياً عادة له ويتعامل مع الناس أيضاً بمثل هذا التعامل السيء.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٨٩

الرسالة ٢٦

إشارة

إلى بعض عماله وقد بعته على الصدقة [٣٤٩]

نظرة إلى الرسالة

يحذّر الإمام عليه السلام في هذه الرسالة «مخنف بن سليم» من النفاق والإزدواجية في الشخصية، وينهاه عن سوء التعامل مع الناس وعدم الاهتمام والعناية بهم، وفي مقطع آخر من الرسالة يؤكّد الإمام عليه السلام على أنّك عامل لجمع الزكاة ولك سهم منها سندفعه

إليك، ولكن الباقي يتعلق بالمحتاجين والمستحقين من هذه الأمة، فينبغي إيصاله لهم. وفي ختام الرسالة يحذّر الإمام عليه السلام من أى شكل من الأشكال الخيانية فى الأمانة وأنّ خيانة الأمة وإمام الأمة تعدّ من أشنع الخيانات.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٩١

القسم الأول

إشارة

أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لَأَشْهَدَ غَيْرُهُ، وَلَمَّا وَكَيْلَ دُونَهُ. وَأَمْرُهُ أَلَّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعِيَةِ اللَّهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيَخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسْرَرَّ، وَمِنْ لَمَّا يَخْتَلِفُ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ أَخْلَصَ الْعِبَادَةَ وَأَمْرُهُ أَلَّا يَجْهَهُمْ وَلَا يَعْضَهُمْ، وَلَا يَزْعَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلاً بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ الْإِحْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ.

الشرح والتفسير: التعامل الحسن مع دافعي الضرائب الإسلامية

يأمر الإمام عليه السلام فى المقطع الأول من هذه الرسالة بثلاثة أوامر لعامله على جمع الزكاة، وتبدأ كلّ واحدة من هذه التوصيات بجملة «أمره».

بداية يأمره الإمام عليه السلام بلزوم تقوى الله تعالى فى الظاهر والباطن، العلانية والسرّ ويقول: «أمره بتقوى الله فى سرائر أمره وخفيايات عمله، حيث لأشهد غيرُهُ، ولما وكيل دونه».

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام فى هذه الجملة يشير إلى أحد أهم مصاديق التقوى، يعنى التقوى فى الأمور الخفية، أعم من التّية الباطنية والأعمال الظاهرية التى لا يراها سوى الله تعالى، وهذا الأمر يعدّ من أهم الأمور التى لا يمكن تحقيقها وتحصيلها إلّا من خلال الإيمان بالله والاعتقاد بحضوره فى كلّ مكان وزمان، إنّ المشكلات التى تعيشها المجتمعات البشرية، والأزمات التى تصيب الناس، تتعلّق غالباً بهذه المسألة، فتؤخذ القرارات بمعزل عن أهل الخبرة وتنجز الأعمال بعيداً

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٩٢

عن أنظار الناس ويتمّ التضحية بالمنفعة العامة لصالح المنافع الشخصية غير المشروعة.

وعبارة: «حيث لأشهد غيرُهُ، ولما وكيل دونه» ناظرة قطعاً للأشخاص العاديين غير الحاضرين فى خلوة الإنسان، ولكنّ الملائكة المأمورين بكتابة أعمال الإنسان يعيشون معه فى كلّ مكان وزمان ويراقبون أعماله وسلوكياته فى جميع الأوقات، والأعلى من الجميع الذات المقدّسة الحاضرة فى جميع أرجاء عالم الوجود ولا يخفى عليها شىء من صغائر الأمور وكبائرها.

ثمّ يأمره الإمام عليه السلام بالأمر الثانى ويقول: «وأمره أَلَّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيَخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسْرَرَّ».

وهذا يعنى أنّ الإنسان يجب أن يكون موحداً فى شخصيته حيث يتطابق ظاهره مع باطنه، لأنّ اختلاف الظاهر والباطن، والخلوة والجلوة، تعتبر مصداقاً بارزاً للنفاق، والمسلم ينبغى أن يكون بريئاً ونقيّاً من النفاق.

ثمّ يذكر الإمام عليه السلام كلاماً هو بمثابة الدليل على تلك التوصية ويقول: «وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ».

ومفهوم هذا الكلام أنّ الأشخاص الذين يختلف ظاهراً عن سريرتهم، ولا تتسجم أقوالهم مع أفعالهم، هؤلاء خونه وغير مخلصين فى طاعة الله، وهذه هى الحقيقة، فهل توجد خيانة أفضع من أن يقوم الإنسان بمزاولة أعمال حسنة بقصد الرياء أمام الناس، ولكنّه عندما

يخلو برّيه يسلك سلوكاً آخر، أو يقول بلسانه كلاماً مهذباً ويعد الآخرين بعود جميلة ويتحدّث عن الطهر والتقوى للناس ولكنه على مستوى العمل والممارسة يتحرّك في خطّ الهوى والانحراف ويتسبب بالتالي بعدم ثقة الناس بالدين وإضعاف الإيمان في قلوبهم؟! إن مثل هذه الأعمال السيئة مرفوضة ومذمومة من أى شخص، ولكنها إذا صدرت من المسؤولين والمتولين لأمر الناس فستكون أقيح وأشنع.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٩٣

ويشير الإمام عليه السلام في هذه التوصية في مسألة الإخلاص والأمانة إلى أمرين: أحدهما: التجانس والانسجام في السرّ والعلن، والآخر: الانسجام في القول والفعل، والحقيقة أن الإخلاص يقوم على أساس هذين الركبتين وأن المرادين من الناس يفقدون الالتزام بأحد هذين الركبتين أو بكليهما. وطبعاً فإن رعاية هذا الأصل بالنسبة للمسؤولين على بيت المال أهم وأشد من الآخرين حيث يجب أن يتحلّى المسؤولون بهاتين الصفتين، وهما الحفظ والأمانة.

ونقرأ في حديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ خَالَفَتْ سِرِّيَّتَهُ عَلَانِيَتُهُ فَهُوَ مُنَافِقٌ كَانَتْ أَمِنْ كَانَ وَحَيْثُ كَانَ وَفِي أَى أَرْضٍ كَانَ وَعَلَى أَى رُبِّيَّةٍ كَانَ» [٣٥٠].

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عن لقمان الحكيم أنه قال:

«لِلْمُنَافِقِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ: يُخَالِفُ لِسَانُهُ قَلْبَهُ وَقَلْبُهُ فِعْلُهُ وَعَلَانِيَتُهُ سِرِّيَّتَهُ» [٣٥١].

ثم يطرح الإمام عليه السلام في توصيته الثالثة ثلاثة أوامر لعامله ويقول: «وَأَمْرُهُ أَلَّا يَجْبَهُهُمْ وَلَا يَعْصَهُهُمْ، وَلَا يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفْضُلاً بِالْأَمَارَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحَقُوقِ».

وهذه ملاحظات نفسية مهمة جداً في مسألة جمع الضرائب وحقوق بيت المال وترتبط بشكل خاص بجميع أمور الإدارة والحكومة، فالتعامل الجيد مع الناس من شأنه تعميق أو اصر المودة والثقة المتبادلة بين الحكّام والمحكومين، وبالتالي تشجيع الناس على أداء الحقوق المالية والوظائف الشرعية عليهم وتجعل من المكلفين أن يتقدموا طواعية لدفع ما عليهم من تكاليف في مقابل الحكومة أو المدراء، من دون حاجة لجهاز مخابرات ومأمورين غلاظ شداد ومحاكم تفتيش وما إلى ذلك، بعد أن يتحرّك الناس في خطّ الإستقامة والمسؤولية والرسالة من موقع الوعي الكامل

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٩٤

بالوظيفة الشرعية، والتجارب الحديثة في العصر الحاضر تؤيد صدق هذا الكلام وصحة هذا البيان.

صحيح أن البعض ربّما يسيء الاستفادة من هذه المسألة ولا يؤدى ما عليه من حقوق لبيت المال، ولكنّ الخسارة المترتبة على مثل هذا السلوك الحسن أقل بكثير ممّا لو كان التعامل معهم بالكيات الشدّة والعنف.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٩٥

القسم الثاني

إشارة

وَإِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرْكَاءَ أَهْلِ مَسْكَنَتِهِ، وَضِعْفَاءَ ذَوِي فَاقِهِ، وَإِنَّا مُوقِفُكَ حَقِّكَ، فَوْفَهُمْ حُقُوقَهُمْ،

وَالَّذِي تَفْعَلُ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُومًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبُؤْسَى لِمَنْ - خَصِمُهُ عِنْدَ اللَّهِ - الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ وَالسَّائِلُونَ وَالْمَدْفُوعُونَ وَالْغَارِمُونَ وَابْنُ السَّبِيلِ! وَمَنْ اسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ وَرَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ وَلَمْ يَنْزِهِ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الدُّلَّ وَالْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى! وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ الْعِشِّ عِشُّ الْأَئِمَّةِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: اعمل بحيث لا يشكوك المحرومون يوم القيامة

ثم إن الإمام عليه السلام يشير إلى نقطة مهمة في هذا الشأن بإمكانها أن تكون بمثابة الدليل على الكلام السابق، وهي أن عامل جباية الزكاة لا ينبغي له الغفلة عن هذه الحقيقة، وهي أنه بوصفه عاملاً على جمع الزكوات له حق معين وسهم خاص من هذا المال، وأن الطوائف الأخرى من المستحقين للزكاة هم شركاء معه في هذا المال، فإن لم يراع حقهم في هذا المال فإن مصيره يوم القيامة سيكون وخيماً، يقول الإمام عليه السلام: «وَإِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيبًا مَفْرُوضًا، وَحَقًّا مَعْلُومًا، وَشُرَكَاءَ أَهْلِ مَسْكَنَتِهِ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقِهِ، وَإِنَّا مُؤَفُّوكَ حَقَّكَ، فَوْفِهِمْ حُقُوقُهُمْ».

وهذا الكلام إشارة إلى عدم معاملته أموال الزكاة كالمعاملات الخصوصية أو الشخصية، فطبقاً لصريح القرآن الكريم، أن هذه الأموال مشتركة بين ثمان طوائف من الناس.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٩٦

ويبين الإمام عليه السلام الآثار السيئة والمضرة للتخلف عن هذه التوصيات ويقول:

«وَالَّذِي تَفْعَلُ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُومًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وهو إشارة إلى أن الإنسان عندما يقف في محكمة العدل الإلهي فربما يواجه بعض الشاكين والمخالفين، ويستطيع أحياناً كسب رضاهم بشكل من الأشكال وأحياناً أخرى يواجه آثافاً مؤلفاً من الشاكين والساخطين عليه بحيث لا يستطيع كسب رضا الجميع، والأشخاص الذين يخونون بيت المال ويسرقون من الزكاة هم من هذه الفئة من الناس.

ويستمر الإمام في بيان توصياته في هذا الشأن ويقول: «وَبُؤْسَى [٣٥٢] لِمَنْ - خَصِمُهُ عِنْدَ اللَّهِ - الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ وَالسَّائِلُونَ وَالْمَدْفُوعُونَ [٣٥٣]، وَالْغَارِمُونَ وَابْنُ السَّبِيلِ».

ومفردة «الْفُقَرَاءُ»، «الْمَسَاكِينُ»، «السَّائِلُونَ» و «الْمَدْفُوعُونَ» كلها تشير إلى جماعة المحتاجين والمحرومين مع هذا الفارق، وهو أن الكثير من المفسرين للقرآن يعتقدون بأن المسكين هو أسوأ حالاً من الفقير، وكأنه من شدة فقره بلغ حداً أن جلس على الأرض، (لأن المسكين من السكون) فيجب على المسؤولين أن يهتموا بشكل خاص برعايته هذه الشريحة من الناس، لأنهم ربما لا يظهرون حاجتهم ويمدّون أيديهم إلى الناس وحتّى إلى بيت المال حياءً وخجلاً، في حين أن السائلين أراحوا ستار الخجل والحياء واضطروا لسؤال الناس ومدّوا أيديهم لطلب المعونة والمساعدة، و (المدفوعون) هم الأشخاص الذين يعيشون الغنى وعدم الحاجة بالقوة لا بالفعل، يعني يملكون أموالاً كافية، ولكن الغاصبين قد أخذوا منهم أموالهم وحرموهم من حقهم وجعلوا منهم فقراء ومحتاجين.

وأما «الغارمُون» فتعني المدنيين الذين عجزوا عن تسديد ديونهم إلى أصحابها،

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٩٧

أو الذين أعلنوا إفلاسهم، من الكسبة والتجارة، بدون تقصير منهم.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة، إلى أن «مَدْفُوعُونَ» تعادل كلمة «في سبيل الله» الواردة في مصارف الزكاة باعتبار أن هؤلاء مدفوعون لأعمال معينة بمنطلقات دينية إلهية، و «السائلون» تقع في مقابل «في الرقاب» الواردة في الآية الشريفة باعتبار طلبهم التحرر من الرق والعبودية، وعلى ضوء ذلك مصارف الزكاة الثمانية الواردة في الآية الشريفة ذكرت ستة منها في هذه الرسالة، وأحد مصارف الزكاة هو «العاملون عليها»، أي العاملين على جمع الزكاة، فالإمام أشار إلى ذلك سابقاً، وبقي المورد الثامن من المستحقين للزكاة وهو

المؤلفة قلوبهم حيث لم يرد فيه كلام الإمام عليه السلام بسبب أن هذا المورد لم يكن محل ابتلاء في ذلك الوقت، مضافاً إلى أن العلامة المجلسي ذكر بأن الإمام عليه السلام في هذا الكلام لم يكن بصدد ذكر جميع الموارد الثمانية لمصارف الزكاة حتى يتكلف البعض تأويل كلمات الإمام عليه السلام بما يتفق مع ما ورد في الآية الشريفة.

ويطرح الإمام عليه السلام في سياق كلامه استدلالاً متيناً في ما يؤول إليه خونه بيت المال ومصيرهم السيء في الدنيا والآخرة ويقول: «وَمِنْ اسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ، وَرَتَعَ [٣٥٤] فِي الْخِيَانَةِ، وَلَمْ يُتَزَّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَّ [٣٥٥] بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَالْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَذْلُ وَأَخْزَى .

أما الذلّة والفضيحة في الدنيا فتعود إلى أن الخيانات المتكررة لا تكاد تخفى على الآخرين فعاجلاً أم آجلاً سيفتضح الخائن وينظر إليه الناس بنظر الإزدراء والاحتقار ويلبس ثوب المذلّة والمهانة في واقع الحياة والمجتمع، وأما في الآخرة وعندما تقدّم للناس صحائف أعمالهم فذلك «يوم البروز» حيث تبرز الأعمال

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٩٨

الخفية وتنشر الملقّات وتذاع الأسرار على أهل المحشر، وهنا ستكون الفضيحة العظمى والخزي الأنكى.

والجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام لم يكتفِ هنا بالتعبير بالخيانة في الأمانة فقط، بل إنه اعتبر أن الاستخفاف و«اسْتِهَانَ بِالْأَمَانَةِ» يعدّ منقصة كبيرة وعبياً أخلاقياً، وهذا يعكس الأهمية الفائقة للأمانة.

يشير الإمام عليه السلام في ختام هذه الرسالة إلى نقطة أخرى، وهي أن الخيانة تارة تكون بالنسبة لشخص معين، وأحياناً أخرى ترتكب في حقّ الأئمة، ومعلوم أن الخيانة في حقّ الأئمة أقبح وأخطر من الأولى، يقول: «وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُئِمَّةِ، وَأَفْظَعُ [٣٥٦] الْعُشِّ [٣٥٧] غِشُّ الْأُئِمَّةِ، وَالسَّلَامُ».

والعلة في ذلك واضحة، لأنّ الإنسان إذا ارتكب خيانه في حقّ شخص أو عدّة أشخاص فربّما يندم يوماً ويتحرّك على مستوى البحث عن هؤلاء الأشخاص والاعتذار منهم وكسب رضاهم، ولكن إذا كانت الخيانة متوجهة إلى الأئمة فإن جبرانها سيكون عسيراً جداً وقد يكون محالاً، أضف إلى ذلك أن خيانه الأئمة تفضي إلى الخيانة لإمام الأئمة، وكسب رضا الإمام لا يعدّ أمر يسيراً.

وقد استفاد الإمام عليه السلام في هذه العبارة من مفردتين، احدهما: الخيانة، والآخرى:

الغشّ، وذلك من جهة أن الكثير من الخونة يستخدمون أسلوب الغشّ لإخفاء خيانتهم، وفي الحقيقة أنّهم يرتكبون مخالفتين، إحداهما الغشّ والآخرى الخيانة، ومن هذه الجهة أشار الإمام عليه السلام إلى كلا الأمرين، والسبب في أن الإمام عليه السلام ذكر الغشّ فيما يتصل بالأئمة، هو أن الخونة يخشون من الإمام وقادة الأئمة، ولهذا السبب يخفون أعمالهم الشائنة وخيانتهم بطريقة الغشّ والخداع.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢٩٩

تأملان

١. الأصناف الثمانية لمستحقّي الزكاة

ورد في القرآن الكريم في الآية ٦٠ من سورة التوبة بيان للموارد الثمانية لمصرف الزكاة، تقول الآية الشريفة: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»، ويمكن اختزال هذه المصارف والموارد الثمانية في ثلاثة أصول كليّة:

الأول: المحتاجون ويشمل الفقراء المساكين والعيبد الذين يعيشون التعب والإرهاق من شدة العمل، والغارمين ومن واجه الضيق والإفلاس في تجارته وعمله بدون تقصير منه، وكذلك من بقى في طريق السفر بدون مؤنة أو مال، وهذه الطوائف الخمسة تعتبر من المحتاجين، فبعضهم يحتاج لمعاشه اليومي من الطعام والملبس والسكن، وبعضهم يحتاج للمال لتسديد دينه، وثالث يحتاج للمال بسبب عجزه عن مواصلة سفره لعدم المال وفقدان المتاع (وإن كان في وطنه غنياً وغير محتاج)، وبعضهم يحتاج لإنقاذ نفسه من قيود الرق والعبودية.

الطائفة الثانية: الأشخاص الذين يعملون في شأن الضرائب وجمع الزكوات وحفظها وإيصالها إلى بيت المال فيجب أن يدفع لهم اجرة المثل لعملهم.

الطائفة الثالثة: المنافع العامة للمسلمين، نفقات الجهاد في سبيل الله، بناء المساجد، تأسيس المدارس، نشر وتبليغ الرسالة الإلهية، ولتأليف قلوب غير المسلمين وجذبهم نحو الإسلام، فهذه المصارف تتم تغطيتها من مال الزكاة، وهذه الطوائف الثلاث وردت في القرآن الكريم على شكل ثمانية موارد، وفي الحقيقة أن هذا الحصر في استحقاقات الزكاة يستوعب جميع حاجات المجتمع الإسلامي، ولو تم دفع الزكاة (وكذلك الخمس) بشكل دقيق ومدروس، فإنّ قسماً مهماً من المشاكل المالية سيتم حلها وسد أشكال الخلل الاقتصادي بهذه الطريقة، كما ورد هذا المعنى

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٠٠

في الروايات الشريفة، يقول الإمام الصادق عليه السلام «لَوْ أَنَّ النَّاسَ أَدَّوْا زَكَاتَهُمْ مَا بَقِيَ مُسْلِمٌ فَقِيْرًا مُحْتَاجًا ... وَإِنَّ النَّاسَ مَا افْتَقَرُوا وَلَا اِحْتَجُّوا وَلَا جَاعُوا وَلَا عَرَّوْا إِلَّا بِذُنُوبِ الْأَعْيَاءِ» [٣٥٨].

٢. الأمانة، أصل القيم الأخلاقية في الإسلام

تعتبر الأمانة وإلى جانبها الصدق، أصلان مهمان في التعاليم الدينية والمفاهيم القرآنية، ولا ينعكس هذان الأصلان الأخلاقيان بشكل كبير في القرآن الكريم والروايات الإسلامية فحسب، بل يعدان من جملة تعاليم ومبادئ جميع الأنبياء عليهم السلام، فنقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى الْبُرِّ وَالْفَاجِرِ» [٣٥٩]. وهذان الأصلان إلى درجة من الأهمية بحيث أنهما يعدان من علائم الإيمان والتقوى الرئيسية، كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لَمَّا تَنْظَرُوا إِلَى كَثْرَةِ صِيْلَمَاتِهِمْ وَصِدْوْمِهِمْ وَكَثْرَةِ الْحَرَجِ وَالْمَعْرُوفِ وَطَنْطَنَتِهِمْ بِاللَّيْلِ، وَلَكِنْ أَنْظَرُوا إِلَى صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ» [٣٦٠].

وفي حديث مماثل يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لَا تَغْتَرُّوا بِصِيْلَمَاتِهِمْ وَلَا بِصِيْلَمَاتِهِمْ فَإِنَّ الرَّجُلَ رُبَّمَا لَهَجَ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ حَتَّى لَوْ تَرَكَهُ اسْتَوْحَشَ وَلَكِنْ اخْتَبَرُوهُمْ عِنْدَ صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ» [٣٦١]. وقد وردت مثل هذه المضامين المثيرة في روايات أخرى كذلك.

والعلمة في كل هذه التأكيدات لا تحتاج إلى كثير بيان، لأن أهم رأسمال المجتمع الإسلامي هو الاعتماد المتقابل والثقة المتبادلة بين أفرادها، فلو انعدم هذا الاعتماد

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٠١

وزالت الثقة بين الأفراد، فإن ذلك من شأنه إضعاف حالة التعاون وتوهين عنصر التكاتف بين الناس، والعامل الأساس في تقوية الاعتماد والتكاتف بين الناس يتمثل في مبدأ الأمانة والصدق في التعامل والتواصل في فضاء المجتمع، لأن الخيانة والكذب يؤديان إلى انهدام صرح الاعتماد والثقة المتبادلة فيتحوّل المجتمع البشري في النهاية إلى صحراء مقفرة من المعنويات وتسود حينئذ شريعة

الغاب فلا يجد الإنسان مفزاً من الجفاف المعنوي، وتتعمق حالات الكراهية المتولدة من حالات الصراع. ومن أشنع أشكال الخيانة، كما أشار الإمام عليه السلام إلى ذلك في هذه الرسالة، خيانة الأئمة وخيانة بيت المال والحكومة الإسلامية، والتي تترتب عليها آثار مدمرة وعواقب وخيمة أشد بكثير من الخيانات الفردية.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٠٣

الرسالة ٢٧

إشارة

إلى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حِينَ قَلَّدَهُ مِصْرَ [٣٦٢]

نظرة إلى الرسالة

ورد في كتاب الغارات أن علياً عليه السلام لما أجاب محمّد بن أبي بكر رحمه الله بهذا الكتاب كان محمّد ينظر فيه ويتعلّمه ويقضى به، فلما ظهر عليه عمرو بن العاص أخذ كتبه أجمع فبعث بها إلى معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويعجبه، فقال الوليد بن عقبة وهو عند معاوية لما رأى إعجاب معاوية به: مر بهذه الأحاديث أن تحرق، فقال له معاوية: مه، يابن أبي معيط أنه لا رأى لك، فقال له الوليد: إنّه لا رأى لك، أتريد أن يعلم الناس أنّ أحاديث أبي تراب عندك؟! تتعلّم منها وتقضى بقضائه؟! فعلام تقاتله؟! فقال معاوية: ويحك أأمرني أن أحرق علماً مثل هذا؟! واللّه ما سمعت بعلم أجمع منه ولا أحكم ولا أوضح، فقال الوليد: إن كنت

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٠٤

تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله؟ فقال معاوية: لولا- أنّ أبا تراب قتل عثمان ثمّ أفتانا لأخذنا عنه، ثم سكت هنيهة ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنّنا لا نقول: إنّ هذه من كتب عليّ بن أبي طالب، ولكن نقول: إنّ هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمّد بن أبي بكر.

فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني امية حتى ولى عمر بن عبدالعزيز فهو الذي أظهر أنّها من أحاديث عليّ بن أبي طالب عليه السلام. ويضيف صاحب الغارات: فلما بلغ- يعنى استشهاد محمّد بن أبي بكر- عليّ ابن أبي طالب عليه السلام وأنّ ذلك الكتاب صار إلى معاوية اشتد ذلك عليه (يعنى لماذا مثل هذا الكتاب الرائع الزاخر باللؤلؤ والمرجان يقع بيد من ليسوا أهلاً لذلك) [٣٦٣].

وكيف كان، فإنّ هذه الرسالة طبقاً لما ذكره المرحوم السيد الرضى، تتضمّن عدّة مقاطع: الأول: أنّ الإمام عليه السلام يأمر بلزوم رعاية التواضع وإقامة العدل في معاملته الناس والتواصل معهم من موقع الرأفة والمحبة، وفي ذات الوقت الإهتمام بإبراز القوّة والقدرة في مقابل قوى الجور والثروة.

وفي المقطع الثاني: يتحدّث الإمام عليه السلام بشكل كلى وشامل عن إحدى صفات المتّقين في تعاملهم مع الدنيا والنعم المادية في عبارات بليغة وزاخرة بالمعاني العميقة، ويبين كيف أنّ هؤلاء المتّقين يستخدمون هذه النعم الإلهية في الدنيا دون أن يتورطوا في مهاوى الخطيئة ويقعوا في شباك حبّ الدنيا.

ويشير الإمام عليه السلام في المقطع الثالث، إلى نهاية الحياة وحلول الأجل ويتحدث بكلمات بليغة بحيث أن التدقيق في مضامينها والتمعن في معانيها من شأنه إيقاظ كل إنسان من سبات الغفلة.

ويلفت الإمام عليه السلام في المقطع الرابع نظر محمد بن أبي بكر إلى أهميته وخطورة

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٠٥

هذه المهمة التي كلفها به (أي حكومة مصر)، ويشير عليه ببعض التوصيات اللازمة في هذا المجال.

وفي المقطع الخامس والأخير، يعود الإمام لبيان تحليل كلي وشامل في الحديث عن الفرق بين قادة الهدى والحق وقادة الضلال والباطل ويشير إلى خطر المنافقين في المجتمع الإسلامي.

وبعد الالتفات إلى أن وثيقة العهد هذه مطولة بدرجة كبيرة لم يتمكن السيد الرضوي من ذكرها كلها في كتابه، ولذلك اختار بعض الفقرات والمقاطع منها، وقد وردت هذه الرسالة كلها في كتاب الغارات ونهج البلاغة الكامل وغيرهما.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٠٧

القسم الأول

إشارة

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرَةِ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ، وَلَا يَتَأَسَّ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعَشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمُسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَآتَتْكُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَغْفِرْ فَهِيَ أَكْرَمُ.

الشرح والتفسير: حسن الخلق مع جميع الأفراد

كما تقدمت الإشارة إليه آنفاً فإن القسم الأول من هذا الرسالة ناظر إلى سلسلة من التوصيات الأخلاقية التي أمر الإمام عليه السلام واليه محمد بن أبي بكر بالالتزام بها في تواصله وتعامله مع الناس، والواقع أن المسلمين جميعاً يجب أن يكونوا كذلك في توثيق وشائج المودة والعلاقة بينهم، وهذه التوصيات تتمثل في أربعة أمور:

الأول: لزوم رعاية المودة والمحبة لجميع الأفراد في المجتمع، يقول الإمام عليه السلام:

«فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ».

وهذا التعبير مقتبس من القرآن الكريم في رسم كيفية تعامل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مع المؤمنين حيث تقول الآية الشريفة: «وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» [٣٦٤]، وهذا تعبير كناية مستوحى من سلوك الطير مع فراخه، فعندما تأتي الفراخ إلى أمها فإن هذه الأم ستفتح جناحها لهم وتجمع هؤلاء الفراخ تحت جناحها إظهاراً

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٠٨

للمحبة لها وحماية لهذه الفراخ من الأذى.

والأمر الثاني يقول الإمام عليه السلام: «وَأَلِنْ [٣٦٥] لَهُمْ جَانِبَكَ».

وهذا التعبير أيضاً من القرآن الكريم حيث يقول: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ» [٣٦٦].

وفى الأمر الثالث يقول الإمام عليه السلام: «وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ».

فلا ينبغي التعامل مع أى فرد من أفراد المجتمع بوجه عبوس وظاهر متجهم، والحديث معهم بمنطق الاستعلاء والغرور، فإن هذا من شأنه إبعاد الناس عنك وتشبثهم عن مركز القيادة، كما ورد هذا المعنى فى القرآن الكريم حيث يأمر نبي الإسلام صلى الله عليه وآله ويقول: «وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ» [٣٦٧].

والأمر الرابع ناظر إلى إقامة العدل فى جميع مناحى الحياة حتى فى جزئيات الأمور، يقول الإمام عليه السلام: «وَأَسِ [٣٦٨] بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ [٣٦٩] وَالنَّظَرِ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ [٣٧٠] لَهُمْ [٣٧١] وَلَا يَتَأَسَّ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ [٣٧٢]».

وهذا إشارة إلى أنه لو حضر عندك رجل ثرى وذو نفوذ مع رجل ضعيف ومعدم لتقضى بينهم، أو لغرض آخر، فينبغي عليك مراعاة العدالة بينهما إلى حد أنك إذا نظرت لحظات معدودة لأحدهما فيجب أن تنظر إلى الآخر بهذا المقدار أيضاً ولا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٠٩

تهتم وتصغى للغنى أكثر من اهتمامك للفقير والضعيف، فلو أنك راعيت مقتضيات العدالة فى هذه الجزئيات الصغيرة فسوف تستطيع بطريق أولى رعاية العدالة فى الأمور الأهم ولا يتوقع منك الظلم والجور والانحياز لفئة خاصة على حساب فئة أخرى. وهذا هو الحكم الشرعى فى باب القضاء الإسلامى وفى مورد رعاية القاضى للعدالة بين المتخاصمين حيث يجب عليه مراعاة المساواة والعدالة بين المتخاصمين فيما لو حضرا عنده، فلو أرادا الجلوس فعليهما أن يجلسا معاً، وإذا عزموا على الوقوف، عليهما الوقوف سوياً، فلو أن القاضى سلم على أحدهما فيجب عليه أن يسلم على الآخر، وإذا نظر إلى أحدهما لحظات فعليه أن ينظر للآخر بذلك المقدار، وإصرار الإسلام على رعاية مثل هذه التوصيات والمقررات إنما هو لمنع أى شكل من أشكال الظلم والجور، ولا تتصور أن مثل هذا القانون فى رعاية أصل العدالة موجود فى أى من القوانين القضائية فى عالمنا المعاصر وبمثل هذه الدقة.

وقد ورد فى حديث نقله الكليني فى الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «مَنْ ابْتُلِيَ بِالْقَضَاءِ فَلْيُؤَسِّبْ بَيْنَهُمْ فِي الْإِشَارَةِ وَفِي النَّظَرِ وَفِي الْمَجْلِسِ» [٣٧٣].

ومثل هذا المعنى ورد أيضاً فى الرسالة ٤٦ من نهج البلاغة والى كتبها الإمام عليه السلام لأحد عماله.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه وتوصياته ويذكر عنه هذا الحكم ويقول: «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعَشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمُسْتَوْرَةِ، فَإِنْ يُعَذَّبُ فَانْتُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَعْفُ فَهِيَ أَكْرَمُ».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣١١

القسم الثانى

إشارة

وَاعْمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سَكِنَتْ، وَأَكَلُوا بِأَفْضَلِ مَا أَكَلَتْ، فَحَظُّوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظَّ بِهَ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ؛ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلَّغِ؛ وَالْمُنَجَّرِ الرَّابِحِ أَصَابُوا لِمَذَّةِ زُهَيْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللَّهِ عَدَاً فِي آخِرَتِهِمْ. لَأَتَرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةِ.

الشرح والتفسير: الدنيا والآخرة لمن يعيش البساطة والزهد

فى هذا المقطع من الرسالة تحدت الإمام عليه السلام عن موضوع شامل فى بيان صفات المتقين وامتيازاتهم وخصالهم ليكون ذلك

درساً لمحمد بن أبي بكر ولسائر أهالي مصر، يقول الإمام عليه السلام بداية:

«وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجَلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكُوا [٣٧٤] أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ».

ثم إن الإمام عليه السلام تعرّض لشرح وتوضيح هذا العبارة فقال: «سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣١٢

مَيَا سِيكَتٍ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُّوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظَى بِهِ الْمُتْرَفُونَ [٣٧٥]، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ»، (أى بعيداً عن التكلّف والتكالّب على زخارف الدنيا فى تنميق المساكن وتزيين القصور). وأكلوها بأفضل ما اكلت (الطعام الحلال والبسيط والبعيد عن التلوّث والإسراف).

ومفهوم هذا الكلام لا يعنى أنّ المتّقين الزاهدين يهتمّون بالجلوس على الموائد الملوّنة والسكن فى القصور المجلّلة وارتداء الملابس الأنيقة، بل المراد من ذلك أنّ هؤلاء فى حياتهم البسيطة يتنعمون منها كما يتنعم أهل الدنيا، لأنهم من جهة يسعون لتوفير ما يحتاجون إليه من المأكّل والملبس والمسكن، وبالتالي فإنهم يتنعمون بها أيضاً، لأنّ الإنسان المحتاج عندما يحصل على مقصوده ويحقق مراده فإنّه يشعر باللذّة والراحه، كالإنسان الجائع عندما يأكل طعاماً بسيطاً، ومن جهة أخرى أنّهم يعلمون أنّ ما يملكونه قد حصلوا عليه من طريق حلال وأنّ الله رزقهم هذه النعم بطريق مشروع، فلا- تترتب عليه العقوبة الاخرية، وبالتالي ينتفعون من هذه النعم والمواهب بروح هادئة وقلب مطمئن ومشاعر منفتحة.

والكثير من الأشخاص الذين يعيشون فى بيوت صغيرة ويملكون وسائل بسيطة من الأثاث ويأكلون ويلبسون ما توفّر لهم من الطعام الزهيد الثمن واللباس المناسب، يعيشون فى ذات الوقت معنويات عالية ولا يجدون فى أنفسهم امتعاضاً أو شكايه من حالهم، وبذلك يحسّون بالطمأنينة والهدوء النفسى فى واقع الحياة ويشعرون بالسعادة وطيب خاطر، فى حين أنّ غالبية الأثرياء الذين يسكنون القصور المجلّلة ويملكون أفضل وسائل العيش ويجلسون على موائد ملوّنة وتجلب لهم أنواع الأطعمة؛ يعيشون الاضطراب والقلق فى حياتهم، وأحياناً تصيبهم الكآبة المزمنة والأمراض النفسية، والتجارب فى هذا الموضوع تؤكّد صحه ما ذكره الإمام على عليه السلام فى العبارة أعلاه.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣١٣

أضف إلى ذلك أنّ المتّقين وبسبب حياتهم البسيطة والبعيدة عن الترف والتجمل، عندما يحين أجلهم ويتركون الدنيا فإنهم لا يشعرون بالحسرة فى قلوبهم عليها، ولكن المستهترين المتكبرين والمترفين الذين عاشوا حياة الترف والتكالّب على ملذّات الدنيا وزخارفها عندما يحين أجلهم فسوف يعيشون أشدّ الحسرات على ما ستركونه من نعيم ولذّة، وبخاصه إذا كانوا يعتقدون باليوم الآخر ويعلمون أنّهم سيحملون وزر هذه الثروات والخطايا على أعناقهم يوم القيامة.

غنى النَّفْسِ يُغْنِيهَا إِذَا كُنْتَ قَانِعًاوَلَيْسَ بِمُغْنِيكَ الْكَثِيرُ مِنَ الْحَرِصِ

وَإِنَّ اعْتِقَادَ الْهَمِّ لِلْخَيْرِ جَامِعٌ وَقَلَّةُ هَمِّ الْمَرْءِ تَدْعُو إِلَى النَّقْصِ

ويستمرّ الإمام عليه السلام فى كلامه عن خصال المتّقين ويقول: «ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبْلَغِ [٣٧٦]، وَالْمَتَجَرِّ الرَّابِحِ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّ هُمْ جِرَانُ اللَّهِ [٣٧٧] غَدًا فِي آخِرَتِهِمْ، لِأَتَرُدُّ لَهُمْ دَعْوَةً، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةِ».

جملة: «لَا تَرُدُّ لَهُمْ دَعْوَةً» إشارة إلى ما ورد فى الآية الشريفة: «لَهُمْ فِيهَا فَكِيهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ» [٣٧٨].

وجملة: «وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةِ» إشارة إلى قوله تعالى: «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ» [٣٧٩].

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنّ عبارة: «لَا تَرُدُّ لَهُمْ دَعْوَةً وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةِ» ناظرة لحال المتّقين فى هذا الدنيا، فإنهم وبسبب إيمانهم وحسن يقينهم وصلاح عملهم مستجابو الدعوة، فلا ينقص لهم شىء من لذّات الدنيا، ولكن هذا التفسير بعيد عن

الصواب، لأن الجملة بعد هذه العبارة تتحدث عن الآخرة، وأما

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣١٤

حال المتقين في الدنيا فقد ورد في العبارات والجملة السابقة، وكما أسلفنا فإن هاتين الجملتين إشارة إلى ما ورد في الآيات القرآنية بهذا المضمون.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣١٥

القسم الثالث

إشارة

فَاخْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عِدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرِ عَظِيمٍ، خَطْبٍ جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لَيَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَوْ شَرٌّ لَيَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَيْدَاءً فَمَنْ أَقْرَبَ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِيهَا! وَمَنْ أَقْرَبَ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِيهَا! وَأَنْتُمْ طُرْدَاءُ الْمَيُوتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهِيَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ الْمَيُوتِ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ؛ وَالِدُنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ. فَاخْذَرُوا نَارًا قَعْرَهَا بَعِيدٌ، وَحَرْهَا شَدِيدٌ، وَعَدَائِبُهَا جَدِيدٌ. دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ وَلَا تَفْرَجُ فِيهَا كُرْبَةٌ وَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ يَكُونُ حَسُنَ ظَنُّهُ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ ظَنًّا بِاللَّهِ أَشَدَّهُمْ خَوْفًا لِلَّهِ.

الشرح والتفسير: تحذيرات متوالية

يتحدث الإمام عليه السلام في المقطع من هذه الرسالة مرة أخرى عن موضوع كلى وعمّ يشمل مخاطبه محمّد بن أبي بكر وكذلك جميع الناس، وجاء في مطلع هذه الرسالة التي ينقلها السيد الرضى، أنّ الإمام عليه السلام يأمر محمّد بن أبي بكر أن يقرأها على جميع الناس، يقول: «فَاخْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عِدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرِ عَظِيمٍ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لَيَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَوْ شَرٌّ لَيَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَيْدَاءً».

وقد قلنا مراراً أنّ الإنسان حتى لو شكّ في أى أمر من الأمور فإنه لا يشكّ في

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣١٦

الموت ونهاية الحياة، حيث يشمل جميع أفراد البشر بدون استثناء، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ الموت يمثّل بداية الحركة باتجاه الآخرة، فينبغي للإنسان أن يأخذ العدة ويتهيأ لهذا السفر الطويل ويعمل على توفير ما يحتاجه لضمان سلامة مسيرته الأبدية.

ومن هذا المنطلق يعتبر الإمام على عليه السلام الموت مرحلة مصيرية ومنعطف خطير في حياة الإنسان حيث يقوده إلى إحدى جهتين، فإما الحياة الطيبة الزاخرة بالسعادة والحبور والسلامة وهي الجنة الخالدة التي جعلها الله تعالى للصالحين من عباده، أو جهنم العذاب الأليم والمصير السيء الذي لا يمكن الخلاص منه والنجاة من آلامه أبداً، وكما أنّ الإنسان لا يعلم من أى الطائفتين سيكون مصيره فلذلك ينبغي له التزام الحذر والاحتياط في هذا السفر الخطير.

وبالنسبة للفرق بين «أمر عظيم» و«خطب جليل» ففي حين أنّ هاتين العبارتين متقاربتان في المعنى فإنّ شراح نهج البلاغة على حدّ علمنا واطّلعنا لم يتحدّثوا في هذا المجال، ولكن ربّما تكون عبارة «أمر عظيم» إشارة إلى الانتقال من هذه الدنيا والسفر إلى العالم الآخر بدون إمكانية العودة، أمّا بالنسبة «خطب جليل» إشارة إلى حساب الأعمال وما يترتب عليها من جزاء ومثوبة، ويحتمل أيضاً أنّ

«أمر عظيم» إشارة إلى جملة «خَيْرٌ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَدًا» و «خطب جليل» الذي يوحى في مفهومه بالمصيبة الكبيرة، هو إشارة إلى جملة «شَرٌّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَدًا».

وهنا يفرض هذا السؤال نفسه، وهو أن الإمام عليه السلام في هذه العبارة قسم الناس إلى طائفتين فقط، فطائفة ينعمون بالسعادة الأبدية ويعيشون حالات الخير والبركة التي لا يمتزج معها شرٌّ أبداً، وطائفة على العكس من ذلك، وهم الغارقون بالشرور المصائب، ولا يتاح لهم الحصول على خير أبداً، في حين أننا نعلم بوجود طائفة ثالثة أيضاً وفقاً لما ذكره القرآن الكريم حيث يقول: «خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [٣٨١].

نفعات الولاية، ج ٩، ص: ٣١٧

وقد أجاب شراح نهج البلاغة عن هذا السؤال بإجابات مختلفة، وأحياناً تكون مقترنة بالكثير من التعسف والتكلف، ولكن أوضح جواب هو أن الإمام عليه السلام في هذا الكلام ناظر إلى أفراد متميزين يسيرون في خط الطاعة أو العصيان، وليس ناظراً إلى جميع الأفراد، وبعبارة أخرى أن مثل هذا الحصر هو حصر إضافي ناظر إلى المؤمنين الكاملين في الإيمان الذين بلغوا الذروة في مراتب الإيمان والإخلاص، وكذلك رموز الكفر والظلم، لا أنه حصر حقيقي يشمل جميع الأفراد.

وقد ورد في القرآن الكريم عبارات من هذا القبيل أيضاً، مثلاً نقرأ في سورة هود: «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ* فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ خَالِدِينَ فِيهَا... * وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا» [٣٨٢].

وجاء في حديث عن الإمام الجواد عليه السلام عن آباءه الكرام عليهم السلام: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: صف لنا الموت فقال: «هُوَ أَحَدٌ ثَلَاثَةٌ أُمُورٍ يَرِدُ عَلَيْهِ إِمَّا بِشَارَةٍ بِنَعِيمِ الْأَبَدِ وَإِمَّا بِشَارَةٍ بِعَذَابِ الْأَبَدِ وَإِمَّا تَخْرِيْنٌ وَنَهْوِيْلٌ وَأَمْرُهُ مُبْهَمٌ، لَأَتَدْرِي مِنْ أَيِّ الْفَرَقِ هُوَ فَأَمَّا وَئِيْنَا الْمُطِيعُ لِأَمْرِنَا فَهُوَ الْمُبَشَّرُ بِنَعِيمِ الْأَبَدِ» [٣٨٣].

وفي آخر هذه الرواية ورد أيضاً أن بعض أفراد الطائفة الثالثة سيمكثون مدة معينة في النار ثم تشملهم شفاعته أهل البيت عليهم السلام، وطائفة منهم سينالون الشفاعته بعد مدة طويلة.

ومن هنا يتبين ما ذهب إليه ابن أبي الحديد في تفسير هذه العبارة بما يؤيد مذهبه، حيث قال: «قوله: فإنه يأتي بأمر عظيم... نص صريح في مذهب أصحابنا في الوعيد، وأما من دخل النار من جميع المكلفين فليس بخارج، لأنه لو خرج منها لكان الموت قد جاء بشره معه خير، وقد نفى نفياً عاماً أن يكون مع الشر المعقب للموت خير البتة» [٣٨٤]، وهذا الكلام غير سديد ولا يتوافق مع سائر كلمات الإمام عليه السلام

نفعات الولاية، ج ٩، ص: ٣١٨

والآيات القرآنية الشريفة، والمراد هنا بيان حال طائفتين من المؤمنين الخالصين والكافرين كذلك، أما الأشخاص الذين ورد ذكرهم في الآية الشريفة من سورة التوبة: «خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا»، فإنهم قطعاً لم يكونوا مورد نظر الإمام عليه السلام في هذه العبارة. ثم إن الإمام عليه السلام بين شرط دخول الجنة وسبب دخول النار في جملتين قصيرتين: «فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِيهَا، وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِيهَا».

وهذا يشير إلى أن الأصل في تعيين مصير الإنسان هو العمل والسعي، لا الآمال والتمنيات، فالأعمال هي التي تقود الإنسان إلى الجنة أو إلى النار، فحتى شفاعته الشفاء تقع في الهامش ولا تشكل أصلاً أساسياً في النجاة.

والجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام يقول هنا أن العاملين للجنة هم أقرب الناس إليها، والعاملين للنار، أي السائرين في خط المعصية والضلالة، هم أقرب الناس إلى النار، ولم يقل إن العاملين للأعمال الصالحة والأعمال السيئة، وهذا يعدّ كناية لطيفة عن أن العمل الصالح كأنه هو الجنة، والمعصية والذنوب والعمل الطالح كأنه هو النار.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة المهمة، وهي أن الموت لا يترك أحداً ينجو منه ويتخلص من الوقوع في مصيدته، وبما أن

الأمر، كذلك فينبغي التزام الجديّة والاهتمام بهذا الأمر، يقول: وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ [٣٨٥] الْمَوْتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ [٣٨٦]، وَالْدُّنْيَا تَطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣١٩

وأحد معاني عبارة «طُرَدَاءُ الْمَوْتِ» هو أنّ الناس بمثابة الصيد الذي يتبعه الصياد، ومفهومها أنّ الصياد بدرجة من الخبرة والقدرة بحيث يصيد البشر سواءً هربوا منه أو لم يهربوا، فلا أحد يستطيع الخلاص من شراكه ومصائده، كما ورد هذا المعنى في القرآن الكريم: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ» [٣٨٧].

وجملة «هُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ» إشارة إلى أنّ عوامل الموت تصحب الإنسان دوماً كالظلّ الذي يتحرّك مع الإنسان أينما ولى، لأنّ للموت عوامل كثيرة في عمق وجود الإنسان، أحدها السكنة القلبية أو انقطاع أحد الأوردة الدقيقة في المخّ، أو دخول مقدار من الغذاء إلى جهاز التنفّس، وكلّ من هذه العوامل يمكن أن يؤدّي بالإنسان إلى الموت، وفي خارج الإنسان هناك عوامل كثيرة للموت أيضاً منها الحوادث الأليمة كالزلازل والصواعق، السيول، الحشرات المضرّة، الحيوانات المفترسة، وما إلى ذلك من الأمور التي تهدّد حياة الإنسان بالخطر فلا يستطيع أن يهرب إلى مكان لا يوجد فيه شيء من هذا العوامل الخارجية والداخلية للموت.

وعبارة «ألزم» ربّما تكون بسبب أنّ الظلّ لا يصاحب الإنسان في ظلمات الليل، ولكن عوامل الموت متوفّرة ليل نهار.

وجملة: «الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ» كناية عن أنّكم لا تملكون أيّة مقاومة في مقابل سلطة الموت القاهرة كما هو حال الشخص الذي اخذ من شعر مقدّم رأسه بحيث يسلبه ذلك أيّ نوع من الحركة.

ويقرّر القرآن الكريم هذه الحقيقة فيما يتّصل بمصير المجرمين في يوم القيامة ويقول: «يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ» [٣٨٨].

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٢٠

وجملة: «الْدُّنْيَا تَطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ» إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الإنسان يتجاوز كلّ مرحلة من مراحل الحياة وكأنّها كالفرش الذي يطوى خلف الإنسان، بحيث يمكن إعادته لحالته السابقة، فالشيوخ لا يعودون إلى مرحلة الشباب، والشباب لا يعودون لمرحلة الطفولة، وعلى ضوء ذلك فإنّ كلّ لحظة تمثّل للإنسان موتاً وحياءً جديدة، الموت الذي لا يمكن معه العودة إلى الحالة السابقة.

وبعد أن بيّن الإمام عليه السلام ما سيواجهه الإنسان في نهاية الحياة وبعد الموت من حوادث مهولة ومشاكل جسيمة، تحدّث عن عذاب النار والعاقبة الوخيمة لأهل الضلالة في ذلك اليوم، وقال: «فَاخْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ وَحَرْزُهَا شَدِيدٌ، وَعَدَابُهَا جَدِيدٌ».

وبالنسبة لعمق وادي جنّهم يكفي أن ننقل هذا الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله عندما كان مع أصحابه في المسجد، فجاء سمعوا صوتاً مدوياً، استولى عليهم الخوف، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أَتَعْرِفُونَ مَا هَذِهِ الْهَيْدَةُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «حَجَرٌ أَلْفِي مِنْ أَعْلَى جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً، الْآنَ وَصَلَ إِلَى قَعْرِهَا» [٣٨٩].

وبالنسبة لشدة حرارة جهنّم يكفي أن ننقل ما ورد في حديث شريف يقول عليه السلام:

«إِنَّ نَارَكُمْ هَيْدَةُ جُزْءٍ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَقَدْ أُطْفِئَتْ سَبْعِينَ مَرَّةً بِالْمَاءِ ثُمَّ التَّهَبَتْ وَلَوْ لَأَذَلَّكَ مَا اسْتَبَطَعَ آدَمِيُّ أَنْ يُطِيقَهَا» [٣٩٠].

وعن أنواع العذاب وشدّته يوم القيامة يتحدّث القرآن الكريم ويقول: «كُلَّمَا نَضَا جَبَتْ جُلُودُهُمْ يَدُلُّنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ» [٣٩١].

ثم يضيف الإمام عليه السلام في بيان عذاب النار: «دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ وَلَا تُفْرَجُ فِيهَا كَرْبَةٌ».

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٢١

ونقرأ هذا المضمون في القرآن الكريم: «وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ... قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ» [٣٩٢].

وفي مورد آخر يقول القرآن الكريم: « وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ » [٣٩٣].

وكذلك في آية أخرى يتحدث القرآن الكريم عن امنيات أصحاب النار: «وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» [٣٩٤].

ويستفاد من رسالة الإمام عليه السلام هذه، والتي ذكرها بتمامها صاحب نهج البلاغة الكامل أن الإمام عليه السلام بعد أن ذكر الظروف الصعبة والعذاب الأليم لأهل النار، تعرض لذكر بعض النعم الإلهية والرحمة الواسعة لأهل الجنة ولم يذكرها السيد الرضى في نهج البلاغة تبعاً لنهجه في التلخيص والانتقاء.

وفي هذا السياق يتحدث الإمام عليه السلام بعد أن يذكر العذاب الأليم لأهل النار، عن المواهب والنعم الإلهية والنعيم الخالد في الجنة، وبذلك يقرر الأصل الإسلامى المهم في التعاليم الإلهية، وهى أن يعيش الإنسان بين حالات الخوف والرجاء، ويقول: «وَأِنْ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَأَنْ يَحْسَنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ ظَنًّا بِاللَّهِ أَشَدَّهُمْ خَوْفًا لِلَّهِ».

فهنا يشير الإمام عليه السلام إلى مسألة مهمة في التعاليم الدينية، وهى مسألة الخوف والرجاء وضرورة أن يعيش الإنسان حالة التعادل والتوازن فى ذلك، وكما سنرى فى بحث التذليل أن هذا المفهوم من شأنه أن يخلق فى الإنسان حالة من التوازن

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٢٢

فلايبأس من رحمة الله عندما يسمع كلام الإمام فى وصف جهنم وما فيها من العذاب الأليم، ولا يعيش حالة الأمن من العذاب عندما يسمع كلام الإمام عليه السلام فى وصف النعم والمواهب الإلهية لأهل الجنة.

تأمل: التعادل بين الخوف والرجاء

يعتبر الرجاء عاملاً أساسياً لتفعيل حركة الإنسان فى خطّ الصلاح والسعادة ويعدّ بمثابة المحرك الذى يدفع الإنسان بهذا الاتجاه، ويمثل الخوف عاملاً كابحاً لعناصر الطغيان والانحراف فى مسيرة الإنسان ونوازعه النفسية، فكما أن وسائل النقل من العجلات والسيارات إذا كانت فاقدة للمحرك فسوف تمتنع عليها الحركة، وإذا كانت فاقدة للكوابح فسوف يقودها ذلك إلى مهاوى خطيرة وعدم القدرة على تجنّب المطبات والعوائق، فكلا هذين الأمرين يعدّان أصلاً رئيسيان فى حركة الإنسان فى خطّ الصلاح والفلاح، ولا بدّ أن يتوفّر فيهما عنصرى التعادل والتوازن بحيث يتحرك الإنسان فى خط الطاعة والإيمان من جهة ويتجنّب المعاصى والذنوب من جهة أخرى.

إن أهمية هذين العاملين فى وجود الإنسان وفى حياته تتجلى بوضوح عندما نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يتحدث فيه عن وصايا لقمان عليه السلام ويذكر منها أموراً عجيبة ونصائح قيّمة، يقول الحارث بن المغيرة، عن أبيه، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: ما كان فى وصية لقمان؟ قال: كان فيها الأعاجيب، وكان وأعجب ما كان فيها أن قال لابنه: «خَفِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَيْفَةً لَوْ جِئْتَهُ بِيْرِ الثَّقَلَيْنِ لَعَيْدَبَكَ، وَارْجُ اللَّهَ رَجَاءً لَوْ جِئْتَهُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَرَحِمَكَ»، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: كان أبى (يعنى الإمام الباقر عليه السلام) يقول: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا [وَأ] فِي قَلْبِهِ نُورَانِ:

نُورٌ خَيْفَةٍ وَنُورٌ رَجَاءٍ، لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا وَلَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا» [٣٩٥].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٢٣

يقول ابن أبى الحديد بعد شرحه لكلام الإمام عليه السلام المذكور آنفاً: إن علياً عليه السلام أمر محمّد بن أبى بكر أن يجمع بين

حسن الظن بالله والخوف منه، وأن هذا المقام السامى هو مقام لا يناله إلا الصالحون والأبرار، وينقل حديثاً عن الإمام على بن الحسين عليهما السلام يقول: «لَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ كِتَاباً أَنَّهُ مَعِيذٌ رَجُلًا وَاحِدًا لَرَجِيوَتْ أَنْ أَكُونَهُ» [٣٩٦].

وهذه الكلمات تشير بوضوح إلى أن عدم التواصل وعدم التعادل بين حالات الخوف والرجاء فى واقع الإنسان يتسبب فى تكريس حالات الغرور فى الإنسان والاعتزاز بسعة رحمة الله أو يقوده إلى اليأس من رحمة الله، وهذا بدوره يعد مانعاً يعيق الإنسان عن الحركة فى خط الطاعة والعبودية.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٢٥

القسم الرابع

إشارة

وَاعْلَمَ - يَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ - أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالَفَ عَلِيَّ نَفْسِكَ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَن دِينِكَ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلَا تُسِيخِطِ اللَّهُ بِرِضَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْفًا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ خَلْفٌ فِي غَيْرِهِ. صِلَ الصَّلَاةَ لَوْ قَتَلَهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا، وَلَا تَعْجَلْ وَقْتَهَا لِفِرَاحٍ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَن وَقْتِهَا لِاسْتِغَالٍ. وَاعْلَمَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبِعَ لِصَلَاتِكَ.

الشرح والتفسير: المهمة الثقيلة

يتحدث الإمام عليه السلام، فى هذا المقطع من الرسالة مخاطباً محمد بن أبى بكر، عن أربع توصيات مهمة، فى البداية يستعرض الإمام عليه السلام مقدمته ويقول: «وَاعْلَمَ - يَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ - أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ». «أجناد» جمع «جند» وفى الأصل تعنى الجيش، ولكن أحياناً تطلق على المناطق فى البلد الإسلامى، أو على أهالى تلك المناطق، وعلى أية حال فإن هذه العبارة تشير بوضوح إلى أن الإمام عليه السلام كان ينظر إلى أهل مصر بعين الاحترام ويرى أنهم من أكبر شعوب الامّة الإسلاميه، لأن مصر أرض كبيرة وتاريخيه وتملك حضارة قديمه ويعيش فيها اناس واعون وأذكياء وكادحين.

ثم يبين الإمام عليه السلام أول وأهم توصيه له، ويقول: «فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ [٣٩٧] أَنْ تُخَالَفَ عَلِيَّ

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٢٦

نَفْسِكَ»، أى أن المفروض بك أن تجاهد نفسك وتخالف هواك.

وجهاد النفس فرض على الجميع، ولكنه أكثر وأشدّ لزوماً على الولاة والقادة ومن بيدهم القرار، لأن هؤلاء يعيشون دوماً الوسواس النفسانية والشيطانية، فلو أنهم غلبوا فى هذا المجال وسيطرت عليهم الأهواء والشهوات فإن ذلك من شأنه إشاعة الظلم والفساد فى المناطق التى تحت إمرتهم وولايتهم.

ثم يبين الإمام عليه السلام التوصيه الثانية ويقول: «وَأَنْ تُنَافِحَ [٣٩٨] عَن دِينِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ».

وبديهى أن الإنسان المؤمن ينبغى أن يتحرك بعد الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس، فى طريق الجهاد الأصغر والتصدي لِقوى الكفر وأعداء الامّة لحفظ الدين وصيانته المقدسات والمنافحة عن التعاليم السماويه، وفى هذا الأمر يؤكد الإمام عليه السلام على أنه لو لم تكن لدى الإنسان سوى ساعة من عمره أو من تواجدته فى سده الحكم، فينبغى أن لا يكف عن الدفاع عن الدين، ولا يبخل فى بذل الغالى والنفيس فى هذا السبيل.

ثم يبين الإمام عليه السلام التوصية الثالثة ويقول: «وَلَا تُسَخِّطِ اللَّهَ بِرِضَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْفًا مِنْ غَيْرِهِ، وَلاَ يَسَّرُ مِنَ اللَّهِ خَلْفٌ فِي غَيْرِهِ».

فأحياناً يجد الإنسان نفسه بين طريقين، فطريق يتوجه به إلى الله تعالى وكسب رضاه، وطريق آخر يقوده لتحقيق رضا الناس، وفي هذا الطريق يطلب منه الناس أموراً أكثر من حقهم، وهنا يتميز المؤمنون الخالص من غير المؤمنين، فالمؤمنون يتحرّكون دوماً في خطّ الطاعة وطلب رضا الله تعالى، لأنهم يعلمون أنّ نيل رضا الله ورعايته من شأنه أن يمنحهم القوة والحيوية ويمنع عنهم أى ضرر ولا يستطيع أى شخص أن يلحق بهم الإساءة، في حين أنّ السعى لكسب رضا بعض المتزلفين

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٢٧

والمتملّقين، والإعراض عن رضا الله تعالى، سيجعلهم مكشوفين أمام البلايا وغير قادرين على الدفاع عن أنفسهم.

إنّ ما ذكره الإمام عليه السلام في توصيته الثالثة لمحمّد بن أبي بكر، ورد أيضاً في رواية أخرى بوصفه أحد علامات الإيمان الخالص، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «مِنْ صِحَّةِ يَقِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ لَا يُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ» [٣٩٩].

والتجربة أثبتت أنّ من يسلك هذا الطريق ويرجح رضا المخلوق على حساب رضا الخالق سيحرم رضا الخالق ورضا المخلوق أيضاً، وأمّا من يتحرّك في طريق نيل رضا الله تعالى، فربّما يتسبّب أحياناً في غضب البعض وسخطهم عليه، ولكنّه في النهاية سيحصل على رضا الله ورضا المخلوق أيضاً.

والأهمّ من ذلك ما ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ طَلَبَ رِضَا مَخْلُوقٍ بِسَخَطِ الْخَالِقِ سَيَلَطَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْمَخْلُوقَ» [٤٠٠].

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام للتوصية الرابعة لمحمّد بن أبي بكر في مسألة الصلاة والتي تعتبر أهمّ ركن من أركان الإسلام، يقول: «صَلِّ الصَّلَاةَ لَوْ قَتَلَتْهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاسْتِغَالِ اعْلَمَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبِعَ لِصَلَاتِكَ».

وذكر الكثير من شراح نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام في هذه التوصية بالصلاة، ناظر إلى عدم التعجيل بالصلاة قبل وقتها، مثلاً يصلى صلاة الظهر قبل الزوال ويصلى صلاة الصبح قبل طلوع الفجر، بسبب ما يجده من فراغ في الوقت، ولكن مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ من النادر أن نرى أو نسمع شخصاً يصلى صلاة الظهر قبل وقتها أو يصلى صلاة الصبح قبل الفجر، لأنّ هذا المعنى مرفوض وغير مقبول من قبل جميع الأفراد، فلا معنى لأن يصلى المكلف الصلاة قبل وقتها وهو يعلم ببطلانها، ولذلك

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٢٨

يوجد هناك احتمال آخر في تفسير هذه العبارة، وهو أنّ كلام الإمام عليه السلام ناظر إلى أوّل الوقت وآخر الوقت، فيقول: إنّك لا تكن كالشخص الذي يصلى أوّل الوقت بسبب الفراغ، وإن كان مشغولاً في عمل معين يؤجل صلاته لوقت آخر، بل عليك بأن تقيم الصلاة لوقتها على كلّ حال وتترك عملك من أجل الصلاة.

وهذا في الواقع إشارة إلى ما هو متداول من الشعار المعروف، وهو أنّ الإنسان لا ينبغي أن يقول لصلاته أنني مشغول بعمل، بل يقول لعملي أنني مشغول بالصلاة.

وبديهى أنّ الإلتزام بالصلاة في أوّل وقتها من شأنه أن يمنح الروح طراوة ونورانية وأنّ نجاحه في أعماله الأخرى يعود إلى إتيانه بالصلاة في وقتها حيث تضيء هذه الصلاة بركاتها على حياة المرء وفكره وروحه.

جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه يقول: «إِنَّ الصَّلَاةَ إِذَا ارْتَفَعَتْ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ بَيْضَاءُ مُشْرِقَةٌ تَقُولُ حَفِظْتَنِي حَفِظَكَ اللَّهُ وَإِذَا ارْتَفَعَتْ فِي غَيْرِ وَقْتِهَا بَعِيرٌ حُدُودَهَا رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ ضَاعْتَنِي ضَاعَكَ اللَّهُ» [٤٠١].

وجملته: «وَأَعْلَمُ...»، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً يحتمل فيها معنيان، أحدهما: أنّ جميع أعمال الإنسان في الدنيا تبع لصلاته، فإن أدى

الصلاة بشرائطها، فإن بركة هذه الصلاة ستمتد لتشمل سائر أعماله وحياته، والآخر: أن آثار هذه الصلاة ستتجلى في الآخرة، كما ورد في الروايات: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ فَإِنْ قُبِلَتْ قُبِلَ مَا سِوَاهَا» [٤٠٢].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٢٩

القسم الخامس

إشارة

وَمِنْهُ: فَإِنَّهُ لَأَسْوَأُ، إِمَامٌ الْهُدَى وَإِمَامُ الرَّدَى وَوَلِيُّ النَّبِيِّ، وَعَدُوُّ النَّبِيِّ.
لَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِنِّي لَأَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِنًا وَلَا مُشْرِكًا؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللَّهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللَّهُ بِشْرِكِهِ. لَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ.

الشرح والتفسير: الخوف على الأمة من فئة معينة

وفي آخر مقطع من هذه الرسالة، طبقاً لما أورده السيد الرضوي وما يستفاد من كلمة «منه»، أن ما ورد من كلام الإمام عليه السلام نهج البلاغة في لا يمثل جميع كلامه وتمام رسالته، بل يمثل مقطعاً منها، والإمام يلفت النظر في هذا المقطع إلى هذه الحقيقة الحاسمة والرئيسية ويقول: «وَمِنْهُ: فَإِنَّهُ لَأَسْوَأُ، إِمَامٌ الْهُدَى وَإِمَامُ الرَّدَى [٤٠٣] وَوَلِيُّ النَّبِيِّ، وَعَدُوُّ النَّبِيِّ».

ومن المعلوم أن التعبير بـ «إِمَامٌ الْهُدَى» في هذه العبارة إشارة إلى نفسه الشريفة، وكلمة بـ «إِمَامُ الرَّدَى» إشارة إلى معاوية الذي رفع لواء المخالفة والتمرد خلافاً لأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وإرادة جميع المسلمين، وخاض غمار حروب دامية أدت إلى سفك دماء المسلمين.

ومفردة «إمام» يراد بها في الغالب إمام الحق، ولكن أحياناً تستعمل في قادة الضلالة والباطل، كما ورد في القرآن الكريم: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٣٠

النَّارِ» [٤٠٤]، أي الفراعنة.

والشاهد على أن المراد من كلمة «إِمَامُ الرَّدَى» معاوية، فمضافاً إلى القرائن الحالية، هناك شواهد مذكورة في موارد أخرى من هذه الرسالة لم ينقلها السيد الرضوي، وطبقاً لما ورد في هذه الرسالة المذكورة في كتاب نهج البلاغة الكامل، يقول الإمام عليه السلام: «إِنَّا كُفْرٌ وَدَعْوَةُ الْكُذَّابِ ابْنِ هِنْدٍ».

ثم إن الإمام عليه السلام يستند في كلامه هذا إلى حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يقول:

«وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِنِّي لَأَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِنًا وَلَا مُشْرِكًا؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللَّهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللَّهُ بِشْرِكِهِ. وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ [٤٠٦]، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ».

وهذه هي الحقيقة، فالمؤمنون الحقيقيون يمثلون درعاً وافية للإسلام والأمة الإسلامية، والمشركون يمثلون خط الباطل والضلالة، الذين عرفهم الناس بالانحراف وابتعدوا عنهم، فلو أن هؤلاء المشركين أرادوا التآمر على الإسلام، فالمؤمنون سيتصدون لهم بإذن الله ويقمعونهم، ولكن المشكلة الكبيرة التي يبتلى بها المجتمع الإسلامي وكل مجتمع بشري تتمثل في الأعداء الذين يرتدون لباس الصداقة والمحبة ويتظاهرون بتقديم الخدمة للآخرين، هؤلاء هم الانتهازيون والمنافقون الذين أظهروا للناس وجهاً جميلاً وأخفوا الوجه القبيح في باطنهم وتسترّوا بقناع الخير والصلاح، وبذلك تستنى لهم النفود في صفوف المسلمين والأطلاع على أسرارهم، وأتاح

لهم ذلك أن يسدّدوا ضربتهم متى وجدوا الفرصة سانحة بالتمسك بالآيات الإلهية وسنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الظاهر والكلام، ولكنهم

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٣١

على مستوى العمل يتحرّكون خلاف هذه التعاليم السماوية.

والمصداق البارز لهذا الكلام في ذلك الزمان هو معاوية وأعوانه الذين رفعوا لواء المطالبة بدم عثمان الذي يعدّ خليفه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وفي حال الاضطرار رفعوا المصاحف فوق الرماح، هؤلاء كانوا يقيمون الصلاة ويتحدّثون في خطب صلاة الجمعة بكلام معسول وموافق نصوص الكتاب والسنة، ولكنهم في ذات الوقت يعملون على إضعاف عقيدة الناس بإمام الهدى المنصوب من قبل الله تعالى، ومن قبل المسلمين، ولا يتركون أي وسيلة إلا واستخدموها في تحقيق مآربهم وأغراضهم الذاتية من قتل الأبرياء ونهب أموال المسلمين والإغارة على المناطق الحدودية للعراق، وباستخدامهم لهذا الأسلوب استطاعوا أخيراً أن يصلوا إلى سدة الحكم ويجلسوا مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله ويتحدّثوا بخلاف ما أنزل الله تعالى من تعاليم وأحكام.

تأملان

١. خطر المنافقين

يتحدّث الإمام عليه السلام في هذه الرسالة عن وجود خطر مهمّ يهدّد محمّد بن أبي بكر وأهالي مصر، بل جميع شعوب وأقوام المجتمع الإسلامي، أي خطر المنافقين، ويقسم الناس إلى ثلاث طوائف: المؤمنين، المشركين والمنافقين، ثم يقول: إنّ المؤمنين لا يشكّون أيّ خطر للمجتمع الإسلامي لأنّ إيمانهم يمنعهم من أي عمل يثير الخلل ويورث الضرر بالإسلام والمسلمين، أمّا المشركون المعاندون الذين يتحرّكون في خطّ التآمر والحرب ضدّ المجتمع الإسلامي، فخطر هؤلاء ليس بالمقدار المهم، ويمكن التصدي لهم لأنهم معروفون، والمؤمنون يأخذون حذرهم من حركات هؤلاء ويتصدّون لتآمرهم ويدفعون الخطر بذلك عن الأمة، ولكن المشكلة العسيرة تتمثّل في المنافقين الذين يعيشون في الوسط الديني ويخالفون

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٣٢

المؤمنين ويتظاهرون بالتدين إلّا أنّهم يخفون سيوفهم تحت ثيابهم كما في المثل، فيتحدّثون بحديث يجذب قلوب المؤمنين وأفكارهم وعواطفهم فيظنّون أنّ هؤلاء المنافقين منهم وعلى ملّتهم، ولكنهم في اللحظات الحساسة وعندما تسنح الفرصة يقومون بإلقاء سمومهم وتسديد ضربة للإسلام والمسلمين.

وعلى رغم أنّهم يكتُمون نفاقهم ويتحرّكون في خطّ التخريب والتآمر بشكل خفيّ، فإنّ معرفتهم وتشخيصهم ليست بالأمر العسير، فالقرآن الكريم ذكر علامات عديدة لمعرفة أهل النفاق في سورة البقرة وسورة المنافقون وبإمكان المؤمنين التعرف عليهم واجتناب خطرهم ودسائسهم.

وقد تقدّمت بحوث مفصّلة عن جذور النفاق وطريقه عمل المنافقين على امتداد التاريخ، والأخطار التي تشكّلها هذه الفئة على الأمة الإسلامية، في الخطبة ١٩٤ (الجزء السابع من ص ٦٠٦ إلى ٦١٩) وكذلك في ذيل الخطبة ٢١٠.

٢. رسالة غريبة من المعتضد العباسي

من غرائب العصر العباسي أن المعتضد العباسي أرسل رسالة إلى جميع الأفضية والنواحي، وقد ذكرها المؤرخ المعروف الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٢٨٤ وأشار إليها ابن الأثير في تاريخه الكامل (مع بعض الاختلاف في التعبير) وبدورنا نقلها من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد الذي استعرضها بشكل مختصر.

يقول ابن أبي الحديد في الجزء ١٥ من شرح نهج البلاغة في ذيل هذه الرسالة أن الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة لمحمد بن أبي بكر، ويقول الطبري: وفي (سنة ٢٨٤) عزم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على الناس، فخوفه عبيد الله بن سليمان (وزيره) اضطراب العامة، وأنه لا يأمن أن تكون فتنه، فلم يلتفت إليه، فكان أول شيء بدأ به المعتضد من ذلك الأمر بالتقدم إلى العامة بلزوم أعمالهم، وترك الاجتماع والعصية، والشهادات عند السلطان إلا أن

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٣٣

يسألوا، ومنع القصاص عن القعود على الطرقات، وأنشئ هذا الكتاب وعملت به نسخ قرئت في الجانبين من مدينة السلام في الأرباع والمحال والأسواق، يوم الأربعاء لسبب بقين من جمادى الأولى من هذه السنة، ثم منع يوم الجمعة لأربع بقين منه، ومنع القصاص من القعود في الجانبين، ومنع أهل الحلق من القعود في المسجدين، ونودي في المسجد الجامع بنهي الناس عن الاجتماع وغيره، وبمنع القصاص وأهل الحلق والقعود، ونودي:

إن الذميمة قد برئت ممن اجتمع من الناس في مناظرة أو جدال، وتقدم إلى الشراب الذين يسقون الماء في الجامعين ألا يترحموا على معاوية، ولا يذكره، وكانت عادتهم جارية بالترحم عليه.

وتحدثت الناس أن الكتاب الذي قد أمر المعتضد بإنشائه بلعن معاوية يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر، فلما صلى الناس بادروا إلى المقصورة لسمعوا قراءة الكتاب، فلم يقرأ.

قيل: إن عبيد الله بن سليمان صرفه عن قراءته، وإنه أحضر يوسف بن يعقوب القاضي، وأمره أن يعمل الحيلة في إبطال ما عزم المعتضد عليه، فمضى يوسف فكلم المعتضد في ذلك، وقال له: إنني أخاف أن تضطرب العامة، ويكون منها عند سماعها هذا الكتاب حركة، فقال المعتضد: إن تحركت العامة أو نطقت، وضعت السيف فيهم، فقال: يا أمير المؤمنين، فما تصنع بالطالبين الذين يخرجون في كل ناحية، ويميل إليهم خلق كبير، لقرابهم من رسول الله صلى الله عليه وآله، وما في هذا الكتاب من إطرائهم - أو كما قال - وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميل، وكانوا هم أبسط ألسنة، وأثبت حججهم منهم اليوم، فأمسك المعتضد فلم يرد إليه جواباً، ولم يأمر بعد ذلك في الكتاب بشيء، وكان من جملة الكتاب بعد أن قدم حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله:

أما بعد، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما عليه جماعة العامة من شبهة قد دخلتهم

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٣٤

في أديانهم، وفساد قد لحقهم في معتقدهم، وعصية قد غلبت عليها أهواؤهم، ونطقت بها ألسنتهم، على غير معرفة ولا روية، قد قلدوا فيها قادة الضلالة بلا بينة ولا بصيرة، وخالفوا السنن المتبعة، إلى الأهواء المبتدعة، قال الله تعالى: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بغير هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» [٤٠٧]، خروجاً على الجماعة، ومسارعة إلى الفتنة، وإيثاراً للفرقة، وتشتيماً للكلمة، وإظهاراً لموالاة من قطع الله عنه الموالاة، وبتز منه العصمة، وأخرجه من الملة، وأوجب عليه اللعنة، وتعظيماً لم صغر الله حقه، وأوهن أمره، وأضعف ركنه، من بني امية، الشجرة الملعونة، ومخالفة لمن استنقذهم الله من الهلكة، وأسبغ عليهم النعمة من أهل بيت البركة والرحمة «وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» [٤٠٨].

فأعظم أمير المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك، ورأى ترك إنكاره حرجاً عليه في الدين، وفساداً لمن قلده الله أمره من المسلمين، وإهمالاً لما أوجه الله عليه من تقويم المخالفين، وتبصير الجاهلين، وإقامة الحجية على الشاكين، وبسط اليد على المعاندين، وأمير المؤمنين يخبركم معاشر المسلمين، أن الله جل ثناؤه لما ابتعث محمداً صلى الله عليه وآله بدينه، وأمره أن يصدع بأمره، بدأ

بأهله وعشيرته فدعاهم إلى ربّه، وأنذرهم وبشّرههم، ونصح لهم وأرشدهم، فكان من استجاب له، وصدّق قوله، وأتبع أمره نفر يسير من بنى أبيه، من بين مؤمن بما أتى به من ربّه، وناصر لكلمته وإن لم يتبع دينه إعزازاً له، وإشفاقاً عليه، فمؤمنهم مجاهد بصيرته، وكافرهم مجاهد بنصرته وحميته، يدفعون من نابذه، ويقهرون من عازّه وعانده، ويتوثقون له ممّن كانفه وعاضده، ويباعون من سمح بنصرته، ويتجسّسون أخبار أعدائه، ويكيدون له بظهر الغيب كما يكيدون له برأى العين، حتّى بلغ المدى، وحن وقت الاهتداء، فدخلوا فى دين الله وطاعته وتصديق رسوله والإيمان به بأثبت بصيرة، وأحسن

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٣٥

هدى ورغبة، فجعلهم الله أهل بيت الرحمة، وأهل بيت الدين، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، معدن الحكمة، وورثة النبوة، وموضع الخلافة، أوجب لهم الفضيلة، وألزم العباد لهم الطاعة، وكان ممّن عانده وكذّبه وحاربه من عشيرته العدد الكثير والسواد الأعظم، يتلقّونه بالضرر والتشرب، ويقصدونه بالأذى والتخويف، وينابذونه بالعداوة، وينصبون له المحاربة، ويصدّون من قصده، وينالون بالتعذيب من أتبعه، وكان أشدّهم فى ذلك عداوة، وأعظمهم له مخالفة، أولهم فى كلّ حرب ومناصبه، ورأسهم فى كلّ إجلاب وفتنة، ولا يرفع على الإسلام راية إلّا كان صاحبها وقائدها ورئيسها أباسفيان بن حرب صاحب أحد والخندق وغيرهما، وأشياعه من بنى امية الملعونين فى كتاب الله، ثمّ الملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله فى مواطن عدّة، لسابق علم الله فيهم، وماضى حكمه فى أمرهم، وكفرهم ونفاقهم، فلم يزل لعنه الله يحارب مجاهداً، ويدافع مكابداً، ويجلب منابداً، حتى قهر السيف، وعلا أمر الله وهم كارهون، فتعوّذ بالإسلام غير منطوٍ عليه، وأسرّ الكفر غير مقلع عنه، فقبله وقبل ولده على علم منه بحاله وحالهم، ثمّ أنزل الله تعالى كتاباً فيما أنزله على رسوله يذكر فيه شأنهم، وهو قوله تعالى: «وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ» [٤٠٩]، ولا خلاف بين أحد فى أنّه تبارك وتعالى أراد بها بنى امية.

ومما ورد من ذلك فى السنّة، ورواه ثقات الامة، قول رسول الله صلى الله عليه وآله وقد رآه مقبلاً على حمار ومعاوية يقوده ويزيد يسوقه، فقال صلى الله عليه وآله: «لَعَنَ اللَّهُ الرَّايِبَ وَالْقَائِدَ وَالسَّائِقَ».

ومنه ما روته الرواة عنه من قوله يوم بيعه عثمان: «تَلَقَّفُوها يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ تَلَقَّفَ الْكُرَةَ فَوَ اللَّهُ مَا مِنْ جَنَّةٍ وَلَا نَارٍ» وهذا كفر صراح يلحقه اللعنة من الله كما لحقت الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٣٦

ومنه ما يروى من وقوفه على ثنية احد من بعد ذهاب بصره وقوله لقائده، هاهنا رمينا محمداً وقتلنا أصحابه.

ومنها الكلمة التى قالها للعباس قبل الفتح وقد عرضت عليه الجنود: «أصبح ملك ابن أخيك عظيماً» فقال العباس: ويحك، إنّه ليس بملك، إنّه النبوة.

ومنها قوله يوم الفتح (فتح مكة) وقد رأى بلاً على ظهر الكعبة يؤذّن ويقول:

«أشهد أنّ محمداً رسولُ الله»؛ فقال أبو سفيان: لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد.

ومنه الرؤيا التى رآها رسول الله صلى الله عليه وآله فوجم لها: قالوا: ما رئى بعدها ضاحكاً، رأى نفراً من بنى امية ينزون على منبره نزوة القردة.

ومنها طرد رسول الله صلى الله عليه وآله و آلّه الحكم بن أبى العاص لمحاكاته إياه فى مشيته، وألحقه الله بدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله و آلّه آفة باقية حين التفت إليه فرآه يتخلج يحكيه، فقال: «كُنْ كما أنت»، فبقى على ذلك سائر عمره.

وهذا إلى ما كان من مروان ابنه فى افتتاحه أول فتنة كانت فى الإسلام، واحتقابه كلّ دم حرام سفك فيما قبلها أو اريق بعدها.

ومنها ما أنزله الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وآله: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» [٤١٠]، قالوا:

ملك بنى امية.

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يَطْلُعُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي يُحِشِرُ عَلَى غَيْرِ مِلَّتِي»، فطلع معاوية.
ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ عَلَى مِثْرِي فَأَقْتُلُوهُ» وذكر في هذا الكتاب روايات قاصمه على معاوية الواردة في الكتب التاريخية المشهورة.

ومنها افتراؤه بالمحاربة لأفضل المسلمين في الإسلام مكاناً، وأقدمهم إليه سبقاً،

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٣٧

وأحسنهم فيه أثراً وذكرراً، علي بن أبي طالب، ينازعه حقه بباطله، ويجاهد أنصاره بضلاله أعوانه، ويحاول ما لم يزل هو وأبوه يحاولانه من إطفاء نور الله، وجحود دينه «وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» [٤١١]، ويستهوى أهل الجهالة، ويموه لأهل الغباوة بمكره وبغيه للذين قدّم رسول الله صلى الله عليه وآله الخبر عنهما، فقال لعمار بن ياسر: «تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ، تَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَكَ إِلَى النَّارِ»، مؤثراً للعاجلة، وكافراً بالآجلة، خارجاً من ربة الإسلام، مستحلاً للدم الحرام، حتى سفك في فتنته، وعلى سبيل غوايته وضلالته ما لا يحصى عدده من أختيار المسلمين، الذابين عن دين الله، والناصرين لحقه، مجاهداً في عداوة الله، مجتهداً في أن يعصى الله فلا يطاع، وتبطل أحكامه فلا تقام، ويخالف دينه، فلا يبد أن تلعو كلمة الضلال وترتفع دعوة الباطل، وكلمة الله هي العليا، ودينه المنصور، وحكمه النافذ، وأمره الغالب وكيد من عاداه وحاده المغلوب الداحض، حتى احتمل أوزار تلك الحروب وما تبعها، وتطوّق تلك الدماء وما سفك بعدها، وسن سنن الفساد التي عليه إثمها وإثم من عمل بها، وأباح المحارم لمن ارتكبتها، ومنع الحقوق أهلها، وغزته الآمال، واستدرجه الإمهال.

وكان ممياً أوجب الله عليه به اللعنة قتله من قتل صبراً، من خيار الصحابة والتابعين، وأهل الفضل والدين، مثل عمرو بن الحمق الخزاعي، وحجر بن عدى الكندي، وفيمن قتل من أمثالهم، على أن تكون له العزة والملك والغلبة، ثم ادّعاؤه زياد بن سميه أخاً، ونسبته إياه والله تعالى يقول: «ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ...» [٤١٢]، ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «مَلْعُونٌ مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ أُنْتَمَى إِلَى غَيْرِ مِوَالِيهِ»، وقال صلى الله عليه وآله: «الْوَلَمُدُّ لِلْفِرَاشِ وَاللِّعَابِهِرِ الْحَجْرِ»، فخالف حكم الله تعالى ورسوله جهاراً، وجعل الولد لغير الفراش والحجر لغير العاهر، فأحلّ بهذه الدعوة

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٣٨

من محارم الله ورسوله

ومن ذلك إثارة لخلافه الله على عباده ابنه يزيد السكير والخمير صاحب الديكة والفهود والقردة، وأخذ البيعة له من خيار المسلمين بالقهر والسطوة والتوعيد والإخافة، والتهديد والرهبه، وهو يعلم سفهه، ويطلع على رهقه وخبثه، ويعاين سكراته وفعلاته، وفجوره وكفره، فلما تمكّن - قاتله الله - فيما تمكّن منه، طلب بثارات المشركين وطوائفهم عند المسلمين، فأوقع بأهل المدينة في وقعة الحرّة، الواقعة التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أفحش، فشفي عند نفسه غليله، وظنّ أنه قد انتقم من أولياء الله، وبلغ الثأر لأعداء الله، فقال مجاهراً بكفره ومظهوراً لشركه:

لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدُرُ شَهْدُوا جَزَعِ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلِ [٤١٣]

ثم أغلظ ما انتهك، وأعظم ما اجترم، سفكه دم الحسين بن علي عليه السلام، مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومكانته ومنزلته من الدين والفضل والشهادة له ولأخيه بسيادة شباب أهل الجنة، اجترأ على الله، وكفر بدينه، وعداوة لرسوله، ومجاهرة لعترته، واستهانة لحرمة، كأنما يقتل منه ومن أهل بيته قوماً من كفره الترك والديلم، ولا يخاف من الله نعمة، ولا يراقب منه سطوة، فبتر الله عمره، وأخبت أصله وفرعه، وسلبه ما تحت يده، وأعد له من عذابه وعقوبته ما استحقه من الله بمعصيته

ثم أضاف: أيها الناس، إنما أمر ليطاع، ومثل ليمثل، وحكم ليفعل، قال الله سبحانه وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا» [٤١٤] وقال: «أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٣٩

وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» [٤١٥]، فالعنوا أيها الناس من لعنه الله ورسوله، وفارقوا من لا تناولن القربة من الله إلابمفارقتة اللهم العن أباشيقيان بن حرب بن أمية، ومعاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم وولده وولد ولده! اللهم العن أئمة الكفر وقادة الضلال وأعداء الدين مجاهدي الرسول ومعتلي الأحكام ومبدلي الكتاب ومتهكي الدم الحرام .
إلى قوله: ولا قوة الا بالله العلي العظيم» [٤١٦].

ما ورد أعلاه يمثل جانباً من الكتاب المطول الذي كتبه «المعتضد العباسي»، وجاء هذا الكتاب في المصادر الإسلامية والتاريخية المعروفة.

وبديهى أن نقل رسالة المعتضد بالله العباسي لا تعنى تأييد جميع أعماله في أيام خلافته.
ونرى من اللازم الإشارة إلى هذه النقطة، وهي أن مخالفة وزير المعتضد «عبيدالله بن سليمان» لنشر هذه الرسالة كان بسبب انحرافه عن علي وآله عليه السلام فإن المؤرخين ذكروا عنه في ترجمته حياته: «كَانَ مُنْحَرِفًا عَنِّ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ» فكان خوفه من ثورة الناس ليس سوى ذريعة.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٤١

الرسالة ٢٨

إشارة

إلى معاوية جواباً [٤١٧] قال الشريف: وَهُوَ مِنْ مَحَاسِنِ الْكُتُبِ

نظرة إلى الرسالة

رأينا أن هذه الرسالة، كما ورد في مطلعها في نهج البلاغة، تمثل جواباً على أحد كتب معاوية إلى الإمام علي عليه السلام، وفيه يتحدث معاوية بشكل غير مؤدب مع الإمام عليه السلام ولم يترك أي حرمه إلابانتهاكها، وفي القسم الأول من رسالته يتحدث عن عظمة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله والرسالة الإلهية، ويجعل ذلك مقدمة لبيان فضائل أصحاب النبي وأنصاره، ثم يتطرق إلى فضائل الخليفة الأول والثاني والثالث ويتحدث عن مقام الأول والثاني وعن مظلومية الثالث ويتهم الإمام عليه السلام بالمساهمة في قتل عثمان،

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٤٢

وكذلك يتهمه بالحسد لأبي بكر وكرهيته لخلافه عمر، وفي جميع هذه الرسالة يستخدم معاوية تعبيرات نابية وكلمات موهنة، وفي ختامها يتهم الإمام عليه السلام بوقاحة بأنه معاند ولجوج ويقول: ادفع لنا قتله عثمان واعمل على تشكيل شورى لانتخاب خليفة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فنحن لا نقبل ببيعتك ولا نطيعك، وسيكون جوابك هو السيف ونحن ماضون على ذلك إلى النهاية.

ويتبين من عبارات هذه الرسالة أن معاوية كان يهدف إلى أمرين: الأول: أن يثير غضب الإمام عليه السلام وإحساساته ليجيبه بكلام مماثل ويتخذ ذلك ذريعة أخرى إلى جانب قميص عثمان لقتال الإمام، وكذلك إغراقه في بيان فضائل الخلفاء الثلاثة واتهام الإمام عليه السلام بالحسد لهم ليجيبه الإمام عليه السلام على الضد من ذلك، وبالتالي يكون بيده حجة ضد الإمام عليه السلام إلى جانب قميص عثمان.

وهذا الكلام ليس استنباطاً مما ورد في رسالته معاوية، بل هو أمر ورد بصراحة في التاريخ الإسلامي على لسان عمرو بن العاص، يقول ابن أبي الحديد: إن عمرو ابن العاص قد أشار إلى معاوية أن يكتب كتاباً ثانياً مناسباً للكتاب الأول ليستفز فيه الإمام علي عليه السلام ويستخفاه ويحمله الغضب منه أن يكتب كلاماً يتعلقان به في تقييح حاله وتهجين مذهبه، وقال له عمرو بن العاص: إن علياً رجل نزق تياه، فاستطمع منه الكلام بمثل الثناء على أبي بكر وعمر، فكتب معاوية الرسالة التي ذكرنا شيئاً منها آنفاً.

أما مضمون رسالة الإمام عليه السلام بنظرة عامة:

إن هذه الرسالة تشتمل على عدة محطات، فالإمام في المحطة الأولى يتعرض لفضح ادعاءات معاوية الواهية، ويقول في جوابه: إن الله تعالى بعث محمداً لرسالته ونشر دينه وأزیده بأنصاره، والإمام في هذه المقطع يبرز تعجبه الشديد ويقول: وما أنت وهذه الأمور، فقصة تك مثل قصة الشخص الذي يحمل التمر إلى هجر، وهذا المثل معروف لدى العرب، كما يدعو التلميذ استاذة إلى مسابقة علمية مثلاً، فيقول له

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٤٣

الإمام عليه السلام إنه يحسن بك أن تكف عن هذه الأقاويل ولا تحدت بها أهلنا وقبيلتنا، فنحن أعلم منك بذلك.

وفي المحطة الثانية، وبقصد التذكير بنعم الله تعالى، لا من أجل اطلاع معاوية الذي يعلم بهذه الأمور، يتعرض الإمام عليه السلام لبيان فضائل بني هاشم وذكر حمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار، وفي الختام يقول: لو لم ينه الله تعالى عن مدح النفس، لذكرت لك فضائل كثيرة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجها آذان السامعين.

وفي المحطة الثالثة من هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة أساسية في ادعاءات معاوية، ويتعرض للمقارنة بين بني هاشم وبني امية، ويقول: نحن تربطنا رابطة رحم مع النبي ونحن أهل بيته، وقد اعتنقنا رسالته ودينه قبل جميع الناس ونحن على معرفة بها أكثر من الآخرين، وبالتالي نحن أحق بالخلافة، فالمهاجرون يوم السقيفة استندوا إلى قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله ليدعموا موقفهم ضد الأنصار الذين كانوا يطمحون إلى الخلافة، فلو كان هذا الأمر دليلاً على الأولوية فنحن أحق منهم.

وفي المحطة الرابعة من هذه الرسالة يتعرض الإمام عليه السلام لنقد بعض عبارات معاوية غير المؤدبة في رسالته ويقول: لقد ذكرت في رسالتك أنني كنت اقاد كالجمل المغشوش للبيعة، ولكنك بهذا الكلام قد فضحت نفسك، لأن المسلم لا يجد في نفسه غضاضة أن يقع مظلوماً مادام يجد نفسه مستقيماً في حركته في خط الرسالة والإيمان والمسؤولية، وأنتك تحدت عن عثمان وكيف كان سلوكي معه، فمن هو الأكثر عداوة لعثمان؟ هل هو الشخص الذي انطلق للدفاع عنه ولمد يد العون له ونصيحته بتلبية حاجات الناس لإطفاء نار الفتنة وتهدة الأمور (إشارة إلى توصيات الإمام عليه السلام لعثمان) أو الشخص الذي طلب منه عثمان المعونة وامتنع منها وقبع ينتظر موته (إشارة إلى حال معاوية وموقفه من قتل عثمان).

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٤٣

في المحطة الخامسة والأخيرة من هذه الرسالة يقول الإمام عليه السلام في مقام

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٤٤

الجواب عن تهديد معاوية بالهجوم والحرب: لقد أثرت في نفسي الضحك، فأنت تهدد أبناء عبدالمطلب بالموت والحرب، فمتى رأيت أبناء عبدالمطلب يهربون من القتال أو يخافون من السيف؟

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٤٥

القسم الأول

إشارة

أَمَا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذَكُّرٌ فِيهِ اضْطِغَاءُ اللَّهِ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدُهُ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيْدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً؛ إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا، فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجْرٍ، أَوْ دَاعِي مُسَيِّدِهِ إِلَى النَّضَالِ. وَرَعَمْتَ أَنْ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؛ فَذَكَرْتَ أَمراً إِنَّ تَمَّ اعْتَرَلَكَ كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقَكَ ثَلْمُهُ. وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ، وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ! وَمَا لِلطُّلُقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلُقَاءِ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبِ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفِ طَبَقَاتِهِمْ! هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحُ لَيْسَ مِنْهَا، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا! أَلَا تَرْتَبِعُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظُلْمِكَ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذُرْعِكَ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخْرَكَ الْقَدْرُ! فَمَا عَلَيْكَ غَلْبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ!

الشرح والتفسير: كيف يجلس المحكوم للحكم والقضاء؟

كما تقدّمت الإشارة إليه، فإنّ هذه الرسالة التي يقول عنها الشريف الرضى من أبلغ وأجمل الرسائل، يتحدّث فيها أمير المؤمنين عليه السلام عن مسائل مهمّة عبارات بليغة وحاسمة لمعاوية.

في البداية يشير الإمام عليه السلام إلى حديث معاوية عن عظمة النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله ورسالته السماوية ويقول: «أَمَا بَعْدُ فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذَكُّرٌ فِيهِ اضْطِغَاءُ اللَّهِ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدُهُ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيْدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً؛ إِذْ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٤٦

طَفِقْتَ [٤١٨] تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ [٤١٩] اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا، فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجْرٍ، أَوْ دَاعِي مُسَيِّدِهِ [٤٢٠] إِلَى النَّضَالِ [٤٢١].»

والإمام عليه السلام هنا لغرض بيان فساد وقبح كلام معاوية فيما يتصل بوصف الإسلام وعظمة النّبى الكريم صلى الله عليه وآله، وللإمام على عليه السلام الذى يعتبر أوّل مسلم وأتته نفس النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله والنقطة المحورية للإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، يذكر مثلين كلّ واحد منهما أبلغ وأقوى من الآخر، فى البداية يذكر المثل العربى المعروف: «فُلَانٌ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجْرٍ» وهذا المثل يعود إلى تاجر كان قادماً من منطقة هجر (وهى إحدى مناطق البحرين) وفيها تكثرت زراعة النخيل ويأتى إلى البصرة يشتري له بضاعة وينقلها إلى هجر، وكلّما بحث عن شىء يشتريه لم يجد أزهّد سعراً من التمر، فاشترى برأسماله كلّه تمراً من البصرة وجاء به إلى هجر وأدّخره فى مخزنه انتظاراً لغلاء سعر التمر، ولكن لسوء حظّه كان سعر التمر يهبط يوماً بعد آخر حتى فسد جميع التمر فى مخزنه، وتلف بذلك رأس ماله، فضرب به المثل ويقال لكلّ من يحمل شيئاً أو يتحدّث بأمر من الأمور عند من هو أعلم منه وأخبر به، وحال معاوية أيضاً يشبه ذلك التاجر الأحمق حيث أراد أن يبيّن للإمام على عليه السلام عظمة الإسلام والنّبى الأكرم صلى الله عليه وآله فصدق عليه هذا المثل المعروف.

والمثال الثانى يشبه الإمام عليه السلام معاوية بالرامى الناشئ الذى تعلّم الرماية عند استاذة ثم وقف أمام استاذة وأخذ يدعوه للبراز والمسابقة فى الرماية ليخبر استاذة ويمتحنه فى تسديد الرمية، وهذا هو ما يثير الضحك والسخرية.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٤٧

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنّ الإمام عليه السلام تحدّث من موقع التواضع بهذا التشبيه حيث شبه معاوية بالتلميذ رغم سوء

أدب معاوية وجرأته على الإمام عليه السلام.

وعلى أزيه حال، فمن يريد الأطلاع على سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وحقيقته الإسلام ورسالته الإلهية، فينبغي أن يستوحى ذلك من كلمات الإمام عليه السلام وسلوكياته، وما أقبح أن يطلب معرفة الإسلام من الطلقاء والبعيد عن أجواء الرسالة والإيمان كمعاوية.

ثم إن الإمام عليه السلام يتعرض لقسم آخر من رسالة معاوية وحديثه عن صحابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويشير إلى الخليفة الأول والثاني والثالث، ويقول: «وَزَعَمْتُ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؛ فَذَكَرْتَ أَمْرًا إِنَّ تَمَّ اعْتَرَاكَ كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقَكَ ثَلَاثَةٌ [٤٢٢]. وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ!».

وكما تقدّمت الإشارة إليه أن هدف معاوية من ذكر اسم الخليفة الأول والثاني والثالث وفضائلهم أن يثير حفيظة الإمام عليه السلام بحيث يجيبه بجواب من موقع الغضب فيتخذ ذريعة ويتمسك بها ضد الإمام عليه السلام، ولكن الإمام عليه السلام أجابه بكلام متين ومدروس جداً، بحيث أخرج كلاً من دائرة القرار وأبعده عن هذا الشأن، والحقيقة أن الإمام عليه السلام يريد أن يقول له: أنت ابن أبي سفيان جرثومة الكفر ومحور الشرك والوثنية، والعدو الأول للإسلام والأصل لإشعال نيران الحروب والفتنة ضد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمسلمين، وأنت قد ربييت في حضن هند آكلة الأكباد وأن اسرتك غريبة عن الإسلام والرسالة، والآن تريد أن تتحدّث عن صحابة النبي وتعين الفاضل والمفضول، وتجعل نفسك واحداً ممن يرتبط بهذا الشأن!

ويضيف الإمام عليه السلام في إدامه كلامه بشكل أبين وأقوى ويقول: «وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ، التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوْلِيَيْنِ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ!».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٤٨

وكأنك قد نسيت أنك يوم فتح مكة وانتصار المسلمين واستيلائهم على آخر معقل للكفر والشرك، كنت تحت رحمة سيوف المجاهدين ولم يكن لديك طريق للفرار، ولذلك أسلمت أنت وأبوك أبو سفيان من موقع التسليم والرضوخ، وقد من رسول الله صلى الله عليه وآله عليكم وجعلكم من الطلقاء، والآن نصبت نفسك على كرسي التحكيم بين صحابة النبي وجعلت من نفسك عارفاً بدرجاتهم ومكانتهم بين المهاجرين الأولين، والحقيقة أن من المخجل جداً أن يقوم شخص يملك هو واسرته مثل هذه السابقة السيئة، بالتدخل بمثل هذه الأمور ويجعل نفسه حكماً في هذا الشؤون.

والواقع ينبغي توجيه حربة النقد إلى الأشخاص الذين جعلوا من معاوية يحتل هذه المكانة بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ونسوا سوابقه وجعلوه والياً على مقاطعة كبيرة من البلاد الإسلامية، أجل، فمعاوية نُصّب والياً على الشام في زمان الخليفة الثاني ويتوجه اللوم أيضاً إلى المسلمين الذين نسوا سوابق أسره بنى أمية بهذه السرعة والفاصلة الزمنية القليلة، ورضخوا لحكومتهم ولم ينتفضوا ضدهم، كل ذلك مع وجود روايات كثيرة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه وآله مذكورة في المصادر الإسلامية المختلفة في ذم بنى أمية وبالتحديد معاوية، وبيان الخطر الذي يهدد الإسلام والامة الإسلامية من حكومتهم.

ثم إن الإمام عليه السلام يستمر في كلامه ويقول من موقع التأكيد: «هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قَدْحُ [٤٢٣] لَيْسَ مِنْهَا، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا».

وجملته: «حَنَّ قَدْحُ لَيْسَ مِنْهَا» مثل معروف بين العرب يعود أصله إلى أن طائفة من بنى الحنان أرادوا أن يلعبوا القمار فيما بينهم، وهبوا لذلك النصال، وكان نصيب جدّهم منها نصل غير صالح للرمى، فرمى بنصه من بين تلك النصال، وكان المقسم للنصال رجل أعمى، وعندما أصابت الرمية سهم من هذه السهام انتبه من الصوت أن

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٤٩

تلك النصال زائفة أيضاً، فقال: «حَنَّ قَدْحُ لَيْسَ مِنْهَا» أي أن هذا النصل ليس من جنس النصال الأصلية، من خلال صوته، وانكشف

بذلك زيف هذه النصال، ثم ضرب به المثل لكل شخص أدخل نفسه في جماعة لم يكن جديراً بهم، وجعل نفسه في عرض فئة ليس من مستواهم، والإمام عليه السلام استخدم هذا المثل المعروف في مورد معاوية، وأنتك تخلط نفسك مع جماعة لست منهم، فأنت من الكفار الطلقاء الذين أطلق سراحهم النبي يوم فتح مكة، فما أنت والمجاهدين والمهاجرين الأولين؟ [٤٢٥].

واللافت للنظر أن الإمام عليه السلام في العبارة المذكورة أعلاه يقول بصراحة: أنت بهذه السوابق السيئة تعتبر من زمرة المحكومين ومن الرعية، فكيف تجلس على كرسي الحكام وتدعي التحكيم فيما بينهم؟

ثم يضيف الإمام عليه السلام للتأكيد ويقول: «أَلَا تَرَىٰ [٤٢٦] أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَيَّ ظَلَمَكَ [٤٢٧] وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ [٤٢٨] وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخْرَكَ الْقَدْرُ فَمَا عَلَيَّكَ غَلْبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ!».

وفي الجمل الثالث يحذر الإمام عليه السلام معاوية في البداية أن يعرف قدره ولا يمدد رجله أكثر من لحافه كما يقول المثل. وفي الجملة الثانية يأمره الإمام عليه السلام بمعرفة نفسه: وعليك أن تعرف أنك لست من أهل هذا الميدان وأنتك أعجز من أن تطلب زمام الحكومة والولاية على منطقتك من البلاد الإسلامية أو تروم التمييز بين مراتب المهاجرين والأنصار وتقضى في هذا الشأن، إذن الأفضل أن تجلس في سلك المرتبة التي تليق بشأنك وإمكاناتك ولا تتجاوز عن حدودك (أى تجلس في صف النعال ومكان الأحذية لا في صدر المجلس).

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٥٠

وفي الجملة الثالثة يقول: صحيح أن المهاجرين والأنصار استطاعوا تحقيق النصر والغلبة في مواجهاتهم الحاسمة لقوى الكفر والشرك والوثنية، وأن أعداء الإسلام والمشركين انهزموا من الميدان، ولكن ذلك يتعلق بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله والصحابة، وما أنت وهؤلاء حتى تتحدث عن انتصار المسلمين وهزيمة الكفار بوصفها أحد افتخاراتك!

وجملة: «فَمَا عَلَيَّكَ...» التي تبتدىء بفاء التفرغ، إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أنك امرؤ تعيش التخلف والتأخر في مراتب الإسلام حيث أسلمت ظاهراً أنت وأبوك أبوسفیان في آخر لحظات الدعوة الإسلامية وانتصار الرسالة على قوى الشرك، فمن هذا المنطلق فأنت تقع كلياً خارج هذا البحث ولا يمكن أن تجلس للتحكيم بين المهاجرين الأولين وتعيين مراتبهم ودرجاتهم.

وفي الجملة الرابعة والأخيرة يضيف الإمام عليه السلام: «وَإِنَّكَ لَدَهَابٌ فِي التِّيهِ، رَوَّاعٌ عَنِ الْقَصْدِ».

«التيه» في الأصل بمعنى الحيرة، ثم اطلق على الصحراء التي لا يوجد فيها طريق للخروج منها، بحيث يبقى الإنسان حائراً فيها لا يهتدى سبيلاً، كما هو الحال في صحراء سيناء في سنوات «تية» بني اسرائيل حيث بقوا في هذا التيه أربعين سنة.

والإمام عليه السلام في هذه الجملة الأخيرة يرى أن مسار معاوية في هذه القضية على خطأ من جهتين: الأولى: أنه قد أوصل نفسه إلى واد لا يمكن الخروج والنجاة منه وأن طريقه ومقصده غير معلوم، والأخرى: أنه على فرض وضوح الطريق والمقصد، فإن معاوية لم يختر لنفسه الطريق القويم، بل انحرف عن هذا المسير وتوغل في دروب الضلالة والانحراف والتيه.

«رواغ» صيغة مبالغة من مادة روع (على وزن ذوق) وتعني الحركات الانحرافية التي تقود صاحبها تارة إلى هذه الجهة وأخرى إلى تلك، فيقال: إن الثعلب يتحرك بمثل هذه الحركة حتى لا يقع في المصيدة، والإمام يقول لمخاطبه هنا: أنت تتحرك دوماً من هذه الجهة إلى تلك الجهة من موقع المكر والحيلة ولا تتحرك أبداً في

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٥١

المسار الصحيح والطريق المعتدل، فأحياناً تدافع عن صحابة النبي، وأخرى تقف أمامهم وترفع لواء التمرد ضدهم وتدعو الناس للحرب وسفك الدماء.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٥٣

القسم الثاني

إشارة

أَلَمْ تَرَى غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أُحْدِثُ - أَنْ قَوْمًا اسْتَشْهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلِكُلِّ فَضْلٍ، حَتَّى إِذَا اسْتَشْهَدَ شَهِيدًا قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ، وَخَصَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ! أَوْ لَا تَرَى أَنَّ قَوْمًا قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - لِكُلِّ فَضْلٍ - حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ قِيلَ: «الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحِينَ!» وَلَوْ لَمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَرْكِيهِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَمَذَكَرَ ذَاكَرٌ فَضَائِلَ جَمَّةٍ تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمَا تَمَجَّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ. فَدَعَّ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّيِّيَّةُ فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبَّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا.

الشرح والتفسير: الامتيازات النادرة

تبيّن في المقطع السابق أنّ الإمام عليه السلام خيب معاوية في بلوغ هدفه من الرسالة، لأنّ معاوية أراد من خلال استعراض سيره الخلفاء الثلاثة أن يثير الإمام عليه السلام ليتحدّث بكلام ضدّهم ويجعل من هذا الكلام حجّة وذريعة كقميص عثمان، ولكنّ الإمام عليه السلام ذكر له بأنّك أجنبيّ وغريب عن الدخول في مثل هذه المسائل فلا- يحقّ لك أن تنصب نفسك حكماً بين المهاجرين والأنصار.

ثمّ إنّ الإمام في هذا المقطع من هذه الرسالة يستعرض فضائل أهل البيت عليهم السلام بأفضل تعبيرات وأبلغ الكلمات فيبطل ادّعاءات معاوية بشكل غير مباشر، يقول الإمام عليه السلام: «أَلَا تَرَى - غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أُحْدِثُ - أَنْ قَوْمًا اسْتَشْهَدُوا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٥٤

فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلِكُلِّ فَضْلٍ، حَتَّى إِذَا اسْتَشْهَدَ شَهِيدًا قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ وَخَصَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ».

وقد ورد في الروايات الإسلاميّة أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله كان كلّما كبر تكبيرة في صلاته على جثمان حمزة كبرت جماعة من الملائكة معه، وعلى ضوء ذلك جاءت أربعة عشر طائفة من الملائكة بصورة متتالية وصلّوا خلف رسول الله صلى الله عليه وآله على جنازة حمزة [٤٢٩].

على أية حال فإنّ غرض الإمام عليه السلام من هذا الكلام أنّنا لو شرعنا بذكر الفضائل وبدأنا من الشهادة، فإنّ هذه الفضيلة تعدّ من أبرز امتيازات قبيلتنا، لأنّ حمزة سيّد الشهداء منّا، فصحيح أنّ جميع الشهداء يملكون مقاماً شامخاً عند الله وعند المؤمنين، ولكن مقام هذا الشهيد من بنى هاشم أعلى وأسمى من الجميع.

وطبعاً فإنّ هذا اللقب لحمزة وهو سيّد الشهداء كان بالنسبة لشهداء عصر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وإلا فإنّ مقام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في شهادته وشهادة الإمام الحسين عليه السلام وشهداء كربلاء أعلى من ذلك، اللافت أنّ ابن أبي الحديد يتحدّث بمثل هذه الكلام عن شهادة أمير المؤمنين عليه السلام [٤٣٠].

ثمّ إنّ الإمام يستمرّ في بيان فضائل أهل البيت عليهم السلام وبنى هاشم ويذكر فضيلة أخرى لشهداء بنى هاشم وهي شهادة جعفر الطيار ويقول لمعاوية: «أَوْ لَا تَرَى أَنَّ قَوْمًا قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَلِكُلِّ فَضْلٍ - حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ قِيلَ: «الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحِينَ».

وقد جاء في شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري نقلًا عن المغازي للواقدي أن رسول الله صلى الله عليه وآله دخل على أسماء - زوجة جعفر بن أبي طالب بعد استشهاده - فعناه

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٥٥

إياها - إلى أن قال - يا أسماء ألا ابشرك؟ قالت: بلى، بأبي أنت وامى، قال صلى الله عليه وآله: فإن الله عز وجل جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة، قالت: بأبي أنت وامى يارسول الله، فأعلم الناس ذلك، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ بيدي يمسح بيده على رأسى حتى رقى على المنبر، وأجلسنى أمامه على الدرجة السفلى، والحزن يعرف عليه، فتكلم وقال: «إِنَّ الْمَرْءَ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ وَابْنِ عَمِّهِ، أَلَا إِنَّ جَعْفَرًا قَدِ اسْتُشْهِدَ وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ» [٤٣١].

وبعد أن يستعرض الإمام على عليه السلام هذين الموردين المتميزين من فضائل بنى هاشم، يتحدث بيان كلى، ويقول: «وَلَوْ لَأَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَرْكِيهِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَذَكَرَ ذَاكَ فَضَائِلَ جَمَّةً، تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا تَمُجُّهَا [٤٣٢] آذَانُ السَّامِعِينَ».

وهذا إشارة إلى أن فضائلنا أهل البيت عليهم السلام قد ملأت الخافقين وليست فضيلة واحدة أو عدد قليل من الفضائل، بل هي من الشهرة والشياع إلى درجة أنه لا يعرفها المؤمنون فحسب، بل حتى المنافقين والغرباء عن الإسلام على معرفة بها وقد سمعها الكثير من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وإن كنت (معاوية) لا تعرفها، ولكن نظراً لحمل البعض بذكر هذه الفضائل، على مدح الذات وتزكية النفس، فأنا أكتفى بهذا المقدار وأغض النظر عن سائر الفضائل الكثيرة، وأترك الحكم إلى المؤمنين وأصحاب النبي صلى الله عليه وآله الخاصين حيث يتواجد الكثير منهم لحد الآن بين المسلمين.

ثم إن الإمام عليه السلام فى نهاية هذا المقطع من الرسالة يهيب بمعاوية ويقول: «فَدَعُ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ [٤٣٣] فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٥٦

ويعترف شراح نهج البلاغة أن هذه الجملة بليغة جداً وعميقة المحتوى وتمثل جواباً حاسماً ورداً قاطعاً لكلام معاوية المتهاوى والهزيل. لأنه مع الالتفات إلى أن كلمة «صِنَائِعُ» جمع صنيعه وتعنى الشىء المختار والمصطفى، ومن حاز بتريه واهتمام بالغ، يقول الإمام عليه السلام: لا شك، أن شمس النبوة طلعت من دورنا، فإن الله تعالى قد اختار نبي الإسلام صلى الله عليه وآله من اسرتنا واصطفاه للرسالة واصطنعه ورباه وتحمل هذه المسؤولية الثقيلة فى ظل الوحي، وعندما بلغ ذروة الكمال والعلم والهداية، بعث لهداية الناس وتعليمهم، ونحن بدورنا ممن اصطفاهم الله لسلوك هذا الطريق، وعلى ضوء ذلك فنحن ممن اصطفاهم الله ورباهم واصطنعهم لتريه الناس وتعليمهم وإصلاح نفوسهم، ولذلك لا مجال لمقارنتنا بالآخرين، وأنت حينما تذكر بعض الأشخاص الذين ساروا فى خط الهداية والإيمان فإنهم قد اهدوا بهدائتنا وبنورنا.

وفى معنى جملة «صِنَائِعُ لَنَا» سلك البعض مسلك الإفراط فى ذلك وذهب إلى أن الناس مخلوقون ومصنوعون من قبل أئمة الهدى عليهم السلام أو أنهم عبيد لهم، فى حين أن هذا الكلام لا يتناغم ولا يتجانس مع آيات القرآن الكريم، فالقرآن الكريم يتحدث عن موسى عليه السلام ويقول: «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي» [٤٣٤]، وفى مورد أخرى يقول:

«وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» [٤٣٥].

وللأسف فإن التفسير المذكور آنفاً قد أضحى ذريعاً بين المخالفين للتشيع على أتباع أهل البيت عليهم السلام واللافت أننا نقرأ فى حديث معتبر ورد فى كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام أن أبا الصلت دخل على الإمام الرضا عليه السلام وقال: يا ابن رسول الله ما هذا الذى ينقل الناس عنكم؟ فقال له الإمام الرضا عليه السلام: ماذا يقولون؟ فقال: «إِنَّكُمْ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٥٧

تَدْعُونَ أَنَّ النَّاسَ لَكُمْ عِبِيدٌ» فتعجب الإمام عليه السلام من ذلك وقال: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ شَاهِدٌ

بِأَنِّي لَمْ أَقْبَلْ ذَلِكَ قَطُّ وَلَمَّا سَمِعْتُ أَحَدًا مِنْ آيَائِي عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَالَ قَطُّ وَأَنْتَ الْعَالِمُ بِمَا لَنَا مِنَ الْمَظَالِمِ عِنْدَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنْ هَذِهِ مِنْهَا» [٤٣٦].

تأملان: فضائل حمزه سيد الشهداء

بالنسبة لشخصية حمزة عليه السلام وخدماته الجليلة للإسلام والمسلمين وشهادته الأليمة، فقد أورد المؤرخون في المصادر الإسلامية بحوثاً كثيرة في هذا المجال ونشير هنا إلى جملة منها:

١. جاء في تفسير فرات الكوفي: «يُدْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى عَلِيِّ لِيُؤَدِّيَ لِحَمْدِهِ وَإِلَى حَمْزَةَ لِيُؤَدِّيَ لِكَبِيرِهِ وَإِلَى جَعْفَرَ لِيُؤَدِّيَ لِنَبِيِّهِ» [٤٣٧].
٢. جاء في تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «يَأْتِي بِالرُّمْحِ الَّذِي كَانَ يُقَاتِلُ حَمْزَةَ أَعْدَاءَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا فَيُنَاقِلُهُ إِيَّاهُ وَيَقُولُ: يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ ذِدِّ الْجَحِيمِ عَنْ أَوْلِيَائِكَ بِرُمْحِكَ» [٤٣٨].
٣. وأورد ابن حجر العسقلاني في كتابه الاصابة في تمييز الصحابة: «حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف القرشي الهاشمي، أبوعمار، عم النبي صلى الله عليه وآله وأخوه في الرضاعة، أرضعتها ثويبة مولاة أبي لهب كما ثبت، وقريب من أمه أيضاً لأن أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبدمناف بن زهرة، بنت عم آمنه بنت وهب بن عبدمناف أم النبي صلى الله عليه وآله.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٥٨

ولد قبل النبي صلى الله عليه وآله بسنتين، وقيل: أربع، وأسلم السنة الثانية من البعثة، ولازم نصر رسول الله صلى الله عليه وآله وهاجر معه ... ولقبه النبي صلى الله عليه وآله أسد الله، وسماه سيد الشهداء، وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به، فجعل ينظر إليه منظرًا كان أوجع قلبه فقال:

«رَحِمَكَ اللَّهُ أَيُّ عَمٍّ لَكُنْتَ وَصَوْلًا لِلرَّحِمِ فَعَوْلًا لِلْخَيْرَاتِ» [٤٣٩].

٤. وجاء في كتاب اسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير: «ولما عاد النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة سمع النوح على قتلى الأنصار، (والحال كانت دار حمزة قفرة لأنه كان من المهاجرين) فقال صلى الله عليه وآله: «لَكِنَّ حَمْزَةَ لَا بَوَاكِي لَهُ». فسمع الأنصار، فأمروا نساءهم أن يندبن حمزة قبل قتلاهم، ففعلن ذلك، قال الواقدي (المؤرخ المشهور): فلم يزلن يبدأن بالندب لحمزة حتى الآن» [٤٤٠].

٥. وجاء في كتاب مكارم الأخلاق أن فاطمة الزهراء عليها السلام صنعت من تراب قبر حمزة مسبحة وكانت تذكر الله بها [٤٤١].
- والروايات في فضائل سيد الشهداء حمزة عليه السلام وتضحياته ودفاعه عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإسلام في أيام الغربة والمحنة، وشجاعته في ميدان القتال كثيرة، ونختم هذا المختصر بحديث آخر نقله المرحوم الكليني في الكافي عن سدير قال:
- كنا عند أبي جعفر (الباقر عليه السلام) فذكرنا ما أحدث الناس بعد نبيهم صلى الله عليه وآله واستذلالهم أمير المؤمنين عليه السلام فقال رجل من القوم: أصلحك الله فأين كان عز بنى هاشم وما كانوا فيه من العدد؟ فقال أبو جعفر (الباقر) عليه السلام: «وَمَنْ بَقِيَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ إِذَا كَانَ جَعْفَرُ وَحَمْزَةُ فَمَضَى وَبَقِيَ مَعَهُ رَجُلَانِ ضَعِيفَانِ ذَلِيلَانِ حَدِيثَا عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ، عَبَّاسٌ وَعَقِيلٌ، وَكَانَا مِنَ الطُّلُقَاءِ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ حَمْزَةَ وَجَعْفَرَ كَانَا بِحَضْرَتِهِمَا مَا وَصَلَا إِلَى مَا وَصَلَا إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَا شَاهِدِيهِمَا لَأَتَلَفَا نَفْسَيْهِمَا» [٤٤٢].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٥٩

المرتبة السامية لجعفر بن أبي طالب

وقد أشار الإمام عليه السلام في رسالته مورد البحث إلى مقام جعفر بن أبي طالب عليه السلام بين شهداء الإسلام بكلمات دقيقة

وعميقة المعنى، وقد ورد في الروايات الإسلامية أيضاً عبارات مهمّة في هذا الصدد، منها:

١. ما ورد في كتاب الكافي عن يوسف بن أبي سعيد قال: كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام ذات يوم فقال لي: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَجَمَعَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْخَلَائِقَ كَانَ نُوحٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ أَوَّلَ مَنْ يُدْعَى بِهِ فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ.

فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. قَالَ: فَيَخْرُجُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَتَخَطَّى النَّاسَ حَتَّى يَجِيءَ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهُوَ عَلَى كَنِيْبِ الْمِسْكِ وَمَعَهُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا...» [٤٤٣]، فَيَقُولُ نُوحٌ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:

يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَأَلَنِي: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَقُلْتَ: نَعَمْ. فَقَالَ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟

فَقُلْتُ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَيَقُولُ: يَا جَعْفَرُ يَا حَمَزَةَ أَذْهَبَا وَأَشْهَدَا لَهُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (الصادق) عليه السلام: فَجَعَفَرُ وَحَمَزَةُ الشَّاهِدَانِ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِمَا بَلَغُوا»، فَقُلْتُ:

جَعَلْتَ فِدَاكَ فَعَلَى أَيْنَ هُوَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هُوَ أَعْظَمُ مَنَزَلَةً مِنْ ذَلِكَ» [٤٤٤].

٢. وينقل ابن أبي الحديد عن أبي الفرج الإصفهاني في كتاب مقاتل الطالبين أن لجعفر فضائل كثيرة، وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا المجال، منها: أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما فتح خيبر قدم جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فالتزمه رسوله الله صلى الله عليه وآله وجعل يقبل بين عينيه ويقول: «مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَشَدُّ فَرَحًا بِقُدُومِ جَعْفَرٍ أَمْ بِفَتْحِ خَيْبَرٍ؟» [٤٤٥].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٦٠

٣. ويروي ابن عساكر في تاريخ دمشق أن الإمام علي عليه السلام كان أول رجل اعتنق الإسلام وبعده زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب [٤٤٦].

٤. وفي كتاب الاصابة في تمييز الصحابه ورد أن جعفر كان يهتم كثيراً بالفقراء والمحتاجين ويقدم يد المعونة لهم ويتحدث معهم، بحيث أن رسول الله سمّاه «أبوالمساكين» وقال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «أَشْبَهَتْ خَلْقِي وَخُلُقِي» ثم أضاف ابن عساكر: إن هذا الحديث رواه البخاري ومسلم في كتابيهما [٤٤٧].

٥. وينقل ابن عساكر في تاريخ دمشق أيضاً عن أنس بن مالك عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «نَحْنُ بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ سَادَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ: رَسُولُ اللَّهِ وَحَمَزَةُ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ وَجَعْفَرُ ذُو الْجَنَاحَيْنِ وَعَلِيُّ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ» [٤٤٨].

وهناك روايات كثيرة في فضائل جعفر بن أبي طالب عليه السلام، نختم هذا البحث برواية عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال: «أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِنَّي شَكَرْتُ لِجَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَرْبَعَ خِصَالٍ، فَدَعَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَخْبَرَكَ مَا أَخْبَرْتُكَ، مَا شَرِبْتُ خَمْرًا قَطُّ، لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّي إِنْ شَرِبْتُهَا زَالَ عَقْلِي، وَمَا كَذَبْتُ قَطُّ لِأَنَّ الْكَذِبَ يُنْقِصُ الْمُرُوءَةَ، وَمَا زَيْنْتُ قَطُّ لِأَنِّي خِفْتُ أَنَّي إِذَا عَمِلْتُ عَمَلًا بِي، وَمَا عَيَّدْتُ صِيْمَانًا قَطُّ لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، قَالَ:

فَضَرَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى عَاتِقِهِ وَقَالَ: حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَ لَكَ جَنَاحَيْنِ تَطِيرُ بِهِمَا مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْجَنَّةِ» [٤٤٩].

مضافاً إلى كل ذلك من افتخارات جعفر وامتيازاته فإنه كان رئيس المهاجرين إلى الحبشة، وعليه فإن جعفر كان قد هاجر الهجرتين (الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة) وصلى إلى القبلتين (بيت المقدس في بداية الإسلام والكعبة بعد مجيئه

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٦١

إلى المدينة) وباع البيعتين مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله (البيعة في بداية الإسلام والبيعة في فتح مكة) كما ورد ذلك في الأحاديث الشريفة [٤٥٠].

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٦٣

القسم الثالث

إشارة

لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمَ عَزَّنَا وَلَا عَادِي طَوْلَنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا؛ فَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا، فَعَلَ الْأَكْفَاءِ، وَلَسْتُمْ! هُنَاكَ وَأَنْتَى يَكُونُ ذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمْ الْمُكَدَّبُ، وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَخْلَافِ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صَبِيَّةُ النَّارِ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَمِنْكُمْ حَمَالَةُ الْحَطَبِ، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ! فَاسْلُمْنَا قَدْ سَمِعَ، وَجَاهِلِيَّتِنَا لَاتُدْفَعُ، وَكِتَابُ اللَّهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَدَّ عَنَّا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» وَقَوْلُهُ تَعَالَى «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» فَخَنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقُرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ. وَلَمَّا اخْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَجُّوا عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بغيرِهِ فَالْأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ.

الشرح والتفسير: نقاط مهمة أخرى في فضائل أهل البيت عليهم السلام

يشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة إلى نقاط مهمة أخرى، ففي البداية يحذر معاوية أن من تصوّر أن مجرد الارتباط النسبي والسببي بين بنى هاشم وبنى امية دليل على التساوي في المرتبة والمكانة، بل هو نوع من التفضّل والإيثار من بنى هاشم يقول: «لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمَ عَزَّنَا وَلَا عَادِي

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٦٤

طَوْلَنَا] [٤٥١] عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا؛ فَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا، فَعَلَ الْأَكْفَاءِ [٤٥٢]، وَلَسْتُمْ هُنَاكَ!.

إنّما يتحدّث الإمام عليه السلام بهذا الكلام من جهة أنّ لهجة معاوية في رسالته يستوحى منها أنّ بنى امية في عرض واحد مع بنى هاشم، في حين أنّ بنى هاشم يمثّلون مركز النبوة ومحور الولاية، وأنّ بنى امية هم أئمة الكفر وقادة الشرّ، ولكن عندما اعتنقوا الإسلام ظاهراً، فإنّ الإسلام فرض على المسلمين أن يتعاملوا فيما بينهم معاملة الأكفاء والأنداد، ومن هذا المنطلق تزوّج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أم حبيبة بنت أبي سفيان، وزوّج النبي ابنته لعثمان بن عفان.

ويطلق الإمام عليه السلام في كلامه لبيان الدليل الواضح والبرهان القاطع على التفاوت الفرق بين بنى هاشم وبنى امية ويقول: «وَأَنْتَى يَكُونُ ذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمْ الْمُكَدَّبُ (مثل أبي جهل)، وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَخْلَافِ [٤٥٣] (أبوسفيان)، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ (الحسين والحسين) وَمِنْكُمْ صَبِيَّةُ النَّارِ (مروان أو عقبه بن أبي معيط)، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (فاطمة الزهراء)، وَمِنْكُمْ حَمَالَةُ الْحَطَبِ (ام جميل زوجة أبي لهب واخت أبي سفيان)، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ!.

وعلى هذا الأساس يبيّن الإمام عليه السلام مكانة بنى هاشم السامية وفضائح بنى امية وأتباعهم بالشواهد والقرائن التاريخية، بحيث لا يدع لأى أحد مجالاً لإنكار هذه الحقائق، وهذا هو معنى الفصاحة والبلاغة في الكلام.

أمّا مقصود الإمام عليه السلام من «المكذب» ، فهناك خلاف بين شراح نهج البلاغة

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٦٥

فذكروا تارة أشخاصاً مجهولين بوصفهم مكذّبين بحيث يتعجب القارىء من ذلك، في حين أنّ المكذب البارز في تاريخ الإسلام هو أبو جهل، سواء قلنا إنّ من بنى امية أم لا، لأنّ الإمام عليه السلام في هذا الكلام يستعرض فضائح بنى امية ومن حالفهم من العرب، وكان شريكاً معهم في المواقف السلبية تجاه الدعوة والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

وأما بالنسبة لـ «أسد الله فلا يوجد أيّ خلاف بين شراح نهج البلاغة أنّ المقصود منه حمزة سيد الشهداء عليه السلام والذي لقبه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا اللقب، أمّا «سيد الأخلاف فقد ذكروا احتمالات عديدة، في حين أنّ أوضح مصداق له هو (أبو سفيان) الذي قاد قوى الكفر وجيوش الشرك ضدّ الإسلام في حروب كثيرة وتحالف مع المشركين من العرب ضدّ الإسلام وكان آخرها معركة الأحزاب.

وهكذا بالنسبة للمراد من «صبيّة النار» فقد طرح شراح نهج البلاغة آراءً مختلفة، ولكنّ الأنسب من الجميع أنّ المقصود منهم أبناء عقبه بن أبي معيط، وهو الذي تلقى ضربات كثيرة في معركة بدر وسقط على الأرض فلما وقعت عينه على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال بصوت ضعيف: «مَنْ لِلصَّبِيَّةِ يَا مُحَمَّد؟» فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «النَّارُ» [٤٥٤].

وهو إشارة أنّكم تقتلون المسلمين ولا تفكرون بأبنائهم وصبيّتهم، لكنّك الآن تفكر بأبنائك وصبيّتك وأطفالك وهم الصبيّة الذين سيتحرّكون في مسير الشرك والكفر تبعاً لأبيهم، ويقفون في صفّ أعداء الإسلام ضدّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ودعوته السماوية، والتاريخ الإسلامي يحدثنا أيضاً أنّ أبناء عقبه بن أبي معيط كانوا مصدر الشرّ والفتنة في الأمّة ومنهم الوليد بن عقبه. والمقصود من «خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ فَشْرَاحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ وَسَائِرُ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ يَتَّفِقُونَ بِالْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّهَا فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ، لِأَنَّهُ كَمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ الْأَكْرَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عِنْدَمَا حَانَتْ وَفَاتِهِ قَالَ لِفَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ يَؤَاسِيهَا وَيَطِيبُ خَاطِرَهَا: «يَا نَفْحَاتِ الْوِلَايَةِ، ج ٩، ص: ٣٦٦

فَاطِمَةُ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟» [٤٥٥].

ومثل هذا الحديث ورد أيضاً في صحيح البخاري الجزء ٧، ص ١٤٢ وجاء في مسند أحمد و مستدرک الحاكم عبارة «سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ بدل العبارة السابقة» [٤٥٦].

أمّا «حمالة الحطب» فقد وردت الإشارة إليها في القرآن الكريم ويتفق شراح نهج البلاغة ومفسّرو القرآن أنّ المراد بها أمّ جميل زوجة أبي لهب، واخت أبي سفيان وعمّة معاوية.

ومن مجموع ما تقدّم آنفاً يتبين بوضوح المكانة المرموقة لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وبنى هاشم، وكذلك مكانة بنى امية وأتباعهم، ومن خلال كلام الإمام عليه السلام تستفاد مسائل كثيرة أخرى أيضاً ويتّضح من خلال الملاحظات التي ذكرها الإمام عليه السلام في كلامه هذا الجواب الحاسم لمعاوية وأدعاءاته الواهية.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام من أجل التأكيد على ما سبق يضيف: «فَإِسْلَامُنَا قَدْ سَمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَأَتَدَفَّعُ»، الأعمال التي سبق أن قمنا بها في الجاهلية والإسلام لا تخفى على أحد.

وهذا إشارة إلى أنّ الإسلام قد بدأ بنا وأنا كنّا أول المسلمين والمدافعين الحقيقيين عن الإسلام، وفي زمان الجاهلية أيضاً كنّا معروفين بحسن السمعة والأعمال الصالحة والأمانة بين جميع العرب قاطبة، ونقرأ في رواية عن أحوال جعفر أنّ الله تعالى قد مدحه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله لأربع فضائل متميزة له في زمان الجاهلية، خلافاً لبنى امية والقبائل المتحالفه معهم الذين كانوا معروفين بالمكر والشيطنة والفساد وسفك الدماء.

وينقل المرحوم الشيخ مغنية في شرحه لنهج البلاغة نقلًا عن كتاب عبقرية محمد للكتاب المصري المعروف «العقاد» أنّ بنى هاشم كانوا دوماً معروفين

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٦٧

بالفضائل الأخلاقية والقيم الإنسانية والعقيدة السليمة، بعكس بنى امية المعروفين بالمكر وسوء الخلق، ونحن نرى هذا الاختلاف والتفاوت بين بنى هاشم وبنى امية في كافّة الصفات الأخلاقية والمثل الإنسانية [٤٥٧].

واللافت أن ابن أبي الحديد يذكر بحثاً مطوّلاً من مائة صفحة تقريباً في بيان هذه الفروقات، وفي الفصل الأول يتحدّث عن فضائل بنى هاشم بالمقارنة مع بنى امية، أبناء عبدشمس، وفي الفصل الثاني يتحدّث عن الأمور التي يفتخر بها بنو امية، وفي الفصل الثالث يجيب عن هذه الافتخارات المزعومة [٤٥٨].

ثم إن الإمام عليه السلام بعد أن طرح هذه الأدلة التاريخية القوية يتوجه نحو القرآن الكريم ويستعرض آيتين شريفتين لإثبات حقانيته بنى هاشم ويقول: «وَكِتَابُ اللَّهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَدَّ عَنَا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» [٤٥٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» [٤٦٠].»

والإمام عليه السلام في تفسير وتطبيق هذه الآية يضيف: «فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَىٰ بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَىٰ بِالطَّاعَةِ».

وفي الواقع أن الإمام عليه السلام في ذكره هاتين الآيتين أوصد جميع الطرق على معاوية، فإن كان المعيار في خلافة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله القرابة له، فنحن أولى من الجميع بذلك لأننا أقرب للنبي صلى الله عليه وآله من سائر المسلمين، وإن كان المعيار هو المعرفة بتعاليم الرسالة والطاعة للأحكام والأوامر الشرعية وأوامر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه وآله فنحن أعرف من الجميع بذلك وأطوع له ولدينه من الآخرين، في حين أن بنى امية والأشخاص الآخرين الذين تربعوا على كرسي خلافة النبي صلى الله عليه وآله لا يملكون مثل

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٦٨

هاتين الميزتين لإحراز الأولوية.

وهنا يفرض هذا السؤال نفسه، وهو: هل أن القرابة لوحدها تصلح أن تكون دليلاً على الأحقية والصلاحية لخلافة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؟

الجواب: إن الإمام عليه السلام في هذا الكلام ناظر إلى الاستدلال الذي طرحه أتباع الخليفة الأول في سقيفة بنى ساعدة، حيث استدلوا بقرابته للنبي لإثبات أولويته للخلافة، فالإمام يقول: إذا كان هذا هو المعيار المقبول فنحن أقرب من الجميع لرسول الله عليه السلام، وبديهي أن المعيار الأصلي هو ما ذكره الإمام عليه السلام في العبارة الثانية وهو الطاعة والسير في خط الامتثال للأوامر الإلهية والتعاليم الرسالية، الطاعة المتولدة من العلم والإيمان، فالشخص الذي يكون أعرف من الجميع بدين النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويملك إيماناً أقوى من الآخرين، فإنه جدير بالخلافة وتولى هذا المقام، ولهذا نحن نرى أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أجدر وأليق من الجميع لإحراز هذا المنصب، وأعلى من ذلك أن الله تعالى بسبب هذه الامتيازات الفردية واللياقات العالية قد نصبه لهذا المقام واختاره إماماً للمسلمين.

ثم إن الإمام عليه السلام يتعرّض لتوضيح أكثر عن هذه المسألة المذكورة آنفاً ويقول «وَلَمَّا اِخْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِمَا اِخْتَجَّ الْأَنْصَارُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ لِإِثْبَاتِ أَحْقِيَّتِهِمْ لِتَوَلَّى الْخِلَافَةَ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَالْجَوَابُ [٤٦١] عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بغيرِهِ فَالْأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ».

وفي الحقيقة أن الإمام عليه السلام يجيب عن ادعاءات معاوية فيما يتصل بالخليفة الأول والثاني ويقول: ليس فقط أن بنى امية لا يليقون بخلافة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لأنهم

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٦٩

ليسوا من المهاجرين وليسوا من الأنصار، بل من الطلقاء، أي المشركين الذين أطلقهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة، فإن الخلفاء الأوائل أيضاً واستناداً إلى كلامهم، غير جديرين لتولى هذا المنصب، لوجود من هو أجدر منهم، فإن كان معيار اللياقة والجدارة، (وفقاً لاستدلالهم) القرابة للنبي فإن الإمام علي عليه السلام هو أقرب منهم للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فهو ابن عم النبي وصهره، وإذا كان الآخرون يمثلون أغصان شجرة النبوة فالإمام علي عليه السلام هو ثمرة هذه الشجرة وكذلك الأئمة من

أهل البيت عليهم السلام.

ومرّة أخرى نكرّر أنّ هذا الاستدلال في الواقع هو بمسلمات الخصم، والذي يعتبر عنه في المنطق بالاستدلال الجدليّ، يعنى أنّ المتكلم يستند إلى مسلمات الخصم ويخلع سلاحه منه.

تأملان

١. قصة السقيفة المثيرة!

يشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة إلى قضية سقيفة بنى ساعدة المثيرة التي تمّ تشكيلها لتعيين الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ونحن ذكرناها مع استعراض المقاطع التاريخية الحساسة استناداً للمصادر المعتبرة في ذيل الخطبة ٦٧ تحت عنوان «مسألة الخلافة وقصة سقيفة بنى ساعدة» بشكل مفصل وكشفنا اللثام عن هذه المؤامرة العجيبة، وهنا نضيف عدّة نقاط:

الأولى: أنّ الطبرى في تاريخه وابن الأثير في الكامل صرّحا بأنّ جماعة الأنصار اجتمعوا في سقيفة بنى ساعدة، فقالت جماعة منهم في مقابل اقتراح عمر بالنسبة لبيعه أبي بكر: «لَا تُبَاعُ إِلَّا عَلَيَّ» (في حين أنّ الإمام عليّ عليه السلام وبنو هاشم ومنهم الزبير وكذلك جماعة أخرى من المهاجرين لم يكونوا حاضرين في السقيفة، ويقول الطبرى بعد ذكر هذا الكلام: بعد ذلك توجه عمر لدار عليّ وكان فيه طلحة والزبير

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٧٠

وجماعة من المهاجرين وقال: «وَاللَّهِ لَنُخْرِقَنَّ عَلَيْكُمْ أَوْ لَتَخْرُجَنَّ أَلَى الْبَيْعَةِ» [٤٦٢].

ومن الأشخاص الذين اشتركوا مع عمر في هذا الهجوم على دار أمير المؤمنين عليه السلام أسيد بن خضير وسلمة بن أسلم [٤٦٣].

وجماعة أخرى من الأنصار سارعوا ببيعة أبي بكر عندما توصّلوا إلى بعض المقامات، منهم بشير بن سعد الذي كان من المشاورين للخليفة، والآخر أسيد بن خضير الذي تزعم الحرس في المدينة، والثالث سلمة بن أسلم الذي حصل على مقام معاون لأسيد [٤٦٤].

٢. فضائل بنى هاشم في عصر الجاهلية والإسلام

تقدّم أنّ ابن أبي الحديد في ذيل هذه الرسالة ذكر بحثاً مفصّلاً (من مائة صفحة تقريباً) في بيان فضائل بنى هاشم بالمقارنة مع نقاط الضعف والقصور لبنى عبدشمس (عبدشمس هو والد اميئة).

منها: إنّ بنى هاشم قدّموا للإسلام شهداء عظام كالإمام عليّ وحزرة جعفر عليهم السلام، في حين أنّ بنى اميئة أفراداً كالحكم بن العاص المعروف، بأنّه كان يسير خلف النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ويقلد مشيته، فالتفت النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ورآه ولعنه، وبعد ذلك لم يتمكن من المشى بشكل سليم ومعتدل.

والآخر أنّ أحد المعاهدات الرائعة في عصر الجاهلية (حلف الفضول) وهي المعاهدة التي عقدت من أجل الدفاع عن المظلومين وحماية المستضعفين، وفي هذا المعاهدة اشترك بنو هاشم وقبائل أخرى من العرب، ولكن لم يشترك أيّ فرد من عبدشمس فيها.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٧١

والثالث، أنّ بنى اميئة قد ارتكبوا في زمان الجاهلية أعمالاً شائنة لم يرتكبها أحد من العرب، منها أنّ اميئة زوج إحدى زوجاته لابنه أبي عمرو، في حين أنّ أسرة بنى هاشم لم تتلوّث بمثل هذه الأعمال السيئة.

وأيضاً كان لعبدالمطلب - وهو من رموز وأكابر بني هاشم - فضائل فريدة، فقد حفر بئر زمزم وأدام منهج إسماعيل وهاجر، وأولى أهميته فائقه لدم الإنسان حيث جعل لديته مائة من الإبل، فلما جاء الإسلام أمضى هذا الحكم، وعندما هجم جيش أبرهة على مكة، فرت عامه قريش من مكة، ولكن عبدالمطلب الذي كان في ذلك الوقت شاباً، قال: «وَاللَّهِ لَأُخْرُجَ مِنْ حَرَمِ اللَّهِ»، وهناك فضائل كثيرة أخرى.

وللمزيد من الاطلاع، راجع شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٩٨ إلى ٢٩٥. وقد أشار ابن أبي الحديد في هذه الصفحات إلى بعض ما يزعم من مفاخر بني امية ويجب عنها.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٧٣

القسم الرابع

إشارة

وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسِدْتُ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتٌ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتْ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونُ الْعُذْرُ إِلَيْكَ.
وَتِلْكَ شِكَاةٌ ظَاهِرَةٌ عَنْكَ عَارُهَا

وَقُلْتُ: إِنِّي كُنْتُ أَقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمُخْشَوْشُ حَتَّى أَبَايَعُ؛ وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ تَدُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَأَفْتَضَحْتَ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَابَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا مَا لَمْ يَكُنْ شَاكًا فِي دِينِهِ، وَلَا مُؤْتَابًا بِيَقِينِهِ! وَهَذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَضُدَهَا، وَلَكِنِّي أَطَلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا.

الشرح والتفسير: هذه الأمور لا تخصك!

يتعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة إلى مقطع من كلام معاوية الخاوي والمهزوز، حيث ذكر في رسالته للإمام عليه السلام: «أنتك حسدت أبا بكر وامتنعت من بيعته وكذلك حسدت عمر وحسدت عثمان أكثر من الجميع وفضحت أعماله على الملأ وكنت شاكاً في دينه وعقله وفهمه للأمر...».

والإمام عليه السلام يردّ عليه هذه الإدعاءات الواهية ويقول: «وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسِدْتُ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتٌ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتْ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونُ الْعُذْرُ إِلَيْكَ وَتِلْكَ شِكَاةٌ [٤٦٥] ظَاهِرَةٌ [٤٦٦] عَنْكَ عَارُهَا».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٧٤

من هذا المنطلق يسحب الإمام عليه السلام البساط من تحت معاوية ويخرجه عن هذا الميدان، ويحسب ذلك نوعاً من الفضول والتدخل في أمور الآخرين، ويقول: إنني إذا كانت لدي مشكلة مع الخلفاء فيجب عليهم أو أبنائهم أن يدعوا مثل هذا الإدعاء، وأما أنت، فمن الطلقاء وقد قبلت بالإسلام مضطراً في آخر مرحلة، في فتح مكة، فلا حق لك في التدخل في مثل هذه المواضيع.

ويستند الإمام عليه السلام في كلامه هذا إلى عجز بيت لشاعر عربي هو (أبو ذؤيب الهذلي) الذي كان أدرك عصر الجاهلية والإسلام، وعندما هاجر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى المدينة جاء إليه وأسلم على يده وصار من المسلمين الصالحين، وصدر البيت هو:

وَعَيَّرَهَا الْوَأَشُونَ أَنِّي أَحْبَبُهَا

فيقول إن سعاية الواشين بحجه لها لا يعد عيباً، ولو كان هناك عيب وعار فهو بعيد عنك.

وهذا الشعر أضحي مثلاً يضرب به لمن يحسب أمراً سيئاً في حين أنه لا يرتبط به.

وجملته: «زَعَمْتَ تعنى أولاً: أن هذه النسبة التي تدعى أنني حسدت الخلفاء نسبة كاذبة وفريه واضحة، ولا سيما أنك زعمت في كلامك أنني شريك في قتل عثمان، والحال أنني كنت أذب عنه وأنهى الناس عن قتله، وثانياً: على فرض أن هذه النسبة صحيحة فهي لا تتعلق بك.

ويستمر الإمام عليه السلام في كلامه ويحجب عن قسم آخر مما كتبه معاوية في رسالته:

«وَقُلْتُ: إِنِّي كُنْتُ أَقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ [٤٦٧] حَتَّى أَبَايَحَ؛ وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ!»،

وهو إشارة إلى أنك أولاً: تعترف بأنني وقعت مظلوماً وأن الآخرين ظلموا حقي

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٧٥

في هذا المجال، فهذا يمثل مدحاً لي وذمّاً للظالمين، وثانياً: أنك أثبت أن خلافتهم لم تكن بإجماع الصحابة، في حين أنك تدافع عن مثل هذه الخلافة وقلت: أن الخليفة الأول أقرب إلى الله من الجميع وأعلى مكاناً، فكيف يمكن ذلك في حين أنه ارتكب ظلماً بحق أول مسلم وأقرب الناس للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأعلمهم بدينه وأشدهم دفاعاً عن رسالته؟ وهذا التناقض في كلامك دليل على خواء ادعائك وضحالة فكرك.

ثم يضيف الإمام عليه السلام في شرح هذا الكلام: «وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاظَةٍ [٤٦٨] فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكاً فِي دِينِهِ، وَلَا مُرْتَاباً يَتَّقِينَهُ!».

أجل، فالمصلحون والسائرون في طريق الحق على امتداد التاريخ وقعوا بسبب دفاعهم عن الحق وعدم استسلامهم وإذعانهم للظالمين، مورد الظلم والجور، وهذا يعد افتخاراً لهم.

وهذا يعني أن هذا مثل هذه المظلومية لو كانت عيباً فيجب أن تقول إن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عندما جرح في معركة أحد وكسرت ربايعته على يد أنصار أبيك وشقت بطن حمزة من قبل أمك وأخرجت كبده ومضغته في فمها، أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وحمزة عليه السلام يستحقان الدم والتفريع وأن أباك ومشركي مكة وأمك هند جديرون بالمدح والتقدير! ولكن هل يقبل أي عاقل مثل هذا الكلام؟ ولو تطلعنا إلى ماضي التاريخ فإن الأنبياء الكبار إبراهيم ويحيى وزكريا والمسيح عليهم السلام وغيرهم وقعوا مورد الظلم والجور في طريق الاستقامة والدفاع عن الحق والرسالة الإلهية.

وفي ختام هذا المقطع من الرسالة يقول الإمام عليه السلام: «وَهَذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَضَدَهَا، وَلِكِنِّي أَطَلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَدَحَ [٤٦٩] مِنْ ذِكْرِهَا».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٧٦

وهو إشارة إلى أن المخاطب الحقيقي لكلامي هذا، الخلفاء الذين أجبروني على بيعتهم، ولكن بما أنك قد طرحت هذه المسألة فرأيت من اللازم أن اجيب عنها بالمقدار اللازم.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٧٧

القسم الخامس

إشارة

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرٍ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَيْدِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ، وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ! أَمِنْ بَدَلَ لَهُ نُصِيرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ اسْتَكْفَهُ، أَمْ مِنْ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاحَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمُنُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى أَتَى قَدْرُهُ عَلَيْهِ. كَلَّا وَاللَّهِ لَ «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا». وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَانًا؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِشَادِي وَهَدَايَتِي لَهُ؛ فَرُبَّ مَلُومٍ لَأَذْنَبَ لَهُ. وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظَّنَّةَ الْمُتَّصِحَّ وَمَا أَرَدْتُ «إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

الشرح والتفسير: المقصر الأصلي في قتل عثمان

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته من موقع الإجابة عن أحد أوصاف معاوية ويقول: «ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرٍ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَيْدِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ، وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ [٤٧١]! أَمِنْ بَدَلَ لَهُ نُصِيرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ [٤٧٢]

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٧٨

وَاسْتَكْفَهُ، أَمْ مِنْ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاحَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمُنُونَ [٤٧٣] إِلَيْهِ، حَتَّى أَتَى قَدْرُهُ عَلَيْهِ».

إن تاريخ الإسلام يشهد بأن هذه التهمة التي نسبها معاوية للإمام علي عليه السلام بأنه شارك في دم عثمان أو لم يدافع عنه بالمقدار اللازم، هي تهمة واهية وكذب وافتراء محض، افتراها معاوية لخداع الناس والتعمية على أفكارهم، ومن هذه الجهة استخدم قميص عثمان الدامي لإثارة أحاسيس الجهلة والغوغاء ضد الإمام علي عليه السلام، والحال أن الإمام علي عليه السلام نصح عثمان مراراً ودعا لإصلاح أخطائه وتعديل سلوكياته وعدم تقسيم بيت المال بين بنى أمية ومن لف لفهم وعدم تقليد هم المراكز الحساسة في الحكومة الإسلامية، وأن يصغى لنداءات المحرومين، ولكن للأسف لم يقبل عثمان بكل هذه النصائح، بل أن الإمام علي عليه السلام عندما هجمت الجماهير الغاضبة على بيت عثمان أرسل أبناءه للدفاع عنه.

في حين أن معاوية لم يتقدم خطوة للدفاع عن عثمان مع أن عثمان كان قد كتب إليه رسالته يطلب منه إرسال قوة خاصة من الشام إلى المدينة للدفاع عنه.

واللافت أن معاوية عندما تربح على كرسى الخلافة، ذكروا أنه لم يكن أحد أحب إلى معاوية أن يلقاه من أبي الطفيل الكنانى: وهو عامر بن واثلة، كان فارس أهل صفين، وشاعرهم، وكان من أخص الناس بعلي كرم الله وجهه، فقدم أبو الطفيل الشام يزور ابن أخ له من رجال معاوية، فأخبر معاوية بقدومه، فأرسل إليه، فأتاه وهو شيخ كبير، فلما دخل عليه، قال له معاوية: أنت أبو الطفيل عامر بن واثلة؟ قال نعم، قال معاوية: أكنت ممن قتل عثمان أمير المؤمنين، قال: لا، ولم أكن ممن شهده

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٧٩

فلم ينصره، قال: ولم؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار، فقال معاوية: أما والله! إن نصرته كانت عليهم حقاً واجباً، وفرضاً لازماً، فإذا ضيعتموه فقد فعل الله بكم ما أنتم أهله، وأصاركم إلى ما رأيتم.

فقال أبو الطفيل: فما منعك يا أمير المؤمنين (يعنى معاوية) إذ تربصت به ريب المنون أن تنصره ومعك أهل الشام؟ قال معاوية: أو ماترى طلبى بدمه، فضحك أبو الطفيل وقال: بلى ولكنى وإياك كما قال عبيد بن الأبرص:

لَا أَلْفَيْتُكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدُبِي وَفِي حَيَاتِي مَا رَوَّدْتَنِي زَادِي [٤٧٤]

ثم يتحدث الإمام عليه السلام للتأكيد ولتوضيح ما تقدم من كلامه السابق من عدم استجابة معاوية لدعوة عثمان لنصرته، والآن يلقي

باللائمة على الآخرين في عدم الدفاع عنه ويقول: «كَلَّا وَاللَّهِ لَ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ [٤٧٥] مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا» [٤٧٦].

ونعلم أن هذه الآية نزلت في شأن طائفتين من المنافقين، إحداهما اجتنبت الجهاد والقتال في معركة الأحزاب ودعوا الآخرين لاجتناب الدخول في الحرب، والأخرى قالوا لإخوانهم من المسلمين هلمُّ إلينا ولا تقحموا أنفسكم في هذا الخطر، هؤلاء لم يكونوا من أهل الجهاد والقتال الأعداء ولا يشتركون في مواجهة قوى الكفر والشرك إلانادراً ومن موقع الإكراه وعدم الرغبة.

ويحتمل أيضاً أن هذه الآية الشريفة لا تشير إلى وجود طائفتين من المنافقين، بل تحدت عن حالة طائفة معينة تعيش حالتين، أى تشير إلى تلك الطائفة من المنافقين الذين عندما يكونون في صف المجاهدين في ميدان القتال يمتنعون من الحرب والجهاد، وعندما يتخلفون عن الميدان يدعون الآخرين للتخلف معهم وعدم

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٨٠

الاشتراك في الحرب.

على أية حال فإن استشهاد الإمام عليه السلام بهذه الآية الشريفة إشارة إلى أنك (معاوية) إذ تستخدم أساليب الدجل والتمويه أمام الناس فيما يتصل بحادثه قتل عثمان، فإن الله تعالى لا يخفى عليه شيء، وأنه يعلم أن عثمان طلب منك النصر ولكنك لم تقدم خطوة في هذا السبيل (بل كنت مسروراً لمقتله) لعل الخلافة تصل إليك.

ومعلوم أن معاوية السياسي المحترف كان يعلم أن المهاجرين والأنصار إذا التزموا الصمت مقابل ثورة الناس ضد عثمان ولم يتحركوا على مستوى الدفاع عنه، فإن تدخل في هذا الشأن وجاء مع جيشه للدفاع عن عثمان، فسيكون وجهاً لوجه مع المهاجرين والأنصار، وهذا المعنى يكلفه غالباً في المستقبل، ولهذا السبب لم يهتم بدعوة عثمان لنصرته، رغم أنه بحسب الظاهر كان واليه وامتكتافاً معه.

وهنا ربما يثار هذا السؤال، وهو أن الآية الشريفة المذكورة أعلاه (لاية ١٨ من سورة الأحزاب) التي تحدت عن موقف المنافقين في مقابل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله ربما تحسب مدحاً ضمياً لعثمان، لأن الإمام عليه السلام في هذا الكلام شبهه بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله.

ولكن العبارات اللاحقة تشير إلى أن هذا التشبيه ناظر فقط لتشبيه معاوية بالمنافقين، وبيان آخر أن التشبيه هنا من طرف واحد، لأن الإمام عليه السلام في سياق كلامه يقول: «وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَدِرَ مَنْ أُنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ [٤٧٧] عَلَيْهِ أَحْدَانًا [٤٧٨]؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهَدَايَتِي لَهُ، فَزُبَّ مَلُومٌ لَأَذُنْبَ لَهُ. وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظَّنَّةَ [٤٧٩] الْمُتَّصِحَّ [٤٨٠]»، والأحداث تعنى البدع التي ارتكبتها عثمان في تقسيم بيت المال ووضع مقاليد

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٨١

الأمر في الحكومة الإسلامية بيد الانتهازيين وغير الجديرين، فيقول الإمام عليه السلام أنه لا لوم علي من إرشادي وهدايتي له ولو لامني أحد فإنني أفتخر به.

ويقول الإمام عليه السلام في ختام كلامه: «وَمَا أَرَدْتُ إِلَّا الْأَصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوَفَّقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ إِلَيْهِ أُنِيبُ» [٤٨١].

ولا شك في أن الإمام عليه السلام كان من الأشخاص المعدودين الذين رفضوا قتل عثمان ونهوا الناس عن ذلك، وقد أرسل ولديه (الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام) للدفاع عنه [٤٨٢].

وجاء في تاريخ ابن عساکر: عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عباس قالوا: بعث عثمان بن عفان المسور بن مخرمة إلى معاوية يعلمه أنه محصور وبأمره أن يبعث إليه جيشاً سريعاً يمنع عنه، فلما قدم على معاوية وأبلغه ذلك ركب معاوية نجائبه ومعه معاوية بن خديج ومسلم بن عقبة، فسار من دمشق إلى عثمان عشراً فدخل المدينة نصف الليل فدق باب عثمان فدخل فأكب عليه فقبل رأسه فقال عثمان: فأين الجيش؟ فقال معاوية: لا والله ما جئتكم إلأى ثلاثة رهط، فقال عثمان: لا وصل الله رحمك ولا أعز نصرك ولا

جزاك عنى خيراً، فوالله ما اقتل إلا فيك ولا ينقم على إلامن أجلك.

فقال معاوية: بأبي أنت وأمي لو بعثت إليك جيشاً فسمعوا به، عاجلوك فقتلوك قبل أن يبلغ الجيش إليك، ولكن معى نجائب لا تسائر ولم يشعر بى أحد فاخرج معى، فوالله ما هى إلا ثلاث حتى ترى معالم الشام، فإنها أكثر دار الإسلام رجلاً وأحسنه فيك رأياً، فقال عثمان: بئس ما أشرت، وأبى أن يجيبه إلى ذلك.

فخرج معاوية إلى الشام وقدم المسور يريد المدينة فلقى معاوية بذى المروء راجعاً إلى الشام، فقدم المسور على عثمان وهو ذام لمعاوية غير عاذر له، فلما كان
نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٨٢

فى حصره الآخبر بعث المسور أيضاً إلى معاوية فأغذ السير حتى قدم عليه فقال: إن عثمان بعثنى إليك لتبعث إلى الرجال والخيول وتنصره بالحق وتمنع عنه الظلم، فقال معاوية: إن عثمان أحسن فأحسن الله به، ثم غير فغير الله به، فشددت عليه، وقال: يامسور تركتم عثمان حتى إذا كانت نفسه فى حنجرته قلتم: إذهب فادفع عنه الموت، ليس ذلك بيدى، ثم أنزلنى فى مشربى على رأسه فما دخل على حتى قتل عثمان» [٤٨٣].

وجاء فى تاريخ الطبرى فى حوادث سنة ٣٥ الهجرية أن الثوار حاصروا دار عثمان محاصرة شديدة وقطعوا عنه كل مدد حتى الماء، «وَقَدْ كَانَ يَدْخُلُ بِالشَّيْءِ مِمَّا يُرِيدُ» [٤٨٤] أى كان على عليه السلام يأتيه بما يريد من الأمور.

ويذكر الطبرى أيضاً فى هذا الكتاب: أن الناس عندما منعوا الماء والغذاء عن عثمان سخط على عليه السلام بشدة وقال لهم: يا أيها الناس إن الذى تعملون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادّة، فإن الروم وفارس عندما تؤسر تطعم وتُسقى، وما تعرّض لكم هذا الرجل بما تستحلّون حصره وقتله؟ [٤٨٥].

ويضيف الطبرى بعد نقله لهذا الكلام: عندما عزم المسلمون على مهاجمة عثمان منعهم من ذلك الحسن بن على ... ومن كان معه من أبناء الصحابة [٤٨٦].

ولكن بما أن الإمام عليه السلام كان قد انتقد عثمان مراراً عديدة قبل هذه الحادثة بسبب سوء أعماله، ونصحه مراراً أن يكف عن تلك التصرفات الشائنة ويحضر أمام الناس ويستمع ويستجيب لمطالبهم الحقّة، فهذه الأمور أضحت فيما بعد ذريعة بيد معاوية وأمثاله بأن الإمام عليه السلام كان يثير الناس ضد عثمان، فيقول الإمام: إذا كان الإرشاد والنصيحة ذنباً (والحال أن مثل هذا الإرشاد يعدّ مصداقاً بارزاً للأمر بالمعروف

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٨٣

والنهى عن المنكر) فإننى أعترف بهذا الذنب، ولكن لا أحد من المؤمنين يعتبر ذلك ذنباً، بل هو فريضة من فرائض الإسلام. والجدير بالذكر أن جملة «رُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ هُوَ مِثْلُ عَرَبِيٍّ مَعْرُوفٍ وَيُقَالُ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ نَطَقَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ «أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ». وجملة: «وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظَّنُّ الْمُتَنَصِّحُ» تعنى أن الشخص أحياناً يصرّ كثيراً على تقديم النصيحة إلى أن يكون متهماً، وهذه العبارة عجز بيت شعر وصدرة: «وَكَمْ سَفُتٌ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ» وقيل إن هذا الشعر قاله شاعر يدعى الرياشى [٤٨٧].

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٨٥

القسم السادس

إشارة

وَذَكَرَتْ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلَا ضِحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعِيدًا سِتِّعْبَارًا مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْيَادِ نَاكِلِينَ

وَبِالسَّيْفِ مُخَوِّفِينَ
فَلَبِثْ قَلِيلًا يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلٌ
فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوُكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، شَدِيدٍ
زِحَامُهُمْ، سَاطِعِ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرِّبِلِينَ سِرَابِيلَ الْمَوْتِ؛ أَحَبُّ اللَّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، وَقَدْ صَحِبْتُهُمْ ذُرِّيَّةً بَدْرِيَّةً، وَسُيُوفَ هَاشِمِيَّةً، قَدْ عَرَفْتَ
مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ».

الشرح والتفسير: تهديدنى بالحرب!

يشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته، وهو المقطع الأخير، إلى إحدى عبارات معاوية في رسالته له عليه السلام حيث يهدده فيها بالحرب، ويقول الإمام عليه السلام:
«وَدَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلَا ضِرَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارِ [٤٨٨]! مَتَى أَلْفَيْتَ [٤٨٩] بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ [٤٩٠]، وَبِالسَّيْفِ مُخَوِّفِينَ، فَ لَبِثْ قَلِيلًا
نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٨٦
يَلْحَقِ الْهَيْجَا [٤٩١] حَمَلٌ».

وجملته: «لَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارِ» تعتبر مثلاً للشخص الذى يتحدث بكلام متين وبعبارات قوية إلا أنه فجأة يقول كلاماً واهياً وسخيفاً، لأنَّ تهديد الإمام على عليه السلام وبنى هاشم وعبدالمطلب بالحرب مِمَّا يضحك الثكلى، فهؤلاء رجال الميدان وأبناء السيف وأصحاب إقدام وصوله في ميدان القتال، وأنت من جملة المهزومين في معركة بدر والأحزاب وفتح مكة، ويشهد تاريخ الإسلام أنك من الأشخاص الضعفاء والجنباء، ألا يكون تهديدك لى بالحرب مضحكاً؟ والجدير بالذكر أنَّ جملة: «لَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارِ» تؤكد على هذه النقطة، وهى أنَّ الشخص إذا كان يضحك لبعض الأمور العادية فهذا ليس بالأمر المهم والمثير، ولكن الشخص الذى يعيش البكاء ويذرف الدموع، لو ضحك فى هذه الأثناء من كلمة أو عبارة، فيتبين أن هذه الكلمة مضحكة جداً.
وجملته: «لَبِثْ قَلِيلًا يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلٌ عَجَزَ بَيْتِ صَدْرِهِ «مَا أَحْسَنَ الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ».

ويعتبر هذا البيت مثلاً معروفاً لدى العرب، وأصله أن رجلاً من قبيلة «قشير» ويدعى «حمل بن بدر» كانت له إبل نهبت فى إحدى الحروب فى عصر الجاهلية، وكان هذا الرجل شجاعاً، فجاء ليلاً إلى هؤلاء الأعداء وأغار عليهم واستعاد إبله وقال هذا الشعر، ويعنى أنك اصبر قليلاً فسيأتى حمل إلى الميدان، وهو لا يبالي بالموت، لأنَّ الموت جميل دفاعاً عن الشرف.
ثم إنَّ الإمام عليه السلام يواصل كلامه ويهدد معاوية بعبارات حاسمة وكلمات فى غاية الفصاحة والبلاغة ويقول: «فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوُكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ».
وهو إشارة إلى أننى سأقدم عليك فى طائفة من المقاتلين الذين أدوا امتحانهم

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٨٧

فى الغزوات الإسلامية، وهم ثلاثة طوائف: المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان، ولكنَّ الأشخاص الذين يتبعونك ويأتون معك للميدان هم المهزومون فى غزوات الإسلام وأبناؤهم ممن يعيشون لحدِّ الآن رواسب الجاهلية ويسيرون فى خطِّ الوثنية والضلالة وحبِّ الدنيا.

وجملته: «مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ مَقْتَبَسَةٌ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَتَابَعُوا رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» [٤٩٢].
ثم إنَّ الإمام عليه السلام يصف أنصاره وأصحابه بأوصاف دقيقة وكلمات بليغة ويقول:

أولاً: «شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ».

ثم يقول عليه السلام: «سَاطِعٌ قَتَامُهُمْ [٤٩٣]»، أى أن غبارهم أثناء الحركة يغطى الأجواء ويمنع رؤية الافق.

وفى الوصف الثالث يقول: «مُتَسَرِّبِينَ [٤٩٤] سَرَائِلَ الْمَوْتِ أَحَبُّ اللَّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءَ رَبِّهِمْ».

وفى الوصف الرابع يقول: «وَقَدْ صَيَّرَ حَبَّتَهُمْ ذُرِّيَّةً بَدْرِيَّةً وَسَيُوفَ هَاشِمِيَّةً، قَدْ عَرَفَتْ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا [٤٩٥] فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدَّكَ وَأَهْلِكَ «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ»».

فى هذه الأوصاف الأربعة ذكر الإمام عليه السلام ما ينبغى ذكره فى المقام، فهو من جهة ذكر إيمانهم بالله وعشقهم للشهادة ولقاء ربهم، حيث تعدد هذه الحالة من أهم

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٨٨

المحفزات للجهاد فى سبيل الله تعالى، والآخرة سابقتهم المنيرة فى الإسلام من قبيل مساهمتهم فى معركة بدر والتصدي لأعداء الإسلام بسيوف هاشمية، أضف إلى ذلك ما التحق بهم من أعداد غفيرة من المؤمنين، والحقيقة أن تعبيرات الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة تعد من أفصح وأبلغ العبارات وأشدّها قوة وحسماً.

وجملته: «مُرْقَبٌ تَدَلُّ عَلَى سُرْعَةِ الزَّحْفِ وَ«جَحْفَلٌ تَطْلُقُ عَلَى الْجَيْشِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَشَارِكُ فِيهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْفِرْسَانِ، وَكَلِمَةُ «سَاطِعٌ قَتَامُهُمْ» تَشِيرُ إِلَى أَنَّ غَبَارَهُمْ قَدْ مَلَأَ الْخَافِقِينَ، وَكُلَّ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا الْجَيْشَ سَيَأْتِيكَ مَسْرِعاً إِلَى الْمِيدَانِ وَلَا يُوْجَدُ أَى تَرَدُّدٍ فِي نِيَاتِهِمْ وَلَا شَكَّ فِي غَايَاتِهِمْ، بَلْ يَتَحَرَّكُونَ بِاتِّجَاهِ مِيَادِينِ الْجِهَادِ بِعَزْمٍ رَاسِخٍ وَعَشْقٍ لِلشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى.

وكلمة: «ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ» تعنى أن هؤلاء أبناء البدرين، وهم الذين اشتركوا فى معركة بدر وكان هؤلاء قد تربوا فى ذلك الميدان، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أن جيش الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يضم الكثير من مجاهدى معركة بدر، فهذه العبارة مطابقة للواقع تماماً، وذهب بعض أن مفاد هذا العبارة أن جيش الإمام عليه السلام يضم جماعة من أبناء المحاربين فى معركة بدر، فى حين أن هذا التفسير لا ينسجم مع سياقات كلام الإمام عليه السلام.

والمراد من «أخيك»؛ هو أخ معاوية: حنظلة بن أبى سفيان، ومقصوده من «خالك»؛ الوليد بن عتبة خال معاوية، والمقصود من «جدك»؛ جد معاوية لأمه وهو عتبة بن ربيعة، ومراده من «أهلك»؛ أسرة معاوية وهم جماعة من أبناء عمومته الذين اشتركوا مع قوى الكفر والشرك فى معركة بدر ضد النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والإسلام.

وجملته: «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» مقطع من آية ٨٣ من سورة هود، وتشير إلى العذاب الأليم الذى ينتظر قوم لوط، وهم القوم الذين كانوا أشد من جميع الأقوام المشركه عذاباً، لأن الله تعالى قلب مدنهم وقراهم عاليها سافلها ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل، تقول الآية الشريفة: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٨٩

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مُّنْصُودٍ * مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ [٤٩٦].

والجدير بالذكر أن نصر بن مزاحم ينقل فى كتابه صفين أن سعيد بن قيس الصحابى المعروف قام يوماً بين أصحابه وخطب فيهم وقال: «إن أصحاب محمد المصطفين الأخيار معنا، وفى حيزنا، فوالله الذى هو بالعباد بصير أن لو كان قائدنا حبشياً مجدعاً - إلا أن معنا من البدرين سبعين رجلاً لكان ينبغى لنا أن تحسن بصائرنا وتطيب أنفسنا، فكيف وإنما رئيسنا ابن عم نبينا، بدرى صدق، صلى صغيراً وجاهد مع نبيكم كبيراً، ومعاوية طليق من وثاق الاسار، وابن طليق، إلمانه أغوى جفاة فأوردتهم النار، وأورثهم العار، والله محل بهم الذل والصغار ..» [٤٩٧].

تأمل: مدين فى لباس دائن!

هناك مثل معروف منذ القديم يقول: «إذا أردت أن لا تقع مديناً فكن دائناً» ومعاوية من الأشخاص الذين استخدموا هذا المثل بكثرة، وتعتبر رسالته للإمام عليه السلام هذه «وتقدّم آنفاً رسالة الإمام عليه السلام له جواباً عليها» مصداقاً بارزاً لهذا المثل، لأنّ معاوية في حين ارتكابه للكثير من السلوكيات الخاطئة، ومع سوء سابقته في الإسلام، أخذ يتبجح بالحقانية ويكتب للإمام عليه السلام رسالة فيها الكثير من المطالبة بالحق.

ولو استطلعنا قائمة سوابقه الاجتماعية والأخلاقية وتصرفاته السيئة في مسيرته في خط الضلالة، لرأينا:

١. من حيث الاسرة، فإنّ معاوية يتمتّع بوضع غريب، فوالده أبوسفيان العدو الأول للإسلام، وهو العامل الأساس لإشعال نار الحروب ضدّ المسلمين، وامه هند

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٩٠

المعروفة بأكلة الأكباد، المرأة التي جاءت إلى ميدان القتال في معركة أحد وشقت بطن حمزة بن عبدالمطلب عليه السلام وأخرجت كبده ولاكنه.

٢. من حيث الإيمان بالإسلام فإنّ معاوية أسلم في آخر مرحلة من الدعوة، يعنى في سنة فتح مكة، وتحت عوامل الإكراه، حيث أعلن هو وأبوه الإسلام ظاهراً.

٣. امتنع من البيعة للإمام المسلمين على بن أبي طالب عليه السلام الذي بايعه المهاجرون والأنصار وجمهور عظيم من المسلمين.

٤. رفع لواء المخالفة ضدّ الحكومة الإسلامية بذريعة الطلب بدم عثمان وجمع حوله مجاميع كثيرة من المنافقين والمطرودين في زمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

٥. جعل من بيت مال المسلمين وسيلة لتحقيق مآربه ومطامعه، فبنى قصرًا عظيمًا كقصر القياصرة والملوك، ووزع أموال بيت المال على وضاع الأحاديث ورؤساء القبائل والأشخاص المتملّنين والمترلّفين.

٦. لم يمتنع من سفك دماء الأبرياء، فكان أن قتل محمّد بن أبي بكر الرجل الصالح ومالك الأشتر القائد الإسلاميّ الفذّ، وعمّار بن ياسر الصحابي المعروف والمقرب للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وكان يأمر جيشه بالإغارة على حدود العراق والقرى والقصبات العراقية ويقتل الكثير من الأبرياء.

٧. بالرغم من تقصيره في الدفاع عن عثمان، ومع طلب عثمان النصره منه، إلّا أنّه نصب نفسه ومطالباً بدمه وأخذ يطالب بالتأر له.

وهكذا نرى أنّ معاوية على الرغم من هذه الأعمال، يتحدّث في رسالته للإمام عليه السلام بوصفه دائنًا لا مدينًا، فمن جهة ينبرى للدفاع عن أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمهاجرين والأنصار ويتحدّث عن أنّ ظهور النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وبعثته هبة إلهية عظيمة للناس، وأنّ الإمام عليه السلام كان مقصراً في نصره الصحابة، ومن جهة أخرى يتهم الإمام عليه السلام بالمشاركة في دم عثمان، ومن جهة ثالثة يقول إنّ بيعة الإمام عليه السلام للخليفة الأول من موقع الإكراه تعدّ منقصة ومدمة.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٩١

ولكنّ الإمام عليه السلام في جوابه على هذه الأقاويل أجاب عنها بعبارات حاسمة وبلغه جدّاً وأجهض سعي معاوية في التشويش على الذهنية العامة، وألفت نظره إلى ما كان عليه هو واسرته في زمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومشاركته هو وأقرباؤه من بنى امية ضدّ الإسلام والنبي في معركة بدر، ومقتل الكثير من أرحامه بيد جنود الإسلام، وقال له بصراحة: إنّ ثناءك على النبي صلى الله عليه وآله وبيان أهميته بعثته لشخص مثل علي بن أبي طالب إنّما هو من قبيل «حمل التمر إلى هجر»، ثمّ بين الإمام عليه السلام تقصير معاوية في نصره عثمان، ورسم عبارات جلية وبلغه حدود ومعالم اسرة بنى هاشم وبنى امية في الجاهلية والإسلام، وجدارته لمقام الخلافة بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالأدلة والبراهين الجلية والقاطعة، ويقول بالنسبة لبيعتة لأبي بكر، أنّك أردت الذمّ ولكنك مدحت من حيث لا تشعر، وأخيراً أجابه عن تهديده بالحرب وقال له: إنّ تهديدك مضحك ولا معنى له بالنسبة لشخص هو وليد

الحرب وقد تربى وترعرع في ميادين القتال والجهاد.

ومن مجموع ما تقدّم من شرح هذه الرسالة، وكما أشرنا إلى ذلك سابقاً، أنّ هذه الرسالة للإمام عليه السلام، كما يؤكد شراح نهج البلاغة أيضاً، تعتبر من أروع الرسائل والكتب التي تبين أهداف الإمام عليه السلام وترسم آفاق رؤاه ومواقفه بأفضل وجه.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٩٢

الرسالة ٢٩

إشارة

إلى أهل البصرة [٤٩٨]

نظرة إلى الرسالة

كما أوردنا في بيان سند هذه الرسالة في الهامش، أنّ هذه الرسالة ترتبط بالفتنة التي أثارها معاوية في البصرة، والقصة بشكل مختصر كالتالي: إنّ بعض أتباع معاوية بعد استيلاء عمرو بن العاص على مصر ومقتل محمد بن أبي بكر قالوا له: إبعث رجلاً إلى البصرة لإخراجها من ولاية عليّ بن أبي طالب، فقبل معاوية بهذا الاقتراح ووافق على ذلك. ونقل صاحب كتاب الغارات هذه الواقعة بهذا الشكل:

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٩٣

«بعد مقتل محمد بن بكر واستيلاء عمرو بن العاص على مصر، سير معاوية عبدالله بن الحضرمي إلى البصرة وقاله له: إنّ جلّ أهلها يرون رأينا في عثمان، وقد قتلوا في الطلب بدمه، فهم لذلك حانقون، يودّون أن يأتيهم من يجمعهم وينهض بهم في الطلب بتأرهم ودم إمامهم، فانزل في مضر وتودّد الأزد، فإنّهم كلّهم معك، ودع ربيعة فلن يتحرّف عنك أحد سواهم، لأنّهم كلّهم ترايبه فاحذرهم، فسار ابن الحضرمي حتّى قدم البصرة، وكان ابن عباس قد خرج إلى الكوفة (ليعزّي أمير المؤمنين عليه السلام باستشهاد محمد بن أبي بكر) واستخلف زياد بن أبيه على البصرة، فلما وصل ابن الحضرمي إلى البصرة نزل في بني تميم.

فرفع ذلك ابن عباس إلى أمير المؤمنين عليه السلام فشاع في الناس بالكوفة ما كان من ذلك، .. ثمّ إنّ عليه السلام دعا أعين بن ضبيعة المجاشعي وقال له: يا أعين ما بلغك أنّ قومك وثبوا على عاملي مع ابن الحضرمي بالبصرة يدعون إلى فراقى وشقاقى ويساعدون الضلال الفاسقين عليّ؟

فقال أعين: لا تستأ يا أمير المؤمنين ولا يكن ما تكره، ابعثنى إليهم فأنا لك زعيم، فنجح أعين تقريباً في مهمته ولكنّه لما أوى إلى رحله تبعه عشرة نفر يظنّ أنّهم خوارج، فضربوه بأسيافهم فقتلوه، ولما وصل خبر استشهاده إلى أمير المؤمنين عليه السلام، دعا عليه السلام جارية بن قدامة (صاحب الكلمة النافذة) وكتب معه كتاباً فقال له: يا ابن قدامة إقرأه على أصحابك، وما جاء في نهج البلاغة سوى قسم من رسالة الإمام عليه السلام إلى الناس.

انهزم المخالفون والتجأ ابن الحضرمي إلى دار، فأحرقها ابن قدامة عليه وعلى أنصاره، فهلكوا جميعاً وخدمت نار الفتنة [٤٩٩].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٩٤

وَقَدْ كَانَ مِنْ انْتِشَارِ حَيْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبُوا عَنْهُ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ. فَإِنْ حَظَّتْ بِكُمْ الْأُمُورُ الْمُزْدِيَّةُ، وَسَيَفُهُ الْأَرَاءُ الْجَائِزَةُ، إِلَى مُنَابَذَتِي وَخِلَافِي، فَهَذَا أَنَا ذَا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي، وَرَحَلْتُ رِكَابِي. وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لَأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقَعَهُ لَأَيْكُونَ يَوْمَ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلَعَمَهُ لَاعِقٍ؛ مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِدَى الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ، وَلِدَى النَّصِيحَةِ حَقَّهُ، غَيْرُ مُتَجَاوِزٍ مُتَهَمًا إِلَى بَرِيٍّ، وَلَا نَاكِثًا إِلَى وَفِيٍّ.

الشرح والتفسير: إطفاء نار الفتنة في البصرة

ينطلق الإمام عليه السلام في هذه الرسالة القصيرة والزاخرة بالمضمون العميق والدقيق، من موقع العمل على إطفاء نار الفتنة التي أثارها معاوية في البصرة، وذلك استناداً إلى أصلين: الأول: التهديد الجدي والأكيد لمن يتحرك على مستوى نقض البيعة والعهد، ويذكرهم أنهم إذا لم يتركوا تأمرهم ويتخلوا عن الفتنة فإنه سيأتي إليهم بجيش كبير وسيقمعهم كما قمعهم في معركة الجمل، ثم يتحدث عن أصل الرحمة والرفقة بالنسبة للأشخاص الذين التزموا بالوفاء للإمام عليه السلام أو أظهروا الندم على أفعالهم السابقة، ويبشّرهم بأن أموالهم ونفوسهم وأعراضهم ستكون في أمن وأمان من التعرض للخطر.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٩٥

وبداية يقول الإمام عليه السلام: «وَقَدْ كَانَ مِنْ انْتِشَارِ حَيْلِكُمْ [٥٠٠] وَشِقَاقِكُمْ [٥٠١] مَا لَمْ تَغْبُوا [٥٠٢] عَنْهُ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ».

والحقيقة أن الإمام عليه السلام بهذا الكلام يعمل على إبطال حيلة معاوية وإجهاض تأمره هو وأتباعه، فقد كان معاوية عازماً على إثارة أهالي البصرة ضد الإمام عليه السلام بتذكيرهم بمعركة الجمل، ولكن الإمام عليه السلام بتذكيرهم بنتائج هذه المعركة عمل على إطفاء نار الفتنة والفساد، وقال لهم: أنكم كنتم أهل الشقاق وقد تحركتم في خط التمرد والثورة ضد الخلافة الإسلامية، ولكن بعد أن حلت بكم الهزيمة لم أصدر الأمر بقتلكم، ولم أسمح بتعقب الهاربين منكم، وأصدرت العفو العام عنكم وصفححت عن المجرمين منكم، وقبلت الأشخاص الذين جاءوا إلي ناديين وطويت صفحة الماضي، وتناسيت ما ارتكبه من أعمال، وعلى هذا الأساس فينبغي أن تكونوا ممن يلتزم بالقيم الأخلاقية، ولا يردّ الجميل بالإساءة ولا يقيم العلاقة مع أعدائه.

وجاء في بعض الروايات أن الإمام علي عليه السلام بعد انتصاره في معركة الجمل أمر منادياً ينادى بصوت عالٍ: «لَا تُتَّبِعُوا مُؤَلِيًّا وَلَا تُجْهِزُوا عَلِيَّ جَرِيحٍ» [٥٠٣].

ثم أمر منادياً ينادى: «مَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَلْفَى سَبَاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ» [٥٠٤]، وهذا الأمر يشبه ما أصدره رسول الله صلى الله عليه وآله من العفو العام عند فتح مكة.

ثم إن الإمام عليه السلام ولغرض إطفاء نار الفتنة هذه، تحدث عن الشدة والحسم في مقابل الأشخاص المعاندين والانتهازيين وقال: فَإِنْ حَظَّتْ بِكُمْ الْأُمُورُ الْمُزْدِيَّةُ،

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٩٦

وَسَفَهُ الْأَرَاءِ الْجَائِزَةَ، إِلَى مُنَابَذَتِي [٥٠٦] وَخِلَافِي، فَهَذَا أَنَا ذَا [٥٠٧] قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي [٥٠٨]، وَرَحَلْتُ [٥٠٩] رِكَابِي».

ثم يضيف الإمام عليه السلام: «وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لَأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقَعَهُ [٥١٠] لَا يَكُونُ يَوْمَ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلَعَمَهُ لَاعِقٍ».

وهذا يعني أنني في معركة الجمل لم أكن مستعداً لها من حيث العدة والعدد وكانت إمكاناتي قليلة في تلك الواقعة، ولكنني اليوم أملك جيشاً منسجماً وكثير العدة والعدد، ويملك أفراد الجيش كل وسيلة قتالية وآلة حربية، وعلى ضوء ذلك فلو وقعت حرب فلا تقبل المقارنة مع تلك المعركة السابقة، وسوف لا يكون محلّ لما بدر مني من محبة ورفقة بكم في حرب الجمل، لأنكم تناسيتم تلك الرفقة وتجرتكم على إمامكم، وكان تلك المودة وذلك الإحسان زاد من جرأتكم ووقاحتكم.

وجملته: «لَعَقَةُ لَاعِقٍ مَعَ الْإِثْنَاتِ إِلَى أَنْ كَلِمَةُ «لَعَقَةُ» (على وزن قهوة) بمعنى اللبس، و «لَعَقَةُ» (على وزن بقعة)، المقدار من الشيء الذى يحمل بالملعقة، فهذا كناية على أن هذا المقدار قليل جداً، وفي المثل المتعارف كالقطرة فى البحر.

ولكن لئلا يستغل العدو هذا الكلام ويسىء فهمه ويتصور أن الإمام عليه السلام يهدد جميع أهالى البصرة ويقول إننى سوف أحرق الأخصر واليابس وعاقب المحسن

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٩٧

والمسئىء يضيف الإمام عليه السلام: «مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلُهُ، وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقُّهُ، غَيْرُ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَمًا إِلَى بَرِيٍّ، وَلَا نَاكِثًا إِلَى وَفِيٍّ».

وجاء فى بعض الروايات أن زياد بن أبيه - الذى كان أحد المعاونين والمستشارين لابن عباس والى البصرة، وعندما سافر ابن عباس إلى الكوفة لرؤية الإمام عليه السلام وتقديم التعازى بمناسبة استشهاد محمد بن أبى بكر، واستلم زمام أمور البصرة - خطب خطبة حماسية وهدد فيها أهالى البصرة بأننى لا أميز بين المذنب والبرىء وسوف أخذ الأب بذب ابنه، والجار بذب جاره، وسأنزل العقاب الشديد بكم جميعاً إلا أن تسلكوا فى الطريق الصحيح [٥١١].

ويحتمل أن هذا الكلام وصل إلى مسامع الإمام عليه السلام، فأراد الإمام عليه السلام بكلامه المذكور أنفاً بيان سعة دائرة العدل الإسلامى وإصلاح ما صدر من زياد بن أبيه من الكلام المتقدّم.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٣٩٩

الرسالة ٣٠

إشارة

إلى معاوية [٥١٢]

نظرة إلى الرسالة

لم ينقل المرحوم السيد الرضى مطلع هذه الرسالة، وقد ابتدأت الرسالة وفقاً لما ذكره ابن أبى الحديد بعبارة: «أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكراً فيه مشاغبتى».

وهذا التعبير يبين بوضوح أن الرسالة لم تكن سوى رسالة جوابية للإمام أمير المؤمنين عليه السلام على رسالة معاوية له، والذى يتهم فيها الإمام عليه السلام بخلق الفتنة، والظلم والجور، والإمام عليه السلام يجيبه جواباً قاطعاً أننى أعمل بوظيفته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتصدي للظالمين والملحدين والمنافقين على أساس تعاليم القرآن الكريم وأوامر الله تعالى.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٠٠

وبعد أن يبرىء الإمام عليه السلام ساحته من هذه التهم الموهنة يبدأ بتقديم النصح لمعاوية، وهو ما نقله السيد الرضى فى هذه الرسالة. يقول الإمام عليه السلام لمعاوية: ينبغى عليك أن تتعرف على طريق الحق الذى وضحت معالمه وتبينت سبيله، فلا عذر لك فى جهلك به، ولا ينبغى لك أن تنحرف عن مسير الحق وتتحرك فى متاهات الحياة وتسلك دروب الضلالة فيسلب الله تعالى نعمه منك وينزل عليك عقابه وعذابه، فحذار من المسير فى خط الأهواء النفسانية التى تقودك إلى وادى المهالك وتفحمك فى مهاوى الكفر وترك الإيمان.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٠١

فَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَأَنْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَاتُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلَامًا وَاضِحَةً، وَسُبُلًا نَيِّرَةً، وَمَحَجَّةً نَهْجَةً، وَغَايَةً مُطْلَبَةً، يَرُدُّهَا الْأَكْبَاسُ، وَيُخَالِفُهَا الْأَنْكَاسُ؛ مَنْ نَكَبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ، وَخَيَّطَ فِي التِّيهِ، وَغَيَّرَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحْرَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ. فَنَفْسِكَ نَفْسِكَ، فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لِمَكَ سَبِيلَكَ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ، فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَى غَايَةِ خُسْرٍ، وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ، فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرًّا، وَأَفْحَمَتْكَ غِيًّا، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكَ، وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ.

الشرح والتفسير: ينبغي أن تفكر بعاقبة أمرك!

من المناسب أن نورد هنا رسالة معاوية للإمام لغرض توضيح أهداف الإمام عليه السلام من رسالته الجوابية لمعاوية، وأن جواب الرسالة ناظر إلى النص الوارد في الرسالة الأولى، ولكن للأسف لم تنقل هذه الرسالة، بحدود اطلاعنا، في أي كتاب ومصدر، رغم أن رسالة الإمام عليه السلام بتبديء بمقطع لم ينقله المرحوم السيد الرضوي، ومع الالتفات إلى هذا المقطع من الرسالة يتبين بشكل إجمالي مضمون رسالة معاوية أيضاً، لأن الإمام عليه السلام في مطلع هذه الرسالة وطبقاً لما ورد في كتاب «نهج البلاغة الكامل» يقول: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَّغْنِي كِتَابُكَ تَذْكَرُ مُشَاعِبَتِي، وَتَسْتَفْبِحُ مُوَازَرَتِي، وَتَزْعُمُنِي

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٠٢

مُتَجَبِّرًا وَعَنْ حَقِّ اللَّهِ مُقْصِرًا. فَسُبْحَانَ اللَّهِ، كَيْفَ تَسْتَجِيرُ الْغَيْبَةَ، وَتَسْتَحْسِنُ الْعُضِيَّةَ. فَإِنِّي لَمْ أَشَاغِبْ إِلَّا فِي أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ. وَلَمْ أَتَجَبَّرْ إِلَّا عَلَى بَاغِ مَارِقٍ، أَوْ مُلْحِدٍ كَافِرٍ، وَلَمْ أَخْذُ فِي ذَلِكَ إِلَّا بِقَوْلِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ -: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ» [٥١٣] وَأَمَّا التَّقْصِيرُ فِي حَقِّ اللَّهِ - تَعَالَى - فَمَعَادُ اللَّهِ وَإِنَّمَا الْمُقْصِرُ فِي حَقِّ اللَّهِ - حِلٌّ ثَنَاؤُهُ - مَنْ عَطَلَ الْحُقُوقَ الْمُؤَكَّدَةَ، وَرَكَنَ إِلَى الْأَهْوَاءِ الْمُتَبَدِّعَةَ، وَأَخْلَمَدَ إِلَى الضَّلَالَةِ الْمُحَيَّرَةَ. وَمِنْ الْعَجَبِ أَنْ تَصِفَ، يَا مُعَاوِيَةُ، الْإِحْسَانَ، وَتُخَالِفَ الْبُرْهَانَ، وَتَنْكُثَ الْوَثَائِقَ الَّتِي هِيَ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - طَلِبَةٌ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ، مَعَ نَبْذِ الْإِسْلَامِ، وَتَضْيِيعِ الْأَحْكَامِ، وَطَمْسِ الْأَعْلَامِ، وَالْجَزْيِ فِي الْهَوَى، وَالتَّهْوُسِ فِي الرَّدَى».

أما ما أورد السيد الرضوي في نهج البلاغة فهو:

إن الإمام عليه السلام بعد هذه المقدمة أخذ ينصح معاوية ويعظه بطرق مختلفة ويتم الحجته عليه، بداية يقول في ثلاث جمل قصيرة وعميقة المعنى: «فَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَأَنْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَاتُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ».

الجملة الأولى: «فَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا لَدَيْكَ» ربما تشير إلى مقام معاوية في ولاية الشام، أو إلى أموال المسلمين في يده، أو جميع نعم الله عليه، فالإمام عليه السلام هنا يحذره من التمسك بما ليس لك من المقام ويجب عليك إعادته إلى أصحابه وأن تستخدم نعم الله عليك في طريق طاعته والسعي لنيل رضاه وإمثال أمره.

والجملة الثانية: «وَأَنْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ» إشارة إلى أن الله تعالى له حق على عباده في مقابل كل هذه النعم والمواهب التي أنعم بها عليهم، وهذا الحق الإلهي يستلزم أن يسير العبد في خط الطاعة والعبودية والامتثال عما نهى الله عنه، فلو أنه لم يؤد هذا الحق فسوف يواجه العذاب الأليم في الآخرة.

والجملة الثالثة: «وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَاتُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ» ذهب جمع من شراح

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٠٣

نهج البلاغة إلى أنها إشارة لمعرفة الإمام عليه السلام الواجب الإطاعة، فقد ورد في الحديث المشهور: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ فَقَدْ مَاتَ مَيِّتَةً جَاهِلِيَّةً» [٥١٤].

ويحتمل أيضاً في تفسير هذه العبارة أنها إشارة إلى جميع المعارف الإلهية والدينية التي لا يعذر الإنسان في جهله بها، وعلى ضوء ذلك فالإمام عليه السلام يوصى معاوية بأن يتعرف على أصول دينه وفروعه والتكاليف الشرعية التي يتوجب عليه القيام بها أمام الله تعالى والناس.

ويتحرك الإمام عليه السلام بعد ذلك من موقع الاستدلال على ما تقدم من كلامه (فإنك غير معذور في حالة الجهل) ويضيف: «فإنَّ لِلطَّاعَةِ أَغْلَامًا وَاضِحَةً، وَسُبُلًا تَبَيَّرَتْ، وَمَحَجَّةً [٥١٥] نَهَجَةً [٥١٦]، وَغَايَةً مُطْلَبَةً، يَرِدُهَا الْأَكْبَاسُ [٥١٧]، وَيُخَالِفُهَا الْأَنْكَاسُ [٥١٨]».

والإمام عليه السلام في هذا الكلام يتم الحجية على معاوية بأنك يوم القيامة لا يمكنك أبداً أن تدعى أن الطريق كان مظلماً وأن معالمه غير واضحة، ولذلك لم أعرف الحق والحقيقة، فيقول الإمام عليه السلام: إنَّ أعلام هذا الطريق واضحة وآياته بيّنة من خلال ما ورد في الآيات القرآنية من جهة، والأحاديث النبوية المعتبرة من جهة أخرى، والبراهين العقلية الساطعة من جهة ثالثة، وكلها تمثل علامات هذا الطريق المتوفرة في كل مكان منه، أضف إلى ذلك أن الجادة غير مظلمة «سُبُلًا تَبَيَّرَتْ» فالطريق واضح ورحب ليس فيه مآزق ومنزقات: «مَحَجَّةٌ نَهَجَةٌ» والغاية النهائية لهذا المسير نيل

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٠٤

السعادة الأبدية، وهذا المعنى لا يخفى على كل إنسان.

واللافت أن الإمام عليه السلام ذكر في كلامه كلمة: «سُبُلٌ جَمْعٌ سَبِيلٌ، وَكَذَلِكَ «مَحَجَّةٌ» وتعني الطريق الواسع والجادة الواضحة، لأنَّ الإنسان عادة يتحرك من الطرق الفرعية ليوصل نفسه إلى الجادة الأصلية، ثم يتوجه إلى مقصده وغايته، وإذا وردت «سُبُلٌ» بصيغة الجمع و«مَحَجَّةٌ» بصورة مفرد فهي ناظرة إلى هذا المعنى وهو أن الطرق الفرعية التي يشرع الإنسان فيها حركته، متعدّدة، ولكنَّ الجادة الأصلية واحدة عادة.

أما عبارة «غَايَةً مُطْلَبَةً» فتارة تقرأ بتشديد الطاء وأخرى بتشديد اللام، وجاء في بعض النسخ «مطلوبة» وهي كلها تعني المطلوبة، فالإمام يقول: إنَّ طاعة الله تعالى تمثل هدفاً مطلوباً للإنسان، والمقصود منها نيل القرب من الله تعالى والوصول إلى السعادة الأبدية والنجاة في الآخرة وتحصيل رضا الله تعالى وشمول لطفه ورحمته في الدنيا، فالعقلاء وأولو الألباب يتحركون في واقع الحياة لتحقيق هذا الهدف، لأنهم غير مستعدين للتضحية بالسعادة الأبدية ورضا الله تعالى لحساب تحصيل الأموال والمقامات والشهوات الدنيوية، كما ورد هذا المعنى في الحديث الشريف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «الْكَيْسُ مَنْ أَحْيَا فَضَائِلَهُ وَأَمَاتَ رَذَائِلَهُ» [٥١٩]، ونقرأ في حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّمَا الْكَيْسُ كَيْسُ الْآخِرَةِ» [٥٢٠].

وفي مقابل ذلك فإنَّ الأراذل من الناس لا يتحركون باتجاه هذا الهدف، وإنما يقنعون بتحصيل الملذات الدنيوية الرخيصة ويطلبون الزخارف المادية المهزوزة والعناوين الاعتبارية، ويبيعون أغلى ما لديهم من متاع بأزهد الأثمان، وهذا بذاته دليل على سفاهتهم وحمقتهم.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٠٥

ويستمر الإمام عليه السلام في كلامه محذراً معاوية من مغبة الانحراف عن الصراط المستقيم والإعراض عن طاعة الله تعالى، لأنه: «مَنْ نَكَبَ [٥٢١] عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ، خَبَطَ فِي النَّيِّ، وَعَيَّرَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ».

فالإمام عليه السلام في هذه الجملة الأربع، يشير في البداية إلى نتيجة الانحراف عن مسير الطاعة، وهو البعد عن الحق والتوغل في دروب المتاهة والحيرة، وبالتالي يعيش الإنسان الحرمان من النعم الإلهية ويستحق حينئذ العقوبة والعذاب.

والجملتان الأوليان في الواقع بمثابة المقدمة، والجملتين الثالثة والرابعة بمثابة النتيجة وذى المقدمة، وكأنَّ كلام الإمام عليه السلام هذا

إشارة إلى الآية الشريفة: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» [٥٢٢]. ثم يضيف الإمام عليه السلام: «فَنَفْسُكَ نَفْسُكَ! فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ سَبِيلَكَ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ، فَقَدْ أُجْرِيَتْ إِلَى غَايَةِ خُسْرٍ، وَمَحَلَّةُ كُفْرٍ».

وهذا التعبير في الحقيقة مقتبس من القرآن الكريم: «عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ» [٥٢٣]، وتعبير الإمام عليه السلام إشارة إلى أن هذا الطريق الذي سلكته لا يقودك إلّا إلى الشقاء والخسران والكفر، فينبغي عليك الانتباه من نوم الغفلة والعودة إلى أحضان الحقّ وتعاليم الرسالة الإلهية.

وجملة: «قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ سَبِيلَكَ»، ذهب الكثير من شراح نهج البلاغة بأنّ الله تعالى قد بيّن لك سبيل النجاة، في حين أنّ هذا المعنى قد ورد في العبارات السابقة ولا حاجة للتكرار، فالمقصود من هذه العبارة شيء آخر، وهو أنّ الإمام عليه السلام يريد القول بأنّ الله تعالى قد بيّن لك خطأ هذا المسير الذي تسير عليه وبيّن لك عواقبه السيئة، والعبارات اللاحقة أيضاً تؤيد هذا المعنى.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٠٦

وفي المقطع الأخير من الرسالة، طبقاً لما ذكره السيد الرضى بيّن الإمام عليه السلام في أربع جمل أخرى العواقب التي تنتظر معاوية والمتربة على أعماله السيئة، ويقول:

«فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ [٥٢٤] شَرًّا، وَأَقْحَمَتْكَ [٥٢٥] غِيًّا [٥٢٦]، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكِ، وَأَوْعَرَتْ [٥٢٧] عَلَيْكَ الْمَسَالِكِ».

وكلّ جملة من هذه الجمل الأربع تبين أحد أبعاد العاقبة السيئة لأعمال معاوية وكلّ من سار على هذا الخطّ، في البداية التورط في عناصر الشرّ، وأيّ شرّ أشنع من أن تتلوّث يد الإنسان بدم الأبرياء من الناس والتلاعب ببيت المال وإعطاء مال المسلمين إلى غير المستحقين، وما أشدّ ضلالة الإنسان الذي يتجاوز حدوده ولا يعرف قدره ويدعى منصب الخلافة وإمامة الأمة ويجلس مجلس النبى الأكرم صلى الله عليه وآله مع أنّه لا يملك اللياقة الكافية والجدارة لإحراز هذا المقام، وأيّ مهلكة أخطر من حركة الإنسان في الطريق الذى يؤدّى به إلى جهنّم، وأيّ مشكلة أشدّ من أنّ الإنسان يرتكب الذنوب والآثام بحيث يوصد طريق العودة خلفه ويهدم جسور التوبة والإنابة إلى الله ولا يتمكّن بعد ذلك من إصلاح الخلل.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٠٧

الرسالة ٣١

إشارة

لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، كَتَبَهَا إِلَيْهِ «بِحَاضِرَيْنِ» [٥٢٨]

عِنْدَ انْصِرَافِهِ مِنْ صِفِّينِ [٥٢٩]

نظرة إلى الرسالة

تعتبر هذه الوصية بعد عهد مالك الأشتر من أطول الرسائل والكتب للإمام [٥٣٠]

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٠٨

علّى عليه السلام في نهج البلاغة، وهى عبارة عن دورة كاملة من دروس الأخلاق وتهذيب النفس وتزكيتها وبيان معالم السير والسلوك إلى الله، وفي الحقيقة أنّها تتألف من ثلاثين قسماً ومقطعاتاً.

والإمام عليه السلام في المقطع الأول يخاطب نفسه وأبناءه بوصفه كاتب هذه الوصية ويعرّف نفسه للمخاطب بعبارات عميقة المضمون ومنسجمة مع روح هذه الوصية.

وفي المقطع الثاني يعرّف هذه الوصية بأنّها وصية والده متحرّق ومحبّ لأبنة الذي يملك له محبةً شديدة.

وفي المقطع الثالث إلى المقطع العاشر يوصي ولده بالتقوى ومطالعة سيرة الأسلاف وتاريخ القدماء والتوصية بالاحتياط في جميع الأمور والتفقه في الدين والصبر والاستقامة في مقابل المشكلات والتحديات والتوكّل على الله وتفويض الأمور إليه، والتوجّه إلى هذه الحقيقة وهي أنّ قلب الشابّ مستعدّ لاستلها جميع التعاليم والتوصيات، والتأكيد على أنّ أباك قد اختتم تجارب العمر ووضعها تحت اختيارك بدون أن تتعب نفسك في ذلك، ثمّ التوصية بالتمعّن أكثر في كتاب الله ومعرفته الحلال والحرام الإلهيين، وأخيراً الاقتداء بسنة الصالحين وضرورة اجتناب الشبهات.

والمقطع الحادي عشر إلى المقطع العشرين يتحدّث الإمام عليه السلام عن كثرة مجهولات الإنسان في مقابل معلوماته، ويحدّثه من أيّ انحراف عن الحقّ ويؤكد عليه لزوم اتباع نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وأنّ أيّ إنسان لا يصل إلى نتيجة صحيحة بدون التأسي به، ثمّ يؤكد له على مسألة التوحيد وشرح بعض الصفات الإلهية، وأخيراً يرسم له معالم القصور في الدنيا وعدم ثباتها بذكر مثال جميل في هذا الشأن.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٠٩

ثمّ يبيّن لولده العزيز هذه الحقيقة، وهي أنّه لا بدّ أن تجعل نفسك ميزاناً للحكم على الآخرين، فما كنت تحبّه لنفسك ينبغي أن تحبّه للآخرين وما تكره لها تكره لهم، ثمّ يتحدّث عن الآفات الأخلاقية المهمّة من قبيل الأنانية والعجب ويؤكد له أنّ خدمة الخلق تمثّل زاداً ومتاعاً للآخرة، ويحدّثه من الطريق المليء بالمطبات والمآزق في سبيل النجاة لنيل السعادة الأخروية ويتحدّث أيضاً عن أهمية الدعاء وأنّه مفتاح جميع الخيرات والبركات، وأنّ الهدف والغاية من خلق الإنسان نيل الحياة الأبدية والسعادة الدائمة في الآخرة، إلّا أن يعيش الإنسان أيام معدودة في هذه الدنيا ويجعلها هدفاً نهائياً له في حركة الحياة.

وفي المقطع الحادي والعشرين إلى الثلاثين يذكر الإمام مسألة الموت وكيفية الانتباه من الغفلة ويحدّثه من السير في خطّ أهل الدنيا، ويتحدّث كذلك عن سرعة انقضاء العمر وطرق تهذيب النفس ولزوم التوقّي من الآمال البعيدة والطموحات الزائفة، وضمناً يبيّن له سلسلة من المسائل الأخلاقية المهمّة، ثمّ يتحدّث عن كيفية معاشره المؤمنين ويتحدّث عن نقاط مهمّة في هذا المجال، ثمّ يتقدّم له بنصائح مهمّة في مجال اجتناب الحرص والطمع في تحصيل الرزق، وبعد ذلك يتحدّث الإمام عن بعض المسائل المهمّة المتعلقة بحفظ حرمة النساء والتعامل الصحيح معهنّ، ثمّ يتحدّث عن المسائل المتعلقة بإدارة الحياة والمعيشة وتقسيم العمل بين الأفراد، وأخيراً ينهى الإمام عليه السلام هذه الوصية بتفويض أموره إلى الله عزّ وجلّ ويسأله خير الدنيا والآخرة.

وبالالتفات إلى ما تقدّم آنفاً، فإنّ القرّاء الأعزّاء لهذه الوصية سيطلعون على مضامين عالية وتوصيات سامية فيما يتصل بتربية النفوس وتهذيب القلوب.

والنقطة الأخرى التي ينبغي الالتفات إليها في هذا المورد، هو أنّ أغلب نسخ نهج البلاغة تقرّر أنّ المخاطب لهذه الوصية هو الإمام الحسن المجتبي عليه السلام وهذا ما ورد في غالبية طرق السند في هذه الوصية (كما يقول العلّامة التستري في شرح

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤١٠

هذه الوصية المهمّة، وطرق السند بلغت خمس طرق)، ولكن هنا طريق واحد لرواية هذه الوصية يقرّر فيها أنّ المخاطب لها هو محمّد بن الحنفية، وبعض شراح نهج البلاغة يؤكّدون على المعنى الثاني، وأنّ المخاطب للوصية ليس هو الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ويستدلّون لذلك بأنّ بعض عبارات هذه الوصية لا يتناسب مع كون المخاطب هو الإمام المعصوم، في حين أننا نعلم أنّ مثل هذه العبارات في مقام الموعظة والنصيحة من الوالد لابنه هو أسلوب متداول وشائع، والمهمّ أنّ المخاطب لهذه الوصية وإن كان شخصاً

واحدًا، إيمانًا المقصود هو جميع الشيعة والمسلمين في العالم، بل جميع أبناء آدم، وكأنَّ الإمام عليه السلام يتحدث مع جميع أبناء البشر بوصفه أبًا لهم وأنَّ المخاطب له، وإن كان الإمام الحسن عليه السلام مباشرة، إلا أنَّ المخاطب الحقيقي جميع أفراد البشر. وأما ما ذكره البعض من أنَّ الإمام المعصوم عليه السلام مع توقُّر مقام العصمة والإمامة لا يحتاج إلى نصيحة وموعظة، فهو اشتباه كبير لأنَّ مقام الإمامة والعصمة الشامخ لا يتنافى إطلاقًا مع التأكيد على المسائل الأخلاقية المهمة، ولهذا نرى أنَّ الإمام عليَّ عليه السلام وهو في فراش الوفاة يعظ أبناءه الإمام الحسن والحسين عليهما السلام ويقدم لهما توصيات وتعاليم لم يكونا غافلين عنها. وكذلك ما ذكره البعض من أنَّ الإمام الحسن عليه السلام في زمان صدور هذه الوصية كان قد بلغ من العمر أكثر من ثلاثين سنة وهو لا يتناسب مع ما ورد في هذه الوصية من عبارة: «وأما قلب الشاب يتقبل جميع التعاليم والإرشادات» وهذا خطأ لأنَّ الإنسان في سنِّ الثلاثين عامًا لا يزال شابًا، أضف إلى ذلك أنَّ المخاطب لهذه الوصية جميع أفراد البشر بوصفهم أبناء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد ورد في كتاب الإمامة والسياسة في قصَّة السقيفة أنَّ أبا عبيدة الجراح عندما أراد إبعاد الإمام عليَّ عليه السلام عن تولي لخلافه قال: «يَا بَنَ عَمِّ إِنَّكَ حَدِيثُ السَّنِّ وَهَوْلَاءِ مَشِيخَةُ قَوْمِكَ» [٥٣١]، ونعلم أنَّ الإمام عليه السلام كان عمره في ذلك الوقت أكثر من ثلاثين عامًا.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤١١

القسم الأول

إشارة

مَنْ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقَرَّرِ لِلزَّمَانِ، الْمُدَبِّرِ الْعُمَرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنِ الْمَوْتَى وَالظَّاعِنِ عَنْهَا غَدًا؛ إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمَّلِ مَا لَا يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلِ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ، وَرَهِيئَةِ الْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَآيَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَخَلِيفِ الْهُمُومِ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَنُصْبِ الْأَفَاتِ، وَصَرِيحِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ.

الشرح والتفسير: هذه الوصية ممن وإلى من؟

هذا المقطع من الوصية يبيِّن في الحقيقة عنوان الوصية والمرسل لها، لأنَّ المتداول في كتابة الرسائل أن يكتب في مستهل الرسالة عنوان الشخص المرسل والمرسل إليه، ويقال مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ؛ فالإمام عليه السلام بدلًا من ذكر اسمه واسم ولده الإمام الحسن المجتبي عليه السلام اكتفى بذكر صفات المرسل والمرسل إليه، ممَّا يوفر الأرضية المساعدة لتقبل هذه المواعظ والنصائح. بدايةً يطرح الإمام عليه السلام ستَّ صفات لنفسه، ثمَّ يذكر أربعة عشر صفة لولده لغرض تهيئته الأجواء بهذه الصفات، وأن يكون المخاطب على استعداد تامَّ لطرح الموضوع.

في البداية يقول: «مَنْ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقَرَّرِ لِلزَّمَانِ [٥٣٢]، الْمُدَبِّرِ الْعُمَرِ، الْمُسْتَسْلِمِ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤١٢

لِلدُّنْيَا [٥٣٣]، السَّاكِنِ مَسَاكِنِ الْمَوْتَى وَالظَّاعِنِ [٥٣٤] عَنْهَا غَدًا.

فالإمام عليه السلام عندما ينطلق بذكر هذه الصفات لنفسه يهدف منها تحقيق عدَّة أمور:

الأول: أن يفهم ولده بأنني عندما أكتب هذه الوصية لك فإنني أحمل معي تجارب كثيرة حصلت عليها بمرور الزمان، والآخر: أن القائل لهذه النصائح تحدَّث بلغته التواضع ولم يتكلم من موقع الفوقية والاستعلاء، وهذا من شأنه أن يؤثر إيجاباً في نفس المخاطب،

الثالث: أن يعلم ولده بأنه عمّا قريب سيكون أباً ولا بدّ أن يشعر بمسؤولية الوالد ويدرك هذه الحقيقة، ودرك هذه الحقيقة يجعله مستعداً لقبول هذه المواعظ.

والتعبير «فانٍ (وهي في الأصل «فأني» ولكن حذفت الياء لمزيد التجانس مع الجمل اللاحقة) إشارة إلى أنني قضيت الشطر الأكبر من عمري، وأنا الآن في مرحلة الرحيل من هذه الدنيا، لأنّ الإمام عليه السلام تحدّث بهذا الكلام في وقت كان قد بلغ من العمر حسب الظاهر ستين سنة.

وجملة: «المُقرّر للزّمانِ إشارة إلى الحوادث والأزمات الصعبة والحوادث المرّة والحلوة التي يواجهها الإنسان في حركة الحياة والواقع.

وجملة: «المُدبّر العُمُر» تأكيد على أنني أسير في منزلق نهاية العمر، وجملة:

«المُستسلم للُدُنْيا» إشارة إلى غلبة الحوادث والوقائع على إرادة الإنسان.

وجملة «السّاكنِ مَسَاكِنِ المَوْتِ إشارة إلى أنّ المساكن التي نساكنها هي في الغالب من بناء وتشبيد السابقين، فأولئك بنوا هذا الدور ونحن سكا فيها وأحياناً بنينا ويسكنها اللاحقون.

وأخيراً جملة: «وَالظّاعِنِ عَنها غداً» إشارة إلى قرب لحظة الرحيل من هذه الدنيا، يعنى أنني عندما أكتب لك هذه الوصية أعلم بجميع هذه الخصوصيات والمفارقات.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤١٣

ثم إنّ الإمام عليه السلام يصف مخاطبه بدون ذكر اسمه في أربعة عشر صفة ويقول:

«إِلَى المَوَلُودِ المَوْمَلِ مَا لا يُدْرِكُ، السّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، عَرَضِ [٥٣٥] الأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ [٥٣٦] الأَيّامِ، وَرَمِيَةِ [٥٣٧] المَصائبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيا، وَتاجِرِ العُزُورِ، وَغَرِيمِ المَنائِيا، وَأَسِيرِ المَوْتِ، وَخَلِيفِ [٥٣٨] الّهُمومِ، وَقَرِينِ المَأخِزانِ، وَنُصْبِ الأَفاتِ، وَصِرِيعِ الشّهواتِ، وَخَلِيفَةِ الأَمواتِ».

وأول وصف يصف الإمام عليه السلام ولده، وبيان آخر يصف جميع أفراد البشر هو أنّك في هذا العالم تتحرّك لتحصيل ما لا يمكن تحصيله، لأنّ الإنسان يريد أن يعيش حياة خالية من جميع المشاكل وحالات القصور والألم، في حين أنّ طبيعة الدنيا مقترنة بالمشاكل والآلام والمصائب «المومّل ما لا يدرك».

وجملة: «السّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ» تعنى أنّ جميع أفراد البشر يسرون في طريق ينتهي إلى الموت والهلكة، كما يقول القرآن الكريم: «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ» [٥٣٩] ولا يوجد أيّ استثناء من هذه القاعدة.

وجملة «عَرَضِ الأَسْقَامِ» هي في الحقيقة توضيح لما سبق، لأنّ الإنسان شاء أم أبى يواجه في هذا الحياة حالات المرض وأنواع الأسقام في طفولته وفي شبابه وفي شيخوخته بشكل من الأشكال.

والتعبير «وَرَهِينَةِ الأَيّامِ مع الأخذ بالحسبان أنّ «رهينة» تعنى الأسر والاختطاف، فهي إشارة إلى أنّ الإنسان يعيش دوماً في أسر الأزمات وأنّ مرّ الزمان يأخذ بيده إلى المجهول ويتركه شاء أم أبى في نهاية العمر ويسلمه إلى القبر.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤١٤

وعبارة: «وَرَمِيَةِ المَصائبِ مع الأخذ بالحسبان أنّ كلمة «رمية» تعنى الشيء الذي يوضع غرضاً وهدفاً لرمى السهام، فهذه العبارة تشير إلى المصائب والبلايا التي تصيب الإنسان في ماله ونفسه وأقربائه وأعرّته حيث تهجم عليه من كلّ جهة وتجعله غرضاً لها، فلا نكاد نرى أحداً لم يواجه طيلة عمره المصائب المختلفة، كما قال الإمام عليه السلام في مورد آخر: «دارٌ بِالْبِلاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالعُدْرِ مَعْرُوفَةٌ» [٥٤٠].

ومن عجائب الدنيا أنّ الإنسان غالباً لا يرى سهام المصائب وهي تتجه نحوه ولا يرى مصدرها وكيف ابتلى بها، ولكنّه فجأة يفتح عينه ليرى حلول المصيبة به، وكما قال الشاعر:

وَلَوْ أَنَّي أَرْمِي بِنَبْلٍ، رَأَيْتَهَا وَلَكِنِّي أَرْمِي بِغَيْرِ سِهَامٍ [٥٤١]

وجملته: «وَعَبْدُ الدُّنْيَا وَتَاجِرُ الْغُرُورِ» إشارة إلى أن الإنسان حاله حال العبد يعيش في أسر الأهواء والشهوات ويرفل في قيود الآمال والمطامع الدنيوية، وهذه الأمور تأخذ به من كل جانب، أما كونه تاجر الغرور، من جهة أنه يتصور أن أمواله ورأس ماله الذي أتعب نفسه في جمعه في هذه الدنيا حقيقة موضوعية إلا أنه ليس سوى سراب بقيقه وتشكيكه من الخداع الغرور، فسوف يفقد هذه الأموال والثروات وقد يقبع الآخرون في انتظارها.

وعبارة: «غَرِيمَ الْمَنَايَا» تشبيه للإنسان بالشخص المدين الذي يطلبه الموت، فالموت يسلب منه روحه ويضع جسمه في لحد القبر، وكلمة: «أَسِيرِ الْمَوْتِ تَبَيَّنَ هَذَا الْمَضْمُونُ بِشَكْلِ آخَرَ، فَأَحْيَانًا يَقُولُ: غَرِيمَ الْمَوْتِ، وَأُخْرَى يَقُولُ: أَسِيرِ الْمَوْتِ.

وعبارة «حَلِيفِ الْهُمُومِ» و «فَرِينِ الْأَخْزَانِ» إشارة إلى أن الإنسان يعيش طيلة حياته مع أنواع الهموم والأحزان، هم المعيشة والرزق، هم المرض، هم فقدان الفرص، هم خيانة بعض الأقرين والرفقاء، هم مؤامرات الأعداء، فهل يمكن العثور
نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤١٥

على شخص لم يقع طيلة عمره أسيراً لمثل هذه الهموم والغموم؟

ومن المناسب هنا الإشارة إلى قصة الإسكندر المعروفة، فعندما حان أجله وكانت أمه لا زالت على قيد الحياة، ويعلم أنها سوف تحزن عليه بشدة، ففكر بأمر لتخفيف حزنها وألمها، فقال لها: يا أمي إبكى عليّ وأقيمي المأتم ولكن لا تبكى لوحدك، بل ادعى معك جماعة يشاركونك في هذا الأمر وليبكوا عليّ لا على مصائبهم ومشاكلهم.

فعملت هذه الام بوصيته بعد موته وتوجهت للجيران والأقرباء والأصدقاء وكلما سألت أحداً منهم: هل أنك خالٍ من الغم والحزن؟ فإنه يذكر لها بعض همومه وأحزانه، فيقول أحدهم: ماتت زوجتي، والآخر يقول: مات ولدي، والثالث يقول:

إني خسرت في تجارتي، الرابع يقول: إنني أعيش الأسقام والآلام، فهتمت الام أنه لا يوجد شخص لا يعيش الحزن ولا تواجه الهموم، وحسب المثل المعروف: «الْبَلِيَّةُ إِذَا عَمَّتْ طَابَتْ» فخفت عليها حينئذ مصيبه فقد ولدها.

وعبارة: «نُصِبِ الْآفَاتِ وَصَيْرِيعِ الشَّهَوَاتِ» مع الأخذ بالحسبان أن كلمة «نُصِبِ» تعني الأغراض التي ينصبها الرماة لتسديد الرمية باتجاهها، وكلمة «صَيْرِيعِ» تعني الشخص المغلوب على أمره والذي سقط على الأرض، فالعبارة تشير إلى الآفات والبلايا المختلفة التي تصيب الإنسان من كل جهة وتجعله هدفاً لها، والشهوات التي تصرعه في حياته ولا يستطيع التصدي لها ومقاومتها.

وجملته: «حَلِيفَةُ الْمَأْمُوتِ» إشارة إلى أنك أيها الإنسان لا تغفل عن أنك خليفة الأموات وسوف تلتحق بهم في المستقبل القريب وسيحل آخرون محلّك، وهكذا تستمر هذه المعادلة في حياة البشرية.

واللافت أن الإمام عليه السلام قد وصف نفسه بستّ صفات، ولكنه وصف ولده بأربعة عشر صفة مما يواجهه كل إنسان في حياته الدنيا من مشاكل وصعوبات، يعنى في مقابل كل صفة وصف فيها نفسه، فقد وصف ولده بصفتين، وفي مقابل كل مشكلة واجهها في حياته، فإن مخاطبه سيواجه مشكلتين.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤١٧

القسم الثاني

إشارة

أَمَّا بَعْدُ، فَهَائِي فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزْعُمِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالْأَهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هُمْ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي رَأْيِي، وَصَيَّرَفَنِي عَنِ هَوَايَ، وَصَيَّرَحَ لِي مَخْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَى بِي

إِلَى جِدِّ لَيَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٌ لَيَشُوبُهُ كَذِبٌ. وَوَجِدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجِدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنَّ أَنَا بَقِيْتُ لَكَ أَوْ فَنَيْتُ.

الشرح والتفسير: علة كتابة هذه الوصية

في هذه الفقرة من الوصية يتحدث الإمام عليه السلام فيها بادئاً من نفسه ويذكر الباعث له لكتابه مثل هذه الوصية الأخلاقية والإنسانية، ويقول ما خلاصته: إنني نظرت إلى نفسي فرأيت كوكب عمري متجهاً نحو الافول، وينبغي أن أهتم بنفسي وأستعد لسفر آخرتي، ولكن بما أنك تمثل جزءاً من وجودي بل جميع وجودي، فرأيت من الضروري أن أقدم لك هذه التحذيرات والنصائح، ويقول الإمام عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنَتْ مِنْ إِذْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ [٥٤٢] الدَّهْرِ عَلَيَّ وَإِقْبَالِ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤١٨

الْآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزِعُنِي [٥٤٣] عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالْاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي [٥٤٤].»

وفي هذا السياق يستتج الإمام عليه السلام هذه النتيجة، أن هذا الاهتمام دعاني للتفكير في نفسي والانصراف عن سلوك طريق الأهواء النفسية وبتبين لي حقيقة مصيري وأوصلني هذا الأمر إلى مرحلة لا يشوبها اللعب والهزل، بل كلها صدق وحق: «غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هُمُ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي [٥٤٥] رَأْيِي وَصَيَّرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَى [٥٤٦] بِي إِلَى جِدِّ لَيَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٌ لَيَشُوبُهُ كَذِبٌ.»

وهذا إشارة إلى أن الإعراض عن الدنيا يوجب للإنسان اليقظة ويبعث فيه الانتباه لأنه يرى نفسه في مرحلة الانتقال من هذه الدنيا، وهذا الأمر يقوده لاجتناب السقوط في فخ الأهواء النفسانية، وأن يفكر بشكل جاد بمصيره وعاقبته، ويجتنب أشكال اللهو واللعب ويحمل نفسه على الصدق وطلب الحقيقة بعيداً عن كل أشكال التعصب والتساهل، ويهتم بمستقبله وحياته بعد الموت فيما يجمع له من زاد لسفر الآخرة.

وبهذه المقدمة يهدف الإمام عليه السلام ظاهراً لتحقيق أمرين: الأول: أن يؤمن مخاطبه بشكل تام أن ما قاله آنفاً ليس بالهزل، بل هو جاد تماماً في هذا الكلام، ويمثل نتيجة مطالعات عميقة وتأملات في وضعه الحالي والمستقبلي، والآخر أنه يحذر ولده من أنه سيواجه مثل هذه الأمور في المستقبل، ولا يبقى في مرحلة الشباب

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤١٩

دائماً (رغم أن الشباب ليس عنصراً يثير الاطمئنان والاعتماد في الحياة) وسوف لا- تمضي مدة إلا وتقترب قافلة عمرك وحياتك للوصول إلى المنزل الأخير، لئلا يعيش ولده حالات الغرور بالشباب وتقوده عناصر الحيوية نحو الطغيان وينسى مستقبله ويغفل عن عاقبة أمره.

ثم إن الإمام عليه السلام يلفت النظر إلى هذه النقطة، وأنه لماذا فكر بتقديم النصح الكثير لولده في حين أن الإمام عليه السلام يعيش حالة الاهتمام بنفسه، ويقول: «وَوَجِدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجِدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِراً [٥٤٧] بِهِ إِنَّ أَنَا بَقِيْتُ لَكَ أَوْ فَنَيْتُ.»

وعندما يعبر الإمام عليه السلام بأنك بعض من وجودي فالمعنى واضح، لأن الابن يولد من الأب والام، وتشكل أجزاء بدنه من بدن والديه، ولكن عندما يقول: ووجدتك جميع وجودي، يمكن أن يكون إشارة إلى أنك الإمام بعدي وخليفتي في هذا المقام، وعلى هذا الأساس فإن جميع وجودي يتجلى فيك، وتكون مرآة يتجلى فيها كل وجودي.

ويحتمل أيضاً أن هذه الجملة إشارة إلى مجموعة الصفات الجسمانية والروحانية التي تنتقل من الآباء للأبناء بحكم قانون الوراثة، وأن

الأبناء سيتحلون بالصفات الجسمانية والروحانية للآباء.

وهنا مثل عربي معروف يمثل بيت شعر يقول فيه الشاعر:

إِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ [٥٤٨]

وجاء في شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري أن رجلاً أعرابياً مات ابنه فكفنه ودفنه، ثم قال:

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٢٠

دَفَنْتُ بِنَفْسِي بَعْضَ نَفْسِي فَأَصْحَبْتُ وَلِلنَّفْسِ مِنْهَا دَافِقٌ وَدَفِينٌ [٥٤٩]

وجملته: «حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً...» وهي توضيح وبمثابه الدليل على كيفية أن يكون ابنه العزيز بعض وجوده أو كل وجوده فيقول: ومن هنا أجد أن كل مصيبة وكل ألم يصيبك فكأنما يصيبني حتى لو أن الموت جاءك فكأنه جاءني، لأنني أرى كل شيء في نفسي فيك، فأنت جميع كياني ووجودي، وعلى أية حال فهذا الاهتمام من الإمام عليّ بأمر ولده يشكّل الباعث الأصلي لكتابة هذه الوصية المطوّلة التي تعتبر تشكيلاً من أفضل المواعظ والإرشادات في مجال التوحيد والمعاد، آداب الحياة، آداب تهذيب النفس، ورسم الطريق القويم والسلوك الصحيح في الحياة مع المجتمع، وبما أن الإمام عليه السلام يمثل أباً لجميع أفراد الأمة كما هو مقتضى الحديث النبوي المعروف: «أَنَا وَعَلِيٌّ أَبَوَا هَذِهِ الْأُمَّةِ» [٥٥٠] فَإِنَّ الْمَخَاطَبَ بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ فِي الْحَقِيقَةِ جَمِيعَ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ.

وجملته: «إِنَّ أَنَا بَقِيْتُ لَكَ أَوْ فَنَيْتُ إِشَارَةَ خُلُودِ مَضْمُونِ هَذِهِ الرَّسَالَةِ وَدَوَامِهَا، وَالْوَاقِعُ هُوَ كَذَلِكَ، فَبِالرَّغْمِ مِنْ مَضَى أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ عَامٍ عَلَيْهَا، فَإِنَّهَا لَا زَالَتِ طَرِيْقُهُ وَيَانَعَهُ وَزَاخِرُهُ بِالْحَيَوِيَّةِ وَالْحَرَكَةِ، وَهِيَ الْمَصْدَاقُ الْبَارِزُ لِقَوْلِ تَعَالَى: «كَشَدَّجَرَهُ طَيِّبُهُ أَضْمَلُهَا تَابَتْ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا» [٥٥١].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٢١

القسم الثالث

إشارة

فَأِنِّي أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ - أَيْ بِنَيْ - وَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالْاِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ. وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبِ بَيْنِكَ وَبَيْنَ اللَّهِ إِنَّ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ.

الشرح والتفسير: أوثق وسيلة للنجاه

يستهل الإمام عليه السلام هذا المقطع من الرسالة بنصائح ببناء ومفعمة بالإيمان، ويقدم في أربع جمل قصيرة أربع توصيات لولده، وتمثل هذه التوصيات عصاره جميع الفضائل ويقول: «فَأِنِّي أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ - أَيْ بِنَيْ - وَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالْاِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ».

إن التوصية بالتقوى هي التوصية التي جعلها جميع الأنبياء والأوصياء في سلم أولويات برامجهم في حركة الحياة بعد الإيمان بالله، التقوى التي تمثل الزاد والمتاع في طريق الآخرة، ومعيار الفضيلة والامتياز لشخص على سائر الناس، ومفتاح الجنة، والتقوى تعني الخشية الباطنية والقلبية من الله تعالى واجتناب كل أشكال الذنوب وارتكاب الآثام، والشعور والإحساس بالمسؤولية أمام الله، ومن شأنها أن تخلق في نفس الإنسان مانعاً وسداً يحول بينه وبين الذنوب، والمرتبة الأدنى منها هي العدالة، والمرتبة القصوى هي العصمة.

نقحات الولاية؛ ج ٩؛ ص ٤٢١

ي التوصية الثانية يشير الإمام عليه السلام إلى الالتزام الواعي بالأوامر الإلهية، وهذا هو الأمر الذي أكد عليه القرآن الكريم مراراً بعنوان «أَطِيعُوا اللَّهَ» والذي يعتبر من ثمار شجرة التقوى.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٢٢

وعبارة: «عَمَارَةٌ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَهَمِّيَّةِ ذِكْرِ اللَّهِ، لِأَنَّ الْغَفْلَةَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعْنِي خَرَابَ الْقَلْبِ وَخَوَاءَ الرُّوحِ وَجَفَاءَ الْعَوَاطِفِ وَيَصِيرُ الْإِنْسَانُ بِالتَّالِي مِيدَانًا وَمَلَاذًا لَجِيْشِ الشَّيْطَانِ، يَقُولُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» [٥٥٢] وهذا الإحياء للقلوب لا يتسنى بالذكر اللفظي فقط، رغم أن الذكر اللفظي مهم جداً، بل الذكر العملي كما ورد ذلك في الروايات الشريفة يقول الإمام الباقر عليه السلام: «ثَلَاثٌ مِنْ أَشَدِّ مَا عَمِلَ الْعِبَادُ: إِنْصَافُ الْمَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ، وَمُوَاسَاةُ الْمَرْءِ مِنْ أُخِيهِ، وَذِكْرُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ثُمَّ ذَكَرَ الْمَقْصُودَ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ: «وَهُوَ أَنْ يَذْكَرَ اللَّهُ عَزَّ جَلَّ عِنْدَ الْمُعْصِيَةِ بِهِ يَهُمُّ بِهَا فَيُحْوَلُ ذِكْرُ اللَّهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تِلْكَ الْمُعْصِيَةِ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ جَلَّ: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» [٥٥٣].

وعبارة: «الاعتصام بحبله إشارة إلى التمسك بتعاليم القرآن الكريم والذي يتضمن مناهج لتحقيق السعادة في واقع الحياة، ويشير القرآن إلى ذلك أيضاً بقوله:

«وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» [٥٥٤].

ونعلم أن المفسرين ذكروا لكلمة حبل الله في هذه الآية الشريفة معانٍ كثيرة، فذهب بعض المفسرين إلى أن المراد منها القرآن الكريم، وذهب آخرون إلى أنها تعنى الإسلام، ويعتقد بعض أن المقصود منها أهل بيت النبوة، ولكن لا يوجد اختلاف وتباين بين هذه التفاسير، لأن «حبل الله» تعنى الارتباط الوثيق بالله تعالى وتشمل جميع هذه المعانى المذكورة.

ولهذا يقول الإمام عليه السلام فى مواصلاً كلامه: «وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبِ بَيْنِكَ وَبَيْنَ اللَّهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ».

والتعبير بالحبل إشارة إلى أن الإنسان بدون التربية الإلهية يهبط إلى الحضيض

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٢٣

ويسقط فى بئر الطبيعة، ولذلك لابد له من حبل متين يتمسك به ويرقى بواسطته ليخرج من هذه البئر، وهذا الحبل هو القرآن والإسلام والعترة.

وبالنسبة للتقوى وأهميتها وآثارها فى حياة الإنسان وردت بحوث فى ذيل الخطبة ١٥٧، الجزء ٦ ص ١٧٢ فصاعداً، والخطبة ١٦١، ص ٢٧٤ فما بعد.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٢٥

القسم الرابع

إشارة

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِّنْهُ بِالرَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّزْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّزْهُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعِ الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَأَعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِيَيْنِ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَسِرِّ فِي دِيَارِهِمْ وَأَثَارِهِمْ، فَانظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا! فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَجْبَةِ، وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَانَتْكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ

صِرَتْ كَأَحَدِهِمْ.

الشرح والتفسير: أحي قلبك بالموعظة

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية ليستعرض اثنتي عشرة موعظة مهمة تتسبب في تكامل روح الإنسان وأخلاقه، وتجعله يعيش الحياة المعنوية والمثل الإنسانية.

بداية يقول: «أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمْتَهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّزْهُ [٥٥٥] بِالْفَنَاءِ».

ويتبدى الإمام عليه السلام في هذه التوصيات الست بإحياء القلب، والقلب في هذا المورد الروح والعقل والإدراك، فما لم يعيش القلب هذه الحياة المعنوية فلن يستطيع

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٢٦

الإنسان أن يتقدم خطوة واحدة باتجاه التكامل والسمو والتعالى، ويتوقف عن المسير عند هذا الحد، فما يوجب الحياة للقلب وينفخ فيه الروح، هو المواعظ والنصائح التي وردت في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وروايات الأئمة المعصومين عليهم السلام وما يستوحيه الإنسان من حوادث الدهر وتاريخ الأقسام البشرية.

وحقيقته الموعظة تتمثل في التوصية بالخيرات والمكرمات والتوقى من السيئات والقبايح، فإذا انطلقت هذه المواعظ من القلب مقترنة بالأدلة والشواهد، وبتبئة إسداء الخير للآخرين والشفقة عليهم، فإنها تسكن في القلب وتؤثر في إحياء الروح والعواطف.

وجملة: «أَمْتَهُ بِالزَّهَادَةِ» المراد القلب الذي يعيش أسير الأهواء والشهوات، فمثل هذا القلب يجب أن يموت بآلية الزهد ويكسب له حياة جديدة بالموعظة، وهذا التعبير بليغ وجذاب جداً حيث يأمر الإمام عليه السلام أولاً بإحياء القلب ثم يأمر بإماتته، فالأمر الأول ناظر للأبعاد الإيجابية في العقل والروح، والأمر الثاني ناظر للأبعاد السلبية وأن يكون العقل أسيراً في براثن الشهوات، وفي الواقع أن الإمام عليه السلام يشبه قلب الإنسان وروحه بالبستان الذي يحتوي على أشجار مثمرة وأغصان زاهرة وأزهار مختلفة الألوان، وفي ذات الوقت هناك أعشاب وأشواك ضارة كثيرة بين هذه الأشجار، فإحياء هذا البستان يعتمد على تنمية تلك الأشجار والأزهار وقلع هذه الأعشاب والأشواك.

وبعد أن يحيى القلب بالموعظة وتتم إزالة العوائق والموانع بالزهد، تصل النوبة لتقوية القلب، فيقول الإمام عليه السلام: «وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، اليقين الذي يحصل عليه الإنسان من خلال النظر في آفاق الخلق وأسرار الطبيعة، أو من خلال العبادة والعبودية لله تعالى، وبعد تقوية القلب باليقين يشغل المؤمن بتنويره، وهو قول الإمام عليه السلام:

«وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ» فالحكمة والمعرفة والعلم من شأنها أن تثير طريق السالك إلى الله وتمنحه المعرفة بالمطببات والعوائق التي تواجه المؤمن في طريق المعنوية.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٢٧

وبما أن نفس الإنسان ربما تتمرد عليه وتسلك سبيل الطغيان والعصيان، فالإمام عليه السلام يرشدنا لكيفية كبح جماح هذه النفس، ويقول في الجملة الخامسة والسادسة: «وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَقَرِّزْهُ بِالْفَنَاءِ»، لأن الموت والإقرار بالفناء يعملان على تذليل هذا الجموح ويتعامل الإنسان مع الواقع والحياة من موقع الإذعان والتسليم، وقد رأينا الكثير من الناس عندما يفقدون عزيزاً لهم في حادثه فجائية ويرون مشاركة الناس من الأقرباء والمعارف في التشجيع ويحضرون في مجالس العزاء والمأتم، فإن آثار التذلل والتسليم بادية على وجوه الجميع، وربما يكون لهذه الحالة تأثير مؤقت، ولكن على أية حال تشير إلى أن ذكر الموت والإقرار بالفناء إذا استمر لمدة طويلة فذلك من شأنه كبح جماح النفس المتمردة والسيطرة على نوازعها وشهواتها.

وبعد أن طرح الإمام عليه السلام هذه التوصيات في الجمل والعبارات السابقة، يوصى ولده بأن يتمن ويتدبر في حوادث الدهر

والزمان، ويرى المتغيرات والتقلبات التي تطرأ بالليل والنهار: «وَبَصَّرَهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَحَدَّزَهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ [٥٥٦] تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ».

أحياناً تسدل الغفلة ستائرهما على قلب الإنسان فيغرق في دوامة الأهواء والشهوات بحيث لا يدرك الحقائق المتعلقة بالحياة والسعادة، ولا يتحرك في طريق العقل والسلامة، فمن أجل إزاحة هذه الستائر والحجب وإضاءة زوايا القلب وتنوير العقل، فلا شيء أفضل من التدبر في الحوادث المرّة والبلايا المؤلمة للعالم وكثرة التقلبات الفجائية في الحياة وبالأخص ما يراه الإنسان في حياة أصحاب القدرة والسلطة في العالم، كل ذلك من شأنه أن يفتح نوافذ القلب ويعيد إليه بصيرته.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٢٨

وعبارة: «فَجَائِعَ الدُّنْيَا» إشارة إلى فجائع الناس في الدنيا، والتي تستتبع متغيرات وتقلبات كثيرة، أو الإشارة إلى الحوادث المرّة والأليمة التي يفرضها الواقع الصعب على الإنسان في حركة الحياة.

وعبارة: «صَوْلَةَ الدَّهْرِ» مع الالتفات إلى أن «صَوْلَةَ» بمعنى الهجوم الكاسح والحملة الحاسمة، سواء كانت هذه الحملة من قبل حيوان مفترس أو إنسان قوي وغاشم، فالعبارة تشير إلى الآفات والبلايا والأمراض وأشكال الإخفاق التي يواجهها الإنسان في واقع الحياة والتي تهجم عليه كالحیوان المفترس في حين أنه لا يملك وسيلة للدفاع عن نفسه وغير قادر على التصدي لها ومقاومتها.

وجملة: «فُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ»، مع الالتفات إلى أن «فحش» تعني كل عمل قبيح وغير مقبول، فهي تشير إلى أن مرور الزمان وتقلب الليل والنهار من شأنه أن يثير تقلبات مزعجة وتغيرات مؤسفة في حياة الفرد والمجتمع البشري وتجعل من حياة الإنسان مظلمة ومشوشة، فلو تمنع الإنسان في هذه الأمور وتدبر في هذه الحوادث والتقلبات، فذلك من شأنه أن يمنحه مزيداً من البصيرة بحقائق هذا العالم، ويدفعه للحركة في الطريق الصحيح.

ثم إن الإمام عليه السلام يتعرض لشرح هذه الحقيقة ويقول: «وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَحْبَارَ الْمَاضِيَيْنِ، وَذَكْرَهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوْلِيَيْنِ، وَسِرِّ فِي دِيَارِهِمْ وَأَثَارِهِمْ، فَانظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وَعَمَّا انْتَقَلُوا وَأَيْنَ حَلُّوا [٥٥٧] وَنَزَلُوا».

وهذا المضمون هو ما ورد في القرآن الكريم في أكثر من آية، حيث قال تعالى:

«قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ» [٥٥٨].

ويقول أيضاً: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٢٩

يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» [٥٥٩].

المهم، أن المرء يشاهد في زوايا هذا العالم وفي الكثير من المناطق والمدن والأرياف، آثار القدماء من سكنة هذه المعمورة، الآثار القديمة والأطلال البالية التي عفى عليها الزمن، ولكنها في ذات كونها صامدة تنطق بألف لسان وتحدث معنا من موقع الاعتبار وتبين لنا حقيقة هذه الحياة الدنيا، والكثير من الناس عندما يشاهدون هذه الآثار والأطلال يفتخرون بها على اعتبار أنها آثار تاريخية تدل على وجود تمدن وحضارة لدى أسلافنا وأجدادنا، في حين أن المرء ينبغي أن يستوحى منها دروس العبرة ويسترشد بتقلبات الزمان بما ينفعه في حياته ويكشف له الطريق.

ويتحدث الإمام عليه السلام بعد ذلك ويبيّن توضيحاً أكثر لهذه الحقيقة: «فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحْبَةِ، وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَانَتْكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ».

أجل، فلو شككنا في كل شيء فإننا لا نشك في هذه الحقيقة الحاسمة، وهي أننا بدون استثناء سائرون على خطى القدماء وسنلاقي نفس المصير، في ذلك اليوم الذي نودع فيه الزوجة والأبناء الأصدقاء والمقامات وجميع وسائل الحياة ونتركها لغيرنا ونرحل.

١. الحياة وإعمار القلب

يشير الإمام عليه السلام في مستهل هذه الفقرة من الوصية إلى إحياء القلب بواسطة الموعظة، وفي الفقرة السابقة أشار إلى عمران القلب، ومعلوم أنّ المقصود من القلب في هذه العبارات وأمثالها ليس ذلك العضو الخاص من البدن والذي يقع في الصدر، ووظيفته ضخّ الدم إلى جميع أعضاء البدن؛ بل المراد منه روح الإنسان وعقله كما ورد ذلك أيضاً في المصادر اللغوية.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٣٠

والروح الإنسانية هي التي يجب إعمارها وإصلاح الخلل فيها من خلال سلوك سبيل التقوى والإصغاء إلى المواعظ، لأننا نعلم أنّ الإنسان يملك ثلاث نفوس، وأحياناً أربع نفوس، النفس النباتية والتي تظهر آثارها في نموّ الجسم والتغذية وتوليد النسل، النفس الحيوانية، التي تتولى، مضافاً لما سبق، الإحساس والحركة، فالأظافر وشعر الإنسان تملك روحاً نباتية فقط، ولهذا السبب لا يشعر بها الإنسان عندما تقطع في عملية تقليم الأظافر وقصّ الشعر، ولكن اللحم والعضلات - مضافاً إلى أنّها تملك روحاً نباتية، فلها روح حيوانية أيضاً، فأدنى ضرر أو أذى يلحق بالإنسان تحسّ به هذه العضلات وتتألم، أمّا النفس الإنسانية، فإنّ أثرها البارز هو الإدراك والشعور والخلاقيّة والتفسير والتحليل للمسائل المختلفة، وهي حقيقة يملكها الإنسان مضافاً للنفس النباتية والحيوانية، وطبعاً هناك بعض الأشخاص الذين يملكون نفساً رابعة أيضاً وهي التي يطلق عليها بالنفس القدسية، وهذه تدرك الحقائق المجردة التي يعجز عن إدراكها الأفراد العاديون (أحياناً تطلق روح القدس على جبرئيل، وأحياناً أخرى على ملك أعظم منه) وقد ورد التعبير عنها في بعض الروايات (روح الإيمان) ولعلّ ذلك إشارة إلى هذه المرتبة العالية للنفس الإنسانية.

وجاء في حديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إِذَا زَنَى الرَّجُلُ فَارَقَهُ رُوحُ الْإِيمَانِ» [٥٦٠]، إلّا أنّ يتوب ويتحرّك على مستوى جبران الخلل.

وجاء في بعض الروايات أنّ روح القدس أعلى مرتبة من روح الإيمان وقد جاءت الأرواح الخمسة فيها [٥٦١].

الروح الإنسانية أحياناً تكون بدرجة من القوّة والنفوذ بحيث تنير كافة زوايا الإنسان وأبعاد شخصيته، وأحياناً أخرى تكون إلى درجة من الضعف بحيث يقال عنها أنّها ميتة.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٣١

يقول الإمام الحسن المجتبي عليه السلام: «التَّفَكُّرُ حَيَاةٌ قَلْبِ الْبَصِيرِ» [٥٦٢]. وفي حديث آخر عنه عليه السلام يقول: «عَلَيْكُمْ بِالْفِكْرِ فَإِنَّهُ حَيَاةٌ قَلْبِ الْبَصِيرِ وَمَفَاتِيحُ أَبْوَابِ الْحِكْمَةِ» [٥٦٣].

وفي مقابل ذلك ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أَرْبَعٌ يُمِثَّنُ الْقَلْبَ: الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ وَكَثْرَةُ مَنَاقَشَةِ النِّسَاءِ - يَعْنِي مُحَادَثَتَهُنَّ - وَمُمَارَاةُ الْأَحْمَقِ ... وَمُجَالَسَةُ الْمَوْتَى، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْمَوْتَى؟ قَالَ كُلُّ غَيْبٍ مُتْرَفٍ» [٥٦٤].

وكذلك ورد في الروايات عن الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قال: «لِقَاءُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عِمَارَةُ الْقُلُوبِ وَمُسْتَفَادُ الْحِكْمَةِ» [٥٦٥]. وفي رواية أخرى يقول عليه السلام: «عِمَارَةُ الْقُلُوبِ فِي مُعَاشَرَةِ ذَوِي الْعُقُولِ» [٥٦٦].

ومن المعلوم، كما ورد في الروايات أعلاه، أنّ قلب الإنسان أحياناً يكون بشكل خربة أو يكون سقيماً، وأحياناً أخرى يفقد جميع ملامح الإنسانية وقد يكون أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، والإمام عليه السلام في وصيته مورد البحث يوصي الإنسان بإحياء قلبه وعمرانه والعمل على تعميره وتقويته معنويته، وذكر الله عامل أساس لإحياء القلب والموعظة بدورها وسيلة وأداة لهذا الإحياء المعنوي.

٢. الوعظ الكثيرون

عندما يدور الحديث عن الوعظ فسوف يتبادر إلى الذهن من هذه الكلمة الإنسان المجرب والحكيم والمتقى والسالك سبيل الخير والإيمان، الذي استفاده من آيات القرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام وتجارب الآخرين ومطالعاته في زيادة الوعي بحقائق العالم وكيفية السير في طريق معنويات والقيم، في حين أن

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٣٢

الروايات الشريفة تذكر وعظاً آخرين إلى جانب ذلك، ومنهم الحوادث المُرّة والمصائب الأليمة التي تصيب الإنسان في الدنيا، وهو ما يشير إليه الإمام عليه السلام في قوله: «أَخِي قَلْبِكَ بِالْمَوْعِظَةِ».

والوعظ الآخر للإنسان يتمثل في تاريخ القدماء وسيرة الأقباط الماضية وأطلال القصور والقبور المندرسه والديار المتروكة، والتي تتحدث مع الإنسان بألف لسان وهي صامتة، والإمام عليه السلام بهذه العبارات يشير إلى هذا الوعظ أيضاً.

الوعظ الآخر الذي يتحدث عنه الإمام عليه السلام في نهج البلاغة في (الخطبة ١٨٨) أجساد الموتى ويقول: «فَكَفَى وَاعِظاً بِمَوْتِي عَايِنْتُمُوهُمْ حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ» [٥٦٧].

وقد نستوحى من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام وعظاً آخرين يعبر عنهم بالوعظ الباطني، يعني الوجدان اليقظ والضمير الحي في واقع الإنسان وقلبه، يقول: «وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ» [٥٦٨]، وهذا الوعظ النفساني هو ما ورد في القرآن الكريم في سورة الشمس، قال تعالى «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» [٥٦٩].

الوعظ الآخر هو ما بينه الإمام موسى الكاظم عليه السلام لهارون الرشيد عندما طلب هذا الأخير من الإمام عليه السلام موعظة، فقال له الإمام عليه السلام كلاماً وجيزاً وعميق الغور: «مَا مِنْ شَيْءٍ تَرَاهُ عَيْنَيْكَ إِلَّا وَفِيهِ مَوْعِظَةٌ» [٥٧٠].

يعني أن النجوم المتلألئة في السماء، والشمس والمضيئة، والقمر المنير، والظهر المحدودب للمسنيين، الشعر الأبيض للشيخ، أوراق الشجر اليابسة في فصل الخريف، والقبور المندرسه للموتى، والقصور المتهاوية للملوك، كلها تتضمن دروساً

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٣٣

وعبراً، وتنطق بالمواعظ في سكوته المطبق.

فلو أن هارون نظر إلى الحوادث المثيرة والتقلبات المذهلة في تاريخ بني أمية وبني العباس، فسوف يستوحى منها أفضل الدروس وأعظم العبر.

ومن هذا المنطلق يكون كلام الإمام عليه السلام في هذه الوصية: «أَخِي قَلْبِكَ بِالْمَوْعِظَةِ» يتضمن مفهوماً واسعاً بحيث يستوعب جميع عناصر الوعظ وكافة الوعظ.

يقول أبو الفرج الاصفهاني في كتاب الأغاني: كانت الخرقاء بنت النعمان إذا خرجت إلى بيعتها (محلّ العبادة) يفرش لها الطريق بالحريز والديباج المغشى بالخزّ والوشى، ثم تقبل في جواربها حتى تصل إلى بيعتها، وترجع إلى منزلها، فلما هلك النعمان نكبها الزمان، فأنزلها من الرفعة إلى الذلّة، فلما وفد سعد القادسية أميراً عليها وانهمز الفرس وقتل رستم، أتته في حفدة من قومها وجواربها عليها المسوح والمقطعات السود تطلب صلتها، فقال لهن: أيتكن الخرقاء؟ قال: ها أنا ذى إن الدنيا دار زوال ولا تدوم على حال، كنا ملوك هذا المصر يجبي لنا خراجه ويطيعنا أهله مدى المدّة والزمان، كذلك الدهر ليس يأتي قوماً بمسرة إلا ويعقبهم بحسرة ثم قالت: فيينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة ليس تعرف

فأفّ لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف [٥٧١]

وكذلك ينقل عن محمد بن عبد الرحمن الهاشمي قال: دخلت على امي يوم أضحى وعندها امرأة في أثواب دنسه، فقالت: أتعرف

هذه؟ قلت: لا، قالت: هي عناية ام جعفر البرمكي، فسلمت عليها وقلت لها: حدثيني ببعض أمركم، فقالت: أذكر لك جملة فيها عبرة لمن اعتبر، لقد هجم عليّ مثل هذا اليوم وعلى رأسى أربعمائه وصيفه وأنا أزعج أن ابني جعفر عاق فني، وقد أتيتكم اليوم أسألکم جلدی شاتين، شعار ودثار [٥٧٢].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٣٤

أَيْنَ كَسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوَشِرُونَ، أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ شَابُورُ؟
 وَأَخُو الْخِضْرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَلَهُ تُجْبِي إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ
 شَادَهُ مَرَمَرًا وَجَلَّلَهُ كَاسًا وَلَطَّيْرٍ فِي ذِرَاهُ وَكُورُ
 وَتَفَكَّرَ رَبَّ الْخَوْرَتِ إِذْ أَشْرَفَ يَوْمًا وَلِلْهَدَى تَفَكِيرُ
 سَرَّهُ مُلْكُهُ وَكَثْرَهُ مَا يَمْلِكُهُ وَالْبَحْرُ مَعْرَضًا وَالسَّديِرُ
 فَارَعَوَى قَلْبَهُ وَقَالَ: وَمَا غِبطُهُ حَتَّى إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ؟
 وَبَنُوا الْأَصْفَرَ الْكِرَامِ مُلُوكِ الْأَرْضِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكَورُ
 ثُمَّ أَضْحَوْا كَانْتَهُمْ وَرَقَّ جَفَّ فَالُوتِ بِهِ الصَّبَا وَالذَّبُورُ [٥٧٣]

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٣٥

القسم الخامس

إشارة

فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ؛ وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ، الْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلِّفْ. وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقِ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ، فَإِنَّ الْكُفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ. وَأَمُرٌ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَيَايُنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ، وَجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ. وَخُصِّ الْعَمْرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَتَفَقَّهُ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ.

الشرح والتفسير: الاستقامة سبب تحقيق النصر والنجاح

يتحرّك الإمام عليه السلام في مستهل هذا المقطع من الوصية ليستنتج ممّا تقدّم في المقطع السابق من التوصية بمطالعة أحوال القدماء والسير في آفاق التاريخ، خمس نتائج ومواعظ مهمّة، ويقول: «فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ؛ وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ، وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلِّفْ وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقِ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ، فَإِنَّ الْكُفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ».

جملة «أَصْلِحْ مَثْوَاكَ» مع الالتفات إلى أن «مَثْوَى» تعنى المكان والمنزل والأخير، أى آخرتك، فهى تشير إلى أنك يجب عليك أن تتحرّك في هذه الدنيا من موقع النظر إلى الآخرة والاهتمام بإعمارها.

ونقرأ في دعاء يوم الثلاثاء من أوعية أيام الاسبوع للإمام على بن الحسين عليهما السلام:

«وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي فَإِنَّهَا دَارُ مَقَرِّي .

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٣٦

وجملته: «لَمَا تَبِعَ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَتَاعَ الثَّمِينِ الَّذِي يُوصل الْإِنْسَانَ إِلَى دَارِ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَبِيعَهُ مَقَابِلَ

ملذات رخيصة وسريعة الزوال في الدنيا، وهذا هو ما ذمّ عليه القرآن الكريم جماعة من اليهود وشجب أعمالهم حيث قال: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» [٥٧٤].

وجملة: «دَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَاتَعْرِفُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَتَحَدَّثُ عَنْ أُمُورٍ لَا يَحِيطُ بِهَا عِلْمًا، وَقَدْ نَهَى الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ هَذَا الْعَمَلِ مَرَارًا، مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» [٥٧٥] وفي مورد اتباع وساوس الشيطان يقول: «إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» [٥٧٦].

وعبارة: «وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلِّفْ إِشَارَةً إِلَى أَنْ لَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَتَدَخَّلَ فِيمَا لَا يَخْصُكَ وَلَا يَعْنِيكَ، وَبِالتَّعْبِيرِ الْمَتَدَاوِلِ (لَا تَكُنْ فَضُولِيًّا فِي شُؤْنِ الْآخِرِينَ) فَمَا أَكْثَرَ الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ وَاجَهُوا بِسَبَبِ تَدَخُّلِهِمْ فِي شُؤْنِ الْآخِرِينَ وَفِيمَا لَا يَعْنِيهِمْ، مَشَاكِلَ كَثِيرَةً وَتَوَرَّطُوا فِي صَرَاعَاتٍ وَخَسِرُوا الْكَثِيرَ مِمَّا يَهْمُهُمْ، وَهَذَا هُوَ مَا أَكَّدَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: «عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا يَصُدُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» [٥٧٧].

وآخر جملة: «وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ...» إِشَارَةً لِحِرْمَةِ رِعَايَةِ الْإِحْتِيَاظِ فِي الشَّبَهَاتِ، وَهَذَا الْمَعْنَى يُعْتَبَرُ أَصْلًا عَقْلَانِيًّا مُسَلِّمًا، فَعِنْدَمَا يَجِدُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي مَفْتَرِقِ طَرِيقَيْنِ، طَرِيقٍ يَتَمَيَّزُ بِوُضُوحٍ، خَالِيٍّ مِنَ الْعَثَرَاتِ وَالْمَطْبَاتِ، وَطَرِيقٍ مُظْلَمٍ وَمَجْهُولٍ، فَالْعَقْلُ يَقُولُ: لَا يَنْبَغِي أَنْ تَسْلُكَ فِي مِثْلِ هَذَا الطَّرِيقِ، لِأَنَّكَ سَوْفَ تَبْتَلِي بِعَوَاقِبِ سَيِّئَةٍ، وَحَتَّى لَوْ وَصَلْتَ لِمَقْصِدِكَ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ، فَإِنَّ مَصِيرَكَ مَحْفُوفٌ بِالْخَوْفِ وَالْإِضْطِرَابِ، فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسِيرَ بِخَطَوَاتٍ مَطْمَئِنَّةٍ فِي الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٣٧

وبحاله من الطمأنينة ليصل إلى مقصده وينال بغيته.

وهذا الأصل العقلائي ورد في روايات كثيرة، منها ما وردت الإشارة إليه في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «دَعِ مَا يُرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيْبُكَ» [٥٧٨] وحديث طويل عن عمر بن حنظلة قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام: عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة ...

إلى أن قال عليه السلام: «إِنَّمَا الْأُمُورُ ثَلَاثَةٌ: أَمْرٌ بَيْنَ رُشْدِهِ وَفَيْتَبُّعٍ، وَأَمْرٌ بَيْنَ عَيْهِ وَفَيْجَتَّبُ، وَأَمْرٌ مُشْكِلٌ يُرَدُّ عَلَيْهِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: حَلَالٌ بَيْنَ وَحَرَامٍ بَيْنَ وَشُبُهَاتٌ بَيْنَ ذَلِكَ، فَمَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ نَجَا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَنْ أَخَذَ الشُّبُهَاتِ ارْتَكَبَ الْمُحَرَّمَاتِ وَهَلَكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ» [٥٧٩].

وبديهي أن كل هذه التوصيات والأوامر لا تتنافى مع مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الجاهل، بل ترتبط بالموارد التي لا يملك الإنسان مسؤولية تجاهها، ولذلك يقول الإمام عليه السلام بعد هذه التوصيات: «وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنَ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ».

الجملة الأولى: «وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَأْمُرُ الْآخِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَكُونُ مِنْ أَهْلِهِ فَسَوْفَ يَعِيشُ تَأْنِيْبَ الضَّمِيرِ وَيَشْعُرُ بِالْخَجَلِ أَمَامَ وَجْدَانِهِ، أَضْفَ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَخْجَلُ مِنَ النَّاسِ عِنْدَمَا يَقُولُونَ إِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ فِي حِينِ أَنَّهُ يَرْتَكِبُ الْمُنْكَرَ، وَمَجْمُوعُ هَذِهِ الْأُمُورِ يَقُودُ الْإِنْسَانَ مِنْ خِلَالِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ إِلَى مَرْتَبَةِ أَخْلَاقِيَّةٍ بَحِيثٍ يَجِدُ نَفْسَهُ تَدْرِيجِيًّا يَسِيرًا فِي خَطِّ الْعَامِلِينَ بِالْمَعْرُوفِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ أَجْوَاءَ الْفَضِيلَةِ.

وجملة: «وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ...» إِشَارَةٌ إِلَى مَرَاتِبِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُنَا مَرْتَبَتَيْنِ لِهَذِهِ الْمَهْمَةِ، جَاءَ فِي مَوْرَدِ آخِرِ مِنْ كَلِمَاتِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْقَصَارِ الْإِشَارَةَ إِلَى ثَلَاثِ مَرَاوِحٍ وَمَرَاتِبٍ لَهَا: الْأُولَى: الْإِنْكَارُ بِالْقَلْبِ، وَالْإِمْتِعَاضُ الْبَاطِنِي

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٣٨

من المنكر، وذلك عندما يجد المؤمن نفسه في مناخ غير مناسب ويعيش القهر والظلم من قبل الظالمين وقوى الشر، فيجد يديه مقيدة وفمه مكتوم.

المرحلة الثانية: الإنكار باللسان.

والمرحلة الثالثة: التصدي العملي لمواجهة المنكرات والعمل على تطهير الإنسان والمجتمع منها، والكثير من الفقهاء يرون أن هذه المرحلة من وظائف الحكومة الإسلامية والحاكم الشرعي، بينما المرحلة الأولى والثانية تقع على عهده عامة المكلفين. وجملة: «وَيَا أَيُّهَا مَنْ فَعَلَهُ بِجَهْدِكَ» ممكن أن تكون إشارة إلى المورد لا يؤثر فيه النهي عن المنكر، ففي مثل هذا المورد يجب على الإنسان أن يترك مجالس المنكر ويتعد عن المرتكبين للمعاصي والمنكرات.

ويحتمل أيضاً أن المراد النهي القلبي الذي يترك آثاره على ملامح الوجه، وهو أحد المراحل الثلاث للنهي عن المنكر، وقد ورد في حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أَمَرْنَا رَسُولُ اللَّهِ أَنْ نَلْقَى أَهْلَ الْمَعَاصِي بِوُجُوهِ مُكْفَهَرَةٍ» [٥٨٠]، ليعلموا من ملامح الغضب المرتسمة على وجوهنا أننا ننكر أعمالهم ولا نوافقهم في سلوكياتهم.

ثم يستمر الإمام عليه السلام في بيان هذه التوصيات والمواعظ ويقول: «وَجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ. وَخُصِّ الْعَمْرَاتِ ٥٨٢» لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ».

ونعلم أن للجهاد مراحل ومراتب متعدده، سواء كان المقصود الجهاد المسلح ضد الأعداء، أو بمعنى السعي وبذل الجهد في مسير الحق والعدالة، وبعض هذه المراحل لا تليق بالمجاهدين الحقيقيين، اللائق هم أن يحققوا في واقعهم وذواتهم آخر نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٣٩

مرحلة وأعلى مرتبة من هذا السلوك المعنوي، ويبدلوا كل جهدهم وطاقتهم في سبيل الثبات والاستقامة في خط الإيمان والعبودية، وجملة: «جَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ» إشارة إلى هذا المعنى.

أما جملة: «وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ» فهي إشارة إلى أنه أحياناً يلتفت بعض الأراذل حول الإنسان المجاهد ويلومونه على مسلكه ويعيقون حركته في طريق الحق، والإيمان، فالإمام عليه السلام يقول: لا ينبغي أن يكون هذا الذم والتوبيخ مانعاً لك من الاستقامة في هذا الطريق، فعندما يتبين لك طريق الحق فسر فيه بعزم راسخ وتوكل على الله، ولا تهتم لأقوال المبطلين، ولا تلتفت للوم اللائمين. وبما أن طريق الحق يزخر بالمشكلات الكثيرة والمآزق الخطيرة، وأن السالكين في طريق الحق لا يصلون إلى مقصدهم بدون مواجهة هذه الأزمات والمآزق، فالإمام عليه السلام يشبه هذه المشاكل والمآزق بأموج البحر العاتية «وَخُصِّ الْعَمْرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ» ويأمر بخوض هذه الغمرات وعدم التراجع عن هذه الأمواج للوصول إلى المطلوب ونيل الجواهر الحقيقية.

وهذا الكلام للإمام علي عليه السلام مقتبس من الآيات القرآنية الشريفة، فنقرأ في الآية ٧٨ من سورة الحج: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ» وفي الآية ٥٤ من سورة المائدة:

«يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ».

وذهب الكثير من المفسرين أن «حق الجهاد» تعني إخلاص التية، ولكن ينبغي الالتفات إلى أن هذا المفهوم لا ينحصر بإخلاص التية، بل مراده أن أصعب مراحل الجهاد وهو جهاد النفس يتطلب إخلاص التية.

وفي ختام هذه الفقرة يطرح الإمام عليه السلام نصيحتين مهمتين أيضاً لولده، فيقول: «وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ ٥٨٣» عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٤٠

ومع الالتفات إلى أن «تفقه من مادة» فقه يعنى الفهم والإدراك، فمقصود الإمام عليه السلام من هذه الجملة «وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنَ الْوَعْيِ الْكَامِلِ لِحَقَائِقِ الدِّينِ وَمَعْرِفَةِ أَصُولِهِ وَفُرُوعِهِ مِنْ مَوْجِعِ الْعَمَقِ وَالتَّمَعُّنِ وَلَا تَقْنَعْ بِالْفَهْمِ السُّطْحِيِّ لِقَضَايَا الدِّينِ، بَلْ عَلَيْكَ التَّمَعُّقُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ».

وجملة: «عَوِّدْ نَفْسَكَ...» إشارة إلى أن الصبر والاستقامة في مقابل المشكلات والتحديات لا- تتوفر للإنسان إلا من خلال التمرن

وتعويد النفس على الثبات في مواجهة الشدائد، فينبغي عليك أن تمرّن نفسك على الثبات والصبر حتى بضحي لديك عادةً وملكة راسخة.

وعبارة: «نِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ» إشارة إلى أن كل عمل جيد ومطلوب يواجه عادةً موانع ومشاكل مختلفة، فلو لم يتمسك الإنسان بآلية الصبر والاستقامة على الحق، فلا يستطيع أن يصل إلى نتيجة مرضية من أي عمل إيجابي، فقطف الورد لا يتيسر بدون تحمّل ألم الشوك، والحصول على العسل من خلية النحل يقترب غالباً بلسعات الزنابير، فلو لم يستقم الإنسان في خطّ الحق والإيمان مقابل المشاكل والتحديات الصعبة التي يفرضها الواقع، فسوف لا يصل إلى أي هدف مقدّس في حركة الحياة.

ومن المناسب هنا أن نستعرض بعض أشعار أبي الأسود الدؤلي في هذا الصدد، يقول:

تَعَوَّدْتُ مَسَّ الضَّرِّ حَتَّى أَلْفُتُهُ وَأَسْلَمَنِي طُولُ الْبَلَاءِ إِلَى الصَّبْرِ
وَوَسَّعَ صَدْرِي لِلْأَذَى كَثْرَةُ الْأَذَى وَكَانَ قَدِيمًا قَدْ يَضِيقُ بِهِ صَدْرِي
إِذَا أَنَا لَمْ أَقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ كُلِّ مَا أَلَقِيَهُ مِنْهُ طَالَ عَتْبِي عَلَى الدَّهْرِ [٥٨٤]

تأملان

١. رعاية الاحتياط عند الإحساس بالخطر

يعدّ الاحتياط في موارد الشك، أحد الأصول المسلّمة في مذهبنا، وأحياناً يكون الاحتياط واجباً في بعض الموارد، وأخرى مستحباً. وأصل الاحتياط يمتدّ بجذوره إلى حكم العقل، ويقرّر العلماء في علم الأصول هذا الاحتياط بأنه دفع الضرر والمحمّل، وهنا بحث في وجوبه بشكل مطلق أو بتوفّر بعض القيود والشروط، فالعقل يحكم بضرورة اجتناب الأضرار المحتملة والابتعاد عنها، والملفت أن نفس هذه المسألة وردت في علم الكلام (العقائد) بوصفها ركيزة أساسية للتحقيق في المسائل الدينية والمسائل العقائدية كالمبدأ والمعاد، وعلى هذا الأساس يتمّ البحث عن مسأله وجود الله ومعرفة الله وأنّ ترك التحقيق في هذه المسائل ربّما تترتب عليه أضرار عظيمة، ولهذا السبب يحكم العقل بضرورة أن يتحرّك الإنسان من موقع البحث والتحقيق فيها.

ولا يكتفى الإمام عليه السلام بمجرد تقديم النصيحة بالاحتياط في هذه الفقرة «وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقِ إِذَا خِفْتَ ضَمَالَتَهُ..»، بل يتحرّك على مستوى الاستدلال وبيان هذه النصيحة لولده بآليات الإقناع والبرهان ويقول: إنّ المسير في طريق يخشى فيه من الوقوع في مهاوى الضلالة، وربّما يقود الإنسان نحو الحوادث المهولة والمخوفة؛ فينبغي اجتناب سلوك هذا الطريق، لأنّ التوقّي والكفّ في مثل هذه الموارد أفضل من الوقوع في دوامة الحوادث الصعبة وركوب الأهوال الخطيرة.

وأساساً فإنّ الاحتياط، مع رعاية الاعتدال فيه وعدم الإفراط، يعتبر في جميع الموارد المعنوية والمادية، عمل منطقي ومعقول.

٢. الطريق لنيل الفضائل الأخلاقية

جملة: «وَعَوِّذْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَسْوَاقِ أَخْلَاقِي مَهْمٌ، وَهُوَ أَنَّ الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ لَمْ يَتَلَقَّوْا تَرْبِيَةً أَخْلَاقِيَةً مَنَاسِبَةً فِي بَدَايَةِ أَمْرِهِمْ سَيَكُونُ مِنْ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٤٢

الصعب عليهم تقبل الأصول والقيم الأخلاقية، وينبغي لهم أن يمارسوا فرض هذه القيم على النفس بآلية التكرار والتمرّن على ذلك،

وهذا الفعل المتكرر، من شأنه أن يتسبب في صيرورة ذلك الأمر الأخلاقي عادةً مستديمة، والاستمرار على هذه العادة يجعل منها ملكةً نفسانيةً راسخةً في واقع الإنسان، يعنى أن هذا الخلق سينفذ تدريجياً إلى أعماق روح الإنسان بحيث تشهد تحولاً في السلوك الأخلاقي.

وقد ورد في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب غرر الحكم: «الْخَيْرُ عَادَةٌ» وأيضاً «الْعَادَةُ طَبْعٌ ثَانٍ»، وهذه الكلمات إشارة إلى هذا المعنى مورد البحث.

أما الفرق بين التصبر والصبر، فهو أن الشخص الصابر هو واقعاً من أهل الصبر والاستقامة، أى يعيش هذه الملكة الراسخة، وأما التصبر فيقال للشخص الذى لا يجد فى نفسه ملكة الصبر وليس من الصابرين، بل يدفع نفسه بهذا الاتجاه.

وأساساً فالكثير من الفضائل الأخلاقية لا يحصل عليها الإنسان إلا برياضة النفس والتعود والتمرن، وبما أن الصبر والاستقامة ومواجهته التحديات الصعبة يعتبر رأس مال جميع النجاحات فى الحياة، وطبقاً لما ورد فى بعض الروايات أن الصبر بالنسبة للإيمان كالرأس من الجسد، فلا بد للإنسان من السعى الجاد لتحقيق هذه الملكة والفضيلة السامية، وكما يقول الشاعر:

صَبْرًا لِمَا تُحَدِّثُ الْأَيَّامُ مِنْ حَدِيثِ فَالِدَهْرُ فِي جَوْرِهِ جَارٍ عَلَى سُنَنِ
الصَّبْرِ أَجْمَلُ ثَوْبٍ أَنْتَ لَا بِسُهُ لِنَازِلٍ وَالتَّعَزُّي أَحْسَنُ السُّنَنِ
وَهَوْنِ الْوَجْدِ إِنِّي لَا أَرَى أَحَدًا يَفْرَقُهُ الْإِلْفَ يَوْمًا غَيْرَ مُتَّحِنٍ [٥٨٥]

ومما ينسب لإمير المؤمنين عليه السلام:

أَلَا فَاصْبِرْ عَلَى الْحَدِيثِ الْجَلِيلِ وَدَاوِ جَوَاكِ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ
وَلَا تَيَاسُ فَإِنَّ الْيَأْسَ كُفْرٌ لَعَلَّ اللَّهَ يُغْنِي مِنْ قَلِيلِ
وَإِنَّ الْعُسْرَ يَتَّبِعُهُ يَسَارٌ وَقَوْلُ اللَّهِ أَصْدَقُ كُلِّ قِيلٍ [٥٨٦]

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٤٣

القسم السادس

إشارة

وَأَلْجِئُ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى الْإِهْكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفِ حَرِيْزٍ، وَمَانِعِ عَزِيْزٍ. وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِزُبَّكَ، فَإِنَّ يَدَ الْعَطَاءِ وَالْحَرَمَانَ، أَكْثَرَ الْأَسِيْتَخَارَةِ، وَنَفْهَمُ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صِيْفَحًا، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَأَخَيْرِ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعْلُمُهُ.

الشرح والتفسير: لا تساهل في هذه الوصية

وينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية (القسم السادس) لبيان خمس توصيات مهمة لولده وثمره فؤاده. بدايةً يطرح مسألة التوكّل على الله ويقول: «وَأَلْجِئُ [٥٨٧] نَفْسِيْكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى الْإِهْكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفِ حَرِيْزٍ [٥٨٨] حَرِيْزٍ [٥٨٩]، وَمَانِعِ عَزِيْزٍ».

إن التوكّل وليد الإيمان بالتوحيد الأفعالي، فعندما يعتقد الإنسان أن جميع الأمور فى العالم بيد الله تعالى، ويؤمن بأن الله مسبب الأسباب، فمن الطبيعي أن يلتجئ إليه فى جميع مشاكله وحاجاته، وتسكن إليه نفسه ويرى فيه ملاذاً آمناً لما يواجهه فى واقع الحياة من أزمات وتحديات.

والتوكل لا يعنى التكاسل وأن يترك الإنسان السعى والعمل ويجلس بأمل لطف

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٤٤

الله ورزقه، بل بمعنى أن يستخدم الإنسان جميع طاقاته وقدراته فى سبيل الوصول إلى أغراضه، ويتحرك على مستوى إزاحة الموانع وحل المشكلات، ولكن بما أن بعض هذه المشاكل والأزمات ربما يكون حلها خارج طاقة الإنسان وفوق قدرته وإمكاناته، فإنه يلتجئ إلى لطف الله تعالى ورحمته الواسعة ويلوذ بقدرته المطلقة ليتسنى له السيطرة على تلك المشاكل.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى مسألة الإخلاص ويقول: «وَأَخِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِزْمَانَ».

الإخلاص بدوره يعد من ثمرات الإيمان بالتوحيد الأفعالى أيضاً، لأن الإنسان عندما يعلم يقيناً بأنه: «لا مؤثر فى الوجود إلا الله فيكون حينئذ الرزق والحرمان بيد الله تعالى، وعندما يؤمن بهذا الأمر من موقع الاطمئنان القلبي فسوف لا يطلب شيئاً من غيره، ويتوجه إليه بإخلاص وصفاء نية ويسأله حاجاته، ومن هنا فقد ورد فى الروايات الشريفة أن المرأين مشركون، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كُلُّ رِيَاءٍ شِرْكٌ إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ لِلنَّاسِ كَانَ تَوَابُهُ عَلَى النَّاسِ وَمَنْ عَمِلَ لِلَّهِ كَانَ تَوَابُهُ عَلَى اللَّهِ» [٥٩٠].

وتشير هذه الجملة ضمناً إلى هذه الحقيقة، وهى أن الإنسان لا ينبغي له أن يطلب حاجاته إلا من البارى تعالى، وإن توجه لغير الله فى بعض الحاجات طبقاً لما يفرضه عالم الطبيعة من أسباب وعلل مادية وطبيعية، فيجب أن يعلم أيضاً بأن المؤثر الحقيقى هو الله تعالى، وأن إرادته غالبه على كل شىء، وأن مشيئته مهيمنة على مشيئته عباده، فجملة «فإن بيده العطاء والحزمان»، تقر هذه الحقيقة الغيبية.

وفى التوصية الثالثة يقول الإمام عليه السلام: «وَأَكْثِرِ الْأَسْتِخَارَةَ»، أى اطلب من الله الخير والصلاح فى الحياة.

وللاستخارة معنيان: أحدهما الاستخارة المتداولة بين الناس فى هذه الأيام، فكل مشكلة يواجهها الإنسان ولا يستطيع حلها بقوة عقله أو بواسطة التشاور مع

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٤٥

أهله ورفاقه، فإنه يتوجه إلى الله تعالى ويستشير به فى هذا الأمر، فالاستخارة هنا نوع من المشورة مع الله تعالى، والمعنى الآخر للاستخارة أن يطلب الإنسان من الله تعالى الخير والصلاح فى كل عمل يقدم عليه، يعنى أن يجعل الله تعالى حاكماً على مصيره، فيتحرك فى حياته من أجل الكسب والتجارة والزراعة وما إلى ذلك ولكن لسان حاله يقول: (أَسْتَحْيِرُ اللَّهَ بِرَحْمَتِهِ)، يعنى أطلب من الله الخير والبركة والرحمة، وهذا النوع من الاستخارة ورد التأكيد عليه كثيراً فى الروايات الشريفة، منها ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَا اسْتَحَارَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ إِلَّا حَارَ لَهُ» [٥٩١].

ثم يوصى الإمام عليه السلام ولده بأن يتعمق فى فهم هذه الوصايا والنصائح، ولا يمر عليها مرور الكرام أو يتعامل معها بسطحية وتساهل، ويقول: «وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحًا» [٥٩٢].

ثم يقدم الدليل لتأييد هذه الحقيقة، ويقسم العلوم والمعارف إلى ثلاثة أقسام يقول: «فإن خير القول ما نفع، وأعلم أنه لا خير فى علم لا ينفع، ولا ينفع بعلم لا يحق تعلمه».

فالعلوم النافعة هى العلوم التى تعين الإنسان فى مسيرته المعنوية والقرب إلى الله، سواء كانت فى مجال العقائد أو العبادات أو الأخلاق وما شاكل ذلك، وبذلك تحقق له حياة كريمة فى هذه الدنيا وتنقذه من الفقر الذى يعد عاملاً رئيسياً للكفر والضلالة والانحراف.

والعلوم غير النافعة هى العلوم التى لا يجد الإنسان فيها خير الدنيا ولا خير

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٤٦

الآخرة، وأحياناً يستخدمها الإنسان لقضاء الوقت أو اللهو والتفاخر، كما ورد فى الحديث المعروف عن أبى الحسن موسى عليه السلام قال: «دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْمَسْجِدَ فَإِذَا جَمَاعَةٌ قَدْ أَطْفَاؤُا بِرَجُلٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: عَلَمَةٌ. فَقَالَ: وَمَا الْعَلَمَةُ؟ فَقَالُوا: لَهُ: أَعَلِمَ النَّاسَ بِأَنْسَابِ الْعَرَبِ وَوَقَائِعِهَا، وَأَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْأَشْعَارِ الْعَرَبِيَّةِ، قَالَ:

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ذَاكَ عِلْمٌ لَا يَضُرُّ مَنْ جَهَلَهُ وَلَا يَنْفَعُ مَنْ عَلِمَهُ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِنَّمَا الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ: آيَةٌ مُخَكَّمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ وَمَا خَلَاهُنَّ فَهَوَّ فَضْلٌ» [٥٩٣].

وبديهي أن العلوم والمعارف التي يحتاج إليها الإنسان في إعمار الدنيا وقضاء حاجاته الدنيوية، وتساهم في نجاته من الفقر والمرض ومشكلاته الأخرى، تعتبر من العلوم المفيدة أيضاً، لأنها في الواقع بمثابة مقدمة لتلك الطوائف الثلاث من العلوم النافعة. والقسم الثالث من العلوم، العلوم المضرة، من قبيل علم السحر والشعوذة والعلوم التي ترتبط بإنتاج الوسائل المحرمة مثل الخمر والمخدرات، وفي عالمنا المعاصر نرى أن هذه العلوم أكثر بكثير من الماضي، منها العلوم التي تساهم في صناعة أسلحة الدمار الشامل كالقنابل الذرية والأسلحة الكيماوية وأمثال ذلك، فتعلم مثل هذه العلوم وتعليمها حرام في الإسلام، لأنها تكون مقدمة للحرام.

تأمل: العلوم النافعة وغير النافعة

لا شك أن العلم نور وضيء في حياة الإنسان، ولكن هذا لا يعني أن جميع العلوم مفيدة ومطلوبة.

وكما رأينا في وصية الإمام عليه السلام مورد البحث أن الإمام قد قسم العلوم إلى ثلاثة أقسام:

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٤٧

الأول: العلوم التي تنفع الإنسان في حياته، وأحياناً تكون ذات بعد معنوي من قبيل العلوم والمعارف الدينية والأحكام الشرعية والأخلاق الإنسانية، وأحياناً ذات بعد مادي مثل جميع العلوم التي يحتاج إليها الإنسان في حياته الدنيوية ومعاشه، من قبيل علم الطب، الزراعة، العلوم الدفاعية، الصناعات الخفيفة والثقيلة، وما إلى ذلك، وأنه لولا توفر هذه العلوم والمعارف وما يترتب على فقدانها من خلل في حياة الإنسان المادية، فإن ذلك من شأنه أن يفرز مشاكل معنوية كثيرة، وعلى ضوء ذلك فإن مثل هذه العلوم تعتبر في الإسلام واجباً كفايياً، يعني يجب على كل جماعة أن يتوجهوا لطلب بعض هذه العلوم لتأمين جميع حاجات المجتمع الإسلامي المادية، ولو لم يتوفر في فرع من فروع هذه العلوم من يتصدى له بالمقدار الكافي، فسيكون الوجوب عينياً على الأفراد. وفي هذا السياق لا ينبغي للمسلمين في كل عصر وزمان، بخاصة في عصرنا هذا، أن يتخلفوا عن الآخرين في هذه العلوم، بل يجب أن يكونوا رواداً للعلم والمعرفة كما كانوا كذلك في القرون الأولى للإسلام.

الثاني: العلوم المضرة، وهي العلوم التي يترتب عليها تخريب النظام الاجتماعي وهدم سلامة المجتمع وإعاقة حركة المجتمع نحو التطور والتقدم والإزدهار، كالعلوم التي تنتج أسلحة الدمار الشامل وتستخدم لصناعة المخدرات والخمور وأمثالها. الثالث: العلوم الزائفة وغير المفيدة، أي أنها غير مضرّة وغير نافعة، وقد ذكرنا نماذج منها في شرح كلام الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٤٩

القسم السابع

إشارة

أَيُّ بُنَى، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنًّا، وَرَأَيْتُنِي أُرْدَادُ وَهَنًا، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ، وَأُورِدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفِضَ إِلَى إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِضَتْ فِي جِسْمِي، أَوْ يَشِيقُنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونُ كَالصَّعْبِ النَّقُورِ.

وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدِيثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أَلْقَى فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ. فَبادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَسْتَعِجَلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبَلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُعْيَتَهُ وَتَجَرَّبْتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كَفَيْتَ مَوْوَنَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيَتْ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رَبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ.

الشرح والتفسير: الباعث لكتابة هذه الوصية

في هذا المقطع من الوصية وهو (المقطع السابع) ينطلق الإمام عليه السلام مرّة أخرى لبيّن هدفه من كتابة هذه الوصية المطوّلة والزاهرة بالمواعظ النافعة، ويتألف الهدف الذي يرسمه الإمام عليه السلام من قسمين، قسم يتمثل في وجود الإمام عليه السلام وإحساساته، وقسم آخر يتجسد في وجود الإمام الحسن عليه السلام، وخلاصة ما يريد الإمام عليه السلام قوله:

إنّني بلغت سنّاً متقدّمةً وربّما يكون قد حان أجلّي، ولهذا السبب أقدمت على كتابة هذه الوصية لك، ومن جهة أخرى فأنت شابّ تملك الاستعداد لقبول الحقّ والإصغاء إلى المواعظ، وأخشى أن يتقدّم بك العمر وتفقد مثل هذا الاستعداد،

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٥٠

ولهايتين الجهتين بادرت لكتابة هذه الوصية.

بداية يقول الإمام عليه السلام: «أَيُّ بَنِيَّ إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنًّا، وَرَأَيْتُنِي أَرْدَادًا وَهَنًا، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ».

ومعلوم أنّ عمر الإمام عليه السلام في ذلك الوقت كان قد بلغ ستين سنة أو أكثر قليلاً من ذلك، وكان عمر الحسن عليه السلام أكثر من ثلاثين عاماً ويملك في ذلك الوقت مشاعر الشباب وإحساسات الفتوة، وهذا يعتبر درساً لجميع الآباء تجاه أبنائهم، فعندما يتقدّم بهم العمر وقبل أن يحلّ أجلهم، أو يتجاوز الأبناء مرحلة الشباب ويفقدوا الاستعداد لتقبّل النصيحة وتغيير المواقف والسلوكيات، فاللازم على الآباء أن يتقدّموا لهم بمثل هذه التوصيات.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتقدّم بتوضيح أكثر ويقول: «وَأُورِدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجْلِي دُونَ أَنْ أُفْضَى [٥٩٤] إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أَنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَاقِرٍ نَقِصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسَّرَ بَقِيَّتِي إِلَيْكَ بَعْضَ غَلِيَاتِ الْهُوَى وَفَتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ [٥٩٥]».

وهنا نرى الإمام عليه السلام يتحدّث، لا من موقع كونه إماماً معصوماً ولا أنّ مخاطبه بوصفه ابنه المعصوم، بل بوصفه أباً مسنّاً ومحبباً لولده الذي يخشى عليه أن يقع في دوامة الأهواء وفتن الدنيا ووساوس النفس، ويشير إلى أمرين، أحدهما يعود لنفسه، والآخر لولده، ويقول: إنّني من جهة قد بلغ بي العمر سنّ الشيخوخة، وأخشى أن يحين أجلّي وأفقد الحديث معك، ومن جهة أخرى أنّ التقدّم في السنّ ربّما يضعف الذهن والفكر كما يضعف أعضاء البدن الأخرى، ومن جهة ثالثة، أخشى عليك الآفات المختلفة والوقوع في شباك الشيطان والأهواء النفسانية ومغريات الدنيا،

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٥١

وحينئذٍ ستزول الفرصة للموعظة وتقديم النصح.

وعلى أساس هذه الجهات بادرت لكتابة هذه الوصية لأصل إلى الغاية المطلوبة قبل فوات الأوان.

والعجيب أنّ ابن أبي الحديد في شرح عبارات هذه الوصية، وعندما يبلغ حديث الإمام عليه السلام عن نفسه يقول: «إنّ هذه العبارات تشير إلى خلاف ما يعتقد الشيعة الذين يقولون أنّ الإمام معصوم في مثل هذه الأمور ولا يواجه نقصاً في فكره ولا قصوراً في رأيه» [٥٩٦].

في حين أنّ جميع القرائن، كما أسلفنا ذلك، تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام عندما يتحدّث بمثل هذا الكلام فإنّه لا ينطلق من موقع الإمامة والعصمة، بل من موقع الأب المسنّ والخبير والمجرب الذي يتقدّم بالنصح لولده الشاب الذي لم يجرب الأمور بعد.

ولو أن ابن أبي الحديد التفت إلى كلام آخر للإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة أيضاً حيث يقول: «فاسألوني قبل أن تفقدوني فوالذي نفسي بيده لآتسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة» [٥٩٧]، فسوف يتبين له الجواب عن هذا التوهم.

وأيضاً يقول الإمام عليه السلام في كلام آخر في الخطبة ١٨٩: «أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني فلأننا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض»، أجل، لو أن ابن أبي الحديد أخذ بنظر الحسبان هذا الكلام لأمر المؤمنين عليه السلام لما تحدث بمثل ذلك الكلام.

ثم إن الإمام عليه السلام يبين الدليل والعلّة لطرح هذه الوصايا لولده الشاب، ويقول:

«وإنما قلب الحداث كالأرض الخالية ما ألقى فيها من شيء قبلته».

وهذا الأمر قد ثبت بالتجربة مرّات عديدة، بل هناك رواية صارت كالمثل تقول:

«العلم في الصغر كالنقش في الحجر» [٥٩٨] أي الخط والرسم الثابت والعميق الذي لا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٥٢

يزول أو يتغير بسهولة. ثم تضيف الرواية: «والعلم في الكبر كالخط على الماء» [٥٩٩] في سرعه زواله وتغييره.

ثم إن الإمام يقدم دليلين آخرين ويقول: «فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك، ويستغل ثبك».

والحقيقة أن الإمام بين ثلاثة أدلّة لاختياره لهذا الموقع والسّن لتقديم النصح والموعظة، منها، استعداد قلب الشاب لتقبل المواعظ، وقساوة القلب بسبب عدم التلوّث بالذنوب وعدم اشتغال الذهن بمشاكل الحياة، وكلّ واحدة من هذه الجهات الثلاث كافٍ لوحده

لاختيار هذا الوقت المحدّد، فكيف إذا اجتمعت هذه الجهات مع بعضها!

ثم يضيف الإمام عليه السلام: «لتستقبل بجد رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بعينه [٦٠٠] وتجربته، فتكون قد كفت مؤنّة الطلب، وعوفيت من علاج التجربة».

ويشير الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من الكلام إلى أهمية الاستفادة من تجارب الآخرين، لأنّ الحياة ليست سوى تجارب، والإنسان العاقل بدلاً من أن يجزّب كل شيء بنفسه ويترتب على ذلك أضرار ومشاكل كثيرة، فإنّه يستفيد من تجارب الآخرين ويتعلم منهم ما يعينه في مسيرته بدون أن يدفع ثمن هذه التجارب، وبعبارة أخرى، إنّ الأجيال اللاحقة من حيث انتفاعها بتجارب القدماء، تعيش أفضل حالاً منهم من حيث السعادة والخبرة في مواجهة التحديات والظروف، فما اكتسبه القدماء بتعب وجهد كبير فإنّ الجيل اللاحق ينتفع منه بدون تعب، وكما يقول الإمام: «كفيت مؤنّة الطلب وعوفيت من علاج التجربة».

ولذلك يقول الإمام عليه السلام في ختام هذه الفقرة من الوصية: «فأتاك من ذلك ما قد كُنّا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٥٣

نأتيه، وإستبان لك ما ربّما أظلم علينا منه»، فحصلت عليه بدون أن تتعب نفسك في تحصيله، بل ربّما كان قد خفى عنك بعض الأمور ولكن بمرور الزمان استبان لك، وهو إشارة إلى أنّ تجارب القدماء أحياناً تقع بأيدي الجيل اللاحق بشكل كامل فينتفعون بصورة تامّة، وأحياناً يكون القدماء قد سلكوا بعض الطريق وعلى الخلف أن يكمل المسيرة، وقد يحصل على نتائج وثمار لم يحصل عليها القدماء.

وكما أشرنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام في هذه الوصية لا يتحدث من موقع الإمامة ومقام العصمة، بل بوصفه رجلاً مجرباً وخبيراً بالأمور الدنيا وتعقيداتها وينقل هذه التجارب من موقع الحرقة والشفقة على ولده الذي يجده في مواجهة التحديات الصعبة وأعاصير الحوادث والمتغيرات لينتفع من هذه التجارب، بل أحياناً يكون الأب قد سار بعض الطريق وحصل على بعض النتائج وعلى الابن إكمال هذه المسيرة والحصول على نتائج أفضل.

تأمل: معطيات التربية في سنّ الشباب

إن تاريخ الأنبياء يشير إلى أن الشباب هم الشريحة الاجتماعية الأولى الذين آمنوا بالرسالة الإلهية وتحركوا من موقع الدفاع عنها والالتزام الواعي بتعاليمها، ويحدثنا القرآن الكريم في موارد عدّة عن قصّة نوح عليه السلام وإيمان الشباب به وإعراض المسنّين الأثرياء عنه وعن رسالته السماوية، وكذلك يدلّنا تاريخ الإسلام على أن المؤمنين بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله كانوا في الغالب من فئة الشباب.

والروايات الإسلامية تؤيد هذه الحقيقة، فالإمام الصادق عليه السلام يقول لأحد أصحابه والذي توجه إلى البصرة للدفاع عن مذهب أهل البيت عليهم السلام: «عَلَيْكَ بِالْأَخْدَاتِ فَإِنَّهُمْ أَسْرَعُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ» [٦٠١].

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٥٤

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَهُوَ شَابٌّ مُؤْمِنٌ اخْتَلَطَ الْقُرْآنُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ» [٦٠٢].
وأيضاً ورد في حديث آخر عنه عليه السلام أنه قال: «بَادِرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالْحَدِيثِ قَبْلَ أَنْ يَشَبَّكُمْ إِلَيْهِمْ الْمُرْجِنَةُ» [٦٠٣]، والمرجئة هم الذين لا يعتقدون بإمامة علي بن أبي طالب عليه السلام وأنه خليفه رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة.

ويستفاد من الفقرة الأخيرة من وصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة بوضوح تام.
والدليل على ذلك واضح، لأن قلب الشبان من جهة نقى وخالٍ من أدران التلوث بالعقائد الباطلة وحالات العناد والتعصب، ولهذا السبب فهو كالأرض الصالحة للزراعة، الخالية من الأشواك والأعشاب الضارة، فعندما يبذر فيها أى نوع من البذور، فإنه ينمو بسرعة. ومن جهة أخرى فإنّ الشاب قليل التعلّق بالأموال الدنيوية والمادّية، وقليل الانشغال بالأوهام والعناوين الزائفة التي من شأنها حجب القلب والعقل عن تقبل الحق.

ومن جهة ثالثة فإنّ تعاليم الأنبياء وأحكام الدين الإلهي تتقاطع في موارد كثيرة مع مطامع الشيوخ غير المشروعة، فهؤلاء غير مستعدين للتنازل عن مطامعهم وطموحاتهم بسهولة، في حين أنّ الشباب لا يعيشون هذه المشكلة ولا يواجهون هذا العائق.

يقول أحد الشعراء:

قَدْ يَنْفَعُ الْأَدَبُ الْأَحْدَاثَ فِي مَهَلٍ وَلَيْسَ يَنْفَعُ عِنْدَ الْكِبَرِ الْأَدَبُ
إِنَّ الْعُصُونَ إِذَا قَوْمَتَهَا اغْتَدَلَتْ وَلَنْ تَلِينَ إِذَا قَوْمَتَهَا الْخُشْبُ [٦٠٤]

القسم الثامن

إشارة

أى بُنَى، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمَرْتُ عُمَرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسَبَرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحْدِهِمْ؛ بَلْ كَدَانِي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمَرْتُ مَعَ أَوْلِيهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صِفَوْ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفَعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاشْتَبَهْتُ لِمَكَ مِنْ كَمَلٍ أَهْرَ نَخِيلُهُ، وَتَوَخَّيْتُ لِمَكَ جَمِيلُهُ، وَصَيَّرْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَهْرِكَ مَا يَغْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمَرِ وَمُقْتَبِلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ.

الشرح والتفسير: تجارب الآخرين وإطالة عمر اللاحقين

يشير الإمام عليه السلام في مطلع هذه الفقرة من الوصية إلى نقطة في غاية الأهمية، وهي ضرورة مطالعة ودراسة تاريخ القدماء وسيرة الأوقام السالفة فيما يصل إلينا من أخبارهم وأعمالهم ومن خلال ما تتركه لنا آثارهم (ولأطلال القبور المندرسة والثروات الباقية و...)

ويقول: «أَيُّ بُنْيَ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمُوتٌ عُمُرٌ مِنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ؛ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنَّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمُوتٌ مَعَ أَوْلِيهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ».

وهو إشارة إلى أن الحياة ليست سوى تجربة، فلو أن المرء انتفع من تجارب الآخرين وتدرّب في أعمالهم والنتائج المترتبة عليها، ونظر بعين العبرة إلى آثارهم وما بقى منهم في مطاوى التاريخ، فإنه سيعيش طيلة عمره وكأنه عاش مع جميع

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٥٦

الأقوام والمجتمعات البشرية على امتداد التاريخ، منذ أن خلق الله آدم عليه السلام ولحد الآن.

ثم يضيف الإمام عليه السلام، لقد تدرّبت في جميع أخبارهم وآثارهم، واخترت منها الصفوة، وعرفت النافع من الضار، والحسن من السيء: «فَعَرَفْتُ صِفْوَةَ ذَلِكَ مِنْ كَدْرِهِ، وَنَفَعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لِمَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلُهُ [٦٠٥] وَتَوَخَّيْتُ [٦٠٦] لِمَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ».

إشارة إلى أن مطالعة آثار القدماء والسير في ثانيا تاريخهم وآثارهم لا- يكفي في التعلّم والاعتبار، بل ينبغي أن يكون الإنسان كالصراف الذي يستخلص من كل أمر الجيد منه ويميّز بين الغث والسمين، والحسن والردىء ويلقى بالسيء والردىء جانباً، وينتفع من الحسن والجيد، فيقول الإمام عليه السلام: وقد اخترت لك الجميل من أعمالهم وصرفت عنك الردىء وألقيت به بعيداً.

وفي ختام هذه الفقرة من الوصية يبين الإمام عليه السلام الباعث له على هذه الوصية مرة أخرى بقوله: «وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدْبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَمُقْتَبِلُ [٦٠٧] الدَّهْرِ، ذُو نَبِيٍّ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ».

وهذا إشارة إلى أنني عندما أتعبت نفسي في جمع تجارب القدماء وما تحدّث به التاريخ عن الامم السابقة، فقد استخلصت لك منها هذه المواعظ، والباعث لذلك أمران: الأول: أنني والدك الشفيق والمحب لك والطالب لسعادتك، والآخر: أنك

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٥٧

شابّ وتعيش في بداية العمر وتملك قلباً نقيّاً وروحاً طاهرة، فهذان الأمران يبران ما أتعبت نفسي من أجلك ويسيران كلّ عسير من أجل سعادتك وراحتك.

والواقع أن الإمام عليه السلام بهذا الكلام يعلم جميع الآباء والمحبين لأبنائهم أنهم إذا كانوا يطلبون السعادة لأبنائهم فعليهم أن يتعاملوا معهم بآلية التربية مادامت قلوب الأبناء صافية ونقية وغير مكدرّة بمشاكل الحياة، ولاسيما أن تاريخ القدماء زاخر بالدروس والعبر وتقدّم للإنسان نماذج حسنة للمسير في خطّ القيم الأخلاقية والمثل الإنسانية.

تأملان

١. تشكيلاً منسجماً من أسرار التاريخ

منذ اليوم الذي اخترع فيه الإنسان الخطّ واستطاع تدوين آثاره وتجاربه من خلال الكتابة، ابتدأ التاريخ البشري، وانتقلت تجارب الأقوام السابقة إلى الأقوام اللاحقة بوصفها ميراثاً ثميناً مخترناً في مطاوى التاريخ وثنيا القرون، فقد دون التاريخ عوامل النجاحات والإخفاقات التي أصابت الأقوام والمجتمعات البشرية، وبين أسباب اهتزاز السلطات والحكومات وعوامل انهيار الحضارات والحوادث الحلوّة والمرّة التي يزخر بها تاريخ البشرية بحيث أن الأشخاص المطلعين وأهل الخبرة يستطيعون رؤية مسيرة حياتهم الفرديّة والإجتماعية في مرآة التاريخ دون أن يحتاجوا لخوض غمار تجارب جديدة وتكرار ما واجهته الأقوام السابقة اعتماداً على ما يستوحونه ويستفيدونه من تجارب الآخرين.

ومن هذا المنطلق يستعرض القرآن الكريم في آيات كثيرة تاريخ الأقسام السالفه من موقع كونها عبرة للأحياء، ويتحدث عن هذه الحقيقة بصراحة: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ» [٦٠٨].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٥٨

ويتحدث القرآن أيضاً في بعض أخباره التاريخية من موقع كونها تمثل دروساً وتختزن في مطاويها عبراً يستوحى منها الناس ما ينفعهم في حياتهم ومعاشتهم، ويختار منها «أَحْسَنُ الْقِصَصِ» ويقول: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ» [٦٠٩]. وأحياناً يحث القرآن الكريم مخاطبه على السير في الأرض ومطالعة آثار الأقسام الماضية وما انعكس على حياتهم وسلوكياتهم في التاريخ ويقول: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ» [٦١٠].

وفي هذه الوصية يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمه فيما يتصل بالتاريخ البشري، وهي أن مطالعة تاريخ القدماء من موقع الدقة والعمق، من شأنه أن يمنح الإنسان عمراً خالداً وكأن الإنسان الذي يدرس حوادث التاريخ يعيش مع الأقسام البشرية منذ أن خلق الله آدم وإلى هذا اليوم، ويستوحى من تجاربهم وحالتهم ما يعينه في مسيرته وحياته، ويمثل له زاداً ومتاعاً لمواجهة الصعوبات والتحديات التي يفرضها الواقع عليهم، والحقيقة أن مثل هذا التراث الثمين الذي حصل عليه الإنسان المعاصر بنفقات زهيدة جداً، يعدّ متاعاً مهمماً وزاداً ضرورياً يمنحه الحركة والقدرة على مواصلة المسيرة.

ومن الطبيعي أن نجد بعض نقاط القصور والثغرات المهمه في التاريخ، وذلك بسبب هيمنة قوى الاستكبار والسلطة لتشويه وتحريف حقائق التاريخ بما يصب في صالحها، بحيث استطاعوا تلوين مرآة التاريخ في موارد كثيرة و عملوا على إخضاع المؤرخين بآليات الطمع والتهديد لصياغة التاريخ حسب رؤيتهم لا على أساس ما يعكسه الواقع التاريخي، وكنموذج بارز لهذا التحريف والتشويش ما قام به بنو امية من تحوير وتزييف لحقائق التاريخ.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٥٩

ولكن المحققين من أهل الخبرة والأطلاع استطاعوا من خلال توخي الدقة في ملاحظة البرهان والشواهد المتناثرة في زوايا التاريخ ومطاوي الحوادث التاريخية، أن يميزوا بين الصحيح والسقيم، الحق والباطل، وبما أن الكاذب ضعيف الحافظة ويتلى غالباً بالتناقض في كلامه، استطاع هؤلاء المؤرخون المخلصون من تمييز الماء الزلال من الكدر وتشخيص الحقيقة من الوهم والزيف. وتنمى على أصحاب السلطة وقوى الهيمنة والاستكبار في عالمنا المعاصر إلقاء نظرة إلى التاريخ، وعلى الأقل مطالعة مسيرة الملوك والسلاطين السابقين وما كان مصيرهم ليشاهدوا عن كتب مصيرهم في المستقبل في مرآة التاريخ ويتجنبوا التعامل مع الشعوب بالظلم والجور والسحق الحقوق.

٢. كيف توصل الإمام عليه السلام لتاريخ الأقسام الماضية؟

يستفاد من كلمات الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة أن الإمام عليه السلام قد توصل لفهم تاريخ القدماء من خلال أربع طرق: الأول: من خلال النظر في أعمالهم، ويمكن أن يكون ذلك إشارة إلى الأعمال والسلوكيات التي انتقلت شفويًا من جيل إلى جيل، ومن الآباء إلى الأبناء حتى وصلت إليه.

الثاني: من خلال التفكير والتدبر في أخبارهم المنعكسة والمدونة على صفحات التاريخ بشكل مكتوب.

الثالث: من خلال السير في آثارهم والنظر إلى بقايا مدنهم وأطلال قصورهم، أي القصور الخاوية على عروشها والخرائب والأطلال المتبقية من مدنهم، القبور المندرسه وما إلى ذلك، حيث تتحدث هذه الآثار والأطلال وهي صامتة عن الحقائق التي تتعلق بتلك الأقسام الماضية، وتبين ما كانوا عليه من حياة وثقافة وسلوك وفكر، وقد نقل إلينا العرفاء المطلعون والشعراء المتعمقون أموراً كثيرة

عن تلكم الأقوام من خلال تدبرهم وتأملهم فى هذه الآثار المتبقية.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٦٠

الطريق الرابع الذى استفاده منه الإمام عليه السلام لمعرفة حالات القدماء وتاريخهم يتمثل فى العلم عن طريق الوحي النازل على النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وقد نقله النبى الأكرم صلى الله عليه وآله إلى أعز تلاميذه والوصى على رسالته وهو الإمام على عليه السلام.

وبما أن المصادر الأخرى غير هذا المصدر الأخير، يقترن عادة بالأخطاء والتحريف واختلاط الأخبار الصحيحة والزائفة، فالإمام عليه السلام يقول: «فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدْرِهِ ... فَاسْتَخَلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ ...».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٦١

القسم التاسع

إشارة

وَأَنْ أُبَيِّدَنَّكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَأُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ. ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبَسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَأَرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي التَّبَسَّ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَيَّ أَمْرٍ لَأَمُنَ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوفَّقَكَ اللَّهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَأَنْ يَهْدِيكَ لِقَصْدِكَ فَعَهَدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ.

الشرح والتفسير

رغم أن هذا المقطع من كلام الإمام عليه السلام (القسم التاسع) معطوف على الجملة السابقة أى: (أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَيَنْبَغِي أَنْ يَمَثَلَ قِسْمًا شَاخِصًا، وَلَكِنْ بِمَا أَنَّ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَعْرَضَ فِي هَذَا الْمَقْطَعِ الْمَسَائِلَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالتَّعَالِيمِ الْإِلَهِيَّةِ فَإِنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ قِسْمًا مُسْتَقِلًّا عَلَى حِدَةٍ وَقَالَ: «وَأَنْ أُبَيِّدَنَّكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ [٦١١] الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَأُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ».

ومما لا شك فيه أن أعلى ما ورد من تعاليم الإسلام من العقائد والأحكام والقيم

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٦٢

الأخلاقية، وردت فى القرآن الكريم، وأن سته النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والمعصومين عليهم السلام بمثابة الشرح على فروع ومسائل تلك الأصول المبينة فى كتاب الله، ومن هنا فالإمام يتبدى فى تربيته ولده من القرآن الكريم، ويوحى لجميع المسلمين أن ينتهجوا بتعليم وتربية أبنائهم هذا النهج من القرآن الكريم، حتى لا يقعوا فريسة وساوس الشياطين من الجن والإنس.

والمقصود من «تأويله» هو تفسير القرآن، لأن القرآن الكريم يتضمّن بعض المواضيع المذكورة على سبيل الإجمال، فحتاج لتوضيح وتفسير النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام والعلماء والمطلعون على عمق مداليل النصّ القرآنى من خلال القرائن الحالية والمقالية، والمراد من «شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ» العقائد الإسلامية بقرينه ذكر الأحكام بعده، رغم أن الشرائع والشريعة تطلق على الأصول والفروع، وعبارة «حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ» توضيح للأحكام، لأن العمدة فى الأحكام ما يتصل بمسألة الحلال والحرام، رغم وجود أحكام أخرى

من قبيل المستحبات والمكروهات والأحكام الوضعية أيضاً.

وجملته: «لَمَّا أُخْبِرُوا بِذَلِكَ بِسُكِّ إِلَى غَيْرِهِ» إشارة إلى أنني أرى جميع حقائق الدين بعيدة عن أى خطأ واشتباه فى القرآن الكريم، وبذلك لا اسلمكم لسلوك طرق مشكوكه فى العقائد والأحكام، لأننى أعلم أن الكثير من المسلمين فى صدر الإسلام وبسبب نفوذ الأفكار الزائفة، انجذبوا نحو المذاهب الباطلة فى الأصول والفروع، وقد انعكس ذلك على تفسيرهم للآيات القرآنية وأخذوا يفسرون القرآن برأيهم وبالاستناد لتلك الذهنية المشوشة، وقد اتجهوا فى معرفتهم لأحكام الإسلام نحو القياس والاستحسان والاجتهادات الظنية التى تفتقد للأساس المحكم والدعامة القوية، وفى المسائل الفرعية وقعوا فى أخطاء واشتباها كثيرة وغرقوا فى دوامة البدع. والعبارات اللاحقة فى كلام الإمام عليه السلام شاهد على هذه الحقيقة.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٦٣

ثم إن الإمام عليه السلام يشير إلى نقطة أخرى ويقول: «تَمَّ أَشْفَقْتُ [٦١٢] أَنْ يَلْتَبَسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي التَّبَسَّ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهَتْ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَيَّ أَمْرٍ لَأَمْنٍ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةُ». وخالصه كلام الإمام عليه السلام هو أنني فى هذه الوصية بينت بالدليل والبرهان زيف العقائد الباطلة والآراء الموهومة رغم أن طرح مثل هذه العقائد الباطلة وشبهات المنحرفين ليس محبباً، ولكن الضرورة تستوجب أن أطرح مثل هذه المقولات وأجيب عنها، لأن هذا العمل أفضل من أن أقوم بإخفائها والتستر عليها، وربما تبلى أنت بها فى يوم من الأيام ولا يمكنك الإجابة عنها. إن هذا الهاجس يعيشه جميع المعلمين والمرتبين من أهل العلم والأطلاع، فإنهم لو لم يطرحوا شبهات الضالين فيخشى على الطرف المقابل ممن يرومون تربيته وتعليمه أن يقع يوماً فى شباك هذه الشبهات، ومن هذا المنطلق يسعون لعرض تلك الشبهات، وعلى الأقل المهم منها بشكل كلى والإجابة عنه بشكل حاسم.

وهذه العبارة يمكن أن تكون استمراراً لكلام الإمام عليه السلام حيث يعود إلى القرآن الكريم وبيان أهميته، فيقول: إننى استوحى من آيات القرآن الكريم الأدلة والبراهين على بطلان هذه العقائد الفاسدة واقدمها لك لئلا تتورط يوماً بشبهات الفاسدين والمفسدين. ويحتمل أن تكون هذه العبارة جملة مستقلة، يعنى مضافاً إلى أننى أرى لزوم تعليمك كتاب الله وتفسيره ومعرفة حلاله وحرامه وأحكامه، أرى أيضاً لزوم

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٦٤

الاستعانة بالبرهان والعقل لنقد الآراء الباطلة والعقائد الفاسدة لئلا تسقط فى مصائد هؤلاء المنحرفين، وعبارة: «تَمَّ أَشْفَقْتُ مع الأخذ بالحسبان أن كلمة «ثم» إشارة لمطلب جديد، فإنها تتناسب أكثر مع التفسير الثانى.

وعلى حد قول الشيخ مغنية فى شرحه لنهج البلاغة، أن تعبيرات الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الوصية يؤكد مرة أخرى على هذه الحقيقة، وهى أن الإمام عليه السلام لم يطرح هذه التوصيات من موقع كونه إماماً، وأن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بوصفه خليفة وإماماً بعده، بل بوصفه أباً شقيقاً فى مقابل ولده المحتاج للتعليم والتربية، لأنه كما سبقت الإشارة إليه، أن الإمام الحسن عليه السلام كان قد بلغ من العمر فى ذلك الوقت أكثر من ثلاثين سنة، فهل يحتمل أن يكون الإمام على عليه السلام قد غفل عن تعليم ولده القرآن إلى ذلك الوقت، ولم يطلع على الآراء الباطلة والمذاهب الفاسدة؟ إن الإمام الحسن عليه السلام قد عاش أولاً فى أحضان والده، ثم بقى إلى جانبه كل هذه الأعوام الطويلة، مضافاً إلى استماعه لخطب والده الفصيحة والبلغية وما خصه من علم ومعرفة وتعاليم إلهية أيضاً.

وفى آخر جملة من هذا المقطع من الوصية يبرز الإمام عليه السلام أملة فى أن تؤثر هذه الوصايا أثرها بشكل كامل فى ولده ويقول: «وَرَجَوْتُ أَنْ يُوفَّقَكَ اللَّهُ فِيهِ لِشِدِّكَ [٦١٣]، أَنْ يَهْدِيكَ لِصِدِّكَ [٦١٤]، فَعَهَدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ».

ويستفاد من عبارة الإمام عليه السلام: «فَعَهَدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ»، أن ما تقدم من الأقسام التسعة لهذه الوصية تمثل فى الحقيقة

مقدمه لأصل الوصية، والغاية منها أن يستعد الابن بشكل كامل لتقبل الوصايا الأصلية التي سيذكرها الإمام عليه السلام لاحقاً، فبدون التمهيد لها لا يمكن تحصيل النتائج المطلوبة المترتبة عليها.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٦٥

القسم العاشر

إشارة

وَاعْلَمَ يَا بَنِيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللَّهِ وَالْإِقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوْلُونَ مِنْ آبَائِكَ، الصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا أَنْ نَنْظُرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاطِرٌ، وَفَكَرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّاهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلِبَكَ ذَلِكَ بِتَفَهُمٍ وَتَعْلَمٍ، لِابْتَوْرُطِ الشُّبُهَاتِ، وَعَلَقِ الْخُصُومَاتِ.

وَابْتَدَأَ قَبْلَ نَظْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالْإِسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَزَكِ كُلِّ شَيْءٍ أَوْلَجْتِكَ فِي شُبُهَةٍ، أَوْ أَسْلَمْتَكَ إِلَى ضَلَالَةٍ. فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَيَّرْنَا قَلْبَكَ فَخَشَعٌ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هُمُكَ فِي ذَلِكَ هَمًّا وَاحِدًا، فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغَ نَظْرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمَ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخِطُ الْعُشْوَاءَ، وَتَتَوَرَّطُ الظُّلْمَاءَ. وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ وَالْإِمْسَاكُ عَنِ ذَلِكَ أَمْثَلُ.

الشرح والتفسير: الحذر من سلوك الطرق المشكوكة

يقدم الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية نصائح مهمة لولده، وأولها وأهمها التوصية بتقوى الله والقناعة بامتنال الفرائض والأحكام البيئية والواضحة واجتناب المسير في الطرق المشكوكة والسبل المشبوهة، يقول: «وَاعْلَمَ يَا بَنِيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللَّهِ وَالْإِقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالْأَخْذُ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٦٦

بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوْلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ».

ولا شك أن تقوى الله تعتبر على رأس الأولويات في وصايا جميع أولياء الله والزيد والمتاع لمسيرة الإنسان إلى الآخرة وجواز دخول الجنة والمعيار لجميع امتيازات الإنسان وفضائله الأخرى، وعلى ضوء ذلك وردت التوصية بالتقوى في جميع خطب صلاة الجمعة والتأكيد عليها، والتقوى هي حالة الخشية القلبية من الله تعالى وتقبل المسؤوليات الرسالية، ومن شأنها منع الإنسان من التلوث بالذنوب والخطايا.

وجملته: «وَالْإِقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَا تَعْنِي أَنْ يَقنعَ الْإِنْسَانُ بِالْإِيتَانِ بِالْوَأْجِبَاتِ وَيَتْرَكَ الْمَسْتَحَبَاتِ وَالسَّنَنِ، وَهِيَ مَا سِيَأْتِي لَاحِقًا مِنْ اجْتِنَابِ الْأُمُورِ الْمَسْكُوتِ عَنْهَا فِي الشَّرِيعَةِ وَالتِّي لَا يَعِيشُ الْإِنْسَانُ الْمَسْؤُولِيَّةَ تَجَاهَهَا، أَوْ لَا يَتَيَسَّرُ تَحْقِيقُهَا وَإِنْجَازُهَا بِسَهُولَةٍ، أَوْ يَسْتَحِيلُ عَلَى الْإِنْسَانِ نَيْلُهَا، مِنْ قِبَلِ الْمَعْرِفَةِ بِحَقِيقَةِ الذَّاتِ الْمَقْدَّسَةِ.

وجملته: «وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ إِشَارَةٌ إِلَى النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَبْدِ الْمَطْلَبِ وَحَمْزَةُ وَأَبِي طَالِبٍ وَجَعْفَرِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ثم إن الإمام عليه السلام يتعرض لذكر الدليل على هذه الحقيقة، ويقول: «فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا أَنْ نَنْظُرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاطِرٌ، وَفَكَرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّاهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا».

وهذا الكلام أيضاً ناظر إلى أن الإنسان ينبغي أن يتحرّك على مستوى التحقيق في المسائل المتعلقة بالدين والتي لا يعذر في الجهل بها، بل يجب على الجميع الإطلاع عليها، وهناك بعض الأمور الخارجة عن قدرة الإنسان وقابليته الذهنية والعقلية، كمعرفة الذات المقدسة، فلا يوجد أي نبي مرسل قد توجّه إلى هذه الحقيقة، أو بعض الأمور التي وضعها الله تعالى عن عاتق المكلفين بلطفه وكرمه تخفيفاً منه لعباده، ولكن ربما يكون الإنسان مكلفاً بها في حالة الإصرار عليها من

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٦٧

قبيل ما ورد في قصّة بنى اسرائيل فيما يتصل بذبح بقرة خاصّة، فلو لم يصرّ بنو اسرائيل على معرفة الجزئيات والتفاصيل، كان يكفيهم ذبح أيّة بقرة، ولكن إصرارهم أكثر من اللازم أدى إلى تكليفهم بذبح بقرة خاصّة وأوصاف معيّنة وكان ذلك سبباً في تورطهم في العسر والحرج.

وكذلك ما ورد في مسألة الحجّ في الحديث الشريف: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ» فقام عكاشة بن محصن، ويروي سراقه بن مالك، فقال:

أفي كلّ عام يارسول الله، فأعرض (رسول الله) عنه، حتّى عاد مرتين وثلاثاً، فقال رسول الله: «وَيَحْكُ مَا يُؤْمِنُكَ أَنْ أَقُولَ: نَعَمْ، وَاللَّهِ لَوْ قُلْتَ نَعَمْ لَوَجِبْتَ، وَلَوْ وَجِبْتَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ كَفَرْتُمْ، فَاتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ» [٦١٥].

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال في خطبة له: «إِنَّ اللَّهَ حَدَّ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا وَفَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تَنْقُصُوهَا وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ لَمْ يَشْكُ عَنْهَا نَسِيئاً فَلَا تَكَلَّفُوهَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَكُمْ فَاقْبَلُوهَا» [٦١٦].

ثم قال الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من الوصية: «فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا، فَلْيُكُنْ طَلْبُكَ ذَلِكَ بِنَفْسِكَ وَتَعْلَمُ، لِمَا تَوَرَّطَ الشُّبُهَاتِ، وَعَلِقَ الْخُصُومَاتِ. وَإِيْدَأُ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالْإِسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَيْءٍ أَوْ لِحْجِكَ [٦١٧] فِي شُبُهَةٍ، أَوْ أَسْلَمْتِكَ إِلَى ضَلَالَةٍ».

وعصارة كلام الإمام عليه السلام في هذه الفقرة هي أن أمامك طريقين للوصول إلى

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٦٨

الحقّ، أحدهما: الطريق الذي سلكه السلف الصالح من أهل بيتك وبإمكانك الاستفادة من تجاربهم الكثيرة، فهؤلاء سلكوا طريقاً سهلاً وبعيداً عن الخطر نسبياً.

الطريق الثاني: الاجتهاد الشخصي في المسائل والقضايا التي تواجهها في ميدان الحياة، أي أن تدخل بنفسك الميدان، وتعمل على تشخيص الحقّ من الباطل، وتسلك هذا الطريق بأربعة شروط:

الأول: أن تتمعّن في كلّ أمرٍ وتتدبّر عاقبته بدقّة، والثاني: الابتعاد عن التورّط بالشبهات أو التمسك بحالات التعصّب أو الخصومة، والثالث: أن تستعين بالله تعالى وتطلب منه أن يمدّ لك يد العون في هذا المسير، والرابع: أن تجتنب كلّ أمر مشكوك ربّما يقودك إلى التورّط في الشبهات أو يجزّك إلى مهاوى الضلالة والانحراف.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام في إدامه كلامه هذه النقطة، وهي أن كلامي النافع والمثمر والمؤثر ليس كافياً، بل ينبغي توفر الاستعداد والقابلية على التقبل في وجودك، فإنّ ذلك يعدّ من شروط التأثير في الكلام، وبعبارة أخرى، كما أنّ فاعليّه الفاعل تعدّ شرطاً في التأثير، فإنّ قابلية القابل كذلك، ومن هذه الجهة يهتّء الإمام عليه السلام قلب ولده وروحه بتقبّل هذه الوصايا ويقول:

«فَإِنْ أُيْقِنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَحَشَّعْ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعْ، وَكَانَ هُمُكَ فِي ذَلِكَ هَمًّا وَاحِدًا، فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ».

وبديهي أنّ الأشخاص الذين يعيشون قلوباً مظلماً ومشحوناً بحالات التعصّب والأهواء والشهوات، ويعيشون حالة التشبّت في الفكر والذهن، فإنّهم تارة يفكّرون بحفظ مقامهم وأخرى بفكر جمع الأموال، وثالثة بإشباع الرغبات الرخيصة وإرضاء النوازع النفسانية،

فمثل هؤلاء لا يقدرّون على الانتفاع من هذه المواعظ وإصلاح الخلل في وجودهم وتعديل مسارهم حتى لو كان الواعظ لهم الإمام المعصوم، ومن هذه الجهة فإن الآيات القرآنية التي لا شك في تأثيرها القاطع والحاسم، إنما تؤثر على جماعة تتوفر فيهم حالة القبول، ولا تؤثر في الأشخاص الذين يعيشون

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٦٩

حالات العناد والخصومة، بل ربما يكون لها أثر عكسي، ونقرأ في الآية ١٢٤ و ١٢٥ من سورة التوبة: «وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذَا مَا لَأَنَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ».

وكما يقول الشاعر:

بَقْدَرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَالِي وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَى سَهَرَ اللَّيَالِي

يَعْوِضُ الْبَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللَّيَالِي وَيَحْطَى بِالسِّيَادَةِ وَالنَّوَالِي

وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَى مِنْ غَيْرِ كَدِّ أَضَاعَ الْعَمَرَ فِي طَلَبِ الْمُحَالِ [٤١٨]

ويستمر الإمام عليه السلام في بيان توصياته لولده ويقول: «وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لِمَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغَ نَظْرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ [٤١٩]، وَتَتَوَرَّطُ [٤٢٠] الظُّلْمَاءَ وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مِنْ خَبْطٍ أَوْ خَلْطٍ، وَالْإِمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ [٤٢١]».

فالإمام عليه السلام هنا يحث ولده أن يشحذ همته وإرادته لنيل النتيجة المطلوبة من هذه الوصية ويتعد مهما أمكن عن تشويش الخاطر والذهن، ويتحرّك بعزم جادّ وخطوات راسخة نحو الميدان، ويسلم قلبه إلى كلام الإمام عليه السلام ليتسنى له الوصول إلى برّ الأمان ومرفاً السعادة الأبدية من خلال تجسيد هذه الوصايا والمواعظ على أرض الواقع النفسي والسلوكي، وفي غير هذه الصورة فإنّ الإنسان يتعب نفسه بدون أن يحقق المقصود وينال بغيته.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٧١

القسم الحادي عشر

إشارة

فَتَفَهَّمْ يَا بَنِي وَصِيَّتِي، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَيُوتِ هُوَ مَالُكَ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْحَالِقَ هُوَ الْمُمَيَّتُ، وَأَنَّ الْمُفْنِي هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُبْتَلَى هُوَ الْمُعَافَى، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِنِسْتَقَرِّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ النُّعْمَاءِ، وَالْإِبْتِلَاءِ، وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ عَلِمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ، يَنْحَرِّ فِيهِ رَأْيَكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصْرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ! فَاعْتَصِمِ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلِيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ.

الشرح والتفسير: كل شيء من الله

يأمر الإمام عليه السلام بدايةً في هذا المقطع من وصيته لولده أن يتمنّ فيما يقوله له ويتفهّم ما يرد في هذه الوصية، ويقول: «فَتَفَهَّمْ يَا بَنِي وَصِيَّتِي».

وهذه الجملة في الحقيقة تشير إلى أهميّة الموضوع الذي سيذكره الإمام عليه السلام لاحقاً حيث يتطلّب من المخاطب تحريّ الدقّة والتدبّر الجاد.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ كلّ ما في هذا العالم من حياة وموت، صحّة وسقم، حوادث حلوة ومرّة، نعم

وبلايا و ... كلها من عند الله تبارك وتعالى الذى يدبر الأمور بحكمته البالغة ومشيتته القاهرة، فلو لم يتعلّل الإنسان الحكمة من بعض الأمور والظواهر فى هذا العالم، فينبغى حملها على قلّة اطلاعه

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٧٢

وضالّه معلوماته، ويدعن لإرادة الحقّ ومشيتته، ويستسلم أمام قدرته وإرادته:

«وَأَعْلَمَ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وَأَنَّ الْمُنْفِيَّ هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُتَبَلِّغِيَّ هُوَ الْمُعَافِي.»

هذا الكلام إشارة للتوحيد الأفعالى وأنّ هذا العالم ليس له سوى مبدأ واحد ومؤثر فارد: «لا مؤثر فى الوجود إلاّ الله» لا أنّ العالم يملك مبدأين مبدأ للخير وآخر للشرّ، أو اليزدان والأهريمن كما يتصور الثنويون، وأساساً فإنّ الشرّ لا وجود له فى عالم الخلقه وكلّ ما هو موجود فهو خير، أمّا الشرّ فأمر نسبيّ، على سبيل المثال: لسع العقرب يعدّ وسيلة دفاعية له فى مقابل أعدائه، مضافاً إلى أنّ سمّ الحشرات يحتوى على دواء لشفاء بعض الأمراض، فمن هذه الجهة يكون هذا السمّ خيراً، ولو ابتلى أحد بلدغ العقرب أو بلدغ حشرة فإنّ هذا الشرّ ناشىء من جهله وعدم اطلاعه على الخطر.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى عدم استقرار الدنيا واختلاط الجيد والردى والخير والشرّ فيها، ويقول: «وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمَاءِ، وَالْإِتِّبَاءِ، وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ.»

أجل، هذه طبيعة الدنيا التى خلقت بهذا الشكل وفقاً للحكمة الإلهية، لأنّ الإنسان إذا غرق دوماً فى النعمة والحبور فسوف يعيش الغفلة عن المصير، وإذا ابتلى دوماً بالمشاكل والآلام فإنّ اليأس سيهيمن على وجوده ويستولى على فكره وبيتعد بذلك عن الله تعالى، ومن هنا فإنّ الله قد خلط بين هذين الأمرين ليعيش الإنسان حالات اليقظة والانتباه ويتحرّك فى مسيرة الحياة المعنوية بالاستمداد من اللطف الإلهي.

وبما أنّ بعض الأفراد الجهال يطلقون أحياناً كلمات الاعتراض بسبب جهلهم وعدم اطلاعهم على الحكمة من حوادث العالم، يحذر الإمام عليه السلام ولده ويقول: «فَإِنَّ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَىٰ جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٧٣

عُلِمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأُمْرِ، يَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصْرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ.»

وهذا يعنى أنّ الشخص الذى بإمكانه الاعتراض على ما يشكل عليه هو الذى يعلم بجميع الأمور ومطلع على كافّة التفاصيل، ويعرف فلسفة جميع الحوادث والغرض منها، ثمّ يرى أنّ أحد الأمور لا- تتوافق مع الحكمة والغرض من الخلقه فيحقّ له أن يفتح فمه بالاعتراض ويضع علامات الاستفهام، فى حين أنّ الإنسان ليس كذلك، فمعلوماته بالنسبة لمجهولاته كالقطرة بالنسبة للبحر، فهو فى بداية عمره جاء إلى الدنيا ولا- يعلم شيئاً، ثمّ تدريجياً يطّلع على بعض الأمور ويعلم ببعض المسائل، وما أكثر الأمور التى لا يعلم الحكمة والغرض منها فى بداية الأمر ثمّ بعد ذلك تبيّن له الحكمة من هذا الشىء والغرض من هذه الظاهرة، فهل يحقّ للإنسان مع

هذا العلم المحدود وهذا الكمّ القليل من المعلومات التى يمتلكها، أن يعترض على بعض الأمور التى لا يعلم الغرض منها؟

وفى ختام هذا المقطع من الوصية يأمر الإمام عليه السلام ولده بالتمسك بالألطف الإلهية والالتفات إلى الذات المقدسة، فإنّه مفتاح للنجاة من كلّ هلكة، يقول: «فَاعْتَصِمِ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ.»

هذه التوصيات الأربع القصيرة والزاهرة بالمضمون، تضمن قطعاً سعادة كلّ إنسان، فالاعتصام بالألطف الإلهية والتوجه إليه بالدعاء وطلب الحاجات والخشية من عقابه، كلّ ذلك يقود الإنسان نحو مرفأ السلامة وساحل النجاة.

وقوله: «الَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ» مقتبس من الآيات القرآنية الشريفة:

«الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ [٦٢٢]، فبداية يشير إلى أمر الخلقه، ثمّ مسألة الرزق، ثمّ التسوية فى عملية

الخلق، وتنظيم أجهزة الإنسان وأعضائه وقواه البدنية والروحية، فى حين أننا نعلم أنّ البداية هو الخلق ثمّ التسوية

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٧٤

ثم الرزق، ولكن مع الالتفات إلى أن العطف في الواو لا يعنى دائماً الترتيب، فلا نواجه مشكلة في تفسير هذه العبارة. ويحتمل أيضاً أن نظر الإمام عليه السلام في هذه العبارة مراحل تكامل الجنين ونمو الطفل بعد ولادته، لأن النطفة عندما تستقر في رحم الام فإنها تتغذى على الرزق الإلهي المتوفر في رحم الام بشكل متناسب، ثم يطوى الجنين مراحل تكامله واحده بعد الأخرى إلى أن تحين ولادته، ويتبدل غذاؤه من الدم في الرحم إلى اللبن في ثدى الام، وهكذا تنطوي مراحل التسوية والتكامل لمدة طويلة، وعلى هذا الأساس يمكن القول أن الرزق الإلهي للإنسان يبدأ قبل طي مراحل التكامل والنمو.

تأمل: المقارنة بين علم الإنسان وجهله

لا شك أن الإنسان عندما يأتي إلى هذه الدنيا لا يعلم شيئاً من أمر الحياة، رغم أنه يملك استعداداً عجبياً لتقبل المعارف واستلهاها المعلومات، ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة أيضاً: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً» [٦٢٣].

ثم إن الإنسان يبدأ في التعلم من خلال ثلاث طرق:

١. طريق التجربة التي تتخذ أشكال اللعب للهو في مرحلة الطفولة.

٢. طريق التعليم والتربية من قبل الوالدين والمعلم.

٣. طريق تفتح العلوم الفطرية (فطرة التوحيد، الحسن والقبح العقليين، الأمور الوجدانية وأمثال ذلك) حيث تتجلى يد القدرة الإلهية في واقع الإنسان ووجدانه، وكلما يتقدم أكثر في مسيرة الحياة فإنه يدرك سعة مجهولاته أكثر فأكثر، على سبيل المثال أن علماء النجوم عندما كانوا ينظرون إلى الكواكب والنجوم في السماء الفسيحة وبالوسائل الابتدائية، كانوا يرون مقداراً محدوداً من هذه النجوم

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٧٥

والكواكب، وكانت تفاصيلها غامضة ومجهولة، وعندما تطورت أجهزة الرصد شاهدوا المجرات العظيمة في الفضاء الفسيح وكل واحدة منها تتألف من ملايين أو مليارات النجوم والكواكب، ومع اكتشاف مجرة منها فإن عالماً من المجهولات يتجلى لهؤلاء العلماء ويتحداهم، فلو استطعنا يوماً أن ننظر إلى بعض هذه النجوم بدقة كاملة بواسطة التلسكوب، فإن عالماً من المجهولات يتجلى لنا بالنسبة لهذه الكواكب، وعلى ضوء ذلك فكلما يتقدم العلم وتتطور الأجهزة التقنية فإن افق معلوماتنا يتضاءل أمام جبل مجهولاتنا إلى أن يصل بنا الأمر إلى حد يقول عنه أحد الفلاسفة: «بلغت من العلم إلى مرتبة بحيث إنني علمت بأنني لا أعلم».

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم وتدبرنا الآيات التي تشير إلى علم الله تعالى المحيط بعالم الوجود، تقول الآية: «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ» [٦٢٤].

وفي هذا السياق يقول القرآن الكريم في مورد آخر: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً» [٦٢٥].

يقول العالم الفيزيائي المعروف أنشتاين: إذا اجتمعت جميع علوم البشر منذ اليوم الأول ولحد الآن في مكتبة شاملة ووضعناها في مقابل مجهولات البشر فإن مقدار هذه المكتبة تكون بالنسبة لتلك المجهولات بمثابة صفحة واحدة من كتاب ضخمة.

ومن هنا ندرك جيداً من خلال النتيجة التي ذكرها الإمام عليه السلام في العبارة أعلاه، أننا لو واجهنا بعض الأسئلة وعلامات الاستفهام بالمسائل المتعلقة بالمبدأ والمعاد وأسرار الحياة ولم نعثر على جواب، فينبغي حمل ذلك على جهلنا وقصور معلوماتنا ولا نطلق ألسنتنا بالإنكار والاعتراض، وهذه هي الحقيقة المؤيدة من قبل العقل والمنطق.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٧٧

إشارة

وَاعْلَمَ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنَبِّئْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَارْضَ بِهِ رَازِدًا، وَإِلَى النَّجَاةِ فَارْتَدًا، فَإِنِّي لَمْ أَلِكْ نَصِيحَةً. وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ - وَإِنِ اجْتَهَدْتَ - مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ.

الشرح والتفسير: اجعل من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مرشداً لك

يتحرّك الإمام عليه السلام في هذا المقطع من وصيته لابنه العزيز مشيراً إلى نقطتين مهمتين، الأولى: أن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله خیر دليل وأفضل قائد يقود الإنسان في طريق الصلاح والنجاح، والآخر: أن والده أمير المؤمنين عليه السلام لم يأل جهداً في هدايته وإرشاده، ومن هذا المنطلق ينبغي عليه الإصرار في هذا المسير أتباعاً لهدى هذين القائدين.

يقول عليه السلام: «وَاعْلَمَ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنَبِّئْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَارْضَ بِهِ رَازِدًا» [٦٢٦]، وَإِلَى النَّجَاةِ فَارْتَدًا.

وهذا التعبير يشير إلى أن الوحي السماوي الذي نزل على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يمثل عصارة جميع تعاليم الوحي النازل على الأنبياء السابقين، ففي تلك الأعصار كان الوحي السماوي ينزل على الأنبياء السابقين وفقاً لقابليات أقوامهم ومتاغماً مع نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٧٨

ثقافته وعقلية ذلك العصر، ولكن في عصر خاتم الأنبياء فقد نزل آخر خطاب إلهي للبشرية كافة على قلبه المبارك.

إن المقارنة بين القرآن الكريم والتوراة والإنجيل الحاليين (رغم امتداد يد التحريف إليهما) شاهد ناطق على هذا التفاوت العظيم، فبالنسبة لمعرفة الله وأدلة التوحيد والصفات الإلهية فإن القرآن الكريم طرح قضايا هامة على هذا الصعيد لا توجد في أي من الكتب السماوية الأخرى، بل حتى لا يوجد فيها عشر معشارها، وبالنسبة للمسائل المتعلقة بالمعاد، وعلى حد قول بعض المحققين يوجد ألفي آية في القرآن تتحدث عن المعاد وتفصيله وحالاته، فالقرآن الكريم تحدّث في هذا المجال بحيث لا يمكن تصوّر كلام آخر في هذا الشأن، وفي البحوث الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والمسائل التي تتصل بالحكومة وتاريخ القدماء، فالقرآن الكريم زاخر بهذه البحوث، ومن هنا يستوحى الإمام عليه السلام دليله في كلامه المذكور أعلاه ويقول: لا يوجد أحد كالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بين الناس تعاليم الوحي السماوي والمعارف الإلهية بهذه الصورة الياضعة، ولهذا ينبغي عليك أن تتمسك بهذا القائد والمرشد بوصفه أفضل مرشد لطريق الخير والصلاح في واقع الحياة.

وينبغي الالتفات إلى أن مفردة «رائد» في الأصل تعني الشخص الذي يذهب للبحث عن المرتع والماء للماشية والدواب، وعندما يكتشف وجود ماء وكلاً يعود ليخبر قومه، ثم توسّعوا في استخدام هذه الكلمة وأطلقوها على الأشخاص الذين يمسون بمقاليد الأمور في حياة الناس.

«القائد» في الأصل بمعنى الشخص الذي يمسون زمام الناقة ويقودها في المسير، ثم أطلق على كل من يقود طائفة من البشر.

ويواصل الإمام عليه السلام تقسيم نصيحته لولده ويقول: «فَإِنِّي لَمْ أَلِكْ [٦٢٧] نَصِيحَةً. وَإِنَّكَ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٧٩

لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ - وَإِنِ اجْتَهَدْتَ - مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ».

إن هدف الإمام عليه السلام من هذا الكلام حث ولده لتقبّل هذه النصائح والالتزام الواعي بها من خلال تقديم دليلين: أحدهما: أن الإمام، وبسبب شفقتة ومحبتة الشديدة له، لم ولن يدع رأياً نافعاً ونظراً مفيداً لولده إلا وذكّره، والآخر: أن ولده شاب لا يمكن أن يحيط بالأمور كإحاطة والده الإمام علي عليه السلام، ومن هنا قيل: إن ما يراه الشاب في المرأة، يراه الشيخ في الآجر الخام.

نجمات الولاية، ج ٩، ص: ٤٨١

القسم الثالث عشر

إشارة

وَاعْلَمَ يَا بَنِيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكَ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ لَأَيُّضًا فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَزُولُ أَبَدًا وَلَمْ يَزَلْ. أَوَّلُ قَبْلِ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوْلِيَّةٍ، وَآخِرُ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَائِيَّةٍ. عَظُمَ عَنْ أَنْ تَتَّبَعَ رُبُوبِيَّتَهُ بِإِحْطَائِهِ قَلْبٍ أَوْ بَصِيرَةٍ. فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَتَّبِعِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صَدْرِ حَظَرِهِ، وَقَلْبِهِ مَقْدَرَتِهِ، وَكَثْرَةَ عَجْزِهِ، وَعَظِيمَ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالْحَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ: فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنِ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ.

الشرح والتفسير: الإيمان بالواحد الأحد

يتحدث الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من الوصية عن أحد أدلة التوحيد الذي يمثل الركن الأساس والعمود الفقري لجميع منظومة الدين، يقول: «وَاعْلَمَ يَا بَنِيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكَ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ».

ويستعرض الإمام عليه السلام في قراءة سريعة، الدليل على نفي الشريك وإثبات التوحيد بثلاثة أمور:

الأول: إذا كان لله شريك فلا بد أن يكون حكيماً، والإله الحكيم يجب أن يعرف نفسه لعباده ويكشف لهم عن تعاليمه وأحكامه بواسطة الأنبياء الذين يرسلهم

نجمات الولاية، ج ٩، ص: ٤٨٢

للناس، في حين أن جميع الأنبياء دعوا الناس لإله واحد، والآيات القرآنية والنصوص السماوية شاهد على هذا المطلب. ومن جهة أخرى فلو كان هناك إله آخر فيلزم من ذلك أن تظهر آثار ملكه وسلطانه وقدرته على هذا العالم، في حين أننا مهما دققنا النظر في ظواهر هذا العالم فسنجد الوحدة والانسجام التام مهيمناً على جميع أركانه، وهذه الوحدة والتجانس من نواة الذرة إلى المجزآت العظيمة، كلها تسير وفق قانون واحد وتتحرّك وفق نظام متجانس ومنسجم، وهذا دليل على وحدة الخالق جلّ وعلا. ثم إن الإمام عليه السلام يشير في سياق حديثه إلى سبع صفات من صفات الباري تعالى، بداية يقول: «وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ».

وهذه الصفة للذات المقدسة تقع نتيجة الاستدلال الذي تقدّم به الإمام عليه السلام آنفاً من أنه لو كان هناك معبود آخر غير الله تعالى لأرسل رسوله للناس وتجلّت آثار ملكه وسلطانه في جميع أرجاء الكون والطبيعة، ولرأيت أفعاله وصفاته منعكسة على مرآة الخلق والطبيعة، وبما أن الأمر ليس كذلك فنستنتج أنه إله واحد.

أضف إلى ذلك أن الله تعالى في القرآن الكريم وصف نفسه مرّات عدّة بالواحد الأحد، كما ورد نموذج من ذلك في سورة التوحيد، وبما أن الله صادق ولا يعقل في كلامه الكذب والغش والزيف، والتي هي حالات ناشئة من الحاجة والعجز واتباع الأهواء، فلذلك يمكننا الاستناد لإثبات هذه الصفة وسائر الصفات على الأدلة السمعية، أي الآيات والروايات القطعية.

الصفة الثانية يقول الإمام عليه السلام: «لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ».

وهذا هو التوحيد في الحاكمية، الذي هو فرع من التوحيد الأفعالي، فالملك واحد والحاكم أيضاً، والدليل على ذلك واضح،

لأنه عندما نعتقد بأن الله هو الخالق، فمن الطبيعي أن يكون هو المالك والحاكم لا غير، وبخاصة أن خالقيه الله مستمره وفيضه دائم،
يعنى أننا نُخلق لحظة بعد أخرى مثل ضوء القنديل أو السراج،

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٨٣

فلو انقطع ارتباطه بمعن منبع الطاقة، فسوف ينطفئ، أجل إن الله تعالى خالق في كل يوم وكل لحظة، إذن فهو الحاكم والمالك دوماً
وأبداً.

ثم تحرك الإمام عليه السلام لبيان الصفة الثالثة والرابعة ويقول: «وَلَا يَزُولُ أَبَدًا وَلَمْ يَزَلْ».

والدليل على ذلك واضح، لأننا نعلم أن الله واجب الوجود، وأن واجب الوجود حقيقة ينبع وجودها من ذاتها إذا صح التعبير، وعلى
هذا الأساس فإن هذا الوجود أزلي، ويجب أن يكون أبدياً أيضاً، والموجودات حادثه لا تستقى وجودها من ذاتها، بل من موجود
آخر، وسائر الموجودات فانية لأن وجودها لا ينبع من ذاتها بل يصل إليها الوجود من خارج ذاتها.

وتأسيساً على ذلك يمكن استنباط الصفة الخامسة والسادسة مما تقدم آنفاً، يقول الإمام عليه السلام: «أَوَّلُ قَبْلِ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوْلِيَّةٍ، وَآخِرُ
بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَائِيَّةٍ».

وهاتان الصفتان من لوازم أزلية وأبدية الذات المقدسة، وناشئة من كون الله تعالى واجب الوجود.

وفي الصفة السابعة والأخيرة يقول الإمام عليه السلام: «عَظُمَ عَنْ أَنْ تُثَبَّتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ».

والدليل على ذلك بين، فربوبية الذات المقدسة أزلية وأبدية ولا بداية لها ولا نهاية، وأنها تحيط بعالم الوجود بجميع أبعاده وآفاقه
الممتدة، وعلى ضوء ذلك فإن هذه الربوبية الواسعة لا يمكن مشاهدتها بالعين، ولا تصورها بالذهن، لأن ربوبيته غير محدودة،
واللامحدود لا يمكن الإحاط به بفكر الإنسان المحدود.

وبعد أن بين الإمام عليه السلام عظمة الله تعالى وتوحيده وأزليته وأبديته وإحاطة ربوبيته على جميع الكائنات في عالم الوجود،
يواصل كلامه في وصيته لولده ويتبته لصغره وضعفه وحاجاته الكثيرة في مقابل قدره الله المطلقه، ويقول: «فَإِذَا عَرَفْتَ

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٨٤

ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ حَظَرِهِ [٦٢٨]، وَقَلِّهِ مَقْدِرَتِهِ وَكَثْرَةَ عَجْزِهِ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ».

إن الصفات الأربع التي يصف بها الإمام عليه السلام ولده قابله للتطبيق على جميع أفراد البشر، فكل إنسان في مقابل الله تعالى صغير
وحقير وضعيف وكثير الحاجات إلى ربه، ولكن بشرط أن يعرف الإنسان ذلك في نفسه ولا يغفل عن هذه الحقيقة، وإلا فإنه سيخرج
عن طريق العبودية ويسلك سبيل الطغيان والغرور، أجل فإن معرفة عظمة الله تعالى من جهة، ومعرفة صغر النفس وحقارتها في مقابل
الذات المقدسة من جهة أخرى سبب وعامل أساس في السير في خط العبودية والطاعة، ونسيان هذه الحقيقة يعتبر منشأ الطغيان والظلم
والعدوان.

يقول القرآن الكريم: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» [٦٢٩].

ثم إن الإمام عليه السلام يبين معالم الطريق لولده وقلده كبدية وكيفية الإتيان بالأعمال الصالحة ويقول: «فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ
عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ: فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرَكَ إِلَّا بِحَسَنِ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ».

ويلخص الإمام عليه السلام في هذا الكلام العمل الصالح في ثلاثة أمور: الطاعة لله، والخشية من عقوبته، والشفقة من غضبه وسخطه.

وبديهى أن الخشية والإشفاق في مقابل عقوبة الله وسخطه يعثان على الطاعة، ومن هنا فالإمام في البداية يشير إلى طاعة الله تعالى، ثم
يؤكد على الدوافع والبواعث النفسية لتحقيق تلك الطاعة، وأما الفرق بين الخشية والإشفاق فكما أشرنا

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٨٥

أن الخشية تعنى الخوف، ولكن الإشفاق أو الشفقة هي الخوف المقترن بالأمل والرجاء، وعلى ضوء ذلك، فالخوف من العقاب

الإلهي ليس كالخوف من الحوادث المخوفة التي يفقد الإنسان فيها الأمل، بل هو خوف مقترن بالأمل بلطف الله وعطفه وكرمه. والمفهوم من جملة: «فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ...» أنك لا تحسب أن إطاعتك لله تعالى ستضيف شيئاً لجلاله وعظمته، أو أن الله تعالى يحتاج إلى هذه الطاعة، على العكس، فأنت المحتاج له، لأنه قد أمرك بما يحقق لك سعادتك ونهاك عن القبائح والردائل التي تفودك في دروب الشقاء والمسكنة والذلة.

وهذه العبارة دليل بين على الحسن والقبح العقليين، وللأسف فإن جماعة من المسلمين، الذين ابتعدوا عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام والتمسك بالكتاب والعترة، تحرّكوا في هذه المسألة من موقع الإنكار والمخالفة، وأنكروا هذه المسألة البديهية والعقلية بسبب بعض البواعث والدوافع السقيمة.

تأملان

١. العلاقة بين الأيدولوجية والرؤية الكونية

في هذا المقطع من الرسالة، وبعد أن يبين الإمام عليه السلام سلسلة من الحقائق فيما يتصل بالذات المقدسة والصفات الالهية، ويبين عجز وضعف الإنسان وقصوره عن الإحاطة بالعلوم والمعارف الأنفسية والآفاقية، يستنتج الإمام عليه السلام أنه ينبغي على الإنسان أن يتحرّك في خطّ العبادة والعبودية بما يليق بمقام الالهية وبعظمة الذات المقدسة وصغر الإنسان.

وهذا يعني أن تكاليف الإنسان مرتبطة بشكل وثيق مع الحقائق الموضوعية، أي أن القوانين تنطلق دائماً من قلب الحقائق، وأن ما ينبغي وما لا ينبغي وليد الوجود والعدم، وعبارة أخرى، أننا نستنبط من هذه المعرفة والحقائق الموجودة فيما يتصل بغنى الله وفقر الإنسان، لزوم عبادته والامتثال لأوامره وتطبيق أحكامه، وهذا هو البحث المهم الذي يطرح عادة في موضوع الارتباط بين الأيدولوجية والرؤية

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٨٦

الكونية وحيث يطرح هذا التساؤل: هل هناك ثمة ارتباط بينهما؟

إن الرؤية الكونية هي عبارة عن المعرفة بالحقائق، والأيدولوجية في هذا المورد تعني الأحكام والقوانين الناتجة باعتقادنا من قلب هذا العالم والحقائق الموجودة في الطبيعة.

ومن هنا يتبين الجواب عن شبهة من يقول: إن الأحكام الشرعية أمور اعتبارية ولا ترتبط بالحقائق أو الأمور التكوينية، فالإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية يشطب بخطّ البطلان على هذه الشبهة، لأنّ الفصل بين هذين الأمرين يلغي أي اعتبار للأحكام الشرعية، فالحكم إنما يكون له قيمة إذا كان مرتبطاً بالحقائق الموضوعية، وهذه هي فلسفة الأحكام التي تمنحها اعتباراً وقيمة، وهذه العلاقة الوطيدة بين الحكم الشرعي والحقائق الموضوعية هي التي تعمل على تجسيد الحكم وترسيخه.

والأحكام التعبدية أيضاً غير مستثناة من هذا القانون، فجميع هذه الأحكام تتوافق مع المصالح والمفاسد الواقعية، رغم أننا أحياناً لا نعرف الحكمة منها، لأنه في غير هذه الصورة نواجه الترجيح بلا مرجح، وعلماء الشيعة جميعاً يتفقون على هذا لرأى.

والآيات القرآنية والروايات الشريفة أيضاً تصرّح بوجود مثل هذه العلاقة بين الأحكام الشرعية والواقع الموضوعي.

مثلاً، نقرأ في القرآن الكريم في سورة المائدة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعِدَاوَةَ وَالْبُغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ» [٦٣٠]، وهكذا نرى أن الله تعالى في هذه الآيات الكريمة بعد يبين موارد الضرر الواقعي للأرجاس، كالخمر و

القمار، ويذكر

نصائح الولاية، ج ٩، ص: ٤٨٧

المسلمين أن هذه الأمور من عمل الشيطان، ويبيّن الحكم الواقعي لها وينهى المؤمنين عن ارتكاب شرب الخمر والميسر، ثم يستعرض مرة أخرى الحقائق الموضوعية التي تساهم في تحقيق السعادة للإنسان وأنّ عمل الشيطان في الحقيقة هو إثارة العداوة والبغضاء والابتعاد عن ذكر الله وترك الصلاة.

وبالنسبة للصوم ورد أيضاً: «صُومُوا تَصِحُّوا» [٤٣١] وفي مورد آخر يبيّن القرآن الغاية من الصوم ويقول: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [٤٣٢]. وفي الحقيقة أنّ جميع الروايات الشريفة الواردة في باب علل الشرائع، تعدّ دليلاً واضحاً على هذا المدعى.

٢. بداية الخلق ودوام الفيض

رأينا في كلمات الإمام عليه السلام الناطقة في هذا المقطع من الرسالة أنّ الذات المقدسة تعتبر مبدأ كل شيء بدون بداية لها، ونهاية كل شيء بدون نهاية لها، ويصطلح على هذا المفهوم الأزلي والأبدية، وهنا يفرض هذا السؤال نفسه: هل أنّ للمخلوقات حدوداً زمنية؟ يعني أنّ الله في زمان كان موجوداً ولم تكن المخلوقات موجودة (وطبعاً التعبير بالزمان هنا من باب التسامح، لأنّ الزمان بنفسه إما مخلوق أو نتيجة حركة المخلوقات) كما ورد في بعض العبارات: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ» [٤٣٣] فإذا كان الأمر كذلك فإنّ مسألة دوام الفيض يواجه مشكلة هنا، لأنّ مفهوم هذا الكلام أنّ الله تعالى كان فيضاً منذ البدء إلّا أنّه كان متوقفاً عن الفيض، في حين أنّ الفيض ملازم للذات المقدسة وعدم الفيض يعدّ نقصاً.

والجواب على هذا السؤال: إنّ العالم له حدوث ذاتي، يعني إذا قلنا بوجود

نصائح الولاية، ج ٩، ص: ٤٨٨

المخلوقات دائماً وأبداً، فذلك المخلوق بدوره يستند في وجوده إلى الذات المقدسة ومرتبطة بالقدرة الإلهية، لا أنّه واجب الوجود، كما أنّ نور الشمس مرتبطة بشكل وثيق بالشمس، فإذا كانت الشمس موجودة دائماً وتشعّ بنورها في كلّ آن، فمع ذلك تعتبر الشمس أصلاً ونورها فرعاً.

وبعبارة أخرى أنّ كلمة «مع» في جملة «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ» تبين هذه الحقيقة وهي أنّ الله تعالى كان منذ الأزل ولم يكن معه شيء بنفس المستوى وبذات الكينونة (لا بواسطته).

نصائح الولاية، ج ٩، ص: ٤٨٩

القسم الرابع عشر

إشارة

يَا بَنِيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَرَوَّالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الآخِرَةِ وَمَا أَعَدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ، لَتُعْتَبَرَ بِهَا وَتَحْدُوَ عَلَيْهَا. إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفَرُوا بِمَنْزِلٍ جَدِيدٍ، فَأَمُّوا مَنْزِلًا خَصِيْبًا وَجَنَابًا مَرِيْعًا، فَاحْتَمَلُوا وَعَثَاءَ الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُونَةَ المَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلْمًا، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَعْرُومًا. وَلَا شَيْءَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَذْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ. وَمَثَلُ مَنْ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيْبٍ، فَتَبَا بِهِمْ

إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيدٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ.

الشرح والتفسير: السالكون طريق الآخرة

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية لبيان مكانة الدنيا والآخرة في منظار المتألهين من خلال مثالين جميلين، ويقول: «يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الآخِرَةِ وَمَا أُعِدُّ لَأَهْلِهَا فِيهَا، وَصَرَّبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَتَحْذَرَ عَلَيْهَا».

إنّ للأمثلة دور مهم جداً في فهم وإدراك المسائل المعقّدة والمفاهيم الغامضة سواء العقلية منها أو الحسية، فيستطيع المخاطب من خلال المثال فهم هذه المسائل

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٩٠

من موقع العمق والوضوح في الرؤية، وبذلك يتم تشويقه وحثه لأداء الأعمال المفيدة والخيرة والابتعاد عن الرذائل والقبايح. والقرآن الكريم يستخدم كثيراً الأمثلة الجميلة والعميقة المغزى، حيث تشكل الأمثلة قسماً مهماً من الآيات القرآنية، ونرى في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة أمثلة كثيرة وذات معانٍ عميقة أوردتها الإمام عليه السلام في خطبه ووصاياه بغاية الفصاحة والبلاغة.

بعد أن يذكر الإمام عليه السلام هذه المقدمة يستعرض مثالين للدنيا والآخرة فيقول أولاً:

«إِنَّمَا مِثْلُ مَنْ خَبَرَ [٦٣٤] الدُّنْيَا كَمِثْلِ قَوْمٍ سَفَرُوا [٦٣٥] نَبَاً بِهِمْ مَنْزِلٌ حَيْدِيْبٌ [٦٣٦]، فَأَمَّا [٦٣٧] مَنْزِلًا خَصِيْبًا [٦٣٨] وَجَنَابًا [٦٣٩] مَرِيْعًا [٦٤٠]، فَاحْتَمَلُوا وَعَثَاءَ [٦٤١] الطَّرِيْقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيْقِ، وَخُشُوْنَةَ السَّفْرِ، وَجُشُوْبَةَ العِيْشِ وَمَعَانَاةَ الطَّرِيْقِ إِنَّمَا هِيَ حَالَاتٌ مُؤَقَّتَةٌ وَبِمَثَابَةِ الثَّمَنِ الذِي يَدْفَعُوْنَهُ لِتَحْصِيْلِ السَّعَادَةِ الدَّائِمَةِ وَالْوَصُوْلِ إِلَى مَنْزِلِ القَرَارِ وَالاسْتِقْرَارِ وَالرَّاحَةِ الأَبْدِيَّةِ فَتَكُوْنُ هَذِهِ الأُمُوْر وَالصَّعُوْبَاتُ بِالنَّسْبَةِ لَهُمْ هَيْئَةً وَيَسِيْرَةً، وَلِذَلِكَ يَقُوْلُ الإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ:

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٩١

«فَلَيْسَ يَجِدُوْنَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلْمًا وَلَا يَرُوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَمًا. وَلَا شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَذْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ». أجل، فهذا هو نمط تفكير المؤمنين الصالحين وأولياء الله الذين يسيرون في مسلك الطاعة والمعنوية، لأنّ هؤلاء لا ينجذبون أبداً لزخارف الدنيا ولا يندفعون ببريقها، بل إنّ الدنيا تمثّل لهم مجموعة من الأتعاب والآلام والهموم والغموم وحالات التوتر التي تفرسها حالات الصراع والنزاع، في حين أنّ الإيمان بالمعاد والجنّة والنعيم الخالد والاعتقاد بالوعد الإلهي يوحى لهم بأنهم سيواجهون غداً مستقبلاً مشرقاً ويرفلون بالنعيم المادي والمعنوي بعيداً عن كلّ أشكال الهّم والغمّ والألم، والأهمّ من ذلك أنّهم يصلون إلى مقام القرب الإلهي وهذا هو الذي يجعلهم يتقبلون الصعاب والآلام في هذا المسير بكلّ رحابة صدر ويتحملون كلّ مشقّة في هذا الطريق لأنهم متوجهون إلى كعبة الحبيب، فجميع ما يجدونه من وخز الأشواك في الطريق يكون بالنسبة لهم كفراش الحرير وتبدّل المرارة إلى عذوبة.

ثمّ يستعرض الإمام عليه السلام المثال الثاني فيما يخصّ أهل الدنيا والمتشبهين بزخارفها وملذاتها ويقول: «وَمِثْلُ مَنْ اغْتَرَبَ بِهَا كَمِثْلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيْبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيدٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْظَعَ [٦٤٣] عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ».

أجل، فهم يعلمون أنّ مصيرهم في النهاية النار والعذاب الأليم، فتكون الدنيا بالنسبة لهم بجميع مشاكلها وآلامها عذبة ومريحة جداً، ولهذا السبب يخافون من الموت ويخشون حلول الأجل، خوفاً من المستقبل المظلم، كما أخبر القرآن الكريم عن طائفة من بني

اسرائيل ممن يعيشون حب الدنيا: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سِنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَخَّرٍ مِنَ الْعَذَابِ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٩٢

أَنْ يُعَمَّرَ» [٦٤٤].

وكذلك ورد في حديث معروف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ وَالْمَوْتُ جِسْرٌ هَوْلَاءِ إِلَى جَنَانِهِمْ وَجِسْرٌ هَوْلَاءِ إِلَى جَحِيمِهِمْ» [٦٤٥].

وفي هذا الصدد رواية عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام عندما سأله أحدهم: «مَا بَالُنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ وَلَا نُحِبُّهُ؟». فأجابه: «إِنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ آخِرَتَكُمْ وَعَمَرْتُمْ دُنْيَاكُمْ فَانْتَمَّ تَكْرَهُونَ النُّقْلَةَ مِنَ الْعُمَرَانِ إِلَى الْخَرَابِ» [٦٤٦].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٩٣

القسم الخامس عشر

إشارة

يَا بَنِي أَجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحِبِّ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهُ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ.

الشرح والتفسير: نظرة واحدة لمصلحة الفرد والجماعة

يشير الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من وصيته لأحد أهم الأصول الأخلاقية والمثل الإنسانية ويقول: «يَا بَنِي أَجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ».

والميزان عادة ذو كفتين، والوزن الصحيح يتم عندما تكون الكفتان متساويتين في الخط الأفقي، وهذا الكلام إشارة إلى أنه ينبغي عليك أن تحب للآخرين ما تحبه لنفسك، وما تكره لنفسك فينبغي أن تكرهه للآخرين لتساوي كفتا الميزان في عرض واحد.

ثم يوضح الإمام عليه السلام هذا الأصل الأخلاقي المهم في سجع جمل ويبين أبعاده وزواياه المختلفة:

يقول الإمام عليه السلام في الجملة الأولى والثانية: «فَأَحِبِّ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهُ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا».

وفي الجملة الثالثة: «وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٩٤

وفي الجملة الرابعة: «وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ».

ويقول في الجملة الخامسة: «وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ».

ثم يضيف الإمام عليه السلام في الجملة السادسة: «وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ».

وأخيراً وفي الجملة السابعة يقول: «وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ».

وهو إشارة إلى أنك كما لا تحب أن يستغيبك الناس أو يتهمونك بأمر معين أو يخاطبونك بكلمات نابية ويذكرونك بألقاب قبيحة، أو يتحدثون عنك بكلمات تسوؤك وتثير غضبك، فينبغي عليك أن لا تتحدث عن الآخرين بألبيات الغيبة والتهمه والسب والشتم وما إلى ذلك، أو تتلفظ بكلمات لا مسؤولة تؤذي الآخرين وتسيء إليهم.

والحقيقة أن هذا الأصل الأخلاقي المهم بالتفاصيل والأغصان السبعة التي ذكرها الإمام عليه السلام لو طبّق في أي مجتمع وعمل به الناس في تواصلهم وتعاملهم فيما بينهم، لساد الصلح والأمن في أجواء ذلك المجتمع وزالت كل أشكال النزاع والصراع، ووصلت الملفات القضائية في المحاكم إلى الحد الأدنى، وبلغت المحبة والتعاون والتكاتف الحد الأقصى في واقع الحياة والمجتمع، لأن جميع المشاكل الاجتماعية تنشأ من أن البعض يريد كل شيء لنفسه ولا يفكر إلا في نفعه وراحته وسعادته، ويتوقع من الآخرين أن يتعاملوا معه بالقيم والعدل ولكنّه لا يجد في نفسه أي التزام بهذه القيم، ويريد أن يكون حراً تجاه الآخرين، أو لا يقيم وزناً لحيثية الآخرين وراحتهم وسعادتهم، أو يهتم براحة الآخرين ولكن لا بمقدار ما يهتم لنفسه، فيريد لنفسه الحد الأقصى من النفع والسعادة والراحة، وللآخرين الحد الأدنى.

وما ذكره الإمام عليه السلام في بيان هذا الأصل الأخلاقي لم يرد بهذه السعة والشمول في كلام أي شخصية علمية أخرى، رغم أن جذور هذا الأصل كما يقول الشيخ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٩٥

مغنية في شرحه لنهج البلاغة ذيل هذا الكلام للإمام عليه السلام، موجود بشكل إجمالي في تراث القدماء.

يقول مغنية: «ولا- نعرف أول من نطق بهذه الذهبيّة ... وأياً كان فهي لجميع الناس، لأنّ الحبّ معناه الأ-خوة والإنسانية والتكامل والتضامن والقوة والنجاح، وبالحبّ تستقيم الحياة، ولا- معنى لحياة بلا حبّ، وأيضاً لا معنى للكراهية إلا الحرب والشقاق والفشل والتخلف» [٦٤٧].

وقد ورد في تعاليم الإسلام هذا المضمون أيضاً وطرحه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بصياغة جميلة ورائعة، فقد ورد في الحديث الشريف أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان راكباً دابته وهو يريد بعض غزواته، فجاء إليه أعرابي فأخذ يغمز راحلته فقال: «يا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي عَمَلًا أَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ».

فقال صلى الله عليه وآله: «مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَأَتَاهِ إِلَيْهِمْ وَمَا كَرِهْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَلَمَّا تَأْتَاهِ إِلَيْهِمْ خَلَّ سَبِيلَ الرَّاحِلَةِ» [٦٤٨].

وجاء في حديث آخر في سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه جاء شاب إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال له: أتأذن لي بالزنا، فنهره الأصحاب وأغلظوا عليه، فأدناه النبي صلى الله عليه وآله وقال له:

«أَتُحِبُّ أَنْ يُزْنِيَ بِأَمِّكَ أَوْ أُخْتِكَ أَوْ بِنْتِكَ أَوْ خَالَتِكَ أَوْ عَمَّتِكَ؟» قال الشاب: لا يا رسول الله، فقال له: «كُلُّ النَّاسِ كَذَلِكَ»، ثم وضع يده المباركة على صدره: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَوْجَهُ» وبعد ذلك لم يره أحد وهو جالس إلى امرأة أجنبية [٦٤٩].

وينبغي الالتفات إلى هذه النقطة أيضاً، وهي أن الإمام عليه السلام في العبارة السابعة من الكلام المذكور يقول على سبيل المقدمة: «وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قُلْتَ مَا تَعْلَمُ». وهذا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٩٦

إشارة إلى أن معلوماتك وإن كانت محدودة وقليلة فاقنع بها ولا تتدخل في أمور لا تعلم بها، فإن ذلك سيقودك إلى متاهات الخطأ والانحراف.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٩٧

إشارة

وَاعْلَمُ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الْأَلْبَابِ، فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ، وَلَا تَكُنْ خَازِنًا لِغَيْرِكَ، وَإِذَا أَنْتَ هُدَيْتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ.

الشرح والتفسير: لا تكن خازناً لغيرك

في هذا المقطع من الوصية النورانية يشير الإمام عليه السلام إلى أربع فضائل أخرى ويوصي بها ولده وولده فلذة كبد الإمام الحسن المجتبي عليه السلام.

بداية يقول: «وَاعْلَمُ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الْأَلْبَابِ».

وهذا يعنى أن الإنسان المعجب بنفسه لا يدرك الحقائق الموضوعية عن نفسه وعن الآخرين، فهذه الصفة الذميمة تسدل حجاباً على عقله، وليست فقط تغطى عيوبه بل يرى عيوبه ورذائله نقاط قوة وعناصر كمال لنفسه، وأحياناً يعيش عمره في هذا الوهم ويغادر الدنيا دون أن يتحرك لإصلاح الخلل والعيب.

وعلى حدّ تعبير الشيخ مغنية في شرحه لنهج البلاغة، أن العجب كالخمر من حيث إنهما يسكران الإنسان، والسكران حاله حال المجانين وينبغى الابتعاد عنه والفرار منه.

وقد ورد في القرآن الكريم والروايات الإسلامية في ذمّ العجب والغرور نصوص كثيرة، منها ما ورد الآية ٨ من سورة فاطر: «أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسْبًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسِرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»، فهذا الشخص بسبب العجب يرى سوء عمله حسناً وكأنه يرى الحقيقة

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٩٨

والواقع، ولكن الله تعالى يقول عنه أنه ضالّ وغير جدير بالهداية ويوصى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن لا يتحسّر ويأسف على مثل هؤلاء.

وقد وردت في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام تعبيرات وكلمات عجيبة عن العجب والغرور، في مورد يقول: «الْعُجْبُ آفَةُ الشَّرَفِ» [٦٥٠] وفي مورد آخر يقول: «آفَةُ اللَّبِّ الْعُجْبُ» [٦٥١].

وفي مورد آخر يقول: «الْعُجْبُ يُفْسِدُ الْعَقْلَ» [٦٥٢].

وفي مورد آخر يقول: «تَمَرَةُ الْعُجْبِ الْبُغْضَاءُ» [٦٥٣].

وأخيراً يقول: «الْعُجْبُ رَأْسُ الْحَمَاقَةِ» [٦٥٤].

ثم إن الإمام عليه السلام يواصل كلامه ويستعرض الوصية الثانية ويقول: «فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ».

نقحات الولاية ؛ ج ٩ ؛ ص ٤٩٨

ذا هو الأمر الذي ورد التأكيد عليه كثيراً في الروايات الإسلامية إلى درجة أننا نقرأ في الحديث النبوي المعروف: «مَلْعُونٌ مَنْ أَلْقَى كَلَّةً عَلَى النَّاسِ» [٦٥٥].

لو أن جميع المسلمين وبخاصية الشبان عملوا بهذه التوصية فلا أحد سيكون محتاجاً للآخرين سوى العجزة والمعوقين، وبديهى أن المجتمع الإسلامى سيتحرك في خطّ الرقى والتقدم ويحرز حالة من الإزدهار الاقتصادى والحضارى بدرجات عالية، بل إن البلدان الإسلامية سوف لا تكون أداة طيعة للبلدان الأجنبية، لأن ذلك لا ينتج لهم سوى الذلّة والمهانة والتبعية.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى معنى آخر لهذه العبارة وقالوا: إن المقصود

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٤٩٩

منها السعي والكدح في طريق الإنفاق، فكلمة «كدح» تعني أن الإنسان يكدح ويتعب نفسه في البذل، وفي هذه الصورة تكون هذه العبارة مقدّمة لما يأتي بعدها، ولكن يبدو أن التفسير الأول أصح.

ثم يبين الإمام عليه السلام التوصية الثالثة، ويقول: «وَلَا تُكُنْ خَازِنًا لِغَيْرِكَ».

ويشير بذلك إلى أن الأشخاص الذين يتعبون أنفسهم في جمع الأموال والثروات ولا ينفقونها في سبيل الله، هم من المساكين الذين يتعبون أنفسهم في جمع وحفظ الأموال ويتنفع بها الورثة، وفي القيامة يحاسبون عليها بينما يلتذّ بها ويتنفع بها الآخرون، أي الورثة الذين لا يعيشون أحياناً أيّ مودّة واهتمام بالمورث وصاحب المال، ولا ينفقون منها في سبيل الله لحساب صاحبها، بل أحياناً يوبخونه ويذمّونه بأنه لم يترك لهم ثروة كافية، وحتى لو كان الورثة من الأشخاص الصالحين واستثمروا هذه الأموال في طريق الطاعة والصلاح، فمع ذلك ستكون حسرة على صاحب المال لأنه أتعب نفسه من أجلها بينما ربح ثوابها الآخرون، وهذا هو ما وردت الإشارة إليه في الروايات الإسلامية.

يقول الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية الشريفة: «كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ» [٦٥٦]. قال: «هُوَ الرَّجُلُ يَدْعُ مَالَهُ لِيُنْفِقَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ بُخْلًا ثُمَّ يَمُوتُ فَيَدْعُهُ لِمَنْ يَعْمَلُ فِيهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ أَوْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنْ عَمِلَ بِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ رَأَى فِي مِيزَانِ غَيْرِهِ فَرَأَى حَسْرَةً وَقَدْ كَانَ الْمَالُ لَهُ وَإِنْ كَانَ عَمِلَ بِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ قَوَاهُ بِذَلِكَ الْمَالِ حَتَّى عَمِلَ بِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» [٦٥٧].

ثم يتعرض الإمام عليه السلام لبيان التوصية الرابعة ويقول: «وَإِذَا أَنْتَ هَدَيْتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ».

وهذا يعني أن جميع النعم والمواهب الإلهية تستحقّ من العبد الشكر، وأيّ نعمة

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٠٠

أعظم على الإنسان من الهداية لطريق الخير والصلاح مع أن مجاميع كثيرة من الناس ساروا في خطّ الضلالة والمتاهة، وشكر كلّ نعمة يجب أن يتناسب مع تلك النعمة، وشكر نعمة الهداية يستلزم الخضوع للحقّ تعالى وإطاعة أوامره ونواهي.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٠١

القسم السابع عشر

إشارة

وَاعْلَمِ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقًا ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لَأَغْنَى بِكَ فِيهِ عَنِ الْحُسْنِ الْارْتِيَادِ، وَقَدَرِ بَلَاغَكَ مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلَمَّا تَحَمَّلْتَ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونُ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجِدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُؤَاغِرُكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَأَعْتَنَّمْهُ وَحَمَلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَرْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ، وَاعْتَنَّمْ مِنْ اسْتَفْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ.

الشرح والتفسير: الآخرون يحملون متاعك إلى الآخرة!

في هذه الفقرة من الوصية يتحدث الإمام عليه السلام عن طول سفر الآخرة وحاجة الإنسان الشديدة للزاد والمتاع لهذا السفر من

الطاعات وأعمال الخير وخاصة الإنفاق في سبيل الله.

بداية يقول: «وَاعْلَمَ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقًا ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَسَقَّةٍ شَدِيدَةٍ».

إن طريق الدنيا مهما كانت طويلة وشاقّة فإنها بالنسبة لطريق الآخرة سهلة وميسورة، وطريق الآخرة مليء بالمنعطفات والمطبات وتحتاج لمجاهدة النفس وتربيتها على الفضائل الأخلاقية، وأحياناً يستغرق سلوك هذا الطريق سنوات طوال.

وبعد هذا التحذير يتبّه الإمام عليه السلام إلى لزوم تهيئته الزاد والمتاع لهذا السفر المليء

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٠٢

بالمخاطر ويقول: «وَأَنَّه لَأَغْنِي بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الْأَرْتِيَادِ [٦٥٨]، وَقَدْرٍ بَلَاغِكَ [٦٥٩] مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ».

إن الأصل والأساس في هذا الزاد والمتاع هو ما ورد في القرآن الكريم يقول:

«وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى [٦٦٠].»

وعبارة: «حُسْنِ الْأَرْتِيَادِ» مع الالتفات إلى أن كلمة «الارتياح» تعنى الطلب، فالمراد من العبارة حسن الطلب، أو بكلمة أخرى التدبير وإبتغاء المنهج الصحيح في سلوك الطريق (أى في تهيئته الزاد والمتاع لسفر الآخرة).

وعبارة: «خِفَّةِ الظَّهْرِ» إشارة إلى ما ذكره القرآن الكريم، حيث يقول: «وَلِيَحْمِلَنَّ أُنْقَالَهُمْ وَأُنْقَالًا مَعَ أُنْقَالِهِمْ» [٦٦١]، فالإمام عليه السلام يوصى ولده أن لا يكون مثل هؤلاء الأشخاص الذين يحملون أوزارهم وأوزار الآخرين على ظهورهم، فالمؤمن يسعى لتخفيف حمله ما أمكنه ذلك.

وسبق أن ذكرنا في شرح الخطبة الحادية والعشرين أن الإمام عليه السلام تحدّث عن هذا المضمون بعبارة وجيزة جداً وعميقة المغزى وقال: «تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا»، في الماضي وعندما كانت القوافل تسير في طرق صعبة وتصل إلى منعطفات خطيرة فإن المثقلين يعجزون عن مواصلة الطريق، وبما أن القافلة لا تستطيع التوقف بسببهم، فإنها تستمر في مسيرتها، ويبقى هؤلاء وحدهم في الصحراء ويكون مصيرهم نهبا لقطاع الطرق وطعاماً لذئاب البراري.

وبعد هذه المقدمة الوجيزة والعميقة المعنى يطرح الإمام عليه السلام مسألة الإنفاق في

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٠٣

سبيل الله وأنه أهم زاد ومتاع ليوم القيامة ويقول: «فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلٌ ذَلِكُ وَبَالًا عَلَيْكَ».

ويشير بذلك إلى أنك لا تدخر لنفسك أكثر ممّا تحتاجه في حياتك ومعاشك بحيث تستطيع الإجابة يوم القيامة عنه، لأن ما تجمعه من هذه الدنيا سيكون ثقيلاً عليك في الآخرة، فالحمل الذي لا تنتفع به في هذا المسار سوف لا يجديك سوى التعب والعناء.

ثم يدعو الإمام عليه السلام للإنفاق في سبيل الله بعبارات رائعة وجدّابة فيقول: «وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُرَافِكَ بِهِ عَدَاً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاعْتَنِمُهُ وَحَمَلُهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ».

ثم يضيف: «فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ [٦٦٢]».

وفي ختام هذا المقطع من الوصية يستخدم الإمام عليه السلام عبارات أخرى لترغيب المخاطب إلى الإنفاق في سبيل الله ويقول: «وَاعْتَنِمَنَّ مَنْ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ».

وحصيلة الكلام أن الإنسان العاقل ينبغي أن يستثمر وجود نمطين من الناس:

الشخص الذي يتبرّع بحمل زاد الإنسان على كتفه مجاناً ويوصله بفرح وسرور إلى المنزل المقصود، والآخر الشخص الذي يستقرض من الإنسان بعض أمواله في حال عدم حاجته إليه ويسدده له في وقت هو بأمرس الحاجة إليه، أجل، هكذا حال الأشخاص الذين يتحرّكون في الإنفاق في سبيل الله، وهذا التعبير عن هؤلاء يعتبر أبلغ وأجمل تعبير يجسّد في طياته القيم الأخلاقية الرفيعة.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٠٤

والتعبير الثاني مقتبس من القرآن الكريم ويقول: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً» [٦٦٣]، وطبعاً فالآية الشريفة تضيف نقطة أخرى على مسألة القرض، وهى أن الله تعالى هو الذى يستقرض من عباده، ثم يسدد لهم أضعافاً مضاعفة. والتعبير الأول يحتمل أن يكون من الآيات الشريفة فى سورة البلد، تقول الآيات: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُ رَقَبَةُ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبَةٍ ...» [٦٦٤].

والجدير بالالتفات أن المرحوم الصدوق ينقل فى كتابه علل الشرائع رواية رائعة مناسبة للكلام الوارد فى الوصية مورد البحث، يقول سفيان بن عيينة قال: رأى الزهرى (من التابعين المعروفين) على بن الحسين عليه السلام ليلة بارده مطيرة وعلى ظهره دقيق وهو يمشى، فقال له: يا ابن رسول الله ما هذا؟ قال: «أُرِيدُ سَفَرًا أُعِدُّ لَهُ زَادًا أَحْمَلُهُ إِلَى مَوْضِعِ حَرِيْزٍ»، فقال الزهرى: فهذا غلامى يحمله عنك، فأبى قال: أنا أحمله عنك فأبى أرفعك عن حملة، فقال على بن الحسين: «لَكِنِّي لَأَرْفَعُ نَفْسِي عَمَّا يُنَجِّنِي فِي سَفَرِي وَيُحْسِنُ وُرُودِي عَلَى مَيَا أَرِدُ عَلَيْهِ أَشَأَلُكَ بِحَقِّ اللَّهِ لَمَّا مَضَيْتَ لِحَاجَتِكَ وَتَرَكْتَنِي». فانصرف عنه، فلم يابعد أيام قال له: يا ابن رسول الله لست أرى لذلك السفر الذى ذكرته أثراً، قال: «بلى يا زهرى لَيْسَ مَا ظَنَنْتَ وَلَكِنَّهُ الْمَوْتُ وَلَهُ كُنْتُ أَسْتَعِدُّ إِنَّمَا الْأَسْبَابُ تَعْدَادٌ لِلْمَوْتِ تَجَنُّبُ الْحَرَامِ وَبَذْلُ النَّدَى وَالْخَيْرِ» [٦٦٥].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٥٥

القسم الثامن عشر

إشارة

وَاعْلَمَ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةٌ كَثُودًا، الْمُخِيفُ فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمُثْقَلِ، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالًا مِنَ الْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَامِحَالَةٌ إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ، فَارْتَدَّ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِئَ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، «فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ»، وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ.

الشرح والتفسير: ضع عن كتفك هم يومك!

يعود الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الوصية النورانية ليتحدث مرّة أخرى فى مسألة سفر القيامة الطويل والملىء بالمخاطر والعقبات، ويبين معالم هذا المسير بدقّة متناهية، ويتحدث عن وسيلة النجاة فيه.

بداية يقول: «وَاعْلَمَ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةٌ كَثُودًا» [٦٦٦]، الْمُخِيفُ [٦٦٧] فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمُثْقَلِ [٦٦٨]، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالًا مِنَ الْمُسْرِعِ».

والمراد من العقبة الكثود والمنعطف الخطير فى هذا المسار إمّا الموت وسكراته، أو عالم البرزخ، أو جسر الصراط (ويحتمل أن يكون جميع ذلك).

وبديهيّ أنّه لإحراز السلامة فى عملية العبور من هذه المآزق والمنعطفات الخطيرة ينبغى التخفيف من الأثقال، والإسراع فى المسير، لأنّه فى مثل هذه

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٠٦

المنعطفات الخطيرة يكثر قطاع الطرق أو الحيوانات المفترسة التى يواجهها الإنسان فى هذا الطريق وتعيقه عن إكمال المسير.

وهذا التعبير أيضاً مقتبس من القرآن الكريم حيث يقول: «فَلَمَّا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * مَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُ رَقَبَةُ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبَةٍ ...» [٦٦٩].

وذهب بعض المفسرين فى شرح هذه الآيات أن العقبة تعنى هوى النفس، وذهب آخرون إلى المآزق والمنعطفات الخطيرة يوم

القيامة، وكلام الإمام عليه السلام هنا يتناسب مع الثاني.

ويواصل الإمام عليه السلام حديثه عن هذا المسير المعنوي ويقول: «وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَا مَحَالَهٗ إِمَّا عَلَىٰ جَنَّةٍ أَوْ عَلَىٰ نَارٍ». ثم يضيف: «فَارْتَدَّ [٦٧٠] لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِئَ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ [٦٧١] وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرِفٌ [٦٧٢]».

والجدير بالذكر أن جملة: «لَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ» قالها لأول مرة رسول الله صلى الله عليه وآله فقد ورد في الحديث الشريف عنه صلى الله عليه وآله: «لَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَاتِ وَمُنْغَصِ الشَّهَوَاتِ» [٦٧٣]. وجملة: «وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرِفٌ»، تعكس حقيقة جلية أشارت إليها الآيات القرآنية والروايات الشريفة بشكل واسع، القرآن الكريم يقول: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا...» [٦٧٤].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٠٧

ونقرأ في الخطبة ١٨٨ من نهج البلاغة في حديث الإمام عليه السلام عن الموتى ويقول:

«لَا عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالَ وَلَا فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ اِرْتِيَادًا».

أجل، إن هذا المنزل في يوم القيامة وما بعد الموت غير قابل للعودة، كما أن الوليد المعوق لا يستطيع أبداً العودة إلى رحم أمه لينمو من جديد بشكل صحيح ولا يمكن للثمرة التي انفصلت عن الشجرة أن تعود إلى غصنها، فالأشخاص الذين يغادرون هذا العالم إلى عالم البرزخ لا يستطيعون أبداً العودة إلى الدنيا، وأهل البرزخ بدورهم عندما ينتقلون إلى القيامة لا يستطيعون العودة إلى عالم البرزخ، وهذا تحذير لنا جميعاً بأن نعلم أننا ربما سنواجه لحظة وينتهي كل شيء وتوحد أمامنا أبواب التوبة ولا نستطيع تحصيل الزاد والمتاع، فنغادر الدنيا بقلوب مليئة بالحسرات.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٠٩

القسم التاسع عشر

إشارة

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَدْنَىٰ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيعْطِيكَ، وَتَسْتَوْجِبَهُ لِيُزَحِّمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئِكَ إِلَىٰ مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ مِنْ أَسَدَاتِ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلِكَ بِالنَّقْمَةِ، وَلَمْ يُعَيِّرِكَ بِالْإِنَانِيَّةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَىٰ وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَانِيَّةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتِكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، وَبَابَ الْاِسْتِغْتَابِ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْتَشْتُهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَّوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتُهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعْنَيْتَهُ عَلَىٰ أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لِيَقْدِرُ عَلَىٰ إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ، وَسِعَةِ الْأَرْزَاقِ. ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَدْنَىٰ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَىٰ شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَأْبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلَمَّا يُقْتَضِيكَ إِنْطَاءُ إِحْيَائِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَىٰ قَدْرِ النَّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخْرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْأَمَلِ. وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوْتَيْتَ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، أَوْ صُدِرْفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَكَ دِينُكَ لَوْ أُوتِيَتْهُ، فَلَتَكُنْ مَسْأَلَتَكَ فِيمَا يَبْقَىٰ لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَىٰ عَنْكَ وَبَالُهُ؛ فَالْمَالُ لَا يَبْقَىٰ لَكَ

وَلَا تَبْقَى لَهُ.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥١٠

الشرح والتفسير: فتح أبواب التوبة والدعاء أمام الإنسان

في هذا المقطع من الوصية النورانية يشير الإمام عليه السلام إلى عدّة مواضيع مهمّة ويقول: ينبغي عليك أن تهتمّ بمسألة الدعاء، فالدعاء يمثل قضية مصيرية في حياتك: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكْفَلُ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَمْرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ».

وفي هذه العبارات يشير الإمام عليه السلام إلى نقاط عدّة لتشويق المخاطب للدعاء، فيقول أولاً: يجب أن تطلب حاجاتك ممّن يملك جميع الأمور ويده مقاليد السماوات والأرض ويستطيع أن ينعم عليك بالرزق والعطايا، وبكلمة واحدة أن تدعو من يملك جميع الكائنات، وعلى ضوء ذلك تكون في طلبك ودعائك قريباً من الإجابة.

وفي الجملة الثانية يقول: إنّ الله تعالى أذن لك بالدعاء، أي في الحقيقة أنّه دعاك لتأتي إلى ساحه قدسه وتسأله من فضله وكرمه وتدعوه وتناجيه، وهذا يمثّل غاية اللطف والرحمة بحيث أنّه تعالى دعا المحتاجين إليه وقال: تعالوا إليّ واطلبوا منّي، وهذا المعنى أشارت إليه الآيات القرآنية في قوله تعالى: «قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ» [٦٧٥].

وفي الجملة الثالثة يقول: إنّ الله تعالى قد ضمن لك استجابة الدعاء، وهذا أيضاً إشارة لقوله تعالى: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» [٦٧٦] وغيرها من الآيات الشريفة.

وفي الجملة الرابعة يتوسّع الإمام عليه السلام في هذا الموضوع وأنّ الله تعالى قد تجاوز مسألة الإذن في الدعاء، بل أمرك أن تسأله وتدعوه وتطلب من لطفه ورحمته ويعطيك وينعم عليك ويرحمك، وهذا ما ورد في الآيات الشريفة، نظير: «وَأَسْتَلُوا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥١١

اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» [٦٧٧].

وفي الجملة الخامسة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئِكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ». وهذا إشارة إلى أنّ الدين الإسلامي يقوم على أساس أن البشر يستطيعون إقامة علاقة مباشرة مع الله تعالى بدون توسط أحد من العباد، كما هو الحال في الصلاة التي نصليها كلّ يوم، فإننا من بدايتها إلى انتهائها وبخاصة في سورة الفاتحة نتحدّث مع الله تعالى بشكل مباشر بدون أية واسطة بيننا، وهذا يعدّ افتخاراً كبيراً للإسلام والمسلمين حيث فتح الإسلام طريق الارتباط المباشر مع الله للجميع، والآيات القرآنية شاهدة على هذا المعنى، لا سيّما الآيات الشريفة التي تبتدىء بكلمة «ربّنا».

على العكس من ذلك بعض المذاهب الباطلة التي تشترط وجود واسطة من المرشد وشيخ الطريقة بين العبد وربّه وأحياناً لا يجيدون إقامة ارتباط مباشر مع الله تعالى.

وهنا يثار هذا السؤال، وهو أنّ مسألة الشفاعة في الإسلام، أي شفاعّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام وصالح المؤمنين، وردت بكثرة في الآيات القرآنية والروايات الشريفة حيث تدلّ على شفاعّة الشفعاء في الدنيا والآخرة، ألا تتنافى مثل هذه الشفاعّة مع الارتباط المباشر مع الله تعالى؟

والجواب على هذا السؤال يتّضح بالالتفات إلى نقطتين:

الاولى: إنّ هذا المعنى لا ينفى وجود الارتباط المباشر، بل إنّ الارتباط المباشر بالله تعالى محفوظ في محلّه، والمسلمون يرتبطون بالله في كلّ يوم وليله بشكل مباشر في صلاتهم ودعائهم، والشفاعة بدورها لها مكانة خاصّة وثابتة، وبعبارة أخرى أنّ كلا الطرفين يوصلان الإنسان برحمته الله ولطفه ولا تقاطع بينهما حيث

نفعات الولاية، ج ٩، ص: ٥١٢

يجتمعان في إيصال العبد لربه.

الثانية: وردت في الآيات القرآنية الإشارة إلى هذه النقطة في أكثر من مورد وهي أن الشفاعة بدورها إنما تتحقق بإذن الله، وعلى ضوء ذلك فالشخص الذي يتوسل بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام ويطلب منهم الشفاعة، يجب عليه إلى جانب ذلك أن يطلب من الله الإذن لهم بالشفاعة، فإذن الشفاعة يعتبر مكمل للارتباط المباشر بالله تعالى.

وبيان آخر، إنني أطلب قضاء حوائجي من الله تعالى مباشرة، ولكن أحياناً تكون الحاجة معقدة ومهمّة، أو إنني ملوث بالذنوب بدرجته أشعر معها أنني لا أستطيع نيل بغيتي وتحقيق مرادى لوحدي ومن خلال الدعاء فقط، هنا أتوسل بالأولياء الإلهيين الذين لهم مكانة واعتبار عند الله تعالى أن يشفعوا لي عند الله تعالى بإذن الله، على سبيل المثال، نرى أن إخوة يوسف بعد ما ارتكبوا تلكم الجرائم في أخيهم شعروا بأنّ ذنبهم عظيم إلى درجة أنّهم لا يستطيعون طلب العفو بشكل مباشر من أخيهم يوسف عليه السلام أو من الله تعالى، وبذلك توسلوا بأبيهم وقالوا: «يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّنا كنا خاطئين» [٦٧٨].

ثم إن الإمام عليه السلام بعد أن يطرح مسألة الدعاء يتعرّض لمسألة التوبة ويتحدّث عنها بكلمات بليغة وزاخرة بالمضامين العالية ويبين أن اللطف الإلهي يشمل المذنبين التائبين، ويؤكد هذا المعنى في ثمان جمل:

١. «وَلَمْ يَمْنَعَكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ»، حيث فتح أمامك أبواب التوبة مع إساءتك.

٢. «وَلَمْ يُعَاجِلَكَ بِالنَّقْمَةِ»، فأخر العقوبة لعلك تتوب من ذنبك.

٣. «وَلَمْ يُعَيِّرَكَ بِالْإِنَابَةِ»، كما هو حال الأشخاص الذين يعيشون حب الانتقام من التائبين ويواجهونهم باللوم والتوبيخ والتقريع.

نفعات الولاية، ج ٩، ص: ٥١٣

٤. «وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى»، وليس كما يتعامل بعض أصحاب النفوس الضعيفة الذين يتحرّكون على مستوى فضح الطرف المقابل بأدنى زلة.

٥. «وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ»، بخلاف ما يتعامل به أصحاب الشخصيات الهزيلة مع الآخرين.

٦. «وَلَمْ يَنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ»، بل يصفح عنك ومن دون استعتاب ومؤاخذه.

٧. «وَلَمْ يُؤَيِّسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ [٦٨٠] عَنِ الذَّنْبِ حَسْبَهُ، وَحَسَبَ سَيِّئَتِكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا»، ومهما كان ذنبك عظيماً ووزرك ثقيلاً فإن الله تعالى فتح باب العوده والتوبة والإنابة إليك، وجعل هذه العوده حسنة لك، والأهم من ذلك أنه جعل سيئتك واحدة، وضاعف حسنتك إلى عشر حسنات.

٨. «وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، وَبَابَ الْاسْتِعَابِ [٦٨١]»، أي أن الله تعالى فتح باب العوده إليه دائماً.

هذه العبارات في الحقيقة مقتبسة من الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدّث عن التوبة وآثارها والألطف الإلهية بالنسبة للتائبين والمنيبين.

والقرآن الكريم يقول: «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [٦٨٢].

وفي مورد آخر يتحدّث عن قبول التوبة ويقول: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ» [٦٨٣].

وفي مورد آخر يتحدّث عن عدم تعجيل العقوبة للمذنبين ويقول: «وَرُبُّكَ الْغَفُورُ

نفعات الولاية، ج ٩، ص: ٥١٤

ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ» [٦٨٤].

وفيما يخصّ عدم اليأس من رحمة الله يتحدّث القرآن الكريم بعبارات زاخرة باللطف ومفعمة بالمحبة، يقول للنبي صلى الله عليه وآله وفيما يخطبهم: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» [٦٨٥].

وبالنسبة لتبديل السيئات بالحسنات يقول تعالى: «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ» [٦٨٦].

وما يخص كتابه السيئات بمقدارها وكتابه الحسنات بعشر أمثالها يقول تعالى:

«مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» [٦٨٧].

ومن المعلوم أن التوبة تعتبر أول خطوة في طريق السلوك إلى الله تعالى ومن هنا يعتبر السالكون إلى الله التوبة أول منزل من منازل هذا الطريق، وعندما نرى أن الإمام عليه السلام يذكر التوبة بعد الدعاء، فذلك لأن التوبة أيضاً نوع من الدعاء، أي الدعاء لطلب العفو والرحمة من الله تعالى، وما لم يتقدم الإنسان بهذه الخطوة، لن يغسل عن روحه وقلبه غبار الذنوب، وما لم يزح حجاب المعصية عن عين قلبه، فإن سلوك هذا الطريق يكون عسيراً أو غير ممكن.

ونقرأ في الأدعية وروايات المعصومين عليهم السلام أيضاً إشارات كثيرة وتعبيرات لطيفة عن هذا الموضوع، وذلك ما ورد في مناجاة التائبين (وهي أول مناجاة من المناجيات الخمسة عشر للإمام زين العابدين عليه السلام) فنقرأ: «إلهي أَنْتَ الَّذِي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَاباً إِلَى عَفْوِكَ سَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ فَقُلْتَ: «تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً» فَمَا عُدْرٌ مَنْ أَعْفَلَ دُخُولَ الْبَابِ بَعْدَ فَتْحِهِ».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥١٥

أجل، فالإمام عليه السلام بوصفه مرشداً مطّلعاً مجزباً يأخذ بيد ولده الشاب ويسير به في هذا الطريق من منزل لآخر إلى حيث الوصول إلى منزل القرب الإلهي.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه لولده ويوصيه بالدعاء والمناجاة لله وطلب الحاجة إليه، ويقول: «فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ بِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ [٦٨٨] إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْتَشْتُهُ [٦٨٩] ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعْنَيْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ».

ففي هذه الفقرة من كلام الإمام عليه السلام يعلم الإمام ولده كيفية المناجاة والابتهاج مع إلى الله تعالى ويقول: اطلب حاجتك منه تعالى وافتح له قلبك وأبرز له هواجسك ومكنوناتك، وتحدث معه عن معاناتك وهمومك، واطلب منه المعونة في جميع أمورك، فهذه الأمور الخمسة تشكّل محاور مناجاة العباد مع ربهم وقد أشار إليها الإمام عليه السلام بعبارات بليغة وموجزة.

ثم إن الإمام عليه السلام بين لولده كيفية الطلب من الله تعالى وعدّد له مواهبه ونعمه المهمّة التي ينبغي للإنسان أن يطلبها من الله تعالى دائماً ويقول: «وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ».

فهنا نرى الإمام عليه السلام بعد أن يؤكد على أن الله تعالى يملك مواهب ونعماً في خزائن رحمته ولا يستطيع أي مخلوق إعطاء هذه النعم للإنسان، يشير الإمام عليه السلام إلى ثلاث من هذه النعم:

١. العمر الطويل، الذي يتيح للإنسان أن يتحرّك على مستوى بناء ذاته وتزكيه نفسه وزيادة حسناته.

٢. الصّحة والسلامة، وبدون هذه الصّحة والسلامة فلا يترتب على زيادة العمر

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥١٦

سوى مزيد من الألم والمعاناة وأحياناً يؤدي إلى الابتعاد عن الله والإعراض عن رحمته.

٣. الرزق الوفير، لأنّ الإنسان بدون إمكانات مادية غير قادر على أداء الكثير من الحسنات والخيرات، من قبيل صلة الرحم، كفالة الأيتام، إعانة المحتاجين، بناء المدارس، المستشفيات، نشر علوم الإسلام ومعارف أهل البيت عليهم السلام، ضيافة المؤمنين وما إلى ذلك.

وطبعاً هذا في صورة أن يكون المقصود من الأرزاق في هذه العبارة الأرزاق المادية، ولكن إذا توسّعنا في مفهوم الرزق بحيث يشمل العلوم والمعارف، النفوذ الاجتماعي، القوى الجسميّة والنفسيّة وما شاكل ذلك، فسوف يكون المطلوب أوضح وأبين.

وممّا لا شك فيه أن طول العمر وصحة البدن وسعة الرزق تتصل بشكل وثيق بسعي الإنسان وجهده بأن يراعى المسائل الصحيّة

ويجتنب عوامل الضرر وموجبات المرض، ويتحرك في واقع الحياة بطلب الرزق، ولكن بشكل عام فإن هذه الأمور مرتبة بمشيئة الله تعالى، والعوامل التي يفرضها ويقررها الباري في عالم الغيب وهي خافية علينا، وعلى حدّ تعبير الإمام عليه السلام: إنّها من خزائن رحمة الله تعالى الذي لا يقدر على إعطائك غيره.

ويشير القرآن الكريم إلى هذا الموضوع أيضاً في حديثه عن دعاء النبي إبراهيم عليه السلام وقوله: «الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطَعَّمُنِي يَسَقِّينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ» [٦٩٠].

ومن المعلوم أنّ المواهب الإلهية لا تنحصر بزيادة العمر وصحة البدن وسعة الرزق، ولكن لا شك أنّ الأركان الأصلية لهذه النعم والمواهب الإلهية تتمحور حول هذه الأمور الثلاثة، لأنّ الأصل والعمدة في أعمال الخير ينبثق من هذه الأمور.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥١٧

وفي بيان مفاتيح هذه الخزائن الإلهية يقول الإمام عليه السلام: «تَمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَدِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ». ويتبين من هذا الكلام أنّ الدعاء والابتهاال إلى الله تعالى له تأثير كبير في نيل المطلوب والانتفاع بالنعم المتوفرة في هذه الخزائن اللامتناهية ويتبين أيضاً دور الدعاء في فتح أبواب هذه الخزائن الغيبية.

وطبعاً فالدعاء يستلزم توفر شروطه، منها أن يبذل الإنسان جهده بما لديه من إمكانيات في هذا السبيل، ثم يتوسل بالدعاء لما ليس له قدرة عليه وما هو خارج عن إمكانياته.

ثم يخرج الإمام عليه السلام بهذه النتيجة: «فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتَمَطَّرْتَ شَأْيَبَ [٦٩١] رَحْمَتِهِ». ومعلوم أنّ خزائن الله تتمثل بمجموعة النعم المادية والمعنوية للمخلوقات، وأنّ مفتاح أبواب هذه الخزائن هو الدعاء، وبكلمة أخرى أنّ الإمام عليه السلام شبه نعم الله تعالى بمطر الرحمة حيث يستطيع الإنسان أن يستمطر هذه الرحمة الإلهية من سماء القدرة الإلهية المطلقة واللفظ الإلهي العميم على أرض وجوده ويروى ظمأ قلبه وعطش روحه.

وجاء في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الدُّعَاءُ مَفَاتِيحُ النَّجَاحِ وَمَقَالِيدُ الْفَلَاحِ وَخَيْرُ الدُّعَاءِ مَا صَدَرَ عَنْ صَدْرٍ نَقِيٍّ وَقَلْبٍ تَقِيٍّ» [٦٩٢].

وهنا يثار سؤال مهمّ ومعروف، والإمام عليه السلام يجب عنه بلا فصل، وهو: لماذا لا تستجاب الكثير من أديتنا، أو تتأخر الإجابة مدّة طويلة، فلو كان الدعاء يفتح أبواب رحمة الله، فلماذا لا يفتح هذا المفتاح الباب أو يستغرق فتحها مدّة من الزمان؟ في حين أنّ الآيات الشريفة التي تعتبر الدعاء مفتاح الإجابة المطلقة وشاملة

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥١٨

لجميع الحالات، ففي مورد يقول القرآن الكريم: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» [٦٩٣]، وفي مورد آخر يقول: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» [٦٩٤].

ويجب الإمام عليه السلام عن هذا السؤال بالإشارة إلى أربع نقاط:

الاولى: أحياناً تكون تيّبة الداعي ملوثة ولا يصدر الدعاء عن قلب نقى وطاهر من الذنوب، يقول: «فَلَا يُقْبَلُكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ التَّيِّبَةِ».

وهذا الحديث الشريف الذي قرأناه آنفاً مذكور في كتاب الكافي وأنّ الدعاء إنّما يستجاب إذا صدر من قلب نقى وطاهر، وعلى هذا الأساس إذا لم تستجب بعض الأدعية ويستجاب البعض الآخر، فذلك ناشيء من تلوث التيّبة، والروايات التي تقرّر أنّ أحد شرائط استجابة الدعاء التوبة من الذنوب، تشير إلى هذا المعنى أيضاً.

وأشار الإمام عليه السلام إلى المانع الثاني في قوله: «وَرُبَّمَا أُخْرَتْ عَنْكَ الْجَائِيَةُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَكْبَرَ إِجَابَتِكَ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْأَمَلِ».

وبيان آخر أن الله تعالى قد يؤخر استجابة دعاء عبده ليقبى العبد فترة أطول أمام باب بيته، وبالتالي يحصل على مواهب أكثر وأوفر وذلك بسبب محبة الله لهذا العبد.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى المانع الثالث من استجابة الدعاء ويقول: «وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاَهُ، وَأُوتِيَتْ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا».

وهو إشارة إلى أنك ربما تطلب شيئاً قليلاً وتافهاً من الله تعالى ولكن الله بمقتضى عظمتة وسعته رحمته لا يستجيب لك ولا يعطيك ما تطلب، بل يعطيك خيراً منه عاجلاً أو آجلاً، كالشخص الذى يتوجه لشخص كريم فيطلب منه داراً وضيعه مثلاً ولكن ذلك الكريم لا يقبل ويمتنع عن إعطائه ما يريد، لأنه سيعطيه فيما بعد داراً أوسع وأفضل مما طلب.

نفعات الولاية، ج ٩، ص: ٥١٩

ثم يبين الإمام عليه السلام السبب الرابع لعدم استجابة الدعاء، والذى يعتبر أهم سبب فى ذلك، يقول: «أَوْ صِرِفَ عَنكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيْتَهُ».

فالكثير من الناس وبسبب عدم اطلاعهم على عواقب الأمور يطلبون مسائل وحاجات من الله تعالى بإصرار وإلحاح، فى حين أن هذا الطلب فيه هلاكه وفساده، وبما أن الله تعالى عالم بعواقب الأمور، فإنه لا يستجيب مثل هذا الدعاء، ولكنه لا يخيب أمل عبده، فيعطيه ما فيه فلاحه ونفعه.

ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة أيضاً ويقول: «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ» [٦٩٥]. ونقرأ فى حديث شريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ عِبَادًا لَا يَصْلُحُ لَهُمْ أَمْرٌ دِينِهِمْ إِلَّا بِالْغِنَى وَالسَّعَةِ وَالصَّحَّةِ فِي الْبَدَنِ فَأَبْلَوْهُمْ بِالْغِنَى وَالسَّعَةِ وَصَحَّةِ الْبَدَنِ فَيَصْلُحُ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ دِينِهِمْ وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لِعِبَادًا لَا يَصْلُحُ لَهُمْ أَمْرٌ دِينِهِمْ إِلَّا بِالْفَاقَةِ وَالْمَسْكِنَةِ وَالسُّقْمِ فِي أَبْدَانِهِمْ فَأَبْلَوْهُمْ بِالْفَاقَةِ وَالْمَسْكِنَةِ وَالسُّقْمِ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ دِينِهِمْ» [٦٩٦].

وهناك نماذج جليية على امتداد التاريخ وحتى فى زمان صحابة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى عليهم السلام تحكى عن وجود بعض الأفراد من ذوى الذهنية الضيقة يطلبون من الله تعالى وإصرار ويتوسلون إليه بالنبى الأكرم صلى الله عليه وآله أو الأئمة المعصومين عليهم السلام أن يوسع فى رزقهم، وبعد الإصرار والطلب من النبى صلى الله عليه وآله أو الإمام أن يدعو لهم بسعة الرزق تفضى بهم سعة الرزق إلى حالة من الطغيان والتمرد، بل ينطق بعض هؤلاء بكلمات يستشمن منها الإرتداد عن الدين والإيمان كما فى القصة المعروفة عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى الذى كان يصر على النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أن يدعو له بالمال الوفير، نفعات الولاية، ج ٩، ص: ٥٢٠

وكان النبى يعلم بحاله ومستقبله وكان يقول له: «قَلِيلٌ تَوَدَّى سُكْرُهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ»، أليس من الأفضل أن تتأسى بالنبى الأكرم صلى الله عليه وآله وتقع بحياة بسيطة؟ ولكن ثعلبة بقى مصرّاً على طلبه، وأخيراً دعا له النبى وحصل على ثروة كبيرة من ميراث خلفه له أحد أرحامه، فاشترى بهذا المال ماشية، وازدادت وكثرت تدريجياً حتى أصبح من العسير الاحتفاظ بها فى المدينة، فاضطر ثعلبة إلى الخروج إلى خارج المدينة وعلق بحياته المادية حتى ترك صلاة الجماعة والجمعة خلف النبى الأكرم صلى الله عليه وآله خلافاً لعاداته السابقة حيث كان يشترك فى جميع صلوات النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

وبعد مدة أرسل إليه النبى من يقبض منه زكاة أمواله، فامتنع ثعلبة من دفع الزكاة واعترض على أصل تشريع هذا الحكم الإلهى وقال: هل هذا إلّا الجزية التى تؤخذ من أهل الكتاب، نحن أسلمنا لئلا ندفع الجزية، وعندما وصل خبره إلى النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «يَا وَجِيعَ ثَعْلَبَةَ» [٦٩٧].

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه فى مسألة الدعاء ويصل إلى نتيجة مهمة ويقول:

«فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتَكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ؛ فَالْمَالُ لِيَبْقَى لَكَ وَلَا تَبْقَى لَهُ».

تأمل: شروط استجابة الدعاء

قد يتصور البعض أن عبارات من قبيل: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» [٦٩٨] مطلقة وغير مقيدة بأي قيد وشرط وأن الإنسان عندما يدعو بأي دعاء فعليه أن يتوقع الإجابة

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٢١

وأن الله تعالى سيستجيب له هذا الدعاء بلطفه وكرمه، في حين أن الأمر ليس كذلك، فقد ورد في روايات عدة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام شروط عدة لاستجابة الدعاء، منها التوبة وصفاء القلب، يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إِيَّاكُمْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ شَيْئاً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَتَّى يَبْدَأَ بِالتَّوْبَةِ عَلَى اللَّهِ وَالْمِدْحَةِ لَهُ وَالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ ثُمَّ الْأَعْتَرَفِ بِالذَّنْبِ وَالتَّوْبَةِ ثُمَّ الْمَسْأَلَةِ» [٦٩٩].

والشرط الآخر أن يعيش الداعي حياة الطهر والنقاء، خاصة من الأطمعة المحرمة والكسب الحرام كما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْتَجَابَ دَعَاؤُهُ فَلْيُطَيِّبْ مَطْعَمَهُ وَمَكْسَبَهُ» [٧٠٠].

في حين أن الكثير من الناس في حال الدعاء لا يعيشون حالة التوبة ولا يجتنبون الأطمعة المحرمة أو الملوثة، ثم يتوقعون أن يستجيب الله تعالى لهم دعاءهم.

وكذلك من شروط الدعاء السعي وبذل الجهد في طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالأشخاص الذين يشاهدون مظاهر المنكر والذنب ولا يثير ذلك فيهم أي ردة فعل، فلا يحق لهم أن يتوقعوا استجابة دعائهم، كما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «وَلَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيَسْلَطَنَّ اللَّهُ شَرَارَكُمْ عَلَى خِيَارِكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ» [٧٠١].

وجاء في الحديث الشريف أن رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام وشكا إليه عدم استجابة دعائه، وقال: لماذا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فذكر الإمام عليه السلام في هذا الحديث الشريف ثمانية شروط لاستجابة الدعاء، وقد ورد بعضها في الأحاديث المذكورة

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٢٢

أعلاه [٧٠٢].

ولمزيد من التوضيح راجع كتاب «المفاتيح الجديدة» ص ٢١ إلى ٢٥ والتفسير الأمثل في ذيل الآية الشريفة: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي...» [٧٠٣].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٢٣

القسم العشرون**إشارة**

وَاعْلَمَ يَا بَنِيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لِللِّبْقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لَالْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ وَدَارِ بُلْعَةٍ، وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلَا يَبِيدُ أَنَّهُ مُيَدَّرُكُمْ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَيْدَرٍ أَنْ يُيَدَّرِكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيُحْوَلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ.

الشرح والتفسير: الغاية من الخلق

يتحدث الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من الوصية عن عدة أمور مهمة حول الغاية من خلق الإنسان وحقيقته الدنيا والحياء وموقف الإنسان في مقابل الموت، حيث تمثل كل هذه التوصيات تحذيراً لولده وجميع الأشخاص الذين يقرأون هذه الوصية. بداية يقول: «وَاعْلَمَ يَا بَنِيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا وَلِلْفَنَاءِ وَاللْبَقَاءِ وَالْمَوْتِ لِلْحَيَاةِ».

في منظار الإسلام والأديان الإلهية أن الهدف من خلق الإنسان ليس هو الحياة في هذه الدنيا، بل إن هذه الحياة تعتبر ممراً وقنطرةً يعبر منها الإنسان إلى الآخرة، وسوقاً للتجارة لكسب الزاد والمتاع، ونهاية هذه الحياة الدنيوية ستنتهي إلى الموت والفناء، ولا يبقى حتى الأنبياء الإلهيون.

وبالنسبة للغرض من خلق الإنسان وردت تعبيرات مختلفة في الآيات والروايات الشريفة، والقرآن الكريم يقول في سورة الذاريات: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٢٤

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» [٧٠٤].

وعلى هذا الأساس فإن الهدف من خلق الإنسان كما تبين الآية الشريفة هو العبودية والعبادة لله تعالى.

ويقول في الآية الثانية من سورة الملك: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَنِ كُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

ومن المعلوم أن الاختبار الإلهي يهدف إلى تحسين عمل الإنسان في واقع الحياة والعبودية لتهذيب النفوس، ونتيجة كل ذلك نيل السعادة الأبدية في الآخرة، ومن هذا المنطلق تعود جميع الأهداف إلى هدف واحد.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى النقطة الثانية، يعني حقيقة الدنيا ومكانتها في الرؤية الكونية ويقول: «وَأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ [٧٠٥] وَدَارِ بُلْعَةٍ [٧٠٦]، وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ».

وهنا يبين الإمام عليه السلام الهدف من خلق الإنسان وكذلك ماهية الحياة الدنيوية، فالهدف من خلق الإنسان ضمان الحياة السعيدة في الآخرة لا مجرد الحياة في هذه الدنيا، ومن هنا فإن نهاية الحياة الدنيا هي الفناء لا البقاء، وعلى حد تعبير القرآن:

«وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ» [٧٠٧]، وهذا المعنى انعكس في الكثير من الآيات القرآنية.

أما تعبير الإمام عليه السلام عن الدنيا بأنها «قُلْعَةٌ» (وهي المحلّ والمنزل الذي ينبغي مغادرته)، وعبارة «بُلْعَةٌ» (المحلّ الذي ينبغي التزوّد منه وتحصيل الزاد والمتاع) فهذه الحقيقة انعكست أيضاً في الآيات القرآنية من قبيل قوله تعالى: «إِنَّكَ مَيِّتٌ

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٢٥

وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» [٧٠٨].

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» [٧٠٩].

«كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ» [٧١٠].

فكل هذه الآيات ناظرة إلى هذا المعنى، وكذلك قوله تعالى:

«وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى [٧١١] يشير أيضاً إلى دار «دار بلغة».

وعندما ننظر إلى الدنيا والآخرة من هذه الزاوية وبهذا المنظار الذي بينه الإمام عليه السلام في هذه العبارة، فإن رؤيتنا للحياة ستتبدل، فلا يبقى أثر للحرص والطمع، وسوف تزول الآمال الطويلة والطموحات الموهومة، وينتهي التكالب على حطام الدنيا والنزاع مع أهلها لجمع الأموال والثروات ولا يبقى معنى للبخل واكتناز الأموال، بل كل شيء يكون لله وفي سبيل الله ومن أجل نيل رضا الله تعالى ولتحقيق السعادة الأبدية في الآخرة.

ويشير الإمام عليه السلام في النقطة الثالثة إلى هذه الحقيقة، وهي أن الموت من ورائك وسوف تقع في شباكه حتماً، فلا مفر منه لكل حي: «وَأَنَّكَ طَرِيدٌ [٧١٢] الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ».

والتعبير بـ «طريد» يعنى الشخص الهارب ممن يتعقبه، أو الصيد الذى يتعقبه الصياد، وهذا تعبير بليغ جداً، وكأنّ الإنسان فى بداية عمره يفتر من الموت الذى يريد اصطيداه، فتارةً يصطاده فى مرحلة الطفولة، وأخرى فى مرحلة الشباب، وثالثة فى مرحلة الشيخوخة، فلا أحد يستطيع النجاة والهرب من هذا الصياد كما يقول القرآن الكريم: «أَيُّمَّا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ» [٧١٣].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٢٦

وفى آية أخرى يقول: «قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ» [٧١٤].

أجل، فالإنسان مهما شكّ فى أى شىء فإنه لا يستطيع الشكّ فى هذه الحقيقة الحاسمة، وهى أنّه سيأتى اليوم الذى لا بدّ أن يرحل من هذا العالم، وهذا اليوم غير معلوم، لا فى تاريخه ولا فى الساعة أو الدقيقة، فربّما يكون بعيداً وربّما يكون قريباً جداً، اليوم أو غد، والملفت أنّه لا يوجد أى استثناء لهذا القانون، فأصحاب القدرة والثروة والأطباء الحاذقون وحتى الأنبياء والأولياء يخضعون لهذا القانون، والقرآن الكريم يخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بقوله: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» [٧١٥].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى نقطة مهمّة هى آخر تحذير فى هذا المقطع من الوصية ويقول: «فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنْتَ تَحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيُحَوَّلَ بَيْنَكَ بَيْنَ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ».

وفى هذا التحذير والإنذار يلفت الإمام عليه السلام نظر ولده إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ زمان الموت مبهم وغير معلوم فى كل الأحوال، فأحياناً يرتكب الإنسان معصية وينوى التوبة وتطهير صحيفته أعماله من لوث هذه المعصية بعد ذلك، ولكن الموت يفاجئه بغتة ويسلب منه هذه الفرصة، وكلنا رأينا أو سمعنا فى حياتنا بعض الأشخاص الذين أرادوا القيام بأعمال حسنة أو سيئة ولكن الموت باغتهم فى تلك اللحظة فلم يستطيعوا إنجاز ما عزموا عليه، ولم ينالوا بغيتهم.

وفى هذه الأيام التى نكتب فيها شرحاً لهذه الوصية سمعنا خيراً من أجهزة الإعلام أنّ مهرجاناً أقيم فى بلدنا لأحد العلماء المعروفين، وقد اشترك فى ذلك المهرجان جماعة من الشخصيات والمدعوين وجلس ذلك العالم وهو ينتظر بفارغ الصبر استلام الجائزة، وفجأة فى ذلك المكان حان أجله واصيب بسكتة قلبية، وانتهى كل شىء [٧١٦].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٢٧

ونقرأ فى رواية المفضل المعروفة أنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول للمفضل: إذا كنت تسأل لماذا جعل الله تعالى مدّة حياة الإنسان مستورة وخفيّة وربّما حان أجله فى ساعة يمارس فيها الإثم ويقترف المعصية؟ فالجواب: الغرض من ذلك أنّ الإنسان، مع أنّه لا يعرف زمان موته، إلّا أنّه يتحرّك فى خطّ المعصية وارتكاب الإثم، ولو كان يعلم زمان موته وحدود أجله، وكان يأمل بطول البقاء، فإنّه سيتجرأ على المعاصى أكثر، ومن هنا فإنّ توقّع الموت فى كل لحظة وعلى أريّة حال أفضل من اطمئنانه بالبقاء، وعندما نرى أنّ هذا الانتظار لا ينعف مع بعض الناس فإنّه مؤثّر قطعاً فى البعض الآخر، حيث يتعدون عن الذنوب والمعاصى ويتحرّكون فى خطّ الطاعة والمسؤولية والأعمال الصالحة، وينفقون أموالهم على الفقراء والمساكين ويهتمون ببناء آخرتهم وإعمارها [٧١٧].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٢٩

القسم الحادى والعشرون

إشارة

يَا بَنِي أَكْثَرَ مَنْ ذَكَرَ الْمَوْتَ، وَذَكَرَ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضَى بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنْهُ حِذْرَكَ، وَشَدَّدَتْ لَهُ أَرْكَكَ، وَلَا يَأْتِيكَ بَعْتَهُ فَيَبْهَرَكَ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَعْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالِبُهُمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَأَكَ اللَّهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ

نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كَلَابٌ عَاوِيَةٌ، وَسَبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيْزُهَا ذَلِيْلَهَا، وَيَقَهْرُ كَبِيْرُهَا صِيْغِيْرَهَا. نَعْمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، فَدَأْضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا. سِرْوُوحٌ عَاهِرَةٌ بِوَادٍ وَعَثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٌ يُقِيْمُهَا، وَلَا مُسَيِّمٌ يَسِيْمُهَا. سَلِمَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيْقَ الْعَمَى وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا، فَلَعَبَتْ بِهِمْ وَلَعَبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا.

الشرح والتفسير: الدنيا الخداعة وأهلها

في هذا المقطع من الوصية يحذر الإمام عليه السلام ولده من الركون إلى الدنيا ويؤكد عليه أن يذكر الموت ويستعد له ولا يغتر بأفعال وسلوكيات أهل الدنيا.

بداية يقول: «يَا بَنِيَّ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُقْضَى بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنْهُ حِذْرَكَ [٧١٨]، وَشَدَدَتْ لَهُ أَرْكَكَ [٧١٩]، وَلَا يَأْتِيَكَ نَفْحَاتِ الْوَلَايَةِ، ج ٩، ص: ٥٣٠ بَعْتَهُ فَيَبْهَرُكَ [٧٢٠].»

وهذه هي الحقيقة الواضحة التي يعيش غالبية الناس الغفلة عنها، فالجميع يعلم أن عمر الإنسان ليس له تاريخ محدد حسب الظاهر، وأنه ربما يواجه الموت في كل لحظة وفي كل زمان، بسبب الحوادث الخارجية أو الحوادث الباطنية (الأمراض المفاجئة) على مستوى الفرد والجماعة، والكثير من الناس يدركون هذه الحقيقة ويرون ظاهرة الموت، إلا أنهم غافلون عنها، وأحياناً يغرقون في تفكير عميق عندما يشتركون في مجالس العزاء لأحد المفقودين من أعزائهم وأرحامهم، وربما قرروا في تلك اللحظة التهيؤ لسفر الآخرة والاهتمام لتحصيل الزاد لهذا السفر المصيري، ولكنهم ما أن يخرجوا من ذلك المجلس حتى يوضع هذا القرار في زاوية النسيان. ويؤكد الإمام عليه السلام في كلامه هذا على أنك لا ينبغي أن تنسى هذه الحقيقة الملموسة، وعليك بالاستعداد لاستقبال الموت، واحذر من أن يباغتك فجأة وأنت غير مستعد له.

ومر علينا قول الإمام عليه السلام في الخطبة ١١٤ في نهج البلاغة: «فَبَادِرُوا الْعَمَلَ وَخَافُوا بَعْتَهُ الْأَجَلَ».

وفي الديوان المنسوب للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام نقرأ أشعاراً عميقة المعنى في هذا المجال منها:

يَا مَنْ بِدُنْيَاهُ اشْتَغَلَ فَدَعَّرَهُ طُولُ الْأَمَلِ
الْمَوْتُ يَأْتِي بَعْتَهُ وَالْقَبْرُ صُنْدُوقُ الْعَمَلِ

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه في تحذير ولده من الاعتزاز بالدنيا والانخداع بأعمال أهلها فإنهم كالحيوانات المفترسة يتكالبون على ملذاتها وزخارفها، ويقول: «وَيَاكَ أَنْ تَعْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادٍ [٧٢١] أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالِبُهُمْ [٧٢٢] عَلَيَّهَا».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٣١

ثم يذكر دليلين لهذا الكلام ويقول: «فَقَدْ تَبَّأَكَ اللَّهُ عَنْهَا وَنَعَتْ [٧٢٣] هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا».

وهنا آيات عدة في القرآن الكريم تتحدث عن وهمية الدنيا وعدم ثباتها، منها:

«وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا إِذَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاصْتَبَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا» [٧٢٤].

وهذا المثال ناظر للأشخاص الذين يطوون مراحل العمر المختلفة (الطفولة والشباب والشيخوخة)، ولكن الكثير منهم لا يصلون لمراحل متقدمة، بل يحين أجلهم ويغادرون الدنيا في المراحل الأولى أو المتوسطة لأسباب وعوامل مختلفة.

وأما قوله: «وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا»، فالمقصود أن الدنيا تحدث معك بلسان الحال، وهذا ما ورد في

كلام آخر للإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «أَيُّهَا الدَّائِمُ لِلدُّنْيَا الْمُغْتَرِّ بِغُرُورِهَا الْمَخْدُوعُ بِأَبَائِلِهَا ... مَتَى عَزَّتْكَ! أَمْ بِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبَلَى، أَمْ بِمَصَاحِبِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى» [٧٢٥].
وكما قال الشاعر:

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ لِمَنْ عَلَيَّهَا حَذَارٍ حَذَارٍ مِنْ بَطْشِي وَفَتَكِي
فَلَا يُعْرَزُكُمْ حُسْنُ ائْتِسَامِي فَقُولِي مُضْحِكٌ وَالْفِعْلُ مُبْكِي [٧٢٦]

أجل، فبريق الدنيا يثير في الإنسان النشاط والحركة، ولكن عندما يتعمق الإنسان في حالاتها، يرى كثرة المتغيرات فيها، وعدم وفائها وعدم ثباتها على حال، ويقوده التفكير والتدبر في أمرها للبكاء والحزن.
نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٣٢

ويستطرد الإمام عليه السلام في كلامه في بيان الدنيا وحالاتها، فيقسم أهل الدنيا إلى أربع طوائف ويقول: «فَأَيُّهَا أَهْلُهَا كَلِمَاتٌ عَاوِيَةٌ» [٧٢٧]، «وَسَبَّاحُ ضَارِيَةٌ» [٧٢٨]، «يَهْرُؤُ» [٧٢٩] «بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيْزُهَا ذَلِيْلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيْرُهَا صَغِيْرَهَا، نَعَمٌ [٧٣٠] مُعَقَّلَةٌ [٧٣١]، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ [٧٣٢]».
والحقيقة أن هذا التقسيم رائع ودقيق جداً:

إن الإمام عليه السلام يشبه طائفة من الناس من أهل الدنيا بالكلاب التي اجتمعت حول جيفة وكل واحد منها يريد الاستحواذ عليها، فينبح على سائر الكلاب ويريد إبعادها عن هذه الجيفة، والمصداق البارز لهذه الطائفة الأثرياء والمترفين الذين يعيشون الغفلة عن الله تعالى ويسعون دوماً لجمع الثروات واكتناز الأموال وإقصاء الآخرين عن طريقهم، فأحياناً يصرخون بوجوههم، وأخرى يلتجئون إلى المحاكم ويسعون من خلال المحامين المنحازين أن يستحوذوا على أموال الآخرين بصيغ قانونية، ونرى مثل هذه الحالة من التنافس بين الحكومات والدول من خلال الحرب الباردة وأجهزة الإعلام الكاذب حيث يسعون لاحتكار أسواق بلدان العالم الثالث والهيمنة والسيطرة على ثروات الشعوب الأخرى.

وطائفة من أهل الدنيا يتمثلون في عصرنا بالحكومات الاستكبارية وأصحاب القدرة والنفوذ، (أو الأثرياء الذين يدعمون مثل هذه الحكومات) فتراهم يعيشون دوماً حالات التنافس غير المشروع ويسعون لنهب مصادر الثروة من الآخر، وفي كثير من الأحيان يشعلون الحروب المدمرة من أجل التوصل إلى مقصودهم، ويسفكون دماء الآف الأبرياء ويدمرون المدن والقرى، أجل، هؤلاء الذئاب العاوية
نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٣٣

يتصارعون فيما بينهم على جيفة الدنيا، ويسحق الأقوياء منهم حقوق الضعفاء، ويتحرك الكبار في إزاحة الصغار من طريقهم.
أما الطائفة الثالثة، فهم جماعة لا يملكون شيئاً من النفوذ والقدرة، ولكن نراهم لا يمتنعون من أية ذلّة من أجل تحقيق متاع الدنيا، فيتعاملون مع أصحاب النفوذ والمستكبرين من موقع العبودية والخنوع والخضوع.

الطائفة الرابعة تعيش كالحوانات المتمردة والمتوحشة التي تعيش في البراري والقفار، وعلى حدّ تعبير الإمام عليه السلام في كلامه: «قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولُهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا سُرُوحٌ [٧٣٣] عَاهَةٌ [٧٣٤] بَوَادٍ وَعَثٌ [٧٣٥]».

ثم يضيف: «لَيْسَ لَهَا رَاعٌ يَقِيْمُهَا، وَلَمَّا مُسِيْمٌ [٧٣٦] يُسَيِّمُهَا، سَيَلَكْتَ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى فَتَاهُوا» [٧٣٧] فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرَقُوا فِي نِعْمَتِهَا، اتَّخَذُوا رَبًّا، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا».

هؤلاء هم الفئة التي تعيش في كل زمان بخاصّة في عالمنا المعاصر، حيث تتخذ من العالم ميداناً لجولاتها وتتحرك في كل مكان على مستوى الإفساد والتخريب، ويعيشون حالة الشغف اللامحدود بالمال والثروة والجاه والمقام، قد أعموا عيونهم عن رؤية الحقائق، وأصموا آذانهم عن سماعهم كلمة الحق وغرقوا في النعم المادية من الذهب والثروات والمجوهرات والدرهم والدينار، وهؤلاء عبدة الدرهم والدينار الذين يشعلون نار الحرب من أجل تحقيق مطامعهم الدنيوية، وأحياناً يصنعون أسلحة الدمار الشامل ويبيعونها بأثمان

باهظة لهذا وذاك ويوقدون نار الفتنة بينهم، فهؤلاء أضحوا العوبة بيد الدنيا والدنيا العوبة بيدهم، ومن هذه الجهة نسوا الله

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٣٤

والمعاد واليوم الآخر تماماً.

والإمام عليه السلام في هذه الكلمات يحذّر ولده وولده كبد من هذه الطوائف الأربع ويدعوه بالابتعاد عنهم، ليس لكونه ابن الإمام فقط، فالمخاطب للإمام عليه السلام يمتد ليشمل جميع أفراد البشر.

و «عقول في جملة «قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا» جمع عقل وهو الفهم والدراية، ولكنّ البعض ذهب إلى أنّها جمع عقال (وهو الحبل الذي يعقل به الجمل) وحينئذ يكون مفهوم العبارة: هؤلاء قد أضلوا الضوابط التي تضبط أمورهم في الحياة، وبذلك يعيشون الحيرة والته في صحراء الحياة، ولكن مع الالتفات إلى الجملة الثانية «وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا» فإنّ المعنى الأول أنسب، مضافاً إلى أنّ «عقول» جمع عقل لا جمع عقال، لأنّ جمع عقال «عقل» على وزن قفل و «عقل» على وزن كُتب.

وعلى أيّة حال فالتقسيم الذي ذكره الإمام عليه السلام لأصناف أهل الدنيا وطوائفهم المختلفة يعتبر تقسيماً دقيقاً ورائعاً بحيث يستطيع المرء تشخيص هذه الفئات بسهولة ويتحرّك بحذر ويقظة بعيداً عنهم، وهذه الطوائف والفئات:

١. فئة الفوضويين وأصحاب وسائل الإعلام المضلّة.

٢. فئة الوحوش الذين يتكالبون على ثروات الدنيا ويرومون السيطرة عليها.

٣. فئة العبيد الذين يتحرّكون في خطّ الذلّة والمهانة من أجل التوصل إلى المال والمقام.

٤. فئة الأراذل وأتباع الشهوات الذين تركوا عقولهم وساروا في متاهات الحياة، وهؤلاء يعبدون الذهب والفضة والدرهم والدينار، وغايتهم من الحياة إشباع الغرائز وطلب الملذّات الرخيصة.

ج ج

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٣٥

القسم الثاني والعشرون

إشارة

رُوِيْدًا يُسْفِرُ الظَّلَامَ، كَأَنْ قَدَّ وَرَدَتِ الْأَطْعَامُ، يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يُلْحَقَ! وَاعْلَمْ يَا بَنِيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيئَتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَقِفًا، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا وَادِعًا.

الشرح والتفسير: السائرون بمركب الليل والنهار

في هذا المقطع من الوصية يحذّر الإمام عليه السلام مرّة أخرى ولده العزيز من هجوم الموت ونهاية العمر، ويقول: رُوِيْدًا [٧٣٨] يُسْفِرُ [٧٣٩] الظَّلَامَ.

والمقصود من الظلام في هذه العبارة الجهل بحال الدنيا وتقلباتها حيث يتصوّر بعض الجهّال ثباتها وديمومة حالاتها، ولكن لا تمضي فترة حتّى يواجهون الموت بهيئته الموحشة.

ثمّ يشبه الإمام عليه السلام، أهل هذا العالم بالمسافرين الذين يتحرّكون باتجاه المنزل المقصود ويقول: «كَأَنَّ قَدَّ وَرَدَتِ الْأَطْعَامُ [٧٤٠].»

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٣٦

ثم يضيف: «يُوشِكُ [٧٤١] مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ»، فمن يسير بسرعة في هذا السفر يوشك أن يصل إلى الموت.

والمراد من «مَنْ أَسْرَعَ» جميع أفراد البشر لا طائفة خاصة، لأن جميع الناس يتحرّكون بسرعة باتجاه المنزل النهائي، وهو نهاية الحياة. ويطرح الإمام عليه السلام تشبيهاً جميلاً عن الناس في هذا العالم ويقول: «وَاعْلَمَ يَا بَنِيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيئَتُهُ [٧٤٢] اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَقِافًا، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا وَإِدْعَاءً [٧٤٣].»

وهو إشارة إلى أن الحركة باتجاه نهاية العمر هي حركة إجبارية وحتمية لا اختيارية، فالجميع يركبون مطية الزمان ويتحرّكون بيد التقدير الإلهي، وسرعان ما يصلون- شأؤوا أم أبوا- إلى نقطة النهاية، وإن كان الكثير منهم يعيشون الغفلة عن هذا المصير. وهناك تعابير أخرى وردت في سائر كلمات الإمام عليه السلام في هذا المجال، منها قوله: «أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكِبٍ يَسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ» [٧٤٤].

ويقول في مورد آخر: «نَفْسُ الْمَرْءِ خُطَاةٌ إِلَى أَجَلِهِ» [٧٤٥].

وفي حديث آخر يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا» [٧٤٦]. وينقل ابن أبي الحديد في هذا المورد قصيدة جميلة عن أستاذه ويقول: واستقرأني أبو الفرج محمّد بن عباد (رحمه الله) وأنا يومئذ حدث، هذه الوصية فقرأتها عليه من

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٣٧

حفظي، فلما وصلت إلى هذا الموضوع صاح صيحةً شديدة وسقط، وكان جباراً قاسى القلب (أى لا يتأثر بسرعة بالمواعظ) [٧٤٧].

تأمل: السالكون إلى العالم الآخر!

في هذه العبارات يشبه الإمام عليه السلام الناس بالمسافرين الذين يركبون مراكب سريعة، وهذه المراكب تقودهم إلى المنزل المقصود والنهائي، ولا شك أن جماعة من هؤلاء المسافرين يتوقفون في محطات وسط الطريق، وجماعة أخرى يستمرّون في مسيرتهم إلى آخر عمرهم الطبيعي، والعجيب أن لا أحد يعلم في أي محطة يتوقف وينزل.

وهناك أمران مسلمان في هذا السفر، أحدهما: أن هذا السفر غير اختياري وأنه يملك نهاية مقرّرة سلفاً، فجماعة يطؤون هذا السفر في حال الغفلة والسكر والنوم، وجماعة آخرون يتحرّكون من موقع اليقظة والانتباه، وهناك جماعة ثالثة يتحرّكون بحالة من اليقظة تارة والغفلة تارة أخرى، وبعد نزولهم في محطات الطريق سيجدون نعماً وفيرة وبركات كثيرة في كل محطة، فيتزوّدون منها لمواصلة المسيرة، فأما من يطوى طريقه في حال الغفلة والنوم، أو لا يدرك جيداً مواقع في هذا الطريق، وكما ورد في الحديث الشريف: «النَّاسُ نِيَامٌ إِذَا مَا تَوَاتُوا انْتَبَهُوا» [٧٤٨]، فإنهم يصلون إلى المنزل النهائي بأيدي خالية وجعبة خاوية.

والأمر الآخر: إن الأنبياء والرسل الإلهيين مكلفون بتحذير هؤلاء المسافرين وإثارة انتباههم في هذا الطريق ويهتفون بالغافلين والنائمين أن يستيقظوا من غفلتهم وينتبهوا من غفوتهم ويتزوّدوا من المنازل والمحطات في أثناء الطريق بما يحتاجونه

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٣٨

لمواصلة المسير، لأنهم عندما يصلون إلى المقصد فلا يمكنهم حينئذ توفير ما يحتاجون من وسائل ومتاع، والأهم من ذلك أن طريق العودة من هذا المسير موصدة وممتنعة.

فجماعة يؤمنون بهذه التوصيات والنصائح ويستقبلون كلام الأنبياء والأولياء بكل عواطفهم وقلوبهم، وجماعة أخرى يتعاملون مع هذه التعاليم السماوية من موقع الإنكار، أو يستمعون إليها من غير تطبيق، وعندما يصلون إلى المقصد سيجدون الحقيقة الحاسمة أمامهم، فترتفع أصواتهم بالحسرة ويقولون: «يَا لَيْتَنَا نَزُدُ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» [٧٤٩]، ولكن، ولات حين مناص.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٣٩

القسم الثالث والعشرون

إشارة

وَاعْلَمَ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمْلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجْلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلٍ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ. فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ. وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رَبُّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرْبٍ؛ فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَمَّا كُنْتُ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ. وَأَكْرَمُ نَفْسِكَ عَنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَإِنْ سَافَقْتَكِ إِلَى الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبِيدُ مِنْ نَفْسِكَ عَوْضاً. وَلَا تَكُنْ عَيْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرّاً. وَمَا خَيْرٌ خَيْرٍ لَأَيْنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَيُسِيرُ لَأَيْنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ؟! وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِسِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ. وَإِنْ اسْتِطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَاَفْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمِكَ، وَآخِذٌ سَهْمِكَ، وَإِنَّ الْيُسِيرَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلُّ مَنْهُ.

الشرح والتفسير: لا تذلل نفسك أبداً

في هذا المقطع من الوصية يشير الإمام عليه السلام إلى ست نقاط مهمّة تمثّل كلّ واحدة منها نصيحةً للسائرين في طريق الحقّ والمعنوية، ولكن قبل ذلك يذكر الإمام عليه السلام مقدّمه ويقول: «وَاعْلَمَ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمْلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجْلَكَ»، أنت لا تستطيع أن تتجاوز ما تقرّر من عمرك، فأنت تسير في نفس الطريق الذي سار فيه القدماء، فأولئك ماتوا وذهبوا لحال سبيلهم وأنت سوف تلحق بهم.

ثمّ يستنتج الإمام عليه السلام هذه التوصية: «فَخَفِّضْ [٧٥٠] فِي الطَّلَبِ وَأَجْمِلْ [٧٥١] فِي

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٤٠

الْمُكْتَسَبِ».

جملة: «لَنْ تَبْلُغَ أَمْلَكَ تَبَيَّنَ حَقِيقَةُ وَاضِحَةٌ وَهِيَ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَحْقُقَ جَمِيعَ آمَالِهِ وَطُمُوحَاتِهِ فِي أَرْضِ الْوَقَاعِ وَالْحَيَاةِ، وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلِقِ لَا مَعْنَى لِلْحَرَصِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ وَالْإِصْرَارِ فِي تَحْصِيلِ الْمَكْتَسَبَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ. وَجَمَلُهُ «وَلَنْ تَعْدُوَ أَجْلَكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ عَمْرَ الْإِنْسَانِ مَحْدُودٌ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ وَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَغَادِرَ هَذَا الْعَالَمَ قَبْلَ وَقْتِهِ الْمَقْرَّرِ وَقَبْلَ حُلُولِ أَجَلِهِ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَلِمَاذَا يَحْرَصُ الْإِنْسَانُ عَلَى اكْتِسَابِ الْأَمْوَالِ وَيَسْتَنْزِفُ طَاقَاتِهِ أَكْثَرَ مِنَ اللَّازِمِ فِي اقْتِنَاءِ الْمَادِيَاتِ. وَلَفْظَتَا: «خَفِّضْ وَ أَجْمِلْ» كِلَاهُمَا تَشِيرَانِ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَهِيَ لَزُومُ تَرْكِ الْحَرَصِ لِكْتِسَابِ الرِّزْقِ، فَالْمَفْرُوضُ أَنْ يَسْلُكَ الْإِنْسَانُ طَرِيقَ الْإِعْتِدَالِ وَالتَّوَاتُّي فِي الطَّلَبِ، وَهَذَا التَّعْبِيرُ لَا يَعْنِي أَبَدًا تَرْكَ السَّعْيِ وَبِذَلِ الْجَهْدِ لِكْتِسَابِ الرِّزْقِ الْحَلَالِ.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه في بيان هذه الحقائق من موقع الاستدلال عليها يقول:

«فَإِنَّهُ رَبُّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرْبٍ [٧٥٢]؛ فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ».

ومثل هذا المضمون ورد في حديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«اجْمَلُوا فِي طَلَبِ الدُّنْيَا فَإِنَّ كُلَّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» [٧٥٣].

وعبارة: «رُبُّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرْبٍ» تعتبر على حدّ قول بعض الكتاب، من أمثال العرب، والمقصود أنّ السعي الكثير ربّما يؤدي إلى

عكس الغرض، وفي ذلك يقول الشاعر:

اقسُم بالله لَمْصُ النَّوَى وَشَرِبُ مَاءِ الْقَلْبِ الْمَالِحِ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٤١

أحسنُ بالإنسانِ من ذلِّهِ ومن سُؤالِ الأوجهِ الكالحةِ
فاستغنِ باللهِ تكنِ ذا غنىً مغتبطاً بالصفقةِ الرَّابحةِ [٧٥٤]
ويقول الآخر:

لا تَبَخَلَنَّ بِدُنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ فَلَيْسَ يَنْقُصُهَا التَّبَذِيرُ وَالسَّرْفُ
وَإِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَى أَنْ تَجُودَ بِهَا فَالْحَمْدُ مِنْهَا إِذَا مَا أَدْبَرَتْ خَلْفُ [٧٥٥]

وقوله: «فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ ... وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ ...» في الواقع بمثابة الدليل على ما ورد في العبارات السابقة في لزوم رعاية الاعتدال في طلب الرزق وتشير إلى هذه الحقيقة، وهي أن السعي الحثيث لا يعنى دوماً زيادة الرزق، ولا أن رعاية الاعتدال والتأني قلّة الرزق، بل إن اللطف الإلهي يقرّر أن من توكل على الله وترك الحرص والطمع وسعى في طلب الرزق بشكل معتدل، فإنه سيعيش حياة أفضل مقترنة بالسكينة والاستقرار أكثر، ومثل هؤلاء يفتحون المجال للآخرين ليتحرّكوا في طلب الرزق ولا يتعاملون مع الناس من موقع الإقصاء والتهميش أو يضيقون الخناق عليهم في هذا السبيل.

ويتحدّث الإمام عليه السلام في التوصية الثانية ويقول: «وَأَكْرِمَ نَفْسِكَ عَنْ كُلِّ دَيْئَةٍ [٧٥٦] وَإِنْ سَأَفْتَكَ إِلَى الرَّغَائِبِ [٧٥٧]، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ [٧٥٨] بِمَا تَبْدُلُ مِنْ نَفْسِكَ عَوْضًا».

وهذا إشارة إلى أن بعض الرغبات والذنوب النفسانية تتطلّب أحياناً تنازل الإنسان عن كرامته وشخصيته، فالجدير بالإنسان الذي يعيش الكرامة والحرية أن لا يخضع لمثل هذه الرغبات، ولا يرد نفسه في هذا المسير، فلا ينبغي للإنسان أن
نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٤٢

يهين نفسه ويحقّق رغباته عن الشخصية أو يتنازل عن طموحاته المعنوية لحساب الميول المادية والديوية.
وكما قال الشاعر:

مَا اعْتَاضَ بِإِذْلٍ وَجْهَهُ بِسُؤَالِهِ عَوْضًا وَلَوْ نَالَ الْغِنَى بِسُؤَالٍ
وَإِذَا النَّوَالُ إِلَى السُّؤَالِ قَرْنُهُ رَجَحَ السُّؤَالُ وَخَفَّ كُلُّ نَوَالٍ

وهذا يعنى أن الإنسان إن ما يريد المال لحفظ حيثته وسمعته، ولكن لا ينبغي أن ينفق من حيثته وماء وجهه لكسب المال، ولا يجدر بالإنسان أن يلهث وراء الأمور المادية على حساب اهتزاز شخصيته وسمعته.

ويواصل الإمام عليه السلام توصياته لولده ويقول في التوصية الثالثة، ويقول: «وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرًّا».

وهذه العبارة من أهم وأروع وصايا الإمام عليه السلام التي ينبغي أن تكتب بماء الذهب وتجعل نصب العين دائماً، أجل إن الله تعالى خلق الإنسان حرّاً ولا ينبغي أن يستبدل هذه الحرية بأى أثمان مادية، بل أحياناً ينبغي أن يعيش الإنسان بإمكانات محدودة ويقنع بالمعاناة والمشقة حفظاً لماء الوجه ولا يذل نفسه ويخضع لمشيئة الآخرين ويتعامل معهم من موقع الخنوع.

وهذا الكلام صادق بالنسبة للأفراد والشعوب كذلك، فما أكثر الشعوب والأقوام الضعيفة والمتخلفة المستعدة لبذل حريتها وكرامتها من أجل عوض زهيد، والمستكبرون وقوى الاستعمار يعرفون نقطة الضعف هذه في الشعوب المتخلفة ويعملون على تكريس واقعها المتخلف للإستيلاء على ثرواتها واستعبادها، بل إنهم يتحرّكون على مستوى فرض ثقافتهم الخاطئة على هذه الشعوب مقابل بعض المساعدات الاقتصادية الزهيدة، وأحياناً يسلبون منهم دينهم وإيمانهم.

ولكنّ الأشخاص الذين يعيشون قوة الشخصية، والشعوب الحرّة يرححون الموت على حياة العبودية والذلة.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٤٣

وهذه التوصية في الحقيقة من نتائج ولوازم التوصية السابقة التي يقول فيها الإمام عليه السلام: «وَأَكْرِمَ نَفْسِكَ عَنْ كُلِّ دَيْئَةٍ ...».

وأحد المصدايق البارزة لهذا الموضوع هو ما تجلّى في نهضة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه في كربلاء حيث قال الإمام الحسين

عليه السلام في هذه الواقعة التاريخية الهامة «ألا وإنَّ الدعىَّ بِنِ الدَّعى قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ بَيْنَ السِّلَّةِ وَالذَّلَّةِ وَهَيْهَاتَ مَنَا الذَّلَّةِ» [٧٥٩].
ويطرح الإمام الصادق عليه السلام هذا المضمون بكامل أبعاده وجهاته ويبيِّن أنَّ الشخصية الحرَّة ينبغي أن تتوفر فيها خمس خصال قال: «خَمْسُ خِصَالٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ كَثِيرٌ مُسْتَمْتِعٍ: أَوْلَاهَا الْوَفَاءُ وَالثَّانِيَةُ التَّدْبِيرُ وَالثَّلَاثَةُ الْحَيَاءُ وَالرَّابِعَةُ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْخَامِسَةُ وَهِيَ تَجَمُّعُ هَذِهِ الْخِصَالِ الْحُرِّيَّةُ» [٧٦٠].

وفي التوصية الرابعة يقول الإمام عليه السلام: «وَمَا خَيْرٌ خَيْرٍ لَأَيْتَالٍ إِلَّا بِشَرٍّ، وَيُسِّرُ لَأَيْتَالٍ إِلَّا بِعُسْرٍ». وهذا يعنى أن البعض ومن أجل التوصل إلى غايتهم ومقصودهم يستخدمون كل وسيلة تتيح لهم ذلك وتيسر لهم تحقيق مطلبهم، في حين أن تعاليم الإسلام تقرّر أن التوصل إلى الغايات والأهداف لا بد أن يكون من طريق مشروع وصحيح، وبيان آخر، (الغاية لا تبرر الوسيلة) وكذلك لا ينبغي لغرض تحصيل السعادة والراحة التوجّه إلى المقدمات والوسائل التي تضيق الخناق على الإنسان وتجعله يعيش الضغوط النفسية والمالية.

وقد فسّرنا العبارة أعلاه بشكل جملة خبرية، ولكن البعض فسّر لها بصيغة الجملة الاستفهامية، وطبقاً لهذا التفسير سيكون معنى العبارة: ماذا ينفع ذلك الخير الذي لا يحصل عليه الإنسان إلا بطريق الشر؟ وماذا تنفع الراحة التي تتأتى بطريق المعاناة
نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٤٤

والعسر؟ ومن الواضح أن نتيجة كلا التفسيرين واحد رغم تفاوت البيان وصياغة البلاغة.

ويشبه هذا المعنى ما ورد في كلمات الإمام عليه السلام القصار، حيث يقول: «مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ وَمَا شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ» [٧٦١].
ويستطرد الإمام عليه السلام في بيان وصيته ويخاطب ولده في خامس توصية من هذه التوصيات: «وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ [٧٦٢] بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ [٧٦٣] الْهَلَكَةِ».

وهنا يشبه الإمام عليه السلام موارد الطمع بمنزلة المطايا والدواب الجامحة والتمردة التي إذا ركبها الإنسان فسوف يفقد زمامه واختياره وربما تقوده إلى وادي الهلكة، والتعبير «مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ» فيه إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، وهي أن الإنسان يتوجّه لمنع الماء لإرواء عطشه، ولكن المنع الذي تقوده إليه مطايا الطمع ليس فقط لا يروى عطشه منها، بل لا يوجد ماء أساساً وتوجد بدله موارد الهلكة.

وقد جرّبنا في حياتنا مرات عديدة هذا، والتاريخ بدوره يشهد على صحة هذا الكلام وهو أن الأشخاص الذين يعيشون حالات الطمع يواجهون الفشل والإخفاق في حياتهم، لأنّ الطمع يعمى عين الإنسان عن رؤيته الحقيقية ويصمّ أذنه عن سماع النصيحة، ولا يسمح بتشخيص الطريق القويم من المتاهة، ومحلّ النجاة من الهاوية، بل يمكن القول إن أغلب الأشخاص الذين يشتغلون في الشأن التجارى وأمثال ذلك، والذين يواجهون الإخفاق والإفلاس في نهاية المطاف فالسبب في ذلك يعود إلى حالة الطمع والجشع فيهم.

ويشبه هذا المعنى ما ورد الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام المذكور في كتاب بحار الأنوار حيث يقول: «الطَّمَعُ خَمْرُ الشَّيْطَانِ يَسْتَقْفِي بِيَدِهِ لِحَوَاصِهِ فَمَنْ

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٤٥

سَكَرَ مِنْهُ لَا يَصْحُو إِلَّا فِي أَلِيمِ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ مُجَاوِرَةِ سَاقِيهِ» [٧٦٤].

وفي حديث آخر يقول رسول الله صلى الله عليه وآله «الطَّمَعُ يُذْهِبُ الْحِكْمَةَ مِنْ قُلُوبِ الْعُلَمَاءِ» [٧٦٥].

ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «مَا هَدَمَ الدِّينَ مِثْلَ الْبِدْعِ، وَلَا أَفْسَدَ الرَّجُلَ مِثْلَ الطَّمَعِ» [٧٦٦].
ثم ينطلق الإمام لبيّن التوصية السادسة والأخيرة في هذا المقطع من الوصية ويقول: «وَإِنْ اسْتِطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَاَفْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكُ قَسَمِكَ، وَآخِذُ سَهْمِكَ، وَإِنَّ الْيُسَيْرَ مِنَ اللَّهِ سُجْحَانُهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلُّ مِنْهُ».

ويستند الإمام عليه السلام في هذا التوصية إلى مسألة أخلاقية مهمة وهي أن الإنسان مهما أمكن لا ينبغي أن يقيد نفسه رهن إحسان

الآخرين ومُنتهم، بل يجب عليه الاعتماد على ما يملكه من إمكانات وطاقات لينال حصّته من النعم والمقدرات الإلهية، فإذا نال نصيباً أقلّ من هذا الطريق، فإنّه أفضل من النصيب الأوفر إذا كان من خلال الاستعانة بالآخرين وقبول مُنتهم، وفي الحقيقة النصيب الأقلّ مع حفظ كرامة الإنسان وشخصيته ومقامه يعتبر في الحصيله أكثر من تلك الحصّة الأخرى، لأنّ الإنسان في هذه الحالة يحفظ شخصيته وكرامته ولا يبذل منها شيئاً لا يمكن إرجاعه بعد ذلك.

وعلى رغم أنّ عبارة الإمام عليه السلام في هذه الفقرة مطلقه وتشمل عدم الخضوع لمَنه أيّ شخص حتّى لو كان من المحيّن والمشفقين عليه، كالأب والابن والأخ الذين يتقبلون أيّ طلب ويستجيبون لأيّ حاجة برحابه صدر، ولكن من الواضح أنّ نغمات الولاية، ج ٩، ص: ٥٤٦

الإمام عليه السلام في هذا الكلام يرى أنّ شخصيه الإنسان تتعرّض بالسؤال والطلب من الآخرين إلى الخلل والاهتزاز، وعادة ما يقترن السؤال مع الدلّة أو المنّة.

والشاهد على هذا الكلام ما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه: «قَالَ يَوْمًا رَجُلٌ عِنْدَهُ: اللَّهُمَّ اغْنِنَا عَنْ جَمِيعِ خَلْقِكَ. فَقَالَ: أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا تَقُلْ هَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: اللَّهُمَّ اغْنِنَا عَنْ شِرَارِ خَلْقِكَ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَسْتَعْنِي عَنْ أَحِيهِ» [٧٦٧].

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال لولده الإمام الحسن: «يَا بُنَيَّ إِذَا نَزَلَ بِكَ كَلْبُ الزَّمَانِ وَقَطَطُ الدَّهْرِ فَعَلَيْكَ بِدَوَى الْأُصُولِ الثَّابِتَةِ وَالْفُرُوعِ الثَّابِتَةِ مِنْ أَهْلِ الرَّحْمَةِ وَالْبَيْتَارِ وَالشَّفَقَةِ، فَإِنَّهُمْ أَقْضَى لِلْحَاجَاتِ وَأَمْضَى لِلدُّعَى الْمَلَمَاتِ» [٧٦٨].

وبيان آخر أنّ الإنسان كثيراً ما يكون قادراً على أداء عمل معين ولكن بسبب الكسل وطلب الراحة فإنّه يطلب المعونة من الآخرين ويضع كله عليهم، وهذا العمل مذموم وقبيح، ولكن في بعض الموارد لا يتيسّر العمل ونيل المقصود إلّا بالية التعاون والتكاتف، ففي مثل هذه الموارد لا إشكال في طلب المساعدة من الآخرين، لأنّ حياة الإنسان مقترنة دوماً بعنصر التعاون في حركة المجتمع. وجملة: «وإنّ كان كُلبٌ منه في الحقيقة إشارة إلى التوحيد الأفعالي للذات المقدّسة وأنّه على فرض أن يطلب الإنسان المعونة والمساعدة من الآخرين (فيما لا ينبغي طلب المعونة فيه) ثمّ يمدّون له يد العون، فلو دقّقنا النظر في هذا المورد أيضاً لرأينا أنّه حتّى هذا المورد من قبل الله تعالى، لأنّ الإنسان لا يملك شيئاً في واقعه حتّى يعطيه لغيره، فما يملك فهو من الله تعالى وما حصل عليه فإنّه قد اكتسبه بإذن الله وبما أودع الله فيه من قوّة وقدره.

يقول المرحوم مغنّيه في شرح نهج البلاغه ذيل هذه التوصية لأمر المؤمنين عليه السلام

نغمات الولاية، ج ٩، ص: ٥٤٧

نقلًا عن الشيخ محمد عبده العالم المصري المعروف، في جمل قصيرة وعميقة المضمون، يقول: لا يوجد كلام يقع مؤثراً في قلب الإنسان أفضل من هذا الكلام، الكلام الذي يتسبب بقوّة التأثير وإصابة الحقّ بحيث ينقل القارئ المؤمن من هذه الدنيا وأهلها ويجعل جميع همّه متوجّهاً إلى الله تعالى.

وكما يقول الشاعر:

وَيَحِكُ يَا نَفْسُ دَعِي مَا عَشْتِ ذُلَّ الطَّمَعِ

وَارْضِي بِمَا جَرَى بِهِ حُكْمُ الْقَضَاءِ وَقِنَعِي

إِيَّاكَ وَالْمِيلَ إِلَى شَيْطَانِكَ الْمُبْتَدِعِ

وَأَقْتَصِدِي وَأَقْتَصِرِي كِي تَرْتَوِي وَتَشْبَعِي

أَيْنَ السَّلَاطِينِ الْإِلَهِيِّ مِنْ حِمِيرٍ وَتُبَعِ

شَادُوا الْحُصُونَ فَوْقَ كُلِّ شَاهِقٍ مُرْتَفِعٍ
 لَمْ يَبْقَ مِنْ دِيَارِهِمْ غَيْرَ رُسُومٍ حُشَعٍ
 كَفَىٰ بِذَٰكَ وَعَظَاوَزًا جَرًّا لِمَنْ يَعَى
 حَسْبُكَ يَا نَفْسُ اقْبَلِي نُصْحِي وَلَا تُضَيِّعِي [٧٦٩].
 نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٤٩

القسم الرابع والعشرون

إشارة

وَتَلْفَيْكَ مَا فَرَطَ مِنْ صِمْتِكَ أَيَسَّرَ مِنْ إِذْرَاكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وَحَفِظَ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشِدِّ الْوِكَاءِ، وَحَفِظَ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيَّ غَيْرِكَ. وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ سِيَاحٍ فِيمَا يَضُرُّهُ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ. قَارِنِ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنِ أَهْلَ الشَّرِّ تَبْنِ عَنْهُمْ، بِنَسِ الطَّعَامِ الْحَرَامِ! وَظَلَمَ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ! إِذَا كَانَ الرَّفِيقُ خُرْقًا كَانَ الْخُرْقُ رِفْقًا. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً، وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَعَشَّ الْمُسِيءُ تَنْصَحُ. وَإِيَّاكَ وَالْاِتِّكَالَ عَلَى الْمَنَى فَإِنَّهَا بَصَائِعُ النَّوَكَى وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرٌ مَا جَزَبَتْ مَا وَعَظَكَ. بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً. لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصْتَبَى، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَثُوبُ. وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَنْفَسِدَةُ الْمَعَادِ. وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قَدَّرَ لَكَ.

التَّاجِرُ مُحَاطِرٌ، وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ لِأَخَيْرٍ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ. سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَلَا تُحَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرِ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَعَ بِكَ مَطِيئَةَ اللَّجَاجِ.

الشرح والتفسير: سبع وعشرون موعظة ثمينة

يستعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من وصيته النورانية مجموعة منسجمة ومتجانسة من النصائح المتنوعة لولده الإمام الحسن المجتبي عليه السلام والتي تتضمن كل

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٥٠

واحدة منها نقطة مهمة في حياة الإنسان وسلوكه الأخلاقي، وتشكل بمجموعها منهاجاً مفضلاً لتحقيق الحياة السعيدة لكل فرد.

بدايةً يقول الإمام عليه السلام: «وَتَلْفَيْكَ [٧٧٠] مَا فَرَطَ [٧٧١] مِنْ صِمْتِكَ أَيَسَّرَ مِنْ إِذْرَاكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ».

وهذا يعني أن الإنسان إذا امتنع عن التحدث بشيء ثم علم بعد ذلك أن صمته كان خطأ فإنه يستطيع فوراً تلافى هذا النقص وتدارك هذا الخلل، في حين أنه إذا كان قد تحدث بكلام ثم فهم بعد أن هذا الكلام خطأ، فإن تدارك هذا الخطأ غير ممكن، كالماء الذي اريق على الأرض، فإن جمعه غير ممكن حينئذ.

ويستعرض الإمام عليه السلام في إدامه كلامه الطريق الصحيح للوصول إلى هذا المقصود بذكر المثال، ويقول: «وَحَفِظَ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشِدِّ الْوِكَاءِ».

«الوعاء» الظرف الذي يوضع فيه الشيء، والمراد به هنا القلب وروح الإنسان، «الوكاء» الحبل الذي تشد به فوهة القربة، وهو إشارة إلى لسان الإنسان وفمه، فلو أن الإنسان ملك لسانه ومنطقه، فإنه لا تصدر منه كلمات نابية ولا مسؤولة قد توجب له الندم بعد صدورها منه.

ثم يتطرق الإمام عليه السلام للتوصية الثانية ويقول: «وَحَفِظْ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيَّ غَيْرِكَ».

وهو إشارة إلى أن الكثير من الناس وبسبب حالات الإسراف والتبذير في الأموال، يفقدون ما لديهم من ثروة، ويضحون محتاجين للآخرين، ويفقدون عزتهم ومكانتهم، ولو أن الإنسان سلك طريق الاعتدال والاقتصاد في حياته فإنه لا يحتاج إلى الآخرين، ومن هذا المنطلق فإنه التوصية المذكورة لا تدعو للبخل أبداً، بل تعني الدعوة للاعتدال وترك الإسراف والتبذير.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٥١

ثم يتطرق الإمام عليه السلام للتوصية الثالثة التي ترتبط بما قبلها ويقول: «وَمَرَاةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ». أي «اليأس» مما في أيدي الناس أفضل من الطلب إليهم.

والمراد من «اليأس» في هذه العبارة هو حالة من قطع الأمل بالآخرين من موقع الاختيار بحيث إن الإنسان يوصد على نفسه باب الطلب من الناس، وهذا العمل وإن كان صعباً وشاقاً، ولكنه يمنح الإنسان العزة والشرف والكرامة، ولهذا يقول الإمام عليه السلام، إن مثل هذه المرارة أفضل من حلاوة الطلب والسؤال إلى الناس.

وعبارة «اليأس عما في أيدي الناس بوصفها قيمة وفضيلة أخلاقية وردت في روايات عدة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام منها ما ورد في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «وَخَيْرُ الْمَالِ الثُّقَّةُ بِاللَّهِ وَالْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ» [٧٧٢].

وهذا الكلام لا يعني أن الإنسان يعرض عن التعاون والتكاتف مع الناس في أمور الحياة، وأن الحياة الاجتماعية لا تقوم إلا على أساس التعاون، بل المراد أن لا ينظر المرء إلى أموال الناس بعين الطمع ولا يجعل الناس كلاً، بل يسعى لكسب معاشه بنفسه.

وكما يقول الشاعر:

وَإِنْ كَانَ طَعْمُ الْيَأْسِ مَرًّا فَإِنَّهُ أَلْدُّ وَأَخْلَى مِنْ سُؤْلِ الْأَرَادِلِ

ثم يبين الإمام عليه السلام في التوصية الرابعة ويقول: «وَالْحِرْزَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ».

العِفَّةُ في اللغة وموارد استعمالها عند علماء الأخلاق لا تعني ضبط النفس من حيث الغريزة الجنسية، بل ضبط النفس عن كل ذنب، وجاءت في الجملة أعلاه بهذا المعنى، لأنَّ البعض لا يتمتع من اقتراف أي ذنب ومعصية في جمع الثروة والمال من هذه الجهة أو تلك، أما المؤمنون الذين يعيشون الطهر والنقاء القلبي ربّما يجمعون

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٥٢

ثروة أقل، من خلال الطرق المشروعة والبعيدة عن كل أنواع الإثم والعدوان، والإمام يقول: إن هذا الأخير أفضل وأرجح من السابق. ويستطرد الإمام عليه السلام في بيان التوصية الخامسة ويقول: «وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ»، لأنَّ الإنسان أكثر اهتماماً وتشدداً لحفظ أسرارهِ من الآخرين، لأنَّ إفشاء هذه الأسرار يوجب له الضرر والخسارة، وقد يتسبب في هتك حرمة وفضح شخصيته، في حين أن الآخرين ربّما لا يتضررون من إفشاء سرِّهِ، ومن هذا المنطلق إذا أراد الإنسان حفظ أسرارهِ، فيجب أن يضعها في مكنون صدرهِ ويحكم إغلاق بابهِ، كما ورد ذلك في كلمات الإمام عليه السلام القصار: «صَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ».

وفي التوصية السادسة يقول الإمام عليه السلام: «وَرُبَّ سَاعٍ [٧٧٣] فِيمَا يَضُرُّهُ».

وهذا إشارة إلى أن سعى الإنسان يجب أن يكون مدروساً ومحسوباً، وبيان آخر، أن السعى يجب أن يقترن بالتدبير، حتى لا ينعكس الأمر عليه ويقطع أصله بسيفه، وهذا يعدّ من أسوأ أنواع المصائب.

وفي التوصية السابعة يقول الإمام عليه السلام: «مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ [٧٧٤]».

أجل، فأحد فوائد الصمت، عدم التورّط في شبكات الكلام الركيك والموهن، وقد ثبت بالتجربة أن الأشخاص الثرثارين يتحدثون بكلمات كثيرة ليس لها معنى ولا مفهوم، لأنَّ الكلام المحسوب والمدروس يحتاج إلى فكر ومطالعة، في حين أن الثرثارين ليس لديهم مجال للتفكير، والإمام في غرر الحكم يبيّن العواقب السيئة الكثيرة لظاهرة الثرثرة وما يترتب عليها ويقول: «مَنْ كَثَرَ كَلَامَهُ

زَلَّ» [٧٧٥]، وهذا الأمر يؤدي إلى سقوط شخصيته من أعين الناس ويتسبب في ذلته وفضيحته، بخلاف الأشخاص الذين يتحدثون بكلام قليل ومدروس، فإن ذلك من شأنه أن يمنحهم

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٥٣

مكانة مرموقة وسمعة حسنة في أنظار الناس وكما يقول الشاعر:

وَالصَّمْتُ أَجْمَلُ لِلْفَتَى مَا لَمْ يَكُنْ عَمَى يُشِينُهُ

وَالْقَوْلُ ذُو خَطَلٍ إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ لَبٌّ تُعِينُهُ

وفي الوصية الثامنة يقول الإمام عليه السلام: «وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ»، أي أبصر حقائق الحياة وسلك الطريق القويم في حياته.

إن أهميته التفكير في أمور الدنيا والآخرة ليست شيئاً خافياً على أحد، فجميع الأفراد الذين حققوا نجاحاً في حياتهم سلكوا هذا الطريق.

يقول القرآن الكريم في هذا المجال: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ* فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» [٧٧٦].

وفي التوصية التاسعة يقول الإمام عليه السلام: «قَارِنِ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَارِنِ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنَ عَنْهُمْ».

وهذا إشارة إلى أن تأثير المجالسة والمعاشرة لا يقبل الإنكار، فمجالسة الأشرار تقود الإنسان إلى وادي الهلكة والشقاء، بينما مجالسة

الأخيار تقوده نحو فضاء السعادة والنجاه، وفي الآيات القرآنية إشارات جلية على هذا المعنى، يقول تعالى:

«وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً* لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا» [٧٧٧].

وجاء في الحديث الشريف المشهور عن النبي الأكرم عليه السلام يقول: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ وَقَرِينِهِ» [٧٧٨].

وهذا هو المعيار الأفضل لمعرفة شخصية الإنسان المعقدة والغامضة من خلال

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٥٤

النظر إلى قرينه وصديقه، كما ورد ذلك في حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«فَمَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْكُمْ أَمْرُهُ وَلَمْ تَعْرِفُوا دِينَهُ فَمَا نَظَرُوا إِلَى خُلَطَائِهِ فَإِنْ كَانُوا أَهْلَ دِينِ اللَّهِ فَهُوَ عَلَى دِينِ اللَّهِ وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ فَلَا

حَظَّ لَهُ مِنْ دِينِ اللَّهِ» [٧٧٩].

ويقول عليه السلام في التوصية العاشرة: «بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ».

ويتحدث القرآن الكريم عن الأشخاص الذين يأكلون أموال اليتامى بأنهم يأكلون النار في بطونهم: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى

ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا» [٧٨٠]. وهكذا بالنسبة للأطعمة المحرمة فإنها تشبه أموال اليتامى من هذه الجهة، وقد ورد في

الروايات أن من جملة موانع استجابة الدعاء، تناول الأطعمة الحرام، وقد أشرنا قبل ذلك إلى حديث نبوي في هذا المجال.

ويواصل الإمام عليه السلام بيان توصيات ولده ويقول في التوصية الحادية عشر: «وَطَلَّمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ»، لأنه غير قادر على

الدفاع عن نفسه، وينقل الكليني في كتاب الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام أن قال: «لَمَّا حَضَرَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْوَفَاةَ ضَمَّنِي إِلَى

صَدْرِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا بُنَيَّ أَوْصِيكَ بِمَا أَوْصَانِي بِهِ أَبِي عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَبِمَا ذَكَرَ أَنَّ أَبَاهُ أَوْصَاهُ بِهِ، قَالَ: يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَطَلَّمُ

مَنْ لِيَجِدُ عَلَيْكَ نَاصِرًا إِلَّا اللَّهَ» [٧٨١].

وبديهى أن الظلم قبيح تجاه كل إنسان، ولكن إذا ظلم رجل شخصاً ثرياً وسرق مقداراً من ماله، فرغم أن هذا العمل يعد مخالفة

أخلاقية، إلا أنه لا يتسبب في إلحاق أذى وضرر كبير لصاحب المال، بخلاف ما لو سرق من فقير ماله.

وفي التوصية الثانية عشر يقول الإمام عليه السلام: «إِذَا كَانَ الرَّفِيقُ حُرْقًا [٧٨٢] كَانَ الْحُرْقُ رِفْقًا. رَبُّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً».

إن أصل مناهج الحياة يقوم على أساس المداراة والليونة والانعطاف، فأحياناً

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٥٥

يوجد بعض الأشخاص من سيئى الاستفادة من هذا السلوك الإنسانى، فتزداد حالات العنف فيهم، فمع مثل هؤلاء الأشخاص يكون استخدام العنف الطريق الوحيد لإصلاحهم، والجملة اللاحقة فى الحقيقة بمثابة علة لهذه الجملة، فهناك موارد يكون الدواء فيها مزيداً فى العلة والمرض، ويكون تحمّل الألم دواءً وعلاجاً لهذا المريض كما قال الشاعر:

أَلَا فَاصْبِرْ عَلَى الْحَدَثِ الْجَلِيلِ وَدَاوِ جَوَاكِ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ

وَلَا تَيَأْسُ فَإِنَّ الْيَأْسَ كُفْرٌ لَعَلَّ اللَّهَ يُغْنِي مِنْ قَلِيلٍ

وَإِنَّ الْعُسْرَ يَتَّبِعُهُ يَسَارٌ وَقَوْلُ اللَّهِ أَصْدَقُ كُلِّ قِيلٍ

وهذا يعنى أنّ الجراح التى يتوقّف علاجها على الكى بالنار، فمن المعلوم أنّ استخدام الرقى والأدوية مرّة أخرى تكون عبثاً، وربما تتسبّب فى زيادة المرض، وبالعكس ذلك تارة يكون المرض عارضاً على الإنسان بحيث يتسبّب فى شفاء المريض من أمراض أهم وأخطر.

وفى الوصية الثالثة عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ [٧٨٣] الْمُسْتَنْصَحُ [٧٨٤].»

وهذا إشارة إلى أنّه لا ينبغى إساءة الظنّ بكلام الأشخاص ممّن ليسوا من أهل النصح، وأحياناً تصدر منهم كلمات حكيمة ونصيحة نافعة، على العكس من ذلك تارة يصدر من أهل النصح والصلاح خيانه فى نصيحتهم بسبب الخطأ أو الحسد أو عوامل أخرى، وعلى ضوء ذلك لا ينبغى أن نقبل كلامهم بدون تدبّر، بل ينبغى فى كلا الحالتين العودة إلى حكم العقل والعمل على تمييز الكلام النافع من غير النافع لهؤلاء الناصحين من خلال الشواهد والقرائن.

ينقل العلامة المجلسى فى بحار الأنوار رواية مشهورة وجميلة فى هذا المجال،

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٥٦

عن أبى جعفر الباقر عليه السلام قال: لَمَّا دَعَا نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى قَوْمِهِ أَتَاهُ إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ فَقَالَ: يَا نُوحُ إِنَّ لَكَ عِنْدِي يَدًا أَرِيدُ أَنْ أَكْفِيكَ عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ يَبْغِضُ إِلَيَّ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِنْدِي يَدٌ فَمَا هِيَ؟ قَالَ: بَلَى، دَعَوْتَ عَلَى قَوْمِكَ فَأَغْرَقْتَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِغْوِيهِ، فَأَنَا مُسْتَرِيحٌ حَتَّى يَظْهَرَ قَرْنٌ آخَرَ وَاغْوِيَهُمْ، فَقَالَ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

مَالِذِي تَرِيدُ أَنْ تَكْفَانِي بِهِ؟ (وفى بعض الروايات أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى نوح أن كلمه واسأله فإننى سانطقه بمحجّية عليه، إلّا أنّ نوح عليه السلام لم يقبل أن يكلمه) [٧٨٥] قال إبليس: «أَذْكُرْنِي فِي ثَلَاثِ مَوَاطِنَ فَإِنِّي أَقْرَبُ مَا أَكُونُ إِلَى الْعَبْدِ إِذَا كَانَ فِي إِخِيْدَاهُنَّ: أَذْكُرْنِي إِذَا غَضِبْتَ، وَأَذْكُرْنِي إِذَا حَكَمْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ، أَذْكُرْنِي إِذَا كُنْتَ مَعَ امْرَأَةٍ خَالِيًا لَيْسَ مَعَكُمْ أَحَدٌ» [٧٨٦].

وهذا الحديث فى الحقيقة يبيّن أحد المصايد الواضحة لكلام الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام.

وفى التوصية الرابعة عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَأَيَّاكَ وَالْإِتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَصَائِعُ النَّوْكَى [٧٨٧].»

المقصود من كلمة «المنى الآمال الطويلة والعريضة التى هى إلى الخيالات والأوهام أقرب، والأشخاص الذين يعيشون هذه الحالة من الاعتماد على الآمال البعيدة والطموحات الخيالية فإنهم يستنزفون قواهم الفعّالة ويهدرون طاقتهم الحيوية، ثم لا يصلون إلى شىء، ومن جهة أخرى الاعتماد على هذه الآمال يستنزف عصاره فكر الإنسان وعمره لحساب الوهم ويصرفه عن التفكير فى المعاد والحياة الآخرة.

وهذا ما ورد فى الحديث المشهور عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وكذلك عن الإمام

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٥٧

أميرالمؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة، قال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَحْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَانِ اتِّبَاعُ الْهُوَى وَطُولُ الْأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهُوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْأَخِرَةَ» [٧٨٨].

وفى التوصية الخامسة عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ.»

إشارة إلى أن الإنسان عندما يجمع التجارب التي اكتسبها من واقع الحياة ومن الآخرين، ومع الالتفات إلى القاعدة المعروفة: «حُكْمُ الْأُمْتَالِ فِيمَا يَجُوزُ وَفِيمَا لَا يَجُوزُ وَاحِدٌ»، والحديث المعروف: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُلْمَدُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ» [٧٨٩] فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْإِنْسَانَ الْقُدْرَةَ عَلَى مَوَاجَهَةِ الْحَوَادِثِ وَالْمُسْتَجِدَّاتِ بِأَسَالِبٍ صَحِيحَةٍ، ويتعاطى معها من خلال ما اكتسبه من تجارب قديمة، وبالتالي يستطيع تفادي الكثير من الأخطاء والتخلص من الكثير من الأزمات.

إن الكثير من القواعد العقلية الكلية مستوحاة من هذه التجارب الجزئية، (وفقاً لقاعدة الاستقراء المنطقية) وطبعاً فهذه التجارب تارة تتعلق بالإنسان نفسه، وأخرى يستقيها الإنسان من تجارب الآخرين، وهذا كما يسمّى «نُورٌ عَلَى نُورٍ»، ومن هذه الجهة يهتم المدراء والقادة بمطالعة تاريخ القدماء ليستوحوا منه الدروس والعبر.

وخلاصة الكلام أن الإنسان إذا تحرّك في حياته على مستوى حفظ تجاربه والاستفادة من تجارب الآخرين، فإنه يستطيع استخدامها في الموارد المشابهة دون أن يكرّر أخطائه الماضية، وكذلك يستخلص قانوناً كلياً من الموارد الجزئية لنفسه وللآخرين في جميع شؤون الحياة.

ورد في رسالة الإمام عليه السلام المرقمة ٧٨ من نهج البلاغة تعبيراً أشد في هذا المجال، يقول عليه السلام: «فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّجْرِيبَةِ».

والتوصية السادسة عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٥٨

وهذا إشارة إلى أن التجارب تارة تمنح الإنسان نفعاً مادياً، وأخرى نفعاً معنوياً، وأن أفضل التجارب هو ما نفع الإنسان على المستوى المعنوي والأخلاقي.

وفي كلمات الإمام عليه السلام القصار: «لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظَكَ» [٧٩٠].

وفي التوصية السابعة عشر يقول عليه السلام: «بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً».

والفرصة يعنى توفير المقدمات للتوصل إلى المقصود، وأحياناً يكون للإنسان مقصد مهم ولكن لم تتوفر مقدماته، وفجأة وفي لحظة تهيئاً وتوفر هذه المقدمات، فحينئذ ينبغي عليه المسارعة في الاستفادة من هذه اللحظة قبل فوات الأوان، وإيصال نفسه إلى المقصد، فإذا غفل عن ذلك وأفلت الفرصة من يديه، فربما لا تتوفر أبداً في المستقبل تلك الظروف لتحقيق الغاية والوصول إلى الهدف، والفرص مثل الرياح الموافقة التي تهب باتجاه المقصد، فلو لم ينتفع الملاح في السفينة الشراعية من هذه الفرصة، فربما يبقى ساعات وأياماً على سطح البحر دون أن يتحرّك في المسير الصحيح، ويتحوّل ضياع تلك الفرصة إلى غصة.

وجاء في الحديث المشهور عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ ذَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا» [٧٩١].

وورد في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ فُتِحَ لَهُ بَابٌ مِنَ الْخَيْرِ فَلْيَنْتَهِزْهُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَى يُغْلَقُ عَنْهُ» [٧٩٢].

وقد وردت بهذا المضمون روايات كثيرة عن المعصومين عليهم السلام وفي عبارات الأعظم، ونختم هذا الفصل بحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «أَشَدُّ الْغُصَصِ فَوْتُ الْفُرْصِ» [٧٩٣].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٥٩

وفي التوصية الثامنة عشر يقول الإمام عليه السلام: «لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَوْبُ».

وهاتان الجملتان بمثابة العلة للتوصية بالمبادرة واستغلال الفرص قبل فوات الأوان، لأن الإنسان إنما يصل إلى مقصوده فيما لو سعى لتوفير الأرضية اللازمة والظروف المناسبة للنجاح، وفي غير هذه الصورة فإن سعيه سيكون عقيماً، وكلمة «غائب» يمكن أن تشير إلى الفرص الضائعة التي لا تعود أبداً، وفي ذات الوقت يمكن أن تكون توصية مستقلة وإشارة إلى أن الإنسان لا ينبغي أن يتوقع أن يصل إلى نتيجة من سعيه وعمله دائماً، وبيان آخر أن لا يصاب باليأس والقنوط مما يواجهه من إخفاقات في حركة الحياة.

نفحات الولاية؛ ج ٩؛ ص ٥٥٩

في الوصية التاسعة عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ».

والمقصود من الزاد هنا هو زاد التقوى والمتاع لسفر الآخرة، فلو أن الإنسان أضاع هذا الزاد فإنه سيفسد معاده وتضيع آخرته. وفي التوصية العشرين يقول: «وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ».

وذلك إشارة إلى أن الإنسان عندما يقدم على أي عمل، يجب أن يتدبر في عاقبته، ولا يتحرك في طريق ويقوم بعمل دون تفكير ومحاسبة، فلو كانت عاقبته حسنة فإنه يقدم عليه وإلا فلا.

وجاء في غرر الحكم عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام هذه العبارة مع إضافته، يقول: «وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ حُلُوءٌ أَوْ مُرَّةٌ» [٧٩٤]. وفي التوصية الحادية والعشرين يقول الإمام عليه السلام: «سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قَدَّرَ لَكَ».

والمقصود أنه لا ينبغي أن يعيش الإنسان الحرص بدون مبرر، وهذا لا يعني أن الإنسان يترك السعي لطلب المعاش وتحسين ظروف الحياة، بل الغرض من ذلك أن

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٦٠

يجتنب الجهد العقيم والسعي غير المثمر، وجميع الروايات التي تشير إلى تقدير الرزق، ناظرة إلى هذا المعنى.

وفي التوصية الثانية والعشرين يضيف الإمام عليه السلام: «التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ» [٧٩٥].

فالتاجر لا ينتفع ويربح من تجارته دائماً، وكما يقال إن التجارة نوع من الحظ، ومن هنا فالإنسان ينبغي أن يتحلى بالشجاعة ويتوكل على الله ولا يخشى من الأضرار المحتملة ولا يفقد أمله من مواجهة الضرر والخسارة، فالتاجر يجب أن يسعى ويبدل جهده في هذا السبيل مع التدبر في معطيات هذا المسير ومخاطره، ولكن إذا واجه ضرراً وخسارة، فلا ينبغي له أن يتألم ويحزن. ويحتمل أن تكون هذه الجملة إشارة إلى الأبعاد المعنوية للتجارة، لأن التاجر تتلوث أمواله أحياناً بالحرام وتواجه سعادته الخطر من ذلك، وعلى ضوء ذلك يجب عليه الانتباه من الوقوع في هذه الأخطار وخاصية في عصرنا الحاضر الذي ازدادت فيه الأموال الحرام والتجارة غير المشروعة وأحياناً تسدل الأرباح الوفيرة حجاباً على عقل الإنسان وتقود التاجر إلى التورط في مهاوى الذنوب والانحراف.

ثم إن الإمام عليه السلام يستعرض التوصية الثالثة والعشرين ويقول: «وَرُبَّ يَسِيرٍ أُنْمَى مِنْ كَثِيرٍ».

إشارة إلى أن الإنسان لا ينبغي أن ينظر إلى كمية الأعمال والأفعال، بل المهم الكيفية والنوعية، فكم من الأعمال القليلة وبكيفية أفضل وإخلاص أوفر تعطى ثماراً أكثر، يقول القرآن الكريم: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَتَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» [٧٩٦].

وهنا احتمال آخر في تفسير هذه الجملة، وهي أن الإنسان لا ينبغي أن يهتم في حياته المادية بزيادة رأس ماله وثروته، وربما يكون الرأسمال القليل حلالاً

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٦١

وطاهراً، وفي التالي ينمو ويزداد بشكل أكبر، يقول القرآن الكريم: «وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيُزْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَزْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ» [٧٩٧].

ثم إن الإمام عليه السلام يطرح التوصية الرابعة والعشرين ويقول: «لَمَّا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ [٧٩٨]، وَلَمَّا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ [٧٩٩]»، لأن الصديق المهين إذا كان يعيش الحقارة والدناءة فإن عمله هذا سيكون مقترناً غالباً بالمن، مضافاً إلى أن شخصية الإنسان ستواجه الاهتزاز في أنظار الناس، لأنه يتخذ من الشخص الدنيء معيناً ورفيقاً، والصديق المتهم وإن أدى حق الصداقة والزمانة، فإنه يتسبب في توجه التهمة إلى صديقه ويسىء إلى سمعته، وهنا ينبغي على العاقل أن يغض نظره عن معونته وعطائه.

وفى التوصية الخامسة العشرين يقول الإمام عليه السلام: «سَاهِلِ [٨٠٠] الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ».

وهو إشارة إلى أنه من الممكن أن لا تعود مثل هذه الفرصة في المستقبل، ويحتمل أيضاً في تفسير هذه الجملة أن الدهر إذا تعامل معك من موقع المداراة فعليك أن تداريه أيضاً وكما قال الشاعر:

إِذَا الدَّهْرُ أَعْطَاكَ العِنَانَ فَسِرْ بِهِ رُوَيْدًا وَلَا تَعْنَفْ فَيُضْبِحُ شَامِسًا

وفى التوصية السادسة والعشرين يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرِ مِنْهُ».

فأحياناً تتوفر نعم كثيرة لدى الإنسان، ولكن حالة الطمع وطلب المزيد تدفعه من أجل اكتساب المزيد من النعم والثروات، أن يخاطر بحياته وبإمكاناته، وهذا العمل يتقاطع مع العقلانية، من قبيل أن الإنسان يضع ماله بيد أشخاص لا يعرفون

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٦٢

شيئاً من أمر التجارة والمضاربة، طمعاً في ما وعدوه من أرباح وفيرة، فتكون النتيجة أنه ليس فقط لا يربح شيئاً، بل يفقد أصل رأس ماله أيضاً.

وأخيراً وفى التوصية السابعة والعشرين (فى هذا المقطع من الوصية) يقول الإمام عليه السلام: «وإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ [٨٠١] بِكَ مَطِيئَةُ اللُّجَاجِ».

اللجاج هو أن الإنسان يصرّ على كلامه الباطل أو سلوكه المنحرف الذى ثبت له بطلانه، خوفاً من اهتزاز شخصيته أمام الآخرين، فى حين أن الإنسان فى مثل هذه الموارد لو تعامل مع الحقيقة من موضع التواضع والإذعان لها، فإنه سيكسب المزيد من السمعة فى أنظار الناس.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِيَّاكَ وَاللُّجَاجَةَ فَإِنَّ أَوْلَهَا جَهْلٌ وَآخِرُهَا نَدَامَةٌ» [٨٠٢].

وفى حديث آخر يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا مَرْكَبَ أَجْمَحَ مِنَ اللُّجَاجِ» [٨٠٣].

والحقيقة أنه لو قرأ الإنسان هذه الوصايا السبع والعشرين فقط فى هذه الوصية التى وردت بعبارات موجزة وعميقة المحتوى، وتحرك على مستوى تطبيقها وتجسيدها فى واقع الممارسة والعمل، فسوف يعيش السعادة المنشودة، ولو أن المجتمع جسد هذه المواعظ والنصائح فلا شك أن مثل هذا المجتمع سيعيش الحيوية والنشاط والسعادة والإزدهار.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٦٣

القسم الخامس والعشرون

إشارة

احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صِرْمِهِ عَلَى الصَّلَةِ، وَعِنْدَ صِدُودِهِ عَلَى اللَّطْفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبُذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللَّيْنِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَيْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ. لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَأَمْحُضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ حَسِيئَةً كَأَنَّكَ أَوْ قَبِيحَةً، وَتَجَرَّعِ الْعُيُظَ فَيَأْتِي لَمْ أَرَجُوعَةً أَخْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلَمَّا أَلَمَدَّ مَعْبَةً. وَلَنْ لِمَنْ غَالَطَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَنَّ لَكَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَخْلَى الظَّنِّينِ. وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةً أَخِيكَ فَاسْتَبِقْ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ يَدَا لَهُ ذَلِكَ يَوْمًا مَا. وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدَّقْ ظَنَّهُ.

الشرح والتفسير: الإحسان فى مقابل الإساءة!

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية لبيان وظيفة الإنسان في مقابل إخوانه وأصدقائه وكيفية التواصل معهم من موقع حسن الخلق، وذلك بتقديم عدة توصيات، يقول بدايةً:

«اِحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرَمِهِ [٨٠٤] عَلَى الصَّلَاةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ [٨٠٥] عَلَى

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٦٤

اللَّطْفِ [٨٠٦] وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ [٨٠٧] عَلَى التَّبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُو، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ».

في هذه التوصية يحذر الإمام عليه السلام ولده من الردّ بالمثل فيما يواجهه من نفور ولا مبالاة من أصدقائه، وضمناً يوصيه بستّ جمل بليغة تتضمّن بلاغة الجناس، بأنّ الردّ بالمثل من شأنه أن يهدّد أساس المودّة والصدقة بين الأصدقاء، فيفقد المرء صديقه بسبب ذلك، ولكن كلّما تعامل مع الإساءة بالإحسان ومع اللامبالاة بالمودّة، فسوف يدرك صديقه خطأه ويخجل من نفسه ويتحرّك على مستوى جبر الخلل وتقوية وترسيخ دعائم المحبّة والمودّة أكثر فأكثر.

والعبارات التي يستخدمها الإمام عليه السلام في هذه الفقرات تمثّل في الحقيقة شرحاً لما ورد في القرآن الكريم في قوله: «ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلْقَاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» [٨٠٨].

ورغم أنّ هذه الآية نزلت في مورد الأعداء، ولكن ممّا لا شك فيه أنّها صادقة على الأصدقاء أيضاً، فسيارة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى عليهم السلام وعلماء الدين الكبار تشير إلى هذه الحقيقة أيضاً إلّا في موارد استثنائية، وأنهم كانوا لا يواجهون العدوان والإساءة من الأصدقاء والأعداء بالمثل، إلّا في موارد خاصّة ونادرة.

وبما أنّ بعض السّدج وذوى الفكر الضيق ربّما يسيئون هذا السلوك الإنساني معهم، فالإمام عليه السلام استثنى هذه الفئة من هذه القاعدة وقال: «وإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ».

والفرق بين جملة «وإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ...» وجملة «أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ...» أنّ الجملة الثانية

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٦٥

تشير إلى الأشخاص الذين يعيشون الحقد والعدا، وأنّ الاحسان إليهم في مقابل إساءتهم قد تتسبب في زيادة جرأتهم وعدوانهم، فيكون الإحسان إليهم كالإحسان إلى الذئب، ولكنّ الجملة الاولى ناظرة إلى الأشخاص الذين لا يعيشون مثل هذه الحالة، ولكن ربّما يقودهم الإحسان إليهم في مقابل إساءتهم أن يتصوّروا خطأ أنّهم أختيار وأنّ عملهم جيّد وليس فيه إشكال.

والتعبير بـ «اِحْمِلْ» في بداية هذه التوصية إشارة إلى أنّ عملية الإحسان في مقابل الإساءة وإن كانت صعبة على الإنسان، ولكن ينبغي عليه أن يتحمّل ذلك ويحمل هذه القضية على نفسه.

ويقول الإمام عليه السلام في التوصية الثانية: «لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ».

فهذا العمل يعدّ من جملة النفاق، حيث يطرح الإنسان المودّة مع صديقه ومع عدوّ صديقه أيضاً، فهذا هو اسلوب الأشخاص الذين لا يعيشون واقع الصداقة وحقيقة المودّة، وغرضهم من ذلك الانتفاع والمصلحة الشخصية من كلا الطرفين، فلا يمتنعون في هذا السبيل من الوقوع في مثل هذا التناقض والسلوك والعواطف.

وطبعاً هذا في مورد تكون عداوة العدو ناشئة من ظلمه وعدوانه، لا أنّ الصديق مقصّر وقد ارتكب إساءة في حقّه بحيث أدّى ذلك إلى معاداته.

وكذلك يصدق هذا الكلام في مورد لا يكون الغرض من إقامة علاقة مع عدوّ الصديق إصلاح ذات البين، فإن كان المقصود من المودّة معه إصلاح ذات البين فإنّه ليس فقط عمل غير ذميم بل عمل إنساني ممدوح.

وممّا يجدر ذكره أنّ توصية الإمام عليه السلام في هذا الباب لا تتناول الأشخاص فقط، بل تشمل الفئات والشعوب والدول أيضاً، رغم

أن الكثير من الدول في العالم المعاصر يطرحون المودة والصدقة مع كلا طرفي النزاع دون أن يقصدوا من ذلك المصالحة بينهما، بل هدفهم من ذلك استغلال هاتين الدولتين المتخاصمتين لضمان

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٦٦

مصالحهم الشخصية، فيقيمون روابط سياسية واقتصادية مع الأصدقاء ومع الأعداء على حد سواء، واللافت للنظر أنهم لا يخفون ذلك، بل يصرحون بإقامته مثل هذه العلاقة العميقة معنا، وكذلك مع أعدائنا في ذات الوقت.

ففي رواية أن رجلاً قدم على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إنني أحبك واحب فلاناً، وسمى بعض أعدائه فقال عليه السلام: «أما الآن فأنت أعور، فأما أن تغمى وإما أن تبصر» [٨٠٩].

وفي بعض الروايات أنه ذكر معاوية.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قاله له رجل: إن فلاناً يواليكم إلا أنه يضعف عن البراءة من عدوكم، فقال الإمام عليه السلام: «هيهات، كذب من ادعى محبتنا ولم يتبرأ من عدونا» [٨١٠].

ويقول القرآن الكريم مخاطباً النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «لا تجرد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم» [٨١١].

ثم يقول الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من الوصية: «وأما حرض النصيحة، أحاك النصيحة، حسنة كانت أو قبيحة».

وهو إشارة إلى أن بعض الأصدقاء يمتنعون أحياناً من بذل النصيحة خوفاً من إزعاجنا وامتعضنا فيخفون الحقائق عنا، فهؤلاء في الواقع ليسوا مخلصين في نصحتهم ومودتهم، لأنه لو نصحوا شخصاً وحذروه من مغته عمل معين واستاء مؤقتاً من ذلك، ولكنه سلم من خطر أو ضرر بسبب هذه النصيحة، فإن ذلك أفضل بكثير

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٦٧

من اختيار السكوت وتركه يواجه المشاكل والأخطار بسبب ذلك السلوك الخاطيء.

وللأسف فإن الكثير من الأشخاص، وبسبب هذه الملاحظات، يصرفون النظر عن تقديم النصح في الموقع المناسب، فيبتلون بسخط الله تعالى والخيانة لخلق الله.

ولذا يقول الإمام الصادق عليه السلام في حديث شريف: «أحب إخواني إلي من أهدى إلي عيوي» [٨١٣].

يعنى أن الإنسان العاقل ليس فقط لا يتألم من بيان عيوبه من قبل الآخرين، بل ينبغي أن يحثهم على بيانها وذكرها، ليستطيع إصلاح العيب والخلل.

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه: «اتبع من يبيحك وهو لك ناصح ولا تتبع من يضحكك وهو لك غاش» [٨١٤].

ويقول الإمام عليه السلام في التوصية الرابعة: «وتجرع الغيظ فإني لم أر جرعة أخلى منها عاقبة ولا ألد مغبة» [٨١٥].

فهنا نرى أن الإمام عليه السلام يشبه الغضب بالدواء المر الذي يتجرعه الإنسان على مضض ولهذا يتناوله جرعة بعد جرعة، ولكن عاقبته الشفاء من المرض، ونهايته حلوة ومريحة، وهكذا حال كظم الغيظ وتجرع الغضب، لأنه ينقذ الإنسان من الوقوع في هوة الندم والخلل والأضرار الكثيرة المترتبة على حالة السخط والحدة في صورة عدم ضبط الإنسان لنفسه.

وفي الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «قال لي أبي: يا بني ما من شيء أقر لعين أبيك من جرعة غيظ عاقبتها صبر وما من شيء يسرني أن لي بدل نفسي حمر

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٦٨

النعم» [٨١٦].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمُضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضَاءً» [٨١٧].
ويضيف الإمام عليه السلام في التوصية الخامسة ويقول: «وَلَنْ [٨١٨] لِمَنْ غَالَطَكَ [٨١٩] فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَنَّ لَكَ».

الكثير من الأشخاص يسلكون سبيل العنف في حال الغضب والسخط، وتزداد وتيرة الحدة وتتفاقم حالة الغضب حتى تصل أحياناً إلى مواقع الخطر، ولكن إذا أمسك الإنسان زمام نفسه وكظم غيظه وضبط حدة الغضب بإرادته، وبدلاً من استخدام آليّة العنف فإنه يستخدم آليّة المداراة والانعطاف، فليس فقط تزول حالة الصراع والنزاع مع الطرف الآخر، بل تحلّ المودّة والمحبة محلّها، كما ورد هذا المعنى في القرآن الكريم حيث تؤكد الآية الشريفة على لزوم الإحسان في مقابل الإساءة لتحويل الطرف المقابل من عدو إلى صديق وتقول: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلْقَاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» [٨٢٠].

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام في التوصية السادسة عن التفضّل على العدو، ويقول:

(وَأَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ)، أى الظفر عن طريق العنف والقوة، والظفر عن طريق المحبة والمودّة.

وهذه الجملة في الحقيقة تأكيد على ما تقدّم من توصيات، ولكنها تتمتع ذات جمال أخاذ في صياغتها، يقول: ربّما تنتصر على عدوك بآليات العنف والقوة، ولكن

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٦٩

يمكنك أن تحقّق هذا النصر من خلال إبراز المحبّة والمودّة، ومعلوم أنّ الطريق الثانى أحلى وأحسن عاقبه، لأنك في المستقبل ستعيش فارغ الذهن عن خوف الانتقام من العدو في حين أنك إذا انتصرت عليه باستعمال القوة، فسوف تتوقّع في كلّ وقت ظهور نزاع جديد باستخدام القوة من قبل العدو، وبعبارة أخرى، أنّ العدو سيبقى في الطريق الأول عدوّاً، في حين أنه في الطريق الثانى سيتبدّل إلى صديق.

ينقل أبو الفرج الاصفهاني في كتاب مقاتل الطالبين قصة جميلة في هذا المجال عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: إن رجلاً من ولد عمر بن الخطّاب كان بالمدينة يؤذى أبا الحسن موسى عليه السلام ويسبه إذا رآه، ويشتم علياً عليه السلام، فقال له بعض جلسائه يوماً: دعنا نقتل هذا الفاجر، فنهاهم الإمام موسى الكاظم عليه السلام عن ذلك أشدّ النهي وزجرهم أشدّ الزجر، فسأل عن العمرى، فذكر له أنّه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب إليه فوجده في مزرعة له، فدخل المزرعة بحماره، فصاح به العمرى: لا- توطئ زرعنا، فتوطأه أبو الحسن موسى عليه السلام بالحمار حتى وصل إليه، فتزل وجلس عنده وباسطه وضاحكه وقال له: «كَمْ غَرِمَتْ فِي زَرْعِكَ هَذَا؟» (أى صرفت على زرعك).

فقال العمرى: مائة دينار، فقال الإمام عليه السلام: «وَكَمْ تَرْجُو أَنْ تُصِيبَ؟» (أى تربح من الزرع).

قال العمرى: لست أعلم الغيب، فقال الإمام عليه السلام له: «إِنَّمَا قُلْتُ لَكَ كَمْ تَرْجُو أَنْ يَجِيئَكَ فِيهِ»، قال العمرى: أرجو أن يجيئني فيه مائتا دينار.

فأخرج الإمام الكاظم عليه السلام صرّة فيها ثلاثمائة دينار وقال: «هَذَا زَرْعُكَ عَلَى حَالِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُكَ فِيهِ مَا تَرْجُو».

فقام العمرى فقبل رأسه وسأله أن يصفح عن فرطه (أى ما فرط في حق الإمام عليه السلام) فتبسّم إليه أبو الحسن عليه السلام وانصرف.

قال الراوى: وراح الإمام الكاظم عليه السلام إلى المسجد فوجد العمرى جالساً، فلما

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٧٠

نظر إليه قال: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ»، فوثب أصحاب العمرى إليه، فقالوا له:

ما قصّتك، قد كنت تقول غير هذا؟

قال العمري: قد سمعتم ما قلت الآن، وجعل يدعو لأبي الحسن الإمام الكاظم عليه السلام، فخاصموه وقاطعهم، فلما رجع أبو الحسن عليه السلام إلى داره، قال لجلسائه الذين سألوه في قتل العمري: أيما كان خيراً، ما أردتم أو ما أردت، إنني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم وكفيت شره [٨٢١].

ويقول الإمام في التوضيعة السابعة: «وإن أردت قطعاً أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها إن بدا له ذلك يوماً ما». وهذا يعني أن الإنسان ينبغي أن يسير في مسألة الصداقة في خط الاعتدال، ولا يفشى أسراره كلها لصديقه، حتى لا يتورط فيما لو انقلبت هذه الصداقة يوماً ما إلى عداوة ويواجه الضرر والخسارة، وهكذا بالنسبة للحالة الأخرى، فالإنسان لا ينبغي أن يقطع صلته تماماً مع صديقه ويهدم كل الجسور خلفه، لأنه ربما يندم ويريد إعادة العلاقة مع الطرف الآخر، ولكنه لا يجد طريقاً لمد جسور الثقة معه. وهذا المضمون ورد بشكل أشمل في كلام آخر لأئمة المؤمنين عليه السلام (طبقاً لما ورد في بحار الأنوار) قال: «أحببت حبيبتك هوناً ما فعسى أن يكون بغيبك يوماً ما وأبغضت بغيبك هوناً ما فعسى أن يكون حبيبتك يوماً ما» [٨٢٢].

وينقل ابن أبي الحديد عن بعض العلماء هذا المعنى بيان آخر قال: «إذا هويت فلا تكن غالباً وإذا تركت فلا تكن قالياً» [٨٢٣]. وفي التوضيعة الثامنة والأخيرة من هذا المقطع من الوصية يقول الإمام عليه السلام: «ومن ظن بك خيراً فصدق ظنه».

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٧١

وهو إشارة إلى أن شخصاً لو كان يظن أنك من أهل الخير والبذل والعطاء وطلب منك شيئاً أو استعان بك على أمر، فعليك أن تصدق ظنه وتثبت له أنك عند حسن ظنه.

ومثل هذا السلوك يمتاز بمزيتين؛ فمن جهة يكرس حسن ظن الناس بالشخص، ومن جهة أخرى يقوده حسن الظن في طريق الخير والصلاح.

وقد يصادف كثيراً أن يأتي بعض الأشخاص لدى المرء ويقولون: إننا نواجه مشكلة ونعتقد أن حلها بيدك، فهنا يجب على الإنسان أن يسعى لحل مشكلة هؤلاء ويؤكد لهم صدق ظنهم ولا يتبدل حسن الظن إلى سوء الظن.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٧٣

القسم السادس والعشرون

إشارة

ولما تُضَيِّعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ. وَلَا يَكُنْ أَهْلَكَ أَشَقَى الْخَلْقِ بِكَ، وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهَدَ عَنكَ، وَلَا يَكُونَنَّ أَحْوَكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِدْقَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ. وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مِنْ ظَلَمِكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضْرَبَتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَشُوَّهُ.

الشرح والتفسير: لا تضيع حق الصديق

في هذا المقطع من الوصية الثيرة يطرح الإمام عليه السلام كما في القسم السابق، ست نصائح مهمة في عبارات موجزة لولده الإمام الحسن المجتبي عليه السلام يقول أولاً: «وَلَا تُضَيِّعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ».

وهذا يعني أن جميع الإخوة والأصدقاء يتوقعون من أصدقائهم احترام حقوقهم، ولو شاهدوا خلاف ذلك فإن من شأنه تعريض أركان

الاخوة والصداقة إلى الاهتزاز، ولكن للأسف فإن بعض الأشخاص يفكرون بخلاف هذه الطريقة ويحسبون أنهم إذا لم يراعوا حق الأخ والصديق والرفيق، فذلك ليس بالأمر المهم ويتوقعون من الطرف الآخر القبول والإغماض، في حين أن هذا خطأ كبير، لأن مثل هذه السلوكيات الجافمة وهذه اللامبالاة للحقوق إذا لم تؤثر عاجلاً في إضعاف وشائج المودة، فإنها بالتدريج تعرض دعائم الاخوة والصداقة إلى الضعف والاهتزاز.

وهذا الكلام من قبيل ما لو أن شخصاً مديناً لعدد كبير من الناس وكان يسعى

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٧٤

لإرضاء الآخرين وكسب ودّهم، ويغفل عن مطالبات أصدقائه ويعتقد أن هذه اللامبالاة بحقوقهم لا يترتب عليها شيء. وفي التوصية الثانية يضيف الإمام عليه السلام ويقول: «وَلَا يَكُنْ أَهْلَكَ أَشَقَى الْخَلْقِ بِكَ».

أى لا ينبغي أن تتعامل مع أهلك بآليات الإساءة بحيث يقفون منك موقفاً سلبياً ويتمنون موتك وزوال النعمة عنك. وهناك احتمال آخر في تفسير هذه الجملة أيضاً، وهو أنه لا ينبغي أن تبذل كل اهتمامك لأصدقائك وتغفل عن أهلك واسرتك وتركهم يعيشون في حالة من الشقاء والمعاناة.

الكثير من الأشخاص يصرفون جل أوقاتهم مع الأصدقاء والزلاء ويعيشون معهم غالباً في أجواء المحبة ويبدلون لهم كل مساعدة، ولكنهم يحرمون اسرتهم من هذه المودة والصفاء أو القيام بمسؤوليات الأسرة.

ونقرأ في حديث عن الإمام أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليهما السلام قال: «يَبْغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يُوسَّعَ عَلَى عِيَالِهِ كَيْلًا يَتَمَنُّوا مَوْتَهُ»، فجدير بالإنسان عندما يحصل على نعمة أن يرفه على عياله ولا يضيق عليهم، حتى لا يقفوا منه موقفاً سلبياً.

ثم إن الإمام عليه السلام في ذيل هذه الرواية يقول: «الأسير (العائلة) عيال الرجل وينبغي للرجل إذا زيد في النعمة أن يزيد اسراءه في السعة عليهم، ثم قال: إن فلاناً أنعم الله عليه النعمة، فمَنَعَهَا اسراءه وجعلها عند فلان، فذهب الله بها» [٨٢٤].

وفي التوصية الثالثة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا تَزْعَبَنَّ فِيمَنْ زَهَدَ [٨٢٥] عَنْكَ».

لأن مثل هذه العلاقة تقود الإنسان إلى مهاوى الذلة والمهانة، وصحيح أنه طبقاً للتوصيات السابقة فإنه يجب على الإنسان أن يحتفظ بالعلاقة مع الشخص الذي

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٧٥

قطع علاقته به؛ ولكن هذا المعنى إنما يصح فيما لو وقف الطرف المقابل موقفاً إيجابياً منه، ولكن إذا تعامل معه من موقع التحقير واللامبالاة، فلا ينبغي على الإنسان أن يذل نفسه ويتوجه إليه ويتوسل به، بل ينبغي أن يغض النظر عنه، فالإنسان كما يقول المثل يجب أن يضحي لمن يهتم به.

وفي التوصية الرابعة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِدْقَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الإِحْسَانِ».

وهذا إشارة إلى أن الطرف المقابل مهما سعى لقطع العلاقة معك، فإني ينبغي عليك أن تصر على توثيقها وتقويتها، وكلما رأيت منه إساءة، فيجب أن تقابلها بالإحسان.

وطبعاً هذا في مورد الأشخاص الذين تؤثر فيهم المحبة والإحسان، وعلى هذا الأساس لا تتنافى مع الجمل السابقة.

وفي التوصية الخامسة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مِنْ ظَلَمِكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضْرَبَتِهِ وَنَفْعِكَ».

وهذا يعني أن الإنسان لا ينبغي أن يستاء كثيراً في مقابل حالات الظلم التي يواجهها، ولا يدع لليأس أن يتخذ طريقاً له في حياته، بل عليه أن يعتقد بأن هذا الظالم الذي قصير في حقه وظلمه، إنما يظلم نفسه وينفع المظلوم في نهاية المطاف حيث يحمل وزر المظلوم على ظهره يوم القيامة، والحقيقة أن ضرر الظلم يصيب مرتكبه ويخفف عن كاهل المظلوم وزره.

وهذا الكلام يشبه ما ورد في الروايات في باب الغيبة وأن أحد العلماء سمع رجلاً يفتابه ويتحدث عنه بسوء، فأهدى إليه هدية، فتعجب ذلك الرجل فقال له هذا العالم: سمعت أن حسناتك قد انتقلت إلى صحيفة أعمالى، وقد تقبلت سيئاتى، وأنا بدورى أشكرك على هذه الخدمة وهذا الإحسان إلى.

وهذا الكلام لا يعنى أن الإنسان ينبغى أن يلتزم الصمت فى مقابل الظالمين ولا يتصدى لهم بالاعتراض، لأننا نعلم أن شعار الإسلام هو: «لا تظلمون ولا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٧٦

تظلمون» [٨٢٦]، ونعلم أن الإمام على عليه السلام ذكر فى وصيته لأبنائه وهو فى فراش الشهادة قال: «كُونَا لِلظَّالِمِ خَصِيماً وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً» [٨٢٧] بل المقصود أن الإنسان عندما يقع مظلوماً ولا يملك القدرة على رد الظلم والتصدى للظالم، لا ينبغى له اليأس والتشاؤم وإطلاق كلمات اللعن والتأوه، والشاهد على هذا الكلام ما ورد فى الحديث المشهور عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله عندما سرق أحدهم عقد عائشة وأخذت عائشة بلعن السارق، فقال لها النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «لا تَمَسِّحِي عَنْهُ بِدُعَائِكَ» [٨٢٨]، أى لا تدرئى عنه العذاب بهذا اللعن، فعليك بضبط نفسك ولسانك عنه واعلمى أنه قد ظلم نفسه وإن الله تعالى سيثيبك على صبرك وتحملك.

وهنا توجد نقطة دقيقة ينبغى الالتفات إليها، وهى أن الظالم كالسارق مثلاً، عندما يورد الضرر والخسارة المالية على المظلوم من جهة ويجعله يعيش الحزن والألم الروحى من جهة أخرى، فإن الله تعالى يثيبه على كلا الأمرين، ولكن لو دعا المظلوم على من ظلمه وأخذ يلعنه باستمرار ليشفى غيض قلبه ويهدىء من غيظه، فمن الطبيعى أن يخفف ذلك من عذاب الظالم.

فيتبين مما تقدم أن ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغة كابن أبى الحديد من اتخاذ السكوت فى مقابل ظلم الظالمين كقاعدة كلية، خطأ كبير، بل ينبغى القول أن هذا المورد يعد استثناءً وناظر إلى موارد خاصه، وأما الأصل الكلى فى الإسلام فهو أن لا يقع الإنسان مظلوماً ولا ظالماً.

وأخيراً يقول الإمام عليه السلام فى التوصية السادسة من هذا المقطع من الوصية:

«وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوَّهُ».

وهذه النصيحة مقتبسة من القرآن الكريم حيث قال: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٧٧

الْإِحْسَانُ» [٨٢٩].

وذهب بعض الشراح إلى أن هذه الجملة لا تعتبر كلاماً مستقلاً، وقالوا: إنها استمرار للتوصية السابقة، وأن الإمام عليه السلام يقول: إن الظالم إنما يضر نفسه وينفعك، ومن هذا منطلق فالشخص الذى أوصل إليك النفع لا ينبغى أن تسوءه (من خلال الدعاء عليه وإظهار التظلم بشكل متكرر).

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٧٩

القسم السابع والعشرون

إشارة

وَاعْلَمَ يَا بَنِيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ. مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجِيَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَتَوَاك، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتْ مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ. اسْتَدِلَّ عَلَى

مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهُ؛ وَلَمَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَاتَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيْلَامِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَنْعِظُ بِالْأَدَابِ، الْبَهَائِمَ لَاتَنْعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ. اطْرُحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بَعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ. مَنْ تَرَكَ الْقَضِيَّةَ جَارًا، وَالصَّاحِبَ مُنَاسِبًا، وَالصَّدِيقَ مَنْ صَدَقَ عَيْبُهُ. الْهُوَى شَرِيكَ الْعَمَى وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ. مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ. وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَحَدْتُ، بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. وَمَنْ لَمْ يُبَالِكْ فَهُوَ عَدُوٌّكَ. قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِذْرَاكًا، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكًا. لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قِصْدَهُ، وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ. آخِرُ الشَّرِّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ. مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ. لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ. إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ. سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ. إِيَّاكَ أَنْ تَذْكَرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكًا، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٨٠

الشرح والتفسير: ثمان وعشرون موعظة أخرى

في المقطع السابع والعشرين من هذه الوصية الرائعة يشير الإمام عليه السلام إلى ثمان وعشرين موضوعاً مهماً من موقع النصيحة، وبذلك يزيد من ثراء وعمق هذه الوصية.

الاولى: يتحدث الإمام عليه السلام أولاً عن مسألة الرزق حيث يتحرّك الكثير من الناس طلباً له بحالة من الحرص والولع ويقول: «وَأَعْلَمُ يَا بَنِيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ».

وهذه الجملة، بقرينة ما ورد في جملة مشابهة لها وأكثر تفصيلاً في كلمات الإمام عليه السلام القصار [٨٣٠]، ناظرة إلى أن الإنسان لا ينبغي أن يعيش الحرص والوله بالرزق، ولا ينبغي أيضاً أن يتكاسل في طلبه.

ومراد الإمام عليه السلام من الرزق الذي يجب على الإنسان أن يطلبه، هو الكسب والعمل اليومي في طلب المعاش، مثل، الزراعة، الصناعة، التجارة وأمثال ذلك، ومراده من الرزق الذي يطلب الإنسان ويأتيه وإن أعرض عنه الإنسان أو لم يطلبه، الهدايا أو التجارة والأرباح التي يصيبها الإنسان من غير احتساب، وعلى ضوء ذلك إذا ضاق عليه القسم الأول من الرزق فلا ينبغي أن ييأس من لطف الله بل يتوقع، مع استمراره في الحركة والسعي والكسب، أن يرزقه الله من حيث لا يحتسب.

وعندما يرى الإنسان في عالم الخلقه موارد كثيرة من الرزق من النوع الثاني، فإن هذا الأمل سيقوى ويتعمق في قلبه، ففي يوم كان الجنين في عالم الرحم يأتيه رزقه من خلال المشيمة والرحم المتصل برحم الام، وبعد ولادته يأتيه رزقه من صدر امه لإدامه حياته وما يحتاجه بعد ولادته من الغذاء، يقول القرآن الكريم: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» [٨٣١].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٨١

وعندما يسير الإنسان في خط التقوى والورع ويجتنب الأموال والأرباح المحرمة، فإن الله تعالى يبشّره بسعة الرزق ويقول: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَزِدْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» [٨٣٢].

ومن جهة أخرى نشاهد في عالم الخلقه وجود أرزاق كثيرة وضرورية لحياء الإنسان وبشكل وافر، بمقتضى رحمانية الله تعالى لجميع أفراد البشر أعم من المؤمن والكافر، فنور الشمس وبركات الأرض، والأمطار، والاكسجين في الفضاء مما لا يستطيع الإنسان في الحياء بدونها، فكلها من الأرزاق والنعم الإلهية التي أنعم الله بها على الإنسان مما لم يطلبه ويتحرّك في سبيل كسبه.

ويقول القرآن الكريم أيضاً: «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوَعَدُونَ» [٨٣٣].

ويقول أيضاً: «وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» [٨٣٤].

وبالرغم من أن هذه الآية الشريفة، ومن خلال القرائن الموجودة فيها، ناظرة فقط إلى قطرات المطر، ولكن الآية السابقة لها تملك مفهوماً أوسع وأشمل بحيث تشمل نور الشمس الذي يعدّ العلة الرئيسية لكل حركة في الكرة الأرضية كحركة الرياح والهواء الذي يعتبر مصدر حياة جميع الأحياء أيضاً.

وفي تاريخ القدماء نقرأ أحياناً بعض القصص التي تكشف عن الحوادث التي تعتبر مصداقاً حياً في الرزق الذي يطلب الإنسان دون أن يطلبه أو يتوقعه، فمن ذلك ما ذكره ابن أبي الحديد في شرحه لهذه الجملة عن عماد الدولة (من سلاطين آل بويه): والقصة هي: دخل عماد الدولة أبو الحسن بن بويه مدينة شيراز بعد أن هزم ابن ياقوت وأجلاه عنها، وهو فقير لا مال له، فساخت إحدى قوائم فرسه في الأرض، فنزل عنها وابتدراها غلمانها وخلصوها، فظهر لهم في ذلك الموضع نقب

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٨٢

وسيع، فأمرهم بحفره، فوجدوا فيه أموالاً عظيمة وذخائر لابن ياقوت، ثم استلقى يوماً آخر على ظهره في داره بشيراز التي كان ابن ياقوت يسكنها، فرأى حية في السقف، فأمر غلمانها بالصعود إليها وقتلها، فهربت منهم ودخلت في خشب الكنيس، فأمر من يقطع الخشب وتستخرج وتقتل، فلما قلعوا الخشب وجدوا فيها أكثر من خمسين ألف دينار ذخيرة لابن ياقوت.

واحتاج أن يفصل ويخيط ثياباً له ولأهله، فقيل: ها هنا خياط حاذق كان يخيط لابن ياقوت، وهو رجل منسوب إلى الدين والخير، إلا أنه أصم لا يسمع شيئاً أصلاً، فأمر بإحضاره فاحضر وعنده رعب وهلع، فلما أدخله إليه كلمه فقال: أريد أن تخيط لنا كذا وكذا قطعة من ثياب، فارتعد الخياط واضطرب كلامه وقال: والله يا مولانا ما له عندي إلا أربعة صناديق ليس غيرها، فلا تسمع قول الأعداء في، فتعجب عماد الدولة وأمر بإحضار الصناديق فوجدها كلها ذهباً وحباً وحلياً وجواهر، وديعة لابن ياقوت [٨٣٥].

الثانية: والنصيحة الثانية للإمام عليه السلام يقول: «مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى».

وهذا إشارة إلى أن الأشخاص من ضعفاء النفوس عندما يحتاجون إلى هذا وذاك، فإنهم يعرضون حاجتهم بالكثير من حالات الذلّة بحيث تتعرض شخصيتهم للاهتزاز، ولكن عندما يعيشون القدرة وعدم الحاجة، فإنهم يتعاملون مع المحتاجين من موقع الازدراء واللامبالاة، وكلا هاتين الصفتين من الرذائل الأخلاقية، فينبغي للإنسان عند الحاجة أن يحفظ مناعة الطبع والعزة في نفسه، وعند القدرة وعدم الحاجة لا يبخل في اللطف وإظهار المحبة والتواضع للمحتاجين.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة [٨٣٦] إلى أن هذا الكلام ناظر إلى مورد في الآية

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٨٣

الشريفة: «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْمِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبِيئَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُمُ الدِّينَ لَئِنْ لَمْ يَنْجِئْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» [٨٣٧].

وعلى هذا الأساس فإن العبارات أعلاه ناظرة إلى العلاقة بين الخلق والخالق في حين أن الأمر ليس كذلك، والظاهر أن هذه الجمل والعبارات ناظرة إلى العلاقة بين المخلوقين أنفسهم، لأن الخضوع أمام الخالق محمود على أي حال.

ولا يخفى أن المراد من الخضوع في هذا المورد ليس هو التواضع المعقول، بل التواضع المقترن بالذلّة والحقارة، والمراد من الجفاء، إظهار الكراهية وعدم الاحترام، وأمثال ذلك.

ونقرأ في الحديث الشريف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعِ الْأَغْيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَبًا لِمَا عِنْدَ اللَّهِ وَأَحْسَنُ مِنْهُ تَبَهُ الْفُقَرَاءِ عَلَى الْأَغْيَاءِ اتِّكَالًا عَلَى اللَّهِ» [٨٣٨].

ويقول أحد الشعراء في هذا المجال:

خُلِقَانِ لِأَرْضَاهُمَا لِفَتَى تَبَهُ الْغِنَى وَ مَدَلَّهُ الْفَقْرُ

فَإِذَا غَنَيْتَ فَلَا تَكُنْ بَطْرَؤًا إِذَا افْتَقَرْتَ فَتِهِ عَلَى الدَّهْرِ

الثالثة: «إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ» [٨٣٩].

وهذا إشارة إلى أن الثروات الدنيوية تذهب وتروح، وأحياناً قد يترك الإنسان آلافاً مؤلفه منها للورثة، ويبقى حسابها ووزرها عليه في الآخرة، ويتمتع بها الآخرون في الدنيا، فهذه الأموال لا تعتبر مالاً حقيقياً للإنسان، والمقدار الذي يعتبر نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٨٤

ملكه في الحقيقة هو ما استخدمه لإصلاح آخرته وأرسله أمامه إلى حياته بعد الموت.

ونقرأ في الكلمات القصار للإمام عليه السلام قوله: «لِكُلِّ امْرِئٍ فِي مَالِهِ شَرِيكَانِ:

الْوَارِثُ وَالْحَوَادِثُ» [٨٤٠].

ونقرأ في حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَهُوَ مَالُ الْوَارِثِ» [٨٤١].

يعنى أن المال الحقيقي للإنسان يكون على قسمين: قسم يستفيد منه بمصارفه ومعيشته في الدنيا، وقسم آخر يجعله ذخيرة لآخرته ويوم معاده، وسائر أمواله موهومة ربما تسلب منه في بعض الحوادث، ولو بقي منها شيء فهو نصيب الورثة.

الرابعة: يشير الإمام عليه السلام هنا إلى نقطة أخرى، وجدير بالإنسان أن يتذكرها كل يوم وهي قوله: «وَإِنْ كُنْتَ جَازِعًا عَلَيَّ مَا تَقَلَّتْ مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَيَّ كُلَّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ».

الكثير من الأشخاص عندما يفقدون المال والمقام الذي كانوا يملكونه تراهم يرتفع عويلهم وصراخهم ويتحسرون على ذلك أياماً طوالاً، وربما شهوراً وأعواماً مديدة، ولكنهم بالنسبة للأموال والمقامات التي لم يحصلوا عليها أبداً لا يعيشون تجاهها هذه الحالة، في حين أننا إذا دققنا النظر فإن كلا الحالين سواء، فالتقدير الإلهي قضى بأن هذا المال أو المقام يكون من نصيبى لمدة سنة أو عدة سنوات ثم يزول إلى غيري، بحسب الأسباب الظاهرية أو الغيبية، فما الفرق بين البقاء والحدوث؟ فإذا لم نجزع على غير المقدّر حدوثه فلماذا لا نعيش هذه الحالة في حال فقدانه؟ وطبعاً أحياناً يتصور الإنسان أن هذا المال أو المقام لا بد أن يبقى عنده

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٨٥

أكثر من المدة المقدرة، ولكن بحسب عالم الأسباب والمسببات فإن هذا التصور مجرد خيال باطل، والتأسف عليه مثل تأسيف الشخص الذي رأى في منامه أنه يملك مالاً ومقاماً وعندما يستيقظ فإنه يجزع على ما ذهب من يده في منامه.

الخامسة: يشير الإمام عليه السلام في هذه التوصية إلى نقطة مهمة أخرى ويقول:

«اسْتَدِلَّ عَلَيَّ مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ».

وهذا يعنى وجود سلسلة من القوانين الكلية الحاكمة على عالم الوجود وعلى المجتمعات البشرية، ولها في كل زمانٍ مصاديق في أرض الواقع، ولكن كل هذه المصاديق والموارد مشمولة لتلك القوانين الكلية، وعليه فالإنسان بإمكانه - من خلال مطالعة حالات القدماء والمجتمعات الماضية بل وحتى مراجعة ما واجهه من حوادث ومتغيرات في سنوات عمره الماضية - أن يتعرف على المسائل التي تواجهه في الحاضر والمستقبل من خلال المقارنة، ثلثاً يتورط بعناصر الخطأ والضرر والخسران.

وهذا الكلام يشبه ما ورد عن الإمام عليه السلام في خطبة أخرى حيث قال: «عَبَّادَ اللَّهِ إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَيَاقِينِ كَجَزْيِهِ بِالْمَاضِينَ» [٨٤٣]، وهذا الكلام متداول في تعبيراتنا اليومية حينما نقول: التاريخ يعيد نفسه.

وفي ذيل الخطبة يتحدث الإمام عليه السلام عن كيفية تكرار التاريخ، وقد تحدثنا في شرحها تحت ستّة عناوين: الزوال السريع للنعم، عدم ثبات الحوادث في العالم، عدم وفاء الدنيا وأهلها، الغرور والإخفاقات الناشئة عنه، تغير الحالات والروحيات لدى الأفراد بحيث إن أقرب المقرّبين ربما يتحوّل إلى أخطر الأعداء، وأخيراً أن الذي يبقى ويعدّ ذكرى جميلة للإنسان في هذا العالم، أشكال الإحسان

والمحبة والإخلاص، وما يؤدي إلى اللعن ويسبب السمعة السيئة للإنسان هو الظلم والجور وسلب الحقوق.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٨٦

أجل، هذه الأمور كلها تتكرر حالياً كما وقعت في السابق، ومن هنا فإن العقلاء من الناس هم الذين يطالعون ماضيهم وتاريخ القدماء من بعمق وتمعن ويستلهموا منها الدروس والعبر.

السادسة: يقول: «وَلَا تَكُونَنَّ مَمَّنْ لَاتَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَعَتْ فِي إِيْلَامِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْأَدَابِ، وَالْبَهَائِمَ لَاتَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ». وهو إشارة إلى أن الناس على نحوين: فبعض يتعظ بأدنى تفكير وتنبه ويلتفت إلى خطئه ويسعى لإصلاحه، هؤلاء هم الأشخاص الواقعيون، ولكن البعض الآخر لا يتعظ بسهولة إلا إذا وصلت السكين إلى العظم فما لم يشعروا بالتويخ والتحقير والذم أو يواجهوا الضرر والخسارة نتيجة أعمالهم، فإنهم لا يراعون عن غيهم، فهؤلاء حال الأنعام والبهائم التي لا تتعلم إلا بالضرب، ولا تسكن وترتك الجموح إلا بالسوط.

السابعة: يشير الإمام عليه السلام إلى توصية مهمة أخرى ويقول: «أَطْرَحَ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بَعْرَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ». إشارة إلى أن الحياة عبارة عن مجموعة من الحوادث المرّة والحلوة، وكلّ وقت تهجم على الإنسان الغموم والأحزان، تارة على شكل هموم اجتماعية وأخرى سياسية وثالثة مادية أو عائلية، فالإنسان إذا رضح وخنع أمام هجوم هذه الهموم فسوف يعيش الإخفاق والفشل في حياته، ولكنه يستطيع التغلب على هذه الهموم والتحديات بالاستعانة بقوتين:

الاولى: قوة الصبر والاستقامة، وأن يعلم أنه سواء صبر أو لم يصبر، فإن مثل هذه الحوادث خارجة عن اختياره، فإذا كانت هذه الهموم ناشئة من جهله وتساهله في الأمور، فعليه تغيير المسار وإصلاح الخلل، فلو التزم بألية الصبر فإنه يكون عند الله مأجوراً وسليماً أيضاً، وإن ترك الصبر فإن حوادث الدهر تستمر في مسيرتها ويفقد الأجر والثواب.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٨٧

والأخرى، أن يجهز الإنسان نفسه بقوة اليقين، وعلى حدّ تعبير القرآن الكريم يقول: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا» [٨٤٤]، ومعلوم أن التقديرات الإلهية تنطلق من موقع الحكمة والتدبير الإلهي، سواء علمنا بهذه الحقيقة أم لم نعلم، وبالتالي نستطيع بهاتين القوتين التصدي لواردات الهموم وتسكين خلجات النفس وترطيب أجواء الحياة.

ينقل المرحوم مغنية في شرحه لنهج البلاغة قصة مفيدة ويقول: ومن جملة ما قرأت أن رجلاً أحس بضعف وانحراف في صحته، ولما عرض نفسه على الطبيب قال له أنه مريض بسرطان الدم، وأنه يموت بعد مدة قصيرة، فلم يترعج وتحدى المرض، وقال في نفسه: لا فرق بين أن أموت فجأة أو بإنذار سابق، ومضى في عمله كأن لم يكن شيء، استمرّ فيه حتى الآن، ولو أنه استسلم للوساوس لخارت قواه وأمسى طريح الفراش ينتظر الموت في كلّ لحظة، ومعنى هذا أنه يموت في اليوم مرّات، ولما قيل له: كيف تعمل وأنت على هذه الحال؟ قال: اجزّب الحكمة القائلة: خير الدواء العمل [٨٤٥].

ويقول لقمان الحكيم أيضاً في مواعظه الجميلة لولده: «وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» [٨٤٦].

الثامنة: يقول: «مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارًا».

وهذا يعني أن إحراز السلامة في الدين والدنيا يمرّ من خلال الاعتدال، وأن كلّ إسراف وتفريط يقود الإنسان إلى دروب الضلالة والشقاء والإخفاق، وأن الصراط المستقيم الذي ندعو الله تعالى كلّ يوم في صلاتنا أن يهدينا إليه، هو صراط الاعتدال والاستقامة.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٨٨

التاسعة: «وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ [٨٤٧]». أي حاله حال أقرباء الإنسان وأرحامه.

وهذا إشارة إلى أن رابطة الصداقة تارة تكون قوية إلى درجة أنها تحلّ محلّ رابطة القرابة والنسب، بل تارة تكون أقوى من ذلك، وهناك مثل معروف يقول أنه سئل شخص: أيهما أفضل الصديق أم الأخ؟ فقال: الأخ الصديق أفضل، وهناك مثل معروف أيضاً لدى

العرب حيث يقال: «الصديق نسيب الروح والأخ نسيب البدن» [٨٤٨].

وقد نستوحى من هذا الكلام هذه النتيجة، وهي أن ذات الحقوق المقررة للأرحام والأقرباء ينبغي أخذها بنظر الاعتبار من الأصدقاء الجيدين أيضاً.

العاشرة: يقول: «والصديق من صدق غيبه».

وهو إشارة إلى الأشخاص الذين يظهرون المحبة والعشق والعلاقة في حضور المرء، ولكن ربما لا يكون ذلك علامة حقيقية على صدقهم وصدقتهم، فالصديق الواقعي إنما يتبين في غياب صديقه ويراعى حقوقه في غيبته كما في حال حضوره ويتحدث عنه في غيبته كما يتحدث أمامه.

الحادية عشر: يشير الإمام عليه السلام في هذه التوصية إلى نقطة مهمة أخرى ويقول:

«وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى»، فكما أن الأعمى لا يرى ما حوله من الأجسام حتى لو كانت قريبة منه ومجاورة له، فإن أتباع الدنيا والسالكين في خط الأهواء محرومون من الحقائق الجليلة، لأن حجاب الهوى يعتبر أشد الحجب ظلاماً ولا توجد آفة للمعرفة أضرّ وأسوء من هذه الآفة.

يقول القرآن الكريم: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» [٨٤٩].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٨٩

ويصرح الإمام عليه السلام في رسالته له لأحد أصحابه بهذه الحقيقة ويقول: «فَارْفُضِ الدُّنْيَا فَإِنَّ حُبَّ الدُّنْيَا يُغَمِّي وَيُصِمُّ وَيُبْكِمُ وَيُبْدِلُ الرَّقَابَ» [٨٥٠].

الثانية عشر: يقول الإمام عليه السلام: «وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ».

وهو إشارة إلى أن العلاقات الجسدية لا تدل دائماً على العلاقة القلبية والتجانس الفكري بين الأقرباء، فأحياناً يكون البعيد أقرب إلى الإنسان من قريبه، فالمهم وجود ارتباط قلبي وعلاقة روحية بين الطرفين، فلو لم يجد الإنسان مثل هذه العلاقة لدى أرحامه وأقربائه فيمكنه البحث عنها في غيرهم.

ونقرأ في القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ» [٨٥١].

الثالثة عشر: يقول الإمام عليه السلام: «وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ».

الأمر الذي يخرج الإنسان من عتمته الغربية، المحبة، والأشخاص الذين لا يعيشون المحبة من قبل الآخرين يواجهون الوحشة والوحدة، ولهذه الغربية عوامل مختلفة، فأحياناً يقود الكبر والغرور والأنانية صاحبها إلى زاوية الوحدة وتبعد الناس عنه، وأخرى عناصر الحسد والحدة، وتارة حالات عدم الوفاء وعوامل أخرى.

ومن هذا المنطلق، ولأجل التخلص من وحشة الغربية، ليس لنا طريق سوى تطهير نفوسنا من الرذائل الأخلاقية والتحلّي بالفضائل التي توفر لنا أصدقاءً مخلصين وإخوةً صالحين.

الرابعة عشر: في هذه التوصية يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة في غاية الأهمية ويقول: «مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ»، لأن طريق الحق واسع ومعبد ونوراني، أما

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٩٠

طريق الباطل فملء بالعثرات والمطبات والمنعطفات الخطيرة والمآزق الضيقة، والسائرون في طريق الحق يتحركون بسرعة نحو مقصدهم وهدفهم، لأن عالم الوجود يتحرك في طريق الحق، ومن كان منسجماً مع عالم الوجود فإنه يتحرك في هذا المسير أيضاً، ولكن السالكون طريق الباطل كمن يسبح عكس التيار، ومن يخالف مسار الطبيعة وقوانين الوجود، يوقع نفسه في مأزق عملية ولا

يصل إلى نتيجة.

أضف إلى ذلك فإنّ مسير الحقّ كالجادة الواضحة التي نصبت عليها علامات المرور التي ترشد السالكين فيه لمعرفة وضع المسير، ولكن طريق الباطل يفتقر لكلّ هذه الأمور، ولذلك يقود السالك فيه إلى مهاوى الضلالة ومataهاات الحيرة.

الخامسة عشر: يشير الإمام عليه السلام في هذه الفقرة إلى موضوع معروف ومهمّ ويقول: «وَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ». وبهذا المضمون وردت عبارة أخرى للإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب غرر الحكم، قال: «رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا عَرَفَ قَدْرَهُ وَلَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ» [٨٥٢].

والتجربة تشير إلى أنّ الأشخاص الذين تجاوزوا حدودهم ولم يعرفوا قدرهم، أثاروا الناس ضدّهم، بحيث أنّ الناس ليس فقط لم يعترفوا لهم بمقامهم الزائف الذي يدعون، بل سلبوا منهم موقعهم الذي يستحقّون، والسبب واضح، لأنّ الناس يرون في هؤلاء المدّعين الطوبائين والذين يعيشون حالات النرجسية والغرور أنّهم أشخاص انتهازيون وخوننة، وأحياناً حمقى وسفهاء، ولهذا لا يحسبون لهم أية قيمة، ولكنّ الأشخاص الذين يعيشون الصدق والنزاهة والقانعين بحقّهم، يعتبرهم الناس شخصيات محترمة ويمنحونهم المكانة اللائقة ويراعون حقّهم في واقع الحياة الاجتماعية.

السادسة عشر: يقول الإمام عليه السلام: «وَأَوْثُقُ سَبَبٍ أَخَذْتُ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ».

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٩١

وهو إشارة إلى أنّ التمسّك بالوسائل الماديّة واللجوء إلى المخلوقين والطلب منهم، طريق لا يعتمد عليه، وربّما لا يوصل إلى نتيجة مطلوبة، فهذه الأسباب لا يوثق بها في تحصل المراد، والأصل الثابت والأساس القائم والخالد هو البارئ تعالى الذي لا يمكن لأى شيء مخالفة مشيئته وقدرته المطلقة، وعلى ضوء ذلك فالشخص الذي يلتجئ إلى الذات المقدّسة فإنّه يلتجئ إلى حرز حريز وملاذ أمين غير قابل للزوال والاهتزاز، وهذا هو التوحيد الأفعالي الذي يقرّر: «لا- مُؤَثَّرٌ فِي الوجودِ إِلَّا اللهُ». والقرآن الكريم يقول: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى [٨٥٣].

وذهب بعض إلى أنّ المراد من الوسيلة الإيمان والقرآن الكريم، ولكن من الواضح أنّ الجملة لها مفهوم واسع تشمل جميع الوسائل التي تقرب الإنسان إلى الله تعالى.

ومعلوم أنّ هذا الكلام لا- يعنى أن نترك عالم الأسباب والمسببات، ولا- يعنى أيضاً ترك التوسّل بالمعصومين، لأننا إذا توسّلنا بالمعصومين وبالأسباب الطبيعيّة وكان نظرنا إلى ما ورائها من القدرة الإلهيّة، وكان نظرنا إلى مسبب الأسباب، فمثل هذا التوسّل وطلب الشفاعة من هؤلاء الأولياء يمثل تقرباً إلى الله تعالى وهو من المصاديق البارزة للعلاقة الوثيقة مع الذات المقدّسة.

السابعة عشر: يقول الإمام عليه السلام: «وَمَنْ لَمْ يُبَالِكْ فَهُوَ عَدُوٌّكَ».

وطبعاً فالمراد الشخص الذي يرتبط مع الإنسان بنحو من الارتباط، وربّما ادّعى المحبّة والموادّة، ولكن عندما تحين لحظة الدفاع عن الحقّ والعرض والسمعة، فإنّه يواجه هذا الموقف من موقع اللامبالاة وبحالة من البرودة، وهذا يشير إلى أنّه غير صادق في إظهار المحبّة والصدّاقة، بل يضمّر نوعاً من العداوة في داخله ونفسه.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٩٢

وعلى ضوء ذلك، فلا داعى لحمل هذه الجملة على أنّها نظرة للعلاقة بين الناس والحكّام، والقول بأنّ بعض الناس- فيما يتّصل بالشأن السياسي والاجتماعي وما إلى ذلك- لا يتحرّكون على مستوى الانسجام مع برنامج الحكومة ويتعاملون مع الخطط والمناهج التي تقرّها الدولة من موقع اللامبالاة وعدم الاهتمام، فهؤلاء في الحقيقة مخالفون لهذا النظام وأعداء لذلك المنهج [٨٥٤]، وبخاصّة إذا رأينا أنّ أجواء هذه الوصية لا يرتبط بمقولة العلاقة بين الحاكم والمحكومين، بل بين أفراد المجتمع أنفسهم.

الثامنة عشر: يقول الإمام عليه السلام في هذه التوصية المثمرة: «قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِذْرَاكًا، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكًا».

وهذا يعنى أن الإنسان أحياناً يسعى للتوصل إلى هدفه وغايته، ويطمع أن ينال بغيته، فى حين أن الله تعالى يعلم أن ذلك مضر له وفيه خسارته، وبذلك يحرمه من تحقيق غايته، وفى هذا المورد، وإن لم يصل هذا الشخص ظاهراً إلى غايته وهدفه، إلا أنه فى الحقيقة حصل على الهدف الحقيقى وهو السلامة والمنفعة الحقيقية الكامنة فى وجدانه، وعلى ذلك لا ينبغى أن يعيش الإنسان حالات اليأس وفقدان الأمل فى عدم الوصول إلى النتيجة ويحسب أن ذلك خسارته وإخفاقاً، بل تعد هذه الظاهرة فى كثير من الموارد نجاحاً وتوفيقاً.

التاسعة عشر: يقول الإمام عليه السلام: «لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ».

هناك احتمالات عدة فى تفسير هذه العبارة: الاحتمال الأول: إنه إذا كنت تعتقد بأن البعض ذو شخصية كاملة حسب الظاهر ولا نقص ولا عيب فيه، فلا تغتر بهذه الحالة الظاهرية، لأنه ربما كانت هناك عيوب خفية لم تظهر لك، وعليه ينبغى الاحتياط على كل حال، وهذا ما ذهب إليه جماعة من شراح نهج البلاغة.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٩٣

الاحتمال الثانى: إن الإنسان إذا رأى فى نفسه أنه سليم من كل عيب ونقص ظاهراً، فلا يغتر بذلك، لأن الكثير من العيوب لا تظهر للإنسان إلا بالتأمل والتفكر والدقة، كما ذكروا فى حالات بعض العظماء أنه بعد ثلاثين سنة مثلاً انتبه فجأة ومن خلال حادثه معينه، إلى وجود بعض العيوب فى نفسه.

الاحتمال الثالث: إذا كانت لديك عيوب ونقاط ضعف وترى أنك أدنى وأقل مرتبة من الآخرين بسبب ذلك، فلا تقلق، بل عليك بإصلاح نفسك وسد هذه الثغرات فى شخصيتك، لأن الآخرين يملكون عيوباً أيضاً ويسعون لإخفائها عن الآخرين.

وبديهى أن هذه التفاسير لا تتقاطع فيما بينها، وربما تجتمع كلها فى مفهوم هذه الجملة، وإن كان التفسير الأول أنسب حسب الظاهر. العشرون: يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ».

يعنى إذا فقدت فرصة فلا تحزن، لأن الفرصة أحياناً تأتي بشكل مفاجئ بحيث أن الإنسان لا يوفق للاستفادة منها، رغم أنه لا بد من السعى الجاد لاستغلال الفرص، ولو أن الناس استطاعوا استغلال جميع الفرص بدون أن تزول فرصة، فإن حياة البشر ستتغير وتختلف كثيراً عما عليه الآن.

وهذا الكلام النوراني يمنحنا درساً كبيراً، لأننا كثيراً ما رأينا بعض الأشخاص الذين يعيشون التحسّر طيلة عمرهم على فقدان فرصة، ويقولون: إذا كنت قد عملت ذلك العمل فى اليوم الفلانى فساكون كذا وكذا، أو ليت أئى كنت مستيقظاً فى تلك الساعة ولم أفقد تلك الفرصة، هؤلاء وبدلاً من التفكير بالمستقبل يتحسرون دائماً على الماضى.

الحادية العشرون: فى هذا التوضيحه يطرح الإمام عليه السلام موضوعاً مهماً آخر ويقول: «وَرَبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ».

وهذا يشير إلى لزوم التدبّر فى أعمال أهل الخبرة والمطلعين من الناس، فلا تتصور أنهم يتحرّكون فى مسيرهم بدون ارتكاب خطأ، وكذلك عليك بالدقة فى

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٩٤

أعمال الجهلة والسطحيين من الناس ولا تظنّ أنهم جميعاً على خطأ فى مسيرهم، فربما لا يصل الخير إلى مقصوده بسبب بعض العوامل، فى حين يحصل الجاهل على غايته.

ونقرأ فى رواية عن الإمام على بن موسى الرضا عليهما السلام عن آبائه عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «كَلِمَتَانِ غَرِيبَتَانِ فَاحْتَمِلُوهُمَا، كَلِمَةٌ حِكْمَةٌ مِنْ سَفِيهِ فَاقْبَلُوهَا وَكَلِمَةٌ سَفَهٌ مِنْ حَكِيمٍ فَاعْفَوْوهَا» [٨٥٥].

وجاء فى الأمالى، فى ذيل هذا الحديث: «فَإِنَّهُ لَأَحْكِيمٌ إِلَّا دُو عَثْرَةٌ وَلَا سَفِيهٌ إِلَّا دُو تَجْرِبَةٌ» [٨٥٦].

الثانية والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «أَخْرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ».

وهذا يعني أن الخير يحتاج إلى مقدمات، وأن الإنسان يجب أن يتعجل هذه المقدمات، في حين أن الشر في كل زمان وفي جميع الظروف لا يحتاج إلى مقدمات بل هو ممكن الصدور من أي شخص.

وربما يراد من هذه العبارة أنك لا تتعجل في العقوبة والتوبيخ والمواخظة لو كنت على حق، لأن ذلك متيسر في كل زمان، وستشعر بالندم بعد ذلك، في حين أن طريق العودة موصل.

ويحتمل أيضاً في تفسير العبارة مورد البحث أن هذه الجملة كناية عن ترك كل أشكال الشر والإساءة بدون حق، من قبيل أن يقول أحد الأشخاص مثلاً: لقد تألمت بشدة إلى درجة أنني قررت الانتحار، فحن نقول له: إن الانتحار لا يفوتك، وأنه ممكن في كل زمان، فتعال لتعثر على طريق لإصلاح مشكلاتك والبحث عن الحلول الناجعة لها، ومعلوم أن مفهوم هذا الكلام لا يعني أن عليك الانتحار بعد ذلك، بل هو كناية عن تركه.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٩٥

الثالثة والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ».

هذه العبارة إشارة إلى أنه كما ينتفع الإنسان من الارتباط مع العقلاء فإنه ينتفع كذلك من القطيع مع الجهال (وطبقاً لهذا المعنى فإن الجاهل والعاقل بمنزلة المفعول لقطيعه وصله).

ويحتمل أيضاً في تفسير هذه العبارة أن الجاهل إذا قطع علاقته معك فلا تحزن لذلك لأنه بمنزلة أن يقوم عاقل بايجاد رابطة معك، وبالتالي فأنت تتخلص من شره وضرره بقطع علاقته معك (وطبقاً لهذا التفسير فإن الجاهل والعاقل في هذه العبارة لهما موقع الفاعل).
الرابعة والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ حَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ».

والجملة الاولى إشارة إلى أن أي نعمة من نعم الدنيا لا يمكن أن يعتمد عليها، فأشكال النجاحات، والانتصارات، والثروات، والجمال والحسن، المحبوبة والمكانة الاجتماعية، وسائر المواهب المادية الأخرى معرضة للزوال في كل لحظة، والأشخاص الذين يعتمدون على هذه الأمور فسوف يواجهون فجأة خيانة الدنيا لهم، وستؤخذ منهم هذه النعم والمواهب واحدة بعد الأخرى، وهذا من قبيل أن الإنسان يبني في مسير السيل داراً فخمة، يحتمل في كل لحظة أن يأتي سيل عظيم ويجرف معه تلك الدار وينقضها، وعلى ضوء ذلك فالمراد من الزمان هنا الدنيا والمواهب المادية والنعم الدنيوية.

والمراد من الجملة الثانية أن الإنسان يرى أهمية الدنيا في عينه ويتحرك لتحصيل النعم المادية فيها بأي طريق كان وبأي وسيلة، وبديهي أن مثل هذا الشخص سيعيش الذلة والمهانة ويسقط في أنظار الناس.

ويحتمل أيضاً في تفسير الجملتين أعلاه أن المقصود من الزمان، أهل الزمان، يعني أن الإنسان لا ينبغي له أن يثق بجميع أهل زمانه، لأنه ربما يطعن من الخلف ويواجه الغدر والخيانة، والمراد من تعظيم الزمان هو تعظيم أهل الزمان وبخاصة

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٩٦

أصحاب القدرة والثروة وصناع القرار والمستكبرين، فالاعتماد على هؤلاء وتعظيمهم يتسبب في إضعاف شخصية الإنسان وسقوطه، ولذلك نرى أن الكثير من الأكابر والعلماء السابقين كانوا يحرمون الاقتراب من الحكام الجائرين والطواغيت، ويحذرون الشخصيات المحترمة من إقامة علاقة وطيدة مع السلاطين، وما نرى في ترجمة حال الأكابر القدماء من شكاوهم من فساد الزمان، فمقصودهم فساد أهل زمانهم [١٨٥٧].

ونقرأ في الأشعار المنسوبة لعبدالمطلب:

يَعِيبُ النَّاسُ كُلَّهُمْ زَمَانًا وَمَا لَزَمَانًا عَيْبٌ سِوَانَا
نَعِيبُ زَمَانًا وَالْعَيْبُ فَيَنَاوَلُو نَطَقَ الزَّمَانُ بِنَا هَجَانَا

وَإِنَّ الذَّنْبَ يَشْرُكُ لَحْمَ ذَنْبٍ وَيَأْكُلُ بَعْضُنَا بَعْضًا عَيْنَانًا [٨٥٨]

الخامسة والعشرون: يقول الإمام عليه السلام في هذه العبارة من وصيته الرائعة: «لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ».

وهو إشارة إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يتوقع الوصول إلى مقصده وتحقيق هدفه دائماً بحيث لو أنه لم يحقق النتيجة المرجوة يصاب باليأس، أو أن الأشخاص الذين يرتكبون بعض الأخطاء التي تعيقهم عن تحقيق هدفهم، يقعون ضحية الذم والتقريع والتوبيخ، فالبشر غير معصوم ويحتمل في حقّه الخطأ والاشتباه (سوى المعصومين عليهم السلام).

والغرض من هذا الكلام تسليّة خاطر وتقوية الإرادة من بعض الإخفاقات التي يواجهها الإنسان في حركة الحياة والاحتفاظ بالأصدقاء والمدراء وعدم نبذهم بسبب بعض الأخطاء والهفوات.

ويحتمل أيضاً أن المقصود من هذه العبارة أن كلّ رام لا يوفق لإصابة الهدف، بل

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٩٧

الرامي الماهر والمجرب هو الذي ينجح في إصابة الهدف.

ولا يبعد أن يكون المقصود من هذه العبارة كلا المعنيين المذكورين.

السادسة والعشرون: في هذه التوصية المباركة يتعرّض الإمام عليه السلام لمسألة تغيير الأوضاع وتبدل الظروف في زمانه ويقول: «إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ».

وهذا يعني أن أوضاع المجتمع تدور حول محور وضع الحكام وأصحاب السلطة والقدرة، فليس فقط أن «الناس على دين ملوكهم» يمثل حقيقة واقعية، بل إن أغلب حركات وسكنات الناس تدور حول محور نوع الحكومات ونمط إدارة النظام السياسي، فلو كان الحكام من أهل الخبرة والتقوى والعدالة، فإن الناس يتحرّكون في خطّ التقوى والعدالة، وإن كانوا من الظلمة والقساة وأهل الجور، فإن ذلك سينعكس على جميع روحيات المجتمع ونفسيات أفرادها، ولهذا السبب كان الأنبياء الإلهيون يسعون قبل كلّ شيء لإقامة الحكومة العادلة ليتيسر لهم إصلاح الناس في ظلّ مثل هذه الحكومة، أمّا الأشخاص الذين يعتقدون بفصل الدين عن السياسة، فهم بعيدون جداً عن الحقيقة والصواب، لأنّ ترويج الدين ونشر التعاليم السماوية لا يمكن بدون إصلاح الحكومة، ومن هنا فإنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله تحرّك على مستوى تشكيل الحكومة الإسلامية في أوّل فرصة سنحت له ليستطيع التأثير في الأمة وتبليغ الرسالة بشكل صحيح من خلال آليات القدرة ويعمل على استبدال الثقافة الجاهلية بثقافة سليمة وإنسانية، وبخاصّة ما نراه في عالما المعاصر من تأثير وسائل الإعلام في أفكار الناس وكذلك البرامج المتعلقة بالتعليم والتربية من المراحل الابتدائية إلى المستويات العالية كلّها بيد الحكومات أو العناصر المرتبطة بالحكومة، فهل يمكن بدون الأخذ بزمام هذه الأمور من إصلاح المجتمع وتطهيره من عناصر الفساد والرديلة؟

ويتبين ممّا تقدّم أنّ المراد من الزمان، تغيير أفراد المجتمع، والمراد من تغيير السلطان تغيير حالات السلطان.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٩٨

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي إِذَا صَلَحَا صَلَحَتْ أُمَّتِي وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَتْ أُمَّتِي، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ هُمَا؟ قَالَ الْفُقَهَاءُ وَالْأَمْرَاءُ» [٨٥٩].

وجاء في بعض المصادر التاريخية أنّ انوشيروان استدعى يوماً عماله على القرى والقصبات وبيده درّة ثمينه يقبلها، فقال: أيّ شيء أضّر بارتفاع السواد وادّعى إلى محقّه؟ أيّكم قال ما في نفسي جعلت هذه الدرّة في فيه.

فقال بعضهم: انقطاع الشرب، وقال بعضهم: احتباس المطر، وقال بعضهم: استيلاء الجنوب وعدم الشمال، (غلبة رياح الجنوب وعدم هبوبها من الشمال)، فقال لوزيره (بوذرجمهر): قل أنت فإنّي أظنّ عقلك يعادل عقل الرعيّة كلّها أو يزيد عليها، فقال: تغير رأى السلطان في رعيته، وإضمار الحيف لهم والجور عليهم.

فقال: لله أبوك بهذا العقل أهل آبائي أجدادى لما أهلوك له، فدفع إليه الدرّة وجعلها في فيه [٨٦٠].

السابعة والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «سَلَّ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ».

وقد أثبتت التجربة صحّة كلام الإمام عليه السلام هذا، فالناس قد جرّبوا ذلك مراراً لأنّ الستار والحجاب يزول غالباً في السفر وتبرز بواطن الأشخاص ومكوناتهم، فلو كان رفيق السفر شخصاً وقحاً وغير متورّع أو كان بخيلاً وسىء الخلق مع الآخرين، فإنّ ذلك من شأنه أن يسلب الراحة والهناء من أصدقائه في السفر، وهكذا بالنسبة إلى الجار السيء فإنه يسلب الراحة من الإنسان حتّى وهو في داره. ونقرأ في حديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «كَانَ إِذَا سَافَرَ يَقُولُ: مَنْ كَانَ يُسِيءُ إِلَى جَارِهِ فَلَا يَصْحَبُنَا لِأَنَّ الْجَارَ رَفِيقٌ مُلَازِمٌ» [٨٦١].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٥٩٩

يقول المرحوم التستري في شرحه لنهج البلاغة نقلًا عن كتاب تاريخ بغداد: كان لمحمّد بن ميمون أبي حمزة السكري [٨٦٢] (من مشاهير عصره) جار أراد أن يبيع داره، فقيل له: بكم، قال: بألفين (دينار) عن الدار، وألفين (دينار) عن جوار أبي حمزة، فبلغ ذلك أبا حمزة فوجه إليه أربعة آلاف (دينار)، فقال: خذ هذه ولا تبع دارك [٨٦٣].

الثامنة والعشرون: يقول الإمام عليه السلام في هذه الفقرة الأخيرة من وصيته الزاخرة بالقيم والنصائح المفيدة: «إِيَّاكَ أَنْ تَذْكَرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكًا، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ».

لأنّ مثل هذا الكلام يزيل هيبة الإنسان من جهة، ومن جهة أخرى يقترب غالباً بالغبية أو السخرية من الآخرين من ذوى الوجاهة في المجتمع، ومن هنا سيكون مثل هذا الكلام باعثاً للإضرار بالإنسان في الدنيا وفي الآخرة، سواء كان هذا الكلام من عنده أو نقلًا عن شخص آخر، فلا فرق في الغيبة أو السخرية أن تكون من إبداع الشخص نفسه أو حكاية عن غيره.

وطبعاً فإنّ هذا لا يعنى أنّ الإنسان يجب أن يترك كلّ أشكال المزاح المشروع والفكاهة اللطيفة، أو أن يجلس في المجالس بوجه عبوس ومكفهز، لأننا نعلم أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام والعلماء الكبار كانوا يمزحون فيما بينهم ويتحدّثون باللطائف والفكاهة أحياناً، بل وردت التوصية بالمزاح في السفر أكثر للتخفيف من ضغط المشاكل والصعوبات التي يواجهها الإنسان في سفره، يقول العلّامة السيد بحر العلوم في أشعاره الفقهية:

وَ أَكْثَرَ الْمِزَاحِ فِي السَّفَرِ إِذَ الَمْ يُسْخِطِ الرَّبَّ وَ لَمْ يَجْلِبْ أذَى

وهذا الكلام مقتبس من الحديث النبوي الشريف، قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَأَمَّا

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٠٠

الَّتِي فِي السَّفَرِ فَبَدَلِ الرَّادِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَالْمِزَاحِ فِي غَيْرِ الْمَعَاصِي» [٨٦٤].

وخلاصة الكلام أنّ هذه الأمور تعتبر حسنةً وجميلةً إذا كانت في حدّ الاعتدال، وإن تجاوزت الحدّ أو أدت إلى إهانة الآخرين وظهور المتكلم بمظهر المهزج في أنظار الناس أو قاده هذا الكلام إلى ارتكاب الذنوب ممّا يسخط الله تعالى؛ فمثل هذا الكلام والمزاح يكون منهيّاً عنه في الشرع والعرف.

والإنصاف أنّ من بين هذه النصائح الثمانية والعشرين التي ذكرها الإمام عليه السلام في عبارات قصيرة وعميقة المعنى وتمثّل كلّ واحدة منها درساً مهماً في حركة الحياة المادية والمعنوية للإنسان؛ تعتبر من أروع ما ورد في النصائح والمواعظ وجدير أن تكتب بماء الذهب وتعلّق أمام أنظار الجميع، سلام الله وصلواته على روحك الطاهرة وكلماتك الزاهرة يا أمير المؤمنين عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٠١

إشارة

وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ. وَاكْفُفْ عَلَيْنَهُنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْنَهُنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَأْيُوثُقُ بِهِ عَلَيْنَهُنَّ، وَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفَنَّ غَيْرَكَ فَافْعَلْ. وَلَمَّا تَمَلَّكَ الْمَرْأَةُ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رِيحَانَةٌ، لَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ. وَلَا تَعُدَّ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تُطْمَعِهَا فِي أَنْ تُشْفَعَ لِعَيْرِهَا. وَإِيَّاكَ وَالتَّعَايِرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ وَالتَّبْرِيئَةَ إِلَى الرَّيْبِ.

الشرح والتفسير: السلوك العادل والحكيم مع المرأة

وفي القسم الثامن والعشرين من هذه الوصية التاريخية يتحدث الإمام عليه السلام بالقضايا التاريخية المتعلقة بالنساء ويوصي ولده بشمان وصايا.

بداية يقول: «وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ [٨٦٥] وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ».

ويبين الإمام عليه السلام في مطاوي هذه النصائح والتوصيات الثمان العلة وراء هذه التوصيات والتي بإمكانها الإجابة عن جميع الأسئلة وعلامات الاستفهام التي تثار حول هذه التوصيات، فالإمام يقول: لأن المرأة ريحانة وليست بقهرمانه (مديرة ومسيطرة).

ومن المعلوم أن مثل هذا الكائن اللطيف لا يستطيع أن يكون طرفاً للمشورة في

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٠٢

المسائل المهمة، ومعلوم أيضاً أن كل حكم عام له استثناءات، وما من عام إلا وقد خصص، وفي هذا المورد ثمة نساء يملكن من العزم والإرادة والرأى الثاقب بحيث يوازن الرجال من أهل الخبرة، أضف إلى ذلك أن القضايا العاطفية والأحاسيس النفسانية تغلب على النساء، وهذا هو الأمر الذي يؤثر عليهن في مقام المشاورة.

ثم يتعرض الإمام عليه السلام للتوصية الثانية ويقول: «وَاكْفُفْ عَلَيْنَهُنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْنَهُنَّ». ومثل هذه التوصية وردت في الآية ٣١ من سورة النور: «وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ».

وهذا يشير إلى حقيقة مخالفة لتصور الكثير من الناس، فجميع أشكال الفتنة وحالات الإرباك في الأخلاق والمجتمع، لا تنطلق من نظر الرجال إلى النساء، بل إن الكثير منها ناتج عن نظر النساء إلى الرجال ووسوستهن وترغيبهن، والإمام عليه السلام قدم هذه التوصية وأمر بلزوم حجبهن لمنع مثل هذه الفتنة.

وبديهى أن هذا الأمر السلبي لا يشمل جميع النسوة بل ناظر إلى النسوة الضعيفات الإيمان أو المتحلات خلقياً.

وفي التوصية الثالثة يقول: «وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَأْيُوثُقُ بِهِ عَلَيْنَهُنَّ»، فلا ينبغي إدخال الأشخاص غير الموثوقين في خلقهم والتزامهم الديني عليهن، فذلك أشد وأشنع من خروجهن إلى الملأ العام.

وفي التوصية الرابعة التي تعتبر تتمه للتوصية السابقة يقول الإمام عليه السلام: «وَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفَنَّ غَيْرَكَ فَافْعَلْ».

وهو إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أن من الضروري أن يطلبن حاجتهن منك فقط لا من غيرك، وحتى لو أردن شيئاً من الآخرين فذلك يكون عن طريقك وبواسطتك، أي أن أي ارتباط بين النساء والآخرين ربما يتبدل في كثير الموارد إلى علاقة فاسدة، ولا بد من قطع مثل هذا الارتباط، فعليك بتحكيم وتوثيق علاقتك بأهلك

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٠٣

ونسائك في جميع الموارد، ومن هذا المنطلق تتم الاستجابة من جهة إلى جميع ما يطلبن، ومن جهة أخرى يتم قطع الروابط غير السليمة مع الآخرين.

ويستعرض الإمام عليه السلام التوصية الخامسة بقوله: «وَلَمَّا تَمَلَّكَ الْمَرْأَةُ مِنْ أَمْرِهَا مَا حَيَّ أَوْزَ نَفْسِهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رِيحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ» [٨٦٦].

وهذا يعنى أن النساء وبسبب ما يملكن من الحالات العاطفية واللطف الروحية لا يستطعن تولى الأمور الصعبة وإدارة القضايا المعقدة، وعلى ضوء ذلك لابد من تحديد دائرة عملهن في المسائل الخاصة بهن لا المسائل المتعلقة بالآخرين وبخاصة ما يتصل بالمناصب الحساسة والثقيلة في المجتمع الإسلامي.

أما العلة التي ذكرها الإمام عليه السلام لمثل هذه التوصيات فهي علة حساسة ودقيقة جداً تنسجم وتتناغم مع البناء الروحي والجسمي للمرأة، رغم أن بعض المتأثرين بالغرب غير مستعدين لقبول هذه الحقيقة، ولكنهم على مستوى العمل يسعون لتجسيد هذه التوصيات في واقعهم العائلي، حتى في الغرب ومع طرح شعار المساواة بين الرجال والنساء لعقود من الزمان فإنهم على مستوى العمل والممارسة يسلكون سبيلاً آخر، بحيث قلما تستطيع امرأة استلام مقاليد الأمور في المناصب الحساسة، ونسبة النسوة اللاتي يحرزن مثل هذه المناصب الحساسة إلى النسوة اللاتي لا يستطعن ذلك، ربما لا تصل حتى إلى ٥٪.

وخلاصة الكلام أن رعاية العدالة بين النساء والرجال ورفع أشكال التمييز والإجحاف رغم أنه يعتبر حقيقة ملموسة، ولكن لا يمكن تنظيم قوانين المجتمع بحيث تتقاطع مع التكوين النفسي والجسمي للمرأة، وإطلاق الشعارات التي تدعو لمثل هذه المساواة، هي مجرد شعارات براقية ومضللة ويقصد بها الرياء والتظاهر ولا تتصل بالحقائق الموضوعية على أرض الواقع النفسي للمرأة.

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٠٤

وفي التوصية السادسة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَمَّا تَعُدُّ [٨٦٧] بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا».

وهذا يعنى أنها كلما تتعامل مع الآخرين من موقع الاحترام والإكرام ربما تتولد علاقة عاطفية بينهما، هذه الرابطة يمكن أن تكون منشأ للفساد في المستقبل.

وفي التوصية السابعة التي ترتبط بما سبقها من توصية، يقول الإمام عليه السلام: «وَلَمَّا تُطْمَعُهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِعَیْرِهَا»، لأن مثل هذه الشفاعات ربما تكون أيضاً منشأ للعلاقة العاطفية، فيكون ضررها وفسادها أكثر من نفسها.

والخلاصة أنه لابد من حفظ احترام المرأة ولكن بحدودها، ولا تتجاوز إلى غيرها، سواء على مستوى قبول شفاعتها أو بدون ذلك، لأن لهذه الأمور آثاراً سلبية على المستوى النفسي وتبعث على تشجيعهن لإيجاد العلاقة مع الآخرين.

ويذهب بعض شراح نهج البلاغة في تفسير جملة: «وَلَمَّا تَعُدُّ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا» أن المقصود أن لا يحترمها الرجل أكثر من اللازم، بل يقتصر تكريمهن بمقدار معين، ولكن هذا التفسير لا يتناسب مع سياق هذه الجملة وكلماتها، والظاهر أن المراد منها هو ما تقدم آنفاً.

وفي التوصية الثامنة (والأخيرة في هذا المقطع من هذه الوصية) يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَيَّاكَ وَالتَّغَايِرَ [٨٦٨] فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ، وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرَّيْبِ [٨٦٩].»

مما لا شك فيه أن كل إنسان وبخاصة النساء، لا يرتكبون مخالفة حفظاً للسمعة، والاهتمام بالوجهة لدى الناس، ولكن إذا عاش الأقرباء والأزواج حالات الغيرة اللامبررة وأسأوا الظن بهن إلى درجة الاتهام فإن ذلك من شأنه خرق حجاب العفة وخلق حالة من اللامبالاة بالقيم والعرف لديهن، فتقول هذه المرأة: الآن وقد فضحني

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٠٥

وأنهمنى زوجي بدون مبرر فما الداعي لأن أحفظ نفسي واهتمت بسمعتي وعفتي، فلأفعل ما أشاء فليكن ما يكون، وهذا الكلام لا يختص بالنساء فقط، بل يمتد ليشمل الأبناء، الشركاء، الخدم والأصدقاء أيضاً، فكل سوء الظن غير المبرر يبعث على تشجيع الطرف الآخر للتلوث والسقوط في مهاوى الفساد والرذيلة، وسبق أن ذكرنا أن كل شيء جيد وحسن إذا كان بصورة الاعتدال حتى حالات الغيرة والتعصب لحفظ القيم.

تأمل: مكانة المرأة في المجتمع

وهنا لابد من الإشارة إلى أمرين:

١. ثمة شعارات كثيرة في عالمنا المعاصر بالنسبة لمقولة المساواة بين الرجل والمرأة، حيث تنعقد مؤتمرات دولية ومعاهدات ولوائح تزداد يوماً بعد آخر، والتأكيد على عدم وجود أي تفاوت بين الجنسين، ومن هذا المنطلق بإمكان كل من الرجل والمرأة تحمّل المسؤوليات الاجتماعية، سواء ما يتصل بالقضاء أو قيادة الجيش أو إدارة الحرب، أو الرحلات الفضائية، أو الرحلات العلمية للتحقيق والبحث في أعماق البحار، والخلاصة أن يتولّى الرجل والمرأة جميع أشكال الإدارة على جميع الصعد والمستويات.

والعجيب هنا، أنهم عندما تصل النوبة لمرحلة التطبيق والعمل فإنّ الفوارق تبرز بشكل جليّ، فالرجال يستلمون الإدارة على المستويات العليا والمتوسطة إلّا في موارد نادرة ومحدودة جداً، فلا يسمحون للنساء بتولّي هذه المناصب الحساسة والورود إلى هذه الميادين، ولا يختلف الحال أيضاً في البلدان الأوروبية والأمريكية، فعندما يسألون أنّ هذه الظاهرة تتضمن تناقضاً في القول والعمل، ولماذا يختلف مستوى التطبيق عن تلكم الادّعاءات الرنانة والشعارات البراقة؟ فلا جواب لديهم.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٠٦

وهذا التناقض وليد التفاوت بين الحقائق الموجودة على الأرض والشعارات التي تطلق في عالمنا المعاصر وفي المحافل والمؤتمرات، فمن أجل كسب آراء النساء في الانتخابات السياسية وإسكات اعتراضهنّ يرفعون شعار المساواة ويصرّون عليه بحجّة الدفاع عن حقوق المرأة، ولكنهم في مرحلة العمل يجدون أنفسهم مرغمين لقبول هذه الحقيقة، وهي أنّ بنية النساء من حيث المستوى الجسمي والنفسي يختلف عن الرجال، فكل واحد من الجنسين خلق لمسؤولية معينة وكل واحد منهما إنسان يملك حقوقاً فردية واجتماعية، ولكن أن نقول أنّهما يملكان قابليات وملكات متساوية وقادرون على تولّي جميع المسؤوليات، فهو خطأ كبير.

يقول الفيزيائي والجراح الفرنسي المعروف (الكسيس كارل) الذي ألف كتاباً معروفاً وله شهرة عالمية، يقول في كتابه «الإنسان ذلك المجهول»: إنّ الرجل والمرأة بحكم قانون الخلق، يختلفان في التشكيل البنيوي، وهذا الاختلاف والتفاوت يسرى إلى الوظائف والحقوق... ولعدم الالتفات إلى هذه النقطة الأصلية والمهمّة فإنّ أنصار حقوق المرأة يتصوّرون أنّ كلا الجنسين بإمكانهما امتلاك مستوى واحد من حيث التعليم والتربية و المشاغل والمسؤوليات المختلفة، فالمرأة في الحقيقة تختلف عن الرجل من جهات عدّة، فكلّ خلية من خلايا البدن، وكذلك الأجهزة وخاصّة الشبكة العصبية، تحمل علائم جنس صاحبها، ثمّ يضيف: إنّ القوانين الفسيولوجية أيضاً، حالها حال القوانين الفلكية وعالم الطبيعة، ثابتة وغير قابلة للتغيير، ولا يمكن إيجاد التغيير فيها برغبة البشر، فنحن مجبورون على قبولها كما هي عليه (لا كما نريد).

ثمّ يختم كلامه بهذه العبارة: ينبغي على النساء أن يتحرّكن باتجاه مواهبهنّ الطبيعية ويسرن في طريقهنّ الخاصّ بهنّ بعيداً عن حالات التقليد الأعمى للرجال، ووظيفة المرأة في سبيل تكامل البشرية أكثر بكثير من الرجال، ولا ينبغي التسامح

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٠٧

والتساهل في هذا الأمر [٨٧٠].

والملفت أنّه في سنة ١٩٩٥ اجتمع عشرات الآلاف من أعضاء مؤسسات الحقوق الرسمية وغير الرسمية في بكين عاصمة الصين لتدوين وثيقة على أساس المعاهدات الدولية لمحو جميع أشكال التمييز ضدّ النساء، وإمضاء هذه المعاهدة التي تمّ تنظيمها مسبقاً، ولكن بعض مواد هذه اللائحة كانت من البطالان والزيف لدرجة أنّ الكثير من المنظّمات والمجامع في العالم اعترضت عليها، وبعض المشتركين في ذلك المؤتمر تركوا الجلسة، ومنهم السيدة شارون هير النائبة في برلمان كندا ورئيسة الهيئة الكندية المشاركة في ذلك المؤتمر، حيث قامت من مكانها وتوجّهت بالخطاب إلى الصحفيين وقالت: «إنّ التساوي المقصود في وثيقة بكين لا- يأتي

بالتساوي الحقيقي للنساء، وأنا أعود لبلدى بأول طائرة وأسعى لحفظ الفوارق بين الرجل والمرأة (ويتبعها المسؤوليات المختلفة)، فهذا التفاوت موجود في أصل الخلقة، وهذه الفوارق هي التي ستحفظنا» [٨٧١].

وتفصيل هذه المسألة خارج عن عهده هذا البحث المختصر، ويكفي القول إجمالاً بأن هذه الشعارات البرّاقه ليس أنها لاتحلّ مشكلة لنساء العالم، فحسب بل تترتب عليها آثار مخزّبه أيضاً [٨٧٢].

وعلى ضوء ذلك ينبغي القبول بالحقائق المتعلقة بكلا الجنسين بعيداً عن الشعارات الخاوية وتخطيط المناهج والبرامج على أساسها ووضع كلّ واحد من الجنسين في موقعه الاجتماعي اللائق به بدون أن نقبل بأيّ ظلم وتحقير للنساء.

٢. ما ورد في كلمات الإمام عليّ عليه السلام في هذه الوصية وفي بعض خطبه والكلمات القصار كان مورد بحث ونقاش من جهة بعض الكتاب والمفكرين، فهل

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٠٨

أن مفهوم هذه العبارات في رسائل الإمام عليه السلام وخطبه يعكس موقفاً سلبياً من المرأة؟

وعندما نبحت في جذور هذه الخطب والرسائل ونقارن بينها وبين الحوادث التاريخية في ذلك الوقت، فسوف يتبين أن كلّ هذه التعبيرات غير ناظرة لجميع النسوة، بل إشارة لغئة خاصية من النسوة ممن كانت مصدر مفاسد اجتماعية وعائليه، وبخاصة مع الالتفات إلى أن بعض كلمات الإمام عليّ عليه السلام في هذا الشأن صدرت بعد واقعة الجمل، ونعلم أن حرب الجمل، وهي الحرب التي راح ضحيتها وفقاً لروايه، سبعة عشر ألف مسلم، قد أشعل فتيلها امرأة أو أنها اشتركت وساهمت في إشعالها. وعلى ضوء ذلك، فظن الإمام عليه السلام في هذه المقولات يتجه لمثل هؤلاء النسوة، وبكلمة أخرى أن خطاب الإمام عليه السلام في هذه الموارد ليس موجبه كليته بل موجبه جزئية.

والشاهد على هذا الكلام رؤية القرآن في ما يخص النساء، وعلى سبيل المثال نشير إلى قوله تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» [٨٧٣].

فلو كانت النسوة جميعهن ناقصات العقول، فكيف تتحقق هذه السكينة والمودة والرحمة بين الزوجين؟

وفي آية أخرى يقول تعالى: «هُنَّ لِيَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٍ لَهُنَّ» [٨٧٤].

فلو كانت النساء يملكن صفات سلبية فقط فكيف، يعبر القرآن على أنهنّ زينة لأزواجهنّ والعامل في حفظ هؤلاء الأزواج؟

وفي آية أخرى نقرأ: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٦٠٩

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [٨٧٥].

وفي الآية ٣٥ من سورة الأحزاب يستعرض القرآن الكريم عشر فئات من المؤمنين الصالحين والنساء الصالحات ويعددهم في نهاية المطاف بأجر عظيم: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصِدِّقِينَ وَالْمُتَصِدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا».

وثمة بحوث كثيرة في هذا المجال لا يسع المقام استعراضها لأنها خارجة عن موضوعنا، ولكننا لحسن الختام نعود لكلام الإمام عليّ عليه السلام في هذا المقطع من الوصية حيث قال: «إِنَّ الْمَرْأَةَ رِيحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٌ». ونعلم أن الورد والرياحين تملك في حد ذاتها مزايا كثيرة، فهي عنصر لخلق السكينة والراحة النفسية، وكذلك تعتبر زينة، ولها فوائد كثيرة أخرى، ولكن في ذات الوقت فهي كائن لطيف ورقيق بحيث إذا تركت بدون رعاية كافية فسوف يصيبها الذبول والجفاف، فالحقيقة أن هذه الجملة إشارة إلى أن المشاعر والعواطف للنساء هي الغالبة، في حين أن العقل للرجال غالب على العواطف والأحاسيس، وبديهي أن هذين الجنسين بهذه

الخصوصيات إذا اجتماعاً وعملاً سويًا فإن ذلك من شأنه تقوية نظام الأسرة وتعميق وشائج العلاقة بين أفراد المجتمع.

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٦١١

القسم التاسع والعشرون

إشارة

وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خِدْمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أُخْرَى أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ وَأَكْرَمَ عَشِيرَتِكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحَكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ.

الشرح والتفسير: تقسيم المسؤوليات

في هذا المقطع من الوصية يؤكد الإمام على توصيتين مهمتين في مجال الإدارة والتعاون، وفي الحقيقة أن هذه التوصية لا تتعلق بولده البار، بل بجميع أفراد البشر بوصفه والدًا شفيقًا لجميع الناس.

بدايةً يقول الإمام عليه السلام: «وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خِدْمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أُخْرَى أَلَّا يَتَوَاكَلُوا [٨٧٦] فِي خِدْمَتِكَ».

إن تقسيم العمل يعد من أهم أصول ومبادئ الإدارة الناجحة، لأنه بدون ذلك فإن العمال والموظفين يتواكلون غالباً ويتوقعون من الآخرين أن يقوموا بالمسؤوليات الملقاة على عاتقهم، وعندما يتأخر العمل ويتباطأ الإنتاج فإن كل فرد منهم يستطيع تبرير عمله في مقابل مؤاخذه رب العمل بأنه كان يظن أن هذا العمل من مسؤوليه آخرين، وإذا سئل الآخرون عن ذلك فإنهم يجيبون بنفس الجواب، ولكن عندما يتم تقسيم العمل والمسؤوليات، فإن كل شخص يعلم أنه مسؤول عن

نقحات الولاية، ج ٩، ص: ٦١٢

عمله الخاص ويبدل جهده للقيام به بأفضل وجه، وهذه التوصية تدل على أن الإمام عليه السلام ملتفت تماماً لمبادئ الإدارة، وريووصى بها ولده.

وفي عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كانت هذه المسألة على رأس الأولويات، سواء في الحرب أو في غيرها، فبمجرد انتخاب رجل لقيادة ميمنة الجيش وآخر لقيادة الميسرة وثالث يكون مقره في قلب الجيش، وهو الذي يعين المسؤوليات ويصدر الأوامر، وهكذا بالنسبة لجمع الزكاة، فتمية عمال مأمورون بهذه المهمة، وكذلك لكسب المعلومات عن وضع العدو حيث يتم إختيار أفراد خاصين لهذا الغرض، وهكذا في سائر أمور إدارة البلد الإسلامي في جميع أبعاده السياسية والاجتماعية والثقافية وما إلى ذلك، حيث يتم إختيار أفراد واعين وملتزمين يقومون بهذه المهام.

وفي التوصية الثانية يقول الإمام عليه السلام: «وَأَكْرَمَ عَشِيرَتِكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحَكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ [٨٧٧]».

ونرى أن الإمام عليه السلام في هذه العبارة يشبه الأقرباء والأرحام بثلاثة أشياء كل واحد منها ناظر إلى زاوية خاصة، فتمية تشبیه بالجناح وتشبيه بالأصل وثالث باليد.

والتشبيه الأول يشير إلى التقدم والإزدهار والرقى في ظل التكاتف والتعاون بين أفراد العشيرة، والتشبيه الثاني يشير إلى عدم الشعور بالوحدة في مقابل التحديات المفروضة، والتشبيه الثالث يشير إلى مواجهة الأعداء والتصدي لهم بمساعدة أفراد العشيرة والأقرباء.

وفي الحقيقة أنه كما أن المجتمع الكبير في ظل التكاتف والتعاون بين أفراد يصل إلى مراتب متقدمة من التطور والرقى والإزدهار، فكذلك المجتمع الصغير المتكون من العشيرة والأقرباء الموجودين في قلب المجتمع الكبير، فإنه بالتعاون والتكاتف بين أفراد،

يعيش المجتمع التآخى والنجاح والتغلب على الصعاب، وحتى القبائل فى الجاهلية أيضاً أدركت هذه الحقيقة، ولذلك كانت العلاقة القبلية

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٦١٣

واعتماد الفرد على قبيلته يساهم بشكل أساس فى التغلب على المشاكل والأزمات التى تواجه العرب فى عصر الجاهلية، وطبعاً مع فارق أن العرب فى عصر الجاهلية كانوا يدافعون عن القبيلة، والقبيلة تدافع عن أفرادها بدون النظر إلى مسألة الحق والباطل، والعدل والظلم، أى بدون قيد أو شرط، ولكن فى الإسلام أضحى هذا الدفاع المتقابل بين الفرد وقبيلته محدوداً بحدود الحق والعدالة، فالدفاع عن الباطل أضحى مرفوضاً حتى فى مقابل الأخ والام والأخت وأمثالهم.

وفى القسم الرابع من الخطبة ٣٢ وفى الجزء الثانى من هذا الكتاب ثمة بحث متعمق فى هذا المجال.

ويورد ابن أبى الحديد بعض النماذج من دفاع القبيلة عن أفرادها المظلومين ويبيّن أن هذه الحماية كانت مؤثرة كثيراً، ومن ذلك أن الفرزدق كان لا ينشد بين يدى الخلفاء والامراء إلا قاعداً، فدخل على سليمان بن عبد الملك يوماً، فأنشده فخراً به وبآبائه، وقال من جملته:

تالله ما حملت من ناقة رجلاً مثلى إذا ربح لفتنى على الكورى

فقال سليمان: هذا المدح لى أم لك؟ قال: لى ولك يا أمير المؤمنين. فغضب سليمان وقال: قم فأكمل ولا تنشده بعده إلا قائماً، فقال الفرزدق: لا- والله أو يسقط على الأرض أكثرى شعراً، فقال سليمان: ولى على الأحمق ابن الفاعلة، لا يكفى، وارتفع صوته، فسمع ضوضاء بالباب، فقال سليمان: ما هذا؟ قيل: بنو تميم على الباب، قالوا: لا ينشد الفرزدق قائماً وأيدينا فى مقابض سيوفنا، قال: فلينشده قاعداً [٨٧٨].

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٦١٥

القسم الثلاثون (القسم الأخير)

إشارة

اسْتَوْدِعَ اللَّهُ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَاسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَالْدُنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: ضع كل وديعه عند الله

وأخيراً يتحدث الإمام عليه السلام فى آخر هذه الوصية وأقصرها مخاطباً ولده ويذكر توصيتين تجمعان كل شى فى ثناياهما.

يقول الإمام عليه السلام بدايةً: «اسْتَوْدِعَ [٨٧٩] اللَّهُ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ».

ثم يضيف: «وَاسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَالْدُنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَالسَّلَامُ».

وبديهى أنه لا أحد أفضل وأحسن من الله تعالى لحفظ دين الإنسان ودينه، ولا أحد أحسن منه فى تأمين أفضل المقدرات والعطايا لدنيا الإنسان وآخرته، فالذات المقدسة مصدر جميع الخيرات ومنع كافة البركات، وكل ما يملكه المخلوقون فهو صادر منه، كما نقرأ فى القرآن الكريم: «بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [٨٨٠].

ولا شك أن الإنسان يواجه فى دنياه ودينه الكثير من الآفات والمزالق والمآزق،

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٦١٦

وطبعاً فإن الآفات التى تمس الدين أكثر، وهذه الآفات إلى درجة من الكثرة والتنوع بحيث أن التغلب عليها لا- يتيسر للإنسان

إلّا بالاستعانة بالذات المقدّسة واللجوء إلى صاحب القدرة المطلقة

قال الشاعر:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ فَمَا خَابَ حَقًّا مَنْ عَلِيَهُ تَوَكَّلَا
وَكُنْ وَائْتِقًا بِاللَّهِ وَاصْبِرْ لِحُكْمِهِ تَفَرُّ بِالَّذِي تَرْجُوهُ مِنْهُ تَفَضُّلاً [٨٨١]

نكتب هذه الكلمات الأخيرة من الجزء التاسع ونحن على أعتاب إطلالة عيد الغدير الأغرّ من سنة ١٤٢٨ هـ ق، وختاماً نترنم بهذا الدعاء

الرائع ونقول:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِوِلَايَةِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَثَمَةِ الْمَعْصُومِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَام».

نهاية الجزء التاسع

[١] (١). سند الرسالة:

طبقاً لنقل ابن أبي الحديد وما ورد في الروايات أنّ الإمام عليّ عليه السلام عندما تحرك من المدينة باتجاه البصرة وصل في مسيره إلى منطقة الربدّة، وهناك أرسل محمد بن جعفر بن أبي طالب و(امّه أسماء بنت عميس) مع محمد بن أبي بكر بهذه الرسالة إلى أهل الكوفة، وقد وردت بعض الإضافات في ذيل هذه الرسالة وفقاً لنقل ابن أبي الحديد حيث يشير إلى وجود مصدر آخر لهذه الرسالة.

وأورد (ابن قتيبة) في كتاب «الإمامة والسياسة» هذه الرسالة مع بعض الإضافات، ونقلها الشيخ المفيد في كتاب «الجمال» الذي تمّ تأليفه قبل السيد الرضى، ولكنه قال: إنّ الإمام عليّ عليه السلام أرسل هذه الرسالة بواسطة الإمام الحسن عليه السلام وعمّار بن ياسر إلى أهالي الكوفة.

وذكرها المرحوم الشيخ الطوسي أيضاً في الأمالي مع بعض التفاوت، ومن الواضح أنّ السيد الرضى لم ينقل جميع ما ورد في الرسالة، بل اقتطف منها ما ذكره في كتابه (انظر: مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٩٤).

[٢] (١). «الجبّه» في الأصل بمعنى أعلى الوجه، وما بين الجبين، وبما أنّ هذا المكان يعدّ من الأعضاء الشريفة والبارزة في البدن فتطلق هذه الكلمة على الجماعة القوية الذين يتحركون لجلب الخير أو دفع الشر، وكذلك تطلق على رئيس الجمعية.

[٣] (١). «استعتاب» من مادة «عتبى» بمعنى اللوم والتوبيخ، وبهذا المفهوم نعاتب الطرف الآخر حتى يرضى، ثم استعمل بمعنى طلب الرضا.

[٤] (٢). «وجيف» من مادة «وجف» على وزن «وقف» تعنى الاضطراب والاهتزاز، وبما أنّ الإنسان بمسيره السريع يواجه حاله من الاهتزاز والاضطراب في حركته، استعملت هذه المفردة بمعنى السرعة أيضاً.

[٥] (٣). «جدا» وكذلك «جدا» على وزن «دعاء» بمعنى اطلاق الصوت في مسير القافلة لتسريع حركة الابل ثم اطلقت على كلّ ما يبعث على التحرك لأداء عمل معين.

«عنيف» من مادة «عنف» وتعنى الغلظة والشدة في الاسلوب والعمل.

[٦] (١). «فلته» تعنى صدور العمل بشكل عفوى وبدون تدبير مسبق، و«فلتات اللسان» الكلام الذى يصدر من الإنسان من موقع الغفلة

والعفوية بدون تأمل.

[٧] (٢). «اتيح» من مادة «تيح» على وزن «شئ» بمعنى الاستعداد لأداء عمل معين، وجملة «فاتيح له قوم» تعنى أن جماعة من الناس استعدوا لقتل عثمان.

[٨] (٣). وفي هذه الصورة يكون ضمير «استيغتابه» ضمير للفاعل ومفعوله محذوف، يعنى «استيغتابه من الناس» فى حين على التفسير الأول يكون الضمير مفعولاً ويتناسب أكثر مع الجملة اللاحقة.

[٩] (٤). بحار الأنوار، ج ٣١، ص ١٩٤.

[١٠] (١). إن قصة قتل عثمان ومعركة الجمل وأبعادها وعواملها وتداعياتها تعتبر قصة ذات تفاصيل وفروع كثيرة ومطولة، وقد سبق أن استعرضنا فى الأجزاء السابقة لهذه المجموعة بعض الأبعاد المهمة لهذه الواقعة التاريخية، وهنا نذكر قائمة للقراء الأعزاء لمصادر هذه الواقعة فى هذا الكتاب يتسنى لهم مراجعتها والإحاطة بكافة أبعاد وخفايا هذه الواقعة:

(أ) عوامل ثورة المسلمين ضد عثمان، ج ١، ص ٣٧١ إلى ٣٧٦.

(ب) حوادث معركة الجمل، ج ١، ص ٣٨٩ إلى ٣٩١.

(ج) قتل عثمان وعدم مشاركة الإمام على عليه السلام ودور طلحة والزبير فى تحريك الجمهور، ج ٢، ص ٣٠.

(د) تحليل آخر حول قضية مقتل عثمان، ج ٢، ص ٢٣٢ تا ٢٤١.

(هـ) دور طلحة والزبير فى معركة الجمل، ج ٢، ص ٢٥١.

(و) الأعمال التى قام بها عثمان وأدت إلى سخط الناس عليه، ج ٢، ص ٤٨٨.

(ز) بحث آخر حول دور طلحة وتحريك الناس على قتل عثمان، ج ٦، ص ٥٢٧.

[١١] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٤، ص ٨-٢١.

[١٢] (٢). الإصابة، ج ١، ص ١٧.

[١٣] (١). سورة البقرة، الآية ١٣٤.

[١٤] (١). ورد فى تنزيه الصحابة توضيحات أخرى فى ذيل الخطبة الثالثة، ج ١، ص ٣٧٦ وما بعدها وفى ج ٤، ص ٣٢٠ وذيل الخطبة ٩٧، و ج ٥، ص ٥١٨ وذيل الخطبة ١٣٥، وكذلك ورد فى كتاب «الشيعة تجيب»، بحث مفصل ووافى حول هذا الموضوع.

[١٥] (١). «جاشت» من مادة «جيش» على وزن «حيف» بمعنى الغليان والهيجان.

[١٦] (٢). «مزجل» بمعنى القدر سواء كان مصنوعاً من الفخار أو من النحاس وما إلى ذلك، ولذلك عندما يسيطر الغضب والحدة على الإنسان يقال: «جاشت مراحله».

[١٧] (٣). «قطب» فى الأصل بمعنى الحديد التى توضع فى وسط حجر الطاحونة كمحور لدوران الحجر العلوى حوله، ثم اطلق على كل أمر يكون له دور محورى فى قضية معينة.

[١٨] (١). تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٥١٣.

[١٩] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٤، ص ٢٤.

[٢٠] (٢). المصدر السابق، ج ١٧، ص ٢٤.

[٢١] (١). سند الرسالة:

إن ما أورده السيد الرضى فى هذه المقام يمثّل مقطوعاً من رسالة مطولة نسبياً أرسلها الإمام عليه السلام بعد فتح البصرة إلى أهالى الكوفة: «من عبد الله على بن أبى طالب إلى قرطه بن كعب (أحد صحابه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله المشهورين الذى ارسل إلى الكوفة) ومن قبله من المسلمين سلام عليكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو...».

وقد كتب هذه الرسالة كاتب الإمام عليه السلام عبيدالله بن رافع فى سنة ٣٦ من الهجرة، وقد أوردها الشيخ المفيد فى كتابه «النصرة» من كتاب «الجمال» للواقدى (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٩٥).

وقد جاء فى كتاب نهج البلاغة الكامل، ص ٧٨٨، أن الإمام عليه السلام أرسل هذه الرسالة بعد فتح البصرة مع «زحر بن قيس الجعفى» إلى أهالى الكوفة ومطلع الرسالة: «مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلَىٰ بِنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ أَهْلِ الْكُوفَةِ».

[٢٢] (١). نهج البلاغة، الخطبة ١٣ و ١٤.

[٢٣] (١). بحار الانوار، ج ٣٥، ص ٢٥٢، ح ١٩٨.

[٢٤] (١). سند الرسالة:

لقد نقل المرحوم الصدوق فى «الأمالى» (قبل نهج البلاغة) قصيدة هذه الرسالة، ولا تختلف عما ورد فى «نهج البلاغة» إلا بتفاوت يسير، والأشخاص الذين أوردوا هذه الرسالة بعد السيد الرضى نقلوها مع بعض الاختلاف مما يشير إلى وجود مصادر أخرى لهذه الرسالة قبل «نهج البلاغة» للسيد الرضى ومن ذلك ما أورده سبط ابن الجوزى فى «تذكرة الخواص»، وكذلك القاضى القضاعى فى «دستور معالم الحكم» والشيخ البهائى فى كتاب «الأربعين» (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٩٩).

[٢٥] (١). ورد فى بعض النسخ «مِنْ غَيْرِ مَالِكِهَا» وهو إشارة إلى عملية الغصب، ولكن مع الالتفات إلى جملة «مِنْ غَيْرِ حَالِكِكَ» يبدو أن الكاف فى «غَيْرِ مَالِكِكَ» للخطاب.

[٢٦] (١). نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٢٤٠.

[٢٧] (٢). سورة البقرة، الآية ٢٦.

[٢٨] (١). «ازعج» من «إزعاج» يعنى دفعه ورفع له لتحريكه.

[٢٩] (٢). «خطئة» فى الأصل بمعنى الأرض التى يختارها الإنسان ويضع لها علامات وحدوداً للدلالة على حيازتها، وهى فى الأصل من مادة «خطّ»، ثم استخدمت بمعنى المنطقه والناحية، وجاءت فى الجملة أعلاه بهذا المعنى الأخير.

[٣٠] (٣). «داوعى» جمع «داعية» بمعنى السبب والعلّة.

[٣١] (٤). «المغوى» اسم فاعل من «الإغواء» بمعنى المضللّ.

[٣٢] (٥). «يشرع» من مادة «شرع» وتستخدم فى هذه الموارد بمعنى الانفتاح.

[٣٣] (١). نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٦.

[٣٤] (١). «ضراعة» تعنى الذلّة (ولها معنى مصدرى وكذلك اسم المصدر)؛ وهذه المفردة تعنى أيضاً التواضع.

[٣٥] (١). «إشخاص» بمعنى إحضار، إرسال وسوق، وفى العبارة أعلاه الأنسب هو المعنى الأول.

[٣٦] (١). سورة غافر، الآية ٧٨.

[٣٧] (٢). من جملة القرائن المؤيدة لهذا الرأى وجود قرينتين:

أ) ورد فى الرسالة أعلاه فى كتاب دستور معالم الحكم لابن سلامه، ص ١٣٧ أنها تنتهى إلى «وتبع وحمير» بدون جملة «إشخاصهم...» فى حين أن الرسالة متواصلة.

ب) ورد فى كتاب حلية الألياء، ج ٨، ص ١٠٢ جملة «إشخاصهم» بهذه الصورة: (وأشخصهم...) والذى يشير إلى أنها جملة منفصلة عن الجملة السابقة.

[٣٨] (٣). سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

[٣٩] (١). وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٦٠، ح ١، الباب ٣ من أبواب صفات القاضى.

[٤٠] (٢). الكافى، ج ٧، ص ٣٨٥، ح ٥.

- [٤١] (١). منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة، ج ١٧، ص ١٥٨؛ سفينة البحار، مادة شرح.
- [٤٢] (٢). تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٢٧٤ فى باب حوادث سنة ٦٠ هـ.
- [٤٣] (١). انظر: الاصابة فى معرفة الصحابة، ج ٢، ص ٧٠، ترجمة حال الحسين بن على عليه السلام.
- [٤٤] (٢). يستفاد من التواريخ أن شريحاً عاد بنفسه فى زمان الحجاج، ولكنه استقال من منصبه بعد ذلك ووافق الحجاج على استقالته. ولمزيد من التوضيح راجع: الاستيعاب، ص ٥٩٠ و شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ص ٢٨ و ٢٩.
- [٤٥] (١). سند الرسالة:
- هذه الرسالة التى أوردها الشريف الرضى تمثّل مقطعاً من الرسالة التى أرسلها الإمام عليه السلام لبعض امراء جيشه وقد ذكرها سبط ابن الجوزى فى كتاب تذكرة الخواص بشكل موسع ومختلف، ومن الواضح تماماً أنه اقتبسها من مصدر آخر غير نهج البلاغة، ولكن ابن الجوزى فى أول الباب السادس من كتابه يقول: كل كلام أنقله عن على ابن أبى طالب فى هذا الكتاب نقلًا باسنادى المتصل إلى الإمام عليه السلام نفسه. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٠١).
- [٤٦] (١). الجمل، ص ١٢٢.
- [٤٧] (٢). «توافت» من مادة «وفا» وتعنى المصافحة والاجتماع والتلاقى، والمراد من الجملة أعلاه أنه إذا اجتمعت الحوادث وتضافرت فيما بينها واستمر المخالفون على تمردهم.
- [٤٨] (١). «انهد» صيغة أمر من «النهود» بمعنى الظهور والارتفاع والقيام بأداء عمل معين.
- [٤٩] (٢). «تقاعس» من مادة «قعس» على وزن «فحص» وبمعنى التماهل والتواكل وإلقاء المسئولية على الآخرين والتراجع عن القيام بالوظيفة والتكليف أو الحرب.
- [٥٠] (٣). «المتكارة» تعنى الشخص الذى يكره القيام بعمل معين ويعيش حالة السخط وعدم الرضا منه، وهى من مادة «كره».
- [٥١] (٤). «مغيبة»: «مغيب» و«مشهد» مصدر ميمى بمعنى الغيبة والحضور.
- [٥٢] (٥). سورة التوبة، الآية ٤٧.
- [٥٣] (١). نهج البلاغة، الخطبة ١٧٢.
- [٥٤] (٢). ولمزيد من التوضيح انظر: تاريخ الطبرى، ج ٣، فى باب حوادث سنة ٣٦ و شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٠٥ إلى ٣٢٣.
- [٥٥] (١). سورة التوبة، الآية ٤٧.
- [٥٦] (٢). سورة التوبة، الآية ٤٨.
- [٥٧] (٣). سورة البقرة، الآية ٢٤٩.
- [٥٨] (١). سند الرسالة:
- من جملة الأشخاص الذين أوردوا هذه الرسالة: نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، نقل هذه الرسالة من مطلع كلام الإمام عليه السلام، ومع الأخذ بالحسبان أن نصر بن مزاحم كان يعيش قبل السيد الرضى بقرنين من الزمان تقريباً، مضافاً إلى أنه ذكر هذه الرسالة بشكل كامل، فيتبين من ذلك أنه نقلها من مصادر أخرى.
- ونقلها أيضاً ابن عبد ربّه مع بعض الإضافات وابن قتيبة فى كتابه الإمامة والسياسة باختصار يسير بالنسبة لما أورده نصر بن مزاحم. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٠٢).
- [٥٩] (١). نهج البلاغة الكامل، ص ٨٠٣؛ وقعة صفين، ص ٢٠.
- [٦٠] (٢). «طعمه» تعنى الشىء المطعوم والمأكول، ولكن تأتى على سبيل الكناية، مثلاً يقال عن الشخص الفلانى خبيث الطعمه، يعنى

أن كسبه وعمله غير مشروع، وفي الرسالة أعلاه وردت بمعنى ما يعتاش به الإنسان.

[٤١] (٣). سورة النساء، الآية ٥٨.

[٤٢] (٤). انظر: تفسير نور الثقلين، ذيل الآية المذكورة؛ والكافي، ج ١، ص ٢٧٦ باب أن الإمام يعرف الإمام الذي يكون من بعده.

[٤٣] (١). «فتتات» في الأصل من مادة «فوت»، التي تأتي أحياناً بمعنى فقد الشيء وأخرى بمعنى السبق، وطبقاً للمعنى الثاني عندما تأتي من باب افتعال تعنى الاستبداد والترتمت بالرأى، وكأنه يسبق الآخرين في اختيار مقصوده، ويحتمل أيضاً أن هذه المفردة من مادة «فأت» (بالهمزة)، وتأتي أيضاً بمعنى التفرد والاستبداد.

[٤٤] (٢). «رعية» صفة مشبهة بمعنى المراعاة، من مادة «رعى» وهي في الأصل تعنى رعى الأغنام والذي يقترن عادةً بالمراعاة والمحافظة عليها، وهذا التعبير يشير إلى أن الدولة في الحكومة الإسلامية مكلفة بخدمة الناس والمحافظة عليهم ومراعاة حقوقهم، وقد ورد في الحديث النبوي المعروف: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» وهو إشارة إلى هذا المعنى، أى أن جميع الناس يجب أن يرعى أحدهم الآخر ويتعامل معه من موقع المسؤولية ومراعاة الحقوق والواجبات، والحديث المذكور ورد في بحار الأنوار وجامع الأخبار وفي كتب أهل السنة صحيح البخارى و مسند أحمد ومصادر أخرى).

[٤٥] (١). سورة النور، الآية ٣٣.

[٤٦] (٢). شرح نهج البلاغة العلامة التستري، ج ٨، ص ٧.

[٤٧] (١). انظر: الكافي، ج ٨، ص ١٦٧، ح ١٨٧.

[٤٨] (٢). بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ٤٢٠ ولمزيد التوضيح في ترجمته الأشعث راجع الجزء الأول من هذا الكتاب، ذيل الخطبة ١٩.

[٤٩] (١). انظر إلى كتاب تاريخ يعقوبى، ج ٢، ص ٢٣٣ و تاريخ الطبرى فى حوادث سنة ٢٢ و كذلك معجم البلدان الحموى، ج ١، ص ١٢٨ وفتوح البلدان للبلاذرى، ج ٢، ص ٤٠٠.

[٧٠] (١). سند الرسالة: تمثل هذه الرسالة مقطوعاً من رسالة مطوَّلة أرسلها الإمام عليه السلام لمعاوية وبعثها مع «جرير بن عبد الله البجلي» وفي جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيد الرضى، نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة، وابن عبد ربه فى العقد الفريد. مضافاً أن الطبرى فى تاريخه ينقل هذه الرسالة ويذكر قصة مفصلة عنها فى الجزء الثالث من تاريخه فى حوادث سنة ٣٦. وابن عساکر فى تاريخ مدينة دمشق فى شرح حال معاوية (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٠٩).

[٧١] (١). «تجننى» فى الأصل من ال «جناية»، وإذا كانت من باب تفعل فإنها تعنى أن شخصاً يريد أن يلقى بالجريمة على الآخر فى حين أن ذلك الشخص لم يرتكبها وهذا هو معنى التهمة.

[٧٢] (٢). «تجنن» هذه المفردة فعل أمر من «تجننى» كما سبق ذكره ومفهوم الجملة أنك يا معاوية تعلم بأن انتساب قتل عثمان إلى مجرد تهمة فإذا كان الأمر كذلك فقل ما شئت وتحدّث بما بدا لك.

[٧٣] (١). ولمزيد من هذه الأدلة القرآنية والروائية والعقلية راجع نضحات القرآن، ج ٩.

[٧٤] (١). سورة الأنعام، الآيتان ٧٧ و ٧٨.

[٧٥] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٤، ص ٣٦ و ٣٧.

[٧٦] (١). سند الرسالة: من جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيد الرضى ابن أعثم الكوفى فى كتاب الفتوح والمبرد فى الكامل ونصر بن مزاحم فى كتاب صفين، هؤلاء نقلوا الرسالة مورد البحث بتفاوت يسير، وهذه الرسالة فى الحقيقة رسالة جوابية أرسلها الإمام عليه السلام إلى معاوية جواباً على رسالته المليئة بالعبارات الوقحة والكلمات المنكرة فى أثناء معركة صفين، بل كتبها فى آواخر هذه الحرب (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢١١).

[٧٧] (٢). سيأتى ذكر رسالة معاوية فى نهاية هذا البحث.

[٧٨] (١) سورة الزمر، الآية ٤٥.

[٧٩] (٢) «موصلة» تعنى أمور متنافرة وغير مرتبطة تم جمعها فى مورد واحد، وهى من مادة «وصل» أى ربط.

[٨٠] (٣) «محبرة» وتعنى تزيين الشىء من مادة «حبر» على وزن «ابر» وتعنى بفتح الأول التزين و«حبر» بكسر الأول تعنى الجمال.

[٨١] (٤) «نمق» من «التميق» بمعنى التزيين؛ ولكن الثلاثى لها «نمق» على وزن «نقد» تعنى الكتابة، وعندما تأتى من باب التفعيل تعنى التزيين.

[٨٢] (١) «أمضيت» من «الإمضاء» وتعنى الإرسال والإجراء والتنفيذ لشىء، وبما أن إمضاء السند أو الوثيقة يعتبر نوعاً من إنفاذها وإجرائها، فهذه المفردة تطلق على هذا العمل.

[٨٣] (٢) «هجر» من مادة «هجر» على وزن «زجر» وتعنى الهديان.

[٨٤] (٣) «لاغط» من مادة «لغط» على وزن «وقت» بمعنى إثارة الفوضى واللغو والشغب.

[٨٥] (٤) «خابط» من مادة «خبط» على وزن «وقت» وتعنى المتحير والسائر بدون هدف معين.

[٨٦] (١) «النظر» تعنى هنا التأمل والتدبر، يعنى أن البيعة بعد انعقادها غير قابلة للتأمل والتشويه (هذا فى صورة أن تكون «فى» متعدية).

[٨٧] (٢) «مرؤى» الشخص الذى يشك ويتردد فى أمر ويفكر ويتأمل فيه وهى من «التروية»، وتأتى أحياناً بمعنى شرب الماء وإزالة الظما، وأخرى بمعنى المطالعة والتأمل فى شىء.

[٨٨] (٣) «مداهن» تعنى المتملق والمنافق والمتزلف.

[٨٩] (١) مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢١١ ونقل ابن أبى الحديد هذه الرسالة أيضاً مع اختلاف يسير فى: ج ١٤، ص ٤٢.

[٩٠] (١) سورة الحجرات، الآية ٩.

[٩١] (١) سورة غافر، الآية ٢٦.

[٩٢] (١) سند الرسالة:

من الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيد الرضى، نصر بن مزاحم فى كتاب صفين وابن عبد ربه فى كتاب العقد الفريد) مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢١١.

[٩٣] (١) «الفصل» فى الأصل بمعنى الفرقة والانفصال، ويطلع على الحكم القطعى الذى يصدر من القاضى وغير القاضى، لأنه يفصل بين المتخاصمين ويميز المسائل المشتبه بها.

[٩٤] (٢) «مجليزية» من «الإجلاء» بمعنى إخراج من الوطن وأصله من «جلاء» بمعنى الوضوح والظهور، ولذلك يطلق على الخروج من المدينة وكأن الشخص كان مختلفياً فيها ومع خروجه يظهر ويبرز إلى العيان، و«الجلاء» بمعنى تلميع الشىء وصقله، وكذلك نوع من ظهور اللون الحقيقى المستور تحت الصدأ.

[٩٥] (١) «مخزية» من مادة «خزى» من باب افعال و«الخزى» تعنى الفضيحة والذلة، ولعل أصلها من الفضيحة التى تسبب الذلة، وذهب جماعة من أرباب اللغة إلى أن جذره الأصلى سوء حال النتائج من وقوع البلاء والفضيحة والذلة.

[٩٦] (٢) «فانبد» من مادة «نبد» على وزن «نصر» فى الأصل بمعنى القاء الشىء بعيداً لعدم اعتباره أو لكونه غير ذى قيمة، وأحياناً تأتى بمعنى الاعلام وكأن المتكلم يطرح الكلمات إلى الطرف المقابل سواء كان هذا امضاء لعهد أو اعلاناً لحرب أو شيئاً آخر، وفى الجملة أعلاه ورد بمعنى إعلان الحرب.

[٩٧] (١) سند الرسالة:

يقول مؤلف كتاب مصادر نهج البلاغة بعد بيان كيفية كتابة هذه الرسالة، هذه القصة مشهورة فى كتاب صفين لنصر بن مزاحم، وأما ما ذكره السيد الرضى فيمثل قسماً ختامياً للرسالة، ثم أضاف: وقد نقل هذه الرسالة كتاب آخرون أيضاً فى كتبهم، ومنهم:

١. ابن عبد ربه فى العقد الفريد.
٢. البلاذرى فى كتاب انساب الأشراف.
٣. الشيخ المفيد فى كتاب الفصول المختارة وقد أورد مقطعاً منها.
٤. الخطيب الخوارزمى فى كتاب المناقب (والجدير بالذكر أن الثلاثة المتقدمين كانوا يعيشون قبل السيد الرضى) (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢١٧).
- [٩٨] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ٧٣ إلى ٧٥.
- [٩٩] (١). «اجتياح» تعنى الإهلاك، وهدم وتخریب، وأصلها من «جوح» على وزن «قوم» وتأتى بهذا المعنى المذكور.
- [١٠٠] (٢). «هموم» جمع «هم» بمعنى الأحران، وأشكال القلق والاضطراب، التخطيط والتدبير، وهنا وردت بمعنى التآمر من قبل قريش ضد النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وهو يفضى إلى الغم والحزن الشديد، وأصل هذه المفردة بمعنى القصد، وبما أن القصد فى كثير من الموارد يقترن بالقلق والحزن، فجاء بمعنى القلق والحزن أيضاً.
- [١٠١] (١). «الأفاعيل» جمع «أفعال» وهو جمع «فعل»، وفى هذه الموارد وردت بمعنى الأعمال الكبيرة وأشكال التآمر والدسيسة.
- [١٠٢] (٢). «العذب» بمعنى الرواء الهنىء، وتارة يقصد به البعد الظاهرى، والبعد الباطن والمعنوى.
- [١٠٣] (٣). «احلسونا» أصلها «حلس» على وزن «حرص» وتعنى القماش الناعم الذى يوضع تحت أقتاب الإبل، وفى الحقيقة يلتصق ببدن الإبل، ثم اطلق على كل شىء يلازم شيئاً آخر، مثلاً، يقال: فلان جلس البيت؛ يعنى أنه لا يخرج من بيته، والجملة أعلاه «أحلسونا الخَوْفَ» تعنى أن الأعداء فرضوا علينا حالات الخوف والرعب الدائم.
- [١٠٤] (٤). «وعر» الأرض الصعبة والملينة بالأحجار وغير المعبدة.
- [١٠٥] (٥). «اوقدوا» أصلها من «الإيقاد» بمعنى اشعال النار وهى من «الوقود» بمعنى إشعال الشىء.
- [١٠٦] (٦). خلافاً لما يتوهم البعض من أن شعب أبى طالب هو محل قبر أبى طالب الذى يقع الآن على مقربة من جسر الحجون، لأنه تفصله فاصلة كبيرة مع المسجد الحرام والكعبة، وشعب أبى طالب كان وادياً إلى جانب جبل أبى قبيس، ولذلك ورد فى التواريخ أن صوت بكاء أطفال المسلمين من شدة جوع والآلام الأخرى كان يسمع ليلاً فى المسجد الحرام من ذلك الوادى.
- [١٠٧] (١). «ذب» بمعنى دفع وأبعد ودافع.
- [١٠٨] (١). منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة، ج ١٧، ص ٣٦٥.
- [١٠٩] (١). «خلو» بمعنى خواء الشىء وكونه عارياً.
- [١١٠] (١). «البأس» فى الأصل بمعنى الشدة والقوة والقدرة، وتأتى بمعنى المشكلات الكبيرة والحرب، وجملة «لا بأس به» أى «لا مشكلة فيه» وجملة أعلاه «احمرّ البأس» إشارة إلى شدة ضراوة الحرب.
- [١١١] (٢). «أحجم» أصلها من «حجم» على وزن «رجم» بمعنى الامتناع عن عمل معين، وجملة «أحجم الناس» بمعنى أنهم امتنعوا من الدخول إلى ميدان الحرب.
- [١١٢] (١). «أسنة» جمع «سنان» بمعنى رأس الرمح.
- [١١٣] (١). نهج البلاغة، الخطبة ٥.
- [١١٤] (٢). المصدر السابق، الخطبة ١٥٦.
- [١١٥] (١). «لا يدلى» من «الإدلاء» وتعنى الاظهار والاعلان، ويقال: «أدلى برأيه» يعنى أظهر رأيه، وهى فى الأصل من مادة «دلو»، وعندما تأتى من باب الإفعال تكون بمعنى ارسال الدلو إلى البئر لسحب الماء، ثم اطلقت على أى اظهار للرأى.
- [١١٦] (١). «يسعنى» من «الوسع» بمعنى القدرة على عمل معين، وإمكانية العمل.

- [١١٧] (١). ترجمه شرح نهج البلاغه ابن ميثم، ج ٤، ص ٦٢٨، ومثل هذه الرواية وردت بتفاوت يسير في كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي، ج ٣، ص ٦١، ونقلنا عن أبي مسلم الخولاني مثله.
- [١١٨] (٢). «غَيَّ» و«غَوَايَه» بمعنى ضلال وإضلال بمعنى الوقوع في المتاهة.
- [١١٩] (٣). «شفاق» بمعنى الفرقة والنفاق وعدم الانسجام، وهي بالأصل الشق وانفصال الجانبين في الشيء.
- [١٢٠] (٤). «زور» تارة تأتي بمعناها المصدرى وتعني اللقاء والملاقاة، وأحياناً تأتي بمعنى الزائر، وفي الجملة وردت بالمعنى الأول.
- [١٢١] (٥). «لقيان» و«لقاء» مصدر بمعنى الملاقاة.
- [١٢٢] (١). صفين، ص ٣١٩.
- [١٢٣] (١). انساب الأشراف البلاذري، ج ٥، ص ٥٧؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١١٣؛ العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٥٨ و ٢٦١ و ٢٧٢.
- [١٢٤] (١). النهاية لابن الأثير الجزري، ج ٥، ص ٨٠ و شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٧٧ و ج ٦، ص ٢١٥.
- [١٢٥] (١). تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١١٨ وما بعدها و كامل لابن الأثير، ج ٣، ص ٧٠ وما بعدها. لتحقيق أكثر انظر إلى كتاب فروغ ولاية عن الاستاذ جعفر السبحاني، ص ٣٢٧-٣٣٥ و شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ١٢٩ تا ١٥٨، ذيل الخطبة ٣٠.
- [١٢٦] (١). سند الرسالة:
- نقل هذه الرسالة نصر بن مزاحم في كتاب صفين قبل السيد الرضوي، وبعد السيد الرضوي ذكرها ابن عساكر في كتاب تاريخ دمشق في شرح حال معاوية، وما ذكره السيد الرضوي في نهج البلاغه لا يمثل جميع هذه الرسالة، فالرسالة تبتدىء بمقدمه وردت في كتاب مصادر نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٢٠).
- والرسالة المذكورة لها خاتمة وردت في كتاب نهج البلاغه الكامل.
- [١٢٧] (١). «جلايب» جمع «جلباب» على وزن «مفتاح» وهذه المفردة ترد بكسر الجيم وفتحها وتعني العباءة، قطعة القماش التي تغطي جميع البدن، وتطلق على الثوب الواسع والطويل).
- [١٢٨] (١). «تبّهجت» من مادة «بهج» و«بهجة» بمعنى الجمال والطراوة، و«التبّهج» بمعنى الشعور بالفرح بسبب رؤية الجمال.
- [١٢٩] (٢). «يوشك» من مادة «وشك» على وزن «كبت» تعني الإسراع في المشي، وعليه فإن كلمة «يوشك» تدلّ على أنّ الأمر الفلاني سرعان ما يتحقق (والصحيح «يوشك» بكسر الشين، وتارة تأتي بفتحها).
- [١٣٠] (٣). «مجّن» بمعنى الدرع.
- [١٣١] (٤). «أقعس» صيغة أمر من مادة «قعس» على وزن «نفس» وفي الأصل بمعنى بروز الصدر إلى الأمام وانبعاج الظهر، ثم اطلقت على كل تكاسل واهمال في عمل معين، وجاءت في العبارة أعلاه بهذا المعنى، يعني: يجب عليك يا معاوية أن تتراجع عن الخلافة.
- [١٣٢] (٥). «أهبة» بمعنى تهيئة وسائل العمل.
- [١٣٣] (٦). «شمر» من ال «تشمير» وأصلها من «شمر» على وزن «تمر» بمعنى جمع الأمور وقطف الثمار والاستعداد لقدم قادم، وتعني في التهيؤ لأداء عمل معين.
- [١٣٤] (٧). «غواة» جمع «غاوى» المضل.
- [١٣٥] (١). «مترف» هو الشخص الذي يملك نعماً ومواهب كثيرة، وبما أنّ ذلك قد يسبب غالباً الطغيان فالمترفين هم الأشخاص الأثرياء الذين يعيشون حالة الطغيان والتمرد.
- [١٣٦] (١). «باسق» بمعنى المرتفع من «السوق» على وزن «طلوع».
- [١٣٧] (١). «غزة» بمعنى الغفلة والجهل وعدم الاطلاع والغرور.
- [١٣٨] (٢). «الامتيّة» بمعنى الأمل، وأصلها «منى» على وزن «رمى» بمعنى التقدير والفرض ويطلق على الآمال تمنى والامنيّة بسبب أنّ

الإنسان يقدر لنفسه الكثير من الأمور فى عالم الخيال ويتعلق بها قلبه، ومفردة امنية تأتي غالباً فى موارد الطموحات والأمال البعيدة والتي لا تتحقق فى الواقع العملى.

[١٣٩] (١). الكافى، ج ٢، ص ٣٣٥، ح ٣.

[١٤٠] (١). ومن النقاط التاريخية الملفتة للنظر ما وقع نظير هذه القصة عن بسر بن ارطاء الذى يعتبر من شجعان العرب، فينقل ابن عبد البر فى كتابه الاستيعاب (ج ١، ص ١٦٤) أن بسر كان حاضراً مع معاوية فى صفين، فشجعه معاوية على قتال أمير المؤمنين وقال: «كان بسر من الأبطال الطغاة وكان مع معاوية بصيفين، فأمره أن يلقى علياً عليه السلام فى القتال، وقال له: إني سمعتك تتمنى لقاءه، فلو أظفرك الله به وصرعته حصلت على الدنيا والآخرة، ولم يزل يشجعه ويمنيه حتى رأى علياً عليه السلام فى الحرب، فقصدته والتقيا فصرعه عليّ عليه السلام، وعرض له معه مثل ما عرض له مع عمرو بن العاص فى كشف السوأة» (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٦، ص ٣١٦ و ٣١٧).

[١٤١] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ٨٤-٨٥.

[١٤٢] (١). «ثائر» بمعنى المطالب بدم المقتول، وهى من مادة «ثار» على وزن «سأل»، وعندما تطلق هذه الكلمة على بعض المعصومين عليهم السلام، «يا ثارالله» يعنى الشخص الذى ينتقم لله لا لفرد معين أو قبيلة.

[١٤٣] (١). «عضّ» من «العضّ» بمعنى الامساک بالأسنان.

[١٤٤] (٢). «جمال» جمع «جمل» بمعنى الإبل؛ مثل «جبال» جمع «جبل».

[١٤٥] (٣). «حائده» بمعنى المائلة عن الطريق المستقيم من مادة «حيد» على وزن «صيد» أى الميل إلى إحدى الجهات، وهذه المفردة تأتي بمعنى نقض البيعة.

[١٤٦] (١). «هرير» فى اللغة بمعنى عواء الكلب عند التألم، وهذا إشارة إلى أنين أهل الشام وصرائحهم فى تلك الليلة.

[١٤٧] (٢). انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٢٠٥-٢٥٦.

[١٤٨] (١). سند الرسالة:

لقد أورد هذه الرسالة نصر بن مزاحم الذى كان يعيش ٢٠٠ سنة قبل السيد الرضى فى كتابه صفين، والحسن ابن شعبة الحراني فى تحف العقول والدينورى فى كتاب الاخبار الطوال. وابن ميثم البحراني الذى يعدّ أحد شراح نهج البلاغة أورد هذه الرسالة مع إضافات مهمّة وهذا يشير إلى وجود مصادر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٢٤).

وصرح صاحب المصادر إلى أن هذه الرسالة تمثل قسماً من رسالة مطوّلة أرسلها الإمام عليه السلام إلى زياد بن النضر الحرثي وشريح بن هانيء من قواد جيش الإمام عليّ عليه السلام. وقد وردت هذه الرسالة أيضاً فى كتاب نهج البلاغة الكامل برقم ١ من رسائل الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فى ص ٩٤٥.

[١٤٩] (١). «أشراف» جمع «شرف» على وزن «هدف» بمعنى المكان المرتفع والتعبير بـ «قبل الأشراف» يعنى أمام المرتفعات.

[١٥٠] (٢). «سفاح» فى الأصل معنى انهيار الماء وجريانه، ثم اطلق على جانب الجبل، لأنّ الماء ينهمر منه، وتأتى هذه المفردة كناية عن الزنا.

[١٥١] (٣). «اثناء» جمع «ثنى» على وزن «صنف» بمعنى الملتوى والمطاوى، وهذه المفردة «اثناء» تأتي بمعنى وسط الشيء.

[١٥٢] (١). «ردء» بمعنى المعين والنصير.

[١٥٣] (٢). «مردّ» تأتي تارة بمعنى المانع وأخرى بمعنى محل العودة، فى الجملة أعلاه كما ذكرنا فى الشرح، تأتي بكلا المعنيين.

[١٥٤] (١). «صياصى» جمع «صيصية» أو «صيصة» وهو فى الأصل بمعنى المشط الذى يستخدمه الحائك لتعديل وتنظيم القماش، أو الظفر الزائد فى أقدام بعض الطيور، ثم اطلق على القلاع المحكّمة على قمم الجبال وكذلك تطلق على قمة الجبل، وفى العبارة أعلاه

وردت بمعنى الأخير.

[١٥٥] (٢). «مناكب» جمع «منكب» على وزن «مغرب» بمعنى الأكتاف، بالنظر إلى أن الهضاب جمع هَضَبَةٌ (على وزن عَقَبِيَّة) تأتي بمعنى الجبال المسطحة التي تفتقد القمم، فإنّ «مناكب الهضاب» تعنى الأقسام العليا من هذه التلال المرتفعة والتي هي بمثابة الأكتاف للجبل.

[١٥٦] (١). «كفة» جمعها «كفاف» بمعنى الشيء المدور، وكفّة الميزان يراد بها هذا المعنى أيضاً حيث تكون بشكل دائري.

[١٥٧] (١). سند الرسالة:

جاء فى كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ الحرب بين الإمام عليه السلام وأهل الشام عندما وصلت إلى المدائن أرسل الإمام على عليه السلام معقل بن قيس الرياحى مع ثلاثة آلاف مقاتل كمقدمة للجيش باتجاه الشام وأوصاه بوصايا عدّة اختار منها الشريف الرضى بعضها، والبعض الآخر ذكره نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، ولا شك أنّ السيد الرضى نقل هذه الوصية من مصدر آخر غير كتاب صفين لنصر بن مزاحم. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٢٦).

ثم أضاف: إنّ المرحوم ابن ميثم فى شرحه لنهج البلاغة نقل إضافات لما أورده السيد الرضى، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر غير نهج البلاغة للشريف الرضى (شرح نهج البلاغة لابن ميثم، ج ٤، ص ٣٨٠٩).
والعجب أنّ كتاب نهج البلاغة الكامل أورد كلمتين إضافيتين فقط على ما ذكره السيد الرضى فى نهاية هذه الوصية (نهج البلاغة الكامل، ص ٧٤٤).

[١٥٨] (١). سورة البقرة، الآية ٢٢٣.

[١٥٩] (٢). سورة النجم، الآية ٤٢.

[١٦٠] (١). سورة الانفال، الآية ٦١.

[١٦١] (٢). «بردين» تشبيه «برد» بمعنى البرودة ضد الحر، وهذا إشارة إلى الصبح والعصر حيث يبرد الهواء نسيباً وتنخفض درجة الحرارة.

[١٦٢] (٣). «غور» من مادة «غور» على وزن «قول» وردت فى المصادر اللغوية بمعنيين، الأول، النوم فى منتصف النهار والذى يعبر عنه بالقيلول، والثانى، التوغل إلى باطن الشيء وعمقه، وفى الجملة يراد بها الأول، وأحياناً يقصد بهذه المفردة الحملة والهجوم والإغارة أيضاً.

[١٦٣] (٤). «رفه» من «الترفيه» و«رفوه» بمعنى الراحة والهدوء فى الحياة، والرفاه يرد أيضاً كأحد المصادر لهذه المفردة.

[١٦٤] (١). «ينبطح» من مادة «بطح» على وزن «فتح» بمعنى الامتداد والتوسع، وجملة «يَنْبَطِحُ السَّيْحَرُ» يعنى امتداد السحر وظهور علاماته، وهذه المفردة تأتي أحياناً بمعنى الاضطجاع على الأرض.

[١٦٥] (٢). سورة الأنعام، الآية ٩٦.

[١٦٦] (٣). سورة آل عمران، الآية ١٧.

[١٦٧] (١). «ينشب» من «النشوب» على وزن «سجود» بمعنى المواجهة والتدخل فى عمل الشيء، وأحياناً تأتي بمعنى بدء اشتعال نار الحرب، و«انشاب» من باب إفعال بمعنى غرز المخالب فى بدن الطرف المقابل، وأحياناً تأتي بمعنى إشعال نار الحرب.

[١٦٨] (٢). «شنان» مصدر بمعنى الخصومة والعداوة.

[١٦٩] (١). «اعذار» بمعنى اتمام الحجة وايجاد طريق الاعتذار على الطرف المقابل.

[١٧٠] (١). سند الرسالة:

وردت هذه الرسالة فى تاريخ الطبرى (ج ٣، ص ٥٦٤) وفى كتاب صفين لنصر بن مزاحم ص ١٥٣.

وأورد صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ هذين المؤرخين كانا يعيشان قبل السيد الرضى، وجاء فى تاريخ الطبرى أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة لزياد بن النضر وشريح بن هانىء من قادة مقدّمه جيشه عندما كانا يتوجّهان إلى صفّين، وعندما اقتربا من جيش معاوية التقياً بأحد أفراد جيشه ويدعى أبو الأعور السلمى ودعاياه للالتحاق بجيش الإمام على عليه السلام والطاعة له، ولكنّه لم يقبل بذلك، فوصل خبر هذا اللقاء إلى الإمام عليه السلام فأرسل الإمام مالك الأشتر وجعله قائداً للجيش ومعه هذه الرسالة إليهما.

[١٧١] (١). «حيز» تعنى المكان والناحية، وهى من مادة «الحيارة» بمعنى تملك الشىء والاستيلاء عليه وإحراز الأولوية فى التصرف به.

[١٧٢] (٢). «مجنّ» بمعنى الدرع، من مادة «جنّ» على وزن «فن» بمعنى التغطية.

[١٧٣] (٣). «سقطه» بمعنى الانحراف والسقوط.

[١٧٤] (٤). «احزم» من مادة «حزم» على وزن «نظم» بمعنى تحكيم العمل واتقانه.

[١٧٥] (٥). «امثل» بمعنى أفضل.

[١٧٦] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ١٠٠ (مع تلخيص).

[١٧٧] (١). الاستيعاب، ج ٢، ص ٧٢.

[١٧٨] (٢). تاريخ الإسلام الذهبى، ج ٥، ص ٤٢٣.

[١٧٩] (٣). مستدركات علم رجال الحديث، ج ٣، ص ٤٥٥.

[١٨٠] (١). سند الرسالة:

صرّح صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ هذه الرسالة نقلت عن الإمام عليه السلام بالتواتر، فقد تحدّث الإمام عليه السلام عدّة مرات بهذه التوصيات لأصحابه وأنصاره، ومن المؤرخين الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيد الرضى، الطبرى فى تاريخه المعروف فى سنة ٣٧ عن عبد الرحمن بن جندب عن أبيه بأنّ الإمام على عليه السلام كان يوصى أنصاره بهذه التوصيات فى كل مواجهة وقتال مع الأعداء، وكذلك نقلها نصر بن مزاحم فى كتاب صفين بهذا المضمون، وذكرها المرحوم الكلينى أيضاً فى كتاب فروع الكافى فى كتاب الجهاد من الراوى نفسه (عبد الرحمن بن جندب عن أبيه)، وكذلك نقلها المسعودى فى مروج الذهب وابن أعثم الكوفى فى كتاب الفتوح؛ ثم أضاف مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ كل هؤلاء الرواة كانوا يعيشون قبل السيد الرضى فلا نحتاج لذكر أسماء الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة عن الإمام عليه السلام بعد السيد الرضى (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢١٧).

[١٨١] (١). بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٣١٣.

[١٨٢] (١). سورة المائدة، الآية ٣٣.

[١٨٣] (٢). سورة البقرة، الآية ١٩٤.

[١٨٤] (٣). «معور» فى الأصل من مادة «عار» و«عور» على وزن «غور» بمعنى العيب والنقص، ثم اطلقت على المناطق الضعيفة والنقاط القابلة للنقص، والمعور: الشخص الذى لا يستطيع الدفاع عن نفسه ويتعرّض للضرر فى مقابل هجوم مخالفه، وسميت الآلة التناسلية بالعورة لأنّ اظهارها يورث العيب والعار لصاحبها.

[١٨٥] (١). «لا تُجهرُوا» من «الإجهاز» بمعنى التسريع وقتل المجروحين وإنهاء حياتهم، وهذا يشبه ما يطلق عليه حالياً برصاصة الرحمة.

[١٨٦] (٢). الكافى، ج ٥، ص ٣٣، ح ٢.

[١٨٧] (١). «فهر» بمعنى قطعة من الحجر الصافى والأملس بمقدار قبضة اليد، و«فهر» على وزن «شعر» تطلق على الأحجار التى تطحن بها الأدوية.

[١٨٨] (٢). «هراوة» بمعنى قطعة من الخشب كالعصا الغليظة.

- [١٨٩] (٣). «عقب» الولد سواء كان ذكراً أم انثى.
- [١٩٠] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٠٥.
- [١٩١] (١). الكافي، ج ٥، ص ٥٠٥، ح ٤.
- [١٩٢] (٢). وسائل الشيعة، باب ٨٩ من أبواب مقدمات النكاح، ح ٢.
- [١٩٣] (٣). الكافي، ج ٥، ص ٣٢٣، ح ٣ باب أصناف النساء.
- [١٩٤] (١). شرح نهج البلاغة العلامة التستري، ج ١٣، ص ٥١٤.
- [١٩٥] (١). سند الدعاء: هذا الدعاء ورد في عدة مصادر معروفة قبل المرحوم السيد الرضى، ومنها كتاب صفين لنصر بن مزاحم حيث نقله بأربعة أسانيد عن الإمام على عليه السلام وفيه اضافات معتبرة أكثر مما أورده السيد الرضى.
- وقد ذكر المرحوم الشيخ المفيد أيضاً فى كتاب النصره وقال: إن الإمام عليه السلام دعا بهذا الدعاء يوم الجمل.
- وفى كتاب صفين لعبد العزيز بن يحيى الجلودى أيضاً طبقاً لنقل المرحوم العلامة المجلسى. (والسيد ابن طاووس فى مهج الدعوات). أن الروايات أعلاه تشير أحياناً إلى أن هذا الدعاء ورد فى معركة الجمل وأحياناً أخرى فى معركة صفين ويوم الهرير، ويستفاد من بعضها أن الإمام عليه السلام كان عندما يريد الورود إلى ميدان القتال فى كل مرة يقرأ هذا الدعاء (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٢٠).
- [١٩٦] (١). «أفضت» من «الإفضاء» و«فضاء» بمعنى الوصول إلى الشىء، وكأنه ورد فى دائرة فضائه وأجوائه.
- [١٩٧] (٢). «شخصت» من «الشخوص» بمعنى تحديق العين بالشىء بحيث أن سواد العين ثابت والجفن لا يتحرك.
- [١٩٨] (٣). «أنضيت» من «الإنضاء» بمعنى إضعاف بدن الإنسان أو الحيوان وجعله نحيفاً، وتأتى بمعنى الاستنزاف والاستهلاك والإساءة أيضاً.
- [١٩٩] (١). سورة التوبة، الآيتان ١٢٠ و ١٢١.
- [٢٠٠] (٢). «جاشت» من مادة «جيش» على وزن «عيش» بمعنى الغليان، وهذا المفردة تطلق على الغليان الظاهرى للأشياء وكذلك الغليان المعنوى والباطنى، مثل غليان الغم والحزن فى داخل الصدور.
- [٢٠١] (٣). «مراجل» جمع «مرجل» على وزن «منبر» بمعنى القدور.
- [٢٠٢] (٤). «أضغان» جمع «ضغن» وهو الحقد.
- [٢٠٣] (١). «افتح» من مادة «فتح» تأتى أحياناً بمعنى النصر وأخرى بمعنى فتح الباب أو القفل، وثالثة بمعنى التحكيم، وكلها تشترك بنوع من فتح الشىء المغلق.
- [٢٠٤] (٢). سورة الأعراف، الآية ٨٩.
- [٢٠٥] (١). سند الرسالة:
- هذا الكلام فى الحقيقة يمثّل مقطعاً من كلام الإمام عليه السلام لأصحابه فى أحد أيام معركة صفين، ويستفاد من كلام ابن أبى الحديد أنه استمرار للخطبة ٦٢ وفقاً للترقيم الوارد فى نهج البلاغة لصبحى الصالح الخطبة (٦٤). وعلى أية حال فمن جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الخطبة قبل السيد الرضى المرحوم الشيخ الكلينى فى كتاب الكافي، كتاب الجهاد فى عدة عبارات، وذكر نصر بن مزاحم أيضاً فى كتاب صفين مقطعاً منه، والعجب أن الوارد فى كتاب نهج البلاغة الكامل مقطع من هذا الكلام لا كله، (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٣٢).
- [٢٠٦] (١). «فرّة» وتعنى المرّة من الفرار.
- [٢٠٧] (٢). «كزّة» بمعنى المرّة من العودة الهجوم على العدو، ومن هنا سُمى الإمام على عليه السلام بالكزّار لأنه كان يكثر من العودة

إلى العدو والهجوم عليه.

[٢٠٨] (٣). «جولة» بمعنى الدوران فى الميدان والتحرك من هذه الجهة إلى تلك. (وهذه المفردة تأتي بمعنى المصدر واسم المصدر أيضاً، وذهب بعض إلى أنّ «جولة» تعنى الفرار لمدة قصيرة، ولكن مع الالتفات إلى سياق كلام أمير المؤمنين عليه السلام أعلاه فإنّ هذا المعنى مستبعد.

[٢٠٩] (١). «مصارع» جمع «مصرع» بمعنى محل سقوط الشخص.

[٢١٠] (١). «اذمروا» فعل أمر من مادة «ذمر» على وزن «أمر» بمعنى التثوير وتهيج النفس على فعل معين.

[٢١١] (٢). «الطغن» بمعنى ادخال الرمح فى بدن العدو، وهذه المفردة تأتي كناية أيضاً ويراد بها إبراز عيوب الشخص والتنقيص من شخصيته.

[٢١٢] (٣). «دعسى» من مادة «دعس» على وزن «درس» بمعنى إملاء، وتأتى أحياناً بمعنى التأثير، وهذا المفردة عندما تأتي بمعنى إدخال الرمح فى بدن العدو وكأنّ الرمح قد ملأ جوف العدو وأثر فى بدنه.

[٢١٣] (٤). «طلحف» بمعنى الشديد.

[٢١٤] (١). بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٢٥٢.

[٢١٥] (١). «نسمة» بمعنى الإنسان أحياناً تأتي بمعنى الروح، وأخرى تطلق على كل موجود ذى روح، وأصلها من النسيم وهو الريح الخفيفة والناعمة.

[٢١٦] (١). سورة النساء، الآية ٢٩.

[٢١٧] (٢). صحيح مسلم، ج ٦، ص ١٨.

[٢١٨] (٣). تاريخ الطبرى، ج ٨، ص ١٨٥، مطبعة مؤسسة الأعلمى، بيروت.

[٢١٩] (١). تاريخ الطبرى، ج ٨، ص ١٨٦، مطبعة مؤسسة الأعلمى، بيروت.

[٢٢٠] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٠، ص ١٠١.

[٢٢١] (٣). مسند أحمد، ج ٥، ص ٣٤٧.

[٢٢٢] (٤). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٥، ص ١٢٩.

[٢٢٣] (١). العقد الفريد، ج ٥، ص ٨٧.

[٢٢٤] (٢). كامل التواريخ، ج ٣، ص ٤٨٧.

[٢٢٥] (٣). المحاسن والمساوىء، ص ٤٣ طبعة بيروت (مطابق نقل شرح إحقاق الحق، ج ١٥، ص ٦٢).

[٢٢٦] (١). الموقفيات، ص ٥٧٦، طبعة وزارة الأوقاف بغداد، سنة ١٣٩٢؛ مروج الذهب، ج ٢، ص ٤٢٩، طبعة بيروت، سنة ١٩٨٢؛

شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٥، ص ١٢٩.

[٢٢٧] (١). وقعة صفين، ص ٤٧٢.

[٢٢٨] (١). سند الرسالة:

يقول صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة: ذكر هذه الرسالة جماعة من المؤرخين قبل السيد الرضى فى كتبهم، منهم: نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، البيهقى فى المحاسن والمساوىء، ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة، المسعودى فى مروج الذهب وابن اعثم الكوفى فى كتاب الفتوح، وطبقاً لما ذكره نصر بن مزاحم أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة قبل ليلة الهرير بيومين أو ثلاثة أيام (وليلة الهرير هى الليلة الأخيرة من معركة صفين حيث استمر القتال وخلافاً للمعتاد حتى الليل واستمرت الحرب بين الطرفين إلى الصباح من يوم غد وظهرت علامت الهزيمة على جيش معاوية) (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٣٤).

- [٢٢٩] (١). مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٣٨.
- [٢٣٠] (٢). انظر إلى كتاب نهج البلاغة الكامل، ص ٨٥٢.
- [٢٣١] (١). طبقاً لبعض الروايات أن عدد القتلى في حرب صفين من جيش معاوية ٤٥ ألفاً، ومن جيش الإمام عليه السلام ٢٥ ألفاً.
- [٢٣٢] (٢). «حُشاشات» جمع «حشاشة» بمعنى النفس الأخير.
- [٢٣٣] (١). «امضى» بمعنى شدة التأثر والنفود في الإقدام والعمل وهي من «المضى» بمعنى العبور والمرور.
- [٢٣٤] (١). «طليق» بمعنى الأسير المتحرر من «الطلاق» بمعنى التحرر والإنفلات.
- [٢٣٥] (٢). «صريح» تطلق على الشخص الذي يملك نسباً خالصاً وواضحاً.
- [٢٣٦] (٣). «لصيق» يقع على الضد من صريح، ويعني الشخص غير واضح النسب والذي ينسب لشخص أو قبيلة ويلتصق به.
- [٢٣٧] (١). انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١١٨.
- [٢٣٨] (٢). «مُدغل» بمعنى المفسد والمثير للفتنة من مادة «دغل» بمعنى الفتنة والفساد.
- [٢٣٩] (٣). «هوى» من «هُوِيّ» بضم الهاء وتشديد الياء، وهي في الأصل السقوط من مرتفع، وبما أن نتيجته الهلكة والموت، فلذلك تطلق هذه المفردة على الهلكة أيضاً.
- [٢٤٠] (١). «نعشنا» من مادة «نعش» بمعنى رفع الشيء، ويقال للتابوت نعش الميت لأنه مرتفع عن الأرض أو أنه مرفوع على الأيدي، والمراد من الجملة أعلاه أن الأشخاص الذين يعيشون الذلة والمهانة أضحووا بالإسلام وفي ظل الإيمان أعزاء.
- [٢٤١] (١). سورة النصر، الآيات ١-٣.
- [٢٤٢] (١). سورة التوبة، الآية ١٠٠.
- [٢٤٣] (١). الجدير بالذكر أن القراءة المشهورة أن تقرأ كلمة الأنصار بالكسر لأنها عطف على المهاجرين لا بالضمه على أساس أنها عطف على السابقين.
- [٢٤٤] (١). سورة التوبة، الآية ١٠٠.
- [٢٤٥] (٢). سورة الجمعة، الآية ٣.
- [٢٤٦] (٣). سورة الحشر، الآية ١٠.
- [٢٤٧] (٤). أوردنا بحثاً كافياً في موضوع تنزيه الصحابة في التفسير الأمثل، ذيل الآية ١٠٠ من سورة التوبة تحت عنوان: هل أن جميع الصحابة صالحون؟ وكذلك في ذيل الخطبة الشقشقية الخطبة الثالثة من نقحات الولاية، ج ١، تحت عنوان «هل أن جميع الصحابة سلكوا طريق رسول الله عليه السلام؟» وكذلك في هذا الجزء من شرح نهج البلاغة، وللمزيد من الاطلاع يمكنكم مراجعة كتاب «الشيعة تجيب» في بحث تنزيه الصحابة.
- [٢٤٨] (١). سند الرسالة:
- ذكر صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة حول هذه الرسالة: إن ابن الميثم نقل هذه الرسالة في شرح نهج البلاغة ولكن سياق كلامه يدل بوضوح على أنه نقل هذه الرسالة من مصدر غير نهج البلاغة، وكذلك نقل بعض مقاطع هذه الرسالة أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين والباقلاني في إعجاز القرآن والسيد أمير يحيى العلوي في كتاب الطراز، ومع الالتفات إلى التفاوت الموجود بين هذه المنقولات يتبين وجود مصادر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٤١).
- [٢٤٩] (١). «مغرس» في الأصل بمعنى محلّ غرس الأشجار. ثم اطلق على محل ظهور كل شيء.
- [٢٥٠] (٢). «حادث» صيغة أمر من «المحادثه» بمعنى المراقبة والتحقيق وإزالة الصدأ، يعني غسل القلوب وتطهيرها من درن الأحقاد ورسوبات النزاعات السابقة.

[٢٥١] (٣). سورة فصلت، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

[٢٥٢] (١). نهج البلاغة، الكلمات القصار، ١٥٨.

[٢٥٣] (٢). «تنمر» بمعنى الغضب الشديد وسوء المعاملة، من مادة «نمر» على وزن «كبد» وهو الحيوان المعروف.

[٢٥٤] (٣). «وغم» وهذه المفردة تأتي بمعنى الحرب وكذلك بمعنى الحقد.

[٢٥٥] (٤). «ماسة» بمعنى القريبة والحميمة من مادة «مس» وهو إتصال الأبدان.

[٢٥٦] (٥). «مأزورون» بمعنى المذنبون من مادة «وزر» وهو الذنب.

[٢٥٧] (١). «أربع» من «الربوع» بمعنى المداراة وضبط النفس.

[٢٥٨] (٢). «يفيل» من مادة «فيل» على وزن «ميل» بمعنى الخطأ أو الضعف.

[٢٥٩] (١). سند الرسالة:

نقلت هذه الرسالة في الكتب والمصادر التاريخية قبل السيد الرضى، ومن جملة هذه المصادر ما أورده البلاذرى (المتوفى ٢٧٩) في كتاب انساب الأشراف البلاذرى، وابن واضح (المعروف باليعقوبى المتوفى ٢٨٤) في تاريخه مع تفاوت وإضافات يسيرة لما ورد في نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٤٢).

[٢٦٠] (٢). شرح نهج البلاغة لابن ميثم، ذيل الرسالة المذكورة.

[٢٦١] (١). «دهاقين» جمع «دهقان» وأصل هذه الكلمة فارسية «دهكان» أو «دهبان» بمعنى كبير القرية الرئيس، الزعيم، وأحياناً تطلق على كل فلاح، ولكن الأنسب فى العبارة أعلاه المعنى الأول، لأنّ الرؤساء وكبار القرية هم الذين يكتبون الشكاوى.

[٢٦٢] (١). «جلباب» بكسر وفتح الجيم، ذكروا لهذه الكلمة معانٍ مختلفة فتارة تأتي بمعنى العباءة والملحفه، وأخرى المقنعة وغطاء الرأس، والثالثة الثوب الطويل والواسع، وفى الرسالة مورد البحث قصد بها الكناية، والمراد الغطاء واللباس المعنوى الذى يرتديه المدير والقائد لجماعة من الناس حيث يوصيه الإمام عليه السلام بلزوم التحلى بحالة تقترب فيها الشدة باللين.

[٢٦٣] (٢). «داول» صيغة أمر من «المداولة» بمعنى تحويل الأمر من شخص لآخر بإدارته وإدارة الأمر واستبدال شىء بشىء أو شخص بدل شخص آخر، والمراد من هذه المفردة من العبارة أعلاه أن تتعامل معهم أحياناً بالمودة والمحبة وأخرى بشىء من القسوة والشدة.

[٢٦٤] (١). سورة الحجر، الآيتان ٤٩ و ٥٠.

[٢٦٥] (١). سورة الممتحنة، الآية ٨.

[٢٦٦] (١). سند الرسالة:

ذكر هذه الرسالة قبل السيد الرضى، البلاذرى فى كتاب انساب الأشراف، واليعقوبى فى تاريخه (مع تفاوت يسير) وقد أشار كتاب مصادر نهج البلاغة إلى الكتاب الأول ثم أضاف أن هذه الرسالة نقلها البيهقى فى المحاسن والمساوىء (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٣٣).

[٢٦٧] (١). سورة العنكبوت، الآية ١٣.

[٢٦٨] (١). سند الرسالة:

نقل هذه الرسالة البلاذرى فى كتاب انساب الأشراف، وفى الحقيقة أنّ ما ذكره السيد الرضى فى نهج البلاغة يعتبر قسماً من رسالة مطوّلة أرسلها الإمام عليه السلام لزياد بن أبيه، وقد أورد كتاب مصادر نهج البلاغة هذا المصدر فقط للرسالة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٣٣).

ونقلها ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ذيل الرسالة ٤٤ عن البلاذرى فى أنساب الأشراف مع اختلافات عدّة، وبما أنّ هذا التفاوت كبير نسبياً فمن البعيد حمله على اختلاف النسخ، ولعلّ ابن أبى الحديد كان يملك مصدراً آخر لهذه الرسالة حيث نقلها بكلّ تفاصيلها

وشرحها.

[٢٦٩] (١). نقل المرحوم الحرّ العاملي صاحب كتاب وسائل الشيعة في الجزء الأول، الباب ١٠٢ في آداب الحمام روايات كثيرة حول كيفية الاستفادة من أنواع الدهون لتسييط الشعر وتنعيم الوجه والبدن بما كان متداولاً في ذلك الزمان ومستحباتها ومكروهاها، ويستفاد من تعبير الإمام عليه السلام في التعبير أعلاه أنّ الإكثار من استخدام هذه الدهون كان مسلك الأشراف والأثرياء والمترفين في ذلك العصر.

[٢٧٠] (٢). ذكر هذا المضمون البلاذري في انساب الأشراف، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (ج ١٦، ص ١٩٦).

[٢٧١] (٣). بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٤٦.

[٢٧٢] (١). سورة البقرة، الآية ١١٠.

[٢٧٣] (٢). سورة الحشر، الآية ١٨.

[٢٧٤] (١). غرر الحكم، ح ٢٦٠٩.

[٢٧٥] (٢). المصدر السابق، ح ٢٨٩٨.

[٢٧٦] (٣). الكافي، ج ٢، ص ٣١٠.

[٢٧٧] (٤). «التمرغ» هو الشخص الذي اضطلع على التراب وألصق بدنه به، من «التمرغ». بمعنى التقلب في التراب.

[٢٧٨] (٥). «ارملة» المرأة التي توفي زوجها، و«ارمِل» الرجل الذي توفيت زوجته، وتأتي أحياناً بمعنى فقدان الزاد والمتاع، وفي الأصل بمعنى «رمل» وكان مثل هؤلاء الأشخاص ولشدة عجزهم وفقيرهم وحاجتهم التصقوا بالأرض وبالرمل، وتطلق مفردة «أرامل» على المساكين أيضاً.

[٢٧٩] (١). سورة الزلزال، الآيتان ٧ و ٨.

[٢٨٠] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٣٩، ذيل الكتاب ٢١.

[٢٨١] (١). سند الرسالة:

يقول صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة: إنّ هذه الرسالة وردت في روايات متواترة، وقد نقلها كثيرون قبل السيد الرضى وبعده في كتبهم، ومن الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيد الرضى، نصر بن مزاحم في كتابه صفين، والمرحوم الكليني في روضة الكافي والبلاذري في انساب الأشراف واليعقوبي في تاريخه وبعد المرحوم السيد الرضى جماعة أخرى أيضاً، ويستفاد من مجموع ذلك أنّ هذه الرسالة مشهورة ومعتبرة جداً (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٣٤).

[٢٨٢] (١). سورة الحديد، الآية ٢٣.

[٢٨٣] (١). «درك» وردت هذه الكلمة في أكثر نسخ نهج البلاغة «درك» على وزن «سند» ولكن وردت في بعض النسخ «درك» على وزن «عدل» و كليهما يقصد بهما معنى واحد وهو تحصيل الشيء ونيل المراد.

[٢٨٤] (٢). سورة النجم، الآية ٣٩.

[٢٨٥] (١). نهج البلاغة، الكلمات القصار ١٠٥.

[٢٨٦] (١). سند هذا الكلام: ذكر هذه الوصية المرحوم الكليني في كتاب الكافي مع بعض التفاوت وقال: عندما ضرب الإمام عليه السلام بالسيف في محرابه، تجمّع بعض المصلين حول فراشه فقال أحدهم: يا أمير المؤمنين عليه السلام أوصنا، فقال: اتوني بوسادة لأنكىء عليها ثم تحدّث بكلام معروف ومذكور في المصادر وقد أورد السيد الرضى قسماً منه.

وأورد قسماً من هذه الوصية المسعودى في مروج الذهب وكذلك في كتاب إثبات الوصية وابن عساكر في تاريخه، الحوادث التي تتعلق باستشهاد الإمام على عليه السلام.

- [٢٨٧] (١) سورة النور، الآية ٢٢.
- [٢٨٨] (١) سورة القصص، الآية ١٧٩.
- [٢٨٩] (١) سورة البقرة، الآية ١٧٩.
- [٢٩٠] (١) نهج البلاغة، الكتاب ٤٧.
- [٢٩١] (٢) كمال الدين وتمام النعمة: ٦٦، كفاية الأثر: ١٥.
- [٢٩٢] (١) سند الوصية: طبقاً لما ورد في مصادر نهج البلاغة أن الشيخ الكليني نقل هذه الوصية في كتاب فروع الكافي، ج ٧، ص ٤٩ عن عبدالرحمن بن الحجاج (ولكن ما ورد في الكافي يختلف كثيراً عما أورده السيد الرضى في نهج البلاغة) ونقلها الشيخ الطوسي بعد الشريف الرضى في كتاب التهذيب. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٥٤).
- ويستفاد من كتاب نهج البلاغة أن هذه الوصية أكثر بكثير مما أورده السيد الرضى، وفي الحقيقة أن ما ورد في نهج البلاغة يعتبر مقطعاً صغيراً من هذه الوصية، ولكن هذا المقطع عميق في المعنى ودقيق في العبارات والمضمون. (ولمزيد من الاطلاع انظر كتاب نهج البلاغة، ص ٩٨٨).
- [٢٩٣] (١) إن الرواية المذكورة في كتاب الكافي بدل هذه الرواية تشير إلى أن التفسير الثاني أنسب، لأن المذكور في الكافي: «وإن حَدَّثَ بِحَسَنِ حَدَّثَ وَحُسَيْنٌ حَتَّى ... وَإِنَّ حُسَيْنًا يَفْعَلُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي أَمَرْتُ بِهِ حَسَنًا» ومفهومه أن الإمام الحسين عليه السلام يسلك في إجراء هذه الوصية بالنسبة للوقف، ذات البرنامج والمنهج الذي يسلكه الإمام الحسن عليه السلام. (الكافي، ج ٧، ص ٥٠).
- [٢٩٤] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٤٩.
- [٢٩٥] (٢) وللمزيد من الاطلاع راجع فروع الكافي، ج ٧، ص ٥٠.
- [٢٩٦] (١) عبارة «أطوف عليهن» تعبير كناية جميل للمواقعة الجنسية، لأنه يفهم من كلمة الطواف نوع من الإلتواء والدوران وعندما تأتي هذه الكلمة مع على يقصد بها الدوران حول الشيء وخاصة أن هذا التعبير طبقاً لما ذكره لسان العرب يستخدم عادة في الحركات الليلية، وإذا كان القصد منها الحركة في النهار لا بد من المجيء بقرينة.
- [٢٩٧] (١) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٣٢، ح ٣.
- [٢٩٨] (١) وللمزيد من الاطلاع انظر: تفسير الأمل، ذيل آيات ١-٣ من سورة محمد.
- [٢٩٩] (١) الاستيعاب، ج ٣، ص ١١٢٦.
- [٣٠٠] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٤٦.
- [٣٠١] (١) بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ١٨٢، ح ٤، والآيات ٥-٧ من سورة الليل.
- [٣٠٢] (٢) وسائل الشيعة، ج ١٣، كتاب الوقوف والصدقات، باب ١، ح ١٠.
- [٣٠٣] (١) سند الوصية:
- نقل هذه الرسالة بسند معتبره المرحوم الكليني في كتابه الكافي في باب «آدب المصيّد» من كتاب الزكاة، وكذلك شيخ الطائفة الشيخ الطوسي في باب «الزيادات في الزكاة» بنفس سند الكليني، ونقلها صاحب كتاب الغارات (إبراهيم الثقفي) بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام. يقول صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة: إن هذه الوصية كانت معروفة بين العلماء قبل السيد الرضى ومن جملة الأشخاص الذين أشاروا إليها الشيخ المفيد في المقنعة. ثم أضاف: من الأشخاص الذين نقلوها بعد السيد الرضى ابن إدريس في السرائر عن المقنعة، والزمخشري في ربيع الأبرار مع تفاوت يسير (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٥٧).
- [٣٠٤] (١) مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٥٨.
- [٣٠٥] (١) «لا- تروعن» من مادة «روع» على وزن «قول» بمعنى الخوف والرعب، وذهب بعض العلماء إلى أن «روع» ربماتعنى شدة

الخوف.

[٣٠٦] (٢). «تجتازن» من «الإجتياز» وتعنى العبور.

[٣٠٧] (١). «حى» تأتي أحياناً بمعنى ذى الروح، وأخرى بمعنى القبيلة، لأن مجموع القبيلة بمثابة الإنسان الحى الواحد، وتستعمل أيضاً فى اللغة المتداولة بمعنى المنطقة السكنية من المدينة.

[٣٠٨] (١). «أنعم» من «الإنعام» تأتي أحياناً بمعنى اعطاء النعمة، وأخرى بمعنى قول كلمة نعم، وفى الجملة مورد البحث جاءت بالمعنى الأخير، بقرينة الجملة ما قبلها: «فإن قال قائل لا».

[٣٠٩] (٢). «تغسّف» من مادة «عسف» على وزن «كسب» وفى الأصل بمعنى سلوك طريق المتاهة، ثم اطلق على الظلم والجور، لأنه مصداق سلوك طريق المتاهة.

[٣١٠] (٣). «ترهق» من «الإرهاق» وأصلها من مادة «رهق» على وزن «شفق» وهى فى الأصل بمعنى التغطية أو تغطية الشىء بالقوة والغلبة، وتأتى فى كثير من الموارد بمعنى التعسير والأخذ بشدة، وفى الجملة مورد البحث جاءت بهذا المعنى.

[٣١١] (١). سورة التوبة، الآية ١٠٤.

[٣١٢] (١). بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٨٥.

[٣١٣] (٢). المصدر السابق.

[٣١٤] (٣). المصدر السابق.

[٣١٥] (١). الكافى، ج ٣، ص ٥٤٠، ح ٨.

[٣١٦] (١). «ماشية» فى الأصل الطريق الذى يسار عليه، من مادة «مشى»، ثم اطلقت على الدواب والأنعام من الإبل والبقر والغنم، ولكن تطلق غالباً على الأغنام وجمعها مواشى، وفى العبارة مورد البحث المقصود منها البقر والغنم بقرينة ذكر الإبل بعدها.

[٣١٧] (٢). «عنيف» بمعنى الخشن والصعب، من مادة «عنف» على وزن «قفل».

[٣١٨] (٣). «لا تفرعن» من مادة «فرع» بمعنى خاف وارتعد، وعندما تأتي من باب إفعال تكون متعدية وتعنى التخويف والترهيب.

[٣١٩] (٤). «اصدع» من مادة «صدع» على وزن «صبر» وتعنى الشق والفصل بين شيئين، وهذه المفردة «صدع» تأتي اسم مصدر وتعنى القسم المنفصل عن الشىء.

[٣٢٠] (١). «استقال» من «الإستقالة» بمعنى طلب فسخ العقد أو ما اتفق عليه، وأصلها من القيلولة وهو النوم القليل فى وسط النهار للاستراحة، وبما أن الإنسان عندما يندم على عقد معين فإذا فسّخه وألغاه فربما يؤدى ذلك إلى امتعاضه وتأثره فاستخدمت كلمة «إقالة» والمطالبة بهذا العمل يدعى «استقالة».

[٣٢١] (١). انظر: جواهر الكلام، ج ١٥، ص ١٦٠.

[٣٢٢] (٢). «مهلوسة» من «الهلاس» على وزن «غبار» و«هلس» على وزن «درس» بمعنى مرض السل، وعلى ضوء ذلك فإن «مهلوس» هو الحيوان المبتلى بهذا المرض، ولكن تارة يراد بهذه المفردة كل نوع من المرض، ويذهب بعض أرباب اللغة إلى أن «هلاس» تعنى الأمراض التى تسبب الضعف والنحافة فى البدن، وبما أن مرض السل الذى يصيب الإنسان يجعله نحيفاً وضعيفاً فاطلقت هذه الكلمة على هذا المرض.

[٣٢٣] (٣). «عوار» من مادة «عار» و«عور» على وزن «غور» بمعنى العيب والنقص، وبما أن اظهار العضو التناسلى يعد عيباً للشخص فاطلقت كلمة «عورة» على هذا العضو، وتطلق هذه المفردة أيضاً على الدار غير المصبوغة واللباس المعيوب.

[٣٢٤] (١). انظر: جواهر الكلام، ج ١٥، ص ١٣٥.

[٣٢٥] (٢). سورة آل عمران، الآية ٩٢.

- [٣٢٦] (٣). سورة محمد، الآية ٣٧.
- [٣٢٧] (١). «مُعنف» من مادة «عنف» على وزن «قفل» وتعنى أخذ الشيء بشدة وعنف.
- [٣٢٨] (٢). «مُجحف» من «الإجحاف» وأصله من «جحف» على وزن «حرف» بمعنى الإصرار على إضرار الطرف المقابل.
- [٣٢٩] (٣). «مُلغب» من «اللغوب» وتعنى التعب والإرهاق، وعندما تأتى من باب إفعال تكون متعدية وتعنى إتعاب الآخر.
- [٣٣٠] (٤). «مُتعب» من مادة «تعب» ومعناها واضح، ولكن إذا جاءت من باب إفعال فإنها تكون متعدية وبمعنى إتعاب الآخر، وهى قريبة المعنى من «ملغب»؛ ولكن ذهب بعض إلى أن «لغوب» تعنى التعب النفسى والإرهاق الروحى فى حين أن التعب يقصد به ما يشمل التعب البدنى أيضاً.
- [٣٣١] (١). «احدُر» من مادة «حدر» على وزن «حرف» بمعنى التحرك بسرعة، وكذلك تعنى جرّ الشيء من الأعلى إلى الأسفل، وهنا المراد بها المعنى الأول يعنى جمع زكاة الحيوانات والإتيان بها بسرعة إلينا لنوصلها إلى المستحقين.
- [٣٣٢] (٢). «اوعز» من مادة «وعز» على وزن «وعظ» بمعنى الاقتراح والتوصية لآخر بعمل معين.
- [٣٣٣] (٣). «فصيل» بمعنى ولد الإبل الذى فطم عن الرضاع، ومن مادة «فصل» وهو فصل الطفل عن أمه فى الارتضاع، ولكن مع الالتفات إلى أن الإمام عليه السلام أمر بعد هذه الجملة أن لا يحلب جميع ما فى الضرع من اللبن لينتفع به الفصيل، فيستفاد من ذلك أن المقصود من الفصيل هنا ولد الناقة الذى على وشك أن يفصل ويفطم ولكنه لحدّ الآن لم يفطم (وعلى حدّ تعبير الادباء هو مجاز بعلاقة الأول والمشاركة).
- [٣٣٤] (١). «لا يمصر» من مادة «مصر» على وزن «نصر» بمعنى حلب جميع ما فى الضرع من اللبن.
- [٣٣٥] (٢). «يَسْتَأْن» من مادة «أنى» على وزن «امر» وتعنى الإمهال، وعندما تأتى من باب الاستفعال فتعنى الانتظار والمداراة.
- [٣٣٦] (٣). «نقب» هو الجمل الذى يصعب عليه المشى لتهرؤ باطن خفه.
- [٣٣٧] (٤). «ظالع» من مادة «ظلع» على وزن «زرع» وتعنى الناقة العرجاء.
- [٣٣٨] (٥). «عَدِر» جمع «غدير» تعنى بركة الماء.
- [٣٣٩] (٦). «جواد» جمع «جاده» تعنى الطريق الواسع.
- [٣٤٠] (٧). «نطاف» جمع «نطفه» بمعنى الماء الزلال.
- [٣٤١] (٨). «الاعشاب» جمع «عُشب» على وزن «قفل» بمعنى النباتات الخضراء.
- [٣٤٢] (٩). «بُدْن» جمع «بادن» بمعنى الحيوان البدين.
- [٣٤٣] (١٠). «مُنقيات» جمع «مُنقية» بمعنى الحيوان الكثير الدسم.
- [٣٤٤] (١). وسائل الشيعة، ج ٨، أبواب أحكام الدواب، باب ٩، ص ٣٥٠، ح ١.
- [٣٤٥] (٢). الكافى، ج ٦، ص ٥٣٧، ح ١.
- [٣٤٦] (٣). المصدر السابق، باب ١٠، ص ٣٥٣، ح ٩.
- [٣٤٧] (١). كنز العمال، ح ٤٣٦٩٥؛ وسائل الشيعة، باب ٥٣ من أحكام الدواب. ص ٣٩٧.
- [٣٤٨] (٢). تهذيب الأحكام، ج ٤، ص ١٦٤، ح ٤.
- [٣٤٩] (١). سند الرسالة:

طبقاً لما أورده القاضى النعمان المصرى (المتوفى ٣٦٣) فى كتاب دعائم الإسلام، أن الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة إلى «مخنف بن سليم الازدى» أحد قادة جيشه، وما ذكره القاضى النعمان فى كتابه المذكور يعتبر متناً مختصراً بالنسبة لما أورده السيد الرضى فى نهج البلاغة، والحاج النورى فى كتابه مستدرک الوسائل فى كتاب الزكاة الباب ١٢ الحديث ٣، والظاهر أن مؤلف كتاب مصادر

نهج البلاغة لم ينقل عن مصدر آخر قبل السيد الرضى غير هذين المصدرين.

[٣٥٠] (١). بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٢٠٧.

[٣٥١] (٢). المصدر السابق، ص ٢٠٦، ح ٧.

[٣٥٢] (١). «بؤسى» يعنى شدة المحنة وسوء الحالة وتكون ناتجة أحياناً من الفقر وأحياناً بسبب عوامل أخرى، وهذه الكلمة من قبيل «بأساء» و«وبؤس» على وزن «قفل».

[٣٥٣] (٢). «مدفوعون» يعنى الأشخاص الذين منعوا عن حقهم.

[٣٥٤] (١). «رَتَعَ» من مادة «رتع» على وزن «فتح» بمعنى تناول الطعام والشراب الكثير وخاصة فى فصل الربيع وفى القرى والأرياف، ولكن المعنى الواسع للكلمة يطلق على كل أكل وشرب حتى ما أكلت الحيوانات فى الصحراء، ومن هنا اطلقت كلمة مرتع على المناطق التى يكثر فيها علف المواشى.

[٣٥٥] (٢). «أَحَلَّ» من «الحلول» بمعنى الدخول، وعندما تأتى من باب إفعال فتعنى إدخال.

[٣٥٦] (١). «أَفْطَحَ» من «الفضاعة» بمعنى القبيح جداً.

[٣٥٧] (٢). «الغش» تأتى أحياناً بكسر العين وأخرى بفتحها، فعندما تأتى بكسر العين تكون اسم مصدر وتعنى الخداع والحيلة والخيانة، وإذا جاءت بفتح العين فتكون مصدراً وتعنى عمل الخيانة والمكر.

[٣٥٨] (١). وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٤، باب ١، ح ٦، من أبواب الزكاة.

[٣٥٩] (٢). الكافي، ج ٢، ص ١٠٤، ح ١.

[٣٦٠] (٣). الأمالى، الشيخ الصدوق، ص ٣٠٠، ح ٦.

[٣٦١] (٤). الكافي، ج ٢، ص ١٠٤، ح ٢.

[٣٦٢] (١). سند الرسالة:

ذكر صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة أن هذا العهد نقله قبل السيد الرضى، إبراهيم بن هلال الثقفى فى كتابه الغارات وابن شعبة الحرانى صاحب كتاب تحف العقول فى كتابه هذا، ونقله بعد السيد الرضى الشيخ الطوسى فى الإمالى والطبرى فى بشارة المصطفى وآخرون. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٦٥).

ويستفاد من كتاب الغارات وكتاب نهج البلاغة الكامل أن هذا العهد المطول أكثر بكثير ممّا أورده السيد الرضى، حيث اقتصر السيد الرضى على نقل مقطع خاص منه.

[٣٦٣] (١). الغارات، ص ٢٥١؛ وهذا الكلام نقله ابن أبى الحديد بشكل مختصر فى شرحه لنهج البلاغة (ج ٦، ص ٧٩) وصاحب

كتاب نهج البلاغة الكامل، در ص ٩٠٣، بعد ذكره لهذا العهد بشكل كامل.

[٣٦٤] (١). سورة الشعراء، الآية ٢١٥.

[٣٦٥] (١). «ألن» من «اللين» على وزن «حين» بمعنى السهولة.

[٣٦٦] (٢). سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

[٣٦٧] (٣). سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

[٣٦٨] (٤). «آس» من «المواساة» وتعنى التساوى بين الأطراف من جميع الجهات.

[٣٦٩] (٥). «لحظة» النظرة الخاطفة من زوايا العين، خلافاً لـ «نظرة» التى تعنى النظر بجميع العين، والعبارة أعلاه تشير إلى أن الحاكم

ليس فقط يساوى بين الرعية بالنظر المباشر وبجميع العين، بل حتى باللحظات وبطرف العين.

[٣٧٠] (٦). «حيف» الانحراف عن الحق والظلم والجور، سواء فى مقام القضاء أو الحكم أو فى الأمور الأخرى.

[٣٧١] (٧). الضمير في «لهم» يعود إلى «العظماء» والجملة تعني أن الأقوياء لا- ينبغي أن يطمعوا في حكمك لصالحهم على حساب حقوق الآخرين وظلم الرعية، وأما عودة الضمير إلى «الرعية» فبعيد جداً لأن «اللام» ينبغي أن تكون بمعنى على، مضافاً إلى أن كلمة «الرعية» و«ضعفاء» لم تردا في العبارات السابقة لتسويغ عودة الضمير عليهما، ولو كان المقصود ما ورد في بداية الرسالة فستكون الفاصلة بعيدة.

[٣٧٢] (٨). ضمير «عليهم» يعود إلى «ضعفاء» و«على» جاءت هنا بمعنى اللام، يعني أن الضعفاء لا- يأسون من مراعاة العدالة في حقوقهم، وجاء في بعض النسخ حرف الباء بدلاً من «على» وهو أنسب ظاهراً.

[٣٧٣] (١). الكافي، ج ٧، ص ٤١٣، ح ٣.

[٣٧٤] (١). الضمير في «لَمْ يُشارِكُوا» يعود إلى المتقين، ومفهوم الجملة أن المتقين في الآخرة لا- يشاركون في عذاب أهل الدنيا والمجرمين، ولكن ورد في بعض النسخ وكذلك النسخة المصححة لنهج البلاغة «لَمْ يُشارِكُهُمْ» وهي أكثر تناسباً مع المضمون، وتعني أن أهل الدنيا لا يشاركون في الآخرة المتقين في نعيمهم في حين أن أهل الدنيا يشتركون مع المتقين في دنياهم بشكل معقول.

[٣٧٥] (١). «مُتَرَفٌ» تعني، كما تقدّم في شرح الرسالة ١٠، الأثرياء المغرورين الذين يعيشون حالة الطغيان.

[٣٧٦] (١). «المبْلَغُ» تعني في الجملة الزاد والمتاع الذي يوصل الإنسان إلى مقصده وهو من «البلوغ» بمعنى الوصول.

[٣٧٧] (٢). «جيران الله» كناية عن علو المقام، لأن الله تعالى ليس له دار خاصية ليكون له جيران، فالعبارة تشير إلى القرب المعنوي من الله تعالى.

[٣٧٨] (٣). سورة يس، الآية ٥٧.

[٣٧٩] (٤). سورة فصلت، الآية ٣١.

[٣٨٠] (١). «خطب» بمعنى الحادثة المهمة، ولكن تأتي غالباً للحوادث المؤلمة.

[٣٨١] (١). سورة التوبة، الآية ١٠٢.

[٣٨٢] (١). سورة هود، الآيات ١٠٥-١٠٨.

[٣٨٣] (٢). بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٥٤.

[٣٨٤] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٦٦.

[٣٨٥] (١). «طرداء» جمع «طريد» وقيل إنها جمع «طريدة» من «الطرد» بمعنى الإبعاد، وتأتي للشخص المحكوم بالنفي والتباعد عن المنطقة، أو الصيد الذي يتبعه الصياد ولا يزال يبعده عن مكانه الأصلي.

[٣٨٦] (٢). «نواصي» جمع «ناصية» بمعنى الشعر في مقدم الجبين (ولا تعني الجبين نفسه) وذكر بعض أرباب اللغة وهم قلة أن «ناصية» تعني القسم المقدم من الرأس أو الشعر، وبعضهم ذهب إلى أن الأصل فيها مقدم الرأس والشعر في مقدم الرأس يطلق عليه ناصية بمناسبة نموه على هذا القسم المقدم، ولكن موارد استعمال هذه الكلمة في القرآن الكريم يشير بوضوح إلى أن المعنى الأول أنسب، لأن الوارد في القرآن في الكثير من الأدعية استعمال كلمة الناصية بهذا المعنى وخاصة مع كلمة أخذ، ومعلوم أن ما يمكن أخذه والامساك به هو الشعر في مقدم الرأس بحيث يضطر صاحبه للتسليم والاذعان لا الجبين نفسه الذي لا يمكن الامساك بالأخذ به، وضمناً فقد وردت عبارة الأخذ بالناصية في كثير من الموارد كناية عن التسلط على الطرف المقابل.

[٣٨٧] (١). سورة النساء، الآية ٧٨.

[٣٨٨] (٢). سورة الرحمن، الآية ٤١.

[٣٨٩] (١). منهاج البراعة، ج ١٩، ص ٨٩ ومثله في المعنى ورد في عوالي اللئالي، ج ١، ص ٢٨٠.

[٣٩٠] (٢). بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٨٨، ح ٢١.

- [٣٩١] (٣). سورة النساء، الآية ٥٦.
- [٣٩٢] (١). سورة غافر، الآية ٤٩ و ٥٠.
- [٣٩٣] (٢). سورة الزخرف، الآية ٧٧.
- [٣٩٤] (٣). سورة فاطر، الآية ٣٧.
- [٣٩٥] (١). الكافي، ج ٢، ص ٦٧، باب الخوف والرجاء، ح ١.
- [٣٩٦] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٦٧.
- [٣٩٧] (١). «محقق» من مادة «حق» تعنى فى هذا المورد الجدير واللائق.
- [٣٩٨] (١). «تنافح» من «المنافحة» بمعنى الدفاع عن الشىء، وأصله من «نفع» على وزن «فتح» التى تأتى دائماً بمعنى النسيم الملائم والرائحة العطرة، وأحياناً أخرى بمعنى دفع الشىء، وجاءت «منافحة» بهذا المعنى.
- [٣٩٩] (١). الكافي، ج ٢، ص ٥٧، ح ٢.
- [٤٠٠] (٢). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٥٦، ح ١٣٢.
- [٤٠١] (١). الكافي، ج ٣، ص ٢٦٨، باب من حافظ على صلاته، ح ٤.
- [٤٠٢] (٢). المصدر السابق.
- [٤٠٣] (١). «الردى» من مادة «ردى» على وزن «رأى» بمعنى الهلكة أو السقوط من مرتفع، المقترن مع الهلكة.
- [٤٠٤] (١). سورة القصص، الآية ٤١.
- [٤٠٥] (٢). «يقمع» من مادة «قمع» على وزن «منع» بمعنى التغلب على الطرف المقابل وإذلاله و كبتة.
- [٤٠٦] (٣). «جنان» بفتح الجيم تعنى القلب، و«جنان» جمع «جنه» بمعنى البستان والزاهر والحديقة الغناء، وكلها تعود فى الأصل لكلمة «جن» على وزن «فن» بمعنى المغطى والمختفى، وبما أن القلب يختفى فى باطن الصدر، وأرض بستان تختفى تحت الأشجار الباسقة فاطلقت هذه الكلمة على هذه الموارد.
- [٤٠٧] (١). سورة القصص، الآية ٥٠.
- [٤٠٨] (٢). سورة البقرة، الآية ١٠٥.
- [٤٠٩] (١). سورة الاسراء، الآية ٦٠.
- [٤١٠] (١). سورة القدر، الآية ٣.
- [٤١١] (١). سورة التوبة، الآية ٣٢.
- [٤١٢] (٢). سورة الأحزاب، الآية ٥.
- [٤١٣] (١). هذا الشعر لـ «عبدالله بن زبير» الذى كان من ألد أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وأنشد هذا الشعر مع أشعار أخرى يوم احد بعد استشهاد طائفة من المسلمين من قبيلة الخزرج، وقد أنشده يزيد فى حادثه كربلاء ومقصوده أن بنى امية ليتهم كانوا أحياء ليسمعوا بكاء وعويل أهل البيت وذراى الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه.
- وقد نقل الطبرى فى تاريخه أبياتاً أخرى ليزيد فى رسالته المعتضد العباسى رغم أن ابن أبي الحديد حذف منه بعض الأبيات منها:
- فَاهَلُّوا وَاسْتَهَلُّوا فَرِحَاتُمْ قَالُوا يَا يَزِيدُ لَا تَشَلْ
لَعِبَتْ هَاشِمٌ بِالْمَلِكِ فَلَاخَبْرٌ جَاءَ وَلَا وَحْيٌ نَزَلَ [٤١٤] (٢). سورة الأحزاب، الآية ٦٤.
- [٤١٥] (١). سورة البقرة، الآية ١٥٩.
- [٤١٦] (٢). تاريخ الطبرى، ج ٨، ص ١٨٢-١٨٩ و شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٧٣-١٨٠.

[٤١٧] (١). سند الرسالة:

يقول مؤلف كتاب مصادر نهج البلاغة (المرحوم السيد عبد الزهراء الحسينى الخطيب): إن هذه الرسالة من الرسائل الشهيرة للإمام على عليه السلام والنص بليغ إلى درجة أنه يغينا عن البحث فى سندها (وبديهى أن مثل هذا النص لا يصدر من غير الإمام) مضافاً إلى أن ابن اعثم الكوفى الذى كان يعيش قبل السيد الرضى ذكر هذه الرسالة فى كتابه الفتوح مع بعض الإضافات. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٧٨)، وفى مكان آخر يقول بالنسبة لهذه الرسالة: وقد نقلها بعض الكتاب قبل السيد الرضى مع بعض التفاوت من مصادر أخرى غير نهج البلاغة، منهم القلقشندى فى كتاب صبح الأعشى والنورى فى نهاية الأرب (المصدر السابق، ص ٢٧٥).

[٤١٨] (١). «طفقت» من مادة «طفق» على وزن «طبق» بمعنى الابتداء بعمل معين والشروع به.

[٤١٩] (٢). «بلاء» يعنى الامتحان والاختبار، وبما أن البلاء يأتى أحياناً بواسطة النعمة، وأخرى بواسطة المصيبة، هذه المفردة تأتى بمعنى النعمة والمصيبة كليهما، وفى الجملة مورد البحث جاءت بمعنى النعمة.

[٤٢٠] (٣). «مسدد» من مادة «سداد» على وزن «نهاد» يعنى المحكم والثابت القوى، ومن هنا اطلقت هذه الكلمة على السد لأنه يمثل جداراً ثابتاً وقوياً، ومسدد تعنى الشخص الذى يعلم الآخر الثبات والاستقامة.

[٤٢١] (٤). «نضال» يعنى المجابهة بالرمدى بين شخصين، ثم اطلقت على كل أشكال المبارزة والمجابهة والنزاع.

[٤٢٢] (١). «ثلم» فى الأصل بمعنى الكسر والشق، ومعنى الاسم المصدرى لهذه المفردة هو الشق والعيب، ثم اطلقت على كل شكل من الاضرار والخسارة، وفى الجملة أعلاه وردت بمعنى الضرر والخسارة.

[٤٢٣] (١). «حنّ» من «الحنين» بمعنى اطلاق الصوت بالتأوه من موقع الحزن.

[٤٢٤] (٢). «قدح» بمعنى السهم قبل أن يكتمل صنع رأسه المدب.

[٤٢٥] (١). اقتبس من بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٦٥.

[٤٢٦] (٢). «تَزَيْعٌ» من مادة «ربع» على وزن «رفع» بمعنى التوقف والإنتظار، وجملة «ألا تَزَيْعُ» يعنى لماذا لا تتوقف وترتك الأمر.

[٤٢٧] (٣). «ظَلَعٌ» بمعنى مشى الأعرج، وجملة «ارْبَعٌ عَلَى ظَلَعِكَ» مثل سائد بين العرب يقال للشخص الذى لا يستطيع عمل معين ويتجه عبثاً لتحقيقه، فيقال له اسكن ولا تتلف وقتك.

[٤٢٨] (٤). «ذَرَعٌ» بمعنى فتح اليد والفاصلة بين اليدين، و«قُصُورِ ذَرَعٍ» كناية عن الضعف والعجز.

[٤٢٩] (١). ورد هذا الحديث (سبعين تكبيرة) بشكل إجمالى فى الكافى (ج ٣، ص ١٨٦، باب من زاد على خمس تكبيرات، ح ٣)،

ولكن ما ورد أعلاه من أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله صلى أربع عشرة صلاة بأربعة عشر من الملائكة ورد فى شرح نهج البلاغة لابن ميشم.

[٤٣٠] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ١٩٣.

[٤٣١] (١). شرح نهج البلاغة للتستري، ج ٣، ص ١١١؛ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ٧١.

[٤٣٢] (٢). «تَمَيُّجٌ» من مادة «مج» على وزن «حج» بمعنى قذف شىء من السوائل من الفم، ثم استخدمت هذه المفردة فى سماع الكلام غير الملائم، والجملة أعلاه تعنى أن الأذان لا تمتنع ولا تأبى استماع هذه الفضائل بل تقبلها.

[٤٣٣] (٣). «رَمِيَّةٌ» بمعنى الصيد الذى يناله الإنسان بالرمدى، وجمعه «رمايا»، وجملة «مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ» إشارة إلى الشخص الذى يطلب صيداً ويجعله ذلك الصيد ينحرف عن مساره الأصلي وربما يتيه فى الصحراء، فيقول الإمام عليه السلام بهذا الكلام لمعاوية إن

أشخاصاً مثل عمرو بن العاص يطلبون صيداً من المقام والمال والجاه، ولذلك انحرفوا عن جادة الحق ولا ينبغي أن تسلم زمام أمورك بيد هؤلاء الظالمين.

[٤٣٤] (١). سورة طه، الآية ٤١.

- [٤٣٥] (٢). سورة طه، الآية ٣٩.
- [٤٣٦] (١). عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٨٤.
- [٤٣٧] (٢). سفينة البحار، مادة حمزة.
- [٤٣٨] (٣). المصدر السابق.
- [٤٣٩] (١). الإصابة، ج ١، ص ٣٥٤.
- [٤٤٠] (٢). اسد الغابة، ج ٢، ص ٤٨.
- [٤٤١] (٣). مكارم الأخلاق، ص ٢٨٠؛ بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ٣٣٣، ح ١٦.
- [٤٤٢] (٤). الكافي، ج ٨، ص ١٨٩، ح ٢١٦ (مع تلخيص يسير).
- [٤٤٣] (١). سورة الملك، الآية ٢٧.
- [٤٤٤] (٢). الكافي، ج ٨، ص ٢٦٧، ح ٣٩٢.
- [٤٤٥] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ٧٢. ونقل هذا الحديث ابن عساكر في تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٦٧.
- [٤٤٦] (١). مختصر تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٦٦.
- [٤٤٧] (٢). الإصابة، ج ١، ص ٢٣٧، ترجمة حياة جعفر بن أبي طالب.
- [٤٤٨] (٣). مختصر تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٦٨.
- [٤٤٩] (٤). من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٩٧، ونقل هذا الحديث ابن عساكر في مختصر تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٦٧ أيضاً.
- [٤٥٠] (١). سفينة البحار، مادة جعفر.
- [٤٥١] (١). «طُول» بمعنى الإمكانات والقدرة المالية، ورد بمعنى الفضل والعطاء أيضاً، وفي الأصل «طول» في مقابل «عرض»، لأنَّ القدرة المالية أو الجسمية نوع من الطول وقدرة الإنسان و«ذِي الطُول» بمعنى العطاء والجود، وعلى هذا الأساس أنَّ عبارة «عاديّ طوُلنا» في الجملة أعلاه بمعنى العطايا الدائمة.
- [٤٥٢] (٢). «الأَكْفَاء» جمع «كفؤ» على وزن «قفل» بمعنى الترادف والتساوي في الشخصية.
- [٤٥٣] (٣). «الأَحْلَاف» جمع «حلف» على وزن «جلف» بمعنى العهد والميثاق و«حلف» على وزن «حرف» تعني القسم واليمين، وبما أنَّ العهد يتمُّ توكيده بالقسم فسميت هذه العملية بالحلف.
- [٤٥٤] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٩٧.
- [٤٥٥] (١). صحيح مسلم، ج ٧، ص ١٤٣ و ١٤٤.
- [٤٥٦] (٢). مسند أحمد، ج ٣، ص ٨٠؛ مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٨٦.
- [٤٥٧] (١). في ظلال نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٧١.
- [٤٥٨] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٩٨-٢٩٥.
- [٤٥٩] (٣). سورة الأنفال، الآية ٧٥.
- [٤٦٠] (٤). سورة آل عمران، الآية ٦٨.
- [٤٦١] (١). «فَلَجُوا» من مادة «فَلَج» على وزن «فتح» بمعنى الانتصار والنجاح، و«فَلَج» على وزن «حرج» اسم مصدر بمعنى النصر، ومفردة «فلج» على وزن «خرج» تعني الشق والفاصلة بين شيئين وأحياناً يتسبب في الشلل والقعود عن الحركة والمشى بشكل غير سليم.
- [٤٦٢] (١). تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٤٣ (حوادث سنة ١١).
- [٤٦٣] (٢). سفينة البحار، مادة أسد.

[٤٦٤] (٣). انظر: كتاب الإمامة والسياسة، ص ٩ وما بعدها.

[٤٦٥] (١). «شكأة» و«شكو» و«شكاء» و«شكوى» في الأصل تعني المرض، ثم اطلقت على كل عيب ونقص، والشكاية تعني اظهار الألم والتظلم.

[٤٦٦] (٢). «ظاهر» عندما تتعدى بحرف عن تعني الزوال والانهاء، وجملة «ظاهر عَنكَ عارُها» تعني أن ذلك العار والعيب لا يصيبك ولا ينتسب إليك.

[٤٦٧] (١). «المخشوش» في الأصل يقال للجمل الذي ثقب أنفه وادخل فيه حبل أو خشبة متصلة بحبل، فعندما يسحب ذلك الحبل يميل هذا الحيوان معه حيثما مال، لأنه لا يستطيع مقاومة الألم الناشئ من جرّ هذا الحبل.

[٤٦٨] (١). «غضاضة» بمعنى النقصان والعيب، وهي من مادة «غض» وتعني التفتيص والتقصير.

[٤٦٩] (٢). «سح» من «السوح» على وزن «فتوح» بمعنى التذكر والفهم.

[٤٧٠] (١). «أعدى» بمعنى أشد عداوة، وهي في الأصل من مادة عداوة.

[٤٧١] (٢). «مقاتل» جمع «مقتل» بمعنى محل القتل أو الموضع الخاص من بدن الإنسان الذي إذا أصيب فإنه يؤدي إلى موت الإنسان وقتله.

[٤٧٢] (٣). «فاسْتَتَعَّدَه» يستفاد من مجموع القرائن الموجودة في هذه العبارة أن ضمير الفاعل يعود إلى عثمان وضمير الفاعل يعود إلى الإمام عليه السلام يعني أن عثمان لم يقبل بدعم الإمام عليه السلام ودفاعه عنه، وكان قد طلب من الإمام عليه السلام أن يسكت ويجلس في مكانه ويترك الدفاع عنه، ولكن البعض عكسوا هذا المعنى وقالوا: إن الإمام عليه السلام طلب من عثمان أن يجلس ويترك السلوكيات الخاطئة ويستجيب لمطالب الناس، ولكن هذا المعنى بعيد، فعندما ندقق في فاء التفرع في «فاسْتَتَعَّدَه» نرى أن المعنى الأول أقرب وأوضح.

[٤٧٣] (١). «بث» في الأصل بمعنى نشر وفرق و«منون» بمعنى الموت، وعلى ضوء ذلك فإن جملة «بَثَّ الْمُنُونَ» يعني وفر أسباب الموت.

[٤٧٤] (١). الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٢١٤.

[٤٧٥] (٢). «المعوقين» من مادة «عَوَّق» على وزن «فوق» بمعنى المنع والانصراف عن عمل معين، و«عائق» تعني «المانع» و«معوق» بمعنى ما يمنع من الشيء.

[٤٧٦] (٣). سورة الأحزاب، الآية ١٨.

[٤٧٧] (١). «انقم» من مادة «نقم» على وزن «نقم» في الأصل بمعنى إنكار الشيء. ثم استخدمت بمعنى الانتقام والانتقاد، وفي هذا المورد جاءت بالمعنى الثاني.

[٤٧٨] (٢). «احداث» جمع «حدث» على وزن «عبث» وتعني كل شيء جديد، وتأتي بمعنى البدعة، وجاءت هنا بهذا المعنى الأخير.

[٤٧٩] (٣). «الظنّة» بمعنى التهمة من «الظنّة»، بمعنى إساءة الظن.

[٤٨٠] (٤). «المُتَّصِح» تعني الشخص الخير والذي ينصح الآخرين بكثرة.

[٤٨١] (١). سورة هود، الآية ٨٨.

[٤٨٢] (٢). الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٥٩؛ تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٩، ص ٤١٨.

[٤٨٣] (١). تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٩، ص ٣٣٧.

[٤٨٤] (٢). تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤١٦ إلى ٤١٨.

[٤٨٥] (٣). المصدر السابق.

- [٤٨٦] (٤). المصدر السابق.
- [٤٨٧] (١). شرح نهج البلاغة للعلامة التستري، ج ٩، ص ٦١١.
- [٤٨٨] (١). «استعبار» من مادة «عبر» على وزن «ابر» بمعنى البكاء وذرف الدموع.
- [٤٨٩] (٢). «الفيت» من «الإلقاء» بمعنى العثور على الشيء فجأة.
- [٤٩٠] (٣). «ناكلين» جمع «ناكل» وهو الإنسان الضعيف والجبان الذي يتراجع عن العمل المقرّر، من «النكول» ويعنى الخوف والتراجع.
- [٤٩١] (١). «هيجاء» بمعنى الحرب، لأنّ الإنسان يعيش حالة الهيجان في الحرب.
- [٤٩٢] (١). سورة التوبة، الآية ١٠٠.
- [٤٩٣] (٢). «قتام» بمعنى الغبار.
- [٤٩٤] (٣). «مُتسربلين» في الأصل من «سربال» وهو الثوب، ومتسربل يقال للشخص الذي يرتدى ثوباً، وهنا يشبه الإمام عليه السلام الشهادة بالثوب الذي يرتديه المحاربون من جيشه على أبدانهم، وهو ثوب الافتخار والزينة.
- [٤٩٥] (٤). «نصال» جمع «نصل» على وزن «نسل» ويعنى رأس السهم أو ذؤابه السيف.
- [٤٩٦] (١). سورة هود، الآيتان ٨٢ و ٨٣.
- [٤٩٧] (٢). صفيين، ص ٢٣٦.
- [٤٩٨] (١). سند الرسالة:
- تتعلق هذه الرسالة بالفتنة التي أشعل فتيلها معاوية في البصرة بواسطة شخص يدعى ابن الحضرمي، وغايته من ذلك التسلط على البصرة حيث أمر معاوية باستغلال الأحقاد المترسبة لدى أهل البصرة من المهزومين في معركة الجمل وكذلك استغلال قضية مقتل عثمان بن عفان لتثوير الناس في البصرة واخراجها من دائرة حكمه أمير المؤمنين عليه السلام، ولكن لم يحالفهم التوفيق، حيث قتل ابن الحضرمي في هذه الواقعة، وقد ذكر الواقعة «إبراهيم الثقفي» في كتابه المعروف الغارات، وبعد أن هدأت هذه الفتنة أرسل الإمام عليه السلام هذه الرسالة إلى أهالي البصرة بواسطة بعض أصحابه، وينبغي الالتفات إلى أنّ كتاب «الغارات» تمّ تأليفه قبل السيد الرضي، ومن هنا فإنّه اقتبس هذه الرسالة من مصدر آخر غير نهج البلاغة. (وصاحب هذا الكتاب إبراهيم بن هلال الثقفي المتوفى في سنة ٢٨٣) (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٧٩).
- [٤٩٩] (١). لمزيد الاطلاع انظر: الغارات، ج ٢، ص ٣٧٣-٤١٢.
- [٥٠٠] (١). «حَيْل» أصله بمعنى العهد والذمة، ثم اطلق على كل شيء مفتول، وجمله «انْتِشَارُ حَيْلِكُمْ» كناية عن التفرق وتشتت الجماعة.
- [٥٠١] (٢). «شفاق» في الأصل تعنى العداوة والكراهية، وهنا جاءت بمعنى نقض العهد وترك البيعة.
- [٥٠٢] (٣). «تغبوا» من «الغباوة» بمعنى الجهل والغفلة، وعلى ضوء ذلك فإنّ جملة «لَمْ تَغْبُوا عَنْهُ» تعنى أنكم لستم غافلين عنه.
- [٥٠٣] (٤). الكافي، ج ٥، ص ٣٢.
- [٥٠٤] (٥). المصدر السابق، ص ١٢، ح ٢.
- [٥٠٥] (٦). «خطت» من «الخطو» على وزن «ختم» بمعنى تقديم القدم في المشى، و«خطوة» بمعنى تقديم القدم مرّة واحدة بحيث توجد فاصلة بين القدم في حال المشى، وهذه المفردة تعدى بالباء ويكون مفهوم الجملة مورد البحث أنّ الأفكار المهلكة والآراء السخيفة والمفسدة تقودكم إلى المخالفة والتمرد.
- [٥٠٦] (١). «مُنَابَذَةٌ» بمعنى المخالفة والمجابهة، وهي في الاصل من «النبد» بمعنى الإلقاء بعيداً وكأنّ الشخص في مخالفته للآخر يدفع

به إلى المجابهة بعيداً عن الصلح والمواءمة.

[٥٠٧] (٢). «ها أنا ذا» عبارة مركبة من ثلاث كلمات: «ها» للتنبية، و«أنا» ضمير المتكلم الواحد و«ذا» اسم إشارة ومفهوم الجملة أنكم على علم بى وتعرفونى.

[٥٠٨] (٣). «جِياد» جمع «جواد» وهى الخيل الممتازة.

[٥٠٩] (٤). «رَحَلْتُ» من مادة «رحل» على وزن «نخل» بمعنى وضع القتب على الإبل، و«ركاب» تعنى الإبل.

[٥١٠] (٥). «وَقَعَهُ» بمعنى الهجمة فى الحرب.

[٥١١] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ٤.

[٥١٢] (١). سند الرسالة:

جاء فى كتاب مصادر نهج البلاغة أن ابن أبى الحديد فى شرحه وابن ميثم فى شرحه لنهج البلاغة ذكرا هذه الرسالة مع إضافات قيمة لا توجد فى نهج البلاغة، وهذه الحقيقة تشير إلى وجود مصادر أخرى لهذه الرسالة كانت بين أيديهما، مضافاً إلى وجود بعض التفاوت بين نقل ابن أبى الحديد وابن ميثم مما يشير إلى أن لكل منهما مصدر مستقل اقتبس منه هذه الرسالة، وقد أورد العلوى فى كتابه الطراز بعض مقاطع هذه الرسالة بتعبيرات متفاوتة عن تعبيرات السيد الرضى، وهذا بدوره يدل على وجود مصدر آخر لهذه الرسالة. مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٧٠.

[٥١٣] (١). سورة المجادلة، الآية ٢٢.

[٥١٤] (١). ورد هذا الحديث الشريف بهذه العبارة فى كتب الشيعة، مثل: وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٩٢، ح ٢٣، باب ٣٣ من أبواب كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفى كتب أهل السنة ورد بتعابير مشابهة عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله من قبيل: «مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِمَامٌ فَمَيِّتُهُ مَيِّتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ». (المعجم الكبير، ج ١٠، ص ٢٨٩).

وفى حديث آخر عن معاوية بن أبى سفيان أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ مَاتَ بِغَيْرِ إِمَامٍ مَاتَ مَيِّتَةً جَاهِلِيَّةً» (مسند أحمد، ج ٤، ص ٩٦).

[٥١٥] (٢). «مَحَجَّةٌ» بمعنى الجادة الواسعة والطريق المستقيم والواضح.

[٥١٦] (٣). «نَهَجَةٌ» تارة تأتى بمعنى اسم المصدر وتعنى المنهج، وأخرى بمعناها الوصفى وتعنى الواضح والبين.

[٥١٧] (٤). «أَكْيَاسٌ» جمع «كيس» بمعنى الذكى والمنتبه والحكيم.

[٥١٨] (٥). «الْأُنْكَاسُ» جمع «نكس» على وزن «حرص» ويعنى الإنسان الضعيف والذليل والجاهل، من مادة «نكس» على وزن «عكس» وتعنى المنقلب وجعل على الشىء سافله.

[٥١٩] (١). غرر الحكم، ص ٣٢٢، ح ٧٤٦٤.

[٥٢٠] (٢). بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٦٢.

[٥٢١] (١). «نكب» من «النكب» على وزن «نقب» وتعنى الانحراف فى المسير، و«ناكب» هو الشخص الذى انحرف عن الطريق وأعرض عنه، ومن هذه الجهة يقال لمن أعرضت الدنيا عنه أنه منكوب وأصابته نكبة.

[٥٢٢] (٢). سورة الأنفال، الآية ٥٣.

[٥٢٣] (٣). سورة المائدة، الآية ١٠٥.

[٥٢٤] (١). «أَوْلَجْتِكَ» من «الإيلاج» و«ولج» بمعنى دخول شىء ووروده، وعلى ضوء فإنَّ «أَوْلَجْتِكَ شَرًّا» من باب إفعال وتأخذ مفعولين ومفهومها أن نفسك جرّتك إلى الشر وادخلتك فيه.

[٥٢٥] (٢). «أَفْحَمْتِكَ» من «الإفحام» بمعنى قذف الشىء فى داخل شىء آخر، وهذا الفعل أيضاً يأخذ مفعولين ومعنى الجملة أن

نفسك قد قذفت بك في طريق الضلالة ومناهة الفتنة.

[٥٢٦] (٣). «غى» بمعنى الضلالة والانحراف.

[٥٢٧] (٤). «أَوْعَرْتُ» من «الإيعار» و«وعر» على وزن «وقت» فى الأصل بمعنى الصعوبة والعسر والحرص، وجملة «أَوْعَرْتُ عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ» تعنى أنها صعبت عليك العثور على طرق النجاة، ولهذا يقال للأرض المليئة بالأحجار والمطبات أنها أرض وعرة و«وعير».

[٥٢٨] (١). تقرأ هذه المفردة تارة بصورة تشبيه (بفتح الراء) وأخرى بصورة جمع (بكسر الراء). وفى الصورة الأولى تشير إلى مكان معين بين حلب وقنسرين من أراضى الشام، وفى الصورة الثانية يمكن أن تكون إشارة إلى ذلك المكان باعتبار حضور أقوام مختلفة فيه.

[٥٢٩] (٢). سند الرسالة:

تعتبر هذه الرسالة كما يقول صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة، من أشهر رسائل ووصايا الإمام

[٥٣٠] (٣) أمير المؤمنين عليه السلام والتي ذكرها جماعة من أبرز علماء الإسلام فى كتبهم قبل ولادة السيد الرضى، منهم المرحوم الشيخ الكلينى فى كتاب الرسائل والمرحوم الحسن بن عبد الله العسكرى (من أساتيد الشيخ الصدوق) فى كتاب الزواجر والمواعظ، وصاحب كتاب عقد الفريد فى موضعين من كتابه فى باب مواعظ الآباء للأبناء، والحسن بن على بن شعبة فى كتاب تحف العقول، ضمن بيانه لكلمات الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام، والشيخ الصدوق بدوره نقل أيضاً مقاطع من هذه الوصية فى موردين من كتاب من لا يحضره الفقيه، ونقلها بعد السيد الرضى جماعة كثيرون فى كتبهم منهم: المرحوم السيد ابن طاووس فى آخر كتاب كشف المحجبة، ضمن بيان أن هذه الوصية وردت بأسناد متعددة، ومجموعة الأسناد التى أوردها هؤلاء العلماء فى كتبهم لهذه الرسالة تصل إلى ستة طرق وأسناد (ويتبين من مجموعة هذه الطرق والأسناد لهؤلاء العلماء أن انتساب هذه الرسالة إلى الإمام على عليه السلام لا يبقى مجالاً للشك والتردد، أضف إلى ذلك أن محتوى هذه الرسالة والوصية إلى درجة من القوة والمتانة بحيث لا يمكن صدورها من غير المعصوم). (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٠٧-٣١١).

[٥٣١] (١). الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٢٩.

[٥٣٢] (١). «زمان» فى الأصل يراد به الوقت المعروف الذى يشمل الأوقات القصيرة والطويلة، ولكن بما أن الزمان فى هذه الدنيا يقترن بالحوادث المختلفة المزة والحلوة، فهذه المفردة تشير أحياناً إلى هذا المعنى، و«المُقَرُّ لِلزَّمان» إشارة إلى الشخص الذى يعيش الإذعان والقبول بهذه الحقيقة وهى أن الدنيا دار حوادث ومتغيرات، ولكنه عملاً لا ينسجم مع هذه الحوادث.

[٥٣٣] (١). ورد فى الكثير من النصوص والشروح لنهج البلاغة بعد هذه الصفة صفة أخرى وهى «الذائم لِلدُّنيا» وحينئذ تبلغ صفات الدنيا فى هذا المقطع إلى سبع صفات.

[٥٣٤] (٢). «الظَّاعِن» بمعنى المنتقل، من «الظعن» على وزن «ظعن» وتعنى الانتقال من مكان إلى آخر.

[٥٣٥] (١). «الغرض» بمعنى الهدف الذى يوضع ليرميه المتسابقون والرماء.

[٥٣٦] (٢). «رهينة» من الرهن وهو الثبات ودوام الشىء، والرهينة جمعها رهائن وهى ما يرهن ويحتسب فيه الشىء فى مقابل ثمن.

[٥٣٧] (٣). «رمية» عبارة أخرى عن «غرض» و«هدف» (صفة مشبهة بمعنى المفعول).

[٥٣٨] (٤). «حليف» بمعنى المتفق والذى يجتمع معه بميثاق، من مادة «حلف» على وزن «حرف» وهو القسم واليمين.

[٥٣٩] (٥). سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

[٥٤٠] (١). نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٦.

[٥٤١] (٢). القائل هو ليلى بن ربيعة الجعفرى، وهو من المعمرين، انظر: كمال الدين وتمام النعمة، ص ٥٦٥، بحار الأنوار، ج ٥١، ص

- [٥٤٢] (١). «جُمُوح» بمعنى التمرد والطغيان، و«جُمُوح» على وزن «قبول» وفي الأصل تعنى الحيوان المتمرد والمنفلت، ثم اطلقت على كل إنسان منفلت ومتمرد بل تطلق أيضاً على الحوادث والقضايا التي تخرج عن اختيار الإنسان.
- [٥٤٣] (١). «يَزَع» من مادة «وزع» على وزن «وضع» بمعنى المنع والاعاقه عن شيء.
- [٥٤٤] (٢). «ما وَرَائِي» إشارة إلى أهل الدنيا، المقامات، الثروات وأمثال ذلك، وغرض الإمام عليه السلام من ذلك بيان هذه الحقيقة وهي أن الالتفات إلى قرب الانتقال من هذه الدنيا معني من الميل للأمر الدنيوي وجعلني ملتفتاً لمصيري ومستقبلي، والعجيب أن بعض شراح نهج البلاغه ذكروا في معني «ما وَرَائِي» أنها تعني الآخرة، في حين أن مفهوم هذه العبارة يكون بهذه الصورة: إن الالتفات إلى نهاية عمري شغلني عن الاهتمام بأمر الآخرة، وهذا التفسير مجاني للصواب.
- [٥٤٥] (٣). «صدف» من مادة «صدف» على وزن «حذف» بمعنى الإعراض عن شيء.
- [٥٤٦] (٤). «أَفْضَى» من «الإفضاء» و«فضاء» وتعني الوصول إلى شيء وكأنه دخل إلى فضائه وجوه.
- [٥٤٧] (١). «مستظها» من «الاستظهار» بمعنى طلب المعونة والنصرة من شخص أو شيء.
- [٥٤٨] (٢). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٦١.
- [٥٤٩] (١). شرح نهج البلاغه التستري، ج ٨، ص ٣٣٠.
- [٥٥٠] (٢). بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٩٥.
- [٥٥١] (٣). سورة ابراهيم، الآيتان ٢٤ و ٢٥.
- [٥٥٢] (١). سورة الرعد، الآية ٢٨.
- [٥٥٣] (٢). بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ١٥١، ح ٦ والآية ٢٠١ من سورة الأعراف.
- [٥٥٤] (٣). سورة آل عمران، الآية ١٠٣.
- [٥٥٥] (١). «قَزَر» من «التقرير» وتأتي بمعنيين، الأول، التثبت ووضع الشيء في محله، والآخر بمعنى دفع شخص للإقرار والإعتراف بشيء معين، وفي الجملة مورد البحث جاءت بالمعنى الثاني، يعني اجعل قلبك يقَرّ ويعترف بفناء الدنيا.
- [٥٥٦] (١). «فحش» يقال لكل عمل خرج عن حد الاعتدال واتجه نحو القبح، ولذلك تطلق هذه الكلمة على جميع المنكرات والقبائح الفاضحة، فيقال «فحش» و«فحشاء»، رغم أن هذه المفردة تستخدم في مورد الانحرافات الجنسية (وأحياناً تأتي كلمة فحش بمعناها المصدرى وأخرى يراد منها اسم المصدر).
- [٥٥٧] (١). «حَلُوا» من مادة «حلّ» تأتي أحياناً بمعنى فتح العقدة وحل المشكلة، وأخرى الدخول إلى مكان معين، وفي الجملة أعلاه جاءت بالمعنى الثاني.
- [٥٥٨] (٢). سورة الروم، الآية ٤٢.
- [٥٥٩] (١). سورة الحج، الآية ٤٦.
- [٥٦٠] (١). الكافي، ج ٢، ص ٢٨٠، باب الكبائر، ح ١١.
- [٥٦١] (٢). انظر: الكافي، ج ٢، ص ٢٨٢، باب الكبائر، ح ١٦.
- [٥٦٢] (١). ميزان الحكمة، ح ١٧٠٣٠.
- [٥٦٣] (٢). المصدر السابق، ح ١٧٠٣١.
- [٥٦٤] (٣). الخصال، ص ٢٢٨.
- [٥٦٥] (٤). غرر الحكم، ص ٤٣٠، ح ٩٧٩٥.
- [٥٦٦] (٥). المصدر السابق، ص ٤٢٩، ح ٩٧٧٤.

- [٥٦٧] (١). نهج البلاغة، الخطبة ١٨٨.
- [٥٦٨] (٢). نهج البلاغة، الكلمات القصار ٨٩.
- [٥٦٩] (٣). سورة الشمس، الآيتان ٧ و ٨.
- [٥٧٠] (٤). بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٢٤.
- [٥٧١] (١). شرح نهج البلاغة للعلامة التستري، ج ٨، ص ٣٣٢.
- [٥٧٢] (٢). المصدر السابق، ص ٣٣٣ ونقل هذه القصة أيضاً المرحوم المحدث القمي في تنمته المنتهى، ص ٢٤٨.
- [٥٧٣] (١). آداب النفس، ج ١، ص ١٠٤ و ١٠٥.
- [٥٧٤] (١). سورة البقرة، الآية ٨٦.
- [٥٧٥] (٢). سورة الاسراء، الآية ٣٦.
- [٥٧٦] (٣). سورة البقرة، الآية ١٦٩.
- [٥٧٧] (٤). سورة المائدة، الآية ١٠٥.
- [٥٧٨] (١). بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٥٩، ح ٧.
- [٥٧٩] (٢). الكافي، ج ١، ص ٦٨، ح ١٠.
- [٥٨٠] (١). الكافي، ج ٥، ص ٥٨، ح ١٠.
- [٥٨١] (٢). «خض» صيغة أمر من «الخوض» على وزن «حوض» في الأصل بمعنى الدخول التدريجي في الماء، ثم استخدم كناية عن الورد أو الشروع في كل عمل.
- [٥٨٢] (٣). «غمرات» جمع «غمرة» على وزن «ضربة» وأصلها من «غمر» وتعني زوال أثر الشيء، ثم استخدمت في الماء الكثير الذي يغطي جميع جهات الشيء، يقال: «غمرة» و«غامر» ثم اطلقت على كل ابتلاء شديد وجهل يغمر الإنسان ويحيط به من كل جانب و«غمرات الموت» بمعنى الشدائد التي يواجهها المحتضر في حالات الموت.
- [٥٨٣] (١). «تصبر» من مادة «صبر» بمعنى الاستقامة وضبط النفس، والفرق بين التصبر والصبر أن الشخص الصبور هو واقعاً من أهل الصبر والاستقامة، وأما التصبر فيقال في مورد الشخص الذي لم يصبح من أهل الصبر فعلاً، بل يريد أن يملك هذه الحالة النفسية والفضيلة الأخلاقية.
- [٥٨٤] (١). معجم الأدباء، ج ١٢، ص ٣٨ نقلًا عن شرح نهج البلاغة للعلامة التستري، ج ٨، ص ٣٨١.
- [٥٨٥] (١). معجم حكمه العرب، ص ٢٣٨.
- [٥٨٦] (٢). انظر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٢، ص ٥٢٤، البداية والنهاية، ج ٨، ص ١١.
- [٥٨٧] (١). «ألجىء» من «الإلجاء» وأصلها من «الجوء» بمعنى الاحتماء بالشيء، و«الرجاء» تعني دفعه لطلب اللجوء والحماية من الطرف الآخر.
- [٥٨٨] (٢). «كهف» بمعنى الغار الواسع و«كاهن» بمعنى كل شيء ملاذ وملجأ يلجأ إلى الإنسان.
- [٥٨٩] (٣). «حرز» بمعنى المحافظ وهو من مادة «حرز» على وزن «فكر» ويعني حفظ الشيء.
- [٥٩٠] (١). الكافي، ج ٢، ص ٢٩٣، ح ٣.
- [٥٩١] (١). بحار الأنوار، ج ٨٨، ص ٢٢٤، ح ٤.
- [٥٩٢] (٢). «صفح» في الأصل بمعنى الجانب والطرف المواجه للشيء، ومعناه المصدرى الإعراض وصرف النظر عن الشيء، وبما أن صرف الإعراض عن الشيء تارة بدفاع العفو الصفح وأخرى بسبب الغضب والاستياء، فهذه المفردة تستعمل بكلا المعنيين، وضمناً

ينبغي الالتفات إلى أنّ فاعل تذهبن هو الوصية، ومعنى الجملة أنّ وصيتي لا ينبغي أن تنسى بسبب الإهمال والإعراض عنها، أى لا تتعامل معها من موقع اللامبالاة والتساهل، وجاء فى بعض النسخ كلمة «عنها»، بدلاً من عنك، وفى هذه الصورة سيكون فاعل تذهبن المخاطب، أى الإمام الحسن عليه السلام.

[٥٩٣] (١). الكافى، ج ١، ص ٣٢، ح ١.

[٥٩٤] (١). «أفضى» من «الإفضاء» وأصلها «فضاء» بمعنى الوصول للشىء وكأنه دخل فى جوه وفضائه، ثم اطلقت على مفهوم إلقاء مطلب معين وتعليمه لآخر وكأنّ المتكلم ألقى هذا المفهوم فى فضاء فكر المخاطب.

[٥٩٥] (٢). «نفور» فى الأصل بمعنى الحيوان الهارب الذى نفر من شىء مخوف، ثم اطلقت على كل إنسان يهرب من شىء.

[٥٩٦] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ٦٦.

[٥٩٧] (٢). نهج البلاغة، الخطبة ٩٣.

[٥٩٨] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ٦٧.

[٥٩٩] (١). شرح نهج البلاغة، ابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ٦٧.

[٦٠٠] (٢). «بغية» بمعنى الطلب، من مادة «بغى» على وزن «نقى»، ويقول الراغب فى مفرداته إنّ هذه الكلمة تعنى أحياناً مفهوماً ايجابياً وهو طلب الخيرات، وأخرى مفهوماً سلبياً وهو تجاوز حدّ العدالة والميل لجهة الظلم والباطل.

[٦٠١] (١). الكافى، ج ٨، ص ٩٣.

[٦٠٢] (١). الكافى، ج ٢، ص ٦٠٣، ح ٤.

[٦٠٣] (٢). المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٧، ح ٥.

[٦٠٤] (٣). القائل هو سابق البربرى، انظر: جامع البيان العلم وفضله، ص ٨٣.

[٦٠٥] (١). «نخيل» من «النخل» فى الأصل تعنى الغريال الذى يستخدم فى تطهير الدقيق من الشوائب والنخاله، ثم اطلقت كلمة «نخيل» على كل شىء تمت تصفيته وتنقيته، والمراد من العبارة أعلاه أننى اخترت لك الشىء النقى والمصفى من تاريخ وسيرة القدماء وتركت الأمور المظلمة والكدره جانباً، وينبغى الالتفات إلى أنّ «نخيل» بهذا المعنى لها جهة وصفية، وهى غير «نخيل» جمع «نخل» وهى شجرة التمر.

[٦٠٦] (٢). «توخيت» من «الوحتى» على وزن «نقى» بمعنى قصد الشىء والتوجه إليه، و«توحتى» فى هذا المورد جاءت بمعنى الانتخاب والاصطفاء.

[٦٠٧] (٣). «مقتبل» بمعنى مطلع وبداية كل شىء، وهى من «الإقبال» وتعنى الشروع بالأمر والابتداء عمل معين.

[٦٠٨] (١). سورة يوسف، الآية ١١١.

[٦٠٩] (١). سورة يوسف، الآية ٣.

[٦١٠] (٢). سورة الروم، الآية ٤٢.

[٦١١] (١). «شرائع» جمع «شريعة» وفى الأصل بمعنى الشاطىء والمحل الذى يرد منه الإنسان إلى النهر ليشرب، لأنّ سطح الأنهار عادة يقع أسفل من سطح الأرض، ولذلك يتم تعديل الشاطىء بشكل انسيابى وتدرىجى أو على شكل مدرجات ليستطيع الناس من الوصول إلى الماء بسهولة. ثم اطلقت هذه المفردة على الأحكام السماوية والشريعة والتعاليم الإلهية للناس، أعم من العقائد والأحكام والأخلاق، وارتباطها بالمعنى الأصلى واضح، لأنّ الإيمان والتقوى والعدل والصلح حالها حال ماء الحياة للإنسان وتحقيق السعادة الأبدية والطريق الوصول إليها من خلال الشريعة الإلهية.

[٦١٢] (١). «شفقة» تأتى فى مثل هذه الموارد مرادفة للخوف، فى حين أنّ معناها الأصلى على حدّ قول بعض الادباء التوجه للشىء

المقترن بالخوف، أو بعبارة أخرى الخوف مقترن بالحب والاحترام والأمل، لأن هذه الكلمة في الأصل من مادة «شفق» وهو ضوء الصبح الباكر الممتزج بالظلام، غاية الأمر أن هذه المفردة إذا جاءت مع «من» المتعدية فإن جهة الخوف ستكون غالبية في العبارة مورد البحث، وعندما تأتي متعدية بحرف «في» و«على»، فإن المودة والشفقة ستكون الغالبة، كأن يقول الإنسان لصديقه: «أنا مُشْفِقٌ عَلَيْكَ». [٦١٣] (١). مفردة «رشد» في الأصل بمعنى السير نحو المقصد، وجمله «راشداً مَهْدِيّاً» دعاء يقال عند توديع المسافر، يعني إن شاء الله ستصل إلى مقصودك وتهتدي إلى مرادك.

[٦١٤] (٢). «قصد» تأتي أحياناً بمعنى التية، وأخرى بمعنى سلوك الطريق المستقيم والمعتدل بعيداً عن الإفراط والتفريط، و«قَصِدُ السبيل» تعني الجادة التي يسلكها الإنسان للوصول إلى مقصده.

[٦١٥] (١). بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٣١.

[٦١٦] (٢). وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٢٩، ابواب صفات قاضي، باب ١٢، ح ٦١.

[٦١٧] (٣). «أَوْلَجْتِكَ» من «الإيلاج» وأصلها «لوج» بمعنى الدخول في مكان محدود، وعندما تأتي من باب إفعال تكون متعدية، وعليه فإن «أَوْلَجَ» يعني ادخال شخص أو شيء آخر.

[٦١٨] (١). مجاني الأدب، ص ٤٧.

[٦١٩] (٢). «عَشَوَاء» في الأصل بمعنى الجمل الأعشى وضعيف البصر، ولهذا يضل الطريق ويتمايل نحو اليمين واليسار، ثم اطلقت على كل إنسان يسير بهذه الكيفية.

[٦٢٠] (٣). «تَوَرَّطَ» من «التورط» على وزن «توكل» وتعني السقوط في مكان يصعب الخلاص منه أو يستحيل الخروج منه.

[٦٢١] (٤). «أَمَثَل» من «المثول» على وزن «طلوع» بمعنى الأفضل والأحسن و«أماثل» و«مُثَل» على وزن «كتب».

[٦٢٢] (١). سورة الأعلى، الآيات ٢-٤.

[٦٢٣] (١). سورة النحل، الآية ٧٨.

[٦٢٤] (١). سورة لقمان، الآية ٢٧.

[٦٢٥] (٢). سورة الأعراف، الآية ٨٥.

[٦٢٦] (١). «رائد» من مادة «رود» على وزن «عود»، وكما ورد في المتن أن الأصل فيها بمعنى السعي وبذل الجهد للعثور على الماء والكلاء، ثم اطلقت على كل سعي للعثور على شيء، والحديث الشريف «الرَّائِدُ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ»، ناظر إلى هذا المعنى، وبما أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان في صدد تحقيق السعادة لأنصاره وأتباعه فيقال عنه أنه «رائد».

[٦٢٧] (١). «آل» صيغة المتكلم الواحد، من مادة «ألو» على وزن «دلو» وهي في الأصل بمعنى التقصير، وجمله «لم آلك نصيحة» تعني لم أقصر في اسداء النصيح إليك، واللافت أن هذا الفعل لازم لا يأخذ مفعول، رغم أن البعض تصور أنه يأخذ مفعولين، المفعول الأول هو ضمير الخطاب «آلك» والمفعول الثاني «نصيحة»، في حين أن النصيحة تمييز وضمير الخطاب متعلق بمحذوف وهو في الأصل «لم آل لك».

[٦٢٨] (١). «خطر» في هذا المورد يعني القدر والمنزلة.

[٦٢٩] (٢). سورة الحشر، الآية ١٩.

[٦٣٠] (١). سورة المائدة، الآيات ٩٠ و ٩١.

[٦٣١] (١). بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٢٦٧، ح ٤٦.

[٦٣٢] (٢). سورة البقرة، الآية ١٨٣.

[٦٣٣] (٣). بحار الأنوار، ج ٥٤، ص ٢٣٨.

- [٦٣٤] (١). «خَبَرَ» فعل ماضى من «الخَبِر» على وزن «قفل» بمعنى الأطلاع على الحدث، وأحياناً تأتي بمعنى الاختبار للاطلاع على الخبر.
- [٦٣٥] (٢). «سَفَرَ» جمع مسافر.
- [٦٣٦] (٣). «جَدِيب» بمعنى الجاف وبدون ماء وعلف، وهو من مادة «جَدَب» على وزن «جلب».
- [٦٣٧] (٤). «أَمْوًا» من مادة «أَمَّ» على وزن «غم» بمعنى القصد.
- [٦٣٨] (٥). «خَصِيب» بمعنى كثير النعمة والماء والنبات، من مادة «خَصَب» على وزن «جسم» وهو زيادة النعمة وكثرتها.
- [٦٣٩] (٦). «جَنَاب» بمعنى الناحية.
- [٦٤٠] (٧). «مَرِيع» بمعنى كثير النعمة والخير، من مادة «مرع» على وزن «رأى» وهو الكثرة والوفرة، و«أَرْضٌ مَرِيعَةٌ» الأرض الكثيرة المحصولات الزراعية.
- [٦٤١] (٨). «وَعَثَاء» من مادة «وَعَث» على وزن «درس» بمعنى الرمال الناعمة التي تدخل فيها الأقدام وتمنع الشخص من إدامه المسير، أو يعسر عليها المشى، ثم اطلقت على جميع المشكلات التي تعيق الإنسان في حركة الحياة، و«وَعَثَاءُ الطَّرِيقِ» إشارة إلى مشكلات السفر.
- [٦٤٢] (٩). «جُشُوبَةٌ» بمعنى الخشونة والغلظة.
- [٦٤٣] (١). «أَفْطَعَ» بمعنى غير مقبول، من «الْفَطَاعَةُ» وهى الشناعة والغلظة.
- [٦٤٤] (١). سورة البقرة، الآية ٩٦.
- [٦٤٥] (٢). بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٥٤.
- [٦٤٦] (٣). معانى الأخبار، ص ٣٩٠.
- [٦٤٧] (١). فى ظلال نهج البلاغة، ج ٣، ص ٥٠٢.
- [٦٤٨] (٢). الكافى، ج ٢، ص ١٤٦، باب الانصاف والعدل، ح ١٠.
- [٦٤٩] (٣). مجمع الزوائد للهيثمى، ج ١، ص ١٢٩. وهذا الحديث ذكره المرحوم المحدث القمى فى كتابه منتهى الآمال فى فصل الفضائل الأخلاقية للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله.
- [٦٥٠] (١). غرر الحكم، ص ٣٠٩، ح ٧١٠٣.
- [٦٥١] (٢). المصدر السابق، ص ٦٥، ح ٨٤٨.
- [٦٥٢] (٣). المصدر السابق، ح ٨٤٦.
- [٦٥٣] (٤). المصدر السابق، ص ٣٠٩، ح ٧١٠٦.
- [٦٥٤] (٥). المصدر السابق، ح ٧٠٩٦.
- [٦٥٥] (٦). الكافى، ج ٥، ص ٧٢، ح ٧.
- [٦٥٦] (١). سورة البقرة، الآية ١٦٧.
- [٦٥٧] (٢). الكافى، ج ٤، ص ٤٢، ح ٢.
- [٦٥٨] (١). «ارتباد» من مادة «رَوَد» على وزن «قَوْم» فى الأصل تعنى الذهاب والمجىء مع المداراة والملاءمة فى طلب الشىء، وبالنسبة لمشتقاتها تارة تغلب جهة الطلب وأخرى جهة الرفق والمداراة، ومفردة «إرادة» مشتقة من هذ الأصل أيضاً.
- [٦٥٩] (٢). «بلاغ» بمعنى الشىء الذى يوصل الإنسان إلى مقصده.
- [٦٦٠] (٣). سورة البقرة، الآية ١٩٧.

- [٦٦١] (٤). سورة العنكبوت، الآية ١٣.
- [٦٦٢] (١). بالنسبة للضمير «تَطَلَّبَهُ» وجملته «فلا تَجِدُهُ» هناك خلاف بين شراح نهج البلاغة في عودة هذا الضمير، فلاحتمال الأول أنه يعود إلى الشخص الفقير والمحتاج فكأنه يحمل على أكتافه الصدقات والمثوبات ويسلمها يوم القيامة لصاحبها، والاحتمال الآخر أنه يعود على المال نفسه، يعنى سيحين الوقت الذى تطلب مالاً لانفاقه فى سبيل الله وليس لديك مال، ولكن التفسير الأول أرجح كما ذكرنا فى المتن، وجملته «وَاعْتَنِمِ» شاهد على ذلك.
- [٦٦٣] (١). سورة البقرة، الآية ٢٤٥.
- [٦٦٤] (٢). سورة البلد، الآيات ١١-١٤.
- [٦٦٥] (٣). بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٦٥، ح ٢٧.
- [٦٦٦] (١). «كژود» بمعنى الطريق الشاق وصعب العبور، من مادة «كند» على وزن «عهد» بمعنى شدة وصعوبة والعسر.
- [٦٦٧] (٢). «مخف» يعنى الشخص الذى يحمل حملاً حفيفاً، من «خف» على وزن «صف» بمعنى الخفيف.
- [٦٦٨] (٣). «مثقل» يعنى الشخص الذى يحمل حملاً ثقيلاً، من مادة «ثقل».
- [٦٦٩] (١). سورة البلد، الآيات ١١-١٤.
- [٦٧٠] (٢). «ازند» يعنى انتخب واختر لك، من «الإرتياد» كما ذكرنا فى تفسيرها سابقاً.
- [٦٧١] (٣). «مُشِيَّتَعْتَبَ» مصدر ميمى، يعنى الاعتذار وطلب رضا، من مادة «عتب» على وزن «عطف» وله معانٍ متعددة وأحدها الرضا والبهجة، والشخص الذى يعتذر للشخص المقابل يطلب فى الحقيقة رضاه وعفوه، ولذلك تستعمل هذه المفردة بمعنى الاعتذار.
- [٦٧٢] (٤). «مُنْصَرَفٌ» مصدر ميمى بمعنى العودة.
- [٦٧٣] (٥). مستدرک الوسائل، ج ٢، ص ١٠٤، ح ١٦.
- [٦٧٤] (٦). سورة المؤمنون، الآية ٩٩ و ١٠٠. وأشار إليها فى الآيات ٢٨ من سورة الانعام و ٣٧ من سورة فاطر أيضاً.
- [٦٧٥] (١). سورة الفرقان، الآية ٧٧.
- [٦٧٦] (٢). سورة غافر، الآية ٦٠.
- [٦٧٧] (١). سورة النساء، الآية ٣٢.
- [٦٧٨] (١). سورة يوسف، الآية ٩٧.
- [٦٧٩] (١). «لَمْ يَنَاقِشْكَ» من «المناقشة» بمعنى الدقّة والتشدد فى الحساب، ومن هنا اطلقت هذه المفردة على المناظرة الدقيقة والمباحثات الكلامية الشائكة.
- [٦٨٠] (٢). «نُزُوعٌ» بمعنى الانفصال عن شىء، ومن هنا اطلقت كلمة «نزع» على حالة الإنسان فى سكرات الموت لأنها الحظرات انفصال الروح عن الجسد.
- [٦٨١] (٣). «الاستعتاب» مرّ تفسيرها فى القسم الثامن عشر من هذه الوصية.
- [٦٨٢] (٤). سورة النور، الآية ٣١.
- [٦٨٣] (٥). سورة الشورى، الآية ٢٥.
- [٦٨٤] (١). سورة الكهف، الآية ٥٨.
- [٦٨٥] (٢). سورة الزمر، الآية ٥٣.
- [٦٨٦] (٣). سورة الفرقان، الآية ٧٠.
- [٦٨٧] (٤). سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

- [٦٨٨] (١). «أفضيت» من «الإفضاء» و«فضاء» وتأتي بمعنى الوصول إلى شيء وكأنما دخل في فضائه وجوّه.
- [٦٨٩] (٢). «ابثته» من مادة «بثّ» بمعنى فرق ونشر، وهنا جاءت بمعنى نشرت له عن سرّك وأظهرت عن مكنوناتك.
- [٦٩٠] (١). سورة الشعراء، الآيات ٧٨-٨١.
- [٦٩١] (١). «شآبيب» جمع «شؤبوب» على وزن «بهلول» بمعنى هطول المطر بغزاره وأحياناً تأتي بمعنى كل شدّة.
- [٦٩٢] (٢). الكافي، ج ٢، ص ٢٦٨، ح ٢.
- [٦٩٣] (١). سورة غافر، الآية ٦٠.
- [٦٩٤] (٢). سورة البقرة، الآية ١٨٦.
- [٦٩٥] (١). سورة البقرة، الآية ٢١٦.
- [٦٩٦] (٢). أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٠، ح ٤.
- [٦٩٧] (١). انظر: تفسير مجمع البيان والقرطبي والطبري و تفسير الأمل و كتب أخرى في ذيل الآية الشريفه ٧٥ إلى ٧٨ من سورة التوبة.
- [٦٩٨] (٢). سورة غافر، الآية ٦٠.
- [٦٩٩] (١). مستدرک الوسائل، ج ٥، ص ٢١٦، ح ١١ وكتب عديدة أخرى.
- [٧٠٠] (٢). بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٣٧٢.
- [٧٠١] (٣). أصول الكافي، ج ٥، ص ٥٦، ح ٣.
- [٧٠٢] (١). سفينة البحار، ج ١ بحث الدعاء.
- [٧٠٣] (٢). سورة البقرة، الآية ١٨٦.
- [٧٠٤] (١). سورة الذاريات، الآية ٥٦.
- [٧٠٥] (٢). «قُلَعِيَّة» لها معانٍ كثيرة: وتطلق على الإنسان الضعيف والشخص العاجز عن حفظ نفسه على سرج الجواد، ولا يقدر على حفظ أمواله فلا- تبقى بيده، كذلك تطلق كلمة «قُلَعِيَّة» على المكان الذي ينبغي مغادرته، وفي العبارة أعلاه جاءت بالمعنى الأخير، وأصلها من مادة «قلع» و«يقلع».
- [٧٠٦] (٣). «بُلُغَةٌ» بمعنى الزاد المتاع الذي يوصل الإنسان إلى مقصده، وهو من «البلوغ» و«بلاغ»، لأنّ الزاد يبلغ الإنسان إلى مقصده.
- [٧٠٧] (٤). سورة العنكبوت، الآية ٦٤.
- [٧٠٨] (١). سورة الزمر، الآية ٣٠.
- [٧٠٩] (٢). سورة العنكبوت، الآية ٥٧.
- [٧١٠] (٣). سورة الرحمن، الآية ٢٦.
- [٧١١] (٤). سورة البقرة، الآية ١٩٧.
- [٧١٢] (٥). «طريد» بمعنى «مطروود» أو الصيد الذي يتبعه الصياد وهو من مادة «طرد» بمعنى دفعه إلى الهرب.
- [٧١٣] (٦). سورة النساء، الآية ٧٨.
- [٧١٤] (١). سورة الأحزاب، الآية ١٦.
- [٧١٥] (٢). سورة الزمر، الآية ٣٠.
- [٧١٦] (٣). كان المرحوم الدكتور باقر آية الله زاده الشيرازي استاذاً قديراً في مجال الترميم والعمران، وله إعتقادات دينية قوية وعميقة، وقد ابتدأ بهذه الآية الشريفه «إِنَّا لَأَنْضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا» (الكهف، الآية ٣٠) في محاضراته في ذلك المهرجان.

- [٧١٧] (١). انظر: بحار الأنوار، ج ٣، ص ٨٤، (مع التلخيص والنقل بالمعنى).
- [٧١٨] (١). «حذر» بمعنى التوقى من الخطر والانتباه فى مقابل المستجذات.
- [٧١٩] (٢). «أزر» فى الأصل من «إزار» وهو اللباس، وبخاصة اللباس الذى يرتديه الإنسان على وسطه، وبهذه المناسبة توحى هذه الكلمة بالتأييد والقدرة وامتلاك القوة.
- [٧٢٠] (١). «يبهر» من «البهر» على وزن «بحر» بمعنى حالة تجعل الإنسان مبهوراً أمام الشىء.
- [٧٢١] (٢). «إخلاق» من «الخلد» و«خلود» بمعنى السكون المستمر فى مكان واحد، و«الإخلاق إلى الأرض» بمعنى الالتصاق بها، و«الإخلاق إلى الدنيا» يعنى التمسك بأمور الدنيا والتشبث بها.
- [٧٢٢] (٣). «تكالب» يعنى الهجوم لتحصيل شىء، وهى فى الأصل من مادة «كلب».
- [٧٢٣] (١). «نعت» من مادة «نعى» على وزن «سعى» وتعنى الإخبار بموت شخص.
- [٧٢٤] (٢). سورة الكهف، الآية ٤٥.
- [٧٢٥] (٣). نهج البلاغة، الكلمات القصار، ١٣١.
- [٧٢٦] (٤). إرشاد القلوب، ج ١، ص ٢١.
- [٧٢٧] (١). «عاوية» بمعنى الكلاب التى تعوى.
- [٧٢٨] (٢). «ضارية» بمعنى المتوحشة، وهى من مادة «ضرو» على وزن «ضرب» وتعنى حالة التوحش فى النفس.
- [٧٢٩] (٣). «يهر» من «الهير» وتعنى العواء والنباح.
- [٧٣٠] (٤). «نعم» الدواب وغالباً تطلق هذه الكلمة على الإبل (وتأتى هذه المفردة أحياناً بمعنى المفرد أو أخرى بمعنى الجمع، وفى هذه الجملة تشمل الإبل والبقر والغنم).
- [٧٣١] (٥). «مُعَلَّة» وهى المشدودة بالعقال، والعقال حبل خاص تربط به رجل البعير حول ركبته.
- [٧٣٢] (٦). «مُهْمَلَةٌ» يعنى المتروكة، وهنا تعنى الحيوان المتروك لحاله.
- [٧٣٣] (١). «سُرُوح» جمع «سرح» على وزن «شرح» وهو الحيوان الذى ترك فى الصحراء لياكل ويرعى.
- [٧٣٤] (٢). «عاهة» بمعنى الآفة والعيب.
- [٧٣٥] (٣). «وَعَثٌ» يعنى الطريق التى يسير فيها الشخص بصعوبة.
- [٧٣٦] (٤). «مُسيم» وهو الشخص الذى يسوق الحيوانات للرعى، وهى من «السوم» على وزن «صوم» ويعنى الرعى.
- [٧٣٧] (٥). «تاهوا» من «التيه» وهو الحيرة والتهيه.
- [٧٣٨] (١). «رُويداً» من مادة «رود» على وزن «عود» فى الأصل تعنى الغدو والرواح والسعى لأداء عمل معين بلطافة وليونة، وهذه المفردة تأتى بمعنى المصدر وتقترب من التصغير، يعنى أملهنى وفترة وجيزة، والسبب فى نصب رويداً أنها مفعول مطلق لفعل محذوف، وكأنها فى الأصل يقال: «أْمِهَلُ إِمْهَالًا قَلِيلاً».
- [٧٣٩] (٢). «يُسْفِر» من مادة «سفر» على وزن «فقر» وتعنى كشف الغطاء وإزاحة اللثام، ولذلك يقال للمرأة غير المحجبة سافرة، وتستعمل هذه الكلمة فى طلوع الصبح وكأن الصبح يكشف عن لثامه ويزيح نقابه ويشرق، وهنا ظلام فاعل، وفى الحقيقة أنه شبه الصبح بموجود نورانى قد حجب بظلمات الجهل ولكن يوشك أن يزاح النقاب عنه.
- [٧٤٠] (٣). «أظعان» تأتى أحياناً جمع «ظعينة» بمعنى الهودج الذى يوضع على الجمل أثناء السفر للركوب، وورود الأظعان يعنى أن المسافرين أوشكوا على الوصول.
- [٧٤١] (١). «يُوشِكُك» من مادة «وَشِكُك» على وزن «فقر» وتعنى السير السريع، وعلى ضوء ذلك فإن مفهوم هذه العبارة أن اللحوق

سرعان ما يتحقق (والصحيح في يوشك أن تقرأ بكسر الشين وأحياناً تقرأ بفتحها).

[٧٤٢] (٢). «مَطِيَّة» من مادة «مطو» على وزن «عطف» تعنى الحركة الجديّة لغرض النجاة في المسير.

[٧٤٣] (٣). «وَادِع» هو الشخص الذى يجلس بهدوء وسكون، وهذه الكلمة من «الوداعة» أى السكون والهدوء.

[٧٤٤] (٤). نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٦٤.

[٧٤٥] (٥). المصدر السابق، ٧٤.

[٧٤٦] (٦). غرر الحكم، ح ٢٧٨٩.

[٧٤٧] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ٩١.

[٧٤٨] (٢). بحار الأنوار، ج ٤، ص ٤٣.

[٧٤٩] (١). سورة الأنعام، الآية ٢٧.

[٧٥٠] (١). «خَفَضَ» من مادة «خفض» يعنى جرّ الشىء إلى الأسفل فى مقابل رفعه إلى الأعلى، وهنا جاءت بمعنى الطلب القليل وترك الطمع فى الكثير.

[٧٥١] (٢). «أَجْمَلَ» من «الإجمال» وهو الاعتدال فى العمل وعدم الإفراط.

[٧٥٢] (١). «حَزَبٌ» وهى الغارة، وهنا جاءت بمعنى الفعل المبني للمجهول يعنى من ابتلى بالغارة عليه.

[٧٥٣] (٢). كتاب السنة، عمرو بن ابى عاصم، ص ١٨٢.

[٧٥٤] (١). شرح نهج البلاغة، ج ١٨، ص ٢١٣، والقائل هو بشر بن الحرث المعروف ب(بشر الحافى) انظر: الكنى والألقاب، ج ٢، ص ١٦٩.

[٧٥٥] (٢). معجم كنوز الأمثال والحكم العربية، ص ٦٢.

[٧٥٦] (٣). «دَنِيَّةٌ» الشىء الحقيق والوضع، من مادة «الدناءة» بمعنى الوضاعة.

[٧٥٧] (٤). «رَغَائِبٌ» جمع «رغيبه» وتعنى الشىء المطلوب والمرغوب.

[٧٥٨] (٥). «تَعْتَاضٌ» من «الإعتياض» وتعنى أخذ العوض عن شىء وفى الأصل من «عوض».

[٧٥٩] (١). اللهوف، ص ٩٧؛ بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٨.

[٧٦٠] (٢). الخصال، ج ١، ص ٢٨٤، ح ٣٣.

[٧٦١] (١). نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٣٨٧.

[٧٦٢] (٢). «تُوجِفٌ» من «الإيجاف» وتعنى السير بسرعة، وهى فى الأصل من «وَجِفٌ» على وزن «حذف» وتعنى الحركة السريعة، وبما

أنّ هذه الكلمة وردت فى العبارة أعلاه متعدية بالباء فتعنى الحث على سرعة المسير.

[٧٦٣] (٣). «مَنَاهِلٌ» جمع «مَنْهَلٌ» وهو منبع الماء.

[٧٦٤] (١). بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٦٩، ح ٦.

[٧٦٥] (٢). كنز العمال، ج ٣، ص ٤٩٥، ح ٧٥٧٦.

[٧٦٦] (٣). بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٩٢، ح ٩٨.

[٧٦٧] (١). بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٧٢، ح ٥.

[٧٦٨] (٢). المصدر السابق، ج ٩٣، ص ١٥٩، ح ٣٨.

[٧٦٩] (١). روضات الجنات، ج ٧، ص ٨٩ و ٩٠.

[٧٧٠] (١). «تَلَفَى» من مادة «لفى» على وزن «نفى» وتعنى الجبر والتعويض و «الفاه» بمعنى وجده وعثر عليه.

- [٧٧١] (٢). «فرط» من «الفرط» على وزن «شرط» يعنى التقصير فى أداء العمل، و«إفراط» التطرف وتجاوز الحد.
- [٧٧٢] (١). تهذيب الأحكام، ج ٤، ص ٣٧٨، ح ٢٧٣.
- [٧٧٣] (١). «ساع» «ساعى» الجاد فى العمل، من مادة «سعى».
- [٧٧٤] (٢). «اهجر» من «الهجر» على وزن «فجر» وفى الأصل بمعنى الابتعاد والانفصال. ثم استخدمت فى معنى هذيان المريض، لأن الكلام فى تلك الحال غير مطلوب ومبعد.
- [٧٧٥] (٣). غرر الحكم، ٤١١٩.
- [٧٧٦] (١). سورة البقرة، الآيتان ٢١٩ و ٢٢٠.
- [٧٧٧] (٢). سورة الفرقان، الآيات ٢٧ - ٢٩.
- [٧٧٨] (٣). أصول الكافى، ج ٢، ص ٣٧٥، ح ٣.
- [٧٧٩] (١). بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٩٧، ح ٣١.
- [٧٨٠] (٢). سورة النساء، الآية ١٠.
- [٧٨١] (٣). كافى، ج ٢، ص ٣٣١، ح ٥.
- [٧٨٢] (٤). «حُزِق» وتعنى العنف والشدة (ضد الرفق والمدارة).
- [٧٨٣] (١). «غش» من مادة «غش» (بكسر الغين) بمعنى الخيانة.
- [٧٨٤] (٢). «المستصَح» (إذا جاء بصيغة اسم مفعول) تعنى الشخص الذى تُطلب النصيحة منه.
- [٧٨٥] (١). بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٨٨، ح ١٠.
- [٧٨٦] (٢). المصدر السابق، ص ٣١٨، ح ٢٠.
- [٧٨٧] (٣). «نوكى جمع» «أنوك» على وزن «ابتر» وهو الشخص الجاهل والأحمق.
- [٧٨٨] (١). نهج البلاغة، الخطبة ٤٢ وفى بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٥، ح ٣٧ أيضاً مع اختلاف يسير عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.
- [٧٨٩] (٢). بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٣٤٥.
- [٧٩٠] (١). نهج البلاغة، الكلمات القصار، ١٩٦.
- [٧٩١] (٢). بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٢٢١.
- [٧٩٢] (٣). كنز العمال، ح ٤٣١٣٤.
- [٧٩٣] (٤). غرر الحكم، ١٠٨١٨.
- [٧٩٤] (١). غرر الحكم، ١٠٩١٣.
- [٧٩٥] (١). «مخاطر» الذى يلقى نفسه فى الخطر.
- [٧٩٦] (٢). سورة الملك، الآية ٢.
- [٧٩٧] (١). سورة الروم، الآية ٣٩.
- [٧٩٨] (٢). «مهين» وهو الحقير والضعيف، وأصلها «مهانة».
- [٧٩٩] (٣). «ظنين» وهو الشخص المتهم، والأصل من «ظن» وتأتى بصيغة اسم المفعول.
- [٨٠٠] (٤). «ساهل» فعل أمر من «مسهلة» بمعنى المدارة.
- [٨٠١] (١). «تجمح» فعل مضارع من «الجموح» بمعنى التمرد والنفور والعصيان.

- [٨٠٢] (٢). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٤٩، ح ٤.
- [٨٠٣] (٣). غرر الحكم، ح ١٠٤٣٣.
- [٨٠٤] (١). «صَرْمٌ» بمعنى القطع والفصل، وهنا جاء بمعنى قطع العلاقة مع الآخر وهي في مقابل الصلة وتوثيق العلاقة مع الآخر.
- [٨٠٥] (٢). «صُدود» مصدر بمعنى المنع.
- [٨٠٤] (١). «اللَّطْف» على وزن «شرف» وفي بعض النسخ على وزن «قفل» وتعني إظهار المحبة والإحسان إلى الطرف المقابل.
- [٨٠٧] (٢). «جمود» وتعني في هذه العبارة البخل، في مقابل البذل والعطاء.
- [٨٠٨] (٣). سورة فصلت، الآيتان ٣٤ و ٣٥.
- [٨٠٩] (١). بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٥٨، ح ١٧.
- [٨١٠] (٢). المصدر السابق، ح ١٨.
- [٨١١] (٣). سورة المجادلة، الآية ٢٢.
- [٨١٢] (٤). «مَحْضٌ» من «المحض» على وزن «وعظ» بمعنى إخلاص الشيء وتنقيته، وتستعمل في مورد النصيحة وتعني طلب الخير للطرف المقابل الخالي من أي شائبة وغرض شخصي.
- [٨١٣] (١). أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٣٩، ح ٥.
- [٨١٤] (٢). المصدر السابق، ص ٤٣٨، ح ٢.
- [٨١٥] (٣). «مَغْبَةٌ» العاقبة، وأصلها من «غَبَّ» وأحياناً تأتي هذه المفردة في مورد الأعمال والتي تعني عدم التوالى أو الانقطاع بين فترة وأخرى، كما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم عليه السلام أنه قال لبعض أصحابه: «زُرْ غَبًّا تَزْدَدُ حُبًّا». (مستدرک الوسائل، ج ١٠، ص ٣٧٤، ح ١٢٢١٠).
- [٨١٦] (١). الكافي، ج ٢، ص ١١٠، ح ١٠.
- [٨١٧] (٢). المصدر السابق، ح ٤.
- [٨١٨] (٣). «لِنَ» فعل أمر، من «اللين» على وزن «صين» وتعني المرونة وعدم القساوة.
- [٨١٩] (٤). «غالظ» من «الغلظة» وهي الخشونة (وتقع على الضد من اللين والانعطاف).
- [٨٢٠] (٥). سورة فصلت، الآيتان ٣٤ و ٣٥.
- [٨٢١] (١). مقاتل الطالبين، ص ٣٣٢. وأورد هذه القصة المرحوم العلامة المجلسي بشكل أوسع في بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٠٢، ح ٧ (مع اختلاف يسير).
- [٨٢٢] (٢). بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٧٧، ح ١٤.
- [٨٢٣] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١١٠.
- [٨٢٤] (١). الكافي، ج ٤، ص ١١، ح ٣.
- [٨٢٥] (٢). مفردة «زهد» سواء كان متعدياً بـ «في» أو بـ «عن» تعني في كلا الأمرين عدم الاهتمام والاعتناء، والزاهد إنما يقال له زاهد لأنه لا يعتنى بزخارف الدنيا ولا يهتم بمتطلباتها.
- [٨٢٦] (١). سورة البقرة، الآية ٢٧٩.
- [٨٢٧] (٢). نهج البلاغة، الرسالة ٤٧.
- [٨٢٨] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١١١.
- [٨٢٩] (١). سورة الرحمن، الآية ٤٠.

- [٨٣٠] (١). نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٣٧٩.
- [٨٣١] (٢). سورة هود، الآية ٦.
- [٨٣٢] (١). سورة الطلاق، الآيتان ٢ و ٣.
- [٨٣٣] (٢). سورة الذاريات، الآية ٢٢.
- [٨٣٤] (٣). سورة الجاثية، الآية ٥.
- [٨٣٥] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١١٤.
- [٨٣٦] (٢). المصدر السابق، ص ١١٥.
- [٨٣٧] (١). سورة يونس، الآيتان ٢٢ و ٢٣.
- [٨٣٨] (٢). نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٤٠٦.
- [٨٣٩] (٣). «مثنوى» كما أشرنا سابقاً أنها تعنى المكان والمنزل، وهنا جاءت بمعنى منزل الآخرة.
- [٨٤٠] (١). نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٣٣٥.
- [٨٤١] (٢). بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٣٨، ح ٦.
- [٨٤٢] (٣). «تَفَلَّت» من «الفلت» على وزن «فقر» وفي الأصل بمعنى الخلاص، وتأتى أيضاً بمعنى الأمور التي تصدر من الإنسان بشكل عفوى وبدون تأمل.
- [٨٤٣] (١). نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.
- [٨٤٤] (١). سورة التوبة، الآية ٥١.
- [٨٤٥] (٢). شرح نهج البلاغة للشيخ مغنية، ج ٣، ص ٥٢٦.
- [٨٤٦] (٣). سورة لقمان، الآية ١٧.
- [٨٤٧] (١). «مناسب» من مادة «نَسَب» وجاءت هنا بمعنى الأقرباء.
- [٨٤٨] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١١٧.
- [٨٤٩] (٣). سورة الجاثية، الآية ٢٣.
- [٨٥٠] (١). أصول الكافي، ج ٢، ص ١٣٦، ح ٢٣.
- [٨٥١] (٢). سورة التغابن، الآية ١٤.
- [٨٥٢] (١). غرر الحكم، ح ٤٦٦٦.
- [٨٥٣] (١). سورة البقرة، الآية ٢٥٦.
- [٨٥٤] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد و شرح نهج البلاغة للشيخ مغنية.
- [٨٥٥] (١). من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٤٠٦، ح ٥٨٧٩.
- [٨٥٦] (٢). الأمالى للشيخ الصدوق، ص ٥٨٩، ح ١٠.
- [٨٥٧] (١). ذكرنا مفهوم فساد الزمان أكثر في نفحات الولاية في الجزء الثاني ذيل الخطبة ٣٢.
- [٨٥٨] (٢). بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١١١.
- [٨٥٩] (١). بحار الأنوار، ج ٢، ص ٤٩، ح ١٠.
- [٨٦٠] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٢١.
- [٨٦١] (٣). بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٦٦، ح ٣.

- [٨٦٢] (١). كان هذا الشخص في زمانه من شيوخ خراسان وكان عالماً وخبيراً وكريماً وذا فكاهاة في كلامه ولهذا لقب بـ «السكرى». (اعلام الزركلى).
- [٨٦٣] (٢). شرح نهج البلاغة العلامة التستري، ج ٨، ص ٤٥٥ ووردت هذه الرواية أيضاً في كتاب تهذيب الكمال، ج ٢٦، ص ٥٤٨ عم تاريخ بغداد.
- [٨٦٤] (١). بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٦٦، ح ٣.
- [٨٦٥] (١). «أفن» بمعنى النقصان وقلة الفكر والعقل.
- [٨٦٦] (١). «قهرمان» كلمة فارسية في الأصل وانتقلت إلى اللغة العربية وتعنى المدير والمدبر والشخص الذى يتولى أمور النفقة، وأحياناً تأتي بمعنى البطل والشجاع أيضاً.
- [٨٦٧] (١). «لا تعد» أى لا تتجاوز الحد، من مادة «عدو» على وزن «سرو» وهو تجاوز الحد.
- [٨٦٨] (٢). «التغاير» من «الغيرة» بمعنى الشدة في العمل لحفظ النواميس أو رأس المال المهم للآخرين.
- [٨٦٩] (٣). «ريب» (مع الالتفات إلى فتح الياء) جمع «ريبة» على وزن «غيبه» بمعنى الشك وسوء الظن.
- [٨٧٠] (١). الإنسان ذلك المجهول، ص ١٠٠ وما بعدها.
- [٨٧١] (٢). نقلاً عن تقرير وصفى لمؤتمر بكين، من كتاب الشورى الثقافية الاجتماعية للنساء (شوراي فرهنگي اجتماعي زنان)، ص ١٠.
- [٨٧٢] (٣). وللمزيد من الاطلاع انظر: دائرة المعارف للفقهاء المقارن، ج ١، ص ٨٤-٨٩.
- [٨٧٣] (١). سورة الروم، الآية ٢١.
- [٨٧٤] (٢). سورة البقرة، الآية ١٨٧.
- [٨٧٥] (١). سورة النحل، الآية ٩٧.
- [٨٧٦] (١). «يتواكلوا» من «التواكل» و«وكاله» و«تواكل» هو أن يعتمد الشخص في أموره وأعماله على شخص آخر ويلقى بالمسؤولية عليه.
- [٨٧٧] (١). «تصول» من «الصولة» على وزن «دولة» بمعنى الهجوم والحملة في الميدان.
- [٨٧٨] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٢٨.
- [٨٧٩] (١). وردت هذه الكلمة في موارد كثيرة من نهج البلاغة بصيغة المتكلم بدلاً من صيغة الأمر «استودع» و«اسأل» وتعنى أننى أضع دينك وديناك وديعة عند الله وأسأله تعالى أفضل ما قسم وقدر لك في الدنيا والآخرة، وطبعاً فإن مفهوم كلا العبارتين واحد في الحقيقة، رغم أن النسخة الأخيرة أنسب حسب الظاهر وخاصة مع الالتفات إلى كلمة «لك».
- [٨٨٠] (٢). سورة آل عمران، الآية ٢٦.
- [٨٨١] (١). مجانى الأدب، ج ٢، ص ٩.

[الجزء العاشر]

الرسالة ٣٢

إشارة

إلى معاوية [١]

نظرة عامة للرسالة

تشكل هذه الرسالة (طبقاً لما أورده السيد الرضى فى نهج البلاغة) من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتضمّن نصيحة لمعاوية، النصيحة المقترنة بالتوبيخ والتحذير من إضلال الناس وإعادتهم إلى عصر الجاهلية، وأنه ينبغى عليه أن يتدبّر فى عاقبة هذا الأمر.

وفى القسم الثانى، يتحدّث الإمام عليه السلام عن الأشخاص الذين يحيطون بمعاوية وهم

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٦

الساثرون فى خط الضلالة والانحراف ويعيشون التفاخر القومى والقبلى ويتبعون معاوية على هذا الأساس، ولكن ثمة جماعة من أهل البصيرة عندما اطلعوا على مسلك معاوية المشبوه والفاقد تركوا التعاون معه وأداروا ظهورهم إليه وأنابوا الله تعالى، وفى ختام هذا المقطع من الرسالة، يدعو الإمام على عليه السلام معاوية إلى الالتزام بتقوى الله والورع وعدم اتباع الشيطان ويذكره بأن الدنيا فانية وغير ثابتة على كل حال وأن الآخرة قريبة.

وفى القسم الثالث، يدعو معاوية إلى الالتزام بتقوى الله والورع وعدم اتباع الشيطان ثم يلفت نظره إلى إقتراب أجله وأنه عما قريب سوف يواجه صحيفة أعماله فى محكمة العدل الإلهية.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٧

وَأَزْدَيْتَ جَيْلًا مِنَ النَّاسِ كَثِيرًا؛ خَدَعْتَهُمْ بِعَيْكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ، وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ، فَحَازُوا عَنْ وَجْهِتِهِمْ، وَنَكَّضُوا عَلَى أَغْصَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْيَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ البَصَائِرِ فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعِيدَ مَعْرِفَتِكَ وَهَرَبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ، وَعَيَّدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصِيدِ. فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مُعَاوِيَةَ فِي نَفْسِكَ، وَجَادِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَالْآخِرَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَالسَّلَامُ

الشرح والتفسير: لا تهلك نفسك ولا الناس

إشارة

ما أورده السيد الرضى من هذا الكتاب يمثل مقطعاً من رسالة كان الإمام على عليه السلام قد أرسلها لمعاوية، ويتحدّث الإمام عليه السلام فى مطلعها، طبقاً لنقل المؤرخ المعروف المدائنى، من موقع النصيحة والتحذير من الغرور بالدنيا الخداعة والمتقلبة وأن يلتزم بالتقوى ويعلم أن الله تعالى للظالمين بالمرصاد، فالدنيا سريعاً ما تنقلب عليه وتعرض عنه وسيواجه حينئذ الحسرة والندامة، فينبغى عليه فى هذا السن المتقدمة من العمر أن يفكر فى نهاية حياته واقتراب أجله وأن لا يعمل شيئاً يكون وبالاً عليه يوم القيامة.

ثم إن الإمام عليه السلام تعرض لهذا الموضوع، وهو أنك ستتحمل، مضافاً لمسؤولية ضلالك وانحرافك، مسؤولية إضلال جمهور من الناس، وكما ذكر السيد الرضى فإن

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٨

الإمام عليه السلام يقول فى مستهل حديثه:

«وَأَزْدَيْتَ [٢] جَيْلًا [٣] مِنَ النَّاسِ كَثِيرًا؛ خَدَعْتَهُمْ

بِعَيْكَ، وَالْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمْ الظُّلْمَاتُ، وَتَتَلَطَّمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ».

وهذه إشارة إلى أن معاوية يتحمل مسؤوليته انحراف جمهور غفير من المسلمين الذين خدعهم بمكره وغيته وسوف يقف يوم القيامة ليجيب عن ذلك.

وعبارة

«مَوْجِ بَحْرِكَ»

تعبير لطيف عن الحوادث والأزمات التي تشبه عادةً بأمواج البحر، وهي الحوادث الصعبة التي يصعب مواجهتها والتصدي لها، لأن الأمواج العاتية كالجبال في البحر تقذف بالبشر من هنا إلى هناك كالريشة في مهبّ الريح، وأحياناً تقتلعهم في مطاوبها ودواماتها ويعيش الإنسان في تلك اللحظات الحرجة الظلمة والشدة بحيث تسود الدنيا في عينيه.

والتعبير ب

«الظُّلْمَاتُ» و«الشُّبُهَاتُ»

إشارة إلى أعمال معاوية من قبيل طرح مسألة قتل عثمان والدفاع عنه، ورفع قميصه الدامي وإثارة الناس ضد الإمام عليه السلام والخليفة بالحق لرسول الله صلى الله عليه وآله، وكذلك (والعياذ بالله) الأمر بلعن الإمام على عليه السلام على المنابر وسبه وشمته في المحافل، فهل هناك ظلمة أشد من هذا، أو شبهة أوحش من هذه؟

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى نتيجة هذه الأساليب الماكرة والشبهات المضللة ويقول:

«فَجَاؤُوا [٤] عَن وَجْهِتِهِمْ، وَنَكَّصُوا [٥] عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا [٦]

عَلَى أَحْسَابِهِمْ [٧]»

، أى أن هذه الأمور أدت إلى عودة بعض الناس عن الحق إلى

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٩

زمان الجاهلية وأعرضوا عن الإسلام والرسالة الإلهية وأخذوا يتفاخرون بالحسب والنسب كما كان العرب يتفاخرون في الجاهلية. ونعلم أن معاوية كان من بقايا العصر الجاهلي، وأبوه أبوسفيان العدو الأول للإسلام والنبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأن غالبية الحروب والفتن ضد الإسلام كانت بقيادة أبي سفيان، وقد أعلن أبوسفيان الإسلام ظاهراً وأخذ ينتظر اليوم الذى تملك فيه بنو امية مقاليد الأمور وسيطروا على أجهزة الحكومة الإسلامية ويجلسون مجلس النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وحينئذ يتحركون على مستوى إعادة الناس إلى قيم وثقافة الجاهلية، ويذكر التاريخ أن هؤلاء قد نجحوا فى مسعاهم غاية النجاح، ولولا حادثه عاشوراء ومقتل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه فى كربلاء ويقظة المسلمين فى ظل هذه الحوادث الدامية بحيث لم تستمر حكومتهم أكثر من ثمانين عاماً، فإنه لا يعلم أحد ما سيجرى على الإسلام والمسلمين.

ثم يستثنى الإمام عليه السلام طائفة من أهل الشرف والدين والإيمان، هؤلاء من الذين انخدعوا بأساليب معاوية وكلامه البراق، ولكنهم عندما رأوا عن كذب أعماله وعرفوا حقيقة أمره أعرضوا عنه والتحقوا بالإمام على عليه السلام وأصحابه يقول الإمام عليه السلام:

«إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ فَإِنَّهُمْ فَارُقُواكَ بَعِيدَ مَعْرِفَتِكَ وَهَرَبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ مُوَارَازَتِكَ [٨]، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقُصْدِ».

مفردة

«إِلَّا»

استثناء من

«جيل»

التي قالها الإمام عليه السلام في مطلع الرسالة وإشار إلى المخدوعين والمغرورين الذين تأثروا بشبهات معاوية من قبيل شبهة قتل عثمان والمطالبة بدمه وشبهات أخرى والتحقوا به، ولكنهم عندما رأوا أعماله وسلوكياته عن كتب وشاهدوا فساد أعوانه وأنهم عموماً من بقايا عصر الجاهلية أو من أبنائهم،

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٠

فالتفتوا بسرعة إلى خطئهم وغفلتهم وابتعدوا عنه، هذه الفئة رغم أنهم قلّة في مقابل الكثير ممن اتبعه، ولكن مقامهم الكريم يستوجب أن يذكرهم الإمام عليه السلام بوصفهم أهل البصائر والسائرون في طريق الحقّ والمنيون إلى الله تعالى.

ويذكر المحقق التستري في شرحه لنهج البلاغة ذيل الخطبة ١٥٥ أسماء جماعة من أهل البصائر الذين التحقوا بالإمام على عليه السلام في معركة صفين ومنهم: ابن عم عمرو بن العاص وابن اخته شرحبيل، وعبدالله بن عمرو العنسي، وكذلك جماعة من قراء القرآن [٩].

ثم إن الإمام عليه السلام في المقطع الثالث من هذه الرسالة يوصي معاوية بتقوى الله ويقول:

«فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مُعَاوِيَةَ فِي نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ [الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ] [١١]، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَالْآخِرَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَالسَّلَامُ».

ورغم أن معاوية بعد شهادة الإمام على عليه السلام بقي على قيد الحياة عشرين سنة، ولكن مع الالتفات إلى أن عمره ستون في ذلك الزمان الذي كتبه الإمام عليه السلام هذه الرسالة فإنه قد مضى عليه الشطر الأكبر من حياته وكل شخص في مثل هذا العمر لابد أن يفكر في نهاية عمره وعاقبته.

وجملته

«وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ»

، تشير إلى أن معاوية قد سلم زمام أموره بيد الشيطان، فالإمام عليه السلام يوصيه بأن يمسك زمامه ولا يترك الشيطان يقوده في دروب الضلالة والانحراف، لأنّ نهاية عمره قريبة وأهم شيء في حياة الإنسان هو حسن العاقبة حيث يمكنه حلّ مشكلاته بهذه الطريقة.

والعجب أن مثل هؤلاء الجبارين عندما يحين أجلهم، كما هو حال فرعون عندما غمرته أمواج النيل، يتبهنون من غفلتهم وفي حين أنه قد ولى وقت جبران

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١١

الأخطاء وتغير المسار فلا ينفع الندم والحسرة، وربما لو عادوا لساروا في نفس الخط وكما يقول القرآن الكريم: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» [١٢].

يقول ابن كثير في كتاب «البداية والنهاية»: عندما اشتد المرض بمعاوية ويأس من شفائه ورأى نفسه مشرفاً على الموت أخذ ينشد هذه الآيات:

لَعَمْرِي لَقَدْ عَمَرْتُ فِي الدَّهْرِ بُرْهَةً وَدَانْتُ لِي الدُّنْيَا بِوَقْعِ الْبَوَاتِرِ
وَأُعْطِيتُ حُمْرَ الْمَالِ وَالْحُكْمَ وَالنُّهْيَ وَلِي سَلِمَتْ كُلُّ الْمُلُوكِ الْجَبَابِرِ
فَأَضْحَى الَّذِي قَدْ كَانَ مِمَّا يَسْرُنِي كَحُكْمِ مَضَى فِي الْمُرْمَنَاتِ الْغَوَابِرِ
فِيَا لَيْتَنِي لَمْ أَعْنِ فِي الْمُلْكِ سَاعَةً وَلَمْ أَسْعَ فِي لَدَاتِ عَيْشِ نَوَاضِرِ
وَكُنْتُ كَذِي طَمْرَيْنِ عَاشٍ بَبُلْغَةٍ فَلَمْ يَكُ حَتَّى زَارَ ضَيْقَ الْمَقَابِرِ

ولا يبعد أن لقب «ذو طمرين» إشارة إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يتأسف معاوية على أنه لم يختر طريقه ولم يسلك في

طريق الحق، لأن هذه الكلمة قد وردت في كلام الإمام على عليه السلام نفسه في الرسالة ٤٥ من نهج البلاغة حيث يقول:

«أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمْرِنِهِ...».

ولكن التأسف والتحسر في مثل هذه المواقع كاذب، فلو زالت الأزمه وحلت المشكله لعادوا إلى حالهم السابق وتحركوا في نفس الخط.

تأمل

رسائل متواليه

يستفاد من شرح ابن أبي الحديد لهذه الرسالة وجود مراسلات بين أمير المؤمنين على عليه السلام ومعاوية في هذا المقطع الزمني وبلغت بمجموعها خمس رسائل من قبل الإمام عليه السلام وأربع رسائل من قبل معاوية، وفي كل رسالة كان معاوية يزداد وقاحه وجرأه على الإمام عليه السلام، والعجيب أنه يتحدث عن نفسه وكأنه من أولياء الله المقربين

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٢

وقد نسي ماضيه وحاضره وأخذ يتحدث في رسائله بكلمات نائية وعبارات وقحة.

والملفت أن ابن أبي الحديد بعد نقله لهذه الرسائل يتحدث بما خلاصته:

«وأعجب وأغرب ما جاء به الدهر، وإن كانت عجائبه وبدائعه جمه، أن يفضى أمر على عليه السلام إلى أن يصير معاوية نداً له ونصيراً مماثلاً يتعارضان الكتاب والجواب، ويتساوى فيما يواجه أحدهما صاحبه، ولا يقول له على عليه السلام كلمة إلقال مثلها، وأخشن مساً منها، فليت محمداً صلى الله عليه وآله كان قد شاهد ذلك عياناً لا خبراً أن الدعوة التي قام بها وقاسى أعظم المشاق في تحملها، وكابد الأهوال في الذب عنها، وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتها وشيد أركانها وملا الأفاق بها، خلصت صفواً وعتواً لأعدائه الذين كذبوه لما دعا إليها، وأخرجوه عن أوطانه لما حض عليها وأدموا وجهه وقتلوا عمه وأهله، فكأنه كان يسعى لهم، ويدأب لراحتهم كما قال أبو سفيان في أيام عثمان وقد مر بقبر حمزة وضربه برجله وقال: يا أبا عماره، إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس في يد غلماننا اليوم يتلاعبون به، ثم آل الأمر إلى أن يفاخر معاوية علياً كما يتفاخر الأكفاء والنضراء...».

إذا عَيْرَ الطائِي بِالْبُخْلِ مَادِرٌ وَقَرَعَ قَسًا بِالْفَهَاهَةِ بِأَقْلٍ

وَقَالَ السُّهَى لِلشَّمْسِ أَنْتَ خَفِيَةٌ وَقَالَ الدُّجَى يَا صُبْحَ لَوْ نُكَّ حَائِلٌ
وَفَاخَرَتِ الْأَرْضُ السَّمَاءَ سَفَاهَةً وَكَاتَرَتِ الشُّهْبُ الْحِصَى وَالْجُنَادِلُ
فِيَا مَوْتَ زُرْ إِنَّ الْحَيَاءَ ذَمِيمَةٌ وَيَا نَفْسُ جِدِي إِنَّ دَهْرَكَ هَازِلٌ [١٣]

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٣

الرسالة ٣٣

إشارة

إلى قَتْمِ بْنِ الْعَبَّاسِ وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى مَكَّةَ [١٤]

نظرة عامة للرسالة

تشكل هذه الرسالة من قسمين:

القسم الأول: يمثل تحذيراً من الإمام عليه السلام إلى قثم بن العباس واليه على مكة

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٤

وينبهه إلى أن جماعة من أزلام معاوية ممن باعوا بدينهم بدنياهم أرسلهم معاوية في موسم الحج ليشيروا الفتنة وليعملوا على تغيير الواقع لصالح معاوية على حساب إضعاف المؤيدين للإمام عليه السلام، وقد تحدث الإمام في هذه الرسالة عن أزلام معاوية بكلمات دقيقة وبلغه حيث نجد نظائر هؤلاء في كل عصر وزمان وخاصة في عصرنا الحاضر.

وفي القسم الثاني يوصيه أن يأخذ جانب الحيطة والحذر في مقابل هذه المؤامرة الخطيرة ولا يعمل شيئاً يحتاج بعده إلى الاعتذار وطلب الصفح.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٥

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي - بِالْمَغْرِبِ - كَتَبَ إِلَيَّ يُعَلِّمُنِي أَنَّهُ وَجَّهَ إِلَيَّ الْمَوْسِمَ أَنَسُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ الْعُمِّيِّ الْقَلُوبِ، الصُّمِّ الْأَسْمَاعِ، الْكُفَّةِ الْأَبْصَارِ، الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِأَجْلِ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ؛ وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ، وَلَا يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ. فَأَقِمَّ عَلَيَّ مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ، وَالنَّاصِحِ اللَّيِّبِ، وَالتَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ. وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَدَّرُ مِنْهُ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النُّعْمَاءِ بَطْرًا، وَلَا عِنْدَ الْبِئْسَاءِ فَشَلًّا، وَالسَّلَامَ.

الشرح والتفسير: راقب أوضاع مكة بدقة

إشارة

كما أشرنا آنفاً أن هذه الرسالة أرسلها الإمام عليه السلام إلى قثم بن العباس عندما وصل الخبر إلى الإمام عليه السلام من مكة من قبل بعض عيونه وجواسيسه، أن معاوية بعث جماعة من أهل الشام لإشاعة الأكاذيب وتسميم الأجواء ضد أمير المؤمنين عليه السلام في أيام الحج، ويستفاد من كلام ابن الأعمش الكوفي في الفتوح أن معاوية أرسل جيشاً مكوناً من ثلاثة آلاف رجل ومعهم العدة الكاملة بشكل خفي إلى مكة ليقوموا بانتفاضة عندما تسنح الفرصة المناسبة ويواجهوا أنصار الإمام على عليه السلام ويربكوا أوضاع الحج.

وكيف كان فالإمام في مستهل هذه الرسالة يقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي [١٥]

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٦

بِالْمَغْرِبِ [١٦]- كَتَبَ إِلَيَّ يُعَلِّمُنِي أَنَّهُ وَجَّهَ إِلَيَّ الْمَوْسِمَ [١٧] أَنَسُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ.

ثم يذكر صفاتهم في ثلاث جمل مختصرة وأعمالهم في أربع، ويقول:

«الْعُمِّيِّ [١٨]

الْقَلُوبِ، الصُّمِّ [١٩] الْأَسْمَاعِ، الْكُفَّةِ [٢٠] الْأَبْصَارِ.»

وهذا الكلام في الحقيقة مقتبس من الآية الشريفة في قول تعالى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» [٢١].

وكما ورد في تفسير الآيه الشريفه أيضاً أن طرق معرفه الإنسان ثلاثه: العقل، الذى يفكر ويتدبر به، العين التى يرى بها الحوادث المختلفه، والتجارب المتنوعه، والاذن، التى يسمع بها العلوم الثقليه، والأشخاص الذين يفقدون هذه الأعضاء الثلاثه فإن جميع طرق المعرفه ستكون موصده أمامهم.

أجل، فمعاويه اختار هؤلاء البعيدين عن الله والأرلام الذين اختاروا الضلاله على الهدى، والدنيا على الآخرة، ومهمتهم أن يبثوا الإشاعات المغرضه والأكاذيب الملقفه ويرتكبوا ما يحلوا لهم من ذنوب وآثام للوقيعه بأتباع أمير المؤمنين عليه السلام وإثارة الفتنة فى صفوف حجاج بيت الله الحرام.

ثم تحدت الإمام عليه السلام عن أعمالهم وقال:

«الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ [٢٢] الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ،

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٧

وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ [٢٣] الدُّنْيَا دَرَاهِمًا [٢٤] بِالْدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ

عَاجِلَهَا بِأَجْلِ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ».

وبديهى أن الأشخاص الذين يعيشون العمى فى القلب، والصمم فى الأسماع لا ينتبهون إلى هذه الأمور ومن أجل التمويه على الناس يخلطون الحق بالباطل، ومن أجل كسب رضا المخلوق ونيل الجوائز والعطايا لا يطيعون أمر الله ولا يمتثلون لتعاليمه، ومن أجل تحصيل متاع الدنيا يبيعون رأسمالهم الدينى، هؤلاء الذين بلغ العمش فى بصيرتهم إلى درجه أنهم لا يرون سوى دنياهم الفانيه والملاذات الرخيصه ويغفلون عن الآخرة وما فيها من المواهب المعنويه والماديه العظيمة والأبدية، ولهذا السبب لا يعيرون أهميه للآخرة ويبعونها بأبخس الأثمان من أمور الدنيا.

وبديهى أن معاويه لا يختار أبداً الأشخاص الذين يملكون بعض الإيمان ولهم سابقه فى الإسلام لهذه الأعمال الشنيعه، بل يبحث عن الأشخاص الذين لا يملكون ذره من الإيمان أو العقل أو الوجدان، فهم عبيد وغلما ن وضعوا أرواحهم فوق أكفهم سماعاً وطاعه لأوامر السلطان، وهذا هو منهج جميع حكام الجور وقوى الاستكبار والهيمنه.

ثم إن الإمام عليه السلام أشار إلى هذه الحقيقه، وهى أن كل إنسان يعمل الخير أو يقترب المنكر فسوف يثاب ويعاقب حسب عمله، يقول:

«وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ، وَلَا يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ».

وهذا المفهوم مقتبس من الآيات الشريفه قال تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» [٢٥].

وهو إشارة إلى أن هؤلاء عندما يتحركون فى خط خلق الفتنة وإيجاد المفسده

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٨

والاختلاف بين المسلمين لا ينالون فى نهايه المطاف سوى الشر والفساد وسوف تصل إليهم هذه النار وتحرقهم.

ثم يخاطب الإمام عليه السلام قثم بن العباس ويقول:

«فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ [٢٦]، وَالنَّاصِحِ اللَّيْبِ [٢٧]، وَالتَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ».

وبهذه الطريقه يثير فيه الإمام عليه السلام العزيمه والروحيه وتقويه الإراده لأداء المهمه الملقاه على عاتقه فى مقابل مؤامرات معاويه وأتباعه من أهل الشام ويؤكد له ضمناً أنه مشرف وناظر لأعماله.

وبهذا البيان الموجز والعميق فى محتواه يبين الإمام عليه السلام شروط القائد الموفق والوالى الناجح، كسعه آفاق التفكير، الاستقامه والصمود فى مقابل الحوادث والتحديات، وحب الخير للناس، والإطاعة لإمامه ومقتداه وإمتثال أوامره، ومعلوم أن هذه الشروط إذا توفرت فى كل مدير أو قائد فسوف يكون موفقاً فى عمله وإدارته وباستطاعته مواجهه مؤامرات الأعداء وإحباطها.

ثم إن الإمام عليه السلام في ختام هذه الرسالة يذكر تحذيراً آخر لعامله ويقول:

«وَأَيَّاكَ وَمَا يُعْتَدَرُ مِنْهُ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بِطَرًّا [٢٨]، وَلَا عِنْدَ الْبُؤْسَاءِ فَيْشَلًا [٢٩]، وَالسَّلَامُ».

ثمّة مثل معروف متداول بين الناس يقولون: «إن الاعتذار لا يعيد ماء الوجه للإنسان» فصحيح أن الإنسان ينبغي أن يعتذر للطرف المقابل من خطئه وما صدر منه من خطيئته وزله، ولكن يجب الالتفات إلى أن هذا الاعتذار لا يعيد مكانة الإنسان إلى سابق عهدها، فالأفضل أن يعيش الإنسان الانتباه والحذر لئلا يضطر

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٩

للإعتذار، وكذلك يجب أن يكون مسلطاً على نفسه ويملك شخصيته قوياً بحيث لا يتأثر باقبال أو إدبار النعم الدنيوية، ولا يكون كالأشخاص من الضعفاء النفوس بحيث يفرحون بشدة لأدنى نجاح إلى درجة أنهم يخرجون عن طورهم وفي المقابل يتأثرون ويغتمون من أدنى اخفاق وفشل إلى درجة أنهم يفقدون مشاعرهم ولا يسيطرون على أنفسهم.

وعندما ننظر إلى هذه الرسالة المختصرة للإمام عليه السلام من موقع الدقة والعمق فسوف نرى أنها تتضمن كل شيء، وهذه آية جلية من آيات الفصاحة والبلاغة لكلام الإمام عليه السلام وتشير إلى سعة إطلاعه ومعرفته بجميع الأمور السياسية والاجتماعية والأخلاقية.

تأمل

من هو قثم بن العباس؟

«قثم» في الأصل «قائم» بمعنى الشخص الكريم الجواد «ثم سقطت ألفه» وهذا الاسم يعتبر بالنسبة لقثم ابن العباس اسماً على المسمى، لأنه كان من الأجاويد والكرماء المشهورين، وهو ابن عم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام على عليه السلام وابن أخ عبدالمطلب و أمه ام الفضل لبابة بنت الحارث أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وذكروا أن أمه كانت بعد خديجه أول امرأة اعتنقت الإسلام، وجاء في كتب الرجال والتواريخ أن القثم كان رجلاً قوياً وذو فضائل، وفي زمان خلافة الإمام على عليه السلام كان والياً على المدينة لمدة معينة ثم صار والياً على مكة من قبل الإمام عليه السلام وظل في هذا المنصب إلى زمان استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام، وفي سنة ٣٨ للهجرة اختير أميراً للحجاج من قبل الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام ويقال إن أمير المؤمنين عندما ضربه ابن ملجم في محراب مسجد الكوفة، كان قثم حاضراً في المسجد وهو الذي قبض على ابن ملجم وهو يحاول الفرار.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٠

وفي أيام معاوية بسبب صداقته مع سعيد بن عثمان والى خراسان توجه قثم إلى خراسان وحضر في حرب ضد الكفار في سمرقند ونال درجة الشهادة هناك [٣٠].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢١

الرسالة ٣٤

إشارة

إلى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ لَمَّا بَلَغَهُ تَوَجُّدُهُ مِنْ عَزَلِهِ بِالْأَشْتَرِ
عَنْ مِصْرَ، ثُمَّ تُوْفِيَ الْأَشْتَرُ فِي تَوَجُّهِهِ إِلَى هُنَاكَ

قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَيْهَا [٣١]

نظرة عامة للرسالة

نعلم أن معاوية بعد قصة التحكيم كان يروم إثارة القلاقل في المناطق الخاضعة لسيطرة حكومة الإمام علي عليه السلام، فكان يهجم على المناطق الحدودية من جهة، ومن جهة أخرى كان قد أعطى عهداً لعمر بن العاص بسبب خدماته الجليلة له أنه إذا نجح في تولى الخلافة واستلام زمام الحكومة الإسلامية فإنه سيعطيه مصر، ومن أجل تحقيق هذه الغاية بذل هذان الرجلان جهوداً كبيرة في هذا السبيل.

وكان الإمام علي عليه السلام قد شعر بأن محمد بن أبي بكر واليه على مصر وإن كان رجلاً أميناً، إلا أن مصر تحتاج إلى رجل أقوى وأشد منه وأكثر تجربة ليوقف في نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٢

مواجهة مؤامرات معاوية، ولذلك اختار مالك الأشتر لهذا الأمر وكتب له عهده المعروف ب «عهد مالك الأشتر». وعندما اطلع معاوية على هذا الخبر وأن مالك الأشتر توجه إلى مصر أصابه القلق من ذلك ودبر له مكيده لقتله قبل وصوله إلى مصر، فأمر أحد جواسيسه الذي كان على إرتباط وثيق بآل عمرو بن العاص، أن يقتل مالكاً بالسم بأيه صورة، فجاء هذا الرجل إلى مالك وأظهر له المودة وعرف نفسه أنه من شيعة الإمام علي عليه السلام ومن أتباع أهل البيت عليهم السلام وتحذث له عن فضائل الإمام وبني هاشم إلى أن صدقه مالك ووثق به واعتقد أنه واقعاً من أتباع أهل البيت عليهم السلام وفي ذلك الوقت أهدى هذا الرجل طعاماً مسموماً لمالك «والمعروف أنه كان عسلاً مسموماً» وعندما تناول مالك من هذا العسل شعر بالتسمم، وقبل وصوله إلى مصر توفي في منطقة يقال لها «قلزم».

وعندما وصل خبر تنصيب مالك الأشتر والياً على مصر إلى محمد بن أبي بكر، بدا منه تأثراً من ذلك، فكتب له الإمام عليه السلام الرسالة أعلاه ليرفع قلقه ويزيل استيائه وأبقاه في منصبه [٣٢].

وعلى ضوء ذلك فإن الغرض من هذه الرسالة رفع ما خالج محمد بن أبي بكر من تأثر واستياء من جراء تنصيب مالك الأشتر مكانه، وقد أكد له الإمام عليه السلام في هذه الرسالة أنه راضٍ تماماً عن أفعاله وأن استبداله بمالك الأشتر لا يعني أنه قد قصر في مهمته بل لغرض كان محمد بن أبي بكر يعلم به أيضاً، وكذلك تهدف هذه الرسالة لتقوية إرادة محمد بن أبي بكر وتحكيم موقفه في مقابل العدو لحفظ حكومة مصر، ويوصيه الإمام عليه السلام بالتوكل على الله والاستقامة في طريق التصدي للأعداء.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٣

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَّغْنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ، وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ اسْتِثْنَاءً لَكَ فِي الْجَهْدِ، وَلَا أزدِيداً لَكَ فِي الْجِدِّ وَلَوْ نَزَعْتَ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَوْوَنَهُ وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وَلَآيَةً. إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مَضِيرٍ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحًا، وَعَلَى عِدْوِنَا شَدِيدًا نَاقِمًا، فَرَحِمَهُ اللَّهُ! فَلَقِدِ اسْتِكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَلَاقَى حِمَامَهُ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ؛ أَوْلَاهُ اللَّهُ رِضْوَانَهُ، وَصَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ! فَاصْبِرْ لِعِدْوِكَ، وَامْضِ عَلَى بَصِيْرَتِكَ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ، وَدَعْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثِرِ الْأَسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ، وَيُعِينَكَ عَلَى مَا يُنْزِلُ بِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: تطيب خاطر محمد بن أبي بكر

لقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الرسالة المختصرة إلى عدة نقاط مهمة فقال أولاً:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَّغْنِي مَوْجِدَتُكَ [٣٣] مِنْ تَسْرِيحِ [٣٤] الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ [٣٥]، وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ

ذَلِكَ اسْتِيطَاءٌ [٣٦] لَكَ فِي الْجُهْدِ، وَلَا زَيْدًا لَكَ فِي الْجِدِّ.

وبهذا الكلام سعى الإمام عليه السلام لتطبيب خاطر محمد بن أبي بكر وأكد له أنه راضٍ

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٤

عن عمله وأن هذا التغيير والاستبدال لا يعنى أبداً أن محمد بن أبي بكر مقصّر في عمله، أو أن الإمام عليه السلام مستاء منه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه مخاطباً لمحمد بن أبي بكر لتهدئة نفسه أكثر ورفع أي التباس في ذهنه وقال:

«وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَوْئِنُهُ وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وَلايَةٌ».

وفي الحقيقة أن الإمام عليه السلام بذكره لهاتين النقطتين، وهما أنه راضٍ من جهة عن أعمال محمد بن أبي بكر، ومن جهة أخرى أنه لو عزله عن موقع معين فإنه سيختار له موقعاً أفضل، وبذلك رفع أي إلتباس وقلق من واليه على مصر.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنه سيعطيه مكاناً أفضل وأيسر مؤنة، وهي ولاية حكومة خراسان أو بلاد فارس أو اليمن، لأن جميع مناطق البلاد الإسلامية في ذلك الوقت ما عدا الشام، كانت تحت حكومة الإمام على عليه السلام [٣٧].

ثم ذكر الإمام عليه السلام السبب في اختياره لمالك الأشتر والياً على مصر، ليرفع من جهة الشبهة عن ذهن محمد بن أبي بكر، ومن جهة أخرى يلفت نظره إلى بعض نقاط الضعف والقصور في شخصيته ليتمكن من إصلاحها واستبدالها بنقاط قوة، يقول:

«إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَوَلَّيْتُهُ أَمْرَ مُضِيرٍ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحًا، وَعَلَى عَيْدُونَا شَدِيدًا نَاقِمًا [٣٨]، فَرَحِمَهُ اللَّهُ! فَلَقَمِدِ اسْتِكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَلَاقَى حِمَامَهُ [٣٩]، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ؛

أَوْلَاهُ [٤٠] اللَّهُ رِضْوَانَهُ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ!».

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٥

والحقيقة أن مالك الأشتر رحمه الله كان كذلك، بلاءه المشهود في صفين ودفاعه الحاسم عن الإمام عليه السلام في مواقع مختلفة ووفاء المطلق واستقامته في جميع الحوادث الصعبة التي وقعت في ذلك العصر، كلها شاهد حي على صحة كلام الإمام عليه السلام في حق الأشتر، فقد كان الأشتر هو القائد الفذ الذي جعل جيش معاوية في صفين يصل إلى حد الهزيمة الكاملة، ولكن مؤامرة رفع المصاحف على الرماح أجهضت سعيه وأعاقت تحقيق النصر على معاوية.

يقول ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة عند وصوله لجملة

«فَرَحِمَهُ اللَّهُ»

: «ولست أشك بأن الأشتر بهذه الدعوة يغفر الله له ويكفر ذنوبه ويدخله الجنة، ولا فرق بينها وبين دعوة رسول الله صلى الله عليه و آله،

ويأطوبني لمن حصل له من علي عليه السلام بعض هذا» [٤١].

وقد تحدّث الإمام عليه السلام في رسائل عدّة في نهج البلاغة عن مالك الأشتر بوصفه شخصيّة ممتازة وعالي الهمة، وهذا الثناء يشير إلى أن للأشتر مكانة سامية عند الإمام عليه السلام الذي كان يكنّ له الحب والاحترام، وقد تحدّثنا في شرح الرسالة ١٣ عن بعض فضائل مالك الأشتر وامتيازاته النادرة، وسنشير في ذيل هذه الرسالة والرسائل أخرى أيضاً إلى أمور أخرى عن هذه الشخصية الإسلامية الفذة.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة ثالثة: ولكن الآن حيث استشهد مالك ولا أعرف أفضل منك لتولي هذا المنصب فعليك بالبقاء فيه والاستعداد لمواجهة العدو بشجاعة وبصيرة:

«فَأَصِحْرُ [٤٢] لِعَدُوِّكَ، وَأَمْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ، وَشَمْرُ [٤٣] لِحَرْبٍ مِنْ حَارَبِكَ».

وجملة »

فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ

« إشارة إلى هذه النقطة، وهي أن الإمام عليه السلام أكد عليها في خطبة الدعوة للجهاد حيث قال: «وَقَلْتُ لَكُمْ اغْرُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْرُوكُمْ فَوَاللَّهِ مَا غُرِيَ

نفعات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٦

قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذُلُّوا».

وجملة

«وَأَمْضِ عَلَيَّ بِصَبْرِكَ»

أمر بضرورة التزام الحذر التام والانتباه الكامل في مقابل مؤامرات العدو وأن يتحرك بدقته متناهية لإبطال مساعيه وإجهاض مؤامراته.

وجملة »

وَشَمْرُ لِحَرْبٍ مَنْ حَارَبَكَ

« إشارة من جهة إلى أنك لا تبدأ بالحرب، ومن جهة أخرى إذا بدأك العدو بالحرب فاستعد لدحره ودفع خطره وكن على أهبة الاستعداد بشكل دائم.

وهذه التوصيات الثلاث للإمام عليه السلام لا تخص محمّد بن أبي بكر فقط بل تشمل جميع المسلمين في كل زمان ومكان، فإذا عملوا بها فذلك سيقردهم إلى النصر المحتم.

وفي ختام الرسالة يدعو الإمام عليه السلام للتوجه إلى الله تعالى والتوسل به فيبده مفتاح جميع المشكلات ولا يمكن تحقيق أى هدف إلا بمعونته، ويقول الإمام عليه السلام:

«وَأَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثِرِ الْأَسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ، وَيُعِينِكَ عَلَى مَا يُنْزَلُ [٤٤] بِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

ومعلوم أن مثل هذا الإيمان والاعتقاد وهذا التوجه للذات المقدسة لا يورث الإنسان الأثر المعنوي الكبير فحسب، بل يمنحه القوة الروحية والاستقامة في العمل والنشاط في المشاعر والانفتاح، وهذه هي الأمور التي تتسبب في إنتصار جيش المسلمين على قوى الكفر والضلالة في عصر النبي الإسلام عليه السلام في حين أن المسلمين كانوا أقل عدداً وعدة من أعدائهم.

نفعات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٧

تأمل

من هو محمّد بن أبي بكر؟

محمّد بن أبي بكر، كما يتبين من اسمه، هو ابن الخليفة الأول، ومع إنتمائه لمثل هذا الأب، كان يعيش العشق الشديد للإمام على بن أبي طالب عليه السلام ومستعد لكل أشكال التضحية في سبيله، وبدوره فالإمام على عليه السلام أيضاً كان يعتمد على محمّد بن أبي بكر اعتماداً كاملاً، ومن هذه الجهة اختاره على مصر، ولكنه استشهد على يد عمال معاوية وقد تأثر الإمام عليه السلام كثيراً بمقتله.

وسبق أن ذكرنا سيرته وترجمته حياته في ذيل الخطبة ٦٨ من الجزء الثالث من هذا الكتاب [٤٥].

ج ج

نفعات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٩

الرسالة ٣٥

إشارة

إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، بَعْدَ مَقْتَلِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ [٤٦]

نظرة عامة للرسالة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الرسالة الموجزة إلى ثلاث نقاط:

الاولى: أنه أبلغ ابن عباس بشهادة محمد بن أبي بكر في مصر على يد أزلام معاوية وتحدث عن محمد بوصفه ابن له ورجلاً صالحاً وشجاعاً ومدافعاً عن الحق.

والثانية: أشار الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة، وهي أنه كان يتوقع مثل هذا الأمر، وبذلك طلب من أهل العراق أن يهبوا لمساعدة محمد سرّاً وعلانية بكل سرعة ولكن مع الأسف فإن العناصر الانتهازية وأصحاب الادعاءات الجوفاء لم يصغوا إلى هذه الدعوة وبالتالي وقعت هذه المصيبة في أرض مصر واستشهد محمد على أثرها.

والثالثة: يدعو الإمام عليه السلام الله تعالى من قلب متحرق يحكى عن الحزن الشديد

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٠

الذى جرح قلب الإمام عليه السلام، والإمام هنا يسأل الله تعالى أن يخلصه من هؤلاء الناس من ضعفاء الإيمان والمعرضين عن الحق ويقسم أنه لولا عشقه للشهادة لما أحب أن يبقى يوماً واحداً مع هؤلاء الناس.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣١

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتَتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدْ اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَسِبُهُ وَلِدًا نَاصِحًا، وَعَامِلًا كَادِحًا، وَسَيْفًا قَاطِعًا، وَرُكْنًا دَافِعًا. وَقَدْ كُنْتُ حَشْتُ النَّاسِ عَلَى لِحَاقِهِ، وَأَمْرُهُمْ بِنِعْيَانِهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ، وَدَعْوَتُهُمْ سِرًّا وَجَهْرًا، وَعَوْدًا وَيَدًا، فَمِنْهُمْ الْآتِي كَارِهًا، وَمِنْهُمْ الْمُعْتَلُّ كَاذِبًا، وَمِنْهُمْ الْقَاعِدُ خَاذِلًا. أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجًا عَاجِلًا؛ فَوَاللَّهِ لَوْلَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عِدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ؛ وَتَوَطُّبِي نَفْسِي عَلَى الْمَيْتَةِ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَلْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْمًا وَاحِدًا، وَلَا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَدًا.

الشرح والتفسير: شكوى من الأتباع الضعفاء

كما هو الملاحظ في عنوان هذه الرسالة، أن الإمام عليه السلام يخاطب فيها عبد الله بن العباس، وكان في ذلك الزمان والياً من قبل الإمام عليه السلام على البصرة، وفي مطلع هذه الرسالة يخبره الإمام عليه السلام عن سقوط مصر بيد جيش معاوية واستشهاد محمد بن أبي بكر ويقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتَتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدْ اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَسِبُهُ [٤٧]».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٢

ثم يضيف:

«وَلَدًا [٤٨] نَاصِحًا، وَعَامِلًا كَادِحًا [٤٩]، وَسَيْفًا قَاطِعًا، وَرُكْنًا دَافِعًا.»

وهذه الصفات الأربع لشخصية محمّد بن أبي بكر متجلية بشكل واضح في سيرته وشخصيته وتعكس هذه العبارات عن جملة من فضائله، في البداية يشير إلى كونه من أهل الخير وبمنزلة الابن له، فمحمّد لم يكن فقط الابن الروحاني للإمام على عليه السلام، بل مع الالتفات أن أمه أسماء تزوجت بعد وفاة أبي بكر من الإمام على عليه السلام وكان محمّد قد تربى في حجر الإمام عليه السلام فإنه يعدّ بمثابة الابن للإمام عليه السلام [٥٠].

ثم يشير الإمام إلى صفة العامل الكادح لمحمّد في منصب الوالي على مصر وأنه كان ماضى الهمة وشديد العزيمة ومدبراً خبيراً، ثم يتعرض الإمام عليه السلام لمواقف محمّد في مقابل الأعداء ويقول عنه أنه كان سيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً، وبعد ذلك يشير الإمام عليه السلام إلى لجوء محمّد باتخاذ تدابير دفاعية في مقابل هجوم الأعداء والحوادث المؤسفة ويشبهه بالعمد القوى والأساس الصلب والركن الدافع الذي يمنع البناء من الإنهيار ويدفع عنه البلايا والأخطار.

ومن أجل أن لا يتوهم أحد أنّ الإمام عليه السلام قصر في الدفاع عن محمّد بن أبي بكر وحفظه يقول:

«وَقَدْ كُنْتُ حَثَّتُ [٥١] النَّاسَ عَلَى لِحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ

الْوَقْعَةِ [٥٢]، وَدَعَوْتُهُمْ سِرّاً وَجَهْراً، وَعَوَداً وَبَدْءاً [٥٣]، فَمِنْهُمْ الْآتِي كَارِهاً، وَمِنْهُمْ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٣

المُعْتَل [٥٤] كَاذِباً، وَمِنْهُمْ الْقَاعِدُ خَاذِلاً [٥٥].»

وينقل الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٣٨ أنّ الإمام عليه السلام في هذه الأثناء دعا أهل الكوفة إلى التجمع: فقام علىّ بالناس وقد أمر فودى الصلاة الجامعة، فاجتمع الناس فحمد الله وأثناء عليه وصلى على محمّد صلى الله عليه وآله، ثم قال:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ هَذَا صَيْرِيحُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَأَخْوَانِكُمْ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ قَدْ سَارَ إِلَيْهِمْ ابْنُ النَّابِغَةِ عَدُوَّ اللَّهِ وَوَلِيٌّ مَنْ عَادَ اللَّهَ، فَلَا يُكُونَنَّ أَهْلُ الضَّلَالِ إِلَى بَاطِلِهِمْ وَالرُّكُونِ إِلَى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ أَشَدُّ اجْتِمَاعاً مِنْكُمْ عَلَى حَقِّكُمْ هَذَا، فَإِنَّهُمْ قَدْ يَدُؤُكُمْ وَإِخْوَانِكُمْ فِي الْغَزْوِ فَعَجَّلُوا إِلَيْهِمْ الْمُوَاسَاةَ وَالنَّصَرَ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّ مِصْرَ أَعْظَمَ مِنَ الشَّامِ وَأَكْثَرَ خَيْراً وَخَيْرَ أَهْلًا فَلَا تُغْلَبُوا عَلَى مِصْرَ فَإِنَّ بَقَاءَ مِصْرَ فِي أَيْدِيكُمْ عَزٌّ لَكُمْ وَكَبْتُ لِعَدُوِّكُمْ أَخْرَجُوا إِلَى الْجُرْعَةِ بَيْنَ الْحِيرَةِ وَالْكُوفَةِ، فَوَافُونِي بِهَا هُنَاكَ عَدَاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ.»

ثم يضيف الطبري: فلما كان من الغد خرج يمشى فنزلها بكرة، فأقام بها حتى التصق النهار يوم ذلك فلم يوافيه منهم رجل واحد، فرجع، فلما كان من العشي بعث إلى أشرف الناس فدخلوا عليه القصر وهو حزين كئيب فقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ وَقَدْ قَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ وَابْتَلَانِي بِكُمْ أَيُّهَا الْفُرْقَةُ مِمَّنْ لَا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ وَلَا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ، لَا أَبَا لِعِيرِكُمْ مَاذَا تَنْتَظِرُوا بِصَبْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ.»

(والقسم المهم من هذه الخطبة أوردناه في ١٨٠ من الجزء السادس من هذا الكتاب).

وينقل الطبري في قسم آخر من كلامه هذا الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قاله بعد استشهاد محمّد بن أبي بكر حيث أخذ يوبخ أتباعه بشدة ويقول:

«دَعَوْتُكُمْ إِلَى غِيَاثِ إِخْوَانِكُمْ مُنْذُ بَضْعِ وَخَمْسِينَ لَيْلَةً فَتَجَرَّجَرْتُمْ جَرَجْرَةَ الْجَمَلِ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٤

الْأَشْدَقِ وَتَثَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ تَثَاقُلَ مَنْ لَيْسَ لَهُ نُيَّةٌ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ وَلَا اِكْتِسَابِ الْأَجْرِ...» [٥٦].

وهذه الطوائف الثلاث الذين يتحدث عنهم الإمام عليه السلام لا ينحصر تواجدهم في ذلك العصر، توجد مثل هذه الشخصيات الهزيلة والنفوس المريضة في كل عصر وزمان وبنحرون في أحد هذه الطوائف الثلاث، فالأشخاص الذين يواجهون المصاعب ويحضرون إلى الميدان كارهين لا يوقفون للقيام بأي عمل إيجابي، والفئة الثانية هم الذين ينسلون من ميدان المواجهات بتبريرات وأعدار مختلفة لابعاد أنفسهم عن مواجهة العدو، والفئة الأخيرة هم الذين يخالفون الحضور في الميدان بصراحة ويحرضون الناس

على القعود معهم، فالويل للمجتمع الذي تكون فيه الغالبية من الناس من هذه الطوائف الثلاث، فمهما اوتى القادة لهذا المجتمع من قدرة وعزم وحنكة في إدارة الأمور فإنهم وبسبب عدم توفر الأنصار والأتباع الذين يعيشون روح التضحية والشجاعة والمسؤولية، فإنهم لا يحققون أى نتيجة لمجتمعهم ولا ينجحون في تجسيد طموحاتهم وتطلعاتهم على أرض الواقع المجتمعي.

إن التدبر في الآيات القرآنية يرشدنا إلى أن هذه الطوائف الثلاث كانت موجودة أيضاً في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله، رغم أن جماعة المؤمنين المخلصين كانت هي الغالبة.

يقول القرآن الكريم بالنسبة للطائفة الأولى في ذلك العصر: «يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعِيداً مَيّاً تَبَيَّنَ كَانْتِمَا يُسِيقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ» [٥٧].

وفيما يخص الطائفة الثانية يستعرض القرآن الكريم قضايا معركة الأحزاب ويقول: «وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً» [٥٨].

أما بالنسبة للطائفة الثالثة فيقول: «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٥

وَكَرَهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَاتَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ» [٥٩].

ثم إن الإمام عليه السلام ينطلق بالدعاء ويتوجه إلى الله تعالى من أعماق قلبه ويسأله أن يخلصه من هذا الواقع الأليم: «أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلاً».

ولغرض التأكيد على هذه الحقيقة يضيف الإمام عليه السلام:

«فَوَاللَّهِ لَوْ لَأَطْمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ؛ وَتَوَطَّيْتُ [٦٠] نَفْسِي عَلَى الْمَيِّتِ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَلْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْماً وَاحِداً، وَلَا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَداً».

إن نذاله هؤلاء الأتباع وخسرتهم وصلت إلى درجة أن الإمام عليه السلام بما يملك من صبر واستقامه بحيث بقي خمس وعشرين عاماً في زاوية البيت وفي الحلق شجي وفي العين قذى كما يقول الإمام عليه السلام نفسه وقد تحمل ذلك، ولكن في هذه المدة القصيرة من خلافته واجه الإمام عليه السلام ضغوطات وصعوبات بحيث إنه تمنى أن لا يبقى مع هؤلاء الناس ولا يوماً واحداً، وما يدعوه للبقاء معهم هو شوق الشهادة في سبيل الله تعالى.

ومثل هذا الكلام ذكره الإمام عليه السلام في الخطبة ١١٩ حيث قال:

«وَاللَّهِ لَوْلَمَا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعِدُوِّ- وَلَوْ قَدَّ حُمٌّ لِي لِقَاؤُهُ- لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جُنُوبٌ وَشَمَالٌ...».

تأمل

روعة البلاغة في هذه الرسالة

تعتبر هذه الرسالة من أفصح وأبلغ رسائل وكتب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والتي كتبها بعبارات موجزة وكلمات بليغة بحيث أدى حقّ المطالب تماماً.

وقد تأثر ابن أبي الحديد كثيراً بفصاحته وبلاغته هذه الرسالة فقال في شرحه لهذه

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٦

الرسالة: «انظر إلى الفصاحة كيف تعطى هذا الرجل قيادها، وتملكه زمامها، وأعجب لهذه الألفاظ المنصوبة يتلوا بعضها بعضاً كيف

تواتيه وتطاوله، سلسله سهله تتدفق من غير تعسف ولا تكلف، حتى انتهى إلى آخر الفصل فقال:
«يَوْمًا وَاحِدًا، وَلَا أَلْتَقِي بِهِمْ أَبَدًا».

وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبة جاءت القرائن والفواصل تارة مرفوعة، وتارة مجرورة، وتارة منصوبة، فإن أرادوا قسرها بإعراب واحد ظهر منها في التكلف أثرين، وعلامة واضحة، وهذا الصنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن، ذكره عبد القاهر، قال: انظر إلى سورة النساء وبعدها سورة المائدة، الأولى منصوبة الفواصل، والثانية ليس فيها منصوب، ولو مزجت إحدى السورتين بالآخرى لم يمتزجا، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما.

ثم إن فواصل كل واحد منهما تنساق سياقه بمقتضى البيان الطبيعي لا الصناعة التكلفية، ثم انظر إلى الصفات الموصوفات في هذا الفصل، كيف قال:

«وَلَدًا نَاصِحًا»

، «وَعَامِلًا كَادِحًا»، «وَسَيِّفًا قَاطِعًا»، «وَرُكْنًا دَافِعًا»،

لو قال: «ولدًا كادحًا» و «عاملاً ناصحًا»، وكذلك ما بعده لما كان صواباً، ولا في الموقع واقعاً، فسبحان الله من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة! أن يكون غلاماً من أبناء عرب مكة، ينشأ بين أهله، لم يخالط الحكماء، وخرج أعرف بالحكمة ودقائق العلوم الإلهية من إفلاطون وأرسطو، ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانية، لأن قريشاً لم يكن أحد منهم مشهوراً بمثل ذلك، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط، ولم يرب بين الشجعان، لأن أهل مكة كانوا ذوي تجارة، ولم يكونوا ذوي حرب، وخرج أشجع من كل بشر مشى على الأرض، قيل لخلف الأحمر [٦١]: أيما أشجع عنبسه وبسطام أم علي بن أبي طالب؟ فقال: إنما يذكر عنبسه وبسطام مع البشر والناس، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة، فقيل له: فعلى كل حال، قال: والله لو صاح في جوههما لماتا قبل أن يحمل عليهما، وخرج أفصح سحبان

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٧

وقس، ولم تكن قريش بأفصح العرب، كان غيرها أفصح منها، قالوا: أفصح العرب جزمهم وإن لم يكن لهم نباهة، وخرج أزهدهم الناس في الدنيا، وأعفهم، مع أن قريشاً ذوو حرص ومحبة للدنيا، ولا غرو فيمن كان محمداً صلى الله عليه وآله مربيهم ومخرجه، والعناية الإلهية تمدّه، وترفده أن يكون منه ما كان [٦٢].

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٩

الرسالة ٣٦

إشارة

إلى أخيه عقيل بن أبي طالب، في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء وهو جواب كتاب كتبه إليه عقيل [٦٣]

نظرة عامة للرسالة

ورد في المصادر التاريخية في قصبة هذه الرسالة أن معاوية بعد واقعة التحكيم سمع أن الإمام علي عليه السلام عازم مرة أخرى على مواجهته وقتاله، فخاف خوفاً شديداً وأخذ يعمل في إضعاف معنويات أهل الكوفة والعراقيين من خلال برنامج إعلامي مدرّوس ومن ذلك أنه أرسل الضحّاك بن قيس مع ثلاثة آلاف نفر إلى العراق وقال له: «سرّ حتى تمر بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت، فمن

وجدته من الأعراب في طاعة عليّ فأغر عليه، وإن وجدته له مصلحة (أي معهم السلاح) أو خيلاً فأغر عليها، وإذا أصبحت في بلدة فأمسي في أخرى، ولا تقيمن لخييل وبلغك أنّها

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٤٠

سرحت إليك لتلقاها فتقاتلها».

فأقبل الضحاك ونهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب ...

فوصلت أخبار حملة الضحاك إلى عقيل وهو في مكة، فقلق من ذلك وكتب كتاباً لأخيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين بلغه خذلان أهل الكوفة وتقاعدهم عنه:

«عبدالله علي أمير المؤمنين من عقيل بن أبي طالب، سلام عليك فأني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن الله حارسك من كل سوء، وعاصمك من كل مكروه، وعلى كل حال إنني فقد خرجت إلى مكة معتمراً فلقيت عبدالله بن سعد بن أبي سرح، في نحو من أربعين شاباً من أبناء الطلقاء، -عرفت المنكر في وجوههم- فقلت إلى أين يا أبناء الشانئين، أبعوايئة تلحقون؟ عداوة والله لنا منكم قديماً ظاهرة غير مستنكرة، تريدون بها اطفاء نور الله، وتبديل أمره فأسمعني القوم وأسمعتهم.

ثم قدمت مكة فسمعت أهلها يتحدثون: أن الضحاك بن قيس أغار على الحيرة، فاحتمل من أموالها ما شاء ثم إنكفاً راجعاً سالمًا، فأف لحياة في دهر جرات عليك الضحاك، وما الضحاك! إلّا فقع بقرقر وقد وطئت، وقد توهمت -حيث بلغني ذلك- أن شيعتك وأنصارك خذلوك، فاكتب إليّ -يا بن امي- برأيك، فإن كنت الموت تريد تحملت إليك بولد أخيك، وولد أبيك، فعشنا معك ما عشت ومنتا معك إذا مت، فوالله ما أحب أن أبقى في الدنيا بعدك فواقاً، واقسم بالأعزّ الأجل إن عيشاً أعيشه بعدك في هذه الدنيا لغير هنيء ولا مرىء، ولا نجيع، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته» [٦٤].

فكتب إليه الإمام عليه السلام هذه الرسالة جواباً له واطمئننه على أن جيش الضحاك قد هرب مولياً ومُنَى بهزيمة منكرة وقتل منهم من قتل، فسّر عقيل لذلك.

والملفت للنظر أن مؤلف كتاب مصادر نهج البلاغة بعد أن يورد هذه الرسالة (رسالة عقيل للإمام عليه السلام) يقول: مع الأخذ بالحسبان أنّها وقعت في أواخر عمر الإمام علي عليه السلام وأنّ عقيل قد كتب هذه الرسالة له وبثّ فيها من شجونه وعواطفه ممّا

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٤١

يحكى عن محبة شديدة وطاعة مطلقة لأوامر أخيه الإمام علي عليه السلام، فما يقال من أنّ عقيل ترك أخيه أمير المؤمنين عليه السلام والتجأ إلى معاوية، ادعاء محض واكذوبة فاضحة.

وتشير هذه الرسالة إلى عدّة أمور:

١. هجوم جماعة من أتباع معاوية على أطراف الكوفة ومواجهتهم لجيش الإمام علي عليه السلام الذي أدى إلى إندحارهم وفرارهم.
٢. شكوى الإمام عليه السلام من قريش وأنهم هم الذين وقفوا في مواجهة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والرسالة الإلهية واتحدوا ضد الرسالة الإلهية وأنهم اتفقوا على معاداة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.
٣. رأى الإمام عليه السلام بالنسبة للأشخاص الذين نكثوا بيعته والتحقوا بعدوه وأنه يجب التصدي لهم وجهادهم إلى أن يعودوا إلى الحق.

٤. التذكير بهذه الحقيقة، وهي أنّ إقبال وإدبار الأفراد لا يؤثر على روحياته ومعنوياته، فهو صامد كالجبل الشامخ في مقابل الأعداء ولا يابه لكثرة التحديات والمؤامرات ولا يضعف لما يواجهه من مصائب ومصاعب.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٤٣

القسم الأول

إشارة

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشًا كَثِيفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِبًا، وَنَكَصَ نَادِمًا، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، وَقَدَّ طَفَلَتِ الشَّمْسُ لِلِأَيَّامِ فَاقْتَتَلُوا شَدِيدًا كُلَّمَا وَلَا، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعِيَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضًا بَعِيدَ مَا أَخَذَ مِنْهُ بِالْمَخْتَقِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ، فَلَأْيَا بِلَأْيٍ مَا نَجَا. فَدَعَّ عَنْكَ قُرَيْشًا وَتَرَكَاصَهُمْ فِي الضَّلَالِ وَتَجَوَّاهُ فِي الشَّقَاقِ وَجَمَّاحَهُمْ فِي التَّبِيهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَيَّ حَزْبِي كَأَجْمَاهُمْ عَلَيَّ حَزْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبِيلِي، فَجَزَّتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي! فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي.

الشرح والتفسير: قصة الضحاک بن قيس

كما رأينا آنفاً أنّ هذه الرسالة عبارة عن جواب من الإمام عليه السلام لأخيه عقيل بن أبي طالب فيما يتصل بحملة الضحاک بن قيس على أطراف الكوفة وهزيمتهم وفرارهم، ومن هنا فإنّ الضمير في «إليه» يعود إلى الضحاک، رغم أنّ بعض شراح نهج البلاغة يعتقدون أنّ هذه القصة تتعلق بحملة «بسر بن ارباط» على اليمن، والأعجب من ذلك أنّ بعضهم ذهب إلى أنّ الضمير يعود إلى معاوية في حين أنّ كلا هذين المعنيين بعيدان عن الصواب.

وعلى أيّ حال، فالإمام عليه السلام في مطلع هذه الرسالة، الذي حذفه السيّد الرضى اختصاراً (وطبقاً لما ورد في كتاب تمام نهج البلاغة ومصادر نهج البلاغة) بعد أن حمد الله أثني عليه ودعا بالخير لعقيل أعلن له أنّ رسالته وصلت إليه بواسطة

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٤٤

عبدالله بن عبيد الأزدي وفهم منها الإمام عليه السلام قلق عقيل من حملة الضحاک على أطراف الكوفة.

ومن أجل رفع هذا القلق كتب الإمام عليه السلام هذه الرسالة لأخيه عقيل يشرح له حادثه حملة جيش معاوية بقيادة الضحاک ويقول له:

«فَسَرَّحْتُ [٦٥] إِلَيْهِ جَيْشًا كَثِيفًا [٦٦]

مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِبًا، وَنَكَصَ [٦٧] نَادِمًا، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ،

وَقَدَّ طَفَلَتِ الشَّمْسُ لِلِأَيَّامِ».

«كَثِيفًا»

يعنى المزدحم والجمع الغفير، وطبقاً لبعض الروايات فإنّ عدد جيش الإمام عليه السلام في هذه الحملة أربعة آلاف نفر من الرجال المستعدين لانزال العقاب بالأعداء والذين ينقضون كالصقر، ولهذا السبب قرر أزلام معاوية وثلول الضحاک الفرار على القرار وندموا على هجومهم وعدوانهم على أطراف الكوفة، ولكن جيش الإمام عليه السلام ظلّ يتعقبهم إلى أن أوشكت الشمس على المغيب، حيث بيّن الإمام عليه السلام في العبارات اللاحقة أخطار هذه المواجهة.

وعبارة

«مِنَ الْمُسْلِمِينَ»

إشعار إلى أنّ الجيش المعادي وقائدهم الأصلي في الشام ليسوا من المسلمين.

وجملة

«شمر هارباً»

يقصد بها السخريه من الضحاك، لأن شمر تأتي عادة بمعنى الشخص الذي يرفع كميته استعداداً للقيام بعمل مهم لا للفرار والنكوص وهو ما اختاره الضحاك في هذه المواجهه الحاسمه.

وجمله »

طَفَلَتِ الشَّمْسُ

« مع الأخذ بنظر الاعتبار أن «طفول» بمعنى الاقتراب، فالجمله إشارة إلى أن الجيشين التقيا عندما أوشكت الشمس على الافول في الافق، والتعبير ب »

الإياب

« كناية عن أن الشمس تطلع في الصباح الباكر وكأنها تخرج من

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٤٥

مقرها وفي وقت العصر تعود إلى مكانها الأول، وهذا تعبير لطيف عن ظاهرة غروب الشمس.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه عن هذه الواقعة ويقول:

«فَأَقْتَتَلُوا شَيْئاً كَلًّا وَلَا، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضاً [٦٨] بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمَخْتَقِ [٦٩]، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ، فَلَا يَأْبَى بِلَأْيِ مَا نَجَا».

والجدير بالذكر أننا أشرنا إلى هذه الواقعة ذيل الخطبة ٣٩، وهذه الرسالة متناغمة مع مضامين تلك الخطبة.

وعبارة

«كَلًّا وَلَا»

تعني أن هذا العمل تم انجازه بسرعة وانسجام تام كما في لفظة «لا ولا»، وفي بعض عبارات العرب يقال: «لا وذا»، وكليهما إشارة إلى المدّة القصيرة من الزمان، كما يقال في المثل: «كلمح البصر».

وعبارة

«بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمَخْتَقِ»

، والمخنتق تعني ما يشير إلى الرقبه والحنجرة التي تتعرض للخنق بضغط يسير، وهو إشارة أن جيش الإمام عليه السلام أوصلوا الضحاك وجيشه إلى حد الموت بحيث لم يبق منهم سوى رمق ضئيل، وهذه العبارة متداوله في اللغة العربية وفي اللغات الاخرى فعندما يواجه الشخص على رقبتة ضغوطاً شديدة يقال إنه بلغ به الخناق، أو ضيق عليه الخناق.

واللافت أن إبراهيم الثقفي ينقل في كتابه «الغارات» واقعة معينة تتضمن تفسيراً وشرحاً لعبارة الإمام عليه السلام في قوله:

«وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ»،

ويقول: عندما هرب الضحاك من «حجر بن عدي» قائد جيش الإمام على عليه السلام شعر بالعطش الشديد، لأنه أضل إبله التي تحمل الماء، وعرضت عليه سِنَّه من النوم في ذلك الوقت، وبذلك انحرف عن الطريق، وعندما انتبه من نومه لم يجد من جيشه سوى عدّة نفر ولم

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٤٦

يكن معهم شيء من الماء، فأرسل بعضهم لطلب الماء ولكنهم لم يعثروا على شيء، وفجأة ظهر رجل وقال له الضحاك: يا عبد الله أننى عطشان فاسقنى، فقال: والله لا أسقيك حتى تدفع لى ثمنه، فقال الضحاك: وما ثمنه؟ فقال: ثمن الماء دينك، ثم واصل حكاية القصة إلى وصول الجماعة كان معهم الماء وشربوا منه [٧٠].

وعبارة

«لَأَيَّ بَلَاءٍ»

، ومع الالتفات أن لأي تعنى الشدة، فمفهوم هذه العبارة أن الضحاك ومن بقى معه من فلول جيشه واجهوا الشدة بعد الشدة إلى أن نجوا بجلودهم من الهلكة.

ثم يشير الإمام عليه السلام في مقطع آخر من رسالته لعقيل أن عبدالله بن سعد، أخ عثمان بن عفان من الرضاعة، كان يسير مع أربعين رجلاً من شباب قريش باتجاه غير معلوم، فسأله عقيل: إلى أين تذهبون يا أبناء أعداء النبي، هل تريدون للحاق بمعاوية؟ هنا يقول الإمام عليه السلام: وأما حديثك عن مخالفة قريش لى فإن قريش بجميع مساعيها فى طريق الضلال والشرك والعداء لا زالوا يتحركون فى متاهات الضلالة والشقاق:

«فَدَعَّ عَنْكَ قُرَيْشًا وَتَرَكَاضَهُمْ [٧١] فِي الضَّلَالِ وَتَجَوَّأَهُمْ [٧٢] فِي الشَّقَاقِ [٧٣] وَجَمَّأَهُمْ [٧٤] فِي النَّبِيِّ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَأَجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلِي».

ثم يضيف:

«فَجَزَّتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي! فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي».

جملة:

«فَجَزَّتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي!»

، مع الالتفات إلى أن الجوازي جمع جازية، وتعنى الجزاء والمكافأة على العمل، فمفهوم الجملة أن جزاء أعمال قريش نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٤٧

سيصيهم عما قريب وسواجهون عاقبة أعمالهم السيئة هذه، وهذه الحقيقة بمثابة الدعاء عليهم لأنهم لم يراعوا حق رحمة وقرابته منهم ولم يسمحوا للإمام عليه السلام بتسلم مقاليد الخلافة التي قررها الله تعالى له عليه السلام وأكد عليها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والضامنة لسعادة المسلمين فى الدنيا والآخرة.

أجل، هؤلاء كانوا فى عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من ألد أعدائه وأعداء الرسالة السماوية وكانوا يشعلون نيران الحروب ضد الإسلام وكانت قريش المحور لهذه الفتن والحروب وتترجم هذه الحروب وكانت آخر من أسلم أو استسلم للنبي الأكرم عليه السلام فى حين أن إسلام الكثير منهم يعدّ إسلاماً صورياً لا حقيقياً.

وبعد رسول الله صلى الله عليه وآله سلكوا ذات الطريق والمنهج مع خليفته ووصيه الإمام على بن أبى طالب عليه السلام، بل إنهم كانوا أشد وأنكى على الإمام عليه السلام لما كانوا يعيشونه من حالات الحقد والانتقام ضده.

ونقرأ فى الحديث الشريف للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال يوماً مخاطباً لعلى بن أبى طالب عليه السلام وهو يبكى ويدرف الدموع:

«ضَعَائِرُنِي فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ لَا يُبَدُونَهَا لَكَ إِلَّا مِنْ بَعْدِي» [٧٥].

وقد أوردنا فى ذيل الخطبة ١٧٢ من الجزء الثالث من هذا الكتاب فى بيان شكوى الإمام عليه السلام إلى الله تعالى من قريش، بحثاً مفصلاً عن عداوة قريش للإمام على عليه السلام.

وعبارة

«ابْنِ أُمِّي»

، عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله إماماً من جهة أن رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام على عليه السلام كليهما من أبناء فاطمة المخزومية بنت عمرو بن عمران ام عبدالله والدة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وام أبى طالب (والد أمير المؤمنين) أو من جهة أن

فاطمة بنت أسد ام أمير المؤمنين عليه السلام وكان في ذاك زمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله تحت تكفل أبي طالب وقامت بتربية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كامه، ولذلك قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عنها: «فَاطِمَةُ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٤٩

القسم الثاني

إشارة

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ الْمُحَلِّينَ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ؛ لَمَّا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَلَمَّا تَفَرَّقُوهُمْ عَنِّي وَحُشَّةً، وَلَمَّا تَحَسَّبَ بَنُ ابْنِ أَبِيكَ - وَلَوْ أَسْلِمَهُ النَّاسُ - مُتَضَرِّعًا مُتَحَشِّعًا، وَلَا مُقِرًّا لِلضَّيْمِ وَاهِنًا، وَلَا سَيْلِسَ الزَّمَامِ لِلْفَاتِدِ، وَلَا وَطِيءَ الظُّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُتَعَقِّدِ، وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سَلِيمٍ:
فَإِنْ تَسَأَلْنِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنِّي صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبٌ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَأَبَةٍ فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَيْبٌ

الشرح والتفسير: لا أكف عن مقارعة الخائنين

إنّ كلام الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة ناظر إلى ما ذكره عقيل في نهاية كتابه إليه وقد سبق ذكره حيث يقول: «فاكتب لى يابن امى برأيك، إن كنت الموت تريد فحملت إليك بنى أخيك وولد أبيك، فعشنا معك ما عشت وامتنا معك إذا مت...»، أى أنك إذا أردت قتال هؤلاء الناكثين للبيعة فأمرنا لنقاتلهم معك فى هذا السبيل، فكتب له الإمام عليه السلام من قوله: «وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ الْمُحَلِّينَ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ».

وكلمة

«محلين»

إمّا أنها تشير إلى الأشخاص الذين نقضوا بيعتهم للإمام ورفعوا

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٥٠

لواء التمرد والفتنة فى البصرة ووقعه الجمل والأشخاص الذين التحقوا بهم بعد ذلك، أو إشارة إلى قوى الضلالة فى الشام الذين أحلوا سفك الدماء فى معركة صفين والذين استمروا فى نفس المسار الشيطاني، أو إشارة إلى الطائفتين.

ثم يتحرك الإمام عليه السلام ليبيّن عزمه الراسخ وإرادته الجازمة لأخيه عقيل فى قتال هؤلاء المتمردين ويؤكد له أن كثرة المخالفين له والخارجين عليه لا تؤثر شيئاً فى عزمه وإرادته ويقول:

«لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَلَا تَفَرَّقُوهُمْ عَنِّي وَحُشَّةً».

وهذا الشعار، الذى ينطلق من موقع العمق الفكرى والشعور الوجدانى والمقتبس من الآيات الشريفة: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ...» [٧٧]، أو «فَلَا تَحْشَوْا النَّاسَ وَاحْشَوْنِي...» [٧٨]، وأمثالها، تشير إلى أن أولياء الله والعظماء من رجال الحق وبالاعتماد على الذات المقدسة، لا يشعرون بشيء من الوحشة من كثرة مخالفيهم ولا يعيشون حالات الغرور من جموع الموافقين، فلو أن جميع المسلمين اتّخذوا كلام الإمام عليه السلام هذا شعاراً لهم فى حياتهم وسلوكياتهم، فمن بالديهي أنهم لا يصابون بالاهتزاز والخور فى مقابل الغزو السياسى

والعسكري والثقافي للغرب وسيحققون النجاحات في جميع هذه الجبهات.
ثم يخاطب الإمام عليه السلام أخيه في كلام زاخر بالحيوية والعمق ويقول:
«وَلَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ - وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ - مُتَضَرِّعًا مُتَخَشِّعًا، وَلَا مُقِرًّا لِلضَّيْمِ [٧٩] وَاهِنًا، وَلَا سَلِسَ [٨٠]
الرِّمَامِ لِلْقَائِدِ، وَلَا وَطِيءَ [٨١] الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُتَعَقِّدِ».

في هذه العبارات الأربع يبين الإمام عليه السلام المراحل المختلفة للتسليم والإذعان في

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٥١

مقابل العدو، أحدها أسوأ من الأخرى الأولى أن يتخذ أسلوب التضرع والخشوع والتوسل في مقابل العدو، والأخرى أن يخشى قدرة العدو ويشعر بالضعف والخور ويستسلم له، والثالثة، أنه مضافاً إلى الاستسلام يفقد زمام أموره من يده ويسلم قياده لعدوه ليرى رأيه فيه

«وَلَا سَلِسَ الرِّمَامِ لِلْقَائِدِ»

، وأخيراً يحنى ظهره ليركبه العدو ويسوقه إلى حيث يريد

«وَلَا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ».

ما أروع هذه العبارات الدقيقة والحيّة التي تحكى عن غاية الفصاحة والبلاغة في كلام الإمام عليه السلام وأن الإمام ينفي عنه نفسه أى شكل من أشكال الاستسلام والخضوع في مقابل العدو.

وكلمة

«مقعّد»

وردت في بعض النسخ «مقعّد»، وتعنى الشخص الذى اختار مكاناً للجلوس والعود، وهو إشارة إلى راكب الدابة الذى يركب دابته ولا يستفيد منها فى المسير فقط، بل فى جميع حاجاته، فتارة يقف ويتحدّث إلى شخص آخر، وأخرى يشتري حاجات من السوق وهو راكب، وأحياناً يعطى شيئاً لآخر وأمثال ذلك، والخلاصة أنه جالس على مركبه ويقوم بأعماله ووظائفه دون أن يهتم لهذه الدابة وثقله.

وفى ختام هذه الرسالة، ومن أجل التأكيد أكثر على عزمه الراسخ وإرادته الصلبة فى مقابل العدو، يستشهد الإمام عليه السلام بشعر شاعر من طائفته بنى تميم ويقول: إن حالى

كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سَلِيم:

فَإِنْ تَسَأَلْنِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنِّي صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ [٨٢] الرِّمَانِ صَلِيبُ [٨٣]

يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَأَبَّةٍ [٨٤] فَيَشْمَتَ [٨٥] عَادٍ [٨٦] أَوْ يُسَاءَ حَيْبُ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٥٢

وهنا خلاف فى الشاعر الذى ينسب إليه هذا الشعر، فابن أبى الحديد ينسبه فى شرحه لنهج البلاغة إلى عباس بن مرداس السلمى، ولكنّه يقول إننى لم يجده فى ديوانه.

يقول المحقق التستري فى شرحه لنهج البلاغة: «قال بن أبى الحديد: الشعر نسب إلى العباس بن مرداس السلمى، ولم أجده فى ديوانه» [٨٧].

قلت: بل الظاهر أنّ هذين البيتين لصخر بن عمرو السلمى، قال فى الأغاني كان صخر طعن فى جنبه فى حرب، فمرض قريباً من حول وقد نتأت فى موضع الطعنة قطعة مثل الكبد، فأحمسوا له شعرة، ثم قطعوها لعله يبرأ، فسمع أن أخته تقول:

كيف كان صبره؟ فقال: بهاتين البيتين» [٨٨].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٥٣

الرسالة ٣٧

إشارة

إلى معاوية [٨٩]

نظرة عامة للرسالة

هذه الرسالة، كما ورد في تمام نهج البلاغة في بحث سندها، تبتدىء بكلام لم يذكره السيد الرضى للاختصار، ولكن من أجل استيعاب محتوى الرسالة وفهم مضامينها لابد من استعراض المقطع الأول منها، وقبل ذلك ينبغي الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أن هذه الرسالة لم تكن رسالة ابتدائية من الإمام عليه السلام لمعاوية بل هي جواب عن رسالة أرسلها معاوية للإمام عليه السلام، ورغم أن نص رسالة مفقود ولم يتعرض له أحد من شراح نهج البلاغة ولكن يتبين من جواب الإمام عليه السلام إجمالاً أن معاوية أشار في رسالته إلى ثلاثة أمور:

الأول: إنه استند في إثبات حقايقته أنه منصوب من قبل عمر بن الخطاب لهذا المقام.

والآخر: أنه اقترح على الإمام عليه السلام أن يضع بيده وتحت اختياره الشام ومصر وأن

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٥٤

يوافق الإمام عليه السلام على أن تكون الخلافة من بعد الإمام له.

الثالث: أنه اتهم الإمام عليه السلام بالمشاركة في قتل عثمان وادعى المطالبة بثأره والانتقام من قاتله.

فكتب إليه الإمام عليه السلام جواباً على ذلك يقول:

«أما بعد، فإن الدنيا حلوة خضرة ذات زينة وبهجة، لم يصب إليها أحد إلا شغلته بزيتها عما هو أنفع له منها وبالآخرة أمرنا، وعليها حثنا فدع، يا معاوية، ما يفنى اعمل لما يبقى واحذر الموت الذي إليه مصيرك، والحساب الذي إليه عاقبتك. وأعلم أن الله - تعالى - إذا أردا بعبد خيراً حال بينه وبين ما يكره، ووفقه لطاعته، إذا أردا بعبد سوءاً أغراه بالدنيا، وأنساه الآخرة، ونسب له أمله، وعاقبه عما فيه ضلأه وقدم وصي لئلا يضل، وتلوذ بأضعف شبيهه فأما سؤالك إلى المتاركة والاقرار لك على الشام، فلو كنت فاعلاً ذلك اليوم لفعلته أمس، وأما قولك: إن عمر ولأكها، فقد عزل من كان ولماه صياحبه، وعزل عثمان من كان عمر ولأه ولم ينصب للناس إماماً إلا من صالح الأمة ما قد كان ظهر لمن كان قبله، أو خفي عنهم عيبه، والأمر يحدث بعده الأمر، ولكل وال رأى واجتهاد...» [٩٠].

وما ذكره السيد الرضى في نهج البلاغة يمثل المقطع التالي من هذه الرسالة.

وعلى أية حال بالإمكان تقسيم ما ورد من الرسالة في نهج البلاغة إلى قسمين:

الأول: توبيخ معاوية بسبب اتباعه لهوى النفس وتجاهله الحقائق الموضوعية وإنكاره العهود الإلهية.

والثاني: الجواب عن ادعاءات معاوية في المطالبة بدم عثمان ومطالبته الإمام عليه السلام بتسليم قاتله.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٥٥

فَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُتَبَدِّعَةِ، وَالْحَيْرَةَ الْمُتَعَبِّهَ مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ وَأَطْرَاحِ الْوَثَائِقِ، الَّتِي هِيَ لِلَّهِ طَلِبَةٌ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ. فَأَمَّا إِكْتَارُكَ الْجِجَاجَ عَلَى عُثْمَانَ وَقَتْلَتِهِ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ، وَخَدَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: ما أنت والطلب بدم عثمان؟

إشارة

كما أشرنا آنفاً أن المؤرخين وكتاب السير وللأسف لم يذكروا، بحدود علمنا، نص رسالة معاوية للإمام عليه السلام، رغم أن بعض مقاطع تلك الرسالة يمكن استيحاؤها من جواب الإمام عليه السلام له، وفي هذا المقطع من رسالة الإمام عليه السلام نرى أن الإمام يوبخ معاوية بشدة بسبب اتباعه للأهواء المطامع الموهومة التي تقوده إلى متاهات الحيرة، ويتبين أن معاوية كان قد كتب للإمام عليه السلام كلمات وقحة وتجراً على الإمام بعبارات لا مسؤوله، ومن هنا يقول له الإمام عليه السلام:

«فَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُتَبَدِّعَةِ، وَالْحَيْرَةَ الْمُتَعَبِّهَ مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ وَأَطْرَاحِ [٩١] الْوَثَائِقِ، الَّتِي هِيَ لِلَّهِ طَلِبَةٌ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ».

فالإمام عليه السلام في هذه العبارة الوجيهة والعميقة المعنى يلخص علل وعوامل انحراف معاوية عن جادة الحق بأربعة أمور، الأول: اتباع الأهواء والنوازع النفسانية، والآخر: اتباع عوامل الحيرة وسبل المتاهة، والثالث: غض النظر عن نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٥٦

الحقائق الموضوعية، والرابع: نقض العهود والمواثيق الإلهية. وبديهي أن كل واحد من هذه العوامل من شأنه أن يقود الإنسان إلى مهوى الضلالة والتردى في وادي السقوط الأخلاقي، فكيف إذا اجتمعت كلها في شخص واحد؟!

إن الحقائق التي أشار إليها الإمام عليه السلام في هذه الرسالة، والتي ضيعها معاوية تعدد من الخصائص المنحصرة بشخص الإمام عليه السلام في العصر الأول للإسلام والذي كان مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله منذ بداية الدعوة إلى آخر أيام النبي المباركة، وفي المقابل نسيان معاوية لسوابقه في عصر الجاهلية وما ارتكبه أبوه وامه من أعمال شنيعة بحيث لا يسع أي عاقل أن يقارنه بالإمام عليه السلام مع تلك الخصوصيات الفذة والخصال الممتازة التي اجتمعت فيه، ومع كل ذلك يريد معاوية أن يخلف الإمام عليه السلام في مسند الحكومة والخلافة ويطمح أن تكون له السيطرة في حياة الإمام على قسم عظيم من البلاد الإسلامية. «وثنائق»:

أي العهود والمواثيق، وهي إشارة إلى المواثيق التي اخذت من الإنسان المؤمن بأن يسير في خط الطاعة والتسليم لأحكام الله تعالى، وجملة

«الَّتِي هِيَ لِلَّهِ طَلِبَةٌ»

، بما أن طلبه تعنى المطلوب، فهي إشارة إلى أن الله تعالى يطالب عبده بالوفاء بجميع هذه العهود والمواثيق.

فمن جهة فإن كل إنسان مؤمن، وبمقتضى قوله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» [٩٢]، يحمل الأمانة الإلهية في حياته، ومن جهة أخرى وبمقتضى قوله تعالى: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ» [٩٣]، مطالب بإطاعة أوامر الله ورسوله، ومن جهة ثالثة وبمقتضى قوله تعالى: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٥٧

بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» [٩٤]، مطلوب منه ترك عبادة الشيطان واتباع وساوسه، فكل هذه الأمور متضمنة في ثانيا المواثيق الإلهية وقد أتم الله حجته على عباده بمقتضى هذه الآيات الشريفة.

ويتابع الإمام عليه السلام في المقطع الثاني من هذه الرسالة كلامه في توبيخ معاوية ويقول: «فَأَمَّا إِكْتَارُكَ الْحِجَاخِ [٩٥] عَلَى عُثْمَانَ وَقَتْلِهِ، فَإِنَّكَ إِئْمَا نَصْرَتِ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ، وَالسَّلَامُ».

فالإمام عليه السلام يتعجب من هذا الادعاء الواهي لمعاوية وكأنه يرى نفسه ولي دم عثمان، فيقول له الإمام عليه السلام بتعبير شيق وبلغ، بأنك أنت الذى منعت نصرك لعثمان وخذلته، لأننا نعلم، والتاريخ أيضاً شاهد على هذا المعنى، بأن عثمان طلب النصرة والمعونة من معاوية وأن يرسل له معاوية جيشاً ليذب عنه وينصره، ولكن معاوية أمر الجيش بالاقتراب من المدينة وعدم دخولها وكأنه يريد أن يقتل عثمان ويهيء الأرضية اللازمة لتولى الخلافة ثم يقول للناس إننى أرسلت جيشاً لنصرته ولكن الجيش تأخر عن الوصول للمدينة.

يقول البلاذرى المؤرخ المعروف: «لما أرسل عثمان إلى معاوية يستمده، بعث يزيد بن أسد القسرى، جد خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق وخال له: إذا أتيت ذاخشب فأقم بها، ولا تتجاوزها، ولا تقل: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فإننى أنا الشاهد وأنت الغائب. قال الراوى: أقام بذي خُشب حتى قتل عثمان، فاستقدمه حينئذ معاوية فعاد إلى الشام بالجيش الذى أرسل معه». ويضيف البلاذرى هنا: «وإنما صنع ذلك معاوية ليقول عثمان فيدعو إلى نفسه» [٩٦].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٥٨

والملفت أن الشيخ مغنية في شرحه لنهج البلاغة بعد أن ذكر هذه القصة قال:

«تشهد جميع المواقف من سيرة معاوية أن هذه الحادثة، وفيما سبق نقلناها عن المؤرخين والباحثين القدامى والجدد، أن معاوية خذل عثمان في حياته وطلب منه أن يجعله ولياً دمه، وأنه بعد أن تم له الأمر تجاهل عثمان ودم عثمان، وأنه كان يستقبل قتلته ويجيزهم بالأموال (انظر كتاب معاوية، العقاد، ص ١٥٠ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦)» [٩٧]. يعنى أن جميع الشواهد التاريخية في سيرة معاوية تشهد أن هذه الرواية عين الحقيقة والواقع، ولكن عندما هدأت الأوضاع ورأى معاوية أن الطلب بدم عثمان ذريعة جيدة لدعوة الناس إليه، رفع قميص عثمان وأخذ بالبكاء والنحيب وإثارة أحاسيس الناس، والأعجب من ذلك أنه عندما استشهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وجلس معاوية على مسند الخلافة، ليس فقط لم يترك فقط قتله عثمان، بل استقبلهم برحابة صدر وأجزل لهم العطاء.

تأمل

رسالة معاوية إلى ابن عباس وجوابه

ومن النقاط الملفتة للنظر أن ابن أبي الحديد أورد في ذيل هذه الرسالة مورد البحث رسالة معاوية إلى ابن عباس في أيام صلحه مع الإمام الحسن المجتبي عليه السلام حيث دعاه إلى بيعته، ومن جملة ما ذكر له في هذه الرسالة: «ولعمري لو قتلتك بعثمان رجوت أن يكون ذلك لله رضاءً، وأن يكون رأياً صواباً، فإنك من الساعين عليه، والخاذلين له، والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك منى ولا بيدك أمان».

ولكن ابن عباس لم يشعر بالخوف من تهديد معاوية وأجابه جواباً حاسماً

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٥٩

ومطولاً يقول فيه: «وأما قولك إني من الساعين عليه، والخاذلين له، والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك مني، فأقسم بالله لأنت المتربص بقتله، والمحِبُّ لهلاكه، والحابس الناس عنه على بصيرة في أمره، ولقد آتاك كتابه وصريحه يستغيث بك ويستصرخ، فما حفلت به، حتى بعثت إليه معذراً بأجره، أنت تعلم أنهم لن يتركوه حتى يُقتل، فقتل كما كنت أردت، ثم علمت عند ذلك أن الناس لن يعدلوا بيننا وبينك، فطفقت تنعى عثمان وتزمننا دمه، وتقول: قتل مظلوماً، فإن يك قتل مظلوماً فأنت أظلم الظالمين، ثم لم تزل مصوباً مصعداً، وجاثماً وراضباً؛ تستغوي الجهال، وتنازعنا حقاً بالسفهاء حتى أدركت ما طلبت ... «وإن أدري لعلَّه فتنُّه لكم ومَتَاعٌ إلی حین» [٩٨] (وهذه الجملة الآية مقتبس من الآية ١١١ من سورة الأنبياء).

ويستفاد من رسالة معاوية إلى ابن عباس، وكذلك رسالته للإمام عليه السلام، أنه كان ينسب بكلِّ وقاحة، ما كان سهيماً فيه للوصول إلى أهدافه ومطامعه، لأي شخص يريد لكي يثير إحساسات العامة من الناس ضده ويجعله يستسلم لمطالبه ويدعن لخلافته، في حين أن جميع الشواهد التاريخية تشير إلى أن معاوية كان في باطنه يرغب في قتل عثمان ولم يتقدم خطوة لنصرته، مع أن عثمان طلب منه بصراحة النصرة والمساعدة، وعلى حدِّ تعبير محمد بن مسلمة الأنصاري الذي كتبه في جواب معاوية، أنت في حياة عثمان لم تقدم على نصرته بل نصرته بعد موته:

«وَلَكِنْ كُنْتُ نَصَرْتُ عُثْمَانَ مِيتًا لَقَدْ خَذَلْتَهُ حَيًّا» [٩٩].

وذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ٤٢١، والجزء الثاني، ص ٤٨٠، والجزء الثالث، ص ٢٢٦، تفاصيل جديرة بالنظر فيما يخص رسالة الإمام عليه السلام لمعاوية لبيعته والإشارة إلى علل وعوامل مقتل عثمان.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٦١

الرسالة ٣٨

إشارة

إلى أهلِ مِصْرَ لَمَّا وُلِّيَ عَلَيْهِمُ الْأَشْتَرُ [١٠٠]

نظرة عامة للرسالة

نعلم بأن الإمام عليه السلام كتب رسالة وسلّمها لمالك الأشتر وفيها يذكر المناهج العمليّة والأساليب الإداريّة في المجالات المختلفة في قضايا الحكومة والإدارة، وهذه الرسالة المعروفة بـ «عهد مالك الأشتر» وردت في نهج البلاغة، الكتاب ٥٣، وسيأتي بيانها وشرحها، وقد كتب رسائل أخرى أيضاً إلى أهل مصر عندما أرسل إليهم مالك الأشتر والياً على مصر، وإحدى هذه الرسائل هي ما سنبحثه الآن، والأخرى المرقمة ٦٢ في نهج البلاغة، ويتبين من جميعها ما كان لمالك الأشتر من مقام وشخصية قويّة وإيمان عميق وأنه إنسان قوى وشجاع ومدبر ومدبّر ومخلص.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٦٢

والرسالة مورد البحث تتشكل من قسمين:

القسم الأول: يتضمّن مدح وتمجيد أهالي مصر، الذين هبوا للدفاع عن الإسلام في وقت ساد فيه الظلم والفساد المجتمعات البشرية وانطفأت جذوة الحق والعدالة في الأمة وشاعت المنكرات والقبائح في فضاء البلاد الإسلاميّة.

وفي القسم الثاني: يستعرض شخصية مالك الأشتر بوصفه رجلاً يتمتع بإمكانيات ومواهب ممتازة بحيث تجعله جديراً بالولاية والإمارة،

ويذكره في هذه الرسالة عبارات راقية قلما ذكر الإمام عليه السلام أحداً بهذه الصفات، وبعد ذلك طلب الإمام من أهالي مصر أن يتواصلوا معه من موقع الطاعة لأوامره والتقدير لشخصيته.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٦٣

القسم الأول

إشارة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلَّهِ حِينَ عَصَى فِي أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضْرَبَ الْجُورُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاخُ إِلَيْهِ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ.

الشرح والتفسير: المصريون الذين غضبوا لله

يستهل الإمام عليه السلام رسالته لأهالي مصر، كما تمت الإشارة إليه، بوصف بليغ لهؤلاء المؤمنين، ويقول: «مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلَّهِ حِينَ عَصَى فِي أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضْرَبَ الْجُورُ سُرَادِقَهُ [١٠١] عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ [١٠٢]، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاخُ إِلَيْهِ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ».

وفيما يتصل بوقت صدور هذه العبارات الواردة في الرسالة يتفق جميع شراح نهج البلاغة أنها تشير إلى عصر كان عبدالله بن أبي سرح المجرم المعروف والياً على مصر من قبل عثمان بن عفان، فقد سلك هذا الوالي ومعه أزلامه وأعوانه طريق الظلم والجور على أهالي مصر بعيداً عن التعاليم الرسالية والأحكام الإسلامية، فلم يعترف عملاً بالأمر المعروف والنهي عن المنكر ولا اتخذ خطوات عمليّة في هذا المجال.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٦٤

ولا ننسى أنّ عبد بن أبي سرح كان من جملة كتّاب الوحي في بداية الأمر ولكن بسبب خيانتته فقد سخط عليه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ونزلت آية من القرآن في ذمّه، فكان أن ارتد عن الإسلام والتحق بالمشركين وأخذ يتآمر ضد الإسلام، وعندما فتح المسلمون مكة كان هذا الرجل أحد الأفراد المعدودين الذي أمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بقتلهم، ولكن بما أنّ عبدالله أخو عثمان من الرضاة فقد أخفاه عثمان في داره، ثم جاء به إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وطلب منه الأمان له، فأعرض النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله بوجهه عنه وكرر عثمان طلبه هذا ثلاث مرات، وأخيراً وافق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله على طلبه، وعندما غادر عثمان ومعه عبدالله من عند النبي قال النبي صلى الله عليه وآله لمن حوله من أصحابه:

«لَقَدْ صَمَتُ لَيَقُومَ إِلَيْهِ بَعْضُكُمْ فَيَضْرِبُ عُنُقُ»

، فقام رجل من الأنصار وقال:

«فَهَلَّا أَوْمَأَتْ إِلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ»

، فقال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله:

«إِنَّ النَّبِيَّ لَا يَقْتُلُ بِالْإِشَارَةِ» [١٠٣].

وعلى أيّ حال فإنّ أهل مصر ثاروا ضد هذا الرجل الخائن، ولكنّه صمد لهم وتمسك بمنصبه بقوة، ومن هنا تحركت جماعة من ألقى رجل من مصر باتجاه المدينة يطالبون عثمان بعزله، ولكنّ عثمان، ليس فقط لم يعزل هذا الوالى بل كتب إليه كتاباً وأرسله مع غلامه يتحدث فيه عن لزوم معاقبة رؤوس المعترضين ويوصيه باعدامهم أمام الملاء ويعاقب البعض الآخر بشدّة ليكونوا عبرة للآخرين، فاكشف الثّوار المصريون هذه الرسالة وارتفعت أصوات اعتراضهم ضد عثمان وقالوا: يجب علينا العودة إلى المدينة لعزل عثمان من سدّة الخلافة.

وفى ذلك الوقت كانت جماعات كثيرة قد أقبلت من الكوفة والبصرة وكانوا يحملون معهم اعتراضات وشكاوى مماثلة، أضف إلى ذلك أنّ الكثير من المهاجرين والأنصار كان يرون أنّ عثمان، وبسبب أعماله السلبية، غير جديرة بخلافة المسلمين وينبغي عزله، ولكنّ عثمان ثبت فى موقعه وأصرّ على البقاء فى الخلافة وفى هذا المقام، وتسبب ذلك بسيادة الغضب وسخط الثائرين عليه وأخيراً نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٦٥

استطاعوا قتله على يد أبى حرب الغافقى المصرى، وذهب بعض المؤرخين إلى أنّ قاتله أشخاص آخرون ١٠٤]، هذا فى حين أنّ الإمام على عليه السلام أرسل ولديه الإمام الحسن والحسين عليهما السلام إلى دار عثمان لمنع دخول الناس إليها، لأنّ الإمام على عليه السلام لم يكن موافقاً على قتل عثمان، رغم أنّه كان يعتقد بلزوم عزل عثمان. وأما ما يرتبط بالرسالة مورد البحث وما ورد فيها من تقدير وتبجيل من الإمام على عليه السلام لأهالى مصر فبعض المؤرخين استنبط من هذه الرسالة أنّ الإمام عليه السلام كان موافقاً على قتل عثمان.

يقول ابن أبى الحديد فى هذا المورد: «هذا الفصل يشكل علىّ تأويله، لأنّ أهل مصر هم الذين قتلوا عثمان، وإذا شهد أمير المؤمنين عليه السلام أنّهم غضبوا لله حين عصى فى الأرض، فهذه شهادة قاطعة على عثمان بالعصيان، وإتيان المنكر، ويمكن أن يقال إن كان متعصفاً: إنّ الله تعالى عصى فى الأرض لا- من عثمان، بل من وُلّاته وأمرائه وأهله، وذهب بينهم بحق الله، وضربت الجور سرادقه بولايتهم وأمرهم على البر والفاجر، والمقيم والضامن، فشاع المنكر، وفقد المعروف».

ثمّ يضيف ابن أبى الحديد: «ويبقى أن يقال: هب أنّ الأمر كما تأولت، فهؤلاء الذين غضبوا لله إلى ماذا آل أمرهم؟ أليس الأمر آل إلى أنّهم قطعوا المسافة من مصر إلى المدينة فقتلوا عثمان؟ فلا- تعدوا حالهم أمرين: إمّا أن يكونوا أطاعوا الله بقتله فيكون عثمان عاصياً مستحقاً للقتل، أو يكونوا اسخطوا الله تعالى بقتله، فعثمان إذاً على حقّ، وهم الفسّاق العصاة، فكيف يجوز أن يبجلهم أو يخاطبهم خطاب الصالحين؟ ويمكن أن يجاب على ذلك بأنّهم غضبوا لله، وجاءوا من مصر، وأنكروا على عثمان تأميره الامراء الفسّاق، وحصروه فى داره طلباً أن يدفع إليهم مروان ليحبسه، أو يؤدّبوه على ما كتبه فى أمرهم، فلما حصر طمع فيه مبغضوه وأعدّوه

نقحات الولاية؛ ج ١٠؛ ص ٦٦

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٦٦

من أهل المدينة وغيرها، وصار معظم الناس إلماً عليه، وقلّ عدد المصريين بالنسبة إلى ما اجتمع من الناس على حصره، ومطالبته بخلع نفسه، وتسليم مروان وغيره من بنى امية إليهم، وعزل عمّاله والاستبدال بهم، ولم يكونوا حينئذ يطلبون نفسه، ولكن قوماً منهم ومن غيرهم تسوروا داره، فرماهم بعض عبيده بالسهم، فخرج بعضهم، فقادت الضرورة إلى النزول، والاحاطة به، وتسرع إليه واحد منهم وقتله، ثمّ إنّ ذلك القاتل قُتل بالوقت، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم وشرحناه، فلا يلزم من فسق ذلك القاتل وعصيانه أن يفسق الباقون، لأنّهم ما أنكروا إلماً المنكر، وأمّا القتل فلم يقع منهم، ولا- راموه ولا- أرادوه، فجاز أن يقال: إنّهم غضبوا لله، وأن يثنى عليهم ويمدحهم» [١٠٥].

وقد وافق بعض شراح نهج البلاغة على هذا الكلام والتقرير، ويظهر من كلماتهم أنّ هذا الكلام خالٍ من التكلف، لأنّ القرائن

التاريخية من جهة تشير إلى أن الإمام على عليه السلام لم يؤيد أحداً على قتل عثمان بل كان مانعاً عن قتله، رغم أنه كان يعترض بشدة على أعمال عثمان وتسليطه أفراد من بني امية الفاسدين على أموال وأرواح المسلمين، ومن جهة أخرى أن الرسالة مورد البحث تشير إلى أن قيام أهالي مصر يستحق الثناء والتبجيل، ويمكن الجمع بين هذين الأمرين بما ذكر آنفاً وأن كلام الإمام عليه السلام في هذه الرسالة لا يدل إطلاقاً على مدح قتله عثمان [١٠٦].

وضمناً فقد بين الإمام في هذه الرسالة خصوصيات المجتمع الفاسد في عبارات موجزة وذلك بقوله: إن مثل هذا المجتمع هو الذي تظهر فيه المعاصي والمنكرات وتكرس فيه حالات الجور والظلم لتستوعب جميع الأخيار والأشرار، فلا أمان لأحد لا في المدن ولا في البراري وأن الرذائل ستشتد وتقوى على حساب الفضائل.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٦٧

القسم الثاني

إشارة

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ، وَلَا يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ، أَشَدَّ عَلَى الْفَجَارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ، وَهُوَ مَا لَيْسَ بِكَ بِنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ، فَاسْمِعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيُفِّقُ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ، لَا كَلِيلُ الظُّبَيْهَةِ، وَلَا نَابِي الضَّرْبِيَّةِ؛ فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفَرُوا فَانْفَرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَقِيمُوا فَأَقِمُوا، فَإِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ وَلَا يُحْجِمُ، وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي؛ وَقَدْ آتَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَيَّ عَدُوَّكُمْ.

الشرح والتفسير: نصبت عليكم والياً مقتدراً وبصيراً بالأمر

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته لأهالي مصر من موقع التمجيد والتعريف بمالك الأشتر، وبعد أن يصفه بست صفات ممتازة جداً، يأمر أهالي مصر بالطاعة له ويدعوهم لامتهال أمره وكأن هذا الأمر بالطاعة مقترن بالدليل على ذلك. بداية يقول الإمام عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ»

. المعجىء بكلمة «عبد» نكرة يراد به التعظيم والإشارة إلى أن مالك الأشتر في مقام العبودية لله تعالى جدير بهذا المقام، والإمام عليه السلام يصفه بأهم وأعلى صفة للإنسان وهي مقام العبودية لله، وهذا هو ما نقوله في صلاتنا اليومية لمقام النبوة والرسالة، حيث نقول في التشهد:

«أشهد أن محمداً عبده ورسوله»

، وهذه هي الحقيقة التي يفتخر بها

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٦٨

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ويقول:

«كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً» [١٠٧].

يتابع الإمام عليه السلام وصفه لمالك الأشتر ويذكر الصفة الثانية والثالثة بقوله:

«لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ، وَلَا يَنْكُلُ [١٠٨] عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ [١٠٩].»

وهذان الوصفان في الحقيقة من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها الإنسان لتحقيق النصر على العدو، والاستعداد الدائم في زمان

الخوف من هجوم العدو وعدم الخشية من حيله ومكره، ولا كثرة عدده وعدته، وهو ما يلزم القائد الفذ والزعيم المقدم، والتاريخ يشهد أن القادة والامراء الذين هزموا بالمعارك لم يكونوا يتمتعون باحدى هاتين السميتين، فإما أنهم غفلوا عن مكر العدو، أو قادمهم الخوف من العدو إلى الهزيمة والذلة.

ثم يتعرض الإمام عليه السلام للصفة الرابعة ويقول:

«أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بَنِ الْحَارِثِ أَخُو مَدْحِجٍ [١١٠].»

عبارة »

حَرِيقِ النَّارِ

« تعتبر في الحقيقة أبلغ تعبير لبيان الهجمات الشرسة لمالك الأشتر على الأعداء في ميادين القتال، لأنه ليس كمثل النار في الإفناء والإهلاك، فالماء يغرق، والحجر يكسر، ولكن النار تحرق وتحول الشيء إلى رماد.

وينقل المحقق التستري في شرحه نهج البلاغة عن كتاب (صفيين لنصر بن مزاحم) خرج رجل من أهل الشام- في معركة صفيين- قلما رؤى أطول وأعظم منه وشجاعاً مقداماً فدعا إلى المبارزة طبقاً للعادة المتداولة في الحروب في ذلك الزمان، فلم يخرج إليه إنسان من جيش أمير المؤمنين عليه السلام لمبارزته أو الخروج له- وخرج إليه مالك الأشتر فقتله، فقال رجل منهم: أقسم بالله لأقتلن قاتلك، فحمل

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٦٩

على مالك الأشتر فضربه، فإذا هو بين يدي فرسه وحمل أصحابه فاستنقذوه جريحاً، فقال أبو ربيعة السهمي:

«كان هذه ناراً فصادفت إحصاراً»

، أي أنه لم يقاوم أمام الإحصار [١١١].

ثم يخرج الإمام عليه السلام بنتيجة من هذه الأوصاف المذكورة لمالك الأشتر ويقول:

«فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقُّ.»

وبديهي أن العبد المخلص لله تعالى والمنتبه لمخططات العدو والذي لا- يجفل ولا- ينكل عن الأعداء بل يهجم عليهم كالنار أو الصاعقة، هو الشخص الذي ينبغي إطاعة أمره والاصغاء لتوجيهاته، والملفت للنظر أن الإمام عليه السلام يقول:

«فِيمَا طَابَقَ الْحَقُّ»

، وهو إشارة إلى أنه لا- أحد من البشر معصوم سوى الأنبياء والأوصياء ومن هنا فإن إطاعة أوامره يجب أن يكون محدوداً في إطار مطابقة الحق، وعلى ضوء ذلك فالإمام عليه السلام يوصى بهذه التوصية حتى لأقرب المقربين منه، ولذلك يقول ابن أبي الحديد في شرحه لهذه العبارة: «وهذا يشير إلى القدرة الإيمانية والصلابة الروحية للإمام بحيث إنه لا يرى التساهل والتسامح حتى بالنسبة لأحب الأفراد إليه، ولذلك يقيد إطاعة أمره بهذا القيد، لأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ» [١١٢].

ثم يتعرض الإمام عليه السلام للصفة الخامسة للمال الأشتر ويقول:

«فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ، لَا كَلِيلَ [١١٣] الطُّبَّةِ [١١٤]، وَلَا نَابِي [١١٥] الضَّرْبِيِّ» [١١٦].

جملة:

«سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ»

تعد أفضل تعبير عن رجل شجاع كمالك الأشتر

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٧٠

من حيث قوة شكيمته ورسوخ عقيدته وشدّة بطشه بالأعداء.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن سيف الله لقب خالد بن ولید، ولكنهم اختلفوا في مَنْ لُقّب بهذا اللقب، فذهب بعض إلى أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو الذي منحه هذا اللقب، ولكن ابن أبي الحديد يصرّح بأنّ الصحيح أنّ هذا اللقب لخالد قد لُقّب به أبو بكر بسبب حروبه مع أهل الردّة ومسيلمة الكذاب وانتصاره عليهم، ولكننا نعلم أنّ خالد بن ولید كان قد اقترف أعمالاً سيئة وتصرفات سلبية كثيرة ولا يقبل المقارنة مع مالك الأشتر وهو الرجل الشجاع والصادق والمخلص، والجدير بالذكر أنّ ابن الأثير يقول: «عندما قتل خالد مالك بن نويرة (بدون مبرر شرعي) وتزوج من زوجته، غضب عمر عليه وقال لخالد، قتلت مسلماً ثمّ نزوت على امرأته، اقسام والله لأرجمنك بأحجارك، وأصرّ على أبي بكر أن يقتص من خالد بسبب قتله مالك بن نويرة، ولكن أبا بكر قال في جوابه: لقد فعل خالد وأخطأ ولكنني لا أشيم سيفاً سلّه الله على المشركين» [١١٧] (وهذا هو السبب الذي دعى البعض إلى أن يلقبوه بسيف الله، ولكن يا لهذا السيف!!).

ثمّ يستطرد الإمام عليه السلام بذكر نتيجة لهذا الاستدلال ويقول:

«فَإِنْ أَمَرَكُمُ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمُ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِمُوا».

ثمّ يصف الإمام عليه السلام الأشتر بالصفة السادسة والأخيرة ويقول:

«فَإِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ وَلَا يُحْجِمُ [١١٨]، وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي؛ وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ [١١٩] عَلَى عَدُوِّكُمْ».

وبديهي أنّ مالك الأشتر لم يكن يصدر أوامر وتوصيات من الإمام عليه السلام في

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٧١

الأمر الجزئية وفي التفاصيل مع تلك الفاصلة الكبيرة بين مصر والعراق والكوفة، هذا يعني أنّ الإمام عليه السلام قد علّمه مبادئ عامية وأصولاً كليّة (كما ورد في عهده المعروف للمالك الأشتر في الرسالة ٥٣ كما سيأتي لاحقاً) وفوّض معرفته الفروع والتفاصيل لمالك من خلال ردّها إلى تلك الأصول الكليّة، وهذا هو الاجتهاد بمعناه الصحيح وهو: ردّ الفروع إلى الأصول. إنّ هذه الصفات الست إذا توفرت في أي شخص فإنّه سيبلغ مرتبة الإنسان الكامل الجامع لجميع الكمالات المادية والمعنوية والظاهرية والباطنية.

وبذلك يقول الإمام عليه السلام في آخر جملة من هذه الرسالة: بالرغم من أنني أود أن يكون مالك الأشتر معي، ولكنني

«وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ».

في هذه العبارة يصرّح الإمام عليه السلام بأنّه بالرغم من أنّ مالك الأشتر يعدّ ضرورياً ولازماً في جيشه وتحت قيادته، ولكن لأهميته مصر من حيث سعتها وتاريخها وأهلها الواعين والملتزمين بالقيم والرسالة فإنني آثرتكم على نفسي وتنازلت لكم عن قائد مقدم هو مالك الأشتر، وهذا من جهة يبين مكانة الأشتر السامية، ومن جهة أخرى، يبين أهمية مصر وأهلها.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٧٣

الرسالة ٣٩

إشارة

إلى عمرو بن العاص [١٢٠]

نظرة عامة للرسالة

هذه الرسالة مليئة بالتوبيخ الشديد من قبل الإمام عليه السلام لعمرو بن العاص حيث يوبخه الإمام عليه السلام لخضوعه واتباعه الأعمى لمعاوية ويصف معاوية أيضاً بالصفات اللائقة به.

والقسم الآخر من هذه الرسالة يتضمن تهديداً من الإمام عليه السلام لعمرو ومعاوية ويقول: لو أنى انتصرت عليكما فساعاقتكما بما تستحقان وإن لم أنتصر فإن العقاب الإلهي ينتظركما.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٧٤

والجدير بالذكر، طبقاً لما ورد في كتاب تمام نهج البلاغة، أن لهذه الرسالة مطلع وخاتمة في عبارات قليلة لم يذكرهما السيد الرضى، فبدأيتها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْأَبْتَرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَاثِلٍ، شَانِيءٍ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى

، وخاتم الرسالة:

«وَاللَّهِ حَسْبُكُمْ وَكَفَى بِإِنْتِقَامِهِ إِنْتِقَامًا وَبِعِقَابِهِ عِقَابًا سَلَامٌ لِأَهْلِهِ» [١٢١].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٧٥

فَأَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعًا لِدُنْيَا أَمْرِيءِ ظَاهِرٍ عَيْهٍ، مَهْتُوكِ سِرُّهُ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسْفُهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطِهِ، فَاتَّبَعْتَ أَثْرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ؛ اتَّبَعَ الْكَلْبُ لِلضَّرْغَامِ يُلُودُ بِمَخَالِبِهِ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيْسَتِهِ فَأَذْهَبَتْ دُنْيَاكَ وَآخَرَتُكَ! وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكَتْ مَا طَلَبْتَ. فَإِنْ يُمَكِّنِي اللَّهُ مِنْكَ وَمِنْ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْرِكُمْمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقِيَا فَمَا أَمَامَكُمْ شَرٌّ لَكُمْ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: لقد بعث دينك بدنيا غيرك!

يتحرّك الإمام عليه السلام في مستهل رسالته من موقع التوبيخ واللوم لعمرو بن العاص ويقول له:

«فَأَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعًا لِدُنْيَا أَمْرِيءِ ظَاهِرٍ عَيْهٍ، مَهْتُوكِ سِرُّهُ [١٢٢]،

يَشِينُ [١٢٣] الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسْفُهُ الْحَلِيمَ [١٢٤] بِخِلْطِهِ [١٢٥].»

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن جملة:

«يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ»،

إشارة إلى ما أمر به معاوية من سب الإمام على عليه السلام وبنى هاشم في المجالس، حيث كان هؤلاء الأعاظم وطيلة سنوات متمادية يسبون في مجلس معاوية ومجالس أخرى،

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٧٦

ولكن معنى العبارة المذكورة لا ينحصر بهذا المعنى، بل إن عمرو بن العاص كان، مضافاً إلى ذلك، يهزأ من الشخصيات المرموقة من أنصار الإمام على عليه السلام وشيعته ويتحدّث معهم لدى حضورهم في مجلس معاوية بكلمات ركيكة وعبارات نابية قاصداً بذلك إهانتهم والسخرية منهم، وفي المقابل كان الكثير منهم يردونه بجواب قاطع وحاسم من دون الاعتناء بالأخطار المحدقة بهم بسبب جرأتهم في حضور معاوية، وعلى كل حال فإن معاوية كان رجلاً سيء الكلام وهاتكاً للحرمة.

ومن ذلك أن «جارية بن قدامة» كما ينقل العقد الفريد، دخل يوماً إلى مجلس معاوية فقال له معاوية: «ما كان أهونك على أهليك إذ سموك جارية! قال: ما كان أهونك على أهليك إذ سموك معاوية! وهى الانثى من الكلاب، قال: لا أم لك! قال: امى ولمدتني للسيوف التى لقيناك بها فى أيدينا، قال: إنك لتهدنى، قال: إنك لم تفتحننا قسراً، ولم تملكنا عنوة، ولكنك أعطيتنا عهداً وميثاقاً، وأعطيناك سماعاً وطاعة، فإن وفيت لنا وفينا لك، وإن فرغت إلى غير ذلك، فإننا تركنا وراءنا رجالاً شديداً، وألسنة حداداً، قال معاوية: لا كثر الله فى الناس أمثالك، قال جارية: قل معروفاً وراعنا، فإن شر الدعاء المحتطب» [١٢٦].

وجملة:

«وَيْسَفُهُ الْحَلِيمَ بِخَطِّتِهِ»،

إشارة إلى أنه يقال فى مجلسه كلام تافه وركيك إلى درجة أن الإنسان العاقل يعد سفيهاً فى ذلك المجلس، وهذه هى نتيجة المشاركة فى مجلس يحضره معاوية ورفاقه.

هذه الأوصاف الأربع التى وصف بها الإمام عليه السلام معاوية، بإمكانها تجسيد شخصية معاوية بكل وضوح وتبين من يدعى خلافة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ومن يجلس على منبره، والأعجب من ذلك حال الأشخاص الذين قرأوا سيرته وتاريخه ومع ذلك يعتبرونه من الصحابة الأجلاء لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا يبيحون أية إهانة تلحق به! هذه نتيجة التعصب الأعمى الذى يجر الإنسان إلى كثير من البلايا والآفات.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٧٧

ويتابع الإمام عليه السلام خطابه لعمر بن العاص:

«فَاتَّبَعَتْ أَثَرَهُ، وَطَلَبَتْ فَضْلَهُ؛ اتَّبَاعِ الْكَلْبِ لِلضَّرْعَامِ [١٢٧] يُلَوِّذُ بِمَخَالِبِهِ [١٢٨]، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيَسْتِهِ [١٢٩] فَأَذْهَبَتْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ!».

وعادة فى مثل هذه الموارد يتم التشبيه بالثعلب الذى يتحرك تبعاً للأسد المفترس لينتفع من فضلات مائدته وبقايا فريسته، ولكن الإمام عليه السلام استخدم التشبيه بالكلاب بدل الثعلب، لإظهار شدة دنائه ووقاحة عمرو بن العاص، ونعلم أن عمرو بن العاص هو الشخص الذى لم يكن قادراً على تولى الحكم والإمارة بنفسه، ولكن من خلال مكره ودهائه فى تقديم الخدمة لمعاوية بحيث أنه أعطاه أخيراً ولاية مصر، فكان أن خسر الدنيا، لأنه لم يبق له سمعة فيها، وخسر الآخرة بما لا حاجة لبيانه.

وجاء فى كتاب تاريخ يعقوبى أن عمرو بن العاص عندما دنت منه الوفاء نظر إلى أمواله الكثيرة (وقد صعب عليه أن يفارقها جميعاً ويذهب خال البيدين) فقال لابنه: «ود أبوك أنه كان مات فى غزاة ذات السلاسل، إنى قد دخلت فى أمور ما أدرى ما حجتى عند الله فيها»، ثم نظر إلى ماله فرأى كثرته وقال: «ياليته كان بعراً ياليتنى مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنة، أصلحت لمعاوية دنياه وأفسدت دينى، آثرت دنياى وتركت آخرتى، عمى على رشدى حتى حضرنى أجلى، كأتى بمعاوية قد حوى مالى وأساء فيكم خلافتى» [١٣٠].

ويواصل الإمام عليه السلام توبيخه لعمر بن العاص ويقول:

«وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَذْرَكَتَ مَا طَلَبْتَ».

إشارة إلى أنك كنت تملك الدنيا والآخرة لأنك تملك الاستعداد الكافى للفوز بهما، ولكنك للأسف قد سرت فى طريق الباطل وتوغلت فى الرذيلة فى حين أن

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٧٨

الكثير من الناس يمكنهم وبواسطة ذكائهم وقابلياتهم أن يعيشوا السعادة فى الدنيا ويتنعمون بها بطريق حلال دون أن يضرب ذلك بآخرتهم ولكنهم قد يخطئون المسار ويتكبرون عن الطريق.

وهنا ربما يثار هذا السؤال وهو: لو أن عمرو بن العاص كان قد أذعن للحق، فهل سيعطيه الإمام عليه السلام ما أراد، مثلاً يعطيه إمارة

مصر، في حين أنّ سيرة الإمام على عليه السلام تأبى ذلك؟

وفي مقام الجواب عن هذا السؤال يمكن القول: إنّ عمرو بن العاص إذا كان واقعاً يطلب الحق ويسير في الصراط المستقيم ويعيش تقوى الله تعالى، فإنه بما لديه من ذكاء ومواهب يكون جديراً بهذا المقام فلا يبعد أنّ الإمام عليه السلام سيكلفه بتولى هذا المنصب، أضف إلى ذلك أنّ المراد بجملة: «ما طلبت» ليس فقط حكومته مصر، بل أن يملك الإنسان المقام اللائق حتى لو كان مقاماً أدنى من حكومته مصر.

وفي ختام هذه الرسالة ينطلق الإمام عليه السلام من موقع التهديد لمعاوية وعمرو ويقول:

«فَإِنْ يُمَكِّنِي اللَّهُ مِنْكَ وَمِنْ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا، وَالسَّلَامُ».

وقد أورد بعض شراح نهج البلاغة في هذا المورد بحثاً يتلخص في أنّ الإمام عليه السلام إذا كان قد انتصر على معاوية وعمرو بن العاص فهل سيقتلها، أو أنّه سيعفو عنهما، أو سيعاقبهما بعقوبة أخرى؟ ورغم أنّ الكلام عن مسألة لم تقع إطلاقاً لا يعدّ ذا فائدة، ولكن من المعلوم أنّ الإمام عليه السلام إذا كان يعفو عنهما فإنه لا يعفو عن حقّ الناس، وما ارتكبه من جرائم وجنایات في سبيل تحقيق مطامعها في الرئاسة والدينا، والشاهد على هذا الكلام ما ورد في ذيل هذه الرسالة وروايات أخرى قال:

«فَإِنْ يُمَكِّنِي اللَّهُ مِنْكَ وَمِنْ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا».

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٧٩

تأملان

١. عمرو بن العاص في الجاهلية والإسلام

يقول العالم المصري المعروف «محمّد عبده» في شرحه لنهج البلاغة في مستهل هذه الرسالة: «من مآسى الزمن ومهازله في الوقت نفسه أنّ عمرو بن العاص هو الذي أرسلته قريش إلى نجاشي الحبشة يطالب بتسليم جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين، وردّهم إلى مكة لترى فيهم قريش رأيها، وأنّ عمرو بن العاص نفسه هو الذي قاتل على بن أبي طالب في صفين، فبنفس الروح التي قاتل بها ابن أبي طالب الأوّل، قاتل بها ابن أبي طالب الثاني، وهكذا كانت محنة الإسلام في أنّ الذين قاتلوه لدى ظهوره عادوا يقاتلونه بعد انتصاره، فتلبس بلباس الإسلام نفسه».

ثم يضيف هذا العالم المصري: وقد كان لعمرو بن العاص ما أراد من أن يكون له مصر طعمة خالصة، وذلك صورة من صور حكم ابن العاص بمصر.

ثم ينقل عن المقرئزي وهو من أشهر مؤرخي القرن التاسع قوله: خلف عمرو بن العاص سبعين بهاراً دنانير، والبهار جلد ثور، وبلغه إردبان بالحصرى، هذا ما انتهى إليه أمر الإسلام: سبعون بهاراً دنانير منهوبة من أقوات الشعب وأرزاقه يخلفها وال واحد» [١٣١].

٢. بعض أعمال معاوية

نقل ابن أبي الحديد في شرحه لهذه العبارة من كلام الإمام عليه السلام:

«ظَاهِرٌ عَلَيْهِ»

، يقول: «فأما قوله عليه السلام في معاوية: «ظاهر غيّه»، لا ريب في ظهور ضلاله وبغيه، وكلّ باغٍ هاوٍ، أمّا

«مَهْتُوكَ سِتْرُهُ»

فإنّه كان كثير الهزل والخلاعة، صاحب جلساء وسمار، ومعاوية لم يتوقّر ولم يلزم قانون الرئاسة إلّا منذ خرج على أمير المؤمنين عليه

السلام،

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٨٠

واحتاج إلى الناموس والسكينه، وإنما فقد كان في أيام عثمان شديد التهتك موسوماً بكل قبيح، وكان في أيام عمر يستر نفسه قليلاً خوفاً منه، إلا أنه كان يلبس الحرير والديباج، ويشرب في آنية الذهب والفضة، ويركب البغلات ذوات السروج المحلاة بها وعليها جلال الديباج والوشى، وكان حينئذ شاباً وفيه نزع الصبي وأثر الشبيبة وسكر السلطان والإمره ونقل الناس عنه في كتب السير أنه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام، وأما بعد وفاة أمير المؤمنين واستقرار الأمر له فقد اختلف فيه، فقيل: إنه شرب الخمر في ستره، وقيل: أنه لم يشربه، ولا خلاف في أنه سمع الغناء وطرب له وأعطى ووصل عليه أيضاً [١٣٢].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٨١

الرسالة ٤٠

إشارة

إلى بعض عماله [١٣٣]

نظرة عامة للرسالة

من هو المخاطب في هذه الرسالة؟ لم يتحمل بعض الشراح عناء الفحص عنه ويبنوا ذلك بصورة إجمالية، ولكن يستفاد من البلاذري في «أنساب الأشراف» وابن الدمشقي في «جواهر المطالب»، أن المخاطب بهذه الرسالة هو عبدالله بن العباس الذي كان والياً على البصرة.

توضيح ذلك، طبقاً لما نقله هذان المؤرخان، كتب أبو الأسود رسالة بهذا المضمون إلى أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله تعالى قد جعلك والياً أميناً لنا عارفاً بوظيفتك، وقد اخترناك ورأيناك أميناً تريد خير الامة وتؤدي حقها للبيت المال ومعرضاً عن الدنيا، وأنتك لم تنفق من أموال هذه الامة شيئاً لنفسك ولم تقبل رشوة، ولكن ابن عمك تصرف في أموال بيت المال بدون علمك، ولم أر من السليم أن أكتمك هذا الأمر ولهذا كتبت لك هذا الكتاب.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٨٢

وفي مقام الإمام عليه السلام الجواب عن هذه الرسالة إلى أبي الأسود الدؤلي يشكره فيها على موقفه هذا، ثم كتب الرسالة مورد البحث إلى ابن عباس [١٣٤]، ويتحدث فيها معه بلغة التوبيخ واللوم ولكن ليس على محمل على القطع واليقين، بل ورد كلامه عليه السلام في هذه الرسالة بأنه إذا كان ما وصلني صحيحاً وقد عصيت أمري ولم يؤد حق الأمانة ... وكذلك أمره بأن يرسل له فوراً حساب بيت المال، وفي ختام الرسالة يحذره من الحساب الإلهي الذي هو أدق وأعظم من حساب الناس.

ولكن تردد بعض شراح نهج البلاغة في كون هذه الرسالة إلى ابن عباس، واعتبر مقامه بشهادة التاريخ مقاماً شامخاً أن يكون قد ارتكب مثل هذه الأعمال.

والجدير بالذكر أن البلاذري بعد ذكره لرسالة أبي الأسود ورسالة الإمام عليه السلام لابن عباس قال: إن ابن عباس كتب كتاباً للإمام على وصرح فيها أن الخبر المذكور غير صحيح (ومن أخبرك بهذا الخبر إما أنه أخطأ في ذلك أو لديه غرض معين).

أما نص رسالة ابن عباس للإمام عليه السلام:

«أَمَا بَعْدَ فَإِنَّ الَّذِي بَلَغَكَ عَنِّي بَاطِلٌ وَأَنَا لِمَا تَحْتَ يَدِي أَحُوْطُ وَأَضْبَطُ فَلَا تُصَدِّقْ عَلَيَّ الْإِظْنَاءِ رَحِمَكَ اللَّهُ وَالسَّلَامُ».

وسياتى المزيد من التوضيح فى هذا الموضوع فى الرسالة الآتية.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٨٣

أَمَا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسِخَطْتَ رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ. بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: سخط الله وعصيان الإمام

يقول الإمام عليه السلام فى مستهل هذه الرسالة القصيرة والمثيرة:

«أَمَا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسِخَطْتَ رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ [١٣٥] أَمَانَتَكَ».

فى هذه العبارة الموجزة نرى أَنَّ الإمام عليه السلام تحدّث مع مخاطبه ابن عباس (أو شخص آخر) بعبارات من موقع الاحتياط، فلم يقل إِنَّكَ قد ارتكبت إثمًا فى هذه الأعمال بل يحذّره بأنّه إذا ما وصلنى من الخبر صحيحاً فأنت مسؤول أمام الله تعالى وأمام إمامك، وقد افتضحت أمام الناس والامة.

ما أبلغ وأدقّه هذا التعبير بأنّ الإنسان وبسبب ارتكابه لبعض الأمور تسقط شخصيته ومكانته أمام الله والإمام والناس أجمعين.

وجمله

«وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ»

ربّما تشير إلى الأمانة فى المقام والمنصب أى مقام

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٨٤

الولاية، وفيها إشارة إلى أنّ عملك يتضمّن فضيحتك فى أمر الولاية، أو إشارة إلى الأمانة والاعتبار والحيشة فى نظر الناس، أى أنّك فضحت نفسك أمام الخلق فلا اعتبار لك بينهم.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام توضيحاً أكثر فى هذا المجال وهو فى الحقيقة تفصيل بعد الإجمال، وتبيين بعد الابهام، يقول:

«بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ».

وجمله

«جَرَّدْتَ الْأَرْضَ»

أى جعلته عارية وجرءاء ربّما تكون إشارة إلى أنّك أخذت المحصولات الزراعية للأراضى الخارجيّة لنفسك، وكذلك يمكن أن تكون إشارة إلى تخريبه للأراضى الزراعيّة بسبب سوء تدبيره، واحتمل بعضهم أنّ الأرض هنا بمعنى أرض بيت المال، يعنى أنّك أخذت الأموال الموجودة فى بيت المال وجعلته خالياً، ولكن الاحتمال الأوّل والثانى أقوى حسب الظاهر.

والجدير بالالتفات إلى أنّ كلمة «جرّدت» من مادة «جرّيد» ويعنى تعريه الشىء، ومن هنا قيل للجراد «جراد» لأنّه يعرى الأرض ويأكل الأشجار ويجعل الأرض والأشجار عارية.

وفى ختام هذه الرسالة يقول عليه السلام:

«فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ وَالسَّلَامُ».

وبديهي أنّ حساب الناس أحياناً يخالطه الاشتباه والغفلة، وأحياناً يستطيع المرء إخفاء بعض النواقص عنهم، فى حين أنّ الحساب الإلهي لا يمسه الخطأ والاشتباه، ولا يستطيع أى شخص إخفاء أعماله فى حكمه العدل الإلهية، كما يقول القرآن الكريم: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فى صَحْرَةٍ أَوْ فى السَّمَاوَاتِ أَوْ فى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ» [١٣٦].

والمراد من الحساب الذى أشار إليه الإمام عليه السلام حساب ما يتجمع فى بيت المال

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٨٥

أعم من محصولات الأراضى الخراجية والزكاة والغنائم وأمثال ذلك، إذ أن الوالى مكلف أن يكتب للإمام عليه السلام مجموع المكتسبات وكذلك النفقات، ليتبين هل هناك حيف واختلاس فى بيت المال أم لا؟

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٨٧

الرسالة ٤١

إشارة

إلى بعض عماله [١٣٧]

نظرة عامة للرسالة

هذه الرسالة كما سيأتى بيانه بشكل تفصيلي فى نهاية هذا البحث، كتبها الإمام عليه السلام لعبد بن عباس كما هو معروف، وفيها يوبخه الإمام على عدم رعاية الموازين الصحيحة فى بيت المال، وكذلك يهيب به كالأب المتحرق الذى يرى ابنه يسير فى طريق الخطأ والزبغ، ويدعوه إلى إصلاح المسير والعودة إلى الطريق القويم، ومن هنا يوجه الإمام عليه السلام لابن عباس كلمات لاذعة ويخاطبه بلغة التأنيب والتوبيخ.

وفى القسم الأول من هذه الرسالة يذكره الإمام عليه السلام بإحسانه له أنه كان يعتبره من

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٨٨

خواصه وقد أوكل إليه أحد المناصب المهمة فى حكومته، أى منصب والى البصرة.

وفى القسم الثانى يشير الإمام عليه السلام إلى إساءة هذا الوالى ويوبخه على عدم رعاية موازين العدل فى أمر بيت المال ويأمره بتقوى الله تعالى وإعادة أموال المسلمين إلى بيت المال.

وفى القسم الثالث، يقسم الإمام عليه السلام لو أن ولديه الحسن والحسين عليهما السلام مع شدة قربهما إليه، قد ارتكب مثل هذا العمل فإن سيقف منهما موقفاً حازماً ولا يتسامح معهما فى هذا الأمر.

وفى القسم والرابع والأخير من هذه الرسالة يحذره الإمام عليه السلام ويبيّن له فناء الحياة الدنيا وعدم ثباتها وأنه سيرحل منها عمّا قريب، وسيحضر فى محضر محكمة العدل الإلهي وعليه أن يجيب على ما ارتكبه من أعمال سيئة وأنه سيندم حين ذاك على الكثير من أعماله حيث لا ينفع الندم.

أما بالنسبة للمخاطب فى هذه الرسالة وهل أنه عبد الله بن عباس حقيقة، وهو من أصحاب الإمام على عليه السلام المعروفين، أم أنه أخوه عبيد الله أم شخص آخر؟ هناك خلاف كثير بين المؤرخين وشراح نهج البلاغة وعلماء الرجال، وسنشير إلى هذه المسألة فى ختام هذه الرسالة وسنبيّن ما هو الأقرب فى نظرنا.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٨٩

القسم الأول

إشارة

أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبَطَانَتِي، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمَوَاسَاتِي وَمُؤَازَرَتِي وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ، فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلَبَ، وَالْعِدُوَّ قَدْ حَرَبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزَيْتَ، وَهَيْدَةَ الْأُمَّةِ قَدْ فَكَتَ وَشَعَّرْتَ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهَرَ الْمَجْنُّ فَفَارَقْتُهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ، وَخُتِنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَيْتَ. وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللَّهُ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَيْدَةَ الْأُمَّةِ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَنُوِي غَرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ، فَلَمَّا أَمَكَّنْتِكَ الشَّدَّةَ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكُرَّةَ، وَعَاجَلْتَ الْوُثْبَةَ، وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةِ لِأَرْامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ اخْتَطَفَ الذَّنْبُ الْأَزْلَ دَامِيَةَ الْمَعْرَى الْكَسِيرَةَ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ لِأَيَّا لِعَيْرِكَ حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تَرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، فَسَبَّحَانَ اللَّهَ! أَيَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوْ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ!

الشرح والتفسير: ألا تؤمن بالمعاد؟!

في بداية هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى تعاطفه وحبّه لهذا الوالى ويذكره بخدماته ومؤازرته له في مواقع الشدة ليشير فيه الشعور بالندم مما اقترفه من خطئه يقول عليه السلام:

«أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي [١٣٨]

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٩٠

وَبَطَانَتِي [١٣٩]، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمَوَاسَاتِي وَمُؤَازَرَتِي [١٤٠] وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ».

يشير الإمام عليه السلام في هذه العبارات المقتضبة إلى ثلاث نقاط فيما يتصل بهذا الوالى:

١. إن هذا الوالى كان سهيماً ومؤازراً للإمام عليه السلام في إدارة وتدبير أمر الحكومة والامة وكان يملك أحد أهم المناصب الحساسة في الدولة.

٢. أنه كان محرم أسرار الإمام عليه السلام ومن بطانته والموثوقين في الامور.

٣. كان هذا الوالى من أكثر الولاة قرباً واعتماداً لدى الإمام عليه السلام من بين جميع أقربائه وأرحامه، ومن هذه الجهة لم يكن يتوقع في مقابل كل هذا الاعتماد والمحبة أن يقوم بعمل سلبى تجاه حكومة الإمام.

ثم يستعرض الإمام عليه السلام مخالفات واليه وعامله ويتبدىء الكلام بالقول:

«فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلَبَ [١٤١]، وَالْعِدُوَّ قَدْ حَرَبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزَيْتَ، وَهَيْدَةَ الْأُمَّةِ قَدْ فَكَتَ [١٤٢] وَشَعَّرْتَ [١٤٣]، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهَرَ الْمَجْنِّ [١٤٤] فَفَارَقْتُهُ مَعَ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٩١

الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ، وَخُتِنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ [١٤٥]، وَلَا

الْأَمَانَةُ أَدِيَتْ».

وجملته

«قَلْبَتِ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهَرَ الْمَجْنُّ»

تعنى فى معناها الحرفى: قلبت الدرع لابن عمك على باطنه، وهى كناية عن إعراضه عن الإمام عليه السلام، لأنّ المجاهدين فى ميدان الحرب عندما يواجهون الطرف الآخر وجهاً لوجه يلبسون الدروع أمامهم ويكون ظهر الدرع فى الواجهة، ولكن فى حالة الهرب يكون باطن الدرع فى مواجهتهم، ومن هذه الجهة استخدمت هذه الحالة كناية عن الشخص الذى يعرض عن شخص آخر أو عن شىء. وفى الجمل الخمس الاولى يرسم الإمام عليه السلام حالة الزمان: صعوبة الظروف فى المحيط الاجتماعى، جراءة العدو فى الحرب، عدم اهتمام الناس بأمر الأمانة، عدوان الامّة على الأحكام الإلهية.

ثمّ يستعرض الإمام عليه السلام مخالقات ابن عمّه معه من أبعاد مختلفة وذلك فى عدّه جمل: الإعراض عن الإمام، التماهى مع المناوئين، خذلانه للإمام وعدم نصره الحقّ، الانسياق مع الخاذلين وخيانتهم لبيت المال مع الخائنين، وعلى ضوء ذلك فإنّ جميع هذه الصفات التى أطلقها الإمام عليه السلام عليه بهذه الجمل البليغة والزاهرة بالمعنى جسد الإمام حالات هذا الوالى الذى خذل الإمام فى ساعات المحنة، ونرى الإمام عليه السلام بين الجملتين الأخرتين بفاء التفرغ: مفارق الإمام مع المفارقين والخيانة فى الأمانة. ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتحرك لرصد أعمال هذا الوالى ويتحدّث معه بلغة الوجدان لإثارة أحاسيسه الدينيّة بهذه العبارات: «وَكَأَنَّكَ لَمْ تُكُنِ اللَّهُ تَرِيدُ بِجَهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تُكُنْ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَيْدَةَ الْأُمَّةِ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَنْوِي غَوْرَتَهُمْ [١٤٦] عَنْ فَيْئِهِمْ».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٩٢

بداية يشكك الإمام عليه السلام، فى هذه الجمل الثلاثة، فى إخلاص تيّ هذا الوالى فى أمر الجهاد، ثمّ يشكك الإمام فى كون أعماله تستند إلى الدليل والبيّنة الشرعيّة، وأخيراً يشبه الإمام عليه السلام عمله بمن يريد إغفال الناس وخداع الامّة لسلب حقوقهم من بيت المال.

ولعل هذا الوالى (سواء كان ابن عباس أو غيره) عند قراءته لهذه العبارات والجمل يستيقظ ضميره ويتحرك على مستوى إعادة أموال بيت المال.

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام كلامه لهذا الوالى ويقول:

«فَلَمَّا أَمْكَنتُكَ الشَّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكُرَّةَ [١٤٧]، وَعَاجَلْتَ الْوُئْبَةَ [١٤٨]، وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ الْمَصُونَةَ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ اخْتِطَافَ [١٤٩] الذُّبِّ الْأَزَلِ [١٥٠] دَامِيَةَ [١٥١] الْمَغْرَى [١٥٢] الْكَسِيرَةَ [١٥٣]، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ [١٥٤] الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ غَيْرَ مُتَأْتِمٍ [١٥٥] مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ لَأَبَا لِعَيْرِكَ حَدَرْتَ [١٥٦] إِلَى أَهْلِكَ تَرَاتُكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمَّكَ».

هذه العبارات البليغة فى خطاب الإمام عليه السلام ناطقة بالمعنى وتشبيه الإمام لحالة

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٩٣

هذا الشخص صريح وشديد ولا يمكن تصور بيان المقصود بأبلغ من هذه العبارات الدقيقة والكلمات المتماسكة.

عبارة تعبير به

«أَسْرَعْتَ الْكُرَّةَ»

و

«عَاجَلْتَ الْوُئْبَةَ»

« و

«اِخْتَطَفَتْ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ»

وتشبيهه بالذئب الذى يجرح ويدمى المعزى الكسيرة، وكذلك قوله:

«تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمَّكَ»

وكأنه يحسب أن بيت المال كميراث ورثه من والديه، كلهما جمل معبرة عن شناعه وقباحه هذا العمل الذى يقام به هذا الوالى.

جمله

«لَا أَبَا لِعَٰبِرِكَ ...»

تعدّ نوعاً من الاحترام لذلك الوالى، لأنه عندما تحقير شخص: «لا أبا لك» ومن هذا المنطلق فالإمام عليه السلام فى الوقت الذى

يخاطب فيه هذا الوالى بتلك العبارات اللاذعة والتوبيخات القارعة، فإنه لا يزال يحترمه بالمقدار اللازم.

وبعبارة تعبير به

«تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمَّكَ»

تعبير جميل يقال فى هذه الموارد بالنسبة للشخص الذى يقع على أموال ويتصرف بها دون وازع فيقال له: كأن هذا المال إراثاً ورثته

من أبيك وأمك.

وفى ختام هذا المقطع من الرسالة يظهر الإمام عليه السلام تعجبه الشديد من هذا السلوك المنحرف لعامله ويقول:

«فَسُبْحَانَ اللَّهِ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوْ مَا تَخَافُ نِقَاشَ [١٥٧]

الْحِسَابِ!».

وهذه إشارة إلى أن الشخص الذى يؤمن بالقيامة والمعاد ويعتقد حقاً ما ورد فى قوله تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ

يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» [١٥٨].

لا ينبغي أن يتصرف فى أموال بيت المال مثل هذا التصرف الذميم، فمثل هذا العمل يتقاطع مع الإيمان والاعتقاد بالمعاد الحساب، أو

أن يكون إيمانه ضعيفاً إلى درجة وكأنه قد نسى يوم القيامة وما سيوجهه من حساب على أعماله.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٩٥

القسم الثانى

إشارة

أُيْهِا الْمَعْدُودُ- كَانَ- عِنْدَنَا مِنْ أَوْلَى الْأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسَبِّغُ شَرَابًا وَطَعَامًا.

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَامًا وَتَشْرَبُ حَرَامًا، وَتَتَّبَعُ الْإِمَاءَ وَتَتَّبَعُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ

أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالِ، وَأَخْرَجَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ! فَاتَّقِ اللَّهَ وَارْزُقْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنِي اللَّهُ مِنْكَ

لَأُعَذِّبَنَّ إِلَى اللَّهِ فِيكَ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَدًا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ! وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ،

مَيَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ، وَلَا ظَفْرًا مَنِي بِإِرَادَةٍ، حَتَّى آخِذَ الْحَقِّ مِنْهُمَا، وَأَزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتَيْهِمَا، وَأُقْسِمَ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا

يَسِيرُنِي أَنْ مَيَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَمَالٌ لِي، أَثْرُكُهُ مِيرَاثًا لِمَنْ بَعِيدِي، فَضَحَّ رُوَيْدًا، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَيْدَى، وَدَفَنْتَ تَحْتَ الثَّرَى،

وَعَرَضْتَ عَلَيْكَ أَعْمَالَكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمَ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَبِتَمَنَّى الْمُضَيِّعِ فِيهِ الرَّجْعَةَ «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ».

في هذا المقطع من الرسالة يواصل الإمام عليه السلام توبيخه وإعتراضه الشديد لعامله ويقول: «أَيُّهَا الْمَعْدُودُ - كَانَ - عِنْدَنَا مِنْ أُولَى الْأَلْتَابِ، كَيْفَ تُسِيغُ [١٥٩] شَرَابًا وَطَعَامًا.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٩٦

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَامًا، وَتَشْرَبُ حَرَامًا، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ أَفَاءَ [١٦٠] اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالُ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادُ!.

والتعبير بـ «كان» ناظر إلى الماضي إلى أنك كنت عندنا في السابق من العقلاء وأهل الحزم والحنكة، ولكنك بهذا العمل الذي صدر منك، فقدت ذلك الموقع ولم تعد كما كنت في السابق.

جملة

«كَيْفَ تُسِيغُ ..»

إشارة إلى أن جميع حياتك ومعيشتك ستختلط بالحرام وسيكون ماكلك ومشربك من مال المقتصد من بيت المال، فلا يجوز لك تناول شيء من هذا المأكل والمشرب، وهكذا في الجوارى التي تشتريها بهذا المال الحرام أو الزوجات التي تدفع لهن المهر من هذا المال الحرام كل ذلك يتسبب في أن تكون حياتك العائلية ومعيشتك ملوثة بالحرام.

جملة

«مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ...»

إشارة إلى أنه إذا كانت هذه الأموال متعلقه بأشخاص أثرياء فإن قبح هذا العمل وغضب هذه الأموال كان أقل شناعة، وأما إذا كان الغضب من متعلقاً بأموال اليتامى والمحرومين والمجاهدين في سبيل الله فسيكون أقبح وأشنع بمراتب عديدة.

ثم إن الإمام عليه السلام بعد هذا التوبيخ المطول يستنتج من ذلك:

«فَاتَّقِ اللَّهَ وَارْذُدْ إِلَى هَوْلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ».

ثم يتحرك الإمام عليه السلام في خطابه لهذا الوالى بلغة التهديد الشديد، ويقول:

«فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنِي اللَّهُ مِنْكَ لَأُعَذِّبَنَّ [١٦١] إِلَيَّ اللَّهُ فِيكَ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَدًا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ!».

وهذه إشارة إلى أنني لا أسل سيفي إلا في سبيل الله وفي مقابل أعدائه من قوى

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٩٧

الظلم والكفر والانحراف، وأيما شخص ضربته بسيفي هذا فإن مصيره الحتمي سيكون إلى النار وبئس المصير.

وهنا ربما يثار هذا السؤال، ولماذا يستحق الشخص المختلس لشيء من بيت المال للإعدام، في حين أن الوارد في الحدود الإسلامية أن مثل هذا السارق لا يستحق إلا لإجراء حد السرقة عليه، مضافاً إلى أن إجراء حد السرقة على هذا المورد بعيد أيضاً، لأن من شروط حد السرقة أن تقع السرقة من حرز، يعنى أن يكون السارق قد سرق المال من حرز أو خزانه مقلوئه، ويقوم السارق بكسر هذا القفل ويسرق ما فيه وحينئذ يترتب عليه حد السرقة، ونعلم أن الوالى مسلط على بيت المال وليس المال فيه مقفل وفي حرز.

وفي مقام الجواب عنه هذا السؤال يمكن القول، أولاً: أن مثل هذه السرقة مقترنة مع إنكار الحرمة، وبعبارة أخرى أن هذا المختلس كان يرى حلية مثل العمل وهذا بدوره نوع من إنكار الضرورى من الدين.

وثانياً: إن الإمام عليه السلام قال:

«وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَمَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ [١٦٢]، وَلَا ظَفِرًا مِنِّي بِإِزَادَةٍ، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا، وَأُزِيحَ [١٦٣] الْبَاطِلَ عَن مَظْلَمَتِهِمَا».

وبديهى أن مراد الإمام عليه السلام لا يعنى أبداً أن يقوم الإمام الحسن والحسين عليهما السلام بغضب أموال بيت المال، بل المراد بيان المبالغة في هذا المطلب وأنه لا أحد مصون عن العقاب في حال تخلفه عن الحق والعدالة. وبيان آخر أنه يستفاد من القضية الشرطية التي تتبدى بكلمة «لو» وأمثالها لا يعنى احتمال وقوع الشرط، لأن مثل هذه التعبيرات ربما تقال لتأكيد المطلب حتى في الأمور المستحيلة، كما ورد في الآية الشريفة: «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ نَفْحَاتِ الْوَلَايَةِ، ج ١٠، ص: ٩٨»

العابدين» [١٦٤] وهذا التعبير يدل على تأكيد النفي لمقولة الجهلاء من أهل الكتاب الذين ينسبون الولد لله تعالى. وبيّن الإمام عليه السلام في هذا المقطع من كتابه من موقع التأكيد على أن المسائل العاطفية لا ينبغي أبداً أن تتدخل في الأحكام الإلهية ولا ينبغي أن يكون التعامل وفقاً للروابط على حساب الضوابط، كما ورد في القرآن الكريم في مسألة إجراء الحد الشرعي: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ» [١٦٥]، وفي مورد إجراء الحقوق يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا» [١٦٦].

ثم يدخل الإمام عليه السلام من طريق آخر لإيقاظ هذا الوالى العاصى من غفلته ويتحدّث معه بلهجة الواثق وبلغه مؤثرة ويقول: «وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنْ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي، أَتُرْكُهُ مِيرَاثًا لِمَنْ بَعْدِي». وهذه إشارة إلى أن الأموال الكثيرة حتى لو كانت حلالاً وقد اكتسبها الإنسان بطرق مشروعة لا- توصل الإنسان إلى مرفأ السعادة والراحة، فكيف بها إذا كان قد استولى عليها بطريق حرام، لأنه لا سبيل له في إنفاقها سوى أن يتركها ميراثاً لمن بعده، فيكون وزره ووباله عليه ولذته ونعيمه للآخرين، فهل من العقل أن يقدم الإنسان على مثل هذا العمل؟! فكيف الحال لو كان قد جمع هذا المال من طرق حرام وغير مشروعة فيما يترتب على ذلك من مصائب ووبال على صاحبه.

وفي هذا السياق ورد في كتاب الكافي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ ارزُقْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ وَمَنْ أَحَبَّ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ الْعَفَافَ وَالْكَفَافَ وَارزُقْ مَنْ أَبْغَضَ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ الْمَمَالِ وَالْوَالِدَةَ» [١٦٧].

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٩٩

وفي ختام هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى نهاية الحياة والحوادث التي سيواجهها الإنسان بعد مماته لغرض إيقاظ وجدان هذا الوالى وتحريك عناصر الخير في نفسه وبيّن له الخطر الكامن في هذا الطريق الذى سلكه، يقول:

«فَصَحَّحَ [١٦٨] رُوَيْدًا، فَكَانَتْكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى [١٦٩]، وَدُفِنْتَ تَحْتَ التُّرَى [١٧٠]، وَعَرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ (وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) [١٧١]».

وهنا نرى أن الإمام عليه السلام أمير المؤمنين هو ذلك المعلم اليقظ والقائد الفذ يسعى لتنبية مخاطبه بهذه العبارات الشديدة، ويلفت نظره إلى ما سيواجهه في ساعات الموت ومن ثمّة الدفن تحت التراب والحضور في ساحة المحشر للحساب في محكمة العدل الإلهي وما سيعيشه من حالات الندم الشديد وتمنيه العودة للعالم ولكن بعد فوات الأوان كما تشير إلى ذلك الآية الشريفة: «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ» [١٧٢].

تأمل

من هو ابن عباس؟

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٠٠

لا شك أن ابن عباس معروفاً في الأمة الإسلامية ولدى المذاهب المختلفة من الشيعة وأهل السنة، معروفاً في العلم والمعرفة والفضل حتى أنه لقب ألقاب مثل «حبر الأمة» و «ترجمان القرآن» وقد أورد المؤرخون في سيرته أنه كان قد حضر عند رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في ريعان شبابه وقد سمع من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الكثير من الأحاديث الهامة والمذكورة في الكتب المعتمدة، وكان ابن عباس مشهوراً بتفسير القرآن ومن أصحاب الرأي والنظر وكان التلميذ المخلص للإمام علي عليه السلام والمحبه له.

ومن هذه الجهة عندما يصل العلماء وشراح نهج البلاغة إلى هذه الرسالة يترددون في كون المخاطب لها هو ابن عباس، فهذه الرسالة تتضمن أشد أنواع التوبيخ والذم من الإمام علي عليه السلام لمخاطبه وأنه يتهمه بالخيانة في بيت المال والاستيلاء على مبالغ كبيرة من هذا المال ونقله من البصرة إلى الحجاز.

وبخاصة إذا أخذنا بنظر الحساب الجواب الحاد والجرىء الذي كتبه ابن عباس في جوابه عن هذه الرسالة وقد ورد في كتب التاريخ، فإن المسألة ستعقد أكثر.

ومن هذه الجهة انقسم المؤرخون الذين أوردوا هذه الرسالة في كتبهم إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى تقول: إن ابن عباس وإن كان يتمتع بمقام جليل ويعتبر من أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله المرموقين وقد أدرك النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في شبابه وصباه، إلا أن ذلك لا يعني أنه معصوم من الخطأ وأنه من البعيد صدور مثل هذا الزيف في حقّه، وطبقاً للمثل المشهور: «الجواد قد يكبو» فإن غير المعصوم ربّما يزل مثل هذه الزلّة مهما كان يملك من مقام ووجاهة. وطائفة أخرى يعتقدون أن المخاطب لهذه الرسالة هو أخو ابن عباس، أي عبيد الله بن عباس أو شخص آخر، ويستشهدون لذلك بعدة شواهد وقرائن تاريخية تؤكد أن ابن عباس لم يقم بهذا العمل أبداً.

وهناك طائفة ثالثة لم تستطع أن تتخذ لها موقفاً في هذه المسألة مثل ابن أبي الحديد، الذي مرّ عليها مرور الكرام وتركها في إبهامها ولم يكشف اللثام عن

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٠١

غموضها، حيث قال: «قد أشكل عليّ أمر هذا الكتاب، فإنّ أنا كذّبت النقل وقلت:

هذا الكلام موضوع على أمير المؤمنين عليه السلام، خالفت الرواة، فإنهم قد أطبقوا على روايته هذا الكلام عنه، وقد ذكر في أكثر كتب السيرة: إن صرفته إلى عبدالله بن عباس صدني عنه ما أعلمه من ملازمته إطاعة أمير المؤمنين عليه السلام في حياته وبعد وفاته، وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى من أصرفه من أهل أمير المؤمنين عليه السلام، والكلام يشعر بأن الرجل المخاطب من أهله وبنو عمّه، فأنا في هذا الموضوع من المتوفقين» [١٧٣].

ولكن الطائفة الأولى لم تقبل بهذا الكلام وذهبوا إلى أن المخاطب لهذه الرسالة للإمام علي عليه السلام هو ابن عباس مع حفظ جلاله قدره ومقامه.

ومن جملة هؤلاء «ابن ميثم» يقول في شرحه لنهج البلاغة: «وإعلم أن هذين القولين لا مستند لهما، أما الأول: فهو مجرد استبعاد أن يفعل ابن عباس ما نسب إليه، ومعلوم أن ابن عباس لم يكن معصوماً وعلى عليه السلام لم يكن يراقب في الحقّ أحداً ولو كان أعزّ

أولاده كما تمثل بالحسن والحسين عليهما السلام في ذلك، فكيف بابن عمه، بل يجب أن تكون الغلظة في الأقرباء في هذا الأمر أشد.

ثم إن غلظته عليه وعتابه له لا يوجب مفارقتة إياه، لأنه عليه السلام كان إذا فعل أحد من أصحابه ما يستحق به المؤاخذه أخذه به سواء كان عزيزاً أو ذليلاً قريباً منه أو بعيداً، فإذا استوفى حق الله منه أو تاب إليه مما فعل عاد في حقه إلى ما كان عليه كما قال: «القوى عندي ذليل حتى أخذ الحق منه والذليل عندي عزيز حتى أخذ الحق له»، فلا يلزم إذن غلظته على ابن عباس ومقابلته إياه بما يكره مفارقتة له وشقاقه على ما بينهما من المحبة الوكيدة والقرابة.

وأما الثاني: فإن عبيد الله كان عاملاً له عليه السلام في اليمن ولم ينقل عنه مثل ذلك» [١٧٤].

أما من ذهب إلى القول الثاني فإنه يرى أن عظمة مقام ابن عباس لا ينسجم أبداً

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٠٢

مع مضمون هذه الرسالة لأنه «حبر الامة» وبحر عميق من العلم والفضل وكان من أتباع وأنصار الإمام على عليه السلام ومتفانياً في خدمته والدفاع عنه في أيام المحنة التي لم يكن للإمام عليه السلام من أنصار إلا بعدد أصابع اليد، وحتى في معركة صفين عندما طرحت مسألة التحكيم نرى أن الإمام عليه السلام اختاره لأمر التحكيم في مقابل رجل داهية وشيطان وهو عمرو بن العاص (رغم أن جماعة من الجهلة والسفهاء اعترضوا على هذا الاقتراح ورشحوا إلى ذلك المنصب رجل سفيه مثلهم وهو أبو موسى الأشعري وأصروا على الإمام عليه السلام في قبوله) أجل فإن دلالة قدر ابن عباس ومقام الشامخ لا تتناسب ولا تنسجم مع إرتكابه لمثل هذه الأعمال. ولكن هؤلاء لم يبينوا على وجه التحديد من هو المخاطب لهذه الرسالة، أضف إلى ذلك فهناك قرائن وشواهد أخرى تنفي أن يكون المخاطب لهذه الرسالة هو ابن عباس، ومن ذلك أنهم ذكروا:

١. جاء في الأمالي للسيد المرتضى أن عمرو بن عبيد جاء إلى سليمان العباسي فسأله سليمان: هل سمعت بشعر الإمام على عليه السلام قال في ابن عباس: إنه يفتنا في كل أمر ولكنه يأخذ أموالنا في ليلة واحدة؟

فأجابه عمرو: لا يمكن أن يقول الإمام على عليه السلام مثل هذا الكلام عن ابن عباس وأن ابن عباس لم يترك الإمام على عليه السلام أبداً وكان حاضراً معه وإلى جواره إلى ساعة استشهاده، بل كان حاضراً أيضاً في واقعه صلح الإمام الحسن عليه السلام.

٢. وأضاف عمرو بن عبيد: كيف يعقل أن تجتمع كل تلك الأموال الكثيرة في بيت مال البصرة مع أن الإمام على عليه السلام كان بحاجة ماسة إلى المال وكان يوزع ما يتجمع في بيت المال على المحتاجين والفقراء في كل أسبوع حتى يفرغ كله ويأمر بكنس بيت المال كل يوم سبت، فمع هذه الحالة كيف يمكن لابن عباس أن يجمع كل هذه الأموال في بيت مال البصرة؟ فمع الأخذ بنظر الاعتبار حاجة الناس إلى المال فإن ابن عباس كان قد نقل هذا المال إلى الكوفة.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٠٣

٣. يروى الطبري في تاريخه في حوادث سنة أربعين عن أبي عبيد أن ابن عباس كان والياً على البصرة إلى زمان استشهاد الإمام على عليه السلام ثم جاء إلى الكوفة واشترك في مراسم صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية ثم عاد إلى الكوفة وجمع متعلقاته وأخذ معه قليلاً مبلغاً زهيداً من بيت المال وقال: أخذه هذا المبلغ من بيت المال بوصفه حقاً لي وكراتب أخذه من بيت المال (ثم توجه إلى الحجاز).

٤. يروى المرحوم المحقق التستري في شرحه لنهج البلاغة أن ابن عباس كان في البصرة عند استشهاد الإمام على عليه السلام جاء إلى الكوفة من فوره عندما سمع الخبر والتحق بالإمام الحسن عليه السلام، ولما قام الإمام الحسن بالقاء خطبة في صبيحة اليوم الذي استشهد فيه أبوه، قام ابن عباس بأخذ البيعة من أهل الكوفة للإمام الحسن عليه السلام واستجاب الناس له [١٧٥].

٥. على فرض أن هذه القصيدة تتعلق بابن عباس، ولكن ورد في بعض الروايات أولاً، أن الأموال المختلصة كانت قليلة، وثانياً: أن الإمام

عليه السلام عندما أرسل له هذه الرسالة قام ابن عباس بإعادة المال فوراً واعتذر من الإمام على ما صدر منه وقبل الإمام إعتذاره، كما يظهر يروى المرحوم التستري عن يعقوبى أن ابن عباس تصرف بمقدار من بيت المال، فكتب أمير المؤمنين عليه السلام برده فردّه، ثم ينقل مثل هذا المعنى عن سبط ابن الحوزى الذى يقوله فى نهايته: ثم ندم واعتذر إلى على عليه السلام وقبل الإمام عليه السلام عذره [١٧٦].

النتيجة: مع وجود اختلاف فى الروايات فى شأن هذه القصيدة وأحياناً تكون الروايات متناقضة، فكيف يمكن التصديق بأن رجلاً مهماً وشخصية مرموقة كابن عباس وهو حبر الأمة والعالم والفقير والمعروف يرتكب مثل هذا العمل بهذه نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٠٤ الضخامة التى ينسبها إليه المخالفون.

ألا يحتمل أن عمال بنى امية وأزلام معاوية الذين وضعوا الأحاديث الكثيرة فى مقابل حفنة من المال لتأييد حكومة بنى امية أو لدم مخالفينهم، حتى أنهم نسبوا إلى النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أحاديث موضوعة على لسان ابن عباس وبخاصة ما ورد فى الروايات أن معاوية كان يلعن بعد الصلاة كل من: الإمام على والحسن والحسين عليهم السلام وابن عباس ومالك الأشر وقيس بن عباد (رحمهم الله تعالى) [١٧٧].

يقول مؤلف كتاب معجم رجال الحديث بعد نقله لهذه الأقوال: ومن مجموع ما قيل عن ابن عباس يستفاد أنه كان رجلاً جليل القدر ومدافعاً عن أمير المؤمنين والإمام الحسن والحسين عليهم السلام كما ذكر العلامة الحلى وابن داود فى كتبهما الرجالية، وينقل المحدث القمى عن الشهيد الثانى بعد ذكر بعض الأحاديث الواردة فى ذم ابن عباس قوله: إن جميع هذه الأحاديث ضعيفة. وذكر المرحوم صاحب المعالم فى كتابه «تحقيق طاووسى» - بعد ذكره لمحبة وإخلاص ابن عباس لأمر المؤمنين عليه السلام ونصرتة له ودفاعه عنه، الذى لا يقبل الشك أو التردد فيه: ليس من المستبعد أن يقوم بعض الأشخاص بحسد ابن عباس وينسبوا له هذه الأقاويل الباطلة.

ومن هنا فإن أغلب علماء الرجال من الشيعة وأهل السنة يذهبون إلى صحة واعتبار الأحاديث التى يرويها ابن عباس ولا يعتنون بمثل هذه الشبهات عنه، وعلى ضوء ذلك لابد من القول إن المخاطب لهذه الرسالة شخص آخر غير ابن عباس، رغم أننا لا نكاد نعرفه بشكل دقيق، أمراً التعبير الوارد فى هذه الرسالة عن المخاطب ابن عمه فحاله حال ما يقال فى الكلام للمخاطب بأنه أخ وأمثال ذلك فهو كناية عن شدة العلاقة والرفقة، ومن هذه الجهة لم يورد السيد الرضى اسم ابن عباس، مع أن فى الكثير من الموارد الأخرى يذكر المخاطبين لكتب الإمام عليه السلام، واكتفى فى هذا

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٠٥

المورد بعبارة: إلى بعض عماله.

ونختم الكلام هنا بحديث ينقله المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار فى تاريخ أمير المؤمنين عليه السلام وجاء فى هذه الرواية عن رجل من أهل الطائف قال: أتينا ابن عباس رحمه الله عليهما نعوده فى مرضه الذى مات فيه، قال: فاعمى عليه فى البيت، فأخرج إلى صحن الدار، قال، فأفاق فقال: إن خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنى سأهجر هجرتين، وإنى سأخرج من هجرتي، فهاجرت هجرة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهجرة مع على عليه السلام، وإنى سأعمى فعميت، وإنى سأغرق فأصابني حكة فطرحتني أهلى فى البحر فغفلوا عني فغرقت، ثم استخرجوني بعد، وأمرني أن أبرأ من خمسة: من الناكثين وهم أصحاب الجمل، ومن القاسطين وهم أصحاب الشام، ومن الخوارج هم أهل النهروان، ومن القدرية وهم الذين ضاهوا النصارى فى دينهم، فقالوا: لا قدر، ومن المرجئة الذين ضاهوا اليهود فى دينهم فقالوا: الله أعلم، قال: ثم قال:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْيِي عَلَى مَا حَيَّ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَمُوتُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ»
قال: ثم مات [١٧٨].

والجدير بالذكر أن قبر ابن عباس موجود في الطائف وإلى جانبه مسجد فخم اطلق عليه اسمه.
نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٠٧

الرسالة ٤٢

إشارة

إلى عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ الْمُخْزُومِي وَكَانَ عَامِلُهُ عَلَى الْبَحْرَيْنِ فَعَزَلَهُ وَاسْتَعْمَلَ نُعْمَانَ بْنَ عَجَلَانَ الزُّرْقِي مَكَانَهُ [١٧٩]

نظرة عامة للرسالة

يخطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الرسالة عامله على البحرين عمر بن أبي سلمة (ابن ام سلمة زوجة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله)، وفيها يثنى الإمام عليه السلام على خدماته وحسن سيرته ويدعوه للمشاركة في قاتل المناوئين في صفين، وقد عين الإمام بدله النعمان بن عجلان وهو من زعماء قبيلة بني عجلان.

ومن أجل أن لا يتكدر خاطر ابن أبي سلمة أو يستاء من هذا التبديل، فقد كتب له الإمام عليه السلام في هذه الرسالة عبارات الشكر والمديح وخاطبه بلغة مفعمه بالمحبة من قبيل:

«وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٠٨

ونستوحى من كلمات الإمام عليه السلام في هذه الرسالة النمط الأفضل في كيفية التعامل مع هذه المسائل وعزل بعض المسؤولين ونصب آخرين مكانهم.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٠٩

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجَلَانَ الزُّرْقِيَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلَا دَمٍ لَكَ، وَلَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكَ؛ فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوَلَايَةَ، وَأَدَيْتَ الْأَمَانَةَ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ، وَلَا مَلُومٍ، وَلَا مُتَّهَمٍ، وَلَا مَأْثُومٍ، فَلَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: أحسنت! لقد أدت الأمانة

إشارة

ينطلق الإمام عليه السلام في مستهل هذه الرسالة بقوله:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجَلَانَ، الزُّرْقِيَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ».

ولكن بما أن عمر بن أبي سلمة رجلاً طيباً ومخلصاً ومديراً ومدبراً وربما يتأثر سلبياً بهذا التغيير في المنصب يخاطبه الإمام عليه السلام

في ثمان جمل قصيرة وعميقة المعنى ويؤكد له أن مثل هذا التبديل في الوظيفة لا يعنى إطلاقاً صدور خطأ من جانبه وبذلك يرفع ما قد يخالجه من قلق في هذا الشأن.

يقول الإمام عليه السلام:

«بَلَا ذَمٌّ لَكَ، وَلَا تَثْرِبُ [١٨٠] عَلَيْكَ، فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوَلَايَةَ، وَأَدَيْتَ الْأَمَانَةَ فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ [١٨١]، وَلَا مَلُومٍ، وَلَا مُتَّهَمٍ، وَلَا مَأْثُومٍ [١٨٢].»

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١١٠

ونرى أن الإمام عليه السلام في هذه التعبيرات يؤكد له بشكل كامل أن هذا التغيير في المسؤولية ليس بسبب تقصيره في أدائه لوظيفته بل لأنه يريد إلقاء مسؤوليته أهم على عاتقه.

ثم يتعرض الإمام عليه السلام لمضمون هذه المسؤولية الجديدة ويقول:

«فَلَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ اسْتَظْهَرُ [١٨٣] بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعُدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.»

إن سيرة عمر بن أبي سلمة وسوابقه الجليلة ووفاءه للإمام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع حالات بيان ذلك في شرح حاله، وكلها شاهد على هذا المعنى.

وجملته

«أَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ ...»

لا تعنى الاستشهاد في سبيل الله مع الإمام عليه السلام، بل بمعنى حضوره مع الإمام في ميادين القتال والجهاد.

وجملته

«مِمَّنْ اسْتَظْهَرُ بِهِ ...»

، تبين أن عمر بن أبي سلمة رجلاً شجاعاً ومدبراً وحازماً ووفياً للإمام عليه السلام، وعبارة:

«جِهَادِ الْعُدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ»

تشير إلى أن عمر بن أبي سلمة يتمتع بمقام كبير ومكانة جليلة إلى درجة أن الإمام عليه السلام يستعين به لإقامة عمود الدين والتصدي لقوى الظلم والانحراف.

تأمل

التعرف على عمر بن أبي سلمة المخزومي والنعمان بن عجلان؟

كما ورد في نص الرسالة أن عمر بن أبي سلمة كان والياً على البحرين من قبل أمير المؤمنين عليه السلام قبل النعمان بن عجلان الذي جعله الإمام والياً على البحرين بعده، ومن اللازم التعرف على هذين الرجلين بشيء من الاختصار.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١١١

أما عمر بن أبي سلمة فأمه أم سلمة زوجة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله المعروفة، وقد ولدت من زوجها السابق هذا الابن، وأبوه أبو سلمة، وقد ولد هذا الابن في السنة الثانية من الهجرة إلى الحبشة، لأن أباه كان من المهاجرين إلى الحبشة وقد توفي بعد عمر طويل نسيباً في عام ٨٣ هـ للهجرة في عهد خلافة عبد الملك بن مروان، وقد روى بعض الأحاديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

[١٨٤].

وقد كان عمر بن أبي سلمة مع الإمام علي عليه السلام في معركة جمل وكانت أمه تحته على نصره الإمام علي، وقد كتبت للإمام رسالة ودفعتها إلى ابنها يوصلها إلى الإمام عليه السلام: وجاء في مضمونها لو أن الجهاد كتب على النساء لجت لقاتل معك الأعداء، ولكنني أرسلت ابني هذا بدلاً مني.

ثم إن أمير المؤمنين علي عليه السلام عيّنه والياً على البحرين وبلاد فارس في أيام خلافته، ويكفيه فخراً أنه قد تربى في أحضان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسار في خط الولاية وفي نصره الإمام علي عليه السلام [١٨٥].

وجاء في بعض الروايات أن عمر بن أبي سلمة كان من الأشخاص الذين نقلوا الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فيما يتصل بإمامة الاثني عشر [١٨٦].

أما النعمان بن عجلان فكان من صحابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن كبار الأنصار وكان شاعراً وخطيباً بارعاً، ومن جملة ما أنشده في يوم السقيفة بعد أن أثنى على مواقف الأنصار في مواطن مختلفة ونصرتهم للإسلام والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ذكر في قصيدته بيتين من الشعر في الدفاع عن الإمام علي ونصرته:

وَكَانَ هَوَانًا فِي عَلِيٍّ وَإِنَّهُ لَأَهْلٌ لَهَا مِنْ حَيْثُ تَدْرِي وَلَا تَدْرِي
وَصَيُّ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَابْنُ عَمِّهِ وَقَاتِلُ فُرْسَانَ الضَّلَالَةِ وَالْكَفْرِ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١١٢

وبسبب هذه السوابق الجليلة عيّنه الإمام علي عليه السلام على حكومة البحرين بعد عمر بن أبي سلمة ووضع بيده بيت المال، ولكن للأسف أن الأموال الكثيرة تدفع بالإنسان نحو منزلقات الخطيئة والمفسدة، قام هذا الوالي باعطاء مبلغ كبير من بيت المال لكل فرد من أفراد قومه وقبيلته يأتيه إلى البحرين فلما وصل خبر ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام، كتب له كتاباً توبيخياً وطلب منه أن يرفع إليه حساب بيت المال، ولكن بما أن النعمان لم يتمكن من حساب الأموال بشكل صحيح ودقيق، فقد أخذ ما تبقى من بيت المال وهرب إلى الشام والتحق بمعاوية [١٨٧].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١١٣

الرسالة ٤٣

إشارة

إلى مَصْقَلَةَ بْنِ هُبَيْرَةَ الشَّيْبَانِي وَهُوَ عَامِلُهُ
على أردشير خُزْءَ [١٨٨]

نظرة عامة للرسالة

هذه الرسالة تشبه ما ورد في الكتاب ٤١، وخلاصتها أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كتب إلى وال آخر يدعى مصقلة بن هبيرة الشيباني رسالة توبيخية وشديدة اللهجة، لأن الخبر وصل إلى الإمام عن أن مصقلة يتلاعب في بيت المال ويهب منه إلى أفراد قبيلته بدون حساب وكتاب، فالإمام عليه السلام يلومه بشدة على هذا العمل، وينصحه أن لا يبيع آخرته بدنياه، ولا دينه بالدينار، ولكن الإمام لا يتهمه بشكل قطعي في هذه الرسالة، بل يقول: إذا كان ما بلغني عنك صحيحاً فأنت قد ارتكبت خطأ كبيراً واسخطت إلهك.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١١٥

بَلَّغْنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَشْخَطْتَ إِلَهَكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ: أَنْتَ تَقْسِمُ فِيءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخَيْولُهُمْ، وَأُرِيقتَ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنْ اعْتَمَاكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ، فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسِيمَةَ، لِيُنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَانًا، وَلَتَخْفَنَّ عِنْدِي مِيزَانًا، فَلَا تَسْتَهِنَنَّ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُضْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَخِي دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قَبْلَكَ وَقَبْلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمِهِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ: يَرُدُّونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصُدُّونَ عَنْهُ.

الشرح والتفسير: جميع المسلمين سواسية في بيت المال

إشارة

يستفاد من عنوان هذه الرسالة وكذلك ما ورد في الخطبة ٤٤ من هذا الكتاب، أن مصقلة بن هبيرة الشيباني كان أحد عمال الإمام عليه السلام وكان والياً على قسم مهم بلاد فارس يسمى «اردشير خرة» ويشمل عدة مدن وقرى، وكما يقول ابن أبي الحديد كان مصقلة من أحفاد نزار بن معد بن عدنان [١٨٩].

وكانت لمصقلة بن هبيرة قضية فيما يتصل بأسرى بني ناجية وقد وردت تفاصيلها في الخطبة ٤٤ إذ أن بني ناجية كانوا من النصارى الذين أسلموا بعد الفتح وبقية جماعة منهم على نصرانيتهم أو أنهم ارتدوا على الإسلام، وبعد هزيمة أصحاب الجمل في البصرة بايع الناس في تلك المنطقة لأmir المؤمنين عليه السلام سوى بني

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١١٦

ناجية الذين جهزوا جيشاً لمقاتلة الإمام، فأرسل لهم أمير المؤمنين، معقل بن قيس وهزمهم وأسر جماعة منهم، وعندما حملوا الأسرى إلى الكوفة وصلوا في طريقهم إلى منطقة «اردشير خرة» وكان فيها مصقلة والياً عليها من قبل الإمام على عليه السلام، فاشترهم مصقلة من معقل وكان عددهم خمسمائة نفر ودفع في مقابل ذلك غرامة تساوي خمسمائة ألف درهم وأطلق سراحهم ثم دفع هذا المبلغ من أموال بيت المال على أساس أنه قرض يقترضه من بيت المال ويسدده بعد ذلك ولكن مصقلة أخذ يسوف في تسديد الدين، ثم إنه جاء بعد مدة إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة ودفع له مبلغاً من المال وهو يتوقع أن يعفو الإمام عن الباقي ولكن الإمام لم يقبل بذلك، لأنه ربما تكون موافقته وتنازله عن الحق المذكور بدعة بحيث يتداعى إلى الأذهان ما كان يفعله عثمان بصرفه في بيت المال، وبما أن مصقلة كان يخشى من عدالة الإمام ومطالبته ببقية المال رجع الهرب إلى الشام والالتحاق بمعاوية.

ومهما يكن من أمر فإن الرسالة مورد البحث تشير أيضاً أن مصقلة كان من أتباع مدرسة عثمان بن عفان وكان يوزع أموال بيت المال على أقربائه وأرحامه قبل حادثة أسرى بني ناجية، وعندما وصل خبره إلى الإمام عليه السلام كتب له الإمام الرسالة مورد البحث.

وتشير هذه الرسالة إلى ثلاثة نقاط في غاية الأهمية الأولى أنه يقول:

«بَلَّغْنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَشْخَطْتَ إِلَهَكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ».

وهذه العبارة التي ذكرها الإمام عليه السلام بشكل مقتضب تشير إلى أن الإمام كان قد سمع خبراً عن مصقلة لم يجزم بصحته وأنه اتخذ جانب الاحتياط لثلاثتهم شخصاً بريئاً.

ثم إن الإمام عليه السلام يبين بشكل واضح ومفصل الخبر المذكور ويقول:

«أَنْتَ تَقْسِمُ فِيءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ، وَخَيْولُهُمْ وَأُرِيقتَ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنْ اعْتَمَاكَ [١٩٠]

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١١٧

مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ».

ومعلوم أنّ مصقله إذا كان قد إرتكب مثل هذا العمل فإنه يكون قد اقترف عملاً شنيعاً، لأنه أنفق المال الذي يعتبر حصيلة دماء المجاهدين والشهداء من أجل تقوية مكانته الاجتماعية في قومه.

ويتابع الإمام عليه السلام خطاب لمصقله في القسم الثاني من هذه الرسالة ويقول:
«فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ [١٩١]، لِنَنَّ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَانًا، وَلَتَخْفَنَّ عِنْدِي مِيزَانًا».

وهكذا نرى أنّ الإمام عليه السلام في هذه العبارات يتخذ مرّة أخرى جانب الاحتياط في الحكم على المتهم فربما وقع بعض الخطأ والاشتباه في نقل المخبرين وبالتالي ستعرض سمعة رجل مؤمن إلى الاهتزاز والهتك، ويقول الإمام: إنه إذا كان هذا الخبر صحيحاً فستسقط من عيني ويخف ميزانك عندي.

ونلاحظ أنّ الإمام عليه السلام في هذا المورد لا يهدده بعقوبة قاسية ولكنه يخاطبه بآلية التوبيخ المعنوي التي تعد أقسى وأشد من العقوبة الظاهرية.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه لمصقله ويتحدّث معه بلغة النصيحة الصريحة والعميقة المغزى ويقول:

«فَلَا تَسْتَهِنِي بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصَلِّحْ دُنْيَاكَ بِمَحَقِّ [١٩٢] دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا».

وبديهى أنّ أى إنسان عاقل ومؤمن لا ينبغي أن يرجح حقّ أقربائه على حقّ الله تعالى، ويهتم لمصالحهم على حساب طاعة الله، فلا ينبغي لأى إنسان عاقل أن يستبدل رأس مال دينه الذي يقوده إلى الجنة ويعتبر سبب نجاته في الآخرة، بمتاع

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١١٨

الدنيا والزائل والرخيص، وعبارة: »

الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا

« إشارة إلى أنّ الإنسان يبيع أثمن ما لديه من بضاعة ومتاع بأزهد وأرخص ثمن.

وبما أنّ مصقله ربما كان يظن أنّ عطاءه لأقربائه من بيت المال يدخل تحت عنوان صلة الرحم وأنه بعمله هذا يتحرك في خط الفضيلة والإحسان، نرى أنّ الإمام عليه السلام تحدّث عن ذلك بعبارة:

«الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا»

، ولعله إشارة إلى مورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا» الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» [١٩٣].

ثم يشير الإمام عليه السلام في ختام هذه الرسالة إلى نقطة مهمّة من تعاليم الإسلام وأحكامه فيما يتصل بحقوق المسلمين في بيت المال ويقول:

«أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قَبْلَكَ وَقَبْلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ: يَرُدُّونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ».

وجملة »

يَرُدُّونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ»

نظر إلى أنّ كلمة «ورود» و «صدر» ترتبط في الأصل بورود العطشى إلى شريعة المال ثم حملهم الماء ثم عودتهم إلى مكانهم، فالإمام عليه السلام يشير هنا إلى هذه النقطة، وهي أنّ بيت المال كالنهر كبير الذي أجراه الله تعالى للمسلمين وهم فيه سواء، وكل شخص يرد هذا النهر من هذا الطريق يروى ظمأه وينتفع منه ثم يخرج منه.

وعبارة »

عندي

«لا- تعنى أنه ينبغي حمل جميع أموال بيت المال إلى الإمام عليه السلام أن الواجب على المسلمين أن يتوجهوا من المناطق القريبة والبعيدة إلى مركز الحكومة وإلى الإمام لدفع ما عليهم من حقوق الشرعية ثم العودة إلى مناطقهم، المراد أن هذا العمل يجب أن يكون طبق البرنامج الذى احده لك وتحت إشراف، لا أن يقوم عمالي ووكلائي بتقسيم بيت المال وفق ما يرونه وبوحى ميولهم ورغباتهم.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١١٩

وعلى أيّة حال فهذه الجملة تشير إلى أن بيت المال يجب أن يقسم بين المسلمين بصورة متساوية كما كان الحال فى عصر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ولا يكون مثلما كان فى عهد الخليفة الثانى الذى كان يرجح العرب على العجم، الأشراف والصحابه على الآخرين، أو مثل عصر عثمان الذى كان يقسم بيت المال بين أقربائه وأرحامه من بنى امية بتميز سافر بين المسلمين والإشكال الذى وقع فيه مصقله هو أنه كان متأثراً بثقافة عصر عثمان حيث كان يرى امتيازاً خاصاً على سائر المسلمين.

ومما يجدر ذكره أن أموال بيت المال فى هذا المورد لا تختص بالزكاة وأمثالها التى ترتبط بالأصناف الثمانية من المستحقين كما ورد فى الفقه، بل يقصد بها أموال الخراج على الأراضى المفتوحة فى ذلك اليوم، حيث كان الولاية يضعون الضرائب والخراج على جميع الأراضى المذكورة بنسبة عادلة وكان جميع المسلمين فى ذلك سواء، لأن هذه الأراضى قد فتحت عنوة بأيدى المجاهدين ولا فرق فى هذا الأمر بين الغنى والفقير والعرب والعجم، خلافاً لأموال الزكاة التى تختص بالفقراء والمساكين وباقى الطوائف المستحقين لها، وبما أن غالبية الأموال التى تجتمع فى بيت المال من أموال الخراج، ولذلك يطلق عليها عبارة أموال بيت المال.

ومعلوم أن المناطق والأراضى فى البلاد الإسلاميه تختلف فى ميزان الخراج والضرائب المترتبة عليها، ففى بعض المناطق حيث تكون الأراضى زراعيه وبساتين كثيره المحصول، فالخراج عليها يكون كثيراً، وفى بعض المناطق أقل من ذلك حيث يصرف خراج مثل هذه المناطق على أهلها ولا يستحق نقلها مركز الخلافة.

ومن هذه الجهة يقول الإمام عليه السلام: على فرض أنك وزعت خراج تلك المنطقه على جميع الناس، فمع ذلك كان عمالك هذا مجاناً للصواب، لأن هذا الخراج يتعلق بجميع المسلمين، سواء من كان فى منطقتك أم فى منطقتنا، فجميع المسلمين ينبغي أن ينتفعوا ويستفيدوا من هذا المال بصورة عادله ومتساويه.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٢٠

تأمل

جواب مصقله للإمام عليه السلام

ورد فى بعض الروايات أن مصقله بعد أن استلم رساله الإمام عليه السلام إليه كتب له رساله جوابيه يبرىء فيها نفسه، يقول فى رسالته للإمام:

«أمياً بعد، فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فليسأل إن كان حقاً فليعمل على عزلى بعد نكالى، فكلّ مملوك لى حرّ، وعلى أيام ربيعه ومضّر، إن كنت رزئت من عملى ديناراً، ولا- درهماً، ولا- غيرها، منذ وُلّيته إلى أن ورد علىّ كتاب أمير المؤمنين، ولتعلمن أن العزل أهون علىّ من التهمه، فلما قرأ- الإمام عليه السلام- كتابه قال: ما أظنّ أبا الفضل إلّا صادقاً» [١٩٤]، (يعنى أن المخبرين قد أخطأوا فى إخبارهم).

ولكن استفاد من بعض الروايات أن معاوية بعد استشهاد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام اختار مصقلة أن يكون والياً على طبرستان (مازندران في هذا العصر) ولكن مصقلة قتل قبل أن يصل إلى تلك المنطقة ولم يعد من سفره هذا أبداً، بحيث صار ذلك مضرب مثل بين الناس، فعندما لا يريد المرء القيام بعمل معين يقول: انتظر حتى يعود مصقلة من طبرستان [١٩٥].
وقد كتابنا بحوث مفصلة عن مصقلة ذيل الخطبة ٤٤.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٢١

الرسالة ٤٤

إشارة

إلى زياد ابن أبيه وقد بلغه أن معاوية كتب إليه
يريدُ خديعتهُ بِاستِلاحِهِ [١٩٦]

نظرة عامة للرسالة

إن قصيدة هذه الرسالة تبدأ من وصول خبر إلى الإمام على عليه السلام أن معاوية أرسل إلى زياد بن أبيه رسالة يدعى فيها أنه أخوه الحقيقي، وعلى هذا الأساس ألحق معاوية زياد بن أبيه الولد غير المشروع بأبي سفيان، وأراد بهذه الطريقة أن يخدع زياد ويتمكن من جذبته إليه لتحقيق أهدافه وغاياته.

الإمام على عليه السلام في هذه الرسالة يحذر زياد بن أبيه الذي كان في ذلك الزمان والياً على بلاد فارس من قبل الإمام، بأن هذه الخطة هي خطة شيطانية مدروسة من قبل معاوية فلا ينبغي أن تقع في حباله وتتخدع برسالته، فكل ابن يرتبط بعلاقة
نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٢٢

البنوة بأبيه وائمة في البيت الذي ولد فيه، وحتى النسبة غير المشروعة التي تقوم على أساس ادعاء شخص مثل أبي سفيان بأن زياد من نطفته لا تثبت حقيقة، وعندما وصلت الرسالة إلى زياد قبل كلام الإمام وهدأت نفسه، رغم أن زياد بعد استشهاد الإمام التحق بمعاوية بسبب هذه الخديعة مع إضافة بعض التهديد لزياد.

ولكن الاستفادة من كتب التاريخ أن أم زياد كانت جارية لطبيب معروف عند العرب يدعى «حارث بن كلدة» والتي تزوجت من عبد يدعى «عبيد» وحسب الظاهر كان زياد نتيجة ذلك الزواج، ولذلك يقال له: زياد بن عبيد، ولكن بما أن والده كان عبداً وغلاماً غير معروف فرجح بعضهم أن يقال عن زياد «زياد بن أبيه» والظاهر أن زياد نفسه لم يكن يأبى هذا الاسم، ولكنه بعد إحققه معاوية بأبي سفيان ادعى أنه أخوه كان يقال له: زياد بن أبي سفيان، والحقيقة أن كل الإنسان يستولى عليه العجب والحيرة من هذه الوقاحة بأن شخصاً يدعى لنفسه خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله ومع ذلك يصرح بأنه أخ لابن الزنا، والأمر الآخر المثير للعجب أن المحيط الاجتماعي في ذلك الوقت إلى درجة من التلوث والتشوه بحيث قبل زياد بن أبيه هذا الادعاء.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٢٣

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَرِلُ لُبُّكَ، وَيَسْتَفِلُّ عَزْبُكَ، فَاحْذَرُهُ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ: يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ

يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلْبِ غَرَّتَهُ. وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سَيْفِيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَهُ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَنَزَعَهُ مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ: لَا يَبُتُّ بِهَا نَسَبٌ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدْفَعِ، وَالنُّوْطِ الْمُدْبَذِبِ. فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادُ الْكِتَابِ قَالَ: شَهِدَ بِهَا وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ. قال الرضى، قوله عليه السلام: «الواغِل» هو الذى يهجم على الشرب ليشرب معهم، وليس منهم، فلا يزال ممدفاً محاجراً. و «النوط المدبذب»: هو ما يئاط برجل الزاكب من قعب أو قدح أو ما أشبه ذلك، فهو أبداً يتقلقل إذا حث ظهره واستعجل سيره.

الشرح والتفسير: إحذر من أغوائهم!

إشارة

طبقاً لما ورد فى كتاب تمام نهج البلاغة، أن الإمام عليه السلام فى مستهل هذه الرسالة يخاطب زياد بن أبيه ويشوقه على الصبر والاستقامة فى مقابل الوسوس الشيطانية التى تنبعث هنا وهناك، ثم يقول:

«وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ [١٩٧] لُبَّكَ [١٩٨]،

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٢٤

وَيَسْتَفِلُّ [١٩٩] غَرْبَكَ [٢٠٠]، فَاحْذَرُهُ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ.»

ويستفاد من هذه العبارات وعبارات أخرى وردت فى الرسائل السابقة، أن جواسيس الإمام عليه السلام كانوا ينتشرون فى جميع البلاد الإسلامية، حتى أنهم كانوا يصلون إليه الرسائل الخاصة التى تصل إلى ولايته من قبل الأعداء، ليستطيع الإمام التصدى للخطر فى الوقت المناسب، ونرى أن الإمام عليه السلام فى مطلع هذه الرسالة يحذر زياد بن أبيه من شيطنة معاوية وأن يتخذ جانب الحيلة والحذر من مكره ودسائسه.

ثم يضيف فى توضيح ذلك:

«يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، لِيَقْتَحِمَ [٢٠١] غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلْبِ [٢٠٢] غَرَّتَهُ [٢٠٣].»

وهذا الكلام للإمام عليه السلام مقتبس من الآية الشريفة ١٧ من سورة الأعراف حيث تتحدث عن قول الشيطان: «ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ.»

والمقصود أن الشيطان يستخدم كل وسيلة لخداع الناس وإغوائهم، فأحياناً يستخدم آليته التطميع أو أخرى التهديد وثالثه الشهوات والأهواء والنوازع النفسانية، ورابعه عن طريق الآمال والتمنيات والمناصب والمقامات الموهومة والعناوين البراقة، والغاية من كل ذلك تنحصر بأمر واحد، ألا وهو إغواء الإنسان وسوقه فى متاهات الضلالة والهلكة.

وقد استخدم شيطان الشام هذا الاسلوب أيضاً وسعى إلى خداع الناس كل بحسب طريقته الخاصة لجذبهم إليه والاستفادة منه فى مسار تحقيق مطالبه وشهواته.

وينقل عن أحد العرفاء أنه قال: ما من صباح إلا أقعد لى الشيطان على أربعة

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٢٥

مراصد من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، أما بين يدي فيقول لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: «وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى [٢٠٤] وأما خلفي فيخوفني الضيقه على مخلفي فأقرأ: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا» [٢٠٥]، وأما عن قبل يميني فيأتينى من جهه الشاء، فأقرأ: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» [٢٠٦]، وأما من قبل شمالي فيأتينى من قبل الشهوات فأقرأ: «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ» [٢٠٧]، [٢٠٨].

ووقد ورد في الروايات فيما يتصل بهذه الجهات الأربع للشيطان ما خلاصته: «ما روى عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ثُمَّ لَأَيِّنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ»

، معناه، اهْوَنُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ الْآخِرَةِ،

«وَمِنْ خَلْفِهِمْ»

، أَمْرُهُمْ بِجَمْعِ الْأَمْوَالِ، وَالْبُخْلَ بِهَا عَنِ الْحُقُوقِ لِيَبْقَى لَوَرَثَتِهِمْ،

«وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ»

أَفْسُدُ عَلَيْهِمْ أَمْرُ دِينِهِمْ بِتَرْيِينِ الضَّلَالَةِ، وَتَحْسِينِ الشُّبْهَةِ،

«وَعَنْ شِمَائِلِهِمْ»

بِتَحْيِيبِ اللَّذَاتِ إِلَيْهِمْ، وَتَغْلِيبِ الشَّهَوَاتِ عَلَى قُلُوبِهِمْ...» [٢٠٩].

أجل، فإنَّ وساوس شياطين الجن والإنس تهجم على الإنسان من كلِّ باب لإغواؤه وإضلاله.

وهنا ربّما يطرح هذا السؤال وهو: لماذا لم تذكر النصوص جهةً فوق والتحت في مسألة إتيان الشيطان؟ ذهب بعضهم إلى أن ذلك بسبب أن جهة العلو هي جهة الرحم، لأنَّ الرحمَةَ الإلهيَّة تنزل دائماً من هذه الجهة على الإنسان، وأما جهة التحت سبب الخوف والوحشة، فلو أن شخصاً خرج من باطن الأرض ودعا الإنسان إلى عمل معين وذلك من شأنه إخافة هذا الإنسان والاستيحاش منه.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٢٦

ويحتمل أن الشياطين يأتون إلى الناس بشكل طبيعي، ونعلم أنه لا أحد يأتي إلى شخص آخر من جهة فوق والتحت، بل يأتيه من إحدى جوانبه الأربعة.

نفحات الولاية؛ ج ١٠؛ ص ١٢٦

إنَّ الإمام عليه السلام تعرض في سياق كلامه لادعاء معاوية في الحاق زياد بن أبيه به (بوصفه أخاه) واستدل على بطلان هذا الادعاء بدليل منطقي وقال:

«وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَهُ [٢١٠] مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَنَزَعَهُ [٢١١] مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ: لَأَيَّبْتُ بِهَا نَسَبٌ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ».

وقول الإمام عليه السلام «فلته» من قبل أبي سفيان إشارة إلى ما ذكره ابن أبي الحديد في شرحه نقلاً عن كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر قال: إنَّ عمر بعث زياد في إصلاح فساد واقع في اليمن، ولما رجع من جهته خطب عند عمر خطبة لم يُسمع مثلها، وأبوسفيان حاضر، وعلى عليه السلام وعمرو بن العاص، فقال عمرو بن العاص: لله أبو هذا الغلام، لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه، فقال أبو سفيان: إنه لقرشي، وإني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه، فقال على عليه السلام: ومن هو؟ قال: أنا. فقال: مهلاً يا أباسفيان (أى اسكت)! وجاء في رواية أخرى أنه عليه السلام قال: اسكت يا أباسفيان فإذا سمعك عمر فإنه سيسارع في عقابك.

وجاء في رواية ثالثة أن عمرو بن العاص قال له: إذا كنت تعلم أن زياد ابنك، فهلا تستلحقه، قال: أخاف هذا العير الجالس أن يخرق عليَّ إهابي [٢١٢].

ومن المعلوم أن أبا سفيان لا يستطيع إثبات أن نطفة زياد من عنده بسبب إرتكابه لعمل منكر مع ام زياد، بل اعتمد على الظن والتخمين، ولكنّه تحدّث بلسان بكل صلافة ووقاحة عن ذلك في حضور الإمام على عليه السلام وآخرين، ولهذا السبب

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٢٧

يذكر الإمام على في رسالته مورد البحث زياد بن أبيه بأن مثل هذه الادعاءات الشيطانية لا تعتبر معياراً لإثبات النسب في الإسلام، ومن

هذه الجهة لا يمكنك أن ترث أباً سفيان أبداً، لأن ابن الزنا لا يرث من أبيه وأمه شيئاً (وأنت بدورك لم تدع ميراثاً لنفسك منه) وعلى ضوء ذلك لا ينبغي أن تسلم نفسك لوساوس معاوية الشيطانية.

وفي ختام الرسالة يقول الإمام عليه السلام:

«وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدْفَعِ [٢١٣]، وَالنَّوْطُ الْمُدْبَذِبُ».

وبعبارة أخرى إن معاوية إذا أراد أن يدعى إختوك له من هذا الطريق ووافقته على ذلك، فسوف لن تكون ابناً لأبي سفيان ولا أخاً لمعاوية بل تكون وسمه عار لك أيضاً بأنك ابن زنا، حتى أنك لا تنال ميراثاً من تلك العائلة الغريبة عنك ولا تحسب ابن مشروعاً لها، رغم أن إخوة معاوية الذي ارتكب الكثير من أعمالاً قبيحة والشيعة لا تعد افتخاراً لك.

والجدير بالذكر أن هذه الرسالة وطبقاً لما أورده المرحوم السيد الرضى فى ذيلها كانت مؤثرة فى قلب زياد إلى درجة أنه قال: «فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادُ الْكِتَابِ قَالَ: شَهِدَ بِهَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ».

ثم إن معاوية أبقى زياد بن أبيه فى موقعه والياً على بعض بلاد فارس، ثم نقله والياً على العراق ووضع تحت تصرفه منطقة مهية من العراق، وكانت هذه الوصمة باقية فى زياد ابن أبيه بسبب حبه لجاه والمقام بحيث إن هذا الهاجس قاده آخر المطاف إلى وادى الشر والشيطنة.

ويحتمل أيضاً فى تفسير هذه العبارة من كلام زياد بن أبيه أن مقصود زياد هو أن أباً سفيان شهد بهذا الأمر قطعاً بأبنى من نطفته، وهذا المعنى بقى فى نفسه إلى زمان الحاق معاوية لزياد به.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٢٨

يتحدث السيد الرضى فى هذا المورد عن تفسير بعض اللغات الغامضة:

«قال الرضى، قوله عليه السلام: «الواغِل» هو الذى يهجم على الشرب ليشرب معهم، وليس منهم، فلا يزال مبدفعا مُحاجزاً. و «النَّوْطُ الْمُدْبَذِبُ»: هو ما يُنَاطُ بِرَحْلِ الرَّكَبِ مِنْ قُغْبٍ أَوْ قَدَحٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ أَبَدًا يَتَقَلَّبُ إِذَا حَتَّ ظَهْرُهُ وَاسْتَعَجَلَ سَيْرُهُ».

تأمل

قصة نسب زياد المعقده

فى هذا المورد كلام كثير، إلى درجة أن بعض شراح نهج البلاغة كتب فى هذا الموضوع عشرات الصفحات، ونشير فى هذا المورد إلى عدة مسائل:

١. هل أن زياد ابن زنا؟

ما يستفاد من الرسالة أعلاه هو أن الإمام عليه السلام نفى ادعاء أبى سفيان وكذلك معاوية بأن زياد الابن غير المشروع لأبى سفيان، وقال إن هذا ادعاء شيطانى، وفى ظاهر الشرع بأن كل ولد يلحق بأبيه وأمه اللذين تربطهما رابطة الزواج ويولد الولد فى ذلك البيت. مضافاً إلى أننا نعلم أن الإمام عليه السلام نصب زياد والياً من قبله على فارس، وهذا المنصب يستلزم بمفهومه إجازته لإمامة الجمعة والجماعة، فكيف يمكن أن يختار الإمام عليه السلام شخصاً لهذا المقام وهو ابن زنا، فى حين أننا نعلم أن مشروع إمامة الجمعة والجماعة طهارة المولد.

ومن جهة أخرى، فقد ورد فى التواريخ فيما يتصل بواقعة كربلاء وعاشوراء أن الإمام سيد الشهداء عليه السلام قال:

«أَلَا وَإِنَّ الدَّعَى ابْنَ الدَّعَى قَدْ تَرَكَنِي بَيْنَ السَّلَّةِ وَالذَّلَّةِ ... هَيْهَاتَ مِنِّي الذَّلَّةُ» [٢١٤].

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٢٩

أما ما هو المقصود بكلمة «الدعى» في نظر اللغة، بذهب بعض إلى أن المراد هو ابن الزنا، ولكن عندما نراجع كتب اللغة نجد أن لهذه الكلمة مفهوماً عاماً وتعنى من يدعى البنوة، وكذلك تطلق على الشخص المتهم بنسبه، وجاء في لسان العرب: الدعى يعنى من يدعى له البنوة، وكذلك الابن الذى ينسب لغير أبيه.

يقول القرآن الكريم: «وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ» [٢١٥] وعلى هذا الأساس فربما أراد الإمام عليه السلام أن القول بأن زياد قد ولد فى اسره حقيرة لا شأن لها كما يولد العبيد، وقد نسب إلى غير أبيه لغرض كسب المكانة والموقع فى المجتمع. ويحتمل أيضاً أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بين الحكم الظاهرى للمسألة، وهو «الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ» ولكن الإمام الحسين عليه السلام ذكر حقيقة الأمر وأن زياد ابن غير مشروع.

وأما لابن زياد المسألة أوضح وأجلى فى أنه ابن غير مشروع وأن أمه مرجانة المشهورة بالفجور، ومن هذه الجهة وطبقاً لما ورد فى تواريخ كربلاء، خاطبت الحوراء زينب عليها السلام ابن زياد عندما رام توبيخها وذمها بقولها له: «يا بن مرجانة». ويحتمل أيضاً فى المقام من «الدعى بن الدعى» يزيد وأبيه معاوية وأنه إشارة إلى نسبهما المتلوث.

٢. والد زياد ووالدته

المعروف أن والد زياد كان عبداً يدعى عبيد وقد تزوج من جارية «حارث بن كلدة» من أطباء العرب المعروفين واسمها سميّة، وقد ولد زياد فى بيتها، رغم أن أبا سفيان ومن بعده معاوية سعيا إلى تبنى زياد واعتباره ابناً لأبى سفيان، وأما ما يقال من أن سميّة كانت من ذوات الأعلام (أى النسوة المعروفات بالفحشاء والزنا) فهو

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٣٠

بعيد، لأن جارية طيب معروف كحارث بن كلدة لا يمكن أن تكون من ذوات الأعلام كما هو المعروف. ولكن ورد فى كتب التاريخ أن أباسفيان توجه فى سفر إلى الطائف وطلب من شخص يدعى أبو مريم، وهو من الأشخاص السيئ الصيت امرأة فاحشة ليمارس معها الجنس، فقدم له أبو مريم سميّة أم زياد، وقالت له: دع زوج عبيد يعود من الصحراء وينام فى البيت وسوف أتى إليك، ثم إنهما جاءت إلى أبى سفيان ومارست الجنس معه، ولعل أبا سفيان عندما قال أنه زياد ابني كان ناظر إلى هذه الواقعة.

٣. قصّة استلحاق معاوية لزياد

إن قصّة الحاق معاوية لزياد بآل أبى سفيان واتخاذه أخاً له تعدّ من عجائب تاريخ الإسلام، يقول الشيخ المصرى المعروف محمّد عبده فى شرحه لنهج البلاغة:

إن قصّة زياد بن أبيه قصّة غريبة تدعو الإنسان إلى التأمل، لأنّ معاوية نسبه إلى لأبى سفيان ليكون أخاه مدعياً أن أبا سفيان عاشر أمه سميّة وهى زوجة رجل آخر، فأنجبت زياداً منها.

ثمّ يضيف: وأغرب ما فى القصّة أن ادّعاء هذه الاخوة (غير المشروعة) وقعت فى مجلس علنى ورسمى وبتحقيق الادّعاء على رؤوس الأشهاد فلم يخجل منه زياد، موازناً بين مغانم هذه الاخوة وبين إزدراء الناس له، ففضل إخوة الخليفة على سلامة العرض، وهكذا فى سبيل السلطة لم يكن الرجل ذوالنخوة يخجل من أن يثلم عرضه إذا كان فى هذه منفعة (ولو بشكل غير مشروع على سلامة وصحة نسبه، أجل، فمثل هذه الأمور مهدت الطريق السلطة والمقام هذا الرجل المتكبر، فلم يخجل من تعرض شرفه ونسبه إلى الاهتزاز فى مقابل المنافع التى يجنبها من ذلك) [٢١٦].

ونضيف نحن، أن الأعجب من ذلك أن المحيط الإسلامى الذى أوجده النبى

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٣١

الأكرم صلى الله عليه وآله ولم يمض عليه أكثر من نصف قرن تعرض للتلوث والتشويه بسبب تصرفات بنى امية إلى درجة أن الخليفة يتجرأ بتثبيت مثل هذا المنكر في الملأ العام، فالويل للمسلمين إذا سقطوا في أسر مثل هذه الحكومات الجاهلة والملوثة. وعلى أية حال فالقصة كما يلي: روى المدائني في كتاب فتوح الإسلام: إن معاوية لما أراد استلحاق زياد وقد قدم عليه الشام جمع الناس وصعد المنبر، وأصعد زياد معه وأجلسه بين يديه على المرقاة التي تحت مرقاته، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إني قد عرفت نسبنا أهل البيت في زياد، فمن كان عنده شهادة فليقم بها، فقام ناس فشهدوا أنه ابن أبي سفيان، وأنهم سمعوا ما أقر به قبل موته، وقام أبو مريم السلولي، وكان خماراً في الجاهلية، فقال: أشهد يا أمير المؤمنين أن أباسفيان قدم علينا بالطائف، فأتاني فاشتريت له لحماً وخمراً وطعاماً فلما أكل قال: يا أبا مريم، أصب لي بغيًا، فخرجت فأتيت بسمية، قلت لها: إن أبا سفيان ممن عرفت شرفه وجوده، وقد أمرني أن أصيب له بغيًا، فهل لك؟ فقالت: نعم، يجيء الآن عبيد بغنمه وكان راعياً فإذا تعشى، ووضع رأسه أتيته، فرجعت إلى أبي سفيان فأعلمته، فلم نلبث أن جاءت تجرّ ذيلها فدخلت معه، فلم تزل عنده حتى أصبحت، فقلت له لما انصرفت: كيف رأيت صاحبك، قال خير صاحبه ولولا ذفر في أبطيها، فقال زياد من فوق المنبر: يا أبا مريم لا تشتم أمهات الرجال فتشتم أمك، فلما انقضى كلام معاوية ومناشدته، قام زياد، وأنصت الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إن معاوية والشهود قد قالوا ما سمعتم، ولست أدري حق هذا من باطله وهو والشهود أعلم بما قالوا، إنما عبيد أب مبرور ووال مشكور، ثم نزل (الظاهر أن المراده من الوالي هو المعاوية) [٢١٧].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٣٢

٤. نظرة لسيرة زياد بن أبيه

كما تمت الإشارة إليه آنفاً فقد كان زياد في الأصل يدعى زياد بن عبيد، وكان أبوه عبداً وراعياً وكانت أمه جارية أبي حارث بن كلدة الطيب العربي المعروف، وأحياناً يقال له: زياد بن أبيه، وأخرى زياد بن أمه، لأن أباه عبد وليس له مكانة اجتماعية في الناس، وبعد أن ألحقه معاوية بنفسه صار يقال له زياد بن أبي سفيان وكان منذ صباه ذكياً وخطيباً مفوهاً وبلغياً، ولد في الطائفة في عام فتح مكة، وقيل إنه ولد في عام الهجرة وقال آخرون أنه ولد يوم بدر، ولكنه لم يشاهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وكان مع أمير المؤمنين عليه السلام في جميع حروبه، وبقي مع الإمام الحسن عليه السلام إلى زمان صلحه مع معاوية، وبعد ذلك خدعه معاوية وطلب منه المجيء إليه وتوفي زياد في الكوفة في شهر رمضان عام ٥٣ في سن ٥٦ (وذهب بعضهم إلى أن عمره أكثر من ذلك أو أقل).

أمياً سيرة حياته فتتشكل من مرحلتين متفاوتتين تماماً، المرحلة الأولى كان يتحرك في خط الحق، وكان رجلاً موثقاً ومديراً مدبراً، ولهذا السبب عينه الإمام على عليه السلام والياً له على فارس، وقد أدار المنطقة بشكل جيد وكما يجمع الخراج بأفضل صورة ويرسله إلى أمير المؤمنين عليه السلام فبلغ ذلك إلى معاوية واشتد عليه هذا الأمر، فكتب له رسالة وذكر له في مضمونها: أما بعد فإنه عزتكم قلاع تأوى إليها ليلاً، كما تأوى الطير إلى وكرها، وأيما الله لولا انتظار بك والله أعلم به لكان لك مني ما قاله العبد الصالح: «فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّاقِبِلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذَلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ» [٢١٨] وكتب في أسفل الكتاب شعر من جملته:

تَنسَى أَبَاكَ وَقَدْ شَالَتْ نُعُومَتُهُ إِذَا يَخْطُبُ النَّاسَ وَالْوَالِي لَهُمْ عُمَرُ

فلما ورد الكتاب على زياد قام فخطب الناس وقال: العجب من ابن آكلة الأكباد

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٣٣

ورأس النفاق، يهددني ويبيني وبينه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وزوج سيده نساء العالمين وأبي السبطين، وصاحب الولاية والمنزلة والإخاء في مئة ألف من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان، أما والله لو تخط هؤلاء أجمعين إلى لوجدني أحمر مخشن ضرباً بالسيف.

ثم كتب زياد رسالته إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام وبعث بكتاب معاوية معها: فكتب إليه الإمام علي عليه السلام يقول: «أما بعد، فأني قد وليتك وأنا أراك لذلك أهلاً، فإنه قد كانت من أبي سفيان فلتة في أيام عمر من أمانى التيه وكذب النفس، لم تستوجب بها ميراثاً ولم يستحق بها نسباً، وأن معاوية كالشيطان الرجيم يأتي المرء من بين يديه من خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذره ثم احذره ثم احذره والسلام».

أما المرحلة الثانية من حياته اختلفت تماماً عن المرحلة السابقة، وبتعبير معاصر أنه انقلب ١٨٠ درجة على ما كان سابقاً، وهذه المرحلة تبتدىء منذ أن خدعه معاوية بواسطة المغيرة بن شعبه، وقد استغل معاوية نقطة الضعف في زياد هو حبه للجاه والمقام، فدعا إليه بعد قضية صلح الإمام الحسن عليه السلام وادّعا إخوته (أنه ابن غير مشروع لأبي سفيان) وولاه حكومة فارس، ثم وسع دائرة نفوذه وألحق بولايته الولاية على الكوفة والعراق، فما كان من زياد من أجل تثبيت حكومته والتصدي للثورات الشعبية ضد معاوية وأزلامه، إلا أن بدأ بقمع الأصوات المناوئة لحكومة بني أمية، وبخاصة الشيعة الموالين لأهل البيت عليهم السلام فكان يستخدم فيهم القتل والقمع والشدة بأقصى صورها، وقد ارتكب معهم جرائم لا تعد ولا تحصى بحيث إنه شوّه تاريخ الإسلام بأفعاله، ومن ذلك أنه قبض على «حجر بن عدي» كان رجلاً شجاعاً ومؤمناً ومن شيعة الإمام علي عليه السلام المخلصين ومشهوراً بالصلاح والنقاء ومن صحابه النبي المعروفين، ومعه جماعة من أصحابه وأرسلهم إلى الشام، وقد أمر معاوية بقتل هذا الرجل الصالح في منطقة «مرج عذراء» وذلك أضاف صفحة سوداء أخرى إلى صفحات حياته السوداء، وقد وصل به الأمر درجة أن الحسن البصري الذي لم تكن له علاقة جيداً مع الإمام علي عليه السلام قال في حقه: إن معاوية قد ارتكب ثلاثة أمور، كل

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٣٤

واحدة منها تكفى لهلاكه، الأول، أنه سلط السفهاء والجهلاء على المسلمين ووضع بيدهم مقاليد الحكم والسلطة، والثاني الحاقه لزياد بنفسه خلافاً لقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال: «الولد للفراس وللعاقر الحجر» والثالث: قتله لحجر بن عدي، فالويل له من حجر وأصحاب حجر [٢١٩].

ونحن نقول أيضاً: نعوذ بالله من سوء العاقبة وتورط الإنسان في فخاخ الشياطين من الجن والإنس أن يفارق الحياة في حال الكفر والضلالة والجريمة.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٣٥

الرسالة ٤٥

إشارة

إلى عثمان بن حنيف الأنصاري - وكان عاملاً على البصرة وقد بلغه أنه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها، فمضى إليها - قوله [٢٢٠]

نظرة عامة للرسالة

تعتبر هذه الرسالة من الرسائل المهمة جداً في نهج البلاغة والتي تتضمن دروساً ومعطيات كثيرة للسالكين في طريق الحق والإيمان وبخاصة أولياء الأمور والمسؤولين في البلدان الإسلامية وتتضمن جهات عدة:

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٣٦

١. بدايةً يخاطب الإمام عليه السلام واليه على البصرة عثمان بن حنيف ويخبره بخبر مشاركته في ضيافة أحد أشراف البصرة، وفي تلك الضيافة التي لم يشترك فيها سوى الأثرياء والمتولين، جلبت إلى المائدة شتى أصناف الطعام والمأكولات المتنوعة، والإمام هنا يوبّخه على مشاركته في مثل هذه المائدة.

٢. وفي القسم الثاني من الرسالة يذكر الإمام عليه السلام أنّ كلّ إنسان ينبغي أن يقتدى في حياته بإمامه وقائده، ثمّ يبيّن له سيره حياته وسلوكه بوصفه إماماً للمسلمين وكيف أنّه اكتفى من الدنيا بردائين قديمين وبقرصين من الخبر ولم يدخر لنفسه ثروة ومالاً من زخارف الدنيا، ولكنّه يؤكّد له بأننى لا أتوقع أن تعيش كما أنا أعيش في واقع الحياة، ولكن أتوقع منك البساطة والزهد في الحياة وأن لا تنسى حالات التقوى والنزاهة.

٣. وفي قسم آخر من هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى قصّة فذك ويقول: الشيء الوحيد الذي كان في أيدينا من مال الدنيا هو «فدك» وقد استولى عليها الحساد وأعداء أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، ورغم أنّي لا احتاج لفدك ولغير فدك، فمنهاية حياتنا جميعاً الموت، وسيكون بيتنا هو القبر الضيق والمظلم.

٤. وفي مقطع آخر من هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمّة وهي أنّ بساطتي في المعيشة ليست بسبب أنّي لا أتمكن من التوصل إلى الدنيا وتحصيل المواهب والنعم المادية فيها، بل بسبب ما أتولاه من وظيفة خطيرة ومسؤوليّة كبيرة في عهدتي، والتي تتمثل في منصب الإمامة وزعامه المسلمين، وهذا المقام يستوجب أن اشارك الناس الضعفاء في صعوبات الحياة ومشاكلها، فلا أبيت شعباناً في حين يوجد من ينام جائعاً في أطراف البلد الإسلامي.

٥. وفي مقطع أخرى يجيب الإمام عليه السلام عن هذا السؤال، وهو أنّه ربّما يقول البعض: إذا كان على بن أبي طالب يأكل من هذا الطعام البسيط فهذا من شأنه أن يكون الإمام ضعيفاً في قوته البدنيّة بحيث لا يستطيع مقارعة الشجعان في ميادين نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٣٧

القتال، ولكن حالي كالشجرة البرية التي تواجه صعوبته ومشقته في الماء والغذاء ولكنها قويّة وصلبه أمام التحديات.

٦. وفي آخر مقطع من هذه الرسالة (والتي حذف السيد الرضى بعضاً من مقاطعها وفقراتها) يخاطب الإمام عليه السلام الدنيا بلغة المعرض عنها ويعلن بصوت عالٍ أنّه برىء من زخارفها وجواذبها، وبعد أن يثنى الإمام على الأشخاص الذين يتحركون من موقع المسؤولية والالتزام بالتكاليف والقيم الإنسانيّة أمام الله تعالى ويحيوا الليل بالعبادة، يخاطب مرّة أخرى عثمان بن حنيف ويوصيه بتقوى الله ويدعوه إلى سلوك مسلك الزهد والبساطة في الحياة يضمن له النجاة في الآخرة من النار.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٣٩

القسم الأول

إشارة

أَمَّا بَعِيدُ، يَا ابْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَادْبَةِ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسَيِّطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِصَانُ! وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُوفٌ، وَعَيْبُهُمْ مَدْعُوفٌ. فَاظْطُرُّ إِلَى مَا تَقْضِمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِطْهُ، وَمَا أَقْبَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلَّ مِنْهُ.

الشرح والتفسير: دعوة الوالي إلى مادبة فاخرة!

إشارة

في المقطع الأول من هذه الرسالة يخاطب الإمام عليه السلام عثمان بن حنيف الأنصاري، الذي يعدّ من أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأجلاء وقد اختاره أمير المؤمنين ليكون والياً على البصرة ويتحدّث معه بلغة التوبيخ ويقول:

«أَمَّا بَعْدُ، يَا ابْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِئْتِهِ أَهْلُ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَادْبِهِ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ [٢٢١] الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ!».

«فتية» جمع «فتى» في الأصل تعنى الشاب اليافع، وأحياناً تطلق على المسن الذي يملك النشاط والبهجة في حياته، وفي هذه العبارة تعنى رجل من الأشراف.

«مادبة» من مادة «أدب» وتعنى الدعوة الرسمية المعتبرة التي تراعى فيها الآداب.

و «جفان» جمع «جفنة» (على وزن وزنة) وتعنى الآنية الكبيرة المخصصة

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٤٠

للطعام، وهذا التعبير يشير إلى أن المجلس المذكور كان مجلساً ضخماً وقد دعيت إليه جماعة من الأشراف وجيء إلى المائدة بأنواع الأطعمة اللذيذة.

ثم يضيف الإمام عليه السلام:

«وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ [٢٢٢] مَجْفُونٌ [٢٢٣]، وَعَيْتُهُمْ مَدْعُوٌّ».

هنا نرى أن الإمام عليه السلام يؤكد أن العيب الكبير في هذه المادبة أنها منحصرة بالأغنياء فقط، فلو أن تلك الأطعمة المتنوعة واللذيذة كانت تشمل الجياع والمحرومين لياكلوا منها فليست في ذلك مشكلة كبيرة، ومن هذه الجهة فإن هذه المائدة كانت مليئة بشتى أنواع الأطعمة اللذيذة والمأكولات المتنوعة، ومن جهة أخرى أن الأثرياء فقط هم المدعون لهذه المائدة دون المحرومين، ولو أضفنا إلى ذلك دعوة عثمان بن حنيف إلى هذه المائدة فستضعف الإشكال.

ونستوحى من سياق هذه الرسالة أن الإمام عليه السلام يطرح إشكالاً رابعاً في دعوة واليه إليها ويتمثل في وجود أموال مشتبه في هذه المادبة، لأن الإمام عليه السلام يضيف إلى ذلك قوله:

«فَانظُرْ إِلَى مَا تَقْضِمُهُ [٢٢٤] مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ [٢٢٥]، وَمَا أَيَقَنْتَ بِطَيْبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ».

والنقطة الملفتة للنظر، أن الإمام عليه السلام كان يهتم بمراقبة عماله وولاته بشكل دقيق وينظر إلى حركاتهم وسلوكياتهم، لئلا ينحرف الوالى أدنى انحراف وأن لا توجد فيه أية نقطة ضعف حتى المشاركة في ضيافة غير مناسبة له، بحيث إن الإمام عليه السلام يرسل له رسالة مطولة وزاخرة بالنصائح المختلفة ويحدّره من مغبة مثل هذه السلوكيات الخاطئة، وربما لانجد في العالم أجمع مثل هذا التوجيه الدقيق والضبط في إدارة الأمور.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٤١

ومن بين كتب الإمام عليه السلام ورسائله إلى عماله ربما نجد الكثير من مثل هذه الرسالة، وكلّها تشير إلى أن الإمام عليه السلام كان في غاية التدبير ومنتهى الدقة في أمر إدارة الحكومة.

والملاحظة الأخرى أن الإمام عليه السلام يرى في هذه الرسالة أن الولاية والمسؤولين في الحكومة الإسلامية ينبغي أن يقفوا إلى جانب

الناس وجمهور المستضعفين والمحرومين وأن لا يعتنوا أبداً بالطبقة المترفة الذين تزداد توقعاتهم وتقل معونتهم، والتجارب تؤكد على أن المحرومين المستضعفين هم أول المدافعين عن الدين والبلاد الإسلامية في مواقع الخطر والظروف الصعبة.

تأمل

من هو عثمان بن حنيف؟

جاء في كتاب «الأعلام للزركلي»: «عثمان بن حنيف بن وهب الأنصاري الأوسى، أبو عمرو! من أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه و آله شهد احداً، وما بعدها، وبسبب ورعه ونزاهته ولاة الخليفة الثاني على السواد مسؤولاً على الأراضى الخراجية في العراق، ثم ولاة على البصرة، ولما نشبت فتنة الجمل (بين عائشة وعلى) دعاه أنصار عائشة إلى الخروج معهم على على، فامتنع، فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، واستأذنوا به على عائشة فأمرتهم بإطلاقه، فلحق بعلى وحضر معه الواقعة ومعركة الجمل، ثم سكن الكوفة وتوفى في خلافة معاوية» [٢٢٦]، وقال البعض الآخر: توفى في زمن خلافة معاوية في المدينة.

واللافت أن ابن عبد البر ذكر في كتابه «الاستيعاب» أنه عندما فتح المسلمون العراق، تشاور الخليفة الثاني مع أصحابه فيمن يرسله إلى العراق ليكون والياً عليه، فاتفق الجميع على اختيار عثمان بن حنيف وقالوا: إنه يستطيع إدارة ما هو أكبر من

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٤٢

ذلك، لأنه يملك من البصيرة والعقل والمعرفة والتجربة الكثير [٢٢٧].

وجاء في كتاب «مستدركات علم رجال الحديث» أن عثمان بن حنيف وأخاه سهل بن حنيف كانا من جملة اثني عشر نفر الذين اعترضوا على أبي بكر وانتقدوا أعماله، ثم يضيف: إن عثمان وأخاه سهل كانا من شرطة الخميس في عهد الإمام على عليه السلام وهم الذين ضمن الإمام على لهم الجنة [٢٢٨].

وجاء في اسد الغابة: أن عثمان بن حنيف قال: إن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وآله، فقال: ادع الله أن يعافيني، فقال صلى الله عليه وآله: إن شئت دعوة وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: ادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويدعو بهذا الدعاء:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتَقْضِيَ لِي اللَّهُمَّ فَشَفِّعْ فِيَّ» [٢٢٩].

ونختم هذا المقطع بكلام للإمام على بن موسى الرضا عليهما السلام (طبقاً لما ورد في رجال المامقاني): «وعده مولانا الإمام الرضا عليه السلام من الباقيين على منهج نبيهم صلى الله عليه وآله من غير تغيير ولا تبديل» [٢٣٠].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٤٣

القسم الثاني

إشارة

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا، يَفْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ؛ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمَرِيهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصِيهِ، أَلَا وَإِنَّكُمْ لَأَتَقَدَّرُونَ عَلَى ذَلِكُمْ، وَلَكِنْ أَعْيُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعَفْفَةٍ وَسَدَادٍ. فَوَاللَّهِ مَا كَنْزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبْرًا، وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرًّا، وَلَا أَعْدَدْتُ لِي إِلَى تُوْبِي طِمْرًا، وَلَا خُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شَبْرًا، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ آتَانٍ دَبْرَةً، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصِيهِ

مَقْرَةٌ.

الشرح والتفسير: لم أَدخِر من الدنيا شيئاً لنفسي

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه لعثمان بن حنيف وأمثاله في هذا المقطع من الرسالة ويشير إلى عدّة نقاط مهمّة لإيقاظ عناصر الخير والإيمان في وجدان عامله، يقول بدايةً:

«أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا، يَفْتَدِي بِهِ وَيَسْتَنْصِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ».

وهذه إشارة إلى أنّ الإنسان في مسيرته حياته المعقدة وسلوكه المادى والمعنوى لا يستطيع أن يتحرك لوحده ومن دون إرشاد وإقتداء بقدوة صالحه، فالإنسان إما أن يكون في ذاته يملك جميع الملاكات واللياقات اللازمة ليكون إماماً للناس أو أن يقتدى بمن تتوفر فيه هذه الملكات والقابليات اللانقطة، وإلّا فإنه سيسير في متاهات الضلالة والحيرة.

ثم يضيف الإمام عليه السلام:

«أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمْرِنِهِ [٢٣١]، وَمِنْ طَعْمِهِ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٤٤

بِقُرْصِيهِ [٢٣٢].»

المشهور أنّ هذين الثوبين كانا من الكرباس والقرصين من خبز الشعير، وهما يشكلان طعام الإمام عليه السلام اليومي، وقرص واحد لوجبة الظهر والآخر للعشاء، وهذا في الحقيقة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله الذي يقتدى به الإمام على عليه السلام، كما في ورد في الحديث الشريف:

«إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ مَا اتَّخَذَ قَمِيصَيْنِ وَلَا إِزَارَيْنِ وَلَا زَوْجَيْنِ مِنَ النَّعَالِ» [٢٣٣].

خلافاً لأهل الدنيا والمترفين من الناس، الذين يملكون أحياناً عشرات الأنواع من الألبسة والأحذية، بل إنّ بعضهم لا يلبسون لباساً فاخراً إلاّ أكثر من مرّة أو بعض المرات ثم يتركوه جانباً، وأحياناً نراهم ينقلون من صناديق والحقائب المليئة بالملابس من مكان لآخر عند انتقالهم من منازلهم، وأمّا موادهم الملونة فحدّث عنها ولا حرج.

وبما أنّ الإمام عليه السلام كان يعلم أنّ من النادر أن يستطيع أى إنسان أن يعيش مثل هذه الحياة الصعبة ويرضى بشظف العيش وخاصية فيما لو كان من كبار المسؤولين وأصحاب المناصب الذين يملكون الإمكانيات الكثيرة فإنه يتعرض لهذه النقطة بالذات ويقول:

«أَلَا وَإِنَّكُمْ لَأَتَقَدَّرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعْيُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ».

وهذه إشارة إلى أنه لا يتوجب عليكم أن تعيشوا مثل هذه الحياة الصعبة وحالات الزهد الشديد، ولكن لا ينبغي أن تغفلوا عن أربع نقاط، وبذلك تعينوننى فى أمر الحكومة وإدارة هذه البلاد الإسلامية الواسعة.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٤٥

الاولى: التوصية بالورع، وتعنى فى الحقيقة حالة التقوى فى حدودها العالية، ثم التوصية ب «الاجتهاد» يعنى بذل الجهد والسعى فى طريق حفظ العدل وحماية المحرومين، والثالثة: «العفة» بمعنى حفظ النفس فى مقابل الشهوات والنوازح المختلفة، والرابعة: «السداد» يعنى انتخاب الطريق الصحيح والمستقيم فى اجتناب فى الطرق المختلفة التى تقود الإنسان إلى المتاهة والضلالة.

ومعلوم أنّ المسؤولين فى البلاد الإسلامية لو التزموا بهذه الأمور الأربعة وتحركوا فى سلوكهم الفردى والاجتماعى بمستويات الطبقة الوسطى من الناس لا أكثر، فإنّ كلّ شىء سيكون فى محله وستنحل الكثير من العقد المستعصية فى أمر الحكومة ويعيش عامّة الناس حالات الرضا عن هؤلاء المسؤولين.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة ثالثة لتكون عبرة لجميع الولاة والعَمال في حكومته، ويقول: «فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبْرَأًا [٢٣٤]، وَلَا أَدَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرًّا [٢٣٥]، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي تَوْبِي طِمْرًا، وَلَا حُرْتُ مِنْ أَرْضِهَا شَبْرًا، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبْرَةً».

وهذه إشارة إلى أنني لست كـبعض أهل الدنيا الذين يدخرون من زخارف الدنيا ومتاعها ويتظاهرون بالزهد والتقوى فإن ظاهري وباطني واحد، فأنا لا أملك من المال والثروة لظاهراً ولا باطناً، ولست من المرائين والمتظاهرين بالزهد وترك الدنيا. والملفت أن الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة يحدد الإمكانيات المادية للدنيا في أربعة أشياء: أحدها، الذهب والفضة حيث يجمع الناس الدينار والدرهم ويدخرونها ويفرحون لكمية ما يدخرون، والآخر، الأموال المتنوعة التي تعد رأس المال لهم من قبيل الخيول والإبل ووسائل المعيشة والدور والفرش والأثاث وما إلى ذلك، الثالث: الملابس الفاخرة والمتنوعة، والرابع: الأراضي الزراعية والبيوت

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٤٦

والقصور، يقول الإمام عليه السلام: إنني لم أتوجه في حياتي إلى أي من هذه الأمور الأربعة (في حين أن بإمكانني ذلك). والعبارة الأخيرة في هذه الرسالة تعكس غاية التواضع والزهد لدى الإمام عليه السلام، بأن يلفت نظر مخاطبه أو مخاطبيه لهذه المسألة المهمة، وهي أن لا يتلوثوا بالحياة المترفة لطبقة الأشراف بل يعيشون حالة المواساة للمحرومين والمعوزين وينخرطون في معيشتهم وحياتهم مع هذه الطبقة المحرومة من المجتمع.

«أَتَانٍ دَبْرَةً»

، تطلق على الدواب التي جرح ظهرها من كثرة الأحمال والعمل الشاق، ولهذا السبب لا تأكل كما ينبغي وتفتقد شهيتها للطعام (والجدير بالذكر أن بعض نسخ نهج البلاغة لم ترد فيها هذه الجملة والجملة التي بعدها ولم يذكرها الشراح في شروحهم لنهج البلاغة).

وفي ختام هذا المقطع من الرسالة يتحدث الإمام عليه السلام عن عدم اهتمامه بالدنيا وأنها في نظره ليست ذات قيمة إطلاقاً ويقول بمضمون عميق:

«وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةِ [٢٣٦] مَقْرَةٍ [٢٣٧]».

وتوضيح ذلك أن لشجرة البلوط أنواع وأقسام، إحداها أنها تثمر ثمرة مرة ومضافاً إلى مرورتها فإنها قاسية وصلبة، وبسبب قساوتها يستخدمها الدباغون في دباغة الجلود.

وبديهي أن تناول مثل هذه الثمرة المرة والقاسية غير مستساغ أبداً ومن يضعها في فمه يضطر لفظها فوراً، وهذا التشبيه يعد من أقوى وأبلغ تشبيهات نهج البلاغة عن حال الدنيا، حيث إن الإمام عليه السلام جسد باطن وحقيقة الدنيا في قالب هذا المثال، وتأتي لاحقاً مثل هذه العبارات في نهج البلاغة.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٤٧

القسم الثالث

إشارة

بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكُّ مِنْ كُلِّ مَا أَظْلَمَتْهُ السَّمَاءُ، فَسَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسِيَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنَعَمَ الْحَكَمُ لِلَّهِ. وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَاكَ وَعَيْرِ فَدَاكَ. وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي عَدِّ جَدَّتْ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيْبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ

يَدَا حَافِرِهَا، لَأَضْغَطَهَا الْحَجْرُ وَالْمِيدَرُ، وَسَدَّ فَرْجَهَا التُّرَابُ الْمُتْرَاكِمُ؛ وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَّ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَبَّتْ عَلَى جَوَانِبِ الْمَرْقَى. وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَيِّفِي هَذَا الْعَسَلِ وَلُبَابِ هَذَا الْقَمَحِ، وَنَسَائِحِ هَذَا الْقَرْزِ. وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخْيِيرِ الْأَطْعِمَةِ - وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَمَاطَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالسَّبْعِ - أَوْ أَبِيَّتْ مَبْطَانًا وَحَوْلِي بَطُونٌ غَزَيُّ، وَأَكْبَادٌ حَزَيُّ، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَبَيْتَ بِيْطْنَهُ وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحْنُ إِلَى الْفِدِّ

أَأَقْعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أَشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ!

الشرح والتفسير: كيف أكون أمير المؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر؟

إشارة

ومع الالتفات إلى ما تقدم بيانه من قول الإمام آنفاً:

«وَلَا حَزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْرًا»

يستعرض الإمام في هذا المقطع مسألة «فدك» المؤلمة بوصفها استثناء لما ذكره قبل

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٤٨

قليل، وكذلك لغرض التأكيد على عدم اعتناؤه للعالم من جهة، ومن جهة أخرى إشارة إلى أشكال الظلم والجور التي تعرض لها الإمام من قبل منافقيه:

«بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ [٢٣٨] عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَحَّتْ [٢٣٩] عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ لِلَّهِ».

ونعلم أن «فدك» تقع على مقربة من قلاع خيبر، حيث جاء أهالي المنطقة بعد فتح خيبر وصالحوا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على نصف قرية فدك بدون أن قتال، فأعطى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بساتين فدك في حياته إلى ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، وبما أن محصول فدك ربما يساعد أمير المؤمنين عليه السلام في أمر الخلافة، قام المنافسون بعد رحلة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه وآله بأخذها بسرعة من يد فاطمة الزهراء عليها السلام وطردها عمالها على تلك البساتين ولم يعيدوها لها أبداً، وهو ما سيأتي شرحه في ختام هذه الرسالة إن شاء الله.

والمراد من جملة جملة

«كَانَتْ فِي أَيْدِينَا...»

هي مدة أربع سنوات منذ فتح خيبر إلى رحلة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

وجملة

«فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ...»

إشارة إلى الغاصبين لمقام الحكومة والخلافة حيث دخلوا بفدك وتمسكوا بها خوفاً من وقوعها بيد بني هاشم، مما يعرض حكومتهم للاهتزاز والضعف.

وجملة

«وَسَحَّتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ...»

إشارة إلى بني هاشم فعندما رأوا مناوئتهم مصرين على غضب فدك لم يستمروا بمطالبتهم لفدك وتركوها لهم، وبذلك أظهروا عدم اهتمام واعتنائهم بهذا الأمر.

وجملة

«نِعْمَ الْحَكَمُ اللَّهُ»

، جملة عميقة المعنى وإشارة إلى الحوادث المؤلمة التي وقعت بعد تداعيات فدك، فهنا يفوض الإمام عليه السلام أمر الحكم في هذه المسألة إلى الله

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٤٩

يوم القيامة، واللافت أنه لم ينقل عن الإمام عليه السلام أنه استعاد فدك في أيام حكومته وخلافته حيث كان بإمكانه ذلك.

ومن أجل أن لا يتصور أحد أن الإمام عليه السلام يرغب في تملك فدك في نفسه، يتابع الإمام القول:

«وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ. وَالنَّفْسُ مَطَانِنُهَا [٢٤٠] فِي عَدِّ جَدْتِ [٢٤١] تَنْقَطِعُ

فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيْبُ أَخْبَارُهَا».

ثم يواصل الإمام عليه السلام في هذا الحديث بتوضيح أكثر ويتحدث عن القبر ونهاية حياة الإنسان ويقول:

«وَحُفْرَةُ لَوْ زِيدَ فِي فَسْحَتِهَا وَأُوسِعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لَأَضْعَطَهَا [٢٤٢]

الْحَجَرُ وَالْمَدْرُ [٢٤٣]، وَسَدَّ فَرْجَهَا التُّرَابُ الْمُتْرَاكِمُ».

وهذه إشارة إلى أن القبر عادة يكون حفرة صغيرة لا-تتسع لأ-كثر من جسد الإنسان، بل أحياناً يتم إدخال الميت إلى هذه الحفرة بصعوبة بالغة، وعلى فرض أن الحافر للقبر عمل على توسيع حفرة القبر بنفسه أو بطلب من الورثة، فمع ذلك لا ينفع الميت شيئاً، لأنه لا بد من ملء ثغرات الحفرة بالحجر والطين وتغطية جميع نوافذه وثغراته بشكل كامل، فالإنسان الذي يعيش مثل هذا المصير كيف يرتبط قلبه بمال الدنيا وبساتينها وزينتها وقصورها؟

وما ورد في الروايات أن المرء إذا شعر بالحزن والغم فعليه بزيارة أهل القبور للتخفيف عن غمه وحزنه، فربما يكون ناظراً إلى هذه الحقيقة، وهي أن الغم عادة ما يكون بسبب المال والمقام والديوى، وعندما يصل الإنسان إلى آخر منزل في حياته ويرى مصيره في نهاية هذه الحياة وأنه سيودع يوماً جميع ما يملكه من أموال ومقام وجاه، ويكتفى بعدة قطع من الكفن يأخذها معه إلى القبر فذلك من شأنه أن

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٥٠

يزيح من قلبه هذا الغم والغصه.

وينقل المرحوم المحقق التستري قصيدة في هذا المجال عن المرحوم السيد نعمه الله الجزائري، وربما كان لهذه القصيدة جانب التمثيل يقول: «أنّ رجلين تنازعا في دار فانطق الله لئنه من جدار تلك الدار، فقالت: إننى كنت ملكاً من ملوك الأرض ملكت الدنيا ألف سنة، فلما صرت تراباً أخذنى خزاف بعد ألف سنة فصيرنى خزفة فبقيت ألف سنة، ثم أخذنى فصيرنى لئنه، وأنا فى هذا الجدار منذ كذا وكذا، فلم تتنازعا فى هذه الدار؟» [٢٤٤].

ثم إن الإمام عليه السلام يبين درساً نافعا لكل سالك إلى الله تعالى ويتحرك في طريق الصلاح والنجاة يوم المعاد ويقول:

«وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرَوْضَهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِي آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبَتَ عَلَى جَوَابِ الْمَرْلَقِ [٢٤٥].»

الرياضة في حقيقتها تطويع النفس وتدجينها وأحياناً تستخدم هذه الكلمة في مورد الحيوانات الجموحه، وأخرى في مورد النفس المعاندة وغير السلسلة القيادة، واليوم تستعمل هذه الكلمة بمعنى الرياضة البدنية، واللافت أن الإمام عليه السلام مع مقامه السامى والعظيم في أمر تصفية النفس وتنقية الروح والسلوك في مدارج الكمال المعنوى والسير إلى الله تعالى والوصول إلى مقام لا يرى فيه

سوى الله تعالى ومع ذلك يقول:

«هِيَ نَفْسِي أَرَوْضُهَا...»

، ويشير في ذلك إلى نقطتين: الأولى: أن الإنسان مهما سعى لرياضة نفسه والحركة في عملية بناء الذات، فإنه لا ينبغي أن يطمئن إلى هذه الهيئة الرقطاء النائمة وعليه أن يعيش الحذر الدائم من خطرها ويقظتها.

والأخرى: أن الإمام عليه السلام عندما يتحدث بمثل هذا الكلام مع كونه قد حاز تلك المقامات والمراتب الجلييلة في الكمال المعنوي، فينبغي على الآخرين أن يحسبوا حسابهم ولا يغفلوا من أخطار النفس الشريرة والأمارة.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٥١

ومن اللازم الإشارة إلى هذه النقطة أيضاً، وهي أن الإمام عليه السلام يؤكد أن الغاية من رياضة النفس بآلية التقوى هي تحصيل الأمن يوم القيامة ويوم الخوف الأكبر والنجاه من المنزلاقات التي تقود الإنسان إلى وادي جهنم، وهذا يعني أن تحصيل حالة الأمن هذه لا تيسر إلا من خلال رياضة النفس وتطويعها على أمور الخير والطاعة والعبودية، وقد ورد في الروايات الإسلامية أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، أي أنه أشد وأعظم من جهاد الأعداء في ساحات القتال والحرب.

وهذا الكلام في الحقيقة مقتبس من القرآن الكريم حيث يقول: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ» [٢٤٦].

وعبارة «مزلق» يمكن أن تكون إشارة إلى جسر الصراط، لأنَّ الاستفادة من الآيات والروايات الشريفة أن الصراط عبارة عن جسر ممتد على نار جهنم أن عبوره بسلام صعب جداً حيث ينزلق منه المنحرفون وأهل الضلالة ويسقطون في جهنم.

يقول القرآن الكريم: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ تَنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا» [٢٤٧].

وبما أن رياضة النفس على نحوين: فتارة، يروض الإنسان نفسه لعدم وجود أدوات تحصيل الحياة الدنيوية وافتقاده لوسائل المعيشة المرفهة، وأحياناً أخرى يروض الإنسان نفسه بدفاع من الإيمان والإرادة والعزم على تهذيب النفس في عين قدرته على نيل جميع المواهب المادية والدنيوية، ولذلك يتابع الإمام عليه السلام قوله في هذا الشأن لثلاثاً يتصور أحد أن الإمام يروض نفسه على الشاكلة الأولى يقول:

«وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَىٰ مُصَفَىٰ هَذَا الْعَسَلِ وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ [٢٤٨]، وَنَسَائِجِ [٢٤٩] هَذَا

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٥٢

الْقَرْزِ [٢٥٠]. وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي [٢٥١] إِلَىٰ تَخْيِيرِ الْأَطْعَمَةِ - وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَاطَمَعَ لَهُ فِي الْقَرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشَّيْخِ -».

وكما أشرنا آنفاً، فالإمام عليه السلام في هذا المقطع يشير إلى الوظيفة الثقيلة للولاء والمسؤولين في البلاد الإسلامية وأنهم لا ينبغي أن يطمعوا في الأطعمة اللذيذة والملابس الفاخرة ويتحركوا على مستوى التكالب على حطام الدنيا في حين أنهم يحتملون أو يعلمون بوجود أشخاص جياع وعرات في شتى أصقاع البلاد الإسلامية.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الأبعاد العاطفية، وهذا في الحقيقة يمثل بُعداً ثالثاً لهذه الموضوع، ويقول:

«أَوْ أَبِيَّتْ مِبْطَانًا [٢٥٢] وَحَوْلِي بُطُونٌ غَزَوْتِي [٢٥٣]، وَأَكْبَادٌ حَزَى [٢٥٤]، أَوْ أَكُونُ

كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَبَيْتَ بِبَطْنِهِ [٢٥٥]

وَحَوْلِكَ أَكْبَادٌ تَحْنُ [٢٥٦] إِلَى الْفِدْلِ! [٢٥٧]»

جملة

«وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحْنُ إِلَى الْقَدِّ!»

فسيرها غالبية سراح نهج البلاغة كما أوردناها آنفاً، وقالوا: إن الناس في سنوات القحط والمجاعة يصل بهم لأمر من الجوع أحياناً أن يأكلوا الجلود غير المدبوغة للحيوانات، وهذه الجملة إشارة إلى هذا المعنى، وذهب بعضهم إلى أن المراد من «تحن إلى القد!»

إشارة إلى المثل

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٥٣

المعروف حيث يقال: إن الشخص الفلاني التصق جلد بطنه بظهره من الجوع، («القد» يعني الجلد، و «تحن» الميل والانحناء)، وذهب آخرون إلى أن كلمة «القد» يعنى القطع من اللحم التي يضعها العرب سابقاً أمام الشمس لتجف ويدخرونها إلى أيام القحط والحاجة، ويبدو أن التفسير الأول أنسب.

وعلى أيه حال، فربما تكون جميع هذه المعانى والتفاسير واقعية أو تكون للمبالغة.

يقول الشاعر:

نَظَرْتُ إِلَى الدُّنْيَا بَعِينٍ مَرِيضَةٍ وَفِكْرُهُ مَغْرُورٍ وَتَدْبِيرٌ جَاهِلٍ
فَقُلْتُ هِيَ الدُّنْيَا الَّتِي لَيْسَ مِثْلُهَا وَنَافَسَتْ مِنْهَا فِي غُرُورٍ بَاطِلٍ
وَضِيْعَتْ أَحْقَاباً أَمَامِي طَوِيلَةً بَلَدَاتٍ أَيَّامٍ قِصَارٍ قَلَائِلٍ [٢٥٨]

ثم يتابع الإمام عليه السلام كلامه عن ترويضه لنفسه وزهده ويبين ذلك بتوضيح أكثر ويقول:

«أَأَفْعُ مِنْ نَفْسِي بَأَنَّ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أُشَارُ كُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبِهِ [٢٥٩] الْعَيْشِ!».

هنا يذكر الإمام عليه السلام للمعيشة البسيطة ثلاث حكم ويشير إليها بشكل إجمالي:

الاولى: أن المؤمن ينبغي أن يضع يوم القيامة والحساب والكتاب والحشر نصب عينه وبالتالي يعيش الزهد في هذه الحياة.

والأخرى أن مسؤولية قيادة الأمة واستلام مقاليد الأمور وخاصة في حالات العسر والشدة التي يعيشها الناس من الناحية المادية، توجب على الإمام عليه السلام أن يختار التقشف في الحياة لمواساة الناس وذلك لغرض تقوية الجانب المعنوي والروحي لهؤلاء المحرومين الذين يقولون: إذا كان لباسنا مثلاً من كرباس يشبه لباس مولانا وإمامنا، وإذا كان طعامنا بسيطاً جداً ويتكون من ماء وخبز الشعير فإن هذا الطعام يشبه طعام مولانا وإمامنا، فذلك يتسبب في تسكين خاطرهم ويدفعهم إلى الاطمئنان بأن قائدهم وإمامهم يعيش همومهم ويفكر في حل مشكلاتهم.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٥٤

الثالثة: مع غض النظر عن المسائل المتعلقة بيوم القيامة والمسؤولية الإلهية الملقاة على الأئمة والزعماء في الأمة الإسلامية فإن المسائل العاطفية والقيم الأخلاقية لا- تبيح للإنسان أن يجلس على مائدة زاخرة بألوان الطعام والشراب في حين أن جيرانه يعيشون الجوع والحرمان وأحياناً يبيتون وليس عندهم خبز للعشاء.

وهنا ربما يثار هذا السؤال، لماذا لا نرى مثل هذا المنهج للإمام أمير المؤمنين عليه السلام لدى بعض الأئمة الآخرين في العصور

اللاحقة، وما هو السر في هذا الاختلاف؟

وسياتى بعد قليل جواب هذا السؤال إن شاء الله تعالى.

قصة فدك المحزنة

«فدك» اسم لقرية تقع شرق خيبر تقريباً وتفصلها عن خيبر أقل من ثمانية فراسخ، ومع المدينة أكثر من عشرين فرسخاً، وكانت فدك في زمن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عامرة وتتضمن عيوناً زاخرة بالمياه وبساتين النخل ومزارع وقلعة، وتعدّ فدك أحد المنازل التي ينزل فيها المسافرون القادمون من الشام إلى المدينة، وهذا الأمر أدى إلى ازدهارها من الناحية الاقتصادية.

يقول الطبري في تاريخه: خرج علي بن أبي طالب عليه السلام في مائة رجل إلى فدك إلى حي من بني سعد بن بكر، وذلك أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله أن لهم جمعاً يريدون أن يمدّوا يهود خيبر فسارهم إلى الليل وكنم النهار وأصاب عيناً، فأقر لهم أنه يبعث إليهم خيبر يعرض عليهم نصرهم على أن يجعلوا ثمر خيبر.

فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا - شعروا بتقصيرهم في هذه الواقعة وخافوا من عاقبه أمرهم - بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يسألونه أن يسيرهم بحقن دمائهم لهم ويبدلوا الأموال، ففعل وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك مُحَيِّصَةٌ بن سعود

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٥٥

أخو بني حارثة، فلمّا نزل أهل خيبر على ذلك سألو رسول الله أن يعاملهم بالأموال على النصف، وقالوا نحن أعلم بها منكم وأمر لها فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وآله على النصف وأنا إذا شئنا أن نخرجكم اخرجناكم فصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت خيبر فينا للمسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وآله لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب [٢٦٠].

وجاء في شواهد التنزيل للحسكاني عن ابن عباس أنه قال: عندما نزلت الآية «وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ» [٢٦١] أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله فدكاً لفاطمة عليها السلام [٢٦٢].

وينقل الشوكاني في تفسيره ما يقارب هذا المعنى [٢٦٣].

وبعد هذه الحادثة صارت فدك بيد عمّال الزهراء عليها السلام، ومن هذا المنطلق ومن جهة أن فدكاً هبة من النبي لفاطمة، كانت فاطمة عليها السلام قد استلمت فدكاً، ومن هنا يقول الإمام عليه السلام:

«بَلَىٰ كَأَنَّهُ فِي أَيْدِينَا فَدَكُّ»

، وهو شاهد على ما أسلفنا، كما أن جملة «إنّ أبابكر انتزع من فاطمة فدكاً» المذكورة في «تاريخ المدينة المنورة» [٢٦٤] شاهد آخر على هذا المدعى.

والعجيب أنّ الخليفة الأول بعد رحلة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله استولى على فدك بدون أية مقدمات وأخرجها من يد فاطمة عليها السلام، وقد اعترض عليه أمير المؤمنين وفاطمة الزهراء عليهما السلام بشدة على هذا العمل، ولكن أبابكر أجاب: من يشهد لكما أنّ فدك لفاطمة؟

فأجاب الإمام على عليه السلام: يا أبا بكر تحكم فينا بخلاف حكم الله في المسلمين؟

قال: لا، قال عليه السلام: فإن كان في يد المسلمين شيء يملكونه، ثم ادّعت أنا فيه، من

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٥٦

تسأل البيهقي، قال: إياك كنت أسأل البيهقي، قال: فما بال فاطمة سألتها البيهقي على ما في يدها وقد ملكته في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعده، ولم تسأل المسلمين البيهقي على ما ادعوا شهوداً كما سألتني في ما ادّعت عليهم، فسكت أبو بكر [٢٦٥].

وكان عمر بن الخطاب حاضراً في المجلس ورأى سكوت أبي بكر وأنّ سكوته ربّما ينتهي بضرهما، فقال:

«يَا عَلِيُّ دَعْنِيَا مِنْ كَلَامِكَ، فَإِنَّا لَمَانْقَوِي عَلَىٰ حُجَّتِكَ، فَإِنِ آتَيْتَ بِشُهُودٍ عُذُولٍ، وَإِلَّا فَهُوَ فِيَّ لِلْمُسْلِمِينَ، لِمَا حَقَّ لَكَ وَلِمَا لِفَاطِمَةَ

فيه» [٢٦٦].

وهذه الحادثة التاريخية فيها الكثير من التعقيدات والتفاصيل وجميع الشواهد تشير إلى أن الخليفة في ذلك الوقت كان قد عزم على الاستيلاء على هذا المنبع الاقتصادي وغضبها من أهل البيت عليهم السلام لثلاث أسباب لتقوية موقفهم واقتدارهم، وقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لَمَّا وُلِّيَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ قَالَ لَهُ عَمْرٌ إِنَّ النَّاسَ عَيْدُ هَيْدِهِ الدُّنْيَا لَا يُرِيدُونَ غَيْرَهَا، فَاَمْنَعُ عَنْ عَلِيٍّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْخُمْسَ، وَالْفَيْءَ، وَفَدَاكَ، فَإِنَّ شَيْعَتَهُ إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ تَرَكُوا عَلِيًّا وَأَقْبَلُوا إِلَيْكَ» [٢٦٧].

وعلى أيّة حال فإن مركز الخلافة في ذلك الوقت أخذ فدكاً من فاطمة الزهراء عليها السلام لمجرد عدم الدليل على مالكية الزهراء لفدك، ولو كان هناك دليل فينحصر في ميراثها من النبي صلى الله عليه وآله في حين أن النبي قال:

«نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ وَمَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ»

وهكذا تمّ انتزاع فدك من فاطمة عليها السلام.

في حين أن هذا الحديث وبهذه الصورة موضوع بلا شك والصحيح هو ما ورد في أحاديث أهل السنّة وأهل البيت عليهم السلام:

«أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورِثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطَّةٍ» [٢٦٨]

وهو كناية عن أن الأموال التي تركها الأنبياء لذويهم لا تعتبر ذات قيمة بالنسبة لميراثهم العلمي.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٥٧

ومهما يكن من أمر فإن المخالفين ومن أجل الحيلولة دون حصول أهل البيت عليهم السلام على الإمكانيات المادية، صادروا فدكاً، تارة بذريعة حديث موضوع، وأخرى أن فاطمة عليها السلام لا تملك البيّنة الكافية لإثبات ملكيتها على فدك، هذا في حين أنهم لم يمنعوا نساء النبي صلى الله عليه وآله من نصيبهنّ من الميراث ممّا تركه النبي، وقد ورد في حديث معروف في صحيح البخاري وغيره: «إِنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سَأَلَتْ أَبَا بَكْرٍ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ تَقْسَمَ لَهَا مِيرَاثَهَا مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِيمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ: لَا نُورِثُ مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ، فَغَضِبَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَهَجَرَتْ أَبَا بَكْرٍ فَلَمْ تَزَلْ مَهَاجِرَتَهُ حَتَّى تُوْفِيَتْ» [٢٦٩]، رغم أنهم كانوا قد سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله قوله:

«فَاطِمَةُ بِضَعَّةٍ مِنِّي فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي» [٢٧٠].

وفي حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ لِغَضَبِكَ وَيَرْضَى لِرِضَاكِ» [٢٧١].

وأما مصير فدك في زمان حكومة الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام فكما ورد في نص هذه الرسالة مورد البحث أن الإمام على عليه السلام في أيام خلافته قد أغمض عينه عن فدك ولم يتحرك بصدد استعادتها من غاصبها، وبديهي أن هذا العمل لم يكن عن رضا قلبي بل بسبب زهد الإمام عليه السلام في الدنيا وإعراضه عمّا كان الأعداء يصرون عليه من امتلاكهم لفدك، وجملة

«نِعْمَ الْحَكَمُ اللَّهُ»

الواردة في نص الرسالة تدل بوضوح على هذا المعنى.

وقد جاء في التواريخ أن عثمان بن عفان في زمن خلافته أعطى فدكاً لمروان بن الحكم، وذهب بعضهم إلى أنها بقيت بيد أبناء مروان إلى زمان عمر بن عبدالعزيز الأموي الذي كان ينهج منهجاً ملائماً نسبياً مع أهل بيت النبوة عليهم السلام، وقد أمر واليه

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٥٨

على المدينة «عمر بن حزم» أن يعيد فدكاً لأبناء فاطمة عليها السلام فكتب إليه والي المدينة في جوابه، إن أبناء فاطمة كثر وقد تزوجوا

مع طوائف كثيرة فأياً منهم اعطى فدكاً؟

فغضب عمر بن عبدالعزيز وكتب إليه كتاباً شديداً بهذه المضمون: عندما أمرك بأمر، مثلاً أن تذبح شاة، فتقول في جوابي، هل هذه الشاة قراء أم غير قراء، وإن أمرتك أن تذبح بقرة فستسأل منى ما لونها؟ (أى أنك تتذرع بحجج بنى اسرائيل) وعندما يصل إليك كتابي هذا فادفع فدكاً لأولاد فاطمة من على [٢٧٢].

ولكن لم تمض مدة حتى جاء يزيد بن عبدالملك الأموي للخلافة وغضب فدكاً مرة أخرى، وعندما انقضى بنو امية استولى بنو العباس على سدة الحكم، أمر الخليفة العباسي أبو العباس السفاح، إعادة فدك إلى عبدالله بن الحسن بن علي بوصفه وكيلاً عن بنى فاطمة، ولكن أبا جعفر المنصور الذي جاء بعده أخذ فدكاً من بنى الحسن، وقام المهدي العباسي باعادتها إليهم، ولكن موسى الهادي الخليفة العباسي قام بغصبها مرة أخرى، واستمر الأمر على هذا المنوال إلى زمن هارون الرشيد [٢٧٣].

يقول الحائري القزويني صاحب كتاب «فدك»: إن المأمون العباسي واستناداً لرواية أبي سعيد الخدري بأن النبي قد وهب فدكاً لفاطمة عليها السلام، أمر باعادة فدك لأبناء فاطمة ولكن المتوكل العباسي الذي جاء بعده وبسبب ما يحمله من حقد شديد على أهل البيت عليهم السلام عاد وأخذ فدكاً منهم [٢٧٤].

وعلى ضوء ذلك تبدلت مسألة فدك إلى قضية سياسية وكل من جاء على سدة الحكم كان يتخذ موقفاً منها وفق خلفياته السياسية [٢٧٥].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٥٩

القسم الرابع

إشارة

فَمَا خُلِقْتُ لِشِغْلِنِي أَكُلِ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ، هَمُّهَا عِلْفُهَا؛ أَوْ الْمُرْسَلَةِ شُغْلُهَا تَقْمُّمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرِكَ سَيْدِي أَوْ أَهْمَلِ عَائِشًا، أَوْ أَجْرَ حَبْلِ الضَّلَالَةِ، أَوْ أَعْتَسَفَ طَرِيقَ الْمَتَاهِرَةِ! وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعِدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ». أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُودًا، وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرْقُ جُلُودًا، وَالتَّائِبَاتِ الْعَذِيَّةَ أَقْوَى وَقُودًا وَأَبْطَأَ حُمُودًا.

وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضَّوءِ مِنَ الضَّوءِ، وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعَصِيدِ. وَاللَّهِ لَوْ تَطَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلِيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمَكَنْتِ الْفُرْصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا. وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمُرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدْرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْخَصِيدِ.

الشرح والتفسير: لست كالبهيمة المربوطة!

يشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة إلى أربع نقاط مهمّة، الاولى: أنه يشير إلى هدفه من الزهد الشديد والتقصيف الشامل ويقول:

«فَمَا خُلِقْتُ لِشِغْلِنِي أَكُلِ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ» [٢٧٦]، هَمُّهَا عِلْفُهَا، أَوْ الْمُرْسَلَةِ شُغْلُهَا تَقْمُّمُهَا [٢٧٧]، تَكْتَرِشُ [٢٧٨]

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٦٠

مِنْ أَعْلَافِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا.

والحق أن بعض الناس في هذا العالم يعيشون كما تعيش الدواب والحيوانات، فجماعة تعيش الترف والثراء ولا تشعر ب حياة الفضيلة

فأقصى همهم في الحياة هو الطعام الكثير واللذيد، وبعضهم من الطبقة الفقيرة ولكنهم يتحركون في طلب الدنيا ويبحثون عن الملذات الرخيصة فهم كالحوانات المرسله في المرتع تبحث عن العلف، ومن المعلوم أن كلا هاتين الطائفتين مذمومتين رغم أن أحدهما أشنع من الأخرى والعجب أن كلا هاتين الطائفتين من الحيوانات لا تعلم بمصيرها وأنها سوف ترسل غداً إلى المذبح ويستفاد من لحومها أو يستفاد من ظهورها للحمل والركوب، أو تصطاد من قبل الحيوانات المفترسة.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى النقطة الثانية:

«أَوْ أُتْرِكَ سُدَى [٢٧٩] أَوْ أُهْمَلَ عَابِثًا، أَوْ أُجْرَّ حَبْلُ

الضَّلَالَةِ، أَوْ أُعْتَسِفَ [٢٨٠] طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ! [٢٨١].»

في هذا المقطع من الرسالة يتحدث الإمام عليه السلام عما يتصل بالغرض من خلق الإنسان وينفى عنه خمسة أمور: الأول: أن يكون حال الإنسان حال سائر الحيوانات السائبة أو المعلوفة التي همها علفها.

والآخر: أن لا يكون هناك أي غرض من خلقه ويترك لحاله.

والثالث: أن يكون الغرض من خلقه اللعب واللهو.

والرابع: أن يكون سبباً لإضلال الآخرين وإغوائهم.

والخامس: أن يتحرك الإنسان نفسه في وداى الحيرة والضلالة، وعندما تنتفى جميع هذه الأمور الخمسة، نستنتج أن الإنسان خلق لغاية سامية وهدف مهم وليس

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٦١

ذلك سوى القرب من الله تعالى وتحصل الكمال الإنساني والفضائل النفسانية، ومن المعلوم أن خلق هذا العالم وكل ما فيه من النعم والمواهب الإلهية لو لم تكن له غاية سوى ذلك فإن هذا الخلق سيكون عبثاً ومخالفاً للحكمة، ولكن الله حكيم ولا تنسجم هذه الأغراض الباطلة والأمور التافهة مع حكمته سبحانه.

إن كلام الإمام عليه السلام هذا مقتبس في الحقيقة من آيات القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى [٢٨٢].»

وبديهي أن الله تعالى الذي خلق الخلق على مراحل عدده وبكل هذه العجائب التي سخرها للإنسان في مظاهر الطبيعة كانت له غاية سامية وهدف كبير.

ويقول تعالى في مورد آخر: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ» [٢٨٣].

ثم يبين الإمام عليه السلام النقطة الثالثة فيما يتصل بكلامه السابق وكأنه في مقابل الجواب عن إشكال مقدّر، حيث يقول:

«وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: إِذَا كَانَ هَذَا قَوْلُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنِ قِتَالِ الْقُرْآنِ، وَمُنَازَلَةِ [٢٨٤] الشُّجْعَانِ.»

هذا المعنى الحاكم على الذهنية العامة والذي يقرر وجود رابطة بين القوة الجسمانية والأغذية الدسمة واللذيذة، يبعث على تصور أن الإنسان إذا اكتفى في طعامه بخبز الشعير وأمثاله فإنه سيكون ضعيفاً ولا يقوى على شيء ولا يستطيع الصمود طويلاً في ميادين القتال والحرب.

هنا يتحرك الإمام عليه السلام من موقع الجواب عن هذا الإشكال ويضرب لذلك مثالين جميلين ويقول:

«أَلَا وَإِنَّ الشَّجْرَةَ الْبُرِّيَّةَ أَضْلَبَ عُوْدًا، وَالرَّوَاتِعَ [٢٨٥] الْخَضِرَةَ أَرْقُ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٦٢

جُلُودًا، وَالنَّابِتَاتِ الْعُدِيَّةَ [٢٨٦] أَقْوَى وَفُودًا [٢٨٧] وَأَبْطَأَ حُمُودًا [٢٨٨].»

فالأشجار «التي تقوم على ساق» والنباتات «من قبيل الحشائش والأزهار» لو كانت في الصحارى والبرارى الجافة فإنها سترداد قوة

وصموداً، في حين أنّ الأشجار والنباتات التي تنمو على شواطئ الأنهار وتستقي من الماء بشكل دائم فإنما ستكون ضعيفه ولا تقوى على الصمود، ومن هذه الجهة فلاشخاص الذين يعيشون الترف والنعم الوفيرة فإنهم سيعيشون حالات الضعف وعدم القدرة على الصمود بوجه التحديات الصعبة، أما الأشخاص الذين يكبرون في خضم المشكلات والأزمات فإنهم يملكون من القوة والاستقامة الشيء الكثير.

ومن هذه الجهة نرى أنّ الجيوش المعاصرة تفرض تمارين شاقّة على أفرادها وجنودها لرفع مقدرتهم القتاليّة ومستوى صمودهم في الأجواء الصعبة، وإحدى الحكم من صيام شهر رمضان المبارك أنّ روح الإنسان وجسمه يزدادن قوّة وقدره على تحمل مشاكل الحياة وصعوباتها.

وطبعاً هذا لا يعنى أنّ الإنسان لا يتناول الطعام والغذاء بشكل كافٍ ويعيش معيشة المرطاضين الذين يكتفون من طعامهم بحبة واحدة، بل المراد أنّ الإنسان لا ينبغي أن يعيش معيشة الترف ويهتم باللذيق المتنوع من الأطعمة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام وتأييداً لكلامه السابق:

«وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضَّوِّ مِنَ الضَّوِّ، وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعَصْدِ».

فقد كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يعيش عيش الزهد والبساطة، ولكنه مع ذلك كان في غاية الشجاعة ولم يكن من هو أقرب إلى العدو من النبي في ساحات الوغى، وفي معركة أحد التي فرّ فيها الآخرون صمد النبي صلى الله عليه وآله، وأنا بدورى كنت تلميذاً لهذه المدرسة الإلهية وتابعاً لهذا النبي العظيم صلى الله عليه وآله وذراعه اليمنى.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٦٣

كما ورد هذا المعنى في الكلمات القصار في نهج البلاغة حيث يقول عليه السلام:

«كُنَّا إِذَا أَحْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِّنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ» [٢٨٩].

والشاهد الناطق على هذا الكلام ما ورد في آية المباهلة حيث جعلت من الإمام على عليه السلام نفس النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وكذلك الأحاديث الشريفة الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله طبقاً لما نقله «الكنجي الشافعي»: أنّ أحد الصحابة سأل من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: فأيهم (من الأصحاب) أحب إليك؟ فقال: على بن أبى طالب، فقال: لِمَ؟ فقال:

«لِأَنَّهُ خُلِقْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ»

، وينقل في هذا الكتاب عن المعجم عن الطبراني أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى وَخَلَقَنِي وَعَلِيًّا مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ» [٢٩٠].

أمّا قصّة إبلاغ سورة براءة عندما أرسل النبي أبابكر لإبلاغها للمشرّكين في مكّة في موسم الحج، ثمّ استدعى النبي أبابكر وأخذها منه وأعطاه للإمام على عليه السلام، فإنها معروفة في كتب التاريخ، فعندما عاد أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: بأبى أنت وأمى: هل نزل فيّ شيء؟ (فما سبب أخذك سورة براءة منى) فقال النبي صلى الله عليه وآله: لا:

«وَلَكِنْ لَا يُبَلِّغُ عَنِّي غَيْرِي أَوْ رَجُلٌ مِنِّي» [٢٩١].

وقد ورد هذا الحديث الشريف في مسند أحمد بن حنبل بصورة أبلغ وأوضح فقد قال النبي صلى الله عليه وآله لأبى بكر: إنّ جبرائيل جاءنى وقال:

«لَنْ يُؤَدِّيَ عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ» [٢٩٢].

عبارة

«كَالضَّوِّ مِنَ الضَّوِّ ...»

(إشارة إلى أنّ نور إيماني وقوتى وقدرتى كلّها مستمدة ومقتبسة من نور إيمان النبي وقوته وقدرته، والتعبير ب

«وَالذَّرَاعُ مِنَ الْعَضِدِ»

إشارة إلى أن العضد كلما كان قوياً ومحكماً فإن الذراع أيضاً ستكون قوية بدورها.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٦٤

ثم يتابع الإمام عليه السلام كلامه من موقع التأكيد على شجاعته:

«وَاللَّهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَيَّ قِتَالِي لَمَا وَلَيْتُ عَنْهَا».

ولم يسمع بمثل هذا الكلام من أى شخص قبل ذلك، ومعلوم أن الإمام على عليه السلام لا يتحدث بذلك من موقع المبالغة بل إن ما يقوله هو عين الواقع، وقد أثبت هذه الحقيقة في ميادين الجهاد والقتال ضد قوى الشرك والباطل، فمن معركة بدر إلى احد والخندق والغزوات الأخرى كان على بن أبى طالب عليه السلام هو الشخص الذى لم يدر ظهره للأعداء ولم يتردد أو يرتعب من كثرة الأعداء وتظافرهم عليه، إلى درجة أنه لقب بكونه

«كزار غير فرار»

. وقد ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله هذا التعبير فى قصيدة فتح خيبر بعد أن توجه الآخرون لفتح قلاع خيبر ولم يفلحوا فى ذلك، فقال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله:

«لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَرَارًا غَيْرَ فَرَارٍ لَأَيْرَجُعَ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ يَدِيهِ» [٢٩٣].

ثم إن الإمام عليه السلام وفى النقطة الرابعة والأخيرة من هذا المقطع من الرسالة يقول:

«وَلَوْ أَمْكَنْتِ الْفُرُصُ مِنْ رِقَابِيهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا. وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِشْمِ الْمَرْكُوسِ [٢٩٤]، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدْرَةُ [٢٩٥] مِنْ بَيْنِ حَبِ

الْحَصِيدِ [٢٩٦]».

وجملته

«أَطَهَّرَ الْأَرْضَ»

إشارة جلية إلى هذه الحقيقة، وهى أن وجود أمثال معاوية على سطح الأرض من شأنه تلويثها، وما لم يتم إزالة هذا التلوث عن الأرض والحياة فإنها لا تتطهر.

والتعبير ب

«الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ»

إشارة إلى أن أفكار معاوية مقلوبة، فهو يرى

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٦٥

الحق فى نظره باطل والباطل فى نظره حق.

وعبارة

«الْجِشْمِ الْمَرْكُوسِ»

إشارة إلى أن معاوية ليس فقط أفكاره مقلوبة بل إن سلوكياته وظاهره البشرى يعيش الانتكاسة فى سلوكياته وأعماله.

وأما عبارة

«حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدْرَةُ»

فهى إشارة إلى أن الزراع عندما يحصدون زرعهم، فغالباً ما يختلط المحصول من الحبوب الجيدة مع بعض الأتربة والأحجار صغيرة، حيث يقوم الزراع بإخراج هذه الشوائب من بين الحبوب ليتنفع بها الإنسان، وأنا بدورى ينبغى أن اطهر المسلمين وفضاء المجتمع

الإسلامي من هذه الشخصيات التافهة والزائدة لتخليص الإسلام والمسلمين منهم.

وربما يطرح البعض هذا السؤال: هل أن هذا الكلام للإمام عليه السلام ينسجم ويتناسب مع اقتدائه بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي بعث رحمة للعالمين؟

وفي مقام الجواب نقول: نعم، فإن الرحمة تكون لازمة في مواقعها والشدة أو الغضب في موقعه، فمن الخطأ استخدام الرحمة إذا كان المورد يستدعي الشدة والحزم، ومن الخطأ أيضاً التعامل بآليات العنف والشدة إذا كان الموقع يستدعي الرحمة والشفقة، وسيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً شاهدة على هذا المعنى، ففي معركة أحد كان النبي صلى الله عليه وآله يدعو لهؤلاء المخالفين ويقول:

«اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»

، ولكنّه في قصّة نقض يهود بنى قريضة لعهودهم ومواثيقهم استخدم أسلوب الشدة والعنف.

وفي الحقيقة أن الإمام على عليه السلام قد تعلم هذه الحقيقة الواضحة من القرآن الكريم حيث يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» [٢٩٧]، ويقول في مكان آخر: «فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ» [٢٩٨].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٦٧

القسم الخامس

إشارة

وَمِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ آخِرُهُ:

إِلَيْكَ عَنِّي يَا دُنْيَا فَجَبَلِكَ عَلَى غَارِبِكَ، قَدْ انْسَلَمْتُ مِنْ مَخَالِكَ، وَأَفَلْتُ مِنْ حَبَائِلِكَ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَا حِضِّكَ. أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَزْتَهُمْ بِمَدَاعِبِكَ! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتَهُمْ بِزَخَارِفِكَ، فَهَذَا هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ اللَّحُودِ! وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ شَخْصاً مَرِيئاً، وَقَالِباً حَسِيئاً، لَأَقَمْتُ عَلَيْكَ حُدُودَ اللَّهِ فِي عِبَادِ غَرَزْتَهُمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَأُمَمَ أَلْقَيْتَهُمْ فِي الْمَهَاوِي، وَمُلُوكَ أَسْلَمْتَهُمْ إِلَى التَّلْفِ، وَأَوْرَدْتَهُمْ مَوَارِدَ الْبُلْبَاءِ، إِذْ لَمَّا وَرَدَ وَلَمَّا صَدَرَ! هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكَ زَلَقًا، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجِكَ غَرَقًا، وَمَنْ ازْوَرَ عَنْ حَبَائِلِكَ وَفَقَّ، وَالسَّالِمُ مِنْكَ لَأِيْبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مَنَاحُهُ، وَالذُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انْسِلَاحُهُ. اعْزُبِي عَنِّي! فَوَ اللَّهِ لَا أَذِلُّ لَكَ فَتَسْتَدِلِّيْنِي، وَلَا أَسْلَسُ لَكَ فَتَقُودِيْنِي.

الشرح والتفسير: أيتها الدنيا ابتعدى عني!

إشارة

القسم الأخير من هذه الرسالة (حيث قسمناها إلى ثلاثة أقسام) هو ما يستهله السيد الرضى رحمه الله بالقول:

«وَمِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ آخِرُهُ».

فالإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة، ومن أجل أن لا يسقط مخاطبه عثمان بن حنيف وجميع مخاطبيه على إمتداد التاريخ البشرى، في مصائد النوازع النفسانية والمقامات الدنيوية أو يتورط في اتباع الملذات الرخيصة، يقول له الإمام عليه السلام بتعبير

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٦٨

في غاية الروعة والبلاغة والجمال الأدبي:

«إِلَيْكَ عَنِّي ٢٩٩] يَا دُنْيَا فَحَبْلُكَ عَلَيَّ غَارِبِكِ ٣٠٠]

قَدْ انْسَلَّتْ ٣٠١] مِنْ مَخَالِبِكِ ٣٠٢]، وَأَقَلْتُ ٣٠٣] مِنْ حَبَائِلِكَ ٣٠٤]، وَاجْتَنَّبْتُ الدَّهَابَ فِي مَدَا حِضِّكَ ٣٠٥]».

ونرى أن الإمام عليه السلام في هذه العبارات القصيرة يشبهه الدنيا بأربعة أشياء، الأول: أن الدنيا تشبه الناقه التي ربما تكون جذابه وحلوبه، ولكن صاحبها عندما يريد تركها لترعى في المرتع فإنه يضع لجامها على ظهرها أو رقبتها، فترى هذه الناقه نفسها أنها صارت حره من صاحبها فتبتعد عنه وتنشغل بالرعى في المرتع.

وفي التشبيه الثاني، يشبه الإمام عليه السلام الدنيا بالسبع الذي يروم صيد الفريسه بمخالبه القويه والخطيره ويمزقها، ويقول الإمام عليه السلام: وأنا قد أفلت نفسي من مخالب هذا الحيوان المفترس فلا يصل إلي بعد ذلك.

وفي التشبيه الثالث، يشبه الإمام عليه السلام الدنيا بالصيد الذي نشر حباله وشراكه لصيد الحيوانات أو الطيور، فيقول الإمام: لقد عرفت جيداً هذه المصائد والشراك وتخلصت منها فلا أقع فيها أبداً.

وفي التشبيه الرابع، يشبه الإمام عليه السلام الدنيا بالمنزلق الخطير والوادي السحيق الذي يحتوي على مزلق كثيره، منها: الشهوات، المال والمقام، الزوجه والأبناء، والعناوين البراقه والماديات المغريه، فيقول الإمام عليه السلام: لقد ابتعدت عن هذه المزلق جميعاً، ومن هذه الجهه فإنني لا أسقط في حبالها ولا في مخالبتها ولا في منزلقاتها.

ثم يتابع الإمام عليه السلام خطابه للدنيا ويقول:

«أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ عَزَّرْتِهِمْ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٦٩

بِمَدَاعِبِكَ ٣٠٦]! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتَهُمْ بِزُخَارِفِكَ! فَهَأَنُ هُمْ رَهَائِنُ ٣٠٧] الْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ ٣٠٨]

اللُّهُودِ ٣٠٩]!«.

وهذا الكلام مقتبس من العديد من الآيات القرآنيه التي تتحدث عن الأقوام السابقه، الذين كانوا يملكون القدره والجاه والثروه والإمكانات الماديه الوفيره، ولكنهم جميعاً تورطوا في العذاب الإلهي بسبب عصيانهم وتمردهم على الحق والرساله، وابتاتوا مدفونين تحت التراب بحيث لا يسمع لهم أدنى صوت ولا يملكون أدنى حركه، ونقرأ في الآيه ٩٦ من سوره مريم: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا».

ونقرأ في الآيه ١٢٨ من سوره طه: «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى .

بَاتُوا عَلَى قَلْبٍ الْأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ غَلْبُ الرِّجَالِ فَمَا أَغْنَتْهُمْ الْقُلُ

وَاسْتَنْزَلُوا بَعْدَ عَزِّ عَنِّ مَعَاقِلِهِمْ فَاوَدَعُوا حُفْرًا يَا بَيْسَ مَا نَزَلُوا

نَادَاهُمْ ضَارِخٌ مِنْ بَعْدِ مَا قُبِرُوا أَيْنَ الْأَسْرَةُ وَالتَّيْجَانُ وَالحُلُّ

أَيْنَ الْوَجُوهِ الَّتِي كَانَتْ مُنْعَمَةً مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الْأَسْتَارُ وَالكُلُّ

فَأفْصَحَ الْقَبْرُ عَنْهُمْ حِينَ سَاءَ لَهُمْ تَلْكَ الْوَجُوهِ عَلَيْهَا الدَّوْدُ يَقْتَتِلُ

قَدْ طَالَ مَا أَكَلُوا دَهْرًا وَمَا شَرِبُوا وَأَصْبَحُوا بَعْدَ طَوْلِ الْأَكْلِ قَدْ أَكَلُوا

وَطَالَمَا عَمَرُوا دَوْرًا لِتَحْصَنَتْهُمْ فَفَارَقُوا الدَّوْرَ وَالأَهْلِينَ وَانْتَقَلُوا

وَطَالَمَا كَنَزُوا الْأَمْوَالَ وَادْخَرُوا وَافْخَلَفُوهَا عَلَى الْأَعْدَاءِ وَارْتَحَلُوا

أَضْحَتْ مَنَازِلُهُمْ قَفْرًا مَعْطَلَةً وَسَاكِنُوهَا إِلَى الْأَجْدَاثِ قَدْ رَحَلُوا ٣١٠]

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٧٠

وينقل المرحوم العلامة التستري قصه تتضمن دروساً وعبره عن الأمالي للشيخ الصدوق وخلاصتها: «انطلق ذو القرنين يسير في البلاد

حتى مرّ بشيخ يقلّب جماجم الموتى، فوقف عليه بجنوده، فقال له: أخبرني أيها الشيخ لأي شيء تقلّب هذه الجماجم، قال: لأعرف الشريف من الوضيع، والغنى من الفقير فما عرفت، وإني لأقلبها منذ عشرين سنة، فانطلق ذوالقرنين وتركه، وقال: ما عنيت بهذا أحداً غيري» [٣١١].

ثم يخاطب الإمام عليه السلام الدنيا بعبارات حكيمة ومثيرة ويقول:
«وَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ شَخْصاً مَرْبِيّاً، وَقَالَباً حَسِيّاً، لَأَقَمْتُ عَلَيْكَ حُدُودَ اللَّهِ فِي عِبَادِ غَزَرْتِهِمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتَهُمْ فِي الْمَهَاوِي ٣١٢]، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتَهُمْ إِلَى التَّلْفِ، وَأَوْرَدْتَهُمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ، إِذْ لَأُورِدُ [٣١٣] وَلَا صَدْرَ [٣١٤].»

وبديهي أنّ الدنيا، بمعنى المواهب المادية والظواهر الطبيعية لا- تملك قلباً ولا- فكراً ولا- إرادة واختياراً، بل مجرد وسائل وآليات يستخدمها الإنسان لنيل السعادة في حركة الحياة، أو يغرق في مستنقع الشقاء والعناء فيما لو سار في خط الرذيلة وقصر اهتمامه ونظره بها، أضف إلى ذلك أنّ الدنيا بهذا المعنى ليست شيئاً يمكن إجراء الحدّ الإلهي عليها، ولكن الغاية التي يتوخاها الإمام عليه السلام من هذا الكلام هي الكناية اللطيفة والتشبيه الظريف لإيقاظ عقول المغرورين بها وتنبيه الغافلين عن الحقائق الغيبية ليتحركوا على مستوى صحيح مسيرتهم والعودة إلى عقولهم وفطرتهم والاعتبار من تاريخ الأمم السابقة وإصلاح مستقبلهم بالاعتباس من دروس التاريخ.

وهذا الكلام في الحقيقة مقتبس من القرآن الكريم الذي يذكر هذا المعنى بشكل آخر، فالآيات القرآنية تخاطب جميع أفراد البشر وتدعوهم لدراسة تاريخ الأقسام
نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٧١

السالفة الذين تورطوا في دوامة البلى والعذاب بسبب غفلتهم وغرورهم وكان مصيرهم الهلاك وقد دفنوا هم وثوراتهم تحت الأنقاض، فنقرأ في الآيات القرآنية قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ» [٣١٥].
ويقول تعالى في مورد آخر: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَهِنُوا * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» [٣١٦].

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بطرح تشبيهات أخرى لحال الأشخاص الذين خدعوا بالدنيا والأشخاص الذين تخلصوا من شراكها وأفلتوا من حبالها، ويقول:

«هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكَ [٣١٧] زَلِقَ [٣١٨]، وَمَنْ رَكِبَ لَجَجَكَ [٣١٩] غَرِقَ، وَمَنْ اِزْوَرَ [٣٢٠] عَنْ حَبَائِكَ وَفُقَ، وَالسَّالِمُ مِنْكَ لَأَيُّالِي إِنْ ضَاكَ بِهِ مَنَاخُهُ [٣٢١]، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمِ حَانَ انْسِلَاخُهُ».

في هذا المقطع الكلام النوراني للإمام عليه السلام يشبه المواهب المادية في الدنيا بثلاثة أمور، بداية يتحدث عن المزالق التي تواجه الإنسان في كلّ زمان واحتمال سقوطه في هذه المزالق، وهي المقامات الدنيوية والثروات المادية والشهوات النفسانية، فلو أنّ الإنسان غفل قليلاً عن هذه الأمور فإنه سيتلوث بالحرام ويقع أسيراً في شراك الأهواء والنوازع النفسانية.

والآخر، أنّ الإمام عليه السلام يشبه الدنيا بالبحر الموح الذي يصعب جداً عبوره بسلام، والكثير من الأحيين تكون أمواج الأهواء والشهوات إلى درجة من الشدة والتلاطم بحيث إنّها تبتلع الإنسان وتغرقه في دوامتها.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٧٢

والتشبيه الثالث يشبه الإمام عليه السلام زخارف الدنيا وبريقها الخداع بالمصائد والفخاخ، بحيث إنّ الإنسان إذا استطاع اجتناب هذا البريق الخداع فإنه سيوفق لنيل السعادة ومرتبة القرب الإلهي، وخلصه منها بذاته يشكل له أكبر افتخار وانتصار في حركة الحياة مهما

واجه في ذلك من صعوبات وتحديات.

ثم يشبه الإمام عليه السلام الدنيا باليوم الذي يوشك على الانتهاء وأن الشمس توشك على الغروب لسرعة انتهائها وزوالها، كما يقول الشاعر:

حُكْمُ الْمَيِّتِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِي مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارٍ قَرَارٍ
بَيْنَا يَرَى الْإِنْسَانَ فِيهَا مُخْبِرًا حَتَّى يُرَى خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
طُبِعَتْ عَلَى كَدْرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَفْدَارِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدًّا طِبَاعِهَا مَتَطَلَّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةٌ نَارِ
وَإِذَا رَجَوْتَ الْمُسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا تَبْنِي الرَّجَاءَ عَلَى شَفِيرِ هَاوٍ
فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالْمَيِّتَةُ يَقْطَعُهُ وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا خِيَالٍ سَارٍ
فَاقْضُوا مَا رَبَّكُمْ عَجَالًا إِنَّمَا أَعْمَارُكُمْ سَفَرًا مِنَ الْأَسْفَارِ

ونقرأ في حديث رواه المرحوم الكليني في كتاب «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«اصْبِرُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَتَصَبَّرُوا عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنَّمَا الدُّنْيَا سَاعَةٌ فَمَا مَضَى فَلَيْسَ تَجِدُ لَهُ سُرُورًا وَلَا حُزْنَ وَمَا لَمْ يَأْتِ فَلَيْسَ تَعْرِفُهُ فَاصْبِرْ عَلَى تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا فَكَأَنَّكَ قَدْ اغْتَبَطْتَ» [٣٢٢].

وفي ختام هذا المقطع من الرسالة يخاطب الإمام عليه السلام الدنيا ويقول:

«اعزبي [٣٢٣]

عَنِّي! فَوَاللَّهِ لَا أَذِلُّ لَكَ فَتَسْتَدْلِينِي، وَلَا أَسْلُسُ [٣٢٤] لَكَ فَتَقُودِينِي».

ولحد الآن لم يرد في الكتب والمدونات والخطب أن شخصاً خاطب الدنيا بمثل

نفحات الولاية، ج: ١٠، ص: ١٧٣

هذا الخطاب واستدعاها إلى محاكمتها بهذه القوة والحزم وبالتالي أثبت إدانتها وزيفها وتخلص من شراكها ومصائدنا.

أجل، فالشخص الوحيد الذي بإمكانه أن يحاكم الدنيا بهذه الطريقة ويخاطبها بهذا الخطاب الشديد القاطع هو الذي استطاع إنقاذ نفسه من برائتها، وضرب على صدرها بيد الإعراض والطرده مع انفتاح جميع الطرق أمامه لتحصيل المآرب الدنيوية، ولكنه لم يستسلم لها ولجواذبها بأي صورة.

وهذا لكلام يتضمّن جواباً حاسماً على من يقول إن الدنيا قد أجبرتنا على التصرف على سلوك طريق الشر والرديلة، فالإمام عليه السلام يقول: مادام الإنسان ملتزماً بمقتضيات الإيمان والقيم ولم يستسلم للدنيا من موقع الإذعان والخضوع فإنها لا تستطيع إذلاله وإجباره على ارتكاب الخطيئة، فصحيح أن الدنيا بكل ما فيها من الجواذب والزخارف تستهوي الإنسان وتدعوه لمواقعتها، ولكنها لا تجبر أحداً أبداً على اتباعها والتسليم لمطالبها، كما يتحدث القرآن الكريم عن الشيطان ويقول:

«وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ» [٣٢٥].

تأمل

طلاق الدنيا

ما يبيته الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة في صدد محاكمته للدنيا وأنها لو كانت شخصاً مريئاً وقالباً حسيماً لأجرى حدود

اللَّهُ تعالى عليها بسبب خداعها وإغوائها للكثير من الناس، يدعوننا لتذكر حديث شريف آخر للإمام علي عليه السلام يشير فيها إلى أنه في عالم المكاشفة رأى الدنيا وقال: «إني كنت بفدك في بعض حيطانها، وقد صارت لفاطمة عليها السلام قال: فإذا أنا بامرأة قد قحمت عليّ بجمالها فشبتهها ببينه»

نغمات الولاية، ج ١٠، ص: ١٧٤

بنت عامر الجحفي وكانت من أجمل نساء قريش، فقالت: يا ابن أبي طالب هل لك أن تتزوج بي فاغنيك عن هذه المسحاة، وأدلك على خزائن الأرض، فيكون لك الملك ما بقيت ولعقبك من بعدك؟ فقلت لها: من أنت حتى أخطبك من أهلك؟ فقالت: أنا الدنيا، قال فقلت لها، فارجعي وأطلبيني زوجاً غيري وأقبلت عليّ مسحاتي وأنشأت:

«لَقَدْ خَابَ مَنْ عَرَّتَهُ دُنْيَا دَنِيَّةً وَمَا هِيَ إِلَّا عَرَّتْ قُرُونًا بِنَائِلٍ
أَتَتْنَا عَلَى زِيِّ الْعَزِيزِ بُتَيْئَةً وَزَيْبَتْهَا فِي مِثْلِ تِلْكَ الشَّمَائِلِ
فَقُلْتُ لَهَا غَرِي سِوَايَ فَإِنِّي عَزُوفٌ عَنِ الدُّنْيَا وَلَسْتُ بِجَاهِلٍ
وَمَا أَنَا وَالدُّنْيَا فَإِنَّ مُحَمَّدًا أَحَلَّ صَرِيحًا بَيْنَ تِلْكَ الْجَنَادِلِ
وَهَبَّهَا أَتَيْتَنِي بِالْكُنُوزِ وَدُرِّهَا وَأَمْوَالِ قَارُونَ وَمُلْكِ الْقَبَائِلِ
أَلَيْسَ جَمِيعًا لِلْفَنَاءِ مَصِيرٌ هَا وَيَطْلُبُ مِنْ خَزَائِنِهَا بِالطَّوَائِلِ
فَعَرَّتْ سِوَايَ إِنِّي غَيْرٌ رَاغِبٌ بِمَا فِيكَ مِنْ مُلْكٍ وَعِزٍّ وَنَائِلٍ
فَقَدْ قَنَعْتُ نَفْسِي بِمَا قَدْ رَزَقْتَهُ فَسَأْنُكَ يَا دُنْيَا وَأَهْلَ الْعَوَائِلِ
فَإِنِّي أَخَافُ اللَّهَ يَوْمَ لِقَائِهِ وَأَخْشَى عَذَابًا دَائِمًا غَيْرَ زَائِلٍ [٣٢٦]

نغمات الولاية، ج ١٠، ص: ١٧٥

القسم السادس

إشارة

وَإِيْمُ اللَّهِ - يَمِينًا أَشِيئْتَنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ - لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهْشُ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُومًا وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَادُومًا، وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ مَعِينِهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا. أَتَمْتَلِي السَّائِمَةَ مِنْ رِعِيهَا فَتَبْرُكُ؟ وَتَشْبَعُ الرِّبِيضَةَ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرِبُضُ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعُ! قَرَّتْ إِذَا عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ، وَالسَّائِمَةِ الْمُرْعِيَةِ!

الشرح والتفسير: هل الغرض الأكل والنوم فقط؟

إشارة

يوصل الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته المباركة، كلامه فيما تقدّم عن عدم اهتمامه بالدنيا وزخارفها ويقول:

«وَإِيْمُ اللَّهِ [٣٢٧] - يَمِينًا أَشِيئْتَنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ - لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً [٣٢٨] تَهْشُ [٣٢٩] مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُومًا، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَادُومًا [٣٣٠]، وَلَأَدَعَنَّ

نغمات الولاية، ج ١٠، ص: ١٧٦

مُقْلَتِي [٣٣١] كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ [٣٣٢] مَعِينِهَا [٣٣٣]، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا».

في المرحلة الاولى يقسم الإمام عليه السلام لبيتين جديدتين هذا الأمر وللتأكيد على أهميته وفي المرحلة الثانية، يقول إن شاء مراعاة للأدب مع الله تعالى كما أمر القرآن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الأمر، تقول الآية الشريفة: «وَلَا تَقُولَنَّ لِسَيِّئٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا» إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» [٣٣٤].

وفي المرحلة الثالثة: يتحدث الإمام عليه السلام عن عزمه الراسخ على ترويض نفسه رياضة شديدة وقاسية، وهذا يحكى عن قوة إرادة الإمام وسلطته العجيبة على نفسه، فما أشق الرياضة التي يفرضها الإنسان على نفسه بحيث تتحمل الجوع الشديد، وبالتالي تفرح فرحاً شديداً إذا قدم لها يوماً قرصاً من الخبز وقليلاً من الملح.

وفي المرحلة الرابعة: يخبرنا الإمام عليه السلام عما يعيشه من عشق لله تعالى وخوف عميق من الذات المقدسة بحيث إنه يتواصل في البكاء إلى أن لا تنضب عينه من الدموع «وَلَا دَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ مَعِينَهَا مُشْتَفِرَعَةً دُمُوعَهَا»

، ومعلوم أن مثل هذه الحالة لا تتوفر عند أى شخص إلا النادر، والإمام عليه السلام نفسه يشير إلى هذه الحقيقة في مقطع آخر من هذه الرسالة، بأنكم لا تستطيعون أن تفرضوا على أنفسكم مثل هذه الرياضات الشاقة ولكن أعينوني بالورع والتقوى والصالح في حركة الحياة.

وهنا ربما يثار هذا السؤال: لماذا كل هذا البكاء الذي أشار إليه الإمام عليه السلام في كلامه؟ قطعاً إن هذا البكاء هو بكاء الشوق من جهة، وبكاء الخوف من جهة أخرى، الشوق إلى العالم الأعلى والملكوت والقرب من الله تعالى والعشق لصفات الكمال والجمال الإلهي، والخوف من حرمان هذه لنعم والمواهب الإلهية.

نفحات الولاية ؛ ج ١٠ ؛ ص ١٧٧

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٧٧

إن رجال الله يعيشون دوماً بين حالات الخوف والرجاء، وبالتالي يدفعهم ذلك إلى البكاء شوقاً وخوفاً، فكيف بالإمام على عليه السلام وهو إمام العارفين ومقتدى السالكين في طريق الحق والمعنوية؟

ثم إن الإمام عليه السلام يستعرض في العبارات التالية جملة من التشبيهات الأخرى ويقول:

«أَتَمَلِّئُ السَّائِمَةَ [٣٣٥] مِنْ رَغِيهَا [٣٣٦] فَتَبْرَكَ [٣٣٧]؟ وَتَشْبَعُ الرَّيْبُضَةُ [٣٣٨] مِنْ عُشْبِهَا [٣٣٩]

فَتَرِبُضُ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيُّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعُ [٣٤٠]! قَرَّتْ إِذَا عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السَّنِينِ

الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ [٣٤١]، وَالسَّائِمَةَ الْمَرَعَةَ [٣٤٢]».

وبالرغم من أن الإمام عليه السلام في هذه العبارات يتحدث عنه نفسه، ولكن كلامه في الواقع درس لأبناء الدنيا الذين لا هم لهم في الحياة سوى التمتع بالملذات الرخيصة، فهم يشبهون الأغنام والدواب التي لا تهتم إلا للأكل والعلف والنوم والراحة، فما أقبح بالإنسان أن يهبط من أوج عظمة الإنسانيّة ويدرج نفسه مع الحيوانات وينزل بمستواه إلى مصاف الدواب السائمة في المراتع، وكما يقول الشاعر:

أَتَعْمَى عَنِ الدُّنْيَا وَأَنْتَ بَصِيرٌ وَتَجْهَلُ مَا فِيهَا وَأَنْتَ خَبِيرٌ

وَتُصْبِحُ تَبِينِهَا كَأَنَّكَ خَالِدٌ وَأَنْتَ غَدًا عَمَّا بَنَيْتَ تَسِيرٌ

وَتَرْفَعُ فِي الدُّنْيَا بِنَاءً مُفَاخِرٍ وَمَتَوَاكَبِ فِي الْقُبُورِ صَغِيرٌ

وَدُونُوكَ فَاصْنَعْ كُلَّمَا أَنْتَ صَانِعٌ فَإِنَّ بُيُوتَ الْمَيِّتِينَ قُبُورٌ [٣٤٣]

الرياضة المشروعة وغير المشروعة

إن مسألة رياضة النفس ومنذ القديم تقسم إلى قسمين: رياضة البدن، ورياضة النفس، أما رياضة البدن فتتمثل في أنواع الألعاب الرياضية التي تمتد في التاريخ البشري ولها سابقة تاريخية طويلة، وحتى المسابقات العالمية الحالية مقبسة من عصر اليونان القديم ومناطق أخرى من العالم، وأما رياضة النفس والتي تتحقق عن طريق ترك المشتهيات النفسانية وتؤدي إلى تقوية روح الإنسان وإرادته وتمتد كذلك في التاريخ، فهي المعروفة عن المرتاضين الهنود، وحقائق هذه الرياضة هي أن الإنسان بتركه وإعراضه عن رغباته النفسانية وعدم استسلامه لجواذب الشهوة بإمكانه أن يحصل على قوة عظيمة بحيث أحياناً يستطيع إنجاز أعمال خارقة للعادة. وطبعاً الرياضيات النفسانية بدورها تشعب في هدفها والغرض منها إلى: أهداف مادية، وأخرى معنوية، أما الأهداف المادية فتتمثل بالقدرة على الإتيان بأعمال خارقة للعادة والتوصل من خلالها إلى بعض المنافع الدنيوية وتحصيل الجاه والمقام، وأما الهدف المعنوي فهو القرب من الله تعالى وتطهير الروح من الرذائل الأخلاقية وتحكيم إرادة الإنسان على شهواته وضبط رغباته وترك ما تدعوه إليه نفسه من الرذائل والمنكرات.

وما ورد من كلام الإمام عليه السلام في هذه الرسالة ناظر إلى القسم الثاني من الرياضة المعنوية في قوله:

«إِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرَوْضَهَا بِالتَّقْوَى لِيَتَأْتِيَ آمَنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ»

، وقوله:

«لَأَرَوْضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهْتَشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ».

وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة في ذيل الخطبة ٢٢٠ (الخطبة ٢١٤ في شرح ابن أبي الحديد) بحثاً مفصلاً في موضوع رياضة النفس وأقسامها وتحديث في تأثير الجوع في صفاء النفس ونقائها، ثم نقل كلمات الفلاسفة والحكماء في المكاشفات التي تحصل للإنسان من رياضة النفس، وضمن كلامه

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٧٩

بالاستشهاد بأبيات من أشعار الشعراء في هذه المجال.

ونقرأ في الأحاديث الشريفة عن أمير المؤمنين على عليه السلام الإشارة إلى هذه المسألة ومن ذلك ما ورد في «غرر الحكم» عن الإمام على عليه السلام:

«مَنْ اسْتَدَامَ رِيَاضَةَ نَفْسِهِ اسْتَفْعَ» [٣٤٤].

وفي حديث آخر في هذا الكتاب قوله:

«الشَّرِيعَةُ رِيَاضَةُ النَّفْسِ» [٣٤٥].

وجاء في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله في خبر عن وصايا الخضر النبي لموسى عليهما السلام أنه قال:

«رِضٌ نَفْسِكَ عَلَى الصَّبْرِ تَخْلَصُ مِنَ الْإِثْمِ» [٣٤٦].

ونقرأ في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله

: «جَوْعُوا بَطُونَكُمْ وَأَظْمِنُوا أَكْبَادَكُمْ وَأَعْرُزُوا أَجْسَادَكُمْ وَطَهَّرُوا قُلُوبَكُمْ عَسَاكُمْ أَنْ تُجَاوِزُوا الْمَلَأَ الْأَعْلَى» [٣٤٧].

ولكن أحياناً يسلك بعض الناس في رياضة النفس طريق الإفراط والانحراف، فيقومون برياضات شاقة جداً وأحياناً خطيرة وغير مشروعة، وقد ذكر الغزالي في «إحياء العلوم» نماذج منها ويوجد الكثير منها مذكور في الكتب الصوفية.

ومن ذلك أن «الشبلي» كان له سرداب ينزل إليه ومعه مجموعة من العصي وكلما غفل قلبه عن الذكر يضرب نفسه بهذه العصي حتى

تتكسر، وأحياناً عندما تنكسر جميع العصى يربط يديه ورجليه بالجدار ويلقها بالمسامير [٣٤٨].

وذكروا في حالات «الشيخ أبو سعيد» الصوفى المعروف، أنه لما كان شاباً كان ينهض من فراشه بهدوء بعد ما ينام أهل بيته ويتوجه إلى المسجد، وكانت هناك بئر في زاوية المسجد، فيشد عصاً بحبل من وسطها ويشد قدمه بالطرف الآخر من الحبل، ثم يضع العصا على حافة البئر وينزل إلى البئر ويبقى إلى الصباح معلقاً من

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٨٠

قدمه في البئر ويقرأ القرآن [٣٤٩].

وحكى عن حالات «أبي بكر الشبلى»: كان في بداية أمره مشغولاً بالرياضة في سنوات مديدة وكان يضع الملح في عينه لثلاثين يوماً [٣٥٠]، وهناك الكثير من هذا القبيل من الأعمال لدى المتصوفة.

ومثل هذه الرياضات الخطيرة تعتبر من النقاط السلبية والسلوكيات غير المشروعة في نظر الإسلام ويجب الاجتناب عنها تماماً، ويشاهد في حالات المرتاضين الهنود وبعض الصوفية مثل هذه الرياضات غير المشروعة التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام، ولكن أفضل رياضة تتمثل في اجتناب أى شكل من الأشكال المعاصي والذنوب ومن ثم ترك بعض المشتبهات النفسانية من المباحات، وقد ورد هذا المعنى في سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى عليهم السلام وأصحابهم، فكانوا أحياناً يلبسون الخشن من الثياب ويقنعون بالأطعمة البسيطة جداً، وينهضون للصلاة والعبادة في ساعات الليل، ومثل هذه الرياضات تزيد من نورانيتهم وتعمق من معنويتهم.

وقد ورد في الخطبة ٢٠٩ في نهج البلاغة (الجزء الثامن من هذا الكتاب) قصيدة إفراط وتفريط أخوين هما (علاء بن زياد وعاصم بن زياد) حيث كان أحدهما يعيش حياة مرفهة وناعمة والآخر قد ترك العمل والكسب تماماً وانشغل بالعبادة في زاوية البيت، وقد نهاهما الإمام عليه السلام عن كلا هذين المسلكين، ولمزيد من التوضيح انظر الجزء الثامن، من هذا الكتاب ذيل الخطبة ٢٠٩.

وخلاصة الكلام أن مسألة الرياضة الشرعية وردت في نهج البلاغة وكذلك وردت في الكثير من الروايات الشريفة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام، ولا شك في ترتب الآثار الإيجابية من هذه الرياضة المشروعة على روح الإنسان فيما يتصل بزيادة نورانيته ومعنويته، ولكن ذلك لا يعنى أن مثل هذه الرياضات مجبذة

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٨١

للجميع، ومن هذه الجهة ورد في العديد من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الاذن في تناول الطيبات والانتفاع من النعم الحلال وشكر الله تعالى على ما وهبه للإنسان من هذه النعم والملذات: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَعَمَلُوا صَالِحًا إِنَّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» [٣٥١].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٨٣

القسم السابع

إشارة

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرَضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنَبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غَمَضَهَا، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفِّهَا، فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفَ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُؤُوبُهُمْ، وَهَمَّهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ دُنُوبُهُمْ، «أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَمْ أَلْمَأْ أَنْ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». فَاتَّقِ اللَّهَ يَا ابْنَ حَنِيفٍ، وَلْتَكْفُفْ أَقْرَاصَكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصَكَ.

الشرح والتفسير: أيها الوالي! احذر المشاركة في مثل هذه الضيافة!

إشارة

في المقطع السابع والأخير من هذه الرسالة يتحدث الإمام عليه السلام في توصيف بليغ عن حياة الإنسان الكامل، وبتعبير آخر: أفراد حزب الله، ويذكر لهم ثلاثة أعمال وأربع صفات، يقول:

«طُوبَى [٣٥٢] لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرَضَهَا، وَعَزَّكَتْ [٣٥٣] بِجَنْبِهَا
بُؤْسَهَا [٣٥٤] وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ عُمُصَهَا [٣٥٥]، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكُرَى [٣٥٦] عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٨٤

وَتَوَسَّدَتْ [٣٥٧] كَفَّهَا».

وهذه إشارة إلى أن الأشخاص المحبوبين عند الله تعالى هم الذين يتحركون في سلوكهم اليومي من موقع أداء الفرائض الدينيّة والتكاليف الفرديّة والاجتماعيّة، وفي ساعات الليل يخلون مع ربهم ويطرقون باب رحمته ويبتهلون إليه بالدعاء والمناجاة، وعندما يغلبهم النوم يقنعون باستراحة مختصرة، لا على الفرش الوفيرة والغالية والوسادات الناعمة بل يضطجعون على الأرض ويضعون يدهم تحت رؤوسهم كوسادة.

وهذه إشارة إلى أن العابد ليس هو الشخص الذي يقضى ليله ونهاره بالعبادة وهو قابع في زاوية البيت، بل العابد هو الشخص الذي يؤدى فرائضه الفرديّة والاجتماعيّة في النهار، ويتجه في الليل إلى الله تعالى ويقوم بفروض الصلاة والعبادة، وقد ورد في حديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام وأنه قال:

«مَنْ عَمِلَ بِمَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ أَعْبِدِ النَّاسِ» [٣٥٨].

وبهذا المضمون وبشكل أشمل ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«يَا عَلِيُّ ثَلَاثٌ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِهِنَّ فَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ أَعْبِدِ النَّاسِ وَمَنْ وَرَعَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ وَمَنْ قَنَعَ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَهُوَ مِنْ أَعْنَى النَّاسِ» [٣٥٩].

وجملة

«افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا»

إشارة إلى غاية القناعة لدى هؤلاء بحيث إنهم لا يطمعون في فرش مريحة ونوم هنيء، أضف إلى ذلك أن مثل هذه الفرش ربما تعيق الإنسان عن النهوض في أوقات السحر للعبادة والابتهاج لله تعالى.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه في وصف حالات هؤلاء الأخيار ويقول: إن هؤلاء

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٨٥

الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع يعيشون خوف المعاد:

«فِي مَعْشَرٍ أَشْهَرَ [٣٦٠] عَيُونُهُمْ

خَوْفُ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ [٣٦١] عَنْ مَصَاجِعِهِمْ [٣٦٢] جُنُوبُهُمْ، وَهَمَّهَمَتْ [٣٦٣] بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ،

وَتَقَشَّعَتْ [٣٦٤] بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ».

فمثل هذا الخوف من الحساب والقيامة أسهر عيونهم ومنع أبدانهم من الإخلاد إلى النوم وجعل شفاههم تتمم بذكر ربهم وأنهم لكثرة استغفارهم تقشعت وتساقطت ذنوبهم:

«وَهَمَّتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ»

، وهذه العبارات في الحقيقة مقتبسة من القرآن الكريم كما ورد في صفات المؤمنين الحقيقيين قوله تعالى: «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» [٣٦٥].

وفي مورد آخر يقول تعالى: «كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» [٣٦٦].

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه مستفيداً من الآية الشريفة من القرآن الكريم في وصف هؤلاء المتقين بصفه «حزب الله»: «أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [٣٦٧].

وأخيراً يختم الإمام عليه السلام رسالته المنيرة والمثمرة بهذه الجمل يخاطب بها عثمان بن حنيف وجميع السائرين في خط الفضيلة والطالبيين للسعادة ويقول:

«فَاتَّقِ اللَّهَ يَا ابْنَ حَنِيفٍ، وَلْتَكْفُفْ [٣٦٨] أَفْرَاصُكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٨٦

لأن التلوث يمثل هذه الضيافات الثقيلة والموائد المجللة، التي لا طريق للجائعين إليها، والتي يدعى إليها الأشراف والأثرياء فقط وهم غالباً من الملوئين بالأموال الحرام، ويبعدك عن ذكر الله والمعاد والالتفات إلى المحرومين وتزويد من ثقل ذنوبك وتسبب لك المشاكل يوم القيامة.

وجاء في تاريخ «مروج الذهب»: ذكر الفضل بن الربيع (وزير المهدي): دخل شريك (بن عبدالله) القاضي على المهدي (العباسي) يوماً، فقال له: لا بد أن تجيبني إلى خصله من ثلاث خصال، قال: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: إما أن تلي القضاء، أو تحدت ولدي وتعلمهم، أو تأكل عندي أكلة، ففكر ثم قال: الأكلة أخفهن على نفسي، فاحتبسه وقدم إلى الطباخ أن يطبخ له ألواناً من المخ المعقود بالسكر والطرز والعلس، فلما فرغ من غذائه قال له القيم على المطبخ، يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً، قال الفضل بن الربيع: فحدتهم شريك بعد ذلك، وعلم أولادهم، وولى القضاء لهم، وقد كتب بارزاقه إلى الجهاند فضايقه في النقص، فقال له الجهاند: إنك لم تبع بزاً، قال له شريك: بلى والله لقد بعته أكبر من البز، لقد بعته ديني [٣٦٩].

أجل، ربما تكون للقمه من طعام حرام هذه الآثار السلبيه العجيبه في الإنسان، فلو أن شريك تعامل مع هذه المسأله بآليات العقل واكتفى بتعليم أبناء الخليفه ربما استطاع تعليمهم معارف الإسلام وحقيقه الرساله الإلهيه ليدفع ظلمهم وجورهم في المستقبل.

تأملان

١. الزهد والانتفاع من المواهب الإلهية

بعد المطالعه الدقيقه لهذه الرساله ربما يثار هذا السؤال: هل أن الإسلام يحرم

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٨٧

التلذذ بالأطعمه والمأكولات اللذيذه والحضور في هذه الموائد الفخمه، أو أن هذا العمل حلال في نفسه؟ وهل هناك تقاطع بين الزهد الإسلامى والاستفاده من النعم الإلهيه الدنيويه؟ الكلام في هذا المجال متشعب ومفصل، ولكن يمكن تقديم عصاره لمثل هذا الموضوع فنقول:

وردت روايات كثيره في تشويق المسلم للزهد في الدنيا منها:

«الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَلَا إِزَالَةِ الْمَالِ وَلَكِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَا تَكُونَ بِمَا فِي يَدَيْكَ أَوْ تَقُ مِمَّا فِي يَدِ اللَّهِ» [٣٧٠].

وجاء في حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام يقول:

«الزَّهَادَةُ قِصْرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النَّعْمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ» [٣٧١].

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ لَا يُحَاسِبُ اللَّهُ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنَ طَعَامًا يَأْكُلُهُ وَتَوْبًا يَلْبَسُهُ وَزَوْجَةً صَالِحَةً تَعَاوَنُهُ وَتُحْصِنُ فَرْجَهُ» [٣٧٢].

ويتبين من هذه الرواية الشريفة أن الانتفاع من هذه المواهب لا يتنافى مع الزهد أبداً، وكذلك ما ورد من الآيات الروايات في هذا الباب مما يستدعي استعراضها وبيانها لتأليف كتاب مستقل عنها.

ولكن في مقابل هذه النصوص هناك روايات أخرى تدعو الإنسان إلى ترك لذات الدنيا وتمدح ترك التلذذ والتنعيم بالمواهب الإلهية الكثيرة، منها:

ما ورد في حديث معروف عن الإمام على عليه السلام قاله ليلة استشهاده بعد أن تناول فطوره المكوّن من خبز وملح وترك ما سواهما، قال مخاطباً إبنته:

«يَا بِنْتِي مَا مِنْ رَجُلٍ طَابَ مَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ وَمَلْبَسُهُ إِلَّا طَالَ وَقُوفُهُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [٣٧٣].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٨٨

وجاء في حديث آخر في كتاب «كنز العمال» عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال:

«فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ، فَدَعِ الْحَلَالَ لِنُطُولِ الْحِسَابِ وَدَعِ الْحَرَامَ لِنُطُولِ الْعَذَابِ» [٣٧٤].

ويبدو أن الجمع بين هذه الآيات والروايات ممكن بإحدى هذه الطرق التالية:

١. إن الاستفادة من المواهب الإلهية حكم لعامة الناس، والتوجه نحو الزهد والترغيب فيه هو حكم للخواص.
٢. إن روايات الزهد تهدف إلى التخفيف من استغلال الآيات والروايات من الطائفة الأولى، وتمنع الإنسان من الإفراط في تناول الأطعمة والإكثار من الملذات الحلال، لئلا يغرق الإنسان في هذه الملذات فتعيقه بالتالي عن سلوك طريق الهداية والمعنوية.
٣. إن أولياء الدين يمثلون الأسوة والقدوة للناس في سيرتهم وحياتهم، فينبغي أن يعيشوا معيشة ضعفاء الأئمة ولمواساة المحرومين والتخفيف عن صعوبة معيشتهم.
٤. إن سلوك طريق الزهد يمنح جميع الأفراد حتى غير الأولياء مزيداً من الهدوء الروحي والصفاء النفسي، لأن الغرق في النعمة والرفاهية تثقل الروح وبخاصة فيما لو كان الآخرون يعيشون في شغف العيش، فهذه الحالة متنافية مع القيم ومدمومة من جهة عاطفية.
٥. نظراً لما يترتب على الحلال من حساب يوم القيامة، فقد رجحت جماعة من المؤمنين الحياة البسيطة على المعيشة المرفهة لئلا يطول وقوفهم يوم القيامة للحساب.

وبالنسبة لحقيقة الزهد والجمع بين هذه التعاليم الإسلامية من جهة، والانتفاع من المواهب الإلهية الواردة في الآيات والروايات الشريفة المذكورة آنفاً من جهة أخرى راجع ما ورد في ذيل الخطبة ٨١ في الجزء الثالث من هذا الكتاب وكذلك يمكنك مراجعة كتاب دائرة المعارف للفقهاء المقارن، الجزء الثاني (بحث الزهد والتنمية الاقتصادية).

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٨٩

٦. مضافاً إلى ما تقدم فإن التحرك في خط الزهد والإعراض عن الدنيا وملذاتها يعتبر أحد العوامل الرئيسية في تربية الروح وتزكية النفس كما ورد شرحه في بحث رياضة النفس من هذه الرسالة.

٢. من هم حزب الله؟

ما ذكر الإمام عليه السلام في نهاية هذه الرسالة عن حزب الله، مقتبس من آيات القرآن الكريم:

وقد وردت هذه العبارة في آيتين من القرآن الكريم، الأولى في آية ٥٦ من سورة المائدة، يقول تعالى: «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ

آمَنُوا [٣٧٥] فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ.

ونرى في هذه الآية الشريفة أن قبول الولاية الإلهية والأولياء الإلهيين تعدد من صفات حزب الله.

وجاء في الآية ٢٢ من سورة المجادلة: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

في الآية الأولى ورد وصف أفراد حزب الله، كما أشرنا إلى آنفاً بوصف قبولهم لولاية الله ورسوله والأولياء الإلهيين، وفي الآية الثانية ورد وصفهم بأنهم «يغضون في الله»، أو يعادون أعداء الحق، ويستفاد من مجموع هاتين الآيتين أن مسألة «الحب في الله» و «البغض في الله» على أساس أنهما من أركان من يتصف بكونه من حزب الله، وما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الرسالة بأن حزب الله هم القائمون في

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٩٠

الأسفار والعبادون والزاهدون في الحقيقة متقبس من القرآن وكون هذه الصفات من قبيل اللازم والملزوم.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٩١

الرسالة ٤٦

إشارة

إلى بَعْضِ عَمَالِهِ [٣٧٦]

نظرة عامة للرسالة

تمثل هذه الرسالة في الواقع دستوراً عملياً لأحد عمال الإمام على عليه السلام وولاته في حكومته، وتتضمن جمل قصيرة وزاخرة بالمعاني العميقة حيث يدعو الإمام مخاطبه بأداء وظيفته والقيام بمسؤوليته، وتتكون هذه الرسالة من ثلاثة مقاطع: في المقطع الأول يشيد الإمام عليه السلام بشخصيته هذا الوالي ويشيد بمكانته المرموقة ليثير في نفسه الاستعداد لقبول هذه المسؤولية المهمة.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٩٢

وفي المقطع الثاني يوصيه الإمام عليه السلام بالتواضع في مقابل الرعيّة والتعامل معهم بأسلوب اللطف والملائمة وسعة الصدر. وفي المقطع الثالث يشير الإمام عليه السلام لزوم رعاية العدالة والمساواة بين الناس حتى في الإشارة والنظرة والتحية لئلا يطمع أصحاب الثروة والقوة في عملية التمييز، ويأس الضعفاء من إجراء العدالة.

وذكروا أن من جملة الأشخاص المخاطبين لهذه الرسالة هو مالك الأشتر رحمه الله وقد أوردتها الشيخ المفيد في الأمالي، صفحة ٧٩، والمؤرخ المعروف الطبري في تاريخه الجزء الرابع، صفحة ٧١ في حوادث سنة ٣٨.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٩٣

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهَرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الْأَثِيمِ، وَأَسْدُ بِهِ لَهَاةَ الثَّغْرِ الْمُخُوفِ. فَاسْتَعِنِ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ، وَاخْلَطِ الشَّدَّةَ بِضَعْفٍ مِنَ اللَّيْنِ، وَارْفُقْ مَا كَانَ الرَّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَرِمْ بِالشَّدَّةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشَّدَّةُ، وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسِطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَاسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرَةِ وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَتَأَسَّ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: عامل الناس بالرفق!

أشرنا آنفاً في ذكر سند هذه الرسالة أن المخاطب لها حسب الظاهر مالك الأشر، والعبارات الواردة فيها والثناء والتجليل في هذه الرسالة يتناسب مع شخصية مرموقة مثل مالك الأشر، رغم أن الكثير من شرّاح نهج البلاغة لم يذكروا المخاطب فيها واكتفوا بالإجمال.

يستعرض الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الرسالة لهذا الوالي عدّة صفات حسنة ويثنى عليه ثناءً جميلاً ممّا يعمق فيه الاعتماد على النفس ويكرس فيه القدرة والإرادة على حلّ المشكلات ومواجهة التحديات يقول الإمام عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهَرُ [٣٧٧] بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ [٣٧٨] بِهِ نَخْوَةَ [٣٧٩] الْأَثِيمِ، وَأَسْدُ بِهِ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٩٤

لَهَاةَ [٣٨٠] الثَّغْرِ [٣٨١] الْمُخُوفِ».

وهذه التعبيرات تشير إلى أن الإمام عليه السلام اختار لتولى الأمور جماعة من الشجعان وأصحاب المعرفة والدراية والتدبير ليساعده في هذه الأمور الثلاثة، أي إقامة أركان الدين، وقمع المتمردين والفاستدين، وحفظ الثغور والمواقع الخطيرة على حدود البلاد الإسلاميّة، وكان مخاطب هذه الرسالة، أي مالك الأشر، أحد هؤلاء الولاة والامراء الموثوقين لدى الإمام.

وكان الإمام عليه السلام يريد أن يقول: إذا أوكلتك لهذا الأمر وفوضت إليك مسؤوليّة تدبير مصر وإقامة الأحكام الدينيّة فيها ولمنع تعديات قوى الظلام والانحراف وحفظ الثغور في مقابل التهديد الخطير الذي يتمثل بجيش الشام وأتباع معاوية فإنّ ذلك بسبب لياقتك وجدارتك في هذه الأمور، والحقيقة أن مالك الأشر كان كذلك كما بينه الإمام عليه السلام في هذه الجمل الموجزة والعميقة المغزى.

إنّ الحوادث التي وقعت لمالك الأشر وذكرها المؤرخون في كتبهم شاهد على هذه الحقيقة.

ومن ذلك عندما أراد الإمام على عليه السلام قتال المتمردين في واقعة الجمل، أرسل عمّار بن ياسر إلى الكوفة لتحشيد الناس للالتحاق والانضمام إلى جيش الإمام على عليه السلام يقول الراوى: «والله إنّي لفي المسجد يومئذٍ وعمّار يخاطب أبا موسى ويقول له ذلك القول (ويعبىء الناس للمشاركة في جيش الإمام ولكن أبا موسى الأشعري كان واقفاً على المنبر ويثبط الناس) إذ خرج علينا غلمان لأبي موسى وقالوا: يا أبا موسى هذا الأشر قد دخل القصر وضر بنا وأخرجنا، فنزل أبو موسى

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٩٥

فدخل القصر، فصاح به الأشر اخرج من قصرنا لا أمّ لك أخرج الله نفسك، فوالله أنك لمن المنافقين قديماً، قال: أجلنى هذه العشيّة. قال: هي لك ولا- تبيتنّ في القصر الليلة، ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى، فمنعهم الأشر وأخرجهم من القصر، وقال: إنّي قد أخرجته فكفّ الناس عنه» [٣٨٢].

وكذلك ورد في كتب التاريخ: عندما وصل الإمام على عليه السلام في مسيره إلى صفين، إلى أرض الرقة، فكان لا بدّ لهم من عبور

النهر، ولكن الناس لم ينصبوا الجسر للإمام عليه السلام وجيشه، (وكانتهم كانوا يرتبطون بعلاقة خاصية معاوية) فعزم الإمام أن يعبر النهر من جسر منبج [٣٨٣] (هو بعيد عن هذا المكان) فقال الأشر لأهالي تلك المنطقة: أقسم بالله إذا لم يعبر أمير المؤمنين هذا الجسر ولم تحضروا له جسراً ليمر عليه فاعاقبكم بسيفى هذا وأقتل رجالكم واخرب دياركم وآخذ أموالكم، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: هذا الأشر فهو يفى بقسمه قوموا واحضروا الجسر، فلما أحضروا الجسر وهيئوه عبر جيش الإمام أجمعه عليه، وكان الأشر آخر نفر عبر عليه.

على أية حال فالإمام عليه السلام بعد هذه العبارات الهادفة والدقيقة يطرح على مالك الأشر دساتير وتوصيات مهمة في مجال التعامل مع الناس، بداية يقول:

«فَاسْتَعِنِ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَمَّكَ».

وهذه إشارة إلى أن الأصل والأساس في كسب النجاح والتوفيق في إدارة البلاد وتدبير أموره هو الإستعانة بالذات المقدسة وطلب المعونة والتسديد منه.

وفي التوصية الثانية يقول:

«وَاخْلُطِ الشَّدَّةَ بِضَعْفٍ [٣٨٤] مِنَ اللَّيْنِ».

وهو إشارة إلى أن أمر الحكومة وتدبير الولاية وإجراء البرامج الاجتماعية لا

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٩٦

تتحقق من خلال الاعتماد على آليات الشدة والعنف فقط، بل ينبغي على الوالى أن يخلط الين بالشدة، لأن أسلوب الشدة والقهر يتسبب في نفور الناس وعداوتهم وربما لا يصل إلى نتيجة، ولو استخدم الوالى آليات اللطف والملائمة واللينونة دوماً فإن الكثير من الأفراد لا- يأخذون عمله على محمل الجد وربما يؤدى ذلك إلى تكاسلهم وتواكلهم وبالتالي فشل المشروع، وهذا هو ما ورد في منهج الأنبياء الإلهيين من كون كل نبي (مباشراً ونذيراً) والقرآن الكريم يؤكد من جهة أن الله تعالى فى موضوع العفو الرحمة أرحم الرحمين وفى موضوع الجزاء والنقمة أشد المعاقبين.

والتوصية الثالثة تبين ما هو الأصل بين الرفق والشدة وما هي مواردهما، يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَرْفُقْ مَا كَانَ الرَّفْقُ أَرْفُقَ، وَاعْتَرِمَ بِالشَّدَّةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشَّدَّةُ».

وعلى هذا الأساس فالأصل فى المناسبات بين الوالى والرعية، بل يأتى هذا الأصل فى جميع أشكال الإدارة، هو الرفق والمدارة، ولكن إذا كان البعض يستغلون هذا اللين والرفق وسيئون الاستفادة من مداراة المدير والوالى لهم، فهنا لابد من استخدام الشدة.

وقد ورد فى الحديث الشريف المعتبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إِنَّ الرَّفْقَ لَمْ يُوضَعْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ» [٣٨٥].

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مُطَهَّرَةٌ فَالَّذِينَ أَوْلَاهَا وَالْعِقْلُ ثَانِيهَا

وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا وَالْحِلْمُ رَابِعُهَا وَالْجُودُ خَامِسُهَا وَالْعُرْفُ سَادِسُهَا

وَالْبِرُّ سَابِعُهَا وَالصَّبْرُ ثَامِنُهَا وَالشُّكْرُ تَاسِعُهَا وَاللَّيْنُ عَاشِرُهَا [٣٨٦]

يُخَاطِبُنِي السَّفِيهَ بِكُلِّ قُبْحٍ وَأَكْرَهُ أَنْ أَكُونَ لَهُ مُجِيباً

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٩٧

يَزِيدُ سَفَاهَةً وَأَزِيدُ جِلْمًا كُؤُودٍ زَادَهُ الْإِحْرَاقُ طَيِّبًا [٣٨٧]

وحالياً نشاهد أن أفضل الطرق لمواجهة المفسد الاجتماعي والتصدى لأشكال الجنوح والانحراف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استخدام آليات المحبة والخطاب المنطقي المقترن بالأدب والمدارة، فإن غالبية الناس يتحركون بالاتجاه الصحيح بهذا الأسلوب، ولكن هناك قلة من الناس لا ينفع معها سوى الشدة ولا ينتهون عن سلوكياتهم الخاطئة إلا بالآليات القهر والقوة.

في التوصية الرابعة والخامسة والسادسة يقول الإمام عليه السلام:

«وَإِخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ».

وهذه التوصيات في الحقيقة مقتبسة من الآيات القرآنية الشريفة، فالقرآن يخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويقول: «وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» [٣٨٨].

ويقول في آية أخرى: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ» [٣٨٩].

وفي التوصية السابعة والأخيرة يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَسِ [٣٩٠] بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرَةِ وَاللِّسَانَةِ وَاللِّسَانَةِ فِي حَيْفِكَ [٣٩١]، وَلَمَّا يَسِ الضُّعْفَاءُ مِنْ عَيْدِكَ، وَالسَّلَامُ».

وهذه التوصية تشمل المدراء والولاة في المجتمع الإسلامي، وكذلك تشمل القضاة أيضاً حيث ورد في كتاب القضاء أن هذه الأمور من وظائف القضاة، ولعل ذلك ينحصر بتعاليم الإسلام، بأن ينظر القاضي أو الوالي بنظرة واحدة للجميع، فلو قام احتراماً لواحد من المتخاصمين أو المراجعين يجب عليه القيام للجميع، وإذا سلم على بعضهم ينبغي أن يسلم على الجميع بصورة واحدة، بل لا ينبغي له أن ينظر

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٩٨

إلى بعضهم بجميع بصره وينظر إلى الآخر بطرف عينه، فمثل هذه التوصية تعني أن يحسب الآخرين حسابهم ويعلموا أن هذا المكان هو مكان يراعى فيه موازين العدل والانصاف ولا ينبغي أن يتوقع أحدهم التمييز في الأمور المهمة.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٩٩

الرسالة ٤٧

إشارة

لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لَمَّا ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَمٍ لَعَنَهُ اللَّهُ [٣٩٢]

نظرة عامة للرسالة

هذه الوصية في الواقع تعتبر أحد الوصايا الشاملة والمهمة للإمام على عليه السلام عندما كان في سرير الشهادة، ومخاطب هذه الوصية ولداه الحسن والحسين عليهما السلام، بل جميع الشيعة وأتباع آل البيت عليهم السلام وتتضمن عدة فصول مهمة:

الفصل الأول، يوصي الإمام عليه السلام إبنه بتقوى الله وعدم اهتمام بزخارف الدنيا، والدفاع المظلومين وحماية حقوقهم في مقابل

الظالمين.

وفى الفصل الثانى، يصرح الإمام عليه السلام بأن مخاطبه هو جميع أبنائه وأهله وكل من تصل إليه هذه الوصية إلى يوم القيامة، ومرة أخرى يؤكد الإمام فى وصيته على التقوى ونظم الامور والإصلاح بين الناس.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٠٠

وفى الفصل الثالث، يشير الإمام عليه السلام إلى عدّة مسائل مهمّة، منها الدعوة لكفالة الأيتام وحفظ حقوق الجيران، والعمل بالقرآن والاهتمام بإقامة الصلاة والحج والجهاد بالنفس والمال واللسان وتوثيق العلاقة بين الأفراد واجتناب الكراهية والفرقة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وفى الفصل الأخير يخاطب عليه السلام أبناء عبدالمطلب مؤكداً لهم أنهم بعد استشهادهم ينبغى أن يمتنعوا من سفك دمى المسلمين بذريعة مقتله والانتقام له، ويحمل المسؤولية فقط على قاتله الذى يجب القصاص فى حقّه، ثم يوصيهم باجتنب المثلّة بعد القصاص من القاتل ولزوم دفنه.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٠١

القسم الأول

إشارة

أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَاللَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنِ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ، وَلَمَّا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمْ، وَقُولًا بِالْحَقِّ وَعَمَلًا لِلْأَجْرِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْمًا وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا.

الشرح والتفسير: كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً!

هذه هى الوصية الثانية للإمام على عليه السلام فى فراش الوفاة (وقد سبق ذكر وصية أخرى للإمام فى الكتاب رقم ٢٣). وكما أشرنا آنفاً، أن الإمام عليه السلام تحدت بهذا الكلام فى فراش الوفاة وكتب هذه الوصية، ونعلم أن الإنسان فى مثل هذه الحالة يهتم ببيان الأمور المهمّة لديه بعبارات موجزة، ولم تكن وصية الإمام هذه تتعرض لكيفية تقسيم أمواله وثرواته، لأنه لم يترك مالا وثروة لورثته، وإن كان يملك مبلغاً من المال فقد جعله وقفاً للمسلمين، وتتركز هذه الوصية حول القيم الأخلاقية والمثل الإنسانية والتكاليف الدينية فى واقع الحياة الفردية والاجتماعية، وبالرغم من أن المخاطب فى هذا المقطع من الوصية، الحسن والحسين عليهما السلام، ولكن بقرينة المقطع الثانى من الوصية فإن الآخرين أيضاً مخاطبون بهذا الخطاب المهم.

وعلى أية حال فالإمام عليه السلام فى المقطع الأول لهذه الوصية يوصى ولديه بسبعة أمور مهمّة:

الأول يقول عليه السلام:

«أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٠٢

أجل، كما قلنا مراراً أن التقوى تعنى الاحساس بالمسؤولية الباطنية فى مقابل الأوامر الإلهية، فهى تمثّل عصارة تعاليم جميع الأنبياء والأولياء وبدونها لا يستطيع أى شخص الخلاص من الوسوس الشيطانية والأهواء النفسانية، فمفتاح الجنة هو التقوى، والمركب الذى

بالتواصي بين المؤمنين

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٠٤

بالحق: «وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ».

والجدير بالذكر أن الحق له معنى واسع جداً ويشمل كل حقيقة عقائدية وأخلاقية وحكمية والتعاليم والأحكام الإلهية وحقوق الناس فيما بينهم، والحق المتقابل بين الحاكم والرعية، أو بين السلطة والشعب، وحق الإنسان على نفسه وما إلى ذلك.

وأما للعمل والأجر والثواب الإلهي فهذا يعني إخلاص التية وأن لا ينظر الإنسان إلى ما في أيدي الناس بعين الطمع، وأن يحصر فكره ونظره بالثواب الإلهي ويؤدى كل عمل بنية خالصة لله تعالى.

ثم يشير الإمام عليه السلام في التوصية السادسة والسابعة إلى مسألة في غاية الأهمية، ويقول: «وَكُونَا لِلظَّالِمِ حَظْمًا وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا».

وهذه التوصية في الحقيقة تؤكد على لزوم نصره الحق والدفاع عنه كما ورد في العبارات السابقة، وما حق أعظم من أن يعين الإنسان المظلوم في مقابل الظالم، ليصل المظلوم إلى حقه ويجنب الظالم ظلمه، واللافت للنظر أن الظالم والمظلوم في هاتين الجملتين مطلقان فلا يختصان بالمسلمين، ومن هذه الجهة فإن كل مظلوم في العالم يجب على المسلمين الدفاع عنه ونصرته، ويجب عليهم التصدي لكل ظالم وجائر في هذا العالم، ولو أن منظمات حقوق الإنسان اهتمت بتطبيق هذين الأمرين فقط، فإن الدنيا ستتحول إلى جنّة، ولكننا نرى أن هؤلاء الذين يدعون الدفاع عن حقوق الإنسان يقفون مع الظالم عندما تتعرض منافعهم غير المشروعة للخطر، ويقفون ضد المظلوم، رغم أنهم يرفعون لواء حماية المظلومين والتصدي للظالمين في الظاهر.

ونقرأ في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ أَصْبَحَ لَيْتُهُمْ يُظْلَمُ أَحَدٌ غَفَرَ اللَّهُ مَا اجْتَرَمَ» [٣٩٩].

وفي الحقيقة أن أكثر الذنوب تعدد نوعاً من أنواع الظلم والشخص الذي يجتنب

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٠٥

الظلم بجميع أشكاله هو الذي يتخلص من الذنوب كافة.

ونقرأ في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«وَمَنْ أَحَدَ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ مُصَاحِبًا» [٤٠٠].

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في «غررالحكم» يقول:

«أَحْسَنُ العَدْلِ نُصْرَةُ المَظْلُومِ» [٤٠١].

وكذلك نقرأ عن الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء ٣٨ من الصحيفة السجادية (بوصفه قدوة لعامة الناس):

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْ مَظْلُومٍ ظَلِمَ بِحَضْرَتِي فَلَمْ أَنْصُرْهُ».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٠٧

القسم الثاني

إشارة

أَوْصِيكُمَا، وَجَمِيعَ وَوَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي [٤٠٢]، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلَّاحِ ذَاتِ [٤٠٣] بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: «صَلَّاحِ ذَاتِ

الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ».

الشرح والتفسير: أفضل الأعمال صلاح ذات البين!

في هذا المقطع من الوصية يوسع الإمام عليه السلام دائرة مخاطبيه لتمتد إلى أبعد من ولديه الحسن والحسين عليهما السلام، وهم أهله وجميع أرحامه ومن تصل إلى أيديهم هذه الوصية إلى يوم القيامة ليقعوا جميعاً في دائرة هذا الخطاب الإيماني، فيقول: «أَوْصِيَكُمْ، وَجَمِيعَ وُلْدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: (صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ)».

وهكذا نرى أن الإمام عليه السلام يؤكد في هذا المقطع من الوصية على أمور ثلاثة:

الأول: التأكيد مرّة على الالتزام والوعاى بمقتضيات التقوى والورع، فطريق النجاة لا

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٠٨

يتيسر للإنسان إلمن خلال التقوى، التي تعتبر زاد الإنسان ومتماعه في سفره إلى الآخرة وكذلك تعتبر معيار شخصية الإنسان وكرامته أمام الله تعالى بمقتضى قوله:

«إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...» [٤٠٤].

والأمر الثانى: يوصى الإمام عليه السلام ولديه بنظم أمورهم فى حركة الحياة الفردية والاجتماعية، وهذا يشمل النظم فى الأبعاد الأمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفى العبادة، وكذلك ما يرتبط بالأسرة والتعليم والتربية للأبناء ونعلم أن بقاء عالم الوجود مرتبط بشكل وثيق بما فيه من نظام محكم فى ظل التدبير الإلهى، فلولا وجود النظم فى الأفلاك والمجرات السماوية لما بقى عالم الكون والطبيعة ولسارع إلى الانحلال والاندثار، ولو أن بدن الإنسان وما فيه من أجهزة وأعضاء تتحرك فى إطار من النظم الدقيق لسارعت الأمراض إليه وإرتبكت عمل هذه الأجهزة المختلفة ولمات الإنسان فى وقت قصير، وكل مجتمع يفتقد النظم اللازم فإنه يتعرض للفناء والانقراض، وكل إنسان يسلك فى خط العشوائية والعبثية بعيداً عن النظام فى حركة الحياة فلا يصل إلى نتيجة مهما كان يملك من قابليات وإمكانات كثيرة.

وعلى سبيل المثال يوجد فى دم الإنسان أكثر من عشرين نوعاً من العناصر المعدنية وشبه المعدنية ترتبط فيما بينها برابطة خاصة ولكل واحد منها مهية خاصة يؤديها فى البدن، فلو أن هذه التركيبات والعناصر تغيرت قليلاً من الناحية الكمية والكيفية فستظهر علائم الأمراض على الإنسان، ولهذا السبب فإن جميع الأطباء ومن أجل تشخيص جذور المرض الأصلية يعملون على تحليل دم المريض فى المختبر ليروا فى أى قسم يوجد الخلل والنقص.

وفى المسائل الفلكية نرى أحياناً أن المنجمين وعلماء الفلك يتنبؤن بشكل دقيق بالخسوف وأنه سيقع فى الساعة الفلانية والدقيقة الفلانية فى المكان الفلانى من الكرة الأرضية وذلك قبل عدّة أشهر من وقوع الخسوف أو الكسوف، ويجتمع فى

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٠٩

تلك المنطقة جماعات كثيرة فى لحظة وقوع الكسوف لرصد الشمس فى ذلك الوقت، فلولا وجود نظم دقيق حاكم على عالم الوجود لما أمكن لعلماء الفلك أن يتنبأوا بمثل هذه الأمور، بل إنهم يتنبؤون بالظواهر الكونية قبل آلاف السنين من وقوعها.

والآن لو أن الإنسان أراد فى علاقاته الاجتماعية أن يسلك طريقاً اللانظم واللامبالاة فسيكون قطعاً غير متجانسة مع عالم الوجود، ومثل هذا الشىء الاستثنائى وغير المنسجم من مظاهر الطبيعة محكوم بالفناء والزوال.

أمّا صلاح ذات البين والحديث الذى نقله الإمام عليه السلام عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بأن إصلاح ذات البين أفضل من الصلاة والصوم، فالعلة فى ذلك جلية، لأنه لولا مسألة إصلاح ذات البين والعمل على رفع الكدورات وإزالة العداوات وتبديل حالات

الكرهية إلى حالات المحبة والمودة بين أفراد المجتمع الواحد، لسادت حالات التشتت والفرقة والتزلزل بينهم، وهذا بدوره يقود المجتمع كما يقول القرآن إلى الفشل والتناحر.

ولهذا السبب كان إصلاح ذات البين من أفضل العبادات بل ورد في الروايات الشريفة أن المصلح بمنزلة المجاهد في سبيل الله: «جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَجْرَ الْمُصْلِحِ بَيْنَ النَّاسِ كَأَجْرِ الْمُجَاهِدِ عِنْدَ النَّاسِ» [٤٠٥].

ولا شك ولا ريب في أن الجهاد يوجب عزة الإسلام، والشخص الذي يتحرك في واقعه الاجتماعي من أجل إيجاد حالات التفاهم والتواصل بين الناس ويسوق المجتمع الإسلامي نحو التوحد والاتحاد فإن عمله هذا يتسبب في عزة الإسلام والمسلمين. يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«صَدَقَةٌ يُحِبُّهَا اللَّهُ إِصْلَاحٌ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَتَقَارُبٌ بَيْنِهِمْ إِذَا تَبَاعَدُوا» [٤٠٦].

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حديثاً معروفاً، عندما قال مخاطباً المفضل (وهو أحد أصحاب الإمام): «إِذَا رَأَيْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنْ شَيْعَتِنَا مُنَازَعَةً فَأَقْتَدِهَا مِنْ مَالِي»،

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢١٠

أى أصلح بينهما وارفع النزاع ولو كان بدفع مبلغ من المال لهما، ولذلك نقر أ في الرواية عن أبي حنيفة سابق الحاج قال: مر بنا المفضل وأنا وختي [٤٠٧] نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل فأتيناها فأصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعها إلينا من عنده حتى إذا استوفى كل واحد منا من صاحبه، قال: أما إنها ليست من مالي، ولكن أبو عبد الله عليه السلام أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أصلح بينهما وأفتديها من ماله، فهذا من مال أبي عبد الله عليه السلام [٤٠٨].

ونختم هذا البحث بحديث آخر من جملة الأحاديث الكثيرة الواردة في هذا المجال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ» [٤٠٩].

وبعد أن ينقل العلامة المجلسي الحديث النبوي الشريف الوارد في كلام الإمام عليه السلام مورد البحث، ينقل عن أمالي الشيخ الطوسي بعد ذكره لهذه الرواية:

«المراد صلاة التطوع والصوم» [٤١٠] وكان توضيح الشيخ الطوسي في هذا الكلام يعتمد على رواية معتبرة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصوم» [٤١١].

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢١١

القسم الثالث

إشارة

اللَّهُ اللَّهُ فِي الْإِيْتَامِ، فَلَا تُعْبُوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا يَضِّعُوا بِحَضْرَتِكُمْ. وَاللَّهُ اللَّهُ فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةٌ نَبِيِّكُمْ. مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُورِثُهُمْ وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، لَا تَشْبِهُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ. وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ. وَاللَّهُ اللَّهُ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لَا تُخْلُوهُ مَا بَقِيْتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تَرَكَ لَمْ تُنَاطِرُوا، وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَّاصِلِ وَالتَّبَادُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرِ وَالتَّقَاطُعِ. لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُولَى عَلَيْكُمْ شَرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ.

الشرح والتفسير: وصايا هامة على فراش الشهادة!

إشارة

يقدم الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية عشر توصيات مهمة فيما يتصل بالمسائل الاجتماعية والعبادية والأخلاقية، وفي ستة موارد منها يستهلها الإمام عليه السلام بكلمة «الله الله» وذلك للدلالة على غاية الاهتمام والتأكيد، وبداية يشرع الإمام من الأيتام ويقول:

«اللَّهُ اللَّهُ فِي الْأَيْتَامِ، فَلَا تُغْبُوا [٤١٢] أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا يَضِيعُوا بِخَضَرِ تَكْمٍ».

وفيما يتصل بالاهتمام في أمر اليتامى فقد ورد في القرآن الكريم والروايات نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢١٢

الشريفة تأكيدات كثيرة بهذا المضمون، مما يعكس الروح الإنسانيّة وحالات التكافل الاجتماعي وحماية الضعفاء في التعاليم والأحكام الإسلاميّة.

فقرأ في الآية ٩ من سورة النساء قوله تعالى: «وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا».

ويقول في الآية بعدها: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا».

وورد في حديث معروف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ مَسَحَ عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمَرٌ عَلَى يَدِهِ نُورٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [٤١٣].

أجل، فإن روح اليتامى عطشى للمحبة، فتأثير المحبة والمدارة لهؤلاء الأطفال اليتامى لا يفوقه أى إكرام واحترام لهم.

وفي حديث مشهور آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنَّ الْيَتِيمَ إِذَا بَكَى اهْتَزَّتْ لِبَكَائِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ» [٤١٤].

وجاء في ذيل هذا الحديث أن الله تعالى يخاطب ملائكته ويقول:

«إِنَّ الْيَتِيمَ إِذَا بَكَى اهْتَزَّتْ لِبَكَائِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: يَا مَلَائِكَتِي! مَنْ أَبَكَى هَذَا الْيَتِيمَ الَّذِى غُيِبَ أَبُوهُ فِي التَّرَابِ؟ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ، أَنْتَ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:

يَا مَلَائِكَتِي! فَإِنِّي أَشْهَدُكُمْ أَنْ لِمَنْ أَسَكَّنْتَهُ وَأَرْضَاهُ أَنْ أَرْضِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وجاء في كتاب الكافي، ج ١، ص ٢١٣، إلى أمير المؤمنين عليه السلام عسل وتين من همدان وحلوان [٤١٥] فأمر العرفاء أن يأثوا باليتامى،

فأمكنهم من رؤوس الأرزاق يلحقونها وهو يقسمها قداً قداً، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما لهم يلحقونها، فقال الإمام عليه السلام:

«إِنَّ الْإِمَامَ أَبُو الْيَتَامَى وَإِنَّمَا أَلْعَقْتُهُمْ هَذَا بِرِعَايَةِ الْأَبَاءِ» [٤١٦].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢١٣

والملفت أن أبا الطفيل (الصحابي المعروف ومن الأتباع المخلصين للإمام على عليه السلام) يقول: «رأيت علياً عليه السلام يدعو

اليتامى فيطعمهم العسل، حتى قال بعض أصحابه: لوددت أنى كنت يتيماً» [٤١٧].

ثم إن الإمام عليه السلام في وصيته الثانية يؤكد على ضرورة الاهتمام بحق الجيران ويقول:

«اللَّهُ اللَّهُ فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةٌ نَبِيَّكُمْ. مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُورَثُهُمْ» [٤١٨].

وجملة

«فَإِنَّهَا وَصِيَّةٌ نَبِيَّكُمْ»

، إما من باب حذف المضاف، وهى فى الأصل:

«فإنها محل وصية نبيكم»

، أو من باب التأكيد بأنهم عين وصيته، من قبيل أن يقال:

زيد عدل، أو نقول مثلاً: الشخص الفلاني عين العدالة.

والتعبير بـ «ظن» في جملة در جملة

«حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُورُ تُهْمَ»

، بأن يكونوا شركاء في الميراث إِمَّا على مستوى التأكيد ومن خلال ما سمعوه من تكرار توصية النبي بالجيران، أو يراد بها المعنى الحقيقي، وأنهم حسبوا واقعاً أن مقام الجيران إلى درجة يمكن أن يلحقوا بالأرحام والأقرباء ويكونون شركاء في الميراث. وعلى أية حال فالجار في الإسلام يتمتع باحترام خاص خلافاً لما نراه في عالم اليوم والحياة المادية في المجتمعات المعاصرة، فربما عاش رجلان عشرين سنة جيراناً ولكن أحدهما لا يعرف الآخر بتاتاً.

إن فلسفة احترام الجار في الإسلام جلية وواضحة، لأن الإسلام دين اجتماعي بامتياز، فتعاليمه ناظرة إلى تجمع الأسرة، تجمع الأقرباء والأرحام، تجمع الجيران، تجمع أهالي المدينة، تجمع المواطنين في البلد الواحد، فكل واحد من أفراد هذه التجمعات له مكانة خاصة في الإسلام، فلو أن الجيران كانوا يهتمون واقعاً ببعضهم

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢١٤

البعض ويتشاركون الأفراح والأحزان فيما بينهم فإن الحياة ستكون حلوة وهنيئة وسيمنح هذا التواصل والتكاتف أفراد الجيران القوة والروحية بحيث تمكنهم من التغلب بسهولة على المشاكل والتحديات الصعبة التي يفرضها الواقع، فاليوم يواجه هذا الجار مشكلة معينة فينهض سائر الجيران لمساندته وتقديم المعونة إليه لحل هذه المشكلة، وغداً تكون نوبة الجار الآخر ويتداعى له الجيران بالمعونة وهكذا.

ونقرأ في حديث عميق المغزى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«هَلْ تَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ مَا تَدْرُونَ مِنْ حَقِّ الْجَارِ إِلَّا قَلِيلًا أَلَا لَأَيُّومٍ مِنَ الْآخِرِ مَنْ لَأَيُّومٍ جَارُهُ بَوَائِقُهُ فَإِذَا اسْتَقْرَضَهُ أَنْ يُقْرِضَهُ وَإِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَأَهُ وَإِذَا أَصَابَهُ شَرٌّ عَزَّاهُ لَا يَسْتَطِيلُ عَلَيْهِ فِي الْبِنَاءِ يَحْجُبُ عَنْهُ الرِّيحُ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَإِذَا اشْتَرَى فَكَيْهَةً فَلْيُهْدِ لَهُ فَإِنْ لَمْ يُهْدِ لَهُ فَلْيُدْخِلْهَا سِرًّا وَلَا يُعْطِ صَبِيئَةً مِنْهَا شَيْئًا يُعَايِطُونَ صَبِيئَةَ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ حَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجَوَارِ وَحَقُّ الْقَرَابَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقٌّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجَوَارِ وَحَقُّ الْكَاْفِرِ لَهُ حَقُّ الْجَوَارِ» [٤١٩].

ونقرأ في الآية ٣٦ من سورة النساء أن القرآن الكريم بعد التأكيد على الإحسان والوالدين والأقرباء واليتامى والمساكين، يؤكد على الإحسان للجيران القريبين والبعيدين، يقول: «وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ».

واللافت ما ورد في حديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام والإمام الباقر عليه السلام أن حدّ الجار يتمثل في أربعين منزلاً من الجهات الأربع [٤٢٠].

ومما يجدر ذكره أن هذا الحديث الشريف لا يعنى أن نحسب أربعين داراً من كل جهة في خط مستقيم بحيث يكون المجموع ١٦٠ منزلاً، وأن لا تحسب المنازل الواقعة بين هذه الخطوط المستقيمة حتى لو كانت على مقربة من دار الشخص، بل

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢١٥

المراد أن دائرة الجيران تمتد لشعاع أربعين منزلاً من كل جهة، ونعلم أن مساحة الدائرة تساوى ضرب نصف القطر في عدد ٣/١٤، ويتبين في حساب بسيط أن المجموع يبلغ قرابة خمسة آلاف بيتاً، فجميع هذه البيوت والدور، وفق ما ورد في الحديث الشريف، تعتبر من الجيران، أي أنها مدينة مكونة من عشرين ألف نفر.

ونختم هذا الكلام بذكر قصيدة تاريخية، ينقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهاج البلاغة أن رجلاً يدعى أبو الجهم باع داره وكان في

جواره سعيد بن العاص بمائة ألف درهم، فلمّا أحضرها المشتري قال (أبو الجهم) له: هذا ثمن الدار، فأعطني ثمن الجوار، فقال المشتري: أي جوار قال: جوار سعيد بن العاص، قال: وهل اشترى أحد جواراً قط، قال: ردّ عليّ داري، وخذ مالك، لا أدع جوار رجل إن قعدت سألت عني وإن رأني رحب بي، وإن غبت عنه حفظني، وإن شهدت عنده قرّبتني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم أسأله بدأني، وإن نابنتي نائبة فرج عني، فبلغ ذلك سعيداً فبعث إليه مائة ألف درهم، وقال: هذا ثمن دارك، ودارك لك [٤٢١].

ونقرأ في التوجيه الثالث أن الإمام عليه السلام يؤكد على العمل بالقرآن والالتزام بتعاليمه وأحكامه ويقول:
«وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ».

وهذا الكلام إشارة إلى أنكم لا ينبغي أن تقنعوا بتلاوة القرآن وتجويده وتغفلوا عن مضامينه وتعاليمه، في حين أن الأجانب يتحركون في حياتهم من موقع العمل بمضامين القرآن وتعاليم الإسلام، مثلاً، عندما يعرضون بضاعتهم في السوق يراعون الصدق والأمانة في معاملاتهم ولكنكم لستم كذلك، أو أنهم يلتزمون بعهودهم ومواثيقهم وأنتم تنقضون العهود ولا تلتزمون بالمواثيق فيما بينكم، وأولئك يسعون بجديّة لتحقيق وكسب العلوم المختلفة وإيجاد حالة النظم والانضباط في علاقاتهم ولكنكم لا تهتمون لذلك فتبقون في ركب التخلف والتبعية، كما نشاهد هذا الحال - وللأسف - في بعض المجتمعات البشرية والإسلامية وأنهم يعملون على وضع
نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢١٦

شارة وعلامة الشركات الأجنبية على منتجاتهم ومصنوعاتهم وبيوعونها في السوق، وهذا يعني أن الناس تعتمد وتثق بالبضاعة الأجنبية ولكنهم لا يعتمدون على منتجاتهم، والأجانب يسعون دائماً في خط التطور العلمي ويذلون الجهود الكبيرة في سبيل التقدم والإزدهار، في حين أن الكثير من الشعوب الإسلامية يعيشون الغفلة وحالة الاسترخاء والتكاسل وكأنهم نيام، وهذا الأمر مؤلم جداً ومؤسف.

وقد ورد في الحديث الشريف أن زياد بن لبيد جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أما أمرأ ثم أضاف شيئاً وقال:

«ذَلِكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ»

، فقلنا:

وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا وأبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال:

«تَكَلَّفَكَ امْرِيكَ يَا زِيَادُ! إِنَّ كُنْتَ لِأَرَاكَ أَفْضَلَ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوْ لَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهَا» [٤٢٢]

. يعني اخشوا يوماً تكونوا مثلهم.

وقد وردت تعبيرات في غاية الأهمية فيما يتصل بأهمية القرآن الكريم في النصوص القرآنية والروايات الإسلامية، فنقرأ في خطب نهج البلاغة كلاماً مطولاً وعميقاً في هذا الشأن وقد سبق أن ذكرناه في البحوث السابقة، ولكننا نكتفي هنا بذكر مقطع من الخطبة ١٨٢ التي أوردناها في الجزء السابع من هذا الكتاب، وأن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يتأسف ويتأوه على فراق إخوته وأحبته ويذكرهم بهذه العبارات:

«أَوْهَ عَلَيَّ إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَّوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ وَتَدَبَّرُوهُ الْفُرْضَ فَأَقَامُوهُ أَحْيَاؤَ السُّنَّةِ وَأَمْرَاتُوا الْبِدْعَةَ دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ» [٤٢٣].

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه في هذه الوصية ويتحدث في التوصية الرابعة عن الصلاة ويبين أهميتها ويقول:
«وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ».

وقد ورد هذا التعبير بعمود الدين بشكل واسع في روايات المعصومين عليهم السلام ومن

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢١٧

ذلك ما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنَّ عَمُودَ الدِّينِ الصَّلَاةُ وَهِيَ أَوَّلُ مَا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ فَإِنْ صَحَّتْ نُظِرَ فِي عَمَلِهِ وَإِنْ لَمْ تَصِحَّ لَمْ يُنْظَرِ فِي بَقِيَّةِ عَمَلِهِ» [٤٢٤].

ويبين الإمام الباقر عليه السلام هذا المعنى بشكل واسع ويقول:

«الصَّلَاةُ عَمُودُ الدِّينِ مَثَلُهَا كَمَثَلِ عَمُودِ الْفَسْطَاطِ إِذَا ثَبَتَ الْعَمُودُ ثَبَتَتِ الْأَوْتَادُ وَالْأَطْنَابُ وَإِذَا مَالَ الْعَمُودُ وَانْكَسِرَ لَمْ يَثْبُتْ وَتَمَدَّ وَلَا طُنْبٌ» [٤٢٥].

والدليل على ذلك أن الصلاة تربط الإنسان بالبارئ تعالى وتقوى فيه العلاقة بينه وبين ربه وتحى فيه روح التقوى والإيمان، ومن هنا فإنها تردع الإنسان من اقتراف الفحشاء والمنكرات وتمنحه القدرة والقوة على الإتيان بسائر الطاعات والعبادات الأخرى ومن هذه الجهة تبقى خيمة الدين منصوبة في حياة الإنسان المعنوية، وأما ترك الصلاة فإنه يقود الإنسان إلى نسيان الله، والغفلة عنه ومن يغفل عن الله تعالى فإنه يتلوث بكل عمل قبيح.

ثم يبين الإمام عليه السلام في التوصية الخامسة أهمية الحج إلى بيت الله، ويقول:

«وَاللَّهُ اللَّهُ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لِأَتَخَلُّوهُ مَا بَقِيْتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تَرِكَ لَمْ تُنَاطَرُوا».

وذكر بعض شراح نهج البلاغة أن جملة

«لَمْ تُنَاطَرُوا»

إشارة إلى ابتعادكم عن نظر اللطف الإلهي بسبب عدم اهتمامكم ببيته، أو ابتعادكم عن نظرة تعظيم الناس لكم، بسبب تفرق المسلمين وضعفهم فيما لو تركوا البيت الحرام، ولكن الظاهر أن المراد من التناظر في هذه العبارة هو الإمهال، وذلك إشارة إلى أن المهلة الإلهية ستنقضي وسيحل عليكم العذاب [٤٢٦].

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢١٨

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لَا يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا مَا قَامَتِ الْكُعْبَةُ» [٤٢٧].

والروايات الشريفة التي تتحدث عن أهمية الحج وزيارة بيت الحرام إلى درجة من الكثرة والاستفاضه أنها خارجة عن إطار هذا المختصر، فنكتفي هنا بذكر جملة واحدة من هذه الروايات كخاتمة لهذا البحث:

يقول أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام: قلت لأبي عبد الله: إن رجلاً استشارني في الحج وكان ضعيف الحال (من الجهة المادية أو البدنية) فأشرت إليه أن لا تحج، فقال عليه السلام:

«مَا أَحْلَقَكَ [٤٢٨] أَنْ تَمْرَضَ سَنَةً»

، قَالَ: فَمَرَضْتُ سَنَةً [٤٢٩].

حكى عن رجل السياسة في بريطانيا ويدعى (غلاستون) أنه قال: مادام المسلمين يقرأون القرآن ويطوفون بالكعبة ويذكروا اسم محمد كل صباح ومساء على المآذن، فإن النصرانية في خطر محقق، فعليكم أن تحرقوا القرآن وتهدموا الكعبة وتمحو اسم محمد من الأذان.

وفي التوصية السادسة يقول الإمام عليه السلام:

«وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

والمراد من الجهاد بالأنفس، الحضور في ميادين القتال والتصدي لأعداء الإسلام والمسلمين للحفاظ على الإسلام والبلدان الإسلامية في مقابل تحديات الأعداء وعدوانهم، وأما الجهاد بالأموال فيتمثل بالمساعدات المادية والمالية لتعبئة الجيوش الإسلامية في الأرمنة

القديمة ومدّها بالمؤن والعتاد اللازم، وفي هذا العصر يشمل الجهاد بالأموال جميع أشكال المساعدات فيما يتصل بالأمور الثقافية والاجتماعية

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢١٩

والاقتصادية لتقوية دعائم الإسلام في واقع المجتمعات الإسلامية، وأمّا الجهاد باللسان فيتمثل بالدفاع المنطقي والخطاب العقلائي والتبليغ المستمر لنشر تعاليم الإسلام وأحكامه، واليوم يستفاد في هذا السبيل من جميع وسائل الارتباط الجمعي في العالم والأجهزة الحديثة في هذا الشأن.

ويعتبر الجهاد قانوناً عاماً في عالم الطبيعة، لأن جميع الموجودات الحيّة، سواء من النباتات أو الحيوانات والأحياء الأخرى تتحرك في مواجهتها للموانع والمعيقات بآلية الجهاد لتستمر في حياتها وتزويج المعيقات من أمامها.

وفي طبيعة الخلقة في هذا العالم، فإن كل موجود يستبطن في ذاته آفة ونقصاً، ولو لم يناضل ويكافح من أجل التغلب على تلك الآفة فإنه سرعان من يصبه العطب ولا يمكنه الاستمرار في حركة التكامل وإدامه الحياة.

إن جذور الأشجار، ولغرض الحصول على الماء والغذاء، تتجه دائماً إلى أعماق الأرض، وعند وصولها إلى مانع كالحجر فإنها تحاول النفوذ فيه وتحطيمه أو الالتفاف عليه والاستمرار في حركتها، وأحياناً نرى أن الجذور الرقيقة للنباتات تنفذ إلى الموانع الصلبة وحتى الفولاذية وتتقربها.

ولا نبتعد كثيراً فإن أبداننا تعيش حالة الجهاد في الليل والنهار، لأن الميكروبات تنفذ إلى البدن من أربع طرق: الماء، الهواء، والغذاء، والجلد (في حال وجود جرح أو خدش)، فلولا وجود القوى الدفاعية للبدن المتمثلة في خلايا الدم البيضاء وتصديها لهذه المكروبات فربما يصاب الإنسان في يوم واحد بأنواع الأمراض والأسقام، ولكن هذا الجهاد الصامت والعميق هو الذي يحفظ لنا سلامتنا وصحتنا. والمجتمعات التي لا تتحرك في خط الجهاد والتصدي للأعداء فإنها ستواجه في مدّة قصيرة الهلاك والفناء، أو تنحدر نحو الضعف والذلة والمهانة.

ونقرأ في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ذُلًّا وَفَقْرًا فِي مَعِيشَتِهِ وَمَحَقًّا فِي دِينِهِ»

ثم قال:

«إِنَّ اللَّهَ أَعَزُّ أُمَّتِي بِسَنَابِكِ خَيْلِهَا وَمَرَائِرِ

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٢٠

رِمَاحِهَا» [٤٣٠].

ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال:

«وَاللَّهِ مَا صَلَحَتْ دُنْيَا وَلَا دِينٌ إِلَّا بِهِ (بالجهاد)» [٤٣١].

وبالنسبة لأهمية الجهاد فقد تحدّثنا في البحوث السابقة عن هذا الموضوع، ومن ذلك ما ورد في ذيل الخطبة ٢٧ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

ثم يواصل الإمام عليه السلام توصياته لبنية وشيعته ويأمرهم بأربعة أمور مهمّة، ويقول في البيان الأوّل والثاني:

«وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَّاصِلِ وَالتَّبَادُلِ».

ثم يطرح البيان الثالث والرابع ويقول:

«وَأَيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ».

«تواصل» من مادة «وصل»، ويشمل كل أشكال الارتباط المعنوي والمادي والعقلائي والعاطفي، أمّا «تبادل» فهو من مادة «بذل» وهو

من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأنّ إحدى طرق تمتين العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد، البذل والمعونات المادية للمحتاجين والإنفاق على الآخرين بما يحقق لأفراد المجتمع التكاتف وتوثيق العلاقة فيما بينهم.

«تدابير» من مادة «دبر» (على وزن عبد) يعنى الإعراض عن الآخر إظهاراً للكراهية والعداوة، لأنّ المعرض عن الآخر يعطيه ظهره، و«تقاطع» يراد به كلّ أشكال قطع العلاقة مع الآخرين، وهاتان المفردتان تقعان على الضد من المفردتين الأوليتين وهما من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأنّ التدابير يعنى الانفصال الكامل، والتقاطع يشمل كلّ نوع من قطع الرابطة.

إنّ مسألة توثيق علائق المودة والمحبة بين الأفراد تارة تكون باللسان وأخرى عن طريق اللقاءات والزيارات المتبادلة، وهى مسألة فى غاية الأهمية فى التعاليم الإسلامية، كما أنّ الكراهية والتنافر وقطع العلاقات مذموم فى نظر الإسلام، وقد

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٢١

وردت أحاديث كثيرة فى ذم الهجران والتنافر فى المنابع الروائية المعتمدة، وأحياناً يشعر القارىء لها بقشعريرة لشدة مضامينها. وقد أورد المرحوم الكلينى فى كتاب «الكافى» حديثاً شريفاً عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أَيُّمَا مُسْلِمِينَ تَهَاجَرَا فَمَكَتَا ثَلَاثًا لَا يَصْطَلِحَانِ إِلَّا كَانَا خَارِجِينَ مِنَ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا وَلَايَةٌ فَأَيُّهُمَا سَبَقَ إِلَى كَلَامِ أَخِيهِ كَانَ السَّابِقَ إِلَى الْجَنَّةِ يَوْمَ الْحِسَابِ» [٤٣٢].

ونقرأ فى هذا الكتاب أيضاً رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«لَا يَزَالُ إِبْلِيسُ فَرِحًا مَا اهْتَجَرَ الْمُسْلِمَانَ فَإِذَا التَّقِيَا اضْطَلَّكَ رُكْبَتَاهُ وَتَحَلَّعَتْ أَوْصَالُهُ وَنَادَى يَا وَيْلَهُ مَا لَقِيَّ مِنَ الشُّبُورِ» [٤٣٣].

بل يمتد الأمر إلى أبعد من ذلك، فالشخص الذى يرى نفسه مظلوماً وأنّ الطرف الآخر ظالم له يجب عليه أيضاً السعى لتطوير الرابطة معه والسعى للتصالح وإزالة غبار وافرارات الظلم، كما نقرأ هذا فى حديث آخر فى كتاب «الكافى» عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«لَا يَفْتَرِقُ رَجُلَانِ عَلَى الْهَجْرَانِ إِلَّا اسْتَوْجَبَ أَحَدُهُمَا الْبِرَاءَةَ وَاللَّعْنَةَ وَرُبَّمَا اسْتَحَقَّ ذَلِكَ كِلَاهُمَا فَقَالَ لَهُ مُعْتَبٌ جَعَلَنِي اللَّهُ ذِمَّةً هَذَا الظَّالِمُ فَمَا بَالُ الْمَظْلُومِ قَالَ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُو أَخَاهُ إِلَى صَلَاتِهِ» [٤٣٤].

وهذه إشارة إلى لزوم التحرك على مستوى حلّ المشكلة بصورة سلمية ومنطقية فيما بينهما.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى التوصية التاسعة والعاشرة فى كلامه يقول:

«لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٢٢

هنا ربّما يطرح هذا السؤال نفسه: هل هناك رابطة معنوية وغيبية بين حكومة الأشرار وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أم توجد رابطة ظاهرية وملموسة بينهما؟

الظاهر أنّه من الممكن إثبات العلاقة بينهما بصورة منطقية، لأنّ أحد المصاديق المهمة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تتمثل فى التصدى لقوى السلطة والحكومة فيما لو ارتكبوا مخالفات شرعية ودستورية، فيجب على عامّة الناس تذكيرهم بواجباتهم ومطالبتهم للحكّام العمل وفق مقتضيات العدل والشرع، فلو أنّ الناس تركوا هذين الأمرين ووجد الحكّام أنفسهم أحراراً فى ما يتصرفون وفيما يسلكون دون أى اعتراض من أحد عليهم، فذلك من شأنه أن يزيدهم جرأة وجسارَةً على التوغل فى خط الانحراف والظلم، وبالتالي يتسلط الأشرار على المجتمع الإسلامى.

ولكن لماذا لا يستجاب الدعاء لرفع شرّ حكّام الجور والشرّ؟ فذلك لما ورد فى الروايات الإسلامية أنّ المصيبة والبلاء إذا كان بسوء اختيار الإنسان نفسه وتقصيره، فالدعاء لرفعه لا يكون مستجاباً ويقال له: هذه نتيجة أعمالك، لماذا تصرفت مثل هذا التصرف وارتكبت العمل الفلانى الذى تسبب لك بهذه العاقبة السيئة؟

والملفت للنظر ما ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليهما السلام أن الأختيار أيضاً في مثل هذه الظروف إذا دعوا لا يستجاب لهم: «فَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ» [٤٣٥].

تأمل

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وردت بحوث كثيرة وموسعة في النصوص القرآنية والروايات الشريفة بالنسبة لأهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونكتفي هنا بذكر روايتين في هذا الشأن:

جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ

نَفَحَاتِ الْوَلَايَةِ، ج ١٠، ص: ٢٢٣

الْمُنْكَرِ سَبِيلُ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنْهَا أَجْرُ الصُّلَحَاءِ فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا تُقَامُ الْفَرَائِضُ وَتَأْمَنُ الْمِيَاذَاهِبُ وَتَحِلُّ الْمَكَاسِبُ وَتُرَدُّ الْمَظَالِمُ وَتُعْمَرُ الْأَرْضُ وَيُنْتَصَفُ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَيُسْتَقِيمُ الْأَمْرُ» [٤٣٦].

وجاء في ذيل هذا الحديث أن الله عز وجل أوحى إلى شعيب النبي عليه السلام أتى معذب من قومك مائة ألف نفر، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم، فقال شعيب عليه السلام: يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأختيار؟ فأوحى الله عز وجل إليه: «ذَا هُنَا أَهْلُ الْمَعَاصِي وَلَمْ يَغْضَبُوا لِيْغْضَبِي» [٤٣٧].

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فَمَنْ نَصَرَهُمَا أَعَزَّهُ اللَّهُ وَمَنْ خَدَلَهُمَا خَدَلَهُ اللَّهُ» [٤٣٨].

والتعبير بـ «خلقان» في الواقع نوع من التشبيه، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد منه الخلق (بضم الخاء) ويعني الخصلة في ذات الإنسان، ولكن هذا الاحتمال بعيد ظاهراً بقريته ما ورد في ذيل الحديث.

وعلى أي حال فإن مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأمور التي أكدت عليها التعاليم السماوية وعمل بهذه الوظيفة الأنبياء والأولياء الإلهيين وقد أمروا جميع الناس بأداء هذه الوظيفة الشرعية.

وفي ختام هذا المقطع من هذه الوصية، لأبد من الإعراف بصراحة أن هذه التوصيات العشر المذكورة أعلاه لو تجسدت في حياة المسلمين على مستوى التطبيق والممارسة فإنها تضمن لهم العزة والقدرة والرفعة في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة ولا يتوقع من شخصيته نموذجية كأمير المؤمنين عليه السلام في وصيته وهو على فراش الشهادة غير هذه التوصيات التي تتضمن سعادة الدنيا والآخرة للمسلمين.

نقعات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٢٥

القسم الرابع

إشارة

ثُمَّ قَالَ:

يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُفَيْتُكُمْ تَخَوْضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ حَوْضًا، تَقُولُونَ: «قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ». أَلَا لَاتَقْتُلُنَّ بِي إِذَا قَاتَلَنِي. انظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ

مِنْ ضَرْبِيَّةِ هَذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبِيَّةٍ، وَلَمَّا تَمَثَّلُوا بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمَثَلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ».

الشرح والتفسير: توصية الإمام عليه السلام المؤكدة حول قاتله!

في هذا المقطع الأخير من هذه الوصية يتوجه الإمام عليه السلام بكلامه نحو أقربائه وأرحامه من أبناء عبدالمطلب ويوصيهم بثلاثة أمور مهمة فيما يتصل بقاتله، وهذا يعكس عظمة الإمام عليه السلام وسعة صدره تجاه أعدائه ومناوئيه. بداية يقول:

«ثُمَّ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَأُلْفِيَنَّكُمْ [٤٣٩] تَحْضُونَ [٤٤٠] دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا، تَقُولُونَ: «قَتَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ». أَلَا لَاتَقْتُلُنَّ بِي إِذَا قَاتَلِي».

ومثل هذه المسألة تحدث كثيراً على إمتداد التاريخ، عندما يقتل زعيم كبير أو ملك من الملوك فإن جماعة من أتباعه يسلكون سبيل التعصب والانتقام ويقومون بمجزرة كبيرة، وجماعة أخرى تغتنم الفرصة لتسوية حساباتهم الشخصية من نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٢٦

مخالفيهم فيكثروا فيهم القتل وسفك الدماء بهذه الذريعة، كما ورد في التاريخ الإسلامي عندما قام أتباع الخليفة الثاني بعد مقتله على يد أبي لؤلؤة بالانتقام له من ذويه وأقربائه وقتلوا عدداً منهم، وكذلك عندما قتل مصعب بن الزبير أخا عبيدالله بن زياد، فنذر عبيدالله أن يقتل مائة نفر من قريش، فقتل منهم ثمانين نفر، ثم أخبروه بأن مصعب قد قتل ثم بعث برأسه إلى عبدالملك، فهدأت نفسه حينذاك [٤٤١]، ولكن الإمام عليه السلام برؤيته الحكيمه وافقه الواسع وقف أمام هذا العمل، ولذلك لم تحدث بعد استشهاده تسوية حسابات شخصية باسمه ولم يتعرض المجتمع في ذلك الوقت لمثل هذه الحوادث الدامية والفوضى المدمرة.

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه مع أقربائه ويصدر الأمر الثاني لهم ويقول:

«انظروا إذا أنا مت من ضربتي هذه، فاضربوه ضربته بضربة».

والملفت للنظر أن الإمام عليه السلام يوصي بإقامة العدل بالنسبة لقاتله حتى في كيفية القصاص، لئلا يتحرك شيعته بدافع التأثر الشديد على مقتله ويعاملون قاتله بالقتل الفجيع والمثله ولا يكتفوا بالقصاص العادل.

وقد سبق وأن قرأنا في الكتاب رقم ٢٣ أن الإمام عليه السلام يقول:

«إِنْ أَبَقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي وَإِنْ أَقْنُ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ فَاعْفُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ».

ونستوحى من هذه العبارات أن الإمام عليه السلام كان راغباً في العفو عن قاتله ولكن الظروف والمستجدات في ذلك المحيط الاجتماعي لا تسمح قطعاً بالعفو عن القاتل، ولذلك يوصي الإمام عليه السلام هنا بالحد الأدنى من القصاص.

والجدير بالذكر ما ورد في «تاريخ الطبري» وكذلك في «الكامل» لابن الأثير، أن قاتل الإمام على عليه السلام، عبد الرحمن بن ملجم قال قبل استشهاد الإمام عليه السلام: شحذته - سيفي هذا - أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه، فقال الإمام عليه السلام له:

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٢٧

«أَنْتَ أَشَقَى خَلْقِ اللَّهِ وَقَدْ قَتَلْتَ نَفْسَكَ بِسَيْفِكَ» [٤٤٢].

ثم يوصي الإمام عليه السلام بوصيته الثالثة والأخيرة ويقول:

«وَلَمَّا تَمَثَّلُوا بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمَثَلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ» [٤٤٤].

إن المثلة بوصفها حالة إنتقامية وغير إنسانية كانت متداولة في عصر الجاهلية، ولذلك قام العرب المشركون في معركة احد بقتل

حمزة سيد الشهداء وعم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث لم يكتف العدو بقتله بل شق صدره بوحشيته وقساوة فظيعة وأخرج كبده أو قلبه وقطع أذنه وأنفه، وعندما شاهد رسول الله صلى الله عليه وآله شهادة عمه حمزة بن عبدالمطلب، تألم لذلك كثيراً وقال: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ وَإِلَيْكَ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ مَا أَرَى ثُمَّ

قال:

«لَيْتَن ظَفَرْتُ لِأُمِّئِلَيْنِ وَلَا مُثْلَيْنِ وَلَا مُثْلَيْنِ وَلَا مُثْلَيْنِ»

وعلى روايته أخرى أنه قال:

«لَأُمِّئِلَيْنِ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ»

فترلت الآية: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنَّ صَبْرًا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ خَيْرًا لِلصَّابِرِينَ» [٤٤٥]، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أصبرُ أصبرُ» [٤٤٦]

(يعنى ولا أنتقم).

ونعلم جيداً أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعد فتح مكة كان يملك القدرة الكاملة على الانتقام من أعدائه والمجرمين بأشد أنواع الانتقام ولكنه آثر العفو والصفح عنهم، أضف إلى ذلك ما ورد في حديث عن أحد الصحابة أنه قال: «مَا خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خُطْبَةً أَبَدًا إِلَّا أَمَرَنَا فِيهَا بِالصَّدَقَةِ وَنَهَانَا عَنِ الْمُنْثَلَةِ» [٤٤٧].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٢٩

الرسالة ٤٨

إشارة

إلى معاوية [٤٤٨]

نظرة عامة للرسالة

بداية لا بد من الإشارة في شأن صدور هذه الرسالة كما ذكر ذلك صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة وأن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في أحد أيام معركة صفين حيث اشتد فيه القتال، وضع عمامة رسول الله صلى الله عليه وآله على رأسه وقال: أيها الناس من أراد أن يتعامل مع الله في هذا اليوم فليستعد، فقام معه عشرة آلاف نفر أو أكثر فاستعدوا للقتال مع الإمام، ثم إن الإمام عليه السلام قرأ أبياتاً من الشعر الحماسي وهجم على جيش الشام، وكذلك حمل من معه حملة رجل واحد وشقوا صفوف جيش الشام، فعندما رأى معاوية هذا الحال ركب جواده واستعد للفرار، ولكن عمرو بن العاص أوصاه بأن يرفع المصاحف على الرماح ويدعو جيش الإمام عليه السلام بالخضوع لحكم القرآن،

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٣٠

وهذا الأمر أدى إلى وقوع الاختلاف في صفوف جيش العراق، وفي ذلك الوقت كتب معاوية كتاباً للإمام على عليه السلام وخلاصته: لقد طالت بنا الحرب وكل واحد منا يرى الحق بجانبه، وقد قتل جماعة كثيرة من الناس وإني أخاف أن يكون المستقبل أسوأ من ذلك وسنكون غداً مسؤولين أمام الله عن هذا الأمر، فإننا أدعوك لما فيه صلاح الأمة وحفظ دمايتها ودفع الفتنة والعداوة، وذلك أن نختار رجلين ممن نرضاها لأمر التحكيم أحدهما من أنصارى والآخر من أنصارك ليحكموا طبقاً لحكم الله فاتق الله وارض بحكم

القرآن والسلام.

فكتب إليه الإمام عليه السلام في مقام الجواب هذه الرسالة، التي تشتمل على نصائح لمعاوية وتحذيره من عاقبة أعماله التي ستقوده للندم والخسران، وهذه هي عاقبة كل من سار في خط الشيطان وأذعن لدعوته وسلّم زمام أموره بيده. وفي القسم الآخر من هذه الرسالة، يعلن الإمام عليه السلام قبوله بمسألة حكمية القرآن، لا من أجل دعوة معاوية، بل بسبب عظمه القرآن وحرمة.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٣١

وَإِنَّ الْبَغْيَ وَالزُّورَ يُوتِعَانِ الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيُبْدِيَانِ خَلْلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعْيبُهُ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ، وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْرًا بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَلَّوْا عَلَى اللَّهِ فَأَكْذَبَهُمْ، فَأَخِذْ يَوْمًا يَغْتَبِطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَتَهُ عَمَلِهِ، وَيَتَدَمُّ مَنْ أَمَكَنَّ الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَاذِبْهُ. وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجْبَنًا، وَلَكِنَّا أَجْبَنَّا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَالسَّلَامُ.

نفحات الولاية؛ ج ١٠؛ ص ٢٣١

الشرح والتفسير: نصيحة جامعة لمعاوية

يشير الإمام عليه السلام في هذه الرسالة الموجزة والعميقة المعنى إلى عدّة نقاط مهمّة ذكر بها معاوية بأنّه إذا استمع لنصيحة الإمام عليه السلام من كلّ قلبه وتحرك على مستوى العمل لتطبيقها فإنّه لم يكن ليحدث كلّ هذا الفساد في العالم الإسلامي وسوف لا يتسنى لشجرة بنى امية المشؤومة في النمو والرشد في البلاد الإسلامية المقدّسة.

بداية يتحدّث الإمام عليه السلام في نصيحته بشكل عام ويقول:

«وَإِنَّ الْبَغْيَ وَالزُّورَ» [٤٤٩]

يُوتِعَانِ الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيُبْدِيَانِ خَلْلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعْيبُهُ.

أجل، لا شيء أشنع وأساء من الظلم والكلام الباطل، لأنّه يخدع الإنسان ويوقعه

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٣٢

في وداى الهلكة والمتهمة بحيث لا طريق له للعودة للإيمان والصلاح وبالتالي سيخسر دينه ودنياه، وسيفتضح لدى عامّة الناس ويعرفونه بالفساد والإفساد.

وفي النقطة الثانية يقول الإمام عليه السلام:

«وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ».

يعتقد الكثير من شراح نهج البلاغة أنّ هذه الجملة إشارة إلى مطالبة معاوية بدم عثمان، لأنّ الأشخاص الذين رجحوا السكوت وتركوا نصرة عثمان فهم شركاء في قتله، ولكنهم ومن أجل التشويش على العوام وتحميقهم والتوصل إلى مآربهم الدنيئة رفعوا لواء الثأر لدم عثمان وطلبوا من الإمام عليه السلام أن يسلمهم قتله عثمان ليقصوا منهم، ولكن الإمام عليه السلام يقول: إنّك بهذا العمل لن تصل إلى مقصودك وأنت وأعوانك شركاء في قتل عثمان ولا يمكنكم المطالبة بدمه والقصاص من قتلته.

ويحتمل أيضاً في معنى هذه العبارة أنّ المراد من جملة

«مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ»

، هو حكومة الشام التي يطالب بها معاوية من الإمام عليه السلام، فالإمام عليه السلام يقول: إنني لا أسمح لك أبداً بتولى حكومة الشام، والشاهد على هذا الاحتمال ما ورد سابقاً في الرسالة رقم ١٧.

وهناك احتمال آخر أيضاً طرحه بعض الشراح في هذا المورد، وهو أن الإمام عليه السلام يقول: أنت لن تصل إلى مرادك من الدنيا وأن حكومتك مع ما فيها من الحوادث والمشكلات ستمر بسرعة وتقودك إلى الهلكة، والشاهد على هذا المعنى ما أورد بعض المؤرخين في نقلهم لهذه الرسالة من جملة قبل هذه الجملة حيث يقول الإمام عليه السلام فيها:

«فَاخَذَرِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ لَأَفْرَحَ فِي شَيْءٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِ مِنْهَا وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتَهُ...» [٤٥١].

ثم يشير الإمام عليه السلام في النقطة الثالثة من رسالته محذراً معاوية لينتبه من غفلته ويقول:

«وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْراً بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَلَّوْا [٤٥٢] عَلَى اللَّهِ فَأَكْذَبَهُمْ».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٣٣

ويرى أغلب شراح نهج البلاغة أن هذه الجملة إشارة إلى طلحة والزبير وأنصارهما الذين أشعلوا نار حرب الجمل للتوصل إلى مقام الخلافة وسدء الحكم، فهؤلاء تعاهدوا فيما بينهم بأنهم لا يتركوا هذا الأمر حتى يحصلوا على حكومة البصرة وإن استطاعوا أكثر من ذلك فإنهم يوسعون سلطانهم على المناطق الأخرى ولكنهم أجمعهم أخفقوا في تحقيق مبتغاهم وقد قتل زعمائهم وانهزم الباقون، أما عائشة التي كانت من قادة هذه الفتنة والحرب، فقد عفى عنها الإمام عليه السلام وعادت إلى المدينة في حالة الخجل والندم، وعلى ضوء ذلك فإن جملة «

فَأَكْذَبَهُمْ»

، تعنى أن الله تعالى فضحهم وأكذب احدوئتهم وأبرز خديعتهم.

ثم إن الإمام عليه السلام في النقطة الرابعة يحذر معاوية ويذكره بقيام الساعة وأنه سيرى عاقبة أمره وأعماله في ذلك اليوم، يقول:

«فَاخَذَرِ يَوْمًا يَغْتَبِطُ [٤٥٣] فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ [٤٥٤] عَاقِبَةَ

عَمَلِهِ، وَبِنَدَمٍ مَنْ أَمَكَنَّ [٤٥٥] الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ [٤٥٦] فَلَمْ يُجَاذِبْهُ».

أجل، في ذلك اليوم يفرح الصالحون ويغتبط المؤمنون، ولكنهم في الوقت نفسه يتأسفون على ما فاتهم من أيام وساعات لم يعملوا فيها عملاً صالحاً ولم يزدادوا من الصالحات والخيرات، أما الأشرار فإنهم سيعيشون الندم الشديد بسبب ارتكابهم للسيئات ولما يرونه أمام أعينهم من عذاب أليم على ما اجترحوه في الدنيا.

ويطلق القرآن الكريم على يوم القيامة بأنه «يوم الحسرة» ويقول: «وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٣٤

الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» [٤٥٧].

ويقول في الآية ٥٤ من سورة يونس: «وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرَبُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظَلِّمُونَ».

وقد ورد في بعض نسخ نهج البلاغة كلمة «يغتبط» بصورة مبني للمجهول وتعني أن الصالحين سيقعون مورد غبطة الآخرين، وهذا التعبير أنسب مع مفهوم الغبطة.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه بعد النصائح المثيرة ويبين الهدف الأصلي من هذه الرسالة ويقول:

«وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجْبِنَا، وَلَكِنَّا أَجْبِنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَالسَّلَامُ».

ومعلوم أن معاوية لم يكن من أهل القرآن، والشواهد التاريخية تدل على أنه لم يكن يؤمن بالقرآن إيماناً سليماً، بل كان يتخذ القرآن وسيلة للخلاص من الهزيمة القطعية والتوصل إلى أهدافه وغاياته المشؤومة.

جاء في كتاب «صفين»: عندما رفع أهل الشام المصاحف على الرياح، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي أَعْتَقُ مَنْ أَجَابَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَلَكِنَّ مُعَاوِيَةَ وَعَمْرُو بْنَ الْعَاصِ وَإِبْنُ أَبِي مُعِيْطٍ وَحَبِيبُ بْنُ مُسْلِمَةَ وَإِبْنُ أَبِي سِرْحٍ لَيْسُوا بِأَصْحَابِ دِينٍ وَلَا قُرْآنٍ إِنِّي أَعْرِفُ بِهِمْ مِنْكُمْ صَحِبْتُهُمْ أَطْفَالًا وَصَحِبْتُهُمْ رِجَالًا فَكَانُوا شَرَّ أَطْفَالٍ وَشَرَّ رِجَالٍ» [٤٥٨].

ويتبين من هذه العبارة أنّ الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بمثل هذا التحكيم الكاذب للقرآن الكريم، ولكن جماعة من أنصاره وأتباعه الجهلة فرضوا على الإمام عليه السلام هذه القضية، وعندما شاهدوا العاقبة السيئة لهذا التحكيم ندموا على ذلك، والعجيب أنّهم اعترضوا على الإمام لقبوله أمر التحكيم!

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٣٥

الرسالة ٤٩

إشارة

إلى مُعَاوِيَةَ أيضاً [٤٥٩]

نظرة عامة للرسالة

كما ورد في بحث سند هذه الرسالة فالمخاطب لها- كما يعتقد الكثير من المؤرخين والشارحين- هو عمرو بن العاص، وقد صرح بهذا المعنى الدينوري في كتابه «الأخبار الطوال»، ونصر بن مزاحم في كتاب «صفين»، أضاف إلى ذلك أنّ قسماً من هذه الرسالة قد حذفها السيد الرضى عند انتقائه لبعض المواضيع منها ولكنه يذكر بأنّ الإمام عليه السلام في ذلك المقطع المحذوف حذر عمرو بن العاص بصراحة من أتباعه لمعاوية.

وعلى أيّة حال، فالمخاطب لهذه الرسالة أيّاً كان، يتحدّث الإمام عليه السلام معه بكلامه البليغ ومواعظه المثيرة أن لا ينخدع بالدنيا، فالدنيا لا ترضى أصحابها أبداً فيما يطمعون للوصول إليه ويزداد حرصهم للتوصل إلى مبتغاهم، وضمناً يوصيه الإمام بالاعتبار من تاريخ الأقسام السابقة.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٣٧

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا، وَلَمْ يُصَبِّ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصًا عَلَيْهَا، وَلَهَجًا بِهَا، وَلَنْ يَشْتَعْنِي صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا، وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقٌ مَا جَمَعَ، وَتَنْقُصُ مَا أَتْرَمَ! وَلَوْ اعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: الحرص على الدنيا لا يوصلك إلى شيء!

في هذه الرسالة وبعد أن يحمد الإمام عليه السلام البارئ تعالى ويشئى عليه يلفت نظر المخاطب «سواءً كان معاوية أو عمرو بن العاص» إلى أمور مهمّة.

بداية يقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا».

لأنّ عمل الدنيا وسلوكها إلى درجة من التعقيد والتنوع والمثير للتشويش بحيث إنّ الإنسان إذا اتّجه نحوها فإنّها ستشغله في جميع عمره ووقته حتى يغفل عن الاهتمام بسلامته وراحته والقيام بوظائفه تجاه زوجته وأبناءه وأصدقائه وأرحامه، وأكثر من ذلك تشغله

عن أداء الفرائض الإلهية والتكاليف الشرعية، حتى يصل الأمر بأصحابها فيما لو كانوا من أهل الصلاة أن يؤدوا صلاتهم في آخر وقتها ويفكرون في أثناء الصلاة في أمورهم الدنيوية، ويستعجلون باتمامها بعيداً عن حالات التوجه القلبي إلى الله تعالى في صلاتهم، وأحياناً يخرجون من بيوتهم في الصباح الباكر في طلب الدنيا وأبناؤهم يغطون في نوم عميق، وعندما يعودون في الليل يرون أطفالهم نيام كذلك، وهذه طبيعة أصحاب الدنيا وحياتهم.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٣٨

وفي المقطع الثاني يتعرض الإمام عليه السلام لمسألة خطيرة وهي حالة الحرص لدى أصحاب الدنيا ويقول:

«وَلَمْ يُصَبِّ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا، وَلَهْجاً [٤٦٠] بِهَا، وَلَنْ يَسْتَعْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا».

وقد ورد في بعض الروايات تشبيه الدنيا بماء البحر المالح، الذي كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً، وهذا ما ورد في حديث عن الإمام الكاظم عليه السلام يقول:

«مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ مَاءِ الْبَحْرِ كُلَّمَا شَرِبَ مِنْهُ الْعَطْشَانُ زَادَ عَطْشاً حَتَّى يَقْتُلَهُ» [٤٦١].

ويتحدث القرآن الكريم عن هذه الحالة ضمن قصة بليغته تلخص في أخوين متخاصمين جاءا إلى النبي داود عليه السلام فقال أحدهما «إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ» [٤٦٢].

فحكم داود عليه السلام بينهما وقال: «قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نَعْجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ...» [٤٦٣].

هذه القصة تشير إلى أن أصحاب الدنيا يعيشون الحرص والولع إلى درجة إلى أنهم لا يرضون للآخرين أن يملكوا أدنى شيء حتى لو كانوا إخوتهم. وكما يقول الشاعر:

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران
وكل وجدان خط لانبات له فإن معناه في التحقيق فقدان
يا عامراً لخراب الدهر مجتهداً بالله هل لخراب العمر عمران
يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وذو القناعة راض في معيشته وصاحب الحرص إن أثرى فغضبان
هما رضيعا لبان حكمه وثقى وساكن وطن مال وطغيان

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٣٩

وجاء في الحديث القدسي المعروف:

«لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَابْتَغَى إِلَيْهِمَا ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ» [٤٦٤].

وقال الشاعر:

ويحك يا نفس دعي ما عشت ذل الطمع
وارضى بما جرى به حكم القضاء واقتنعي
إياك والميل إلى شيطانك المبتدع
واقصدى واقصرى كي ترتوى وتشبعي
أين السلاطين الأولى من حمير وتبع
شادوا الحصون فوق كل شأهق مرتفع
لم يبق من ديارهم غير رسوم خضع

كفا بذاك واعظاً وذاجراً لمن يعي

حسبك يا نفس اقبلى نصحي ولا تضيعي [٤٦٥]

وحالة الحرص في الحقيقة نوع من الجنون، لأن الكثير ممن يعيشون هذه الحالة يملكون كل ما يمنحهم الرفاهية والراحة في الحياة بحيث إنهم يستطيعون بما يملكونه من العيش إلى آخر حياتهم بشكل جيد ومريح، ولكن جنود الحرص لا يدعهم يعيشون في راحة وتدعوهم باستمرار إلى بذل مزيد من الجهد والتعب لتحقيق المزيد والمزيد بحيث إنهم لو اعطوا جميع ما في الدنيا لتمتوا أن يكون لهم ما في السموات أيضاً.

ولذلك نقرأ في دعاء بعض الأئمة المعصومين عليهم السلام:

«أَعُوذُ بِكَ يَا رَبِّ مِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ» [٤٦٦]

وفي الحقيقة فالحرص يعتبر المنبع

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٤٠

الأصل لجميع المشكلات والمصاعب وما يترتب عليها من نتائج أليمة وعواقب سيئة.

ونختم هذا البحث بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ بَاباً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْحِرْصِ مِثْلَهُ» [٤٦٧].

وفي المقطع الأخير يقول الإمام عليه السلام:

«وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ، وَنَقْضُ مَا أُبْرِمَ!» [٤٦٨].

أجل، فإنه لا تمضي مدة حتى يجد الإنسان نفسه وهو يودع ما تعب في تحصيله من الأموال النفيسة والمملوكات والأشياء الجميلة ويتركها جميعاً ويكتفى بحصته من هذه الثروات وهي الكفن حيث يذهب معه إلى قبره.

ويتحدث القرآن الكريم عن قصور الفراعنة وما تركوه من بساتين ومزارع وعيون وقرى مزدهرة، ويقول: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ» [٤٦٩].

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه في هذه الرسالة ويشير إلى النقطة الرابعة:

«وَلَوْ اعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَالسَّلَامُ».

إن الاعتبار من مصير السابقين يعدّ من المسائل المهمة التي ورد التأكيد عليها في القرآن الكريم وأحاديث نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وأئمة الدين عليهم السلام.

يقول القرآن الكريم: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» [٤٧٠].

وأساساً فإنّ قسماً مهماً من الآيات القرآنية التي تتحدث عن تاريخ الأقسام السابقة ناظر إلى هذه المسألة، لأنه لا درس ولا عبرة أبلغ من دورس التاريخ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٤١

والحوادث الواقعة في طيات التاريخ البشري، ولكن الكثير من الناس، كما يقول القرآن الكريم يمرّون على هذه الآيات والآثار دون التدبر فيها وكسب العبرة منها، فيمرّون على آثار القدماء وأطلال الأقسام الغابرة لغرض الزهه والترويح عن النفس فقط، واليوم نرى أنّ صناعة السياحة تتسع وتزدهر وفي الغالب ينظر السياح إلى الآثار التاريخية بوصفها آثار فنية وتعكس حضارة أولئك القوم ومقدراتهم الفنية وإمكاناتهم العمرانية ويفتخرون بذلك دون أن يطالعوا مستقبلهم وما سيكون مصيرهم من خلال هذه الآثار والأطلال.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٤٣

الرسالة ٥٠

إشارة

إلى أمرائه على الجيش [٤٧١]

نظرة عامة للرسالة

تشكل هذه الرسالة أساساً من ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: يتحدث الإمام عليه السلام عن حقّ الله تعالى على أولياء الأمور ومن بيدهم مقاليد الولاية والسلطة، فلا ينبغي أن تكون هذه القدرة والسلطة عاملاً لغفلتهم عن حاجات الناس وإبعادهم عنهم، بل ينبغي استثمار هذه القدرة للانفتاح على الناس والاقتراب منهم والسعى في قضاء حوائجهم.

وفي المقطع الثاني: يخاطب الإمام عليه السلام قادة جيشه ويقول: إنني أحسبكم بطانتي وإخواني ولا أكتمكم سرّاً، (سوى الأسرار العسكرية والحربية) وأستشيركم في المسائل التي ليس فيها حكم إلهي مسلّم وأؤدي حقكم كاملاً، وفي مقابل ذلك يجب

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٤٤

عليكم أن تتحركوا في خط الطاعة لأوامري التي تصبّ في خدمة الامة الإسلامية ولا تتوانوا عن خدمة المسلمين ولا تمتنعوا عن أي تضيعة وإيثار.

وفي المقطع الثالث: يتحدث الإمام عليه السلام عن الأشخاص الذين سلكوا طريق المخالفة والعناد وتمردوا على طاعة إمامهم، ويهددهم بالعقوبة القاسية.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٤٥

القسم الأول

إشارة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَاحِجِ.
أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الْوَالِي أَلَّا يُغَيِّرَهُ عَلَى رِعْيَتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ، وَلَا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبَادِهِ، وَعَظْفًا عَلَى إِخْوَانِهِ.

الشرح والتفسير: لا يبعدنكم المقام عن الناس!

يتحدّث الإمام عليه السلام في المقطع الأوّل من هذه الرسالة إلى زعماء جيشه بوصفهم «أصحاب المسالِح» أي المحافظين للثغور ويقول:

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَالِحِ».

«المسالِح» جمع «مسلحة» وتعني الحد والثغر، والحدود عادةً هي المناطق التي تقع في أطراف البلاد، وربما تتعرض لهجوم من قبل العدو، ولهذا السبب فإنّ الحكومات تضع قسماً مهماً من قواتها المسلحة في هذه المناطق لتأمين من هجوم الأعداء المباغت على هذا البلد، وهذا التعبير يشير إلى أنّ الاهتمام بالثغور وتحصين الحدود يعتبر من أهم وظائف القوات المسلحة والجيش في الإسلام. ثمّ يشرع الإمام عليه السلام من نفسه ويبيّن حقوق الوالي بشكل عام، وفي المقطع الآخر يشير إلى موارد خاصّة بالتحديد كشرح وبيان لهذا المجمل ويذكرها واحداً بعد الآخر.

وعلى أيّة حال فالإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة يشير إلى نقطتين مهمتين:

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٤٤

الأولى: قوله:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الْوَالِي أَلَّا يُغَيِّرَهُ عَلَى رِعِيَّتِهِ فَضْلًا نَالَه، وَلَا طَوْلًا [٤٧٢] خُصَّ بِهِ».

وهذه إشارة إلى أنّ الوالي أو القائد يجب أن يكون إلى درجة من قوّة شخصيّة وبناء الذات لا يغيّره المنصب ولا يضع نفسه في حال وصوله إلى القدرة ويحمله على العجب والغرور والأنانيّة، وبالتالي يعيش حالات الاستبداد والتفرعن كما هو الحال في غالبية زعماء الدنيا وقادتها الماديين، فإنّهم قبل وصولهم إلى مسند القدرة والسلطة يتحدّثون للناس بكلمات لطيفة ويعيشون حالة البساطة والشعبية، ولكنّهم عندما يصلون إلى مسند السلطة ينسون كلّ شيء وتبدأ حالات الاستبداد تتضح لديهم، ولكنّ أولياء الله والأشخاص الذين يسرون في خطهم مصونون من هذا الخطر.

في المقطع الثاني يضيف الإمام عليه السلام:

«وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعْمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبَادِهِ، وَعَطْفًا عَلَى إِخْوَانِهِ».

وتشير هذه العبارة إلى أنّ الإنسان الجالس في مسند الرئاسة والقدرة ليس فقط لا ينبغي له الاستبداد والابتعاد عن الناس بل بعكس ذلك يجب عليه كلّما ازدادت نعمه الله عليه أن يقترب من الناس أكثر فأكثر، ويتواصل معهم من مواقع المحبّة والشفقة وهم الذين يصفهم الإمام عليه السلام بأنّهم «إخوانه» لأنّ شكر هذه النعمة لا يتيسر إلّا من هذا الطريق.

وعلى هذا الأساس فالإمام عليه السلام يقرّ لمخاطبيه في البدايه بحقّهم في مطالبه الإمام بأداء حقوقهم، ثمّ يبيّن الإمام في المقطع اللاحق من هذه الرسالة حقّه عليهم.

وقد ورد في كتاب «غررالحكم» عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَاعْتَبِرُوا بِهَا وَلَا تَمَلُّوها فَتَتَحَوَّلَ نِعْمًا» [٤٧٣].

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٤٧

القسم الثاني

إشارة

أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِرَ دُونَكُمْ سِتْرًا إِلَّا فِي حَرْبٍ، وَلَا أَطْوِي دُونَكُمْ أَمْرًا إِلَّا فِي حُكْمٍ، وَلَا أُؤَخِّرُ لَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ، وَلَا أَقِفَ بِهِ

دُونَ مَقْطَعِهِ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ النِّعْمَةُ، وَلِي عَلَيْكُمْ الطَّاعِيَةُ؛ وَالْأَلَّا تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوِهِ، وَلَمَّا تَفَرَّطُوا فِي صِلَاحٍ، وَأَنْ تَحُوضُوا الْعَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنْ اعْوَجَّ مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْطِمَ لَهُ الْعُقُوبَةُ، وَلَا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً، فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَانِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُضْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ. وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: حقوق الإمام وحقوق القادة

في هذا المقطع من الرسالة يفصل الإمام عليه السلام ما أجمله وبينه بشكل عام ومغلق في المقطع السابق.

بداية يشير إلى حقوق الرعية عليه ويؤكد على خمسة حقوق، وأول هذه الحقوق يقول عليه السلام:

«أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِرَ [٤٧٤] دُونَكُمْ سِرًّا إِلَّا فِي حَرْبٍ».

ومعلوم أن إخفاء الأسرار عن الأصحاب والأعوان يعد نوع من عدم الثقة والاعتماد عليهم، وفي الكثير من الموارد يتسبب في إساءة الظن أو خلق رؤى

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٤٨

وتفسير مختلفة لحادثه معينه، ولكن إذا كان الإمام عليه السلام أو القائد يتواصل مع أعوانه بشكل مستمر على مستوى إخبارهم بالحوادث الواقعة، فإن ذلك من شأنه توطيد عناصر الثقة وتقوية التعاطف فيما بينهم، فيتراجع سوء الظن والتشويش الذهني إلى الحد الأدنى، وطبعاً هناك موارد لا بد للإمام والوالي من كتمان السر، وذلك في القضايا العسكرية وأمثالها، لأن العدو إذا علم بتفاصيل الخطط العسكرية للطرف المقابل فسيستدبر أموره ويستعد بشكل كامل للمقاومة وسيكون بإمكانه أن يحبط الخطة قبل الموعد المقرر، ومن هذه الجهة نرى أن القادة العسكريين على إمتداد التاريخ يخفون برنامجهم القتالي إلى آخر لحظة ليتمكنوا من توجيه الضربات القاصمة إلى العدو بالاستفادة من عنصر المباغتة.

وفي تاريخ حروب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وغزواته نرى هذا الأصل بوضوح، وعلى حد قول المؤرخ المعروف الطبري: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله، قل ما يخرج في غزوة إلا كنى وأخبر أنه يريد غير الذي يسعى له... [٤٧٥]. يعنى ما كان يخبر أصحابه وأنصار بمقصده وغايته النهائية.

وأحياناً كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أراد سفيراً إلى الحرب روى غيره، كما روى أنه لما نوى غزوة بدر كتب للسرية كتاباً في المدينة، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة إلى صوب مكة يومين أو ثلاثة ثم ينظروا في الكتاب ويعملوا بما فيه... [٤٧٦]، ومعلوم أن النبي لو كان يبين له في بداية الأمر مراده ومقصوده فإن هذا الخبر بدوره سينتشر ويشيع في كافة أرجاء المدينة ويسارع الجواسيس في إيصال هذا الخبر إلى العدو فيستعدون للقاء المسلمين وربما تنقلب موازين المعركة ويتغير مصير الحرب.

ثم يشير الإمام عليه السلام في الحق الثاني للناس على الوالى ويقول:

«وَلَا أُطَوِّى [٤٧٧]

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٤٩

دُونَكُمْ أَمْرًا إِلَّا فِي حُكْمٍ».

وهذا هو أصل المشورة الوارد في القرآن الكريم والروايات الإسلامية بشكل واسع وهو ما يؤكد عليه الخبراء وأصحاب الشأن السياسى فى عالمنا المعاصر وإن كانوا يمارسون شيئاً آخر على مستوى العمل، فالمشورة مع الأصحاب والأنصار والأتباع يمنحهم قوة فى الشخصية واحساساً فى المسؤولية وتحكماً للروابط العاطفية، أضف إلى ذلك أن المشورة تسبب (فى غير المعصومين) إلى التقليل من الأخطاء إلى الحد الأدنى.

أمّا في مسألة القضاء وعند صدور الحكم، فيجب على القاضى أن يصدر حكمه بحزم وقوة، وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إِذَا كَانَ الْحَاكِمُ يَقُولُ لِمَنْ عَنْ يَمِينِهِ وَلِمَنْ عَنْ سِيارِهِ مَا تَرَى مَا تَقُولُ فَعَلَى ذَلِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أَلَّا يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ وَتُجْلِسُهُمْ مَكَانَهُ» [٤٧٨].

مضافاً إلى ذلك إذا كان القاضى يفشى ما فى ذهنه من الحكم الشرعى فربما تتحرك عناصر مختلفة لتغيير رأيه أو توهينه وممارسته بعض الضغوطات عليه لإجباره على تغيير الحكم.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الحق الثالث والرابع ويقول:

«وَلَا أُؤَخِّرْ لَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ، وَلَا أَفَفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ».

والفرق بين هذين الحقيين يتبين من خلال مثال بسيط، فلو تقرر أن يؤذن لشخص بالسكن فى دار لمدة شهر واحد ومعين، فلا ينبغي تأخير إسكانه عن هذا الشهر، والآخر، أنه لا ينبغي تقليص المدّة قبل انتهاء الشهر، ونتيجة كلا الأمرين أن تؤدى الحقوق كاملة دون زيادة أو نقصان.

وفى الحق الخامس والأخير يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٥٠

وطبعاً فمراد الإمام عليه السلام أنّ الوالى أو القائد يتعامل مع جميع الأفراد بشكل مساوٍ دون الأخذ بنظر الاعتبار مواقعهم الاجتماعيه وامتيازاتهم المادية، وعلى ضوء ذلك فإنّ هذا الكلام لا يعنى أنه فى حال اختلاف الظروف والمقامات فإنّ الأفراد يقفون على حدّ سواء أمام القائد، من قبيل أن يكون شخص أحد قواد الجيش، والآخر رجل عادى، وثالث والياً على منطقة، وآخر حارساً لبنائية المحافظة، وآخر يتولى حراسة بنائية حكوميّة، أو يكون أحدهم طبيباً والآخر مضمداً، أو يشتغل أحدهم بالأعمال الثقيلة ولأيام متواليه ويتولى الآخر أعمالاً سهلة وفى مدّة قصيرة، فمن البديهي أنّ حقوقهم المائيّة لا تكون سواسية، ولكن إذا كان رجلان يعملان عملاً واحداً فيجب أن تكون اجرتهم واحدة، رغم أنّ أحدهم من عائلة عريقة ومعروفة، والآخر رجلاً عادياً من عائلة غير معروفة.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام هذه الحقوق الخمسة للناس على القائد أو الإمام، تعرض لبيان حقوقه للناس وأشار إلى أربعة حقوق.

الأول يقول:

«فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ النُّعْمَةُ، وَوَلَى عَلَيْكُمْ الطَّاعَةُ».

فعندما أودى هذه التكاليف الحقوقيّة التى علىّ تجاهكم فإنّ نعمته الله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» [٤٧٩]، ستكون كاملة عليكم، ولى حقّ الطاعة عليكم، ويجب عليكم إطاعة أوامرى التى تضمن لكم سعادة الدنيا والآخرة، وتحفظ مصالحكم الفرديّة والاجتماعيّة.

ثم يبيّن الإمام عليه السلام الحقّ الثانى ويقول:

«وَأَلَّا تَنْكُصُوا» [٤٨٠] عَنْ دَعْوَةٍ».

إنّ هذا الأمر الثانى بالنسبة للأمر الأول من قبيل ذكر العام بعد الخاص، لأنّ المخاطب فى هذه الرسالة هم قادة الجيش، الذين ينبغي عليهم إطاعة أوامر الإمام وخاصّة فيما يتعلق بالدعوة إلى الجهاد.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٥١

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الحق الثالث ويقول:

«وَلَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ».

الكثير من الأشخاص الذين يتحركون بحسب الظاهر فى مسير الطاعة وتلبية دعوة الإمام والقائد، فإنهم بسبب التكاسل والتواكل لا

يحققون النتيجة المطلوبة، بل الإمام عليه السلام يعتبر هذا الأمر كحقّ مستقل من حقوق الوالى على الرعية ليعلم الجميع أن إطاعة الأمر شىء، واعتباره أمراً جدياً شىء آخر.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن هذه الجملة إشارة إلى مسألة الجهاد حيث أكد الإمام عليه السلام على أن وظيفة قادة الجيش الاستفادة من كل فرصة لدفع الأعداء وترك حالة التكاسل والتقصير فى هذا الشأن.

وأخيراً يبين الإمام عليه السلام الحق الرابع والأخير ويقول:

«وَأَنْ تَخُوضُوا الْعَمْرَاتِ [٤٨١]

إِلَى الْحَقِّ».

وهذه إشارة إلى أن التضحية فى مقام الدفاع عن البلد الإسلامى تعتبر وظيفة لازمة وتكليف واجب، أى التضحية الى درجة بذل النفس فى سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين، ويعتبر هذا الأمر أحد الحقوق للوالى أو الإمام على قادة الجيش والمسؤولين الأمنيين فرداً فرداً.

تاريخ الإسلام زاخر بمظاهر الإيثار والتضحية وخوض الغمرات للوصول إلى الحق، وكمثال على ذلك:

ما ورد فى «تاريخ الطبرى» فى حوادث سنة ٣٧: أن عمّار بن ياسر خرج إلى الناس فقال: اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هذا البحر لفعلت، اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك أن أضع ظبئة سيفى فى صدرى ثم أنحنى عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت، وإنى لا أعلم اليوم عملاً هو أراضى

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٥٢

لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم أن عملاً من الأعمال هو أراضى لك منه لفعلته [٤٨٢].

وجاء فى «سيرة ابن هشام» أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم أن يمنعوا غيرهم - واتجهوا نحو «بدر» - فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش (وكان يروم من ذلك اختبار مدى استعداد أنصاره وأصحابه للقتال) ... ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «إِنَّا لَنَرُّكَ كَظَبِيٍّ فُلُجًا مَاءً دَامُوا فِيهَا فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَاتِلًا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» [٤٨٣]. ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالدى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله خيراً ودعا له به، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أشيروا على أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبه قالوا: يارسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا، نمنعك مما نمنع أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، قال له سعد بن معاذ: والله كأنك تريدنا يارسول الله، قال: أجل، فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك، فوالدى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله بقول سعد ونشطه ذلك ... [٤٨٤].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٥٣

ثم إن الإمام عليه السلام فى المقطع الثالث من كلامه يخاطب المتخلفين بلغة التهديد ليقرن البشارة مع الإنذار ويقول:

«فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَى عَلَيَّ مِمَّنْ اغْوَجَ [٤٨٥] مِنْكُمْ، ثُمَّ أَعْظَمَ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَلَمَّا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُحْصَةً».

وفى الواقع أن الإمام عليه السلام فى هذا المورد يقرر عقوبتين للمتخلفين، عقوبة معنوية وعقوبة ظاهرية، أما العقوبة المعنوية فسقوط قدرهم ومقامهم عند الإمام عليه السلام إلى درجة الحضيض، وأما العقوبة الظاهرية فهى التعزير البدنى الذى يقرره الإمام بحقهم، ومعلوم أن البشارة والإنذار لو لم يقرنا فى أمر الإدارة والمسؤولية وخاصة فى إدارة الحرب والدفاع، فإنها ستفقد مصداقيتها وفائدتها فى ضبط الأمور.

وفى الختام يشير الإمام عليه السلام إشارة مختصرة ودقيقة فيما يتصل بما ذكر آنفاً ويقول:

«فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُضِلُّحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ.
وَالسَّلَامُ».

وجمله

«فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَائِكُمْ»

إشارة إلى الحقوق الخمسة التى بينها الإمام عليه السلام فى مستهل كلامه أنه يعطيهم الحق بأن يطالبوا هذه الحقوق من قادتهم وامرائهم، وجمله

«أَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ..»

، إشارة إلى الحقوق الأربعة التى طالب بها الإمام عليه السلام منهم، وهى الحقوق التى تصب فى صالحهم ومن أجل إصلاح أمورهم. ونرى أن الإمام عليه السلام فى هذا المورد يستخدم كلمة «امراء» بصيغة الجمع، ويشير بذلك إلى نفسه والقادة أو الأئمة الذين سيأتون بعده بالحق، ويستلمون زمان الأمور بالحق، لا أن المراد قادة الجيش، لأنهم هم المخاطبين بهذا الكلام.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٥٥

الرسالة ٥١

إشارة

إلى عَمَالِهِ عَلَى الْخِرَاجِ [٤٨٦]

نظرة عامة للرسالة

يشير الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة إلى عدة نقاط مهمة: ففى المقطع الأول يتحدث الإمام عن الثواب المترتب على أتباع وجهود الجامعين للخراج وما يتحملوه فى هذا السبيل من مشقة، ويتحدث الإمام عليه السلام عن ذلك بوصفه ذخيرة يوم المعاد. وفى المقطع الثانى من هذه الرسالة يوصى الإمام عليه السلام بشكل أكيد برعاية العدل والمحبة للناس عند أخذ الخراج منهم وينهى عن أى شكل من الأشكال الإجحاف والتعدى والإضرار بهم، حتى بالنسبة لغير المسلمين الذين لا يعينون العدو على المسلمين يوصى الإمام أيضاً بهذه الوصية فى حقهم.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٥٦

وفى المقطع الأخير يدعوهم إلى تقديم فروض الشكر على النعم الإلهية ولزوم نصره الدين الإلهى بجميع ما لديهم من قوة وقدرة.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٥٧

القسم الأول

إشارة

مَنْ عَبْدَ اللَّهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْخَرَاجِ:
 أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُفِّتُمْ بِهِ يَسِيرٌ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا
 نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَائِهِ مَا لَاعْذَرَ فِي تَرْكِ طَلْبِهِ.

الشرح والتفسير: حذار من ظلم الناس!

إشارة

المراد بأصحاب الخراج هم المأمورون على جمع خراج الأراضي المفتوحة عنوة، وتوضيح ذلك: عندما ينتصر المسلمون على الأعداء فإن أراضيهم ستكون من الناحية العملية ملكاً للمسلمين، ولكن المسلمين في الغالب يدعون هذه الأراضي بأيدي أصحابها الأصليين، وفي مقابل ذلك عليهم أن يدفعوا مبلغاً من المال أو مقداراً معيناً من محاصيل تلك الأراضي بوصفها ضريبة أو اجرة تؤخذ منهم ولا يكون هذا المبلغ ثقيلاً وكثيراً عادة، وهذه المسألة بدأت منذ عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بفتح خيبر، ثم استمرت في الفتوحات الإسلامية الأخرى ويشكل الخراج الجزء الأهم من بيت المال في ذلك الوقت، وهو مبلغ له شأن ويتعلق بجميع المسلمين، وطبعاً هناك عمال ومسؤولون آخرون يتولون جمع الزكاة من المسلمين لتصرف على حاجات جيش الإسلام والقضاة والفقراء والمحتاجين.

والإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة يؤكد على عدّة أمور:

الأول: يحذر الإمام عليه السلام أصحاب الخراج بأن لا يغفلوا عن العالم الآخر وما

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٥٨

سيسيرون إليه بعد الموت، فالغفلة عن هذا الأمر ستفقد الإنسان الاستعداد له، يقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا».

ونقرأ في الروايات الشريفة أن أعقل الناس هو الشخص الذي يفكر بما بعد الموت:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَكْثَرَكُمْ أَكْثَرُكُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ» [٤٨٧]

، وهذا يعني أن الإنسان ما لم يفكر في سفر الآخرة فإنه لا يهيئ لنفسه وسائل هذا السفر الخطير وسيخرج من الدنيا خالي اليدين.

وفي الإمر الثاني يخاطب الإمام عماله على الخراج ويقول:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُفِّتُمْ بِهِ يَسِيرٌ وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ».

هل أن مقصود الإمام عليه السلام من هذه العبارة سعى هؤلاء في جمع الخراج فقط، أم يشمل جميع التكاليف الواجبة على الإنسان؟
 يحتمل كلا الأمرين، ومع الالتفات إلى أن الجملة السابقة عامة وتشمل جميع الأعمال فإن الاحتمال الثاني أنسب حسب الظاهر، وهذا في الواقع إشارة إلى مضمون الآيات الشريفة: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» [٤٨٨]، و «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» [٤٨٩].

أجل، فإنَّ الله تعالى جواد وكريم وفي مقابل أعمالنا الصغيرة يعطينا الثواب العظيم.

وفي الأمر الثالث يشير الإمام عليه السلام إلى موضوع يتعلق بترك الظلم، ويقول:

«وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا نَهْيُ اللَّهِ عَنْهُ مِنَ الْبُغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي تَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَأَعُذَرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ».

وهذه إشارة إلى أنَّ للظلم والجور عقوبته شديدة قطعاً، وفي تركه ثواب جزيل أيضاً، وعلى هذا الأساس ينبغي على الإنسان ترك مثل هذه السلوكيات الظالمة

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٥٩

ليس فقط بسبب خوفه من عقوبتها، بل من أجل تحصيل الثواب على تركها أيضاً.

ونقرأ في الكلمات القصار للإمام عليه السلام في نهج البلاغة ما يشبه هذا المعنى والمضمون بتعبير أوسع وأبلغ حيث يقول:

«لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللَّهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لَكَانَ يَجِبُ أَلَّا يُعْصَى شُكْرًا لِنِعْمِهِ» [٤٩٠].

تأمل

ماذا يعني الخراج؟

كلمة «خراج» و «خرج» مأخوذة في الأصل من «خروج»، وتعني ما يتحصل من مال شخص أو من أرضه الزراعية، وذهب بعضهم إلى أنَّ كلمة «الخراج» تعني مال الإجارة للأراضي، يقول الراغب في كتاب «المفردات»: الخراج يطلق غالباً على الضرائب التي توضع على الأراضي الزراعية والبساتين، وعلى أية حال فإنَّ هذه الكلمة في اصطلاح الفقهاء تعني الضرائب الموضوعه على الأراضي الخراجية، أي الأراضي التي اخذت من الكفار بالحرب والقتال، وأحياناً تطلق على ما يتحصل من الأراضي المزروعة التي تعتبر قسماً من الأنفال، والقسم الأول يتعلق بجميع المسلمين، والقسم الثاني يختص بالحاكم الإسلامي.

وجاء في بعض كتب أهل السنَّة أنَّ الخراج في اصطلاح الفقهاء له معنيان عام وخاص، فالخراج - بالمعنى العام - هو الأموال التي تتولى الدولة أمر جبايتها وصرفها في مصاريفها، وأما الخراج - بالمعنى الخاص - فهو الوظيفة أو (الضريبة) التي يفرضها الإمام على الأرض الخراجية النامية [٤٩١]، وأحياناً تطلق هذه الكلمة على الجزية من غير المسلمين أيضاً.

وبالنسبة لمصرف الخراج فقد ذهب فقهاء الشيعة إلى أنَّ الخراج يجب صرفه

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٦٠

لمصالح المسلمين العامة، من قبيل بناء الجسور وحفظ الأمن والطرق ومساعدة الفقراء والمساكين ومركبات الجنود والمقاتلين والقضاء وقادة الجيش وسائر ما تحتاج الحكومة في إدارتها والعمل بمسؤولياتها [٤٩٢].

وطبعاً يحدث كثيراً أنَّ قسماً مهماً من الخراج يقسم بين المسلمين الحاضرين بشكل مساوي في الحكومات العادلة (مثل حكومة أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام) وبصورة غير مساوية (مثل حكومة الخلفاء).

أما دليل التساوي في القسمة، فهو أنَّ الأراضي الخراجية التي يجمع منها الخراج، ملك لعامة المسلمين وجميعهم يشتركون في ملكيتها بشكل متساوٍ، والمراد من التساوي، عدم الفرق بين الأفراد بحسب مكائهم الاجتماعية، بأنَّ فلاناً شيخ قبيلة والآخر شخصيه معروفه، وثالث عامل بسيط وما إلى ذلك، بل يتم التقسيم حسب المسؤوليات الملقاة على عاتق الأشخاص، من قبيل القضاء وقيادة الجيش وولاية المدن والمناطق وأمثال ذلك، فهذا ممَّا يدعو للتفاوت قطعاً في أمر القسمة.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٦١

القسم الثاني

إشارة

فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ، وَسَفَرَاءُ الْأَئِمَّةِ وَلَا تُحْسِبُوا أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ، وَلَا تُحْسِبُوا عَنْ طَلِبَتِهِ، وَلَا تَبِعَنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخُرَاجِ كِسْوَةَ شَتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ، وَلَا دَابَّةً يَعْتمِلُونَ عَلَيْهَا، وَلَا عَبْدًا، وَلَا تَضْرِبَنَّ أَحَدًا سَوْطًا لِمَكَانٍ دَرَاهِمٍ وَلَا تَمَسَّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصَلًِّ وَلَا مُعَاهِدٍ، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَسًا أَوْ سِلَاحًا يُعَدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا يَتَّبِعِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ. وَلَا تَدْخُرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلَا الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ، وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلَا دِينَ اللَّهِ قُوَّةً، وَأَبْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ اضْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نُنْصِرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

الشرح والتفسير: رعاية إصناف في أخذ الخراج

يبين الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة بعض جزئيات المسائل والأوامر والنواهي الخاصية بالعاملين على جمع الخراج بعد أن ذكر سلسلة من الكلبيات في كلامه السابق.

بداية يقول الإمام عليه السلام:

«فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ، وَسَفَرَاءُ الْأَئِمَّةِ».

والمراد من

«فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ»

كما ورد الروايات الشريفة، أن يرضا

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٦٢

الإنسان للآخرين ما يرضاه لنفسه ويحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لها، وبعبارة أخرى كما أنه يحب أن يأخذ حقه منهم فيجب عليه أن يعطيهم حقوقهم عليه أيضاً.

ونقرأ في رواية جاء رجل أعرابي النبي صلى الله عليه وآله وهو يريد بعض غزواته، فأخذ بغرز راحلته فقال:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي عَمَلًا أَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ»

، فقال:

«مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَأْتِهِ إِلَيْهِمْ وَمَا كَرِهْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَلَا تَأْتِهِ إِلَيْهِمْ»

، قال ذلك وأضاف:

«حَلَّ سَبِيلَ الرَّاحِلَةِ»

(أى أنك حصلت على جميع ما تريد في هاتين الجملتين) [٤٩٣].

ويشير الإمام عليه السلام في كلامه هذا إلى ثلاثة مناصب لعمال الخراج ويترتب عليها ثلاث مسؤوليات مهمة تقع على عاتقهم:

الأول: أنهم

«خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ»

يعنى الحافظون على أموال المسلمين لإنفاقها في مصارفها، والآخر: أنهم

«وَوَكَلَاءُ الْأُمَّةِ»

وهذا يعنى أن مسؤوليتهم أخذ حقوق الناس من الأشخاص الذين وجب الحقّ عليهم فى ذمتهم بشكل كامل، والثالث: أنهم «سَفَرَاءُ الْأَنْمَةِ»

إذ ينبغى لهم أن يتخلّقوا بأخلاق أئمّتهم ويسلكوا مع الناس مسلك أئمّتهم فى التواصل الإنسانى والتعامل الأخلاقى مع الناس، ومن هذا المنطلق فأخذ المال وكذلك حفظها والالتزام بالأخلاق الحسنه مع الناس تعتبر من مسؤوليات العاملين على الخراج. ثم ينهى الإمام عليه السلام هؤلاء العاملين عن سته أمور، الأمر الأوّل، يقول عليه السلام: «وَلَا تُحْشِمُوا» [٤٩٤] أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ».

وهذا يعنى أن الواجب عليكم أن تتعاملوا مع الناس بحيث لا يخجلون من نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٦٣

عرض حاجتهم عليكم، مثلاً إذا كانت بعض الشياى محببه لديهم، أو أن بعض المحاصيل الزراعيه مورد اهتمامهم، فعليكم أن تسلكوا معهم بحيث يمكنهم إظهار مقاصدهم أمامكم وعليكم بأخذ الخراج والزكاه من مورد آخر. أمّا النهى الثانى فيقول عليه السلام: «وَلَا تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلَبَتِهِ».

وهذه إشارة إلى أنهم لو كانت لديهم مطالب مشروعته فى كيفية تقسيم الأموال وتقسيم الخراج، فينبغى مراعاتها والاستجابة لهم. وفى النهى الثالث، يمنعه الإمام عليه السلام من أخذ وسائل الحياه الضرورية (وهى مستثنيات الدين) ويقول: «وَلَا تَبِيعَنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَجِ كِشْوَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ، وَلَا دَابَّةً يَغْتَمِلُونَ عَلَيْهَا وَلَا عَبْدًا».

ويعتبر هذا الحكم من الأحكام الإنسانيه والأخلاقية فى التعاليم الإسلاميه، وذلك أن الإسلام لا يسمح حتى للمدينين أن يتخلّوا عن ضروريات الحياه والمعيشه لهم لأداء الدين، بل لو كان له مال آخر لزم تسديد الدين من ذلك المال، وإن لم يكن لديه مال آخر وجب إمهاله إلى زمان السعه والقدرة على أداء الدين.

ويقول الإمام عليه السلام فى النهى الرابع: «وَلَا تُضْرِبَنَّ أَحَدًا سَوْطًا لِمَكَانِ دِرْهَمٍ».

وبعبارة أخرى أن أى نوع من أنواع العنف والإكراه ممنوع فى مجال أخذ حق بيت المال، والتجربه تشير إلى أن أساليب العنف فى أداء الديون تأتى بنتيجه عكسيه، وبعكس ذلك فاسلوب المحبّه واللين يزيد من أموال بيت المال.

والتعبير ب «درهم» يمكن أن يكون إشارة إلى الأموال الصغيره، يعنى فى المال الصغير وفى جزئيات الأمور لا ينبغى التعامل مع الناس بمنطق الخشونه والقوه، وذهب بعض الشراح إلى احتمال أن يكون المراد من «درهم» فى هذه الجملة، جنس المال، يعنى لا يحقّ لكم أن تضيقوا على الناس من أجل أخذ الأموال منهم.

ويقول الإمام عليه السلام فى النهى الخامس:

«وَلَا تَمْسَنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصَلًّا وَلَا

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٦٤

مُعَاهِدٍ [٤٩٥]، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَسًا أَوْ سَلَحًا يُعَدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ».

وهذه الجملة إشارة إلى المنافقين والانتهازيين الذين يملكون السلاح والمركب ويجعلونها فى خدمه أعداء الإسلام، وفى مثل هذه الموارد يحقّ لهؤلاء العاملين أخذ هذه الوسائل منهم دون دفع ثمنها وقيمتها إليهم، لأنّ دفع ثمنها يمنحهم أيضاً القوه والقدرة لتنفيذ

مخططاتهم وبرامجهم المعادية، وفي الحقيقة إن مثل هذا العمل هو نوع من المصادر المشروعة للأموال، الذي أذن فيه الإمام عليه السلام بالنسبة لبعض الأشخاص المستثنون عن القاعدة، ولكن أموال سائر المسلمين وغير المسلمين من أهل الذمة محفوظة ويجب احترام مالكيتهم لها.

صحيح أن هذا الموضوع لا يرتبط بمسألة الخراج، ولكن في الواقع وظيفة أخرى ربما يواجهها العاملون بالخراج وبالتالي ينبغي عليهم العمل بها.

وثمة بحث في الفقه الإسلامي في باب المكاسب المحرمة حول حرمة إعانة الظالمين، وكذلك يوجد بحث في عدم جواز بيع الأسلحة لأعداء الإسلام، حيث ورد النهي عن هذا الأمر واستدل عليه بالأدلة العامة والخاصة، ومفهوم هذه الآيات والروايات أنه لو رأينا سلاحاً أو مركباً بيد أحد الأشخاص ونعلم أنه سيعطيه في المستقبل القريب لأعداء الإسلام ويستخدمونه ضد المسلمين، فيجب منعه من ذلك، وهذا هو الأمر الذي أصدره الإمام عليه السلام في هذه التوصية، وبعبارة أخرى أن هذا العمل نوع من النهي عن المنكر بشكله العملي.

وأخيراً يقول الإمام عليه السلام في النهي السادس:

«وَلَا تَدْخِرُوا [٤٩٦] أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلَا

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٦٥

الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلَا دِينَ اللَّهِ قُوَّةً» [٤٩٧].

وفي هذه العبارة الواردة بصورة النهي يصدر الإمام عليه السلام أربعة أوامر: النصيحة لبعضهم البعض، وحسن الخلق والسلوك مع جند الإسلام، والسعي في طريق مد يد العون للرعية، والعمل على مستوى تقوية دعائم الدين الإسلامي، ومع الالتفات إلى أن المخاطب في هذه الجملة هم عمال الخراج، يتبين أن الواجب عليهم في مسير أداء مسؤوليتهم، الاهتمام بالتكاليف الأخرى الواجبة عليهم أيضاً.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة أن الجملة:

«وَلَا تَدْخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً»

أن الأنفس هنا تعني ذات الشخص، وذهب آخرون إلى أنها تعني نفوس الآخرين، والظاهر أن المعنى الثاني أنسب.

ومعلوم أن عمال الخراج لو عملوا بهذه الوظائف الأربع، أي أنهم تحركوا في علاقتهم فيما بينهم من موقع التواصي والتناصح وكذلك تعاملوا مع الرعية وجنود الإسلام بألية اللطف وحسن الخلق، وعزموا في تياتهم على تقوية الدين الإسلامي وتوطيد الرسالة الإلهية، فإن المجتمع الإسلامي سيشهد ازدهاراً كبيراً وتطوراً مهماً.

وفي ختام هذه الرسالة يبين الإمام عليه السلام آخر توصية لعماله على الخراج ويقول:

«وَأَبْلُوا [٤٩٨] فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ اصْطَنَعَ [٤٩٩] عِنْدَنَا

وَعِنْدَكُمْ أَنْ نُشْكِرَهُ بِجَهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَّغْتَ قُوَّتَنَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ».

وهذه إشارة إلى أن الاعتماد على الله ضروري لتحقيق النجاح وكسب الموفقية

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٦٦

في تجسيد هذه التوصيات على أرض الواقع ولزوم الاستعانة بالله تعالى في سلوك خط الإيمان والعمل الصالح والالتزام الواعي بهذه القيم الأخلاقية والمثل الإنسانيّة.

وعبارة

«فَإِنَّ اللَّهَ»

(والفاء للتفريع) إشارة إلى أن إتيان هذه الأمور وترجمتها على مستوى التطبيق يمثل نوعاً من شكر الله تعالى على نعمه، ونحن مدينون

في هذا الحال لألطف الباري تعالى الذي وفقنا لإنجاز هذه التكليف والوظائف.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٦٧

الرسالة ٥٢

إشارة

إلى أمراء البلاد في مَعْنَى الصَّلَاةِ [٥٠٠]

نظرة عامة للرسالة

كما هو بين من عنوان الرسالة، فإن المخاطب لها امراء البلاد، لأنهم من جهة يتولون الأمور الدينيّة للناس، وكذلك أمورهم الدنيويّة، مضافاً إلى إمامة الجمعة والجماعة أيضاً، ومحتوى هذه الرسالة يبين في الحقيقة أمرين: أحدهما، أوقات الصلوات الخمس بشكل دقيق ومتى يأتي المسلم بكل واحدة منها، والآخر أن إمام الجماعة يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار أضعف المأمومين ويصلي طبقاً لهذا المعيار.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٦٩

أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِنْ مَرَبِضِ الْعَنْزِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضَاءُ حَيْثُ فِي عُضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرَسِيحَانِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيَدْفَعُ الْحِجَاجُ إِلَى مَنْى وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِدَاءَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وَصَلُّوا بِهِمُ صَلَاةً أضعفهم وَلَا تَكُونُوا فَتَانِينَ.

الشرح والتفسير: آداب الصلاة وأوقاتها!

إشارة

تقدّم آنفاً أن الإمام عليه السلام في هذه الرسالة يخاطب امراء البلاد، وهؤلاء الامراء هم أئمة الجمعة والجماعة أيضاً، وبين لهم أوقات الصلوات اليومية.

بداية يشرع الإمام عليه السلام من صلاة الظهر ويقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ [٥٠١] الشَّمْسُ مِنْ مَرَبِضِ [٥٠٢] الْعَنْزِ [٥٠٣]».

كلمة «حتى» إشارة إلى نهاية وقت فضيلة الظهر، كما هو ظاهر التعبير بهذه الكلمة، ومفهومها أن الإمام عليه السلام بين في هذه العبارة نهاية وقت فضيلة الظهر فقط،

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٧٠

وقد ورد في بعض الروايات أنه بمقدار ذراع، ومقدار الذراع لا يختلف كثيراً عن مريض العنز عندما تتمدد الشاة على الأرض، فيقترب مقدار المريض من مقدار الذراع، ولو كانت كلمة «حتى» تعني «حين» [٥٠٤] ويقصد بها تعيين المدة والزمان، فالظاهر أن المعنى يكون بداية وقت الفضيلة، ومفهومها أن وقت صلاة الظهر من أول الزوال إلى أن يكون ظل الشخص (أي الظل الذي يظهر من لحظة زوال الشمس عند الظهر) بمقدار ذراع، فيمكن تأخير صلاة الظهر إلى ذلك الوقت، إما لغرض إتيان صلاة النافلة أو لغرض اجتماع الناس

لصلاة الجماعة.

وطبعاً فإنَّ ابتداء وقت صلاة الظهر لا يكون قبل هذه الأمور وهو ما ذكره القرآن الكريم بصراحة وقال: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِتُدْلِكِ الشَّمْسُ» [٥٠٥].

ثمَّ يبيِّن الإمام عليه السلام آخر وقت فضيلة صلاة العصر ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمْ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْنَضَاءَ حَيْثُ فِي عَضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرَسَخَانِ».

وهناك خلاف كبير في وقت صلاة العصر بين فقهاء أهل السنة والوارد في كتبهم الفقهية، ولكن المعروف بين علماء الشيعة أنَّ وقت صلاة الظهر من ابتداء زوال الشمس من دائرة نصف النهار، (وطبعاً بعد مضي مقدار من الوقت اللازم للإتيان بناقلة الظهر)، وانتهاء وقتها إلى زمان يكون ظل الشاخص (الظل الذي يظهر بعد زوال) بمقدار الشاخص نفسه، ثمَّ يبدأ وقت فضيلة صلاة العصر ويمتد إلى زمان يكون فيه ظل الشاخص ضعفي الشاخص (وطبعاً طول وقصر الشاخص في هذه المسألة لا يتفاوت).

وما ذكره الإمام عليه السلام في الجملة أعلاه يشير إلى نهاية وقت فضيلة صلاة العصر، ولا يختلف هذا المقدار مع ما هو معروف بين فقهاءنا.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٧١

في المرحلة الثالثة أشار الإمام عليه السلام إلى وقت صلاة المغرب وقال:

«وَصَلُّوا بِهِمْ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيَدْفَعُ الْحَاجُّ إِلَى مَنَى .

وبما أنَّ وقت إفطار الصائم وحركة الحجاج من عرفات معلوم في نظر عامة الناس حيث تبدأ الحركة مع غروب الشمس، فالإمام عليه السلام يجعل هذا الأمر مقياساً للوقت.

وتأخير صلاة المغرب والإفطار إلى زمان زوال الحمرة المشرقية من وسط السماء يمثل في الواقع نوعاً من الاحتياط، والوقت هو غروب الشمس (وذلك طبعاً في نظرنا ونظر جماعة من فقهاء أهل البيت عليهم السلام).

وهنا يكتفي الإمام عليه السلام في الواقع بما هو معروف ومشهور بين عامة المسلمين في الوقت الذي يفطر فيه الصائم ويتحرك الحجاج من عرفات.

وفي المرحلة الرابعة يشير الإمام عليه السلام إلى وقت صلاة العشاء ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمْ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلْثِ اللَّيْلِ».

ولابدَّ من معرفة المراد من الشفق، وهل هو الحمرة المغربية (أي الشعاع الأحمر الذي يظهر من جهة المغرب بعد اختفاء قرص الشمس)، أو البياض الشفاف الذي يظهر بعد اختفاء ذلك الشعاع الأحمر ويبقى لمدة من الوقت؟ كلا الاحتمالين واردان في تفسير كلام الإمام عليه السلام، لأنَّ الشفق يطلق على كلا هذين الأمرين، ولكن المشهور بين علماء الشيعة هو المعنى الأول، وفي هذا العصر فأهل السنة يجعلون المعنى الثاني ملاكاً للعمل غالباً، رغم أنَّ الفقهاء الأربعة مختلفون فيما بينهم في هذه المسألة.

وفي المرحلة الأخيرة والخامسة يشير الإمام عليه السلام إلى بداية وقت صلاة الصبح ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمْ الْغَدَاةَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجَهَ صَاحِبِهِ».

ومعلوم أنَّ المستفاد من آيات القرآن الكريم والمشهور بين الفقهاء هو أنَّ ابتداء صلاة الصبح من زمان طلوع الصبح الصادق، أي البياض الواسع الذي يظهر إلى جانب الأفق، ويتفق العلماء في هذه المسألة، ولكن بما أنَّ النهوض من داخل المدن والتوجه إلى خارجها أو الصعود على سطوح المنازل والنظر إلى الخارج لمعرفة

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٧٢

طلوع الفجر الصادق لا يعدُّ أمراً ميسوراً، فقد بين الإمام عليه السلام معياراً أيسر من ذلك، وهو أنَّ تخف حدَّ الظلام قليلاً ويخالط الجو

بعض إشراقات الفجر بحيث يرى الشخص صاحبه الواقف إلى جانبه ويعرفه، أضف إلى ذلك فإن حضور الناس لصلاة الجماعة يتطلب مقداراً أكثر من الوقت، ولذلك يتطابق هذا المعنى مع ما ذكره الإمام عليه السلام.

وفي الختام يصدر الإمام عليه السلام لهم هذا الأمر في كيفية صلاة الجماعة ويقول: «وَصَلُّوا بِهِمْ صَلَاةً أَوْعَفِيهِمْ وَلَا تَكُونُوا فَتَانِينَ».

إن أهمية هذا الموضوع إلى درجة أن أمير المؤمنين على عليه السلام يروي حديثاً عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويقول: آخر ما فارقت عليه حبيب قلبي صلى الله عليه وآله أن قال:

«يَا عَلِيُّ إِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةً أَوْعَفٍ مَن خَلْفَكَ» [٥٠٦].

وعندما أرسلني رسول الله صلى الله عليه وآله (لنشر الإسلام) إلى اليمن، سألته: كيف أصلي بالناس فقال: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَوْعَفِيهِمْ وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» [٥٠٧].

وقد ورد هذا المعنى في عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر حيث أوصاه الإمام بهذه الوصية.

«فتان» من مادة «فتنه» وفي الأصل تعني وضع الذهب في النار ليخلص من الشوائب، وبهذه المناسبة استخدمت هذه الكلمة في معانٍ مختلف، منها الابتلاء والامتحان، الخداع، البلاء والعذاب، والأذى والألم، والكلمة في عبارة الإمام عليه السلام تتناسب مع المعنى الأخير، ولا يبعد أن يكون المراد هو الخداع أيضاً، ويمكن الجمع بين هذين المعنيين أيضاً.

وطبعاً فإن هذا الكلام لا يعني أن تصلي صلاتك بشكل سريع بحيث تضرب بأركان الصلاة وواجباتها، أو لا يتمكن الضعفاء بسبب هذه السرعة أن يلتحقوا بك في ركوعهم وسجودهم وقيامهم وقعودهم، وهذا ما أشارت إليه الروايات الشريفة،

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٧٣

منها ما ورد في عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر حيث أمره بهذه التوصية:

«فَلَا تَكُونَنَّ مُتَفَرِّغاً وَلَا مُضَيَّعاً»

. أجل، لا بد من رعاية الاعتدال والتوازن في جميع الأمور.

وينبغي الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أن التوصية بالرغم من كونها واردة في خصوص الصلاة، ولكن يمكن سراية هذا المفهوم إلى سائر العبادات بل إلى جميع البرامج الاجتماعية، فيجب أن تكون البرامج الإسلامية في الأبعاد العبادية، والاجتماعية، والسياسية، والأخلاقية، من حيث التطبيق بحيث لا تثقل على كاهل الناس ولا تتسبب في خروجهم عن الدين، ولا أن تؤدي السرعة والعجلة فيها إلى تفرغها من محتواها ومضمونها.

وكذلك من الجدير بخطباء أئمة الجمعة المحترمين، وكذلك المسؤولين عن مجالس الدعاء والابتهاج ومجالس العزاء مراعاة هذا الأصل، فلا يسرعوا في خطبهم وأدعيتهم ومراسيم العزاء بحيث تسلب روحها ومضمونها، ولا يؤدي بها بشكل متأخر ومطول بحيث تؤدي إلى تعب الحاضرين ومللهم.

تأمل

أداء الصلوات الخمس في ثلاثة أوقات

نعلم أن الصلوات اليومية في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وكذلك في عصر الأئمة المعصومين عليهم السلام كان تقام بشكل منفصل وفي الأوقات الخمسة وفي وقت الفضيلة، واليوم لو صلينا الصلوات اليومية في خمسة أوقات لكان أفضل، ولكن مع ذلك فإن

النبي الأكرم صلى الله عليه وآله جمع بين صلاتي الظهر والعصر، وكذلك بين المغرب والعشاء في أسفاره بدون أن يكون هناك عذر خاص (من قبيل الحر الشديد والبرد الشديد والمطر)، مضافاً إلى ذلك فقد اتفق مراراً في حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه صلى الله عليه وآله جمع بين الصلاتين بدون أي عذر وقال: أحب الرخصة على امتي حتى أنهم إذا رغبوا في الجمع بين الصلاتين أمكنهم ذلك.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٧٤

ولكن مع الأسف فإن جمع غفير من علماء أهل السنة أصروا على الفصل بين الصلوات الخمس والإتيان بها بشكل منفصل، وهذه المسألة أدت إلى حدوث مشاكل كثيرة وخاصية في وقت العصر، لأن حياة الناس قد تغيرت في العصر الحاضر، فالكثير من العمال الذين يعملون في المعامل والمصانع، وكذلك الموظفين الذين يشتغلون في الإدارات الرسمية والشركات وبخاصة طلاب الجامعات وحضورهم في قاعات الدرس صار بشكل لا يستطيع المسلم الإتيان بالصلوات اليومية في الأوقات الخمسة بسهولة، وهذا الأمر تسبب في ترك الكثير منهم للصلاة.

ونعلم قطعاً أن الإسلام دين الرحمة وبمقتضى النبوى المعروف:

«بُعِثْتُ بِالشَّرِيعَةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ»

فإنه قد فتح طريقاً للحل أمام هؤلاء الأشخاص حتى لا يتورطوا في ترك الصلاة من جهة، ولا يتلوا بالصعوبة والمشقة البالغة. والعجيب أن في مصادر أهل السنة المعروفة: كـ «صحيح مسلم، صحيح البخاري، سنن الترمذي، موطأ مالك، مسند أحمد، سنن النسائي، مصنف عبد الرزاق» وكتب أخرى وهي كلها من المصادر والمنابع المعروفة والمشهور لديهم، هناك ثلاثون رواية في باب الجمع بين صلاة الظهر والعصر أو صلاة المغرب والعشاء بدون السفر والمطر وخوف الضرر، ولكن هؤلاء الإخوة قد تغافلوا عنها جميعاً وشددوا أمر الصلاة على الناس وبخاصة الشباب منهم.

وهذه الروايات واردة من طريق خمسة رواة معروفين:

١. ابن عباس.

٢. جابر بن عبد الله الأنصاري.

٣. أبو أيوب الأنصاري.

٤. عبد الله بن عمر.

٥. أبو هريرة.

وسنشير فيما يلي إلى جملة منها:

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٧٥

١. نقل سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال:

«صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعاً بِالْمَدِينَةِ فِي غَيْرِ خَوْفٍ وَلَا سَفَرٍ»

يقول أبو زبير: سألت سعيد بن جبير، لِمَ فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال سعيد: سألت (يعنى هذا السؤال) ابن عباس كما سألتني فقال:

«أَرَادَ أَنْ لَا يُحْرِجَ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِهِ» [٥٠٨].

٢. يقول جابر بن زيد: قال ابن عباس:

«صَلَّى النَّبِيُّ سَبْعًا جَمِيعًا وَثَمَانِيًا جَمِيعًا» [٥٠٩]

، وهي إشارة إلى أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله جمع في صلاته بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

٣. جاء في «مصنّف» عبد الرزاق أنّ عبد الله بن عمر قال:

«جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ مُقِيمًا غَيْرَ مُسَافِرٍ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ فَقَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ: لِمَ تَرَى النَّبِيَّ فَعَلَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِأَنَّ لَا يَحْرَجُ أُمَّتَهُ إِنْ جَمَعَ رَجُلٌ» [٥١٠].

٤. ويروى عبد الله بن مسعود:

«جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ الأُولَى وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ فَقِيلَ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ: صَنَعْتُهُ لِأَنَّ لَا تَكُونُ أُمَّتِي فِي حَرْجٍ» [٥١١].

٥. وروى أبو هريرة أيضاً:

«جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ» [٥١٢].

وكما قلنا آنفاً أنّ الروايات الواردة في هذا الباب أكثر من هذا المقدار، وخلاصة ما ورد فيها أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد جمع في بعض المواضع بين صلاة الظهر والعصر أو بين صلاة المغرب والعشاء في حين لم تكن هناك مشكلة خاصة كالمطر أو السفر أو الخوف من العدو، ولم يكن الهدف من ذلك سوى التوسعة على الأمة ورفع العسر والحرج، فهل يصح مع هذا الحال أن يستشكل البعض في مسألة الجمع ويقول بأنّ

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٧٦

الجمع متعلق بموارد الاضطرار؟ لماذا نغض النظر عن رؤية الحقائق الشرعية ونرجح أفهامنا ومسبقاتنا الفكرية على قول رسول الله صلى الله عليه وآله الصريح في هذا الأمر وبالتالي نثقل هذه العبادة على كاهل الأمة؟ وعندما يأذن الله ورسوله بالرخصة في شيء فلماذا لا يأذن المتعصبون في هذه الأمة؟ لماذا لا يريدون من الشباب المسلمين أن يؤدّوا صلواتهم اليومية وهي أهم وظيفة الإسلام في كلّ الأحوال في جميع الأماكن في داخل البلاد الإسلامية وخارجها في الجامعات والإدارات والمعامل والأسواق؟ نحن نعتقد أنّ الإسلام يمتد لكلّ زمان ومكان إلى نهاية الدنيا، ومعلوم أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان يرى بنظره الواسع حال جميع مسلمين في العالم وفي جميع الأعصار والحقب الزمنية، وأنهم إذا كانوا مقيدين بالصلوات في خمسة أوقات فإنّ ذلك من شأنه أن يشقّ على أمته ويدعو جماعة منهم لترك الصلاة، ولذلك صدر الأمر الإلهي إليه أن يخفف عن أمته ويوسع دائرة الرخصة في هذا الشأن.

والجدير بالذكر أنّ الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» [٥١٣] يقول بصراحة:

واعلم أنّه يتفرع على هذين القولين بحث يكون المذكور في الآية ثلاثة أوقات:

وقت الزوال، ووقت أول المغرب، ووقت الفجر، وهذا يقتضى أن يكون الزوال وقتاً للظهر والعصر، فيكون هذا الوقت مشتركاً بين هاتين الصلاتين، وأن يكون أول المغرب وقتاً للمغرب والعشاء، فيكون هذا الوقت مشتركاً أيضاً بين هاتين الصلاتين، فهذا يقتضى جواز الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مطلقاً.

وقد بين أنّه دلّ الدليل على أنّ الجمع في الحضر من غير عذر لا يجوز، توجب أن يكون الجمع جائزاً بعذر السفر وعذر المطر وغيره [٥١٤]، وهذا ما يقال من الاجتهاد

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٧٧

في مقابل النص.

وكما قلنا في بداية هذا البحث أنّ رعاية وقت الفضيلة والإتيان بكل صلاة في هذه الأوقات الخمسة مسنون وأولى، رغم أنّ الجمع بين الصلاتين يعتبر رخصة، ومن هذه الجهة فالإمام عليه السلام بين أوقات الصلاة الخمس بشكل منفصل.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٧٩

الرسالة ٥٣

إشارة

كَتَبَهُ لِلأَشْتَرِ النَّخَعِيِّ لَمَّا وُلَّاهُ عَلِيٌّ مِصْرَ وَأَعْمَالِهَا
حِينَ اضْطَرَبَ أَمْرُ أَمِيرِهَا مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ
أَطْوَلُ عَهْدٍ كَتَبَهُ وَأَجْمَعُهُ لِلْمَحَاسِنِ [٥١٥]

نظرة عامة للرسالة

(المهمة جداً لمالك الأشتر)

خمسون نقطة مهمة في عهد واحد

من أجل إدراك أهميته هذا العهد الشريف، وقبل أن نتوغل في دراسة محتوياته ومضامينه، ينبغي الالتفات إلى عدّة أمور: [٥١٦]

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٨٠

إنّ هذه الرسالة المطولة والعميقة المضامين تعدّ من أهم ما ورد من كتب ورسائل في نهج البلاغة وناظرة لجميع أبعاد وجهات الإدارة والتدبير لأُمور الحكومة وتحتوي على أصول ثابتة وقواعد متماسكة لا يطرأ عليها التّقدم ولا- تبلى أبداً وترسم في مضامينها كافّة تفاصيل الحياة السياسيّة والإدارية في الحكومة الإسلاميّة.

١. ممّا يجدر ذكره أنّ ابن أبي الحديد في ذيل الخطبة القصيرة رقم ٦٨ (وقد ورد شرح هذه الخطبة سابقاً وفي شرح بن أبي الحديد الخطبة تحت رقم ٦٧) ينقل عن إبراهيم الثقفي صاحب كتاب «الغارات» رسالة مفصلة وطويلة نسبياً أنّ الإمام علي عليه السلام قد كتب إلى محمّد بن أبي بكر برنامجاً أخلاقياً لتهديب النفوس وتطهير القلوب وتقوية عنصر التقوى في الإنسان، وفي ذيل هذه الرسالة ينقل هذا المؤرخ (صاحب كتاب الغارات) كان محمّد بن أبي بكر ينظر فيه ويتأدّب بأدابه- كان يحمل معه هذه الرسالة في مصر ويطلعها بين الحين والآخر ويتمسك بأدبها ويلتزم بما ورد فيها من التعاليم- فلما ظهر عليه عمرو بن العاص، أخذ كتبه أجمع فبعث بها إلى معاوية، فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتعجب منه.

ثمّ قال: إنّ الوليد بن عقبه (أخا عثمان من أمّه وهو الذي نزلت في حقّه آية «إن

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٨١

جاءكم فاسق..» حيث أطلق عليه القرآن وصف الفاسق) وكان حاضراً عند معاوية وقد رأى اعجابه به، فقال لمعاوية: مر بهذه الأحاديث أن تحرق. فقال معاوية: مه، لا رأي لك! فقال الوليد: أفمن الرأي أن يعلم الناس إنّ أحاديث أبي تراب عندك تتعلم منها! فقال معاوية: ويحك أأمرني أن أحرّق علماً مثل هذا! والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم. فقال الوليد: إن كنت تعجب من عمله وقضائه فعلام تقااته؟ فقال: لولا أنّ أبا تراب قتل عثمان ثمّ أفتانا لأخذنا عنه. ثمّ سكت هيئته، ثمّ نظر إلى جلسائه وقال: إنّنا لا نقول: إنّ هذه من كتب علي بن أبي طالب، ولكن نقول:

هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد، فنحن نظر فيها، وتأخذ منها.

قال: فلم تزل تلك الكتب في خزائن بنى امية حتى ولى عمر بن عبدالعزيز، فهو الذى أظهر أنها من أحاديث على بن أبى طالب عليه السلام.

والجدير بالذكر أن ابن أبى الحديد بعد أن نقل هذا الكلام عن صاحب «الغارات» يقول: «الأليق أن يكون الذى كان معاوية ينظر فيه ويعجب منه، ويفتى به ويقضى بقضايه وأحكامه هو عهد الإمام على عليه السلام إلى الأشر، فإنه نسيح وحده، ومنه تعلم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة (والحال أن كتاب الإمام عليه السلام لمحمد بن أبى بكر يتضمّن مجموعة من المسائل الأخلاقية) وهذا العهد صار إلى معاوية لما سمّ الأشر ومات قبل وصوله إلى مصر، فكان ينظر فيه ويعجب منه، وحقيق مثله (يعنى الكتاب العهدى) أن يقتنى في خزائن الملوك» [٥١٧].

وعلى ضوء ذلك فإن ابن أبى الحديد يعتقد بأن هذه الرسالة التاريخية الفريدة، التى كان معاوية يستفيد منها ولم يظهر ذلك لأحد وبعده انكشف الستار عنها بواسطة عمر بن عبدالعزيز، هى ما نحن بصدد من عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشر. ونحن بدورنا نؤيد نظر ابن أبى الحديد بصورة كاملة، لأنّ القرائن والشواهد المختلفة تشهد على هذا المعنى.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٨٢

٢. يقول الكاتب المسيحى المعروف «جورج جرداق» فى كتابه «الإمام على صوت العدالة الإنسانية»: «إلا أنه من الصعب على المرء أن يجد الإنسان اختلافاً بين هذا العهد العلوية والوثيقة الدولية لحقوق الإنسان، فليس من أساس بوثيقة حقوق الإنسان إلا وتجد له مثيلاً فى دستور ابن أبى طالب، وهذا إلى إطار من الحنان الإنسانى العميق يحيط به الإمام دستوره فى المجتمع، ولا يحيط الامم المتحدة وثيقتها بمثله» [٥١٨].

وينبغى الالتفات إلى أن لائحة حقوق الإنسان العالمية قد تمّ تدوينها بعد ألف وثلاثمائة عام من تدوين عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشر، أضف إلى ذلك أن اللائحة العالمية قام بتدوينها جماعة من المفسّرين من شتى بلدان العالم ومع ذلك فإنها تحتوى على بعض النقائص ونقاط الضعف والقصور، وأهمّها أنها فارغة من المسائل المعنوية والقيم الإنسانية السامية.

٣. ومن أجل الإحاطة بأهميّة هذه الرسالة والعهد مورد البحث ينبغى الإشارة إلى مكان مسؤوليّة مالك الأشر، أى أرض مصر.

يتفق المؤرخون تقريباً أن منطلق الحضارات البشريّة تمتد بجذورها إلى منطقة الشرق، ومنها أرض مصر التى وجدت فيها الحضارة قبل غيرها من البلدان بآلاف السنين، فقد وطد المصريون دعائم التمدن البشرى إلى درجة أن «ويل دورانت» يسمّى هذه المنطقة بأنها مهد الحضارة البشريّة، ومن هذه الجهة نرى أن الأنبياء الإلهيين الذين أرسوا دعائم التمدن المادى والمعنوى فى الامم البشريّة جميعهم قد بعثوا من هذه المنطقة، ثمّ إمتدت دعوتهم إلى نقاط أخرى من العالم.

ويقول المؤرخ المذكور فى الجزء الأول من تاريخه المعروف ب «قصة الحضارة» بعد أن خصص عشرات الصفحات حول الحضارة المصرية القديمة: إن الآثار المهمة الباقية منذ ذلك الوقت ولمدة آلاف السنين وبرغم المتغيرات فى هذه العصور

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٨٣

والحقب الزمنية لا زالت باقية، وهذه علامة أخرى عن عظمة هذه الحضارة القديمة.

لقد كانت مصر تمثّل إحدى المراكز العلمية والحضارية المهمّة فى العالم، وخاصيّة مدينه الاسكندرية التى تعد - وفقاً للمدارك والاسناد التاريخيّة - أحد أهم هذه المراكز العلميّة، ولم يقتبس أهالى مصر علوم اليونان فحسب، بل أضافوا إليها علوماً كثيرة أخرى، ففى الحقيقة أن مصر لم تكن بمثابة محافظة أو منطقة من الحكومة الإسلامية، بل دولة كبيرة وواسعة يقطن فيها شعب متمدن.

وقد دخلت مصر فى عام ١٩ للهجرة فى زمان الخليفة الثانى تحت لواء الإسلام بواسطة الجيش الإسلامى الذى أرسله الخليفة الثانى لفتحها، ومنذ ذلك الزمان والمصريون يعيشون فى ظلّ الإسلام وقد تقبلوا، كالايرانيين، هذا الدين الجديد الذى يملك ثقافة قوية

وتظهر على تعاليمه معالم الحقائقية، ولكن للأسف فإن بعض الحكام الظلمة أمسكوا بمقاليد السلطة في مصر من قبل الخلفاء ومنهم: عبدالله بن أبي سرح [٥١٩] الذي تولى ولاية مصر في زمان عثمان وتسبب ظلمه وجوره على أهالي مصر في انتفاضتهم على الوضع السائد، وكما نعلم أن هذه الانتفاضة امتدت إلى المدينة، وقد زادت أخطاء الخليفة الثالث في الطين بله، وعملت على تعميق الخلل والشعور بالاستياء لدى عامة الناس، ومن ذلك ما أصدره عثمان من عزل عبدالله وكتب فيها كتاباً وسلّمه إلى الثوار ليعودوا إلى مصر، ولكنّه أرسل رسالة أخرى إلى عبدالله بن أبي سرح يأمره فيها بقتل هؤلاء الثوار في حال عودتهم إلى مصر، وقد وقعت هذه الرسالة بيدهم في وسط الطريق، فعادوا من فورهم ووقعت حادثه قتل عثمان.

أما الإمام على عليه السلام فإنه من أجل جبران الأخطاء المذكورة، أرسل في بداية الأمر محمّد بن أبي بكر لحكومة مصر، ولما ثبت عملياً أنه لا يستطيع تحمل هذه

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٨٤

المسؤولية الثقيلة، أمر الإمام عليه السلام شخصاً آخر يملك القدرة والحكمة والعزم في الأمور، وهو مالك الأشتر، لهذه المهمة وأرسل معه هذه الرسالة والعهد مورد البحث لترتيب وإدارة أوضاع هذا البلد الكبير وأرسله إلى مصر، ولكن للأسف فإن جريمة معاوية منعت من تحقق هذا البرنامج العظيم على أرض الواقع وأن يتنفس أهالي مصر السعداء ممّا لاقوه من الولاة السابقين.

مهما يكن من أمر فهذا الكتاب الذي كتبه الإمام عليه السلام لمالك الأشتر يتشكل في نظرة إجمالية من عدّة أقسام ومقاطع، وربما أمكن تقسيمه من زوايه معينة إلى خمسين قسماً.

١. القسم الأول، يلخص الإمام عليه السلام الهدف الأساس من إرساله مالك الأشتر إلى مصر في أربعة أمور: الاهتمام الكامل بجمع الخراج، والتصدي لأعداء مصر، وإصلاح أهلها، وإعمار هذا البلد.

٢. التأكيد على لزوم رعاية التقوى قبل كلّ شيء، وبيان أهميتها ودورها في حياة الإنسان.

٣. مجاهدة النفس وتهذيبها.

٤. الفات نظر مالك الأشتر إلى منطقة عمله ومحل مسؤوليته.

٥. النصيحة له بالتحرك في خط العمل الصالح واجتناب البخل.

٦. السعي وبذل لجهد لكسب رضا الرعية وعامة الناس.

٧. النهي عن التمرد على الأوامر الإلهية.

٨. بيان طريقة مواجهته حالات الكبر والغرور الناشئة من تولى المقام والمنصب.

٩. رعاية العدل والإنصاف في كلّ الأحوال، واجتناب كلّ شكل من أشكال الظلم والجور التي تسبب في تغيير النعم والمواهب الإلهية وتبديلها.

١٠. ينبغي أن يكون أحبّ الأشياء إليه جلب رضا عامة الناس لا الخواص منهم.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٨٥

١١. الحذر من وساوس الانتهازيين والنامين والسعي في إسدال الستار على عيوب الناس.

١٢. لزوم المشورة في الأعمال والنشاطات فيما يتصل بتدبير الأمور، والحذر من مشورة الأشخاص البخلاء والجبناء وأهل الدنيا.

١٣. عزل المتولين السابقين والمسؤولين الظالمين وتوثيق الرابطة مع أصحاب الورع والصدق والإيمان.

١٤. تشويق المحسنين والصالحين وتوبيخ المسيئين وعقابهم.

١٥. كسب حسن ظنّ الناس من خلال الإحسان إليهم، والتخفيف من ثقل الضرائب عليهم.

١٦. احترام الآداب والتقاليد الحسنه للقدمات.
١٧. استمرار مجالسة العلماء وأهل الخبرة والتشاور معهم.
١٨. تقسيم الرعية إلى طوائف متعددة وخدمة كل طبقة منهم وفق حاجاتهم ومواقعهم الذاتية والاجتماعية.
١٩. التأكيد بشدة على رعاية الطبقة المحرومة والمعدمة.
٢٠. بيان خصائص القادة العسكريين والمسؤولين في الجيش الإسلامي.
٢١. الاهتمام الخاص بسوابق الأشخاص والعوائل الصالحة وذات السمعة الحسنه.
٢٢. خصوصيات القادة الكبار.
٢٣. التأكيد على أصل العدالة، الذي يتواصل مع روحية القادة والزعماء وهو قره عين لهم.
٢٤. الثناء على الأعمال الحسنه للصالحين والمحسنين لتقوية عناصر الخير في المجتمع الإسلامي ولتشويق الجميع على عمل الخير والإحسان.
٢٥. قياس قيمة عمل كل شخص بدون الالتفات إلى مكانته الاجتماعية.
- نقعات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٨٦
٢٦. الرجوع إلى الكتاب والسنة في حل المشكلات واستنباط الأحكام.
٢٧. ذكر شروط القضاء والصفات اللازمة التي يجب توفرها فيهم.
٢٨. الإشراف على الأحكام القضائية التي يصدرها القضاء في حق المحكومين وتأمين نفقاتهم ومعيشتهم في الحياة بشكل كامل لمنع التورط في عمليته الرشوة.
٢٩. بيان المعيار في انتخاب الولاة والقادة في البلاد ودفع حقوقهم المائيه بشكل كاف ووضع العيون (الجواسيس) لضبط أعمالهم.
٣٠. وضع خطة لعملية الخراج والضرائب والاهتمام بعمران المنطقة وإحيائها قبل الاهتمام بجمع الخراج.
٣١. بيان الخصوصيات المتعلقة بالمدرء والمسؤولين عن الاسناد والوثائق وموظفيهم وتقسيم العمل بينهم بشكل دقيق.
٣٢. الاهتمام التام بوضع التجار وأصحاب الصناعات والأشخاص الذين يتحركون في خدمة الناس على مستوى نقل أو إنتاج ما يحتاجونه، والإشراف الدقيق على المعاملات والأسعار والتصدى لظاهرة الاحتكار.
٣٣. التأكيد أكثر على الاهتمام بالطبقة المحرومة والضعيفة ولزوم التواصل معهم والاطلاع على وضعهم.
٣٤. لزوم الاهتمام بوضع الأيتام والعجزة.
٣٥. تعيين وقت خاص للقاء العامة من الناس والإذن لهم بمقابلة المسؤولين بشكل مباشر.
٣٦. تعيين وقت خاص آخر للموظفين والمسؤولين من أجل حل مشكلاتهم الخاصة.
٣٧. تنظيم برنامج دقيق للأعمال اليومية المختلفة.
٣٨. الاهتمام بإقامة الفرائض الدينية وخاصة صلاة الجماعة وكيفية إقامتها وتعيين وقت خاص للارتباط مع البارئ تعالى.
- نقعات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٨٧
٣٩. عدم الابتعاد عن الناس والاحتجاب عنهم مدة طويلة.
٤٠. كيفية التعامل مع أصحاب الخاصين والمطلعين على أسرار الدولة.
٤١. الرعاية الدقيقة لحقوق جميع الأفراد، سواء كانوا من منطقة قريبة أو بعيدة.
٤٢. تقديم عذر موجه وتبرير معقول في مقابل ما يعيشه الناس من شحة في الموارد وظهور المشكلات مما يودى إلى سوء الظن بالولاة.

٤٣. قبول دعوة الأعداء للصلح وفي ذات الوقت رعاية حالة الحذر في مقابلهم مع إحترام الجهود والمواثيق التي تعقد معهم.
٤٤. الاجتناب بشدة عن سفك دماء البرياء.
٤٥. اجتناب كل أشكال العجب والأنانية والغرور.
٤٦. الحذر من إظهار المن على الرعية.
٤٧. اجتناب التسرع والعجلة في الأعمال.
٤٨. اجتناب الرشوة وأخذ حق الخاص في المشتركات.
٤٩. الاهتمام بمطالعة سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأنبياء الإلهيين في جميع الأمور المتعلقة بالحكومة.
٥٠. وأخيراً الدعاء لنفسه ولمالك الأشر وطلب الرحمة والتوفيق له من الله تعالى.
- ويمكن من زاوية معنية وضع جميع هذه الأمور في عشرة محاور:
١. بيان أهميته المسؤولية الملقاة على عاتق مالك الأشر.
 ٢. التنبيهات الأخلاقية العامة في مجال الحكومة وتدير الأمور.
 ٣. تقسيم الرعية وشرائح المجتمع المختلفة إلى عدة فئات وطوائف، من القوى العسكرية إلى عمال جباية الضرائب والموظفين لدى الحكومة والقضاة والتجار وأصحاب الصنائع وتعيين الوظائف والخصوصيات المتعلقة بكل فئة منهم.
 ٤. الاهتمام الكبير فيما يتصل بالطبقات المحرومة.
- نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٨٨
٥. لزوم تعيين وقت لمواجهة ولقاء عامة الناس، أي الانفتاح على العامة وفتح الباب لهم ولارباب الحاجات.
 ٦. اختيار مشاورين أقوياء ومن أهل الخبرة.
 ٧. التصدي لكل أشكال الرشوة والامتيازات الذاتية.
 ٨. الاهتمام بأمر الصلح مع العدو وفي ذات الوقت أخذ جانب الحذر منه واجتناب كل أشكال سفك الدماء بدون دليل.
 ٩. الاهتمام بأمر إقامة الفرائض الدينية لعموم الناس.
 ١٠. الدعاء لتحقيق النجاح والتوفيق في أداء المسؤوليات واستمداد من الله تعالى في هذا الشأن.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٨٩

القسم الأول

إشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِكِ بْنِ الْخَارِثِ الْأَشْتَرِ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وُلِّهُ مِصْرَ: جَبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا، أَمْرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَإِثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لَا يَشِيءُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْفَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكْفَلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ. وَأَمْرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: التوصية الاولى التقوى وجهاد النفس

إشارة

ينطلق الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الرسالة بذكر اسم الله الرحمن الرحيم والاستمداد منه، ويقول: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَزِيدُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَا لَكَ بَيْنَ الْخَارِثِ الْمَأْشُورِ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وَلَّاهُ مُضِيرًا. جَبَايَةَ [٥٢٠] خَرَجَهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا».

نقحات الولاية؛ ج ١٠؛ ص ٢٨٩

تدعى الإمام عليه السلام في مستهل هذه الرسالة بالاعتراف بالعبودية لله تعالى، ثم كونه أمير المؤمنين، ليتبين أن قيادة المؤمنين ودعامتهم إنما تتجسد في أرض الواقع في

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٩٠

ظلّ العبودية لله تعالى لا في ظلّ الحالات والدوافع الذاتية والشخصية، ثم يبين الإمام عليه السلام الأهداف الأربعة لهذه المسؤولية والمهمة التي ندب إليها مالك الأشر:

الهدف الأول: يشير الإمام عليه السلام إلى الأمور المادية والاقتصادية وهو ما ورد التعبير عنه بالخراج، فصحيح أن الخراج يعنى الضرائب الموضوعه على الأراضي المفتوحة عنوة بيد المسلمين، ولكنها في هذا المورد تمتد لدائرة واسعة وتشمل جميع الأمور المادية المتعلقة بالحكومة الإسلامية، أعم من الخراج والزكاة والجزية والخمس وأمثال ذلك.

الهدف الثاني: يتحدث الإمام عن مسألة القوة العسكرية والدفاعية وقوى الأمن في البلد الإسلامي ويؤكد على حفظ استعدادهم لدفع هجمات الأعداء، لأنه ما لم يتم ترتيب أمور هؤلاء فإنّ الأمن لا يتحقق في فضاء المجتمع ولا يعيش الناس راحة البال في معيشتهم وأعمالهم.

الهدف الثالث: يشير الإمام عليه السلام إلى إصلاح الأمور الاجتماعية والثقافية، ومنها إيجاد الباعث على أعمال الخير وإزالة منابع الفساد الأخلاقي وثبيت الأمن في مجال الكسب والعمل وتأمين حقوق الأفراد ونظم ما يتصل بالأمور القضائية، رغم أن البعض تصور أن الجملة:

«اسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا»

تختص بإصلاح الأمور المادية للناس، ولكن من البعيد يكون نظر الإمام عليه السلام مقتصرًا على هذا المورد، بل ناظر إلى إصلاح جميع الأمور المادية والمعنوية.

وبعض العبارات الواردة في كلام الإمام عليه السلام في هذه الرسالة تشير إلى أن الإمام ناظر في هذا المورد بشكل عام وواسع بحيث يشمل جميع المسائل الأخلاقية والاجتماعية من قبيل قوله:

«ثُمَّ أَسْبَغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ وَغَنَى لَهُمْ عَنِ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ».

الهدف الرابع: يتحدث الإمام عليه السلام عن إعمار البلاد ويشمل ذلك إصلاح جميع ما يتعلق بأمور الزراعة والصناعة والتجارة، رغم أن الوارد في هذه الرسالة يختص بمسألة الصناعة والتجارة والكسب والعمل، ولم يرد كلام عن الزراعة، ولكن مع

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٩١

الأخذ بنظر الحسبان أن مصر بلد زارعي وأن أهالي مصر يولون اهتماماً كبيراً بمسألة الزراعة، فكان الإمام عليه السلام لم يجد حاجة

لذكرها واقتصر على الإشارة إلى المشاكل الصناعية والتجارية، ولكن عندما يتحدّث عن أخذ الخراج يأمر مالك الأشر بأن يقوم، في ذات الوقت الذي يأخذ الخراج، بمراقبته عملياً الأعمار واستصلاح الأراضي واجتناب التشدد مع الزرع بما يتسبب في قلة المحاصيل الزراعية.

ثم إن الإمام عليه السلام يواصل استعراضه لهذه الأصول الأخلاقية الأربعة مخاطباً مالك الأشر، والتي تشكل في الحقيقة الأركان الأصلية المعنوية للحكومة.

بداية يقول:

«أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ».

إنّ خطب الإمام عليه السلام ورسائله وكلماته القصار في نهج البلاغة زاخرة بأمر التوصية بالتقوى، التي تمثل رأس مال سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، فالتقوى تعني الاحساس بالمسؤولية الباطنية واجتناب كل أشكال الإثم والذنب والتعدى والإجحاف، وبعبارة أخرى أنّ التقوى تمثل حالة معنوية كابحة، تتولى حفظ مسيرة الإنسان في طريق الحق وتضمن عدم انحرافه عن الصراط المستقيم، ومعلوم أنّ مسؤولية الإنسان كلما ازدادت وثقلت فإنها تستدعي حالة أعمق وأقوى من التقوى.

وفي التوصية الثانية يقول الإمام عليه السلام:

«وَإِثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتَّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ:

مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لَا يَسْعُدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا».

«الفرائض» و «السنن» تعني عادة الواجبات والمستحبات، وقيل: إنّ «الفرائض» هي الواجبات الواردة في كتاب الله، و «السنن» هي الأحكام والواجبات الواردة في السنّة الشريفه وكلام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وفي هذه الصورة تكون جملة: «مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ ..»

شاملة للأمر بإطاعة النبي في بيان الأحكام الإلهية أيضاً، فيحتمل في معنى هاتين المفردتين أنّ «الفرائض» إشارة إلى الواجبات المهمّة، و «السنن» إشارة إلى الواجبات التي تأتي بالدرجة الثانية بعدها.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٩٢

ويتبين من عبارة

«وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا ..»

أنّ طريق سعادة الدنيا والآخرة منحصر في هذا المسلك وأنّ الطرق الأخرى تقود الإنسان في خط الضلالة والمتاهة، وطبعاً فهذا لا يعني نفى الإدراكات العقلية والحق الهداية الباطنية بها، لأنّ من جملة الأمور التي ورد التأكيد عليها في كتاب الله اتباع العقل، وهو ما ورد في عشرات الآيات الكريمة.

وفي التوصية الثالثة يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ».

التعبير بنصرة الله تعالى بالقلب واليد واللسان، كما ذكر بعض الشراح، إشارة إلى ما يتصل بالقلب من الاعتقادات، واليد إشارة إلى جهاد الأعداء، واللسان إشارة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن البعض يعتقد أنّ القلب لا يشير فقط إلى العقائد، بل إلى حالات النفور الباطني من القبائح والرذائل والعشق لأعمال الخير أيضاً، وكذلك بالنسبة لليد فليست إشارة لجهاد الأعداء فقط، بل إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مورد الحاجة لمقدمات عملية والتي تدخل عادة في وظائف الحكومة الإسلامية، وأما اللسان فيشمل جميع أشكال التعليم والتربية الصحيحة مضافاً إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

. عبارة

«قَدْ تَكْفَلُ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ..»

إشارة إلى ما ورد في الآيات القرآنية الشريفة الناظرة إلى هذا المعنى، ومن ذلك ما ورد في الآية ٧ من سورة محمد: «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُيَسِّرْ أَقْدَامَكُمْ».

وفي التوصية الرابعة يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَمْرُهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا [٥٢١] عِنْدَ الْجَمَحَاتِ [٥٢٢]، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ».

والحقيقة أن هذه التوصيات والدساتير الأخلاقية الأربع تمثل برنامجاً كاملاً

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٩٣

لضمان سعادة جميع الناس، فلو أن روح التقوى وحالة الورع تعمقت وتجدرت في النفس، وتحرك الإنسان بعدها في خط إطاعة الأوامر الإلهية واتباع التعاليم الواردة في الكتاب والسنة وتصدى لمواجهة المفاصد الاجتماعية والقبايح الأخلاقية ومؤامرات الأعداء بالقلب واليد واللسان وكسر صنم الأهواء النفسانية، فمثل هذا الإنسان هو الإنسان الكامل وهو المخاطب بقول تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» [٥٢٣].

وجملة

«فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ..»

اقتباس من قوله تعالى: «وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي» [٥٢٤]. (سواء كانت هذه الجملة واردة على لسان يوسف عليه السلام أم على لسان زوجة عزيز مصر، وعلى أية حال فإن القرآن قد أمضى هذه المقولة).

ورغم أن الكثير من المتقين يخشون من وساوس الشيطان، ولكن هوى النفس والوساوس الشهوانية والنوازع النفسانية أخطر من ذلك بكثير، ولعل هذا هو السبب في أن الإمام عليه السلام يلفت نظر مالِك الأشر إلى هذه المسألة أكثر.

وصحيح أن المؤمنين المخلصين والأولياء الإلهيين قد تجاوزوا مرحلة النفس الأمارة إلى النفس اللوامة ومنها إلى النفس المطمئنة، ولكن هذا لا يعني أن نفوسهم الأمارة قد ماتت ولا حاجة إلى الحذر من أخطارها ودسائسها.

تأمل

أخطار النفس الأمارة

من المعلوم أن كبار العلماء والمفتيين، وبالاستلهام من آيات القرآن الكريم، قالوا بوجود مراحل ثلاث للنفس الإنسانية في حركتها المعنوية في خط التكامل:

النفس الأمارة، النفس اللوامة، النفس المطمئنة.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٩٤

أما النفس الأمارة فإشارة إلى الأهواء والشهوات المتمردة التي تأمر الإنسان دوماً بسلوك طريق الرذيلة وإرتكاب المنكرات، والنفس اللوامة إشارة إلى حالة الندم الحاصل بسبب ارتكاب الإثم والمعصية، وتنمو وتشتد هذه النفس من خلال تقوية روح التقوى في الإنسان، أما النفس المطمئنة فهي المرحلة العالية من تكامل الروح الإنسانية بحيث تصل إلى مرتبة تخضع لها جميع الأهواء والنوازع النفسانية بشكل كامل من خلال آليات الضبط العقلي والإيماني.

ويرسم الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السلام في المناجاة الثانية من المناجاة الخمسة عشر المعروفة، النفس الأمارة بكل وضوح ويشكو إلى الله تعالى منها بهذه الكلمات (بوصفه قدوة لعموم الناس) ويقول:

«إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُو نَفْسًا بِالسُّوءِ أَمَارَةً وَإِلَى الْخَطِيئَةِ مُبَادِرَةً وَبِمَعَاصِيكَ مُوَلِّعَةً وَبِسِخْطِكَ مُتَعَرِّضَةً تَسْلُكُكَ بِي مَسَالِكَ الْمَهَالِكِ وَتَجْعَلُنِي عِنْدَكَ أَهْوَنَ هَالِكٍ كَثِيرَةَ الْعِلَلِ طَوِيلَةَ الْأَمَلِ إِنْ مَسَّهَا الشَّرُّ تَجَزُّعٌ وَإِنْ مَسَّهَا الْخَيْرُ تَمْنَعٌ مَيَّالَةً إِلَى اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ مَمْلُوءَةً بِالْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ تُشْرِعُ بِي إِلَى الْحَوْبَةِ وَتُسَوِّفُنِي بِالتَّوْبَةِ».

أجل فهذه معالم وخصائص النفس الأماره على نحو الدقة، ويستفاد من الروايات الشريفة أن النفس الأماره تزين للإنسان الذنوب وتقبح له الخيرات والطاعات، وعندما يرتكب الإنسان تلك القبائح والذنوب وتتجلى أمامه عواقب تلك الذنوب، تنكشف عن عينه سائر الغفلة، وأحياناً يوصد من خلفه باب العودة والإنابة فلا سبيل له للتوبة من الرذائل والمنكرات.

يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام (كما ورد في غرر الحكم) في كلام موجز أن:

«النَّفْسُ الْأَمَارَةُ الْمُسَوَّلَةُ تَمَلِّقُ تَمَلِّقُ الْمُنَافِقِ وَتَتَصَيَّبُ بِشَيْمَةِ الصِّدِّيقِ الْمُوَافِقِ حَتَّى إِذَا خَدَعَتْ وَتَمَكَّنَتْ تَسَلَّطَتْ تَسَلَّطَ الْعَدُوُّ وَتَحَكَّمَتْ تَحَكَّمُ الْعُتُوُّ فَأَوْزَدَتْ مَوَارِدَ السُّوءِ» [٥٢٥].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٩٥

ومن هنا أوصى الأولياء وعلماء الأخلاق أن يراقب الإنسان هذه النفس مراقبة دقيقة لئلا يتورط في شراكها وينخدع بخداها، ويقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في كلام آخر (طبقاً لما ورد في غرر الحكم):

«إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ فَمَنْ أَهْمَلَهَا جَمَحَتْ بِهِ إِلَى الْمَأْثِمِ» [٥٢٦].

فالنفس الأماره تعتبر في الحقيقة أهم وسائل الشيطان وأدواته في إغواء الإنسان، فلو أن الإنسان تخلص من شراكها ومصائدتها فإنه يتخلص كذلك من شر الشيطان وتسويلاته.

أهمية بلاد مصر

تعتبر مصر أحد أقدم مراكز الحضارة البشرية وأقدم مهد للتمدن في التاريخ البشري، وهناك آثار تاريخية مهمه في بلاد مصر احتار العلماء في كيفية تشييدها وبنائها حتى مع الأخذ بنظر الاعتبار الوسائل والأجهزة الحديثة، وكأن مقولة أن هذه الأرض كانت من قديم الأيام من أكثر البلدان تطوراً وإزدهاراً في العالم حقيقة لا غبار عليها.

والمدارك والأسناد التاريخية تشير إلى أن مصر كانت ذات حضارة مزدهرة منذ عشرة قرون قبل ميلاد المسيح، فكانت تحتوى على مدارس كبيرة ومكتبات ومراكز للتحقيق العلمي، وقد إقترنت الحضارة المصرية باليونانية من قديم الأزمان وكانت العلوم والمعارف متبادلة بينهما.

ومن النعم الإلهية الكبيرة على هذا البلد التاريخي، نهر النيل العظيم الذى يسقى أراضي مصر الواسعة، ولولا هذا النهر العظيم فإن قسماً عظيماً من أراضي هذا البلد ستعرض للجفاف والتصحر، وتغدوا صحراء قاحلة لا زرع فيها.

وفى السنة العشرين من الهجرة وفى زمن الخليفة الثانى استولى المسلمون على

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٩٦

هذا البلد، ومن عجائب التاريخ أن عمر بن الخطاب منع من دخول جيش الإسلام إلى مصر، ولكن عمرو بن العاص جهز جيشاً وتحرك بنفسه إلى مصر فوصل الخبر إلى عمر بن الخطاب، وقد كان يخشى أن جيش الإسلام إذا دخل مصر فسوف يتحد الرومان والمصريون ويهزموا الجيش الإسلامى، ولذلك كتب كتاباً إلى عمرو بن العاص وأرسله بيد عقبه بن عامر، وعندما وصل عقبه بن عامر إلى عمرو بن العاص وهو على مقربة من مصر، لم يسمح عمرو بن العاص لعقبه باللقاء به ولم يستلم الكتاب منه إلى أن دخل إحدى المدن الساحلية فى مصر، ثم التفت إلى عقبه وقال:

هات الكتاب، فدفع إليه الكتاب، وكان عمر بن الخطاب قد كتب فيه أنك إذا لم تدخل مصر فعليك بالعودة فوراً، فقال عمرو بن

العاص لجنوده: هل أن هذا المكان هو مصر أو خارج مصر فقالوا: لقد دخلنا مصر، فقال: إن الخليفة قد أمرنا إذا لم ندخل مصر فعلينا بالعودة، ولكننا الآن في مصر ويجب علينا المضي والتقدم، ولكن عمرو بن العاص واجه مشكلة في فتح مصر وخاف من الهزيمة، فكتب إلى عمر بن الخطاب وطلب منه إرسال التعزيزات والمعونات، فجهز الخليفة الثاني جيشاً من اثني عشر ألف نفر وأمر عليهم عدد من رجال الإسلام الشجعان وأرسله لنصرته، وأخيراً فتحت مصر واعتنق المصريون الإسلام بشوق بالغ، وأنتجت مصر الكثير من علماء الإسلام في فنون العلم المختلفة وفتحت المدارس الإسلامية فيها واحدة بعد الأخرى وازدهر العلم في هذا البلد. ومن امتيازات مصر أن محبي أهل البيت عليهم السلام وعشاق المذهب العلوي كثيرون فيها، وحتى أن أهل السنة في مصر يعشقون أهل البيت عليهم السلام ويزورون «رأس الحسين» و«المرقد المنسوب للحوراء زينب» فيها حيث أضحى مزاراً عاماً لسكنة تلك الديار.

ولولا تدخل السياسة، لأمكن القول إن مصر بإمكانها أن تكون وسيلة جيدة لإيجاد الوحدة والاتحاد بين المذاهب الإسلامية، والشاهد على هذا المدعى الفتوى

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٩٧

المعروفة التي أصدرها «الشيخ شلتوت» عن اتباع فقه الإمامية وأن هذا الفقه يقع في عرض مذاهب أهل السنة الأربعة ويجوز العمل به. وعلى أية حال فبسبب أهمية هذا البلد الإسلامي، اختار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أقوى شخصيته من أنصاره وأصحابه وأعرفهم وأشجعهم، وهو مالك الأشتر، لإدارة أمور هذا البلد وكتب إليه العهد المعروف وهو مورد البحث الذي يشمل أدق التعاليم والتوصيات في مسألة إدارة الحكومة والولاية وسلمه إليه.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٢٩٩

القسم الثاني

إشارة

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ أَنِّي قَدِ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دَوْلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلِ وَجُورٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَمَاءِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرَى اللَّهُ لَهُمْ عَلَى الشَّرِّ عِبَادِهِ، فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الدَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَاْمَلِكْ هَوَاكَ، وَشَحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ. وَأَشِعْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخُ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمْ الزَّلُّ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْجَلَلُ، وَيُؤْتِي عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَا، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصِيْفِحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصِيْفِحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَوَلَاكَ! وَقَدْ اسْتَكْفَاكَ أَمْرُهُمْ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ.

الشرح والتفسير: احترام حقوق جميع المواطنين!

يتابع الإمام عليه السلام توصياته العميقة والشاملة التي ورد بعضها في القسم الأول من العهد، ويخاطب الإمام عليه السلام مالك الأشتر مشيراً إلى عدة نقاط خاصة، بداية يقول:

«ثُمَّ اَعْلَمَ يَا مَالِكَ، اَنْنِي قَدِمْتُ وَجَهْتُكَ اِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دَوْلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلِ وَجُورٍ، وَاَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ اُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتُ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ اُمُورِ الْوَلَاءِ»

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٠٠

قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتُ تَقُولُ فِيهِمْ».

ثم يضيف عليه السلام:

«وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرَى اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسِنِ عِبَادِهِ».

في هذا المقطع من كلام الإمام عليه السلام يشير الإمام من باب المقدمة إلى وضع مصر (وقطعاً لا ينحصر بمصر) وأنه قد كانت قبلك حكومات عادلة وجائرة، الحكومة العادلة من قبيل حكومة مصر في عصر النبي يوسف عليه السلام، وأما حكومة الجور فتمثل في الكثير من الفراعنة منهم فرعون المعاصر للنبي موسى بن عمران عليه السلام.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى هذا الموضوع المهم، وهو أن معيار تقييم الحكومات من حيث العدل والجور يرتبط بأفكار عامة الناس وتصورهم عن حكومتهم، وهذا هو المتداول في هذا العصر من أن رأى الشعب هو الميزان، رغم أن الغالب في مقام العمل لا يؤخذ به تماماً، ولكن في ذلك العصر وعندما تحدت الإمام عليه السلام بهذا الكلام، قلما كان شخص يعتقد بهذه العقيدة وكان الناس يتصورون أن الحكومة لا يمكن أن تتحقق وتدوم إلا بالآليات الاستبداد، والاستبداد بدوره مقترن بالظلم والجور.

وقد جاء في كلمات العلماء:

«أَلْسِنَةُ الْخَلْقِ أَقْلَامُ الْحَقِّ»

أو

«أَلْسِنَةُ الرَّعِيَّةِ أَقْلَامُ الْحَقِّ إِلَى الْمُلُوكِ»

وهما بمعنى واحد، وهو أن كلام جمهور الناس يعتبر قلم الحق تعالى الذي يكتب توصياته ورسائله إلى الملوك والقادة، أو أن الله تعالى بهذه الوسيلة يخاطبهم ويكاتبهم، وعلى أية حال فالغاية من ذلك أن الحكم الصادر من عامة الناس ومن الوعي الجمعي للامة هو المعيار الجيد لمعرفة قيمة الحكومات وصلاحيتها ومصداقيتها.

وطبعاً أحياناً تقوم الحكومات من خلال التبليغ الكاذب والتظاهر والرياء بتحريف وتشويش أفكار الناس، أو تقوم بعملية غسيل الأدمغة، ففي مثل هذه الموارد يكون الرأى العام مريض ويفقد أثره المطلوب في القضاة.

ومهما يكن من أمر فمن الجدير بقيادة المسلمين الحاليين أن يكتبوا بعبارة:

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٠١

«وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرَى اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسِنِ عِبَادِهِ»

، بماء الذهب ويضعونها نصب أعينهم ويقرأونها كل يوم ويحفظونها في قلوبهم، ومن أجل تحقيق هذا المضمون يجب عليهم إبعاد المتملقين والانتهازيين من حولهم ولا- يكتفون بشهادة أنصارهم وأصحابهم فقط، بل يعرفون صلاحيتهم ومصداقيتهم من خلال الإتصال المباشر مع الناس عامةً.

وجاء في كتب التاريخ أن بعض القادة القدماء كان راغباً في إقامة العدالة في حكمه فأحياناً كان يلبس ملابس أخرى ويخرج متنكراً ويطوف في المناطق المختلفة في المدينة وخاصةً في المناطق المحرومة، ويدرس الأمور والأوضاع عن كثب بدون استخدام الوسطاء.

ثم يصدر الإمام عليه السلام في هذا المقطع من عهده ست توصيات مهمة لمالك الأشر و يقول:

«فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الدَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ».

ويقول القرآن الكريم: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا» [٥٢٧].

وفى آية أخرى يقول: «إِنَّهُ يَضَعُ الذِّكْرَ الطَّيِّبَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ يَزْفَعُهُ» [٥٢٨].

وفى تفسير آخر أن العمل الصالح يرفع الكلام الطيب ويعمل على ترسيخ العقائد السليمة فى واقع الإنسان وقلبه.

ونقرأ فى سورة العصر: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفَى خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» [٥٢٩].

وفى التوصية الثانية والثالثة يقول الإمام عليه السلام

«فَأَمْلِكْ هَوَاكَ، وَشَحَّ [٥٣٠] بِنَفْسِكَ عَمَّا لَّا

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٠٢

يَجِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ».

إنَّ ضبط الأهواء النفسانية وكبح جماحها، والذى يؤكده عليه الإمام عليه السلام، هو أن يستطيع الإنسان عند فوران الشهوة وثورة

الغريزة أن يضبطها ويجعلها تحت إرادته، وبالعكس ذلك إذا سيطر هوى النفس على فكر الإنسان وعقله وقواه وملكاتة الأخرى فإنه

سيقود صاحبه إلى وادى الهلكة والخسران.

ونقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«أَحْذَرُوا أَهْوَاءَكُمْ كَمَا تَحْذَرُونَ أَعْدَاءَكُمْ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْدَى لِلرِّجَالِ مِنْ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ وَحَصَائِدِ أَلْسِنَتِهِمْ» [٥٣١].

وجاء فى حديث آخر فى «غرر الحكم» عن الإمام أميرالمؤمنين على عليه السلام:

«أَفْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ بِدَوَامِ جِهَادِهَا» [٥٣٢].

فالشح بالنفس فى مقابل المحرمات لا يعنى سوى أن يتصرف الإنسان كالبخيل الذى لا يجد فى نفسه رغبة فى إنفاق الدرهم والدينار

من أمواله على الآخرين، فمثل هذا الإنسان يقف فى مقابل المحرمات كالبخيل فلا يعطى من نفسه شيئاً يؤدى به إلى خسرانه دينه

وإيمانه وبعده عن طريق الإنصاف والصلاح، سواء فى الأمور التى يجد فى نفسه ميلاً إليها أم فى الأمور التى لا يشتهيها.

ثم يشير الإمام عليه السلام فى التوصية الرابعة إلى مسألة مهمة جداً تعكس عظمة القوانين الإسلامية ويطرح أمراً لم يكن له وجود فى

ذلك العصر فى المجتمعات البشرية، ويقول:

«وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ».

ومعلوم أن «أشعر» من مادة «شعار» وشعار فى الأصل يطلق على الملابس التحتانية للإنسان التى تلتصق مباشرة ببدنه، واختيار الإمام

عليه السلام لهذا التعبير يشير إلى أن قلبك يجب أن يلتصق بالرحمة والمحبة واللفظ بالنسبة للرعية.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٠٣

ولعل الفرق بين الرحمة والمحبة واللفظ، أن الرحمة تمثل المرتبة الأولى من الصداقة وحسن الخلق، والمحبة فى مرتبة أعلى منها،

واللفظ يمثل آخر مرتبة من التعاطف مع الآخرين، وربما يكون التفاوت فى هذه المراتب بالنسبة لمواقع أفراد المجتمع والرعية،

فبعضهم يستحق الرحمة، والبعض الآخر فمن هو أنفع للناس فإنه جدير بالمحبة، والأشخاص الذين يخدمون الناس ويسعون فى إيصال

الخير أكثر فإنهم جديرون باللفظ.

وقد ورد فى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لَا تَصْلُحُ الْإِمَامَةُ إِلَّا لِرَجُلٍ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ وَحُسْنُ الْوِلَايَةِ عَلَى مَنْ يَلِي حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ كَالْوَالِدِ الرَّحِيمِ» [٥٣٣].

ويتحدث الإمام عليه السلام فى التوصية السادسة من موقع التأكيد على ما مرّ فى التوصية الرابعة ويقول:

«وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِبًا [٥٣٤] تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ:

إِمَّا أُخُّ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ».

ولا شك ولا ريب فى أن أركان الحكومة الصحيحة والمقتدرة والعادلة هى التى تمتد سيطرتها على قلوب الناس وعواطفهم لا على

أساس القوة والسيف، فالولاء الذين يحكمون على قلوب الناس ويملكون عواطفهم فإن المجتمع يعيش الأمن والأمان، أما من كان يحكم بآليات القوة والقهر فإنهم يعيشون هاجس الخطر دائماً.

ومن أجل تشويق مالك الأشر على أمر الحكومة على القلوب والعواطف يأمر الإمام عليه السلام بالتعامل مع الرعية بلغة الرحمة والمحبة واللفظ، ثم يبين الإمام عليه السلام النقطة المقابلة لذلك، وهي الحكومة التي تقوم على أساس البطش والقوة ويكون الحاكم فيها كالحيوان المفترس يأكل حقوق الرعية ويحسبها غنيمة له، ثم يختار الإمام

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٠٤

أفضل دليل على هذه التوصيات، وهو أن الرعية في الحكومة الإسلامية ليس خارجة عن اثنين: فالغالبية مسلمون، ونعلم أن الإسلام يقرر أن المسلم أخو المسلم، أو أقلية من غير المسلمين الذين يعيشون مع المسلمين حياة سلمية، وهم بشر ويتصرفون بالإنسانية، والإنسان يجب أن يتعامل مع الإنسان الآخر بآلية المحبة والمودة.

وهذا الكلام في الحقيقة يشطب بخط البطلان على التبليغات المسمومة للأعداء الذين يقولون: إن المسلمين لا يعترفون بحق الحياة لغير المسلمين ويعتقدون أن جميع الأفراد من غير المسلمين يجب أن يقتلوا أو يسلموا كرهاً، أجل فإن كلام الإمام عليه السلام المذكور أعلاه يقرر أن جميع أفراد البشر وأتباع الأديان والمذاهب الأخرى بإمكانهم أن يعيشوا مع المسلمين حياة سلمية وطيبة ويتمتعون في داخل البلاد الإسلامية في ظل قوانين الإسلام بكافة حقوقهم وتكون نفوسهم وأموالهم وأعراضهم وحيثياتهم محفوظة، خلافاً لما نراه في عالمنا المعاصر، فحتى الاختلاف في لون الجلد في بعض الدول التي تدعى التقدم والحضارة كأمريكا يكون سبباً للتمييز العنصري، وخلافاً لما يتبعجون به في إعلاناتهم السياسية فإن البيض هناك يكرهون السود غالباً، والمراكز الاجتماعية للبيض منفصلة عن مراكز السود وهم غير مستعدين للتعاون في الكثير من المسائل الاجتماعية.

ثم يبين الإمام عليه السلام حقيقة تعتبر من أهم تعاليم وتوصيات الإدارة الناجحة ويقول: «يَفْرُطُ [٥٣٥] مِنْهُمْ الزَّلُّ [٥٣٦]، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعُلَلُ، وَيُوتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَا، فَأَعْطَاهُمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ». وبديهي أن كل إنسان غير معصوم من الخطأ والزلل (سوى المعصومين عليهم السلام) وأن

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٠٥

الكبير والصغير، والعالم والجاهل كل واحد منهم يتلى بما يتناسب مع حاله بالأخطاء، ولا أحد بإمكانه أن يدعى أنه بريء من الخطأ والزيف، بل ورد في حالات بعض الأنبياء الإلهيين أنهم كانوا يرتكبوا أحياناً ترك الأولى، ورغم أنه ليس بذنوب ومعصية، ولكنه غير لائق بمقامهم.

وهكذا أحياناً يفقد الإنسان حالته العادية بسبب بعض الآلام والمتاعب الجسمية والروحية، وفقدان الأعزّة، الفشل في العمل وأمثال ذلك، ففي مثل هذه الحالة يسلك عادة في دروب الزيف والخطأ.

وبما أن الإمام عليه السلام يريد لمالك الأشر الولاية والحكومة على جمهور كبير من الناس، يعني أهالي مصر، فإنه يأمره بالعتو عن الزلل والخطأ (في الموارد الميسورة والممكنة)، ومن أجل إثارة الباعث في نفسه على هذا العمل وتقويته في نفسه يذكره الإمام بأخطائه وزلاته في مقابل الباري تعالى، ويقول: ألا ترغب في أن يعطيك الله من عفو وصفحته ويتجاوز عن أخطائك وسيئاتك؟ إذن فعليك بالعتو والصفح عن خطايا الرعية ولا تشدد عليهم، وطبعاً هذا في الموارد التي لا يكون فيها العفو والصفح موجباً للاخلال في النظم وتضييع حقوق المظلومين.

ونقرأ في تاريخ صدر الإسلام عندما شاعت قضية الإفك بين المسلمين بواسطة المنافقين وأتهم جماعة منهم زوجة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالانحراف عن جادة الشرف والعفة، فإن جماعة من المؤمنين، سلكوا عمداً أو سهواً، في مسير إشاعة هذه التهمة،

فنزلت الآيات القرآنية ونهت بشدة عن هذا السلوك الشائن، بحيث إن بعض المسلمين عزموا على قطع رابطتهم مع هؤلاء الأشخاص من مشيرى الفتنة ومروجى الإشاعة، ويحرمونهم من معوناتهم المادية، فنزلت الآية الشريفة: «وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعْيَةَ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيُغْفُوا وَلْيُغْفَوْا أَلَّا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [٥٣٧].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٠٦

والفرق بين العفو والصفح، أن العفو يعني صرف النظر عن العقاب على الخطأ والزلل، وأمّا الصفح في مثل هذه الموارد فهو إزالة العقوبة على الخطأ من ذهنه ووضعها في زاوية النسيان.

وجملة:

«يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ..»

لا- تعنى أنه يجب على الوالى أن يأخذ بيد المخطئين ويهديهم سواء السبيل كما ذكر ذلك بعض الشراح، بل بمعنى أن الأعمال الخاطئة تجرى على أيديهم.

ثم يتحرك الإمام على مستوى التوضيح والتأكيد أكثر ويقول:

«فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِى الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَوَلَاكَ! وَقَدْ اسْتَكْفَاكَ أَمْرُهُمْ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ».

فالإمام عليه السلام فى هذه العبارة يؤكد على هذه الحقيقة، وهى أن كل شخص يحكم على جماعة فهو بدوره يقع تحت حكمه شخص آخر، فإذا كنت حاكماً على مصر، فعليك بالانتباه بأننى حاكم عليك ومراقب لأعمالك، فإذا كنت حاكماً عليك فنبغى أن أنتبه إلى أن الله تعالى حاكم علينا، ومعلوم أن الالتفات إلى هذا الأمر يؤدي بالإنسان أن يتعامل مع الناس بآليات العفو والصفح والمحبة ما أمكنه ذلك لكى يتوقع بالتالى عفو الحاكم عنه وأعلى من ذلك يتوقع العفو الإلهى عنه.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٠٧

القسم الثالث

إشارة

وَلَمَّا تَصَبَّحْتَ نَفْسَكَ، لِحَرْبِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَدُ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَلَا تَتَّكِرْ عَلَى عَفْوٍ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَتِهِ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرِهِ وَجَدْتَ مِنْهَا مُنْذُوحَةً، وَلَا تَقُولَنَّ: إِنِّى مُؤَمَّرٌ أَمْرٌ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغَيْرِ. وَإِذَا أُخِذَتْ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أَبْهَتْهُ أَوْ مَخِيلَتْهُ، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَيَكْفُفُ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ! إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبْرُوتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُدَلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهَيِّنُ كُلَّ مُخْتَالٍ.

الشرح والتفسير: لا تكن مغروراً أبداً!

يواصل الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من كتابه لمالك الأشتر ويوصيه بسبع توصيات مهمة أخرى.

بداية يقول::

«وَلَمَّا تَصَبَّحْتَ نَفْسَكَ، لِحَرْبِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَدُ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ».

المراد من الحرب مع الله، كما ذكر الكثير من شراح نهج البلاغة، هو الظلم والجور على عباد الله وتضييع حقوقهم ولا- يشمل كل معصية وإثم، وصحيح أن جميع الذنوب قبيحة وذميمة، ولكن التعبير بالحرب مع الله يعني أكبر من ذلك.

والشاهد لهذا المعنى ما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام عن

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٠٨

رسول الله صلى الله عليه وآله

: «لَقَدْ أَسْرَى رَبِّي بِي فَأَوْحَى إِلَيَّ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ مَا أَوْحَى وَشَافَهَنِي إِلَيَّ أَنْ قَالَ [٥٣٨] لِي يَا مُحَمَّدُ مَنْ أَدَّلَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ أَرَصَدَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَمَنْ حَارَبَنِي حَارَبْتُهُ» [٥٣٩].

ويستدل الإمام عليه السلام لعدم الحرب مع الله بأمرين: أحدهما، الحاجة إلى عفوهِ ورحمته، والآخر، اجتناب عقوبته وعذابه. وفي التوصية الثانية والثالثة يقول عليه السلام:

«وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلَا تَبْجَحَنَّ [٥٤٠] بِعُقُوبَةٍ».

وهذا الكلام إشارة إلى أنك يجب أن تلتزم جانب العفو ما أمكنك ذلك وقلل من موارد العقوبة، لأن أثر العقوبة إذا كان نافعا لمدة قصيرة فإن أثر العفو يمتد لمدة طويلة.

وطبعاً فإن هذا الحكم يصدق على غالبية الناس، ولكن لدى بعض الناس - وهم أقلية تكون نتيجة العفو والصفح عكسية ويتحمل الجناة ذلك على محمل الضعف والخوف من قبل الوالي، فلا بد من استخدام الشدة والقوة مع هؤلاء.

وفي التوصية الرابعة يقول عليه السلام:

«وَلَا تُشْرِعَنَّ إِلَيَّ بَادِرَةً [٥٤١] وَجَدْتَ مِنْهَا مَنُذُوحَةً [٥٤٢]».

ومعلوم أن الإنسان عندما يملكه الغضب فإنه يفقد إعتداله الفكري، وقد جربنا مراراً بأن كل قرار نتخذه في ذلك الوقت سيثبت خطأه بعد ذلك، وحتى أعقل الناس

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٠٩

ربما يتحول في صورة الغضب والحدة إلى أجهل الناس، والمعروف بين العامة من الناس أنهم يقولون: عندما أغضب فإن الدم يغطي على عيني ويحول بيني وبين رؤية الأشياء فأرتكب العمل الفلاني، وهذا في الحقيقة إشارة إلى هذه الحالة.

ولذلك ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«الْغَضَبُ يُزِدِي صَاحِبَهُ وَيُبِيدِي مَعَايِبَهُ» [٥٤٣].

وجاء في حديث آخر عنه عليه السلام أيضاً:

«بُسُّ الْقَرِينِ الْغَضَبُ يُبِيدِي الْمَعَائِبَ وَيُدْنِي الشَّرَّ وَيُبَاعِدُ الْخَيْرَ» [٥٤٤].

وهذه الحقيقة تتضح أكثر عندما يأتي بعض الأشخاص من طرف واحد ويتحدثون للوالي بكلام معين، فلو عزم على أمر في هذا الحال فسوف يندم، فيجب التريث قليلاً وسماع حجة الطرف المقابل، فربما يختلف الحال بعد هذا التحقيق.

ومن هذا المنطلق ينبغي العمل وفقاً للمثل المعروف: «عند الغضب لا عقوبة ولا أمر ولا تصميم».

في التوصية الخامسة ينهأ الإمام عليه السلام بشدة عن حالة الغرور والفخر ويقول:

«وَلَا تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ أَمْرٌ فَأَطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِذْغَالٌ [٥٤٥] فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ [٥٤٦] لِلدِّينِ وَتَقَرُّبٌ

مِنَ الْغَيْرِ [٥٤٧].»

ولا شك أن أحد الآفات الخطيرة لمسألة الحكومة والولاية، الغرور والكبر والاستبداد، وكما قال الإمام عليه السلام أن ذلك ترتب عليه ثلاثة أمور خطيرة، الأول: أن نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣١٠

يفسد فكر الإنسان وتنقلب لديه الحقائق ويتخذ قرارات عجولة وغير عادلة ومجانبة للصواب، والآخر، أن الإنسان يتورط بأنواع المعاصي والذنوب والظلم مما يوهن إيمانه ودينه، والثالث، أن هذه الحالة تتسبب في إيجاد متغيرات كثيرة فيما يتصل بعلاقة الحكومة مع الناس والكثير من الإنتفاضات والثورات على إمتداد التاريخ البشرى تنبع من هذه القضية. وبخلاف ذلك إذا كان الولى متواضعاً وأخرج من ذهنه ربح الغرور والتكبر، فسوف يعتدل فكره ويتصرف بحكمة وكذلك لا يلوث نفسه بالذنوب ولا- يضعف إيمانه، ومن جهة أخرى يحفظ علاقته الحميمة مع الناس، وهذه العلاقة هي الأصل والأساس للحكومة الصالحة حيث تمنح الحكومة القدرة والهيمنة.

ويقول الإمام عليه السلام في كلماته القصار في «غررالحكم» عبارة مثيرة في مصير المغرورين وعاقبتهم الوخيمة: «طوبى لِمَنْ لَمْ تَقْتُلْهُ قَاتِلَاتُ الْغُرُورِ» [٥٤٨].

وفي مورد آخر يقول:

«سُكَّرَ الْعُقْلَةُ وَالْغُرُورُ أَبْعَدُ إِفَاقَةً مِنْ سُكْرِ الْخُمُورِ» [٥٤٩].

أجل، فإن سكر الشراب ربّما يزول بعد يوم أو ليلة، ولكن سكر الغرور ربّما يستمر إلى خمسين عاماً.

ويشير الإمام عليه السلام في آخر الخطبة التالية من نهج البلاغة إلى جماعة من المنافقين والانتهازيين الذين تمردوا عليه ويقول: «زَرَعُوا الْفُجُورَ وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ وَحَصَدُوا الثُّبُورَ».

وبما أن عمل الأطباء الواعين لا يقتصر على تشخيص وعلاج الألم والمرض، بل يمتد إلى إراءة طرق العلاج أيضاً، ويعد ذلك من الأركان الأصلية لبرنامجهم الطبي، والإمام عليه السلام وهو الطبيب الإلهي، في هذه الرسالة بعد أن يذكر آفات الغرور، يشير إلى طريق علاجها ويقول:

«وَإِذَا أَحَدَتْ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أَبْهَةً [٥٥٠] أَوْ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣١١

مَخِيلَةً [٥٥١]، فَانظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ [٥٥٢] إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ [٥٥٣] وَيَكْفُ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ [٥٥٤] وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا غَزَبَ [٥٥٥] عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ».

فالإمام عليه السلام في هذه العبارات البليغة والعميقة المعنى، يقرر أن النظر إلى عظمة ملك الله تعالى وقدرته الواسعة من شأنه أن يخلف ثلاثة آثار إيجابية للمعترين بقدرتهم:

الأول: أنه ينزلهم عن مركب الغرور.

والآخر: يخفف من شدة عملهم.

والثالث: يعيد إليهم عقلهم الذي أسدل عليه الغرور ستار الغفلة.

أجل، فإن أقوى الأفراد يجد نفسه في مقابل الحوادث والمظاهر الطبيعية التي تحدث بأمر الله كالريشة في مهب الريح، وقد سمعنا كثيراً أن السلاطين المستبدين قد أخذهم الأجل بين عشية وضحاها بسكنته قلبية مختصرة، ونعلم أن هذه العارضة تنشأ من إنسداد بعض الشعيرات في القلب ويترتب عليه جلطة دموية، أو يموت بسبب السرطان، وهو ليس سوى طغيان خلية من خلايا البدن الضعيفة

أو بواسطة المكروب أو فيروس الذى لا- يرى بالعين المجردة، وأحياناً تحدث زلزلة وتهدم جميع قصورهم، أو يهب اعصار ليحطم جميع ما لديهم، أو يأتى سيل عظيم ويأخذ معه كل ما لديهم، وهكذا، هذه كلها إشارات صغيرة على قدرة الله المطلقة، فلو أن الإنسان تفكر فى هذه الأمور، فإنه سيكون متواضعاً وبعيداً عن حالات الغرور فى

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣١٢

أى مقام ومنصب كان.

إن التاريخ لا يذكر حكمه وسلطه أعلى من سلطه النبي سليمان عليه السلام، فالقرآن يتحدث عن سليمان عندما حان أجله فلم يمهل الموت حتى يجلس على الأرض بل أخذ روحه وهو واقف متكىء على عصاه وودع جميع ما لديه من إمكانات عظيمة فى لحظة واحدة ولم يعلم بموته أحد من الناس إلا بعد أن أكلت الأرضه عصاه فاختل تعادله وسقط على الأرض.

ثم إن الإمام عليه السلام، وفى التوصية السابعة، يتحدث من موقع التأكيد على الأمور المذكورة آنفاً لغرض إزاحة حالة الغرور والتكبر عن الولاية والامراء من خلال التهديد بالعقوبة الإلهية ويقول:

«إِيَّاكَ وَمَسَامَاةَ [٥٥٦] اللَّهُ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشْبَهُ بِهِ فِي جَبْرُوتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهَيِّنُ كُلَّ مُخْتَالٍ [٥٥٧].»

وفى الحقيقة فإن الأشخاص الذين ملكهم الغرور والتكبر يدعون عملاً أنهم فى سياق واحد مع الله تعالى، فى حين أنهم لا يمثلون سوى ذرات تافهة فى مقابل بحر العظمة الإلهية، والعقوبة المترتبة على مثل هذا الغرور والشموخ العبثى هو أن الله تعالى سيدلهم ويهينهم، وإذا التفت المتكبرون والمغرورون إلى نهاية عملهم فسوف ينزلون من مركب الغرور والكبر.

وقد وردت أحاديث شريفة فى هذا المجال عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر الأئمة المعصومين عليهم السلام.

فقرأ فى حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال عندما سئل عن:

«أَذْنَى الْإِلْحَادِ»

. فقال عليه السلام:

«إِنَّ الْكِبْرَ أَذْنَاهُ» [٥٥٨].

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً:

«الْكِبْرُ رِدَاءُ اللَّهِ فَمَنْ نَارَعَ اللَّهَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ أَكَبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ» [٥٥٩].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣١٣

ومعلوم أن جميع هذه الأمور بسبب الآثار والتداعيات السلبية الفردية والاجتماعية التى تستولى على الشخص المغرور والمتكبر، وقد ورد روايات متعددة أن الكبر يتسبب فى تجاهل الإنسان للحق ويواجه أهل الحق من موقع التوبيخ والذم ويسحق حقوق الناس [٥٦٠].

ونختم هذا الكلام بحديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«الْكِبْرُ أَنْ تَتْرَكَ الْحَقَّ وَتَسْجَاوَزَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَتَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ وَلَا تَرَى أَنَّ أَحَدًا عَرَضُهُ كَعَرَضِكَ وَلَا دَمُهُ كَدَمِكَ» [٥٦١].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣١٥

القسم الرابع

إشارة

أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خِصَاصَةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوَى مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمُ! وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ

كَانَ اللَّهُ خَصَمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَذْخَصَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ.
وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةِ عَلَيِّ ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَّدِينَ وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

الشرح والتفسير: إحد من لعنة المظلومين!

في هذا المقطع من رسالة الإمام عليه السلام لمالك الأشتر يوصيه الإمام عليه السلام بعبارات بليغة ومحكمة بإقامة العدالة ورفع كل أشكال التمييز:

«أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوَى [٥٦٢] مِنْ رَعِيَّتِكَ».

ومعلوم أن المراد من الانصاف بالنسبة لله تعالى، إطاعة أوامره ونواهيه، والانصاف بالنسبة للناس ترك كل أشكال التمييز والميل لبعض الأفراد دون البعض، كما هو الحال في سيرة غالبية المسؤولين والقادة في الماضي والحاضر، فعندما يصلون إلى مسند القدرة والسلطة يمنحون أقاربهم وأصدقاءهم امتيازات خاصة دون سائر الناس، وهذا التمييز يتسبب في أنواع من الخلل والإرباك في الحكومات.

وينبغي الالتفات إلى أن «الانصاف» من مادة «نصف» الذي يطلق على نصف كل شيء، وبما أن العدالة تؤدي إلى قيام الإنسان بتقسيم حقوقه الاجتماعية بينه وبين

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣١٦

الآخرين بالعدالة، فمن هذه الجهة يطلق عليه «انصاف» وبعبارة أخرى أن الانصاف هو أن يحب الإنسان للآخرين ما يحب لنفسه وأقربائه وأصدقائه، ويكره للآخرين ما يكره لنفسه والأشخاص المتعلقين به.

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«سَيِّدُ الْأَعْمَالِ ثَلَاثَةٌ: أَنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى لَا تَرْضَى بِشَيْءٍ إِلَّا رَضِيَتْ لَهُمْ مِثْلُهُ» [٥٦٣].

وأما الانصاف بالنسبة لله تعالى فهو أن يقسم الإنسان المواهب الإلهية بشكل عادل، فنصفها ينفقها في سبيل الله ويبقى النصف الآخر لنفسه، وهكذا يقسم وقته وفكره وإمكاناته الأخرى بهذا المنوال حتى يراعى على الأقل الانصاف وإن لم يصل إلى حد الإيثار.

ومن الطبيعي أن هذا العمل ليس بالهين واليسير، لأن الإنسان يميل دوماً نحو ترجيح نفسه وأقربائه على كفة الآخرين، ومن هنا ورد في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه:

«أَلَا أَخْبُرُكَ بِأَشَدِّ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ»

، قلت:

بلى. قال:

«إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ وَمَوَاسَاتِكَ أَخَاكَ وَذِكْرُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ...» [٥٦٤].

والفرق بين الانصاف والمواساة، هو أن الانصاف يكون في مورد الحقوق، والمواساة تقع في جميع مواهب الحياة ونعم الله تعالى على الإنسان.

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه ويذكر دليلاً على قوله، وهذا الدليل مركب، في الحقيقة، من صغرى وكبرى ونتيجته ويقول:

«فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمُ! وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصَمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَذْخَصَ [٥٦٥] حُجَّتَهُ، وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ [٥٦٦] أَوْ يَتُوبَ».

يَتُوبَ».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣١٧

ومن الواضح أن ترك الانصاف وممارسَهُ أى شكل من أشكال التمييز يعتبر من الظلم الفاحش والجلى، ونعلم أن الله تعالى عادل وحكيم وعدو للظالمين ونصير للمظلومين، والملفت للنظر أن الإمام عليه السلام يؤكد على هذا المعنى، وهو أن الله تعالى إذا خصم أى شخص فإنه لا يقبل منه أى عذر وحبّة، والتعبير «أَذْحَصَ حُجَّتُهُ»

إشارة إلى هذا المعنى، وربما يملك الشخص المذنب بعض الأعدار غير الموجهة فى ذنوب أخرى ويشمله لطف الله تعالى وتكون أعداره مقبولة بغفاريه البارى تعالى، ولكن بالنسبة للظلم والجور لا يقبل منه أى عذر وذريعه، والطريق الوحيد للنجاة من خصومه الله تعالى وعقوبته أن يرفع الإنسان يده من الظلم ويتوب من أعماله هذه ويعيد حقوق الناس إليهم ويجبر ما فات من أعماله.

ثم إن الإمام عليه السلام فى سياق كلامه هذا يبين العقوبة الشديدة للظالمين وأنها لا تشبهها أية عقوبة أخرى: «وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَتِهِ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ [٥٦٧]، وَهَيُودٍ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ».

وهذا الكلام يعدّ تحذيراً شديداً للظالمين ليعلموا أن عقوبتهم لا تنحصر بيوم القيامة، بل سيواجهون جزاء أعمالهم فى هذا العالم أيضاً، وليس فقط فى مدّة طويلة بل فى مدّة قصيرة، أجل فإن ما يسرع فى تغيير النعم الإلهية وينزل العقوبة والعذاب الإلهي هو الإقامة والاستمرار على الظلم والإصرار على العدوان وسحق الحقوق.

ونقرأ فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«مَا مِنْ أَحَدٍ يَظْلِمُ بِمَظْلَمَةٍ إِلَّا أَخَذَهُ اللَّهُ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ...» [٥٦٨].

وجاء فى الكلمات القصار للإمام عليه السلام فى غرر الحكم:

«مَنْ عَمِلَ بِالْجَوْرِ عَجَلَ اللَّهُ هُلُكَهُ» [٥٦٩].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣١٨

وكذلك ورد فى رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَى نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ فِي مَمْلَكَةِ جَبَارٍ مِنَ الْجَبَّارِينَ أَنْ آتِ هَذَا الْجَبَّارَ فَقُلْ لَهُ: إِنِّي لَمْ أَشِ تَعْمَلْكَ عَلَى سَيْفِكَ الدَّمَاءِ وَاتِّخَاذِ الْأَمْوَالِ وَإِنَّمَا اسْتَعْمَلْتُكَ لِتَكْفَ عَنِّي أَصْوَاتِ الْمُظْلُومِينَ، فَإِنِّي لَمْ أَدَعْ ظُلَامَتَهُمْ وَإِنْ كَانُوا كُفَّارًا» [٥٧٠].

يقول ابن عباس، الذى اقتبس الكثير من علومه من النبی الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام على عليه السلام: «علمت من القرآن الكريم أن الظلم والجور يخرب البيوت، ثم أشار إلى هذه الآية: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا...» [٥٧١]» [٥٧٢].

وجاء فى حديث عن النبی الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«أَسْرَعُ الْخَيْرِ ثَوَابًا الْبُرِّ وَصَلَةُ الرَّحِمِ وَأَسْرَعُ الشَّرِّ عِقُوبَةُ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ» [٥٧٣].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣١٩

القسم الخامس

إشارة

وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِيِّ مَوْوَنَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقْلَلٌ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ، وَأَكْرَهٌ لِلْإِنصَافِ، وَأَسْأَلُ بِالْإِلْحَافِ، وَأَقْلَلُ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأُ عُذْرًا عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفُ صَبْرًا عِنْدَ مِلْمَاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ. وَإِنَّمَا

عِمَادُ الدِّينِ، وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغُوكَ لَهُمْ، وَمِثْلِكَ مَعَهُمْ.

الشرح والتفسير: كن مع جمهور الناس!

يلفت الإمام عليه السلام النظر في هذا المقطع من الرسالة إلى نقطة مهمّة ومؤثرة في حياة الإنسان وبخاصّة المجتمعات البشرية المعاصرة وكيفية عمل الحكومات، ويقول:

«وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا [٥٧٤] فِي الْحَقِّ، وَأَعْمَهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعَهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ».

وبديهي أنّ القوانين والمقررات التي تملك هذه الخصوصيات الثلاث تكون أشمل من حيث الحقوق، وكذلك أشمل من حيث رعاية العدل، وأفضل في كسب رضا عامة الناس، فإنها ستقع مورد رضا الله تعالى والخلق، وعندما يكون الله تعالى

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٢٠

راضياً عن حكومة معينه وخلق الله راضون كذلك، فإن ذلك يضمن بقائها ودوامها.

وهذا الكلام يعنى أنّ المهم هو تحقيق رضا الغالبية الساحقة من الناس لا الأقلية من أصحاب الثروة من الانتهازيين الذين يعيشون في بلاط الحاكم أو السلطان.

ويقول الإمام عليه السلام في سياق كلامه:

«فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ [٥٧٥] بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ».

ما ورد من الجمل القصيرة أعلاه يمثّل في الواقع البنية التحتيّة للحكومات الثابتة والمستقرة، فأفراد المجتمع ينقسمون عادة إلى قسمين: فئة هي الأقلية من الأثرياء الذين يتمسكون بأطراف القادة والزعماء ويرزون لهم مظاهر الإخلاص والتضحية بدافع التملق ويهتمون دائماً بمنافعهم الذاتية ومصالحهم الشخصية، وفي مقابل هناك الغالبية من الناس الذين تقع على أيديهم تحريك عجلة الحياة في المجتمع، هؤلاء يعملون ويتعبون أنفسهم أكثر من الآخرين ويحبون بلدهم ويتفانون في خدمته أكثر من الطائفة الاولى، فلو أنّ الطائفة الاولى لم تكن راضية عن الوالي والحاكم وكانت الطائفة الثانية راضية ومسرورة، فلا تحدث مشكلة أو إرباك في فضاء المجتمع، لأنّ مشاكل المجتمع تحلّ عادة بيد جمهور الناس ولا تؤثر صرخات الأقلية في تغيير مسار المجتمع، ولكن إذا رجح الوالي رضا الطائفة الاولى وهم الأقلية على حساب غضب عامة الناس وسخطهم، فحينذاك تتعرض أركان الحكومة للاهتزاز والضعف.

وفيما لو استمر سخط العامة فسوف ينتهي بهم الأمر إلى الثورة والانتفاضة ضد الحكومة.

إنّ سيرة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله والإمام على عليه السلام تعدّ أفضل نموذجاً حياً لهذه المسألة، فقد تحركا دوماً في خط مواساة المحرومين ومساعدة ودعم الطبقة المتوسطة من

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٢١

أفراد المجتمع ولم يهتموا بمخالفة الخواص الذين يرون منافعهم في خطر.

وهذا هو الأمر الذي يطلق عليه في هذا العصر بالديمقراطية الشعبية، أو الديمقراطية الدينيّة، ولكن ربّما يكتفى السياسيون أحياناً بالألفاظ والظاهر لا بالحقيقة والواقع، فالديمقراطية في الحقيقة تعتبر مفهوماً قديماً ولكنهم أظهروه للناس بقوالب جديدة من الألفاظ والكلمات.

ونرى في هذه الأيام نوعاً من الأساليب الشيطانية المشبوهة من قبل هذه الطائفة من الخواص الذين يتحركون، وبواسطة استخدام وسائل الاتصالات الجمعيّة، لخداع الرأي العام وكما يقال: يقومون بغسل الأدمغة بحيث يتصور الناس أنّ مطالب الخواص هي ما

يريده عامة الناس، ولكن مع قليل من الدقة يمكن كشف هذا الزيف والخداع في مقولاتهم. وأحياناً يستخدمون أسلوباً آخر، وهو أن يفتحوا الباب على مصراعيه للملذات والأهواء والغرائز البدئية ويعملون على إلهاء الناس بهذه الأمور لكي لا يعرف الناس حقيقة ما يجرى في المجتمع والحكومة، فلو أن الأشخاص العارفين بهذه الأمور والمخلصين للشعب يتحركون على مستوى تنبيه الناس وإيقاظهم من غفلتهم لثلا- يسقطوا في هذه المصيدة، فسوف تفتح عيون الناس على الحقيقة ويتحركون على مستوى الثورة ضد النظام الحاكم ويلقوا بهؤلاء الانتهازيين في مزبله التاريخ.

وبما أن هذه المسألة تتمتع بأهميته كبيرة في الإسلام، فالإمام عليه السلام عليه السلام في سياق كلامه يتعرض لشرح أكثر لهذا الموضوع ويبحث في تفاصيل هذه المسألة ويذكر صفات تلك الطائفة من الخواص، وكذلك يذكر خصوصيات الطائفة الأخرى من عامة الناس والعاملين في المجتمع، وبداية يتحدث الإمام عن الصفات الذميمة للخواص المغرورين ويذكر لهم سبع صفات:

يقول عليه السلام في الصفة الأولى والثانية:

«وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مُؤُونَةً فِي الرَّحَاءِ، وَأَقْلَ مُعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٢٢

فهؤلاء يتوقعون الكثير من الوالي ومطالباتهم لا تعد ولا تحصى ولا تمتلىء جيوبهم بسهولة، وعند بروز المشكلات والأزمات يسحبون أنفسهم ويتراجعون إلى الوراء ويقولون بأن حفظ البلد والتضحية في سبيله تقع على عهدة العامة من الناس، ويتصورون أنهم طبقة ممتازة من الصفوة والنخبة الذين يتكفلون مهمة الإشراف وإبداء الرأي فقط.

وفي الصفة الثالثة يقول عليه السلام:

«وَأَكْرَهَ لِلْإِنصَافِ».

لأنهم يعتقدون بأنهم شريحة ممتازة ونخبة مفضلة لا ينبغي أن يجعلوا في عرض الآخرين في أي برنامج ومشروع.

ويقول الإمام عليه السلام في بيان الصفة الرابعة:

«وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ [٥٧٦]».

لأنهم يرون أنفسهم دائمين ومتفضلين، أضف إلى ذلك أنهم من المقربين للولاء والحكام ويامكانهم أن يطرحوا مطالبهم مرات ومرات، بخلاف الجمهور من عامة الناس الذين يطرحون مطالبهم باصرار أقل بكثير، وأساساً لا مجال لهم عادة للوصول إلى الحكام والمسؤولين.

وفي الصفة الخامسة والسادسة يقول عليه السلام:

«وَأَقْلَ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُدْرًا عِنْدَ الْمُنْعِ».

لأنهم لا يرون العطاء والبذل خدمة من قبل الحاكم تستحق الشكر بل إنه أداء للدين، وفي مقابل الدين لا يستحق المدين شكراً ولا ثناءً، فهم يتصورون غالباً أنه لولا- نصرتهم للنظام وإشرافهم على أمر الحكومة، فإن هذه الحكومة لا يمكنها أن تستمر في حياتها وتمارس دورها في السيادة والهيمنة، ومن هذا المنطلق يرون لأنفسهم حق الحياة على الحكومة، فمهما اعطوا من المال والحقوق فهو قليل بحقهم.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٢٣

ومن هذا المنطلق أيضاً لو لم تتم الاستجابة لمطالبهم قلما يقبلون العذر في هذا المنع، ويرون أن جميع الأعداء في هذا المجال غير مقبولة وغير مبررة وأحياناً يكون العذر أقبح من الذنب.

وفي الصفة السابعة والأخيرة يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مِلْمَاتِ [٥٧٧]

الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ».

لأنهم عاشوا حياة الرفاهية والنعمة وقلما واجهوا المشكلات والتحديات، فلم يشهد لهم عود الصبر والاستقامة، على عكس الجماهير الكادحة في المجتمع الذين تربوا في أجواء المشكلات والأزمات وبنوا ذواتهم في بوتقة المحن والابتلاءات فصاروا كال فولاد في القوة والتمتأة.

والحقيقة أنه لا يوجد وصف أفضل وأبلغ وأكثر شفافية لهؤلاء القلّة من الخواص المغرورين بامتيازاتهم والذين يعاملون الناس من موقع الاستعلاء والفوقية، ونعلم جيداً أن جميع هذه الخصائص والصفات ناشئة من تصوراتهم الموهومة عن امتيازاتهم الذاتية وحاجة الحكومة لهم وأفضليتهم على سائر طبقات المجتمع، وهذه الأوهام والخيالات الطوباوية، قادتهم إلى هذه المنزقات والتمتاهات. أمّا خصائص الجماهير الكادحة في المجتمع الإسلامي، وحسب تعبير الإمام عليه السلام عامة الناس، فتتلخص في ثلاثة أمور: يقول عليه السلام:

«وَأَيْمًا عَمَادُ الدِّينِ، وَجَمَاعُ ٥٧٨

المُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغُوكَ ٥٧٩ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ».

ما أبلغ هذه العبارات وما أعمق مدلولها، فلولا دفاع العامة من الناس فإن أصول الدين وفروعه ستطوى في عالم النسيان ويصيب الخلل والإرباك مفاصل المجتمع

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٢٤

الإسلامي، فلا توجد قوة للدفاع أمام هجوم الأعداء، ومن هذا المنطلق فإن الحكومة يجب أن لا تهتم بادعاءات الأقلية المترفة وتحصر اهتمامها ورعايتها بالطبقة التي يتوقف عليها بقاء الدين والدنيا وهي الأساس والأصل في حركة المجتمع نحو الإزدهار والتطور. ويستفاد من مجموع عبارات الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة أن الجماهير الكادحة من الناس تتمتع بعشر خصائص، وقد ذكر الإمام عليه السلام ثلاثة منها في المقطع مورد البحث وسبعة منها ذكرها الإمام عليه السلام عند بيان الصفات الذميمة للخواص المغرورين، وهي كالتالي:

١. أنهم خفيفو المؤنة في حالات الاستقرار الاجتماعي.

٢. أنهم يشمرون عن سواعدهم ويمدون يد العون في الحكومة في وقت الأزمات والمشكلات.

٣. أنهم يفرحون من سلوك الوالي في خط الانصاف ورعاية الحقوق للجميع.

٤. عندما يطلبون شيئاً مما يحتاجونه في واقع الحياة لا يصرون كثيراً على مطالبهم.

٥. إنهم يواجهون الهدايا والنعمة بالشكر والثناء.

٦. يقبلون العذر فيما لو وجدت موانع أمام تحقيق مطالبهم.

٧. يتمتعون بالصبر والاستقامة في مقابل المشكلات والتحديات.

وعبارة

«وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ»

إشارة إلى أن هذه الشريحة من الجماهير الكادحة هي الركن الأساس للمجتمع الإسلامي، وهذا ما ورد في روايات أخرى بوصفهم «السواد الأعظم»، وبعبارة أخرى لو أخذنا بنظر الاعتبار انفكاك أفراد المجتمع فإنه لا يبقى هناك مفهوم للمجتمع والامة، ولكن إذا توفرت عناصر التلاحم بين الأفراد، كما هو حال البناء الذي تشتد أواصره بقليل من الجص أو الاسمنت، فإن مفهوم المجتمع سيتحقق في الواقع الخارجي، وهذا الأمر لا يتسنى إلا من خلال هذه

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٢٥

الجماهير الكادحة في جو المجتمع والامة.

وجملته

«فَلْيَكُنْ صِغُوكَ لَهُمْ، وَمَيْلَكَ مَعَهُمْ»

مقتبسة في الواقع من القرآن الكريم، وذلك في خطابه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» [٥٨٠].

وليس النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقط مأموراً بالاعتماد على هذه الطبقة الفاعلة والتواصل معهم، بل إن جميع الأنبياء السابقين كانوا كذلك، فالقرآن الكريم يتحدث عن النبي نوح عليه السلام، عندما تجمع حوله بعض الشبان المؤمنين واعترض عليه جماعته من الأثرياء وأصحاب المواقع الاجتماعية أنك إذا أردت أن ندخل في دينك فيجب أن تطرد هؤلاء الفتيه من حولك، فأمره الله تعالى أن يقول لهم: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ* وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» [٥٨١].

تأمل

أنواع الحكومات

قسّم بعض العلماء الحكومات والنظم السياسيّة على إمتداد التاريخ البشري إلى أربعة أقسام:

١. الحكومة المستبدّة: وهي الحكومة التي تحكم فيها شخص واحد على المجتمع ويديره بوحى من أفكاره الخاصّة دون الخضوع لقانون، يفرض إرادته على جميع الأفراد (مثل حكومة رؤوساء القبائل في العصور القديمة).
٢. الحكومة الملكية: وفيها يكون الحاكم شخص واحد، ولكنها تملك قانوناً

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٢٤

ونظماً لتيسير الأمور وتدير الحكومة.

٣. حكومة الأشراف (الارستوقراطية) وهي الحكومة التي يتولى أمرها طبقة الأشراف والنبلاء في المجتمع.

٤. الحكومة الديمقراطية: وفيها يكون الشعب هو الحاكم الحقيقي لنفسه، ومن هنا يختار الشعب نوابه وحكامه من خلال صناديق الاقتراع، ويتولى هؤلاء الوكلاء والنواب ترتيب المسائل القانونيّة والقضائيّة والإجرائيّة، وأحياناً تكون الانتخابات بواسطة، وأخرى دون واسطة.

وطبعاً فالحكومة الإلهيّة، أي حكومة الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام، تتمتع بمكانة خاصّة، وذلك أنّهم منصوبون من قبل الله تعالى لهذه الحكومة ويهدفون لما فيه خير المجتمع وصلاح الناس، ومعلوم أنّ هؤلاء الأولياء، ومن أجل تيسير عملهم وكسب تأييد الجمهور، يستخدمون في الكثير من المواقع عنصر البيعة، ومع بيعة الناس للحاكم الإلهي تزداد مشروعية هذه الحكومة، وهذا الأمر تحقق بشكل كبير في حكومة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٢٧

القسم السادس

إشارة

وَلْيَكُنْ أَبَعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَاهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا، الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عِنْدَكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتَرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سِتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ. أَطْلِقِ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، واقطع عنك سبب كل وتر، وتغاب عن كل ما لا يضح لك، ولا تعجلن إلى تصديق ساع فإن الساعي غاش، وإن تشبهه بالناصحين.

الشرح والتفسير: عليك بستر العيوب!

إشارة

في هذا المقطع من الرسالة يتحدث الإمام عليه السلام عن أهمية السترة على الناس من قبل الوالي والتأكيد بأن وظيفة الوالي لا تنحصر بمكافحة العيوب الظاهرة، بل ينبغي اجتناب التجسس على الناس والتوغل في أمورهم الشخصية لمعرفة عيوبهم الباطنية وكذلك الابتعاد عن الأشخاص الذين يتحركون على مستوى كشف عيوب الناس وفضحهم، يقول عليه السلام:

«وَلْيَكُنْ أَبَعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنَاهُمْ [٥٨٢] عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ

لِمَعَائِبِ النَّاسِ».

وعادةً تجتمع حول الوالي أو الحاكم جماعة من هؤلاء الانتهازيين، الذين يبحثون عن عيوب الناس ونقاط الضعف والقصور فيهم من أجل التقرب إلى الوالي والقائد، فيهتكوا أستار الآخرين مما يبعث على تشويش ذهن الوالي بالنسبة لهم

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٢٨

ويعيش سوء الظن بالنسبة لكل فرد من الأفراد، فالإمام عليه السلام يقول: يجب أن تبعد هذه الجماعة عن نفسك لأنهم يتسببون في إرباك الحكومة، فمن جهة يخلقون جو الفرقة والاختلاف بين الناس، ومن جهة أخرى يقومون بتوهين العلاقة بين الوالي والرعية، ومن جهة ثالثة يغرسون سوء الظن في فضاء المجتمع الإسلامي.

أجل، ينبغي على الوالي أن يسلك معهم بهذه الطريقة حتى لا يتصور أحد أنه، ومن خلال النسيئة وافشاء عيوب الناس، يتقرب إلى الوالي ويكون من بطانته.

ولتأكيد هذا المعنى يبين الإمام عليه السلام دليلاً في هذا الشأن ويقول:

«فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا، الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا».

ويضيف عليه السلام:

«فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ».

وقد ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَصْحَابِي شَيْئًا فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أُخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ» [٥٨٣].

إن ما أشار إليه الإمام عليه السلام في هذا المقطع من كلامه يبين هذه الحقيقة، وهي أن غالبية الناس لهم نقاط ضعف تخفى على الآخرين، فلو أن نقاط الضعف هذه ظهرت للملأ فإن هذا من شأنه إشاعة حالة سوء الظن بين الناس، والوالي بدوره سيعيش سوء الظن

بالنسبة للرعية، وهذه الحالة من سوء الظن، والتي أشار إليها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً في حديثه، من شأنها تقطيع أوصال المجتمع وتخريب الوحدة بين أفرادها وإضعاف عنصر الثقة فيما بينهم، فلا يعيش مثل هذا المجتمع التكاتف والتواصل بين الأفراد، وبينهم وبين الوالى، وهذا هو ما ورد في القرآن الكريم من النهى بصراحة عن التجسس والبحث عن عيوب الناس الخفية تقول الآية: «وَلَا تَجَسَّسُوا» [٥٨٤].

إن الواجب على الوالى أن يتصدى لمن يمزق ستار الحياء ويتجاهر بالفسق والفجور ولا- يأبى من إظهار عيوبه للناس، ويتعامل معه بآليات الإصلاح السلمى

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٢٩

ومن خلال الموعظة والنصيحة، ولو لم يوفق من هذا الطريق فإنه يستخدم القوة والشدة ويقيم الحدود الإلهية فيما يتعلق بهذا الشخص، فذلك بمثابة العملية الجراحية الضرورية لإدامة حياة المجتمع.

ثم إن الإمام عليه السلام وفى سياق كلامه يتحدث عن هذا الموضوع من جهة أخرى ويقول: «فَأَسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سِتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ».

وهو إشارة إلى أن الإنسان ينبغي عليه ستر عيوب الناس ليستر الله عيوبه، وهذا بمثابة الثواب الإلهي فى الدنيا، وهناك ثواب أعظم ينتظره فى الآخرة.

وقد ورد فى حديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ سَتَرَ أَخَاهُ فِي فَاحِشَةٍ رَأَاهَا عَلَيْهِ سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» [٥٨٥].

وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله:

«كَانَ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامٌ لَهُمْ عُيُوبٌ فَسَكَنُوا عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ فَاسْتَكْتَبَ اللَّهُ عَنْ عُيُوبِهِمُ النَّاسَ فَمَاتُوا وَلَا عُيُوبَ لَهُمْ عِنْدَ النَّاسِ» [٥٨٦].

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه وخطابه لمالك الأشرى وأمره بأربعة أمور أخرى، بدايةً يقول:

«أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حَقْدٍ» [٥٨٧].

ومن المعلوم أن هناك عوامل مختلفة ربما تثير العداوة بين الناس والوالى، فيجب على الوالى الأخذ بمقتضيات الحذر والانتباه إلى جذور هذه المسألة ونزع فتيل هذا الحقد والعداوة من صدورهم وذلك من خلال سلوكه الحسن معهم والتواصل معهم بشكل يمتص هذه العقد والأحقاد من نفوسهم.

ويحتمل أيضاً فى معنى هذه الجملة أن الوالى عليه أن يترك حالات الحقد على الناس، ولو أن أحداً ارتكب مخالفة فلا يضمها فى قلبه بحيث تتحول إلى عقدة، بل عليه أن يتناساها، وقديماً قيل: لا- تنسى الخير الذى جاءك من الناس وعليك جبرانه فى الوقت المناسب ولا تذكر إساءتهم لك وتعيش حالات الانتقام تجاههم،

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٣٠

ولكن المعنى الأول أنسب للعبارة.

ويقول الإمام عليه السلام فى التوصية الثانية:

«وَأَقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وَتْرٍ» [٥٨٨].

لأننا نعلم أن العداوات لا تحدث بدون سبب، إما أن تكون بسبب سوء المعاملة أو تضييع الحقوق أو التكبر والفخر على الآخرين وأمثال ذلك، فعندما يتم قلع هذه العوامل والأسباب فإن العداوات فى جو المجتمع تتبدل إلى محبة ومودة.

ويقول الإمام عليه السلام فى التوصية الثالثة:

«وَتَغَابَ» [٥٨٩] عَنْ كُلِّ مَا لَا يَضِيحُ [٥٩٠] لَكَ».

وهذه إشارة إلى أنه لا ينبغي لك الاصرار على التدخل في تفاصيل حياة الناس وأعمالهم، وعليك بالتغافل مهما أمكنك ذلك، فإن التدخل في جزئيات حياة الأفراد يعيقك عن الاهتمام بالمسائل الكلية والهامة ويعمق الخلافات والعداوات في فضاء المجتمع.

وفي التوصية الرابعة والخامسة يقول الإمام عليه السلام:

«وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعِ [٥٩١]

فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌ [٥٩٢]، وَإِنْ تَشَبَهَ بِالنَّاصِحِينَ».

ونعلم أن النمام هو الشخص الذي ينقل الأخبار الصحيحة والسقيمة بين الأفراد ليوقع بينهم الشقاق ويزرع بذور العداوة في صدورهم، وقديماً قالوا:

وَقَدْ قَطَعَ الْوَأَشُونَ مَا كَانَ بَيْنَا وَنَحْنُ إِلَى أَنْ نُوَصِّلَ الْحَبْلَ أَحْوَجُ

رَأَوْا عَوْرَةً فَاسْتَقْبَلُوهَا بِالْبِهِمِ فَلَمْ يَنْهَهُمْ حِلْمٌ وَلَمْ يَنْتَحِرْ جَوَا

وَكَانُوا إِنَاسًا كُنْتُ آمِنٌ غَيْبَهُمْ فَرَأَوْهُ عَلَى مَا لَا نُحِبُّ وَأَدْلَجُوا

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٣١

وبعكس ذلك فقد أذن الإسلام في عمليته إصلاح ذات البين بالكذب لقلع فتيل العداوة وإزاحة غبار الكدورة عن القلوب، وبعبارة أخرى: على المسلم أن يصب الماء على نيران الخلاف والفرقة لا أن يضيف إليها حطباً ويزيدها اشتعلاً.

ونقرأ في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَلَا أُتْبِئُكُمْ بِشِرَارِ كُمْ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْمَشَاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ لِلْبِرَاءِ الْمَعَايِبِ» [٥٩٣].

تأمل

موارد الاستخبارات والتستر على عيوب الناس

ربّما يثار هذا السؤال بعدما رأينا ما يقوله الإمام عليه السلام في هذا القسم من الرسالة فيما يتصل بالتستر على الناس وطرده النمامين الذين يتحركون لفضح الناس أمام الوالي، والسؤال هو: إذن لماذا وضع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام أمير المؤمنين عليه السلام نفسه العيون والجواسيس في شتى نقاط البلاد الإسلاميّة، والذين كانوا يوصلون إليه أخبار الامراء والولاة الخفية والجلية، فهل يعتبر هذا العمل مخالفاً لمسألة التستر؟

أضف إلى ذلك أنه ورد في التعاليم الإسلاميّة فيما إذا استشارك شخص حول أحد الأفراد، فلو كنت تعرف منه بعض العيوب الخفية فعليك أن تذكر ذلك لمن يستشيرك فيه وأن هذه المسألة من الأمور المستثناة من الغيبة.

ولا يخفى الجواب عن مثل هذا السؤال، لأنّ كلام الإمام عليه السلام فيما يتصل بالتستر وعدم الكشف عن عيوب الناس، يخص العيوب الشخصية والخصوصية التي لا تؤثر في مصير الامة أو يكون لها تأثير خفيف جداً، ولكن عندما تتعرض مصالح الامة والنظام الإسلامي للخطر ويدور الحديث حول وجود مؤامرة تستهدف مصالح النظام والامة، فهنا يكون لهذه المسألة حكم آخر، وبديهي أنّ الواجب في هذه

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٣٢

الحالة هو التحقيق والتجسس وإيصال الخبر إلى الوالي لئلا يتسبب في إيجاد الإرباك والخلل في المجتمع الإسلامي وربّما تسفك بسببه الدماء وتنهب به الأموال وتنتهك به الحرمات، ففي هذا المورد لا مكان للتستر عن العيوب ونقاط القصور والتقصير.

وهكذا إذا أراد المسلم أن يقدم على عمل معين، سواء يتعلق بأمر الزواج، أو المشاركة في تجارة، أو اختيار شخص لوظيفة وأمثال

ذلك، وسأل شخص خبير ومطلع واستشاره في ذلك، فهنا يعتبر التستر على ذلك الشخص نوعاً من الخيانة، فلا يحق للمستشار أن يكتف عيوب الطرف الآخر الذي استشاره صاحبه في هذه الأمور.

وعلى ضوء ذلك يتبين الحد الفاصل بين لزوم التستر على عيوب الناس وحرمة فضحهم وكشف أسرارهم، وبين عمل الاستخبارات في الأمور الاجتماعية والسياسية وفي مقام المشورة.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٣٣

القسم السابع

إشارة

وَلَمَّا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُّكَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَّ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ.

الشرح والتفسير: إحذر هؤلاء المستشارين!

إشارة

يتحدّث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته وعهده عن مسألة المشاورين للوالي وصفاتهم وخصائصهم، والملفت للنظر أنّ الإمام لا يتحدّث عن لزوم المشورة لأنّه يعتبر أمراً مسلماً ومطلوباً بأن يكون للوالي مستشارون أكفاء في شؤون الإدارة السياسية والعسكرية، ليستطيع من خلال الاستفادة من أفكارهم وآرائهم أن يختار الطريق الأفضل لتدبير الأمور ويتعد بذلك عن الاستبداد بالرأى والاعتماد فقط على أفكاره الفردية، وبالتالي يمكنه مراعاة مصالح الرعيّة مع المشورة بالمقدار الممكن.

يقول الإمام عليه السلام محدّراً مالك الأشر من مشاورة ثلاث فئات ويبين له الآثار والتداعيات السيئة لهذه المشورة، وذلك بعبارات بليغة وموجزة ويقول:

«وَلَمَّا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُّكَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَّ بِالْجَوْرِ».

وفي الحقيقة فإنّ الإمام عليه السلام يوصي بالتحلى بثلاث قيم وملكات مهمّة ومؤثرة

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٣٤

على مستوى التدبير والإدارة: السخاء، الشجاعة والقناعة، وبديهي أنّ استشارة الشخص البخيل سيقف حائلاً أمام السخاء والكرم، ومشاورة الجبان من شأنها اضعاف عزيمة وجراءة الرجل الشجاع، وأمّا استشارة الحريص فإنّها تضعف القناعة وتثير في الإنسان الطمع، وبالتالي تقوده هذه الصفات والحالات السلبية إلى ظلم الرعيّة.

ومن جهة أخرى فإنّ البخلاء يعيقون كلّ عمل من شأنه الترفيه والترويح عن الرعيّة، وأمّا في الأمور الدفاعية العسكرية فالجبناء يضعون العصي في عجلات المواجهة مع الأعداء ويضخمون خطرهم ويحبذون للوالي حالة الخنوع، وأمّا في الأمور الاقتصادية فالحريص يقف حائلاً أمام الإزدهار الاقتصادي، وعلى هذا الأساس فالمشاورون للوالي يجب أن يتمّ انتخابهم بما ينتفع بهم في شؤون إدارة البلاد ومدد

يد العون للوالى وتقوية عزيمته وإرادته ويحذرونه من الأمور التى تؤدى إلى إرباك المجتمع وتعريض مصالح الناس للخطر. وفى ختام هذا البحث يؤكد الإمام عليه السلام على البحث فى جذور هذه الصفات الذميمة ويقرر أنها تمتد إلى أصل واحد ويقول: «فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ عَرَائِزُ [٥٩٥] شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ».

فى هذه العبارة يدرس الإمام عليه السلام هذه المسألة من زاوية سيكولوجية عميقة ويقول: إن البخلاء لا يخلون بشيء من مالهم إلا بسبب سوء ظنهم بالله بأنه سيمنعهم من فضله ومواهبه ويتصورون أنهم إذا أنفقوا اليوم من أموالهم فإنهم سيكونون غداً فقراء ومحتاجين، أما الجبناء فإنهم يسيئون الظن بالله فى وعده للمؤمنين بالنصر على أعدائهم ويتصورون أنهم إذا لم يتراجعوا فى المعركة فربما

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٣٥

بقوا لوحدهم وهلكوا فى مواجهة العدو، أما الأشخاص الذين يعيشون الحرص على المال والثروة، فإنهم لا يملكون حالة التوكل على الله، وفى الحقيقة أنهم يسيئون الظن بقدره الله تعالى.

والآيات القرآنية بدورها شاهدة على هذه الحقيقة، فى مورد يقول القرآن:

«الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا» [٥٩٦].

وفى آية أخرى يقول: «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» [٥٩٧].

وفى مورد ثالث يقول: «وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [٥٩٨].

وما ورد من كلام الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرسالة، يماثل ما ورد فى كلام النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى وصيته للإمام على عليه السلام. فنقرأ فى كتاب «علل الشرائع» حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله يخاطب الإمام على عليه السلام ويقول::

«يَا عَلِيُّ لَا تُشَاوِرْ جَبَانًا فَإِنَّهُ يُضَيِّقُ عَلَيْكَ الْمَخْرَجَ وَلَا تُشَاوِرِ الْبَخِيلَ فَإِنَّهُ يَقْضِي بِكَ عَنْ غَايَتِكَ وَلَا تُشَاوِرْ حَرِيصًا فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ شَرَّهَا وَاعْلَمْ يَا عَلِيُّ أَنَّ الْجُبْنَ وَالْبُخْلَ وَالْحِرْصَ غَرِيزَةٌ وَاحِدَةٌ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ» [٥٩٩].

تأمل

أهمية المشورة فى حياة الإنسان

إن مسألة المشورة والاستشارة تعدّ من أهم المسائل الاجتماعية، والدليل على ذلك واضح، لأنّ المشكلات الاجتماعية وحتى الشخصية تكون فى الغالب معقدة

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٣٦

ومشوشة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فكل واحد من الأفراد يملك رأياً وفكراً ربّما يختلف عن الآخرين ويرى المسألة من زاوية واحدة، فلو اجتمعت الآراء والعقول لحلّ مشكلة معينة فربّما نحصل على حلول ناجعة للمشاكل الفردية والاجتماعية.

ومن هذه الجهة نقرأ فى حديث شريف فى «غرر الحكم» عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«حَقُّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُضَيِّفَ إِلَى رَأْيِهِ رَأَى الْعُقَلَاءِ وَيَضُمَّ إِلَى عِلْمِهِ عُلُومَ الْحُكَمَاءِ» [٦٠٠].

وبديهى كلما ازداد الأمر أهمية وخطورة فإن أهمية المشورة ستزداد أيضاً، والتجربة تدل على أنّ الأشخاص الذين يتحركون فى أعمالهم المهمة بألية المشورة والتباحث مع العقلاء وأهل الخبرة فى هذا الشأن فإنهم قلّما سيواجهون الخلل والفشل، وبعكسهم المستبدون برأيهم الذين يشعرون بالاستغناء عن أفكار الآخرين نرى أنهم فى الغالب يتورطون فى أخطاء وأخطار تعود عليهم بالضرر

الفاحش، ولذلك نقرأ في كلمات الإمام عليه السلام النورانية:
«مَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ وَمَنْ شَاوَرَ الرَّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا» [٦٠١].

وجاء في حديث عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام أنه قال:
«مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ إِلَّا هُدُوا إِلَى رُشْدِهِمْ» [٦٠٢].

وروى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه نقل من التوراة هذه الحكمة:
«مَنْ لَمْ يَسْتَشِرْ يَنْدَم» [٦٠٣].

ولا فرق أن يستشير الإنسان من هو أعلم وأعقل منه أو يستشير من هو أدنى منه في المرتبة كما ورد عن علي بن الجهم قال: كنا عند أبي الحسن الرضا عليه السلام

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٣٧

فذكرنا أباه قال:

«كَانَ عَقْلُهُ لَا يُوَازِنُ بِهِ الْعُقُولَ، وَرَبَّمَا شَاوَرَ الْأَسْوَدَ مِنْ سِيدَانِهِ، فَقِيلَ لَهُ: تَشَاوُرْ مِثْلَ هَذَا؟ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رُبَّمَا فَتِيحَ عَلَيَّ لِسَانِهِ» [٦٠٤].

والملفت للنظر أن الغرض من المشورة، مضافاً إلى ما تقدم بيانه من التأكيد البالغ على الاستشارة، أن المستشار يفكر في المسألة بنزاهة وبفكر خالص في ذلك الموضوع في حين أن صاحب المشكلة الذي يفكر بمنافعه، فإن فكره مشوب بالأهواء والمنافع الذاتية:

«إِنَّمَا حُضَّ عَلَى الْمَشَاوَرَةِ لِأَنَّ رَأْيَ الْمُشِيرِ صَرَفٌ وَرَأْيَ الْمُسْتَشِيرِ مَشُوبٌ بِالْهَوَى [٦٠٥].

كما ورد في كلام الإمام علي عليه السلام في هذا العهد: لا يصح استشارة أيّا كان، فالمستشار يجب أن يكون فرداً عاقلاً ومؤمناً لا يريد إلّا الخير لصاحبه، ولذلك نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ الْمَشُورَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِحُدُودِهَا، فَمَنْ عَرَفَهَا بِحُدُودِهَا وَإِلَّا كَاثَ مَضَرَّتْهَا عَلَى الْمُسْتَشِيرِ أَكْثَرَ مِنْ مَنْفَعَتِهَا لَهُ: أَوَّلُهَا: أَنْ يَكُونَ الَّذِي يُشَاوَرُهُ عَاقِلاً.

وَالثَّانِيَةُ: أَنْ يَكُونَ حُرّاً مُتَدِيناً.

الثَّالِثَةُ: أَنْ يَكُونَ صَدِيقاً مُوَاخِيّاً.

الرَّابِعَةُ: أَنْ تُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّكَ فَيَكُونَ عِلْمُهُ بِهِ كَعِلْمِكَ بِنَفْسِكَ، ثُمَّ يَسْتِرْ ذَلِكَ وَيَكْتُمُهُ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ عَاقِلاً انْتَفَعَتْ بِمَشُورَتِهِ، وَإِذَا كَانَ حُرّاً مُتَدِيناً جَهَدَ بِنَفْسِهِ فِي النَّصِيحَةِ لَكَ، وَإِذَا كَانَ صَدِيقاً مُوَاخِيّاً كَتَمَ سِرِّكَ».

وقال في ختام كلامه عليه السلام:

«إِذَا أَطْلَعْتَهُ عَلَيْهِ، وَإِذَا أَطْلَعْتَهُ عَلَى سِرِّكَ كَانَ عِلْمُهُ بِهِ كَعِلْمِكَ، وَتَمَّتْ الْمَشُورَةُ وَكَمَلَتْ النَّصِيحَةُ» [٦٠٦].

وفي عالمنا المعاصر أضحت المشورة والشورى أوسع بكثير من السابق،

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٣٨

فأحياناً يظن الإنسان أن اتساع أمر المشورة من شأنه إصلاح أحوال الدنيا في حين أن مجالس الشورى هذه- وللأسف- ترتبط بصبغة سياسية وتتحرك في خط المنافع الفردية أو القنوية، وفي الحقيقة أنها تفقد الخلوص والقداسة، والشاهد على ذلك أن الكثير من الأشخاص أو الفئات يسعون من خلال بذل نفقات باهظة ليكونوا نواباً ينتخبهم الناس لمثل هذه المجالس، وهذا يبين بوضوح أن هدفهم ليس تأمين مصالح الأمة، بل بما يعود عليهم أنفسهم بالنفع عاجلاً أم آجلاً.

والكلام عن المشورة كثير ومفصل، والغاية هنا مجرد إشارة مختصرة في هذا الباب وفي صفات المستشار الذي يتولى مسؤولية ثقيلة في هذا الأمر، ونختتم هذا البحث بحديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ اسْتَشَارَهُ أَخُوهُ الْمُؤْمِنُ فَلَمْ يَمَحْضُهُ النَّصِيحَةَ سَلَبَهُ اللَّهُ لُبَّهُ» [٦٠٧].

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٣٩

القسم الثامن

إشارة

إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيْرًا، وَمَنْ شَرِكُهُمْ فِي الْأَثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بَطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلْمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَادِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَأَثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَمَّا آثَمًا عَلَى إِثْمِهِ أَوْلَيْكَ أَحْفُ عَلَيْكَ مَوْوَنَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا، وَأَقْلُّ لِعَيْرِكَ إِفْلًا، فَاتَّخِذْ أَوْلِيكَ خَاصَّةً لِيَخْلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلُهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ وَأَقْلَهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَأَقِعَا ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ. وَالصَّقُّ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصَّدْقِ؛ ثُمَّ رُضُّهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوكَ وَلَا يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُخَدِّثُ الرَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ.

الشرح والتفسير: الوزير الجيد والوزير السيء!

بعد أن بين الإمام عليه السلام صفات المستشارين في المقطع السابق، فإنه يتحدث في هذا المقطع عن خصائص الوزراء والمعاونين في الحكومة، ففي البداية يعرف الإمام عليه السلام الأشخاص الذين يملكون صفات سلبية، ثم يتحدث عن الواجدين للصفات الحسنة والإيجابية، ثم يطرح توصياته اللازمة فيما يتصل بكيفية التعامل معهم، يقول عليه السلام:

«إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيْرًا، وَمَنْ شَرِكُهُمْ فِي الْأَثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بَطَانَةً» [٦٠٨].

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٤٠

في هذه العبارة يشير الإمام عليه السلام إلى مسألة حسن السابقة وسوء السابقة، ولزوم التحقيق في سوابق الأشخاص الذين يروم اختيارهم لمناصب مهمة ومسؤوليات ثقيلة، وهذا هو المتعارف عليه في عالمنا المعاصر فيما يتصل بملف وسوابق المسؤولين.

ثم يذكر الإمام عليه السلام الدليل على ذلك بشفافية ويقول:

«فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ» [٦٠٩]، وَإِخْوَانُ

الظَّلْمَةِ».

وهذه إشارة إلى أن الشخص الذي عاش مع الظالمين وساند الجائرين والأشْرار فإن هذه الصفة الذميمة ستتحول في نفسه ملكة وسجية، وحتى لو أظهروا التوبة والإنابة فإنهم لا يصلحون للثوق بهم وبخاصة مع وجود الأفراد اللاتقنين في المجتمع الإسلامي الذين لا يملكون مثل هذه السوابق السيئة، ولذلك يقول الإمام عليه السلام في سياق كلامه:

«وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَادِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ [٦١٠] وَأَوْزَارِهِمْ [٦١١] وَأَثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِمًا

عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا آثَمًا عَلَى إِثْمِهِ».

ويستفاد من هذه العبارة أن الأشخاص الذين يملكون نقطة سوداء واحدة في ملف أعمالهم السابقة، فلا ينبغي اختيارهم للأعمال المهمة كالوزارات وأمثالها، بل ينبغي أن يكون تاريخهم وسابقتهم الحسنة واضحة للجميع.

وفي ختام هذا الكلام يستنتج الإمام عليه السلام هذه النتيجة:

نفحات الولاية؛ ج ١٠؛ ص ٣٤٠

«أَوْلَيْكَ أَحْفَ عَلَيْهِكَ مَوْوَنَةٌ وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةٌ، وَأَخْنَى [٦١٢] عَلَيْكَ عَطْفًا، وَأَقْلُ لِعَيْرِكَ إِلفًا [٦١٣] فَاتَّخِذْ أَوْلَيْكَ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٤١

خَاصَّةً لِخَلْوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ [٦١٤].»

في هذه العبارات الموجزة والعميقة في معناها يطرح الإمام عليه السلام أربع نقاط القوة للذين ليس لهم سابقة سيئة في تاريخهم وحياتهم، ويقول:

١. أن هؤلاء الأفراد لا يثقلون على كاهل الوالى فى النفقات، لأنهم فى السابق لم تكن لهم منافع غير مشروعة مع حكام الجور والظلم ليتوقعوا أكثر من حقهم.

٢. أن مساهمتهم فى تحمل المسؤولية أفضل وأكبر لأن نياتهم خالصة فى هذا السبيل وما يقدمونه من معونة فى أمور تحمل المسؤولية يقصدون بها الخير للناس والقربة إلى الله.

٣. أن حُبهم للوالى أكثر من غيره، لأنهم يتفقون معه فى الفكر والدوافع والنيات مما يتسبب فى فوران محبتهم وشدة تعاطفهم مع الوالى.

٤. أن هؤلاء لا يرتبطون برابطة مشبوهة مع الأجانب والغرباء، فلا يتواصلون إلا معك ولا يرون سواك.

ومن الجلى أن أنصار الظلمة السابقين ليسوا فقط غير صالحين للتعاون معهم، بل بما أن الناس يعرفون سوابقهم السيئة مما يؤدى إلى ضعف اعتمادهم على الوالى وعدم التعاون معه بشكل جيد.

وينقل ابن أبى الحديد هذه القصة بعد أن يروى هذا الخبر الوارد فى الروايات:

«يُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ مَنْ بَرَى لَهُمْ - أَى لِلظَّالِمِينَ - قَلَمًا»

أتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج، فقال له: ما تقول فى الحجاج؟ قال: ما عسيت أن أقول فيه، هل هو إلا خطيئة من خطاياك، وشرر من نارك؟ فلعنك الله ولعن الحجاج معك، وأقبل يشتمهما، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبدالعزيز فقال: ما تقول فى هذا؟ قال: ما أقول فيه، هذا رجل يشتمكم، فإما أن تشتموه كما يشتمكم، وإما أن تعفو عنه، فغضب

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٤٢

الوليد وقال لعمر: ما أظنك إلا خارجياً، فقال عمر: وما أظنك إلا مجنوناً، فقام وخرج مغضباً، ولحقه خالد بن الريان صاحب شرطة الوليد، فقال له: ما دعاك إلى ما كلمت به أمير المؤمنين، لقد ضربت يدي إلى قائم سيفى أنتظر متى يأمرنى بضرب عنقك، قال: أو كنت فاعلاً لو أمرك؟ قال: نعم، فلما استخلف عمر جاء خالد بن الريان فوقف على رأسه متقلماً سيفه، فنظر إليه وقال: يا خالد، ضع سيفك، فإنك مطيعنا فى كل أمر نأمرك به - وكان بين يديه كاتب كان للوليد، فقال له: ضع أنت قلمك، فإنك كنت تضرب به وتنفع، اللهم إنى قد وضعتهما فلا ترفعهما، قال: فوالله ما زالا وضيعين مهينين حتى ماتا [٦١٥].

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام مسألة حسن السابقة فى الوزراء والمسؤولين تطرق إلى ذكر الصفات والخصوصيات لدى الجيدين منهم، بداية يقول:

«ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقُولُهُمْ بِمِرِّ الْحَقِّ لَكَ.»

وفى الخصوصية الثانية يقول:

«وَأَقْلَهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَإِعْماً ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ.»

وهذه إشارة إلى أنك لو سلكت سبيل الخطأ أحياناً فإنهم سوف لا يساعدونك فى ذلك، لتكون متبهاً وتتجنب التورط فى الخطأ

والضلالة وتعود إلى خط الصواب، وبعبارة أخرى أنهم يملكون شخصيته مستقلة وتفكيراً مستقلاً، فهم يعينونك في الحق ولا يعينونك في الباطل.

وفي الخصوصية الثالثة والرابعة يقول الإمام عليه السلام:

«وَالصَّقُّ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصَّدَقِ».

«الورع» يعنى التقوى فى حدّها الأعلى، و «الصدق» هو الإخلاص فى المشورة وإيصال الأخبار الحسنه والسيئه للوالى.

وعبارة »

بِمُرِّ الْحَقِّ

« الواردة فى العبارة أعلاه، تبين أن بيان الحق أحياناً يكون

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٤٣

مستساغاً وحلواً ولكن فى الكثير من الأوقات يكون مرّاً وصعباً، ولكنه بمثابة الدواء الشافى الذى ربّما يكون مرّاً لشاربه بصورة مؤقتة، إلّا أنّه يبعد عن الإنسان المرض الخطير، وهذه إحدى الاختبارات للخواص والمعاونين للوالى، وذلك بأن يملكون الجرأة والشجاعة لقول الحقيقة للحاكم ولو كانت مرّة ولكنها مفيدة، فلا يخشون سخط الحاكم لأجل قول الحقيقة.

وفى ما لو سلك الحاكم طريق الخطيئة والزيف فإنّ ذلك يشكل امتحاناً آخر لبطانته، بأن يتحلوا بالشجاعة اللازمة ولا يعينونه أو يتماهوا معه فى هذا الطريق بل يعيدونه إلى صوابه وينبهونه من غفلته ولا يتبعونه أتباع الأعمى ويرجعون رضاه على رضا الله والخلق.

وفى ختام هذا المقطع من التوصيات يقول الإمام عليه السلام فيما يتصل بالوزراء والمعاونين:

«ثُمَّ رُضُّهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوكَ وَلَا يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْأَطْرَاءِ تُحْدِثُ الرَّهْوُ [٦١٦]، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ [٦١٧].»

ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «رضهم» من مادة «رياضة» فإنّه فى هذا المورد تعنى التمرين والتربية، وجملة «يطروك» من مادة «اطراء» بمعنى المدح والثناء الكثير، و «يبجحوك» ما مادة «بجح» (على وزن فرح) وتعنى الفرح، وغرض الإمام عليه السلام أنّه لا ينشرح صدرك وينفتح وجهك فى مقابل مدح المداحين، فلا ينبغى أن تظهر السرور لذلك، سواء فيما يتصل بأعمالك الحسنه أو ترك الأعمال السيئه، لأنّ تكرار هذا العمل من قبل الحاشية سيؤدى تدريجاً إلى التأثير فى قلب الوالى، وزرع الغرور والعجب فى نفسه، ومعلوم أنّ الغرور بذاته منبع الكثير من الانحرافات الخطيرة.

وجاء فى الحديث الشريف عن ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«لَا تَطْرُونِي

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٤٤

كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُهُ» [٦١٨].

ونقرأ فى رواية معروفة:

«اخْتُوا فِي وُجُوهِ الْمُدَّاحِينَ التُّرَابَ» [٦١٩].

وجاء فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام فى كتاب «غرر الحكم»:

«إِيَّاكَ أَنْ تَتَّبِعَنِي عَلَى أَحَدٍ بِمَا لَيْسَ فِيهِ فَإِنَّ فَعْلَهُ يَصْدُقُ عَنْ وَصْفِهِ وَيُكْذِبُكَ» [٦٢٠].

ومعلوم أنّ هذا العمل ليس باليسير بأنّ تتحدّث البطانة والحاشية مع الحاكم بدون خوف وخشية منه وبدون توقع للصلة والثواب، فيمحضوه النصيحة ويخبروه بالحقائق دون أن يخافوا بطشه ولا يتوقعون ماله ورضاه، وهذا هو شأن الموحدنين الحقيقيين.

وكما قال الخطيب المعروف: إنّ النصيحة للملوك هى من شأن من لا يخاف ولا يطمع.

وطبعاً فإنّ هذا الكلام يعدّ توصية أكيدة لجميع المسؤولين فى مراكز القدرة والسلطة بأن يعلموا مشاوريهم وبتانتهم على قول الحق

وأن يكونوا مستعدين لقبول الحقائق المرة [٦٢١].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٤٥

القسم التاسع

إشارة

وَلَمَّا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ! وَالزِّمُّ كُلُّهُ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرِعْيَتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَثُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قَبْلَهُمْ. فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرِعْيَتِكَ فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصِيباً طَوِيلًا. وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ. وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةَ صَالِحَةٍ عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ. وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةَ تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَبَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا. وَأَكْثَرُ مَدَارِسَةِ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةِ الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صِلَحَ عَلَيْهِ أَمْرٌ بِلَادِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ.

الشرح والتفسير: إحيى السنن الحسنة

يوصى الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة العهديّة لمالك الأشتر بعدة وصايا أخرى.

بداية يؤكد الإمام عليه السلام على الإحسان للمحسنين وإنزال العقوبة بالمسيئين ويقول:

«وَلَمَّا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٤٦

الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً [٦٢٢] لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ وَالزِّمُّ كُلُّهُ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ».

ما بيّنه الإمام عليه السلام في هذه التوصية يعتبر أحد الأصول المهمّة للإدارة الجيدة، من إدارة الله تعالى والأنبياء للبشرية إلى إدارة رب الأسرة لعائلته وأبنائه.

القرآن الكريم يأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالبشارة والإنذار ويعتبره «مبشراً» و «نذيراً»، وكذلك وعد الله تعالى الصالحين بالثواب الجزيل والنعيم الدائم في الجنة، ووعد المسيئين بالنار والعذاب الأليم.

وهذا الأصل موجود في جميع الأقوام البشرية مع تنوعهم واختلافهم في العقائد والثقافات والأنظمة الحكوميّة، ويندرج تحت عنوان الترغيب والترهيب، والدليل على ذلك بين، لأن استمرار عمليّة الإحسان وإسداء المعروف للآخرين يتطلب تحفيز الباعث النفسى، ومنع المخالفات أيضاً يستدعى وجود المحفز والباعث، فربما تؤثر الدوافع المعنويّة والعقائد الدينيّة في هذا المجال، ولكن هذا الدوافع لا تتوفر في جميع الأفراد، أضف إلى ذلك فإن وجود مسألة الثواب والعقاب من قبل الوالى والحاكم من شأنه تجميد البواعث السلبية وترشيد الدوافع الخيرة.

وجملة »

وَالزِّمُّ كُلُّهُ

... إشارة لطيفة لهذه النقطة، وهى أن المرء عندما يتقبل شيئاً لنفسه فلا مسوغ لأن يقوم الحاكم بمنعه، فالمحسن اختار الثواب لنفسه،

والمسيء اختار العقاب لنفسه، ومن هذا المنطلق ينبغي اعطاء كل ذي حق حقه.

والأهم من ذلك أن الإحسان للمحسنين يؤثر على عمل المسيئين ويرغبهم في ترك الإساءة، وعقوبة المسيئين تدعو بدورها المحسنين للإستمرار في إحسانهم كما ذكر الإمام عليه السلام في كلام آخر له في نهج البلاغة:

«أزجر المُسيء بِثَوَابِ المُحْسِنِ» [٦٢٣].

وهذه إشارة إلى أن المسيء عندما يرى نفسه محروماً من الثواب المادي

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٤٧

والمعنوي للمحسنين ينتبه إلى خطئه ويثوب إلى رشده وربما يتوب من عمله ويرتدع عن سلوكه.

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه في بيان التوصية الثانية ويبين أفضل وسيلة لجلب حسن الظن تجاه الوالي وكسب محبة الرعايا له ويقول:

«وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرِعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِ الْمُتُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قَبْلَهُمْ».

والتعبير بـ

مَا لَيْسَ لَهُ قَبْلَهُمْ

«مع الالتفات إلى أن «قبل» تأتي أحياناً بمعنى «عند» وأحياناً أخرى بمعنى «القدرة»، يمكن أن يكون معنى الجملة: الشيء الذي ليس عندهم (وليس في عهدتهم) أو الشيء الذي لا يقدرون عليه ولا يطيقونه [٦٢٤].

وهذه الحقيقة قد أثبتتها التجارب الكثيرة، فالوالي إذا كان يفكر بأمر الرعية، وتحرك المسؤولون للتخفيف عن الضرائب التي تثقل كاهلهم ولم يحملوهم ما ليس في طاقتهم من الوظائف والتكاليف، فإن ذلك من شأنه تقوية الرابطة العاطفية وتوثيق العلاقة بينهم وبين الحكومة، هذه العلاقة الحميمة يمكنها أن تلعب دوراً فاعلاً في حلّ الأزمات والمشاكل المعقدة.

وهنا نقطة مهمّة أيضاً، وهي أن الإمام عليه السلام يتحدث عن عوامل حسن الظن للوالي برعيته لا حسن ظن الرعية بالوالي، في حين أن المناسب حسب الظاهر أن يكون التعبير الأول في مثل هذه الموارد أنسب، ولكن مراد الإمام عليه السلام التأكيد على أن الولاية وزعماء الأمة يسدون الخير والمعروف للرعية إلى درجة أنهم يطمثون إلى تأييدهم ووفائهم لهم.

وعلى هذا الأساس يقول الإمام عليه السلام في سياق كلامه:

«فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرِعِيَّتِكَ فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَبًا [٦٢٥] طويلاً».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٤٨

وبديهي أن الوالي عندما يسئ الظن برعيته فإنه يحتمل دوماً أن يثور الناس ضده أو يتعاملون معه بآليات التآمر والخيانة، وهذا التذكير والموقف السلبي من الرعية يجعله يعيش دائماً حالات التوجس والخوف وعدم الاطمئنان، ولكن عندما يطمئن الوالي لوفاء الرعية له وتأييدهم لحكومته فإنه سيتحرك على مستوى تدبير ونظم الأمور وإعمار البلاد ودفع شرّ الأعداء براحة بال وثقة بالنفس.

ثم يواصل الإمام عليه السلام شرحه لهذه التوصية بعبارات بليغة أخرى يقول:

«وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ».

وهذه إشارة إلى أن الإحسان للرعية يسبب حسن الظن بهم، فكلما زاد إحسانك لهم زاد حسن الظن بهم، وكما أن الإساءة لهم تتسبب في سوء الظن، فكلما ازدادت الإساءة ازداد سوء الظن أيضاً.

وجاء في كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة: «كان ابن عباس يقول: ما رأيت رجلاً أوليته معروفاً إلا أضاء بيني وبينه، ولا رأيت رجلاً أوليته

سوءٌ إلّا أظلم ما بيني وبينه» [٦٢٧].

ونستوحى ممّا تقدم هذه النتيجة، وهى أنّ الأشخاص الذين وقعوا مورد العقوبة والمؤاخذه، مهما كان الدليل والمسوغ، فإنّ على الوالى والحاكم أن يلتزم جانب الحذر منهم ويتجنب حسن الظن بهم.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٤٩

يذكر الإمام عليه السلام فى سياق كلامه نقطة مهمّة أخرى، ويحذر مالك الأشر من نقض السنن والتقاليد الصالحة، ويقول:

«وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةَ صَالِحَةٍ عَمِلَ بِهَا صُدُورُ [٦٢٨] هَذِهِ
الْأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأَلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ».

وتأتى كلمة «سنة» على معنيين: فأحياناً يراد منها العادات والتقاليد الموروثة من الأسلاف والقدماء، وهذه بدورها على قسمين: حسنة وسيئة، كما ورد هذا المعنى فى الحديث الشريف المعروف عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله:

«مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً عَمِلَ بِهَا مَنْ بَعْدَهُ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَمِثْلُ أَجْرِهِمْ مَنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُضَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهُ وَمِثْلُ أَوْزَارِهِمْ مَنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُضَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» [٦٢٩].

والمعنى الثانى للسنة: كلام النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وفعله وتقريره، وكلام الإمام عليه السلام فى هذه العبارة ناظر إلى المعنى الأول بقرينه جملة:

«وَلَا تُحَدِّثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ...»

مثلاً: أن يقوم شخص أو جماعة فى كل اسبوع معين من السنة بوصفه اسبوع الإحسان إلى اليتامى أو اسبوع تنظيف المساجد، أو غرس أنواع الأشجار دون أن ينسبوا هذا الأمر للشرع المقدس وتبقى هذه السنة الصالحة ويعمل بها جملة من الناس وتفرز معطيات حسنة على المستوى العام، فالإمام عليه السلام يأمر مالك الأشر بأن لا ينقض مثل هذه السنن الخيرة بل يترك الناس يعملون بها ويتنفعون من بركاتهما.

وطبعاً إذا كانت السنن فاسدة ومفسدة من قبيل ما كانت متداولاً فى زمان الجاهلية من ظاهرة الثأر والانتقام وواد البنات وأمثال ذلك، فينبغى التصدى لمثل هذه السنن الخرافية والخطئة وغير الإنسانية.

ويشير تاريخ الإسلام إلى أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قد أمضى السنن الصالحة للقدماء

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٥٠

ولم ينقضها أبداً، من قبيل السنن التى تركها عبدالمطلب فى قومه، ولكنه حارب السنن الخرافية والسيئة ودعا إلى تركها ونبذها.

ثم يبين الإمام عليه السلام هذا الموضوع بصورة أخرى ويقول:

«وَلَا تُحَدِّثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السَّنَنِ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا».

وفى الحقيقة يريد الإمام عليه السلام القول: إنّ السنن الصالحة للقدماء لا ينبغى لك نقضها لا بصورة مباشرة ولا من خلال إيجاد العوائق أمامها ليركها الناس، بل عليك بحفظ هذه السنن والتقاليد ليتنفع الناس منها فى حال ممارستها والمداومة عليها.

وحول أهميّة السنن الحسنة وفرقها مع البدع وكذلك مع السنن السيئة وإفرازاتها فى المجتمعات البشرية، ستحدث عن ذلك فى خاتمة هذا البحث.

وفى آخر توصية الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرسالة العهديّة، يأمر الإمام عليه السلام مالك الأشر بأن يكون إلى جانب العلماء والحكماء ويقول:

«وَأَكْبِرْ مَدَارِسَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ [٦٣٠] الْحُكَمَاءِ، فِى تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرٌ بِلَادِكَ، وَإِقَامِهِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ».

وفى الحقيقة فإن الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من وصاياه لمالك الأشرى يؤكد له السعى فى الاستزادة من العلم والمعرفة فيما يتصل بالأحكام والموضوعات وذلك من خلال الإرتباط بالعلماء وأهل الخبرة ومجالستهم حتى يتعرف أكثر على الأحكام الإلهية وكيفية إدارة الأمور فى حكومته وينتفع من تجاربهم فى تشخيص الموضوعات المهمة، وعندما تزداد معرفة الوالى بالنسبة لهذين القسمين، فإن ذلك من شأنه إصلاح أمر البلاد وبقاء السنن الحسنه للماضيين فى واقع الحياة الاجتماعيه.

وينقل الشيخ الكليني فى الجزء الأول من اصول الكافي فى باب تحت عنوان

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٥١

«بَابُ مُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ وَصُحْبَتِهِمْ» عدّه روايات فى هذا المجال، منها:

عن الإمام صادق عليه السلام فى حديث أنه قال:

«لَمَجْلِسِ أَجْلِسُهُ إِلَى مَنْ أَتَقُّ بِهِ أَوْ تَقُّ فِي نَفْسِي مِنْ عَمَلِ سَنَةٍ» [٦٣١].

وفى حديث آخر عن لقمان ينصح فيه ابنه ويقول:

«يَا بُنَيَّ اخْتَرِ الْمَجَالِسَ عَلَى عَيْتِكَ فَإِنْ رَأَيْتَ قَوْمًا يَزِدُّكَ زُونَ اللَّهَ جَلًّا وَعَزَّ فَاجْلِسْ مَعَهُمْ فَإِنْ تَكُنْ عَالِمًا نَفَعَكَ عِلْمُكَ، وَإِنْ تَكُنْ جَاهِلًا عَلَّمَوكَ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُظَلِّهُمَ بِرَحْمَتِهِ فَيَعُمَّكَ مَعَهُمْ، وَإِذَا رَأَيْتَ قَوْمًا لَا يَزِدُّكَ زُونَ اللَّهَ فَلَا تَجْلِسْ مَعَهُمْ، فَإِنْ تَكُنْ عَالِمًا لَمْ يَنْفَعَكَ عِلْمُكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَاهِلًا يَزِيدُوكَ جَهْلًا، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُظَلِّهُمَ بِعُقُوبَةٍ فَيَعُمَّكَ مَعَهُمْ» [٦٣٢].

وفى الدعاء المعروف بدعاء أبى حمزة الثمالى يتحدث الإمام زين العابدين عليه السلام عن عوامل سلب التوفيق ويقول:

«أَوْ لَعَلَّكَ فَقَدْتَنِي مِنْ مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ فَخَدَلْتَنِي».

ومن جملة بركات مجالسة العلماء ومحادثتهم أن الإنسان لا ينسى علومه ومعارفه، ولو لم يعرف شيئاً فإنه سيتعلمه كما ورد عن

أمير المؤمنين عليه السلام فى كلام آخر له، قال:

«مَنْ أَكْثَرَ مُدَارَسَةَ الْعِلْمِ لَمْ يَنْسَ مَا عِلِمَ وَاسْتَفَادَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» [٦٣٣].

تأمل

سبب ظهور السنن

كلمة «سنه» فى الأصل من مادة «سن» (على وزن فن) وتعنى إجراء الماء على الوجه، ثم اطلقت على كل أمر فيه جريان وسريان، وتشمل جميع العادات والآداب الحسنه والسيئه من قبل شخص أو فئة فى المجتمع، ولهذا السبب قسمت إلى سنه حسنه وسيئه، مثلاً: اقرار برنامج مستمر فى كل عام من أجل إكرام اليتامى، أو المصالحة بين المتخاصمين والمتشاحنين، هذا يعتبر سنه حسنه، وأما ما جرت عليه

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٥٢

عادة العرب فى الجاهلية من وأد البنات فى التراب أو ما عليه بعض الشبان فى عصرنا الحاضر من اللعب بالمواد المتفجرة فى يوم الأربعاء من آخر كل سنه يعتبر سنه سيئه.

وقد ورد فى الروايات الإسلاميه بحوث كثيرة عن الأشخاص الذين يضعون سنه حسنه أو سنه سيئه، وقد تقدمت بعض النماذج والأمثلة عن هذه المسألة فى البحوث السابقة، وقد ورد التأكيد فى هذه الروايات على أن من يضع سنه حسنه فله أجر وثواب بقدر الأشخاص الذين يعملون بها دون أن ينقص من ثوابه شىء، وأما الأشخاص الذين يضعون سنه سيئه فإنهم يحملون وزراً بعدد الأشخاص الذين

يعملون بها وتكتب في صحيفه أعمالهم دون أن يقل من عقوبه المرتكبين لهذه الأعمال السيئه، وهذا في الواقع من قبيل التسبيب والتعاون على الخير والشر، لأننا نعلم أن الإنسان تارة يقوم بعمل بشكل مباشر وأخرى بالتسبيب بإيجاد سنه حسنه أو سيئه مما يدعو الآخرين للإقتداء به.

ومعلوم أن مسألة السنن والتقاليد الاجتماعيه لا- ترتبط بالبدع كما تصور بعض الوهابيين المتعصبين، لأن البدعه هي ما ينسب إلى الشارع المقدس والقرآن الكريم وسنه نبي وليست منها، ولكن السنن والتقاليد المتداوله هي نوع من البدع العرفيه والاجتماعيه دون إسنادها إلى الشرع المقدس، فلو أنها كانت تصب في مسير أهداف الشريعه المقدسه، مثل إكرام اليتامى ومساعدة المحرومين فهي سنه حسنه ومحبذه وإذا كانت على خلاف ذلك مثل وأد البنات في الجاهليه فهي سنه سيئه وغير محبذه.

ومن هنا يتبين ما عليه الوهابيون المتعصبون من موقفهم المخالف لبعض المظاهر العرفيه والدينيه من قبيل الاحتفال بميلاد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو إقامة مراسم العزاء على الأموات، وهو ناشىء من سوء فهمهم وخلطهم السنه بالبدعه، في حين أن الروايات التي تتحدث عن السنه الحسنه والسيئه واردة في كتبهم ومدوناتهم [٦٣٤].

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٥٣

القسم العاشر

إشارة

وَاعْلَمَ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصِلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غَنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعِدْلِ وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنصِافِ وَالرَّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجَزِيَّةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذَّمِّهْ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوَى الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِينِ، وَكُلُّ قَدْ سَمِيَ اللَّهُ لَهُ سَهْمُهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظًا.

الشرح والتفسير: الطبقات الاجتماعية المختلفة

إشارة

في هذا المقطع من عهد الإمام عليه السلام المعروف يتطرق الإمام لأحد أهم البحوث الاجتماعيه والسياسيه ويقسم الناس في المجتمع إلى سبع طبقات أو سبع شرائح وفتات، وقبل أن نستعرض هذه الأقسام والفتات نشير إلى هذه النقطة التي أشار إليها بعض شراح نهج البلاغه، وهي أن الإنسان خلق اجتماعياً «مدنى بالطبع» لأنه من جهه يعيش حاجات متنوعه وكثيره لا يستطيع كل فرد لوحده أن يؤمن هذه الحاجات، مضافاً إلى أن كل فرد لا يقنع ب حياة تسير على وتيرة واحده، بل إن المجتمع البشرى يسير دائماً نحو التحول والتكامل، وهذا التكامل يستدعى تنوع الحاجات وزيادتها، ومن أجل حل المشكلات وإشباع هذه الحاجات المتنوعه لا يوجد طريق عقلائي سوى أن تقوم كل جماعة بإشباع بعض هذه الحاجات، ويتم التبادل مع الآخرين في واقع الحياة الاجتماعيه لينتفع الجميع من عملهم وأتعايبهم،

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٥٤

فجماعه منهم يتولون مسؤوليه النظم والأمن، وجماعه أخرى يهتمون بالزراعه والرعى لتأمين المواد الغذائيه، وفتنه منهم يختصون بأمر التعليم وتربية الأبناء والجيل الناشىء، وفتنه يتجهون نحو الصناعات المختلفه، آخرون يتكفلون مسألة الطب وعلاج المرضى، وجماعه

يأخذون على عاتقهم أمر القضاء وفصل الخصومات و ... الخ.

وقد وصل الحال في هذا العصر إلى حدٍّ أن تأمين حاجات البشر في مورد واحد يستدعى وجود مئات أو آلاف الفروع التخصصية، وكل جماعة يعملون في فرع خاص منها.

وعلى هذا الأساس قسّم الإمام عليه السلام المجتمع إلى سبع طبقات، وهي في الواقع سبعة أعمدة لخميمة الحياة الاجتماعية، رغم وجود طبقات أخرى أيضاً يمكن فرضها في واقع المجتمع، ولكن العمدة والأساس هي سبع طبقات أو سبع شرائح اجتماعية.

يقول الإمام عليه السلام: «يا مالك» اعلم أن الناس في المجتمع أو البلد يتشكلون من فئات متعددة وأن كل فئة منهم لا تستغنى في صلاحها إلا بالأخرى، وكل واحد منها تحتاج إلى أخرى.

فجماعة يمثلون جنود الله (وهم الذين يتكفلون حفظ الأمن والنظام في المجتمع ويتولون الدفاع عنه في مقابل الأعداء). وفئة أخرى هم الكتاب من العامة والخاصة (ومسؤوليتهم حفظ الحسابات المالية للحكومة وتنظيم الميزانية وتثبيت الأسناد والوثائق وتعليم وتربية الناس).

وفئة ثالثة هم القضاء الذين يتولون إقامة العدل والفصل بين الخصومات وإحقاق الحقوق.

وفئة أخرى هم العاملون بالانصاف والرفق، وهم الموظفون في الدوائر الحكومية.

وفئة تتولى أخذ الجزية والخراج من غير المسلمين الذين يعيشون في ظل الحكومة الإسلامية، (ويدفعون الضرائب في مقابل حفظ أنفسهم وأموالهم من قبل الحكومة الإسلامية).

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٥٥

والمسلمون الذين يعملون في الأراضي الخراجية ويدفعون خراجها إلى الدولة.

وجماعة أخرى من التجار وأهل الصنائع، وجماعة من الطبقة السفلى من المحرومين والمساكين (والعجزة والمسنين الذين لا يقدر على الكسب والعمل:

«وَأَعْلَمُ أَنَّ الرِّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصِلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غَنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضِ جُنُودِ اللَّهِ، وَمِنْهَا كِتَابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعِدْلِ وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنصَافِ وَالرَّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجَزِيَّةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الدِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِنَةِ».

ثم يشير الإمام عليه السلام إشارة إجمالية لحقوق ووظائف كل منها، ثم يفصل الكلام عن خصوصيات وصفات ووظائف وحقوق كل واحدة من هذه الفئات والطبقات.

ويقول عليه السلام في إشارة إجمالية:

«وَكُلُّ قَدْ سَمَى اللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةٍ نَبِيَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظًا».

ومعلوم أن المراد من جنود الله هم أفراد الجيش الذين يتولون حفظ الثغور وحدود البلد الإسلامي في مقابل هجوم الأعداء.

أما الفئة الثانية التي عبر عنها الإمام عليه السلام بكتاب العامة والخاصة، فالكتاب الخاصة هم الذين يكتبون الكتب الرسمية للوالي والمسؤولين ويحفظون أسرار الحكومة ويوقعون على العقود المهمة كعقود الصلح وأمثالها، وأما الكتاب العامة فهم جميع الموظفين الذين يتولون أمر حساب النفقات والواردات لخزينة الدولة ويتولون أمور القروض وتسديدها ويجمعون مطالب الناس، وربما يشمل هذا المعنى في عصرنا مراكز التعليم والتربية للشبان والفتيات.

أما قضاة العدل فيشمل جميع الموظفين في جهاز القضاء الإسلامي وعلى رأسه القضاة.

وأما عمال الانصاف والرفق، فهو إشارة للامراء والولاة على المحافظات لإدارة المدن والمناطق المختلفة في البلد الإسلامي، وإضافة كلمة «الانصاف والرفق»

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٥٦

إشارة إلى أنه يجب انتخابهم من بين الأشخاص الذين يتمتعون بهاتين الصفتين:

الانصاف من خلال إيصال الحقوق إلى أصحابها، وكذلك يتعاملون مع الناس بآليات الرفق والمداراة والمحبة.

وأما أهل الجزية والخراج فهي إشارة إلى فئتين من المواطنين في البلد الإسلامي، فأهل الجزية إشارة إلى غير المسلمين من أهل الكتاب الذين يعيشون في كنف الحكومة الإسلامية ويدفعون ضرائب سنوية، وهي في الغالب مبلغ زهيد، للحكومة، وفي مقابل ذلك تتولى الحكومة الإسلامية الدفاع عن حقوقهم وحفظ أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.

والقسم الثاني هم الزراع الذين يتولون زراعة الأراضي المتعلقة بالمجتمع الإسلامي، (وتدعى الأراضي الخراجية) ويقومون بأمر الزراعة والبستنة في مقابل دفع مبلغ من المال في كل عام بعنوان الخراج، وهو في الواقع ثمن اجرة تلك الأراضي.

أما التجار وأهل الصناعات الذين يذكروهم الإمام عليه السلام بوصفهم شريحة مهمة من شرائح المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت وكذلك في هذا العصر، الإمام يوصي بعدة وصايا في هذه الرسالة العهديّة فيما يتعلق بهم.

وآخر فئة من الفئات السبع هي الطبقة السفلى ويتشكّلون من العجزة والمسنين والمعاقين وأهل الحاجات الخاصّة الذين يؤكّد الإمام عليه السلام كثيراً في هذه الرسالة على ضرورة الاهتمام بأموالهم أكثر من أي فئة أخرى من هذه الفئات السبع التي ذكرها الإمام عليه السلام في كلامه.

تأمل

الشرائح الاجتماعية

يعبر عنها أحياناً الطبقات الاجتماعية، كلمة «طبقة» في اللغة تأتي لمعانٍ كثيرة

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٥٧

ومتقاربه، من قبيل: جماعة، مرتبة، نسل، صنف، وطبقات الأرض أو طبقات البناء، وفي هذا المقطع من الرسالة جاءت بمعنى الشريحة الاجتماعية، ولكن هذه المفردة تستخدم في عصرنا الحاضر للإشارة إلى الفئات التي تعلق كل واحدة منها على الأخرى في الامتيازات والمقامات، ومن هنا فإنّ الحياة الطبقيّة تشير إلى الحياة التي يعيش فيها جماعة من الأثرياء وجماعة من الفقراء في المجتمع، ومن هذه الجهة يتبادر إلى الذهن مفهوم سلبي عن هذه الكلمة، وطبعاً فإنّ هذا المفهوم السلبي ليس هو المعنى اللغوي في الأصل، وكلام الإمام عليه السلام بدوره لا يشير إلى هذا المعنى السلبي للطبقيّة.

وهذه الكلمة من مادة «طَبَق» وتعني المساواة بين شيئين، ولذلك تستخدم كلمة المطابقة والتطابق بهذا المعنى.

وربّما يتصور البعض وجود مجاميع وفئات أخرى في المجتمع البشري لا ينضون تحت أي عنوان من هذه العناوين السبعة، ومن ذلك: طبقة العمّال، الاستخبارات، عمّال الحسبة، وهم الأشخاص الذين يتولون الإشراف على الأمور الأخلاقيّة في المجتمع والمسؤولين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأمثال ذلك.

ولكن مع التدقيق في المسألة يمكننا إدخال كل هذه الفئات تحت مجموعة من هذه المجاميع السبع المذكورة، مثلاً عمّال الحسبة يدخلون تحت مظلة جماعة القضاة، والعمّال يندرجون في فئة «أهليل الصناعات»، والكسبة يدخلون تحت عنوان التجار، وأفراد الاستخبارات تحت عنوان «عمّال الإنصاف والرّفق».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٥٩

القسم الحادي عشر

إشارة

فَالْجُنُودُ، يَا ذَنْ لَلَّهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوَلَاةِ، وَعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ. ثُمَّ لَأَقْوَامٍ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقَوُونَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عِدْوِهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصِيلُهُمْ وَيَكُونُ مِنْ وِرَاءِ حَاجَتِهِمْ. ثُمَّ لَأَقْوَامٍ لِهَذَيْنِ الصَّنْفَيْنِ إِلَّا بِالصَّنْفِ الثَّلَاثِ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْعُمَالِ وَالْكَتَابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمِنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا. وَلَا قَوَامَ لَهُمْ جَمِيعًا إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ، وَيَقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرْفُقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقٌ غَيْرِهِمْ. ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِينَةِ الَّذِينَ يَحْتَجُّ رِفْدَهُمْ وَمَعُونَتَهُمْ. وَفِي اللَّهِ لِكُلِّ سَعَةٍ، وَلِكُلِّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصِيلُهُ، وَلَيْسَ يُخْرِجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالِاهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا حَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقَلَ.

الشرح والتفسير: الأواصر بين الطبقات الاجتماعية

أشار الإمام عليه السلام في المقطع السابق من هذه الرسالة إشارة إجمالية شاملة إلى سبع فئات أساسية في المجتمع الإسلامي، ثم شرع في هذا المقطع والمقاطع التالية بشرح الوظائف والمسؤوليات الملقاة على عاتق كل واحدة من هذه الفئات، وبما أن قوات الأمن والجيش تعد أهم ركن من أركان المجتمع فقد بدأ الإمام عليه السلام

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٦٠

بهذه الشريحة.

يقول عليه السلام:

«فَالْجُنُودُ، يَا ذَنْ لَلَّهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوَلَاةِ، وَعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ».

في هذه الجملة الوجيزة يبين الإمام عليه السلام خمسة نتائج ايجابية ومعطيات مهمة لوجود أفراد الأمن والجيش المخلصين. الأولى: أنهم حصون الرعية، وهذا يعني أن البلاد ومن أجل حفظها من خطر الأعداء تحتاج إلى حصن حصين وملجأ آمن، وهذا الحصن والملجأ يتمثل بأفراد الجيش الإسلامي المقتدر، لأن كل أشكال الضعف والفتور في القوات العسكرية يؤدي إلى طمع الأعداء ويورث أنواع المشكلات للمجتمع الإسلامي، وفي الماضي وبما أن الأسلحة كانت بسيطة جداً وابتدائية فإن وجود الحصون والقلاع القوية من شأنه أن يمنع الكثير من الأخطار والأضرار، رغم أن وجود هذه الحصون في هذه الأيام ومع تطور الأسلحة من طائرات حربية وصواريخ ومدافع بعيدة المدى لم يعد مؤثراً كثيراً في ميزان القوى.

الثانية: يعتبر الإمام عليه السلام أن الجيش زينة القيادة والحكومة، لأن الحاكم أو القائد يحضى باحترام عامة الناس ويملك القدرة والنفوذ في أمر الولاية، وهذه القدرة تتمثل في الدرجة الأولى بوجود جيش قوى ومطيع لأوامر القيادة.

الثالثة: أن الجيش سبب عزة الدين وقدرته، وهذه إشارة واضحة إلى هذه الحقيقة، وهي أن الأمور المعنوية للناس لا تيسر من دون وجود جيش قوى وفاعل، وقسم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحقاق الحقوق وإجراء الحدود وبسط العدل وإقامة القسط، يحتاج إلى القدرة الكافية لتجسيدها وترجمتها

نفعات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٦١

على الأرض والواقع الاجتماعي، وهذا مرتبط بوجود جيش قوى.

الرابعة: يتحدّث فيها الإمام عليه السلام عن حالة الأمن الذى يتحقق بواسطة الجيش القوى، ويشير إلى أن الجيش القوى ليس فقط يتولى اخراج العدو من أراضى المسلمين: بل «تُزْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» [٦٣٦]، أى يخيف أعداء الداخل أيضاً، أو بمعنى أن الجنود فى هذا المورد أعم من قوى الأمن والجيش، أو يراد بذلك أن الحكومة الإسلامية وفى موارد استثنائية لا تتمكن فيها قوات الأمن والشرطة من تحقيق الأمن فى ربوع المجتمع الإسلامى، فإنها تعتمد على الجيش فى هذا الأمر لتحقيق الأمن فى فضاء المجتمع.

الخامسة: يقول الإمام عليه السلام: إنهم قوام الرعية، وربما تكون هذه الجملة بمثابة النتيجة لما سبق بيانه فى الجمل الأربع السابقة، ويحتمل أيضاً أن تكون جملة مستقلة، والمراد منها أن الجيش فى الكثير من المواقع يهب لمساعدة الناس فى الزلازل والسيول والحوادث الطبيعية الصعبة، بحيث تضطر الدولة للإستعانة بقوات الجيش لمساعدة الناس.

ثم يبين الإمام عليه السلام الإرتباط الوثيق بين هذه الفئة من المجتمع مع الفئات الأخرى ويتحدّث عن الرابطة بين الجيش وعمّال الخراج:

«ثُمَّ لِقَوَامِ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوُونَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُضْرِبُ لَهُمْ وَيَكُونُ مِنْ وِرَاءِ حَاجَتِهِمْ».

ويستفاد من تاريخ الإسلام أن الجيش الإسلامى لم يكن فى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله بشكل شريحة منفصلة ومستقلة عن المجتمع، بل إن كل أفراد المجتمع من الشبان والشيوخ، الكبار والصغار الذين يستطيعون حمل السلاح يهبون للدفاع عن الإسلام والمسلمين فى مقابل الأعداء ويتجهون مع النبى الأكرم صلى الله عليه وآله إلى ميادين الحرب والقتال، وفى الغالب يهيئون سلاحهم ودوابهم بأنفسهم، ومعلوم أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله

نفعات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٦٢

وقبل حركة الجيش نحو ميدان القتال يأمر بتجهيز الزاد والمتاع لأفراد الجيش من طريق الزكاة والتبرعات التى يقدّمها المسلمون فى سبيل الله.

ولكن فى العصور اللاحقة وبعد أن اتسعت الدولة الإسلامية وإمتدت إلى مساحات وبلدان كبيرة ولضطرت الحكومة لتجهيز جيش مدرّب ومهنى لمقابلة الأعداء، واضطر المسلمون لتنظيم جيشهم وتوفير المعسكرات اللازمة له [٦٣٧].

وأساساً فإنّ مدينة الكوفة عرفت بأنّها «كوفة الجند» وكانت بمثابة معسكر كبير للجيش الإسلامى.

طبعاً كان الأفراد العاديون يلتحقون بالجيش فى المواقع الحساسة ويؤدّون دورهم تحت عنوان الجهاد فى سبيل الله والذى هو وظيفة جميع الأفراد القادرين على الجهاد.

على أية حال فإنّ هذه الفئة التى وضعت نفسها فى خدمة الإسلام وحفظ ثغور المسلمين والدفاع عن حياضهم ينبغى أن يعيش أفرادها الطمأنينة وفراغ البال من معيشتهم ومما يحتاجونه فى حياتهم المادية، ولذلك وضع الإسلام ضرائب خاصّة تدعى بالخراج وكذلك وضع سهماً من الزكاة بعنوان: فى سبيل الله، لهؤلاء الجند.

والجمل الثالث المذكورة أعلاه ربّما تكون إشارة إلى حاجات الجند المختلفة، فجملة

«الَّذِينَ يَقْوُونَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ»

إشارة للحاجات التى تتصل بالحرب والقتال من قبيل السلاح والمركب.

وجملة:

«وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُضْرِبُ لَهُمْ»

إشارة لتأمين ضروريات الحياة.

وجملة:

«وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ»

إشارة إلى الأمور الترفيحية، وذهب بعض الشراح إلى أن المراد من هذه الجملة أن أفراد الجيش لابد أن يكون لهم مرتب مستمر وحقوق مادية من شأنها رفع جميع حاجاتهم.

ثم إن الإمام عليه السلام يبين إرتباط هاتين الفئتين مع الفئة الثالثة والرابعة والخامسة، أي

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٦٣

القضاء والموظفين والمحاسبين، ويقول:

«تُمْ لَأَقْوَامٍ لِهَدْيَيْنِ الصَّنْفَيْنِ إِلَّا بِالصَّنْفِ الثَّلَاثِ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْعَمَالِ وَالْكَتَّابِ، لِمَا يُحْكَمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ [٦٣٨]، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمُونَ عَلَيْهِ مِنْ حَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا».

وفي الواقع أن الإمام عليه السلام في هذه العبارة النوراتية أدغم ثلاث فئات من الفئات الاجتماعية في صنف واحد، وبعنوان الصنف الثالث في مقابل الصنفين السابقين، أي الجيش وعمال الخراج، وذكر لكل واحد من هذه الأصناف أثر اجتماعي مهم.

فبالنسبة للقضاء يقول عليه السلام: إنهم يعملون على إحكام العقود، لأنه لولا إشرافهم ومراقبتهم لهذه العقود والمواثيق فإن الكثير من الناس يجدون الفرضة في عدم الالتزام بعهودهم، ولكن وجود المحاكم العادلة يعمل على ضبطهم والتزامهم بالعقود، لأنهم سيكونون ملاحقين من قبل المحاكم ويعاقبون على مخالفتهم.

ويتحدث الإمام عليه السلام عن العمال أي الموظفين والولاء والمسؤولين الذين يتولون الإشراف على جمع المنافع، فصحيح أن المأمورين على جمع الضرائب والخراج يتحركون على مستوى جمعها وإرسالها لبيت المال، ولكن المشرف على أعمالهم وسلوكياتهم هم العمال، يعنى الولاة ورؤساء مجالس المحافظات والنواحي التابعة لهم.

ويبين الإمام عليه السلام فائدة وجود الكتّاب، وذلك في ضبط الأمور العامة والخاصة والنفقات وحساب بيت المال والميزانية في الحكومة الإسلامية، وعندما تتضامن وتتكاتف هذه الفئات الثلاثة فسيتم إصلاح أمر الخراج والضرائب، ومع إصلاحها سيتم إصلاح وضع الجنود وقوات الحرس والأمن.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن هذه الفئات الثلاثة صنف واحد وتلخص في القضاء والعمال، وما ورد في الجمل الثلاثة يعود إلى القضاء، في حين أنهم ثلاث

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٦٤

فئات اجتماعية قطعاً، وسبق أن أشار إليها الإمام عليه السلام في كلامه، وفي هذا المورد أيضاً، ذكر الإمام عليه السلام وظيفة وبرنامج كل واحدة منها، بالرغم من وجود الارتباط القريب والوثيق بينها، ومن هنا ذكرت هذه الفئات بوصفها صنف ثالث.

وربما يطرح هذا السؤال نفسه، وهو أن الإمام عليه السلام سبق وأن أشار إلى صنفين، وطرح مسألة جمع الخراج بوصفها الصنف الثاني فكيف يكون العمال هنا واحدة من الفئات الثلاثة التي يتشكل منها الصنف الثالث؟

والجواب على هذا السؤال أن الإمام عليه السلام كان يتحدث في بداية كلامه عن الجيش والمزارعين الذين يزرعون الأراضي الخراجية ويدفعون الخراج إلى الحكومة، ولكنه في هذا المورد يتحدث عن عمال الدولة، أي الولاة والمحافظين الذين يقع على عاتق أمر الإشراف على جمع الخراج ويتصدى موظفيهم لجمعه.

والجدير بالذكر أن العمال جمع «عامل» وردت في كلمات الإمام عليه السلام كرات عديدة ويراد بها منصب المحافظ والقائم مقام وغير ناظر إلى ما ورد في القرآن الكريم في مورد الزكاة من قوله: «

عَامِلِينَ عَلَيْهَا

« أى المأمورون على جمع الزكاة.

والتعبير ب »

خَوَاصُّ الْأُمُورِ وَعَوَامُّهَا

« إشارة إلى أن عمل الكتاب تارة يتحدد فى إثبات وضبط المسائل السريّة، وأخرى يرتبط بإثبات النفقات والموارد المائيّة الاعتياديّة، فهؤلاء يتولون وظيفة حفظ الاسناد والوثائق وترتيبها، وكذلك حساب النفقات والواردات.

ثم يبيّن الإمام عليه السلام إرتباط فئة أخرى مع الأصناف السابقة ويقول:

«وَلَا قِيَامَ لَهُمْ جَمِيعًا إِلَّا بِالتَّجَارِ وَدَوَى الصَّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ [٦٣٩]، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرْفُقِ [٦٤٠] بِأَيْدِيهِمْ مَا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقٌ غَيْرِهِمْ».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٦٥

ومعلوم أن جملة: «

فِيمَا يَجْتَمِعُونَ

...» و «

يُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ

« إشارة إلى التجار والكسبة الذين يقع على عاقتهم تجميع وتوفير ما يحتاجه الناس من المناطق القريبة والبعيدة وعرضها فى الأسواق ووضعها تحت اختيار المستهلكين، ولكن جملة «

وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرْفُقِ بِأَيْدِيهِمْ

...» إشارة إلى أهل الصنائع الذين يوفرون بتعبهم وعملهم الوسائل التى تحتاجها الناس فى معيشتهم، وذلك بصناعتها بأيديهم (طبقاً لظروف ذلك الزمان) ويضعونها فى اختيار من يحتاجها من الناس.

وربما يتصور البعض أن التجار ليس لهم دور مهم فى حياة الناس، فلا يقومون بعمل إنتاجى ولا صناعى، ولا يعملون بالزراعة والرعى، فكيف جعلهم الإمام عليه السلام من أركان المجتمع البشرى، ولكن إذا كان التاجر ملتزماً بالقيم الإيمانيّة والأخلاقيّة فإنه يلعب دوراً مهماً فى نسيج المجتمع، لأنه من جهة يقوم بتوفير الأجناس والبضائع من مناطق مختلفه من العالم لا تتوفر فى مناطق أخرى، فلو أن الناس أرادوا الانتفاع من جميع النعم والبركات الإلهيّة على الأرض، فينبغى أن تتولى جماعة نقل هذه البضائع التى يحتاجها الناس من نقطة إلى أخرى، وهذه الجماعة هم التجار، ومن جهة أخرى فى الموارد التى يتولى فيها أهالى المدينة الواحدة إنتاج ما يحتاجونه من البضائع واللوازم المعيشية فإن المنتجين فى الغالب لا يستطيعون عرض ما ينتجونه فى السوق ويبيعونه إلى المشترين، بل يضطرون لبيع منتوجاتهم جملة واحدة لشخص يملك رأس مال كافٍ، ويتولى ذلك الشخص بيعها إلى الكسبة فى السوق، والكسبة بدورهم يبيعونها إلى المشترين.

ومن جهة ثالثة فإن الكثير من المحاصيل الزراعيّة والمنتوجات الصناعيّة التى ربّما لا يتسنى لها التصريف والبيع فى محل إنتاجها وينبغى جمعها وعرضها على السوق، فهنا يجب أن تتولى جماعة هذا العمل على أساس أنه من الصادرات

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٦٦

والواردات، وهذه الجماعة هم التجار وبخاصة المحاصيل التى تحتاج فى حفظها وإدخالها إلى مخازن مجهزة خارجة عن عهدة المنتج وأرباب الصنائع، فالتجار لهم دور مهم فى هذه الأمور الثلاثة، وهذا يعنى أن وجود هاتين الواسطتين «التجار والكسبة» ضرورى لغرض تداول أموال المحاصيل والمنتوجات بشكل صحيح، ولكن إذا تعددت الوسائط وأرادت كل جماعة أن تستغل التجار

بدون أن توفر عملاً إيجابياً وتريد زيادة ثمن البضاعة أو المنتجات الزراعية والصناعية، أو يقوم بعض التجار والكسبة باحتكار البضائع أو تداولها من يد إلى أخرى وتشكيل سوق سوداء بأثمان زائفة وهمية، فذلك يعدّ انحرافاً في التداول الاقتصادي للمال ولا يرتبط بمسألة التجارة.

ولهذا السبب نرى أنّ جميع الحكومات جعلت إحدى الوزارات باسم وزارة التجارة من أجل الإشراف على أمر التجارة، بل تساهم في مدّ يد العون للتجار واعطائهم رؤوس أموال لازمة للقيام بعملية الصادرات والواردات، وهذا العمل يمثل في الواقع حلقة مكملة لعمل أصحاب الصناعة والزراعة والرعي.

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام عن الطبقة الدنيا في المجتمع ويقول:

«ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ [٦٤١] وَمَعُونَتُهُمْ».

ومن المعلوم أنّ في كلّ مجتمع بشري هناك أفراد لا يستطيعون العمل والكسب وهم مستهلكون فقط، وذلك بسبب الشيخوخة، المرض المزمن، الإعاقة في الأعضاء، وبسبب الحوادث المختلفة، المتخلفون ذهنياً وعقلياً وأمثالهم من ذوى الحاجات الخاصة، فالكثير من أفراد هذه الفئة كانوا في السابق وفي أيام الشباب يعيشون سلامة الجسم والروح ومن المنتجين والفاعلين في المجتمع، ولكن بسبب مرور الزمان والحوادث المختلفة صاروا بهذه الحالة، فلا-العقل ولا-الوجدان يقبل أن يهمل هؤلاء ولا تتمّ حمايتهم على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، ولهذا السبب

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٦٧

نجد في كافة أقطار الدنيا أنّهم يفتحون حساباً خاصاً لهؤلاء المقعدين ويخصصون قسماً من ميزانية الدولة لانفاقه عليهم ويفتحون لهم مراكز لاحتضانهم وحمايتهم، وقد وردت التوصيات الأكيدة في الإسلام فيما يتصل بالتواصل مع هذه الفئة المحرومة، وقد فرضت الشريعة الإسلامية سهماً خاصاً لهم من الخمس والزكاة.

أضف إلى ذلك لو اهتمت هذه الشريحة فإنّ ذلك من شأنه إفراز مشكلات مهمّة لباقي الشرائح والفئات الأخرى في المجتمع، فمن جهة ربّما يسعى أفراد هذه الفئة المحرومة ومن أجل تأمين معيشتهم، لإرتكاب جرائم مختلفة وسلوك طريق الانحراف والجنوح، أو ترى الفئات الأخرى حال هؤلاء فيؤثر ذلك على معنوياتهم ويفكرون في أنّهم إذا حلّ بهم يوماً ما حلّ بهؤلاء فماذا يكون مصيرهم؟ ولكن عندما يرون أنّ الحكومة والمجتمع سيعتنى بهم ويهب لحمايتهم في حال إعاقتهم وعجزهم عن العمل والكسب، فإنّهم سيعيشون الأمل في مستقبلهم.

وعبارة »

أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ ...

«إشارة إلى طائفتين: أهل الحاجة هم الأشخاص الذين يعملون للكسب وتوفير المعيشة ولكنّ عائلتهم المالي لا يسدّ نفقاتهم، وأهل المسكنة إشارة إلى العجزة والمقعدين الذين ليس لهم وارد مالي ولا يتمكنون من العمل مطلقاً.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام وضعيّة الترابط بين هذه الطبقات الاجتماعية، أشار إلى نقطة مهمّة وقال:

«وَفِي اللَّهِ لِكُلِّ سَعَةٍ، وَلِكُلِّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ».

وهذه إشارة إلى أنّ جميع هذه الطبقات والفئات ومن أجل التوصل لتحقيق مرادهم، فإنّهم يستمدون المعونة من مصدرين: الأول: مصدر الخلق والرزق، وهو الله الذي خلق كلّ هذه المواهب والنعم والإمكانات في هذا العالم، وكلّ واحدة من هذه الفئات بإمكانها الانتفاع من هذه المواهب من خلال السعي وبذل الجهد، هذا بحسب عالم التكوين، أمّا بحسب عالم التشريع، فالحكومة الإسلامية موظفة بمدّ يد العون لجميع هذه الفئات لإيصالها إلى مقاصدها، لأنّ الحكومة تملك القدرة المائيّة

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٦٨

من جهة، وتملك من جهة أخرى القدرة التنفيذية، وبإمكانها من خلال هاتين القدرتين مساعدة جميع الطبقات الاجتماعية. ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه في كيفية أداء الوظيفة الشرعية للوالي بصورة صحيحة، ويقول: «وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلَزَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْإِهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ، وَتَوْطِينِ [٦٤٢] نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا حَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ».

وفي الواقع ذكر الإمام عليه السلام ثلاثة شروط لنجاح الوالي في أداء وظيفته في مقابل هذه الفئات الاجتماعية وقال: الشرط الأول: السعي وبذل الجهد في هذا السبيل، الشرط الثاني: الاستمداد من لطف الله وكرمه، والشرط الثالث: الاستعداد لتحمل الصعاب والمشكلات في هذا الطريق، ومعلوم أن الوالي إذا توكل على الله تعالى وسعى جاهداً ومخلصاً، ولم يتردد في طريق أداء الوظيفة من مواجهة المشكلات والتحديات، فإنه سينجح في عمله وسيكتب له التوفيق في إدارته.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٦٩

القسم الثاني عشر

إشارة

قَوْلٌ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَنِيًّا، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا، مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعِزِّ، وَيَزُفُ بِالضَّعْفَاءِ، وَيُتْبِعُ عَلَى الْأَفْوِيَاءِ، وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ. ثُمَّ الصَّقُ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ، وَأَهْلِ الْبَيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنِ، ثُمَّ أَهْلَ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاخَةِ؛ فَإِنَّهُمْ جَمَاعٌ مِنَ الْكُرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ. ثُمَّ تَفَقَّدَ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلَا يَتَفَقَّدَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ. وَلَا تَدْعُ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْضِعًا لَا يَسْتَعْنُونَ عَنْهُ.

الشرح والتفسير: شروط قادة الجيش

في هذا المقطع من الرسالة العهدية يتحدث الإمام عليه السلام بالتفصيل عن شروط قادة الجيش، وهذا من قبيل ذكر التفصيل بعد الاجمال، وفي المجموع يذكر الإمام عليه السلام أربعة عشر صفة لقادة الجيش، ويقول: «قَوْلٌ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَنِيًّا [٦٤٣]، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا».

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٧٠

وهذه الصفات الثلاث اللازم توفرها في قادة الجيش، تؤدي: أولاً: أن يعيش القائد العسكري هاجس الحق ويفكر في نصره الدين واعلاء كلمه التوحيد ونصره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام، وثانياً: أن يسعى في هذا الطريق من موقع الإخلاص والتفاني، ثالثاً: يعمل على تدبير أمور الجيش بآليات المداراة والعقلانية والخبرة الكافية.

مفردة «حلم» في هذا المورد يمكن أن تشير إلى العقل [٦٤٤] ويحتمل أن تأتي بمعنى الصبر وضبط النفس، ولكن الجمل اللاحقة تقوى المعنى الثاني.

وبعد أن يذكر الإمام عليه السلام هذه الصفات الثلاث يشير إلى صفتين أخريين، وهما في الواقع من باب التفصيل للصفة الأخيرة، يقول:

«مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ».

وبديهي أن مراده عليه السلام ليس التساهل وقبول العذر في مقابل المسائل المهمة والمصيرية بل المراد التسامح في مقابل الأخطاء الجزئية التي ربما يمكن صدورها من جميع الأفراد، فالقائد العسكري يجب أن يتعامل مع هذه الأخطاء بدم بارد وبآليات التسامح وقبول العذر.

وفي سياق هذا الكلام يتعرض الإمام عليه السلام للصفة الرابعة ويقول:

«وَيَزُأَفُ بِالضَّعْفَاءِ، وَيَبْئُورُ [٦٤٥] عَلَى الْأَقْوِيَاءِ، وَمِمَّنْ لَا يُبْثِرُهُ [٦٤٦] الْعُنْفُ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ».

وهذه الصفات الأخلاقية من شأن الأشخاص الذين يتمتعون بشخصية قوية وشجاعة، فمثل هؤلاء يتعاملون مع الضعفاء من موقع المحبة والشفقة، ويتحركون لحمايتهم ومدد يد العون إليهم، أميا في مقابل أصحاب القدرة والثروة فإنهم يقفون موقفاً صلباً ولا يطأطؤون برؤوسهم لهم، ويحلون المشاكل التي تواجههم بآليات

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٧١

العقل والتدبير والحزم، ولا يبدون حالات الضعف والتراجع أمام أى شخص وأى عمل.

وبعد أن بين الإمام عليه السلام هذه الصفات التسع، يشير إلى ثمان صفات أخرى لا بد أن يتمتع بها القائد اللائق أو الوالى المحنك، ويقول:

«تُمُّ الصَّقُ بِدَوَى الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ، وَأَهْلُ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، تُمُّ أَهْلُ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاخَةِ».

«مُرُوءَاتِ

« جمع «مروءة» من مادة «مرء» وتأتى عادة بمعنى أصحاب الشخصية المتميزة.

«أَحْسَابِ

« جمع «حَسَب» إشارة إلى أصله النسب والأبعاد الإيجابية في الوراثة، كأن نقول إنَّ الشخص الفلانى من طائفة بنى هاشم ومن السادات المحترمين.

«أَهْلُ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ

« إشارة إلى الاسر والعوائل النظيفه والمرموقة فى المجتمع.

و

السَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ

« ناظرة إلى الاسر التى تملك سمعة حسنة، ليس فقط فى هذه الأيام بل فى الماضى بسبب أعمالهم الصالحة بحيث إنهم تركوا سمعة حسنة فى الذهنية العامة.

النَّجْدَةِ

« فى الأصل تعنى الارتفاع وفى هذا المورد تعنى الرفيع فى المقام والكبير فى الروح والعالى فى مكانته الاجتماعيه.

الشَّجَاعَةِ

« وتعنى من يملك الجرأة فى مواجهه الصعوبات.

السَّخَاءِ

« يعنى الكرم والجود.

و

السَّمَاخَةِ

« تعنى سعة الصدر والتحلى بالحلم.

وعلى هذا الأساس فإن لكل وحدة من هذه الكلمات الثمان معنًى مختلفاً وتشير إلى إحدى الفضائل والصفات المتميزة للإنسان، رغم

أن بعض شراح نهج البلاغة

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٧٢

ذهبوا إلى أن بعض هذه الكلمات مترادفة، مثل: «النجدة» و «السخاوة»، وكذلك:

«السخاء» و «السماحة»، وهكذا في «أحساب» و «أهل البيوتات الصالحة».

وعبارة »

أَلصِقُ

« إشارة إلى الروابط القريبة والعلاقات الوثيقة، وهذا يعنى لزوم إيجاد رابطة عميقة مع هذه الجهات التي تملك هذه الخصائص المتميزة لغرض اختيار قادة الجيش منها.

ولا شك أن الأشخاص الذين يملكون مثل هذه الصفات المتميزة يكونون جديرين بالاعتماد عليهم ويتحركون بفاعليته أكثر في مسألة كسب النصر والظفر.

أما الحسب والوراثه وحسن السابقة والأعمال التي تشير إلى الحلم والشجاعة والسخاء والفتوة فإنها تصلح أن تكون دليلاً على شخصيته صاحبها السامية، وفي الحقيقة فإن الإمام عليه السلام في هذا المورد يتحدث بمنطق علم النفس والتحليل النفسي ليمكن مالك الأشر من اختيار أفضل الرجال لقيادة الجيش.

ومن هذه الجهة يواصل الإمام عليه السلام كلامه ويقول:

«فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ ٦٤٧] مِنَ الْكَرَمِ،

وَشُعْبٌ مِنَ الْعُرْفِ».

كلمة »

عُرْفٌ

« إشارة إلى جميع أنواع المحاسن والفضائل، وهذه المفردة من مادة «عرفان» و «معرفة» وتأتى بمعنى المعروف أيضاً، وبما أن الفضائل معروفة لدى عقل الإنسان وروحه، فقد وردت التعبير عنها بالمعروف أو العرف، خلافاً للقبائح والردائل التي لا تتناسب و فطرة الإنسان النقية، فهي أمور منكروة وغير معروفة، فيقول الإمام عليه السلام في هذه العبارة إن الأشخاص الواجدون لهذه الصفات الثمان يمثلون مركزاً معسداً للفضائل والصفات الإنسانية المتميزة.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام هذه الصفات المهمة والمتميزة، يتحرك على مستوى بيان أربع توصيات لقادة الجيش فيما يتصل بسلوكهم ونشاطهم بداية يقول:

«ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٧٣

وعلى ضوء ذلك فقائد الجيش ينبغي أن يتعامل مع القادة في المراتب الأدنى، بل مع جميع أفراد الجيش، كالوالد الحنون والام العطوف، ويتواصل معهم من موقع المحبة والسؤال والاستفسار عن حاجاتهم وتعميق العلاقة العاطفية معهم فيما يتسبب في بقاء وفائهم وإخلاصهم وطاعتهم لقائد الجيش وثباتهم في ميدان القتال.

ويضيف الإمام عليه السلام في التوصية الثانية:

«وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ ٦٤٨] فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ».

وهذه إشارة إلى أن خدماتك مهما تكن كبيرة وكثيرة فينبغي أن تعدّها صغيرة وتفكر في الإتيان بالأفضل منها.

وفي التوصية الثالثة يقول عليه السلام:

«وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ [٦٤٩] بِهِ وَإِنْ قَلَّ».

ثم يقيم الإمام عليه السلام دليلاً لهذه المقولة (وهي الاهتمام بالأمر الكليّة والجزئية لقادة الجيش والجنود) ويقول:

«فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَىٰ بَدَلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ».

وفي التوصية الرابعة يقول عليه السلام:

«وَلَا تَدْعُ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ أَتْكَالًا عَلَىٰ جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِيَسِيرٍ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْضِعًا لَا يَسْتَعْنُونَ عَنْهُ».

وهذه النقطة جديرة بالانتباه والتدقيق، وهي أن القادة بل جميع مدراء المجتمع الإسلامي لا ينبغي أن يغفلوا عن الأمور الصغيرة والكبيرة، أو يهتموا فقط بالأمر الكبيرة والمصيرية ويعتنوا بالحاجات المهمية للمجتمع، بل يضعون كل واحدة في مكانها، لأنه أحياناً تكون الغفلة عن الأمور الفرعية مضرّة بقدر الغفلة عن الأمور الكليّة.

والنقطة الملفت للنظر أن الإمام عليه السلام في جميع المسائل السابقة وبدلاً من اهتمامه

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٧٤

بمسائل التعليم والعسكري والأمور المتعلقة بالأسلحة وأمثال ذلك يهتم بالأمر المعنوية والأبعاد الروحية لقادة الجيش، لأنّ العنصر الأساس في تحقيق النصر هو هذه الأمور رغم أن الأمور الأخرى لها مكانها المناسب.

في عالمنا المعاصر قلما يُبحث، في مسألة اختيار القادة العسكريين ومدراء المجتمع، عن الخصائص العائليّة والصفات المعنوية وحالات الكرم والتقوى والطهارة من الرذائل في شخصيّة الأفراد، ومن هذه الجهة حدثت الكثير من الخيانات الكبيرة من قبل هؤلاء المدراء والمسؤولين الكبار.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٧٥

القسم الثالث عشر

إشارة

وَلِيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مِنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَّتِهِ، بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّىٰ يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعِدُوِّ؛ فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ، وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوَلَاءِ إِسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ. وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ، وَلَا تَصْحُحُ نَصَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطَنِهِمْ عَلَىٰ وُلاةِ الْأُمُورِ، وَقَلَّةِ إِسْتِقَالِ دَوْلِهِمْ، وَتَزَكِ إِسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُيَدَّتِهِمْ، فَافْسِخْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الشَّانِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَىٰ ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَعْمَالِهِمْ تَهْزُ الشَّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ مَا أَبْلَىٰ، وَلَا تَضْمَنَّ بِلَاءَ امْرِيٍّ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَلَا تُقْصِرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بِلَائِهِ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِيٍّ إِلَىٰ أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بِلَائِهِ مَا كَانَ صِدْغِيًّا، وَلَا ضَعْفُ امْرِيٍّ إِلَىٰ أَنْ تَسْتَضْعِرَ مِنْ بِلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيمًا.

الشرح والتفسير: أفضل قادة الجيش

في هذا المقطع من الرسالة يتابع الإمام عليه السلام توصياته في اختيار قادة الجيش، ويتجه نحو الاهتمام بأمر الجند وأفراد الجيش ويوصي مالك الأشتر باختيار القادة والضباط من الذين يهتمون بأمر الجيش بشكل أفضل، يقول عليه السلام:

«وَلْيُكُنْ آتِزًا [٦٥٠]

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٧٦

رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَّتِهِ [٦٥١]، بِمَا يَسْعَهُمْ
وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ [٦٥٢] أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ
الْعُدُوِّ».

وفي عالمنا المعاصر نرى أن العلاقة بين قادة الجيش والجنود تتميز بالجفاف وانعدام الاحساس العاطفي، وتكون العلاقة عسكرية أكثر منها عاطفية، فمثل هذه العلاقة تدور في الغالب حول محور العقوبة والسجن والتهديد، في حين أن الإمام عليه السلام أكد قبل أربعة عشر قرناً على أن تكون العلاقة عاطفية، وينبغي على قادة الجيش أن يأخذوا بنظر الاعتبار مشاكل الجنود وحتى مشاكل عائلاتهم أيضاً ويوفروا لهم معيشة مقبولة وبالمقدار الممكن، كيما يتحرك الجنود في ميدان القتال بالتركيز على مسألة الجهاد وقاتل الأعداء لا غير، وبديهي أن مثل هذا الجيش سيكون أقرب لتحقيق النصر والغلبة.

عندما ينظر الجيش بعين إلى ميدان المعركة وبالعين الأخرى إلى الأهل والأولاد ويعيشون القلق تجاههم فإن إرادتهم على قتال العدو ستضعف وترتبك.

واللافت أن الإمام عليه السلام راعى في حياته الشخصية الحد الأعلى من الزهد وقد أمر الولاية والقادة أيضاً بهذه التوصية، وقد سبق الحديث عن ذلك في شرح رسالة الإمام عليه السلام لعثمان بن حنيف، ولكن بالنسبة للمجموعات الخاضعة لكفالته أوصى بتوفير المعيشة الكافية والمعقولة.

ثم يتحدث الإمام عليه السلام في مقام بيان العلة لهذه التوصية يقول:

«فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٧٧

ومع الالتفات إلى أن الضمير في
«عَلَيْهِمْ»

و

«قُلُوبَهُمْ»

يعود إلى أفراد الجيش ظاهراً، فإن معنى هذا الكلام: عندما تتواصل مع أفراد الجيش بالمحبة من خلال محبتك قادة الجيش فإن أفراد الجيش سيمنحوك حبهم ووفائهم من صميم القلب [٦٥٣].

ثم يواصل الإمام عليه السلام هذا الكلام ويشير إلى نقطة مهمة هي السبب في دوام الحكومة والدولة، ويقول:

«وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوَلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ».

وهذه إشارة إلى أن إقامة العدل والقسط تتسبب في تقوية العلاقات العاطفية بين الناس من جهة، والقادة والولاة من جهة أخرى، ولذلك يعتبر إقامة العدل أفضل وسيلة لحفظ الحكومة ودوامها.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى عوامل ظهور المودة والمحبة من قبل الناس تجاه الوالي ويقول:

«وَإِنَّهُ لَأَنْظَهُرُ مَوَدَّتِهِمْ إِلَّا بِسَلَامَةٍ صُدُورِهِمْ».

وسلامة الصدور إشارة إلى حسن الظن ونفي كل أشكال الحقد والعداوة، وبديهي أن الرعية إذا كانت تملك حسن الظن بأعمال

الولاية والمسؤولين ولم يشعروا نحوهم بأى حقد وعداء، فإنّ مظاهر المحبّة والوفاء تجاه الحكومة ستظهر جلياً. وربّما تكون هذه العبارة إشارة إلى الكثير من الناس وبحكم الاجبار والخوف يتحركون على مستوى المدح والثناء للوالى والمسؤولين فى حين أنّهم لا- يعيشون سلامة الظهر وحسن الظن بهم، فالمودة الواقعية لا- تظهر إلّا إذا كانت القلوب تعيش المودة والمحبّة تجاه المسؤولين.

ويضيف الإمام عليه السلام:

«وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطَتِهِمْ عَلَىٰ وِلَاةِ الْأُمُورِ، وَقَلَّةُ

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٧٨

اسْتِثْقَالِ [٦٥٤] دُولِهِمْ، وَتَوَكُّ اسْتِثْبَاطِ [٦٥٥] انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ».

واللافت للنظر أنّ الإمام عليه السلام ولأجل بقاء واستمرار الحكومات لا يعتمد على عنصر الاقتدار الظاهرى وتسلط الجيش وقوى الأمن والاستخبارات على الناس، بل يعتمد تماماً على قلوب الناس والبعد العاطفى لهم ويهتم بكيفية كسب محبتهم وجذبهم، فى حين أنّ الكثير من الحكومات فى الماضى وحتى فى الحال الحاضر يعتقدون أنّ بقاءهم على رأس السلطة منوط بالقدرة الظاهريّة على الناس، ونرى غالباً أنّ الناس الذين يعيشون عدم الرضا عن الحكومة بمجرد أن تتوفر لهم الفرصة فإنّهم يشورون ضد الحكومة ويزيحونها وبلقونها فى مزبلّة التاريخ.

وجاء فى شرح نهج البلاغة للعلامة التستري أنّ الزهرى قال: دخلت يوماً على عمر بن عبدالعزيز، فبينما أنا عنده إذا أتاه كتاب من عامله أنّ المدينة قد احتاجت إلى مرمة، فقلت له: إنّ بعض عمّال على بن أبى طالب كتاب بمثل هذا، فكتب عليه السلام إليه:

«أَمَّا بَعْدُ، فَحَصَّنْهَا بِالْعَدْلِ وَتَقَّ طُرُقَهَا مِنَ الْجَوْرِ»

فكتب (عمر بن عبدالعزيز) ذلك إلى عامله [٦٥٦].

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام عن مسألة التشويق المادى ويقول:

«فَأَفْسَحْ فِي آمَالِهِمْ [٦٥٧]».

للآمال مفهوم واسع يشمل جميع الحاجات الضرورية والترفيهية، وبديهي أنّ قادة الجيش والجنود إذا لم يعيشوا راحة البال والفكر من جهة تأمين معيشتهم فإنّ أداءهم العسكرى فى ميدان القتال سيشهد الضعف والفتور.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٧٩

ويتحدّث الإمام عليه السلام فى سياق كلامه هذا عن التشويق النفسى والمعنوى ويقول:

«وَوَاصِلٌ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَىٰ ذَوُو الْبَلَاءِ [٦٥٨] مِنْهُمْ فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ

لِحُسْنِ أَعْمَالِهِمْ تَهْزُؤُ [٦٥٩] الشُّجَاعِ وَتُحْرُصُ [٦٦٠] النَّاِكِلِ [٦٦١] إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

ومعلوم أنّ مسألة تشويق أفراد الجيش اللائقين والفعالين سيقع مؤثراً فى تطوير وتفعيل النشاطات الاجتماعيّة، وخاصّة أنّه يحضى فى عالمنا المعاصر بالأهميّة القصوى، فاختيار الاستاذ النموذجى، والعامل النموذجى، والمزارع النموذجى، والقادة المتالين وإعطائهم لوحات التقدير والجوائز الكبيرة وذكر أسمائهم فى أجهزة الإعلام العام يدخل كلّ فى هذا الباب.

والجدير بالذكر أنّ مثل هذا التشويق، كما ذكر الإمام عليه السلام فى كلامه أعلاه، له أثر من جهتين: فمن جهة يحثّ الأفراد اللائقين على العمل والفعاليّة، ومن جهة أخرى يؤثر على الأفراد الكسالى الذين يرون أنفسهم فى هذا الحال منكسرين فيفكرون فى تغيير سلوكهم وتنشيط أداؤهم.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتابع فى كلامه هذا، أى فى مسألة التشويق، ليتعرض لتوضيح أكثر فى هذا المجال ويقول:

«ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَىٰ، وَلَا تَضْمَنَّ [٦٦٢] بِلَاءَ

امريّ إلى غيره، ولّا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَاءِهِ».

في هذه العبارات الثلاث والتي تتضمن كلّ واحدة منها إشارة نقطة خاصّة في ذات الوقت مكملّة للأخرى، يؤكّد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر أن يكون منتبهاً ومراقباً

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٨٠

لأعمال وسلوكيات من هم تحت إمرته ويقدر لهم أتعابهم، فإذا قام أحدهم بعمل مهم فينبغي أن ينسب له ذلك العمل، ومضافاً إلى لزوم معرفته الشخص الجيد والذي يقدم خدمته جليلاً للجيش، أن يتعرف بدقة على مقدار خدمته أيضاً.

ثم يبيّن الإمام عليه السلام توصيتين أخريين في سياق إكمال هذه التوصيات ويقول:

«وَلَا يَدْعُونَكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَاءِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا وَلَا ضَعْفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَشْتَصْغِرَ مِنْ بَلَاءِهِ مَا كَانَ عَظِيمًا».

وبعبارة أخرى أن تنظر إلى العمل نفسه ثم إلى العامل، بخلاف ما هو متداول لدى غالبية الناس أنهم ينظرون إلى العامل أولاً ثم إلى عمله، وهذا الأمر يتسبب في وقوع الخطأ في تقييم أعمال الأشخاص.

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام في هذا المقطع من كتابه لمالك الأشتر يبيّن في البداية الصفات البارزة في قادة الجيش، ثم يبيّن التوصيات اللازمة بالنسبة لأفراد الجيش، وبعد ذلك يتحدّث عن عامية الرعيّة، وفي الختام يتحدّث مرّة أخرى عن المسائل المتعلقة بتشويق وحثّ قادة الجيش ويبيّن توصياته المؤكّدة لهم.

ومن هنا يبدو أنّ الإمام عليه السلام في ثنايا البحوث المتعلقة لقادة الجيش وجنوده وبشكل جملة معترضه، يتوجه في كلامه مخاطباً جميع أفراد المجتمع الإسلامي.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٨١

القسم الرابع عشر

إشارة

وَارْزُدُّ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهَ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْسَادَهُمْ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» فَالرُّدُّ إِلَى اللَّهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرُّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرَّقَةِ.

الشرح والتفسير: طرق حلّ المشكلات

إشارة

في هذا المقطع من الرسالة بين الإمام عليه السلام وظيفته مالك الأشتر فيما يتصل بأحكام الشرع، وكما يقال في الشبهات الحكمية وطريق الكشف عن الأحكام الإلهية في المسائل المتعلقة بالجيش والحرب والصلح وسائر المسائل التي تتصل بشأن الحكومة وإدارة البلاد حيث يدعو الإمام عليه السلام للاجتهاد في الأحكام الإلهية من خلال استفادة من المنابع الأصلية، لأنّه يرى فيه القابلية لمثل هذا الاستنباط الشرعي يقول عليه السلام:

«وَأَرْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضِلُّعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَسْتَبِهْ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ».

ثم يستند الإمام عليه السلام إلى الآية الشريفة ويقول:

«فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِزْشَادَهُمْ

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» [٦٦٣].

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٨٢

ثم يضيف عليه السلام:

«فَالرُّدُّ إِلَى اللَّهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرُّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفْرَقَةِ».

وجملته »

ما يُضِلُّعُكَ

« مع الالتفات إلى أنّ «ضلع»؛ (على وزن منع) في الأصل تعنى الحمل الثقيل الذى يجعل حامله يميل من هذه الجهة إلى الأخرى وهذه إشارة إلى أنّ كلّ حكم مشكل ومعقد يواجهه الإنسان لابدّ له لحمله من مراجعة الكتاب والسنة.

وكلمة

«خُطُوب»

جمع «خطب» (على وزن ختم) ويعنى الأمر المهم، تطلق على أى نوع من الأعمال، وهذه إشارة إلى أنّ الإنسان المؤمن يجب عليه، سواءً فى الأمور الهامة أم فى الأمور العادية، الرجوع إلى نصوص الكتاب أو السنة أو العمومات والإطلاقات، فيما لو واجه مشكله فى حكم من الأحكام الشرعية ويستوحى من النصوص الشريفة الحلول لتلك المشاكل.

وعبارة

«أولى الأمر»

تعنى أصجاب الاختيار وذوى الشأن، وهذه إشارة إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام ومصادقها البارز فى ذلك الوقت الإمام على عليه السلام نفسه.

وعبارة

«مُحْكَمِ كِتَابِهِ»

إشارة إلى محكمات الآيات القرآنية التى لا شك ولا شبهة فى مفهومها وتفسيرها.

وعبارة

«السنة الجامعة غير المفرقة»

إشارة إلى الأحاديث النبوية وسيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله المقبولة والمشهورة بين المسلمين ولا يتسبب الأخذ بها الخلاف والمفرقة بأى شكل من أشكال.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال: لماذا لم يتحدّث الإمام عليه السلام عن دليل العقل والإجماع اللذين يعتبران من الأدلة القطعية فى عملية الاستنباط الفقهي فى دائرة الأدلة الأربعة المعروفة؟

والجواب عن هذا السؤال بين، لأنّ الكتاب والسنة أيدا بصراحة حجّية دليل العقل وحجّية الإجماع أيضاً، سواءً قلنا بأنّ الإجماع يعدّ دليلاً مستقلاً أو أنّه يعود إلى السنة وكلام المعصوم.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٨٣

تأمل

من هم اولوا الأمر؟

بالنسبة لتفسير «اولوا الأمر» هناك خلاف بين المفسرين، فالمفسرون من أهل السنّة يرون أنّ أولى الأمر هم القادة والولاة والحكام فى كلّ عصر، والعجيب أنّهم لم يقولوا بوجود استثناء من هذه القاعدة، وبالتالي يجب على المسلمين اتّباع كلّ شكل من أشكال الحكومة حتى لو كانت حكومة المغول والتر، ولكن بعض المفسرين المتأخرين منهم، الذين يتمتعون بافق أوسع وذهن أرحب كصاحب تفسير «المنار» و «فى ظلال القرآن»، يعتقدون بأنّ المراد من أولى الأمر هم نواب الشعب والعلماء وأصحاب المناصب الذين لهم دور مهم فى حياة الناس، ولكنهم يشترطون بأن لا يسير هؤلاء بخلاف مقررات الإسلام وأحكامه.

هذا والحال أنّ البعض الآخر يحصر اولوا الأمر بالعلماء والزعماء المعنويين فقط، وذهب آخرون إلى أنّ أولى الأمر هم الخلفاء الأربعة عشر ولازمه عدم وجود اولوا الأمر فى الأزمنة الأخرى وذهب بعضهم إلى أنّ الصحابة من أولى الأمر أيضاً، حيث يرد عليه نفس الإشكال واليراد.

ولكنّ المفسرين الشيعة متفقون بأنّ أولى الأمر هم أئمّة المعصومين عليهم السلام فقط وهم قادة الخلائق إلى الله فى جميع الأمور الماديّة والمعنويّة، والدليل على ذلك واضح، وهو أنّ إطاعة أولى الأمر الوارد فى الآية الشريفة مطلقة، وبديهي أنّ الطاعة المطلقة للشخص الذى يتورط فى الذنب أو الخطأ لا معنى لها، وخاصيّة أنّ أولى الأمر معطوفة مباشرة على رسول الله صلى الله عليه وآله، وجمله «اطيعوا» التى جاءت قبل ذلك تشمل الإطاعة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأولى الأمر على حدّ السواء.

والجدير بالذكر أنّ بعض المفسرين من أهل السنّة تحركوا فى هذا المورد من موقع الانصاف واعترفوا بهذه الحقيقة، يقول الفخر الرازى فى تفسيره فى ذيل هذه

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٨٤

الآية: «إنّ قوله (وأولى الأمر منكم) يدلّ عندنا على أنّ إجماع الائمة حجّة والدليل على ذلك أنّ الله تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم فى هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لابدّ وأن يكون معصوماً من الخطأ، وإذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله اجتماع الأمر والنهى فى الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنّه محال، فثبت أنّ الله تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم، وثبت أنّ كلّ من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ فثبت قطعاً أنّ أولى الأمر المذكورة فى هذه الآية، لابدّ أن يكون معصوماً»، وبما أنّ الفخر الرازى لم يعتقد بعصمة أئمّة أهل البيت عليهم السلام يقول: «ذلك المعصوم إمّا مجموع الائمة أو بعض الائمة، لا جائز أن يكون بعض الائمة لأننا بينا أنّ الله تعالى أوجب طاعة أولى الأمر فى هذه الآية قطعاً (وهى الائمة)» [٦٦٤]. النتيجة أنّ أولى الأمر يقصد به الإجماع!

ولكن الفخر الرازى غفل عن هذه النقطة، وهى أنّ القرآن الكريم يقول إنّ المسائل المشكّلة والمعقدة التى تواجهكم فى الحياة، عليكم حلّها بواسطة إطاعة أولى الأمر، ومن المعلوم أنّ المسائل مورد الاتفاق محدودة ومعدودة ولا يمكن حلّ جميع المشكلات عن طريق تحصيل اتفاق جميع أفراد الائمة أو علمائها، أضف إلى ذلك أنّ الاستفادة من الآية الشريفة أنّ المسلمين يجب أن يذعنوا لحكومة أولى الأمر، وحكومة مجموع الائمة واتفاقهم غير ممكن حتى لو استخدمنا آليّة الانتخابات لاختيار نواب الائمة لمثل هذه الأمور، فقلّما يمكن أن يتفق الناس على اختيار هؤلاء النواب، ومن هذا المنطلق فإنّ إطاعة أولى الأمر بمعنى حكام البلاد الإسلاميّة بجانب للصواب.

يبقى سؤال مهم، وهو أنّ أولى الأمر بمعنى الإمام المعصوم لم يكن موجوداً فى زمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فكيف أمر القرآن الكريم بطاعتهم؟

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٨٥

والجواب عن هذا السؤال بين، لأن المخاطبين لهذه الآية ليسوا فقط الأشخاص الذين كانوا في زمن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وفي عصر نزول هذه الآية، بل الآية ناظرة لجميع الأزمنة والعصور، ولذلك فجميع القادة والحكام مشمولون لمدلول الآية، وحتى الفخر الرازي الذي يرى أن أولى الأمر تعني إجماع المسلمين، يرى أيضاً أن المعيار هو تحقيق الإجماع في كل عصر وزمان. وينبغي القول أن منابع الإسلاميه، من الشيعة وأهل السنة، ذكرت روايات عديدة في أن المراد من أولى الأمر على بن أبي طالب عليه السلام (بوصفه المصداق الكامل) [٦٦٥].

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٨٧

القسم الخامس عشر

إشارة

ثُمَّ اخْتَرْنَا لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لَانْتَضِيقُ بِهِ الْأُمُورِ، وَلَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ، وَلَا يَتِمَادَى فِي الزَّلَّةِ، وَلَا يَحْضُرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلَا تَشْرِيفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ، وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ؛ وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَأَخَذَهُمْ بِالْحَجَجِ، وَأَقْلَهُمْ تَبَرُّمًا بِمَرَاجِعِهِ الْخُصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشُفِ الْأُمُورِ، وَأَصْدَرَهُمْ عِنْدَ اتِّصَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ. وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِعْرَاءٌ وَأَوْلِيَّتِكَ قَلِيلٌ، ثُمَّ أَكْثَرَ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْيُذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقَلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ. وَأَعْطَاهُ مِنَ الْمُنَزَلَةِ لِمَدِيكَ مَا لَمَّا طَمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِئَامَنْ بِمَدِيكَ اغْتِيَالِ الرَّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ. فَانظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا بَلِيغًا، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتَطْلُبُ بِهِ الدُّنْيَا.

الشرح والتفسير: يجب أن يتصف القضاة بهذه الصفات الاثني عشر!

يتحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته لمالك الأشتر عن موضوع مهم في شأن القضاة، ويجعله بحثاً مستقلاً عن البحوث السابقة، للإشارة إلى مسألة الاستقلال القضائي المتداولة في عالمنا المعاصر والذي يحظى بأهمية كبيرة حيث تكون السلطة القضائية قوة مستقلة في عرض السلطة التنفيذية (الحكومة) والسلطة التشريعية (البرلمان)، مضافاً إلى ذلك فإن الإمام عليه السلام ذكر خصائص القضاة بعد ذكر خصائص قادة الجيش مما يوحي إلى أن الجيش الإسلامي يحفظ الامة في مقابل

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٨٨

الأجانب، والسلطة القضائية تحفظ الامة في مقابل المحاصمات والنزاعات الداخلية، وبعبارة أخرى أن أحدهما يؤدي دور حفظ الامة من الخارج، والآخر حفظ الامة من الداخل.

بداية يقول عليه السلام:

«ثُمَّ اخْتَرْنَا لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ».

وهذا التعبير يوحي أن الحاكم في مورد اختيار القضاة يجب أن يختار الأفضل والأجدر منهم، لأن مسألة القضاء أمر حساس وخطير جداً وأن الأفضل والأجدر من الجميع هو الذي يستطيع تولى هذا المنصب.

وجملة

«اخْتَرْنَا»

تشير إلى أن القضاة لا ينتخبون بآراء الناس، كما هو المتداول في بعض البلدان المعاصرة، بل يختارهم القائد والإمام بشكل مباشر أو

بواسطة الأفراد الموثوقين، لأن مسألة صلاحية القضاة ليست شيئاً يمكن الرجوع فيه إلى آراء الناس للحكم في ذلك. ثم يعدد الإمام عليه السلام اثني عشر صفة لا بد من توفرها في القاضي، وهذا في الواقع من قبيل التفصيل بعد الاجمال، ويشير إلى من هو الأفضل والأجدر لحيازة هذا المنصب المهم:

١. يقول عليه السلام:

«مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ».

وهذه إشارة إلى أن معرفة القاضي فيما يتصل بالمسائل المختلفة والقوانين الإسلامية ومعرفة الموضوعات إلى درجة من التعقيد في كل مسألة بحيث ينبغي للقاضي معرفة طريق الحل فيها ولا يواجه مشكلة في هذا الأمر، وبعبارة أخرى أن يكون عارفاً بأحكام الشرع من جهة، وله معرفة في تشخيص الموضوعات أيضاً من جهة أخرى، ليستطيع ردّ الفروع على الأصول واستنباط الفروع من الأصول، وهذه الصفة لا توجد إلا في المجتهدين المبرزين.

٢. ويقول عليه السلام في بيان الصفة الثانية:

«وَلَا تُمَحِّكُهُ [٦٦٦] الْخُصُومُ».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٨٩

يعنى أن يملك من سعة الصدر بحيث لو تنازع المتخاصمين في مجلسه وارتفعت أصواتهم فلا يشيره ذلك ولا يخرج عن حد الاعتدال، بل يصدر الحكم الإلهي العادل في حقهما مهما كانا وشرسين وعدمى الإدم.

٣. ويقول الإمام عليه السلام في بيان الصفة الثالثة للقضاة الموثوقين واللائقين:

«وَلَا يَتَمَادَى [٦٦٧] فِي الزَّلَّةِ».

ومعلوم أن الشخص اللجوج والمعاند عندما يرتكب خطأ ويلتفت إلى هذا الخطأ لا يجد في نفسه استعداداً للاعتراف بهذا الخطأ وتغيير مساره والعودة إلى الصراط المستقيم، وهذا بدوره يتسبب في أن يصدر أحكاماً جائرة وغير واقعية، وهو من الظلم المتعمد وغير القابل للمغفرة.

ويتحدث القرآن الكريم عن جماعة من الكفار: «وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» [٦٦٨].

وكثيراً من يؤثر العناد والتعصب في فكر الإنسان إلى درجة أنه يرى الباطل حقاً والحق باطلاً، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«اللَّجَّاجُ يُفْسِدُ الرَّأْيَ» [٦٦٩]

ويقول في مورد آخر:

«اللَّجَّاجُ أَكْثَرُ الْأَشْيَاءِ مَضَرَّةً فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ» [٦٧٠].

٤. ويقول عليه السلام في بيان الصفة الرابعة:

«وَلَا يَخْصِرُ [٦٧١] مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ».

وهذه الصفة في الحقيقة وجه آخر لعدم العناد واللجاج، وبعبارة أخرى هي نتيجة لها، فالإنسان إذا لم يتحرك في خط اللجاج والعناد وتبين له الحق في المسألة فإنه

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٩٠

سيعود إليه بكل سهولة ويصلح جميع تداعيات الخطأ الذي اقترفه، وبعبارة أخرى هو الشخص الذي يملك الشجاعة للاعتراف بخطئه وإصلاح هذا الخطأ والاشتباه، ومثل هذه الشجاعة تعتبر من أهم أغصان الفضيلة الإنسانية.

٥. قوله عليه السلام:

«وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ».

وبديهي أن القاضى إذا كان يعيش حالات الطمع، حتى فى أدنى مستوياته فبالإمكان إغوائه بسهولة عن طريق تقديم الرشوة وبالتالي منعه من إصدار الحكم بما يتفق مع الحق فى الحكم.

ونقرأ فى حديث شريف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:
«رَأْسُ الْوَرَعِ تَزُكُّ الطَّمَعِ» [٦٧٢].

ونقرأ أيضاً فى الكلمات القصار لأمير المؤمنين عليه السلام:
«أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ» [٦٧٣].

وبيان آخر، مع الالتفات إلى أن الإشراف يعنى النظر إلى الشئ من جهة العلو فهذا الكلام من الإمام عليه السلام يشير إلى أن الإنسان الطامع من شأنه أن يسقط من ذروة الفضيلة إلى هوة الرذيلة.

٦. قوله عليه السلام:

«وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَفْصَاهُ».

وهذه إشارة إلى أن القاضى ينبغى، فى مجال فهم المسائل، أن يملك من سعة الصدر بحيث يحيط بجميع جوانب المسألة، سواء فى الشبهات الحكمية أم فى الشبهات الموضوعية، ويحقق فى شروط المتخصصين الذين حضرا عنده فى القضاء والحكم بينهما، ثم بعد ذلك يصدر حكمه من موقع الوضوح فى الرؤية.

٧. يقول عليه السلام:

«وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ».

ونعلم، كما ورد فى الحديث النبوى المعروف، أن الأمور على ثلاثة أنحاء: فمنها ما يكون الحق فيها جلياً، والآخر ما يكون الباطل فيها جلياً، ولكن القسم الثالث هو

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٩١

الشبهات، يعنى الأمور التى لا يتسنى للإنسان الاحاطة بها بسهولة، ففى مثل هذه الموارد يجب أخذ جانب الاحتياط، والشخص الذى يتحرك فى وادى الشبهات فسوق يقوده ذلك إلى دورب المحرمات والغرق فى المتاهات، والشخص الذى يجتنب الشبهات فإنه يترك المحرمات الواقعية بشكل أفضل ويجتنبها.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله:

«حَلَمَالٌ بَيْنَ وَحَرَامٍ بَيْنَ وَشُبُهَاتٍ بَيْنَ ذَلِكَ فَمَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ نَجَا مِنَ الْمُحْرَمَاتِ وَمَنْ أَخَذَ بِالشُّبُهَاتِ ارْتَكَبَ الْمُحْرَمَاتِ وَهَلَكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ» [٦٧٤].

وهذا الكلام لا- يعنى أن القاضى يمتنع من إصدار الحكم لأنّ وظيفته الشرعية فصل الخصومة وانهاء النزاع، بل المراد أن يتوقف ويحتاط ويدرس جميع جوانب المسألة ويزيل ظلمة الشبهات بنور العلم والمعرفة، وأحياناً يقوم بمصالحة طرفى النزاع فيما تدعوه مواقف الاحتياط.

٨. يقول عليه السلام:

«وَأَخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ».

إن أهم عمل القاضى التحقيق فى أدلة الطرفين، فإخذ بالأدلة القوية والمقبولة، ويمتنع عن قبول الأدلة الضعيفة والمهزوزة.

ويحتمل أيضاً أن مراده من هذه الجملة أن القاضى يجب أن يتحرك أكثر من أى شخص آخر فى البحث عن الدليل، بمعنى أنه أحياناً لا يوجد أى دليل حسب الظاهر فى المسألة مورد الخصومة ليبيّن الحق فى المسألة، ولكن القاضى يستطيع ومن خلال البحث والتدقيق فى زوايا القضية، أن يعثر على أدلة قوية لكشف الحق من الباطل، كما هو الحال فى الكثير من قضاء أمير المؤمنين عليه

السلام، إذ أن الإمام عليه السلام ومن خلال استخدام أساليب نفسية يستطيع إما في أخذ الاعتراف والإقرار من المجرم، وإما أن يتوفر له العلم من مجمل القرائن والشواهد المتوفرة، مثلاً في قضية اختلاف امرأتين على طفل واحد، وإصرار كل واحدة منهما على أن هذا الطفل هو ابنها،

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٩٢

فحسب القاعدة يجب على القاضى فى هذا المورد اللجوء إلى القرعة للفصل بينهما، ولكن الإمام عليه السلام تحرك على مستوى البحث عن الأدلة، فأمر بأن يأتوا له بالسيف وقال: سوف أشق هذا الولد إلى نصفين، فكل واحدة منكما تأخذ نصفاً من هذا الطفل، فصاحت الام الحقيقية بأنى تنازلت عن حقى فادفعوا هذا الطفل إلى المرأة الاخرى، فعرف الإمام عليه السلام بهذه الطريقة المدعى الحقيقي من الكاذب، وهناك الكثير من هذه الأمثلة فى قضايا أمير المؤمنين عليه السلام وقضائه [٦٧٥].

٩. وقوله عليه السلام:

«وَأَقْلَهُمْ تَبْرُماً [٦٧٦] بِمَرَاَجَعِهِ الْخُصْمِ».

فى الكثير من الحالات يكون لكل واحد من الطرفين المتخاصمين أدلة وشواهد عديدة ويطحها بالتالى على القاضى مما يسبب له إزعاجاً وإرهاقاً، وإذا كان القاضى ضيق الصدر وسريع الانفعال فسيقوم بطردهما، وما أكثر الأدلة الواقعية التى تبقى طى الكتمان بهذا العمل، ولكن إذا كان يملك سعة الصدر ولا ينفعل بسهولة فإنه يستطيع إعادة الحق إلى أهله.

يجب على القاضى أن يمنح طرفى النزاع مقداراً كافياً من الوقت ليبيّن له ما أمكنهما من الشواهد والأدلة لإثبات الدعوى.

نفحات الولاية؛ ج ١٠؛ ص ٣٩٢

. وقوله عليه السلام:

«وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشُفِ الْأُمُورِ».

وبديهى أن القاضى لو كان عجولاً ومتسرعاً فسوف لا تتضح لديه حقيقة الأمر وبخاصة فى الدعاوى المعقدة، ولكن إذا كان يتحلّى بالصبر والتريث ولا يصدر حكمه النهائى بسرعة، فإنه يستطيع بشكل أفضل أن يكشف الستار عن وجه الحق فى المسألة، وهذا الكلام لا يعنى أن الملفات القضائية، كما هو الحال فى زماننا، يتم تأخيرها إلى أيام وشهور عديدة بحجة التحقيق فى الملف، وأحياناً يتأخر الحكم

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٩٣

فى قضية معينة لسنوات عديدة، وخاصة إذا قام المحامون بوضع العصى لإعاقة عجلة الحكم، فأحياناً وبذريعة بسيطة يتم تأخير إصدار الحكم فى القضية فى الحكم.

١١. قوله عليه السلام:

«وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّصَاحِ الْحُكْمِ».

وهذه إشارة إلى أن الاحتياط الذى يمارسه القاضى والصبر فى مقابل بيان حجج الطرفين والتحقيق فى الأدلة لا يعنى أنه سيتدرد فى مقام إنشاء الحكم وبيتلى بالوساوس ويوكل إنشاء الحكم إلى غدٍ وبعد غد، بل ينبغى أن يكون كالسيف الصارم فى الحزم وفصل الخصومة بإنشاء الحكم القاطع ولا يفكر بتداعياته وآثاره فيما بعد، لأن إنشاء الحكم عادة يقع بنفع أحد الطرفين ويؤدى بالتالى إلى امتعاض الطرف الآخر وعدم رضاه وسيلجأ للمحامين والأصدقاء وأحياناً للقبيلة والطائفة لفرض رأيه على القاضى، وهذه المسألة من اللوازم الطبيعية للقضاء، ومن يفكر فى هذه الأمور ويتحرك على مستوى الاحتياط فى إصدار الحكم لا ينبغى أن يجلس على كرسى القضاء.

١٢. وفي آخر صفة من الصفات القاضى اللاتق يقول الإمام عليه السلام:

«مِمَّنْ لَا يَزِدُّهُ ٦٧٨ [إِطْرَاءُ] ٦٧٩ [وَلَا يَسْتَمِيلُهُ] ٦٨٠ [إِعْرَاءُ] ٦٨١».

وغير خفى عن البيان أنّ الأشخاص المغرورين والمعجبين بأنفسهم عندما يسمعون عبارات المدح والثناء والتمجيد من قبل البعض تجاههم، فربّما ينحرفون عن مسير الحقّ ويؤثر حبّ الذات في ميلهم إلى جهة المداحين، وبسبب هذه العلاقة النفسية يحكم هذا القاضى بما يصبّ في نفع هذا الشخص ظلماً وعدواناً، وهنا يؤكّد

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٩٤

الإمام عليه السلام أنّ مثل هؤلاء الأشخاص ليسوا جديرين بمنصب القضاء بين المسلمين حتى لو توفرت فيهم الصفات الأخرى ثمّ إنّ الإمام عليه السلام بعد أن ذكر هذه الصفات الإثني عشر، التي كلّ واحدة منها أهم من الأخرى يتوجه نحو القضاء الذين يستطيعون، عند مواجهه أعقد المسائل وأصعب الملفات، من تشخيص الحقّ من الباطل بكل شجاعة وفطنة ويحكمون وفق ما توفر لديهم من أدلّة وشواهد ويعيد الحقّ إلى صاحبه حتى لو كان من أضعف الأفراد في المجتمع، وكان مخالفه من أقوى الأفراد، وطبعاً كما قال الإمام عليه السلام في نهاية حديثه عن هذه الصفات:

«وَأَوْلَيْكَ قَلِيلٌ».

ولكن المهم للوالى أن يدرس جميع جوانب المسألة بصبر وأناة وللعثور على هذا القليل ممّن تتوفر فيهم هذه الشروط من بين المرشحين لهذا المنصب ووضعه على كرسى القضاء بين المسلمين.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام خصوصيات وصفات القاضى اللاتق، تحدّث عن وظائف الوالى فى مقابل هؤلاء القضاء ويأمره بثلاثة أوامر مهمّة جداً.

بداية يقول عليه السلام:

«ثُمَّ أَكْثَرُ تَعَاهُدَ [٦٨٢] قَضَائِهِ»

، وهذه إشارة أنّه مهما كان هؤلاء القضاء واجدين لهذه الصفات ومورد الاعتماد، فمع ذلك وبما أنّ مسألة القضاء مهمّة جداً وربّما يبتلى القاضى بالخطأ والزيف أو الانحراف، فمن الضروري أن ترسل بعض المفتشين ليحققوا فى الأحكام القضائية الصادرة عنهم، أو تتولى هذه المسألة بنفسه وتحقق عن كذب فى بعض الأحكام القضائية لهم، ومثل هذا العمل يمنح القاضى قوّة فى التزامه الواعى بقيم العدالة.

طبعاً فإنّ هذا الكلام لا يعنى وجود مسألة الاستئناف والتمييز فى نظام القضاء الإسلامى بل بمعنى أنّ الوالى لو عثر على خطأ مسلّم فى الحكم وجب عليه ابطاله وتجرى إعادة التحقيق مرّة أخرى.

نقحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٩٥

وفى التوصية الثانية يقول عليه السلام:

«وَأَفْسَحْ لَهُ فِى الْبَدْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلْ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ».

وهذه إشارة إلى أنّ أحد عوامل الفساد فى السلطة القضائية، قلّة الحقوق المائيّة للقضاة والموظفين فى الجهاز القضائى، فينبغى أن يضع الوالى لهم مخصصات ورواتب شهرية كبيرة ليتنسى لهم العيش بشكل معقول وشريف ولا يفكروا بعد ذلك بقبول الرشوة.

يقال إنّ فى بعض البلدان فى هذا العصر يصدرون صكاً أيضاً ويسلموه للقضاة ليكتبوا فيه أى رقم يريدونه لتمرير المسألة لصالحهم.

وهذا الكلام، سواء كان صحيحاً أو مبالغ فيه أو كان كاذباً يعكس لنا هذه الحقيقة، وهى أنّ القاضى يجب أن يكون له نصيب من بيت المال يتناسب مع حياته ومعيشته.

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام بالنسبة لمسألة تأمين الحقوق المائيّة لضمان معيشة محترمة، سواء بالنسبة للقضاة أم بالنسبة لقادة

الجيش كما تقدّم سابقاً، يبرز الإمام عليه السلام حساسيةً شديدةً تجاه هذه المسألة، فصحيح أن جميع الموظفين والمسؤولين وحتى أفراد الجهاز القضائي وأفراد الجيش الإسلامي يجب أن تتوفر لهم معيشة كافية، ولكن تأكيد الإمام عليه السلام على هاتين الفتنتين بالخصوص يشير إلى لزوم الاهتمام أكثر بأعمال هاتين الفتنتين من أجل حفظ الحدود والثغور وكذلك من أجل حفظ حقوق الناس. ثم يتطرق الإمام عليه السلام للتوصية الثالثة ويقول:

«وَأَعْطَهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ لِئَامَنْ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ [٦٨٣] الرَّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ».

وهذه النقطة مهمّة، وهي أن القاضى يجب أن يعيش الحرية الكاملة في إنشاء الحكم العادل ولا ينبغي أن يخضع تحت أية ضغوط اجتماعية وفتوية، وهذا لا يتسنى إلا إذا كان القاضى أقرب الناس إلى الوالى والقائد، لأنه لو كان هناك أفراد نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٩٦

أقرب منه إلى الوالى، فسوف لا يشعر القاضى بالأمن من حكمه وقضائه، فربما يتوجه الخصم إلى حاشية السلطان ويسعى فى تشويه سمعة القاضى لديه فيضطر القاضى إلى إصدار حكمه وفقاً لما يريده الخصم، وبعبارة أخرى يجب أن يكون القضاء مصونين من كل جهة ليحفظوا لهم استقلالهم القضائى.

وبعد هذه التوصيات الثلاث يقول الإمام عليه السلام مؤكداً:

«فَانظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا بَلِيغًا».

وكلمة

«ذَلِكَ»

ربما تشير إلى التوصية الأخيرة أو إلى التوصيات الثلاث بل حتى إلى الصفات الاثني عشر للقاضى، بمعنى ينبغي أن تنظر بدقة فى اختيار القضاء وكذلك فى التحقيق فى أعمالهم ورفع حاجاتهم وضمان حريتهم فى ممارسة دورهم القضائى.

وفى نهايه هذا المقطع من الكلام يتجه الإمام عليه السلام لذكر الدليل على كل هذه التأكيدات التى سبق ذكرها، ويقول:

«فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أُسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتُطَلَّبُ بِهِ الدُّنْيَا».

ومعلوم أن هذا الكلام يشير إلى زمان الخليفة الثالث عثمان حيث أمسك بعض الأفراد الفاسدين والمفسدين من بنى امية وبنى مروان زمام السلطة والقدرة ونهبوا أموال بيت المال ولم تكن مسألة حفظ الإسلام والرسالة الإلهية مطروحة فى قاموسهم.

أمّا أن الفساد الإدارى والمالى فى زمن عثمان قد امتد بشكل واسع فى تفاصيل وأبعاد الحكومة فلا يشك أحد من المؤرخين فى ذلك، غاية الأمر أن بعض علماء أهل السنة ومن أجل حفظ مكانة عثمان قالوا: كان رجلاً ضعيفاً لم يتمكن من السيطرة على هذه الجماعة الشريرة وبالتالي فلت زمام الأمور من يديه وتولى رجال بنى امية الحكم، ومن هنا فهو معذور!! وأما الكلام فى معقولية مثل هذا العذر، فهى مسألة أخرى.

وقد أشار الإمام عليه السلام فى الخطبة الشقشقية إلى هذه المسألة حيث قال:

«وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَعُونَ مَالَ اللَّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نَبْتَةَ الرَّبِيعِ».

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٩٧

ملاحظة: قمنا بتقسيم عهد مالك الأشتر رحمه الله التاريخى إلى ثلاثين مقطعاً، تحدّثنا عن ١٥ مقطعاً منها فى الجزء العاشر، وسيأتى الكلام عن ١٥ مقطع آخر فى الجزء الحادى عشر، وذلك لحفظ التعادل فى صفحات الكتاب.

ولا يسعنى فى هنا إلا أن نذكر صديقنا العزيز المرحوم حجة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ محمد جعفر الإمامى الذى واكبنا إلى آخر لحظة ثم وافاه الأجل ولبى دعوة الحق وانتقل إلى رحمة الله الواسعة، وكذلك الصديق الوفى المرحوم حجة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ إبراهيم البهادرى حيث انتقل إلى رحمة قبل فترة وجيزة، وكان المرحومين من المخلصين والمتقين والمؤمنين وباحثين

ومحققين جادين في عملهما وعالمين عاملين، فبقيت ذكرياتهم في خواطرننا ولا- ننساهم إن شاء الله، ونسأل الله الغفور الرحيم أن يجعلهما في غريق رحمته الواسعة.

اللهم! لك الحمد ولك الشكر على هذه النعمة العظيمة أن وفقتنا لإكمال هذا المشروع المبارك وإدامة شرح نهج البلاغة حتى أتممنا الجزء العاشر منه ببركة مولى الموحدين- عليه آلاف التحية والثناء- وقريباً سنقدم للقرآء الأعزاء الجزء الحادى عشر منه، والذي به ينتهى قسم الكتب والرسائل فى نهج البلاغة، وفى القريب العاجل سنقدم للطبع الأجزاء الخاصّة بشرح وتفسير الكلمات القصار للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبذلك يكتمل هذا الشرح الجامع فى أربعة عشر جزءاً (

بحول الله وقوته وبمئنه وكرمه

.) نهاية الجزء العاشر

ربيع الأول ١٤٣١ هـ - ٢٠٠٩ م

[١] (١). سند الرسالة:

لم ينقل فى مصادر نهج البلاغة سند خاص لهذه الرسالة سوى ما ذكره ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة فى مقدمة هذه الرسالة وصرّح فى ختامها أنّ ما ذكر السيد الرضى فى نهج البلاغة يمثّل مقطعاً من رسالة الإمام على عليه السلام والتي ذكرها أبو الحسن على بن محمّد المدائنى بكاملها، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر غير نهج البلاغة لدى ابن أبى الحديد حيث نقل عنه عبارات اخرى لهذه الرسالة (على بن محمّد المدائنى من مؤرخى فى القرن الثالث الهجرى وتوفى فى سنة ٢٢٥، وقد ورد فى بعض العبارات أنّ الطبرى والبلاذرى نقلوا عنه فى كتبهم التاريخيّة، وقيل إنّ اسم الكتاب فتوحات الإسلام، طبقاً لنقل ربحانة الأدب ونقلًا عن دائرة المعارف دهخدا (بالفارسيّة)، مادة مدائنى).

[٢] (١). «أرديت» من مادة «إرداء» بمعنى إهلاك.

[٣] (٢). «جيل» الجماعة والصنف والنسل.

[٤] (٣). «جاوزوا» من مادة «جواز» وتعنى العبور والعدول.

[٥] (٤). «نكصوا» من مادة «نكوص»، بمعنى العودة والرجوع.

[٦] (٥). «عولوا» من مادة «تعويل» وهى الاعتماد والاتكال.

[٧] (٦). «أحساب» جمع «حسب» على وزن «نَسَب» تأتي أحياناً بمعنى الفضائل التى تنسب للأبء والأجداد ويفتخر بها الإنسان، وأحياناً أخرى تعنى الصفات البارزة والملكات المشهودة للإنسان نفسه كالشجاعة والسخاء والعلم والمعرفة.

[٨] (١). «مؤازرة» من مادة «وزر» تعنى الحمل الثقيل، وإتّما سمى الوزير وزيراً لأنه يحمل مسؤوليّة ثقيلة على عهده، وموازرة تأتي أيضاً بمعنى المعاونة والمساعدة، لأنّ الإنسان عندما يعين الشخص الآخر فإنّما يحمل قسماً من عمله ومسؤوليته على عهده.

[٩] (١). انظر: شرح نهج البلاغة، للعلامة التستري، ج ١٠، ص ٢٦٩.

[١٠] (٢). «جاذب» صيغة أمر، يعنى مأخوذ من مادة «جذب» بمعنى جر الشىء إلى نفسه.

[١١] (٣). «قياد» بمعنى زمام، وأصلها من «قيادة» وهى الزعامة وتولى أمور الآخرين.

[١٢] (١). سورة الأنعام، الآية ٢٨.

[١٣] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٣٦.

[١٤] (١). سند الرسالة: ورد في مصادر نهج البلاغة أن ابن أبي الحديد وابن ميثم في شرحهما لنهج البلاغة ذكرا في شأن صدور هذه الرسالة: أن معاوية أرسل جماعة من أهل الشام بشكل خفي إلى مكة في موسم الحج لدعوة الناس للإنضمام إليه واطاعته والتمرد على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أو تقوية هذه الشبهة في الأذهان أن الإمام على عليه السلام هو قاتل عثمان أو على الأقل لم يمد له العون والنصرة في الموقع المناسب، وفي كلا الحالتين فإن علي بن أبي طالب لا يصلح لمقام الإمامة والخلافة، وكذلك يتحدثون عن كرم معاوية وسخائه وما إلى ذلك، وعندما وصل هذا الخبر إلى الإمام على عليه السلام كتب هذه الرسالة إلى واليه على مكة قثم بن عباس وحذره من هذه المؤامرة.

ثم إن صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة يستنتج مما تقدم أن ابن أبي الحديد وابن ميثم كانا يملكان مصدراً آخر غير نهج البلاغة) مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣١٩، ولكن لا يبعد أنهما أخذوا هذا الكلام من كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي المتوفى سنة ٣١٤، حيث أورد هذا الكلام فيما يتصل بهذه الرسالة (الفتوح، ج ٤، ص ٢٢٠-٢٢٢).

واللافت وجود سند آخر لهذه الرسالة في كتاب «الغارات» وهو كتاب الذي تم تأليفه في القرن الثالث وقبل ولادة السيد الرضى بسنوات، وهو يختلف عما أورده السيد الرضى، ولكن أساس كلا الرسالتين واحد (الغارات، ج ٢، ص ٥٠٩).

[١٥] (١). «عين» أصلها في اللغة العضو المبصر في الوجه، ولكن بما أن عناصر الاستخبارات في الحكومة بمثابة العين لرئيس الحكومة فاطلقت هذه الكلمة عليهم.

[١٦] (١). «المغرب»: في هذه العبارة تعني الشام لأنها تقع شمال غرب العراق.

[١٧] (٢). «المؤسس» من مادة «وَسَمَ» على وزن «رسم» في الأصل تعني جعل علامة، ثم اطلقت على محل الاجتماع أو زمان الاجتماع، لأن ذلك المحل أو الوقت علامة على ذلك التجمع، وتطلق هذه الكلمة ولا سيما في الفقه على أيام الحج.

[١٨] (٣). «العمى»، جمع «أعمى» .

[١٩] (٤). «الصم»، جمع «أصم».

[٢٠] (٥). «الكمه»، جمع «أكمه».

[٢١] (٦). سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

[٢٢] (٧). «يلبسون» من مادة «لَبَسَ» على وزن «حَبَسَ» وهو التشويش وخلط الأمور، و«لَبَسَ» على وزن «خُمَسَ» تعني اللباس والملبس.

[٢٣] (١). «يَحْتَلِبُونَ» من مادة «حَلَبَ» على وزن «حَمَدَ» بمعنى اخراج اللبن من الضرع.

[٢٤] (٢). «دَرَّ» بمعنى اللبن أو اللبن الكثير، وبمعناها المصدرى تعني هطول المطر أو السوائل الأخرى

[٢٥] (٣). سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.

[٢٦] (١). «الصَّليب» من مادة «صَلَبَ» على وزن «صَبَحَ» الشدة والصلابة في كل شيء، وإنما يقال للصليب «صليب» لأنه يستخدم في صنعه أخشاب صلبة لتعليق المصلوب.

[٢٧] (٢). «اللَّيب» هو صاحب العقل والفهم، وأصلها من «لُب» وتعني الدماغ والمخ.

[٢٨] (٣). «بَطَّرَ» هو الشخص الغارق في النعمة، وأصلها من «بَطَّرَ» على وزن «نَظَرَ».

[٢٩] (٤). «فَيْشَلَّ» وهو الشخص الكسول والضعيف وأصلها من «فشل» على وزن «نظر» يعني الضعف والاستكانة أو الضعف المقترن بالخوف.

[٣٠] (١). مكاتيب الأئمة، الاستيعاب، اسد الغابة، ولغة نامه دهخدا (بالفارسية).

[٣١] (١). سند الرسالة: نقل هذه الرسالة قبل السيد الرضى أبو الحسن المدائنى، والظاهر أنه نقلها من كتاب فتوحات الإسلام، وإبراهيم بن الثقفى فى كتاب «الغارات»، والطبرى فى تاريخه فى حوادث سنة ٣٨، والبلاذرى فى شرح حال الإمام على عليه السلام فى كتابه «أسباب الأشراف» (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٢٢).

[٣٢] (١). اقتبس من: مصادر نهج البلاغة وكتب أخرى.

[٣٣] (١). «مَوْجِدَةٌ» بمعنى الغضب والاستياء.

[٣٤] (٢). «تَسْرِيحٌ» ارسال الشخص لطلب شيء وأداء عمل معين، وتستعمل لكلّ تحرير وإزالة القيود، ومن هنا يطلق على الطلاق بأنه تسريح لأنّ الزوج يطلق ويسرح زوجته من قيود الزوجية.

[٣٥] (٣). «عَمَلٌ» فى هذا المورد تعنى الولاية والامارة، ولذلك يقال للوالى أنه «عامل»، فى الرسالة السابقة قرأنا أنها رسالة من الإمام على عليه السلام إلى قثم بن العباس «عامله على مكّة».

[٣٦] (٤). «اسْتَيْطَاءٌ» ضد الاسراع، أى تأخر فى سيره، بطيء من مادة «بطء» على وزن «كفر».

[٣٧] (١). انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٤٤.

[٣٨] (٢). «نَاقِمٌ» المنكر والمعترض، وإذا كان اعتراضه على مستوى العمل والممارسة فتعنى الانتقام من مادة «نَقَمَ» على وزن «قلم».

[٣٩] (٣). «حِمَامٌ» من مادة «حَمَمَ» على وزن «غَمَمَ» بمعنى الشىء المقدر، وبما أن الموت يعدّ تقديراً إلهياً على الإنسان فلذلك يطلق عليه الحمام.

[٤٠] (٤). «أُولَى» من مادة «ولاية» وتعنى الشخص الذى يكلف بعمل معين أو يوضع فى اختياره شىء، وهنا جاءت بالمعنى الثانى، يعنى أن الله تعالى يضع رضاه وجنته التى تعتبر نتيجة رضا الله تعالى فى اختيار مالك الأشر.

[٤١] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٤٤.

[٤٢] (٢). «أَضْحَرَ» فعل أمر من مادة «اصحار» وتعنى الخروج والظهور فى الصحراء.

[٤٣] (٣). «شَمَّرٌ» من مادة «تشمير»، وأصل شَمَّر على زون «تمر» وتعنى الجمع وحسب المنتج والاستعداد لعمل معين.

[٤٤] (١). «يُنزَلُ» بصيغة فعل المضارع من باب «إفعال» وفاعلها الله تعالى، ولكن فى هذا المورد لا يتناسب هذا المعنى، ولذلك وردت هذه الجملة فى الكثير من نسخ نهج البلاغة بصيغة «نزل» وبصيغة الفعل الماضى بدون الإسناد الى الله، ولكن بعض الكتاب ذكرها بصيغة الفعل المضارع من الثلاثى المجزّد، أى «ينزل» بفتح الياء لا من باب الإفعال بضم الياء.

[٤٥] (١). انظر: نقحات الولاية، ج ٣، ص ٧٦.

[٤٦] (١). سند الرسالة: من جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيد الرضى، الطبرى فى تاريخه بتفاوت يسير فى حوادث سنة ٣٨، وكذلك إبراهيم بن هلال الثقفى فى كتابه «الغارات» (نقلًا عن مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٢٦).

[٤٧] (١). «نَحْتَسِبُ» من مادة «احتساب» و«حسبة» بمعنى استلام الأجر، وعليه فإن «إحتساب» تأتي بمعنى طلب الأجر، رغم أن «إحتساب» فى الأصل تعنى كلّ عمل يعمله الإنسان بنية التقرب إلى الله تعالى ويجعله فى حسابه فى الآخرة، ومعناه بالملازمة طلب الأجر من الله تعالى (لمزيد من الاطلاع راجع كتاب مقاييس اللغة ولسان العرب).

[٤٨] (١). «وَلَدًا» ذكر البعض أن ولدًا منصوب بوصفه عطف بيان، والبعض الآخر ذهب إلى أنه بدل من ضمير المفعول فى «نحتسبه»، ولكن لا يمكن أن يكون مفعولًا ثانيًا لنحتسب، لأن معنى الجملة سيتبدل.

[٤٩] (٢). «كَادِحٌ»، وهو الشخص الذى يبذل الكثير من الجهد والسعى، وأصلها من «كدح» على وزن «مدح» بمعنى السعى الحثيث والعمل الجاد.

[٥٠] (٣). وَاُمُّ مُحَمَّدٍ أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمِيْسِ الْخَثْعَمِيَّةِ وَهِيَ اِخْتٌ مِيْمُونَةُ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَأُخْتُ لِبَابَةِ امِّ الْفَضْلِ وَعَبْدُ اللهِ

زوج العباس بن عبدالمطلب، وكانت من المهاجرات الى أرض الحبشة، وهي إذ ذاك تحت جعفر بن أبي طالب فولدت له هناك محمد بن جعفر، عبدالله، عوناً، ثم هاجرت المدينة، فلما قتل جعفر تزوجها أبوبكر، فولدت له محمد بن أبي بكر هذا، ثم مات أبوبكر فتزوجها الإمام علي عليه السلام وولدت له يحيى بن علي ولا خلاف في ذلك. (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٤٢).

[٥١] (٤). «حَثَّتْ» بمعنى التشويق والإثارة.

[٥٢] (٥). «الْوَقْعَةُ»، الحادثة، وأحياناً تأتي بمعنى وقوع الحرب والقتال، وهنا قصد منها المعنى الثاني.

[٥٣] (٦). «عَوْدًا» و«بِدًا» تعني كما ورد في بعض كتب اللغة أولًا وآخرًا، وفي بعضها بمعنى تكرار الشيء، وهنا يحتمل فيها كلا المعنيين.

[٥٤] (١). «الْمُعْتَل» تعني المريض، وأحياناً تعني الشخص الذي يعتذر لفعله ويأتي بمبررات لتسويغ فعله.

[٥٥] (٢). «حَاذِل» وهو الشخص الذي يمتنع من مد يد العون إلى الآخر وبالتالي يؤدي إلى ذلة ومهانة الطرف المقابل.

[٥٦] (١). تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٨١-٨٣.

[٥٧] (٢). سورة الأنفال، الآية ٦.

[٥٨] (٣). سورة الأحزاب، الآية ١٣.

[٥٩] (١). سورة التوبة، الآية ٨١.

[٦٠] (٢). «تَوَطَّيْن» تعني تهيئة الشيء، وأصلها من «وطن» على وزن «بطن» وتعني اختيار الوطن، وبما أن كل إنسان عندما يختار محلًا للسكن فإنما يهيئ نفسه للحياة في ذلك المكان، فالتوطن يعني التهيؤ.

[٦١] (١). خلف الأحمر من علماء القرن الثاني للهجرة وهو صاحب اليد الطولى في الشعر والأدب والتاريخ.

[٦٢] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٤٥ و ١٤٦ (مع التلخيص).

[٦٣] (١). سند الرسالة: جاء في مصادر نهج البلاغة أن هذه الرسالة نقلها قبل السيد الرضى، إبراهيم بن الثقفى في كتابه «الغارات»، وأبو الفرج الاصفهاني في كتاب «الأغانى» وابن قتيبة الدينورى في كتاب «الإمامة والسياسة». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٣٢). وتقدم شرح أكثر عن سند هذه الرسالة فيما يتصل بالخطبة ٢٩ للإمام علي عليه السلام في الجزء الثاني من هذا الكتاب (نفحات الولاية، ج ٢، ص ١٣٥).

[٦٤] (١). مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٢٩ و ٣٣٠.

[٦٥] (١). «سَرَّح» من مادة «تسريح»، وكما تقدم في شرح الرسالة ٣٤ أنها تعني ارسال شخص لعمل معين، وتستعمل أيضاً بمعنى مطلق الارسال والتحرير.

[٦٦] (٢). «كَثِيف»، يعنى الغليظ والكثير الملتف، وأصلها من «كثافه».

[٦٧] (٣). «نَكَّصَ»، من مادة «نكص» على وزن «مكث»، والنكوص يعنى التراجع والعودة.

[٦٨] (١). «جَرِيض» هو شخص المختنق من شدة الحزن أو الهيجان.

[٦٩] (٢). «الْمُخَنَّق» هو محل الخنق، من مادة «خنق» على وزن «حرب» وهو الضغط على المخنق أو ضغط رقبة الشخص.

[٧٠] (١). الغارات، ج ٢، ص ٤٣٩.

[٧١] (٢). «تَزَكَّاض» هو الركض الشديد، من مادة «ركض» على وزن «ضرب»، والتركاظ صيغة مبالغة للركض.

[٧٢] (٣). تجوال، بمعنى كثرة الجولان والتراكض في الميدان.

[٧٣] (٤). الشقاق، بمعنى العداوة والمخالفة والانفصال.

- [٧٤] (٥). «الجماح» بمعنى التمرد، و«جموح» على وزن «قبول» وأصله بمعنى الحيوان المتمرد والمنفلت، ثم استعملت فى الإنسان المتمرد والحوادث التى ليست باختيار الإنسان وإرادته إطلاقاً.
- [٧٥] (١). مجمع الزوائد، الهيشمى، ج ٩، ص ١١٨؛ كنز العمال، ج ١٣، ص ١٧٦، ح ٣٦٥٢٣.
- [٧٦] (١). «المُحْلِيْنَ» جاء فى صحاح اللغة أن «المحل» يقال للشخص الذى ينقض عهده وينكث بيعته ويخرج من إطاره.
- [٧٧] (١). سورة الزمر، الآية ٣٦.
- [٧٨] (٢). سورة المائدة، الآية ٤٤.
- [٧٩] (٣). «ضِيم» بمعنى الظلم والجور ويأتى مصدره على هذا الوزن أيضاً، ويعنى ايقاع الظلم على الآخر وقهره والتغلب عليه.
- [٨٠] (٤). «سَلِسٌ» المطيع والمنقاد، وأحياناً تأتى بمعنى السهل واليسير.
- [٨١] (٥). «وَطِيءٌ» صفة مشبهة بمعنى اللين والملائم.
- [٨٢] (١). «رَيْبٌ» تأتى أحياناً بمعنى الشك وأخرى بمعنى الحوادث المشكلة والتحديات الصعبة.
- [٨٣] (٢). «صَلِيبٌ» تعنى المحكم والشديد، وأصلها من «صلب».
- [٨٤] (٣). «كَآبَةٌ»، تعنى الحزن والغم والانكسار الناشء منه.
- [٨٥] (٤). «يَشْمَتٌ» من مادة «شماة» وهى فرح العدو.
- [٨٦] (٥). «عَادٌ» يعنى العدو، من مادة «عداوة».
- [٨٧] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٥٢.
- [٨٨] (٢). شرح نهج البلاغة، للعلامة التستري، ج ٧، ص ٥٠٢.
- [٨٩] (١). سند الرسالة: لهذه الرسالة مطلع حذفه السيد الرضى طبقاً لمنهجه فى الانتقاء، وقد اقتصر على ذكر ذيل هذه الرسالة، وقد نقل المرحوم ابن ميثم وابن أبى الحديد صدر هذه الرسالة كما سنشير إلى ذلك لاحقاً، وهذا يشير إلى أنهما عثرا على مدرك ومصدر غير نهج البلاغة ذكر فيه صدر الرسالة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٣٢).
- [٩٠] (١). تمام نهج لبلاغه، ص ٨٣٨؛ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٥٣.
- [٩١] (١). «أَطْرَاحٌ» من مادة «طرح» يعنى إلقاءه بعيداً.
- [٩٢] (١). سورة الأحزاب، الآية ٧٢.
- [٩٣] (٢). سورة آل عمران، الآية ٣٢.
- [٩٤] (١). سورة يس، الآية ٦٠.
- [٩٥] (٢). «الْحِجَابُ» يعنى المجادلة للتغلب على الطرف المقابل.
- [٩٦] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٥٤.
- [٩٧] (١). فى ظلال نهج البلاغة، ج ٣، ص ٥٤٩.
- [٩٨] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٥٤.
- [٩٩] (٢). صفين، ص ٧٦.

[١٠٠] (١). سند الرسالة: نقل هذه الرسالة جماعة من المؤرخين والعلماء عاشوا قبل السيد الرضى، فى كتبهم، منهم: الطبرى فى تاريخه المعروف فى حوادث سنة ٣٨ للهجرة، والشيخ المفيد فى كتابيه الاختصاص والأمالى، وابن الهلال الثقفى فى موردين من كتاب «الغارات»، وفى المورد الأول نقلها عن صعصعة بن سوحان وفى المورد الثانى عن المدائنى عن أحد غلمان مالك الأشتر، قال: عندما توفى مالك الأشتر (فى طريقه إلى مصر بسبب السم) رأوا رسالة مشدودة إلى رجليه وهذه الرسالة من الإمام أمير المؤمنين عليه

السلام إلى أهالي مصر (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٣٦).

[١٠١] (١) «شِيرَادِق» أصلها فارسية بمعنى الخيم التي تتخذ لتشكيل المجالس المختلفة وأحياناً تنصب في باحة الدار، وأخرى بشكل مستقل.

[١٠٢] (٢) «الظَّاعِن» هو المنتقل من محل لآخر، من مادة «ذعن» على وزن «طعن» وهو الانتقال.

[١٠٣] (١) انظر: سيرة ابن هشام، والاستيعاب، ابن عبد البر.

[١٠٤] (١) لمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع راجع هذا الكتاب (نقحات الولاية الجزء الثاني استناد لما ورد في تاريخ الطبري).

[١٠٥] (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٥٦.

[١٠٦] (٢) شرح نهج البلاغة، لابن ميثم وفي ظلال نهج البلاغة.

[١٠٧] (١) بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٩٤، ح ١٠.

[١٠٨] (٢) «لَا يَنْكُل» في الأصل من مادة «نكول» ويعنى التراجع عن خوف، وأحياناً تطلق على كل تراجع من أداء عمل معين.

[١٠٩] (٣) «الرَّوْع» الخوف والوحشة، وأحياناً تأتي بمعنى التخويف والترهيب.

[١١٠] (٤) «مَذْحِج» قبيلة في اليمن، ويعتبر مالك الأشتر من رؤساء تلك القبيلة ثم جاء إلى المدينة ومنها إلى الكوفة وأضحى من جملة شيعة أمير المؤمنين عليه السلام الخاصين وأتباعه المخلصين.

[١١١] (١) شرح نهج البلاغة للعلامة التستري، ج ٧، ص ٦٠٤.

[١١٢] (٢) كنز العمال، ج ٥، ص ٧٩٢، ح ١٤٤٠١.

[١١٣] (٣) «كَلِيل» هو الضعيف والعاجز، من مادة «كَلَّ» على وزن «حَلَّ».

[١١٤] (٤) «الظُّبَّة» حافة السيف والرمح والخنجر.

[١١٥] (٥) «نَابِي» هو السيف الكليل الذي لا يعمل، والكلمة في الأصل من «نوبة» على وزن «ضربة» وهو المكان المرتفع، وبما أن السيف الكليل لا يدخل في الموضوع ويقف في أعلاه فليل عنه «نابي».

[١١٦] (٦) «الضَّرْبِيَّة» بمعنى المضروب والمحل الذي وجهت له ضربة.

[١١٧] (١) انظر: الكامل، لأبن الأثير، ج ٢، ص ٣٥٨؛ اسد الغابة، ج ٤، ص ٢٧٧ في ترجمة حياة مالك بن نويرة.

[١١٨] (٢) «يُحْجِمُ» من مادة «احجام» و«حجم» على وزن «رجم» في الأصل بمعنى تكميم فم الحيوان، ثم اطلقت على كل منع وإعاقة لعمل معين.

[١١٩] (٣) «شَكِيمَةٌ» هي اللجام الذي يوضع في فم الدابة ويمنعها من أن تتحرك بما يخالف إرادة صاحبها، وفي الجملة أعلاه إشارة إلى أن مالك الأشتر يكبح جماح عدوكم ويمنعه من التحرك.

[١٢٠] (١) سند الرسالة: من جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة في كتبهم قبل السيد الرضي، نصر بن مزاحم في كتاب صفين مع تفاوت يسير، وطبعاً هذا الكلام ذكره ابن أبي الحديد، ولكن بعض المحققين الذين قرأوا كتاب نصر بن مزاحم قالوا: لا وجود لهذه الرسالة بهذه الصورة في نسخة كتاب نصر بن مزاحم الذي بين أيدينا (راجع شرح نهج البلاغة، للعلامة التستري، ج ٧، ص ٥١٤، والغدير، ج ٢، ص ١٣٠، ويضيف العلامة الأميني في الغدير أن ما بين أيدينا من كتاب نصر بن مزاحم يمثل مقطعاً خاصاً منه، وأصل الكتاب أكثر بكثير مما بين أيدينا وقد حذف الكثير منه عند طبعه)، ومن جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة بعد السيد الرضي في كتبهم ابن الجوزي الحنفي في كتاب «تذكرة الخواص» والطبرسي في «الاحتجاج». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٣٧).

[١٢١] (١) تمام نهج البلاغة، الرسالة ٤٦، ص ٨٢٦.

[١٢٢] (١) «مَهْتُوكٌ سِتْرُهُ» هو الشخص الذي شقَّ حجب الحياء لشدة استهانتة ودنائه، وأصلها من «هتك» يعنى الشق والتمزيق.

[١٢٣] (٢). «يَشِين» من مادة «شين» على وزن «عين» بمعنى يقبح.

[١٢٤] (٣). «الْحَلِيم» تعنى فى مثل هذه الموارد العاقل، من مادة «حلم» على وزن «ربع» وتعنى العقل.

[١٢٥] (٤). «بِخْلَطَتِهِ» من مادة «خلطه» بمعنى المعاشرة والاختلاط.

[١٢٦] (١). أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٦٢ (مع التخليص).

[١٢٧] (١). «الضَّرْغَام»، يعنى الأسد.

[١٢٨] (٢). «مَخَالِب» من مادة «مخلب» على وزن «منبر» أظافر الحيوان المفترس.

[١٢٩] (٣). «فَرِيْسَةٌ»، الصيد، من مادة «فرس» على وزن «فقط» بمعنى القتل.

[١٣٠] (٤). تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٢٢٢، وللمزيد من الاطلاع انظر شرح الخطبة ٨٤ من هذا الكتاب، ج ٣.

[١٣١] (١). شرح نهج البلاغة، لمحمد عبده، فى أول الرسالة المذكورة.

[١٣٢] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٦١.

[١٣٣] (١). سند الرسالة: ذكر هذه الرسالة العقد الفريد (ابن عبد ربه المتوفى، ٣٢٨ هـ) (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٥٥) والعجيب

أن الشارح المعروف ابن ميثم لم يذكر هذه الرسالة فى شرحه لنهج البلاغة.

[١٣٤] (١). أنساب الأشراف البلاذرى، ص ١٦٩؛ جواهر المطالب ابن الدمشقى، ج ٢، ص ٧٩.

[١٣٥] (١). «أُخْرِيَتْ» من مادة «خزى» على وزن «حزب» فى الأصل تعنى الإنكسار الروحى والخجل، الذى تصيب الإنسان إماً من

ناحية ذاتية وبشكل حياء مفطر، أو من ناحية أخرى يفرض على الإنسان من خارجه وهذه المفردة تارة تأتى بمعنى السقوط فى البلاء،

وأخرى الفضحية والخجل الناشئ منه.

[١٣٦] (١). سورة لقمان، الآية ١٦.

[١٣٧] (١). سند الرسالة: أورد ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦) مقاطع من هذه الرسالة فى كتاب عيون الأخبار، والبلاذرى (المتوفى ٢٧٩)

فى كتاب أنساب الأشراف، وابن عبد ربه (المتوفى ٣٢٨) فى العقد الفريد، وهؤلاء جميعاً عاشوا قبل السيد الرضى، ومن الأشخاص

الذين جاءوا بعد السيد الرضى وذكروا هذه الرسالة فى كتبهم، أحمد بن محمد بن الميدانى فى مجمع الأمثال، وسبط بن الجوزى فى

تذكرة الخواص.

يقول ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة: اتفق الرواة على أن هذه الرسالة من الإمام على عليه السلام وقد وردت فى أكثر الكتب

التاريخية. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٤٤).

[١٣٨] (١). «شِعَار» يطلق على الملابس الداخلية التى تلتصق بشعر بدن الإنسان، ومن هذه الجهة تطلق هذه الكلمة على صاحب السر

ومحرم الأسرار، فى مقابل «دثار» وتعنى اللباس الخارجى، ومفردة «شعار» لها معنى آخر وهو العلامة، وكذلك تطلق على الكلمات

والعبارات التى تشير إلى أهداف القوم والجماعة، وقد وردت فى الرسالة أعلاه بالمعنى الأول.

[١٣٩] (١). «بِطَانَةٌ» وتعنى أيضاً الملابس الداخلية، فى مقابل «ظهارة» وتعنى اللباس الخارجية، وكذلك تطلق كلمة بطانة على

أصحاب السر من الأصدقاء الموثوقين، ومراد الإمام عليه السلام من هذه المفردة المعنى الأخير.

[١٤٠] (٢). «مَوَازَرَةٌ» تعنى المعاونة من مادة «وزر» بمعنى الثقل، لأن الشخص الذى يساعد الآخر بأنه يحمل ثقله على ظهره، ومن هذه

الجهة اطلقت كلمة وزير على معاون الملك أو الزعيم.

[١٤١] (٣). «كَلِبٌ» فعل ماضى من مادة «كلب» على وزن «قلب» وفى الأصل تعنى الحصان بالمهميز. (المهميز شىء له نصل مدبب

يوضع إلى قطب الحصان فيستفاد منه الراكب لحث الفرس على السرعة) وكَلِبٌ تعنى هنا الشدة والصعوبة.

[١٤٢] (٤). «فَنَكَّتْ» فعل ماضى من مادة «فَنَكَّ» على وزن «قلب» وتعنى العدوان والتمرد واللجاجة.

- [١٤٣] (٥). «شَعَرَتْ» فعل ماضى من مادة «شَغْر» على وزن «صبر» وتعنى عدم الملجأ ما يدافع به.
- [١٤٤] (٦). «الْمَجْرَنُ» تعنى الدرع من مادة «جَن» على وزن «فن» وتعنى التغطية، لأنَّ الدرع يغطى الإنسان من ضربات العدو.
- [١٤٥] (١). «آسَيْتَ» من مادة «مُؤاساة» وتعنى المعاونة والمساعدة.
- [١٤٦] (٢). «غِرَّة» وتعنى الخدعة والإغفال.
- [١٤٧] (١). «كِرَّة» تعنى الهجوم.
- [١٤٨] (٢). «الْوَيْبَةُ» من مادة «وَيْب» على وزن «وصف» تعنى الانتصار، ثم استعملت بمعنى القفز للامساك بشيء.
- [١٤٩] (٣). «اِخْتِطَافٌ» تعنى أخذ الشيء بسرعة.
- [١٥٠] (٤). «الْأَزْلُ» من مادة «زَلَّ» تعنى الإنسان أو حيوان الذى يملك أفضاً ضعيفه، وبما أن مثل هذا الشخص باستطاعته الركض بسرعة فاطلقت هذه الكلمة بمعنى السريع وفى العدو.
- [١٥١] (٥). «دَامِيَّةٌ» تعنى المجروحه والتى يخرج منها الدم، من مادة «دَم».
- [١٥٢] (٦). «الْمِعْرَى» فصيلة من الغنم واليشاه.
- [١٥٣] (٧). «الْكَيْسِيْرَةُ» التى تكسر عظمها، وعندما تستعمل فى الأغنام وأمثالها تأتى بمعنى المكسورة اليد أو الرجل.
- [١٥٤] (٨). «رِحِيْبٌ» بمعنى الواسع من مادة «رُحِب» على وزن «قفل» وتعنى السعة، ورحيب الصدر يقال للشخص الباردمزاج والذى يملك سعة الصدر وعدم المبالاة فى مواجهة المثيرات.
- [١٥٥] (٩). «مُتَأْتِمٌ» الشخص الذى يشعر بالذنب.
- [١٥٦] (١٠). «حَدَرَتْ» من مادة «حَدَر» على وزن «قدر» بمعنى الهبوط والنزول إلى الأسف، وبما أن النزول عادة يتم بسرعة، فاطلقت هذه الكلمة على السرعة أيضاً.
- [١٥٧] (١). «نِقَاشٌ» بمعنى الدقة والتصعب فى الحساب.
- [١٥٨] (٢). سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.
- [١٥٩] (١). «تَسِيْبٌ» من مادة «سَوَّغ» على وزن «قوم» بمعنى الهنيء وتطلق عادة على الأطعمة والأشربة، ولكنها تستعمل كناية فى أمور أخرى أيضاً.
- [١٦٠] (١). «أَفَاءٌ» من مادة «فَى» بمعنى العوده، وكأنَّ الأموال التى بيد الكفار ذات طابع غصبى، فعندما تغنمها المسلمون منهم فإنها تعود إلى أصحابها الأصليين.
- [١٦١] (٢). «أَعْدَرُن» من مادة «إِعْذَارٌ» بمعنى إظهار الشخص لعدره.
- [١٦٢] (١). «هَوَادَةٌ» بمعنى اللبونة والصلح والعلاقة بالشخص، وهنا جاءت بمعنى الأول.
- [١٦٣] (٢). «أَزِيْحٌ» من مادة «إِزَاحَةٌ» تعنى الإزالة.
- [١٦٤] (١). سورة الزخرف، الآية ٨١.
- [١٦٥] (٢). سورة النور، الآية ٢.
- [١٦٦] (٣). سورة النساء، الآية ١٣٥.
- [١٦٧] (٤). الكافى، ج ٢، ص ١٤٠، ح ٣. وردت روايات أخرى فى هذا الباب وفى هذا الموضوع.
- [١٦٨] (١). «ضَحَّحٌ» صيغة أمر من مادة «تَضَحِيحَةٌ» وفى الأصل تعنى رعى الأغنام عند طلوع الشمس، وجمله «فَضَحَّحَ رُؤَيْدًا» تطلق على مورد يكون المقصود منه أن الأغنام تتحرك ببطء فى المرتع إلى أن تشبع تماماً، ثم استخدمت هذه الجملة فى الموارد التى يقصد منها الحفظ والهدوء.

[١٦٩] (٢). «مَدَى» تعنى نهاية العمل والوصول إلى سنين المتقدمة.

[١٧٠] (٣). «الثَّرَى» تعنى التراب.

[١٧١] (٤). مفردة «لَات» تعنى للنفى، وفى الأصل «لا» النافية، واضيفت لها تاء التانيث للتأكيد، «مناص» من مادة «نوص» وتعنى الملجأ والملاذ، يقال: إنَّ العرب عندما يواجهون حادثه صعبة وموحشة وحاصه فى الحروب يكررون هذه الكلمه ويقولون: مناص، مناص، يعنى أين الملجأ، أين الملجأ؟ وبما أن هذه المفهوم يقترن مع الهرب والفرار، فإنه يستخدم أحياناً محلّ الفرار والمهرب، ومن هذه الجهة فإنَّ جملة «ولات حِينِ مَنَاصٍ» تعنى: لا يوجد طريق للفرار والنجاة.

[١٧٢] (٥). سورة ص، الآية ٣.

[١٧٣] (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٧٢.

[١٧٤] (٢). شرح نهج البلاغه، لابن ميثم، ج ٥، ص ٩٠.

[١٧٥] (١). انظر: شرح نهج البلاغه للعلامة التستري، ج ٨، ص ٨٩.

[١٧٦] (٢). المصدر السابق، ص ٩٢، نقلًا عن تذكرة الخواص، ص ١٥٠.

[١٧٧] (١). انظر: معجم رجال الحديث، ج ١٠، ص ٢٣٨، به نقل عن الطبرى.

[١٧٨] (١). بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ١٥٢، ح ٢٠.

[١٧٩] (١). سند الرسالة: جاء فى كتاب مصادر نهج البلاغه: من الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيد الرضى: ابن واضح اليعقوبى (المتوفى ٢٨٤) فى تاريخه المعروف، والبلاذرى (المتوفى ٢٧٩) فى كتابه أنساب الأشراف است. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٤٦).

[١٨٠] (١). «تَثْرِب» من مادة «تَرْب» على وزن «سرو» فى الأصل تعنى الجلد الذى يغطى المعدة والأمعاء، وعندما تأتى هذه المفردة من باب تفعيل (تثريب) تعنى إزاحة هذه الجلده، ثم استخدمت بمعنى اللوم والتوبيخ والتقريع، وكأنَّ الإنسان بهذا العمل يكشف غطاء الذنب عن وجه الطرف المقابل.

[١٨١] (٢). «ظَنِين» تعنى المتهم، من مادة «ظنه» أى التهمة، والفرق بينها وبين المتهم فى العبارة المذكورة ربّما يكون بأنَّ سوء الظن بالمتهم أكثر وأشد من الظنين، وتستخدم فى موارد توجد فيها قرائن على إتهام الشخص.

[١٨٢] (٣). «مَأْثُوم» تعنى الشخص الذى ذكرت له ذنوب، ولكن «آثم» تعنى الشخص المذنب وكليهما من مادة «إثم» على وزن «اسم» ويعنى الذنب.

[١٨٣] (١). «اسْتَظْهَر» من مادة «استظهار» ويعنى طلب المعونة من الشخص الآخر والإطمئنان لمساعدته.

[١٨٤] (١). الإستيعاب، ح ١٨٨٢، فى شرح حال عمر بن أبى سلمة.

[١٨٥] (٢). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٧٣.

[١٨٦] (٣). عيون الأخبار، ج ١، ص ٣٨، ح ٨.

[١٨٧] (١). انظر: مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٤٥ و ٣٤٦.

[١٨٨] (١). سند الرسالة: ذكر هذه الرسالة قبل السيد الرضى، البلاذرى فى كتابه أنساب الأشراف، وكذلك وردت فى تاريخ اليعقوبى (ابن واضح) مع تفاوت يسير، وجاء فى الخطبة ٤٤ الجزء الأول من هذا الكتاب موارد أخرى من سيره مصقلة وحياته.

[١٨٩] (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٣، ص ١٢٧.

[١٩٠] (١). «أَعْتَام» من مادة «إعتيام» ومن مادة «عيم» على وزن «عيب» فى الأصل تعنى العطش والرغبة بتناول اللبن، وبما أن الإنسان عندما يشعر بميل شديد نحو شىء فإنه يسعى إلى اختيار أفضل أنواعه، وكلمة «عيمه» (بكسر الميم) تعنى كل شىء جيد ومختار من

الشيء، وعليه فإنَّ جملة «اعتمادك» تعني أنهم اختاروك.

[١٩١] (١). «النَّسَمَةُ» في الأصل بمعنى التنفس ويقال لهبوب الريح الملائمة «نسيم» وأحياناً تطلق على نفس الإنسان أو روحه.

[١٩٢] (٢). «مَحَقٌّ» تعني المحو والهلاك.

[١٩٣] (١). سورة الكهف، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤.

[١٩٤] (١). تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢٠١.

[١٩٥] (٢). فتوح البلدان للبلاذري، ج ٢، ص ٤١١.

[١٩٦] (١). سند الرسالة: أورد هذه الرسالة قبل السيد الرضى، المدثني (في كتاب فتوح الإسلام)، والجدير بالذكر أنَّ الرواية التي

ينقلها المدثني تختلف الرواية التي نقلها السيد الرضى نهج البلاغة، ويشير إلى أنَّ السيد الرضى لم يأخذ هذه الرواية بل من مصدر

آخر، ونقلها بعد السيد الرضى، ابن الأثير في كتابه الكامل في حوادث سنة ٤٤٤، وفي أسد الغابة، وابن عبد البر في الاستيعاب في شرح

حال زياد. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٥٢).

[١٩٧] (١). «يَسْتَرِلُّ» من مادة «زَلَل» على وزن «قمر» بمعنى الخطأ، و«يَسْتَرِلُّ» يعني أنه يريد أن يوقع الآخر في الخطأ.

[١٩٨] (٢). «لُبٌّ» في الأصل بمعنى المخ في كلِّ شيء، ويقال للعقل «لُبٌّ».

[١٩٩] (١). «يَسْتَقِلُّ» من مادة «فَلَل» على وزن «قمر» بمعنى كسر الشيء أو التقليل من حدة السكين.

[٢٠٠] (٢). «عَرَبٌ» بمعنى النشاط، وكذلك التصميم.

[٢٠١] (٣). «لِيَفْتَحِمَ» من مادة «اقتحام» بمعنى إدخال الشيء بالقوة في شيء آخر.

[٢٠٢] (٤). «يَسْتَلِبُّ» من مادة «استلاب» بمعنى النهب والغارة والسرقة، وأصلها من «سلب».

[٢٠٣] (٥). «غِرَّةٌ» بمعنى الغفلة والتساهل.

[٢٠٤] (١). سورة طه، الآية ٨٢.

[٢٠٥] (٢). سورة هود، الآية ٦.

[٢٠٦] (٣). سورة الأعراف، الآية ١٢٨.

[٢٠٧] (٤). سورة سبأ، الآية ٥٤.

[٢٠٨] (٥). بهج الصباغة، ج ١٤، ص ٣٧٢.

[٢٠٩] (٦). مجمع البيان، ذيل الآية ١٧ من سورة الأعراف.

[٢١٠] (١). «فَلْتَهُ» من مادة «فَلَت» على وزن «ثبت» في الأصل بمعنى فقدان الشيء، ولذلك تطلق هذه الكلمة على الكلام الذي يصدر

من الإنسان بدون دقة ويفلت من فمه وتقال: «فلته»، وكذلك تطلق على الحوادث الفجائية وبدون تأمل.

[٢١١] (٢). «نَزَعَهُ» من مادة «نَزَع» على وزن «نظم» بمعنى الدخول في عمل بقصد الإفساد وإيجاد النزاع بين الناس، و«نزعات شيطان»

تقال للوساوس الشيطانية التي توقع النزاع بين الأفراد.

[٢١٢] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٨٠.

[٢١٣] (١). «مُدْفَعٌ» من مادة «دفع»، تعني الشخص الذي يمنع من عمل معين.

[٢١٤] (١). بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٨٣.

[٢١٥] (١). سورة الأحزاب، الآية ٤.

[٢١٦] (١). شرح نهج البلاغة عبده، ذيل الرسالة ٤٤، ص ٤٥٨.

[٢١٧] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٨٧.

- [٢١٨] (١). سورة النمل، الآية ٣٧.
- [٢١٩] (١). ما ورد أعلاه مقتبس من كتاب الاستيعاب، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، وتنقيح المقال، للعلامة المامقاني وشرح نهج البلاغة، للعلامة التستري، فراجع.
- [٢٢٠] (١). سند الرسالة: صرح صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة بأن الصدوق ذكر قسماً من هذه الرسالة في كتاب الأمالي قبل السيد الرضى، والجدير بالذكر أن السيد الرضى في شرحه لهذه الرسالة يقول في عدة موارد وفي رواية أخرى ورد كذا وكذا، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر عنده نقل منه هذه العبارة المتفاوتة، بل إنه في أحد الموارد يقول: إن جماعة نقلوا هذه العبارة بكذا وكذا، والتعبير بالجماعة جدير بالتأمل، مضافاً إلى ذلك فإن مقاطع من هذه الرسالة وردت في كتب متعددة بعد السيد الرضى كخراج للقطب الراوندى، وروضه الواعظين للفتال النيسابورى، والمناقب لابن شهر آشوب، وربيع الأبرار للزمخشري مع اختلاف يسير، هذا الاختلاف يشير إلى مصادر أخرى لديهم (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٧٣).
- وقد أورد هذه الرسالة «البرى» (المتوفى قرن ٧) في كتاب الجوهر في نسب الإمام على، ص ٨١، مع بعض الإضافات.
- [٢٢١] (١). جملة «تستطاب لك» بمعنى أنه يطلق لك جلب الأنواع الجيدة واللذيذة من الأطعمة، وهى من مادة «طيب» بمعنى الطاهر واللذيذ والجيد.
- [٢٢٢] (١). «عائل» بمعنى من له عيال محتاجين إليه.
- [٢٢٣] (٢). «مجفؤ» بمعنى المحروم والشخص الذى لم يعطى حقه.
- [٢٢٤] (٣). «تقضمه» من مادة «قضم» على وزن «فهم» بمعنى مغض الطعام فى الفم، وأحياناً تأتي بمعنى الأكل، و«مقضم» يطلق على الطعام فى الفم.
- [٢٢٥] (٤). «فالظه» من مادة «لفظ» بمعنى اخراج الطعام من الفم، ويقال للألفاظ لأنها تخرج من الفم.
- [٢٢٦] (١). الأعلام الزركلى، ج ٤، ص ٢٠٥.
- [٢٢٧] (١). الاستيعاب، ج ٣، ص ٨٩.
- [٢٢٨] (٢). مستدركات علم رجال الحديث، ج ٥، ص ٢١٣.
- [٢٢٩] (٣). اسدالغابة، ج ٣، شرح حال عثمان بن حنيف، رقم ٣٥٧١. وقد ورد ما يشبه هذا المعنى فى مسند أحمد، ج ٤، ص ١٣٨؛ ومستدرک الحاكم، ج ١، ص ٥١٩. ويقول الحاكم بعد نقل هذا الحديث: إن هذا الحديث صحيح السند رغم أن البخارى ومسلم لم ينقلاه، ليت المخالفين الجاهلين يتمسكون لا أقل بمبانيهم الروائية ليعلموا مدى وقوعهم فى الاشتباه.
- [٢٣٠] (٤). رجال المامقاني، شرح حال عثمان بن حنيف.
- [٢٣١] (١). «طمر» تعنى الثوب الخلق والقديم، وفى الأصل من مادة «طمر» على وزن «أمر» ويعنى تغطية الشىء، وأما استخدام الإمام عليه السلام لهذه الكلمة بصيغة التثنية فمن أجل أن أحدهما يشير إلى الثوب والآخر إلى اللباس الداخلى.
- [٢٣٢] (١). «قرص» فى الأصل بمعنى الشىء المدور، ولذلك يطلق على الشمس والقمر والخبز المدور فيقال قرص الخبز أو قرص الشمس، والتثنية فى عبارة الإمام عليه السلام إشارة إلى طعام يوم واحد، لأن كثير من الناس فى ذلك الزمان يتناولون الطعام فى اليوم والليله مرتين.
- [٢٣٣] (٢). فى ظلال نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٦.
- [٢٣٤] (١). «تبر» قطعات الذهب والفضة قبل أن تصنع منها الزينة أو تكون مسكوكة.
- [٢٣٥] (٢). «وفر» يقول أرباب اللغة أنها تعنى المال الكثير من مادة «وفر» بمعنى الزيادة والكثرة، وأحياناً تطلق على كل شىء الكثير.
- [٢٣٦] (١). «عفصه» تارة تطلق على شجرة البلوط، وأخرى على ثمرتها، وهذه المادة يترشح منها سائل أبيض ومضافاً إلى مرارته فإنه

- قايض.
- [٢٣٧] (٢). «مقر» تارة تأتي بمعنى المر، وأخرى بمعنى الحامض، وفي هذا المورد جاءت بمعنى الأول، وهي تأكيد على مفهوم «عفصة».
- [٢٣٨] (١). «شحت» من مادة «شَحَّ» على وزن «نَه» بمعنى البخل المصاحب للحرص.
- [٢٣٩] (٢). «سخت» الجود والسخاء.
- [٢٤٠] (١). «مظان» جمع «مظنة» بمعنى المكان الذي يضم أو يطمئن الإنسان بوجود الشيء يطلبه فيه.
- [٢٤١] (٢). «جدث» بمعنى القبر.
- [٢٤٢] (٣). «اضغط» من مادة «اضغط» بمعنى العصر من مادة «ضغط» على وزن «وقت» بمعنى استخدام القوة في الشيء والضغط عليه.
- [٢٤٣] (٤). «المدر» يقال للطين الصلب الملتصق ببعضه مثل قطعة الآجر.
- [٢٤٤] (١). شرح نهج البلاغة، للعلامة التستري، ج ٥، ص ٣٤٠.
- [٢٤٥] (٢). «المزلق» بمعنى زلق من مادة «زلق» على وزن «شفق» بمعنى الترحلق.
- [٢٤٦] (١). سورة الأنعام، الآية ٨٢.
- [٢٤٧] (٢). سورة مريم، الآيتان ٧١ و ٧٢.
- [٢٤٨] (٣). «القمح» بمعنى الحنطة.
- [٢٤٩] (٤). «نسائج» جمع النسيج بمعنى المنسوج.
- [٢٥٠] (١). «القرز» بمعنى الحرير.
- [٢٥١] (٢). «جسع» بمعنى الحرص والطمع، وتأتي أحياناً بمعنى الحرص الشديد.
- [٢٥٢] (٣). «ميطان» هو الشخص الذي إمتلأت بطنه من الطعام، من مادة «بطن» وهذه المفردة صيغة مبالغة.
- [٢٥٣] (٤). «غرثي» تعني الجوعان (وصيغة المفرد المؤنثة وجاء صفة للبطون).
- [٢٥٤] (٥). «حزى» بمعنى العطشان من مادة «حرارة».
- [٢٥٥] (٦). «بطنه» كثرة الأكل (من مادة «بطن»).
- [٢٥٦] (٧). «تحنّ» من مادة «حنين» بمعنى التمايل والاستعطاف للإلتفات النظر.
- [٢٥٧] (٨). «قدّ» تعني الجلد أو ما يشبه القربة التي التوضع فيها السوائل، وتطلق أحياناً على قطعات اللحم الجاف التي توضع في القربة، ويقال عنها «قدّ»، وهذا الشعر لحاتم الطائي صاحب الكرم المعروف لدى العرب (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٢٨٨).
- [٢٥٨] (١). إرشاد القلوب، للديلمى، ص ٢٢. (شعر أبي العتاهية).
- [٢٥٩] (٢). «جشوبة» بمعنى الخشونة والعنف.
- [٢٦٠] (١). تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١٥٤.
- [٢٦١] (٢). أوردت هذه الآية في سورة الأسراء الآية ٢٦، وهي مدنية كما صرح بذلك علماء أهل السنة، رغم أن الآية «فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ» (سورة الروم، الآية ٣٨) مكية كما ذهب إليه البعض، وذهب الآخرون بدون الالتفات إلى التفاوت بين الآيتين إلى مكية الآية الثانية ليتخذوها ذريعة في نفى حادثة فدك.
- [٢٦٢] (٣). شواهد التنزيل، ص ١٦٨.
- [٢٦٣] (٤). تفسير فتح القدير، ج ٣، ص ٢٢٤.

- [٢٦٤] (٥). تاريخ المدينة المنورة، ج ١، ص ١٩٩.
- [٢٦٥] (١). بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ١٢٩.
- [٢٦٦] (٢). الاحتجاج، للطبرسي، ج ١، ص ٩٢.
- [٢٦٧] (٣). بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ١٩٤.
- [٢٦٨] (٤). سنن الدارمي، ج ١، ص ٩٨؛ سنن ابن ماجه، ج ١، ص ٨١ ح ٢٢٣؛ الكافي، ج ١، ص ٣٢، ح ٢.
- [٢٦٩] (١). صحيح البخاري، ج ٣، ص ٣٥ باب غزوة خيبر.
- [٢٧٠] (٢). المصدر السابق، ج ٤، ص ٢١٠؛ بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ٣٣٦.
- [٢٧١] (٣). مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٥٣؛ المعجم الكبير، للطبراني، ج ٢٢، ص ٤٠١.
- [٢٧٢] (١). فتوح البلدان للبلاذري، ص ٣٨.
- [٢٧٣] (٢). زهرا برترین بانوی جهان (الزهراء سيده نساء العالمين).
- [٢٧٤] (٣). فذك، ص ٦٠.
- [٢٧٥] (٤). ولمزيد من الإطلاع انظر حول فذك: صحيح البخاري؛ مستدرک الحاكم، تاريخ الطبري، سنن ابن ماجه وكتاب فذك، تأليف باقر المقدسي؛ وكتاب فذك في التاريخ تأليف آية الله الشهيد السيد باقر الصدر؛ وكتاب بحار الأنوار، ج ٢٩.
- [٢٧٦] (١). «المربوطة» تعني في هذا المورد الحيوان الذي يربط لغرض زيادة سمه ولحمه.
- [٢٧٧] (٢). «تقّم» بمعنى أخذ جميع ما يحتاج للسفر من طعام ومتاع، وفي الأصل من مادة «قَم» على وزن «غَم» وتعني تنظيف الدار وتعديلها، وكذلك تطلق على قطف الرياحين والنباتات بشكل كامل بواسطة شفاه الحيوان.
- [٢٧٨] (٣). «تكثرش» من مادة «كرش» على وزن «كرج» وتعني معدة الحيوانات، وعليه فإن «إكتراش» تعني امتلاء المعدة.
- [٢٧٩] (١). «سدى» بمعنى الباطل وعدم الفائدة.
- [٢٨٠] (٢). «اعتسف» من مادة «اعتساف» بمعنى أداء العمل بدون فكر وهداية وإرادة، وتعني الانحراف عن الجادة أيضاً.
- [٢٨١] (٣). «المتاهة» اسم مكان من مادة «تبه» بمعنى الحيرة والضلالة.
- [٢٨٢] (١). سورة القيامة، الآيات ٣٦-٣٩.
- [٢٨٣] (٢). سورة المؤمنون، الآية ١١٥.
- [٢٨٤] (٣). «منازلة» بمعنى المقاتلة والحرب، من مادة «نزول» فالشخص المقاتل ينزل إلى الميدان في مقابل خصمه ويقاتله.
- [٢٨٥] (٤). «الروائع» جمع «رائع» وهنا جاءت معنى الشجرة المزدهرة، من مادة «رتع» على وزن «نفع» بمعنى الأكل من المرتع.
- [٢٨٦] (١). «العذية» تطلق على الأرض البعيدة عن الماء، ولا يرويه إلّاء المطر.
- [٢٨٧] (٢). «وقود» بمعنى الحطب.
- [٢٨٨] (٣). «خمود» أي انطفاء النار ثم اطلقت على كل شيء يهدأ ويسكن من نشاطه وفعاليته.
- [٢٨٩] (١). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٩ من الكلمات الغريبة للإمام عليه السلام.
- [٢٩٠] (٢). كفاية الطالب، ص ٣١٥ وما بعده طبقاً لنقل شرح نهج البلاغة، للعلامة التستري، ج ٧، ص ٤٦٨ و ٤٦٩.
- [٢٩١] (٣). تذكرة الخواص، ص ٣٧.
- [٢٩٢] (٤). مسند أحمد، ج ١، ص ١٥١.
- [٢٩٣] (١). بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٢٥٩؛ تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٥٦.
- [٢٩٤] (٢). «المركوس» أي المنقلب، من مادة «ركس» على وزن «عكس» أي انقلاب الشيء ظهر على عقب، أو وضع الشيء برأسه

على الأرض.

[٢٩٥] (٣). «المدرة» قطعة الطين الجاف.

[٢٩٦] (٤). «الحصيد» بمعنى النبات المحصود من مادة الحصاد.

[٢٩٧] (١). سورة التوبة، الآية ٧٣.

[٢٩٨] (٢). سورة آل عمران، الآية ١٥٩. ويقول الفخر الرازي في تفسيره لسورة الحمد، ج ١، ص ٢٣٥: «لقد اشتهر أن النبي صلى الله عليه وآله لما كسرت رباعيته قال: «اللهم إهد قومي فإنهم لا يعلمون».

[٢٩٩] (١). «إليك عني» جملة تتشكل كل واحد منهما ظاهراً من جار ومجرور، في حين أن «إليك» اسم فعل بمعنى «أبعد». ويحتمل أن تكون جملة لفعل مقدر وهو «أرجع» و«أبعد»، يعني «أرجع إليك وأبعد عني».

[٣٠٠] (٢). «غارب» بمعنى المحل الذي يقع على ظهر ورقبة الناقة، ويأتي بمعنى الرقبة وآخر نقطة من الظهر.

[٣٠١] (٣). «انسلت» من مادة «سل» على وزن «حل» بمعنى سحب واخراجه بهدوء.

[٣٠٢] (٤). «مخالب» جمع «مخلب» على وزن «منبر» تطلق على أظافر الطيور والوحوش.

[٣٠٣] (٥). «أفلت» من مادة «فلت» على وزن «برف» بمعنى الخلاص والتحرر.

[٣٠٤] (٦). «حبائل» جمع «حبال» بمعنى المصيدة والشرك.

[٣٠٥] (٧). «مداحض» جمع «مدحض» على وزن «مركز» بمعنى منزلق.

[٣٠٦] (١). «مداعب» جمع «مدعبة» على وزن «مكتبة» بمعنى المزاح والمداعبة.

[٣٠٧] (٢). «رهائن» جمع «رهينة».

[٣٠٨] (٣). «مضامين» جمع «مضمون» في الأصل تعني الجنين في باطن أمه، ثم اطلقت على كل شيء في مطاوى شيء آخر.

[٣٠٩] (٤). «اللحود» جمع «لحد» على وزن «مهد» ويعني الشق الذي يقع في أسفل القبر ويوضع الميت فيه.

[٣١٠] (٥). الأنوار البهية، ص ٢٤٤.

[٣١١] (١). شرح نهج البلاغة للعلامة التستري، ج ٦، ص ٣٩٠؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٧٥.

[٣١٢] (٢). «المهاوى» جمع «مَهوى» و«مَهواة» يعنى الوادى ويطلق على كل مكان خطر يتعرض فيه الإنسان للهلكة.

[٣١٣] (٣). «ورد» تعنى فى الأصل الوصول إلى حافة النهر، ثم اطلقت على كل وصول أو دخول.

[٣١٤] (٤). «صدر» ضد «ورد» يعنى الخروج من الشاطىء ثم اطلقت على كل أنواع من الخروج.

[٣١٥] (١). سورة يوسف، الآية ١١١.

[٣١٦] (٢). سورة الدخان، الآيات ٢٥-٢٩.

[٣١٧] (٣). «دحض» بمعنى منزلق.

[٣١٨] (٤). «زلق» من مادة «زلق» على وزن «دلق» بمعنى التزلق.

[٣١٩] (٥). «لجج» جمع «لجج» على وزن «حجج» بمعنى القسم العظيم المتلاطم من البحر.

[٣٢٠] (٦). «ازور» من مادة «ازورار» بمعنى الجنوح والانحراف من شيء، وهو من مادة «الزيارة».

[٣٢١] (٧). «مناخ» فى الأصل بمعنى المحل الذى يترك فيه الإبل، ثم اطلقت على كل محل للإستقرار.

[٣٢٢] (١). الكافي، ج ٢، ص ٤٥٩، ح ٢١.

[٣٢٣] (٢). «اعزبى» أى ابتعدى عني من مادة «عزوب» على وزن «غروب» بمعنى الابتعاد عن الشيء، ويطلق على من لم يتزوج أعزب

لأنه بعيد عن الحياة العائليّة.

[٣٢٤] (٣). «أسلس» من مادة «سلاسة» بمعنى المطيع وتأتي أحياناً بمعنى السهل والميسور.

[٣٢٥] (١). سورة إبراهيم، الآية ٢٢.

[٣٢٦] (١). بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٦٣.

[٣٢٧] (١). «أيم الله» بمعنى «اقسم بالله»، وقيل إنها في الأصل من «أيمن» جمع يمين بمعنى القسم، وألفه ألف وصل، وتقرأ أحياناً بالفتح وأخرى الكسر، ثم حذفت النون منها وصارت «أيم الله»، وأحياناً تحذف الياء أيضاً ويقال: «أم الله» وعلى أيّة حال نظراً لأنّ هذه العبارة جمع، فإنّها تدلّ على القسم المؤكّد.

[٣٢٨] (٢). «رياضة» في الأصل بمعنى ترويض وتطويع النفس أو البدن وتربيته، ومن هذه الجهة يقال للرياضات الجسمانيّة والنفسيّة بأشكالها المختلفة «رياضة» ويقال للبستان روضة من جهة أنّ الإنسان يهتم بتنظيمها وترتيبها وفق برنامج مدروس لتكون مزدهرة وخضراء.

[٣٢٩] (٣). «تهش» من مادة «هشاشة» على وزن «حوالة» بمعنى الفرح التبسم.

[٣٣٠] (٤). «مأدوماً» من مادة «إدام» بمعنى المرق (الشيء الذي يأكل مع الخبز) وعليه فإنّ «مأدوم» الشيء الذي يؤكل على شكل مغمس بالمرق.

[٣٣١] (١). «مقلّة» يطلق على كرة العين بأجمعها، وأحياناً يراد منها سواد العين فقط.

[٣٣٢] (٢). «نضب» من مادة «نضوب» في الأصل بمعنى ذهاب الماء في الأرض وجفاف البئر أو الغدير، وهذه المفردة تستعمل أحياناً في مورد العين أيضاً عندما يجف دمعاها.

[٣٣٣] (٣). «معين» من مادة «معن» على وزن «طعن» بمعنى جريات الماء و«ماء معين» يراد منها الماء الجاري، ثم استخدمت في جريان الدموع من العيون.

[٣٣٤] (٤). سورة الكهف، الآيتان ٢٣ و ٢٤.

[٣٣٥] (١). «السائمة» الحيوان الذي يترك ليرعى في الصحراء، من مادة «سوم» على وزن «قوم».

[٣٣٦] (٢). «رعيها» تعني العلف الذي يأكله الحيوان أثنى الرعى، من مادة «رعى» على وزن «وحى».

[٣٣٧] (٣). «تبرك» من مادة «بروك» بمعنى الاستقرار والهدوء على الأرض.

[٣٣٨] (٤). «الريضة» قطع الغنم وأمثال ذلك عندما يعود مع الراعي إلى محل استقراره أي الحضيّة. من مادة «ربض» و«ربوض» على وزن «قبض» و«قبوض» أي جمع الحيوان ليده ورجله للجلوس على الأرض.

[٣٣٩] (٥). «عشب» النباتات الرطبة في مقابل الحشيش وهو النباتات الجافة.

[٣٤٠] (٦). «يهجع» من مادة «هجوع» على وزن «ركوع» بمعنى النوم الخفيف.

[٣٤١] (٧). «الهاملّة» الحيوان المتروك من مادة «همل» على وزن «حمل» بمعنى ترك الحيوان بدون راعي.

[٣٤٢] (٨). «المرعية» اسم مفعول من مادة «رعى» على وزن «سعى» وهو الحيوان الذي يساق للمرعى.

[٣٤٣] (٩). مجانى الأدب، ج ٢، ص ٣٧.

[٣٤٤] (١). غرر الحكم، ح ٤٨٠٩.

[٣٤٥] (٢). المصدر السابق، ح ٤٧٩١.

[٣٤٦] (٣). كنز العمال، ح ٤٤١٧٦.

[٣٤٧] (٤). ميزان الحكمة، ح ٧٥٤١.

[٣٤٨] (٥). تذكرة الأولياء، ج ١، ص ٢٣٥.

[٣٤٩] (١) «تاريخ تصوف» للدكتور الغنى، ص ٣٦١، بالفارسية.

[٣٥٠] (٢) تذكرة الأولياء، ج ٢، ص ١٦٤.

[٣٥١] (١) سورة المؤمنون، الآية ٥١.

[٣٥٢] (١) «طوبى» مؤنث «أطيب» ولها معنى واسع وتشمل أطهر وأفضل الخيرات والطيبات، وفي مثل هذه الموارد تشبه الدعاء للآخرين.

[٣٥٣] (٢) «عركت» من مادة «عرك» على وزن «أرك» فى الأصل تعنى التمرخ ثم اطلقت على كل ما يؤثر على كل شىء وينتهى لفنائه وزواله.

[٣٥٤] (٣) «بؤس» يعنى كل أشكال الانزعاج والمساءة وهى فى مقابل النعمة والراحة.

[٣٥٥] (٤) «غمض» من مادة «غموض» بمعنى غض النظر عن الشىء وعدم رؤيته، ثم اطلقت على حالة النوم، لأن الإنسان يغمض عينه فيه، وفى الجملة أعلاه قصد بها هذا المعنى.

[٣٥٦] (٥) «كرى» يعنى النوم.

[٣٥٧] (١) «توسد» من مادة «وسادة» بمعنى المتكأ والمخدة.

[٣٥٨] (٢) الكافى، ج ٢، ص ٨٤ ح ٧.

[٣٥٩] (٣) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٥٨، ح ٥٧٦٢.

[٣٦٠] (١) «أسهر» من مادة «سهر» على وزن «سفر» بمعنى اليقظة.

[٣٦١] (٢) «تجافت» من مادة «تجافى» بمعنى التنحى والابتعاد ومادته الأصلية «جفاء» بمعنى أبعاد الشىء.

[٣٦٢] (٣) «مضاجع» جمع «مضجع» بمعنى محل النوم.

[٣٦٣] (٤) «همهت» من مادة «همهت» بمعنى الكلام بصورة همس.

[٣٦٤] (٥) «تقشعت» من مادة «تقشع» على وزن «توقع» ويعنى التلف والتفرق من مادة «قشع» على وزن «مشق» بمعنى الرفع والدفع.

[٣٦٥] (٦) سورة السجدة، الآية ١٦.

[٣٦٦] (٧) سورة الذاريات، الآيتان ١٧ و ١٨.

[٣٦٧] (٨) سورة المجادلة، الآية ٢٢.

[٣٦٨] (٩) «ولتكفف» من مادة «كف» بمعنى المنع، ولكن فى الكثير من نسخ نهج البلاغة وشروحاتها وردت «وَلْتَكْفِكَ» من مادة «كفاية» يعنى أن أقراص الخبز كافية لك فلا تقصد الموائد الفاخرة والأطعمة الملونة.

[٣٦٩] (١) مروج الذهب، ج ٣، ٣١٠.

[٣٧٠] (١) ورد هذا الكلام عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى سنن الترمذى، ص ٢٤٤٣. وكذلك ورد هذا الحديث فى وسائل الشيعة ج ١١، ص ٣١٥، ح ١٣ باب استحباب الزهد فى الدنيا وحد الزهد عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً.

[٣٧١] (٢) نهج البلاغة، الخطبة ٨١.

[٣٧٢] (٣) بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٢٩٩.

[٣٧٣] (٤) المصدر السابق، ج ٤٢، ص ٢٧٦.

[٣٧٤] (١) كنز العمال، ح ٨٥٦٦.

[٣٧٥] (١) المؤمنون هنا، بقريته الآية السابقة إشارة إلى أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام وهى آية الولاية واعطاء الإمام خاتمه فى حال الركوع، وعلى فهذه الآية نازلة فى شأنه عليه السلام.

[٣٧٦] (١). سند الرسالة: أجمال الكثير من شراح في من هو المخاطب في هذه الرسالة، ولكن صاحب كتاب (مصادر نهج البلاغة) يرى أن المخاطب لها هو مالك الأشتر، وكذلك ذكره صاحب كتاب (تمام نهج البلاغة) ويضيف صاحب المصادر: عندما عاد الإمام على عليه السلام من صفين أرسل مالك الأشتر إلى منطقة حكومته وإدارته «منطقة الجزيرة» وفقاً لما ورد في معجم البلدان أن الجزيرة منطقة في العراق تقع بين نهري دجلة والفرات) وعندما انتهت قضية التحكيم وتغيرت أوضاع مصر أرسل الإمام على عليه السلام مالك الأشتر إلى مصر بدلاً من محمد بن أبي بكر وأرسل معه هذه الرسالة وقال: إن هذه المهمة لا يقوم بها إلا أنت، وأعطاه رسالة العهد التي ستأتي في الرقم ٥٣.

ومن الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيد الرضى، إبراهيم بن هلال الثقفى فى كتاب الغارات، وكذلك البلاذرى فى أنساب الأشراف، والطبرى فى تاريخه فى حوادث سنة ٣٨، ومن الأشخاص الذين ذكروا هذه الرسالة بعد السيد الرضى، ابن الأثير فى كتابه «الكامل». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٧٦).

[٣٧٧] (١). «استظهر» من مادة «استظهار» بمعنى طلب المعونة والمساعدة.

[٣٧٨] (٢). «أقمع» من مادة «قمع» على وزن «قرض» بمعنى انصراف الشخص من إنجاز هدفه، وبمعنى القهر والضغط على الشخص للاستسلام، و«مقمة» تعنى العمود الحديدى الذى يضرب به الشخص أو الحيوان المتمرد على رأسه لمنع من التمرد.

[٣٧٩] (٣). «نخوة» التكبر والغرور.

[٣٨٠] (١). «لهاء» بمعنى اللسان الصغير، ثم اطلقت على المخنق والخنجرة كما ورد فى الجملة أعلاه.

[٣٨١] (٢). «الثغر» يعنى حدود البلد وفى الأصل بمعنى كل شق.

[٣٨٢] (١). تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٥٠١، حوادث سنة ٣٦.

[٣٨٣] (٢). «منبج» على وزن «مجلس» اسم مدينة من مدن الشام.

[٣٨٤] (٣). «ضغت» على وزن «حرص» تعنى قبضة من الأعواد الرفيعة مثل سيقان الحنطة والشعير أو محمل التمر فى النخلة، ويأتى بمعنى حزمة من حطب أو نبات الجاف أيضاً، وأحياناً تطلق على المنامات المضطربة، وهنا وردت بمعنى مجموعة من عوامل اللين.

[٣٨٥] (١). الكافى، ج ٢، ص ١١٩، ح ٦.

[٣٨٦] (٢). مجانى الأدب، ج ٢، ص ٤٨.

[٣٨٧] (١). مجانى الأدب، ج ٢، ص ١٠١.

[٣٨٨] (٢). سورة الحجر، الآية ٨٨.

[٣٨٩] (٣). سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

[٣٩٠] (٤). «آس» من مادة «مواساة» تعنى وقوع الأشياء فى صف واحد والتساوى فى المرتبة.

[٣٩١] (٥). «حيف» الانحراف عن الحق والعدالة.

[٣٩٢] (١). سند الرسالة: نقل هذه الوصية جماعة كثيرة قبل السيد الرضى، ومنهم أبو مخنف (لوط بن يحيى طبقاً لنقل مقاتل الطالبين) وأبو حاتم السجستاني فى كتاب المعمرون، والطبرى فى تاريخه المعروف فى حوادث سنة ٤٠، والكلينى فى كتاب الكافى، والمسعودى فى مروج الذهب، والشيخ الصدوق فى من لا يحضره الفقيه، وجماعة آخرون. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٧٩-٣٨١).

[٣٩٣] (١). «تبغيا» و«بغت» كلاهما من مادة «بغاء» على وزن «سنا» بمعنى طلب الشىء.

[٣٩٤] (٢). «زوى» من مادة «زى» على وزن «حى» وتعنى الإبعاد والنهى، وفى الجملة أعلاه «زوى» بمعنى اخذ.

[٣٩٥] (٣). سورة الحديد، الآية ٢٠.

- [٣٩٦] (٤). سورة الحديد، الآية ٢٣.
- [٣٩٧] (١). تفسير در المنثور، ذيل الآية ١٠ من سورة الحشر.
- [٣٩٨] (٢). ميزان الحكمة، ج ٣، باب الحزن، ح ٣٧٨٩. وللاطلاع أكثر انظر الرسالة ٢٢ من هذا الكتاب.
- [٣٩٩] (١). الكافي، ج ٢، ص ٣٣٢، ح ٨.
- [٤٠٠] (١). بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٥٩.
- [٤٠١] (٢). غرر الحكم، ص ٤٤٦، ح ١٠٢١٠.
- [٤٠٢] (١). جاء في رواية وفقاً لما ذكر صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة: عندما عين الطيب المعروف في الكوفة الإمام عليه السلام قال: أنا آيس من بقاءك وحياتك، فأمر الإمام عليه السلام بأن يأتيوا له بدواة وقلم. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٧٩).
- [٤٠٣] (٢). «ذات» في الأصل بمعنى الخلقة والبنية وأساس الشيء، وإن جاء في اصطلاح الفلاسفة بمعنى عين الشيء وحقيقته، ومن هذه الجهة فإن إصلاح ذات البين أو صلاح ذات البين إشارة إلى إزالة الكدورات والأحقاد من الأصل والأساس.
- [٤٠٤] (١). سورة الحجرات، الآية ١٣.
- [٤٠٥] (١). تفسير الثعلبي، ج ٩، ص ٨٠.
- [٤٠٦] (٢). الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩، ح ١.
- [٤٠٧] (١). الختن، زوج بنت الرجل وزوج اخته.
- [٤٠٨] (٢). الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩، ح ٣ و ٤.
- [٤٠٩] (٣). كنز العمال، ح ٥٤٨٠؛ مجموعة ورام، ج ١، ص ٣٩.
- [٤١٠] (٤). بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٤٤.
- [٤١١] (٥). المصدر السابق، ص ٤٣.
- [٤١٢] (١). «تغبوا» من مادة «غَبَّ» على وزن «حد» بمعنى العاقبة، وهذه المفردة تأتي أحياناً في مورد الأعمال والأمر التي يوتي بها بشكل غير متوالي، من قبيل ما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال لبعض أصحابه: «زُرْ غِبًّا تَزُدُّ حُبًّا» (مستدرک الوسائل، ج ١٠، ص ٣٧٤، ح ١٢٢١٠).
- [٤١٣] (١). مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٦.
- [٤١٤] (٢). المصدر السابق.
- [٤١٥] (٣). من بلاد كردستان قريبة من بغداد.
- [٤١٦] (٤). الكافي، ج ١، ص ٤٠٦، ح ٥.
- [٤١٧] (١). بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٢٩.
- [٤١٨] (٢). «سيورثهم» «ورث» (صيغة الثلاثي المجرد) تعني أخذ الميراث، ولكن «ورث» من باب التفعيل تعني اعطاء الميراث أو ترك الميراث.
- [٤١٩] (١). مستدرک الوسائل، ج ٨، ص ٤٢٤، ح ١٤.
- [٤٢٠] (٢). انظر: وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٩١، آداب العشرة، باب ٩٠.
- [٤٢١] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٧، ص ٩.
- [٤٢٢] (١). بهج الصباغة، ج ١١، ص ٨٠.
- [٤٢٣] (٢). نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢.

- [٤٢٤] (١). التهذيب، ج ٢، ص ٢٣٧، ح ٥.
- [٤٢٥] (٢). بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٢١٨، ح ٣٦.
- [٤٢٦] (٣). ذكر المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٢٥١، وجماعة من شراح لتهج البلاغة معنى الجملة كما ذكرناه في المتن، وبهذا المعنى ورد في مجمع البحرين، ولكن جماعة من الأكابر كالفيض الكاشاني في الوافي، والمحقق السبزواري في ذخيرة المعاد، والسيد أحمد العاملی في مناهج الأختيار في شرح الاستبصار فسروا جملة: «لم تناظروا» بمعنى «لم تمهلوا».
- [٤٢٧] (١). الكافي، ج ٤، ص ٢٧١.
- [٤٢٨] (٢). ورد في بعض نسخ الوسائل «ما أخلفك».
- [٤٢٩] (٣). الكافي، ج ٤، ص ٢٧١، ح ١.
- [٤٣٠] (١). تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ١٢٣، ح ٨.
- [٤٣١] (٢). الكافي، ج ٥، ص ٨، ح ١١.
- [٤٣٢] (١). الكافي، ج ٢، ص ٣٤٥، ح ٥.
- [٤٣٣] (٢). المصدر السابق، ص ٣٤٦، ح ٧.
- [٤٣٤] (٣). المصدر السابق، ص ٣٤٤، ح ١.
- [٤٣٥] (١). الكافي، ج ٥، ص ٥٦، ح ٣.
- [٤٣٦] (١). الكافي، ج ٥، ص ٥٥، ح ١.
- [٤٣٧] (٢). المصدر السابق.
- [٤٣٨] (٣). المصدر السابق، ص ٥٩، ح ١١.
- [٤٣٩] (١). «ألفينكم» من مادة «لفو» على وزن «لهو» في الأصل بمعنى فصل الشيء عن غيره، مثل فصل اللحم عن العظم، والفاء هنا بمعنى العثور على الشيء فجأة.
- [٤٤٠] (٢). «تخوضون» من مادة «خوض» في الأصل بمعنى الغمس في الماء، ثم اطلقت على الدخول العميق والتوغل في كل شيء حتى في البحوث العلمية.
- [٤٤١] (١). انظر: شرح نهج البلاغة، للعلامة التستري، ج ١١، ص ٨٧.
- [٤٤٢] (١). تاريخ الطبري، ج ٤، ص ١١١؛ الكامل، لابن الأثير، ج ٣، ص ٣٩٠.
- [٤٤٣] (٢). «تمثلوا» من مادة «مثل» على وزن «أصل» بمعنى قطع وفصل أعضاء البدن في العقوبة.
- [٤٤٤] (٣). «عقور» بمعنى المتوحش والهارى، وهى صيغة مبالغة من مادة «عقر» على وزن «عقد» بمعنى إصابته بجرح، وهذه المفردة تستخدم غالباً في الكلاب، ولكن أحياناً تطلق على حيوانات أخرى.
- [٤٤٥] (٤). سورة النحل، الآية ١٢٦.
- [٤٤٦] (٥). التفسير الأمثل، ذيل الآية ١٢٦ من سورة النحل، نقلًا عن تفسير العياشى والدر المنثور والميزان.
- [٤٤٧] (٦). بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ٢١٦، ح ٤.
- [٤٤٨] (١). سند الرسالة: ذكر هذه الرسالة نصر بن مزاحم في كتاب صفين، وكذلك نقلها نصر بن مزاحم في كتابه عن ابن ديزيل وكلاهما كان يعيشان قبل السيد الرضى، وكذلك ذكر أحمد بن أعثم الكوفى في كتاب الفتوح وكان أيضاً قبل السيد الرضى وأوردها بشكل أكثر تفصيلاً مما أورده السيد الرضى، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر لهذه الرسالة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٨٣ و ٣٨٤).

- [٤٤٩] (١). «الزور» على وزن «كور» فى الأصل من مادة «زور» على وزن «غور» وتعنى القسم العلوى من الصدر، ثم اطلقت على كل شىء ينحرف عن الحد الوسط، وبما أن الكلام الباطل منحرف عن الحق يقال له «زور»، وشهادة الزور تعنى شهادة الكذب والباطل.
- [٤٥٠] (٢). «يوتغان» من مادة «وتغ» على وزن «وجب» بمعنى هالك وفساد، وعندما تأتى من باب الأفعال تعنى إهلاك وإفساد.
- [٤٥١] (١). انظر: بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٥٣٧.
- [٤٥٢] (٢). «تألوا» من مادة «الْيَاء» على وزن «عطية» بمعنى القسم واليمين، وعندما تأتى من باب تفعل (كما فى مورد البحث) تعنى صدور القسم من الطرفين، وفى بعض نسخ نهج البلاغة ورد كلمة «تأولوا» بدلاً من هذه المفردة، وهنا تعنى التفسير بالرأى، يعنى أن جماعة ولغرض التوصل إلى غاياتهم يأولون آيات القرآن وفقاً لميولهم وأهوائهم النفسانية.
- [٤٥٣] (١). «يغتبط» من مادة «غبطه» وتعنى الفرح والسرور، وأحياناً تأتى بمعنى الحسد، ولكن ليس الحسد بمعنى السلبى يعنى تمنى سلب النعمة من الآخر، بل بمعنى الحصول على النعم التى حصل عليها الآخرون).
- [٤٥٤] (٢). «أحمد» من مادة «حمد» بمعنى من يليق للمدح والثناء.
- [٤٥٥] (٣). «أمكن» من مادة «إمكان» وهنا جاءت بمعنى التسهل وتوفير وسائل العمل، وبالتالي السيطرة على الشىء أو الشخص.
- [٤٥٦] (٤). «قياد» تعنى اللجام، من مادة «قيادة» أى الرئاسة والزعامة.
- [٤٥٧] (١). سورة مريم، الآية ٣٩.
- [٤٥٨] (٢). صفين، ص ٤٨٩.
- [٤٥٩] (١). سند الرسالة: ذكر هذه الرسالة ابن أعثم الكوفى فى كتاب الفتوح، والدينورى (المتوفى ٢٨٢) فى أخبار الطوال، ونصر بن مزاحم فى كتاب صفين وكلهم عاش قبل السيد الرضى، وقال جماعة من المؤرخين وشراح نهج البلاغة بأن المخاطب لهذه الرسالة هو عمرو بن العاص (ولمزيد من التوضيح انظر: مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٨٤).
- [٤٦٠] (١). «لهج» بمعنى العلاقة الشديدة والافتتان فى مقابل شىء.
- [٤٦١] (٢). الكافى، ج ٢، ص ١٣٦، ح ٢٤.
- [٤٦٢] (٣). سورة ص، الآية ٢٣.
- [٤٦٣] (٤). سورة ص، الآية ٢٤.
- [٤٦٤] (١). روضة الواعظين، ج ٢، ص ٤٢٩.
- [٤٦٥] (٢). روضات الجنات، ج ٧، ص ٨٩ و ٩٠.
- [٤٦٦] (٣). الكافى، ج ٢، ص ٥٨٦، ح ٢٤.
- [٤٦٧] (١). الكافى، ج ٢، ص ٣١٩، ح ١٢.
- [٤٦٨] (٢). «أبرم» من مادة «إبرام» بمعنى لف الحبل وتقويته، ثم إمتد هذا المعنى ليشمل كل عمل محكم ومتقن، وضده النقض، ويعنى فتح العقدة وإضعاف قوة الشىء.
- [٤٦٩] (٣). سورة الدخان، الآيات ٢٥-٢٨.
- [٤٧٠] (٤). سورة الحج، الآية ٤٦.
- [٤٧١] (١). سند الرسالة: ذكر هذه الرسالة قبل السيد الرضى نصر بن مزاحم فى كتاب صفين (مع تفاوت يسير)، وبعد السيد الرضى ذكرها الشيخ الطوسى فى الأمالى مع اختلاف يسير أيضاً. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٨٧) ومن الأشخاص الذين ذكروا هذه الرسالة قبل السيد الرضى أبو جعفر الإسكافى (المتوفى ٢٢٠) فى كتاب المعيار والموازنة، ص ١٠٣.
- [٤٧٢] (١). «طؤل» على وزن «قول» بمعنى النعمة ومن مادة «طول» على وزن «نور» ويبين إمتداد الشىء، وبما أن النعم الإلهية تعتبر

إمتداداً وجودياً لواهب النعم، فاطلقت هذه المفردة عليها.

وهذه الكلمة تطلق أحياناً على المقدره المائيه أو على كلّ مقدره، و«أولو الطول» تعنى الأثرياء من الناس.

[٤٧٣] (٢). غرر الحكم، ص ٤٤٨، ح ١٠٣٠١.

[٤٧٤] (١). «احتجز» من ماده «حجز» على وزن «عجز» ومعناه فى الأصل المنع وإيجاد الفاصله، ثم اطلقت على عمليّة الإخفاء والتستر الذى يمنع من مشاهدته الشئ أو الإطلاع عليه.

[٤٧٥] (١). تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٣٦٦ وقائع سنه التاسعه للهجره.

[٤٧٦] (٢). شرح نهج البلاغه لابن ميثم، ج ٥، ص ١٢٩.

[٤٧٧] (٣). «أطوى» من ماده «طى» فى الأصل تعنى إخفاء الشئ، والمعنى الآخر لكلمه «طى» لفّ الشئ ومن هذه الجهه اطلقت على السير فى الطريق «طى طريق» ولا يبعد أن كلا المعنيين يعودان لجذر واحد.

[٤٧٨] (١). الكافى، ج ٧، ص ٤١٤، ح ٦.

[٤٧٩] (١). سورة المائده، الآيه ٣.

[٤٨٠] (٢). «تنكصوا» من ماده «نكص» على وزن «مكث» تعنى العوده من الشئ أو المكان، وبما أن التمرد وعدم الطاعه نوع من العوده عن طريق الطاعه، استخدمت هذه الكلمه بهذا المعنى.

[٤٨١] (١). «غمرات» جمع «غمرة» على وزن «ضربه» فى الأصل من غمر وبمعنى إزالة أثر الشئ، ثم استخدمت فى الماء الكثير الذى يغطى جميع الوجه الشئ وظاهره، ويقال: غمره وغامر، وفى العبارة أعلاه جاءت بمعنى أمواج الشدائد والمشكلات.

[٤٨٢] (١). تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٢٦.

[٤٨٣] (٢). سورة المائده، الآيه ٢٤.

[٤٨٤] (٣). سيره ابن هشام، ج ٢، ص ٢٦٦ و ٢٦٧؛ الكامل، لابن الأثير، ج ٢، ص ١٢٠.

[٤٨٥] (١). «أعوجج» من ماده «عوج» على وزن «حرج» وتعنى انحراف الشئ وميلانه و«عوجج» بكسر العين، اسم مصدر وتشمل كل أشكال الانحراف والاعوجاج، وتطلق أحياناً بمعنى الانحرافات المعنويّة والعمليّة وجاءت فى العبارة أعلاه بهذا المعنى.

[٤٨٦] (١). سند الرساله: ذكر هذه الرساله قبل السيد الرضى نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، بشكل رسالتين وقد وردتا فى مكانين مختلفتين من هذا الكتاب مع تفاوت يسير عمّا أورده السيد الرضى. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٨٩)، وكذلك ذكرها أبو جعفر الإسكافى الذى كان يعيش قبل السيد الرضى فى كتابه المعيار والموازنه، ص ١٢٢، ولكنّه ذكر مقاطع من هذه الرساله تشبه الرساله مورد البحث، ولكن يحتمل كونها رساله أخرى، وفى كتاب تمام نهج البلاغه، ص ٧٧٦ توجد رساله شبيهه لرساله أبى جعفر الإسكافى.

[٤٨٧] (١). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٨.

[٤٨٨] (٢). سورة الحج، الآيه ٧٨.

[٤٨٩] (٣). سورة البقره، الآيه ١٨٥.

[٤٩٠] (١). نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٢٩٠.

[٤٩١] (٢). الموسوعه الفقهيّه الكويتيه، ج ١٩، ص ٥٢.

[٤٩٢] (١). انظر: جواهر الكلام، ج ٢٢، ص ٢٠٠.

[٤٩٣] (١). الكافى، ج ٢، ص ١٤٦، ح ١٠.

[٤٩٤] (٢). «تحشموا» من ماده «احشام» وفى الأصل «حشم» على وزن «كرم» بمعنى إخجال الطرف الآخر، وعندما تأتى من باب

الإفعال، تشير إلى هذا المعنى أيضاً، وأحياناً تأتي بمعنى الاغضاب أيضاً، وفي الجملة أعلاه المعنى الأول أنسب، و«حشمت» على وزن «حكمت» تعنى الحياء والخجل، وأحياناً بمعنى اللياقة أيضاً.

[٤٩٥] (١). «معاهد» تستعمل فى معنيين، أحدهما أهل الذمة والأقليات الدينية فى داخل البلدان الإسلامية الذين يعيشون بسلام مع المسلمين، والآخر: الكفار الذين يعيشون خارج البلدان الإسلامية وتربطهم مع المسلمين رابطة العهد والميثاق، وفيما نحن فيه فالمراد المعنى الأول.

[٤٩٦] (٢). «تذخروا» من مادة «ذخيرة» وعندما تأتي من باب إفعال تتبدل الدال إلى ذال، والتاء فى باب افتعال تتبدل أيضاً إلى دال، وعليه فإن «لا تذخروا» تعنى لا تذخروا ولا تبقوا فى أنفسكم نصيحة.

[٤٩٧] (١). وردت فى بعض الروايات هذه الجملة وما بعدها فى رسالة الإمام عليه السلام إلى قادة جيشه. (من كتاب صفين لنصر بن مزاحم، ص ١٢٥)، والتعبير بالجند يتناسب مع هذا النقل.

[٤٩٨] (٢). «ابلوا» (من باب إفعال) بمعنى السعى وبذل الجهد لأداء الشىء، وأحياناً تأتي بمعنى الامتحان والاختبار أو التحلل والانحلال، وفى هذا المورد جاء بالمعنى الأول.

[٤٩٩] (٣). «اصطنع» من مادة «اصطناع» بمعنى طلب الشىء، وأحياناً تأتي بمعنى صناعة الشىء وتربيته، وهنا جاءت بالمعنى الأول.

[٥٠٠] (١). سند الرسالة: جاء فى كتاب مصادر نهج البلاغة أن هذه الرسالة ذكرها أبو منصور الثعالبي من المعاصرين للسيد الرضى فى الباب الثالث من كتاب «الإعجاز والإيجاز» مع تفاوت ملفت، وقد ذكر صاحب المصادر هذا التفاوت، وفى المجموع يستنتج أن الثعالبي (قطعاً) لم يأخذ هذه الرسالة من نهج البلاغة للسيد الرضى. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٩٠).

[٥٠١] (١). «تفىء» من مادة «فىء» يعنى العودة والرجوع.

[٥٠٢] (٢). «مريض» من مادة «ربض» على وزن «نبض» بمعنى جلوس الحيوان على صدره على الأرض، وبما أن الحيوانات تجلس بهذه الصورة فى الحضيرة غالباً فإن المريض يأتى بمعنى الحضيرة محل استراحة الأغنام والماعز.

[٥٠٣] (٣). «عنز» الانثى من الماعز، والماعز يطلق على كل أشكال هذا الحيوان، وأحياناً يأتى بمعنى الحيوان الذى يملك الشعر من الأنعام لا الصوف، وقصير الذنب.

[٥٠٤] (١). ورد فى بعض نسخ نهج البلاغة بدل كلمة «حتى» حين. مثل كتاب اختيار مصباح السالكين، ص ٥٣٩ وكتاب حدائق الحقائق، ج ٢، ص ٥١٧.

[٥٠٥] (٢). سورة الاسراء، الآية ٧٨.

[٥٠٦] (١). من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢٨٣، ح ٨٧٠.

[٥٠٧] (٢). بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٦٠٧.

[٥٠٨] (١). صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٥١، باب الجمع بين الصلاتين فى الحضر، ح ٤٥ و ٥٠.

[٥٠٩] (٢). صحيح البخارى، ج ١، ص ١٤٠، باب وقت المغرب.

[٥١٠] (٣). مصنف عبدالرزاق، ج ٢، ص ٥٥٦.

[٥١١] (٤). المعجم الكبير الطبرانى، ج ١٠، ص ٢١٩، ح ١٠٥٢٥.

[٥١٢] (٥). مسند النزاز، ج ١، ص ٢٨٣.

[٥١٣] (١). سورة الاسراء، الآية ٧٨.

[٥١٤] (٢). التفسير الكبير، للفخر الرازى، ج ٢١، ص ٢٧.

[٥١٥] (١). سند الرسالة العهديه: هذه الرسالة المعروفة بعهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر من أشهر كتب ورسائل أمير المؤمنين

عليه السلام والغنية عن التعريف ولا تحتاج لذكر السند، وهذه الرسالة وردت في كتب كثيرة قبل السيد الرضى وكذلك بعده، وفي الحقيقة أن شهرة هذه الرسالة أسمى وأعلى من أن تحتاج إلى شرح مداركها.

[٥١٦] (٢) ولكن صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة يصرح أن جماعة من الأكابر قبل السيد الرضى، مثل الحسن بن علي بن شعبة (المتوفى ٣٣٢) ذكرها في كتاب تحف العقول، وذكرها القاضي النعمان المصري (المتوفى ٣٦٧) في كتاب دعائم الإسلام، وذكرها بعد السيد الرضى، الرجالي المعروف النجاشي في كتابه «الفهرست» في شرح حال الأصبع بن نباتة، وكذلك الشيخ الطوسي في كتابه الفهرست، والنويري في نهاية العرب مع اختلاف يسير، وابن عساكر (المتوفى ٥٧١) في تاريخ مدينة دمشق حيث ذكر مقاطع منها. والجدير بالذكر أن العلماء والكتّاب كتبوا شروحا كثيرة جداً على هذه الرسالة، منهم: ١. آداب الملوك نظام العلماء، ٢. أساس السياسة للواعظ المعروف الشيخ محمد الكجوري الملقب بسطان المتكلمين. ٣. التحفة السليمانية للسيد ماجد البحراني (المتوفى بعد ١٠٩٧). ٤. الراعي والرعية للكاتب الاستاد توفيق الفكيكي. ٥. السياسة العلوية تأليف عبدالواحد آل مظفر. ٦. شرح عهد أمير المؤمنين لمحمد باقر بن صالح القزويني. ٧. شرح عهد أمير المؤمنين للعلامة المجلسي (المتوفى ١١١١). ٨. شرح عهد أمير المؤمنين للميرزا حسن بن السيد علي القزويني (المتوفى ١٣٥٨). ٩. شرح عهد أمير المؤمنين للميرزا محمد بن سليمان التنكابني. ١٠. شرح عهد أمير المؤمنين الشيخ هادي بن محمد حسين القائيني. ١١. شرح الفاضل. ١٢. فرمان المبارك لجواد. ١٣. نصايح الملوك للمولى أبي الحسن العاملي. ١٤. مقتبس السياسة وسياج الرئاسة. ١٥. القانون الأكبر في شرح عهد الإمام للأشتر للسيد مهدي السويج. ١٦. مع الإمام علي في عهده لمالك الأشتر للعلامة الشيخ محمد باقر الناصري (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٢٦) وهناك شروح كثيرة أخرى كتبت في عصرنا الحاضر، وقد سمعنا في الأخبار أن هذه الرسالة ترجمت إلى لغات مختلفة ووضعت في مبنى الامم المتحدة بعنوان سند تاريخي ووزعت على نواب دول العالم في الامم المتحدة.

[٥١٧] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٦، ص ٧٢ و ٧٣.

[٥١٨] (١). مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٢٥.

[٥١٩] (١). كتبنا في شرح حال عبد الله أبي سرح - الأخ الرضاعي لعثمان - في الإسلام، في ذيل الرسالة ٣٨ من الجزء التاسع من هذا الكتاب.

[٥٢٠] (١). «جباية» مثل جمع الزكاة وأموال بيت المال وأمثال ذلك، وفي الأصل من مادة «جباوة» على وزن «عداوة» وتعني الجمع أو التجميع.

[٥٢١] (١). «يزع» من مادة «وزع» على وزن «وضع» بمعنى المنع النفس وحفظها من الجنوح والجموح، وأحياناً تأتي بمعنى جمع الأفراد حول بعضهم، لأن ذلك يمنعهم من التفرق والانتشار.

[٥٢٢] (٢). «الجمحات» جمع «جمحة» على وزن «صدقه» بمعنى الحوادث أو عوامل التمرد والعناد.

[٥٢٣] (١). سورة الفجر، الآية ٢٧.

[٥٢٤] (٢). سورة يوسف، الآية ٥٣.

[٥٢٥] (١). غرر الحكم، ح ٤٦٨٣.

[٥٢٦] (١). غرر الحكم، ح ٤٧٧٩.

[٥٢٧] (١). سورة الكهف، الآية ١١٠.

[٥٢٨] (٢). سورة فاطر، الآية ١٠.

[٥٢٩] (٣). سورة العصر، الآيتان ٣ و ٤.

[٥٣٠] (٤). «شخ» في الأصل بمعنى البخل المقترن بالحرص، بحيث يصير عادة للإنسان، وهاتان الصفتان من الرذائل الأخلاقية

المهية، وذكر بعض مفسري القرآن أن «سح» أشد من البخل، والاستفادة من هذه المفردة من كلام الإمام عليه السلام إشارة إلى الالتزام بشدة على اجتنابك للحرام وحفظ نفسك من هذه الرذيلة كما يمنع البخل أمواله وثورته من بدلها للناس.

[٥٣١] (١). الكافي، ج ٢، ص ٣٣٥، ح ١.

[٥٣٢] (٢). غرر الحكم، ح ٤٨٩٨.

[٥٣٣] (١). الكافي، ج ١، ص ٤٠٧، ح ٨.

[٥٣٤] (٢). «ضارياً» تعني المتوحش، من مادة «ضرو» على وزن «ضرب» وفي الأصل بمعنى الهجوم الشديد على شخص أو شيء، ومن هذه الجهة اطلقت هذه الكلمة على هجوم الأغنام على الزرع أيضاً.

[٥٣٥] (١). «يفرط» من مادة «فرط» على وزن «شرط» بمعنى العجلة والتسرع في أداء العمل. وهذه المفردة تستخدم في مورد أن يتحرك الشخص للتسابق في عمل معين.

[٥٣٦] (٢). «زلل» و«زلة» على وزن «غلة» بمعنى الخطأ والزيغ.

[٥٣٧] (١). سورة النور، الآية ٢٢.

[٥٣٨] (١). هذا التعبير يساوق ما ورد في القرآن الكريم: «وَمَا كَانَ لِيُشِيرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» (سورة الشورى، الآية ٥١).

[٥٣٩] (٢). الكافي، ج ٢، ص ٣٥٣، ح ١٠.

[٥٤٠] (٣). «تبجح» من مادة «بجح» على وزن «وجب» بمعنى الفرخ والافتخار.

[٥٤١] (٤). «بادرة» الأفعال والحركات المتسعة التي تصدر من الإنسان في حالات الغضب والحدة، من مادة «بدور» على وزن «صدر» وتعني السرعة في العمل.

[٥٤٢] (٥). «مندوحه» بمعنى الوسع وطريق الحل من مادة «ندح» على وزن «مدح» وهذه المفردة ربما تأتي اسم مفعول وتعني المكان الذي تمت توسعته، أو المكان الواسع.

[٥٤٣] (١). غرر الحكم، ح ٦٨٩٢.

[٥٤٤] (٢). المصدر السابق، ح ٦٨٩٣.

[٥٤٥] (٣). «إدغال» من مادة «دغل» على وزن «عقل» بمعنى الدخول في مكان بشكل خفي، وبما أن الفاسدين والمفسدين يدخلون بهذه الصورة عادة، فإن هذه الكلمة تستبطن غالباً معنى الفساد، و«دغل» على وزن «قمر» بمعنى الفساد، وأحياناً تأتي بمعنى الشخص المفسد، وفي العبارة أعلاه جاءت بمعنى الفساد.

[٥٤٦] (٤). «منهكة» من مادة «نهك» على وزن «مدح» بمعنى المتعب والمضعف، وتطلق كلمة منهكة على الضعف والعجز أو على أسباب الضعف والعجز.

[٥٤٧] (٥). «غير» بمعنى الحوادث المغيرة للحال جمع «غيره» على وزن «غيبه».

[٥٤٨] (١). غرر الحكم، ح ٧١٧٥.

[٥٤٩] (٢). المصدر السابق، ح ٥٧٥٠.

[٥٥٠] (٣). «أبهه» بمعنى العظمة، وأحياناً تأتي بمعنى الكبر والغرور، وفي الجملة أعلاه وردت بهذا المعنى.

[٥٥١] (١). «مخيلة» بمعنى العجب والأنانية.

[٥٥٢] (٢). «يطامن» من مادة «طمأنه» ويعني إمتصاص الغيظ وتهدئ النفس وانزال الشيء إلى الأسفل.

[٥٥٣] (٣). «طماح» بمعنى التمرد.

- [٥٥٤] (٤). «غرب» بمعنى الشدة والحدة.
- [٥٥٥] (٥). «عزب» بمعنى الغائب.
- [٥٥٦] (١). «مساماة» بمعنى طلب العلو والمقابلة في المثل.
- [٥٥٧] (٢). «مختال» يعني المتكبر والمغرور من مادة «خَيْلاء» على وزن «جهلاء» وتعني التخيلات التي تدعو الإنسان لكي يتصور نفسه كبيراً وعظيماً.
- [٥٥٨] (٣). الكافي، ج ٢، ص ٣٠٩، ح ١.
- [٥٥٩] (٤). المصدر السابق، ح ٥.
- [٥٦٠] (١). انظر: الكافي، ج ٢، باب الكبير.
- [٥٦١] (٢). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٩٠، ح ٣.
- [٥٦٢] (١). «هوى» بمعنى الميل والعلاقة.
- [٥٦٣] (١). الكافي، ج ٢، ص ١٤٤، ح ٣.
- [٥٦٤] (٢). المصدر السابق، ص ١٤٥، ح ٨.
- [٥٦٥] (٣). «ادحض» من مادة «دحض» على وزن «محض» وتعني بطلان الشيء، وعندما تأتي من باب إفعال تعني إظهار البطلان، وإبطال الحجّة في مورد بمعنى عدم قبول العذر.
- [٥٦٦] (٤). «ينزع» من مادة «نزع» على وزن «نظم» يعني قلع وفصل الشيء وتركه، وينبغي الالتفات إلى أنّ التناسب في الجملة أعلاه يقتضى أن تكون «أو» بمعنى الواو، وجاء في بعض نسخ نهج البلاغة واو بدل «أو».
- [٥٦٧] (١). «المضطهدين» جمع «مضطهد» بمعنى المظلوم، من مادة «ضهد» على وزن «مهد» وتعني الظلم.
- [٥٦٨] (٢). الكافي، ج ٢، ص ٣٣٢، ح ١٢.
- [٥٦٩] (٣). غرر الحكم، ح ٨٠٤٧.
- [٥٧٠] (١). الكافي، ج ٢، ص ٣٣٣، ح ١٤.
- [٥٧١] (٢). سورة النمل، الآية ٥٢.
- [٥٧٢] (٣). التفسير الأمثل، ذيل الآية ٤٢ من سورة الكهف.
- [٥٧٣] (٤). سنن ابن ماجه، ج ٢، باب البغي، ح ٤٢١٢، ص ١٤٠٨.
- [٥٧٤] (١). «أوسط» من مادة «وسط» بمعنى في هذا المورد الأفضل من الأشياء، لأنّ الشيء الذي يقع في الحد الوسط الاعتدال هو الأفضل والأكمل، يقول القرآن الكريم في سورة القلم الآية ٢٨: «قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تَسْمَعُونَ»، أى أعقلهم، وجاء في لسان العرب: «أوسط الشيء أفضل الشيء وخياره».
- [٥٧٥] (١). «يُجِحِف» من «اجحاف» ومن مادة «جحف» على وزن «جهل» في الأصل بمعنى نزل جلد الشيء، ثم استخدمت هذه الكلمة بمعنى الايقاع في المشقة وتخريب الشيء واعطابه.
- [٥٧٦] (١). «الحاف» من مادة «لحف» على وزن «حرف» في الأصل تعني تغطية الشيء ووضع الستار عليه، ثم استخدمت للاصرار على شيء، وكأنه يصرّ عليه إلى درجة أنه يغطي جميع وجود الطرف الآخر.
- [٥٧٧] (١). «لممات» من مادة «لم» على وزن «غم» تعني تجميع الشيء، ثم استخدمت للحوادث الشديد والمؤلمة، وكأن مثل هذه الحوادث تجمع فكر الإنسان وتلفت نظره إليها.
- [٥٧٨] (٢). «جماع» في الأصل مصدر وفي مثل هذه الموارد تأتي بمعنى الوصف يعنى الجامع والمجمع.

- [٥٧٩] (٣). «صغو» تعنى الميل إلى الشىء. «صغو» بفتح الصاد وكسرهما تأتى بمعنى واحد كما ذهب إليه جماعة من المحققين.
- [٥٨٠] (١). سورة الكهف، الآية ٢٨.
- [٥٨١] (٢). سورة هود، الآيتان ٢٩ و ٣٠.
- [٥٨٢] (١). «اشنأهم» من مادة «شأ» على وزن «شمع» وتعنى الحقد والعداوة.
- [٥٨٣] (١). بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢٣٠.
- [٥٨٤] (٢). سورة الحجرات، الآية ١٢.
- [٥٨٥] (١). كنز العمال، ح ٦٣٩٢.
- [٥٨٦] (٢). بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢١٣، ح ٤.
- [٥٨٧] (٣). «حقد» العداوة المخبوءة فى قلب الشخص وينتظر الفرصة لإظهارها وإبرازها.
- [٥٨٨] (١). «وتر» على وزن «فكر» و«وتر» على وزن «سطر» كليهما بمعنى الوحيد والمنفرد، وبما أن الإنسان عندما يقتل فإن أقرباءه يجدونه وحيداً، ومن الطبيعى أن يضمروا الحقد فى قلوبهم، فاستخدمت هذه المفردة بمعنى اضمار الحقد والعداوة، وهو المراد فى الجملة أعلاه.
- [٥٨٩] (٢). «تغاب» فعل أمر من مادة «تغابى» بمعنى تغافل من مادة «غباوة» بمعنى الجهل وعدم العلم، وكأنّ الشخص الذى يتغافل فكأنه جاهل بذلك الشىء.
- [٥٩٠] (٣). «يضح» من مادة «وضوح» بمعنى وضوح الشىء.
- [٥٩١] (٤). «ساع» من مادة «سعى» فى الأصل بمعنى كلّ حركة ونشاط لإنجاز عمل معين، ولكن فى هذه الموارد يطلق على الشخص الذى يسعى فى النميمة وذكر عيوب الآخرين.
- [٥٩٢] (٥). «غاش» بمعنى الخائن والمسىء من مادة «غش» بمعنى الخيانة والإساءة.
- [٥٩٣] (١). الكافى، ج ٢، ص ٣٦٩، ح ١.
- [٥٩٤] (١). «الشره» بمعنى الحرص الشديد.
- [٥٩٥] (١). «غرائز» جميع غريزة بمعنى الطبيعة والقريحة والدوافع المتمركزة فى باطن الإنسان أو الحيوانات الأخرى، وهى من مادة «غرز» على وزن «قرض» بمعنى ثقب الشىء أو إحداث ثقب فيه وكأنّ باطنه يثقب وتوضع الغريزة فى ذلك المكان.
- [٥٩٦] (١). سورة البقرة، الآية ٢٦٨.
- [٥٩٧] (٢). سورة آل عمران، الآية ١٣٩.
- [٥٩٨] (٣). سورة التغابن، الآية ١٦.
- [٥٩٩] (٤). علل الشرايع، ج ٢، ص ٥٥٩، ح ١. وينبغى الالتفات إلى أنه عندما يقول الإمام عليه السلام «غرائز شتى» وفى كلام النبى صلى الله عليه وآله «غريزة واحدة» وذلك بسبب النظرة من زوايا مختلفة إلى هذه المواضيع الثلاثة وهى بحسب الظاهر منفصلة عن بعضها ولكنها فى الواقع تعود إلى أصل واحد.
- [٦٠٠] (١). غرر الحكم، ح ٤٩٦.
- [٦٠١] (٢). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٦١.
- [٦٠٢] (٣). بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٠٥، ح ٤.
- [٦٠٣] (٤). المصدر السابق، ج ٧٤، ص ٤٣، ح ١٣.
- [٦٠٤] (١). بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠١، ح ٢٥.

- [٦٠٥] (٢). غرر الحكم، ح ١٠٠٤٩.
- [٦٠٦] (٣). بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠٢، ح ٣٠.
- [٦٠٧] (١). بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠٤، ح ٣٦.
- [٦٠٨] (١). «بطانة» في الأصل بمعنى الملابس الداخلية (ضد «ظاهرة» وهي الملابس الخارجية) ثم استخدمت هذه المفردة بمعنى الشخص الموثوق لدرجة حفظ الأسرار، محرم السر.
- [٦٠٩] (١). «الأئمة» جمع «آثم» بمعنى المذنب.
- [٦١٠] (٢). «آصار» جمع «اصر» على وزن «مصر» في الأصل بمعنى الحفظ والحبس، ثم اطلقت على الأعمال الثقيلة التي تمنع الإنسان من النشاط والفعالية وكذلك تطلق على الذنوب التي تثقل كاهل الإنسان، وفي الجملة أعلاه قصد بها هذا المعنى.
- [٦١١] (٣). «أوزار» جمع «وزر» على وزن «مصر» في الأصل بمعنى الحمل الثقيل، وتطلق على الذنوب الكبيرة التي تثقل مسؤوليتها كاهل الإنسان، وذهب البعض إلى أن الوزر ذنوب أكبر وأثقل من الاصر.
- [٦١٢] (٤). «احنى» في الأصل بمعنى عطف وإفادات نظر أو الشيء، والعطف هنا بمعنى المحبة.
- [٦١٣] (٥). «الف» بمعنى الفة وانس.
- [٦١٤] (١). «حفلات» جمع «حفل» على وزن «حرب» في الأصل يعني المحل الذي يتجمع فيه الماء، ثم اطلق على المحل والمجلس الذي يجتمع فيه كثير من الناس، ويقال للمجلس محفل أيضاً.
- [٦١٥] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٧، ص ٤٣.
- [٦١٦] (١). «الزهو» بمعنى التكبر والعجب.
- [٦١٧] (٢). «الغزة» في هذا المورد تعنى الغرور، وجاء في بعض النسخ «غرة» واستعمالها في هذا المعنى أوضح.
- [٦١٨] (١). الموطأ، ج ١، ص ١٢ وكتب أخرى.
- [٦١٩] (٢). من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ١١.
- [٦٢٠] (٣). غرر الحكم، ص ٤٦٦، ح ١٠٧٣٥.
- [٦٢١] (٤). تحدّثنا عن المدح والثناء في غير محلّه وحالات التملق والتزلف بشكل مفصل في الجزء الثامن ذيل الخطبة ٢١٦.
- [٦٢٢] (١). «تدريب» بمعنى الاعتياد على شيء أو عمل معين، وفي هذا المورد تعنى التشويق في مقابل «تزهيد».
- [٦٢٣] (٢). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٧٧.
- [٦٢٤] (١). رغم أن البعض يعتقد بأن «قيل» إذا اضيفت للضمير فإنها تعنى القرب، وإذا استعملت منفصلة تعنى القدرة والقوة.
- [٦٢٥] (٢). «نصب» بمعنى التعب والمشقة، من مادة «نصب» على وزن «نصر» وتعنى إثبات الشيء، مثلاً عندما يضعون الرمح في الأرض ويثبتونه يقال نصب الرمح، وبما أن التعب يؤدي إلى توقف الإنسان عن العمل فاطلقت هذه الكلمة عليه، ويطلق على أعداء أهل البيت عليهم السلام نواصب لأنه رفعوا لواء العداوة لهم.
- [٦٢٦] (١). «بلاء» الاختبار والامتحان، وأحياناً يكون الاختبار بواسطة النعم وأخرى بواسطة المصائب، من هذه الجهة تطلق كلمة بلاء بمعنى النعمة وبمعنى المصيبة أحياناً أخرى، وفي الجملة أعلاه اريد بها كلا- المعنيين أي بعنوان حسن البلاء وسوء البلاء (وهذه المفردة من مادة «بلى يبلو»).
- [٦٢٧] (٢). عيون الأخبار، لابن قتيبة، ج ١، ص ٦٤، حسب نقل شرح نهج البلاغة، للعلامة التستري، ج ٨، ص ٥١٩.
- [٦٢٨] (١). «صدور» تعنى المتقدمين ومن كان يجلس في الصدر، وكذلك مسلمي صدر الإسلام.
- [٦٢٩] (٢). كنز العمال، ح ٩١٠، ووقد ورد مثل هذا الحديث في المصادر الشيعية عن الأئمة المعصومين عليهم السلام بطرق مختلفة

وبتعبيرات متفاوتة. انظر: بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٥٧ و ٢٥٨.

[٦٣٠] (١). «مناقشة» من مادة «نقش» فى الأصل تعنى اخراج الشوك من البدن بواسطة المنقاش، ثم اطلقت على كل بحث دقيق وحساب كامل، وعليه فإن مناقشة الحكماء تعنى البحث الدقيق مع العلماء.

[٦٣١] (١). الكافى، ج ١، ص ٣٩، ح ٥.

[٦٣٢] (٢). المصدر السابق، ح ١.

[٦٣٣] (٣). غرر الحكم، ص ٤٩، ح ٢٧٣.

[٦٣٤] (١). سنن البيهقى، ج ٤، ص ١٧٦؛ مسند أحمد، ج ٤، ص ٣٦٢.

[٦٣٥] (١). «عزّ» و «عزّيز» من مادة «عزت» تعنى فى اللغة كل شىء يصعب الوصول إليه، ومن هذه الجهة يقال للأرض التى يصعب عبورها أو إيجاد الشق فيها أرض «عزاز»، وكذلك يطلق على كل شىء يصعب الوصول إليه بسبب قلته فيقال عزير، وكذلك يطلق على الأشخاص الأقوياء الذين يصعب التغلب عليهم أو استحيل الغلبة عليهم، ولذلك تأتى «عزة» بمعنى القدرة والندرة، وأيضاً بمعنى الثمين، وفى العبارة أعلاه جاءت بمعنى القدرة.

[٦٣٦] (١). سورة الأنفال، الآية ٦٠.

[٦٣٧] (١). بحثنا حول الخراج بشكل مفصل فى ذيل الرسالة ٥١.

[٦٣٨] (١). «معاقد» جمع «مَعْقِد» على وزن «مسجد» فى الأصل بمعنى محل العقدة فى الخيط أو الحبل، ثم اطلقت على كل معاملة وعقد اعتبارى لمناسبة وجود عقدة تربط بين الطرفين، والجذر الأصلى لها «عقد» بمعنى ربط الطرفين.

[٦٣٩] (١). «مرفق» جمع «مرفق» على وزن «مسجد» وكذلك جمع «مرفق» على وزن «محور» ويعنى الأمور التى ينتفع بها الإنسان.

[٦٤٠] (٢). «الترفق» يعنى الاستفادة والانتفاع من الشىء، وجملته (ما لا يبلغه رفق غيرهم) إشارة إلى أن الله تعالى قد خلق للإنسان قابليات وملكات ومواقع اجتماعية مختلفة، فكثير من الأعمال التى يستطيع البعض القيام بها لا يستطيع البعض الآخر، وهذه هى طبيعة الحياة الاجتماعية، بحيث إن كل شخص يشغل بعمل ينسجم مع استعداداته وطاقاته، والآخرين ينتفعون من عمله وينتفع بدوره من أعمالهم وطاقاتهم.

[٦٤١] (١). «رقد» يعنى العطاء والعفو.

[٦٤٢] (١). «توطن» يعنى دفع الشخص باتجاه معين و«توطن النفس» يعنى جعل النفس تعمل العمل الفلانى، فى الأصل من مادة وطن، وكأن الإنسان يجعل هذا العمل وطناً له ويتوقف فيه، وتأتى هذه المفردة أحياناً بمعنى الاعتياد على شىء أيضاً.

[٦٤٣] (١). «جيب» فى الأصل بمعنى الشق فى الثوب من جهة الصدر، وبما أن هذا القسم من الثوب يكون على الصدر، والصدر بدوره مجاور للقلب، فستخدم هذه المفردة على الصدر وأحياناً أخرى على القلب.

[٦٤٤] (١). يقول القرآن الكريم فى الكافرين: «أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ». (سورة الطور، الآية ٣٢).

[٦٤٥] (٢). «تنبؤ» من مادة «نبؤ» على وزن «نذر» فى الأصل بمعنى عدم تأثير السيف والسهم وأمثال ذلك، ثم اطلقت على عدم التوافق وعدم التسليم، وفى العبارة أعلاه قصد بها هذا المعنى.

[٦٤٦] (٣). «لا يثيره» من مادة «إثارة» بمعنى تحريك الشىء أو دفعه باتجاه معين.

[٦٤٧] (١). «جماع» كما قلنا سابقاً إنها فى الأصل مصدر، وفى هذه الموارد جاءت بمعنى الوصف أى الجامع والمجمع.

[٦٤٨] (١). «لا يتفاقمن» من مادة «تفاقم» بمعنى الكبير والخطير، من مادة «فقم» على وزن «فهم».

[٦٤٩] (٢). «تعاهدتهم» من مادة «تعاهد» ومن مادة «عهد» وأحياناً تأتى بمعنى إيجاد العقد والمعاهدة، وأخرى بمعنى القوامة على الشىء وبالاهتمام به، وما جاء فى بعض الروايات أن المسلم عندما يدخل إلى المسجد يتعاهد النعالين، إشارة إلى هذا المعنى

والتحقيق في نعليه لثلاثا- يكونا ملوثتان، وجاء في حديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «تَعَاهِدُوا نِعَالَكُمْ عِنْدَ أَبْوَابِ مَسَاجِدِكُمْ» (بحار الأنوار، ج ٨٠، ص ٣٦٧). وجاءت في العبارة أعلاه بهذا المعنى أى الاهتمام بأمر الجيش.

[٦٥٠] (١). «آثر» صيغة أفعال التفضيل، وتعنى الأفضل، من مادة «إيثار» وتعنى أفضيله الآخر وترجيحه على النفس.

[٦٥١] (١). «جِدَّة» بمعنى القدرة المائتية، وهذه المفردة مصدر من مادة «وجود».

[٦٥٢] (٢). «خُلُوف» جمع «خَلْف» بمعنى من يبقيه المسافر فى بيته ووطنه ويتركهم ويسافر، وعادة تطلق على النساء والأطفال والصغار والعاجزين.

[٦٥٣] (١). انظر إلى أن هذا الكلام ينطلق من العلاقة العاطفية بين قادة الجيش والجنود ولا- ينطلق من علاقة مالك الأشر بأفراد الجيش، ولذلك جاء مرجع الضمائر أعلاه بشيء من عدم الاتساق والتناسب، ولكن إذا التفتنا إلى هذه الحقيقة وهى أن المرحوم السيد الرضى قد حذف العبارات والجمل التى تقع فى مطاوى هذا الكلام وهى الجمل التى وردت فى كتاب «تحف العقول» وكذلك كتاب «تمام نهج البلاغة» فحينئذ يتبين أن الإمام عليه السلام كان قد أوصى مالك الأشر بالاهتمام بأمر قادة الجيش وقال: «ثُمَّ وَاتِرُوا إِعْلَامَهُمْ ذَاتَ نَفْسِكَ فِي إِيْثَارِهِمْ وَالتَّكْرِمَةِ لَهُمْ، وَالرَّازِصَادِ بِالتَّوَسُّعِ وَحَقُّ ذَلِكَ بِحُسْنِ الْفِعَالِ وَالأَثْرِ وَالْعَطْفِ فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ». وبذلك يتبين أن ضمائر الجمع تعود إلى قادة الجيش وعلاقه مالك الأشر بهم. «فتدبر».

[٦٥٤] (١). «اسْتِثْقَال» من مادة «ثقل».

[٦٥٥] (٢). «استبطاء» بمعنى المشى الخفيف من مادة «بُطء» على وزن «قطب».

[٦٥٦] (٣). شرح نهج البلاغة، للعلامة التستري، ج ٨، ص ٥٣٨. وردت هذه القصّة فى تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٣٠٦.

[٦٥٧] (٤). يتصور أحيانا أن ضمير فى «آمالهم» وضمائر الجمع التى تأتى بعد ذلك ينبغى أن تعود إلى الرعية، لوجود ضمائر مشابهة قبل ذلك تعود جميعها عليهم، ولكن القرائن الموجودة فى عبارة (كلمة شجاع وناكل) تشير إلى أن الجمل تعود إلى المسائل المتعلقة بقادة الجيش. مضافاً إلى ذلك أن المرحوم السيد الرضى عندما انتقى هذه الجمل والعبارات، حذف الجمل فى الوسط، فى حين أن هذه الجملة تبين عودة هذه التوصيات إلى قادة الجيش، وجاء فى كتاب «تحف العقول» بعد ذكر جملة «انقطاع مدّتهم»: «ثُمَّ لَا تَكَلَّنْ جُنُودَكَ إِلَى مَعْنَمٍ وَزَعْتَهُ بَيْنَهُمْ». (تحف العقول، ص ٨٩).

[٦٥٨] (١). «بلاء» الاختبار والامتحان، وأحيانا يكون الاختبار بواسطة النعم وأخرى بواسطة المصائب، من هذه الجهة تطلق كلمة بلاء بمعنى النعمة وبمعنى المصيبة أحيانا أخرى، وفى الجملة أعلاه اريد بها كلا- المعنيين أى بعنوان حسن البلاء وسوء البلاء (وهذه المفردة من مادة «بلى يبلو»).

[٦٥٩] (٢). «تهزّ» من مادة «هزّ» على وزن «حظّ» بمعنى التحريك الشديد والتثوير.

[٦٦٠] (٣). «تحرّض» من مادة «تحرّض» بمعنى الترغيب لعمل معين أو لشيء وإيجاد الدافع له.

[٦٦١] (٤). «النّاكل» يعنى الشخص الجبان أو المتكاسل والمتراجع عن العمل، من مادة «نكول» بمعنى الخوف والتراجع.

[٦٦٢] (٥). «لا تَضْمَنَّ» من مادة «تضمن» على وزن «تعهد» بمعنى أخذ الشيء وتحمل مسؤوليته، وفى الجملة أعلاه إشارة إلى أنك لا ينبغى أن تجعل نقاط قوة شخص إلى آخر وتضمه إليه.

[٦٦٣] (١). سورة النساء، الآية ٥٩.

[٦٦٤] (١). تفسير الفخر الرازى، ج ١٠، ص ١٤٤، مطبعة مصر، سنة ١٣٥٧.

[٦٦٥] (١). لمزيد من الاطلاع على هذه الأحاديث انظر: إحقاق الحق، ج ٣، ص ٤٢٥ والتفسير الأمثل، ذيل الآية ٥٩ من سورة النساء.

[٦٦٦] (١). «تُمَحِّكُهُ» من مادة «مَحَّك» على وزن «مكر» بمعنى اللجاجة والعناد والتعدى.

[٦٦٧] (١). «يَتَمَادَى» من مادة «تمادى» على وزن «دوا» ويعنى الاستمرار والدوام والإصرار على عمل شيء.

- [٦٦٨] (٢). سورة المؤمنون، الآية ٧٥.
- [٦٦٩] (٣). غرر الحكم، ص ٦٥، ح ٨٥٣.
- [٦٧٠] (٤). المصدر السابق، ص ٤٦٣، ح ١٠٦٤٠.
- [٦٧١] (٥). «لايُخَصِّر» من مادة «حصر» على وزن «نصر» ويعنى الوقوع فى مضيقه، وكثيراً ما تطلق على التوقف والعجز عن الاستمرار فى الكلام، وفى العبارة وردت بكلا المعنيين.
- [٦٧٢] (١). غرر الحكم، ص ٢٧٢، ح ٥٩٥٤.
- [٦٧٣] (٢). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢١٩.
- [٦٧٤] (١). الكافي، ج ١، ص ٦٨، ح ١.
- [٦٧٥] (١). وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٢١٢، ح ١١؛ بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ٢٥٢، ح ٢٦، ولإطلاع أكثر انظر: وسائل الشيعة، ج ١٨، كتاب القضاء الباب ٢١.
- [٦٧٦] (٢). «تَبَرُّمٌ» من مادة «برم» فى الأصل بمعنى حياكة الجبل وأمثاله، ثم اطلقت على كل شىء يثير التعب والملل، وفى العبارة إعلان وردت بمعنى الانزعاج الشديد والتعب.
- [٦٧٧] (١). «أَصِيرَمٌ» من مادة «صرم» على وزن «سرد» بمعنى قطع الشىء، وتأتى أحياناً للقطع المعنوى والقاطعية والحزم فى إدارة الأمور.
- [٦٧٨] (٢). «يَزْدَهِيه» من مادة «إزدهاء» ويعنى العجب والغرور والأناية.
- [٦٧٩] (٣). «إطراء» بمعنى المدح والثناء الكثير والتبجيل.
- [٦٨٠] (٤). «يَسْتَمِيلُهُ» من مادة «استماله» بمعنى جذب الشخص أو الشىء نحوه.
- [٦٨١] (٥). «اغراء» فى الأصل بمعنى الصاق شىء بشىء آخر، ثم استخدمت بمعنى التشويق والتحريك لإنجاز لعمل معين، وفى الجملة أعلاه وردت بمعنى التشويق الكثير.
- [٦٨٢] (١). «تَعَاهَدٌ» بمعنى التحقيق والدراسة وقد ذكر هذه المفردة فيما سبقها من الصفحات.
- [٦٨٣] (١). «اغتيال» فى الأصل بمعنى إغفال الشخص الإضرار به، وأحياناً تطلق على القتل غدراً، وفى العبارة أعلاه وردت بالمعنى الأول.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
 جاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام على بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - فى تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافية بأصبهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادى" - رَحِمَهُ اللهُ - كان أحداً من جهايزة هذه المدينة، الذى قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبى (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام على بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، فى سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمة" للتحرى الحاسوبى - بأصبهان، إيران - قد ابتدأ أنشطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامى - دام عزه - ومع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالات شتى: دينيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافه الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرى الأذق للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعه - مكان البلايتي المبتدله أو الرديئه - فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعة جامع ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءه و إغناء أوقات فراغه هواه برامج العلوم الإسلاميه، إناله المنابع اللازمه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة فى الجامعه، و...

- منها العداة الاجتماعيه: التى يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - فى آكناف البلد - و نشر الثقافه الإسلاميه و الإيرانيه - فى أنحاء العالم - من جهه أخرى.
- من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءه

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتى "القائمة" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمرية

(و) الإطلاع و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيره SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسه" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين فى الجلسه

(ى) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنه

المكتب الرئيسى: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيد" / "ما بين شارع" پنج رمضان "ومفترق" وفائى/ "بنايه" القائمية "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهويه الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجاريه و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنّها لا تُوفّي الحجم المتزايد و المتسعّ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركز صاحب هذا البيت (المُسمّى بالقائمية) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَلُ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ) أَنْ يُوفِّقَ الْكُلَّ تَوْفِيقًا مُتَرَادًّا لِإِعَانَتِهِمْ - فِي حَدِّ التَّمَكُّنِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ - إِيَانًا فِي هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى؛ وَ اللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
أصبحان

الغامدية

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

